النجوم الزاهرة

في

ملوك مصر والقاهرة

تأليف

جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي

٨١٣ - ٨٧٤ هـ

جلد ١٦-١

نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب

مع استدراكات وفهارس جامعة

بسم الله الرحمن الرحیم

النجوم الزاهره فی ملوک مصر والقاهره

کاتب:

جمال‌الدین ابی‌المحاسن یوسف‌بن تغری بردی الاتابکی

نشرت فی الطباعة:

وزاره الثقافه والارشادالقومی

رقمی الناشر:

مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة

الفهرس

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة

اشارة

سرشناسه : ابن تغری بردی، یوسف بن تغری بردی، ۸۱۳-۸۷۴ق.

عنوان و نام پدیدآور : النجوم الزاهره فی ملوك مصر والقاهره/ تالیف جمال‌الدین ابی‌المحاسن یوسف‌بن تغری بردی الاتابکی.

وضعیت ویراست : [ویراست ؟].

مشخصات نشر : قاهره: وزاره الثقافه والارشادالقومی، الموسسه المصریه العامه، ۱۳۴۲.

سال چاپ: ۱۳۹۲ ه. ق

نوبت چاپ: اول

موضوع: شرح حال

زبان: عربی

تعداد جلد: ۱۶

مشخصات ظاهری : ۱۶ج. (درسه مجلد).

یادداشت : عربی.

یادداشت : جلد سیزدهم تاجلد شانزدهم توسط فهیم محمد شلتوت، جمال‌الدین شیال و ابراهیم علی طرخان تصحیح‌شده توسط الهیئه‌المصریه‌العامه للتالیف و النشر منتشر گردیده است.

یادداشت : ج.۱، ۲، ۳، ۴، ۷ ، ۸ ، ۱۱ و ۱۲ (چاپ ؟: ۱۳).

یادداشت : ج. ۱۵ (چاپ؟: ۱۳۹۱ق. = ۱۹۷۱م. = ۱۳۵۰).

یادداشت : ج.۱۶ (چاپ؟ = ۱۳۹۲ق. = ۱۹۷۲م. = ۱۳۵۱).

یادداشت : بالای عنوان: تراثنا.

یادداشت : کتابنامه.

عنوان دیگر : تراثنا.

موضوع : مصر -- شاهان و فرمانروایان

موضوع : مصر -- تاریخ -- ۱۹ - ۸۹۷ق.-- سالشمار.

شناسه افزوده : شلتوت، فهیم محمد، مصحح

شناسه افزوده : شیال، جمال‌الدین، مصحح

شناسه افزوده : طرخان، ابراهیم علی، مصحح

رده بندی کنگره : DT۹۵/الف۲ن۳ ۱۳۴۲

رده بندی دیویی : ۹۶۲/۰۲

شماره کتابشناسی ملی : م۷۵-۵۵۴۷

[الجزء الأول]

اشارة

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم

مقدّمة لكتب التراث العربى

بقلم السيد الدكتور محمد عبد القادر حاتم وزير الثقافة و الإرشاد القومى إن الأمم العظيمة لا ترضى، و لا تستطيع، أن تنسلخ عن تاريخها، و تاريخها هو وعاء ثقافتها و حضارتها، فى حقب هذا التاريخ نشأت و نمت و تطوّرت، و اجتازت محنا، و حققت مجدا. و كما أن سجل هذه الأحداث تشهد به الآثار الباقية من عمارة و مشروعات فإن الكلمة المكتوبة كانت منذ قديم سجلا لتراث الأمم، سردا لتاريخها، و تصويرا لآمالها و عواطفها شعرا و نثرا، و تسجيلا للآراء السائدة فى عصورها المختلفة، مما يرتفع أحيانا الى مرتبة الحكمة و المذهب الفلسفى، و مما لا يزيد على أن يكون خطرات لأفراد.

و نهضتنا الحاضرة، التى انبثقت فى جميع ميادين الحياة، منذ فجر ۲۳ يوليو سنة ۱۹۵۲، لم تتنكر لماضى أمتنا العربية، و لم تغفل تراثنا الاسلامى العريق.

ففى الوقت الذى تعمل فيه على التطوّر تحت راية العلم، و فى ركبه الزاحف، ترعى تراثها العريق الذى كانت أشعته تضىء ظلام العالم فى أيام ازدهار ماضينا.

فكما أن رئيسنا و قائد ثورتنا يعلن فى "الميثاق الوطنى "أن العلم هو السلاح الحقيقى للإرادة الثورية، و من هنا الدور العظيم الذى لا بد للجامعات و لمراكز العلم على مستوياتها المختلفة أن تقوم به ... و العلم هو السلاح الذى يحقق النصر الثورى، يعلن كذلك أن العمل العظيم الذى تمكن الشعب من إنجازه بالثورة الشاملة ذات الاتجاهات المتعدّدة، قد تحقق بفضل ضمانات تمكن النضال الشعبى من توفيرها، و منها وعيه العميق بالتاريخ و أثره على الإنسان المعاصر من ناحية، و من ناحية أخرى لقدرة هذا الإنسان على التأثير فى التاريخ؛ و منها إيمان لا يتزعزع بالله، و برسله، و رسالاته القدسية التى بعثها بالحق و الهدى إلى الإنسان فى كل زمان و مكان.

و أن مشعل الحضارة انتقل من بلد إلى بلد، لكنه فى كل بلد كان يحصل على زيت جديد يقوى به ضوءه على امتداد الزمان.

و أن شعبنا، إلى جانب ما قام به من تحمل المسئولية المادية و العسكرية فى صدّ أول موجات الاستعمار الأوربى، و ردّ غزوات التتار، قد تحمل كذلك المسئولية الأدبية فى حفظ التراث الحضارى العربى و ذخائره الحافلة.

و أنه يتعين علينا أن نذكر دائما أن الطاقات الروحية التى تستمدها الشعوب من مثلها العليا النابعة من أديانها السماوية، أو من تراثها الحضارى، قادرة على صنع المعجزات.

و فى ضوء هذه التوجيهات تقوم المؤسسة المصرية العامة للتأليف و الترجمة و الطباعة و النشر بمساهمتها فى نشر التراث العربى، كجزء من برامجها التى تساهم فيها بنشر الثقافة الحديثة بجميع فروعها.

و هى فى ذلك تقدم هذه الخدمة الثقافية للأمة العربية فى جميع أجزاء الوطن العربى الكبير، فإن هذا التراث ثمرة العقول العربية فى خمسة عشر قرنا من الزمان، و فى جميع الوطن العربى من غربيه إلى شرقيه، و من شماليه إلى جنوبيه، متضمنا ما كتبه أسلافنا فى إفريقيا و آسيا و أوروبا نفسها فى الأندلس العظيمة.

و حسبنا فى بيان أهمية هذا التراث أنه باللغة العظيمة التى تجمعنا- نحن العرب جميعا- و أنه يتصل بتاريخنا، نحن العرب جميعا.

فلقد قال الرئيس جمال عبد الناصر فى "الميثاق الوطنى:"

"يكفى أن الأمة العربية تملك وحدة اللغة التى تصنع وحدة الفكر و العقل...

و يكفى أن الأمة العربية تملك وحدة التاريخ التى تصنع وحدة الضمير و الوجدان."

و اللّه الموفق فيما نقصد و ما نعمل.

الدكتور محمد عبد القادر حاتم

القاهرة فى المحرم سنة ۱۳۸۳ ه يونيه (حزيران) ۱۹۶۳ م بسم اللّه الرّحمن الرّحيم كتاب النجوم الزاهرة

تصدير

هـذا كتاب كبير يؤرخ لمصر منـذ الفتح الإسـلامى من سـنة ۲۰ ه إلى خلال سـنة ۸۷۲ ه ألفـه جمـال الـدين يوسـف بن تغرى بردى الأتابكى القاهرى المولد و الوفاة.

و قبـل أن يصـدر القسم الأـدبى بـدار الكتب الجزء الأـوّل من هـذا الكتاب كان المستشـرق الهولنـدى «يونبل» قـد نشـر منه بين سـنتى (۱۸۵۱، ۱۸۵۵) مجلدين كبيرين يشـتملان على الأحداث من سـنة ۲۰ ه إلى سـنة ۳۶۵ ه، و من بعده نشـر المستشـرق الإمريكى «وليم پـوپر» عشـرة مجلـدات تبـدأ من حيث انتهى سـلفه المستشـرق الهولنـدى و تنتهى إلى آخر الكتـاب أى سـنة ۸۷۲ ه، غير أنهـا تنقصـها الأحداث من سنة ۵۶۵ ه إلى سنة ۸۰۰ ه.

و حين استقبل القسم الأدبى بدار الكتب المصرية العمل فى هذا الكتاب استقبله بإضافات جديدة:

۱- فقد استأنس بمخطوطة جديدة.

۲- و حرّر من متنه الكثير بالرجوع إلى الأمهات المنقول عنها.

۳- و ضم إليه دراسات علمية جديدة عن الأماكن المذكورة فيه.

۴- و عرض لمغلقه بالشروح الكثيرة.

۵- ثم أضاف إلى كل جزء فهرسا جامعا خاصا به.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، مقدمةج۱، ص: ۲

و لقـد تسـلمت المؤسـسة الكتـاب بأجزائه التى لم يتم تحقيقها- فيما تسـلمته من القسم الأدبى- و كان منهجها فيه بعـد أن لم تجـد له مخطوطات أخرى:

۱- أن تصوّر الأجزاء التى طبعت منه محذوفا منها فهارسها.

۲- و أن تصوّر الأجزاء المحققة ليكون الكتاب كله على نسق واحد.

۳- و أن تضم الفهارس كلها فى قسم مستقل.

۴- و أن تضم إلى هـذا القسم الأـخير تصـحيح مـا وقع فى الأـجزاء التى طبعت من الكتـاب من أخطاء، و كـذلك الاسـتدراكات التى تهدى إليها إعادة النظر فى الكتاب.

و بهذا يخرج الكتاب كاملا بفهارس موحدة جامعة.

و اللّه ولى التوفيقها

المحرّم سنة ۱۳۸۳ ه المؤسسة المصرية العامة يونيه (حزيران) ۱۹۶۳ م للتأليف و الترجمة و الطباعة و النشر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، مقدمةج۱، ص: ۳

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم

مقدمة

اشارة

الحمد للّه و الصلاة و السلام علی خاتم رسله سیدنا محمد صلی اللّه علیه و آله و سلم.
و بعد، فهذا هو الجزء الأوّل من کتاب «النجوم الزاهرة» لأبی المحاسن بن تغری بردی الذی تقوم بطبعه دار الکتب المصریة مع بقیة الموسوعات العلمیة و الأدبیة و التاریخیة فی عهد حامل لواء النهضة فی مصر حضرة صاحب الجلالة مولانا الملیک المعظم «فؤاد الأوّل» حفظه اللّه. و إنا نضعه بین أیدی القرّاء بعد أن بذلنا الجهد فی سبیل إصداره علی هذا النحو خالیا، علی ما نعتقد، من التحریف و التصحیف اللذین ملئ بهما أصلاه، و هما النسخة الأوربیة و النسخة الفتو غرافیة اللتان اعتمدنا علیهما کمصدرین لطبع هذا الکتاب.

وصفه

هو کتاب کبیر جمّ الفائدة فی تاریخ مصر مرتب علی السنین، ابتدأ فیه مؤلفه بفتح عمرو بن العاص من سنة ۲۰ ه (۶۴۰ م) إلی أثناء سنة ۸۷۲ ه (۱۳۶۷ م) و قد ذکر فیه من ولی مصر من الملوک و السلاطین و النوّاب ذکرا وافیا مع ذکر ملوک الأطراف بطریق إجمالیّ، آتیا فی کل سنیه علی ما وقع من الحوادث المهمة، و من

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، مقدمةج۱، ص: ۴

توفی من رجالات الأمة الإسلامیة. و قد انفرد بعد أبی بکر بن عبد اللّه بن أیبک مؤرّخ مصر بإشارته فی آخر کل سنة إلی زیادة النیل و نقصانه، حتی کاد یکون کتابه المرجع الوحید لحضرة صاحب السعادة الأستاذ أمین سامی باشا فی کتابه:
«تقویم النیل».
و من الأصل العربی لهذا الکتاب نسخ فی الأستانة و برلین و غوطا و أبسالا و بطرسبورج و باریس و المتحف البریطانی.

ترجمته الی اللغات الأوربیة

و قد ترجم هذا الأثر الجلیل الی اللغة اللاتینیة و الی لغات أوروبیة أخری عدّة مرات.

ترجمته إلی اللغة الترکیة

و لما فتح السلطان سلیم العثمانی مصر و اطلع علی هذا الکتاب أمر بنقله إلی الترکیة فنقله شمس الدین أحمد بن سلیمان بن کمال باشا قاضی العسکر بالأناضول یومئذ فترجم فی منزله جزءا و بیضه المولی حسن المعروف بآشجی‌زاده ثم عرضه علی السلطان فی الطریق فأعجبه و أمر بنقله هکذا الی تمامه.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، مقدمةج۱، ص: ۵

اختصاره

و قد لخص المؤلف کتابه و سماه «الکواکب الباهرة من النجوم الزاهرة» و ذکر أنه اختصره حذرا من أن یختصره غیره علی تبویبه و فصوله و اقتدی فی ذلک بجماعة من العلماء المؤلفین کالذهبی و المقریزی و غیرهما.

اهتمام علماء أوروبا بنشره

و لما کان هذا الکتاب من أهمّ المصادر التاریخیة، اهتم بنشره علماء أوروبا فنشر المستشرق جونبل الهولاندی منه مجلدین ضخمین فی أربعة أجزاء بمطبعة بریل فی مدینة لیدن من سنة ۱۸۵۱– ۱۸۵۵ م؛ و یبتدئ الجزء الأوّل من سنة ۲۰ من الهجرة لغایة سنة ۲۵۳ ه، و

الجزء الثانی من سنة ۲۵۴- ۳۶۵ ه. و قد صدّرهما بمقدّمة و ملاحظات باللغة اللاتینیة. و نشر المستشرق و لیم بوبر العالم الإمریکی منه عشرة مجلدات مع مقدّمة باللغة الانجلیزیة لکل جزء من أجزائه، و طبعت بجامعة کالیفورنیا من سنة ۱۹۰۹- ۱۹۱۵ و من سنة ۱۹۱۶- ۱۹۲۳ و سنة ۱۹۲۶ و سنة ۱۹۲۹، و تشتمل علی السنین من سنة ۳۶۵- ۵۶۶ ه و من سنة ۸۰۱- ۸۷۲ ه.

و یتبین من هذا أن باقی الأجزاء التی تشتمل علی السنین من سنة ۵۶۷- ۸۰۰ ه لم تطبع بعد.

اهتمام دار الکتب المصریة بنقل نسخة منه

و لذا اهتمت دار الکتب المصریة بنقل نسخة منه بالتصویر الشمسی عن النسخة الخطیة المحفوظة بمکتبة أیاصوفیا بالآستانة تحت رقمی ۳۴۹۸، ۳۴۹۹

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، مقدمةج۱، ص: ۶

و هی محفوظة بدار الکتب تحت رقم ۱۳۴۳ تاریخ، و تشمل سبعة مجلدات ینقصها المجلد الثانی، و بیانها کالآتی:

المجلد

الأوّل/ القسم الأوّل- من سنة ۲۰- ۱۴۶ ه/ القسم الثانی- من سنة ۱۴۷- ۲۵۴ الثالث/ القسم الأوّل- من سنة ۵۲۴- ۶۳۷/ القسم الثانی- من سنة ۶۳۷- ۶۷۵ الرابع/ القسم الأوّل- من سنة ۶۷۶- ۷۲۳/ القسم الثانی- من سنة ۷۲۳- ۷۴۵ الخامس/ القسم الأوّل- من سنة ۷۴۶- ۷۸۲/ القسم الثانی- من سنة ۷۸۳- ۷۹۹ السادس/ القسم الأوّل- من سنة ۸۰۰- ۸۱۵/ القسم الثانی- من سنة ۸۱۶- ۸۳۶ السابع/ القسم الأوّل- من سنة ۸۳۶- ۸۵۴/ القسم الثانی- من سنة ۸۵۴- ۸۷۲

اهتمام الحکومة المصریة بطبعه

و لما کان اهتمام علماء أوروبا بنشر هذا الکتاب و طبعه بلغ شأنا کبیرا لأنه خاص بتاریخ مصر و هی أکبر دولة شرقیة إسلامیة لها من الحضارة و المدنیة ما لم یبلغه سواها من الأمم الشرقیة الأخری، کان جدیرا بحکومة الدولة المصریة أن تقوم بطبع هذا الکتاب علی نفقتها، و لذا أشار رئیس الحکومة وقتئذ ساکن الجنان المغفور له عبد الخالق ثروت باشا علی دار الکتب المصریة بطبع هذا الکتاب القیّم

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، مقدمةج۱، ص: ۷

ضمن مطبوعاتها، فلبت طلبه و باشرت طبعه بمطبعتها لا سیما بعد أن حصلت علی نسخة منه بالتصویر الشمسی.

العنایة التامة بتصحیحه

و لذلک قام القسم الأدبی بترقیمه و ضبطه و تصحیحه، متوخّیا فیه تحقیق الأعلام و أسماء البلدان و الوقائع بمراجعة المصادر التاریخیة المطبوعة و المخطوطة لتحرّی الصواب مع کتابة التعلیقات و ذکر المراجع. و طالما وفّق فی مراجعته إلی أکثر الکتب التی نقل عنها المؤلف، لتکون هذه الطبعة أصح نسخة یعوّل علیها.

و یجدر بنا أن نذکر أسماء الکتب التی نقل عنها المؤلف و راجعناها فیما صححناه من کتابه مع بعض المصادر الأخری التی اعتمدنا علیها فی تصحیح هذا الکتاب:

(۱) تاریخ ابن کثیر المسمی بالبدایة و النهایة- نسخة فتوغرافیة محفوظة بدار الکتب تحت رقم ۱۱۱۰ تاریخ.

(۲) تاریخ الإسلام للذهبی- نسخة مخطوطة تحت رقم ۴۲ تاریخ.

(۳) عقد الجمان فی تاریخ أهل الزمان للعینی- نسخة فتو غرافیة تحت رقم ۱۵۸۴ تاریخ.

(۴) مرآة الزمان للحافظ شمس الدین یوسف بن قزأوغلی- نسخة فتوغرافیة تحت رقم ۵۵۱ تاریخ.

(۵) فتوح مصر و أخبارها لابن عبد الحکم- نسخة طبعة أوروبا رقم ۱۱۲۹ تاریخ.

(۶) تاریخ الرسل و الملوک للطبری- نسخة طبعة أوروبا.

(۷) التاریخ الکامل لابن الأثیر- نسخة طبعة أوروبا.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، مقدمةج۱، ص: ۸

(۸) فضائل مصر للکندی- نسخة طبعة أوروبا.

(۹) الطبقات الکبری لابن سعد- نسخة طبعة أوروبا.

(۱۰) المشتبه فی أسماء الرجال للذهبی- نسخة طبعة أوروبا.

(۱۱) فتوح البلدان للبلاذری- نسخة طبعة أوروبا.

(۱۲) معجم البلدان لیاقوت- نسخة طبعة أوروبا.

(۱۳) معجم ما استعجم للبکری- نسخة طبعة أوروبا.

(۱۴) ولاة مصر و قضاتها للکندی- نسخة طبعة بیروت.

(۱۵) أسد الغابة فی معرفة الصحابة لابن الجزری- نسخة طبعة مصر.

(۱۶) الإصابة فی تمییز الصحابة لابن حجر العسقلانی- نسخة طبعة مصر.

(۱۷) تهذیب التهذیب لابن حجر العسقلانی- نسخة طبعة مصر.

(۱۸) مروج الذهب للمسعودی- نسخة طبعة بولاق.

(۱۹) الخطط للمقریزی- نسخة طبعة بولاق.

(۲۰) وفیات الأعیان لابن خلکان- نسخة طبعة بولاق.

(۲۱) صحیح مسلم- نسخة طبعة بولاق.

(۲۲) حوادث الدهور لابن تغری بردی المؤلف- الجزء الأوّل بالتصویر الشمسی تحت رقم ۲۳۹۷ تاریخ.

و ما الی ذلک من المصادر الأخری من کتب التاریخ و الأدب و اللغة لضبط الأعلام و الأماکن و تصحیح العبارات. و قد خصصنا فهرسا شاملا لکل هذه الکتب التی راجعناها فی نهایة هذا الجزء مع فهارس أخری.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، مقدمةج۱، ص: ۹

ترجمة المؤلف

کتبها تلمیذه و صدیقه أحمد بن حسین الترکمانی المعروف بالمرجی بآخر کتاب «المنهل الصافی» للمؤلف و قد کتبه بخطه، قال: ذکر نبذة من ترجمة مؤلف هذا التاریخ أسبغ اللّه علیه ظلاله، و ختم بالصالحات أعماله.

قال کاتب هذه النسخة تلمیذ المؤلف، و غرس نعمه، و أکبر محبّیه، و أصغر خدمه «أحمد بن حسین الترکمانی الحنفی الشهیر بالمرجی» لطف اللّه به:

لما اتصلت بخدمة مؤلف هذا الکتاب الجناب العالی المولویّ الأمیریّ الکبیریّ الفاضلیّ الکاملیّ الرئیسیّ الأوحدیّ العضدیّ الذّخریّ النصیریّ؛ نادرة الزمان، و عین الأعیان، و عمدة المؤرّخین، و رأس الرؤساء المعتبرین، و أهّلنی لکتابة هذا التاریخ، فضلا و إحسانا منه و صدقة علیّ. استوعبته کتابة و مطالعة و تأمّلا، فلم أر فیه مثله فی زمانه، لاختباری ما اشتمل علیه من المحاسن التی لم توجد فی مثله من أبناء عصره، من لطیف المحاضرة، و فکاهة المنادمة، و العقل التامّ، و کرامة الأصالة الکریمة، و الحرمة الوافرة، و العظمة الزائدة، و

حسن الخلق، و بشاشة الوجه، و حسن الملتقى، و الشکالة الحسنة التى یضرب بها المثل. و على ما قلته بلسان التقصیر، و أعظم من ذلک من الأوصاف الجمیلة التى لو استوعبها منطلق اللسان لملأ منها کتبا مجلدة، جمیع من جالسه و حاضره من المتردّدین الى بابه، و مشنّفى أسماعهم بحسن

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، مقدمةج ۱، ص: ۱۰

منادمته و خطابه؛ فأحببت ألا یخلو مثل هذا التاریخ من ترجمة مثل هذا المؤرّخ، إذ جرت العادة أن المؤرّخین لا یترجمون أنفسهم؛ و رأیت من بعض ما یجب على أن أذکر نبذة من ذکر بعض أحواله على سبیل الاختصار فأقول:

هو یوسف بن تغرى بردى بن عبد اللّه الأمیر جمال الدین أبو المحاسن بن الأمیر الکبیر سیف الدین تغرى بردى الیشبغاوى الظاهرى أتابک العساکر بالدیار المصریة، ثم کافل المملکة الشامیة. سألته عن مولده فقال:

مولدى بالقاهرة بدار الأمیر منجک الیوسفى بجوار مدرسة السلطان حسن، فى حدود سنة اثنتى عشرة و ثمانمائة تقریبا.

قلت: و توفى والده الأمیر الکبیر تغرى بردى المذکور بدمشق على نیابتها فى محرّم سنة خمس عشرة و ثمانمائة، فربّاه زوج أخته قاضى القضاة ناصر الدین محمد بن العدیم الحنفى الى أن مات ابن العدیم المذکور فى سنة تسع عشرة و ثمانمائة، و تزوّج بأخته شیخ الاسلام قاضى القضاة جلال الدین عبد الرحمن البلقینى الشافعى، فتولى تربیته و حفّظه القرآن العزیز الى أن کبر و انتشا و ترعرع، و حفظ مختصر القدورى فى الفقه، و طلب العلم و تفقه بالشیخ شمس الدین محمد الرومى الحنفى، و بقاضى القضاة

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، مقدمةج ۱، ص: ۱۱

بهاء الدین أبى البقاء الحنفى قاضى مکة، و بقاضى القضاة بدر الدین محمود العینى الحنفى. و أخذ النحو عن شیخنا العلامة تقىّ الدین الشّمنّى الحنفى، و لازمه کثیرا و تفقه علیه أیضا. و أخذ التصریف عن الشیخ علاء الدین الرومى و غیرهم. و قرأ المقامات الحریریة على العلامة قوام الدین الحنفى و أخذ عنه العربیة أیضا و قطعة جیّدة من علم الهیئة. و أخذ البدیع و الأدبیّات عن العلامة شهاب الدین أحمد بن عربشاه الدمشقىّ الحنفىّ و غیره. و کتب عن شیخ الاسلام حافظ عصره شهاب الدین أحمد

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، مقدمةج ۱، ص: ۱۲

ابن حجر کثیرا من شعره، و حضر دروسه، و انتفع بمجالسته. و عن قاضى القضاة جلال الدین أبى السعادات بن ظهیرة قاضى مکة من شعره و شعر غیره. و عن العلامة بدر الدین بن العلیف، و الشیخ قطب الدین أبى الخیر بن عبد القوى شاعرى مکة کثیرا من شعرهما. و کتب عن شعراء عصره و اجتهد و حصل و نثر و نظم و برع فى عدّة علوم و شارک فى عدّة فنون.

ثم حبّب الیه علم التاریخ فلازم مؤرّخى عصره مثل قاضى القضاة بدر الدین محمود العینى، و الشیخ تقىّ الدین المقریزى، و اجتهد فى ذلک الى الغایة، و ساعده جودة ذهنه، و حسن تصوّره، و صحیح فهمه، حتى برع و مهر و کتب و حصّل و صنّف و ألّف و انتهت الیه ریاسة هذا الشأن فى عصره.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، مقدمةج ۱، ص: ۱۳

سمع الحدیث و استجاز، و من مسموعاته العوالى کتاب «السنن لأبى داود» على المشایخ الثلاثة المسندین المعمرین: زین الدین عبد الرحمن بن یوسف بن أحمد بن الطحان الدمشقى الحنبلى المشهور بابن قریج (بقاف و جیم مصغر)، و علاء الدین على ابن إسماعیل بن محمد بن بردس البعلبکى الحنبلى أیضا، و شهاب الدین أحمد بن عبد الرحمن المشهور بابن الناظر الصاحبة الحنبلى أیضا. و کتاب «جامع الترمذى» سمعه على الشیخین الأخیرین ابن بردس و ابن ناظر الصاحبة بعد موت ابن الطحان، و سمع علیهما أیضا «شمائل المصطفى للترمذى» و مشیخة الفخر بن البخارى، و «مسند ابن عباس»، و قطعة کبیرة من «مسند أحمد» فى عدّة مجالس.

و من مسموعاته العوالى أیضا کتاب «فضل الخیل» للحافظ شرف الدین الدمیاطى سمعه على الحافظ تقىّ الدین المقریزى بسماعه على الشیخ المسند ناصر الدین محمد بن یوسف بن طبرزد الحراوى بسماعه من مؤلفه، و له مسموعات کثیرة بالطالع و النازل.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، مقدمةج ۱، ص: ۱۴

و أجازه بالقاهرة حافظ العصر شيخ الاسلام قاضى القضاة شهاب الدين أحمد ابن حجر، و الشيخ الحافظ تقى الدين أحمد بن على بن عبد القادر المقريزى الشافعى، و الحافظ العلامة أبو محمد محمود بن أحمد العينى الحنفى، و أحمد بن عبد الرحمن بن أحمد الحنبلى، و أبو ذرّ عبد الرحمن بن محمد الزركشى الحنبلى، و عز الدين عبد الرحيم ابن الفرات الحنفى، و إبراهيم بن صدقة بن إبراهيم بن إسماعيل الصالحى الحنبلى، و محمد بن يحيى بن محمد الحنبلى، و أحمد بن محمد بن محمد الحنفى، و أحمد بن محمد بن إبراهيم الفيشى المالكى، و المسند محمد بن عبد اللّه الرشيدى، و عبد اللّه بن محمد الميمونى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، مقدمةج ۱، ص: ۱۵

و عبد اللّه بن أحمد القمنى، و جلال الدين عبد الرحمن بن على بن عمر بن الملقّن، و الحافظ أبو النعيم زين الدين رضوان بن محمد بن يوسف العقبى المستملى، و قاضى القضاة بدر الدين محمد أحمد بن محمد بن محمد، و العلامة شمس الدين محمد النواجى، و الشيخ عز الدين أحمد بن إبراهيم بن نصر اللّه الحنبلى، و محمد بن على بن أحمد الشهير بابن المغيربى و آخرون.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، مقدمةج ۱، ص: ۱۶

و بالحجاز قاضى القضاة جلال الدين أبو السعادات أحمد بن محمد بن ظهيرة الشافعى المكى، و قاضى القضاة بهاء الدين محمد أبو البقاء الحنفى المكى، و شاعرا مكة بدر الدين بن العليف، و الشيخ أبو الخير بن عبد القوى و غيرهم.

و أجازه من حلب العلامة شهاب الدين أحمد بن أبى بكر المرعشى الحنفى، و ابن الشماع و غيرهما.

و برع فى فنون الفروسية كلعب الرمح و رمى النشّاب و سوق البرجاس و لعب الكرة و المحمل. و أخذ هذه الفنون عن عظماء هذا الشأن، و فاق فيهم على أنداده، و ساد على أقرانه علما و عملا؛ هذا مع الديانة و الصيانة و العفّة عن المنكرات و الفروج و الاعتكاف عن الناس، و ترك الترداد الى أعيان الدولة حتى و لا الى السلطان؛ مع حسن المحاضرة، و لطيف المنادمة، و الحشمة الزائدة، و الحياء الكثير، و اتساع الباع فى علوم الآداب و التاريخ و أيام الناس، قلّ أن يخلو مجلسه من مذكّرات العلوم، جالسته كثيرا و تأدّبت بتربيته، و حسن رأيه و سياسته و تدبيره. يضرب به المثل فى الحياء و السكون، ما سمعته شتم أحدا من غلمانه، و لا من حاشيته، و لا تكبّر على أحد من جلسائه قط، كبيرا كان أو صغيرا، جليلا كان أو حقيرا.

و صحب بعض الأصلاء الأعيان كالقاضى كمال الدين بن البارزى، و قاضى القضاة شهاب الدين بن حجر و غيرهما من العلماء و الرؤساء، و نكرّر ترداد غالبهم الى بابه، و حضروا مجلسه كثيرا و أحبّوه محبة زائدة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، مقدمةج ۱، ص: ۱۷

هذا مع ما اشتمل عليه من الكرم الزائد، و الميل الى الخير، و محبته أهل العلم و الفضل و الصلاح، و الإحسان اليهم بما تصل القدرة اليه.

و له اليد الطولى فى علم النغم و الضروب و الإيقاع حتى لعلّه لم يكن فيه مثله فى زمانه، انتهت اليه الرياسة فى ذلك و كتب كثيرا و حصّل و صنّف و ألّف.

و من مصنفاته هذا الكتاب الجليل و هو المسمى ب «المنهل الصافى و المستوفى بعد الوافى» فى سبعة مجلدات، هذه الستة و مجلد آخر يسمى «بالكنى» استوعب فيه ذكر الأعيان المشهورين بكنيتهم على هذا الشرط، و هو من أوّل دولة الترك و مختصره المسمى «بالدليل الشافى على المنهل الصافى» و مختصره سماه «مورد اللطافة فى ذكر من ولى السلطنة و الخلافة» و ذيل على الإشارة للحافظ الذهبى مختصرا سماه «بالبشارة فى تكملة الإشارة» و كتاب «حلية الصفات فى الأسماء و الصناعات» مرتبا على الحروف، يشتمل على مقاطيع و تواريخ و أدبيات، بديع فى معناه، و غير ذلك. كل ذلك فى عنفوان شبيبته.

و نرجو، إن أطال اللّه عمره و فسح فى أجله، ليملأنّ خزائن من العلوم و المصنفات فى كل فنّ، لعلمى باتساع باعه فى التصنيف و

التأليف.

و من شعره ما أنشدنی من لفظه لنفسه- حفظه اللّه تعالی- فی مليح اسمه «حسن» قوله:

طرفه الأحور زاه شاقنی و به قد ضاع علمی بالوسن

جوره عدل علينا فی الهوی كلّ فعل منه لی فهو حسن

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، مقدمهٔج ۱، ص: ۱۸

و له أيضا:

تجارة الصبّ غدت فی حبّ خود كاسده

و رأس مالی هبهٔ لفرحتی بفائده

و له أيضا:

أيبک قطز يعقبو بيبرس ذو الإكمال بعدو قلاوون بعدو كتبغا المفضال

لاجين بيبرس برقوق شيخ ذو الإفضال ططر برسبای جقمق ذو العلا إينال

ترجمهٔ المؤلف عن الضوء اللامع فی أعيان القرن التاسع للسخاوی

يوسف بن تغری بردی الجمال أبو المحاسن بن الأتابكی بالديار المصرية، ثم نائب الشام اليشبغاوی الظاهریّ القاهریّ الحنفیّ. ولد فی شوّال تحقيقا سنهٔ ثلاث عشرهٔ و ثمانمائهٔ تقريبا بدار منجک اليوسفی، جوار المدرسهٔ الحسنيّهٔ، و مات أبوه بدمشق علی نيابتها و هو صغير، فنشأ فی حجر أخته عند زوجها الناصریّ بن العديم الحنفیّ، ثم عند الجلال البلقينی، لكونه كان خلفه عليها. و حفظ القرآن، ثم فی كبره- فيما زعم- مختصر القدوری و ألفيهٔ النحو و إيساغوجی، و اشتغل يسيرا و قال إنه قرأ فی الفقه علی الشمس و العلاء الروميين، و فی الصرف علی ثانيهما، و كذا اشتغل فی الفقه علی العينی و أبی البقاء بن الضياء المكی و الشمنی و لازمه أكثر، و عليه اشتغل فی شرح الألفيهٔ لابن عقيل و الكافياجی

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، مقدمهٔج ۱، ص: ۱۹

و عليه حضر فی الكشاف و الزين قاسم، و اختص به كثيرا و تدرّب به، و قرأ فی العروض علی النّواجی، و المقامات الحريريهٔ علی القوام الحنفی، و عليه اشتغل فی النحو أيضا بل أخذ عنه قطعهٔ جيدهٔ من علم الهيئهٔ، و قرأ أقراباذين فی الطب علی سلام اللّه، و فی البديع و بعض الأدبيات علی الشهاب بن عربشاه، و كتب عن شيخنا من شعره و حضر دروسه و انتفع، فيما زعم، بمجالسته؛ و كذا كتب بمكهٔ عن قاضيها أبی السعادات بن ظهيرهٔ من شعره و شعر غيره، و عن البدر بن العليف و أبی الخير بن عبد القویّ و غيرهم من شعراء القاهرهٔ؛ و تدرّب كما ذكر فی الفنّ بالمقريزی و العينی و سمع عليهما الحديث، و كذا بالقلعهٔ عند نائبها تغری برمش الفقيه علی بن الطحان و ابن بردس و ابن ناظر الصاحبهٔ، و أجاز له الزين الزركشی و ابن الفرات و آخرون. و حج غير مرهٔ أوّلها فی سنهٔ ست و عشرين، و اعتنی بكتابهٔ الحوادث من سنهٔ أربعين، و زعم أنه أوقف شيخه المقريزی علی شیء من تعليقه فيها فقال: دنا الأجل، إشارهٔ إلی وجود قائم بأعباء ذلک بعده، و أنه كان يرجع إلی قوله فيما يذكره له من الصواب بحيث يصلح ما كان كتبه أوّلا فی تصانيفه، بل سمعته يرجح نفسه علی من تقدّمه من المؤرّخين من ثلاثمائهٔ سنهٔ بالنسبهٔ لاختصاصه دونهم بمعرفهٔ الترک و أحوالهم و لغاتهم، و رأيته إذ أرّخ وفاهٔ العينی قال فی ترجمته: إن البدر البغدادی الحنبلی قال له و هما فی الجنازهٔ: خلا الجوّ، إشارهٔ إلی أنه تفرّد؛ و ما رأيته ارتضی وصفه له بذلک من حينئذ فقط، فانه قال إنه رجع من الجنازهٔ فأرسل له ما يدل علی أن العينی كان يستفيد منه، بل سمعته يصف نفسه بالبراعهٔ فی فنون الفروسيهٔ كلعب الرمح و رمی النشّاب و سوق البرجاس و لعب الكرهٔ و المحمل و نحو ذلک.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، مقدمةج ۱، ص: ۲۰

و بالجملة فقد کان حسن العشرة، تامّ العقل- إلا فی دعواه فهو حمق- و السکون، لطیف المذاکرة، حافظا لأشیاء من النظم و نحوه، بارعا حسبما کنت أتوهّمه فی أحوال الترک و مناصبهم و غالب أحوالهم، منفردا بذلک لا عهد له بمن عداهم، و لذلک تکثر فیه أوهامه، و تختلط ألفاظه و أقلامه، مع سلوک أغراضه، و تحاشیه عن مجاهرة من أدبر عنه بإعراضه، و ما عسی أن یصل الیه ترکی!.

و قد تقدّم عند الجمالی ناظر الخاص بسبب ما کان یطریه به فی الحوادث، و تأثّل منه دنیا، و صار بعده الی جانبک الجداوی فزادت و جاهته، و اشتهرت عند أکثر الأتراک و من یلوذ بهم من المباشرین و شبههم فی التاریخ براعته. و بسفارته عند جانبک خلص البقاعی من ترسیمه حین ادعی علیه عنده بما فی جهته لجامع الفکّاهین، لکون البقاعی ممن کان یکثر التردّد لبابه، و یسامره بلفظه و خطابه؛ و ربما حمله علی إثبات مالا یلیق فی الوقائع و الحوادث مما یکون موافقا لغرضه، خصوصا فی تراجم الناس و أوصافهم، لما عنده من الضّغن و الحقد، کما وقع له فی أبی العباس الواعظ و ابن أبی السعود. و کان إذا سافر یستخلف فی کتابة الحوادث و نحوها التقیّ القلقشندی.

و قد صنف المنهل الصافی و المستوفی بعد الوافی فی ستة مجلدات تراجم خاصة علی حروف المعجم من أوّل دولة الترک؛ و الدلیل الشافی علی المنهل الصافی؛ و مورد اللطافة فیمن ولی السلطنة و الخلافة؛ و البشارة فی تکملة الإشارة للذهبی؛ و حلیة الصفات فی الأسماء و الصناعات، مشتمل علی مقاطیع و تواریخ و أدبیات، رتبه علی حروف المعجم و غیر ذلک.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، مقدمةج ۱، ص: ۲۱

و فیها الوهم الکثیر و الخلط الغزیر مما یعرفه النقاد، و الکثیر من ذلک ظاهر لکل. و منه السّقط فی الأنساب کتسمیة الحجار أحمد بن نعمة مع کون نعمة جدّه الأعلی. و کحذفه ما یتکرر من الأسماء فی النسب أو الزیادة فیه بأن یکون فی النسب ثلاثة محمدین فیجعلهم أربعة، أو أربعة فیجعلهم خمسة. و القلب کأن یکون المترجم طالبا لواحد فیجعله شیخا له. و التصحیف و التحریف کالغرافی بالفاء و الغین المعجمة یجعله مرة بالقاف، و مرة بالعین و القاف مخففا، و کالحسامیة بالخسابیة، و تسعین بسبعین و عکسه، و ابن سکّر حیث ضبطه بالشین المعجمة، و فرید الدین بمؤید الدین. و التغییر کسلیمان من سلمان و عکسه، و عبد اللّه من أبی عبد اللّه، و سعد من سعد اللّه، و ثبا حیث جعله علیا، و عبد الغفار صاحب الحاوی حیث جعله عبد الوهاب، و ابن أبی جمرة الولی الشهیر حیث جعله محمدا، و صلاح الدین خلیل بن السابق أحد رؤساء الشام سماه محمدا، و عبد الرحمن البوتیجی الشهیر جعله أبا بکر، و أحمد بن علی القلقشندی صاحب صبح الأعشی سمی والده عبد اللّه.

و التکریر فیکتب الرجل فی موضعین مرة فی إبراهیم و مرة فی أحمد، و ربما تنبه لذلک فیجوّز کونه أخا ثانیا. و إشهار المترجم بما لا یکون به مشهورا حیث یروم التشبه بابن خلکان أو الصفدی فیما یکتبانه بهامش أوّل الترجمة لسهولة الکشف عنه ککتابته مقابل ترجمة أحمد بن محمد بن عبد المعطی جدّ قاضی المالکیة بمکة المحیوی عبد القادر ما نصه: ابن طراد النحوی الحجازی. أو وصفه بما لم یتصف به کالصلاح بن أبی عمر حیث وصفه بالحافظ، و الجمال الحنبلی بالعلامة، و ناصر الدین ابن المخلّطة بقوله: إنه لم یخلف بعده مثله ضخامة و علما و معرفة و دینا و عفة. و تعبیره

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، مقدمةج ۱، ص: ۲۲

بما لا یطابق الواقع کقوله فی البرهان بن خضر: تفقه بابن حجر. أو شرحه لبعض الألقاب بما لا أصل له حیث قال فی ابن حجر: نسبة الی آل حجر یسکنون الجنوب الآخر علی بلاد الخربة و أرضهم قابس. أو لحنه الواضح و ما أشبهه کأزوجه فی زوّجه، و الحیاة فی الحیا، و المجاز فی المزاح، و أجعزه فی أزعجه، و الکیابة فی الکآبة، و الحطیط فی الحضیض، و منتضمة فی منتظمة، و ظنین فی ضنین.

بل و یذکر فی الحوادث ما لم یتفق کأنه کان یکتب بمجرّد السماع کقوله فی الشهاب ابن عربشاه- مع زعمه أنه من شیوخه-: إنه

استقر فى قضاء الحنفية بحماة فى صفر سنة أربع و خمسين عوضا عن ابن الصوّاف، و إن ابن الصوّاف قدم فى العشر الثانى من الشهر الذى يليه فأعيد فى أواخر جمادى الآخرة، و هذا لم يتفق كما أخبرنى به الجمالى بن السابق الحموى، و كفى به عمدة سيما فى أخبار بلده.

و كقوله عن جانم: إنه لما أمر برجوعه من الخانقاه الى الشام توجه كاتب السر ابن الشّحنة لتحليفه فى يوم الثلاثاء ثامن عشر رمضان سنة خمس و ستين، فإن هذا كما قال ابن الشحنة المشار إليه لم يقع. و كقوله: إن صلاح الدين بن الكويز استقرّ فى وكالة بيت المال عوضا عن الشرف الأنصارى فى رجب سنة ثلاث و ستين، و فى ظنى أن المستقرّ حينئذ فيها إنما هو الزين بن مزهر. و يذكر فى الوفيات تعيين محالّ دفن المترجمين فيغلط: كقوله فى نصر اللّه الرويانى: إنه دفن بزاويته، الى غير ذلك من تراجمه التى يقلد فيها بعض المتعصبين كما تقدّم. أو يسلك فيها الهوى، كترجمته لمنصور بن صفىّ و جانبك الجداوى، بل سمعت غير واحد من أعيان الترك و نقادهم العارفين بالحوادث و الذوات يصفونه بمزيد الخلل فى ذلك. و حينئذ فما بقى ركون لشىء مما يبديه، و على كل حال فقد كان لهم به جمال. و قد اجتمعت به مرارا و كان يبالغ

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، مقدمةج ۱، ص: ۲۳

فى إجلالى اذا قدمت عليه و يخصنى بتكرمة للجلوس، و التمس منى اختصار الخطط للمقريزى، و كتبت عنه ما قال إنه من نظمه فيمن اسمها «فائدة» و هو:

تجارة الصبّ غدت فى حبّ خود كاسده

و رأس مالى هبة لفرحتى بفائده

و ابتنى له تربة هائلة بالقرب من تربة الأشرف إينال، و وقف كتبه و تصانيفه بها و تعلل قبل موته بنحو سنة بالقولنج و اشتدّ به الأمر من أواخر رمضان بإسهال دموىّ بحيث انتحل و تزايد كربه، و تمنى الموت لما قاساه من شدّة الألم إلى أن قضى فى يوم الثلاثاء خامس ذى الحجة سنة أربع و سبعين و دفن من الغد بتربته، و عسى أن يكون كفّر عنه، رحمه اللّه و عفا عنه و إيانا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، مقدمةج ۱، ص: ۲۴

ترجمة المؤلف عن شذرات الذهب فى أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلى فى حوادث سنة ۸۷۴ ه

جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن الأمير الكبير سيف الدين تغرى بردى الحنفى الإمام العلامة. ولد بالقاهرة سنة اثنتى عشرة و ثمانمائة و رباه زوج أخته قاضى القضاة ناصر الدين بن العديم الحنفى إلى أن مات، فتروّج بأخته جلال الدين البلقينى الشافعى فتولى تربيته و حفظ القرآن العزيز. و لما كبر اشتغل بفقه الحنفية و حفظ القدورى و تفقّه بشمس الدين محمد الرومى و بالعينى و غيرهما، و أخذ النحو عن التقىّ الشّمنّى و لازمه كثيرا و تفقه به أيضا، و أخذ التصريف عن الشيخ علاء الدين الرومى و غيره، و قرأ المقامات الحريرية على قوام الدين الحنفىّ و أخذ عنه العربية أيضا و قطعة جيدة من علم الهيئة، و أخذ البديع و الأدبيات عن الشهاب بن عربشاه الحنفىّ و غيره،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، مقدمةج ۱، ص: ۲۵

و حصر على ابن حجر العسقلانى و انتفع به، و أخذ عن أبى السعادات بن ظهيرة و ابن العليف و غيرهما.

ثم حبّب إليه علم التاريخ فلازم مؤرّخى عصره مثل العينىّ و المقريزىّ، و اجتهد فى ذلك إلى الغاية وساعدته جودة ذهنه و حسن تصوّره و صحة فهمه، و مهر و كتب و حصّل و صنّف و انتهت إليه رآسة هذا الشأن فى عصره، و سمع شيئا كثيرا من كتب الحديث، و أجازه جماعات لا تحصى مثل ابن حجر و المقريزىّ و العينىّ.

و من مصنفاته كتاب المنهل الصافى و المستوفى بعد الوافى فى ستة مجلدات، و مختصره المسمى بالذيل الشافى على المنهل الصافى،

و مختصر سماه مورد اللطافة فی ذکر من ولی السلطنة و الخلافة، و النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، و ذیل علی الإشارة للحافظ الذهبی سماه بالبشارة فی تکملة الإشارة، و کتاب حلیة الصفات فی الأسماء و الصناعات مرتبا علی الحروف، و غیر ذلک. و من شعره:

تجارة الحب غدت فی حب خود کاسده

و رأس مالی هبة لفرحتی بفائده

و منه موالیا فی عدّة ملوک الترک:

أیبک قطز یعقب بیبرس ذو الإکمال بعدو قلاوون بعدو کتبغا المفضال

لاچین بیبرس برقوق شیخ ذو الإفضال ططر برسبای چقمق ذو العلا إینال

و توفی فی ذی الحجة.

حدیث ابن إیاس عن المؤلف

و قد أشار ابن إیاس فی تاریخه (ج ۲ ص ۱۱۸) الی ترجمته عند ذکر وفاته فی حوادث سنة أربع و سبعین و ثمانمائة فقال:

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، مقدمةج۱، ص: ۲۶

«و فیه کانت وفاة الجمالی یوسف بن الأتابکی تغری بردی الیشبغاوی الرومی نائب الشام. و کان الجمالی یوسف رئیسا حشما فاضلا حنفیّ المذهب و له اشتغال بالعلم، و کان مشغوفا بکتابة التاریخ و ألف فی ذلک عدّة تواریخ منها تاریخه الکبیر الموسوم بالنجوم الزاهرة؛ و المنهل الصافی؛ و مورد اللطافة فیمن ولی السلطنة و الخلافة؛ و له تاریخ فی وقائع الأحوال علی حروف الهجاء؛ و له غیر ذلک عدّة مصنفات. و کان نادرة فی أولاد الناس. و مولده سنة ثلاث عشرة و ثمانمائة» ا ه.

مؤلفاته و لابن تغری بردی عدا کتاب «النجوم الزاهرة» الکتب الآتیة:

۱- مورد اللطافة فیمن ولی السلطنة و الخلافة: اقتصر فیه علی ذکر الخلفاء و السلاطین بغیر مزید، و استفتح بذکر النّبیّ صلی اللّه علیه و سلم فالخلفاء الراشدین الی الخلیفة القائم بأمر اللّه. ثم ذکر العبیدیین و من خلفهم علی مصر الی أیامه.

منه نسخة فی مکتبة محمد الفاتح و مکتبة بشیر أغا فی الأستانة، و فی غوطا مع ذیل الی سنة ۹۰۶ ه، و فی باریس و أکسفورد و کمبریدج و تونس. و طبع فی کمبریدج سنة ۱۷۹۲ م و له ذیول منها: «منهل الظرافة، لذیل مورد اللطافة» بأسماء أمراء مصر الی سنة ۸۸۴ ه فی برلین.

۲- منشأ اللطافة، فی ذکر من ولی الخلافة: و هو تاریخ مصر من أقدم أزمانها الی سنة ۷۱۹ ه فی باریس.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، مقدمةج۱، ص: ۲۷

۳- المنهل الصافی، و المستوفی بعد الوافی: هو معجم لمشاهیر الرجال العظام من سنة ۶۵۰ ه الی آخر أیام المؤلف، أراد به أن یکون ذیلا للوافی تألیف الصفدی.

منه نسخة فی دار الکتب المصریة فی ثلاثة مجلدات کبیرة صفحاتها نحو ۳۰۰۰ صفحة منقولة عن مکتبة عارف بک بالمدینة. ترجم فیها مئات من الأعیان و العلماء، و أسند کل روایة الی صاحبها.

و من لطیف ما جاء فی مقدّمته- و قد خالف به أکثر مؤلفی عصره- قوله:

«کنت قد اطلعت علی نبذ من سیرهم و أخبارهم (یعنی رجال التاریخ) و وقفت فی کتب التاریخ علی الکثیر من آثارهم فحملنی ذلک علی سلوک هذه المسالک، و إثبات شیء من أخبار أمم الممالک، غیر مستدعی الی ذلک من أحد من أعیان الزمان، و لا مطالب به

من الأصـدقاء و الخلّان، و لا مكلّف لتأليفه و ترصـيفه من أمير و لا سـلطان؛ بل اصـطفيته لنفسـى، و جعلت حـديقته مختصـة بباسـقات غرسى؛ ليكون فى الوحدة لى جليسا، و بين الجلساء مسامرا و أنيسا ... الخ».

و هذا يخالف طريقة سائر المؤلفين فى ذلك العهد، و قد اختصـره فى كتاب سـماه: «الدليل الشافى على المنهل الصافى» منه نسخة فى مكتبة بشير أغا بالآستانة.

۴- نزهة الرائى فى التاريخ: هو تاريخ مفصل على السـنين و الشهور و الأيام فى عدّة مجلدات، منها الجزء التاسع فى اكسفورد لحوادث سنة ۶۷۸- ۷۴۷

۵- حوادث الدهور فى مدى الأيام و الشـهور: جعله ذيلا على كتاب السلوك للمقريزى بدأ به حيث انتهى ذاك الى سنة ۸۵۶ ه، لكنه خـالف المقريزى فى طريقته فأطـال فى التراجم إلا ما جاء ذكره منها فى المنهل الصافى. منه نسـخ فى برلين و المتحف البريطانى و أيا صوفيا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، مقدمةج ۱، ص: ۲۸

۶- البحر الزاخر فى علم الأوائل و الأواخر: مطوّل فى التاريخ على السنين، منه جزء صغير فى باريس من سنة ۳۲- ۷۱ ه.

فهارس الكتاب

و إتماما للفائدة و تعميما للنفع قام القسم الأدبى بعمل فهارس وافية لهذا الجزء شملت ذكر الولاة الذين ولوا حكم مصر و الأعلام التى وردت فيه و القبائـل و الأماكن و وفاء النيل و غير ذلك مرتبـة على حروف المعجم، و قـد بـذل كل من حضـرتى محمـد عبـد الجواد الأصمعىّ افندى و على أحمد الشهداوىّ افندى المصححين بالقسم الأدبى مجهودا فى هذا الشأن يستحقان عليه الثناء.

أحمد زكى العروى

رئيس قسم التصحيح بنار الكتب المصرية

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۱

[خطبة المؤلف]

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم و صـلى اللّه على سـيدنا محمد و آله و صحابته و سلم الحمد للّه الذى أيد الإسلام بمبعث سيد الأنام، و جعل مـدده شاملاـ لكل خليفـة و إمام، فهم ظل اللّه فى أرضه يأوى اليه كل ملهوف، و الزعماء القائمون بنهى كلّ منكر و أمر كل معروف؛ قلّبهم فى أطوارهـا دولاـ و خـالف بينهم اعتقادا و قولا و عملا؛ و جعل قصصـهم عبرة لأولى الألباب، و تـذكرة فى كل خبر و كتاب؛ فمن عدل منهم كان أوّل السـبعة، و من ظلم كان فى أخباره شـنعة؛ أحمده حمدا كثيرا على أن عرّفنا من صـلح منهم و من فسد، و من هو فى الوغى مـدد، و بين الأنام عـدد؛ و نشـكره على أن أخّرنا عن كل الأمم، و هـذا لعمرى من أعظم الإحسان و أسـبغ النعم؛ لنعاين ممن تقـدّم آثارهم، و نشاهـد منازلهم و ديارهم، و نسـمع كما وقعت و جرت أخبارهم؛ أعظم بها من منّة جليلة، و كرامة و فضـيلة؛ إذ أخبرنـا عنهم مـا لم يخبروه عنـا، و رأينـا منهم مـا لم يروه منـا؛ فلنقابـل هـذه المنـة بالإنصاف، فى كل مترجم و من اليه انضاف؛ فنخبر بذلك من تأخر عصره من الأقوام، بأفواه المحابر و ألسن الأقلام؛

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲

ليقتـدى كل ملك يأتى بعـدهم بجميل الخصال، و يتجنب ما صدر منهم من اقتراح المظالم و قبيح الفعال؛ و لم أقل كمقالة الغير إننى مستـدعى الى ذلك من أمير أو سـلطان، و لا مطّلب به من الأصدقاء و الإخوان؛ بل ألّفته لنفسـى، و أينعته بباسـقات غرسى؛ ليكون لى فى الوحدة جليسا، و بين الجلساء مسامرا و أنيسا؛ و لا أنزّهه من خلل و إن حوى أحسن الخلال، و لا من زلل و إن طاب مورده الزلال؛

و أشهد أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له؛ شهادة لا ينقص قدر إيمانها بعد تأكده، و لا يخفض مجد إتقانها بعد تشيّده؛ و أشهد أنّ سيدنا محمدا عبده و رسوله الذى كان لقول الحق أهلا، و من جعل بتشريعه طرق الفلاح لسالك سننه سهلا؛ صلى اللّه عليه و على آله و أصحابه و أزواجه و ذرّيته و أتباعه.

أما بعد فلما كان لمصر ميزة على كل بلد بخدمة الحرمين الشريفين، أحببت أن أجعل تاريخا لملوكها مستوعبا من غير مين؛ فحملنى ذلك على تأليف هذا الكتاب و إنشائه، و قمت بتصنيفه و أعبائه؛ و استفتحته بفتح مصر و ما وقع لهم فى المسالك، و من حضرها من الصحابة و من كان المتولّى لذلك؛ و على أىّ وجه فتحت: صلح أم عنوة من أصحابها، و أجمع فى ذلك أقوال من اختلف من المؤرّخين و أهل الأخبار و أربابها؛ و ذلك بعد اتصال سندى الى من لى عنه منهم رواية، ليجمع الواقف عليه بين صحة النقل و الدراية؛ و أطلق عنان القلم فيما جاء فى فضلها و ذكرها من الكتاب العزيز، و ما ورد فى حقها من الأحاديث و ما اختصت به من المحاسن فصار لها على غيرها بذلك التميز؛ ثم أذكر من وليها من يوم فتحت و ما وقع فى دولته من العجب، واحدا بعد واحد لا أقدّم أحدا منهم على أحد باسم و لا كنية و لا لقب؛ ثم أذكر أيضا فى كل ترجمة ما أحدث صاحبها فى أيام ولايته من الأمور، و ما جدّده من

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۳

القواعد و الوظائف و الولايات فى مدى الدهور؛ و لا أقتصر على ذلك بل أستطرد الى ذكر ما بنى فيها من المبانى الزاهرة، كالميادين و الجوامع و مقياس النيل و عمارة القاهرة؛ أوّلا بأوّل أذكره فى يوم مبناه و فى زمان سلطانه، مستوعبا لهذا المعنى ضابطا لشانه؛ على أننى أذكر من توفى من الأعيان فى دولة كل خليفة و سلطان باقتصار، بعد فراغ ترجمة المقصود من الملوك مع ذكر بعض الحوادث فى مدّة ولاية المذكور فى أيما قطر من الأقطار؛ و أبدأ فيه بعد التعريف بأحوال مصر بولاية عمرو ابن العاص فى المملكة الإسلامية، ثم ملك بعد ملك كل واحد على حدته و ما وقع فى أيامه الى الدولة الأشرفية الإينالية؛ و سميته:

«النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة»

و اللّه الموفّق و المنّان و بالله المستعان.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۴

ذكر فتح مصر لابن عبد الحكم و غيره

قال المؤلف: أخبرنا حافظ العصر قاضى القضاة شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن على بن حجر العسقلانىّ الشافعىّ مشافهة عن أبى هريرة بن الذهبىّ قال:

أخبرنا الحافظ أبو عبد اللّه الذهبىّ روى خليفة عن غير واحد: «أن فى سنة عشرين كتب عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه الى عمرو بن العاص أن يسير الى مصر، فسار و بعث عمر الزبير بن العوّام مردفا له و معه بسر بن أبى أرطاة و عمير بن وهب الجمحىّ و خارجة بن حذافة العدوىّ حتى أتى بابليون، فحصّنوا، فافتتحها عنوة و صالحه أهل الحصن؛ و كان الزبير أوّل من ارتقى سور المدينة ثم تبعه الناس، فكلّم الزبير عمرا أن يقسمها بين من افتتحها، فكتب عمرو الى عمر بذلك ثم رقى الى المنبر و قال: «لقد قعدت مقعدى هذا و ما لأحد من قبط مصر علىّ عهد و لا عقد، إن شئت قتلت، و إن شئت بعت، و إن شئت خمست». انتهى كلام الذهبىّ.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۵

و قال علىّ- و علىّ مصغر- بن رباح: المغرب كله عنوة، فتدخل مصر فيها ا ه.

و قال ابن عمر: افتتحت مصر بغير عهد. و قال يزيد بن أبى حبيب:

مصر كلها صلح إلا الإسكندرية.

و أمّا فتوح مصر لابن عبد الحكم فقد أخبرنا به حافظ العصر شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علىّ بن حجر العسقلانىّ الشافعىّ مشافهة قال: قرأت على أبى المعالى عبد اللّه بن عمر بن علىّ أخبرنا، إجازة إن لم يكن سماعا، عن زهرة بنت عمر أخبرنا الكمال أبو الحسن علىّ بن شجاع أخبرنا أبو القاسم هبة اللّه ابن علىّ البوصيرىّ أخبرنا أبو صادق مرشد بن يحيى المدينىّ أخبرنا أبو الحسن على بن منير الخلّال و أبو بكر محمد بن أحمد بن الفرج الأنصارى أخبرنا أبو القاسم على بن الحسن بن خلف بن قديد الأزدى أخبرنا أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد اللّه ابن عبد الحكم قال:

لما قدم عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه الجابية قام اليه عمرو بن العاص رضى اللّه عنه فخلا به و قال: يا أمير المؤمنين، ائذن لى أن أسير الى مصر، و حرّضه عليها و قال: إنك إن فتحتها كانت قوّة للمسلمين و عونا لهم، و هى أكثر الأرض أموالا و أعجز [ها] عن القتال و الحرب، فتخوّف عمر بن الخطاب على المسلمين و كره ذلك، فلم يزل عمرو يعظم أمرها عنده و يخبره بحالها و يهوّن عليه فتحها، حتى ركن اليه عمر و عقد له على أربعة آلاف رجل [كلهم من عكّ]، و يقال: [بل]

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۶

ثلاثة آلاف و خمسمائة، و قال له عمر: سر و أنا مستخير اللّه فى مسيرك، و سيأتيك كتابى سريعا إن شاء اللّه تعالى، فإن أدركك كتابى آمرك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئا من أرضها فانصرف، و إن أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابى فامض لوجهك و استعن بالله و استنصره.

فسار عمرو بن العاص من جوف الليل و لم يشعر به أحد من الناس فاستخار عمر و كاتبه يتخوّف على المسلمين بالرجوع، فأدرك الكتاب عمرا و هو برمح؛ فتخوّف عمرو إن هو أخذ الكتاب و فتحه أن يجد فيه الانصراف كما عهد اليه عمر، فلم يأخذ الكتاب من الرسول و دافعه و سار كما هو حتى نزل قرية فيما بين رفح و العريش، فسأل [عنها] فقيل: إنها من أرض مصر، فدعا بالكتاب و قرأه على المسلمين؛ فقال عمرو لمن معه: أ لستم تعلمون أنّ هذه القرية من أرض مصر؟ قالوا: بلى، قال:

فإن أمير المؤمنين عهد إلىّ و أمرنى إن لحقنى كتابه و لم أدخل أرض مصر أن أرجع، و لم يلحقنى كتابه حتى دخلنا أرض مصر، فسيروا و امضوا على بركة اللّه. و قيل غير ذلك: و هو أن عمر أمره بالرجوع و خشّن عليه فى القول.

و روى نحو مما ذكرنا من وجه آخر، من ذلك: أن عثمان بن عفان رضى اللّه عنه دخل على عمر بن الخطاب رضى اللّه عنهما، فقال عمر له: كتبت الى عمرو بن العاص أن يسير الى مصر من الشأم، فقال عثمان: يا أمير المؤمنين، إنّ عمرا لمجرّأ و فيه إقدام و حب للإمارة، فأخشى أن يخرج فى غير ثقة و لا جماعة فيعرّض المسلمين للهلكة رجاء فرصة لا يدرى تكون أم لا، فندم عمر على كتابه الى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۷

عمرو إشفاقا على المسلمين، ثم قال عثمان: فاكتب اليه: إن أدركك كتابى هذا قبل أن تدخل مصر فارجع الى موضعك، و إن كنت دخلت فامض لوجهك.

فلما بلغ المقوقس قدوم عمرو بن العاص الى مصر توجه الى موضع الفسطاط، فكان يجهز على عمرو الجيوش و كان على القصر (يعنى قصر الشمع الذى بمصر القديمة) رجل من الروم يقال له الأعيرج واليا عليه، و كان تحت يد المقوقس، و اسمه:

جريج بن مينا، و أقبل عمرو حتى اذا كان بالعريش، فكان أوّل موضع قوتل فيه الفرما قاتلته الروم قتالا شديدا نحوا من شهر ثم فتح اللّه على يديه، و كان عبد اللّه ابن سعد على ميمنة عمرو منذ خروجه من قيساريّة الى أن فرغ من حربه؛ ثم مضى عمرو نحو مصر و كان بالإسكندرية أسقف للقبط يقال له: أبو ميامين، فلما بلغه قدوم عمرو الى مصر كتب الى قبط مصر يعلمهم أنه لا يكون للروم دولة و أن ملكهم قد انقطع، و أمرهم بتلقى عمرو.

و يقال: إن القبط الذين كانوا بالفرما كانوا يومئذ لعمرو أعوانا؛ ثم توجه عمرو لا يدافع إلا بالأمر الأخف حتى نزل القواصر، فسمع

رجل من لخم نفرا من القبط يقول بعضـهم لبعض: ألا تعجبون من هؤلاء القوم يقـدمون على جموع الروم و إنما هم فی قلة من الناس! فأجـابه رجـل منهم فقـال: إن هؤلاء القوم لا يتوجهون الى أحـد إلا ظهروا عليه حتى يقتلوا أخيرهم؛ ثم تقـدّم عمرو أيضا لا يـدافع إلا بالأمر

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۸

الخفيف حتى أتى بلبيس فقاتل نحوا من شـهر حتى فتـح اللّه عليه؛ ثم مضـى لا يدافع إلا بالأمر الخفيف حتى أتى أمّ دنين، فقاتلوا من بها قتالا شديدا و أبطأ عليه الفتح، فكتب الى عمر رضـى اللّه عنه يسـتمدّه فأمدّه بأربعة آلاف تمام ثمانية آلاف مع عمرو، فوصـلوا اليه أرسالا يتبع بعضهم بعضا ثم أحاط المسلمون بالحصن و أميره يومئذ المندقور الذى يقال له الأعيرج من قبل المقوقس و هو ابن قرقب اليونانىّ و كان المقوقس ينزل بالإسـكندرية و هو فی سـلطان هرقل غير أنه كان حاضـرا الحصن حين حاصـره المسلمون، فقاتل عمرو بن العاص من بالحصن، و جاء رجل الى عمرو و قال: انـدب معى خيلا حتى آتى من ورائهم عنـد القتال، فأخرج معه عمرو خمسـمائة فـارس عليهم خارجـة بن حذافـة، فی قول، فسـاروا من وراء الجبل حتى وصـلوا مغار بنى وائل قبل الصـبح، و كانت الروم قـد خنـدقوا خنـدقا و جعلوا له أبوابا و بثّوا فی أفنيتها حسک الحديـد، فالتقاهم القوم حين أصبحوا و خرج خارجة من ورائهم فانهزموا حتى دخلوا الحصن و قـاتلهم قتالا شديـدا بصبحهم و عشيهم، فلما أبطأ الفتـح على عمرو كتب الى عمر رضـى اللّه عنه يسـتمدّه و يعلمه بـذلک، فأمـدّه بأربعـة آلاـف رجل على كل ألف رجل منهم رجل مقام الألف: الزّبير بن العوّام، و المقـداد بن الأسود، و عبادة بن الصّامت، و مسـلمة بن مخلّد- فی قول- و قيل: خارجة بن حذافة الرابع، لا يعدّون مسـلمة. و قال عمر له: إعلم أن معک اثنى عشر ألفا و لن تغلب اثنا عشر ألفا من قلة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۹

و قيل غير ذلک، و هو أنّ الزبير رضـى اللّه عنه قـدم الى عمرو فی اثنى عشـر ألفا و أنّ عمرا لما قدم من الشأم كان فی عدّة قليلة فكان يفرّق أصـحابه ليرى العـدوّ أنهم أكثر ممـا هم، فلمـا انتهى الى الخنـدق بـادره رجـل بـأن قـال: قـد رأينـا مـا صـنعت و إنمـا معک من أصـحابک كذا و كذا فلم يخطئوا برجل واحد، فأقام عمرو على ذلک أياما يغدو فی السـحر فيصفّ أصحابه على أفواه الخندق عليهم السـلاح، فبينمـاهم على ذلـک إذ جـاءه خبر الزبير بن العوّام فی اثنى عشـر ألفـا فتلقاه عمرو، ثم أقبلا فلم يلبث الزبير أن ركـب و طاف بالخندق ثم فرّق الرجال حول الخندق و ألح عمرو على القصر و وضع عليه المنجنيق.

و دخل عمرو الى صاحب الحصن فتناظرا فی شیء مما هم فيه، فقال عمرو:

أخرج و أستشـير أصـحابى، و قد كان صاحب الحصن أوصى الذى على الباب اذا مرّ به عمرو أن يلقى عليه صخرة فيقتله، فمرّ عمرو و هو يزيد الخروج برجل من العرب فقال له: قد دخلت فانظر كيف تخرج، فرجع عمرو الى صاحب الحصن فقال له:

إنى أريد أن آتيک بنفر من أصحابى حتى يسمعوا منک مثل الذى سمعت، فقال العلج فی نفسه: قتل جماعة أحب الىّ من قتل واحد، فأرسل الى الذى كان أمره بما أمره من أمر عمرو ألا يتعرّض له رجاء أن يأتيه بأصحابه فيقتلهم، فخرج عمرو.

و بينمـا عبـادة بن الصـامت فی ناحيـة يصـلى و فرسه عنـده رآه قوم من الروم فخرجوا اليه و عليهم حليـة و بزّة، فلمـا دنوا منه سـلم من الصلاة و وثب على فرسه ثم حمل عليهم، فلما رأوه و لوا هاربين و تبعهم، فجعلوا يلقون مناطقهم و متاعهم ليشغلوه بذلک عن طلبهم، فصار لا يلتفت اليه حتى دخلوا الى الحصن، و رمى عبادة من فوق الحصن بالحجارة، فرجع و لم يتعرّض لشیء مما طرحوه من متاعهم حتى رجع الى موضعه الذى كان فيه فاستقبل الصلاة؛ و خرج الروم الى متاعهم و جمعوه.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۱۰

فلما أبطأ الفتـح على عمرو قال الزبير: إنى أهب نفسـى للّه تعالى و أرجو أن يفتـح اللّه بـذلک على المسـلمين، فوضع سـلما الى جانب الحصن من ناحيـة سوق الحمّـام ثم صـعد و أمرهم اذا سـمعوا تكبيره يجيبونه جميعا؛ فما شـعروا إلا و الزبير على رأس الحصن يكبر و

معه السیف، و تحامل الناس علی السلم حتی نهاهم عمرو خوفا أن ینکسر السلم، و کبّر الزبیر تکبیرة فأجابه المسلمون من خارج، فلم یشک أهل الحصن أنّ العرب قد اقتحموا جمیعا الحصن فهربوا و عمد الزبیر بأصحابه الی باب الحصن ففتحوه و اقتحم المسلمون الحصن. فلما خاف المقوقس علی نفسه و من معه سأل عمرو ابن العاص الصلح و دعاه الیه علی أن یفرض للعرب علی القبط دینارین دینارین علی کل رجل منهم، فأجابه عمرو الی ذلک.

و کان مکثهم علی القتال حتی فتح اللّه علیهم سبعة أشهر. انتهی کلام ابن عبد الحکم باختصار.

و قال غیره فی الفتح وجها آخر قال: لما حصر المسلمون بابلیون و کان به جماعة من الروم و أکابر القبط و رؤسائهم و علیهم المقوقس فقاتلوهم شهرا، فلما رأی القوم الجدّ من العرب علی فتحه و الحرص، و رأوا من صبرهم علی القتال و رغبتهم فیه خافوا أن یظهروا علیهم، فتنحّی المقوقس و جماعة من أکابر الأقباط و خرجوا من باب القصر القبلیّ و ترکوا به جماعة یقاتلون العرب، فلحقوا بالجزیرة (موضع الصناعة الیوم) و أمروا بقطع الجسر و ذلک فی جری النیل. و یقال: إنّ الأعیرج تخلف بالحصن بعد المقوقس؛ فأرسل المقوقس الی عمرو:

«إنکم قد و لجتم فی بلادنا و ألححتم علی قتالنا، و طال مقامکم فی أرضنا و إنما أنتم عصبة یسیرة، و قد أظلتکم الروم و جهزوا الیکم و معهم من العدّة و السلاح، و قد

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۱۱

أحاط بکم هذا النیل. و إنما أنتم أساری فی أیدینا، فابعثوا الینا رجالا منکم نسمع من کلامهم فلعله أن یأتی الأمر فیما بیننا و بینکم علی ما تحبون و نحب و ینقطع عنا و عنکم القتال قبل أن یغشاکم جموع الروم، فلا ینفعنا الکلام و لا نقدر علیه.

و لعلکم أن تندموا إن کان الأمر مخالفا لمطلبکم و رجائکم، فابعثوا الینا رجالا من أصحابکم نعاملهم علی ما نرضی نحن و هم به من شیء».

فلما أتت عمرا رسل المقوقس حبسهم عنده یومین و لیلتین حتی خاف علیهم المقوقس فقال لأصحابه: أ ترون أنهم یقتلون الرسل [و یحبسونهم] و یستحلون ذلک فی دینهم! و إنما أراد عمرو بذلک أنهم یرون حال المسلمین.

فردّ علیهم عمرو مع رسلهم: إنه لیس بینی و بینکم إلا إحدی ثلاث خصال:

إمّا أن دخلتم فی الإسلام فکنتم إخواننا و کان لکم ما لنا. و إن أبیتم فأعطیتم الجزیة عن ید و أنتم صاغرون. و إما أن جاهدناکم بالصبر و القتال حتی یحکم اللّه بیننا و بینکم و هو خیر الحاکمین. فلما جاءت رسل المقوقس الیه قال: کیف رأیتموهم؟ قالوا:

رأینا قوما الموت أحب الی أحدهم من الحیاة، و التواضع أحب الیهم من الرفعة، لیس لأحدهم فی الدنیا رغبة و لا نهمة، و إنما جلوسهم علی التراب و أکلهم علی رکبهم و أمیرهم کواحد منهم، ما یعرف رفیعهم من وضیعهم و لا السید من العبد، و اذا حضرت الصلاة لم یتخلف عنها منهم أحد؛ یغسلون أطرافهم بالماء و یخشعون فی صلاتهم.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۱۲

فقال عند ذلک المقوقس: و الذی یحلف به لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها و ما یقوی علی قتال هؤلاء أحد! و لئن لم نغتنم صلحهم الیوم و هم محصورون بهذا النیل لم یجیبونا بعد الیوم اذا أمکنتهم الأرض وقووا علی الخروج من موضعهم.

فردّ الیهم المقوقس رسله یقول لهم: ابعثوا الینا رسلا منکم نعاملهم و نتداعی نحن و هم الی ما عساه یکون فیه صلاح لنا و لکم.

فبعث عمرو بن العاص عشرة نفر أحدهم عبادة بن الصامت، و کان طوله عشرة أشبار، و أمره عمرو أن یکون متکلم القوم و ألّا یجیبهم الی شیء دعوه الیه إلا إحدی هذه الثلاث الخصال، فإنّ أمیر المؤمنین قد تقدّم الیّ فی ذلک و أمرنی ألا أقبل شیئا إلا خصلة من هذه الثلاث الخصال، و کان عبادة أسود، فلما رکبوا السفن الی المقوقس و دخلوا علیه تقدّم عبادة، فهابه المقوقس لسواده و قال: نحّوا عنّی هذا الأسود و قدّموا غیره یکلمنی؛ فقالوا جمیعا: إن هذا الأسود أفضلنا رأیا و علما و هو سیّدنا و خیّرنا و المقدّم علینا، و إنما

نرجع جمیعا الی قوله و رأیه و قد أمره الأمیر دوننا بما أمره و أمرنا ألا نخالف رأیه و قوله.

فقال: و کیف رضیتم أن یکون هذا الأسود أفضلکم و إنما ینبغی أن یکون هو دونکم؟ قالوا: کلا! إنه و إن کان أسود کما تری فإنه من أفضلنا موضعا و أفضلنا سابقة و عقلا و رأیا و لیس ینکر السواد فینا؛ فقال المقوقس لعبادة: تقدّم یا أسود و کلمنی برفق فإننی أهاب سوادک و إن اشتدّ کلامک علیّ ازددت لک هیبة، فتقدّم الیه عبادة فقال:

قد سمعت مقالتک و إنّ فیمن خلّفت من أصحابی ألف رجل کلهم مثلی و أشدّ سوادا منی و أفظع منظرا و لو رأیتهم لکنت أهیب لهم منی، و أنا قد ولّیت و أدبر

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱، ص: ۱۳

شبابی، و إنی مع ذلک بحمد اللّه ما أهاب مائة رجل من عدوّی لو استقبلونی جمیعا و کذلک أصحابی، و ذلک إنما رغبتنا و همتنا الجهاد فی اللّه و اتباع رضوانه، و لیس غزونا عدوّا ممن حارب اللّه لرغبة فی الدنیا و لا حاجة للاستکثار منها إلا أن اللّه عز و جل قد أحل ذلک لنا و جعل ما غنمنا من ذلک حلالا، و ما یبالی أحدنا أکان له قناطیر من ذهب أم کان لا یملک إلا درهما، لأن غایة أحدنا من الدنیا أکلة یأکلها یسدّ بها جوعته لیلته و نهاره، و شملة یلتحفها، و إن کان أحدنا لا یملک إلا ذلک کفاه، و إن کان له قنطار من ذهب أنفقه فی طاعة اللّه تعالی، و اقتصر علی هذه بیده و یبلغه ما کان فی الدنیا لأنّ نعیم الدنیا لیس بنعیم و رخاءها لیس برخاء، إنما النعیم و الرخاء فی الآخرة، بذلک أمرنا اللّه و أمرنا به نبینا و عهد إلینا ألّا تکون همة أحدنا فی الدنیا إلا ما یمسک جوعته و یستر عورته، و تکون همته و شغله فی رضاء ربه و جهاد عدوّه.

فلما سمع المقوقس ذلک منه قال لمن حوله: هل سمعتم مثل کلام هذا الرجل قط! لقد هبت منظره و إنّ قوله لأهیب عندی من منظره، إن هذا و أصحابه أخرجهم اللّه لخراب الأرض و ما أظن ملکهم إلا سیغلب علی الأرض کلها. ثم أقبل المقوقس علی عبادة بن الصامت فقال:

أیها الرجل الصالح، قد سمعت مقالتک و ما ذکرت عنک و عن أصحابک، و لعمری ما بلغتم ما بلغتم إلا بما ذکرت، و ما ظهرتم علی من ظهرتم علیه إلا لحبهم الدنیا و رغبتهم فیها، و قد توجه الینا لقتالکم من جمع الروم ما لا یحصی عدده، قوم معروفون بالنجدة و الشدّة ممن لا یبالی أحدهم من لقی و لا من قاتل، و إنّا لنعلم أنکم لم تقووا

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱، ص: ۱۴

علیهم و لن تطیقوهم لضعفکم و قلتکم، و قد أقمتم بین أظهرنا أشهرا و أنتم فی ضیق و شدّة من معاشکم و حالکم، و نحن نرقّ علیکم لضعفکم و قلتکم و قلة ما بأیدیکم، و نحن تطیب أنفسنا أن نصالحکم علی أن نفرض لکل رجل منکم دینارین دینارین و لأمیرکم مائة دینار و لخلیفتکم ألف دینار، فتقبضونها و تنصرفون الی بلادکم قبل أن یغشاکم ما لا قوّة لکم به.

فقال عبادة: یا هذا، لا تغرّنّ نفسک و لا أصحابک. أمّا ما تخوّفنا به من جمع الروم و عددهم و کثرتهم و أنّا لا نقوی علیهم، فلعمری ما هذا بالذی تخوّفنا به و لا بالذی یکسرنا عما نحن فیه، إن کان ما قلتم حقا فذلک و اللّه أرغب ما یکون فی قتالهم و أشدّ لحرصنا علیهم، لأن ذلک أعذر لنا عند اللّه إذا قدمنا علیه إن قتلنا عن آخرنا کان أمکن لنا من رضوانه و جنته، و ما من شیء أقرّ لأعیننا و لا أحب الینا من ذلک، و إنّا منکم حینئذ علی إحدی الحسنیین، إمّا أن تعظم لنا بذلک غنیمة الدنیا إن ظفرنا بکم، أو غنیمة الآخرة إن ظفرتم بنا، و إنها لأحب الخصلتین الینا بعد الاجتهاد منا، و إن اللّه عز و جل قال لنا فی کتابه: کَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِیلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً کَثِیرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَ اللَّهُ مَعَ الصَّابِرِینَ و ما منا رجل إلا و هو یدعو ربه صباحا و مساء أن یرزقه الشهادة و ألا یردّه الی بلده و لا الی أرضه و لا الی أهله و ولده، و لیس لأحد منا همّ فیما خلّفه و قد استودع کل واحد منا ربه أهله و ولده و إنما همنا [ما] أمامنا.

و أما قولک إنا فی ضیق و شدّة من معاشنا و حالنا فنحن فی أوسع السعة لو کانت الدنیا کلّها لنا ما أردنا منها لأنفسنا أکثر مما نحن فیه، فانظر الذی ترید فبیّنه لنا فلیس بیننا و بینک خصلة نقبلها منک و لا نجیبک الیها إلا خصلة من ثلاث،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۱۵

فاختر أیتها شئت و لا تطمع نفسک فی الباطل، بذلک أمرنی الأمیر و بها أمره أمیر المؤمنین و هو عهد رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم من قبله الینا.

إما إجابتکم الی الإسلام الذی هو الدین الذی لا یقبل اللّه غیره و هو دین نبینا و أنبیائه و رسله و ملائکته- صلوات اللّه علیهم- أمرنا اللّه تعالی أن نقاتل من خالفه و رغب عنه حتی یدخل فیه، فإن فعل کان له ما لنا و علیه ما علینا و کان أخانا فی دین الإسلام، فإن قبلت ذلک أنت و أصحابک فقد سعدتم فی الدنیا و الآخرة و رجعنا عن قتالکم و لم نستحلّ أذاکم و لا التعرّض لکم؛ و إن أبیتم إلا الجزیة فأدّوا الینا الجزیة عن ید و أنتم صاغرون، نعاملکم علی شیء نرضاه نحن و أنتم فی کل عام أبدا ما بقینا و بقیتم و نقاتل عنکم من ناوأکم و عرض لکم فی شیء من أرضکم و دمائکم و أموالکم و نقوم بذلک عنکم إذ کنتم فی ذمّتنا و کان لکم به عهد علینا؛ و إن أبیتم فلیس بیننا و بینکم إلا المحاکمة بالسیف حتی نموت عن آخرنا أو نصیب ما نرید منکم. هذا دیننا الذی ندین اللّه تعالی به و لا یجوز لنا فیما بیننا و بینه غیره، فانظروا لأنفسکم.

فقال المقوقس: هذا لا- یکون أبدا، ما تریدون إلا- أن تتخذونا عبیدا ما کانت الدنیا. فقال عبادة: هو ذلک فاختر ما شئت. فقال المقوقس: أفلا تجیبونا الی خصلة غیر هذه الثلاث الخصال؟ فرفع عبادة یدیه و قال: لا و رب هذه السماء و رب هذه الأرض و رب کل شیء، ما لکم عندنا خصلة غیرها، فاختاروا لأنفسکم.

فالتفت المقوقس عند ذلک لأصحابه و قال: قد فرغ القوم فما ترون؟ فقالوا:

أو یرضی أحد بهذا الذل! أمّا ما أرادوا من دخولنا الی دینهم فهذا ما لا یکون أبدا، نترک دین المسیح بن مریم و ندخل فی دین لا نعرفه! و أمّا ما أرادوا من أن

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۱۶

یسبونا و یجعلونا عبیدا فالموت أیسر من ذلک، لو رضوا منا أن نضعّف لهم ما أعطیناهم مرارا کان أهون علینا.

قال المقوقس لعبادة: قد أبی القوم فما تری؟ فراجع صاحبک علی أن نعطیکم فی مرّتکم هذه ما تمنیتم و تنصرفون. فقام عبادة و أصحابه.

فقال المقوقس لأصحابه: أطیعونی و أجیبوا القوم الی خصلة واحدة من هذه الثلاث، فو اللّه ما لکم بهم طاقة! و لئن لم تجیبوا الیها طائعین لتجیبنّهم الی ما هو أعظم کارهین. فقالوا: و أیّ خصلة نجیبهم إلیها؟ قال: إذا أخبرکم، أمّا دخولکم فی غیر دینکم فلا آمرکم به؛ و أمّا قتالهم فأنا أعلم أنکم لن تقووا علیهم و لن تصبروا صبرهم؛ و لا بدّ من الثالثة؛ قالوا: فنکون لهم عبیدا أبدا؟ قال: نعم، تکونون عبیدا مسلطین فی بلادکم آمنین علی أنفسکم و أموالکم و ذراریکم [خیر لکم من أن تموتوا من آخرکم و تکونوا عبیدا تباعوا و تمزّقوا فی البلاد مستعبدین أبدا أنتم و أهلکم و ذراریکم]. قالوا: فالموت أهون علینا. و أمروا بقطع الجسر من الفسطاط و الجزیرة؛ و بالقصر من جمع القبط و الروم کثیر.

فألحّ المسلمون عند ذلک بالقتال علی من بالقصر حتی ظفروا بهم و أمکن اللّه منهم، فقتل منهم خلق کثیر و أسر من أسر منهم و انحازت السفن کلها الی الجزیرة، و صار المسلمون قد أحدق بهم الماء من کل وجه لا یقدرون علی أن یتقدّموا نحو الصعید و لا الی غیر ذلک من المدائن و القری، و المقوقس یقول لأصحابه: أ لم أعلمکم هذا و أخافه علیکم، ما تنتظرون! فو اللّه لتجیبنهم الی ما أرادوا طوعا أو لتجیبنّهم الی ما هو أعظم من ذلک کرها، فأطیعونی من قبل أن تندموا. فلما رأوا منهم ما رأوا و قال لهم المقوقس ما قال أذعنوا بالجزیة و رضوا بذلک علی صلح یکون بینهم یعرفونه.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۱۷

و أرسل المقوقس الی عمرو بن العاص رضی اللّه عنه: إنی لم أزل حریصا علی إجابتک الی خصلة من تلک الخصال التی أرسلت

الیّ بها، فأبی علیّ من حضرنی من الروم و القبط، فلم یکن لی أن أفتات علیهم فی أموالهم و قد عرفوا نصحی لهم و حبّی صلاحهم و رجعوا الی قولی؛ فأعطنی أمانا أجتمع أنا و أنت فی نفر من أصحابی و أنت فی نفر من أصحابک، فإن استقام الأمر بیننا تمّ [لنا] ذلک جمیعا، و إن لم یتم رجعنا الی ما کنّا علیه.

فاستشار عمرو أصحابه فی ذلک، فقالوا: لا نجیبهم الی شیء من الصلح و لا الجزیة حتی یفتح اللّه علینا [و تصیر الأرض کلها لنا فیئا و غنیمة کما صار لنا القصر و ما فیه] فقال: قد علمتم ما عهد الیّ أمیر المؤمنین فی عهده، فإن أجابوا الی خصلة من الخصال الثلاث التی عهد إلیّ فیها أجبتهم الیها و قبلت منهم مع ما قد حال هذا الماء بیننا و بین ما نرید من قتالهم.

فاجتمعوا علی عهد بینهم و اصطلحوا علی أن یفرض علی جمیع من بمصر أعلاها و أسفلها من القبط دینارین دینارین علی کل نفس شریفهم و وضیعهم ممن بلغ منهم الحلم، لیس علی الشیخ الفانی و لا علی الصغیر الذی لم یبلغ الحلم و لا علی النساء شیء؛ و علی أن للمسلمین علیهم النّزل بجماعتهم حیث نزلوا، و من نزل علیه ضیف واحد من المسلمین أو أکثر من ذلک، کانت لهم ضیافة ثلاثة أیام مفترضة علیهم، و أن لهم أرضهم و أموالهم لا یتعرّض لهم فی شیء منها.

فشرط ذلک کله علی القبط خاصة. و أحصوا عدد القبط یومئذ خاصة من بلغ منهم الجزیة و فرض علیهم الدیناران؛ رفع ذلک عرفاؤهم بالأیمان المؤکدة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۱۸

فکان جمیع من أحصی یومئذ بمصر أعلاها و أسفلها من جمیع القبط فیما أحصوا و کتبوا أکثر من ستة آلاف نفس، فکانت فریضتهم یومئذ اثنی عشر ألف دینار فی کل سنة؛ و قیل غیر ذلک.

و قال عبد اللّه بن لهیعة عن یحیی بن میمون الحضرمیّ: لما فتح عمرو مصر، صالح أهلها عن جمیع من فیها من الرجال من القبط ممن راهق الحلم الی ما فوق ذلک، لیس فیهم امرأة و لا شیخ و لا صبیّ، فأحصوا بذلک علی دینارین دینارین، فبلغت عدّتهم ثمانیة آلاف ألف. قال: و شرط المقوقس للروم أن یخیّروا، فمن أحب

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۱۹

منهم أن یقیم علی مثل هذا أقام علی ذلک لازما له مفترضا علیه ممن أقام بالإسکندریة و ما حولها من أرض مصر کلها، و من أراد الخروج منها الی أرض الروم خرج؛ و علی أن المقوقس له الخیار فی الروم خاصة حتی یکتب الی ملک الروم یعلمه بما فعل؛ فإن قبل ذلک و رضیه جاز علیهم، و إلا کانوا جمیعا علی ما کانوا علیه.

قلت: و قد اختلف بعد ذلک فی فتح مصر: هل فتحت صلحا أم عنوة، فمن قال: إن مصر فتحت بصلح، احتج بما ذکرناه و نحوه بمثل ما ذکره القضاعیّ و غیره، و قالوا: إن الأمر لم یتم إلا بما جری بین عبادة بن الصامت و بین المقوقس؛ و علی ذلک أکثر علماء أهل مصر، منهم عقبة بن عامر و یزید بن أبی حبیب و اللیث ابن سعد و غیرهم.

و ذهب الذی قال إنها فتحت عنوة الی أن الحصن فتح عنوة و کان حکم جمیع الأرض کذلک؛ و هم عبید اللّه بن المغیرة الشیبانی و مالک بن أنس و عبد اللّه ابن وهب و غیرهم.

و ذهب قوم الی أن بعضها فتح عنوة، و بعضها فتح صلحا، منهم عبد اللّه ابن لهیعة و ابن شهاب الزهریّ و غیرهما.

قال عبید اللّه بن أبی جعفر حدّثنی رجل ممن أدرک عمرو بن العاص قال: للقبط عهد عند فلان، و عهد عند فلان؛ فسمی ثلاثة نفر. و فی روایة: أن عهد أهل مصر کان عند کبرائهم.

قال: و سألت شیخا من القدماء عن فتح مصر، قلت له: فإن ناسا یذکرون أنه لم یکن لهم عهد؛ فقال: ما یبالی ألّا یصلّی من قال إنه لیس لهم عهد؛ فقلت:

فهل کان لهم کتاب؟ فقال: نعم، کتب ثلاثة: کتاب عند طلما صاحب إخنا،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۰

و كتاب عند قزمان صاحب رشيد، و كتاب عند يحنّس صاحب البرلّس؛ قلت:

كيف كان صلحهم؟ قال: دينارين على كل إنسان جزية و أرزاق المسلمين؛ قلت:

أفتعلم ما كان من الشروط؟ قال: نعم، ستة شروط: لا- يخرجون من ديارهم، و لا- تنزع نساؤهم، و لا أولادهم، و لا كنوزهم، و لا أراضيهم، و لا يزاد عليهم.

و كان فتح مصر يوم الجمعة مستهل المحرّم سنة عشرين من الهجرة.

و قال ابن كثير فی تاريخه: قال محمد بن إسحاق: فيها (يعنى سنة عشرين من الهجرة) كان فتح مصر. و كذا قال الواقدىّ: إنها فتحت هی و الإسكندرية فی هذه السنة. و قال أبو معشر: فتحت مصر سنة عشرين و الإسكندرية فی سنة خمس و عشرين. و قال سيف: فتحت مصر و الإسكندرية فی ربيع الأوّل سنة ست عشرة. و رجح ذلک أبو الحسن بن الأثير فی الكامل لقصة بعث عمرو الميرة من مصر عام الرمادة. و هو معذور فيما رجحه. انتهى كلام ابن كثير.

و قال أيضا فی قول آخر: فتحت الإسكندرية فی سنة خمس و عشرين بعد محاصرة ثلاثة أشهر عنوة، و قيل: صلحا على اثنى عشر ألف دينار، و شهد فتحها جماعة كثيرة من الصحابة رضى اللّه عنهم أجمعين.

قال ابن عبد الحكم: و كان من حفظ من الذين شهدوا فتح مصر من أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم من قريش و غيرهم و من لم يكن له برسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم صحبة، و ذكرهم جملة واحدة، فقال: الزبير بن العوّام، و سعد بن أبى وقّاص، و عمرو بن العاص، و كان أمير القوم، و عبد اللّه بن عمرو بن العاص، و خارجة بن حذافة العدوىّ، و عبد اللّه بن عمر بن الخطاب، و قيس بن أبى العاص السهمىّ، و المقداد بن الأسود، و عبد اللّه بن سعد بن أبى سرح العامرىّ، و نافع

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۱

ابن عبد قيس الفهرىّ، و أبو رافع، مولى رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم، و ابن عبدة، و عبد الرحمن و ربيعة ابنا شرحبيل بن حسنة، و وردان، مولى عمرو ابن العاص، و كان حامل لواء عمرو بن العاص، رضى اللّه عنهم. و قد اختلف فی سعد بن أبى وقاص فقيل: إنما دخلها بعد الفتح.

و شهد الفتح من الأنصار عبادة بن الصامت، و قد شهد بدرا و بيعة العقبة، و محمد بن مسلمة الأنصارىّ، و قد شهد بدرا، و هو الذى أرسله عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه الى مصر فقاسم عمرو بن العاص ماله، و هو أحد من كان صعد الحصن مع الزبير بن العوّام، و مسلمة بن مخلّد الأنصارىّ، يقال: له صحبة، و أبو أيوب خالد بن زيد الأنصارىّ، و أبو الدرداء عويمر بن عامر، و قيل: عويمر بن زيد.

و من أحياء القبائل: أبو بصرة حميل بن بصرة الغفارىّ، و أبو ذرّ جندب ابن جنادة الغفارىّ.

و شهد الفتح مع عمرو بن العاص هبيب بن مغفل، و اليه ينسب وادى هبيب الذى بالمغرب، و عبد اللّه بن الحارث بن جزء الزّبيدىّ، و كعب بن ضنّة العبسىّ،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۲

و يقال: كعب بن يسار بن ضنّة، و عقبة بن عامر الجهنىّ، و هو كان رسول عمر ابن الخطاب الى عمرو بن العاص حين كتب اليه [يأمره] أن يرجع إن لم يكن دخل أرض مصر، و أبو زمعة البلوىّ، و برح بن عسكل و يقال: برح بن عسكر، شهد فتح مصر و اختط بها، و جنادة بن أبى أميّة الأزدىّ، و سفيان بن وهب الخولانىّ و له صحبة، و معاوية بن حديج الكندىّ، و هو كان رسول عمرو بن العاص الى عمر بن الخطاب بفتح الإسكندرية، و قد اختلف فيه، فقال قوم: له صحبة، و قال آخرون: ليست له صحبة، و عامر، مولى حمل الذى يقال له: عامر حمل، شهد الفتح و هو مملوک، و عمار بن ياسر، و لكن دخل بعد الفتح فی أيام عثمان، وجهه اليها فی بعض أموره. انتهى كلام ابن عبد الحكم باختصار.

و قال ابن کثیر: فی فتح مصر وجه آخر علی ما أخبرنا به شیخ الإسلام قاضی القضاة جلال الدین عبد الرحمن بن عمر البلقینیّ الشافعیّ مشافهة بإجازته من الحافظ عماد الدین إسماعیل بن کثیر مجموعا من کلام ابن إسحاق و غیره، قالوا:

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۳

لما استکمل المسلمون فتح الشأم، بعث عمر بن الخطاب عمرو بن العاص الی مصر. و زعم سیف: أنه بعثه بعد فتح بیت المقدس، و أردفه بالزبیر بن العوّام و فی صحبته بسر بن أبی أرطاة و خارجة بن حذافة و عمیر بن وهب الجمحیّ، فاجتمعوا علی باب مصر، فلقیهم أبو مریم جاثلیق مصر و معه الأسقف أبو مریام فی أهل البنیات، بعثه المقوقس صاحب الإسکندریة لمنع بلادهم.

فلما تصافّوا قال عمرو بن العاص: لا تعجلوا حتی نعذر الیکم، لیبرز الیّ أبو مریم و أبو مریام راهبا هذه البلاد [فبرزا الیه، فقال لهما عمرو: أنتما راهبا هذه البلاد] فاسمعا: إنّ اللّه بعث محمدا بالحق و أمره به و أمرنا به محمد و أدّی الینا کل الذی أمر به، ثم مضی و ترکنا علی الواضحة، و کان مما أمرنا به الإعذار الی الناس، فنحن ندعوکم الی الإسلام، فمن أجابنا فمثلنا، و من لم یجبنا عرضنا علیه الجزیة و بذلنا له المنعة. و قد أعلمنا أننا مفتتحوکم و أوصینا بکم حفظا لرحمنا منکم، و إنّ لکم إن أجبتمونا بذلک ذمّة الی ذمّة؛ و مما عهد الینا أمیرنا: «استوصوا بالقبطین خیرا» فإنّ رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم أوصانا بالقبطیین خیرا، لأن لهم ذمّة و رحما.

فقالوا: قرابة بعیدة لا یصل مثلها إلا الأنبیاء، معروفة شریفة کانت ابنة ملکنا و کانت من أهل منف و الملک منهم، فأدیل علیهم أهل عین شمس فقتلوهم و سلبوهم ملکهم و أغربوا، فلذلک صارت الی إبراهیم علیه السلام. مرحبا به و أهلا و أمنا حتی نرجع الیک.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۴

فقال عمرو: إنّ مثلی لا یخدع، و لکنی أؤجلکما ثلاثا، لتنظرا و لتناظرا قومکما، و إلا ناجزتکم؛ قالا: زدنا، فزادهم یوما؛ فقالا: زدنا، فزادهم یوما، فرجعا الی المقوقس، فأبی أرطبون أن یجیبهما، و أمر بمناهدتهم، و قال لأهل مصر: أما نحن فنجتهد أن ندفع عنکم، لا نرجع الیهم، و قد بقیت أربعة أیام؛ و أشار علیهم بأن یبیّتوا المسلمین؛ فقال الملأ منهم: ما تقاتلون من قوم قتلوا کسری و قیصر و غلبوهم علی بلادهم! فألحّ الأرطبون فی أن یبیّتوا المسلمین؛ ففعلوا فلم یظفروا بشیء، بل قتل منهم طائفة، منهم الأرطبون. و حاصر المسلمون عین شمس من مصر فی الیوم الرابع، و ارتقی الزبیر علیهم سور البلد.

فلما أحسوا بذلک خرجوا الی عمرو من الباب الآخر فصالحوه؛ و اخترق الزبیر البلد حتی خرج من الباب الذی علیه عمرو. فأمضوا الصلح و کتب لهم عمرو کتاب أمان:

«بسم اللّه الرحمن الرحیم، هذا ما أعطی عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان علی أنفسهم و ملّتهم و أموالهم و کنائسهم و صلبهم و برّهم و بحرهم لا یدخل علیهم شیء من ذلک و لا ینتقض و لا تساکنهم النّوبة. و علی أهل مصر أن یعطوا الجزیة اذا اجتمعوا علی هذا الصلح و انتهت زیادة نهرهم خمسین ألف ألف، و علیهم ما جنی لصوتهم؛ فإن أبی أحد منهم أن یجیب رفع عنهم من الجزیة بقدرهم؛ و ذمّتنا ممن أبی بریئة. و إن نقص نهرهم من غایته اذا انتهی رفع عنهم بقدر ذلک؛ و من دخل فی صلحهم من الروم و النّوبة فله مثل ما لهم و علیه مثل ما علیهم؛ و من أبی [منهم] و اختار الذهاب فهو آمن حتی یبلغ مأمنه أو یخرج من سلطاننا؛ علیهم

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۵

ما علیهم أثلاثا [فی کل ثلث جبایة ثلث ما علیهم] علی ما فی هذا الکتاب، عهد اللّه و ذمّة رسوله و ذمّة الخلیفة أمیر المؤمنین و ذمم المؤمنین، و علی النوبة الذین استجابوا أن یعینوا بکذا و کذا رأسا، و کذا و کذا فرسا، علی ألّا یغزوا و لا یمنعوا من تجارة صادرة و لا واردة». و شهد علیه الزبیر و عبد اللّه و محمد ابناه، و کتب وردان و حضر.

فدخل فی ذلک أهل مصر کلهم و قبلوا الصلح و اجتمعت الخیول بمصر و عمروا الفسطاط. و ظهر أبو مریم و أبو مریام فکلّما عمرا فی السبایا التی أصیبت بعد المعرکة؛ فأبی عمرو أن یردّها علیهما و أمر بطردهما و إخراجهما من بین یدیه.

فلما بلغ ذلک أمیر المؤمنین عمر بن الخطاب رضی اللّه عنه، أمر أن کل سبی أخذ فی الخمسة الأیام التی آمنهم فیها أن یردّ علیهم، و

كل شيء أخذ ممن لم يقاتل فكذلك، و من قاتل فلا تردّ عليه سباياه.

و قد قال الإمام أحمد: حدّثنا عتّاب حدّثنا عبد اللّه أخبرنى عبد اللّه بن عقبة- و هو عبد اللّه بن لهيعة بن عقبة- حدّثنى يزيد بن أبى حبيب عمّن سمع عبد اللّه ابن المغيرة بن أبى بردة يقول: سمعت سفيان بن وهب الخولانى يقول: لما افتتحنا مصر بغير عهد قام الزبير بن العوّام فقال: يا عمرو بن العاص، اقسمها، فقال عمرو:

لا أقسمها؛ فقال الزبير: و اللّه لتقسمنّها كما قسم رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم خيبر، فقال عمرو: و اللّه لا أقسمها حتى أكتب الى أمير المؤمنين، و كتب الى عمر؛ فكتب إليه عمر: أقرّها حتى يغزو منها حبل الحبلة. تفرّد به أحمد، و فى إسناده

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱، ص: ۲۶

ضعف من جهة ابن لهيعة لكنه عليم بأمور مصر و من جهة المبهم الذى لم يسم، فلو صحّ لدل على فتحها عنوة و لدلّ على أن الإمام يخيّر فى الأراضى العنوة، إن شاء قسمها، و إن شاء أبقاها.

قلت: قد رواه الطحاوىّ بسند صحيح.

و ذكر سيف: أن عمرو بن العاص لما التقى مع المقوقس جعل كثير من المسلمين يفرّ من الزحف، فجعل عمرو يذمّرهم و يحثّهم على الثبات؛ فقال له رجل من أهل اليمن: إنّا لم نخلق من حجارة و لا حديد! فقال له عمرو: أسكت، فإنما أنت كلب؛ فقال له الرجل: فأنت إذا أمير الكلاب! فأعرض عنه عمرو، و نادى بطلب أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم؛ فلما اجتمع اليه من هناك من الصحابة، قال لهم عمرو: تقدّموا فبكم ينصر اللّه المسلمين؛ فهدوا الى القوم ففتح اللّه عليهم و ظفروا أتمّ الظفر. انتهى كلام ابن كثير و غيره.

و قد سقنا ما ذكره ابن كثير هنا لزيادة فيما ذكره، و لكونه حافظا محدّثا، فيصير بذلک ما ذكرناه من فتح مصر من طرق عديدة لتكثر فى هذا الكتاب الفائدة إن شاء اللّه تعالى.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱، ص: ۲۷

ذكر ما ورد فى فضل مصر من الآيات الشريفة و الأحاديث النبوية

قال الكندىّ و غيره من المؤرّخين: فمن فضائل مصر أن اللّه عز و جل ذكرها فى كتابه العزيز فى أربعة و عشرين موضعا، منها ما هو بصريح اللفظ، و منها ما دلت عليه القرائن و التفاسير.

فأما صريح اللفظ فمنه قوله تعالى: اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ ما سَأَلْتُمْ، و قوله تعالى يخبر عن فرعون: أَ لَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَ هذِهِ الْأَنْهارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي، و قوله تعالى: وَ أَوْحَيْنا إِلى مُوسى وَ أَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءا لِقَوْمِكُما بِمِصْرَ بُيُوتاً وَ اجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً و منه قوله عز و جل مخبرا عن نبيه يوسف عليه السلام: ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ.

و أما ما دلت عليه القرائن فمنه قوله عز و جل: وَ لَقَدْ بَوَّأْنا بَنِي إِسْرائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ. و قوله عز و جل: وَ آوَيْناهُما إِلى رَبْوَةٍ ذاتِ قَرارٍ وَ مَعِينٍ. قال ابن عباس و سعيد بن المسيّب و وهب بن منبّه و غيرهم: هى مصر. و قوله تعالى:

فَأَخْرَجْناهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ وَ كُنُوزٍ وَ مَقامٍ كَرِيمٍ و قوله تعالى: وَ أَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشارِقَ الْأَرْضِ وَ مَغارِبَهَا الَّتِي بارَكْنا فِيها. يعنى مصر.

و قوله تعالى: كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ وَ زُرُوعٍ وَ مَقامٍ كَرِيمٍ وَ نَعْمَةٍ كانُوا فِيها فاكِهِينَ كَذلِكَ وَ أَوْرَثْناها قَوْماً آخَرِينَ. يعنى قوم فرعون، و أن بنى إسرائيل

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱، ص: ۲۸

أورثوا مصر. و قوله تعالى: وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ وَ نُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَ نُرِيَ فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ جُنُودَهُما مِنْهُمْ ما كانُوا يَحْذَرُونَ. و قوله عز و جل مخبرا عن نبيه موسى عليه السلام:

یا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِی کَتَبَ اللَّهُ لَکُمْ وَ لا تَرْتَدُّوا عَلی أَدْبارِکُمْ فَتَنْقَلِبُوا خاسِرِینَ و قوله عز و جل مخبرا عن فرعون: یا قَوْمِ لَکُمُ الْمُلْکُ الْیَوْمَ ظاهِرِینَ فِی الْأَرْضِ. و قوله عز و جل: وَ تَمَّتْ کَلِمَتُ رَبِّکَ الْحُسْنی عَلی بَنِی إِسْرائِیلَ بِما صَبَرُوا وَ دَمَّرْنا ما کانَ یَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَ قَوْمُهُ وَ ما کانُوا یَعْرِشُونَ. و قوله تعالی مخبرا عن فرعون: أَ تَذَرُ مُوسی وَ قَوْمَهُ لِیُفْسِدُوا فِی الْأَرْضِ وَ یَذَرَکَ وَ آلِهَتَکَ، یعنی أرض مصر. و قوله تعالی مخبرا عن نبیه یوسف علیه السلام: اجْعَلْنِی عَلی خَزائِنِ الْأَرْضِ إِنِّی حَفِیظٌ عَلِیمٌ، و قوله تعالی: وَ کَذلِکَ مَکَّنَّا لِیُوسُفَ فِی الْأَرْضِ یَتَبَوَّأُ مِنْها حَیْثُ یَشاءُ نُصِیبُ بِرَحْمَتِنا مَنْ نَشاءُ و قوله تعالی مخبرا عن بنی إسرائیل:

رَبَّنا إِنَّکَ آتَیْتَ فِرْعَوْنَ وَ مَلَأَهُ زِینَةً وَ أَمْوالًا فِی الْحَیاةِ الدُّنْیا و قوله تعالی مخبرا عن نبیه موسی علیه السلام: عَسی رَبُّکُمْ أَنْ یُهْلِکَ عَدُوَّکُمْ وَ یَسْتَخْلِفَکُمْ فِی الْأَرْضِ و قوله تعالی: أَوْ أَنْ یُظْهِرَ فِی الْأَرْضِ الْفَسادَ. یعنی أرض مصر. و قوله تعالی:

وَ جاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَی الْمَدِینَةِ یَسْعی. و قوله عز و جل: إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِی الْأَرْضِ وَ جَعَلَ أَهْلَها شِیَعاً. و قوله تعالی مخبرا عن ابن یعقوب علیه السلام:

فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ. یعنی مصر. و قوله تعالی: إِنْ تُرِیدُ إِلَّا أَنْ تَکُونَ جَبَّاراً فِی الْأَرْضِ.

و أما ما ورد فی حقها من الأحادیث النبویة فقد روی عن رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم أنه قال: «ستفتح علیکم بعدی مصر فاستوصوا بقبطها خیرا فإنّ لهم ذمّة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۹

و رحما» قال ابن کثیر رحمه اللّه: و المراد بالرحم أنهم أخوال إسماعیل بن إبراهیم الخلیل، علیهما السلام، أمّه هاجر القبطیة، و هو الذبیح علی الصحیح، و هو والد عرب الحجاز الذین منهم النّبیّ صلی اللّه علیه و سلم، و أخوال إبراهیم بن رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم، و أمه ماریة القبطیة من سنی کورة أنصنا، و قد وضع عنهم معاویة الجزیة إکراما لإبراهیم بن رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم. انتهی کلام ابن کثیر.

و عنه صلی اللّه علیه و سلم أنه قال: «اذا فتح اللّه علیکم مصر فاتّخذوا فیها جندا کثیفا فذلک الجند خیر أجناد الأرض» فقال له أبو بکر رضی اللّه عنه: و لم [ذلک] یا رسول اللّه؟ فقال: «لأنهم و أزواجهم فی رباط الی یوم القیامة» و عنه صلی اللّه علیه و سلم، و ذکر مصر: «ما کادهم أحد إلا کفاهم اللّه مئونته».

و قال عبد اللّه بن عمرو بن العاص رضی اللّه عنهما: أهل مصر أکرم الأعاجم کلّها، و أسمحهم یدا، و أفضلهم عنصرا، و أقربهم رحما بالعرب عامّة، و بقریش خاصّة.

و قال أیضا: لما خلق اللّه آدم، مثّل له الدنیا: شرقها و غربها و سهلها و جبلها و أنهارها و بحارها و عامرها و خرابها، و من یسکنها من الأمم، و من یملکها من الملوک؛

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۳۰

فلما رأی مصر، رآها أرضا سهلة ذات نهر جار، مادّته من الجنة تنحدر فیه البرکة، و رأی جبلا من جبالها مکسوّا نورا لا یخلو من نظر الرب عز و جل الیه بالرحمة، فی سفحه أشجار مثمرة، فروعها فی الجنة تسقی بماء الرحمة، فدعا آدم فی النیل بالبرکة، و دعا فی أرض مصر بالرحمة و البرّ و التقوی، و بارک علی نیلها و جبلها سبع مرات؛ قال: «یا أیها الجبل المرحوم، سفحک جنة، و تربتک مسکة، تدفن فیها عرائس الجنة، أرض حافظة مطبقة رحیمة، لا خلتک یا مصر برکة، و لا زال بک حفظة، و لا زال منک ملک و عزّ، یا أرض مصر، فیک الخبایا و الکنوز، و لک البرّ و الثروة، سال نهرک عسلا، کثّر اللّه رزقک، و درّ ضرعک، وزکا نباتک، و عظمت برکتک و خصبت، و لا زال فیک یا مصر خیر ما لم تتجبّری و تتکبّری أو تخونی؛ فإذا فعلت ذلک، عداک شرّ ثم یغور خیرک».

فکان علیه السلام أوّل من دعا لها بالرحمة و الخصب و الرأفة و البرکة.

و قال عبد اللّه بن عباس: دعا نوح علیه السلام لابنه بیصر بن حام- و هو أبو مصر الذی سمّیت مصر علی اسمه- فقال: اللهم إنه قد

أجاب دعوتی، فبارک فیه و فی ذرّیته، و أسکنه الأرض الطیّبة المبارکة التی هی أمّ البلاد.

و قال عبد اللّه بن عمرو بن العاص رضی اللّه عنهما: لما قسّم نوح علیه السلام الأرض بین ولده، جعل لحام مصر و سواحلها و الغرب و شاطئ النیل، فلما قدم بیصر ابن حام و بلغ العریش، قال: «اللهم إن کانت هذه الأرض التی وعدتنا علی لسان نبیک نوح و جعلتها لنا منزلا، فاصرف عنا و باها، و طیّب لنا ثراها، و اجمع ماها، و أنبت کلاها، و بارک لنا فیها، و تمم لنا وعدک؛ إنک علی کل شیء قدیر، و إنک

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۳۱

لا تخلف المیعاد» و جعلها بیصر لابنه مصر و سماها به. یأتی ذکر ذلک عند ذکر من ملک مصر قبل الإسلام فی هذا المحل إن شاء اللّه تعالی.

و القبط ولد مصر بن بیصر بن حام بن نوح علیه السلام.

و قال کعب الأحبار: لو لا رغبتی فی بیت المقدس لما سکنت إلا مصر؛ فقیل له: و لم؟ قال: لأنها معافاة من الفتن، و من أراد بها سوءا کبه اللّه علی وجهه، و هو بلد مبارک لأهله فیه.

و روی ابن یونس عنه قال: من أراد أن ینظر الی شبه الجنة فلینظر الی مصر اذا زخرفت؛ و فی روایة: اذا أزهرت.

و روی ابن یونس بإسناده الی أبی بصرة الغفاریّ قال: سلطان مصر سلطان الأرض کلّها.

قلت: و لهذا الخبر الصحیح جعلنا فی آخر تراجم ملوک مصر حوادث سائر الأقطار کلها.

و قال: فی التوراة مکتوب: مصر خزائن الأرض کلها، فمن أراد بها سوءا قصمه اللّه.

و قال عمرو بن العاص رضی اللّه عنه: ولایة مصر جامعة تعدل الخلافة.

و عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص رضی اللّه عنه قال: خلقت الدنیا علی خمس صور: علی صورة الطیر برأسه و صدره و جناحیه و ذنبه؛ فالرأس مکة و المدینة و الیمن،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۳۲

و الصدر الشأم و مصر، بالجناح الأیمن العراق، و خلف العراق أمة یقال لها: واق واق و خلف ذلک من الأمم ما لا یعلمه إلا اللّه، و الجناح الأیسر السند و الهند، و خلف الهند أمة یقال لها: باسک، و خلف باسک أمة یقال لها: منسک، و خلف ذلک من الأمم ما لا یعلمه إلا اللّه، و الذّنب من ذات الحمام الی مغرب الشمس؛ و شرّ ما فی الطیر الذنب.

و قال ابن عبد الحکم حدّثنا أشهب بن عبد العزیز و عبد الملک بن مسلمة قالا حدّثنا مالک عن ابن شهاب عن کعب بن مالک: أن رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم قال:

«اذا افتتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خیرا فإنّ لهم ذمّة و رحما» ثم ساق ابن عبد الحکم عدّة أحادیث أخر بأسانید مختلفة فی حق مصر و نیلها فی هذا المعنی.

و قال أبو حازم عبد الحمید بن عبد العزیز قاضی العراق: سألت أحمد بن المدبّر عن مصر، فقال: کشفتها فوجدت غامرها أضعاف عامرها، و لو عمرها السلطان لوفت له بخراج الدنیا.

و قال بعض المؤرّخین: إنه لّما استقرّ عمرو بن العاص رضی اللّه عنه علی ولایة مصر کتب الیه عمر بن الخطاب رضی اللّه عنه: أن صف لی مصر؛ فکتب الیه:

ورد کتاب أمیر المؤمنین أطال اللّه بقاءه یسألنی عن مصر: اعلم یا أمیر المؤمنین أنّ مصر قریة غبراء، و شجرة خضراء؛ طولها شهر، و عرضها عشر؛ یکنفها جبل أغبر، و رمل أعفر؛ یخطّ وسطها نیل مبارک الغدوات، میمون الرّوحات؛ تجری فیه الزیادة و النقصان کجری الشمس و القمر؛ له أوان یدرّ حلابه، و یکثر فیه دبابه، تمدّه عیون الأرض و ینابیعها حتی اذا ما اصلخمّ عجاجه، و تعظّمت

أمواجه، فاض

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۳۳

على جانبيه فلم يمكن التخلّص من القرى بعضها الى بعض إلا ـ فی صغار المراكب، و خفاف القوارب، و زوارق كأنهنّ فی المخايل ورق الأصائل؛ فاذا تكامل فی زيادته، نكص على عقبيه كأوّل ما بدأ فی جريته، و طما فی درّته؛ فعند ذلك تخرج أهل ملة محقورة، و ذمة مخفورة، يحرثون بطون الأرض و يبذرون بها الحبّ، يرجون بذلك النّماء من الربّ؛ لغيرهم ما سعوا من كدّهم، فناله منهم بغير جدّهم؛ فاذا أحدق الزرع و أشرق، سقاه الندى و غذّاه من تحته الثرى؛ فبينما مصر يا أمير المؤمنين لؤلؤة بيضاء، اذا هی عنبرة سوداء، فاذا هی زمرّدة خضراء، فإذا هی ديباجة رقشاء، فتبارک اللّه الخالق لما يشاء. الذی يصلح هذه البلاد و ينمّيها و يقرّ قاطنيها فيها، ألّا يقبل قول خسيسها فی رئيسها، و ألّا يستأدى خراج ثمرة إلّا فی أوانها، و أن يصرف ثلث ارتفاعها، فی عمل جسورها و ترعها؛ فإذا تقرّر الحال مع العمّال فی هذه الأحوال، تضاعف ارتفاع المال؛ و اللّه تعالى يوفق فی المبدأ و المآل.

فلما ورد الكتاب على عمر بن الخطاب رضی اللّه عنه قال: للّه درّک يا بن العاص! لقد وصفت لی خبرا كأنی أشاهده.

و قال المسعودیّ فی تاريخه: قال النّبیّ صلى اللّه عليه و سلم: «استوصوا بأهل مصر خيرا فإنّ لهم نسبا و صهرا» أراد بالنسب: هاجر زوجة إبراهيم الخليل عليه السلام و أم ولده اسماعيل. و أراد بالصهر: مارية القبطية أم ولد النّبیّ صلى اللّه عليه و سلم التی أهداها له المقوقس ا ه.

ذكر ما ورد فی نيل مصر

روى يزيد بن أبی حبيب: أن معاوية بن أبی سفيان رضی اللّه عنه سأل كعب الأحبار: هل تجد لهذا النيل فی كتاب اللّه خبرا؟ قال: إی و الذی فلق البحر لموسى

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۳۴

عليه السلام! إنی لأجد فی كتاب اللّه عز و جل أنّ اللّه يوحی اليه فی كل عام مرّتين:

يوحی اليه عند جريه: إن اللّه يأمرک أن تجری، فيجری ما كتب اللّه؛ ثم يوحی اليه بعد ذلک: يا نيل عد حميدا.

و روى ابن يونس من طريق حفص بن عاصم عن أبی هريرة: أنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم قال: «النيل و سيحان و جيحان و الفرات من أنهار الجنة».

و عن يزيد بن أبی حبيب عن أبی الخير عن كعب الأحبار أنه كان يقول: أربعة أنهار من الجنة وضعها اللّه عز و جل فی الدنيا، فالنيل نهر العسل فی الجنة، و الفرات نهر الخمر فی الجنة، و سيحان نهر الماء فی الجنة، و جيحان نهر اللبن فی الجنة.

و قد روى عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص أنه قال: نيل مصر سيد الأنهار، و سخّر اللّه له كل نهر من المشرق الى المغرب، فاذا أراد اللّه تعالى أن يجری نيل مصر أمر اللّه كل نهر أن يمدّه فأمدّته الأنهار بمائها، و فجّر اللّه له الأرض عيونا، فاذا انتهت جريته الى ما أراد اللّه عز و جل أوحى اللّه الى كل ماء أن يرجع الى عنصره. و قد ورد أن مصر كنانة اللّه فی أرضه.

و عن أبی جنادة الضبیّ: أنه سمع عليا يقول: النيل فی الآخرة عسل أغزر ما يكون من الأنهار التی سمى اللّه عز و جل؛ و دجلة (يعنی جيحان) فی الآخرة لبن أغزر ما يكون من الأنهار التی سمى اللّه عزّ و جل؛ و الفرات خمر أغزر ما يكون من الأنهار التی سمى اللّه عزّ و جل؛ و سيحان ماء أغزر ما يكون من الأنهار التی سمّى اللّه عزّ و جل.

و قال بعض الحكماء: مصر ثلاثة أشهر لؤلؤة بيضاء، فانّ فی شهر أبيب (و هو تموز) و مسرى (و هو آب) و توت (و هو أيلول) يركبها الماء فيها فترى الدنيا بيضاء

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۳۵

و ضیاعها علی رواب و تلال مثل الکواکب، و قد أحاطت بها المیاه من کل وجه؛ و ثلاثة أشهر مسکة سوداء، فانّ فی شهر بابه (و هو تشرین الأوّل) و هاتور (و هو تشرین الثانی) و کیهک (و هو کانون الأوّل) ینکشف الماء عنها فتصیر أرضها سوداء و فیها تقع الزراعات؛ و ثلاثة أشهر زمردة خضراء، فانّ فی شهر طوبة (و هو کانون الثانی) و أمشیر (و هو شباط) و برمهات (و هو آذار) تلمع و یکثر حشیشها و نباتها، فتصیر مصر خضراء کالزمردة؛ و ثلاثة أشهر سبیکة حمراء و هو وقت إدراک الزرع و هو شهر برمودة (و هو نیسان) و بشنس (و هو أیار) و بؤونة (و هو حزیران)، ففی هذه الشهور تبیض الزروع و یتورّد العشب فهو مثل السبیکة الذهب.

و قیل: إنه لما ولی عمرو بن العاص رضی اللّه عنه مصر أتاه أهلها حین دخل بؤونة من أشهر القبط المذکورة فقالوا له: أیها الأمیر، إنّ لنیلنا عادة أو سنّة لا یجری إلا بها؛ فقال لهم: و ما ذاک؟ قالوا: إنه اذا کان فی اثنتی عشرة لیلة تخلو من هذا الشهر (یعنی بؤونة) عمدنا الی جاریة بکر من عند أبویها و أرضینا أبویها و أخذناها و جعلنا علیها من الحلیّ و الثیاب أفضل ما یکون، ثم ألقیناها فی هذا النیل فیجری؛ فقال لهم عمرو ابن العاص: إن هذا لا یکون فی الإسلام، و إن الإسلام یهدم ما کان قبله. فأقاموا بؤونة و أبیب و مسری لا یجری النیل قلیلا و لا کثیرا حتی همّوا بالجلاء؛ فلما رأی ذلک عمرو کتب إلی أمیر المؤمنین عمر بن الخطاب رضی اللّه عنه، فکتب الیه عمر بن الخطّاب: قد أصبت، إن الإسلام یهدم ما قبله، و قد أرسلنا الیک ببطاقة ترمیها فی داخل النیل اذا أتاک کتابی.

فلما قدم الکتاب علی عمرو بن العاص رضی اللّه عنه فتح البطاقة فاذا فیها:

«من عبد اللّه عمر أمیر المؤمنین الی نیل مصر.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۳۶

أمّا بعد، فإن کنت تجری من قبلک فلا تجر، و إن کان اللّه الواحد القهار الذی یجریک، فنسأل اللّه الواحد القهار أن یجریک».

فعرّفهم عمرو بکتاب أمیر المؤمنین و بالبطاقة؛ ثم ألقی عمرو البطاقة فی النیل قبل یوم عید الصلیب بیوم، و قد تهیأ أهل مصر للجلاء و الخروج منها لأنه لا یقیم بمصالحهم فیها إلا النیل، فأصبحوا یوم عید الصلیب و قد أجراه اللّه ستة عشر ذراعا فی لیلة واحدة، و قطع تلک السنّة القبیحة عن أهل مصر ببرکة سیدنا عمر بن الخطاب رضی اللّه عنه.

و نظیر ذلک أمر قرافة مصر و دفن المسلمین بها. فقد روینا بإسناد عن ابن عبد الحکم حدّثنا عبد اللّه بن صالح حدّثنا اللیث بن سعد: سأل المقوقس عمرو ابن العاص أن یبیعه سفح المقطّم بسبعین ألف دینار، فعجب عمرو من ذلک و قال: اکتب فی ذلک الی أمیر المؤمنین، فکتب بذلک الی عمر، فکتب الیه عمر: سله لم أعطاک به ما أعطاک، و هی لا تزرع و لا یستنبط بها ماء و لا ینتفع بها! فسأله، فقال: إنّا لنجد صفتها فی الکتب أنّ فیها غراس الجنة؛ فکتب بذلک الی عمر، فکتب الیه عمر: إنّا لا نعلم غراس الجنة إلّا للمؤمنین، فاقبر فیها من مات قبلک من المسلمین و لا تبعه بشیء. فکان أوّل من قبر فیها رجل من المعافر یقال له: عامر [فقیل عمرت].

قلت: و القرافة سمیت بطائفة من المعافر یقال لهم القرافة، نزلوا هناک.

*** و قال بعض علماء الهیئة: إن مصر واقعة من المعمورة فی قسم الإقلیم الثانی و الإقلیم الثالث، و معظمها فی الثالث.

و قال أبو الصلت: هی مسافة أربعین یوما طولا فی ثلاثین یوما عرضا.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۳۷

و قال غیره: هی مسافة شهر طولا فی شهر عرضا. و طولها من الشجرتین اللتین ما بین رفح و العریش الی مدینة أسوان من صعید مصر الأعلی؛ و عرضها من أیلة الی برقة، و یکتنفها جبلان متقاربان من مدینة أسوان المذکورة الی أن ینتهیا الی الفسطاط (یعنی الی مصر)، ثم یتّسع بعد ذلک ما بینهما و ینفرج قلیلا، و یأخذ الجبل المقطّم منهما مشرّقا و الآخر مغرّبا علی وراب متّسع من مصر الی ساحل البحر الرومی، و هناک تنقطع فی عرضها الذی هو مسافة ما بین أوغلها فی الجنوب و أوغلها فی الشمال.

و قال بعض الحکماء: لیس فی الدنیا نهر یصبّ فی بحر الروم و الصین و الهند غیر النیل. و لیس فی الدنیا نهر یصبّ من الجنوب الی

الشمال غير النيل. و ليس فى الدنيا نهر يزيد فى أشدّ ما يكون من الحرّ غير النيل. و ليس فى الدنيا نهر يزيد و ينقص على ترتيب فيهما غير النيل. و ليس فى الدنيا نهر يزيد اذا نقص مياه الدنيا غير النيل.

و بهذا النيل أشياء لم تكن فى غيره من الأنهار، من ذلك: السمكة الرّعّادة التى اذا وضع الشخص يده عليها اضطرب جسمه جميعه حتى يرفع يده عنها، و منها التّمساح و لم يكن فى غيره من المياه؛ و فى مصر أعاجيب كثيرة.

و قال الكندىّ فى حقّ مصر و أعمالها: جبلها مقدّس، و نيلها مبارك، و بها الطور حيث كلّم اللّه تعالى نبيّه موسى، و بها الوادى المقدّس، و بها ألقى موسى عصاه و بها فلق اللّه البحر لموسى، و بها ولد موسى و هارون عليهما السلام و يوشع بن نون و دانيال و أرميا و لقمان و عيسى بن مريم، ولدته أمه بأهناس، و بها النخلة التى ذكرها اللّه تعالى لمريم؛ و لما سار عيسى الى الشأم و أخذ على سفح المقطم ماشيا، عليه جبّة صوف مربوط الوسط بشريط و أمّه تمشى خلفه، فالتفت اليها و قال: يا أمّاه،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۳۸

هذه مقبرة أمّة محمد؛ و كان بمصر إبراهيم الخليل و إسماعيل و يعقوب و يوسف و اثنا عشر سبطا.

و من فضائلها: أنها فرضة الدنيا يحمل من خيرها الى سواحلها؛ و بها ملك يوسف عليه السلام؛ و بها مساجد إبراهيم و يعقوب و موسى و يوسف عليهم السلام؛ و بها البرابى العجيبة و الهرمان، و ليس على وجه الأرض بناء باليد حجرا على حجر أطول منهما.

و قال أبو الصّلت: طول كل عمود منهما ثلثمائة و سبعة عشر ذراعا، و لكل أربعة أسطحة ملسات متساويات الأضلاع، طول كل ضلع أربعمائة و سبعون ذراعا؛ و اختلف فيمن بناهما، فقيل: شدّاد بن عاد، و قيل: سويرد، و قيل: سويد، بناهما فى ستة أشهر و غشّاهما بالديباج الملوّن، و أودعهما الأموال و الذخائر و العلوم خوفا من طوفان يأتى.

و قال الأستاذ ابراهيم بن وصيف شاه الكاتب: بناهما سويرد بن سلهوق بن سرياق بن ترميل دون بن قدرشان بن هو صال، أحد ملوك مصر قبل الطوفان الذين كانوا يسكنون مدينة الأشمونين. و القبط تنكر أن تكون العادية دخلت بلادهم لقوّة سحرهم. و هذا يؤيد قول من قال بعدم بناء شدّاد بن عاد لهما. قال: و سبب بناء الهرمين العظيمين اللذين بمصر أنه كان قبل الطوفان بثلاثمائة سنة قد رأى سو يرد فى منامه كأنّ الأرض قد انقلبت بأهلها، و كأنّ الناس قد هربوا على وجوههم، و كأنّ الكواكب تتساقط و يصدم بعضها بعضا بأصوات هائلة، فأغمه ذلك و لم يذكره

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۳۹

لأحد، و علم أنه سيحدث فى العالم أمر عظيم؛ ثم رأى بعد مدّة مناما آخر أزعجه أكثر من الأوّل، فدخل الى هيكل الشمس و تضرّع و مرّغ وجهه على التراب و بكى، فلما أصبح جمع رؤساء الكهنة من جميع أهل مصر، و كانوا مائة و ثلاثين كاهنا، فخلا بهم و ذكر لهم ما رآه أوّلا و آخرا، فأوّلوه بأمر عظيم يحدث فى العالم؛ ثم حكى بعض الكهنة أيضا: أنه رأى مناما أعظم من هذا المنام فى معناه، ثم أخذوا الارتفاع و أخبروه بالطوفان و بعده بالنار التى تخرج من برج الأسد؛ فقال: انظروا، هل تلحق هذه الآفة بلادنا؟ فقالوا: نعم، فأمر ببناء الأهرام و جعل فى داخله الطّلّسمات و الأموال و أجساد ملوكهم، و أمر الكهنة أنّ يزبروا عليها جميع ما قالته الحكماء، فزبروا فيها و فى سقوفها و حيطانها جميع العلوم الماضية، و صوّروا فيها صور الكواكب و عليها الطّلّسمات، و جعل طول كل هرم مائة ذراع، بالذراع الملكى (و هو خمسمائة ذراع بذراعنا الآن). و لما فرغت كساها الديباج الملوّن و عمل لهم عيدا حضره أهل ملتهم؛ ثم عمل فى الهرم الغربىّ حجارة صوّان ملوّنة ملئت بالأموال الجمّة، و الآلات و التماثيل المعمولة من الجواهر النفيسة، و آلات الحديد الفاخرة، و السلاح الذى لا يصدأ، و الزجاج الذى ينطوى و لا ينكسر، و أصناف العقاقير و السموم القاتلة؛ ثم عمل فى الهرم الشرقىّ أصناف القباب الفلكيّة و الكواكب، و ما عمله أجداده من أشياء يطول شرحها ا ه.

[و يقال: إنّ هرمس المثلث بالحكمة و هو الذى تسمّيه العبرانيون خنوخ و هو ادريس عليه السلام استدلّ من أحوال الكواكب على كون الطوفان، فأمر ببناء الأهرام و إيداعها الأموال و صحائف العلوم، و ما يخاف عليه الذهاب و الدّثور؛ و كل

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۴۰

هرم منها ارتفاعه ثلثمائة ذراع و سبعة عشر ذراعا، یحیط به أربعة سطوح متساویات الأضلاع، کل ضلع منها أربعمائة ذراع و ستون ذراعا، و یرتفع الی أن یکون سطحه مقدار ستة أذرع فی مثلها. و یقال: إنه کان علیه حجر شبه المکبّة فرمته الریاح العواصف، و طول الحجر منها خمسة أذرع فی سمک ذراعین. و یقال: إن لهما أبوابا مقبیّة فی الأرض، و کل باب من حجر واحد یدور بلولب اذا أطبق لم یعلم أنه باب، یدخل من کل باب منها الی سبعة بیوت، کل بیت علی اسم کوکب من الکواکب السبعة، و کلها مقفلة بأقفال حدید؛ و حذاء کل بیت منها صنم من ذهب مجوّف إحدی یدیه علی فیه، و فی جبهته کتابة بالمسند اذا قرئت انفتح فوه، فیوجد فیه مفاتیح ذلک القفل فیفتح بها. و القبط یزعمون أنهما و الهرم الصغیر قبور ملوکهم و أکابرهم.

و لما ولی المأمون الخلافة و ورد مصر أمر بفتح واحد منها ففتح بعد طویل، و اتفق لسعادته أنه وقع النّقب علی مکان یسلک منه الی الغرض المطلوب و هو زلّاقة ضیّقة من الحجر الصوّان المانع الذی لا- یعمل فیه الحدید بین حاجزین ملتصقین بالحائط، قد نقر فی الزلّاقة حفر یتمسّک السالک بتلک الحفر و یستعین بها علی المشی فی الزلّاقة لئلا یزلق، و أسفل الزلّاقة بئر عظیمة بعیدة القعر؛ و یقال: إن أسفل البئر أبواب یدخل منها الی مواضع کثیرة و بیوت و مخادع و عجائب، و انتهت بهم الزلّاقة الی موضع مربع فی وسطه حوض من حجر مغطّی، فلما کشف عنه غطاؤه لم یوجد فیه إلا رمّة بالیة، فأمر المأمون بالکفّ عما سواه. و هذا الموضع یدخله الناس الی وقتنا هذا. و یقال: إن المأمون أنفق علی النقب جملة اختلف المؤرّخون فی کمّیتها.

فلما انتهی به النقب الی الموضع المربع المذکور وجد فیه جاما من زمرّد مغطّی، فکشف فوجد فیه ذلک المقدار الذی أنفقه من غیر زیادة علی ذلک- و استمر ذلک

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۴۱

الجام فی ذخائر الخلفاء الی وقعة هولاکو ببغداد- فقال: الحمد للّه الذی ردّ علینا ما أنفقناه].

و قیل: إن الأمیر أحمد بن طولون سأل بعض علماء الأقباط المعمّرین ممن رأی الرابع عشر من ولد ولده عن الأهرام؛ فقال: إنها قبور الملوک، کان الملک منهم اذا مات وضع فی حوض حجارة یسمّی الجرون، ثم یبنی علیه الهرم، ثم یقنطر علیه البنیان و القباب، ثم یرفعون البناء علی هذا المقدار الذی ترونه و یجعل باب الهرم تحت الهرم، ثم یجعل له طریق فی الأرض بعقد أزجّ، فیکون طول الأزج تحت الأرض مائة ذراع أو أکثر، و لکل هرم من هذه الأهرام باب مدخله علی ما وصفت؛ فقیل له: کیف بنیت هذه الأهرام المملّسة، و علی أیّ شیء کانوا یصعدون و یبنون، و علی أیّ شیء کانوا یضعون الآلات و یحملون الحجارة العظیمة التی لا یقدر أهل زماننا هذا علی أن یحرّکوا الحجر الواحد إلا بجهد؟ فقال: کان القوم یبنون الهرم مدرّجا فإذا فرغوا منه نحتوه من فوق إلی أسفل، قلت: و هذا أصعب من الأوّل، قال:

فکانت هذه حیلتهم، و کانوا مع هذا لهم قدرة و صبر و طاعة لملوکهم دیانة؛ فقیل له:

ما بال هذه الکتابة التی علی الأهرام و البرابی لا تقرأ؟ قال: ذهب الحکماء الذین کان هذا قلمهم، و تداول أرض مصر الأمم، فغلب علی أهلها القلم الرومیّ کأشکال أحرف القبط و الروم؛ فالقبط تقرؤه علی حسب تعارفها إیاه و خلطها لأحرف الروم بأحرفها علی حسب ما ولّدوا من الکتابة بین الرومیّ و القبطیّ الأوّل، فذهب عنهم کتابة آبائهم السالفة و صاروا لا یعرفونها، و هی هذه الکتابة التی علی الأهرام و غیرها. انتهی أمر الهرم.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۴۲

[و قد نظم عمارة الیمنیّ فیهما فقال:

خلیلیّ ما تحت السماء بنیّة تماثل فی إتقانها هرمی مصر

بناء یخاف الدهر منه و کلّ ما علی ظاهر الدنیا یخاف من الدهر

تنزّه طرفی فی بدیع بنائها و لم یتنزّه فی المراد بها فکری

و قال سعد الدین بن جبارة فی المعنی:

للّه أیّ غریبة و عجیبة فی صنعة الأهرام للألباب

أخفت عن الأسماع قصّة أهلها و نضت عن الإبداع کلّ نقاب

فکأنّما هی کالخیام مقامة من غیر ما عمد و لا أطناب

و بالقرب من الأهرام صنم علی صورة إنسان تسمیه العامة «أبا الهول» لعظمه، و القبط یزعمون أنه طلّسم للرمل الذی هناک لئلا یغلب علی أرض الجیزة].

و أما السحرة الذین کانوا بمصر فی زمان فرعون فکانوا، کما ذکر یزید بن أبی حبیب، اثنی عشر ساحرا رؤساء، و تحت ید کل ساحر منهم عشرون عریفا، تحت ید کل عریف منهم ألف من السحرة؛ فکان جمیع السحرة مائتی ألف و أربعین ألفا و مائتین و اثنین و خمسین إنسانا بالرؤساء و العرفاء.

و عن محمد بن المنکدر: کان السحرة ثمانین ألفا، فلما عاینوا ما عاینوا أیقنوا أنّ ذلک من السماء و أنّ السحر لا یقوم أمر اللّه، فخرّ الرؤساء الاثنا عشر عند ذلک سجّدا، فاتّبعهم العرفاء و اتّبع العرفاء من بقی؛ قالوا: آمنا بربّ العالمین ربّ موسی و هارون، و کانوا من أصحاب موسی و لم یفتتن أحد منهم مع من افتتن من بنی إسرائیل فی عبادة العجل.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۴۳

و أما ما بمصر من الأعاجیب و المبانی- فبها عمود مدینة عین شمس الذی تسمّیه العامّة «مسلة فرعون». و بها «صدع أبی قیر»، و هو موضع فی الجبل یجتمع الیه فی یوم مخصوص فی السنة جمیع جنس الطیر، و بالجبل طاقة یدخل فیها کل طیر یأتی الیه ثم یخرج من وقته حتی ینتهی الی آخر الطیر فتقبض علیه و یموت فیها.

و بها «مجمع البحرین» و هو البرزخ، و هما بحر الروم و الصین، و الحاجز بینهما مسیرة لیلة واحدة ما بین القلزم و الفرما. و بها ما لیس فی غیرها، و هو حیوان السّقنقور و النّمس و لولاه أکلت الثعابین أهلها؛ و هو کقنافذ سجستان لأهلها. و بها «دهن البلسان»، و لیس ینبت عرقه إلا بمصر خاصة. و بها «معدن الذهب و الزمرد»، و لیس فی الدنیا معدن زمرد سواه. و بها «معدن النّفط و الشبّ و البرام و الرخام». و بها «الأفیون»، و هو عصارة الخشخاش؛ و قیل: بها سائر المعادن؛ و بها «الأبنوس». و بها «حجر السّنباذج» الذی بقطع به سائر الأحجار؛ و أشیاء غیر ذلک سکتنا عنها خوف الإطالة.

*** و أما مصر تلک الأیام فکان مبانیها و أماکنها فی غیر مصر الآن. و موضع مصر قدیما هی البقعة الآن الخراب عند حدرة ابن قمیحة و الکیمان التی عند قبر القاضی بکار الی المشهد النّفیسی.

و أما قطائع ابن طولون فیأتی ذکرها فی ترجمته و بیان أماکنها. قال الشریف النّسابة الثقة محمد بن أسعد الجوّانیّ فی کتابه المسمی «بالنّقط لمعجم ما أشکل من الخطط»: سمعت الأمیر تأیید الدولة تمیم بن محمد المعروف بالصمصام یقول:

فی سنة تسع و ثلاثین و خمسمائة حدّثنی القاضی أبو الحسن علیّ بن الحسین الخلعی عن

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۴۴

القاضی القضاعی أبی عبد اللّه أنه قال: کان فی مصر من المساجد ستة و ثلاثون ألف مسجد، و ثمانیة آلاف شارع مسلوک، و ألف و مائة و سبعون حماما؛ و أنّ أبا الحسن ابن حمزة الحسنیّ ذکر أنه عرض له دخول حمّام سالم الذی عند درب سالم فی أوّل القرافة، یعنی حمّام جنادة بن عیسی المعافری الذی عند مصبغة الحفّارین المعروفة بفسقیّة ابن طولون- قلت: و فسقیّة ابن طولون هی عند المقبرة الکبیرة علی یسرة المتوجّه الی القرافة بالقرب من قبر القاضی بکّارا ه- قال: و إنه ما وصل الیه إلا بعد عناء من الزحام، و إنه کانت قبالة الحمّام فی کل یوم جمعة خمسمائة درهم. قلت: و کانت الخمسمائة درهم یوم ذاک نحو اثنین و أربعین دینارا إلا ثلثا،

لأن الدينار كان صرفه يوم ذاك اثنى عشر درهما. انتهى كلام الشريف.

قلت: و ذهبت تلك الأماكن بأجمعها عند خراب قطائع ابن طولون لمّا أخر بها محمد بن سليمان الكاتب، لا سيما لّما بنيت القاهرة فى سنة ثمان و خمسين و ثلثمائة، على ما يأتى ذكر ذلك فى ترجمة جوهر القائد.

*** و أما ظاهر القاهرة من جهاتها الأربع فقد تجدّد ذلك كله فى الدولة التركية، و معظمه فى دولة ابن قلاوون محمد، على ما يأتى بيان ذلك فى ترجمته، لأننا نذكر كل مكان تجدّد فى أيام سلطانه كما شرطناه فى أوّل هذا الكتاب. ا ه.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۴۵

*** و أما محاسن مصر فكثيرة: من ذلك ما قاله الشيخ الإمام الفقيه أبو محمد الحسن ابن إبراهيم بن زولاق: إنّ من محاسن مصر اعتدال هوائها فى حرّها و بردها؛ و إنّ مزاج هوائها لا يقطع أحدا عن التصرّف كما يقطع حرّ بغداد أهلها عن التصرف فى معايشهم، و يخلو أكثر الطرقات بها نهارا، و كذلك بردها، و إنّ برد مصر ربيع و حرّها قيظ. و قدم رجل من بغداد الى مصر فقيل له: ما أقدمك؟ فقال: فررت من كثرة الصياح فى كل ليلة: «يا غافلين الصلاة» لاختفائهم من الحرّ و البرد، فإنّ حرّ بغداد و بردها يقطعان أهلها عن التصرّف حتى إنهم يكمنون فى بطن الأرض من شدّة الحرّ فى الصيف، و تطوف الحرّاس فى بعض المواضع نهارا لاختفاء الناس فى بطون الأرض من شدّة الحرّ. انتهى كلام ابن زولاق.

قلت: و أما برد الشمال و الروم فلا حاجة لذكره لعظم البرد و كثرة الثلوج و الأمطار و غير ذلك.

قال ابن زولاق أيضا: و من ذلك الأقوات و الميرة التى لا قوام لأحد فى بلد إلا بها، فإنّ مصر تمير أهلها و الساكنين بها و بأعمالها، و تمير الحرمين الشريفين و الوافدين اليها من الأقطار، و ما تجد بلدا إلا و تصل اليها ميرة مصر؛ و بغداد لا تمير أهلها فضلا عن غيرهم لأن طعامها و أقوات ساكنيها من الموصل و أعماله و الفرات و أعماله و ديار مضر و ربيعة.

و أما بغداد فانها تميز نفسها أربعة أشهر، و تميرها الموصل أربعة أشهر، و تميرها واسط أربعة أشهر؛ و كذلك البصرة أيضا لا تمير نفسها، و إنما تميرها واسط و الأهواز؛ و لما حلّ الغلاء ببغداد نزح عنها أهلها و أثّر فيها الى اليوم، و كان بمصر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۴۶

غلاء فى سنة ثلاث و سبعين و مائتين، و غلاء فى سنة أربع عشرة و ثلاثمائة، و غلاء فى سنة عشرين و ثلاثمائة، و غلاء فى سنة ثلاث و أربعين و ثلاثمائة، و غلاء فى سنة ست و سبع و ثمان و خمسين و ثلثمائة، فما أثّر ذلك فيها.

قلت: هذا، و ما وصل القائل الى غلاء سنى المستنصر بالديار المصرية من سنة ست و خمسين الى سنة خمس و ستين و خمسمائة التى شبّهت بأيام يوسف عليه السلام، و لم يقع بمصر غلاء مثله قبله و لا بعده، و بعد ذلك تراجع أمر مصر فى مدّة يسيرة و عادت الى ما كانت عليه أوّلا. يأتى ذكر هذا الغلاء و غيره فى ترجمة الخليفة المعزّ العبيدى فى هذا الكتاب، إن شاء اللّه تعالى.

قلت: و هذا القياس الذى ذكرناه بين مصر و بغداد إنما كان تلك الأيام التى كان بها يومئذ عظماء خلفاء بنى العباس، و كانت مصر تلك الأيام يليها عامل من قبل أمير من أمراء الخلفاء؛ و أما يومنا هذا فلا تقاس مصر بالعراق جميعه بل تزيد محاسنها على جميع أقطار الأرض، و لو لا خشية الإطالة لبيّنا ذلك، و لكن فيما ذكرناه من محاسن مصر و ما اشتملت عليه من الطرائف كفاية عن الإطناب فيها.

*** و أما خراج مصر قديما فقيل: إن كيقاوس أحد ملوك القبط الأول جبى خراجها فجاء مائة ألف ألف و ثلاثين ألف دينار، و جباه عزيز مصر مائة ألف ألف دينار، و جباه عمرو بن العاص رضى اللّه عنه فى الإسلام اثنى عشر ألف ألف دينار، ثم رذل الى أن جباه أحمد بن طولون فى سنة ستين و مائتين أربعة آلاف ألف دينار و ثلثمائة ألف دينار مع ما يضاف اليه من ضياع الأمراء، ثم جباه جوهر القائد خادم المعزّ العبيدى ثلاثة آلاف ألف دينار و مائتى ألف دينار فى سنة ستين و ثلثمائة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة؛ ج ۱؛ ص ۴۷

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۴۷

و سبب نزول خراج مصر أن الملوک لم تسمح نفوسهم بما کان ینفق فی حفر ترعها و إتقان جسورها، و إزالة ما هو شاغل للأرض عن الزراعة کالقصب و الحلفاء و القضاب و غیر ذلک.

و حکی عبد اللّه بن لهیعة: أن المرتبین لذلک کانوا مائة ألف و عشرین ألف رجل: سبعون ألفا بصعید مصر، و خمسون ألفا بالوجه البحری.

و حکی ابن زولاق: أن أحمد بن المدبّر لّما ولی خراج مصر کشف أرضها فوجد غامرها أکثر من عامرها، فقال: و اللّه لو عمرها السلطان لوفت له بخراج الدنیا.

و قیل: إنها مسحت فی أیام هشام بن عبد الملک فکان ما یرکبه الماء الغامر و العامر مائة ألف ألف فدان، و الفدان أربعمائة قصبة، و القصبة عشرة أذرع.

و قیل: إن أحمد بن المدبّر المذکور اعتبر ما یصلح للزراعة بمصر فوجده أربعة و عشرین ألف ألف فدان، و الباقی مستبحر و تلف من قلّة الزراعة، و اعتبر أیضا مدّة الحرث فوجدها ستین یوما؛ و الحرّاث یحرث خمسین فدانا، فکانت محتاجة الی أربعمائة ألف و ثمانین ألف حرّاث، ا ه.

قلت: هذا خلاف ما رئی من الجزائر فی الإسلام مثل جزیرة بنی نصر و جزیرة الذهب و غیرهما قبلی و بحری؛ و أیضا خلاف إقلیم البحیرة، و البحیرة کان أصلها کرما لامرأة المقوقس، و کانت تأخذ خراجها الخمر بفریضة علیهم، فکثر الخمر علیها فقالت: لا حاجة لی بالخمر، أعطونی دنانیر، فلم تجدها معهم، فأرسلت علی الکرم الماء فغرّقتها، فصارت بحیرة یصاد بها السمک حتی استخرجها بنو العباس،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۴۸

فسدّوا جسورها و زرعوها و نمت و استمرت فی زیادة الی یومنا هذا، و بقی ذلک اسما علیها لا تعرف إلا بالبحیرة.

ذکر ما قیل فی سبب تسمیة مصر بمصر

قیل: إنه کان اسمها فی الدهر الأوّل زجلة من المزاجلة، و قال قوم: سمّیت بمصریم بن مرکائیل بن دواییل بن غریاب بن آدم، و هذا هو مصر الأوّل؛ و قیل:

بل سمّیت بمصر الثانی، و هو مصرام بن نقراوش الجبّار بن مصریم الأوّل المقدّم ذکره؛ و قیل: سمّیت بعد الطوفان بمصر الثالث، و هو مصر بن بیصر بن حام بن نوح، و هو اسم أعجمیّ لا ینصرف؛ و قیل: هو اسم عربیّ مشتقّ، و لکل قائل دلیل؛ و قیل:

غیر ذلک أقوال کثیرة یأتی ذکر بعضها.

قال المسعودی فی تاریخه: إن بنی آدم لما تحاسدوا و بغی علیهم بنو قابیل بن آدم رکب نقراوش الجبار ابن مصریم المقدّم ذکره فی نیّف و سبعین راکبا من بنی غریاب بن آدم، جبابرة کلهم یطلبون موضعا من الأرض لیقطنوا فیه، فلم یزالوا یمشون حتی وصلوا الی النیل فأطالوا المشی علیه، فلما رأوا سعة هذا البلد أعجبهم، و قالوا: هذا بلد زرع و عمارة، فأقاموا فیه و استوطنوه و بنوا فیه الأبنیة المحکمة و المصانع العجیبة، و بنی نقراوش بن مصریم [مصر و سماها باسم أبیه مصریم] ثم لمّا ملک قال لبنیه: إنی أرید أن أصنع مدینة، ثم أمرهم ببنیان مدینة فی موضع خیمته، فقطعوا الصخور من الجبال، و أثاروا معادن الرصاص، و بنوا دورا و زرعوا و عمروا الأرض، ثم أمرهم ببناء المدائن و القری و أسکن کل ناحیة من الأرض من

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۴۹

رأی، ثم حفروا النیل حتی أخرجوا ماءه الیهم، و لم یکن قبل ذلک معتدل الجری، و إنما کان ینبطح و یتفرّق فی الأرض، فهندسوه و شقّوا منه أنهارا الی مواضع کثیرة من مدنهم التی بنوها، و شقّوا منه نهرا الی مدینتهم أمسوس یجری فی وسطها، ثم سمّیت مصر بعد

الطوفان بمصر بن بيصر بن حام بن نوح على ما نذكره هنا أيضا. و يقال: إنّ مصر هذا غرس الأشجار بيده فجاءت ثمارها عظيمة بحيث إنه كان يشقّ الأترجّة نصفين لنوح يحمل البعير نصفها، و كان القثّاء يومئذ فى طول أربعة عشر شبرا؛ و يقال: إنه أوّل من وضع السفن و إنّ سفينته كانت ثلثمائة ذراع فى عرض مائة ذراع. و يقال: إنّ مصرايم نكح امرأة من بنات الكهنة فولدت ولدا يقال له قبطيم، و نكح قبطيم بعد سبعين سنة من عمره امرأة ولدت له أربعة نفر: قفطريم، و أشمون، و أتريب، وصا؛ فكثروا و عمروا الأرض و بورك لهم فيها.

و قيل: إنه كان عدد من وصل معهم ثلاثون رجلا فبنوا مدينة سموها مافة و معين، (و مافة ثلاثون بلغتهم) و هى مدينة منف التى تسمّى الآن: «منوف العليا»، و كشف لهم أصحاب قليمون الكاهن عن كنوز مصر و علومهم و الطّلسمات و المعادن، و وصفوا لهم عمل الصّينعة و بنوا على عبر البحر مدنا: منها رقودة مكان الاسكندرية؛ و لمّا حضرت مصرايم الوفاة عهد الى ولده قبطيم، و كان قد قسّم أرض مصر بين بنيه، فجعل لقفطريم من قفط الى أسوان، و لأشمون من أشمون الى منف، و لأتريب الحوف كله، و لصا من ناحية صا البحيرة الى قرب برقة؛ و قال لأخيه فارق: لك من برقة الى المغرب، فهو صاحب إفريقية و أولاده الأفارق؛ و أمر كل واحد من بنيه أن يبنى لنفسه مدينة فى موضعه، و أمرهم عند موته أن يحفروا له فى الأرض سربا و أن يفرشوه بالمرمر الأبيض و يجعلوا فيه جسده، و يدفنوا معه جميع ما فى خزائنه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١، ص: ٥٠

من الذهب و الجوهر، و يزبروا عليه أسماء اللّه المانعة من أخذه، فحفروا له سربا طوله مائة و خمسون ذراعا، و جعلوا فى وسطه مجلسا مصفّحا بصفائح الذهب، و جعلوا له أربعة أبواب على كل باب منها تمثال من ذهب، عليه مانع مرصّع بالجوهر، و هو جالس على كرسيّ من ذهب، قوائمه من زمرذ، و زبروا فى صدر كل تمثال آيات مانعة، و جعلوا جسده فى جرن مرمر مصفّح بالذهب، و كانت وفاة مصرايم المذكور بعد الطوفان بسبعمائة سنة، و مات و لم يعبد الأصنام، و جعلوا معه فى ذلك المجلس ألف قطعة من الزّبرجد المخروط، و ألف تمثال من الجوهر النفيس، و ألف برنيّة مملوءة من الدرّ الفاخر و العقاقير و الطّلسمات العجيبة و سبائك الذهب، و سقّفوا ذلك بالصخور و هالوا فوقها الرمال بين جبلين، و ولى ابنه قبطيم الملك.

*** و دخل مصر من الصحابة ممن تقدّم ذكرهم فى فتح مصر و غيرهم جماعة: الزبير ابن العوّام، و المقداد بن الأسود، و عبادة بن الصّامت، و أبو الدرداء، و فضالة ابن عبيد، و عمرو بن العاص، و عمرو بن علقمة، و شرحبيل بن حسنة، و سعد ابن أبى وقّاص، و عبد اللّه بن عمرو، و خارجة بن حذافة، و محمد بن مسلمة، و أبو رافع، و مسلمة بن مخلّد، و أبو أيوب، و نافع بن مالك، و معاوية بن حديج، و عمّار بن ياسر، و خالد بن الوليد، و غيرهم رضوان اللّه عليهم أجمعين.

و دخلها من الأنبياء صلوات اللّه عليهم أجمعين: يعقوب و أولاده، و هم:

يوسف، و يهوذا، و روبيل، و لاوى، و زبالون، و شمعون، و يسحر،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١، ص: ٥١

و دنيا، و دانا، و ديفتابيل، و جاد، و بنيامين. و دخلها موسى و هرون؛ و بها ولد عيسى بن مريم.

و قد روى عن عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه: أنه سأل كعب الأحبار عن طبائع البلدان و أخلاق سكانها، فقال: إنّ اللّه عز و جل لما خلق الأشياء جعل كل شيء لشيء؛ فقال العقل: أنا لاحق بالشأم، فقالت الفتنة: و أنا معك؛ فقال الخصب: أنا لاحق بمصر، فقال الذل: و أنا معك؛ و قال الشقاء: أنا لاحق بالبادية، فقالت الصحة: و أنا معك؛ و قال البخل: أنا لاحق بالمغرب، فقال سوء الخلق: و أنا معك. و يقال: لمّا خلق اللّه الخلق خلق معهم عشرة أخلاق: الإيمان، و الحياء، و النجدة، و الفتنة، و الكبر، و النّفاق، و الغنى، و الفقر، و الذلّ، و الشقاء؛ فقال الإيمان: أنا لاحق باليمن، فقال الحياء: و أنا معك؛ و قالت النجدة: و أنا لاحقة بالشأم، فقالت الفتنة: و أنا معك، و قال الكبر: أنا لاحق بالعراق، فقال النفاق:

و أنا معک؛ و قال الغنی: أنا لاحق بمصر، فقال الذل: و أنا معک؛ و قال الفقر:
أنا لاحق بالبادیهٔ، فقال الشقاء: و أنا معک.
و قد روی عن ابن عباس رضی اللّه عنهما قال: المکر عشرهٔ أجزاء: تسعهٔ منها فی القبط، و واحد فی سائر الناس. ا ه.
*** و وصف ابن القرّیّهٔ مصر فقال: عبید لمن غلب، أکیس الناس صغارا و أجلّهم کبارا. و قال المسعودیّ فی تاریخه: قال بعض الشعراء یصف مصر:
مصر و مصر شأنها عجیب و نیلها یجری به الجنوب
النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۵۲
قلت: و قد قیل فی مصر عدّهٔ قصائد و مقطّعات ذکرنا منها نبذهٔ فی تاریخنا «حوادث الدهور» عند وفاء النیل فی کل سنهٔ: منها ما قاله الشیخ صلاح الدین خلیل بن أیبک الصّفدیّ:
لم لا أهیم بمصر و أرتضیها و أعشق
و ما تری العین أحلی من مائها إن تملّق
و فی المعنی للشیخ زین الدین عمر بن الوردی رضی اللّه عنه:
دیار مصر هی الدنیا و ساکنها هم الأنام فقابلها بتقبیل
یا من یباهی ببغداد و دجلتها مصر مقدّمهٔ و الشرح للنّیل
و أبدع منه ما قیل فی المعنی أیضا لابن سلّار:
لعمرک ما مصر بمصر و إنما هی الجنّهٔ العلیا لمن یتذکّر
و أولادها الولدان من نسل آدم و روضتها الفردوس و النّیل کوثر
و للقاضی شهاب الدین أحمد بن فضل اللّه العمریّ فی هذا المعنی:
ما مثل مصر فی زمان ربیعها لصفاء ماء و اعتدال نسیم
أقسمت ما تحوی البلاد نظیرها لمّا نظرت الی جمال وسیم
و له أیضا رضی اللّه عنه و أبدع:
لمصر فضل باهر لعیشها الرّغد النضر
فی کلّ سفح یلتقی ماء الحیاهٔ و الخضر
[و للصّفیّ الحلّی فی القاهرهٔ:
للّه قاهرهٔ المعزّ فإنها بلد تخصّص بالمسرّهٔ و الهنا
أو ما تری فی کلّ قطر منیهٔ من جانبیها فهی مجتمع المنی
النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۵۳
و لأبی الحسن علیّ بن بهاء الدین الموصلیّ الحنبلیّ فی المعنی:
بها ما تلذّ العین من حسن منظر و ما ترتضیه النفس من شهواتها
و تربتها تبر یلوح و عنبر یفوح و تلقی بعد بعد حیاتها
زمرّدهٔ خضراء قد زین قرطها بلؤلؤهٔ بیضاء من زهراتها
و لابن الصائغ الحنفیّ فی المعنی و أجاد:
ارض بمصر فتلک أرض من کلّ فنّ بها فنون

و نیلها العذب ذاک بحر ما نظرت مثله العیون

و للشیخ برهان الدین القیراطیّ:

روت لنا مصر عن فواکهها أخبار صدق صحیحة الخبر

و کلّ ما صحّ من محاسنها أرویه من خوخها عن الزّهری

و له أیضا:

جلا نیل مصر و هو شهد و من یذق حلاوته یوما من الناس یشهد

أیا بردی بالشأم إن ذبت حسرة و غیظا فلا تهلکك أسی و تجلّد

و قال غیره فی المعنی:

النّیل قال و قوله إذ قال ملء مسامعی

فی غیظ من طلب العلا عمّ البلاد منافعی

و عیونهم بعد الوفا قلّعتها بأصابعی]

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۵۴

و للشریف العقیلیّ فی المعنی رضی اللّه عنه:

أحنّ الی الفسطاط شوقا و إنّنی لأدعو لها ألّا یحلّ بها القطر

و هل فی الحیا من حاجة لجنابها و فی کلّ قطر من جوانبها نهر

تبدّت عروسا و المقطّم تاجها و من نیلها عقد کما انتظم الدرّ

[فائدة: اذا أردت أن تعلم کم تکون زیادة النیل فی السنة فاحسب یوم عید میکائیل، و هو ثانی عشر بؤونة، کم یکون فی الشهر العربیّ من یوم، وزد فوقه تسعین یوما و خذ سدس الجمیع، تکون عدّة أذرع النیل فی تلک السنة ا ه].

و لو لا خشیة الإطالة لذکرنا من هذا نبذا کثیرة؛ و من أراد الإکثار من ذلک فلیراجع تاریخنا «حوادث الدهور فی مدی الأیام و الشهور» فإننی ذکرت من ذلک عدّة مقطّعات عند وفاء النیل فی کل سنة. و نعود الآن الی کلام المسعودی، قال:

و هی مصر، و اسمها کمعناها، و علی اسمها سمّیت الامصار، و منها اشتق هذا الاسم عند علماء المصریین. ثم ذکر المسعودیّ زیادة النیل و نقصانه نحوا مما ذکرناه، الی أن قال: فإذا انتهت الزیادة الی ست عشرة ذراعا ففیه تمام الخراج، و فی سبع عشرة ذراعا کفایتها وریّ جمیع أرضها، و إذا زاد علی السبع عشرة و بلغ الثمان عشرة ذراعا و أغلقها استبحر من أرض مصر الربع، و فی ذلک ضرر لبعض الضیاع لما ذکرناه من وجه الاستبحار و غیر ذلک، و إذا کانت الزیادة ثمان عشرة ذراعا کانت العاقبة فی انصرافه حدوث و باء بمصر، و أکثر الزیادات ثمان عشرة ذراعا، و قد کان النیل بلغ فی زیادته تسع عشرة ذراعا سنة تسع و تسعین فی خلافة عمر بن عبد العزیز.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۵۵

قلت: و کلام المسعودیّ بهذا القول فی عصر الأربعمائة من الهجرة قبل أن تعلو الأراضی و یحتاج الی بلوغه إحدی و عشرین ذراعا و أکثر؛ و لو رأی عصرنا هذا لکان یرجع فیه عن مقالته و طلب الزیادة. ا ه.

قال: و مساحة الذراع الی أن یبلغ اثنی عشر ذراعا ثمان و عشرون أصبعا، و من اثنی عشر ذراعا إلی ما فوق یصیر الذراع أربعا و عشرین أصبعا. قال: و أقل ما یبقی فی قاع المقیاس من الماء ثلاث أذرع، و فی نیل تلک السنة یکون الماء قلیلا.

قال: و الأذرع التی یستسقی علیها هی ذراعان، تسمیان بمنکر و نکیر، و هی ذراع ثلاثة عشر ذراعا و ذراع أربعة عشر ذراعا، فاذا انصرف الماء فی هذین الذراعین (أعنی ثلاثة عشر و أربعة عشر) و زیادة نصف ذراع من الخمسة عشر و استسقی الناس بمصر، کان الضرر شاملا لکل البلدان، و إذا تمّ خمس عشرة و دخل فی ست عشرة ذراعا کان فیه صلاح لبعض البلاد و لا یستسقی فیه، و کان

ذلک نقصا من خراج السلطان.

قلت: و نذکر أیضا من أخبار نیل مصر و ما کان بها من المقاییس فی الجاهلیة و الإسلام عند ما نذکر بناء المتوکل لمقیاس مصر المعهود الآن فی ترجمة یزید بن عبد اللّه الترکی لما ولی إمرة مصر فی شهر رجب سنة اثنتین و أربعین و مائتین هجریة بأوسع من هذا، فلینظر هناک، ا ه.

قال: و التّرع التی بغیضة مصر أربع أمهات، أسماؤها: ترعة ذنب التّمساح، و ترعة بلقینة، و خلیج سردوس، و خلیج ذات الساحل؛ و تفتح هذه التّرع اذا کان الماء زائدا فی عید الصلیب، و هو لأربع عشرة تخلو من توت، و هو أوّل أیلول.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۵۶

قال: و کان بمصر سبع خلجانات: فمنها خلیج الإسکندریة، و خلیج سخا، و خلیج دمیاط، و خلیج منف، و خلیج الفیّوم، و خلیج سردوس، و خلیج المنهی.

و کانت مصر فیما یذکر أهل الخبرة أکثر البلاد جنانا، و ذلک أن جنانها کانت متصلة بحافتی النیل من أوّله الی آخره الی حدّ أسوان الی رشید، و کان الماء اذا بلغ فی زیادته تسع أذرع دخل خلیج المنهی و خلیج الفیوم و خلیج سردوس و خلیج سخا.

و کان الذی ولی حفر خلیج سردوس لفرعون عدوّ اللّه هامان، فلما ابتدأ فی حفره أتاه أهل القری یسألونه أن یجری الخلیج تحت قراهم و یعطون علی ذلک ما أراد من المال، فکان یعمل ذلک حتی اجتمعت له أموال عظیمة، فحمل تلک الأموال الی فرعون، فسأله فرعون عنها، فأخبره الخبر، فقال فرعون: إنه ینبغی للسیّد أن یعطف علی عبیده و یفیض علیهم معروفه و لا یرغب فیما فی أیدیهم، و نحن أحقّ بمن یفعل هذا بعبیده، فاردد علی أهل کل قریة ما أخذته منهم، ففعل هامان ذلک. و لیس فی خلجان مصر أکثر عطوفا و عراقیل من خلیج سردوس. و أما خلیج الفیوم و خلیج المنهی فان الذی حفرهما یوسف بن یعقوب صلی اللّه علیهما و سلم. ا ه.

قلت: و الآن نأتی بما وعدنا بذکره من أخبار من ملک مصر قبل الإسلام، علی أنه لیس فی شرطنا من هذا الکتاب، و إنما نذکره علی سبیل الاختصار لتعلم بذلک أحوال مصر قدیما و حدیثا کما ذکرنا؛ هذا کله لیعلم الناظر فیه أمورها علی سبیل الاستطراد الی أن نذکر ما صنّف هذا الکتاب بسببه و هم ملوک مصر، و أوّل من نذکر منهم عمرو بن العاص رضی اللّه عنه، ثم نسوق التاریخ من حینئذ علی منواله دولا دولا، لا نخرج منه الی غیره إلّا ما مسّت الحاجة الی ذکره استطرادا، و اللّه الموفّق للصواب، و الیه المرجع و المآب.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۵۷

***

[ذکر من ملک مصر قبل الاسلام]

فأمّا من ملک مصر بعد من نقدّم ذکره من أولادهم و غیرهم فقال المسعودی:

و کان بیصر بن حام بن نوح قد کبرت سنّه فأوصی الی الأکبر من ولده و هو مصر و أجمع الناس علی أنه ملک من حدّ رفح من أرض فلسطین من بلاد الشأم، و قیل: من العریش، و قیل: من الموضع المعروف بالشجرة و هو آخر أرض مصر، و الفرق بینها و بین الشأم، و هو الموضع المشهور بین العریش و رفح الی بلاد أسوان من بلاد الصعید طولا، و من أیلة و هی تخوم الحجاز الی برقة عرضا.

و کان لمصر أولاد أربعة و هم:

قبط، و أشمون، و أتریب، وصا. و قد تقدّم ذکر ذلک، غیر أننا نذکره فی سیاق کلام المسعودیّ أیضا، إذ لا یتم المراد إلّا بذکره، لیتناسق الأسلوب.

قال: و قسّم مصر بین ولده الأربعة الأرض أرباعا، و عهد الی الأکبر من ولده و هو قبط، و أقباط مصر یضافون فی النسب الی أبیهم قبط بن مصر، و أضیفت المواضع الی سکانها و عرفت بأسمائهم، و اختلطت الأنساب و کثر ولد قبط و هم الأقباط، فغلبوا علی سائر

الأرض، و دخل غيرهم فى أنسابهم. و لما هلك قبط بن مصر ملك بعده أشمون بن مصر؛ ثم ملك بعده صا بن مصر؛ ثم ملك بعده أتريب بن مصر؛ ثم ملك بعده ماليق بن دارس؛ ثم ملك بعده حرايا بن ماليق؛ ثم ملك بعده كلكى بن حرايا، و أقام فى الملك نحوا من مائة سنة؛ ثم ملك بعده أخ له يقال له:

ماليا بن حرايا؛ ثم ملك بعده لوطس بن ماليا نحوا من سبعين سنة؛ ثم ملكت بعده ابنة له يقال لها: حوريا بنت لوطس بن ماليا نحوا من ثلاثين سنة؛ ثم ملكت بعدها امرأة أخرى يقال لها: ماموم. ثم كثر ولد بيصر بن حام بن نوح بأرض مصر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١، ص: ۵۸

و تشعّبوا و ملّكوا النساء، فطمعت فيهم ملوك الأرض، فسار إليهم من الشأم ملك من العماليق يقال له: الوليد بن درمع، فكانت له بها حروب حتى غلب على الملك و انقادوا اليه و استقام له الأمر حتى هلك؛ ثم ملك بعده الرّيّان بن الوليد العملاقىّ، و هو فرعون يوسف عليه السلام؛ ثم ملك بعده دارم بن الرّيّان العملاقى؛ ثم ملك بعده كامس بن معدان العملاقىّ؛ ثم ملك بعده الوليد بن مصعب، و هو فرعون موسى عليه السلام، و قد اختلف فيه، فمن الناس من يقول: إنه من العماليق، و منهم من رأى أنه من لخم من بلاد الشأم، و منهم من رأى أنه من الأقباط من ولد مصر بن بيصر، و كان يعرف بظلما؛ و هلك فرعون غرقا حين خرج فى طلب بنى إسرائيل، و لمّا غرق فرعون و من كان معه من الجنود خشى من بقى بأرض مصر من الذرارى و النساء و الصبيان و العبيد أن يغزوهم ملوك الشأم و المغرب، فمّلكوا عليهم امرأة ذات رأى و حزم يقال لها: دلوكة، فبنت على ديار مصر حائطا يحيط بجميع أرضها و البلاد، و جعلت عليه المحارس و الأجراس و الرجال متّصلة أصواتهم بقرب بعضهم من بعض، و أثر هذا الحائط باق الى هذا اليوم، و هو يعرف بحائط العجوز؛ و قيل:

إنما بنته خوفا على ولدها، فإنه كان كثير الصيد فخافت عليه سباع البر و البحر و اغتيال من جاوز أرضهم من الملوك، فحوّطت الحائط من التماسيح و غيرها، و قد قيل فى ذلك غير هذا أيضا. فملكتهم دلوكة المذكورة ثلاثين سنة و اتخذت بمصر البرابى و الصّور، و أحكمت آلات السحر، و جعلت فى البرابى صور من يرد من كل ناحية و دوابّهم إبلا كانت أم خيلا، و صوّرت فيها أيضا من يرد فى البحر من المراكب من بحر المغرب و الشأم، و جمعت فى هذه البرابى العظيمة المشيّدة البنيان أسرار الطبيعة و خواصّ الأحجار و النبات و الحيوان، و جعلت ذلك فى أوقات حركات فلكية و اتصالها بالمؤثّرات العلويّة، فكانوا إذا ورد اليهم جيش من نحو

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١، ص: ۵۹

الحجاز و اليمن عوّرت تلك الصّور التى فى البرابى من الإبل و غيرها، فيتعوّر ما فى ذلك الجيش و ينقطع عنهم ناسه و حيوانه، و اذا كان الجيش من نحو الشأم فعلت تلك الصور أيضا ما فعلت كما وصفنا، و كذلك من أتاهم فى المراكب؛ فهابتهم الأمم و الملوك و منعوا ناحيتهم من عدوّهم، فاتصل ملكهم بتدبير هذه العجوز الى عدّة أقطار، ثم عرفت بمجىء الطوفان ثانية، فخافت على هذه الصور و العلوم أن تذهب فبنت عدّة براب، و جعلت فيها علومها من الصّور و التماثيل و الكتابة، و جعلت بنيانها نوعين:

طينا و حجرا، و فرزت ما يبنى بالطين مما يبنى بالحجر، و قالت: إن كان هذا الطوفان نارا استحجر ما بنينا بالطين و بقيت هذه العلوم، و إن كان الطوفان الوارد ماء ذهب ما بنينا بالطين و بقى ما بنينا بالحجارة، و إن كان الطوفان سيفا بقى كلا النوعين.

و لما ماتت دلوكة العجوز المذكورة ملك مصر بعدها دركوس بن بلطيوس؛ ثم ملك بعده بورس بن دركوس؛ ثم ملك بعده لعس بن نورس نحوا من خمسين سنة؛ ثم ملك بعده دنيا بن نورس نحوا من عشرين سنة؛ ثم ملك بعده نلوطس عشر سنين؛ ثم ملك بعده مماكيل بن بلوطس، ثم ملك بعده يلونة بن مماكيل و كانت له حروب و مسير فى الأرض، و هو فرعون الأعرج الذى غزا بنى إسرائيل و خرّب بيت المقدس؛ ثم ملك بعده مرينوس و كانت له أيضا حروب بالمغرب، ثم ملك بعده نقاس بن مرينوس ثمانين سنة، ثم ملك بعده قويس بن نقاس عشر سنين؛ ثم ملك بعده كاميل، و كانت له أيضا حروب مع ملوك المغرب و غزاه البخت نصّر مرزبان المغرب من قبل ملك فارس، فخرّب أرضه و قتل رجاله و سار البخت نصّير الى نحو المغرب. و لما زال أمر البخت نصر و من

کان معه من جنود فارس ملکت الروم مصر و غلبت علیها، فتنصر أهلها، فلم یزالوا علی ذلک

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۶۰

إلی أن ملک کسری أنو شروان، فغلبت جیوشه علی الشأم و سارت نحو مصر فملکوها، و غلبوا علی أهلها نحوا من عشرین سنة، فکانت بین الروم و فارس حروب کثیرة، و کان أهل مصر یؤدّون خراجین عن بلادهم: خراجا لفارس، و خراجا للروم؛ ثم انجلت فارس عن مصر و الشأم [لأمر حدث فی دار مملکتهم فغلبت الروم علی مصر و الشأم] و أشهروا النصرانیة فشمل ذلک من فی الشأم و مصر الی أن أتی اللّه بالإسلام، و کان من أمر المقوقس صاحب مصر مع النّبیّ صلی اللّه علیه و سلم من الهدایا ما کان إلی أن افتتحها عمرو بن العاص بمن کان معه من الصحابة فی خلافة عمر بن الخطاب رضی اللّه عنه، حسبما ذکرناه فی أوّل ذلک الکتاب.

و کان المقوقس ملک مصر و صاحب القبط نزیل الإسکندریة فی بعض فصول السنة، و فی بعضها مدینة منف، و فی بعضها قصر الشمع، و قصر الشمع فی وسط مدینة الفسطاط. و المقصود من ذکر ذلک أنّ الذین ملکوا مصر باتفاق کثیر من أهل التاریخ علی اختلاف بینهم، من الفراعنة و غیرهم: اثنان و ثلاثون فرعونا؛ و من ملوک بابل ممن ملک مصر: خمسة؛ و من العمالیق و هم الذین قدموا الیها من الشأم: أربعة؛ و من الروم: سبعة؛ و من الیونانیین: عشرة؛ و ذلک قبل ظهور المسیح عیسی بن مریم علیه السلام، و ملکها أناس من ملوک الفرس من الأکاسرة، فکانت مدّة من ملک مصر من بنی نوح و الفراعنة و العمالیق و الروم و الیونانیین ألف سنة و ثلثمائة سنة.

قلت: و هذا الذی ذکرناه علی سبیل الاستطراد، و شرط کنابنا هذا ألّا نذکر فیه إلا من ملک مصر فی الإسلام، و من ذکرناه من هؤلاء زیادة لیست بمنکرة لتحصیل الفائدة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۶۱

قال المسعودی: و سألت جماعة من أقباط مصر بالصعید و غیره من أهل الخبرة عن تفسیر اسم فرعون فلم یخبرونی عن معنی ذلک و لا تحصّل لی فی لغتهم، فیمکن- و اللّه أعلم- أن هذا الاسم کان سمة لملوک تلک الأعصار، و أنّ تلک اللغة تغیّرت کتغیّر الفهلویّة، و هی الفارسیة الأولی الی الفارسیة الثانیة، و کالیونانیة الی الرومیة، و تغیّر الحمیریّة و غیر ذلک من اللغات. انتهی کلام المسعودی.

قلت: و لیس بمستبعد هذه المقالة لأن لسان العرب و هو أشرف الألسن و به نزل القرآن الکریم قد تغیر الآن غالبه، و صارت العامّة و غیرها تتکلم بکلام لو سمعه بعض أعراب ذلک الزمان لما فهموه لتغیّر ألفاظه، و کذلک اللغة الترکیة، فإن لسان المغل الآن لا یعرفه جند زماننا هذا و لا یتحدّثون به، و لو سمعوه لما فهموه، و أشیاء کثیرة من هذا. ا ه.

و نشرع الآن بذکر ما نحن بصدده، و من لأجله صنّف هذا الکتاب، و هم ملوک مصر و القاهرة، و نبدأ بترجمة عمرو بن العاص رضی اللّه عنه، لأنها فتحت علی یدیه، و هو أوّل من ولیها من المسلمین.

ذکر ولایة عمرو بن العاص الأولی علی مصر

هو عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعید بن سهم بن عمرو بن هصیص ابن کعب بن لؤیّ بن غالب، أبو عبد اللّه، و قیل: أبو محمد القرشیّ السّهمیّ الصحابیّ؛ أسلم یوم الهدنة و هاجر، و استعمله رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم علی جیش غزوة ذات السلاسل، و فیه أبو بکر و عمر، لخبرته بمکیدة الحرب، ثم ولی الإمرة فی غزوة الشأم لأبی بکر و عمر، ثم افتتح مصر حسبما تقدّم ذکره و ولیها لعمر أوّلا، ثم ولیها لمعاویة ابن أبی سفیان ثانیا علی ما یأتی ذکره.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۶۲

و حکی ابن سعد فی کتاب الطبقات: أنه أسلم بعد الحدیبیة هو و خالد بن الولید و عثمان بن طلحة.

قال الحافظ أبو عبد اللّه شمس الدین محمد الذهبیّ فی تاریخ الاسلام: و له عدّة أحادیث، روی عنه ابناه عبد اللّه و محمد، و أبو

عثمان النهدى، و قبيصة بن ذؤيب، و على بن رباح، و عبد الرحمن بن شماسة، و آخرون؛ و قدم دمشق رسولا من أبى بكر الى هرقل، و له بدمشق دار عند سقيفة كردوس، و دار عند باب الجابية تعرف ببنى حجيجة، و دار عند عين الحمار، و أمه عنزيّة، و كان قصيرا يخضب بالسواد.

حدّثنا ابن لهيعة عن مشرح عن عقبة بن عامر قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلّم: «أسلم الناس و آمن عمرو بن العاص» رواه الترمذىّ. و قال ابن أبى مليكة قال طلحة بن عبيد اللّه: سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم يقول:

«عمرو بن العاص من صالحى قريش» أخرجه الترمذىّ و فيه انقطاع. و قال حمّاد ابن سلمة عن محمد بن عمرو عن أبى سلمة عن أبى هريرة قال: قال النّبىّ صلى اللّه عليه و سلم: «ابنا العاص مؤمنان هشام و عمرو». و قال ابن لهيعة عن يزيد بن أبى حبيب أخبرنى سويد بن قيس عن قيس بن شفىّ: أنّ عمرو بن العاص قال:

يا رسول اللّه، أبايعك على أن يغفر لى ما تقدّم من ذنبى؟ قال: «إن الإسلام و الهجرة يجبّان ما كان قبلهما» قال: فو اللّه ما ملأت عينى منه و لا راجعته بما أريد حتى لحق بالله، حياء منه.

و قال الحسن البصرىّ: قال رجل لعمرو بن العاص: أ رأيت رجلا مات رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم و هو يحبّه، أليس رجلا صالحا؟ قال: بلى، قال:

قد مات رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم و هو يحبّك، و قد استعملك؛ قال: بلى،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۶۳

فو اللّه ما أدرى أ حبّا كان لى منه أو استعانة بى، و لكن سأحدّثك برجلين مات و هو يحبّهما: عبد اللّه بن مسعود، و عمّار بن ياسر؛ فقال الرجل: ذاك قتيلكم يوم صفّين، قال: قد و اللّه فعلنا.

و روى أنّ عمرا لما توفى النّبىّ صلى اللّه عليه و سلم كان على عمان، فأتاه كتاب أبى بكر بذلك. قال ضمرة عن الليث بن سعد: إنّ عمر رضى اللّه عنه نظر الى عمرو ابن العاص يمشى، فقال: ما ينبغى لأبى عبد اللّه أن يمشى على الأرض إلا أميرا.

قال الذهبىّ بعد كلام ساقه: ثم إنّ عمرا قال لمعاوية- يعنى فى أيام وقعة صفّين-: يا معاوية، أحرقت كبدى بقصصك، أ ترى أنّا خالفنا عليّا لفضل منا عليه! لا و اللّه، إن هى إلا الدنيا نتكالب عليها، و ايم اللّه لتقطعنّ لى قطعة من دنياك، أو لأنابذنّك، قال: فأعطاه مصر، يعطى أهلها عطاءهم و ما بقى فله.

و يروى أنّ عليا كتب الى عمرو يتألّفه، فلما أتاه الكتاب أقرأه معاوية، و قال:

قد ترى، فإمّا أن ترضينى، و إمّا أن ألحق به! قال: فما تريد؟ قال: مصر، فجعلها له.

و عن يزيد بن أبى حبيب و غيره؛ أنّ الأمر لمّا صار لمعاوية استكثر طعمة مصر لعمرو، و رأى عمرو أنّ الأمر كلّه قد صلح به و بتدبيره و عنائه، و ظن أنّ معاوية سيزيده الشأم مع مصر فلم يفعل معاوية، فتنكّر له عمرو فاختلفا و تغالظا، فدخل بينهما معاوية بن حديج فأصلح بينهما، و كتب بينهما كتابا: إن لعمرو ولاية مصر سبع سنين و أشهد عليهما شهودا، ثم مضى عمرو اليها سنة تسع و ثلاثين (أعنى فى ولايته الثانية)، فما مكث نحو ثلاث سنين حتى مات.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۶۴

قال: و كان عمرو من أفراد الدهر دهاء و جلادة و حزما و رأيا و فصاحة. ذكر محمد بن سلّام الجمحىّ: أنّ عمر بن الخطاب كان اذا رأى رجلا يتلجلج فى كلامه يقول: خالق هذا و خالق عمرو بن العاص واحد.

و قال مجالد عن الشعبىّ عن قبيصة عن جابر قال: صحبت عمر بن الخطاب فما رأيت أقرأ لكتاب اللّه منه، و لا أفقه فى دين اللّه منه، و لا أحسن مداراة منه؛ و صحبت طلحة بن عبيد اللّه فما رأيت رجلا أعطى للجزيل منه من غير مسئلة؛ و صحبت معاوية فما رأيت رجلا أحلم منه؛ و صحبت عمرو بن العاص فما رأيت رجلا أبين، أو قال أنصع، ظرفا منه، و لا أكرم جليسا، و لا أشبه سريرة بعلانية منه؛ و

صحبت المغيرة بن شعبة فلو أنّ مدينة لها ثمانية أبواب لا يخرج من باب منها إلا بمكر لخرج من أبوابها كلها. و قال موسى بن علىّ بن رباح حدّثنا أبى حدّثنا أبو قيس مولى عمرو بن العاص: أنّ عمرا كان يسرد الصوم، و قلّما كان يصيب من العشاء أوّل الليل، أكثر ما كان يأكل فى السّحر. و قال عمرو بن دينار: وقع بين المغيرة بن شعبة و بين عمرو بن العاص كلام فسبه المغيرة، فقال عمرو: يا آل هصيص، أ يسبّنى ابن شعبة! فقال عبد اللّه ابنه: إنّا للّه! دعوت بدعوى القبائل و قد نهى عنها! فأعتق عمرو ثلاثين رقبة. انتهى كلام الذهبىّ باختصار.

قلت: و لما ولى عمرو بن العاص مصر و دخلها سكن الفسطاط. و لسبب تسمية مصر بالفسطاط أقول كثيرة، منها: أن عمرا لما أراد التوجه لفتح الاسكندرية أمر بنزع فسطاطه (أعنى خيمته) فإذا فيه يمامة قد فرخت، فقال عمرو: لقد تحرّم منا بمتحرّم، فأمر به فأقرّ كما هو، و أوصى به صاحب القصر، فلما قفل المسلمون

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۶۵

من الاسكندرية قالوا: أين ننزل؟ قالوا: الفسطاط- يعنون فسطاط عمرو الذى خلّفه بمصر مضروبا لأجل اليمامة فغلب عليه ذلك- و كان موضع الفسطاط المذكور موضع الدار التى تعرف اليوم بدار الحصار عند دار عمرو الصغيرة بمصر.

و قال الشريف محمد بن سعد الجوّانىّ: كان فسطاط عمرو عند درب حمّام شمول بخط الجامع، ا ه.

و لما رجع عمرو من الإسكندرية فى سنة إحدى و عشرين أو غيرها نزل موضع فسطاطة و تنافست القبائل بعضها مع بعض فى المواضع، فولّى عمرو بن العاص معاوية بن حديج التّجيبىّ، و شريك بن سمىّ الغطيفىّ، و عمرو بن قحزم الخولانى، و حيويل بن ناشرة المعافرىّ على الخطط، و كانوا هم الذين نزّلوا الناس و فصلوا بين القبائل. و ذلك فى سنة إحدى و عشرين من الهجرة، و استمرّ عمرو على عمله بمصر، و شرع فى بناء جامعه بمصر الى أن عزله عثمان عن ولاية مصر فى سنة خمس و عشرين بعبد اللّه بن سعد بن أبى سرح بعد أن انتقض صلح أهل الإسكندرية و غزاة عمرو فى السنة المذكورة.

و سبب ذلك أنّ ملك الروم بعث اليهم منويل الخصىّ فى مراكب من البحر، فطمعوا فى النصرة و نقضوا دينهم، فغزاهم عمرو فى ربيع الأوّل سنة خمس و عشرين

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۶۶

فافتتح الأرض عنوة و المدينة صلحا، ثم استأذن عمرا عبد اللّه بن سعد بن أبى سرح فى غزوة إفريقيّة، فأذن له عمرو بن العاص؛ و بعد قليل عزله عثمان فى هذه السنة بعبد اللّه بن أبى سرح المذكور- و عبد اللّه بن أبى سرح أخو عثمان لأمّه- و قيل:

إن ذلك كان فى سنة سبع و عشرين، و الذى قلنا الأقوى؛ و هذه ولاية عمرو بن العاص على مصر الأولى. و تأتى بقية ترجمته و وفاته فى ولايته الثانية، إن شاء اللّه تعالى.

و سبب عزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر أنه قدم على عثمان لما تخلّف و كان قدم على عمر مرّتين استخلف فى إحداهما زكريا بن جهم العبدرىّ، و فى الثانية ابنه عبد اللّه، فلما قدم عمرو على عثمان سأله عزل عبد اللّه بن سعد ابن أبى سرح عن صعيد مصر، و كان عمر قد ولّاه صعيد مصر، فامتنع عثمان من ذلك و عزله عن مصر و عقد لعبد اللّه بن سعد بن أبى سرح على مصر كلها مضافة للصعيد و غيره، فكانت ولاية عمرو بن العاص على مصر فى المرّة الأولى أربع سنين و أشهرا.

[ذكر بناء جامع عمرو بن العاص بمصر رضى اللّه عنه

كان خانا و الذى حاز موضعه قيسبة بن كلثوم التّجيبىّ أبو عبد اللّه أحد بنى سوم، فلما رجعوا من الإسكندرية سأل عمرو قيسبة المذكور فى منزله هذا يجعله مسجدا؛ فقال له قيسبة: فإنى أتصدّق به على المسلمين، فسلّمه اليهم؛ و اختطّ مع قومه بنى سوم فى [تجيب] و بنى الجامع فى سنة إحدى و عشرين، و كان طوله

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۶۷

خمسين ذراعا فى عرض ثلاثين؛ و يقال: إنه وقف على إقامة قبلته ثمانون رجلا من الصحابة، منهم: الزبير بن العوّام، و المقداد بن الأسود، و عبادة بن الصامت، و أبو الدّرداء، و أبو ذرّ الغفاريّ، و أبو بصرة الغفاريّ، و محمية بن جزء الزّبيدى، و نبيه ابن صواب و غيرهم، و كانت القبلة مشرّقة جدّا، و إن قرّة بن شريك لمّا هدم المسجد المذكور و بناه فى زمان الوليد بن عبد الملك بن مروان تيامن بها قليلا.

و ذكر الليث بن سعد و عبد اللّه بن لهيعة: [أنهما] كانا يتيامنان إذا صلّيا فى المسجد الجامع، و لم يكن للمسجد الذى بناه عمرو محراب مجوّف، و إنما قرّة بن شريك المذكور جعل المحراب المجوّف.

و أوّل من أحدث ذلك عمر بن عبد العزيز، و هو يومئذ عامل الوليد بن عبد الملك على المدينة ليالى أسّس مسجد رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم لما هدم و زاد فيه. و كان لمسجد عمرو بابان يقابلان دار عمرو بن العاص، و بابان فى بحريّه، و بابان فى غربيّه؛ و كان الخارج من زقاق القناديل يجد ركن الجامع الشرقىّ محاذيا لركن دار عمرو الغربىّ، و كان طوله من القبلة الى البحرىّ مثل طول دار عمرو، و سقفه مطأطأ جدّا و لا صحن له؛ و كان الناس يصطفون بفنائه؛ و كان بينه و بين دار عمرو سبعة أذرع؛ و كان الطريق محيطا به من جميع جوانبه، و كان عمرو قد اتخذ منبرا فكتب اليه عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه يعزم عليه فى كسره و يقول:

أما بحسبك أن تقوم قائما و المسلمون تحت عقبيك! فكسره عمرو.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۶۸

و أوّل من صلّى عليه من الموتى به فى داخله أبو الحسين سعيد بن عثمان صاحب الشّرطة فى النصف من صفر، و كانت وفاته فجأة فأخرج و صلّى عليه خلف المقصورة و كبّر عليه خمسا، و لم يعلم أحد قبله صلّى عليه بالجامع و أنكر الناس ذلك.

و أوّل من زاد فى الجامع المذكور مسلمة بن مخلّد الأنصارى أمير مصر فى أيام معاوية سنة ثلاث و خمسين، فزاد فيه من بحريّه و جعله رحبة فى البحرىّ و بيّضه و زخرفه، و لم يغير البناء القديم و لا أحدث فى قبليّه و لا غربيّه شيئا.

و ذكر أنه زاد فيه من شرقيّه حتى ضاق الطريق بينه و بين دار عمرو بن العاص و فرشه بالحضر و كان مفروشا قبل ذلك بالحصباء.

و قيل: إن مسلمة نقض ما كان عمرو بناه و زاد فيه من شرقيّه و جعل له صوامع، و بنى فيه أربع صوامع فى أركانه الأربعة، و أمر ببناء المنار فى جميع المساجد، و أمر مسلمة أن يكتب اسمه على المنائر، و أمر مؤذّنى المسجد الجامع أن يؤذّنوا للفجر اذا مضى نصف الليل، فإذا فرغوا من أذانهم أذّن كل مؤذّن فى الفسطاط فى وقت واحد، فكان لأذانهم دوىّ شديد، و أمر ألّا يضرب بناقوس عند وقت الأذان، أعنى الفجر.

ثم إنّ عبد العزيز بن مروان هدمه سنة تسع و سبعين، و هو أمير مصر من قبل أخيه عبد الملك بن مروان، و زاد فيه من ناحية الغرب و أدخل فيه الرحبة التى كانت فى بحريّه و لم يجد فى شرقيّه موضعا يوسّعه به.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۶۹

و ذكر الكندىّ فى كتاب الأمراء: أنه زاد فيه من جوانبه كلّها، و يقال: إنّ عبد العزيز المذكور لما أكمل بناء المسجد المذكور خرج من دار الذهب عند طلوع الفجر فدخل المسجد فرأى فى أهله خفّة فأمر بأخذ الأبواب على من فيه، ثم دعاهم رجلا رجلا، يقول للرجل: أ لك زوجة؟ فيقول: لا، فيقول: زوّجوه؛ أ لك خادم؟ فيقول: لا، فيقول: أخدموه؛ أحججت؟ فيقول: لا، [فيقول]: أحجّوه؛ أعليك دين؟ فيقول: نعم، فيقول: اقضوا دينه، فأقام المسجد بعد ذلك دهرا عامرا ثم الى اليوم.

و أمر عبد العزيز المذكور برفع سقف الجامع و كان مطأطأ فى سنة تسع و ثمانين، ثم إنّ قرّة بن شريك العبسىّ بن قيس عيلان هدمه فى مستهلّ سنة اثنتين و تسعين بأمر الوليد بن عبد الملك بن مروان، و قرّة أمير على مصر من قبله، و ابتدأ فى بنائه فى شعبان من السنة المذكورة، و جعل على بنائه يحيى بن حنظلة مولى بنى عامر ابن لؤىّ، و كانوا يجمّعون الجمعة فى قيسارية العسل حتى فرغ من بنائه

فى رمضان سنة ثلاث و تسعين و نصب المنبر الجديد فى سنة أربع و تسعين و نزع المنبر الذى كان فى المسجد؛ و ذكر أنّ عمرو بن العاص كان جعله فيه.

قلت: و لعله كان وضعه بعد وفاة عمر بن الخطاب، فإنه كان منعه حسبما ذكرناه؛ و قيل: هو منبر عبد العزيز بن مروان.

و ذكر أنه حمل اليه من بعض كنائس مصر. و ذكر أنّ زكريا بن مرقى ملك النوبة أهداه الى عبد اللّه بن سعد بن أبى سرح و بعث معه نجارا يسمّى «بقطر» حتى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۷۰

ركّبه، و لم يزل هذا المنبر فى الجامع الى أن زاد قرّة بن شريك المذكور فى الجامع، فنصب منبرا سواه، و لم يكن إذ ذاك يخطب فى القرى إلّا على العصىّ إلى أن ولى [عبد الملك بن مروان] بن موسى بن نصير اللّخمىّ مصر من قبل مروان بن محمد فأمر باتّخاذ المنابر فى القرى، و ذلك فى سنة اثنتين و ثلاثين و مائة، و لا يعرف منبر أقدم من منبر قرّة بن شريك بعد منبر رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم، فلم يزل كذلك الى أن قلع و كسر أيام العزيز باللّه نزار العبيدىّ بنظر الوزير ابن كلّس فى يوم الخميس لعشر بقين من شهر ربيع الأوّل سنة تسع و سبعين و ثلثمائة و جعل مكانه منبر مذهب، ثم أخرج هذا المنبر الى الاسكندرية و جعل بجامع عمرو بن العاص الذى بها، ثم أنزل المنبر الكبير الى الجامع المذكور فى أيام الحاكم بأمر اللّه العبيدى فى شهر ربيع الأوّل سنة خمس و أربعمائة، و صرف بنو عبد السميع عن الخطابة و جعلت خطابته لجعفر بن الحسن بن خداع الحسينىّ، و جعل الى أخيه الخطابة فى الجامع الأزهر، و صرف بنو عبد السميع من جميع المنابر؛ ثم وجد بعد ذلك المنبر الجديد الذى نصب بالجامع قد لطّخ بالقذر فوكّل به من يحفظه و عمل له غشاء من أدم مذهب، و خطب عليه ابن خداع و هو مغشّى؛ و كانت زيادة قرّة بن شريك من القبلىّ و الشرقىّ و أخذ بعض دار عمرو بن العاص و ابنه عبد اللّه فأدخله فى المسجد و أخذ منهما الطريق التى بين المسجد و بينهما، و عوّض أولاد عمرو ما هو فى أيديهم من الرباع التى فى زقاق مليح فى النحاسين و قشرة، و أمر قرّة بعمل المحراب المجوّف، و هو المحراب المعروف بمحراب عمرو؛ [لأنه فى سمت محراب] المسجد القديم الذى بناه عمرو، و كانت قبلة المسجد القديم عند العمد المذهبة فى صفّ التوابيت، و هى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۷۱

أربعة عمد: اثنان فى مقابلة اثنين؛ و كان قرّة قد أذهب رءوسها، و لم يكن فى المسجد عمد مذهبة غيرها، و كانت قديما [حلقة أهل المدينة] ثم زوّق أكثر العمد و طوّق فى أيام الإخشيد سنة أربع و عشرين و ثلثمائة، و لم يكن للمسجد أيام قرّة غير هذا المحراب.

فأما المحراب الأوسط فيعرف بمحراب عمر بن مروان أخى عبد الملك بن مروان الخليفة، و لعله أحدثه فى الجدار بعد قرّة؛ و ذكر قوم أنّ قرّة عمل هذين المحرابين، و صار للجامع أربعة أبواب فى شرقيّه، آخرها باب إسرائيل، و هو باب النحاسين؛ و فى غربيّه أربعة أبواب شارعة فى زقاق يعرف بزقاق البلاط؛ و فى بحريه ثلاثة أبواب. انتهى ما أوردناه من أمر جامع عمرو بن العاص المذكور رضى اللّه عنه.

*** و أما بناء عمرو بن العاص لبيت المال بالفسطاط- فالأصح أنما بناه أسامة بن زيد التّنوخىّ متولى الخراج بمصر فى سنة سبع و تسعين فى خلافة سليمان بن عبد الملك بن مروان، و أمير مصر يوم ذاك عبد الملك بن رفاعة الآتى ذكره فى موضعه إن شاء اللّه تعالى. و قد خرجنا عن المقصود لطلب الفائدة و نعود الى ذكر عمرو بن العاص رضى اللّه عنه.

قيل: إنه رئى و هو على بغلة هرمة، و هو إذ ذاك أمير مصر، فقيل له: أ تركب هذه و أنت أمير مصر؟ فقال: لا ملل عندى لدابّتى ما حملتنى، و لا لأمرأتى ما أحسنت عشرتى، و لا لصديقى ما حفظ سرى؛ إنّ الملل من كواذب الأخلاق.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۷۲

و عن عمرو قيل له: صف الأمصار، قال: أهل الشام أطوع الناس للمخلوق و أعصاه للخالق؛ و أهل مصر أكيسهم صغارا و أحمقهم

كبارا؛ و أهل الحجاز أسرع الناس الى الفتنة و أعجزهم عنها؛ و أهل العراق أطلبهم للعلم و أبعدهم منه.

قال مجالد عن الشّعبىّ قال: دهاة العرب أربعة: معاوية، و عمرو، و المغيرة ابن شعبة، و زياد بن أبيه؛ فأما معاوية فللأناة و الحلم، و أما عمرو فللمعضلات، و أما المغيرة فللمبادرة، و أما زياد بن أبيه فللصغير و الكبير.

و قال أبو عمران بن عبد البرّ: كان عمرو من فرسان قريش و أبطالهم فى الجاهلية، مذكورا فيهم بذلك، و كان شاعرا محسنا حفظ عنه فيه الكثير فى مشاهد شتّى، و له يخاطب عمارة بن الوليد بن شعبة عند النجاشىّ:

اذا المرء لم يترك طعاما يحبّه و لم ينه قلبا غاويا حيث يمّما

قضى وطرا منه و غادر سنّة اذا ذكرت أمثالها تملأ الفما

و قال الذهبىّ فى التذهيب: روى أحمد بن حنبل عن أبى عبد اللّه البصرىّ عن أبى مليكة قال قال عمرو بن العاص: إنى لأذكر الليلة التى ولد فيها عمر. قلت:

ما قال هذا إلا لأنه أسنّ من عمر فلعل بينهما نحو خمسين سنة. انتهى كلام الذهبىّ باختصار.

و قال ابن عبد الحكم فى تاريخه: خطبة عمرو. حدّثنا عبد الرحمن حدّثنا سعيد ابن ميسرة عن إسحاق بن الفرات عن ابن لهيعة عن الأسود بن مالك الحميرىّ عن بحير بن ذاخر المعافرىّ قال:

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١، ص: ٧٣

رحت أنا و والدى الى صلاة الجمعة [تهجيرا] و ذلك آخر الشتاء بعد حميم النصارى بأيام يسيرة، فأطلنا الركوع، إذ أقبل رجال بأيديهم السياط يزجرون الناس، فذعرت؛ فقلت: يا أبت، من هؤلاء؟ قال: يا بنىّ، هؤلاء الشّرط، فأقام المؤذّنون الصلاة، فقام عمرو بن العاص على المنبر، فرأيت رجلا ربعة قصد القامة، وافر الهامة، أدعج أبلج، عليه ثياب موشيّة كأنّ به العقيان يأتلق، عليه حلّة و عمامة و جبّة، فحمد اللّه و أثنى عليه حمدا موجزا و صلّى على النبى صلى اللّه عليه و سلم و وعظ الناس و أمرهم و نهاهم، فسمعته يحضّ على الزكاة و صلة الأرحام و يأمر بالاقتصاد و ينهى عن الفضول و كثرة العيال و قال فى ذلك: يا معشر الناس، إياكم و خلالا أربعة، فإنها تدعو الى النّصب بعد الراحة، و الى الضّيق بعد السّعة، و الى المذلّة بعد العزّة. إياكم و كثرة العيال، و إخفاض الحال، و تضييع المال، و القيل بعد القال، فى غير درك و لا نوال؛ ثم إنه لا بدّ من فراغ يؤول اليه المرء فى توديع جسمه و التدبير لشأنه، و تخليته بين نفسه و بين شهواتها، و من صار الى ذلك فليأخذ بالقصد و النصيب الأقل، و لا يضيع المرء فى فراغه نصيب العلم من نفسه، فيحور من الخير عاطلا، و عن حلال اللّه و حرامه غافلا.

يا معشر الناس، إنه قد تدلّت الجوزاء، و ذكت الشّعرى، و أقلعت السماء، و ارتفع الوباء، و قلّ الندى، و طاب المرعى، و وضعت الحوامل، و درجت السخائل، و على الراعى بحسن رعيّته حسن النظر، فحىّ لكم على بركة اللّه الى ريفكم فنالوا من خيره و لبنه و خرافه و صيده؛ و أربعوا خيلكم و أسمنوها و صونوها و أكرموها، فإنها جنّتكم من عدوّكم و بها مغانمكم و أنفالكم، و استوصوا بمن جاورتموه من القبط خيرا؛ و إياكم و المسوّمات و المعسولات فإنهنّ يفسدن الدّين و يقصّرن الهمم.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١، ص: ٧٤

حدّثنى عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم يقول: «إنّ اللّه سيفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيرا فإنّ لكم منهم صهرا و ذمّة»؛ فكفّوا أيديكم و عفّوا فروجكم و غضّوا أبصاركم، و لا أعلمنّ ما أتى رجل قد أسمن جسمه و أهزل فرسه؛ و اعلموا أنى معترض الخيل كاعتراض الرجال، فمن أهزل فرسه من غير علّة حططته من فريضته قدر ذلك؛ و اعلموا أنكم فى رباط الى يوم القيامة لكثرة الأعداء حولكم و تشوّق قلوبهم اليكم و الى داركم معدن الزرع و المال و الخير الواسع و البركة النامية.

و حدّثنى عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم يقول: «اذا فتح اللّه عليكم مصر فاتّخذوا فيها جندا كثيفا فذلك الجند خير أجناد الأرض» فقال له أبو بكر: و لم يا رسول اللّه؟ قال: «لأنهم و أزواجهم فى رباط الى يوم القيامة».

فاحمدوا اللّه معشر الناس على ما أولاكم، فتمتّعوا فى ريفكم ما طاب لكم، فإذا يبس العود و سخن العمود و كثر الذباب و حمض اللبن و صوّح البقل و انقطع الورد من الشجر، فحىّ الى فسطاطكم على بركة اللّه؛ و لا يقدمنّ أحد منكم ذو عيال على عياله إلا و معه تحفة لعياله على ما أطاق من سعته أو عسرته؛ أقول قولى هذا و أستحفظ اللّه عليكم.

قال: فحفظت ذلك عنه، فقال والدى بعد انصرافنا الى المنزل- لما حكيت له خطبته- إنه يا بنىّ يحدو الناس اذا انصرفوا اليه على الرّباط كما حداهم على الريف و الدّعة].

*** السنة الأولى من ولاية عمرو بن العاص الأولى على مصر و هى سنة عشرين من الهجرة- فيها كانت غزوة تستر؛ و فيها توفى بلال بن رباح الحبشىّ مولى أبى بكر الصديق، و حمامة أمّه، و كان من السابقين الأوّلين و ممن عذّب فى الإسلام

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۷۵

و شهد بدرا و كان مؤذّن النّبىّ صلى اللّه عليه و سلم؛ مات بدمشق بالطاعون فى هذه السنة، و قيل فى التى قبلها و دفن بدمشق بالباب الصغير، و له بضع و ستون سنة رضى اللّه عنه؛ و فيها توفّيت زينب بنت جحش بن رباب الأسدىّ- أسد خزيمة- أمّ المؤمنين، تزوّجها النّبىّ صلى اللّه عليه و سلم سنة ثلاث و قيل سنة خمس و قيل سنة أربع و هو الأصح؛ و فيها توفى البراء بن مالك الأنصارىّ أخو أنس بن مالك الأنصارىّ النّجّارىّ، كان أحد الأبطال الأفراد فى الصحابة رضى اللّه عنهم؛ و فيها توفى عياض بن غنم أبو سعد من المهاجرين الأوّلين، شهد بدرا و غيرها رضى اللّه عنه؛ و فيها توفى سعيد ابن عامر بن حذيم الجمحىّ، كان من أشراف بنى جمح، له صحبة و رواية، قال الذهبىّ:

روى عنه عبد الرحمن بن سابط؛ و فيها توفى أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ابن عمّ النبى صلى اللّه عليه و سلم، و كان رضيع النّبىّ و شبيهه؛ و فيها توفى هرقل عظيم الروم و قام ابنه قسطنطين مكانه.

أمر النيل فى هذه السنة، الماء القديم أربعة أذرع و تسعة أصابع، مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا و إحدى و عشرون إصبعا.

*** السنة الثانية من ولاية عمرو بن العاص الأولى على مصر و هى سنة إحدى و عشرين من الهجرة- فيها فتحت الإسكندرية فى مستهلّها على يد عمرو بن العاص بعد أمور و حروب، و فى آخرها افتتح عمرو بن العاص برقة و صالحهم على ثلاثة عشر ألف دينار؛ و فيها اشتكى أهل الكوفة سعد بن أبى وقّاص الى عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه، فصرفه عمر و ولّى عليهم عمّار بن ياسر على الصلاة، و ولّى عبد اللّه بن مسعود على بيت المال، و ولّى عثمان بن حنيف على مساحة أرض السواد؛ و فيها كان فتح نهاوند، و استشهد أمير الجيش الذى توجّه اليها، و هو النعمان بن مقرّن المزنىّ، و استشهد

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۷۶

أيضا يومئذ طليحة بن خويلد بن نوفل و فتحت تستر؛ و فيها صالح أبو هاشم بن عتبة ابن ربيعة بن عبد شمس على أنطاكية و ملطيّة و غيرهما؛ و فيها توفّى خالد بن الوليد ابن المغيرة بن عبد اللّه بن عمر بن مخزوم القرشىّ المخزومىّ أبو سليمان سيف اللّه، كذا لقّبه النّبىّ صلى اللّه عليه و سلم، و أمّه لبابة أخت ميمونة بنت الحارث أمّ المؤمنين و دفن بحمص، و قبره مشهور يقصد للزيارة؛ و فيها توفّى العلاء بن الحضرمىّ، و اسم الحضرمىّ عبد اللّه بن عبّاد بن أكبر بن ربيعة بن مقنع بن حضرموت حليف بنى أمية، و الى أخيه تنسب بئر ميمونة التى بأعلى مكة احتفرها فى الجاهلية؛ و فيها توفّى الجارود العبدىّ سيّد عبد القيس، و كنيته أبو عتّاب، و قيل أبو المنذر، و قيل اسمه بشر و لقّب جارودا لأنه أغار على بكر بن وائل فأصابهم و جرّدهم، أسلم سنة عشر من الهجرة و فرح النّبىّ صلى اللّه عليه و سلم بإسلامه.

أمر النيل فى هذه السنة، الماء القديم خمسة أذرع و إصبعان، مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا و خمسة أصابع.

*** السنة الثالثة من ولاية عمرو الأولى على مصر و هى سنة اثنتين و عشرين من الهجرة- فيها افتتح عمرو بن العاص طرابلس الغرب، و قيل فى التى بعدها؛ و فيها غزا حذيفة مدينة الدّينور فافتتحها عنوة، و قد كانت فتحت قبل لسعد ثم انتقضت؛ و فيها أيضا غزا حذيفة

ما سبذان فافتتحها عنوة، و قيل كان افتتحها سعد ثم نقضوا؛ و قال طارق بن شهاب: غزا أهل البصرة ماه، فأمدّهم أهل الكوفة و عليهم عمّار بن ياسر فأرادوا أن يشركوا فى الغنائم فأبى أهل البصرة، ثم كتب اليهم عمر: الغنيمة لمن شهد الوقعة؛ و فيها فتحت همذان قاله ابن جرير و غيره؛ و فيها فتحت الرّىّ و ما بعدها، ثم فتحت أذربيجان فى قول الواقدىّ و أبى معشر، و قال سيف: كانت فى سنة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۷۷

ثمانى عشرة، و كان بين أهل هذه البلاد و المسلمين حروب كثيرة حتى فتح اللّه عليهم؛ و فيها توفى أبىّ بن كعب، فى قول الواقدىّ و ابن نمير و الدّيلمى و اليزيدىّ، و قيل فى سنة تسع عشرة.

أمر النيل فى هذه السنة الماء القديم، أعنى القاعدة، ستة أذرع و اثنا عشر إصبعا، مبلغ الزيادة فيها ستة عشر ذراعا و ثمانية عشر إصبعا.

*** السنة الرابعة من ولاية عمرو الأولى على مصر، و هى سنة ثلاث و عشرين من الهجرة- فيها فتح كرمان، و كان أميرها سهل بن عدىّ؛ و فيها فتحت سجستان و كان أمير الجيش عاصم بن عمر؛ و فيها فتحت مكران، و كان أمير الجيش لفتحها الحكم بن عثمان و هى من بلاد الجبل؛ و فيها- ذكر سيف عن مشايخه-: أنّ سارية ابن زنيم قصد فسا و دارابجرد و اجتمع له جموع من الفرس و الأكراد عظيمة و دهم المسلمين منهم أمر عظيم، و رأى عمر بن الخطاب فى تلك الليلة فيما يرى النائم معركتهم و عددهم فى وقت من نهار و أنهم فى صحراء، و هناك جبل إن استندوا اليه لم يؤتوا إلا من جهة واحدة، فنادى عمر من الغداة للصلاة جماعة حتى اذا كانت الساعة التى كان رأى أنهم اجتمعوا فيها خرج الى الناس، فصعد المنبر فخطب الناس و أخبرهم بما رأى ثم قال: يا سارية، الجبل الجبل، ثم قال: إنّ للّه جنودا و لعلّ بعضها أن يبلّغهم؛ قال: ففعلوا ما قال عمر، فنصرهم اللّه على عدوّهم و فتحوا البلد؛ و قيل فى رواية أخرى: إنما كان عمر فى خطبة الجمعة؛ و فيها حجّ عمر بن الخطاب بأزواج النّبىّ صلى اللّه عليه و سلم و هى آخر حجّة حجّها؛ و فيها غزا معاوية بن أبى سفيان الصائفة حتى بلغ عمّوريّة؛ و فيها توفى قتادة بن النعمان بن زيد بن عامر ابن سواد بن كعب و اسمه ظفر بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس أبو عمرو

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۷۸

الأنصارى الظّفرىّ أخو أبى سعيد الخدرىّ لأمّه و قتادة الأكبر، شهد قتادة وقعة بدر، و أصيبت عينه و وقعت على خدّه فى يوم أحد فأتى النّبىّ صلى اللّه عليه و سلم فغمز حدقته و ردّها الى موضعها فكانت أصحّ عينيه؛ و فيها توفى أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب بن نفيل بن عبد العزّى بن رياح بن قرط بن رزاح بن عدىّ بن كعب ابن لؤىّ أبو حفص القرشىّ العدوىّ الفاروق، استشهد فى يوم الأربعاء لثمان بقين من ذى الحجة و قيل لأربع، و سنّه يوم مات نيّفت على ستين سنة، و قيل غير ذلك على أقوال كثيرة، ضربه أبو لؤلؤة و اسمه فيروز عبد المغيرة بن شعبة بخنجر فى خاصرته و هو فى صلاة الصبح فمات بعد ثلاثة أيام، و تولى الخلافة بعده عثمان بن عفان رضى اللّه عنهما، و كانت خلافته عشر سنين و نصف لأنه ولى بعد وفاة أبى بكر الصدّيق فى ثامن جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة.

قلت: و يضيق هذا المحل عن ذكر شيء من بعض مناقبه و ما ورد فى حقه من الأحاديث، و قد ذكرنا ذلك فى غير هذا المكان.

أمر النيل فى هذه السنة، الماء القديم ثلاثة أذرع و ثمانية عشر إصبعا، مبلغ الزيادة ستة عشر ذراعا و اثنا عشر إصبعا.

*** السنة الخامسة من ولاية عمرو بن العاص الأولى على مصر و هى سنة أربع و عشرين من الهجرة- فيها سار منويل الخصىّ الى الإسكندرية فسأل أهل مصر عثمان إرسال عمرو بن العاص لقتال منويل المذكور، فجاء اليها عمرو و حارب حتى افتتحها الفتح الثانى فى هذه السنة، و قيل: بل كان ذلك فى سنة خمس و عشرين و هو الأصح؛ و فيها حج بالناس عثمان بن عفان رضى اللّه عنه؛ و فيها- فى قول سيف- عزل عثمان سعدا عن الكوفة و ولّى الوليد بن عقبة بن أبى معيط

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۷۹

مكانه، فكان هذا مما نقم على عثمان، و كنيته أبو وهب، و هو أخو عثمان لأمه، و له صحبة و رواية، روى عنه أبو موسى الهمذانىّ و

الشّعبیّ؛ و فیها فتح معاویة بن أبی سفیان الحصون و ولد له ابنه یزید؛ و فیها توفی سراقة بن مالک بن جعشم أبو سفیان المدلجیّ.
أمر النیل فی هذه السنة، الماء القدیم ذراعان و أربعة عشر إصبعا، مبلغ الزیادة ستة عشر ذراعا و ستة أصابع.

ذکر ولایة ابن أبی سرح علی مصر

هو عبد اللّه بن سعد بن أبی سرح و اسمه الحسام (و سرح بالسین و الحاء المهملتین) و الحسام بن الحارث بن حبیب (بالحاء المهملة مصغرا) بن جذیمة ابن نصر بن مالک بن حسل بن عامر بن لؤیّ، أبو یحیی العامریّ عامر قریش، ولی إمرة مصر بعد عزل عمرو بن العاص فی سنة خمس و عشرین، کما تقدّم ذکره، من قبل عثمان بن عفان، و جاءه الکتاب بولایته و هو بالفیوم، فجعل لأهل الجواب جعلا فقدموا به مصر، و سکن الفسطاط و مکث أمیرا علی مصر مدّة ولایة عثمان بن عفان کلها و هو أخو عثمان لأمه؛ قاله ابن کثیر، قال: و هو الذی شفع له یوم الفتح حین کان رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم أهدر دمه، یأتی ذکر ذلک مفصّلا فی آخر ترجمته من کلام ابن حجر بعد أن نذکر نبذة من أموره.
و لمّا ولی مصر أحسن السیرة فی الرعیة، و کان جوادا کریما، ثم أمره عثمان أن یغزو إفریقیّة، فإذا افتتحها کان له خمس الخمس من الغنیمة نفلا، فسار عبد اللّه بن
النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۸۰
أبی سرح المذکور الی إفریقیّة فی عشرة آلاف و غزاها حتی افتتح سهلها و جبلها و قتل خلقا کثیرا من أهلها، ثم اجتمعوا علی الطاعة و الإسلام و حسن إسلامهم، و أخذ عبد اللّه بن أبی سرح المذکور خمس الخمس من الغنیمة و بعث بأربعة أخماسه الی عثمان، و قسّم أربعة أخماس الغنیمة فی الجیش فأصاب الفارس ثلاثة آلاف دینار و الراجل ألف دینار.
قال الواقدیّ: و صالحه بطریقها علی ألفی ألف دینار و خمسمائة ألف دینار و عشرین ألف دینار، فأطلقها عثمان کلها فی یوم واحد فی آل الحکم، و یقال: فی آل مروان؛ ثم غزا عبد اللّه بن سعد بن أبی سرح المذکور إفریقیّة ثانیة فی سنة ثلاث و ثلاثین حین نقض أهلها العهد حتی أقرّهم علی الإسلام و الجزیة؛ و استشهد معه فی هذه المرّة بإفریقیّة جماعة منهم: معبد بن العبّاس بن عبد المطلب و غیره.
ثم غزا فی سنة أربع و ثلاثین غزوة ذات الصواری فی البحر من ناحیة الإسکندریة، فلقیه قسطنطین بن هرقل فی ألف مرکب، و قیل فی سبعمائة، و المسلمون فی مائتی مرکب، و تقاتلا فانتصر الأمیر عبد اللّه هذا و هزم الروم؛ و إنما سمّیت غزوة ذات الصواری لکثرة صواری المراکب و اجتماعها. و عاد الی مصر فبلغه فی سنة خمس و ثلاثین خبر من ثار علی عثمان رضی اللّه عنه، و دخل منهم طائفة الی مصر بأمر عثمان، فإنه کان أخرج منهم جماعة الی البصرة و الشام و مصر، فلما قدم من قدم منهم الی مصر وافقهم جماعة من المصریین علی خلاف عثمان کرها فی ابن أبی سرح هذا لکونه ولی بعد عمرو بن العاص، و أیضا لاشتغاله عنهم بقتال أهل المغرب و فتح بلاد البربر و أندلس و إفریقیّة و غیرها، و نشأ بمصر طائفة من أبناء الصحابة یؤلّبون الناس علی حرب عثمان و حرب عبد اللّه بن أبی سرح المذکور،
النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۸۱
و اجتمعوا و استنفروا من مصر فی ستمائة راکب یذهبون الی المدینة فی صفة معتمرین فی شهر رجب لینکروا علی عثمان و ساروا الی المدینة تحت أربع رایات، و أمر الجمیع الی عمرو بن بدیل بن ورقاء الخزاعی و عبد الرحمن التّجیبی، و أقبل معهم محمد بن أبی بکر الصدّیق، و أقام بمصر محمد بن حذیفة یؤلّب الناس و یدافع عن هؤلاء، فکتب ابن أبی سرح الی عثمان یعلمه بقدوم هؤلاء القوم منکرین علیه فی صفة معتمرین، فوقع لهم مع عثمان رضی اللّه عنه أمور یطول شرحها الی أن سألوا عثمان عزل عبد اللّه ابن أبی سرح هذا عن ولایة مصر و یولّی علیهم محمد بن أبی بکر الصدّیق، فأجابهم الی ذلک، فلما رجعوا وجدوا فی الطریق بریدیّا یسیر فأخذوه و

فتّشوه، فاذا معه فی إداوة كتاب كتبه مروان بن الحكم كاتب عثمان و ابن عمّه، و الكتاب علی لسان عثمان، فيه الأمر بقتل طائفة منهم و صلب آخرين و قطع أيدی آخرين منهم و أرجلهم؛ و كان علی الكتاب طبع خاتم عثمان، و البريد أحد غلمان عثمان علی جمله، فلما رجعوا جاءوا بالكتاب الی المدينة و داروا به علی الناس، فكلّم الناس عثمان فی أمر الكتاب؛ فقال عثمان ما معناه: إنه دلّس عليه الكتاب ثم قال: و اللّه لا ـ كتبته و لا ـ أمليته و لا ـ دريت بشیء من ذلك و الخاتم قد يزوّر علی الخاتم، فصدّقه الصادقون و كذّبه الكاذبون فی ذلك؛ و استمرّ عبد اللّه بن أبی سرح علی عمله علی كره من المصريين الی أن خرج من مصر متوجّها الی عثمان بعد أن استخلف عليها عقبة بن عامر الجهنیّ و قتل عثمان رضی اللّه عنه و استخلف علیّ رضی اللّه عنه، فعزل عبد اللّه بن أبی سرح هذا عن مصر و ولّاها لقيس بن سعد بن عبادة رضی اللّه عنهما؛ ثم استولی علی مصر جماعة من قبل علیّ بن أبی طالب و قاتلوا عقبة بن عامر علی ما سيأتی ذكره بعد أن نذكر من توفّی فی أيام ولاية عبد اللّه بن سعد بن أبی سرح هذا علی مصر كما هو عادة كتابنا

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۸۲

هذا، و كان عزل عبد اللّه بن أبی سرح عن مصر فی سنة ست و ثلاثين بعد أن حكمها نحوا من عشر سنين.

و أمّا عبد اللّه بن سعد بن أبی سرح صاحب الترجمة فلم أقف له علی خبر بعد ذلك، غير أنّ بعض المؤرّخين ذكروا أنه توفّی بفلسطين فی سنة ست و ثلاثين المذكورة، و يقال غير ذلك أقوال كثيرة؛ منها:

قال الحافظ شهاب الدين بن حجر العسقلانی فی الإصابة: روی الحاكم من طريق السّدّی عن مصعب بن سعد عن أبيه قال: لمّا كان يوم فتح مكة أمّن النّبیّ صلی اللّه عليه و سلم الناس كلّهم إلا أربعة نفر و امرأتين: عكرمة و ابن خطل و مقيس بن صبابة و ابن أبی سرح، و ذكر الحديث، قال: فأمّا عبد اللّه فاختبأ عند عثمان فجاء به عثمان حتی أوقفه علی النّبیّ صلی اللّه عليه و سلم و هو يبايع الناس، فقال:

يا رسول اللّه، بايع عبد اللّه، فبايعه بعد ثلاث، ثم أقبل علی أصحابه فقال: «أما كان فيكم رجل رشيد يقوم الی هذا حيث رآنی كففت يدی عن مبايعته فيقتله».

و من طريق يزيد النحویّ عن عكرمة عن ابن عباس قال: كان عبد اللّه بن سعد ابن أبی سرح يكتب للنبیّ صلی اللّه عليه و سلم، فزيّن له الشيطان فلحق بالكفّار، فأمر به رسول اللّه صلی اللّه عليه و سلم أن يقتل (يعنی يوم الفتح) فاستجار بعثمان، فأجاره النّبیّ صلی اللّه عليه و سلم. أخرجه أبو داود.

و روی ابن سعد من طريق ابن المسيّب قال: كان رجل من الأنصار نذر إن رأی ابن أبی سرح أن يقتله، فذكر نحوا من حديث مصعب بن سعد عن أبيه.

و روی الدار قطنیّ من حديث سعيد بن يربوع المخزومیّ نحو ذلك؛ و من طريق الحكم بن عبد اللّه عن قتادة بن أنس بمعناه؛ و أوردها ابن عساكر من حديث

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۸۳

عثمان بن عفان أيضا؛ و أفاد سبط ابن الجوزیّ فی «مرآة الزمان»: أنّ الأنصاریّ الذی قال: فهلّا أو مأت الينا، هو عبّاد بن بشر، ثم قال: و قيل: إنّ الذی قال هو عمر.

و قال ابن يونس: شهد فتح مصر و اختطّ بها، و كان صاحب الميمنة فی الحرب مع عمرو بن العاص فی فتح مصر، و له مواقف محمودة فی الفتوح، و أمّره عثمان علی مصر، و لمّا وقعت الفتنة سكن عسقلان و لم يبايع لأحد، و مات بها سنة ست و ثلاثين، و قيل: كان قد سار من مصر الی عثمان و استخلف السائب بن هشام بن عمرو فبلغه قتله، فرجع فتغلّب علی مصر محمد بن أبی حذيفة فمنعه من دخولها، فمضی الی عسقلان، و قيل الی الرملة، و قيل بل شهد صفّين، و عاش الی سنة سبع و خمسين ذكره ابن مندة.

و قال البغویّ: له عن النّبیّ صلّی اللّه عليه و سلم حديث واحد و خرجه، و وقع لنا بعلوّ فی المعرفة لابن مندة. انتهی كلام ابن حجر

باختصار، و تأتی بقیة ترجمة ابن أبی سرح هذا فی حوادث سنیه.

*** السنة الأولی من ولایة عبد اللّه بن سعد بن أبی سرح علی مصر و هی سنة خمس و عشرین من الهجرة- فیها فی قول سیف عزل عثمان سعدا عن الکوفة؛ و فیها سار الجیش من الکوفة و علیهم سلیمان بن ربیعة الی برذعة، فقتل و سبی؛ و فیها حجّ بالناس عثمان بن عفان رضی اللّه عنه.

أمر النیل فی هذه السنة، الماء القدیم ستة أذرع و اثنا عشر إصبعا، مبلغ الزیادة سبعة عشر ذراعا و خمسة أصابع.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۸۴

*** السنة الثانیة من ولایة عبد اللّه بن سعد بن أبی سرح علی مصر و هی سنة ست و عشرین من الهجرة- فیها فتحت سابور و کان أمیر الجیش عثمان بن أبی العاص الثقفیّ، صالحهم علی ثلاثة آلاف ألف و ثلثمائة ألف؛ و فیها زاد عثمان ابن عفان رضی اللّه عنه فی المسجد الحرام و وسّعه و اشتری الزیادة من قوم و أبی آخرون، فهدم علیهم و وضع الأثمان فی بیت المال، فصاحوا بعثمان، فأمر بهم الی الحبس و قال: ما جرأکم علیّ إلا حلمی، و قد فعل هذا عمر فلم تصیحوا علیه؛ و فیها حجّ عثمان بن عفان بالناس.

أمر النیل فی هذه السنة، الماء القدیم خمسة أذرع و عشرون إصبعا، مبلغ الزیادة ستة عشر ذراعا و أربعة إصابع، و قیل خمسة عشر إصبعا.

*** السنة الثالثة من ولایة ابن أبی سرح علی مصر و هی سنة سبع و عشرین- فیها توفی عبد اللّه بن کعب بن عمرو بن عوف بن مبذول، و کنیته أبو یحیی، و قیل: أبو الحارث، صحابیّ شهد بدرا؛ و فیها فتحت الأندلس، و کان أمیر الجیش عبد اللّه بن الحصین و عبد اللّه بن عبد القیس، أتیاها من قبل البحر، کتب الیهما عثمان رضی اللّه عنه یقول: إن القسطنطینیّة إنما تفتح من قبل البحر، و أنتم اذا فتحتم الأندلس فأنتم شرکاء لمن یفتح قسطنطینیة فی الأجر آخر الزمان و السلام. قال ابن جریر: قال بعضهم و فی هذه السنة غزا معاویة قبرس. و قال الواقدیّ: کان ذلک فی سنة ثمان و عشرین. و قال أبو معشر: غزاها معلویة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۸۵

سنة ثلاث و ثلاثین و اللّه أعلم. و قال الواقدیّ: فی هذه السنة فتحت اصطخر ثانیا علی یدی عثمان بن أبی العاص. و قال الذهبیّ: فیها غزا معاویة قبرس و کان معه عبادة بن الصامت و زوجة عبادة أم حرام بنت ملحان الأنصاریة فاستشهدت، کان النّبیّ صلی اللّه علیه و سلم یغشاها و یقیل عندها و بشّرها بالشهادة؛ و فیها صالح عثمان بن أبی العاص أهل أرّجان علی ألفی ألف و مائتی ألف، و صالح أهل دارابجرد علی ألف ألف و ثمانین ألفا؛ و فیها غزا أمیر مصر ابن أبی سرح صاحب الترجمة إفریقیة حسبما تقدّم، و کان معه عبد اللّه بن عمر بن الخطاب و عبد اللّه بن عمرو ابن العاص و عبد اللّه بن الزبیر بن العوّام، و کان المسلمون فی عشرین ألفا، و کان العدوّ (یعنی جرجیر) فی مائتی ألف مقاتل، و فتح اللّه و غنم المسلمون شیئا کثیرا؛ و فیها حجّ بالناس عثمان رضی اللّه عنه.

أمر النیل فی هذه السنة، الماء القدیم أربعة أذرع و ثلاثة عشر إصبعا، مبلغ الزیادة ستة عشر ذراعا و خمسة عشر إصبعا.

*** السنة الرابعة من ولایة ابن أبی سرح علی مصر و هی سنة ثمان و عشرین- فیها فتحت قبرس علی ید معاویة، قاله الذهبیّ فی قول، و کان عمر بن الخطاب رضی اللّه عنه منع المسلمین من الغزو فی البحر شفقة علیهم، فلما ولی عثمان استأذنه معاویة فأذن له ففتح اللّه علی یده؛ و فیها غزا حبیب بن مسلمة سوریة من أرض الروم، قاله الواقدیّ، و فیها غزا الولید بن عقبة أذربیجان. فصالحهم مثل صلح حذیفة؛ و فیها حج بالناس أمیر المؤمنین عثمان بن عفان رضی اللّه عنه.

أمر النیل فی هذه السنة، الماء القدیم ثلاثة عشر ذراعا و ثمانیة عشر إصبعا، مبلغ الزیادة تسعة عشر ذراعا.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۸۶

*** السنة الخامسة من ولایة ابن أبی سرح علی مصر و هی سنة تسع و عشرین- فیها افتتح عبد اللّه بن عامر اصطخر، فی قول، عنوة فقتل و سبی، و کان علی مقدّمته عبد اللّه بن معمر بن عثمان التّیمیّ و کلاهما صحابیّ؛ و فیها عزل عثمان أبا موسی الأشعریّ عن

البصرة بعد عمالة ست سنين، و قيل ثلاث، و ولّى عليها عبد اللّه بن عامر بن كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس، و هو ابن خال عثمان؛ و جمع له بين جند أبى موسى و جند عثمان بن أبى العاص، و له من العمر خمس و عشرون سنة فأقام بها ست سنين؛ و فيها وسّع عثمان بن عفّان مسجد النّبىّ صلى اللّه عليه و سلم و بناه بالقصّة (و هى الكلس) كان يؤتى به من نخلة، و الحجارة المنقوشة و جعل عمده حجارة مرصّعة و سقفه بالساج، و جعل طوله ستين و مائة ذراع و عرضه خمسين و مائة ذراع، و جعل أبوابه ستة على ما كانت عليه فى زمن عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه؛ و فيها حجّ بالناس عثمان بن عفان رضى اللّه عنه و ضرب له بمنى فسطاط، فكان أوّل فسطاط ضربه عثمان بمنى، و أتمّ الصلاة عامه هذا، فأنكر ذلك عليه غير واحد من الصحابة كعلىّ و عبد الرحمن بن عوف و عبد اللّه بن مسعود؛ و فيها نقضت أذربيجان فغزاهم سعيد بن العاص حتى افتتحها ثانيا؛ و فيها فتحت أصبهان؛ و فيها عزل عثمان الوليد بن عقبة بن أبى معيط عن الكوفة و ولّاها سعيد بن العاص.

أمر النيل فى هذه السنة، الماء القديم خمسة أذرع و ستة عشر إصبعا، مبلغ الزيادة ستة عشر ذراعا و ثمانية عشر إصبعا.

*** السنة السادسة من ولاية ابن أبى سرح على مصر و هى سنة ثلاثين بعد الهجرة- فيها افتتح عبد اللّه بن عامر مدينة هور من أرض فارس و غنم منها شيئا كثيرا،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۸۷

ثم افتتح عبد اللّه المذكور أيضا بلادا كثيرة من أرض خراسان، ثم افتتح نيسابور صلحا، و يقال عنوة، ثم صالح أهل سرخس على مائة و خمسين ألفا، و صالح اهل مرو على ألفى ألف و مائتى ألف، و لما فتح عبد اللّه بن عامر هذه البلاد الواسعة كثر الخراج على عثمان و أتاه المال من كل وجه حتى اتخذ الخزائن و زاد الأرزاق؛ و فيها نقض أهل خراسان و تجمّعوا، فنهض لقتالهم الأحنف بن قيس و قاتلهم حتى هزمهم، و كانت وقعة مشهورة؛ و فيها توفّى الطّفيل بن الحارث بن عبد المطلب المطلبىّ، و هو أخو عبيدة بن الحارث و الحصين بن الحارث، و كان ممن شهد بدرا مع النّبىّ صلى اللّه عليه و سلم؛ و فيها توفّى أبىّ بن كعب فى قول الواقدىّ، و قد تقدّم، و هذا أثبت الأقوال فى موته؛ و فيها توفّى حاطب بن أبى بلتعة اللخمىّ حليف بنى أسد بن عبد العزى، و هو صحابىّ شهد بدرا رضى اللّه عنه؛ و فيها توفى عبد اللّه بن كعب بن عمرو المازنى الأنصارىّ البدرىّ أيضا، كنيته أبو الحارث و قيل أبو يحيى، شهد بدرا و كان على الخمس يوم بدر رضى اللّه عنه؛ و فيها توفى عياض بن زهير بن أبى شدّاد بن ربيعة بن هلال أبو سعد القرشىّ، كان أيضا ممن شهد بدرا و المشاهد بعدها، هكذا قال ابن سعد و فرق بينه و بين ابن أخيه عياض ابن غنم بن زهير الفهرىّ أمير الشام المتوفى سنة عشرين؛ و فيها توفّى معمر بن أبى سرح، و اسمه ربيعة بن هلال القرشىّ الفهرىّ أبو سعيد، و قيل اسمه عمرو، و هو أيضا ممن شهد بدرا؛ و فيها توفى مسعود بن ربيعة، و قيل ابن الربيع أبو عمير القارىّ، و القارة حلفاء بنى زهرة، و هو أيضا ممن شهد بدرا و غيرها رضى اللّه عنه.

أمر النيل فى هذه السنة، الماء القديم أربعة أذرع و ستة عشر إصبعا، مبلغ الزيادة أربعة عشر ذراعا و إحدى و عشرون إصبعا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۸۸

*** السنة السابعة من ولاية ابن أبى سرح على مصر و هى سنة إحدى و ثلاثين من الهجرة- فيها توفّى أبو سفيان صخر بن حرب بن أميّة بن عبد شمس بن عبد مناف الأموىّ القرشىّ، أسلم أبو سفيان يوم الفتح و شهد حنينا و أعطاه النّبىّ صلى اللّه عليه و سلم من الغنائم مائة من الإبل و أربعين أوقية، و قد فقئت عينه يوم الطائف، ثم شهد غزوة اليرموک، و فيها توفّى أبو الدرداء، و اسمه عويمر بن يزيد، و قيل عبد اللّه بن قيس بن ثعلبة بن أمية بن مالك بن عامر بن عدىّ بن كعب بن الخزرج الأنصارىّ الصحابىّ المشهور رضى اللّه عنه؛ و فيها توفّى نعيم بن مسعود بن عامر الأشجعىّ، كنيته أبو سلمة له صحبة و رواية رضى اللّه عنه؛ و فيها توفّى كسرى ملك فارس و هو يزدجرد بن شهريار، و سبب هلاكه أنه هرب من كرمان الى مرو فلم يتم له ذلك، فخرج أيضا هاربا إلى أن نزل برجل ينقر الأرحاء فأوى اليه، فقتله الرجل و أخذ ما عليه من الجواهر.

أمر النيل فى هذه السنة، الماء القديم ذراعان و عشرون إصبعا، مبلغ الزيادة خمسة عشر ذراعا و اثنا عشر إصبعا.

*** السنة الثامنة من ولاية ابن أبى سرح على مصر و هى سنة اثنتين و ثلاثين- فيها سار عبد اللّه بن عامر من البصرة الى المشرق ففتتح بها بلادا كثيرة: الطالقان و جرجان و بلخ و طخارستان، و كان على مقدّمته الأحنف بن قيس، و قيل بل جهّز عبد اللّه بن عامر الأحنف و أقام هو بالبصرة يمدّه بالمال و الرجال؛ و فيها غزا عبد الرحمن بن ربيعة بلنجر، و كان صاحبها نازلا قريبا من باب الأبواب و بعث يطلب من سعيد بن العاص المدد فأمدّه بحبيب بن مسلمة الفهرىّ فأبطأ حبيب على

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١، ص: ٨٩

عبد الرحمن فسار عبد الرحمن نحو بلنجر المذكورة و حصرها؛ و فيها توفى أبو ذرّ الغفارىّ، و اسمه جندب بن جنادة بن كعيب بن صعير بن الوقعة بن حرام بن سفيان بن عبيد ابن حرام، كان من أحد السابقين الأوّلين و كان خامسا فى الإسلام رضى اللّه عنه:

و فيها توفى العباس بن عبد المطلب بن هاشم أبو الفضل، عمّ النبى صلى اللّه عليه و سلم، و ولد قبل النبى صلى اللّه عليه و سلم بسنتين أو بثلاث، أسلم بعد وقعة بدر رضى اللّه عنه، و قد استسقى به عمر بن الخطاب فى أيام خلافته فى بعض السنين؛ و فيها توفى عبد اللّه بن مسعود بن غافل بن حبيب بن شمخ بن فأر بن مخزوم بن صاهلة ابن كاهل بن الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل بن مدركة بن الياس بن مضر، أبو عبد الرحمن الهذلىّ حليف بنى زهرة، أسلم قبل عمر، و كان سبب إسلامه مرور النّبىّ صلى اللّه عليه و سلم به و قصته مشهورة، و هو أحد كبار الصحابة رضى اللّه عنه، و هو من السابقين الأوّلين و شهد بدرا و المشاهد كلها؛ و فيها توفى عبد الرحمن بن عوف ابن الحارث بن زهرة بن كلاب، أبو محمد القرشىّ الزّهرىّ، أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، و أحد الثمانية الذين سبقوا للإسلام، و أحد الستة أصحاب الشّورى بعد موت عمر لأجل الخلافة؛ و فيها توفى أبو الدرداء عويمر و قد تقدّم ذكره، و الصحيح أنه توفى فى هذه السنة؛ و فيها توفى الحكم بن العاص بن أمية بن عبد شمس، عمّ عثمان ابن عفان رضى اللّه عنه، و أبو مروان بن الحكم، نفاه النّبىّ صلى اللّه عليه و سلم الى الطائف فدام به الى أن استقدمه عثمان فى خلافته، و سمى الحكم هذا طريد رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم و لعينه؛ و فيها توفى سلمان الفارسىّ، و كنيته أبو عبد اللّه، و يقال له سليمان الخير، أصله من اصطخر، و قيل من أهل أصبهان، من قرية يقال لها جىّ، و هو من الطبقة الثانية من الصحابة رضوان اللّه عليهم أجمعين، كان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١، ص: ٩٠

من المهاجرين، شهد بدرا و أحدا؛ و فيها توفى سنان بن أبى سنان بن محصن الأسدىّ من الطبقة الأولى من الصحابة، كان من المهاجرين، شهد بدرا و أحدا و المشاهد كلّها مع رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم؛ و فيها توفى عبد اللّه بن حذافة بن قيس بن عدىّ ابن سعد بن سهم، كنيته أبو حذافة، كان ممّن هاجر الهجرتين و شهد بدرا و أحدا و الخندق و المشاهد كلّها، و هو رسول النّبىّ صلى اللّه عليه و سلم الى كسرى؛ و فيها توفّى كعب الأحبار بن نافع الحميرىّ من مسلمى أهل الكتاب، كنيته أبو اسحاق، أسلم على يد أبى بكر الصدّيق، و قيل على يد عمر رضى اللّه عنهما، و هو من الطبقة الأولى من التابعين؛ و فيها توفى أبو مسلم الجبلىّ (بالجيم) و هو من جبل صيدا بساحل دمشق، أدرك رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم و أسلم على يد أبى بكر الصدّيق رضى اللّه عنه، و قيل بعد ذلك، و هو من الطبقة الأولى من التابعين؛ و فيها توفى معيقيب بن أبى فاطمة الدّوسىّ الأزدىّ، حليف بنى عبد شمس بن عبد مناف، أسلم بمكة قديما و هاجر الى الحبشة و شهد خيبر رضى اللّه عنه.

أمر النيل فى هذه السنة، الماء القديم خمسة أذرع و ثلاثة أصابع، مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا و تسعة أصابع.

*** السنة التاسعة من ولاية ابن أبى سرح على مصر و هى سنة ثلاث و ثلاثين- فيها نفى عثمان رضى اللّه عنه جماعة من أهل الكوفة الى الشام كانوا يعيبون عليه و يطعنون فيه و يسبّون سعيد بن العاص و الى الكوفة، فكتب سعيد الى عثمان بذلك، فكتب اليه عثمان يسيّرهم الى الشام، فسيّرهم و فيهم عروة بن الجعد البارقى و مالك بن الحارث الأشتر النّخعىّ و جندب بن زهير و عمرو بن الحمق و ابن أبى زياد و غيرهم؛ و فيها غزا معاوية بن أبى سفيان بلاد الروم و وصل الى

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۹۱

حصن المرأة من أعمال ملطيّة و افتتحه؛ و فيها غزا عبد اللّه بن سعد بن أبی سرح إفريقيّة و كانوا نقضوا كما تقدّم فی ترجمته؛ و فيها بعث عبد اللّه بن عامر الأحنف ابن قيس الی خراسان و كانوا أيضا قد نقضوا العهد فقاتلهم و ظفر بهم و لحقه عبد اللّه ابن عامر فهدم مدينتها؛ و فيها توفی المقداد بن عمرو بن ثعلبة بن مالک بن ربيعة الكندیّ، و كنيته أبو معبد، و يقال له ابن الأسود لأنه كان حالف الأسود بن عبد يغوث فی الجاهلية فتبّناه، و إنما قيل له الكندی لأن أباه كان حالف كندة، و هو فی الصحابة من الطبقة الأولی، كان من المهاجرين الأوّلين، شهد بدرا و أحدا و المشاهد كلّها، و كان يقال له فارس الإسلام رضی اللّه عنه.

أمر النيل فی هذه السنة، الماء القديم ذراعان و عشرون إصبعا، مبلغ الزيادة خمسة عشر ذراعا و اثنا عشر إصبعا.

*** السنة العاشرة من ولاية ابن أبی سرح علی مصر و هی سنة أربع و ثلاثين- فيها غزا أمير مصر صاحب الترجمة غزوة ذات الصّواری و انتصر علی الروم حسبما تقدم ذكره؛ و فيها سارت ركائب المنحرفين عن عثمان و كان جمهورهم من أهل الكوفة؛ و فيها توفی إياس بن أبی البكير الكنانی حليف بنی عدیّ، كان من المهاجرين، شهد بدرا هو و إخوته: خالد و عاقل و عامر، و لم يشهد بدرا إخوة أربعة سواهم، و قد شهد إياس هذا فتح مصر رضی اللّه عنه؛ و فيها توفی عبادة ابن الصامت فی قول، و قد تقدّم ذكره و هو أحد النّقباء ليلة العقبة و من كبار الصحابة؛ و فيها توفی مسطح بن أثاثة بن عبد المطلب بن عبد مناف المطّلبیّ المذكور فی حديث الإفک، شهد بدرا و المشاهد بعدها، و كان فقيرا ينفق عليه أبو بكر الصدّيق رضی اللّه عنه؛ و فيها توفی أبو عبس بن جبر بن عمرو الأنصاریّ الأوسی،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۹۲

و اسمه علی الأصحّ عبد الرحمن، و كان اسمه فی الجاهلية عبد العزّی فغيّره رسول اللّه صلی اللّه عليه و سلم، و هو من الذين قتلوا كعب بن الأشرف اليهودیّ و شهد بدرا و غيرها؛ و فيها توفی أبو طلحة الأنصاریّ، و اسمه زيد بن سهل بن الأسود، أحد بنی مالک بن النجار، كان من النّقباء ليلة العقبة، شهد بدرا و المشاهد بعدها.

أمر النيل فی هذه السنة، الماء القديم ستة أذرع و تسعة أصابع، مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا و ستة أصابع.

*** السنة الحادية عشرة من ولاية عبد اللّه بن سعد بن أبی سرح علی مصر و هی سنة خمس و ثلاثين- فيها عزل عبد اللّه بن أبی سرح عن مصر فی قول؛ و فيها كانت غزوة ذی خشب و أمير المسلمين فيها معاوية بن أبی سفيان؛ و فيها كان خروج أمير مصر عبد اللّه بن سعد بن أبی سرح من مصر متوجّها الی عثمان، و استخلف علی مصر عقبة بن عامر الجهنیّ، و قيل السائب بن هشام العامریّ، و جعل علی خراجها سليم بن عتر التّجيبیّ، و كان ذلک فی رجب من سنة خمس و ثلاثين و سار الی عثمان فاستمرّ أمر مصر مستقيما الی شوّال من السنة؛ و فيها خرج محمد ابن [أبی] حذيفة بن عتبة بن ربيعة علی عقبة بن عامر خليفة عبد اللّه بن أبی سرح علی مصر، و ملک مصر علی ما سيأتی ذكره؛ و فيها كانت مقتلة عثمان بن عفان رضی اللّه عنه فی ذی الحجة منها و قصته مشهورة، و قد استوعب ذلک جماعة من المؤرخين فی عدّة كراريس لا سبيل الی تلخيصها فی هذا المحل، غير أننا نذكر نسبته و مدّة خلافته لا غير، فنقول:

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۹۳

هو عثمان بن عفان بن أبی العاص بن أميّة بن عبد شمس أمير المؤمنين، أبو عمزو، و قيل أبو عبد اللّه القرشیّ الأموی؛ و أمه أروی، هو أحد السابقين الأوّلين و ذو النورين و صاحب الهجرتين و زوج الابنتين، مولده قبل عام الفيل بستة أعوام، و قيل بعده بستة أعوام، و خلّفه رسول اللّه صلی اللّه عليه و سلم فی غزوة بدر لمرض زوجته رقيّة بنت النبی صلی اللّه عليه و سلم فتوّفيت بعد بدر بليال، و ضرب له النّبیّ صلی اللّه عليه و سلم بسهم من بدر و آجره، ثم زوّجه بالبنت الأخری أمّ كلثوم.

قال الذهبیّ: روی عطيّة عن أبی سعيد قال: رأيت رسول اللّه صلی اللّه عليه و سلم رافعا يديه يدعو لعثمان، و عن عبد الرحمن بن

سمرة قال: جاء عثمان الى النّبىّ صلى اللّه عليه و سلم بألف دينار فى ثوبه حين جهّز جيش العسرة، فصبّها فى حجر النّبىّ صلى اللّه عليه و سلم فجعل يقلّبها بيده و يقول: «ما ضرّ عثمان بعد اليوم ما عمل» رواه أحمد فى مسنده، و فضائله كثيرة يضيق هذا المحل عن ذكر شيء منها.

قلت: بويع عثمان بالخلافة لما مات عمر فى ذى الحجة سنة أربع و عشرين من الهجرة، فدام فى الخلافة حتى قتل فى هذه السنة رضى اللّه عنه، و تولّى الخلافة من بعده علىّ بن أبى طالب رضى اللّه عنه؛ و فيها توفى كعب الأحبار، و كان أسلم فى خلافة أبى بكر الصدّيق، و كان من أوعية العلم؛ و فيها توفى عبادة بن الصامت الأنصارىّ الصحابىّ المشهور أحد النقباء مات بالرّملة.

أمر النيل فى هذه السنة، الماء القديم ثلاثة أذرع و أربعة و عشرون إصبعا، مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا و إصبعان.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۹۴

ذكر استيلاء محمد بن [أبى] حذيفة على مصر

هو محمد بن [أبى] حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف، وثب على مصر و ملكها من غير ولاية من خليفة، فلذلك لم يعدّه المؤرّخون من أمراء مصر، و كان من خبره أنّه جمع جمعا و ركب بهم على عقبة بن عامر الجهنىّ خليفة عبد اللّه بن سعد بن أبى سرح و قاتله و هزمه و أخرجه من الفسطاط، ثم دعا الناس لخلع عثمان من الخلافة و صار يعدّد أفعاله بكل شيء يقدر عليه، فاعتزله شيعة عثمان و قاتلوه و هم: معاوية بن حديج و خارجة بن حذافة السّهمىّ و بسر بن أبى أرطاة و مسلمة بن مخلّد فى جمع كثير من الناس، و بعثوا الى عثمان بذلك، و بينا أن يأتى الخبر من عثمان قويت شوكة محمد هذا، ثم حضر من عند عثمان سعد بن أبى وقّاص ليصلح أمرهم و يتألف الناس، فخرج اليه جماعة من أعوان محمد بن أبى حذيفة المذكور و كلموه و خاشنوه، ثم قلبوا عليه فسطاطه و شجّوه و نهبوه، فركب من وقته و عاد راجعا و دعا عليهم لما فعلوه به، ثم عاد الى مصر عبد اللّه بن أبى سرح راجعا فمنعه أن يدخل الى مصر و قاتلوه، فكر راجعا الى عسقلان ثم قتل فى هذه الأيام بفلسطين، و قيل بالرّملة حسبما ذكرناه فى آخر ترجمته فى هذا الكتاب، ثم أراد محمد ابن أبى حذيفة أن يبعث جيشا الى عثمان فجهّز اليه ستمائة رجل عليهم عبد الرحمن ابن عديس البلوىّ، و بينما هم فى ذلك إذ قدم عليهم الخبر بقتل عثمان رضى اللّه عنه فى ذى الحجة من السنة، فلمّا وصل الخبر بذلك ثار شيعة عثمان بمصر و عقدوا لمعاوية ابن حديج و بايعوه على الطلب بدم عثمان و ساروا الى الصعيد، فبعث اليهم محمد ابن أبى حذيفة جماعة كثيرة فتقاتلا فهزمت جيش محمد و افترقا، و توجّه معاوية بأصحابه الى جهة برقة فأقام بها مدّة ثم عاد الى الإسكندرية، فبعث اليه محمد ابن أبى حذيفة بجيش آخر فاقتتلوا بخربتا أوّل شهر رمضان من سنة ست و ثلاثين

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۹۵

فانهزم جيش محمد أيضا، و أقامت شيعة عثمان بخربتا الى أن قدم معاوية بن أبى سفيان من الشأم الى مصر، فخرج اليه محمد بن أبى حذيفة بأصحابه و منعوه من الدخول الى الفسطاط، ثم اتفقا على أن يجعلا رهنا و يتركا الحرب، فاستخلف محمد ابن أبى حذيفة على مصر الحكم بن الصّلت و خرج فى الرهن هو و ابن عديس و عدّة من قتلة عثمان، فلما وصلوا الى معاوية قبض عليهم و حبسهم و سار الى دمشق فهربوا من السجن، فتتبعهم أمير فلسطين حتى ظفر بهم و قتلهم فى ذى الحجة سنة ست و ثلاثين، فلما بلغ الخبر أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب رضى اللّه عنه بمصاب محمد بن جذيفة ولّى على مصر قيس بن سعد بن عبادة الأنصارى رضى اللّه عنه.

ذكر ولاية قيس بن سعد بن عبادة على مصر

هو قيس بن سعد بن عبادة بن دليم الأنصارى الخزرجىّ المدنىّ؛ قال الذهبىّ: كان من النّبىّ صلى اللّه عليه و سلم بمنزلة، و له عدّة أحاديث، روى عنه عبد الرحمن بن أبى ليلى و عروة بن الزبير و الشعبىّ و ميمون بن أبى شبيب و غريب ابن حميد الهمدانىّ و

جماعة، و كان ضخما جسما طويلا جدّا سيدا مطاعا كثير المال جوادا كريما يعدّ من دهاة العرب. قال عمرو بن دينار: كان ضخما جسيما صغير الرأس ليست له لحية، و اذا ركب الحمار خطّت رجلاه الأرض؛ روى عنه أنه قال:

لو لا أنى سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم يقول: «المكر و الخديعة فى النار» لكنت من أمكر هذه الأمة. و قال الزهرىّ: أخبرنا ثعلبة بن أبى مالك أنّ قيس ابن سعد كان صاحب لواء رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم. و قال جويرية بن أسماء:

كان قيس يستدين و يطعمهم، فقال أبو بكر و عمر: إن تركنا هذا الفتى أهلك مال

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۹۶

أبيه، فمشيا فى الناس فصلى النّبىّ صلى اللّه عليه و سلم يوما فقام سعد بن عبادة خلفه، فقال: من يعذرنى من ابن أبى قحافة و ابن الخطاب يبخلان علىّ ابنى ا ه.

و قال موسى بن عقبة: وقفت على قيس عجوز فقالت: أشكو اليك قلة الجرذان، فقال: ما أحسن هذه الكناية! املئوا بيتها خبزا و لحما و سمنا و تمرا. و قال أبو تميلة يحيى بن واضح: أخبرنا أبو عثمان من ولد الحارث بن الصّمّة قال: بعث قيصر الى معاوية: ابعث إلىّ سراويل أطول رجل من العرب، فقال لقيس بن سعد: ما أظنّ إلا قد احتجنا الى سراويلك، فقام و تنحى و جاء بها فألقاها، فقال:

ألا ذهبت الى منزلك ثم بعثت بها! فقال:

أردت بها أن يعلم الناس أنها سراويل قيس و الوفود شهود

و ألا يقولوا غاب قيس و هذه سراويل عادىّ نمته ثمود

و انى من الحىّ اليمانى لسيّد و ما الناس إلا سيّد و مسود

فكدهم بمثلى إن مثلى عليهم شديد و خلقى فى الرجال مديد

فأمر معاوية أطول رجل فى الجيش فوضعها على أنفه، قال: فوقفت بالأرض ا ه.

و لما ولاه أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب على مصر لما ولى الخلافة بعد قتل عثمان و بعثه الى مصر فوصل اليها فى مستهل شهر ربيع الأوّل سنة سبع و ثلاثين فدخلها قيس و مهد أمورها و استمال الخارجية بخربتا من شيعة عثمان و ردّ عليهم أرزاقهم، و قدموا عليه بمصر فأكرمهم و أنعم عليهم، و كان عنده رأى و معرفة و دهاء، فعظم على معاوية بن أبى سفيان و عمرو بن العاص ولايته لمصر فإنه كان من حزب على بن أبى طالب رضى اللّه عنه، و اجتهدا كثيرا ليخرجاه منها فلم يقدرا على ذلك

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۹۷

حتى عمل معاوية على قيس من قبل علىّ بن أبى طالب و أشاع أن قيسا من شيعته و من حزبه، و أنه يبعث اليه بالكتب و النصيحة سرّا، و لا زال يظهر ذلك حتى بلغ عليا، و ساعده فى ذلك محمد بن أبى بكر الصدّيق لحبه مصر أو لإمرتها و عبد اللّه بن جعفر، فما زالا بعلىّ حتى كتب لقيس بن سعد يأمره بالقدوم عليه، و عزله عن مصر، فكانت ولايته على مصر من يوم دخلها الى أن صرف عنها أربعة أشهر و خمسة أيام و كان عزله فى خامس رجب من سنة سبع و ثلاثين، و ولّى عليها الأشتر النخعىّ.

و روينا عن أبى المظفر شمس الدين يوسف بن قزأ و غلى كما أخبرنا أبو الحسن علىّ بن صدقة الشافعىّ أخبرنا القاضى الإمام تاج الدين أحمد الفرغانىّ الحنفىّ أخبرنا حيدرة بن المحيا العباسىّ حدّثنا صالح بن الصباغ أخبرنا أبو المؤيد محمود قال حدّثنا الحافظ شمس الدين يوسف بن قزأوغلى إجازة بكتابه «مرآة الزمان» قال: خرج قيس ابن سعد بن عبادة من عند علىّ حتى دخل مصر فى سبعة نفر و صعد المنبر و قعد عليه و قرأ كتاب علىّ على الناس، و فيه: «من عبد اللّه علىّ بن أبى طالب أمير المؤمنين الى من بلغه كتابى هذا من المسلمين و المؤمنين سلام عليكم، أما بعد، فإنى أحمد اليكم اللّه الذى لا إله إلا هو، و أصلى على رسوله صلى اللّه عليه و سلم، و ذكر الأنبياء و أنّ اللّه توفى رسوله و استخلف بعده خليفتين صالحين عملا بالكتاب و السنة و أحسنا السيرة ثم توفاهما اللّه تعالى على ما كانا عليه، ثم ولى بعدهما وال أحدث أحداثا فوجدت عليه الأمة مقالا [فقالوا ثم] نقموا عليه و غيّروه، ثم جاءونى و

بايعونى، و للّه علىّ العمل بكتابه و سنة رسوله و النصح للرعية ما بقيت و اللّه المستعان، و بعثت اليكم بقيس بن سعد بن عبادة أميرا، فوازروه و عاشروه و أعينوه على الحق، و قد أمرته بالإحسان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۹۸

الى محسنكم و الشدّة على مريبكم و الرفق بعوامّكم و خواصّكم، و هو ممّن أرضى هديه و أرجو صلاحه و نصيحته، و أسأل اللّه لنا و لكم عملا صالحا و ثوابا جزيلا و رحمة واسعة و السلام عليكم. و كتبه عبد اللّه بن أبى طالب فى رابع صفر سنة ست و ثلاثين» ثم قال قيس: أيها الناس قد جاء الحق و زهق الباطل، و بايعنا خير من نعلم بعد نبينا صلى اللّه عليه و سلم فقوموا فبايعوا على كتاب اللّه و سنة رسوله صلى اللّه عليه و سلم فإن نحن لم نعمل بذلك فلا بيعة لنا عليكم، فقام الناس و بايعوا و استقامت مصر، و بعث عليها عمّاله إلا قرية من قرى مصر يقال لها: «خربتا» فيها أناس قد أعظموا قتل عثمان، و بها رجل من كنانة من بنى مدلج يقال له: يزيد بن الحارث بن مدلج، فأرسلوه الى قيس بن سعد: إنا لا نقاتلك فابعث عمّالك فالأرض أرضك، و لكن أقرّنا على حالنا حتى ننظر ما يصير اليه أمر الناس. و وثب مسلمة بن مخلّد الأنصارىّ فنعى عثمان و دعا الى الطلب بدمه، فأرسل اليه قيس بن سعد: ويحك! علىّ تثب! فو اللّه ما أحبّ أن لى ملك مصر الى الشأم و أنى قتلتك فبعث اليه مسلمة يقول:

إنى كافّ عنك ما دمت و الى مصر، و كان قيس بن سعد له رأى و حزم، فبعث الى الذين بخربتا: إنى لا أكرهكم على البيعة و أكفّ عنكم، فهادنهم و هادن مسلمة ابن مخلّد و أقام قيس يجبى الخراج و لا ينازعه أحد من الناس، و خرج أمير المؤمنين الى وقعة الجمل و رجع الى الكوفة و قيس مكانه، فكان قيس أثقل خلق اللّه على معاوية بن أبى سفيان لقربه من الشأم مخافة أن يقفل عليه علىّ بن أبى طالب من العراق و يقبل اليه قيس بأهل مصر فيقع معاوية بينهما فأخذ يخدعه.

فكتب معاوية الى قيس:

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۹۹

«من معاوية بن أبى سفيان الى قيس بن سعد بن عبادة: سلام عليك، أما بعد، فإنكم إن كنتم نقمتم على عثمان فى أمور رأيتموها أو ضربة سوط ضربها أو شتمة شتمها أو فى سير سيّره أو فى استعماله الفىء فقد علمتم أنّ دمه لم يكن حلالا لكم، فقد ركبتم عظيما من الأمر و جئتم شيئا إدّا، فتب الى اللّه يا قيس بن سعد، فإنك ممن أعان على قتل عثمان، إن كانت التوبة من قتل المؤمن تغنى شيئا؛ و أما صاحبك فقد تيقنا أنه الذى أغرى به و حملهم على قتله حتى قتلوه، و أنه لم يسلم من دمه عظم قومك، فإن استطعت أن تكون ممن يطلب بدم عثمان فافعل، فإن بايعتنا على هذا الأمر فلك سلطان العراقين، و لمن شئت من أهلك سلطان الحجاز ما دام لى سلطان، و سلنى غير هذا مما تحب، فإنك لا تسألنى شيئا إلا أوتيته، و اكتب إلىّ برأيك فيما كتبت به إليك و السلام».

فلما جاءه كتاب معاوية أحبّ قيس أن يدافعه و لا يبدى له أمره و لا يتعجل حربه؛ فكتب اليه:

«أما بعد، فقد بلغنى كتابك و فهمت ما ذكرت فيه، فأما ما ذكرت من أمر عثمان فذلك أمر لم أقار به و لم أتنطف به؛ و أما قولك: إن صاحبى أغرى الناس بعثمان فهذا أمر لم أطلع عليه، و ذكرت أن معظم عشيرتى لم يسلموا من دم عثمان، فأوّل الناس فيه قياما عشيرتى و لهم أسوة غيرهم؛ و أما ما ذكرت من مبايعتى إياك و ما عرضت علىّ فلى فيه نظر و فكرة و ليس هذا مما يسارع اليه، و أنا كافّ عنك و لن يبدو لك من قبلى شيء مما تكره و السلام».

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۱۰۰

فلما قرأ كتابه معاوية لم يره إلا مباعدا مفارقا فلم يأمن مكره و مكيدته، فكتب اليه ثانيا:

«أما بعد، فقد قرأت كتابك فلم أرك تدنو فأعدّك سلما، و لم أرك مباعدا فأعدّك حربا، و ليس مثلى من يخدع و بيده أعنة الخيل و معه أعداد الرجال و السلام».

فلما قرأ قيس كتابه و رأى أنه لا يقبل منه المدافعة و المماطلة أظهر له ما فى نفسه، و كتب اليه:

«أما بعد، فالعجب من اغترارك بى يا معاوية و طمعك فىّ تسومنى الخروج عن طاعة أولى الناس بالإمرة، و أقربهم بالخلافة، و أقولهم بالحق، و أهداهم سبيلا، و أقربهم الى رسوله وسيلة، و أوفرهم فضيلة، و تأمرنى بالدخول فى طاعتك طاعة أبعد الناس من هذا الأمر، و أقولهم بالزور و أضلهم سبيلا، و أبعدهم من اللّه و رسوله [وسيلة] ولد ضالين مضلين طاغوت من طواغيت إبليس، و أما قولك: معك أعنة الخيل و أعداد الرجال لتشتغلنّ بنفسك حتى العدم.

و قال هشام: و لما رأى معاوية أن قيس بن سعد لا يلين له كاده من قبل علىّ؛ و كذا روى عبد اللّه بن أحمد بن حنبل باسناده ا ه.

و قال هشام بن محمد: عن أبى مخنف وجه آخر فى حديث قيس بن سعد و معاوية، قال: لما أيس معاوية من قيس بن سعد شقّ عليه لما يعرف من حزمه و بأسه، فأظهر للناس أن قيسا قد بايعه، و اختلق معاوية كتابا فقرأه على أهل الشأم و فيه:

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۱۰۱

أمّا بعد، لمّا نظرت أنه لا يسعنى مظاهرة قوم قتلوا إمامهم محرما مسلما برّا تقيا مستغفرا و إنى معكم على قتله بما أحببتم من الأموال و الرجال متى شئتم عجلت اليكم.

قال: فشاع فى أهل الشأم أن قيسا قد بايع معاوية و بلغ عليا ذلك فأكبره و أعظمه، فقال له عبد اللّه بن جعفر: دع ما يريبك الى ما لا يريبك، اعزل قيسا عن مصر، فقال علىّ: و اللّه ما أصدّق هذا على قيس، ثم عزله و ولّى الأشتر، و قيل محمد بن أبى بكر الصدّيق فى قول ابن سيرين، فلما عزله عرف قيس أن عليّا قد خدع و توجه اليه و صار معه؛ قال عروة: و كان قيس بن سعد مع علىّ فى مقدّمته و معه خمسة آلاف قد حلقوا رءوسهم بعد موت علىّ، فلما دخل الجيش فى بيعة معاوية أبى قيس أن يدخل، و قال لأصحابه: ما شئتم، إن شئتم جالدت بكم أبدا حتى يموت الأعجل، و إن شئتم أخذت لكم أمانا، قالوا: خذ لنا ففعل؛ فلما ارتحل نحو المدينة جعل ينحر كلّ يوم جزورا. قال الواقدىّ و غيره: إنه توفى فى آخر خلافة معاوية رضى اللّه عنهم أجمعين.

السنة التى حكم فى بعضها قيس بن سعد بن عبادة على مصر و هى سنة ست و ثلاثين- فيها كانت وقعة الجمل بين علىّ رضى اللّه عنه و بين عائشة أمّ المؤمنين رضى اللّه عنها و معها طلحة بن عبيد اللّه و الزبير بن العوّام و غيرهما، و كانت فيها مقتلة عظيمة قتل فيها عدّة من الصحابة و غيرهم؛ قال البلاذرىّ: التقوا بمكان يقال له «الخريبة» فى جمادى الأولى سنة ست و ثلاثين ا ه.

قلت: و ممن قتل فى هذه الوقعة طلحة بن عبيد اللّه بن عثمان بن عمرو بن كعب ابن سعد بن تيم بن مرّة التيمىّ، أحد السابقين الأوّلين، و أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، و أحد الستة أهل الشورى بعد موت عمر بن الخطاب قتله مروان بن الحكم

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۱۰۲

فى منصرفه من وقعة الجمل بساعة، و كان مروان مع عائشة أيضا غير أنه لما رأى انصرافه رمى عليه بسهم قتله، و قال لأبان بن عثمان بن عفان: قد كفيتك بعض قتلى أبيك- يعنى أنه كان مواريا على عثمان فى أوّل الأمر- و فيها قتل الزبير بن العوّام ابن خالد بن أسد بن عبد العزّى بن قصىّ بن كلاب أبو عبد اللّه القرشىّ الأسدىّ المكّى حوارىّ رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم و ابن عمته صفية، و أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، و أحد الستة أهل الشورى، شهد بدرا و أحدا و المشاهد كلها، أسلم و هو ابن ست عشرة سنة و هو من السابقين، قتله عمير بن جرموز بعد انصرافه من وقعة الجمل بساعة؛ و فيها توفّى حذيفة بن اليمان و اسم اليمان حسيل (و يقال حسيل بالتصغير) بن جابر بن أسيد، و قيل ابن عمرو، أبو عبد اللّه العبسى حليف الأنصار، صاحب سرّ رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم؛ و فيها توفى سلمان الفارسىّ رضى اللّه عنه فى قول و قد تقدّم ذكره.

أمر النيل فى هذه السنة، الماء القديم سبعة أذرع و ثمانية عشر إصبعا، مبلغ الزيادة ثمانية عشر ذراعا و إصبعان.

ذكر ولاية الأشتر النّخعىّ على مصر

و فى ولاية الأشتر هذا على مصر قبل محمد بن أبى بكر الصدّيق اختلاف كثير، حكى جماعة كثيرة من المؤرّخين و ذكروا ما يدل

علی أنّ ولایـة محمـد بن أبی بکر کانت هی السابقة بعد عزل قیس بن سـعد بن عبادة، و جماعة قدّموا ولایة الأشتر هذا، و لکل منهما استدلال قویّ، و الذین قدّموا الأشتر هم الأکثر، و قد رأیت فی عدّة کتب ولایة الأشتر هی المقدّمة فقدّمته لذلک.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱، ص: ۱۰۳

و الأشتر اسمه مالک بن الحارث، قال أبو المظفّر فی مرآة الزمان: قال علماء السیرة کابن إسحاق و هشام و الواقدیّ قالوا: لما اختلّ أمر مصـر علی محمـد بن أبی بکر الصـدّیق و بلغ أمیر المؤمنین علیّ بن أبی طـالب قـال: ما لمصـر إلا أحـد الرجلین، صاحبنا الـذی عزلناه عنها- یعنی قیس بن سعد بن عبادة- أو مالک ابن الحارث- یعنی الأشتر هذا.

قلت: و هـذا مما یـدل علی أنّ ولایـة محمـد بن أبی بکر الصـدّیق کانت هی السابقة، اللهم إلا إن کان لما اختل أمر مصـر علی محمد عزله علیّ رضـی اللّه عنه بالأـشتر، ثم اسـتمرّ محمـد ثانیـا بعـد موت الأشتر علی عمله حتی وقع من أمره ما سـنذکره، و هـذا هو أقرب للجمع بین الأقوال لأن الأشتر توفّی قبل دخوله الی مصـر و اللّه أعلم؛ و کان علیّ رضی اللّه عنه حین انصرف من صفّین ردّ الأشتر الی عمله علی الجزیرة و کـان عاملاـ علیهـا، فکتب إلیه و هو یومئـذ بنصـیبین: سـلام علیـک یا مالک، فإنک ممن اسـتظهرتک علی إقامة الـدین؛ و کنت قـد ولّیت محمـد بن أبی بکر مصـر فخرجت علیه خوارج، و هو غلاـم حـدث السنّ غرّ لیس بـذی تجربـة للحرب و لا مجرّب للأشـیاء، فاقـدم علیّ لننظر فی ذلـک کما ینبغی و اسـتخلف علی عملک أهل الثقـة و النّصـفة من أصـحابک و السـلام. فأقبل مالـک- أعنی الأـشتر- علی علیّ رضـی اللّه عنه فـأخبره بحـدیث محمـد و ما جری علیه، و قال: لیس لها غیرک، فاخرج رحمک اللّه فإنی إن لم أوصک اکتفیت برأیک فاسـتعن بالله علی ما أهمّک، و اخلط الشدّة باللین و ارفق ما کان الرفق أبلغ. فخرج الأشتر من عند علیّ و أتی رحله و تهیّأ للخروج الی مصـر، و کتب عیون معاویـة إلیه بولایـة الأشتر علی مصـر فشقّ علیه و عظم ذلک لدیه، و کان قد طمع فی مصر و علم أن الأشتر متی قدمها کان أشدّ علیه، فکتب معاویة الی الخانسیار

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱، ص: ۱۰۴

(رجـل من أهـل الخراج، و قیـل کـان دهقـان القلزم) یقول: إن الأشتر واصل الی مصـر قـد ولیها، فإن أنت کفیتنی إیّاه لم آخـذ منک خراجا ما بقیت، فأقبل لهلاکه بکل ما تقـدر علیه؛ فخرج الخانسـیار حتی قدم القلزم فأقام به، و خرج الأشتر من العراق یرید مصـر حتی قدم الی القلزم فاسـتقبله الخانسـیار فقال له: انزل فإنی رجل من أهل الخراج و قد أحضرت ما عندی، فنزل الأشتر فأتاه بطعام و علف و سقـاه شـربة من عسل جعل فیها سـما، فلما شـربه مات، و بعث الخانسـیار [من] أخبر بموته معاویـة، فلما بلغ معاویـة و عمرو بن العاص موت الأشتر قال عمرو بن العاص:

إن للّه جنودا من عسل.

و قال ابن الکلبیّ عن أبیه: لما سار الأشتر الی مصـر أخـذ فی طریق الحجاز فقـدم المدینة، فجاءه مولی لعثمان بن عفان یقال له نافع، و أظهر له الودّ و قال له:

أنا مولی عمر بن الخطاب، فأدناه الأشتر و قرّ به و وثق به و ولّاه أمره، فلم یزل معه الی عین شـمس (أعنی المدینة الخراب خارج مصـر بالقرب من المطریـة) و فیها ذلک العمود المـذکور فی أوّل أحوال مصـر من هذا الکتاب، فلما وصل الی عین شـمس تلقّاه أهل مصـر بالهدایا؟؟؟ و سقاه نافع المذکور العسل فمات منه.

و قال ابن سـعد: إنه سمّ بالعرش؛ و قال الصوریّ: صوابه بالقلزم؛ و قال أبو الیقظان: کان الأشتر قد ثقل علی أمیر المؤمنین علیّ أمره، و کان متجرّیا علیه مع شدّة محبته له.

و حکی عن عبـد اللّه بن جعفر قـال: کان علیّ قـد غضب علی الأشتر و قلاه و اسـتثقله، فکلّمنی أن أکلّمه فیه، فقلت: یا أمیر المؤمنین، ولّه مصر فإن ظفروا به استرحت منه فولّاه، و کانت عائشة رضی اللّه عنها قد دعت علیه فقالت: اللهم

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱، ص: ۱۰۵

ارمه بسهم من سهامک؛ و اختلفوا فی وفاة الأشتر، فقال ابن یونس: مات مسموما سنة سبع و ثلاثین، و قال هشام: سنة ثمان و ثلاثین فی رجب؛ و کان الأشتر شجاعا مقداما، و قصته مع عبد اللّه بن الزبیر مشهورة، و قول ابن الزبیر بسببه:

اقتلانی و مالکا و اقتلا مالکا معی

حتی صار هذا البیت مثلا.

و شرح ذلک: أن مالک بن الحارث (أعنی الأشتر النّخعیّ) کان من الشجعان الأبطال المشهورین، و کان من أصحاب علیّ و کان معه فی یوم وقعة الجمل، فتماسک فی الوقعة هو و عبد اللّه بن الزبیر بن العوام، و کان عبد اللّه أیضا من الشجعان المشهورین، و کان عبد اللّه بن الزبیر من حزب أبیه، و خالته عائشة أمّ المؤمنین رضی اللّه عنهم، و کانوا یحاربون علیّا رضی اللّه عنه فلما تماسکا صار کل واحد منهما اذا قوی علی الآخر جعله تحته و رکب صدره، و فعلا ذلک مرارا و ابن الزبیر یقوّل:

اقتلانی و مالکا و اقتلا مالکا معی

یرید قتل الأشتر بهذا القول و المساعدة علیه حتی افترقا من غیر أن یقتل أحدهما الآخر؛ و قال عبد اللّه بن الزبیر المذکور: لقیت الأشتر النّخعیّ یوم الجمل فما ضربته ضربة إلّا ضربنی ستا أو سبعا، ثم أخذ رجلی و ألقانی فی الخندق و قال: و اللّه لو لا قرابتک من رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم ما اجتمع منک عضو الی عضو أبدا.

و قال ابن قیس: دخلت مع عبد اللّه بن الزبیر الحمام و اذا فی رأسه ضربة لو صبّ فیها قارورة لاستقرّ، فقال: أ تدری من ضربنی هذه الضربة؟ قلت:

لا، قال: ابن عمّک الأشتر النخعیّ.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۱۰۶

و قال أبو بکر بن أبی شیبة: أعطت عائشة رضی اللّه عنها لمن بشّرها بسلامة ابن أختها عبد اللّه بن الزبیر لما لاقی الأشتر عشرة آلاف درهم. و قیل: إن الأشتر دخل بعد ذلک علی عائشة رضی اللّه عنها، فقالت له: یا أشتر، أنت الذی أردت قتل ابن أختی یوم الوقعة، فأنشد:

أعائش لو لا أنّنی کنت طاویا ثلاثا لألفیت ابن أختک هالکا

غداة ینادی و الرماح تنوشه بآخر صوت اقتلانی و مالکا

فنجّاه منّی أکله و سنانه و خلوة جوف لم یکن متمالکا

ذکر ولایة محمد بن أبی بکر الصدّیق رضی اللّه عنه علی مصر

هو محمد بن أبی بکر الصدّیق، و اسم أبی بکر عبد اللّه بن أبی قحافة، و اسم أبی قحافة عثمان؛ أسلم أبو قحافة یوم الفتح فأتی به ابنه أبو بکر الصدّیق الی النّبیّ صلی اللّه علیه و سلم یقوده لکبر سنّه، فقال النّبیّ صلی اللّه علیه و سلم: «لم لا ترکت الشیخ حتّی نأتیه» إجلالا لأبی بکر رضی اللّه عنه. ا ه.

و أبو قحافة المذکور ابن عامر بن عمرو بن کعب بن سعد بن تیم بن مرّة بن کعب بن لؤیّ القرشیّ التیمیّ، و کنیة محمد هذا (أعنی صاحب الترجمة) أبو القاسم، و أمه أسماء بنت عمیس الخثعمیّة، و مولده سنة حجة الوداع بذی الحلیفة فی عقب ذی القعدة، فأراد أبو بکر أن یردّ أسماء الی المدینة، فسأل النّبیّ صلی اللّه علیه و سلم فقال: «مرها أن تغتسل و تهلّ» و کان محمد هذا فی حجر علیّ بن أبی طالب رضی اللّه عنه لمّا تزوّج أمّه أسماء بعد وفاة أبی بکر الصدّیق فتولّی تربیته، و لما سار علیّ الی وقعة الجمل کان محمد هذا معه علی الرجّالة، ثم شهد معه وقعة صفّین،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۱۰۷

ثم ولّاه مصر فتوجّه إليها و دخلها فی النصف من شهر رمضان سنة سبع و ثلاثين، فتلقّاه قيس بن سعد المعزول عن ولاية مصر، و قال له: يا أبا القاسم، إنّك قد جئت من عند أمير لا- رأى له، و ليس عزله إيّاى بمانعى أن أنصح لك و له، و أنا من أمركم هذا على بصيرة، و إنّى أدلّك على الذى كنت أكيد به معاوية و عمرا و أهل خربتا فكايدهم به، فإنّك إن كايدتهم بغيره تهلك، و وصف له المكايدة التى يكايدهم بها فاستغشه محمد بن أبى بكر و خالفه فی كلّ شیء أمره به، ثم كتب إليه علیّ يشجّعه و يقوّى عزمه، ففتك محمد فی المصريين و هدم دور شيعة عثمان بن عفّان و نهب دورهم و أموالهم و هتك ذراريّهم، فنصبوا له الحرب و حاربوه، ثم صالحهم على أن يسيّرهم الى معاوية، فلحقوا بمعاوية فی الشام، و كان أهل الشام لما انصرفوا من وقعة صفّين ينتظرون ما يأتی به الحكمان؛ فلما اختلف الناس بالعراق على علیّ رضی اللّه عنه طمع معاوية فی مصر، و كان أهل خربتا عثمانية و من كان من الشيعة كان أكثر منهم، فكان معاوية يهاب مصر لأجل الشيعة و قصد معاوية أن يستعين بأخذ مصر على حرب علیّ رضی اللّه عنه قال: فاستشار معاوية أصحابه عمرو بن العاص و حبيب بن مسلمة و بسر بن أبى أرطاة و الضحاك بن قيس و عبد الرحمن ابن خالد و أبا الأعور عمرو بن سفيان السّلمیّ و غيرهم (و هؤلاء المذكورين كانوا خواصّه) فجمع المذكورين و قال: هل تدرون ما أدعوكم إليه؟ قالوا: لا يعلم الغيب إلّا اللّه، فقال له عمرو بن العاص: نعم، أهمّك أمر مصر و خراجها الكثير و عدد أهلها فتدعونا لنشير عليك فيها فاعزم و انهض، فی افتتاحها عزّك و عزّ أصحابك و كبت عدوّك، فقال له: يا بن العاص، إنّما أهمّك الذى كان بيننا (يعنى أنّه كان أعطاه مصر لمّا صالحه على قتال علیّ) و قال معاوية للقوم: ما ترون؟ قالوا:

ما نرى إلّا رأى عمرو، قال: فكيف أصنع؟ فقال عمرو: ابعث جيشا كثيفا

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ١، ص: ١٠٨

عليهم رجل حازم صارم تثق إليه فيأتی الى مصر، فإنه سيأتيه من كان من أهلها على رأينا فنظاهره على من كان بها من أعدائنا، قال معاوية: أو غير ذلك؟ قال:

و ما هو؟ قال: نكاتب من بها من شيعتنا نأمرهم على أمرهم و نمنّيهم قدومنا عليهم فتقوى قلوبهم و نعلم صديقنا من عدوّنا، و إنّك يا بن العاص بورك لك فی العجلة، قال عمرو: فاعمل برأيك فو اللّه ما أرى أمرك إلا صائرا للحرب، قال: فكتب إليهم معاوية كتابا يثنى عليهم و يقول: هنيئا لكم بطلب دم الخليفة المظلوم و جهادكم أهل البغى، و قال فی آخره: فاثبتوا فإنّ الجيش واصل إليكم و السلام. و بعث بالكتاب مع مولى يقال له سبيع فقدم مصر، و أميرها محمد بن أبى بكر الصدّيق، فدفع الكتاب الى مسلمة بن مخلّد الأنصاریّ و الى معاوية بن حديج، فكتبا جوابه:

أما بعد، فعجل علينا بخيلك و رجلك، فإنّ عدوّنا قد أصبحوا لنا هائبين، فإن أتانا المدد من قبلك يفتح اللّه علينا، و ذكرا كلاما طويلا؛ و كان مسلمة و معاوية ابن حديج يقيمان بخربتا فی عشرة آلاف، و قد باينوا محمد بن أبى بكر و لم يحسن محمد تدبيرهم كما كان يفعله معهم قيس بن سعد بن عبادة أيام ولايته على مصر، فلذلك انتقضت على محمد الأمور و زالت دولته؛ و لما وقف معاوية على جوابهما و كان يومئذ بفلسطين جهّز عمرو بن العاص فی ستة آلاف و خرج معه معاوية يودّعه و أوصاه بما يفعل، و قال له: عليك بتقوى اللّه و الرفق فإنه يمن و العجلة من الشيطان، و أن تقبل ممن أقبل و تعفو عمن أدبر، فإن قبل فهذه نعمة، و إن أبى فإن السطوة بعد المعذرة أقطع من الحجة، و ادع الناس الى الصلح و الجماعة؛ فسار عمرو حتى وصل الى مصر و اجتمعت العثمانية عليه، فكتب عمرو الى محمد بن أبى بكر صاحب مصر.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ١، ص: ١٠٩

أما بعد، فنحّ عنّى بدمك فإنى لا أحب أن يصيبك منى قلامة ظفر، و الناس بهذه البلاد قد اجتمعوا على خلافك [و هم مسلموك] فاخرج منها إنى لك من الناصحين؛ و معه كتّاب معاوية يقول: يا محمد، إنّ [غبّ] البغى و الظلم عظيم الوبال، و سفك الدماء الحرام من النّقمة فی الدنيا و الآخرة، و إنا لا نعلم أحدا كان على عثمان أشدّ منك، فسعيت عليه مع الساعين و سفكت دمه مع السافكين، ثم

أنت تظن أنی نائم عنک و ناس سیئاتک، و کلام طویل من هذا النمط حتی قال: و لن یسلمک اللّه من القصاص أینما کنت و السلام. فطوی محمد الکتابین و بعث بهما الی علیّ بن أبی طالب و فی ضمنهما یستنجده و یطلب منه المدد و الرجال، فردّ علیه الجواب من عند علیّ بن أبی طالب بالوصیة و الشدّة، و لم یمدّه بأحد.

ثم کتب محمد الی معاویة و عمرو کتابا خشّن لهما فیه فی القول، ثم قام محمد فی الناس خطیبا فقال:

أما بعد، فإن القوم الذین ینتهکون الحرمة و یشبّون نار الفتنة قد نصبوا لکم العداوة و ساروا الیکم بجیوشهم، فمن أراد الجنة فلیخرج الیهم فلیجاهدهم فی اللّه، انتدبوا مع کنانة بن بشر؛ فانتدب مع کنانة نحوا من ألفی رجل، ثم خرج محمد بن أبی بکر فی ألفی رجل، و استقبل عمرو بن العاص کنانة و هو علی مقدّمة محمد، و کنانة یسرّح لعمرو الکتائب، فلما رأی عمرو ذلک بعث الی معاویة بن حدیج السّکونیّ.

و فی روایة لما رأی عمرو کنانة سرّح الیه الکتائب من أهل الشام کتیبة بعد کتیبة و کنانة یهزمها فاستنجد عمرو بمعاویة بن حدیج السّکونی فسار فی أصحابه و أهل الشام فأحاطوا بکنانة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱، ص: ۱۱۰

فلما رأی کنانة ذلک ترجّل عن فرسه و ترجل أصحابه، و قرأ وَ ما کانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ کِتاباً مُؤَجَّلًا إلی قوله وَ سَنَجْزِی الشَّاکِرِینَ فقاتل حتّی قتل بعد أن قتل من أهل الشام مقتلة عظیمة، فلما رأی أصحاب محمد ذلک تفرّقوا عنه فنزل محمد عن فرسه و مشی حتی انتهی الی خربة فأوی إلیها، و جاء عمرو بن العاص و دخل الفسطاط؛ و خرج معاویة بن حدیج فی طلب محمد بن أبی بکر، فسأل قوما من العلوج و کانوا علی الطریق فقال: هل رأیتم رجلا من صفته کذا و کذا؟ فقال واحد منهم: قد دخل تلک الخربة، فدخلوها فاذا برجل جالس، فقال معاویة بن حدیج: هو و ربّ الکعبة، فدخلوها و استخرجوه و قد کاد یموت عطشا، فأقبلوا به علی الفسطاط و وثب أخوه عبد الرحمن بن أبی بکر الصدّیق إلی عمرو بن العاص و کان فی جنده، فقال: أ یقتل أخی صبرا؟ فأرسل عمرو إلی معاویة بن حدیج یأمره أن یأتیه بمحمد بن أبی بکر کرامة لأخیه عبد الرحمن ابن أبی بکر، فقال معاویة: أ یقتل کنانة بن بشر و أخلّی أنا محمدا هیهات هیهات! فقال محمد: اسقونی ماء، فقال معاویة بن حدیج: لا سقانی اللّه إن سقیتک قطرة، إنکم منعتم عثمان الماء، ثم قتلتموه صائما فتلقّاه اللّه بالرحیق المختوم، و اللّه لأقتلنّک یا بن أبی بکر فلیسقک اللّه من الجحیم؛ فقال محمد لمعاویة: یا بن الیهودیة النساجة لیس ذلک إلیک، أما و اللّه لو کان سیفی بیدی ما بلغتم بی هذا؛ فقال له معاویة:

أ تدری ما أصنع بک؟ أدخلک فی جوف حمار، ثم أحرقه علیک بالنار؛ قال محمد:

إن فعلتم ذلک لطالما فعلتموه بأولیاء اللّه تعالی؛ ثم طال الکلام بینهما حتی أخذ معاویة محمدا ثم ألقاه فی جیفة حمار میت ثم حرقه بالنار؛ و قیل: إنه قطع رأسه و أرسله إلی معاویة بن أبی سفیان بدمشق و طیف به، و هو أوّل رأس طیف به

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱، ص: ۱۱۱

فی الإسلام. و لما بلغ عائشة رضی اللّه عنها قتل أخیها محمد بن أبی بکر هذا وجدت علیه وجدا عظیما و أخذت أولاده و عیاله و تولت تربیتهم.

و قال أبو مخنف بإسناده: و لما بلغ علیّ بن أبی طالب مقتل محمد بن أبی بکر و ما کان من الأمر بمصر و تملّک عمرو لها و اجتماع الناس علیه و علی معاویة قام فی الناس خطیبا فحثّهم علی الجهاد و الصبر و السیر إلی أعدائهم من الشامیین و المصریین، و واعدهم الجرعة بین الکوفة و الحیرة.

فلما کان من الغد خرج یمشی إلیها حتی نزلها فلم یخرج إلیه أحد من الجیش، فلما کان العشیّ بعث إلی أشراف الناس فدخلوا علیه و هو حزین کئیب فقام فیهم خطیبا فقال:

الحمد للّه علی ما قضی من أمر و قدّر من فعل، و ابتلانی بکم و بمن لا یطیع اذا أمرت و لا یجیب اذا دعوت، أو لیس عجیبا أنّ معاویة

يـدعو الجفـاة الطّغام فيتّبعونه بغير عطاء و يجيبونه فى السـنة المرّتين و الثلاث إلى أىّ وجه شاء! و أنا أدعوكم و أنتم أولو النّهى و بقية الناس على معاوية و طائفة من العطاء فتتفرّقون عنّى و تعصوننى و تختلفون علىّ! فقام مالك بن كعب الأرحبىّ فندب الناس الى امتثال أمر علىّ و السـمع و الطاعـة له، فانتـدب ألفان فأمّر عليهم مالك بن كعب هذا فسار بهم خمسا؛ ثم قدم علىّ على جماعة ممن كان مع محمـد بن أبى بكر الصـدّيق بمصـر، فأخبروه كيف وقع الأمر و كيف قتل محمد بن أبى بكر و كيف اسـتقرّ أمر عمرو فيها، فبعث الى مالـك بن كعب فردّه من الطريق، و ذلـك لأنه خشـى عليهم من أهل الشام قبل وصولهم الى مصـر، و اسـتقرّ أمر العراقين على خلاف علىّ فيما يأمرهم به و ينهاهم

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۱۱۲

عنه و الخروج عليه و التنقـد على أحكـامه و أقواله و أفعـاله لجهلهم و قلّة عقلهم و جفـائهم و غلظتهم و فجور كثير منهم، فكتب علىّ عنـد ذلـك الى ابن عبـاس رضـى اللّه عنه و هو نائبه على البصـرة يشـكو اليه ما يلقاه من الناس من المخالفـة و المعانـدة، فردّ عليه ابن عباس يسلّيه فى ذلك و يعزّيه فى محمـد بن أبى بكر و يحثّه على تلاقى الناس و الصبر على مسيئهم، فإن ثواب الجنة خير من الدنيا، ثم ركب ابن عباس الى الكوفة الى علىّ و استخلف على البصرة زيادا؛ و قد خرجنا عن المقصود.

*** السـنة التى حكم فيها محمد بن أبى بكر الصديق و غيره على مصـر و هى سـنة سبع و ثلاثين من الهجرة- فيها كانت وقعة صفّين بين علىّ بن أبى طـالب رضـى اللّه عنه و بين معاويـة بن أبى سـفيان؛ و فيها قتل عمّار بن ياسـر بن عامر بن مالك بن كنانـة المـدلجىّ العبسىّ أبو اليقظان، كان من نجباء الصـحابة و شهد بدرا و المشاهد كلّها و قتل فى صفّين، و كان من أصحاب علىّ رضى اللّه عنه؛ و فيهـا توفى خبّاب بن الأرتّ بن جندلـة بن سعد بن خزيمـة التّيمىّ مولى أمّ سـباع بنت أنمار، كنيته أبو عبـد اللّه، كان من المهاجرين الأوّلين، شـهد بـدرا و المشاهـد بعدها و روى عنه أحاديث؛ و فيها أيضا قتل بصـفّين من أصـحاب علىّ رضـى اللّه عنه أويس بن عامر المرادىّ القرنىّ الزاهد سـيد التابعين، كنيته أبو عمرو، أسـلم فى خلافة عمر بن الخطاب رضـى اللّه عنه؛ و فيها قتل فى وقعة صـفّين من أصـحاب علىّ رضـى اللّه عنه هاشم بن عتبة بن أبى وقّاص الزهرىّ؛ و فيها توفى عبيد اللّه بن عمر بن الخطاب رضى اللّه عنهما؛ و فيها قتل كريب بن صبّاح الحميرىّ، أحد الأبطال من أصحاب معاوية.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۱۱۳

أمر اليل فى هذه السنة- الماء القديم خمسة أذرع و ثلاثة أصابع، مبلغ الزيادة ستة عشر ذراعا و ثلاثة أصابع.

ذكر ولاية عمرو بن العاص ثانيا على مصر

قـد تقـدّم الكلام فى أوّل ولايته على نسـبه و صـحبته للنبىّ صـلى اللّه عليه و سـلم ثم أخـذه مصـر ثانيا فى ترجمـة محمـد بن أبى بكر الصدّيق و كيفية قتاله و كيف ملك مصر منه. و ولاية عمرو بن العاص هذا فى هذه المرّة من قبل معاوية بن أبى سفيان، و كان دخوله الى مصـر فى شـهر ربيع الأـوّل من سـنة ثمان و ثلاثين، و جمع اليه معاويـة الصـلاة و الخراج فى ولايته هـذه. و سـبب انتماء عمرو الى معاويـة أن عمرا كان لما عزله عثمان بن عفّان عن مصـر بعبـد اللّه بن سـعد بن أبى سـرح المقدّم ذكره توجّه عمرو و أقام بمكة منكفّا عن الناس حتى كانت وقعة الجمل.

قال الحافظ أبو عبـد اللّه الـذهبى قال جويريـة بن أسـماء حـدّثنى عبد الوهاب ابن يحيى بن عبد اللّه بن الزبير حدّثنا أشـياخنا أن الفتنة وقعت و مـا رجـل من قريش له نباهـة أعمى فيهـا من عمرو بن العاص، و ما زال مقيما بمكـة ليس فى شـىء مما فيه الناس حتى كانت وقعـة الجمل، فلما فرغت بعث الى ولـديه عبـد اللّه و محمـد فقال: إنى قـد رأيت رأيا و لسـتما باللذين تردّانى عن رأيى و لكن أشـيرا علىّ، إنى رأيت العرب صاروا عنزين يضـطربان، و أنا طارح نفسـى بين جزّارى مكـة و لست أرضـى بهـذه المنزلـة، فإلى أىّ الفريقين أعمـد؟ قـال له ابنه عبـد اللّه: إن كنت لاـ بـدّ فاعلاـ فـإلى علىّ؛ قـال: إنى إن أتيت عليا قال: إنما أنت رجل من المسـلمين، و إن أتيت

معاویة یخلطنی بنفسه و یشرکنی فی أمره، فأتی معاویة

و عن عروة و غیره قال: دعا عمرو ابنیه، فأشار علیه عبد اللّه أن یلزم بیته لأنه أسلم له؛ فقال محمد: أنت شریف من أشراف العرب و ناب من أنیابها، لا أری

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۱۱۴

أن تتخلّف؛ فقال عمرو لابنه عبد اللّه: أما أنت فأشرت علیّ بما هو خیر لی فی آخرتی؛ و أما أنت یا محمد فأشرت علیّ بما هو أنبه لذکری، ارتحلا؛ فارتحلوا الی الشام غدوة و عشیّة حتی أتوا الشام. فقال: یأهل الشام، إنکم علی خیر و الی خیر، تطلبون بدم عثمان، خلیفة قتل مظلوما؛ فمن عاش منکم فإلی خیر، و من مات فإلی خیر. فما زال مع معاویة حتی وقع من أمره ما حکیناه فی أوّل ترجمته و غیرها.

و دخل مصر و ولیها بعد محمد بن أبی بکر الصدیق و مهّد أمورها، ثم خرج منها وافدا علی معاویة بالشام و استخلف علی مصر ولده عبد اللّه بن عمرو، و قیل خارجة بن حذافة، و حضر أمر الحکمین، ثم رجع الی مصر علی ولایته، و دام بها الی أن کانت قصّة الخوارج الذین خرجوا لقتل علیّ و معاویة و عمرو هذا، فخرج عبد الرحمن بن ملجم لقتل علیّ رضی اللّه عنه، و قیس الی معاویة، و یزید الی عمرو بن العاص، و سار الثلاثة کل واحد الی جهة من هو متوجّه لقتله، و تواعد الجمیع أن یثب کلّ واحد علی صاحبه فی سابع عشر شهر رمضان؛ فأما عبد الرحمن فإنه وثب علی علیّ ابن أبی طالب رضی اللّه عنه و قتله حسبما نذکره فی ترجمته؛ و [أما] قیس فوثب علی معاویة و ضربه فلم تؤثّر فیه الضربة غیر أنه جرح؛ و أما یزید فإنه توجّه الی عمرو هذا فعرضت لعمرو علّة تلک اللیلة منعته من الصلاة فصلّی خارجة بالناس، فوثب علیه یزید یظنّه عمرا و قتله، و أخذ یزید و أدخل علی عمرو فقال یزید: أما و اللّه ما أردت غیرک؛ فقال عمرو: و لکنّ اللّه أراد خارجة؛ فصار مثلا: «أردت عمرا و أراد اللّه خارجة». و أقام عمرو بعد ذلک مدّة سنین حتی مات بها فیما نذکره إن شاء اللّه تعالی فی آخر هذه الترجمة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۱۱۵

قیل: إنه لما حضر عمرو بن العاص الوفاة بکی؛ فقال له ابنه: أتبکی جزعا من الموت؟ فقال: لا و اللّه؛ و جعل ابنه یذکّره بصحبته رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم و فتوحه الشام؛ قال عمرو: ترکت أفضل من ذلک: شهادة أن لا إله إلا اللّه، إنی کنت علی ثلاثة أطباق لیس منها طبقة إلّا عرفت نفسی فیها: کنت أوّل شیء کافرا و کنت أشدّ الناس علی رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم، فلومتّ حینئذ لوجبت لی النار؛ فلمّا بایعت رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم کنت أشدّ الناس منه حیاء ما ملأت عینی منه، فلو متّ حینئذ لقال الناس: هنیئا لعمرو أسلم علی خیر و مات علی خیر أحواله، ثم تلبّست بعد ذلک بأشیاء فلا أدری أعلی أم لی، فاذا أنا متّ فلا یبکی علیّ و لا تتبعونی نارا، و شدّوا علیّ إزاری فإنی مخاصم، فاذا أولیتمونی فاقعدوا عندی قدر نحر جزور و تقطیعها أستأنس بکم حتی أعلم ما أراجع به رسل ربّی. قال الذهبی: أخرجه أبو عوانة فی مسنده. و فی روایة: أنه بعدها حوّل وجهه الی الجدار و هو یقول: اللهم أمرتنا فعصینا، و نهیتنا فما انتهینا، و لا یسعنا إلّا عفوک. و فی روایة: أنه وضع یده علی موضع الغلّ من عنقه و رفع رأسه الی السماء و قال: اللهم لا قویّ فأنتصر، و لا بریء فأعتذر، و لا مستکبر بل مستغفر، لا إله إلا أنت؛ فلم یزل یردّدها حتی مات رضی اللّه عنه.

و قال الزهریّ عن حمید بن عبد الرحمن عن عبد اللّه بن عمرو أن أباه قال:

اللهم أمرت بأمور و نهیت عن أمور، فترکنا کثیرا مما أمرت و وقعنا فی کثیر مما نهیت، اللهم لا إله إلا أنت؛ ثم أخذ بإبهامه فلم یزل یهلّل حتی توفّی.

قال الذهبیّ، و أیّده الطحاوی، حدّثنا المزنیّ سمعت الشافعیّ رضی اللّه عنه یقول:

دخل ابن عباس علی عمرو بن العاص و هو مریض فقال: کیف أصبحت؟ قال:

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۱۱۶

أصبحت و قد أصلحت من دنیای قلیلا، و أفسدت من دینی کثیرا، فلو کان ما أصلحت هو ما أفسدت لفزت، و لو کان ینفعنی أن أطلب طلبت، و لو کان ینجینی أن أهرب لهربت، فعظنی بموعظهٔ أنتفع بها یا بن أخی؛ فقال: هیهات یا أبا عبد اللّه! فقال: اللهم إنّ ابن عباس یقنطنی من رحمتک فخذ منی حتی ترضی.

و کانت وفاهٔ عمرو المذکور فی لیلهٔ عید الفطر سنهٔ ثلاث و أربعین فصلّی علیه ابنه و دفنه ثم صلّی بالناس صلاهٔ العید. قاله أبو فراس مولی عبد اللّه بن عمرو. و قال اللیث بن سعد و الهیثم بن عدیّ و الواقدیّ و ابن بکیر: و سنه نحو مائهٔ سنهٔ. و قال أحمد العجلیّ و غیره: تسع و تسعون سنهٔ. و قال ابن نمیر: توفّی سنهٔ اثنتین و أربعین.

قلت: و الأوّل هو المتواتر. و کان عمرو رضی اللّه عنه من أدهی العرب و أحسنهم رأیا و تدبیرا. قیل: إنه اجتمع مع معاویهٔ بن أبی سفیان مرّهٔ فقال له معاویهٔ:

من الناس؟ فقال: أنا و أنت و المغیرهٔ بن شعبهٔ و زیاد؛ قال معاویهٔ: کیف ذلک؟ قال عمرو: أما أنت فللتأنّی؛ و أما أنا فللبدیههٔ؛ و أما المغیرهٔ فللمعضلات؛ و أما زیاد فللصغیر و الکبیر؛ قال معاویهٔ: أما ذانک فقد غابا فهات بدیهتک یا عمرو؛ قال: و ترید ذلک؟ قال نعم؛ قال: فأخرج من عندک، فأخرجهم معاویهٔ؛ فقال عمرو: یا أمیر المؤمنین أسارّک، فأدنی معاویهٔ رأسه منه؛ فقال عمرو: هذا من ذاک، من معنا فی البیت حتی أسارّک! و لما مات عمرو ولی مصر عتبهٔ بن أبی سفیان من قبل أخیه معاویهٔ

*** السنهٔ الأولی من ولایهٔ عمرو بن العاص الثانیهٔ علی مصر و هی سنهٔ ثمان و ثلاثین من الهجرهٔ- فیها توجّه عبد اللّه بن الحضرمیّ من قبل معاویهٔ الی البصرهٔ لیأخذها، و کان بها زیاد بن أبیه و وقع بینهما أمور. و فیها سارت الخوارج لقتال علیّ

النجوم الزاهرهٔ فی ملوک مصر و القاهرهٔ، ج ۱، ص: ۱۱۷

رضی اللّه عنه، و کان کبیرهم عبد اللّه بن وهب، فهزمهم علیّ و قتل أکثرهم و قتل ابن وهب المذکور، و قتل من أصحاب علیّ رضی اللّه عنه اثنا عشر رجلا، و کانت الوقعهٔ فی شعبان من هذه السنهٔ. و فیها توفّی صهیب بن سنان بن مالک الرومیّ، سبته الروم فجلب الی مکهٔ فاشتراه عبد اللّه بن جدعان التّیمیّ، و قیل: بل هرب من الروم فقدم مکهٔ و حالف ابن جدعان، و کان صهیب من السابقین الأوّلین شهد بدرا و المشاهد کلّها، روی عنه أولاده حبیب و زیاد و حمزهٔ؛ و سعید بن المسیّب و عبد الرحمن بن أبی لیلی و کعب الأحبار، و کنیته أبو یحیی، توفی بالمدینهٔ فی شوّال. و نشأ صهیب بالروم فبقیت فیه عجمهٔ. و فیها توفّی سهل بن حنیف بن واهب الأنصاریّ کان من أهل مسجد قباء، و کنیته أبو سهل و قیل أبو عبد اللّه، و هو من الطبقهٔ الأولی من الأنصار آخی رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم بینه و بین علیّ بن أبی طالب، و هو ممن شهد بدرا و أحدا و الخندق. و فیها توفّیت أسماء بنت عمیس بن معد بن تمیم بن الحارث بن کعب بن مالک، أسلمت قبل دخول رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم دار الأرقم بمکّهٔ و بایعت و هاجرت الی الحبشهٔ مع زوجها جعفر بن أبی طالب، و ولد هناک عبد اللّه بن جعفر، ثم تزوّجها بعد جعفر أبو بکر الصدّیق، فاستولدها محمدا أمیر مصر المقدّم ذکره، ثم تزوّجها بعد أبی بکر علیّ بن أبی طالب، فولدت منه یحیی و عوفا.

أمر النیل فی هذه السنهٔ- الماء القدیم أربعهٔ أذرع و خمسهٔ عشر إصبعا، مبلغ الزیادهٔ ستهٔ عشر ذراعا و تسعهٔ أصابع. و فی کتاب درر التیجان: تسعهٔ عشر إصبعا.

النجوم الزاهرهٔ فی ملوک مصر و القاهرهٔ، ج ۱، ص: ۱۱۸

*** السنهٔ الثانیهٔ من ولایهٔ عمرو الثانیهٔ علی مصر و هی سنهٔ تسع و ثلاثین- فیها أیضا کانت وقعهٔ الخوارج مع علیّ بن أبی طالب بحروراء و بالنّخیلهٔ، قاتلهم علیّ فکسرهم و قتل رءوسهم، و سجد للّه شکرا لمّا أتی بمخدج الید مقتولا، و کان رءوس الخوارج زید بن حفص الطائیّ و شریح بن أوفی العبسیّ و کانا علی المجنّبتین، و کان رأسهم عبد اللّه بن وهب الراسبیّ، و قد تقدّم ذکرها فی السنهٔ الماضیهٔ، و الأصح أنها فی هذه السنهٔ؛ و کان علی رجّالتهم حرقوص بن زهیر. و فیها بعث معاویهٔ یزید ابن شجرهٔ الرّهاویّ لیقیم الحجّ، فنازعه قثم بن عباس و مانعه، و کان من جههٔ علیّ، فتوسّط بینهما أبو سعید الخدریّ و غیره، فاصطلحا علی أن یقیم الموسم

شیبة بن عثمان العبدریّ حاجب الكعبة. و فیها أیضا بعث معاویة ابن عوف فی ستة آلاف فارس و أمره أن یأتی هیت و الأنبار و المدائن، و كان بهیت أشرس بن حسّان البلویّ من جهة علی و قد تفرّق عنه أصحابه و لم یبق معه سوی ثلاثین رجلا، فخرج الیهم و قاتلهم و قتل ابن أشرس و أصحابه. و فیها أرسل معاویة الضحّاك بن قیس فی ثلاثة آلاف و أمره بالغارة علی من هو فی طاعة علیّ من الأعراب. و فیها توفی سعد بن عابد و یعرف بسعد القرظ مولی عمّار بن یاسر (و القرظ: ورق السّلم كان یجلبه و یبعه للدباغ فسمّی به) و كان سعد یؤذّن علی عهد رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم بقباء ثم أذّن علی عهد أبی بكر و عمر، و هو من الصحابة و له روایة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱، ص: ۱۱۹

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم خمسة أذرع و إصبعان، مبلغ الزیادة ستة عشر ذراعا و خمسة أصابع.

*** السنة الثالثة من ولایة عمرو بن العاص الثانیة علی مصر و هی سنة أربعین- فیها بعث معاویة بسر بن أبی أرطاة فی ثلاثة آلاف من المقاتلة الی الحجاز، فقدم المدینة و عامل علیّ متولیها و هو أبو أیّوب الأنصاریّ فنفر منها أبو أیّوب. و فیها قتل أمیر المؤمنین أبو الحسن علیّ بن أبی طالب، و اسم أبی طالب عبد مناف بن عبد المطّلب، و اسم عبد المطلب شیبة الحمد بن هاشم بن عبد مناف القرشیّ الهاشمیّ، و أمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف الهاشمیة، و هی بنت عمّ أبی طالب كانت من المهاجرات، توفّیت فی حیاة النّبیّ صلی اللّه علیه و سلم بالمدینة، و هو أحد السابقین الأوّلین و أحد العشرة المشهود لهم بالجنّة؛ و أمّا ما ورد فی حقّه من الأحادیث و ما وقع له فی الغزوات فیضیق هذا المحلّ عن ذكر شیء منها، و فی شهرته رضی اللّه عنه ما یغنی عن الإطناب فی ذكره؛ قتله عبد الرحمن بن ملجم، جلس له مقابل السّدّة التی یخرج منها علیّ الی الصلاة، فلما أن خرج علیّ الی صلاة الصبح شدّ علیه عبد الرحمن المذكور فضربه بسكّین كانت معه أو بسیف فی جبهته و فی رأسه فحمل من وقته و قبض علی عبد الرحمن المذكور، فقال علیّ: أطعموه و اسقوه فإن عشت فأنا ولیّ دمی، إن شئت قتلت و إن شئت عفوت؛ و إن متّ فاقتلوه قتلتی و لا تعتدوا إنّ اللّه لا یحبّ المعتدین. و كان عبد الرحمن قد سمّ سیفه، فتمّ علیّ رضی اللّه عنه جریحا یوم الجمعة و السبت و توفّی لیلة الأحد لإحدی عشرة لیلة بقین من شهر رمضان من السنة، و تولّی الخلافة من بعده ابنه الحسن بن علیّ رضی اللّه عنهما، و كانت خلافة علیّ رضی اللّه عنه أربع سنین و تسعة أشهر. و لما دفن علیّ أحضر عبد الرحمن بن ملجم

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱، ص: ۱۲۰

فاجتمع الناس و جاءوا بالنّفط و البواریّ، فقال محمد بن الحنفیة و الحسن و الحسین ولدا علیّ و عبد اللّه بن جعفر ابن أخیه: دعونا نشتف منه، فقطّع عبد اللّه یدیه و رجلیه فلم یجزع و لم یتكلم و كحّل عینیه، و جعل یقول: إنّك لتكحل عینی عمك هذا، و عیناه تسیلان علی خدّیه، ثم أمر به فعولج علی قطع لسانه، فجزع، فقیل له فی ذلك؛ فقال:

ما لذاك أجزع و لكن أكره أن أبقی فی الدنیا لا- أذكر اللّه! فقطعوا لسانه، ثم أخرجوه فی قوصرة؛ و كان- قبحه اللّه و لعنه- أسمر حسن الوجه أفلج فی جبهته أثر السجود. و قال جعفر بن محمد عن أبیه قال: صلّی الحسن علی علیّ رضی اللّه عنه و دفن بالكوفة عند قصر الإمارة و عمّی قبره لئلا تنبشه الخوارج. و قال شریك و غیره: نقله الحسن الی المدینة. و ذكر المبرّد عن محمد بن حبیب، قال: أوّل من حوّل من قبر الی قبر علیّ بن أبی طالب رضی اللّه عنه. و فیها توفّی لبید بن ربیعة بن كلاب بن مالك بن جعفر بن كلاب الصحابیّ العامریّ الشاعر المشهور، كنیته أبو عقیل، ذكره ابن سعد فی الطبقة الرابعة من القبائل الذین أسلموا بعد الفتح، و وفد علی النّبیّ صلی اللّه علیه و سلم سنة تسع من الهجرة و أسلم. و فیها توفّی تمیم بن أوس ابن خارجة أبو رقیّة اللّخمیّ الداریّ الصحابیّ المشهور، و اختلف فی نسبه الی الدار ابن هانئ أحد بنی لخم. أسلم تمیم سنة تسع، رضی اللّه عنه.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم ثمانیة أذرع و ستة عشر إصبعا، مبلغ الزیادة ثمانیة عشر ذراعا و سبعة عشر إصبعا؛ و فی كتاب درر التیجان: و ستة أصابع.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۱۲۱

*** السنة الرابعة من ولاية عمرو بن العاص الثانية على مصر و هى سنة إحدى و أربعين، و تسمّى هذه السنة عام الجماعة لاجتماع الأمّة فيه على خليفة واحد و هو معاوية بن أبى سفيان- فيها (أعنى فى سنة إحدى و أربعين) بايع الحسن بن علىّ رضى اللّه عنه بالخلافة معاوية و خلع نفسه. و سببه: أنه لما ولى الخلافة بعد وفاة والده علىّ رضى اللّه عنه أحبّه الناس حبّا شديدا زائدا و اجتمعوا على طاعته، و استمرّ فى الخلافة أشهرا، فلمّا رأى الأمر مآله للقتال مع معاوية و ألحّ عليه أهل العراق حتّى خرج فى جموعه الى نحو الشام و خرج معاوية أيضا بجيوشه فى طلب الحسن رضى اللّه عنه، ثم أرسل معاوية الى الحسن يطلب الصلح. قال خليفة: فاجتمعا بمسكن؛ و هى بأرض السواد من ناحية الأنبار، فاصطلحا فى ربيع الآخر و سلّم الحسن الأمر الى معاوية، لا من جزع بل شفقة على المسلمين، فإن الذى كان اجتمع للحسن من العساكر أكثر مما كان اجتمع لأبيه و لكن ترك ذلك خوفا من سفك الدماء.

و لما وقع ذلك دخل على الحسن سفيان أحد أصحابه و قال: السلام عليك يا مذلّ المؤمنين؛ فقال الحسن: لا تقل ذلك، إنى كرهت أن أقتلكم فى طلب الملك. قال الحافظ الذهبىّ قال أبو بكرة: رأيت رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم على المنبر و الحسن ابن علىّ الى جنبه و هو يقول: «إنّ ابنى هذا سيّد و لعلّ اللّه أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين». أخرجه البخارىّ. و فيها توفّى صفوان بن أميّة بن خلف الجمحىّ، شهد حنينا مع النّبىّ صلى اللّه عليه و سلم ثم أسلم بعدها، و أعار النّبىّ صلى اللّه عليه و سلم سلاحا كثيرا. و فيها توفّيت حفصة أمّ المؤمنين رضى اللّه عنها بنت عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۱۲۲

أمر النيل فى هذه- السنة الماء القديم ثمانية أذرع و ستة عشر إصبعا، مبلغ الزيادة ثمانية عشر ذراعا و سبعة أصابع.

*** السنة الخامسة من ولاية عمرو بن العاص الثانية على مصر و هى سنة اثنتين و أربعين- فيها بعث معاوية المغيرة بن شعبة الى زياد بن أبيه فخدعه و أنزله من قلعته. و فيها ولّى معاوية مروان بن الحكم المدينة فاستقضى مروان عبد اللّه بن الحارث بن نوفل. و فيها تحرّكت الخوارج الذين بقوا من يوم النّهروان. و فيها توفّى حبيب بن مسلمة بن مالك الأكبر بن وهب بن ثعلبة بن واثلة بن عمرو بن سفيان ابن حارث أبو عبد الرحمن و قيل أبو مسلمة، ذكره ابن سعد فى الطبقة الخامسة من أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم. و فيها توفّى عثمان بن طلحة بن أبى طلحة بن عبد الدار بن قصىّ الجمحىّ، ذكره ابن سعد فى الطبقة الثالثة من المهاجرين ممن أسلم فى هدنة الحديبية.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربعة أذرع و ثلاثة أصابع، مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا و خمسة أصابع. و فى درر التيجان: أربعة أذرع و ثلاثة أصابع.

ذكر ولاية عتبة بن أبى سفيان على مصر

هو عتبة بن أبى سفيان- و اسم أبى سفيان صخر بن حرب بن أميّة بن عبد شمس- أخو معاوية بن أبى سفيان لأبيه. ولّاه أخوه معاوية إمارة مصر بعد وفاة عمرو بن العاص رضى اللّه عنه فى شوّال سنة ثلاث و أربعين. و دخل عتبة مصر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۱۲۳

فى ذى القعدة منها. و كان عتبة هذا شهد مع عثمان بن عفّان يوم الدار. قال الحافظ ابن عساكر فى تاريخه: قدم على أخيه معاوية بدمشق، و كان له بها فى درب الحمّالين دار، و ولى المدينة و الطائف و الموسم لأخيه معاوية غير مرّة، و شهد وقعة الجمل مع عائشة رضى اللّه عنها ثم انهزم، فعيره عبد الرحمن بن الحكم:

لعمرى و الأمور لها دواع لقد أبعدت يا عتب الفرارا

و قال ابن عساكر عن الهيثم بن عدىّ قال: ذكر ابن عباس عتبة بن أبى سفيان فى العور، ذهبت عينه يوم الجمل مع عائشة. و قال أبو

بكر الخطيب: حجّ عتبة ابن أبى سفيان بالناس سنة إحدى و أربعين و سنة اثنتين و أربعين. و قال الأصمعىّ:

الخطباء من بنى أمية: عتبة بن أبى سفيان، و عبد الملك بن مروان. و قال أبو حاتم:

أوصى عتبة بن أبى سفيان مؤدّب ولده فقال: ليكن أوّل إصلاحك بنىّ إصلاحك لنفسك، فإنّ عيوبهم معقودة بعيبك، فالحسن عندهم ما فعلت، و القبيح ما تركت، و علّمهم كتاب اللّه و لا تملّهم فيتركوا، و لا تدعهم منه فيهجروا؛ و روّهم من الحديث أشرفه، و من الشعر أعفّه؛ و لا تخرجهم من علم الى علم حتى يحكموه، فإنّ ازدحام الكلام فى السمع مضلّة للفهم؛ و هدّدهم بى و أدّبهم دونى؛ و كن بهم كالطبيب الرفيق الذى لا يعجل بالدواء حتى يعرف الداء، و امنعهم من محادثة النساء، و اشغلهم بسير الحكماء؛ و استزدنى بآدابهم أزدك، و لا تتّكلنّ على عذر منّى فقد اتّكلت على كفاية منك. انتهى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۱۲۴

و لمّا قدم عتبة الى مصر فى ذى القعدة سنة ثلاث و أربعين أقام بها أشهرا ثم خرج منها وافدا على أخيه معاوية بدمشق، و استخلف على مصر عبد اللّه بن قيس ابن الحارث، و كانت فى عبد اللّه المذكور شدّة فكرهه الناس بمصر، فبلغ ذلك عتبة هذا فرجع الى مصر و صعد المنبر و قال: يأهل مصر، قد كنتم تعذرون ببعض المنع منكم لبعض الجور عليكم، و قد وليكم من إن قال فعل، فإن أبيتم درأكم بيده، فإن أبيتم؟؟؟ درأكم بسيفه؛ ثم جاء فى الآخر ما أدرك فى الأوّل، إنّ البيعة شائعة، لنا عليكم السمع و الطاعة، و لكم علينا العدل، فأيّنا غدر فلا ذمّة له عند صاحبه؛ فناداه المصريّون من جنبات المسجد: سمعا سمعا؛ فناداهم عتبة: عدلا عدلا. ثم نزل.

فجمع له أخوه معاوية الصلاة و الخراج؛ و عقد عتبة هذا لعلقمة بن يزيد على الاسكندرية فى اثنى عشر ألفا من أهل الديوان تكون بها مرابطة، ثم خرج اليها عتبة بعد ذلك مرابطا فى ذى القعدة و قيل فى ذى الحجة، و هو الأشهر، سنة أربع و أربعين من الهجرة، فمات بها فى الشهر المذكور. و تولى مصر بعده عقبة بن عامر الجهنىّ، و كانت ولاية عتبة على مصر سنة واحدة و شهرا واحدا.

*** السنة التى حكم فيها عتبة بن أبى سفيان على مصر و هى سنة ثلاث و أربعين- فيها شتّى بسر بن أبى أرطاة بأرض الروم مرابطا: و فيها فتح عبد الرحمن بن سمرة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۱۲۵

الزّرنج و غيرها من بلاد سجستان. و فيها افتتح عقبة بن نافع الفهرىّ كورا من بلاد السودان و ودان من بلاد برقة. و فيها توفى عبد اللّه بن سلام الاسرائيلى- ذكره ابن سعد فى الطبقة الثالثة من الأنصار، و قال: كنيته أبو يوسف، و كان اسمه الحصين، فلما أسلم فى السنة الأولى من الهجرة سمّاه رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم عبد اللّه. و هو رجل من بنى اسرائيل من ولد يوسف بن يعقوب عليهما السلام، و هو صاحب القصة مع اليهود. و فيها توفى محمد بن مسلمة بن خالد الأنصارىّ الصحابىّ، مذكور فى الطبقة الأولى من الأنصار، أسلم بالمدينة على يد مصعب ابن عمير، و آخى رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم بينه و بين أبى عبيدة بن الجرّاح و شهد بدرا و المشاهد كلها و مات فى صفر.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم تسعة أذرع و ثلاثة أصابع، مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا و خمسة أصابع. و ذكر فى درر التّيجان: أنّ الماء القديم فى هذه السنة أربعة أذرع و ثلاثة أصابع.

*** السنة الثانية من ولاية عتبة بن أبى سفيان على مصر و هى سنة أربع و أربعين- فيها توفّى عتبة صاحب الترجمة حسبما تقدّم ذكره. و فيها غزا المهلّب بن أبى صفرة أرض الهند و سار الى قندابيل و كسر العدو و سلم و غنم، و هى أوّل غزواته. و فيها حجّ الخليفة معاوية بن أبى سفيان بالناس من الشام. و فيها زاد معاوية فى مقصورة جامع دمشق، و كان قد أحدثها لمّا وثب عليه البرك ليقتله.

ثم أحدث فى هذه السنة أيضا مروان بن الحكم مقصورة المدينة و هو وال عليها.

و فيها أوغل عبد الرحمن بن خالد بن الوليد فى بلاد الروم و شتّى بها. و فيها غزا بسر

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۱۲۶

ابن أبی أرطاة فی البحر. و فیها عزل معاویة عبد اللّه بن عامر عن البصرة. و فیها توفّی الحارث بن خزمة بن عدیّ بن أبیّ بن غنم الأشهلی أبو بشیر الصحابیّ، هو من الطبقة الأولی من الأنصار، شهد بدرا و المشاهد کلها، و آخی رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم بینه و بین إیاس بن أبی البکیر. و فیها توفّیت أم المؤمنین أمّ حبیبة بنت أبی سفیان علی الصحیح، و اسمها رملة، و هی أخت معاویة لأبیه، و أمها صفیّة بنت أبی العاص بن أمیّة بن عبد شمس، و هی ابنة عمّة عثمان بن عفان، و کان تزوّجها رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم بالحبشة، و ذلک فی سنة ستّ من الهجرة أو سبع. و فیها توفّی أبو بردة بن نیار بن عمرو بن عبید بن عمرو بن کلاب، و هو من الطبقة الأولی من الأنصار من الصحابة، شهد العقبة مع السبعین و شهد بدرا و أحدا و المشاهد کلّها مع رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم. و فیها توفّی أبو موسی الأشعریّ و اسمه عبد اللّه بن قیس بن سلیم الیمانیّ، صاحب رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم، قدم علیه مسلما مع أصحاب السفینتین و استعمله رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم علی زبید وعدن، ثم ولی الکوفة و البصرة. لعمر بن الخطاب رضی اللّه عنهما.

و مات فی ذی الحجة.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم ثلاثة أذرع و ثمانیة عشر إصبعا، مبلغ الزیادة ثمانیة عشر ذراعا و إصبع واحد.

ذکر ولایة عقبة بن عامر علی مصر

هو عقبة بن عامر بن عبس بن عمرو بن عدیّ بن رفاعة بن مودوعة بن عدیّ ابن غنم بن الربعة بن رشدان بن قیس بن جهینة الجهنیّ، أبو حمّاد الصحابیّ،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۱۲۷

شهد فتح مصر مع عمرو بن العاص ثم ولیها من قبل معاویة بن أبی سفیان بعد موت أخیه عتبة بن أبی سفیان فی سنة أربع و أربعین، و کان یخضّب بالسّواد.

قال صاحب البغیة: و دام بمصر الی أن قدم مسلمة بن مخلّد علی معاویة بدمشق، فولّاه مصر و أمره أن یکتم ذلک عن عقبة بن عامر، ثم سیّره الی مصر و أمر معاویة عقبة بغزو رودس و معه مسلمة بن مخلد المذکور، و خرجا الی الإسکندریة ثم توجّها فی البحر، فلما سار عقبة استولی مسلمة علی سریر إمرته، فبلغ ذلک عقبة ابن عامر، و کان ذلک لعشر بقین من ربیع الأول سنة سبع و أربعین، و کانت ولایته سنتین و ثلاثة أشهر، و تولّی مسلمة. و آخر من روی عن عقبة بمصر أبو قبیل. انتهی.

و قال الحافظ شهاب الدین أحمد بن حجر فی الإصابة: روی عن النّبیّ صلی اللّه علیه و سلم، و روی عنه جماعة من الصحابة و التابعین، منهم ابن عبّاس و أبو أمامة و جبیر بن نفیر و بعجة بن عبد اللّه الجهنیّ و أبو إدریس الخولانی و خلق من أهل مصر.

قال أبو سعید بن یونس: کان قارئا عالما بالفرائض و الفقه صحیح اللسان شاعرا کاتبا، و هو آخر من جمع القرآن. قال: و رأیت مصحفه بمصر علی غیر تألیف مصحف عثمان، و فی آخره: کتبه عقبة بن عامر بیده.

و فی صحیح مسلم من طریق قیس بن أبی حازم عن عقبة بن عامر قال: قدم رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم المدینة و أنا فی غنم لی أرعاها فترکتها ثم ذهبت الیه فقلت: بایعنی فبایعنی علی الهجرة. و هذا الحدیث أخرجه أبو داود و النّسائیّ. و شهد عقبة بن عامر الفتوح، و کان هو الرائد الی عمر بفتح دمشق. و شهد صفّین مع معاویة و أمّره بعد ذلک علی مصر.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۱۲۸

و قال أبو عمر الکندیّ: جمع له معاویة فی إمرة مصر بین الخراج و الصّلاة، فلمّا أراد عزله کتب الیه أن یغزو رودس، فلمّا توجّه مسافرا استولی مسلمة، فبلغ عقبة فقال: أغربة و عزلا! و ذلک فی سنة سبع و أربعین. و مات فی خلافة معاویة علی الصحیح.

و حكى أبو زرعة فى تاريخه عن عبّاد بن بشر قال: رأيت رجلا يحدّث فى خلافة عبد الملك فقلت: من هذا؟ فقالوا: عقبة بن عامر الجهنىّ. قال أبو زرعة: فذكرته لأحمد بن صالح، فقال: هذا غلط، مات عقبة فى خلافة معاوية. و كذلك أرّخه الواقدىّ و غيره، زاد فى آخرها: و أما قول خليفة بن خيّاط: قتل فى النّهروان من أصحاب علىّ، أبو عمرو عقبة بن عامر الجهنىّ فهو آخر، بدليل قول خليفة فى تاريخه فى سنة ثمان و خمسين مات عقبة بن عامر الجهنىّ. انتهى كلام شيخ الإسلام ابن حجر.

و قال صاحب كتاب «العقود الدرّية فى الأمراء المصرية»: توفى عقبة فى سنة ثمان و خمسين بمصر، و قبره يزار بالقرافة.

و قال صاحب كتاب «مهذب الطالبين الى قبور الصالحين»: عقبة بن عامر الجهنىّ من أعلام الصحابة معدود من خدّام النّبىّ صلى اللّه عليه و سلم، و كان يأخذ بزمام بغلة رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم و يقودها فى الأسفار، و عدّد له رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم فضل المعوّذتين و حثّه على قراءتهما؛ و هو أحد من شهد فتح مصر من الصحابة، و ولى مصر لمعاوية بن أبى سفيان بعد عتبة بن أبى سفيان، ثم غزا فى البحر سنة سبع و أربعين. و هو أوّل من نشر الرايات على السفن، فلما خرج الى الغزو جاء كتاب معاوية بعزله و ولاية مسلمة، فلم يظهر مسلمة ولايته، فقال عقبة: ما لى أرى الأمر أبطأ علىّ؟ قالوا: ولّى مسلمة بن مخلّد، قال عقبة: ما أنصفنا معاوية عزلنا و غرّبنا.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱، ص: ۱۲۹

قال: و لأهل مصر فيه اعتقاد عظيم، و لهم عنه نحو مائة حديث. و قد ذكر ابن عبد الحكم أحاديثه التى رواها عنه أهل مصر.

الحديث الأول- منها: «من توضّأ فأحسن و ضوءه ثم صلّى [صلاة] غير ساه و لا لاه كفّر عنه ما كان قبلها من سيّئاته».

الحديث الثانى- قال عقبة: سمعت النبى صلى اللّه عليه و سلم يقول: «تعجّب ربّک من شابّ ليس له صبوة»

الحديث الثالث- قال عقبة: كنت آخذ بزمام بغلة رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم فى بعض غاب المدينة، فقال لى: «يا عقبة ألا تركب» فأشفقت أن تكون معصية، فنزل رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم و ركبت هنيهة، ثم ركب فقال: «ألا أعلّمک سورتين» فقلت: بلى يا رسول اللّه، قال: فأقرأنى: قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ و قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ، ثم أقيمت الصلاة فتقدّم و صلّى بهما و قال: «اقرأهما كلّما نمت و قمت».

ثم قال: و ليس فى الجبّانة قبر صحابىّ مقطوع به إلا قبر عقبة فإنه زاره الخلف عن السلف.

و قال الشيخ الموفّق ابن عثمان فى تاريخه المرشد ناقلا عن حرملة من أصحاب الشافعىّ: إن البقعة التى دفن فيها عقبة المذكور بها أيضا قبر عمرو بن العاص و قبر

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱، ص: ۱۳۰

أبى بصرة الصحابيّين، تحويهم القبّة التى هدمها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ثم بناها البناء المعهود الآن. و رئى بعض الأمراء فى النوم ممّن جاوره، فقيل له: ما فعل اللّه بک؟ قال: غفر لى بمجاورة عقبة. و روى له من البركات روايات كثيرة: منها أنّ رجلا أسر له ولد فأتى قبر عقبة و دعا اللّه عزّ و جل فقام من عند قبره فلقى ابنه فى الطريق. انتهى كلام صاحب مهذّب الطالبين.

*** السنة الأولى من ولاية عقبة بن عامر الجهنىّ على مصر و هى سنة خمس و أربعين- فيها غزا معاوية بن حديج إفريقيّة من بلاد المغرب. و فيها سار عبد اللّه بن سوّار العبدىّ فافتتح القيقان و غنم و سلم و عاد. و فيها عزل عبد اللّه ابن عامر عن البصرة، فاستعمل عليها معاوية الحارث بن عمرو الأزدىّ ثم عزل عن قريب و ولّى عليها زياد بن أبيه، فبادر زياد و قتل سهم بن غالب الذى كان خرج فى أوّل الأمر على معاوية و صلبه. و فيها توفّيت أمّ المؤمنين حفصة بنت عمر ابن الخطاب زوجة رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم، و أمّها زينب بنت مظعون أخت عثمان بن مظعون. قال ابن سعد بإسناده: ولدت حفصة و قريش تبنى البيت قبل مبعث رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم بخمس سنين. و ذكر الذهبىّ وفاتها فى سنة إحدى و أربعين و تابعه جماعة على ذلک. و فيها توفّى زيد بن ثابت بن الضحّاک ابن زيد الأنصارىّ الصحابىّ، و هو من الطبقة الثالثة من الأنصار، كنيته أبو سعيد و قيل أبو خارجة. قال الإمام أحمد بن

حنبل حدّثنا وكيع عن سفيان عن خالد الحذّاء عن أبى قلابة عن أنس، قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم: «أرحم أمّتى أبو بكر و أشدّها فى دين اللّه عمر و أصدقها حياء عثمان و أعلمها بالفرائض زيد بن ثابت».

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١، ص: ١٣١

قلت: و هو من كتّاب الوحى و القرّاء. و فيها توفّى سلمة بن سلامة و كنيته أبو عوف. و قيل أبو ثابت. و هو من الطبقة الأولى من الأنصار، صحابىّ مشهور، شهد العقبتين و بدرا و المشاهد كلها مع رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم. و فيها توفّى سهل ابن عمرو بن زيد بن جشم الأنصارىّ، ذكره ابن سعد فى الطبقة الثالثة من الصحابة ممن شهد أحدا و الخندق و ما بعدهما مع رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم. و فيها توفّى عاصم ابن عدىّ، و هو من الطبقة الأولى من الأنصار، و كنيته أبو عمرو و قيل أبو عبد اللّه، و هو الذى بعثه رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم من بدر الى قباء.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ذراعان و سبعة أصابع. و قال صاحب درر التّيجان: و سبعة عشر إصبعا، مبلغ الزيادة ستة عشر ذراعا و خمسة أصابع.

*** السنة الثانية من ولاية عقبة بن عامر الجهنىّ على مصر و هى سنة ست و أربعين- فيها عزل الخليفة معاوية عبد الرحمن بن سمرة عن سجستان و ولّاها الربيع بن زياد الحارثىّ، فخاف الترك و جمع ملكهم «كابل شاه» الجموع و زحف على المسلمين فنزح المسلمون عن مدينة كابل، ثم لقيهم الربيع هذا و قاتلهم (أعنى الترك) فهزمهم اللّه تعالى؛ و ساق وراءهم المسلمين الى الرّخّج، و غنموا منهم شيئا كثيرا. و شتّى المسلمون بأرض الروم فى هذه السنة. و فيها توفى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد لمّا رجع من بلاد الروم الى حمص، و كان قد شتّى بالروم و فتح حصونا كثيرة، فسقاه ابن أثال النصرانىّ شربة مسمومة فمات منها. و هو ممن أدرك رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١، ص: ١٣٢

و قيل إنه مات فى سنة تسع و أربعين. و فيها توفى هرم بن حيّان العبدىّ البصرىّ ذكره ابن سعد فى الطبقة الأولى من الفقهاء المحدّثين و الزهّاد من أهل البصرة، و هو أحد الزهاد الثمانية.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمسة أذرع و سبعة أصابع، مبلغ الزيادة ستة عشر ذراعا و تسعة أصابع. و فى الدرر: ثمانية عشر ذراعا و تسعة أصابع.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة؛ ج ١؛ ص ١٣٢

* السنة الثالثة من ولاية عقبة بن عامر الجهنىّ على مصر و هى سنة سبع و أربعين- فيها عزل عقبة المذكور عن مصر. و فيها سار رويفع بن ثابت الأنصارىّ من طرابلس الغرب و دخل إفريقيّة ثم عاد من سنته. و فيها غزا عبد اللّه بن سوّار العبدىّ القيقان أيضا، فجمع له الترك و التقوا معه فاستشهد عبد اللّه و سائر من كان معه من الجيوش. و فيها شتّى مالك بن هبيرة بأرض الروم. و فيها أقام الموسم عنبسة ابن أبى سفيان. و فيها توفّى قيس بن عاصم بن سنان؛ ذكره ابن سعد فى الطبقة الرابعة فى الصحابة ممن أسلم من العرب و رجع الى بلاد قومه، و كنيته أبو على و قيل أبو قبيصة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربعة أذرع و ثلاثة عشر إصبعا.

و فى درر التيجان: و ثلاثة و عشرون إصبعا، مبلغ الزيادة ستة عشر ذراعا و سبعة أصابع.

ذكر ولاية مسلمة بن مخلد على مصر

هو مسلمة بن مخلّد بن صامت بن نياز بن لوذان بن عبد ودّ بن زيد بن ثعلبة ابن الخزرج بن ساعدة بن كعب بن الخزرج بن حارثة، أبو معن و قيل أبو سعيد،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۱۳۳

الصحابیّ الأنصاریّ (و مسلمة بفتح المیم و سکون السین المهملة، و مخلد بضم المیم و تشدید اللام). ولّاه معاویة بن أبی سفیان مصر بعد عزل عقبة بن عامر الجهنیّ فی سنة سبع و أربعین حسبما تقدّم ذکره فی آخر ترجمة عقبة، و جمع له معاویة الصلاة و الخراج و بلاد المغرب. فلمّا ولی مسلمة مصر انتظمت غزواته فی البر و البحر: منها غزوة القسطنطینیّة الآتی ذکرها، و لم یحضرها غیر أنه حسّن لمعاویة غزوها. و فی أیام ولایته علی مصر نزلت الرّوم البرلّس فی سنة ثلاث و خمسین فاستشهد فی الوقعة وردان مولی عمرو بن العاص فی جمع من المسلمین. و فی إمرته لمصر أیضا هدم ما کان عمرو بن العاص بناه من المسجد بمصر و بناه هو و أمر ببناء منار المسجد، و هو أوّل من أحدث المنار بالمساجد و الجوامع. و خرج مسلمة الی الإسکندریة فی سنة ستین و استخلف علی مصر عابس بن سعید، فجاءه الخبر بموت معاویة بن أبی سفیان فی شهر رجب منها و استخلاف یزید بن معاویة بعد أبیه، و کتب الیه یزید بن معاویة و أقرّه علی عمل مصر، و کتب الیه أیضا بأخذ البیعة له؛ فندب مسلمة عابسا و کتب الیه من الإسکندریة بذلک؛ فطلب عابس أهل مصر و بایع لیزید فبایعه الجند و الناس إلا عبد اللّه بن عمرو بن العاص، فدعا عابس بالنار لیحرق علیه بابه، فحینئذ بایع عبد اللّه بن عمرو لیزید علی کره منه. ثم قدم مسلمة من الإسکندریة فجمع لعابس مع الشرطة القضاء فی أوّل سنة إحدی و ستین. ا ه.

و قال الذهبیّ: مسلمة بن مخلّد الأنصاریّ له صحبة و روایة، و حدّث عنه شیبان ابن أمیّة و علیّ بن رباح و مجاهد و عبد الرحمن بن شماسة و غیرهم، قال: ولدت حین

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۱۳۴

قدم النّبیّ صلی اللّه علیه و سلم المدینة، و قد ولی دیار مصر لمعاویة. انتهی کلام الذهبیّ.

و قال ابن عبد الحکم: مسلمة بن مخلّد الأنصاریّ لهم عنه حدیث واحد لیس [لهم] عنه غیره، و هو حدیث موسی بن علیّ عن أبیه أنه سمعه یقول و هو علی المنبر:

توفّی رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم و أنا ابن عشر سنین. لم یرو عنه غیر أهل مصر، و أهل البصرة لهم عنه حدیث واحد، و هو حدیث أبی هلال الراسبیّ قال حدّثنا جبلة ابن عطیّة عن مسلمة بن مخلّد: أنه رأی معاویة یأکل، فقال لعمرو بن العاص:

إن ابن عمّک لمخضد، ثم قال: أما إنی أقول هذا و قد سمعت رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم یقول: «اللهمّ علّمه الکتاب و مکّن له فی البلاد و وقّه العذاب». و ربما أدخل بعض المحدّثین بین جبلة بن عطیّة و بین مسلمة رجلا.

و قد ولی مسلمة بن مخلّد مصر، و هو أوّل من جمع له مصر و المغرب، و توفّی سنة اثنتین و ستین، و کان یکنی أبا سعید. انتهی کلام ابن عبد الحکم. و کان مسلمة کثیر العبادة.

قلت: و أما غزوة القسطنطینیة التی وعدنا بذکرها فإنها کانت فی سنة تسع و أربعین؛ و کان مسلمة هذا حرّض معاویة علیها، فأرسل الیها معاویة جیشا کثیفا و أمّر علیهم سفیان بن عوف و أمر ابنه یزید بالغزاة معهم، فتثاقل یزید و اعتذر، فأمسک عنه أبوه، فأصاب الناس فی غزاتهم جوع و مرض شدید؛ فأنشد یزید یقول:

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۱۳۵

ما إن أبالی بما لاقت جموعهم بالغذقذونة من حمّی و من موم

اذا اتّکأت علی الأنماط مرتفقا بدیر مرّان عندی أمّ کلثوم

- و أمّ کلثوم امرأته و هی ابنة عبد اللّه بن عامر- فبلغ معاویة شعره فأقسم علیه لیلحقنّ بسفیان بأرض الروم لیصیبه ما أصاب الناس، فسار و معه جمع کبیر. و کان فی هذا الجیش ابن عباس و ابن عمرو ابن عمرو و ابن الزّبیر و أبو أیّوب الأنصاریّ و غیرهم، فأوغلوا فی بلاد الروم [حتی بلغوا القسطنطیّة]، فاقتتل المسلمون و الروم و اشتدّ الحرب بینهم، فلم یزل عبد العزیز یتعرّض للشهادة فلم یقتل، ثم حمل بعد ذلک علیهم و انغمس بینهم. فشجره الروم برماحهم حتّی قتلوه، فبلغ معاویة قتله فقال لأبیه: هلک و اللّه فتی العرب! فقال

أبوه لمعاوية: ابنى أم ابنک؟ فقال:

ابنک، فآجرک اللّه؛ فقال:

فإن يكن الموت أودى به و أصبح مخّ الكلابىّ زيرا

فكلّ فتى شارب كأسه فإمّا صغيرا و إمّا كبيرا

قال مجاهد: صلّيت خلف مسلمة بن مخلّد، فقرأ سورة البقرة فما ترك ألفا و لا واوا.

و قال ابن سعد فى كتاب الطبقات الكبرى من تصنيفه: حدّثنا معن بن عيسى حدّثنا موسى بن علىّ بن رباح عن أبيه عن مسلمة بن مخلّد قال: أسلمت و أنا ابن أربع سنين، و توفّى رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم و أنا ابن أربعة عشرة سنة.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۱۳۶

و قال محمد بن عمرو: يروى مسلمة بن مخلّد عن رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم.

ثم قال: و تحوّل الى مصر و نزلها، و كان مع أهل خربتا، و كانوا أشدّ أهل المغرب [و أعدّه]، و كان له بها ذكر و نباهة؛ ثم صار الى المدينة فمات بها فى خلافة معاوية. ا ه.

قلت: و هذا القول يخالف فيه الجمهور. و الذى قاله المؤرّخون: إنه استمرّ على عمله حتى توفّى لخمس بقين من شهر رجب سنة اثنتين و ستين. و كانت ولايته على مصر خمس عشرة سنة و أربعة أشهر. و تولّى مصر من بعده سعيد بن يزيد.

و قال الحافظ أبو سعيد عبد الرحمن بن يونس على ما أخبرنا: شهد مسلمة فتح مصر و اختطّ بها، و ولى الجند لمعاوية بن أبى سفيان و لابنه يزيد بن معاوية؛ و روى عنه من أهل مصر علىّ بن رباح و هشام بن أبى رقيّة و أبو قبيل و هلال ابن عبد الرحمن و محمد بن كعب و غيرهم، توفّى بالإسكندرية سنة اثنتين و ستين فى ذى القعدة.

حدّثنا على بن سعيد الرازى حدّثنا عثمان بن أبى شيبة أخبرنا وكيع حدّثنا موسى ابن علىّ عن أبيه قال: سمعت مسلمة بن مخلّد يقول: ولدت حين قدم النّبىّ صلى اللّه عليه و سلم المدينة، و توفّى و أنا ابن عشر سنين. قال ابن يونس: هذا الحديث غريب، و قد رواه معن بن عيسى و عبد الرحمن بن مهدىّ و غيرهما عن موسى ابن علىّ. انتهى كلام ابن يونس.

هذا ما وقع لنا من أخبار مسلمة بن مخلّد المذكور، و يأتى ذكره أيضا فى سنى ولايته على مصر كما هى عادتنا فى هذا الكتاب إن شاء اللّه تعالى.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۱۳۷

*** السنة الأولى من ولاية مسلمة بن مخلّد على مصر و هى سنة ثمان و أربعين- فيها كتب معاوية بن أبى سفيان الخليفة الى زياد لمّا بلغه قتل عبد اللّه بن سوّار:

انظر لى رجلا يصلح لثغر الهند أوجّهه اليه؛ فوجّه اليه زياد سنان بن سلمة الهذلىّ، فولّاه معاوية الهند. و فيها عزل معاوية مروان بن الحكم عن إمرة المدينة بسعيد بن العاص الأموىّ. و فيها قتل بالهند عبد اللّه بن عيّاش بن أبى ربيعة المخزومىّ. و فيها توفّى الحارث بن قيس الجعفىّ الفقيه صاحب عبد اللّه بن مسعود، و قيل: إنه مات فى غير هذه السنة. و فيها كان مشتى عبد الرحمن القينىّ بأنطاكية. و فيها كانت صائفة عبد اللّه بن قيس الفزارىّ. و فيها كانت غزوة مالك بن هبيرة السّكونىّ فى البحر. و فيها استعمل زياد غالب بن فضالة الليثىّ على خراسان، و كانت له صحبة. و فيها حجّ بالناس مروان بن الحكم، و هو يتوقّع العزل لموجدة كانت من معاوية عليه، و ارتجع معاوية منه فدک و كان وهبها له.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ستة أذرع و عشرون إصبعا، مبلغ الزيادة ثمانية عشر ذراعا و إصبعان.

*** السنة الثانية من ولاية مسلمة بن مخلّد على مصر و هى سنة تسع و أربعين- فيها شتّى مالک بن هبيرة بأرض الروم، و قيل ما شتّى بها إلّا فضالة بن عبيد الأنصارى.

و فيها حجّ بالناس سعيد بن العاص؛ و فيها قتل زياد بالبصرة الخطيم الباهلىّ الخارجىّ.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۱۳۸

و فيها خرج على المغيرة بن شعبة و هو والى الكوفة شبيب بن بجرة الأشجعىّ، و هو غير شبيب الذى خرج على الحجاج بن يوسف، فوجّه اليه المغيرة كثير بن شهاب الحارثىّ فقتله بأذربيجان. و كان شبيب ممن شهد النهروان. و فيها كانت غزوة فضالة بن عبيد جربة و شتّى بها، و فتحت على يده و أصاب فيها سبايا كثيرة. و فيها كانت صائفة عبد اللّه بن كرز البجلىّ. و فيها كانت غزوة يزيد بن شجرة الرهاوىّ بالبحر فشتّى بأهل الشام. و فيها كانت غزوة عقبة بن نافع فى البحر فشتّى بأهل مصر. و فيها عزل مروان عن المدينة بسعيد بن العاص فى شهر ربيع الأوّل، فكانت ولاية مروان ثمانى سنين و شهرين، و كان على قضاء المدينة عبد اللّه بن الحارث بن نوفل فعزله سعيد حين ولّى و استقضى أبا سلمة بن عبد الرحمن. و فيها توفّى الحسن بن علىّ، و الأصحّ أنه فى الآتية، كما سيأتى ذكره إن شاء اللّه تعالى.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمسة أذرع و إصبعان، مبلغ الزيادة ستة عشر ذراعا و ستة أصابع.

*** السنة الثالثة من ولاية مسلمة بن مخلّد على مصر و هى سنة خمسين من الهجرة- فيها وجّه زياد الربيع الحارثىّ إلى خراسان فغزا بلخ و كانت قد انتقضت بعد رواح الأحنف بن قيس عنها فصالحوا الربيع هذا و رحل عنها و غزا قوهستان فافتتحها عنوة. و فيها أراد معاوية نقل منبر النّبىّ صلى اللّه عليه و سلم من المدينة و أن يحمل الى الشام، و قال: لا يترك هو و عصا النّبىّ صلى اللّه عليه و سلم بالمدينة و هم قتلة عثمان، فطلب العصا و هى عند سعد القرظ، و حرّك المنبر فكسفت

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۱۳۹

الشمس حتى رئيت النجوم بادية، فأعظم الناس ذلك فتركه. و قيل: بل أتاه جابر و أبو هريرة فقالا له: يا أمير المؤمنين، لا يصلح أن يخرج منبر النبى صلى اللّه عليه و سلم من موضع وضعه و تنقل عصاه الى الشام، فانقل المسجد؛ فتركه معاوية و زاد فيه ستّ درجات و اعتذر مما صنع. و فيها افتتح معاوية بن حديج (بضم الحاء المهملة مصغّرا) فتحا كبيرا بالمغرب، و كان قد جاءه عبد الملك بن مروان فى مدد أهل المدينة. و هذه أوّل غزوة لعبد الملك بن مروان. و فيها ولّى معاوية زيادا البصرة و الكوفة معا بعد موت المغيرة بن شعبة، فعزل زياد الربيع عن سجستان و ولّاها لعبيد اللّه بن أبى بكرة. و فيها غزا يزيد بن معاوية القسطنطينية و كان معه فيها وجوه الناس، و ممن كان معه أبو أيوب الأنصارىّ و قد ذكرناها (أعنى هذه الغزوة فى أصل الترجمة). و فيها توفى السيد حسن بن علىّ ابن أبى طالب رضى اللّه عنه، و كنيته أبو محمد الهاشمىّ، القرشىّ السيد ابن السيد ابن السيدة فاطمة الزّهراء بنت رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم، ولد فى شعبان سنة ثلاث من الهجرة، و قيل فى نصف شهر رمضان منها، قاله الواقدىّ. و كان ريحانة النّبىّ صلى اللّه عليه و سلم و شبيها به. ولى الخلافة بعد موت أبيه علىّ بن أبى طالب فى شهر رمضان سنة أربعين؛ و اجتمع عليه المسلمون و أحبّوه حبّا شديدا و ألزموه حرب معاوية، فسار على كره منه، فلمّا كان فى بعض الطريق اختلف عليه بعض أصحابه فضاق صدره، ثم أرسل الى معاوية يسأله الصلح و يسلّم له الأمر، فوقع ذلك و شقّ على أصحابه و كادت نفوسهم تذهب، و دخل عليه سفيان أحد أصحابه و قال له: السلام عليك

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۱۴۰

يا مذلّ المؤمنين؛ فقال الحسن: لا تقل ذلك، إنى كرهت أن أقتلكم فى طلب الملك.

قال الحافظ الذهبىّ قال أبو بكرة: رأيت رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم على المنبر و الحسن بن علىّ الى جنبه و هو يقول: «إنّ ابنى هذا سيّد و لعلّ اللّه أن يصلح به بين فئتين من المسلمين» أخرجه البخارى.

و عن أبى سعيد الخدرىّ قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم: «الحسن و الحسين سيّدا شباب أهل الجنة» صحّحه الترمذىّ.

قلت: و مناقب الحسن كثيرة يضيق هذا المحلّ عن ذكرها، و كانت وفاته بالمدينة فى شهر ربيع الأوّل و دفن بالبقيع رضى اللّه عنه. و

فيها توفّيت أمّ المؤمنين صفيّة بنت حييّ بن أخطب بن سعية من سبط لاوى بن يعقوب بن إسحاق بن ابراهيم عليهم السلام، ثم من ولد هارون أخى موسى عليهما السلام؛ سباها النّبىّ صلى اللّه عليه و سلم يوم خيبر، و جعل عتقها صداقها و تزوّجها، و ماتت فى هذه السنة و قيل فى سنة ستّ و ثلاثين، و الأوّل أشهر. و فيها كانت بناية مدينة القيروان بالمغرب.

و فيها كان الطاعون العظيم بالكوفة و أميرها المغيرة بن شعبة، و مات فيه بعد أن فرّ منه. و هذا الطاعون رابع طاعون مشهور وقع فى الإسلام؛ فإن الأوّل كان بالمدائن فى عهد النّبىّ صلى اللّه عليه و سلم؛ و الثانى طاعون عمواس فى زمان عمر رضى اللّه عنه؛ و الثالث بالكوفة و أميرها أبو موسى الأشعرىّ؛ ثم هذا الطاعون أيضا بالكوفة.

و فيها توفّى المغيرة بن شعبة بن أبى عامر بن مسعود، أبو عيسى و يقال أبو محمد،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۱۴۱

صحابىّ مشهور، و كان من دهاة العرب، يقال له: مغيرة الرأى، و كان كثير الزواج.

قال المغيرة: تزوّجت بسبعين امرأة. و قال مالك: كان المغيرة نكّاحا للنساء، و يقول: صاحب المرأة إن مرضت مرض و إن حاضت حاض؛ و صاحب المرأتين بين نارين تشعلان. و قال ابن المبارك: كان تحت المغيرة أربع نسوة فصفّهنّ بين يديه و قال: أنتنّ حسان الأخلاق، طويلات الأعناق، و لكنّى رجل مطلاق، فأنتنّ الطلاق.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ذراعان و ستة عشر إصبعا، مبلغ الزيادة ستة عشر ذراعا و أربعة أصابع.

*** السنة الرابعة من ولاية مسلمة بن مخلد على مصر و هى سنة إحدى و خمسين من الهجرة- فيها حجّ بالناس معاوية و أخذهم ببيعة ابنه يزيد. و فيها كانت مقتلة حجر بن عدىّ و عمرو بن الحمق و أصحابهما. قال ابن الأثير فى تاريخه الكامل قال الحسن: أربع خصال كنّ فى معاوية لو لم تكن فيه إلّا واحدة لكانت موبقة:

انتزاؤه على هذه الأمّة بالسيف حتّى أخذ الأمر من غير مشهورة و فيهم بقايا الصحابة و ذوو الفضيلة، و استخلافه ابنه بعده سكّيرا خمّيرا يلبس الحرير و يضرب بالطنابير، و ادّعاؤه زيادا و قد قال رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم: «الولد للفراش و للعاهر الحجر»، و قتله حجرا و أصحاب حجر، فيا ويلاه من حجر! و يا ويلاه من أصحاب حجر!! و فيها توفى سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزّى أبو الأعور القرشىّ العدوىّ الصحابىّ؛

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۱۴۲

أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، كان أميرا على ربع المهاجرين، و ولى دمشق نيابة عن أبى عبيدة بن الجرّاح و شهد فتحها، و شهد مع رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم المشاهد كلها بعد بدر. و قال الواقدىّ: توفّى سنة إحدى و خمسين، و هو ابن بضع و سبعين سنة، و قبره بالمدينة و نزل فى قبره سعد و ابن عمر، و كان رجلا آدم طويلا أشعر. و فيها توفّى أبو أيّوب الأنصارىّ خالد بن زيد بن كليب بن ثعلبة بن عبد [بن] عوف بن غنم بن مالك بن النجّار، الخزرجىّ النجّارىّ المدنىّ الصحابىّ، شهد بدرا و العقبة، و عليه نزل رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم لمّا قدم المدينة فبقى فى داره شهرا حتى بنيت حجرته و مسجده، و كان من نجباء الصحابة رضى اللّه عنهم أجمعين. و فيها توفّيت أمّ المؤمنين ميمونة بنت الحارث الهلاليّة، تزوّجها رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم سنة سبع من الهجرة، و روى عنها مولياها عطاء و سليمان ابنا يسار و ابن أختها يزيد بن الأصمّ و ابن أختها عبد اللّه بن عباس و ابن أختها عبد اللّه ابن شدّاد بن الهاد و جماعة أخر؛ و كانت قبل النبى صلى اللّه عليه و سلم عند أبى رهم ابن عبد العزّى العامرىّ فتأيّمت منه، فخطبها رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم فجعلت أمرها الى العبّاس فزوّجها منه، و بنى بها بسرف بطريق مكة لمّا رجع من عمرة القضاء، و هى أخت لبابة الكبرى زوجة العبّاس و لبابة الصغرى أمّ خالد بن الوليد، و أخت أسماء بنت عميس لأمّها، و أخت زينب بنت خزيمة أيضا لأمّها.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثلاثة أذرع و خمسة أصابع، مبلغ الزيادة تسعة عشر ذراعا و ثلاثة و عشرون إصبعا. و فى درر التيجان: و ستة و عشرون إصبعا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۱۴۳

*** السنة الخامسة من ولاية مسلمة بن مخلّد على مصر و هى سنة اثنتين و خمسين- فيها شتّى بسر بن أبى أرطاة بأرض الروم (و هو بضم الموحّدة و سكون السين المهملة).

و فيها حجّ بالناس سعيد بن العاص. و فيها توفّى أبو أيّوب الأنصارى، و اسمه خالد بن زيد فى قول بن الأثير، كان من نجباء الصحابة، شهد العقبة و بدرا و أحدا و قد تقدّم ذكره و وفاته فى سنة تسع و أربعين. و فيها توفى كعب بن عجرة ولد خمس و سبعون سنة.

و فيها صالح عبيد اللّه بن أبى بكرة الثقفىّ رتبيل و بلاده على ألف ألف درهم.

و فيها ولد يزيد بن أبى حبيب فقيه أهل مصر. و فيها توفّى عمران بن الحصين بن عبيد ابن خلف، أبو نجيد (بضم النون مصغرا)، الخزاعىّ صاحب رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم ولى قضاء البصرة، كان عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه بعثه اليهم ليفقّههم. و فيها توفّى معاوية بن حديج التّجيبىّ الكندىّ، و قد تقدّم من أخباره نبذ كثيرة فيما تقدّم.

و هو من كبار العثمانية و ممن كان بخربتا و حارب جيش علىّ بن أبى طالب رضى اللّه عنه و قتل محمد بن أبى بكر الصدّيق و كان من أنياب العرب و كبارها. و فيها خرج زياد بن خراش العجلىّ فى ثلثمائة فارس فأتى أرض مسكن من السواد، فسيّر اليه زياد خيلا عليها سعد بن حذيفة أو غيره. فقتلوهم و قد صاروا الى ماه. و خرج أيضا على زياد رجل من طيّئ يقال له معاذ، فأتى نهر عبد الرحمن بن أمّ الحكم فى ثلاثين رجلا فبعث اليه زياد من قتله و قتل أصحابه، و قيل بل حلّ لواءه و استأمن؛ و يقال لهم أصحاب نهر عبد الرحمن.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ذراعان و ثلاثة عشر إصبعا، مبلغ الزيادة ستة عشر ذراعا و عشرون إصبعا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۱۴۴

*** السنة السادسة من ولاية مسلمة بن مخلد على مصر و هى سنة ثلاث و خمسين- فيها استعمل معاوية على الكوفة الضحّاك بن قيس الفهرىّ بعد موت زياد بن أبيه، و استعمل على البصرة سمرة بن جندب، و عزل عبيد اللّه ابن أبى بكرة عن سجستان و ولّاها لعبّاد بن زياد بن أبيه، فغزا عبّاد المذكور قندهار حتى بلغ بيت الذهب، فجمع له الهند جمعا هائلا، فقاتلهم عبّاد حتى هزمهم، و لم يزل على إمرة سجستان حتى توفّى معاوية بن أبى سفيان. و فيها توفّى عبد الرحمن ابن أبى بكر الصدّيق فى نومة نامها، و اسم أبى بكر عبد اللّه بن أبى قحافة عثمان التيمىّ القرشىّ الصحابىّ، مات بمكة و كان شجاعا راميا، أسلم قبل الفتح. و فيها توفّى عمرو بن حزم الخزرجىّ الصحابىّ، استعمله النّبىّ صلى اللّه عليه و سلم على نجران، و كان من نجباء الصحابة. و فيها شتّى عبد الرحمن بن أمّ الحكم بأرض الروم. و فيها أقام الموسم سعيد بن العاص. و فيها أمّر معاوية على خراسان عبيد اللّه بن زياد.

و فيها قتل عابد بن ثعلبة البلوىّ أحد الصحابة، قتله الروم بالبرلّس. و فيها فتحت رودس (جزيرة فى البحر) فتحها جنادة بن أبى أميّة الأزدىّ و نزلها المسلمون و هم على حذر من الروم، و كانوا أشدّ شىء على الروم يعترضونهم فى البحر و يأخذون سفنهم، و كان معاوية يدرّ لهم العطاء، و كان العدوّ قد خافهم، فلمّا مات معاوية أقفلهم ابنه يزيد. و فيها توفّى زياد بن أبيه، كان ولى الكوفة و البصرة و العراق لمعاوية، و كان من دهاته؛ و قال مسكين الدارمىّ يرثيه بقوله:

رأيت زيادة الإسلام ولّت جهارا حين ودّعنا زياد

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۱۴۵

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمسة أذرع و سبعة عشر إصبعا، مبلغ الزيادة ستة عشر ذراعا و أربعة أصابع.

*** السنة السابعة من ولاية مسلمة بن مخلّد على مصر و هى سنة أربع و خمسين- فيها عزل معاوية سعيد بن العاص عن إمرة المدينة و ولّاها لمروان بن الحكم ثانية.

و فيها غزا عبيد اللّه بن زياد و قطع النهر و عدّى الى بخارا على الإبل، فكان أوّل عربىّ قطع النهر، و افتتح بها البلاد. و فيها وجّه

الضّحّاك بن قيس من الكوفة ابن هبيرة الشيبانىّ الى غزو طبرستان، فصالحه أهلها على خمسمائة ألف درهم. و فيها عزل معاوية سمرة ابن جندب عن البصرة و ولّاها لعبد اللّه بن عمرو بن غيلان الثقفىّ. و فيها حجّ بالناس مروان بن الحكم أمير المدينة، و قال ابن الأثير: سعيد بن العاص، و كان عامل المدينة. و فيها توفّى أسامة بن زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبىّ، حبّ رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم و ابن حبّه و مولاه، كنيته أبو زيد، و قيل أبو محمد، و قيل أبو حارثة. ففى الصحيح عن أسامة قال: كان النّبىّ صلى اللّه عليه و سلم يأخذنى و الحسين و يقول: «اللهمّ إنى أحبّهما فأحبّهما». و أمّه أمّ أيمن بركة حاضنة رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم و مولاته، و كان أسود كالليل و أبوه أبيض أشقر، قاله إبراهيم بن سعد. و فيها توفّى ثوبان مولى رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم. و فيها توفّى جبير بن مطعم بن عدىّ بن نوفل النوفلىّ الصحابىّ، أسلم بعد بدر و حضر عدّة مشاهد مع النّبىّ صلى اللّه عليه و سلم. و فيها توفّى حسّان بن ثابت بن المنذر بن حرام

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱، ص: ۱۴۶

النجّارىّ الصحابىّ شاعر رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم المؤيّد بروح القدس و عاش هو و أبوه و جدّه و جدّ أبيه كل واحد مائة و عشرين سنة. و فيها توفى سعيد بن يربوع المخزومىّ الصحابىّ عن مائة و عشرين سنة أيضا، أسلم فى الفتح. و فيها توفّى عبد اللّه ابن أنيس الجهنىّ الصحابىّ حليف الأنصار شهد العقبة. و فيها توفّى حكيم بن حزام ابن خويلد بن أسد أبو خالد الأسدىّ الصحابىّ ابن أخى خديجة زوجة النّبىّ صلى اللّه عليه و سلم، أسلم فى الفتح و كان سيّدا شريفا، ولد فى جوف الكعبة و أعتق فى الجاهلية و الإسلام مائتى رقبة و جاوز مائة السنة من العمر. و فيها توفى أبو قتادة الأنصارىّ السّلمىّ فارس رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم و اسمه الحارث بن ربعىّ. و كان من نجباء الصحابة رضى اللّه عنهم. و فيها توفّى مخرمة بن نوفل الزّهرىّ الصحابىّ عن مائة و خمس عشرة سنة، و كان من المؤلّفة قلوبهم، و المسور هو ابنه. و فيها مات فيروز الدّيلمىّ و كانت له صحبة و كان مع معاوية و استعمله على صنعاء. و فيها مات فضالة ابن عبيد الأنصارىّ بدمشق و كان قاضيها، و قيل فى موته غير ذلك، شهد أحدا و ما بعدها. و خرجت هذه السنة و على الكوفة عبد اللّه بن خالد بن أسيد، و على البصرة سمرة، و على خراسان خليد بن يربوع الحنفى (و أسيد بفتح الهمزة و كسر السين المهملة و سكون الياء المعجمة باثنتين من تحت).

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربعة أذرع و ثلاثة عشر إصبعا، مبلغ الزيادة ستة عشر ذراعا و ثمانية أصابع.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱، ص: ۱۴۷

*** السنة الثامنة من ولاية مسلمة بن مخلّد على مصر و هى سنة خمس و خمسين- فيها عزل معاوية عن البصرة عبد اللّه الثقفىّ و ولّاها لعبيد اللّه بن زياد. و فيها حجّ بالناس مروان بن الحكم أمير المدينة. و فيها عزل معاوية عبد اللّه بن خالد عن الكوفة و ولّاها الضّحّاك بن قيس. و فيها توفى أبو اليسر (بفتح الياء المثناة من تحت و السين) السّلمىّ (بفتحتين أيضا) اسمه كعب بن عمرو، و هو من أعيان الصحابة الأنصار، و هو الذى أسر العباس يوم بدر و شهد العقبة مع النّبىّ صلى اللّه عليه و سلم و له عشرون سنة. و فيها توفّى سعد بن أبى وقّاص و اسمه مالك بن أهيب بن عبد مناف ابن زهرة بن كلاب بن مرّة، كنيته أبو إسحاق الزّهرىّ، أحد العشرة المشهود لهم بالجنة و أحد السابقين الأوّلين، كان يقال له: فارس الإسلام، و هو أوّل من رمى بسهم فى سبيل اللّه، و كان مقدّم الجيوش فى فتح العراق، و كان مجاب الدعوة كثير المناقب و شهد بدرا. و روى عثمان بن عبد الرحمن عن الزّهرىّ قال: بعث رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم سريّة فيها سعد بن أبى وقّاص الى رابغ و هى من جانب الجحفة، فانكفأ المشركون على المسلمين فحماهم سعد يومئذ بسهامه، و هو أوّل قتال كان فى الإسلام؛ فقال سعد:

ألا هل اتى رسول اللّه أنّى حميت صحابتى بصدور نبلى

فما يعتدّ رام فى عدوّ بسهم يا رسول اللّه قبلى

و فيها توفّى الأرقم بن أبى الأرقم المخزومىّ، و هو الذى كان النّبىّ صلى اللّه عليه و سلم يختفى فى داره بمكة، و كان عمره ثمانين

سنة و زيادة، و قيل مات يوم مات أبو بكر الصدّيق رضى اللّه عنه.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۱۴۸

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ستة أذرع و إصبعان، مبلغ الزيادة ستة عشر ذراعا و ستة أصابع.

*** السنة التاسعة من ولاية مسلمة بن مخلّد على مصر و هى سنة ست و خمسين- فيها عزل معاوية عبيد اللّه بن زياد عن خراسان و ولّى عليها سعيد بن عثمان بن عفان، فغزا سعيد سمرقند و معه المهلّب بن أبى صفرة الأزدىّ و طلحة الطلحات و أوس بن ثعلبة، و خرج إليه الصّغد فقاتلوه فألجأهم الى مدينتهم، فصالحوه و أعطوه رهائن. و فيها شتّى المسلمون بأرض الروم. و فيها توفّيت أمّ المؤمنين جويرية المصطلقيّة، و قيل: إنها ماتت فى سنة خمسين، و هى جويرية بنت الحارث بن أبى ضرار المصطلقىّ، سباها النّبىّ صلى اللّه عليه و سلم يوم المريسيع فى السنة الخامسة، و كان اسمها برّة فغيّر النّبىّ صلى اللّه عليه و سلم اسمها و تزوّجها و جعل صداقها عتق جماعة من قومها، ثم قدم أبوها الحارث بن أبى ضرار على النّبىّ صلى اللّه عليه و سلم.

و عن جويرية قالت: تزوّجنى النّبىّ صلى اللّه عليه و سلم و أنا بنت عشرين سنة، و كانت قبل النّبىّ صلى اللّه عليه و سلم عند ابن عمّهاصفوان ذى الشّفر. و فيها غزا يزيد بن شجرة فى البحر، و فى البرّ عياض بن الحارث. و فيها اعتمر معاوية فى رجب.

و حجّ بالناس الوليد بن عتبة بن أبى سفيان. و فيها كانت البيعة ليزيد بن معاوية بولاية العهد. و فيها توفّى عبد اللّه بن قرط الأزدىّ الصحابى أمير حمص.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۱۴۹

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم سبعة أذرع و سبعة أصابع، مبلغ الزيادة ستة عشر ذراعا و إصبعان.

*** السنة العاشرة من ولاية مسلمة بن مخلّد على مصر و هى سنة سبع و خمسين- فيها وجّه معاوية حسان بن النعمان الغسّانىّ إلى إفريقية، فصالحوه من يليه من البربر و ضرب عليهم الخراج و بقى عليها حتى توفّى معاوية و تخلّف ابنه يزيد. و فيها عزل معاوية الضحّاك عن الكوفة و ولّاها عبد الرحمن بن أمّ الحكم. و فيها عزل معاوية مروان بن الحكم عن المدينة و أمّر عليها الوليد بن عتبة بن أبى سفيان.

و فيها عزل معاوية سعيد بن عثمان عن خراسان و أعاد عليها عبيد اللّه بن زياد.

و فيها شتّى عبد اللّه بن قيس بأرض الروم. و فيها توفّى السائب بن أبى وداعة السهمىّ الصحابىّ و كان أسر يوم بدر و أسلم بعد ذلك.

و فيها توفى عثمان بن طلحة ابن شيبة العبدرى، و قيل فى سنة تسع و خمسين و هو جدّ بنى شيبة حجبة الكعبة، و أسلم يوم الفتح، و قيل يوم حنين. و فيها غزا مالك بن عبد اللّه الخثعمىّ أرض الروم و عمرو بن يزيد الجهنى فى البحر، و قيل جنادة بن أبى أميّة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمسة أذرع و اثنا عشر إصبعا، مبلغ الزيادة ستة عشر ذراعا و خمسة عشر إصبعا.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۱۵۰

*** السنة الحادية عشرة من ولاية مسلمة بن مخلّد على مصر و هى سنة ثمان و خمسين- فيها غزا عقبة بن نافع من قبل مسلمة بن مخلّد القيروان و اختطّ عقبة مدينة القيروان و ابتناها. و فيها توفّيت أمّ المؤمنين عائشة بنت أبى بكر الصدّيق رضى اللّه عنهما فقيهة نساء هذه الأمّة، و كنيتها أمّ عبد اللّه التيميّة، دخل بها النّبىّ صلى اللّه عليه و سلم فى شوّال بعد بدر و لها من العمر تسع سنين، و هى أحبّ نساء النّبىّ صلى اللّه عليه و سلم اليه بعد خديجة، روى عنها جماعة كثيرة من الصحابة. قال رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم: «فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»، و قالت: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم يوما: «يا عائشة هذا جبريل يقرئک السلام» فقالت: عليه السلام و رحمة اللّه و بركاته، ترى ما لا أرى. و عن عائشة: أنّ جبريل جاء بصورتها فى خرقة حرير خضراء إلى النّبىّ صلى اللّه عليه و سلم فقال: هذه زوجتک فى الدنيا و الآخرة. رواه الترمذىّ و حسّنه.

قلت: و فضل و مناقب عائشة كثيرة و كانت وفاتها فى شهر رمضان، و قال الواقدىّ: فى ليلة سابع عشر رمضان و دفنت بالبقيع ليلا، فلم

ترليلة أكثر ناسا منها، و صلى عليها أبو هريرة، و ماتت و لها ستّ و ستون سنة رضى اللّه عنها. و فيها عزل معاوية الضحّاك بن قيس عن الكوفة و استعمل عوضه عبد الرحمن بن عبد اللّه الثقفىّ و هو ابن أمّ الحكم و هو ابن أخت معاوية، و فى عمله فى هذه السنة خرجت الخوارج الذين كان المغيرة بن شعبة حبسهم، فجمعهم حيان بن ظبيان السّلمىّ و معاذ بن جوين

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۱۵۱

الطائىّ فخطباهم و حثّاهم على الجهاد، فبايعوا حيّان بن ظبيان و خرجوا [إلى بانقيا] فسار الجيش إليهم من الكوفة فقتلوهم جميعا؛ ثم إنّ عبد الرحمن بن أمّ الحكم طرده أهل الكوفة لسوء سيرته فلحق بخاله معاوية فولّاه مصر فاستقبله معاوية بن حديج على مرحلتين من مصر فقال: ارجع الى خالك فلا تسرفينا سيرتك فى إخواننا أهل الكوفة، فرجع الى معاوية؛ ثم توجّه ابن حديج الى معاوية فى السنة يعاتبه كما نذكره إن شاء اللّه تعالى بعد وفاة أبى هريرة. و فيها توفّى أبو هريرة و قيل فى التى بعدها، و الأكثر على أنّ وفاته فى هذه السنة. و فى اسم أبى هريرة و اسم أبيه أقوال كثيرة.

قال أبو عبد اللّه الذهبىّ: أشهرها عبد الرحمن بن صخر، و كان اسمه قبل الإسلام عبد شمس. و قال: كنّانى أبى بأبى هريرة لأنى كنت أرعى غنما فوجدت أولاد هرّة و حشيّة فأخذتها، فقال: أنت أبو هريرة. و هو من المكثرين من الصحابة، و هو دوسىّ، و دوس: قبيلة من الأزد، و مات و له ثمان و سبعون سنة. و فيها وفد معاوية ابن حديج على معاوية بن أبى سفيان الخليفة، و كان اذا قدم معاوية على معاوية زيّنت له الطرق [بقباب الرّيحان] تعظيما لشأنه، فدخل على معاوية و عنده أخته أمّ الحكم، فقالت: من هذا يا أمير المؤمنين؟ فقال: بخ بخ! هذا معاوية بن حديج؛ فقالت: لا مرحبا «سماعك بالمعيدىّ خير من أن تراه»؛ فسمعها معاوية ابن حديج فقال: على رسلك يا أمّ الحكم، و اللّه لقد تزوّجت فما أكرمت، و ولدت

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۱۵۲

فما أنجبت، أردت أن يلى ابنك الفاسق علينا فيسير فينا كما سار فى أهل الكوفة! ما كان اللّه ليريه ذلك، و لو فعله لضربناه ضربا يطأطئ منه و لو كره هذا القاعد (يعنى خاله معاوية)؛ فالتفت إليها معاوية و قال لها: كفّى، فكفّت عن الكلام.

و فيها توفّى عبيد اللّه بن العباس بن عبد المطلب، أحد الأجواد و له صحبة و رواية.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ذراعان و أربعة عشر إصبعا. و فى درر التّيجان: و أربعة و عشرون إصبعا، مبلغ الزيادة خمسة عشر ذراعا و أحد عشر إصبعا.

*** السنة الثانية عشرة من ولاية مسلمة بن مخلد على مصر و هى سنة تسع و خمسين- فيها شتّى عمرو بن مرّة بأرض الروم فى البرّ. و فيها حجّ بالناس الوليد بن عتبة، و قيل عثمان بن محمد بن أبى سفيان. و فيها غزا أبو المهاجر دينار فنزل على قرطاجنّة و خرج إليه أهلها فالتقوا و كثر القتل بين الفريقين حتى حجز الليل بينهم، و انحاز المسلمون من ليلتهم فنزلوا جبلا فى قبلة بولس، ثم عاودوهم و صالحوهم على أن يخلوا لهم الجزيرة، ثم افتتح أبو المهاجر المذكور ميلة، و كانت إقامته بها فى هذا الغزو نحوا من سنتين. و فيها توفّى عبد اللّه بن عامر بن كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس القرشىّ العبشمىّ أبو عبد الرحمن. قال الذهبىّ:

رأى النّبىّ صلى اللّه عليه و سلم، و له حديث، و هو: «من قتل دون ماله فهو شهيد»، و روى عنه حنظلة بن قيس. و أسلم والده يوم الفتح. و فيها توفى مرّة بن كعب البهزىّ السلمىّ له صحبة. و فيها توفى سعيد بن العاص بن أبى أحيحة بن سعيد

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۱۵۳

ابن العاص بن أمية، أمير الكوفة لعثمان، و كان فصيحا سخيّا، ولد بعيد الهجرة، و هلك أبوه يوم بدر. و فيها توفى شيبة بن عثمان بن أبى طلحة العبدرىّ حاجب الكعبة ابن أخت مصعب بن عمير، شهد خيبر كافرا و نيّته اغتيال النّبىّ صلى اللّه عليه و سلم ثم أسلم يومئذ. و فيها توفى أبو محذورة، و اسمه الياس و قيل سمرة ابن معير الجمحىّ، مؤذّن النّبىّ صلى اللّه عليه و سلم و كان من أندى الناس صوتا.

و خرجت هـذه السـنة و الوالی علی الکوفـة النعمان بن بشـیر، و علی البصـرة عبیـد اللّه بن زیاد، و علی المدینـة الولید بن عتبة، و علی خراسان عبد الرحمن بن زیاد، و علی سجستان عبّاد بن زیاد، و علی کرمان شریک بن الأعور.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم ثلاثة أذرع و سبعة عشر إصبعا.

و فی کتاب درر التیجان: و سبعة و عشرون إصبعا، مبلغ الزیادة سبعة عشر ذراعا و أحد عشر إصبعا.

*** السنة الثالثة عشرة من ولایة مسلمة بن مخلّد علی مصر و هی سنة ستین- فیها توفی الخلیفة أمیر المؤمنین معاویة بن أبی سفیان، و اسم أبی سـفیان صخر بن حرب ابن أمیّة بن عبد شمس أبو عبد الرحمن القرشیّ الأمویّ، و أمّه هند بنت عتبة بن ربیعة، و أسلم معاویة قبل أبیه فی عمرة القضاء، و بقی یخاف من الخروج الی النّبیّ صـلی اللّه علیه و سـلم من أبیه، ولی إمرة الشام لعمر ثم لعثمان، ثم نازع علیّا الخلافة حتی ولیها من بعده فی سـنة أربعین من الهجرة بعد موت علیّ بن أبی طالب و بعد أن سـلّم الیه الحسن بن علیّ الأمر، بعد أمور وقعت مع علی و ابنه الحسن رضی اللّه

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۱۵۴

عنهما. قال الذهبیّ: و أظهر إسـلامه یوم الفتح، و کان رجلا طویلا أبیض جمیلا مهیلا اذا ضـحک انقلبت شـفته العلیا، و کان یخضّب بالصفرة ا ه.

قلت: و هو کـاتب النّبیّ صـلی اللّه علیه و سـلم و أخو زوجته أمّ حبیبـة بنت أبی سـفیان المقـدّم ذکرها. و کانت وفاة معاویـة فی شـهر رجب و له سبع و سبعون سنة، و تولی ابنه یزید الخلافة من بعده. و فیها کانت غزوة مالک بن عبد اللّه سوریّة.

و فیها أیضا کان دخول جنادة رودس و هدم بیوتها فی قول بعضهم. و فیها توفی أبو عبد الرحمن بلال بن الحارث المزنیّ الذی أقطعه النّبیّ صـلی اللّه علیه و سلم معادن القبلیّة، عاش ثمانین سنة. و فیها توفی أبو حمید الساعدیّ المدنیّ الصحابیّ أحد من نزل البصرة من الصـحابة، و هو الـذی وصف صـلاة النّبیّ صـلی اللّه علیه و سـلم. و فیها توفی سـمرة بن جندب الصـحابیّ الفزاریّ. و فیها حج بالنّاس عمرو بن سـعید الأشـدق، و کان العامل علی مکة و المدینة. و فیها توفیت الکلابیّة التی اسـتعاذت من النّبیّ صـلی اللّه علیه و سـلم لما تزوّجها ففارقها، و کان قد أصابها جنون.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم ستة أذرع و عشرون إصبعا، مبلغ الزیادة سبعة عشر ذراعا و ثلاثة أصابع

*** السـنة الرابعة عشـرة من ولایة مسـلمة بن مخلّد علی مصـر و هی سـنة إحدی و ستین- فیها کانت مقتلة السید الحسین بن علیّ بن أبی طالب رضی اللّه عنه ریحانة النّبیّ صلی اللّه علیه و سلم و ابن بنته فاطمة بکربلاء فی یوم عاشوراء، و قصته

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۱۵۵

طویلة یجرح ذکرها القلوب، غیر أننا نختصر منها ما نعرّف به وفاته و کیفیّة خروجه حتی ظفر به.

و هو أنه لمّا ولی یزید بن معاویة الخلافة بعد موت أبیه بایع الناس السید الحسین بالخلافة و خرج فی جموعه بعد أن خلع الفاسق یزید المـذکور من الخلافـة، فانتـدب لقتاله بأمر یزیـد ابن مرجانة (أعنی عبید اللّه بن زیاد) و قاتله حتی ظفر به و قتله بعد أمور و حروب. و کان قاتل الحسـین رضـی اللّه عنه الشّـمر اللعین الطریـد من رحمة اللّه، قتله بکربلاء. و قتل مع الحسـین من إخوته لأبیه جعفر و عتیق و محمد و العباس الأکبر بنو علیّ، و ابن الحسین الأکبر علیّ، و هو غیر علیّ زین العابدین، و ابنه عبد اللّه، و ابن أخیه القاسم بن الحسن، و محمد بن عبد اللّه بن جعفر بن أبی طالب، و أخوه عون، و قتل معه أیضا عبد اللّه و عبد الرحمن ابنا مسـلم بن عقیل رضی اللّه عنهم أجمعین.

و لما جیء برأس الحسـین الی عبیـد اللّه بن زیاد جعل ینکت بقضـیب علی ثنایاه و قال: إن کان لحسن الثغر! فقال له أنس: لقد رأیت رسول اللّه صـلی اللّه علیه و سـلم یقبّل موضع قضـیبک من فیه. ثم بعث بالرأس الی یزید بن معاویة، فلما حضـروا برأس الحسـین عند یزید أنشد.

نفلّق هاما من أناس أعزّة علينا و هم كانوا أعقّ و أظلما

و فيها توفى عثمان بن زياد بن أبيه أخو عبيد اللّه بن زياد المذكور، مات شابا و سنة ثلاث و ثلاثون سنة. و فيها توفيت أمّ المؤمنين أمّ سلمة، و اسمها هند بنت

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١، ص: ١٥۶

أبى أمية بن المغيرة بن عبد اللّه بن عمر بن مخزوم المخزومية، زوجة النّبىّ صلى اللّه عليه و سلم و هى بنت عم أبى جهل و بنت عمّ خالد بن الوليد، بنى بها النّبىّ صلى اللّه عليه و سلم فى سنة ثلاث من الهجرة، و كانت قبله عند الرجل الصالح أبى سلمة بن عبد الأسد و هو أخو النّبىّ صلى اللّه عليه و سلم، و كانت من أجمل النساء، و طال عمرها و عاشت تسعين سنة و أكثر، و هى آخر أمّهات المؤمنين وفاة، و قد حزنت على الحسين و بكت عليه كثيرا. و فيها توفى حمزة بن عمرو الأسلمىّ المدنىّ الذى له صحبة. و فيها حجّ بالناس الوليد بن عتبة. و فيها توفى جابر بن عتيك الأنصارىّ، و قيل جبر، و له إحدى و تسعون سنة و شهد بدرا. و فيها توفى علقمة بن قيس النخعىّ صاحب عبد اللّه ابن مسعود على خلف فى وفاته. و فيها توفى خالد بن عرفطة العذرىّ الصحابىّ له صحبة و رواية، روى عنه عبد اللّه بن يسار و أبو إسحاق، و كان ولى الكوفة لزياد ابن أبيه.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم سبعة أذرع و ستة أصابع، مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا و أربعة أصابع. و فى درر التيجان: و ثمانية أصابع.

*** السنة الخامسة عشرة من ولاية مسلمة بن مخلّد على مصر و هى سنة اثنتين و ستين- و هى التى مات فيها مسلمة بن مخلّد صاحب الترجمة. و فيها توفى أبو مسلم الخولانىّ اليمانى الزاهد سيد التابعين بالشأم، و اسمه عبد اللّه بن ثوب، و قيل ابن عبيد، و قيل ابن مشكم، و قيل اسمه يعقوب بن عوف؛ قدم المدينة من

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١، ص: ١٥٧

اليمن فى خلافة أبى بكر الصدّيق، و كان أسلم فى زمن النّبىّ صلى اللّه عليه و سلم. و فيها ولّى عبيد اللّه بن زياد أمير العراق المنذر بن الجارود العبدىّ على السّند. و فيها غزا سالم خوارزم فصالحوه على مال. و فيها حجّ بالناس عثمان بن محمد بن أبى سفيان بن حرب، و قال ابن الأثير: الوليد بن عتبة. و فيها توفى علقمة بن قيس بن عبد اللّه بن مالك أبو شبل النخعىّ الكوفىّ الفقيه المشهور خال إبراهيم النخعىّ، قال الذهبى:

أدرك الجاهلية و سمع عمر و عثمان و عليا و ابن مسعود و أبا الدرداء و سعد بن أبى وقّاص و عائشة و جماعة أخر، و قد ألقاه الأسود الكذّاب فى النار فلم تضرّه. قاله إسماعيل ابن عيّاش عن شرحبيل بن مسلم. قلت: الأسود الذى كان ادّعى النبوّة. و فيها ولد محمد بن علىّ بن عبد اللّه بن عباس والد السفّاح و المنصور. و فيها توفى بريدة بن الحصيب الأسلمىّ الصحابىّ مات بمرو، و كان أسلم قبل بدر. و فيها توفى عبد المطلب ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ابن ابن عمّ النّبىّ صلى اللّه عليه و سلم، له صحبة، و أخرج له مسلم.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمسة أذرع و ثلاثة أصابع، مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا و أربعة أصابع.

ذكر ولاية سعيد بن يزيد على مصر

هو سعيد بن يزيد بن علقمة بن يزيد بن عوف الأزدىّ أمير مصر من أهل فلسطين، ولّى إمرة مصر بعد موت مسلمة بن مخلّد من قبل يزيد بن معاوية بن أبى سفيان و دخلها فى مستهلّ شهر رمضان سنة اثنتين و ستين من الهجرة، و تلقّاه أهل مصر و وجوه الناس و فيهم عمرو الخولانىّ، فلما رآه قال: يغفر اللّه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١، ص: ١٥٨

لأمیر المؤمنین، أما کان فینا مائة شابّ کلهم مثلک یولّی علینا أحدهم! ثم دخلوا معه. و لم یزل أهل مصر علی الشّنآن له و الإعراض عنه و التکبّر علیه حتی توفّی یزید ابن معاویة و دعا عبد اللّه بن الزبیر الناس لبیعته و قامت أهل مصر بدعوته و سار منهم جماعة کثیرة إلیه، فبعث عبد اللّه بن الزبیر عبد الرحمن بن جحدم أمیرا علی مصر، و اعتزل سعید المذکور، فکانت ولایته سنتین إلا شهرا واحدا.

و قال صاحب کتاب «البغیة و الاغتباط فیمن ملک الفسطاط»: ولّاه یزید ابن معاویة علی مصر فقدمها فی استهلال شهر رمضان سنة اثنتین و ستین، فأقرّ عابسا علی الشّرطة؛ ثم ساق نحوا مما قلناه، الی أن قال: و کانت مدّته علی مصر سنتین و أشهرا.

قلت: و فی مدّة هاتین السنتین وقع له حروب کثیرة شرقا و غربا، فأما من جهة الشرق فکانت الفتن ثائرة بین ابن الزبیر و بین الأمویّة حتی قدم ابن جحدم الی مصر و ملکها منه و دعا بها لابن الزبیر، هذا مع الفتن التی کانت ببلاد المغرب من خروج کسیلة البربریّ و تجرّد بسببه غیر مرّة الی برقة و غیرها.

و أمر کسیلة البربریّ: أنه کان أسلم لمّا ولّی أبو المهاجر إفریقیة و حسن إسلامه، فکان من أکابر البربر و صحب أبا المهاجر، فلمّا ولّی عقبة بن نافع إفریقیة عرّفه أبو المهاجر محلّ کسیلة و أمره بحفظه، فلم یقبل و استخفّ به، و أتی عقبة بغنم فأمر کسیلة بذبحها و سلخها مع السلّاخین؛ فقال کسیلة: هؤلاء غلمانی یکفوننی المؤونة؛ فشتمه عقبة و أمره بسلخها ففعل؛ فنصح أبو المهاجر عقبة فلم یسمع؛ فقال: و إن کان لا بدّ فأوثقه فإنی أخاف علیک منه فتهاون به عقبة فأضمر کسیلة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱، ص: ۱۵۹

الغدر، فلمّا کان الآن و رأی القوم قلّة مع عقبة توثّب، و کان فی عسکر عقبة جماعة وافقوا کسیلة، ثم راسلته الروم فأظهر کسیلة منذ ذلک ما کان أضمر و جمع أهله و بنی عمّه و قصد عقبة؛ فقال أبو المهاجر لعقبة: عاجله قبل أن یقوی جمعه، و کان أبو المهاجر موثقا فی الحدید مع عقبة، فزحف عنه عقبة إلی کسیلة، فتنحّی کسیلة عن طریقه لیکثر جمعه و یتعب عقبة؛ فلمّا رأی أبو المهاجر ذلک تمثّل بقول أبی محجن الثقفیّ:

کفی حزنا أن تطعن الخیل بالقنا و أترک مشدودا علیّ وثاقیا

اذا قمت عنّانی الحدید و أغلقت مصارع من دونی تصمّ المنادیا

فبلغ عقبة ذلک، فأطلقه و قال له: الحق بالمسلمین فقم بأمرهم و أنا أغتنم الشهادة؛ فلم یفعل و قال: و أنا أیضا أرید الشهادة؛ فکسر عقبة و المسلمون أجفان سیوفهم و تقدّموا الی البربر و قاتلوهم حتی قتل المسلمون جمیعهم و لم یفلت منهم أحد، و أسر محمد بن أوس الأنصاریّ فی نفر یسیر فخلّصهم صاحب قفصة و بعث بهم الی القیروان، فعزم زهیر بن قیس البلویّ علی القتال فلم یوافقه جیش الصنعانیّ و عاد الی مصر و تبعه أکثر الناس من العساکر المصریة من جند سعید صاحب مصر، فاضطرّ زهیر الی العود معهم فسار الی برقة و أقام بها، و بعث یستمدّ المصریین، و وقع له أمور إلی أن ملک إفریقیة فی سنة تسع و ستین.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱، ص: ۱۶۰

و أما کسیلة فاجتمع الیه جمیع أهل إفریقیة و قصد القیروان، و بها أصحاب الأثقال و الذراری من المسلمین، فطلبوا الأمان من کسیلة فآمنهم، و دخل القیروان و استولی علی إفریقیة و أقام بها من غیر مدافع الی أن قوی أمر عبد الملک بن مروان و ندب زهیرا ثانیة و أمدّه بالعساکر حتی استولی علی إفریقیة و دعا بها لعبد الملک ابن مروان. و کان زهیر بن قیس المذکور فی هذه المدّة مرابطا ببرقة و من ولی من أمراء مصر یعضّده الی أن کان ما کان.

*** السنة الأولی من ولایة سعید بن یزید علی مصر و هی سنة ثلاث و ستین- فیها غزا عقبة بن نافع القیروان و سار حتی دخل السّوس الأقصی و غنم و سلم و ردّ من القیروان، فلفیه کسیلة النصرانیّ فدافعه عقبة بمن معه فاستشهد عقبة بن نافع المذکور فی الوقعة و أبو المهاجر مولی الأنصار و عامّة أصحابهما، ثم سار کسیلة فخرج لحربه زهیر بن قیس البلویّ خلیفة عقبة علی القیروان و واقعه، فانهزم زهیر الی برقة و أقام بها سنین إلی أن ندبه عبد الملک بن مروان لقتاله ثانیا، فتوجّه إلیه و واقعه، فقتل اللعین کسیلة و هزم

جنوده و قتلت منهم مقتلة عظیمة، و قد مرّ ذلک کله فی أوّل الترجمة مفصلا. و فیها بعث سالم بن زیاد بن أبیه طلحة بن عبد اللّه الخزاعیّ والیا علی سجستان و أمره أن یفدی أخاه من الأسر ففداه بخمسمائة ألف و أقدمه علی أخیه. و فیها کانت وقعة الحرّة علی باب طیبة، و هو أنّ یزید بن معاویة بعث إلیها جیشا علیهم مسلم بن عقبة حین خالفوا علیه و أمره بهتک حرمة المدینة،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۱۶۱

و کان مع مسلم اثنا عشر ألفا، فوصل مسلم المذکور إلی المدینة و فعل فیها ما لا یفعله مسلم، فإنه قتل فی هذه الوقعة خلقا من المهاجرین و الأنصار و انتهکت حرمة المدینة و انتهبت و افتضّت فیها ألف عذراء، و استشهد فیها عبد اللّه بن حنظلة الغسیل فی ثمانیة من بیته، و له صحبة و روایة، و قتل فیها أیضا معقل بن سنان الأشجعیّ صبرا، و استشهد أیضا عبد اللّه بن زید بن عاصم المازنیّ النجاریّ، و له صحبة و روایة، و استشهد فیها أیضا أفلح مولی أبی أیّوب، و محمد بن عمرو بن حزم الأنصاریّ ولد فی حیاة النّبیّ صلی اللّه علیه و سلم، و محمد بن ثابت بن قیس بن شمّاس حنّکه رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم بریقه، و معاذ بن الحارث الأنصاریّ أبو حلیمة القاری الذی أقامه عمر یصلّی التراویح، و توفّی رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم و له ستّ سنین، و محمد بن أبی الجهم بن حذیفة، و محمد بن أبی حذیفة العدویّ؛ کل هؤلاء قتلوا یومئذ؛ و هذا مما اختصرته من مقالة الذهبیّ.

و قد ذکر هذه الواقعة أیضا أبو المظفّر، و ساق فیها أمورا شنیعة إلی الغایة، و فیها ذکرناه کفایة یعرف منها حال مسلم بن عقبة المذکور. و یکفیک أنه من یومئذ سمّی مسلم المذکور «مسرف بن عقبة». و قیل: إنه أدرک النّبیّ صلی اللّه علیه و سلم، یأتی ذکر ذلک فی وفاته قریبا. انتهی أمر مسرف بن عقبة. و قال خلیفة: جمیع من أصیب من قریش و الأنصار یوم الحرّة ثلاثمائة و ستة رجال، ثم سرد أسماءهم فی ثلاث أوراق. و فیها توفّی مسروق بن الأجدع، و اسم الأجدع عبد الرحمن بن مالک بن أمیّة أبو عائشة الهمدانیّ ثم الوداعیّ الکوفیّ مخضرم (أعنی أنه ولد فی زمان النبی صلی اللّه علیه و سلم و أسلم بعد ذلک) و سمع أبا بکر و عمر و عثمان و غیرهم.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۱۶۲

و ممن قتل ایضا فی الحرّة زید بن عاصم و لیس هو بصاحب الأذان، ذاک زید بن ثعلبة، و الزبیر بن عبد الرحمن بن عوف. و حجّ بالناس عبد اللّه بن الزبیر. و فیها توفّی ربیعة بن کعب الأسلمیّ من أهل الصّفّة، روی له مسلم.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم ذراعان و سبعة أصابع، مبلغ الزیادة ستة عشر ذراعا و أربعة أصابع.

*** السنة الثانیة من ولایة سعید بن یزید علی مصر و هی سنة أربع و ستین- فیها حجّ بالناس عبد اللّه بن الزّبیر، و کان عامله علی المدینة أخوه عبیدة بن الزبیر، و علی الکوفة عبد اللّه بن یزید الخطمیّ، و ولّی قضاءها سعید بن نمران، و أبی شریح أن یقضی فی الفتنة، و علی البصرة عمر بن عبید اللّه بن معمر التیمیّ، و علی قضائها هشام بن هبیرة، و علی خراسان عبد اللّه بن خازم. و فیها توفّی مسلم بن عقبة المسمّی مسرفا المقدّم ذکره فی وقعة الحرّة. قال محمد بن جریر الطبریّ: و لمّا فرغ مسلم من وقعة الحرّة توجّه إلی مکة، و استخلف علی المدینة روح بن زنباع الجذامیّ، فأدرک مسلما الموت فعهد بالأمر إلی الحصین بن نمیر.

و ذکر الذهبیّ رحمه اللّه: أنّ مسلما هذا أدرک النّبیّ صلی اللّه علیه و سلم. قلت:

و لهذا أمسکنا عن الکلام فی أمره. و شهد مسلم صفّین مع معاویة و کان علی الرّجّالة.

و فیها توفّی الخلیفة یزید بن معاویة بن أبی سفیان و قد تقدّم نسبه فی ترجمة أبیه معاویة، مات فی نصف شهر ربیع الأوّل، و کان بویع بالخلافة بعد موت أبیه

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۱۶۳

معاویة فی شهر رجب سنة ستین، فکانت خلافته ثلاث سنین و سبعة أشهر و أیاما، و کان فاسقا قلیل الدّین مدمن الخمر، و هو القائل:

أقول لصحب ضمّت الکأس شملهم و داعی صبابات الهوی یترنّم

خذوا بنصيب من نعيم و لذّة فكلّ و إن طال المدى يتصرّم

و له أشياء كثيرة غير ذلك غير أننى أضربت عنها لشهرة فسمه و معرفة الناس بأحواله. و قد قيل: إنّ رجلا قال فى مجلس عمر بن عبد العزيز عن يزيد هذا أمير المؤمنين؛ فقال له عمر بن عبد العزيز: تقول: أمير المؤمنين! و أمر به فضرب عشرين سوطا تعزيرا له. و لمّا مات يزيد هذا ولى الخلافة من بعده ابنه معاوية ابن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان ثالث خلفاء بنى أميّة، و كان رجلا صالحا فلم يرد الخلافة و خلع نفسه منها، و مات بعد قليل.

ذكر خلافة معاوية بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان الأموىّ ثالث خلفاء بنى أميّة و وفاته

كنيته أبو عبد الرحمن، و يقال: أبو يزيد. بويع بالخلافة بعد موت أبيه يزيد بعهد منه إليه، و ذلك فى شهر ربيع الأوّل من سنة أربع و ستين، و كان مولده سنة ثلاث و أربعين فلم تطل مدّته فى الخلافة.

قال أبو حفص الفلّاس: ملك أربعين ليلة ثم خلع نفسه، فإنه كان رجلا صالحا؛ و لهذا يقال فى حقّ أبيه: يزيد شرّ بين خيرين، يعنون بذلك بين

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۱۶۴

أبيه معاوية بن أبى سفيان و ابنه معاوية هذا. و قيل: إن معاوية هذا لمّا أراد خلع نفسه جمع الناس و قال: أيها الناس، ضعفت عن أمركم فاختاروا من أحببتم؛ فقالوا: ولّ أخاك خالدا؛ فقال: و اللّه ما ذقت حلاوة خلافتكم فلا أتقلّد وزرها، ثم صعد المنبر فقال: أيها الناس، إنّ جدّى معاوية نازع الأمر أهله و من هو أحق به منه لقرابته من رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم و هو علىّ بن أبى طالب، و ركب بكم ما تعلمون حتى أتته منيّته، فصار فى قبره رهينا بذنوبه و أسيرا بخطاياه؛ ثم قلّد أبى الأمر فكان غير أهل لذلك، و ركب هواه و أخلفه الأمل، و قصر عنه الأجل. و صار فى قبره رهينا بذنوبه، و أسيرا بجرمه؛ ثم بكى حتى جرت دموعه على خدّيه ثم قال: إنّ من أعظم الأمور علينا علمنا بسوء مصرعه و بئس منقلبه، و قد قتل عترة رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم و أباح الحرم و خرّب الكعبة، و ما أنا بالمتقلّد و لا بالمتحمّل تبعاتكم، فشأنكم أمركم؛ و اللّه لئن كانت الدنيا خيرا فلقد نلنا منها حظّا و لئن كانت شرّا فكفى ذرّية أبى سفيان ما أصابوا منها، ألا فليصلّ بالناس حسّان ابن مالك، و شاوروا فى خلافتكم رحمكم اللّه. ثم دخل منزله و تغيّب حتى مات فى سنته بعد أيام.

و فيها توفّى شدّاد بن أوس بن ثابت و هو ابن أخى حسّان بن ثابت. و فيها توفّى المسور بن مخزمة بمكة فى اليوم الذى ورد فيه خبر موت يزيد بن معاوية، و كان سبب موته أنه أصابه حجر منجنيق فى جانب وجهه فمرض أياما و مات. و فيها وثب مروان ابن الحكم على الأمر و بويع له بالخلاقة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربعة أذرع و ثمانية عشر إصبعا، مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا و سبعة أصابع.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۱۶۵

ذكر ولاية عبد الرحمن بن جحدم على مصر

هو عبد الرحمن بن عقبة بن إياس بن الحارث بن عبد [بن] أسد بن جحدم (بفتح الجيم و سكون الحاء المهملة و فتح الدال المهملة أيضا و بعدها ميم ساكنة) الفهرىّ أمير مصر، وليها من قبل عبد اللّه بن الزّبير بن العوّام لمّا بويع بالخلافة فى مكة و بايعه المصريون و توجّه إليه منهم جماعة كثيرة و بايعوه، فأرسل إليهم عبد الرحمن هذا فوصل إلى مصر فى شعبان سنة أربع و ستين التى ذكرنا حوادثها فى إمرة سعيد ابن يزيد المقدّم ذكره، و دخل معه مصر جماعة كثيرة من الخوارج و أظهروا دعوة عبد اللّه بن الزبير بمصر و دعوا الناس لبيعته، فتابعهم الناس و الجند على ما فى قلوبهم من الحبّ فى الباطن لبنى أميّة.

و لما دخل عبد الرحمن المذكور إلى مصر و تمّ أمره أقرّ عابسا على الشّرطة و القضاء بمصر، فبينما هم فى ذلك وصل الخبر من الشام ببيعة مروان بن الحكم بالخلافة و أنّ أمره تمّ، فصارت مصر معه فى الباطن، و فى الظاهر لابن الزبير، حتى جهّز مروان بن الحكم جيشا مع ابنه عبد العزيز إلى أيلة ليدخل مصر من هناك، ثم ركب مروان بن الحكم فى جيوشه و جموعه و قصد مصر؛ فلما بلغ عبد الرحمن بن جحدم ذلك استعدّ لحربه و حفر خندقا فى شهر، أو قريب من شهر، و هو الذى بالقرافة، و سار مروان حتى نزل مدينة عين شمس (أعنى المطرية خارج القاهرة) فخرج إليه عبد الرحمن، فتحاربوا يوما أو يومين، فكانت بين الفريقين مقتلة كبيرة، ثم آل الأمر بينهما إلى الصلح و اصطلحا على أنّ مروان يقرّ عبد الرحمن و يدفع إليه مالا و كسوة؛ و دخل مروان مصر فى غرّة جمادى الأولى سنة خمس و ستين.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۱۶۶

و قال صاحب البغية فى آخر جمادى الأولى من السنة: و مدّة مقام ابن جحدم فيها إلى أن دخل مروان تسعة أشهر، و بايعه الناس إلا قليلا- فضرب أعناقهم، و جعل على الشّرطة فى مدّة مقامه عمرو بن سعيد بن العاص، و خرج منها (يعنى مروان) لهلال رجب سنة خمس و ستين. انتهى كلام صاحب البغية.

و قال غيره: و عزل مروان عبد الرحمن بن جحدم عن إمرة مصر، و كانت مدّة ولايته عليها تسعة أشهر و أياما، و فتح مروان خزائنه و وضع العطاء، فبايعه الناس إلّا نفرا من المعافر قالوا: لا نخلع بيعة عبد اللّه بن الزبير، فضرب مروان أعناقهم و كانوا ثمانين رجلا، و ذلک فى نصف جمادى الآخرة. و كان فى ذلک اليوم موت عبد اللّه بن عمرو بن العاص فلم يستطع احد أن يخرج بجنازته إلى المقبرة، فدفنوه بداره لشغب الجند على مروان، ثم ضرب مروان عنق الأكدر بن حمام اللخمىّ سيّد لخم، و كان من قتلة عثمان رضى اللّه عنه، ثم ولّى مروان ابنه عبد العزيز بن مروان على مصر و جمع له الصلاة و الخراج معا، ثم خرج منها مروان يريد الشأم بعد أن أوصى ولده عبد العزيز بوصايا كثيرة مضمونها الرفق بأهل مصر، و كان خروج مروان من مصر فى أوّل يوم من شهر رجب.

و قال ابن كثير: و فيها (يعنى سنة خمس و ستين) دخل مروان بن الحكم و عمرو بن سعيد الأشدق إلى مصر فأخذاها من نائبها لعبد اللّه بن الزبير. و كان سبب ذلک أنّ مروان قصدها فخرج إليه نائبها عبد الرحمن بن جحدم، فقابله مروان ليقاتله فاشتغل به و خلص عمرو بن سعيد بطائفة من الجيش من وراء عبد الرحمن بن

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۱۶۷

جحدم، فدخل مصر و ملكها و هرب عبد الرحمن بن جحدم، و دخل مروان إلى مصر فتملّكها و جعل عليها ولده عبد العزيز بن مروان. انتهى كلام ابن كثير برمته.

و قال ابن الأثير فى كتابه الكامل: (ذكر فتح مروان مصر)، قال: و لمّا قتل الضحّاک و أصحابه و استقرّ الشأم لمروان سار إلى مصر، فقدمها و عليها عبد الرحمن ابن جحدم القرشىّ يدعو إلى ابن الزبير، فخرج إلى مروان فيمن معه، و بعث مروان عمرو بن سعيد من ورائه حتى دخل مصر، فقيل لابن جحدم ذلک فرجع، و بايع الناس مروان و رجع إلى دمشق؛ فلمّا دنا منها بلغه أنّ ابن الزبير قد بعث إليه أخاه مصعبا فى جيش، فأرسل إليه مروان عمرو بن سعيد قبل أن يدخل الشأم [فقاتله] فانهزم مصعب و أصحابه، و كان مصعب شجاعا، ثم عاد مروان إلى دمشق فاستقرّ بها.

و كان الحصين بن نمير و مالک بن هبيرة قد اشترطا على مروان شروطا لهما و لخالد ابن يزيد، فلمّا توطّد ملكه قال ذات يوم و مالک عنده: إنّ قوما يدّعون شروطا منهم عطّارة مكحّلة (يعنى مالكا فإنه كان يتطيّب و يتكحّل)، فقال مالک هذا:

و لمّا تردى تهامة و يبلغ الحزام الطّبيين! فقال مروان: مهلا أبا سليمان إنما داعبناک؛ فقال: هو ذاک. انتهى كلام ابن الأثير برمته.

قلت: و كانت أيام عبد الرحمن هذا على مصر مع قصر مدّته كثيرة الفتن و الحروب من أوّلها إلى آخرها، غير أنه حجّ بالناس من مصر فى أيامه، و بنى عبد اللّه ابن الزبير الكعبة و لم يحجّ أحد من الشأم فى هذه السنة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۱۶۸

قال ابن الأثیر: لمّا احترقت الکعبة حین غزا أهل الشأم عبد اللّه بن الزبیر أیام یزید بن معاویة ترکها ابن الزبیر یشنّع بذلک علی أهل الشأم، فلمّا مات یزید و استقرّ الأمر لابن الزبیر شرع فی بنائها، فأمر بهدمها حتی التحقت بالأرض و کانت قد مالت حیطانها من حجارة المنجنیق، و جعل «الحجر الأسود» عنده، و کان الناس یطوفون من وراء الأساس و ضرب علیها السّور و أدخل فیها الحجر، و احتجّ بأنّ رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم قال لعائشة رضی اللّه عنها: «لو لا حدثان عهد قومک بالکفر لرددت الکعبة علی أساس إبراهیم- علیه السلام- و أزید فیها من الحجر». فحفر ابن الزبیر فوجد أساسا أمثال الجبال فحرّکوا منها صخرة فبرقت بارقة؛ فقال: أقرّوها علی أساسها و بنائها، و جعل لها بابین یدخل من أحدهما و یخرج من الآخر، و قیل کانت عمارتها سنة أربع و ستین.

*** السنة التی حکم فیها عبد الرحمن بن جحدم علی مصر من قبل عبد اللّه بن الزبیر و هی سنة خمس و ستین- فیها وقع الطاعون الجارف بالبصرة فی قول ابن الأثیر و علیها عبد اللّه بن عبید اللّه بن معمر، فهلک خلق کثیر و ماتت أمّ عبید اللّه فلم یجدوا لها من یحملها. و فیها حج بالناس عبد اللّه بن الزبیر و کان علی المدینة أخوه مصعب بن الزبیر و علی الکوفة ابن مطیع و علی البصرة الحارث بن أبی ربیعة المخزومیّ و علی خراسان عبد اللّه بن خازم. و فیها وجّه مروان بن الحکم الخلیفة حبیش ابن دلجة فی أربعة آلاف الی المدینة و قال له: أنت علی ما کان علیه مسلم بن عقبة، فسار حبیش و معه عبید اللّه بن الحکم أخو مروان و أبو الحجاج یوسف الثقفیّ و ابنه الحجّاج و هو شاب، فجهّز متولّی البصرة من جهة ابن الزبیر، و هو عبید اللّه التّیمیّ، جیشا

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۱۶۹

من البصرة، فالتقوا مع حبیش بن دلجة فی أوّل شهر رمضان فقتل حبیش بن دلجة و عبید اللّه بن الحکم و أکثر الجیش، و هرب من بقی و هرب یوسف و ابنه الحجاج.

و فیها دعا عبد اللّه بن الزبیر محمد بن الحنفیة الی بیعته فأبی محمد فحصره فی شعب بنی هاشم فی جماعته و توعّدهم. و فیها دخل المهلّب بن أبی صفرة الی خراسان أمیرا علیها من قبل ابن الزبیر و حارب الأزارقة أصحاب ابن الأزرق و قاتلهم حتی کسرهم و قتل منهم أربعة آلاف و ثمانمائة. قال الذهبیّ: و وقع أیضا فی هذه السنة بین مروان و بین ابن الزبیر حروب کثیرة حتی توفّی مروان حسبما یأتی ذکره. و فیها توفّی مالک بن هبیرة السّکونیّ، له صحبة برسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم. و فیها توفّی الخلیفة مروان بن الحکم بن أبی العاص بن أمیّة بن عبد شمس أبو عبد الملک القرشیّ الأمویّ، و یقال أبو القاسم و أبو الحکم؛ ولد بمکة بعد عبد اللّه بن الزبیر بأربعة أشهر. قال الذهبیّ: و لم یصحّ له سماع عن رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم، لکن له رؤیة إن شاء اللّه. ا ه.

قلت: و هو ابن عم عثمان بن عفان و کاتبه؛ و من أجله کان ابتداء فتنة عثمان رضی اللّه عنه و قتله، ثم انضم الی ابن عمه معاویة بن أبی سفیان و تولّی عدّة أعمال، الی أن وثب علی الأمر بعد أولاد یزید بن معاویة (أعنی معاویة و خالدا) و بویع بالخلافة فلم تطل مدّته و مات فی أوّل شهر رمضان. و فی سبب موته خلاف کثیر؛ و عهد بالخلافة من بعده الی ابنه عبد الملک، ثم من بعده الی ابنه عبد العزیز أمیر مصر؛ و کان أوّلا أراد أن یعهد لخالد بن یزید بن معاویة فإنّه کان خلعه من الخلافة و تزوّج بأمّه، ثم بدا له أن یعهد لولدیه عبد الملک و عبد العزیز؛ ثم ما کفاه

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۱۷۰

فزبره و قال: تنحّ یا بن رطبة الاست! و اللّه مالک عقل؛ و بلغ أمّ خالد ذلک فأضمرت له السوء؛ فدخل مروان علیها و قال لها: هل قال لک خالد شیئا؟

فأنکرت فنام عندها، فوثبت هی و جواریها فعمدت الی وسادة فوضعتها علی وجهه و غمرته هی و الجواری حتی مات، ثم صرخن و قلن: مات فجأة. و قال الهیثم: إنه مات مطعونا بدمشق. و اللّه أعلم. و فی حدودها توفّی قیس بن ذریح أبو زید اللیثیّ الشاعر المشهور، کان من بادیة الحجاز، و هو الذی کان یشبّب بأمّ معمر لبنی بنت الحباب الکعبیّة ثم إنه تزوّج بها، و قیل: إنه کان أخا الحسین بن علیّ

رضی اللّه عنهما من الرضاعة، ثم أمر قیسا هذا أبوه بطلاق لبنی فطلّقها و فارقها، ثم قال فیها تلک الأشعار الرائقة؛ من ذلک قوله:

و لو أنّنی أسطیع صبرا و سلوة تناسیت لبنی غیر ما مضمر حقدا

و لکنّ قلبی قد تقسّمه الهوی شتاتا فما ألفی صبورا و لا جلدا

و له بیت مفرد:

و کلّ ملمّات الزمان وجدتها سوی فرقة الأحباب هیّنة الخطب

و فی حدودها أیضا توفّی قیس بن معاذ المجنون، و من ثمّ یقاس الجنون بمجنون لیلی، و قیل اسمه البختریّ بن الجعد و قیل غیر ذلک. و لیلی محبوبته: هی لیلی بنت مهدیّ أمّ مالک العامریّة الرّبعیّة. و هو من بنی عامر بن صعصعة و قیل من بنی کعب ابن سعد، قیل إنه علق بلیلی علاقة الصّبا لأنهما کانا صغیرین یرعیان أغناما لقومهما، فعلق کل واحد منهما بالآخر، فلما کبرا احتجبت عنه لیلی فزال عقله؛ و فی ذلک یقول:

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱، ص: ۱۷۱

تعلّقت لیلی و هی ذات ذؤابة و لم یبد للأتراب من ثدیها حجم

صغیرین نرعی البهم یا لیت أنّنا الی الیوم لم نکبر و لم تکبر البهم

ثم عظم الأمر به الی أن صار أمره الی ما هو أشهر من أن یذکر. و قیل إنهما ماتا فی سنة ثمان و ستین. و فیها توفّی عبد اللّه بن عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم، و قد تقدّم بقیّة نسبه فی ترجمة أبیه عمرو بن العاص الأمویّ الصحابیّ، و کنیته أبو محمد، و یقال أبو عبد الرحمن، القرشیّ السهمیّ، کان من نجباء الصحابة و علمائهم، و هو من المکثرین لحدیث النّبیّ صلی اللّه علیه و سلم؛ ذکرنا یوم وفاته فی دخول مروان بن الحکم الی مصر عند ما أزال عنها عبد الرحمن بن جحدم. و فیها توفّی النعمان بن بشیر بن سعد بن ثعلبة أبو عبد اللّه، و یقال أبو محمد، الأنصاریّ الخزرجیّ الصحابیّ، ابن أخت عبد اللّه بن رواحة. ولد سنة اثنتین من الهجرة و حفظ عن النّبیّ صلی اللّه علیه و سلم أحادیث، و ولی قضاء دمشق لمعاویة بن أبی سفیان.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم أربعة أذرع و اثنا عشر إصبعا.

و فی درر التیجان: خمسة أذرع و ستة أصابع، مبلغ الزیادة ستة عشر ذراعا و خمسة عشر إصبعا.

ذکر ولایة عبد العزیز بن مروان علی مصر

هو عبد العزیز بن مروان بن الحکم بن أبی العاص بن أمیّة القرشیّ الأمویّ أمیر مصر، کنیته أبو الأصبغ، مولده بالمدینة، ثم دخل الشام مع أبیه مروان

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱، ص: ۱۷۲

و کانت داره بدمشق، هی الدار التی الصوفیّة الآن المعروفة بالسّمیساطیّة ثم کانت لابنه عمر بن عبد العزیز بعده. و ولی إمرة مصر لأبیه مروان فی غرة شهر رجب سنة خمس و ستین علی الصلاة و الخراج معا بعد ما عهد له بالخلافة بعد أخیه عبد الملک.

و کان السبب فی بیعتهما أنّ عمرو بن سعید بن العاص لما هزم مصعب بن الزبیر، حین وجّهه أخوه عبد اللّه الی فلسطین، رجع الی مروان و هو بدمشق، فبلغ مروان أنّ عمرا یقول: إن الأمر لی بعد مروان، فدعا مروان حسّان بن ثابت فأخبره بما بلغه عن عمرو؛ فقال: أنا أکفیک عمرا؛ فلما اجتمع الناس عند مروان عشیّا قام حسّان فقال: إنه بلغنا أن رجالا یتمنّون امانیّ، قوموا فبایعوا لعبد الملک ثم لعبد العزیز من بعده، فبایعوا الی آخرهم. و مات أبوه بعد مدّة یسیرة حسبما تقدّم ذکره، و استقرّ أخوه عبد الملک بن مروان فی الخلافة من بعده، فأقرّ عبد العزیز هذا علی عمل مصر علی عادته. و قد روی عبد العزیز هذا الحدیث عن أبیه و عبد اللّه بن الزبیر و عقبة بن عامر و أبی هریرة، و روی عنه ابنه عمر بن عبد العزیز و الزهریّ و علیّ بن رباح و جماعة. قال ابن سعد: کان ثقة قلیل

الحـديث. و قـال غيره: كـان يلحن فى كلامه ثم تعلّم العربيـة فأحسن تعلّمها، و كان فصـيحا جوادا ذا مروءة و كرم؛ و كان أبوه مروان عقـد له البيعـة بعد عبد الملك ثم ولّاه مصـر؛ و هو معدود من الطبقة الثالثة من تابعى أهل الشام. و كان عبد العزيز هذا قد حدّه عمرو بن سعيد

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۱۷۳

الأشدق فى شـراب شربه فوجد عليه ابنه عمر بن عبد العزيز؛ فلمّا ولى عمر المدينة وجد إسحاق بن علىّ بن عبد اللّه بن جعفر فى بيت خليدة العرجاء، فحدّه عمر حدّ الخمر؛ فقال إسحاق: يا عمر، كل الناس جلدوا فى الخمر؛ يعرّض بأبيه عبد العزيز. ا ه.

و لما أقام عبد العزيز بمصـر وقع بها الطاعون فى سـنة سبعين، فخرج عبد العزيز من مصر و نزل بحلوان فأعجبته فاتخذها سكنا، و جعل بهـا الحرس و الأـعوان و بنى بهـا الـدور و المساجـد و عمّرها أحسن عمارة و غرس نخلها و كرمها، ثم جهّز البعث لقتال ابن الزبير فى البحر فى سـنة اثنتين و سبعين. ثم لما طالت أيام عبد الملك فى الخلافة بعد قتل عبد اللّه بن الزبير ثقل عليه أمر عبد العزيز هذا و أراد أن يخلعه من ولايـة العهد و يجعلها عبد الملك لولديه الوليد و سـليمان من بعده؛ فمنعه قبيصة بن ذؤيب من ذلك، و كان قبيصة على خاتم عبد الملك، و قال له: لا تفعل ذلك، فإنك باعث على نفسك صوتا، و لعل الموت يأتيه فتستريح منه؛ فكفّ عن ذلك و نفسـه تنازعه، حتى دخل عليه روح بن زنباع الجـذامىّ، و كان أجلّ الناس عند عبد الملك، فشاوره فى ذلك، فقال روح: لو خلعته ما انتطح فيها عنزان؛ فبينما هما على ذلك، و قـد نام عبد الملك و روح تلك الليلة عنده، إذ دخل عليهما قبيصة ليلا، و كان لا يحجب عن عبد الملـك، و كـانت الأخبـار و الكتب تـأتيه فيقرؤها قبل عبـد الملك؛ فقيل له: قـد جاء قبيصـة؛ فـدخل قبيصـة فقال: آجرك اللّه يا أمير المؤمنين فى عبد العزيز، فاسترجع عبد الملك و قال لروح: يا أبا زرعة، كفانا اللّه ما أجمعنا عليه؛ فقال له قبيصة:

فداك ما أردت و لم تقطع رحم أبيك، و لم تأت ما تعاب به، و لم يظهر عليك غدر.

و قيل غير ذلك: و هو أن عبـد الملك كتب لأخيه عبـد العزيز هـذا: يا أخى، إن رأيت أن تصـيّر الأمر لابن أخيك الوليد فافعل؛ فأبى عبد العزيز؛ فكتب اليه عبد الملك ثانية: فاجعله من بعدك، فإنه أعز الخلق إلىّ؛ فكتب اليه عبد العزيز:

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۱۷۴

إنى أرى فى أبى بكر بن عبد العزيز (يعنى ابنه) ما تراه فى الوليد؛ فكتب عبد الملك اليه ثالثة: فاحمل خراج مصر إلىّ؛ فكتب اليه عبد العزيز: إنى و إيّاك قد بلغنا سنّا لم يبلغها أحد من أهلنا، و إنّا لا ندرى أيّنا يأتيه الموت أوّلا، فإن رأيت ألّا تغثث علىّ بقيّة عمرى و لا يأتينى الموت إلا و أنت واصل فافعل؛ فرقّ له عبد الملك و قال:

لاـ أغثّث عليه بقيـة عمره، و قال لابنيه الوليـد و سليمان: إن يرد اللّه أن يعطيكماها لم يقـدر أحـد من الخلق على ردّها عنكما، ثم قال لهما: هل قارفتما حراما قطّ؟ قالا: لا و اللّه؛ فقال عبد الملك: نلتماها و رب الكعبة. و قيل: إنّ عبد العزيز لما ردّ كلام عبد الملك، قال عبد الملك: اللهم إنه قد قطعنى فاقطعه. فلما مات عبد العزيز قال أهل الشام: ردّ على أمير المؤمنين أمره، فدعا عليه فاستجيب له فيه.

قلت: و كانت وفاة عبد العزيز فى ثالث عشـر جمادى الأولى سـنة ست و ثمانين من الهجرة، و قيل سنة خمس و ثمانين؛ فكانت ولايته على مصر عشرين سنة و عشرة أشهر و ثلاثة عشر يوما. و تولى مصر من بعده عبد اللّه بن عبد الملك بن مروان.

و قال محمد بن الحارث المخزومىّ: دخل رجل على عبد العزيز فى ولايته على مصـر يشكو اليه صهرا له، فقال: إنّ ختنى ظلمنى؛ فقال له عبد العزيز: من ختنك؟

فقال: الرجل الختّان الذى يختن الناس؛ فقال عبد العزيز لكاتبه: ما هذا الجواب؟

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۱۷۵

فقـال: أيهـا الأـمير، إنـك لحنت و الرجـل يعرف اللحن، و كـان ينبغى أن تقول: من ختنك (بالضم)؛ فقال عبـد العزيز: أ ترانى أتكلم بكلاـم لا تعرفه العرب؟ و اللّه لا شاهـدت الناس حتى أعرف اللحن؛ فأقام فى بيت جمعـة لا يظهر و معه من يعلّمه النحو فصـلى بالناس

الجمعة الأخری و هو أفصح الناس.

و قال الذهبیّ فی کتابه «تذهیب التهذیب» بعد أن ساق نبذة من نسبه و ولایته و روایته بنحو ما قلناه الی أن قال: «روی ابن عجلان عن القعقاع بن حکیم أن عبد العزیز بن مروان کتب الی ابن عمر: ارفع الیّ حاجتک؛ فکتب الیه ابن عمر (یعنی عبد اللّه): إن رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم قال: «الید العلیا خیر من الید السّفلی.

و ابدأ بمن تعول»، و لست أسألک شیئا و لا أردّ رزقا رزقنیه اللّه عز و جل. و قال؟؟؟ نرید ابن أبی حبیب عن سوید بن قیس: بعثنی عبد العزیز بن مروان بألف دینار لابن عمر فجئته بها ففرّقها. و قال محمد بن هانئ الطائی عن محمد بن أبی سعید قال: قال عبد العزیز بن مروان: ما نظر الیّ رجل قطّ فتأمّلنی إلا سألته عن حاجته. ثم قال بعد کلام آخر: و کان یقول عبد العزیز بن مروان: وا عجبا من مؤمن یوقن أن اللّه یرزقه و یوقن أن اللّه یخلف علیه، کیف یدّخر مالا عن عظیم أجر أو حسن سماع!.

قلت: و کان عبد العزیز جوادا ممدّحا سیوسا حازما. قال ابن سعد: مات بمصر سنة خمس و ثمانین قبل أخیه عبد الملک بسنة. و قال الحافظ بن یونس:

ولی مصر عشرین سنة. و قال اللیث بن سعد: توفّی فی جمادی الآخرة سنة ست و ثمانین، و له حدیث و هو: سمعت أبا هریرة یقول قال رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم: «شرّ ما فی الرجل شحّ هالع و جبن خالع» انتهی کلام الذهبی باختصار.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۱۷۶

قلت: و عبد العزیز هذا هو الذی أشار علی أخیه عبد الملک بضرب الدراهم و الدنانیر، فضربها فی سنة ست و سبعین. و عبد الملک أوّل من أحدث ضربها فی الإسلام فانتفع الناس بذلک. و کان سبب ضربها أنه کتب فی صدر کتاب الی [ملک] الروم: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ و ذکر النّبیّ صلی اللّه علیه و سلم مع التاریخ؛ فکتب الیه ملک الروم: إنکم قد أحدثتم کذا و کذا فاترکوه و إلّا أتاکم فی دنانیرنا من ذکر نبیّکم

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۱۷۷

ما تکرهون؛ فعظم ذلک علیه فأحضر خالد بن یزید بن معاویة فاستشاره فیه، فقال:

حرّم دنانیرهم و اضرب للناس سکّة و فیها ذکر اللّه تعالی، ثم استشار أخاه عبد العزیز فأشار علیه أیضا بذلک؛ فضرب الدنانیر و الدراهم. ثم إن الحجاج ضرب الدراهم و نقش فیها: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ فکره الناس ذلک لمکان القرآن، فإنّ الجنب و الحائض یمسّها؛ و نهی أن یضرب أحد غیره؛ فضرب سمیر الیهودیّ فأخذه الحجاج لیقتله، فقال له: عیار دراهمی أجود من عیار دراهمک فلم تقتلنی؟ فلم یترکه، فوضع للناس سنج الأوزان لیترکه فلم یفعل؛ و کان الناس لا یعرفون الوزن بل یزنون بعضها ببعض، فلما وضع لهم سمیر السنج کفّ بعضهم عن [غبن] بعض.

و أوّل من شدّد فی أمر الوزن و خلّص الفضّة أبلغ من تخلیص من کان قبله عمر ابن هبیرة أیام یزید بن عبد الملک و جوّد الدراهم؛ ثمّ خالد بن عبد اللّه القسریّ أیام هشام بن عبد الملک، فاشتدّ فیه أکثر من ابن هبیرة. ثمّ ولی یوسف بن عمر فأفرط فی الشدّة، و امتحن یوما العیار فوجد درهما ینقص حبّة، فضرب کل صانع ألف سوط. و کانوا مائة صانع، فضرب فی حبة مائة ألف سوط. و کانت الدراهم الهبیریّة و الخالدیة و الیوسفیة أجود نقود بنی أمیة، و لم یکن أبو جعفر المنصور یقبل فی الخراج غیرها، فسمّیت الدراهم الأولی مکروهة. و قیل: إنّ الدراهم المکروهة هی الدراهم التی ضربها الحجاج و نقش علیها: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ فکرهها العلماء. و کانت دراهم الأعاجم مختلفة کبارا و صغارا، فکانوا یضربون منها المثقال وزن عشرین قیراطا و اثنی عشر قیراطا و عشرة قراریط، فلما ضربوا الدراهم فی الإسلام أخذ الوسط من

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۱۷۸

ثلث هذا العدد، و هو أربعة عشر قیراطا، فصار الدرهم العربیّ أربعة عشر قیراطا، و وزن کل عشرة دراهم سبعة مثاقیل.

*** السنة الأولى من ولاية عبد العزيز بن مروان على مصر و هى سنة ست و ستين- فيها عزل عبد اللّه بن الزبير عن الكوفة أميرها و أرسل عليها عبد اللّه بن مطيع، و فى أثناء هذا الأمر خرج المختار الكذّاب من السجن و التفّ عليه خلق من الشيعة و قويت شوكته و ضعف أمر عبد اللّه بن مطيع معه، ثم إنه توثّب بالكوفة فقاتله طائفة من أهل الكوفة فهزمهم و قتل منهم رفاعة بن شدّاد و عبد اللّه بن سعد بن قيس و غلب على الكوفة، و هرب منه عبد اللّه بن مطيع الى ابن الزبير، و جعل المختار يتتبع قتلة الحسين بن علىّ، فقتل عمرو بن سعد بن أبى وقّاص و شمر بن ذى الجوشن قاتل الحسين بن علىّ؛ ثمّ افترى المختار على اللّه أنه يأتيه جبريل بالوحى، فلهذا قيل عنه: المختار الكذاب. و فيه يقول سراقة بن مرداس:

كفرت بوحيكم و جعلت نذرا علىّ هجاءكم حتّى الممات

أرى عينىّ ما لم ترأياه كلانا عالم بالتّرّهات

و فيها أيضا التقى المختار مع عبيد اللّه بن زياد فقتل عبيد اللّه بن زياد و قتل معه شرحبيل بن ذى الكلاع و حصين بن نمير السّكونىّ، و اصطلم المختار جيشهم و قتل خلقا كثيرا و طيف برءوس هؤلاء؛ و قيل إنّ ذلك فى الآتية. و فيها حجّ بالناس عبد اللّه بن الزبير و كان عامله على المدينة أخاه مصعب بن الزبير، و عامله على البصرة عبد اللّه بن أبى ربيعة المخزومىّ، و كان بالكوفة المختار متغلّبا عليها، و بخراسان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۱۷۹

عبد اللّه بن خازم. و فيها توفّى أسماء بن حارثة الأسلمىّ (و حارثة بالحاء)، و له صحبة و هو من أصحاب الصّفّة، و قيل: إنه مات قبل ذلك. و فيها توفى جابر بن سمرة، و هو ابن أخت سعد بن أبى وقّاص، على خلف فى وفاته. و فيها توفى أسماء بن خارجة ابن حصين بن حذيفة بن بدر الفزارىّ سيد قومه فى قول. و فيها كان الطاعون بمصر و مات فيه خلائق عظيمة، و هذا خامس طاعون مشهور فى الإسلام.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم سبعة أذرع و سبعة أصابع، مبلغ الزيادة ستة عشر ذراعا و إصبعان.

*** السنة الثانية من ولاية عبد العزيز بن مروان على مصر و هى سنة سبع و ستين- فيها كانت الوقعة بين إبراهيم بن الأشتر النّخعىّ و بين عبيد اللّه ابن زياد، و كان ابن الأشتر من حزب المختار، و كان فى ثمانية آلاف من الكوفيّين، و كان عبيد اللّه بن زياد فى أربعين ألفا من الشاميّين؛ فأسرع ابن الأشتر الى أهل الشام قبل أن يدخلوا أرض العراق فسبقهم و دخل الموصل، فالتقوا على خمسة فراسخ من الموصل بالخازر، فانتهز ابن الأشتر و قتله و قتل من أصحابه خلائق ممن ذكرناهم فى الماضية و غيرهم. و كان من غرق منهم فى نهر الخازر أكثر ممن قتل؛ و دخل ابن الأشتر الموصل و استعمل عليها و على نصيبين و سنجار العمال، ثمّ بعث برءوس عبيد اللّه بن زياد و الحصين و شرحبيل بن ذى الكلاع الى المختار فأمر بهم المختار فنصبوا بمكّة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۱۸۰

قلت: و عبيد اللّه بن زياد هذا هو الذى قاتل الحسين بن علىّ حتى قتله. و فيها عزل عبد اللّه بن الزبير أخاه مصعب بن الزبير عن العراق و ولّاه لابنه حمزة بن عبد اللّه بن الزبير؛ و كان حمزة جوادا مخلّطا يجود أحيانا حتى لا يدع شيئا يملكه و يمنع أحيانا ما لا يمنع مثله، و ظهر منه بالبصرة خفّة و ضعف؛ فعزله أبوه و أعاد أخاه مصعبا فى الثانية. و فيها وجّه المختار أربعة آلاف فارس عليهم أبو عبد اللّه الجدلىّ و عقبة بن طارق، فكلّم الجدلىّ عبد اللّه بن الزبير فى محمد بن الحنفية، و أخرجوه من الشّعب فلم يقدر ابن الزبير على منعهم، و أقاموا فى خدمة محمد بن الحنفية ثمانية أشهر حتى قتل المختار و سار محمد بن الحنفية الى الشام. و أما ابن الزبير فإنه غضب من المختار لكونه انتصر لمحمد بن الحنفية و ندب لقتاله أخاه مصعب بن الزبير و ولّاه جميع العراق، فتوجّه مصعب و حصر المختار فى قصر الإمارة بالكوفة حتى قتله طريف و طرّاف (أخوان من بنى حنيفة) فى شهر رمضان و أتيا برأسه الى مصعب.

و قتل فى حرب المختار جماعة من الأشراف منهم عمر و عبيد اللّه ابنا علىّ بن أبى طالب و زائدة بن عمير الثقفىّ و محمد بن الأشعث

بن قيس الكندىّ سبط أبى بكر الصدّيق.

و فيها توفّى عدىّ بن حاتم بن عبد اللّه الطائىّ، أسلم سنة سبع من الهجرة، و كان كبير طيّئ. و فيها توفى أبو شريح الخزاعىّ الكعبىّ الصحابىّ و اسمه، على الأصح، خويلد بن عمرو، أسلم يوم الفتح. و فيها حجّ بالناس عبد اللّه بن الزبير، و كان عامله على الكوفة و البصرة ابنه حمزة، و كان على قضاء البصرة عبد اللّه بن عتبة بن مسعود و على الكوفة (أعنى قاضيها) هشام بن هبيرة، و الخليفة بالشام عبد الملك بن مروان

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ١، ص: ١٨١

أخو صاحب الترجمة، و بخراسان عبد اللّه بن خازم. و فيها توفى الأحنف بن قيس بالكوفة مع مصعب بن الزبير، و قيل: مات سنة إحدى و سبعين لما سار مصعب لقتال عبد الملك بن مروان. و فيها توفّى جنادة بن أبى أميّة، أدرک الجاهلية و ليست له صحبة. و فيها قتل مصعب بن الزبير عبد الرحمن و عبد الرب ابنى حجر بن عدىّ و عمران بن حذيفة بن اليمان، قتلهم صبرا بعد قتل المختار و أصحابه. و فيها توفى أبو واقد الليثىّ، له صحبة و أحاديث. و يقال فيها أيضا توفى زيد بن أرقم، و قيل: إنّ وفاة هؤلاء فى السنة الآتية و هو الأصح.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمسة أذرع و اثنا عشر إصبعا، مبلغ الزيادة ستة عشر ذراعا و خمسة عشر إصبعا.

*** السنة الثالثة من ولاية عبد العزيز بن مروان على مصر و هى سنة ثمان و ستين- فيها عزل عبد اللّه بن الزبير أخاه مصعب بن الزبير عن العراق و ولّى عليها ابنه حمزة ابن عبد اللّه بن الزبير و قد مرّ ذلک فى الماضية. و فيها استعمل عبد اللّه بن الزبير جابر بن الأسود الزّهرىّ على المدينة، فأراد جابر أن يبايع سعيد بن المسيّب لابن الزبير فامتنع فضربه سبعين سوطا، قاله خليفة بن خيّاط. و فى هذه السنة وافى عرفات أربعة ألوية: لواء ابن الزبير و أصحابه، و لواء ابن الحنفيّة و أصحابه، و لواء بنى أميّة، و لواء النّجدة الحرورىّ، و لم يكن بينهم حرب و لا فتنة. و كان العامل على المدينة لابن الزبير جابر بن الأسود بن عوف الزّهرىّ، و على الكوفة و البصرة أخوه مصعب، و على خراسان عبد اللّه بن خازم؛ و كان عبد الملک بن مروان مشاقّا لابن

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ١، ص: ١٨٢

الزبير. و فيها توفّى عبد اللّه بن عبّاس بن عبد المطّلب بن هاشم الهاشمىّ القرشىّ، أبو العباس ابن عم النّبىّ صلى اللّه عليه و سلم و أبو الخلفاء العباسيّين. ولد فى شعب بنى هاشم قبل الهجرة بثلاث سنين، و دعا له النّبىّ صلى اللّه عليه و سلم بالجنة مرتين. و كان يسمّى الحبر لكثرة علومه، و مات و له سبعون سنة، رضى اللّه عنه.

و فيها توفى عابس بن سعيد الغطيفىّ قاضى مصر، ولى القضاء و الشرطة بمصر لمسلمة ابن مخلّد عدّة سنين. و فيها توفى قيس بن ذريح و قيس مجنون ليلى، و قد تقدّم ذكرهما فى سنة خمس و ستين. و فيها توفى ملک الروم قسطنطين. و فيها توفى عبد الرحمن بن حاطب بن أبى بلتعة. و فيها توفى أبو شريح الخزاعىّ، و أبو واقد الليثىّ، و قد تقدّم ذكرهما فى الماضية.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ذراعان و أربعة عشر إصبعا.

و فى درر التيجان: و أربعة و عشرون إصبعا، مبلغ الزيادة خمسة عشر ذراعا و أربعة أصابع.

*** السنة الرابعة من ولاية عبد العزيز بن مروان على مصر و هى سنة تسع و ستين- فيها كان بالبصرة طاعون الجارف. قال المدائنىّ: حدّثنى من أدرک الجارف قال:

كان ثلاثة أيام مات فيها فى كل يوم سبعون ألفا. و قال خليفة قال أبو اليقظان:

مات لأنس بن مالک ثمانون ولدا و يقال سبعون ولدا؛ و قيل مات لعبد الرحمن بن أبى بكرة فى الطاعون المذكور أربعون ولدا. و قلّ الناس بالبصرة جدّا حتى إنه ماتت أمّ أمير البصرة فلم يجدوا من يحملها إلا أربعة بالجهد. و مات لصدقة بن عامر العامرىّ فى يوم واحد سبعة بنين، فقال: اللهم إنى مسلم مسلّم. و لما كان يوم الجمعة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۱۸۳

خطب الخطیب و لیس فی المسجد إلّا سبعة أنفس و امرأة، فقال الخطیب:

ما فعلت الوجوه؟ فقالت المرأة: تحت التراب. و قیل: إنه توفّی فی هذا الطاعون عشرون ألف عروس. و قد اختلف فی سنة هذا الطاعون فمنهم من قال فی هذه السنة، و قال بعضهم: فی سنة سبعین، و قال آخر: فی سنة اثنتین و سبعین، و قیل غیر ذلک. و هذا الطاعون یکون سابع طاعون فی الإسلام، فإن الأوّل کان علی عهد النّبیّ صلی اللّه علیه و سلم، و الثانی طاعون عمواس فی عهد عمر رضی اللّه عنه، و الثالث بالکوفة فی زمن أبی موسی الأشعریّ، و الرابع بالکوفة أیضا فی زمن المغیرة ابن شعبة، و الخامس الطاعون الذی مات فیه زیاد، ثم الطاعون بمصر فی سنة ست و ستین. و فیها شرع الخلیفة عبد الملک بن مروان فی عمارة القبّة علی صخرة بیت المقدس و عمارة جامع الأقصی، و قیل: بل کان شروعه فی ذلک سنة سبعین. و فیها عزل عبد اللّه بن الزبیر ابنه حمزة عن إمرة العراق و أعاد أخاه مصعب بن الزبیر، فقدمها مصعب و تجهّز و خرج یرید الشام لقتال عبد الملک بن مروان، و خرج عبد الملک أیضا من الشام یرید مصعب بن الزبیر، فسار کل منهما الی آخر ولایته و هجم علیهما الشتاء، فرجع کل منهما الی ولایته. قال خلیفة: و کانا یفعلان ذلک فی کل سنة حتی قتل مصعب. و فیها عقد عبد العزیز بن مروان صاحب الترجمة لحسّان الغسانیّ علی غزو إفریقیّة. و فیها اجتمعت الروم و استجاشوا علی من بالشام، فصالح الخلیفة عبد الملک بن مروان [ملکهم] علی أن یؤدّی الیه فی کلّ جمعة ألف دینار خوفا منه علی المسلمین. هکذا ذکر ابن الأثیر هذه الواقعة فی هذه السنة، و قال غیره: إنّها فی غیر السنة. و فیها توجّه مصعب بن الزبیر الی مکّة و معه

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۱۸۴

أموال کثیرة و دوابّ کثیرة، فقسّم فی قومه و غیرهم و نحر بدنا کثیرة. و فیها حکّم رجل من الخوارج بمنی و سلّ سیفه، و کانوا جماعة، فأمسک اللّه بأیدیهم فقتل ذلک الرجل عند الجمرة. و فیها حجّ بالناس مصعب بن الزبیر؛ و کان علی قضاء الکوفة شریح، و علی قضاء البصرة هشام بن هبیرة. و فیها توفی الأحنف بن قیس التّمیمیّ البصریّ أبو بحر؛ و اسمه الضحّاک بن قیس بن معاویة بن الحصین، و کان أحنف الرّجلین (و الحنف: المیل)، و هو من الطبقة الأولی من التابعین من أهل البصرة، أدرک النّبیّ صلی اللّه علیه و سلم و لم یره. قلت: و أخبار الأحنف مشهورة تغنی عن الإطناب فی ذکره، و قد تقدّم ذکر وفاته، و الصحیح فی هذه السنة. و فیها توفّی أبو الأسود الدّؤلی البصریّ الکنانیّ و اسمه ظالم بن عمرو بن سفیان، و هو من الطبقة الأولی من تابعی البصرة، و هو أوّل من وضع علم النحو، و مات بالطاعون. و فیها قتل عبد الملک بن مروان عمرو بن سعید بن العاص بن سعید أبی أحیحة بن العاص بن أمیّة الأشدق، سمّی الأشدق لأنه کان خطیبا مفلقا، و قیل: لاتساع شدقه، و هو من الطبقة الثانیة من تابعی أهل المدینة. و فیها توفی قبیصة بن جابر بن وهب بن مالک أبو العلاء الأسدیّ، من الطبقة الأولی من التابعین من أهل الکوفة، و کانت أرضعته هند أمّ معاویة بن أبی سفیان. و فیها توفی مالک بن یخامر السّکسکیّ الألهانی الحمصیّ، من الطبقة الأولی من تابعی أهل الشام، و قیل: له صحبة و روایة.

و فیها توفی یزید بن ربیعة بن مفرّغ أبو عنان الحمیریّ البصری، کان شاعرا مجیدا، و السید الحمیریّ من ولده.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۱۸۵

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم ذراعان و ثلاثة أصابع، مبلغ الزیادة ثلاثة عشر ذراعا و ستة أصابع.

*** السنة الخامسة من ولایة عبد العزیز بن مروان علی مصر و هی سنة سبعین- فیها کان الوباء بمصر، و قیل فیها کان طاعون الحارف؟؟؟ المقدّم ذکره فی الماضیة. و فیها تحوّل عبد العزیز بن مروان صاحب الترجمة من مصر الی حلوان حسبما ذکرناه فی أوّل ترجمته، و اشتراها من القبط بعشرة آلاف دینار. و فیها حج بالناس عبد اللّه بن الزبیر. و فیها کانت مقتلة عمیر بن الحباب بن جعدة السّلمیّ.

و فیها تحرکت الروم علی أهل الشام و عجز عبد الملک بن مروان عنهم لاشتغاله بقتال عبد اللّه بن الزبیر، فصالح ملک الروم علی أن

يؤدّى له فى كل جمعة ألف دينار.

و فيها وفد مصعب بن الزبير على أخيه عبد اللّه بن الزبير بأموال العراق. و فيها بعث عبد الملك بن مروان خالد بن عبد اللّه بن أسيد بن أبى العاص بن أميّة الى البصرة ليأخذها فى غيبة مصعب بن الزبير. و فيها توفى الحارث بن عبد اللّه بن كعب بن أسد الهمدانىّ الكوفىّ الأعور، راوية علىّ رضى اللّه عنه، و هو من الطبقة الأولى من التابعين من أهل الكوفة، و قيل: توفى سنة ثلاث و ستين. و فيها توفى عاصم بن عمر بن الخطاب، و أمّه جميلة أخت عاصم بن ثابت بن أبى أقلح الأنصارىّ، و كان اسمها عاصمة، فسمّاها رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم جميلة. و عاصم هذا هو جدّ عمر ابن عبد العزيز الأموىّ لأمّه.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱، ص: ۱۸۶

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمسة أذرع و ثمانية أصابع، مبلغ الزيادة ستة عشر ذراعا و واحد و عشرون إصبعا. و فى درر التيجان: ثمانية عشر إصبعا.

*** السنة السادسة من ولاية عبد العزيز بن مروان على مصر و هى سنة إحدى و سبعين- فيها حج بالناس أمير المؤمنين عبد اللّه بن الزبير، و عرّف بمصر عبد العزيز بن مروان صاحب الترجمة، و هو أوّل من عرّف بها فقام من قبل أخيه أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان و عرّف بمصر.

قلت: و من خلافة مروان بن الحكم الى هذه الأيام و الممالك مقسومة بين خليفتين: عبد اللّه بن الزبير، و عبد الملك بن مروان: أمّا الحرمان و العراق كلّه فبيد عبد اللّه بن الزبير؛ و الشام و مصر و ما يليهما بيد عبد الملك بن مروان، و الفتن قائمة بينهما و الحروب واقعة فى كل سنة. و فيها افتتح الخليفة عبد الملك بن مروان قيساريّة الروم فى قول الواقدىّ. و فيها نزع عبد اللّه بن الزبير جابر بن الأسود ابن عوف عن المدينة و استعمل عليها طلحة بن عبد اللّه بن عوف، و هو آخر وال كان له على المدينة، فدام على المدينة حتى أتاه طارق بن عمرو مولى عثمان، فهرب طلحة و أقام طارق بها حتى سار الى مكة لقتال ابن الزبير. و فيها توفى شتير بن شكل القيسىّ الكوفى من أصحاب علىّ بن أبى طالب و ابن مسعود رضى اللّه عنهما.

(و شتير بضم الشين المعجمة و فتح التاء فوقها نقطتان و بعدها ياء تحتها نقطتان، و شكل بفتح الشين المعجمة و الكاف و آخره لام).

و فيها خرج عبد اللّه بن ثور أحد بنى قيس

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱، ص: ۱۸۷

ابن ثعلبة من جهة مصعب بن الزبير بالبحر، فانتدب لقتله عبد الرحمن الإسكاف و التقوا [بجواثا] فانهزم عبد الرحمن. و فيها توفى البراء بن عازب بن الحارث بن عدىّ أبو عمارة، و هو من الطبقة الثالثة من الأنصار من الصحابة، مات بالكوفة فى أيام مصعب بن الزبير. و فيها توفى عبد اللّه بن خازم بن أسماء بن الصّلت السّلمىّ أبو صالح أمير خراسان، صحب رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم و روى عنه، و كان مشهورا بالشجاعة، و أصله من البصرة. (و خازم بالخاء المعجمة و الزاى). و فيها توفى عبد اللّه بن أبى حدرد الأسلمى الصحابىّ، من الطبقة الثانية من المهاجرين، فأوّل مشهد شهده مع رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم الحديبية ثم خيبر و ما بعدها. و فيها كانت الوقعة بين عبد الملك بن مروان و بين مصعب بن الزبير، و قتل مصعب فى المعركة، و كان مصعب من أجمل الناس و أشجعهم، و هو من الطبقة الثانية من تابعى أهل المدينة، و كنيته أبو عبد اللّه و المشهور أبو عيسى، و كان مصعب يجالس أبا هريرة؛ و رآه جميل بثينة بعرفات فقال: إن هاهنا لشابّا أكره أن تراه بثينة (أعنى لجماله). و لما قتل مصعب بن الزبير أخذ أمر أخيه عبد اللّه بن الزبير فى إدباره. و قيل: إنّ قتلة مصعب كانت فى سنة اثنتين و سبعين، و هو الأشهر.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم سبعة أذرع و خمسة أصابع، مبلغ الزيادة خمسة عشر ذراعا و تسعة عشر إصبعا. و فى درر التيجان: و سبعة عشر إصبعا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱، ص: ۱۸۸

*** السنة السابعة من ولاية عبد العزيز بن مروان على مصر و هى سنة اثنتين و سبعين- فيها بنى عبد الملك بن مروان قبّة الصخرة بالقدس و الجامع الأقصى، و قد ذكرناه فى الماضية، و الأصح أنّه فى هذه السنة. و سبب بناء عبد الملك أن عبد اللّه بن الزبير لمّا دعا لنفسه بمكّة فكان يخطب فى أيام منّى و عرفة و ينال من عبد الملك و يذكر مثالب بنى أميّة، و يذكر أن جدّه الحكم كان طريد رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم و لعينه، فمال أكثر أهل الشأم الى ابن الزبير؛ فمنع عبد الملك الناس من الحج فضجّوا، فبنى لهم القبّة على الصخرة و الجامع الأقصى ليصرفهم بذلك عن الحج و العمرة، فصاروا يطوفون حول الصخرة كما يطوفون حول الكعبة و ينحرون يوم العيد ضحاياهم؛ و صار اخوه عبد العزيز بن مروان صاحب مصر يعرّف بالناس بمصر و يقف بهم يوم عرفة. و فيها ولّى عبد الملك ابن مروان طارق بن عمرو مولى عثمان على المدينة، فسار اليها و غلب عليها و أخرج منها طلحة بن عبد اللّه بن عوف عامل ابن الزبير، و قد تقدّم ذلك فى الماضية.

و فيها بعث عبد الملك بن مروان الحجاج بن يوسف الثقفىّ الى مكّة لقتال عبد اللّه ابن الزبير فتوجّه الى مكة و حاصر ابن الزبير الى أن قتل ابن الزبير فى سنة ثلاث و سبعين، على ما يأتى ذكره فى محله. و فيها كان العامل على المدينة طارقا لعبد الملك بن مروان، و على الكوفة بشر بن مروان، و على قضائها عبيد اللّه ابن عبد اللّه بن عتبة، و كان على خراسان- فى قول بعضهم- بكير بن وشاح.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۱۸۹

و فيها توفى عبيدة بن عمرو السّلمانىّ المرادىّ، أسلم فى حياة النّبىّ صلى اللّه عليه و سلم و كان من كبار الفقهاء، أخذ عن علىّ بن أبى طالب و عبد اللّه بن مسعود.

(و عبيدة بفتح العين و كسر الباء الموحّدة). و فيها على الصحيح مقتلة مصعب ابن الزبير، طعنه زائدة الثقفىّ و قتل معه ابنه عيسى و إبراهيم بن الأشتر و مسلم ابن عمرو الباهلىّ، و قد مرّ من أخباره فى الماضية ما يغنى عن ذكره هنا ثانية.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ذراعان و عشرة أصابع، مبلغ الزيادة خمسة عشر ذراعا و تسعة عشر إصبعا. و فى درر التيجان: سبعة عشر ذراعا و ستة عشر إصبعا.

*** السنة الثامنة من ولاية عبد العزيز بن مروان على مصر و هى سنة ثلاث و سبعين- فيها قتل أمير المؤمنين عبد اللّه بن الزبير بن العوّام بن خويلد بن أسد بن عبد العزّى بن قصىّ بن كلاب، أبو بكر، و قيل أبو خبيب، القرشىّ الأسدىّ، أوّل مولود ولد فى الإسلام بالمدينة، و أمّه أسماء بنت أبى بكر الصديق، له صحبة و رواية، حاصره الحجاج بن يوسف الثقفىّ بالبيت الحرام أشهرا و نصب على الكعبة المنجنيق و رمى به على البيت غير مرّة حتى قتل ابن الزبير و صلبه. قيل: إنّ الحسن البصرىّ سئل عن عبد الملك بن مروان، فقال الحسن: ما أقول فى رجل الحجّاج سيّئة من سيّئاته. و قتل مع عبد اللّه بن الزبير هؤلاء الثلاثة: و هم عبد اللّه ابن صفوان بن أميّة بن خلف الجمحىّ، و عبد اللّه بن مطيع بن الأسود العدوىّ، و عبد الرحمن بن عثمان بن عبيد اللّه التّيمىّ، فهؤلاء من الأشراف، و أما غيرهم

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۱۹۰

فكثير. و من يوم قتل عبد اللّه بن الزبير صار فى الإسلام خليفة واحد و هو عبد الملك ابن مروان. قلت: و مناقب عبد اللّه بن الزبير كثيرة يضيق هذا المحل عن ذكرها.

و فيها توفّيت أسماء بنت أبى بكر أمّ عبد اللّه بن الزبير المذكور بعد ابنها عبد اللّه بمدّة يسيرة. و فيها غزا محمد بن مروان الروم صائفة فى أربعة آلاف، فساروا اليه فى ستين ألفا فهزمهم محمد و استباح عسكرهم، و قيل: إنّ هذا كان من ناحية أرمينية.

و فيها توفى إياس بن قتادة بن أوفى، من الطبقة الأولى من التابعين، و كان لأبيه قتادة صحبة. و فيها توفى سلم بن زياد بن أبيه أمير خراسان، و كان جوادا ممدّحا يعطى ألف ألف الدرهم، مات بالبصرة. و فيها توفى مالك بن أوس بن الحدثان أحد بنى نصر ابن معاوية بن هارون، قيل له صحبة، و ذكره ابن سعد فى الطبقة الأولى من التابعين.

و فيها استعمل عبد الملك بن مروان أخاه محمدا على الجزيرة و أرمينية، و كانت [بحيرة الطّريخ التى بأرمينية] مباحة لم يتعرّض اليها أحد بل كان يأخذ منها من شاء، فمنع من صيدها و جعل عليها من يأخذه [و يبيعه] و يأخذ ثمنه، و صارت بعده لابنه مروان؛ ثم أخذت منه لمّا انتقلت الدولة الأمويّة، و هى الآن على ذلك الحجر. و من سنّ سنّة سيّئة كان عليه وزرها و وزر من عمل بها الى يوم القيامة من غير أن ينقص من أوزارهم شيء. و هذا الطّريخ من عجائب الدنيا فإنه سمك صغار له كلّ سنة موسم يخرج من هذه البحيرة فى نهر يصبّ اليها كثيرا يؤخذ بالأيدى و غيرها، فإذا انقضى موسمه لا يوجد منه شىء. و فيها عزل عبد الملك خالد بن عبد اللّه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۱۹۱

عن البصرة و ولّاها أخاه بشرا فى قول. و فيها توفى مالك بن مسمع بن غسّان الرّبعىّ البصرىّ، من الطبقة الأولى من التابعين، ولد على عهد رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم سبعة أذرع و تسعة عشر إصبعا، مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا و ثلاثة أصابع.

*** السنة التاسعة من ولاية عبد العزيز بن مروان على مصر و هى سنة أربع و سبعين- فيها سار الحجاج من مكّة، بعد ما بنى البيت الحرام، الى المدينة، فأقام بها ثلاثة أشهر يتعنّت أهلها، و بنى بها مسجدا فى بنى سلمة يعرف به، و أخذ بعض الصحابة و ختم عليهم فى أعناقهم. روى الواقدىّ عن ابن أبى ذؤيب عمن رأى جابر بن عبد اللّه مختوما [فى يده و رأى أنس بن مالك مختوما] فى عنقه، يذلّهما بذلك. قال الواقدىّ: و حدّثنى شرحبيل بن أبى عون عن أبيه قال: رأيت الحجّاج أرسل الى سهل بن سعد الساعدىّ فقال: ما منعك أن تنصر أمير المؤمنين عثمان؟ فقال: قد فعلت؛ قال: كذبت، ثم أمر به فختم فى عنقه برصاص.

و فيها توفى بشر بن مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أميّة و هو متولّى البصرة، و كان ولى العراق و الكوفة قبل ذلك، و قحط الناس أيام بشر فاستسقى فمطروا؛ ثم مرّ بشر بسراقة، و كان سراقة قد عمل فيها أبياتا، فرأى سراقة يحوّل الماء من داره؛

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۱۹۲

فقال بشر: ما هذا يا سراقة؟ فقال: هذا و لم ترفع يديك فى الدعاء، فلو رفعتهما لجاءنا الطوفان. و مات بشر المذكور من البلاذر، فإنه شربه بطوس فاعتلّ و لزم الفراش حتى مات. و فيها توفى رافع بن خديج بن رافع بن عدىّ الأنصارىّ الصحابىّ من الطبقة الثالثة من الأنصار، شهد أحدا و ما بعدها مع رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم، و كنيته أبو عبد اللّه، و أمّه حليمة بنت عروة بن مسعود. و فيها توفى أبو سعيد الخدرىّ، و اسمه سعد بن مالك بن سنان بن ثعلبة، الصحابىّ من الطبقة الثالثة من الأنصار، و استصغر يوم أحد فردّ. قال أبو سعيد: فخرجنا نتلقّى رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم حين أقبل من أحد ببطن قبآء، فنظر إلىّ و قال: «سعد بن مالك»؟ فقلت: نعم بأبى أنت و أمى، فدنوت منه و قبّلت ركبته، فقال: «آجرك اللّه فى أبيك»، و كان قتل يومئذ شهيدا. و فيها توفّى سلمة بن الأكوع، و كنيته أبو مسلم، الصحابىّ، من الطبقة الثالثة من المهاجرين. قال سلمة: غزوت مع رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم سبع غزوات. و فيها توفى عبد اللّه بن عمر بن الخطاب رضى اللّه عنهما، أبو عبد الرحمن القرشىّ العدوىّ صاحب رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم، و هو من الطبقة الثانية من المهاجرين، و أمّه زينب بنت مظعون بن حبيب، و هو شقيق حفصة زوج النبى صلى اللّه عليه و سلم، أسلم عبد اللّه قديما بمكّة قبل البلوغ، و هو من العبادلة الأربعة: و هم عبد اللّه ابن عمر هذا، و عبد اللّه بن عباس، و عبد اللّه بن الزبير، و عبد اللّه بن عمرو بن العاص رضى اللّه عنهم أجمعين، و هو من المكثرين فى رواية الحديث.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربعة أذرع و إصبعان، مبلغ الزيادة أربعة عشر ذراعا و خمسة عشر إصبعا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۱۹۳

*** السنة العاشرة من ولاية عبد العزيز بن مروان على مصر و هى سنة خمس و سبعين- فيها حج بالناس الخليفة عبد الملك بن مروان و خطب على منبر رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم، و أظنّها أوّل حجته فى الخلافة. و فيها ولّى الخليفة عبد الملك بن مروان

الحجاج بن یوسف علی العراق. و فیها خرج عبد العزیز بن مروان صاحب الترجمة من مصر وافدا علی أخیه الخلیفة عبد الملک بن مروان بالشام و استخلف علی مصر زیاد بن حنظلة التّجیبیّ، و توفی زیاد بعد ذلک بمدّة یسیرة فی شوّال؛ و تخلّف علی مصر الأصبغ بن عبد العزیز بن مروان حتی قدم أبوه عبد العزیز من الشام. و فیها ولّی عبد الملک المدینة یحیی بن الحکم بن أبی العاص بن أمیّة. و فیها خرج ملک الروم بجیوشه و نزل علی مرعش من أعمال حلب، فندب عبد الملک لقتاله أخاه محمد بن مروان فهزم محمد الروم و غلبهم. و فیها ضرب عبد الملک بن مروان علی الدینار و الدرهم اسم اللّه تعالی، و سببه أنه وجد دراهم و دنانیر تاریخها قبل الإسلام بثلاثمائة سنة أو بأربعمائة سنة مکتوب علیها: باسم الأب و الابن و روح القدس. قال الزهریّ:

کانت الدراهم علی ثلاثة أصناف: الوافیة وزن الدرهم مثقال، و البغلیّة وزن الدرهم نصف مثقال، و الزیادیّة وزن العشرة ستة مثاقیل، فجمع عبد الملک هذه الأصناف و ضربها علی ما هی الآن علیه. و فیها توفی توبة بن الحمیّر بن عقیل بن کعب بن ربیعة الخفاجیّ أحد عشاق العرب صاحب لیلی الأخیلیة بنت عبد اللّه ابن الرحّال بن شدّاد بن کعب، و کانت أشعر نساء زمانها لا یقدّم علیها غیر الخنساء.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۱۹۴

قیل: إن لیلی هذه دخلت علی عبد الملک بن مروان فقال لها: ما رأی منک توبة حتی عشقک؟ فقالت: ما رأی الناس منک حین جعلوک خلیفة!. و قال الشعبیّ:

و دخلت لیلی الأخیلیة علی الحجاج و أنا حاضر، فقال: ما الذی أقدمک علینا؟

فقالت: إخلاف النجوم، و قلّة الغیوم؛ و کلب البرد، و شدّة الجهد، و أنت لنا بعد اللّه الرّفد؛ فقال لها: صفی حال البلاد؛ فقالت: أمّا الفجاج فمغبرّة، و أما الأرض فمقشعرّة، ثم ذکرت أشیاء من هذه المقولة الی أن قالت: و قد أصابتنا سنون لم تدع لنا هبعا، و لا ربعا؛ و لا عافطة، و لا نافطة؛ ذهبت الأموال، و نزحت الرجال ا ه.

و أما أشعار توبة المذکور فیها و تشبیبه بها فکثیرة لیس هذا موضع ذکرها. و فیها توفی أبو ثعلبة الخشنیّ القضاعیّ، و اسمه جرثوم، قدم علی رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم و هو یتجهّز الی غزوة حنین، و قیل: إنه شهد بیعة الرضوان و حنینا و نزل الشام و توفّی بها. و فیها توفی سلیم بن عتر التّجیبیّ المصری أبو سلمة عالم مصر و قاضیها، من الطبقة الأولی من التابعین، و هو أوّل من قضی بمصر فی سنة تسع و ثلاثین و شهد فتح مصر. و فیها توفی شریح بن الحارث بن قیس بن الجهم بن معاویة ابن عامر أبو أمیّة قاضی الکوفة، من الطبقة الأولی من التابعین الکوفیین، و قیل إنه صحابیّ. و فیها کان وقوع الطاعون بالکوفة. و فیها توفی صلة بن أشیم العدویّ أبو الصهباء، من الطبقة الأولی من تابعی الصحابة بالبصرة. و فیها توفی العرباض

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۱۹۵

ابن ساریة أبو نجیح السّلمیّ، من الطبقة الثالثة من الصحابة المهاجرین. و فیها توفی عمرو بن میمون الأودی (أود بنی صعب بن سعد) من الطبقة الأولی من التابعین، أدرک رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم و لم یلقه.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم ذراعان و سبعة أصابع، مبلغ الزیادة ثلاثة عشر ذراعا و تسعة أصابع.

*** السنة الحادیة عشرة من ولایة عبد العزیز بن مروان علی مصر و هی سنة ست و سبعین- فیها خرج صالح بن مسرّح التمیمیّ و کان رجلا صالحا ناسکا لکّنه کان یحطّ علی الخلیفتین عثمان و علیّ رضی اللّه عنهما کهیئة الخوارج، فوقع له حروب فی هذه السنة الی أن توفّی من جرح أصابه فی حروبه بعد مدّة فی جمادی الآخرة و عهد لشبیب بن یزید؛ فوقع لشبیب المذکور مع الحجّاج بن یوسف حروب و وقائع کثیرة أکثرها لشبیب علی الحجّاج حتی دخل شبیب فی هذه السنة الکوفة و معه امرأته غزالة، و کانت غزالة المذکورة تدخل مع زوجها فی الحروب، و ربّما قصدت الحجاج فهرب منها. و فیها وفد یحیی بن الحکم علی الخلیفة عبد الملک بن مروان. و فیها کان الحجاج علی العراق و فعل تلک الأفعال القبیحة، و کان علی خراسان أمیّة بن عبد اللّه بن خالد، و علی قضاء

الکوفة شریح، و علی قضاء البصرة زرارة ابن أوفی. و فیها غزا محمد بن مروان الروم من ناحیة ملطیّة. و فیها توفی حبّة بن جوین العرنیّ صاحب علیّ (و حبة بالحاء المهملة و الباء الموحدة) و هو منسوب الی عرنة (بالعین المهملة المضمومة و الراء المهملة و النون). و فیها حجّ بالناس أبان بن عثمان بن عفّان أمیر المدینة بعد أن ولّاه عبد الملک إمرتها فی أوّل السنة. و فیها

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۱۹۶

ولد مروان بن محمد الجعدیّ المعروف بالحمار آخر خلفاء بنی أمیّة الآتی ذکره فی محلّه. و فیها استشهد زهیر بن قیس البلویّ المصریّ أبو شدّاد فی واقعة الروم، و قد تقدّم ذکره فی واقعة إفریقیّة مع کسیلة و غیره.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم ذراعان و أربعة أصابع، مبلغ الزیادة أربعة عشر ذراعا و سبعة أصابع.

*** السنة الثانیة عشرة من ولایة عبد العزیز بن مروان علی مصر و هی سنة سبع و سبعین- فیها قتل شبیب بن یزید بن نعیم بعد أن وقع له وقائع مع الحجّاج و عمّاله، و هو شبیب بن یزید بن نعیم بن قیس بن عمرو بن الصّلت الشّیبانیّ الخارجیّ، خرج بالموصل فبعث الیه الحجاج خمسة قوّاد فقتلهم واحدا بعد واحد، ثم قاتل الحجّاج و حاصره و کسره غیر مرّة، و کانت امرأة شبیب غزالة من الشجعان الفرسان حتی إنها قصدت الحجّاج فهرب منها، فعیّره بعض الناس بقوله:

أسد علیّ و فی الحروب نعامة فتخاء تنفر من صفیر الصافر

هلّا برزت إلی غزالة فی الوغی بل کان قلبک فی جناحی طائر

و فیها خرج مطرّف بن المغیرة بن شعبة علی الحجّاج، و خلع عبد الملک بن مروان من الخلافة و حارب الحجاج الی أن قتل. و فیها عبر أمیّة نهر بلخ للغزو فحوصر حتی جهد هو و أصحابه ثم نجوا بعد ما أشرفوا علی الهلاک و رجعوا إلی مرو. و فیها حجّ بالناس أبان بن عثمان بن عفّان و هو أمیر المدینة، و کان علی البصرة و الکوفة الحجّاج ابن یوسف الثقفیّ، و علی خراسان أمیّة المذکور. و فیها غزا الصائفة الولید بن عبد الملک بن مروان. و فیها توفّی جابر بن عبد اللّه بن عمرو الأنصاریّ فی قول. و فیها

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۱۹۷

توفی عبید بن عمیر بن قتادة اللّیثیّ المکیّ أبو عاصم، من الطبقة الأولی من التابعین من اهل مکّة، قال عطاء: دخلت أنا و عبید بن عمیر علی عائشة رضی اللّه عنها فقالت: من هذا؟ فقال: أنا عبید بن عمیر، قالت: أفمن أهل مکّة؟ قال: نعم، قالت: خفّف فإنّ الذکر ثقیل. قال مجاهد: کنا نفتخر بفقیهنا ابن عباس، و قاضینا عبید بن عمیر. و فیها توفی قطریّ بن الفجأة المازنیّ و قیل التمیمیّ، کان أحد رءوس الخوارج، حارب المهلّب بن أبی صفرة سنین، و سلّم علیه بأمیر المؤمنین.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم ثلاثة أذرع و عشرة أصابع، مبلغ الزیادة ثلاثة عشر ذراعا و سبعة عشر إصبعا.

*** السنة الثالثة عشرة من ولایة عبد العزیز بن مروان علی مصر و هی سنة ثمان و سبعین- فیها ولّی المهلّب بن أبی صفرة خراسان نیابة عن الحجّاج و هو یوم ذاک أمیر البصرة و الکوفة و خراسان و کرمان. و فیها توفّی عبد الرحمن بن عبد القاریّ، و له ثمان و سبعون سنة، و مسح النّبیّ صلی اللّه علیه و سلم برأسه (و القاریّ بالیاء المشدّدة). و فیها غزا محرز بن أبی محرز أرض الروم و فتح ارقدة، فلما رجع بعسکره، أصابهم مطر شدید من وراء درب الحدث فأصیب منه ناس کثیرة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۱۹۸

و فیها ولی إمرة الغرب کلّها موسی بن نصیر اللّخمیّ، فسار الیه و قدم الی طنجة و قدّم علی مقدّمته طارق بن زیاد الصدفیّ مولاهم الذی افتتح الأندلس، و أصاب فیها المائدة التی یزعم أهل الکتاب أنها مائدة سلیمان علیه السلام. و فیها حجّ بالناس الولید بن عبد الملک بن مروان، و قیل أبان بن عثمان بن عفان أمیر المدینة. و فیها فرغ الحجاج بن یوسف من بناء واسط، و إنما سمّیت واسط لأنها بین الکوفة بناء واسط و البصرة، منها الی الکوفة خمسون فرسخا و الی البصرة کذلک. و فیها عزل عبد الملک عامل خراسان و ضمّ ولایتها و ولایة سجستان الی الحجاج، فسار الحجاج الی البصرة و استخلف علیها المغیرة بن عبد اللّه بن [أبی] عقیل. و فیها قدم

المهلّب على الحجاج فأجلسه معه على سريره و أعطى أصحابه الأموال و قال: هؤلاء حماة الثغور. و فيها توفّى جابر ابن عبد اللّه بن عمرو الأنصارىّ الصحابىّ أبو عبد اللّه، و هو من الطبقة الأولى من الأنصار، شهد العقبة الثانية مع الأنصار و كان أصغرهم سنّا، و أسلم قبل العقبة الأولى بعام، و أراد أن يشهد بدرا فخلّفه أبوه على إخوته. و فيها توفّى عبد الرحمن ابن غنم بن كريب الأشعرىّ، اختلفوا فى صحبته، ذكره ابن سعد فى الطبقة الأولى من أنصار أهل الشام بعد الصحابة، و قيل: هو تابعىّ ثقة، و قيل: إنّه أسلم على عهد رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم و لم يلقه. قال ابن الأثير: أدرك الجاهلية و ليست له صحبة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ستة أذرع و ثمانية أصابع، مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا و عشرون إصبعا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۱۹۹

*** السنة الرابعة عشرة من ولاية عبد العزيز بن مروان على مصر و هى سنة تسع و سبعين- فيها استولى الحجاج بن يوسف على البحرين و استعمل عليها محمد ابن صعصعة الكلابىّ و ضمّ اليه عمان، فخرج عليه الريّان البكرىّ فهرب محمد و ركب البحر حتى قدم على الحجاج. و فيها غزا الوليد بن عبد الملك بن مروان ملطيّة فغنم و سبى و عاد الى أبيه عبد الملك. و فيها كان الطاعون العظيم بالشام. و فيها حجّ بالناس أبان بن عثمان بن عفان أمير المدينة. و فيها قتل الخليفة عبد الملك بن مروان الحارث ابن عبد الرحمن بن سعد الدمشقىّ الذى ادّعى النبوّة، و كان انضم عليه جماعة كبيرة.

و فيها توفّى عبد الرحمن بن عبد اللّه بن مسعود الهذلىّ، كان من الطبقة الأولى من التابعين من أهل الكوفة، روى عن علىّ بن أبى طالب و ابن مسعود. و فيها أصاب الناس طاعون شديد حتى كادوا يفنون فلم يغز أحد تلك السنة فيما قيل.

و فيها أصاب الروم أهل أنطاكية و ظفروا بهم. و فيها استعفى شريح بن الحارث من القضاء فأعفاه الحجاج و استعمل على القضاء أبا بردة بن أبى موسى الأشعرىّ.

و فيها توفّى النابغة الجعدىّ، و اسمه قيس بن عبد اللّه بن عديس، و قيل عبد اللّه ابن قيس، و قيل حسّان بن قيس، و كنيته أبو ليلى، و كان من شعراء الجاهليّة و لحق الأخطل و نازعه بالشعر، و له صحبة و وفادة على رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم.

قال الذهبىّ: و قال يعلى بن الأشدق- و ليس بثقة-: سمعت النابغة يقول:

أنشد ف؟؟؟ النّبىّ صلى اللّه عليه و سلم:

بلغنا السماء مجدنا و جدودنا و إنّا لنرجو فوق ذلك مظهرا

فقال: «أين المظهر يا أبا ليلى»؟ فقلت: الجنّة، قال: «أجل إن شاء اللّه» ثم قلت أيضا:

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۰۰

و لا خير فى حلم اذا لم تكن له بوادر تحمى صفوه أن يكدّرا

و لا خير فى جهل اذا لم يكن له حليم اذا ما أورد الأمر أصدرا

فقال النبى صلى اللّه عليه و سلم: «لا يفضض اللّه فاك» مرتين. و مات النابغة بأصبهان و له مائة و عشرون سنة، و قيل مائة و ستون سنة، و قيل مائتا سنة. و فيها توفّى محمود ابن الربيع، و كنيته أبو إبراهيم، ولد على عهد رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلّم.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمسة أذرع و خمسة عشر إصبعا، مبلغ الزيادة ثمانية عشر ذراعا و سبعة عشر إصبعا.

*** السنة الخامسة عشرة من ولاية عبد العزيز بن مروان على مصر و هى سنة ثمانين- فيها كان سيل الجحاف بمكّة و هلك فيه خلق كثير من الحجّاج، فكان يحمل الإبل و عليها الأحمال و الرجال و النساء ما لأحد منهم حيلة، و غرقت بيوت مكّة و بلغ السيل الركن، فسمّى ذلك العام عام الجحاف. و فيها كان طاعون الجارف بالبصرة فى قول بعضهم. و فيها خرج عبد الواحد بن أبى الكنود من الإسكندرية و ركب البحر و غزا الفرنج حتى وصل الى قبرس. و فيها هلك أليون عظيم الروم و ملكها. و فيها صلب عبد الملك سعيد بن عبد اللّه بن عليم الجهنىّ على إنكاره القدر، قاله سعيد بن عفير. و فيها توفى جبير بن نفير بن مالك أبو عبد اللّه اليحصبىّ

الحضرمىّ، من الطبقة الأولى من تابعى أهل الشام؛ أسلم فى خلافة الصديق رضى اللّه عنه. و فيها توفّى جنادة بن أبى أميّة الأزدىّ، من الطبقة الأولى من تابعى أهل الشام. و فيها توفّى حسّان بن النعمان الغسانىّ من أولاد ملوك غسّان، و يقال:

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱، ص: ۲۰۱

إنه ابن المنذر، صاحب الفتوحات بالمغرب، ولّاه معاوية بن أبى سفيان إفريقيّة.

و فيها توفى زيد بن وهب بن خالد أبو سليمان الجهنىّ، من الطبقة الأولى من تابعى أهل الكوفة. و فيها توفى السائب بن يزيد بن سعيد الكندىّ أبو يزيد، من الطبقة الخامسة من المخضرمين، مات رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم و هو حدث الأسنان. و فيها توفّى شريح بن هانئ بن يزيد بن نهيك بن دريد بن الحارث بن كعب، من الطبقة الأولى من التابعين من أهل الكوفة، كان من أصحاب علىّ رضى اللّه عنه و شهد معه مشاهده، و كان قاضى الكوفة و به يضرب المثل. قال الذهبىّ: إنه مات سنة ثمان و سبعين. و فيها حج بالناس أمير المدينة أبان بن عثمان، و كان على العراق و الشرق الحجاج. و فيها قتل معبد بن عبد اللّه بن عليم الذى يروى حديث الدّباغ، و هو أوّل من قال بالقدر فى البصرة، قتله الحجاج و قيل قتله عبد الملك الخليفة بدمشق.

و فيها توفى شقيق بن سلمة الأزدىّ أبو وائل، أدرك رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم و لم يره، و هو من الطبقة الأولى من التابعين من أهل الكوفة. و فيها توفّى أبو إدريس الخولانىّ، و اسمه عائذ اللّه بن عبد اللّه، و قيل عبد اللّه بن إدريس بن عائذ اللّه، قاضى دمشق فى أيّام معاوية و غيره، و هو من الطبقة الثانية من التابعين من أهل الشام. و فيها توفّى عبد اللّه بن جعفر بن أبى طالب، أبو جعفر و قيل أبو محمد، و أمّه أسماء بنت عميس ولدته بالحبشة فى الهجرة، و هو أوّل مولود ولد فى الإسلام بالحبشة، و هو من الطبقة الخامسة، توفّى رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم و هو حدث الأسنان، و قيل إنه كان له يوم توفى رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم عشر سنين. و فيها توفى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱، ص: ۲۰۲

عبيد اللّه بن أبى بكرة الثقفىّ، و كنيته أبو حاتم، من الطبقة الثالثة من التابعين من أهل البصرة، و أمّه هولة بنت غليظ من بنى عجل، و هو أوّل من قرأ القرآن بالألحان، و ولى قضاء البصرة، و أوفده الحجاج على الخليفة عبد الملك فسأله أن يولّى الحجاج خراسان و سجستان. و فيها توفى العلاء بن زياد بن مطر بن شريح العدوىّ، و هو من الطبقة الثانية من التابعين من أهل البصرة، و كان من العبّاد الخائفين. و فيها توفى معاوية ابن قرّة بن إياس بن هلال المزنىّ أبو إياس، من الطبقة الثانية من التابعين من أهل البصرة، كان زاهدا عابدا ورعا.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ستة أذرع و ثمانية أصابع، مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا و سبعة عشر إصبعا.

*** السنة السادسة عشرة من ولاية عبد العزيز بن مروان على مصر و هى سنة إحدى و ثمانين- فيها حجّ بالناس سليمان بن عبد الملك بن مروان و حجّت معه أمّ الدرداء. و فيها خرج عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث على الحجاج بن يوسف و خلع عبد الملك بن مروان من الخلافة، و وقع له بسبب ذلك مع الحجاج حروب، و وافقه جماعة كثيرة على ذلك و كاد أمره أن يتمّ. و فيها غزا عبد اللّه بن عبيد اللّه بلاد الروم و وصل الى قاليقلا ففتحها، و يقال: إن أصل الفرات من عندها يجتمع.

و فيها توفى محمد بن علىّ بن أبى طالب المعروف بابن الحنفية، و الحنفية اسم أمّه، و لها اسم آخر: خولة بنت جعفر بن قيس، و محمد هذا من الطبقة الأولى من التابعين من أهل المدينة، و كنيته أبو القاسم؛ ولد فى خلافة أبى بكر، و قيل لثلاث سنين أو لسنتين بقين من خلافة عمر، و هى السنة التى ولد فيها سعيد بن المسيّب، و كان ديّنا عابدا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱، ص: ۲۰۳

صاحب رأى و قوّة شديدة الى الغاية. و فيها كانت مقتلة بحير بن ورقاء الصريمىّ.

و فيها كان دخول الديلم قزوين، و سببه أنّ العساكر كانت لا تبرح مرابطة بها، فلما كان فى هذه السنة كان من جملة من رابط بها

محمـد بن أبى سبرة الجعفىّ، و كان فارسا شـجاعا، فلما قـدم قزوين رأى الناس لا ينامون الليل، فقال لهم: أ تخافون أن يـدخل عليكم العـدوّ؟ قـالوا: نعم، قال: لقـد أنصـفوكم إن فعلوا، افتحوا الأبواب ففتحوها؛ و بلغ ذلك الـديلم فبيّتوهم و هجموا [على] البلـد و تصايح الناس، فقال محمد بن أبى سبرة: أغلقوا الأبواب فقد أنصفونا، فأغلقوا الأبواب التى للمدينة فقاتلوهم.

و أبلى محمد بلاء حسنا حتى ظفر بهم المسلمون و لم يفلت من الديلم أحد، و لم يعد الديلم بعدها؛ فصار محمد فارس ذلك الثغر، و كـان يـدمن شـرب الخمر، و بقى كـذلك الى أيـام عمر بن عبـد العزيز فأمر بتسـييره الى داره، و هى دار الفسّاق بالكوفـة، فسـيّر إليها، فأغارت الـديلم بعـده على قزوين و نالت من المسـلمين و ظهر الخلل بعـده حتى طلب ثانيـة و أعيـد الى قزوين. و فيها توفى سويـد بن غفلـة، و كنيته أبو أميّـة كنـاه بها عمر بن الخطاب، و هو من الطبقـة الأولى من تابعى أهل الكوفـة، أدرك رسول اللّه صـلى اللّه عليه و سلم و وفد عليه فوجده قد قبض، و أدرك دفنه و هم ينفضون أيديهم من التراب.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمسة أذرع و ثلاثة عشر إصبعا، مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا و ثمانية أصابع.

*** السـنة السابعة عشـرة من ولاية عبد العزيز بن مروان على مصـر و هى سـنة اثنتين و ثمانين- فيها كانت وقعة الزاوية بين محمد بن الأشعث و بين الحجاج بالبصرة، و كان لابن الأشعث مع الحجاج فى السنة الماضية و فى هذه السنة عدّة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۰۴

وقائع منها: وقعة دجيل يوم عيد الأضـحى، و هى وقعة دير الجماجم، ثم وقعة الأهواز، و يقال: إنّه خرج مع ابن الأشعث ثلاثة و ثلاثون ألف فـارس و مائـة و عشـرون ألف راجـل، فيهم علمـاء و فقهـاء و صالحون. و قيل: إنّه كان بينهما أربع و ثمانون وقعـة فى مائـة يوم، فكانت منها ثلاث و ثمانون على الحجاج و واحـدة له، فعند ما انكسـر ابن الأشـعث خرج الى الملك زنبيل و التجأ إليه حتى مات بعد ذلك فى سـنة أربع و ثمانين، و فى موته أقوال كثيرة. و فيها عزل الخليفـة عبـد الملك بن مروان أبان بن عثمان بن عفّان عن المـدينة فى جمادى الآخرة و اسـتعمل عليها هشام بن إسماعيل المخزومىّ، فعزل هشام ابن مساحق عن القضاء بالمدينة و ولّى عوضه عمرو بن خالد الزّرقىّ.

و فيها غزا محمد بن مروان بن الحكم أخو الخليفة عبد الملك أرمينيـة، فهزم أهلها فسألوه الصـلح فصالحهم، و ولّى عليهم أبا شـيخ بن عبـد اللّه فغدروا به و قتلوه. و قيل بل قتل سـنة ثلاث و ثمانين. و فيها توفى أسـماء بن خارجة بن مالك الفزارىّ الكوفىّ أحد الأجواد، وفـد على الخليفـة عبـد الملـك فقال له عبـد الملك: بلغنى عنك خصال شـريفة فأخبرنى بها؛ قال أسـماء: ما سألنى أحـد حاجـة إلّا و قضـيتها، و لا أكل رجل من طعامى إلا رأيت له الفضل علىّ، و لا أقبل علىّ رجل بحديث إلا و أقبلت عليه بسـمعى و بصـرى؛ فقال له عبد الملك: حقّ لك أن تشرف و تسود. و فيها توفّى أبو الشعثاء سليم بن أسود بن حنظلة المحاربىّ، من الطبقة الأولى من تابعى أهل الكوفـة. و قيل: إنّ وفاة أبى الشـعثاء فى غير هـذه السـنة و الأصح فيها. و فيها توفى عبد الرحمن بن يزيد بن قيس النّخعىّ أبو بكر، من الطبقة الأولى من تابعى أهل الكوفة، كان يسجد على كور عمامته قد حالت بين جبهته و الأرض. و فيها توفى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۰۵

المغيرة بن المهلب بن أبى صـفرة، و اسم أبى صـفرة ظـالم بن سـراقة، و كنيته أبو خـداش، كـان خليفـة أبيه على مرو فمـات فى شـهر رجب، و كـان المغيرة جوادا سـيّدا شـجاعا، و لمّا وصل الخبر الى أبيه وجـد عليه وجـدا عظيما أثّر فيه ذلك، ثم اسـتناب ابنه يزيـد بن المهلّب على مرو.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربعة أذرع و عشرون إصبعا، مبلغ الزيادة ستة عشر ذراعا و سبعة عشر إصبعا.

*** السـنة الثامنـة عشـرة من ولاية عبد العزيز بن مروان على مصـر و هى سـنة ثلاث و ثمانين- فيها حج بالناس أمير المدينة هشام بن إسماعيل المخزومىّ.

و فيها توفى أبو الجوزاء أوس بن خالـد الرّبعىّ البصـرىّ، و قيل خالـد بن سـمير، من الطبقـة الثانيـة من التابعين من أهل البصـرة. و فيها

توفى روح بن زنباع أبو زرعة الجذامىّ الشامىّ، من الطبقة الأولى من تابعى أهل الشام، و كان متميّزا عند الناس فخاف منه معاوية فعزم على قتله ثم خلّى عنه، و كان عظيم دولة عبد الملك بن مروان، و هو الذى قدّم الحجّاج بن يوسف الثقفىّ عند عبد الملك حتى صار من أمره ما صار، و قصته مع الحجاج المذكور مشهورة من قتل عبيده و إحراق خيامه عند ما ولّى الحجاج حرب مصعب بن الزبير. و روح هذا هو زوج هند بنت النعمان بن بشير، و كانت تكرهه، و هى القائلة:

و ما هند إلّا مهرة عربيّة سليلة أفراس تجلّلها بغل

فإن نتجت مهرا كريما فبالحرى و إن يك إقراف فمن قبل الفحل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۰۶

و قد شاع ذلک فى زمانها حتى قال بعض الشعراء فى صاحب سألة:

لى صاحب مثل داء البطن صحبته يودّنى كوداد الذّيب للبرأعى

يثنى علىّ جزاه اللّه صالحة ثناء هند على روح بن زنباع

و فيها توفى زاذان الكوفىّ أبو عبد اللّه مولى كندة، من الطبقة الأولى من تابعى أهل الكوفة، و كان صالحا صاحب نسک و عبادة و كان بزّازا. و فيها توفى عبد اللّه بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلّب، أبو محمد الهاشمىّ، من الطبقة الأولى من التابعين، و أمّه هند بنت أبى سفيان؛ ولد فى زمان رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم فأتت به أمّه الى أختها أمّ حبيبة زوجة النّبىّ صلى اللّه عليه و سلم، ثم دخل رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم عليها فقال: «من هذا»؟ فقالت: ابن عمک و ابن أختى، فتفل فى فيه و دعا له. و فيها توفى عبد اللّه بن شدّاد بن الهاد، و اسم الهاد عمرو الليثىّ، و سمّى الهاد لأنه كان يوقد ناره للأضياف ليلا و لمن سلک الطريق، و هو من الطبقة الأولى من تابعى المدينة، و أمّه سلمى بنت عميس الخثعميّة أخت أسماء.

و فيها توفى عبد الرحمن بن يسار أو بلال أبى ليلى، صحب أبوه رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم و شهد معه أحدا و ما بعدها. و أمّا عبد الرحمن هذا فإنه تابعىّ من أهل الكوفة، من الطبقة الأولى، و كان عالما زاهدا خرج على الحجاج بن يوسف، قتل بدجيل و قيل بل غرق فى نهر دجيل مع ابن الأشعث. و فيها توفى معبد الجهنىّ من أهل البصرة و هو أوّل من تكلم فى القدر، و هو من الطبقة الثانية من تابعى أهل البصرة، و حضر التحكيم بدومة الجندل. و فيها توفى المهلّب بن أبى صفرة اسمه ظالم

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۰۷

ابن سراق بن صبح الأزدىّ العتكىّ البصرىّ، و فى اسم المهلب أقوال كثيرة، قيل:

اسمه سارق بن ظالم، و قيل بالعكس، و قيل طارق بن سارق، و قيل قاطع بن سارق و قيل الذى ذكرناه أوّلا؛ الأمير أبو سعيد أحد أشراف أهل البصرة و وجوههم و فرسانهم، ولد عام الفتح فى حياة النّبىّ صلى اللّه عليه و سلم و ولّى الأعمال الجليلة، و له مواقف مع الروم و غيرها الى أن توفى.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم سبعة أذرع و ثمانية أصابع، مبلغ الزيادة خمسة عشر ذراعا و واحد و عشرون إصبعا.

*** السنة التاسعة عشرة من ولاية عبد العزيز بن مروان على مصر و هى سنة أربع و ثمانين- فيها فتحت المصّيصة على يد عبد اللّه بن عبد الملک بن مروان.

و فيها افتتح موسى بن نصير ملک درنة من بلاد المغرب، فقتل و سبى حتى قيل:

إنّ السبى بلغ خمسين ألفا. و فيها غزا محمد بن مروان أرمينية فهزمهم و حرق كنائسهم، و تسمى سنة الحريق. و فيها قتل الحجاج أيوب بن القرّيّة و كان من فصحاء العرب و بلغائهم و أجوادهم، كان خرج أيضا مع محمد بن الأشعث، و اسمه أيّوب ابن زيد بن قيس أبو سليمان الهلالىّ، ثم ندم الحجاج على قتله. و ابن القرّيّة هذا له حكايات كثيرة فى الجود و الكرم و الفصاحة، منها: أنّه لما أحضره الحجاج ليقتله، فقال له ابن القرّية: أقلنى عثرتى، و اسقنى ريقى فإنه «ليس جواد إلّا له كبوة، و لا شجاع إلّا له هبوة، و لا صارم

إلا له نبوة»؛ فقال الحجاج: كلا! و اللّه لأزيرنّك

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۰۸

جهنّم؛ قال: فأرحنى فإنى أجد حرّها، فأمر به فضربت عنقه، فلما رآه قتيلا قال:

لو تركناه حتى نسمع من كلامه!. و فيها ولى إمرة الإسكندرية عياض بن غنم التّجيبىّ. و فيها بعث عبد الملك بن مروان بالشّعبىّ الى أخيه عبد العزيز صاحب الترجمة الى مصر بسبب البيعة للوليد بن عبد الملك حسبما ذكرناه فى صدر ترجمة عبد العزيز. و فيها حجّ بالناس هشام بن إسماعيل. و فيها ظفر الحجاج برأس محمد بن الأشعث و طيف بها فى الأقاليم. و فيها قتل الحجاج حطيطا الزيات الكوفىّ، كان عابدا زاهدا يصدع بالحقّ، قتله الحجاج لتشيّعه و لميله لابن الأشعث. قيل: إنه لما أحضره بين يديه قال له الحجاج: ما تقول فى أبى بكر و عمر؟ قال: أقول فيهما خيرا، قال: ما تقول فى عثمان؟ قال: ما ولدت فى زمانه، فقال له الحجاج: يا بن اللخناء، ولدت فى زمان أبى بكر و عمر و لم تولد فى زمن عثمان! فقال له حطيط:

يا بن اللخناء، إنى وجدت الناس اجتمعوا فى أبى بكر و عمر فقلت بقولهم، و وجدت الناس اختلفوا فى عثمان فوسعنى السكوت، فقال معدّ لعنه اللّه (معدّ صاحب عذاب الحجاج): إنى أريد أن تدفعه الىّ، فو اللّه لأسمعنّك صياحه، فسلّمه اليه فجعل يعذّبه ليلته كلّها و هو ساكت، فلما كان وقت الصبح كسر ساق حطيط، ثم دخل عليه الحجّاج لعنه اللّه فقال له: ما فعلت بأسيرك، فقال: إن رأى الأمير أن يأخذه منّى، فقد أفسد علىّ أهل سجنى، فقال له الحجاج: علىّ به فعذّبه بأنواع العذاب و هو صابر، فكان يأتى بالمسالّ فيغرزها فى جسمه و هو صابر، ثم لفّه فى بارية و ألقاه حتى مات. و فيها توفّى أبو عمرو سعد بن إياس الشيبانىّ صاحب العربية و أيام الناس، كان إماما فيهما، و هو من الطبقة الأولى من تابعى أهل الكوفة، شهد القادسيّة و روى عن عمر و علىّ و ابن مسعود و غيرهم.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۰۹

امر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ستة أذرع و نصف، مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا و واحد و عشرون إصبعا.

*** السنة العشرون من ولاية عبد العزيز بن مروان على مصر و هى سنة خمس و ثمانين- فيها كانت وفاة عبد العزيز بن مروان صاحب الترجمة، حسبما تقدّم ذكره، فى الطاعون العظيم الذى كان فى هذه السنة بمصر و أعمالها، و هو ثامن طاعون كان فى الإسلام على قول بعضهم، و قد ذكرنا ذلك فيما مضى فى حوادث سنة ست و ستين. و فيها غزا محمد بن مروان إرمينية فأقام بها سنة و ولّى عليها عبد العزيز بن حاتم بن النّعمان الباهلىّ، فبنى مدينة أردبيل و مدينة برذعة. و فيها جهّز عبد اللّه بن عبد الملك بن مروان يزيد بن حنين فى جيش فلقيه الروم فى جيش كثير فأصيب الناس، و قتل ميمون الجرجانى فى ألف نفس من أهل أنطاكية.

و فيها عزل يزيد بن المهلّب بن أبى صفرة عن خراسان، و ولّى الفضل أخوه مدّة يسيرة ثم عزل أيضا، و ولّى قتيبة بن مسلم. و فيها قتل موسى بن عبد اللّه بن خازم السّلمىّ و كان بطلا شجاعا و سيدا مطاعا، كان غلب على ترمذ و ما وراء النهر مدّة سنين و حارب العرب من هذه الجهة و الترك من تلك الجهة، و جرت له وقعات عظيمة، و آخر الأمر أنه خرج ليلة فى هذه السنة بعساكره ليغير على جيش فعثر به فرسه فابتدره ناس من ذلك الجيش و قتلوه. و فيها حج بالناس هشام بن إسماعيل المخزومىّ. و فيها توفّى عبد اللّه بن عامر بن ربيعة حليف بنى عدىّ، و كان له لما مات النّبىّ صلى اللّه عليه و سلم أربع سنين. و فيها توفى واثلة بن الأسقع

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۱۰

ابن عبد العزّى بن عبدياليل، من الطبقة الثالثة من المهاجرين، و كان ينزل ناحية المدينة، فأتى رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم فصلّى معه الصبح و بايعه.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثلاثة أذرع و خمسة عشر إصبعا، مبلغ الزيادة ستة عشر ذراعا و واحد و عشرون إصبعا.

ذكر ولاية عبد اللّه بن عبد الملك على مصر

هو عبد اللّه ابن الخليفة عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أميّة ابن عبد شمس، القرشىّ الأموىّ الأمير أبو [عمر]، ولد فى حدود سنة ستين و نشأ بدمشق تحت كنف والده عبد الملك، و ندبه أبوه فى خلافته الى عدّة غزوات، و افتتح المصّيصة فى سنة أربع و ثمانين و قتل و سبى و غنم؛ ثم ولّاه أبوه إمرة مصر بعد موت عمه عبد العزيز بن مروان فى سنة خمس و ثمانين، فتوجّه اليها و دخلها فى يوم الاثنين لإحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة من سنة خمس و ثمانين، و قيل من سنة ست و ثمانين. و دخل مصر ابن سبع و عشرين سنة، و كان أبوه عبد الملك أمره أن يعفّى آثار عبد العزيز؛ فأوّل ما دخل عبد اللّه المذكور استبدل العمّال بعمّال غيرهم و الأصحاب بأصحاب أخر، و استعمل على شرطة مصر عبد الأعلى، و منع من لبس البرانس، و كان فيه شدّة بأس. فلم يكن إلا أشهر و توفّى أبوه عبد الملك بن مروان و ولى الخلافة من بعده أخوه الوليد بن عبد الملك، فأقرّه الوليد على إمرة مصر على عادته؛ فأمر عبد اللّه المذكور أن تنسخ دواوين مصر بالعربية، و كانت تكتب بالقبطيّة، ففعل ذلك. ثم وقع فى سنة سبع و ثمانين الشراقى بمصر و علت الأشعار بها الى الغاية، حتى قيل: إن أهل مصر لم يروا فى عمرهم مثل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۱۱

تلك الأيام، وقاست أهل مصر شدائد بسبب الغلاء، فاستشأمت الناس بكعبه.

هذا مع ما كان عليه من الجور؛ فإنه كان يرتشى و يأخذ الأموال من الخراج و غيره.

و لما شاع ذلك عنه طلبه أخوه الوليد من مصر، فخرج عبد اللّه من مصر اليه بدمشق فى صفر سنة ثمان و ثمانين، و استخلف على مصر عبد الرحمن بن عمرو بن مخزوم الخولانىّ. هذا و أهل مصر فى شدّة عظيمة من عظم الغلاء؛ فأقام عند الوليد مدّة يسيرة ثم عاد الى مصر حتى عزله أخوه الوليد بن عبد الملك عن إمرة مصر فى سنة تسعين، و ولّى عوضه على مصر قرّة بن شريك الآتى ذكره. فكانت ولاية عبد اللّه هذا على مصر ثلاث سنين و عشرة أشهر. و بعد عزله توجّه الى دمشق عند أخيه الوليد. و خرج من مصر بجميع أمواله و استصحب معه الهدايا و التحف الى أخيه الوليد. فلمّا وصل الى الأردنّ أحيط به من قبل أخيه الوليد فأخذ جميع ما كان معه، و حمل عبد اللّه المذكور الى أخيه الوليد. و عبد اللّه هذا أمّه أمّ ولد لأن أكبر إخوته الوليد ثم سليمان ثم مروان الأكبر- درج - و عائشة، و أمّهم ولّادة بنت العباس بن جزء بن الحارث بن زهير بن خزيمة؛ ثم يزيد و مروان الأصغر و معاوية و أمّ كلثوم، و أمّهم عاتكة بنت يزيد بن معاوية بن أبى سفيان؛ ثم هشام و أمّه أمّ هشام بنت إسماعيل بن هشام بن الوليد بن المغيرة المخزوميّة و اسمها عائشة؛ ثم أبو بكر، و كان يعرف ببكّار، و أمّه عائشة بنت موسى بن طلحة بن عبيد اللّه؛ ثم الحكم و أمّه أمّ أيوب بنت عمرو بن عثمان بن عفان؛ ثم فاطمة و أمّها أمّ المغيرة بنت المغيرة بن خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة؛ ثم عبد اللّه هذا صاحب الترجمة، و مسلمة و النّذر و عنبسة و محمد و سعيد الخير و الحجّاج لأمّهات الأولاد.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۱۲

*** السنة الأولى من ولاية عبد اللّه بن عبد الملك بن مروان على مصر و هى سنة ست و ثمانين- فيها كان طاعون القينات، سمّى بذلك لأنه بدأ فى النساء، و كان بالشام و واسط و البصرة. و فيها سار قتيبة بن مسلم متوجها الى ولايته فدخل خراسان و تلقّاه دهاقين بلخ و ساروا معه، و أتاه أيضا أهل صاغان بهدايا و مفتاح من ذهب و سلموا له بلادهم بالأمان. و فيها افتتح مسلمة بن عبد الملك حصن بولق و حصن الأخرم. و فيها توفى الخليفة عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أميّة ابن عبد شمس بن عبد مناف بن قصىّ بن كلاب، أمير المؤمنين أبو الوليد، القرشىّ الأموى، والد عبد اللّه هذا صاحب الترجمة؛ بويع بالخلافة بعهد من أبيه مروان بن الحكم، و كان ذلك بعد أن دعا عبد اللّه بن الزبير لنفسه بالخلافة، و تمّ أمر عبد الملك المذكور فى الخلافة و بقى على مصر و الشام، و ابن الزبير على باقى البلاد، مدّة سبع سنين و الحروب ثائرة بينهم، ثم غلب عبد الملك على العراق و ما والاها بعد قتل مصعب بن الزبير، ثم ولّى الحجاج بن يوسف الثقفىّ العراق و محاربة عبد اللّه ابن الزبير حتى قتله، و استوثق الأمر بقتل عبد اللّه بن الزبير لعبد الملك، و دام فى الخلافة حتى توفى بدمشق فى شوّال. و خلافته المجمع عليها (أعنى بعد قتل عبد اللّه ابن الزبير) من وسط

سنة ثلاث و سبعين.

و قال الشعبیّ: خطب عبد الملک فقال: اللهم إنّ ذنوبی عظام، و إنها صغار فی جنب عفوک، فاغفرها لی یا کریم. و کان مولد عبد الملک سنة ست و عشرین من الهجرة، و کان عابدا ناسکا قبل الخلافة، فلما أتته الخلافة تغیّر عن ذلک کلّه و ولّی الحجاج علی العراق. قیل: إنّ الحسن البصریّ سئل عن عبد الملک هذا فقال:

ما أقول فی رجل الحجاج سیّئة من سیّئاته!. و فیها هلک ملک الروم الأحرم بوری

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۱۳

قبل عبد الملک بن مروان بشهر. و فیها حج بالناس هشام بن إسماعیل المخزومی. و فیها توفی بشر بن عقربة الجهنیّ أبو الیمان. قال الواقدیّ: قتل أبوه عقربة یوم أحد، قال بشر: فلقینی رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم و أنا أبکی فقال: «یا حبیب ما یبکیک» فقلت: قتل أبی، قال: «ما ترضی أن أکون أباک و عائشة أمّک» و مسح علی رأسی بیده، فکان أثریده من رأسی أسود و سائره أبیض. و فیها توفی عبد اللّه بن أبی أوفی الأسلمیّ، من الطبقة الثالثة من المهاجرین، و کان ممن بایع تحت الشجرة و شهد مع النّبیّ صلی اللّه علیه و سلم غزوة بنی النّضیر و الخندق و القریظة. و فیها توفی أبو أمامة صدیّ بن عجلان الباهلیّ، من الطبقة الرابعة من الصحابة. و فیها حبس الحجاج یزید بن المهلّب بن أبی صفرة و عزل حبیب بن المهلّب عن کرمان، و عزل عبد الملک عن شرطته، و کان الحجاج أمیر العراق کله و الشرق فی هذه السنة.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم ثلاثة أذرع و خمسة عشر إصبعا، مبلغ الزیادة ثلاثة عشر ذراعا و ثمانیة عشر إصبعا.

*** السنة الثانیة من ولایة عبد اللّه بن عبد الملک بن مروان علی مصر و هی سنة سبع و ثمانین- فیها افتتح قتیبة بن مسلم أمیر خراسان بیکند. و فیها شرع الخلیفة الولید بن عبد الملک بن مروان فی بناء جامع دمشق الأمویّ و کان نصفه کنیسة النصاری، و علی ذلک صالحهم أبو عبیدة بن الجرّاح؛ فقال لهم الولید: إنا قد أخذنا کنیسة مریم عنوة فأنا أهدمها، فرضوا بهدم هذه الکنیسة و إبقاء کنیسة مریم؛ و المحراب الکبیر هو مکان باب الکنیسة. ثم کتب الولید الی ابن عمه عمر بن

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۱۴

عبد العزیز بن مروان و هو أمیر المدینة ببناء مسجد النبی صلی اللّه علیه و سلم. و کانت ولایة عمر بن عبد العزیز علی المدینة فی أوائل هذه السنة أیضا و له من العمر خمس و عشرون سنة بعد أن صرف عنها؟؟؟ بن إسماعیل المخزومیّ؛ و دام عمر بن عبد العزیز علی إمرة المدینة الی أن عزله الولید أیضا بأبی بکر بن [عمرو بن] حزم.

و فیها حجّ بالناس عمر بن عبد العزیز و هو أمیر المدینة؛ و کان علی قضاء المدینة أبو بکر ابن عمرو بن حزم. و فیها توفّی أمیّة بن عبد اللّه بن خالد بن أسید. و فیها قدم نیزک طرخان علی قتیبة بن مسلم فصالحه و أطلق ما فی یده من أساری المسلمین.

و فیها غزا قتیبة المذکور نواحی بخارا فکانت ملحمة عظیمة هزم اللّه فیها المشرکین.

و فیها غزا مسلمة بن عبد الملک فافتتح قمقم و بحیرة الفرسان، فقتل و سبی، و یسّر اللّه تعالی فی هذا العام بفتوحات کبار علی الإسلام. و فیها توفی قبیصة بن ذؤیب ابن حلحلة بن عمرو الخزاعیّ، من الطبقة الأولی من التابعین من أهل المدینة و الثانیة من أهل الشام، ولد علی عهد رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم عام الفتح، و کان علی خاتم الخلیفة عبد الملک بن مروان و صاحب أمره و أقرب الناس إلیه. و فیها توفّی مطرّف بن عبد اللّه بن الشّخّیر بن عوف بن کعب، أبو عبد اللّه الحرشیّ، من الطبقة الثانیة من تابعی أهل البصرة، و کان له فضل و ورع و روایة، و کان بعیدا من الفتن. و فیها توفّی أبو الأبیض العنسیّ و هو من التابعین، کان کثیر الغزو و الجهاد.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم خمسة أذرع و ستة عشر إصبعا، مبلغ الزیادة ستة عشر ذراعا و عشرون إصبعا.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۱۵

*** السنة الثالثة من ولاية عبد اللّه بن عبد الملك بن مروان على مصر و هى سنة ثمان و ثمانين- فيها جمع الروم جمعا عظيما و أقبلوا فالتقاهم قتيبة بن مسلم و معه العباس ابن الخليفة الوليد، فهزم اللّه الروم و قتل منهم خلق كثير، و افتتح المسلمون سوسنة و طوانة. و فيها غزا قتيبة أيضا الترك فزحفوا إليه و معهم أهل فرغانة و عليهم ابن أخت ملك الصين، و يقال: بلغ جمعهم مائتى ألف، فكسرهم قتيبة، و كانت ملحمة عظيمة أيضا. و فيها توفّى عبد اللّه بن أبى قتادة بن ربعىّ الأنصارىّ الخزرجىّ من الطبقة الثانية من تابعى أهل المدينة. و فيها كان فتح طوانة من أرض الروم على يد مسلمة بن عبد الملك و العباس بن الوليد بن عبد الملك. و فيها حج بالناس أمير المدينة عمر بن عبد العزيز و وصل جماعة من قريش، و ساق معه بدنا و أحرم من ذى الحليفة، فلما كان بالتّنعيم أخبر أن مكّة قليلة الماء و أنهم يخافون على الحاجّ العطش، فقال عمر: تعالوا ندع اللّه تعالى، فدعا و دعا الناس معه، فما وصلوا الى البيت إلا مع المطر، و سال الوادى فخاف أهل مكّة من شدّته، و مطرت عرفة و مكة و كثر الخصب. و فيها كتب الوليد الى عمر بن عبد العزيز يأمره بإدخال حجر أزواج النّبىّ صلى اللّه عليه و سلم فى المسجد و أن يشترى ما بنواحيه، حتى يكون مائتى ذراع فى مائتى ذراع و أن يقدّم القبلة، ففعل عمر ذلك. و فيها توفّى عبد اللّه بن بسر المازنىّ (مازن بن منصور) و كان ممن صلّى إلى القبلتين، و هو آخر من مات بالشام من الصحابة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربعة أذرع و واحد و عشرون إصبعا، مبلغ الزيادة ستة عشر ذراعا و عشرون إصبعا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۱۶

*** السنة الرابعة من ولاية عبد اللّه بن عبد الملك بن مروان على مصر و هى سنة تسع و ثمانين فيها افتتح موسى بن نصير جزيرتى ما يرقة و منرقة، و هما جزيرتان فى البحر بين جزيرة صقلّيّة و جزيرة الأندلس، و تسمى هذه الغزوة غزوة الأشراف لكثرة الأشراف التى كانوا بها (أعنى أشراف العرب). و فيها غزا قتيبة «وردان خذاه» ملك بخارا فلم يطقهم و رجع. و فيها غزا مسلمة بن عبد الملك عمّوريّة فلقى جمعا من الروم فهزمهم اللّه. و فيها ولى خالد بن عبد اللّه القسرىّ مكّة و هى أوّل ولايته. و فيها غزا مسلمة أيضا و العباس بن الوليد بن عبد الملك الروم، فافتتح مسلمة حصن سورية و افتتح العباس مدينة أذروليّة. و فيها حج بالناس عمر بن عبد العزيز. و فيها توفى ظليم مولى عبد اللّه بن سعد بن أبى سرح بإفريقيّة. و فيها عزل عمران بن عبد الرحمن عن قضاء مصر بعبد الواحد بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج و له خمس و عشرون سنة.

و فيها توفى عمران بن حطّان السّدوسىّ الخارجىّ، كان شاعر الخوارج؛ و روى عن أبى موسى و عائشة رضى اللّه عنهما، و كان عمران فصيحا قبيح الشكل، و كانت زوجته جميلة، فدخل عليها يوما و هى بزينتها فاعجبته و علمت منه ذلك، فقالت: أبشر فإنى و إيّاك فى الجنة؛ قال: و من أين علمت؟ قالت: لأنّك أعطيت مثلى فشكرت، و أنا ابتليت بمثلك فصبرت، و الصابر و الشاكر فى الجنة.

و من شعره فى عبد الرحمن ابن ملجم و قومه:

يا ضربة من تقىّ ما أراد بها إلا ليبلغ من ذى العرش رضوانا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۱۷

إنّى لأذكره يوما فأحسبه أو فى البريّة عند اللّه ميزانا

أكرم بقوم بطون الطير أقبرهم لم يخلطوا دينهم بغيا و عدوانا

قلت: و هذا مذهب الخوارج، فإنهم يكفّرون بالمعصية. و فيها توفى يحيى بن يعمر أبو سليمان الليثى البصرىّ، و كان عالما بالقراءات و العربيّة، و هو أوّل من نقّط المصاحف، و كان ولّاه الحجاج [من برّه] قضاء مرو، و كان يقضى بالشاهد و اليمين ا ه.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمسة أذرع و اثنا عشر إصبعا، مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا و اثنان و عشرون إصبعا.

ذكر ولاية قرّة بن شريك على مصر

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة؛ ج ۱؛ ص ۲۱۷

قرّة بن شریک بن مرثد بن حازم بن الحارث بن حبش بن سفیان بن عبد اللّه ابن ناشب بن هدم بن عوذ بن غالب بن قطیعة بن عبس بن بغیض بن ریث بن غطفان بن أعصر بن سعد بن قیس بن عیلان العبسیّ أمیر مصر؛ ولی مصر بعد عزل عبد اللّه بن عبد الملک بن مروان من قبل الولید بن عبد الملک بن مروان علی صلاة مصر و خراجها، و دخلها یوم الاثنین ثالث شهر ربیع الأوّل سنة تسعین.

قال العلامة شمس الدین یوسف بن قرأوغلی فی تاریخه «مرآة الزمان»: کان قرّة من أمراء بنی أمیّة و ولّاه الولید مصر، و کان سیئ التدبیر خبیثا ظالما غشوما فاسقا منهمکا، و هو من أهل قنّسرین، قدم مصر سنة تسع و ثمانین أو سنة تسعین، و کان الولید عزل أخاه عبد اللّه بن عبد الملک بن مروان، و ولی قرّة و أمره ببناء جامع مصر و الزیادة فیه سنة اثنتین و تسعین، فأقام فی بنائه سنتین. قلت: و قد قدّمنا فی ترجمة عمرو بن العاص عند ذکر بنائه جامعه نبذة من ذلک ا ه.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۱۸

قال: و کان الناس یصلّون الجمعة فی قیساریّة العسل حتی فرغ قرّة من بنائه، و کان الصنّاع اذا انصرفوا من البناء دعا بالخمور و الزمور و الطبول فیشرب الخمر فی المسجد طول اللیل، و یقول: لنا اللیل و لهم النهار؛ و کان أشرّ خلق اللّه؛ و تحالفت الأزارقة علی قتله فعلم فقتلهم؛ و کان عمر بن عبد العزیز یعتب علی الولید لتولیته مصر. و مات قرّة فی سنة خمس و تسعین بمصر. و ورد علی الولید البرید فی یوم واحد بموت الحجاج بن یوسف و موت قرّة، فصعد المنبر و هو حاسر شعثان الرأس فنعاهما الی الناس، و قال: و اللّه لأشفعنّ لهما شفاعة تنفعهما؛ فقال عمر بن العزیز رضی اللّه عنه و هو ابن عمّ الولید المذکور: انظروا الی هذا الخبیث، لا أناله اللّه شفاعة محمد صلی اللّه علیه و سلم و ألحقه بهما، فاستجاب اللّه دعاءه و أهلک الولید بعدهما بثمانیة أشهر أو أقل. انتهی کلام صاحب «مرآة الزمان» بعد ما ساق وفاته فی سنة خمس و تسعین؛ و الأصحّ ما سنذکره فی وفاته من قول الذهبیّ و غیره من المؤرّخین.

و أمّا قوله: إنّ الولید مات بعد وفاة قرّة بثمانیة أشهر، فلیس کذلک؛ لأن وفاة قرّة فی لیلة الخمیس لستّ بقین من شهر ربیع الأوّل سنة ست و تسعین؛ و وفاة الولید فی نصف جمادی الآخرة، قاله خلیفة بن خیّاط ا ه.

و قیل: إنّ عمر بن عبد العزیز رضی اللّه عنه ذکر عنده ظلم الحجاج و غیره من ولاة الأمصار أیام الولید بن عبد الملک، فقال: الحجاج بالعراق! و الولید بالشأم! و قرّة بن شریک بمصر! و عثمان بالمدینة! و خالد بمکة! اللهم قد امتلأت الدنیا ظلما و جورا فأرح؟؟؟ الناس!. فلم یمض غیر قلیل حتی توفّی الحجاج و قرّة بن؟؟؟ فی شهر واحد، ثم تبعهم الولید، و عزل عثمان و خالد، فاستجاب اللّه لعمر.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۱۹

قال ابن الأثیر: و ما أشبه هذه القصة بقصة ابن عمر مع زیاد بن أبیه حیث کتب الی معاویة یقول: قد ضبطت العراق بشمالی؛ و یمینی فارغة- یعرّض بذلک أنّ شماله للعراق و تکون یمینه بإمارة الحجاز- فقل ابن عمر لمّا بلغه ذلک: اللهم أرحنا من یمین زیاد و أرح أهل العراق من شماله؛ فکان أوّل خبر جاءه موت زیاد.

و لما کان قرّة علی مصر أمره الولید بهدم ما بناه عمه عبد العزیز بن مروان لما کان أمیر مصر ففعل قرّة ذلک؛ ثم أخذ برکة الحبش و أحیاها و غرس بها القصب، فقیل لها «إسطبل قرّة».

و قال الحافظ أبو سعید بن یونس، بعد ما ذکر نسبه بنحو مما ذکرناه، کان أمیر مصر للولید بن عبد الملک و کان خلیعا، روی عن سعید بن المسیّب حدیثا واحدا، رواه عنه حکیم بن عبد اللّه بن قیس. و توفی قرّة بمصر و هو وال علیها فی شهر ربیع الأوّل سنة ست و تسعین، و کان الولید بن عبد الملک ولّی قرّة مصر و عزل عنها أخاه عبد اللّه ابن عبد الملک؛ فقال رجل من أهل مصر شعرا و کتب به الی الولید بن عبد الملک:

عجبا ما عجبت حین أتانا أن قد امّرت قرّة بن شریک

و عزلت الفتی المبارک عنّا ثم فیّلت فیه رأی أبیک

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۲۰

ثم قال ابن یونس: حدّثنی أبو أحمد بن یونس بن عبد الأعلی و کهمس ابن معمر و عیسی بن أحمد الصّدفیّ و غیرهم، قالوا: حدّثنا محمد بن عبد اللّه بن عبد الحکم ابن عبد اللّه بن قیس عن قرّة بن شریک: أنه سأل ابن المسیّب عن الرجل ینکح عبده ولیدته ثم یرید أن یفرّق بینهما؛ قال: لیس له أن یفرّق بینهما. قال ابن یونس: لیس لقرّة بن شریک غیر هذا الحدیث الواحد. انتهی کلام ابن یونس.

قلت: و کانت ولایة قرّة علی مصر ست سنین إلا أیاما. و تولی إمرة مصر بعده عبد الملک بن رفاعة الآتی ذکره؛ و کان من عظماء أمراء الولید بن عبد الملک، و کان الولید عند أهل الشأم من أفضل خلفائهم، بنی المساجد: مسجد دمشق و مسجد المدینة، و وضع المنابر، و أعطی المجذّمین أموالا و منعهم من سؤال الناس، و أعطی کل مقعد خادما، و کل ضریر قائدا، و فتح فی ولایته فتوحات عظاما: منها الأندلس و کاشغر و الهند؛ و کان یمر بالبقال فیقف علیه و یأخذ منه حزمة بقل فیقول:

بکم هذه؟ فیقول: بفلس، فیقول: زد فیها. و کان صاحب بناء و اتخاذ للمصانع؟؟؟

و الضّیاع، فکان الناس یلتقون فی زمانه فیسال بعضهم بعضا عن البناء. و کان سلیمان ابن عبد الملک صاحب طعام و نکاح. فکان الناس یسأل بعضهم بعضا عن النکاح و الطعام. و کان عمر بن عبد العزیز صاحب عبادة، فکان الناس یسأل بعضهم بعضا فی أیامه: ما وزدک اللیلة، و کم تحفظ من القرآن، و ما تصوم من الشهر؟

قلت: و لم أذکر هذا کله إلا لما قدّمناه من الحط علی الولید من أقوال المؤرّخین، فأردت أن أذکر من محاسنه أیضا ما نقله غیرهم ا ه.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۲۱

*** السنة الأولی من ولایة قرّة بن شریک علی مصر و هی سنة تسعین- فیها غزا قتیبة بن مسلم «وردان خذاه» الغزوة الثانیة، فاستصرخ وردان خذاه علی قتیبة بالترک، فالتقاهم قتیبة و هزمهم اللّه تعالی و فضّ جمعهم. ثم غزا قتیبة أیضا فی السنة أهل الطالقان بخراسان فقتل منهم مقتلة عظیمة. و فیها غزا العباس ابن الخلیفة الولید ابن عبد الملک بن مروان فبلغ الی أرزن ثم رجع. و فیها توفی خالد بن یزید بن معاویة ابن أبی سفیان، أبو هاشم الأمویّ الدمشقیّ أخو معاویة الرجل الصالح و عبد اللّه.

قیل: إن خالدا هذا بویع بالخلافة بعد أخیه معاویة بن یزید بن معاویة فلم یتم أمره، و وثب مروان بن الحکم علی الأمر و خلع خالدا هذا و تزوّج بأمه، و قد مرّ ذکر قتلها له فی ترجمة مروان. و کان خالد المذکور موصوفا بالعلم و العقل و الشجاعة، و کان مولعا بالکیمیاء. و قیل: إنه هو الذی وضع حدیث السفیانیّ «إنه یأتی فی آخر الزمان» ... لمّا سمع بحدیث المهدیّ. انتهی. و فیها توفی عبد الرحمن بن المسور بن مخرمة ابن نوفل بن أهیب بن عبد مناف، و هو من الطبقة الثانیة من تابعی أهل المدینة، و کان فقیها شاعرا. و فیها توفی أبو الخیر مرثد بن عبد اللّه الیزنیّ. و فیها فتحت بخارا علی ید قتیبة، ثم صالح قتیبة أهل الصّغد و رجع بهم ملکهم طرخون الی بلاده.

و فیها غزا مسلمة بن عبد الملک أرض الروم و افتتح الحصون الخمسة [التی بسوریة].

و فیها أسرت الروم خالد بن کیسان صاحب البحر، فأهداه ملکهم الی الولید.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۲۲

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم ذراعان و تسعة عشر إصبعا، مبلغ الزیادة ستة عشر ذراعا و اثنان و عشرون إصبعا.

*** السنة الثانیة من ولایة قرّة بن شریک علی مصر و هی سنة إحدی و تسعین- فیها سار قتیبة بن مسلم الی أن وصل الی فاریاب فخرج الیه ملکها سامعا مطیعا، فاستعمل علیها قتیبة عامر بن مالک و رجع. و فیها عزل الولید عمّه محمد بن مروان عن الجزیرة و أذربیجان و ولّاها أخاه مسلمة بن عبد الملک بن مروان؛ فقدم مسلمة و انتدب إلی الغزو فغزا إلی أن وصل فی هذه السنة الی الباب

من بحر أذربيجان، فافتتح مدائن و حصونا كثيرة. و فيها افتتح قتيبة بن مسلم أمير خراسان شومان و كشّ و نسف، و امتنع عليه أهل فارياب فأحرقها، و جهّز أخاه عبد الرحمن بن مسلم إلى طرخون ملك تلك البلاد، فجرت له معه حروب و مواقف؛ ثم صالحه عبد الرحمن و أعطاه طرخون أموالا، و تقهقر إلى أخيه قتيبة الى بخارا، فانصرفوا حتى قدموا مرو؛ فقالت الصّغد لطرخون ملكهم: إنك رضيت بالذلّ و الجزية و أنت شيخ كبير لا حاجة لنا فيك، و عزلوه عنهم. و فيها غزا موسى بن نصير طليطلة (مدينة بالأندلس من بلاد الغرب) بعد ما استولى على الجزيرة و افتتح حصونها، و دخل طليطلة عنوة، فوجد فى دار المملكة مائدة سليمان بن داود عليهما السلام؛ و هى من خليطين ذهب و فضة و عليها ثلاثة أطواق من لؤلؤ و جوهر. و قال الهيثم: افتتحها طارق فى سنة اثنتين و تسعين، و قيل غير ذلك. و فيها أيضا قتل قتيبة طرخان ملك الترك و بعث برأسه الى الحجاج ابن يوسف الثقفىّ. و فيها قدم محمد بن يوسف الثقفىّ أخو الحجاج من اليمن بهدايا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۲۳

عظيمة، فأرسلت أمّ البنين بنت عبد العزيز بن مروان زوجة الوليد و بنت عمه تطلبها منه؛ فقال محمد أخو الحجاج: حتى يراها أمير المؤمنين فغضبت، ثم رآها الوليد و بعث بها إلى أمّ البنين فلم تقبلها، و قالت: قد غصبها من أموال الناس؛ فسأله الوليد؛ فقال: معاذ اللّه! فأحلفه الوليد بين الركن و المقام خمسين يمينا أنه ما ظلم أحدا و لا غصبه حتى قبلتها أمّ البنين. و كان محمد هذا عامل صنعاء، و كان يسبّ علىّ بن أبى طالب رضى اللّه عنه على المنابر؛ و لهذا كان يقول عمر بن عبد العزيز: «الحجاج بالعراق! و أخوه محمد باليمن! و عثمان بن حيّان بالحجاز! و الوليد بالشأم! و قرّة بن شريك بمصر! امتلأت بلاد اللّه جورا!. و فيها حج بالناس الوليد ابن عبد الملك، فلما دخل إلى المدينة غدا إلى المسجد ينظر إلى بنائه و أخرج الناس منه و لم يبق غير سعيد بن المسيّب، فلم يجسر أحد من الحرس أن يخرجه، فقيل له:

لو قمت! فقال: لا أقوم حتى يأتى الوقت الذى أقوم فيه؛ قيل: فلو سلّمت على أمير المؤمنين! قال: و اللّه لا أقوم إليه؛ قال عمر بن عبد العزيز: فجعلت أعدل بالوليد فى ناحية المسجد لئلا يراه، فالتفت الوليد إلى القبلة فقال: من ذلك الشيخ؟

أ هو سعيد؟ قال عمر: نعم، و من حاله كذا و كذا، و لو علم بمكانك لقام فسلّم عليك و هو ضعيف البصر؛ فقال الوليد: قد علمنا حاله و نحن نأتيه، فدار فى المسجد ثم أتاه، فقال: كيف أنت أيها الشيخ؟- فو اللّه ما تحرّك سعيد- فقال: بخير و الحمد للّه، فكيف أمير المؤمنين و كيف حاله؟ فانصرف الوليد و هو يقول: هذا بقيّة الناس. و صلّى الوليد الجمعة بالمدينة فخطب الناس الخطبة الأولى جالسا. ثم قام فخطب الثانية قائما.

قال إسحاق بن يحيى: فقلت لرجاء بن حيوة و هو معه: أ هكذا يصنعون؟ قال:

هكذا صنع معاوية و هلم جرّا؛ قال فقلت: ألا تكلّمه! قال: أخبرنى قبيصة بن

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۲۴

ذؤيب أنه كلّم عبد الملك فلم يترك القعود و قال: هكذا خطب عثمان؛ قال فقلت: و اللّه ما خطب إلا قائما؛ قال رجاء: روى لهم شىء فأخذوا به. و فيها توفى أنس بن مالك بن النّضر بن ضمضم بن زيد بن حرام بن جندب بن عامر بن غنم بن عدىّ بن النجّار، أبو حمزة الأنصارىّ النجارىّ الخزرجىّ خادم رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم و آخرهم موتا، و هو من المكثرين، مات فى هذه السنة؛ قاله الإمام أحمد، و كذا قال الهيثم بن عدىّ و سعيد بن عفير و أبو عبيد.

و قال الواقدىّ: سنة اثنتين و تسعين، و تابعه معن بن عيسى عن ابن لأنس ابن مالك. و قال سعيد بن عامر و إسماعيل بن عليّة و أبو نعيم و المدائنى و الفلاس و خليفة و قعنب و غيرهم: سنة ثلاث و تسعين. و قال محمد بن عبد اللّه الأنصارىّ:

اختلف علينا مشيختنا فى سنّ أنس: فقال بعضهم: بلغ مائة و ثلاث سنين، و قال بعضهم: بلغ مائة و سبع سنين، و قال يحيى بن بكير: توفى أنس و هو ابن مائة و سنة، و مات له فى الطاعون الجارف ثمانون ولدا.

قلت: و هذا بدعاء النّبیّ صلی اللّه علیه و سلم، فإنه دعا له: «اللهم ارزقه مالا و ولدا و بارک له فیه». قال أنس: فإنی لمن أکثر الأنصار مالا، و حدّثنی ابنتی آسیة أنه دفن من صلبی الی مقدم الحجاج البصرة تسعة و عشرون و مائة. و فیها توفی محمد ابن یوسف الثقفیّ أخو الحجاج عامل صنعاء بالیمن، و قد تقدّم ذکر هدیته إلی الولید.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم ثلاثة أذرع و اثنا عشر إصبعا، مبلغ الزیادة ستة عشر ذراعا و سبعة عشر إصبعا.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۲۵

*** السنة الثالثة من ولایة قرّة بن شریک علی مصر و هی سنة اثنتین و تسعین- فیها حج بالناس الرجل الصالح عمر بن عبد العزیز. و فیها غزا عمر بن الولید و مسلمة ابن عبد الملک بلاد الروم و فتح مسلمة حصونا کثیرة، یقال: إنه بلغ الی الخلیج و فتح سوسنة. و فیها توفّی إبراهیم بن یزید بن شریک من تیم الرّباب، أبو أسماء، من الطبقة الثانیة من تابعی أهل الکوفة، و کان یقصّ علی الناس. و فیها توفّی بلال ابن أبی الدّرداء أبو محمد الأنصاریّ، من الطبقة الأولی من تابعی أهل الشأم، کان قاضیا علی دمشق فی زمان یزید بن معاویة و بعده الی أن عزله عبد الملک بن مروان بأبی إدریس الخولانیّ. و فیها توفی عبد الرحمن بن یزید بن جاریة بن عامر بن مجمّع أبو محمد الأنصاریّ، من الطبقة الأولی من تابعی أهل المدینة، و أمّه جمیلة بنت ثابت ابن أبی الأقلح، و أخوه لأمّه عاصم بن عمر بن الخطاب؛ و ولد علی عهد رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم. و فیها توفی طویس المغنّی صاحب الألحان، و هو أوّل من غنّی بالألحان فی الإسلام، و هو تصغیر طاوس. و فیها فتحت جزیرة الأندلس علی ید طارق بن زیاد مولی موسی بن نصیر. و فیها فتحت جزیرة سردانیة علی ید جیش موسی بن نصیر، و هذه الجزیرة فی بحر الروم، و هی من أکبر الجزائر ما عدا جزیرة صقلّیّة و أقریطش، و هی کثیرة الفواکه.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم خمسة أذرع و اثنا عشر إصبعا، مبلغ الزیادة سبعة عشر ذراعا و عشرة أصابع.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۲۶

*** السنة الرابعة من ولایة قرّة بن شریک علی مصر و هی سنة ثلاث و تسعین- فیها افتتح قتیبة خوارزم و سمرقند، و کان ساکنها الصّغد، و بنی بها مسجدا و خطب بنفسه فیه، و أخذ من أهلها عن رقبتهم ستة آلاف ألف و ثلاثین ألفا، و وجد فی سمرقند جاریة من ولد یزدجرد فبعث بها إلی الحجاج فأرسلها الحجاج الی الولید بن عبد الملک فأولدها یزید بن الولید. و فیها غزا مسلمة بن عبد الملک بلاد الروم و فتح حصن الحدید و قلعة غزالة. و فیها غزا العباس بن الولید ففتح سمیساط و طرسوس و المرزبان. و فیها عزل الولید عمر بن عبد العزیز عن المدینة بسبب أنّ عمر کتب إلی الولید یخبره بظلم الحجاج و سفکه الدماء و ما یفعل بأهل العراق و خوّفه عواقبه.

و فیها توفّی وضّاح الیمن، و اسمه عبد اللّه بن إسماعیل بن عبد کلال، کان من أهل صنعاء من الأنبار، و قیل: اسمه عبد الرحمن بن إسماعیل بن عبد کلال؛ و وضّاح الیمن لقب له لجمال وجهه، و هو صاحب القصة مع أمّ البنین زوجة الولید بن عبد الملک بن مروان التی ذکرها ابن خلّکان فی تاریخه. و فیها فتحت طلیطلة.

قال أبو جعفر: و فی هذه السنة غضب موسی بن نصیر علی مولاه طارق، فسار إلیه فی رجب منها، و استخلف علی إفریقیّة ابنه عبد اللّه بن موسی، و عبر موسی إلی طارق فی عشرة آلاف، فتلّقاه طارق و ترضّاه فرضی عنه و قبل عذره و سیّره إلی طلیطلة، و هی من عظام مدائن الأندلس، و هی من قرطبة علی خمسة أیام، ففتحها و أصاب فیها مائدة سلیمان بن داود علیهما السلام، و فیها من الذهب و الجوهر ما اللّه أعلم به.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۲۷

و فیها غزا العباس بن الولید الروم ففتح سمیساط و المرزبان. و فیها حج بالناس عبد العزیز بن الولید.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم ستة أذرع و إصبعان، مبلغ الزیادة ستة عشر ذراعا و عشرون إصبعا.

*** السنة الخامسة من ولاية قرّة بن شريك على مصر و هى سنة أربع و تسعين- فيها غزا قتيبة بن مسلم بلد كابل فحصرها حتى فتحها، ثم افتتح أيضا فرغانة بعد أن حصرها و أخذها عنوة، و بعث جيشا فافتتحوا الشاش. و فيها قتل محمد الثقفىّ صصّة بن ذاهر. قيل: إنّ صصّة هذا هو الذى اقترح الشّطرنج. و فيها افتتح مسلمة ابن عبد الملك سندرة من أرض الروم. و فيها غزا العباس بن الوليد بن عبد الملك أرض الروم و افتتح أنطاكية. و فيها افتتح القاسم بن محمد الثقفىّ أرض الهند. و فيها حج بالناس مسلمة بن عبد الملك. و فى أيام الوليد بن عبد الملك فتح اللّه على الإسلام فتوحا عظيمة، و عاد الجهاد شبيها بأيام عمر رضى اللّه عنه. و فيها كانت بالشأم زلازل عظيمة دامت فى غالب البلاد أربعين يوما، و كان أوّلها من عشرين من آذار فهدمت الأبنية و وقع معظم أنطاكية. و فيها هرب يزيد بن المهلّب و إخوته من حبس الحجاج إلى الشأم. و فيها غزا قتيبة ما وراء النهر و فتح فرغانة و خجندة. و فيها توفى الحسن ابن محمد بن الحنفية، و أمّه جمال بنت قيس بن مخرمة، و كنيته أبو محمد، و هو من الطبقة الثالثة من تابعى أهل المدينة، و كان من ظرفاء بنى هاشم، و كان يقدّم على أخيه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۲۸

أبى هاشم عبد اللّه بن محمد فى الفضل و الهيبة. و فيها قتل الحجاج سعيد بن جبير مولى بنى والبة، و هو من الطبقة الثانية من تابعى أهل الكوفة، كان من كبار العلماء الزهّاد، و كان ابن عباس يعظّمه، و كان خرج مع محمد بن الأشعث على الحجاج، ثم انحاز بعد قتل ابن الأشعث إلى أصبهان، و كان عامل أصبهان ديّنا، فأمر سعيدا بالخروج من بلده بما ألحّ عليه الحجاج فى طلبه، فخرج الى أذربيجان مدّة ثم توجّه إلى مكة مستجيرا باللّه و ملتجئا الى حرم اللّه، فبعث به خالد القسرىّ الى الحجاج.

و كان الحجاج كتب إلى الوليد أنّ جماعة من التابعين قد التجئوا إلى مكة، فكتب الوليد إلى عامل مكة خالد القسرىّ: احملهم الى الحجاج، و كانوا خمسة: سعيد بن جبير و عطاء و مجاهد و عمرو بن دينار و طلق بن حبيب، فأمّا عمرو و عطاء فأطلقا، و أمّا طلق فمات فى الطريق، و أما مجاهد فحبس حتى مات الحجاج، لا عفا اللّه عنه، و أما سعيد بن جبير فقتل. و قصة قتلته طويلة و هى أشهر من أن تذكر. و فيها توفى سعيد بن المسيّب بن حزن بن أبى وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم، و أمّه أمّ سعيد بنت عثمان بن حكيم السّلمىّ، و كنيته أبو محمد- أعنى ابن المسيّب- و هو من الطبقة الأولى من تابعى أهل المدينة، و كان يقال له فقيه الفقهاء و عالم العلماء، و هو أحد الفقهاء السبعة، و قد نظمهم بعض الشعراء:

ألا كلّ من لا يقتدى بأئمّة فقسمته ضيزى عن الحقّ خارجه

فخذهم: عبيد اللّه، عروة، قاسم سعيد، سليمان، أبو بكر، خارجه

و فيها توفى عروة بن الزبير بن العوّام، أبو عبد اللّه الأسدىّ، هو أيضا أحد الفقهاء السبعة و هو المشار اليه فى ثانى اسم من البيت الثانى، و هو من الطبقة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۲۹

الثانية من تابعى أهل المدينة، و أمه أسماء بنت أبى بكر الصدّيق، و هو شقيق عبد اللّه بن الزبير رضى اللّه عنهم؛ و بينه و بين عبد اللّه المذكور عشرون سنة، و كان ابتلى بالأكلة فى رجله فقطعت و هو صائم، فصبر على ذلك و حمد اللّه عليه، رضى اللّه عنه؛ و فى سنة وفاته اختلاف كثير. و فيها توفى عطاء بن يسار مولى ميمونة زوج النّبىّ صلى اللّه عليه و سلم، و كنيته أبو محمد، و قيل أبو يسار، و هو من الطبقة الأولى من تابعى أهل المدينة.

قال ابن بكير: كان بالمدينة ثلاثة إخوة لا ندرى أيّهم أفضل: عطاء و سليمان و عبد اللّه بنو يسار، و ثلاثة إخوة: محمد و أبو بكر و عمر بنو المنذر، و ثلاثة إخوة:

بكير و يعقوب و عمر بنو عبد اللّه الأشج. و فيها توفى علىّ بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب الملقّب بزين العابدين، و كنيته أبو محمد، و هو من الطبقة الثانية من تابعى أهل المدينة، و أمّه أم ولد يقال لها غزالة، و قيل سلامة، و قيل سلافة، و قيل شاه زنان، و

كانت سنديّة، و كان علىّ هذا بارّا بها، رضى اللّه عنه و عن أسلافه.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ذراعان و خمسة عشر إصبعا، مبلغ الزيادة أربعة عشر ذراعا و إصبع واحد.

*** السنة السادسة من ولاية قرّة بن شريك على مصر و هى سنة خمس و تسعين- فيها وفد موسى بن نصير من بلاد المغرب على الوليد بالشأم و معه الأموال و ثلاثون ألف رأس من الرقيق. و فيها افتتح مسلمة بن عبد الملك مدينة الباب من إرمينية و خرّبها ثم بناها بعد ذلك مسلمة المذكور. و فيها ولد أبو جعفر المنصور ثانى خلفاء

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١، ص: ٢٣٠

بنى العباس. و فيها غزا العباس بن الوليد أرض الروم ففتح هرقلة و غيرها. و فيها حج بالناس بشر بن الوليد بن عبد الملك. و فيها توفّى جعفر بن عمرو بن أميّة الضّمرىّ و هو أخو عبد الملك بن مروان من الرّضاعة. و فيها توفّى الخبيث الحجاج بن يوسف ابن الحكم بن [أبى] عقيل بن مسعود بن عامر، أبو محمد الثقفىّ.

قال الشعبىّ: كان بين الحجاج و بين الجلندا الذى ذكره [اللّه] فى كتابه العزيز فى قوله تعالى: وَ كانَ وَراءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً سبعون جدّا. و قيل:

إنه كان من ولد عبد من عبيد الطائف لبنى ثقيف ولد أبى رغال دليل أبرهة الى الكعبة.

قلت: هو مشئوم؟؟؟ هو و أجداده، و عليهم اللعنة و الخزى، فإنه كان مع ظلمه و إسرافه فى القتل مشئوم الطلعة؛ [و كان فى أيامه طاعون الإسراف، مات فيه خلائق لا تحصر؛ حتى قيل: لا يكون الطاعون و الحجاج! و كان معظم الطاعون بواسط].

و قيل: كان اسم الحجاج أوّلا كليب، و مولده سنة تسع و ثلاثين، و قيل سنة أربعين، و قيل سنة إحدى و أربعين، بمصر بدرب السرّاجين، ثم خرج به أبوه يوسف مع

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١، ص: ٢٣١

مروان بن الحكم الى الشأم. و لم أدر ما أذكر من مساوئ هذا الخبيث فى هذا المختصر، فإن مساوئه لا تحصر، غير أننى أكتفى فيه بما شاع عنه فى الآفاق من قبيح الفعال، و سوء الخصال.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ستة أذرع و سبعة أصابع، مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا و اثنا عشر إصبعا.

ذكر ولاية عبد الملك بن رفاعة الأولى على مصر

هو عبد الملك بن رفاعة بن خالد بن ثابت الفهمىّ المصرىّ أمير مصر، ولى مصر بعد موت قرّة بن شريك من قبل الوليد بن عبد الملك بن مروان، وليها فى شهر ربيع الآخر سنة ست و تسعين على الصلاة، فلم يكن بعد ولايته إلا أيام و مات الوليد ابن عبد الملك و تخلّف أخوه سليمان بن عبد الملك، فأقرّ عبد الملك هذا على عمل مصر، فدام على ذلك و حسنت سيرته، فإنه كان عفيفا عن الأموال ديّنا و فيه عدل فى الرعية، و كان ثقة أمينا فاضلا، روى عنه الليث بن سعد و غيره.

قال الليث بن سعد: كان يقول عبد الملك بن رفاعة: «إذا دخلت الهديّة من الباب خرجت الأمانة من الطاق» يعنى بهذا الكلام فى حقّ كل عامل على بلد.

قلت: و هذا أيضا فى حقّ كل حاكم كائن من كان. و فى الجملة فبينه و بين قرّة لبن شريك زحام. و كان المتولّى فى أيام عبد الملك بن رفاعة على خراج مصر أسامة ابن زيد التّنوخىّ، و على الشّرطة أخاه الوليد بن رفاعة.

قال الكندىّ: كتب سليمان بن عبد الملك بن مروان الى أسامة: احلب الدّرّ حتى ينقطع، و احلب الدم حتى ينصرم. قال: فذلك أوّل شدّة دخلت على أهل مصر. و قال يوما سليمان بن عبد الملك- و قد أعجبه فعل أسامة بن زيد المذكور-:

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١، ص: ٢٣٢

هذا أسامة لا یرتشی دینارا و لا درهما؛ فقال له ابن عمه عمر بن عبد العزیز بن مروان: أنا أذلّک علی من هو شرّ من أسامة و لا یرتشی دینارا و لا درهما؛ قال سلیمان: و من هو؟ قال عمر: عدوّ اللّه إبلیس؛ فغضب سلیمان و قام من مجلسه.

و لما مات سلیمان بن عبد الملک و تولّی عمر بن عبد العزیز الخلافة وجّه فی عزل أسامة بن زید المذکور قبل دفن سلیمان، و أقرّ عبد الملک بن رفاعة علی عمله بمصر مدّة، ثم عزله بأیّوب بن شرحبیل فی شهر ربیع الأوّل سنة تسع و تسعین. و کانت ولایة عبد الملک بن رفاعة علی مصر فی هذه المرّة ثلاث سنین تخمینا. و تأتی بقیة ترجمته فی ولایته الثانیة إن شاء اللّه تعالی. و فی أیام عبد الملک هذا قتل عبد العزیز ابن موسی بن نصیر، و کان أبوه استعمله علی الأندلس لمّا قدم الشأم، و کان سببه أنه تزوّج بامرأة رذریق فحملته علی أن یأخذ أصحابه و رعیّته بالسجود له عند الدخول علیه کما کان یفعل لزوجها، فقال: إن ذلک لیس فی دیننا، و کان دیّنا فاضلا، فلم تزل به حتی أمر بفتح باب قصیر، فکان أحدهم اذا دخل علیه طأطأ رأسه فیصیر کالراکع له، فرضیت به و قالت له: الآن لحقت بالملوک، و بقی أن أعمل لک تاجا مما عندی من الذهب و اللؤلؤ فأبی، فلم تزل به حتی فعل، فانکشف ذلک للمسلمین، فقیل: إنه تنصّر، فثاروا علیه و قتلوه بدسیسة من عند عبد الملک هذا بأمر سلیمان بن عبد الملک، فدخلوا علیه، و هو یصلّی الصبح فی المحراب و قد قرأ الفاتحة و سورة الواقعة، فضربوه بالسیوف ضربة واحدة و احتزّوا رأسه و سیّروه الی سلیمان، فعرضه سلیمان علی أبیه فتجلّد للمصیبة و قال: هنیئا له الشهادة، فقد قتلتموه و اللّه صوّاما قوّاما. فعدّ الناس ذلک من زلّات سلیمان بن عبد الملک ا ه.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۳۳

*** السنة الأولی من ولایة عبد الملک بن رفاعة الأولی علی مصر و هی سنة ست و تسعین- فیها غزا مسلمة بن عبد الملک الصائفة. و فیها افتتح العباس ابن الولید بن عبد الملک طرسوس. و فیها عزم الولید قبل موته بمدّة یسیرة علی خلع أخیه سلیمان بن عبد الملک من ولایة العهد، و کان الولید قد شاور الحجاج فی ذلک فأشار علیه بخلعه، فکتب الولید الی أخیه سلیمان بذلک فامتنع، و کان بفلسطین، فعرض علیه الولید أموالا کثیرة فأبی، فکتب الولید الی عمّاله أن یخلعوا سلیمان و یبایعوا لابنه عبد العزیز بن الولید، فلم یجبه الی ذلک سوی الحجاج و قتیبة بن مسلم؛ ثم قال لعمر بن عبد العزیز: بایع لابن أختک عبد العزیز، فإنّ عبد العزیز ابن الولید کانت أمّه أخت عمر بن عبد العزیز، فقال له عمر: إنما بایعناک و سلیمان فی عقد واحد، فکیف نخلعه و نترکک! فأخذ الولید مندیلا و جعله فی عنق عمر بن عبد العزیز و لواه حتی کاد أن یموت، فصاحت أخته أمّ البنین زوجة الولید حتی أطلقه و حبسه فی بیت ثلاثة أیام الی أن قالت له أمّ البنین: أخرج أخی فأخرجه و قد کاد أن یموت، و قد التوی عنقه، فقالت أمّ البنین: اللهم لا تبلّغ الولید فی ولد عبد العزیز ما أمّله. و فیها قتل قتیبة بن مسلم بن عمرو بن الحصین بن أسید بن زید ابن قضاعة الباهلیّ، و هو من التابعین، و کنیته أبو صالح، کان من کبار أمراء بنی أمیة، ولاه الحجاج خراسان، و فتح الفتوحات؛ فلما ولی سلیمان بن عبد الملک الخلافة نقم علیه لکونه کان خلعه فی أیام أخیه الولید، فبعث الیه من قتله بعد أمور و حروب.

و فیها توفّی الحکم بن أیّوب بن الحکم بن أبی عقیل ابن عم الحجاج، کان ولّاه الحجاج البصرة و زوّجه أخته زینب بنت یوسف. و فیها توفی عبد اللّه بن عمرو بن عثمان

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۳۴

ابن عفان، و أمّه حفصة بنت عبد اللّه بن عمر بن الخطاب، کان من الطبقة الثالثة من تابعی أهل المدینة. و فیها افتتح قتیبة مدینة کاشغر. و فیها حجّ بالناس أبو بکر بن محمد بن عمرو بن حزم و هو أمیر المدینة، و کان علی مکة عبد العزیز بن عبد اللّه بن خالد بن أسید (بفتح الهمزة و کسر السین المهملة)، و کان علی حرب العراق و صلاتها یزید بن المهلّب، و علی خراجها صالح بن عبد الرحمن، و علی البصرة سفیان بن عبد اللّه الکندیّ من قبل یزید بن المهلب، و علی حرب خراسان وکیع بن أبی مسعود. و فیها توفی الخلیفة الولید بن عبد الملک بن مروان أمیر المؤمنین أبو العباس الأمویّ الدمشقیّ، من الطبقة الثالثة من تابعی أهل الشأم، و کان الولید عند أهل الشأم أفضل خلفائهم من کونه بنی المساجد و الجوامع و بنی جامع دمشق و مسجد المدینة، و هو أوّل من اتخذ دار

الضيافة للقادمين، و بنى البيمارستانات للمرضى، و ساق المياه الى مكة و المدينة، و وضع المنابر فى الأمصار، غير أنه كان له مساوئ من كونه كان أقرّ الحجاج على العراق و أشياء غير ذلك؛ و تولى الخلافة من بعده أخوه سليمان بن عبد الملك.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثلاثة أذرع و اثنا عشر إصبعا، مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا و ثلاثة و عشرون إصبعا.

*** السنة الثانية من ولاية عبد الملك بن رفاعة على مصر و هى سنة سبع و تسعين- فيها غزا يزيد بن المهلّب جرجان. قال المدائنىّ: غزاها و لم تكن يومئذ [مدينة] إنما هى جبال محيطة بها. و فيها حج بالناس الخليفة سليمان بن عبد الملك. و فيها غزا مسلمة بن عبد الملك

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۳۵

برجمة و حصن ابن عوف و افتتح أيضا حصن الحديد و سردا، و شتّى بنواحى الروم. و فيها بعث سليمان بن عبد الملك على الغرب محمد بن يزيد مولى قريش فولى سنتين و عدل، و لكنه عسف على موسى بن نصير و قبض على ابنه عبد اللّه و سجنه ثم جاء البريد بأن يقتله؛ فتولّى قتله عبيد اللّه بن خالد بن صابى، و كان أخوه عبد العزيز بن موسى على الأندلس، ثم ثاروا عليه فقتلوه فى سنة تسع و تسعين لكونه خلع طاعة سليمان، قتله و هو فى صلاة الفجر حبيب بن أبى عبيد بن عقبة بن نافع الفهرىّ.

ذكر وفاة موسى بن نصير المذكور

هو صاحب فتوحات الغرب، و كنيته أبو عبد الرحمن. قيل: أصله من عين التمر، و قيل: هو مولى لبنى أمية، و قيل: لامرأة من لخم، مات بطريق مكة مع الخليفة سليمان بن عبد الملك. مولده بقرية كفرتوثا من قرى الجزيرة فى سنة تسع عشرة؛ و ولّاه معاوية بن أبى سفيان غزو البحر فغزا قبرس و بنى بها حصونا ثم غزا غيرها؛ و طالت أيامه و فتح الفتوحات العظيمة ببلاد المغرب، و كان شجاعا مقداما جوادا. و فيها جهّز الخليفة سليمان بن عبد الملك الجيوش الى القسطنطينية و استعمل ابنه داود على الصائفة فافتتح حصن المرأة. و فيها غزا عمر بن هبيرة أرض الروم فى البحر و شتّى بها. و فيها عزل سليمان داود بن طلحة الحضرمىّ عن إمرة مكة، و كان عمله عليها ستة أشهر؛ و ولّى عوضه عبد العزيز بن عبد اللّه بن خالد بن أسيد.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربعة أذرع و ثلاثة عشر إصبعا، مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا و خمسة أصابع.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۳۶

*** السنة الثالثة من ولاية عبد الملك بن رفاعة على مصر و هى سنة ثمان و تسعين- فيها غزا يزيد بن المهلّب بن أبى صفرة طبرستان، فصالحه صاحبها الأصبهبذ على سبعمائة ألف، و قيل: خمسمائة ألف فى السنة. و فيها غدر أهل جرجان و قتلوا عاملهم و جماعة من المسلمين، فسار اليهم يزيد بن المهلّب بن أبى صفرة و قاتلهم شهرا حتى نزلوا على حكمه، فقتل المقاتلة و صلب منهم فرسخين [عن يمين الطريق و يساره] وقاد منهم اثنى عشر ألف نفس الى وادى جرجان فقتلهم و أجرى الدماء فى الوادى.

و فيها غزا داود بن سليمان بن عبد الملك أرض الروم و فتح حصن المرأة مما يلى ملطية.

و فيها عادت الزلازل أربعين يوما، و قيل: ستة أشهر، فهدمت القلاع و الأماكن العالية.

و فيها استعمل سليمان عروة بن محمد بن عطية السعدىّ على اليمن. و فيها توفّى أيّوب ابن الخليفة سليمان بن عبد الملك بن مروان؛ و أمّ أيوب المذكور أم أبان بنت سليمان ابن الحكم، و قيل: بنت خالد بن الحكم، و كان شابّا جليلا. و فيها توفى عبيد اللّه ابن عبد اللّه بن عتبة بن مسعود، و كنيته أبو عبد اللّه، و هو من الطبقة الثانية من تابعى أهل المدينة، و كان عالما زاهدا، و هو أحد الفقهاء السبعة المشار إليه فى الأبيات السابقة بعبيد اللّه، و كان الزهرى يلازمه و يأخذ عنه. و فيها فتحت مدينة الصقالبة ببلاد المغرب. و فيها حجّ بالناس عبد العزيز بن عبد اللّه بن خالد ابن أسيد و هو أمير مكة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثلاثة أذرع و تسعة أصابع، مبلغ الزيادة سبعة عشرة ذراعا و ستة أصابع.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۳۷

ذكر ولاية أيوب بن شرحبيل على مصر

هو أيّوب بن شرحبيل بن أكشوم بن أبرهة بن الصّبّاح أمير مصر.

قال الحافظ أبو سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس فی تاريخه: أيوب بن شرحبيل بن أكشوم بن أبرهة بن الصبّاح بن لهيعة بن شرحبيل بن مرثد بن الصبّاح ابن معديكرب بن يعفر بن ينوف بن شراحيل بن أبی شمر بن شرحبيل بن ياشر ابن أشغر بن ملكيكرب بن شراحيل بن يعفر بن عمير بن أبی كرب بن يعفر بن أسعد بن ملكيكرب بن شمير بن أشغر بن ينوف بن أصبح الأصبحیّ. و أمه أم أيوب بنت مالك بن نويرة بن الصبّاح. و أيّوب هذا أحد أمراء مصر وليها لعمر بن عبد العزيز. روى عنه أبو قبيل و عبد الرحمن بن مهران، و توفّی فی رمضان سنة إحدى و مائة.

حدّثنی موسى بن هارون بن كامل أخبرنا عبد اللّه بن محمد البردیّ حدّثنا أبی حدّثنا ابن أبی ذئب حدّثنا عبد الرحمن بن مهران عن أيّوب بن شرحبيل قال:

كتب عمر بن عبد العزيز رضی اللّه عنه الى عامله على مصر: أن خذ من المسلمين من كلّ أربعين دينارا، و من أهل الكتاب من كلّ عشرين دينارا إذا قبلوها فی كل عام، فإنه حدّثنی من سمعه عمّن سمعه عن رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم. انتهى كلام ابن يونس باختصار

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۳۸

قلت: و كانت ولاية أيوب هذا على مصر بعد عبد الملك بن رفاعة من قبل عمر ابن عبد العزيز فی شهر ربيع الأوّل سنة تسع و تسعين. فلما ولّی أيّوب هذا مصر جعل الفتيا بمصر الى جعفر بن ربيعة و يزيد بن أبی حبيب و عبيد اللّه بن أبی جعفر، و جعل على الشّرطة الحسن بن يزيد الرّعينی، و زيد فی عطايا الناس عامّة، و عطّلت حانات الخمر و كسرت بإشارة أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز، و نزحت القبط عن الكور، و استعملت [عليها] المسلمون، و نزعت أيديهم أيضا عن المواريث و استعمل عليها المسلمون، و حسنت أحوال الديار المصرية فی أيامه، و أخذ أيوب هذا فی الأمر بالمعروف و النهی عن المنكر و إصلاح الأمور. و بينما هو فی ذلك قدم عليه الخبر بموت الخليفة عمر بن عبد العزيز رضی اللّه عنه فی شهر رجب سنة إحدى و مائة و تولية يزيد بن عبد الملك بن مروان الخلافة، و أنّ يزيد أقرّ أيّوب بن شرحبيل المذكور على عمله بمصر على الصلاة على عادته؛ فلم تطل مدّة أيوب بعد ذلك، و مات فی يوم سابع عشر شهر رمضان من سنة إحدى و مائة المذكورة، و قيل: لإحدى عشرة خلت من شهر رمضان؛ فكانت ولايته على مصر سنتين و نصف سنة؛ و تولى مصر بعده بشر بن صفوان الآتی ذكره.

و قال صاحب كتاب «البغية و الاغتباط فيمن ولی الفسطاط»: إنه عزل (يعنی أيوب هذا) فی التاريخ المذكور من الشهر و السنة؛ غير أنه خالف ما ذكرناه من موته، و قال: «عزل» و اللّه أعلم، و وافقه غيره على ذلك. و الصحيح ما نقلناه، أنه توفّی. غير أن يزيد لما ولی الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز غيّر غالب ما كان قرّره عمر. و سببه أن عمر لما احتضر قيل له: اكتب الى يزيد ابن عمك و أوصه بالأمّة، قال: بماذا أوصيه! إنه من بنی عبد الملك؛ ثم كتب اليه: «أمّا بعد، فاتق اللّه يا يزيد، و اتق الصّرعة بعد الغفلة حين لا تقال العثرة و لا تقدر على الرّجعة، إنك تترك ما تترك

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۳۹

لمن لا يحمدك، و تصير إلى من لا يعذرك، و السلام». فلما ولی يزيد نزع أبا بكر بن محمد ابن عمرو بن حزم عن المدينة، و استعمل عبد الرحمن بن الضحّاك بن قيس الفهریّ عليها، فاستقضى عبد الرحمن بن سلمة بن عبد اللّه بن عبد الأسد المخزومیّ، و أراد معارضة ابن حزم فلم يجد عليه سبيلا حتى شكا عثمان بن حيّان الى يزيد من ابن حزم أنه ضربه حدّين و طلب منه أن يقيده منه.

ثم عمد يزيد الى كل ما صنعه ابن عمه عمر بن عبد العزيز مما لم يوافق هواه فردّه، و لم يخف شناعة عاجلة و لا إثما آجلا.

فمن ذلك أن محمد بن يوسف أخا الحجاج بن يوسف كان عاملا على اليمن، فجعل عليهم خراجا محدّدا، فلما ولى عمر بن عبد العزيز كتب الى عامله باليمن يأمره بالاقتصار على العشر و نصف العشر و ترك ما حدّده محمد، و قال: لأن يأتينى من اليمن حفنة ذرة أحبّ الىّ من تقرير هذه الوظيفة. فلما ولى يزيد بعد عمر أمر بردّها، و قال لعامله: خذها منهم و لو صاروا حرضا، و السلام. ثم عزل جماعة من العمال. فمن قال بعزل أيوب عن مصر فهو يستدلّ بما ذكرناه، و الأصح أنه مات فى التاريخ المذكور المقدّم ذكره.

*** السنة الأولى من ولاية أيوب بن شرحبيل على مصر و هى سنة تسع و تسعين- فيها أغارت الخزر على إرمينية و أذربيجان، و أمير تلك البلاد يوم ذاك عبد العزيز بن حاتم الباهلىّ، و كان بينهم وقعة قتل اللّه فيها عامة الخزر، و كتب عبد العزيز الباهلىّ الى الخليفة عمر بن عبد العزيز بذلك. و فيها حجّ بالناس أبو بكر بن حزم. و فيها استقضى عمر بن عبد العزيز الشّع؟؟؟ ىّ على الكوفة. و فيها قدم يزيد بن المهلّب بن أبى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱، ص: ۲۴۰

صفرة من خراسان، فما قطع الجسر إلا و هو معزول. و توجه عدىّ بن أرطاة واليا من قبل عمر بن عبد العزيز على البصرة، فأبى يزيد بن المهلّب أن يسلّم عليه، فقبض عليه عدىّ بن أرطاة و قيّده و بعث به الى عمر بن عبد العزيز، فحبسه عمر بن عبد العزيز حتى مات. و فيها أسلم ملك الهند.

قال ابن عساكر: كتب ملك الهند الى عمر بن عبد العزيز: «من ملك الهند و السند، ملك الأملاك الذى هو ابن ألف ملك و تحته ابنة ألف ملك، و الذى فى مملكته نهران ينبتان العود و الكافور و الأكرة التى يوجد ريحها من اثنى عشر فرسخا، و الذى فى مربطه ألف فيل و تحت يده ألف ملك، الى ملك العرب:

أمّا بعد، فإن اللّه قد هدانى الى الإسلام فابعث إلىّ رجلا يعلّمنى الإسلام و القرآن و شرائع الإسلام، و قد أهديت لك هديّة من المسك و العنبر و النّدّ و الكافور فاقبلها، فإنما أنا أخوك فى الإسلام، و السلام».

و فيها توفّى سعيد بن أبى الحسن أخو الحسن البصرىّ، و كان أصغر من الحسن، و هو من الطبقة الثانية من تابعى أهل البصرة، و حزن على موته أخوه الحسن حزنا عظيما و أمسك عن الكلام حتى كلّم فى ذلك، فقال أوّل ما تكلم:

الحمد للّه الذى لم يجعل الحزن عارا على يعقوب. و فيها توفى الخليفة سليمان بن عبد الملك ابن مروان الأموىّ الهاشمىّ، و أمه ولّادة بنت العبّاس، و هى أم الوليد أيضا، و كنيته أبو أيوب، ولى الخلافة بعد أخيه الوليد بن عبد الملك سنة ست و تسعين، و كان فصيحا لسنا جميلا حسن السّيرة مفتاحا للخير، أذهب اللّه به ظلم الحجّاج، و أطلق من كان فى حبس الحجاج، فأنصف المظلومين، و بنى مدينة الرّملة و؟؟؟؟ ها، ثم ح؟؟؟ م أفعاله باستخلافه ابن عمه عمر بن عبد العزيز على المسلمين قبل أخويه يزيد و هشام،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱، ص: ۲۴۱

و كان سليمان هذا أكولا، و حكاياته فى كثرة الأكل مشهورة، منها: أنه حجّ مرّة فنزل بالطائف فأكل سبعين رمّانة، ثم جاءوه بخروف مشوىّ و ست دجاجات فأكلها، ثم جاءوه بزبيب فأكل منه شيئا كثيرا؛ ثم نعس و انتبه فأتاه الطبّاخ فأخبره أن الطعام استوى، فقال: اعرضه علىّ قدرا قدرا، فصار يأكل من كل قدرة اللقمة و اللقمتين و اللحمة و اللحمتين، و كانت ثمانين قدرا؛ ثم مدّ السّماط فأكل على عادته كأنه ما أكل شيئا. ا ه، و كانت وفاته بدابق فى صفر سنة تسع و تسعين عن خمس و أربعين سنة. و كانت خلافته دون ثلاث سنين، رحمه اللّه. و فيها وجّه عمر بن عبد العزيز الى مسلمة و هو بأرض الروم يأمره بالقفول منها بمن معه من المسلمين، و وجّه لهم خيلا و طعاما كثيرا، و حثّ الناس على معونتهم. و فيها أغارت الترك على أذربيجان فقتلوا من المسلمين جماعة؛ فوجّه عمر بن عبد العزيز حاتم بن النعمان الباهلىّ فقتل أولئك الترك، و لم يفلت منهم إلا اليسير. و فيها توفّى سهل بن عبد العزيز ابن مروان أخو الخليفة عمر بن عبد العزيز، و كان فاضلا ديّنا زاهدا. و فيها توفى قيس بن أبى حازم عوف بن الحارث الأحمسىّ، من الطبقة الأولى

من تابعى أهل الكوفة، شهد مع خالد بن الوليد حين صالح أهل الحيرة و القادسيّة. و فيها توفى القاسم بن مخيمرة الهمدانىّ، و هو من الطبقة الثانية من تابعى أهل الكوفة، و كان يدعو بالموت، فلما نزل به كرهه، و كان ثقة مع علم و زهد و ورع.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ستة أذرع و خمسة أصابع، مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا و عشرون إصبعا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۴۲

*** السنة الثانية من ولاية أيوب بن شرحبيل على مصر و هى سنة مائة- فيها حج بالناس أبو بكر بن حزم. و فيها غزا الصائفة الوليد بن هشام المعيطىّ؛ و فيها خرج شوذب الخارجىّ و اسمه بسطام من بنى يشكر. و فيها أمر عمر بن عبد العزيز أهل طرندة بالقفول عنها الى ملطية، و كان عبد اللّه بن عبد الملك قد أسكنها المسلمين بعد أن غزاها سنة ثلاث و ثمانين، و ملطية يومئذ خراب، و كان يأتيهم جند من الجزيرة يقيمون عندهم إلى أن ينزل الثلج و يعودون إلى بلادهم؛ فلم يزالوا كذلك الى أن ولى عمر بن عبد العزيز فأمرهم بالعود الى ملطية و إخلاء طرندة خوفا على المسلمين [من العدوّ] و أخرب طرندة. و فيها تزوّج محمد بن علىّ بن عبد اللّه بن العباس الحارثيّة، فولدت له السفّاح أوّل خلفاء بنى العباس الآتى ذكرهم إن شاء اللّه تعالى.

و فيها كانت الزلازل، فكتب الخليفة عمر بن عبد العزيز الى الأمصار و واعدهم يوما بعينه، ثم خرج هو بنفسه رضى اللّه عنه فى ذلك اليوم و خرج معه الناس، فدعا عمر و تضرّع الى اللّه فسكنت الزلازل ببركته. و قيل: إنّ فى أول هذه السنة كانت أوّل دعوة بنى العباس بخراسان لمحمد بن علىّ بن عبد اللّه بن العباس، فلم يظهر أمره غير أنه شاع ذلك فى الأقطار، ثم وقعت أمور الى أن ظهرت دعوتهم فى سنة مائة و اثنتين و ثلاثين، كما سيأتى ذكره فى محله. و فيها توفّى خارجة بن زيد بن ثابت الأنصارىّ، و أمه جميلة بنت سعد بن الربيع الخزرجىّ، و هو من الطبقة الثانية من تابعى أهل المدينة، و كذا جميع إخوته، و كنيته أبو زيد، و كان عالما زاهدا،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۴۳

و هو أحد الفقهاء السبعة. و فيها توفّى الشاب الصالح الناسك عبد الملك ابن الخليفة عمر بن عبد العزيز بن مروان، مات فى خلافة أبيه عمر بن عبد العزيز. قال بعض أهل الشأم: كنا نرى أنّ عمر بن عبد العزيز إنما أدخله فى العبادة ما رأى من ابنه عبد الملك المذكور هذا. و مات عبد الملك المذكور و له تسع عشرة سنة رحمه اللّه.

و فيها كان طاعون عدىّ بن أرطاة، و مات فيه خلائق. و فيها توفى أبو رجاء العطاردىّ، من الطبقة الأولى من تابعى أهل البصرة، و اسمه عمران بن تيم، و قيل:

ابن ملحان، و قيل: عطارد بن ثور. و فيها توفى أبو طفيل عامر بن واثلة بن عبد اللّه ابن عمرو الليثىّ الكنانىّ الصحابىّ، آخر من رأى فى الدنيا النّبىّ صلى اللّه عليه و سلم بالإجماع، و كان من شيعة علىّ، روى عن النّبىّ صلى اللّه عليه و سلم استلامه الركن.

و فيها كتب عمر بن عبد العزيز إلى ملوك السند يدعوهم الى الإسلام على أن يملّكهم بلادهم، و لهم ما للمسلمين و عليهم ما عليهم؛ و قد كانت سيرته بلغتهم، فأسلم جيشبة بن ذاهر و عدّة ملوك و تسمّوا بأسماء العرب. و كان استعمل عمر على ذلك الثغر عمرو بن مسلم أخا قتيبة، فغزا عمرو بعض الهند و ظفر حتى بقى ملوك السند مسلمين، فبقوا على ذلك الى خلافة هشام، [ثم] ارتدّوا عن الإسلام لأمر وقع من هشام.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثمانية أذرع و عشرون إصبعا، مبلغ الزيادة ثمانية عشر ذراعا و عشرون إصبعا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۴۴

ذكر ولاية بشر بن صفوان على مصر

هو بشر بن صفوان بن تويل (بفتح التاء المثناة) بن بشر بن حنظلة بن علقمة بن شرحبيل بن عرين بن أبى جابر بن زهير الكلبىّ، أمير مصر. وليها من قبل يزيد بن عبد الملك بعد موت أيّوب بن شرحبيل فى سابع عشر شهر رمضان سنة إحدى و مائة.

قال ابن یونس: و حدّث عنه عبد اللّه بن لهیعة، و یروی عن أبی فراس.

انتهی کلام ابن یونس، و لم یذکر وفاته و لا عزله.

و قال غیره: و فی أیّام بشر علی مصر نزل الروم تنّیس و أقام بعد ذلک مدّة، و ولّاه الخلیفة یزید بن عبد الملک علی إفریقیّة بالغرب، فخرج الیها من مصر فی شوّال سنة اثنتین و مائة و استخلف أخاه حنظلة بن صفوان علی مصر، فأقرّه یزید بن عبد الملک علی إمرة مصر عوضا عن أخیه بشر المذکور.

و قال صاحب کتاب «البغیة و الاغتباط، فیمن ولی الفسطاط» بعد ما ذکر نسبه الی جدّه، قال: ولّاه یزید بن عبد الملک، و قدمها (یعنی مصر) لسبع عشرة لیلة خلت من شهر رمضان سنة إحدی و مائة، فجعل علی شرطته شعیب بن حمید ابن أبی الرّبذاء البلویّ. و فی إمرته نزلت الروم تنّیس، و کتب یزید بمنع الزیادات التی زادها عمر بن عبد العزیز، و دوّن التدوین الرابع، ثم خرج الی إفریقیّة بإشارة یزید بن عبد الملک فی شوّال سنة اثنتین و مائة، و استخلف أخاه حنظلة. ا ه. و سبب

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۴۵

عزل بشر بن صفوان و توجّهه الی إفریقیّة قتل یزید بن أبی مسلم؛ و کان الخلیفة یزید بن عبد الملک بن مروان استعمل یزید بن أبی مسلم کاتب الحجّاج علی إفریقیّة سنة إحدی و مائة، بعد عزل محمد بن یزید مولی الأنصار، فلمّا ولی یزید علی إفریقیّة عزم أن یسیر فیهم بسیرة الحجّاج فی أهل الإسلام الذین سکنوا الأمصار ممن کان أصله من السواد من أهل الذمّة فأسلم بالعراق؛ فإنّ الحجّاج کان ردّهم الی قراهم و وضع الجزیة علی رقابهم علی نحو ما کانت تؤخذ منهم و هم کفّار، فأراد یزید بن أبی مسلم [أن] یفعل بأهل سواد إفریقیّة کذلک؛ فکلّموه فی ذلک فلم یسمع و عزم علی ما عزم علیه؛ فلما تحقّقوا ذلک أجمع رأیهم علی قتله، فوثبوا علیه و قاتلوه و قتلوه، و ولّوا علی أنفسهم الوالی الذی کان علیهم قبل یزید المذکور، و هو محمد بن یزید مولی الأنصار، و کان عندهم؛ و کتبوا الی الخلیفة یزید بن عبد الملک: إنّا لم نخلع أیدینا من الطاعة، و لکنّ یزید بن أبی مسلم سامنا ما لا یرضاه اللّه و المسلمون فقتلناه و أعدنا علینا محمد بن یزید؛ فکتب الیهم یزید: إنی لم أرض بما صنع یزید بن أبی مسلم، و أقرّ محمد بن یزید علی عمله مدّة أیّام، ثم بدا له إرسال بشر بن صفوان هذا الی إفریقیّة فکتب الیه بالتوجّه، و أقر أخاه حنظلة بن صفوان علی إمرة مصر عوضه برغبة أخیه بشر فی ذلک. و خرج بشر الی إفریقیّة و وقع له بها أمور یطول شرحها الی أن غزا جزیرة صقلّیة فی سنة تسع و مائة و غنم منها شیئا کثیرا، ثم رجع من غزاته الی القیروان فتوفّی بها من سنته. فاستعمل هشام بعده عبیدة بن عبد الرحمن بن أبی الأغر السّلمیّ. انتهت ترجمة بشر بن صفوان.

*** السنة الأولی من ولایة بشر بن صفوان علی مصر و هی سنة إحدی و مائة- فیها استخلف یزید بن عبد الملک بعد موت ابن عمه عمر بن عبد العزیز فی شهر

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۴۶

رجب. و فیها ولّی الخلیفة یزید بن عبد الملک عبد الرحمن بن الضحّاک بن قیس الفهریّ علی المدینة، و عزل عنها أبا بکر بن محمد بن عمرو بن حزم، فحجّ عبد الرحمن بالناس، و کان عامل مکّة فی هذه السنة عبد العزیز بن عبد اللّه بن خالد بن أسید، و کان علی الکوفة عبد الحمید، و علی قضائها الشعبیّ، و کانت البصرة قد غلب علیها [ابن] المهلّب، و کان علی خراسان عبد الرحمن بن نعیم. و فیها لحق یزید بن المهلّب بن أبی صفرة بالبصرة و غلب علیها و حبس عاملها عدیّ بن أرطاة الفزاریّ و خلع یزید بن عبد الملک من الخلافة و خرج عن طاعته- و کان یزید هذا من حبسه عمر بن عبد العزیز فی أیّام خلافته کما تقدّم ذکره- فجهّز الخلیفة یزید بن عبد الملک لحرب یزید بن المهلّب الجیوش، و وقع لجیش یزید بن عبد الملک مع یزید بن المهلّب وقائع آلت الی أن قتل یزید بن المهلّب المذکور. و فیها توفّی أبو صالح السّمّان و هو المعروف بالزیّات، و اسمه ذکوان، مولی غطفان، من الطبقة الثانیة من الموالی بالمدینة، أسند عن جماعة من الصحابة و روی عنه خلق کثیر. و فیها توفّی أمیر المؤمنین عمر بن عبد العزیز بن مروان بن الحکم

القرشىّ الأموىّ أبو حفص، ولى الخلافة بعد موت ابن عمه سليمان بن عبد الملك بعهده اليه بحيلة وضعها سليمان بن عبد الملك حتى بايعه يزيد و هشام ابنا عبد الملك و تمّ أمره. و مولده بالمدينة سنة ستين عام توفّى الخليفة معاوية بن أبى سفيان أو بعدها بسنة، و أمّه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب، فسار عمر بن عبد العزيز فى الخلافة سيرة الخلفاء الراشدين رضى اللّه عنهم من التقلّل و التقشّف و العدل فى الرعيّة و الإنصاف، الى أن توفّى يوم الجمعة لخمس بقين من شهر رجب بدير سمعان و صلّى عليه ابن عمّه يزيد بن عبد الملك بن مروان الذى تخلّف بعده؛ و مات عمر بن عبد العزيز و له تسع و ثلاثون سنة و ستة أشهر.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۴۷

قال الحافظ أبو عبد اللّه الذهبىّ: عن يوسف بن ماهك قال: بينما نحن نسوّى التراب على قبر عمر بن عبد العزيز إذ سقط علينا كتاب رقّ من السماء فيه:

بسم اللّه الرحمن الرحيم

أمان من اللّه لعمر بن عبد العزيز من النار.

قلت: و فى هذه كفاية عن ذكر شىء من مناقبه رحمه اللّه. و فيها توفّى عمر ابن عبد اللّه بن أبى ربيعة المخزومىّ الشاعر المشهور، و كنيته أبو الخطّاب؛ ولد فى الليلة التى مات فيها الخليفة عمر بن الخطاب. و كان الحسن البصرىّ يقول: أىّ حقّ رفع، و أىّ باطل وضع. و كانت العرب تقرّ لقريش بالتقدّم عليها فى كلّ شىء إلّا فى الشعر حتى أتى عمر هذا فأقرّت لها بالشعر. قال ابن خلّكان: لم يكن فى قريش أشعر منه، و هو كثير الغزل و النوادر و الوقائع و المجون و الخلاعة، و له فى ذلك حكايات مشهورة.

قلت: و تشبيبه بالنساء و حكايته مع فاطمة بنت عبد الملك بن مروان مشهورة.

و من شعره:

حىّ طيفا من الأحبّة زارا بعد ما صرّع الكرى السّمّارا

طارقا فى المنام تحت دجى اللّي ل ضنينا بأن يزور نهارا

قلت ما بالنا جفينا و كنّا قبل ذاك الأسماع و الأبصارا

قال إنّا كما عهدت و لكن «شغل الحلى أهله أن يعارا»

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۴۸

و فيها توفّى ذو الرّمّة الشاعر المشهور، و كنيته أبو الحارث، و اسمه غيلان بن عقبة، و هو من الطبقة الثانية من شعراء الإسلام.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمسة أذرع و خمسة عشر إصبعا، مبلغ الزيادة ثمانية عشر ذراعا و اثنان و عشرون إصبعا.

*** السنة الثانية من ولاية بشر بن صفوان على مصر و هى سنة اثنتين و مائة- فيها وقعة كانت بين يزيد بن المهلّب بن أبى صفرة و بين مسلمة بن عبد الملك بن مروان قتل فيها يزيد بن المهلّب المذكور و كسر جيشه و انهزم آل المهلّب، ثم ظفر بهم مسلمة فقتل فيهم و بدّع و قل من نجا منهم. و فيها غزا عمر بن هبيرة الروم من ناحية إرمينية و هو على الجزيرة قبل أن بلى العراق، فهزمهم و أسر منهم خلقا كثيرا نحو سبعمائة أسير. و فيها غزا العبّاس بن الوليد بن عبد الملك بن مروان الروم فافتتح دلسة. و فيها حجّ بالناس أمير المدينة عبد الرحمن بن الضحّاك. و فيها توفّى محمد بن مروان بن الحكم والد مروان الحمار آخر خلفاء بنى أميّة الآتى ذكره. و فيها توفى الضحاك بن مزاحم الهلالىّ، [و] هو من رهط زينب زوج رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم، و كنيته أبو القاسم، و هو من الطبقة الثالثة من تابعى أهل الكوفة. و فيها توفّى يزيد ابن [أبى] مسلم كاتب الحجّاج، و كنيته أبو العلاء، و كان على نمط الحجّاج فى الجبروت و سفك الدماء، و لما مات الحجاج أقرّه الوليد بن عبد الملك على العراق أربعة أشهر؛ فلما مات الوليد و ولى أخوه سليمان الخلافة عزله بيزيد بن المهلّب بن أبى صفرة المقدّم ذكره؛ و أمره سليمان بمسكه و إرساله اليه، فأرسله اليه فحبسه الى أن أخرجه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۴۹

يزيد بن عبد الملك و ولّاه إفريقيّة فقتل هناك فى هذه السنة. و قد حكينا ترجمته و قتله فى أوّل ترجمة بشر بن صفوان. و فيها توفّى عدىّ بن زيد بن الخمار العبادىّ التميمىّ الشاعر المشهور، و هو جاهلىّ نصرانىّ من فحول الشعراء، ذكره محمد بن سلّام فى الطبقة الرابعة من شعراء الجاهلية، و قال: و هم أربعة فحول: طرفة بن العبد و عبيد بن الأبرص و علقمة بن عبدة و عدىّ بن زيد بن الخمار. قال أبو الفرج صاحب الأغانى: الخمار بخاء معجمة مضمومة. و فى وفاته أقوال: قيل إنه مات قبل الإسلام، و قيل فى زمن الخلفاء الراشدين، و قيل غير ذلك. و من شعره:

أين أهل الديار من قوم نوح ثمّ عاد من بعدهم و ثمود

أين آباؤنا و أين بنوهم أين آباؤهم و أين الجدود

سلكوا منهج المنايا فبادوا و أرانا قد كان منّا ورود

بينما هم على الأسرّة و الأن؟؟؟ اط أفضت الى التراب الخدود

ثم لم ينقض الحديث و لكن بعد ذاك الوعيد و الموعود

و منها:

و صحيح أضحى يعود مريضا هو أدنى للموت ممّن يعود

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثلاثة أذرع و اثنان و عشرون إصبعا، مبلغ الزيادة خمسة عشر ذراعا و تسعة عشر إصبعا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱، ص: ۲۵۰

ذكر ولاية حنظلة بن صفوان الأولى على مصر

ولى حنظلة إمرة مصر باستخلاف أخيه بشر بن صفوان له لمّا ولّاه الخليفة يزيد بن عبد الملك إمرة إفريقية و كتب ليزيد بذلك، فأقرّه يزيد على إمرة مصر و ذلك فى شوّال سنة اثنتين و مائة. و حنظلة هذا من بنى كلب، و لمّا ولى مصر مهد أمورها و دام بها الى سنة ثلاث و مائة [ثم] خرج الى الإسكندرية و استخلف على مصر عقبة بن مسلم التّجيبىّ؛ ثم ورد عليه كتاب الخليفة يزيد بن عبد الملك بن مروان بكسر الأصنام و التّماثيل، فكسرت كلّها و محيت التماثيل من ديار مصر و غيرها فى أيّامه.

قال الحافظ أبو سعيد عبد الرحمن بن احمد بن يونس: حنظلة بن صفوان الكلبىّ أمير مصر لهشام بن عبد الملك، روى عنه أبو قبيل آخر ما عندنا من أخباره.

و قدومه من الغرب سنة سبع و عشرين و مائة، و كان أخرجه عبد الرحمن بن حبيب الفهرىّ.

قلت: و قوله «أمير مصر» لهشام يعنى فى ولايته الثانية على مصر. ا ه.

قال: و كان حنظلة حسن السيرة فى سلطانه. حدّثنى مسلمة بن عمرو بن حفص المرادىّ و أبو قرّة محمّد بن حميد الرّعينىّ حدّثنى النّضر بن عبد الجبّار أخبرنا ضمام بن إسماعيل عن أبى قبيل، قال: أرسل الىّ حنظلة بن صفوان فأتيته فى حديث طويل. هذا ما ذكره ابن يونس فى ترجمة حنظلة بتمامه و كماله.

قلت: و استمرّ حنظلة على عمله بمصر حتى توفّى يزيد بن عبد الملك و استقرّ أخوه هشام بن عبد الملك فى الخلافة، [ثم] صرف حنظلة هذا بأخيه محمد بن عبد الملك

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱، ص: ۲۵۱

ابن مروان، و ذلك فى شوّال سنة خمس و مائة؛ فكانت مدّته على مصر ثلاث سنين.

و تأتى بقية ترجمته فى ولايته الثانية على مصر إن شاء اللّه تعالى.

و سبب عزل حنظلة عن مصر أمور، منها: أنّ هشاما عزله و أراد أن يولّى عققان على مصر عوضه ثم ثنى عزمه عن ذلك و ولّى عققان

الصدقة و ولّى أخاه محمدا مصر. و عقفان المذكور حرورىّ [اسمه عقفان]، خرج فى أيام يزيد بن عبد الملك فى ثلاثين رجلا، فأراد يزيد أن يرسل اليه جندا يقاتلونه، فقيل له: إن قتل عقفان بهذه البلاد اتخذها الخوارج دار هجرة، و الرأى أن تبعث لكلّ رجل من أصحابه رجلا- من قومه يكلّمه فيردّه؛ ففعل يزيد ذلك؛ فقال لهم أهلوهم: إنا نخاف أن نؤخذ بكم؛ و أومنوا فرجعوا و بقى عقفان وحده، فبعث اليه يزيد أخاه فاستعطفه و ردّه. فلمّا ولى هشام الخلافة. ولّاه أمر العصاة بعد أن أراد أن يولّيه إمرة مصر، و لمّا ولى عقفان أمر العصاة و عظم أمره قدم ابنه من خراسان عاصيا، فشدّه وثاقا و بعث به الى الخليفة هشام، فأطلقه هشام لأبيه، و قال: لو خاننا عقفان لكتم أمر ابنه عنا، فاستعمله على الصدقة، فبقى عقفان على الصدقة الى أن مات هشام و ولى الخلافة مروان الجعدىّ الحمار.

*** السنة الأولى من ولاية حنظلة بن صفوان الكلبىّ على مصر و هى سنة ثلاث و مائة- فيها قتل أمير الأندلس السّمح بن مالك الخولانىّ، قتله الروم يوم التروية. و فيها أغارت الترك على اللّان. و فيها غزا العباس بن الوليد الروم

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۵۲

ففتح مدينة يقال لها رسلة. و فيها جمعت مكّة و المدينة لعبد الرحمن بن الضحّاك.

و فيها ولّى عبد الواحد بن عبد اللّه النضرىّ الطائف بعد عزل عبد العزيز بن عبد اللّه ابن خالد عنه و عن مكّة. و فيها حجّ بالناس عبد الرحمن بن الضحّاك، و كان أمير العراق فى هذه السنة عمر بن هبيرة، و على خراسان الحرشىّ. و فيها توفّى يحيى بن وثّاب الأسدىّ مولاهم قارئ الكوفة أحد القرّاء، أخذ القراءة عرضا عن علقمة و الأسود و عبيد و مسروق و غيرهم. قال الأعمش: كان يحيى بن وثاب لا يقرأ: بسم اللّه الرحمن الرحيم فى عرض و لا فى غيره. و فيها توفّى أبو الشّعثاء جابر بن زيد الأزدىّ، من الطبقة الثانية من تابعى أهل البصرة، و كان فقيها عالما يفتى أهل البصرة فى غيبة الحسن البصرىّ و فى حضوره. و فيها توفّى خالد بن معدان بن أبى كريب، أبو عبد اللّه الكلاعىّ، من الطبقة الثانية من تابعى أهل الشأم كان عابدا ورعا، و كان يكره الشهرة.

و فيها توفّى سليمان بن يسار مولى ميمونة زوج النبى صلى اللّه عليه و سلم، و قيل: إنه كان مكاتبا لها فأدّى و عتق، و وهبت ميمونة ولاءه لابن عباس، و هو من الطبقة الأولى من تابعى أهل المدينة، و كنيته أبو أيّوب، و قيل أبو محمد، و هو أحد الفقهاء السبعة، و كانوا يفضلونه على سعيد بن المسيّب. و فيها توفى أبو بردة بن أبى موسى الأشعرىّ، و اسمه عامر بن عبد اللّه بن قيس، من الطبقة الثانية من تابعى أهل الكوفة، و ولى قضاء الكوفة بعد شريح، و كان سعيد بن جبير قتيل الحجّاج كاتبه.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۵۳

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثلاثة أذرع و ثمانية عشر إصبعا، مبلغ الزيادة ثمانية عشر ذراعا و ستة أصابع.

السنة الثانية من ولاية حنظلة بن صفوان على مصر و هى سنة أربع و مائة- فيها كانت وقعة نهر أرّان، فالتقى المسلمون و الكفّار و كان أمير المسلمين الجرّاح بن عبد اللّه الحكمىّ، و على الكفار ابن الخاقان، و كانت الوقعة بقرب باب الأبواب، و نصر اللّه المسلمين و ركبوا أقفية الترك قتلا و أسرا و سبيا. و فيها عزل الخليفة يزيد ابن عبد الملك عبد الرحمن بن الضحّاك عن المدينة و مكّة و ولّى عليهما عبد الواحد النّضرىّ. و فيها توفّى أبان بن عثمان بن عفّان، و أمّه أمّ عمرو بنت جندب بن عمرو، و كنيته أبو سعيد، و هو من الطبقة الأولى من تابعى أهل المدينة، و كان فقيها، و ولى إمرة المدينة لعبد الملك بن مروان. و فيها توفى الشّعبىّ و اسمه عامر بن شراحيل أبو عمرو الشعبىّ، شعب همدان، كان علّامة أهل الكوفة فى زمانه، ولد فى خلافة عمر بن الخطاب، و روى عن علىّ يسيرا و عن المغيرة بن شعبة و عائشة و أبى هريرة و غيرهم. و قال أبو بكر بن عيّاش عن الحسن قال: ما رأيت أفقه من الشّعبىّ؛ قلت:

و لا شريح؟ قال: تريد أن تكذّبنى!.

و فيها توفى ربعىّ بن حراش بن جحش الغطفانىّ الكوفىّ، من الطبقة الثانية من تابعى أهل الكوفة، و كان لا يكذب قطّ؛ و كان له ابنان عاصيان على الحجّاج بن

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۵۴

يوسف الثقفيّ، فقيل للحجّاج: إن أباهما لا يكذب قط فسله عنهما؛ فأرسل اليه الحجّاج قال: أين ابناك؟ فقال: فى البيت، قال الحجّاج: قد عفونا عنهما بصدقك.

و فيها توفّى أبو قلابة الجرميّ و اسمه عبد اللّه بن زيد، من الطبقة الثانية من تابعى أهل البصرة، و كان فقيها عابدا طلب الى القضاء فهرب الى الشأم و أقام به. و فيها حجّ بالناس عبد الواحد بن عبد اللّه النّضرىّ عامل الطائف، و كان عامل العراق كلّه فى هذه السنة عمر بن هبيرة مضافا للمشرق كلّه، و كان على قضاء الكوفة حسين بن حسن الكندىّ، و على قضاء البصرة أبو قلابة الجرمى.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربعة أذرع سواء، مبلغ الزيادة خمسة عشر ذراعا و أحد عشر إصبعا.

*** السنة الثالثة من ولاية حنظلة بن صفوان على مصر و هى سنة خمس و مائة- فيها أيضا زحف الخاقان ملك الترك و خرج من الباب فى جمع عظيم من الترك و قصد إرمينية، فسار اليه الجرّاح الحكمىّ فاقتتلوا أياما ثم كانت الهزيمة على الكفّار، و كان ذلك فى شهر رمضان. و فيها غزا سعيد بن عبد الملك بن مروان بلاد الروم فقتل و سبى. و فيها غزا الجرّاح الحكمى اللّان حتى جاز ذلك الى مدائن و حصون و أصاب غنائم كثيرة. و فيها غزا مروان بن محمد الصائفة اليمنى ففتتح قونية من أرض الروم و كماخ. و فيها حجّ بالناس ابراهيم بن هشام خال هشام بن عبد الملك، فأرسل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۵۵

الى عطاء متى أخطب؟ قال: بعد الظهر قبل التروية بيوم، فخطب قبل الظهر و قال: أخبرنى رسولى عن عطاء؛ فقال عطاء: ما أمرته إلا بعد الظهر، فاستحيا إبراهيم. و فيها توفّى الخليفة يزيد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم أمير المؤمنين، أبو خالد القرشىّ الأموىّ الدمشقىّ. ولى الخلافة بعد ابن عمه عمر بن عبد العزيز بن مروان بعهد من أخيه سليمان معقود فى تولية عمر بن عبد العزيز؛ و لهذا قلنا فى ترجمة عمر ابن عبد العزيز: «بحيلة من سليمان»، فإنّ سليمان كان عهد لعمر بن عبد العزيز بالخلافة فخاف من إخوته و من الناس، فأخفى ذلك و بايع الناس لما هو مكتتب، فقالوا:

نبايع على أن يكون فيه ولد عبد الملك، فبايعوا فإذا فيه عمر بن عبد العزيز، ثم من بعده ليزيد و هشام، فتمت البيعة؛ و أمّ يزيد هذا عاتكة بنت يزيد بن معاوية، و مولده سنة إحدى و سبعين أو اثنتين و سبعين. و دام فى الخلافة إلى أن مات فى الخامس و العشرين من شعبان بسواد الأردنّ. و كانت خلافته أربع سنين و شهرا، و تولى الخلافة بعده أخوه هشام بن عبد الملك.

و كان سبب موته أنه كان يحبّ جارية من جواريه يقال لها حبابة، و كانت مغنية، و كان يزيد صاحب لهو و طرب، فلمّا ولى يزيد الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز أقام يسير بسيرة عمر أربعين يوما و ترك اللهو و الشرب، فقالت حبابة المذكورة لخصىّ ليزيد، و هو صاحب أمره: ويحك! قرّبنى منه حيث يسمع كلامى و لك عشرة آلاف درهم، ففعل، فلما مرّ بها يزيد أنشدت:

بكيت الصّبا جهدى فمن شاء لامنى و من شاء آسى فى البكاء و أسعدا

و أبياتا أخر بالألحان، و الشعر للأحوص، فلمّا سمعها يزيد قال: ويحك يا خصىّ! قل لصاحب الشّرطة يصلى بالناس، و دخل إليها و عاد إلى انهماكه و لذّاته. فلما كان بعض الليالى شرقت حبابة فماتت، فحزن عليها يزيد حزنا عظما،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۵۶

و خلّاها يزيد ثلاثة أيام لم يدفنها و هو ينظر إليها، ثم دفنها خمسة أيام فلم يطق ذلك، فنبشها و أخرجها من القبر و جعل يقلّبها و يبكى؛ فقوى عليه الحزن حتى قتله بعد سبعة عشر يوما. و فيها توفّى كثيّر عزّة، و اسمه كثيّر بن عبد الرحمن بن الأسود، و هو من الطبقة الثانية من شعراء المدينة، و كان شيعيّا، قال ابن ماكولا: كان يتقلّب فى المذاهب.

قلت: و لو لا تقلّبه فى المذاهب ما قرّبه بنو أميّة فإنهم كانوا يكرهون الشيعة.

قلت: و هو أحد العشّاق و صاحب عزّة. قيل: إنّ عزة دخلت على أمّ البنين أخت عمر بن عبد العزيز و زوجة الخليفة الوليد بن عبد الملك بن مروان، فقالت لها أمّ البنين: ما معنى قول كثيّر:

قضى كلّ ذى دين فوفّى غريمه و عزّة ممطول معنّى غريمها

ما كان هذا الدين؟ قالت: وعدته بقبلة ثم رجعت عنها، فقالت: أ نجزيها و علىّ إثمها، فأنجزته، فأعتقت أمّ البنين أربعين عبدا عند الكعبة، و قالت: اللهم إنى أبرأ إليك مما قلته لعزّة. و فيها توفّى سالم بن عبد اللّه بن عمر بن الخطاب، و كنيته أبو عمير، و قيل أبو عبد اللّه، من الطبقة الثانية من تابعى أهل المدينة و أمّه أمّ ولد، و كان من خيار قريش و فقهائهم و زهّادهم. و فيها توفّى محمد بن شعيب بن شابور- بالمعجمة- القرشىّ، و كان جدّه مولى الوليد بن عبد الملك بن مروان.

و محمد هذا من الطبقة الخامسة، و قيل السادسة من تابعى أهل الشأم، و كان أحد الأئمة، و ذكره يحيى بن معين بالإرجاء. قاله صاحب المرآة. و الصحيح أنّ مولده سنة ست عشرة و مائة، و توفّى سنة مائتين، و قيل: سنة ثمان و تسعين و مائة، و قيل غير ذلك.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۵۷

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثلاثة أذرع و عشرون إصبعا، مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا و سبعة عشر إصبعا.

ذكر ولاية محمد بن عبد الملك على مصر

هو محمد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أميّة بن عبد شمس القرشىّ الأموىّ أمير مصر. وليها بعد عزل حنظلة بن صفوان من قبل أخيه الخليفة هشام بن عبد الملك على الصلاة، و دخل إليها يوم الأحد لإحدى عشرة ليلة خلت من شوّال من سنة خمس و مائة المقدّم ذكرها. و محمد هذا هو أخو سعيد ابن عبد الملك لأبويه، و هو من الطبقة الرابعة من تابعى أهل دمشق، و كان ناسكا كثير العبادة حسن السيرة جوادا، كان يكره من أخيه هشام و غيره حتى يلى الأعمال، و لما ولى مصر جعل على شرطته حفص بن الوليد الحضرمىّ. و حدّث عن رجل عن أبى هريرة و سمع من المغيرة بن شعبة.

و قال أبو حاتم: روى عمّن سمع معاوية و عن المغيرة مرسلا، و روى عنه الأوزاعىّ و غيره، و كان ثقة مأمونا. و حين وصوله إلى مصر وقع بها و باء ففرّ منها محمد إلى الصعيد فلم تطل مدّته بالصعيد و عاد بعد أيام إلى مصر؛ ثم خرج منها بسرعة إلى الأردنّ و استعفى فأعفى، و صرف عن إمرة مصر بالحرّ بن يوسف، فكانت ولايته شهرا واحدا؛ و سكن الأردنّ، و دام فى دولة أخيه هشام على ذلك الى أن حجّ بالناس فى سنة ثلاثين و مائة، و عاد من الحجّ فوجد الفتن قائمة بالشأم من جهة بنى العباس، فاستمرّ عند ابن عمه مروان بن محمد بن مروان المعروف بالحمار إلى أن

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۵۸

هزم مروان المذكور فى وقعة العراق من أبى مسلم الخراسانىّ، و قبض على محمد هذا و على أخيه مع مروان الحمار، فقتلهما عبد اللّه بن علىّ بن عبد اللّه بن عبّاس؛ قتلهما بنهر أبى فطرس، و قيل: إنّه صاحب الواقعة مع عبد اللّه بن علىّ العباسىّ يوم هزم مروان عند نهر الزّاب، و هو أنّه لما كانت الهزيمة على بنى أميّة رأى عبد اللّه بن علىّ فتى عليه أبّهة الشرف يقاتل مستقتلا، فناداه عبد اللّه: يا فتى، لك الأمان و لو كنت مروان بن محمد، فقال الفتى: إن لم أكنه فلست بدونه؛ قال: فلك الأمان و لو كنت من كنت، فأطرق مليّا ثم رفع رأسه فقال:

أذل الحياة و كره الممات و كلّا أراه طعاما و بيلا

فإن لم يكن غير إحداهما فسيرا الى الموت سيرا جميلا

ثم قاتل حتى قتل، فإذا هو محمد بن عبد الملك، و قيل: ابن لمسلمة بن عبد الملك ابن مروان بن الحكم، عفا اللّه عنه.

ذكر ولاية الحرّ بن يوسف على مصر

هو الحرّ بن يوسف بن يحيى بن الحكم بن أبى العاص بن أميّة بن عبد شمس القرشىّ الأموىّ أمير مصر (و الحرّ بضم الحاء المهملة و

تشديد الراء المهملة). وليها بعد عزل محمد بن عبد الملك من قبل هشام بن عبد الملك على الصلاة؛ و كان المتولّى على خراج مصر فى هذه السنين كلّها عبيد اللّه بن الحبحاب، فدخل الحرّ بن يوسف هذا الى مصر لثلاث خلون من ذى الحجة سنة خمس و مائة و باشر أمورها، و أقرّ

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۵۹

حفص بن الوليد على شرطة مصر على عادته. و فى أيامه تناقض القبط بمصر فى سنة سبع و مائة و وقع له معهم أمور طويلة، ثم خرج من مصر مرابطا الى دمياط، فأقام بها ثلاثة أشهر مغازيا؛ ثم عاد الى مصر و أقام بها أياما، ثم خرج منها و وفد على الخليفة هشام بن عبد الملك بالشأم، و استخلف حفص بن الوليد على الصلاة بمصر. فأقام عند الخليفة مدّة يسيرة و عاد الى مصر فى ذى القعدة من سنة سبع و مائة و قد انكشف أراضيها من النيل، فأخذ فى إصلاح أحوالها و تدبير أمورها.

و دام بها الى ذى القعدة من سنة ثمان و مائة، و صرف عنها فى ذى القعدة باستعفائه لمغاضبة وقعت بينه و بين عبيد اللّه بن الحبحاب متولى خراج مصر. فكانت ولاية الحرّ هذا على مصر ثلاث سنين سواء. و تولى من بعده على مصر حفص بن الوليد الذى كان استخلفه الحرّ هذا على الصلاة لمّا وفد على الخليفة هشام.

و لما عزل الحرّ عن إمرة مصر ولّاه هشام الموصل، و هو الذى بنى المنقوشة دارا ليسكنها، و إنما سمّيت المنقوشة لأنها كانت منقوشة بالساج و الرخام و الفصوص الملوّنة و ما شاكلها. و هو الذى عمل النهر الذى كان بالموصل. و سبب ذلك أنه رأى امرأة تحمل جرّة فيها ماء، و هى تحملها ساعة ثم تستريح قليلا لبعد [الماء]، فلما رأى الحرّ ذلك كتب الى هشام بذلك فأمره أن يحفر نهرا الى البلد، فحفره؛ فكان أكثر شرب أهل البلد منه؛ و عليه كان الشارع المعروف بشارع النهر، و بقى العمل فيه عدّة سنين. و مات الحرّ هذا فى سنة ثلاث عشرة و مائة، و كان أجلّ أمراء بنى أمية شجاعة و كرما و سؤددا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۶۰

*** السنة الأولى من ولاية الحرّ بن يوسف الأمويّ على مصر، و هى سنة ست و مائة- فيها عزل الخليفة هشام متولّى العراق عمر بن هبيرة الفزارىّ بخالد ابن عبد اللّه القسرىّ، فدخل خالد بغتة و بها ابن هبيرة يتهيأ لصلاة الجمعة و يسرّح لحيته، فقال عمر بن هبيرة: هكذا تقوم الساعة بغتة. فقيّده خالد القسرىّ و ألبسه مدرعة من صوف و حبسه؛ ثم إن غلمان ابن هبيرة اكتروا دارا الى جانب السجن فنقبوا سردابا الى السجن و أخرجوه منه، فهرب الى الشأم و استجار بالأمير مسلمة ابن عبد الملك بن مروان فأجاره، و كلّم أخاه هشاما فى أمره فعفا عنه، فلم تطل أيام عمر بن هبيرة و مات بعد مدّة يسيرة. و فيها غزا مسلمة بن سعيد بن أسلم فرغانة فلقيه ابن خاقان ملك الترك فى جمع كبير، فكانت بينهم وقعة قتل فيها ابن خاقان فى طائفة كبيرة من الترك. و فيها حجّ بالناس الخليفة هشام بن عبد الملك. و فيها استعمل خالد القسرىّ أخاه أسد بن عبد اللّه على إقليم خراسان نيابة عنه. و فيها توفى طاوس بن كيسان أبو عبد الرحمن اليمانىّ الجندىّ أحد الأعلام، كان من أبناء الفرس الذين سيّرهم كسرى الى اليمن، و هو من فقهاء التابعين. قال سفيان الثّورىّ عن رجل قال: كان من دعاء طاوس: اللهم اخرمنى المال و الولد و ارزقنى الإيمان و العمل. و فيها توفّى أبو مجلز لاحق بن حميد فى قول الذهبىّ. و فيها حجّ بالناس الخليفة هشام بن عبد الملك فلقيه ابراهيم بن محمد بن طلحة فى الحجر فقال له:

أسألك باللّه و بحرمة هذا البيت الذى خرجت معظّما له إلّا رددت علىّ ظلامتى، قال هشام: أىّ ظلامة؟ قال: دارى؛ قال: فاين كنت من أمير المؤمنين عبد الملك؟

قال: ظلمنى، قال: فالوليد و سليمان؟ قال: ظلمانى، قال: فعمر؟ قال: [رحمه اللّه] ردّها علىّ، قال: فيزيد بن عبد الملك؛ قال: ظلمنى و قبضها منى بعد قبضى لها فهى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۶۱

فى يدك؛ فقال هشام: لو كان فيك ضرب لضربتك! فقال: فىّ و اللّه ضرب بالسيف و السوط، فانصرف هشام [و الأبرش خلفه فقال:

أبا مجاشع]، كيف سمعت هذا اللسان؟ قال: ما أجوده! قال: هى قريش و ألسنتها. و لا يزال فى الناس بقايا! ما رأيت مثل هذا!.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربعة أذرع و عشرة أصابع، مبلغ الزيادة ثمانية عشر ذراعا و أربعة أصابع.

*** السنة الثانية من ولاية الحرّ بن يوسف على مصر و هى سنة سبع و مائة- فيها عزل الجرّاح الحكمىّ عن إمرة أذربيجان بالأمير مسلمة بن عبد الملك بن مروان، فغزا مسلمة قيساريّة الروم و افتتحها بالسيف. و فيها غزا أسد بن عبد اللّه القسرىّ متولّى خراسان بلاد سجستان، فانكسر المسلمون و استشهد طائفة و رجع الجيش مجهودين. و فيها كان بالشأم طاعون شديد فخاف الناس كثيرا. و فيها غزا أسد بن عبد اللّه القسرىّ جبال الطالقان و الغور، و كان أهلها خرجوا بأموالهم و أهلهم الى كهف عظيم فى جبل [شاهق] شامخ ليس فيه طريق مسلوك، فعمل أسد توابيت و ربطها بالسلاسل و دلّاها عليهم، فظفر بهم و عاد سالما غانما، فنزل بلخ و بنى مدينتها و ولّاها برمك أبا خالد البرمكىّ و نقل اليها الجند و الأمراء. و فيها غزا مسلمة بن عبد الملك الروم مما يلى الجزيرة ففتح قيساريّة و هى مدينة مشهورة. و فيها غزا معاوية بن هشام الخليفة و معه أهل الشأم و صحبته ميمون بن مهران فقطعوا البحر الى قبرس. و فيها حجّ بالناس إبراهيم بن هشام و هو على المدينة و مكة و الطائف. و فيها توفّى موسى بن محمد

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۶۲

ابن على بن عبد اللّه بن عباس ببلاد الروم غازيا، و كان عمره سبعا و عشرين سنة، قاله ابن الأثير؛ و الأصحّ أنه مات فى القابلة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربعة أذرع سواء، مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا و إصبعان.

*** السنة الثالثة من ولاية الحرّ بن يوسف على مصر و هى سنة ثمان و مائة- فى ذى الحجة منها حكم بمصر حفص بن الوليد. و فيها غزا ولد الحليفة معاوية بن هشام أرض الروم و جهّز بين يديه الأبطال الى حنجر فافتتحها. و فيها غزا أخو الخليفة مسلمة بن عبد الملك بلاد الروم فافتتح قيساريّة. و فيها وقع حريق عظيم بدابق، احترقت المواشى و الدوابّ و الرجال. و فيها حجّ بالناس إبراهيم بن هشام المخزومىّ.

و فيها توفّى موسى بن محمد بن على بن عبد اللّه بن عباس أبو عيسى الهاشمىّ و هو أخو السفّاح و المنصور لأبيهما و أخو إبراهيم لأمه و أبيه، مات فى حياة أبيه محمد غازيا فى بلاد الروم و له ثمان عشرة سنة. و فيها توفّى نصيب بن رباح أبو محجن الشاعر المشهور مولى عبد العزيز بن مروان، و أمّه نوبيّة فجاءت به أسود فباعه عمّه و كان من العرب من بنى الحاف بن قضاعة، و قيل: إنه هرب فدخل على عبد العزيز و مدحه، فقال: ما حاجتك؟ فقال: أنا عبد، فقال عبد العزيز للمقوّمين: قوّموه، فقالوا: عبد أسود ليس له قيمة، قيمته مائة دينار، قال أبو محجن عن نفسه:

إنه راعى إبل يحسن القيام عليها، قالوا: مائتا دينار، قال: إنه يبرى النّبل و يريشها، قالوا: ثلثمائة دينار، قال: إنه يرمى و يصيب، قالوا: أربعمائة دينار،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۶۳

قال: إنه راوية الأشعار، قالوا: خمسمائة دينار، قال: أصلح اللّه الأمير، أين جائزتى؟ فأعطاه ألف دينار، فاشترى أمّه و أهله و أعتقهم. و ذكره محمد بن سلّام فى الطبقة الثانيه من شعراء الاسلام. و فيها توفّى عطاء بن يسار أبو محمد المدنىّ الفقيه، مولى ميمونة أمّ المؤمنين؛ و عطاء أخو سليمان و عبد اللّه و عبد الملك، و كان قاصّا واعظا ثقة جليل القدر، و قال الذهبى: إنه مات فى الماضية. و فيها حج بالناس إبراهيم بن هشام المقدّم ذكره. و فيها توفّى عكرمة البربرىّ ثم المدنىّ أبو عبد اللّه مولى ابن عباس أحد العلماء الربّانيين، روى عن ابن عباس و عائشة و علىّ بن أبى طالب و غيرهم؛ قال الهيثم بن عدىّ و غيره: مات سنة ست و مائة.

و قال أبو نعيم و أبو بكر بن أبى شيبة و جماعة: سنة سبع و مائة؛ و قال يحيى بن معين و المدائنىّ: سنة خمس عشرة و مائة، و قال غيرهم: فى هذه السنة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربعة أذرع سواء، مبلغ الزيادة خمسة عشر ذراعا و أربعة أصابع.

ذكر ولاية حفص بن الوليد الأولى على مصر

هو حفص بن الوليـد بن سـيف بن عبـد اللّه بن الحارث بن جبل بن كليب ابن عوف بن معاهر بن عمرو بن زيـد بن مالك بن زيد بن الحارث بن عمرو بن حجر ابن قيس بن كعب بن سـهل بن زيد بن حضـرموت، الأمير أبو بكر الحضـرمىّ القارئ أمير مصـر، وليها بعد عزل الحرّ بن يوسف من قبـل هشـام بن عبـد الملـك على الصـلاة مكرهـا على ذلك. و كان حفص وجيها عنـد بنى أميّـة و من أكابر أمرائهم، و كان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱، ص: ۲۶۴

فاضـلا ثقة، روى عن الزهرىّ و غيره، و روى عنه الليث بن سـعد و جماعة أخر، و لم تطل مدّته على ولاية مصـر فى هذه المرّة و عزل بعد جمعتين يوم عيد الأضحى و قيل آخر ذى الحجة سنة ثمان و مائة.

قلت: و على القولين لم تطـل ولاـيته بـل و لا وصـلت الى أربعين يوما، و كان سـبب عزله عن إمرة مصـر بسـرعة شـكوى عبيـد اللّه بن الحبحاب صاحب خراج مصـر عليه للخليفـة هشام بن عبد الملك، و شـكوى جماعة أخر من أوباش المصـريين، فعزله هشام عن مصـر بعبـد الملـك بن رفاعـة، ثم نـدم أهل مصـر على عزله و طلبوا منه إعادته عليهم، يأتى ذكر ذلك كله فى ولايته الثانيـة على مصـر فإنه وليها بعـد ذلك ثانيا و ثالثا حتى قتله الحوثرة فى سـنة ثمان و عشـرين و مائـة. و كان حفص شـريفا مطاعا محبّبا للناس ولـديه معرفة و فضـيلة، و اسـتقدمه هشام بعـد عزله عن مصـر و أراد أن يولّيه خراسان عوضا عن أسد بن عبد اللّه القسـرىّ، فامتنع حفص من ذلك. و كان سبب عزل أسد عن خراسان أنه خطبهم يوما فقال: قبّح اللّه هذه الوجوه وجوه أهل الشّقاق و النّفاق و الشّغب و الفساد، اللهم فرّق بينى و بينهم و أخرجنى الى مهاجرى و وطنى؛ فبلغ قوله هشاما، فكتب الى خالد بن عبد اللّه القسرىّ: اعزل أخاك، فعزله. و أراد هشام أن يولّى حفصـا فامتنع، فولّى خراسان الحكم بن عوانـة الكلبىّ، ثم عزله هشام و اسـتعمل عليها أشـرس بن عبـد اللّه و أمره أن يكاتب خالدا، و كان الأشرس فاضلا خيرا، كان يسمّونه الكامل لفضله، فلما قدم خراسان فرحوا.

و قد خرجنا عن المقصود استطرادا.

ذكر ولاية عبد الملك بن رفاعة الثانية على مصر

قلت: تقدّم التعريف بعبد الملك هذا فى أوّل ولايته على مصر بعد موت قرّة ابن شريك سنة ست و تسعين. و كانت ولاية عبد الملك أيضا على الصلاة لا غير،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱، ص: ۲۶۵

و الخراج عليه عبيـد اللّه بن الحبحاب على عادته، فقـدم عبـد الملك المذكور من الشأم الى مصـر عليلا فى أوّل المحرّم، و قيل: اثنتى عشـرة ليلـة خلت من المحرّم سـنة تسع و مائـة [و الأول أصح] و كان أخوه الوليد بن رفاعة يخلفه على الصـلاة بمصـر من أوّل المحرّم السـنة المذكورة (أعنى من أوّل يوم ولايته)، فلما دخل عبد الملك الى مصـر لم يطق الصـلاة بالناس لشدّة مرضه، فاستمرّ أخوه الوليد بن رفاعـة يصـلّى بالناس و عبـد الملك ملازم الفراش الى أن توفّى نصف المحرّم من السـنة المذكورة، فكانت ولايته هذه الثانية على مصر خمس عشرة ليلة على أنه دخل مصر فى أوّل المحرّم؛ و تولّى مصر بعده أخوه الوليد بن رفاعة.

ذكر ولاية الوليد بن رفاعة على مصر

هو الوليـد بن رفاعـة بن خالـد بن ثابت [بن ظاعن] الفهمىّ المصـرىّ أمير مصـر، وليها باسـتخلاف أخيه عبـد الملك اليه فأقرّه الخليفة هشام بن عبد الملك على إمرة مصر و على الصلاة. و جعل الوليد هذا على شرطة مصر عبد اللّه بن [أبى] سمير الفهمىّ ثم عزله و ولّى

خالد بن عبد الرحمن الفهمىّ؛ و استمرّ على إمرة مصر و طالت أيامه و وقع له بها أمور و وقعت فى أيامه حوادث. و فى أيامه نقلت قيس الى مصر و لم يكن بها أحد منهم قبل ذلك. و فى أيامه أيضا خرج وهيب اليحصبىّ من مصر فى سنة سبع عشرة و مائة من أجل أنّ الوليد هذا أذن للنصارى فى عمارة كنيسة يوحنا بالحمراء، فلم يكن بعد أيام قليلة إلا و مرض الوليد و لزم الفراش حتى مات فى يوم الثلاثاء فى مستهلّ جمادى الآخرة سنة سبع عشرة و مائة، و استخلف عبد الرحمن بن خالد على الصلاة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۶۶

بمصر، و كانت إمرته على مصر تسع سنين و خمسة أشهر، و ولى مصر بعده عبد الرحمن ابن خالد المذكور. و لم تطل مدّة الوليد هذا على مصر إلا لخروج عبيد اللّه بن الحبحاب المتولى على خراج مصر منها، و قد تقدّم عزل جماعة كبيرة من العمال بمصر بسبب عبيد اللّه المذكور، فدبّر عليه الوليد هذا حتى أخرجه هشام من مصر و استعمله على إفريقية، فسار اليها عبيد اللّه بن الحبحاب و اشتغل بها عن خراج مصر، فإنه فى أوّل خروجه سيّر جيشا الى صقلّيّة، فلقيهم مراكب الروم فاقتتلوا قتالا شديدا و انهزم الروم، و كانوا قد أسروا جماعة من المسلمين فيهم عبد اللّه بن زياد فبقى أسيرا الى سنة إحدى و عشرين و مائة، ثم استعمل عبيد اللّه بن الحبحاب عقبة بن الحجّاج العبسىّ على الأندلس فسار اليها و ملكها، ثم سيّر عبيد اللّه جيشا إلى السّوس و أرض السودان فغنموا و ظفروا و عادوا. و لما خرج عبيد اللّه بن الحبحاب من مصر جمع له الخليفة خراج مصر و صلاتها و عظم أمره و مهّد البلاد و ساس الناس و مالت إليه الرعية، ثم عزل عن الخراج أيضا و استقلّ بصلاة مصر على عادته أوّلا إلى أن مات فى التاريخ المقدّم ذكره.

*** السنة التى حكم فى محرّمها عبد الملك بن رفاعة على مصر ثم فى باقيها الوليد بن رفاعة و هى سنة تسع و مائة- فيها غزا أسد بن عبد اللّه القسرىّ الترك فهزم خاقان و افتتح قزوين. و فيها غزا معاوية ابن الخليفة أمير المؤمنين هشام بن

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۶۷

عبد الملك الروم و فتح حصنا يقال له: الطينة. و فيها توفّى لاحق بن حميد بن سعيد السّدوسىّ البصرىّ فى قول الفلّاس و هو أبو مجلز المقدّم ذكره، و هو من الطبقة الثانية، و كان بمرو لما قتل قتيبة بن مسلم، فولّاه أهل مرو أمرهم حتى قدم وكيع ابن أبى سود، و كان لاحق هذا يركب مع قتيبة فى موكبه فيسبّح اللّه اثنتى عشرة ألف تسبيحة يعدّها على أصابعه لا يعلم به أحد. و فيها حجّ بالناس إبراهيم بن هشام و هو عامل مكة و المدينة و الطائف، و خطب الناس و قال: سلونى فإنكم لا تسألون أحدا أعلم منى؛ فسأله رجل من أهل العراق [عن] الأضحيّة [أ] واجبة هى؟ فما درى و لا أجاب و نزل و لم يتكلّم.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربعة أذرع و خمسة عشر إصبعا مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا و خمسة أصابع.

*** السنة الثانية من ولاية الوليد بن رفاعة على مصر و هى سنة عشر و مائة- فيها غزا مسلمة بن عبد الملك بلاد الخزر، و تسمّى هذه الغزوة غزوة الطّين، و التقى مسلمة مع ملك الخزر و اقتتلوا أياما و كانت ملحمة عظيمة هزم اللّه فيها الكفّار فى سابع جمادى الآخرة. و فيها افتتح معاوية ابن الخليفة هشام بن عبد الملك حصنين كبيرين من أرض الروم. و فيها توفّى الحسن بن أبى الحسن يسار أبو سعيد المعروف بالحسن البصرىّ، كنيته أبو سعيد مولى زيد بن ثابت، و يقال: مولى حميد بن قحطبة.

و كان الحسن إمام أهل البصرة، و هو من الطبقة الثانية من تابعى أهل البصرة؛ قال

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۶۸

الذهبىّ: بل كان إمام أهل العصر، ولد بالمدينة سنة إحدى و عشرين فى خلافة عمر، و كانت أمّه مولاة لأم سلمة أمّ المؤمنين، فكانت تذهب أمّه لأمّ سلمة فى الحاجة فتشاغله أمّ سلمة بثديها فربما درّ عليه. قال: و قد سمع من عثمان و هو يخطب و شهد يوم الدّار، و رأى طلحة و عليّا، و روى عن عمران بن حصين و المغيرة بن شعبة و عبد الرحمن بن سمرة و أبى بكرة و النّعمان بن بشير و خلق كثير من الصحابة و غيرهم؛ و مناقب الحسن كثيرة و محاسنه غزيرة و علومه مشهورة. و فيها توفى محمد بن سيرين أبو بكر الأنصارىّ البصرىّ الإمام الربّانىّ، من الطبقة الثانية من تابعى أهل البصرة، مولى أنس بن مالك، و هو صاحب التعبير، و كان أبوه سيرين من سبى

جرجرايا فكاتب أنسا على مال جزيل فوفّاه له؛ و مولده لسنتين بقيتا من خلافة عمر رضى اللّه عنه. و فيها جمع خالد القسرىّ الصلاة و الأحداث و الشّرطة و القضاء بالبصرة لبلال ابن أبى بردة و عزل ثمامة عن القضاء. و فيها حجّ بالناس إبراهيم بن هشام. و فيها توفّى الفرزدق مقدّم شعراء عصره، و كنيته أبو فراس، و اسمه همّام بن غالب بن صعصعة ابن ناجية التّميمىّ البصرىّ، روى عن علىّ بن أبى طالب و غيره، و كان يرسل، و روى عن أبى هريرة و عن جماعة، و كان يقال: الفرزدق أشعر الناس عامّة و جرير أشعر الناس خاصّة.

قال محمد بن سلّام: أتى الفرزدق إلى الحسن البصرىّ فقال: إنى قد هجوت إبليس فاسمع، قال: لا حاجة لنا بما تقول، قال: لتسمعنّ أو لأخرجنّ فلأقولنّ للناس إنّ الحسن ينهى عن هجاء إبليس، قال: فاسكت فإنک عن لسانه تنطق.

و للفرزدق هذا مع زوجته النّوار حكايات ظريفة. و من شعره:

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۶۹

إنّ المهالبة الكرام تحملوا دفع المكاره عن ذوى المكروه

زانوا قديمهم بحسن حديثهم و كريم أخلاق بحسن وجوه

و فيها توفى جرير [بن] الخطفى، و هو جرير بن عطيّة بن حذيفة بن بدر بن سلمة أبو حزرة التميمىّ البصرىّ الشاعر المشهور، هو من الطبقة الأولى من شعراء الإسلام، مدح يزيد بن معاوية و من بعده من الأمويّين.

قال محمد بن سلّام: ذاكرت مروان بن أبى حفصة فقال:

ذهب الفرزدق بالفخار و إنما حلو القريض و مرّه لجرير

و عن هشام بن الكلبىّ عن أبيه: أنّ أعرابيا مدح عبد الملک بن مروان فأحسن فقال له عبد الملک: [هل] تعرف أهجى بيت فى الإسلام؟ قال: نعم، قول جرير:

فغضّ الطرف إنک من نمير فلا كعبا بلغت و لا كلابا

قال: أصبت، فهل تعرف أرقّ بيت قيل فى الإسلام؟ قال: نعم، قول جرير:

إن العيون التى فى طرفها مرض قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

يصرعن ذا اللّبّ حتى لا حراک به و هنّ أضعف خلق اللّه إنسانا

قال: أحسنت؛ فهل تعرف جريرا؟ قال: لا- و اللّه؟ و إنى إلى رؤيته لمشتاق، قال: فهذا جرير و هذا الأخطل و هذا الفرزدق، فأنشأ الأعرابىّ يقول:

فحيّا الإله أبا حزرة و أرغم أنفک يا أخطل

وجدّ الفرزدق أتعس به ودقّ خياشيمه الجندل

فأنشأ الفرزدق يقول:

بل أرغم اللّه أنفا أنت حامله ياذا الخنا و مقال الزّور و الخطل

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۷۰

ما أنت بالحكم الترضى حكومته و لا الأصيل و لا ذى الرأى و الجدل

فغضب جرير و قال أبياتا، ثم وثب و قبّل رأس الأعرابىّ و قال: يا أمير المؤمنين جائزتى له، و كانت كلّ سنة خمسة عشر ألفا، فقال له عبد الملک: و له مثلها منّى.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربعة أذرع و خمسة عشر إصبعا، مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا و ستة عشر إصبعا.

*** السنة الثالثة من ولاية الوليد بن رفاعة على مصر و هى سنة إحدى عشرة و مائة- فيها عزل الخليفة هشام بن عبد الملک أشرس بن عبد اللّه السّلمىّ عن خراسان و ولاها الجنيد بن عبد الرحمن المرّىّ، و سبب عزل أشرس لما فعله بالمدينة و كيف انتقضت عليه

السّغد، و تخلّف أهل بخارا و استجاشوا عليه بخاقان ملك الترك، و فتح على المسلمين بابا واسعا ذهبت فيه الأموال و ضعفت العساكر من سوء تدبيره.

و فيها غزا معاوية ابن الخليفة هشام الصائفة و وغل فى بلاد الروم، و غزا أيضا أخوه سعيد بن هشام فوصل الى قيساريّة. و فيها ولّى هشام الجرّاح بن عبد اللّه الحكمىّ على إرمينيّة. و فيها حجّ بالناس إبراهيم بن هشام. و فيها توفّى يزيد بن عبد اللّه بن الشّخّير أبو العلاء من الطبقة الثانية من تابعى أهل البصرة، و كان من كلامه يقول: لأن أعافى فأشكر، أحبّ إلىّ من أن أبتلى فأصبر. و فيها غزا فى البحر عبد اللّه بن أبى مريم. و فيها سارت الترك الى أذربيجان فلقيهم الحارث بن عمرو فهزمهم بعد قتال كثير و استباح عسكرهم. و فيها عزل عبيدة بن عبد الرحمن عامل إفريقيّة عثمان ابن أبى نسعة عن الأندلس و استعمل عليها الهيثم بن عبد اللّه الكنانى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۷۱

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمسة أذرع سواء، مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا و ستة عشر إصبعا.

*** السنة الرابعة من ولاية الوليد بن رفاعة على مصر و هى سنة اثنتا عشرة و مائة- فيها زحف الجرّاح بن عبد اللّه الحكمىّ بالمسلمين من برذعة إلى ابن خاقان ليدفعه عن أردبيل، فالتقى الجمعان و عظم القتال و اشتدّ البلاء و انكسر المسلمون و قتل منهم خلق، منهم أمير الجيش الجرّاح بن عبد اللّه الحكمىّ المذكور، و كان أحد الأبطال، و غلبت الخزر على أذربيجان و حصل وهن عظيم على الإسلام. و فيها توفّى رجاء بن حيوة أبو المقدام الكندىّ الأزدىّ، كان ثقة فاضلا كثير الحديث و كان سيّد أهل زمانه؛ قال ابن عون: ثلاثة لم أر مثلهم كأنهم التقوا فتواصوا: ابن سيرين بالعراق، و القاسم بن محمد بالحجاز، و رجاء بن حيوة بالشأم. و كان رجاء عظيما عند بنى أميّة لا سيما عند عمر بن عبد العزيز، كان إذا قدّمت لعمر بن عبد العزيز حلل يعزل منها حلّة و يقول: هذه لخليلى رجاء بن حيوة. و فيها توفّى شهر بن حوشب أبو عبد اللّه الأشعرىّ و قيل أبو الجعد، من الطبقة الثانية من تابعى أهل الشأم، قرأ القرآن على عبد اللّه بن عباس سبع مرّات. و فيها توفّى طلحة بن مصرّف بن عمرو أبو عبد اللّه و قيل أبو محمد، الكوفىّ الهمدانىّ، من الطبقة الثالثة من تابعى أهل الكوفة، كان قارئ أهل الكوفة يقرءون عليه، فلما كثروا عليه كأنه كره ذلك، فمشى الى الأعمش و قرأ عليه، فمال الناس الى الأعمش و تركوه. و فيها غزا معاوية بن هشام الصائفة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۷۲

فافتتح مدينة خرشنة. و فيها حجّ بالناس إبراهيم بن هشام المخزومىّ، و قيل: سليمان بن هشام بن عبد الملك، أعنى ابن الخليفة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربعة أذرع سواء، مبلغ الزيادة سنة عشر ذراعا و أربعة عشر إصبعا.

*** السنة الخامسة من ولاية الوليد بن رفاعة على مصر و هى سنة ثلاث عشرة و مائة- فيها غزا الجنيد المرّىّ ناحية طخارستان، فجاشت الترك بسمرقند فالتقاهم الجنيد بقرب سمرقند فاقتتلوا قتالا شديدا، فكتب الجنيد من البحر الى سورة الدّارمىّ، بنجدة على سمرقند، فخرج سورة فى جنده، فلقيته الترك على غرّة فقتلته، فعاد الجنيد أيضا لقتال الترك بعد قتل سورة ثانيا و قاتلهم حتى هزمهم و دخل سمرقند.

و فيها توفّى مكحول الشامىّ أبو عبد اللّه، من الطبقة الثانية من تابعى أهل الشأم، قال: كنت مولى لعمرو بن سعيد بن العاص فوهبنى لرجل من هذيل، فأنعم علىّ بها، فما خرجت من مصر حتى ظننت أنه ليس بها علم إلا سمعته، ثم أتيت المدينة، و قال كما قال أوّلا، ثم أتيت الشّعبىّ و لم أر مثله. و فيها حجّ بالناس الخليفة هشام بن عبد الملك. و فيها دخل جماعة من دعاة بنى العباس إلى خراسان فأخذهم الجنيد و مثّل بهم و قتلهم. و فيها توفى أبو محمد البطّال و قيل: أبو يحيى، و اسمه عبد اللّه، أحد الموصوفين بالشجاعة و الإقدام، و من سارت بذكره الرّكبان، كان أحد أمراء

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۷۳

بنى أميّة، و كان على طلائع مسلمة بن عبد الملك بن مروان فى غزواته، و كان ينزل بأنطاكية، شهد عدّة حروب و أوطأ الروم خوفا و

ذلّا.

قلت: و العامّة تكذب على أبى محمد هذا بأقوال كثيرة، و يسمونه البطّال، فى سير كثيرة لا صحّة لها. و فيها حجّ بالناس سليمان بن [هشام بن] عبد الملك و قيل إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزوميّ. و فيها توفّى حرام بن سعد بن محيّصة أبو سعيد، و عمره سبعون سنة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمسة أذرع سواء، مبلغ الزيادة ثمانية عشر ذراعا سواء.

*** السنة السادسة من ولاية الوليد بن رفاعة على مصر و هى سنة أربع عشرة و مائة- فيها عزل الخليفة هشام أخاه مسلمة بن عبد الملك عن إمرة أذربيجان و الجزيرة بابن عمه مروان بن محمد المعروف بالحمار آخر خلفاء بنى أمية الآتى ذكره، فسار مروان بن محمد المذكور بجيشه حتى جاوز الروم فقتل و سبى من الترك. و فيها غزا الجنيد بلاد الصّغانيان من الترك فرجع و لم يلق كيدا. و فيها ولى إمرة المغرب عبيد اللّه بن الحبحاب السّكونىّ صاحب خراج مصر، فتوجّه اليها و بقى عليها تسع سنين.

و فيها توفّى عطاء بن أبى رباح المكّى أبو محمد بن أسلم مولى قريش أحد أعلام التابعين، ولد فى خلافة عثمان، و سمع من كبار الصحابة. و فيها توفّى محمد الباقر، و كنيته أبو جعفر بن علىّ زين العابدين بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب، الهاشمىّ العلوىّ

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۷۴

سيّد بنى هاشم فى زمانه، روى عن ابن عباس و غيره، و هو أحد [الأئمة] الاثنى عشر الذين تعتقد الرافضة عصمتهم، مولده فى سنة ست و خمسين. و لمحمد هذا إخوة أربعة، و هم: زيد الذى صلب، و عمر، و حسين، و عبد اللّه، الجميع بنو زين العابدين، رضى اللّه عنهم. و فيها عزل الخليفة هشام بن عبد الملك إبراهيم بن هشام عن إمرة المدينة و ولّاها خالد بن عبد الملك بن الحارث بن الحكم بن أبى العاص؛ و إبراهيم المعزول هو خال الخليفة هشام بن عبد الملك. و فيها غزا معاوية ابن الخليفة هشام ابن عبد الملك الصائفة اليسرى فأصاب شيئا كثيرا، و أن عبد اللّه البطّال التقى هو و قسطنطين فى جمع فهزمهم البطّال و أسر قسطنطين. و فيها غزا سليمان ابن الخليفة هشام الصائفة اليمنى فبلغ قيساريّة. و فى هذه السنة عزل هشام إبراهيم بن هشام بن اسماعيل المخزومى عن إمرة المدينة و استعمل عليها خالد بن عبد الملك بن الحارث ابن الحكم فى ربيع الأوّل، و كانت إمرة إبراهيم على المدينة ثمان سنين، و عزل ابراهيم أيضا عن مكة و عن الطائف، و استعمل عليها محمد بن هشام المخزومىّ. و فيها وقع الطاعون بواسط.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمسة أذرع و خمسة عشر إصبعا، مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا و عشرون إصبعا.

*** السنة السابعة من ولاية الوليد بن رفاعة على مصر و هى سنة خمس عشرة و مائة- فيها خرج الحارث بن سريج عن طاعة الخليفة و تغلّب على مرو و جوزجان،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۷۵

فسار اليه أسد بن عبد اللّه القسرىّ، فالتقوا فانهزم الحارث، و أسر أسد عدّة من أصحاب الحارث و بدّع فيهم. و فيها وقع بخراسان قحط شديد و مجاعة عظيمة. و فيها توفّى عمرو بن مروان بن الحكم الأمير أبو حفص، و أمه زينب بنت عمر بن أبى سلمة المخزومىّ؛ كان عمرو من خيار بنى أميّة، و لم يكن بمصر فى أيام بنى أميّة أفضل منه. و فيها غزا معاوية ابن الخليفة هشام أرض الروم و افتتح حصونا. و فيها وقع الطاعون بالشأم. و فيها حجّ بالناس محمد بن هشام المخزومىّ، و كان الأمير بخراسان الجنيد.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربعة أذرع سواء، مبلغ الزيادة أربعة عشر ذراعا و عشرون إصبعا.

*** السنة الثامنة من ولاية الوليد بن رفاعة على مصر و هى سنة ست عشرة و مائة- فيها بعث عبيد اللّه بن الحبحاب أمير إفريقية ببلاد المغرب جيشا الى بلاد السودان فغنموا و سبوا. و فيها غزا المسلمون فى البحر مما يلى صقلّية فأصيبوا. و فيها تزوّج الجنيد فاضلة بنت المهلّب بن أبى صفرة، و بلغ [ذلك] الخليفة هشاما فغضب و عزل الجنيد عن خراسان و ولّاها عاصم بن عبد اللّه بن يزيد الهلالىّ، و قال له: إن أدركته حيا فأزهق نفسه، فقدم عاصم خراسان و قد مات الجنيد، و كان بالجنيد مرض البطن. و فيها توفّيت حفصة بنت

سيرين أخت محمد بن سيرين؛ و كانت زاهدة عابدة، قرأت القرآن و هى بنت اثنتى عشرة سنة و ماتت و هى بنت تسعين سنة. و فيها توفى نافع مولى عبد اللّه بن عمر بن الخطاب، و هو من الطبقة الثالثة من التابعين، و كان عبد اللّه بن جعفر أعطى ابن عمر فيه اثنى عشر ألف درهم فأبى و أعتقه، و كان نافع عند عبد اللّه بن عمر كبعض ولده، و كان نافع ثقة كثير الحديث. و فيها غزا

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۷۶

معاوية بن هشام بن عبد الملك أرض الروم الصائفة. و فيها كان الطاعون بالعراق و كان أشدّه بمدينة واسط و سواحلها.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربعة أذرع سواء، مبلغ الزيادة أربعة عشر ذراعا و نصف إصبع.

*** السنة التاسعة من ولاية الوليد بن رفاعة على مصر و هى سنة سبع عشرة و مائة- فيها جاشت الترك بخراسان، و معهم الحارث بن سريج الخارجىّ، و عليهم الخاقان الكبير، فعاثوا و أفسدوا و وصلوا إلى بلد مرو الرّوذ، فسار إليهم أسد القسرىّ فالتقاهم و قاتلهم حتى هزمهم، و كانت وقعة هائلة قتل فيها من الترك خلائق. و فيها افتتح مروان بن محمد المعروف بالحمار متولى أذربيجان ثلاثة حصون، و أسر تومانشاه و بعث به إلى الخليفة هشام بن عبد الملك، فمنّ عليه و أعاده إلى مملكته.

و فيها غزا عبيد اللّه بن الحبحاب أمير إفريقيّة عدّة بلاد من المغرب فغنم و سلم.

و فيها توفّيت سكينة بنت الحسين بن علىّ بن أبى طالب، و اسمها آمنة، و أمّها الرّباب بنت امرئ القيس بن عدىّ، و كانت من أجمل نساء عصرها. و فيها توفّى عبد الرحمن بن هرمز الأعرج مولى محمد بن ربيعة، و كنيته أبو داود، من الطبقة الثانية من تابعى أهل المدينة. و ذكر الذهبىّ فى هذه السنة وفاة جماعة أخر، قال:

و توفّى سعيد بن يسار، و قد ذكره عبد اللّه بن أبى زكريا الخزاعىّ، و توفى شريح ابن صفوان بمصر، و عبد اللّه بن عبيد اللّه بن أبى مليكة، و عائشة بنت سعد، و عمر ابن الحكم بن ثوبان، و فاطمة بنت علىّ بن أبى طالب، و قتادة بن دعامة المفسّر

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۷۷

و قيل بعدها، و محمد بن كعب القرظىّ فى قول الواقدىّ، و توفّى موسى بن وردان القاضى بمصر، و ميمون بن مهران أو فى عام أوّل.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ذراعان و أربعة عشر إصبعا، مبلغ الزيادة أربعة عشر ذراعا و عشرون إصبعا و نصف إصبع.

ذكر ولاية عبد الرحمن بن خالد على مصر

هو عبد الرحمن بن خالد بن مسافر، الأمير أبو خالد، و قيل أبو الوليد، الفهمىّ المصرىّ، أمير مصر لهشام بن عبد الملك بن مروان، و كان استخلفه الوليد بن رفاعة قبل موته على صلاة مصر، و كان قبل ذلك أيضا ولى شرطتها مدّة سنين، فلما مات الوليد بن رفاعة أقرّه الخليفة هشام على إمرة مصر عوضا عن الوليد بن رفاعة على الصلاة، و كان ذلك فى جمادى الآخرة من سنة سبع عشرة و مائة، و لما تمّ أمره جعل على شرطته عبد اللّه بن بشّار الفهمىّ. و كان فى عبد الرحمن هذا لين.

و فى ولايته على مصر نزلت الروم بنواحى مصر و أسروا منها خاتما كثيرا، فلما بلغ هشاما ذلك عزله عن إمرة مصر و أعاد حنظلة بن صفوان ثانيا على مصر، و ذلك فى سنة ثمان عشرة و مائة، فكانت مدّة ولايته على مصر سبعة أشهر و خمسة أيام.

و قال الحافظ أبو عبد اللّه الذهبىّ فى كتابه «تذهيب التهذيب» بعد ما قال أمير مصر لهشام: و الليث بن سعد أحد مواليه، قال: روى عن الزهرى و روى عنه اللّيث بن سعد و يحيى بن أيوب. قال ابن معين: كان عنده عن الزهرىّ كتاب فيه مائتا حديث أو ثلثمائة حديث كان الليث يحدّث بها عنه. و قال النّسائىّ: ليس به بأس. و قال ابن يونس: ولى مصر سنة ثمان عشرة و مائة و عزل سنة تسع عشرة و مائة. قلت:

و الذى ذكرناه فى تاريخ ولايته و عزله هو الأشهر. قال: و كان ثبتا فى الحديث، و توفّى سنة سبع و عشرين و مائة. ا ه.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۷۸

و قيل: إنّ سبب عزله عن مصر أنّ دعاة بنى العباس أرسلوا إليه سرّا، فأكرمهم و وعدهم، فبلغ ذلك هشاما فعزله. و كان من أمر دعاة بنى العباس أنه وجّه بكير ابن ماهان عمّار بن زيد إلى خراسان واليا عليها على شيعة بنى العباس، فنزل مرو و غيّر اسمه و تسمّى بخداش و دعا الناس إلى محمد بن علىّ بن عبد اللّه بن عباس، فتسارع الناس إليه و أطاعوه، ثم غيّر ما دعاهم إليه و أظهر دين الخرّميّة و رخّص لبعضهم فى نساء بعض، و قال: إنه لا صوم و لا صلاة و لا حجّ، و أن تأويل الصوم أن يضام عن ذكر الإمام فلا يباح باسمه، و الصلاة: الدعاء له، و الحجّ: القصد إليه؛ و كان يتأوّل من القرآن قوله تعالى: لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ جُناحٌ فِيما طَعِمُوا إِذا مَا اتَّقَوْا وَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ، فنفر من كان أطاعه عنه.

و كان خداش المذكور نصرانيّا بالكوفة و أسلم و لحق بخراسان، و كان ممّن اتّبعه على مقالته مالك بن الهيثم و الحريش بن سليم الأعجمىّ و غيرهما و أخبرهم أنّ محمد بن علىّ أمره بذلك، فبلغ خبره أسد بن عبد اللّه القسرىّ فظفر به، فأغلظ القول لأسد فقطع لسانه و سمل عينيه بعد أن سأله عمّن وافقه، فذكر جماعة، منهم أمير مصر عبد الرحمن هذا، و ليس ذلك بصحيح، ثم أمر أسد بيحيى بن نعيم الشّيبانىّ فصلب، ثم أتى أسد بحزوّر مولى المهاجر بن دارة الضّبىّ فضرب عتقه بشاطئ النهر.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱، ص: ۲۷۹

*** ذكر السنة التى حكم فى أوّلها عبد الرحمن بن خالد ثم فى باقيها حنظلة بن صفوان و هى سنة ثمان عشرة و مائة- فيها غزا معاوية ابن الخليفة هشام أرض الروم و قتل و سبى.

و فيها غزا مروان الحمار ناحية ورتنيس و ظفر بملكهم و قتل و سبى. و فيها حجّ بالناس محمد ابن هشام بن إسماعيل و هو أمير المدينة، و قيل: كان هذه السنة على المدينة خالد بن عبد الملك. و فيها توفّى على بن عبد اللّه بن عباس بن عبد المطلب أبو محمد الهاشمىّ المدنىّ العباسىّ المعروف بالسّجّاد، كان يصلّى كل يوم ألف ركعة، و هو والد الخلفاء العباسيّة، و كانت كنيته أبا الحسن، فكنّاه عبد الملك بن مروان أبا محمد، و قال:

لا أحتمل لك الاسم و الكنية جميعا. و كان لعلّى هذا أولاد كثيرة و هم: محمد والد الخلفاء، و عيسى و داود و سليمان و إسماعيل و عبد الصمد و صالح و عبد اللّه. و ولد علىّ هذا فى أيام قتل علىّ بن أبى طالب رضى اللّه عنه فسمّى باسمه. و فيها توفى عبد اللّه ابن عامر بن يزيد بن تميم أبو عمران اليحصبىّ مقرئ أهل الشأم، قيل: إنه قرأ القرآن على أبى الدرداء و تولى قضاء دمشق بعد أبى إدريس الخولانىّ، و مات يوم عاشوراء و له سبع و تسعون سنة. و فيها عزل الخليفة هشام بن عبد الملك خالد ابن عبد اللّه القسرىّ عن المدينة و استعمل عليها محمد بن هشام. و فيها توفى ثابت بن أسلم البنانىّ، و بنانة اسم امرأة كانت تحت سعد بن لؤىّ بن غالب بن فهر، و هو من الطبقة الثالثة (أعنى ثابتا) من أهل البصرة؛ و كان ثابت من أعبد أهل زمانه، و به يضرب المثل فى العبادة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱، ص: ۲۸۰

قال أنس بن مالك رضى اللّه عنه: «إن لكل شىء مفتاحا و إن ثابتا من مفاتيح الخير» و كانت عيناه تشبه عينى رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم؛ فقال له أنس ابن مالك: ما أشبه عينيك بعينى رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم! فما زال يبكى حتى عمشت.

و ذكر الذهبىّ وفاة جماعة أخر، قال: و توفّى فى هذه السنة أبو صخرة جامع ابن شدّاد، و حكيم بن عبد اللّه بن قيس، و أبو عشّانة حىّ بن يؤمن المعافرىّ، و عبادة بن نسىّ الكندىّ، و عبد اللّه بن عامر مقرئ الشأم.

قلت: هو الذى ذكرناه آنفا. قال: و عبد الرحمن بن جبير بن نفير الحضرمىّ، و عبد الرحمن بن سابط الجمحىّ (بضم الجيم نسبة لبنى جمح) و عثمان بن عبد اللّه بن سراقة المدنىّ، و علىّ بن عبد اللّه بن العباس الهاشمىّ. قلت: و قد تقدّم ذكره فى غير هذه السنة. قال: و معاذ بن عبد اللّه الجهنىّ، و معبد بن خالد الجدلىّ الكوفىّ، و أبو جعفر محمد بن علىّ الباقر فى قول ابن معين. قلت: و قد تقدّم ذكره فى غير هذه السنة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ذراعان و ستة أصابع، مبلغ الزيادة ستة عشر ذراعا و عشرون إصبعا.

ذكر ولاية حنظلة بن صفوان الثانية على مصر

قلت: تقدّم التعريف به فى ولايته الأولى على مصر فى سنة اثنتين و مائة، و كان سبب ولايته هذه على مصر ثانيا أنه لما ضعف أمر عبد الرحمن بن خالد أمير مصر المقدّم ذكره شكا منه أهل مصر الى هشام بن عبد الملك، و كان شكواهم من لينه لا لسوء سيرته، فعزله الخليفة هشام لهذا المقتضى و غيره و ولّى حنظلة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱، ص: ۲۸۱

ابن صفوان هذا ثانيا على إمرة مصر على صلاتها، فقدمها حنظلة فى خامس المحرّم سنة تسع عشرة و مائة، و تمّ أمره و رتّب أمور الديار المصرية و دام بها الى سنة إحدى و عشرين و مائة، [و] فيها انتقض عليه قبط مصر، فحاربهم حنظلة المذكور حتى هزمهم، ثم فى سنة اثنتين و عشرين و مائة قدم عليه بمصر رأس زيد بن علىّ زين العابدين فأمر حنظلة بتعليقها و طيف بها؛ ثم استمرّ على إمرة مصر الى أن عزله عنها الخليفة هشام بن عبد الملك و ولّاه إفريقيّة، فاستخلف حنظلة على صلاة مصر حفص بن الوليد الحضرمىّ المعزول عن إمرة مصر قبل تاريخه، و خرج حنظلة من مصر لسبع خلون من شهر ربيع الآخر سنة أربع و عشرين و مائة، فكانت ولايته على مصر فى هذه المرّة الثانية خمس سنين و ثمانية أشهر.

و ذكر صاحب كتاب «البغية و الاغتباط، فيمن ولى الفسطاط» قال بعد ما سمّاه: ولّى ثانيا من قبل هشام على الصلاة، فقدم يوم الجمعة لخمس خلون من المحرّم سنة تسع عشرة و مائة، و جعل على شرطته عياض بن خترمة بن سعد الكلبىّ. ثم ذكر نحوا مما ذكرناه من عزله و خروجه الى إفريقيّة. و لما ولّى حنظلة إفريقيّة أمره الخليفة هشام بتولية أبى الخطّار حسام بن ضرار الكلبىّ إمرة الأندلس، فولّاه فى شهر رجب. و كان أبو الخطّار لما تتابع ولاة الأندلس من قيس قال شعرا و عرّض فيه بيوم مرج راهط، و ما كان من بلاء كلب فيه مع مروان بن الحكم، و قيام القيسيّة مع الضّحاك بن قيس الفهرىّ على مروان، فلما بلغ شعره هشام ابن عبد الملك سأل عنه فأعلم أنه رجل من كلب، فأمر هشام بن عبد الملك حنظلة أن يولّى أبا الخطّار الأندلس فولّاه و سيّره اليها، فدخل قرطبة فرأى ثعلبة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱، ص: ۲۸۲

ابن سلامة أميرها قد أحضر الألف الأسارى من البربر ليقتلهم، فلما دخل أبو الخطّار دفع الأسارى اليه، فكانت ولايته سببا لحياتهم. و مهّد أبو الخطّار بلاد الأندلس.

و فى ولايته خرج عبد الرحمن بن حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع بالأندلس، فأرسل اليه حنظلة رسالة يدعوه الى مراجعة الطاعة فقبضهم و أخذهم معه الى القيروان، و قال: إن رمى أحد من أهل القيروان بحجر قتلت من عندى أجمعين فلم يقاتله أحد، و استفحل أمره. و كان حنظلة لا يرى القتال إلا لكافر أو خارجىّ.

فلما قوى أمر عبد الرحمن خرج حنظلة الى الشأم و دعا على عبد الرحمن و أهل إفريقيّة فاستجيب له، فوقع الوباء و الطاعون ببلادهم سبع سنين لم يفارقهم إلا فى أوقات متفرّقة، و ثار على عبد الرحمن هذا جماعة من العرب و البربر ثم قتل بعد ذلك. هذا بعد أن وقع له مع أبى الخطّار حروب و وقائع. و كان ممن خرج على عبد الرحمن عروة بن الوليد الصّدفىّ و استولى على تونس، و ثابت الصنهاجىّ بناحية أخرى، و أما حنظلة فإنه استمرّ بالشأم الى أن مات.

السنة الاولى من ولاية حنظلة الثانية على مصر و هى سنة تسع عشرة و مائة- فيها حجّ بالناس مسلمة بن عبد الملك أخو الخليفة هشام. و فيها غزا مروان بن محمد المعروف بالحمار غزوة السابحة فدخل بجيشه من باب اللّان، فلم يزل حتى خرج من بلاد الخزر، ثم انتهى الى البيضاء مدينة الخاقان. و فيها جهّز عبيد اللّه بن الحبحاب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱، ص: ۲۸۳

أمير إفريقية جيشا، عليهم قثم بن عوانة، فأخذوا قلعة سردانية من بلاد المغرب و رجعوا، فغرق قثم بن عوانة و جماعته فى البحر. و فيها

توفّی عبـد اللّه بن کثیر مقرئ أهل مکـة أبو معبد مولی عمرو بن علقمة الکنانیّ، أصـله فارسـیّ، و یقال له: الداریّ (و الداریّ: العطار، نسبة الی عطر دارین)، و قال البخاریّ: هو مولی قریش من بنی عبد الدار، و قال أبو بکر بن أبی داود: الدار: بطن من لخم، منهم تمیم الداریّ، قرأ القرآن علی مجاهد و غیره، و قیل: إن وفاته سنة عشرین، و هو الأصحّ.

و فیها قصـد خاقان أسـد بن عبـد اللّه القسـریّ بجموع الترک، فالتقاهم أسد بن عبد اللّه و واقعهم فقتل خاقان و أصـحابه، و غنم أسـد أموالا عظیمة و فتح بلادا لم یصل الیها غیره. و فیها خرج المغیرة بن سعید بالکوفة، و کان ساحرا متشیّعا، فحکی عنه الأعمش أنه کان یقول: لو أراد علیّ بن أبی طالب أن یحیی عادا و ثمودا و قرونا بین ذلک کثیرا لفعل. و بلغ خالـد بن عبـد اللّه القسـریّ خبره، فأرسـل الیه فجیء به و أمر خالـد بالنـار و النّفـط و أحرقه و من کان معه. و فیها غزا أسـد بن عبـد اللّه الختّل و قتل ملکها بـدیر طرخان. و فیها توفّی حبیب بن محمد العجمیّ، و یعرف بالفارسـیّ، البصـریّ، من الطبقة الرابعة من تابعی أهل البصرة، و هو أحد الزهّاد الذی یضرب بزهده المثل. و فیها حجّ بالناس مسلمة بن عبد الملک.

و أما الـذین ذکر الـذهبیّ وفاتهم فی هذه السـنة فهم جماعة کثیرة، قال: و توفّی إیاس بن سـلمة بن الأکوع، و حبیب بن أبی ثابت فی قول، و حمّاد بن أبی سلیمان

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۸۴

الفقیه فی قول، و سلیمان بن موسی الفقیه بدمشق، و قیس بن سعد الفقیه بمکة، و معاویة بن هشام الأمیر بأرض الروم.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم خمسة أذرع و نصف، مبلغ الزیادة خمسة عشر ذراعا و ستة أصابع.

*** السـنة الثانیة من ولایة حنظلة بن صفوان علی مصر و هی سنة عشرین و مائة- فیها عزل خالد بن عبد اللّه القسریّ عن إمرة العراق بیوسف بن عمر الثقفیّ، و کانت مدّة ولایة خالد علی العراق أربع عشـرة سـنة، فلما استخلف الولید ابن یزید بن عبد الملک بعد موت عمه هشام بن عبـد الملک بعث بخالـد الی یوسف هـذا فقتله. و فیها توفّی أسـد بن عبـد اللّه بن یزید بن أسد بن کرز بن عامر البجلیّ القسـریّ، و هو أخو خالـد بن عبـد اللّه القسـریّ المقـدّم ذکره أعلاه. و کان أسـد هـذا ولی خراسان مرّتین، و غزا عدّة غزوات و افتتح البلاد، و بنی مدینة بلخ، و توفّی قبل عزل أخیه خالد بن عبد اللّه القسـریّ بیسیر. و فیها توفّی حمّاد بن أبی سلیمان فقیه أهل الکوفة، و قد ذکر الذهبیّ وفاته فی الخالیة، و هو من الطبقة الثالثة من التابعین.

قیل لإبراهیم النّخعیّ: من نسأل بعـدک؟ قال: حمّاد بن أبی سـلیمان. و عنه أخذ أبو حنیفة العلم، و هو أوّل من حلّق حلقة للاشـتغال. و فیها توفّی سـلیمان بن ثابت الدّارانیّ الدمشقیّ المحاربیّ من الطبقة الثالثة من التابعین، کان یقال له: قاضی الخلفاء لأنه أقام قاضیا علی دمشق ثلاثین سـنة، قضـی لتسـعة من خلفاء بنی أمیـة، و قیل لسـبعة، و هو الأصـحّ. و فیها توفی محمـد بن واسع بن جابر أبو عبـد اللّه الأزدیّ، من الطبقة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۸۵

الثالثة من تابعی أهل البصـرة، کان لا یقـدّم علیه أحـد فی زمانه فی العبادة و الزهد و الورع، کان یصوم الدهر و یخفیه. قیل: إنه دخل هو و مالک بن دینار الی دار الحسن البصـریّ فلم یجـداه فی الدار، فرأی محمد بن واسع طعاما للحسن فأکل منه من غیر إذن الحسن، و عزم علی مالک فلم یوافقه مالـک و قال: حتی یأذن لی صاحبه، و بینما هما فی ذلک دخل الحسن البصـریّ فأعجبه فعل محمـد بن واسع و قال:

هکذا کنا نفعل مع أصحاب رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم حتی جئتنا یامویلک.

و ذکر الذهبیّ جماعة أخر و فیهم من تکرّر ذکره لاختلاف المؤرّخین، قال:

و توفّی أنس بن سیرین علی الصـحیح، و أسد بن عبد اللّه القسـریّ الأمیر، و الجلاح أبو کثیر القاضـی، و الجارود الهذلیّ، و حماد بن أبی سـلیمان فی قول، و أبو معشـر زیـاد ابن کلیب الکوفیّ، و عاصم بن عمر بن قتادة الظّفریّ، و عبـد اللّه بن کثیر مقرئ أهل مکـة، و

عبد الرحمن بن ثروان الأودىّ، و عدىّ بن عدىّ بن عميرة الكندىّ، و علقمة بن مرثد الكوفىّ، و على بن مدرك النّخعىّ الكوفىّ، و قيس بن مسلم الجدلىّ الكوفىّ، و محمد بن ابراهيم التّيمى المدنىّ الفقيه فى قول، و محمد بن كعب القرظىّ فى قول، و مسلمة بن عبد الملك، و واصل الأحدب، و يزيد بن رومان على الصحيح، و أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم على الصحيح.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربعة أذرع سواء، مبلغ الزيادة ستة عشر ذراعا و إصبعان و نصف.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۸۶

*** السنة الثالثة من ولاية حنظلة بن صفوان على مصر و هى سنة إحدى و عشرين و مائة- فيها غزا مروان الحمار من إرمينية الى أن بلغ قلعة بيت السرير من بلاد الروم فقتل و سبى، ثم أتى قلعة ثانية فقتل أيضا و أسر، ثم دخل الحصن الذى فيه سرير الملك فهرب منه الملك حتى صالحوا مروان فى السنة على ألف رأس و مائة ألف مدى، ثم سار مروان فى السنة حتى دخل أرض أرز و بلاد بطران فصالحوه ثم صالحه أهل بلاد تومان، ثم أتى حمزين فقاتلهم و لازم الحصار عليهم شهرين حتى صالحوه، ثم افتتح مروان مسدار و غيرها. و ذكر خليفة بن خياط أنّ أبا محمد البطّال قتل فيها. و فيها غزا الصائفة مسلمة ابن الخليفة هشام بن عبد الملك فسار حتى أتى ملطية، و مات مسلمة هذا فى دولة أبيه هشام. و فيها غزا نصر بن سيّار ما وراء النهر و قتل ملك الترك كورصول، و كان كورصول المذكور ملكا عظيما غزا فى المسلمين اثنتين و سبعين غزوة، و لما قبض عليه نصر أراد أن يفدى نفسه بألف جمل بختىّ و بألف برذون، فلم يقبل نصر و قتله. و فيها خرج زيد بن علىّ بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى اللّه عنهم، و وقع له مع جيش الخليفة أمور و حروب و آل أمره الى أن انكسر و اختفى حتى ظفر به و قتل فى سنة اثنتين و عشرين و مائة. و فيها توفّى الربيع بن أبى راشد أبو عبد اللّه الزاهد، من الطبقة الثالثة من تابعى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۸۷

أهل الكوفة، كان يقول: لو فارق ذكر الموت قلبى ساعة لخشيت أن يفسد علىّ قلبى. و فيها توفى عطاء السّليمىّ، من الطبقة الرابعة من تابعى أهل البصرة، و كان من التابعين المجتهدين، أقام أربعين سنة لم يرفع رأسه الى السماء حياء من اللّه تعالى و لم يضحك، و رفع رأسه مرّة ففتق فى بطنه فتق؛ و كان اذا أراد أن يتوضّأ ارتعد و بكى، فقيل له: فى ذلك، فقال: إنى أريد أن أقدم على أمر عظيم قبل أن أقوم بين يدى اللّه تعالى. و فيها توفّى نمير بن أوس الأشعرىّ قاضى دمشق، من الطبقة الرابعة من التابعين، ولّاه الخليفة هشام القضاء ثم استعفاه فأعفاه. و فيها توفّى محارب ابن دثار السّدوسىّ الشّيبانىّ أبو المطرّف؛ من الطبقة الثالثة من تابعى أهل الكوفة؛ قال: لما أكرهت على القضاء بكيت و بكى عيالى، فلما عزلت عن القضاء بكيت و بكى عيالى.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ذراعان و عشرون إصبعا، مبلغ الزيادة ستة عشر ذراعا و ثلاثة عشر إصبعا.

*** السنة الرابعة من ولاية حنظلة بن صفوان على مصر و هى سنة اثنتين و عشرين و مائة- فيها خرج بالمغرب ميسرة الحقير و عبد الأعلى مولى موسى بن نصير متعاضدين و معهما خلائق [من الصّفريّة]، فخرج لقتالهم متولّى إفريقيّة عبيد اللّه بن الحبحاب و قاتلهم و استظهر عليهم والى إفريقيّة، لكن قتل ابنه إسماعيل، ثم جهّز لهم عبيد اللّه بن الحبحاب جيشا ثانيا عليه أبو الأصمّ خالد، فقتل أبو الأصمّ المذكور

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۸۸

فى جماعة من الأشراف فى آخر السنة، و استفحل أمر الصّفريّة و بايعوا الشيخ عبد الواحد بالخلافة، فلم يتم أمره و قتل بعد حروب كثيرة. و قتل فى هذه الواقعة و غيرها فى هذه السنة خلائق كثيرة. و كان عبيد اللّه بن الحبحاب قد جهّز جيشا آخر مع حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة الفهرى الى جزيرة صقليّة فظفر حبيب المذكور ظفرا ما سمع بمثله، و سار حتى نزل على أكبر مدائن صقلية، و هى مدينة سرقوسة، و هابته النصارى و ذلّوا لإعطاء الجزية، و وقع بالمغرب فى هذه السنة حروب مهولة متداولة. و فيها توفّى شهيدا زيد بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى اللّه عنهم و صلب مدّة طويلة، و قد تقدّم ذكر واقعته فى سنة إحدى و

عشرين و مائة.

و فيها توفّى إياس بن معاوية بن قرّة بن إياس المزنىّ البصرىّ، من الطبقة الثالثة من تابعى أهل البصرة، و كنيته أبو واثلة، و كان قاضيا على البصرة، و كان سيّدا فاضلا ذكيا، له نوادر غريبة، كان يقول: أذكر ليلة ولدت وضعت أمى على رأسى جفنة.

قال إياس: قلت لأمّى: ما شيء سمعته عند ولادتى يا أمى؟ فقالت: طست وقع من أعلى الدار ففزعت فولدتك فى تلك الساعة. قلت: و على هذا يكون سماعه لذلك و هو فى بطن أمه، فإنها لما سمعت الضجّة ولدت من الفزع. فيكون سماع إياس لذلك قبل أن ينزل من بطن أمه. ا ه. و فيها توفى بلال بن سعد بن تميم السّكونى (بفتح السين المهملة) من الطبقة الرابعة من تابعى أهل الشأم، كان بالشأم مثل الحسن البصرى فى العراق، و كان إمام جامع دمشق، فكان اذا كبّر سمع صوته من الأوزاع (قرية على باب الفراديس) و لم يكن البنيان يومئذ متصلا؛ هكذا نقل أبو المظفّر فى تاريخه «مرآة الزمان». و فيها توفى الأمير مسلمة ابن الخليفة عبد الملك

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۸۹

ابن مروان أبو شاكر، و قيل: أبو سعيد و قيل: أبو الاصبع، كان شجاعا صاحب همّة و عزيمة، و له غزوات كثيرة من ولاية أبيه عبد الملك الى هذه السنة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ذراعان و ستة أصابع، مبلغ الزيادة خمسة عشر ذراعا و ثمانية عشر إصبعا.

*** السنة الخامسة من ولاية حنظلة بن صفوان على مصر و هى سنة ثلاث و عشرين و مائة- فيها كانت وقعة عظيمة بين البربر و بين كلثوم بن عياض، فقتل كلثوم فى المصافّ و استبيح عسكره، كسرهم أبو يوسف الأزدى رأس الصّفريّة (و الصفريّة هم منسوبون الى بنى المهلب بن أبى صفرة)، ثم وقعت أمور و وقائع بالمغرب فى هذه السنة أيضا يطول شرحها. و فيها حجّ بالناس يزيد ابن الخليفة هشام بن عبد الملك و صحبه الزّهرىّ بن شهاب، فهناك لقى الزهرىّ مالك بن أنس و سفيان ابن عيينة. و فيها خرج خمسة و عشرون ألفا من الروم و نزلوا بملطية، فبعث اليهم

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۹۰

هشام بن عبد الملك الجيوش فقتلوا منهم مقتلة عظيمة، و للّه الحمد. و فيها توفيت عائشة بنت طلحة بن عبيد اللّه التّيمىّ، و أمها أم كلثوم بنت أبى بكر الصدّيق؛ و أوّل أزواج عائشة عبد اللّه بن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق، ثم تزوّجها مصعب ابن الزبير فأصدقها مائة ألف دينار. و عن الكلبىّ قال: قال عبد الملك بن مروان يوما لجلسائه: من أشجع العرب؟ قيل: شبيب، و قيل: فلان و فلان؛ فقال: إن أشجع العرب رجل ولى العراقين خمس سنين فأصاب ألف ألف و ألف ألف و ألف ألف، و تزوّج سكينة بنت الحسين بن علىّ و عائشة بنت طلحة، و ابنة الحميد بنت عبد اللّه بن عامر بن كريز، و ابنة ريان بن أنيف الكلبىّ، و أعطى الأمان فأبى و مشى بسيفه حتى مات، ذاك مصعب بن الزبير. و أظنها تزوّجت بعد مصعب.

و أما الذين ذكر وفاتهم الذهبىّ فى هذه السنة فجماعة مختلف فيهم، قال: توفّى ثابت البنانىّ، و قد تقدّم ذكره، و توفى ربيعة بن يزيد القصير بدمشق، و أبو يونس سليم مولى أبى هريرة، و سماك بن حرب الذهلىّ، و سعيد بن أبى سعيد المقبرىّ، و شرحبيل بن سعد المدنىّ، و أبو عمران الجونىّ عبد الملك بن حبيب، و ابن محيصن مقرئ مكة، و محمد بن واسع عابد البصرة، و قد تقدّم ذكره، و مالك بن دينار، يأتى ذكره.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ذراعان سواء، مبلغ الزيادة ثمانية عشر ذراعا و ثلاثة عشر إصبعا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة؛ ج ۱؛ ص ۲۹۰

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۹۱

ذكر ولاية حفص بن الوليد ثانيا على مصر

قلت: تقدّم التعریف بحفص هذا فی أوّل ترجمته لما ولی مصر فی سنة ثمان و مائة. و کان سبب ولایته هذه الثانیة علی مصر أن حنظلة بن صفوان لما ولّی إفریقیّة أقرّ حفصا هذا علی صلاة مصر و توجّه الی إفریقیّة، فأقرّه الخلیفة هشام ابن عبد الملک علی إمرة مصر علی الصلاة، و ذلک فی سابع شهر ربیع الآخر سنة أربع و عشرین و مائة. و قال صاحب «البغیة»: فأقرّه هشام (یعنی علی إمرة مصر)، ثم جمع له بین الصلاة و الخراج فی لیلة الجمعة لثلاث عشرة لیلة خلت من شعبان سنة أربع و عشرین و مائة، فجعل علی شرطته عقبة بن نعیم الرّعینیّ، و جعل علی الدیوان یحیی بن عمرو العسقلانیّ، و علی الزّمام عیسی بن عمرو، ثم صرفه الخلیفة الولید بن یزید بن عبد الملک عن الخراج و ولّاه عیسی بن أبی عطاء یوم الثلاثاء لسبع بقین من شوال سنة خمس و عشرین و مائة، و انفرد بالصلاة، ثم استعفی مروان بن محمد بن مروان فأعفاه، فکانت ولایته هذه ثلاث سنین إلا شهرا. ا ه. و قال غیره: جمع له هشام بن عبد الملک الصلاة و الخراج معا، و کان لأمراء مصر مدّة سنین [أن] یلی الأمیر علی الصلاة لا غیر، فلما جمع لحفص بین الصلاة و الخراج وقع فی أیامه شراقیّ و قحط بالدیار المصریة، فاستسقی حفص بالناس و خطب و دعا اللّه سبحانه و تعالی و صلّی، ثم عاد الی منزله، فلم یکن إلا القلیل و ورد علیه موت الخلیفة هشام بن عبد الملک، و استخلف من بعده الولید بن یزید ابن عبد الملک بن مروان، فأقرّ الولید حفصا هذا علی ما کان علیه من إمرة مصر علی الصلاة و الخراج أیاما قلیلة، ثم صرفه عن الخراج بعیسی بن أبی عطاء فی ثالث عشرین شوال سنة خمس و عشرین و مائة و انفرد حفص بالصلاة. ثم خرج حفص

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۹۲

من مصر الی الشأم و وفد علی الولید بن یزید بعد أن استخلف علی صلاة مصر عقبة ابن نعیم الرّعینیّ، و عند وصول حفص الی دمشق اختلف الناس علی الولید و خلعوه من الخلافة ثم قتلوه، لسوء سیرته و قبیح أفعاله، کلّ ذلک و حفص بالشأم، و بویع بالخلافة ابن عمه یزید بن الولید بن عبد الملک بن مروان. و لما ولی یزید المذکور الخلافة اقرّ حفصا هذا علی عمله و أمره بالعود الی مصر و أن یفرض للجند ثلاثین ألفا، فعاد حفص الی مصر و فرض الفروض و بعث بیعة أهل مصر الی یزید بن الولید.

فلم تطل مدّة أیام یزید و توفّی و بویع بالخلافة من بعده ابراهیم بن الولید، فلم یتمّ علیه أمره و تغلّب علیه مروان بن محمد بن مروان الجعدیّ المعروف بالحمار، و دعا لنفسه و تمّ له ذلک؛ فلما بلغ حفصا ذلک بعث یستعفیه من ولایة مصر فأعفاه مروان و ولّی مکانه حسّان بن عتاهیة. ا ه. و کانت ولایة حفص هذه الثانیة نحو ثلاث سنین.

و قال الحافظ أبو سعید عبد الرحمن بن أحمد بن یونس فی تاریخه بعد ما ذکر نسبه بنحو ما ذکرناه فی ولایته الأولی علی مصر لکنه زاد فقال: الحضرمیّ، ثم من بنی عوف بن معاذ، کان أشرف حضرمیّ بمصر فی أیامه، و لم یکن خلیفة من بعد الولید إلا و قد استعمله، کان هشام بن عبد الملک قد شرّفه و نوّه بذکره و ولّاه مصر بعد الحرّ بن یوسف بن یحیی بن الحکم نحوا من شهر ثم عزله، فدخل علی هشام فألفاه فی التجهیز الی الترک فولّاه الصائفة فغزا ثم رجع فولّی نحو مصر سنة تسع عشرة و مائة و سنة عشرین و مائة و سنة إحدی و عشرین و مائة و سنة اثنتین و عشرین و مائة، فلما قتل کلثوم بن عیاض القشیریّ عامل هشام علی إفریقیّة، و کان قتله فی ذی الحجّة سنة ثلاث و عشرین و مائة، کتب هشام الی حنظلة بن صفوان الکلبیّ عامله علی جند مصر بولایته علی إفریقیة فشخص الیها، و کتب الی حفص بن الولید بولایة جند مصر و أرضها، فولی حفص علیها بقیّة خلافة هشام، و خلافة الولید بن یزید، و خلافة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۹۳

یزید بن الولید، و ابراهیم بن الولید، و مروان بن محمد الی سنة ثمان و عشرین و مائة؛ و حدّث عنه یزید بن أبی حبیب، و عمرو بن الحارث، و اللّیث بن سعد، و عبد اللّه ابن لهیعة و غیرهم، و کان ممن خلع مروان مع رجاء بن الأشیم الحمیریّ و ثابت بن نعیم ابن زید بن روح بن سلامة الجذامیّ و زامل بن عمرو الحرّانی فی عدّة من أهل مصر و الشام، فقتله حوثرة بن سهیل الباهلیّ بمصر فی شوّال سنة ثمان و عشرین و مائة، و خبر مقتله یطول.

و قال المسور الخولانیّ یحذّر ابن عمّ له من مروان و یذکر قتل مروان حفص ابن الولید و رجاء بن الأشیم و من قتل معهما من أشراف

أهل مصر:

و إن أمير المؤمنين مسلّط على قتل أشراف البلاد فأعلم

فإياك لا تجنى من الشر غلطة فتودى كحفص أو رجاء بن الاشيم

فلا خير فى الدنيا و لا العيش بعدهم و كيف و قد أضحوا بسفح المقطّم

قال ابن يونس: حدّثنا أحمد بن شعيب حدّثنا عبد الملك بن شعيب بن اللّيث حدّثنى أبى عن جدّى عن يزيد بن أبى حبيب عن حفص بن الوليد عن محمد بن مسلم عن عبيد اللّه بن عبد اللّه حدّثه أن ابن عباس حدّثه: أن شاة ميّتة كانت لمولاة ميمونة من الصّدقة فأبصرها رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم فقال: «انزعوا جلدها فانتفعوا به» قالوا: إنها ميّتة، قال: «إنما حرم أكلها».

قال أبو سعيد بن يونس: أسند حفص غير هذا الحديث: حدّثنى أبى عن جدّى أنه حدّثه ابن وهب حدّثنى اللّيث: أن حفص بن الوليد أوّل ولايته بمصر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۹۴

أمر بقسم مواريث أهل الذّمّة على قسم مواريث المسلمين، و كانوا قبل حفص يقسمون مواريثهم بقسم أهل دينهم، انتهى كلام ابن يونس. و قد ساق ابن يونس ترجمة حفص على سياق واحد و لم يدع لولايته الثالثة على مصر شيئا. و لا بدّ من ذكر ولايته الثالثة هنا لما شرطناه فى كتابنا هذا من ذكر كلّ وال فى وقته و زمانه، و نذكره إن شاء اللّه تعالى بزيادات أخر.

*** السنة الأولى من ولاية حفص بن الوليد الثانية على مصر و هى سنة أربع و عشرين و مائة- فيها عاثت الصّفريّة ببلاد المغرب و حاصروا قابسا و نصبوا عليها المجانيق، و افترقت الصفرية بعد قتل ميسرة فرقتين، ثم ولّى الخليفة حنظلة أمير مصر أمر إفريقيّة لمّا بلغه قتل كلثوم، كما تقدّم ذكره. و فيها قدم جماعة من شيعة بنى العباس من خراسان الى الكوفة يريدون أخذ البيعة لبنى العباس فأخذوا و حبسوا ثم أطلقوا. و فيها غزا سليمان بن هشام الصائفة و التقاه ملك الروم فهزمه سليمان و غنم. و فيها قتل كلثوم بن عياض أمير المغرب، من الطبقة الرابعة من تابعى أهل الشأم، و كان جليلا نبيلا فصيحا له خطب و مواعظ، قتل بالمغرب فى وقعة كانت بينه و بين ميسرة الصّفرىّ، ثم مات ميسرة أيضا فى آخر السنة. و فيها توفّى الزّهرىّ و اسمه محمد بن مسلم بن عبيد اللّه بن عبد اللّه بن شهاب بن عبد اللّه بن الحارث بن زهرة بن كلاب بن مرّة، الإمام أبو بكر القرشىّ الزّهرىّ المدنىّ أحد الأعلام، من تابعى أهل المدينة من الطبقة الرابعة، كان حافظ زمانه. قال اللّيث بن سعد قال

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۹۵

ابن شهاب: ما صبر أحد على العلم صبرى، و لا نشره أحد نشرى، ولد سنة خمسين، و طلب العلم فى أواخر عصر الصحابة، و له نيّف و عشرون سنة، فروى عن ابن عمر حديثين، و روى عن جماعة كثيرة من الصحابة و التابعين، و روى عنه الجمّ الغفير ا ه.

و ذكر الذهبىّ جماعة أخر، قال: توفّى عبد اللّه بن قيس الجهنىّ، و عمرو بن سليم الزّرقى أبو طلحة، و القاسم بن أبى بزة المكىّ، و محمد بن عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة، و محمد بن مسلم بن شهاب الزّهرىّ، و قد تقدّم ذكره، و محمد بن على بن عبد اللّه ابن عبّاس، و أبو جمرة (بالجيم و الراء) نصر بن عمران الضّبعىّ.

أمر النيل فى هذه السنة الماء القديم ثلاثة أذرع و اثنا عشر إصبعا، مبلغ الزيادة ثمانية عشر ذراعا و ثلاثة عشر إصبعا.

*** السنة الثانية من ولاية خفص بن الوليد الثانية على مصر و هى سنة خمس و عشرين و مائة:

فيها كانت فتن كثيرة بالمغرب بين الأمير حنظلة بن صفوان المعزول عن إمرة مصر و المتولّى إفريقيّة و بين عكّاشة الخارجىّ، فكانت بينهم وقعة لم يسمع بمثلها، و انهزم عكّاشة و قتل من البربر ما لا يحصى، ثم التقى حنظلة ثانيا مع عبد الواحد على فرسخ من القيروان، و جمع عبد الواحد ثلثمائة ألف مقاتل، فبذل حنظلة الأموال و ضجّ الناس و النساء و الأطفال بالدعاء، و بقى حنظلة يسير بين الصفوف بنفسه و يحرّض على القتال، و كسر أصحاب حنظلة أغماد سيوفهم و التحمت الحرب و انكسرت ميسرة الإسلام، و حنظلة على

تحریضه حتی تراجعوا، و هزم اللّه

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۹۶

عبد الواحد و جیوشه ثم قتل، و أتی حنظلة برأسه، و قتل من البربر مقتلة عظیمة لم یسمع بمثلها، فکانت هذه ملحمة مشهودة، ثم أسر عکّاشة و أتی به الی حنظلة فقتله و قتل جماعة کثیرة من أصحابه. و قیل: أحصی من قتل فی هذه الوقعة فبلغوا مائة ألف و ثمانین ألفا. و هذه الملحمة أعظم ملحمة وقعت فی الإسلام بالمغرب.

و فیها عقد الولید بن یزید بن عبد الملک البیعة لابنیه الحکم و عثمان فی شهر رجب بعد أن ولی الخلافة بشهر واحد، و کتب بذلک الی الآفاق. و فیما؟؟؟ توفّی محمد بن علی ابن عبد اللّه بن عباس العبّاسی الهاشمی، و محمد هذا هو والد السفاح أوّل خلفاء بنی العباس، و کنیته أبو عبد اللّه، و کان أصغر من أبیه علی بأربع عشرة سنة، فلما شابا خضّب أبوه علیّ بالسواد و ابنه محمد هذا بالحنّاء، فلم یفرّق بینهما إلا بالخضاب لتشابههما. و مولد محمد هذا بالقرب من أرض البلقاء سنة ثمان و خمسین و قیل: سنة ستین. و فی اللیلة التی مات فیها محمد هذا ولد فیها محمد المهدیّ بن أبی جعفر المنصور، فسمی المهدیّ علی اسم جدّه محمد المذکور و کنی بکنیته. و کان محمد هذا بویع بالخلافة سرّا و فرّق الدعاة فی البلاد، فلم یتمّ أمره و مات. و فیها توفّی الخلیفة أمیر المؤمنین هشام بن عبد الملک بن مروان بن الحکم بن أبی العاص بن أمیّة ابن عبد شمس، الأموی القرشیّ الدمشقیّ أبو الولید، ولد سنة نیّف و سبعین و استخلف بعهد من أخیه یزید بن عبد الملک، و استخلف و عمره أربع و ثلاثون سنة، و دام فی الخلافة تسع عشرة سنة و سبعة أشهر و أیاما، و کان جمیل الصورة یخضب بالسواد، و بعینیه حول مع کیس، و أمه فاطمة بنت هشام بن الولید بن المغیرة المخزومیّ.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۹۷

قال مصعب الزّبیریّ: زعموا أن عبد الملک رأی فی منامه أنه بال فی المحراب أربع مرّات، فدسّ من یسأل سعید بن المسیّب عنها، و کان یعبّر الرؤیا، و عظمت علی عبد الملک، فقال سعید بن المسیّب: یملک من ولده لصلبه أربعة، فکان هشام هذا آخرهم، لأن أوّلهم الولید، ثم سلیمان، ثم یزید، ثم هشام.

قال حمّاد الراویة: لما ولی هشام الخلافة طلبنی فحضرت عنده فوجدته جالسا فی فرش قد غرق فیه، و بین یدیه صحفة من ذهب مملوءة مسکا مذوبا بماء ورد و هو یقلّبه بیده فتفوح رائحته، فسلّمت علیه فردّ علیّ السلام، و قال: یا حمّاد، إنی ذکرت بیتا من الشعر ما عرفت قائله و هو هذا:

و دعوا بالصّبوح یوما فجاءت قینة فی یمینها إبریق

فقلت: هو لعدیّ بن زید، فقال: أنشدنی القصیدة، فأنشدته إیاها، فقال:

سل حاجتک، و کان علی رأسه جاریتان کأنهما أقمار، و فی أذن کل واحدة منهما جوهرتان یضیء منهما المنزل، فقلت: یا أمیر المؤمنین، جاریة من هاتین، فقال:

هما لک، و أمر لی بمائة ألف درهم.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم أربعة أذرع و ثمانیة أصابع، مبلغ الزیادة ستة عشر ذراعا و ثلاثة عشر إصبعا.

السنة الثالثة من ولایة حفص بن الولید الثانیة علی مصر و هی سنة ست و عشرین و مائة- فیها خرج یزید بن الولید بن عبد الملک علی ابن عمه الخلیفة الولید ابن یزید بن عبد الملک لما انتهک الولید المذکور الحرمات و کثر فسقه و سئمته الرعیة علی قصر مدّته، فبویع یزید هذا بالمزّة و وثب علی دمشق و جهّز عسکرا لقتال الخلیفة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۹۸

الولید، و کان الولید بتدمر قد انهزم الیها عاکفا علی المعاصی بها، فخرج الولید و قاتل العسکر و انکسر و قتل بنواحی تدمر، علی ما

يأتى ذكره، و تمّ أمر يزيد فى الخلافة، و سمّى بالناقص، لكنه لم تطل مدّته أيضا و مات، على ما يأتى ذكره أيضا. و فيها توفّى خالد ابن عبد اللّه بن يزيد بن أسد بن كرز بن عامر البجلىّ القسرىّ، ولى خالد المذكور أعمالا جليلة مثل مكّة المشرّفة و العراق و غيرهما، و كانت أمّه نصرانيّة فكان يعيّر بها، و كان بخيلا على الطعام جدّا، ذكر عنه أبو المظفّر أمورا شنيعة من هذا الباب. و فيها توفّى الخليفة الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أميّة (الهاشمىّ) الأموىّ الدمشقىّ المعروف بالفاسق، ولد سنة تسعين و قيل سنة اثنتين و تسعين.

و لما احتضر أبوه يزيد بن عبد الملك لم يمكنه أن يستخلفه لأنه صبىّ، فعهد الى أخيه هشام بن عبد الملك و جعل ابنه هذا الوليد ولىّ العهد من بعد هشام، و أمّ الوليد بنت محمد بن يوسف الثقفىّ، فالحجّاج عمّ أمه. و لما مات عمّه هشام ولى الخلافة و صدرت عنه تلك الأمور القبيحة المشهورة عنه: من شرب الخمر و الفجور و تخريق المصحف بالنّشّاب. و ذكر عنه بعض أهل التاريخ أمورا أستبعد وقوعها، منها: أنه دخل يوما فوجد ابنته جالسة مع دادتها فبرك عليها و أزال بكارتها، فقالت له دادتها: هذا دين المجوس، فأنشد:

من راقب الناس مات غمّا و فاز باللّذة الجسور

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۲۹۹

قال: و أخذ يوما المصحف و فتحه، فأوّل ما طلع له وَ اسْتَفْتَحُوا وَ خابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ، فقال: أ توعدنى! ثم علّقه و لا زال يضربه بالنّشاب حتى خرقه و مزّقه و هو ينشد:

أتوعد كلّ جبّار عنيد فهأنا ذاک جبّار عنيد

إذا لاقيت ربّک يوم حشر فقل يا ربّ خرّقنى الوليد

و لما كثر فسقه خلعوه من الخلافة بابن عمه يزيد بن الوليد و قتلوه فى جمادى الآخرة، و كانت خلافته سنة و ثلاثة أشهر، و توفّى ابن عمّه يزيد المذكور بعده بمدّة يسيرة، كما سيأتى ذكره. و فيها توفّى سعيد بن مسروق والد سفيان الثّورى؛ و فيها توفّى الخليفة أمير المؤمنين يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم، الهاشمىّ الأموىّ الدمشقىّ أبو خالد، المعروف بيزيد الناقص، لأنه نقص الجند من عطائهم لمّا ولى الخلافة، و كان الوليد ابن عمه زاد الجند زيادات كثيرة فنقصها يزيد هذا لمّا ولى الخلافة و مشّى الأمور على عاداتها. وثب يزيد على الخلافة لمّا كثر فسق ابن عمه الوليد، و تمّ أمره بعد قتل الوليد، و بويع بالخلافة فى جمادى الآخرة من سنة ست و عشرين و مائة المذكورة. و أم يزيد هذا شاه فرند بنت فيروز بن يزدجرد، حكى أن قتيبة بن مسلم ظفر بما وراء النهر بابنتى فيروز فبعث بهما الى الحجّاج بن يوسف، فبعث الحجاج بإحداهما، و هى شاه فرند، الى الخليفة الوليد بن عبد الملك فأولدها يزيد هذا، و كانت أم فيروز بن يزدجرد بنت شيرويه بن كسرى، و أم شيرويه بنت خاقان، و أمّ أمّ فيروز هى بنت قيصر عظيم الروم، و لهذا كان يزيد يفتخر و يقول:

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۳۰۰

أنا ابن كسرى و جدّى مروان و قيصر جدّى و جدّى خاقان

قلت: و كان يزيد هذا لا بأس به، غير أن أيامه لم تطل، و مات فى سابع ذى الحجّة من سنة ست المذكورة. و ذكر الذهبىّ وفاة جماعة كثيرة فى هذه السنة مختلف فى وفاتهم، كما هى عادة سياقه، فإنه يذكر الواحد فى عدّة أماكن، فنحن نذكر مقالته و لا نتقيّد بها، و من وقع لنا ممّن ذكره ترجمناه على عادة كتابنا هذا فى محله، قدّمه الذهبى أو أخّره، فقال: توفى جبلة بن سحيم، و خالد بن عبد اللّه القسرىّ الأمير، و درّاج أبو السّمح، و سعيد بن مسروق والد سفيان الثورىّ، و سليمان بن حبيب المحاربىّ، و قد تكرّر فى عدّة سنين، و عبد الرحمن بن القاسم بن محمد، و الكميت بن زيد الشاعر، و عبيد اللّه بن أبى يزيد المكّى، و عمرو بن دينار، و الوليد قتل فى جمادى الآخرة فكانت خلافته خمسة عشر شهرا، و يزيد بن الوليد الناقص مات فى ذى الحجة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ذراعان و ستة عشر إصبعا، مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا و اثنى عشر إصبعا.

ذكر ولاية حسّان بن عتاهية على مصر

هو حسان بن عتاهية بن عبد الرحمن بن حسّان بن عتاهية بن خزز بن سعد ابن معاوية التّجيبىّ؛ و قال صاحب «البغية»: حسان بن عتاهية بن عبد الرحمن. ا ه.

ولّاه مروان بن محمد بن مروان المعروف بالحمار على إمرة مصر و هو بالشأم، فأرسل حسّان من الشأم بكتاب الى ابن نعيم باستخلافه على صلاة مصر الى أن يحضر من الشأم، فسلّم حفص بن الوليد الأمر الى ابن نعيم، ثم قدم حسّان المذكور الى مصر فى ثانى عشر جمادى الآخرة سنة سبع و عشرين و مائة على الصلاة لا غير.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱، ص: ۳۰۱

و زاد صاحب «البغية» و قال: قدم فى يوم السبت لاثنتى عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة. ا ه.

و كان عيسى بن أبى عطاء على الخراج، فلما استقرّ أمر حسّان فى إمرة مصر أسقط الفروض التى كان قرّرها حفص بن الوليد فى ولايته و قطع [فروض] الجند كلها، فوثبوا عليه و قاتلوه و قالوا: لا نرضى إلا بحفص، و ركبوا الى المسجد و دعوا الى خلع مروان الحمار من الخلافة و حصروا حسّان فى داره، و قالوا له: اخرج عنا، فإننا لا نقيم معك ببلد، ثم أخرجوا عيسى بن أبى عطاء صاحب الخراج من مصر، كل ذلك فى آخر جمادى الآخرة، ثم أخرجوا حفصا من سجنه و ولّوه أمرهم. و توجّه حسان هذا الى الشأم و دام بها من جملة أمراء بنى أميّة الى أن زالت دولة بنى أميّة و تولّت العباسيّة. قتل حسّان هذا مع من قتل بمصر من أعوان بنى أميّة فى سنة اثنتين و ثلاثين و مائة. و كانت ولاية حسّان على مصر ستة عشر يوما و قيل: إن حسان كان من أعوان بنى العباس، و الأوّل أشهر، و تولّى بعده حفص بن الوليد ثالثا.

و قال الحافظ أبو سعيد بن يونس: شهد حسان بن عتاهية جدّ عتاهية والد صاحب الترجمة فتح مصر و صحب عمر بن الخطاب؛ و ابنه عبد الرحمن بن حسان ابن عتاهية يروى عنه مخيّس بن ظبيان، و فى نسخة: عبد الغنى.

و حدّثنى أحمد بن على بن دارح بن رجب الخولانىّ حدّثنى عمى عاصم بن دارح حدّثنا عبيد اللّه بن سعيد بن كثير بن عفير حدّثنى أبى حدّثنى عمرو بن يحيى السّدّى حدّثنى عبد اللّه بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج قال: سألنى أبو جعفر المنصور:

ما فعل حسّان بن عتاهية؟ قلت: قتله شعبة. قال: قتله اللّه. كان لنا جليسا

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱، ص: ۳۰۲

عند عطاء بن أبى رباح. قال سعيد بن كثير: شعبة هذا هو ابن عثمان التميمى، كان على المصريّة، و هو أوّل من قدم مصر من قوّاد المسوّدة، و كان على مقدّمة عامر بن اسماعيل المرادىّ الجرجانىّ الذى قتل مروان بن محمد الحمار.

ضبط الأسماء الغريبة فى هذه الترجمة: (عتاهية) بفتح العين المهملة و التاء المثناة، و (خزز) بفتح الخاء المعجمة و الزاى الأولى و سكون الزاى الثانية، و (التجيبى) بضم التاء المثناة من فوق و كسر الجيم و ياء ساكنة و باء ثانية الحروف.

ذكر ولاية حفص بن الوليد الثالثة على مصر

و لما ثار أهل مصر على حسّان بن عتاهية و أخرجوه منها لحق بالخليفة مروان ابن محمد بن مروان المعروف بالحمار فى الشأم، و ذكر له حسان ما وقع له مع أهل مصر؛ و استمرّ حفص بن الوليد على صلاة مصر شهر رجب و شعبان، و قدم الأمير حنظلة بن صفوان من إفريقيّة، و قد أخرجه أهلها فنزل بالجيزة غربىّ مدينة مصر، و دام هناك الى أن قدم عليه كتاب الخليفة مروان الحمار بولايته على مصر، فامتنع المصريّون من ولاية حنظلة بن صفوان عليهم، و منعوه من الدخول الى مصر و أظهروا الخلاف، ثم أخرجوا حنظلة من

الجیزة الی الوجه الشرقیّ، و منعوه من المقام بالفسطاط، و حاربوه فحاربهم فهزم، و تمّ أمر حفص؛ و سکت مروان عن مصر بقیة سنة سبع و عشرین و مائة، ثم عزل حفص فی مستهلّ سنة ثمان و عشرین و مائة و ولّی عوضه علی مصر الحوثرة بن سهیل أخو عجلان الباهلیّ، و واقع الحوثرة حفصا و قتله، کما ذکره ابن یونس و غیره فی ترجمته الثانیة، و کان قتل حفص المذکور فی یوم

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱، ص: ۳۰۳

الثلاثاء للیلتین خلتا من شوّال سنة ثمان و عشرین و مائة، ورثاه صدیقه أبو بحر مولی عبد اللّه بن إسحاق مولی آل الحضرمیّ من حلفاء عبد شمس بعدّة قصائد، و کان أبو بحر إماما فی النحو و اللغة، تعلّم ذلک من یحیی بن یعمر، و مات فی سنة سبع و عشرین و مائة، و کان أبو بحر یعیب الفرزدق فی شعره و ینسبه إلی اللحن، فهجاه الفرزدق بقوله:

فلو کان عبد اللّه مولی هجوته و لکنّ عبد اللّه مولی موالیا

فقال له أبو بحر عبد اللّه المذکور: قد لحنت أیضا یا فرزدق فی قولک: مولی موالیا، بل کان ینبغی أن تقول: مولی موال.

*** السنة الأولی من ولایة حفص بن الولید الثالثة علی مصر و هی سنة سبع و عشرین و مائة، علی أنّ حسّان بن عتاهیة حکم منها علی مصر ستة عشر یوما فی جمادی الآخرة- فیها وقع بالشأم و غیره عدّة فتن و حروب من قبل مروان الحمار و غیره حتی ولی الخلافة و خلع إبراهیم بن الولید الذی کان تخلّف بعد موت أخیه یزید بن الولید الناقص و لم یتمّ أمره، و کان مروان المذکور متولّی أذربیجان و إرمینیة، فلما بلغه موت یزید جمع الأبطال و العساکر و أنفق علیهم الأموال حتی بلغ قصده و ولی الخلافة و تمّ أمره، و فی آخر السنة المذکورة بایع مروان لابنیه عبید اللّه و عبد اللّه بالعهد من بعده و زوّجهما بابنتی هشام بن عبد الملک، و لم یدر ما خبئ له فی الغیب من زوال دولته ببنی العباس. و فیها حجّ بالناس عبد العزیز بن عمر بن عبد العزیز الأمویّ و هو أمیر مکة و المدینة و الطائف. و فیها خلع سلیمان بن هشام

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱، ص: ۳۰۴

مروان الحمار من الخلافة، و کان سلیمان بمدینة الرّصافة، و وقع له مع مروان أمور و حروب. و فیها توفّی الحکم بن الولید بن یزید بن عبد الملک بن مروان بن الحکم الأمویّ، و کان الولید عقد له و لأخیه عثمان ولایة العهد بعده، و استعمل الحکم هذا علی دمشق و عثمان علی حمص حتی عزلهما یزید بن الولید الناقص. و فیها توفّی عبد العزیز بن عبد الملک بن مروان أبو الإصبع، و هو الذی تولّی قتل الولید بن یزید، فولّاه یزید الناقص العهد بعد أخیه إبراهیم. و فیها توفّی مالک بن دینار العابد الزاهد أبو یحیی البصریّ، أحد الأعلام الزهّاد، قیل: إن أدم مالک المذکور کان فی السنة بفلسین ملحا، و کان یلبس إزار صوف و عباءة خفیفة و فی الشتاء فروة، و کان ینسخ المصحف فی أربعة أشهر، و فی شهرته ما یغنی عن الإطناب فی ذکره.

و فی هذه السنة أیضا کان الطاعون بالشأم و مات فیه خلائق لا تحصی، و کان هذا الطاعون یسمی «بطاعون غراب».

ذکر الذین ذکر الذهبیّ وفاتهم علی القاعدة المتقدّم ذکرها فی سنة ست و عشرین و مائة، قال: و توفی إسماعیل بن عبد الرحمن السّدّیّ، و بکیر بن عبد اللّه بن الأشجّ علی الأصح، و سعد بن إبراهیم فی قول، و عبد الرحمن بن خالد بن مسافر الفهریّ، و عبد الکریم بن مالک الجزریّ، و عبد اللّه بن دینار المدنیّ، و عمرو بن عبد اللّه أبو إسحاق السّبیعیّ، و عمیر بن هانئ العنسیّ، و مالک بن دینار الزاهد فی قول، و محمد ابن واسع فی قول خلیفة، و وهب بن کیسان أیضا.

أمر النیل- الماء القدیم ذراعان و ثلاثة أصابع، مبلغ الزیادة سبعة عشر ذراعا و اثنا عشر إصبعا.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱، ص: ۳۰۵

ذکر ولایة حوثرة بن سهیل علی مصر

هو حوثرة بن سهیل أخو عجلان بن سهیل الباهلیّ أمیر مصر، ولّاه مروان الحمار علی إمرة مصر بعد أن عزل عنها حفص بن الولید

المقدّم ذکره، و جهّز صحبته العساکر لقتال حفص بن الولید، فخرج حوثرة من الشأم و سار منها بالعساکر حتی وصل الی مصر فی یوم الأربعاء لاثنتی عشرة لیلة خلت من المحرّم سنة ثمان و عشرین و مائة و زاد صاحب «البغیة» فقال: و معه سبعة آلاف فارس، و ولّاه مروان علی الصلاة و عیسی بن أبی عطاء علی الخراج. ا ه. و لما وصل حوثرة الی مصر أجمع جند مصر و أهلها علی منعه من الدخول الی مصر فأبی علیهم حفص بن الولید و نهاهم عن ذلک فخافوا حوثرة و سألوه الأمان فأمّنهم و نزل بظاهر الفسطاط، و قد اطمأنوا الیه، فخرج الیه حفص بن الولید فی وجوه الجند فقبض حوثرة علیهم و قیّدهم و أوسع الجند سبّا فانهزم الجند، فقام حوثرة من وقته و دخل الی مصر و معه عیسی بن أبی عطاء و هو علی الخراج علی عادته و حوثرة علی الصلاة لا غیر، و بعث حوثرة فی طلب رؤساء مصر فجمعوا له فضرب أعناقهم و فیهم رجاء بن الأشیم الحمیریّ من کبار المصریین، ثم أخذ حفص بن الولید فقتله و أخذ فی تمهید أمور مصر، و تمّ أمره الی سنة إحدی و ثلاثین و مائة [ثم] عزله مروان الحمار عن إمرة مصر و بعثه الی العراق لقتال الخراسانیة دعاة بنی العباس فقتل هناک، و کان استخلف علی مصر أبا الجرّاح بشر بن أوس، و کان خروجه من مصر لعشر خلون من شهر رجب سنة إحدی و ثلاثین و مائة، فکانت ولایته علی مصر ثلاث سنین و ستة أشهر، و ولی مصر من بعده

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۳۰۶

المغیرة بن عبید اللّه الآتی ذکره. و لما توجّه حوثرة الی الشأم و وجّهه مروان الحمار الی العراق نجدة لابن هبیرة فتوجه الی العراق و وقع له بها أمور، و لم یزل مع مروان الحمار الی أن انکسر مروان من أبی مسلم الخراسانیّ صاحب دعوة بنی العباس، و قیل:

فقتل حوثرة هذا مع من قتل من أعوان بنی أمیّة فانه کان مولی لبنی أمیّة و من کبار أمرائهم، یقال: إنهم طحنوه طحنا لما ظفروا به حتی مات، فإنه کان شجاعا مقداما صاحب رأی و تدبیر و قوّة و خبرة بالحروب. ا ه. و أما أمر حوثرة لما توجّه الی العراق لابن هبیرة فإنه وصل الیه و فی وصوله له قدم علی یزید بن هبیرة ابنه داود منهزما، فخرج یزید بن هبیرة و معه حوثرة هذا الی نحو قحطبة فی عدد کثیر لا یحصی و ساروا حتی نزلوا جلولاء، و احتفر ابن هبیرة الخندق الذی کانت العرب احتفرته أیام وقعة جلولاء، و أقام به، و أقبل قحطبة الی جهة ابن هبیرة فارتحل ابن هبیرة و حوثرة بمن معهما الی الکوفة لقحطبة، و قدم حوثرة هذا أمامه فی خمسة عشر ألفا الی الکوفة، و قیل: إن حوثرة لم یفارق یزید بن هبیرة، و أرسل قحطبة طائفة من أصحابه الی الأنبار و غیرها و أمرهم بإحدار ما فیها من السفن لیعبر الفرات فبعثوا الیه کل سفینة کانت هناک، فقطع قحطبة الفرات حتی صار فی غربیّه، ثم سار یرید الکوفة حتی انتهی الی الموضع الذی فیه ابن هبیرة و حوثرة، و ذلک فی محرّم سنة اثنتین و ثلاثین و مائة لثمان مضین منه، و کان ابن هبیرة قد عسکر علی فم الفرات من [أرض] الفلّوجة العلیا علی ثلاثة و عشرین فرسخا من الکوفة، و کان قدم علیه أیضا ابن ضبارة نجدة بعد حوثرة بن سهیل الباهلیّ المذکور، فقال حوثرة لابن هبیرة:

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۳۰۷

إن قحطبة قد مضی یرید الکوفة فاقصد أنت خراسان ودعه و مروان فإنک تکسره و بالحری أن یتبعک، قال ابن هبیرة: ما کان لیتبعنی و یدع الکوفة، و لکن الرأی أن أبادره الی الکوفة، فعبر الدجلة من المدائن یرید الکوفة، و استعمل علی مقدّمته حوثرة المذکور و أمره أن یسیر الی الکوفة، و الفریقان یسیران علی جانبی الفرات، و قد قال قحطبة لأصحابه: إن الامام أخبرنی أن لی بهذا المکان وقعة یکون النصر [فیها] لنا، ثم عبر قحطبة من مخاضة و قاتل حوثرة و محمد بن نباتة فانهزم حوثرة و محمد بن نباتة و أخوه و لحقوا بابن هبیرة، فانهزم ابن هبیرة بهزیمتهم و لحقوا بواسط و ترکوا عسکرهم و ما فیه من الأموال و السلاح و غیر ذلک، و قیل: إن حوثرة کان بالکوفة فبلغه هزیمة یزید بن هبیرة فسار الیه بمن معه. و أما أمر قحطبة فانه فقد من عسکره بعد هزیمة عساکر ابن هبیرة، فقال أصحاب قحطبة: من عنده عهد من قحطبة فلیخبر به، فقال مقاتل بن مالک العکیّ: سمعت قحطبة یقول: إن حدث بی حدث فالحسن ابنی أمیر الناس، فبایع الناس حمید بن قحطبة لأخیه الحسن، و کان قد سیّره أبوه قحطبة فی سریّة؛ ثم أرسلوا إلیه و أحضروه و سلّموا الیه الأمر ثم بعثوا علی قحطبة فوجدوه فی جدول هو و حرب بن سالم بن أحوز قتیلین، فظنوا أن کل واحد منهما قتل صاحبه. و قیل: إن معن

بن زائدة ضرب قحطبة على عاتقه فسقط فى الماء فأخرجوه، فقال: شدّوا يدىّ إذا أنا متّ و ألقونى فى الماء لئلا يعلم الناس بقتلى ثم كونوا فى أمركم، فوقع ذلک حتى انهزم عسکر ابن هبيرة.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۳۰۸

*** السنة الأولى من ولاية حوثرة بن سهيل على مصر و هى سنة ثمان و عشرين و مائة- فيها بعث ابراهيم العباسىّ أبا مسلم الى خراسان و أمّره على أصحابه و كتب اليهم بذلک، فأتاهم فلم يقبلوا منه، و خرج من قابل إلى مكة و أخبره أبو مسلم بذلک، ثم أرسله ثانيا كما سيأتى ذكره. و فيها توفى اسماعيل بن عبد الرحمن السّدّى صاحب التفسير و المغازى و السّير، كان إماما عارفا بالوقائع و أيام الناس، من الطبقة الثانية من تابعى أهل الكوفة، و قيل: إنه مات سنة سبع و عشرين و مائة، و فيها توفّى جابر بن يزيد الجعفىّ، من الطبقة الرابعة من تابعى أهل الكوفة و قد تكلم فيه و ضعّفه بعضهم. و فيها توفى حيىّ بن هانئ المعافرىّ، أبو قبيل (و أبو قبيل بفتح القاف و كسر الموحدة) غزا أبو قبيل البحر مع جنادة و الغرب فى زمان معاوية، و كان شجاعا ديّنا متواضعا، يخرج الى السوق الى حاجته بنفسه، روى عنه اللّيث بن سعد و غيره و مات بمصر. و فيها توفّى سعيد بن مسروق الثّورىّ أبو سفيان، من الطبقة الثالثة من تابعى أهل الكوفة، كان عالما زاهدا. و فيها توفّى عبد الواحد بن زيد أبو عبيدة واعظ البصرة، من الطبقة الرابعة من تابعى أهل البصرة، كان من الزهّاد و كان يحضر مجالس مالک بن دينار. قال أبو نعيم: صلّى عبد الواحد الغداة بوضوء العتمة أربعين سنة. و فيها توفى عثمان بن عاصم بن حصين [أبو حصين] (بفتح الحاء) الأسدى، من الطبقة الرابعة من تابعى أهل الكوفة، قرئ القرآن عليه بمسجد الكوفة خمسين سنة. و فيها توفى يزيد بن أبى حبيب، من الطبقة الثالثة. من تابعى أهل مصر، و هو أوّل من أظهر بها الحلال و الحرام و الفقه، و إنما كانوا يتحدّثون بالملاحم و الفتن، و كان اللّيث بن سعد يثنى عليه و يقول: ابن أبى حبيب سيّدنا.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۳۰۹

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ذراعان و اثنان و عشرون إصبعا، مبلغ الزيادة ستة عشر ذراعا و إصبع واحد.

*** السنة الثانية من ولاية حوثرة على مصر و هى سنة تسع و عشرين و مائة- فيها خرج بحضرموت طالب الحق عبد اللّه بن يحيى الكندىّ الأعور، تغلّب عليها و اجتمع عليه الإباضية، ثم سار الى صنعاء و بها القاسم بن عمر الثقفىّ فوقع بينهم قتال كثير، انتصر فيه طالب الحق و هرب القاسم و قتل أخوه الصّيلت، و استولى طالب الحق على صنعاء و أعمالها، ثم جهّز إلى مكة عشرة آلاف و بها عبد الواحد ابن سليمان بن عبد الملک بن مروان فغلبوا على مكة و خرج منها عبد الواحد المذكور.

و فيها كتب ابن هبيرة أمير العراق إلى عامر بن ضبارة فسار حتى أتى خراسان و قد ظهر بها أبو مسلم الخراسانى صاحب دعوة بنى العباس فى شهر رمضان، و كان قد ظهر هناک عبد اللّه بن معاوية الهاشمى فقبض عليه أبو مسلم و سجنه و سجن معه خلقا من شيعته. و فيها توفى سالم بن أبى أميّة أبو النّضر مولى عمر بن عبيد اللّه ابن معمر التّيمىّ، من الطبقة الرابعة من تابعى أهل المدينة، كان يفد على عمر بن عبد العزيز و يعظه، فقال له يوما: يا أمير المؤمنين، عبد خلقه اللّه بيده، و نفخ فيه من روحه، و أسجد له ملائكته، و أسكنه جنّته عصاه مرة واحدة فأخرجه من الجنّة بتلک الخطيئة الواحدة، و أنا و أنت نعصى اللّه كل يوم مرارا، و نتمنّى على اللّه الجنّة! و كانت وفاته بالمدينة.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۳۱۰

ذكر من ذكر الذهبىّ وفاته فى هذه السنة، قال: فيها توفى أزهر بن سعيد الحرازىّ بحمص، و الحارث بن عبد الرحمن بالمدينة، و خالد بن أبى عمران التّجيبىّ قاضى إفريقيّة، و سالم أبو النّضر المدنىّ، و على بن زيد بن جدعان التّيمىّ، و قيس ابن الحجاج السّلفىّ، و مطر بن طهمان الورّاق، و يحيى بن أبى كثير اليمانىّ، و بشر ابن حرب الندبىّ و آخرون.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثلاثة أذرع و تسعة عشر إصبعا، مبلغ الزيادة ستة عشر ذراعا و ثلاثة عشر إصبعا.

*** السنة الثالثة من ولاية حوثرة بن سهيل على مصر و هى سنة ثلاثين و مائة- فيها اصطلح نصر بن سيّار و جديع بن علىّ الكرمانىّ

على قتال أبى مسلم الخراسانىّ، فدس أبو مسلم الخراسانىّ إلى ابن علىّ الكرمانىّ من خدعه و اجتمعا و قاتلا نصر بن سيّار فقوى جيش أبى مسلم الخراسانى و تقهقر نصر بن سيّار بين يديه، فأخذ أبو مسلم أثقاله ثم أخذ مرو و قتل عاملها شيبان الحرورىّ، فأقبلت سعادة بنى العباس و أخذ من يومئذ أمر بنى أميّة فى إدبار، ثم استولى أبو مسلم فى هذه السنة على أكثر مدن خراسان، ثم ظفر بعبد اللّه بن معاوية الهاشمىّ فقتله، ثم كتب نصر بن سيّار إلى ابن هبيرة نائب العراق يستنجده و يستصرخ به إلى الخليفة مروان الحمار. و فيها استولى جيش طالب الحق على مكة، فكتب عبد الواحد أمير المدينة إلى الخليفة مروان الحمار يخبره بخذلان أهل مكة، ثم جهّز جيشا إلى مكّة فبرز لحربهم أعوان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱، ص: ۳۱۱

طالب الحق و عليهم أبو حمزة و التقى الجمعان بقديد فى صفر فانهزم جيش عبد الواحد و ساق أبو حمزة فاستولى على المدينة أيضا، و قتل يوم وقعة القديد هذه ثلثمائة نفس من قريش: منهم حمزة بن مصعب بن الزبير بن العوّام، و ابنه عمارة، و ابن أخيه مصعب حتى قالت بعض النوائح:

ما للزمان و ما ليه أفنى قديد رجاليه

ثم إنّ مروان الحمار بعث جيشا عليه عبد الملك بن محمد بن عطية، فسار ابن عطيّة المذكور و التقى مع أبى حمزة مقدّم عساكر طالب الحق فكسره، و قتل أبرهة الذى كان ولّاه طالب الحق على مكة عند بئر ميمونة، فبلغ طالب الحقّ فأقبل من اليمن فى ثلاثين ألفا، فخرج إليه عبد الملك بن محمد المذكور بعساكر مروان فكانت بينهم وقعة عظيمة انهزم فيها طالب الحقّ، ثم التقوا ثانيا، و ثالثا قتل فيها طالب الحقّ فى نحو من ألف حضرمىّ، و بعث عبد الملك بن محمد برأسه إلى الخليفة مروان الحمار. و فيها كانت زلازل شديدة بالشام و أخربت بيت المقدس و أهلكت أولاد شدّاد بن أوس فيمن هلك، و خرج أهل الشأم إلى البريّة و أقاموا أربعين يوما على ذلك، و قيل: كان ذلك فى سنة إحدى و ثلاثين و مائة. و فيها توفّى الخليل ابن أحمد بن عمرو الفراهيدى أبو عبد الرحمن النحوىّ البصرىّ.

قال ابن قرأوغلى: و لم يكن بعد الصحابة أذكى من الخليل هذا و لا أجمع، و كان قد برع فى علم الأدب، و هو أوّل من صنّف العروض، و كان من أزهد الناس.

قلت: و لعل ابن قرأوغلى واهم فى وفاة الخليل هذا، و الذى أعرفه أنه كان فى عصر أبى حنيفة و غيره. و ذكر الذهبىّ وفاته فى سنة ستين و مائة، و قال ابن

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱، ص: ۳۱۲

خلّكان: كانت ولادته يعنى الخليل فى سنة مائة من الهجرة و توفّى فى سنة سبعين و مائة و قيل خمس و سبعين و مائة، و قال ابن قانع فى تاريخه المرتّب على السنين: إنه توفى سنة ستين و مائة، و قال ابن الجوزى فى كتابه الذى سماه «شذور العقود»: إنه مات سنة ثلاثين و مائة و هذا غلط قطعا، و الصحيح انه عاش لبعد الستين و مائة، و يقال:

إنه كان له ولد فدخل عليه فوجده يقطّع بيت شعر بأوزان العروض، فخرج إلى الناس فقال: إنّ أبى جنّ فدخلوا إليه و أخبروه، فقال مخاطبا لابنه:

لو كنت تعلم ما أقول عذرتنى أو كنت تعلم ما تقول عذلتكا

لكن جهلت مقالتى فعذلتنى و علمت أنك جاهل فعذرتكا

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربعة أذرع و ثلاثة عشر إصبعا، مبلغ الزيادة ستة عشر ذراعا و أربعة أصابع و نصف إصبع.

*** السنة الرابعة من ولاية الحوثرة على مصر الى شهر رجب، و من رجب حكمها المغيرة بن عبيد اللّه الآتى ذكره و هى سنة إحدى و ثلاثين و مائة- فيها كانت وقعة بين ابن هبيرة و بين عامر بن ضبارة، فالتقوا بنواحى أصبهان فى شهر رجب فقتل ابن ضبارة فى

المصافّ.

و ذکر محمد بن جریر الطبریّ: أن عامر بن ضبارة کان فی مائة ألف، ثم بعث ابن هبیرة الی مروان الحمار یخبره بقتله عامر بن ضبارة و طلب منه المدد فأمدّه بأمیر مصر صاحب الترجمة حوثرة بن سهیل الباهلیّ بعد أن عزله عن إمرة مصر و بعثه فی عشرة آلاف من قیس، ثم تجمّعت جیوش مروان الحمار بنهاوند و علیهم مالک ابن أدهم فضایقهم قحطبة أربعة أشهر حتی خرجوا بالأمان فی شوّال، ثم قتل قحطبة وجوها من عسکر أهل مصر، ثم أقبل قحطبة یرید العراق فخرج الیه متولّیها ابن هبیرة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۳۱۳

و انضم الیه المصریون و المنهزمون حتی صار فی ثلاثة و خمسین ألفا و نزل جلولاء، و نزل قحطبة فی آخر العام بخانقین، فوقع بین الطائفتین عدّة وقائع و بقوا علی ذلک الی السنة الآتیة. و فیها کان الطاعون العظیم، هلک فیه خلق کثیر، حتی قیل: إنه مات فی یوم واحد سبعون ألفا قاله ابن الجوزیّ، و کان هذا الطاعون یسمّی:

«طاعون أسلم بن قتیبة».

قال المدائنیّ: کان بالبصرة فی شهر رجب و اشتدّ فی رمضان ثم خف فی شوّال و بلغ کلّ یوم ألف جنازة، و هذا خامس عشر طاعونا وقع فی الإسلام حسبما تقدّم ذکره فی هذا الکتاب، قال المدائنیّ: و هذا کله فی دولة بنی أمیّة، بل نقل بعض المؤرّخین أن الطواعین فی زمن بنی أمیة کانت لا تنقطع بالشأم حتی کان خلفاء بنی أمیّة اذا جاء زمن الطاعون یخرجون الی الصحراء، و من ثمّ اتّخذ هشام بن عبد الملک الرّصافة منزلا، و کانت الرّصافة بلدة قدیمة للروم، ثم خفّ الطاعون فی الدولة العباسیة، فیقال: إن بعض أمراء بنی العباس بالشأم خطب فقال:

احمدوا اللّه الذی رفع عنکم الطاعون منذ ولینا علیکم، فقام بعض من له جرأة فقال:

إن اللّه أعدل من أن یجمعکم علینا و الطاعون ا ه. و فیها تحوّل أبو مسلم الخراسانیّ عن مرو و نزل نیسابور و استولی علی عامة خراسان. و فیها توفّی واصل بن عطاء أبو حذیفة البصریّ مولی بنی مخزوم، و قیل: مولی بنی ضبّة، ولد سنة ثمانین بالمدینة، و کان أحد البلغاء لکنه کان یلثغ بالراء یبدلها غینا، و کان لاقتداره علی العربیة و توسّعه فی الکلام یتجنّب الراء فی خطابه، و فی هذا المعنی یقول بعض الشعراء:

و جعلت و صلی الراء لم تنطق به و قطعتنی حتی کأنک واصل

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۳۱۴

و واصل هذا هو رأس المعتزلة، و الخوارج لما کفّرت بالکبائر، قال واصل:

بل الفاسق لا- مؤمن و لا کافر منزلة بین المنزلتین، فلذلک طرده الحسن البصریّ، عن مجلسه، فجلس عند واصل عمرو بن عبید و اعتزلا مجلس الحسن البصریّ فمن یومئذ قیل لهم: المعتزلة.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم ثلاثة أذرع و تسعة أصابع، مبلغ الزیادة ستة عشر ذراعا و أربعة أصابع.

ذکر ولایة المغیرة بن عبید اللّه علی مصر

هو المغیرة بن عبید اللّه بن المغیرة بن عبید اللّه بن سعد بن حکم [بن مالک] بن حذیفة بن بدر بن عمرو بن جویّة بن لوذان بن ثعلبة بن [عدیّ] بن فزارة الفزاریّ.

و قال صاحب «البغیة»: المغیرة بن عبید اللّه بن مسعدة خالف فی الجدّ. ا ه.

ولّاه الخلیفة مروان الحمار علی مصر بعد عزل حوثرة و توجّهه الی العراق نجدة لابن هبیرة، فقدم المغیرة الی مصر فی سادس عشر من شهر رجب سنة إحدی و ثلاثین و مائة علی الصلاة. و قال صاحب «البغیة»: ولّاه مروان بن محمد علی الصلاة فقدم یوم الأربعاء لست

بقین من رجب سنة إحدی و ثلاثین و مائة فجعل علی شرطته ابنه عبد اللّه و کان لیّنا محبّبا للناس.

و قال غیره: و لما دخل مصـر أقام بها مدّة یسیرة و خرج الی الاسـکندریة و استخلف علی صلاة مصر أبا الجراح الحرشی، ثم عاد بعد مدّة و لم تطل مدّته،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱، ص: ۳۱۵

و توفی یوم السـبت ثانی عشر جمادی الأولی سنة اثنتین و ثلاثین و مائة و استخلف ابنه الولید بن المغیرة علی إمرة مصر و صلاتها فلم یقرّه الخلیفة مروان الحمار علی ذلک، و ولّی مصر عبد الملک بن مروان بن موسـی، فکانت ولایة المغیرة علی مصـر عشـرة أشهر إلا أیاما ثلاثة.

و قال صاحب «البغیة»: و توفّی یوم السبت لاثنتی عشـرة لیلة خلت من جمادی الأولی و ذکر السـنة، فکانت ولایته عشرة أشهر، فأجمع الجمع علی أن یولّوا عبـد اللّه بن عبـد الرحمن بن معاویة بن حدیج علی الشـرطة الی أن یأتی أمر مروان ابن محمد، و انصـرف الولید للنصف من جمـادی الآـخرة، و کـان المغیرة دیّنا فاضـلا عـدلا محبّبا للرعیّـة، و هو أجلّ أمراء بنی أمیّة و ولی لهم الأعمال الجلیلـة، و حضـر وقعـة شـهرزور، لمـا وجّه قحطبـة أبـا عون عبـد الملـک بن یزیـد الخراسانی و مالک بن طریف الخراشـی فی أربعـة آلاف الی شهرزور و بها عثمان بن سفیان، و المغیرة هذا علی مقدّمة عبد اللّه بن مروان بن محمد فنزلوا علی فرسخین من شهرزور و قاتلوا عثمان و انهزم عثمـان و قتـل، و قام أبو عون ببلاد الموصل، و قیل إن عثمان لم یقتل و هرب هو و المغیرة هـذا الی عبـد اللّه بن مروان و غنم أبو عون عسـکره و قتل من أصحابه مقتلة عظیمة، ثم سیر خطبة العساکر الی أبی عون فاجتمع معه ثلاثون ألفا، و لما بلغ مروان الخلیفة خبر أبی عون سار بنفسه بجمیع عساکر ممالکه و أقبل نحو أبی عون فوقع له حروب و أمور یطول شرحها.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱، ص: ۳۱۶

ذکر ولایة عبد الملک بن مروان علی مصر

هو عبد الملک بن مروان بن موسی بن نصیر اللّخمی أمیر مصر، ولّاه الخلیفة مروان بن محمد بن مروان المعروف بالحمار علی الصلاة و الخراج معا بعـد موت المغیرة ابن عبیـد اللّه الفزاریّ، و کان عبـد الملک هذا قد ولی خراج مصـر قبل أن یلی الإمرة و الصـلاة، فلما مـات المغیرة جمع له مروان الخراج و الصـلاة، و ذلک فی جمادی الآخرة سـنة اثنتین و ثلاثین و مائه، و لما تمّ أمره جعل أخاه معاویة علی الشّـرطة، ثم ولی عکرمـة بن عبـد اللّه الخولانیّ، ثم إن عبـد الملک المـذکور أمر باتّخاذ المنابر فی الجوامع و لم یکن قبل ذلک منبر، و إنما کانت ولاة مصـر یخطبون علی العصی إلی جانب القبلة، ثم خرج علیه قبط مصر بعد ذلک و اجتمعوا علی قتاله فحاربهم و قتـل کثیرا منهم و انهزم من بقی [منهم] ثم خـالف بعـد ذلک فی أیامه عمرو بن سـهیل بن عبـد العزیز بن مروان علی مروان الحمار و دعا لنفسه و اجتمع علیه جمع من قیس فی الحوف الشرقی من أعمال مصر، فبعث الیهم عبد الملک هذا [بجیش] فلم تقع بینهم حرب، و بینمـا هم فی ذلـک إذ قـدم علیهم الخلیفـة مروان الحمـار من أرض الشـام و قـد انهزم من أبی مسـلم الخراسـانی صـاحب دعوة بنی العبـاس فی یوم الثلاثـاء لثمـان بقین من شوّال، و قیل لثلاث بقین من شوّال سـنة اثنتین و ثلاثین و مائـة. و لما دخل مروان مصـر وجد أهـل الحوف الشـرقی من بلاـد مصـر و أهـل الاسـکندریة [و الصـعید] قـد صـاروا مسوّدة- أعنی صاروا من أعوان بنی العباس و لبسوا السواد- فعزم مروان الحمار علی تعدیة النیل فعدّی الی الجیزة و أحرق الجسرین و الدار المذهّبة و بعث بجیش الی الاسکندریة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱، ص: ۳۱۷

فـاقتتلوا مع من کـان بها بالکریون، و بینما هو فی ذلک خالفت القبط، فبعث الیهم مروان من قاتلهم أیضا و هزمهم، ثم بعث جیشا الی الصـعید، و بینما هو فی ذلک قـدم صالـح بن علی بن عبـد اللّه بن عباس فی طلب مروان و مع صالح أبو عون عبد الملک بن یزید، و کان قدوم عبد الملک الی الدیار المصریة فی یوم الثلاثاء النصف من ذی الحجة سنة اثنتین و ثلاثین و مائة المذکورة فلم یثبت مروان

الحمار لصالح المذكور، و توجّه الى بوصير بالجيزة و معه عبد الملك صاحب مصر و غيره من حواشيه و أمرائه و أقار به من بنى أمية، فلحقه صالح بها فالتقاه مروان الحمار بمن معه و قاتله حتى انهزم و قتل فى يوم الجمعة لتسع بقين من ذى الحجة، ثم عاد صالح بن على المذكور و دخل الفسطاط فى يوم الأحد لثمان خلون من المحرّم سنة ثلاث و ثلاثين و مائة، و بعث برأس مروان الى الشام و العراق و زالت دولة بنى أمية.

و أما عبد الملك بن مروان أمير مصر صاحب الترجمة فانه كان لما ولى مصر أحسن السيرة و لم يفحش فى حق بنى العباس فأمّنه صالح و أمّن أخاه معاوية و عفا عنهما، ثم قتل حوثرة بن سهيل و حسّان بن عتاهية اللذين كانا كل منهما ولى على مصر قبل عبد الملك، و عبد الملك هذا هو آخر أمير ولى مصر من قبل بنى أمية و زالت فى هذه السنة بقتل مروان الحمار دولة بنى أمية، و بويع السفّاح عبد اللّه بن محمد بن على بن عبد اللّه بن عباس بالخلافة، و هو أوّل خلفاء بنى العباس، و لا بد من ذكر كيفية انفصال دولة بنى أمية و ابتداء دولة بنى العباس فى هذه الترجمة فإن ذلك من أعظم ما يذكر من الوقائع و إن كان ذلك غير ما نحن فيه من شرط هذا الكتاب فنذكره على سبيل الاستطراد فى ترجمة عبد الملك أمير مصر فانه آخر من ولى من أمراء بنى أميّة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱، ص: ۳۱۸

ذكر بيعة السفّاح بالخلافة

لما كان المحرّم سنة اثنتين و ثلاثين و مائة بلغ ابن هبيرة أمير العراقين لبنى أمية أن قحطبة أحد دعاة بنى العباس توجّه نحو الموصل يريد الكوفة فرحل ابن هبيرة بأصحابه نحو الكوفة، و سار كل منهما حتى تواقعا، فجاءت قحطبة طعنة فوقع فى الفرات فهلك و لم يعلم به قومه، و انهزم أيضا أصحاب ابن هبيرة و غرق خلق منهم فى المخايض.

و قال بيهس بن حبيب: [قلت] لجمع الناس بعد أن جاوزنا الفرات: من أراد الشام فهلمّ فذهب معه جمع من الناس، و نادى آخر: من أراد الجزيرة، فتبعه خلق، و نادى آخر: من أراد الكوفة، فذهب كل جند الى ناحية، فقلت: من أراد واسط فهلم فاجتمعنا على ابن هبيرة و سرنا حتى دخلنا واسط يوم عاشوراء و أصبح و أصبحوا المسوّدة و قد فقدوا قائدهم قحطبة، ثم استخرجوه من الماء و أمّروا عليهم ابنه الحسن فقصد بهم الكوفة فدخلوها يوم عاشوراء أيضا و هرب متولّيها من قبل بنى أميّة و هو زياد بن صالح، فاستعمل ابن قحطبة على الكوفة أبا سلمة الخلّال ثم قصد واسط فنزلها و خندق على جيشه، فعبّا ابن هبيرة عساكره فالتقوا فانهزم عسكر ابن هبيرة و تحصّنوا بواسط، و قتل فى الوقعة حكيم بن المسيّب الجدلى، ثم وثب أبو مسلم صاحب دعوة بنى العباس على ابن الكرمانى فقتله بنيسابور و جلس فى دست الملك و خطب للسفّاح و أخذ فى أسباب بيعة السفّاح بالخلافة، فلما كان يوم ثالث شهر ربيع الأوّل من سنة اثنتين و ثلاثين و مائة بويع بالخلافة فى دار مولاهم الوليد

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱، ص: ۳۱۹

ابن سعد و لم ينتطح فى ذلك عنزان، و بلغ ذلك خليفة الوقت مروان بن محمد بن مروان الأموى المعروف بالحمار، فسار من الشام فى مائة الف حتى نزل الرأس دون الموصل، فجهز السفاح عمّه عبد اللّه بن على فى جيش فالتقى الجمعان على كشاف فى جمادى الآخرة فانكسر مروان و تقهقر الى الجزيرة و قطع وراءه الجسر و قصد الشام ليتقوى و يلتقى ثانيا بالمسوّدة، و دخل عبد اللّه بن على العبّاسى الجزيرة فاستعمل عليها موسى بن كعب التميمى ثم طلب الشام مجدّا، و أمدّه السفّاح بعمّه الآخر صالح ابن على، فسار عبد اللّه حتى نزل دمشق فعجز مروان عن ملاقاته، و فرّ الى غزّة فحوصرت دمشق مدّة ثم أخذت فى شهر رمضان، و قتل خلق من بنى أميّة و جندهم لا يدخل تحت حصر، فلما بلغ مروان ذلك هرب الى مصر ثم قتل فى آخر السنة ببوصير حسبما ذكرناه، و هرب ابناه عبد اللّه و عبيد اللّه الى النّوبة، و وقع ما ذكرناه فى ترجمة عبد الملك أمير مصر من قتل حوثرة و حسّان و غير ذلك.

قال محمد بن جرير الطبرى: كان بدء أمر بنى العباس أن رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم فيما ذكر عنه، أعلم العباس عمّه أن الخلافة

تؤول الى ولـده، فلم يزل ولـده يتوقّعون ذلك. و عن رشـيد بن كريب أن أبا هاشم عبد اللّه بن محمد بن الحنفيّة خرج الى الشام فلقى محمـد بن على بن عبـد اللّه بن عباس فقال: يا بن عمّ، إن عنـدى علما أريـد أن أبـديه اليك فلا تطلعنّ عليه أحدا، إن هذا الأمر الذى يرتجيه الناس فيكم، قال: قد علمته فلا يسمعنّه منك أحد.

و روى المدائنى عن جماعة أن الامام محمد بن على بن عبد اللّه بن عباس قال:

لنا ثلاثة أوقات: موت يزيد بن معاوية، و رأس المائة، و فتق بإفريقيّة، فعند

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۳۲۰

ذلك يدعو لنا دعاة ثم تقبل أنصارنا من المشرق حتى ترد خيولهم المغرب؛ فلما قتل يزيد بن أبى مسلم بإفريقيّة و نقضت البربر، بعث محمد الإمام رجلا الى خراسان و أمره أن يدعو الى الرّضـى من آل محمد صلى اللّه عليه و سلم و لا يسمّى أحدا ثم توجّه أبو مسلم و غيره و كتب الى النّقبـاء فقبلوا كتبه، ثم وقع فى يـد مروان الحمـار كتـاب إبراهيم بن محمـد الإمام الى أبى مسـلم، جواب كتاب يأمره بقتل كل من يتكلّم بالعربيّة بخراسان فقبض مروان على ابراهيم، و قد كان مروان وصف له صـفة السّفّاح التى كان يجدها فى الكتب، فلما جىء بابراهيم قال: ليست هذه الصـفة التى وجدت، ثم ردّهم و شـرع فى طلب الموصوف له، فإذا بالسـفاح و إخوته و عمومته قد هربوا الى العراق، فيقال: إن ابراهيم كان قد نعى اليهم نفسه و أمرهم بالهرب فساروا حتى نزلوا فى الحميمة فى أرض البلقاء، ثم قدموا الكوفة فأنزلهم أبو سـلمة الخلّال دار الوليد بن سـعد، فبلغ الخبر أبا الجهم، فاجتمع بموسى بن كعب و عبد الحميد بن ربعىّ و سلمة بن محمـد و ابراهيم بن سـلمة و عبد اللّه الطائى و اسحاق بن ابراهيم و شـراحيل [و عبد اللّه] بن بسّام و جماعة من كبار شـيعتهم، فدخلوا على آل العباس فقالوا: أيكم عبـد اللّه بن محمد ابن الحارثيّة؟ فأشاروا الى السـفاح فسـلّموا عليه بالخلافة، ثم خرج السـفاح يوم جمعة على برذون أبلق فصـلّى بالناس بالكوفة ثم عاد السـفاح الى المنبر ثانيا و قال: الحمد للّه الذى اصـطفى الاسلام لنفسه فشرفّه، و كرّمه و عظّمه، و اختاره لنا، و أيّده بنا، و جعلنا أهله و كهفه و حصـنه، و القوّام به و الذابّين عنه. ثم ذكر قرابتهم فى آيات من القرآن الشريف الى أن قـال: فلمـا قبض اللّه نبيّه قـام بالأـمر أصـحابه الى أن وتب بنو حرب و بنو مروان، فجـاروا و اسـتأثروا فـأملى اللّه لهم حينـا حتى آسفوه فانتقم منهم

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۳۲۱

بأيـدينا، و ردّ علينـا حقّنـا، ليمنّ بنـا على الـذين استضـعفوا فى الأـرض، و ختم بنـا كما افتتـح بنا؛ و ما توفيقنا أهل البيت إلا بالله. يأهل الكوفـة، أنتم محل محبّتنا، و منزل مودّتنا؛ أنتم الـذين لم تتغيروا عن ذلك و لم يثنكم عنه تحامل أهل الجور، فأنتم أسـعد الناس بنا، و أكرمهم علينا، و قد زدت فى أعطياتكم مائة مائة فاستعدوا فأنا السفاح المبيح و الثائر المبير.

و كان السـفاح موعوكا فجلس، فقام عمّه داود بن علىّ فخطب و أبلغ و قال: إن أمير المؤمنين نصره اللّه نصرا عزيزا إنما عاد الى المنبر لأنه كره أن يخلط بكلام الجمعـة غيره، و إنما قطعه عن اسـتتمام الكلام شـدّة الوعك فادعوا له بالعافيـة، فقد أبدلكم اللّه بمروان عدوّ الرحمن و خليفة الشيطان المتّبع لسلفه المفسدين فى الأرض الشابّ المتكهّل و سمّاه، فضجّ الناس له بالدعاء.

و أمـا ابراهيم بن محمـد (أعنى أخـا السـفاح) الـذى وقع له مع مروان مـا ذكرنـاه، فان مروان قتله بعـد ذلك غيلـة، و قيل: بل مات فى السجن بحرّان بالطاعون، انتهى ما أوردناه من انفصال الدولتين

*** السـنة الأـولى من ولايـة عبـد الملـك بن مروان بن موسـى على مصـر و هى سـنة اثنتين و ثلاثين و مائـة- فيها كانت وقائع كثيرة بالعراق و غيره قتل فيها خلائق، ففى المحرّم كانت الوقعة بين قحطبة و ابن هبيرة حسبما تقدّم ذكره فى أوّل بيعة السفّاح.

و فيها فى ثالث شهر ربيع الأوّل بويع السفاح عبد اللّه بن محمد بن على بن عبد اللّه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۳۲۲

ابن عباس بالخلافـة، و قـد تقـدّم أيضا. و فيها كانت قتلـة مروان الحمار، و قـد تقـدّم ذكره أيضا، و هو مروان بن محمـد بن مروان بن

الحکم بن أبی العاص بن أمیّة بن عبد شمس آخر خلفاء بنی أمیّة، و کنیته أبو عبد الملک، القائم بحق اللّه، و أمّه أمّ ولد کردیّة، کان یعرف بالحمار و بالجعدیّ، و تسمیته بالجعدیّ نسبة لمؤدّبه جعد بن درهم، و بالحمار، یقال فلان أصبر من حمار فی الحروب، و لهذا لقّب بالحمار، فانه کان لا یفترّ عن محاربة الخوارج، و قیل: سمّی بالحمار لأن العرب تسمّی کل مائة سنة حمارا، فلما قارب ملک بنی أمیة مائة سنة لقبوا مروان هذا بالحمار، و أخذوا ذلک من قوله تعالی فی موت حمار العزیز: وَ انْظُرْ إِلی حِمارِکَ ... الآیة و کان مولد مروان الحمار سنة اثنتین و سبعین بالجزیرة و أبوه متولّ علیها من قبل ابن عمه الخلیفة عبد الملک بن مروان، فنشأ مروان فی دولة أقار به و ولی الولایات الجلیلة، و افتتح عدّة فتوحات حتی وثب علی الأمر بعد ابراهیم بن الولید، و بویع بالخلافة سنة سبع و عشرین و مائة، فلم یتهنّ بالخلافة لکثرة الحروب، و ظهرت دعوة بنی العباس و کان من أمرها ما کان و انقرض بموته دولة بنی أمیّة. و فیها توفّی خلائق یطول الشرح فی ذکرهم ممّن قتل فی الحروب و أیضا من أعوان بنی أمیّة و غیرهم. و فیها توفّی ابراهیم بن محمد بن علی بن عبد اللّه بن عباس أخو الخلیفة السفاح لأبیه، و قد تقدّم ذکر واقعته مع مروان الحمار فی أمر الکتاب، و أمه أم ولد بربریّة اسمها أسلم، و کان أبوه محمد أوصی الیه بالعهد فانه کان بویع سرا فأدرکته المنیّة، و کان شیعتهم یکاتبونه من خراسان حتی وقع له مع مروان ما حکیناه، و حبسه الی أن مات فی هذه السنة و قیل فی الماضیة، و بعد موته انضمت شیعته علی عبد اللّه السفّاح. و فیها قتل سعید بن عبد الملک بن مروان أبو محمد، و کان یعرف بسعید الخیر، قتل بسیف عبد اللّه بن علیّ العباسی عمّ السفّاح، و کان دیّنا خیّرا ولی لأقار به خلفاء بنی أمیة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۳۲۳

أعمالا جلیلة. و فیها توفّی عبد اللّه بن عمر بن عبد العزیز بن مروان کان شجاعا دیّنا کریما، و کان ولی العراق و حفر بالبصرة نهرا یعرف بنهر ابن عمر. و فیها توفّی محمد ابن أبی بکر بن محمد بن عمرو بن حزم أبو عبد الملک الأنصاری، ولی قضاء المدینة.

و فیها توفّی محمد بن عبد الملک أخو سعید لأبویه، تقدّمت ترجمته فی ولایته علی مصر سنة خمس و مائة. و فیها توفی یزید بن عمر بن هبیرة بن معاویة الأمیر أبو خالد، و قیل أبو عمرو الفزاریّ، ولی الأعمال الجلیلة و غزا القسطنطینیة مع مسلمة بن عبد الملک و جمع له بین العراقین سنة ثلاث و مائة و کان خطیبا شاعرا شجاعا، و کان السفاح أمّنه فبعث إلیه أبو مسلم الخراسانی و حرّضه علی قتله فأمر بقتله فقتل هو و ابنه داود و کاتبه عمر بن أیوب و عدّة من موالیه.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم ثلاثة أذرع و أربعة عشر إصبعا، مبلغ الزیادة ستة عشر ذراعا و إصبع واحد.

ذکر ولایة صالح بن علیّ العباسیّ الأولی علی مصر

هو صالح بن علی بن عبد اللّه بن عباس بن عبد المطلب الهاشمیّ العبّاسیّ، أوّل من ولی مصر من قبل خلفاء بنی العباس، مولده بالسّواد و قیل بالشّراة من أرض البلقاء سنة ست و تسعین من الهجرة، ولی مصر من قبل ابن أخیه أمیر المؤمنین عبد اللّه السفّاح بعد قتل مروان الحمار فی أوّل محرّم سنة ثلاث و ثلاثین و مائة و قد تقدّم ذکر قتاله مع مروان فی ترجمة عبد الملک بن مروان بن موسی أمیر مصر و لما ولی صالح مصر بعث ببیعة أهل مصر لأمیر المؤمنین عبد اللّه السفّاح، ثم أخذ صالح فی إصلاح أمر مصر و قبض علی جمع کثیر من المصریین الأمویّین، منهم

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۳۲۴

عبد الملک بن مروان بن موسی أمیر مصر و أخوه، و قتل کثیرا من شیعة بنی أمیّة و حمل طائفة منهم إلی العراق و قتلوا بقلنسوة من أرض فلسطین، و أمر للناس بأعطیاتهم للمقاتله و العیال، و قسّم الصدقات علی الأیتام و المساکین و أبناء السبیل، و زاد فی المسجد زیادة هائلة، و جعل علی شرطته ابن هانئ الکندیّ، ثم ورد علیه بعد مدّة طویلة کتاب السفاح بإمارته علی فلسطین و الاستخلاف علی مصر، فاستخلف علی مصر أبا عون عبد الملک، و خرج منها فی شعبان سنة ثلاث و ثلاثین و مائة، و سار معه عبد الملک بن مروان

بن موسی، الذی کان أمیر مصر، مکرما و عدّة من أهل مصر- تأتی بقیة ترجمة صالح بن علی هذا فی ولایته الثانیة علی مصر إن شاء اللّه تعالی- فکانت ولایة صالح علی مصر فی هذه المرّة سبعة أشهر و أیاما.

*** السنة التی حکم فیها صالح علی مصر و هی سنة ثلاث و ثلاثین و مائة- فیها استعمل الخلیفة السفّاح علی البصرة عمّه سلیمان بن علی، و استعمل علی مکة خاله زیاد بن عبید اللّه، و علی الیمن ابن خاله محمد بن زیاد بن عبید اللّه. و فیها وجّه السفاح علی إفریقیة محمد بن الأشعث. و فیها خرج ببخارا شریک بن شیخ المهریّ، و کان قد نقم علی أبی مسلم الخراسانی تجبّره فجهّز إلیه أبو مسلم جیشا فحاربوه و قتلوه.

و فیها خرج طاغیة الروم قسطنطین بجیوشه و أخذ ملطیة و هدم السور و الجامع.

و فیها قتل عبد اللّه بن علی عمّ السفاح الخلیفة خلقا کثیرا من قوّاد بنی أمیة. و فیها توفّی داود بن علی بن عبد اللّه بن العباس عمّ [الخلیفة] السفاح، و کان ولی المدینة و مکّة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۳۲۵

و حجّ بالناس فی سنة اثنتین و ثلاثین و مائة، و هو أوّل أمیر حجّ بالناس من بنی العباس، و قتل داود هذا أیضا فی ولایته خلقا من بنی أمیّة و أعوانهم، ثم مات بعد أشهر، و استخلف حین احتضر علی عمله ولده موسی، فاستعمل السفّاح علی مکة خاله زیادا المقدّم ذکره، و موسی بن داود علی إمرة المدینة لا غیر. و فیها قتل عبد الرحمن ابن یزید بن المهلب بن أبی صفرة. و فیها قتل عبد اللّه بن علی عمّ السفاح ثعلبة و عبد الجبار ابنی أبی سلمة بن عبد الرحمن.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم أربعة أذرع و ثمانیة أصابع، مبلغ الزیادة ثمانیة عشر ذراعا و تسعة أصابع.

ذکر ولایة أبی عون الأولی علی مصر

هو أبو عون، و اسمه عبد اللّه و قیل عبد الملک بن یزید الأمیر أبو عون، أصله من أهل جرجان ولی صلاة مصر و خراجها باستخلاف صالح بن علیّ بن عبد اللّه بن العباس له فی مستهلّ شعبان سنة ثلاث و ثلاثین و مائة، و استمرّ أبو عون بمصر إلی أن وقع الوباء بها فخرج منها، و أستخلف علی مصر صاحب شرطته عکرمة بن عبد اللّه ابن عمرو بن قحزم (و قحزم بفتح القاف و سکون الحاء المهملة و فتح الزای و بعدها میم) ثم عاد أبو عون إلی مصر بعد الوباء و أقام بها إلی أن خرج منها ثانیا إلی دمیاط فی سنة خمس و ثلاثین و مائة، و استخلف علی مصر عکرمة أیضا و جعل علی الخراج عطاء بن شرحبیل. و فی هذه السنة خرج القبط علیه بسمنود بالوجه البحری من

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۳۲۶

أعمال مصر فبعث إلیهم أبو عون جیشا فحاربوهم و قتلوهم، و فی أیام أبی عون هذا سکنت أمراء مصر العسکر.

و سببه أنه لما قدم صالح بن علی العبّاسی و أبو عون هذا بجموعهم إلی مصر فی طلب مروان الحمار نزلت عساکرهما الصحراء جنب جبل یشکر الذی هو الآن جامع أحمد بن طولون و کان فضاء، فلما رأی أبو عون ذلک أمر أصحابه بالبناء فیه فبنوا و بنی هو به أیضا دار الإمارة و مسجد عوف بجامع العسکر، و عملت الشرطة أیضا فی العسکر و قیل لها الشرطة العلیا، و إلی جانبها بنی الأمیر أحمد بن طولون جامعه الموجود الآن، و سمی من یومئذ ذلک الفضاء

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۳۲۷

العسکر و صار منزلا لأمراء مصر من بعد أبی عون و صار العسکر مدینة ذات أسواق و دور عظیمة، و فیه أیضا بنی الأمیر أحمد بن طولون بیمارستانه، و کان البیمارستان المذکور بالقرب من برکة قارون التی صارت الآن کیمانا و بعضها برکة علی یسار من مشی من حدرة ابن قمیحة یرید قنطرة السدّ، و علی هذه البرکة بنی کافور الإخشیدی دارا صرف علیها مائة ألف دینار و سکنها، و زادت

العمائر فی العسکر إلی أن ولی أحمد بن طولون و قدم إلی مصر من العراق، فنزل علی عادة الأمراء بدار الإمارة بالعسکر، فما زال بها أحمد بن طولون الی أن بنی القصر و المیدان

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱، ص: ۳۲۸

بالقطائع و تحوّل الیها، و دام بها الی أن مات و ولی ابنه خمارویه بن أحمد بن طولون و جعل دار الإمارة بالعسکر دیوان الخراج، یأتی ذکر ذلک فی ترجمتهما إن شاء اللّه تعالی.

فلما زالت دولة بنی طولون و ولی محمد بن سلیمان الکاتب الآتی ذکره سکن بدار فی العسکر عند المصلّی القدیمة حیث الکوم المطلّ الآن علی قبر القاضی بکّار بن قتیبة، و ما زالت الأمراء بعد ذلک تنزل بالعسکر الی أن قدم القائد جوهر المعزّی من المغرب الی مصر و بنی القاهرة المعزّیة فی سنة ثمان و خمسین و ثلثمائة. انتهی أمر العسکر و سبب بنیانه باختصار، و هذا التعریف بالعسکر مقدّمة لما یأتی بعد ذلک من سکن أمراء مصر به.

و أما أبو عون فانه لما أرسل و حارب القبط و قتلهم بسمنود عاد الی مصر، و بینما هو کذلک فی أموره ورد علیه کتاب الخلیفة أبی العباس عبد اللّه السفّاح بعزله و ولایة صالح بن علی العباسی ثانیا علی مصر علی الصلاة و الخراج، و مع ذلک ولایة فلسطین أیضا و الغرب، ثم وردت الجیوش من قبل السفّاح مع صالح بن علی لغزو المغرب، و کانت ولایة أبی عون علی مصر فی هذه المرة الأولی ثلاث سنین إلا

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱، ص: ۳۲۹

أربعة أشهر، و یأتی بقیة ترجمة أبی عون هذا فی ولایته الثانیة علی مصر إن شاء اللّه تعالی.

*** السنة الأولی من ولایة أبی عون علی مصر و هی سنة أربع و ثلاثین و مائة- علی أنه حکم مصر أشهرا من سنة ثلاث و ثلاثین و مائة التی ذکرناها فی حوادث صالح بن علی. ا ه. فیها (أعنی سنة أربع و ثلاثین و مائة) تحوّل الخلیفة السفّاح من الحیرة و نزل الأنبار و سکنها. و حجّ بالناس فی هذه السنة عیسی بن موسی العبّاسی. و فیها کانت حروب کثیرة من جهة ملک الصین و غیره کما هی عوائد أوائل الدول، و السفّاح مشغول فی تمهید الممالک فی هذه السنة و الخالیة.

و أما عمّال السفاح فی هذه السنة: علی الشأم عبد اللّه بن علی عمّ السفاح، و علی مصر أبو عون صاحب الترجمة، و علی الجزیرة و أذربیجان أخو الخلیفة السفاح، و علی دیوان الأموال خالد بن برمک، و علی خراسان أبو مسلم الخراسانیّ، و علی البصرة سلیمان بن علی عمّ السفاح. و فیها توفی یزید بن یزید بن جابر الأزدیّ، کان من الزهاد الخائفین البکّائین، أثنی علیه الإمام أحمد بن حنبل رضی اللّه عنه. و فیها توفّی یونس بن عبید أبو عبد اللّه مولی عبد القیس من الطبقة الرابعة من تابعی أهل البصرة، کان یحدّث ثم یقول: أستغفر اللّه ثلاثا. و فیها کان الطاعون بالرّیّ و أعمالها و مات فیه خلق کثیر.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم ستة أذرع و ستة عشر إصبعا، مبلغ الزیادة ثمانیة عشر ذراعا و عشرة أصابع.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱، ص: ۳۳۰

*** السنة الثانیة من ولایة أبی عون علی مصر و هی سنة خمس و ثلاثین و مائة- فیها خلع زیاد طاعة الخلیفة السفاح بما وراء النهر فتهیأ لحربه أبو مسلم الخراسانی، و بعث نصر بن راشد الی ترمذ لیحصّنها، فقاتلته طائفة من الخوارج، و سار أبو مسلم و حارب زیاد بن صالح المذکور و قبض علیه.

و ذکر الذهبی هذه الواقعة فی سنة خمس و ثلاثین و مائة. و فیها أیضا کانت حرکة ملک الصین، و کان زیاد بن صالح المذکور متولّی سمرقند فتهیأ لقتاله و کتب الی أبی مسلم الخراسانی بذلک، و وقع لهم معه أمور و حروب الی أن انهزم ملک الصین، کل ذلک قبل خروج زیاد بن صالح عن الطاعة. و فیها توفّیت رابعة العدویّة البصریة الزاهدة العابدة، و کانت مولاة لآل عتیک، و کان سفیان الثوری و أقرانه یتأدّبون معها، و کانت رابعة تصلّی اللیل کله فإذا طلع الفجر هجعت فی مصلّاها هجعة خفیفة حتی یسفر الفجر

ثم تثب الى الصلاة و تقول: يا نفس كم تنامين، و الى كم لا تقومين؛ يوشك أن تنامين نومة لا تقومين منها إلا بصرخة.

و فيها قتل سليمان بن هشام بن عبد الملك بن مروان الأموىّ، و كان سليمان مباينا لمروان الحمار و التجأ لبنى العباس فأمّنه السفّاح و صار يجالسه، فأرسل اليه أبو مسلم الخراسانى يقول: قد بقى من الشجرة الملعونة فرع، فى كلام طويل، فلم يلتفت السفاح الى كلامه فدسّ أبو مسلم الى سديف الشاعر مالا و قال له: قل فى هذا المعنى شعرا، فأنشد سديف المذكور السفّاح و أشار الى سليمان:

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱، ص: ۳۳۱

لا يغرّنك ما ترى من رجال إن تحت الضلوع داء دويا

فضع السيف و ارفع السّوط حتى لا ترى فوق ظهرها أمويّا

فكان ذلك سبب قتله فضرب السفّاح عنقه و عنق ولديه و صلبهم. و فيها توفّى عطاء الخراسانى البجلىّ أبو عثمان بن أبى مسلم ميسرة مولى المهلّب بن أبى صفرة من الطبقة الثانية من تابعى أهل الشام، كان عالما زاهدا فقيه أهل خراسان.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربعة أذرع و اثنا عشر إصبعا، مبلغ الزيادة ستة عشر ذراعا و ثلاثة أصابع.

ذكر ولاية صالح بن علىّ العباسىّ ثانيا على مصر

وليها ثانيا من قبل السفاح فقدم مصر بجيوش كثيرة من فلسطين لغزو بلاد المغرب، و كان قدومه الى مصر فى يوم خامس شهر ربيع الآخر سنة ست و ثلاثين و مائة، و لما دخل مصر أقرّ عكرمة على شرطته بالفسطاط و جعل على شرطته بالعسكر يزيد بن هانىء الكندى، و ولّى أبا عون المعزول عن إمرة مصر جيوش المغرب و قدّمه صالح المذكور أمامه الى نحو إفريقيّة، و كان خروج أبى عون بجيوشه الى نحو المغرب فى جمادى الآخرة من سنة ست و ثلاثين و جهّزت المراكب من اسكندرية الى برقة، و بينما هم فى ذلك قدم الخبر بموت أمير المؤمنين عبد اللّه السفاح فى ذى الحجة و استخلاف أبى جعفر المنصور، فأقرّ أبو جعفر المنصور عمّه صالح بن على هذا على عمل مصر على عادته و كتب الى أبى عون بالرجوع عن غزو إفريقية، فأرسل صالح الى أبى عون بالخبر، فأقام أبو عون ببرقة أحد عشر شهرا ثم عاد الى مصر بجيشه، فجهّزه صالح هذا الى فلسطين لحرب الخوارج بها، فسار أبو عون و حاربهم و هزمهم و قتل منهم مقتلة عظيمة، و سيّر الى مصر

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱، ص: ۳۳۲

منهم ثلاثة آلاف رأس، ثم خرج صالح بن على بعد ذلك من مصر الى فلسطين و استخلف ابنه الفضل على صلاة مصر، فسافر حتى بلغ بلبيس ثم رجع الى مصر و أقام بها الى أن خرج منها ثانيا لأربع خلون من شهر رمضان سنة سبع و ثلاثين و مائة فلقى أبا عون فأمّره على صلاة مصر و خراجها معا و مضى إلى فلسطين، و دخل أبو عون الفسطاط لأربع بقين من شهر رمضان من سنة سبع و ثلاثين و مائة و سكن العسكر و دام على إمرة مصر، و استمرّ صالح بن على بفلسطين الى أن أمره المنصور بالتوجّه لغزو الروم فى سنة ثمان و ثلاثين و مائة فخرج صالح حتى نزل مرج دابق، و أقبلت جيوش الروم مع ملكهم قسطنطين فى مائة ألف، فلقيه صالح هذا بالمسلمين و نصره اللّه تعالى على الروم فقتل منهم و سبى و غنم، ثم حجّ بالناس فى سنة إحدى و أربعين و مائة ثم غزا الروم و الصائفة غير مرة، و هو الذى بنى حصن دابق و مات و هو عامل حمص بقنّسرين، و قيل مات بعين أباغ، و قد بلغ ثمانيا و خمسين سنة، و استخلف ابنه الفضل على حمص فأقرّه الخليفة أبو جعفر المنصور على ذلك، و كان صالح صالحا فاضلا، و له رواية أسند عن أبيه، و روى عنه ابناه اسماعيل و عبد الملك، و هو عمّ السفاح و المنصور.

*** السنة الأولى من ولاية صالح بن على العبّاسىّ الثانية على مصر و هى سنة ست و ثلاثين و مائة- على أن أبا عون حكم منها أشهرا على مصر. فيها بايع أهل دمشق هاشم بن يزيد بن خالد بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان لمّا بلغهم موت السفّاح. و حكى الذهبى ذلك فى سنة سبع و ثلاثين و مائة ا ه، فتوجّه صالح ابن على من فلسطين بالجيوش الى الشام، فلما أظلّهم صالح بالجيوش و هربوا

ملک

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۳۳۳

صالح الشام بعد أمور صدرت. و فیها دعا عبد اللّه بن علی العباسی عم السفاح لنفسه و قال: إن السفاح قال: من انتدب لمروان الحمار فهو ولیّ عهدی من بعدی، و علی هذا خرجت، فلما بلغ الخلیفة أبا جعفر المنصور ذلک قال لأبی مسلم الخراسانی: فإنما هو أنا و أنت؛ فسار أبو مسلم نحو عبد اللّه بن علی المذکور فوقع له معه وقعة هائلة کاد أن ینهزم فیها أبو مسلم، ثم کان النصر له و انهزم عبد اللّه ابن علی، فلما بلغ المنصور ذلک بعث لأبی مسلم الخراسانی بولایة مصر و الشأم معا فأظهر أبو مسلم الغضب و قال: یولّینی مصر و الشام و أنا لی خراسان! و عزم علی الشر، و قیل: بل شتم المنصور لما جاءه من عنده من یحصی الغنائم، و أجمع علی الخلاف ثم طلب خراسان، و خرج المنصور الی المدائن و کتب الی أبی مسلم لیقدم علیه فی طریقه، فردّ علیه الجواب: إنه لم یبق لأمیر المؤمنین عدوّ، و قد کنا نروی عن ملوک آل ساسان أنه أخوف ما یکون الوزراء اذا سکنت الدّهماء؛ فنحن نافرون من قربک، حریصون علی الوفاء بعهدک ما وفیت، فإن أرضاک ذلک فإنّا أحسن عبیدک، و إن أبیت نقضت ما أبرمت من عهدک. فردّ علیه المنصور الجواب یطمّنه مع جریر بن یزید البجلی، و کان واحد وقته فخدعه.

و أما عبد اللّه بن علی و أخوه عبد الصمد، فقصد عبد الصمد الکوفة فاستأمن له عیسی بن موسی فأمّنه المنصور، و توجّه عبد اللّه بن علی الی أخیه سلیمان بن علی متولّی البصرة فاختفی عنده، و الصحیح أن هذه الفتنة کان ابتداؤها فی أواخر هذه السنة غیر أن الوقعة و الهرب کانا فی سنة سبع و ثلاثین و مائة. و فیها توفّی الخلیفة أمیر المؤمنین أبو العباس عبد اللّه السفاح بن محمد بن علی بن عبد اللّه بن العباس الهاشمیّ العبّاسی، أوّل خلفاء بنی العباس، مات فی ذی الحجة و له ثلاث و ثلاثون

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۳۳۴

سنة، و کانت خلافته أربع سنین، فانه ولی فی سنة اثنتین و ثلاثین و مائة قبل قتل مروان الحمار، و به کان انقراض دولة بنی أمیة، و کان أبوه محمد بن علی، بویع بالخلافة قبل موته بسنتین فلم یتمّ أمره، و عهد عند موته لابنه السفاح هذا قبل أبی جعفر المنصور، و کان أسنّ من السّفاح و لما مات [السفّاح] هذا، ولی أخوه أبو جعفر المنصور الخلافة من بعده.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم أربعة أذرع و ثمانیة أصابع، مبلغ الزیادة ثمانیة عشر ذراعا و ثمانیة أصابع.

*** السنة الثانیة من ولایة صالح بن علی العباسی علی مصر و هی سنة سبع و ثلاثین و مائة- فیها قدم الخلیفة أبو جعفر المنصور الکوفة و تأخّر بعده أبو مسلم الخراسانی بأیام؛ و کانا تلک السنة معا فی الحج فأتاهما الخبر بموت السفّاح و بخلافة المنصور. و قد ذکرنا خروج عبد اللّه بن علی العباسیّ علی أبی جعفر المنصور فی العام الماضی و هو وهم، و إن کان خروجه کان فی آخر السنة الماضیة فما واقعة أبو مسلم إلا فی هذه السنة. ا ه. و فیها حجّ بالناس اسماعیل بن علی و هو أمیر الموصل، و کان أمیر المدینة فی هذه السنة زیاد بن علی، و أمیر مکة العباس بن عبد اللّه، و مات فی آخر السنة، فأضاف أبو جعفر المنصور مکة الی زیاد، و کان علی

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۳۳۵

الکوفة عیسی بن موسی العباسی، و علی البصرة سلمان بن علی عمّ المنصور، و علی خراسان أبو داود، و علی مصر صالح صاحب الترجمة، و علی الجزیرة حمید بن قحطبة.

و فیها قتل الخلیفة أبو جعفر المنصور أبا مسلم الخراسانی و ولّی أبا داود خالد بن ابراهیم خراسان عوضه، و اسم أبی مسلم عبد الرحمن و هو صاحب دعوة بنی العباس و أحد من قام بأمرهم حتی تمّ له ذلک و وطّأ لهم البلاد و قتل العباد و قصّة قتلته تطول. و کان أبو مسلم شابا جبّارا مقداما شجاعا عارفا صاحب رأی و تدبیر و دهاء و مکر و عقل و حذق، قیل إنه کان یجامع فی السنة مرة واحدة مع کثرة جواریه، فقیل له فی ذلک، فقال: یکفی الشخص أن یتجنّن فی السنة مرة. و یحکی أن أبا جعفر المنصور لما قتله أدرجه فی بساط و طلب جعفر بن حنظلة، فقال أبو جعفر المنصور: ما تقول فی أمر أبی مسلم؟ فقال: یا أمیر المؤمنین، إن کنت

أخـذت من رأسه شـعرة فاقتـل ثم اقتل، فقال المنصور: وفّقك اللّهها هو فى البساط، فلما نظر اليه قتيلا قال: يا أمير المؤمنين، هـذا أوّل خلافتك، فأنشد المنصور:

فألقت عصاها و استقرّ بها النوى كما قرّ عينا بالإياب المسافر

ثم أنشد المنصور ثانيا و بين يديه وجوه دولته و أعوان مملكته و أعيانها و أقاربه:

زعمت أنّ الدّين لا يقتضى فاستوف بالكيل أبا مجرم

اشرب بكأس كنت تسقى بها أمرّ فى الحلق من العلقم

و اختلف فى اسم أبى مسلم و اسم أبيه، فقيل: اسمه عبد الرحمن بن مسلم بن شقيرون بن إسفنديار، و قيل: عبد الرحمن بن عثمان بن يسار، و قيل: عبد الرحمن

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۳۳۶

ابن محمد، و سـمّاه أبو بكر الخطيب إبراهيم بن عثمان بن يسار بن سدوس بن جودر من ولد يزدجرد، و قيل: إنما سـماه عبد الرحمن الإمام إبراهيم بن محمـد بن على العبّاسـىّ، و كنّاه: أبا مسـلم، و كانت كنيته: أبا اسـحاق، و كان مولـده سـنة مائة بأصـبهان. ا ه. و فيها توفّى صـفوان بن صالـح بن صـفوان أبو عبد الملك الدمشـقىّ الثقفىّ ولد سـنة ست و سـبعين، و كان فقيها زاهدا عابدا، و كان يؤذّن بجامع دمشق.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربعة أذرع و ستة أصابع، مبلغ الزيادة ثمانية عشر ذراعا و ستة أصابع.

ذكر ولاية أبى عون الثانية على مصر

كانت ولايته هـذه الثانيـة على مصـر من قبل صالح بن علىّ العباسـىّ لما توجّه الى فلسـطين كما تقدّم ذكره، ثم أقرّه الخليفة أبو جعفر المنصور على إمرة مصر على صد؟؟؟ها و خراجها معا، و كان يوم دخول أبى عون المذكور الى مصر يوم سادس عشرين شهر رمضان من سـنة سبع و ثلاثين و مائـة، و جعل على شـرطته عكرمة بن عبد اللّه و على الدواوين عطاء بن شـرحبيل، و دام أبو عون على صـلاة مصـر و خراجها معا الى أن قدم الخليفة أبو جعفر المنصور الى بيت المقدس، فكتب بطلب أبى عون المذكور الى عنده ببيت المقدس و أمره بأن يسـتخلف على مصـر، فاسـتخلف أبو عون المذكور عكرمة على الصـلاة و عطاء بن شرحبيل على الخراج، و خرج من مصر فى النصف من شهر ربيع الأوّل سنة إحدى و أربعين و مائة، فلما وصل أبو عون الى المنصور ببيت المقدس عزله عن إمرة مصر و ولّى عليها موسى بن كعب، فكانت ولايته

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۳۳۷

هـذه الثانيـة على مصـر ثلاث سـنين و سـتة أشـهر، و دام أبو عون فى صـحبة الخليفـة أبى جعفر المنصور، و حضـر وقعـة الرّاونديّة مع المنصـور، و الرّاونديـة: قـوم من أهـل خراسـان على رأى أبى مسـلم صـاحب الـدعوة يـأتى ذكرهم فى الحـوادث فى سـنة الواقعـة مع المنصور.

*** السـنة الأـولى من ولايـة أبى عون الثانيـة على مصـر و هى سـنة ثمـان و ثلاـثين و مائـة- فيهـا بعث أبو جعفر المنصور لقتال ملبّد الشّيبانىّ خازم بن خزيمة، فسار خازم فى ثمانية آلاف فارس، و كان ملبّد هذا قد خرج على المنصور من أوّل خلافته فالتقوا فقتل ملبّد بعـد حروب كثيرة. و فيها غزا صالـح بن علىّ الروم على دابق، و قـد تقدّم ذكر ذلک فى ترجمته و أخذ ملطية، و كانت الروم أخذوها من مدّة سـنين. و فيها حجّ بالناس الفضل بن صالح بن علىّ العباسـىّ من الشام من عند أبيه. و فيها توفّى زيد ابن واقد الدمشقىّ؛ و فيها ظهر عبد اللّه بن على العباسىّ و بعث بالبيعة مع أخيه سليمان متولّى البصرة إلى أبى جعفر المنصور فأمنه أبو جعفر المذكور و عفا عنه. و فيهـا دخـل عبـد الرحمن بن معاويـة الأـموىّ الى الأنـدلس و اسـتولى عليها و امتـدّت أيامه و بقيت الأنـدلس فى يـد أولاده الى بعد

الأربعمائة، و كان هرب من بنى العباس الى المغرب و دخل الأندلس، فسمّى بعبد الرحمن الداخل، يأتى ذكره و ذكر أولاده من بعده فى عدّة أماكن من هذا الكتاب إن شاء اللّه تعالى.

و ذكر الذهبىّ وفاة جماعة كثيرة فى هذه السنة، قال: و توفّى زيد بن واقد القرشىّ بدمشق، و سهيل بن أبى صالح فى قول، و سليمان بن فيروز أبو إسحاق

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۳۳۸

الشيبانىّ فى قول، و العلاء بن عبد الرحمن المدنىّ، و عبد الرحمن بن الحارث بن عبد اللّه المخزومىّ فى قول، و علقمة بن أبى علقمة فى قول، و عمرو بن أبى عمرو مولى المطلب فى قول، و ليث بن أبى سليم فى قول، و المسور بن رفاعة القرظىّ المدنىّ.

أمر النيل فى هذه السنة الماء القديم ثلاثة أذرع و أربعة عشر إصبعا، مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا و سبعة أصابع.

*** السنة الثانية من ولاية أبى عون الثانية على مصر و هى سنة تسع و ثلاثين و مائة- فيها حج جعفر بن حنظلة البهرانى فأتى ملطية و هى خراب فعسكر بها، و أقبل الأمير عبد الواحد فنزل على ملطية فزرع أرضها و طبخ كلسا لبناء سورها، ثم خرج عنها لأمر اقتضى ذلك، فأرسل طائفة الروم من أحرق الزرع. و فيها خرج الأمير صالح بن على المقدّم ذكره و العباس بن محمد فأوغلا فى بلاد الروم، و غزتا معهما أمّ عيسى و لبابة أختا الأمير صالح بن على المذكور و عمّتا المنصور الخليفة، و كانتا نذرتا إن زال ملك بنى أميّة أن تجاهدا فى سبيل اللّه، و بعد هذا العام لم يكن غزو الى سنة ست و أربعين و مائة لاشتغال الخليفة المنصور بخروج ابنى عبد اللّه بن الحسن عليه. و فيها عزل المنصور عمّه سليمان بن علىّ عن البصرة و ولّى عليها سفيان ابن سعيد. و فيها اختفى عبد اللّه بن علىّ و ابنه خوفا على أنفسهما، و عبد اللّه هذا هو الذى كان خرج على المنصور و اختفى عند أخيه سليمان الذى عزل عن البصرة فى هذا العام ثم ظفر به المنصور و سجنه. و فيها حجّ بالناس العباس ابن أخى المنصور.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۳۳۹

و فيها فى قول صاحب المرآة: وصل عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك ابن مروان الى جزيرة الأندلس و ملكها، و يسمى عبد الرحمن الداخل، و كنيته أبو المطرّف، و أمّه أمّ ولد و بويع بالأندلس فى هذه السنة، و هو أوّل الخلفاء من بنى أميّة و أقام عليها ثلاثا و ثلاثين سنة، و قد تقدّم ذكر عبد الرحمن هذا فى الماضية فى قول الذهبى. و فيها وسّع الخليفة أبو جعفر المنصور المسجد الحرام مما يلى دار النّدوة.

و فيها توفّى عثمان بن عبد الأعلى بن سراقة الأزدىّ قاضى دمشق فى أيام الوليد بن يزيد. و فيها توفى عمرو بن مهاجر بن دينار أبو عبيد، من الطبقة الرابعة من تابعى أهل الشام.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثلاثة أذرع و أحد عشر إصبعا، مبلغ الزيادة أربعة عشر ذراعا و عشرون إصبعا.

*** السنة الثالثة من ولاية أبى عون الثانية على مصر و هى سنة أربعين و مائة- فيها بنى المصّيصة جبريل بن يحيى و سكنها الناس. و فيها ثار جمع من جند خراسان على أميرها أبى داود خالد بن إبراهيم ليلا حتى وصلوا الى داره فأشرف عليهم و جعل ينادى أصحابه فانكسرت به آجرّة فوقع من أعلى داره فانكسر ظهره و مات من الغد، فبعث الخليفة أبو جعفر المنصور على إمرة خراسان عوضه عبد الجبّار بن عبد الرحمن

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۳۴۰

الأزدىّ، فسار المذكور و قبض على جماعة من أهل خراسان و قتلهم. و فيها توجّه الأمير عبد الوهاب بن إبراهيم بن محمد العبّاسىّ ابن أخى الخليفة أبى جعفر المنصور الى ملطية فأقام بها سنة حتى بناها ورمّ شعثها و أسكنها الناس. و فيها حجّ بالناس الخليفة أبو جعفر المنصور و عاد من الحج فزار بيت المقدس و سلك الشأم فى طريقه و نزل الرّقّة فقتل بها منصور بن جعفر العامرىّ ثم سار الى الهاشميّة و هى مدينة الكوفة و أمر بالشروع فى بناء مدينة بغداد و اختطّها.

و ذكر الذهبىّ بناء بغداد فى سنة خمس و أربعين و مائة قال: و فى هذه السنة أسّست مدينة السلام بغداد و هى التى تدعى مدينة المنصور، سار المنصور يطلب موضعا يتّخذه بلدا فبات ليلة موضع القصر، فطاب له المبيت و لم ير إلا ما يحبّ، فقال:ها هنا ابنوا فإنه طيّب و يأتيه مادّة الفرات و دجلة و الأنهار، فخطّ بغداد و وضع أوّل لبنة بيده و قال: بسم اللّه و بالله و الحمد للّه ابنوا على بركة اللّه؛ و سأل راهبا هناك عن أمر الأرض و صحّتها و قال: هل تجدون فى كتابكم أن تبنى‌ها هنا مدينة؟ قال: نعم؛ يبنيها مقلاص، قال: فأنا كنت أدعى بذلك، و طلب المنصور الصنّاع و الفعلة من البلاد و أحضر المهندسين و الحكماء و العلماء، و كان فيمن أحضر حجّاج بن أرطاة و أبو حنيفة، و رسمت له بالرماد سورها و أبوابها و أسواقها، ثم بنيت حتى كمل المهمّ منها فى عام و الباقى فى أربع سنين، و كانت بقعة بغداد مزرعة تدعى المباركة لستين نفسا فعوّضهم المنصور عنها و أرضاهم، و قيل: إنه ليس فى الدنيا مدينة مدوّرة سواها، و عمل فى وسطها دار المملكة بحيث إنه اذا كان فى قصره كان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۳۴۱

جميع أطراف البلد إليه سواء، و سكنها المنصور و نقل إليها خزائنه، و قيل سعتها مائة و ثلاثون جريبا، و أنفق عليها مائة ألف ألف درهم.

و قال بدر المعتضدىّ قال لنا أمير المؤمنين: انظروا كم سعة مدينة المنصور؟

فحسبنا فإذا هى ميلان مكسران فى ميلين، و قيل: مسافة ما بين كل باب و باب ألف و مائتا ذراع، و كلّها مبنيّة بالآجر و اللّبن، و اللّبنة ذراع فى ذراع، وزنتها مائة رطل و سبعة عشر رطلا. و لها أربعة أبواب بين الباب و الباب ثمانية و عشرون برجا و عليها سوران، ثم بنى الجامع و القصر، و فى صدر القصر القبّة الخضراء، ارتفاعها ثمانون ذراعا، و دامت حتى سقط رأسها فى ليلة مطر و رعد فى سنة تسع و عشرين و ثلاثمائة؛ و كان لا يدخل هذه المدينة أحد راكبا سوى المنصور و ابنه محمد المهدىّ.

و قال الصّولى قال أحمد بن أبى طاهر: ذرع بغداد- يعنى الجديدة- ذرع الجانبين ثلاثة و خمسون ألف جريب، و فى نسخة أخرى غير رواية الصّولى:

أنها من الجانبين ثلاثة و أربعون ألف جريب و سبعمائة، قال الصّولى و ذكر ابن أبى طاهر: أن عدد حمّاماتها كانت ذلك الوقت ستين ألفا، و قال: أقلّ ما يدير كل حمام خمسة أنفس، و ذكر أن بإزاء كل حمّام خمسة مساجد.

قال الذهبىّ: و كذا نقل الخطيب فى تاريخه، و ما أعتقد أنا هذا قط و لا عشر ذلك، ثم قال الخطيب: حدّثنى هلال بن الحسن قال: كنت بحضرة جدّى إبراهيم

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۳۴۲

ابن هلال الصابى فقال تاجر: يذكر أن ببغداد اليوم ثلاثة آلاف حمّام فقال جدّى:

سبحان اللّه! هذا سدس ما كنّا عددناه و حصرناه زمن الوزير المهلّبىّ، ثم كانت فى دولة عضد الدولة بن بويه خمسة آلاف. و نقل ابن خلّكان أن استكمال بغداد كان فى سنة تسع و أربعين و مائة، و هى بغداد القديمة التى بالجانب الغربىّ على دجلة، و بغداد اليوم هى الجديدة بالجانب الشرقىّ؛ و فيها دار الخلافة. انتهى كلام الذهبى و غيره باختصار. و قد خرجنا عن المقصود فى هذا الكتاب لكثرة الفوائد. و فيها توفّى منصور بن جعونة بن الحارث بن خالد العامرىّ كان ممّن خرج على بنى العباس و امتنع عن بيعتهم.

و ذكر الذهبىّ وفاة جماعة فى هذه السنة قال: و فيها توفى أيّوب أبو العلاء القصّاب، و داود بن أبى هند فى أوّلها، و أبو حازم سلمة بن دينار الأعرج، و سهيل ابن أبى صالح، و سعد بن إسحاق بن كعب، و صالح بن كيسان، و عروة بن رويم.

و قيل: و فيها توفّى عمارة بن غزيّة الأنصارىّ، و عمرو بن قيس السّكونىّ الحمصىّ.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمسة أذرع و ثلاثة أصابع، مبلغ الزيادة ستة عشر ذراعا و عشرون إصبعا و نصف.

ذكر ولاية موسى بن كعب على مصر

هو موسى بن كعب الأمير أبو عيينة التّميميّ، أحد نقباء بنى العباس، ولاه الخليفة أبو جعفر المنصور على إمرة مصر بعد عزل أبى عون، فدخل مصر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١، ص: ٣٤٣

لأربع عشرة بقيت من شهر ربيع الآخر سنة إحدى و أربعين و مائة و سمّاه صاحب «البغية» موسى بن كعب بن عيينة. ا ه.

قلت: و ولّى على صلاة مصر و خراجها معا، و نزل العسكر المقدّم ذكره و سكنه، و جعل على شرطته عكرمة بن عبد اللّه و باشر أمر مصر بحرمة وافرة، و نهى الجند أن يتوجّهوا اليه أو يتكلّموا معه إلا في أمر مهمّ و لا يفعلوا به كما كانوا يفعلون بالأمراء من قبله، فانتهوا عنه حتى إنه لم يمكّن أحدا أن يجتاز ببابه إلا من له عنده حاجة أو أذن له فى ذلك. و موسى هذا هو أوّل من بايع أبا العباس السفّاح بالخلافة فى مبدأ أمره و أخرجه إلى الناس، و كان هو القائم بأمر بنى العباس مع أبى مسلم الخراسانيّ، و كان موسى هذا يسافر إلى البلاد و يدعو الناس للقيام مع بنى العباس حتى قبض عليه أسد بن عبد اللّه القسريّ عامل خراسان يوم ذاك لبنى أمية، فأمر به أسد فألجم بلجام و كسرت أسنانه و عوقب ثم أطلق بعد شدائد، فلما صار الأمر الى بنى العباس أمالوا الدنيا عليه، و كان قاسى الأهوال بسبب دعوتهم و عذّب و حبس كما سيأتى ذكره، و كان يقول لما ولى مصر: كانت لنا أسنان و ليس عندنا خبز، فلما جاء الخبز ذهبت الأسنان؛ و كان أبو جعفر المنصور يعظّمه و يجلّ مقداره، و كان جعله على شرطته ثم ولّاه مصر مكرها و أضاف له السّند، فلم تطل مدّته على إمرة مصر و عزله أبو جعفر المنصور فى ذى القعدة كما سيأتى ذكره بمحمد بن الأشعث، و كتب إليه المنصور: إنى عزلتك عن غير سخط، و لكن بلغنى أنّ عاملا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١، ص: ٣٤٤

يقتل بمصر يقال له موسى، فكرهت أن تكونه؛ فأخذ موسى كلام المنصور لغرض من الأغراض، فقتل بعد ذلك بسنين موسى بن مصعب، فى خلافة محمد المهديّ كما سيأتى ذكره إن شاء اللّه، و لما صرف موسى بن كعب عن إمرة مصر استخلف على الجند خالد بن حبيب و على الخراج نوفل بن الفرات، و خرج موسى هذا من مصر لستّ بقين من ذى القعدة سنة إحدى و أربعين و مائة، و كانت ولايته على مصر سبعة أشهر و أياما، و لما خرج من مصر سار حتى قدم على الخليفة أبى جعفر المنصور فأكرم الخليفة نزله و ولّاه على الشّرطة ثانيا، و مات بعد مدّة يسيرة، و قيل: إنه توجّه مريضا فمات فى أثناء قدومه و لم يل الشرطة و لا غيرها، و على القولين فإنه مات فى هذه السنة رحمه اللّه تعالى.

و أما أمر موسى هذا مع أسد و كان ذلك فى سنة سبع عشرة و مائة فإنه كان خرج هو و سليمان بن كثير و مالك بن الهيثم و لاهز بن قريظ و خالد بن إبراهيم و طلحة ابن زريق فدعوا الناس لبنى العباس، فظهر أمرهم فقبض عليهم أسد بن عبد اللّه و قال لهم: يا فسقة، أ لم يقل اللّه تعالى: عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَ مَنْ عادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ فقال له سليمان بن كثير: نحن و اللّه كما قال الشاعر:

لو بغير الماء حلقى شرق كنت كالغصّان بالماء اعتصارى

صيدت و اللّه العقارب بيديك.

إنّا أناس من قومك و إنّ المضريّة رفعوا إليك هذا لأننا كنا أشدّ الناس على قتيبة ابن مسلم فطلبوا بثأرهم، فحبسهم و أطلق من كان معهم من أهل اليمن لأنه كان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١، ص: ٣٤٥

منهم، و أراد قتل من كان من مضر، فدعا موسى بن كعب هذا و ألجمه بلجام حمار و جذب اللّجام فتحطّمت أسنانه و دقّ وجهه و أنفه، ثم دعا لاهز بن قريظ و ضربه ثلثمائة سوط.

*** السنة التى حكم فيها موسى بن كعب على مصر و هى سنة إحدى و أربعين و مائة فيها كان عزله و ولايته. و فيها كانت وقعة

الرّاونديّة ببغداد، و هم قوم من خراسان على رأى أبى مسلم الخراسانى، يقولون بتناسخ الأرواح، فيزعمون أن روح آدم عليه السلام حلّت فى عثمان بن نهيك، و أنّ المنصور هو ربهم، و أنّ الهيثم بن معاوية هو جبريل، و أتوا قصر المنصور و جعلوا يطوفون به، فقبض المنصور على مائتين منهم و حبسهم فغضب الباقون، فعمدوا الى نعش فارغ و حملوه يزعمون أنها جنازة و مرّوا بها على باب السجن، فشدّوا على أهل السجن بالسلاح حتى فتحوا باب السجن، و أخرجوا أصحابهم و قصدوا المنصور، فخرج اليهم المنصور على غفلة فكانت بينهم وقعة كاد المنصور أن يقتل فيها، و قتل عثمان بن نهيك بسهم ثم وضع المنصور فيهم السيف. و فيها عزل الخليفة أبو جعفر المنصور زياد بن عبيد اللّه الحارثى عن مكة و المدينة و الطائف و ولّى محمد بن خالد بن عبد اللّه القسرىّ المدينة، و ولى الهيثم بن معاوية مكّة و الطائف. و فيها توفى موسى بن عقبة بن أبى عيّاش المدنىّ أبو محمد صاحب المغازى مولى آل الزبير بن العوّام، و مغازيه فى مجلد صغير، أدرك سهل بن سعد و حدّث عن أم خالد بنت خالد و عن عروة و كريب و أبى سلمة بن عبد الرحمن و الأعرج و حمزة بن عبد اللّه بن عمرو الزهرى و خلق، و حدّث عنه ابن جريج و الإمام مالك و عبد اللّه بن المبارك و ابن عيينة و غيرهم.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۳۴۶

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ذراعان و خمسة أصابع، مبلغ الزيادة ستة عشر ذراعا و ثمانية أصابع.

ذكر ولاية محمد بن الأشعث على مصر

هو محمد بن الأشعث بن عقبة بن أهبان الخزاعىّ أمير مصر، وليها من قبل المنصور بعد عزل موسى بن كعب التميمىّ، ولّاه أمير المؤمنين أبو جعفر المنصور على الصلاة و الخراج معا و قدم مصر فى يوم الاثنين خامس ذى الحجّة من سنة إحدى و أربعين و مائة، و ولّى على شرطته المهاجر بن عثمان الخزاعىّ ثم عزله و جعل عوضه محمد بن معاوية الكلاعىّ مكانه. و لما استقرّ محمد بن الأشعث هذا فى إمرة مصر، أرسل الخليفة أبو جعفر المنصور الى نوفل بن الفرات أن يعرض على محمد بن الأشعث ضمان خراج مصر، فإن ضمنه فأشهد عليه و أشخص الىّ الشهادة، و إن أبى فكن أنت على الخراج عادتك، فعرض نوفل على ابن الأشعث هذا الكلام فأبى من الضّمان، فانتقل نوفل إلى الدواوين ففقد محمد بن الأشعث من عنده فسأل عنهم، فقيل له: هم عند صاحب الدواوين، فندم ابن الأشعث على ما وقع منه من ترك الخراج، ثم جهّز ابن الأشعث جيشا بعث به الى المغرب فانهزم الجيش، و خرج ابن الأشعث يوم الأضحى سنة اثنتين و أربعين و مائة و توجّه إلى الاسكندرية و استخلف محمد بن معاوية صاحب شرطته على الصلاة و لم يكن إلا القليل و ورد عليه البريد بعزله عن إمرة مصر، و ولى مصر عوضه حميد بن قحطبة و ذلك فى أوائل سنة ثلاث و أربعين و مائة، و خرج محمد بن الأشعث بعد عزله عن مصر و توجّه الى الخليفة المنصور فأكرمه أبو جعفر المنصور و جعله من أكابر أمرائه، و دام عنده حتى وجّهه المنصور مع ابنه محمد المهدىّ إلى غزو الروم فتوجّه محمد بن

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۳۴۷

الأشعث مع المهدىّ هو و الحسن بن قحطبة، فمرض ابن الأشعث فى أثناء الطريق و مات، فكانت ولايته على مصر سنة واحدة و شهرا واحدا، و كان عنده نباهة و شجاعة و معرفة، و هو أحد أكابر أمراء بنى العباس، و قد تقدّم ذكره فى عدّة وقائع، منها واقعة جهور بن مرّار العجلىّ، و أمره أنه خلع الخليفة المنصور بالرّىّ. و كان سبب ذلك أن جهورا لما هزم سنباذ حوى ما كان فى عسكره، و كان فيه خزائن أبى مسلم الخراسانى فلم يوجهها الى المنصور، ثم خاف من المنصور فخلعه من الخلافة، فوجّه اليه أبو جعفر المنصور محمد بن الأشعث هذا فى جيش عظيم، فسار محمد هذا الى نحو الرّىّ، ففارقها جهور و سار نحو أصبهان، و دخل محمد الرىّ و ملك جهور أصبهان، فأرسل اليه محمد عسكرا و بقى هو بالرّىّ، فأشار على جهور بعض أصحابه أن يسير فى نخبة من عسكره الى جهة محمد بن الأشعث فأنه فى قلّة، فإن ظفر به فلم يكن [لمن] بعده بقيّة، فسار جهور إليه مجدّا، و بلغ محمدا خبره فحذر و احتاط و أتاه

عسكر من خراسان فقوى بهم فالتقوا بقصر الفيروزان بين الرىّ و أصبهان فاقتتلوا قتالا عظيما، و مع جهور نخبة فرسان العجم، فهزم جهور و قتل من أصحابه خلق كثير، فهرب جهور و لحق بأذربيجان ثم قتل بعد ذلك بأسبار قتله أصحابه و حملوا رأسه الى أبى جعفر المنصور؛ و لمحمد هذا عدّة مواقف و أمور يطول شرحها.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۳۴۸

*** السنة التى حكم فيها محمد بن الأشعث على مصر و هى سنة اثنتين و أربعين و مائة- فيها خرج عيينة بن موسى متولّى السند عن الطاعة، فخرج الخليفة أبو جعفر المنصور الى البصرة و جهّز عمرو بن حفص العتكى على السّند لمحاربة ابن موسى المذكور، فسار و غلب على الهند و السّند. و فيها نقض إصبهبذ طبرستان و قتل من بها من المسلمين، فانتدب لحربه خازم بن خزيمة و روح بن حاتم و أبو الخصيب مرزوق مولى المنصور، فحاصروه حتى ظفروا بالمدينة و قتلوا و سبوا، فلما رأى إصبهبذ ذلك مصّ سمّا كان فى خاتمه فهلك، و كان من جملة السّبى شكلة أمّ إبراهيم ابن المهدى الآتى ذكرها و ذكره فى الحوادث. و فيها ولّى الخليفة أبو جعفر المنصور أخاه العباس بن محمد على الجزيرة. و فيها توفّى حميد بن أبى حميد الطويل كان ثقة كثير الحديث، أسند عن أنس و غيره، و روى عنه الإمام مالك و غيره.

و ذكر الذهبىّ وفاة جماعة فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أسلم المنقرىّ، و حبيب بن أبى عمرة القصاب، و الحسن بن عبيد اللّه، و الحسن بن عمرو الفقيمى، و أبو هانئ حميد بن هانئ الخولانى المصرىّ، و حميد الطويل فى قول، و خالد الحذّاء، و سعد بن إسحاق بن كعب فى قول، و الأمير سليمان بن على بن عبد اللّه بن العبّاس، و عاصم بن سليمان الأحول، و عمرو بن عبيد المعتزلىّ.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ذراعان و إصبع واحد، مبلغ الزيادة خمسة عشر ذراعا و ثلاثة عشر إصبعا.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۳۴۹

ذكر ولاية حميد بن قحطبة على مصر

هو حميد بن قحطبة بن شبيب بن خالد بن معدان الطائى أمير مصر، وليها من قبل الخليفة أبى جعفر المنصور بعد عزل محمد بن الأشعث فى أوائل سنة ثلاث و أربعين و مائة، جمع له أبو جعفر المنصور صلاة مصر و خراجها معا، فدخل الى مصر فى عشرين ألفا من الجند يوم الجمعة لخمس خلون من شهر رمضان سنة ثلاث و أربعين و مائة، فجعل على الشرطة محمد بن معاوية بن بحير، و قبل أن تطول مدّته بمصر ورد عليه عسكر آخر من قبل الخليفة لغزو إفريقية، و كان قدوم العسكر المذكور إلى مصر فى شوّال من السنة، فجهّز حميد العساكر و جعل عليهم أبا الأحوص العبدىّ، و كان العسكر ستة آلاف فارس، فتوجّه أبو الأحوص بمن معه من العساكر حتى التقى مع أبى الخطاب الأنماطى ببرقة فتقاتلا، فانهزم أبو الأحوص بمن معه إلى جهة الديار المصريّة، فخرج حميد بن قحطبة بنفسه حتى وصل إلى برقة و التقى مع أبى الخطاب المذكور، فقاتله حتى هزمه و قتل أبا الخطاب المذكور و جماعة من أصحابه، ثم عاد الى مصر منصورا، فأقام بها الى أن قدم الى مصر علىّ بن محمد بن عبد اللّه ابن حسن بن الحسن داعية لأبيه فدسّ اليه حميد هذا فتغيب، فكتب ذلك لأبى جعفر المنصور فغضب و صرفه عن إمرة مصر فى ذى القعدة بيزيد بن حاتم؛

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱، ص: ۳۵۰

فخرج حميد بن قحطبة من مصر لثمان بقين من ذى القعدة سنة أربع و أربعين و مائة، و كانت ولايته على مصر سنة واحدة و شهرين إلا أياما. و لما خرج حميد بن قحطبة المذكور من مصر توجّه الى الخليفة أبى جعفر المنصور فأكرمه الخليفة و جعله من جملة أمرائه، و وجّهه بعد ذلك لغزو إرمينيّة فى سنة ثمان و أربعين و مائة فسار ثم عاد و لم يلق حربا، ثم أرسله الخليفة أبو جعفر المنصور أيضا فى سنة اثنتين و خمسين و مائة لغزو كابل، ثم ولّاه بعد ذلك إقليم خراسان مدّة، ثم نقله الى عمل خراسان فأقام بها مدّة طويلة الى أن مات فى خلافة المهدىّ سنة تسع و خمسين و مائة، و كان أميرا شجاعا مقداما عارفا بأمور الحروب و الوقائع، و تنقّل فى الأعمال

الجلیلـة، معظّما عند بنی العباس، و قد تقدّم ذکر ما حضـره حمید هذا مع أبیه قحطبة من الوقائع فی ابتداء دعوة بنی العبّاس، ثم قام هو و أخوه الحسن بن قحطبـة فی دعوتهم، و قاتلوا جیوش مروان بن محمد؟؟؟ لی أن هزموه و تمّ أمر بنی العباس؛ فعرفوا لحمید ذلک، و ولّوه الأعمال الجلیلة الی أن مات فی التاریخ المقدّم ذکره.

*** السنـة الأولی من ولایـة حمیـد بن قحطبـة علی مصـر و هی سـنة ثلاث و أربعین و مائـة- فیها بلغ المنصور أن الـدّیلم قـد أوقعوا بالمسـلمین و قتلوا منهم خلائق، فندب أبو جعفر المنصور الناس للجهاد. و فیها عزل المنصور الهیثم عن إمرة مکة بالسّـِریّ ابن عبد اللّه بن الحارث بن العباس العباسیّ. و فیها حجّ بالناس عیسی بن موسی ابن محمد بن علیّ الهاشمیّ العبّاسیّ أمیر الکوفة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱، ص: ۳۵۱

قال الذهبیّ: و فی هذا العصـر شـرع علماء الإسلام فی تدوین الحدیث و الفقه و التفسیر، و صنّف ابن جریج التصانیف بمکة، و صنّف سعید بن أبی عروبة و حمّاد بن سـلمة و غیرهما بالبصرة، و صنّف أبو حنیفة الفقه و الرأی بالکوفة، و صنّف الأوزاعیّ بالشأم، و صنّف مالک الموطأ بالمدینة، و صنف ابن إسحاق المغازی، و صنّف معمر بالیمن، و صنّف سفیان الثّوریّ کتاب الجامع، ثم بعد یسیر صنّف هشام کتبه، و صنّف اللّیث بن سعد و عبد اللّه بن لهیعة، ثم ابن المبارک و القاضی أبو یوسف یعقوب و ابن وهب، و کثر تبویب العلم و تـدوینه، و رتّبت و دوّنت کتب العربیـة و اللغـة و التاریـخ و أیّام الناس، و قبل هـذا العصـر کان سائر العلماء یتکلّمون عن حفظهم و یروون العلم عن صـحف صحیحة غیر مرتّبة؛ فسهل و للّه الحمد تناول العلم فأخذ الحفظ یتناقص، فللّه الأمر کله انتهی کلام الذهبیّ. و فیها توفّی سـلیمان ابن طرخان أبو القاسم التّیمیّ، من الطبقة الرابعة من تابعی [أهل] البصـرة، کان من العبّاد المجتهدین، و کان یصـلّی الغـداة بوضوء العشـاء سـنین عدیـدة. و فیهـا توفّی یحیی ابن سـعید أبو سـعید الأنصـاریّ القاضـی الفقیه، من الطبقـة الخامسـة من أهل المدینة، قدم علی الخلیفة أبی جعفر المنصور بالکوفة فاستقضاه علی الهاشمیّة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱، ص: ۳۵۲

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم ذراعان و ثلاثة أصابع، مبلغ الزیادة سبعة عشر ذراعا و عشرة أصابع سواء.

*** السـنة الثانیة من ولایة حمید بن قحطبة علی مصـر و هی سـنة أربع و أربعین و مائة- فیها غزا محمد بن أبی العباس السفّاح الدّیلم بجیش الکوفـة و البصـرة و واسط و الجزیرة. و فیها قـدم محمد المهدیّ ابن الخلیفة علی أبیه أبی جعفر المنصور من خراسان و قد بنی بابنـة عمه ریطـة بنت السـفّاح. و فیهـا حـجّ بالناس الخلیفـة ابو جعفر المنصور، و خلّف علی العسـکر خازم بن خزیمـة، فاسـتعمل علی المدینة ریاح بن عثمان المزنیّ و عزل محمد القسریّ. و کان المنصور قد أهمّه شأن محمد و ابراهیم ابنی عبد اللّه بن حسن بن الحسن بن علی بن أبی طـالب، لتخلّفهما عن الحضور الی عنـده مع الأشـراف، و ما کفاه ذلک حتی قیل له: إن محمـد بن عبـد اللّه المـذکور ذکر أن المنصور لما حـجّ قبل أن یلی الخلافـة فی حیاة أخیه السـفّاح و کان ممّن بایع له لیلـة اشـتور بنو هاشم بمکـة فیمن یعقدون له الخلافة حین اضـطرب ملک بنی أمیة. قلت: لعلّ ذلک کان قبل أن یلی السـفّاح الخلافة و قبل قتل مروان الحمار. ا ه. و کان أبو جعفر المنصور سأل زیادا متولّی المدینـة عنهما قبل ذلک؛ فقال: ما یهمّک [من أمرهما] یا أمیر المؤمنین، أنا آتیک بهما، فضـمّنه إیاهما فی سنة ست و ثلاثین و مائة و لم یف زیاد بالضّـمانة، و صار المنصور فی أمر عظیم من جهة عبد اللّه و ابنیه، و طال علیه الأمر، و عبد اللّه و ولداه

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱، ص: ۳۵۳

فی اختفائهم، حتی قبض المنصور علی عبـد اللّه المـذکور و حبسه و حبس معه جماعـة کثیرة من بنی حسن، و هم حسن و ابراهیم ابنا حسن بن الحسن، و حسن بن جعفر ابن حسن بن الحسن، و سـلیمان و عبـد اللّه ابنـا داود بن حسن بن الحسن، و سـهیل و إسـحاق ابنا ابراهیم المذکور، و عیسـی بن حسن بن الحسن، و أخوه علیّ القائم؛ فقیّد المنصور الجمیع و حبسـهم، [و جهر علی المنبر بسبّ محمد بن عبد اللّه و أخیه فسبّح الناس و عظّموا ما قال، فقال ریاح: ألصق اللّه بوجوهکم الهوان، لأکتبنّ الی خلیفتکم غشّکم و قلّة نصحکم،

فقالوا: لا ـ نسمع منك يا بن المحدودة، و بادروه يرمونه بالحصى، فنزل و اقتحم دار مروان و أغلق الباب، فخفّ بها الناس، فرموه و شتموه ثم إنهم كفّوا، ثم إن آل حسن حملوا فی أقيادهم إلى العراق]. و فيها توفى صالح بن كيسان أبو محمد، من الطبقة الرابعة من أهل المدينة، كان يؤدّب [ولد] عمر بن عبد العزيز بن مروان و أولاد الوليد بن عبد الملك، ثم ضمّه عمر بن عبد العزيز الى نفسه، و كان قد جمع بين الفقه و الحديث و الدين و المروءة. و فيها توفى عبد اللّه بن

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱، ص: ۳۵۴

شبرمة الضبّیّ أبو شبرمة، من الطبقة الرابعة من أهل الكوفة، كان فقيها ديّنا حسن الخلق قليل الحديث.

أمر النيل فی هذه السنة– الماء القديم ذراعان و أحد عشر إصبعا، مبلغ الزيادة خمسة عشر ذراعا و اثنا عشر إصبعا.

انتهى الجزء الأوّل من النجوم الزاهرة و يليه الجزء الثانی و أوّله ذكر ولاية يزيد بن حاتم على مصر

[الجزء الثانی]

[تتمة ما وقع من الحوادث سنة ۱۴۴]

اشارة

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم

ذكر ولاية يزيد بن حاتم على مصر

هو يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلّب بن أبی صفرة الأزدیّ الطائی المهلّبیّ أمير مصر، ولّاه الخليفة أبو جعفر المنصور على الصلاة و الخراج معا بعد عزل حميد ابن قحطبة عن إمرة مصر سنة أربع و أربعين و مائة، فقدم الى مصر فی يوم الاثنين النصف من ذی القعدة من السنة المذكورة، فأقرّ على شرطته عبد اللّه بن عبد الرحمن، و على الخراج معاوية بن مروان بن موسى بن نصير. و كان يزيد جوادا ممدّحا شجاعا. قال يزيد: كنت يوما واقفا بباب المنصور أنا و يزيد بن أسيد السّلمی إذ فتح باب القصر و خرج خادم لأبی جعفر المنصور، فنظر الينا ثم انصرف فدخل و أخرج رأسه من طاق و قال:

لشتّان ما بين اليزيدين فی النّدى يزيد سليم و الأغرّ ابن حاتم

فلا يحسب التّمتام أنّی هجوته و لكنّنی فضّلت أهل المكارم

فقال له يزيد بن حاتم: نعم نعم على رغم أنفك و أنف من بعثك؛ فخرج الخادم و أبلغها الخليفة أبا جعفر، فضحك حتى استلقى. و هذا الشعر لربيعة بن ثابت الرّقّیّ يمدح يزيد هذا.

و فی أيام يزيد بن حاتم المذكور ظهرت بمصر دعوة بنی الحسن بن علیّ ابن أبی طالب و تكلّم بها الناس و بايع كثير منهم لبنی الحسن فی الباطن

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲

و ماجت الناس بمصر و كاد أمر بنی الحسن أن؟؟؟، و البيعة كانت باسم علی بن محمد ابن عبد اللّه، و بينما الناس فی ذلك قدم البريد برأس ابراهيم بن عبد اللّه بن حسن ابن الحسن بن علی بن أبی طالب فی ذی الحجّة سنة خمس و أربعين و مائة فنصب فی المسجد أياما. و كان يزيد هذا قد منع أهل مصر من الحجّ بسبب خروج هؤلاء العلويّين، فلما قتل ابراهيم أذن لهم: الحجّ؛ و كان يزيد مقصدا للناس محبّا للشعر و أهله، مدحه عدّة من الشعراء. قيل: إن ربيعة المقدّم ذكره، صاحب البيتين المقدّم ذكرهما، قصده فاشتغل عنه يزيد، فخرج و هو يقول:

أرانى و لا كفران للّه راجعا بخفّى حنين من نوال ابن حاتم

فبلغ يزيد فردّه و ملأ خفّيه ذهبا، فقال فيه قصيدته المشهورة لما عزل عن إمرة مصر، التى أوّلها:

بكى أهل مصر بالدموع السّواجم غداة غدا عنها الأغرّ (۳) ابن حاتم

ثم ورد عليه كتاب الخليفة المنصور يأمره بالتحوّل من المعسكر الى الفسط كما كانت عادة أمراء مصر قبل بناء المعسكر، و أن يجعل الدواوين فى كنائس القصر- يعنى قصر الشمع - و ذلك فى سنة ست و أربعين و مائة. و قصد يزيد ابن حاتم من الشعراء محمد بن عبد اللّه بن مسلم و مدحه بقصيدة طنّانة أوّلها:

و إذا تباع كريمة أو تشترى فسواك بائعها و أنت المشترى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳

و كان يزيد منع الناس من الحجّ فى سنة خمس و أربعين و مائة، كما تقدّم ذكره، فلم يحجّ فى تلك السنة أحد من مصر و لا من الشام لما كان بالحجاز من الاضطراب من أمر بنى الحسن، ثم حجّ يزيد هذا فى سنة سبع و أربعين و مائة فاستخلف على مصر عبد اللّه بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج صاحب شرطته، و لما عاد من الحجّ بعث جيشا لغزو الحبشة من أجل خارجى ظهر هناك، فتوجّه اليه الجيش و قاتلوه و ظفروا به و قدّم رأس الخارجىّ المذكور الى مصر فى عدّة رءوس، فنصبت الرءوس أياما بمصر ثم حملوها الى بغداد، فضمّ الخليفة أبو جعفر المنصور عند ذلك ليزيد هذا برقة زيادة على عمل مصر؛ و هو أوّل من ضمّ له برقة على مصر، و كان ذلك فى سنة تسع و أربعين و مائة. ثم خرج فى أيام يزيد القبط بسخا بالوجه البحرى، فجّهز اليهم يزيد جيشا كثيفا فقاتله القبط و كسروه فردّ الجيش منهزما، فصرفه أبو جعفر المنصور عن إمرة مصر فى شهر ربيع الأوّل سنة اثنتين و خمسين و مائة، فكانت ولايته على مصر سبع سنين و أربعة أشهر. و تولّى من بعده مصر عبد اللّه ابن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج، ثم ولى يزيد بن حاتم هذا بعد ذلك إفريقيّة من بلاد المغرب، فتوجّه اليها و غزا بها عدّة غزوات، و لا زال بها حتى توفّى سنة سبعين و مائة، و استخلف على إفريقيّة ابنه داود بن يزيد، فأقرّه الخليفة هارون الرشيد على ذلك، و دام الى أن عزله فى سنة اثنتين و سبعين و مائة بعمّه روح بن حاتم. ا ه

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۱۴۵]

السنة الأولى من ولاية يزيد بن حاتم المهلّبى على مصر و هى سنة خمس و أربعين و مائه- فيها قتل الخليفة أبو جعفر المنصور محمدا و إبراهيم ابنى عبد اللّه بن حسن بن الحسن ابن علىّ بن أبى طالب واحدا بعد واحد، فقتل محمد بالمدينة و بعده بمدّة قتل إبراهيم؛ و كان إبراهيم خرج أيضا بعد خروج أخيه محمد على المنصور بالبصرة، و انضم عليه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۴

خلائق من العلماء و الفقهاء و أعيان بنى الحسن، فلما ورد عليه الخبر بقتل أخيه محمد عظم شأنه و كاد أمره أن يتمّ، و وقع بينه و بين جيش المنصور أمور و وقائع إلى أن قبض عليه و قتل. و فيها أيضا مات والدهما عبد اللّه بن الحسن فى حبس المنصور.

قال الهيثم: حبسهم أبو جعفر المنصور فى سرداب (يعنى عبد اللّه المذكور و أقاربه من بنى الحسن)- و قد قدّمنا ذكر من حبس مع عبد اللّه من أقاربه بأسمائهم فى سنة أربع و أربعين و مائة- قال: حبسهم فى سرداب تحت الأرض لا يعرفون ليلا و لا نهارا- و السرداب عند قنطرة الكوفة و هو موضع يزار- و لم يكن عندهم بئر للماء و لا سقاية، فكانوا يبولون و يتغوّطون فى مواضعهم، و اذا مات منهم ميت لم يدفن بل يبلى و هم ينظرون اليه، فاشتد عليهم رائحة البول و الغائط، فكان الورم يبدو فى أقدامهم ثم يترقّى إلى قلوبهم فيموتون. و يقال: إن أبا جعفر المنصور ردم عليهم السرداب فماتوا، و كان يسمع أنينهم أياما.

و ذكر الـذهبىّ وفاة جماعـة فى هـذه السـنة، قال: و فيها توفّى محمـد بن عبـد اللّه ابن حسن و أخوه إبراهيم قتلا، و الأجلح الكندىّ، و إسـماعيل بن أبى خالد، و إسـماعيل بن عبد اللّه بن جعفر، و أنيس بن أبى يحيى الأسـلمىّ، و حبيب بن الشهيد، و حجاج بن أرطاة، و الحسن بن ثوبان، و الحسن بن الحسن بن الحسن فى سجن المنصور، و رؤبة بن العجّاج التّميمى، و عبد الرحمن بن حرملة الأسلمىّ، و عبد الملك بن أبى سليمان الكوفىّ، و عمر بن عبد اللّه مولى غفرة (بالمعجمة و الفاء) و عمرو بن ميمون

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۵

ابـن مهران الجزرىّ، و محمـد بـن عبـد اللّه الـدّيباج، و محمـد بـن عمرو بـن علقمـة، و هشـام ابن عروة فى قـول، و نصـر بن حـاجب الخراسانىّ، و يحيى بن سعيد أبو حيّان التّيمىّ.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ذراعان و ثمانية أصابع، مبلغ الزيادة خمسة عشر ذراعا و أربعة عشر إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۱۴۶]

السـنة الثانيـة من ولايـة يزيـد بن حاتم على مصـر و هى سـنة ستّ و أربعين و مائـة- فيها كان فراغ بناء بغـداد و تحوّل اليها الخليفة أبو جعفر المنصور فى صفر، و كان خالد بن برمك أشار على المنصور ببنائها، و قيل: إنّ حجّاج بن أرطأة هو الذى اختطّ جامعها، و قبلتها منحرفـة، و لمّـا دخلهـا الخليفـة أبو جعفر المنصور أمر أن يكتب الى الآفاق أن يرد عليه الخطباء و العلماء و الشـعراء؛ و كان لا يـدخل أحـد المدينـة راكبا، فشـكا إلى المنصور عمّه عيسـى بن علىّ أنّ المشـى يشقّ عليه، فلم يأذن له فى الركوب؛ ثم بعد مدّة أمر المنصور بإحراج الأسواق من المدينة، خوفا من مبيت صاحب خبر بها، فبنيت الكرخ و باب المحوّل و غير ذلك.

و ظهر شـحّ المنصور فى بناء بغـداد، و بالغ فى المحاسبـة، حتى قال خالـد بن الصّـلت، و كان على بناء ربع بغـداد: رفعت إليه الحساب فبقيت علىّ خمسة عشر درهما فحبسنى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۶

حتى أدّيتها [و عنـد ما دخل المنصور بغـداد وقع بها الطاعون. و قد تقدّم أن الطاعون غير الوباء، فالوباء هو الذى تتنوّع فيه الأمراض، و الطاعون هو الطعن الـذى ذكر فى الحديث]. و فيها توفّى ضـيغم بن مالك العابد كان من الخائفين البكّائين، و هو من الطبقة الخامسـة من أهل البصـرة؛ و كان ورده فى كل يوم أربعمائـة ركعـة. و فيها توفى عمرو بن قيس الملائىّ من الطبقة الرابعة من أهل الكوفة، كان من الأبدال، و كان يقول: حديث ارقّق [به] قلبى و أبلغ به الى ربى أحبّ الى من خمسين قضيّة من قضايا شريح.

و ذكر الـذهبىّ وفاة جماعة أخر، قال: و توفى أشـعث بن عبد الملك الحمرانىّ، و الحارث [بن عبد الرحمن] بن عبد اللّه بن أبى ذباب المـدنى، و حـبيب بن الشّـهيد، و سـنان [بن يزيـد التميمى أبـو حكيم] الرّهـاوى، و عبـد اللّه بن سـعيد بن أبى هنـد المـدنى، و عـوف الأعرابى، و محمد بن السائب الكلبىّ، و محمد بن أبى يحيى الأسـلمىّ، و هشام ابن عروة على الصـحيح، و يزيد بن أبى عبيد، و يحيى بن أبى أنيسة الجزرىّ.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ذراع و ستة عشر إصبعا، مبلغ الزيادة خمسة عشر ذراعا و ستة عشر إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۱۴۷]

السـنة الثالثة من ولاية يزيد بن حاتم على مصـر و هى سـنة سبع و أربعين و مائة- فيها حجّ الخليفة أبو جعفر المنصور و عزم على قبض جعفر بن محمد بن علىّ بن الحسين

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۲، ص: ۷

ابن علی بن أبی طالب- أعنی جعفر الصادق- فلم یتمّ له ذلک. و فیها انتثرت الکواکب من أوّل اللیل الی الصباح فخاف الناس عاقبة ذلک. و فیها خلع الخلیفة أبو جعفر المنصور ابن أخیه عیسی بن موسی من ولایة العهد و ولّاها لابنه محمد المهدیّ، و جعل عیسی المذکور بعد المهدیّ؛ و کان السّفّاح قد عهد الی أبی جعفر المنصور بالخلافة ثم من بعده الی عیسی بن موسی هذا. و فیها أغارت الترک مع استرخان الخوارزمیّ علی مدینة تفلیس، و کان بها حرب بن عبد اللّه الرّیوندیّ الذی تنسب الیه الحربیّة ببغداد، فخرج الیهم حرب المذکور و قاتلهم فقتلوه و قتلوا خلقا کثیرا من المسلمین و سبوا. و فیها توفی عبد اللّه بن علی بن عبد اللّه بن العباس الهاشمیّ العباسیّ عمّ الخلیفة أبی جعفر المنصور، و أمّه بربریة یقال لها هنّادة، ولد سنة ثلاث و مائة و قیل: اثنتین و مائة فی آخر ذی الحجة. و هو الذی هزم مروان الحمار بالزّاب و تبعه إلی دمشق و فتحها و هدم سورها و جعل جامعها سبعین یوما لدوابه و جماله، و قتل من أعیان بنی أمیة ثمانین رجلا- بنهر أبی فطرس من أرض الرملة، ثم ولّی دمشق للسفاح، فلما ولی المنصور خرج علیه عبد اللّه و دعا لنفسه فهزمه ابو مسلم الخراسانیّ فشفع له إخوته و أخذوا له أمانا من الخلیفة أبی جعفر المنصور،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۲، ص: ۸

فلما قدم علیه حبسه مدّة حتی مات فی حبسه؛ قیل: إن أبا جعفر المنصور بنی له دارا حبسه فیها و جعل فی أساسها ملحا، فلما سکنها عبد اللّه و حبس فیها أطلق علیها ماء فذاب الملح فوقعت الدار علیه فمات.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم ذراعان و اثنان و عشرون إصبعا، مبلغ الزیادة أربعة عشر ذراعا و تسعة عشر إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۱۴۸]

السنة الرابعة من ولایة یزید بن حاتم علی مصر و هی سنة ثمان و أربعین و مائة- فیها حجّ بالناس الخلیفة أبو جعفر المنصور. و فیها توجّه حمید بن قحطبة الی ثغر أرمینیة فلم یلق بأسا، و توطأت الممالک لأبی جعفر المنصور و ثبتت قدمه فی الخلافة و عظمت هیبته فی النفوس و دانت له الأمصار؛ و لم یبق خارجا عنه سوی جزیرة الأندلس من بلاد المغرب فقط، فإنها تغلّب علیها عبد الرحمن بن معاویة المروانیّ الأمویّ المعروف بالداخل لکونه دخل المغرب لما هرب من بنی العباس، و قد تقدّم ذکره فی هذا الکتاب، لکنّه لم یتلقّب بأمیر المؤمنین بل بالأمیر فقط، و کذلک بنوه من بعده، و یأتی ذکرهم فی محلّهم من هذا الکتاب إن شاء اللّه تعالی. و فیها توفی جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علیّ زین العابدین بن الحسین بن علی بن أبی طالب رضی اللّه عنهم، الإمام السید أبو عبد اللّه الهاشمیّ العلوی الحسینیّ المدنیّ، یقال: مولده سنة ثمانین من الهجرة؛ و هو من الطبقة الخامسة من تابعی أهل المدینة، و کان یلقّب بالصابر، و الفاضل، و الطاهر، و أشهر ألقابه الصادق؛ و هو سبط القاسم بن محمد بن أبی بکر الصدّیق، فإنّ أمّه هی أمّ فروة بنت القاسم بن محمد المذکور، و أمّها أمّ أسماء بنت عبد الرحمن بن أبی بکر الصدیق، و لهذا کان جعفر یقول: أنا ابن الصدیق مرتین، و هو یروی عن جدّه لأمّه القاسم بن محمد و لم یرو

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۲، ص: ۹

عن جدّه لأبیه علیّ زین العابدین، و قد أدرکه و هو مراهق، و روی عن أبیه و عروة ابن الزبیر و عطاء و نافع و الزّهریّ، و حدّث عنه أبو حنیفة و ابن جریج و شعبة و السّفیانان و مالک و غیرهم. و عن أبی حنیفة قال: ما رأیت أفقه من جعفر بن محمد.

و روی عن علی بن الجعد عن زهیر بن محمد قال: قال أبی لجعفر بن محمد- یعنی الصادق-: إن لی جارا یزعم أنّک تبرأ من أبی بکر بن أبی قحافة و عمر، فقال:

جعفر: برئ اللّه من جارک، و اللّه إنی لأرجو أن ینفعنی اللّه بقرابتی من أبی بکر.

و ذكر الذهبيّ بإسناد عن محمد بن فضيل عن سالم بن أبى حفصة قال:

سألت أبا جعفر محمد بن على و ابنه جعفرا عن أبى بكر و عمر، فقالا- يا سالم تولّهما و ابرأ من عدوّهما، فإنهما كانا إمامى هدى رضى اللّه عنهما. و قال لى جعفر:

يا سالم، أ يسبّ الرجل جدّه! أبو بكر جدّى، فلا نالتنى شفاعة محمد صلى اللّه عليه و سلم يوم القيامة إن لم أكن أتولاهما و أبرأ من عدوّهما. قال الذهبيّ: هذا إسناد صحيح؛ و سالم و ابن فضيل شيعيّان. ه.

قلت: * و الفضل ما شهدت به الأعداء* و أيّ عذر أبقى جعفر الصادق بعد ذلك للرافضة! أخزاهم اللّه تعالى. و فيها توفى سليمان بن مهران الإمام أبو محمد الاسدىّ الكاهلىّ المحدّث المعروف بالأعمش، من الطبقة الرابعة من تابعى أهل الكوفة، ولد بقرية أمه من عمل طبرستان فى سنة إحدى و ستين.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۰

قال الحافظ أبو عبد اللّه الذهبيّ: و قد رأى أنس بن مالك و هو يصلى، و لم يثبت أنه يمع منه، مع أن أنسا لما توفّى كان للأعمش نيّف و ثلاثون سنة، و كان يمكنه السماع من جماعة من الصحابة. ثم ذكر الذهبى روايته عن جماعة كثيرة جدا، و ذكر أيضا من روى عنه أكثر و أمعن؛ ثم ذكر من خفة روحه و دعابته أشياء، منها:

قال و قال عيسى بن يونس: خرج الأعمش فاذا بجندىّ فسخّره ليعبر به نهرا، فلما ركبه- قال: سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنا هذا الآية، فلما توسّط به الأعمش فى الماء قال: وَ قُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبارَكاً وَ أَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ثم رمى به.

و قال محمد بن عبيد الطّنافسىّ: جاء رجل نبيل كبير اللّحية الى الأعمش فسأله عن مسألة خفيفة من الصلاة، فالتفت الينا الأعمش فقال: انظروا اليه، لحيته تحتمل حفظ أربعة آلاف حديث و مسألته مسألة صبيان الكتاب ا ه

و ذكر الذهبيّ فى هذه السنة وفاة جماعة كثيرة، قال: و توفى جعفر بن محمد الصادق، و سليمان الأعمش، و شبل بن عبّاد مقرئ مكة، و زكريّا بن أبى زائدة فى قول، و عمرو بن الحارث الفقيه بمصر، و عبد اللّه بن يزيد بن هرمز؛ و عبد الجليل بن حميد اليحصبيّ، و عمّار بن سعد المصرىّ، و العوّام بن حوشب، و محمد بن عبد الرحمن ابن أبى ليلى القاضى- يأتى ذكره- قال: و حمد بن عجلان الفقيه المدنىّ، و محمد بن الوليد الزّبيدىّ الفقيه، و نعيم بن حكيم المدائنى، و أبو زرعة يحيى الشيبانىّ.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم، ذراع و عشرون إصبعا، مبلغ الزيادة خمسة عشر ذراعا و ستة عشر إصبعا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۱

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۱۴۹]

السنة الخامسة من ولاية يزيد بن حاتم على مصر و هى سنة تسع و أربعين و مائة- فيها حجّ بالناس محمد بن الإمام ابراهيم، و فيها ولى إمرة مكّة عبد الصمد بن علىّ العباسىّ عمّ الخليفة المنصور ثم صرف عنها. و فيها غزا العباس بن محمد أرض الروم و معه الحسن بن قحطبة و محمد بن الأشعث، الذى كان ولى مصر قبل تاريخه، فمات ابن الأشعث فى الطريق، و قد تقدّم ذكر ذلك فى ترجمته. و فيها كمل بناء بغداد.

و فيها توفى سلم بن قتيبة بن مسلم بن عمرو بن الحصين أبو عبد اللّه الباهلىّ الخراسانىّ والد سعيد بن سلم، ولى سلم هذا إمرة البصرة ليزيد بن عمر بن هبيرة فى أيام مروان الحمار، ثم وليها فى أيام أبى جعفر المنصور، و كان أميرا عاقلا عادلا فى الرعية.

و فيها توفى عيسى بن عمر النحوىّ الثقفىّ العالم صاحب الإكمال و الجامع، و فيهما يقول الخليل بن أحمد صاحب العربيّة و العروض:

بطل النحو جميعا كلّه غير ما أحدث عيسى بن عمر

ذاك إكمال و هذا جامع فهما للناس شمس و قمر

و فيها توفى كرز بن وبرة الكوفىّ، كان يسكن جرجان، من الطبقة الرابعة من تابعى أهل الكوفة، كان زاهدا عابدا، سأل ربه أن يعطيه الاسم الأعظم على أن يسأل ربه به حاجة من الدنيا فأعطاه، فسأله اللّه أن يقوّيه على ختم القرآن، فكان يختم كلّ يوم و ليلة ثلاث ختمات.

و ذكر الذهبىّ وفاة جماعة فى هذه السنة، قال: و فيها توفى ثابت بن عمارة و زكرياء بن أبى زائدة فى قول، و سلم بن قتيبة بن مسلم الباهلىّ الأمير،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٢، ص: ١٢

و عبد الحميد بن يزيد الجذامىّ، و كهمس بن الحسن التميمىّ، و المثّنى بن الصبّاح، و محمد بن الأشعث الخزاعىّ القائد، و أبو جناب الكلبىّ، و معروف بن سويد الجذامى المصرى، و يعقوب بن مجاهد فى قول.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ذراعان و إصبعان، مبلغ الزيادة ستة عشر ذراعا و ثمانية أصابع و نصف.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ١٥٠]

السنة السادسة من ولاية يزيد بن حاتم على مصر و هى سنة خمسين و مائة- فيها خرج اسباديس فى جموع كثيرة، يقال: كان فى نحو ثلثمائة ألف مقاتل، و غلب على غالب خراسان؛ فخرج لقتالهم الاختم المرورّوذىّ بأهل مرو الروذ، فاقتتلوا فقتل الأختم فى جيشه؛ ثم خرج لقتاله خازم بن خزيمة، و تقاتلا أشدّ قتال و ثبت كل من الفريقين حتى نصر اللّه الإسلام و هزم اسباديس و كثر القتل فى جيشه فقتل منهم سبعون ألفا و أسر بضعة عشر ألفا و هرب اسباديس فى طائفة من عسكره الى الجبل. و فيها عزل الخليفة أبو جعفر المنصور جعفر بن سليمان عن إمرة المدينة و ولّى الحسن بن زيد بن الحسن بن الحسن بن على العلوى. و فيها حجّ بالناس عبد الصمد ابن على العباسى. و فيها توفى الإمام الأعظم أبو حنيفة، و اسمه النّعمان بن ثابت بن زوطى، الفقيه الكوفىّ صاحب المذهب؛ ولد سنة ثمانين من الهجرة و رأى أنس

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٢، ص: ١٣

ابن مالك الصحابى غير مرّة بالكوفة لمّا قدمها أنس، قاله ابن سعد. و روى عن عطاء بن أبى رباح و نافع و سلمة و خلق كثير، و تفقّه بحمّاد و غيره حتى برع فى الفقه و الرأى و ساد أهل زمانه بلا مدافعة فى علوم شتى. و قال عبد اللّه بن المبارك:

أبو حنيفة أفقه الناس. و قال الشافعىّ: الناس فى الفقه عيال على أبى حنيفة. و قال يزيد بن هارون: ما رأيت أحدا أورع و لا أعقل من أبى حنيفة. و عن أسد بن عمرو أن أبا حنيفة صلّى العشاء و الصبح بوضوء واحد أربعين سنة. قال الذهبىّ:

و قد روى من وجهين أنه ختم القرآن فى ركعة. و عن النضر بن محمد قال: كان أبو حنيفة جميل الوجه نقىّ الثوب عطر الرائحة. و عن ابن المبارك و اسمه عبد اللّه قال:

ما رأيت رجلا أوقر فى مجلسه و لا أحسن سمتا و حلما من أبى حنيفة. و روى إبراهيم ابن سعيد الجوهرىّ عن المثنىّ أن رجلا قال: جعل أبو حنيفة على نفسه إن حلف بالله صادقا أن يتصدّق بدينار. و يروى أن أبا حنيفة ختم القرآن فى الموضع الذى مات فيه سبعة آلاف مرّة. و روى محمد بن سماعة عن محمد بن الحسن عن القاسم بن معن: أن أبا حنيفة قام ليلة يردّد قوله تعالى: بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَ السَّاعَةُ أَدْهى وَ أَمَرُّ و يبكى و يتضرّع الى الفجر. و قال يزيد بن هارون: ما رأيت أحدا أحلم من أبى حنيفة. و عن الحسن بن زياد: قال أبو حنيفة: إذا ارتشى القاضى فهو معزول و إن لم يعزل. و قال إسحاق بن ابراهيم الزهرى عن بشر بن الوليد الكندىّ: طلب المنصور أبا حنيفة فأراده على القضاء و حلف ليلينّ، فأبى و حلف ألّا يفعل ذلك؛ فقال الربيع حاجب المنصور: ترى أمير

المؤمنين يحلف و أنت تحلف! قال: أمير المؤمنين على كفّارة يمينه أقدر منى؛ فأمر به الى السجن

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ٢، ص: ١٤

فمات فيه ببغداد. و عن مغيث بن بديل قال: دعا المنصور أبا حنيفة الى القضاء فامتنع؛ فقال: أ ترغب عما نحن فيه؟ فقال: لا أصلح؛ قال: كذبت؛ قال أبو حنيفة:

فقد حكم أمير المؤمنين على أنى لا أصلح، فإن كنت كاذبا فلا أصلح، و ان كنت صادقا فقد أخبرتكم أنى لا أصلح، فحبسه؛ و وقع لأبى حنيفة بسبب القضاء أمور مع المنصور و هو على امتناعه الى أن مات. و قال أحمد بن الصبّاح: سمعت الشافعىّ يقول: قيل لمالك: هل رأيت أبا حنيفة؟ قال: نعم، رأيت رجلا لو كلّمك فى هذه السارية أن يجعلها ذهبا لقام بحجّته. و قال حبّان بن موسى: سئل ابن المبارك: أمالك أفقه أم أبو حنيفة؟ قال: أبو حنيفة. و قال الخريبىّ: ما يقع فى أبى حنيفة إلا حاسد أو جاهل. و قال يحيى القطّان: لا نكذب اللّه، ما سمعنا بأحسن من أبى حنيفة، و قد أخذنا بأكثر أقواله. و قال علىّ بن عاصم: لو وزن علم أبى حنيفة بعلم أهل زمانه لرجح عليهم. و قال حفص بن غياث: كلام أبى حنيفة فى الفقه أرقّ من الشّعر لا يعيبه إلا جاهل. و قال الحميدىّ: سمعت ابن عيينة يقول:

شيئان ما ظننتهما يجاوزان قنطرة الكوفة: قراءة حمزة وفقه أبى حنيفة، و قد بلغا الآفاق. و عن الأعمش أنّه سئل عن مسألة فقال: إنما يحسن هذا النعمان بن ثابت، و أظنّه بورك له فى علمه. و قال جرير: قال لى مغيرة: جالس أبا حنيفة تتفقّه، فإن ابراهيم النّخعىّ لو كان حيا لجالسه. و قال محمد بن شجاع سمعت علىّ بن عاصم يقول: لو وزن عقل أبى حنيفة بعقل نصف الناس لرجح بهم.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ٢، ص: ١٥

قلت: و مناقب أبى حنيفة كثيرة، و علمه غزير و فى شهرته ما يغنى عن الإطناب فى ذكره، و لو أطلقت عنان القلم فى كثرة علومه و مناقبه لجمع من ذلك عدّة مجلدات؛ و كانت وفاته رضى اللّه عنه فى شهر رجب من هذه السنة، و دفن بمقابر بغداد، و أقام على ذلك سنين الى أن بنى عليه شرف الملك أبو سعد محمد بن منصور الخوارزمىّ مستوفى مملكة السلطان ملك شاه السّلجوقى مشهدا فى سنة تسع و خمسين و أربعمائه و بنى على القبر قبة و مدرسة كبيرة للحنفية، فلما فرغ من عمارة ذلك جمع الفقهاء و العلماء و الأعيان ليشاهدوا ما بناه، فبينما هم فى ذلك إذ دخل عليهم الشريف أبو جعفر مسعود البياضىّ الشاعر و أنشد:

أ لم تر أنّ العلم كان مبدّدا فجمّعه هذا الموسّد فى اللحد

كذلك كانت هذه الأرض ميتة فأنشرها فعل العميد أبى سعد

قلت: و أحسن من هذا ما قاله عبد اللّه بن المبارك فى مدح أبى حنيفة، القصيدة المشهورة التى أوّلها:

لقد زان البلاد و من عليها إمام المسلمين أبو حنيفه

و فيها توفى عبد العزيز بن سليمان أبو محمد الرّاسبىّ من الطبقة السادسة من تابعى أهل البصرة، كان عابدا زاهدا، كانت رابعة تسمّيه سيّد العابدين؛ كان اذا ذكر القيامة و الموت صرخ كما تصرخ الثكلى و يصرخ الحاضرون من جوانب المسجد و ربما وقع الميت و الميتان من جوانب المسجد؛ قاله أبو المظفّر فى مرآة الزمان.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثلاثة أذرع سواء، مبلغ الزيادة خمسة عشر ذراعا و عشرون إصبعا و نصف.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ٢، ص: ١٦

***

[ما وقع من الحوادث سنة ١٥١]

اشارة

السنة السابعة من ولایة یزید بن حاتم علی مصر و هی سنة إحدی و خمسین و مائة- و هی التی عزل فیها. و فیها عزل المنصور عمر بن حفص المهلبیّ عن السّند بهشام بن عمرو التغلبیّ، و تولّی المهلبیّ هذا إفریقیّة. و فیها ابتدأ الخلیفة أبو جعفر المنصور بعمارة الرّصافة بالجانب الشرقیّ و عمل لها سورا و خندقا و أجری إلیها الماء کما فعل ببغداد. و فیها جدّد الخلیفة أبو جعفر المنصور البیعة لولده محمد المهدیّ ثم لابن أخیه من بعده عیسی بن موسی، فکان من یبایعه یقبّل یده و ید المهدیّ ثم یمسح علی ید عیسی بن موسی و لا یقبّلها. قلت: البلاء و الریاء قدیمان. و فیها توفی عبد اللّه بن عون بن أرطبان أبو عون مولی عبد اللّه بن درّة من الطبقة الرابعة من أهل البصرة؛ کان عثمانیا ثقة و رعا کثیر الحدیث. ولد قبل الطاعون الجارف بثلاث سنین، و کان إذا مر بالقدریّة لا یسلّم علیهم.

و ذکر الذهبیّ وفاة جماعة آخرین فی هذه السنة، قال: و فیها توفی حنظلة ابن أبی سفیان المکیّ، و داود بن یزید الأودیّ، و سیف بن سلیمان فی قول، و عبد اللّه بن عون فی رجب، و عبد اللّه بن عامر الأسلمیّ یقال فیها، و علیّ بن صالح المکیّ، و عیسی بن أبی عیسی الخیّاط الخبّاط الحنّاط فإنه باشر الصنائع الثلاث:

الخیاطة و بیع الخبط و بیع الحنطة، و محمد بن إسحاق بن یسار فیها علی قول، و هو الأصح، و معن بن زائدة الأمیر، و الولید بن کثیر المدنیّ بالکوفة و صالح بن علیّ الأمیر.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۷

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم أربعة أذرع و ستة أصابع، مبلغ الزیادة ستة عشر ذراعا و ستة عشر إصبعا.

ذکر ولایة عبد اللّه بن عبد الرحمن علی مصر

هو عبد اللّه بن عبد الرحمن بن معاویة بن حدیج، و حدیج (بضم الحاء المهملة و فی الآخر جیم) التّجیبیّ [بضم التاء المثناة من فوق] الأمیر أبو عبد الرحمن أمیر مصر ولیها من قبل الخلیفة أبی جعفر المنصور بعد عزل یزید بن حاتم المهلّبی عنها، علی الصلاة فی یوم السبت ثامن عشر شهر ربیع الآخر سنة اثنتین و خمسین و مائة، و لم یولّ علی الشّرطة أحدا و باشر هو ذلک بنفسه؛ و کان عبد اللّه هذا قد ولی الشرطة لغیر واحد من أمراء مصر. و لما استقرّ فی إمرة مصر سکن المعسکر علی عادة الأمراء، و هو أوّل من خطب بالسواد بمصر، فأقام بمصر مدّة ثم خرج منها و وفد علی الخلیفة أبی جعفر المنصور ببغداد فی سنة أربع و خمسین و مائة و استخلف أخاه محمد بن عبد الرحمن علی الصلاة ثم رجع الی مصر فی آخر السنة المذکورة؛ و دام بها الی أن توفّی و هو علی إمرة مصر فی مستهلّ صفر سنة خمس و خمسین و مائة، و استخلف أخاه محمدا علی صلاة مصر فأقرّه الخلیفة أبو جعفر المنصور علی إمرة مصر بعده. فکانت ولایة عبد اللّه هذا علی مصر ثلاث سنین تنقص أیاما.

و عبد اللّه هذا و أبوه من أکابر المصریین من أعوان بنی أمیة غیر أنه استأمن سلیمان بن علی العباسی لما استأمنه عمرو بن معاویة بن عمرو بن سفیان بن عتبة ابن أبی سفیان. و سببه أنه لما قتل غالب بنی أمیة خاف عمرو المذکور فقال: اختفیت فکنت لا آتی مکانا إلا عرفت به، فضاقت علیّ الدنیا فقصدت سلیمان بن علیّ و هو

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۸

لا یعرفنی فقلت له: لفظتنی البلاد الیک، و دلّنی فضلک علیک؛ فإمّا قتلتنی فاسترحت، و إما رددتنی سالما فسلمت؛ فقال: [و من أنت؟ فعرّفته نفسی، فقال]:

مرحبا بک، [ما] حاجتک؟ فقلت له: إنّ الحرم اللواتی أنت أولی [الناس] بهنّ و أقربهم الیهنّ قد خفن تخوّفنا و من خاف خیف علیه. قال: فبکی سلیمان کثیرا ثم قال: بل یحقن اللّه دمک و یوفّر مالک و یحفظ حرمک؛ ثم کتب الی السفاح:

یا أمیر المؤمنین، إنه قد دفّت دافّة من بنی أمیة علینا و إنا إنما قتلناهم علی عقوقهم، لا علی أرحامهم، فإننا یجمعنا و إیاهم عبد مناف؛ فالرحم تبلّ و لا تقتل و ترفع و لا توضع؛ فإن رأی أمیر المؤمنین أن یهبهم لی فلیفعل، و إن فعل فلیجعل کتابا عاما الی البلدان شکر

اللّه تعالی علی نعمه. فأجابه الی ما سأل. و کان هذا أوّل أمان لبنی أمیة و دخل فیه صاحب الترجمة و غیره.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۱۵۲]

السنة الأولی من ولایة عبد اللّه بن عبد الرحمن علی مصر و هی سنة اثنتین و خمسین و مائة- فیها حجّ بالناس الخلیفة أبو جعفر المنصور. و فیها وثب الخوارج ببست علی عاملها معن بن زائدة الشّیبانیّ فقتلوه لجوره و عسفه. و فیها غزا حمید بن قحطبة کابل و ولّاه المنصور إقلیم خراسان. و فیها ولی البصرة یزید بن

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۹

المنصور. و فیها توفّی معن بن زائدة بن عبد اللّه بن زائدة بن مطر بن شریک الشیبانیّ الأمیر أبو الولید و قیل أبو یزید. کان أحد الأجواد و کان شجاعا مقداما ممدّحا.

و حکایاته فی الجود و الکرم مشهورة. و کان أوّلا مع ابن هبیرة ثم اختفی حتی کانت وقعة الرّاوندیّة مع المنصور المقدّم ذکرها؛ فلما کانت الوقعة خرج معن و قاتل بین یدی المنصور قتالا عظیما، فولّاه المنصور الیمن ثم سجستان؛ و قیل: إنّ معنا دخل مرّة علی الخلیفة أبی جعفر المنصور: فقال له المنصور: هیه یا معن! تعطی مروان ابن أبی حفصة مائة ألف درهم علی قوله:

معن بن زائدة الذی زیدت به شرفا علی شرف بنو شیبان

فقال: کلا یا أمیر المؤمنین، إنما أعطیته علی قوله فی هذه القصیدة:

ما زلت یوم الهاشمیة معلنا بالسیف دون خلیفة الرحمن

فمنعت حوزته و کنت وقاءه من وقع کلّ مهنّد و سنان

فقال: أحسنت یا معن، ما أکثر وقوع الناس فی قومک! فقال: یا أمیر المؤمنین:

إنّ العرانین تلقاها محسّدة و لا تری للئام الناس حسّادا

و دخل علیه یوما و قد أسنّ فقال: کبرت یا معن، فقال: فی طاعتک یا أمیر المؤمنین؛ قال: و إنک لجلد [قال]: علی أعدائک یا أمیر المؤمنین؛ قال:

و فیک بقیّة، قال: هی لک یا أمیر المؤمنین. و عرض هذا الکلام علی عبد الرحمن ابن یزید زاهد أهل البصرة فقال: ویح هذا! ما ترک لربه شیئا.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۰

و ذکر الذهبیّ وفاة جماعة أخر فی هذه السنة، قال: و توفی أبو عامر صالح ابن رستم الخزّاز، و عبد اللّه بن أبی یحیی الأسلمی، و عمر بن سعید بن أبی الحسین المکیّ، و طلحة بن عمرو المکیّ، و عبّاد بن منصور الناجیّ، و یونس بن یزید الأیلیّ فی قول.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم ذراع و عشرون إصبعا، مبلغ الزیادة خمسة عشر ذراعا و إصبع واحد و نصف إصبع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۱۵۳]

السنة الثانیة من ولایة عبد اللّه بن عبد الرحمن علی مصر و هی سنة ثلاث و خمسین و مائة- فیها قتل متولّی إفریقیّة عمر بن حفص بن عثمان بن أبی صفرة الأزدیّ، خرجت علیه أمم من البربر و علیهم أبو حاتم الإباضیّ و أبو عاد فیقال: إنهم کانوا فی خمسة و ثمانین ألف فارس و مائتی ألف راجل، و کانوا بایعوا أبا قرّة الصّفریّ بالخلافة. و فیها ألزم الخلیفة أبو جعفر المنصور رعیّته بلبس القلانس

الطوال المعروفة بالمدينة، و كانوا يعملونها بالقصب و الورق و يلبسونها السواد، و فيها يقول أبو دلامة:

و كنا نرجّى من إمام زيادة فزاد الإمام المصطفى فى القلانس

تراها على هام الرجال كأنّها دنان يهود جلّلت بالبرانس

و فيها غزا مسعود بن عبد اللّه الجحدرىّ الصائفة و فتح حصنا بالروم عنوة.

و فيها ولى بكّار بن مسلم أرمينية. و فيها أغارت الحبشة على جدّة فجهّز إليهم الخليفة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۱

أبو جعفر المنصور المراكب. و فيها سخط المنصور على وزيره أبى أيّوب الموريانىّ و استأصله و حبس معه أولاد أخيه سعيدا و مسعودا و محمدا و مخلّدا؛ و قتل فى السنة الآتية. و كان الذى سعى بأبى أيّوب هذا هو كاتبه أبان بن صدقة. و فيها توفى شقيق بن ابراهيم الزاهد أبو على البلخىّ الأزدىّ، كان من كبار مشايخ خراسان و له لسان فى التوكّل، و هو أوّل من تكلّم فئ التصوّف و علوم الأحوال بكورة خراسان؛ و هو أستاذ حاتم الأصم و كان لشقيق دنيا واسعة خرج عنها و تزهّد و صحب إبراهيم بن أدهم. و فيها توفى وهيب بن الورد مولى بنى مخزوم من الطبقة الثالثة من أهل مكّة، و كان اسمه عبد الوهاب فصغّر وهيبا؛ و كانت له أحاديث و مواعظ. روى عنه عبد اللّه بن المبارك و غيره، و كنيته أبو عثمان و قيل أبو أميّة، و كان زاهدا ينظر فى دقائق الورع. قال بشر الحافى: أربعة رفعهم اللّه بطيب المطعم: وهيب بن الورد و إبراهيم ابن أدهم و يوسف بن أسباط و سلم الخوّاص.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ذراعان و ثلاثة أصابع مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا و عشرة أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۱۵۴]

اشارة

السنة الثالثة من ولاية عبد اللّه بن عبد الرحمن النّجيبى على مصر و هى سنة أربع و خمسين و مائة- فيها قدم الخليفة أبو جعفر المنصور الشأم و زار بيت المقدس، ثم جهّز يزيد بن حاتم فى خمسين ألفا لحرب الخوارج بإفريقيّة، و أنفق

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۲

المنصور على الجيش المذكور، مع شحّه بالمال، ستين ألف ألف درهم و زيادة؛ ثم ولّى قضاء دمشق ليحيى بن حمزة، فاعتلّ يحيى بأنّه شاب؛ فقال: إنّى أرى أهل بلدك قد أجمعوا عليك فإيّاك و الهديّة، فبقى يحيى على قضاء دمشق ثلاثين سنة.

قال الواقدىّ: و فيها نزلت صاعقة بالمسجد الحرام فأهلكت خمسة نفر. و فيها مات الوزير أبو أيوب الموريانىّ، و كان المنصور صادره و سجنه و أخاه خالدا و بنى أخيه فى السنة الماضية، فلما مات ضرب المنصور أعناق بنى أخيه. و فيها حجّ بالناس محمد بن الإمام إبراهيم العباسى أمير مكّة. و فيها توفى الحكم بن أبان العدنىّ، هو من الطبقة الثالثة من أهل اليمن؛ كان سيد أهل اليمن فى الزهد و العبادة و الصّلاح، كان يصلّى الليل كلّه فاذا غلبه النّوم ألقى نفسه فى الماء و قال لنفسه: سبحى اللّه عزّ و جلّ مع الحيتان.

و ذكر الذهبىّ وفاة جماعة أخر، قال: و توفى أشعب الطمّاع، و جعفر بن برقان، و الحكم بن أبان العدنىّ، و ربيعة بن عثمان التيمىّ، و عبد اللّه بن نافع مولى ابن عمر، و عبد الرحمن بن يزيد بن جابر الدّمشقىّ، و عبيد اللّه بن عبد اللّه بن موهب، و على بن صالح بن حىّ الكوفىّ، و عمر بن إسحاق بن يسار المدنىّ، و قرّة ابن خالد السّدوسىّ، و محمد بن عبد اللّه بن مهاجر الشّعيثىّ، و أبو عمرو بن العلاء المازنى، و معمر فى قول.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ذراع و ستة عشر إصبعا، مبلغ الزيادة خمسة عشر ذراعا و خمسة عشر إصبعا.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۳

ذكر ولاية محمد بن عبد الرحمن على مصر

هو محمد بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج التّجيبىّ أمير مصر، وليها باستخلاف أخيه عبد اللّه بن عبد الرحمن له بعد موته، فأقرّه الخليفة أبو جعفر المنصور على ذلك و ولّاه مصر على الصلاة و الخراج و ذلك فى سنة خمس و خمسين و مائة، فجعل على شرطته العبّاس بن عبد الرحمن بن ميسرة؛ و سكن المعسكر و سار فى الناس سيرة مشكورة غير أنّه لم تطل أيامه، و مرض و لزم الفراش حتى مات فى النصف من شوّال من سنة خمس و خمسين و مائة. فكانت ولايته على إمرة مصر استقلالا بعد موت أخيه عبد اللّه ثمانية أشهر و نصفا. و تولى إمرة مصر من بعده موسى بن علىّ بن رباح باستخلاف محمد هذا له. و فى أيّام ولايته على مصر خرجت عساكر مصر الى إفريقيّة صحبتها يزيد بن حاتم، فقام محمد هذا بأمرهم أتمّ قيام و جهّزهم و حمل إلى يزيد الأموال و الخيل و السلاح و الرواتب حتى سار إلى جهة المغرب و قاتل من بها و قتل أبا عاد و أبا حاتم و ملك القيروان و سائر الغرب، و بعث الى محمد هذا ليعرّف الخليفة بذلك فوجده الرسول قد مات قبل وصوله بأيام. و قد تقدّم ذكر نسب محمد هذا فى ترجمة أخيه عبد اللّه بن عبد الرحمن فلا حاجة للإعادة. ا ه

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۱۵۵]

اشارة

السنة التى حكم فيها محمد بن عبد الرحمن و غيره من الأمراء على مصر و هى سنة خمس و خمسين و مائة- فيها استنقذ يزيد بن حاتم المعزول عن إمرة مصر قبل تاريخه بلاد المغرب من يد الخوارج بعد حروب عظيمة، و قتل أبا عاد و أبا حاتم

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۴

ملكى الخوارج، و مهّد إقليم المغرب و أصلح أموره، و بقى على إمرة المغرب خمسة عشر عاما أميرا. و فيها عزل الخليفة أبو جعفر المنصور عن إمرة المدينة الحسن بن زيد العلوىّ بعبد الصمد بن علىّ العباسىّ عمّ الخليفة المنصور. و فيها بنى المنصور أسوار الكوفة و البصرة و نيسابور و أدار عليها الخندق من أموال أهلها. و فيها عزل الخليفة أبو جعفر المنصور أخاه العباس بن محمد عن الجزيرة و صادره و حبسه لشكوى أهل الجزيرة عليه. و فيها توفى أشعب بن جبير الطماع، و أمه جعدة و قيل أم حميد. و قيل إنه كان مولى عثمان بن عفان رضى اللّه عنه، و قيل مولى سعيد بن العاص، و قيل مولى عبد اللّه بن الزّبير، و قيل مولى فاطمة بنت الحسين؛ و كان أزرق العينين أحول أقرع نشأ بالمدينة، و قيل ولد سنة تسع من الهجرة و عاش دهرا طويلا.

و كان أشعب قد تعبّد و قرأ القرآن و تنسّك و روى الحديث، و كان حسن الصوت، و له أخبار كثيرة مستظرفة فى الطمع و غيره.

روى الأصمعىّ قال: عبث الصّبيان بأشعب فقال: و يحكم! اذهبوا، سالم يقسم تمرا فعدوا، فعدا معهم و قال: ما يدرينى لعله حقّ.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۵

و قال أبو أميّة الطّرسوسىّ حدّثنا ابن أبى عاصم النبيل عن أبيه قال: قلت لأشعب الطماع: أدركت التابعين فما كتبت شيئا، فقال: حدّثنا عكرمة عن ابن عباس قال: «للّه على عبده نعمتان» ثم سكت؛ فقلت: اذكرهما، فقال: الواحدة نسيها عكرمة، و الأخرى نسيتها أنا.

و روى ابن أبى عبد الرحمن الغزّى عن أبيه قال أشعب: ما خرجت فى جنازة فرأيت اثنين يتسارّان إلّا ظننت أنّ الميّت أوصى لى بشىء. و عن ابن أبى عاصم قال: مررت يوما فإذا أشعب ورائى فقلت: مالك؟ قال: رأيت قلنسوتك قد مالت فقلت: لعلها تقع

فآخذها، فأخذتها عن رأسى فدفعتها اليه. و حكايات أشعب فى الطمع كثيرة مشهورة؛ و قيل انه كان يجيد الغناء. و فيها توفى مسعر بن كدام بن ظهير بن عبيدة بن الحارث أبو سلمة الهلالى الكوفىّ الأحول الحافظ الزاهد. قال سفيان بن عيينة: رأيت مسعرا و ربّما يحدّثه الرجل بشيء هو أعلم به منه فيستمع له و ينصت، و ما لقيت أحدا أفضّله عليه.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثلاثة أذرع و عشرة أصابع، مبلغ الزيادة خمسة عشر ذراعا و ثمانية عشر إصبعا.

ذكر ولاية موسى بن علىّ على مصر

هو موسى بن علىّ بن رباح الأمير أبو عبد الرحمن اللّخمىّ المصرى أمير مصر، ولى إمرة مصر باستخلاف محمد بن عبد الرحمن التّجيبى اليه، فأقرّه الخليفة أبو جعفر

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۶

المنصور على إمرة مصر [و] على الصلاة، و ذلك فى شوال سنة خمس و خمسين و مائة فجعل على شرطته أبا الصّهباء محمد بن حسّان الكلبىّ، و باشر إمرة مصر الى سنة ست و خمسين و مائة؛ [و فى ولايته] خرج عليه قبط مصر و تجمعوا ببعض البلاد فبعث موسى هذا بعسكر فقاتلوهم حتى هزموهم و قتل منهم جماعة و عفا عن جماعة، و مهّد أمور مصر؛ و كان فيه رفق بالرعية و تواضع، و كان يتوجّه الى المسجد ماشيا و صاحب شرطته بين يديه يحمل الحربة، و كان اذا أقام صاحب الشرطة الحدود بين يديه يقول له موسى هذا: ارحم أهل البلاد؛ و كان يحدّث فيكتب الناس عنه.

قال الذهبىّ فى «تذهيب التهذيب»: ولى الدّيار المصريّة ست سنين و حدّث عن أبيه، و عن الزهرىّ، و عن ابن المنكدر، و جماعة؛ و حدّث عنه أسامة بن زيد الليثى، و الليث بن سعد، و عبد اللّه بن لهيعة، و ابن المبارک، و ابن وهب، و وكيع، و أبو عبد الرحمن المصرى، و عبد الرحمن بن مهدى، و محمد بن سنان العوقى، و روح بن صلاح الموصلىّ ثم المصرى، و طائفة، آخرهم موتا القاسم بن هانئ الأعمى بمصر، و وثّقه أحمد و ابن معين و العجلىّ و النّسائى.

و قال أبو حاتم: كان رجلا صالحا يتقن حديثه لا يزيد و لا ينقص، صالح الحديث، من الثّقات.

و قال الحافظ أبو سعيد بن يونس: ولد بإفريقيّة سنة تسعين و مات بالإسكندرية سنة ثلاث و ستين و مائة. ا ه.

و قال غيره: أقام على إمرة مصر الى أن توفّى الخليفة أبو جعفر المنصور فى سادس ذى الحجة سنة ثمان و خمسين و مائة، و ولى الخلافة من بعده ابنه محمد المهدىّ فأقرّ

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۷

المهدىّ موسى هذا على إمرة مصر، فاستمر على ذلك الى أن عزله المهدىّ بعد ذلك فى سابع عشر ذى الحجة سنة إحدى و ستين و مائة و ولّى بعده على مصر عيسى بن لقمان، فكانت ولايته على مصر ستّ سنين و شهرين.

و قال صاحب «البغية»: ثم صرفه المهدىّ يوم الاثنين لثلاث عشرة ليلة بقيت من ذى القعدة سنة إحدى و ستين و مائة، و مدّة ولايته ستّ سنين و شهران.

قلت: وافقنا صاحب «البغية» فى المدّة و السنة و خالفنا فى شهر عزله.

قلت: و فى أيامه كان خروج يوسف بن ابراهيم المعروف بالبرم خرج ملتزما بخراسان هو و من معه منكرا على الخليفة محمد المهدىّ و نقم عليه فى سيرته التى يسير بها، و كتب الى موسى هذا ليوافقه فنهر قاصده و قبض عليه و كتب بذلك للمهدىّ، و اجتمع مع البرم بشر كثير، فوجّه اليه المهدىّ يزيد بن مزيد الشّيبانىّ، و هو ابن أخى معن ابن زائدة الشيبانى، فلقيه يزيد فاقتتلا حتى صارا الى المعانقة، فأسره يزيد المذكور و بعث به و بأصحابه الى المهدىّ؛ فلما بلغوا النّهروان حمل يوسف البرم على بعير قد حوّل وجهه الى ذنبه و كذلك أصحابه، فأدخلوهم الى الرّصافة على تلك الحالة، و قطعت يدا يوسف و رجلاه ثم قتل هو و أصحابه و صلبوا على الجسر. و

قیل: إن یوسف المذکور کان حروریّا فتغلب علی بوشنج و علیها مصعب جدّ طاهر بن الحسین فهرب منه، و کان تغلّب أیضا علی مرو الرّوذ و الطّالقان و جوزجان، و قد کان من جملة أصحابه أبو معاذ الفاریابیّ فقبض علیه معه.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۸

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۱۵۶]

السنة الأولی من ولایة موسی بن علیّ علی مصر و هی سنة ست و خمسین و مائة- فیها عزل الخلیفة أبو جعفر المنصور الهیثم بن معاویة عن إمرة البصرة بسوّار بن عبد اللّه، فاستقرّ سوّار علی إمرتها و القضاء، جمع له بینهما؛ و لما عزل الهیثم قدم بغداد فأقام [بها] أیاما و مات فجأة علی صدر سرّیّته و هو یجامع، فخرج المنصور فی جنازته و صلی علیه و دفن فی مقابر قریش. و فیها توفّی حمزة بن حبیب بن عمارة أبو عمارة الزیات أحد القراء السبعة؛ کان الأعمش اذا رآه یقول: هذا حبر القرآن.

و فیها توفّی عبد الرحمن بن زیاد أبو خالد الإفریقی المعافریّ قاضی إفریقیّة، کان فقیها زاهدا ورعا؛ و هو أوّل مولود ولد بالإسلام بإفریقیّة، و هو من الطبقة الخامسة من أهل المغرب وفد علی خلفاء بنی أمیة، و کان قوّالا بالحق مشکور السیرة عدلا رحمه اللّه. و فیها توفی حمّاد الراویة أبو القاسم بن أبی لیلی، ولاؤه لبکر بن وائل. و قیل اسم أبیه سابور بن مبارک الدیلمیّ الکوفی، و کان أخباریا عالما علّامة خبیرا بأیام العرب و شعرها؛ و امتحنه الولید بن یزید الخلیفة فی حفظ الشعر فتعب، فوکّل به من یستوفی علیه فأنشد ألفین و سبعمائة قصیدة مطوّلة، فأمر له الولید بمائة ألف درهم.

و فیها توفی أیضا حمّاد عجرد، و اسمه حمّاد بن یونس بن کلیب أبو یحیی الکوفیّ و قیل: الواسطی، کان أیضا أخباریا علّامة، و کان بینه و بین بشّار بن برد الشاعر الأعمی الآتی ذکره أهاج و مفاوضات؛ و کان بالکوفة فی عصر واحد الحمّادون

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۹

الثلاثة: حمّاد الراویة المقدّم ذکره و حمّاد عجرد هذا، و حمّاد بن الزّبرقان، فکانوا یشربون الخمر و یتهمون بالزندقة.

قال خلف بن المثنّی: کان یجتمع بالبصرة عشرة فی مجلس لا یعرف مثلهم:

الخلیل بن أحمد صاحب العروض سنیّ، و السید محمد الحمیریّ الشاعر رافضیّ، و صالح بن عبد القدوس ثنویّ، و سفیان بن مجاشع صفری، و بشّار بن برد خلیع ماجن، و حمّاد عجرد زندیق، و ابن رأس الجالوت الشاعر یهودیّ، و ابن نظیر النصرانی متکلّم، و عمرو ابن أخت المؤید مجوسی، و ابن سنان الحرّانی الشاعر صابئیّ؛ فیتناشد الجماعة أشعارا و أخبارا؛ فکان بشار یقول: أبیاتک هذه یا فلان أحسن من سورة کذا و کذا، و بهذا المزاح و نحوه کفّروا بشارا، و قیل: وفاة حمّاد عجرد سنة خمس و خمسین و مائة و قیل: سنة إحدی و ستین و مائة.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم ذراعان و خمسة عشر إصبعا، مبلغ الزیادة خمسة عشر ذراعا و اثنان و عشرون إصبعا.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۰

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۱۵۷]

السنة الثانیة من ولایة موسی بن علیّ اللّخمیّ علی مصر و هی سنة سبع و خمسین و مائة- فیها أنشأ الخلیفة أبو جعفر المنصور قصره الذی سمّاه الخلد علی شاطئ دجلة. و فیها عرض المنصور جیوشه فی السلاح و الخیل و خرج و هو علیه درع و قلنسوة سوداء مصریة و فوقها الخوذة. و فیها نقل المنصور الأسواق من بغداد، و عملت بظاهرها بباب الکرخ، و وسّع شوارع بغداد و هدم دورا کثیرة لذلک.

و فیها غزا الروم یزید بن أسید، فوجّه علی بعض جیشه سنانا مولی البطّال، فسبی و قتل و غنم. و فیها توفی سوّار بن عبد اللّه قاضی البصرة، کان عادلا فی حکمه، شکاه أهل البصرة الی المنصور فاستقدمه المنصور، فلما قدم علیه جلس فعطس المنصور فلم یشمّته سوّار، فقال له المنصور: مالک لم تشمتنی؟ فقال: لأنک لم تحمد اللّه، فقال المنصور: أنت ما حابیتنی فی عطسة تحابی غیری! ارجع إلی عملک. و فیها توفی عبد الوهاب ابن الامام إبراهیم بن محمد بن علی بن عبد اللّه بن العباس الهاشمی العباسی ابن أخی المنصور، ولّاه عمّه المنصور دمشق و فلسطین و الصائفة و لم تحمد ولایته و ولی عدّة أعمال غیر ذلک. و کان أبوه إبراهیم بویع بالخلافة بعد موت أبیه فلم یتمّ أمره و قبض علیه مروان الحمار و حبسه حتی مات فعدل الناس بعده الی أخیه السفاح و بایعوه فتمّ امره. و فیها توفی عبد الرحمن بن عمرو بن یحمد الفقیه أبو عمرو الأوزاعیّ فقیه الشام و صاحب المذهب المشهور الذی ینسب الیه الأوزاعیة قدیما، و الأوزاع: بطن من همدان و قیل: من حمیر الشام و قیل قریة بدمشق، و قیل:

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۱

انما سمی الأوزاعیّ لأنه من أوزاع القبائل، و مولده ببعلبک، و نشأ بالبقاع، و نقلته أمّه الی بیروت فرابط بها الی أن مات بها فجأة، فوجدوه یده الیمنی تحت خدّه و هو میّت؛ و کان فقیها ثقة فاضلا عالما کثیر الحدیث حجّة رحمه اللّه. و فیها توفی محمد ابن طارق المکی من الطبقة الثالثة من أهل مکّة، کان من الزهّاد العبّاد.

قال محمد بن فضل: رأیته فی الطواف و قد انفرج له أهل الطواف فحزر طوافه فی الیوم و اللیلة فکان عشرة فراسخ. و به ضرب ابن شبرمة المثل حیث قال:

لو شئت کنت ککرز فی تعبّده أو کابن طارق حول البیت فی الحرم

قد حال دون لذید العیش خوفهما و سارعا فی طلاب الفوز فالکرم

و ذکر الذهبیّ وفاة جماعة مختلف فیهم، فقال: و فیها توفی- قاضی مرو- الحسین ابن واقد، و سعید بن أبی عروبة فی قول، و طلحة بن أبی سعید الإسکندرانیّ، و عامر بن اسماعیل المسلی الأمیر، و فقیه الشام عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعیّ، و محمد بن عبد اللّه بن أخی الزهریّ، و مصعب بن ثابت بن الزبیر فی قول، و یوسف ابن اسحاق بن أبی اسحاق السّبیعیّ (بفتح السین)، و أبو محنف لوط فی قول.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم ذراعان و ثمانیة عشر إصبعا، مبلغ الزیادة سبعة عشر ذراعا و عشرون إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۱۵۸]

السنة الثالثة من ولایة موسی بن علیّ اللّخمیّ علی مصر و هی سنة ثمان و خمسین و مائة- فیها حج بالناس ابراهیم بن یحیی بن محمد العباسی بن أخی الخلیفة أبی جعفر

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۲

المنصور و هو شابّ أمرد. و فیها مات طاغیة الروم. و فیها ولّی الخلیفة خالد بن برمک الجزیرة، و کان ألزمه الخلیفة المنصور بثلاثة آلاف ألف درهم. و فیها توفّی زفر بن الهذیل العنبریّ، الامام الفقیه صاحب أبی حنیفة و مولده سنة عشر و مائة؛ روی علیّ بن المدرک عن الحسن بن زیاد قال: کان زفر و داود الطائیّ متحابّین، فأما داود فترک الفقه و أقبل علی العبادة، و أما زفر فجمعهما. قال أبو نعیم: کنت أعرض الحدیث علی زفر فیقول: هذا ناسخ و هذا منسوخ، و هذا یؤخذ و هذا یرفض. و قال الحسن بن زیاد: ما رأیت أحدا یناظر زفر إلا رحمته. قلت:

یعنی لکثرة علومه و بلاغته و قدرته علی العلم. و هو أوّل أصحاب أبی حنیفة موتا رحمه اللّه. و فیها توفی شیبان الرّاعی، و کان من

كبار الفقهاء من الزّهاد و العبّاد، كان من أكابر أهل دمشق ثم ترك الدنيا و خرج إلى جبل لبنان، فانقطع به و أكل المباحات و صحب سفيان الثوريّ و غيره. قيل: إنه كان اذا حصل له جنابة أتته سحابة مطر فيغتسل منها؛ و كان إذا ذهب الى الجمعة يخطّ على غنمه خطّا فيجيء فلم يجدها تتحرّك. قال الهيثم: حجّ شيبان و سفيان الثوريّ فعرض لهما سبع، فقال سفيان: أما ترى السبع؟ فقال شيبان لا تخف غير اللّه عزّ و جلّ، فلما سمع السبع صوت شيبان جاء اليه و بصبص فعرك شيبان أذنه بعد أن بصبص السبع، فقال له: اذهب.

و فيها توفى الخليفة أمير المؤمنين عبد اللّه بن محمد بن علىّ بن عبد اللّه بن العباس أبو جعفر المنصور الهاشمىّ العباسى، ولد فى سنة خمس و تسعين أو فى حدودها، و أمّه أم ولد اسمها سلامة البربرية؛ و روى عن أبيه و جدّه، و روى عنه ولده محمد المهدىّ؛ و كان قبل أن يلى الخلافة يقال له: عبد اللّه الطويل؛ ولى الخلافة بعد

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۳

موت أخيه عبد اللّه السفاح، أتته البيعة و هو بمكّة، فإنه كان حجّ تلك السنة بعهد السفاح إليه لما احتضر فى سنة ست و ثلاثين و مائة، فدام فيها اثنتين و عشرين سنة الى أن مات فى ذى الحجة. و ولى الخلافة من بعده ابنه محمد المهدىّ بعهد منه إليه.

و قال الربيع بن يونس الحاجب: سمعت المنصور يقول: الخلفاء أربعة: أبو بكر و عمر و عثمان و على، و الملوك أربعة: معاوية و عبد الملك و هشام و أنا. قال شباب:

أقام الحجّ للناس أبو جعفر المنصور سنة ست و ثلاثين و مائة و سنة أربعين و مائة و سنة أربع و أربعين و مائة و سنة اثنتين و خمسين و مائة. و زاد الفسوىّ أنه حجّ أيضا سنة سبع و أربعين و مائة.

قال أبو العيناء حدّثنا الأصمعىّ: أنّ المنصور صعد المنبر فشرع فى الخطبة؛ فقام رجل فقال: يا أمير المؤمنين، اذكر من أنت فى ذكره، فقال له: مرحبا، لقد ذكرت جليلا، و خوّفت عظيما، و أعوذ بالله أن أكون ممن اذا قيل له: اتّق اللّه أخذته العزّة بالإثم؛ و الموعظة منا بدت و من عندنا خرجت، و أنت يا قائلها فأحلف بالله ما اللّه أردت، إنّما أردت أن يقال: قام فقال فعوقب فصبر، فأهون بها ويلك! و إياك و إيّاكم معشر الناس و أمثالها؛ ثم عاد الى الخطبة و كأنما يقرأ من كتاب.

و قال الربيع: كان المنصور يصلّى الفجر ثم يجلس [و ينظر] فى مصالح الرعية الى أن يصلّى الظهر، ثم يعود الى ذلك الى أن يصلّى العصر، ثم يعود الى أن يصلّى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۴

المغرب؛ فيقرأ ما بين المغرب و العشاء الآخرة، ثم يصلّى العشاء و يجلس مع سمّاره الى ثلث الليل الأوّل، فينام الثلث الأوسط ثم ينتبه الى أن يصلّى الفجر، و يقرأ فى المصحف الى أن ترتفع الشمس فيجلس للناس، فكان هذا دأبه.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ذراعان سواء، مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا و إصبعان و نصف.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۱۵۹]

السنة الرابعة من ولاية موسى بن علىّ اللّخمىّ على مصر و هى سنة تسع و خمسين و مائة. فيها خرج الخليفة محمد المهدىّ من بغداد فنزل البردان و جهّز الجيوش الى الصائفة، و جعل على الجيوش عمّه العباس بن محمد العباسىّ و بين يديه الحسن بن وصيف فى الموالى و قوّاد خراسان و غيرهم؛ فساروا الى الروم حتى بلغوا أنقرة و فتحوا مدينة يقال لها: المطمورة و عادوا سالمين غانمين. و فيها فتح الخليفة المهدىّ الخزائن و فرّق الأموال. و ذكر الربيع الحاجب قال: مات المنصور و فى بيت المال مائة ألف ألف درهم و ستون ألف درهم فقسّم ذلك المهدىّ و أنفقه. و فيها أمر المهدىّ بإطلاق من كان فى حبس أبيه إلا من كان عليه دم و أشباه ذلك. و فيها

أعتق المهدىّ جاريته الخيزران و تزوّجها، و هى أم الهادى و الرشيد. و فيها عزم المهدىّ

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۵

على خلع ابن عمه عيسى بن موسى من ولاية العهد و تولية ولده موسى الهادى [فكتب الى عيسى بن موسى بالقدوم عليه] فامتنع عيسى من ذلك. و فيها توفى عبد العزيز مولى المغيرة بن المهلّب بن أبى صفرة من الطبقة الرابعة من أهل مكّة، و كان معروفا بالعبادة و الورع و له أحاديث. و فيها أطلق المهدىّ الحسن و أخاه ولدى ابراهيم بن عبد اللّه بن حسن و سلّم الحسن الى أمير يحتفظ به، فهرب الحسن فتلطّف المهدىّ حتى وقع به بعد مدّة. و فيها عزل المهدىّ إسماعيل الثّقفىّ عن الكوفة بعثمان ابن لقمان الجمحىّ و قيل بغيره. و فيها عزل المهدىّ خاله يزيد بن منصور عن اليمن و ولّاها رجاء بن روح.

و ذكر الذهبىّ وفاة جماعة أخر فى هذه السنة، قال: و توفّى أصبغ بن زيد الواسطى، و حميد بن قحطبة الأمير، و عبد العزيز بن أبى روّاد بمكة، و عكرمة بن عمّار اليمامىّ، و عمّار بن رزيق الضبىّ، و مالك بن مغول قيل فى أوّلها، و محمد بن عبد الرحمن بن أبى ذئب، و يونس بن أبى إسحاق السّبيعىّ، و أبو بكر الهذلىّ و اسمه سلمى.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ذراعان و ثمانية أصابع، مبلغ الزيادة خمسة عشر ذراعا و إصبعان.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۱۶۰]

اشارة

السنة الخامسة من ولاية موسى بن علىّ اللّخمىّ على مصر و هى سنة سئين و مائة. فيها عزل المهدىّ أبا عون عن إمرة خراسان و ولّاها بعده معاذ بن

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۶

مسلم. و فيها حجّ بالناس الخليفة محمد المهدىّ و نزع المهدىّ كسوة البيت الحرام و كساه كسوة جديدة، فقيل: إنّ حجبة الكعبة أنهوا إليه أنّهم يخافون على الكعبة أن تهدم لكثرة ما عليها من الأستار، فأمر بها فجردت عنها الستور، فلما انتهوا الى كسوة هشام بن عبد الملك بن مروان وجدوها ديباجا غليظا الى الغاية. و يقال:

إنّ المهدىّ فرّق فى حجّته هذه فى أهل الحرمين ثلاثين ألف ألف درهم منها دنانير كثيرة، و وصل إليه من اليمن أربعمائة ألف دينار فقسّمها أيضا فى الناس، و فرّق من الثياب الخام مائة ألف ثوب و خمسين ألف ثوب؛ و وسّع فى مسجد النبى صلى اللّه عليه و سلّم و قرّر فى حرسه خمسمائة رجل من الأنصار و رفع أقدارهم. و فيها خلع المهدىّ ابن عمه عيسى بن موسى بن محمد بن على بن عبد اللّه بن العباس من ولاية العهد و جعلها فى ولده موسى الهادى. و فيها توفى ابراهيم بن أدهم بن منصور بن يزيد بن جابر التميمى العجلىّ أبو إسحاق البلخىّ، و أصله من كورة بلخ من أبناء الملوك، حجّ أدهم و معه امرأة فولدت بمكّة ابراهيم هذا، فطاف به أبوه حول الكعبة و دار به على الخلق فى المسجد و قال: ادعوا له.

قال ابن مندة: سمعت عبد اللّه بن محمد البلخىّ، سمعت عبد اللّه بن محمد العابد، سمعت يونس بن سليمان البلخىّ يقول: كان ابراهيم بن أدهم من الأشراف، و كان أبوه شريفا كثير المال و الخدم و الجنائب و البزاة، فبينما إبراهيم يأخذ كلابه و بزاته للصيد و هو على فرسه يركضه إذ هو بصوت يناديه: يإبراهيم، ما هذا العبث! أفحسبتم أنّما خلقناكم عبثا. اتق اللّه و عليك بالزاد ليوم الفاقة، قال: فنزل عن دابته و رفض الدنيا.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۷

و ذکر الذهبی بإسناد عن إبراهیم بن أدهم أنه قیل لإبراهیم بن أدهم:
ما کرامة المؤمن علی اللّه؟ قال: أن یقول للجبل تحرّک فیتحرّک، قال: فتحرّک الجبل، فقال: ما إیّاک عنیت.
أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم ذراعان و ثمانیة أصابع، مبلغ الزیادة ستة عشر ذراعا سواء.

ذکر ولایة عیسی بن لقمان علی مصر

هو عیسی بن لقمان بن محمد بن حاطب الجمحیّ (بضم الجیم و تقدّمها نسبة الی جمح) أمیر مصر، ولیها بعد عزل موسی بن علیّ اللخمیّ من قبل أمیر المؤمنین محمد المهدیّ علی الصلاة و الخراج معا فی سنة إحدی و ستین و مائة، و کان دخوله الی مصر فی یوم الاثنین لثلاث عشرة لیلة بقین من ذی الحجة سنة إحدی و ستین و مائة؛ فجعل علی الشّرطة الحارث بن الحارث الجمحیّ و هو من بنی عمّه، ثم سکن عیسی هذا المعسکر علی عادة أمراء مصر و دام علی إمرة مصر مدّة یسیرة، ثم جاءه الخبر بعزله عن إمرة مصر فی جمادی الآخرة لاثنتی عشرة بقیت منها من سنة اثنتین و ستین و مائة، و ولایة واضح مولی أبی جعفر المنصور. فکانت ولایة عیسی هذا علی مصر نحو خمسة أشهر، و هی بسفارة یعقوب بن داود. و کان سبب تقدّم یعقوب بن داود عند المهدیّ لما أحضره المهدیّ عنده فی أمر الحسن بن إبراهیم العلویّ فقال یعقوب: یا أمیر المؤمنین، إنّک قد بسطت عدلک لرعیّتک و أنصفتهم و أحسنت إلیهم فعظم رجاؤهم، [و انفسحت آمالهم]؛ و قد بقیت أشیاء لو ذکرتها [لک] لم تدع النظر فیها، و أشیاء خلف بابک یعمل فیها و لا تعلم بها، فان جعلت

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۸

لی السبیل إلیک رفعتها؛ فأمره بذلک. فکان یدخل علیه کلّما أراد و یرفع إلیه النصائح فی الأمور الحسنة الجمیلة من أمور الثغور و الولایات و بناء الحصون و تقویة الغزاة و تزویج العزّاب و فکاک الأسری و المحبّسین و القضاء عن الغارمین و الصدقة علی المتعفّفین، فحظی عنده بذلک و تقدّمت منزلته حتی سقطت منزلة أبی عبید اللّه و حبس. و کتب المهدیّ توقیعا بأنه اتخذه أخا فی اللّه و وصله بمائة ألف درهم.
و لما عزل عیسی هذا عن إمرة مصر قرّبه الی المهدیّ فأکرمه غایة الإکرام.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۱۶۱]

اشارة

السنة التی حکم فیها عیسی بن لقمان علی مصر و هی سنة إحدی و ستین و مائة علی أنّه ولی فی آخرها غیر أنّنا نذکرها فی ترجمته، و نذکر سنة اثنتین و ستین و مائة فی ترجمة غیره لأنّ کلّا منهما ترجمته غیر مستوفاة لقلة اعتناء المؤرّخین بهما قدیما.
فیها خرج المقنّع الخارجیّ بخراسان و اسمه عطاء، و قیل حکیم، بأعمال مرو و ادّعی النبوّة، و کان یقول بتناسخ الأرواح، و استغوی خلقا عظیما و توثّب علی بعض ما وراء النهر، فانتدب لحربه أمیر خراسان معاذ بن مسلم و الأمیر جبریل بن یحیی و لیث مولی المهدیّ و سعید الحرسیّ، فجمع المقنّع الأقوات و تحصّن للحصار بقلعة من أعمال کشّ علی ما یأتی ذکره. و فیها ظفر نصر بن [محمد بن] الأشعث الخزاعیّ بعبد اللّه ابن الخلیفة مروان الحمار الأمویّ المکنّی بأبی الحکم و هو أخو عبید اللّه؛ و کانا ولیّی عهد مروان، فلما قتل مروان حسبما ذکرناه بدیار مصر هرب عبد اللّه هو و أخوه الی الحبشة فقتل عبید اللّه و اختفی هذا الی أن أتی به الی المهدیّ فجلس له مجلسا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۹

عاما و قال: من يعرف هذا؟ فقام عبد العزيز العقيلىّ الى جنبه، ثم قال له: أبو الحكم؟

قال: نعم، فسجنه المهدىّ. و فيها أمر المهدىّ بعمارة طريق مكّة و بنى بها قصورا أوسع من القصور التى أنشأها عمّه السفّاح، و عمل البرك و جدّد الأميال و دام العمل فى ذلك حتى تمّ فى عشر سنين. ثم أمر المهدىّ بترك المقاصير التى فى الجوامع و قصّر المنابر و صيّرها على مقدار منبر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم. و فيها حجّ بالناس موسى الهادى ولىّ عهد المهدىّ و ابنه الأكبر. و فيها زاد الخليفة المهدىّ فى المسجد الحرام و مسجد النبى صلّى اللّه عليه و سلّم. و فيها توفى أبو دلامة زند بن الجون الكوفى الشاعر المشهور مولى بنى أسد، كان عبدا حبشيا فصيحا خليعا ماجنا، و هو ممن ظهر ذكره فى الدولة العباسية من الشعراء. و من شعره و هو من نوع المقابلة ثلاثة بثلاثة:

ما أحسن الدين و الدنيا اذا اجتمعا و أقبح الكفر و الإفلاس بالرجل

و ذكر الذهبىّ وفاة جماعة أخر على اختلاف يرد عليه فى وفاتهم. قال: و فيها مات أرطاة بن الحارث النّخعىّ، و إسرائيل بن يونس، و حرب بن شدّاد أبو الخطاب، و رجاء بن أبى سلمة بالرملة، و زائدة بن قدامة فى أوّلها، و سالم بن أبى المهاجر الرّقّى، و سعيد بن أبى أيّوب المصرى، و سفيان بن سعيد الثّورىّ، و عبد الحكم بن أعين المصرى، و نصر بن مالك الخزاعىّ الأمير، و يزيد بن إبراهيم التّسترىّ.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ذراعان و عشرون إصبعا، مبلغ الزيادة ثمانية عشر ذراعا و أربعة أصابع.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۴۰

ذكر ولاية واضح المنصورى على مصر

هو واضح بن عبد اللّه المنصورى الخصىّ أمير مصر، وليها من قبل المهدى بعد عزل عيسى بن لقمان عن مصر فى جمادى الأولى سنة اثنتين و ستين و مائة. فدخلها واضح المذكور فى يوم السبت لستّ بقين من جمادى الأولى سنة اثنتين و ستين و مائة المذكورة؛ و جمع له المهدىّ صلاة مصر و خراجها معا، و لما دخل مصر سكن المعسكر على عادة أمراء مصر و جعل على شرطته موسى بن زريق مولى بنى تميم. و واضح هذا أصله من موالى صالح ابن الخليفة أبى جعفر المنصور. و كان خصيصا عند المنصور الى الغاية، و كان يندبه الى المهمات لشجاعة كانت فيه و شدّة. و لمّا ولى إمرة مصر شدّ على أهلها فشكوا منه فعزله المهدىّ عنهم فى شهر رمضان من سنة اثنتين و ستين و مائة المذكورة بمنصور بن يزيد. فكانت ولاية واضح هذا على مصر نحو أربعة أشهر.

و قال صاحب «البغية»: ثلاثة شهور. و استمرّ واضح هذا على بريد مصر الى أن خرج إدريس بن عبد اللّه بن حسن بن الحسن بن علىّ بن أبى طالب رضى اللّه عنه.

و كان واضح المذكور فيه ميل للعلويّين فحمله واضح على البريد الى الغرب فنزل إدريس بمدينة يقال لها وليلة، و كان إدريس هذا قد خرج أوّلا مع الحسين صاحب فخّ، فلما قتل الحسين هرب إدريس هذا الى مصر و اختفى بها الى أن وجّهه واضح هذا الى الغرب، فلما وصل إدريس هذا الى الغرب دعا لنفسه فأجابه من كان بها

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۴۱

و بنواحيها من البربر و عظم أمره و بلغ ذلك الخليفة الهادى موسى، فطلب واضحا هذا و قتله و صلبه فى سنة تسع و ستين و مائة، و قيل: الذى قتله هارون الرشيد لمّا تخلّف بعد موت أخيه موسى الهادى فى أوّل خلافته.

ذكر ولاية منصور بن يزيد على مصر

هو منصور بن يزيد بن منصور بن عبد اللّه بن شهر بن يزيد الزّنجانىّ الحميرىّ الرّعينىّ أمير مصر و هو ابن خال المهدىّ؛ ولّاه المهدىّ إمرة مصر بعد عزل واضح عنها فى سنة اثنتين و ستين و مائة على الصلاة، فقدم مصر يوم الثلاثاء لإحدى عشرة ليلة خلت من شهر رمضان سنة اثنتين و ستين و مائة المذكورة، و سكن المعسكر على عادة أمراء مصر، و جعل على شرطته هاشم بن عبد اللّه بن عبد الرحمن بن معاوية ابن حديج مدّة يسيرة، ثم عزله و ولّى عبد الأعلى بن سعيد الجيشانىّ، ثم عزله أيضا و ولى عسّامة بن عمرو؛ و كل ذلك فى مدّة يسيرة فانّ ولاية منصور المذكور لم تطل على إمرة مصر و عزل عنها فى النصف من ذى القعدة من سنة اثنتين و ستين و مائة المذكورة بيحيى بن داود؛ فكانت مدّة ولاية منصور بن يزيد هذا على مصر شهرين و ثلاثة أيام، و لم أقف على وفاته بعد ذلك غير أنه ذكر فى واقعة عبد السلام الخارجىّ أنّه حضرها بقنّسرين. و أمر عبد السلام بن هاشم اليشكرى المذكور، [أنه] كان قد خرج بالجزيرة و اشتدّت شوكته و كثر أتباعه فلقى عدّة من قوّاد المهدىّ فيهم عيسى ابن موسى القائد فقتله بعد أمور فى عدّة ممن معه و هزم جماعة من القوّاد فيهم شبيب ابن واج المرورّوذىّ، فندب المهدىّ الى شبيب ألف فارس و أعطى كل رجل

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۴۲

منهم ألف درهم معونة فوافوا شبيبا، فخرج بهم فى طلب عبد السلام المذكور فهرب منه فأدركه بقنّسرين و قتله.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۱۶۲]

اشارة

السنة التى حكم فيها واضح مولى المنصور على مصر ثم من بعده منصور ابن يزيد الحميرىّ الرّعينىّ و هى سنة اثنتين و ستين و مائة- فيها وضع الخليفة المهدىّ دواوين الأزمّة و ولّى عليها عمرو بن مربّع، و لم يكن لبنى أميّة ذلك. (و معنى دواوين الأزمّة: أن يكون لكل ديوان زمام و هو رجل يضبطه، و قد كان قبل ذلك الدواوين مختلطة). و فيها وصلت الروم الى الحدث فهدموا سورها فغزا الناس غزوة لم يسمع بمثلها، و كان مقدّم الغزاة الحسن بن قحطبة سار اليهم فى ثمانين ألف مقاتل سوى المطّوّعة؛ فأغار على ممالك الروم و أحرق و أخرب و لم يلق بأسا. و فيها ولى اليمن عبد اللّه بن سليمان. و فيها ظهرت المحمّرة بجرجان و رأسهم عبد القهّار فغلبوا على جرجان و قتلوا و أفسدوا؛ فسار لحربهم من طبرستان عمر بن العلاء فقتل عبد القهّار و رءوس أصحابه و تشتّت باقى أصحابه. و فيها كان مقتل عبد السلام بن هاشم اليشكرىّ الذى خرج بحلب و بالجزيرة، و كثرت جموعه و هزم الجيوش التى حاربته حتى انتدب لحربه شبيب بن واج فى ألف فارس من الأبطال و أعطوا ألف ألف

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۴۳

درهم، ففرّ منهم اليشكرىّ الى حلب فلحقه بها شبيب و قتله. و فيها توفى أبو عتبة عبّاد بن عبّاد الخوّاص كان من أهل المحبّة و عنه أخذ مشايخ الطريقة، كان يمشى فى الأسواق و يصيح: وا شوقاه الى من يرانى و لا أراه! و كان صاحب أحوال و كرامات رحمه اللّه. و فيها توفّى محمد بن جعفر بن عبيد اللّه بن العباس العباسىّ الهاشمىّ، كان صاحب فضل و مروءة و كان بمنزلة عظيمة عند الخليفة أبى جعفر المنصور، و كان المنصور يعجب به و يحادثه، و كان لبيبا لسنا فصيحا.

و ذكر الذهبىّ وفاة جماعة أخر ممن تقدم ذكرهم و غيرهم على اختلاف يرد فى وفاتهم، قال: و فيها توفى إبراهيم بن أدهم الزاهد، و إبراهيم بن نشيط المصرىّ فى قول، و خالد ابن أبى بكر العمرىّ المدنىّ، و داود بن نصير الطائىّ، و زهير بن محمد التّميمىّ المروزىّ، و اسرائيل بن يونس بخلف، و عبد اللّه بن محمد بن أبى يحيى المدنىّ سحبل، و يزيد بن إبراهيم التّسترىّ بخلف، و يعقوب بن محمد بن طحلاء المدنىّ، و أبو بكر بن أبى سبرة القاضى، و أبو الأشهب العطاردىّ و اسمه جعفر.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثلاثة أذرع و عشرون إصبعا، مبلغ الزيادة خمسة عشر ذراعا و اثنا عشر إصبعا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۴۴

ذكر ولاية يحيى بن داود على مصر

هو يحيى بن داود الشهير بابن ممدود الأمير أبو صالح الخرسىّ من أهل خراسان.

و قال صاحب «البغية»: من أهل نيسابور. ولى مصر من قبل المهدىّ على الصلاة و الخراج بعد عزل منصور بن يزيد عنها فى ذى الحجّة سنة اثنتين و ستين و مائة، و لما قدم مصر سكن المعسكر على العادة، و جعل على شرطته عسّامة بن عمرو، و كان أبو صالح المذكور تركيا و فيه شدّة بأس و قوّة جنان مع معرفة و تدبير؛ و كان لما قدم مصر وجد السّبل بها مخيفة لكثرة المفسدين و قطّاع الطريق، فأخذ أبو صالح هذا فى إقماع المفسدين و أبادهم و قتل منهم جماعة كثيرة، فعظمت حرمته و تزايدت هيبته فى قلوب الناس حتى تجاوز ذلك الحدّ؛ فكان يمنع الناس من غلق الدروب و الأبواب و غلق الحوانيت حتى جعلوا عليها [شرائج] القصب و الشّباك لمنع الكلاب من دخولها فى الليل، و هو أوّل من صنع ذلك بمصر؛ فكان ينادى بمصر و يقول: من ضاع له شىء فعلىّ أداؤه، و منع حرّاس الحمّامات أن يجلسوا فيها، و قال: من راح له شىء فأنا أقوم له به من مالى؛ فكان الرجل يدخل الحمّام فيضع ثيابه فى المسلخ ثم يقول: يا أبا صالح احرس ثيابى ثم يدخل الحمّام و لم يكن بها حارس و يقضى حاجته على مهل و يخرج فيلقى ثيابه كما هى لا يجسر أحد على أخذها من عظم حرمته، فانه كان أشدّ الملوك حرمة و أعظمهم هيبة و أقدمهم على سفك الدماء و أنهكهم عقوبة؛ ثم إنه أمر أهل مصر من الأشراف و الفقهاء و الأعيان أن يلبسوا القلانس الطّوال و يدخلوا بها عليه فى يوم الاثنين و الخميس بلا أردية؛ فقاسى أهل مصر منه شدائد، غير أنّ البلاد و مصر كانت

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۴۵

فى أيّامه فى غاية الأمن. قيل: إنّ أبا جعفر المنصور كان اذا ذكره يقول: هو رجل يخافنى و لا يخاف اللّه. و استمرّ على إمرة مصر الى أن عزله الخليفة محمد المهدىّ بسالم بن سوادة فى محرم سنة أربع و ستين و مائة، و فرح المصريون بعزله عنهم؛ فكانت ولايته على مصر سنة و شهرا إلّا أيّاما. و قال صاحب «البغية»: سلتين و شهرا، و الأوّل أثبت. و هو أحد من مهّد الديار المصرية و أباد أهل الحوف من قيس و يمن و غيرهم من قطّاع الطريق؛ و كان من أجلّ أمراء مصر لو لا شدّة كانت فيه.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۱۶۳]

اشارة

السنة الأولى من ولاية أبى صالح يحيى بن داود على مصر و هى سنة ثلاث و ستين و مائة- فيها جدّ الأمير سعيد الحرسىّ فى حصار المقنّع حتى أشرف على أخذ قلعته، فلمّا أحسّ المقنّع بالهلاك مصّ سما و أسقى نساءه فتلف و تلفوا. و فيها عزل الخليفة محمد المهدىّ عبد الصمد بن على عن إمرة الجزيرة و ولّاها زفر بن عاصم الهلالىّ. و فيها ولّى المهدىّ ابنه هارون الرشيد بلاد المغرب كلّها و أذربيجان و أرمينية، و جعل كاتبه على الخراج ثابت بن موسى، و على رسائله يحيى بن خالد بن برمك.

و فيها قدم المهدىّ الى حلب و جهّز البعوث لغزو الروم، و كانت غزوة عظيمة، أمّر عليها ابنه هارون الرشيد و ضمّ اليه الربيع الحاجب و موسى بن عيسى بن موسى و الحسن بن قحطبة، فافتتح المسلمون فتحا كبيرا. و فيها قتل المهدىّ جماعة من الزنادقة و صلبهم و أحضرت كتبهم فقطّعت. و فيها زار المهدىّ القدس، و حجّ بالناس علىّ بن

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۴۶

المهدیّ. و فیها توفّی الخلیل بن أحمد بن عبد الرحمن الأزدیّ الفراهیدیّ البصریّ صاحب العربیّة و العروض، و قد تقدّم ذکره من قول صاحب مرآة الزمان فی سنة ثلاثین و مائة؛ و الأصحّ وفاته فی هذه السنة. و فیها توفی أرطاة بن المنذر بن الأسود أبو عدیّ السّکونیّ الحمصیّ، قال: أتیت عمر بن عبد العزیز فعرض لی فی خیله و قال: یا أرطاة: ألا أحدّثک بحدیث هو عندنا من العلم المخزون؟ قلت: بلی، قال: اذا توضأت عند البحر فالتفت الیه و قل: یا واسع المغفرة اغفر لی، فانه لا یرتدّ الیک طرفک حتی یغفر لک ذنوبک.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم ذراع و أربعة عشر إصبعا، مبلغ الزیادة خمسة عشر ذراعا و خمسة عشر إصبعا.

ذکر ولایة سالم بن سوادة علی مصر

هو سالم بن سوداة التّمیمیّ أمیر مصر، ولیها من قبل محمد المهدیّ بعد عزل یحیی بن داود فی أوّل المحرّم سنة أربع و ستین و مائة، فقدمها یوم الأحد لاثنتی عشرة لیلة خلت من المحرّم، و جعل علی شرطته الأخضر بن مروان، و قدم معه أیضا أبو قطیفة إسماعیل بن ابراهیم علی الخراج؛ و لما دخل سالم الی مصر سکن بالمعسکر علی العادة، و دام علی إمرة مصر الی أن مضت سنة أربع و ستین و مائة و دخلت سنة خمس و ستین و مائة؛ و ورد علیه الخبر من قبل الخلیفة محمد المهدیّ بصرفه عن إمرة مصر بإبراهیم بن صالح العباسیّ، فکانت ولایته علی مصر نحو السنة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۴۷

و قال صاحب «البغیة»: صرف فی سلخ ذی الحجّة فکان مقامه بمصر سنة إلا ثمانیة عشر یوما. و فی أیّامه کانت حروب کثیرة بمصر و بلاد المغرب، و جهّز عساکر مصر نجدة الی من کان فی برقة ثم عادوا من غیر قتال لمّا بلغتهم الفتنة التی کانت بالمغرب بین بربر بلنسیة و بربر شنت بریّة من الأندلس و جرت بینهم حروب کثیرة قتل فیها خلق من الطائفتین، و کانت بینهم وقائع مشهورة دامت أشهرا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۱۶۴]

اشارة

السنة التی حکم فیها سالم بن سوادة علی مصر و هی سنة أربع و ستین و مائة- فیها حجّ بالناس صالح بن المنصور. و فیها غزا هارون الرشید ابن الخلیفة المهدیّ الصائفة فوغل فی بلاد الروم و وقع له بالروم حروب و افتتح عدّة حصون حتی بلغ خلیج قسطنطینیّة، و صالح ملک الروم فی العام علی سبعین ألف دینار مدّة ثلاث سنین بعد أن غنم و سبی و استنقذ خلقا من المسلمین من الأسر، و غنم ما لا یوصف من المواشی حتی بیع البرذون بدرهم و الزّردیّة بدرهم و عشرون سیفا بدرهم؛ و قتل من العدوّ نحو خمسین ألفا؛ قاله الذهبیّ، ثم رجع فسرّ به أبوه المهدیّ. و قیل: إن هذه الغزوة کانت فی سنة خمس و ستین و مائة. و فیها عزل المهدیّ محمد بن سلیمان عن البصرة و فارس و استعمل علیها صالح بن داود بن علیّ. و فیها خرج المهدیّ حاجا فوصل العقبة فعطش الناس و جهد الحجیج.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۴۸

و أخذت المهدیّ الحمّی فرجع من العقبة، و غضب علی یقطین بن موسی حیث لم یصلح المصانع علی الوجه، و لاقی الناس شدّة من

قلّة الماء. و فیها توفی شبیب بن شیبة أبو معمر المنقریّ، کان خطیبا لسنا فصیحا دخل علی المنصور فقال: یا شبیب عظنی و أوجر، فقال: یا أمیر المؤمنین، إن اللّه لم یرض أن یجعل أحدا من خلقه فوقک، فلا ترض لنفسک أن یکون أشکر له فی الأرض منک؛ فقال أحسنت و أوجرت!.

و ذکر الذهبیّ وفاة جماعة أخر فی تاریخه مع خلاف یرد علیه، قال: و فیها توفّی إسحاق بن یحیی بن طلحة التیمیّ، و سلّام بن مسکین فی قول، و سلّام بن أبی مطیع فی قول أیضا، و عبد اللّه بن زید بن أسلم العدویّ، و عبد اللّه بن شعیب بن الحبحاب و عبد اللّه بن العلاء بن زئر؟؟؟، و عبد الرحمن بن عیسی بن وردان، و عبد العزیز بن عبد اللّه بن الماجشون، و عبد المجید بن أبی عبس الأنصاریّ، و عمر بن أبی زادة فی قول الواقدی، و عمر بن عثمان بن عبد الرحمن بن سعید بن یربوع، و القاسم بن معن المسعودیّ فی قول خلیفة.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم ذراع و ستة عشر إصبعا، مبلغ الزیادة خمسة عشر ذراعا و خمسة عشر إصبعا.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۴۹

ذکر ولایة ابراهیم بن صالح الأولی علی مصر

هو ابراهیم بن صالح بن علی بن عبد اللّه بن العبّاس الهاشمیّ العباسیّ أمیر مصر، ولیها من قبل ابن عمّه المهدیّ علی الصلاة و الخراج معا؛ و قدم الی مصر لإحدی عشرة لیلة خلت من المحرّم سنة خمس و ستین و مائة و نزل المعسکر علی عادة أمراء مصر فی الدولة العباسیّة، ثم ابتنی دارا عظیمة بالموقف من المعسکر، و جعل علی شرطته عسّامة بن عمرو، و دام ابراهیم بمصر الی أن خرج دحیة بن المعصب بن الأصبغ بن عبد العزیز ابن مروان بالصعید و دعا لنفسه بالخلافة، فتراخی عنه ابراهیم هذا و لم یحفل بأمره حتی استفحل أمر دحیة و ملک غالب بلاد الصعید و کاد أمره أن یتمّ و یفسد بلاد مصر و أمرها؛ فسخط المهدیّ علیه بسبب ذلک و عزله عزلا قبیحا فی سابع ذی الحجّة سنة ۱۶۷ ه بموسی بن مصعب. فکانت ولایة إبراهیم بن صالح هذه علی مصر ثلاث سنین إلا أیاما، و صادره المهدیّ بعد عزله و أخذ منه و من عمّاله ثلثمائة و خمسین ألف دینار، ثم رضی عنه بعد ذلک و ولّاه غیر مصر ثم أعاده الرشید الی عمل مصر ثانیا فی سنة ست و سبعین و مائة. یأتی ذکر ذلک فی ولایته الثانیة ان شاء اللّه تعالی.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۱۶۵]

السنة الأولی من ولایة إبراهیم بن صالح الأولی علی مصر و هی سنة خمس و ستین و مائة- فیها کانت غزوة هارون الرشید ابن الخلیفة المهدیّ السابق ذکرها

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۵۰

علی الأصح. و فیها حجّ بالناس صالح بن المنصور. و فیها توفی داود بن نصیر أبو سلیمان الطائیّ العابد، کان کبیر الشأن فی العلم و الورع و الزهد و سمع الحدیث کثیرا و تفقّه علی أبی حنیفة رضی اللّه عنه، و أحد أصحابه الکبار. و فیها توفی حمّاد بن أبی حنیفة النعمان بن ثابت الکوفیّ، کان أحد الأعلام تفقّه بأبیه و کان إماما کثیر الورع فقیها صالحا. و فیها توفی خالد بن برمک والد البرامکة و والد یحیی بن خالد و جدّ جعفر و الفضل، و کان جلیل القدر خصیصا عند المنصور و ابنه المهدیّ و ولی الأعمال الجلیلة، و کان عاقلا مدبّرا سیوسا.

و ذکر الذهبیّ وفاة جماعة علی اختلاف فیهم، قال: و فیها توفی حماد بن أبی حنیفة و خالد بن برمک والد البرامکة، و خارجة بن عبد اللّه بن سلیمان بن زید بن ثابت المدنیّ، و سلیمان بن المغیرة البصریّ، و داود الطائیّ الزاهد بخلف- و قول الذهبیّ بخلف، یعنی

أنه على اختلاف وقع فى وفياتهم انتهى- و عبد الرحمن بن ثابت ابن ثوبان، و معروف بن مشكان قارئ مكّة، و وهيب بن خالد بالبصرة، و أبو الأشهب العطاردىّ بخلف.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ذراع و عشرة أصابع، مبلغ الزيادة أربعة عشر ذراعا و إصبع واحد.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۱۶۶]

السنة الثانية من ولاية إبراهيم بن صالح الأولى على مصر و هى سنة ست و ستين و مائة- فيها خرج موسى بن المهدىّ الخليفة الى جرجان و استقضى أبا يوسف

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۵۱

يعقوب صاحب أبى حنيفة. و فيها أمر الخليفة محمد المهدىّ بإقامة البريد من اليمن الى مكة و من مكة الى بغداد، و لم يكن البريد قبل ذلك بقطر من الأقطار. و فيها توفى عاصم بن عبد الحميد الفهرىّ شيخ ابن وهب، كان إماما فاضلا رحمه اللّه. و فيها عزل المهدىّ عن قضاء البصرة عبيد اللّه بن الحسن و ولاها خالد بن طليق بن عمران ابن حصين. و فيها غضب الخليفة المهدىّ على وزيره يعقوب بن داود بن طهمان و كان خصيصا بن فحسده موالى المهدىّ وسعوا به حتى قبض عليه، و كان الوزير يعقوب كثير الانهماك فى اللذات، و كان المهدىّ لا يحبّ النبيذ لكن يتفرّج على غلمانه و هم يشربون، فلما عظم أمر الوزير يعقوب و صار الحلّ و العقد بيده مع انهماكه، قال فى ذلك بشار بن برد:

بنى أميّة هبّوا طال نومكم إنّ الخليفة يعقوب بن داود

ضاعت خلافتكم يا قوم فاطّلبوا خليفة اللّه بين الدّفّ و العود

و فيها اضطربت خراسان على المسيّب بن زهير فصرفه المهدىّ عن إمرتها بالفضل ابن سليمان الطّوسى و أضاف اليه سجستان. و فيها قدم وضّاح الشّروىّ بعبد اللّه ابن الوزير أبى عبيد اللّه يعقوب المقدّم ذكره، و كان رمى بالزندقة فقتله المهدىّ بحضرة أبيه، و أباد المهدىّ الزنادقة فى هذه السنة و قتل منهم خلائق.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۵۲

الذين ذكرهم الذهبىّ فى وفيات هذه السنة. قال: و فيها توفى خالد بن يزيد المرّى، و خليد بن دعلج السّدوسىّ، و صدقة بن عبد اللّه السمين، و عقبة بن عبد اللّه الرفاعىّ الأصم بخلف، و عقبة بن أبى الصّهباء الباهلىّ البصريان، و عفير بن معدان الحمصىّ، و عقبة بن نافع المعافرىّ الإسكندرانىّ فى قول؛ و الصواب فى سنة ثلاث و ستين و مائة، و عاصم بن عبد الحميد الفهرىّ شيخ ابن وهب، و معقل بن عبيد اللّه الجزرىّ. و فى أوّلها دفنوا أبا الأشهب العطاردىّ.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ذراعان سواء، مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا و إصبع واحد.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۱۶۷]

اشارة

السنة الثالثة من ولاية إبراهيم بن صالح الأولى على مصر و هى سنة سبع و ستين و مائة- فيها أمر المهدىّ بالزيادة الكبرى فى المسجد الحرام، فدخلت فى ذلك دور كثيرة و ولّى البناء يقطين الأمير و مات المهدىّ و لم يتمّ بناؤه. و فيها أظلمت الدنيا ظلمة شديدة لليال

بقين من ذى الحجّة و أمطرت السماء رملا أحمر، ثم وقع عقيبه و باء شديد هلك فيه معظم أهل بغداد و البصرة. و فيها حجّ بالناس إبراهيم بن يحيى بن محمّد أمير المدينة، ثم توفى بعد عوده الى المدينة بأيّام، و تولّى المدينة من بعده إسحاق بن عيسى ابن علىّ. و فيها عزل المهدىّ عن ديوان الرّسائل أبا عبيد اللّه الأشعرىّ الذى كان وزيره

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۵۳

و قبض عليه فى الماضية ثم أطلقه و ولّاه ديوان الرسائل فعزله فى هذه السنة، و ولّى مكانه الربيع الحاجب، فاستناب الربيع فيه سعيد بن واقد. و فيها جدّ المهدىّ فى تتبع الزنادقة و البحث عنهم فى الآفاق و قتل منهم خلائق. و فيها توفى بشار بن برد أبو معاذ العقيلىّ بالولاء، الضرير الشاعر المشهور، ولد أعمى جاحظ الحدقتين قد تغشّاهما لحم أحمر. و كان ضخما عظيم الخلقة و الوجه مجدّرا طويلا، و كان يرمى بالزندقة، و يروى عنه أنه كان يفضّل النار على الأرض، و يصوّب رأى إبليس فى امتناعه من السجود لآدم صلوات اللّه عليه؛ و فى تفضيل النار يقول:

الأرض مظلمة و النار مشرقة و النار معبودة مذ كانت النار

و من شعره فى غير هذا:

يا قوم أذنى لبعض الحىّ عاشقة و الأذن تعشق قبل العين أحيانا

قالوا بمن لا ترى تهذى فقلت لهم الأذن كالعين توفى القلب ما كانا

و له فى المشورة:

اذا بلغ الرأى المشورة فاستعن بحزم نصيح أو فصاحة حازم

و لا تجعل الشّورى عليك غضاضة فإنّ الخوافى قوّة للقوادم

و له فى التشبيهات قوله:

كأنّ مثار النّقع فوق رءوسنا و أسيافنا ليل تهاوى كواكبه

و فيها توفى عيسى بن موسى بن محمد بن على بن عبد اللّه بن العباس الأمير الهاشمىّ العباسىّ، و هو ابن أخى السفاح و المنصور، و جعله السفاح ولىّ عهده بعد أخيه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۵۴

المنصور، فلا زال به المنصور فى أيام خلافته حتى جعل المهدىّ ابنه قبله فى ولاية العهد ثم خلعه المهدىّ من ولاية العهد بالكليّة بعد أمور صدرت؛ و كان عيسى هذا يلقّب فى أيام ولاية العهد بالمرتضى، و ولى عيسى المذكور أعمالا جليلة الى أن توفّى.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ذراع واحد و أربعة أصابع، مبلغ الزيادة ستة عشر ذراعا و ثمانية عشر إصبعا.

ذكر ولاية موسى بن مصعب على مصر

هو موسى بن مصعب بن الربيع الخثعمىّ مولى خثعم أصله من أهل الموصل ولّاه المهدىّ إمرة مصر- بعد عزل إبراهيم بن صالح عنها سنة سبع و ستين و مائة- على الصلاة و الخراج؛ و قدم مصر فى يوم السبت سابع ذى الحجّة من السنة المذكورة؛ و عند دخوله الى مصر ردّ إبراهيم بن صالح معه الى مصر بعد أن كان خرج منها، و قال:

أمرنى الخليفة بمصادرتك فصادره و أخذ منه و من عمّاله ثلثمائة ألف دينار، ثم أمر إبراهيم بالمسير الى بغداد فسار اليها؛ و لما دخل موسى هذا الى مصر سكن بالمعسكر.

و جعل على شرطته عسّامة بن عمرو، و أخذ موسى فى أيام إمرته على مصر يتشدّد على الناس فى استخراج الخراج و زاد على كل فدّان ضعف ما كان أوّلا، و لقى الناس منه شدائد و ساءت سيرته و ارتشى فى الأحكام؛ ثم رتّب دراهم على أهل الأسهواق و على

الدواب فكرهه الجند و تشغّبوا عليه و نابذوه؛ و ثارت قيس و اليمانية و كاتبوا أهل مصر فاتفقوا عليه؛ ثم اشتغل موسى هذا بأمر دحية الأمويّ الخارج ببلاد الصعيد المقدّم ذكره و جهّز اليه جيوشا لقتاله؛ ثم خرج هو بنفسه فى جميع جيوش مصر لقتال قيس و اليمانية؛ فلما التقوا انهزم عنه أهل مصر بأجمعهم و أسلموه فقتل، و لم

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۵۵

يتكلّم أحد من أهل مصر لأجله كلمة واحدة؛ و كان قتله لسبع خلون من شوّال سنة ثمان و ستين و مائة؛ فكانت ولايته على مصر عشرة أشهر، و ولى بعده عسّامة بن عمرو، و كان موسى استخلفه بعد خروجه للقتال. و كان موسى هذا من شر ملوك مصر، كان ظالما غاشما، سمعه الليث بن سعد يقرأ فى خطبته: (إنّا أعتدنا للظّالمين نارا أحاط بهم سرادقها) فقال الليث: اللهم لاتقه منها.

و من غريب الاتفاق: أنّ موسى بن كعب أمير مصر المقدّم ذكره فى موضعه لما عزله أبو جعفر المنصور عن إمرة مصر بمحمد بن الأشعث كتب اليه: إنى قد عزلتك لا لسخط و لكن بلغنى أنّ غلاما يقتل بمصر من أمرائها يقال له موسى فكرهت أن تكونه، فأخذ موسى كلام المنصور لغرض. و بقى أهل مصر يتذاكرون ذلك الى أن قتل موسى هذا بعد ذلك بسبع و عشرين سنة.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۱۶۸]

اشارة

السنة التى حكم فيها موسى بن مصعب على مصر و هى سنة ثمان و ستين و مائة- فيها جهّز المهدىّ سعيدا الحرشىّ لغزو طبرستان فى أربعين ألفا. و فيها حجّ بالناس على بن المهدىّ. و فيها نقضت الروم الصلح بعد فراغه بثلاثة أشهر، فتوجّه اليهم يزيد بن بدر بن أبى محمد البطّال فى سريّة فغنموا و ظفروا. و فيها مات عمر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۵۶

الكلواذانىّ عريف الزنادقة و تولّى بعده حمدويه الميسانى. و فيها توفى الحسن بن زيد بن الحسن بن على بن أبى طالب، أبو محمد الهاشمىّ المدنىّ، و أمّه أمّ ولد كان عابدا ثقة، ولى المدينة لأبى جعفر المنصور خمس سنين، ثم غضب عليه أبو جعفر و عزله و استصفى أمواله و حبسه، فلم يزل محبوسا حتى مات المنصور فأخرجه المهدىّ و ردّ عليه كلّ شىء كان أخذ له؛ و لم يزل عند المهدىّ مقرّبا الى أن مات فى هذه السنة.

و فيها توفى حمّاد بن سلمة أبو سلمة البصرىّ مولى بنى تميم، كان من أهل البصرة و هو ابن أخت حميد الطويل، كان ثقة عالما زاهدا صالحا كبير الشأن.

الذين ذكر وفاتهم الذهبىّ على اختلاف فى وفاتهم، قال: و توفى أبو أميّة [أيوب] ابن خوط البصرىّ، و جعفر الأحمر بخلف، و أبو الغصن ثابت بن قيس المدنىّ، و الأمير الحسن بن زيد بن السيّد الحسن سبط النّبىّ صلى اللّه عليه و سلم.

قلت و هو الذى ذكرناه فى هذه السنة. قال: و توفى خارجة بن مصعب السّرخسىّ، و سعيد بن بشير بدمشق و قيل سنة تسع، و أبو مهدىّ سعيد بن سنان الحمصىّ، و طعمة بن عمرو الجعفرىّ الكوفىّ، و عبيد اللّه بن الحسن العنبرىّ قاضى البصرة، و غوث بن سليمان بمصر، و محمد بن صالح التمّار، و أبو حمزة السكرىّ فى قول، و مفضّل بن مهلهل فى قول، و نافع بن يزيد الكلاعىّ بمصر و يحيى بن أيّوب المصرىّ و قيل سنة ثلاث.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۵۷

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ذراعان سواء، مبلغ الزيادة خمسة عشر ذراعا و خمسة عشر إصبعا.

ذكر ولاية عسّامة بن عمرو على مصر

هو عسّامة بن عمرو بن علقمة بن معلوم بن جبريل بن أوس بن دحية المعافرىّ الأمير أبو داجن أمير مصر (و عسّامة بفتح العين المهملة و السين المهملة مشدّدة و بعد الألف ميم مفتوحة و هاء ساكنة) وليها باستخلاف موسى بن مصعب له، فلمّا قتل موسى أقرّه المهدىّ على إمرة مصر عوضه؛ و كان ذلك فى شوّال سنة ثمان و ستين و مائة، و كان ولى الشّرطة بمصر لعدّة من أمراء مصر؛ و لما ولى إمرة مصر افتتح إمرته بحرب دحية الأموىّ الخارج ببلاد الصعيد فى إمرة موسى، فبعث اليه جيوشا مع أخيه بكّار بن عمرو فحارب بكار المذكور يوسف بن نصير مقدّمة جيش دحية المذكور و تطاعنا فوضع يوسف الرمح فى خاصرة بكّار و وضع بكّار الرّمح فى خاصرة يوسف فقتلا معا و رجع الجيشان منهزمين؛ و كان ذلك فى ذى الحجّة سنة ثمان و ستين و مائة. فلم يقم عسامة بعد ذلك إلا أياما يسيرة و ورد عليه الخبر من الفضل بن صالح العباسىّ أنّه ولى مصر و قد استخلف عسّامة المذكور على صلاتها حتى يحضر، فخلفه عسّامة على الصلاة حتى حضر الفضل فى سلخ المحرم سنة تسع و ستين و مائة؛ فكانت ولاية عسّامة على مصر ثلاثة أشهر إلا أياما. و استمر عسّامة بمصر بعد ذلك سنين الى أن استخلفه ابراهيم بن صالح لمّا ولى مصر قبل أن يدخلها على الصلاة فخلفه عسّامة المذكور أياما يسيرة بها حتى حضر إبراهيم، ثم أقام عسّامة بعد ذلك بمصر الى أن مات بها يوم الجمعة لستّ أو لسبع بقين من شهر ربيع الآخر سنة ست و سبعين و مائة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۵۸

[ما وقع من الحوادث سنة ۱۶۹]

اشارة

السنة التى حكم فيها عسّامة و غيره على مصر و هى سنة تسع و ستين و مائة- فيها خرج المهدىّ من بغداد يريد ما سبذان و استخلف الربيع الحاجب على بغداد، و سبب خروجه أنّه رأى تقديم ولده هارون على أخيه موسى و كلاهما أمّه الخيزران، فأرسل المهدىّ الى ولده موسى و كلاء و هو بجرجان فامتنع من المجىء، ثم أرسل اليه ثانيا فلم يأت، فسار اليه المهدىّ فمات فى طريقه.

ذكر وفاة المهدىّ و نسبه

هو محمد بن أبى جعفر المنصور عبد اللّه بن محمد بن على بن عبد اللّه بن العباس الهاشمىّ العباسىّ أمير المؤمنين، و هو الثالث من خلفاء بنى العباس، بويع بالخلافة بعد وفاة أبيه فى ذى الحجّة سنة ثمان و خمسين و مائة و مولده سنة سبع و عشرين و مائة، و أمّه بنت منصور الحميريّة، و مات فى المحرّم من هذه السنة. و سبب موته قيل؛

إنه ساق فى مسيره خلف صيد فاقتحم الصيد خربة فدخلت الكلاب خلفه و تبعهم المهدىّ فدقّ ظهره فى باب الخربة مع شدّة سوق الفرس فمات من ساعته، و قيل: بل سمّه بعض حواشيه. و قيل: بل أكل أبخاصا فصاح: جوفى جوفى و مات من الغد بقرية من قرى ما سبذان، و قيل غير ذلك. فبويع موسى الهادى ولده بالخلافة، و ركب البريد من جرجان الى بغداد فى عشرين يوما و لا يعرف خليفة ركب البريد سواه. و كان وصول الهادى الى بغداد فى عاشر صفر من سنة تسع و ستين و مائة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۵۹

قلت: و ينبغى أن نلحق قضيّة موسى الهادى فى كتاب «الفرج بعد الشدّة» فانه كان أبوه يريد خلعه من ولاية العهد و يقدّم الرشيد عليه فجاءته الخلافة دفعة واحدة.

و فيها توفى الربيع الحاجب، كان من عظماء الدولة العبّاسية و نالته السعادة و طالت أيّامه و ولى حجوبيّة المنصور و المهدىّ، و ولى

نيابة بغداد و غيرها. و فيها حجّ بالناس سليمان بن أبى جعفر المنصور. و فيها توفى إبراهيم بن عثمان أبو شيبة قاضى واسط مولى بنى عبس، كاتبه يزيد بن هارون، و كان عادلا فى أحكامه حسن السيرة. و فيها توفى إدريس بن عبد اللّه بن حسن بن الحسن بن على بن أبى طالب، كان خرج مع الحسين صاحب فخّ فلما قتل الحسين هرب إدريس هذا الى مصر، و كان على بريد مصر واضح، فحمله واضح المذكور الى المغرب فنزل بمدينة و ليلة و بايعه الناس و البربر و كاد أمره أن يتمّ؛ فدسّ عليه الهادى أو الرشيد الشمّاخ اليمانىّ مولى المهدىّ، فخرج الشمّاخ الى المغرب فى صفة طبيب، فشكا إدريس من أسنانه فأعطاه الشماخ سنونا مسموما و قال له: بعد صلاة الفجر استعمله و هرب الشمّاخ من يومه، فمات إدريس بعد أن استعمل السّنون بيوم. و قد تقدّم أيضا ذكر إدريس هذا فى ولاية واضح على مصر. و فيها قتل الحسين بن علىّ بن الحسن بن الحسن بن علىّ بن أبى طالب، صاحب فخّ الذى كان خرج قبل هذه المرّة، ثم ظهر ثانيا فى هذه السنة بالمدينة، و كان متولى المدينة عمر بن عبد العزيز بن عبد اللّه بن عبد اللّه بن عمر بن الخطاب، فقاتله عمر المذكور، و آخر الأمر أنّ الحسين هذا قتل و قتل معه أصحابه، و كانت عدّة الرءوس التى حملت الى الخليفة مائة رأس.

و فيها توفى محمد بن عبد الرحمن بن هشام أبو خالد القاضى المكىّ، ولى قضاء مكّة

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۶۰

و كان قصيرا دميما، و كان عنقه داخلا فى بدنه؛ سمعته امرأته يوما و هو يقول:

اللهم أعتق رقبتى من النار، فقالت: و أىّ رقبة لک! و قيل: إنّ أمّه قالت له:

يا ولدى، إنک قد خلقت خلقة لا تصلح معها لمعاشرة الفتيان، فعليک بالدّين و العلم فانّهما يتمّان النقائص، [و يرفعان الخسائس؛ فنفعنى اللّه بما قالت فتعلّمت العلم حتى وليت القضاء].

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ذراعان و خمسة عشر إصبعا، مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا و خمسة عشر إصبعا.

ذكر ولاية الفضل بن صالح على مصر

هو الفضل بن صالح بن علىّ بن عبد اللّه بن العباس الأمير أبو العباس الهاشمىّ العباسىّ، ولّاه المهدىّ إمرة مصر بعد عزل عسّامة بن عمرو على الصلاة و الخراج؛ و قبل خروجه مات محمّد المهدىّ فى أوّل المحرّم سنة تسع و ستين و مائة، و ولى الخلافة ابنه موسى الهادى فأقرّ الهادى الفضل هذا على عمل مصر و سفّره، فسار الفضل حتى دخل الى مصر فى يوم الخميس سلخ المحرّم المذكور؛ و كان الفضل استعمل عسّامة المعزول عن إمرة مصر على الصلاة الى أن حضر، فلما قدم الفضل استعمل عسّامة أيضا على عادته الأولى قبل أن يلى الإمرة؛ و لما دخل الفضل الى مصر وجد أمر مصر مضطربا من عصيان أهل جزيرة الحوف، بالوجه البحرىّ، و أيضا من خروج دحية الأموىّ بالصعيد و قد طال أمره على أمراء مصر، و كان مع الفضل جيوش الشأم فحال قدومه جهّز العساكر لحرب دحية المذكور. فقاتله العسكر و هزموه، و أسر دحية بعد أمور و حروب، و قدموا به الى الفسطاط، فضرب

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۶۱

الفضل عنقه و صلب جثته و بعث برأسه الى الهادى. و كان قتل دحية المذكور فى جمادى الآخرة سنة تسع و ستين و مائة، فكان الفضل يقول: أنا أولى الناس بولاية مصر لقيامى فى أمر دحية و هزيمته و قتله و قد عجز عنه غيرى، و كاد أمره أن يتمّ لطول مدّته و لاجتماع الناس عليه لو لا قيامى فى أمره، و كان الفضل لمّا قدم مصر سكن المعسكر و [بنى] به الجامع، فلم يكن بعد قتله لدحية بمدّة يسيرة إلا و قدم عليه البريد بعزله عن إمرة مصر بعلىّ بن سليمان؛ فلما سمع الفضل خبر عزله ندم على قتل دحية ندما عظيما فلم يفده ذلک. و كان عزل الفضل عن إمرة مصر فى أواخر سنة تسع و ستين و مائة المذكورة؛ فكانت ولايته على مصر دون السنة.

و قد ولى الفضل هذا إمرة دمشق مدّة. و لا أعلم ولايته على دمشق قبل ولايته على مصر أو بعدها. و هو الذى عمّر أبواب جامع دمشق

و القبّة التى فى الصحن و تعرف بقبّة المال فى أيام إمرته على دمشق. و كانت وفاة الفضل هذا فى سنة اثنتين و سبعين و مائة و هو ابن خمسين سنة، و كان أميرا شجاعا مقداما شاعرا فصيحا أديبا صاحب خطب و شعر، من ذلك قوله:

عاش الهوى و استشهد الصّبر و عاث فيّ الحزن و الضّرّ

و سهّل التوديع يوم نوى ما كان قد وعّره الهجر

ذكر ولاية علىّ بن سليمان على مصر

هو علىّ بن سليمان بن علىّ بن عبد اللّه بن العباس، الأمير أبو الحسن الهاشمىّ العباسىّ، ولى إمرة مصر بعد عزل الفضل بن صالح عنها؛ ولّاه موسى الهادى على إمرة مصر و جمع له الصلاة و الخراج معا، و دخل علىّ بن سليمان هذا الى مصر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۶۲

فى شوّال سنة تسع و ستين و مائة و سكن المعسكر، و جعل على شرطته عبد الرحمن ابن موسى اللّخمىّ ثم عزله و ولّى الحسن بن يزيد الكندىّ. و لما قدم علىّ المذكور الى مصر أقام مدّة يسيرة و ورد عليه الخبر بموت موسى الهادى فى نصف شهر ربيع الأوّل سنة سبعين و مائة، و ولاية هارون الرشيد الخلافة من بعده و أنّ الرشيد أخاه أقرّ عليّا على عمل مصر على عادته؛ و كان علىّ بن سليمان المذكور عادلا ـ و فيه رفق بالرعية آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر، و منع فى أيّامه الملاهى و الخمور، و هدم الكنائس بمصر و أعمالها، فتكلّم القبط معه فى تركها و أن يجعلوا له فى مقابلة ذلك خمسين ألف دينار، فامتنع من ذلك و هدم الكنائس؛ و كان كثير الصدقة فى الليل فمالت الناس اليه، فلما رأى ميل الناس اليه أظهر ما فى نفسه من أنّه يصلح للخلافة، و طمع فى ذلك و حدّثته نفسه بالوثوب، فكتب بعض أهل مصر الى هارون الرشيد و عرّفه بذلك، فسخط عليه هارون و عاجله بعزله؛ فعزله عن إمرة مصر فى يوم الجمعة لأربع بقين من شهر ربيع الأوّل سنة إحدى و سبعين و مائة؛ و ولّى مصر بعده موسى بن عيسى. فكانت ولاية علىّ بن سليمان هذا على مصر نحو سنة و ثلاثة أشهر، و قيل أكثر من ذلك. و توجّه علىّ بن سليمان الى الرشيد فندبه لقتال يحيى بن عبد اللّه بالديلم و صحبته الفضل بن يحيى البرمكى- و يحيى بن عبد اللّه هو يحيى بن عبد اللّه بن الحسن بن الحسن بن علىّ بن أبى طالب رضى اللّه عنهم- كان خرج بالديلم و اشتدّت شوكته و كثرت جموعه و أتاه الناس من الأمصار، فاغتمّ الرشيد لذلك، و ندب اليه علىّ بن سليمان هذا بعد عزله و جعل أمر الجيش للفضل بن يحيى، و ولّاه جرجان و طبرستان و الرّىّ و غيرها و سيّرهما فى خمسين ألفا، و حمل معهما الأموال؛ فكاتبا يحيى بن عبد اللّه و تلطّفا به و حذّراه المخالفة و أشارا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۶۳

عليه بالطاعة؛ و نزل الفضل بن يحيى بالطّالقان بمكان يقال له: آشب؛ و والى كتبه الى يحيى بن عبد اللّه العلوىّ المذكور، حتى أجاب يحيى الى الصّلح على أن يكتب له الرشيد أمانا بخطّه يشهد عليه فيه القضاة و الفقهاء و جلّة بنى العباس و مشايخهم، منهم عبد الصمد بن علىّ؛ فأجاب الرشيد الى ذلك و سرّبه و عظمت منزلة الفضل عنده، و سيّر الرشيد الأمان الى يحيى بن عبد اللّه مع هدايا و تحف فقدم يحيى مع الفضل و علىّ بن سليمان الى بغداد، فلقيه الرشيد بما أحبّ و أمر له بمال كثير، ثم بعد مدّة قبض عليه و حبسه حتى مات فى الحبس؛ و كان الرشيد قد عرض كتاب أمان يحيى بن عبد اللّه المذكور على الإمام محمد بن الحسن صاحب أبى حنيفة و على أبى البخترىّ القاضى؛ فقال محمد بن الحسن: الأمان صحيح، فحاجّه الرشيد و أغلظ له فلم يرجع حتى حنق منه الرشيد و كاد يسطو عليه. و قال أبو البخترىّ: هذا أمان منتقض من وجه كذا، فمزّقه الرشيد. و استمرّ على بن سليمان معظما الى أن مات.

و توفى بعد عزله عن مصر فى سنة اثنتين و سبعين و مائة قاله الذهبىّ و قيل: سنة ثمان و سبعين و مائة.

[ما وقع من الحوادث سنة ۱۷۰]

اشارة

السنة التى حكم فيها علىّ بن سليمان على مصر و هى سنة سبعين و مائة- فيها توفّى الخليفة موسى الهادى ابن الخليفة محمّد المهدىّ ابن الخليفة أبى جعفر المنصور عبد اللّه بن محمد بن على بن عبد اللّه بن العباس العبّاسىّ الهاشمىّ، أمير المؤمنين أبو جعفر و قيل أبو محمّد، و قيل أبو موسى، الرابع من خلفاء بنى العبّاس ببغداد، ولد سنة خمس

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ٢، ص: ۶۴

و أربعين و مائة، و قيل سنة ستّ و أربعين و مائة، و قيل سنة ثمان و أربعين و مائة؛ و أمّه أمّ ولد تسمّى الخيزران، و هى أمّ الرشيد أيضا؛ و كان موته من قرحة أصابته، و قيل: إنّ أمّه الخيزران سمّته لما أجمع على قتل أخيه هارون الرشيد، و كانت الخيزران مستبدّة بالأمور الكبار حاكمة، و كانت المواكب تغدو الى بابها فزجرهم الهادى و نهاهم عن ذلك و كلّمها بكلام فجّ، و قال لها: متى وقف ببابك أمير ضربت عنقه، أما لك مغزل يشغلك أو مصحف يذكّرك، أو سبحة! فقامت الخيزران و هى ما تعقل من الغضب، و قيل: إنّه بعث اليها بسم أو طعام مسموم فأطعمت الخيزران منه كلبا فمات من وقته فعملت على قتله حتى قتلته: و قيل فى وفاته غير ذلك، و كانت وفاته فى نصف شهر ربيع الأوّل من السنة المذكورة، فكانت خلافته سنة واحدة و ثلاثة أشهر و قيل سنة و شهرا، و بويع أخوه هارون الرشيد بالخلافة. و كان الهادى طويلا جسيما أبيض، بشفته العليا تقلّص، و كان أبوه قد وكل به فى صغره خادما، فكلّما رآه مفتوح الفم قال: موسى أطبق، فيضيّق على نفسه و يضمّ شفته.

حكى مصعب الزبيرىّ عن أبيه قال: دخل مروان بن أبى حفصة شاعر وقته على الهادى فأنشد قصيدة فيها:

تشابه يوما بأسه و نواله فما أحد يدرى لأيّهما الفضل

فقال له الهادى: أيّما أحبّ اليك، ثلاثون ألفا معجّلة أو مائة ألف درهم تدوّن فى الدواوين؟ قال: تعجّل الثلاثون، و تدوّن المائة ألف؛ قال: بل تعجّلان لك. و فيها ولد للرشيد ابنه الأمين محمد من بنت عمّه زبيدة و ابنه المأمون عبد اللّه و أمّه أمّ ولد- يأتى ذكرها فى ترجمته-، و فيها عزل الرشيد عمر بن عبد العزيز [العمرىّ]

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ٢، ص: ۶۵

عن إمرة المدينة و ولّاها لإسحاق بن سليمان بن على العباسىّ. و فيها فوّض الرشيد أمور الخلافة الى يحيى بن خالد بن برمك و قال له: قد قلّدتك أمور الرّعيّة و أخرجتها من عنقى فولّ من رأيت و افعل ما تراه، و سلّم اليه خاتم الخلافة و كان الهادى قد حجر على أمّه الخيزران فردّها الرشيد الى ما كانت عليه و زادها، فكان يحيى بن خالد يشاورها فى الأمور. و فيها فرّق الرشيد فى أعمامه و أهله أموالا لم يفرّقها أحد من الخلفاء قبله. و فيها خرج من الطالبيّين إبراهيم بن إسماعيل و يقال له طباطبا؛ و خرج أيضا على الرشيد علىّ بن الحسن بن إبراهيم بن عبد اللّه بن الحسن. و فيها حجّ الرشيد ماشيا كان يمشى على اللّبود، كانت تبسط له من منزلة الى منزلة؛ و سبب حجّه ماشيا أنه رأى رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم فى المنام فقال له: يا هارون، إن هذا الأمر صائر اليك فحجّ ماشيا، و اغز و وسّع على أهل الحرمين. فأنفق فيهم الرشيد أموالا عظيمة و لم يحجّ خليفة قبله و لا بعده ماشيا رحمه اللّه، و لقد كان من أحاسن الخلفاء. و فيها توفّيت جوهرة العابدة الزاهدة زوجة أبى عبد اللّه البراثىّ الزاهد، كان زوجها أبو عبد اللّه منقطعا بقرية براثى غربىّ بغداد. و فيها توفى فتح بن محمد ابن وشاح أبو محمد الأزدىّ الموصلىّ الزاهد العابد، كان صاحب كرامات و أحوال.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و توفى إسحاق بن سعيد بن عمرو الأموىّ، و عبد اللّه بن جعفر المخرمىّ المدنىّ، و جرير بن حازم البصرىّ، و الربيع ابن يونس الحاجب، و سعيد بن حسين الأزدىّ، و عبد اللّه بن المسيّب أبو السّوّار المدنىّ- بمصر يروى عن عكرمة-، و عبد اللّه بن المؤمّل المخزومىّ، و عبد اللّه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة؛ ج ٢؛ ص ۶۵

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ٢، ص: ۶۶

ابن الخليفة مروان الأمویّ فی السجن، و عمرو بن ثابت الكوفیّ. و فی «التذهيب» قال: مات سنة اثنتين و سبعين و مائة. و غطريف بن عطاء متولّی اليمن، و محمد بن أبان بن صالح الجعفیّ، و محمد بن الزبير المعيطیّ إمام مسجد حرّان، و محمد بن مسلم، أبو سعيد المؤدّب بخلف، و محمد بن مهاجر الأنصاریّ الحمصی، و مهدیّ بن ميمون فی قول، و موسى الهادی بن المهدیّ الخليفة، و أبو معشر نجيح السّندی المدنیّ، و يزيد بن حاتم الأزدیّ متولی إفريقيّة.

أمر النيل فی هذه السنة- الماء القديم خمسة أذرع و ثلاثة أصابع، مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا و أربعة أصابع.

ذكر ولاية موسى بن عيسى الأولى على مصر

هو موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن علی بن عبد اللّه بن العبّاس، الأمير أبو عيسى العباسیّ الهاشمیّ، ولّاه الخليفة هارون الرشيد إمرة مصر على الصلاة بعد عزل علی بن سليمان عنها؛ فقدم موسى الى مصر فی أحد الربيعين من سنة إحدى و سبعين و مائة و سكن بالمعسكر، و جعل على شرطته أخاه إسماعيل ثم عزله و ولّی عسّامة بن عمرو، ثم وقع من موسى هذا أمور غير مقبولة، منها: أنه أذن للنصارى فی بنيان الكنائس التی كان هدمها علیّ بن سليمان فبنيت بمشورة الليث بن سعد، و عبد اللّه بن لهيعة، و قالا: هی عمارة البلاد، و احتجّا بأنّ الكنائس التی بمصر لم تبن إلّا فی الإسلام فی زمان الصحابة و التابعين. و هذا كلام يتأوّل. و كان موسى المذكور عاقلا- جوادا ممدّحا ولی الحرمين لأبی جعفر المنصور و المهدیّ مدّة طويلة، ثم ولی اليمن للمهدیّ أيضا، ثم ولی مصر لهارون الرشيد، و كان فيه رفق بالرّعية

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۶۷

و تواضع؛ قيل: إنه دخل اليه ابن السمّاك الواعظ و ذكّره ثم وعظه حتى بكى بكاء شديدا، فقال ابن السماك: لتواضعک فی شرفک أحبّ الينا من شرفک؛ و قيل: إنه جلس يوما بميدان مصر فأطال النظر فی النيل و نواحيه، فقيل له: ما يرى الأمير؟

فقال: أرى ميدان رهان، و جنان نخل، و بستان شجر، و منازل سكنى، و دور خيل و جبّان أموات، و نهرا عجّاجا، و أرض زرع، و مرعى ماشية، و مرتع خيل، و مصايد بحر، و قانص وحش، و ملّاح سفينة، و حادی إبل، و مفازة رمل، و سهلا و جبلا فی أقل من ميل فی ميل.

قلت: للّه درّه فيما وصف من كلام كثرت معانيه و قل لفظه. و استمر موسى بعد ذلک على إمرة مصر الى أن عزله الرشيد عنها بمسلمة بن يحيى لأربع عشرة خلت من شهر رمضان سنة اثنتين و سبعين و مائة. فكانت ولايته على مصر سنة واحدة و خمسة أشهر و خمسة عشر يوما. و توجّه الى الرشيد فلمّا قدم عليه ولّاه الكوفة مدّة ثم صرفه عن الكوفة و ولّاه دمشق، فأقام بها مدّة أيضا و صرف عنها و أعيد الى إمرة مصر ثانيا كما سيأتی ذكره إن شاء اللّه تعالى- لما كانت الفتنة بدمشق بين المضرية و اليمانية، و هذه الفتنة هی سبب العداوة بين قيس و بين اليمن الى يومنا هذا. و كان أوّل الفتنة بين المضرية و اليمانية. و كان رأس المضرية أبا الهيذام

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۶۸

و اسمه عامر بن عمارة المرّیّ أحد فرسان العرب. و كان سبب الفتنة أمورا: منها أنّ أحد غلمان الرشيد بسجستان قتل أخا لأبی الهيذام، فرثى أبو الهيذام أخاه و جمع جمعا و خرج الى الشام، فاحتال عليه الرشيد بأخ له و أرغبه حتى قبض عليه و كتّفه، و أتى به الى الرشيد فمنّ عليه و أطلقه؛ و قيل: إن أوّل ما هاجت الفتنة بالشام، أن رجلا من القين خرج بطعام له يطحنه فی الرحى بالبلقاء فمرّ بحائط رجل من لخم أو جذام و فيه بطّيخ فتناول منه، فشتمه صاحبه و تضاربا، و سار القينیّ، فجمع صاحب البطيخ قوما ليضربوه اذا عاد من اليمن، فلما عاد ضربوه، فقتل رجل من اليمانية فطلبوا بدمه و اجتمعوا لذلک، فخاف الناس أن يتفاقم ذلک؛ فاجتمع الناس ليصلحوا بينهم فأتوا بنی القين فكلّموهم فأجابوهم، فأتوا اليمانيّة فقالوا: انصرفوا عنا حتى ننظر فی أمرنا؛ ثم ساروا و بيّتوا للقين فقتلوا منهم ستمائة و قيل ثلثمائة، فاستنجدت القين قضاعة و سليحا فلم ينجدوهم، فاستنجدت قيسا فأجابوهم، و ساروا معهم فقتلوا من اليمانيّة ثمانمائة؛ و

كثر القتال بينهم و التقوا غير مرّة نحو سنتين ثم اصطلحوا ثم تقاتلوا؛ و تعصّب لكل طائفة آخرون و دام ذلک الى يومنا هذا بسائر بلاد الشام.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۱۷۱]

السنة الأولى من ولاية موسى بن عيسى الأولى على مصر و هى سنة إحدى و سبعين و مائة- فيها أخرج الرشيد من كان ببغداد من العلويّين الى المدينة.

و فيها فى شهر رمضان حجّت الخيزران أمّ الرشيد و كان أمير الموسم عبد الصمد بن علىّ العباسىّ، و أقامت بمكّة شهرا و تصدّقت بأموال كثيرة. و فيها توفّى اسماعيل بن

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۶۹

محمد بن زيد بن ربيعة، أبو هاشم و يلقّب بالسيّد الحميرىّ؛ كان شاعرا مجيدا و له ديوان شعر. و فيها توفى عيسى بن يزيد بن بكر بن دأب أبو الوليد التيمىّ المدنىّ، كان راوية العرب وافر الأدب عالما بالنسب، أعطاه الخليفة موسى الهادى مرّة ثلاثين ألف دينار. و فيها توفى المفضّل بن محمد بن يعلى الضبّىّ، كان أحد الأئمة الفضلاء الثّقات، و كان علّامة فى النسب و أيام العرب. قال جحظة: اجتمعنا عند الرشيد فقال للمفضّل: أخبرنى بأحسن ما قالت العرب فى الذئب و لک هذا الخاتم و شراؤه ألف و ستمائة دينار، فقال: أحسن ما قيل فيه:

ينام بإحدى مقلتيه و يتّقى بأخرى المنايا فهو يقظان نائم

فقال الرشيد: ما ألقى اللّه هذا على لسانک إلا لذهاب الخاتم ورمى به اليه؛ فبلغ زبيدة فبعثت الى المفضّل بألف و ستمائة دينار و أخذت الخاتم منه و بعثت به الى الرشيد، و قالت: كنت أراک تعجب به؛ فألقاه الى المفضّل ثانيا و قال له: خذه و خذ الدنانير ما كنت لأهب شيئا و أرجع فيه.

الذين ذكر الذهبى وفاتهم على اختلاف فى وفاتهم، قال: و فيها توفّى ابراهيم بن سويد المدنىّ، و حبّان بن على بخلف، و حديج بن معاوية فيها أو بعدها، و أبو المنذر سلام القارئ، و عبد اللّه بن عمر العمرى المدينىّ، و عبد الرحمن بن الغسيل و له مائة

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۷۰

و ست سنين، و عدىّ بن الفضل البصرىّ، و عمر بن ميمون بن الرمّاح، و مهدىّ ابن ميمون البصرىّ بخلف، و يزيد بن حاتم المهلبىّ، فى قول، و أبو الشهاب الحنّاط عبد ربه بن نافع فيها أو فى الآتية.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثلاثة أذرع و أربعة عشر إصبعا، مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا و عشرون إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۱۷۲]

اشارة

السنة الثانية من ولاية موسى بن عيسى الأولى على مصر و هى سنة اثنتين و سبعين و مائة- فيها حجّ بالناس يعقوب بن المنصور. و فيها عزل الرشيد عن أرمينية يزيد بن مزيد الشّيبانىّ و ولّى أخاه عبيد اللّه بن المهدىّ. و فيها زوّج الرشيد أخته العبّاسة بنت المهدىّ بمحمد بن سليمان العباسىّ الهاشمىّ أمير البصرة.

و فیها توفّی عبد الرحمن بن معاویة بن هشام بن عبد الملک بن مروان بن الحکم، أبو المطرّف الأمویّ المعروف بالداخل؛ مولده بدیر حنین من عمل دمشق فی سنة ثلاث عشرة و مائة و نشأ بالشام، فلما زال ملک بنی أمیة و قتلوا و تفرّقوا فرّ عبد الرحمن هذا الی المغرب بحواشیه و ملک جزیرة الأندلس و تمّ أمره بها غیر أنه لم یلقّب بأمیر المؤمنین، و قیل: إنه لقّب به، و الأوّل أصحّ لأن جماعة کثیرة ملکوا الأندلس من ذرّیته و لیس فیهم من لقّب بأمیر المؤمنین، یأتی ذکرهم الجمیع فی هذا الکتاب إن شاء اللّه تعالی؛ و ولّادة بنت المستکفی صاحبة ابن زیدون الشاعر هی من ذرّیته أیضا.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۷۱

الذین ذکرهم الذهبیّ فی الوفیات، قال: و فیها توفی الحسن بن عیّاش أخو أبی بکر بن عیاش بالکوفة، و روح بن مسافر البصریّ، و سلیمان بن بلال، و صالح المرّیّ بخلف، و صاحب الأندلس عبد الرحمن الداخل الأمویّ، و ابن عمّ المنصور علیّ بن سلیمان بن علیّ، و ابن عمّه الآخر الفضل بن صالح بن علیّ، و الولید بن أبی ثور، و الولید بن المغیرة المصریّ، و یحیی بن سلمة بن کهیل بخلف.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم أربعة أذرع و ستة أصابع، مبلغ الزیادة خمسة عشر ذراعا و إصبعان و نصف.

ذکر ولایة مسلمة بن یحیی علی مصر

هو مسلمة بن یحیی بن قرّة بن عبید اللّه بن عتبة البجلیّ الخراسانیّ أمیر مصر، أصله من أهل خراسان و قیل من جرجان و خدم بنی العبّاس و کان من أکابر القوّاد؛ ولّاه هارون الرشید علی إمرة مصر علی الصلاة و الخراج معا بعد عزل موسی بن عیسی العباسیّ فی سنة اثنتین و سبعین و مائة، و قدم الی مصر فی شهر رمضان من السنة المذکورة فی عشرة آلاف من الجند، و سکن المعسکر علی عادة أمراء بنی العباس؛ و جعل علی الشّرطة ابنه عبد الرحمن، فلم تطل مدّته علی مصر و وقع فی ولایته علی مصر أمور و فتن حتی عزله الخلیفة هارون الرشید فی شعبان سنة ثلاث و سبعین و مائة بمحمد بن زهیر الأزدیّ؛ فکانت ولایته علی إمرة مصر أحد عشر شهرا، و کانت أیّامه مع قصرها کثیرة الفتن؛ و وقع له أمور مع أهل الحوف ثم أخرج العساکر لحفظ البحیرة من الفتن التی کانت بالمغرب: منها خروج سعید بن الحسین بن

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۷۲

یحیی الأنصاریّ بالأندلس و تغلّبه علی أقالیم طرطوشة فی شرق الأندلس، و کان قد التجأ الیها حین قتل أبوه الحسین و دعا الی الیمانیة و تعصّب لهم، فاجتمع له خلق کثیر و ملک مدینة طرطوشة و أخرج عاملها یوسف القیسیّ فعارضه موسی بن فرتون و قام بدعوة هشام الأمویّ و وافقته جماعة؛ و خرج أیضا مطروح بن سلیمان بن یقظان بمدینة برشلونة و خرج معه جمع کبیر، فملک مدینة سرقسطة و مدینة وشقة و تغلّب علی تلک الناحیة و قوی أمره. و کان هشام مشغولا بمحاربة أخویه سلیمان و عبد اللّه، و لم تزل الحرب قائمة بالغرب، و أمیر مصر یتخوّف من هجوم بعضهم الی أن عزل مسلمة عن مصر.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۱۷۳]

اشارة

السنة التی حکم فیها مسلمة بن یحیی علی مصر و هی سنة ثلاث و سبعین و مائة- فیها عزل الرشید عن إمرة خراسان جعفر بن محمد بن الأشعث و ولّی عوضه ولده العباس بن جعفر بن محمد بن الأشعث. و فیها حجّ الرشید بالناس و لما عاد أخذ معه موسی بن جعفر بن محمد بن علیّ بن الحسین بن علیّ بن أبی طالب و حبسه الی أن مات. و فیها توفیت الخیزران جاریة المهدیّ و أمّ ولدیه موسی

الهادی و هارون الرشيد، كان اشتراها المهدیّ و أعتقها و تزوّجها، ذكرنا ذلک فی وقته من هذا الكتاب فی محلّه، و كانت عاقلة لبيبة ديّنة؛ كان دخلها فی السنة ستة آلاف و ستين ألف ألف درهم، فكانت تنفقها فی الصدقات و أبواب البرّ، و ماتت ليلة الجمعة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۷۳

لثلاث بقين من جمادى الآخرة، و مشى ابنها الرشيد فی جنازتها و عليه طيلسان أزرق و قد شدّ وسطه و أخذ بقائمة التابوت حافيا يخوض فی الطين و الوحل من المطر الذی كان فی ذلک اليوم حتى أتى مقابر قريش فغسل رجليه و صلّى عليها و دخل قبرها ثم خرج و تمثّل بقول متمّم [بن نويرة] الأبيات المشهورة، التی أوّلها:

و كنّا كندمانی جذيمة حقبة من الدهر حتى قيل لن يتصدّعا

فلمّا تفرّقنا كأنّی و مالكا لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

ثم تصدّق عنها بمال عظيم و لم يغيّر على جواريها و حواشيها شيئا مما كان لهم.

و فيها توفيت غادر جارية الهادی و كانت بارعة الجمال، و كان الهادی مشغوفا بحبّها فبينما هی تغنّيه يوما فكّر و تغيّر لونه و قال: وقع فی نفسی أنی أموت و يتزوّجها أخی هارون من بعدی، فأحضر هارون و استحلفه بالأيمان المغلّظة من الحجّ ماشيا و غيره [أنه لا يتزوّجها]، ثم استحلفها أيضا كذلک، و مكث الهادی بعد ذلک أقلّ من شهر و مات و تخلف هارون الرشيد فأرسل هارون الرشيد خطبها، فقالت له: و كيف يمينی و يمينک؟ فقال: أكفّر عن الكلّ، فتزوّجته فزاد حب الرشيد لها على حب الهادی أخيه حتى إنّها كانت تنام فتضع رأسها على حجره فلا يتحرّک حتى تنتبه؛ فبينما هی ذات يوم نائمة [و رأسها] على ركبته انتبهت فزعة تبكی و قالت: رأيت الساعة أخاک الهادی و هو يقول و أنشدت أبياتا منها:

و نكحت عامدة أخی صدق الذی سمّاک غادر

فلم تزل تبكی و تضطرب حتى ماتت و تنغص عليه عيشه بموتها. و قيل: إنّ الرشيد ما حجّ ماشيا إلا بسبب اليمين التی كانت حلّفه [إيّاها] أخوه الهادی بسببها. و فيها توفی محمد بن سليمان بن علیّ بن عبد اللّه بن العباس، كان من وجوه بنی العباس و تولّى

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۷۴

الأعمال الجليلة، و هو الذی تزوّج العباسة بنت المهدیّ أخت هارون الرشيد، و كان له خمسون ألف عبد، منهم عشرون ألفا عتقا. قاله أبو المظفر فی مرآة الزمان.

ذكر الذين ذكر الذهبیّ وفاتهم فی هذه السنة، قال: و فيها توفّی اسماعيل ابن زكرياء الخلقانیّ، و جويرية بن أسماء الضّبعیّ، و أمّ الرشيد الخيزران، و سعيد ابن عبد اللّه المعافریّ، و سلّام بن أبی مطيع، و السيّد الحميریّ الشاعر، و زهير ابن معاوية بن كامل اللّخمیّ المصریّ، و عبد الرحمن بن أبی الموالی مولى بنی هاشم، و الأمير محمد بن سليمان بن علیّ.

أمر النيل فی هذه السنة- الماء القديم أربعة أذرع و ستة أصابع، مبلغ الزيادة خمسة عشر ذراعا و ثلاثة أصابع.

ذكر ولاية محمد بن زهير على مصر

هو محمد بن زهير الأزدیّ أمير مصر ولّاه هارون الرشيد على إمرة مصر و جمع له بين الصلاة و الخراج معا، و ذلک بعد عزل مسلمة بن يحيى لخمس خلون من شعبان سنة ثلاث و سبعين و مائة، و سكن المعسكر على عادة أمراء بنی العباس و استعمل على خراج مصر عمر بن غيلان و على الشّرطة حنكک بن العلاء ثم صرفه و ولّى حبيب ابن أبان البجلیّ؛ و لما ولی عمر بن غيلان خراج مصر شدّد على الناس و على أهل الخراج، فنفرت القلوب منه و ثار عليه الجند و قاتلوه و حصروه فی داره فلم يدافع عنه محمد بن زهير صاحب الترجمة، فانحطّ قدر عمر بن غيلان و تلاشى أمره مع الجند و غيرهم؛ و بلغ الخليفة هارون الرشيد ذلک فعظم عليه عدم قيام محمد بن زهير بنصرة عمر بن غيلان المذكور فعزله عن إمرة مصر بداود بن يزيد بن حاتم المهلبیّ فی سلخ

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۷۵

ذى الحجّة من سنة ثلاث و سبعين و مائة؛ فكانت ولاية محمد بن زهير على إمرة مصر خمسة أشهر تنقص أيّاما، و توجه الى الرشيد فزجره ثم جعله من جملة القوّاد و ندبه للاستيلاء على مال محمد بن سليمان بن علىّ بن عبد اللّه بن العباس بالبصرة بعد موته، و كانت تركة محمد بن سليمان عظيمة: من المال و المتاع و الدواب، فحملوا منها ما يصلح للخلافة و تركوا ما لا يصلح؛ و كان من جملة ما أخذوا له ستون ألف ألف درهم؛ فلما قدموا بذلك على الرشيد أطلق منه للندماء و المغنّين شيئا كثيرا و رفع الباقى الى خزانته.

و كان سبب أخذ الرشيد تركته أنّ أخاه جعفر بن سليمان كان يسعى به الى الرشيد حسدا له و يقول: إنّه لا مال له و لا ضيعة إلا و قد أخذ أكثر من ثمنها ليتقوّى به على ما تحدّثه به نفسه- يعنى الخلافة- و إنّ أمواله حل طلق لأمير المؤمنين. و كان الرشيد يأمر بالاحتفاظ بكتبه، فلما توفّى محمد بن سليمان أخرجت الكتب الواردة من جعفر أخيه و احتج الرشيد عليه بها فى أخذ أمواله و لم يكن له أخ لأبيه و أمّه غيره، فأقرّ جعفر بالكتب، فأخذ الرشيد جميع المال و لم يعط جعفرا منها الدرهم الواحد.

قلت: انظر الى شؤم الحسد و سوء عاقبته، و للّه در القائل: الحاسد ظالم فى صفة مظلوم، مبتلى غير مرحوم. و دام محمد بن زهير عند الرشيد الى أن كان ما سيأتى ذكره إن شاء اللّه تعالى.

ذكر ولاية داود بن يزيد على مصر

هو داود بن يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلّب بن أبى صفرة المهلّبىّ أمير مصر، ولّاه الخليفة هارون الرشيد على إمرة مصر على الصلاة بعد عزل محمد بن زهير الأزدىّ، فقدم مصر لأربع عشرة ليلة خلت من المحرّم سنة أربع و سبعين و مائة،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۷۶

و قدم معه ابراهيم بن صالح بن علىّ العباسىّ على الخراج؛ فدخلا مصر معا و سكن داود المعسكر على العادة و جعل على شرطته عمّار بن مسلم الطائىّ، ثم أخذ داود فى إصلاح أمر مصر و أخرج الجند الذين كانوا ثاروا على عمر بن غيلان صاحب خراج مصر فى أيّام محمد بن زهير المعزول عن إمرة مصر الى بلاد المغرب، و أخرج بعضهم أيضا الى بلاد المشرق و كانوا عدّة كبيرة. ثم ورد عليه الأمر من الرشيد أن يأخذ المصريين ببيعة ابنه الأمير محمّد بن زبيدة ففعل ذلك. و كان الرشيد عقد لابنه محمد المذكور بولاية العهد و لقّبه بالأمين و أخذ له البيعه من الناس و عمره خمس سنين و كتب بذلك الى الأقطار. و كان سبب البيعة للأمين أن خاله عيسى بن جعفر بن المنصور جاء الى الفضل بن يحيى بن خالد بن برمك و سأله فى ذلك و قال له:

إنه ولدك و خلافته لك، و إنّ أختى زبيدة تسألك فى ذلك، فوعده الفضل بذلك و سعى فيه عند الرشيد حتى بايع له الناس بولاية العهد و ترك ولده المأمون و هو أسنّ من ولده محمد الأمين بشهر، ثم بعد ذلك عهد الرشيد للمأمون بولاية العهد بعد الأمين على ما سيأتى ذكره.

و أما جند مصر الذين أخرجوا من مصر فإنّهم ساروا الى المغرب فى البحر فأسرهم الفرنج بعد حروب، و سكن الحال بديار مصر و أمن الناس، و استمرّ داود على إمرة مصر الى أن صرفه الرشيد عنها بعيسى بن موسى بن عيسى العباسىّ المعزول عن إمرة مصر قديما، و ذلك لسّت خلون من المحرّم سنة خمس و سبعين و مائة، فكانت ولايته على مصر سنة واحدة و نصف شهر.

و أما أمر الجند الذين أسرهم الفرنج فإنّ داود بن يزيد المذكور جهّزهم نجدة الى هشام بن عبد الرحمن الأموىّ فيما قيل، و سببه أنّ هشام بن عبد الرحمن صاحب الأندلس لما فرغ من حرب أخويه سليمان و عبد اللّه و أجلاهما عن الأندلس و خلا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۷۷

سرّه منهما انتدب لمطروح بن سليمان بن يقظان الذى كان خرج عليه و سيّر اليه جيشا كثيفا و جعل عليهم أبا عثمان عبيد اللّه بن عثمان، فساروا الى مطروح، و هو بسرقسطة، فحصروه بها فلم يظفروا به، فرجع أبو عثمان و نزل بحصن طرطوشة بالقرب من سرقسطة و

بثّ سراياه على أهل سرقسطة، ثم إن مطروحا خرج فى بعض الأيام يتصيّد و أرسل البازى على طائر فآقتنصه، فنزل مطروح ليذبحه و معه صاحبان له قد انفرد بهما فقتلاه و أتيا برأسه الى أبى عثمان فأرسله أبو عثمان الى هشام.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۱۷۴]

اشارة

السنة التى حكم فيها داود بن يزيد على مصر و هى سنة أربع و سبعين و مائة- فيها حجّ بالناس هارون الرشيد على طريق البصرة و دخل البصرة و وسّع فى جامعها من ناحية القبلة. و فيها وقعت العصبيّة و ثارت الفتن بين أهل السنة و الرافضة. و فيها ولّى الرشيد إسحاق بن سليمان العباسىّ إمرة السّند و مكران. و فيها استقضى الرشيد يوسف ابن القاضى أبى يوسف يعقوب صاحب أبى حنيفة فى حياة والده. و فيها توفّى روح بن حاتم بن؟؟؟ صة بن المهلّب بن أبى صفرة المهلّبىّ الأمير، كان هو و أخوه من وجوه دولة بنى العبّاس. ولى روح هذا إفريقيّة و البصرة و غيرهما، و كان جليلا شجاعا جوادا. و فيها توفى عبد اللّه بن لهيعة بن عقبة بن فرعان الإمام الحافظ عالم الديار المصرية و قاضيها و محدّثها أبو عبد الرحمن الحضرمىّ المصرىّ، مولده سنة سبع و تسعين و قيل سنة ست و تسعين؛ و مات فى يوم الأحد نصف شهر ربيع الأوّل من السنة و صلّى عليه الأمير داود بن يزيد و دفن بالقرافة من جبّانة مصر و قبره معروف بها يقصد للزيارة. قال الذهبىّ: و كان ابن لهيعة من الكتّابين للحديث و الجمّاعين للعلم و الرحّالين فيه، و لقد حدّثنى شكّر أخبرنا يوسف بن مسلم عن بشر بن المنذر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۷۸

قال: كان ابن لهيعة يكنى أبا خريطة، و ذاك أنّه كانت له خريطة معلّقة فى عنقه فكان يدور بمصر، فكلّما قدم قوم كان يدور عليهم، فكان اذا رأى شيخا سأله: من لقيت و عمّن كتبت. و فيها توفّى منصور مولى عيسى بن جعفر بن منصور، و كان منصور هذا يلقّب بزلزل، و كان مغنّيا يضرب بغنائه و ضربه بالعود المثل، و كان الغناء يوم ذاك غير الموسيقى الآن، و إنما كانت زخمات عدديّة و أصوات مركّبة فى أنغام معروفة، و هو نوع من إنشاد زماننا هذا على الضروب لإنشاد المدّاح و الوعّاظ. و قد أوضحنا ذلك فى غير هذا المحل فى مصنّف على حدته و بيّنا فيه الفرق بينه و بين الموسيقى.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربعة أذرع و ثمانية أصابع، مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا و ثمانية أصابع و نصف.

ذكر ولاية موسى بن عيسى الثانية على مصر

هو موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن على بن عبد اللّه بن العباس الهاشمىّ العباسىّ، ولى إمرة مصر ثانية من قبل الرشيد بعد عزل داود بن يزيد المهلّبىّ و جمع له صلاة مصر و خراجها، فكتب موسى المذكور من بغداد الى الأمير عسّامة بن عمرو يستخلفه على الصلاة، ثم قدم خليفته على الحراج نصر بن كلثوم ثم قدم موسى الى مصر فى سابع صفر سنة خمس و سبعين و مائة و سكن بالمعسكر على العادة، و حدّثته نفسه بالخروج على الرشيد فبلغ الرشيد ذلك.

قال أبو المظفر بن قزأوغلى فى تاريخه «مرآة الزمان»: و بلغ الرشيد أنّ موسى ابن عيسى يريد الخروج عليه فقال: و اللّه لا عزلته إلّا بأخسّ من على بابى؛ فقال لجعفر بن يحيى: ولّ مصر أحقر من على بابى و أخسّهم، فنظر فإذا عمر بن مهران كاتب الخيزران و كان مشوّه الخلقة و يلبس ثيابا خشنة و يركب بغلا- و يردف غلامه خلفه، فخرج اليه جعفر و قال: أ تتولّى مصر؛ فقال: نعم، فسار اليها فدخلها

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۷۹

و خلفه غلام على بغل للثّقل، فقصد دار موسى بن عيسى فجلس فى أخريات الناس، فلمّا انفضّ المجلس قال موسى: أ لك حاجة؟ فرمى اليه بالكتاب، فلما قرأه قال: لعن اللّه فرعون حيث قال: (أليس لى ملك مصر)! الآية، ثم سلّم اليه ملك مصر فمهّدها عمر المذكور و رجع الى بغداد و هو على حاله. انتهى كلام أبى المظفّر.

قلت: لم يذكر عمر بن مهران أحد من المؤرّخين فى أمراء مصر، و الجمهور على أنّ موسى بن عيسى عزل بابراهيم بن صالح العباسىّ، و لعلّ الرشيد لم يرسل عمر هذا إلا لنكاية موسى؛ ثم أقرّ الرشيد إبراهيم بعد خروج المذكور من بغداد، فكانت ولاية عمر على مصر شبه الاستخلاف من ابراهيم بن صالح و لهذا أبطأ ابراهيم بن صالح عن الحضور الى الديار المصريّة بعد ولايته مصر عن موسى المذكور؛ أو كانت ولاية عمر بن مهران على خراج مصر و ابراهيم على الصلاة و هذا أوجه من الأوّل.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۸۰

و قال الذهبىّ: ولّى الرشيد مصر لجعفر بن يحيى البرمكىّ بعد عزل موسى، فعلى هذا يكون عمر نائبا عن جعفر و لم يصل جعفر الى مصر فى هذه السنة و لهذا لم يثبت ولايته أحد من المؤرّخين انتهى. و كان عزل موسى بن عيسى عن إمرة مصر فى ثامن عشرين صفر سنة ۱۷۶ ه، فكانت ولايته هذه الثانية على مصر سنة واحدة إلّا أياما قليلة.

قلت: و مما يؤيّد قولى إنّه كان على الخراج قول ابن الأثير فى الكامل، و ذكر ذلك فى سنة ۱۷۶ ه قال: «و فيها عزل الرشيد موسى بن عيسى عن مصر و ردّ أمرها الى جعفر بن يحيى بن خالد فاستعمل عليها جعفر عمر بن مهران. و كان سبب عزله أنّ الرشيد بلغه أنّ موسى عازم على الخلع فقال: و اللّه لا أعز له إلّا بأخسّ من على بابى، فأمر جعفرا فأحضر عمر بن مهران و كان أحول مشوّه الخلق و كان لباسه خسيسا و كان يردف غلامه خلفه، فلما قال له الرشيد: أتسير الى مصر أميرا؟ قال: أتولاها على شرائط إحداها أن يكون إذنى الى نفسى اذا أصلحت البلاد انصرفت، فأجابه الى ذلك؛ فسار فلمّا وصل اليها أتى دار موسى فجلس فى أخريات الناس، فلما تفرّقوا قال: أ لك حاجة؟ قال: نعم، ثم دفع اليه الكتب فلما قرأها قال: هل يقدم أبو حفص أبقاه اللّه؟ قال: أنا أبو حفص؛ فقال موسى: لعن اللّه فرعون حيث قال: (أليس لى ملك مصر) ثم سلّم له العمل. فتقدّم عمر الى كاتبه ألّا يقبل هديّة إلّا ما يدخل فى الكيس، فبعث الناس بهداياهم، فلم يقبل دابة و لا جارية و لم يقبل إلّا المال و الثياب، فأخذها و كتب عليها أسماء أصحابها و تركها؛ و كان أهل مصر قد اعتادوا المطل بالخراج و كسره، فبدأ عمر برجل منهم فطالبه بالخراج فلواه، فأقسم ألّا يؤدّيه

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۸۱

إلّا بمدينة السلام، فبذل الخراج فلم يقبله منه و حمله الى بغداد فأدّى الخراج بها فلم يمطله أحد، فأخذ النّجم الأوّل و النجم الثانى، فلما كان النجم الثالث وقعت المطاولة و المطل و شكوا الضيق، فأحضر تلك الهدايا و حسبها لأربابها و أمرهم بتعجيل الباقى فأسرعوا فى ذلك فاستوفى خراج مصر عن آخره و لم يفعل ذلك غيره ثم انصرف الى بغداد». انتهى كلام ابن الأثير برمّته.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۱۷۵]

اشارة

السنة التى حكم فيها موسى بن عيسى ثانيا على مصر و هى سنة خمس و سبعين و مائة- فيها عقد الرشيد البيعة بالخلافة من بعده لابنه محمد بن زبيدة و لقّب بالأمين و عمره خمس سنين، و كانت أمّه زبيدة حرّضت الرشيد و أرضوا الجند بأموال عظيمة حتى سكتوا. و فيها خرج يحيى بن عبد اللّه بن الحسن العلوىّ بالدّيلم و قويت شوكته و توجّهت اليه الشّيعة من الأقطار فاغتمّ الرشيد من ذلك و

اشتغل عن اللهو و الشرب و ندب لحربه الفضل بن يحيى بن خالد البرمكیّ فی خمسين ألفا و فرق فيهم الأموال، فانحلّت عزائم يحيى المذكور و طلب الصلح من الرشيد فصالحه الرشيد و أمّنه ثم حبسه بعد مدّة الى أن مات. و فيها هاجت العصبية بالشام بين القيسيّة و اليمانيّة و قتل منهم عدد كثير، و كان على إمرة الشام موسى ابن ولیّ العهد عيسى العباسیّ، فعزله الرشيد و استعمل على الشام موسى بن يحيى البرمكیّ فقدم موسى و أصلح بينهم. و فيها عزل الرشيد عن إمرة خراسان العباس بن جعفر و أمّر عليها خاله الغطريف بن عطاء.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۸۲

و فيها توفّی الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمی، مولاهم الأصبهانیّ الأصل المصریّ، أحد الأعلام و شيخ إقليم مصر و عالمه، كنيته أبو الحارث، مولده فی شعبان سنة أربع و تسعين.

قال الذهبیّ: و حجّ سنة ثلاث عشرة و مائة فلقی عطاء و نافعا و ابن أبی مليكة و أبا سعيد المقبریّ و أبا الزبير و ابن شهاب فأكثر عنهم، ثم ذكر جماعة كثيرة ممن روى عنه. انتهى.

و كان كبير الديار المصرية و رئيسها و أمير من بها فی عصره بحيث إنّ القاضی و النائب من تحت أمره و مشورته؛ و كان الشافعیّ يتأسّف على فوات لقيّه. قيل:

إنّ الإمام مالكا كتب اليه من المدينة: بلغنی أنّك تأكل الرّقاق و تلبس الرّقاق و تمشی فی الأسواق، فكتب اليه الليث بن سعد: (قل من حرّم زينة اللّه) الآية.

و عن ابن الوزير قال: قد ولی الليث الجزيرة و كان أمراء مصر لا يقطعون أمرا إلّا بمشورته، فقال أبو المسعد و بعث بها الى المنصور أبی جعفر:

لعبد اللّه عبد اللّه عندی نصائح حكتها فی السرّ وحدی

أمير المؤمنين تلاف مصرا فإنّ أميرها ليث بن سعد

و كانت وفاة الليث فی رابع عشر شعبان.

ذكر الذين ذكر الذهبیّ وفاتهم فی هذه السنة، قال: و توفّی الحكم بن فصيل الواسطیّ؛ و الخليل بن أحمد فيما قيل و قد مرّ، و خشّاف الكوفیّ صاحب اللغة، و القاسم بن معن المسعودیّ الكوفیّ؛ و الليث بن سعد فقيه مصر.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۸۳

أمر النيل فی هذه السنة- الماء القديم خمسة أذرع سواء، مبلغ الزيادة أربعة عشر ذراعا و ثمانية عشر إصبعا.

ذكر ولاية ابراهيم بن صالح ثانيا على مصر

تقدّم ذكر ترجمته فی ولايته الأولى على مصر، أعاده الرشيد الى ولاية مصر ثانيا بعد عزل موسى بن عيسى العباسیّ فی صفر سنة ست و سبعين و مائة. و لمّا ولی ابراهيم مصر، أرسل باستخلاف عسّامة بن عمرو على الصلاة، الى أن قدم نصر بن كلثوم على خراج مصر فی مستهلّ شهر ربيع الأوّل سنة ست و سبعين و مائة.

و توفی عسّامة بن عمرو لسبع بقين من شهر ربيع الآخر من السنة. ثم قدم الى مصر روح بن زنباع خليفة لإبراهيم على الصلاة و الخراج. و روح بن زنباع هذا أبوه حفيد روح بن زنباع وزير عبد الملك بن مروان، فدام روح بن زنباع المذكور على صلاة مصر و خراجها الى أن قدمها ابراهيم بن صالح بعده بأيّام فی النصف من جمادى الأولى؛ كلّ ذلك من سنة ستّ و سبعين و مائة. و سكن ابراهيم المعسكر و جمع له الرشيد بين الصلاة و الخراج، فلم تطل أيّامه و مات لثلاث خلون من شعبان سنة ستّ و سبعين؛ و قام بأمر مصر بعد موته ابنه صالح بن إبراهيم بن صالح مع صاحب شرطته خالد بن يزيد الى أن ولی مصر عبد اللّه بن المسيّب. و كان مقامه

بها شهرین و ثمانیة عشر یوما؛ و کان إبراهیم المذکور من وجوه بنی العباس و ولی الأعمال الجلیلة مثل دمشق و فلسطین و مصر للمهدیّ أوّلا، ثم ولی الجزیرة لموسی الهادی، ثم ولی مصر ثانیا فی هذه المرّة لهارون الرشید، و کان خیّرا دیّنا ممدّحا، وفد علیه مرّة عبّاد بن عبّاد الخوّاص فقال له ابراهیم هذا: عظنی، فقال عباد: إن

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۸۴

أعمال الأحیاء تعرض علی أقاربهم من الموتی، فانظر ما ذا یعرض علی رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم من عملک! فبکی ابراهیم حتی سالت دموعه علی لحیته رحمه اللّه تعالی.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۱۷۶]

اشارة

السنة التی حکم فیها ابراهیم بن صالح علی مصر و هی سنة ستّ و سبعین و مائة- فیها عقد الرشید لابنه المأمون عبد اللّه العهد بعد أخیه محمد الأمین و لقّبه المأمون، و ولّاه الشرق و کتب بینهما کتابا و علّقه فی الکعبة، و کان المأمون أسنّ من الأمین بشهر واحد غیر أنّ الأمین أمّه زبیدة بنت جعفر هاشمیّة، و المأمون أمّه أم ولد اسمها مراجل، ماتت أیام نفاسها به، و مولدهما فی سنة سبعین و مائة. و فیها حجّ بالناس سلیمان بن منصور العباسیّ. و فیها أیضا حجّت زبیدة بنت جعفر زوج الرشید، و أمرت فی هذه السنة ببناء المصانع و البرک فی طریق الحجّ. و فیها عزل الرشید الغطریف بن عطاء عن إمرة خراسان و ولّاها حمزة بن مالک الخزاعیّ، و کان حمزة یلقّب بالعروس. و فیها توفی ابراهیم بن علیّ بن سلمة بن عامر بن هرمة، أبو إسحاق الفهریّ الشاعر المشهور. کان الأصمعیّ یقول: ختم الشعراء بابن هرمة [و] هو آخر الحجج. و فیها توفی صالح بن أبی جعفر المنصور عبد اللّه بن محمد ابن علی بن عبد اللّه بن العباس الهاشمیّ العباسیّ، ولی عدّة أعمال جلیلة و کان من أعیان بنی العباس. و فیها توفی أبو عوانة و اسمه الوضّاح بن عبد اللّه البزّاز الواسطیّ الحافظ، مولی یزید بن عطاء الیشکریّ، و یقال من سبی جرجان، رأی الحسن البصریّ و ابن سیرین. و توفی بالبصرة فی شهر ربیع الأوّل.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۸۵

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم أربعة أذرع و أربعة عشر إصبعا، مبلغ الزیادة خمسة عشر ذراعا و ستة عشر إصبعا.

ذکر ولایة عبد اللّه بن المسیّب علی مصر

هو عبد اللّه بن المسیّب بن زهیر بن عمرو بن جمیل الضّبّیّ أمیر مصر، ولّاه الرشید مصر علی الصلاة بعد موت ابراهیم بن صالح العباسیّ، فقدم الی مصر لإحدی عشرة لیلة بقیت من شهر رمضان سنة ستّ و سبعین و مائة و سکن المعسکر و جعل علی شرطته أبا المکیس و لم تطل ولایة عبد اللّه المذکور علی إمرة مصر، و عزل بإسحاق بن سلیمان فی شهر رجب سنة سبع و سبعین و مائة، فکانت ولایته علی إمرة مصر نحو عشرة أشهر، و أقام بمصر بطّالا- من غیر إمرة الی أن ولیها استخلافا عن عبد الملک بن صالح العباسیّ فی سنة ثمان و سبعین و مائة نحو الشهرین، و صرف عبد الملک بعبید اللّه بن المهدیّ، فصرف عبد اللّه بن المسیّب هذا عن استخلاف مصر بعزل عبد الملک بن صالح، فإنه کان خلیفته علی مصر و لزم عبد اللّه بن المسیّب بیته الی أن استخلفه ثانیا عبید اللّه بن المهدیّ لمّا ولی مصر بعد عبد الملک بن صالح، فباشر عبد اللّه بن المسیّب صلاة مصر قلیلا باستخلاف عبید اللّه بن المهدیّ المذکور، ثم صرف و لزم داره الی أن مات.

و فى أيّام ولايته على مصر مع قصرها وقع له حروب مع أهل الحوف.
و استنجده هشام صاحب الأندلس فجهّز له العساكر، و بينما هو فى ذلك ورد عليه الخبر بعزله. و كان هشام أرسل جيشا كثيفا و استعمل عليه عبد الملك بن عبد الواحد
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۸۶
ابن مغيث، فدخلوا بلاد العدوّ و بلغوا أربونة و جرندة [فبدأ بجرندة] و كان بها حامية الفرنج، فقتل رجالها و هدم أسوارها و أبراجها و أشرف على فتحها فرحل عنها الى أربونة ففعل بها مثل ذلك، و أوغل فى بلادهم و وطئ أرض بربطانية فاستباح حريمها و قتل مقاتلتها، و جاس البلاد شهرا يحرّق الحصون و يسبى و يغنم، و قد أجفل العدوّ من بين يديه هاربا، و أوغل فى بلادهم و رجع سالما و معه من الغنائم ما لا يعلمه إلا اللّه تعالى. و هى من أشهر مغازى المسلمين بالأندلس.
***

[ما وقع من الحوادث سنة ۱۷۷]

اشارة

السنة التى حكم فيها على مصر عبد اللّه بن المسيّب و هى سنة سبع و سبعين و مائة- فيها عزل الرشيد حمزة بن مالك الخزاعىّ عن إمرة خراسان و ولّاها الفضل ابن يحيى البرمكى مع سجستان و الرّىّ. و فيها حجّ بالناس الرشيد، و كان هذا دأب الرشيد، فسنة يحجّ و سنة يغزو، و فى هذا المعنى قال بعض شعراء عصره:
فمن يطلب لقاءك أو يرده فبالحرمين أو أقصى الثغور
و فيها توفى شريك بن عبد اللّه بن أبى شريك أبو عبد اللّه القاضى النخعىّ، أصله من الكوفة، و بها توفى يوم السبت مستهل ذى القعدة، و كان إماما عالما ديّنا.
قال ابن المبارك: شريك أحفظ لحديث الكوفيين من سفيان الثورىّ. و فيها توفى أبو الخطاب الأخفش الكبير فى هذه السنة و قيل فى غيرها، و اسمه عبد الحميد ابن عبد المجيد شيخ العربيّة، أخذ عنه سيبويه و لو لا سيبويه لما كان يعرف، فإنّ
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۸۷
الأخفش الأوسط الذى أخذ عنه سيبويه أيضا الآتى ذكره هو المشهور؛ و لأبى الخطاب الأخفش هذا أشياء غريبة ينفرد بها عن العرب، و قد أخذ عنه جماعة من العلماء، منهم: عيسى بن عمر النحوىّ، و أبو عبيدة معمر بن المثنّى و غيرهم.
الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها مات عبد العزيز بن أبى ثابت المدنىّ، و عبد الواحد بن زياد الزاهد العبدىّ فيما قيل، و محمد بن جابر الحنفىّ اليمامىّ، و محمد بن مسلم الطائفىّ، و موسى بن أعين الحرّانىّ، و هيّاج بن بسطام الهروىّ، و يزيد بن عطاء اليشكرىّ معتق أبى عوانة.
أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثلاثة أذرع و أربعة عشر إصبعا، مبلغ الزيادة ستة عشر ذراعا و ستة عشر إصبعا.

ذكر ولاية إسحاق بن سليمان على مصر

هو إسحاق بن سليمان بن علىّ بن عبد اللّه بن العباس الهاشمىّ العباسىّ أمير مصر، ولّاه الرشيد إمرة مصر بعد عزل عبد اللّه بن المسيّب فى مستهلّ شهر رجب سنة سبع و سبعين و مائة، و جمع له الرشيد صلاة مصر و خراجها؛ و لما دخل مصر سكن المعسكر على عادة أمراء بنى العباس، و جعل على شرطته بعض أصحابه، و هو مسلم بن بكّار العقيلى؛ و أخذ إسحاق فى إصلاح أمر مصر و كشف [أمر]

خراجها، فلم یرض بما کان یأخذه قبله الأمراء، و زاد علی المزارعین زیادة أفحشت بهم فسئمته الناس و کرهته و خرج علیه جماعة من أهل الحوف من قیس و قضاعة، فحاربهم

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۸۸

إسحاق المذکور و قتل من حواشیه و أصحابه جماعة کبیرة؛ فکتب إسحاق یعلم الرشید بذلک، فعظم علی الرشید ما ناله من أمر مصر و صرفه عن إمرتها و عقد الرشید لهرثمة علی إمرة مصر و أرسله فی جیش کبیر الی مصر؛ و کان عزل إسحاق هذا عن إمرة مصر فی شهر رجب من سنة ثمان و سبعین و مائة، فکانت ولایته علی مصر سنة واحدة و أیاما و توجّه الی الرشید.

و قال ابن الأثیر: «و فی هذه السنة (یعنی سنة ثمان و سبعین و مائة) و ثبت الجوفیّة بمصر علی عاملهم إسحاق بن سلیمان و قاتلوه و أمدّه الرشید بهرثمة بن أعین، و کان عامل فلسطین، فقاتلوا الحوفیّة و هم من قیس و قضاعة، فأذعنوا بالطاعة و أدّوا ما علیهم للسلطان. فعزل الرشید إسحاق عن مصر و استعمل علیها هرثمة مقدار شهر، ثم عزله و استعمل علیها عبد الملک بن صالح». انتهی کلام ابن الأثیر برمّته.

ذکر ولایة هرثمة بن أعین علی مصر

هو هرثمة بن أعین أحد أمراء الرشید و خواصّ قوّاده، ولّاه علی إمرة مصر لمّا بلغه ما وقع لإسحاق بن سلیمان العباسیّ مع أهل مصر، و بعثه الیها فی جیش کبیر و حرّضه علی قتال المصریین، و ولّاه علی صلاة مصر و خراجها معا؛ فخرج هرثمة من بغداد حتی قدم مصر لیومین خلوا من شعبان سنة ثمان و سبعین و مائة؛ فتلقّاه أهل مصر بالطاعة و أذعنوا له، فقبل هرثمة منهم ذلک و أمّنهم و أقرّ کلّ واحد علی حاله.

و أرسل یعلم الرشید بذلک، ثم جعل هرثمة علی شرطته ابنه حاتما فلم تطل مدّة هرثمة علی إمرة مصر و ورد علیه الخبر بعزله عن إمرة مصر و خروجه بالعساکر الی نحو إفریقیّة فی یوم ثانی عشر شوّال من السنة المذکورة؛ فکانت إقامته علی إمرة مصر شهرین و نصف شهر. و ولی مصر بعده عبد الملک بن صالح العباسیّ، و توجّه هرثمة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۸۹

الی بلاد المغرب من مصر بجیوش عظیمة فلم یلق حربا بل أذعن الیه من کان ببلاد المغرب من العصاة لعظم هیبة هرثمة المذکور، فإنه کان شجاعا مقداما مهیبا؛ و؟؟؟ م هرثمة بالمغرب سنین الی أن استعفی فأعفاه الرشید فی سنة إحدی و ثمانین و مائة و أذن له فی القدوم علیه.

و کان الرشید یندب هرثمة للمهمّات و وقع له بالمغرب أمور: منها أنه لما توجّه الی إفریقیّة سار صحبته یحیی بن موسی، فأمره هرثمة أن یتقدّمه و یتلطّف بابن الجارود لیعود الی الطاعة قبل وصول هرثمة، فقدم یحیی القیروان فجری بینه و بین ابن الجارود کلام کثیر؛ حاصله أنّ ابن الجارود شقّ العصا و لم یظهر الطاعة، فخلا یحیی ب [محمد] بن الفارسیّ و عاتبه حتی استماله و وافقه علی قتال ابن الجارود، و تقاتل یحیی و ابن الفارسیّ مع ابن الجارود فقتل ابن الفارسیّ غدرا و عاد یحیی بن موسی الی هرثمة بطرابلس الغرب؛ ثم سار هرثمة الی ابن الجارود بجند طرابلس فی محرّم سنة تسع و سبعین و مائة فلما وصل قابس تلقّاه عامة الجند، و خرج ابن الجارود من القیروان فی مستهلّ صفر، و کان العلاء بن سعید عدوّ ابن الجارود و یحیی بن موسی یستبقان الی القیروان کلّ منهما یرید أن [یکون] الذکر له؛ فسبقه العلاء و دخل القیروان و قتل جماعة من أصحاب ابن الجارود و صار الی هرثمة، و سار ابن الجارود أیضا الی هرثمة فسیّره هرثمة الی الرشید فاعتقله الرشید ببغداد؛ و سار هرثمة الی القیروان فأمّن الناس و سکّنهم و بنی القصر الکبیر و بنی سور مدینة طرابلس الغرب مما یلی البحر. و کان إبراهیم بن الأغلب بولایة الزّاب فأکثر من الهدیّة الی هرثمة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۹۰

حتى أقرّه هرثمة على الزاب فحسن أثره فيها. ثم إن عياض بن وهب الهوّارىّ و كليب ابن جميع الكلبىّ جمعا جموعا و أرادا قتال هرثمة فسيّر اليهما هرثمة يحيى بن موسى فى جيش كبير ففرّق جموعهما و قتل كثيرا من أصحابهما ثم عاد الى القيروان، فلما رأى هرثمة ما بإفريقيّة من الاختلاف واصل كتبه الى الرشيد يستعفى حتى أعفاه، و قدم العراق حسبما تقدّم ذكره. فكانت ولاية هرثمة على إفريقيّة سنتين و نصفا.

ذكر ولاية عبد الملك بن صالح على مصر

هو عبد الملك بن صالح بن علىّ بن عبد اللّه بن العباس بن عبد المطلب، الأمير أبو عبد الرحمن الهاشمىّ العباسىّ أمير مصر، وليها بعد توجّه هرثمة بن أعين الى إفريقيّة، ولّاه الرشيد إمرة مصر و جمع له الصلاة و الخراج معا، فوليها عبد الملك هذا و لم يدخلها و استعمل عليها عبد اللّه بن المسيّب الضبّىّ المعزول عن إمرة مصر قديما، و قد ذكرنا نيابته عن عبد الملك هذا فى ترجمته أيضا من هذا الكتاب؛ فجعل عبد اللّه بن المسيّب على شرطته عمّار بن مسلم، فلم تطل مدّة عبد الملك هذا على ولاية مصر و صرف عنها فى سلخ سنة ثمان و سبعين و مائة؛ و تولّى مصر من بعده عبيد اللّه بن المهدىّ و قد ولّى فى هذه السنة على مصر ثلاثة أمراء و هى سنة ثمان و سبعين و مائة؛ و كان عبد الملك هذا شريفا نبيلا، و أمّه أمّ ولد كانت لمروان بن محمد الحمار فشراها صالح بن علىّ فولدت له عبد الملك هذا. و يقال: إنّ الجارية حملت بعبد الملك هذا من مروان، و لهذا قال له الرشيد لما قبض عليه و حبسه: ما أنت لصالح، قال: فلمن أنا؟ قال: لمروان، قال: ما أبالى أىّ الفحلين غلب علىّ. و كان أوّلا معظّما عند الرشيد و لما ولّاه دمشق سنة سبع

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۹۱

و سبعين و مائة، و خرج الرشيد و ودّعه قال له الرشيد: هل من حاجة؟ قال: نعم بينى و بينك بيت ابن الدّمينة حيث يقول:

فكونى على الواشين لدّاء شغبة كما أنا للواشى ألدّ شغوب

فسكت الرشيد عن أمره حتى نقل عنه أنّه يريد الخلافة فعزله عن دمشق فى سنة ثمان و سبعين و مائة، و كانت إقامته عليها أقلّ من سنة؛ و أظنّ أنّ فى تلك الأيام أضيف اليه إمرة مصر، ثم أقدمه الرشيد الى بغداد و كان قبل ذلك كتب الى الرشيد يقول:

أخلّاى بى شجو و ليس بكم شجو و كلّ امرئ من شجو صاحبه خلو

من اىّ نواحى الأرض أبغى رضاكم و أنتم أناس ما لمرضاتكم نحو

فلا حسن نأتى به تقبلونه و لا إن أسأنا كان عندكم عفو

فقال الرشيد: و اللّه لئن أنشأها لقد أحسن، و لئن رواها كان أحسن.

و ولّى عبد الملك هذا الجزيرة مرّتين و غزا الصائفة فى سنة ثلاث و سبعين و مائة، و غزا الروم سنة خمس و سبعين و مائة، فأخذ سبعة آلاف رأس من الروم. و مات للرشيد ولد و ولد له ولد فى ليلة واحدة فدخل عليه عبد الملك هذا فقال:

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۹۲

يا أمير المؤمنين، آجرك اللّه فيما ساءك و لا ساءك فيما سرّك؛ و جعل هذه بتلك جزاء الشاكرين، و ثواب الصابرين! و كان لعبد الملك لسان و بيان على فأفأة كانت فيه، و كانت وفاته بالرّقّة.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۱۷۸]

اشارة

السنة التى حكم فيها على مصر إسحاق بن سليمان، ثم هرثمة بن أعين، ثم عبد الملك بن صالح و هى سنة ثمان و سبعين و مائة- فيها وثب أهل المغرب و قاتلوا متولّى إفريقيّة الفضل بن روح بن حاتم المهلّبىّ فأمر الرشيد هرثمة بن أعين أن يتوجّه من مصر الى المغرب، و قد ذكرنا ذلك فى ترجمة هرثمة و ذكرنا توجّهه و استيلاءه على بلاد المغرب، و أنّهم أذعنوا اليه بالطاعة. و فيها فوّض الرشيد أمور المملكة الى يحيى بن خالد البرمكىّ. و فيها سار الفضل بن يحيى البرمكى الى خراسان أميرا عليها فعدل فى الرعية و أحسن السيرة بها. و فيها هاجت الحوفيّة بديار مصر بين قضاعة و قيس، و قد ذكرنا قصّتهم مع إسحاق بن سليمان عامل مصر. و فيها غزا الصائفة معاوية بن زفر بن عاصم و غزا الشاتية سليمان بن راشد و معه البند بطريق صقلّيّة. و فيها حجّ بالناس محمد بن إبراهيم بن محمد بن على العباسىّ. و فيها خرج بالجزيرة الوليد بن طريف وفتك بابراهيم بن خازم بن خزيمة بنصيبين و سار الى أرمينية و كثرت جموعه.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفى ابراهيم بن حميد الرّؤاسىّ الكوفىّ، و جعفر بن سليمان الضّبعىّ، و خارجة بن مصعب، و الصحيح قبل هذه بعشر سنين، و عليلة بن بدر البصرىّ و اسمه الربيع، و عليلة لقب له. و عيثر بن

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۹۳

القاسم الكوفىّ، و عبد اللّه بن جعفر أبو على المدينىّ، و عمر بن المغيرة بالمصّيصة، و المفضّل بن يونس يقال فيها.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثلاثة أذرع سواء، مبلغ الزيادة خمسة عشر ذراعا و ستة عشر إصبعا.

ذكر ولاية عبيد اللّه بن المهدىّ الأولى على مصر

هو عبيد اللّه ابن الخليفة محمد المهدىّ ابن الخليفة أبى جعفر المنصور عبد اللّه بن محمد بن علىّ بن عبد اللّه بن العباس العباسىّ الهاشمىّ أمير مصر، ولى مصر بعد عزل عبد الملك بن صالح عنها، ولّاه الرشيد و جمع له صلاة مصر و خراجها، و هو أخو الرشيد لأبيه محمد المهدىّ؛ و لمّا ولى عبيد اللّه مصر استخلف عليها داود بن حبيش و أرسله أمامه، فقدم داود مصر لسبع خلون من جمادى الآخرة؛ ثم قدمها عبيد اللّه المذكور بعده فى يوم الثلاثاء لأربع خلون من شعبان سنة تسع و سبعين و مائة قاله صاحب «البغية».

و قال غيره: قدمها عبيد اللّه فى يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة خلت من المحرّم سنة تسع و سبعين و مائة. و جعل على شرطته معاوية بن صرد ثم عمّار بن مسلم،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۹۴

فأقام عبيد اللّه على إمرة مصر مدّة و خرج منها الى جهة الإسكندرية لما بلغه أنّ الفرنج قصدوا الإسكندرية بعد انهزل بهم من الحكم بن هشام على ما نذكره فى آخر هذه الترجمة؛ و استخلف على مصر عبد اللّه بن المسيّب المقدّم ذكره فغاب عبيد اللّه مدّة ثم عاد اليها و دام على إمرة مصر الى أن صرفه أخوه الرشيد عنها فى شهر رمضان من [هذه] السنة. و خرج منها لليلتين خلتا من شوّال، فكانت ولايته هذه المرّة تسعة أشهر إلا أياما قليلة، و ولى عوضه الأمير موسى بن عيسى العباسىّ الهاشمىّ.

و قال صاحب «البغية»: صرف عنها لثلاث خلون من شهر رمضان سنة إحدى و ثمانين و مائة فوافق فى الشهر و خالف فى السنة.

و أما ما وعدنا بذكره من انهزام الفرنج من الحكم بن هشام صاحب الأندلس الأموىّ فإنّه ندب عبد الكريم بن مغيث الى بلاد الفرنج و صحبته العساكر، فدخل بلاد الفرنج و بثّ سراياه فى بلادهم يحرّقون و ينهبون و يأسرون، و سيّر سريّة فجازوا خليجا من البحر كان الماء قد جزر عنه؛ و كان الفرنج قد جعلوا أموالهم و أهاليهم وراء ذلك الخليج ظنا منهم أنّ أحدا لا يقدر أن يعبره، فجاءهم ما لم يكن فى حسابهم فغنم المسلمون منهم جميع ما لهم و أسروا الرجال و قتلوا منهم فأكثروا و سبوا الحريم و عادوا سالمين الى عبد الكريم المذكور؛ فسيّر عبد الكريم طائفة أخرى فخرّبوا كثيرا من بلاد فرنسيّة و غنموا أموال أهلها و أسروا الرجال، فأخبره بعض الأسرى أنّ جماعة من ملوك الفرنج قد سبقوا المسلمين الى واد وعر المسلك على طريقهم؛ فجمع عبد الكريم عساكره و سار على

التعبئة و أجدّ السير، فلم يشعر الكفّار إلا و قد خالطهم المسلمون و وضعوا السيف فيهم، فانهزموا و غنم ما معهم و عاد عبد الكريم سالما هو و من معه؛ فلمّا وقع للفرنج

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۹۵

ذلک أرادوا أن يهجموا على ثغر الاسكندرية و غيرها لينالوا من المسلمين بعض الغرض و ركبوا البحر لقطع الطريق، فخرج عبيد اللّه بعساكره الى ثغر الاسكندرية فلم يقدر أحد من الفرنج على التوجّه الى جهتها و عادوا بالذّلة و الخزى.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۱۷۹]

اشارة

السنة التى حكم فيها عبيد اللّه بن المهدىّ على مصر و هى سنة تسع و سبعين و مائة- فيها ولّى الرشيد إمرة خراسان لمنصور بن يزيد بن منصور الحميرىّ. و فيها رجع الوليد بن طريف الشارىّ بجموعه من ناحية أرمينية الى الجزيرة و قد عظم أمره و كثرت جيوشه، فسار لحربه يزيد بن مزيد الشّيبانىّ من قبل الرشيد فراوغه يزيد مدّة ثم التقاه على غرّة بقرب هيت و قاتله حتى ظفر به و قتله و بعث برأسه الى الرشيد، فرثته أخته الفارعة بنت طريف بقصيدتها التى سارت بها الركبان التى أوّلها:

أيا شجر الخابور ما لک مورقا كأنّک لم تجزع على ابن طريف

فتى لا يحبّ الزاد إلّا من التّقى و لا المال إلّا من قنا و سيوف

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۹۶

حليف الندى ما عاش يرضى به الندى فإن مات لم يرض الندى بحليف

و منها:

فإن يک أرداه يزيد بن مزيد فربّ زحوف لفّها بزحوف

عليه سلام اللّه وقفا فإنّنى أرى الموت وقّاعا بكلّ شريف

و فيها اعتمر الرشيد فى رمضان و دام على إحرامه الى أن حجّ و مشى من بيوت مكّة الى عرفات. و فيها فى شهر ربيع الأوّل وصل هرثمة بن أعين أميرا على القيروان و المغرب فأمن الناس و سكنوا و أحسن سياستهم، و بنى القصر الكبير فى سنة ثمانين و مائة و بنى سور طرابلس الغرب؛ ثم إنّه رأى اختلاف الأهواء فطلب من الرشيد أن يعفيه و ألحّ فى ذلک حتى أعفاه. و فيها توفّى الإمام مالک بن أنس بن مالک بن أبى عامر بن عمرو بن الحارث بن غيمان بن خثيل بن عمرو بن الحارث، شيخ الإسلام و أحد الأعلام و إمام دار الهجرة و صاحب المذهب، أبو عبد اللّه المدنىّ الأصبحىّ مولده سنة اثنتين و تسعين، و قيل سنة ثلاث و تسعين و هى السنة التى مات فيها أنس ابن مالک الصحابىّ، و كان الإمام مالک رحمه اللّه عظيم الجلالة كبير الوقار غزير العلم متشدّدا فى دينه.

قال الشافعىّ: إذا ذكر العلماء فما لک النجم. و قال فى رواية أخرى: لو لا مالک و ابن عيينة لذهب علم الحجاز، و ما فى الأرض كتاب أكثر صوابا من الموطّأ.

و قال ابن مهدىّ: مالک أفقه من الحكم و حمّاد.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۹۷

و قال ابن وهب عن مالک قال: دخلت على أبى جعفر مرارا و كان لا يدخل عليه أحد من الهاشميّين و غيرهم إلا قبّل يده فلم أقبّل يده قطّ. و عن عيسى بن عمر المدنىّ قال: ما رأيت بياضا قطّ و لا حمرة أحسن من وجه مالک، و لا أشدّ بياضا من ثوب مالک. و قال

غیر واحد: کان مالک رجلا طوالا جسیما عظیم الهامة أبیض الرأس و اللحیة أشقر أصلع عظیم اللحیة عریضها، و کان لا یحفی شاربه و یراه مثلة.

قلت: و مناقب الإمام مالک کثیرة و فضله أشهر من أن یذکر. و کانت وفاته فی صبیحة أربع عشرة خلت من شهر ربیع الأوّل، و قیل فی حادی عشر ربیع الأوّل، و قیل فی ثالث عشر؛ و أما السنة فمجمع علیها، أعنی فی سنة تسع و سبعین و مائة رحمه اللّه. و فیها توفی الهقل بن زیاد الدّمشقیّ نزیل بیروت أبو عبد اللّه، کان کاتب الأوزاعیّ و تلمیذه و حامل علمه من بعده.

الـذین ذکر الـذهبیّ وفاتهم فی هـذه السـنة، قال: و فیها توفی حمّاد بن زید، و خالد بن عبد اللّه الطحّان، و عبد اللّه بن سالم الأشعریّ الحمصیّ، و مالک بن أنس الإمام، و فقیه دمشق هقل بن زیاد، و الولید بن طریف الخارجیّ، و أبو الأحوص سلّام بن سلیم.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم ذراعان و عشرون إصبعا، مبلغ الزیادة سبعة عشر ذراعا و عشرة أصابع.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۹۸

ذکر ولایة موسی بن عیسی الثالثة علی مصر

قلت: هذه ولایة موسی بن عیسی الهاشمیّ العباسیّ الثالثة علی مصر، ولّاه الرشید علی مصر بعد عزل أخیه عبید اللّه بن المهدیّ علی الصلاة؛ فلما ولی موسی من بغداد قدّم أمامه ابنه یحیی بن موسی الی مصر و استخلفه علی صلاتها، فقدم یحیی ابن موسی الی مصر لثلاث خلون من شهر رمضان سنة تسع و سبعین و مائة، و دام بمصر علی صلاتها الی أن قدمها والده موسی بن عیسی فی آخر ذی القعدة من سنة تسع و سبعین و مائة المذکورة؛ و سکن المعسکر علی العادة و أخذ فی إصلاح أمور مصر و أصلح بین قیس و یمن من الحوف، و استمرّ علی إمرة مصر الی أن صرفه الرشید عنها بعبید اللّه بن المهدیّ ثانیا فی جمادی الآخرة سنة ثمانین و مائة؛ فکانت ولایة موسی علی مصر فی هذه المرّة الثالثة نحوا من عشرة أشهر. و خرج من مصر و توجّه الی بغداد و صار من أکابر أمراء الرشید، و حجّ بالناس من بغداد فی السنة المذکورة.

و فی سنة اثنتین و ثمانین و مائة مات بعد عوده من الحجّ و له خمس و خمسون سنة.

و قیل: کانت وفاته فی سنة تسع و ثمانین و مائة. و لما حجّ فی سنة اثنتین و ثمانین و مائة ندبه الرشید لیقرأ عهد أولاده بالخلافة فی مکّة و المدینة لأنّ الرشید کان بایع فی هذه السنة لابنه عبد اللّه المأمون بولایة العهد بعد أخیه محمد الأمین؛ و ولّاه خراسان و ما یتّصل بها الی همذان و لقّبه بالمأمون و سلّمه الی جعفر بن یحیی. و هذا من العجائب لأنّ الرشید رأی ما صنع أبوه و جدّه المنصور بعیسی بن موسی حتی خلع نفسه من ولایة العهد، ثم ما صنع به أخوه الهادی لیخلع نفسه من العهد، فلو لم یعاجله الموت لخلعه؛ ثم هو بعد ذلک یبایع للمأمون بعد الأمین حتی وقع لهما بعد موته ما فیه عبرة لمن اعتبر.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۹۹

قلت: و هذا البلاء و التدمیغ الی یومنا هذا، فانّ کلّ ملک من الملوک الی زماننا هذا یخلع ابن الملک الذی قبله ثم یعهد هو لابنه من غیر أن یقعّد له قاعدة یثبّت ملکه بها، بل جلّ قصده العهد، و یدع الدنیا بعد ذلک تنقلب ظهرا لبطن. و کان أمیرا جلیلا جوادا ممدّحا، تقدّم التعریف بأحواله فی ولایته الأولی و الثانیة علی مصر من هذا الکتاب ا ه.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۱۸۰]

اشارة

السنة التى حكم فيها موسى بن عيسى العباسىّ على مصر و هى سنة ثمانين و مائة- فيها كانت الزلزلة العظيمة التى سقط منها رأس منارة الإسكندريّة.

و فيها تنقّل الخليفة الرشيد من بغداد الى الموصل ثم الى الرقّة فاستوطنها مدّة و عمّر بها دار الملك و استخلف على بغداد ابنه الأمين محمد بن زبيدة. و فيها حجّ بالناس موسى ابن عيسى العباسىّ المعزول عن إمرة مصر المقدّم ذكره. و فيها هدم الرشيد سور الموصل لئلا يغلب عليها الخوارج. و فيها ولّى الرشيد جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك خراسان و سجستان فولّى عليهما جعفر محمد بن الحسن بن قحطبة ثم بعد مدّة يسيرة عزل الرشيد جعفرا المذكور و ولّى عليهما عيسى بن جعفر. و فيها خرج خراشة الشيبانىّ متحكّما بالجزيرة فقتله مسلم بن بكّار العقيلىّ. و فيها خرجت المحمّرة بجرجان هيّجهم على الخروج زنديق يقال له؛ عمرو بن محمد العمركىّ، فقتل عمرو المذكور بأمر الرشيد بمدينة مرو. و فيها توفى سيبويه إمام النحاة أبو بشر عمرو بن عثمان البصرىّ، أصله فارسىّ و طلب الفقه و الحديث ثم مال الى العربية حتى برع فيها و صار أفضل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۰۰

أهل زمانه، و صنّف فيها كتابه الكبير الذى لم يصنّف مثله، و فى سنة وفاة سيبويه أقوال كثيرة، و قيل: إنّ مدّة عمره كانت اثنتين و ثلاثين سنة، و قيل: بل أزيد من أربعين سنة. و فيها توفى عافية بن يزيد بن قيس الكوفىّ الأودىّ، كان من أصحاب أبى حنيفة الذين يجالسونه ثم ولى القضاء، و كان فقيها ديّنا صالحا. و فيها توفى المبارك بن سعيد بن مسروق أخو سفيان الثورىّ، و كنيته أبو عبد الرحمن، ولد بالكوفة و سكن بغداد، و كان ثقة ديّنا كفّ بصره بأخرة. و فيها توفى هشام بن عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان الأموىّ الهاشمىّ أمير الأندلس، وليها فى سنة ثلاث و سبعين و مائة بعد وفاة أبيه، فكانت مدّة ملكه بالأندلس سبع سنين و أيّاما، و مات فى صغره و له تسع و ثلاثون سنة. و قد تقدّم التعريف به: أنّ عبد الرحمن الداخل دخل المغرب جافلا من بنى العباس و ملكه و سمى بالداخل.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفى اسماعيل بن جعفر المدنىّ، و بشر بن منصور السّليمىّ الواعظ، و حفص بن سليمان المقرئ، و رابعة العدويّة. قلت: و قد تقدّمت وفاتها فى قول غير الذهبىّ. قال: و صدقة بن خالد الدمشقىّ بخلف، و عبد الوارث بن سعيد التّنّورىّ؛ و عبيد اللّه بن عمرو الرقىّ، و المبارك ابن سعيد الثّورىّ، و فضيل بن سليمان بخلف، و محمد بن الفضل بن عطيّة البخارىّ،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۰۱

و مسلم بن خالد الزّنجى المكىّ، و معاوية بن عبد الكريم الضالّ، و صاحب الأندلس هشام بن عبد الرحمن الأموىّ، و أبو المحيّاة يحيى بن يعلى التّيمىّ؛ و يقال: مات فيها سيبويه شيخ النحو.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثلاثة أذرع و أربعة عشر إصبعا، مبلغ الزيادة خمسة عشر ذراعا و تسعة أصابع.

ذكر ولاية عبيد اللّه بن المهدىّ الثانية على مصر

تقدّم التعريف به فى أوّل ولايته على إمرة مصر و لما عزل الرشيد موسى بن عيسى العباسىّ أعاد أخاه عبيد اللّه هذا على إمرة مصر عوضه ثانيا، فأرسل عبيد اللّه هذا داود بن حبيش خليفة له على صلاة مصر، فسار داود حتى وصل الى مصر لسبع خلون من جمادى الآخرة من سنة ثمانين و مائة، فخلفه داود على صلاة مصر الى أن حضر اليها عبيد اللّه بن المهدىّ فى يوم رابع شعبان من السنة، فلم تطل مدّته على مصر و وقع له بها أمور حتى صرف عنها لثلاث خلون من شهر رمضان من سنة إحدى و ثمانين و مائة؛ فكانت ولاية عبيد اللّه بن المهدىّ فى هذه المرّة الثانية على إمرة مصر سنة واحدة و شهرين تقريبا. و قيل: غير ذلك. و توفى سنة أربع و تسعين و مائة، و لما عزل عن مصر توجه الى الرشيد و دام عنده الى أن خرج معه فى سنة اثنتين و تسعين و مائة فى مسيره الى خراسان، فسار

الرشید من الرّقّة الی بغداد یرید خراسان لحرب رافع بن اللیث، و کان الرشید مریضا و استخلف علی الرقة ابنه القاسم

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۰۲

و ضمّ الیه خزیمة بن خازم، و سار من بغداد الی النّهروان و استخلف علی بغداد ابنه الأمین و أمر ابنه المأمون بالمقام ببغداد، فقال الفضل بن سهل للمأمون حین أراد الرشید المسیر: لست تدری ما یحدث بالرشید، و خراسان ولایتک و الأمین مقدّم علیک، و إنّ أحسن ما یصنع بک أن یخلعک و هو ابن زبیدة و أخواله بنو هاشم، و زبیدة و أموالها، فاطلب من أبیک الرشید أن تسیر معه، فطلب، فأجابه الرشید بعد امتناع.

فلما سار الرشید سایره الصبّاح الطبریّ، فقال له الرشید: یا صبّاح، لا أظنک ترانی أبدا، فدعا له الصبّاح بالبقاء؛ فقال: یا صباح، ما أظنک تدری ما أجد؛ قال الصّباح: لا و اللّه؛ فعدل الرشید عن الطریق و استظل بشجرة و أمر خواصّه بالبعد عنه، ثم کشف عن بطنه فإذا علیه عصابة حریر، فقال: هذه علّة أکتمها عن الناس و لکلّ واحد من ولدی علیّ رقیب؛ فمسرور رقیب المأمون، و جبریل بن بختیشوع رقیب الأمین، و ما منهم أحد إلّا و هو یحصی أنفاسی و یستطیل دهری، و إن أردت أن تعلم ذلک فالساعة أدعو بدابّة فیأتوننی بدابّة أعجف قطوف لتزیدنی علّة؛ ثم طلب الرشید دابّة فجاءوا بها علی ما وصف. و کان أخوه عبید اللّه هذا أشار علیه بعدم السفر، فلم یسمع منه و أخذه معه.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۱۸۱]

اشارة

السنة التی حکم فیها عبید اللّه بن المهدیّ فی ولایته الثانیة علی مصر و هی سنة إحدی و ثمانین و مائة- فیها غزا الرشید بلاد الروم و افتتح حصن الصّفصاف عنوة، و سار عبد الملک بن صالح العباسیّ حتی بلغ أرض الروم و افتتح حضنابها. و فیها حجّ

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۰۳

بالناس الرشید. و فیها استعفی یحیی بن خالد بن برمک من التحدّث فی أمور الممالک فأعفاه الرشید و أخذ الخاتم منه و أذن له فی المجاورة بمکة. و فیها کتب الرشید الی هرثمة بن أعین یعفیه عن إمرة المغرب و أذن له فی المجاورة و القدوم علیه، و استعمل عوضه علی المغرب محمّد بن مقاتل العکّیّ رضیع الرشید، و کان أبوه مقاتل أحد من قام بالدعوة العباسیّة.

و فیها أمر الرشید أن یصدّر فی مکاتباته بعد البسملة بالصلاة علی النّبیّ صلی اللّه علیه و سلم. و فیها توفی عبد اللّه بن المبارک بن واضح الحنظلیّ مولاهم الترکیّ، ثم المروزیّ الحافظ فرید الزمان و شیخ الإسلام، و أمّه خوارزمیّة مولده سنة ثمان عشرة و مائة.

و قیل: سنة عشر و مائة، و رحل سنة إحدی و أربعین و مائة فلقی التابعین و أکثر التّرحال فی طلب العلم، و روی عن جماعة کثیرة، و روی عنه خلائق و تفقّه بأبی حنیفة. و قال أبو إسحاق الفزاریّ: ابن المبارک إمام المسلمین. و عن اسماعیل ابن عیّاش قال: ما علی وجه الأرض مثل ابن المبارک. و قال العباس بن مصعب المروزیّ: جمع ابن المبارک الحدیث و الفقه و العربیة و أیّام الناس و الشجاعة و السخاء.

و قال شعیب بن حرب: سمعت سفیان الثوریّ یقول: لو جهدت جهدی أن أکون فی السنة ثلاثة أیّام علی ما علیه ابن المبارک لم أقدر. و قال الذهبیّ: قال عبد اللّه ابن محمد قاضی نصیبین حدّثنی محمد بن ابراهیم بن أبی سکینة: أملی علیّ ابن المبارک بطرسوس- و ودّعته و أنفذها معی (یعنی الورقة) الی الفضیل بن عیاض فی سنة سبع و سبعین و مائة- هذه الأبیات:

یا عابد الحرمین لو أبصرتنا لعلمت أنّک فی العبادة تلعب

من كان يخضب جيده بدموعه فنحورنا بدمائنا تتخضّب

أو كان يتعب خيله فی باطل فخيولنا يوم الصّبيحة تتعب

ريح العبير لكم و نحن عبيرنا و تهج السّنابک و الغبار الأطيب

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۰۴

و لقد أتانا من مقال نبيّنا قول صحيح صادق لا يكذب

لا يستوی غبار خيل اللّه فی أنف امرئ و دخان نار تلهب

هذا كتاب اللّه ينطق بيننا ليس الشهيد بميّت لا يكذب

قال: فلقيت الفضيل بكتابه فی الحرم، فلما قرأه ذرفت عيناه، ثم قال: صدق أبو عبد الرحمن و نصح.

الذين ذكر الذهبیّ وفاتهم فی هذه السنة، قال: و فيها توفی إبراهيم بن عطيّة الثقفیّ، و اسماعيل بن عيّاش الحمصیّ، و أبو المليح الحسن بن عمر الرقّیّ، و حفص ابن ميسرة الصّنعانیّ، و الحسن بن قحطبة الأمير، و حمزة بن مالک، و سهل بن أسلم العدویّ، و خلف بن خليفة الواسطیّ بها، و عبّاد بن عبّاد المهلّبیّ، و عبد اللّه ابن المبارک المروزیّ، و روح بن المسيّب الكلبیّ، و سهيل بن صبرة العجلیّ، و عبد الرحمن بن عبد الملک بن أبجر، و عفّان بن سيّار قاضی جرجان، و علیّ بن هاشم ابن البريد الكوفیّ، و عيسی ابن الخليفة المنصور، و قرّان بن تمام الأسدی (بضم القاف و تشديد الراء) تخمينا، و محمد بن حجّاح الواسطیّ، و محمد بن سليمان الأصبهانیّ الكوفیّ، و مصعب بن ماهان المروزیّ، و مفضّل بن فضالة قاضی مصر و يعقوب ابن عبد الرحمن القاریّ، و أم عروة بنت جعفر بن الزبير بن العوّام.

أمر النيل فی هذه السنة- الماء القديم أربعة أذرع و ثمانية أصابع، مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا و ثمانية أصابع و نصف.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۰۵

ذكر ولاية اسماعيل بن صالح علی مصر

هو اسماعيل بن صالح بن علیّ بن عبد اللّه بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم، الهاشمیّ العباسیّ أمير مصر، ولّاه الرشيد إمرة مصر علی الصلاة فی يوم الخميس لسبع خلون من شهر رمضان سنة اثنتين و ثمانين و مائة بعد عزل عبيد اللّه بن المهدیّ عنها، فاستخلف اسماعيل علی صلاة مصر عوف بن وهب الخزاعیّ فصلّی المذكور بالناس الی أن حضر إسماعيل بن صالح الی مصر لخمس بقين من شهر رمضان المذكور، و لمّا قدم الی مصر سكن بالمعسكر و جعل علی الشّرطة سليمان بن الصّمة المهلّبی مدّة ثم صرفه بزيد بن عبد العزيز الغسّانیّ و أخذ فی إصلاح أمر الديار المصرية، و كان شجاعا فصيحا عاقلا أديبا.

قال ابن عفير: ما رأيت علی هذه الأعواد أخطب من إسماعيل بن صالح.

و استمرّ إسماعيل بن صالح علی إمرة مصر الی أن صرف عنها لأمر اقتضی ذلک بإسماعيل بن عيسی فی جمادی الآخرة سنة ثلاث و ثمانين و مائة.

و قال صاحب «البغية»: إنه عزل بالليث بن الفضل و إنّ الليث عزل باسماعيل المذكور و سمّاه اسماعيل بن علیّ. و الأقوی أنّ اسماعيل هذا عزل باسماعيل الذی سمّيته، و علی هذا الترتيب ساق غالب من ذكر أمراء مصر. و كانت مدّته علی إمرة مصر ثمانية أشهر و عدّة أيام تقارب شهرا ا ه.

[ما وقع من الحوادث سنة ۱۸۲]

اشارة

السنة التى حكم فيها إسماعيل بن صالح على مصر، و هى سنة اثنتين و ثمانين و مائة- فيها حجّ بالناس عيسى بن موسى العباسىّ. و فيها أخذ الرشيد البيعة بولاية

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۰۶

العهد ثانيا من بعد ولده الأمين محمد لولده الآخر عبد اللّه المأمون، و كان ذلك بالرقّة، فسيّره الرشيد الى بغداد و فى خدمته عمّ الرشيد جعفر بن أبى جعفر المنصور و عبد الملك ابن صالح و علىّ بن عيسى، و ولى المأمون ممالك خراسان بأسرها و هو يومئذ مراهق.

و فيها و ثبت الروم على ملكهم قسطنطين فسملوه و عقلوه و ملّكوا عليهم غيره. و فيها توفى عبد اللّه بن عبد العزيز بن عبد اللّه [بن عبد اللّه] بن عمر بن الخطاب، أبو عبد اللّه العمرىّ العدوىّ، كان إماما عالما عابدا ناسكا ورعا. و فيها توفّى مروان بن سليمان بن يحيى ابن أبى حفصة أبو السّمط- و قيل: أبو الهندام- الشاعر المشهور. كان أبو حفصة جدّ أبيه مولى مروان بن الحكم أعتقه يوم الدار لأنه أبلى بلاء حسنا فى ذلك اليوم، يقال: إنه كان يهوديا فأسلم على يد مروان، و قيل غير ذلك. و مولد مروان هذا صاحب الترجمة سنة خمس و مائة، و كان شاعرا مجيدا، مدح غالب خلفاء بنى أمية و غيرهم، و ما نال أحد من الشعراء ما ناله مروان لا سيّما لمّا مدح معن بن زائدة الشيبانىّ بقصيدته اللّامية؛ يقال: إنه أخذ منه عليها مالا كثيرا لا يقدّر قدره، و هى القصيدة التى فضل بها على شعراء زمانه. قال ابن خلكان: و القصيدة طويلة تناهز الستين بيتا، و لو لا خوف الإطالة لذكرتها لكن نأتى ببعض مديحها و هو من أثنائها:

بنو مطر يوم اللقاء كأنّهم أسود لها فى بطن خفّان أشبل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۰۷

هم يمنعون الجار حتّى كأنما لجارهم بين السّماكين منزل

بهاليل فى الإسلام سادوا و لم يكن كأوّلهم فى الجاهليّة أول

هم القوم إن قالوا أصابوا و ان دعوا أجابوا و ان أعطوا أطابوا و أجزلوا

و ما يستطيع الفاعلون فعالهم و إن أحسنوا فى النائبات و أجملوا

و فيها توفّى هشيم بن بشير بن أبى خازم أبو معاوية الواسطىّ مولى بنى سليم و كان بخارىّ الأصل، كان ثقة كثير الحديث ثبتا، و كان يدلّس فى الحديث، و كان ديّنا أقام يصلّى الفجر بوضوء صلاة العشاء الآخرة سنين كثيرة، و توفى ببغداد فى يوم الأربعاء لعشر بقين من شهر رمضان أو شعبان. و فيها توفى شيخ الإسلام قاضى القضاة أبو يوسف يعقوب بن ابراهيم بن حبيب [بن خنيس] بن سعد بن حبتة بن معاوية.

و سعد بن حبتة من الصحابة أتى يوم الخندق الى النّبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فدعا له و مسح على رأسه. و مولد أبى يوسف بالكوفة سنة ثلاث عشرة و مائة، و طلب العلم سنة نيّف و ثلاثين؛ و سمع من هشام بن عروة و عطاء بن السائب و الأعمش و غيرهم.

و روى عنه ابن سماعة و يحيى بن معين و أحمد بن حنبل و خلق سواهم. و كان فى ابتداء أمره يطلب الحديث، ثم لزم أبا حنيفة و تفقّه به حتى صار المقدّم فى تلامذته، و برع

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۰۸

فى عدّة علوم. قال الذهبىّ: و كان عالما بالفقه و الأحاديث و التفسير و السّير و أيام العرب، و هو أوّل من دعى فى الإسلام بقاضى القضاة. قلت: و لم يقع هذا الاسم على غيره كما وقع له فيه، فإنّه كان قاضى المشرق و المغرب، فهو قاضى القضاة على الحقيقة. قال محمد بن الحسن: مرض أبو يوسف فعاده أبو حنيفة، فلمّا خرج قال: إن يمت هذا الفتى فهو أعلم من عليها (و أومأ الى الأرض). و قال ابن معين: ما رأيت فى أصحاب الرأى أثبت فى الحديث، و لا أحفظ و لا أصحّ رواية من أبى يوسف. و روى أحمد بن عطيّة عن محمد بن سماعة قال: كان أبو يوسف بعد ما ولى القضاء يصلّى كلّ يوم مائتى ركعة. و قال محمد بن سماعة المذكور: سمعت أبا

یوسف یقول فی الیوم الـذی مـات فیه: اللهم إنک تعلم أنی لم أجر فی حکم حکمت به متعمّـدا، و قـد اجتهـدت فی الحکم بما وافق کتابک و سنّة نبیک. و کان أبو یوسف عظیم الرتبة عند هارون الرشـید. قال أبو یوسف: دخلت علی الرشـید و فی یده درّتان یقلّبهما فقال: هل رأیت أحسن منهما؟ قلت: نعم یا أمیر المؤمنین؛ قال: و ما هو؟ قلت: الوعاء الذی هما فیه، فرمی الیّ بهما و قال: شأنک بهما. و کـانت وفـاته فی یوم الخمیس لخمس خلون من شـهر ربیع الأـوّل، و قیـل: فی ربیع الآـخر. و فی یوم موته قال عبّاد بن العوّام: ینبغی لأهل الإسلام أن یعزّی بعضهم بعضا بأبی یوسف. و فیها توفّی یزید بن زریع أبو معاویة العیشی البصریّ، کان

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۰۹

ثقة کثیر الحدیث عالما فاضـلا صدوقا، و کان أبوه والی البصرة، فمات فلم یأخذ من میراثه شیئا، و کان یتقوّت من سفّ الخوص بیده رحمه اللّه تعالی.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم ذراعان و تسعة عشر إصبعا، مبلغ الزیادة سبعة عشر ذراعا سواء.

ذکر ولایة اسماعیل بن عیسی علی مصر

هو اسـماعیل بن عیسـی بن موسـی بن محمد بن علیّ بن عبد اللّه بن علیّ بن العبّاس، العباسیّ الهاشـمیّ، أمیر مصـر. ولّاه الرشید علی إمرة مصر بعد عزل إسماعیل بن صالح العباسیّ عنها علی الصلاة، فقدم مصر لأربع عشرة بقیت من جمادی الآخرة سنة ثلاث و ثمانین و مائة. و لما دخل مصـر سـکن المعسـکر علی عادة أمراء مصر، و دام علی إمرتها الی أن صرفه الرشید عنها باللیث بن الفضل فی شهر رمضان سـنة ثلاث و ثمانین و مائـة، فکانت ولایته علی مصـر ثلاثـة أشـهر تنقص أیاما. و توجّه الی الرشـید فأکرمه و دام عنده الی أن حجّ معه فی سنة ست و ثمانین و مائة تلک الحجّة التی لم یحجّها خلیفة قبله.

و خبرها أن الرشـید سار الی مکة بأولاده و أکابر أقار به مثل إسماعیل هذا و غیره، و کان مسیر الرشید من الأنبار فبدأ بالمدینة فأعطی فیها ثلاثـة أعطیـة: أعطی هو عطاء، و ابنه محمـد الأمین عطاء، و ابنه عبـد اللّه عطاء؛ و سار الی مکة فأعطی أهلها فبلغ عطاؤهم بمکة و المدینـة ألف ألف دینـار و خمسـین ألف دینـار. و کـان الرشـید قـد ولّی الأـمین العراق و الشأم الی آخر المغرب، و ولّی المأمون من همذان الی آخر المشـرق، ثم بایع الرشـید لابنه القاسم بولایة العهد بعد المأمون و لقّبه المؤتمن، و ولّاه الجزیرة و الثغور و العواصم، و کان المؤتمن فی حجر عبد الملک بن صالح و جعل خلعه و إثباته للمأمون؛ و لما وصل

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۱۰

الرشید الی مکّة و معه أولاده و أقاربه و القضاة و الفقهاء و القوّاد، کتب کتابا أشهد فیه علی محمد الأمین من حضر بالوفاء للمأمون، و کتب کتابـا أشـهد علیه فیه بالوفـاء للأـمین، و علق الکتابین فی الکعبـة و جـدّد علیهما العهود فی الکعبـة. و لما فعل الرشـید ذلک قال الناس: قد ألقی بینهم حربا و خافوا عاقبة ذلک، فکان ما خافوه.

ثم إن الرشـید فی سـنة تسع و ثمانین و مائـة قـدم بغداد و أشـهد علی نفسه من عنده من القضاة و الفقهاء أنّ جمیع ما فی عسـکره من الأموال و الخزائن و السـلاح و غیر ذلک للمأمون و جدّد له البیعة علیهم بعد الأمین. ثم بعد عود الرشـید وجّه اسماعیل هذا الی الغزو، فعاد و دام عنده الی أن وقع ما سنذکره.

[ما وقع من الحوادث سنة ۱۸۳]

اشارة

السنة التی حکم فیهـا إسـماعیل بن عیسـی علی مصـر و هی سنة ثلاـث و ثمانین و مائـة- فیها حـجّ بالناس العباس بن موسـی الهادی

الخليفـة. و فيها تمرّد متولّى الغرب محمـد ابن مقاتل العكّى و ظلم و عسف و اقتطع من أرزاق الأجناد و آذى العامّـة، فخرج عليه تمّام بن تميم التميمىّ نـائبه على تـونس، فزحف اليه و برز لملتقـاه العكىّ و وقع المصـافّ، فـانهزم العكىّ و تحصّن بـالقيروان فى القصـر و غلب تمّام على البلـد، ثم نزل العكىّ بأمان و انسحب الى طرابلس؛ فنهض لنصـرته إبراهيم بن الأغلب، فتقهقر تمّام الى تونس و دخل ابن الأغلب القيروان فصلّى بالناس و خطب و حضّ على الطاعة؛ ثم التقى ابن الأغلب و تمّام فانهزم تمام، و اشتد بغض الناس للعكىّ و كاتبوا الرشيد فيه فعزله و أمّر عليهم إبراهيم بن الأغلب. و فيها توفى البهلول المجنون، و اسم أبيه عمرو، و كنيته

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۱۱

أبو وهيب، الصيرفىّ الكوفىّ، تشوّش عقله فكـان يصـحو فى وقت و يختلـط فى آخر، و هو معـدود من عقلاء المجانين، كان له كلام حسن و حكايات ظريفة. قال الذهبىّ:

و قد حدّث عن عمرو بن دينار و عاصم بن بهدلة و أيمن بن نابل، و ما تعرّضوا اليه بجرح و لا تعديل و لا كتب عنه الطلبة، و كان حيّا فى دولة الرشيد كلّها. و قيل: إن الرشيد مرّ به، فقام اليه البهلول و ناداه و وعظه، فأمر له الرشيد بمال؛ فقال:

ما كنت لأسوّد وجه الوعظ، فلم يقبل. و أما حكاياته فكثيرة، و فى وفاته اختلاف كثير، و الصحيح أنه مات فى هذا العصر. و فيها توفّى زياد بن عبـد اللّه بن الطّفيل، الحافظ أبو محمـد البكّائىّ العامرىّ الكوفىّ صاحب رواية السيـرة النبويّة عن ابن إسـحاق، و هو أتقن من روى عنه السيـرة. و فيها توفّى علىّ بن الفضـيل بن عياض، مات شابا لم يبلغ عشرين سنة فى حياة والده فضيل، و كان شابا عابدا زاهدا ورعـا و كـان يصـلّى حتّى يزحف الى فراشه زحفـا، فيلتفت الى أبيه فيقول: يا أبت سـبقنا العابـدون. و فيها توفّى محمـد بن صبيـح أبو العبّاس المذكّر الواعظ، كان يعرف بابن السمّاك، كان له مقام عظيم عند الخلفاء؛ وعظ الرشيد مرّة فقال:

يـا أمير المؤمنين، إن لـك بين يـدى اللّه تعالى مقاما و إن لك من مقامك منصـرفا، فانظر الى أين منصـرفك، الى الجنـة أو الى النار! فبكى الرشـيد حتى قـال بعض خواصّه: ارفق بـأمير المؤمنين؛ فقـال: دعه فليمت حتى يقـال: خليفـة اللّه مـات من مخافـة اللّه تعالى! قال الذهبىّ: قال ثعلب: أخبرنا ابن الأعرابىّ قال: كان ابن السمّاك يتمثّل بهذه الأبيات:

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۱۲

إذا خلا القبور ذو خطر فزره يوما و انظر الى خطره

أبرزه الدهر من مساكنه و من مقاصيره و من حجره

و من كلام ابن السـماك أيضا قال: «الـدنيا كلها قليل، و الذى بقى منها فى جنب الماضـى قليل، و الذى لك من الباقى قليل، و لم يبق من قليلك الا القليل». و فيها توفّى الإمام موسـى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علىّ زين العابدين بن السـيد الحسين بن علىّ بن أبى طالب رضـى اللّه عنهم أجمعين. كان موسـى المـذكور يـدعى بالعبد الصالح لعبادته، و بالكاظم لعلمه. ولد بالمدينة سـنة ثمان أو تسع و عشرين و مائة، و كان سيّدا عالما فاضلا سنّيا جوادا ممدّحا مجاب الدعوة.

الـذين ذكر الـذهبىّ وفاتهم فى هذه السـنة، قال: و فيها توفّى إبراهيم بن سـعد، و ابراهيم بن الزّبرقان الكوفىّ، و أبو إسـماعيل المؤدّب ابراهيم بن سـليمان، و ابراهيم ابن سـلمة المصـرى، و أنيس بن سوّار الحرمىّ، و بكّار بن بلال الدّمشـقىّ، و بهلول ابن راشـد للفقيه، و جابر بن نوح الحمّانىّ، و خاتم بن وردان، فى قول، و حيوة بن معن التّجيبىّ، و خالـد بن يزيـد الهـدادىّ، و حبيش بن عامر؛ يروى عن أبى قبيـل المعـافرىّ، و داود بن مهران الرّبعىّ الحرّانىّ، و زيـاد بن عبـد اللّه البكّائىّ، و سـفيان بن حبيب البصـرىّ، و سـليمان بن سـليم الرفـاعىّ العابـد، و عبـاد بن العوّام، فى قول، و عبـد للّه بن مراد المرادىّ، و عفيف بن سـالم الموصـلىّ، و عمرو بن يحيى الهمـذانىّ، و محمد بن السمّاك

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۱۳

الواعـظ، و محمـد بن أبى عبيـدة بن معن، و موسـى الكاظم بن جعفر، و موسـى بن عيسـى الكوفىّ القارئ، و النّعمان بن عبـد السـلام

الأصبهانىّ، و نوح بن قيس البصرىّ، و هشيم بن بشير، و يحيى بن حمزة قاضى دمشق، و يحيى بن [زكرياء بن] أبى زائدة فى قول، و يوسف بن [يعقوب بن عبد اللّه بن أبى سلمة بن] الماجشون، قاله الواقدىّ، و يونس بن حبيب صاحب العربية.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ذراعان و ثمانية عشر إصبعا، مبلغ الزيادة أربعة عشر ذراعا و ثلاثة و عشرون إصبعا.

ذكر ولاية الليث بن الفضل على مصر

هو الليث بن الفضل الأبيوردىّ أمير مصر، أصله من أبيورد، ولّاه الرشيد على إمرة مصر على الصلاة و الخراج معا فى شهر رمضان فى سنة ثلاث و ثمانين و مائة بعد عزل إسماعيل بن عيسى؛ و قدم الى مصر لخمس خلون من شوّال من السنة المذكورة، و سكن المعسكر، و جعل أخاه علىّ بن الفضل على الشّرطة، و مهّد أمور مصر و استوفى الخراج، و دام على ذلك الى أن خرج من مصر و توجّه الى الخليفة هارون الرشيد فى سابع شهر رمضان سنة أربع و ثمانين و مائة بالهدايا و التّحف، و استخلف أخاه علىّ بن الفضل على صلاة مصر، فوفد على الرشيد و أقام عنده مدّة ثم عاد الى مصر على عمله فى آخر السنة، و استمرّ على إمرة مصر الى أن خرج منها ثانيا الى الرشيد فى اليوم الحادى و العشرين من رمضان سنة خمس و ثمانين و مائة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۱۴

و استخلف على صلاة مصر هشام بن عبد اللّه بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج، فتوجّه الى الرشيد لأمر اقتضى ذلك، ثم عاد الى مصر فى رابع عشر المحرّم سنة ست و ثمانين و مائة، و كان هذا دأبه كلّما غلق خراج سنة و نجز حسابها و فرّق أرزاق الجند، أخذ ما بقى و توجّه به الى الرشيد و معه حساب السنة. و دام على ذلك الى أن خرج عليه أهل الحوف بشرقىّ مصر و ساروا الى الفسطاط، فخرج اليهم الليث هذا فى أربعة آلاف من جند مصر، و كان ذلك فى الثامن و العشرين من شعبان من سنة ست و ثمانين و مائة المذكورة؛ و استخلف على مصر عبد الرحمن بن موسى بن علىّ بن رباح على الصلاة و الخراج، فواقع أهل الحوف فانهزم عنه الجند و بقى هو فى نحو المائتين من أصحابه، فحمل بهم على أهل الحوف حملة هزمهم فيها، فتولّوا و تبع أقفيتهم فقتل منهم خلقا كثيرا، و بعث الى مصر بثمانين رأسا. ثم قدم الى مصر فلم ينتج أمره بعد ذلك من خوف أهل الحوف منه، فخافوه و منعوا الخراج فلم يجد الليث بدّا من خروجه الى الرشيد، فتوجّه اليه و عرّفه الحال و شكا له من منع الخراج و سأله أن يبعث معه جيشا الى مصر فإنه لا يقدر على استخراج الخراج من أهل الحوف الا بجيش؛ فلم يسمح له الرشيد بذلك؛ و أرسل محفوظا الى مصر، فقدم اليها محفوظ المذكور و ضمّ خراجها من غير سوط و لا عصا، فولّاه الرشيد عوضه على خراج مصر، ثم عزل الليث عن إمرة مصر بأحمد بن اسماعيل فى جمادى الآخرة سنة سبع و ثمانين و مائة، فكانت ولاية الليث على مصر أربع سنين و سبعة أشهر، و توجّه الى الرشيد، و كان ممن حضر الإيقاع بالبرامكة فى سنة سبع و ثمانين و مائة المذكورة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۱۵

و لنذكر أمر البرامكة هنا و ان كان ذلك غير ما نحن بصدده غير أنّه فى الجملة خبر يشتاقه الشخص فنقول على سبيل الاختصار من عدّة أقاويل:

كان من جملة أسباب القبض على جعفر أنّ الرشيد كان لا يصبر عن جعفر و عن أخته عبّاسة بنت المهدىّ، فقال لجعفر: أزوّجها لك ليحلّ لك النظر اليها و لا تقربها؛ فقال: نعم، فزوّجها منه، و كانا يحضران معه و يقوم الرشيد عنهما، فجامعها جعفر فحملت منه و ولدت غلاما، فخافت الرشيد فسيّرت الولد مع حواضن الى مكّة ثم وقع بين العباسة و بعض جواريها [شرّ]، فأنهت الجارية أمرها الى الرشيد، و قيل: الذى أنهته زبيدة لبغضها لجعفر.

و قيل فى قتله سبب آخر و هو أنّ الرشيد دفع اليه عدوّه يحيى بن عبد اللّه العلوىّ فحبسه جعفر ثم دعا به و سأله عن أمره فقال له: اتق اللّه فى أمرى، فرقّ له جعفر و أطلقه و وجّه معه من أوصله الى بلاده؛ فنمّ على جعفر الفضل بن الربيع الى الرشيد و أعلمه القصّة من

عين كانت للفضل على جعفر، فطلب الرشيد جعفرا على الطعام و صار يلقمه و يحدّثه عن يحيى بن عبد اللّه، و جعفر يقول: هو بحاله فى الحبس؛ فقال: بحياتى، ففطن جعفر و قال: لا و حياتک، و قصّ عليه أمره، فقال الرشيد: نعم ما فعلت! ما عدوت ما فى نفسى! فلمّا قام عنه قال: قتلنى اللّه إن لم أقتلک. و قيل غير ذلک، و هو أن جعفرا ابتنى دارا غرم عليها عشرين ألف ألف درهم؛ فقيل للرشيد: هذه غرامته على دار فما ظنّک بنفقاته! و قيل: إن يحيى بن خالد لما حجّ تعلّق بأستار الكعبة و قال: اللهمّ إن كان رضاک أن تسلبنى نعمک فاسلبنى، اللهمّ إن كان رضاک أن تسلبنى مالى و أهلى و ولدى فاسلبنى الا

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۱۶

الفضل، ثم عاد و استثنى الفضل ثم دعا يحيى بن خالد بدعوات أخر، و كان الفضل عنده مقدّما على جعفر فإنه كان الأسنّ، فلمّا انصرف من الحجّ هو و أولاده و وصلوا الى الأنبار نكبهم الرشيد، و لما أرسل للقبض على جعفر توجّه اليه مسرور و معه جماعة و جعفر فى لهوه و مغنّيه يغنيه قوله:

فلا تبعد فكلّ فتى سيأتى عليه الموت يطرق أو يغادى

و كلّ ذخيرة لابدّ يوما و إن كرمت تصير الى نفاد

قال مسرور: فقلت له: يا جعفر، الذى جئت له هو و اللّه ذاک قد طرقک، فأجب أمير المؤمنين؛ فوقع على رجلى يقبّلها و قال: حتى أدخل و أوصى! فقلت:

أمّا الدخول فلا سبيل اليه، و أما الوصيّة فاصنع ما شئت، فأوصى. و أتيت الرشيد به فقال: ائتنى برأسه، فأتيته به.

[ما وقع من الحوادث سنة ۱۸۴]

السنة الأولى من ولاية الليث بن الفضل على مصر و هى سنة أربع و ثمانين و مائة- فيها ولّى الرشيد حمادا البربرىّ إمرة مكّة و اليمن كلّه، و ولّى داود بن يزيد بن حاتم المهلّبىّ السند، و ولّى ابن الأغلب المغرب، و ولّى مهرويه الرازىّ طبرستان. و فيها طلب أبو الخصيب الخارج بخراسان الأمان فأمّنه علىّ بن عيسى بن ماهان و أكرمه. و فيها سار أحمد بن هارون الشّيبانىّ فأغار على ممالک الروم فغنم و سلم. و فيها توفّى أحمد ابن الخليفة هارون الرشيد الشاب الصالح، كان قد ترک الدنيا و خرج على وجهه و تزهّد و صار يعمل بالأجرة و لا يعلم به أحد، و كان أكبر أولاد الرشيد، و أمه أمّ ولد؛ و لم يزل أحمد هذا منقطعا الى اللّه تعالى حتى مات و لم يعلم به أحد؛ و كان أحمد هذا

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۱۷

يعرف بالسّبتىّ، و أحمد هذا خفى عن كثير من الناس، و من الناس من يظنّه البهلول الصالح و يقول: البهلول كان ابن الرشيد، و ليس هو كذلک، و قد تقدّم ذكر البهلول.

و أحمد هذا هو ابن الرشيد، و له أيضا حكايات كثيرة فى الزهد و الصلاح. على أن بعض أهل التاريخ ينكرون ذلک بالكلية، و اللّه أعلم بحقيقة ذلک. و فيها توفّى محمد بن يوسف بن معدان أبو عبد اللّه الأصبهانىّ؛ كان عبد اللّه بن المبارک يسميه عروس الزهّاد و كان له كرامات و أحوال. و فيها توفى المعافى بن عمران أبو مسعود الموصلىّ الأزدىّ، رحل البلاد فى طلب الحديث و جالس العلماء و جمع بين العلم و الورع و السخاء و الزهد و لزم سفيان الثورىّ و تفقّه به و تأدّب بآدابه، فكان يقول له: أنت معافى كاسمک.

الذين ذكرهم الذهبىّ فى الوفيات فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى إبراهيم بن سعد الزهرىّ فى قول، و إبراهيم بن أبى يحيى المدنىّ، و حميد بن الأسود، و صدقة ابن خالد فى قول، و عبد اللّه بن عبد العزيز الزاهد العمرىّ، و عبد اللّه بن مصعب الزبيرىّ، و عبد الرحيم بن سليمان الرازىّ، و عثمان بن عبد الرحمن الجمحىّ فى قول، و عبد السلام بن شعيب بن الحبحاب، و عبد العزيز بن أبى حازم فى قول، و علىّ بن غراب القاضى، و محمد بن يوسف الأصبهانىّ الزاهد، و مروان بن شجاع الجزرىّ، و يوسف بن الماجشون قاله

البخاريّ، و أبو أميّة بن يعلى قاله خليفة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۱۸

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ذراعان و عشرون إصبعا، مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا و أربعة أصابع.

[ما وقع من الحوادث سنة ۱۸۵]

السنة الثانية من ولاية الليث بن الفضل على مصر و هى سنة خمس و ثمانين و مائة- فيها وثب أهل طبرستان على متولّيهم مهرويه فقتلوه فولّى عوضه الرشيد عبد اللّه ابن سعيد الحرشيّ. و فيها وقعت بالمسجد الحرام صاعقة فقتلت رجلين. و فيها خرج الرشيد الى الرقّة على طريق الموصل و الجزيرة. و فيها حجّ بالناس أخو الخليفة منصور ابن المهديّ، و كان يحيى بن خالد البرمكيّ استأذن الرشيد فى العمرة، فخرج يحيى بن خالد فى شعبان و أقام بمكة و اعتمر فى شهر رمضان و خرج الى جدّة فأقام بها على نية الرّباط الى زمن الحج، فحجّ و عاد الى العراق. و فيها توفّى عمّ جدّ الرشيد عبد الصمد بن علىّ ابن عبد اللّه بن العباس الأمير أبو محمد الهاشمىّ العباسىّ، ولد سنة خمس أو ست و مائة، و أمه أمّ ولد، و يقال: إنّ أمّه كثيرة التى شبّب بها عبد اللّه بن قيس الرقيّات.

ولى عبد الصمد هذا إمرة دمشق و الموسم غير مرّة، و ولى إمرة المدينة و البصرة.

و اجتمع مرّة بالرشيد و عنده جماعة من أقار به، فقال: يا أمير المؤمنين، هذا مجلس فيه أمير المؤمنين و عمّه و عمّ عمّه و عمّ عمّ عمّه؛ و كان فى المجلس سليمان بن أبى جعفر المنصور و هو عمّ الرشيد، و العباس بن محمد و هو عمّ سليمان المذكور، و عبد الصمد هذا و هو عمّ العباس. و مات و ليس بوجه الأرض عباسيّة إلا و هو محرم لها، رحمه اللّه. و فيها توفّى محمد ابن الإمام إبراهيم بن محمد بن علىّ بن عبد اللّه بن العباس الأمير

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۱۹

أبو عبد اللّه الهاشمىّ العباسىّ. ولى إمرة دمشق لأبى جعفر المنصور و لولده المهدىّ؛ و حجّ بالناس عدّة سنين، و كان عاقلا جوادا ممدّحا.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أبو اسحاق الفزارىّ فى قول ابراهيم بن محمد، و خالد بن يزيد بن [عبد الرحمن بن] أبى مالك الدّمشقىّ، و صالح بن عمر الواسطىّ، و عبد اللّه بن صالح بن علىّ بسلمية، و عبد الواحد بن مسلم، و قاضى مصر محمد بن مسروق الكندىّ، و المسيّب بن شريك، و المطّلب بن زياد، و يزيد بن مزيد الشّيبانىّ، و يقطين بن موسى الأمير.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثلاثة أذرع و عشرة أصابع، مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا و سبعة أصابع.

[ما وقع من الحوادث سنة ۱۸۶]

السنة الثالثة من ولاية الليث بن الفضل على مصر و هى سنة ست و ثمانين و مائة- فيها حجّ الرشيد و معه ابناه: الأمين محمد و المأمون عبد اللّه و فرّق بالحرمين الأموال. و فيها بايع الرشيد بولاية العهد لولده قاسم بعد الأخوين الأمين و المأمون، و لقّبه المؤتمن و ولّاه الجزيرة و الثغور و هو صبىّ، فلما قسم الرشيد الدنيا بين أولاده الثلاثة قال الشعراء فى البيعة المدائح، ثم إنه علّق نسخة البيعة فى البيت العتيق، و فى ذلك يقول إبراهيم الموصلىّ:

خير الأمور مغبّة و أحقّ أمر بالتّمام

أمر قضى إحكامه الرّ حمن فى البيت الحرام

و فيها أيضا سار علىّ بن عيسى بن ماهان من مرو لحرب أبى الخصيب، فآلتقاه فقتل أبو الخصيب و غرقت جيوشه و سبيت حرمه و استقام أمر خراسان. و فيها

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۲، ص: ۱۲۰

سجن الرشيد ثمامة بن الأشرس المتكلّم لأنه وقف منه على شيء من إعانة أحمد بن عيسى. و فيها توفّى حماد- و يقال: سلم- بن عمرو بن حمّاد بن عطاء بن ياسر المعروف بسلم الخاسر الشاعر المشهور من أهل البصرة، سمّى الخاسر لأنه ورث من أبيه مصحفا فباعه و اشترى بثمنه طنبورا، و قيل: اشترى شعر امرئ القيس، و قيل شعر الأعشى. و كان سلم من الشعراء المجيدين، و هو من تلامذة بشّار بن برد المقدّم ذكره. و فيها توفّى العباس بن محمد بن علىّ بن عبد اللّه بن العبّاس، الأمير أبو الفضل الهاشمىّ العباسىّ أخو السفّاح و المنصور لأبيهما، و أمه أمّ ولد. ولد فى سنة ثمان عشرة و مائة و قيل سنة إحدى و عشرين و مائة، و ولى دمشق و الشأم كلّه و الجزيرة، و حجّ بالناس غير مرّة. و كان الرشيد يجله و يحبّه. و فيها توفى يزيد بن هارون أبو خالد مولى بنى سليم، ولد سنة ثمان عشرة و مائة، و كان من الزهّاد العبّاد، كان اذا صلى العتمة لا يزال قائما حتى يصلّى الفجر بذلك الوضوء نيّفا و أربعين سنة. و فيها توفّى الأمير يقطين بن موسى أحد دعاة بنى العبّاس، و من قرّر أمرهم فى الممالك و الأقطار، و كان داهية عالما حازما شجاعا عارفا بالحروب و الوقائع.

ذكر الذين أثبت الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى حاتم بن اسماعيل، أو سنة سبع؛ و الحارث بن عبيدة الحمصىّ، و حسّان بن إبراهيم الكرمانىّ، و خالد بن الحارث، و صالح بن قدامة الجمحىّ، و طيفور الأمير مولى المنصور، و العبّاد بن العوّام فى قول، و العباس بن الفضل المقرئ، و عبد الرحمن بن عبد اللّه ابن عمر المدنىّ، و عيسى البخارىّ غنجار، و المسيّب بن شريک بخلف، و المغيرة بن عبد الرحمن المخزومىّ.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۲، ص: ۱۲۱

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ذراعان سواء، مبلغ الزيادة أربعة عشر ذراعا و اثنان و عشرون إصبعا.

[ما وقع من الحوادث سنة ۱۸۷]

اشارة

السنة الرابعة من ولاية الليث بن الفضل على مصر و هى سنة سبع و ثمانين و مائة- فيها أوقع الرشيد بالبرامكة و قتل جعفرا ثم صلبه مدّة و قطّعت أعضاؤه و علّقت بأماكن، ثم بعد مدّة أنزلت و أحرقت و ذلک فى صفر، و حبس الرشيد يحيى ابن خالد بن برمک، أعنى والد جعفر المذكور، و جميع أولاده و أحيط بجميع أموالهم.

و طال حبس يحيى بن خالد المذكور و ابنه الفضل الى أن ماتا فى الحبس. و فى سبب قتل جعفر البرمكىّ اختلاف كبير ليس لذكره هنا محل. و فيها غزا الرشيد بلاد الروم و فتح هرقلة و ولّى ابنه القاسم الصائفة و أعطاه العواصم، فنازل حصن سنان، فبعث إليه قيصر و سأله أن يرحل عنه و يعطيه ثلثمائة و عشرين أسيرا من المسلمين، ففعل.

و فيها قتل الرشيد ابراهيم بن عثمان بن نهيک. و سبب قتله أنه كان يبكى على قتل جعفر و ما وقع للبرامكة، فكان اذا أخذ منه الشراب يقول لغلامه: هات سيفى فيسلّه و يصيح: وا جعفراه! ثم يقول: و اللّه لآخذنّ ثأرک و لأقتلنّ قاتلك!. فنمّ عليه ابنه عثمان للفضل بن الربيع فأخبر الفضل الرشيد، فكان ذلک سبب قتله. و فيها توفّى الفضيل بن عياض الإمام الجليل أبو علىّ التميمىّ اليربوعىّ. ولد بخراسان بكورة أبيورد و قدم الكوفة و هو كبير، فسمع الحديث من منصور و غيره ثم تعبّد و توجّه الى مكة و أقام بها الى أن مات فى يوم عاشوراء، قاله علىّ بن المدينىّ و غيره. و كان ثقة نبيلا فاضلا عابدا زاهدا كثير الحديث. و قيل: إنّ مولده بسمرقند. و ذكر

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۲، ص: ۱۲۲

بإسناده عن الفضل بن موسى قال: كان الفضيل بن عياض شاطرا يقطع الطريق بين أبيورد و سرخس. و كان سبب توبته أنه عشق

جارية، فبينما هو يرتقى الجدران اليها سمع رجلا يتلو: أَ لَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَ ما نَزَلَ مِنَ الْحَقِ فقال: يا رب قد آن، فرجع فآواه الليل الى خربة فاذا فيها رفقة، فقال بعضهم: نرتحل، و قال قوم: حتى نصبح فانّ فضيلا على الطريق. و قيل فى توبته غير ذلك. و أمّا مناقبه فكثيرة: منها عن بشر الحافىّ قال: كنت بمكة مع الفضيل فجلس معنا الى نصف الليل ثم قام يطوف الى الصبح، فقلت: يا أبا علىّ ألا تنام؟

فقال: ويحك! و هل أحد يسمع بذكر النار و تطيب نفسه أن ينام!. و قال الأصمعىّ: نظر الفضيل الى رجل يشكو الى رجل، فقال الفضيل: تشكو من يرحمك الى من لا يرحمك!. و سئل الفضيل: ما الإخلاص؟ قال الفضيل: أخبرنى من أطاع اللّه هل تضرّه معصية أحد؟ قال: لا؛ قال: فمن يعصى اللّه هل تنفعه طاعة أحد؟ قال: لا؛ قال: فهذا الإخلاص. و عن الفضيل قال: من ساء شان دينه و حسبه و مروءته. و عنه قال: لن يهلك عبد حتى يؤثر شهوته على نفسه و دينه. و قال: خصلتان تقسّيان القلب: كثرة الكلام، و كثرة الأكل. و عنه قال:

إذا أراد اللّه أن يتحف العبد سلّط عليه من يظلمه. و اجتمع مع الرشيد بمكة، فقال له الرشيد: إنما دعوناك لتحدّثنا بشيء و تعظنا؛ قال: فأقبلت عليه و قلت:

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۲، ص: ۱۲۳

يا حسن الخلق و الوجه حساب الخلق كلّهم عليك؛ قال: فبكى الرشيد و شهق، فرددت عليه حتى جاء الخدّام فحملونى و أخرجونى. و عنه قال: الخوف أفضل من الرجاء ما دام الرجل صحيحا، فإذا نزل به الموت فالرجاء أفضل. و قال الفضيل: قول العبد أستغفر اللّه يعنى أقلنى يا ربّ.

قلت: روى عن علىّ بن أبى طالب رضى عنه أنه قال: أتعجّب ممن يهلك و معه النجاة، قيل: و ما هو؟ قال: الاستغفار. و قال بعض المشايخ فى دعائه:

اللهم إنى أطعتك فى أحبّ الأشياء اليك و هو الاستغفار و الإيمان، و عصيت الشيطان فى أبغض الأشياء اليك و هو الشرک فاغفرلى ما بينهما. و كان بعض المشايخ يقول أيضا: اللهم إن حسناتى من عطائك و سيئاتى من قضائك، فجد بما أعطيت على ما به قضيت حتى يمحى ذلك بذلك. و فيها قتل جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك قتله الرشيد لأمر اقتضى ذلك و اختلف الناس فى سبب قتله اختلافا كبيرا يضيق هذا المحلّ عن ذكره. و كان قتله فى أوّل صفر من هذه السنة، و صلبه على الجسر و سنّه سبع و ثلاثون سنة و قتل بعده جماعة كثيرة من أقاربه البرامكة. و كان أصله من الفرس، و كان جعفر جميلا لسنا أديبا بليغا عالما يضرب بجوده الأمثال، إلا أنه كان مسرفا على نفسه غارقا فى اللذّات؛ تمكّن من الرشيد حتى بلغ من الجاه و الرفعة ما لم ينله أحد قبله و ولى هو و أبوه و أخوه الفضل الأعمال الجليلة. و كان أبوه يحيى قد ضمّ جعفرا الى القاضى أبى يوسف يعقوب حتى علّمه و فقّهه و صار نادرة عصره.

يقال: إنّه وقّع فى ليلة بحضرة الرشيد زيادة على ألف توقيع و نظر فى جميعها، فلم يخرج شيئا منها عن موجب الفقه و العربية. و كان جعفر مثل أخيه الفضل فى السخاء و أعظم. و أما ما حكى من كرمه فكثير: من ذلك أن أبا علقمة الثقفىّ صاحب الغريب

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۲، ص: ۱۲۴

كان عند جعفر فى مجلسه، فأقبلت اليه خنفساء، فقال أبو علقمة: أليس يقال: إنّ الخنفساء اذا أقبلت الى رجل أصاب خيرا؟ قالوا: بلى؛ فقال جعفر: يا غلام، أعط الشيخ ألف دينار، ثم نحّوها عنه، فأقبلت الخنفساء ثانيا، فقال: يا غلام أعطه ألفا أخرى. و له من هذا أشياء كثيرة، ثم زالت عنه و عن أهله تلک النعم حتى احتاجت أمّه الى السؤال. قال الذهبىّ عن محمد بن عبد الرحمن الهاشمىّ صاحب صلاة الكوفة قال: دخلت على أمّى يوم النحر و عندها امرأة فى أثواب رثّة، فقالت لى أمّى: أتعرف هذه؟ قلت: لا؛ قالت: هذه عبّادة أمّ جعفر البرمكىّ، فسلّمت عليها و رحّبت بها، ثم قلت: يا فلانة حدّثينا بعض أمركم؛ قالت: أذكر لک جملة فيها عبرة، لقد هجم علىّ مثل هذا العيد و على رأسى أربعمائة جارية و نحرت فى بيتى خاصّة ثمانمائة رأس، و أنا أزعم أن ابنى جعفرا عاقّ لى، و قد أتيتكم

الآن يقنعنى جلد شاتين أجعل أحدهما شعارا و الآخر دثارا.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ذراعان و عشرون إصبعا، مبلغ الزيادة أربعة عشر ذراعا و إصبعان.

ذكر ولاية أحمد بن إسماعيل على مصر

هو أحمد بن إسماعيل بن علىّ بن عبد اللّه بن العباس الأمير أبو العباس الهاشمىّ العباسىّ أمير مصر. ولّاه الرشيد على صلاة مصر بعد عزل اللّيث بن الفضل عنها فى سنة سبع و ثمانين و مائة، فقدمها يوم الاثنين لخمس بقين من جمادى الآخرة من السنة المذكورة، و سكن المعسكر على عادة أمراء بنى العباس، و جعل على شرطته معاوية بن صرد. و فى ولايته استنجده إبراهيم بن الأغلب أمير إفريقيّة فأمدّه بالعساكر و توجّهوا اليه ثم عادوا.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۲۵

و كان سبب هذه التجريدة أن أهل طرابلس الغرب كان كثر شغبهم على ولاتهم، و كان ابراهيم بن الأغلب المذكور قد استعمل عليهم عدّة ولاة، فكانوا يشكون من ولاتهم فيعزلهم و يولّى غيرهم الى أن استعمل عليهم سفيان بن المضاء و هى ولايته الرابعة، فاتفق أهل البلد على إخراجه عنهم و إعادته الى القيروان فزحفوا اليه، فأخذ سلاحه و قاتلهم هو و جماعة ممن معه، فأخرجوه من داره فدخل الجامع و قاتلهم فيه فقتلوا من أصحابه جماعة ثم أمّنوه فخرج عنهم فى شعبان [من هذه السنة]، و كانت ولايته سبعا و عشرين يوما، و استعمل جند طرابلس عليهم إبراهيم بن سفيان التميمىّ. ثم وقع أيضا بين الأبناء بطرابلس و بين قوم يعرفون ببنى أبى كنانة و بنى يوسف حروب كثيرة و قتال حتى فسدت طرابلس؛ فبلغ ذلك إبراهيم بن الأغلب أمير إفريقيّة فاستنجد أحمد ابن إسماعيل أمير مصر و جمع جمعا كبيرا و أمرهم أن يحضروا بنى أبى كنانة و الأبناء و بنى يوسف فأحضروهم عنده بالقيروان، فلما قدموا عليه أراد قتلهم الجميع، فسألوه العفو عنهم فى الذى فعلوه فعفا عنهم، و عادوا الى بلادهم بعد أن أخذ عليهم العهود و المواثيق بالطاعة. و استمرّ أحمد هذا على إمرة مصر الى أن صرف عنها بعبد اللّه بن محمد العباسىّ فى يوم الاثنين لثمان عشرة خلت من شعبان سنة تسع و ثمانين و مائة؛ فكانت ولايته على إمرة مصر سنتين و شهرا و نصف شهر.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۱۸۸]

السنة الأولى من ولاية أحمد بن إسماعيل على مصر و هى سنة ثمان و ثمانين و مائة- فيها غزا المسلمون الصائفة فبرز اليهم نقفور بجموعه فالتقوا فجرح نقفور ثلاث جراحات و انهزم هو و أصحابه بعد أن قتل من الروم مقتلة عظيمة، فقيل: إن القتلى

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۲۶

بلغت أربعين ألفا، و قيل: أربعة آلاف و سبعمائة. و فيها حجّ الرشيد بالناس و هى آخر حجّة حجّها، و كان الفضيل بن عياض قال له: استكثر من زيارة هذا البيت فإنه لا يحجّه خليفة بعدك. و فيها توفّى أبو اسحاق إبراهيم بن محمد بن الحارث بن أسماء بن خارجة الفزارىّ، كان إماما عالما صاحب سنّة و غزو و كان صاحب حال و لسان و كرامات.

قال الفضيل بن عياض: رأيت النّبىّ صلى اللّه عليه و سلم فى المنام و الى جانبه فرجة فذهبت لأجلس فيها، فقال: هذا مجلس أبى إسحاق الفزارىّ. و فيها توفّى إبراهيم ابن ماهان بن بهمن أبو إسحاق الأرّجانىّ النديم المعروف بالموصلىّ، أصله من الفرس و دخل الى العراق، ثم رحل الى البلاد فى طلب الأغانى، فبرع فيها بالعربية و العجمية؛ و كان مع ما انتهى اليه من الرياسة فى الغناء فاضلا عالما أديبا شاعرا؛ نادم جماعة من خلفاء بنى العباس؛ و كان ذا مال، يقال: إنه لما مات وجد له أربعة و عشرون ألف ألف درهم، و هو والد إسحاق النديم المغنى أيضا. حكى أن الرشيد كان يهوى جاريته ماردة؛ فغاضبها و دام على ذلك مدّة، فأمر جعفر البرمكىّ

العبّاس بن الأحنف أن یعمل فی ذلک شیئا، فعمل أبیاتا و ألقاها الی إبراهیم الموصلیّ هذا فغنّی بها الرشید، فلما سمعها بادر الی ماردة فترضّاها، فسألته عن السبب فقیل لها، فأمرت لکلّ واحد من العباس و ابراهیم بعشرة آلاف درهم، ثم سألت الرشید أن یکافئهما، فأمر لهما بأربعین ألف درهم. و الأبیات:

العاشقان کلاهما متجنّب و کلاهما متبعّد متغضّب

صدّت مغاضبة و صدّ مغاضبا و کلاهما مما یعالج متعب

راجع أحبّتک الذین هجرتهم إن المتیم قلّما یتجنّب

إن التجنّب إن تطاول منکما دبّ السّلوّ له فعزّ المطلب

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۲۷

الذین ذکر الذهبیّ وفاتهم فی هذه السنة، قال: و فیها توفّی إسحاق بن مسور المرادیّ المصریّ، و جریر بن عبد الحمید الضّبّیّ، و الحسین بن الحسن البصریّ، و سلیم ابن عیسی المقرئ، و عبد الملک بن میسرة الصّدفیّ، و عبدة بن سلیمان الکوفیّ، و عتّاب بن بشیر الحرّانیّ بخلف، و عقبة بن خالد السّکونیّ، و عمر بن أیّوب الموصلیّ، و عیسی بن یونس السّبیعیّ، و محمد بن یزید الواسطیّ، و معروف بن حسّان الضبّیّ، و مهران بن أبی عمر الرازیّ، و یحیی بن عبد الملک بن أبی غنیّة.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم ذراعان و سبعة أصابع، مبلغ الزیادة سبعة عشر ذراعا و عشرة أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۱۸۹]

اشارة

السنة الثانیة من ولایة أحمد بن إسماعیل علی مصر و هی سنة تسع و ثمانین و مائة- فیها سار الرشید الی الرّیّ بسبب شکوی أهل خراسان عاملهم علیّ بن عیسی بن ماهان، فقد رموه بعظائم و ذکروا أنه علی نیّة الخروج عن طاعة الرشید؛ فأقام الرشید بالریّ أربعة أشهر حتی وافاه ابن عیسی بالأموال و الجواهر و التّحف للخلیفة و لکبار القوّاد حتی رضی عنه الرشید و ردّه الی عمله، و خرج مشیّعا له لمّا خرج الی خراسان.

قلت: للّه درّ القائل فی هذا المعنی:

بعثت فی حاجتی رسولا یکنی أبا درهم فتمّت

و لو سواه بعثت فیها لم تحظ نفسی بما تمنّت

و فیها کان الفداء، حتی لم یبق بممالک الروم فی الأسر مسلم. و فیها توفی العباس بن الأحنف بن الأسود بن طلحة أبو الفضل الشاعر المشهور حامل لواء

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۲۸

الشعراء فی عصره، أصله من غرب خراسان و نشأ ببغداد و قال الشعر الفائق، و کان معظم شعره فی الغزل و المدیح، و له أخبار مع الخلفاء، و کان حلو المحاضرة مقبولا عند الخاصّ و العام، و هو شاعر الرشید، و خال إبراهیم بن العبّاس الصّولیّ.

قال ابن خلکان: و حکی عمر بن شبّة قال: مات إبراهیم الموصلیّ المعروف بالندیم سنة ثمان و ثمانین و مائة، و مات فی ذلک الیوم الکسائیّ النحویّ، و العباس بن الأحنف، و هشیمة الخمّارة، فرفع ذلک الی الرشید فأمر المأمون أن یصلّی علیهم، فخرج فصفّوا بین یدیه فقال: من هذا الأوّل؟ فقالوا: ابراهیم الموصلیّ؛ فقال: أخّروه و قدّموا العباس بن الأحنف، فقدّم فصلّی علیه، فلما فرغ دنا منه هاشم

بن عبد اللّه بن مالک الخزاعیّ، فقال: یا سیّدی، کیف آثرت العباس بن الأحنف بالتّقدمة علی من حضر! فقال: لقوله:

و سعی بها ناس و قالوا إنها لهی التی تشقی بها و تکابد

فجحدتهم لیکون غیرک ظنّهم إنی لیعجبنی المحبّ الجاحد

قلت: و فی موت الکسائیّ و ابراهیم الموصلیّ و العباس بن الأحنف فی یوم واحد نظر، و الصحیح أنّ وفاة العباس هذا تأخّرت عن وفاة هؤلاء المذکورین بمدّة طویلة.

و مما یدلّ علی ذلک ما حکاه المسعودیّ فی تاریخه عن جماعة من أهل البصرة، قالوا:

خرجنا نرید الحجّ، فلمّا کنا ببعض الطریق اذا غلام واقف ینادی الناس: هل فیکم أحد من أهل البصرة؟ قالوا: فعدلنا الیه و قلنا: ما ترید؟ قال: إنّ مولای یرید

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۲۹

أن یوصیکم؛ قالوا: فملنا معه و اذا شخص ملقی تحت شجرة لا ـ یحیر جوابا، فجلسنا حوله فأحسّ بنا فرفع طرفه و هو لا یکاد یرفعه ضعفا، و أنشأ یقول:

یا غریب الدار عن وطنه مفردا یبکی علی شجنه

کلّما جدّ البکاء؟؟؟ ه دبّت الأسقام فی بدنه

ثم أغمی علیه طویلا، و نحن جلوس حوله إذ أقبل طائر فوقع علی أعلی الشجرة و جعل یغرّد، ففتح عینیه فسمع تغریده ثم قال:

و لقد زاد الفؤاد شجا طائر یبکی علی فننه

شفّه ما شفّنی فبکی کلّنا یبکی علی سکنه

ثم تنفّس تنفّسا فاضت نفسه منه، فلم نبرح من عنده حتی غسّ ـلناه و کفّنّاه و تولّینا الصلاة علیه. فلما فرغنا من دفنه سألنا الغلام عنه، فقال: هذا العباس بن الأحنف رحمه اللّه.

و ذکر أبو علیّ الفالی فی «کتاب الأمالی»: قال بشّار بن برد: ما زال غلام من بنی حنیفة (یعنی العباس) یدخل نفسه فینا و یخرجها منا حتی قال:

أبکی الذین أذاقونی مودّتهم حتی إذا أیقظونی للهوی رقدوا

و استنهضونی فلمّا قمت منتصبا بثقل ما حمّلونی منهم قعدوا

و قد خرجنا عن المقصود لطلب الفائدة، و نرجع الآن الی ما نحن بصدده.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۳۰

و فیها توفّی علیّ بن حمزة بن عبد اللّه بن بهمن بن فیروز مولی بنی أسد، أبو الحسن المعروف بالکسائیّ النحویّ المقرئ، و سمّی بالکسائیّ لأنه أحرم فی کساء. و هو معلّم الرشید و فقیهه و بعده لولدیه الأمین و المأمون، و کان إماما فی فنون عدیدة: النحو و العربیة و أیام الناس، و قرأ القرآن علی حمزة الزیّات أربع مرات، و اختار لنفسه قراءة صارت إحدی القراءات السبع، و تعلّم النحو علی کبر سنّه، و خرج الی البصرة و جالس الخلیل ابن أحمد. و ذکر ابن الدّورقیّ قال: اجتمع الکسائیّ و الیزیدیّ عند الرشید، فحضرت العشاء فقدّموا الکسائیّ فأرتج علیه [فی] قراءة (قل یأیّها الکافرون)؛ فقال الیزیدیّ: قراءة هذه السّورة یرتج [فیها] علی قارئ أهل الکوفة!. قال: فحضرت الصلاة فقدّموا الیزیدیّ فأرتج علیه فی الحمد؛ فلما سلّم قال:

احفظ لسانک لا تقول فتبتلی إنّ البلاء موکّل بالمنطق

و کان الکسائیّ عند الرشید بمنزلة رفیعة، سار معه الی الرّیّ فمرض و مات بقریة رنبویه، ثم مات مع الرشید محمد بن الحسن الفقیه صاحب أبی حنیفة فقال الرشید لما رجع الی العراق: [الیوم] دفنت الفقه و النحو برنبویه. و فیها توفی محمد بن الحسن الفقیه ابن فرقد

الشيبانىّ مولاهم الكوفىّ الفقيه العلّامـة شيخ الإسـلام و أحد العلماء الأعلام مفتى العراقين أبو عبد اللّه، قيل: إنّ أصله من حرستا من غوطة دمشق، و مولده بواسط و نشأ بالكوفة و تفقّه بأبى يوسف ثم بأبى حنيفة و سمع مسعرا و مالك

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۳۱

ابن مغول و الأوزاعىّ و مالك بن أنس؛ و أخذ عنه الشافعىّ و أبو عبيد و هشام بن عبيد اللّه و علىّ بن مسلم الطّوسىّ و خلق سواهم؛ و كان إماما فقيها محدّثا مجتهدا ذكيا، انتهت اليه رياسة العلم فى زمانه بعد موت أبى يوسف. قال أبو عبيد: ما رأيت أعلم بكتاب اللّه منه. و قال الشافعىّ: لو أشاء أن أقول نزل القرآن بلغة محمد بن الحسن لقلت لفصاحته، و قد حملت عنه وقر بختىّ كتبا. و قال إبراهيم الحربىّ:

قلت لأحمد بن حنبل: من أين لك هذه المسائل الدّقاق؟ قال: من كتب محمد ابن الحسن. و عن الشافعىّ قال: ما ناظرت أحدا إلا تغيّر وجهه ما خلا محمد بن الحسن. و قال أحمد بن محمد بن أبى رجاء: سمعت أبى يقول: رأيت محمد بن الحسن فى النوم فقلت: إلام صرت؟ قال: غفرلى؛ قلت: بم؟ قال:

قيل لى: لم نجعل هذا العلم فيك إلا و نحن نغفر لك.

قلت: و قد تقدّم فى ترجمة الكسائىّ أنهما ماتا فى صحبة الرشيد بقرية رنبويه من الرّىّ، فقال الرشيد: دفنت الفقه و العربيّة بالرىّ.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربعة أذرع و أربعة عشر إصبعا، مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا و إصبعان.

ذكر ولاية عبد اللّه بن محمد على مصر

هو عبد اللّه بن محمد بن ابراهيم بن محمد بن علىّ بن عبد اللّه بن العبّاس، الأمير أبو محمد الهاشمىّ العباسىّ المعروف بابن زينب، ولّاه الرشيد إمرة مصر على الصلاة بعد عزل أحمد بن اسماعيل سنة تسع و ثمانين و مائة. و لما ولى مصر أرسل يستخلف

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۳۲

على صلاة مصر لهيعة بن موسى الحضرمىّ، فصلّى لهيعة المذكور بالناس الى أن قدم عبد اللّه بن محمد المذكور الى مصر فى يوم السبت للنصف من شوّال سنة تسع و ثمانين و مائة المذكورة؛ و سكن المعسكر على عادة أمراء بنى العبّاس، ثم جعل على شرطته احمد بن حوىّ العذرىّ مدّة، ثم عزله و ولّى محمد بن عسّامة. و لم تطل مدّة عبد اللّه المذكور على إمرة مصر و عزل بالحسين بن جميل لإحدى عشرة بقيت من شعبان سنة تسعين و مائة. و خرج عبد اللّه من مصر و استخلف على صلاتها هاشم بن عبد اللّه ابن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج؛ فكانت مدّة ولاية عبد اللّه هذا على مصر ثمانية أشهر و تسعة عشر يوما. و توجّه الى الرشيد فأقرّه الرشيد من جملة قوّاده و أرسله على جماعة نجدة لعلىّ بن عيسى لقتال رافع بن الليث بن نصر بن سيّار، و كان رافع ظهر بما وراء النهر مخالفا للرشيد بسمرقند. و كان سبب خروج رافع أنّ يحيى بن الأشعث تزوّج ابنة لعمه أبى النعمان و كانت ذات يسار و لسان، ثم تركها يحيى بن الأشعث بسمرقند و أقام ببغداد و اتخذ السّرارىّ، فلمّا طال ذلك عليها أرادت التخلّص منه، و بلغ رافعا خبرها فطمع فيها و فى مالها،؟؟؟ دس اليها من قال لها:

لا- سبيل الى الخلاص من زوجها الا أن تشهد عليها قوما أنها أشركت بالله ثم تتوب فينفسخ نكاحها و تحلّ للأزواج، ففعلت ذلك فتزوّجها رافع. فبلغ الخبر يحيى بن الأشعث فشكا الى الرشيد، فكتب الرشيد الى علىّ بن عيسى يأمره أن يفرّق بينهما و أن يعاقب رافعا و يجلده الحدّ و يقيّده و يطوف به فى سمرقند على حمار [حتى يكون عظة لغيره] ففعل به ذلك و لم يحدّه، و حبس رافع

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة؛ ج۲؛ ص۱۳۳

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۳۳

بسمرقند مدّة، ثم هرب من الحبس فلحق بعلىّ بن عيسى ببلخ، فأراد ضرب عنقه فشفع فيه عيسى بن علىّ بن عيسى، و أمره بالانصراف

الی سمرقند، فرجع الیها و وثب بعامل علیّ بن عیسی علیها و قتله و استولی علی سمرقند و استفحل أمره حتی خرجت الیه العساکر و أخذته و قتل بعد أمور. و لما عاد عبد اللّه صاحب الترجمة الی الرشید سأله فی إمرة مصر ثانیا فأبی و استمرّ عند الرشید الی أن مات.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۱۹۰]

اشارة

السنة التی حکم فیها عبد اللّه بن محمد العباسیّ علی مصر و هی سنة تسعین و مائة- فیها افتتح الرشید مدینة هرقلة و بثّ جیوشه بأرض الروم و کان فی مائة ألف فارس و خمسة و ثلاثین ألفا سوی المطّوّعة، و جال الأمیر داود بن موسی بن عیسی العباسیّ فی أرض الکفر و کان فی سبعین ألفا؛ و کان فتح هرقلة فی شوّال، و أخربها و سبی أهلها، و کان الحصار ثلاثین یوما. و فیها افتتح شراحیل بن معن بن زائدة الشیبانیّ حصن الصقالبة بالمغرب. و فیها أسلم الفضل بن سهل المجوسیّ علی ید المأمون ابن الرشید. و فیها بعث نقفور ملک الروم الی الرشید بالخراج و الجزیة. و فیها نقضت أهل قبرس [العهد]، فغزاهم ابن یحیی و قتل و سبی. و فیها افتتح یزید بن مخلد الصّیفصاف و ملقونیة. و فیها توفّی یحیی بن خالد بن برمک فی حبس الرشید، و یحیی هذا هو والد جعفر البرمکیّ- و قد تقدّم ذکر جعفر و قتله فی محله من هذا الکتاب-.

و فیها توفی سعدون المجنون، کان صاحب محبّة و حال، صام ستین عاما حتی خفّ

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۳۴

دماغه فسماه الناس مجنونا. قیل: إنّه وقف یوما علی حلقة ذی النون [المصریّ] و هو یعظ الناس فسمع سعدون کلامه، فصرخ و قال:

و لا خیر فی شکوی الی غیر مشتکی و لا بدّ من شکوی اذا لم یکن صبر

الذین ذکر الذهبیّ وفاتهم فی هذه السنة، قال: و فیها مات أسد بن عمرو البجلیّ الفقیه، و إسماعیل بن عبد اللّه بن قسطنطین مقرئ مکة فی قول، و الحکم بن سنان الباهلیّ القربیّ، و شجاع بن أبی نصر البلخیّ المقرئ، و عبد اللّه بن عمر بن غانم قاضی إفریقیّة، و أبو علقمة عبد اللّه بن محمد الفرویّ المدنیّ، و عبد الحمید بن کعب بن علقمة المصریّ، و عثمان بن عبد الحمید اللّاحقیّ، و عبیدة بن حمید الکوفیّ الحذّاء، و عطاء بن مسلم الحلبیّ الخفّاف، و عمر بن علیّ المقدّمیّ، و محمد بن بشیر المعافریّ بحلب، و محمد بن یزید الواسطیّ، و مخلد بن الحسین فی روایة، و مسلمة بن علیّ الخشنیّ، و یحیی بن أبی زکریا الغسّانیّ بواسط، و یحیی بن میمون البغدادیّ التّمار.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم خمسة أذرع و اثنا عشر إصبعا، مبلغ الزیادة سبعة عشر ذراعا و سبعة أصابع.

ذکر ولایة الحسین بن جمیل علی مصر

هو الحسین بن جمیل مولی أبی جعفر المنصور أمیر مصر، ولّاه الرشید إمرة مصر بعد عزل عبد اللّه بن محمد العباسیّ عنها علی الصلاة فی سنة تسعین و مائة، فقدم

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۳۵

مصر یوم الخمیس لعشر خلون من شهر رمضان من السنة المذکورة و سکن المعسکر؛ و جعل علی شرطته کاملا الهنائیّ ثم معاویة بن صرد، ثم جمع له الرشید بین الصلاة و الخراج فی یوم الأربعاء لسبع خلون من شهر رجب سنة إحدی و تسعین و مائة.

و لما ولی الخراج تشدّد فیه فخرج علیه أهل الحوف بالشرق من الوجه البحریّ و امتنعوا من أداء الخراج، و خرج علیهم أبو النداء بأیلة

فى نحو ألف رجل و قطع الطريق و أخاف السّبل، و توجّه من أيلة الى مدين، و أغار على بعض نواحى قرى الشأم و انضم اليه من جذام و غيرها جماعة كبيرة و أفسدوا غاية الإفساد، و بلغ أبو النداء المذكور من النهب و القتل مبلغا عظيما، حتى بلغ الرشيد أمره، فجهّز اليه جيشا من بغداد لقتاله. ثم بعث الحسين بن جميل هذا من مصر عبد العزيز الجزرىّ فى عسكر آخر فالتقى عبد العزيز بأبى النداء المذكور بأيلة و قاتله بمن معه حتى هزمه و ظفر به.

و عند ما ظفر عبد العزيز بأبى النداء المذكور وصل جيش الخليفة الرشيد الى بلبيس فى شوّال سنة إحدى و تسعين و مائة، فلما رأى أهل الحوف مسك كبيرهم و مجىء عسكر الخليفة أذعنوا بالطاعة و أدّوا الخراج و حملوا ما كان انكسر عليهم بتمامه و كماله.

فلما وقع ذلك عاد عسكر الرشيد الى بغداد. و أخذ الحسين هذا فى إصلاح أمور مصر.

فبينما هو فى ذلك قدم عليه الخبر بعزله عن إمرة مصر بمالك بن دلهم و ذلك فى يوم ثانى عشر شهر ربيع الأوّل سنة اثنتين و تسعين و مائة، فكانت ولايته على مصر سنة واحدة و سبعة أشهر و أياما.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۳۶

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۱۹۱]

اشارة

السنة التى حكم فيها الحسين بن جميل على مصر و هى سنة إحدى و تسعين و مائة- فيها حجّ بالناس أمير مكة الفضل بن العبّاس. و فيها ولّى الرشيد حمّويه الخادم [بريد] خراسان. و فيها غزا يزيد بن مخلد الروم فى عشرة آلاف مقاتل، فأخذ الروم عليه المضيق، فقتل بقرب طرسوس و قتل معه سبعون رجلا من المقاتلة و رجع الباقون، فولّى الرشيد غزو الصائفة هرثمة بن أعين المتقدّم ذكره فى أمراء مصر فى محلّه، و ضمّ اليه الرشيد ثلاثين ألفا من جند خراسان، و وجّه معه مسرورا الخادم، والى مسرور المذكور النفقات فى الجيش المذكور و جميع أمور العسكر، خلا الرياسة على الجيش فإن ذلك لهرثمة بن أعين المذكور. و فيها نزل الرشيد بالرّقّة و أمر بهدم الكنائس التى بالثغور. ثم عزل علىّ بن عيسى بن ماهان عن إمرة خراسان بهرثمة بن أعين المذكور. و بعد هذه الغزوة لم يكن للمسلمين صائفة الى سنة خمس عشرة و مائتين.

و فيها توفّى عيسى بن يونس بن أبى إسحاق السّبيعىّ (بفتح السين المهملة) أبو عمرو الكوفىّ، كان محدّثا حافظا زاهدا ورعا. قال جعفر البرمكىّ: ما رأينا مثل ابن يونس، أرسلنا اليه فأتانا بالرقّة، و حدّث المأمون فاعتلّ قبل خروجه؛ فقلت: يا أبا عمرو، قد أمر لك بخمسين ألف درهم؛ فقال: لا حاجة لى فيها؛ فقلت: هى مائة ألف؛ فقال: لا و اللّه، لا يتحدّث أهل العلم أنى أكلت للسّنّة ثمنا. و فيها توفى مخلد ابن الحسين أبو محمد البصرى، كان من أهل البصرة فتحوّل الى المصّيصة و رابط بها، و كان عالما زاهدا ورعا حافظا للسنّة، لا يتكلم فيما لا يعنيه.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۳۷

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفى خالد بن حيّان الرّقّى الخرّاز، و سلمة بن الفضل الأبرش بالرّىّ، و عبد الرحمن بن القاسم المصرىّ الفقيه، و عيسى بن يونس فى قول خليفة و ابن سعد، و مخلد بن الحسين المهلّبىّ بالمصّيصة، و مطرّف بن مازن قاضى صنعاء، و معمّر بن سليمان النّخعىّ الرّقّىّ.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثلاثة أذرع و أربعة عشر إصبعا، مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا و سبعة أصابع.

ذكر ولاية مالك بن دلهم على مصر

هو مالك بن دلهم بن عيسى بن مالك الكلبىّ أمير مصر، ولّاه الرشيد إمرة مصر بعد عزل الحسين بن جميل عنها، ولّاه على الصلاة و الخراج، فقدم مصر يوم الخميس لسبع بقين من شهر ربيع الأوّل سنة اثنتين و تسعين و مائة. و لما دخل مالك هذا الى مصر وافى خروج يحيى بن معاذ أمير جيش الرشيد الذى كان أرسله نجدة للحسين ابن جميل على قتال أبى النّداء الخارجىّ. و كان يحيى بن معاذ خرج من مصر ثم عاد اليها بعد عزل الحسين بن جميل. و لما دخل يحيى المذكور الفسطاط كتب الى أهل الأحواف أن اقدموا علىّ حتى أوصى بكم مالك بن دلهم أمير مصر، و كان مالك المذكور قد نزل بالمعسكر و سكنه على عادة أمراء مصر، فدخل رؤساء اليمانية و القيسيّة من الحوف، فأغلق عليهم يحيى الأبواب و قبض عليهم و قيّدهم و سار بهم، و ذلك فى نصف شهر رجب من السنة. و استمرّ مالك بن دلهم على إمرة مصر بعد ذلك مدّة، و جعل على شرطته محمد بن توبة بن آدم الأودىّ من أهل حمص،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۳۸

فاستمرّ على ذلك الى أن صرفه الخليفة بالحسن بن البحباح فى يوم الأحد لأربع خلون من صفر سنة ثلاث و تسعين و مائة. فكانت ولايته على مصر سنة واحدة و خمسة أشهر تنقص أياما لدخوله مصر و تزيد أياما لولايته ببغداد من الرشيد.

و كان سبب عزله أنّ الأمين أرسل اليه فى أوّل خلافته بالدعاء على منابر مصر لابنه موسى، و استشاره فى خلع أخيه المأمون من ولاية العهد فلم يشر عليه. و كان الذى أشار على الأمين بخلع أخيه المأمون الفضل بن الربيع الحاجب، و كان المأمون يغضّ من الفضل، فعلم الفضل إن أفضت الخلافة للمأمون و هو حىّ لم يبق عليه، فأخذ فى إغراء الأمين بخلع أخيه المأمون و البيعة لابنه موسى بولاية العهد، و لم يكن ذلك فى عزم الأمين، و وافقه على هذا علىّ بن عيسى بن ماهان و السندىّ و غيرهما؛ فرجع الأمين الى قولهم و أحضر عبد اللّه بن خازم، فلم يزل فى مناظرته الى الليل، فكان مما قال عبد اللّه بن خازم: أنشدك اللّه يا أمير المؤمنين أن تكون أوّل الخلفاء نكث عهد أبيه و نقض ميثاقه! ثم جمع الأمين القوّاد و عرض عليهم خلع المأمون فأبوا ذلك، و ساعده قوم منهم، حتى بلغ الى خزيمة بن خازم فقال: يا أمير المؤمنين، لم ينصحك من كذبك و لم يغشّك من صدقك، لا تجرّئ القوّاد على الخلع فيخلعوك و لا تحملهم على نكث العهد فينكثوا عهدك و بيعتك، فإنّ الغادر مخذول و الناكث مغلول. فأقبل الأمين على علىّ بن عيسى بن ماهان و تبسّم و قال: لكن شيخ هذه الدعوة و ناب هذه الدولة لا يخالف على إمامه و لا يوهن طاعته؛ لأنه هو و الفضل ابن الربيع حملاه على خلع المأمون. ثم انبرم الأمر على أن يكتب للعمال بالدعاء لابنه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۳۹

موسى ثم بعد ذلك بخلع المأمون، فكتب بذلك لجميع العمال. فلما بلغ ذلك المأمون أسقط اسم الأمين من الطرز و بدت الوحشة بين الأخوين الخليفة الأمين ثم المأمون، و انقطعت البرد من بينهما، فأخذ الأمين يولّى الأمصار من يثق به، فعزل مالكا هذا عن مصر و ولّى عليها الحسن، كما سيأتى ذكره.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۱۹۲]

اشارة

السنة التى حكم فيها مالك بن دلهم على مصر و هى سنة اثنتين و تسعين و مائة- فيها قدم يحيى بن معاذ على الرشيد و معه أبو النداء أسيرا فقتله. و فيها قتل الرشيد هيصما اليمانىّ و كان قد خرج عليه. و فيها تحرّكت الخرّميّة ببلاد أذربيجان، فسار الى حربهم عبد اللّه بن مالك فى عشرة آلاف فقتل و سبى و عاد منصورا. و فيها توفّى إسماعيل بن جامع بن إسماعيل بن عبد اللّه بن المطلب بن [أبى] وداعة أبو القاسم المكىّ، كان قد قرأ القرآن و سمع الحديث، ثم غلب عليه الغناء حتى فاق فيه أهل زمانه، و أخذ عن زلزل المغنّى و

غيره. و فيها توفّى عبد اللّه بن إدريس بن يزيد بن عبد الرحمن، أبو محمد الأودىّ، مولده سنة خمس عشرة و مائة، و قيل: سنة عشرين و مائة، و توفّى بالكوفة فى عشر ذى الحجّة. و كان ثقة إماما زاهدا ورعا حجة كثير الحديث صاحب سنّة و جماعة، كان لا يستقضى أحدا يسمع عليه الحديث حاجة. و فيها توفّى علىّ بن ظبيان أبو الحسن العبسىّ الكوفىّ، كان إماما عالما جليلا نبيلا متواضعا زاهدا عارفا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۴۰

بالفقه على مذهب أبى حنيفة رضى اللّه عنه، تقلّد قضاء القضاة عن الرشيد. و فيها توفّى الفضل بن يحيى بن خالد البرمكىّ فى حبس الرشيد، كان قد حبسه الرشيد هو و أباه بعد قتل أخيه جعفر، فحبسا الى أن مات أبوه يحيى، ثم مات الفضل هذا بعده و كلاهما فى حبس الرشيد. و كان الفضل هذا متكبرا جدّا عسر الخلق إلا أنه كان أجود من أخيه جعفر و أندى راحة؛ و مولده فى ذى الحجة سنة سبع و أربعين و مائة، و كان أسنّ من هارون الرشيد بنحو شهر، لأنّ مولد الرشيد فى أوّل يوم من المحرّم سنة ثمان و أربعين و مائة، فأرضعت الخيزران أمّ الرشيد الفضل و أرضعت أمّ الفضل الرشيد أياما، و أمّ الفضل هى زبيدة بنت منير بن يزيد من مولّدات المدينة. و لما مات الفضل حزن الناس عليه و على أبيه و أخيه جعفر من قبله، و فيه يقول بعضهم:

يا بنى برمك واها لكم و لأيّامكم المقتبله

كانت الدنيا عروسا بكم و هى اليوم ملول أرمله

و فيها توفى القاضى أبو يعقوب يوسف بن القاضى أبى يوسف يعقوب صاحب أبى حنيفة، كان ولى القضاء فى حياة أبيه و كان إماما عالما.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم، قال: و فيها توفّى صعصعة بن سلّام خطيب قرطبة، و عبد اللّه بن إدريس الأودىّ، و يحيى بن كريب الرّعينىّ المصرىّ، و يوسف ابن القاضى أبى يوسف، و عرعرة بن البرند السامىّ البصرىّ.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربعة أذرع و عشرون إصبعا، مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا و ستة عشر إصبعا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۴۱

ذكر ولاية الحسن بن البحباح على مصر

هو الحسن بن البحباح أمير مصر، وليها بعد عزل مالك بن دلهم عنها فى صفر سنة ثلاث و تسعين و مائة. و لما ولّاه الرشيد على إمرة مصر جمع له بين الصلاة و الخراج، فأرسل الحسن هذا يستخلف على صلاة مصر العلاء بن عاصم الخولانىّ حتى قدم مصر يوم الاثنين لثلاث خلون من شهر ربيع الأوّل من السنة، و سكن المعسكر، و جعل على شرطته محمد بن خالد مدّة، ثم عزله بصالح بن عبد الكريم ثم عزل صالح المذكور بسليمان بن غالب بن جبريل، و استمرّ الحسن هذا على إمرة مصر الى أن توفّى الخليفة هارون الرشيد فى جمادى الآخرة من السنة و ولى الخلافة ابنه الأمين محمد بن زبيدة، فثار جند مصر على الحسن هذا و قاتلوه، فقتل من الفريقين مقتلة عظيمة حتى سكن الأمر، و جمع مال الخراج بمصر و أرسله الى الخليفة.

فوثب أهل الرملة على أصحاب المال و أخذوا المال منهم. و بينما الحسن فى ذلك ورد عليه الخبر بعزله عن مصر بحاتم بن هرثمة، فخرج من مصر بعد أن استخلف عوف ابن وهيب على الصلاة، و محمد بن زياد على الخراج، و سافر من طريق الحجاز لفساد طريق الشأم. و كان خروجه من مصر لثمان بقين من شهر ربيع الأوّل سنة أربع و تسعين و مائة. فكانت ولايته على مصر سنة واحدة و شهرا و ثمانية و عشرين يوما.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۱۹۳]

اشارة

السنة التی حکم فیها الحسن بن البحباح علی مصر و هی سنة ثلاث و تسعین و مائة- فیها وافی الرشید جرجان، فأتته بها خزائن علیّ بن عیسی علی ألف

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۴۲

و خمسمائة بعیر، ثم رحل الرشید منها فی صفر و هو علیل الی طوس فلم یزل بها الی أن مات فی ثالث جمادی الآخرة. و فیها کانت وقعة بین هرثمة و أصحاب رافع بن اللیث فانتصر هرثمة و أسر أخا رافع و ملک بخارا و قدم بأخی رافع الی الرشید فسبّه و دعا بقصّاب و قال: فصّل أعضاءه، ففصّله. و ذکر بعضهم أن جبریل بن بختیشوع الحکیم غلط فی مداواة الرشید فی علّته التی مات فیها فهمّ الرشید بأن یفصّله کما فعل بأخی رافع و دعا به؛ فقال جبریل: أنظرنی الی غد یا أمیر المؤمنین فإنک تصبح فی عافیة فأنظره فمات الرشید فی ذلک الیوم. و فیها قتل نقفور ملک الروم فی حرب برجان، و کان له فی المملکة تسع سنین، و ملک بعده ابنه أستبراق شهرین و هلک فملک میخائیل بن جورجس زوج أخته. و فیها توفّی الخلیفة أمیر المؤمنین أبو جعفر هارون الرشید بن الخلیفة محمد المهدیّ بن الخلیفة أبی جعفر المنصور عبد اللّه بن محمد بن علیّ بن عبد اللّه بن العباس، العباسیّ الهاشمیّ البغدادیّ و هو الخامس من خلفاء بنی العباس و أجلّهم و أعظمهم، نال فی الخلافة ما لم ینله خلیفة قبله، استخلف بعهد من أبیه المهدیّ بعد وفاة أخیه موسی الهادی، فإن أباه المهدیّ کان جعله ولیّ عهده بعد أخیه الهادی، فلما مات الهادی حسبما تقدّم ذکره ولی الرشید بالعهد السابق من أبیه، و ذلک فی سنة سبعین و مائة، و مولده بالریّ لمّا کان أبوه أمیرا علیها فی أوّل یوم من محرّم سنة ثمان و أربعین و مائة، و مات فی ثالث جمادی الآخرة بطوس، و صلّی علیه ابنه صالح و دفن بطوس؛ و أمه أمّ ولد تسمّی الخیزران و هی أم أخیه الهادی أیضا.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۴۳

قال عبد الرزاق بن همّام: کنت مع الفضیل بن عیاض بمکّة فمرّ هارون الرشید، فقال الفضیل: الناس یکرهون هذا و ما فی الأرض أعزّ علیّ منه، لو مات لرأیت أمورا عظاما. و قال الجاحظ: اجتمع للرشید ما لم یجتمع لغیره: وزراؤه البرامکة، و قاضیه أبو یوسف، و شاعره مروان بن أبی حفصة، و ندیمه العبّاس بن محمد عمّ أبیه، و حاجبه الفضل بن الربیع أتیه الناس و أعظمهم، و مغنّیه إبراهیم الموصلیّ، و زوجته زبیدة بنت عمه جعفر ا ه. و کانت خلافته ثلاثا و عشرین سنة و شهرین و نصفا، و تولّی الخلافة من بعده ابنه محمد الأمین بن زبیدة. و مات الرشید و له خمس و أربعون سنة. و فیها نوفّی صالح [بن عمرو] بن محمد بن حبیب بن حسّان، الحافظ أبو علیّ البغدادیّ مولی أسد بن خزیمة المعروف بجزرة (بجیم و زای معجمة وراء مهملة)، لقّب بجزرة لأنه قرأ علی بعض مشایخ الشأم: «کان لأبی أمامة جزرة یرقی بها المرضی»، فصحّف خرزة جزرة فسمّی بذلک؛ و کان إماما عالما حافظا ثقة صدوقا. و فیها توفی غندر و اسمه محمد أبو عبد اللّه البصریّ الحافظ، سمع الکثیر و روی عنه خلائق، و کان فیه سلامة باطن. قال ابن معین: اشتری غندر سمکا و قال لأهله: أصلحوه، فأصلحوه و هو نائم و أکلوا و لطّخوا یده و فمه؛ فلمّا انتبه قال: قدّموا السمک، فقالوا: قد أکلت، فقال: لا، قالوا: فشمّ یدک، ففعل فقال: صدقتم، و لکنّی ما شبعت.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۴۴

الذین ذکر الذهبیّ وفاتهم فی هذه السنة، قال: و فیها توفی إسماعیل بن علیّة أبو بشر البصریّ، و العبّاس بن الأحنف الشاعر المشهور، و العباس بن الحسن العلویّ، و العباس بن الفضل بن الربیع الحاجب، و عبد اللّه بن کلیب المرادیّ بمصر، و عون بن عبد اللّه المسعودیّ، و محمد بن جعفر البصریّ، و مروان بن معاویة الفزاریّ نزیل دمشق، و أبو بکر بن عیّاش المقرئ بالکوفة.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم خمسة أذرع و عشرون اصبعا، مبلغ الزیادة ستة عشر ذراعا و ستة عشر إصبعا.

ذكر ولاية حاتم بن هرثمة على مصر

هو حاتم بن هرثمـة بن أعين أمير مصـر، وليها بعـد عزل الحسن بن البحباح عنها، ولّاه الخليفـة الأمين محمد على إمرة مصـر و جمع له الصـلاة و الخراج؛ و سار من بغداد حتى قدم بلبيس فى عساكره و نزل بها، و طلب أهل الأحواف فجاءوه و صالحوه على خراجهم، ثم انتقض ذلـك و ثـاروا عليه و اجتمعوا على قتـاله و عسـكروا؛ فبعث اليهم حاتم المـذكور جيشا فقاتلوهم و كسـروهم ثم سار حاتم من بلبيس حتى دخل مصر يوم الأربعاء لأربع خلون من شوّال سنة أربع و تسعين و مائة و معه نحو مائة من الرهائن من أهل الحوف.

و سكن حاتم المعسكر على عادة أمراء مصر و جعل على شرطه ابنه، ثم عزله بعلىّ بن المثّنى، ثم عزل عليا أيضا بعبيد اللّه الطّرسوسىّ.

و استمر على إمرة مصر و مهّد أمورها و ابتنى بها القبّة المعروفة بقبّة الهواء. و دام على ذلک حتى ورد عليه الخبر من الخليفة

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۴۵

الأمين محمد بعزله عن إمرة مصر فى جمادى الآخرة سنة خمس و تسعين و مائة.

و تولّى مصر بعده جابر بن الأشعث. فكانت ولاية حاتم هذا على إمرة مصر سنة واحدة و نصف سنة تنقص أياما.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۱۹۴]

السـنة التى حكم فيها حاتم بن هرثمـة على مصـر و هى سـنة أربع و تسـعين و مائـة- فيها أمر الخليفـة الأمين بالدعاء لابنه موسـى على المنـابر بعـد ذكر المـأمون و القاسم، فتنكّر كلّ واحـد من الأمين و المأمون لصاحبه و ظهر الفساد بينهما و هـذا أوّل الشـر و الفتنـة بين الأخوين. ثم أرسل الأمين فى أثناء السـنة الى المأمون يسأله أن يقدّم ولد الأمين موسى المذكور على نفسه و يذكر له أنّه سماه الناطق بـالحقّ؛ فقويت الوحشـة بينهمـا أكثر، و وقع أمور يـأتى ذكر بعضـها. ثم عزل الأـمين أخـاه القاسم عن الثّغور و العواصم و ولّى عوضـه خزيمة بن خازم، و اسـتدعى القاسم الى بغداد و أمره بالمقام عنده. و فيها ثار أهل حمص بعاملهم إسـحاق بن سليمان فنزح الى سلميّة فولّى عليهم الأمين عبـد اللّه بن سـعيد الحرشـىّ؛ فحبس عدّة من وجوههم، و قتل عدّة و ضـرب النار فى نواحى حمص؛ فسألوه الأمان فأمّنهم فسكنوا ثم هاجوا فقتل طائفة منهم. و فيها فى شهر ربيع الأوّل بايع الأمين بولاية العهد لابنه موسى و لقّبه بالناطق بالحقّ، و جعل وزيره علىّ بن عيسى بن ماهان. و كان المأمون لمّا بلغه عزل القاسم عن الثغور قطع البريد عن الأمين و أسقطه اسمه من

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۴۶

الطرز و السّـكّة. و فيهـا وثب الروم على ملكهم ميخائيـل فهرب و ترهّب، و كـان ملك سـنتين، فملّكوا عليهم ليون القائـد. و فيها توفّى حفص بن غياث بن طلق أبو عمر النّخعىّ الكوفىّ قاضـى بغـداد بالوجه الشـرقىّ، ولى القضاء مدّة طويلة و حسـنت سـيرته الى أن مات قاضيا فى ذى الحجة، و كان ثقة ثبتا مأمونا إلا أنه كان يدلّس.

و فيهـا توفّى أبو نصـر الجهنىّ المصاب من أهل المدينـة. قال محمـد بن إسـماعيل بن أبى فـديك: كان يجلس مكان أهل الصّـفّة من مجلس رسول اللّه صـلى اللّه عليه و سلم و لا يكلّم أحدا، فاذا سئل عن شىء أجاب بجواب حسن، و وقع له مع الرشيد أمور و دفع اليه أموالا فلم يقبلها.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السـنة، قال: و فيها توفى سالم بن سالم البلخىّ العابد ضعيف، و سويد بن عبد العزيز قاضى بعلبك، و شـقيق بن إبراهيم البلخىّ الزاهـد، و عبـد الوهاب بن عبـد المجيـد الثّقفىّ، و عبيد اللّه بن المهدىّ محمد بن المنصور، و أبو عبد اللّه محمـد بن حرب الخولانـىّ الأـبرش، و محمـد بن سعيد بن أبـان الأموىّ الكوفىّ، و محمـد بن أبى عـدىّ، و يحيى بن سـعيد بن أبان الأموىّ، و القاسم بن يزيد الجرمىّ.

أمر النيل فی هذه السنة- الماء القديم خمسة أذرع سواء، مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا و خمسة عشر إصبعا.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۴۷

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۱۹۵]

اشارة

السنة الثانية من ولاية حاتم بن هرثمة على مصر و هی سنة خمس و تسعين و مائة، و هی التی عزل فيها حاتم بن هرثمة المذكور- فيها لما تحقّق المأمون خلعه من ولاية العهد تسمّى بإمام المؤمنين. و فيها قال بعض الشعراء فيما جرى من ولاية العهد لموسى بن الأمين و هو طفل، و كان ذلک برأی الفضل و بكر بن المعتمر:

أضاع الخلافة غشّ الوزير و فسق الأمير و جهل المشير

ففضل وزير و بكر مشير يريدان ما فيه حتف الأمير

فی أبيات كثيرة. و فيها فی شهر ربيع الآخر عقد الأمين لعلیّ بن عيسى بن ماهان على بلاد الجبال: همذان و نهاوند و قمّ و أصبهان، و أمر له بمائتی ألف دينار و أعطى لجنده مالا عظيما. و خرج علیّ بن عيسى المذكور فی نصف جمادى الآخرة من بغداد، و أخذ معه قيد فضّة ليقيّد به المأمون. و وقع لعلیّ هذا مع جيش المأمون أمور يطول شرحها. و فيها ظهر السّفيانیّ بدمشق و بويع بالخلافة، و اسمه علیّ بن عبد اللّه بن خالد بن يزيد بن معاوية بن أبی سفيان، فی ذی الحجة؛ و كنيته أبو الحسن، و طرد عامل الأمين عن دمشق، و هو سليمان بن أبی جعفر بعد أن حصره السّفيانیّ بدمشق مدّة ثم أفلت منه. و خالد بن يزيد جدّ السّفيانیّ هذا هو الذی وضع حديث السفيانیّ فی الأصل، فإنه ليس بحديث، غير أنّ خالدا لما سمع حديث المهدیّ من أولاد علیّ فی آخر الزمان أحبّ أن يكون من بنی سفيان من يظهر

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۴۸

فی آخر الزمان، فوضع حديث السّفيانیّ؛ فمشى ذلک على بعض العوامّ انتهى. و فيها توفّی إسحاق بن يوسف بن محمد، أبو محمد الأزرق الواسطیّ، كان من الفقهاء الثّقات الصالحين المحدّثين، أقام عشرين سنة لم يرفع رأسه الى السماء حياء من اللّه، و مات بواسط. و فيها توفّی بكّار بن عبد اللّه بن مصعب بن ثابت بن عبد اللّه بن الزّبير، كان من أشراف قريش، و كان معظّما عند الرشيد، ولّاه إمرة المدينة فأقام عليها اثنتی عشرة سنة، و كان جوادا ممدّحا نبيلا.

الذين ذكر الذهبیّ وفاتهم فی هذه السنة، قال: و فيها توفّی بشر بن السّریّ الواعظ بمكّة، و عبد الرحمن بن محمد المحاربیّ الكوفیّ، و عبيد اللّه بن المهدیّ أمير مصر و قد تقدّم ذكره. و فيها فی قول عثّام بن علیّ الكوفیّ، و قيل سنة أربع، و محمد بن الفضيل الضّبّیّ الكوفیّ، و الوليد بن مسلم فی أوّلها، و يحيى بن سليم الطائفیّ بمكة، و أبو معاوية الضّرير محمد بن خارم.

أمر النيل فی هذه السنة- الماء القديم أربعة أذرع و ثمانية عشر إصبعا، مبلغ الزيادة خمسة عشر ذراعا و إحدى و عشرون إصبعا و نصف إصبع.

ذكر ولاية جابر بن الأشعث على مصر

هو جابر بن الأشعث بن يحيى بن النقى الطائیّ أمير مصر، وليها بعد عزل حاتم بن هرثمة عنها فی جمادى الآخرة سنة خمس و تسعين و مائة. ولّاه الأمين على إمرة مصر و جمع له الصلاة و الخراج. و قدم مصر يوم الاثنين لخمس بقين من

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۴۹

جمادی الآخرة من السنة المذکورة، و سکن المعسکر علی عادة الأمراء؛ و استخلف علی صلاة مصر یحیی بن یزید المرادیّ و کان لیّنا. و لما دخل مصر و أقام بها وقعت الفتنة فی العراق بین الأخوین الأمین و المأمون أولاد الرشید، و کانت الوقعة بین جیش الأمین و عسکر المأمون، و کان علی جیش الأمین علیّ بن عیسی بن ماهان فی عسکر کثیف، و کان علی عسکر المأمون طاهر بن الحسین، و هو فی أقل من أربعة آلاف؛ فلما وصل ابن ماهان بعساکره الی الرّیّ أشرف علیه طاهر بن الحسین المذکور و هم یلبسون السلاح و قد امتلأت بهم الصحراء و علیهم السلاح المذهّب؛ فقال طاهر ابن الحسین: هذا ما لا قبل لنا به و لکن نجعلها خارجیّة و نقصد القلب؛ فهیّأ سبعمائة من الخوارزمیّة. قال أحمد بن هشام الأمیر: فقلنا لطاهر: نذکّر علیّ بن عیسی البیعة التی أخذها هو علینا، و بیعة الرشید للمأمون؟ قال: نعم، فعلّقناهما علی رمحین و قمت بین الصّفّین و قلت: الأمان، ثم قلت: یا علیّ بن عیسی ألا تتّقی اللّه، ألیست هذه نسخة البیعة التی أخذتها أنت خاصّة؟ اتّق اللّه فقد بلغت باب قبرک! قال: من أنت؟ قلت: أحمد بن هشام، فصاح: علیّ یأهل خراسان من جاء به فله ألف درهم، ثم وقع القتال و انهزم علیّ بن عیسی بن ماهان و أصحابه فتبعهم طاهر بمن معه فرسخین بعد أن تواقعوا اثنتی عشرة مرة؛ و عسکر المأمون ینتصر فیها حتی لحقهم طاهر بن التاجیّ و معه رأس علیّ بن عیسی بن ماهان، و أخذوا جمیع ما کان فی عسکره؛ فأرسل طاهر بن الحسین الرأس الی المأمون. فلما وصل الیه البرید بالرأس سلّم علیه بالخلافة و طیف بالرأس فی خراسان، و من یومئذ استفحل أمر المأمون و قوی جأشه. و جاء الخبر بقتل علیّ بن عیسی بن ماهان الی الأمین و هو یتصیّد السمک، فقال للذی أخبره: ویحک! دعنی فإنّ کوثرا قد صاد سمکتین

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۵۰

و أنا ما صدت شیئا بعد، فلامه الناس حتی قام من مجلسه؛ ثم جهّز لحرب طاهر ابن الحسین عبد الرحمن بن جبلة الأنباریّ أمیر الدّینور بالعدّة و القوّة، فسار حتی نزل همذان. هذا و قد اضطرب ملک الأمین و أرجف ببغداد إرجافا شدیدا و ندم محمد الأمین علی خلع أخیه المأمون؛ و طمع الأمراء فیه و شغّبوا جندهم بطلب أرزاقهم و ازدحموا بالجسر یطلبون الأرزاق و الجوائز، فقاتلهم حواشی الأمین ثم عجز عنهم فزاد فی عطایاهم.

و لما خرج عسکر الأمین ثانیا مع عبد الرحمن و وصل إلی همذان التقی مع طاهر و قاتله قتالا شدیدا ثم تقهقر و دخل مدینة همذان و تفرّق عنه أکثر أصحابه فحصره طاهر بهمذان حتی طلب منه عبد الرحمن الأمان، ثم غدر عبد الرحمن و قاتل طاهرا ثانیا حتی قتل، و ملک طاهر بن الحسین البلاد و دعا للمأمون و خلع الأمین. کل ذلک و الأمین ببغداد لم یخرج منها حتی وافاه طاهر المذکور و قتله علی ما سیأتی فی ترجمة الأمین إن شاء اللّه تعالی. و لما ملک طاهر البلاد و استفحل أمره و بلغ المصریین ذلک وثب السّریّ بن الحکم و معه جماعة کبیرة من المصریّین عصبة للمأمون و دعا السریّ الناس لخلع الأمین فأجابوه و بایعوا المأمون؛ فقام جابر فی أمر الأمین فقاتله السریّ بن الحکم المذکور حتی هزمه و أخرجه من مصر علی أقبح وجه. فخرج جابر المذکور من مصر لثمان بقین من جمادی الآخرة سنة ست و تسعین و مائة، فکانت ولایته علی مصر سنة واحدة تقریبا.

و ولی مصر بعده أبو نصر عبّاد بن محمد بن حیّان من قبل المأمون.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۵۱

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۱۹۶]

اشارة

السنة التى حکم فیها جابر علی مصر و هی سنة ست و تسعین و مائة- فیها وقع بین عسکر الأمین و المأمون وقائع یطول شرحها. و فیها رفع المأمون منزلة الفضل ابن سهل و عقد له علی الشرق طولا و عرضا و جعل عمالته ثلاثة آلاف ألف درهم و کتب علی سیفه «ذا الرّیاستین» من جانب ریاسة الحرب و من جانب ریاسة القلم و التدبیر؛ فقام الفضل بأمر المأمون کما یجب. و ولّی المأمون أیضا أخاه الحسن ابن سهل دواوین الخراج. کلّ ذلک و الأمین ببغداد فی قید الحیاة و فی تعبئة العساکر لقتال المأمون غیر أنه ضعف أمره الی الغایة. و فیها ولّی الأمین محمد عبد الملک بن صالح الجزیرة و الشام. و فیها خلع الأمین و بویع المأمون ببغداد ثم أعید الأمین.

و سبب ذلک أنه لما مات عبد الملک بن صالح العباسیّ بالرقّة قام الحسین بن علیّ ابن عیسی بن ماهان فجمع الناس و استقلّ بالأمر بعد عبد الملک بن صالح، و نفّق فی العساکر لأجل الأمین، ثم سار بهم الی بغداد فاستقبله الأشراف و القوّاد و ضربت له القباب و دخل بغداد فی شهر رجب؛ فلما کان اللیل بعث الأمین [فی] طلبه؛ فأغلظ الحسین لرسول الأمین و قال: لا أنا مغنّ و لا مسامر و لا مضحک حتی یطلبنی فی هذه الساعة! و أصبح فخلع الأمین و دعا للمأمون، فوقع بسبب ذلک أمور و حروب بینه و بین حواشی الأمین إلی أن ظفر به الأمین ثم أطلقه و رضی عنه، و أعید الأمین للخلافة. و وقع للأمین مثل هذه الحکایة فی هذه السنة غیر مرة. و فیها وقع بین طاهر

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۲، ص: ۱۵۲

ابن الحسین و بین جیش الأمین وقعة عظیمة قتل فیها محمد بن یزید بن حاتم المهلّبیّ.

و طاهر من جهة المأمون و ابن یزید من جهة الأمین. و فیها توفّی عبد اللّه بن مرزوق، أبو محمد الزاهد البغدادیّ، کان وزیر الرشید فخرج من ذلک و تخلّی عن ماله و تزهّد رحمه اللّه تعالی. و فیها توفی أبو معاویة محمد بن خازم الضریر الکوفیّ، ولد سنة ثلاث عشرة و مائة و ذهب بصره و له أربع سنین. و هذا غیر أبی معاویة الأسود، فإنّ الأسود اسمه الیمان. نزل أبو معاویة هذا طرسوس و صحب الثّوریّ و غیره.

و فیها توفی أبو الشّیص محمد بن رزین، کان شاعرا فصیحا. قال أبو بکر الأنباریّ:

اجتمع أبو الشّیص و دعبل و أبو نواس و مسلم بن الولید و تناشدوا الأشعار فی عصر واحد.

و حکی أن القاضی الوجیه أبا الحسن علیّ بن یحیی الذرویّ دخل الحمّام و کان ابن رزین هذا فی الحمّام، فأنشد ابن رزین بحضرة القاضی المذکور لنفسه:

للّه یوم بحمّام نعمت به و الماء من حوضه ما بیننا جاری

کأنه فوق شقّات الرّخام ضحی ماء یسیل علی أثواب قصّار

فلما سمعه القاضی المذکور ضحک، ثم أنشد لنفسه فی واقعة الحال:

و شاعر أوقد الطّبع الذکاء له فکاد یحرقه من فرط إذکاء

أقام یعمل أیاما رویّته و شبّه الماء بعد الجهد بالماء

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۲، ص: ۱۵۳

ثم أنشد القاضی أیضا ینعت الحمّام بقوله:

إن عیش الحمّام أطیب عیش غیر أن المقام فیه قلیل

جنّة تکره الإقامة فیها و جحیم یطیب فیه الدخول

فکأن الغریق فیها کلیم و کأن الحریق فیه خلیل

و فیها توفّی وکیع بن الجرّاح بن ملیح بن عدیّ، أبو سفیان الرّؤاسیّ الکوفیّ الأعور، کان إماما محدّثا ثقة حافظا کثیرا الحدیث؛ و مولده سنة تسع و عشرین و مائة و قیل سنة ثمان و عشرین و مائة. (و رؤاس بطن من قیس عیلان) و أصله من خراسان، و سمع من

الأعمش و هشام بن عروة و غيرهما.

قال يحيى بن معين: ما رأيت أفضل من وكيع! كان حافظا يحفظ حديثه و يقوم الليل و يسرد الصوم و يفتى بقول أبى حنيفة؛ و يحيى [بن سعيد] القطّان كان يفتى بقول أبى حنيفة أيضا.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربعة أذرع سواء، مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا و ستة أصابع.

ذكر ولاية عبّاد بن محمد على مصر

هو عبّاد بن محمد بن حيّان البلخىّ، مولى كندة الأمير أبو نصر. ولّاه المأمون على إمرة مصر بعد عزل جابر بن الأشعث عنها فى شهر رجب سنة ست و تسعين و مائة.

بكتاب هرثمة بن أعين، و كان عبّاد هذا وكيلا على ضياع هرثمة بمصر. فسكن عبّاد

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۵۴

المعسكر على عادة أمراء مصر و جعل على شرطته هبيرة بن هاشم بن حديج، و لما بلغ الأمين ولاية عبّاد هذا على مصر كتب الى ربيعة بن قيس رئيس قيس الحوف بولاية مصر، و كتب أيضا الى جماعة من المصريّين بإعانته؛ فلما بلغهم ذلك قاموا ببيعة الأمين و خلعوا المأمون و ساروا لمحاربة عبّاد أمير مصر و أصحابه، فخندق عبّاد على الفسطاط؛ و كانت بينهم حروب و وقائع آخرها الوقعة التى مسك فيها عبّاد و حمل الى الأمين فقتله الأمين فى صفر سنة ثمان و تسعين و مائة. فكانت ولايته على مصر سنة واحدة و سبعة أشهر. و تولّى مصر من بعده المطّلب بن عبد اللّه. و كان عبّاد هذا من أعيان القواد، قدّمه هرثمة بن أعين حتى ولاه المأمون مصر، و كان فيه رفق بالرعيّة و عنده سياسة و معرفة بالحروب. دخل مصر و غالب من بها ميله الى الأمين فلا زال بهم حتى وافقه كثير منهم، و كاد أمره يتمّ لو لا انتقاض أهل الحوف عليه و كثر جمعهم و وثبوا عليه، فجمع عبّاد عساكره و قاتلهم [من] عدّة وجوه و هو فى قلّة الى أن ظفروا به فلم يبق عليه الأمين و قال: هذا ناب من أنياب عساكر المأمون. و مع هذا كله ملكها المأمون و ولّى المأمون بها المطّلب، و لم يقدر الأمين على أن يولّى بها أحدا، و قتل بعد مدّة يسيرة و تولّى المأمون الخلافة.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۱۹۷]

اشارة

السنة التى حكم فيها عبّاد على مصر و هى سنة سبع و تسعين و مائة- فيها لحق القاسم الملقّب بالمؤتمن بن الرشيد بأخيه المأمون، و محبه عمّه المنصور بن المهدىّ.

و فيها كانت وقائع بين عساكر الأمين و المأمون أسر فى بعضها هرثمة بن أعين فحمل بعض أصحاب هرثمة على من أسره و ضربه فقطع يده و خلص هرثمة هذا و الحصار

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۵۵

عال فى بغداد فى كل يوم نحو خمسة عشر شهرا، و كان المحاصر لها طاهر بن الحسين مقدّم عساكر المأمون، و المأمون بالرّىّ، و مع طاهر بن الحسين الأمير هرثمة بن أعين و زهير بن المسيّب. هذا و الأمين ينفق الأموال على الجند و هو فى غاية من الضّيق و الشدّة، و قتل جماعة كبيرة من أهل بغداد، و خرج النساء من الخدور حاسرات، و اشتدّت شوكة المأمونيّة، و تفرّق عن الأمين عساكره و أخذ أمره فى إدبار الى ما سيأتى ذكره. و فيها توفّى بقيّة بن الوليد بن صاعد بن كعب، أبو يحمد الكلاعىّ، كان من أهل الشام، و كان ثقة

فى روايته عن الثّقات ضعيفا فى غيرهم، مولده سنة عشر و مائة.

و فيها توفى شعيب بن حرب أبو صالح المدائنىّ الزاهد، كان أصله من أبناء خراسان ثم من أهل بغداد فتحوّل الى المدائن ثم الى مكّة و دام بها الى أن مات. و كان له فضل و دين متين و زهد و ورع. و فيها توفّى عبد اللّه بن وهب بن مسلم، أبو محمد مولى قريش من أهل مصر؛ كان كثير العلم ثقة ولد سنة خمس و عشرين و مائة. و فيها توفى ورش المقرئ و اسمه عثمان بن سعيد بن عبد اللّه بن عمرو بن سليمان. و قيل عثمان بن سعيد بن عدىّ بن غزوان بن داود بن سابق القبطىّ المصرىّ، إمام القرّاء أبو سعيد و يقال: أبو عمرو و يقال: أبو القاسم. أصله من القيروان، و شيخه نافع و هو الذى لقّبه ورشا لشدّة بياضه. و الورش: شىء يصنع من اللبن، و قيل: بل لقّبه ورشان، و هو طائر معروف، فكان يعجبه هذا اللّقب و يقول: أستاذى نافع سمّانى به. و انتهت اليه رياسة القرّاء بالديار المصرية، و كان بصيرا بالعربية، و كان أبيض

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۵۶

أشقر أزرق سمينا مربوعا و يلبس ثيابا قصارا و مولده سنة عشر و مائة. و فيها توفّى أبو نواس الحسن بن هانئ، و قيل: الحسن بن وهب، الحكمىّ الشاعر المشهور حامل لواء الشعراء فى زمانه، كان إماما عالما فاضلا غلب عليه الشعر؛ قال شيخه أبو عبيدة: أبو نواس للمحدثين مثل امرئ القيس للمتقدّمين. و لقّب بأبى نواس لذؤابتين كانتا تنوسان على قفاه، و إنما كان لقبه أوّلا أبا علىّ. و فى سنة وفاته اختلاف كبير، فأقرب من قال فى هذه السنة، و أبعد من قال سنة خمس و مائتين؛ و أما شعره فكثير مشهور و نوادره فكثيرة أيضا، و ديوان شعره كبير بأيدى الناس فى عدّة مجلدات.

و من أجود ما قال من الشعر قوله:

و مستطيل على الصّهباء باكرها فى فتية باصطباح الراح حذّاق

فكلّ شىء رآه ظنّه قدحا و كلّ شخص رآه ظنّه السّاقى

و له:

أذكى سراجا و ساقى الشّر، يمزجها فلاح فى البيت كالمصباح مصباح

كدنا على علمنا و الشكّ نسأله أراحنا نارنا أم نارنا راح

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم سبعة أذرع سواء، مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا و ثمانيه عشر إصبعا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۵۷

ذكر ولاية المطّلب بن عبد اللّه الأولى على مصر

هو المطّلب بن عبد اللّه بن مالك بن الهيثم الخزاعىّ أمير مصر. ولّاه المأمون على مصر بعد عزل عبّاد بن محمد عنها و القبض عليه فى صفر سنة ثمان و تسعين و مائة، و جمع له صلاة مصر و خراجها معا. و قدم الى مصر من مكّة فى النصف من شهر ربيع الأوّل سنة ثمان و تسعين و مائة، و سكن المعسكر، و أقرّ على شرطته هبيرة ابن هاشم مدّة قليلة، ثم عزله بمحمد بن عسّامة، ثم عزل محمدا بعبد العزيز بن الوزير الجروىّ، ثم عزل عبد العزيز بابراهيم بن عبد السلام الخراعىّ، ثم عزله بهبيرة ابن هاشم المذكور أوّلا. كلّ ذلك لما كان فى أيّامه من كثرة الاضطراب بمصر، و الفتن و الحروب قائمة فى كل قليل بديار مصر؛ فإن أهل مصر كانوا يوم ذاك فرقتين: فرقة من حزب الأمين محمد الخليفة، و فرقة من حزب أخيه المأمون.

فقاسى المطّلب هذا بمصر شدائد مع أنه لم تطل مدّته و عزل بالعباس بن موسى فى شوّال سنة ثمان و تسعين و مائة. فكانت ولايته على إمرة مصر نحوا من سبعة أشهر و نصف شهر، و قبض عليه و حبس مدّة طويلة بإذن المأمون. و تأتى بقيّة ترجمته فى ولايته الثانية على مصر بعد خروجه من السجن عند عزل الأمير العباس بن موسى عن مصر إن شاء اللّه تعالى.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۱۹۸]

اشارة

السنة التی حکم فیها المطّلب بن عبد اللّه علی مصر و هی سنة ثمان و تسعین و مائة- فیها کان حصار الأمین ببغداد الی أن ظفر به و قتل فی المحرّم صبرا و له عشرون سنة، و علّقت رأسه و طیف بها. و فیها ولی الخلافة المأمون ابن هارون الرشید عوضا عن أخیه محمد الأمین، و کانت کنیته أبا العباس؛ فلما

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۵۸

ولی الخلافة کنی بأبی جعفر علی کنیة جدّ أبیه. و فیها فی رمضان ثار أهل قرطبة بالأمیر الحکم بن هشام الأمویّ و حاربوه لجوره و فسقه و أحاطوا بالقصر، و اشتدّ القتال و عظم الخطب و استظهروا علیه؛ فأمر الحکم أمراءه فحملوا علیهم و قاتلوهم حتی هزموهم، و قتل منهم مقتلة عظیمة و صلب من وجوه القوم ثلثمائة علی النهر منکّسین؛ و بقی القتل و النهب و التحریق فی قرطبة ثلاثة أیام، ثم أمّنهم فهجّ أهل قرطبة إلی البلاد. و فیها توفّی سفیان بن عیینة بن أبی عمران، و اسم أبی عمران میمون مولی محمد بن مزاحم الهلالیّ أخی الضحاک المفسّر، کنیته- أعنی سفیان- أبو محمد الکوفیّ ثم المکیّ، الإمام شیخ الإسلام، مولده سنة سبع و مائة فی نصف شعبان، کان إماما ثقة حجّة عالما صالحا.

قال الحسین بن عمران بن عیینة: حججت مع عمی سفیان آخر حجّة حجّها سنة سبع و تسعین و مائة. فلما کنّا بجمع- یعنی المزدلفة- استلقی علی فراشه ثم قال: قد وافیت هذا الموضع سبعین عاما أقول فی کل سنة: اللهم لا تجعله آخر العهد من هذا المکان، و إنی قد استحییت من اللّه من کثرة ما أسأله ذلک، فرجع فتوفّی فی العام فی شهر رجب. و کان سفیان یقول: لا یمنع أحدکم من الدعاء ما یعلم من نفسه، فإنّ اللّه قد استجاب دعاء شرّ الخلق و هو إبلیس قالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِی إِلی یَوْمِ یُبْعَثُونَ قالَ فَإِنَّکَ مِنَ الْمُنْظَرِینَ. و کان أیضا یقول: یستحبّ للرجل أن یقول فی دعائه: اللهم استرنی بسترک الجمیل، و معنی الستر الجمیل أن یستر علی عباده فی الدنیا و الآخرة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۵۹

و قال غیره: إنّ الرجل لیحدث الذنب فلا یزال نادما حتّی یموت فیدخل الجنّة فیقول إبلیس: یا لیتنی لم أوقعه فیه. و فیها توفّی عبد الرحمن بن مهدیّ بن حسان، أبو سعید العنبریّ البصریّ اللؤلؤیّ الإمام الحافظ، کان ثقة کثیر الحدیث من کبار العلماء الحفّاظ؛ ولد سنة خمس و ثلاثین و مائة و سمع الکثیر. قال اسماعیل القاضی:

سمعت ابن المدینیّ یقول: أعلم الناس بالحدیث عبد الرحمن بن مهدیّ.

قال أحمد بن سنان: کان عبد الرحمن بن مهدیّ لا یتحدّث فی مجلسه و لا یبری قلم و لا یقوم أحد قائما، کأنّ علی رءوسهم الطیر و کأنهم فی صلاة، فإذا رأی أحدا منهم یتبسّم أو تحدّث لبس نعله و خرج. و فیها توفی علیّ بن عبد اللّه بن خالد بن یزید ابن معاویة بن أبی سفیان، الأمویّ الهاشمیّ أبو الحسن المدعو بالسّفیانیّ المتغلّب علی دمشق، و کان یلقّب بأبی العمیطر لأنه قال لأصحابه یوما: إیش لقب الجرذون؟ فقالوا: لا ندری، فقال: أبو العمیطر، فلقّب به. و لما خرج بدمشق و دعا لنفسه و تسمّی بالسفیانیّ کان ابن تسعین سنة، و بایعه أهل دمشق بالخلافة سنة خمس و تسعین و مائة، و اشتغل عنه الخلیفة الأمین بحرب أخیه المأمون؛ فانتهز السفیانیّ هذه الفرصة و ملک دمشق، حتی قاتله أعوان الخلیفة و هزموه، فاختفی بالمزّة و أقام بها أیاما و مات. و قد تقدّم فی سنة خروجه أنّ حدیث السفیانیّ موضوع وضعه خالد بن یزید بن معاویة بن أبی سفیان جدّ علیّ هذا. ا ه. و فیها کانت قتلة الخلیفة أمیر المؤمنین الأمین محمد، و کنیته أبو عبد اللّه. و قیل أبو موسی، ابن الخلیفة هارون الرشید ابن الخلیفة محمد المهدیّ ابن الخلیفة أبی جعفر المنصور

عبد اللّه بن محمد بن علیّ بن عبد اللّه بن العباس الهاشمیّ العباسیّ البغدادیّ.

و أمه زبیدة بنت جعفر بن أبی جعفر المنصور. قیل: إنه لم یل الخلافة بعد علیّ ابن أبی طالب و الحسن ولده رضی اللّه عنهما ابن هاشمیّة غیر الأمین هذا. و قد

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۶۰

تقدّم ذکر ما وقع له مع أعوان أخیه المأمون من الحروب الی أن حاصره طاهر بن الحسین ببغداد نحو خمسة عشر شهرا حتی ظفر به و قتله صبرا فی المحرّم من هذه السنة، و طیف برأسه. و قتل الأمین و له عشرون سنة. و کان أخوه المأمون أسنّ منه بشهر واحد. و کان الأمین من أحسن الشباب صورة: کان أبیض طویلا جمیلا ذا قوّة مفرطة و بطش و شجاعة معروفة و فصاحة و أدب و فضیلة و بلاغة، لکنه کان سییء التدبیر ضعیف الرأی أرعن مبدّرا للاموال لا یصلح للخلافة؛ و کان مدمنا للخمر، منادما للفسّاق و المغانی و المساخر، و اشتری عریب المغنیّة بمائة ألف دینار، و احتجب عن إخوانه و أهل بیته؛ و قسّم الأموال و الجواهر فی النساء و الخصیان.

و محبّته لخادمه کوثر مشهورة، منها: أنه لمّا کان فی الحصار خرج کوثر المذکور لیری الحرب فأصابته رجمة فی وجهه فجلس یبکی، و جعل الأمین هذا یمسح الدم عن وجهه، ثم أنشد:

ضربوا قرّة عینی و من اجلی ضربوه

أخذ اللّه لقلبی من أناس أحرقوه

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۶۱

و لم یقدر علی الزیادة، فأحضر عبد اللّه بن أیوب التیمیّ الشاعر، فقال له: قل علیهما، فقال:

ما لمن أهوی شبیه فبه الدنیا تتیه

وصله حلو و لکن هجره مرّ کریه

من رأی الناس له الفض ل علیهم حسدوه

مثل ما قد حسد القا ئم بالملک أخوه

فقال الأمین: أحسنت! بحیاتی یا عباس انظر، إن کان جاء علی ظهر فأوقره له، و إن کان جاء فی زورق فأوقره؛ قال: فأوقروا له ثلاثة أبغل دراهم.

قلت: و حکایات الأمین کثیرة، و جنونه و کرمه أشهر من أن یذکر.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم ثمانیة أذرع سواء، مبلغ الزیادة سبعة عشر ذراعا و خمسة أصابع.

ذکر ولایة العباس بن موسی علی مصر

هو العباس بن موسی بن عیسی بن موسی بن محمد بن علیّ بن عبد اللّه بن العباس الهاشمیّ العباسیّ، ولی مصر بعد عزل المطّلب عنها فی شوّال سنة ثمان و تسعین و مائة، ولّاه المأمون علی الصلاة و الخراج، و لمّا ولّی مصر قدّم ابنه عبد اللّه أمامه الی مصر خلیفة له علیها؛ فقدم عبد اللّه الی مصر و معه الحسن بن عبید بن لوط الأنصاریّ، و محمد بن إدریس- أعنی الإمام الشافعیّ- رحمه اللّه للیلتین بقیتا من شوّال من السنة المذکورة. و لمّا دخل عبد اللّه المذکور و الحسن ابن عبید سجنا المطّلب المعزول عن إمرة مصر قبل تاریخه. و سکن عبد اللّه المعسکر

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۶۲

علی العادة، و تشدّد علی أهل مصر فبغضوه و ثاروا علیه، و وافقهم جند مصر؛ فقاتلهم عبد اللّه المذکور غیر مرّة، و منعهم الحسن بن عبید أعطیاتهم و تهدّدهم لموافقتهم علی حرب عبد اللّه. ثم تحامل الحسن المذکور علی الرعیّة و عسفها و تهدّد الجمیع؛ فاجتمع

الجميع و ثاروا و وقفوا جملة واحدة؛ فخرج اليهم عبد اللّه و قاتلهم، فهزموه و أخرجوه من مصر؛ ثم عمدوا الى المطلّب بن عبد اللّه و أخرجوه من حبسه و أقاموه على إمرة مصر لأربع عشرة ليلة خلت من المحرّم سنة تسع و تسعين و مائة. و لمّا بلغ العباس صاحب الترجمة ما وقع لابنه عبد اللّه بمصر قصد الديار المصرية حتى نزل بلبيس و دعا قيسا لنصرته و مضى الى الحوف، ثم عاد مريضا الى بلبيس فمات به لثلاث عشرة بقيت من جمادى الآخرة من سنة تسع و تسعين و مائة. يقال: إن المطّلب دسّ عليه سمّا فى طعامه فمات منه. و أما ابنه عبد اللّه فقال صاحب البغية:

قتله الجند فى يوم النحر سنة ثمان و تسعين و مائة. فكانت مدّة إقامته خليفة عن أبيه شهرين و نصف شهر.

قلت: و أمّا ولاية العباس على مصر أيام ناب عنه ابنه و زمان قتاله مع أهل مصر فكانت كلّها حروبا و فتنا. و لعلّ العباس لم يدخل مصر و لا حكمها ا ه.

ذكر ولاية المطلب الثانية على مصر

قد تقدّم ذكره فى ولايته الأولى على مصر، و أمّا ولايته هذه فكانت بعد خروجه من السجن، لأنه لمّا قامت جند مصر و الرعيّة على عبد اللّه بن العباس و الحسن بن عبيد و أخرجوهما من مصر، و قيل بل قتلوا عبد اللّه بن العباس المذكور، ولّوا عليهم المطّلب هذا بعد أن أخرجوه من السجن، فاستولى على مصر و رفق بالرعيّة و أجزل لهم أعطياتهم و أحسن اليهم، فآنضمّ عليه خلائق من الجند و من أهل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۶۳

مصر و غيرهم؛ فاستفحل أمره بهم و قويت شوكته، و أخرج من كان بمصر من أصحاب العباس و ابنه عبد اللّه، و تمّ أمره الى أن قدم العباس بنفسه الى مدينة بلبيس فلم يقدر على دخول مصر، و وقع له مع العباس أمور و حروب، الى أن دسّ عليه المطّلب هذا سمّا فمات العباس منه، كما ذكرناه فى ترجمته. و لمّا بلغ المأمون ذلك لم يجد بدّا من أن يقرّه على إمرة مصر لشغله بقتال أخيه الأمين. فاستمر المطّلب هذا على إمرة مصر الى أن تمّ أمر المأمون فى الخلافة و ثبتت قدمه فعزله عنها بالسّرىّ ابن الحكم فى مستهلّ شهر رمضان سنة مائتين. و كان المطّلب قد ولّى على شرطته أحمد بن حوىّ، ثم عزله بهبيرة بن هاشم. فلمّا قدم السرىّ بن الحكم الى نحو مصر لم يطق المطّلب هذا مدافعته عنها لكثرة جيوش السرىّ و جموعه، فشاور أصحابه فأشاروا عليه بالثبات و القتال، فجمع هو أيضا جمعا هائلا و قام بنصرته غالب جند مصر؛ و التقى مع السرىّ و قاتله غير مرة، و قتل بين الطائفتين خلائق، حتى كانت الهزيمة على المطلب و أصحابه، و خرج هاربا من مصر الى نحو مكة. و دافع الجند و أهل مصر عن نفوسهم حتى أمّنهم السرىّ، و دخل الى مصر و استولى عليها. فكان حكم المطلب فى هذه المرّة الثانية على مصر سنة واحدة و سبعة أشهر. و قال صاحب البغية: و ثمانية أشهر.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۱۹۹]

اشارة

السنة التى حكم فى أوّلها العباس ثم المطلب بن عبد اللّه على مصر و هى سنة تسعة و تسعين و مائة- فيها قدم الحسن بن سهل من عند الخليفة المأمون الى بغداد و فرّق عمّاله فى البلاد، ثم جهّز أزهر بن زهير لقتال الهرش الخارجىّ فى المحرّم؛ فقتل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۶۴

الهرش المذكور. و فيها فى جمادى الآخرة خرج بالكوفة محمد بن إبراهيم بن طباطبا- و اسم طباطبا إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن

بن الحسن بن علیّ بن أبی طالب- یدعو الی الرّضی من آل محمد صلی اللّه علیه و سلم، و کان القائم بأمره أبو السّرایا السّریّ بن منصور الشّیبانی، فهاجت الفتن و أسرع الناس الی ابن طباطبا و استوسقت له الکوفة؛ فجهّز الحسن بن سهل لحربه زهیر بن المسیّب فی عشرة آلاف، فالتقوا فانهزم زهیر بن المسیّب و استباحوا عسکره. فلما کان من الغد أصبح محمد بن إبراهیم المذکور میّتا فجاءة، فأقام أبو السرایا فی الحال شابّا أمرد اسمه محمد بن محمد بن زید من العلویّین، ثم جهّز له الحسن جیشا آخر و آخر. و وقع لأبی السرایا هذا مع عساکر الحسن بن سهل أمور و وقائع یأتی ذکر بعضها فی محلها إن شاء اللّه تعالی. و فیها توفی سلیمان بن أبی جعفر المنصور بن محمد بن علیّ بن عبد اللّه بن العباس، الأمیر أبو أیّوب الهاشمیّ العباسیّ أمیر دمشق و غیرها، کان حازما عاقلا جوادا ممدّحا. و فیها توفی علیّ بن بکّار أبو الحسن البصریّ، کان إماما عالما زاهدا، انتقل من البصرة فنزل المصّیصة فأقام مرابطا، و کان صاحب کرامات و اجتهاد. و فیها توفی عمارة ابن حمزة بن مالک بن یزید بن عبد اللّه مولی العباس بن عبد الملک، کان أحد الکتّاب البلغاء الأجواد، و کان ولّاه أبو جعفر المنصور خراج البصرة، و کان فاضلا بلیغا فصیحا، إلّا أنه کان فیه تیه شدید یضرب به المثل، حتی إنه کان یقال: أتیه من عمارة؛ و له فی التّیه و الکرم حکایات کثیرة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۶۵

الذین ذکر الذهبیّ وفاتهم فی هذه السنة، قال: و فیها توفی إسحاق بن سلیمان الرازیّ [أبو یحیی]، و حفص بن عبد الرحمن قاضی نیسابور، و الحکم بن عبد اللّه أبو مطیع البلخیّ، و سیّار بن حاتم، و شعیب بن اللیث بن سعد فی صفر، و عبد اللّه ابن نمیر الخارفیّ الکوفیّ، و عمر بن حفص العبدیّ البصریّ، و عمرو بن محمد العنقزیّ الکوفیّ، و محمد بن شعیب بن شابور ببیروت، و الهیثم بن مروان العنسیّ الدمشقیّ، و یونس بن بکیر الکوفیّ راوی المغازی.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم خمسة أذرع و عشرة أصابع، مبلغ الزیادة سبعة عشر ذراعا و إحدی عشرة إصبعا.

ذکر ولایة السریّ بن الحکم الأولی علی مصر

هو السّریّ بن الحکم بن یوسف بن المقوّم مولی من بنی ضبّة، و أصله من بلخ من قوم یقال لهم «الزّطّ»، أمیر مصر، ولیها بإجماع الجند و أهل مصر علی الصلاة و الخراج معا فی مستهلّ شهر رمضان سنة مائتین بعد عزل المطّلب عنها. و سکن المعسکر علی عادة أمراء مصر، و جعل علی شرطته محمد بن عسّامة، و أخذ فی إصلاح أمور مصر و قراها. و بینما هو فی ذلک وثب علیه الجند فی مستهلّ شهر ربیع الأوّل سنة إحدی و مائتین لأمر اقتضی ذلک، و حصل بینه و بینهم أمور و وقائع یطول شرحها، حتی ورد علیه الخبر من الخلیفة المأمون عبد اللّه بعزله عن إمرة مصر بسلیمان بن غالب فی شهر ربیع الأوّل المذکور. و قیل: إنه هو الذی خرج من مصر

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۶۶

و استعفی لأمور صدرت فی حقه من الجند و الرعیّة. و قیل: إن الجند قبضوا علیه بأمر الخلیفة و حبسوه. و کانت ولایته علی مصر نحوا من ستة أشهر تخمینا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۰۰]

اشارة

السنة التی حکم فی أوّلها المطّلب و فی آخرها السّریّ بن الحکم علی مصر و هی سنة مائتین من الهجرة- فیها فی المحرّم هرب أبو السّرایا و الطالبیّون من الکوفة الی القادسیّة، فدخل الکوفة هرثمة بن أعین و منصور بن المهدیّ بعساکرهما و أمّنوا أهلها؛ فتوجّه أبو

السرایا و حشد و جمع و رجع الی نحو الکوفة و واقع القوم فانهزم و أمسک و أتی به الی الحسن بن سهل، فقتله فی عاشر شهر ربیع الأوّل بأمر الخلیفة المأمون. و فیها هاج الجند ببغداد لکون الحسن بن سهل لم ینصفهم فی العطاء، و بقیت الفتنة بینه و بینهم أیاما کثیرة ثم صلح الأمر بینهم. و فیها أحصی ولد العباس فبلغوا ثلاثة و ثلاثین ألفا ما بین ذکر و أنثی. و فیها قتلت الروم ملکهم لیون و کان له علیهم سبع سنین، و ملّکوا میخائیل بن جورجیس. و فیها قتل الخلیفة المأمون یحیی بن عامر بن إسماعیل، لکونه أغلظ فی الکلام و قال: یا أمیر الکافرین.

و فیها توفی معاذ بن هشام الدّستوائی البصریّ الحافظ، روی عن أبیه و ابن عون و أشعث بن عبد الملک و غیرهم، و روی عنه أحمد بن حنبل و إسحاق و بندار و ابن المدینیّ و غیرهم. و قال العباس بن عبد العظیم الحافظ: کان عنده عن أبیه عشرة آلاف حدیث. و فیها توفی زاهد الوقت معروف بن الفیرزان، و قیل: ابن

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۶۷

فیروز أبو محفوظ، و قیل: أبو الحسن، من أهل کرخ بغداد، کان إمام وقته و زاهد زمانه. ذکر معروف الکرخیّ عند أحمد بن حنبل فقالوا: قصیر العلم، فقال للقائل: أمسک، و هل یراد من العلم إلّا ما وصل الیه معروف! ا ه

و کان أبواه من أعمال واسط من الصابئة. و عن أبی علیّ الدقّاق قال: کان أبواه نصرانیین فأسلماه الی مؤدّب نصرانیّ، فکان یقول له: قل ثالث ثلاثة، فیقول معروف: بل هو الواحد، فیضربه، فهرب ثم أسلم أبواه.

و من کلام معروف- رحمة اللّه علیه- قال: من کابر اللّه صرعه، و من نازعه قمعه، و من ماکره خدعه، و من توکّل علیه منعه، و من تواضع له رفعه، و عنه قال: کلام العبد فیما لا یعنیه خذلان من اللّه. و قال رجل: حضرت معروفا فاغتاب رجل [رجلا] عنده؛ فقال معروف: أذکر القطن اذا وضع علی عینیک.

و عنه قال: ما أکثر الصالحین و ما أقلّ الصادقین.

قلت: و مناقب معروف کثیرة، و زهده و صلاحه مشهور، نفعنا اللّه ببرکته.

و فیها فی أوّل المحرّم قدم مکة حسین بن حسن الأفطس، و دخل الکعبة و جرّدها و أخذ جمیع ما کان علیها و کساها ثوبین رقیقین من قزّ، کان أبو السرایا بعث بهما الیها، مکتوب علیهما: [أمر به الأصفر بن الأصفر] أبو السرایا داعیة آل محمد لکسوة بیت اللّه الحرام، و أن تطرح عنها کسوة الظّلمة من ولد العباس؛ ثم أخذ الحسین أموالا کثیرة من أهل مکة و صادرهم و أبادهم. و فیها توفی أبان بن عبد الحمید

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۶۸

ابن لاحق اللاحقیّ، کان شاعرا فاضلا بلیغا، قدم بغداد و اتصل بالبرامکة، و له فیهم مدائح کثیرة، و صنّف لهم کتاب «کلیلة و دمنة» و هو فرد فی معناه.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم خمسة أذرع و ثمانیة أصبع، مبلغ الزیادة سبعة عشر ذراعا و سبعة عشر إصبعا.

ذکر ولایة سلیمان بن غالب علی مصر

هو سلیمان بن غالب بن جمیل بن یحیی بن قرّة البجلیّ الأمیر أبو داود، ولی إمرة مصر علی الصلاة و الخراج معا؛ بعد عزل السّریّ بن الحکم و حبسه، بإجماع الجند و أهل مصر علیه فی یوم الثلاثاء لأربع خلون من شهر ربیع الأوّل من سنة إحدی و مائتین. و سکن المعسکر، و جعل علی شرطته أبا ذکر بن جنادة بن عیسی المعافریّ، فشدّد علی المصریّین، فعزله عن الشرطة بالعباس بن لهیعة الحضرمیّ. ثم وقع بین سلیمان هذا و بین الجند أیضا وجشة فوثبوا علیه و قاتلوه، و وقع له معهم وقائع و حروب کثیرة آلت الی عزله عن إمرة مصر، فصرفه المأمون عنها، و أعاد علی إمرة مصر السّریّ بن الحکم ثانیة. فکانت ولایة سلیمان هذا علی إمرة مصر خمسة

أشهر، فإنه صرف فی مستهلّ شعبان سنة إحدی و مائتین، و توجه الی المأمون و صار من جملة القوّاد؛ و ندبه المأمون لقتال بابک الخرّمیّ، و هذا أوّل ظهور بابک الخرّمیّ فی الجاویدانیة. و بابک هو من أصحاب الجاویدان بن سهل صاحب البذّ،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۶۹

و ادّعی بابک أنّ روح جاویدان دخلت فیه، و أخذ بابک فی العبث و الفساد- و تفسیر جاویدان: الدائم الباقی. و معنی خرّم: فرج، و هی مقالات المجوس، و الرجل منهم ینکح أمّه و أخته، و لهذا یسمّونه دین الفرج؛ و یعتقدون مذهب التناسخ و أن الأرواح تنتقل من جوف الی غیره- و عاد سلیمان صاحب الترجمة الی الخلیفة من غیر أن یلقی حربا؛ فان بابک المذکور لما سمع بمجیء العساکر هرب؛ و استمرّ سلیمان عند المأمون الی أن کان ما سنذکره.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۰۱]

اشارة

السنة التی حکم فی أوّلها السریّ بن الحکم الی مستهل ربیع الأوّل، ثم سلیمان ابن غالب الی شعبان، ثم السریّ بن الحکم ثانیة علی مصر و هی سنة إحدی و مائتین- فیها جعل المأمون ولیّ عهده فی الخلافة من بعده علیّا الرّضی بن موسی الکاظم العلویّ، و خلع أخاه القاسم من ولایة العهد، و ترک لبس السّواد و لبس الخضرة، و ترک غالب شعار بنی العباس أجداده و مال الی العلویّة؛ فشقّ ذلک علی بنی العباس و علی القوّاد و جمیع أهل الشرق لا سیما أهل بغداد، و خرج علیه جماعة کثیرة بسبب ذلک، و ثارت الفتن لهذه الکائنة؛ و کلّم المأمون أکابر بنی العباس فی ذلک فلم یلتفت الی کلامهم. و فیها ولّی المأمون زیادة اللّه بن إبراهیم بن الأغلب التمیمیّ إمرة المغرب. و فیها کتب المأمون الی إسماعیل بن جعفر بن سلیمان العباسیّ أمیر البصرة یأمره بلبس الخضرة، فامتنع و لم یبایع بالعهد لعلیّ الرّضی؛ فبعث الیه المأمون عسکرا لحربه فسلّم نفسه بلا قتال، فحمل هو و ولداه الی خراسان، و فیها المأمون، فمات هناک. و فیها خرج منصور بن المهدیّ العباسیّ أیضا بکلواذا و نصب

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۷۰

نفسه ثانیا للمأمون ببغداد فسمّوه المرتضی و سلّموا علیه بالخلافة؛ فامتنع من ذلک و قال: إنما أنا نائب للمأمون. فلمّا ضعف عن قبول ذلک عدلوا الی أخیه إبراهیم ابن المهدیّ فبایعوه بالخلافة. کلّ ذلک بسبب میل المأمون الی العلویّة. و جرت فتنة کبیرة و اختبط العراق سنین و خطب به باسم إبراهیم بن المهدیّ علی المنابر.

و فیها توفی عبد اللّه بن الفرج الشیخ أبو محمد القنطریّ العابد الزاهد، کان من کبار المجتهدین، کان بشر الحافی یحبّه و یثنی علیه و یزوره. و فیها توفی حمّاد بن أسامة ابن زید الحافظ أبو أسامة الکوفیّ مولی بنی هاشم، روی عن الأعمش و إسماعیل ابن أبی خالد و أسامة بن زید اللیثیّ و غیرهم؛ و روی عنه عبد الرحمن بن مهدیّ مع تقدّمه و أحمد بن حنبل و یحیی بن معین و علیّ بن المدینیّ و أبو بکر بن أبی شیبة و إسحاق الکوسج و غیرهم. و قال محمد بن عبد اللّه بن عمّار: کان أبو أسامة فی زمن الثّوریّ یعدّ من النّسّاک. و فیها فی ذی القعدة توفی علیّ بن عاصم بن صهیب الحافظ أبو الحسن مولی بنت محمد بن أبی بکر الصّدّیق، کان من أهل واسط؛ ولد سنة ثمان و مائة، أو خمس و مائة؛ و کان محدّثا فاضلا، روی عنه الإمام أحمد بن حنبل و طبقته، إلّا أنهم قالوا: کان یخطئ فضعّفوه.

الذین ذکر الذهبیّ وفاتهم فی هذه السنة، قال: و فیها توفّی أبو أسامة الکوفیّ، و حرمیّ بن عمارة، و حمّاد بن مسعدة، و علیّ بن عاصم.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمسة أذرع و عشرة أصابع، مبلغ الزيادة أربعة عشر ذراعا و ثمانية عشر إصبعا.
النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۷۱

ذكر ولاية السرىّ الثانية على مصر

تولّى السّرىّ ثانيا على مصر من قبل الخليفة المأمون على الصلاة و الخراج معا.
و قدم الخبر من المأمون بولايته فى يوم الأربعاء لاثنتى عشرة خلت من شعبان سنة إحدى و مائتين، ففى الحال أخرج من السجن و لبس خلعة المأمون بإمرة مصر و توجّه الى المعسكر و سكن به. و جعل على شرطته محمد بن عسّامة ثم عزله بالحارث بن زرعة؛ فشكا منه الجند فعزله بابنه ميمون، ثم عزل ميمونا أيضا بأبى ذكر بن المخارق، ثم عزله بأخيه صالح بن الحكم، ثم عزل صالحا بأخيه إسماعيل، ثم عزل إسماعيل بأخيه داود؛ كل ذلک لتغلّب أهل مصر عليه و هو يصغى الى قولهم الى أن استفحل أمره. و لمّا ثبتت قدمه فى إمرة مصر أخذ يتتبّع من كان حاربه و عاداه فى أوّل ولايته، فمسک منهم جماعة و أخرج جماعة، و مهّد أمور مصر و أصلح أحوال أهل البلاد و أباد أهل الحوف. و استمرّ على إمرة مصر الى أن توفّى بها فى سلخ جمادى الأولى من سنة خمس و مائتين.
و قال صاحب البغية: مات بالفسطاط يوم السبت لانسلاخ ربيع الأوّل من سنة خمس و مائتين.
قلت: و على هذا القول كانت ولايته على مصر فى هذه المرّة الثانية ثلاث سنين و تسعة أشهر و ثمانية عشر يوما. و تولّى إمرة مصر من بعده ابنه محمد بن السّمرىّ.
و كان السرىّ أميرا جليلا معظّما فى الدّول، ولى الأعمال و تنقّل فى البلاد، و كان ممّن
النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۷۲
انضمّ على المأمون من القوّاد، و وقع له أمور بمصر ذكرنا بعضها الى أن أعيد اليها ثانيا، و استمرّ بها الى أن توفّى، حسبما تقدّم ذكره.
***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۰۲]

السنة الأولى من ولاية السرىّ بن الحكم الثانية على مصر و هى سنة اثنتين و مائتين، على أنه حكم فيها من الخالية من شعبان الى آخرها حسبما تقدّم ذكره- فيها، أعنى سنة اثنتين و مائتين، بايع العباسيون ابراهيم بن المهدى و لقّبوه بالمبارک المنير.
و أوّل من بايع إبراهيم بن المهدىّ المذكور عبد اللّه بن العباس بن محمد بن علىّ العباسىّ ثم أخوه منصور بن المهدىّ ثم بنو عمّه ثم القوّاد؛ و خلعوا المأمون من الخلافة لكونه أخرج العباسيّين من ولاية العهد و جعلها فى العلويّين، و لبس الخضرة و ترک لبس السواد الذى هو شعار بنى العبّاس. و وقع بولاية ابراهيم هذا أمور و فتن و حروب آلت الى خلع إبراهيم هذا و هربه و اختفائه، كما سيأتى ذكره إن شاء اللّه تعالى.
و فيها خرج المأمون من مرو يريد العراق، و كانت الحرب قائمة بين الحسن بن سهل و بين إبراهيم بن المهدىّ المذكور. و فيها توفى الحسن بن الوليد أبو علىّ النيسابورى، و قيل أبو عبد اللّه القرشى، كان من خراسان و قدم الى بغداد و حدّث بها؛ و كان يطعم أهل الحديث الفالوذج، و قرأ على الكسائى، و كان له ثروة و مال ينفقه على العلماء و يغزو الترک و يحجّ فى كل عام. و فيها توفى الفضل بن سهل بن عبد اللّه، وزير المأمون و عظيم دولته، ذو الرياستين أبو عبد اللّه؛ كان أبوه سهل من أولاد ملوک المجوس، أسلم فى أيام هارون الرشيد و اتصل بيحيى البرمكى، و اتصل ابناه الفضل هذا و أخوه الحسن بالفضل و بجعفر ابنى يحيى البرمكىّ؛ فضمّ جعفر البرمكىّ الفضل هذا الى المأمون و هو ولىّ عهد الخلافة، فغلب على المأمون بخلاله الجميلة من الوفاء و البلاغة و الكتابة حتى صار أمر المأمون كلّه بيده، لا سيّما [أنه] لمّا ولى الخلافة ولّاه

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۷۳

الأعمال الجليلة. و كان الفضل هذا هو القائم بالتدبير فى خلع الأمين و قتاله حتى تمّ له ذلک. و تولى الوزارة من بعده أخوه الحسن بن سهل. و كان موته بسرخس، قتله أربعة من حواشى المأمون فى ليلة الجمعة ثالث شعبان فى الحمام بسرخس، فتتبّع المأمون قتلته حتى ظفر بهم و قتلهم. و قتل الفضل و هو ابن ستين سنة، و قيل إحدى و أربعين سنة. و فيها توفّى يحيى بن المبارک بن المغيرة أبو عبد اللّه اليزيدىّ النحوىّ العدوىّ البصرىّ، و سمّى اليزيدىّ لأنه كان منقطعا ليزيد بن منصور الحميرىّ خال الخليفة محمد المهدىّ، كان إماما فى النحو و اللغة و الأدب و نقل النوادر و كلام العرب، و له تصانيف مفيدة، منها: كتاب الحيل، و كتاب مناقب بنى العباسى، و كتاب أخبار اليزيديّين، و له أيضا مختصر فى النحو. و مات فى جمادى الآخرة.

رحمه اللّه.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثلاثة أذرع و عشرون إصبعا، مبلغ الزيادة خمسة عشر ذراعا و تسعة عشر إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۰۳]

السنة الثانية من ولاية السرىّ الثانية على مصر و هى سنة ثلاث و مائتين- فيها توجه المأمون الى طوس فأقام بها عند قبر أبيه أياما، و فى إقامة المأمون بطوس مات علىّ بن موسى الرّضى العلوىّ ولىّ عهد المأمون، فدفن عند قبر الرشيد؛ و اغتمّ المأمون لموته، ثم كتب لأهل بغداد يعلمهم بموت علىّ المذكور. و علىّ هذا هو الذى كان المأمون عهد له و قامت تلک الحروب بسببه. ثم كتب المأمون لأهل بغداد و لبنى العبّاس أنه يجعل العهد فى بنى العبّاس؛ فأجابوه بأغلظ جواب، و قالوا:

لا نؤثر على إبراهيم بن المهدىّ أحدا. ثم وقع بينه و بين إبراهيم أمور آخرها أنّ إبراهيم

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۷۴

انكسر و هرب و اختفى سنين الى أن ظفر به المأمون و عفا عنه. و فيها غلبت السوداء على الوزير الحسن بن سهل و تغيّر عقله فقيّد بالحديد و حبس فى بيت بواسط؛ و أخبر المأمون بذلک فكتب بأن يكون على عسكر الحسن بن سهل دينار بن عبد اللّه، و أن المأمون واصل عقيب كتابه. و فيها كانت زلزلة عظيمة سقطت فيها منارة الجامع و المسجد ببلخ و نحو ربع المدينة. و فيها اختفى إبراهيم بن المهدىّ الذى كان بويع بالخلافة فى سابع عشر ذى الحجة و بقى مختفيا عدّة سنين. و كانت أيامه سنتين إلا بضعة عشر يوما، و خلافته لم يثبتها المؤرّخون و لا عدّه أحد من الخلفاء، غير أنه كان بنو العباس بايعوه لما جعل المأمون العلوىّ ولىّ عهده، فلم يتمّ أمره و هرب و اختفى. و فيها وصل المأمون الى همذان فى آخر السنة. و فيها توفى حسين بن علىّ ابن الوليد الجعفىّ مولاهم الكوفىّ المقرئ الزاهد أبو عبد اللّه، و قيل أبو محمد، روى عن حمزة الزيّات و قرأ عليه، و كان إماما ثقة حافظا محدّثا. و فيها توفى علىّ الرّضى ابن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علىّ زين العابدين بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب، الإمام أبو الحسن الهاشمىّ العلوىّ الحسينىّ، كان إماما عالما؛ روى عن أبيه و عن عبيد اللّه بن أرطاة، و روى عنه ابنه أبو جعفر محمد و أبو عثمان المازنىّ و المأمون و طائفة. و أمّه أمّ ولد؛ و له عدّة إخوة كلهم من أمهات أولاد، و هم: ابراهيم و العباس و القاسم و إسماعيل و جعفر و هارون و حسن و أحمد و محمد و عبيد اللّه و حمزة و زيد و عبد اللّه و إسحاق و الحسين و الفضل و سليمان و عدّة بنات. و كان علىّ هذا سيّد بنى هاشم فى زمانه و أجلّهم، و كان المأمون يعظّمه و يبجّله و يخضع له و يتغالى فيه حتى إنه جعله ولىّ عهده من بعده و كتب بذلک إلى الآفاق، فاضطربت مملكته بسببه، فلم يرجع عن ذلک حتى مات علىّ

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۷۵

هذا؛ و بعد موته جعل المأمون العهد فى بنى العباس. و فى علىّ هذا يقول أبو نواس الحسن بن هانئ:

قیل لی أنت أحسن الناس طرّا فی فنون من المقال النّبیه
لک من جیّد الفریض مدیح یثمر الدّرّ فی یدی مجتنیه
قلت لا أستطیع مدح إمام کان جبریل خادما لأبیه
أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم خمسة أذرع و ثمانیة عشر إصبعا، مبلغ الزیادة سبعة عشر ذراعا و عشرة أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۰۴]

اشارة

السنة الثالثة من ولایة السّریّ الثانیة علی مصر و هی سنة أربع و مائتین- فیها وصل المأمون الی النّهروان فتلقّاه بنو هاشم و القوّاد، و دخل بغداد فی نصف صفر؛ و بعد ثمانیة أیام کلّمه بنو العباس فی ترک الخضرة و لبس السّواد، و لا زالوا به حتی أذعن و ترک الخضرة و لبس السواد. و فیها ولّی المأمون أخاه أبا عیسی علی الکوفة، و ولّی أخاه صالحا علی البصرة، و ولّی یحیی بن معاذ علی الجزیرة؛ فتوجّه یحیی بن معاذ الی الجزیرة و واقع بابک الخرّمیّ الخارجی حتی أخرجه منها. و فیها توفّی أشهب بن عبد العزیز بن داود بن ابراهیم الإمام العالم الفقیه أبو عمرو القیسیّ العامریّ المصریّ فقیه مصر، و قیل اسمه مسکین و لقبه أشهب، سمع مالکا و اللّیث و یحیی بن أیوب و سلیمان بن بلال و غیرهم، و هو أحد أصحاب الإمام مالک رضی اللّه عنه الکبار. قال الشافعیّ: ما أخرجت مصر أفقه من أشهب لو لا طیش فیه. و قال سحنون رحمه اللّه: أشهب ما کان یزید فی سماعه حرفا واحدا.

و فضّله محمد بن عبد اللّه بن عبد الحکم علی ابن القاسم فی الرأی حتی إنه قال:

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۷۶

أشهب أفقه من ابن القاسم مائة مرّة. و عن ابن عبد الحکم قال: سمعت أشهب فی سجوده یدعو علی الشافعیّ بالموت، فذکرت ذلک للشافعیّ فأنشد:

تمنّی رجال أن أموت و إن أمت فتلک سبیل لست فیها بأوحد
فقل للذی یبغی خلاف الذی مضی تهیّأ لأخری مثلها فکأن قد

و کان مولد أشهب سنة أربعین و مائة، و مات فی الثانی و العشرین من شعبان بعد موت الإمام الشافعیّ بثمانیة عشر یوما. و فیها توفّی الإمام الشافعیّ محمد بن إدریس ابن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبید بن عبد یزید بن هاشم بن المطّلب بن عبد مناف بن قصیّ، الإمام العالم صاحب المذهب أبو عبد اللّه الشافعیّ المکیّ؛ ولد سنة خمسین و مائة بغزّة، و روی عن مسلم بن خالد الزّنجی فقیه مکة و داود ابن عبد الرحمن العطّار و عبد العزیز بن أبی سلمة الماجشون و مالک بن أنس صاحب المذهب و عرض علیه الموطّأ، و خلق سواهم. و روی عنه أبو بکر الحمیدیّ و أبو عبید القاسم بن سلّام و أحمد بن حنبل و أبو ثور ابراهیم بن خالد الکلبی و غیرهم.

و تفقّه بمالک و محمد بن الحسن صاحب أبی حنیفة و غیرهما، و برع فی الفقه و الحدیث و الأدب و الرّمی. و قال محمد بن اسماعیل السّلمیّ حدّثنی حسین الکرابیسی قال:

بتّ مع الشافعیّ غیر لیلة و کان یصلّی نحو ثلث اللیل فما رأیته یزید علی خمسین آیة، فإذا أکثر فمائة، و کان لا یمرّ بآیة رحمة إلا سأل اللّه، و لا یمرّ بآیة عذاب إلا تعوّذ منها. و قال ابراهیم بن محمد بن الحسن الأصبهانیّ حدّثنا الربیع قال: کان الشافعیّ یختم القرآن ستّین مرّة فی رمضان. و قال المیمونیّ: سمعت أحمد بن حنبل یقول: ستة أدعو لهم سحرا أحدهم الشافعیّ. و قال یونس بن عبد

الأعلى: لو جمعت

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۷۷

أمّة لوسعهم عقل الشافعیّ. و قال أبو ثور: ما رأیت مثل الشافعیّ و لا رأى هو مثل نفسه.

قلت: و مناقب الشافعیّ رضی اللّه عنه کثیرة و فضله أشهر من أن یذکر. و کانت وفاته فی یوم الخمیس سلخ شهر رجب من هذه السنة، و دفن بالقرافة الصغرى، و له أربع و خمسون سنة. و کان موضع دفنه ساحة حتى عمّر تلک الأماکن السلطان صلاح الدین یوسف، ثم أنشأ الملک الکامل محمد القبّة على ضریحه و هی القبّة الکائنة الیوم على قبره رضی اللّه عنه. و من شعره:

یا راکبا قف بالمحصّب من منى و اهتفّ بقاعد خیفنا و النّاهض

سحرا إذا فاض الحجیج إلى منى فیضا کملتطم الفرات الفائض

إن کان رفضا حبّ آل محمد فلیشهد الثّقلان أنّی رافضی

قال المبرّد: دخل رجل على الشافعیّ فقال: إنّ أصحاب أبی حنیفة لفصحاء؛ فأنشأ الشافعی یقول:

فلو لا الشعر بالعلماء یزری لکنت الیوم أشعر من لبید

و أشجع فی الوغى من کلّ لیث و آل مهلّب و أبی یزید

و لو لا خشیة الرحمن ربی حسبت الناس کلّهم عبیدی

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم خمسة أذرع و أربعة عشر إصبعا، مبلغ الزیادة ستة عشر ذراعا و خمسة أصابع.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۷۸

ذکر ولایة محمد بن السّریّ على مصر

هو محمد بن السّریّ بن الحکم بن یوسف الأمیر أبو نصر الضّبّیّ البلخیّ، ولی إمرة مصر بعد وفاة أبیه السّریّ بن الحکم فی یوم الأحد مستهلّ جمادى الآخرة سنة خمس و مائتین؛ ولّاه المأمون على الصلاة و الخراج معا کما کان والده. و سکن المعسکر، و جعل على شرطته محمد بن قابس ثم عزله و ولّى أخاه عبید اللّه. و لما ولی مصر کان الجرویّ قد غلب على أسفل أرض مصر و جمع جموعا و خرج عن الطاعة فتهیّأ محمد هذا لقتاله و جهّز الیه العساکر المصریة، ثم خرج هو بنفسه لقتاله، و وقع له معه حروب و وقائع؛ و بینما هو فی ذلک مرض و لزم الفراش حتى مات لیلة الاثنین لثمان خلون من شعبان سنة ست و مائتین. فکانت ولایته على مصر استقلالا سنة واحدة و شهرین و ثمانیة أیام. و تولّى مصر من بعده أخوه عبید اللّه بن السّریّ، و کان شابّا عاقلا مدبّرا حازما سیوسا، مهّد الدیار المصریة فی ولایته و أباد أهل الفساد و حارب الجرویّ غیر مرّة و أحبّته الرعیّة، غیر أنه لم تطل أیامه و عاجلته المنیّة.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۰۵]

السنة الأولى من ولایة محمد بن السّریّ على مصر و هی سنة خمس و مائتین- فیها حجّ بالناس عبید اللّه بن الحسن العلویّ و هو والی الحرمین مکّة و المدینة. و فیها ولّى المأمون طاهر بن الحسین على جمیع بلاد خراسان و المشرق و أعطاه عشرة آلاف ألف درهم، و کان ولده عبد اللّه بن طاهر قد قدم على المأمون من الرّقّة فولّاه

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۷۹

على الجزیرة. ثم ولّى المأمون عیسى بن محمد بن خالد على أذربیجان و إرمینیة و أمره بقتل بابک الحرّمیّ. و فیها استعمل المأمون عیسى بن یزید الجلودیّ على محاربة الزّطّ، و کانوا قد طغوا و تجبّروا. و فیها توفّی یعقوب بن إسحاق بن زید بن عبد اللّه ابن أبی

إسحاق الإمام أبو محمد الحضرمىّ مولاهم البصرىّ قارئ أهل البصرة بعد أبى عمرو بن العلاء و أحد الأئمة القرّاء العشرة، أخذ القرآن عن أبى المنذر سلّام الطويل و أبى الأشهب العطاردىّ و مهدىّ بن ميمون و غيرهم، و سمع حروفا من حمزة، و تصدّى للإقراء فقرأ عليه خلق، و كان أصغر من أخيه أحمد بن إسحاق، و مات فى ذى الحجّة. و فيه يقول محمد بن أحمد العجلىّ يمدحه:

أبوه من القرّاء كان و جدّه و يعقوب فى القرّاء كالكوكب الدّرّى

تفرّده محض الصّواب و وجهه فمن مثله فى وقته و إلى الدهر

و فيها توفّى أبو سليمان الدّارانىّ، اسمه عبد الرحمن بن أحمد بن عطيّة، و قيل:

عبد الرحمن بن عسكر العبسىّ الدّارانىّ، كان من واسط و تحوّل الى الشأم و نزل داريّا (قرية غربىّ دمشق)، و كان إماما حافظا كبير الشأن فى علوم الحقائق و الورع أثنى عليه الأئمة، و كان له الرياضات و السياحات، و له كرامات و أحوال. رحمه اللّه تعالى آمين.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى روح بن عبادة فى جمادى الأولى، و أبو عامر العقدىّ [عبد الملك بن عمرو]، و محمد بن عبيد، و يعقوب الحضرمىّ، و محمد بن عبيد الطّنافسىّ.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربعة أذرع و اثنان و عشرون إصبعا، مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا و أربعة عشر إصبعا.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۸۰

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۰۶]

اشارة

السنة الثانية من ولاية محمد بن السّرىّ على مصر و هى سنة ست و مائتين- فيها كان الماء الذى غرق منه أرض السواد و ذهبت الغلّات و غرقت قطيعة أم جعفر، و قطيعة العباس. و فيها نكب الأمير عيسى بن محمد بن أبى خالد بابک الخرّمىّ و بيّته. و فيها استعمل المأمون على بغداد إسحاق بن إبراهيم. و فيها توفّى بهيم العجلىّ الشيخ أبو بكر الزاهد العابد، كان رجلا حزينا يزفر الزّفرة فيسمع زفيره على بعد، و كان من البكّائين الخابعين. و فيها توفّى الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل الأموىّ المغربىّ الأندلسىّ، ولى إمرة الأندلس يوم مات أبوه فى صفر، سنة ثمانين و مائة و عمره اثنتان و عشرون سنة و شهر و أيام، و لقّب بالمرتضى، و كنيته أبو العاص؛ و كان شجاعا فاتكا، ربط على باب قصره ألف فرس لخاصّة نفسه.

قلت: و قد تقدّم الكلام على أصل هؤلاء أنهم من ذريّة عبد الملك بن مروان و أنّ عبد الرحمن الداخل خرج فى غفلة بنى العباس من الشأم الى الغرب و ملک الأندلس. و فيها توفّى يزيد بن هارون الإمام الحافظ أبو خالد السّلمىّ مولاهم الواسطىّ، ولد سنة ثمان عشرة و مائة. قال السّرّاج: سمعت علىّ بن شعيب يقول:

سمعت يزيد بن هارون يقول: أحفظ أربعة و عشرين ألف حديث بالإسناد و لا فخر، و كان مع هذا ديّنا زاهدا صلّى بوضوء العشاء صلاة الفجر نيّفا و أربعين سنة رحمه اللّه. [و مات فى شهر ربيع الأوّل من السنة و له ثمان و ثمانون سنة].

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۸۱

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفى أبو حذيفة البخارىّ صاحب «المبتدأ»، و حجّاج الأعور، و شبابة بن سوّار، و محاضر بن المورّع، و قطرب النّحوىّ صاحب سيبويه، و موسى بن اسماعيل، و وهب بن جرير، و يزيد ابن هارون، و عبد اللّه بن نافع الصائغ الفقيه صاحب مالک.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمسة أذرع و أربعة عشر إصبعا، مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا و ثمانية عشر إصبعا.

ذكر ولاية عبيد اللّه بن السّرىّ على مصر

هو عبيد اللّه بن السّرىّ بن الحكم بن يوسف، ولى إمرة مصر بعد موت أخيه محمد بن السّرىّ بمبايعة الجند له فى يوم الثلاثاء لتسع خلون من شعبان سنة ست و مائتين على الصلاة و الخراج معا. و سكن المعسكر، و جعل على شرطته محمد بن عقبة المعافرى، و لما ولى عبيد اللّه مصر وقع بينه و بين الجروىّ الخارجى المقدّم ذكره حروب كثيرة، ثم حدّثته نفسه بالخروج عن طاعة المأمون و جمع وحشد؛ فبلغ المأمون ذلك و طلب عبد اللّه بن طاهر و قال له: إنى استخرت اللّه تعالى منذ شهر، و قد رأيت أن الرجل يصف ابنه ليطريه و ليرفعه، و قد رأيتك فوق ما وصفك أبوك، و قد مات السّرىّ و ولّى ابنه عبيد اللّه و ليس بشىء، و قد رأيت تولينك مصر و محاربة الخوارج بها؛ فقال عبد اللّه بن طاهر: السمع و الطاعة، و أرجو أن يجعل اللّه الخير لأمير المؤمنين. فعقد له المأمون لواء مكتوبا عليه ألقاب عبد اللّه بن طاهر، و زاد فيه يا منصور؛ و ركب الفضل بن الربيع الحاجب بين يديه الى داره

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۸۲

تكرمة له؛ ثم خرج عبد اللّه من العراق بجيوشه حتى قرب من مصر، فتهيّأ عبيد اللّه ابن السّرىّ المذكور لحربه و عبّأ جيوشه و حفر خندقا عليه، ثم تقدّم بعساكره الى خارج مصر و التقى مع عبد اللّه بن طاهر و تقاتلا قتالا شديدا و ثبت كلّ من الفريقين ساعة كبيرة حتى كانت الهزيمة على عبيد اللّه بن السّرىّ أمير مصر، و انهزم الى جهة مصر، و تبعه عبد اللّه بن طاهر بعساكره، فسقط غالب جند عبيد اللّه المذكور فى الخندق الذى كان عبيد اللّه احتفره، و دخل هو بأناس قليلة الى داخل مصر و تحصّن به؛ فحاصره عبد اللّه بن طاهر و ضيّق عليه حتى أباده و أشرف على الهلاك، فطلب عبيد اللّه بن السّرىّ الأمان من عبد اللّه بن طاهر بشروطه، و بعث اليه بتقدمة من جملتها ألف وصيف و وصيفة مع كل وصيف و وصيفة ألف دينار فى كيس حرير و بعث بهم ليلا؛ فردّ عبد اللّه بن طاهر ذلك عليه، و كتب اليه: لو قبلت هديّتك نهارا قبلتها ليلا (بل أنتم بهديّتكم تفرحون) الآية. فلما بلغه ذلك طلب الأمان من غير شرط؛ فأمّنه عبد اللّه بن طاهر بعد أمور صدرت؛ فخرج اليه عبيد اللّه بن السّرىّ بالأمان و بذل اليه أموالا كثيرة و أذعن له و سلّم إليه الأمر، و ذلك فى آخر صفر سنة إحدى عشرة و مائتين. قال صاحب البغية: و عزله المأمون فى ربيع الأوّل و ذكر السنة انتهى.

قلت: فكانت ولاية عبيد اللّه هذا على إمرة مصر أربع سنين و سبعة أشهر إلا ثمانية أيام. و توجّه عبيد اللّه الى المأمون فى السنة المذكورة فأكرمه و عفا عنه.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۰۷]

السنة الأولى من ولاية عبيد اللّه بن السّرىّ و هى سنة سبع و مائتين- فيها حجّ بالناس أبو عيسى أخو الخليفة المأمون. و فيها ولّى المأمون موسى بن حفص طبرستان. و فيها ظهر الصّناديقىّ باليمن و استولى عليها و قتل النساء و الولدان و ادّعى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۸۳

النبوّة و تبعه خلق و آمنوا بنبوّته و ارتدّوا عن الإسلام، فأهلكه اللّه بالطاعون بعد أمور رقعت منه. و فيها خرج عبد الرحمن بن أحمد بن عبد اللّه بن محمد بن عمر بن علىّ ابن أبى طالب ببلاد عكّ من اليمن يدعو إلى الرّضى من آل محمد صلى اللّه عليه و سلم، و كان خروجه من سوء سيرة عامل اليمن، فبايعه خلق؛ فوجّه اليه المأمون لحربه دينار ابن عبد اللّه و كتب معه بأمانه؛ فحجّ دينار ثم سار الى اليمن حتى قرب من عبد الرحمن المذكور، و بعث اليه بأمانه فقبله و عاد مع دينار الى المأمون. و فيها خلع طاهر ابن الحسين المأمون من الخلافة باكر النهار من يوم الجمعة و قطع الدعاء له، فدعا الخطيب: «اللّهمّ أصلح أمّة محمد بما أصلحت به أولياءك، و اكفها مؤونة من بغى عليها» و لم يزد على ذلك، ثم طرح طاهر لبس السواد فعرض له عارض فمات من ليلته فأتى الخبر بخلعه على المأمون

أوّل النهار من النّصحاء له، و وافى الخبر بموته ليلا و كفى اللّه المأمون مؤونته. و قام بعده على خراسان ابنه طلحة فأقرّه المأمون مكان والده طاهر المذكور؛ و كان ذلك قبل تولية ابنه عبد اللّه بن طاهر مصر بمدّة طويلة.

و طاهر هذا هو الذى كان قام ببيعة المأمون و حاصر الأمين ببغداد تلك المدّة الطويلة حتى ظفر به و قتله. و كان طاهر المذكور أعور، و كان يلقّب بذى اليمينين؛ فقال فيه بعض الشعراء:

يا ذا اليمينين و عين واحده نقصان عين و يمين زائده

و كان فى نفس المأمون منه شىء لكونه قتل أخاه الأمين محمدا بغير مشورته لمّا ظفر به بعد حصار بغداد، و لم يرسله الى أخيه المأمون ليرى فيه رأيه مراعاة لخاطر أمّه زبيدة، فلما قتله طاهر المذكور لم يسع المأمون إلا السكوت لكون طاهر هو القائم بدولة المأمون و بنصرته على أخيه الأمين حتى تمّ له ذلك. و فيها

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۸۴

توفّى الواقدىّ، و اسمه محمد بن عمر بن واقد، الإمام أبو عبد اللّه الأسلمىّ، مولده سنة تسع و عشرين و مائة و كان إماما عالما بالمغازى و السّير و الفتوح و أيّام الناس، و كان ولى القضاء للمأمون أربع سنين. و فيها توفّى الأمير طاهر بن الحسين بن مصعب أبو طلحة الخزاعىّ الملقّب ذا اليمينين، أحد قوّاد المأمون الكبار و القائم بأمره و خلع أخيه الأمين من الخلافة؛ ولّاه المأمون خراسان و ما يليها حتى خلع المأمون فمات من ليلته فى جمادى الأولى فجاءة، أصابته حمّى و حرارة فوجد على فراشه ميّتا.

حكى أن عمّيه علىّ بن مصعب و حميد بن مصعب عاداه بغلس، فقال الخادم: هو نائم فانتظرا ساعة، فلما انبسط الفجر قالا للخادم: أيقظه؛ قال: لا أجسر؛ فدخلا عليه فوجداه ميّتا. و فيها توفّى عمر بن حبيب العدوىّ القاضى الحنفىّ البصرىّ هو من بنى عدىّ بن عبد مناة، قدم بغداد و ولى قضاء الشرقيّة بها و قضاء البصرة، و كان إماما عالما بارعا فى فنون كثيرة مشكور السيرة محبّبا الى الناس. رحمه اللّه. و فيها توفّى أبو عبيدة معمر بن المثنّى التّيمى البصرى النّحوىّ العلّامة مولى تيم قريش، كان من أعلم الناس بأنساب العرب و له مصنّفات مشهورة فى علوم كثيرة. و فيها توفّى الهيثم بن عدىّ بن عبد الرحمن بن يزيد الكوفىّ صاحب التواريخ و الأشعار، ولد بالكوفة و نشأ بها ثم انتقل الى بغداد، و كان مليح الشكل نظيف الثوب طيّب الرائحة حلو المحاضرة عالما بارعا.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفى جعفر بن عون، و طاهر ابن الحسين الأمير بخراسان، و أبو قتادة الحرّانى، و عبد الصمد بن عبد الوارث،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۸۵

و عمر بن حبيب العدوىّ، و أبو نوح قراد، و كثير بن هشام، و الواقدىّ، و محمد بن كناسة، و هاشم بن القاسم، و الهيثم بن عدىّ، و الفرّاء النحوىّ.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربعة أذرع و عشرون إصبعا، مبلغ الزيادة ستة عشر ذراعا و سبعة عشر إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۰۸]

السنة الثانية من ولاية عبيد اللّه على مصر و هى سنة ثمان و مائتين- فيها حجّ بالناس الأمير صالح أخو المأمون. و فيها استعفى محمد بن سماعة عن القضاء فأعفى، و ولّى المأمون عوضه إسماعيل بن حمّاد بن أبى حنيفة. و فيها خرج الحسن بن الحسين أخو طاهر بن الحسين المقدّم ذكره من خراسان الى كرمان ممتنعا بها، فسار اليه أحمد بن أبى خالد حتى أخذه و قدم به على المأمون فعفا عنه. و فيها ولّى المأمون محمد بن عبد الرحمن المخزومىّ قضاء عسكر المهديّة ثم عزله بعد مدّة، و ولّى عوضه بشر بن الوليد الكندىّ. و فيها توفّى صالح بن عبد الكريم البغدادىّ أحد الزهّاد العبّاد الورعين. و فيها توفّى الفضل بن الربيع بن يونس الحاجب الأمير أبو

الفضل، مولده سنة أربعين و مائة و حجب للرشيد و استوزره. و لما مات الرشيد استولى على الخزائن و قدم بها الى الأمين محمد ببغداد و معه البردة و القضيب و الخاتم فأكرمه الأمين و فوّض اليه أموره، فصار اليه الأمر و النهى. و لمّا خلع الأمين أخاه المأمون من ولاية عهد الخلافة استخفى ثم ظهر فى أيام المأمون، فأعاده المأمون الى رتبته الى أن مات. و فيها توفّيت السيّدة نفيسة ابنة الأمين الحسن بن زيد بن السيّد الحسن بن علىّ بن أبى طالب، الهاشميّة الحسنيّة الحسيبة النسيبة صاحبة المشهد بين مصر و القاهرة، و قد ولى أبوها إمرة المدينة لأبى جعفر المنصور مدّة، ثم قبض عليه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۸۶

و حبسه، الى أن أطلقه المهدىّ لما تخلّف و ردّ عليه جميع ما كان أخذه أبوه المنصور منه، و قد ذكرنا ذلك فى محلّه. و تحوّلت السيّدة نفيسة مع زوجها إسحاق بن جعفر الصادق من المدينة الى مصر، فأقامت بها الى أن ماتت فى شهر رمضان من هذه السنة من غير خلف فى وفاتها. و هى صاحبة الكرامات و البرهان، و قد شاع ذكرها شرقا و غربا. و فيها توفّى العتّابىّ و اسمه كلثوم بن عمرو بن أيوب الشاعر المشهور أحد البلغاء، كان أصله من قنّسرين، و قدم بغداد، و مدح الرشيد ثم أولاده الخلفاء من بعده؛ و كان منقطعا الى البرامكة، و كان يتزهّد و يلبس الصوف. و من شعره فيما قيل مواليا:

يا ساقيا خصّنى بما تهواه لا تمزج اقداحى رعاك اللّه

دعها صرفا فإننى أمزجها اذ أشربها بذكر من أهواه

قلت: و هذا يشبه قول القائل، و لم أدر لمن هو:

نديمى لا تسقنى سوى الصّرف فهو الهنى

ودع كأسها أطلسا و لا تسقنى مع دنى

و فيها توفى مسلم بن الوليد الأنصارىّ مولى أسعد بن زرارة الخزرجىّ الشاعر المشهور، كان فصيحا بليغا. و من شعره فيما قيل و قد رأيته لغيره و هو فى مليح أعمى مضمّنا:

بروحى مكفوف اللواحظ لم يدع سبيلا الى صبّ يفوز بخيره

سوالفه تفنى الورى خلّ لحظه و من لم يمت بالسيف مات بغيره

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۸۷

قلت: و هذا معنى ظريف فحضرنى فيه مقطوع غير أنه من غير المادّة:

كانتا مقلتاه قبل عماها لقتال الورى تسلّ نصالا

فأمنّا قتالها حين كفّت و كفى اللّه المؤمنين القتالا

و فيها توفّى الأمير موسى ابن الخليفة الأمين محمد بن الرشيد هارون العباسىّ الهاشمىّ الذى كان ولّاه أبوه الأمين العهد من بعده و سماه بالناطق بالحقّ و خلع المأمون و قامت تلك الحروب التى كان فيها هلاك الأمين. و كان موسى هذا عند جدّته لأبيه زبيدة بنت جعفر، و أمّه أمّ ولد و مات و سنه دون عشرين سنة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربعة أذرع و أربعة عشر إصبعا.

مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا و ثمانية عشر إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۰۹]

السنة الثالثة من ولاية عبيد اللّه بن السرىّ على مصر و هى سنة تسع و مائتين- فيها قرّب المأمون أهل الكلام و أمرهم بالمناظرة

بحضرته و صار ينظر فيما يدلّ عليه العقل، و جالسه بشر بن غياث المريسى، و ثمامة بن الأشرس و هؤلاء الجنوس. و فيها ولّى المأمون علىّ بن صدقة إمرة إرمينية و أذربيجان و أمره بمحاربة بابك و أعانه بأحمد ابن الجنيد الاسكافىّ فقاتل بابك فأسره بابك، فولّى المأمون عوضه إبراهيم بن الليث.

و فيها حجّ بالناس أمير مكة صالح بن العباس بن محمد بن علىّ العباسىّ. و فيها توفى بشر بن منصور الشيخ أبو محمد، كان أحد العبّاد الزهّاد المجتهدين، كان يتجنّب الناس و يتورّى بالخلوة. و فيها توفّى الحسن بن موسى أبو علىّ الأشيب الحنفىّ الخراسانىّ، كان ولى القضاء بالموصل ثم حمص فى أيام الرشيد، ثم ولى قضاء طبرستان للمأمون

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۸۸

و كان عالما عارفا. و فيها توفّى سعيد بن سلم بن قتيبة أبو محمد الباهلىّ البصرىّ، كان ولى بعض أعمال خراسان ثم قدم بغداد و حدّث بها، و كان عالما بالحديث و العربية و غيرهما رحمه اللّه. و فيها توفى الحسن بن زياد اللّؤلؤىّ الإمام، أحد العلماء الأعلام فقيه عصره أبو علىّ أحد أصحاب الإمام أبى حنيفة رضى اللّه عنه؛ و كان أصله من الكوفة و نزل بغداد. قال محمد بن شجاع الثلجىّ: سمعت الحسن بن أبى مالك يقول:

كان الحسن بن زياد اذا جاء الى أبى يوسف أهمّت أبا يوسف نفسه من كثرة سؤالاته. و قال ابن كاس النّخعىّ حدّثنا أحمد بن عبد الحميد بن الحارث قال:

ما رأيت أحسن خلقا من الحسن بن زياد و لا أقرب و لا أسهل جانبا مع توفّر فهمه و علمه و زهده و ورعه، و كان يكسو مماليكه كما يكسو نفسه. و قال جعفر بن محمد بن عبيد اللّه الهمدانى: سمعت يحيى بن آدم يقول: ما رأيت أفقه من الحسن بن زياد انتهى.

و كان ديّنا قوّالا بالحق، و قصّته مع الرشيد فى أمر يحيى العلوىّ و محمد بن الحسن مشهورة. و كانت وفاته فى هذه السنة، فى قول، و قيل: فى سنة أربع و هو الأصح رحمه اللّه. و فيها توفى سعيد بن وهب أبو عثمان البصرىّ مولى بنى سامة بن لؤىّ كان شاعرا مجيدا أكثر شعره فى الغزل و المجون و كان مقدّما عند البرامكة، و من شعره فى سوداء:

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۸۹

سوداء بيضاء الفعال كأنها نور العيون تخصّ بالأضواء

قالوا جننت بحبّها فأجبتهم أصل الجنون يكون بالسوداء

قلت: و أحسن ما قيل فى هذا المعنى قول القائل:

يا من فؤادى فيها متيّم لا يزال

إن كان للّيل بدر فأنت للصّبح خال

و فيها توفى عبد اللّه بن أيّوب أبو محمد التيمىّ من تيم اللّات بن ثعلبة أحد شعراء الدولة العباسيّة، مدح الأمين و المأمون و غيرهما و أجازه الأمين مرّة بمائتى ألف درهم دفعة واحدة فى قوله الأبيات المقدّم ذكرها فى ترجمة الأمين لمّا ضرب كوثر خادم الأمين، و أوّل الأبيات التى عملها عبد اللّه هذا:

ما لمن أهوى شبيه فبه الدنيا تتيه

وصله حلو و لكن هجره مرّ كريه

و فيها هلك طاغية الروم ميخائيل بن جرجس و ملك بعده ابنه توفيل.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمسة أذرع و ثمانية أصابع، مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا و ثمانية عشر إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۱۰]

اشارة

السنة الرابعة من ولایة عبید اللّه بن السریّ علی مصر و هی سنة عشر و مائتین- فیها ظفر المأمون بعمّه إبراهیم بن المهدیّ المعروف بابن شکلة (أمّه) الذی کان بویع بالخلافة و تلقّب بالمبارک، ظفر به و هو بزیّ النساء فعاتبه عتابا هیّنا ثم عفا عنه.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۹۰

و فی اختفاء ابراهیم هذا حکایات کثیرة. و فیها امتنع أهل قمّ فوجه الیهم المأمون علیّ بن هشام فحاربهم حتی هزمهم و دخل البلد و هدم سورها و استخرج منها سبعة آلاف ألف درهم. و فیها فی شهر رمضان توجّه المأمون الی فم الصّلح و بنی ببوران بنت الحسن بن سهل، و کائنة المأمون مع بوران المذکورة و تزویجه بها مشهور.

و فیها توفی حمید الطّوسیّ کان من کبار قوّاد المأمون و کان جبّارا و فیه قوّة و بطش و إقدام، کان ینـدبه المأمون للمهمّات. و فیها توفی شهریار بن شروین صاحب الدّیلم و ملک بعده ابنه سابور فنازعه علی الملک مازیار بن قارن و قهره و أسره و قتله و استولی المذکور علی الجبال و الدّیلم. و فیها توفی الأصمعیّ و اسمه عبد الملک بن قریب بن عبد الملک بن علیّ بن أصمع أبو سعید الباهلیّ البصریّ، و قیل: إنّ اسم قریب عاصم. و الأصمعیّ هذا هو صاحب العربیة و الغرائب و التصانیف المفیدة و الملح و اللغة و أیام الناس و أخبارهم، و کان مقرّبا عند الرشید و اختصّ بالبرامکة و نالته السعادة، و له مع الرشید و غیره من الخلفاء ماجریات لطیفة. و ذکر الذهبیّ وفاته فی سنة ستّ عشرة و مائتین بخلاف ما أثبتناه هنا؛ و فی وفاته اختلاف کبیر و أقوال کثیرة أقلّها من هذه السنة و أبعدها الی سنة ستّ عشرة و مائتین. و فیها توفّی عفّان بن مسلم أبو عثمان الصّفّار البصریّ مولی عزرة بن ثابت الأنصاریّ، ولد سنة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۹۱

أربع و ثلاثین و مائة و کان قد جمع بین العلم و الزّهد و السنّة. و فیها توفّیت علیّة بنت المهدیّ عمة المأمون و مولدها سنة ستین و مائة، و کانت من أجمل النساء و أظرفهنّ و أکملهنّ أدبا و عقلا و صیانة، و کان فی جبهتها سعة تشین وجهها فاتخذت العصابة المکلّلة بالجوهر لتستر جبینها بها، و هی أوّل من اتخذتها و سمّیت شدّ جبین لذلک.

الذین ذکر الذهبی وفاتهم فی هذه السنة، قال: و فیها توفّی أبو عمرو إسحاق الشّیبانیّ صاحب العربیّة، و الحسن بن محمد بن أعین الحرّانیّ، و عبد الصمد ابن حسّان المروزیّ، و محمد بن صالح بن بیهس أمیر عرب الشأم، و أبو عبیدة اللغویّ.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم خمسة أذرع و خمسة أصابع، مبلغ الزیادة سبعة عشر ذراعا و ثمانیة عشر إصبعا.

ذکر ولایة عبد اللّه بن طاهر علی مصر

هو عبد اللّه بن طاهر بن الحسین بن مصعب، الأمیر أبو العبّاس الخزاعیّ المصّیصیّ أمیر خراسان و أجلّ أعمال المشرق ثم أمیر مصر، ولی مصر من قبل المأمون بعد عزل عبید اللّه بن السّریّ علی الصلاة و الخراج معا، و دخل مصر فی یوم الثلاثاء للیلتین خلتا من شهر ربیع الأوّل سنة إحدی عشرة و مائتین بعد أن قاتل عبید اللّه بن السّریّ أیاما و أخذه بالأمان حسبما تقدّم ذکره فی ترجمة عبید اللّه بن السریّ. و مولد عبد اللّه بن طاهر هذا سنة اثنتین و ثمانین و مائة، و تأدّب فی صغره و قرأ العلم و الفقه و سمع من وکیع و عبد اللّه المأمون؛ و روی عنه اسحاق ابن راهویه و هو أکبر منه، و نصر بن زیاد و خلق سواهم. و کان بارع الأدب

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۹۲

حسن الشّعر، و تقلّد الأعمال الجلیلة و أوّل ولایته مصر، و لمّا ولی مصر و دخلها أمر عبید اللّه بن السّریّ بالخروج الی المأمون ببغداد، و أقام عبد اللّه بن طاهر هذا بعسکره الی أن خرج عبید اللّه بن السریّ من مصر فی نصف جمادی الأولی من السنة المذکورة، ثم سکن عبد اللّه بن طاهر المعسکر و جعل علی شرطته معاذ بن عزیز ثم عزله بعبدویه بن جبلة، ثم تهیّا للخروج الی الإسکندریة فخرج

اليها من مصر فى مستهلّ صفر سنة اثنتى عشرة و مائتين و استخلف على صلاة مصر عيسى بن يزيد الجلودىّ.

و كان قد نزل بالاسكندرية طائفة من المغاربة من الأندلس فى المراكب و عليهم رجل كنيته أبو حفص، فتوجّه اليهم عبد اللّه بن طاهر و قاتلهم حتى أجلاهم عن الإسكندرية. و قيل: بل نزحوا عنها قبل وصول عبد اللّه بن طاهر خوفا منه و توجهوا الى جزيرة أقريطش فسكنوها و بها بقايا من أولادهم الى الآن، و بعد خروجهم من الإسكندرية عاد عبد اللّه بن طاهر الى ديار مصر فى جمادى الآخرة و سكن بالمعسكر الى أن ورد عليه كتاب المأمون يأمره بالزيادة فى الجامع العتيق، فزيد فيه مثله و بعث يعلم المأمون بذلك و كتب له أبياتا من نظمه و هى:

أخى أنت و مولاى و من أشكر نعماه

فما أحببت من شىء فإنى الدهر أهواه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۹۳

و ما تكره من شىء فإنى لست أهواه

لك اللّه على ذاك لك اللّه لك اللّه

و كان عبد اللّه بن طاهر جوادا ممدّحا.

حكى أبو السّمراء قال: خرجنا مع عبد اللّه بن طاهر من العراق متوجّهين [الى مصر] حتى اذا كنّا بين الرّملة و دمشق و اذا بأعرابىّ قد اعترضنا على بعير له أورق و كان شيخا، فسلّم علينا فرددنا عليه السلام، و كنت أنا و إسحاق بن إبراهيم الرّافقىّ و إسحاق بن أبى ربعىّ و نحن نساير عبد اللّه بن طاهر، و كانت كسوتنا أحسن من كسوته، و دوابّنا أفره من دابّته؛ فجعل الأعرابىّ ينظر فى وجوهنا فقلنا: يا شيخ، قد ألححت فى النظر الينا، عرفت شيئا أم أنكرته؟ فقال: لا و اللّه، ما عرفتكم قبل يومى هذا و لا أنكرتكم لسوء أراه بكم، و لكنّى رجل حسن الفراسة فى الناس، جيّد المعرفة بهم؛ فأشرت الى إسحاق بن أبى ربعىّ و قلت: ما تقول فى هذا؟ فقال:

أرى كاتبا جاه الكتابة بيّن عليه و تأديب العراق منير

له حركات قد تشاهد أنه عليم بتقسيط الخراج بصير

ثم نظر الى إسحاق بن ابراهيم الرافقىّ و قال:

و مظهر نسك ما عليه ضميره يحبّ الهدايا بالرجال مكور

أخال به جبنا و بخلا و شيمة تخبّر عنه إنه لوزير

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۹۴

ثم نظر الىّ و قال:

و هذا نديم للأمير و مؤنس يكون له بالقرب منه سرور

و أحسبه للشعر و العلم راويا فبعض نديم مرّة و سمير

ثم نظر الى الأمير و قال:

و هذا الأمير المرتجى سيب كفّه فما إن له فيمن رأيت نظير

عليه رداء من جمال و هيبة و وجه بإدراك النجاح بشير

لقد عصم الإسلام منه بذى يد به عاش معروف و مات نكير

ألا إنما عبد الإله بن طاهر لنا والد برّ بنا و أمير

قال: فوقع ذلك من عبد اللّه بن طاهر أحسن موقع، و أعجبه مقالة الشيخ و أمر له بخمسمائة دينار و جعله فى صحابته.

ذكر واقعة أخرى لعبد اللّه بن طاهر هذا. قال الحسن بن يحيى الفهرىّ:

بینما نحن مع عبد اللّه بن طاهر بین سلمیّة و حمص و نحن نرید دمشق إذ عارضنا البطین الشاعر، فلما رأی عبد اللّه بن طاهر قال:

مرحبا مرحبا و أهلا و سهلا بابن ذی الجود طاهر بن الحسین

مرحبا مرحبا و أهلا و سهلا بابن ذی العزّتین فی الدّعوتین

مرحبا مرحبا بمن کفّه البح ر اذا فاض مزبد الرّجوتین

ما یبالی المأمون أیّده الل ه اذا کنتما له باقیین

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۹۵

أنت غرب و ذاک شرق مقیما أیّ فتق أتی من الجانبین

و حقیق اذ کنتما فی قدیم لزریق و مصعب و حسین

أن تنالا ما نلتماه من المج د و أن تعلوا علی الثّقلین

فأمر له عن کلّ بیت بألف دینار و سار معه الی مصر و الإسکندریة، و بینما هو راکب علی فرسه بالإسکندریة نزلت ید فرسه فی مخرج فوقع به فیه فمات.

و قیل: إنّ عبد اللّه هذا لما استولی علی مصر وهب له المأمون خراجها، فلم یدخلها حتی صعد المنبر، فما نزل حتی فرّق جمیع ذلک، و کان ثلاثة آلاف ألف دینار.

و قال سهل بن میسرة: لمّا رجع عبد اللّه بن طاهر من الشام الی بغداد صعد فوق سطح، فنظر الی دخان یرتفع من جواره فقال: ما هذا الدّخان؟ فقیل له:

لعلّ قوما یخبزون؛ فقال: أو یحتاج جیراننا الی ذلک! ثم دعا حاجبه و قال: امض و معک کاتب و أحص جیراننا من لا یقطعهم عنّا شارع، فمضی و أحصاهم فبلغ عددهم ألف نفس، فأمر لکلّ بیت بالخبز و اللحم و ما یحتاجون الیه، و بکسوة الشتاء و الصیف و الدراهم؛ فما زالوا کذلک حتی خرج من بغداد، فانقطع ذلک لکنّه صار یبعث الیهم من خراسان بالکسوة مدّة حیاته.

و قیل: إن المأمون سأل عبد اللّه بن طاهر هذا: أیّما أحسن، منزلی أم منزلک؟

قال: یا أمیر المؤمنین، منزلی، قال: و لم؟ قال: لأنی فیه مالک و أنا فی منزلک مملوک. و کان عبد اللّه بن طاهر لا یدخل فی منزله خصیّا، و یقول: هم بین النساء رجال، و بین الرجال نساء.

- و قال أحمد بن یزید السّلمیّ: کنت مع طاهر بن الحسین بالرّقّة فرفعت الیه قصص فوقّع علیها بصلات فبلغت ألفی ألف درهم و سبعمائة ألف درهم؛ ثم کنت

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۹۶

مع ولده عبد اللّه بن طاهر بالرّقّة فرفعت الیه القصص فوقّع علیها فزاد علی أبیه بألفی ألف درهم.

و قال محمد بن یزید الأمویّ الحصنیّ - و کان محمد هذا من ولد مسلمة بن عبد الملک بن مروان، و کان قد اعتزل الناس فی حصن له- قال: لمّا بلغنی خروج عبد اللّه بن طاهر من بغداد یرید قتال مصر أیقنت بالهلاک لما کان بلغه من ردّی علیه- یعنی قصیدته التی یقول فی أوّلها:

مدمن الإغضاء موصول و مدیم العتب مملول

من أبیات کثیرة- قال: و لما کان بلغنی هذه القصیدة أتقنت المنافیة، و قلت: یفتخر علینا رجل من العجم قتل ملکا من ملوک العرب بسیف أخیه!- یعنی بذلک أباه طاهرا لمّا قتل الأمین بسیف المأمون- فرددت علیه قصیدته بقصیدتی التی أوّلها:

لا یرعک القال و القیل کلّ ما بلغّت تهویل

و لم أعلم أنّ الأقدار تظفره بی؛ فلما قرب مجیء عبد اللّه بن طاهر استوحشت المقام خوفا علی نفسی و رأیت تسلیم نفسی عارا علیّ،

فأقمت مستسلما للأقدار، و أقمت جارية سوداء فى أعلى الحصن، فلم يرعنى إلا و هى تشير بيدها و اذا بباب الحصن يدقّ؛ فخرجت و إذا بعبد اللّه بن طاهر واقف وحده قد انفرد عن أصحابه؛ فسلمت عليه سلام خائف، فردّ علىّ ردّا جميلا؛ فأومأت أن أقبّل ركابه فمنعنى بألطف منع، ثم ثنى رجله و جلس على دكّة باب الحصن، ثم قال: سكّن روعک فقد أسأت

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۹۷

بنا الظنّ، و ما علمنا أنّ زيارتنا لک تروعک ثم كلّمنى و باسطنى؛ فلما زال روعى قال: أنشدنى قصيدتک التى منها:

يا بن بنت النار موقدها

فقلت: لا تنغّص إحسانک؛ فقال: ما قصدى إلا زيادة الأنس بک؛ فامتنعت.

فقال: و اللّه لا بدّ؛ فأنشدته القصيدة الى قولى:

ما لحاذيه سراويل

فقال: و اللّه لقد أحصينا ما فى خزائن ذى اليمينين [يعنى خزائن أبيه طاهر بن الحسين فإنّه كان يلقّب بذى اليمينين] بعد موته، فكان فيها ثلاثة آلاف سراويل من أصناف الثياب ما فى واحد منها تكّة، فما حملک على هذا؟ قلت: أنت حملتنى بقولک:

و أبى من لا كفاء له من يساوى مجده قولوا

فلما فخرت على العرب فخرنا على العجم؛ فقبل العذر و أظهر العفو؛ ثم قال:

هل لک فى الصحبة الى قتال مصر؟ فاعتذرت بالعجز عن الحركة، فأمر بإحضار

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۹۸

خمسة مراكب من مراكبه بسروجها و لجمها محلّاة بالذهب، و ثلاثة دوابّ من دوابّ الشاكرية، و خمسة أبغال من بغال النّقل، و ثلاثة تخوت فيها الثياب الفاخرة، و خمس بدر من الدراهم، و وضع الجميع على باب الحصن و اعتذر بالسفر؛ فمددت يدى لأقبّل يده فامتنع و سار لوقته.

و قال أبو الفضل الرّبعىّ: لما توجّه عبد اللّه بن طاهر الى خراسان قصده دعبل الشاعر، و كان ينادمه فى الشهر خمسة عشر يوما؛ فكان يصله فى الشهر بمائة ألف درهم و خمسين ألف درهم؛ فلما كثرت صلاته توارى عنه دعبل حياء منه، فطلبه عبد اللّه بن طاهر فلم يقدر عليه، فكتب اليه دعبل يقول:

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة؛ ج۲؛ ص۱۹۸

هجرتک لم أهجرک كفرا لنعمة و هل يرتجى نيل الزيادة بالكفر

و لكنّنى لما أتيتک زائرا فأفرطت فى برّى عجزت عن الشكر

فملآن لا آتيک إلّا معذّرا أزورک فى شهرين يوما و فى شهر

فإن زدت فى برّى تزايدت جفوة و لم تلقنى حتى القيامة فى الحشر

و بعد هذه الأبيات كتب: حدّثنى المأمون عن الرشيد عن المهدىّ عن المنصور عن أبيه محمّد عن أبيه علىّ عن أبيه عبد اللّه بن العباس عن النّبىّ صلى اللّه عليه و سلم قال: «من لا يشكر اللّه لا يشكر الناس و من لا يشكر القليل لا يشكر الكثير» فوصله عبد اللّه بثلاثمائة ألف درهم. و قال معافى بن زكريا: أوّل ما قصد دعبل عبد اللّه بن طاهر أقام مدّة لم يجتمع به و ضاق ما بيده فكتب اليه:

جئتک مستشفعا بلا سبب إليک إلّا بحرمة الأدب

فاقض ذمامى فإنّنى رجل غير ملحّ عليک فى الطلب

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۹۹

فبعث اليه بعشرة آلاف درهم و كتب اليه:

أعجلتنا فأتاک عاجل برّنا و لو انتظرت کثیرة لم یقلل

فخذ القلیل و کن کأنّک لم تسل و نکون نحن کأنّنا لم نفعل

و حکی أنه خرج من بغداد الی خراسان فسار و هو بین سمّاره، فلما وصل الی الرّیّ سحرا سمع صوت الأطیار فقال: للّه درّ أبی کبیر الهذلیّ حیث یقول:

ألا یا حمام الأیک إلفک حاضر و غصنک میّاد ففیم تنوح

ثم التفت الی عوف بن محلّم الشاعر فقال: أجز، فقال عوف أبیاتا علی وزن هذا البیت و قافیته؛ فلمّا سمعها عبد اللّه قال: أنخ، فو اللّه لا جاوزت هذا المکان حتی ترجع الیک أفراخک- یعنی الجائزة- و أمر له بکل بیت ألف درهم.

و قال أبو بکر الخطیب: دخل عوف بن محلّم علی عبد اللّه بن طاهر فسلّم، فردّ عبد اللّه علیه، و فی أذن عوف ثقل، فأنشد عوف المذکور:

یا بن الذی دان له المشرقان طرّا و قد دان له المغربان

إنّ الثمانین و بلّغتها قد أحوجت سمعی الی ترجمان

و قیل: إنّ عبد اللّه بن طاهر لما وصل الی مدینة مرو و جلس فی قصر الإمارة دخل علیه أبو یزید الشاعر و أنشده:

اشرب هنیئا علیک التاج مرتفعا فی قصر مرو ودع عدّان للیمن

فأنت أولی بتاج الملک تلبسه من هوذة بن علیّ و ابن ذی یزن

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۰۰

فأعطاه عشرین ألفا. و قیل: إنّه أنشده غیرهما و هو قوله أیضا:

یقول رجال إنّ مرو بعیدة و ما بعدت مرو و فیها ابن طاهر

و قیل: إنّ عبد اللّه بن طاهر قدم مرّة نیسابور فأمطروا، فقال بعض الشعراء:

قد قحط الناس فی زمانهم حتی إذا جئت جئت بالمطر

غیثان فی ساعة لنا أتیا فمرحبا بالأمیر و الدّرر

و من شعر عبد اللّه بن طاهر المذکور قوله:

نبّهته و ظلام اللیل منسدل بین الریاض دفینا فی الریاحین

فقلت خذ قال کفّی لا تطاوعنی فقلت قم قال رجلی لا تواتینی

إنّی غفلت عن الساقی فصیّرنی کما ترانی سلیب العقل و الدّین

و له نظم کثیر غیر ذلک. و لما دخل الی مصر و فرّق خراجها قبل أن یدخلها حسبما تقدّم ذکره أنشده عطاء الطائیّ- و کان عبد اللّه بن طاهر واجدا علیه قبل ذلک- قوله:

یا أعظم الناس عفوا عند مقدرة و أظلم الناس عند الجود للمال

لو یصبح النیل یجری ماؤه ذهبا لما أشرت الی خزن بمثقال

فأعجبه و عفا عنه؛ و اقترض عشرة آلاف دینار و دفعها الیه، فإنّه کان فرّق جمیع ما معه قبل دخول مصر.

و لمّا دخل عبد اللّه بن طاهر الی مصر قمع المفسدین بها و مهّد البلاد و رتّب أحوالها و أقام علی إمرة مصر سنة واحدة و خمسة أشهر و عشرة أیام، و خرج منها لخمس بقین من شهر رجب سنة اثنتی عشرة و مائتین؛ و استخلف علی مصر عیسی بن

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۰۱

یزید الجلودی علی صلاتها و رکب البحر و توجّه الی العراق؛ فلمّا قارب بغداد تلقّاه العباس ولد الخلیفة المأمون، و المعتصم محمد

أخو المأمون و أعیان الدّولة و قدم عبد اللّه بغداد و بین یدیه المتغلبون علی الشأم و مصر مثل ابن أبی الجمل و ابن أبی أسقر و غیرهما، فأکرمه المأمون؛ ثم ولّاه بعد ذلک الأعمال الجلیلة مثل خراسان و غیرها. و یقال: إن عبد اللّه بن طاهر المذکور هو الذی زرع بمصر البطیخ العبدلیّ و الیه ینسب بالعبدلیّ، و أظنّه ولّده عن نوعین، فإنّه لم یکن ببلد خلاف مصر ا ه. و عاش بعد عزله عن مصر سنین الی أن مات بمرو فی شهر ربیع الأوّل سنة ثلاثین و مائتین ه بعد أن مرض ثلاثة أیام بحلقه (یعنی بعلّة الخوانیق). و مات و له ثمان و أربعون سنة و قبل أن یموت تاب و کسّر الملاهی و عمّر الرّباطات بخراسان و وقف لها الوقوف و افتدی الأسری من التّرک بنحو ألفی ألف درهم. و کان عادلا فی الرعیة محبّبا لهم و کان عظیم الهیبة حسن المذهب شجاعا مقداما. و لما مات خلّف فی بیت ماله أربعین ألف ألف درهم سوی ما فی بیت مال العامة. و تولّی مصر من بعده عیسی ابن یزید الجلودیّ الذی استخلفه عبد اللّه المذکور، أقرّه المأمون علی إمرة مصر بسفارة عبد اللّه هذا ا ه.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۱۱]

السنة الأولی من ولایة عبد اللّه بن طاهر علی مصر و هی سنة إحدی عشرة و مائتین- فیها أمر المأمون بأن ینادی: برئت الذمّة ممّن ذکر معاویة بن أبی سفیان بخیر أو فضّله علی أحد من الصحابة؛ و أن أفضل الخلق بعد رسول اللّه صلی

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۰۲

اللّه علیه و سلم علیّ بن أبی طالب رضی اللّه عنه. و کان المأمون یبالغ فی التشیّع لکنّه لم یتکلم فی الشیخین بسوء، بل کان یترضّی عنهما و یعتقد إمامتهما. و فیها توفی عبد الرزاق بن همّام بن نافع الحافظ، أبو بکر الصّنعانیّ الحمیریّ، مولده سنة ستّ و عشرین و مائة ه؛ و سمع الکثیر و روی عنه خلق من کبار المحدّثین: مثل أحمد بن حنبل و یحیی بن معین و غیرهما. و مات بالیمن فی النصف من شوّال من السنة.

و فیها توفی معلّی بن منصور، الحافظ أبو یعلی الرازیّ الحنفیّ، کان ثقة صدوقا نبیلا حلیلا صاحب فقه و سنّة کثیر الحدیث صحیح السماع؛ سئل عن القرآن فقال: من قال: إنّه مخلوق فهو کافر. و طلب للقضاء فامتنع رحمه اللّه تعالی. و فیها توفی موسی بن سلیمان أبو سلیمان الجرجانیّ الحنفیّ، کان إماما فقیها بصیرا بالفقه و السّنة و کان صدوقا، عرض علیه المأمون القضاء فامتنع و اعتذر بعذر مقبول رحمه اللّه تعالی.

الذین ذکر الذهبیّ وفاتهم فی هذه السنة، قال: و فیها توفی علیّ بن الحسین بن واقد بمرو، و عبد اللّه بن صالح العجلی المقرئ، و الأحوص بن جوّاب أبو الجوّاب الضّبّیّ، و طلق بن غنّام ثلاثتهم بالکوفة، و أبو العتاهیة الشاعر ببغداد.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم خمسة أذرع و ثمانیة أصابع، مبلغ الزیادة سبعة عشر ذراعا و ثمانیة أصابع.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۰۳

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۱۲]

اشارة

السنة الثانیة من ولایة عبد اللّه بن طاهر علی مصر و هی سنة اثنتی عشرة و مائتین- فیها وجّه المأمون محمد بن طاهر علی مصر. و فیها وجّه المأمون محمد بن حمید الطّوسیّ لمحاربة بابک الخرّمیّ. و فیها أظهر المأمون القول بخلق القرآن مضافا الی تفضیل علیّ بن أبی

طالب على أبى بكر و عمر، رضى اللّه عنهم أجمعين؛ و اشمأزّت النفوس منه و أشخص العلماء و آذاهم و ضربهم و حبسهم و نفاهم و قويت شوكة الخوارج.

و خلع المأمون من الخلافة الأمير أحمد بن محمد العمرىّ المعروف بالأحمر [العين] ببلاد اليمن؛ ثم سار المأمون الى دمشق و صام بها رمضان و توّجه فحجّ بالناس. و فيها فى شهر ربيع الأوّل كتب المأمون الى الآفاق بتفضيل علىّ بن أبى طالب رضى اللّه عنه على جميع الصحابة. و فيها توفى أحمد بن أبى خالد الوزير أبو العباس وزير المأمون، كان أبوه كاتبا لأبى عبد اللّه وزير المهدىّ جدّ المأمون، و كان أحمد هذا فاضلا مدبّرا جوادا ذا رأى و فطنة إلّا أنه كانت أخلاقه سيئة؛ قال له رجل يوما:

و اللّه لقد أعطيت ما لم يعطه رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم؛ فقال: و اللّه لئن لم تخرج ممّا قلت لأعاقبنّك؛ قال: قال اللّه تعالى: وَ لَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ و أنت فظّ غليظ القلب و ما ننفضّ من حولك!.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۰۴

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة؛ قال: و فيها توفى أبو عاصم النبيل، و عبد الرحمن بن حمّاد الشّعيثىّ، و عون بن عمارة العبدىّ بالبصرة، و محمد بن يوسف الفريابىّ بقيسارية، و متبّه بن عثمان بدمشق، و أبو المغيرة عبد القدّوس الخولانىّ بحمص، و زكريا بن عدىّ ببغداد، و عبد الملك بن عبد العزيز الماجشون الفقيه بالمدينة، و علىّ بن قادم بالكوفة، و خلّاد بن يحيى بمكّة، و الحسين بن حفص الهمدانىّ بأصبهان، و عيسى بن دينار الغافقىّ الفقيه بالأندلس.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمسة أذرع و ستة أصابع، مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا و سبعة أصابع.

ذكر ولاية عيسى بن يزيد الأولى على مصر

هو عيسى بن يزيد الجلودىّ، ولى إمرة مصر باستخلاف عبد اللّه بن طاهر عليها، فأقرّه المأمون على إمرة مصر و جمع له الصلاة و الخراج، فتحوّل الى المعسكر و سكن به على عادة الأمراء؛ و جعل على شرطته ابنه محمدا و على المظالم إسحاق بن متوكّل. و كانت ولايته على مصر نيابة عن عبد اللّه بن طاهر، فدام عيسى هذا على إمرة مصر الى سابع عشر ذى القعدة سنة ثلاث عشرة و مائتين ه. [و] صرف المأمون عبد اللّه بن طاهر عن إمرة مصر و ولّاها لأخيه المعتصم محمد بن هرون الرشيد. فلما

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۰۵

ولى المعتصم مصر أقرّ عيسى هذا على الصلاة فقط، و جعل على خراج مصر صالح بن شيرزاد. فلما ولى صالح المذكور الخراج ظلم الناس و زاد الخراج و عسف فانتقض عليه أهل الحوف و اجتمعوا و عسكروا و عزموا على قتاله، و كان عليهم عبد السلام و ابن الجليس فى القيسيّة و اليمانيّة؛ فقام عيسى بن يزيد بنصرة صالح و بعث ابنه محمدا فى جيش فحاربوه فانهزم و قتل أصحابه. و ذلک فى صفر سنة أربع عشرة و مائتين ه.

و بلغ الخبر أبا اسحاق المعتصم فعظم عليه و عزل عيسى هذا عن إمرة مصر و ولّى عوضه عمير بن الوليد التميمىّ. فكانت ولاية عيسى على مصر فى هذه المرّة الأولى سنة و سبعة أشهر و أياما.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۱۳]

اشارة

السنة التى حكم فى بعضها عيسى بن يزيد على مصر و هى سنة ثلاث عشرة و مائتين ه- فيها خرج عبد السلام و ابن الجليس فى

القیسیّة و الیمانیّة بمصر، فولّی المأمون أخاه أبا إسحاق المعتصم علی مصر و عزل عبد اللّه بن طاهر. و قد ذکرنا ذلک کلّه فی ترجمة عیسی بن یزید. و فیها ولّی المأمون ولده العباس علی الجزیرة و أمر لکلّ من المعتصم و العباس بخمسمائة ألف دینار، و أمر بمثل ذلک لعبد اللّه بن طاهر المعزول عن إمرة مصر حتی قیل: إنه لم یفرّق ملک و لا سلطان فی یوم واحد مثل ما فرّقه المأمون فی هذا الیوم.

قلت: لعل الدینار یوم ذاک لم یکن مثل دینارنا الیوم بل یکون مثل دنانیر المشارقة التی تسمی بتنکتا و اللّه أعلم. و فیها استعمل المأمون علی السند الأمیر غسّان ابن عبّاد، و کان غسّان هذا من رجال الدّهر حزما و عزما، و کان ولی خراسان قبل

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۰۶

ذلک و عزل بعبد اللّه بن طاهر المقدّم ذکره. و فیها توفی أحمد بن یوسف بن القاسم ابن صبح، أبو جعفر الکاتب الکوفیّ مولی بنی العجل کاتب المأمون علی دیوان الرسائل؛ کان من أفضل الکتّاب فی عصره و أذکاهم و أجمعهم للمحاسن، و کان فصیح اللسان ملیح الخطّ یقول الشعر الجیّد، قال له رجل یوما: ما أدری ممّ أعجب، مما ولیه اللّه من حسن خلقک، أو مما ولّیته من تحسین خلقک! و فیها توفی أسود بن سالم أبو محمد البغدادیّ الزاهد الورع الصالح المشهور، کان بینه و بین معروف الکرخیّ مودّة و محبّة، و کان من کبار القوم و ممن له کرامات و أحوال. و فیها توفّی بشر بن أبی الأزهر یزید الإمام أبو سهل القاضی الحنفیّ، کان من أعیان فقهاء أهل الکوفة و زهّادها، سأله رجل عن مسألة فأخطأ فیها فعزم أن یقصد عبد اللّه بن طاهر الأمیر لینادی علیه فی البلدان: بشر أخطأ فی مسألة فی النّکاح حتی ردّه رجل و قال: أنا أعرف الرجل الذی سألک، فأتی به إلیه فقال له: أنا أخطأت و قد رجعت عن قولی، و الجواب فیه کذا و کذا.

قلت: للّه درّ هذا العالم الذی یعمل بعلمه رحمه اللّه تعالی.

و فیها توفّی ثمامة بن أشرس أبو معن النّمیریّ البصریّ الماجن، کان له نوادر و اتّصل بهارون الرشید و ولده المأمون. قیل: إنه خرج بعد المغرب من منزله سکران فصادفه المأمون فی نفر، فلما رأه ثمامة عدل عن طریقه و قد أبصره المأمون، فساق الیه المأمون و حاذاه، فقال له: ثمامة؟ قال: إی و اللّه، قال: سکران أنت؟ قال:

لا و اللّه، قال: أفتعرفنی؟ قال: إی و اللّه، قال: فمن أنا؟ قال: لا أدری و اللّه؛ فضحک المأمون حتی کاد یسقط عن دابّته. و لثمامة هذا حکایات کثیرة من هذا

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۰۷

الجنس. و فیها توفّی أبو عاصم النّبیل فی قول صاحب المرآة قال: و اسمه الضّحّاک الشّیبانیّ البصریّ الحافظ المحدّث، کان فقیها عالما حافظا سمیع الکثیر و حدّث و سمع منه خلق و مات فی ذی الحجّة.

الذین ذکر الذهبیّ وفاتهم فی هذه السنة، قال: و فیها توفّی عبد اللّه بن موسی العبسیّ، و خالد بن مخلد القطوانیّ بالکوفة، و عمرو بن عاصم الکلابیّ بالبصرة، و أبو عبد الرحمن عبد اللّه بن یزید المقرئ بمکّة، و عمرو بن أبی سلمة و الهیثم بن جمیل الحافظ بأنطاکیة.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم ثلاثة أذرع و عشرون إصبعا، مبلغ الزیادة خمسة عشر ذراعا و خمسة عشر إصبعا و نصف.

ذکر ولایة عمیر بن الولید علی مصر

هو عمیر بن الولید الباذغیسیّ التمیمیّ أمیر مصر، ولی مصر باستخلاف أبی إسحاق محمد المعتصم له لأن الخلیفة المأمون کان ولّی مصر لأخیه المعتصم بعد عزل عبد اللّه ابن طاهر و ولّی المعتصم عمیرا هذا علی الصلاة لسبع عشرة خلت من صفر سنة أربع عشرة و مائتین، و سکن المعسکر و جعل علی شرطته ابنه محمدا؛ و عند ما تمّ أمره خرج علیه القیسیّة و الیمانیّة الذین کانوا خرجوا قبل تاریخه و علیهم عبد السلام و ابن الجلیس، فتهیأ عمیر هذا و جمع العساکر و الجند و خرج لقتالهم و خرج معه أیضا فیمن خرج الأمیر عیسی

بن یزید الجلودیّ المعزول به عن إمرة مصر، و ذلک فی شهر ربیع الأوّل من سنة أربع عشرة و مائتین، و استخلف عمیر ابنه محمدا علی صلاة مصر، و سافر بجیوشه حتی التقی مع أهل الحوف القیسیّة و الیمانیة؛ فکانت بینهم وقعة هائلة و قتال و معارک و ثبت کلّ من الفریقین حتی قتل عمیر هذا فی المعرکة لستّ عشرة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۲، ص: ۲۰۸

خلّت من شهر ربیع الأوّل المذکور. و قال صاحب البغیة: قتل عمیر فی یوم الثلاثاء لثلاث عشرة خلت من شهر ربیع الأوّل، فوافق فی الشهر و السّنة، و خالف فی الیوم.

قلت: و کانت ولایة عمیر بن الولید المذکور علی مصر استقلالا من قبل أبی إسحاق المعتصم شهرین سواء و تولّی من بعده مصر عیسی بن یزید الجلودیّ ثانیا.

ذکر ولایة عیسی بن یزید الجلودیّ ثانیا علی مصر

ولی عیسی بن یزید هذا مصر ثانیا من قبل أبی إسحاق محمد المعتصم بعد قتل عمیر ابن الولید علی الصلاة، و لما ولی مصر، قصده قیس و یمن علی العادة و قد کثر جمعهم من أهل الحوف و قطّاع الطریق، فوقع لعیسی هذا أیضا معهم حروب و فتن، و جمع عساکره و خرج إلیهم حتی التقاهم بمنیة مطر (أعنی المطریّة بقرب مدینة عین شمس التی فیها العمود الذی تسمّیه العامّة بمسلّة فرعون) و قاتلهم؛ فکانت بینهم حروب هائلة انکسر فیها الأمیر عیسی بمن معه و قتل من عسکره خلائق و انحاز الی مصر، و ذلک فی شهر رجب من سنة أربع عشرة و مائتین المذکورة؛ و بلغ المأمون ذلک فعظم علیه و طلب أخاه أبا إسحاق محمدا المعتصم و ندبه للخروج الی مصر و قال له:

امض إلی عملک و أصلح شأنه، و کان المعتصم شجاعا مقداما؛ فخرج المعتصم من بغداد فی أربعة آلاف من أتراکه و سافر حتی قدم مصر فی أیام یسیرة و عیسی کالمحصور مع أهل الحوف، و قبل دخوله الی مصر بدأ بقتال أهل الحوف من القیسیّة و الیمانیّة و قاتلهم و هزمهم و قتل أکابرهم و وضع السیف فی القیسیّة و الیمانیّة حتی أفناهم، و ذلک فی شعبان من السنة و مهّد البلاد و أباد أهل الفساد؛ ثم دخل الفسطاط (أعنی مصر) و فی خدمته عیسی الجلودیّ و جمیع أعیان المصریین

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۲، ص: ۲۰۹

لثمان بقین من شعبان، و سکن بالمعسکر حتی أصلح أحوال مصر؛ ثم خرج منها الی الشأم فی غرّة المحرّم سنة خمس عشرة و مائتین فی أتراکه و معه جمع کثیر من الأسری فی ضرّ و جهد شدید مشاة حفاة أمام الخیّالة.

قلت: و شجاعة المعتصم معروفة مشهورة تذکر فی خلافته و وفاته، و هو الآن ولیّ عهد أخیه عبد اللّه المأمون؛ و قبل أن یخرج من مصر مهّد أمورها و ولّی علیها عبدویه بن جبلة و عزل عیسی بن یزید الجلودیّ صاحب الترجمة. فکانت ولایة عیسی هذه الثانیة علی مصر نحوا من ثمانیة أشهر تنقص أیّاما.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۱۴]

اشارة

السنة التی حکم فیها علی مصر عمیر بن الولید ثم عیسی بن یزید الجلودیّ ثانیا و هی سنة أربع عشرة و مائتین- فیها قتل الأمیر محمد بن الحمید الطّوسیّ فی حرب کان بینه و بین أصحاب بابک الخرّمیّ. و فیها أیضا قتل أبو الدّاریّ أمیر الیمن. و فیها کانت قتلة عمیر

بن الوليد صاحب مصر المقدّم ذكره. و فيها خرج بلال الشّاريّ و قويت شوكته، فندب الخليفة المأمون لحربه هارون بن أبى خلف فتوجّه اليه و قاتله و ظفر به و قتله. و فيها ولّى المأمون أذربيجان و أصبهان و الجبال و حرب بابک الخرّميّ الأمير علىّ بن هشام، فتوجّه علىّ المذكور بجيوشه و قاتل بابک و واقعه فى هذه السنة غير مرّة.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۱۰

قلت: و قد طال أمر بابک هذا على الناس و امتدّت أيامه و حاربه جماعة كثيرة من أمراء المأمون و تعب الناس من أجله تعبا زائدا و هو لا يكلّ من الخروج و القتال إلى ما سيأتى ذكره إن شاء اللّه تعالى.

و فيها توفّى أحمد بن جعفر الحافظ أبو عبد الرحمن الوكيعىّ الضّرير البغداديّ، و سمّى الوكيعىّ لملازمته وكيع بن الجرّاح المقدّم ذكره.

قال إبراهيم الحربىّ: كان الوكيعىّ يحفظ مائة ألف حديث.

و فيها توفى الإمام أبو زيد النحوىّ البصرىّ و اسمه سعيد بن أوس بن ثابت الأنصاريّ، كان إماما فى علم النحو و اللغة و الأشعار و مذاهب العرب و آبائهم و أيامهم، و كان ثقة حافظا صدوقا.

و فيها توفى قبيصة بن عقبة الحافظ أبو عامر السّوائى هو من بنى عامر ابن صعصعة، كان إماما حافظا زاهدا قنوعا أسند عن سفيان الثّوريّ و الحمّادين و غيرهم، و روى عنه الإمام أحمد بن حنبل رضى اللّه عنه و غيره.

و فيها توفّى الوليد بن أبان الكرابيسىّ المعتزلىّ، كان من كبار المعتزلة بالبصرة و له فى الاعتزال مقالات معروفة يقوّى بها مذاهب المعتزلة.

قلت: كان من كبار العلماء ذكره المسعوديّ و أثنى على علمه و فضله.

و فيها توفّى أبو العتاهية الشاعر المشهور أبو اسحاق اسماعيل بن القاسم بن سويد ابن كيسان العنزىّ مولاهم الكوفىّ نزيل بغداد و أصله من سبى عين التّمر و لقبوه بأبى العتاهية لاضطراب كان فيه.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۱۱

و قيل: بل كان يحب الخلاعة فكنى بذلک. و هو أحد فحول الشعراء و نسک فى آخر عمره و مال للزهد و الوعظ. مات فى هذه السنة. و قيل: سنة ثلاث عشرة و مائتين و هو الأقوى، و قيل: فى جمادى الآخرة سنة إحدى عشرة و مائتين و هو الذى ذكره الذهبىّ. و مدح المهدىّ و من بعده من الخلفاء، و من مديحه:

إنّ المطايا تشتكيک لأنها تطوى اليک سباسبا و رمالا

فإذا رحلن بنا رحلن مخفّة و اذا رجعن بنا رجعن ثقالا

و له:

يا رب إن الناس لا ينصفوننى فكيف إذا أنصفتهم ظلمونى

و إن كان لى شىء تصدّوا لأخذه و إن جئت أبغى سيبهم منعونى

و إن نالهم بذلى فلا شک عندهم و إن أنا لم أبذل لهم شتمونى

و ما أحسن قوله:

هب الدّنيا تساق إليک عفوا أليس مصير ذاک الى زوال

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفى أحمد بن خالد الذّهبىّ بحمص، و عبد اللّه بن عبد الحكم الفقيه بمصر، و سعيد بن سلّام العطّار بالبصرة، و محمد بن الحميد الطّوسىّ الأمير قتل فى حرب الخرّميّة، و أبو الدّاريّ أمير اليمن قتل أيضا، و عمير الباذغيسىّ نائب مصر خلافة عن المعتصم، قتل فى الحوف فى حرب ابن الجليس و عبد السلام؛ فسار أبو إسحاق بنفسه اليهما فظفر

بهما و قتلهما. انتهى كلام الذهبىّ.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۱۲

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثلاثة أذرع و ستة عشر إصبعا، مبلغ الزيادة ستة عشر ذراعا و عشرون إصبعا و نصف.

ذكر ولاية عبدويه بن جبلة على مصر

هو عبدويه بن جبلة أصله من الأبناء من قوّاد بنى العباس، ولّاه المعتصم نيابة عنه على صلاة مصر بعد عزل عيسى بن يزيد الجلودىّ عن إمرة مصر فى مستهلّ المحرّم سنة خمس عشرة و مائتين؛ ثم خرج المعتصم بعد ولايته إلى الشأم حسبما تقدّم ذكره؛ و بعد سفر المعتصم تحوّل عبدويه هذا الى المعسكر و سكن به على عادة الأمراء، و جعل على الشّرطة ابنه، و على المظالم اسحاق بن اسماعيل بن حمّاد بن زيد؛ و لمّا ولى مصر أخذ فى إصلاح أحوالها و إثبات ما قرّره المعتصم بها من الأمور. و بينما هو فى ذلك خرج عليه أناس من الحوفيّة أيضا من القيسيّة و اليمانيّة فى شعبان من السنة، فتهيّأ عبدويه لمحاربتهم و جهّز اليهم جيشا فسار اليهم الجيش و حاربوهم و ظفروا بهم بعد أمور ثم حضر اليه بعد ذلك الأفشين حيدر بن كاوس الصّغدىّ الى مصر فى ثالث ذى الحجة من السنة و معه علىّ بن عبد العزيز الجروىّ لأخذ المال فلم يدفع اليه عبدويه و قاتله، فخرج الأفشين الى برقة، و صرف عبدويه بن جبلة عن إمرة مصر بعيسى بن منصور بن موسى؛ و بعد عزل عبدويه المذكور عاد الأفشين الى مصر و أقام بها على ما سيأتى ذكره، فكانت ولاية عبدويه بن جبلة على مصر نيابة عن أبى اسحاق محمد المعتصم سنة واحدة.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۱۳

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۱۵]

اشارة

السنة التى حكم فيها عبدويه بن جبلة على مصر و هى سنة خمس عشرة و مائتين- فيها وصل أبو إسحاق المعتصم من مصر الى الموصل و اجتمع بأخيه الخليفة عبد اللّه المأمون و عرّفه ما فعل بمصر فشكره على ذلك. و فيها سار المأمون من الموصل الى غزو دابق و أنطاكية فغزاهما و توجّه إلى الشأم و دخلها و أقام بها، و كتب الى نائبه ببغداد إسحاق بن إبراهيم أن يأخذ الجند بالتكبير اذا صلّوا الجمعة، و بعد الصلوات الخمس اذا قضوا الصلاة أن يصيحوا قياما و يكبّروا ثلاث تكبيرات، ففعل ذلك فى شهر رمضان فقال الناس: هذه بدعة ثالثة.

قلت: البدعة الأولى لبس الخضرة و تقريب للعلويّة و إبعاد بنى العباس؛ و الثانية القول بخلق القرآن و هى المصيبة العظمى؛ و الثالثة هذه. ثم فيها أباح المأمون أيضا المتعة فقال الناس: هذه بدعة رابعة. و فيها غضب المأمون على الأمير علىّ بن هشام و بعث اليه عجيفا و أحمد بن هشام لقبض أمواله.

و فيها توفّى الأمير إسماعيل بن جعفر بن سليمان بن علىّ بن عبد اللّه بن العباس أبو الحسن الهاشمىّ العباسىّ، كان من أعيان بنى العباس و أفاضلهم، و ولى الأعمال الجليلة بعدّة بلاد.

و فيها توفيت زبيدة بنت جعفر بن أبى جعفر المنصور بن محمد بن علىّ بن عبد اللّه ابن العباس، أم جعفر الهاشمية العبّاسيّة، و اسمها أمة العزيز زوجة هارون الرشيد

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۱۴

و بنت عمّه و أمّ ولده الأمين محمد المقتول بيد طاهر بن الحسين بسيف المأمون، و قد تقدّم ذكر ذلك كلّه. و ماتت زبيدة و هى أعظم نساء عصرها دينا و أصلا و جمالا و صيانة و معروفا، أحصى ما أنفقته فى حجّة واحدة فكان ألفى ألف دينار، قاله أبو المظفّر فى مرآة الزمان.

قلت: و لعلّها عمّرت فى هذه الحجّة المصانع التى بطريق الحجاز أو بعضها ا ه.

و كان فى قصر زبيدة مائة جارية تقرأ القرآن. فكان يسمع من قصرها دوىّ كدوىّ النّحل من القراءة، و لم تزل زبيدة فى حشمها أيام زوجها الرشيد و فى أيام ولدها محمد الأمين و فى أيام ابن زوجها عبد اللّه المأمون، لم يتغيّر من حالها شىء الى أن ماتت فى هذه السنة؛ و قيل فى سنة ستّ عشرة و مائتين و هو الأشهر. و أما ما فعلته من المآثر و المصانع بالحجاز و غيره فهو معروف لا يحتاج إلى ذكره هنا، و كانت مع هذا الجمال و الحشمة فصيحة لبيبة عاقلة مدبّرة؛ قيل: إنّ المأمون دخل اليها بعد قتل ابنها الأمين يعتذر اليها و يعزّيها فيه و يسكّن ما بها من الحزن، فقال لها: يا ستّاه، لا تأسفى عليه فإنى عوضه لك؛ فقالت: يا أمير المؤمنين، كيف لا آسف على ولد خلّف أخا مثلك! ثم بكت و أبكت المأمون حتى غشى عليه.

قلت: و لم يكن قتل الأمين بإرادة أخيه المأمون و انما اقتحمه طاهر بن الحسين و قتله من غير إذن المأمون، و حقد المأمون عليه لذلك و لم يسعه الا السكوت.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۱۵

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أبو زيد الأنصارىّ صاحب العربيّة بالبصرة و اسمه سعيد بن أوس، و العلاء بن هلال الباهلىّ بالرّقّة، و محمد ابن عبد اللّه الأنصارىّ القاضى بالبصرة، و مكّىّ بن ابراهيم الحنظلىّ ببلخ، و علىّ ابن الحسن بن شقيق بمرو، و محمد بن مبارك الصّورىّ بدمشق، و إسحاق بن عيسى ابن الطبّاع ببغداد.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثلاثة أذرع و ثمانية عشر إصبعا، مبلغ الزيادة ثلاثة عشر ذراعا و أحد و عشرون إصبعا.

ذكر ولاية عيسى بن منصور على مصر

هو عيسى بن منصور بن موسى بن عيسى الرافقىّ مولى بنى نصر بن معاوية أمير مصر، وليها من قبل أبى إسحاق محمد المعتصم بعد عزل عبدويه بن جبلة عنها فى مستهلّ سنة ستّ عشرة و مائتين على الصلاة، و سكن عيسى بالمعسكر على عادة الأمراء، و جعل على شرطته أبا المغيث يونس بن ابراهيم. و فى أيام ولايته انتقضت عليه أسفل الأرض بغربها أعنى بالوجه البحرىّ، و انضم الأقباط عليهم و ذلك فى جمادى الأولى، و حشدوا و جمعوا فكثر عددهم و ساروا نحو الديار المصرية؛ فتجهّز عيسى و جمع العساكر و الجند لقتالهم فضعف عن لقائهم و تقهقر بمن معه، فدخلت الأقباط و أهل الغربية مصر و أخرجوا منها عيسى هذا على أقبح وجه لسوء سيرته، و خرج معه أيضا متولّى خراج مصر و خلعوا الطاعة؛ فقدم الأفشين

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۱۶

من برقة و تهيّأ لقتال القوم فى النصف من جمادى الآخرة، و انضمّ عليه عيسى ابن منصور هذا و من انضاف اليه، و تجمعوا و تجهّزوا لقتال القوم و خرجوا فى شوّال و واقعوهم فظفروا بهم بعد أمور و حروب و أسروا و قتلوا و سبوا؛ ثم مضى الأفشين الى الحوف و قاتلهم أيضا لما بلغه عنهم و بدّد جمعهم و أسر منهم جماعة كبيرة بعد أن بضّع فيهم و أبدع؛ و دامت الحروب فى السنة المستمرّة بمصر فى كلّ قليل الى أن قدمها أمير المؤمنين عبد اللّه المأمون لخمس خلون من المحرّم سنة سبع عشرة و مائتين، فسخط على عيسى بن منصور المذكور و حلّ لواءه و عزله و نسب له كلّ ما وقع بمصر و لعمّاله؛ ثم جهّز العساكر لقتال أهل الفساد و أحضر بين يديه عبدوس الفهرىّ فضربت عنقه لأنه كان أيضا ممن تغلّب على مصر. ثم سار عسكره لقتال أسفل الأرض أهل الغربية و الحوف و أوقعوا بهم و سبوا القبط و قتلوا مقاتلتهم و أبادوهم و قمعوا أهل الفساد من سائر أراضى مصر بعد أن قتلوا منهم مقتلة عظيمة، ثم رحل

الخلیفة المأمون من مصر لثمان عشرة خلت من صفر بعد أن أقام بمصر و أعمالها (مثل سخا و حلوان و غیرهما) تسعة و أربعین یوما؛ و ولّی علی صلاة مصر کیدر و علی الشّرطة أحمد بن بسطام الأزدیّ من أهل بخارا. و عمّر المقیاس و جسرا آخر بالجزیرة تجاه الفسطاط.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۱۶]

اشارة

السنة التی حکم فیها عیسی بن منصور علی مصر و هی سنة ست عشرة و مائتین- فیها کرّ المأمون راجعا من العراق الی غزو الروم لکونه بلغه أنّ ملک

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۱۷

الروم قتل خلقا من المسلمین من أهل طرسوس و المصّیصة، فسار الیها حتی وصلها فی جمادی الأولی من السنة فأقام بها الی نصف شعبان؛ و جهّز أخاه أبا إسحاق محمدا المعتصم لغزو الروم فسار و افتتح عدّة حصون، ثم وجّه المأمون أیضا القاضی یحیی ابن أکثم الی جهة أخری من الروم فتوجّه و أغار و قتل و سبی، ثم رجع المأمون فی آخر السنة الی دمشق و توجّه منها الی الدیار المصریة حسبما تقدّم ذکره و دخلها فی أوّل سنة سبع عشرة و مائتین.

و فیها توفی محمد بن عبّاد بن حبیب بن المهلّب بن أبی صفرة، کان من أکابر؟؟؟ مراء، ولی إمرة البصرة و الصلاة بها و غیرها، و کان جوادا ممدّحا قدم مرّة علی المأمون فقال له: یا محمد أردت أن أولّیک فمنعنی إسرافک فی المال؛ فقال: یا أمیر المؤمنین، منع الموجود سوء الظنّ بالمعبود؛ فقال له المأمون: لو شئت أبقیت علی نفسک؛ فقال محمد: من له مولی غنیّ لا یفتقر، فاستحسن المأمون ذلک منه و ولّاه عملا.

و قیل للعتبیّ: مات محمد بن عبّاد؛ فقال: نحن متنا بفقده و هو حیّ بمجده.

الذین ذکر الذهبیّ وفاتهم فی هذه السنة، قال: و فیها توفّی حبّان بن هلال، و عبد الملک بن قریب الأصمعیّ، و محمد بن کثیر المصّیصیّ الصّنعانیّ، و الحسن بن سوّار البغویّ، و عبد اللّه بن نافع المدنیّ الفقیه، و عبد الصمد بن النعمان البزاز، و محمد بن بکّار بن بلال قاضی دمشق، و محمد بن عبّاد المهلّبیّ أمیر البصرة، و محمد ابن سعید بن سابق نزیل قزوین، و زبیدة زوجة الرشید و ابنة عمه.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم ثلاثة أذرع سواء، مبلغ الزیادة خمسة عشر ذراعا و عشرة أصابع.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۱۸

ذکر ولایة کیدر علی مصر

هو کیدر و اسمه نصر بن عبد اللّه و کیدر شهرة غلبت علیه، الأمیر أبو مالک الصّغدیّ؛ ولی إمرة مصر بعد عزل عیسی بن منصور فی صفر سنة سبع عشرة و مائتین من قبل المأمون علی الصلاة فسکن المعسکر علی عادة الأمراء بعد رحیل المأمون، و جعل علی شرطته ابن إسبندیار. ثم بعث المأمون برجل من العجم یسمی بابن بسطام علی الشّرطة فولی مدّة ثم عزله کیدر لسوء سیرته لرشوة ارتشاها و ضربه بالسوط فی صحن الجامع، ثم ولّی ابنه المظفّر عوضه. و دام کیدر علی إمرة مصر الی أن ورد علیه کتاب المأمون فی جمادی الآخرة سنة ثمان عشرة و مائتین بأخذ الناس بالمحنة- أعنی بالقول بخلق القرآن- و کان القاضی بمصر یومئذ هارون بن عبد اللّه

الزهریّ، فأجاب القاضی و الشهود، و من توقّف منهم عن القول بخلق القرآن سقطت شهادته. و أخذ کیدر یمتحن القضاة و أهل الحدیث و غیرهم، و کان کتاب المأمون الی کیدر یتضمّن ذلک: «و قد عرف أمیر المؤمنین أنّ الجمهور الأعظم و السواد الأکبر من حشو الرعیة و سفلة العامّة ممن لا نظر له و لا رویّة و لا استضاءة بنور العلم و برهانه، أهل جهالة بالله و عمی عنه، و ضلالة عن حقیقة دینه، و قصور أن یقدروا اللّه حقّ قدره، و یعرفوه کنه معرفته، و یفرّقوا بینه و بین خلقه؛ و ذلک أنهم ساووا بین اللّه و بین ما أنزل من القرآن، فأطبقوا علی أنه قدیم لم یخلقه اللّه و یخترعه؛ و قد قال تعالی: إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِیًّا، و کلّ ما جعله فقد خلقه؛ کما قال تعالی: وَ جَعَلَ الظُّلُماتِ وَ النُّورَ؛ و قال تعالی: کَذلِکَ نَقُصُّ عَلَیْکَ مِنْ أَنْباءِ

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۱۹

ما قَدْ سَبَقَ؛ فأخبر أنه قصص لأمور أحدثه بعدها. و قال عزّ و جلّ: کِتابٌ أُحْکِمَتْ آیاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ. و اللّه تعالی محکم کتابه ثم مفصّله، فهو خالقه و مبتدعه.

ثم انتسبوا الی السنة و أنهم أهل الحقّ و الجماعة و أنّ من سواهم أهل الکفر و الباطل؛ فاستطالوا بذلک و غرّوا به الجهّال، حتی مال قوم من أهل السمت الکاذب و التخشّع لغیر اللّه الی موافقتهم، فنزعوا الحقّ الی باطلهم و اتخذوا دین اللّه ولیجة إلی ضلالهم. الی أن قال: فرأی أمیر المؤمنین أنّ أولئک شرّ الأمة المنقوصون من التوحید حظّا، أوعیة الجهالة، و أعلام الکذب، و لسان إبلیس الناطق فی أولیائه، و الهائل علی أعدائه من أهل دین اللّه؛ و أحقّ أن یتّهم فی صدقه و تطرح شهادته و لا یوثق به.

و من عمی عن رشده و حظه عن الإیمان بالتوحید، کان عما سوی ذلک أعمی و أضل سبیلا. و لعمر أمیر المؤمنین، إن أکذب الناس من کذب علی اللّه و وحیه و تخرّص الباطل و لم یعرف اللّه حقّ معرفته. فاجمع من بحضرتک من القضاة فاقرأ علیهم کتابنا هذا، و امتحنهم فیما یقولون و اکشفهم عما یعتقدون فی خلق اللّه [القرآن] و إحداثه، و أعلمهم أنی غیر مستعین فی عمل و لا واثق بمن لا یوثق بدینه. فإذا أقرّوا بذلک و وافقوا [علیه] فمرهم بنظر من بحضرتهم من الشهود و مسألتهم عن علمهم عن القرآن، و ترک شهادة من لم یقرّ أنه مخلوق؛ و اکتب الینا بما یأتیک عن قضاة أهل أعمالک فی مسألتهم و الأمر لهم بمثل ذلک. ثم کتب المأمون بمثل ذلک الی سائر عمّاله و الی نائبه علی بغداد إسحاق بن إبراهیم الخزاعیّ ابن عمّ طاهر بن الحسین أن یرسل الیه سبعة نفر، و هم: محمد بن سعد کاتب الواقدیّ، و یحیی بن معین، و أبو خیثمة، و أبو مسلم مستملی یزید

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۲۰

ابن هارون، و اسماعیل بن داود، و اسماعیل بن أبی مسعود، و أحمد بن إبراهیم الدّورقیّ؛ فأشحصوا الیه، فامتحنهم بخلق القرآن فأجابوه فردّهم من الرّقة الی بغداد؛ و کانوا توقّفوا أوّلا- ثم أجابوه خوفا من العقوبة. ثم کتب المأمون أیضا الی إسحاق بن ابراهیم المذکور بأن یحضر الفقهاء و مشایخ الحدیث و یخبرهم بما أجاب به هؤلاء السبعة؛ ففعل ذلک، فأجابه طائفة و امتنع آخرون. ثم کتب الیه کتابا آخر من جنس الأوّل و أمره بإحضار من امتنع فأحضر جماعة: منهم أحمد بن حنبل رضی اللّه عنه، و بشر بن الولید الکندیّ، و أبو حسّان الزّیادیّ، و علیّ بن أبی مقاتل، و الفضل بن غانم، و عبید اللّه بن عمر القواریریّ، و علیّ بن الجعد، و سجّادة- و اسمه الحسن بن حمّاد- و الذّیّال بن الهیثم، و قتیبة بن سعید، و کان حینئذ ببغداد، و سعدویه الواسطیّ، و إسحاق بن أبی إسرائیل و ابن الهرش، و ابن علیّة الأکبر، و محمد بن نوح العجلیّ، و یحیی بن عبد الرحمن العمریّ، و أبو نصر التمّار، و أبو معمر القطیعیّ، و محمد بن حاتم بن میمون و غیرهم؛ و عرض علیهم کتاب المأمون فعرّضوا و ورّوا و لم یجیبوا و لم ینکروا؛ فقال لبشر بن الولید: ما تقول؟ قال: قد عرّفت أمیر المؤمنین غیر مرّة؛ قال: فالآن قد تجدّد من أمیر المؤمنین کتاب؛ قال: أقول: کلام اللّه؛ قال: لم أسألک عن هذا، أ مخلوق هو؟ قال: ما أحسن غیر هذا الذی قلت لک، إنی قد استعهدت أمیر المؤمنین أنی لا أتکلّم فیه. ثم قال لعلیّ بن أبی مقاتل: ما تقول؟ قال: القرآن کلام اللّه، و إن أمرنا أمیر المؤمنین بشیء سمعنا و أطعنا. ثم أجاب أبو حسّان الزیادیّ بنحو من ذلک. ثم قال لأحمد بن حنبل رضی اللّه عنه: ما تقول؟ قال: کلام اللّه، قال: أ مخلوق هو؟ قال: هو کلام اللّه لا أزید علی ذلک.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۲۱

قلت: و الامام أحمد بن حنبل رضی اللّه عنه هو أعظم من قام فی إظهار السنّة و ثبّته اللّه على ذلک، و لولاه لفسدت عقائد جماعة کثیرة، و قد تداولته الخلفاء بالعقوبة على القول بخلق القرآن و هو یمتنع من ذلک أشدّ امتناع، و یأتی بالأدلّة القاطعة، الى أن خلّصه اللّه منهم و هو على کلمة الحق. ثم قال لابن البکّاء الأکبر:

ما تقول؟ قال: أقول القرآن مجعول و محدث لورود النص بذلک؛ فقال إسحاق ابن ابراهیم: و المجعول مخلوق! قال نعم؛ قال: فالقرآن مخلوق! قال: لا أقول مخلوق. ثم وجّه إسحاق بن إبراهیم بجواباتهم الى المأمون. فورد علیه کتاب المأمون:

بلغنا ما أجاب به متصنّعة أهل القبلة و ملتمسو الریاسة فیما لیسوا له بأهل؛ فمن لم یجب بأنه مخلوق فامنعه من الفتوى و الروایة. ثم قال فی الکتاب: و أمّا ما قال بشر فقد کذب، لم یکن جرى بینه و بین أمیر المؤمنین فی ذلک عهد أکثر من إخباره أمیر المؤمنین من اعتقاده کلمة الاخلاص و القول بأن القرآن مخلوق. فادع به الیک فإن تاب فاشهر أمره، و ان أصرّ على شرکه و دفع أن یکون القرآن مخلوقا بکفره و إلحاده، فاضرب عنقه و ابعث الینا برأسه؛ و کذلک ابراهیم. و أما علیّ بن أبی مقاتل فقل له: أ لست القائل لأمیر المؤمنین: إنک تحلّل و تحرّم. و أما الذیّال فأعلمه أنه کان فی الطعام الذی سرقه من الأنبار ما یشغله. و أمّا أحمد بن یزید و قوله: إنه لا یحسن الجواب فی القرآن، فأعلمه أنه صبیّ فی عقله لا فی سنّه، جاهل سیحسن الجواب اذا أدّب، ثم إن لم یفعل کان السیف من وراء ذلک. و أمّا أحمد بن حنبل فأعلمه أن أمیر المؤمنین قد عرف فحوى مقالته و استدلّ على جهله و آفته بها. و أمّا الفضل

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۲۲

ابن غانم، فأعلمه أنه لم یخف على أمیر المؤمنین ما کان منه بمصر و ما اکتسب من الأموال فی أقل من سنة، یعنی فی ولایته القضاء. و أمّا الزّیادیّ فأعلمه و اذکر له ما یشینه. و أمّا أبو نصر التّمّار فانّ أمیر المؤمنین شبّه خساسة عقله بخساسة متجره.

و أمّا ابن نوح و ابن حاتم [و المعروف بأبی معمر]، فأعلمهم أنهم مشاغیل بأکل الربا عن الوقوف على التوحید، و أنّ أمیر المؤمنین لو لم یستحلّ محاربتهم فی اللّه [و مجاهدتهم إلا لإربائهم] و ما نزل به کتاب اللّه فی أمثالهم لاستحلّ ذلک، فکیف بهم و قد جمعوا مع الإرباء شرکا و صاروا للنصارى شبها! ثم ذکر لکل واحد منهم شیئا و بّخه به.

حتى قال: و من لم یرجع عن شرکه ممن سمّیت بعد بشر و ابن المهدیّ فآحملهم موثقین الى عسکر أمیر المؤمنین لیسألهم، فإن لم یرجعوا حملهم على السیف؛ قال: فأجابوا کلّهم عند ذلک الا أحمد بن حنبل و سجّادة و محمد بن نوح و القواریریّ، فأمر بهم فقیّدوا، ثم سألهم من الغد و هم فی القیود؛ فأجاب سجادة، ثم عاودهم بالثانی فأجاب القواریریّ. فوجّه بأحمد بن حنبل و محمد بن نوح. ثم بلغ المأمون أنهم إنما أجابوا مکرهین، فغضب و أمر بإحضارهم الیه؛ فلما صاروا الى الرقّة بلغهم وفاة المأمون، و کذا ورد الخبر على أحمد بن حنبل. و أمّا محمد بن نوح فکان عدیلا لأحمد بن حنبل فی المحمل فمات، فولیه أحمد و صلّى علیه و دفنه. هذا ما کان بالعراق.

و أمّا مصر، فبینما کیدر فی امتحان علمائها و فقهائها ورد علیه الخبر بموت المأمون فی شهر رجب قبل أن یقبض على من طلبه المأمون، و أنّ المعتصم محمدا بویع بالخلافة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۲۳

من بعده. ثم عقیب ذلک ورد على کیدر کتاب المعتصم ببیعته و یأمره بإسقاط من فی الدیوان من العرب و قطع العطاء عنهم، ففعل کیدر ذلک؛ فخرج یحیى بن الوزیر الجرویّ فی جمع من لخم و جذام عن الطاعة، فتجهز کیدر لحربهم، فأدرکته المنیة و مات فی شهر ربیع الآخر سنة تسع عشرة و مائتین، و استخلف ابنه المظفّر بن کیدر بعده على مصر، فأقرّه المعتصم على إمرة مصر؛ فکانت ولایته على مصر سنتین [و شهرین] تنقص أیاما.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۱۷]

السنة الأولی التی ولی فیها کیدر علی مصر و هی سنة سبع عشرة و مائتین- فیها خرج المأمون من مصر و توجّه الی الشأم ثم غزا الروم و أقبل ملک الروم توفیل فی جیوشه فجهز المأمون لحربه الجیوش، ثم کتب توفیل للمأمون کتابا یطلب فیه الصلح فبدأ بنفسه فی المکاتبة و أغلظ فاستشاط المأمون غضبا و قصد الروم فکلموه فی هجوم الشتاء و وعدوه للقابل فثنی عزمه.

و فیها وقع حریق عظیم بالبصرة، یقال: إنه أتی علی أکثرها، و کان حریقا عظیما فوق الوصف.

و فیها قتل المأمون علیا و حسینا ابنی هاشم بأذنة فی جمادی الأولی لسوء سیرته.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۲۴

و فیها توفی عمرو بن مسعدة بن صول أبو الفضل الصّولیّ أحد کتاب المأمون و خاصته، و کان جوادا ممدّحا فاضلا نبیلا جلیلا.

الذین ذکر الذهبیّ وفاتهم فی هذه السنة، قال: و فیها توفّی حجّاج بن منهال الأنماطیّ بالبصرة، و شریح بن النعمان الجوهریّ، و موسی بن داود الضّبّیّ الکوفیّ ببغداد، و هشام بن إسماعیل العطّار العابد بدمشق، و عمرو بن مسعدة أبو الفضل الصّولیّ کاتب الإنشاء للمأمون- و قد ذکرناه- و إسماعیل بن مسلمة أخو القعنبیّ بمصر.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم أربعة أذرع و ستة أصابع، مبلغ الزیادة أربعة عشر ذراعا و ستة أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۱۸]

اشارة

السنة الثانیة من ولایة کیدر علی مصر و هی سنة ثمان عشرة و مائتین- فیها اهتمّ المأمون ببناء طوانة و جمع فیها الرجال و الصّنّاع و أمر ببنائها میلا فی میل، و قرّر ولده العباس علی بنائها و غرم علیها أموالا عظیمة، و هی علی فم الدّرب مما یلی طرسوس، ثم افتتح المأمون عدّة حصون.

و فیها کانت المحنة العظیمة المقدّم ذکرها، أعنی القول بخلق القرآن، و أجاب غالب علماء الدنیا بذلک ما خلا جماعة یسیرة؛ و عظم البلاء بالعلماء و ضربوا و أهینوا و ردعوا بالسیف و غیره، فلم یکن بعد ذلک الا أیام یسیرة و مرض المأمون ببلاد الروم، و لم یزل مرضه یزداد به الی أن مات.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۲۵

ذکر وفاته و نسبه

هو الخلیفة أمیر المؤمنین أبو العباس عبد اللّه المأمون ابن الخلیفة هارون الرشید ابن الخلیفة محمد المهدیّ ابن الخلیفة أبی جعفر المنصور عبد اللّه بن محمد بن علیّ بن عبد اللّه بن عباس الهاشمیّ العباسیّ البغدادیّ، ولد سنة سبعین و مائة قبل أخیه الأمین محمد بن زبیدة بشهر عند ما استخلف أبوه الرشید، و أمّه أمّ ولد تسمّی مراجل، ماتت أیام نفاسها به. بویع بالخلافة بعد قتل أخیه الأمین محمد فی أواخر سنة خمس و تسعین و مائة و غیّر لقبه بأبی جعفر و کان أوّلا أبا العباس؛ و کان نبیلا قرأ العلم فی صغره و سمع من هشیم و عبّاد بن العوّام و یوسف ابن عطیّة و أبی معاویة الضّریر و طبقتهم، و برع فی الفقه علی مذهب أبی حنیفة رضی اللّه عنه و العربیة و أیام الناس. و لما کبر عنی بالفلسفة و علوم الأوائل و مهر فیها، فجرّه ذلک لقوله بخلق القرآن؛ فکان من رجال بنی العباس حزما و عزما و حلما و علما و رأیا و دهاء و هیبة و شجاعة و سؤددا و سماحة، لو لا أنه شان ذلک کلّه بقوله بخلق القرآن.

قال ابن أبى الدنيا: كان المأمون أبيض ربعة حسن الوجه يعلوه صفرة قد و خطه الشيب، أعين طويل اللحية رقيقها ضيّق الجبين على خدّه خال.

و عن إسحاق الموصلىّ قال: كان المأمون قد سخط على الحسين الخليع الشاعر لكونه هجاه عند ما قتل الأمين؛ فبينما أنا ذات يوم عند المأمون اذ دخل الحاجب برقعة فاستأذن فى إنشادها، فأذن له، فأنشد قصيدة أوّلها:

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۲۶

أجزنى فإنى قد ظمئت إلى الوعد متى ينجز الوعد المؤكّد بالعهد

الى أن قال:

رأى اللّه عبد اللّه خير عباده فملّكه و اللّه أعلم بالعبد

ألا إنما المأمون للناس عصمة مميّزة بين الضلالة و الرّشد

فقال له المأمون: أحسنت، فقال الحاجب: أحسن قائلها، قال: و من هو؟

قال: عبدك الحسين بن الضحاك؛ فقال المأمون: لا حيّاه اللّه! أليس هو القائل:

فلا تمّت الأشياء بعد محمد و لا زال شمل الملك فيها مبدّدا

و لا فرح المأمون بالملك بعده و لا زال فى الدنيا طريدا مشرّدا

هذه بتلك و لا شيء له عندنا. قال الحاجب: فأين عادة عفو أمير المؤمنين؟

قال: أمّا هذه فنعم، ائذنوا له. فدخل الحسين فقال له المأمون: هل عرفت يوم قتل أخى الأمين أن هاشميّة هتكت؟ قال: لا، قال: فما معنى قولك:

و ممّا شجا قلبى و كفكف عبرتى محارم من آل الرسول استحلّت

و مهتوكة بالخلد عنها سجوفها كعاب كقرن الشمس حين تبدّت

فلا بات ليل الشامتين بغبطة و لا بلغت آمالهم ما تمنّت

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۲۷

فقال: يا أمير المؤمنين، لوعة غلبتنى، و روعة فاجأتنى، و نعمة استلبتها بعد أن غمرتنى، فإن عاقبت فبحقّك و إن عفوت فبفضلك؛ فدمعت عينا المأمون و أمر له بجائزة. و مما ينسب الى المأمون من الشعر قوله:

لسانى كتوم لأسراركم و دمعى نموم لسرّى مذيع

فلولا دموعى كتمت الهوى و لو لا الهوى لم تكن لى دموع

و كانت وفاة المأمون فى يوم الخميس لاثنتى عشرة ليلة بقيت من شهر رجب و حمل الى طرسوس فدفن بها. و كان المأمون حليما عادلا- قيل: إن بعض المشايخ كتب إليه رقعة فيها مرافعة فى إنسان، فكتب عليها المأمون: السّعاية قبيحة و إن كانت صحيحة، فإن كنت أخرجتها من النّصح، فخسرانك فيها أكثر من الرّبح؛ و أنا لا أسعى فى محظور و لا أسمع قول مهتوك فى مستور؛ و لو لا أنت فى خفارة شيبك لعاقبتك على جريرتك مقابلة تشبه أفعالك. و كتب بعضهم إلى المأمون رقعة فيها: إن رجلا مات و خلّف مالا عظيما و ليس له وارث إلا طفل مرضع، و إن تحكّم القضاء فيه أضاع ماله، و أمير المؤمنين أولى به. قال: فأخذ الرقعة و كتب على ظهرها، الطفل حبّره اللّه و أنشاه، و المال ثمّره اللّه و أنماه، و الميّت رحمه اللّه و رضى عنه و أرضاه؛ و أمّا الساعى لى فى أخذه فلعنه اللّه و أخزاه.

و قيل: إنه لما مات عمرو بن مسعدة وزير المأمون رفعت اليه رقعة: أن عمرا المذكور خلّف ثمانين ألف ألف دينار. فوقّع المأمون على ظهرها: هذا قليل لمن اتصل بنا و طالت خدمته لنا.

و قیل: إن رجلا قدّم الی المأمون رقعة فیها مظلمة، و کان المأمون راکبا بغلة فنفرت منه فألقت المأمون عن ظهرها إلی الأرض فأوهنته؛ فقال: و اللّه لأقتلنّک،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۲۸

(قالها ثلاث مرّات)؛ فقال الرجل: یا أمیر المؤمنین، إن الملهوف یرکب الخطر و هو عالم برکوبه، و ینسی الأدب و هو غیر جاهل به، و لو أحسنت الأیام إنصافا لأحسنت التقاضی، و لأن تلقی اللّه یا أمیر المؤمنین حانثا فی یمینک خیر من أن تلقاه قاتلا لی. فأعجب المأمون کلامه و أمر بإزالة ظلامته.

و فیها توفی إبراهیم بن إسماعیل أبو إسحاق البصریّ الأسدیّ المعتزلیّ، کان یعرف بابن علیّة، و هو أیضا من القائلین بخلق القرآن؛ و له مع الشافعیّ مناظرات فی الفقه بمصر، و مع أحمد بن حنبل مناظرات ببغداد بسبب القرآن. فکان الإمام أحمد بن حنبل یقول: ابن علیّة ضالّ مضلّ. و مات بمصر لیلة عرفة. و کان من أعیان علماء عصره.

و فیها توفّی بشر بن غیاث بن أبی کریمة أبو عبد الرحمن المرّیسیّ مولی زید ابن الخطاب، کان أبوه یهودیا یسکن ببغداد، و تفقّه هو بالقاضی أبی یوسف حتی برع فی علوم کثیرة، ثم اشتغل بعلم الکلام و القول بخلق القرآن. و کان أبو زرعة الرازیّ یقول: بشر بن غیاث زندیق.

قلت: ذکر أن عبد اللّه بن المبارک رأی فی منامه زبیدة و فی وجهها أثر صفرة، فقال لها: ما فعل اللّه بک؟ قالت: غفر لی فی أوّل معول ضرب بطریق مکة؛ فقال: فما هذه الصّفرة التی فی وجهک؟ فقالت: دفن بین أظهرنا رجل یقال له بشر المرّیسیّ زفرت علیه جهنّم زفرة فاقشعرّ الجلد منّی بسببها، فهذه الصفرة من تلک الزفرة.

و فیها توفّی الشیخ الصالح الزاهد علیّ الجرجانیّ کان یسکن جبال لبنان.

قال بشر الحافی: رأیته یوما علی عین ماء، فهرب منّی و قال: بذنب منّی رأیت

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۲۹

الیوم إنسانا؛ فعدوت خلفه و قلت: أوصنی؛ فقال: عانق الفقر، عاشر الصبر، و عاد الهوی، و عاقّ الشهوات.

و فیها توفّی محمد بن نوح بن میمون بن عبد الحمید العجلیّ صاحب الإمام أحمد ابن حنبل، کان عالما زاهدا مشهورا بالسنّة و الدّین، امتحن بخلق القرآن فثبت علی السّنّة حتی حمل هو و الإمام أحمد فی القیود الی المأمون فمات محمد فی الطریق بعانة قبل أن ینظر وجه المأمون. و قد تقدّم ذکره فی أوّل ترجمة کیدر صاحب مصر بأوسع من هذا، رحمه اللّه

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم ثلاثة أذرع و اثنان و عشرون إصبعا، مبلغ الزیادة خمسة عشر ذراعا سواء.

ذکر ولایة المظفّر بن کیدر علی مصر

هو المظفّر بن کیدر أمیر مصر، ولی إمرة مصر بعد موت أبیه کیدر باستخلافه، و أقرّه المعتصم علی عمل مصر و ذلک فی شهر ربیع الآخر سنة تسع عشرة و مائتین، و سکن المعسکر علی عادة الأمراء و تمّ أمره؛ فخرج علیه یحیی بن الوزیر الذی کان خرج علی أبیه أیضا قبل موته بمدّة یسیرة، فتهیّأ المظفّر هذا لقتاله و حشد و جمع الجند و العساکر و خرج من مصر حتی التقی مع یحیی بن الوزیر المذکور و قاتله، فکانت بینهم وقعة هائلة انکسر فیها یحیی بن الوزیر المذکور و ظفر به المظفّر هذا، و ذلک فی جمادی الآخرة من سنة تسع عشرة و مائتین. و لمّا ولی المعتصم الخلافة أنعم بولایة مصر علی أبی جعفر أشناس، و دعی لأشناس علی منابر مصر، و بعد مدّة یسیرة صرف أشناس المظفّر هذا عن إمرة مصر فی شعبان من السنة، و ولی مصر، بعده موسی بن أبی العباس. و کانت ولایة المظفّر علی مصر نحوا من أربعة أشهر

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۳۰

تخمينا، على أنه لم يهنأ له بها عيش من كثرة ما وقع له من الحروب و الوقائع فى هـذه المدّة اليسيرة، مع أنه ورد عليه كتاب المعتصم يذكر له أن يمتحن العلماء بخلق القرآن بمصر فامتحن جماعة. و بالجملة فكانت أيّامه على مصر قليلة و وقائعه و شروره كثيرة.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۱۹]

اشارة

السنة التى حكم فى أوّلها كيدر و فى آخرها ابنه المظفّر على مصر و هى سنة تسع عشرة و مائتين- فيها كانت ظلمة شديدة بين الظهر و العصر و زلازل هائلة.

و فيها ظهر محمد بن القاسم العلوىّ الحسينىّ بالطّالقان يدعو الى الرّضى من آل محمد فاجتمع عليه خلق، فأرسل عبد اللّه بن طاهر له جيوشا فواقعوه عدّة وقعات حتى انهزم محمد، و قصد كورة خراسان فظفر به متولّى نسا فقيّده و بعث به الى ابن طاهر فأرسله الى المعتصم فحبسه، فهرب من السجن ليلة عيد الفطر و اختفى فلم يقع له المعتصم على أثر و لا خبر.

و فيها فى جمادى الأولى قدم بغداد إسحاق بن إبراهيم بسبى عظيم من أهل الخرّميّة الذين أوقع بهم بهمذان.

و فيها عاثت الزّطّ بنواحى البصرة فانتدب لحربهم عجيف بن عنبسة فظفر بهم و قتل منهم نحو ثمانمائة، ثم جرت له معهم بعد ذلك حروب، و كانت عدّتهم خمسة آلاف.

و فيها امتحن الخليفة المعتصم أحمد بن حنبل بالقول بخلق القرآن و عاقبه رضى اللّه عنه، و وقع له أمور يطول شرحها من المناظرات و الأسئلة، فثبته اللّه على الحق.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۳۱

و فيها حجّ بالناس العباس بن محمد بن علىّ العباسىّ.

و فيها توفّى على بن عبيدة أبو الحسن الكاتب المعروف بالرّيحانىّ، كان أديبا فصيحا بليغا، صنّف الكتب فى الحكم و الأمثال و اختصّ بالمأمون. و من شعره قوله:

تهنّ بمنزليك وجود بذل سعودك فيهما خبرا و خبرا

فمن دار السعادة كلّ يوم إلى دار الهنا و هلمّ جرّا

و فيها توفّى محمد بن على بن موسى بن جعفر بن محمد بن علىّ بن الحسين بن على ابن أبى طالب أبو جعفر، و قيل: أبو محمد، و كان يلقّب بالجواد و بالمرتضى و بالقانع؛ ولد سنة خمس و تسعين و مائة، و كان خصيصا عند المأمون، و زوّجه المأمون بابنته أمّ الفضل، و كان يعطيه فى كل سنة ألف ألف درهم؛ و مات لخمس ليال بقين من ذى الحجّة.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفى علىّ بن عيّاش الألهانى بحمص، و أبو بكر عبد اللّه بن الزّبير الحميدىّ بمكّة، و أبو نعيم الفضل بن دكين، و أبو غسّان مالك بن اسماعيل النّهدىّ بالكوفة، و إبراهيم بن حميد الطويل، و سعد بن شعبة بن الحجّاج بالبصرة، و أبو الأسود النّضر بن عبد الجبار بمصر، و سليمان ابن داود الهاشمىّ، و غسّان بن الفضل الغلانىّ ببغداد.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربعة أذرع و إصبع واحد، مبلغ الزيادة خمسة عشر ذراعا و عشرة أصابع و نصف.

ذكر ولاية موسى بن أبى العبّاس على مصر

هو موسى بن أبى العباس ثابت، ولى إمرة مصر نيابة عن أشناس بعد عزل المظفّر بن كيدر عنها فى مستهلّ شهر رمضان سنة تسع

عشرة و مائتين، ولى

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۳۲

على الصلاة و جمع له الخراج فى بعض الأجيان. و لما ولى مصر سكن بالمعسكر على عادة الأمراء، و استعمل على الشّرطة بعض حواشيه، و حسنت أيّامه و طالت و سكنت الشرور و الفتن بآخر أيامه، فإنه فى أوّل الأمر خالفه بعض أهل الحوف و وقع له معهم أمور حتى سكن الأمر و صلح، على أنه كان فى أيام المحنة بخلق القرآن، و أباد فقهاء مصر و علماءها إلى أن أجاب غالبهم بالقول بخلق القرآن. و دام على إمرة مصر نائبا لأبى جعفر أشناس الى أن صرف عنها فى شهر ربيع الآخر سنة أربع و عشرين و مائتين. و كانت ولايته على إمرة مصر أربع سنين و سبعة أشهر، و ولّى أشناس على إمرة مصر بعده مالك بن كيدر الصّغدىّ.

و أما التعريف بأشناس فإنه كان من كبار القوّاد بحيث إن المعتصم جعله فى فتح عمّوريّة من بلاد الروم على مقدّمته، و يتلوه محمد بن إبراهيم بن مصعب و على ميمنته إيتاخ القائد، و على ميسرته جعفر بن دينار بن عبد اللّه الخيّاط، و على القلب عجيف بن عنبسة. و فيما ذكرناه كفاية لمعرفة مقام أشناس عند الخلفاء.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۲۰]

اشارة

السنة الأولى من ولاية موسى بن أبى العباس على مصر و هى سنة عشرين و مائتين- فيها عقد الخليفة المعتصم على حرب بابک الخرّمىّ، و على بلاد الجبال للأفشين، و اسمه حيدر بن كاوس، فتجهّز الأفشين و حشد و جمع و سار لحرب بابک و غيره. و فيها وجّه المعتصم أبا سعيد محمد بن يوسف الى أردبيل لعمارة الحصون التى خرّبها بابک فى أيّام عصيانه.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۳۳

قلت: و قد أفسد بابک هذا فى مدّة عصيانه مدنا كثيرة و أخرب عدّة حصون و أباد العالم، و عجزت الخلفاء و الملوک عنه لفراره؛ و طالت أيامه نحو العشرين سنة أو أكثر.

و فيها بنى المعتصم مدينة سرّ من رأى و سكنها، و هى التى تسمّى أيضا سامرّا.

و سبب بنائه لهذه المدينة كثرة مماليكه الأتراک، لأنهم كثروا و تولّعوا بحرم الناس، فشكا أهل بغداد ذلک للمعتصم و قالوا له: تحوّل عنّا و إلا قاتلناک؛ قال: و كيف تقاتلونى و فى عسكرى ثمانون ألف دارع! قالوا: نقاتلک بسهام الليل- يعنون الدعاء- فقال المعتصم: و اللّه مالى بها طاقة، فبنى لذلک سرّ من رأى و سكنها.

و فيها أسر عجيف جماعة من الزّطّ و قدم بهم بغداد، و كانت عدّتهم سبعة و عشرين ألفا؛ المقاتلة منهم اثنا عشر ألفا. قاله صاحب المرآة.

و فيها غضب المعتصم على وزيره الفضل بن مروان و صادره و أخذ منه أموالا عظيمة تفوق الوصف، حتى قيل: إنه أخذ منه عشرة آلاف ألف دينار، و استأصله و أهل بيته و نفاه الى قرية بطريق الموصل؛ و ولّى بعده الوزارة محمد بن عبد الملک ابن الزيّات.

و فيها اعتنى المعتصم باقتناء الترک، فبعث الى سمرقند و فرغانة و النواحى لشرائهم و بذل فيهم الأموال و ألبسهم أنواع الدّيباج و مناطق الذهب، و أمعن فى شرائهم حتى بلغت عدّتهم ثمانية آلاف مملوک، و قيل: ثمانية عشر ألفا، و هو الأشهر؛ و لأجلهم بنى مدينة سامرّا، كما تقدّم ذكره.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۳۴

ذکر بناء مدینة سامرّا علی سبیل الاختصار

و لمّا ولی المعتصم و کثرت ممالیکه صاروا یؤذون الناس، فکانوا یطردون خیلهم الی بغداد فیصدم أحدهم المرأة و الشیخ الکبیر و الصغیر، فعظم ذلک علی أهل بغداد فکلّموا المعتصم، کما تقدّم ذکره، فعزم علی التحوّل من بغداد، فخرج من بغداد و تنقّل علی دجلة و القاطول، و هو نهر منها، فانتهی الی موضع فیه دیر لرهبان؛ فرأی فضاء واسعا جدّا و الهواء طیّبا فاستمرأه و تصیّد به ثلاثا، فوجد نفسه یطلب أکثر من أکله، فعلم أن ذلک لتأثیر الهواء و التّربة و الماء؛ فاشتری من أهل الدّیر أرضهم بأربعة آلاف دینار و أسّس قصره بالوزیریة التی ینسب الیها التّین الوزیریّ، و جمع الفعلة و الصّنّاع من الممالک، و نقل الیها أنواع الأشجار و الغروس، و اختطّت الخطط و الدّروب، و جدّوا فی بنائها، و شیّدت القصور، و استنبطت الیها المیاه من دجلة و غیرها؛ و تجامع الناس بها فقصدوها و سکنوها، فکثرت بها المعایش الی أن صارت من أعظم البلدان.

و فیها ظهر إبراهیم النّظّام و قرّر مذهب الفلاسفة و تکلّم فی القدر فتبعه خلق.

و فیها حجّ بالناس صالح بن العبّاس بن محمد بن علی العباسیّ. و فیها توفی خلف بن أیوب أبو سعید العامریّ البلخیّ الامام الفقیه الحنفیّ مفتی أهل بلخ و خراسان، و کان إماما زاهدا ورعا؛ أخذ الفقه عن القاضی أبی یوسف یعقوب و ابن أبی لیلی، و أخذ الزهد عن إبراهیم بن أدهم. و انتهت الیه ریاسة المذهب فی زمانه، رحمه اللّه تعالی. و فیها توفی سلیمان بن داود بن علیّ بن عبد اللّه بن العبّاس الأمیر أبو أیوب الهاشمیّ العبّاسیّ، کان صالحا زاهدا عفیفا جوادا. قال الشافعیّ: ما رأیت أعقل

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۳۵

من رجلین: أحمد بن حنبل و سلیمان بن داود الهاشمیّ. و فیها توفی فتح بن سعید أبو نصر الموصلیّ، کان من أقران بشر الحافی و سریّ السّقطیّ؛ کان زاهدا عابدا کبیر الشأن. قال فتح: صحبت ثلاثین شیخا کانوا یعدّون من الأبدال و کلّهم أوصانی عند فراقی له: إیاک و معاشرة الأحداث. و فیها توفی الحافظ أبو نعیم الفضل بن دکین، و دکین اسمه عمرو بن حمّاد بن زهیر بن درهم مولی أبی طلحة بن عبد اللّه التّیمیّ، ولد سنة ثلاثین و مائة؛ و هو أحد الأعلام المشهورین بعلم الحدیث المتقدّمین فیه. و فیها توفی قالون المقرئ و اسمه عیسی و کنیته أبو موسی، کان إماما عالما انتهت الیه الریاسة فی النحو و العربیة و القراءة فی زمانه بالحجاز، و هو أحد أصحاب نافع، و رحل الیه الناس و طال عمره و بعد صیته.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم ثلاثة أذرع و إصبعان، مبلغ الزیادة ستة عشر ذراعا و سبعة عشر إصبعا و نصف.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۲۱]

السنة الثانیة من ولایة موسی بن أبی العباس علی مصر و هی سنة إحدی و عشرین و مائتین- فیها تکامل بناء مدینة سرّ من رأی. و فیها ولی إمرة مکّة محمد ابن داود بن عیسی العباسیّ، و وقع فی ولایته بمکّة حروب و فتن. و فیها کانت وقعة کبیرة بین بغا الکبیر المعتصمیّ و بین بابک الخرّمیّ انهزم فیها بابک. و فیها توفی ابراهیم بن شمّاس أبو إسحاق السّمرقندی الإمام الزاهد الورع، کان ثقة ثبتا شجاعا بطلا عظیم الهامة؛ خرج من مدینة سمرقند غازیا، فالتقاه الترک فقتلوه فی المحرّم من السنة. و فیها توفی عیسی بن أبان بن صدقة الإمام القاضی أبو موسی

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۳۶

الحنفیّ، کان عالما سخیّا جدّا، کان یقول: و اللّه لو أتیت برجل یفعل فی ماله کفعلی لحجرت علیه؛ و کان مع کرمه من أعیان الفقهاء، و ولی القضاء سنتین.

و فيها توفى أبو جعفر المحوّلىّ الزاهد العابد، كان يسكن بباب المحوّل فعرف به؛ كان يقول: حرام على قلب مأسور بحبّ الدنيا أن يسكنه الورع، و حرام على نفس مغرمة برياء الناس أن تذوق حلاوة الآخرة، و حرام على كل عالم لم يعمل بعلمه أن تنجده التقوى. و فيها كان الطاعون بالبصرة، ذكره ابن الجوزىّ فى المنتظم فقال:

كان لشخص تسعة أولاد فماتوا فى يوم واحد.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفى أبو اليمان الحمصىّ، و عاصم بن علىّ بن عاصم، و القعنبىّ، و عبدان المروزىّ و اسمه عبد اللّه بن عثمان، و هشام بن عبيد اللّه الرازىّ.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثلاثة أذرع و خمسة عشر إصبعا، مبلغ الزيادة ستة عشر ذراعا و أحد و عشرون إصبعا و نصف إصبع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۲۲]

السنة الثالثة من ولاية موسى بن أبى العباس على مصر و هى سنة اثنتين و عشرين و مائتين- فيها كانت وقعة الأفشين مع الكافر بابك الخرّمىّ، فهزمه الأفشين و استباح عسكره و هرب بابك، ثم أسروه بعد فصول طويلة؛ و كان بابك من أبطال زمانه و شجعانهم، عاث فى البلاد و أفسد، و أخاف الإسلام و أهله، و غلب على أذربيجان و غيرها، و أراد أن يقيم ملّة المجوس؛ و ظهر فى أيامه المازيّار القائم بملّة المجوس بمدينة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۳۷

طبرستان فعظم شرّه؛ و كان الخليفة المعتصم قد جعل لمن جاء به حيّا ألفى ألف درهم، و لمن جاء برأسه ألف ألف درهم، فجاء به سهل البطريق، فأعطاه المعتصم ألفى ألف درهم و حطّ عنه خراج عشرين سنة؛ ثم قتل بابك فى سنة ثلاث و عشرين و مائتين (أعنى فى الآتية). و لما أدخل بابك مقيّدا الى بغداد انقلبت بغداد الكبير و الضّجيج، فللّه الحمد.

و فيها توفى أحمد بن الحجّاج الشّيبانىّ ثم الذّهلىّ، كان إماما عالما فاضلا ثقة.

قدم الى بغداد و حدّث بها عن عبد اللّه بن المبارك و غيره، و روى عنه محمد بن اسماعيل البخارىّ، و كان الإمام أحمد يثنى عليه.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفى عمر بن حفص ابن غياث، و خالد بن نزار الأيلىّ، و أحمد بن محمد الأزرقىّ الذى ذكرناه فى الطبقة الماضية، و على بن عبد الحميد، و مسلم بن ابراهيم، و الوليد بن هشام القحذمىّ.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربعة أذرع و تسعة أصابع، مبلغ الزيادة أربعة عشر ذراعا و اثنان و عشرون إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۲۳]

اشارة

السنة الرابعة من ولاية موسى بن أبى العباس على مصر و هى سنة ثلاث و عشرين و مائتين- فيها قدم الأفشين بغداد فى ثالث صفر ببابك الكافر الخرّمىّ و أخيه، و كان المعتصم يبعث للأفتين منذ توجّه الى بغداد فى كلّ يوم خلعة و فرسا بفرحته ببابك.

و من عظم فرح المعتصم و عنايته بأمر بابك رتّب البريد من سرّ من رأى الى الأفشين

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۳۸

بحيث إن الخبر يأتيه من مسيرة شهر فى أربعة أيام. و كان بابك يقول بتناسخ الأرواح و يستحلّ البنت و أمّها. و قد تقدّم فى العام الماضى أنّ المعتصم أعطى لمن أحضره الى بغداد ألفى ألف درهم. و لمّا أن أراد المعتصم قتل بابك المذكور أمر بعد عقوبته بقطع أربعته، فلمّا قطعت يده مسح بالدم على وجهه حتى لا يرى أحد أنّ وجهه اصفرّ خيفة من القتل، و قتل و علّق رأسه و قطعت أعضاؤه ثم أحرق.

و فيها أيضا جهّز المعتصم الأفشين المذكور بالجيوش لغزو الروم، فتهيّأ و سافر و التقى مع طاغية الروم، فاقتتلوا أياما و ثبت كلّ من الفريقين الى أن هزم اللّه طاغية الروم و نصر الاسلام، و للّه الحمد.

و فيها أخرب المعتصم مدينة أنقرة و غيرها من بلاد الروم، و أنكى فى بلاد الروم و أوطأهم خوفا و ذلّا و صغارا، و افتتح عمّوريّة بالسيف، و شتّت جمعهم و خرّب ديارهم.

و كان ملكهم توفيل بن ميخائيل بن جرجس قد نزل زبطرة فى مائة ألف و أغار على ملطية و أباد المسلمين، حتى أخذ المعتصم بثأرهم و أخرب ديار الكفر.

و فيها دفع المعتصم خاتمه الى ابنه هارون للواثق و أقامه مقام نفسه، و استكتب له سليمان بن محمد بن عبد الملك بن الزيّات. و فيها فى شوّال زلزلت فرغانة، فمات تحت الهدم خمسة عشر ألفا من الناس. و فيها حجّ بالناس محمد بن داود. و فيها توفيت فاطمة النيسابوريّة الزاهدة، جاورت بمكة مدّة، و كانت تتكلم فى معانى القرآن؛ قال ذو النون المصرىّ: فاطمة وليّة اللّه و هى أستاذتى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۳۹

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفى عبد اللّه بن صالح كاتب الليث، و خالد بن خداش، و محمد بن سنان العوقىّ، و محمد بن كثير العبسىّ، و موسى بن اسماعيل التّبوذكىّ، و معاذ بن أسد المروزىّ.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ذراعان و اثنان و عشرون إصبعا، مبلغ الزيادة ستة عشر ذراعا و ثلاثة و عشرون إصبعا و نصف إصبع.

ذكر ولاية مالك بن كيدر على مصر

هو مالك بن كيدر، و اسم كيدر نصر، و قد تقدّم ذكره فى ولايته على مصر، و كيدر ابن عبد اللّه الصّغدىّ. و ولى مالك إمرة مصر بعد عزل الأمير موسى بن أبى العبّاس عنها من قبل الأمير أبى جعفر أشناس، ولّاه على صلاة مصر؛ و كان الخراج للخليفة يولّى عليه من شاء فى هذه السنين؛ فقدم مالك بن كيدر الى مصر لسبع بقين من شهر ربيع الآخر من سنة أربع و عشرين و مائتين، و سكن بالمعسكر على عادة أمراء بنى العباس؛ و ولّى على الشّرطة بعض حواشيه، و ساس الناس الى أن صرف عن إمرة مصر فى ثالث شهر ربيع الآخر من سنة ستّ و عشرين و مائتين؛ و تولّى مصر من بعده الأمير علىّ بن يحيى؛ فكانت ولاية مالك هذا على مصر سنتين و أحد عشر يوما، و دام بعد ذلك بطّالا سنين الى أن توفّى فجاءة فى عاشر شعبان سنة ثلاث و ثلاثين و مائتين؛ و كان أميرا ساكنا عاقلا مدبّرا سيوسا وقورا فى الدول، ولى الأعمال الجليلة، و تنقّل فى خدم الخلفاء، و كان من أكابر القوّاد و الأمراء.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۴۰

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۲۴]

السنة الأولى من ولاية مالك بن كيدر على مصر و هى سنة أربع و عشرين و مائتين- فيها أظهر مازيّار بن قارن الخلاف بطبرستان و حارب أعوان الخليفة، و كان مباينا لآل طاهر؛ و كان المعتصم يأمره بحمل الخراج اليهم، فيقول مازيّار: لا أحمله إلّا الى أمير المؤمنين.

و كان الأفشين يسمع أحيانا من المعتصم ما يدلّ على أنه يريد عزل عبد اللّه بن طاهر؛ فلمّا ظفر الأفشين ببابك و نزل من المعتصم المنزلة الرفيعة طمع فى إمرة خراسان، و بلغه منافرة مازيّار، فكتب اليه الأفشين يمنّيه و يستميله و يقوّى عزمه. ثم كتب المعتصم الى عبد اللّه بن طاهر بمحاربة مازيّار، ثم جهّز بعد ذلك المعتصم جيشا لمحاربة مازيّار و على الجيش الأفشين المذكور. هذا، و مازيّار قد ج؟؟؟ ى الأموال و عسف و أخرب أسوار آمد و الرّىّ و جرجان، و هرب الناس الى نيسابور.

و وقع لمازيّار أمور و حروب، آخرها أنه قتل بعد أن أهلك الحرث و النسل.

و فيها توفى إبراهيم ابن الخليفة المهدىّ محمد ابن الخليفة أبى جعفر المنصور عبد اللّه بن محمد بن علىّ بن عبد اللّه بن العباس، الأمير أبو إسحاق أخو الرشيد و عمّ الأمين و المأمون و المعتصم؛ كان يعرف بابن شكلة و هى أمّه أمّ ولد سوداء؛ مولده فى سنة اثنتين و ستين و مائة. و إبراهيم هذا هو الذى كان بويع بالخلافة بعد قتل الأمين و لقّب بالمبارك المنير فى سنة اثنتين و مائتين، فلم يتمّ أمره؛ و وقع له مع عسكر المأمون حروب و وقائع أسفرت عن هزيمة إبراهيم و اختفائه سنين الى أن ظفر به المأمون و عفا عنه. و كان إبراهيم قد انتزع الى أمّه فكان أسود حالكا عظيم اللحية، على أنه لم يكن فى أولاد الخلفاء أفصح منه و لا أشعر؛ و كان حاذقا بالغناء و صناعة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۲، ص: ۲۴۱

العود، يضرب به المثل فيهما. و له فى هروبه و اختفائه و كيفية الظّفر به أمور و حكايات مهولة؛ منها أنه لما وقف بين يدى المأمون شاور فى قتله أصحابه، فالكل أشاروا بالقتل غير أنهم اختلفوا فى القتلة؛ فالتفت المأمون الى أحمد بن خالد الوزير و شاوره؛ فقال:

يا أمير المؤمنين، إن قتلته فلك نظير، و إن عفوت عنه فما لك نظير؛ فأنشد المأمون:

فلئن عفوت لأعفون جللا و لئن سطوت لأوهنن عظمى

فكشف إبراهيم بن المهدى رأسه و قال: اللّه أكبر، عفا عنى أمير المؤمنين! فقال المأمون: يا غلمان، خلّوا عن عمّى و غيّروا من حالته و جيئونى به. ففعلوا و أحضروه بين يدى المأمون فى مجلسه، و نادمه و سأله أن يغنّى فأبى، و قال: نذرت للّه عند خلاصى تركه؛ فعزم عليه و أمر أن يوضع العود فى حجره، فغنّى.

و قال الذهبىّ: و عن منصور بن المهدىّ قال: كان أخى إبراهيم إذا تنحنح طرب من يسمعه، فإذا غنّى أصغت اليه الوحوش و مدّت أعناقها اليه حتى تضع رءوسيها فى حجره فإذا سكت نفرت و هربت؛ و كان إذا غنّى لم يبق أحد إلا ذهل و يترك ما فى يده حتى يفرغ.

قلت: و حكايات إبراهيم فى الغناء و العود مشهورة يضيق هذا المحل عن ذكرها، و قد ذكره ابن عساكر فى تاريخ دمشق فى سبع عشرة ورقة.

و فيها توفى أبو عبيد القاسم بن سلّام، و كان أبوه عبدا روميا لرجل من أهل هراة، و كان القاسم إماما عالما مفنّنا، له المصنفات الكثيرة المفيدة: منها غريب الحديث و غيره. و فيها توفى سليمان بن حرب الحافظ أبو أيوب الأزدىّ البصرىّ،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۲، ص: ۲۴۲

ولد فى صفر سنة أربعين و مائة؛ و كان إماما فاضلا- قال القاضى يحيى بن أكثم:

لما عدت من البصرة الى بغداد قال لى المأمون: من تركت بالبصرة؟ قلت:

سليمان بن حرب- حافظا للحديث ثقة عاقلا فى نهاية الصيانة و السلامة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربعة أذرع و ثلاثة أصابع و نصف، مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا و خمسة أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۲۵]

اشارة

السنة الثانية من ولاية مالك بن كيدر على مصر و هى سنة خمس و عشرين و مائتين- فيها قبض المعتصم على الأفشين، لعداوته لعبد اللّه بن طاهر و لأحمد بن أبى داود، فعملا عليه و نقلا عنه أنه يكاتب مازيّار؛ فطلب المعتصم كاتبه و تهدّده بالقتل؛ فاعترف و قال: كتبت اليه بأمره، يقول: لم يبق غيرى و غيرك و غير بابك الخرمىّ، و قد مضى بابك، و جيوش الخليفة عند ابن طاهر، و لم يبق عند الخليفة سواى؛ فإن هزمت ابن طاهر كفيتك أنا المعتصم و يخلص لنا الدين الأبيض (يعنى المجوسيّة)، و كان الأفشين يتّهم بها؛ فوهب المعتصم للكاتب مالا و أحسن اليه، و قال: إن أخبرت أحدا قتلتك. فروى عن أحمد بن أبى دواد قال:

دخلت على المعتصم و هو يبكى و ينتحب و يقلق؛ فقلت: لا أبكى اللّه عينك! ما بك؟

قال: يا أبا عبد اللّه رجل أنفقت عليه ألف ألف دينار و وهبت له مثلها يريد قتلى! قد تصدّقت للّه بعشرة آلاف ألف درهم، فخذها و فرّقها- و كان الكرخ قد احترق- فقلت:

تفرّق نصف المال فى بناء الكرخ، و الباقى فى أهل الحرمين؛ قال: أفعل. و كان الأفشين قد سير أموالا عظيمة الى مدينة أشروسنة، و همّ بالهرب اليها و أحسّ بالأمر، فهيّأ

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۴۳

دعوة ليسمّ المعتصم و قوّاده، فإن لم يجبه دعا لها أتراك المعتصم: مثل الأمير إيتاخ و أشناس و غيرهما فيسمّهم، ثم يذهب الى إرمينية و يدور الى أشروسنة. فطال بالأفشين الأمر و لم يتهيأ له ذلك، حتى أخبر بعض خواصّه المعتصم بعزمه، فقبض عليه حينئذ المعتصم و حبسه، و كتب الى عدوّه عبد اللّه بن طاهر بأن يقبض على ولده الحسن بن الأفشين، فوقع له ذلك. و فيها استوزر المعتصم محمد بن عبد الملك بن الزيات. و فيها أيضا أسر مازيّار المذكور و قدم به بين يدى المعتصم. و فيها زلزلت الأهواز و سقط أكثر البلد و الجامع و هرب الناس الى ظاهر البلد، و دامت الزلزلة أياما و تصدّعت الجبال منها. و فيها ولى إمرة دمشق دينار بن عبد اللّه، و عزل بعد أيام بمحمد بن الجهم. و فيها توفى سعدويه، و اسمه سعيد بن سليمان، و كنيته أبو عثمان الواسطىّ، الواعظ البزّاز؛ كان يسكن ببغداد، و امتحن بالقرآن فأجاب؛ فقيل له بعد ذلك: ما فعلت؟

قال: كفرنا و رجعنا. و فيها توفى صالح بن إسحاق أبو عمرو النحوى الجرمىّ، لأنه نزل فى قبيلة من جرم؛ و كان اماما فاضلا عارفا بالعربية و أيام الناس و أشعار العرب، و له اختيارات و أقوال. و فيها توفى على بن رزين الإمام أبو الحسن الخراسانىّ التّرمذىّ و يقال الهروىّ، أستاذ أبى عبد اللّه المغربى، كان صاحب أحوال و كرامات.

و فيها توفى الأمير أبو دلف العجلىّ، و اسمه القاسم بن عيسى بن إدريس بن معقل ابن سنان، من ولد عجل أمير الكرج، كان شجاعا جوادا ممدّحا شاعرا؛ و هو الذى قال فيه علىّ بن جبلة:

إنّما الدنيا أبو دلف بين باديه و محتضره

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۴۴

فإذا ولّى أبو دلف ولّت الدنيا على أثره

قيل: إنّ المأمون كان مقطّبا، فدخل عليه أبو دلف؛ فقال له المأمون: يا أبا دلف، أنت الذى قال فيك الشاعر، و ذكر البيت المقدّم ذكره؛ فقال أبو دلف: يا أمير المؤمنين، شهادة زور و قول غرور؛ و أصدق منه قول من قال:

دعينى أجوب الأرض ألتمس الغنى فلا الكرج الدنيا و لا الناس قاسم

و قال ثعلب: حدّثنا ابن الأعرابىّ عن الأصمعىّ قال: كنت واقفا بين يدى المأمون إذ دخل عليه أبو دلف؛ فنظر اليه المأمون شزرا، و قال له: أنت الذى يقول فيك علىّ بن جبلة:

له راحة لو أنّ معشار عشرها على البرّ كان البرّ أندى من البحر

له همم لا منتهى لكبارها و همّته الصّغرى أجلّ من الدهر

فقال: يا أمير المؤمنين، مكذوب علىّ، لا و الذى فى السماء بيته ما أعرف من هذا حرفا؛ فقال المأمون: قد قال فيك أيضا:

ما قال لا قطّ من جود أبو دلف إلّا التشهد لكن قوله نعم

فقال: و لا أعرف هذا أيضا يا أمير المؤمنين.

قلت: و أخبار أبى دلف كثيرة و شعره سارت به الركبان.

و فيها توفى منصور بن عمّار بن كثير الشيخ أبو السّرىّ الواعظ الخراسانىّ، و قيل:

البصرىّ، رحل الى العراق، و أوتى الحكم و الفصاحة، حتى قيل: إنه لم يقض أحد فى زمانه مثله.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۴۵

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ذراعان و عشرون إصبعا، مبلغ الزيادة ستة عشر ذراعا و عشرون إصبعا.

ذكر ولاية علىّ بن يحيى الأولى على مصر

هو على بن يحيى الأمير أبو الحسن الأرمنىّ، ولى إمرة مصر من قبل الأمير أبى جعفر أشناس التركىّ على الصلاة، بعد عزل الأمير مالك بن كيدر عنها، سنة ست و عشرين و مائتين؛ و وصل الى الديار المصرية فى يوم الخميس لسبع خلون من شهر ربيع الآخر من السنة المذكورة، و سكن بالمعسكر على عادة الأمراء؛ و جعل على شرطته معاوية [بن معاوية] بن نعيم، و تمّ أمره، و أخذ فى إصلاح أحوال الديار المصرية و إقماع المفسدين، الى أن ورد عليه الخبر فى شهر ربيع الأوّل من سنة سبع و عشرين و مائتين بموت الخليفة محمد المعتصم و بيعة ابنه هارون الواثق بالخلافة من بعده، و أن الخليفة هارون الواثق أقرّه على عمل مصر على عادته. فأقام على ذلك مدّة، و ورد عليه الخبر بعزله عن إمرة مصر، من غير سخط، بعيسى بن منصور، و ذلك فى يوم الخميس لسبع خلون من ذى الحجة من سنة ثمان و عشرين و مائتين. فكانت ولاية علىّ بن يحيى هذا على مصر سنتين و ثمانية أشهر، و قيل: و ثلاثة أشهر، و الأوّل الأصحّ. و توجّه الى العراق و قدم على الخليفة هارون الواثق فأكرمه الواثق؛ و ولى الأعمال الجليلة فى أيام الواثق و أيام أخيه المتوكّل جعفر. ثم أعيد الى إمرة مصر ثانيا حسبما يأتى ذكره، و أقام بها مدّة، ثم عزل و عاد الى العراق و عظم عند الخلفاء، و غزا الصائفة غير مرّة، الى أن خرج فى أوّل سنة تسع و أربعين و مائتين ه الى غزو الروم و توغّل فى بلاد الروم ثم عاد قافلا من إرمينية الى ميّافارقين، فبلغه مقتل الأمير عمر بن عبد اللّه الأقطع؛ و كان الأقطع قد خرج مع

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۴۶

جعفر بن دينار الى الصائفة فافتتح حصنا يقال له مطامير؛ فاستأذن الأقطع جعفر بن دينار فى الدخول الى الروم فأذن له، فدخل الأقطع الروم و معه عسكر كثيف. و كان الروم فى خمسين ألفا، فأحاطوا به و بمن معه، فقتلوه و قتل معه ألف رجل من أعيان المسلمين؛ و كان ذلك فى يوم الجمعة منتصف شهر رجب من السنة. فلما بلغ الأمير علىّ بن يحيى المذكور خبر قتل الأقطع عاد من وقته يطلب الروم، فقاتل حتى قتل حسبما ذكرناه فى ولايته الثانية على مصر. و فى أيّام علىّ بن يحيى هذا على مصر وقّع بينه و بين هارون بن عبد اللّه الزهرىّ الأصم قاضى قضاة ديار مصر، فعزله و ولّى عوضه محمد بن أبى الليث الحارث بن شدّاد الإيادىّ الجهمىّ الخوارزمىّ؛ فبقى محمد المذكور فى القضاء نحوا من عشر سنين، و لم يكن محمود السيرة فى أحكامه، و امتحن الفقهاء بمصر بخلق القرآن، و حكم على عبد اللّه بن عبد الحكم بودائع كانت للجروىّ عندهم بألف ألف دينار و أربعمائة ألف دينار، فأقاموا شهودا بأن الجروىّ كان قد أبرأهم و أخذ الذى له، فلم يلتفت لذلك و عسفهم و ظلمهم و فعل أمثال ذلك كثيرا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۲۶]

السنة الأولی من ولایة علی بن یحیی الأولی علی مصر و هی سنة ستّ و عشرین و مائتین- فیها فی جمادی الأولی أمطر أهل تیماء بردا کالبیض قتل منهم ثلثمائة و سبعین نفسا؛ قاله ابن حبیب الهاشمیّ، ثم قال: و نظروا الی أثر قدم طوله ذراع، و من الخطوة الی الخطوة نحو خمسة أذرع، و سمعوا صوتا یقول:

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۴۷

ارحم عبادک اعف عن عبادک. و فیها منع المعتصم الأفشین من الطعام و الشراب حتی مات، ثم أخرج و صلب فی شعبان. و الأفشین اسمه حیدر بن کاوس، و هو من أولاد الأکاسرة، و الأفشین لقب لمن ملک مدینة أشروسنة، و قد تقدّم ذکر وروده الی الدیار المصریة و قتاله مع القیسیّة و الیمانیّة، ثم قتاله بالشرق مع مازیّار و غیره؛ و ذکرنا أیضا سبب القبض علیه فی حوادث سنة خمس و عشرین و مائتین، و لا حاجة الی التکرار، لأن ما ذکرناه هناک هو المعتمد و المقصود من التعریف بأحواله. و فیها توفیت عنان جاریة الناطفیّ، کانت من مولّدات المدینة، و کانت جمیلة شاعرة فصیحة سریعة الجواب؛ بلغ الرشید خبرها فاستعرضها؛ فقال مولاها: ما أبیعها إلا بمائة ألف درهم، فردّها الرشید فتصدّق مولاها الناطفیّ بثلاثین ألف درهم. و بعد موت الناطفیّ بیعت بمائة ألف درهم و خمسین ألف درهم، و ماتت بخراسان. و أخبارها و ما جریاتها مع أبی نواس و غیره من الشعراء مشهورة.

و فیها توفی مازیّار، و اسمه محمد بن قارن، الأمیر صاحب طبرستان، کان مباینا لعبد اللّه ابن طاهر و کان الأفشین کذلک، فکان الأفشین یدسّ الیه و یحمله علی خلاف الخلیفة المعتصم، و لا زال به حتی خالف و حارب عساکر الخلیفة و عبد اللّه بن طاهر غیر مرّة؛ و وقع له أمور و أبلی المسلمین ببلایا و أباد الناس، الی أن ظفر به و أحضر بین یدی الخلیفة المعتصم، فأمر به المعتصم فضرب أربعمائة و خمسین سوطا، فمات

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۴۸

من ساعته تحت العقوبة عطشا، و کان معدودا من الشّجعان (و مازیّار بفتح المیم و بعد الألف زای مفتوحة و یاء مثناة من تحت مشدّدة و بعد الألف راء مهملة).

و فیها توفی محمد بن الهذیل بن عبد اللّه بن مکحول، أبو الهذیل العلّاف البصریّ مولی لعبد القیس؛ کان شیخ المعتزلة، و صنّف الکتب فی مذهبهم، ولد سنة خمس و ثلاثین و مائة ه. و قدم بغداد و ناظر العلماء و أبادهم، و کان خبیث اللسان. و فیها توفی یحیی بن یحیی بن بکیر بن عبد الرحمن الحافظ أبو زکریا التّمیمیّ المنقری الحنظلیّ النّیسابوریّ الزاهد العابد الورع، کان إمام أهل نیسابور و حافظها فی زمانه؛ و أخرج عنه البخاریّ فی مواضع، و اتفقوا علی ثقته و صدقه.

الذین ذکر الذهبی وفاتهم فی هذه السنة، قال: و فیها توفی إسحاق بن محمد الفرویّ، و اسماعیل بن أبی أویس، و جندل بن والق، و سعید بن کثیر بن عفیر، و عیّاش بن الولید الرقّام، و غسّان بن الرّبیع الموصلیّ، و محمد بن مقاتل المروزیّ، و یحیی بن یحیی التّمیمیّ النیسابوریّ.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم ثلاثة أذرع و أربعة عشر إصبعا، مبلغ الزیادة أربعة عشر ذراعا و ستة أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۲۷]

السنة الثانیة من ولایة علی بن یحیی علی مصر و هی سنة سبع و عشرین و مائتین ه- فیها خرج بفلسطین المبرقع أبو حرب الیمانیّ الذی زعم أنّه السفیانیّ، فدعا بالأمر بالمعروف و النهی عن المنکر أوّلا، الی أن قویت شوکته فادّعی النبوّة. و کان

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۴۹

سبب خروجه أن جندیّا أراد النزول فی داره، فمانعته زوجته، فضربها الجندیّ بسوط فأثّر فی ذراعها؛ فلما جاء المبرقع شکت الیه؛ فذهب الی الجندیّ فقتله و هرب، و لبس برقعا لئلا یعرف، و نزل جبال الغور مبرقعا، و حثّ الناس علی الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر؛ فاستجاب له قوم من فلّاحی القری و قوی أمره؛ فسار لحربه رجاء الحضاریّ أحد قوّاد المعتصم فی ألف فارس، و أتاه فوجده فی مائة ألف، فعسکر بإزائه و لم یجسر علی لقائه.

فلما کان أوان الزراعة تفرّق أکثر أصحابه فی فلاحتهم و بقی فی نحو الألفین؛ فواقعه عند ذلک رجاء الحضاریّ المذکور و أسره و حبسه حتی مات خنقا فی آخر هذه السنة. و کان المبرقع بطلا شجاعا. و فیها بعث المعتصم علی دمشق الأمیر أبا المغیث الرافقیّ، فخرجت علیه طائفة من قیس، لکونه أخذ منهم خمسة عشر نفسا فصلبهم؛ فجهز الیهم أبو المغیث جیشا، فهزموه و زحفوا علی دمشق، فتحصّن بها أبو المغیث و وقع حصار شدید؛ و مات المعتصم و الأمر علی ذلک، فاستمرّ فی الحصار الی أن کتب الواثق الی رجاء الحضاریّ أن یتوجه الی دمشق مددا لأبی المغیث، فقدم دمشق و حارب القیسیّة حتی هزمهم و قتل منهم ألفا و خمسمائة، و قتل من الأجناد ثلثمائة. و فیها فی تاسع عشر شهر ربیع الأوّل بویع هارون الواثق بالخلافة بعد موت أبیه محمد المعتصم. و فیها توفی بشر بن الحارث بن عبد الرحمن بن عطاء بن هلال بن ماهان ابن عبد اللّه الزاهد الورع أبو نصر المعروف ببشر الحافی، کان أصله من أبناء الرؤساء بخراسان، فتزهّد و صحب الجنید؛ و مولده بمرو سنة خمسین و مائة، و سکن بغداد، و تزهّد

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۵۰

حتی فاق أهل عصره؛ و سمع الحدیث من مالک بن أنس و الفضیل بن عیاض و حمّاد ابن زید و شریک و عبد اللّه بن المبارک و غیرهم؛ و روی عنه جماعة منهم أحمد الدّورقیّ و محمد بن یوسف الجوهریّ و سریّ السّقطیّ و خلق غیرهم. قال أبو بکر المروزیّ: سمعت بشرا یقول: الجوع یصفّی الفؤاد و یمیت الهوی و یورث العلم الدقیق.

و قال أبو بکر بن عفّان: سمعت بشر [بن الحارث] یقول: إنی لأشتهی شواء منذ أربعین سنة ما صفالی درهمه. و عن المأمون قال: ما بقی أحد نستحی منه غیر بشر بن الحارث. و قال أحمد بن حنبل: لو کان بشر بن الحارث تزوّج لتمّ أمره. و قال إبراهیم الحربیّ: ما أخرجت بغداد أتمّ عقلا من بشر و لا أحفظ للسانه، کأن فی کلّ شعرة منه عقلا. و عن بشر قال: المتقلّب فی جوعه کالمتشحّط فی دمه فی سبیل اللّه. و عنه قال:

شاطر سخیّ أحبّ الی اللّه من صوفیّ بخیل. و عنه قال: لا أفلح من ألف أفخاذ النساء. و عنه قال: إذا أعجبک الکلام فاصمت، و إذا أعجبک الصمت فتکلّم. و کانت وفاة بشر فی یوم الأربعاء حادی عشر شهر ربیع الأوّل. و فیها توفّیت فاطمة جاریة المعتصم و تدعی بعریب، کانت فائقة الجمال بارعة فی الغناء و الخطّ، اشتراها المعتصم من ترکة أخیه المأمون بمائة ألف درهم. و فیها توفی أمیر المؤمنین المعتصم [بالله محمد]، و کنیته أبو إسحاق ابن الخلیفة الرشید هارون ابن الخلیفة المهدیّ محمد ابن الخلیفة أبی جعفر المنصور عبد اللّه بن محمد بن علیّ بن عبد اللّه بن العباس، الهاشمیّ العباسیّ الخلیفة الثالث من أولاد هارون الرشید؛ بویع بالخلافة بعد موت أخیه عبد اللّه المأمون فی شهر رجب سنة ثمان عشرة و مائتین، و مولده سنة ثمانین و مائة، و أمه أمّ ولد اسمها ماردة، و کان أمّیّا عاریا من کل علم. و عن محمد الهاشمیّ قال: کان مع المعتصم غلام فی الکتّاب

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۵۱

یتعلم معه، فمات الغلام؛ فقال له الرشید أبوه: یا محمد، مات غلامک! قال: نعم یا سیدی و استراح من الکتّاب؛ فقال: و إن الکتّاب لیبلغ منک هذا! دعوه لا تعلّموه؛ قال: فکان یکتب و یقرأ قراءة ضعیفة. و کان المعتصم مع ذلک فصیحا مهیبا عالی الهمّة شجاعا مقداما، حتی قیل: إنه کان أهیب خلفاء بنی العباس، إلا أنه سار علی سیرة أخیه المأمون فی امتحان العلماء بخلق القرآن؛ و کان یدعی الثّمانیّ، لأنه ولد سنة ثمانین و مائة فی شهر رمضان، و رمضان بعد ثمانیة أشهر من السنة، و ملک لثمان عشرة لیلة من شهر رجب، و

هو الثامن من خلفاء بنی العباس، و فتح ثمانیة فتوح، و کان عمره ثمانا و أربعین سنة، و خلافته ثمان سنین و ثمانیة أشهر و ثمانیة أیام، و خلّف من الولـد ثمانیـة بنین و ثمانی بنات، و خلّف من العین ثمانیـة آلاف ألف دینار و مثلها دراهم، و قیل: ثمانمائة ألف درهم، و من الخیـول ثمـانین ألـف فرس، و من الجمـال ثمـانین ألف جمـل و بغـل و دابـة، و ثمـانین ألف خیمـة، و ثمانیـة آلاـف عبـد (أعنی ممالیک)، و قیل: ثمانیة عشر ألفا، و ثمانیة آلاف جاریة، و عمّر من القصور ثمانیة.

و قال نفطویه: و حدّثت أنه کان من أشدّ الناس بطشا (یعنی المعتصم) و أنه جعل ید رجل بین إصـبعیه فکسـرها ا ه. و کانت وفاته فی یوم الخمیس تاسع عشر ربیع الأوّل، و تخلّف من بعده ابنه هارون الواثق.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم ثلاثة أذرع و اثنان و عشرون إصبعا، مبلغ الزیادة ستة عشر ذراعا و تسعة أصابع.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۵۲

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۲۸]

اشارة

السـنة الثالثة من ولایة علی بن یحیی علی مصـر و هی سـنة ثمان و عشـرین و مائتین- فیها استخلف الخلیفة هارون الواثق علی السلطنة أشـناس الـذی کان أمر مصـر الیه یولّی فیها من اختار، و ألبسه و شاحین بجوهر. و فیها وقعت قطعـة من جبل العقبة، قتل تحتها جماعة من الحاجّ. و فیها توفی عبیـد اللّه بن محمد بن حفص بن عمر بن موسـی بن عبد اللّه بن معمر الحافظ أبو عبد الرحمن التّیمیّ و یعرف بابن عائشة، و هو من ولد عائشة بنت طلحة، قدم بغداد و حدّث بها، و کان فاضلا أدیبا حسن الخلق ورعا عارفا بأیام الناس؛ و کان مع هـذه الفضـیلة شدید القوّة یمسک یمینه و یساره شاتین الی أن تنسلخا؛ و ابن عائشة هو الذی ضـربه المأمون فخرج منه ریح، فقال فیه أبو نواس تلک الأبیات المشـهورة. و فیها توفی عبـد الملک ابن عبـد العزیز الحافظ أبو نصـر التّمار، کان إماما عالما صدوقا زاهدا، إلا أنه کان ممن أجاب فی المحنة، فنهی الامام أحمد لهذا المعنی [عن] الأخذ عنه. و فیها توفی

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۵۳

محمد بن عبید اللّه بن عمرو بن معاویة بن عمرو بن عتبة بن أبی سـفیان بن حرب، العتبیّ البصـریّ صاحب النوادر و الآداب و الأشعار و الأخبار و الطرائف و الملح و التصانیف؛ و ذکره ابن قتیبة فی کتاب المعارف، و ابن المنجّم فی کتاب البارع. و من شعره:

رأین الغوانی الشیب لاح بعارضی فأعرضن عنّی بالخدود النواضر

و کنّ اذا أبصرننی أو سمعننی خرجن فرقّعن الکوی بالمحاجر

فإن عطفت عنّی أعنّة أعین نظرن بأحداق المها و الجآذر

فإنّی من قوم کریم ثناؤهم لأقدامهم صیغت رءوس المنابر

خلائف فی الإسلام فی الشرک قادة بهم و الیهم فخر کلّ مفاخر

و أورد له المبرّد فی کتابه الکامل بیتین یرثی بهما بعض أولاده، و هما:

أضحت بخدّی للدّموع رسوم أسفا علیک و فی الفؤاد کلوم

و الصبر یحمد فی المواطن کلّها الّا علیک فإنه مذموم

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۵۴

و فیها توفی محمد بن مصـعب أبو جعفر البغدادیّ، کان أحد العبّاد الزّهاد و القرّاء، أثنی علیه الإمام أحمد بن حنبل و وصـفه بالسنة. و

فیها توفى یحیى بن عبد الحمید بن عبد الرحمن الحافظ الإمام أبو زکریا الکوفیّ، کان أحد الحفّاظ الرحّالین، و کان یحفظ عشرة آلاف حدیث یسردها سردا؛ و کانت وفاته بمدینة سامرّا فى شهر رمضان.

و فیها توفى نعیم بن حمّاد بن معاویة بن الحارث بن همّام الخزاعیّ المروزیّ صاحب عبد اللّه بن المبارک، کان أعلم الناس بالفرائض، و هو من الرحّالة فى طلب الحدیث.

الذین ذکر الذهبیّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فیها توفى أحمد بن شبّویة المروزى، و أحمد بن محمد بن أیوب صاحب المغازى، و أحمد بن عمران الأخنس، و إسحاق بن بشر الکاهلیّ الکوفیّ، و بشّار بن موسى الخفّاف، و حاجب بن الولید الأعور، و حمّاد بن مالک الحرستانیّ، و داود بن عمرو الضّبّیّ، و عبد اللّه بن سوّار بن عبد اللّه العنبرى القاضى، و عبد اللّه بن عبد الوهاب الحجبیّ، و عبد الرحمن بن المبارک، و أبو نصر عبد الملک بن عبد العزیز التمار، و على بن عثّام الکوفیّ، و أبو الجهم صاحب الخبر، و محمد بن جعفر الورکانیّ، و محمد بن حسّان السّمتیّ، و أبو یعلى محمد بن الصّلت التّوّزیّ، و العتبیّ الإخباریّ، و محمد بن عبد اللّه، و محمد بن عمران ابن أبى لیلى، و المثّنى بن معاذ العنبریّ، و مسدّد، و نعیم بن الهیصم، و یحیى الحمّانیّ.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۵۵

أمر النیل فى هذه السنة- الماء القدیم ذراعان و عشرة أصابع، مبلغ الزیادة ستة عشر ذراعا و ستة أصابع.

ذکر ولایة عیسى بن منصور الثانیة على مصر

هو عیسى بن منصور بن موسى بن عیسى الرافقى، ولیها ثانیا بعد عزل على بن یحیى الأرمنیّ، من قبل الأمیر أشناس الترکیّ المعتصمیّ على الصلاة؛ و دخل الى مصر فى یوم الجمعة لسبع خلون من محرم سنة تسع و عشرین و مائتین؛ و سکن المعسکر على عادة أمراء مصر فى الدولة العباسیة؛ و جعل على الشرطة ابنه، و مهّد أمور مصر، و دام بها الى أن توفى الأمیر أشناس الترکیّ المعتصمیّ عامل مصر من قبل الخلیفة- و هو الذى کان الیه أمور مصر یولّى علیها من شاء من الأمراء- فى سنة ثلاثین و مائتین. و ولّى الخلیفة مکانه على مصر الأمیر إیتاخ. و کانت ولایة أشناس على مصر اثنتى عشرة سنة أو نحوها. و لما ولى إیتاخ الترکیّ مصر أقرّ عیسى بن منصور هذا على عمله، فاستمرّ عیسى بمصر على إمرتها نیابة عن إیتاخ الى أن مات الخلیفة هارون الواثق فى سنة اثنتین و ثلاثین و مائتین، و بویع بالخلافة من بعده أخوه المتوکّل على اللّه جعفر، فأرسل الى عیسى هذا [بأن] یأخذ البیعة له على المصریین. ثم صرفه بعد ذلک فى النصف من شهر ربیع الأوّل من سنة ثلاث و ثلاثین و مائتین بالأمیر هرثمة؛ و قدم مصر علیّ بن مهرویه خلیفة هرثمة على الصلاة. فلم تطل أیام عیسى بن منصور هذا بعد عزله عن إمرة مصر، و مرض و لزم الفراش حتى مات فى قبّة الهواء بمصر فى حادى عشر شهر ربیع الآخر من سنة ثلاث و ثلاثین المذکورة. رحمه اللّه. و کان

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۵۶

أمیرا جلیلا عارفا عاقلا مدبّرا سیوسا، ولى الأعمال الجلیلة، و طالت أیامه فى السعادة.

و هو ممن ولى إمرة مصر أوّلا عن الخلیفة، و الثانیة عن الأمیر أشناس الترکیّ، فکانت ولایته على مصر أربع سنین و ثلاثة أشهر و ثمانیة عشر یوما.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۲۹]

السنة الأولى من ولایة عیسى بن منصور الثانیة على مصر و هى سنة تسع و عشرین و مائتین- فیها صادر الخلیفة الواثق باللّه هارون [کتّاب] الدواوین و سجنهم، و ضرب أحمد بن إسرائیل ألف سوط و أخذ منه ثمانین ألف دینار، و أخذ من سلیمان ابن وهب کاتب

الأمير إيتاخ الذى أمر مصر راجع اليه أربعمائة ألف دينار، و أخذ من أحمد بن الخصيب و كاتبه ألف ألف دينار؛ فيقال: إنّ هارون الواثق أخذ من الكتّاب فى هذه النوبة ألفى ألف دينار؛ و كان متولى هذه المصادرات الأمير إسحاق بن يحيى صاحب حرس الواثق. و فيها ولّى الخليفة هارون الواثق الأمير إيتاخ اليمن مضافا الى مصر فبعث اليها إيتاخ نوّابه. و فيها ولّى الواثق محمد بن صالح إمرة المدينة، و ولّى محمد بن يزيد الحلبىّ الحنفىّ قضاء الشرقية. و فيها توفى خلف بن هشام بن ثعلبة أبو محمد البزّاز البغدادىّ المقرئ، كان إماما عالما، له قراءة اختارها و قرأ بها، و كان قد قرأ على مسلم صاحب حمزة و سمع مالكا و أبا عوانة و أبا شهاب عبد ربّه الخياط و جماعة؛ و روى عنه أحمد بن حنبل و أبو زرعة و موسى بن هارون و إدريس بن عبد الكريم الحدّاد و جماعة أخر. قال حمدان بن هانئ المقرئ: سمعت خلفا البزاز يقول: أشكل علىّ باب من النحو فأنفقت ثمانين ألف درهم حتى حذقته.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفى أحمد بن شبيب الحبطىّ و اسماعيل بن عبد اللّه بن زرارة الرّقّى، و ثابت بن موسى العابد، و خالد بن

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۵۷

هيّاج الهروىّ، و خلف بن هشام البزّار، و أبو مكيس الذى زعم أنه سمع من أنس، و أبو نعيم ضرار بن صرد، و عبد العزيز بن عثمان المروزىّ، و عمّار بن نصر، و عمر ابن خالد الحرّانى نزيل مصر، و محمد بن معاوية النيسابورىّ، و نعيم بن حمّاد الخزاعىّ، و يحيى بن عبدويه صاحب شعبة، و يزيد بن صالح النيسابورىّ.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثلاثة أذرع و عشرون إصبعا، مبلغ الزيادة ستة عشر ذراعا و تسعة أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۳۰]

السنة الثانية من ولاية عيسى بن منصور على مصر و هى سنة ثلاثين و مائتين- فيها عاثت الأعراب حول المدينة فسار لحربهم الأمير بغا الكبير فدوّخهم و أسر و قتل فيهم- و كان قد حاربهم حمّاد بن جرير الطبرى القائد فقتل هو و عامّة أصحابه- و استباحوا عسكرهم، و حبس بغا منهم فى القيود بالمدينة نحو ألف نفس، فنقبوا الحبس، فأخبرت بهم امرأة، فأحاط بهم أهل المدينة و حضروهم يومين، ثم برزوا للقتال بكرة الثالث، و كان مقدّمهم عزيزة السّلمىّ فكان يحمل فيهم و هو يرتجز و يقول:

لا بدّ من زحم و إن ضاق الباب إنى أنا عزيزة بن قطّاب

للموت خير للفتى من العاب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۵۸

و كان قد فكّ قيده و صار يقاتل به [يومه] الى أن قتل و صلب، و قتلت عامّة بنى سليم و قتل جماعة كثيرة من الأعراب. و فيها توفى محمد بن سعد الإمام أبو عبد اللّه مولى بنى هاشم، و هو كاتب الواقدىّ صاحب الطبقات و السّير و أيام الناس؛ كان إماما فاضلا عالما حسن التصانيف، صنّف كتابا كبيرا فى طبقات الصحابة و التابعين و العلماء الى وقته.

قلت: و نقلنا عنه كثيرا فى الكتاب رحمه اللّه تعالى. روى عنه خلائق لا تحصى؛ و وثّقه غالب الحفّاظ إلا يحيى بن معين. و فيها توفى محمد بن يزداد بن سويد المروزىّ أحد كتّاب المأمون و وزرائه؛ كان إماما كاتبا فاضلا، مات بسرّمن‌رأى فى شهر ربيع الأوّل بعد ما لزم داره سنين.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفى أحمد بن جميل المروزىّ، و أحمد بن جناب المصّيصىّ، و إبراهيم ابن إسحاق الضّبّىّ، و إسحاق بن إسماعيل الطّالقانى، و إسماعيل بن عيسى العطّار، و سعيد بن عمرو الأشعثىّ، و سعيد ابن محمد الجرمىّ، و عبد اللّه بن طاهر الأمير، و عبد العزيز بن يحيى المدنىّ نزيل نيسابور، و علىّ بن الجعد، و على بن محمد الطّنافسىّ، و عون بن سلّام

الکوفیّ، و محمد ابن إسماعيل بن أبى سمينة، و محمد بن سعد كاتب الواقدىّ، و محبوب بن موسى الأنطاكىّ، و مهدىّ بن جعفر الرملىّ.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة؛ ج ۲؛ ص۲۵۸

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۲، ص: ۲۵۹

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثلاثة أذرع و اثنان و عشرون إصبعا، مبلغ الزيادة ستة عشر ذراعا و تسعة أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۳۱]

السنة الثالثة من ولاية عيسى بن منصور على مصر و هى سنة إحدى و ثلاثين و مائتين- فيها ورد كتاب الخليفة هارون الواثق الى الأعمال بامتحان العلماء بخلق القرآن، و كان قد منع أبوه المعتصم ذلك؛ فامتحن الناس ثانيا بخلق القرآن. و دام هذا البلاء بالناس الى أن مات الواثق و بويع المتوكّل جعفر بالخلافة، فى سنة اثنتين و ثلاثين و مائتين؛ فرفع المتوكّل المحنة و نشر السنّة. و فيها كان الفداء فافتكّ هارون الواثق من طاغية الروم أربعة آلاف و ستّمائة أسير؛ و لم يقع قبل ذلک فداء بين المسلمين و الروم من منذ سبع و ثلاثين سنة. فقال ابن أبى دوّاد: من قال من الأسارى: القرآن مخلوق فأطلقوه و أعطوه دينارا، و من امتنع فدعوه فى الأسر.

قلت: ما أظنّ الجميع إلا أجابوا. و فيها عزم الخليفة هارون الواثق على الحجّ، فأخبر أنّ الطريق قليلة المياه، فثنى عزمه. و فيها ولّى الواثق جعفر بن دينار اليمن، فخرج اليها فى شعبان فى أربعة آلاف، و قيل: فى ستة آلاف فارس. و فيها ولّى الواثق إسحاق بن إبراهيم بن أبى حفصة على اليمامة و البحرين و طريق مكّة مما يلى البصرة.

و فيها رأى الواثق فى المنام أنه فتح سدّ يأجوج و مأجوج فانتبه فزعا، و بعث الى السدّ سلّاما التّرجمان. و فيها توفى أحمد بن حاتم الإمام أبو نصر النحوىّ، كان إماما فاضلا أديبا، صنّف كتبا كثيرة: منها كتاب الشجر و النبات و الزرع. و فيها توفى على بن محمد ابن عبد اللّه بن أبى سيف المدائنىّ الشيخ الإمام أبو الحسن، كان إماما عالما حافظا ثقة، و هو صاحب التاريخ؛ و تاريخه أحسن التواريخ؛ و عنه أخذ الناس تواريخهم.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۲، ص: ۲۶۰

و فيها توفى محمد بن سلّام بن عبد اللّه بن سلّام، الإمام أبو عبد اللّه البصرىّ، مولى قدامة بن مظعون، و هو مصنّف كتاب طبقات الشعراء، و كان من أهل العلم و الفضل و الأدب.

و فيها توفى محمد بن يحيى بن حمزة قاضى دمشق و ابن قاضيها، ولى قضاءها مدّة خلافة المأمون و بعض خلافة المعتصم ثم عزل، و كان إماما عالما متبحّرا فى العلوم.

و فيها توفى مخارق المغنّى المطرب أبو المهنّأ، كان إمام عصره فى فنّ الغناء، كان الرشيد يجعل بينه و بين مغنّية ستارة الى أن غنّاه مخارق هذا فرفع الستارة و قال له:

يا غلام الى هاهنا، فأقعده معه على السرير و أعطاه ثلاثين ألف درهم؛ و كان فى مجلس الرشيد يوم ذاک ابن جامع المغنّى و غيره.

قلت: و لا- تنس إبراهيم الموصلىّ و ابنه إسحاق بن إبراهيم فإنّهما كانا فى رتبة لم ينلها غيرهما فى العود و الغناء إلّا أنّ مخارقا هذا كان فى طريق آخر فى التأدّى؛ و الجميع كان غناؤهم غير الموسيقى الآن. و قد بيّنا ذلک فى غير هذا المحل فى مصنّف لطيف. ثم اتصل مخارق بالمأمون و قدم معه دمشق، و كان مخارق يضرب بجودة غنائه المثل، و كانت وفاته بمدينة سرّ من رأى.

و فيها توفى يوسف بن يحيى الفقيه العالم أبو يعقوب البويطىّ، و بويط: قرية.

قال الشافعىّ رضى اللّه عنه: ما رأيت أحدا أبرع بحجّة من كتاب اللّه مثل البويطىّ، و البويطىّ لسانى. و لما مات الشافعىّ تنازع محمد

بن عبد الحکم و البویطیّ فی الجلوس

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۶۱

موضع الشافعیّ حتی شهد الحمیدیّ علی الشافعیّ أنه قال: البویطیّ أحق بمجلسی من غیره، فأجلسوه مکانه. و أخبره الشافعیّ أنّه یمتحن و یموت فی الحدید، فکان کما قال.

و فیها توفی أبو تمّام الطائیّ حبیب بن أوس بن الحارث بن قیس الخوارزمیّ الجاسمیّ الشاعر المشهور حامل لواء الشعراء فی عصره؛ کان أبوه نصرانیّا فأسلم هو، و مدح الخلفاء و الأعیان، و سار شعره شرقا و غربا. و هو الذی جمع الحماسة، و کان أسمر طویلا فصیحا حلو الکلام فیه تمتمة یسیرة، ولد سنة تسعین و مائة أو قبلها. و من شعره ینعت سیفا:

السیف أصدق إنباء من الکتب فی حدّه الحدّ بین الجدّ و اللعب

بیض الصفائح لا سود الصحائف فی متونهنّ جلاء الشکّ و الرّیب

و لما مات رثاه الحسن بن وهب بقوله:

فجع القریض بخاتم الشعراء و غدیر روضتها حبیب الطائی

ماتا معا فتجاورا فی حفرة و کذاک کانا قبل فی الأحیاء

ورثاه الوزیر محمد بن عبد الملک الزیات وزیر المعتصم یوم ذاک بقوله:

نبأ أتی من أعظم الأنباء لمّا ألّم مقلقل الأحشاء

قالوا حبیب قد ثوی فأجبتهم ناشدتکم لا تجعلوه الطائی

و کانت وفاته بالموصل فی جمادی الأولی.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم أربعة أذرع و ستة أصابع، مبلغ الزیادة سبعة عشر ذراعا و ثلاثة أصابع و نصف.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۶۲

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۳۲]

اشارة

السنة الرابعة من ولایة عیسی بن منصور علی مصر و هی سنة اثنتین و ثلاثین و مائتین- فیها کانت وقعة کبیرة بین بغا الکبیر و بین بنی نمیر، و کانوا قد أفسدوا الحجاز و الیمامة بالغارات، و حشدوا فی ثلاثة آلاف راکب، فالتقوا بأصحاب بغا فهزموهم.

و جعل بغا یناشدهم الرجوع الی الطاعة و بات بإزائهم تلک اللیلة، ثم أصبحوا فالتقوا فانهزم أصحاب بغا ثانیا، فأیقن بغا بالهلاک. و کان قد بعث مائتی فارس الی جبل لبنی نمیر؛ فبینما هو فی الإشراف علی التلف إذا بهم قد رجعوا یضربون الکوسات، فقوی بأس بغابهم و حملوا علی بنی نمیر فهزموهم و رکبوا أقفیتهم قتلا، و أسروا منهم ثمانمائة رجل؛ فعاد بغا و قدم سامرّا و بین یدیه الأسری. و فیها مات خلق کثیر بأرض الحجاز من العطش. و فیها کانت الزلازل کثیرة بأرض الشأم، و سقط بعض الدور بدمشق، و مات جماعة تحت الردم. و فیها ولّی الواثق الأمیر محمد بن ابراهیم بن مصعب بلاد فارس. و فیها توفی أمیر المؤمنین أبو جعفر هارون الواثق بالله ابن الخلیفة المعتصم محمد ابن الخلیفة هارون الرشید ابن الخلیفة محمد المهدیّ ابن الخلیفة أبی جعفر المنصور عبد اللّه بن محمد بن علی بن عبد اللّه بن العباس الهاشمیّ البغدادیّ العباسیّ؛ بویع بالخلافة بعد موت أبیه محمد المعتصم فی شهر ربیع الأوّل سنة سبع و عشرین و مائتین، و أمّه أمّ ولد رومیة تسمّی قراطیس؛ و مات فی یوم الأربعاء لستّ بقین من ذی الحجة من السنة المذکورة؛ فکانت

خلافته خمس سنين و نصفا. و تولّى الخلافة من بعده

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۶۳

أخوه المتوكّل على اللّه جعفر، و كان ملكا مهيبا كريما جليلا أديبا مليح الشعر، إلّا أنّه كان مولعا بالغناء و القينات. قيل: إن جارية غنّته بشعر العرجى و هو:

أظلوم إنّ مصابكم رجلا أهدى السلام تحيّة ظلم

فمن الحاضرين من صوّب نصب رجلا، و منهم من قال: صوابه رجل؛ فقالت الجارية: هكذا لقّننى المازنىّ. فطلب المازنىّ، فلمّا مثل بين يدى الواثق قال:

ممّن الرجل؟ قال: من بنى مازن؛ قال الواثق: أىّ الموازن؟ أمازن تميم، أم مازن قيس، أم مازن ربيعة؟ قال: مازن ربيعة؛ فكلّمه الواثق حينئذ بلغة قومه، فقال: با اسمك؟- لأنهم يقلبون الميم باء و الباء ميما- فكره المازنىّ أن يواجهه بمكر؛ فقال: بكر يا أمير المؤمنين، ففطن لها و أعجبته. و قال له: ما تقول فى هذا البيت؟

قال: الوجه النصب، لأنّ مصابكم مصدر بمعنى إصابتكم؛ فأخذ اليزيدىّ يعارضه؛ قال المازنىّ: هو بمنزلة إنّ ضربك زيدا ظلم، فالرجل مفعول مصابكم، و الدليل عليه أنّ الكلام معلّق الى أن تقول: ظلم فيتمّ؛ فأعجب الواثق و أعطاه ألف دينار.

و قال ابن أبى الدنيا: كان الواثق أبيض تعلوه صفرة، حسن اللحية، فى عينيه نكتة [بيضاء]. و قيل: إنّ الواثق لما احتضر جعل يردّد هذين البيتين و هما:

الموت فيه جميع الخلق مشترك لا سوقة منهم يبقى و لا مل؟؟؟

ما ضرّ أهل قليل فى تفاقرهم و ليس يغنى عن الأملاك ما ملكوا

ثم أمر بالبسط فطويت، و ألصق خدّه بالأرض و جعل يقول: يا من لا يزول ملكه، ارحم من زال ملكه! يكرّرها الى أن مات رحمه اللّه تعالى. و فيها توفى على بن

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۶۴

المغيرة أبو الحسن الأثرم البغدادىّ، الإمام البارع صاحب اللغة و النحو، قدم الشأم ثم رجع الى بغداد و سمع بها من الأصمعىّ و غيره، و مات بها. و فيها توفى محمد بن زياد أبو عبد اللّه بن الأعرابىّ، كان أحد العلماء باللغة و المشار اليه فيها، و كان يزعم أنّ الأصمعىّ و أبا عبيدة لا يعرفان من اللغة قليلا و لا كثيرا؛ و سأله إمام المحنة أحمد ابن أبى دواد: أتعرف معنى استولى؟ قال: لا و لا تعرفه العرب، لأنها لا تقول:

استولى فلان على شىء حتى يكون له فيه مضادّ و منازع، فأيّهما غلب استولى عليه؛ و اللّه تعالى لا ضدّ له؛ و أنشد [قول] النابغة:

إلّا لمثلك أو من أنت سابقه سبق الجواد إذا استولى على الأمد

و كان مع هذا خصيصا عند المأمون. و سأله مرّة عن أحسن ما قيل فى الشراب؛ فقال: قول القائل:

تريك القذى من دونها و هى دونه إذا ذاقها من ذاقها يتمطّق

فقال المأمون: أشعر منه من قال:

و تمشّت فى مفاصلهم كتمشّى البرء فى السّقم

يريد الحسن بن هانئ.

قلت: هذا كان فى تلك الأعصار الخالية، و أما لو سمع المأمون بما وقع للمتأخرين فى هذا المعنى و غيره لأضرب عن القولين و مال الى ما سمع. كم ترك الأوّل للآخر!.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۶۵

و فيها توفى محمد بن عائذ أبو عبد اللّه الكاتب الدّمشقىّ صاحب المغازى و الفتوح و السّير و غيرها، ولد سنة خمسين و مائة ه، و ولى خراج غوطة دمشق للمأمون، و كان عالما ثقة صاحب اطّلاع، مات فى هذه السنة، و قيل: سنة أربع و ثلاثين و مائتين ه.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفى إبراهيم بن الحجّاج السّامىّ لا الشامىّ، و الحكم بن موسى القنطرىّ الزاهد، و جويرية بن أشرس، و عبد اللّه بن عون الخرّاز، و علىّ بن المغيرة الأثرم اللغوىّ، و عمرو بن محمد الناقد، و عيسى بن سالم الشاشىّ، و هارون الواثق بالله، و يوسف بن عدىّ الكوفىّ.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربعة أذرع و ثمانية أصابع، مبلغ الزيادة خمسة عشر ذراعا و ستة عشر إصبعا.

ذكر ولاية هرثمة بن نصر على مصر

هو هرثمة بن نصر الجبلىّ: من أهل الجبل، ولى إمرة مصر بعد عزل عيسى ابن منصور عنها فى شهر ربيع الأوّل سنة ثلاث و ثلاثين و مائتين ه، ولّاه الأمير إيتاخ التركىّ على إمرة مصر نيابة عنه على الصلاة. و لما ولى هرثمة هذا أرسل الى مصر علىّ بن مهرويه خليفة له على مصر و على صلاتها، فناب علىّ بن مهرويه عنه، حتى قدم هرثمة المذكور الى مصر فى يوم الأربعاء لستّ خلون من شهر رجب من سنة ثلاث و ثلاثين و مائتين ه. و سكن بالمعسكر على العادة؛ و جعل على شرطته

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۶۶

أبا قتيبة. و فى أيّام هرثمة هذا ورد كتاب الخليفة المتوكّل الى مصر بترك الجدال فى القرآن و اتباع السنّة و عدم القول بخلق القرآن. و للّه الحمد.

و سببه أنّ الواثق كان قد تاب و رجع عن القول بخلق القرآن، فأدركته المنيّة قبل إشاعة ذلك و تولّى المتوكّل الخلافة. قال أبو بكر الخطيب: كان أحمد بن أبى دواد قد استولى على الواثق و حمله على التشدّد فى المحنة، و دعا الناس الى القول بخلق القرآن. و قال عبيد اللّه بن يحيى: حدّثنا إبراهيم بن أسباط بن السّكن قال: حمل رجل فيمن حمل مكبل بالحديد من بلاده فأدخل؛ فقال ابن أبى دواد: تقول أو أقول؟ قال: هذا أوّل جوركم، أخرجتم الناس من بلادهم، و دعوتموهم الى شىء ما قاله أحد؛ لا! بل أقول؛ قال: قل- و الواثق جالس- فقال: أخبرنى عن هذا الرأى الذى دعوتم الناس اليه، أعلمه رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم فلم يدع الناس اليه، أم شئ لم يعلمه؟ قال: علمه؛ قال: فكان يسعه ألّا يدعو الناس اليه و أنتم لا يسعكم! فبهتوا. قال: فاستضحك الواثق و قام قابضا على كمّه و دخل بيتا و مدّ رجليه و هو يقول: شىء وسع النّبىّ صلى اللّه عليه و سلم أن يسكت عنه و لا يسعنا! فأمر أن يعطى الرجل ثلثمائة دينار و أن يردّ الى بلده.

و عن طاهر بن خلف قال: سمعت المهتدى بالله بن الواثق يقول: كان أبى إذا أراد أن يقتل رجلا أحضرنا، فأتى بشيخ مخضوب مقيّد- كلّ هؤلاء يعنون بالشيخ (أحمد بن حنبل) رضى اللّه عنه- فقال أبى: ائذنوا لابن أبى دواد و أصحابه؛ و أدخل الشيخ فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين؛ فقال: لا سلّم اللّه عليك؛ فقال الشيخ: بئس ما أدّبك مؤدّبك، قال اللّه: وَ إِذا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْها أَوْ رُدُّوها.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۶۷

قال الذهبىّ: هذه رواية منكرة، و رواتها مجاهيل، لكن نسوقها بطريق جيّد، قال: فقال ابن أبى دواد: يا أمير المؤمنين، الرجل متكلّم؛ فقال له: كلّمه؛ فقال:

يا شيخ، ما تقول فى القرآن؟ قال: لم تنصفنى ولى السؤال؛ قال: سل يا شيخ؛ قال: ما تقول فى القرآن؟ قال: مخلوق؛ قال: هذا شىء علمه رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم و أبو بكر و عمر و الخلفاء أم شىء لم يعلموه؟ فقال: شىء لم يعلموه؛ فقال:

سبحان اللّه، شىء لم يعلموه! أعلمته أنت؟ قال: فخجل و قال: أقلنى؛ قال: و المسألة بحالها؟ قال: نعم؛ قال: ما تقول فى القرآن؟ قال:

مخلوق؛ قال: شىء علمه رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم؟ قال ابن أبى دواد: علمه؛ قال الشيخ: علمه و لم يدع الناس اليه؟ قال: نعم؛ قال: فوسعه ذلک؟ قال: نعم؛ قال: أفلا وسعک ما وسعه و وسع الخلفاء بعده! قال: فقام أبى و دخل الخلوة و استلقى و هو يقول: شىء لم يعلمه النّبىّ صلى اللّه عليه و سلم و لا أبو بكر و لا عمر و لا عثمان و لا علىّ علمته أنت! سبحان اللّه! علموه و لم يدعوا اليه الناس، أفلا وسعک ما وسعهم! ثم أمر برفع قيود الشيخ و أمر له بأربعمائة دينار و سقط من عينه ابن أبى دواد و لم يمتحن بعدها أحدا.

و قد روى نحوا من هذه الواقعة أحمد بن السّندىّ الحدّاد عن أحمد بن منيع عن صالح بن على الهاشمىّ المنصورىّ عن الخليفة المهتدى بالله رحمه اللّه، قال صالح:

حضرت و قد جلس للمتظلمين- يعنى المهتدى بالله رحمه اللّه- فنظرت الى القصص تقرأ عليه من أوّلها الى آخرها فيأمر بالتوقيع عليها و يختمها فيسرّنى ذلک، و جعلت أنظر اليه، ففطن بى و نظر الىّ فغضضت عنه، حتى كان ذلک منه و منّى مرارا؛ فقال لى: يا صالح، فى نفسک شىء تحبّ أن تقوله؟ قلت: نعم؛ فلما انقضى المجلس أدخلت مجلسه؛ فقال: تقول ما ذا فى نفسک أو أقوله لک؟ قلت: يا أمير المؤمنين

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۶۸

ما ترى؛ قال: أقول: إنه قد استحسنت ما رأيت منّا؛ فقلت: أىّ خليفة خليفتنا إن لم يكن يقول: القرآن مخلوق! فورد على قلبى أمر عظيم؛ ثم قلت: يا نفس هل تموتين قبل أجلک! فأطرق المهتدى ثم قال: اسمع منّى، فو اللّه لتسمعنّ الحقّ؛ فسرى فى ذهنى شىء، فقلت: و من أولى بقول الحق منک، و أنت خليفة ربّ العالمين و ابن عمّ سيد المرسلين! قال: ما زلت أقول: القرآن مخلوق صدرا من أيام الواثق حتى أقدم شيخا من أذنة فأدخل مقيّدا، و هو جميل حسن الشيبة، فرأيت الواثق قد استحيا منه و رقّ له؛ فما زال يدنيه حتى قرب منه و جلس، فقال له: ناظر ابن أبى دواد؛ فقال: يا أمير المؤمنين، إنّه يضعف عن المناظرة؛ فغضب و قال:

أبو عبد اللّه يضعف عن مناظرتک أنت!. قال: هوّن عليک و أذن لى فى مناظرته؛ فقال: ما دعوناک إلّا لذلک؛ فقال: احفظ علىّ و عليه. فقال: يا أحمد، أخبرنى عن مقالتک هذه، هى مقالة واجبة داخلة فى عقد الدّين فلا يكون الدين كاملا حتى يقال فيه ما قلت؟ قال: نعم. قال: أخبرنى عن رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم حين بعثه اللّه، هل ستر شيئا مما أمر به؟ قال: لا. قال: فدعا الى مقالتک هذه؟

فسكت. فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين واحدة؛ فقال الواثق: واحدة. فقال الشيخ:

أخبرنى عن اللّه تعالى حين قال: الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ أكان اللّه هو الصادق فى إكمال دينه، أم أنت الصادق فى نقصانه حتى تقال مقالتک؟ فسكت؛ فقال الشيخ: ثنتان؛ قال الواثق: نعم. فقال: أخبرنى عن مقالتک هذه، أعلمها رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم أم جهلها؟ قال: علمها؛ قال: فدعا الناس إليها؟ فسكت.

فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين ثلاث؛ قال: نعم. قال: فاتّسع لرسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم إن علمها أن يمسک عنها و لم يطالب أمّته بها؟ قال: نعم؛ قال: و اتّسع لأبى بكر

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۶۹

و عمر و عثمان و علىّ ذلک؟ قال: نعم؛ فأعرض الشيخ عنه و أقبل على الواثق و قال: يا أمير المؤمنين، قد قدّمت القول أنّ أحمد يصبو و يضعف عن المناظرة؛ يا أمير المؤمنين إن لم يتّسع لک من الإمساک عن هذه المقالة كما زعم هذا أنه اتّسع للنبىّ صلى اللّه عليه و سلم و لأبى بكر و عمر و عثمان و علىّ فلا وسّع اللّه عليک؛ قال الواثق: نعم كذا هو، قطّعوا قيد الشيخ، فلما قطّعوه ضرب الشيخ بيده الى القيد فأخذه؛ فقال الواثق:

لم أخذته؟ قال: إنّى نويت أن أتقدّم إلى من أوصى اليه إذا أنا متّ أن يجعله بينى و بين كفنى حتى أخاصم به هذا الظالم عند اللّه يوم القيامة، فأقول: يا ربّ لم قيّدنى و روّع أهلى، ثم بكى، فبكى الواثق و بكينا. ثم سأله الواثق أن يجعله فى حلّ و أمر له بصلة؛ فقال:

لا حاجة لی بها. قال المهتدی: فرجعت عن هذه المقالة، و أظنّ أنّ الواثق رجع عنها من یومئذ ا ه.

قلت: و لما وقع ذلک کتب للأقطار برفع المحنة و السکوت عن هذه المقالة بالجملة، و هدّد کلّ من قال بها بالقتل.

و کان هرثمة هذا یحبّ السّنّة، فأخذ فی إظهار السنّة و العمل بها، و فرح الناس بذلک و تباشروا بولایته؛ فلم تطل مدّته علی إمرة مصر بعد ذلک حتی مرض و مات بها فی یوم الأربعاء لسبع بقین من شهر رجب سنة أربع و ثلاثین و مائتین؛ و استخلف ابنه حاتم بن هرثمة علی صلاة مصر. و کانت ولایة هرثمة المذکور علی مصر سنة واحدة و ثلاثة أشهر و ثمانیة أیام. و هذا ثانی هرثمة ولی إمرة مصر فی الدولة العباسیّة، فالأوّل هرثمة بن أعین، ولّاه الرشید هارون علی مصر سنة ثمان

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۷۰

و سبعین و مائة، و الثانی هو هرثمة بن نصر هذا. و کان هرثمة أمیرا جلیلا عاقلا مدبّرا سیوسا. و تولّی مصر من بعده ابنه حاتم بن هرثمة باستخلافه له، فأقرّه الخلیفة.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۳۳]

اشارة

السنة التی حکم فیها هرثمة بن نصر علی مصر و هی سنة ثلاث و ثلاثین و مائتین- فیها کانت زلزلة عظیمة بدمشق سقط منها شرفات الجامع الأمویّ و انصدع حائط المحراب و سقطت منارته، و هلک خلق تحت الرّدم، و هرب الناس الی المصلّی باکین متضرّعین الی اللّه، و بقیت ثلاث ساعات ثم سکنت.

و قال القاضی أحمد بن کامل فی تاریخه: رأی بعض أهل دیر مرّان دمشق تنخفض و ترتفع مرارا، فمات تحت الرّدم معظم أهلها- هکذا قال و لم یقل بعض أهلها- ثم قال: و کانت الحیطان تنفصل حجارتها من بعضها مع کون الحائط عرض سبعة أذرع، ثم امتدّت هذه الزّلزلة الی أنطاکیة فهدمتها، ثم الی الجزیرة فأخربتها، ثم الی الموصل. یقال: إنّ الموصل هلک من أهله خمسون ألفا، و من أهل أنطاکیة عشرون ألفا.

و فیها أصاب القاضی أحمد بن أبی دواد فالج عظیم و بطلت حرکته حتی صار کالحجر الملقی. و أحمد هذا هو القائل بخلق القرآن، یأتی ذکره عند وفاته فی هذا الکتاب فی محلّه إن شاء اللّه تعالی.

و فیها فی شهر رمضان ولّی الخلیفة المتوکّل علی اللّه ابنه محمدا المنتصر الحرمین و الطائف.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۷۱

و فیها عزل المتوکل الفضل بن مروان عن دیوان الخراج و ولّاه الفتح بن خاقان. و فیها غضب المتوکّل علی عمر بن الفرج و صادره.

و فیها قدم یحیی بن هرثمة بن أعین- و کان ولی طریق مکّة- بالشّریف علیّ بن محمد بن علیّ الرّضی العلویّ من المدینة، و کان قد بلغ المتوکّل عنه شیء.

و فیها توفی بهلول بن صالح أبو الحسن التّجیبیّ، کان إماما حافظا، قدم بغداد و حدّث بها، و من روایاته عن ابن عباس رسالة زیاد بن أنعم.

و فیها توفّی محمد بن سماعة بن عبید اللّه بن هلال بن وکیع بن بشر أبو عبد اللّه القاضی الحنفیّ التّیمی، ولد سنة ثلاثین و مائة، و کان إماما عالما صالحا بارعا صاحب اختیارات و أقوال فی المذهب، و له المصنّفات الحسان، و هو من الحفّاظ الثّقات؛ ولی القضاء و حمدت سیرته، و لم یزل به الی أن ضعف نظره و استعفی، و کان یصلّی کل یوم مائتی رکعة. قال: مکثت أربعین سنة لم تفتنی

التكبيرة الأولى فى جماعة إلا يوما واحدا ماتت فيه أمّى فقاتتنى صلاة واحدة، و صلّيت خمسا و عشرين صلاة رحمه اللّه تعالى.

و فيها توفّى محمد بن عبد الملك بن أبان بن أبى حمزة الزيّات الوزير أبو يعقوب و قيل: أبو جعفر أصله من جيل (قرية تحت بغداد).

قلت: و منها كان أصل الشيخ عبد القادر الكيلانى. و كان أبو محمد هذا تاجرا و انتمى هو للحسن بن سهل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٢، ص: ٢٧٢

فنوّه بذكره؛ حتى اتصل بعده بالمعتصم، ثم استوزره الواثق. و كان أديبا فاضلا شاعرا عارفا بالنّحو و اللغة جوادا ممدّحا، و من شعره على ما قيل قوله:

فإن سرت بالجثمان عنكم فإنّنى أخّلف قلبى عندكم و أسير

فكونوا عليه مشفقين فإنّه رهين لديكم فى الهوى و أسير

قلت: و ما أحسن قول القاضى ناصح الدّين الأرّجانىّ فى هذا المعنى:

لم يبكنى إلا حديث فراقهم لمّا أسرّ به إلىّ مودّعى

هو ذلك الدرّ الذى أودعتم فى مسمعى أجريته من مدمعى

قلت: و هذا مثل قول الزمخشرىّ فى قوله لمّا رثى شيخه أبا مضر- و اللّه أعلم من السابق لهذا المعنى لأنهما كانا متعاصرين-:

و قائلة ما هذه الدّرر التى تساقط من عينيك سمطين سمطين

فقلت لها الدّرّ الذى كان قد حشا أبو مضر أذنى تساقط من عينى

و فيها توفى الإمام الحافظ الحجة يحيى بن معين بن عون بن زياد بن بسطام- و قيل: غياث بدل عون- أبو زكريا المرّىّ (مرّة بن غطفان مولاهم) البغدادىّ الحافظ المشهور، كان إمام عصره فى الجرح و التّعديل و إليه المرجع فى ذلك، و كان يتفقّه بمذهب الإمام أبى حنيفة.

قال الإمام محمد بن إسماعيل البخارىّ: ما استصغرت نفسى إلّا عند يحيى بن معين. و مولده فى سنة ثمان و خمسين و مائة، فهو أسنّ من علىّ بن المدينىّ، و أحمد بن حنبل، و أبى بكر بن أبى شيبة، و إسحاق بن راهويه، و كانوا يتأدّبون معه و يعرفون له فضله، و روى عنه خلائق لا تحصى كثرة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٢، ص: ٢٧٣

قال أبو حاتم: يحيى بن معين إمام. و قال النّسائىّ: هو أبو زكريا الثقة المأمون أحد الأئمة فى الحديث. و قال علىّ بن المدينىّ: لا نعلم أحدا من لدن آدم كتب من الحديث ما كتب يحيى بن معين. و عن يحيى بن معين قال: كتبت بيدى ألف ألف حديث.

و قال علىّ بن المدينىّ: انتهى علم الناس الى يحيى بن معين. و قال القواريرىّ: قال لى يحيى القطّان: ما قدم علينا أحد مثل هذين الرجلين: مثل أحمد بن حنبل و يحيى بن معين. و قال أحمد بن حنبل: كان يحيى بن معين أعلمنا بالرجال. و عن أبى سعيد الحدّاد قال: الناس عيال فى الحديث على يحيى بن معين. و قال محمد بن هارون الفلّاس: اذا رأيت الرجل ينتقص يحيى بن معين فاعرف أنّه كذّاب.

و كانت وفاة يحيى بن معين لسبع بقين من ذى القعدة بالمدينة، و دفن بالبقيع.

قال الذّهبىّ: و قال حبيش بن المبشّر و هو ثقة: رأيت يحيى بن معين فى النوم فقلت له: ما فعل اللّه بك؟ قال: أعطانى و حبانى و زوّجنى ثلثمائة حوراء، و مهّد لى بين البابين.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أحمد بن عبد اللّه ابن أبى شعيب الحرّانى، و ابراهيم بن الحجّاج السّامى، و اسحاق بن سعيد بن الأركون الدّمشقى، و حبّان بن موسى المروزىّ، و سليمان بن عبد الرحمن بن بنت شرحبيل، و داهر بن نوح الأهوازىّ، و روح بن صلاح المصرىّ، و سهل بن عثمان العسكرىّ، و عبد الجبّار بن عاصم النّسائى، و عقبة بن مكرم الضّبّى، و محمد

بن سماعة القاضى،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۲، ص: ۲۷۴

و محمد بن عائذ الكاتب، و الوزير محمد بن عبد الملك بن الزيات، و يحيى بن أيّوب المقابرى، و يحيى بن معين، و يزيد بن موهب الرّملىّ.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثلاثة أذرع و أربعة عشر إصبعا، مبلغ الزيادة ستة عشر ذراعا و عشرون إصبعا.

ذكر ولاية حاتم بن هرثمة على مصر

هو حاتم بن هرثمة بن نصر الجيلىّ أمير مصر، وليها باستخلاف أبيه له بعد موته فى الثالث و العشرين من شهر رجب سنة أربع و ثلاثين و مائتين على الصلاة؛ و أرسل كاتب الأمير إيتاخ التركىّ المعتصمىّ الذى إليه أمر مصر فى ولايته عليها مكان أبيه. و سكن المعسكر على عادة أمراء مصر. و جعل على شرطته محمد بن سويد.

و أخذ فى إصلاح أحوال الديار المصرية؛ و بينما هو فى ذلك ورد عليه كتاب الأمير إيتاخ بصرفه عن إمرة مصر و تولية علىّ بن يحيى الأرمنىّ ثانيا على مصر، و كان ذلك فى يوم الجمعة لست خلون من شهر رمضان سنة أربع و ثلاثين و مائتين المذكورة. فكانت ولاية حاتم هذا على مصر من يوم مات أبوه شهرا واحدا و ثلاثة عشر يوما. و كان حاتم هذا جليلا نبيلا، و عنده معرفة و حسن تدبير، إلاـ أنه لم يحسن أمره مع إيتاخ، لطمع كان فى إيتاخ التركىّ الذى كان اليه أمر مصر بعد أشناس، و كلاهما كان تركيا. و لم أقف على وفاة حاتم بن هرثمة هذا ا ه.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۳۴]

اشارة

السنة التى حكم فى أوّلها الى رجب هرثمة بن نصر، و من رجب الى شهر رمضان ابنه حاتم بن هرثمة، و من رمضان الى آخرها علىّ بن يحيى الأرمنىّ، و هى

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۲، ص: ۲۷۵

سنة أربع و ثلاثين و مائتين فيها هبّت ريح بالعراق شديدة السّموم لم يعهد مثلها، أحرقت زرع الكوفة و البصرة و بغداد و قتلت المسافرين، و دامت خمسين يوما، ثم اتّصلت بهمذان فأحرقت أيضا الزرع و المواشى، ثم اتّصلت بالموصل و سنجار، و منعت الناس من المعاش فى الأسواق و من المشى فى الطريق، و أهلكت خلقا.

و فيها حجّ بالناس من العراق الأمير محمد بن داود بن عيسى العباسىّ، و كان له عدّة سنين يحجّ بالناس.

و فيها أظهر الخليفة المتوكّل على اللّه جعفر السّنّة بمجلسه و تحدّث بها و نهى عن القول بخلق القرآن، و كتب بذلك الى الآفاق، حسبما ذكرناه فى ترجمة هرثمة هذا، و استقدم العلماء و أجزل عطاياهم. و لهذا المعنى قال بعضهم: الخلفاء ثلاثة:

أبو بكر الصدّيق رضى اللّه عنه يوم الرّدّة، و عمر بن عبد العزيز رضى اللّه عنه فى ردّ مظالم بنى أميّة، و المتوكّل فى إظهار السنّة.

و فيها خرج عن الطاعة محمد [بن البعيث] أمير إرمينية و أذربيجان و تحصّن بقلعة مرند؛ فسار لقتاله بغا الشّرابىّ فى أربعة آلاف، فنازله و طال الحصار بينهم، و قتل طائفة كبيرة من عسكر بغا، و دام ذلك بينهم الى أن نزل محمد بالأمان، و قيل:

بل تدلّى ليهرب فأسروه.

و فیها فوّض الخلیفة المتوکل لإیتاخ متولّی إمرة مصر الکوفة و الحجاز و تهامة و مکّة و المدینة مضافا علی مصر، و دعی له علی المنابر. و حجّ إیتاخ من سنته و قد تغیّر خاطر المتوکّل علیه. فلما عاد من الحجّ کتب المتوکّل إلی إسحاق بن إبراهیم

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۷۶

ابن مصعب بالقبض علیه فی الباطن إن أمکنه؛ فتحایل علیه إسحاق حتی قبض علیه و قیّده بالحدید و قتله عطشا، و کتب محضرا أنه مات حتف أنفه. و کان أصل إیتاخ هذا مملوکا من الخزر طبّاخا لسلّام الأبرش؛ فاشتراه المعتصم، فرأی له رجلة و بأسا فقرّبه و رفعه؛ ثم ولّاه الواثق بعد ذلک الأعمال الجلیلة. و کان من أراد المعتصم و الواثق و المتوکّل قتله سلّمه الیه، فقتل إیتاخ هذا مثل عجیف و العبّاس بن المأمون و ابن الزیّات الوزیر و غیرهم.

و فیها توفّی زهیر بن حرب بن شدّاد أبو خیثمة النّسائیّ، کان عالما ورعا فاضلا، رحل [إلی] البلاد و سمع الکثیر و حدّث، و روی عنه جماعة، و کان من أئمة الحدیث.

و فیها توفّی سلیمان بن داود بن بشر بن زیاد الحافظ أبو أیّوب البصریّ المنقریّ المعروف بالشّاذکونیّ، رحل [إلی] البلاد و سمع الکثیر و حدّث و روی عن خلائق، و روی عنه جمع کبیر، و هو أحد الأئمة الحفّاظ الرحّالین.

و فیها توفی سلیمان بن عبد اللّه بن سلیمان بن علیّ بن عبد اللّه بن العباس الأمیر أبو أیوب الهاشمیّ العباسیّ، أحد أعیان بنی العباس و أحد من ولی الأعمال الجلیلة مثل المدینة و البصرة و الیمن و غیرها.

و فیها توفّی علیّ بن عبد اللّه بن جعفر بن یحیی بن بکر بن سعید، و قیل: جعفر بن نجیح بن بکر، الإمام الحافظ الناقد الحجّة أبو الحسن السّعدی مولاهم البصریّ الدّاریّ

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۷۷

المعروف بابن المدینیّ، کان إمام عصره فی الجرح و التعدیل و العلل، و کان أبوه محدّثا مشهورا. و مولد علیّ هذا فی سنة إحدی و ستین و مائة، و هو أحد الأعلام و صاحب التصانیف؛ و سمع أباه و حمّاد بن زید و ابن عیینة و الدّراوردیّ و یحیی القطّان و عبد الرحمن بن مهدیّ و ابن علیّة و عبد الرزّاق و خلقا سواهم، و روی عنه البخاریّ و أبو داود و النّسائیّ و ابن ماجه و التّرمذی عن رجل عنه و أحمد بن حنبل و محمد بن یحیی الذّهلیّ و خلق سواهم. و عن ابن عیینة قال: یلوموننی علی حبّ علیّ بن المدینی، و اللّه إنی لأتعلّم منه أکثر مما یتعلّم منّی. و عن ابن عیینة قال: لو لا علیّ بن المدینیّ ما جلست.

و قال النّسائیّ: کأن اللّه خلق علیّ بن المدینی لهذا الشأن. و قال السّرّاج:

سمعت محمد بن یونس [یقول] سمعت ابن المدینیّ یقول: ترکت من حدیثی مائة ألف حدیث، منها ثلاثون ألفا لعبّاد بن صهیب. و قال السّرّاج: قلت للبخاریّ:

ما تشتهی؟ قال: أن أقدم العراق و علیّ بن المدینیّ حیّ فأجالسه. قال البخاریّ:

مات علیّ بن عبد اللّه (یعنی ابن المدینی) لیومین بقیا من ذی القعدة بالمدینة سنة أربع و ثلاثین و مائتین. و قال الحارث و غیر واحد: مات بسامرّاء فی ذی القعدة. و قال الإمام أبو زکریا النوویّ: لابن المدینیّ فی الحدیث نحو مائتی مصنّف. و فیها توفّی یحیی بن أیوب البغدادیّ العابد الصالح، و یعرف بالمقابریّ لانه کان یتعبّد بالمقابر، و کان له أحوال و کرامات.

الذین ذکر الذهبیّ وفاتهم فی هذه السنة، قال: و فیها توفی أحمد بن حرب النّیسابوریّ الزاهد، و روح بن عبد المؤمن القارئ، و أبو خیثمة زهیر بن حرب، و سلیمان بن داود الشّاذکونیّ، و أبو الرّبیع سلیمان بن داود الزّهرانیّ، و عبد اللّه بن

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۷۸

عمر بن الرمّاح قاضی نیسابور، و أبو جعفر عبد اللّه بن محمد [النّفیلیّ]، و علیّ بن بحر القطّان، و علیّ بن المدینیّ، و محمد بن عبد اللّه بن نمیر، و محمد بن أبی بکر المقدّمیّ، و المعافی بن سلیمان الرّسعنیّ، و یحیی بن یحیی اللّیثیّ الفقیه.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمسة أذرع و عشرون إصبعا، مبلغ الزيادة خمسة عشر ذراعا و اثنان و عشرون إصبعا.

ذكر ولاية علىّ بن يحيى الثانية على مصر

قد تقدّم الكلام على ولاية علىّ بن يحيى هذا أوّلا على مصر، ثم وليها ثانيا فى هذه المرّة بعد عزل حاتم بن هرثمة بن نصر عنها، من قبل الأمير إيتاخ المعتصمىّ على الصلاة فى يوم سادس شهر رمضان سنة أربع و ثلاثين و مائتين ه. فسكن علىّ ابن يحيى بالمعسكر على عادة الأمراء، و جعل على شرطته معاوية بن نعيم. و استمرّ علىّ هذا على إمرة مصر الى أن قبض الخليفة المتوكل على اللّه جعفر على إيتاخ المذكور فى المحرم سنة خمس و ثلاثين و مائتين ه، و قدم الخبر على الأمير علىّ هذا بالقبض على إيتاخ و الحوطة على ماله بمصر، فاستصفيت أمواله و ترك الدعاء له على منابرها بعد الخليفة؛ و أنّ المتوكّل ولّى ابنه و ولىّ عهده محمّدا المنتصر مصر و أعمالها كما كان لإيتاخ المذكور؛ فدعى عند ذلك للمنتصر على منابر مصر. فكان حكم إيتاخ على الديار المصرية أربع سنين. و لما ولى المنتصر إمرة مصر أقرّ علىّ بن يحيى هذا على عمل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۷۹

مصر على عادته؛ فاستمرّ عليها الى أن صرفه المنتصر عنها بإسحاق بن يحيى بن معاذ فى ذى الحجّة سنة خمس و ثلاثين و مائتين. فكانت ولايته على مصر فى هذه المرّة الثانية سنة واحدة و ثلاثة أشهر تنقص أيّاما. و خرج من مصر و توجّه الى العراق و قدم على الخليفة المتوكّل على اللّه جعفر و صار عنده من كبار قوّاده؛ و جهّزه فى سنة تسع و ثلاثين و مائتين الى غزو الروم، فتوجّه بجيوشه الى بلاد الروم فأوغل فيها، فيقال: إنّه شارف القسطنطينيّة، فأغار على الروم و قتل و سبى، حتى قيل: إنه أحرق ألف قرية و قتل عشرة آلاف علج، و سبى عشرة آلاف رأس، و عاد الى بغداد سالما غانما؛ فزادت رتبته عند المتوكّل أضعاف ما كانت. ثم غزا غزوة أخرى فى سنة تسع و أربعين و مائتين، و توغّل فى بلاد الروم، ثم عاد قافلا من إرمينية الى ميّافارقين، فبلغه مقتل الأمير عمر بن عبد اللّه الأقطع بمرج الأسقف؛ و كان الروم فى خمسين ألفا فأحاطوا به- أعنى عمر بن عبد اللّه الأقطع- و من معه فقتلوه و قتل عليه ألف رجل من أعيان المسلمين؛ و كان ذلك فى يوم الجمعة منتصف شهر رجب سنة تسع و أربعين و مائتين المذكورة. فلمّا بلغ الأمير علىّ بن يحيى هذا عاد يطلب الروم بدم عمر بن عبد اللّه المذكور، حتى لقيهم و قاتلهم قتالا شديدا، حتى قتل و قتل معه أيضا من أصحابه أربعمائة رجل من أبطال المسلمين. رحمهم اللّه تعالى.

و كان علىّ بن يحيى هذا أميرا شجاعا مقداما جوادا ممدّحا عارفا بالحروب و الوقائع مدبّرا سيوسا محمود السيرة فى ولايته، و أصله من الأزمن؛ و قد حكينا طرفا من هذه الغزوة فى ولايته الأولى؛ و الصواب أنّ ذلك كان فى هذه المرّة، و أنّ تلك الغزوة كانت غير هذه الغزوة التى قتل فيها. رحمه اللّه تعالى و تقبّل منه.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۸۰

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۳۵]

اشارة

السنة التى حكم فيها علىّ بن يحيى الأرمنىّ فى ولايته الثانية على مصر و هى سنة خمس و ثلاثين و مائتين- فيها ألزم الخليفة المتوكّل على اللّه النصارى بلبس العسلىّ.

و فيها ظهر رجل بسامرّاء يقال له محمود بن الفرج النّيسابورىّ، و زعم أنه ذو القرنين، و كان معه رجل شيخ يشهد أنّه نبىّ يوحى إليه،

و کان معه کتاب کالمصحف، فقبض علیهما و عوقب محمود المذکور حتی مات تحت العقوبة، و تفرّق عنه أصحابه.

و فیها عقد المتوکّل لبنیه الثلاثة و قسم الدنیا بینهم، و کتب بذلک کتابا، کما فعل جدّه هارون الرشید مع أولاده؛ فأعطی المتوکّل ابنه الأکبر محمّدا المنتصر من عریش مصر الی إفریقیّة المغرب کلّه الی حیث بلغ سلطانه، و أضاف الیه جند قنّسرین و العواصم و الثغور الشامیّة و الجزیرة و دیار بکر و ربیعة و الموصل و الفرات و هیت و عانة و الخابور و دجلة و الحرمین و الیمن و الیمامة و حضر موت و البحرین و السّند و کرمان و کور الأهواز و ما سبذان و مهرجان و شهرزور و قمّ و قاشان و قزوین و الجبال؛ و أعطی ابنه المعتزّ بالله- و اسمه الزبیر و قیل محمد- خراسان و طبرستان و ما وراء النهر و الشرق کلّه؛ و أعطی ابنه المؤیّد بالله إبراهیم إرمینیة و أذربیجان و جند دمشق و الأردنّ و فلسطین.

و فیها توفی إسحاق بن إبراهیم بن میمون، أبو محمد التّمیمیّ، و یعرف والده بالموصلیّ الندیم، و قد تقدّم ذکره فی ولایة الرشید هارون. و ولد إسحاق هذا سنة خمسین و مائة، و کان إماما عالما فاضلا أدیبا أخباریا؛ و کان بارعا فی ضرب العود و صنعة الغناء، فغلب علیه ذلک حتی عرف بإسحاق المغنّی، و نال بذلک عند الخلفاء من الرتبة ما لم ینله غیره، و هو مصنّف کتاب الأغانی.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۸۱

قال الذهبیّ: أبو محمد التمیمیّ الموصلیّ الندیم صاحب الغناء کان الیه المنتهی فی معرفة الموسیقی. قلت: لم یکن فی أیّام إسحاق الموسیقیّ و لا بعده بمدّة سنین مثله. ا ه. قال: و کان له أدب وافر و شعر رائق جزل، و کان عالما بالأخبار و أیّام الناس و غیر ذلک من الفقه و الحدیث و الأدب و فنون العلم. قال: و سمع من مالک و هشیم و سفیان بن عیینة و الأصمعیّ و جماعة. ا ه.

و عن إسحاق قال: بقیت دهرا من عمری أغلّس کلّ یوم الی هشیم أو غیره من المحدّثین، ثم أصیر الی الکسائیّ أو الفرّاء أو ابن غزالة فأقرأ علیه جزءا من القرآن، ثم أصیر الی منصور المعروف بزلزل المغنّی فیضاربنی طریقین فی العود أو ثلاثة، ثم آتی عاتکة بنت شهدة فآخذ منها صوتا أو صوتین، ثم آتی الأصمعیّ و أبا عبیدة فأنشدهما [و أستفید منهما]، فإذا کان العشاء رحت الی أمیر المؤمنین الرشید. و من شعره:

هل إلی أن تنام عینی سبیل إنّ عهدی بالنّوم عهد طویل

و کان إسحاق یکره أن ینسب الی الغناء. و قال المأمون: لو لا شهرته بالغناء لولّیته القضاء. و فیها توفی سریج- بسین مهملة و جیم- بن یونس بن إبراهیم المروزیّ الزاهد العابد جدّ ابن سریج الفقیه الشافعیّ، کان سریج أعجمیا فرأی فی منامه الحقّ جلّ جلاله، فقال له: یا سریج، طلب کن، فقال سریج: یا خدای سر بسر. و هذا

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۸۲

اللفظ بالعجمیّ معناه أنه قال له: یا سریج، سل حاجتک؛ فقال: یا رب رأس برأس. و روی سریج عن ابن عیینة، و روی عنه الإمام أحمد بن حنبل، و أخرج له البخاریّ و مسلم و النّسائیّ. و فیها توفی الطیّب بن إسماعیل بن إبراهیم الشیخ أبو محمد الدؤلیّ، کان عابدا زاهدا یقصد الأماکن التی لیس فیها أحد؛ و کان یبیع اللآلئ و الجواهر، و هو أحد القرّاء المشهورین و عباد اللّه الصالحین، و کان ثقة صدوقا، روی عن سفیان بن عیینة و غیره، و روی عنه البغویّ و غیره. و فیها توفی عبد اللّه بن محمد بن إبراهیم الحافظ أبو بکر العبسیّ، و یعرف بابن أبی شیبة، کان أحد کبار الحفّاظ. و هو مصنّف المسند و التفسیر و الأحکام و غیرها، و قدم بغداد و حدّث بها.

قال أبو عبید القاسم بن سلّام: انتهی علم الحدیث الی أربعة: أحمد بن حنبل، و أبی بکر بن أبی شیبة، و یحیی بن معین، و علیّ بن المدینیّ؛ فأحمد أفقههم فیه، و أبو بکر أسردهم، و یحیی أجمع له، و ابن المدینیّ أعلمهم به.

الذین ذکر الذهبیّ وفاتهم فی هذه السنة، قال: فیها توفی أحمد بن عمر الوکیعیّ، و إبراهیم بن العلاء [زبریق الحمصیّ]، و إسحاق الموصلیّ الندیم، و سریج بن یونس العابد، و إسحاق بن إبراهیم بن مصعب أمیر بغداد، و شجاع بن مخلّد، و شیبان بن فرّوخ، و أبو

بكر بن أبى شـيبة، و عبيد اللّه بن عمر القواريرىّ، و محمد بن عبّاد المكىّ، و محمد بن حاتم السّـمين، و معلّى بن مهدىّ الموصلىّ، و منصور بن أبى مزاحم، و أبو الهذيل العلّاف شيخ المعتزلة.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۸۳

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربعة أذرع و ثمانية أصابع، مبلغ الزيادة خمسة عشر ذراعا و عشرون إصبعا.

ذکر ولایة إسحاق بن یحیی علی مصر

هو إسحاق بن يحيى بن معاذ بن مسلم الختلىّ، أمير مصر، أصله من قرية ختلان (بلدة عند سمرقند)، ولى مصر بعد عزل علىّ بن يحيى الأرمنىّ، فى ذى الحجة سنة خمس و ثلاثين و مائتين، ولّاه المنتصر بن المتوكّل على مصر و جمع له صلاتها و خراجها معا، و قدم الى مصـر لإحدى عشـرة خلت من ذى الحجّة من سنة خمس و ثلاثين و مائتين المذكورة. و قال صاحب «البغية و الاغتباط»: إنّه وصل الى مصـر لإحدى عشـرة خلت من ذى القعدة و ذكر السـنة، فخالف فى الشهر و وافق فى السنة و غيرها. و لما قدم مصر سكن المعسكر، و جعل على الشّـرطة الهيّاجىّ، و على المظالم عيسى بن لهيعة الحضرمىّ. و كان إسحاق هذا قد ولى إمرة دمشق فى أيام المأمون، ثم فى أيـام أخيه المعتصم ثانيـا مـدّة طويلـة، ثم ولى دمشق ثالثـا فى أيـام الخليفـة هـارون الواثق و دام بهـا الى أن نقله المنتصـر لما ولّاه أبوه المتوكّل إمرة مصـر، حسبما تقدّم ذكره. و كان إسـحاق بن يحيى هذا من أجلّ الأمراء، كان جوادا ممدّحا شـجاعا عاقلا مدبرّا سيوسا محبّا للشـعر و أهله، و قصـده كثير من الشـعراء و مـدحوه بغرر من المدائـح و أجازهم الجوائز السـنيّة. و كان فيه رفق بالرّعيّة و عدل و إنصاف؛ رفق بالناس فى أيام ولايته بدمشق عند ما ورد كتاب المعتصم بامتحان الرعيّة بالقول بخلق القرآن؛ و أيضا لمّا ولى مصـر ورد عليه بعد مدّة من ولايته كتاب المنتصر و أبيه الخليفة المتوكّل بإخراج الأشراف العلويّين من مصر الى العراق فأخرجوا؛ و ذلك بعد أن أمر المتوكّل بهدم قبر الحسين بن علىّ رضى اللّه عنهما و قبور العلويّين. و كان هذا وقع من المتوكّل فى سنة ستّ و ثلاثين و مائتين و قيل قبلها.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۸۴

و كـان سـبب بغضه فى علىّ بن أبى طـالب و ذرّيته أمر يطول شـرحه وقفت عليه فى تاريـخ الإسـعردىّ، محصوله: أنّ المتوكّل كان له مغنّيـة تسـمى أمّ الفضل، و كان يسامرها قبل الخلافـة و بعدها، و طلبها فى بعض الأيّام فلم يجدها، و دام طلبه لها أيّاما و هو لا يجدها، ثم بعد أيّام حضرت و فى وجهها أثر شمس؛ فقال لها: أين كنت؟

فقالت: فى الحجّ؛ فقال: ويحك! هذا ليس من أيام الحجّ! فقالت: لم أرد الحجّ لبيت اللّه الحرام، و إنّما أردت الحجّ لمشهد علىّ؛ فقال المتوكّل: و بلغ أمر الشيعة الى أن جعلوا مشـهد علىّ مقام الحـجّ الـذى فرضه اللّه تعالى! فنهى الناس عن التوجّه الى المشـهد المذكور من غير أن يتعرّض الى ذكر علىّ رضـى اللّه عنه؛ فثارت الرافضة عليه و كتبوا سبّه على الحيطان، فحنق من ذلك و أمر بألّا يتوجّه أحد لزيـارة قبر من قبور العلويّين؛ فثـاروا عليه أيضـا، فتزايـد غضـبه منهم فوقع منه مـا وقع. و حكاياته فى ذلك مشـهورة لا يعجبنى ذكرها، إجلالا للإمام علىّ رضـى اللّه عنه. و لما عظم الأمر أمر بهـدم قبر الحسـين رضـى اللّه عنه و هـدم ما حوله من الدور، و أن يعمل ذلك كلّه مزارع. فتألم المسـلمون لـذلك، و كتب أهل بغـداد شـتم المتوكّل على الحيطان و المساجد، و هجاه الشـعراء دعبل و غيره، فصار كلّما يقع له ذلك يزيـد و يفحش. و كان الأليق بالمتوكّل عـدم هـذه الفعلـة، و بالناس أيضا ترك المخاصـمة؛ لما قيل: يـد الخلافة لا تطاولها يد.

و فى هـذا المعنى، أعنى فى هـدم قبور العلويّين، يقول يعقوب بن السّـكّيت و قيل هى لعلىّ بن أحمـد- و قد بقى إلى بعد الثلاثمائة و طال عمره:

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۸۵

تاللّه إن كانت أميّة قد أتت قتل ابن بنت نبيّها مظلوما

و عدّة أبيات أخر. و قيل: إن ابن السكيت المذكور قتل ظلما من المتوكّل، فإنّه قال له يوما: أيّما أحبّ إليك: ولداى المؤيد و المعتزّ أم الحسن و الحسين أولاد علىّ؟

فقال ابن السكيت: و اللّه إنّ قنبرا خادم علىّ خير منك و من ولديك؛ فقال: سلّوا لسانه من قفاه، ففعلوا فمات من ساعته.

قلت: و فى هذه الحكاية نظر من وجوه عديدة. و قد طال الأمر و خرجنا عن المقصود، و نرجع الى ما نحن بصدده.

و لما ورد كتاب المنتصر الى إسحاق بن يحيى هذا بإخراج العلويّين من مصر، أخرجهم إسحاق من غير إفحاش فى أمرهم؛ فصرفه المنتصر بعد ذلك بمدّة يسيرة عن إمرة مصر، فى ذى القعدة من سنة ستّ و ثلاثين و مائتين، بعبد الواحد بن يحيى.

فكانت ولاية إسحاق على مصر سنة واحدة تنقص عشرين يوما، و مات بعد ذلك بأشهر قليلة فى أوّل شهر ربيع الآخر من سنة سبع و ثلاثين و مائتين بمصر، و دفن بالقرافة. و لما مات إسحاق رثاه بعض شعراء البصرة فقال من أبيات كثيرة:

سقى اللّه ما بين المقطّم و الصّفا صفا النّيل صوب المزن حيث يصوب

و ما بى أن يسقى البلاد و إنّما مرادى أن يسقى هناك حبيب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ٢، ص: ٢٨۶

***

[ما وقع من الحوادث سنة ٢٣۶]

اشارة

السنة التى حكم فيها إسحاق بن يحيى على مصر و هى سنة ست و ثلاثين و مائتين- فيها حجّ بالناس المنتصر محمد بن الخليفة المتوكّل على اللّه. و حجّت أيضا أمّ المتوكّل، و شيّعها المتوكّل الى أن استقلّت بالمسير ثم رجع. و أنفقت أمّ المتوكّل أموالا جزيلة فى هذه الحجّة، و اسمها شجاع. و فيها كان ما حكيناه من هدم قبر الحسين و قبور العلويّين و جعلت مزارع، كما تقدّم ذكره. و فيها أشخص المتوكل القضاة من البلدان لبيعة ولاة العهد أولاده: المنتصر بالله محمد، و من بعده المعتزّ بالله محمد، و قيل الزبير، و من بعده المؤيد بالله إبراهيم؛ و بعث خواصّه الى الأمصار ليأخذوا البيعة بذلك. و فيها وثب أهل دمشق على نائب دمشق سالم بن حامد، فقتلوه يوم الجمعة على باب الخضراء. و كان من العرب، فلمّا ولّى أذلّ قوما بدمشق من السّكون و السّكاسك لهم و جاهة و منعة، فثاروا به و قتلوه. فندب المتوكّل لإمرة دمشق أفريدون التركىّ و سيّره إليها، و كان شجاعا فاتكا ظالما؛ فقدم فى سبعة آلاف فارس، و أباح له المتوكّل القتل بدمشق و النهب ثلاث ساعات. فنزل أفريدون بيت لهيا، و أراد أن يصبّح البلد؛ فلما أصبح نظر الى البلد، و طلب الركوب فقدّمت له بغلة فضربته بالزوج فقتلته، فدفن مكانه، و قبره ببيت لهيا، و ردّ الجيش الذين كانوا معه خائفين.

و بلغ المتوكّل، فصلحت نيّته لأهل دمشق. و فيها توفى إسماعيل بن إبراهيم بن بسّام

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ٢، ص: ٢٨٧

الحافظ أبو إبراهيم التّرجمانى كان إماما عالما محدّثا صاحب سنة و جماعة، كتب عنه الإمام أحمد بن حنبل أحاديث، و روى عنه محمد بن سعد و غيره، و وثّقه غير واحد. و فيها توفى الحسن بن سهل الوزير أبو محمد أخو ذى الرياستين الفضل بن سهل. كانا من بيت رياسة فى المجوس، فأسلما مع أبيهما فى خلافة الرشيد هارون و اتصلوا بالبرامكة، فانضم سهل ليحيى بن خالد البرمكىّ، فضمّ يحيى الأخوين الى ولديه:

فضمّ الفضل بن سهل الى جعفر، و الحسن بن سهل هذا الى الفضل بن يحيى؛ فضمّ جعفر الفضل بن سهل الى المأمون و هو ولىّ

عهد، فكان من أمره ما كان. و لمّا مات الفضل ولى الحسن هذا مكانه وزيرا؛ ثم لم تزل رتبته فى ارتفاع، الى أن تزوّج المأمون بابنته بوران بنت الحسن بن سهل، و قد تقدّم ذلک كلّه فى محلّه. و لم يزل الحسن بن سهل وافر الحرمة إلى أن مات بسرخس فى ذى القعدة من شرب دواء أفرط به فى إسهاله، و خلّف عليه ديونا لكثرة إنعامه. و فيها توفى عبد السلام بن صالح ابن سليمان بن أيوب أبو الصّيلت الهروىّ الحافظ الرّحّال، رحل فى طلب العلم إلى البلاد، و أخذ الحديث عن جماعة، و روى عنه غير واحد. قيل: إنه كان فيه تشيّع.

و فيها توفى منصور ابن الخليفة المهدىّ محمد ابن الخليفة أبى جعفر المنصور بن محمد ابن علىّ بن عبد اللّه بن العباس الهاشمىّ العباسىّ، الأمير عمّ الرشيد هارون. و كان منصور هذا ولى إمرة دمشق للأمين بن الرشيد، و تولّى أيضا عدّة أعمال جليلة.

و كانت لديه فضيلة. و كانت وفاته فى المحرّم من السنة. و فيها توفى نصر بن زياد ابن نهيک الإمام أبو محمد النّيسابورىّ الفقيه الحنفىّ، سمع الحديث و تفقّه على محمد ابن الحسن، و ولى قضاء نيسابور مدّة و حمدت سيرته. و كان نزيها عفيفا. رحمه اللّه.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۸۸

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفى إسحاق بن إبراهيم الموصلىّ، و إبراهيم بن أبى معاوية الضرير، و إبراهيم بن المنذر الخزامىّ، و أبو إبراهيم الترجمانىّ إسماعيل بن إبراهيم، و أبو معمر القطيعىّ إسماعيل بن إبراهيم، و الحسن ابن سهل وزير المأمون، و خالد بن عمرو السّلفىّ، و صالح بن حاتم بن وردان، و أبو الصّيلت الهروىّ عبد السلام بن صالح، و مصعب بن عبد اللّه الزّبيرىّ، و منصور بن المهدىّ الأمير، و نصر بن زياد قاضى نيسابور، و هدبة بن خالد.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمسة أذرع و خمسة أصابع، مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا و اثنا عشر إصبعا.

ذكر ولاية عبد الواحد بن يحيى على مصر

هو عبد الواحد بن يحيى بن منصور بن طلحة بن زريق مولى خزاعة، و هو ابن عمّ طاهر بن الحسين، ولى إمرة مصر على الصلاة و الخراج معا من قبل المنتصر، كما كان أشناس و إيتاخ و غيرهما، بعد عزل إسحاق بن يحيى عنها. فقدمها عبد الواحد هذا فى الحادى و العشرين من ذى القعدة سنة ستّ و ثلاثين و مائتين، و سكن بالمعسكر على عادة أمراء مصر، و جعل على شرطته محمد بن سليمان البجلىّ. و استمرّ على ذلک إلى أن ورد عليه كتاب المنتصر بعزله عن خراج، مصر فعزل فى يوم الثّلاثاء لسبع خلون من صفر سنة سبع و ثلاثين و مائتين، و دام على الصلاة فقط. ثم ورد عليه فى السنة المذكورة كتاب الخليفة المتوكّل بحلق لحية قاضى قضاة مصر أبى بكر محمد بن أبى اللّيث و أن يضربه و يطوف به على حمار، ففعل به ما أمر به، و كان ذلک فى شهر رمضان

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۸۹

من السنة و سجن، و كان القاضى المذكور من رءوس الجهميّة. و ولى القضاء بعده بمصر الحارث بن مسكين بعد تمنّع، و أمر بإخراج أصحاب أبى حنيفة و الشافعى رضى اللّه عنهما من المسجد، و رفعت حصرهم، و منع عامّة المؤذنين من الأذان. و كان الحارث قد أقعد، فكان يحمل فى محفّة الى الجامع، و كان يركب حمارا متربّعا، ثم ضرب الذين يقرءون بالألحان، ثم حمله أصحابه [على] النظر فى أمر القاضى المعزول- أعنى ابن أبى اللّيث المقدّم ذكره- و كانوا قد لعنوه بعد عزله و غسلوا موضع جلوسه فى المسجد، فصار الحارث بن مسكين يوقف القاضى محمد بن أبى الليث المذكور و يضربه كلّ يوم عشرين سوطا لكى يؤدّى ما وجب عليه من الأموال، و بقى على هذا أياما. و دام الحارث بن مسكين هذا قاضيا ثمان سنين حتى عزل بالقاضى بكّار ابن قتيبة الحنفىّ. و استمرّ الأمير عبد الواحد هذا على إمرة مصر إلى أن صرفه المنتصر عنها فى سلخ صفر سنة ثمان و ثلاثين و مائتين بالأمير عنبسة بن إسحاق؛ و قدم إلى مصر خليفة عنبسة على صلاة مصر و الشركة على الخراج فى مستهلّ شهر ربيع الأوّل، فكانت ولايته على مصر سنة واحدة و ثلاثة أشهر و سبعة أيام.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ٢٣٧]

السنة الأولى من ولاية عبد الواحد بن يحيى على مصر و هى سنة سبع و ثلاثين و مائتين- على أنه حكم بمصر من السنة الخالية من ذى القعدة إلى آخرها، و قد ذكرنا تلك السنة فى ترجمة إسحاق بن يحيى و ليس ذلك بشرط فى هذا الكتاب- أعنى تحرير حكم أمير مصر فى السنة المذكورة- بل جلّ القصد ذكر حوادث السنة و إضافة ذلك لأمير من أمراء مصر.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۹۰

و فيها- أعنى سنة سبع و ثلاثين و مائتين- و ثبت بطارقة إرمينية على عاملهم يوسف بن محمد فقتلوه. و بلغ المتوكّل ذلك، فجهّز لحربهم بغا الكبير؛ فتوجّه إليهم و قاتلهم حتى قتل منهم مقتلة عظيمة، قيل: إنّ القتلى بلغت ثلاثة آلاف، ثم سار بغا الى مدينة تفليس: و فيها أطلق المتوكّل جميع من كان فى السجن ممّن امتنع من القول بخلق القرآن فى أيام أبيه، و أمر بإنزال جثّة أحمد بن نصر الخزاعىّ فدفعت الى أقاربه فدفنت. و فيها ظهرت نار بعسقلان أحرقت البيوت و البيادر و هرب الناس، و لم تزل تحرق إلى ثلث الليل ثم كفّت بإذن اللّه تعالى. و فيها كان بناء قصر العروس بسامرّاء و تكمّل فى هذه السنة، [فبلغت] النفقة عليه ثلاثين ألف ألف درهم.

و فيها قدم محمد بن عبد اللّه بن طاهر الأمير على المتوكّل من خراسان، فولّاه العراق.

و فيها رضى المتوكّل على يحيى بن أكثم، و ولّاه القضاء و المظالم. و فيها توفّى إسحاق ابن إبراهيم بن مخلد بن إبراهيم بن [مطر أبو] يعقوب التّميمىّ الحنظلىّ الحافظ المعروف بابن راهويه، كان من أهل مرو و سكن نيسابور، و ولد سنة إحدى و ستين و مائة، و كان إماما حافظا بارعا، اجتمع فيه الحديث و الفقه و الحفظ و الدّين و الورع، و هو أحد الأئمة الحفّاظ الرّحالة، و مات فى يوم الخميس نصف شعبان. و فيها توفّى حاتم بن يوسف و قيل ابن عنوان أبو عبد الرحمن البلخىّ، و كان يعرف بالأصمّ

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۹۱

و نسب الى ذلك، لأنّ امرأة سألته مسألة فخرج منها صوت ريح من تحتها فخجلت؛ فقال لها: ارفعى صوتك، و أراها من نفسه أنه أصمّ حتى سكن ما بها، فغلب عليه الأصمّ، و كان ممّن جمع له العلم و الزهد و الورع. و فيها توفى حيّان بن بشر الحنفىّ، كان إماما عالما فقيها محدّثا ثقة، ولى قضاء بغداد و أصبهان، و حمدت سيرته.

و فيها توفى الشيخ أبو عبيد البسرىّ، أصله من قرية بسر من أعمال حوران، كان صالحا مجاب الدّعوة صاحب كرامات و أحوال، و اسمه محمد، و كان صاحب جهاد و غزو.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفى إبراهيم بن محمد بن عمر الشافعىّ، و حاتم الأصمّ الزاهد، و سعيد بن حفص النّفيلىّ، و العباس بن الوليد النّرسىّ -قلت: النّرسىّ بفتح النون و سكون الراء المهملة- و عبد اللّه بن عامر بن زرارة، و عبد اللّه بن مطيع، و عبد الأعلى بن حمّاد النّرسىّ، و عبيد اللّه بن معاذ العنبرىّ، و أبو كامل الفضيل بن الحسين الجحدرىّ، و محمد بن قدامة الجوهرىّ.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم سبعة أذرع سواء، مبلغ الزيادة خمسة عشر ذراعا و خمسة عشر إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ٢٣٨]

اشارة

السنة الثانية من ولاية عبد الواحد بن يحيى على مصر و هى سنة ثمان و ثلاثين و مائتين- فيها حاصر بغا تفليس و بها إسحاق بن إسماعيل مولى بنى أميّة، فخرج إسحاق للمحاربة فأسر ثم ضربت عنقه، و أحرقت تفليس و احترق فيها خلق، و فتحت عدّة حصون بنواحى تفليس.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۹۲

و فيها قصدت الرّوم لعنهم اللّه ثغر دمياط فى ثلثمائة مركب، فكبسوا البلد و سبوا ستّمائة امرأة و نهبوا و أحرقوا و بدّعوا، ثم خرجوا مسرعين فى البحر.

و فيها توفّى بشر بن الوليد بن خالد الإمام أبو بكر الكندى الحنفىّ، كان من العلماء الأعلام و شيخا من مشايخ الإسلام، كان عالما ديّنا صالحا عفيفا مهيبا، و كان يحيى بن أكثم شكاه إلى الخليفة المأمون؛ فاستقدمه المأمون و قال له: لم لا تنفّذ أحكام يحيى؟ فقال: سألت عنه أهل بلده فلم يحمدوا سيرته؛ فصاح المأمون: اخرج اخرج؛ فقال يحيى بن أكثم: قد سمعت كلامه يا أمير المؤمنين فاعزله؛ فقال:

لا و اللّه لم يراعنى فيك مع علمه بمنزلتك عندى، كيف أعزله!.

و فيها توفّى صفوان بن صالح بن صفوان الثّقفىّ الدّمشقىّ مؤذّن جامع دمشق، كان إماما محدّثا سمع من سفيان بن عيينة و غيره، و روى عنه الإمام أحمد بن حنبل و غيره.

و فيها توفّى الأمير عبد الرحمن بن الحكم بن هشام أبو المطرّف الأموىّ الدّمشقىّ الأصل المغربىّ أمير الأندلس، ولد بطليطلة فى سنة سبع و سبعين و مائة و أقام على إمرة الأندلس ثنتين و أربعين سنة، و مات فى صفر، و ملك الأندلس من بعده ابنه. و قد تقدّم الكلام على سلفه و كيفيّة خروجه من دمشق الى المغرب فى أوائل الدّولة العبّاسية.

و فيها توفّى محمد بن المتوكل بن عبد الرحمن العسقلانىّ الحافظ مولى بنى هاشم، كان فاضلا زاهدا محدّثا، أسند عن الفضيل بن عياض و غيره، و مات بعسقلان، و كان من الأئمة الحفّاظ الرحّالين.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۹۳

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أحمد بن محمد المروزىّ مردويه، و إبراهيم بن أيوب الحورانىّ الزّاهد، و ابراهيم بن هشام الغسّانى، و إسحاق بن ابراهيم بن زبريق- بكسر الزاى و سكون الموحدة-، و إسحاق بن راهويه، و بشر ابن الحكم العبدى، و بشر بن الوليد الكندىّ، و زهير بن عبّاد الرّؤاسىّ، و حكيم بن سيف الرّقىّ، و طالوت بن عبّاد، و عبد الرحمن بن الحكم بن هشام صاحب الأندلس الأموىّ، و عبد الملك بن حبيب فقيه لأندلس، و عمرو بن زرارة، و محمد بن بكّار بن الريّان، و محمد بن الحسين البرجلانىّ، و محمد بن عبيد بن حساب، و محمد بن المتوكّل اللؤلؤىّ المقرئ، و محمد بن أبى السّرىّ العسقلانىّ، و يحيى بن سليمان نزيل مصر.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثلاثة أذرع و سبعة أصابع، مبلغ الزيادة ستة عشر ذراعا و ستة أصابع.

ذكر ولاية عنبسة بن إسحاق على مصر

هو عنبسة بن إسحاق بن شمر بن عيسى بن عنبسة الأمير أبو حاتم، و قيل: أبو جابر، و هو من أهل هراة، ولى إمرة مصر بعد عزل عبد الواحد بن يحيى عنها، ولّاه المنتصر محمد بن الخليفة المتوكل على اللّه جعفر، فى صفر سنة ثمان و ثلاثين و مائتين على الصلاة؛ فأرسل عنبسة خليفته على صلاة مصر، فقدم مصر فى مستهلّ شهر ربيع الأوّل من السنة المذكورة، فخلفه المذكور على صلاة مصر حتى قدمها فى يوم السبت لخمس خلون من شهر ربيع الآخر من السنة المذكورة متولّيا على الصلاة و شريكا لأحمد بن خالد الصّريفينىّ صاحب خراج مصر. و سكن عنبسة المعسكر على عادة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۹۴

الأمراء، و جعل علی شرطته أبا أحمد محمد بن عبد اللّه القمّیّ. و کان عنبسة خارجیّا یتظاهر بذلک؛ فقال فیه یحیی بن الفضل من أبیات:

خارجیّا یدین بالسیف فینا و یری قتلنا جمیعا صوابا

و لما ولی عنبسة مصر أمر العمّال بردّ المظالم، و خلّص الحقوق، و أنصف الناس غایة الإنصاف، و أظهر من الرفق و العدل بالرعیّة و الإحسان الیهم ما لم یسمع بمثله فی زمانه؛ و کان یتوجّه ماشیا الی المسجد الجامع من مسکنه بالمعسکر بدار الإمارة.

و کان ینادی فی شهر رمضان: السّحور، لانه کان یرمی بمذهب الخوارج، کما تقدّم ذکره.

و فی أوّل ولایته نزل الروم علی دمیاط فی یوم عرفة و ملکوها و أخذوا ما فیها و قتلوا منها جمعا کبیرا من المسلمین، و سبوا النساء و الأطفال؛ فلما بلغه ذلک رکب من وقته بجیوش مصر و نفر الیهم یوم النحر سنة ثمان و ثلاثین و مائتین- و قد تقدّم ذلک- فلم یدرک الرّوم، فأصلح شأن دمیاط ثم عاد الی مصر. و کان سبب غفلة عنبسة عن دمیاط أنه قدم علیه عید الأضحی و أراد طهور ولدیه یوم العید حتی یجمع بین العید و الفرح، و احتفل لذلک احتفالا کبیرا، حتی بلغ به الأمر أن أرسل الی ثغری دمیاط و تنّیس فأحضر سائر من کان بهما من الجند و الخرجیّة و الزرّاقین و غیرهما، و کذلک من کان بثغر الإسکندریة من المذکورین، فرحلوا إلیه بأجمعهم؛ و اتفق مع هذا أنه لما کان صبح یوم عرفة هجم علی دمیاط ثلثمائة سفینة مشحونة بمقاتلة الروم، فوجدوا البلد خالیا من الرّجال و المقاتلة و لم یمنعهم عنها مانع، فهجموا [علی] البلد و أکثروا من القتل و السّبی و النّهب. و کان عنبسة غضب علی مقدّم من أهل دمیاط یقال له أبو جعفر

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۹۵

ابن الأکشف، فقیّده و حبسه فی بعض الأبرجة؛ فمضی إلیه بعض أعوانه و کسروا قیده و أخرجوه، و اجتمع الیه جماعة من أهل البلد، فحارب بهم الروم حتی هزمهم و أخرجهم من دمیاط، و نزحوا عن دمیاط مهزومین و مضوا الی أشموم تنّیس فلم یقدروا علیها فعادوا إلی بلادهم. و دام بعد ذلک عنبسة علی مصر إلی أن ورد علیه کتاب المنتصر أن ینفرد بالخراج و الصّلاة معا، و صرف شریکه علی الخراج أحمد بن خالد؛ فدام علی ذلک مدّة، ثم صرف عن الخراج فی أوّل جمادی الآخرة من سنة إحدی و أربعین و مائتین بعد أن عاد من سفرة الصعید الآتی ذکرها فی آخر ترجمته، و انفرد بالصلاة. ثم ورد علیه کتاب الخلیفة المتوکّل بالدعاء بمصر للفتح بن خاقان، أعنی أنّ الفتح ولی إمرة مصر مکان المنتصر بن المتوکّل، و صار أمر مصر إلیه یولّی بها من شاء، و ذلک فی شهر ربیع الأوّل من سنة اثنتین و أربعین و مائتین، فدعی له بها علی العادة بعد الخلیفة.

و فی أیام عنبسة المذکور کان خروج أهل الصعید الأعلی من معاملة الدیار المصریة علی الطاعة، و امتنعوا من إعطاء ما کان مقرّرا علیهم، و هو فی کل سنة خمسمائة نفر من العبید و الجواری مع غیر ذلک من البخت البجاویّة و زرافتین و فیلین و أشیاء أخر. فلما کانت سنة أربعین و مائتین تجاهروا بالعصیان و قطعوا ما کانوا یحملونه، و تعرّضوا لمن کان یعمل فی معادن الزمرّذ من العمّال و الفعلة و الحفّارین فاجتاحوا الجمیع؛ و بلغ بهم الأمر حتی اتصلت غاراتهم بأعالی الصعید

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۹۶

فانتهبوا بعض القری المتطرّفة مثل إسنا و أتفو و ظواهر هما؛ فأجفل أهل الصعید عن أوطانهم؛ و کتب عامل الخراج إلی عنبسة یعلمه بما فعلته البجاة، فلم یمکن عنبسة کتم هذا الخبر عن الخلیفة المتوکّل علی اللّه جعفر؛ فکتب إلیه بجمیع ما فعلته البجاة؛ فلمّا وقف علی ذلک أنکر علی ولاة الناحیة تفریطهم؛ ثم شاور المتوکّل فی أمرهم أرباب الخبرة بمسالک تلک البلاد؛ فعرّفوه أنّ المذکورین أهل بادیة و أصحاب إبل و ماشیة؛ و أنّ الوصول إلی بلادهم صعب لأنّها بعیدة عن العمران، و بینها و بین البلاد الإسلامیّة براریّ موحشة و مفاوز معطشة و جبال مستوعرة، و أنّ التکلف الی قطع تلک المسافة و هی أقلّ ما تکون مسیرة شهرین من دیار مصر، و یرید المتوجّه

أن يستعدّ بجميع ما يحتاج إليه من المياه و الأزواد و العلوفات، و متى ما أعوزه شيء من ذلك هلك جميع من معه من الجند و أخذهم البجاة قبضا باليد. ثم إنّ هؤلاء الطائفة متى طرقهم طارق من جهة البلاد الإسلامية طلبوا النّجدة ممّن يجاورهم من طريق النّوبة، و كذلك النوبة طلبوا النجدة من ملوک الحبوش، و هى ممالک متصلة بشاطئ نهر النيل حتى تنتهى بمن قصده السير الى بلاد الزّنج، و منها الى جبل القمر الذى ينبع منه النيل، و هى آخر العمران من كرة الأرض. و قد ذكر القاضى شهاب الدين بن فضل اللّه العمرىّ فى كتابه «مسالک الأبصار فى ممالک الأمصار»: أنّ سكان هذه البلاد المذكورة لا فرق بينهم و بين الحيوانات الوحشيّة لكونهم حفاة عراة ليس على أحدهم من الكسوة ما يستره، و جميع ما يتقوّتون به من الفواكه التى تنبت عندهم فى تلک الجبال، و من الأسماک التى تكون عندهم فى الغدران التى تجرى على

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۹۷

وجه الأرض من زيادة النيل، و لا يعترف أحد منهم بزوجة و لا بولد و لا بأخ و أخت؛ بل هم على صفة البهائم ينزو بعضهم على بعض. فلما وقف المتوكّل على ما ذكره أرباب الخبرة بأحوال تلک البلاد، فترت عزيمته عما كان قد عزم عليه من تجهيز العساكر. و بلغ ذلک محمد بن عبد اللّه القمّىّ و كان من القوّاد الذين يتولّون خفارة الحاج فى أكثر السنين، فحضر محمد المذكور الى الفتح بن خاقان وزير المتوكّل و ذكر له أنه متى رسم المتوكّل الى عمّال مصر بتجهيزه عبر إلى بلاد البجاة، و تعدّى منها الى أرض النّوبة و دوّخ سائر تلک الممالک. فلما عرض الفتح حديثه على المتوكّل أمر بتجهيزه و سائر ما يحتاج إليه، و كتب إلى عنبسة بن إسحاق هذا، و هو يومئذ عامل مصر، أن يمدّه بالخيل و الرجال و الجمال و ما يحتاج إليه من الأسلحة و الأموال، و أن يولّيه الصعيد الأعلى يتصرّف فيه كيف شاء. و سار محمد حتى وصل إلى مصر، فعند ما وصلها قام له عنبسة بسائر ما اقترحه عليه، و نزل له عن عدّة ولايات من أعمال الصعيد، مثل قفط و القصير و إسنا و أرمنت و أسوان؛ و أخذ محمد بن عبد اللّه القمّىّ المذكور فى التّجهيز، فلمّا فرغ من استخدام الرجال و بذل الأموال، حمل ما قدر عليه من الأزواد و الأثقال، بعد أن جهّز من ساحل السويس سبع مراكب موقرة بجميع ما تحتاج عساكره إليه: من دقيق و تمر وزيت و قمح و شعير و غير ذلک. و عيّنت لهم الأدلّاء مكانا من ساحل البحر نحو عيذاب، يكون اجتماعهم فيه بعد مدّة معلومة.

ثم رحل محمد من مدينة قوص مقتحما تلک البرارى الموحشة، و قد تكامل معه من العسكر سبعة آلاف مقاتل غير الأتباع، و سار حتى تعدّى حفائر الزمرّذ، و أوغل فى بلاد القوم حتى قارب مدينة دنقلة، و شاع خبر قدومه إلى أقصى بلاد السودان؛ فنهض ملكهم- و كان يقال له على بابا- إلى محاربة العسكر الواصل مع محمد المذكور، و معه من

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۹۸

تلک الطوائف المقدّم ذكرها أمم لا تحصى، غير أنهم عراة بغير ثياب، و أكثر سلاحهم الحراب و المزاريق، و مراكبهم البخت النّوبية الصّهب، و هى على غاية من الزّعارّة و النّفار؛ فعند ما قاربوا العساكر الإسلاميّة و شاهدوا ما هم عليه من التجمّل و الخيول و العدد و آلات الحرب فلم يقدروا على محاربتهم، عزموا على مطاولتهم حتى تفنى أزوادهم و تضعف خيولهم و يتمكنوا منهم كيفما أرادوا؛ فلم يزالوا يراوغونهم مراوغة الثعالب، و صاروا كلّما دنا منهم محمد ليواقعهم يرحلون من بين يديه من مكان إلى مكان، حتى طال بهم المطال وفنيت الأزواد، فلم يشعروا إلّا و تلک المراكب قد وصلت إلى الساحل، فقويت بها قلوب العساكر الإسلامية؛ فعند ذلک تيقّنت السّودان أن المدد لا ينقطع عنهم من جهة الساحل، فصمّموا على محاربتهم و دنوا إليهم فى أمم لا تحصى. فلما نظر محمد إلى السودان التى أقبلت عليه انتزع جميع ما كان فى رقاب جمال عساكره من الأجراس، فعلّقها فى أعناق خيوله، و أمر أصحابه بتحريک الطبول و بنفير الأبواق ساعة الحملة؛ و تم واقفا بعساكره و قد رتّبها ميامن و مياسر بحيث لم يتقدّم منهم عنان عن عنان؛ و زحفت السودان عليه و هو بموقفه لا يتحرّک حتى قاربوه، و كادت تصل مزاريقهم الى صدر خيوله؛ فعند ذلک أمر أصحابه بالتكبير، ثم حمل بعساكره على السودان حملة رجل واحد و حرّكت نقّاراته و خفقت طبوله، و علا حسّ تلک الأجراس، حتى خيّل للسودان أنّ

السماء قد انطبقت على الأرض، فرجعت جمال السودان عند ذلك جافلة على أعقابها، و قد تساقط عن ظهورها أكثر ركّابها؛ و اقتحم عساكر الإسلام السودان فقتلوا من ظفروا به منهم، حتى كلّت أيديهم و امتلأت تلك الشّعاب و البرارى بالقتلى، حتى حال بينهم الليل.

وفات المسلمين

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۹۹

على بابا (أعنى ملكهم)، لأنّه كان مع جماعة من أهل بيته و خواصّه قد نجوا على ظهور الخيل. فلما انفصلت الواقعة و تحقّقت السودان أنّهم لا مقام لهم بهذه البلاد حتى يأخذوا لأنفسهم الأمان؛ فأرسل على بابا ملك السودان الى محمد بن عبد اللّه القمّى يسأله الأمان ليرجع الى ما كان عليه من الطاعة و يتدرّك له حمل ما تأخر عليه من المال المقرّر له لمدة أربع سنين، فبذل له محمد الأمان؛ و أقبل عليه على بابا حتى وطئ بساطه، فخلع عليه محمد خنعة من ملابسه و على ولده و على جماعة من أكابر أصحابه. ثم شرط عليه محمد أن يتوجّه معه الى بين يدى الخليفة المتوكّل على اللّه ليطأ بساطه؛ فامتثل على بابا ذلك، و ولّى ولده مكانه الى أن يحضر من عند الخليفة؛ و كان اسم ولده المذكور ليعس بابا. ثم عاد محمد بن عبد اللّه القميّ بعسكره و صحبته على بابا حتى وصل الى مصر فأكرمه عنبسة المذكور، و كان خرج الى لقائه بأقصى بلاد الصعيد؛ و قيل: بل كان مسافرا معه و هو بعيد. فأقام محمد بن عبد اللّه مدّة يسيرة ثم خرج بعلى بابا الى العراق و أحضره بين يدى الخليفة المتوكّل على اللّه؛ فأمره الحاجب بتقبيل الأرض فامتنع؛ فعزم المتوكل أن يأمر بقتله و خاطبه على لسان التّرجمان: إنّه بلغنى أنّ معك صنما معمولا من حجر أسود تسجد له فى كلّ يوم مرتين، فكيف تتأبّى عن تقبيل الأرض بين يدىّ و بعض غلمانى قد قدر عليك و عفا عنك! فلما سمع على بابا كلامه قبّل الأرض ثلاث مرّات؛ فعفا عنه المتوكّل و أفاض عليه الخلع و أعاده الى بلاده. كل ذلك فى أيام ولاية عنبسة على مصر، و ابتنى عنبسة فى أيام ولايته أيضا المصلّى المجاورة لمصلّى خولان و كانت من أحسن المبانى؛ ثم صرف عنبسة بيزيد بن عبد اللّه بن دينار فى أوّل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۰۰

شهر رجب سنة اثنتين و أربعين و مائتين. فكانت ولاية عنبسة المذكور على مصر أربع سنين و أربعة أشهر.

قلت: و عنبسة هذا هو آخر من ولى مصر من العرب و آخر أمير صلّى فى المسجد الجامع، و خرج من مصر فى شهر رمضان و توجه الى العراق سنة أربع و أربعين و مائتين.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۳۹]

السنة الأولى من ولاية عنبسة بن إسحاق على مصر و هى سنة تسع و ثلاثين و مائتين- فيها نفى المتوكّل علىّ بن الجهم الى خراسان. و فيها غزا الأمير علىّ بن يحيى الأرمنىّ بلاد الروم- أعنى الذى عزل عن نيابة مصر قبل تاريخه، و قد تقدّم ذلك كلّه فى ترجمته- فأوغل علىّ بن يحيى المذكور فى بلاد الروم حتى شارف القسطنطينيّة، فأحرق ألف قرية و قتل عشرة آلاف علج و سبى عشرين ألفا و عاد سالما غانما. و فيها عزل المتوكّل يحيى بن أكثم عن القضاء و أخذ منه مائة ألف دينار، و أخذ له من البصرة أربعة آلاف جريب. و فيها فى جمادى الأولى زلزلت الدنيا فى الليل و اصطكّت الجبال و وقع من الجبل المشرف على طبريّة قطعة طولها ثمانون ذراعا و عرضها خمسون ذراعا فمات تحتها خلق كثير. و فيها حجّ بالناس عبد اللّه بن محمد بن داود العباسىّ، و هو يوم ذاك أمير مكّة. و فيها توفى محمد بن أحمد بن أبى دواد القاضى أبو الوليد الإيادى، ولّاه المتوكّل القضاء و المظالم بعد ما أصاب أباه أحمد بن أبى دواد الفالج، ثم عزل بعد مدّة عن المظالم ثم عن القضاء، كلّ ذلك فى حياة أبيه فى حال مرضه بالفالج. و أبوه هو الذى كان يقول بخلق القرآن و حمل الخلفاء على امتحان العلماء. و كان محمد هذا بخيلا مسّيكا مع شهرة أبيه بالكرم. و كانت وفاته فى حياة والده، و عظم مصابه على أبيه مع ما هو فيه من شدّة مرضه بالفالج حتى إنّه [كان] كالحجر الملقى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۰۱

الذين ذكر الذهبى وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفى إبراهيم بن يوسف البلخىّ الفقيه، و داود بن رشيد، و صفوان بن صالح الدّمشقىّ المؤذّن، و الصّيلت بن مسعود الجحدرىّ، و عثمان بن أبى شيبة، و محمد بن مهران الجمّال الرازىّ، و محمد بن نصر المروزىّ، و محمد بن يحيى بن أبى سمينة، و محمود بن غيلان، و وهب بن بقيّة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربعة أذرع و عشرون إصبعا، مبلغ الزيادة ستة عشر ذراعا و ثلاثة و عشرون إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۴۰]

السنة الثانية من ولاية عنبسة بن إسحاق على مصر و هى سنة أربعين و مائتين- فيها سمع أهل خلاط صيحة عظيمة من جوّ السماء، فمات خلق كثير. و فيها وقع برد بالعراق كبيض الدّجاج قتل بعض المواشى. و يقال: إنه خسف فيها ببلاد المغرب ثلاث عشرة قرية و لم ينج من أهلها إلّا نيّف و أربعون رجلا، فأتوا القيروان فمنعهم أهل القيروان من الدخول اليها، و قالوا: أنتم مسخوط عليكم؛ فبنوا لهم خارجها و سكنوا وحدهم. و فيها حجّ بالناس محمد بن عبد اللّه بن داود العباسىّ. و فيها وثب أهل حمص على عاملهم أبى المغيث الرافقىّ متولى البلد، فأخرجوه منها و قتلوا جماعة من أصحابه؛ فسار اليهم الأمير محمد بن عبدويه، ففتك بهم و فعل بهم الأعاجيب. و فيها توفى إبراهيم بن خالد بن أبى اليمان الحافظ أبو ثور الكلبىّ، كان أحد من جمع بين الفقه و الحديث، و سمع سفيان بن عيينة و طبقته، و روى عنه مسلم بن الحجّاج صاحب الصحيح

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۰۲

و غيره، و اتفقوا على صدقه و ثقته. و فيها توفى أحمد بن أبى دواد بن جرير القاضى، أبو عبد اللّه الإيادىّ البصرىّ ثم البغدادىّ، و اسم أبيه الفرح، ولى القضاء للمعتصم و الواثق؛ و كان مصرّحا بمذهب الجهميّة، داعية الى القول بخلق القرآن؛ و كان موصوفا بالجود و السخاء و العلم و حسن الخلق و غزارة الأدب. قال الصّولىّ كان يقال: أكرم من كان فى دولة بنى العباس البرامكة ثم ابن أبى دواد؛ لو لا ما وضع به نفسه من المحنة، و لولاها لاجتمعت الألسن عليه؛ و مولده سنة ستين و مائة بالبصرة. و قال أبو العيناء: كان أحمد بن أبى دواد شاعرا مجيدا فصيحا بليغا، ما رأيت رئيسا أفصح منه. قال ابن دريد: أخبرنا الحسن بن الخضر قال: كان ابن أبى دواد مؤالفا لأهل الأدب من أىّ بلد كانوا، و كان قد ضمّ اليه جماعة يمونهم، فلما مات اجتمع ببابه جماعة منهم، و قالوا: يدفن من كان ساحة الكرم و تاريخ الأدب و لا يتكلّم فيه! إن هذا لوهن و تقصير. فلمّا طلع سريره قام ثلاثة [منهم] فقال أحدهم:

اليوم مات نظام الفهم و اللّسن و مات من كان يستعدى على الزمن

و أظلمت سبل الآداب إذ حجبت شمس المكارم فى غيم من الكفن

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۰۳

و قال الثانى:

ترك المنابر و السرير تواضعا و له منابر لو يشا و سرير

و لغيره يجبى الخراج و إنّما تجبى إليه محامد و أجور

و قال الثالث:

و ليس نسيم المسك ريح حنوطه و لكنّه ذاك الثناء المخلّف

و ليس صرير النعش ما تسمعونه و لكنّه أصلاب قوم تقصّف

و كانت وفاته لسبع بقين من المحرّم. و كانت وفاة ابنه محمد [بن أحمد] بن أبى دواد فى السنة الخالية. و قد تقدّم ابن أبى دواد هذا

فى عدّة أماكن من هذا الكتاب فيمن تكلم بخلق القرآن.

و فيها توفى قتيبة بن سعيد بن جميل بن طريف، أبو رجاء الثّقفىّ، من أهل بغلان، و هى قرية من قرى بلخ. و مولده فى سنة خمسين و مائة. و كان إماما عالما فاضلا محدّثا، رحل الى الأمصار، و أكثر من السماع، و حدّث عن مالك ابن أنس و غيره، و روى عنه الإمام أحمد بن حنبل و غير واحد.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفى أحمد بن خضرويه البلخىّ الزاهد، و أحمد بن أبى دواد القاضى، و أبو ثور الفقيه إبراهيم بن خالد، و إسماعيل بن عبيد بن أبى كريمة الحرّانىّ، و جعفر بن حميد الكوفىّ، و الحسن ابن عيسى بن ما سرجس، و خليفة العصفرىّ، و سويد بن سعيد الحدثانىّ، و سويد بن نصر المروزىّ، و عبد السلام بن سعيد سحنون الفقيه،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۰۴

و عبد الواحد بن غياث، و قتيبة بن سعيد، و محمد بن خالد بن عبد اللّه الطّحّان، و محمد بن الصّبّاح الجرجرائى، و محمد بن أبى غياث الأعين، و اللّيث بن المقرئ صاحب الكسائىّ.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربعة أذرع و ثلاثة عشر إصبعا، مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا و نصف ذراع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۴۱]

السنة الثالثة من ولاية عنبسة بن إسحاق على مصر و هى سنة إحدى و أربعين و مائتين- فيها فى جمادى الآخرة ماجت النجوم فى السماء و تناثرت الكواكب كالجراد أكثر الليل، و كان أمرا مزعجا لم يسمع بمثله. و فيها ولّى الخليفة المتوكّل على اللّه جعفر أبا حسّان الزّيادىّ قضاء الشرقيّة فى المحرّم، و شهد عنده الشهود على عيسى بن جعفر بن محمد بن عاصم أنه شتم أبا بكر و عمر و عائشة و حفصة؛ فكتب المتوكّل إلى محمد بن عبد اللّه بن طاهر ببغداد: أن يضرب عيسى بالسّياط حتى يموت و يرمى فى دجلة، ففعل به ذلك. و فيها فادى المتوكّل الروم، فخلّص من المسلمين سبعمائة و خمسة و ثلاثين رجلا من أيدى الروم ممّن كان أسيرا عندهم.

و فيها توفى الامام أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد بن إدريس بن عبد اللّه ابن حيّان بن عبد اللّه بن أنس بن عوف بن قاسط بن مازن بن شيبان، هكذا نسبه ولده عبد اللّه، و اعتمده جماعة من المؤرّخين؛ و زاد غيرهم بعد شيبان فقال: ابن ذهل بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علىّ بن بكر بن وائل؛ الإمام أحد الأعلام و شيخ الإسلام أبو عبد اللّه الشّيبانىّ البغدادىّ صاحب المذهب، مولده فى شهر ربيع الأوّل سنة أربع و ستين و مائة، روى عن جماعة كثيرة مثل هشيم و سفيان بن عيينة و يحيى القطّان و الوليد

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۰۵

ابن مسلم و غندر و زياد البكّائىّ و يحيى بن أبى زائدة و القاضى أبى يوسف يعقوب و وكيع و ابن نمير و عبد الرحمن بن مهدىّ و عبد الرزاق و الشافعىّ و خلق كثير، و ممّن روى عنه محمد بن إسماعيل البخارى و مسلم بن الحجّاج صاحب الصحيح و أبو داود و خلق كثير. و قال عبد الرزاق: ما رأيت أفقه من أحمد بن حنبل و لا أورع.

و قال إبراهيم بن شمّاس: سمعت وكيعا يقول: ما قدم الكوفة مثل ذاك الفتى (يعنى أحمد بن حنبل). و عن عبد الرحمن بن مهدىّ قال: ما نظرت إلى أحمد بن حنبل إلا تذكّرت به سفيان الثّورىّ. و قال القواريرىّ: قال لى يحيى القطّان:

ما قدم علىّ مثل أحمد بن حنبل و يحيى بن معين. و روى ابن عساكر عن الشافعىّ:

أنه لما قدم مصر سئل: من خلّفت بالعراق؟ فقال: ما خلّفت به أعقل و لا أورع و لا أفقه و لا أزهد من أحمد بن حنبل.

قلت: و فضل الإمام أحمد أشهر من أن يذكر، و لو لم يكن من فضله و دينه إلا قيامه فى السّنّة و ثباته فى المحنة لكفاه ذلك شرفا، و

قد ذكرنا من أحواله نبذة كبيرة فى هذا الكتاب فى أيام المحنة و غيرها. و كانت وفاته فى شهر ربيع الأوّل منها (أى من هذه السنة) رحمه اللّه تعالى. و قد روينا مسنده عن المشايخ الثلاثة المسندين المعمّرين:

زين الدين عبد الرحمن بن يوسف بن الطّحّان، و علىّ بن إسماعيل بن بردس و أحمد بن عبد الرحمن الذهبىّ، قالوا: أخبرنا أبو عبد اللّه صلاح الدين محمد بن أبى عمر المقدسىّ أخبرنا أبو النّجيب علىّ بن أبى العباس المنصورىّ أخبرنا أبو علىّ حنبل ابن علىّ الرّصافىّ أخبرنا أبو القاسم هبة اللّه بن الحصين أخبرنا أبو الحسين علىّ بن

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۰۶

المذهب أخبرنا أبو بكر أحمد بن جعفر بن حمدان القطيعىّ أخبرنا أبو عبد الرحمن عبد اللّه بن أحمد بن حنبل حدّثنا أبى.

و فيها توفّى الحسن بن حمّاد أبو علىّ الحضرمىّ، و يعرف بسجّادة لملازمته السّجّادة فى الصلاة، كان إماما عالما زاهدا عابدا، سمع أبا معاوية الضّرير و غيره، و روى عنه ابن أبى الدنيا و طبقته، و هو أحد من امتحن بالقول بخلق القرآن و ثبت على السّنّة، و قد تقدّم ذكره فى أيام المحنة و شىء من أخباره و أجوبته لإسحاق بن إبراهيم نائب الخليفة ببغداد فى سنة ثمان عشرة و مائتين.

و فيها توفى محمد بن محمد بن إدريس، أبو عثمان العسقلانىّ الأصل المصرىّ ابن الإمام الشافعىّ رضى اللّه عنه. و كان للشافعىّ ولد آخر اسمه محمد توفى بمصر صغيرا و ولى محمد هذا قضاء الجزيرة، و حمدت هناك سيرته، و سمع من أبيه و أحمد بن حنبل و غيرهما.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى الإمام أحمد بن حنبل، و الحسن بن حمّاد سجّادة، [و جبارة بن المغلّس]، و أبو توبة الرّبيع بن نافع الحلبىّ و عبد اللّه بن منير المروزىّ، و أبو قدامة عبيد اللّه بن سعيد السرخسىّ، و محمد ابن عبد العزيز بن أبى رزمة، و أبو مروان محمد بن عثمان العثمانىّ، و محمد بن عيسى التّيمىّ الرازىّ المقرئ، و هديّة بن عبد الوهاب المروزىّ، و يعقوب بن حميد بن كاسب.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربعة أذرع و خمسة أصابع.

مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا و خمسة أصابع.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۰۷

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۴۲]

اشارة

السنة الرابعة من ولاية عنبسة بن إسحاق على مصر و هى سنة اثنتين و أربعين و مائتين- فيها حشدت الروم و خرجوا من ناحية سميساط الى آمد و الجزيرة، فقتلوا و سبوا نحو عشرة آلاف نفس ثم رجعوا. و فيها حجّ بالناس أمير مكة الأمير عبد الصمد ابن موسى بن محمد الهاشمىّ. و حجّ من البصرة إبراهيم بن مظهر الكاتب على عجلة تجرّها الإبل و تعجّب الناس من ذلك. و فيها كانت زلزلة بعدّة بلاد فى شعبان، هلك منها خلق تحت الرّدم، قيل: بلغت عدّتهم خمسة و أربعين ألفا، و كان معظم الزلزلة بالدّامغان، حتى قيل إنه سقط نصفها، و زلزلت الرّىّ و جرجان و نيسابور و طبرستان و أصبهان، و تقطّعت الجبال و تشقّقت الأرض بمقدار ما يدخل الرجل فى الشّقّ، و رجمت قرية السّويداء بناحية مضر بالحجارة. وقع منها حجر على أعراب، فوزن حجر منها فكان عشرة أرطال (لعلّه بالشامىّ)، و سار جبل باليمن عليه مزارع لأهله حتى أتى مزارع آخرين، و وقع بحلب طائر أبيض دون الرّخمة فى شهر رمضان فصاح: يا معشر الناس، اتقوا اللّه اتقوا اللّه اتقوا اللّه أربعين صوتا، ثم طار و جاء من الغد ففعل كذلك؛ و كتب البريد بذلك و شهد خمسمائة

إنسان سمعوه. و فيها مات رجل ببعض كور الأهواز فى شوّال، فسقط طائر أبيض على جنازته، فصاح بالفارسيّة: إن اللّه قد غفر لهذا الميّت و لمن شهد جنازته. و فيها توفى عبد اللّه بن بشر بن أحمد بن ذكوان إمام جامع دمشق. قال أبو زرعة: لم يكن بالشأم و مصر و العراق و الحجاز

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۰۸

أقرأ من ابن ذكوان، و كان مولده سنة ثلاث و أربعين و مائة، و مات يوم عاشوراء.

و فيها توفّى محمد بن أسلم بن سالم أبو الحسن الطّوسىّ، كان إماما زاهدا عابدا، تشبّه بالصحابة.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفى أبو مصعب الزّهرىّ، و الحسن بن علىّ الحلوانىّ، و ابن ذكوان المقرئ، و زكريا بن يحيى كاتب العمرىّ، و محمد بن أسلم الطّوسىّ، و محمد بن رمح التّجيبىّ، و محمد بن عبد اللّه ابن عمّار، و يحيى بن أكثم.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمسة أذرع و ستة عشر إصبعا، مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا و خمسة أصابع.

ذكر ولاية يزيد بن عبد اللّه على مصر

هو يزيد بن عبد اللّه بن دينار الأمير أبو خالد، كان من الموالى، ولى مصر بعد عزل عنبسة عنها، فى شهر رجب سنة اثنتين و أربعين و مائتين، ولّاه المنتصر على الصلاة. فلما ولى مصر أرسل أخاه العبّاس بن عبد اللّه بن دينار أمامه إلى مصر خليفة له؛ ثم قدم يزيد هذا بعده إلى مصر لعشر بقين من شهر رجب سنة اثنتين و أربعين و مائتين المذكورة؛ و سكن المعسكر، و أقام الحرمة و مهّد أمور الديار المصرية، و أخرج المؤنّثين منها و ضربهم و طاف بهم، ثم منع النداء على الجنائز، و ضرب جماعة بسبب ذلك؛ و فعل أشياء من هذه المقولة؛ و دام على ذلك إلى المحرّم سنة خمس و أربعين و مائتين. خرج من مصر الى دمياط لما بلغه نزول الروم عليها فأقام بها مدّة لم يلق حربا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۰۹

و رجع فى شهر ربيع الأوّل من السنة الى مصر؛ و عند حضوره الى مصر بلغه ثانيا نزول الروم إلى دمياط، فخرج أيضا من مصر لوقته و توجّه الى دمياط فلم يلقهم، فأقام بالثغر مدّة ثم عاد الى مصر. ثم بدا له تعطيل الرّهان الذى كان لسباق الخيل بمصر و باع الخيل التى كانت تتّخذ للسّباق بمصر. ثم تتبع الروافض بمصر و أبادهم و عاقبهم و امتحنهم و قمع أكابرهم، [و حمل منهم جماعة الى العراق على أقبح وجه]؛ ثم التفت الى العلويّين، فجرت عليهم منه شدائد من الضّيق عليهم و أخرجهم من مصر. و فى أيّامه فى سنة سبع و أربعين و مائتين بنى مقياس النيل بالجزيرة المنعوتة بالرّوضة.

ذكر أوّل من قاس النّيل بمصر

أوّل من قاسه يوسف الصدّيق بن يعقوب نبىّ اللّه عليه السلام. و قيل: إنّ النيل كان يقاس بأرض علوة الى أن بنى مقياس منف، و إنّ القبط كانت تقيس عليه الى أن بطل لما بنت دلوكة العجوز صاحبة مصر مقياسا بأنصنا، و كان صغير الذّرع؛ ثم بنت مقياسا آخر بإخميم. و دلوكة هذه هى التى بنت الحائط المحيط بمصر من العريش الى أسوان، و قد تقدّم ذكرها فى أوّل هذا الكتاب عند ذكر من ملك مصر من الملوك قبل الإسلام. و قيل: إنهم كانوا يقيسون الماء قبل أن يوضع المقياس بالرّصاصة، و قيل غير ذلك. فلم يزل المقياس فيما مضى قبل الفتح بقيساريّة الأكسية الى أن ابتنى المسلمون بين الحصن و البحر أبنيتهم الباقية الآن. و كان للروم أيضا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۱۰

مقياس بالقصر خلف الباب يمنة من يدخل منه فى داخل الزّقاق، أثره قائم الى اليوم، و قد بنى عليه و حوله.

و لما فتح عمرو بن العاص مصـر بنى بها مقياسا بأسوان، فدام المقياس بها مدّة الى أن بنى فى أيام معاوية بن أبى سفيان مقياس بأنصنا أيضا؛ فلم يزل يقاس عليه الى أن بنى عبد العزيز بن مروان مقياسا بحلوان. و كان عبد العزيز بن مروان أمير مصر إذ ذاك من قبل أخيه عبـد الملك بن مروان، و قـد تقـدّم ذكر عبـد العزيز فى ولايته على مصـر. و كان عبد العزيز يسـكن بحلوان. و كان مقياس عبد العزيز الـذى ابتناه بحلوان صـغير الـذرع. ثم بنى أسامة بن زيد التّنوخىّ فى أيام الوليد بن عبد الملك مقياسا و كسـر فيه ألف قنطار. و أسامة هذا هو الذى بنى بيت المال بمصر، و كان أسامة عامل خراج مصر. ثم كتب أسامة المذكور الى سليمان بن عبد الملك بن مروان لما ولى الخلافـة ببطلان هـذا المقياس المذكور، و أن المصـلحة بناء مقياس غير ذلك؛ فكتب إليه سـليمان ببناء مقياس فى الجزيرة (يعنى الروضة) فبناه أسامة فى سـنة سـبع و تسـعين- قال ابن بكير مؤرّخ مصـر: أدركت المقياس بمنف و يدخل القيّاس بزيادته كل يوم إلى الفسطاط (يعنى مصر)- ثم بنى المتوكّل فيها مقياسا فى سنة سبع و أربعين و مائتين

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۱۱

فى ولايـة يزيـد بن عبـد اللّه هـذا، و هو المقياس الكبير المعروف بالجديد. و قدم من العراق محمد بن كثير الفرغانىّ المهندس فتولّى بناءه؛ و أمر المتوكّل بأن يعزل النّصارى عن قياسه؛ فجعل يزيد بن عبد اللّه أمير مصـر على القياس أبا الرّدّاد الفقيه المعلّم، و اسـمه عبد اللّه بن عبد السلام بن عبد اللّه بن أبى الرّدّاد المؤذن و كان القمّىّ يقول:

أصل أبى الرّدّاد هذا من البصـرة. و ذكر الحافظ ابن يونس قال: قدم مصـر و حدّث بها و جعل على قياس النيل، و أجرى عليه سـليمان بن وهب صاحب خراج مصر سبعة دنانير فى كلّ شهر، فلم يزل القياس من ذلك الوقت فى أيدى أبى الرّدّاد و أولاده الى يومنا هذا. و مات أبو الردّاد المذكور فى سنة ست و ستين و مائتين.

قلت: و هـذا المقياس هو المعهود الآن، و بطل بعمارته كلّ مقياس كان بنى قبله من الوجه القبلىّ و البحرىّ بأعمال الـديار المصـرية. و استمرّ على ذلك الى أن ولى الأمير أبو العباس أحمد بن طولون الدّيار المصريّة، و ركب من القطائع فى بعض الأحيان فى سنة تسع و خمسين و مائتين و معه أبو أيّوب صاحب خراجه و القاضى بكّار بن قتيبة الحنفىّ الى المقياس و أمر بإصلاحه و قدّر له ألف دينار.

قلت: و أما مصـروف عمارة هذا المقياس فشـىء كثير، و بنى بعد تعب زائد و كلفة كبيرة يطول الشرح فى ذكرها؛ و فى النظر الى بنائه مـا يغنى عن ذكر مصـروف عمـارته. و بنى أيضـا الحارث مقياسا بالصـناعة لا يلتفت اليه و لا يعتمـد عليه و لا يعتـدّ به، و أثره باق الى اليوم.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۱۲

و قـال الحسن بن محمـد بن عبـد المنعم: لما فتحت العرب مصـر عرّف عمرو بن العاص عمر بن الخطاب ما يلقى أهلها من الغلاء عند وقوف النيل عن حدّ مقياس لهم فضـلا عن تقاصره، و أن فرط الاستشعار يدعوهم الى الاحتكار، و يدعو الاحتكار الى تصاعد الأسعار بغير قحـط. فكتب عمر بن الخطـاب الى عمرو بن العـاص يسأله عن شـرح الحال؛ فأجابه عمرو: إنى وجـدت ما تروى به مصـر حتى لا يقحط أهلها أربعـة عشـر ذراعا، و الحدّ الذى تروى منه الى سائرها حتى يفضل منه عن حاجتهم و يبقى عندهم قوت سـنة أخرى سـتة عشـر ذراعا، و النّهايتان المخوفتان فى الزيادة و النّقصان، و هما الظمأ و الاسـتبحار، اثنا عشـر ذراعا فى النقصان و ثمانية عشر ذراعا فى الزيادة. و كان البلد فى ذلك الوقت محفور الأنهار معقود الجسور عند ما تسلّموه من القبط، و خميرة العمارة فيه.

قلت: و قـد تقـدّم ذكر ما تحتاج مصـر اليه من الرجال للحرث و الزراعـة و حفر لجسور، و كميّة خراج مصـر يوم ذاك و بعده فى أوّل هـذا الكتاب عنـد ذكر النيل، فلا حاجـة لـذكره هنا ثانيا اذ هو مسـتوعب هناك. و لم نـذكر هنا هـذه الأشـياء إلا اسـتطرادا لعمارة هذا المقيـاس المعهود الآن فى أيام صاحب هـذه الترجمـة؛ فلزم من ذلك التعريف بما كان بمصـر من صـفة كلّ مقياس و محلّه و كيفيّته، ليكون الناظر فى هذا الكتاب على بصيرة بما تقدّم من أحوال مصر.

و لما وقف عمر بن الخطاب على كتاب عمرو بن العاص استشار عليّا رضى اللّه عنهما فى ذلك؛ ثم أمره أن يكتب اليه ببناء مقياس، و

أن ينقص ذراعين من

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۱۳

اثنى عشر ذراعا، و أن يقرّ ما بعدهما على الأصل، و أن ينقص من كل ذراع بعد الستة عشر ذراعا إصبعين؛ ففعل ذلك و بناه عمرو (أعنى المقياس) بحلوان؛ فاجتمع له كلّ ما أراد.

و قال ابن عفير و غيره من القبط المتقدّمين: اذا كان الماء فى اثنى عشر يوما من مسرى اثنى عشر ذراعا فهى سنة ماء، و إلا فالماء ناقص؛ و إذا تمّ ستة عشر ذراعا قبل النّوروز فالماء يتمّ. فاعلم ذلك.

قلت: و هذا بخلاف ما عليه الناس الآن؛ لأن الناس لا يقنعهم فى هذا العصر إلا المناداة من أحد و عشرين ذراعا، لعدم معرفتهم بقوانين مصر، و لأشياء أخر تتعلّق بما لا ينبغى ذكره.

و قد خرجنا عن المقصود فى ترجمة يزيد بن عبد اللّه هذا، غير أننا أتينا بفضائل و غرائب. و دام يزيد بن عبد اللّه على إمرة مصر إلى أن مات الخليفة المتوكّل على اللّه جعفر، و يخلّف بعده ابنه المنتصر محمد. و قتل أيضا الفتح بن خاقان مع المتوكّل، و كان الفتح قد ولّاه المتوكّل أمر مصر و عزل عنه ابنه محمدا المنتصر هذا. و كان قتل المتوكّل فى شوّال من سنة سبع و أربعين و مائتين التى بنى فيها هذا المقياس. و لمّا بويع المنتصر بالخلافة أرسل الى يزيد بن عبد اللّه المذكور باستمراره على عمله بمصر.

فدام يزيد بن عبد اللّه هذا على ذلك إلى أن مات الخليفة المنتصر فى شهر ربيع الأوّل سنة ثمان و أربعين و مائتين، و بويع المستعين باللّه بالخلافة. [و] أرسل المستعين إليه بالاستسقاء لقحط كان بالعراق؛ فاستسقوا بمصر لسبع عشرة خلت من ذى القعدة، و استسقى جميع أهل الآفاق فى يوم واحد؛ فإن المستعين كان قد أمر سائر عمّاله

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۱۴

بالاستسقاء فى هذا اليوم المذكور. و دام يزيد بن عبد اللّه على إمرة مصر حتى خلع المستعين من الخلافة، بعد أمور وقعت له، فى المحرّم سنة اثنتين و خمسين و مائتين، و بويع المعتزّ بن المتوكل بالخلافة؛ فعند ذلك أخيفت السّبل و تخلخل أمر الديار المصرية لاضطراب أمر الخلافة. و خرج جابر بن الوليد بالاسكندرية، فتجهّز يزيد بن عبد اللّه هذا لحربه، و جمع الجيوش و خرج من الديار المصرية و التقاه؛ فوقع له معه حروب و وقائع كان ابتداؤها من شهر ربيع الآخر من سنة اثنتين و خمسين و مائتين؛ و طال القتال بينهما و انكسر كلّ منهما غير مرّة و تراجع. فلما عجز يزيد بن عبد اللّه عن أخذ جابر بن الوليد المذكور، أرسل الى الخليفة فطلب منه نجدة لقتال جابر و غيره؛ فندب الخليفة الأمير مزاحم بن خاقان فى عسكر هائل الى التوجّه الى الديار المصرية، فخرج بمن معه من العراق حتى قدم مصر معينا ليزيد بن عبد اللّه المذكور لثلاث عشرة بقيت من شهر رجب من السنة المذكورة؛ و خرج يزيد بن عبد اللّه الى ملاقاته و أجلّه و أكرمه، و خرج الجميع و واقعوا جابر بن الوليد المذكور و قاتلوه حتى هزموه ثم ظفروا به و استباحوا عسكره، و كتبوا الى الخليفة بذلك؛ فورد عليهم الجواب بصرف يزيد ابن عبد اللّه هذا عن إمرة مصر و باستقرار مزاحم بن خاقان عليها عوضه، و ذلك فى شهر ربيع الأوّل سنة ثلاث و خمسين و مائتين. فكانت مدّة ولاية يزيد بن عبد اللّه هذا على مصر عشر سنين و سبعة أشهر و عشرة أيام.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۴۳]

السنة الأولى من ولاية يزيد بن عبد اللّه التركىّ على مصر و هى سنة ثلاث و أربعين و مائتين- فيها حجّ بالناس عبد الصمد بن موسى، و سار بالحجّ من العراق جعفر ابن دينار. و فيها فى آخر السنة قدم المتوكّل إلى الشأم فأعجبته دمشق و أراد أن

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۱۵

يسكنها و بنى له القصر بداريّا حتى كلّموه فى الرجوع إلى العراق و حسنوا له ذلك؛ فرجع بعد أن سمع بيتى يزيد بن محمد المهلبىّ و هما:

أظنّ الشام تشمت بالعراق إذا عزم الإمام على انطلاق

فإن يدع العراق و ساكنيه فقد تبلى المليحة بالطّلاق

و فيها توفّى أبو إسحاق إبراهيم بن العباس بن محمد بن صول تكين، الكاتب المعروف بالصّولىّ، الكاتب الشاعر المشهور؛ كان أحد الشعراء المجيدين، و له ديوان شعر صغير الحجم و نثر بديع. و هو ابن أخت العباس بن الأحنف الشاعر، و نسبته الى جدّه صول تكين المذكور، و كان أحد ملوك خراسان، و أسلم على يد يزيد بن المهلّب ابن أبى صفرة. و قال الحافظ أبو القاسم حمزة بن يوسف السّهمىّ فى تاريخ جرجان:

الصّولىّ جرجانىّ الأصل، وصول: من بعض ضياع جرجان، و هو عمّ والد أبى بكر محمد ابن يحيى بن عبد اللّه بن العباس الصّولىّ صاحب كتاب الوزراء و غيره من المصنّفات، فإنهما مجتمعان فى العباس المذكور. و من شعر الصّولىّ هذا قوله:

؟؟؟ دنت بأناس عن تناء زيارة و شطّ بليلى عن دنوّ مزارها

و إنّ مقيمات بمنعرج اللّوى لأقرب من ليلى و هاتيك دارها

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ٢، ص: ٣١۶

و فيها توفّى الحارث بن أسد الحافظ أبو عبد اللّه المحاسبىّ، أصله من البصرة و سكن بغداد، و كان كبير الشأن فى الزهد و العلم، و له التصانيف المفيدة. و فيها توفّى الوليد بن شجاع بن الوليد بن قيس الشيخ الإمام أبو همّام السّكونىّ البغدادىّ، كان صالحا عفيفا ديّنا عابدا و توفّى ببغداد. و فيها توفى هارون بن عبد اللّه بن مروان الحافظ أبو موسى البزّاز مات ببغداد فى شوّال، و أخرج عنه مسلم و غيره، و كان ثقة صدوقا. و فيها توفّى هنّاد بن السّرىّ الدّارمىّ الكوفىّ الزاهد الحافظ، كان يقال له راهب الكوفة، سمع وكيعا و طبقته، و روى عنه أبو حاتم الرّازىّ و غيره. و فيها توفّى القاضى يحيى بن أكثم ابن محمد بن قطن بن سمعان التّميمىّ الأسيّدىّ، أبو عبد اللّه، و قيل أبو زكريا، و قيل أبو محمد. ولى القضاء بالبصرة و بغداد و الكوفة و سامرّا، و كان إماما عالما بارعا.

قال أبو بكر الخطيب فى تاريخه: كان أحد أعلام الدنيا ممّن اشتهر أمره و عرف خبره، و لم يستتر عن الكبير و الصغير من الناس فضله و علمه و رياسته و سياسته؛ و كان أمر الخلفاء و الملوك لأمره، و كان واسع العلم و الفقه و الأدب ا ه.

قال الكوكبىّ: أخبرنا أبو علىّ محرز بن أحمد الكاتب حدّثنى محمد بن مسلم البغدادىّ السّعدىّ قال: دخلت على يحيى بن أكثم فقال: افتح هذه القمطرة، ففتحتها، فاذا شىء قد خرج منها، و رأسه رأس إنسان و من سرّته الى أسفله خلقة زاغ، و فى ظهره سلعة و فى صدره سلعة، فكبّرت و هلّلت و يحيى يضحك، ثم قال بلسان فصيح:

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ٢، ص: ٣١٧

أنا الزّاغ أبو عجوه أنا ابن اللّيث و اللّبوه

أحبّ الرّاح و الريحا ن و النّشوة و القهوه

فلا عربدتى تخشى و لا تحذر لى سطوه

ثم قال لى: يا كهل، أنشدنى شعرا غزلا؛ فقال لى يحيى بن أكثم: قد أنشدك فأنشده؛ فأنشدته:

أغرّك أن أذنبت ثم تتابعت ذنوب فلم أهجرك ثم أتوب

و أكثرت حتى قلت ليس بصارمى و قد يصرم الإنسان و هو حبيب

فصاح: زاغ زاغ زاغ، و طار ثم سقط فى القمطرة؛ فقلت: أعزّ اللّه القاضى! و عاشق أيضا! فضحك؛ فقلت: ما هذا؟ فقال: هو ما ترى! وجّه به صاحب اليمن الى أمير المؤمنين و ما رآه بعد ا ه. و قال أبو خازم القاضى: سمعت أبى يقول:

ولى يحيى بن أكثم قضاء البصرة و له عشرون سنة فاستصغروه، فقال أحدهم: كم سنّ القاضى؟ [فعلم انه قد استصغر]، فقال: أنا أكبر من عتّاب الذى استعمله رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلّم على أهل مكة، و أكبر من معاذ الذى وجهه رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم قاضيا على اليمن، و أكبر من كعب بن سور الذى وجّهه عمر قاضيا على البصرة [فجعل جوابه احتجاجا]. و فيها توفى يعقوب بن إسحاق السّكّيت الإمام

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۱۸

أبو يوسف اللغوىّ صاحب إصلاح المنطق، كان علّامة الوجود، قتله المتوكّل بسبب محبّته لعلىّ بن أبى طالب رضى اللّه عنه. قال له يوما: أيّما أحبّ إليک أنا و ولداى: المؤيّد و المعتزّ، أم علىّ و الحسن و الحسين؟ فقال: و اللّه إنّ شعرة من قنبر خادم علىّ خير منک و من ولديک؛ فأمر المتوكّل الأتراک فداسوا بطنه؛ فحمل الى بيته و مات ا ه.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمسة أذرع و ثمانية عشر إصبعا، مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا و إصبعان.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۴۴]

السنة الثانية من ولاية يزيد بن عبد اللّه على مصر و هى سنة أربع و أربعين و مائتين- فيها سخط المتوكّل على حكيمه بختيشوع و نفاه إلى البحرين. و فيها افتتح بغا التركىّ حصنا كبيرا من الروم يقال له صملة. و فيها اتّفق عيد الأضحى و فطير اليهود و عيد الشّعانين للنّصارى فى يوم واحد. و فيها توفى الحسن بن رجاء أبو علىّ البلخىّ، كان إماما حافظا، سافر فى طلب الحديث، و سمع الكثير، و لقى الشيوخ، و روى عنه غير واحد. و فيها توفّى علىّ بن حجر بن إياس بن مقاتل الإمام أبو الحسن السّعدىّ [المروزىّ]، ولد سنة أربع و خمسين و مائة، و كان من علماء خراسان، كان حافظا متقنا شاعرا، طاف البلاد و حدّث، و انتشر حديثه بمرو. و فيها توفى محمد بن العلاء بن كريب أبو كريب الهمذانىّ الكوفىّ الحافظ، كان من الأئمة الحفّاظ، لم يكن بعد الإمام أحمد أحفظ منه.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۱۹

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أحمد بن منيع، و إبراهيم بن عبد اللّه الهروىّ، و إسحاق بن موسى الخطمىّ، و الحسن بن شجاع البلخىّ الحافظ، و أبو عمّار الحسين بن حريث، و حميد بن مسعدة، و عبد الحميد ابن بيان الواسطىّ، و علىّ بن حجر، و عتبة بن عبد اللّه المروزىّ، و محمد بن أبان مستلى وكيع، و محمد بن عبد الملک بن أبى الشّوارب، و يعقوب بن السّكّيت.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمسة أذرع و إصبع واحد.

مبلغ الزيادة ستة عشر ذراعا و اثنا عشر إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۴۵]

السنة الثالثة من ولاية يزيد بن عبد اللّه على مصر و هى سنة خمس و أربعين و مائتين- فيها عمّت الزلازل الدنيا فأخربت القلاع و المدن و القناطر، و هلک خلق بالعراق و المغرب، و سقط من أنطاكية [ألف و خمسمائة دار و] نيّف و تسعون برجا و تقطّع جبلها الأقرع و سقط فى البحر؛ و سمع من السماء أصوات هائلة، و هلک أكثر أهل اللّاذقيّة تحت الرّدم، و هلک أهل جبلة، و هدمت بالس و غيرها، و امتدّت الى خراسان، و مات خلائق منها. و أمر المتوكّل بثلاثة آلاف ألف درهم للذين أصيبوا فى منازلهم. و زلزلت مصر، و سمع أهل بلبيس من ناحية مصر صيحة هائلة، فمات خلق من أهل بلبيس

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۲۰

و غارت عیون مکّة. و فیها أمر المتوکّل ببناء مدینة الماحوزة، و سمّاها الجعفریّ، و أقطع الأمراء آساسها؛ و بعد هذا أنفق علیها أکثر من ألفی ألف دینار، و بنی بها قصرا سمّاه اللؤلؤة لم یر مثله فی علوّه و ارتفاعه؛ و حفر للماحوزة نهرا کان یعمل فیه اثنا عشر ألف رجل، فقتل المتوکّل و هم یعملون فیه، فبطل عمله، و خربت الماحوزة و نقض القصر. و فیها أغارت الروم علی مدینة سمیساط، فقتلوا نحو خمسمائة و سبوا؛ فغزاهم علیّ بن یحیی، فلم یظفر بهم.

و فیها توفی ذو النّون المصریّ الزاهد العابد المشهور، و اسمه ثوبان بن ابراهیم، و یقال: الفیض بن أحمد أبو الفیض، و یقال: الفیّاض الإخمیمی؛ کان إماما زاهدا عابدا فاضلا، روی عن الامام مالک و اللّیث بن سعد و ابن لهیعة و الفضیل بن عیاض و سفیان بن عیینة و غیرهم؛ و روی عنه أحمد بن صبیح الفیومیّ و ربیعة بن محمد الطائیّ و الجنید بن محمد و غیرهم؛ و کان أبوه نوبیّا. و ذو النون هو أوّل من تکلّم ببلده فی ترتیب الأحوال و مقامات أهل الولایة، فأنکر علیه عبد اللّه بن عبد الحکم، و وقع له بسبب ذلک أمور یلزم من ذکرها الإطالة فی ترجمته؛ و لیس لذلک هنا محلّ. و قال یوسف بن الحسین: سمعت ذا النون یقول: مهما تصوّر فی فهمک فاللّه بخلاف ذلک. و قال: سمعت ذا النون یقول: الاستغفار اسم جامع لمعان کثیرة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۲۱

ثم فسّرها. و مات ذو النون فی ذی القعدة بمصر، و دفن بالقرافة، و قبره معروف بها یقصد للزیارة.

و فیها توفّی هشام بن عمّار بن نصیر بن میسرة الإمام حافظ دمشق و خطیبها و مفتیها، ولد سنة ثلاث و خمسین و مائة، و کنیته أبو الولید السّلمیّ. و فیها توفی الحسین بن علی بن یزید الإمام الحافظ أبو علیّ الکرابیسیّ، کان یبیع الکرابیس، و هی ثیاب من الکرابیس؛ روی عن الشافعیّ و غیره و روی عنه غیر واحد. و فیها توفّی سوّار بن عبد اللّه بن سوّار بن عبد اللّه بن قدامة أبو عبد اللّه [التمیمی] العنبریّ البصریّ، کان إماما عالما فقیها زاهدا أدیبا حافظا صدوقا ثقة؛ و فیه یقول بعض الشعراء:

ما قال لا قطّ إلّا فی تشهّده لو لا التشهّد لم تسمع له لاء

و فیها توفّی عسکر بن الحصین أبو تراب النّخشبیّ الزاهد العارف، کان من کبار مشایخ خراسان المشهورین فی العلم و الورع و الزهد.

و فیها توفّی محمد بن حبیب مولی بنی هاشم، کان عالما بالأنساب و أیام العرب، حافظا متقنا صدوقا ثقة، مات بمدینة سامرّا فی ذی الحجة. و فیها توفّی محمد بن رافع بن أبی رافع بن أبی زید القشیریّ النّیسابوریّ إمام عصره بخراسان؛ کان ممن جمع بین العلم و العمل و الزّهد و الورع، و رحل [الی] البلاد و رأی الشیوخ و سمع الکثیر.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۲۲

الذین ذکر الذهبیّ وفاتهم فی هذه السنة، قال: و فیها توفی أحمد بن عبدة الضّبّیّ، و أبو الحسن أحمد بن محمد التبّال الفوّاس مقرئ مکّة، و أحمد بن نصر النّیسابوریّ، و إسحاق بن أبی إسرائیل، و إسماعیل بن موسی السّدّیّ، و ذو النون المصریّ، و سوّار بن عبد اللّه العنبریّ، و عبد اللّه بن عمران العابدیّ، و محمد بن رافع، و هشام بن عمّار.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم ستة أذرع و اثنان و عشرون إصبعا، مبلغ الزیادة ستة عشر ذراعا و ثلاثة أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۴۶]

السنة الرابعة من ولایة یزید بن عبد اللّه علی مصر و هی سنة ست و أربعین و مائتین- فیها غزا المسلمون الروم، فسبوا و قتلوا و استنقذوا خلائق من الأسر. و فیها فی یوم عاشوراء تحوّل الخلیفة المتوکّل الی الماحوزة و هی مدینته التی أمر ببنائها. و فیها أمطرت [السماء] بناحیة بلخ مطرا [یشبه] دما عبیطا أحمر. و فیها حجّ بالرکّب العراقیّ محمد بن عبد اللّه بن طاهر، فولی أعمال الموسم و أخذ

معه ثلثمائة ألف دينار لأهل مكّة، و مائة ألف دينار لأهل المدينة، و مائة ألف لإجراء الماء من عرفات الى مكّة. و فيها توفى دعبل ابن على بن رزين بن سليمان بن تميم بن نهشل الخزاعىّ الشاعر المشهور. و الدّعبل هو البعير المسنّ العظيم الخلق (و دعبل بكسر الدال و سكون العين المهملتين و كسر الباء الموحدة و بعدها لام). و كان دعبل طوالا ضخما، و مولده فى سنة ثمان و أربعين و مائة، و برع فى علم الشعر و العربيّة، و هو من الكوفة، و كان أكثر مقامه ببغداد، و سافر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ٢، ص: ٣٢٣

الى البلاد، و صنّف كتابا فى طبقات الشعراء، و كان هجّاء خبيث اللسان، أطروشا فى قفاه سلعة؛ هجا الرشيد و المأمون و المعتصم و الواثق و الأمير عبد اللّه بن طاهر و جماعة من الوزراء و الكتّاب. و من شعره:

لا تعجبى يا سلم من رجل ضحك المشيب برأسه فبكى

يا ليت شعرى كيف تومكما يا صاحبىّ اذا دمى سفكا

لا تأخذا بظلامتى أحدا قلبى و طرفى فى دمى اشتركا

و رثاه البحترىّ، و كان دعبل مات بعد أبى تمّام بمدّة، فقال من قصيدة أوّلها:

قد زاد فى كلفى و أوقد لوعتى مثوى حبيب يوم مات و دعبل

و فيها توفّيت شجاع أمّ المتوكّل على اللّه جعفر فى حياة ولدها المتوكّل، و كانت تدعى «السيّدة» و كانت أمّ ولد، و كانت صالحة كثيرة الصدقات و المعروف؛ كانت تخرج فى السرّ على يد كاتبها أحمد بن الخصيب. و لما ماتت قال ابنها المتوكّل فى موتها:

تذكّرت لمّا فرّق الدهر بيننا فعزّيت نفسى بالنبىّ محمد

فأجازه بعض من حضر فقال:

فقلت لها إنّ المنايا سبيلنا فمن لم يمت فى يومه مات فى غد

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفى أحمد بن ابراهيم الدّورقىّ، و أحمد بن أبى الحوارىّ، و أبو عمر الدّورىّ المقرئ و اسمه حفص، و دعبل الشاعر، و المسيّب بن واضح.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة؛ ج ٢؛ ص ٣٢٣

ر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربعة أذرع و اثنان و عشرون إصبعا، مبلغ الزيادة ستة عشر ذراعا و عشرون إصبعا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ٢، ص: ٣٢۴

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۴۷]

السنة الخامسة من ولاية يزيد بن عبد اللّه على مصر و هى سنة سبع و أربعين و مائتين- فيها قتل الخليفة المتوكّل على اللّه أمير المؤمنين أبو الفضل جعفر ابن الخليفة المعتصم بالله محمد ابن الخليفة الرشيد هارون ابن الخليفة محمد المهدىّ ابن الخليفة أبى جعفر المنصور بن محمد بن علىّ بن عبد اللّه بن العباس الهاشمىّ العباسىّ البغدادىّ؛ و مولده سنة سبع و مائتين، و قيل: فى سنة خمس و مائتين، و تولّى الخلافة سنة اثنتين و ثلاثين و مائتين بعد وفاة أخيه هارون الواثق؛ و أمّه أمّ ولد تسمّى شجاع تقدّم ذكرها فى السنة الخالية؛ و هو العاشر من خلفاء بنى العباس، قتله مماليكه الأتراك باتفاق ولده محمد المنتصر على ذلك، لأن المتوكّل كان أراد خلع ولده المنتصر المذكور من ولاية العهد و تقديم ابنه المعتزّ عليه، فأبى المنتصر ذلك؛ فصار المتوكّل يوبّخ ولده المنتصر محمدا فى الملأ و يسلّط عليه الأحداث؛ فحقد عليه المنتصر، و اتفق مع وصيف و موسى بن بغا و باغر على قتله؛ فدخلوا عليه و قد أخذ منه الشّراب و عنده وزيره الفتح بن خاقان و هو نائم، فأوّل من ضربه بالسيف باغر ثم أخذته السيوف حتى هلك؛ فصاح وزيره: و يحكم

أمير المؤمنين! فلما رآه قتيلا- قال: ألحقوني به، فقتلوه؛ ولفّ هو و الفتح بن خاقان في بساط ثم دفنا بدمائهما من غير تغسيل في قبر واحد؛ و ذلك في ليلة الخميس خامس شوّال من هذه السنة. فكانت خلافته أربع عشرة سنة و عشرة أشهر و أياما. و بويع بالخلافة بعده ابنه المنتصر محمد، فلم يتهنّأ بها، و مات بعد ستة أشهر، حسبما يأتي ذكره في السنة الآتية. و كان المتوكّل فيه كلّ الخصال الحسنة إلا ما كان فيه من الغضب. و قد افتتح خلافته بإظهار السّنّة و رفع

النجوم الزاهرة في ملوك مصر و القاهرة، ج٢، ص: ٣٢٥

المحنة، و تكلّم بالسّنّة في مجلسه؛ حتى قال إبراهيم بن محمد التّيميّ قاضي البصرة: الخلفاء ثلاثة: أبو بكر الصدّيق يوم الرّدّة، و عمر بن عبد العزيز في ردّ مظالم بني أميّة، و المتوكّل في محو البدع و إظهار السنّة. و كان المتوكّل فاضلا فصيحا؛ قال عليّ بن الجهم: كان المتوكّل مشغوفا بقبيحة (يعني أمّ ولده المعتزّ) لا يصبر عنها، فوقفت له يوما و قد كتبت على خدّيها بالمسك جعفرا؛ فتأمّلها ثم أنشد يقول:

و كاتبة في الخدّ بالمسك جعفرا بنفسي مخطّ المسك من حيث أثرا

لئن أودعت سطرا من المسك خدّها لقد أودعت قلبي من الحبّ أسطرا

و كان المتوكّل كريما، قيل: ما أعطى خليفة شاعرا ما أعطاه المتوكّل. و فيه يقول مروان بن أبي الجنوب:

فأمسك ندى كفّيك عنّي و لا تزد فقد خفت أن أطغى و أن أتجبّرا

و يقال: إنه سلّم على المتوكّل بالخلافة ثمانية كلّ منهم أبوه خليفة، و هم: منصور ابن المهديّ، و العباس بن الهادي، و أبو أحمد بن الرشيد، و عبد اللّه بن الأمين، و موسى ابن المأمون، و أحمد بن المعتصم، و محمد بن الواثق، و ابنه المنتصر محمد بن المتوكّل. و فيها قتل الفتح بن خاقان وزير المتوكّل، قتل معه على فراشه، كان أبوه خاقان معظّما عند المعتصم، و كان من أولاد الأتراك؛ فضمّ المعتصم الفتح هذا الى ابنه المتوكّل فنشأ معا، فلما تخلّف المتوكّل استوزره؛ و كان أهلا لذلك: كان أديبا فاضلا جوادا ممدّحا

النجوم الزاهرة في ملوك مصر و القاهرة، ج٢، ص: ٣٢٦

فصيحا. و فيها توفّي عبد اللّه بن محمد بن إسحاق أبو عبد الرحمن الأزديّ، كان حافظا ثقة سمع سفيان بن عيينة و غيره، و هو الذي كان سببا لرجوع الواثق عن القول بخلق القرآن.

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: و فيها توفّي إبراهيم بن سعيد الجوهريّ، و أبو عثمان المازنيّ، و المتوكّل على اللّه، و سلمة بن شبيب، و سفيان ابن وكيع، و الفتح بن خاقان الوزير.

أمر النيل في هذه السنة- الماء القديم خمسة أذرع و عشرون إصبعا، مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا و أربعة عشر إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ٢٤٨]

السنة السادسة من ولاية يزيد بن عبد اللّه على مصر و هي سنة ثمان و أربعين و مائتين- فيها في صفر خلع المؤيّد إبراهيم و المعتزّ الزّبير ابنا المتوكّل أنفسهما من ولاية العهد مكرهين على ذلك من أخيهما الخليفة المنتصر محمد. و فيها وقع بين أحمد ابن الخصيب و بين وصيف التركيّ وحشة؛ فأشار الوزير على المنتصر أن يبعد عنه وصيفا و خوّفه منه؛ فأرسل اليه أن طاغية الروم أقبل يريد الإسلام فسر اليه، فاعتذر؛ فأحضره و قال له: إمّا تخرج أو أخرج أنا؛ فقال: لا، بل أخرج أنا. فانتخب المنتصر معه عشرة آلاف و أنفق فيهم الأموال و ساروا. ثم بعث المنتصر الى وصيف يأمره بالمقام بالثغر أربع سنين. و فيها حكم محمد بن عمر الخارجيّ بناحية الموصل و مال اليه خلق؛ فسار لحربه إسحاق بن ثابت الفرغانيّ، فالتقوا فقتل جماعة من الفريقين، ثم أسر محمد و جماعة فقتلوا و صلبوا الى جانب خشبة بابك الخرّميّ المقدّم ذكره فيما مضى. و فيها قويت شوكة يعقوب بن اللّيث الصّفّار و استولى على معظم إقليم

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ٢، ص: ٣٢٧

خراسان، و سار من سجستان و نزل هراة و فرّق فی جنده الأموال. و فيها بويع المستعين بالخلافة بعد موت ابن عمّه محمد المنتصر الآتی ذكره. و عقد المستعين لمحمد بن عبد اللّه ابن طاهر على العراق و الحرمين و الشّرطة. و فيها حبس المستعين بالله ولدی عمّه المتوكل و هما المؤيّد إبراهيم و المعتزّ الزبير، و ضيّق عليهما و اشترى أكثر أملاكهما كرها، و جعل لهما فی السنة نحو ثلاثة و عشرين ألف دينار. و فيها أخرج أهل حمص عاملهم؛ فراسلهم و خادعهم حتى دخلها، فقتل منهم طائفة و حمل من أعيانهم مائة الى العراق ثم هدم سور حمص. و فيها عقد الخليفة المستعين لأتامش على مصر و المغرب مع الوزارة، و فرّق المستعين فی الجند ألفی ألف دينار. و فيها غزا وصيف التركیّ الصائفة. و فيها نفى المستعين عبيد اللّه بن يحيى بن خاقان الى برقة.

و فيها مات بغا الكبير التركیّ المعتصمیّ أحد أكابر الأمراء فی جمادى الآخرة من السنة، فعقد المستعين لابنه موسى بن بغا على أعمال أبيه. و كان بغا يعرف بالشّرابیّ، مات و قد جاوز التسعين سنة، و باشر من الحروب ما لم يباشره غيره، و لم يلبس سلاحا و لا جرح قط؛ فقيل له فی ذلک، فقال: رأيت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فی المنام، فقلت: يا رسول اللّه ادع لی؛ فقال: لا بأس عليک أحسنت إلى رجل من أهل بيتی فعليک من اللّه واقية.

و فيها توفّی الخليفة أمير المؤمنين المنتصر بالله محمد ابن الخليفة المتوكّل على اللّه جعفر الهاشمیّ العباسیّ؛ بقيّة نسبه تقدّمت فی ترجمة أبيه جعفر المتوكّل فی الخالية. بويع بالخلافة يوم قتل أبيه فی يوم الخميس خامس شوّال سنة سبع و أربعين و مائتين، فلم تطل أيّامه و مات بعد أبيه بستة أشهر فی شهر ربيع الأوّل بالخوانيق. قيل: إن المنتصر

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ٢، ص: ٣٢٨

هذا رأى أباه المتوكّل فی المنام فقال له: ويحک يا محمد! ظلمتنی و قتلتنی، و اللّه لا تمتّعت فی الدنيا بعدی إلا أياما يسيرة و مصيرک الى النار، فانتبه فزعا و قال لأمّه: ذهبت عنّی الدنيا و الآخرة، فلم يكن بعد أيّام إلا و مرض ثلاثة أيام و مات بالذّبحة فی حلقه. و قيل: سمّه القاصد و قتل القاصد بعده. و قيل: سمّه طبيبه و قيل غير ذلک.

و كان شهما شجاعا راجح العقل واسع الاحتمال كثير المعروف شان سؤدده بقتل أبيه.

و بويع بالخلافة بعده ابن عمّه المستعين بالله أحمد. و كانت وفاة المنتصر هذا فی يوم السبت لخمس خلون من شهر ربيع الأوّل، و قيل: يوم الأحد رابع ربيع الأوّل. و فيها توفّی الأمير طاهر بن عبد اللّه بن طاهر بن الحسين و هو على إمرة خراسان بها. فعقد الخليفة المستعين بالله أحمد لابنه محمد بن طاهر بن الحسين على إمرة خراسان عوضه. و فيها نفى المستعين أحمد بن الخصيب الى أقريطش بعد أن استصفى أمواله. و فيها فرّق المستعين الأموال على الجند.

قال الصّولیّ: لما تولّى المستعين كان فی بيت المال ألف ألف دينار ففرّق الجميع فی الجند. و فيها توفّی أحمد بن سليمان بن الحسن أبو بكر الفقيه الحنبلیّ البغدادیّ، و مولده فی سنة ثلاث و خمسين و مائة؛ و كان إماما فقيها عالما بارعا كانت له حلقتان بجامع المنصور.

قلت: و هو أوّل أصحاب الإمام أحمد بن حنبل رضی اللّه عنه وفاة. و فيها توفی احمد بن صالح الحافظ أبو جعفر المصریّ، و كان يعرف بالطبریّ لأن والده كان جنديّا من مدينة طبرستان، و مولد أحمد هذا فی سنة سبعين و مائة بمصر؛

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ٢، ص: ٣٢٩

و كان فقيها محدّثا ورد بغداد و ناظر الإمام أحمد و غيره. و فيها توفی الإمام الأستاذ أبو عثمان المازنیّ البصریّ علّامة زمانه فی النحو و العربيّة و اسمه بكر بن محمد و هو من مازن ربيعة؛ كان إماما فی النحو و اللّغة و الآداب و له التصانيف الحسان.

و فيها توفی مهنّا بن يحيى البغدادیّ الشيخ الإمام أبو عبد اللّه، كان فقيها إماما محدّثا صحب الإمام أحمد ثلاثا و أربعين سنة و رحل معه.

الـذين ذكر الذهبیّ وفاتهم فی هذه السـنة، قال: و فیها توفی أحمد بن صالح المصری، و الحسـین الکرابیسـیّ، و طاهر بن عبد اللّه بن طاهر الأمیر، و عبد الجبّار ابن العلاء، و عبد الملک بن شعیب بن اللّیث، و عیسی بن حمّاد زغبهٔ، و محمد بن حمید الرّازیّ، و المنتصر بالله محمد، و محمد بن زنبور المکّیّ، و أبو کریب محمد بن العلاء، و أبو هشام الرفاعیّ.

أمر النّیل فی هذه السنهٔ- الماء القدیم ثمانیهٔ أذرع و ثمانیهٔ أصابع و نصف، مبلغ الزیادهٔ سبعهٔ عشر ذراعا و تسعهٔ عشر إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنهٔ ۲۴۹]

السـنهٔ السابعهٔ من ولایهٔ یزید بن عبد اللّه الترکیّ علی مصـر و هی سـنهٔ تسع و أربعین و مائتین- فیها فی صـفر شـغب الجند ببغداد عند مقتل عمر بن عبید اللّه الأقطع و علیّ بن یحیی الأرمنیّ أمیر الغزاهٔ و هما ببلاد الروم مجاهدان، و أیضا عند استیلاء الترک علی بغداد و قتلهم المتوکّل و غیره و تمکّنهم من الخلفاء و أذیّتهم للناس؛ ففتح الترک و الشاکریّهٔ السـجون و أحرقوا الجسر و انتهبوا الدواوین، ثم خرج نحو ذلک بسرّمن‌رأی، فرکب بغا و أتامش و قتلوا من العامّهٔ جماعهٔ، فحمل العامّهٔ علیهم

النجوم الزاهرهٔ فی ملوک مصر و القاهرهٔ، ج۲، ص: ۳۳۰

فقتل من الأتراک جماعهٔ و شجّ وصـیف بحجر؛ فأمر بإحراق الأسواق ثم قتل فی ربیع الأوّل أتامش و کاتبه شـجاع؛ فاستوزر المستعین أبا صالح عبد اللّه بن محمد ابن یزداد عوضا عن أتامش. و فیها عزل عن القضاء جعفر بن عبد الواحد.

و فیهـا کانت زلزلـهٔ هلک فیها خلق کثیر تحت الرّدم. و فیها توفی بکر بن خالـد أبو جعفر القصـیر و یقال: محمـد بن بکر، کان کاتب أبی یوسف القاضـی و عنه أخـذ العلم، و کـان فاضـلا عالمـا. و فیها توفّی عمر بن علیّ بن یحیی بن کثیر الحافظ أبو حفص الصّـیرفیّ الفلّاس البصـریّ، کان إماما محدّثا حافظا ثقهٔ صدوقا سمع الکثیر و رحل [الی] البلاد، و قدم بغداد فتلقّاه أهل الحدیث فحدّثهم و مات بمدینهٔ سرّ من رأی. و فیها کان الطاعون العظیم بالعراق و هلک فیه خلائق لا تحصی.

الـذین ذکر الـذهبیّ وفاتهم فی هـذه السـنهٔ، قال: و فیها توفی عبـد بن حمیـد، و أبو حفص الفلّاس، و أیّوب بن محمد الوزّان الرّقّیّ، و الحسن بن الصـبّاح البزّار، و خلّاد بن أسـلم الصـفّار، و سـعید بن یحیی بن سـعید الأمویّ، و علیّ بن الجهـم الشاعر، و محمود بن خالد السّلمیّ، و هارون بن حاتم الکوفیّ، و هشام بن خالد بن الأزرق.

أمر النیل فی هذه السنهٔ- الماء القدیم تسعهٔ أذرع و عشرون إصبعا، مبلغ الزیادهٔ سبعهٔ عشر ذراعا و أحد عشر إصبعا.

النجوم الزاهرهٔ فی ملوک مصر و القاهرهٔ، ج۲، ص: ۳۳۱

***

[ما وقع من الحوادث سنهٔ ۲۵۰]

السـنهٔ الثامنهٔ من ولایهٔ یزید بن عبد اللّه الترکیّ علی مصـر و هی سـنهٔ خمسین و مائتین- فیها فی شهر رمضان خرج الحسن بن زید بن محمد الحسینیّ بمدینهٔ طبرستان و استولی علیها وجبی الخراج و امتدّ سلطانه الی الرّیّ و همذان، و التجأ الیه کلّ من کان یرید الفتنهٔ و النهب؛ فانتـدب ابن طاهر لحربه، فانهزم بین یـدیه مرّتین؛ فبعث الخلیفـهٔ المسـتعین بالله جیشا الی همـذان نجدهٔ لابن طاهر. و فیها عقد الخلیفهٔ المستعین بالله لابنه العباس علی العراق و الحرمین. و فیها نفی جعفر بن عبد الواحد الی البصرهٔ لأنه عزل من القضاء و بعث الی الشاکریّهٔ فأفسدهم. و فیها وثب أهل حمص بعاملها الفضل بن قارن فقتلوه فی شـهر رجب؛ فسار الیهم الأمیر موسـی بن بغا فالتقوه عند الرّسـتن فهزمهم و افتتح حمص، و قتل فیها مقتلهٔ عظیمهٔ و أحرق فیها و أسر من رءوسها. و فیها حجّ بالناس جعفر بن الفضل أمیر مکّهٔ.

و فیهـا توفی الحارث بن مسـکین بن محمـد بن یوسف القاضـی أبو عمرو المصـریّ المالکیّ مولی محمـد بن زیاد ابن عبـد العزیز بن

مروان، ولد سنة أربع و خمسين و مائة؛ و كان إماما فقيها عالما، كان يتفقّه على مذهب الإمام مالك بن أنس رحمه اللّه؛ ولى قضاء مصر سنتين ثم صرف، و كان رأى الليث بن سعد و سأله، و سمع سفيان بن عيينة و أقرانه، و كان ثقة مأمونا.

و فيها توفى عبد الوهاب بن عبد الحكم الشيخ الفقيه الإمام المحدّث أبو الحسن

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ٢، ص: ٣٣٢

الورّاق صاحب الإمام أحمد بن حنبل رضى اللّه عنه، كان فقيها محدّثا زاهدا صالحا ورعا. و فيها توفى الفضل بن مروان الوزير أبو العباس، كان إماما فاضلا بارعا رئيسا، وزّر للمعتصم و لابنيه: الواثق هارون و المتوكل جعفر.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفى أبو طاهر أحمد بن السرّاج، و أبو الحسن أحمد بن محمد بن عبد اللّه البزّىّ المقرئ، و الحارث بن مسكين أبو عمرو، و عبّاد بن يعقوب الرّواجنىّ شيعىّ، و أبو حاتم السّجستانىّ سهل بن محمد بن عثمان، و عمرو بن بحر أبو عثمان الجاحظ، و كثير بن عبيد المذحجىّ، و نصر بن علىّ الجهضمىّ، و محمد بن علىّ بن الحسن بن شقيق المروزىّ.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثمانية أذرع و خمسة عشر إصبعا، مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا و خمسة عشر إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ٢٥١]

السنة التاسعة من ولاية يزيد بن عبد اللّه على مصر و هى سنة إحدى و خمسين و مائتين- فيها اضطربت أمور المستعين بالله بسبب قتله باغر التركىّ قاتل المتوكّل و اضطربت أمراء الأتراك، ثم وقّع بين المستعين و بين الأتراك؛ و لا زالت الأتراك بالمستعين حتى خلعوه، و أخرجوا المعتزّ بن المتوكّل من حجرة صغيرة كان محبوسا بها هو و أخوه المؤيّد ابراهيم بن المتوكل؛ و بايعوا المعتزّ بالخلافة. و كان المعتزّ قد انحدر الى بغداد، فلما ولى المعتزّ الخلافة لقى فى بيت المال خمسمائة ألف دينار، ففرّق المعتزّ جميع ذلك فى الأتراك، و بايعوا للمعتزّ و من بعده لأخيه المؤيّد ابراهيم؛ و كان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ٢، ص: ٣٣٣

ذلك فى ثانى عشر المحرّم من هذه السنة. ثم جهّز المعتزّ لقتال المستعين أخاه أبا أحمد ابن المتوكّل و معه جيش كثيف فى ثالث عشرين المحرّم، فتوجّهوا الى المستعين و قاتلوه و حصروه ببغداد أشهرا الى أن انحرف عنه عامل بغداد طاهر بن عبد اللّه ابن طاهر؛ فعند ذلك أذعن المستعين و خلع نفسه فى أوّل سنة اثنتين و خمسين و مائتين على ما يأتى ذكره. و فيها خرج الحسين بن أحمد بن محمد بن اسماعيل بن محمد بن الأرقط عبد اللّه بن زين العابدين علىّ بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب بمدينة قزوين فغلب عليها فى أيّام فتنة المستعين، و قد كان هو و أحمد بن عيسى العلوىّ قد اجتمعا على قتال أهل الرّىّ و قتلا بها خلقا كثيرا و أفسدا و عاثا و سار لقتالهما جيش من قبل الخليفة فأسر أحدهما و قتل الآخر. و فيها خرج إسماعيل بن يوسف ابن إبراهيم بن عبد اللّه بن الحسن بن الحسن الحسنىّ العلوىّ بالحجاز، و هو شابّ له عشرون سنة و تبعه خلق من العرب، فعاث فى الحرمين و أفسد موسم الحاجّ و قتل من الحجّاج أكثر من ألف رجل، و استحلّ المحرّمات بأفاعيله الخبيثة، و بقى يقطع الميرة عن الحرمين حتى هلك الحجّاج و جاعوا؛ ثم نزل الوباء فهلك فى الطاعون هو و عامّة أصحابه فى السنة الآتية. و فيها توفى إسحاق بن منصور بن بهرام الحافظ أبو يعقوب [التّميمىّ] المروزىّ الكوسج، كان إماما عالما محدّثا فقيها رحّالا، و هو أحد أئمة الحديث. و فيها توفى الحسين بن الضّحّاك بن ياسر أبو علىّ الشاعر المشهور المعروف بالحسين الخليع الباهلىّ البصرىّ؛ ولد بالبصرة سنة اثنتين و ستين و مائة و نشأ بها و مدح غير واحد من الخلفاء و جماعة من الوزراء و غيرهم، و كان شاعرا مجيدا خليعا و هو من أقران أبى نواس و شعره كثير.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ٢، ص: ٣٣٤

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفى إسحاق بن منصور الكوسج، و أيوب بن الحسن النّيسابورىّ الفقيه صاحب محمد بن الحسن، و حميد ابن زنجويه، و عمر بن عثمان الحمصىّ، و أبو تقىّ هشام بن عبد الملك اليزنىّ، و محمد ابن سهل بن عسكر.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم سبعة أذرع و أربعة عشر إصبعا، مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا و ثمانية أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۵۲]

اشارة

السنة العاشرة من ولاية يزيد بن عبد اللّه على مصر و هى سنة اثنتين و خمسين و مائتين- فيها استقرّ خلع المستعين من الخلافة و قتل بعد الحبس على ما يأتى ذكره.

و كانت فيها بيعة المعتزّ بالخلافة. و فيها ولّى الخليفة المعتزّ الحسن بن أبى الشوارب قضاء القضاة. و فيها خلع الخليفة المعتزّ على الأمير محمد بن عبد اللّه بن طاهر خلعة الملك و قلّده سيفين، فأقام بغا و وصيف الأميران ببغداد على وجل من ابن طاهر، ثم رضى المعتزّ عنهما و ردّهما الى رتبتهما. و نقل المستعين الى قصر [الحسن بن سهل بالمخرّم] هو و عياله و وكّلوا به أميرا، و كان عنده خاتم عظيم القدر فأخذه محمد بن طاهر و بعث به الى المعتزّ. و فيها خلع الخليفة المعتزّ على أخيه أبى أحمد خلعة الملك و توجّه بتاج من ذهب و قلنسوة مجوهرة و وشاحين مجوهرين و قلّده سيفين. و فيها

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۳۵

فى شهر رجب خلع المعتزّ أخاه المؤيّد ابراهيم من العهد و قيّده و ضربه. و فيها حبست أرزاق الأتراك و المغاربة و الشاكريّة ببغداد و غيرها، فجاءت فى العام الواحد مائتى ألف ألف دينار، و ذلك عن خراج المملكة سنتين. و فيها مات إسماعيل بن يوسف العلوىّ الذى كان خرج بمكّة فى السنة الخالية و وقع بسببه حروب و فتن. و فيها نفى المعتزّ أخاه أبا أحمد الى واسط ثم ردّ أيضا الى بغداد، ثم نفى المعتزّ أيضا علىّ بن المعتصم الى واسط ثم ردّ الى بغداد. و فيها حجّ بالناس محمد بن أحمد بن عيسى بن المنصور الهاشمىّ العباسىّ. و فيها توفى المؤيّد إبراهيم ولىّ العهد ابن الخليفة المتوكّل على اللّه الهاشمىّ العباسىّ و أمّه أمّ ولد، و كان أخوه المعتزّ خلعه و حبسه، و فى موته خلاف كبير، و الأقوى عندى أنه مات خنقا. و فيها توفى إبراهيم بن سعد الحافظ أبو إسحاق الجوهرىّ، كان إماما محدّثا ديّنا صدوقا ثبتا، طاف البلاد و لقى الشيوخ و سمع الكثير، و روى عنه غير واحد و صنّف المسند. و فيها قتل الخليفة أمير المؤمنين المستعين بالله أبو العباس أحمد [بن محمد] ابن الخليفة المعتصم بالله محمد بن الرشيد هارون ابن محمد المهدىّ بن أبى جعفر المنصور بن محمد بن علىّ بن عبد اللّه بن العباس الهاشمىّ العباسىّ، و أمّه أمّ ولد رومية تسمّى مخارق. بويع بالخلافة لما مات ابن عمّه محمد المنتصر فى يوم سادس شهر ربيع الأوّل سنة سبع و أربعين و مائتين؛ فأقام فى الخلافة الى أن انحدر الى بغداد و خلع فى سلخ سنة إحدى و خمسين و مائتين. فكانت خلافته الى يوم انحدر الى بغداد سنتين و تسعة أشهر؛ و الى أن خلع من الخلافة ثلاث سنين و ستة أشهر، و مات و هو ابن ثلاث و ثلاثين سنة. و لمّا خلعوه أرسل اليه المعتزّ الأمير أحمد ابن طولون التركىّ ليقتله؛ فقال: لا و اللّه لا أقتل أولاد الخلفاء، فقال له المعتزّ:

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۳۶

فأوصله الى سعيد الحاجب، فتوجّه به و سلّمه الى سعيد الحاجب، فقتله سعيد الحاجب فى شوّال؛ و فى قتلته أقوال كثيرة. و كان جوادا سمحا يطلق الألوف و كان متواضعا. قال يوما لأحمد بن يزيد المهلّبىّ: يا أحمد، ما أظنّ أحدا من بنى هاشم إلا و قد طمع فى الخلافة

لما ولّيتها لبعدى عنها؛ فقال أحمد: يا أمير المؤمنين، و ما أنت ببعيد، و إنما تقدّم العهد لمن رأى اللّه أن يقدّمه عليك؛ و كان فى لسان المستعين لثغة تميل الى السين المهملة و الى الثاء المثلّثة. و بويع بعده ابن عمه المعتزّ.

و فيها توفى أحمد بن سعيد بن صخر الإمام الحافظ الفقيه أبو جعفر الدارمىّ، كان إماما محدّثا و كان الإمام أحمد بن حنبل اذا كاتبه يقول فى أوّل كتابه: لأبى جعفر أكرمه اللّه من أحمد بن حنبل. و فيها توفى إسحاق بن حنبل بن هلال بن أسد الشّيبانىّ عمّ الإمام أحمد بن حنبل، كان إماما فاضلا محدّثا، و مات و له اثنتان و تسعون سنة.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفى أحمد بن عبد اللّه ابن [على بن] سويد بن منجوف، و المستعين بالله أحمد بن [محمد بن] المعتصم قتلا، و إسحاق بن بهلول الحافظ، و الأمير أشناس، و زياد بن أيّوب، و عبد الوارث بن عبد الصمد بن عبد الوارث، و محمد بن بشّار بندار فى رجب، و أبو موسى محمد ابن المثنّى العنزىّ الزّمن فى ذى القعدة، و محمد بن منصور المكّىّ الجوّاز، و يعقوب ابن ابراهيم الدّورقىّ، و محمد بن يحيى بن عبد الكريم الأزدىّ.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ستة أذرع و ثلاثة أصابع، مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا و عشرون إصبعا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٢، ص: ٣٣٧

ذكر ولاية مزاحم بن خاقان على مصر

هو مزاحم بن خاقان بن عرطوج الأمير أبو الفوارس التركىّ ثم البغدادىّ، أخو الفتح بن خاقان وزير المتوكّل قتل معه. ولى مزاحم هذا مصر بعد عزل يزيد بن عبد اللّه التركىّ عنها؛ ولّاه الخليفة المعتزّ بالله الزبير على صلاة مصر لثلاث خلون من شهر ربيع الأوّل سنة ثلاث و خمسين و مائتين؛ و سكن بالمعسكر على عادة أمراء مصر، فجعل على شرطته أرخوز، و أخذ مزاحم فى إظهار الناموس و إقماع أهل الفساد؛ فخرج [عليه] جماعة كبيرة من المصريين، فتشمّر لقتالهم و جهّز عساكره و أنفق فيهم؛ فأوّل ما ابتدأ بقتال أهل الحوف من الوجه البحرى، فتوجّه اليهم بجنوده و قاتلهم و أوقع بهم و قتل منهم و أسر؛ ثم عاد الى الديار المصرية فأقام بها مدّة يسيرة، ثم خرج أيضا من مصر و نزل بالجيزة؛ ثم سار الى تروجة بالبحيرة و قاتلهم و أوقع بهم و قتل منهم مقتلة كبيرة و أسر عدّة من رءوسهم و عاد بهم الى ديار مصر؛ فلم تطل إقامته بها و خرج الى الفيوم و قاتل أهلها، و وقع له بها حروب كثيرة و قتل منهم أيضا مقتلة عظيمة و أمعن فى ذلك.

و كثر بعد هذه الواقعة إيقاعه بسكّان النواحى. ثم التفت الى أرخوز و حرّضه على أمور أمره بها؛ فشدّد أرخوز المذكور عند ذلك و منع النساء من الخروج من بيوتهنّ و التوجّه الى الحمّامات و المقابر، و سجن المؤنّثين و النوائح، ثم منع الناس من الجهر بالبسملة فى الصلاة بالجامع، و كان ذلك فى شهر رجب سنة ثلاث و خمسين و مائتين. و أمر أهل الجامع بمساواة الصفوف فى الصلاة و وكّل بذلك رجلا من العجم يقوم بالسّوط من مؤخّر المسجد؛ و أمر أهل الحلق بالتحوّل الى جهة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٢، ص: ٣٣٨

القبلة قبل إقامة الصلاة، و منع المساند التى يسند اليها فى الجوامع، و أمر أن تصلّى التراويح فى شهر رمضان خمس تراويح، و كانوا قبل ذلك يصلّونها ستّا؛ و منع من التثويب فى الصلاة، و أمر بالأذان فى يوم الجمعة فى مؤخّر المسجد، ثم أمر بأن يغلّس بصلاة الصبح؛ و نهى أيضا أن يشقّ ثوب على ميّت أو يسوّد وجه أو يحلق شعر أو تصيح امرأة؛ و عاقب بسبب ذلك خلقا كثيرا و شدّد على الناس حتى أبادهم و لم يزل فى التشدّد على الناس حتى مرض و مات فى ليلة الاثنين لخمس خلون من المحرّم سنة أربع و خمسين و مائتين. و استخلف بعده ابنه أحمد ابن مزاحم على مصر؛ فكانت ولاية مزاحم هذا على مصر سنة واحدة و عشرة أشهر و يومين.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۵۳]

اشارة

السنة الأولى من ولاية مزاحم بن خاقان على مصر و هى سنة ثلاث و خمسين و مائتين- فيها قصد يعقوب بن الليث الصفّار هراة فى جمع، و قاتل أهلها حتى أخذها من نوّاب محمد بن طاهر و مسك من كان بها و قيّدهم و حبسهم. و فيها سار الأمير موسى بن بغا فانتقى هو و عسكر عبد العزيز ابن الأمير أبى دلف العجلىّ فهزمهم، و ساق وراءهم الى الكرج و تحصّن عنه عبد العزيز، و أسرت والدة عبد العزيز المذكور؛ ثم بعث الى سامرّا بتسعين حملا- من رءوس القتلى. و فى شهر رمضان خلع الخليفة المعتزّ بالله على بغا الشرابىّ و ألبسه تاج الملك. و فيها فى شوّال قتل وصيف التركىّ.

ثم فى ذى القعدة كسف القمر. و فيها غزا محمد بن معاذ بلاد الروم و دخل بالعسكر من جهة ملطية فأسر و قتل. و فيها فى ذى القعدة ايضا التقى موسى بن بغا و الكوكبىّ

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۳۹

بأرض قزوين، و اقتتلا فانهزم الكوكبىّ و لحق بالدّيلم. و فيها توفى سرىّ السّقطىّ الشيخ أبو الحسن، و اسمه السّرىّ بن المغلّس، و هو الزاهد العابد العارف بالله المشهور، خال الجنيد و أستاذه؛ كان أوحد أهل زمانه فى الورع و علوم التوحيد، و هو أوّل من تكلّم بها فى بغداد، و اليه ينتهى مشايخ الطريقة، كان علم الأولياء فى زمانه؛ صحب معروفا الكرخىّ و حدّث عن الفضيل بن عياض و هشيم و أبى بكر بن عيّاش و علىّ بن غراب و يزيد بن هارون؛ و حدّث عنه أبو العباس بن مسروق و الجنيد بن محمد و أبو الحسين النّورىّ. قال عبد اللّه بن شاكر عن السّرىّ قال:

صلّيت و قرأت وردى ليلة و مددت رجلى فى المحراب فنوديت: يا سرىّ، كذا تجالس الملوك! فضممت رجلى و قلت: و عزّتك و جلالك لا مددتها، و قيل: إن السرىّ رأى جارية سقط من يدها إناء فانكسر، فأخذ من دكّانه إناء فأعطاها [إيّاه] عوض المكسور؛ فرآه معروف فقال: بغّض اللّه اليك الدّنيا؛ قال السرىّ: فهذا الذى أنا فيه من بركات معروف.

قال الجنيد: سمعت السرىّ يقول: أحب أن آكل أكلة ليس للّه علىّ فيها تبعة، و لا لمخلوق [علىّ] فيها منّة، فما أجد الى ذلك سبيلا! قال: و دخلت عليه و هو يجود بنفسه فقلت: أوصنى؛ قال: لا تصحب الأشرار و لا تشغلنّ عن اللّه بمجالسة الأخيار. و عن الجنيد يقول: ما رأيت للّه أعبد من السرىّ، أتت عليه ثمان و تسعون سنة مارئى مضطجعا إلا فى علّة الموت. و عن الجنيد: سمعت السرىّ يقول: إنى لأنظر إلى أنفى كلّ يوم مرارا مخافة أن يكون وجهى قد اسودّ. قال: و سمعته يقول: ما أحبّ أن أموت حيث أعرف، أخاف ألّا تقبلنى الأرض فأفتضح.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۴۰

و كان الإمام أحمد بن حنبل يقول اذا ذكر السرىّ: ذاك الشيخ الذى يعرف بطيب [الريح] و نظافة الثوب و شدّة الورع. و فيها توفى الأمير محمد بن عبد اللّه بن طاهر بن الحسين بن مصعب أبو العباس الخزاعىّ، كان من أجلّ الأمراء، ولى إمرة بغداد أيّام المتوكّل جعفر، و كان فاضلا أديبا شاعرا جوادا ممدّحا شجاعا. و قد تقدّم ذكر أبيه و جدّه فى هذا الكتاب و نبذة كبيرة من محاسنهم و مكارمهم. و فيها فى شوّال قتل الأمير وصيف التركىّ المعتصمىّ، كان أميرا كبيرا، أصله من مماليك المعتصم بالله محمد، و خدم من بعده عدّة خلفاء، و استولى على المعتز، و حجر على الأموال لنفسه، فتشغّب عليه الجند فلم يلتفت لقولهم، فوثبوا عليه و قتلوه بعد أمور وقعت له معهم.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفى أحمد بن سعيد الهمدانىّ المصرىّ، و أحمد بن سعيد الدارمىّ، و أحمد بن المقدام العجلىّ، و خشيش ابن أصرم النّسائىّ الحافظ، و سرىّ بن المغلّس السّقطىّ عن نيّف و تسعين سنة، و علىّ بن شعيب السّمسار،

و علیّ بن مسلم الطّوسیّ، و محمد بن عبد اللّه بن طاهر الأمیر، و محمد بن عیسی بن رزین التّیمیّ مقرئ الرّیّ، و هارون بن سعید الأیلیّ، و الأمیر و صیف الترکیّ، و یوسف بن موسی القطان، و أبو العباس العلویّ.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم ستة أذرع و اثنا عشر إصبعا، مبلغ دة سبعة عشر ذراعا و عشرة أصابع.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۴۱

ذکر ولایة أحمد بن مزاحم علی مصر

هو أحمد بن مزاحم بن خاقان بن عرطوج الأمیر أبو العباس ابن الأمیر أبی الفوارس الترکیّ. ولی إمرة مصر بعد موت أبیه باستخلافه علی مصر، فأقرّه الخلیفة المعتزّ بالله علی ذلک. و کانت ولایته فی خامس المحرّم سنة أربع و خمسین و مائتین، و سکن بالمعسکر علی عادة الأمراء، و جعل علی شرطته أرخوز المقدّم ذکره فی أیام أبیه مزاحم. فلم تطل أیامه و مات بمصر لسبع خلون من شهر ربیع الآخر من سنة أربع و خمسین و مائتین المذکورة. فکانت ولایته علی إمرة مصر شهرین و یوما واحدا. و تولّی إمرة مصر من بعده أرخوز بن أولوغ طرخان الترکیّ باستخلافه.

و کان أحمد هذا شابا عارفا مدبّرا محبّبا للرعیّة، لم تطل أیّامه لتشکر أو تذمّ.

ذکر ولایة أرخوز علی مصر

هو أرخوز بن أولوغ طرخان الترکیّ. و أولوغ طرخان کان ترکیا و قدم بغداد فولد له أرخوز المذکور بها؛ و نشأ أرخوز حتی صار من کبار أمراء الدولة العباسیّة و توجّه الی مصر و ولی بها الشّرطة لعدّة أمراء کما تقدّم ذکره، ثم ولی إمرة مصر بعد موت أحمد بن مزاحم، فی العشر الأول من شهر ربیع الآخر من سنة أربع و خمسین و مائتین باستخلاف أحمد بن مزاحم له، فأقرّه الخلیفة المعتزّ بالله علی ذلک، و جعل الیه إمرة مصر و أمرها جمیعه، کما کان لمزاحم و ابنه.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۴۲

و قال صاحب «البغیة و الاغتباط فیمن ملک الفسطاط»: ولیها باستخلاف أحمد بن مزاحم علی الصلاة فقط، و جعل علی شرطة مصر بولغیا، ثم خرج الی الحجّ فی شهر رمضان سنة أربع و خمسین و مائتین و له خمسة أشهر و نصف شهر.

و قال غیره: و دام أرخوز علی إمرة مصر الی أن صرف عنها بالأمیر أحمد بن طولون فی شهر رمضان من سنة أربع و خمسین و مائتین، فکانت ولایته علی مصر خمسة أشهر و نصفا؛ و خرج الی بغداد فی أوّل ذی القعدة من السنة، و وفد علی الخلیفة فأکرم مقدمه و صار من جملة القوّاد.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۵۴]

السنة التی حکم فیها أربعة أمراء علی مصر: ففی أوّل محرّمها مزاحم ابن خاقان، ثم ابنه أحمد بن مزاحم، ثم الأمیر أرخوز بن أولوغ طرخان من شهر ربیع الآخر الی شهر رمضان، ثم الأمیر أبو العباس أحمد بن طولون، و هی سنة أربع و خمسین و مائتین- فیها قتل بغا الشّرابیّ الترکیّ المعتصمیّ الصغیر، کان فاتکا قد طغی و تجبّر و خالف أمر المعتزّ؛ و کان المعتزّ یقول: لا ألتذ بطیب الحیاة حتی أنظر رأس بغا بین یدیّ؛ فوقعت أمور بعد ذلک بین بغا و الأتراک حتی قتل بغا و أتی برأسه الی المعتز، فأعطی المعتزّ قاتله عشرة آلاف دینار. و فیها توفی علیّ بن محمد ابن علیّ بن موسی بن جعفر بن محمد بن علیّ بن الحسین بن علیّ بن أبی طالب، أبو الحسن الهاشمیّ العسکریّ أحد الأئمة الاثنی عشر المعدودین عند الرافضة، و سمیّ بالعسکریّ لأنّ الخلیفة المتوکّل جعفرا أنزله مکان

العسکر. و کان مولده سنة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۴۳

أربع و عشرین و مائتین. و مات بمدینة سرّ من رأی فی جمادی الآخرة من السنة.

و فیها توفی محمد بن منصور بن داود الشیخ أبو جعفر الطّوسیّ الزاهد العابد.

کان من الأبدال، مات فی یوم الجمعة لستّ بقین من شوّال و له ثمان و ثمانون سنة؛ و سمع سفیان بن عیینة و غیره، و روی عنه البغویّ و غیره؛ و کان صدوقا ثقة صالحا. و فیها توفی المؤمّل بن إهاب بن عبد العزیز الحافظ أبو عبد الرحمن الکوفیّ، أصله من کرمان، و نزل الکوفة و قدم بغداد و حدّث بها و بدمشق، و أسند عن یزید ابن هارون و غیره، و روی عنه ابن أبی الدنیا و جماعة أخر.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم خمسة أذرع و تسعة أصابع، مبلغ الزیادة ستة عشر ذراعا و ستة عشر إصبعا.

صورة ما ورد بآخر الجزء الاوّل من النسخة الفتوغرافیة:

برسم خزانة الجناب الکریم العالی المولوی الزینی فرج بن المعز الأشرف المرحوم السیفی بردیک أمیر أخور و أحد مقدّمی الألوف والده کان و أمیر حاجب هو الملکیّ الأشرفیّ أدام اللّه نعمته و رحم سلفه بمحمد و آله و صحبه و سلم.

و کان الفراغ من کتابته فی یوم الجمعة المبارک مستهل شعبان المکرم سنة خمس و ثمانین و ثمانمائة أحسن اللّه عاقبتها علی ید الفقیر الحقیر المعترف بالتقصیر الراجی لطف ربه الخفیّ محمد بن محمد بن أحمد بن محمد القادری الحنفی عفا اللّه تعالی عنهم أجمعین.

انتهی الجزء الثانی من النجوم الزاهرة و یلیه الجزء الثالث و أوّله ذکر ولایة أحمد بن طولون علی مصر

[الجزء الثالث]

اشارة

بسم اللّه الرّحمن الرّحیم و صلی اللّه علی سیدنا محمد و آله و صحابته و المسلمین.

الجزء الثالث من کتاب النجوم الزاهرة

[تتمة ما وقع من الحوادث سنة ۲۵۴]

ذکر ولایة أحمد بن طولون علی مصر

هو أحمد بن طولون الأمیر أبو العبّاس الترکیّ أمیر مصر، ولی مصر بعد عزل أرخوز بن أولوغ طرخان فی شهر رمضان سنة أربع و خمسین و مائتین، و قد مضی من عمره أربع و ثلاثون سنة و یوم واحد. و کان أبوه طولون مولی نوح [بن أسد ابن سامان السامانیّ] عامل بخاری و خراسان، أهداه نوح فی جملة ممالیک إلی المأمون ابن الرشید، فرقّاه المأمون حتی صار من جملة الأمراء. و ولد له ابنه أحمد هذا فی سنة عشرین و مائتین، و قیل فی سنة أربع عشرة و مائتین، ببغداد، و قیل بسرّمن‌رأی و هو الأشهر، من جاریة تسمّی هاشم، و قیل قاسم. و قیل: إن أحمد

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲

هذا لم یکن ابن طولون و إنما طولون تبنّاه؛ قال أبو عبد اللّه محمد بن أبی نصر الحمیدیّ: قال بعض المصریین: إن طولون تبنّاه لما رأی فیه من مخایل النجابة. و دخل علیه یوما [و هو صغیر]، فقال: بالباب قوم ضعفاء فلو کتبت لهم بشیء! فقال [له] طولون: ادخل إلی المقصورة و أتنی بدواة؛ فدخل أحمد فرأی بالدّهلیز جاریة من حظایا طولون قد خلا بها خادم، فأخذ أحمد الدواه و خرج و لم

يتكلّم؛ فحسبت الجارية أنه يسبقها إلى طولون بالقول، فجاءت إلى طولون و قالت: إنّ أحمد راودنى الساعة فى الدهليز، فصدّقها طولون، و كتب كتابا لبعض خدمه يأمره بقتل حامل الكتاب من غير مشورة، و أعطاه لأحمد و قال: اذهب به إلى فلان؛ فأخذ أحمد الكتاب و مرّ بالجارية؛ فقالت له: إلى أين؟ فقال: فى حاجة مهمّة للأمير فى هذا الكتاب؛ فقالت:

أنا أرسله، ولى بك حاجة؛ فدفع إليها الكتاب فدفعته إلى الخادم المذكور، و قالت:

اذهب به إلى فلان؛ و شاغلت أحمد بالحديث، أرادت بذلك أن يزداد عليه الأمير طولون غضبا. فلما وقف المأمور على الكتاب قطع رأس الخادم و بعث به إلى طولون؛ فلما رآه عجب و استدعى أحمد و قال له: اصدقنى! ما الذى رأيت فى طريقك إلى المقصورة؟ قال: لا شيء؛ قال: اصدقنى و إلا قتلتك! فصدقه الحديث؛ و علمت الجارية بقتل الخادم، فخرجت ذليلة؛ فقال لها طولون:

اصدقينى فصدقته فقتلها؛ و حظى أحمد عنده.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۳

و قال أحمد بن يوسف: قلت لأبى العباس بن خاقان: الناس فرقتان فى ابن طولون، فرقة تقول: إنّ أحمد ابن طولون، و أخرى تقول: هو ابن يلبخ التركىّ، و أمّه قاسم جارية طولون؛ فقال: كذبوا، إنما هو ابن طولون. و دليله أنّ الموفّق لما لعنه نسبه إلى طولون و لم ينسبه إلى يلبخ، و يلبخ مضحاك يسخر منه، و طولون معروف بالسّتر. و قال أحمد بن يوسف المذكور: كان طولون رجلا من أهل طغزغز حمله نوح بن أسد عامل بخارى إلى المأمون [فيما كان موظّفا عليه من المال و الرقيق و البراذين و غير ذلك فى كلّ سنة]. و ولد [له] أحمد [سنة عشرين و مائتين] من جارية، و مات أبوه طولون فى سنة أربعين و مائتين، و قيل: فى سنة ثلاثين و مائتين، و الأوّل أصح. انتهى كلام ابن يوسف.

و نشأ أحمد بن طولون على مذهب جميل، و حفظ القرآن و أتقنه، و كان من نشأته أطيب الناس صوتا به، مع كثرة الدرس و طلب العلم؛ و تفقّه على مذهب الإمام

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۴

الأعظم أبى حنيفة. و لما ترعرع أحمد تزوّج بابنة عمّه خاتون فولدت له العباس سنة اثنتين و أربعين و مائتين. و لما مات أبوه طولون فوّض إليه الخليفة المتوكّل ما كان لأبيه، ثم تنقّلت به الأحوال إلى أن ولى إمرة الثغور و إمرة دمشق ثم ديار مصر. و كان يقول: ينبغى للرئيس أن يجعل اقتصاده على نفسه و سماحته على من يقصده و يشتمل عليه، فإنه يملكهم ملكا لا يزول به عن قلوبهم. و نشأ أحمد بن طولون فى الفقه و الصلاح و الدين و الجود حتى صار له فى الدنيا الذكر الجميل.

و كان شديد الإزراء على الترك و أولادهم لما يرتكبونه فى أمر الخلفاء، غير راض بذلك، و يستقلّ عقولهم؛ و يقول: حرمة الدّين عندهم مهتوكة.

و قال الخاقانىّ - و كان خصيصا عند ابن طولون-: و قال لى يوما (يعنى ابن طولون): يا أخى [الى] كم نقيم على هذا الإثم مع هؤلاء الموالى! (يعنى الأتراك)، لا يطئون موطئا إلا كتب علينا الخطأ و الإثم؛ و الصواب أن نسأل الوزير أن يكتب أرزاقنا الى الثغر؛ فسأله فكتب له و خرجنا إلى طرسوس؛ فلما رأى ما الناس عليه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۵

من الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر سرّ بذلك؛ فأقمنا نسمع الحديث مدّة، ثم رجعت أنا الى سرّ من رأى، فآستقبلتنى أمّه قاسم بالبكاء و قالت: مات ابنى! فحلفت لها إنه فى عافية؛ ثم عدت الى طرسوس فأخبرته بما رأيت من أمّه و قلت له: إن كنت أردت بمقامك فى هذه البلاد وجه اللّه و تدع أمّك كذلك فقد أخطأت؛ فوعدنى بالخروج من طرسوس؛ ثم خرجنا و نحن زهاء خمسمائة رجل - و الخليفة يومئذ المستعين بالله - و خرج معنا خادم الخليفة و معه ثياب مثمّنة من عمل الروم، فسرنا إلى الرّها؛ فقيل لنا: إنّ جماعة من قطّاع الطريق على انتظاركم، و المصلحة دخولكم حصن الرّها حتى يتفرّقوا؛ فقال أحمد: لا يرانى اللّه فارّا و قد خرجت

علی نیّة الجهاد! فخرجنا و التقینا، فأوقع بالقوم و قتل منهم جماعة و هرب الباقون؛ فزاد فی أعین الناس مهابة و جلالة؛ و وصل الخادم الی المستعین بالثیاب، فلما رآها استحسنها؛ فقال له الخادم: لو لا ابن طولون ما سلمت و لا سلمنا و حکی له الحکایة؛ فبعث إلیه مع الخادم ألف دینار سرّا، و قال له: عرّفه أننی أحبّه، و لو لا خوفی علیه قرّبته.

و کان ابن طولون إذا أدخل علی المستعین مع الأتراک فی الخدمة أومأ الیه الخلیفة بالسلام سرّا، و استدام الإحسان إلیه و وهب له جاریة اسمها میّاس، فولدت

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۶

له ابنه خمارویه فی المحرّم من سنة خمسین و مائتین. و لما تنکّر الأتراک للمستعین و خلعوه و أحدروه إلی واسط، قالوا له: من تختار أن یکون فی صحبتک؟ فقال:

أحمد بن طولون، فبعثوه معه فأحسن صحبته. ثم کتب الأتراک إلی أحمد: اقتل المستعین و نولّیک واسطا؛ فکتب إلیهم لا رآنی اللّه قتلت خلیفة بایعت له أبدا! فبعثوا سعیدا الحاجب فقتل المستعین، فواری أحمد بن طولون جثّته. و لما رجع أحمد الی سرّ من رأی بعد ما قتل المستعین أقام بها، فزاد محلّه عند الأتراک فولّوه مصر نیابة عن أمیرها سنة أربع و خمسین و مائتین. فقال حین دخلها: غایة ما وعدت به فی قتل المستعین واسط، فترکت ذلک للّه تعالی، فعوّضنی ولایة مصر و الشام.

فلما قتل والی مصر من الأتراک فی أیّام الخلیفة المهتدی صار أحمد بن طولون مستقلّا بها فی أیام المعتمد. و قیل: إنّه ولی الشام نیابة عن باکباک، فلمّا قتل باکباک استقلّ، و کان حکمه من الفرات الی المغرب. و أوّل ما دخل مصر خرج بغا الأصغر، و هو أحمد بن محمد بن عبد اللّه بن طباطبا، فیما بین برقة و الإسکندریّة فی جمادی الأولی سنة خمس و خمسین و مائتین، و سار إلی الصعید، فقتل هناک و حمل رأسه الی مصر فی شعبان. ثم خرج ابن الصوفیّ العلویّ، و هو إبراهیم ابن محمد بن یحیی [ابن عبد اللّه بن محمد بن عمر بن علی بن أبی طالب]، و توجّه إلی إسنا فی ذی القعدة فنهب [و قتل أهلها]؛ و قیل: إنّ أحمد بن طولون بعث

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۷

الیه جیشا فکسر الجیش فی ربیع الأوّل سنة ست و خمسین و مائتین، و أرسل الیه ابن طولون جیشا آخر فواقعوه بإخمیم فهزموه الی الواح. ثم خرج ابن طولون بنفسه لمحاربة عیسی بن الشیخ، ثم عاد و أرسل جیشا؛ ثم ورد علیه کتاب الخلیفة بأنه یتسلّم الأعمال الخارجة عن أرض مصر؛ فتسلّم الإسکندریة و خرج الیها لثمان خلون من شهر رمضان، و استخلف علی مصر طغلج صاحب شرطته، ثم عاد الی مصر لأربع عشرة بقیت من شوّال، و سخط علی أخیه موسی و أمره بلباس البیاض؛ ثم خرج الی الإسکندریة ثانیا [لثمان بقین من] شعبان سنة تسع و خمسین و مائتین، ثم عاد فی شوّال. ثم ورد علیه کتاب المعتمد یستحثّه فی جمع الأموال؛ فکتب الیه ابن طولون: لست أطیق ذلک و الخراج فی ید غیری؛ فأرسل المعتمد علی اللّه الیه نفیسا الخادم بتقلیده الخراج و بولایته الثغور الشامیّة.

فأقرّ أحمد بن طولون عند ذلک أبا أیّوب أحمد بن محمد [بن شجاع] علی الخراج، و عقد لطخشیّ بن بلبرد علی الثغور، فخرج الیها فی سنة أربع و ستین و مائتین، فصار الأمر کلّه بید أحمد ابن طولون، و قویت شوکته بذلک و عظم أمره بدیار مصر.

و لما کان فی بعض الأیام رکب یوما لیتصیّد بمصر فغاصت قوائم فرسه فی الرمل فأمر بکشف ذلک الموضع فظفر بمطلب فیه ألف ألف دینار، فأنفقها فی أبواب

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۸

البرّ و الصدقات، کما سیأتی ذکرها. و کان یتصدّق فی کل یوم بمائة دینار غیر ما کان علیه من الرواتب، و کان ینفق علی مطبخه فی کلّ یوم ألف دینار، و کان یبعث بالصدقات الی دمشق و العراق و الجزیرة و الثغور و بغداد و سرّ من رأی و الکوفة و البصرة و الحرمین و غیرها؛ فحسب ذلک فکان ألفی ألف دینار و مائتی ألف دینار.

ثم بنی الجامع الذی بین مصر و قبّة الهواء علی جبل یتسکر خارج القاهرة و غرم علیه أموالا عظیمة.

قال أحمد الكاتب: أنفق عليه مائة ألف دينار و عشرين ألف دينار. و قال له الصنّاع: على أىّ مثال نعمل المنارة؟ و ما كان يعبث قطّ فى مجلسه، فأخذ درجا من الكاغد و جعل يعبث به فخرج بعضه و بقى بعضه فى يده، فعجب الحاضرون، فقال: اصنعوا المنارة على هذا المثال، فصنعوها.

و لما تمّ بناء الجامع رأى أحمد بن طولون فى منامه كأنّ اللّه تعالى قد تجلّى للقصور التى حول الجامع و لم يتجلّ للجامع، فسأل المعبّرين فقالوا: يخرب ما حوله و يبقى قائما وحده؛ فقال: من أين لكم هذا؟ قالوا: من قوله تعالى: فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا، و قوله صلى اللّه عليه و سلم: «إذا تجلّى اللّه لشىء خضع له».

و كان كما قالوا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٣، ص: ٩

و قال بعضهم: إنّ الكنز الذى لقيه ابن طولون منه عّمر الجامع المذكور. و كان بناؤه فى سنة تسع و خمسين و مائتين. و أما أمر الكنز فانه ذكر غير واحد من المؤرّخين أنّ أحمد بن طولون كان له كاتب يعرف بابن دشومة و كان واسع الحيلة بخيل اليد زاهدا فى شكر الشاكرين، لا- يهشّ الى شىء من أعمال البرّ، و كان ابن طولون من أهل القرآن إذا جرت منه إساءة استغفر و تضرّع؛ و اتّفق أنّ الخليفة المعتمد أمر ابن طولون أن يتسلّم الخراج حسبما ذكرناه، فامتنع من المظالم لدينه، ثم شاور كاتبه ابن دشومة المذكور، فقال ابن دشومه: يؤمّننى الأمير لأقول له ما عندى؟ فقال أحمد بن طولون: قل و أنت آمن؛ فقال: يعلم الأمير أن الدنيا و الآخرة ضرّتان، و الشهم من لم يخلط إحداهما بالأخرى، و المفرّط من جمع بينهما؛ و أفعال الأمير أفعال الجبابرة، و توكّله توكّل الزهّاد، و ليس مثله من ركب خطّة لم يحكمها، و لو كنّا نثق بالنصر و طول العمر لما كان شىء آثر عندنا من التضييق على أنفسنا فى العاجل لعمارة الآجل، و لكن الإنسان قصير العمر كثير المصائب و الآفات؛ و هذه المظالم قد اجتمع

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٣، ص: ١٠

لك منها فى السنة ما قدره مائة ألف دينار؛ فبات أحمد بن طولون ليلته و قد حرّكه قول ابن دشومة، فرأى فيما يرى النائم صديقا له كان من الزهّاد مات لمّا كان ابن طولون بالثغر قبل دخوله الى مصر، و هو يقول له: بئس ما أشار عليك ابن دشومة فى أمر الارتفاق، و اعلم أنه من ترك شيئا للّه عوّضه اللّه خيرا منه؛ فارجع الى ربّك، و إن كان التكاثر و التفاخر قد شغلاك عنه فى هذه الدنيا. فأمض ما عزمت عليه و أنا ضامن لك من اللّه تعالى أفضل العوض منه قريبا غير بعيد.

فلما أصبح أحمد بن طولون دعا ابن دشومة فأخبره بما رأى فى نومه؛ فقال له ابن دشومة: أشار عليك رجلان: أحدهما فى اليقظة و الآخر فى المنام، و أنت لمن فى اليقظة أوجد و بضمانه أوثق؛ فقال ابن طولون: دعنى من هذا؛ و أزال جميع المظالم و لم يلتفت الى كلامه. ثم ركب أحمد بن طولون الى الصيد، فلما سار فى البرّيّة انخسفت الأرض برجل فرس بعض أصحابه فى قبر فى وسط الرمل؛ فوقف أحمد بن طولون عليه و كشفه فوجد مطلبا واسعا، فأمر بحمله فحمل منه من المال ما قيمته ألف ألف دينار؛ فبنى منه هذا الجامع و البئر بالقرافة الكبرى و البيمارستان بمصر و وجوه البرّ؛ ثم دعا بابن دشومة المقدّم ذكره و قال: و اللّه لو لا- أنّى أمّنتك لصلبتك، ثم بعد مدّة صادره و استصفى أمواله، و حبسه حتى مات.

و قيل: إن ابن طولون لما فرغ من بناء جامعه المذكور أمر حاشيته بسماع ما يقول الناس فيه من الأقوال و العيوب؛ فقال رجل: محرابه صغير، و قال آخر: ما فيه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٣، ص: ١١

عمود، و قال آخر: ليست له ميضأة؛ فبلغه ذلك فجمع الناس و قال: أما المحراب فإنى رأيت النّبىّ صلى اللّه عليه و سلم و قد خطّه لى فى منامى، و أصبحت فرأيت النمل قد طافت بذلك المكان الذى خطّه لى رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم؛ و أما العمد فإنّى بنيت هذا الجامع من مال حلال و هو الكنز، و ما كنت لأشوبه بغيره؛ و هذه العمد إما أن تكون فى مسجد أو كنيسة فنزّهته عنها؛ و أما

المیضأة فإنّی نظرت فوجدت ما یکون بها من النجاسات فطهّرته عنها، و هأنا أبنیها خلفه، و أمر ببنائها.

و قیل: إنه لمّا فرغ من بنائه رأی فی منامه کأنّ نارا نزلت من السماء فأخذت الجامع دون ما حوله من العمران؛ فلمّا أصبح قصّ رؤیاه فقیل له: أبشر بقبول الجامع المبارک، لأنّ النار کانت فی الزمن الماضی إذا قبل اللّه قربانا نزلت نار من السماء أخذته، و دلیله قصة قابیل و هابیل.

و کان حول الجامع العمران ملاصقة له، حتی قیل: إن مسطبة کانت خلف الجامع، و کانت ذراعا فی ذراع لا غیر، فکانت أجرتها فی کلّ یوم اثنی عشر درهما:

فی بکرة النهار یقعد فیها شخص یبیع الغزل و یشتریه بأربعة دراهم؛ و من الظهر الی العصر لختّاز بأربعة دراهم؛ و من العصر الی المغرب لشخص یبیع فیها الحمّص و الفول بأربعة دراهم. قلت: هذا مما یدل علی أن الجامع المذکور کان فی وسط العمران.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۲

و هذا الجامع علی جبل یشکر- کما ذکرناه- و هو مکان مشهور بإجابة الدعاء، و قیل: إنّ موسی علیه السلام ناجی ربّه- جلّ جلاله- علیه بکلمات. و یشکر المنسوب إلیه هذا الجبل هو ابن جزیلة من لخم. انتهی.

و أنفق ابن طولون علی البیمارستان ستین ألف دینار، و علی حصن الجزیرة ثمانین ألف دینار، و علی المیدان خمسین ألف دینار؛ و حمل إلی الخلیفة المعتمد فی مدة أربع سنین ألفی ألف دینار و مائتی ألف دینار. و کان خراج مصر فی أیامه أربعة آلاف ألف و ثلثمائة ألف دینار؛ هذا مع کثرة صدقاته و إنفاقه علی ممالیکه و عسکره.

و قد قال له وکیله فی الصدقات: ربما امتدّت الیّ الکفّ المطوّقة و المعصم فیه السّوار و الکمّ الناعم، أفأمنع هذه الوظیفة؟ فقال له: ویحک! هؤلاء المستورون الذین یحسبهم الجاهل أغنیاء من التعفف، احذر أن تردّ یدا امتدّت الیک.

و قیل: إنه حسّن له بعض التجار التجارة، فدفع له أحمد بن طولون خمسین ألف دینار یتّجر له بها؛ فرأی ابن طولون بعد ذلک فی منامه کأنه یمشمش عظما، فدعا المعبّر و قصّ علیه؛ فقال: قد سمت همّتک إلی مکسب لا یشبه خطرک؛ فأرسل ابن طولون فی الحال إلی التاجر و أخذ المال منه فتصدّق به.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۳

و کان جمیع خصال ابن طولون محمودة، إلا أنه کان حادّ الخلق و المزاج؛ فإنه لما ولی مصر و الشام ظلم کثیرا و عسف و سفک کثیرا من الدماء. یقال: إنه مات فی حبسه ثمانیة عشر ألفا، فرأی فی منامه کأنّ الحق سبحانه قد مات فی داره فاستعظم ذلک و انتبه فزعا، و جمع المعبّرین فلم یدروا؛ فقال له بعضهم: أقول ولی الأمان؟

قال نعم؛ قال: أنت رجل ظالم، قد أمتّ الحقّ فی دارک! فبکی.

و کان فیه ذکاء و فطنة و حدس ثاقب. قال محمد بن عبد الملک الهمذانیّ:

إن ابن طولون جلس یأکل، فرأی سائلا فأمر له بدجاجة و رغیف و حلواء، فجاءه الغلام فقال: ناولته فما هشّ له؛ فقال ابن طولون: علیّ به، فلما مثل بین یدیه لم یضطرب من الهیبة؛ فقال له ابن طولون: أحضر لی الکتب التی معک و اصدقنی، فقد صحّ عندی أنک صاحب خبر، و أحضر السیاط فاعترف؛ فقال له بعض من حضر: هذا و اللّه السحر الحلال! قال ابن طولون: ما هو سحر و لکنّه قیاس صحیح، رأیت سوء حاله فسیّرت له طعاما یشره له الشبعان فما هشّ له، فأحضرته فتلقّانی بقوّة جأش، فعلمت أنه صاحب خبر لا فقیر، فکان کذلک.

و قال أبو الحسین الرازیّ: سمعت أحمد [بن أحمد] بن حمید بن أبی العجائز و غیره من شیوخ دمشق قالوا: لما دخل أحمد بن طولون دمشق وقع بها حریق عند کنیسة مریم، فرکب ابن طولون إلیه و معه أبو زرعة البصری و أبو عبد اللّه أحمد ابن محمد الواسطیّ کاتبه؛ فقال ابن طولون لأبی زرعة: ما یسمّی هذا الموضع؟

قال: كنيسة مريم؛ فقال أبو عبد اللّه: أكان لمريم كنيسة؟ قال: ماهى من بناء

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۴

مريم، و إنما بنوها على اسمها؛ فقال ابن طولون: مالك [و] للاعتراض على الشيخ! ثم أمر بسبعين ألف دينار من ماله، و أن يعطى لكل من احترق له شىء و يقبل قوله و لا يستحلف، فأعطوا لمن ذهب ماله. و فضل من المال أربعة عشر ألف دينار؛ ثم أمر بمال عظيم أيضا ففرّق فى فقراء أهل دمشق و الغوطة، و أقلّ ما أصاب الواحد من المستورين دينار.

و عن محمد بن على الماذرائىّ قال: كنت أجتاز بتربة أحمد بن طولون فأرى شيخا ملازما للقراءة على قبره، ثم إنى لم أره مدّة، ثم رأيته فسألته فقال: كان له علينا بعض العدل إن لم يكن الكلّ، فأحببت أن أصله بالقراءة؛ قلت: فلم انقطعت؟

قال: رأيته فى النوم و هو يقول: أحبّ ألّا تقرأ عندى، فما تمرّ بآية إلا قرّعت بها و قيل: أما سمعت هذه! انتهى.

قلت: و لمّا ولى أحمد بن طولون مصر سكن العسكر على عادة أمراء مصر من قبله، ثم أحب أن يبنى له قصرا فبنى القطائع. و القطائع قد زالت آثارها الآن من مصر و لم يبق لها رسم يعرف، و كان موضعها من قبّة الهواء، التى صار مكانها الآن قلعة الجبل، الى جامع ابن طولون المذكور و هو طول القطائع، و أما عرضها فانه كان من أوّل الرّميلة من تحت القلعة الى الموضع الذى يعرف الآن بالأرض الصفراء عند مشهد الرأس الذى يقال له الآن زين العابدين؛ و كانت مساحة القطائع ميلا فى ميل.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۵

و قبّة الهواء كانت فى السطح الذى عليه قلعة الجبل. و تحت قبة الهواء كان قصر ابن طولون. و موضع هذا القصر الميدان السلطانى الآن الذى تحت قلعة الجبل بالرّميلة.

و كان موضع سوق الخيل و الحمير و البغال و الجمال بستانا. و يجاورها الميدان الذى يعرف اليوم بالقبيبات؛ فيصير الميدان فيما بين القصر و الجامع الذى أنشأه أحمد بن طولون المعروف به. و بجوار الجامع دار الإمارة فى جهته القبلية، و لها باب من جدار الجامع يخرج منه الى المقصورة المحيطة بمصلّى الأمير الى جوار المحراب، و هناك دار الحرم. و القطائع عدّة قطع يسكن فيها عبيد الأمير أحمد بن طولون و عساكره و غلمانه.

قلت: و القطائع كانت بمعنى الأطباق التى للمماليك السلطانية الآن، و كانت كلّ قطيعة لطائفة تسمّى بها، فكانت قطيعة تسمّى قطيعة السودان، و قطيعة الروم، و قطيعة الفرّاشين- و هم نوع من الجمدارية الآن- و نحو ذلك. و كانت كل قطيعة لسكن جماعة ممن ذكرنا و هى بمنزلة الحارات اليوم. و سبب بناء ابن طولون القصر و القطائع كثرة مماليكه و عبيده، فضاقت دار الإمارة عليه، فركب الى سفح الجبل و أمر بحرث قبور اليهود و النصارى، و اختطّ موضعهما و بنى القصر و الميدان المقدّم ذكرهما؛ ثم أمر لأصحابه و غلمانه أن يختطّوا لأنفسهم حول قصره و ميدانه بيوتا؛ و اختطّوا و بنوا حتى اتصل البناء بعمارة الفسطاط- أعنى بمصر القديمة- ثم بنيت القطائع و سمّيت كل قطيعة باسم من سكنها. قال القضاعىّ: و كان للنوبة قطيعة مفردة تعرف بهم، و للروم قطيعة مفردة تعرف بهم، و للفرّاشين قطيعة [مفردة] تعرف بهم، و لكل صنف من الغلمان قطيعة مفردة تعرف بهم؛ و بنى القوّاد مواضع [متفرّقة]،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۶

و عمرت القطائع عمارة حسنة و تفرّقت فيما السكك و الأزقّة، و عمرت فيها المساجد الحسان و الطواحين و الحمّامات و الأفران و الحوانيت و الشوارع.

و جعل ابن طولون قصرا كبيرا فيه ميدانه الذى يلعب فيه بالكرة، و سمّى القصر كلّه الميدان؛ و عمل للقصر أبوابا لكل باب اسم؛ فباب الميدان الكبير كان منه الدخول و الخروج لجيشه و خدمه؛ و باب الخاصّة لا يدخل منه إلا خاصّته؛ و باب الجبل الذى يلى جبل المقطم؛ و باب الحرم لا يدخل منه إلا خادم خصىّ أو حرمة؛ و باب الدّرسون كان يجلس فيه حاجب أسود عظيم الخلقة يتقلّد جنايات الغلمان السودان الرّجّالة فقط، و اسمه الدرمون و به سمّى الباب المذكور؛ و باب دعناج لأنه كان يجلس فيه حاجب يقال له

دعناج؛ و باب الساج لأنه كان عمل من خشب الساج؛ و باب الصلاة لأنه كان يخرج [منه] إلى الصلاة و كان بالشارع الأعظم، و كان هذا الباب يعرف بباب السباع لأنه كانت عليه صورة سبعين من جبس؛ و كانت هذه الأبواب لا تفتح كلّها إلا فى يوم العيد [أو] يوم عرض الجيش [أو يوم صدقة]، و ما كانت تفتح الأبواب إلا بترتيب فى أوقات معروفة؛ و كان للقصر شبابيك تفتح من سائر نواحى الأبواب تشرف كلّ جهة على باب.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۷

و لما بنى هذا القصر و الميدان و عظم أمره زادت صدقاته و رواتبه حتى بلغت صدقاته المرتّبة فى الشهر ألفى دينار، سوى ما كان يغطى و يطرأ عليه؛ و كان يقول:

هذه صدقات الشكر على تجديد النعم؛ ثم جعل مطابخ للفقراء و المساكين فى كلّ يوم، فكان يذبح فيها البقر و الغنم و يفرّق للناس فى القدور الفخّار و القصع، و لكل قصعة أو قدر أربعة أرغفة: فى اثنين منها فالوذج، و الاثنان الآخران على القدر أو القصعة؛ و كان فى الغالب يعمل سماط عظيم و ينادى فى مصر: من أحبّ [أن] يحضر سماط الأمير فليحضر؛ و يجلس هو بأعلى القصر ينظر ذلك و يأمر بفتح جميع أبواب الميدان ينظرهم و هم يأكلون و يحملون فيسّره ذلك و يحمد اللّه على نعمته. ثم جعل بالقرب من قصره حجرة فيها رجال سمّاهم بالمكبّرين عدّتهم اثنا عشر رجلا، يبيت فى كلّ ليلة منهم أربعة يتعاقبون بالليل نوبا، يكبّرون و يهلّلون و يسبّحون و يقرءون القرآن بطيّب الألحان و يترسّلون بقصائد زهديّة و يؤذّنون أوقات الأذان؛ و كان هو أيضا [من] أطيب الناس صوتا. قلت: و لهذا كان فى هذه الرتبة، لأن الجنسيّة علة الضم.

و لا زال على ذلك حتى خرج من مصر الى طرسوس، ثم عاد الى أنطاكية فى جيوشه، بعد أن كان وقع له مع الموفّق أمور و وقائع يأتى ذكرها فى حوادث سنيه على مصر.

و كان قد أكل من لبن الجاموس و أكثر منه، و كان له طبيب اسمه سعد بن نوفيل نصرانى؛ فقال له: ما الرأى؟ فقال له: لا تقرب الغذاء اليوم و غدا، و كان جائعا فاستدعى خروفا و فراريج فأكل منها، و كان به علّة القيام فامتنع؛ فأخبر الطبيب؛ فقال: إنا للّه! ضعفت القوّة المدافعة بقهر الغذاء لها، [فعالجه] فعاوده الإسهال؛

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۸

فخرج من أنطاكية فى محفه تحمله الرجال، فضعف عن ذلك فركب البحر الى مصر؛ فقيل لطبيبه: لست بحاذق؛ فقال: و اللّه ما خدمتى له إلا خدمة الفأر للسّنّور، و إن قتلى عنده أهون علىّ من صحبته!.

و لما دخل ابن طولون الى مصر على تلك الهيئة استدعى الأطباء و فيهم الحسن ابن زيرك، فقال لهم: و اللّه لئن لم تحسنوا فى تدبيركم لأضربنّ أعناقكم قبل موتى؛ فخافوا منه، و ما كان يحتمى، و يخالفهم. و لما اشتدّ مرضه خرج المسلمون بالمصاحف، و اليهود و النصارى بالتوراة و الإنجيل، و المعلّمون بالصّبيان، الى الصحراء و دعوا له؛ و أقام المسلمون بالمساجد يختمون القرآن و يدعون له؛ فلما أيس من نفسه رفع يديه إلى السماء و قال: يا ربّ ارحم من جهل مقدار نفسه، و أبطره حلمك عنه؛ ثم تشهّد و مات بمصر فى يوم الاثنين لثمان عشرة خلت من ذى القعدة سنة سبعين و مائتين، و ولى مصر بعده ابنه أبو الجيش خمارويه؛ و مات و عمره خمسون سنة بحساب من قال إنّ مولده سنة عشرين و مائتين. و كانت ولايته على مصر سبع عشرة سنة. و قيل: إنّه لمّا ثقل فى الضعف أرسل الى القاضى بكّار بن قتيبة الحنفىّ- و كان قد حبسه فى دار بسبب نحكيه هنا بعد ما نذكر ما أرسل يقول له- فجاء الرسول إلى بكّار يقول له: أنا أردّك الى منزلتك و أحسن؛ فقال القاضى بكّار:

قل له: شيخ فان و عليل مدنف، و الملتقى قريب، و القاضى اللّه عزّ و جلّ؛ فأبلغ الرسول ابن طولون ذلك؛ فأطرق ساعة، ثم أقبل يقول: شيخ فان و عليل مدنف و الملتقى قريب و القاضى اللّه! و كرّر ذلك الى أن غشى عليه؛ ثم أمر بنقله من السجن الى دار اكتريت له.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۹

و أما سبب انحراف أحمد بن طولون على القاضی بکّار فلکون أنّ ابن طولون دعا القاضی بکّارا لخلع الموفق من ولایة العهد للخلافة فامتنع؛ فحبسه لأجل هذا؛ و کرر علیه القول فلم یقبل وثالا؛ و کان أوّلا من أعظم الناس عند ابن طولون.

قال الطحاویّ: و لا أحصی کم کان أحمد بن طولون یجیء إلی مجلس بکار و هو یملی الحدیث و مجلسه مملوء بالناس، و یتقدّم الحاجب و یقول: لا- یتغیّر أحد من مکانه؛ فما یشعر بکّار إلّا و ابن طولون إلی جانبه؛ فیقول له: أیها الأمیر ألا ترکتنی [حتی] کنت أقضی حقّک [و أؤدّی واجبک! أحسن اللّه جزاءک و تولّی مکافأتک]؛ ثم فسد الحال بینهما حتی حبسه.

قال القاضی شمس الدین أحمد بن محمد بن خلّکان: کان أحمد بن طولون یدفع الی القاضی بکّار فی العام ألف دینار سوی المقرّر له فیترکها بکّار بختمها [و لا یتصرّف فیها]؛ فلما دعاه ابن طولون لخلع الموفّق من ولایة العهد امتنع، فاعتقله و طالبه بحمل الذهب فحمله الیه بختومه، و کان ثمانیة عشر کیسا فی کل کیس ألف دینار؛ فاستحی ابن طولون عند ذلک من الملأ. قلت: هذا هو القاضی الذی فی الجنة؛ رحمه اللّه تعالی. و قال أبو عیسی اللؤلؤیّ: رآه بعض أصحابه المتزهّدین فی حال حسنة فی المنام (یعنی ابن طولون)، فقال له: ما فعل اللّه بک؟ و کیف حالک؟ قال: لا ینبغی لمن سکن الدنیا [أن] یحتقر حسنة فیدعها و لا سیئة فیرتکبها، عدل بی عن النار الی الجنة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۰

بتریّثی علی متظلّم عیّ اللسان شدید التهیّب، فسمعت منه و صبرت علیه حتی قامت حجته و تقدّمت بإنصافه؛ و ما فی الآخرة علی الرؤساء أشدّ من الحجاب لملتمسی الإنصاف.

و رثاه کثیر من الشعراء، من ذلک ما قاله بعض المصریّین:

یا غرّة الدنیا الذی أفعاله غرر بها کلّ الوری تتعلّق

أنت الأمیر علی الشآم و ثغره و الرّقّتین و ما حواه المشرق

و الیک مصر و برقة و حجازها کلّ إلیک مع المدی یتشوّق

و خلّف ابن طولون ثلاثة و ثلاثین ولدا، منهم سبعة عشر ذکرا، و هم:

العباس و خمارویه الذی ولی مصر بعد موته، و عدنان و مضر و شیبان و ربیعة و أبو العشائر، و هؤلاء أعیانهم، فأما العباس فهو الذی کان عصی علی والده و دخل الغرب و حمل الی أبیه أحمد فحبسه و مات و هو فی حبسه، و مات بعد أبیه بیسیر؛ و کان شاعرا، و هو القائل:

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۱

للّه درّی إذ أعدو علی فرسی الی الهیاج و نار الحرب تستعر

و فی یدی صارم أفری الرءوس به فی حدّه الموت لا یبقی و لا یذر

إن کنت سائلة عنی و عن خبری فهأنا اللیث و الصّمصامة الذّکر

من آل طولون أصلی إن سألت فما فوقی لمفتخر فی الجود مفتخر

و کان أبوه أحمد بن طولون لما خرج الی الشام فی السنة الماضیة أخذه مقیّدا معه و عاد به علی ذلک.

و خلّف أحمد بن طولون فی خزائنه من الذهب النقد عشرة آلاف ألف دینار؛ و من الممالیک سبعة آلاف مملوک، [و من الغلمان أربعة و عشرین ألف غلام]، و من الخیل [المیدانیة] سبعة آلاف رأس، و من البغال و الحمیر ستة آلاف رأس، و من الدوابّ لخاصته ثلثمائة، و من مراکبه الجیاد مائة. و کان ما یدخل إلی خزائنه فی کل سنة بعد مصاریفه ألف ألف دینار. رحمه اللّه تعالی.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۵۵]

السنة الأولى من ولاية أحمد بن طولون على مصر و هى سنة خمس و خمسين و مائتين- فيها كان ابتداء خروج الزّنج، و خرج قائدهم بالبصرة، فلما خرج انتسب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۲

إلى زيد بن علىّ، و زعم أنّه علىّ بن محمد بن أحمد بن علىّ بن عيسى بن زيد بن علىّ [بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب]؛ و هذا نسب غير صحيح. و انضمّ عليه معظم أهل البصرة، و عظم أمره و فعل بالمسلمين الأفاعيل، و هزم جيوش الخليفة، و امتدّت أيّامه الى أن قتل فى سنة سبعين و مائتين بعد أن واقعه الموفّق أخو الخليفة غير مرّة.

و فيها كان بين يعقوب بن الليث و طوق بن المغلّس وقعة كبيرة. و فيها عظم أمر ابن وصيف، و قبض على حواشى المعتزّ بالله الخليفة؛ فسأله المعتزّ فى إطلاق واحد منهم فلم يفعل. و لا- زال أمره يعظم إلى أن خلع المعتزّ بالله من الخلافة فى رجب، ثم قتل بعد خلعه بأيّام. و اختفت أمّ المعتزّ قبيحة، ثم ظهرت فصادرها صالح بن وصيف المذكور و أخذ منها أموالا عظيمة، ثم نفاها إلى مكّة؛ و كان مما أخذ منها ابن وصيف ألف ألف دينار و ثلثمائة ألف دينار، و أخذ منها من الجواهر ما قيمته ألفا ألف دينار. و كان الجند سألوا المعتزّ فى خمسين ألف دينار و يصطلحون معه؛ فسألها المعتزّ فى ذلك؛ فقالت: ما عندى شىء. فلمّا رأى ابن وصيف هذا المال قال: قبّح اللّه قبيحة، عرّضت ابنها للقتل لأجل خمسين ألف دينار و عندها هذا كلّه. و فيها بويع المهتدى بالله محمد، و كنيته أبو إسحاق، و قيل: أبو عبد اللّه، ابن الخليفة الواثق بالله هارون بالخلافة بعد خلع المعتزّ بالله فى ثانى شعبان. و فيها توفّى عبد اللّه بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام بن عبد الصمد الحافظ أبو محمد التّميمىّ الدارمىّ السمرقندى الإمام المحدّث صاحب المسند؛ و مولده سنة مات عبد اللّه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۳

ابن المبارك سنة اثنتين و ثمانين و مائة، و كان من الأئمة الأعلام، و قد روينا مسنده المذكور عن الشيخ زين الدين رجب بن يوسف الخيرىّ و محمد بن أبى الشائب الأنصارىّ حدّثانا أخبرنا أبو إسحاق التّنوخىّ، حدّثنا أبو العباس الحجّار و إسماعيل ابن مكتوم و عيسى المطعّم إجازة، قالوا: أخبرنا ابن اللّيثىّ، حدّثنا أبو الوقت عبد الأوّل ابن [أبى عبد اللّه] عيسى [بن شعيب بن إسحاق السجزى]، أخبرنا أبو الحسن عبد الرحمن ابن محمد الدّاودىّ، أخبرنا أبو محمد عبد اللّه بن أحمد بن حمّويه السّرخسىّ، أخبرنا أبو عمران عيسى بن عمر السمرقندىّ، حدّثنا الدارمىّ. و فيها توفى المعتزّ بالله أمير المؤمنين أبو عبد اللّه محمد، و قيل: إن اسمه الزبير، ابن الخليفة المتوكل على اللّه جعفر ابن الخليفة المعتصم بالله محمد ابن الخليفة الرشيد هارون ابن الخليفة محمد المهدىّ ابن الخليفة أبى جعفر المنصور بن محمد بن علىّ بن عبد اللّه بن العباس بن عبد المطلب، الهاشمىّ العباسىّ البغدادىّ؛ و مولده سنة اثنتين و ثلاثين و مائتين، و لم يل الخلافة قبله أحد أصغر منه، و أمّه أمّ ولد رومية تسمى قبيحة لجمال صورتها من أسماء الأضداد، لم يقع لخليفة ما وقع عليه من الإهانة، لأن الأتراك أمسكوه و ضربوه و جرّوا برجله و أقاموه فى الشمس فى يوم صائف و هم يلطمون وجهه، و يقولون

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۴

له: اخلع نفسك؛ ثم أحضروا القاضى ابن أبى الشوارب و الشهود، حتى خلع نفسه؛ ثم أخذه الأتراك بعد خمس ليال من خلعه و أدخلوه الحمام فعطش فمنعوه الماء حتى مات فى شعبان سنة خمس و خمسين و مائتين و له أربع و عشرون سنة. و كانت خلافته أربع سنين و ستة أشهر و أربعة عشر يوما. و فيها توفى الحافظ أبو يحيى صاعقة، و اسمه محمد بن عبد الرحيم، و له سبعون سنة. و فيها توفى محمد بن كرّام السّجستانىّ.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و اثنتا عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و ست أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۵۶]

السنة الثانية من ولاية أحمد بن طولون على مصر و هى سنة ست و خمسين و مائتين- فيها وثب موسى بن بغا بالأتراك على صالح بن وصيف و طالبوه بقتل المعتز و بمال أمّه قبيحة، و وقع بينهم حروب قتل فيها صالح بن وصيف المذكور؛ ثم خلعوا الخليفة المهتدى، فقاتلهم حتى ظفروا به و قتلوه، و بايعوا المعتمد بالخلافة.

و فيها استعمل الخليفة أخاه الموفّق طلحة على المشرق، و صيّر ابنه جعفرا ولىّ عهده و ولّاه مصر و المغرب، و لقّبه المفوّض إلى اللّه. و انهمك المعتمد فى اللهو و اللذات.

و اشتغل عن الرعيّة، فكرهه الناس و أحبّوا أخاه الموفّق طلحة، فغلب على الأمر حتى صار المعتمد معه كالمحجور عليه، على ما سيأتى ذكره. و فيها توفّى الحسن بن علىّ

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۵

الإمام العابد الزاهد أبو علىّ التّنوخىّ البغدادىّ أوحد زمانه فى علوم الحقائق، و هو من كبار أصحاب سرىّ السّقطىّ، و هو أوّل من عقدت له الحلقة ببغداد. و فيها توفى الزّبير بن بكار بن عبد اللّه بن مصعب بن ثابت بن عبد اللّه بن الزبير بن العوّام، أبو عبد اللّه الأسدىّ الإمام العلامة صاحب كتاب النسب، كان عالما بالأنساب و أيام الناس، ولى قضاء مكة، و قدم بغداد و حدّث بها. و فيها كان قتل صالح بن وصيف التركى أحد قوّاد المتوكّل، كان قد استطال على الخلفاء و قتل المعتزّ و صادر أمّه قبيحة حسبما تقدّم ذكره. و فيها توفّى الإمام الحافظ الحجة أبو عبد اللّه محمد بن اسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة [بن الأحنف] بن بردزبه البخارىّ الجعفىّ مولاهم؛ و كان المغيرة مجوسيّا فأسلم على يد يمان البخارىّ الجعفىّ. و البخارىّ الجعفىّ مولاهم؛ و كان المغيرة مجوسيّا فأسلم على يد يمان البخارىّ الجعفىّ. و البخارىّ هذا هو صاحب الصحيح، مولده يوم الجمعة لثلاث عشرة خلت من شوّال سنة أربع و تسعين و مائة و مات ليلة عيد الفطر بقرية خرتنك بالقرب من بخارى، و قد سمعت صحيحه بفوت على سيدنا شيخ الإسلام جلال الدين عبد الرحمن البلقينىّ الشافعىّ رضى اللّه عنه؛ أنبأنا والدى شيخ الاسلام، أنبأنا جمال الدين عبد الرحيم بن شاهد الجيش، أنبأنا إسماعيل بن عبد القوىّ بن عزّون و أحمد بن علىّ بن يوسف و عثمان بن عبد الرحمن بن

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۶

رشيق سماعا عليهم عن هبة اللّه بن علىّ البوصيرىّ و محمد بن أحمد بن حامد الأرتاحىّ، الأوّل عن محمد بن بركات، و الثانى عن علىّ بن [الحسين بن] عمر الفرّاء عن كريمة بنت أحمد المروزيّة عن محمد بن مكّى الكشميهنىّ عن محمد بن يوسف الفربرىّ عن الامام البخارىّ، و أخبرنى به الشيخ الأوحد أبو عبد اللّه محمد بن عبد الكافى السّويفىّ سماعا عليه لجميعه، أنبأنا شمس الدين محمد بن على بن الخشّاب سماعا عليه لجميعه، أنبأنا شيخان أبو العباس أحمد بن أبى طالب بن الشّحنة الحجّار و أم محمد وزيرة بنت عمر التّنوخيّة، قالا أنبأنا أبو عبد اللّه الحسين بن المبارک الزبيدىّ، أنبأنا أبو الوقت عبد الأوّل بن [أبى عبد اللّه] عيسى السّجزىّ، أنبأنا أبو الحسن عبد الرحمن ابن محمد الدّاودىّ، أنبأنا أبو محمد عبد اللّه بن أحمد السّرخسىّ، أنبأنا أبو عبد اللّه محمد بن يوسف الفربرىّ، أنبأنا الامام البخارىّ رضى اللّه عنه. و فيها توفى أمير المؤمنين المهتدى بالله محمد ابن الخليفة هارون الواثق ابن الخليفة محمد المعتصم ابن الخليفة الرشيد هارون الهاشمىّ العباسىّ، و كان صالحا عابدا يسرد الصوم متقشّفا، لم يل الخلافة بعد الخلفاء الراشدين و عمر بن عبد العزيز أصلح منه، غير أنه لم يجد من ينصره، و حاربته الأتراک و خلعوه و داسوا خصيتيه و صفعوه حتى مات فى منتصف شهر رجب؛ فكانت خلافته سنة إلا خمسة عشر يوما؛ و أمّه أمّ ولد رومية تسمّى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۷

قرب. قال الخطيب أبو بكر: لم يزل صائما منذ ولى الخلافة الى أن قتل و له نحو أربعين سنة. و فيها توفّى عبد اللّه بن محمد بن عبد الرحمن بن المسور بن مخرمة الزهرىّ. و فيها توفّى على بن المنذر الطّريقىّ. و فيها توفّى محمد بن أبى عبد الرحمن.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و اثنتان و عشرون إصبعا، مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعا و عشرون إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۵۷]

السنة الثالثة- من ولاية أحمد بن طولون على مصر، و هى سنة سبع و خمسين و مائتين- فيها دخل الزّنج البصرة و أباحوها و بذلوا فيها السيف، فحاربهم سعيد الحاجب و استخلص منهم كثيرا مما كانوا أسروه. و فيها عقد الخليفة المعتمد لأخيه أبى أحمد الموفّق على الكوفة و الحجاز و الحرمين و اليمن و بغداد و واسط و البصرة و الأهواز و فارس و ما وراء النهر. و فيها قتل ميخائيل بن توفيل ملك الروم، قتله بسيل الصّقلبىّ و كان ميخائيل قد ملك أربعا و عشرين سنة. و فيها حجّ بالناس الفضل ابن إسحاق بن الحسن بن سهل بن العباس العباسىّ. و فيها توفى الحسن بن عبد العزيز الحافظ أبو علىّ الجذامىّ المصرىّ، قدم بغداد و حدّث بها؛ قال الدّار قطنىّ لم أر مثله فضلا و زهدا و دينا و ورعا و ثقة و صدق عبارة. و فيها توفى سليمان بن معبد أبو داود النحوىّ المروزىّ، رحل فى طلب العلم إلى العراق و الحجاز و اليمن و الشأم و مصر، و قدم بغداد و ذاكر الجاحظ، و مات بها فى ذى الحجّة. و فيها توفى شهيدا بأيدى الزّنج العبّاس بن الفرج أبو الفضل الرّياشىّ النحوىّ البصرىّ مولى محمد بن

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۸

سليمان العباسىّ، رحل فى طلب العلم، و كان من النحو و اللغة و الفقه و الأدب و الفضل بالمحلّ الأعلى، و كان من الثّقات الحفّاظ، و قرأ كتاب سيبويه على المازنىّ، فكان المازنىّ يقول: يقرأ علىّ كتاب سيبويه و هو أعلم به منّى. و فيها توفّيت فضل الشاعرة، كانت من مولّدات اليمامة، و كذا أمها، و بها ولدت؛ فربّاها بعض الفضلاء و باعها، فاشتراها محمد بن الفرج الرّخجىّ و أهداها إلى المتوكّل، و لم يكن فى زمانها أفصح منها و لا أشعر. و فيها توفى شهيدا بأيدى الزّنج زيد بن أخزم- بمعجمتين- الطائىّ الحافظ.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثلاث أذرع و ستّ عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و ثمانى عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۵۸]

السنة الرابعة- من ولاية أحمد بن طولون على مصر، و هى سنة ثمان و خمسين و مائتين- فيها عقد المعتمد على اللّه لأخيه الموفّق طلحة على حرب الزّنج، فندب إليهم الموفّق منصورا، فكانت وقعة بين منصور بن جعفر بن دينار و بين يحيى، فانهزم عن منصور عسكره، و ساق وراءه يحيى فضرب عنقه، و استباحت الزّنج عسكره؛ فلما وصل الموفّق إلى نهر معقل انهزم جيش الخبيث رأس الزّنج، ثم تراجعوا و قاتلوا جيش الموفّق حتى هزموه؛ و انحاز الموفّق و همّ بالهروب، ثم تراجع

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۹

و واقعهم حتى انتصر عليهم. و أسر طاغيتهم يحيى المذكور، و قتل عامّة أصحابه، و بعث بيحيى إلى المعتمد، فضربه ثم طوّف به ثم ذبحه. و فيها وقع الوباء العظيم بالعراق، و مات خلق لا يحصون. حتى مات غالب عسكر الموفّق؛ فلما وقع ذلك كثر الزّنج على الموفّق و واقعوه ثانيا أشدّ من الأوّل. ثم هزمهم اللّه ثانيا. و فيها كانت زلازل هائلة سقطت منها المنازل و مات خلق كثير تحت الرّدم. و فيها

كانت واقعة ثالثة بين الزّنج و الموفّق كانوا فيها متكافئين. و فيها توفّى أحمد بن الفرات بن خالد أبو مسعود الرازى الأصبهانىّ. كان أحد الأئمة الثّقات. ذكره أبو نعيم فى الطبقة السابعة و أثنى عليه. و فيها توفّى أحمد بن محمد بن يحيى بن سعيد القطّان البصرىّ الحافظ، سكن بغداد و حدّث بها عن جدّه و غيره، و روى عنه المخاملىّ و غيره. و فيها توفى جعفر بن عبد الواحد بن جعفر بن سليمان بن علىّ بن عبد اللّه بن العباس الهاشمىّ العباسىّ، كان يقال له قاضى الثغور، و ولى القضاء بسرّمن‌رأى، و حدّث عن أبى عاصم النبيل و غيره؛ قال أبو زرعة الرازىّ: كنت اذا رأيته هبته و أقول: هذا يصلح للخلافة. و فيها توفّى محمد بن يحيى بن عبد اللّه بن خالد بن فارس أبو عبد اللّه النّيسابورىّ الذّهلىّ مولاهم، كان حافظ عصره و إمام الحديث بنيسابور و صاحب الواقعة مع البخارىّ صاحب الصحيح. كان أحد الأئمة الحفّاظ المتقنين؛ كان الامام أحمد بن حنبل يثنى عليه و ينشر فضله و يقول: هو إمام السنة بنيسابور. و فيها توفّى معاوية بن صالح أبو عمرو الحضرمىّ الحمصىّ قاضى الأندلس؛ أصله من

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۳۰

أهل مصر؛ كان إماما عالما فاضلا محدّثا كبير الشأن. و فيها توفّى يحيى بن معاذ ابن جعفر أبو زكريا الرّازى الواعظ أحد الزهّاد أوحد وقته فى علوم الحقائق؛ و كانوا ثلاثة إخوة: يحيى و إسماعيل و إبراهيم؛ كان إسماعيل أكبرهم، و يحيى الأوسط. و فيها توفى يحيى الجلّاء، كان من الزهّاد، و صحب بشرا الحافى و معروفا الكرخىّ و سريّا السّقطىّ. قال أحمد بن حنبل: قلت لذى النّون: لم سمّى بابن الجلّاء؟

فقال: سميناه بذلك لأنه اذا تكلّم جلا قلوبنا.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و خمس أصابع و نصف. مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعا و خمس أصابع و نصف.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۵۹]

السنة الخامسة من ولاية أحمد بن طولون على مصر، و هى سنة تسع و خمسين و مائتين- فيها كان أيضا بين الموفّق و بين الزّنج مقتلة عظيمة، ثم كان بين موسى ابن بغا و بين الزّنج أيضا مقتلة عظيمة، و قتل فيها خلق من الطائفتين. و فيها كانت وقعة بين الروم و بين أحمد بن محمد القابوسىّ على ملطية و شمشاط، و نصر اللّه المسلمين.

و فيها ولد عبيد اللّه الملقّب بالمهدىّ والد الخلفاء الفاطميّين. و فيها توفّى الحسين بن عبد السلام أبو عبد اللّه المصرىّ المعروف بالجمل، الشاعر المشهور، كان يصحب الشافعىّ رضى اللّه عنه. و فيها توفى محمد بن عمرو بن يونس أبو جعفر الثّعلبىّ،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۳۱

و يعرف أيضا بالسّوسىّ، الزاهد العابد، مات و قد بلغ من العمر مائة سنة. و فيها توفى محمد بن إبراهيم بن محمد بن عيسى بن القاسم بن سميع أبو الحسن القرشىّ الدمشقىّ الحافظ العالم المحدّث مصنف كتاب الطبقات. و فيها توفى الإمام أبو إسحاق إبراهيم ابن يعقوب السّعدىّ الجرجانىّ العالم المشهور. و فيها توفى أيضا أحمد بن إسماعيل السّهمىّ.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع سواء. مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعا و خمس أصابع و نصف.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۶۰]

السنة السادسة من ولاية أحمد بن طولون على مصر، و هى سنة ستين و مائتين- فيها كان الغلاء المفرط بالحجاز و العراق حتى بلغ الكرّ من الحنطة ببغداد مائة و خمسين دينارا. و فيها أغارت الأعراب على حمص، فخرج أميرهم منجور النركى لحربهم فقتلوه، و تولى

بعده حمص بكتمر التركىّ المعتمدىّ. و فيها أخذت الروم لؤلؤة.

و فيها أيضا كانت وقعات عديدة بين عساكر الموفّق و بين الزّنج، و قتلت الزّنج علىّ ابن يزيد العلوىّ صاحب الكوفة. و فيها توفى إبراهيم بن يعقوب بن إسحاق الحافظ أبو إسحاق الجرجانىّ- المقدّم ذكره فى الماضية- على الصحيح فى هذه السنة؛ كان يسكن دمشق، و يحدّث على المنبر، و كان من الأئمة الحفّاظ، إلا أنه كان منحرفا عن علىّ بن أبى طالب رضى اللّه عنه. و فيها توفّى أيّوب بن إسحاق بن

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۳۲

إبراهيم بن مسافر، كان يسكن الرّملة، و حدّث بها و بمصر و دمشق، و كان زعر الخلق. و فيها توفى الحسن بن على [بن محمد بن علىّ] بن موسى بن جعفر بن الحسين ابن على بن أبى طالب، و يقال له العسكرىّ، كنيته أبو محمد؛ و هو أحد الأئمة الاثنى عشر المعدود [ين] عند الرافضة. و مولده سنة إحدى و ثلاثين و مائتين بسرّمن‌رأى، و أمّه أمّ ولد. و فيها توفى الحسن الفلّاس العابد الزاهد، كان يتقوّت من قمام المزابل، صحبه بشر الحافى و سرىّ السّقطىّ و معروف الكرخىّ، و انتفع به بشر الحافى. و فيها توفّى الحسن بن محمد بن الصبّاح أبو على الزعفرانىّ، أصله من قرية بالعراق يقال لها الزعفرانية، و هو صاحب الإمام الشافعى الذى قرأ عليه كتاب الأم، و روى عنه أقواله القديمة. و فيها توفّى مالك بن طوق بن غياث التّغلبىّ صاحب الرّحبة؛ كان أحد الأجواد، ولى إمرة دمشق و الأردنّ. و فيها توفّى موسى ابن مسلم بن عبد الرحمن أبو بكر القنطرىّ، كان ينزل قنطرة البردان ببغداد فنسب إليها، و كان يشبّه فى الزهد و الورع ببشر الحافى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۳۳

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و أربع أصابع و نصف.

مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و إحدى عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۶۱]

السنة السابعة من ولاية أحمد بن طولون على مصر، و هى سنة إحدى و ستين و مائتين- فيها ولّى الخليفة المعتمد أبا السّاج إمرة الأهواز و حرب صاحب الزّنج، فكان بينه و بين الزنج حروب. و فيها بايع المعتمد بولاية العهد بعده لابنه المفوّض جعفر المذكور قبل تاريخه أيضا و ولّاه المغرب و الشأم و الجزيرة و أرمينية، و ضمّ إليه موسى بن بغا، و ولّى أخاه الموفّق العهد بعد ابنه المفوّض، و ولّاه المشرق و العراق و بغداد و الحجاز و اليمن و فارس و أصبهان و الرّىّ و خراسان و طبرستان و سجستان و السّند [و ضمّ اليه مسرورا البلخىّ]، و عقد لكل واحد منهما لواءين:

أبيض و أسود، و شرط إن حدث به حدث [الموت] أن الأمر يكون لأخيه الموفق إن لم يكن ابنه المفوّض جعفر قد بلغ؛ و كتب العهد و أرسله مع قاضى القضاة الحسن بن أبى الشّوارب ليعلقه فى الكعبة. و فيها توفى الحافظ مسلم بن الحجّاج بن مسلم الإمام الحافظ الحجّة أبو الحسين النّيسابورىّ صاحب الصحيح، ولد سنة أربع و مائتين. قال الحسين بن محمد الماسرجسىّ: سمعت أبى يقول سمعت مسلما يقول: صنّفت هذا المسند الصحيح من ثلثمائة ألف حديث مسموعة.

و قال أحمد بن سلمة: كنت مع مسلم فى تأليف صحيحه اثنتى عشرة سنة؛ قال:

و هو اثنا عشر ألف حديث، يعنى بالمكرّر. قلت: مات يوم الأحد و دفن

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۳۴

يوم الاثنين لخمس بقين من شهر رجب. و قد روينا صحيحه عن أبى ذرّ الحنبلىّ أنبأنا محمد بن إبراهيم البيانىّ سماعا أنبأنا أبو الفداء

إسماعيل و علىّ بن مسعود بن نفيس، قالا أنبأنا إبراهيم بن عمر بن مضر و أحمد بن عبد الدائم، قال ابن مضر أنبأنا منصور، و قال ابن عبد الدائم أنبأنا محمد بن على بن صدقة الحرّانىّ أنبأنا صدر الدّين البكرىّ، قال البكرىّ أنبأنا المؤيّد [بن محمد بن على] الطّوسىّ قال ابن عساكر إجازة قال الفراوىّ، و هو فقيه الحرم، قال أنبأنا الفارسىّ أنبأنا الجلودىّ أنبأنا ابن سفيان أنبأنا مسلم.

و فيها توفى الحسن بن محمد بن عبد الملك أبو محمد القاضى الأموىّ، و يعرف بابن أبى الشوارب، كان فقيها عالما فاضلا جوادا ذا مروءة، ولى القضاء سنين عديدة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۳۵

و فيها توفى الشيخ الإمام المعتقد أبو يزيد البسطامىّ، و اسمه طيفور بن عيسى بن شروسان، و كان شروسان مجوسيّا، و كان لعيسى ثلاثة أولاد: آدم و هو أكبرهم، و طيفور هذا و هو أوسطهم [و علىّ]، و كان الثلاثة زهّادا عبّادا، و كان طيفور أفضل [أهل] زمانه و أجلّهم محلّا، كان له لسان فى المعارف و التدقيق، و كان صاحب أحوال و كرامات، و قد شاع ذكره شرقا و غربا. و فيها توفّى عبد اللّه بن محمد بن يزداد أبو صالح الكاتب المروزىّ، وزر أبوه للمأمون و وزر هو للمستعين و المهتدى، و كان أديبا شاعرا فاضلا جوادا ممدّحا.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثلاث أذرع و ثلاث عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و خمس أصابع و نصف.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۶۲]

السنة الثامنة من ولاية أحمد بن طولون على مصر، و هى سنة اثنتين و ستين و مائتين- فيها ولى قضاء سرّ من رأى علىّ بن الحسن بن أبى الشوارب عوضا عن أبيه. و ولى قضاء بغداد إسماعيل بن إسحاق القاضى. و فيها اشتغل المعتمد بقتال يعقوب بن الليث الصّفّار؛ فبعث كبير الزّنج عسكره إلى البطيحة فنهبها

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۳۶

و أفسد العسكر بها و أسروا و قتلوا. و فيها تعرّض رجل لامرأة ببغداد و غصبها بمكان و هى تصيح: اتّق اللّه و هو لا يلتفت؛ فقالت: قُلِ اللَّهُمَّ فاطِرَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ عالِمَ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبادِكَ ... الآية ثم رفعت رأسها إلى السماء و قالت: اللّهمّ إنّه قد ظلمنى فخذه اليك؛ فوقع الرجل ميتا.

قال ابن عون الفرائضىّ: فأنا و اللّه رأيت الرجل ميّتا، فحمل على نعش و الناس يهلّلون و يكبّرون. و فيها غلب يعقوب بن الليث الصفّار على فارس، و هرب عامل المعتمد إلى الأهواز. و فيها توفّى خالد بن يزيد أبو الهيثم التّميمىّ الحراسانىّ الكاتب، أحد كتّاب الجيش ببغداد، كان فاضلا شاعرا. و فيها توفّى سعد بن يزيد أبو محمد البزّاز، كان إماما فاضلا شاعرا حافظا، روى عنه يزيد بن هارون و طبقته؛ و مات ببغداد فى شهر رجب. و فيها توفى عبد اللّه بن الفقير.

المروزىّ المعتقد، كان من الأبدال، كان مقيما بقزوين، فاذا كان يوم الجمعة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۳۷

قد سلك مسافة بعيدة، و كان يمشى على الماء و يقف له بحر جيحون، و كان يتقوّت بالمباحات. و فيها توفى يعقوب بن شيبة بن الصّيلت بن عصفور أبو يوسف الحافظ السّدوسىّ البصرىّ، كان إماما حافظا فقيها عالما، صنّف المسند معلّلا إلا أنه لم يتمّه، و كان يتفقّه على مذهب مالك، و سمع منه يزيد بن هارون و غيره، و كان ثقة، إلا أنه كان يقول بالوقف فى القرآن، فهجره الناس.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثلاث أذرع و ثلاث عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و ثمانى عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۶۳]

السنة التاسعة من ولاية أحمد بن طولون على مصر، و هى سنة ثلاث و ستين و مائتين- فيها سار يعقوب بن الليث الصّفّار إلى الأهواز، و أسر الأمير ابن واصل، و استولى على الأهواز. و فيها استوزر الخليفة المعتمد الحسن بن مخلد بعد موت عبيد اللّه بن يحيى بن خاقان؛ فلما قدم موسى بن بغا إلى سامرّا هرب الحسن المذكور، فاستوزر مكانه سليمان بن وهب فى ذى الحجّة. و فيها حجّ بالناس الفضل ابن إسحاق الذى حجّ بهم فى الماضية. و فيها توفّى الوزير عبيد اللّه بن يحيى بن خاقان

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۳۸

ابن عرطوج أبو الحسين التركىّ الوزير. و سبب موته أنه دخل ميدانا فى داره يوم الجمعة لعشر خلون من ذى القعدة ليضرب الصّوالجة، و ركب و لعث، فصدمه خادمه رشيق، فسقط عن دابته ميتا. و فيها توفى محمد بن محمد بن عيسى أبو الحسن البغدادىّ، و يعرف بابن أبى الورد، كان من الزهّاد الورعين. و فيها توفى الامام الحافظ محمد بن على بن ميمون الرّقّىّ العطّار إمام أهل الجزيرة؛ و فى التهذيب: توفى سنة ثمان و ستين.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و أربع عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و عشرون إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۶۴]

السنة العاشرة من ولاية أحمد بن طولون على مصر، و هى سنة أربع و ستين و مائتين- فيها فى المحرّم خرج أبو أحمد الموفّق طلحة و معه موسى بن بغا إلى قتال الزّنج، فلما نزلا بغداد مات موسى بن بغا، فحمل إلى سامرّا و دفن بها. و فيها فى شهر ربيع الأوّل توفّيت قبيحة أمّ الخليفة المعتزّ بسامرّاء؛ و كان الخليفة المعتمد قد أعادها من مكّة إلى سامرّا و أكرمها، و كانت أمّ ولد للمتوكّل روميّة، و كانت فائقة فى الجمال، فسمّيت قبيحة من أسماء الأضداد؛ و قد تقدّم ذكر مصادرتها من قبل صالح بن وصيف و ما أخذ منها من الذهب و الجواهر. و فيها توفى عبيد اللّه ابن عبد الكريم بن يزيد بن فرّوخ الحافظ أبو زرعة الرازىّ مولى عيّاش بن مطرّف القرشىّ، ولد سنة مائتين بالرّىّ؛ و كان إماما حافظا ثقة صدوقا، و هو أحد الأئمة

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۳۹

المشهورين الرّحّالين لطلب الحديث، قدم بغداد و حدّث بها غير مرّة، و جالس الإمام أحمد بن حنبل و كان يحبّه و يثنى عليه. و فيها توفّى إسماعيل بن يحيى بن إسماعيل ابن عمرو بن مسلم الفقيه أبو إبراهيم المزنىّ المصرىّ صاحب الشافعى، روى عنه و عن غيره، و روى عنه أبو بكر بن خزيمة و الطحاوىّ و غيرهما، و هو أحد الأئمة المشهورين، و تفقّه به جماعة، و صنّف التصانيف، منها: الجامع الكبير، و الجامع الصغير، و مختصر المختصر؛ و لمّا قدم القاضى بكّار بن قتيبة على قضاء مصر و هو حنفىّ، اجتمع به المزنىّ، فسأله رجل من أصحاب بكّار و قال: قد جاء فى الأحاديث تحريم النبيذ و تحليله، فلم قدّمتم التحريم على التحليل؟ فقال المزنىّ: لم يذهب أحد إلى تحريم النهيذ فى الجاهلية ثم حلّل لنا، و وقع الاتفاق على أنه كان حلالا فحرّم، فهذا يعضد أحاديث التحريم. فاستحسن القاضى بكار ذلک منه.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثمانى أذرع و اثنتا عشرة إصبعا. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و اثنتان و عشرون إصبعا.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۴۰

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۶۵]

السنة الحادية عشرة من ولاية أحمد بن طولون على مصر، و هى سنة خمس و ستين و مائتين- فيها خرج صاحب الترجمة أحمد بن طولون من مصر الى الشأم فى المحرّم، و توجّه إلى أنطاكية و حصر بها صاحبها سيما الطويل، و لم يزل مقيما عليها بآلات الحصار إلى أن أخذ أنطاكية و قتل سيما الطويل المذكور، ثم عاد الى مصر. و فيها أمر الموفّق بحبس سليمان بن وهب و ابنه عبد اللّه فحبسا، و أخذ أموالهما و عقارهما، ثم صولحا على تسعمائة ألف دينار. و فيها استوزر الخليفة المعتمد إسماعيل ابن بلبل. و فيها مات يعقوب بن الليث الصفّار بالأهواز، و خلفه أخوه عمرو بن الليث؛ فكتب عمرو بن الليث إلى المعتمد بأنه سامع مطيع. و فيها بعث. ملك الروم بعبد اللّه بن رشيد بن كاوس، الذى كان عامل الثغور و أسره الروم، إلى أحمد بن طولون مع عدّة أسارى. و فيها خرج العبّاس بن أحمد بن طولون إلى برقة مخالفا لأبيه، و كان أبوه قد استخلفه على مصر لمّا توجّه إلى حصار سيما الطويل بأنطاكية، و أخذ معه العبّاس ما فى بيت مال مصر من الأموال و ما كان لأبيه من الآلات و غيرها و توجّه إلى برقة؛ فوجّه أبوه أحمد بن طولون خلفه جيشا فقاتلوه حتى ظفروا به، و أحضروه إلى أبيه فحبسه، و قتل جماعة من القوّاد الذين كانوا معه. و فيها دخل الزّنج النّعمانية فأحرقوا سوقها و أكثر منازل أهلها و قتلوا و سبوا. و فيها ولّى الموفّق عمرو بن الليث الصفّار خراسان و كرمان و فارس و أصبهان و سجستان. و فيها حجّ بالناس هارون بن محمد

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۴۱

ابن إسحاق بن موسى بن عيسى الهاشمىّ. و فيها توفّى إبراهيم بن هانئ الحافظ أبو إسحاق النّيسابورىّ، كان أحد أئمة الحديث الرّحّالة، و اختفى أحمد بن حنبل فى داره أيام المحنة. و فيها توفّى سعدان بن نصر بن منصور أبو عثمان الثّقفىّ البزّاز، ولد سنة اثنتين و سبعين و مائة، و سمع سفيان بن عيينة و غيره، و كان أديبا شاعرا، مات فى ذى الحجة.

و فيها توفى صالح بن أحمد بن محمد بن حنبل أبو الفضل الشّيبانىّ، ولد سنة ثلاث و ثلاثين و مائتين فى [شهر] ربيع الآخر، و ولى قضاء أصبهان، و كان صدوقا كريما جوادا و رعا. و فيها توفى عبد اللّه بن محمد بن أيّوب أبو محمد الزاهد الورع، سئل قضاء بغداد فامتنع. و فيها توفّى علىّ بن الموفّق العابد، كان صاحب كرامات و أحوال، و كان محدّثا ثقة صدوقا. و فيها توفى عمرو بن مسلم الشيخ المعتقد أبو حفص النّيسابورىّ، كان من الأبدال مجاب الدعوة، مات فى [شهر] ربيع الأوّل.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و إحدى و عشرون إصبعا. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و إحدى و عشرون إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۶۶]

السنة الثانية عشرة من ولاية أحمد بن طولون على مصر، و هى سنة ست و ستين و مائتين- فيها دخل علىّ بن أبان مقدّم الزّنج الأهواز فقاتله أغرتمش

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۴۲

التركىّ فانتصر الخبيث على أغرتمش المذكور و قتل و نهب و بعث برءوس القتلى و نصبها على سور مدينته. و فيها وثب الأعراب على الحجّاج و أخذوا الكسوة، و صار بعضهم إلى صاحب الزّنج، و أصاب الحجّ شدة عظيمة. و فيها دخل أصحاب الزنج رامهرمز و استباحوها. و فيها كانت بين الأكراد و الزّنج وقعة ظهر فيها [الزّنج] فى الأوّل ثم كان النصر للأكراد على الزنج، و أعمل فيهم السيف،

و للّه الحمد و المنّة. و فيها توفى محمد بن شجاع الحافظ أبو عبد اللّه الثّلجىّ البغدادىّ الفقيه الحنفىّ أحد الأعلام، قرأ القرآن على اليزيدىّ، و روى الحروف عن يحيى بن آدم، و تفقّه على الحسن بن زياد اللؤلؤىّ و غيره، و صار إمام عصره، و به تخرّج غالب علماء عصره. و فيها توفى حمّاد [ابن الحسن] بن عنبسة الورّاق العالم المشهور. و فيها توفى محمد بن عبد الملك الدّقيقىّ.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ستّ أذرع و ستّ أصابع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و أربع عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۶۷]

السنة الثالثة عشرة من ولاية أحمد بن طولون على مصر، و هى سنة سبع و ستين و مائتين- فيها دخلت الزّنج واسطا و استباحوها و أحرقوا فيها، فجهّز الموفّق

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۴۳

ابنه أبا العباس لحربهم فى جيش عظيم، فكانت بينه و بينهم وقعة عظيمة انهزم فيها الزنج، و قتل أبو العباس فيهم مقتلة عظيمة و أسر جماعة، و فرّقهم و غرّق مراكبهم فى الماء، فكان ذلك أوّل نصر المسلمين على الزنج؛ ثم كان بعد ذلك فى هذه السنة أيضا عدّة وقائع بين الزنج و بينه و الجميع ينتصر فيها أبو العباس بن الموفّق. و فيها بنى الموفّق مدينة بإزاء مدينة صاحب الزنج، و سمّاها الموفّقيّة. و فيها وثب صاحب الترجمة أحمد ابن طولون على أحمد [بن محمد] بن المدبّر، و كان أحمد [بن محمد] بن المدبر متولى خراج دمشق و الأردنّ و فلسطين، و حبسه و أخذ أمواله، ثم صالحه على سمّائة ألف دينار.

و فيها حجّ بالناس هارون بن محمد بن إسحاق العباسىّ. و فيها توفّى على بن الحسن بن موسى بن ميسرة الهلالىّ النّيسابورىّ الدّرابجردىّ- و درابجرد محلة بنيسابور- كان من أكابر علماء نيسابور و ابن عالمهم، و له مسجد بدرابجرد يقصد للزيارة، و قيل: إنه روى عنه البخارىّ و مسلم و غيرهما، و كان ثقة صدوقا فاضلا، وجد فى مسجده ميتا بعد أسبوع و لم يعلموا به، و قيل: أكله الذئب. و فيها توفّى محمد بن حمّاد بن بكر المقرئ صاحب خلف بن هشام، كان أحد القرّاء المجوّدين و عباد اللّه الصالحين. و فيها توفّى شهيدا يحيى بن محمد بن يحيى أبو زكرياء الذّهلىّ إمام أهل نيسابور فى الفتوى و الرياسة، و كان يتفقّه على مذهب الإمام الأعظم أبى حنيفة، و هو ابن صاحب الواقعة مع محمد بن إسماعيل البخارىّ.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۴۴

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ستّ أذرع و تسع أصابع و نصف.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و أربع عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۶۸]

السنة الرابعة عشرة من ولاية أحمد بن طولون على مصر، و هى سنة ثمان و ستين و مائتين- فيها غزا خلف الفرغانىّ التركىّ، نائب أحمد بن طولون، ثغور الشام، فقتل من الروم بضعة عشر ألفا، و غنم حتى بلغ السهم أربعين دينارا. و فيها قتل أحمد بن عبد اللّه الخجستانىّ الخارج بخراسان، قتله غلمانه فى آخر السنة.

و فيها أظهر لؤلؤ الخلاف على أحمد بن طولون، و كاتب الموفّق بالقدوم عليه. و لؤلؤ المذكور من موالى أحمد بن طولون. و فيها توفّى أحمد بن سيّار بن أيوب الحافظ أبو الحسن المروزىّ إمام أهل الحديث بمرو، كان جمع بين الحديث و الفقه و الورع و الزهد، و كان يقاس بعبد اللّه بن المبارك، و قد روى عنه أئمة خراسان: البخارىّ و غيره.

و أخرج له النّسائىّ، و اتفقوا على صدقه و ثقته. و فيها توفّى أنس بن خالد بن عبد اللّه ابن أبى طلحة بن موسى بن أنس بن مالك الأنصارىّ، كان إماما حافظا، روى عنه عبد اللّه ابن الإمام أحمد بن حنبل و غيره. و فيها توفّى محمد بن عبد اللّه بن عبد الحكم أبو عبد اللّه فقيه أهل مصر و محدّثهم، ولد سنة اثنتين و ثمانين و مائة، و مات بمصر فى ذى القعدة و صلّى عليه القاضى بكّار، و كان يعرف بصاحب الشافعىّ لأنه أسند عنه، و كان مالكىّ المذهب، و امتحن بعد أن حمل إلى بغداد فثبت على السنّة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و خمس عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و ستّ عشرة إصبعا.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۴۵

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۶۹]

السنة الخامسة عشرة من ولاية أحمد بن طولون على مصر و هى سنة تسع و ستين و مائتين- فيها قطعت الأعراب الطريق على [قافلة من] الحاجّ، و أخذت خمسمائة جمل بأحمالها. و فيها وثب خلف الفرغانىّ التركىّ عامل أحمد بن طولون، على يازمان خادم الفتح بن خاقان و حبسه بالثغور، فخلّصه الجند و همّوا بقتل خلف، فهرب إلى دمشق؛ فاتفقوا و لعنوا أحمد بن طولون على المنابر. فبلغ ابن طولون، فسار من مصر حتى نزل أذنة و قد تحصّن بها يا زمان المذكور؛ فأقام ابن طولون مدّة على حصاره فلم ينل منها طائلا، فعاد إلى دمشق. و فيها استولى الموفّق على مدينة صاحب الزّنج و دخلها عنوة. و فيها توفى أحمد بن عبد اللّه بن القاسم الحافظ أبو بكر الورّاق على الصحيح؛ حدّث عن عبد اللّه بن معاذ العنبرىّ و غيره، و روى عنه [أبو] سعيد بن الأعرابىّ و غيره. و فيها توفّى الحسن بن مخلد بن الجرّاح أبو محمد الكاتب الوزير، ولد سنة تسع و مائتين، و كان يتولّى ديوان الضّياع للمتوكّل جعفر، و استوزره المعتمد. و فيها توفّى خالد بن أحمد بن عمرو الأمير أبو الهيثم الذّهلىّ، ولى إمرة مرو و هراة و بخارى و غيرها؛ و كان من أهل السنّة، و له أيام مشهورة و أمور

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۴۶

محمودة. قال ابن قزأوغلى فى تاريخه: و هو الذى نفى البخارىّ عن بخارى لمّا قال:

لفظى بالقرآن مخلوق؛ و كان يحبّ العلماء و الحديث؛ أنفق فى طلب الحديث و العلم ألف ألف درهم. و فيها توفّى عيسى بن الشيخ بن السّليل أبو موسى الذّهلىّ الشّيبانىّ.

كان غلب على دمشق أيام المهتدى و أوّل أيام المعتمد. و فيها توفّى محمد بن إبراهيم أبو حمزة الصّوفىّ البغدادىّ أستاذ البغداديين، و هو أوّل من تكلم فى هذه المذاهب: من صفاء الذكر و جمع الهمّ و المحبّة و العشق و الأنس، لم يسبقه إلى الكلام بهذا على رءوس المنابر ببغداد أحد؛ كان عالما بالقراءات، و جالس الإمام أحمد بن حنبل؛ و كان الإمام أحمد إذا جرى فى مسألة شىء من كلام القوم يلتفت إليه و يقول: ما تقول فى هذه المسألة يا صوفىّ. و صحب سريّا السّقطىّ و الجنيد و حسنا المسوحىّ و غيرهم.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و ستّ عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و عشرون إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۷۰]

اشارة

السنة السادسة عشرة من ولاية أحمد بن طولون على مصر، و هى سنة سبعين و مائتين، أعنى التى مات فيها أحمد بن طولون المذكور- فيها كانت أيضا

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۴۷

وقائع بين الموفّق طلحة و بين صاحب الزّنج، قتل فى آخرها صاحب الزنج علىّ، لعنه اللّه تعالى. و فيها انشقّ ببغداد [فى] الجانب الغربىّ شقّ من نهر عيسى، فجاء الماء إلى الكرخ فهدم سبعة آلاف دار. و فيها ظهر أحمد بن عبد اللّه بن إبراهيم العلوىّ بصعيد مصر و تبعه خلق كثير، فجهّز إليه أحمد بن طولون جيشا، فكانت بينهم حروب حتى ظفر أصحاب ابن طولون به، فحملوه إليه فقتله و مات بعده بيسير. و فيها بنى أحمد ابن طولون على قبر معاوية بن أبى سفيان أربعة أروقة، و رتّب عند القبر أناسا يقرءون القرآن و يوقدون الشموع عند القبر. و فيها توفّى إسماعيل بن عبد اللّه بن ميمون ابن عبد الحميد بن أبى الرجال الحافظ أبو نصر العجلىّ، سمع خلقا كثيرا، و روى عنه غير واحد، و كان ثقة شاعرا فصيحا، و مات و له أربع و ثمانون سنة. و فيها توفّى القاضى بكّار بن قتيبة بن عبد اللّه، و قيل: قتيبة بن أسد، بن [أبى] بردعة بن عبيد اللّه [ابن بشير بن عبيد اللّه] بن أبى بكرة الثّقفىّ، مولى رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم. و كنية القاضى بكّار هذا أبو بكرة، القاضى البصرىّ الحنفىّ؛ ولد بالبصرة سنة اثنتين و ثمانين و مائة، و هو أحد الأئمة الأعلام، كان عالما فقيها محدّثا صالحا و رعا عفيفا ثقة، مات و هو أعلم أهل زمانه بالديار المصرية. و فيها توفّى داود بن علىّ بن خلف أبو سليمان الظاهرىّ صاحب مذهب الظاهرية المعروف بداود الظاهرىّ، و هو أوّل من نفى القياس فى الأحكام الشرعية و تمسّك بظواهر النصوص؛ و أصله من أصبهان،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۴۸

و سمع الكثير و لقى الشيوخ و تبعه خلق كثير، و قدم بغداد و صنّف بها الكتب، و توفّى بها فى رمضان، و قيل: فى ذى القعدة. و فيها توفّى الرّبيع بن سليمان بن عبد الجبّار ابن كامل أبو محمد المرادىّ الفقيه صاحب الشافعىّ رضى اللّه عنه، نقل عنه معظم أقاويله، و كان فقيها فاضلا ثقة ديّنا، مات بمصر فى شوّال و صلّى عليه صاحب مصر خمارويه ابن أحمد بن طولون. و فيها توفى عبد اللّه بن محمد بن شاكر أبو البخترىّ العنبرىّ الكوفىّ، كان محدّثا فاضلا، قدم بغداد و حدّث بها. و فيها توفّى علىّ بن محمد صاحب الزّنج و قائدهم، و قيل: اسمه نهيود، و هو صاحب الوقائع المقدّم ذكرها مع الموفّق و عساكره؛ و كانت مدّة إقامته أربع عشرة سنة و أربعة أشهر و عشرة أيام، و لقى الناس منه فى هذه المدّة شدائد؛ قال الصّولىّ: قتل من المسلمين ألف ألف و خمسمائة ألف ما بين شيخ و شابّ و ذكر و أنثى، و قتل فى يوم واحد بالبصرة ثلاثمائة ألف، و كان له منبر فى مدينته يصعد عليه و يسبّ عثمان و عليّا و معاوية و طلحة و الزبير و عائشة رضى اللّه عنهم، و هذا هو رأى الخوارج الأزارقة- لعنة اللّه عليهم- و استراح المسلمون بموته كثيرا، و للّه الحمد، و فيها توفّى الفضل بن عبّاس بن موسى الأستراباذىّ، سمع أبا نعيم و روى عنه أبو نعيم عبد الملك بن عدىّ، كان فقيها فاضلا مقبول القول عند الخاصّ و العامّ. و فيها توفى محمد [بن اسحاق] بن جعفر الحافظ أبو بكر الصّغانىّ، رحل فى طلب الحديث، و سمع الكثير، و لقى الشيوخ و كتبوا عنه. و فيها توفى محمد بن الحسين بن المبارک أبو جعفر، و يعرف بالأعرابىّ،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۴۹

روى عنه ابن صاعد و غيره. و فيها توفى محمد بن مسلم بن عثمان الرازىّ، و يعرف بابن وارة، كان أحد الحفّاظ الرّحالين و العلماء المتقنين مع الدّين و الورع و الزهد.

و فيها توفّى نصر بن الليث بن سعد أبو منصور البغدادىّ الورّاق، أخرج له الخطيب حديثا يرفعه إلى عثمان بن عفّان.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و ثمانى عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و عشرون إصبعا.

ذكر ولاية خمارويه على مصر

هو خمارويه و قيل خمار بن أحمد بن طولون، التركىّ، السّامرّىّ المولد، المصرىّ الدار و الوفاة، تقدّم التعريف بأصله فى ترجمة أبيه أحمد بن طولون؛ الأمير أبو الجيش خمارويه ملك مصر و الشأم و الثغور بعد موت أبيه بمبايعة الجند له فى يوم الأحد العاشر من ذى القعدة سنة سبعين و مائتين. و عند ما ولىّ إمرة مصر أمر بقتل أخيه العباس الذى كان فى حبس أبيه أحمد بن طولون لامتناع العبّاس من مبايعة خمارويه هذا، فقتل. و أمّ خمارويه أمّ ولد يقال لها ميّاس، ولد بسرّمن‌رأى فى سنة خمس و خمسين و مائتين.

و أوّل ما ملك مصر عقد لأبى عبد اللّه أحمد [بن محمد] الواسطىّ على جيش إلى الشأم لستّ خلون من ذى الحجّة سنة سبعين و مائتين المذكورة؛

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۵۰

و عقد لسعد الأيسر على جيش آخر؛ و بعث بمراكب فى البحر لتقيم بالسواحل الشاميّة؛ فنزل الواسطىّ فلسطين و هو خائف من خمارويه أن يوقع به، لأنه كان أشار عليه بقتل أخيه العبّاس؛ فكتب الواسطىّ إلى أبى أحمد الموفّق يصغّر أمر خمارويه عنده و يحرّضه على المسير إلى قتاله، فأقبل ابن الموفّق من بغداد، و قد انضم إليه إسحاق بن كنداج و محمد بن [ديوداد] أبى السّاج، و نزل الرّقّة فتسلّم قنّسرين و العواصم- و كان خمارويه جميع الشام و الثغور داخلة فى سلطانه- ثم سار ابن الموفّق حتى قاتل أصحاب خمارويه و هزمهم و دخل دمشق؛ فخرج خمارويه فى جيش عظيم لعشر خلون من صفر سنة إحدى و سبعين و مائتين؛ فالتقى مع ابن الموفّق بنهر أبى فطرس المعروف بالطواحين من أرض فلسطين، فاقتتلا فانهزم أصحاب خمارويه، و كان خمارويه فى سبعين ألفا، و ابن الموفّق فى نحو أربعة آلاف، و احتوى على عسكر خمارويه بما فيه. و مضى خمارويه عائدا إلى مصر مهزوما، فخرج كمين كان له مع سعد الأيسر و لم يعلم سعد أنّ خمارويه انهزم؛ فحارب سعد الأيسر ابن الموفّق حتى هزمه و أزاله عن عسكره اثنى عشر ميلا. [و رجع أبو العباس إلى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۵۱

دمشق فلم تفتح له]. ثم مضى سعد الأيسر الى دمشق، و طمع فى البلاد الشامية و استخفّ بخمارويه و غيره، ثم استولى على دمشق.

و وصل خمارويه إلى مصر فى ثالث شهر ربيع الأوّل من السنة، و لم يعلم ما وقع لسعد الأيسر؛ فلمّا بلغه خبره خرج ثانيا إلى دمشق لسبع بقين من شهر رمضان من السنة فوصل إلى فلسطين، ثم عاد بعساكره من غير حرب لأمور وقعت فى ثامن عشر شوّال؛ و استمرّ بمصر إلى أن خرج ثالثا إلى الشام فى ذى القعدة سنة اثنتين و سبعين و مائتين. و قد خرج سعد الأيسر عن طاعته من يوم الواقعة، فقاتل سعدا الأيسر المذكور و هزمه و ظفر به و قتله، و دخل دمشق و ملكها فى سابع المحرّم من سنة ثلاث و سبعين و مائتين، و أقام بها أياما؛ ثم سار لقتال ابن كنداج فتقاتلا، فكانت الهزيمة أوّلا على خمارويه و انهزم جميع أصحابه و ثبت هو فى طائفة [من حماته]، و قاتل ابن كنداج المذكور حتّى هزمهم و تبعهم بأصحابه حتى وصلت أصحاب خمارويه إلى سرّ من رأى بالعراق؛ و عظم أمر خمارويه فى هذه الوقعة و هابته الناس.

ثم كتب خمارويه إلى أبى أحمد الموفّق طلحة فى الصلح، فأجابه أخو الخليفة الموفّق لذلك؛ و كتب لخمارويه بولايته على مصر و الشام جميعه و الثغور ثلاثين سنة؛ و قدم بالكتاب بعض خدّام الموفّق إلى الشام فى شهر رجب، و عرّفه الخادم أنّ الكتاب كتبه الخليفة المعتمد و أخوه الموفّق و ابنه بأيديهم تعظيما لخمارويه، فسرّ خمارويه بذلك، و عاد إلى مصر فى أواخر رجب المذكور، و أمر بالدعاء لأبى أحمد الموفّق

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۵۲

المذكور بعد الخليفة و ترك الدعاء عليه؛ فإنه كان يدعى عليه بمصر من مدّة سنين من أيام إمارة أبيه أحمد بن طولون من يوم وقّع بين الموفّق و بين أحمد بن طولون، و خلع ابن طولون الموفّق من ولاية عهد الخلافة، و أمر القاضى بكّار بن قتيبة بخلعه فلم يوافقه

بكّار على ذلك، فحبسه أحمد بن طولون بهذا المقتضى. و قد ذكرنا ذلك كلّه فى آخر ترجمة أحمد بن طولون.

و لما اصطلح خمارويه مع الموفّق عظم أمره و سكنت الفتنة، فإنه كان فى كل قليل يخرج العساكر المصريّة لقتال عسكر الموفّق، فلما اصطلحا زال ذلك كلّه؛ و أخذ خمارويه فى إصلاح ممالكه، و ولّى بمصر على المظالم [محمد بن] عبدة بن حرب. ثم بلغ خمارويه مسير محمد بن [ديوداد] أبى السّاج الى أعماله بمصر، فخرج بعساكره فى ذى القعدة و لقيه بثنيّة العقاب فى دمشق، و قاتله و اشتدّ الحرب بين الفريقين و انكسر عساكر خمارويه، فثبت هو مع خاصّيته على عادته و قاتل ابن أبى الساج حتى هزمه أقبح هزيمة، و قتل فى أصحابه مقتلة عظيمة و أسروغنم، و عاد الى الديار المصرية فدخلها فى رابع عشرين جمادى الآخرة سنة ست و سبعين و مائتين؛ فأقام بمصر مدّة يسيرة و خرج الى الإسكندرية فى رابع شوّال، ثم عاد إلى مصر بعد مدّة يسيرة فأقام بها قليلا؛ ثم خرج الى الشام فى سنة سبع و سبعين و مائتين لأمر اقتضى ذلك، و عاد بعد أيام إلى الديار المصريّة، فورد عليه الخبر بها بموت الموفّق فى سنة ثمان و سبعين و مائتين؛ ثم ورد عليه الخبر فى سنة تسع و سبعين و مائتين بموت الخليفة المعتمد؛ و بويع بالخلافة المعتضد أبو العباس أحمد بن الموفّق طلحة بعد عمّه المعتمد؛ فبعث خمارويه إلى المعتضد بهدايا و تحف، فسأله أن يزوّج

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۵۳

ابنته قطر الندى لولده المكتفى بالله؛ فقال المعتضد: بل أنا أتزوّجها، فتزوّجها فى سنة إحدى و ثمانين و مائتين، و دخل بها ببغداد فى آخر العام، و أصدقها ألف ألف درهم. يقال. إنّ المعتضد أراد بزواجها أن يفقر أباها خمارويه فى جهازها؛ و كذا وقع، فإنّه جهّزها بجهاز عظيم يتجاوز الوصف، حتى قيل: إنّه دخل معها فى جملة جهازها ألف هاون من الذهب. و لما تصاهر خمارويه مع المعتضد زالت الوحشة من بينهما، و صار بينهما مودّة كبيرة. و ولّاه المعتضد من الفرات إلى برقة ثلاثين سنة؛ و جعل إليه الصّلاة و الخراج [و القضاء] بمصر و جميع الأعمال، على أنّ خمارويه يحمل إلى المعتضد فى العام مائتى ألف دينار عما مضى، و ثلثمائة ألف دينار عن المستقبل. ثم قدم بعد ذلك رسول المعتضد إلى خمارويه بالخلع و كانت اثنتى عشرة خلعة و سيفا و تاجا و وشاحا. انتهى ما سقناه من وقائع خمارويه. و لا بدّ من ذكر شيء من أحواله و ما جدّده فى الديار المصرية من شعار الملك فى أيام إمرته بها.

و لما ملك خمارويه الديار المصريّة بعد موت أبيه أحمد بن طولون أقبل على عمارة قصر أبيه و زاد فيه محاسن كثيرة؛ و أخذ الميدان الذى كان لأبيه المجاور للجامع فجعله كلّه بستانا، و زرع فيه أنواع الرياحين و أصناف الشجر، و حمل إليه كلّ صنف من الشجر المطعّم و أنواع الورد، و زرع فيه الزعفران، و كسا أجسام النخل نحاسا مذهبا حسن الصنعة، و جعل بين النّحاس و أجسام النخل مزاريب الرّصاص، و أجرى فيها الماء المدبّر؛ فكان يخرج من تضاعيف قائم النخل عيون الماء فينحدر الى

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۵۴

فساقىّ معمولة، و يفيض الماء منها إلى مجار تسقى سائر البستان؛ و غرس فى أرض البستان من الرّيحان المزروع فى زىّ نقوش معمولة و كتابات مكتوبة، يتعاهدها البستانىّ بالمقاريض حتى لا تزيد ورقة على ورقة لئلا يشكل ذلك على القارئ،

و حمل إلى هذا البستان النخل من خراسان و غيرها؛ ثم بنى فى البستان برجا من الخشب الساج المنقوش بالنقر النافذ، و طعّمه ليقوم هذا البرج مقام الأقفاص؛ و بلّط أرضه و جعل فيه أنهارا لطافا يجرى فيها الماء المدبّر من السواقى؛ و سرّح فى البرج من أصناف القمارىّ و الدّباسىّ و النوبيات و ما أشبهها من كلّ طائر يستحسن صوته، و أطلقها بالبرج المذكور، فكانت تشرب و تغتسل من تلك الأنهار؛ و جعل فى البرج أوكارا فى قواديس لطيفة ممكّنة فى جوف الحيطان ليفرخ الطيور فيها؛ و عارض لها فيه عيدانا ممكّنة فى جوانبه لتقف عليها إذا تطايرت حتى يجاوب بعضها بعضا بالصياح؛ و سرّح فى البستان من الطير العجيب كالطواويس و دجاج الحبش و نحو ذلك شيئا كثيرا. و مل فى هذا البستان مجلسا له سمّاه دار الذهب، طلى حيطانه كلّها بالذهب و اللّازورد فى أحسن نقش؛ و جعل فى حيطانه مقدار قامة و نصف صورا بارزة من خشب معمول على صورته و صور حظاياه و المغنيات اللاتى تغنّيه

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۵۵

فی أحسن تصویر و أبهج تزویق؛ و جعل علی رءوسهنّ الأکالیل من الذهب و الجواهر المرصّعة، و فی آذانها الأخراص الثّقال؛ و لوّنت أجسامها بأصناف تشبه الثیاب من الأصباغ العجیبة، فکان هذا القصر من أعجب ما بنی فی الدنیا.

و جعل بین یدی هذا القصر فسقیّة ملأها زئبقا. و سبب ذلک أنه اشتکی إلی طبیبه کثرة السهر و عدم النوم، فأشار علیه بالتکبیس، فأنف من ذلک و قال: لا أقدر علی وضع ید أحد علیّ؛ فقال له الطبیب: تأمر بعمل برکة من زئبق، فعمل البرکة المذکورة، و طولها خمسون ذراعا فی خمسین ذراعا عرضا و ملأها من الزئبق، فأنفق فی ذلک أموالا عظیمة؛ و جعل فی أرکان البرکة سککا من فضة، و جعل فی السکک زنانیر من حریر محکمة الصنعة فی حلق من فضّة، و عمل فرشا من أدم یحشی بالریح حتی ینتفخ فیحکم حینئذ شدّه، و یلقی علی تلک البرکة الزئبق و یشدّ بالزنانیر الحریر التی فی حلق الفضة المقدّم ذکرها، و ینزل خمارویه فینام علی هذا الفرش، فلا یزال الفرش یرتجّ و یتحرّک بحرکة الزئبق ما دام علیه. و کانت هذه البرکة من أعظم الهمم الملوکیّة العالیة؛ و کان یری لها فی اللیالی المقمرة منظر عجیب إذا تألّف نور القمر بنور الزئبق.

قال القضاعیّ: و لقد أقام الناس مدّة طویلة بعد خراب هذا القصر یحفرون لأخذ الزئبق من شقوق البرکة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۵۶

ثم بنی خمارویه فی القصر أیضا قبّة تضاهی قبة الهواء سماها الدّکة، و جعل لها السّتر الذی یقی الحسرّ و البرد فیسدل حیث شاء و یرفع متی أحبّ؛ و کان کثیرا ما یجلس فی هذه القبة لیشرف منها علی جمیع ما فی داره من البستان و الصحراء و النیل و الجبل و جمیع المدینة. ثم بنی میدانا آخر أکبر من میدان أبیه. و بنی أیضا فی داره المذکورة دارا للسباع و عمل فیها بیوتا کل بیت لسبع لم یسع البیت غیر السبع و لبؤته، و عمل لتلک البیوت أبوابا تفتح من أعلاها بحرکات، و لکلّ بیت منها طاقة صغیرة یدخل منها الرجل الموکّل بخدمة ذلک البیت لفرشه بالرمل؛ و فی جانب کل بیت حوض من الرّخام بمیزاب من نحاس یصبّ فیه الماء، و بین یدی هذه البیوت رحبة فسیحة کالقاعة فیها رمل مفروش، و فی جانبها حوض کبیر من رخام یصبّ فیه ماء من میزاب کبیر، فإذا أراد سائس من سوّاس بعض السباع المذکورة [أن] ینظّف بیت ذلک السبع أو یضع له غذاءه من اللحم، رفع الباب بحیلة من أعلی البیت و صاح علی السبع یخرج الی الرحبة المذکورة؛ ثم یردّ الرجل الباب و ینزل الی البیت من الطاقة و یکنسه و یبدّل الرمل بغیره من الرمل النظیف، و یضع غذاءه من اللحم فی مکانه بعد ما یقطّع اللحم قطعا و یغسل الحوض و یملؤه ماء، ثم یخرج الرجل و یرفع الباب من أعلاه کما فعل أوّلا، و قد عرف السبع ذاک، فحالما یرفع الباب دخل السبع الی بیته و أکل ما هیّئ له من اللحم؛ فکانت هذه الرحبة فیها عدّة سباع و لهم أوقات یفتح فیها سائر بیوت السباع فتخرج الی الرحبة المذکورة و تشمّس فیها و یهارش بعضها بعضا فتقیم، یوما کاملا إلی العشیّ و خمارویه و عساکره تنظر إلیها؛ فإذا کان العشیّ یصیح

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۵۷

علیها السّوّاس فیدخل کل سبع إلی بیته لا یتعدّاه إلی غیره. و کان من جملة هذه السباع سبع أزرق العینین یقال له "زریق "قد أنس بخمارویه و صار مطلقا فی الدار لا یؤذی أحدا و راتبه علی عادة السباع، فلا یلتفت إلی غذائه بل ینتظر سماط خمارویه، فإذا نصبت المائدة أقبل زریق معها و ربض بین یدی خمارویه، فیبقی خمارویه یرمی إلیه بیده الدّجاجة بعد الدجاجة و القطعة الکبیرة من اللحم و نحو ذلک مما علی المائدة؛ و کانت له لبؤة لم تأنس بالناس کما أنس هو، فکانت محبوسة فی بیت و له وقت معروف یجتمع بها [فیه]، و کان إذا نام خمارویه جاء زریق و قعد لیحرسه، فإن کان [قد] نام علی سریره ربض بین یدی السریر و جعل یراعیه ما دام نائما، و إن نام خمارویه علی الأرض قعد قریبا منه و تفطّن لمن یدخل أو یقصد خمارویه لا یغفل عن ذلک لحظة واحدة؛ و کان فی عنق زریق طوق من ذهب فلا یقدر أحد أن یدنو من خمارویه ما دام نائما لمراعاة زریق له و حراسته إیاه، حتی أراد اللّه إنفاذ قضائه فی خمارویه کان بدمشق و زریق بمصر، و لو کان زریق حاضرا لما کان یصل إلی خمارویه أحد. فما شاء اللّه کان.

و کان خمارویه أیضا قد بنی دارا جدیدة للحرم من أمّهات أولاد أبیه [مع أولادهنّ و جعل معهنّ المعزولات من أمهات أولاده] و

جعل فيها لكل واحدة حجرة واسعة، لتكون لهم بعد زوال دولتهم، و أقام لكلّ حجرة من الخدم

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة؛ ج۳؛ ص۵۷

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۵۸

و الأسمطة الواسعة ما كان يفضل عن أهلها منه شىء كثير؛ و كان الخدم الموكّلون بالحرم من الطبّاخين و غيرهم يفضل لكلّ منهم مع كثرة عددهم الشىء الكثير من الدّجاج و لحم الضأن و الحلوى و القطع الكبار من الفالوذج و الكثير من اللّوزينج و القطائف و الهبرات من العصيدة التى تعرف اليوم بالمأمونية و أشباه ذلک مع الأرغفة الكبار؛ و اشتهر بمصر بيع الخدم لذلک؛ فكان الناس يأتونهم لذلک من البعد و يشترون منهم ما يتفكّهون به من الأنواع الغريبة من المأكل؛ و كان هذا دواما فى كلّ وقت بحيث إنّ الرجل إذا طرقه ضيف خرج من فوره الى باب دار الحرم فيجد ما يشتريه ليتجمّل به لضيفه مما لا يقدر على عمل مثله. ثم أوسع خمارويه اصطبلاته لكثرة دوابّه فعمل لكلّ صنف من الدوابّ إصطبلا حتى للجمال، ثم جعل للفهود دارا مفردة، ثم للنّمورة دارا مفردة، و للفيلة كذلک، و للزرافات كذلک؛ و هذا كان سوى الاصطبلات التى كانت فى الجيزة و مثلها فى نهيا و وسيم و سفط و طهرمس؛ و كانت هذه الضياع لا تزرع إلا القرط برسم الدوابّ؛ و كان للخليفة أيضا إصطبلات بمصر سوى ذلک، فيها الخيل لحلبة السباق

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۵۹

و للرّباط فى سبيل اللّه برسم الغزو، و على كل إصطبل وكلاء لهم الرزق السّنىّ و الأموال المتّسعة.

و بلغ رزق الجيش المصرىّ فى أيام خمارويه فى السنة تسعمائة ألف دينار؛ و كان مصروف مطبخ خمارويه فى كل شهر ثلاثة و عشرين ألف دينار، و هذا سوى مصروف حرمه و جواريه و ما يتعلق بهنّ. و كان خمارويه قد اتّخذ لنفسه من مولّدى الحوف و سائر الضياع قوما معروفين بالشجاعة و شدّة البأس؛ لهم خلق تامّ و عظم أجسام، و أجرى عليهم الأرزاق و وسّع لهم فى الغطاء، و شغلهم عما كانوا فيه من قطع الطريق و أذيّة الناس بخدمته، و ألبسهم الأقبية من الحرير و الديباج و صاغ لهم المناطق و قلّدهم بالسيوف المحلّاة يضعونها على أكتافهم إذا مشوا بين يديه و سمّاهم المختارة؛ فكان هؤلاء يقاتلون أمام جند خمارويه أضعاف ما يقاتله الجند.

و كان إذا ركب خمارويه و مضى الحجّاب بين يديه و مشى موكبه على ترتيبه و مضت أصناف العسكر و طوائفه، تلاهم السودان و عدّتهم ألف أسود لهم درق من حديد محكمة الصنعة و عليهم أقبية سود و عمائم سود، فيخالهم الناظر إليهم بحرا أسود يسير على وجه الأرض لسواد ألوانهم [و سواد ثيابهم]، و يصير لبريق درقهم و حلىّ سيوفهم و الخوذ التى على رءوسهم من تحت العمائم زىّ بهج الى الغاية؛ فإذا مضى السودان قدم خمارويه و قد انفرد عن موكبه و صار بينه و بين الموكب نحو نصف غلوة سهم، و خواصّه تحفّ به.

و كان خمارويه طويل القامة و يركب فرسا تامّا فيصير كالكوكب، إذا أقبل لا يخفى

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۶۰

على أحد كأنه قطعة جبل. و كان خمارويه مهيبا ذا سطوة، قد وقع فى قلوب الناس أنه متى أشار إليه أحد بيده أو تكلّم أو قرب منه لحقه ما يكره؛ و كان إذا سار فى موكبه لا يسمع من أحد كلمة و لا سعلة و لا عطسة و لا نحنحة البتّة كأنّما على رءوسهم الطير؛ و كان يتقلّد فى يوم العيد سيفا بحمائل، و لا يزال يتفرّج و يتنزّه و يخرج الى المواضع التى لم يكن أبوه يخرج اليها كالأهرام و مدينة العقاب و نحو ذلک لأجل الصيد، فإنه كان مشغوفا به، لا يكاد يسمع بسبع إلا قصده و معه رجال عليهم لبود فيدخلون الى الأسد و يتناولونه بأيديهم من غابته عنوة و هو سليم، فيضعونه فى أقفاص من خشب محكمة الصنعة تسع الواحد من السباع و هو قائم؛ فإذا قدم خمارويه من الصيد سار القفص [و فيه السبع] بين يديه. و كانت حلبة السّباق فى أيّامه تقوم عند الناس مقام الأعياد لكثرة الزينة و ركوب سائر الجند و العساكر بالسلاح [التامّ و العدد الكاملة]، و يجلس الناس لرؤية ذلک كما يجلسون فى الأعياد.

قلت: و التشبيه أيضا بتلک الأعياد لا بأعياد زماننا هذا، فإن أعيادنا الآن كالمآتم بالنسبة لتلک الأعياد السالفة. انتهى.

و قال القضاعیّ: و کان أحمد بن طولون بنی المنظر لعرض الخیل. قال.

و کان عرض الخیل من عجائب الإسلام الأربع؛ و الأربع العجائب: منها کان عرض الخیل بمصر، و رمضان بمکّة، و العید بطرسوس، و الجمعة ببغداد. ثم قال القضاعیّ: و قد ذهب اثنتان من الأربع: عرض الخیل بمصر، و العید بطرسوس.

انتهی.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۶۱

و قال المقریزی: و قد ذهبت الجمعة ببغداد بعد القضاعی بقتل هولاکو للخلیفة المستعصم ببغداد. و زالت شعائر الإسلام من العراق؛ [و بقیت مکة شرّفها اللّه تعالی، و لیس فی شهر رمضان الآن بها ما یقال فیه: إنّه من عجائب الإسلام].

انتهی کلام المقریزی رضی اللّه عنه.

قلت: و ما زال أمر خمارویه فی تزاید إلی أن ماتت حظیّته بوران التی بنی لها القصر المعروف ببیت الذهب المقدّم ذکره، فکدّر موتها عیشه و انکسر انکسارا بان علیه. ثم إنه أخذ فی تجهیز ابنته قطر الندی لمّا تزوّجها الخلیفة المعتضد، فجهّزها جهازا ضاهی به نعمة الخلافة. و قد ذکرنا سبب زواج الخلیفة بابنته قطر الندی المذکور فی أوائل ترجمته، و وعدنا بذکر جهازها فی آخر الترجمة فی هذا المحل.

و کان من جملة جهازها دکّة أربع قطع من ذهب علیها قبّة من ذهب مشبّک فی کل عین من التشبیک قرط معلّق فیه حبّة من جوهر لا یعرف لها قیمة، و مائة هاون من الذهب. و قال الذهبیّ: و ألف هاون من ذهب. قال القضاعیّ: و عقد المعتضد النکاح علی ابنته قطر الندی فحملها أبو الجیش خمارویه إلی المعتضد مع

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۶۲

أبی عبد اللّه بن الجصّاص، و حمل معها من الجهاز ما لم یر مثله و لا یسمع به.

و لما دخل إلی خمارویه ابن الجصّاص یودّعه قال له خمارویه: هل بقی بینی و بینک حساب؟ قال: لا؛ فقال خمارویه: انظر حسنا، فقال: کسر بقی من الجهاز؛ فقال خمارویه: أحضروه، فأخرج ربع طومار فیه ثبت ذکر نفقة الجهاز فإذا فیه أربعمائة ألف دینار، فوهبها له خمارویه. قال محمد بن علیّ الماذرائی: فنظرت فی الطومار فإذا فیه [": و] ألف تکّة الثمن [عنها] عشرة آلاف دینار. "قال القضاعیّ:

و إنما ذکرت هذا الخبر لیستدلّ به علی [أشیاء: منها] سعة نفس أبی الجیش خمارویه؛ و منها کثرة مال ابن الجصّاص، حتی إنّه قال: کسر بقی من الجهاز، و هو أربعمائة ألف دینار، لو لم یذکّره بذلک لم یذکره؛ و منها: عمارة مصر فی ذلک الزمان لما طلب فیها ألف تکّة من أثمان عشرة دنانیر قدر علیها فی أیسر وقت بأهون سعی، و لو طلب الیوم خمسون لم یقدر علیها. انتهی کلام القضاعی.

قال المقریزی: و لا یعرف الیوم فی أسواق القاهرة تکّة بعشرة دنانیر إذا طلبت توجد فی الحال و لا بعد شهر، إلا أن یعتنی بعملها. انتهی کلام المقریزی.

و لمّا فرغ خمارویه من جهاز ابنته قطر النّدی أمر فبنی لها علی رأس کل منزلة تنزل فیها قصر فیما بین مصر و بغداد. و أخرج معها خمارویه أخاه خزرج بن أحمد ابن طولون فی جماعة مع ابن الجصّاص، فکانوا یسیرون بها سیر الطفل فی المهد؛

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۶۳

فکانت إذا وافت المنزلة وجدت قصرا قد فرش، فیه جمیع ما تحتاج إلیه. و قد علّقت فیه الستور و أعدّ فیه کلّ ما یصلح لمثلها. و کانت فی مسیرها من مصر الی بغداد علی بعد الشّقة کأنّها فی قصر أبیها، حتی قدمت بغداد فی أوّل المحرّم سنة اثنتین و ثمانین و مائتین؛ و هی سنة قتل فیها خمارویه المذکور، علی ما سیأتی ذکره.

و لمّا دخل بها الخلیفة المعتضد أحبّها حبّا شدیدا لجمال صورتها و کثرة آدابها.

قيل: إنّه خلا- بها فى بعض الأيّام فوضع رأسه على ركبتها و نام، و كان المعتضد كثير التحرّز على نفسه؛ فلما نام تلطّفت به و أزالت رأسه عن ركبتها و وضعتها على و سادة، ثم تنحّت عن مكانها و جلست بالقرب منه فى مكان آخر؛ فانتبه المعتضد فزعا و لم يجدها، فصاح بها فكلمته فى الحال؛ فعتبها على ما فعلت من إزالة رأسه عن ركبتها، و قال لها: أسلمت نفسى لك فتركتنى وحيدا و أنا فى النوم لا- أدرى ما يفعل بى! فقالت: يا أمير المؤمنين، ما جهلت قدر ما أنعمت به علىّ، و لكن فيما أدّبنى به والدى خمارويه: أنى لا أجلس مع النّيام و لا أنام مع الجلوس؛ فأعجبه ذلك منها الى الغاية. قلت: للّه درّها من جواب أجابته به!.

و لمّا فرغ خمارويه من جهاز ابنته قطر الندى المذكورة و أرسلها إلى زوجها المعتضد بالله، تجهّز و خرج إلى دمشق بعساكره، و أقام بها إلى أن قتل على فراشه فى السنة المذكورة.

قال العلامة شمس الدين فى تاريخه مرآة الزمان: كان خمارويه كثير الفساد بالخدم، دخل الحمّام مع جماعة منهم فطلب من بعضهم الفاحشة فامتنع الخادم

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۶۴

حياء من الخدم؛ فأمر خمارويه أن يضرب، فلم يزل يصيح حتى مات فى الحمّام، فأبغضه الخدم. و كان قد بنى قصرا بسفح قاسيون أسفل من دير مرّان يشرب فيه [الخمر]، فدخل تلك الليلة الحمّام فذبحه خدمه، و قيل: ذبحوه على فراشه و هربوا، و قيل غير ذلك: إنّ بعض خدمه يولع بجارية له فتهدّدها خمارويه بالقتل، فاتّفقت مع الخادم على قتله. و كان ذبحه فى منتصف ذى الحجة، و قيل: لثلاث خلون منه من سنة اثنتين و ثمانين و مائتين. و كان الأمير طغج بن جفّ معه فى القصر فى تلك الليلة، فبلغه الخبر فركب فى الحال و تتبع الخدم و كانوا نيّفا و عشرين خادما، فأدركهم و قبض عليهم و ذبحهم و صلبهم، و حمل أبا الجيش خمارويه فى تابوت من دمشق إلى مصر و صلّى عليه ابنه جيش و دفن. و يقال: إنّه دفن بالقصر إلى جانب أبى عبيدة البرانىّ؛ فرآه بعض أصحابه فى المنام فقال له: ما فعل اللّه بك؟ فقال:

غفر لى بالقرب من أبى عبيدة و مجاورته. انتهى كلام صاحب المرآة. و قال غيره: قتل على فراشه، ذبحه جواريه و خدمه و حمل فى صندوق الى مصر.

و كان لدخول تابوته إلى مصر يوم عظيم، استقبله جواريه و جوارى غلمانه و نساء قوّاده بالصّياح و ما تصنع النساء فى المآتم؛ و خرج الغلمان و قد حلّوا أقبيتهم و فيهم من سوّد ثيابه و شقّها، فكانت فى البلد ضجّة و صرخة حتى دفن. و كانت مدّة ملكه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۶۵

على مصر و الشام اثنتى عشرة سنة و ثمانية عشر يوما. و تولّى مصر بعده ابنه أبو العساكر جيش بن خمارويه بن أحمد بن طولون. انتهى.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۷۱]

السنة الأولى من ولاية خمارويه على مصر، و هى سنة إحدى و سبعين و مائتين- فيها دخل محمد و علىّ ابنا الحسين بن جعفر بن موسى بن جعفر الصادق بن محمد المدينة، فقتلا فيها [جماعة من أهلها] و جبيا الأموال و عطّلا الجمعة [و الجماعة] من مسجد النّبىّ صلى اللّه عليه و سلم شهرا. و فيها عزل الخليفة المعتمد على اللّه عمرو بن الليث الصفّار و أمر بلعنه على المنابر، و ولّى عوضه خراسان محمد بن طاهر بن الحسين. ثم ولّى المعتمد على سمرقند و بخارى نصر بن أحمد بن أسد. و فيها كانت الوقعة بين أبى العباس بن الموفّق و بين خمارويه صاحب الترجمة، و هى الوقعة التى ذكرناها فى أوائل ترجمة خمارويه. و فيها وثب يوسف بن أبى الساج على الحجّاج، فقاتلوه و أسروه و قدموا به بغداد مقيّدا قد أشهر على جمل، و فيها توفّيت بوران بنت الوزير الحسن بن سهل زوجة الخليفة

المأمون. و قصّة زواجها مع المأمون مشهورة، و كانت وفاتها فى شهر ربيع الأوّل ببغداد، و قد بلغت ثمانين سنة، و كانت عظيمة الشأن متصدّقة خيّرة فطنة راوية للشعر، و كانت من أحبّ

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۶۶

نساء المأمون إليه. و فيها توفى أبو حفص عمر بن مسلم و قيل: ابن مسلمة الحدّاد النّيسابورىّ، أصله من قرية على باب نيسابور يقال لها كورداباذ على طريق بخارى.- قلت: و باذ بالتفخيم فى جميع ما يأتى فيه لفظة باذ مثل فيروز باذ و كلاباذ و ما أشبه ذلك، لا يصحّ معنى ذلك إلا بالتفخيم، و متى رقّق كما يتلفّظ به أولاد العرب ذهب معنى الاسم- كان النّيسابورىّ هذا عظيم الشأن أحد السادة الأئمة من كبار مشايخ القوم، و له الكرامات المشهورة، ذكر عند الجنيد فقال:

كان رجلا من أهل الحقائق. و فيها توفّى محمد بن وهب أبو جعفر العابد صاحب الجنيد؛ قال: سافرت لألقى أبا حاتم العطّار البصرىّ الزاهد فطرقت عليه بابه فقال: من؟ فقلت: رجل يقول: ربّى اللّه؛ ففتح الباب و وضع خدّه على الأرض و قال: طأ عليه، فهل بقى فى الدنيا من يحسن أن يقول ربّى اللّه!. و كانت وفاته ببغداد، و تولّى الجنيد غسله و تكفينه و الصلاة عليه، و دفن إلى جانب سرىّ السّقطىّ. و فيها توفّى مصعب بن أحمد بن مصعب أبو أحمد القلانسىّ، ولد ببغداد، و كان عظيم الشأن من أقران الجنيد و كان صاحب كرامات و أحوال.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و عشرون إصبعا، مبلغ الزيادة فى السنة المذكورة خمس عشرة ذراعا و اثنتان و عشرون إصبعا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۶۷

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۷۲]

السنة الثانية من ولاية خمارويه على مصر، و هى سنة اثنتين و سبعين و مائتين- فيها وقع خلاف بين أبى العبّاس بن الموفّق و بين يا زمان الخادم فى طرسوس، فأخرج أهل طرسوس أبا العبّاس عنهم، فقدم الى أبيه ببغداد. و فيها دخل حمدان بن حمدون و هارون الشارىّ بالخوارج مدينة الموصل و صلّى الشارىّ بالناس فى الجامع. و فيها تحرّكت الزّنج بواسط و صاحوا: أنكلاى يا منصور، و كان أنكلاى و سليمان بن جامع و [أبان بن على] المهلّبىّ و الشعرانىّ و غيرهم من قوّاد الزّنج محبوسين فى بغداد فى بئر فتح السّعيدىّ، فكتب إليه الموفّق بأن يبعث رءوسهم ففعل، و صلبت أبدانهم على الجسر. و فيها غزا الصائفة يا زمان الخادم و فيها حجّ بالناس هارون بن محمد بن إسحاق بن عيسى بن موسى بن محمد بن علىّ بن عبد اللّه بن العباس. و فيها توفّى أحمد بن مهدىّ بن رستم الحافظ أبو جعفر الأصبهانىّ أحد الثّقات الحفّاظ الرحّالين فى طلب الحديث و العلم، كان صاحب صلاة و تعبّد و اجتهاد، لم يفرش له فراش منذ أربعين سنة، و أنفق على محصل العلم ثلثمائة ألف درهم، و صنّف المسند. و فيها توفّى الحسن بن إسحاق بن يزيد أبو علىّ العطّار؛ قال عبد الرّحمن بن هارون: كنّا فى البحر سائرين إلى إفريقيّة فركدت علينا ريح، فأرسينا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۶۸

إلى موضع يقال له البرطون و معنا شخص يصطاد السمك، فاصطاد سمكة نحوا من شبر و أقل، فرأينا على صفحة أذنها اليمنى مكتوبا: «لا إله إلا اللّه» و فى اليسرى:

«محمد رسول اللّه»، فقذفناها فى البحر و منعنا الناس أن يصطادوا من ذلك الموضع.

و فيها توفّى العلاء بن صاعد أبو عيسى البغدادىّ الكاتب، كان يتعاطى علم النجوم، فحبسه الموفّق؛ فقال لأصحابه: طالع الوقت يقتضى أنّ بعد ثلاثة عشر يوما أخرج من الحبس و أعود إلى منزلى، و كان مريضا فمات بعد ثلاثة عشر يوما فى الحبس، فدفع إلى أهله ميّتا؛

قيل: إنه رأى النّبىّ صلى اللّه عليه و سلم فى المنام فى مرضه فقال:

يـا رسول اللّه، ادع اللّه أن يهب لى العافيـة، فـأعرض عنه يمينا و شـمالا و هو يقول ذلك، فقال له رسول اللّه صـلى اللّه عليه و سـلّم: لا أفعل؛ فقال: يا رسول اللّه، و لم؟

قال: لأنّ أحدكم يقول أعلّنى المرّيخ و أبرأنى المشترى. و فيها توفّى محمد بن عبد اللّه ابن عمّار بن سوادة أبو جعفر الفقيه المخرّمىّ، ولد سـنة اثنتين و ستين و مائة، و كان حافظا كثير الحديث سمع سفيان بن عيينة و غيره، و روى عنه عبد اللّه ابن الإمام أحمد بن حنبل و غيره. و فيها توفّى محمد بن أبى داود بن عبيد اللّه أبو جعفر بن

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۶۹

المنادى، سـمع يزيد بن هارون و غيره، و روى عنه البخارىّ و غيره. و فيها توفّى محمد ابن عوف بن سفيان أبو جعفر الطائىّ الحمصىّ الزاهـد العابـد، كان الإمام أحمـد بن حنبل يقول: ما كان بالشام منـذ أربعين سـنة مثله. و فيها توفّى يعقوب بن سواک الجيلىّ الزاهـد، سكن بغداد و صحب بشرا الحافى و انتفع به و كان من الأبدال.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و تسع أصابع، مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و أربع عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۷۳]

السـنة الثالثة من ولاية خمارويه على مصـر، و هى سـنة ثلاث و سـبعين و مائتين- فيها وثب ثلاثة بنين لملک الروم على أبيهم فقتلوه و ملّكوا أحـدهم عليهم. و فيهـا كانت وقعـة بين إسـحاق بن كنـداج و بين محمـد بن أبى السّاج فى جمادى الأولى، فانهزم إسـحاق، ثم تواقعا أيضا فى ذى الحجـة فانهزم إسـحاق أيضا ثانيا. و فيها قبض الموفّق أخو الخليفـة على لؤلؤ مولى ابن طولون الذى كان قدم عليه بالأمـان من الشـام، و أخـذ أمواله و كـانت أربعمائـة ألف دينار. و فيها توفّى أحمـد بن سـعد بن إبراهيم الزّهرىّ الجوهرىّ، كان عالما فاضلا زاهدا يعدّ من الأبدال، و هو من بيت كلّهم زّهاد و علماء. و فيها توفّى أحمد بن العلاء أبو عبد الرّحمن القاضى الرّقّىّ، و مولده

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۷۰

سنة اثنتين و تسـعين و مائة، و توفّى بمصـر بعد ابن أخيه أبى الهيثم بعشـرين يوما، و رثاهما أخوه هلال. و فيها توفّى حنبل بن إسـحاق بن حنبل ابن عمّ الإمام أحمد ابن حنبل، سمع الكثير و صنّف التاريخ، و روى عنه أبو القاسم البغوىّ و غيره، و كان زاهدا عابدا. و فيها توفّى محمـد بن إبراهيم بن مسـلم الحافظ أبو أميّـة البغـدادىّ، كان رفيع القدر، إماما فى الحديث، سـكن طرسوس و مات فى جمادى الآخرة، سـمع أبـا نعيم و غيره، و روى عنه أبو حاتم الرازىّ و غيره. و فيها توفى [محمـد بن] عبـد الرّحمن بن الحكم بن هشام الأموىّ أمير الأنـدلس، كان فاضـلا عالما فصـيحا، كان يخرج الى الجهاد فيوغل فى بلاد الكفّار السـنة و السـنتين و أكثر. و لما مات ولى بعده ابنه المنذر بن محمد. و فيها توفّى محمد بن يزيد بن ماجة الإمام الحافظ الحجّة الناقد أبو عبد اللّه القزوينى صاحب السّـنن و التفسير و التاريخ، و هو مولى ربيعة، ولد سـنة سـبع و مائتين، و رحل الى مكّة و الكوفة و البصرة و بغداد و الشام و مصر و غيرها، و سمع الكثير، و كان صاحب فنون، مات يوم الاثنين و دفن يوم الثلاثاء لثمان بقين من شـهر رمضان؛ و قد روينا مسنده عن الشيخ المسند رضوان بن محمد العقبىّ؛ قال أخبرنا أبو إسحاق الأنبارىّ قال أخبرنا الكمال بن حبيب قال أخبرنا سنقر بن

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۷۱

عبـد اللّه الزّينىّ أخبرنا الموفّق بن قدامـة أخبرنا أبو زرعـة طاهر بن محمـد [بن طاهر] المقدسـىّ أخبرنا أبو منصور محمـد بن الحسـين أخبرنا أبو طلحة القاسم بن [أبى] المنذر حدّثنا علىّ بن إبراهيم بن سلمة القطّان حدّثنا ابن ماجة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و ثلاث و عشرون إصبعا، مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و خمس أصابع و نصف.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۷۴]

السنة الرابعة من ولاية خمارويه على مصر، و هى سنة أربع و سبعين و مائتين- فيها غزا يا زمان الخادم الروم، فأسر و قتل و سبى و عاد سالما غانما.

و فيها خرج الموفّق الى كرمان يقصد حرب عمرو بن الليث الصّفّار. و فيها حجّ بالناس هارون بن محمد أيضا. و فيها هجم صدّيق الفرغانى [على] سرّ من رأى فأخذ أموال التجّار و نهب دور الناس و كان يقطع الطريق، و كان الخليفة المعتمد بسرّمن‌رأى و أخوه الموفّق قد خرج لقتال عمرو بن الليث الصفّار. و فيها توفى أحمد بن حرب بن مسمع أبو جعفر العدل، كان من قرّاء القرآن و أحد الشهود الذين رغبوا عن الشهادة فى آخر أعمارهم. و فيها توفى محمد بن عيسى بن حبّان المدائنىّ فى قول الذهبىّ و غيره.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و سبع و عشرون إصبعا.

مبلغ الزيادة خمس عشرة ذراعا و سبع أصابع.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۷۲

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۷۵]

السنة الخامسة من ولاية خمارويه على مصر، و هى سنة خمس و سبعين و مائتين- فيها بعث الموفّق جيشا إلى نواحى سرّ من رأى مع الطائىّ، فأخذ صدّيقا الفرغانىّ اللصّ فقطعوا يديه و رجليه و أيدى أصحابه و أرجلهم، و حملوا إلى بغداد على تلك الصورة. و فيها أيضا غزا يا زمان الخادم البحر فأخذ عدّة مراكب للروم. و فيها فى شوّال حبس الموفّق ابنه أبا العباس- و أبو العباس هذا هو الذى يلى الخلافة بعد ذلك و يتلقّب بالمعتضد و يتزوّج بقطر النّدى بنت خمارويه صاحب الترجمة- و قد تقدّم ذكر جهازها فى أوّل هذه الترجمة- و لما أمسك الموفّق ابنه أبا العباس المذكور تشغّب أصحابه و حملوا السلاح، فركب الموفّق و صاح بأصحاب أبى العباس: ما شأنكم! أ ترون أنكم أشفق على ولدى منّى! فوضعوا السلاح و تفرّقوا. و فيها حج بالناس هارون بن محمد الهاشمىّ أيضا. و فيها توفى أحمد بن محمد بن الحجاج الفقيه أبو بكر المرّوذىّ صاحب الإمام أحمد بن حنبل، كان أبوه خوارزميّا و أمه مرّوذية، و كان مقدّما فى أصحاب الإمام أحمد لورعه و فضله. و فيها توفّى أحمد بن محمد بن غالب بن خالد أبو عبد اللّه البصرىّ الباهلىّ و يعرف بغلام خليل، سكن بغداد و حدّث بها، و كان من الأبدال، يسرد الصوم دائما. و فيها توفّى سعد الأيسر، كان أمير دمشق و كان عادلا و كان من خواصّ أحمد بن طولون، و هو الذى هزم أبا العباس أحمد بن الموفّق لما حارب خمارويه حسبما ذكرناه، و كان سعد يقول عن خمارويه: هذا الصبىّ مشغول باللهو و أنا أكابد الشدائد؛ فبلغ خمارويه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۷۳

فخرج إلى الرّملة و استدعاه، فلما قدم عليه قتله بيده؛ و بلغ أهل دمشق ذلك فغضبوا و لعنوا خمارويه. و فيها توفى سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شدّاد بن عمرو ابن عمران أبو داود السّجستانى الأزدىّ الإمام الحافظ الناقد صاحب السّنن.

مولده سنة اثنتين و مائتين، كان إمام أهل الحديث فى عصره بلا مدافعة، رحل إلى العراق و خراسان و الحجاز و الشام و مصر و بغداد غير مرّة، و روى بها كتاب السنن و عرضه على الإمام أحمد بن حنبل فاستحسنه، و كان عارفا بعلل الحديث ورعا، و كان له كمّ واسع و كمّ ضيّق؛ فقيل له فى ذلك فقال: الواسع للكتب، و الآخر لا أحتاج إليه. و قد سمعت سننه رواية اللؤلؤى عنه على المشايخ الثلاثة: زين الدين عبد الرّحمن الدّمشقى، و علاء الدين علىّ بن بردس البعلبكّى، و شهاب الدين أحمد [المشهور با] بن ناظر الصاحبيّة،

بسماع الأوّلين لجميعه على أبى حفص بن أميلة، و بإجازة الثالث من أبى العباس بن الجوخى، قالا: أخبرنا أبو الحسن علىّ بن البخارىّ أخبرنا أبو الحفص بن طبرزذ مما اتفق له. أخبرنا أبو البدر إبراهيم الكرخىّ و أبو الفتح الدّومى قالا أخبرنا الحافظ أبو بكر أحمد بن على أخبرنا الشريف أبو عمر الهاشمىّ اخبرنا أبو علىّ اللؤلؤى أخبرنا أبو داود. و فيها توفى على بن يحيى بن أبى منصور أبو الحسن المنجّم، كان أصله من أبناء فارس، و كان أديبا شاعرا، و نادم الخلفاء

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۷۴

من المتوكّل إلى المعتمد، و كانوا يعظّمونه، و كان عالما بأيام الناس راوية للأشعار.

و فيها توفّى محمد بن إسحاق بن إبراهيم العنبسىّ الصّيمرىّ الشاعر، كان أديبا قدم بغداد و نادم المتوكّل؛ و من شعره رضى اللّه عنه:

كم مريض قد عاش من بعد يأس بعد موت الطبيب و العوّاد

قد يصاد القطا فينجو سليما و يحلّ القضاء بالصّيّاد

و فيها توفّى المنذر بن محمد بن عبد الرّحمن بن الحكم بن هشام أبو الحكم أمير الأندلس، أقام على الأندلس سنتين، و أمّه أمّ ولد، و هو السادس لصلب عبد الرّحمن الداخل الأموىّ المقدّم ذكره.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و ستّ عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة خمس عشرة ذراعا و ثمانى أصابع و نصف.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۷۶]

السنة السادسة من ولاية خمارويه على مصر، و هى سنة ستّ و سبعين و مائتين- فيها رضى الخليفة المعتمد على عمرو بن الليث الصّفّار، و كتب اسمه على الأعلام و العدد. و فيها فى [شهر] ربيع الأوّل خرج الموفّق أخو الخليفة المعتمد من بغداد يريد أحمد بن عبد العزيز بن أبى دلف بأصبهان، فتنحّى له أحمد عن داره:

عن آلتها و فرشها، فنزل بها الموفّق؛ و قدم محمد بن أبى الساج على الموفّق هاربا من خمارويه صاحب الترجمة بعد وقعات جرت بينهما، فأكرمه الموفّق و خلع عليه.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۷۵

و فيها ولّى عمرو بن الليث الصّفار شرطة بغداد. و فيها انفرج تلّ بنهر الصّلح عند فم الصّلح بالعراق، و يعرف بتلّ بنى شقيق، عن سبعة قبور فيها سبعة أبدان صحيحة و الأكفان جدد تفوح منها رائحة المسك، و أحدهم شابّ له جمّة طويلة طريّة، و لم يتغيّر منه شىء، و فى خاصرته ضربة؛ و كانت القبور حجارة مثل المسنّ، و عندهم كتاب ما يدرى ما فيه. و فيها توفّى بقىّ بن مخلد بن يزيد الحافظ أبو عبد الرّحمن الأندلسىّ صاحب الرحلة و التصانيف، كان مجاب الدعوة، رحل الى مكة و المدينة و مصر و الشام و بغداد و الشرق و العراقين، و كان له مائتان و أربعة و ثمانون شيخا، و مولده فى شهر رمضان سنة إحدى و مائتين، و مات ليلة الثلاثاء ثامن عشرين جمادى الآخرة. و فيها توفّى عبد اللّه الفرحان أبو طاهر الأصبهانى العابد المشهور، كان مجاب الدعوة و له آثار فى الدعاء مشهورة، كتب الكثير من الحديث بالعراق و الشام و مصر، و سمع هشام بن عمّار و غيره، و روى عنه محمد بن عبد اللّه الصّفّار و غيره. و فيها توفّى عبد اللّه بن مسلم بن قتيبة أبو محمد المروزىّ الكاتب مصنّف كتاب غريب الحديث و غريب القرآن و مشكل القرآن، مات فجأة، صاح صيحة عظيمة ثم مات فى شهر رجب؛ و قال الدارقطنىّ: كان يميل الى التشبيه، و كلامه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۷۶

يدلّ عليه، و قال البيهقىّ: كان يرى رأى الكرّامية، و ذكر عنه أشياء غير ذلك، و كان خبيث اللسان يقع فى حقّ كبار العلماء. و فيها

توفّى عبد الملك بن محمد بن عبد اللّه الحافظ أبو قلابة الرّقاشـىّ، مولده بالبصرة سنة تسعين و مائة، و سمع يزيد بن هارون و غيره، و روى عنه المحاملى و آخرون.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ستّ أذرع و تسع أصابع، مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و أربع عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۷۷]

السنة السابعة من ولاية خمارويه على مصر، و هى سنة سبع و سبعين و مائتين- فيها اتفق يا زمان الخادم مع خمارويه صاحب الترجمة و دعا له على المنابر بطرسوس، و سببه أن خمارويه استماله و تلطّف به و بعث له بثلاثين ألف دينار و خمسمائة ثوب و خمسمائة دابّة و سلاح كثير. و فيها حجّ بالناس هارون بن محمد العباسىّ الهاشـمىّ على العادة. و فيها توفى أحمد بن عيسـى أبو سعيد الخرّاز الصّوفىّ البغـدادىّ أحـد المشايـخ المـذكورين بالزهـد، كان من أئمة القوم و جلّة مشايخهم؛ قال الجنيد: لو طالبنا اللّه بحقيقة ما عليه أبو سـعيد الخرّاز لهلكنا، قيل له: و على أىّ شـىء حاله؟ قال: أقام كذا و كذا سنة يخرز ما فاته [الحقّ] بين الخرزتين، يعنى ذكر اللّه تعالى. و فيها توفى إبراهيم ابن إسحاق بن أبى العنبس أبو إسحاق الزّهرىّ الكوفىّ، ولى قضاء بغداد ثم صرفه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۷۷

الموفّق، أراد منه أن يـدفع إليه أموال الأوقـاف فـامتنع، و كـان عالمـا محـدّثا حمـل الناس عنه الحـديث الكثير. و فيها توفى محمـد بن إدريس بن المنذر بن داود بن مهران الحافظ أبو حاتم الرّازى الحنظلىّ مولى بنى تميم بن حنظلة الغطفانىّ، و قيل: سـمّى الحنظلىّ لأنه كان يسـكن بالرّىّ بـدرب حنظلـة، كان أحد الأئمة الرحّالين عارفا بعلل الحديث و الجرح [و] التعديل، رحل إلى خراسان و العراقين و الحجاز و اليمن و الشأم و مصـر، و مات بالرّىّ فى شـعبان. و فيها توفى يعقوب بن سـفيان الحافظ أبو يوسف الفارسىّ الفسوىّ صاحب التاريـخ و المصـنّفات الحسـان، كان إمام أهل الحـديث، سافر [الى] البلاد و لقى الشـيوخ، قال: كتبت عن ألف شـيخ و أكثر، و كلّهم ثقات، و قال أبو زرعة الدمشقىّ: قدم علينا يعقوب دمشق و تعجّب أهل العراق أن يروا مثله.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و إصبعان، مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و ثمانى عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۷۸]

السـنة الثامنة من ولاية خمارويه على مصـر، و هى سـنة ثمان و سـبعين و مائتين- فيها فى الثامن و العشـرين من المحرّم ظهر فى السماء كوكب ذو جمّة. و فيها قال أبو المظفر بن قزأوغلى و غيره من المؤرّخين: غار نيل مصر حتى لم يبق منه شىء.

قال الذّهبىّ: و لم يتعرّض المسبّحىّ فى تاريخه إلى شىء من ذلك. و غلت الأسعار

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۷۸

فى هذه السـنة بمصـر و قراها. و فيها ظهرت القرامطة بسواد الكوفة، و قد اختلفوا فيهم و فى مبتدأ أمرهم على أقوال نذكر منها نبذة لما سيأتى من ذكر القرامطـة و استيلائهم على البلاد و قتلهم للعباد، فأحـد الأقوال: أن رجلا قـدم من ناحيـة خوزسـتان إلى سواد الكوفـة و أظهر الزهـد و التقشّف، و كان يسفّ الخوص و يأكل من كسـبه، و لا زال يظهر التـديّن و الزهـد إلى أن مال إليه الناس فـدرّجهم من شىء إلى شـىء حتى صاروا معه حيث شاء، و قيل غير ذلك أقوال كثيرة؛ و هم من الذين أكثروا فى الأرض الفساد و أخربوا البلاد. و فيهـا غزا يـا زمـان الخـادم الصائفـة فبلغ حصـنا يقال له سـلند فنصب عليه المجانيق، و أشـرف على فتحه فجاءه حجر من الحصن فقتله، فارتحلوا به و فيه رمق فمات فى الطريق فى رجب، فحمل على الأكتاف الى طرسوس فدفن بها، و كان شـجاعا جوادا رضى اللّه عنه. و

فيها توفى ديك الجنّ الشاعر المشهور و اسمه عبد السلام ابن رغبان بن عبد السلام، و سمّى ديك الجن لأن عينيه كانتا خضراوين، و كان قبيح المنظر [و كان شاعرا] فصيحا، عاصر أبا تمّام الطائىّ، و كان أبو تمام يعترف له بالفضل، و هو من شعراء الدولة العباسيّة، و كان يتشيّع، و كان له غلام كالبدر و جارية أحسن منه، و كان يهواهما جميعا، فدخل يوما منزله فوجدهما متعانقين و الجارية تقبّل الغلام، فشدّ عليهما فقتلهما ثم رثاهما بعد ذلك و حزن عليهما حزنا شديدا، و تنغّص عيشه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۷۹

بعدهما الى أن مات. و شعر ديك الجنّ مشهور. و فيها توفى أبو أحمد طلحة، و قيل:

محمد ابن الخليفة المتوكل على اللّه جعفر ابن الخليفة المعتصم محمد ابن الخليفة الرشيد هارون، كان لقبه الموفّق ثم لقّب بعد قتل الزّنجىّ الناصر لدين اللّه، كان يخطب له على المنابر بعد أخيه الخليفة المعتمد، و كان يقول الخطيب: اللهم أصلح الأمير الناصر لدينك أبا أحمد الموفّق بالله ولىّ عهد المسلمين أخا أمير المؤمنين، و كانت أمّ الموفق أمّ ولد يقال لها إسحاق؛ و كان الموفّق من أجلّ الملوك رأيا و أسمحهم نفسا و أحسنهم تدبيرا، كان أخوه المعتمد قد جعله ولىّ عهده بعد ولده جعفر المفوّض فغلب الموفّق على الأمر حتى صار أخوه الخليفة المعتمد معه كالمحجور عليه؛ و مات الموفّق فى حياة أخيه المعتمد فبايع المعتمد ابن الموفّق أبا العباس و لقّبه بالمعتضد، و جعله ولىّ عهده بعد ابنه المفوّض كما كان أبوه الموفّق، و ظنّ المعتمد أنه استراح من الموفّق فعظم أمر المعتضد أضعاف ما كان عليه الموفّق، حتى إنه خلع المفوّض من ولاية العهد و صار ولىّ عهد عمّه المعتمد؛ و تولّى الخلافة بعده، و كان الموفّق قد حبس ابنه أبا العباس المعتضد هذا لشدّة بأسه فلما احتضر الموفّق، أو فى حال مرضه، أخرج الجند المعتضد المذكور من حبسه بغير رضا أبيه، ثم مات بعد أيام فى يوم الأربعاء ثانى عشر من صفر، و كان من أجلّ ملوك بنى العبّاس.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و سبع عشرة إصبعا، مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و ثمانى عشرة إصبعا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۸۰

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۷۹]

السنة التاسعة من ولاية خمارويه على مصر، و هى سنة تسع و سبعين و مائتين- فيها عظم أمر المعتضد بتقديمه فى ولاية العهد على جعفر المفوّض، فإن الخليفة المعتمد خلع ولده و قدّم ابن أخيه المعتضد هذا على ولده المفوّض المذكور؛ و أظنّ ذلك كان لقوّة شوكة المعتضد، ثم فوّض المعتمد لابن أخيه المعتضد ما كان لأبيه الموفّق من الأمر و النهى و كتب بذلك الى الآفاق؛ ثم أمر المعتضد ألّا يقعد على الطريق ببغداد و لا فى المسجد الجامع قاصّ و لا صاحب نجوم، و حلّف باعة الكتب ألّا يبيعوا كتب الفلاسفة و الجدل و نحو ذلك، و لما قدّم الخليفة [المعتمد] المعتضد هذا على ولده قدّم له المعتضد ثيابا بمائتى ألف درهم و حمل الى ابن عمّه المفوّض ثيابا بمائة ألف درهم، و طابت نفوسهما فلم يكن بعد ذلك إلا أيام و مات الخليفة المعتمد؛ و تولّى المعتضد الخلافة بعد عمّه المعتمد فى صبيحة يوم الاثنين لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر رجب. و فيها أرسل خمارويه الى المعتضد مع ابن الجصّاص هدايا و تحفا و أموالا كثيرة و سأله أن يزوّج ابنه المكتفى بينته قطر النّدى؛ فقال المعتضد: بل أنا أتزوّجها فتزوّجها. و قد سقنا حكاية زواجها فى ترجمة أبيها خمارويه.

و فيها فتح أحمد بن عيسى بن الشّيخ قلعة ماردين و كانت مع محمد بن إسحاق بن كنداج. و فيها صلّى المعتضد بالناس صلاة الأضحى فكبّر فى الأولى ستّ تكبيرات

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۸۱

و فى الثانية واحدة، و لم تسمع منه خطبة. و فيها توفّى محمد بن عيسى بن سورة الإمام الحافظ أبو عيسى التّرمذىّ مصنّف الجامع و

العلل و الشمائل و غيرها، و كانت وفاته فى شهر رجب، و قد روينا كتابه الجامع سماعا على الشيخين علاء الدين علىّ بن بردس البعلبكّى و شهاب الدين أحمد [المشهور با] بن ناظر الصاحبيّة، بسماع الأوّل عن أبى حفص ابن أميلة و إجازة الثانى من أحمد بن محمد بن أحمد بن الجوخى؛ قالا أخبرنا أبو الحسن علىّ بن البخارى [وا] بن أميلة- الأوّل سماعا و الثانى إجازة- أخبرنا أبو حفص ابن طبرزذ أخبرنا أبو الفتح عبد الملك بن أبى [القاسم عبد اللّه بن أبى] سهل [القاسم بن أبى منصور] الكروخىّ أخبرنا أبو عامر محمود بن القاسم الأزدى و أبو بكر أحمد بن عبد الصمد الغورجىّ و أبو نصر عبد العزيز بن محمد التّرياقىّ سماعا عليهم سوى الترياقىّ، فمن أوّله الى مناقب ابن عباس قال الكروخىّ، و أخبرنا من مناقب ابن عباس الى آخر الكتاب عبد اللّه بن على بن يس الدهّان، قالوا أخبرنا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۸۲

أبو محمد عبد الجبار بن محمد الجرّاحى أخبرنا أبو العبّاس محمد بن أحمد بن محبوب المحبوبى أخبرنا الإمام الحافظ أبو عيسى التّرمذىّ؛ و روينا أيضا كتابه الشمائل سماعا على الشيخين المذكورين بسماع الأوّل من المسند صلاح الدين محمد [بن أحمد] بن أبى عمر المقدسىّ و إجازة الثانى من ابن الجوخى، قالا- أخبرنا ابن البخارىّ الأوّل سماعا و الثانى إجازة أخبرنا أبو اليمن زيد بن الحسن الكندىّ أخبرنا أبو شجاع البسطامىّ، أخبرنا أبو القاسم البلخىّ أخبرنا أبو القاسم الخزاعىّ أخبرنا أبو سعيد الهيثم بن كليب الشاشىّ أخبرنا أبو عيسى التّرمذىّ. و فيها حجّ بالناس هارون بن محمد الهاشمىّ و هى آخر حجّة حجّها بالناس، و كان قد حجّ بالناس ستّ عشرة حجّة أوّلها سنة أربع و ستين و مائتين الى هذه السنة. و فيها توفّى الخليفة أمير المؤمنين المعتمد على اللّه أبو العبّاس أحمد ابن الخليفة المتوكل على اللّه جعفر ابن الخليفة المعتصم بالله محمد ابن الخليفة الرشيد هارون ابن الخليفة المهدىّ محمد ابن الخليفة أبى جعفر المنصور بن محمد بن على بن عبد اللّه بن العبّاس الهاشمىّ العباسىّ فى ليلة الاثنين تاسع عشر شهر رجب فجأة ببغداد، فحمل و دفن بسرّمن‌رأى؛ و مولده سنة تسع و عشرين و مائتين بسرّمن‌رأى، و أمّه أمّ ولد رومية اسمها فتيان، و فى موته أقوال كثيرة، منهم من قال: إنه اغتيل بالسمّ، و منهم من قال: إنه خنق، و قيل غير ذلك؛ و كانت خلافته ثلاثا و عشرين سنة و ثلاثة أيّام، و كان فيها كالمحجور عليه مع أخيه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۸۳

الموفّق، فإنه كان منهمكا فى اللذّات، فولّى أخاه الموفّق أمر الناس فقوى عليه و انقهر المعتمد معه الى أن مات قهرا منه و من ولده المعتضد؛ و تولّى الخلافة من بعده المعتضد ابن أخيه الموفّق المذكور. و فيها توفّى أحمد بن أبى خيثمة زهير بن حرب ابن شدّاد النّسائىّ الأصل، كان عالما حافظا ذا فنون بصيرا بأيام الناس راوية للآداب؛ أخذ علم الحديث عن الإمام أحمد بن حنبل و عن يحيى بن معين، و علم النسب عن مصعب الزّبيرىّ، و أيام الناس عن أبى الحسن المدائنىّ؛ و صنّف التاريخ فأكثر فوائده و مات فى جمادى الأولى. و فيها توفّى أحمد بن عبد الرّحمن بن مرزوق أبو عبد اللّه البزورىّ البغدادىّ و يعرف بابن أبى عوف، كان إماما عالما محدّثا ثقة نبيلا. و فيها توفّى أحمد بن يحيى بن جابر أبو بكر و قيل أبو جعفر و قيل أبو الحسن البلاذرىّ، الكاتب البغدادىّ صاحب التاريخ، و كان أديبا مدح المأمون و جالس المتوكّل و سمع هشام بن عمّار و غيره و روى عنه جمّ غفير. و فيها توفى نصر بن أحمد ابن أسد بن سامان، كان سامان مع أبى مسلم الخراسانىّ صاحب الدعوة و كان ينسب الى الأكاسرة، فمات سامان و بقى ابنه أسد. و توفّى أسد فى خلافة الرشيد و خلّف ابنه نوحا و أحمد و يحيى و إلياس، فولى أحمد بن أسد فرغانة، و نوح سمرقند،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۸۴

و يحيى الشاش و أشروسنة، و ولى إلياس هراة؛ و كان أحمد والد نصر هذا أحسنهم سيرة، و مات فى أيام عبد اللّه بن طاهر بن الحسين، و خلّف سبعة بنين، منهم نصر ابن أحمد هذا، فولّى نصر ولايات أبيه مثل سمرقند و الشاش و فرغانة، و ولّى أخوه إسماعيل بخارى و أعمالها؛ و هؤلاء يسمّون السامانيّة و هم عدّة ملوك، و لهذا أوضحنا أصلهم.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و إصبع و نصف، مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و ستّ عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۸۰]

السنة العاشرة من ولاية خمارويه على مصر، و هى سنة ثمانين و مائتين- فيها فتح محمد بن أبى السّاج مراغة بعد حصار طويل و أخذ منها مالا كثيرا. و فيها غزا إسماعيل بن أحمد بلاد الترك من وراء النهر و أسر ملكها و زوجته و أسر عشرة آلاف و قتل مثلهم. و فيها شكا الناس إلى الخليفة المعتضد ما يقاسون

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۸۵

من عقبة حلوان من المشقّة، فبعث عشرين ألف دينار فأصلحها. و فيها بنى المعتضد القصر الحسنىّ الذى صار دار الخلافة ببغداد الى آخر وقت؛ و تحوّل إليه المعتضد و سكنه. و فيها حج بالناس محمد بن عبد اللّه بن محمد العباسىّ. و فيها توفى جعفر المفوّض ابن الخليفة المعتمد على اللّه أحمد فى شهر ربيع الآخر، و كان محبوسا فى دار المعتضد لا يراه أحد، و قيل: إنّ المعتضد نادمه فى خلوته و صار يكرمه. و فيها توفى عثمان بن سعيد بن خالد الحافظ أبو سعيد الدّارمىّ نزيل هراة، رحل الى الأمصار و لقى الشيوخ و جالس الإمام أحمد بن حنبل و ابن معين و الحفّاظ، حتى قالوا: ما رأينا مثله و لا رأى هو مثل نفسه، و كان لا يحدّث من يقول بخلق القرآن.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و ثمانى أصابع، مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و عشر أصابع.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۸۶

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۸۱]

السنة الحادية عشرة من ولاية خمارويه على مصر، و هى سنة إحدى و ثمانين و مائتين- فيها أرسل خمارويه طغج بن جفّ الى غزو الروم فتوجّه من طرسوس حتى بلغ طرابزون و فتح ملورية فى جمادى الآخرة. و فيها غارت المياه بالرّىّ و طبرستان فصار الماء يباع ثلاثة أرطال بدرهم، و غلت الأسعار و قحط الناس و أكل بعضهم بعضا، حتى أكل رجل ابنته. و فيها توفى ابن أبى الدّنيا و اسمه عبد اللّه بن محمد أبو بكر القرشىّ البغدادىّ مولى بنى أميّة، ولد سنة ثمان و مائتين، و كان مؤدّبا لجماعة من أولاد الخلفاء منهم المعتضد و ابنه المكتفى، و كان عالما زاهدا ورعا عابدا و له التصانيف الحسان، و الناس بعده عيال عليه فى الفنون التى جمعها، و روى عنه خلق كثير، و اتفقوا على ثقته و صدقه و أمانته. و فيها توفى أبو بكر عبد اللّه بن محمد بن النعمان الأصبهانىّ الإمام المتقن.

و فيها توفى الإمام الفقيه محمد بن إبراهيم بن الموّاز المالكىّ.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع سواء، مبلغ الزيادة خمس عشرة ذراعا و عشر أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۸۲]

اشارة

السنة الثانية عشرة من ولاية خمارويه على مصر- فيها مات- و هى سنة اثنتين و ثمانين و مائتين- فيها فى المحرّم أمر المعتضد بتغيير نوروز العجم الذى هو افتتاح الخراج

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۸۷

و أخّره إلی حادی عشر حزيران و سمّاه النّوروز المعتضدیّ، و قصد بذلک الرّفق بالرعيّة، و منع الناس ما کانوا يعملونه فی کل سنة من إيقاد النّيران و صبّ الماء علی الناس، فکان ذلک من أحسن أفعال المعتضد. و فيها لليلتين خلتا من المحرّم قدم ابن الجصّاص بقطر النّدی بنت خمارويه صاحب الترجمة إلی بغداد فأنزلت فی دار صاعد، و کان المعتضد غائبا بالموصل، فلمّا سمع بقدومها عاد الی بغداد و دخل بها فی خامس شهر ربيع الأوّل بعد أن عمل لها مهمّا يتجاوز الوصف. و فيها قتل خمارويه صاحب الترجمة و قد نقدّم ذکر مقتله فی ترجمته. و فيها توفی عبد الرّحمن ابن عمرو بن عبد اللّه بن صفوان بن عمرو الحافظ أبو زرعة النّصریّ الدّمشقیّ، کان من أئمة الحفّاظ، رحل إلی البلاد و کتب الکثير حتی صار شيخ الشام و إمام وقته، و کتب عنه خلائق؛ و کانت وفاته بدمشق فی جمادی الآخرة. و فيها توفی محمد ابن الخليفة جعفر المتوکّل عمّ المعتضد، و کان فاضلا شاعرا و هو القائل لمّا أراد أخوه المعتمد الخروج إلی الشام و الدنيا مضطربة:

أقول له عند توديعه و کلّ بعبرته مبلس

لئن بعدت عنک أجسامنا لقد سافرت معک الأنفس

و فيها توفی محمد بن عبد الرّحمن بن محمد بن عمارة بن القعقاع أبو قبيصة الضّبّیّ کان صالحا عابدا مجتهدا سمع من سليمان و غيره، روی عنه جماعة کثيرة.

أمر النيل فی هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع سواء مثل الماضية، مبلغ الزيادة أربع عشرة ذراعا و اثنتان و عشرون إصبعا.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۸۸

ذکر ولاية أبی العساکر جيش علی مصر

هو أبو العساکر جيش بن أبی الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون. ولی مصر و الشام بعد قتل أبيه خمارويه بدمشق فی يوم سابع عشر ذی القعدة سنة اثنتين و ثمانين و مائتين، فأقام بدمشق أيّاما ثم عاد الی ديار مصر، و دام بها الی أن وقع منه أمور أنکرت عليه فاستوحش الناس منه؛ و کان لمّا مات أبوه تقاعد عن مبايعته جماعة من کبار القوّاد لقلّة المال و عجزه عن أن ينعم عليهم لأن أبا الجيش خمارويه کان أنفق فی جهاز ابنته قطر الندی لما زوّجها للخليفة المعتضد جميع ما کان فی خزائنه، و مات بعد ذلک بمدّة يسيرة. قال بعضهم: فمات حقّا حين حاجته إلی الموت، لأنه لو عاش أکثر من هذا حتی يلتمس ما کانت جرت عادته به لاستصعب ذلک عليه، و لو نزلت به ملمّة لافتضح. انتهی.

و لّما تقاعد کبار القوّاد عن بيعة جيش تلطّف بعض القوّاد فی أمره حتی تمّت البيعة، و بايعوه و هو صبیّ لم يؤدّبه الزمان، و لا محنه التجارب و العرفان؛ و قد قيل: «بعيد نجيب ابن نجيب من نجيب».

فلما تمّ أمر جيش المذکور أقبل علی الشّرب و اللهو مع عامّة أوباش، منهم:

غلام رومیّ لا وزن له و لا قيمة يعرف ببندقوش، و رجلان من عامّة العيّارين الذين يحملون الحجارة الثّقال و العمد الحديد و يعانون الصّراع، أحدهما يعرف بخضر، و الثانی يعرف بابن البوّاش، و غير هؤلاء من غلمان لم يکن لهم حال، جعلهم بطانته؛ فأوّل شیء حسّنوه له أن وثّبوه علی عمّه أبی العشائر، فقالوا له: هذا يری نفسه أنه هو

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۸۹

الذی ردّ الدولة يوم الطواحين لمّا انهزم أبوک، و کان يقرّع أباک بهزيمته يومئذ و يذيع ذلک عند خاصّته. و يقولون أيضا: إنه هو الذی همّ بالوثوب حتی صنع أهل برقة فيه ما صنعوا، و يتلفّت الی أهل برقة و يری أنهم أعداؤه، و يتربّص بهم أن تدول له دولة فيأخذ بثأره منهم، فهو يتلمّظ إلی الدولة و الی ما فی نفسه مما ذکرناه و المنايا تتلمّظ إليه کما قال الشاعر:

تلمّظ السيف من شوق إلى أنس و الموت يلحظ و الأقدار تنتظر

فعند ذلك قبض عليه جيش هذا ودسّ إليه من قتله، ثم قال عنه: إنه مات حتف أنفه؛ و تحقّق الناس قتله فنفرت القلوب عنه أيضا، لكونه قتله بغيا عليه و تعدّيا. ثم اشتغل بعد ذلك جيش بهذه الطائفة المذكورة عن حقوق قوّاد أبيه و عن أحوال الرعيّة، و كانت القوّاد أمراء شدادا يرون أنفسهم بعينها فى التقديم و الرياسة و الشجاعة، و إنما كان قيّدهم أبوه خمارويه بجميل أفعاله و كريم مقدّماته اليهم و لسعة الإفضال عليهم، و هم مثل خاقان المفلحى، و محمد بن إسحاق بن كنداج،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۹۰

و وصيف بن سوار تكين، و بندقة بن لمجور، و أخيه محمد بن لمجور، و ابن قراطغان، و من أشبههم. ثم انتقل من هذا إلى أن صار إذا أخذ منه النبيذ يقول لطائفته التى ذكرناها واحدا بعد واحد: غدا أقلّدك موضع فلان و أهب لك داره و أسوّغك نعمته، فأنت أحقّ من هؤلاء الكلاب؛ كلّ ذلك و مجالسه تنقل إليهم. فعند ذلك بسط القوّاد ألسنتهم فيه، و شكا القوّاد بعضهم إلى بعض ما يلقونه منه، فقالوا:

نفتك به و لا نصبر له على مثل هذا، و بلغه الخبر فلم يكتمه و لم يتلاف القضيّة و لا شاور من يدلّه على مداواة أمره، بل أعلن بما بلغه عنهم و توعّدهم، و قال:

لأطلقنّ الرجّالة عليهم و لأفعلنّ بهم؛ فاتصلت بهم مقالته فاعتزل من عسكره كبار القوّاد من الذين سمّيناهم، مثل ابن كنداج و طبقته، و خرجوا فى خاصّة غلمانهم و هى زهاء ثلثمائة غلام، و ساروا على طريق أيلة و ركبوا جبل الشّراة حتى وصلوا إلى الكوفة، بعد أن نالهم فى طريقهم كدّ شديد و مشقّة، و كادوا أن يهلكوا عطشا، و اتصلت أخبارهم بالخليفة المعتضد ببغداد فوجّه إليهم بالزاد و الميرة و الدوابّ، و بعث إليهم من يتلقّاهم و قبلهم أحسن قبول و أجزل جوائزهم و ضاعف أرزاقهم، و خلع عليهم و صنع فى أمرهم كلّ جميل. و المعتضد هذا هو صهر جيش صاحب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۹۱

الترجمة و زوج أخته قطر النّدى المقدّم ذكرها فى ترجمة أبيها خمارويه. و استمرّ جيش هذا مع أوباشه بمصر، و بينما هو فى ذلك ورد عليه الخبر بخروج طغج بن جفّ أمير دمشق عن طاعته، و خروج ابن طغان أمير الثغور أيضا، و أنهما خلعاه جميعا و أسقطا اسمه من الدعوة و الخطبة على منابر أعمالهم، فلم يكر به ذلك و لا استشنعه و لا رئى له على وجهه أثر. فلمّا رأى ذلك من بقى من غلمان أبيه بمصر مشى بعضهم إلى بعض و تشاوروا فى أمره، فاجتمعوا على خلعه، و ركب بعضهم و هجم عليه غلام لأبيه خزرىّ يقال له برمش، فقبض عليه و همّ بقتله ثم كفّ عنه؛ فلمّا كان من الغد اجتمع القوّاد فى مجلس من مجالس دار أبيه، و تذاكروا أفعاله و أحضروا معهم عدول البلد، و أعادوا لهم أخباره، و قالوا لهم: ما مثل هذا يقلّد شيئا من أمور المسلمين؛ و أحضروه لأن جماعة من غلمان أبيه- يعنى مماليكه- قالوا: لا نقلّد غيره حتى يحضر و نسمع قوله، فإن وعد برجوع و تاب من فعله أمهلناه و جرّبناه، و إن أقرّ بعجزه عن حمل ما حمل و جعلنا فى حلّ من بيعته بايعنا غيره على يقين و على غير إثم؛ فأحضروه فاعترف أنه يعجز عن القيام بتدبير الدولة و أنه قد جعل من له فى عنقه بيعة فى حلّ، و عمل بذلك محضر شهد فيه عدول البلد و وجوهه و من حضر من القوّاد و الغلمان- أعنى المماليك- و صرفوه؛ و كان قبل القبض عليه ركبوا إلى أبى جعفر ابن أبىّ و قالوا له: أنت خليفة أبيه و كان ينبغى لك أن تؤدّبه و تسدّده؛ فقال لهم: قد تكلمت جهدى، و لكن لم يسمع منّى، و بعد فتقدّمونى إليه فتسمعون ما أخاطبه به،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۹۲

فتقدّموه و ركب من داره فلما جاوز داره قليلا لقيه برمش فضرب بيده على شكيمة فرسه، و قال له: أنت خليفة أبيه و خليفته، و نصف ذنبه لك، و جرّه جرّا؛ و بينما هو فى ذلك إذ أقبل علىّ بن أحمد فقبض على الآخر و قال له: أنت وزيره و كاتبه و عليك ذنبه، لأنه كان يجب عليك تقويمه و تعريفه ما يجب عليه، فصعد بالاثنين جميعا الى المنظر و قعد معهما كالملازم، و بينهما هو على ذلك إذ

خطر على قلبه شيء، فقام الى دابته و تركهما و مضى نحو باب المدينة، فوثب من فوره ابن أبيّ الى دابّته و ركبها و قال لعليّ ابن أحمد: اركب و الحقنى، و حرّك دابّته فإنه كان أحسّ الموت، ثم جاءه الخلاص من اللّه؛ و ركب بعده عليّ بن أحمد، فلم يتجاوز المنظر حتى لحقه طائفه من الرّجّالة فقتلوه؛ و مرّ ابن أبيّ إلى نحو المعافر فتكمّن هناك و اختفى؛ و عاد برمش فلم يجد ابن أبيّ، فمضى من فوره و هجم على جيش و قبض عليه، حسبما ذكرناه من خلعه و حبسه. و ورّى جثّة عليّ بن أحمد؛ و سلم ابن أبيّ. فقال بعضهم فى عليّ بن أحمد:

أحسن الى الناس طرّا فأنت فيهم معان

و اعلم بأنك يوما كما تدين تدان

و قيل فى أمر جيش المذكور وجه آخر، و هو أنه لمّا وقع من أمر القوّاد ما وقع خرج أبو العساكر جيش الى متنزّه له بمنية الأصبغ غير مكترث بما وقع له، و بينما هو فى ذلك ورد عليه الخبر بوثوب الجند عليه، و قالوا له: لا نرضى بك أبدا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۹۳

فتنحّ عنّا حتى نولّى عمّك نصر بن أحمد بن طولون؛ فخرج اليهم كاتبه عليّ بن أحمد الماذرائيّ، الذى تقدّم ذكر قتله، و سألهم أن ينصرفوا عنه يومهم فانصرفوا؛ فقام جيش المذكور من وقته و دخل على عمّه نصر و كان فى حبسه فضرب عنقه و عنق عمّه الآخر، و رمى برأسيهما الى الجند، و قال: خذوا أميركم؛ فلما رأوا ذلك هجموا عليه و قتلوه و قتلوا أمّه معه و نهبوا داره و أحرقوها و أقعدوا أخاه هارون بن خمارويه فى الإمرة مكانه. ثم طلب عليّ بن أحمد الماذرائيّ كاتبه المقدّم ذكره و قتلوه، و قتلوا أيضا بندقوش و ابن البواش، و نهبت دار جيش؛ فوقع فى أيدى الجند من نهبها ما يملأ قلوبهم و عيونهم، حتى إنّ بعضهم من كثرة ما حصل له ترك الجنديّة و سكن الريف، و صار من مزارعيه و تجّاره. و قال العلامة شمس الدين يوسف ابن قزأوغلى فى مرآة الزمان وجها آخر فى قتل جيش هذا، فقال: ولى إمرة دمشق بعد موت أبيه بمدّة يسيرة، ثم خرج الى مصر فى هذه السنة- يعنى سنة ثلاث و ثمانين و مائتين- و استعمل على دمشق طغج بن جفّ؛ فلما دخل الى مصر لم يرض به أهلها، و قالوا: نريد أبا العشائر هارون؛ فوثب عليه هارون فقتله فى جمادى الآخرة، و كانت ولايته خمسة أشهر، و استولى على مصر.

قال ربيعة بن أحمد بن طولون: لما قتل أخى خمارويه و دخل ابنه جيش مصر قبض عليّ و على عمّيه نصر و شيبان ابنى أحمد بن طولون، و حبسهما فى حجرة معى فى الميدان، و كان كلّ يوم تأتينا المائدة عليها الطعام فكنّا نجتمع عليها؛ فجاءنا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۹۴

يوما خادم، فأخذ أخانا نصرا فأدخله بيتا، فأقام خمسة أيام لا يطعم و لا يشرب و الباب عليه مغلق؛ فدخل علينا ثلاثة من أصحاب جيش و قالوا: أمات أخوكما؟ فقلنا: لا ندرى، فدخلوا عليه البيت فرماه كلّ واحد منهم بسهم فى مقتل فقتلوه، و كانت ليلة الجمعة [فأخرجوه] ثم أغلقوا علينا الباب، و بقينا يوم الجمعة و يوم السبت لم يقدّم إلينا طعام، فظننا أنهم يسلكون بنا مسلك أخينا؛ فلما كان يوم الأحد سمعنا صراخا فى الدار، و فتح باب الحجرة علينا و أدخل علينا جيش بن خمارويه، فقلنا: ما حالك؟

فقال: غلبنى أخى هارون على البلد و تولّى الإمارة؛ فقلنا: الحمد للّه [الذى] قبض يدك و أضرع خدّك! فقال: ما كان عزمى إلا أن ألحقكما [بأخيكما]. ثم جاء الرسول و قال: الأمير هارون قد بعث اليكما بهذه المائدة، و كان فى عزم جيش أن يلحقكما بأخيكما نصر، فقوما إليه فاقتلاه و خذا بثأركما منه و انصرفا على أمان؛ قال: فلم نقتله و انصرفنا الى منازلنا، و بعث هارون خدما فقتلوه و كفينا أمر عدوّنا. انتهى كلام أبى المظفّر.

قلت: و كان خلع جيش لعشر خلون من جمادى الآخرة سنة ثلاث و ثمانين، و كانت ولايته ستة أشهر و اثنى عشر يوما، و قتل فى السجن بعد خلعه بأيام يسيرة.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۸۳]

اشارة

السنة التی حکم فی أوّلها جیش بن خمارویه علی مصر، علی أنه حکم من الماضیة شهرا و أیاما، و هذه السنة سنة ثلاث و ثمانین و مائتین- فیها قدم رسول عمرو بن

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۹۵

اللیث الصفّار علی الخلیفة المعتضد العباسیّ من خراسان بالهدایا و التّحف؛ و فیها مائتا جمل و مائتا حمارة؛ و من الطرائف شیء کثیر، منها: صنم علی خلقة امرأة کان قوم من الهند فی مدینة یقال لها "أیل شاه "کانوا یعبدونها. و فیها خرج جماعة من قوّاد مصر الی المعتضد، منهم محمد بن إسحاق و خاقان البلخیّ و بدر بن جفّ؛ و سبب قدومهم الی المعتضد أنهم کانوا أرادوا أن یقتلوا جیش بن خمارویه المذکور فسعی بهم إلیه و کان راکبا [و کانوا] فی موکبه، و علموا أنه قد علم بهم، فخرجوا من وقتهم و سلکوا البرّیّة و ترکوا أموالهم و أهالیهم، فتاهوا أیّاما و مات منهم جماعة من العطش، ثم خرجوا علی طریق الکوفة؛ فبلغ [أمرهم] الخلیفة المعتضد فأرسل الیهم الأطعمة و الدوابّ، ثم وصلوا بغداد فأکرمهم المعتضد و قرّبهم. و فیها توفّی إبراهیم بن إسحاق بن إبراهیم أبو إسحاق الثّقفیّ السّرّاج النیسابوریّ، کان الإمام أحمد بن حنبل یزوره فی منزله لزهده و ورعه. و فیها توفّی سهل بن عبد اللّه بن یونس أبو محمد التّستریّ أحد المشایخ، و من أکابر القوم و المتکلّم فی علوم الإخلاص و الریاضات و کان کبیر الشأن. و فیها توفّی صالح بن محمد بن عبد اللّه الشیخ أبو الفضل الشّیرازیّ البغدادیّ، کان رجلا صالحا، ختم القرآن أربعة آلاف مرة. و فیها توفّی عبد الرّحمن ابن یوسف بن سعید بن خراش أبو محمد الحافظ البغدادی، أقام بنیسابور مدّة مستفیدا من محمد بن یحیی الذّهلیّ و غیره و سمع منه جماعة، و کان أوحد زمانه و فرید عصره.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۹۶

و فیها توفّی علیّ بن العبّاس بن جریح أبو الحسن الشاعر المشهور المعروف بابن الرومی مولی عبید اللّه بن عیسی بن جعفر؛ کان فصیحا بلیغا، و هو أحد الشعراء المکثرین فی الغزل و المدح و الهجاء. قال صاحب المرآة: إنه مات فی هذه السنة.

و قال ابن خلّکان: توفّی لیلة الأربعاء للیلتین بقیتا من جمادی الأولی سنة ثلاث و ثمانین، و قیل: أربع و ثمانین، و قیل: سنة ستّ و سبعین. و هذه الأقوال أثبت من قول صاحب المرآة. انتهی. و من شعره و لم یسبق إلی هذا المعنی:

آراؤکم و وجوهکم و سیوفکم فی الحادثات إذا دجون نجوم

منها معالم للهدی و مصابح تجلو الدّجی و الأخریات رجوم

و له من قصیدة:

و إذا امرؤ مدح امرأ لنواله و أطال فیه فقد أراد هجاءه

و یحکی أنّ لائما لامه و قال له: لم لا تشبّه تشبیه ابن المعتز و أنت أشعر منه؟

قال له: أنشدنی شیئا من شعره أعجز عن مثله؛ فأنشده صفة الهلال:

فانظر إلیه کزورق من فضّة قد أثقلته حمولة من عنبر

فقال ابن الرومی: زدنی، فأنشده:

کأنّ آذریونها و الشمس فیه کالیه

مداهن من ذهب فیها بقایا غالیه

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۹۷

فقال ابن الرّومى: وا غوثاه! لا- يكلّف اللّه نفسا إلّا وسعها، ذلک إنما يصف ماعون بيته لأنه ابن الخلفاء، و أنا مشغول بالتصرّف فى الشعر و طلب الرزق به، أمدح هذا مرّة، و أهجو هذا كرّة، و أعاتب هذا تارة، و أستعطف هذا طورا. انتهى.

و فيها توفّى علىّ بن محمد بن عبد الملک بن أبى الشوارب الأموىّ البصرىّ قاضى القضاة أبو الحسن، كان ولى القضاء بسرّمن‌رأى، و كان عالما عفيفا ثقة. و فيها توفّى الوليد بن عبيد بن يحيى [بن عبيد] بن شملال، أبو عبادة الطائىّ البحترىّ الشاعر المشهور، أحد فحول الشعراء و صاحب الديوان المعروف به، كان حامل لواء الشعر فى عصره، مدح الخلفاء و الوزراء و الملوک، و أصله من أهل منبج و قدم دمشق صحبة المتوكّل، و وصل الى مصر الى خمارويه. حكى أن المتوكّل قال له يوما: يا بحترىّ، قل فى راح بيت شعر و لا تصرح باسمه؛ فقال:

جاز بالودّ فتى أم سى رهينا بک مدنف

اسم من أهواه فى شعرى مقلوب مصحّف

و من شعره فى المتوكّل أيضا من قصيدة:

فلو انّ مشتاقا تكلّف غير ما فى وسعه لسعى اليک المنبر

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۹۸

فلمّا تخلف المستعين قال: لا أقبل إلا ممّن قال مثل هذا؛ قال أبو جعفر أحمد بن يحيى البلاذرىّ فأنشدته:

و لو أنّ برد المصطفى إذ لبسته يظنّ لظنّ البرد أنک صاحبه

و قال و قد أعطيته و لبسته نعم هذه أعطافه و مناكبه

و له:

شكرتک إنّ الشكر للعبد نعمة و من شكر المعروف فاللّه زائده

لكل زمان واحد يقتدى به و هذا زمان أنت لا شک واحده

الذين ذكر الذهبىّ و فاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى سهل بن عبد اللّه التّسترىّ الزاهد، و العباس بن الفضل الأسفاطىّ، و على بن محمد بن عبد الملک ابن أبى الشوارب القاضى، و محمد بن سليمان الباغندى.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ست أذرع و إصبعان، مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و تسع عشرة إصبعا.

ذكر ولاية هارون بن خمارويه على مصر

هو الأمير أبو موسى هارون بن خمارويه بن أحمد بن طولون التركىّ الأصل المصرىّ المولد. ولى مصر بعد قتل أخيه جيش بن خمارويه فى اليوم العاشر من

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۹۹

جمادى الآخرة سنة ثلاث و ثمانين و مائتين، و تمّ أمره و كانت بيعته من غير عطاء للجند، و هو من الغرائب، و بايعوه طوعا أرسالا و لم يمتنع عليه أحد، و جعلوا أبا جعفر ابن أبّى خليفته و المؤيّد لأمره و لتدبيره؛ و سكنت ثائرة الحرب و قرّ قرار الناس و قتل غالب أصحاب جيش و لم يسلم منهم إلا عبد اللّه بن الفتح، و استتر أبو عبد اللّه القاضى خوفا من مثل مصرع على بن أحمد لأنه يعلم ما كان له فى نفوس الناس، و ما ظهر إلا فى اليوم الذى دخل فيه محمد بن سليمان البلد، و قلّد القضاء بعده أبو زرعة محمد بن عثمان من أهل دمشق، و أخرج جيش بعد أيام ميّتا، ثم بعد أيام أمر أبو جعفر بن أبّى ربيعة بن أحمد بن طولون أن يخرج الى الإسكندرية فيسكنها هو و ولده و حريمه و يبعد عن الحضرة، فتوجّه الى الإسكندرية و أقام بها على أجمل وجه الى أن حرّكه أجله، و كاتبه قوم و وثّبوه و قالوا له: أنت رجل كامل مكمّل التدبير، و قد تقلّدت البلدان و أحسنت سياستها، و لو كشفت وجهک لتبعک أكثر الجيش؛

فأطاعهم و أقبل رکضا فسبق من کان معه، فلم یشعر الناس به إلا و هو بالجبل المقطم وحده و معه غلام له نوبیّ و بیده مطرد ینشد الناس لنفسه و یدعوهم إلی ما کاتبوه؛ و اتّصل خبره بابن أبّی فبعث النقباء الی الناس و أمرهم بالرکوب، فرکب الناس و أقبلوا یهرعون من کلّ جانب. و نزل ربیعة مدلّا بنفسه و کان من

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۰۰

الفرسان طمعا فیمن بقی له ممّن کاتبه، فلم یأته أحد و سار وحده و فرّ عنه من کان معه أیضا، و بقی کاللّیث یحمل علی قطعة قطعة فینقضها و تنهزم منه، حتی برز له غلام أسود خصیّ یعرف بصندل المزاحمی- مولی مزاحم بن خاقان الذی کان أمیرا علی مصر، و قد تقدّم ذکره- فحمل علیه ربیعة فرمی صندل بنفسه الی الأرض و قال له:

بتربة الماضی، فکفّ عنه و قال له: امض الی لعنة اللّه، ثم برز إلیه غلام آخر یعرف بأحمد غلام الکفتیّ- و الکفتیّ أیضا کان من جملة قوّادهم- فحمل علیه ربیعة فقتله، و أقبل ربیعة یحمل علی الناس میمنة و میسرة و یحملون علیه بأجمعهم فیکدّونه و یردّونه الی الصحراء ثم یرجع علیهم فیردّهم الی موضعهم؛ فلم یزل هذا دأبّة الی الزوال فتقطّر عن فرسه فأکبوا علیه و رموا بأنفسهم علیه حتی أخذوه مقانصة فاعتقل یومه ذلک؛ فلما کان من الغد أمر أن یضرب مائة سوط و وکّل به الکفتیّ القائد لیأخذه بثأر غلامه، فکان الکفتیّ یحضّ الجلّادین و یصیح علیهم و یأمرهم بأن یوجعوا ضربه حتی استرخی، و قیل: إنه مات، فقال الکفتیّ: هیهات! لحم البقر لا ینضج سریعا! فضرب أسواطا بعد موته ثم أمر به فدفن فی حجرة بقرب من بئر الجلودیّ و منع أن یدفن مع أهله. فلما کان من غد یوم دفنه بلغ سودان أبیه أن الکفتیّ قال: لحم البقر لا ینضج سریعا، و أنه ضربه بعد أن مات أسواطا، فغاظهم ذلک و حرّکهم علیه و زحفوا الی داره، و بلغه الخبر فتنحّی عنها، فجاءوا داره فلم یجدوه فنهبوا داره و لم یکن له علم بذلک، فأخذوا منها شیئا کثیرا حتی ترکت حرمته عریانة فی البیت لا یواریها شیء، و رجع الکفتیّ الی داره فرأی نعمته قد سلبت و حرمته قد هتکت، فدخل قلبه من ذلک حسرة فمات کمدا بعد أیام.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۰۱

و ثبت ملک هارون هذا و هو صبیّ یدبّر و لا یحسن [أن] یدبّر، و الأمر کلّه مردود الی أبی جعفر بن أبیّ یدبّر کما یری. فلما رأی غلمان أبیه الکبار الأمر کلّه لأبی جعفر، و هم بدر و فائق و صافی. قبض کلّ منهم علی قطعة من الجیش و حازها لنفسه و جعلها مضافة له یطالب عنهم ما یستحقّونه من رزق و جرایة و غیرها، و سأل أن یکون ما لهم محمولا الی داره یتولّی هو عطاءهم، فصار عطاء کل طائفة من الجند الی دار الذی صارت فی جملته و صاروا له کالغلمان. ثم خرج بدر القائد و الحسن بن أحمد الماذرائیّ الی الشأم فأصلحوا أمرها، و استخلفوا علی دمشق من قبل هارون المذکور الأمیر طغج؛ ابن جفّ، و قرّروا جمیع أعمال الشامات ثم عادوا الی مصر. ثم حجّ بدر المذکور فی السنة و أظهر زیّا حسنا و أنفق نفقة کثیرة و أصلح من عقبة أیلة جرفا کبیرا.

و لمّا کان فی السنة المقبلة حجّ فائق فزاد فی زیّه و نفقاته علی کلّ ما فعله بدر؛ و کان دأبهم المنافسة فی حسن الزّیّ و بسط الید بالإنفاق فی وجوه البرّ. و بنی بدر المیضأة المعروفة به علی باب الجامع العتیق، و وقف علیها القیساریة الملاصقة لها، و جعل مع المیضأة ماء عذبا فی کیزان توضع فی حلقة من حلق المسجد؛ و کان صاحب صدقات بدر رجل یعرف باللیث بن داود، فکان الشخص یری المساکین زمرا زمرا یتلو بعضهم بعضا ینادون فی الطریق: دار اللیث، دار اللیث! فیعطیهم اللیث الدراهم و اللحم المطبوخ و یکسوهم فی الشتاء الجباب الصوف و یفرّق فیهم الأکسیة؛ و تمّ ذلک أیام حیاة بدر کلّها؛ و کان لصافی و فائق أیضا أعمال مثل

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۰۲

ذلک و أکثر. قال محمد بن عاصم العمریّ- و کان من علماء الناس- قال:

صرت الی مصر فلم یحتف بی أحد غیر أبی موسی هارون بن محمد العباسیّ، فصار یحضر لی مائدة و یباسطنی فی محادثته، و حملنی ذلک علی أن استحییته، فقال لی:

أنـا أعرف بصـدقك فيمـا ذكرت و ليس يرضـينى لـك مـا ترى، لأن [هـذه] أشياء تقصـر عن مرادى، و لكنى سأقع لك على موضع يرضـيك و يرضـينى فيـك؛ و دام على ذلـك مـدّة لا يقطع عنّى عادته؛ الى أن توفّى لها رون صاحب مصـر ولـد صـغير، فبادر هارون بإخراجه و الصـلاة عليه و صرنا به الى الصحراء، فما وضع عن أعناق حامليه حتى أقبل موكب عظيم فيه بدر و فائق و صافى موالى أبى الجيش خمارويه، و محمد بن أبّى و جماعة، فقالوا: نصلّى عليه؛ فقال هارون: قد صلّيت عليه؛ فقالوا: لا بدّ أن نصلّى عليه؛ فقال هارون بن محمـد العباسـىّ: ادعوا الىّ محمـد بن عـاصم العمرىّ، و كنت فى أخريـات النـاس، فلم يزالوا قياما ينتظروننى حتى أتيت؛ فقال لى: صلّ بهم، فصـلّيت بهم؛ و انصـرفنا؛ فلمّا كان بعـد يومين قال لى: قـد عرّفت بك هؤلاء القوم فامض اليهم فإنّك تنال أجرا كبيرا؛ قال: فصـرت الى أبوابهم و سـلّمت عليهم، فلم يمض أقلّ من شـهر حتى نالنى منهم مال كثير و حسـنت حالى الى الغاية، ثم ذكر عن هؤلاء القوم من هذه الأشياء نبذا كثيرة.

و أمّا أمر هارون صاحب الترجمـة فانه لمّا تمّ أمره صار أبو جعفر بن أبىّ هو مدبّر مملكته، و كان أبو جعفر عنده دهاء و مكر فبقى فى قلبه [أثر] مما فعله برمش

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۰۳

من يوم خلع جيش و قتـل علىّ بن أحمـد، و كـان من القوّاد رجـل يعرف بسـمجور قـد قلّد حجابـة هـارون، فبسـط لسانه فى ابن أبّى المـذكور و حرّك عليه القوّاد؛ و بلغ ذلك ابن أبّى فقال لهارون: احذر سـمجور هذا، و هارون صبىّ فلم يتحمّل ذلك؛ و دخل القوّاد فى شهر رمضان يفطرون عنده و كان سمجور فيهم؛ فلما نجز أمرهم و خرجوا استقعد سمجور و قال له: يا سمجور، أنت مدسوس إلىّ و أنا مـدسوس اليك و تريـد كيت و كيت، و غمز غلمانه عليه فقبضوا عليه و اعتقله فى خزانـة من خزائنه فكان ذلك آخر العهد به. و أما برمش فانّ أبا جعفر بن أبىّ خلا به و قال له: ويحك! ألا ترى ما نحن فيه مع هؤلاء القوم! انقلبت الدولـة روميّة ما لنا معهم أمر و لا نهى.

و كان برمش خزريّا أحمق، فبسط لسانه فى بدر و غيره من الأروام، فنقل اليهم.

و كان بـدر أخلاقه كريمة، و كان من أحسن خلقه أنّ الرجل إذا قبّل فخذه يقبّل هو رأس الرجل؛ فدسّ له برمش غلاما فوقف له على الباب، فلمّا خرج بـدر أقبل عليه الغلام و قبّل فخذه فانكبّ بدر على رأسه، فضـربه الغلام فى رأسه فشـجّه، و قبض على الغلام الأسود، فقال: دسّـنى برمش؛ فغضب له الناس و ركبوا قاصدين دار برمش، فعرف برمش الأمر فركب لحماقته و أمر غلمانه و حواشيه فركبوا و خرجوا الى الموضع المعروف ببئر برمش، و كـان هو الـذى احتفرهـا و بناهـا و صفّ هناك مماليكه؛ فركب فى الحال ابن أبّى لما فى نفسه من برمش قديما و قد تمّ له ما دبّره عليه، و قال لهارون: هذا غلامك برمش قد خرج عليك فأرسل بالقبض عليه، ثم قال:

الصواب أن تخرج بنفسك إليه فى مماليكك و تبادر الأمر قبل أن يتّسع و يعسـر أمره؛ فركب هارون فى دسـته فلم يبق أحد إلا ركب بركوبه؛ فلما رأى برمش ذلك تأهب لقتالهم و أخذ قوسه و بادر أن يرمى به؛ فقالوا له: مولاك، و يلك!

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۰۴

مولاك الأمير! فقال: أرونى إن كان هو مولاى لم أقاتله، و إن كان هؤلاء الأروام أقاتلهم كلّهم و نموت جميعا: فلما رأى الأمير هارون رمى بنفسه عن دابّته إلى الأرض، فغمز ابن أبىّ الرّجّالة عليه فتعاوروه بأسيافهم حتى قتل، و نهبت داره؛ و رجع هارون إلى دار الإمارة. ثم بعـد مدّة قدّم هارون القائد لحجا و كان من أصاغر القوّاد لأبى الجيش خمارويه، و بلّغه مراتب غلمان أبيه الكبار. فغاظ ذلك بدرا و صافيا و فائقا لأنهم كانوا يرون تفوسـهم أحقّ بـذلك منه، ثم بعـد ذلك نفى هارون صافيا الى الرملـة فتأكّـدت الوحشـة بينهم و بين هارون؛ و بينما هم فى ذلك أتاهم الخبر أنّ رجلا يزعم أنه علوىّ قـد ظهر بالشأم فى طائفة من الناس، فعاث أوّلا بنواحى الرّقّة ثم قدم الشـأم، فاتصـل خبره بطغـج بن جفّ و هو يومئـذ أمير دمشق، فتهاون به و ركب إليه، و هو يظن أنه من بعض الأعراب، بغير أهبـة و لا عـدّة، و معه البزاة و الصّيـقورة كـأنه خارج الى الصـيد؛ فلما صافّه لقيه رجلا متلهفا على الشـرّ لما تقـدّم له من الظفر بجماعـة من أعيان

الملوک، فقاتله طغج فانهزم منه أقبح هزیمة و نهبت عساکره، و عاد طغج إلى دمشق مکسورا؛ فدخل قلوب الشامیّین منه فزع شدید؛ فکتب طغج إلى هارون هذا یستمدّه على قتاله؛ فأخرج إلیه هارون بدرا الحمّامیّ و جماعة من القوّاد فى جیش کثیف فساروا الى الشأم و التقوا مع الخارجیّ المذکور،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۰۵

و قد لقّب بالقرمطیّ، و کان من أصحاب بدر رجل یقال له زهیر، فحلف زهیر المذکور بالطلاق إنه متى وقع بصره على القرمطیّ لیرمینّ بنفسه علیه و لیقصدنّه حیث کان؛ فلما تصافّ العسکران سأل زهیر المذکور عن القرمطیّ، فقیل له: هو الراکب على الجمل، و له کمّان طویلان یشیر بهما، فحیث أومأ بکمّة حملت عساکره؛ فقال زهیر:

أرى على الجمل اثنین، أهو المقدّم أم الرّدیف؟ قالوا: بل هو الردیف؛ فجعل زهیر یشقّ الصفوف حتى وصل إلیه فطعنه طعنة و قطّره عن جمله صریعا؛ فلما رآه أصحابه مصروعا حملوا على المصریّین و الشامیّین حملة واحدة شدیدة هزموهم فیها و قتلوا منهم خلقا کثیرا، ثم أقاموا علیهم أخا القرمطیّ و رأّسوه علیهم. و أقبل زهیر المذکور الى بدر الحمّامیّ فقال له: قد قتلت الرجل؛ فقال له بدر: فأین رأسه؟ فرجع لیأخذ رأسه فقتل زهیر قبل ذلک؛ ثم کانت لهم بعد ذلک وقائع کثیرة و القرمطیّ فیها هو الظافر، فقتل من قوّاد المصریین و فرسانهم خلق کثیر، و طالت مقاومته معهم حتى سمع بذلک المکتفى الخلیفة العباسیّ و کان متیقّظا فى هذا الحال یرى الإنفاق فیه سهلا و یقول: المبادرة فى هذا أولى، فبادر بإرسال جیش کثیف نحوه، و جعل على الجیش محمد بن سلیمان الذى کان کاتبا للؤلؤ غلام أحمد بن طولون الآتى ذکره فى عدّة أماکن؛ و سار الجیش نحو البلاد الشامیّة؛ فلما أحسّ القرمطیّ بحرکة محمد بن سلیمان المذکور من العراق عدل عن دمشق الى نواحى حمص؛ فقتل منهم مقتلة عظیمة و سبى النساء و عاث فى تلک النواحى و عظم شأنه و کثر أعوانه و دعا لنفسه و خطب على المنابر باسمه و تسمّى بالمهدیّ؛ و کان له شامة زعم

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۰۶

أصحابه أنها آیته، و زعم أنّه عبد اللّه بن أحمد بن محمد بن إسماعیل بن جعفر الصادق ابن محمد الباقر بن علیّ زین العابدین بن الحسین بن علیّ بن أبى طالب. و من شعره فى هذا المعنى قوله:

سبقت یداى یدیه قصرته هاشمیّ المجید

و أنا ابن أحمد لم أقل کذبا و لم به أستزید

ثم بثّ القرمطیّ عمّاله فى البلاد و النواحى و کاتبهم و کاتبوه. فمن رسائله الى بعض عماله:

من عبد اللّه المهدیّ المنصور بالله، الناصر لدین اللّه، القائم بدین اللّه، الحاکم بحکم اللّه، الداعى لکتاب اللّه، الذابّ عن حرم اللّه، المختار من ولد رسول اللّه (صلى اللّه

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۰۷

علیه و سلم) أمیر المؤمنین، و إمام المسلمین، و مذلّ المنافقین، و خلیفة اللّه على العالمین، و حاصد الظالمین، و قاصم المعتدین، و مهلک المفسدین، و سراج المستبصرین، و ضیاء المبصرین. و مشتّت المخالفین، و القیّم بسنة المرسلین، و ولد خیر الوصیّین، صلى اللّه علیه و على آله الطاهرین [الى] جعفر بن حمید الکردیّ: سلام علیک، فإنى أحمد إلیک اللّه الذى لا إله إلا هو و أسأله أن یصلّی على محمد جدّى. أما بعد، ما هو کیت و کیت. فهذه صورة مکاتبته الى الأقطار. انتهى.

و أما محمد بن سلیمان الکاتب فإنّ القاسم بن عبید اللّه وزیر المکتفى کتب إلیه بطلب القرمطیّ المذکور و الجدّ فى أمره، فسار محمد بن سلیمان بعساکره نحوه فالتقوا بموضع دون حماة، و کان القرمطیّ قد قدّم أصحابه أمامه و تخلّف هو فى نفر و معه المال الذى جمعه، فوقع بین محمد بن سلیمان و بین أصحاب القرمطیّ وقعة انهزم فیها أصحاب القرمطیّ أقبح هزیمة، و کان ذلک فى المحرّم سنة إحدى و تسعین و مائتین. فلما علم القرمطیّ [ب] هزیمة أصحابه أعطى أخاه أمواله و أمره بالنفوذ الى بعض النواحى التی

یـأمن علی نفسه فیهـا إلی أن یتهیّأ له ما یحب، ثم مضـی هو و ابن عمه المـدّثّر و غلام له یسـمّی المطوّق و غلام آخر یسـمّی دلیلا، و طلب القرمطیّ بهم طریق الکوفهٔ و سار حتی انتهی الی قریهٔ تعرف بالدالیّهٔ، و عجزوا عن زادهم

النجوم الزاهرهٔ فی ملوک مصر و القاهرهٔ، ج۳، ص: ۱۰۸

فدخل أحدهم الی القریهٔ لیشتری لهم زادا [فأنکروا زیّه و سئل عن أمره فمجمج، فأعلم المتولّی مسلحهٔ هذه الناحیهٔ بخبره و هو رجل یعرف بأبی خبزهٔ خلیفهٔ أحمـد بن محمـد بن کشـمرد] فأقبل علیه أبو خبزهٔ المذکور مع أحداث ضیعته فقاتله و کسره و قبض علیه و علی من معه: فانظر الی هذا الأمر الذی عجز عنه الملوک حتی کانت منیّته علی ید هذا الضعیف. و للّه درّ القائل:

و قد یسلم الإنسان ممّا یخافه و یؤتی الفتی من أمنه و هو غافل

فقبض علیه المذکور. و کان أمیر هذه النواحی القاسم بن سیما، فکتب بالخبر الی الخلیفهٔ المکتفی و هو بالرّقّهٔ، و قد کان رحل فی أثر محمـد بن سـلیمان، و اتّفق مع هـذا موافاهٔ کتاب محمد بن سـلیمان الی القاسم بن عبید اللّه بالفتح و النّصـرهٔ علی القرمطیّ، ثم أحضـر القرمطیّ الی بین یـدی الخلیفـهٔ المکتفی، فأخـذه الخلیفـهٔ و عاد هو و وزیره القاسم بن عبیـد اللّه من الرّقـهٔ الی بغداد، و هو علی جمل یشـهر به فی کلّ بلـد یمرّون به، و معه أیضا أصـحاب القرمطیّ، و دخل بهم بغداد و قد زیّنت بغداد بأفخر الزینهٔ، و کان لدخولهم یوم عظیم الی الغایهٔ. فلما کان یوم الاثنین الثالث و العشرون من شـهر ربیع الأوّل جلس الخلیفهٔ مجلسا عاما، و أحضـر القرمطیّ و أصـحابه فقطعـت أیـدیهم و أرجلهـم ثم رمی بهم من أعلی الدکّـهٔ الی أسـفل، و لم یبـق منهم إلّـا ذو الشامـهٔ أعنی القرمطیّ، ثم قـدّم القرمطیّ فضرب بالسّوط حتی استرخی، ثم قطعت یداه و رجلاه

النجوم الزاهرهٔ فی ملوک مصر و القاهرهٔ، ج۳، ص: ۱۰۹

و نخس فی جنبه بخشب، فلمّا خافوا علیه الموت ضـربوا عنقه؛ ثم حضـر محمـد بن سـلیمان و خلع علیه الخلیفهٔ المکتفی ثم خلع علی القوّاد الذین کانوا معه، و هم محمد بن إسـحاق بن کنداج و حسین بن حمدان و أحمد بن إبراهیم بن کیغلغ و أبو الأغرّ و وصیف، و أمرهم الجمیع بالسـمع و الطاعـهٔ لمحمـد بن سـلیمان. ثم أمر الخلیفـهٔ محمـد بن سـلیمان بـالتوجّه الی مصـر لقتال هارون بن خمارویه صاحب الترجمـهٔ، فسار محمـد بن سـلیمان بمن معه فی شـهر رجب، و کتب الی دمیانـهٔ غلام یا زمان و هو یومئـذ أمیر البحر أن یقفل بمراکبه الی مصر؛ و سار الجیش قاصدا دمشق، فلما قربوا منها تلقّاهم بدر و فائق فی جمیع جیشهما لما فی نفوسهما من هارون حسبما قدّمناه من تقدیم من تقدّم ذکره علیهما؛ و صاروا مع محمد بن سـلیمان جیشا واحدا؛ و ساروا نحو مصر؛ فاتّصلت أخبارهم بهارون بن خمـارویه هـذا، فتهیـأ لقتـالهم و جمع العسـاکر و أمر بمضـربه فضـرب بباب المدینـهٔ بعـد أن نعق فی جنـده و أمرهم بالتأهّب للرحیل، فاسـتعدّوا ثم رحلوا الی العبّاسهٔ یریدون الشأم؛ و تربّص هارون بالعبّاسهٔ أیّاما، و کتب لبدر و فائق یستعطفهما و یذکر لهما الحرمهٔ و ما یجب علیهما من حفظ ذمام الماضـین من أبیه و جدّه، و صارت کتبه صادرهٔ الیهم و الی القوّاد بذلک؛ فبینما هو [ذات] لیلهٔ بالعباسهٔ و قد شرب و ثمل و نام آمنا فی مضربه إذ وثب علیه بعض غلمانه فذبحه،

النجوم الزاهرهٔ فی ملوک مصر و القاهرهٔ، ج۳، ص: ۱۱۰

و قیـل: إن ذلـک کان بمساعـدهٔ بعض عمومته فی ذلک، و أصـبح الناس و أمیرهم مـذبوح و قـد تفرّقت الظنون فی قاتله؛ فنهض عمّه شیبـان بن أحمـد بن طولون و دعـا لنفسه، و ضـمن للنـاس حسن القیـام بـأمر الدولـهٔ و الإحسان لمن ساعـده، فبایعه الناس علی ذلک. انتهی. و قد ذکر بعضـهم قصّهٔ هارون هذا بطریق آخر قال: و استمرّ هارون هذا فی إمرهٔ مصـر من غیر منازع؛ لکن أحوال مصر کانت فی أیّامه مضـطربهٔ إلی أن ورد علیه الخبر بموت الخلیفـهٔ المعتضـد بـالله فی شـهر ربیع الآخر سـنهٔ تسع و ثمانین و مائتین، و بویع لابنه محمد المکتفی بالخلافهٔ. ثم خرج القرمطیّ بالشأم فی سنهٔ تسعین، فجهّز هارون لحربه القوّاد فی جیش کبیر فهزمهم القرمطیّ؛ ثم وقع بین هارون و بین الخلیفـهٔ المکتفی وحشهٔ و تزایدت الی أن أرسل المکتفی لحربه محمد بن سـلیمان الکاتب؛ فسار محمد بن سـلیمان من بغـداد إلی أن نزل حمص و بعث بـالمراکب من الثغور الی سواحـل مصـر و سار هو حتی نزل بفلسـطین؛ فتجهّز هارون أیضا لقتال

محمد ابن سليمان المذكور و سيّر المراكب فى البحر لحربه و فيها المقاتلة، حتى التقوا بمراكب محمد بن سليمان و قاتلوهم فانهزموا؛ و كان القتال فى تنّيس و ملك أصحاب محمد بن سليمان تنّيس و دمياط؛ و كان هارون قد خرج من مصر يوم التّروية لقتال محمد بن سليمان، فلما بلغه الخبر توجّه الى العبّاسة و معه أهله و أعمامه فى ضيق و جهد، فتفرّق عنه كثير من أصحابه و بقى فى نفر يسير، و هو مع ذلك متشاغل باللهو و السكر؛ فاجتمع عمّاه شيبان و عدىّ ابنا أحمد بن طولون على قتله، فدخلا عليه و هو ثمل فقتلاه ليلة الأحد لإحدى عشرة بقيت من صفر سنة اثنتين و تسعين و مائتين، و سنّه يومئذ اثنتان و عشرون سنة؛

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۱۱

و كانت ولايته على مصر ثمانى سنين و ثمانية أشهر و أيّاما؛ و تولّى عمّه شيبان مصر بعده.

و قال سبط ابن الجوزىّ فى تاريخه: و فيها- يعنى سنة اثنتين و تسعين و مائتين- فى صفر سار محمد بن سليمان إلى مصر لحرب هارون بن خمارويه، و خرج إليه هارون فى القوّاد فجرت بينهم وقعات؛ ثم وقع بين أصحاب هارون فى بعض الأيام عصبيّة، فاقتتلوا، فخرج هارون ليسكتهم فرماه بعض المغاربة بسهم فقتله و تفرّقوا؛ فدخل محمد بن سليمان مصر و ملكها و احتوى على دور آل طولون و أسبابهم و أخذهم جميعا، و كانوا بضعة عشر رجلا، فقيّدهم و حبسهم و استصفى أموالهم و كتب بالفتح إلى المكتفى. و قيل: إن محمد بن سليمان لمّا قرب من مصر أرسل الى هارون يقول:

إن الخليفة قد ولّانى مصر و رسم أن تسير بأهلك و حشمك إلى بابه إن كنت مطيعا، و بعث بكتاب الخليفة إلى هارون؛ فعرضه هارون على القوّاد فأبوا عليه فخرج هارون؛ فلمّا وقع المصافّ صاح هارون: يا منصور؛ فقال القوّاد: هذا يريد هلا كنا، فدسّوا عليه خادما فقتله على فراشه و ولّوا مكانه شيبان بن أحمد بن طولون؛ ثم خرج شيبان الى محمد مستأمنا. و كتب الخليفة إلى محمد بن سليمان فى إشخاص آل طولون و أسبابهم و القوّاد و ألّا يترك أحدا منهم بمصر و الشأم؛ فبعث بهم إلى بغداد فحبسوا فى دار صاعد. انتهى ما أوردناه من ترجمة هارون من عدّة أقوال بخلف وقع بينهم فى أشياء كثيرة.

و أما محمد بن سليمان المذكور فأصله كاتب الخادم لؤلؤ الطولونىّ. قال القضاعىّ:

يقال: إن أحمد بن طولون جلس يوما فى بعض متنزّهاته و معه كتاب ينظر فيه، و إذا بشابّ قد أقبل، فالتفت أحمد الى لؤلؤ الطولونىّ و قال. اذهب و أتنى برأس هذا الشابّ؛ فنزل إليه لؤلؤ و سأله من أىّ بلد هو و ما صنعته؟ فقال: من العراق من أبناء الكتّاب؛ فقال له: و ما أتيت تطلب؟ قال: رزقا؛ فعاد لؤلؤ إلى أحمد بن طولون؛

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۱۲

فقال له: ضربت عنقه؟ فسكت، فأعاد عليه القول فسكت؛ فاستشاط أحمد ابن طولون غيظا ثم أمره بقتله؛ فقال لؤلؤ: يا مولاى بأىّ ذنب تقتله؟ فقال:

إنى أرى فى هذا الكتاب من منذ سنين أن زوال ملك ولدى يكون على يد رجل هذه صفته فقال: يا مولاى، أو هذا صحيح؟ قال: هذا الذى رأيته و تفرّسته؛ فقال: يا مولاى، لا يخلو هذا الأمر من أن يكون حقّا أو كذبا، فإن كان كذبا فما لنا و الدخول فى دم مسلم! و إن كان حقّا فلعلّنا نفعل معه خيرا علّه يكافئ به يوما، و إن كان اللّه قدّر ذلك فإنا لا نقدر على قتله أبدا؛ فسكت أحمد بن طولون، فأضافه لؤلؤ إليه؛ و كان هذا الشابّ يسمى محمد بن سليمان الكاتب الحنيفىّ، منسوب إلى حنيفة السّمرقندىّ، فلم تزل الأيام تنتقل بمحمد المذكور و الدّهر يتصرّف فيه إلى أن بقى ببغداد قائدا من جملة القوّاد، و جرى من أمره ما تقدّم ذكره من قتال القرامطة و هارون صاحب مصر، إلى أن ملك الديار المصريّة و أمسك الطولونيّة و خرّب منازلهم، و هدم القصر المسمّى بالميدان الذى كان سكن أحمد بن طولون، و تتبع أساسه حتى أخرب الديار و محا الآثار، و نقل ما كان بمصر من ذخائر بنى طولون إلى العراق. و قال صاحب كتاب الذخائر: إن محمد بن سليمان المذكور رجع إلى العراق فى سنة اثنتين و تسعين و مائتين و معه من ذخائر بنى طولون أموال عظيمة، يقال: إنّه كان معه أكثر من ألف ألف دينار عينا، و إنّه حمل إلى الخليفة الإمام المكتفى من الذخائر و الحلىّ و الفرش

أربعة و عشرين ألف حمل جمل، و حمل آل طولون معه إلى بغداد؛ و أخذ محمد بن سليمان لنفسه و أصحابه غير ذلك ما لا يحصى كثرة. و لما و صل محمد بن سليمان إلى حلب متوجّها إلى العراق، كتب الخليفة المكتفى إلى وصيف مولى المعتضد أن يتوكّل بإشخاص محمد بن سليمان المذكور؛ فأشخصه

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۱۳

و صيف المذكور إلى الحضرة؛ فأخذه المكتفى و قيّده و صادره و طالبه بالأموال التى أخذها من مصر. و لم يزل محمد بن سليمان معتقلا- إلى أن تولّى ابن الفرات للخليفة المقتدر جعفر، فأخرجه إلى قزوين واليا على الضّباع و الأعشار بها. يأتى ذكر محمد ابن سليمان هذا ثانيا بعد ذلك فى حوادث هارون على الترتيب المقدّم ذكره بعد فى ولاية شيبان إن شاء اللّه تعالى.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۸۴]

السنة الأولى من ولاية هارون بن خمارويه على مصر، و هى سنة أربع و ثمانين و مائتين- فيها كانت وقعة بين الأمير عيسى النّوشرىّ الآتى ذكره فى أمراء مصر و بين بكر بن عبد العزيز بن أبى دلف، و كان قد أظهر العصيان فهزمه النّوشرىّ بقرب أصبهان و استباح عسكره. و فيها ظهرت بمصر حمرة عظيمة فى الجوّ حتى إنه كان الرجل إذا نظر فى وجه الرجل يراه أحمر و كذا الحيطان، فتضرّع الناس بالدعاء إلى اللّه، و كانت من العصر إلى الليل. و فيها بعث عمرو بن الليث بألف ألف درهم لتنفق على إصلاح درب مكّة من العراق، قاله ابن جرير الطبرىّ.

و فيها عزم المعتضد على لعن معاوية على المنابر، فخوّفه عبيد اللّه الوزير باضطراب العامة، فلم يلتفت و تقدّم إلى العامة بلزوم أشغالهم و ترك الاجتماع بالناس، و منع القصّاص من القعود فى الأماكن، ثم منع من اجتماع الحلق فى الجوامع، و كتب المعتضد

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۱۴

كتابا فى ذلك و اجتمع الناس يوم الجمعة بناء على أنّ الخطيب يقرؤه فما قرئ. و فيها ظهر فى دار الخليفة المعتضد شخص فى يده سيف مسلول، فقصده بعض الخدّام فضربه بالسيف فجرحه و اختفى فى البستان، فطلب فلم يوجد له أثر؛ فعظم ذلك على المعتضد و احترز على نفسه و ساءت الظنون فيه فقيل هو من الجنّ، و قيل غير ذلك؛ و أقام الشخص يظهر مرارا ثم يختفى، و لم يظهر خبره حتى مات المعتضد و المكتفى، فاذا هو خادم كان يميل إلى بعض الجوارى التى فى الدور، و كانت عادة المعتضد أنه من بلغ الحلم من الخدّام منعه من الدخول الى الحرم، و كان خارج دور الحرم بستان كبير، فاتخذ هذا الخادم لحية بيضاء و بقى تارة يظهر فى صورة راهب و تارة يظهر بزىّ جندىّ بيده سيف، و اتخذ عدّة لحّى مختلفة الهيئات و الألوان؛ فاذا ظهر خرجت الجارية مع الجوارى لتراه فيخلو بها بين الشجر، فاذا طلب دخل بين الشجر و نزع اللحية و البرنس و نحو ذلك، و خبأها و ترك السيف فى يده مسلولا كأنه من جملة الطالبين لذلك الشخص؛ و بقى كذلك إلى أن ولى المقتدر الخلافة و أخرج الخادم إلى طرسوس، فتحدّثت الجارية بحديثه بعد ذلك. و فيها فى يوم الخميس رابع المحرّم قدم [رسول] عمرو بن الليث الصفّار على المعتضد برأس رافع بن هرثمة؛ فخلع على الرسول و نصب الرأس فى جانبى بغداد. و فيها وعد المنجّمون الناس بغرق الأقاليم السبعة، و يكون ذلك من كثرة الأمطار و زيادة المياه فى العيون و الآبار، فانقطع الغيث و غارت العيون و قلّت المياه، حتى احتاج الناس إلى أن استسقوا ببغداد حتى

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۱۵

أمطروا و كذّب اللّه المنجّمين. و فيها حجّ بالناس محمد بن عبد اللّه بن ترنجة.

و فيها توفّى أحمد بن المبارك أبو عمرو المستملى النّيسابورىّ الزاهد العابد، كان يسمّى راهب عصره، يصوم النهار و يقوم الليل، و كانت وفاته بنيسابور فى جمادى الآخرة.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفى إسحاق بن الحسن الحربىّ، و أبو عمرو أحمد بن المبارك المستملى، و أبو خالد عبد العزيز بن معاوية القرشىّ [العتابىّ] و محمود بن الفرج الأصبهانىّ الزاهد، و هشام بن على السّيرافىّ، و يزيد بن الهيثم أبو خالد البادىّ.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و ثلاث عشرة إصبعا، مبلغ الزيادة خمس عشرة ذراعا و تسع عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۸۵]

السنة الثانية من ولاية هارون على مصر، و هى سنة خمس و ثمانين و مائتين- فيها فى يوم الأربعاء لاثنتى عشرة ليلة بقيت من المحرّم قطع صالح بن مدرك الطائىّ الطريق فى جماعة من طيئ على الحجّاج [بالأجفر]، فأخذوا من الأموال و المماليك

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۱۶

و النساء ما قيمته ألف ألف دينار. و فيها ولّى المعتضد ابن أبى الساج أرمينية و أذربيجان و كان قد غلب عليهما. و فيها غزا راغب الخادم مولى الموفّق بلاد الروم فى البحر فأظفره اللّه بمراكب كبيرة و فتح حصونا كثيرة. و فيها حجّ بالناس محمد بن عبد اللّه بن ترنجة. و فيها فى شهر ربيع الأوّل هبّت ريح صفراء بالبصرة ثم صارت خضراء ثم سوداء و امتدّت فى الأمصار، ثم وقع عقيبها مطر و برد وزن البردة مائة و خمسون درهما، و قطعت الريح نحو ستمائة نخلة، و مطرت قرية من القرى حجارة سودء و بيضاء. و فيها فى ذى الحجة منها قدم الأمير على ابن الخليفة المعتضد بالله بغداد، و كان قد جهّزه أبوه لقتال محمد بن زيد العلوىّ، فدفع محمد ابن زيد عن الجبال و تحيّز الى طبرستان، ففرح به أبوه المعتضد و قال: بعثناك ولدا فرجعت أخا، ثم أعطاه ألف ألف دينار. و فى ذى الحجة أيضا خرج الخليفة المعتضد و ابنه علىّ يريد آمد لمّا بلغه موت عيسى بن الشيخ بعد أن صلّى ابنه علىّ المذكور بالناس يوم الأضحى ببغداد، و ركب كما يركب ولاة العهود. و فيها توفى إبراهيم بن إسحاق بن إبراهيم بن بشير بن عبد اللّه أبو إسحاق المروزىّ الحربىّ، كان إماما عالما فاضلا زاهدا مصنّفا، كان يقاس بالإمام أحمد بن حنبل فى علمه و زهده. و فيها توفى الأمير أحمد بن عيسى بن الشيخ صاحب آمد و ديار بكر، كان ولّاه إيّاهما المعتزّ، فلما قتل المعتزّ استولى عليهما الى أن مات فى هذه السنة، فاستولى عليهما ابنه محمد فسار المعتضد فأخذهما منه و استعمل عليهما نوّابه. و فيها

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۱۷

توفّى إمام النحاة المبرّد و اسمه محمد بن يزيد بن عبد الأكبر بن عمير بن حسّان بن سليمان الإمام العلّامة أبو العبّاس البصرىّ الأزدىّ المعروف بالمبرّد، انتهت إليه رياسة النحو و اللغة بالبصرة، ولد سنة ستّ و مائتين و قيل: سنة عشر و مائتين.

و كان المبرّد و أبو العبّاس أحمد بن يحيى الملقّب بثعلب صاحب كتاب الفصيح عالمين متعاصرين؛ و فيهما يقول أبو بكر بن أبى الأزهر:

أيا طالب العلم لا تجهلن و عذ بالمبرّد أو ثعلب

تجد عند هذين علم الورى فلا تك كالجمل الأجرب

علوم الخلائق مقرونة بهذين فى الشرق و المغرب

و كان المبرّد يحبّ الاجتماع و المناظرة بثعلب و ثعلب يكره ذلك و يمتنع منه. و من شعر المبرّد:

يا من تلبّس أثوابا يتيه بها تيه الملوك على بعض المساكين

ما غيّر الجلّ أخلاق الحمار و لا نقش البرادع أخلاق البراذين

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۱۸

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفى إبراهيم الحربىّ، و إسحاق بن إبراهيم الدّبرىّ، و عبيد [اللّه] بن عبد الواحد بن شريك، و أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم سبع أذرع و ستّ عشرة إصبعا، مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و تسع عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۸۶]

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة؛ ج۳؛ ص۱۱۸

سنة الثالثة من ولاية هارون على مصر، و هى سنة ستّ و ثمانين و مائتين- فيها أرسل هارون بن خمارويه صاحب الترجمة الى الخليفة المعتضد يعلمه أنه نزل عن أعمال قنّسرين و العواصم، و أنّه يحمل الى المعتضد فى كلّ سنة أربعمائة ألف دينار و خمسين ألف دينار، و سأله تجديد الولاية له على مصر و الشأم؛ فأجابه المعتضد الى ذلک و كتب له تقليدا بهما. و فيها فى شهر ربيع الآخر نازل المعتضد آمد و بها محمد بن أحمد ابن [عيسى بن] الشيخ فحاصرها أربعين يوما حتى ضعف محمد و طلب الأمان [لنفسه و أهل البلد فأجابه الى ذلک فخرج إليه محمد و معه أصحابه و أولياؤه فوصلوا الى المعتضد] فخلع عليه المعتضد. و فيها قبض المعتضد على راغب الخادم أمير طرسوس و استأصل أمواله فمات بعد أيّام. و فيها التقى جيش عمرو بن الليث الصفّار و اسماعيل بن أحمد

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۱۹

ابن أسد [السامانىّ] بما وراء النهر فانكسر أصحاب عمرو، ثم التقى هو و عمرو ثانيا على بلخ، و كان أهل بلخ قد ملّوا عمرا و أصحابه و نجروا من نزولهم فى دورهم و أخذهم أموالهم، فساعد أهل بلخ إسماعيل فانكسر عمرو و انهزم الى بلخ، فوجد أبوابها مغلقة ثم فتحوا له و لجماعة معه؛ فلما دخل وثب عليه أهل بلخ فأوثقوه و حملوه الى إسماعيل فأكرمه إسماعيل ثم بعث به الى المعتضد فخلع المعتضد على إسماعيل خلعة السلطنة، و أدخل عمرو بغداد على جمل ليشهّروه بها ثم حبسه المعتضد فى مطمورة، فكان يقول: لو أردت أن أعمل على جيحون جسرا من ذهب لفعلت، و كان مطبخى يحمل على ستمائة جمل، و أركب فى مائة ألف، أصارنى الدهر إلى القيد و الذلّ! و قيل: إنه خنق قبل موت المعتضد بيسير. و فيها ظهر بالبحرين أبو سعيد الجنّابىّ القرمطىّ فى أوّل السنة، و فى وسطها قويت شوكته و انضمّ إليه طائفة من الأعراب، فقتل أهل تلک

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۲۰

القرى و قصد البصرة، فبنى عليها المعتضد سورا؛ و كان أبو سعيد هذا كيالا بالبصرة.

و جنّابة من قرى الأهواز، و قيل: من قرى البحرين.

قلت: و هذا أوّل من ظهر من القرامطة الآتى ذكرهم فى هذا الكتاب فى عدّة مواطن. و هذا القرمطىّ هو الذى قتل الحجيج و اقتلع الحجر الأسود حسبما يأتى ذكره.

و فيها حضر مجلس القاضى موسى بن إسحاق قاضى الرّىّ وكيل امرأة ادّعى على زوجها صداقها بخمسمائة دينار فأنكر الزوج؛ فقال القاضى: البيّنة، فأحضرها الوكيل فى الوقت، فقالوا: لا بدّ أن ننظر المرأة [و هى مسفرة لتصحّ عندهم معرفتها] فتتحقّق الشهادة؛ فقال الزوج: و لا ـ بدّ؟ فقالوا: و لا بدّ؛ فقال الزوج: أيها القاضى عندى الخمسمائة دينار و لا ينظر هؤلاء الى امرأتى [فأخبرت بما كان من زوجها]؛ فقالت المرأة: إنى أشهد القاضى أنّنى قد وهبت له ذلک و أبرأته منه فى الدنيا و الآخرة! فقال القاضى: تكتب هذه الواقعة فى مكارم الأخلاق. و فيها توفّى إسماعيل بن إسحاق بن إبراهيم بن مهران أبو بكر السّراج النيسابورىّ مولى ثقيف، سمع الإمام أحمد و صحبه. و فيها توفى الحسين بن سيّار أبو على البغدادىّ الخيّاط، كان إماما عارفا بتعبير الرؤيا، و كانت وفاته فى صفر، أسند عن أبى بلال الأشعرىّ

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۲۱

و غیره، و روی عنه جماعة کثیرة. و فیها توفی محمد بن یونس بن موسی بن سلیمان ابن عبید بن ربیعة بن کدیم أبو العباس الکدیمیّ القرشیّ البصریّ، حجّ أربعین حجّة، و کان حافظا متقنا ورعا، مات ببغداد فی نصف جمادی الآخرة.

الذین ذکر الذهبیّ وفاتهم فی هذه السنة، قال: و فیها توفی أحمد بن سلمة النّیسابوریّ الحافظ، و أحمد بن علیّ الخزّاز، و أبو سعید الخرّاز شیخ الصوفیّة، و أحمد ابن المعلّی [بن یزید أبو بکر الأسدیّ القاضی] الدّمشقیّ، و ابراهیم بن سوید الشامیّ، و إبراهیم [بن محمد] بن برّة الصّنعانیّ، و الحسن بن عبد الأعلی البوسیّ أحد أصحاب عبد الرزّاق، و عبد الرّحیم بن عبد اللّه البرقیّ، و علی بن عبد العزیز البغویّ، و محمد بن وضّاح القرطبیّ، و محمد بن یوسف البنّاء الزاهد، و محمد بن یونس الکدیمیّ، و أبو عبادة البحتریّ الشاعر.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم سبع أذرع و خمس عشرة إصبعا، مبلغ الزیادة سبع عشرة ذراعا و ثمانی أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۸۷]

السنة الرابعة من ولایة هارون علی مصر، و هی سنة سبع و ثمانین و مائتین- فیها فی المحرّم واقع صالح بن مدرک کبیر عرب طیّئ الحاجّ العراقیّ کما فعل بهم

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۲۲

فی العام الماضی، و کان فی ثلاثة آلاف من عرب طیّئ و غیرهم ما بین فارس و راجل، و کان أمیر الحاج أبا الأغرّ، فأقاموا یقاتلونهم یوما و لیلة حتی هزم صالح بن مدرک و قتل معه أعیان طیّئ، و دخل الرّکب بغداد بالرءوس علی الرّماح و بالأسری. و فیها عظم أمر القرامطة و أغاروا علی البصرة و نواحیها، فسار لحربهم العبّاس بن عمرو الغنویّ فالتقوا فأسر الغنویّ و قتل خلق من جنده، ثم إنّ أبا سعید القرمطیّ أطلقه، و قال له: بلّغ المعتضد عنّی رسالة و مضمونها: أنه یکفّ عنه و یحفظ حرمته، و قال: فأنا قنعت بالبرّیّة فلا یتعرّض لی. و فیها مات صاحب طبرستان محمد بن زید العلویّ. و فیها أوقع بدر غلام الطائی بالقرامطة علی غرّة، فقتل منهم مقتلة عظیمة ثم ترکهم خوفا علی السواد. و فیها حجّ بالناس محمد بن عبد اللّه بن ترنجة. و فیها توفی أحمد بن عمرو بن [أبی عاصم] الضحاک القاضی أبو بکر الشّیبانیّ الفقیه المحدّث و ابن محدّث، ولی القضاء بأصبهان و صنّف علوم الحدیث و کان عالما بارعا. و فیها توفی یعقوب بن یوسف بن أیوب الشیخ

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۲۳

أبو بکر المطّوّعیّ الزاهد العابد، و عنه قال: کان وردی فی شبیبتی کلّ یوم و لیلة أربعین ألف مرّة (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ).

الذین ذکر الذهبیّ وفاتهم فی هذه السنة، قال: و فیها توفی أحمد بن إسحاق ابن إبراهیم بن نبیط، و أبو بکر أحمد بن عمرو بن أبی عاصم أبو علیّ فی [شهر] ربیع الآخر و له نیّف و ثمانون سنة، و محمد بن عمرو الحوشیّ، و موسی بن الحسن الجلاجلیّ، و أبو سعد یحیی بن منصور الهرویّ.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم سبع أذرع و خمس و عشرون إصبعا، مبلغ الزیادة سبع عشرة ذراعا و عشر أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۸۸]

السنة الخامسة من ولایة هارون علی مصر، و هی سنة ثمان و ثمانین و مائتین- فیها وقع و باء بأذربیجان فمات فیه خلق کثیر و فقدت

الأکفان فکفّن الناس فی الأکسیة و اللّبود ثم فقدت، و فقد من یدفن الموتی فکانوا یطرحون علی الطریق، ثم وقع الطاعون فی أصحاب محمد بن أبی الساج فمات لمحمد مائتا ولد

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۲۴

و غلام، ثم مات محمد بن أبی السّاج المذکور بمدینة أذربیجان، و کان یلقّب بالأفشین، فاجتمع غلمانه و أمّروا علیهم ابنه دیوداد فاعتزلهم أخوه یوسف بن أبی الساج و هو مخالف لهم. و فیها حجّ بالناس هارون بن محمد بن العباس بن إبراهیم ابن عیسی بن أبی جعفر المنصور. و فیها کانت زلزلة. قال أبو الفرج بن الجوزیّ:

[ورد الخبر بأنه مات تحت الهدم فی یوم واحد أکثر من ثلاثین ألف إنسان و دام علیهم هذا أیّاما فبلغ من هلک خمسین و مائة ألف] و قیل: کان ذلک فی العام الماضی. و فیها قدم المعتضد العراق و معه وصیف خادم محمد بن أبی السّاج، و کان قد عصی علیه بالثغور، فأسره و أدخل علی جمل، ثم توفّی بالسجن بعد أیام فصلبت جثته علی الجسر. و فیها ظهر أبو عبد اللّه الشّیعیّ بالمغرب و نزل بکتامة و دعاهم إلی المهدیّ عبید اللّه- أعنی بعبید اللّه جدّ الخلفاء الفاطمیّة- و فیها توفی ثابت بن قرّة العلامة أبو الحسن المهندس صاحب التصانیف فی الفلسفة و الهندسة و الطبّ و غیره، کان فاضلا بارعا فی علوم کثیرة، و مولده فی سنة إحدی و عشرین و مائتین.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۲۵

الذین ذکر الذهبیّ وفاتهم فی هذه السنة، قال: و فیها توفّی إسحاق بن إسماعیل الرّملی بأصبهان، و بشر بن موسی الأسدیّ، و جعفر بن محمد بن سوّار الحافظ، و أبو القاسم عثمان بن سعید بن بشّار الأنماطیّ شیخ ابن سریج، و معاذ بن المثنّی العنبریّ، و خلق سواهم.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم ستّ أذرع سواء، مبلغ الزیادة ستّ عشرة ذراعا و أربع أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۸۹]

السنة السادسة من ولایة هارون علی مصر، و هی سنة تسع و ثمانین و مائتین- فیها فاض البحر علی الساحل فأخرب البلاد و الحصون [التی علیه]. و فیها فی [شهر] ربیع الآخر اعتلّ الخلیفة المعتضد بالله علّة صعبة و هی العلة التی مات بها؛ فقال عبد اللّه بن المعتزّ فی ذلک:

طار قلبی بجناح الوجیب جزعا من حادثات الخطوب

و حذارا أن یشاک بسوء أسد الملک و سیف الحروب

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۲۶

ثم انتکس و مات فی الشهر، و تخلّف بعده ولده المکتفی بالله أبو محمد علیّ.

و لیس فی الخلفاء من اسمه علی غیر علیّ بن أبی طالب رضی اللّه عنه و هذا. و فیها فی شهر رجب زلزلت بغداد زلزلة عظیمة دامت أیّاما. و فیها هبّت ریح عظیمة بالبصرة قلعت عامّة نخلها و لم یسمع بمثل ذلک. و فیها انتشرت القرامطة بسواد الکوفة، و کان رئیسهم یقال له ابن أبی الفوارس، فظفر به عسکر المعتضد- أعنی قبل موت المعتضد- فحمل هو و جماعة معه الی بغداد فعذّبوا بأنواع العذاب ثم صلوا و أحرقوا؛ و أمّا کبیرهم ابن أبی الفوارس المذکور فقلعت أضراسه ثم شدّ فی إحدی یدیه بکرة و فی الأخری صخرة، و رفعت البکرة ثم لم یزل علی حاله الی وقت الظّهر؛ ثم قطعت یداه و رجلاه و ضربت عنقه. و فیها حجّ بالناس الفضل بن عبد الملک ابن عبد اللّه العباسیّ. و فیها توفّی الخلیفة أمیر المؤمنین المعتضد بالله أبو العباس أحمد ابن الأمیر ولیّ العهد أبی أحمد طلحة الموفّق ابن الخلیفة المتوکّل علی اللّه جعفر ابن الخلیفة المعتصم بالله محمد ابن الخلیفة الرشید بالله هارون ابن الخلیفة المهدیّ محمد ابن الخلیفة أبی جعفر المنصور عبد اللّه بن محمد بن علی بن عبد اللّه بن العباس الهاشمیّ العباسیّ البغدادیّ، و مولده فی سنة اثنتین و

أربعين و مائتين فى ذى القعدة فى أيام جدّه المتوكّل؛ و استخلف بعده عمّه المعتمد أحمد فى شهر رجب سنة تسع و سبعين و مائتين. قال ابراهيم [بن محمد] بن عرفة: و توفّى المعتضد فى يوم الاثنين لثمان بقين من [شهر] ربيع الآخر سنة تسع و ثمانين و مائتين و دفن فى حجرة الرخام و صلّى عليه

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۲۷

يوسف بن يعقوب القاضى، و كانت خلافته تسع سنين و تسعة أشهر و نصفا.

قلت: و بويع بالخلافة بعده ولده علىّ بعهد منه، و لقّب بالمكتفى. و كان المعتضد شجاعا مهيبا أسمر نحيفا معتدل الخلق ظاهر الجبروت وافر العقل شديد الوطأة، من أفراد خلفاء بنى العباس و شجعانهم، كان يتقدّم على الأسد وحده.

و قال المسعودىّ: كان المعتضد قليل الرحمة، قيل: إنه كان إذا غضب على قائد أمر أن تحفر له حفيرة و يلقى فيها و تطمّ عليه، قال: شكّوا فى موت المعتضد فتقدّم الطبيب فجسّ نبضه ففتح عينه و رفس الطبيب برجله فدحاه أذرعا فمات الطبيب، ثم مات المعتضد أيضا من ساعته. هكذا نقل المسعودىّ. و رثاه الأمير عبد اللّه بن المعتزّ العبّاسىّ فقال:

يا ساكن القبر فى غبراء مظلمة بالطاهريّة مقصى الدار منفردا

أين الجيوش التى قد كنت تسحبها أين الكنوز التى لم تحصها عددا

أين السرير الذى قد كنت تملؤه مهابة من رأته عينه ارتعدا

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۲۸

أين الأعادى الألى ذلّلت مصعبهم أين الليوث التى صيّرتها بعدا

أين الجياد التى حجّتها بدم و كنّ يحملن منک الضّيغم الأسدا

أين الرماح التى غذّيتها مهجا مذمت ما وردت قلبا و لا كبدا

أين الجنان التى تجرى جداولها و تستجيب اليها الطائر الغردا

أين الوصائف كالغزلان رائحة يسحبن من حلل موشيّة جددا

أين الملاهى و أين الراح تحسبها ياقوتة كسيت من فضّة زردا

أين الوثوب إلى الأعداء مبتغيا صلاح ملک بنى العبّاس إذ فسدا

ما زلت تقسر منهم كلّ قسورة و تخبط العالى الجبّار معتمدا

ثم انقضيت فلا عين و لا أثر حتى كأنک يوما لم تكن أحدا

و فيها خرج يحيى بن زكرويه بن مهرويه داعية قرمط و جمع جموعا كثيرة من الأعراب، و كانت بينه و بين طغج بن جفّ تائب هارون بن خمارويه على الشام وقعات عديدة، تقدّم ذكر ذلک كله فى أوّل ترجمة هارون المذكور. و فيها صلّى المكتفى بالناس يوم عيد النحر و كان بين يديه ألوية الملوك، و ترجّل الملوک و الأمراء بين يديه ما خلا وزيره القاسم بن عبيد اللّه فإنه ركب و سايره دون الناس؛ و لم ير قبل ذلک خليفة يسايره وزير غيره.

قلت: و هذا أوّل وهن وقع فى حقّ الخلفاء. و أنا أقول: إنّ المعتضد هو آخر خليفة عقد ناموس الخلافة، ثم من بعده أخذ أمر الخلفاء فى إدبار إلى يومنا هذا. و فيها

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۲۹

توفّى بدر المعتضدىّ، كان يخدم المعتضد و الموفّق و أباه المتوكّل، و أصله من غلمان المتوكّل فرفعته السعادة. قال يحيى بن علىّ النّديم: كنت واقفا على رأس المعتضد و هو مقطّب فدخل بدر فأسفر وجهه لمّا رآه و ضحک، ثم قال لى: يا يحيى، من القائل:

فى وجهه شافع يمحو إساءته من القلوب وجيه حيثما شفعا

فقلت: الحكم بن قنبر المازنیّ؛ فقال: أنشدنی تمامه، فأنشدته:

و یلی علی من أطار النوم فامتنعا وزاد قلبی علی أوجاعه وجعا

كأنما الشمس من أعطافه لمعت حسنا أو البدر من أزراره طلعا

مستقبل بالذی یهوی و إن كثرت منه الذنوب و معذور بما صنعا

فی وجهه شافع یمحو إساءته من القلوب وجیه حیثما شفعا

و كان بدر هذا شجاعا ممدّحا جوادا.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۳۰

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم سبع أذرع سواء، مبلغ الزیادة سبع عشرة ذراعا و ستّ عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۹۰]

السنة السابعة من ولایة هارون علی مصر، و هی سنة تسعین و مائتین- فیها فی المحترم قصد یحیی بن زكرویه القرمطیّ الرّقّة فی جمع كثیر؛ فخرج إلیه أصحاب السلطان فقتل منهم جماعة و انهزم الباقون؛ فبعث طغج بن جفّ أمیر دمشق من قبل هارون بن خمارویه صاحب الترجمة جیشا مع خادمه بشیر إلی القرمطیّ، فواقعهم الفرمطیّ و قتل بشیرا و هزم الجیش. و فیها أیضا خلع الخلیفة المكتفی علی أبی الأغرّ و بعثه فی عشرة آلاف لقتال القرمطیّ. و فیها حصر القرمطیّ دمشق و فیها أمیرها طغج بن جفّ فعجز طغج عن مقاومته بعد أن واقعه غیر مرّة؛ و قتل یحیی بن زكرویه كبیر القرامطة؛ فأقاموا علیهم أخاه الحسین بن زكرویه؛ و بلغ المكتفی [ذلک] فاستحثّ العساكر المندوبة لقتال القرامطة بالخروج لقتالهم، فتوجه إلیهم أبو الأغرّ و واقع القرامطة فانهزم أبو الأغرّ، و قتل غالب أصحابه؛ و تبعه القرمطیّ إلی حلب، فقاتله أهل حلب. و فیها توفّی عبد اللّه ابن الإمام أحمد بن محمد بن حنبل أبو عبد الرّحمن الشّیبانیّ، مولده سنة ثلاث عشرة و مائتین، و لم یكن فی الدنیا أحد أروی عن أبیه منه، و سمع منه المسند و هو ثلاثون ألف حدیث، و التفسیر مائة و عشرین ألفا، و الناسخ و المنسوخ [و المقدّم و المؤخر فی كتاب اللّه]، و جوابات القرآن، و المناسک الكبیر و الصغیر، و كان عالما بفنون [كثیرة]؛ و كان أبوه یقول: لقد وعی عبد اللّه علما كثیرا. و فیها توفّی عبد اللّه بن أحمد بن أفلح بن عبد اللّه بن محمد بن عبد الرّحمن بن أبی بكر الصدّیق أبو الصدّیق محمد القاضی البكریّ، كان

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۳۱

إماما عالما بارعا. و فیها توفّی محمد بن عبد اللّه الشیخ أبو بكر الدّقاق، كان من كبار مشایخ القوم و كان صاحب أقوال و كرامات.

الذین ذكر الذهبیّ وفاتهم فی هذه السنة، قال: و فیها توفی أحمد بن علی الأبّار، و الحسن بن سهل المجوّز، و الحسین بن إسحاق التّستریّ، و عبد اللّه بن أحمد بن محمد ابن حنبل، و محمد بن زكریا الغلابیّ الإخباری، و محمد بن العباس المؤدّب، و محمد ابن یحیی بن المنذر القزّاز أحد شیوخ الطّبرانی.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم ستّ أذرع و ثلاث و عشرون إصبعا، مبلغ الزیادة ثلاث عشرة ذراعا و أربع أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۹۱]

اشارة

السنة الثامنة من ولاية هارون على مصر، و هى سنة إحدى و تسعين و مائتين- فيها قتل الحسين بن زكرويه القرمطىّ المعروف بصاحب الشامة. و فيها زوّج المكتفى ولده أبا أحمد بابنة وزيره القاسم بن عبيد اللّه؛ و خطب أبو عمر القاضى، و خلع على القاسم أربعمائة خلعة، و كان الصّداق مائة ألف دينار. و فيها خرجت الترك إلى بلاد المسلمين فى جيوش عظيمة، يقال: كان معهم سبعمائة خركاة تركية

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۳۲

و لا تكون الخركاه إلا لأمير، فنادى إسماعيل بن أحمد فى خراسان و سجستان و طبرستان بالنّفير و جهّز جيوشه فوافوا الترك على غرّة سحرا فقتلوا منهم مقتلة عظيمة و انهزم من بقى، و غنم المسلمون و سلموا و عادوا منصورين. و فيها بعث صاحب الروم جيشا مبلغه مائة ألف فوصلوا الى الحدث فنهبوا و سبوا و أحرقوا. و فيها غزا غلام زرافة من طرسوس الى الروم فوصل الى أنطاكية و هى تعادل قسطنطينية، فنازلها الى أن افتتحها عنوة و قتل نحوا من خمسة آلاف و أسر أضعافهم و استنقذ من الأسر أربعة آلاف مسلم، و غنم من الأموال ما لا يحصى بحيث إنه أصاب سهم الفارس ألف دينار. و فيها خلع المكتفى على محمد بن سليمان الكاتب و على محمد بن إسحاق ابن كنداج و على أبى الأغرّ و على جماعة من القوّاد، و أمرهم بالسمع و الطاعة لمحمد ابن سليمان المذكور، و ندب الجميع بالمسير الى دمشق لقبض ما كان بيد هارون بن خمارويه صاحب الترجمة من الأعمال، لأنه كانت الوحشة قد وقعت بينهما.

و فيها حجّ بالناس الفضل بن عبد الملك الهاشمىّ العباسىّ. و فيها توفّى إبراهيم بن أحمد ابن اسماعيل، الشيخ أبو إسحاق الخوّاص البغدادىّ، كان أوحد أهل زمانه فى التوكّل، صحب أبا عبد اللّه المغربىّ، و كان من أقران الجنيد، و له فى الرياضات و السياحات

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۳۳

مقامات. و فيها توفّى أحمد بن يحيى بن زيد بن سيّار أبو العبّاس الشّيبانى مولاهم ثعلب النحوىّ إمام أهل الكوفة، مولده فى سنة مائتين. و فيها توفّى الوزير القاسم بن عبيد اللّه وزير المعتضد و المكتفى، كان شابّا غرّا قليل الخبرة بالأمور مستهتكا للمحارم؛ و إنما استوزره المكتفى لأنه أخذ له البيعة و حفظ عليه الأموال.

و فيها توفّى هارون بن موسى بن شريك أبو عبد اللّه التّغلبىّ الأخفش الشامى النحوىّ اللغوىّ، ولد سنة مائتين، سمع هشام بن عمّار و طبقته، و كان إماما فى فنون كثيرة بارعا مفنّنا؛ و لما مات جلس مكانه محمد بن نصير بن أبى حمزة.

و هذا هو الأخفش الشامىّ. و أما الأخفش البصرىّ فآسمه سعيد بن مسعدة.

قلت: و ثمّ أخفش ثالث وفاته سنة خمس عشرة و ثلثمائة.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أبو العبّاس ثعلب، و اسمه أحمد بن يحيى، فى جمادى الأولى و له إحدى و تسعون سنة. و هارون بن موسى ابن شريك الأخفش المقرئ. و عبد الرّحمن بن محمد بن مسلم الرّازى. و محمد بن أحمد ابن النّضر ابن بنت معاوية. و محمد بن إبراهيم البوشنجىّ الفقيه. و محمد بن على الصائغ المكىّ.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۳۴

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و إحدى و عشرون إصبعا. مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و إصبع واحدة و نصف إصبع.

ذكر ولاية شيبان بن أحمد بن طولون على مصر

هو شيبان بن أحمد بن طولون الأمير أبو المقانب التركىّ المصرى، ولى إمرة مصر بعد قتل ابن أخيه هارون بن خمارويه لإحدى عشرة بقيت من صفر سنة اثنتين و تسعين و مائتين. قال صاحب البغية: و لما تم أمره أقرّ شيبان المذكور موسى على شرطة مضرة و خرج من الفسطاط ليلة الخميس لليلة خلت من [شهر] ربيع الأوّل سنة اثنتين و تسعين و مائتين، فكانت ولايته اثنى عشر يوما. انتهى. قلت: و

نذکر أمر شیبان هذا بأوسع مما ذکره صاحب البغیة فنقول: و لما قتل هارون بن خمارویه و رجع الناس إلى مصر و هم بغیر أمیر، نهض شیبان هذا و دعا لنفسه و ضمن للناس حسن القیام بأمر الدولة و الإحسان إلیهم، فبایعه الناس و هو لا یدری بأن الدولة الطّولونیة قد انتهى أمرها. و ما أحسن قول من قال فی هذا المعنى:

أصبحت تطلب أمرا عزّ مطلبه هیهات! صدع زجاج لیس ینجبر

و قام شیبان بالأمر و دخل المدینة و طاف بها حتى وصل إلى الموضع المعروف بمسجد الرّمح، فصدم الرمح الذی فیه لواؤه سقف الدّرب فانکسر، فتطیّر الناس من ذلک و قالوا: أمر لا یتمّ. و قیل: إن شیبان المذکور کان أسرّ فی نفسه قتل ابن أخیه هارون المقدّم ذکره، فتهیّأ لذلک و واطأ علیه بعض خاصّة هارون، فکان شیبان ینتظر الفرصة؛ و بینما شیبان على ذلک إذ صار إلیه بعض الخدم الذین واطأهم على أمر هارون، و بایعوه على قتله و أعلموه أن هارون قد غطّ فی نومه من شدّة السّکر،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۳۵

و أنه لم یر فی مثل حالته تلک قطّ من شدّة السکر الذی به، و قالوا له: إن أردت شیئا فقد أمکنک ما ترید؛ فقام شیبان و دخل من وقته على ابن أخیه هارون بن خمارویه، فوافاه فی مرقده غاطّا مثقلا من سکره، فذبحه بسکّین کان معه فی مرقده بالعبّاسة، و کان ذلک فی لیلة الأحد لإحدى عشرة لیلة بقیت من صفر سنة اثنتین و تسعین و مائتین؛ و عرف الناس بقتله فی غد لیلته، و استولى شیبان على الملک کما ذکرناه؛ و بویع فی یوم الاثنین لعشر لیال بقین من صفر من السنة المذکورة؛ و علم أبو جعفر بن أبی و نجیح الرومیّ القائد ما کان من أمر هارون و قتله، فرحلا من موضعهما من العبّاسة مع نفر من خاصّة أصحابهما و ترکا بقیّة عسکرهما، و لحقا بعسکر طغج بن جفّ الذی کان نائب دمشق؛ و قد وصل محمد بن سلیمان الکاتب وقائق و یمن و غیرهم من موالی خمارویه و أخبروهم بذلک، ثم جاءهم الخبر بأن الحسین بن حمدان قد دخل الفرما یرید جرجیر و کانوا بها فرحلوا بعساکرهم حتى نزلوا العبّاسة، و ذلک بعد رحیل شیبان بن أحمد بن طولون المذکور عنها إلى مدینة مصر.

و أما شیبان فإنه لما دخل مصر مع جمیع إخوته و بنی عمّه و العسکر الذی کان بقی من عسکر ابن أخیه هارون تهیّأ لقتال القوم، و کان شیبان أهوج جسورا جسیما جلدا شدید البدن فی عنفوان شبابه، فصار یسرع فی أموره و ذلک بعد أن تمّ أمره،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۳۶

و خطب له یوم الجمعة على سائر منابر مصر، ثم أخذ فی العطاء للجند، فلم یجد من المال سعة فقلق، فسعى إلیه ساع بأن أمّ هارون المقتول أودعت ودائع لها فی بعض الدّور التی للتّجار بمدینة الفسطاط- أعنی مصر- فوجّه شیبان بأبی جیشون أحد إخوته إلى هذه الدّور حتى استخرج منها خبایا کانت لأمّ هارون، و حمل ذلک إلى أخیه شیبان فی أعدال محزومة لا یدرى ما فیها؛ و انتهى الخبر إلى الحسین بن حمدان بأن هارون صاحب مصر قد قتل، و کان على مقدّمة عسکر محمد بن سلیمان الکاتب و هو بجرجیر، فرحل عنها یرید العبّاسة، فلقیه فی طریقه محمد بن أبیّ مع جمیع الرؤساء الذین کانوا معه، فصار الحسین فی عسکر کبیر؛ و بلغ ذلک أیضا محمد بن سلیمان الکاتب فحثّ فی مسیره حتى لحق بمقدّمة الحسین بن حمدان المذکور، و قد انضاف إلیه غالب عسکر مصر الذی وصل مع أبی جعفر بن أبّی و غیره؛ و عند ما اجتمع الجمیع وصل إلیهم أیضا دمیانة البحریّ فی ثمانیة عشر مرکبا حربیّا مشحونة بالرجال و السّلاح و ذلک فی یوم الثلاثاء ثامن عشرین صفر، فضرب جسر مصر الشرقیّ بالنار و أحرقه عن آخره و أحرق بعض الجسر الغربیّ، ثم وافى محمد بن سلیمان الکاتب بعسکره حتى نزل بباب مصر، فضرب خیامه بها فی یوم الأربعاء. تاسع عشرین صفر، کل ذلک فی سنة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۳۷

اثنتین و تسعین و مائتین. و لما بلغ ذلک شیبان خرج بعساکره من مدینة مصر، و قد اجتمع معه من الفرسان و الرّجّالة عدّة کثیرة، و وقف بهم لممانعة محمد بن سلیمان من دخول المدینة، و عبّأ أیضا محمد بن سلیمان عسکره للمصافّ لمحاربة شیبان، و التقى

الجمعان و كانت بينهم مناوشة ساعة؛ ثم كتب محمد بن سليمان إلى شيبان و الحرب قائمة يؤمّنه على نفسه و جميع أهله و ماله و ولده و إخوته و بنى عمّه جميعا؛ و نظر شيبان عند وصول الكتاب إليه قلّة من معه من الرجال و كثرة جيوش محمد بن سليمان مع ما ظنّ من وفاء محمد بن سليمان له، فاستأمن إلى محمد بن سليمان و جمع إخوته و بنى عمّه فى الليل و توجّهوا الى محمد بن سليمان و صاروا فى قبضته و مصافّ شيبان على حاله، لكن الفرسان علموا بما فعل شيبان فكفّوا عن القتال، و بقيت الرجّالة على مصافّها و لم تعلم بما أحدثه شيبان، و أصبحت الرجّالة غداة يوم الخميس و ليس معهم حام و لا رئيس، فالتقوا مع عسكر محمد بن سليمان فانكسروا، و انكبت خيل محمد بن سليمان على الرجّالة فأزالتهم عن مواقفهم، ثم انحرفت الفرسان الى قطائع السودان الطولونيّة و صاروا يأخذون من قدروا عليه منهم فيصيرون بهم الى محمد بن سليمان، و هو راكب على فرسه فى مصافّه، فيأمر بذبحهم فيذبحون بين يديه كما تذبح الشاة. ثم دخل محمد بن سليمان بعساكره الى مدينة مصر من غير أن يمنعه عنها مانع، و كان ذلک فى يوم الخميس سلخ صفر المذكور، فطاف محمد بن سليمان و هو راكب بمدينة مصر و معه محمد بن أبّى و جماعة من جند المصريّين من الفرسان و الرجّالة إلّا من هرب منهم، و صار كلّ من أخذ من المصريين ممّن هرب أو قاتل ضربت عنقه؛ و أحرقت القطائع التى كانت حول الميدان من مساكن السودان بعد أن قتل فيها

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۳۸

منهم خلق كثير، حتى صارت خرابا يبابا، و زالت دولة بنى طولون كأنّها لم تكن.

و كانت مدّة تغلّب شيبان هذا على مصر تسعة أيّام، منها أربعة أيّام كان فيها أمره و نهيه؛ ثم دخلت الأعراب الخراسانيّة من عساكر محمد بن سليمان الكاتب الى مدينة مصر فكسروا جيوشها و أخرجوا من كان بها، ثم هجموا [على] دور الناس فنهبوها و أخذوا أموالهم و استباحوا حريمهم و فتكوا فى الرعيّة و افتضّوا الأبكار و أسروا المماليک و الأحرار من النساء و الرجال، و فعلوا فى مصر ما لا يحلّه اللّه من ارتكاب المآثم، ثم تعدّوا الى أرباب الدولة و أخرجوهم من دورهم و سكنوها كرها، و هرب غالب أهل مصر منها، و فعلوا فى المصريّين مالا يفعلونه فى الكفرة؛ و أقاموا على ذلک أيّاما كثيرة مصرّين على هذه الأفعال القبيحة. ثم ضربت خيام محمد بن سليمان على حافة النيل بالموضع المعروف بالمقس، و نزلت عساكره معه و من انضم اليه من عساكر المصريّين بالعبّاسة. ثم أمر محمد بن سليمان أن تحمل الأسارى من المصريّين من الذين كان دميانة أسرهم فى قدومه من دمياط على الجمال، فحملوا عليها و عليهم القلانس الطوال و شهرّهم و طيف بهم فى عسكره من أوّله الى آخره.

ثم قلّد محمد بن سليمان أصحابه الأعمال بمصر، فكان الذى قلّده شرطة العسكر رجلا يقال له غليوس، و قلّد شرطة المدينة رجلا يقال له وصيف البكتمرىّ، و قلّد أبا عبد اللّه محمد بن عبدة قضاء مصر، كلّ ذلک فى يوم الخميس لسبع خلون من شهر ربيع

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۳۹

الأول؛ ثم قبض أيضا على جماعة من أهل مصر من الكتّاب و غيرهم، فصادرهم و غرّمهم الأموال الجليلة بعد العذاب و التهديد و الوعيد؛ ثم أمسک محمد بن أبّى خليفة هارون بن خمارويه على مصر- أعنى الذى كان توجّه إليه من العبّاسة- و صادره و أخذ منه خمسمائة ألف دينار من غير تجشيم. و محمد بن أبّى هذا هو الذى قدّمنا ذكره فى ترجمة جيش بن خمارويه و ما وقع له مع برمش. و كان محمد بن سليمان هذا لا يسمّى باسمه و لا بكنيته و ما كان يدعى إلا بالأستاذ؛ و كان حكمه فى أهل مصر بضرب أعناقهم و بقطع أيديهم و أرجلهم جورا و تمزيق ظهورهم بالسياط و صلبهم على جذوع النخل و نحو ذلک من أصناف النّكال؛ و لا زال على ذلک حتى رحل عن مدينة مصر فى يوم الخميس مستهلّ شهر رجب من سنة اثنتين و تسعين و مائتين، و استصحب معه الأمير شيبان بن أحمد بن طولون صاحب الترجمة و بنى عمّه و أولادهم و أعوانهم، حتى إنّه لم يدع من آل طولون أحدا، و الجميع فى الحديد الى العراق و هم عشرون إنسانا؛ ثم أخرج قوّادهم الى بغداد على أقبح وجه، فلم يبق بمصر منهم أحد يذكر؛ و خلت منهم الديار و عفت منهم الآثار، و حل بهم الذلّ بعد العزّ و التطريد و التشريد بعد اللّذ، ثم سيق جماعة من أصحاب شيبان الىّ محمد بن سليمان

ممّن کان أمّنهم فـذبحوا بين يـديه. و زالت الدولـة الطولونيـة و کانت من غرر الـدول، و أيامهم من محاسن الأيام، و خرّب الميدان و القصور التی کانت به، التی مدحتها الشعراء. قال القاضی أبو عمرو عثمان النابلسیّ فی کتاب

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۴۰

"حسن السـيرة فی اتخاذ الحصن بالجزيرة: "رأيت کتابا قدر اثنتی عشرة کرّاسة مضمونه فهرست شعراء الميدان الذی کان لأحمد بن طولون؛ قال: فاذا کان اسم الشعراء فی اثنتی عشرة کرّاسة فکم يکون شعرهم!. انتهی.

و قال ابن دحيـة فی کتابه: و خرّبت القطائع التی لأحمـد بن طولون فی الشـدّة العظمی زمن الخليفـة المستنصر العبيـدیّ أيّام القحط و الغلاء المفرط الـذی کان بالـديار المصـريّة؛ قال: و هلک من کان فيها من السـکان، و کانت نيّفا علی مائة ألف دار. قلت: هـذا الذی ذکره ابن دحية هو الذی بقی بعد إتلاف محمد بن سليمان المذکور.

و مما قيل فی ميدان أحمد بن طولون و فی قصوره من الشعر من المراثی علی سبيل الاقتصار؛ فمما قاله إسماعيل بن أبی هاشم:

قف وقفة بفناء باب السّاج و القصر ذی الشّرفات و الأبراج

وربوع قوم أزعجوا عن دارهم بعد الإقامة. أيّما إزعاج

کانوا مصابيحا لدی ظلم الدجی يسری بها السارون فی الإدلاج

و منها:

کانوا ليسوثا لا يرام حماهم فی کلّ ملحمة و کلّ هياج

فانظر الی آثارهم تلقی لهم علما بکلّ ثنيّة و فجاج

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۴۱

و قال سعيد القاصّ:

جری دمعه ما بين سحر الی نحر و لم يجر حتّی أسلمته يد الصبر

و منها:

و هل يستطيع الصبر من کان ذا أسی يبيت علی جمر و يضحی علی جمر

تتابع أحداث تحيّفن صبره و غدر من الأيّام و الدهر ذو غدر

أصاب علی رغم الأنوف وجدعها ذوی الدّين و الدّنيا بقاصمة الظهر

طوی زينة الدنيا و مصباح أهلها بفقد بنی طولون و الأنجم الزّهر

و منها:

و کان أبو العبّاس أحمد ماجدا جميل المحيّا لا يبيت علی وتر

کأنّ ليالی الدّهر کانت لحسنها و إشراقها فی عصره ليلة القدر

يدلّ علی فضل ابن طولون همّة محلّقة بين السّماکين و الغفر

فإن کنت تبغی شاهدا ذا عدالة يخبّر عنه بالجلیّ من الأمر

فبالجبل الغربیّ خطّة يشکر له مسجد يغنی عن المنطق الهذر

و هی طويلة جدّا کلّها علی هذا المنوال. و لما أمر الحسـين بن أحمد الماذرائیّ متولّی خراج مصر من قبل المکتفی بهدم الميدان ابتدأ بهدمه فی أوّل شهر رمضان

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۴۲

من سنة ثلاث و تسعين و مائتين و بيعت أنقاضه، حتّی دثروزال مکانه کأنّه لم يکن.

فقال فیه محمد بن طشویه:

من لم یر الهدم للمیدان لم یره تبارک اللّه ما أعلاه و اقدره

لو أنّ عین الذی أنشاه تبصره و الحادثات تعادیه لأکبره

و منها:

و أین من کان یحمیه و یحرسه من کلّ لیث یهاب اللیث منظره

صاح الزمان بمن فیه ففرّقهم و حطّ ریب البلی فیه فدعثره

و منها:

أین ابن طولون بانیه و ساکنه أماته الملک الأعلی فأقبره

ما أوضح الأمر لو صحّت لنا فکر طوبی لمن خصّه رشد فذکره

و قال أحمد بن إسحاق:

و کانّ المیدان ثکلی أصیبت بحبیب صباح لیلة عرس

یتغشّی الریاح منه محلّا کان للصون فی ستور الدّمقس

و منها:

و وجوه من الوجوه حسان و خدود مثل اللآلئ ملس

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۴۳

کلّ کحلاء کالغزال و نجلا ء رداح من بین حور و لعس

آل طولون کنتم زینة الأر ض فأضحی الجدید اهدام لبس

و قال ابن أبی هاشم:

یا منزلا لبنی طولون قد دثرا سقاک صوب الغوادی القطر و المطرا

یا منزلا صرت أجفوه و أهجره و کان یعدل عندی السمع و البصرا

بالله عندک علم من أحبّتنا أم هل سمعت لهم من بعدنا خبرا

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۴۴

ذکر أوّل من ولی مصر بعد بنی طولون و خراب القطائع إلی الدولة الفاطمیة العبیدیّة و بناء القاهرة علی الترتیب المقدّم ذکره

فأوّل من حکمها محمد بن سلیمان الکاتب المقدّم ذکره، أرسله الخلیفة المکتفی بالله علیّ العباسیّ حسبما ذکرناه فی غیر موضع، و ملک محمد بن سلیمان الدیار المصریّة، بعد قتل شیبان بن أحمد بن طولون، فی یوم الخمیس مستهلّ شهر ربیع الأوّل سنة اثنتین و تسعین و مائتین، و دعا علی منابر مصر للخلیفة المکتفی بالله وحده؛ و ولّی محمد ابن سلیمان أبا علیّ الحسین بن أحمد الماذرائیّ علی الخراج عوضا عن أحمد بن علیّ الماذرائیّ. فلم تطل مدّة محمد بن سلیمان بمصر حتی قدم علیه کتاب الخلیفة المکتفی بالله بولایة عیسی بن محمد النّوشریّ؛ و دخل خلیفة عیسی المذکور إلی مصر لأربع عشرة لیلة خلت من جمادی الأولی، فتسلّم من محمد بن سلیمان المذکور الشّرطتین و سائر الأعمال؛ فکان مقام محمد بن سلیمان المذکور الکاتب بمصر أربعة أشهر.

و فی ولایته أقوال کثیرة: فمن الناس من لا یعدّه من الأمراء بمصر بل ذکر دخوله لفتح مصر و أنّه کان مقدّم العساکر لا غیر؛ و قائلو هذه المقالة هم الأکثر، و وافقتهم أنا أیضا علی ذلک، لأن المکتفی لما خلع علیه أمره بالتوجّه لقتال مصر و أمر أصحابه بالسمع و الطاعة و لم یولّه عملها؛ و عند ما بلغ الخلیفة المکتفی فتح مصر ولّی علیها فی الحال عیسی النّوشریّ؛ و لهذا لم نفتتح ترجمته بافتتاح

تراجم ملوك مصر على عادة ترتيب هذا الكتاب؛ و من الناس من عدّه من جملة أمراء مصر بواسطة تحكّمه و تصرّفه فى الديار المصرية.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۴۵

ذكر ولاية عيسى النّوشرىّ على مصر

هو عيسى بن محمد الأمير أبو موسى النوشرىّ، ولّاه الخليفة المكتفى من بغداد على مصر، فأرسل عيسى خليفته على مصر فاستولى عليها إلى حين قدمها لسبع خلون من جمادى الآخرة من سنة اثنتين و تسعين و مائتين. و كان محمد بن سليمان لما وصل الى مصر بالعساكر كان الأمير عيسى النوشرىّ المذكور من جملة القوّاد الذين قدموا معه، فلما افتتح محمد بن سليمان مصر أرسل عيسى هذا الى الخليفة رسولا يخبره بفتح مصر، لأنه كان من كبار القوّاد الشاخصين معه الى مصر، و توجّه عيسى الى نحو العراق؛ فلما وصل الى دمشق وافاه كتاب الخليفة المكتفى بها بولايته على إمرة مصر، فعاد من وقته إلى أن دخل مصر فى التاريخ المقدّم ذكره؛ فخلع عليه محمد ابن سليمان الكاتب و طاف به مدينة مصر و عليه الخلعة، و استمرّ على عمل معونة مصر و جندها؛ ثم ورد عليه أيضا كتاب الخليفة إلى جماعة من القوّاد ممن كان فى عسكر محمد بن سليمان: منهم علىّ بن حسّان بتقليده أعمال الإسكندريّة، والى مهاجر بن طليق بتقليده ثغر تنّيس و دمياط، و إلى رجل يعرف بالكندىّ بتقليده الأحواف، و إلى رجل يقال له موسى بن أحمد بتقليده برقة و ما والاها، و إلى رجل يعرف بمحمد بن ربيعة بتقليده الصعيد و أسوان، و إلى رجل يعرف بأبى زنبور الحسين ابن أحمد الماذرائىّ بتقليده أعمال الخراج بمصر، و جلس فى ديوان الخراج لخمس بقين من جمادى الآخرة؛ ثم إلى دميانة البحرىّ بالانصراف عن مصر، فانصرف دميانة عنها لثمان بقين من جمادى الآخرة. و نزل عيسى النوشرىّ

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۴۶

المذكور فى الدار التى كانت سكنى بدر الحمّامىّ بمصر، و كانت بالموقف بسوق الطير، و هى الدار التى كان نزل بها محمد بن سليمان الكاتب لما افتتح مصر.

و كان خروج محمد بن سليمان من مصر فى مستهلّ شهر رجب من السنة، و أخرج معه كلّ من بقى من الطّولونيّة بمصر، كما ذكرناه فى ترجمة شيبان بن أحمد ابن طولون، و استصحب معه أيضا جماعة بعد رحيله عنها، فخرج الجميع إلى الشام، و هم: أبو جعفر محمد بن أبىّ و ابنه الحسن و طغج بن حفّ الذى كان نائب دمشق و ولده و أخوه و بدر و فائق الرومىّ الخازن و صافى الرومىّ و غيرهم من موالى أحمد و خمارويه، و خرج الجميع موكّلا بهم، و أخرج معهم أيضا جماعة كثيرة ممن هم أقلّ رتبة ممّن ذكر، غير أنّهم أيضا من أعيان الدولة و أكابر القوّاد، و هم: محمد ابن علىّ بن أحمد الماذرائىّ وزير هارون بن خمارويه و أبو زرعة القاضى و أبو عبد اللّه محمد بن زرعة القاضى و خلق كثير من آل طولون و غيرهم من الجند، و ضمّهم إلى عسكره وقت خروجه من مصر؛ فتخلّف عنه جماعة بدمشق و غيرها و سار معه بعضهم إلى حلب فى الحديد، و هم: موسى بن طرنيق و أحمد بن أعجر- و كانا على شرطتى مصر كما تقدّم ذكره- و ابن با يخشى الفرغانىّ- و كان عاملا على سيادة أسفل الأرض- و وصيف القاطرميز و خصيف البربرىّ مولى أحمد بن طولون:

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۴۷

فلما استقرّ قرار محمد بن سليمان بحلب وافاه رسول الخليفة بأن يسلّم ما كان معه من الأموال و الخيل و الطّرز و الذهب و غير ذلك مما كان حمله من مصر إلى من أمر بتسليمه إليه، فقدّر المقدّرون فيه ما حمله من الأموال مع الذى أخذه من الناس ألفى ألف دينار؛ و تفرّق من كان معه من الجند من المصريّين، فمنهم من سار إلى العراق، و منهم من رجع يريد مصر إلى من خلّفه من أهله بها؛ فممّن رجع إلى مصر شفيع اللؤلؤىّ الخادم و رجل شابّ يقال له محمد بن على الخلنجىّ من الجند من المصريّين، و محمد هذا ممن كان

فى قيادة صافىّ الرّومىّ- أعنى أنه كان مضافه- فرجع محمد هذا يريد أهله و ولده، فخطر له خاطر ففكّر فيما حلّ بآل طولون و إزالة ملكهم و إخراجهم عن أوطانهم، فأظهر النّصرة لهم و القيام بدولتهم و أعلن ذلك و أبداه، و ذكر الذى عزم عليه لجماعة من المصريّين فبايعوه على ذلك و عضدوه على عصيانه؛ و انضمّ عليه شرذمة من المصريّين، فسار على حميّة حتّى وافى الرّملة فى شعبان من سنة اثنتين و تسعين و مائتين، فنزل محمد المذكور بمن معه بناحية باب الزيتون؛ و كان بالرملة و صيف بن صوارتكين الأصغر فاستعدّ لقتاله، فقدّم وصيف جماعة مع محمد بن يزداد، ثم خرج وصيف ببقيّة جماعته فرأى محمد بن علىّ الخلنجىّ المذكور فى نفر يسير من الفرسان، فزحف محمد بن علىّ الخلنجىّ بمن معه على وصيف بن صوارتكين فهزمه و قتل رجاله و هرب من بقى بين يديه. و ملك محمد الرملة و دعا على منابرها فى يوم الجمعة للخليفة و بعده لإبراهيم بن خمارويه

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج٣، ص: ١۴٨

ثم بعدهما لنفسه؛ و تسامع الناس به فوافوه من كلّ فجّ لما فى نفوسهم من تشتّتهم عن بلادهم و أولادهم و أوطانهم، و صار الجميع من حزب محمد المذكور من غير بذل دينار و لا درهم. و بلغ عيسى النّوشرىّ صاحب الترجمة و هو بمصر ما كان من أمر محمد بن علىّ الخلنجىّ، فجّهز عسكرا إلى العريش فى أسرع وقت من البحر، و ساروا حتى وافوا غزّة، فتقدّم إليهم محمد بن علىّ الخلنجىّ بمن معه، فلما سمعوا به رجعوا إلى العريش، فسار محمد الخلنجىّ بمن معه خلفهم الى العريش، فانهزموا أمامه إلى الفرما ثم ساروا من الفرما إلى العبّاسة، و نزل محمد الخلنجىّ الفرما مكانهم؛ فلما سمع عيسى النوشرىّ ذلك خرج من مصر بعسكر ضخم حتى نزل العبّاسة، و معه أبو منصور الحسين بن أحمد الماذرائىّ عامل خراج مصر و شفيع اللؤلؤىّ صاحب البريد، و رحل محمد الخلنجىّ حتى نزل جرجير؛ فلما سمع عيسى النوشرىّ قدومه الى جرجير كرّ راجعا إلى مصر و نزل على باب مدينة مصر، فأتاه الخبر بقدوم محمد ابن على الخلنجىّ المذكور، فدخل إلى المدينة ثم خرج منها و معه أبو زنبور و عدا جسر مصر فى يوم الثلاثاء رابع عشر ذى القعدة سنة اثنتين و تسعين و مائتين؛ ثم أحرق عيسى النوشرىّ جسرى المدينة الشرقىّ و الغربىّ جميعا حتّى لم يبق من مراكبهما مركبا واحدا- يعنى أنّ الجسر كان معقودا على المراكب- و هذه كانت عادة مصر تلك الأيّام. و نزل عيسى النوشرىّ و أقام ببرّ الجيزة، و بقيت مدينة مصر بلا وال عليها و لا حاكم فيها، و صارت مصر مأكلة للغوغاء يهجمون [على] البيوت و يأخذون الأموال من غير أن يردّهم أحد عن ذلك، فإنّ عيسى النوشرىّ ترک مصر و أقام ببرّ الجيزة خوفا من محمد المذكور؛ فقوى لذلك شوكة محمد الخلنجىّ و استفحل أمره، و سار من جرجير حتى دخل مدينة مصر فى يوم سادس عشرين ذى القعدة من السنة من

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج٣، ص: ١۴٩

غير ممانع. و كان محمد المذكور شابّا شجاعا مقداما مكبّا على شرب الخمر و اللهو عاصيا ظالما، و مولده بمدينة مصر و نشأ بها؛ فلما دخلها طاف بها و دخل الجامع و صلّى فيه يوم الجمعة، و دعا له الإمام على المنبر بعد الخليفة و إبراهيم بن خمارويه، ففرح به أهل مصر إلى الغاية و قاموا معه، فمهّد أمورها و قمع المفسدين و تخلّق أهل مصر بالزعفران، و خلّقوا وجه دابّته و وجوه دوابّ أصحابه فرحا به. و لم يشتغل محمد الخلنجىّ المذكور بشاغل عن بعثه فى أثر عيسى النوشرىّ و جهّز عسكرا عليه رجل من أصحابه يقال له خفيف النوبىّ- و خفيف من الخفة- و أمره باقتفاء أثر عيسى النوشرىّ حيث سلک؛ فخرج خفيف المذكور و تتابع مجىء العساكر إليه فى البرّ و البحر. و بلغ عيسى النوشرىّ مسير خفيف إليه فرحل من مكانه حتى وافى الإسكندريّة و خفيف من ورائه يتبعه.

و أما محمد الخلنجىّ فإنّه قلّد وزارته ... بن موسى النصرانىّ، و قلّد أخاه إبراهيم ابن موسى على خراج مصر، و قلّد شرطة المدينة لإبراهيم بن فيروز، و قلّد شرطة العسكر لعبد الجبّار بن أحمد بن أعجر؛ و أقبل الناس إليه من جميع البلدان حتّى بلغت عساكره زيادة على خمسين ألفا، و فرض لهم الأرزاق السنيّة، فاحتاج الى الأموال لإعطاء الرجال، و كان فى البلد نحو تسعمائة ألف دينار، و كانت معبّأة فى الصناديق للحمل للخليفة، و هى عند أبى زنبور و عيسى النّوشرىّ صاحب الترجمة؛ فلما خرجا من البلد وزّعاها فلم يوجد لها أثر عند أحد بمصر، و عمد الحسين ابن أحمد الى جميع علوم دواوين الخراج فأخرجها عن الدواوين قبل خروجه من مصر لئلّا يوقف

على معرفة أصول الأموال فى الضياع فيطالب بها أهل الضّياع بما

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۵۰

عليهم من الخراج؛ و حمل معه أيضا جماعة من المتقبّلين- أعنى المدركين و الكتّاب- لئلا يطالبوا بما عليهم من الأموال، منهم: وهب بن عيّاش المعروف بابن هانئ، و ابن بشر المعروف بابن الماشطة و إسحاق بن نصير النصرانىّ و أبو الحسن المعروف بالكاتب، و ترك مصر بلا كتّاب. فلم يلتفت محمد الخلنجىّ الى ذلك و طلب المتقبّلين و أغلظ عليهم؛ ثم وجد من الكتّاب من أوقفه على أمور الخراج و أمر الدواوين؛ ثم قلّد لأحمد بن القوصىّ ديوان الإعطاء. و تحوّل من خيمته من ساحل النيل و سكن داخل المدينة فى دار بدر الحمامىّ التى كان سكنها عيسى النوشرىّ بعد خروج محمد بن سليمان الكاتب من مصر، و هى بالحمراء على شاطئ النيل. و أجرى محمد الخلنجىّ أعماله على الظلم و الجور و صادر أعيان البلد فلقى الناس منه شدائد، إلا أنّه كان اذا أخذ من أحد شيئا أعطاه خطّه و يعده أن يردّ له ما أخذ منه أيّام الخراج.

و أما عيسى النوشرىّ صاحب الترجمة و أبو زنبور الحسين بن أحمد فإنّهما وصلا بعسكرهما قريب الإسكندرية و خفيف النوبىّ فى أثرهما لا قريبا منهما؛ و كان أبو زنبور قد أرسل المتقبّلين و الكتّاب الى الإسكندرية ليتحصنوا بها. و تابع محمد الخلنجىّ العساكر الى نحو خفيف النوبىّ نجدة له فى البرّ و البحر؛ فكان ممن ندبه محمد الخلنجىّ محمد بن لمجور فى ستّ مراكب بالسلاح و الرجال، فسار حتى وافى الإسكندريّة فى يوم الخميس نصف ذى الحجة، و كان بينه و بين أهل الاسكندرية مناوشة حتى دخلها و خلّص بعض أولئك المتقبّلين و الكتّاب و حملهم الى مصر؛ و أخذ أيضا لعيسى النوشرىّ و لأبى زنبور ما وجده لهما بالاسكندريّة و فرّقه على عساكره؛ و أقام بعسكره مواقفا عيسى النوشرىّ خارجا عن الإسكندريّة أياما، ثم انصرف

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۵۱

الى مصر، و انصرف عيسى النوشرىّ الى ناحية تروجة، فوافاه هناك خفيف النوبى و واقعه، فكانت بينهما وقعة هائلة انهزم فيها خفيف النوبىّ و قتل جماعة من أصحابه، و لم يزل خفيف فى هزيمته الى أن وصل الى مصر بمن بقى معه من أصحابه؛ فلم يكترث محمد الخلنجىّ بذلك و أخذ فى إصلاح أموره؛ و بينما هو فى ذلك ورد عليه الخبر بمجيء العساكر إليه من العراق صحبة فاتك و بدر الحمّامىّ و غيرهما؛ فجهّز محمد الخلنجىّ عسكرا لقتال النوشرىّ و قد توجّه النوشرىّ نحو الصعيد، ثم خرج هو فى عساكره الى أن وصل الى العريش، ثم وقع له مع عساكر العراق و جيوش النوشرىّ وقائع يطول شرحها، حتى أجدبت مصر و حصل بها الغلاء العظيم، و عدمت الأقوات من كثرة الفتن، و طال الأمر حتى ألجأ ذلك [إلى] عود محمد بن علىّ الخلنجىّ الى مصر عجزا عن مقاومة عساكر العراق و عساكر أبى الأغرّ بمنية الأصبغ بعد أن واقعهم غير مرّة و طال الأمر عليه؛ فلمّا رأى أمره فى إدبار و علم أنّ أمره يطول ثم يؤول الى انهزامه دبّر فى أمره ما دام فيه قوّة فأطلع عليه محمد بن لمجور المقدّم ذكره و هو أحد أصحابه و عرّفه سرّا بأشياء يعملها و أمره أن يركب بعض المراكب الحربيّة، و حمل معه ولده و ما أمكنه من أمواله و واطأه على الركوب معه و أمره بانتظاره ليتوجّه صحبته فى البحر الى أىّ وجه شاء هاربا؛ فشحن محمد بن لمجور مركبه بالسلاح و المال و صار ينتظر محمدا الخلنجىّ صاحب الواقعة، و محمد الخلنجىّ يدافع عسكر عيسى النوشرىّ تارة و عسكر الخليفة مرّة الى أن عجز و خرج من مصر الى نحو محمد بن لمجور حتّى وصل إليه؛ فلما رآه محمد بن لمجور قد قرب منه رفع

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۵۲

مراسيه و أوهمه أنه يريده، فلما دنا منه ناداه محمد بن علىّ الخلنجىّ ليصير إليه و يحمله معه فى المركب، فلما رآه محمد بن لمجور و سمع نداءه سبّه و قال له: مت بغيظك قد أمكن اللّه منك! و تأخّر و ضرب بمقاذيفه و انحدر فى النيل، و ذلك لما كان فى نفس محمد بن لمجور من محمد بن علىّ الخلنجىّ ممّا أسمعه قديما من المكروه و الكلام الغليظ؛ فلمّا رأى محمد الخلنجىّ خذلان محمد بن لمجور له و لم يتمّ له الهرب كرّ راجعا حتى دخل مدينة مصر و قد انفلّ عنه عساكره فصار الى منزل رجل كان يعنى بإخفائه و

يأمنه على نفسه ليختفى عنده؛ فخافه المذكور و تركه هاربا و توجّه إلى السلطان فتنصّح إليه و أعلمه أنّه عنده؛ فركب السلطان و أكابر الدولة و العساكر حتّى قبضوا عليه، و كان ذلك فى صبيحة يوم الاثنين ثامن شهر رجب من سنة ثلاث و تسعين و مائتين؛ فكانت مدّة عصيانه منذ دخل إلى مصر الى أن قبض عليه سبعة أشهر و اثنين و عشرين يوما. و دخل فاتك و بدر الحمامىّ بعساكرهما و عساكر العراق حتى نزلا بشاطئ النيل، ثم وافاهم الأمير عيسى النّوشرىّ من الفيّوم حسبما يأتى ذكره فى ترجمته فى ولايته الثانية على مصر- أعنى عوده إلى ملكه بعد الظفر بمحمد بن علىّ الخلنجىّ- و نزل عيسى بدار فائق، فإن بدرا كان قد قدم إلى مصر و نزل فى داره التى كان النوشرىّ نزل فيها أوّلا، و دعا للخليفة على منابر مصر ثم من بعده لعيسى النوشرىّ. هذا و أمور مصر مضطربة الى غاية ما يكون. و قلّد عيسى شرطة العسكر لمحمد بن طاهر المغربىّ، و شرطة المدينة ليوسف بن إسرائيل، و تقلّد أبو زنبور الخراج على عادته. و أخذ النوشرىّ فى إصلاح أمور مصر و الضّياع و تتبع أصحاب محمد الخلنجىّ من الكتّاب و الجند و غيرهم، و قبض على جماعة كثيرة منهم، مثل:

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٣، ص: ١٥٣

السّرىّ بن الحسين الكاتب و أبى العباس أحمد بن يوسف كاتب ابن الجصّاص- و كان على نفقات محمد الخلنجىّ- و جماعة أخر يطول الشرح فى ذكرهم. و أما محمد بن لمجور و كيغلغ و بدر الكريمىّ و جماعة أخر من أصحاب محمد الخلنجىّ فإنهم تشتّتوا فى البلاد. ثم دخل محمد بن لمجور مصر متنكّرا، فقبض عليه و طيف به و معه غلام آخر لمحمد الخلنجىّ، ثم عوقب محمد بن لمجور حتى استخلص منه الأموال؛ ثم جهّز الأمير عيسى النوشرىّ محمدا الخلنجىّ فى البحر إلى أنطاكية، فخرجوا منها و دخلوا العراق الى عند الخليفة، ثم بعد ذلك ورد كتاب الخليفة على عيسى النوشرىّ فى شهر رمضان باستقراره فى أعمال مصر جميعا قبليّها و بحريّها حتى الإسكندريّة والى النّوبة و الحجاز.

ذكر ولاية محمد بن علىّ الخلنجىّ على مصر

هو محمد بن علىّ الخلنجىّ الأمير أبو عبد اللّه المصرىّ الطّولونىّ، ملك الديار المصريّة بالسيف و استولى عليها عنوة من الأمير عيسى بن محمد النّوشرىّ. و قد مرّ من ذكره فى ترجمة عيسى النوشرىّ ما فيه كفاية عن ذكره هنا ثانيا، غير أنّنا نذكره على حدته لكونه ملك مصر؛ و ذكره بعض أهل التاريخ فى أمراء مصر، فلهذا جعلنا له ترجمة مستقلّة خوفا من الاعتراض و الاستدراك علينا بعدم ذكره.

و لما ملك محمد بن علىّ الخلنجىّ الديار المصريّة، مهّد البلاد و وطّن الناس و وضع العطاء و فرض الفروض؛ فجهّز الخليفة المكتفى باللّه جيشا لقتاله و عليهم أبو الأغرّ، و فى الجيش الأمير أحمد بن كيغلغ و غيره؛ فخرج اليهم محمد بن على الخلنجىّ هذا و قاتلهم فى ثالث المحرّم من سنة ثلاث و تسعين و مائتين فهزمهم أقبح هزيمة و أسر من جماعة أبى الأغرّ خلقا كثيرا؛ و عاد أبو الأغرّ لثمان بقين من المحرّم حتى وصل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٣، ص: ١٥٤

الى العراق؛ فعظم ذلك على الخليفة المكتفى و جهّز إليه العساكر ثانيا صحبة فاتك المعتضدىّ فى البرّ و جهّز دميانة فى البحر؛ فقدم فاتك بجيوشه حتى نزل بالنّويرة.

و قد عظم أمر الخلنجىّ هذا، و أخرج عيسى النّوشرىّ عن مصر و أعمالها بأمور وقعت له معه ذكرناها فى ترجمة عيسى النوشرىّ، ليس لذكرها هنا ثانيا محلّ. و لما بلغ الخلنجىّ مجىء عسكر العراق ثانى مرّة صحبة فاتك، جمع عسكره و خرج إلى باب المدينة و عسكر به، و قام بالليل بأربعة آلاف من أصحابه ليبيّت فاتكا و أصحابه، فضلّوا عن الطريق و أصبحوا قبل أن يصلوا الى النويرة؛ فعلم بهم فاتك فهضّ أصحابه و التقى مع الخلنجىّ قبل أن يصلوا الى النويرة، فتقاتلا قتالا شديدا انهزم فيه الخلنجىّ بعد أن ثبت ساعة بعد فرار

أصحابه عنه، و دخل إلى مصر و استتر بها لثلاث خلون من شهر رجب، ثم قبض عليه و حبس، حسبما ذکرناه فی ترجمة النوشریّ؛ ثم دخل دميانة بالمراکب إلى مصر و أقبل عيسى النوشرىّ من الصعيد و معه الحسين الماذرائىّ و من کان معهما من أصحابهما لخمس خلون من رجب المذکور؛ و عاد النوشرىّ إلى ما کان عليه من ولاية مصر، و الحسين الماذرائىّ على الخراج؛ و زالت دولة محمد بن علىّ الخلنجىّ عن مصر بعد أن حکمها سبعة أشهر و اثنين و عشرين يوما، کلّ ذلک ذکرناه فی ترجمة النوشرىّ و لم نذکره هنا إلا لزيادة الفائدة؛ و أيضا لما قدّمناه فی أوّل ترجمته. ثم إنّ عيسى النوشرىّ قيّد محمد بن علىّ الخلنجىّ هذا و جماعة من أصحابه، و حملهم فی البحر إلى أنطاکية ثم منها فی البرّ إلى العراق إلى حضرة الخليفة، فأوقف بين يديه فوبّخه ثم نکّل به، و طيف به و بأصحابه على الجمال، ثم قتل شرّ قتلة، و زالت دولته و روحه بعد أن أفسد أحوال الديار المصريّة

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۵۵

و ترکها خرابا يبابا من کثرة الفتن و المصادرات. قلت: و أمر محمد هذا من العجائب، فإنّه أراد أخذ ثأر بنى طولون و الانتصار لهم غيرة على ما وقع من محمد بن سليمان الکاتب من إفساده الدّيار المصريّة، فوقع منه أيضا أضعاف ما فعله محمد بن سليمان الکاتب، و کان حاله کقول القائل:

رام نفعا و ضرّ من غير قصد و من البرّ ما يکون عقوقا

ذکر عود عيسى النوشرىّ إلى مصر

دخلها بعد اختفاء محمد بن علىّ الخلنجىّ بيومين، و ذلک فی خامس شهر رجب سنة ثلاث و تسعين و مائتين، ثم دخل فاتک بعساکره إلى مصر فی يوم عاشر رجب، و تسلّم الخلنجىّ و أرسله فی البحر لست خلون من شعبان و وقع ما حيکناه فی ترجمته من قتله و تشهيره. و أما عيسى النوشرىّ فإنه ابتدأ فی أوّل شهر رمضان بهدم ميدان أحمد بن طولون، و بيعت أنقاضه بأبخس ثمن، و کان هذا الميدان و قصوره من محاسن الدنيا. و قد تقدّم ذکر ذلک فی عدّة أماکن فی ترجمة ابن طولون و ابنه خمارويه و غير ذلک. و دام فاتک بالديار المصريّة إلى النصف من جمادى الأولى سنة أربع و تسعين و مائتين [و] خرج منها إلى العراق. ثم أمر الأمير عيسى النوشرىّ بنفى المؤنّثين من مصر، و منع النّوح و النداء على الجنائز، و أمر بإغلاق المسجد الجامع فيما بين الصلاتين، ثم أمر بفتحه بعد أيّام؛ ثم ورد عليه الخبر بموت الخليفة المکتفى بالله علىّ فی ذى القعدة سنة خمس و تسعين و مائتين؛ فلما يمع الجند بموت الخليفة شغبوا على عيسى النوشرىّ و طلبوا منه مال البيعة بالخلافة للمقتدر جعفر، و ظفر النوشرىّ بجماعة منهم؛ و لما استقرّ المقتدر فی الخلافة أقرّ عيسى هذا على عمله بمصر.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۵۶

ثم قدم على عيسى زيادة اللّه بن إبراهيم بن الأغلب أمير إفريقيّة مهزوما من أبى عبد اللّه الشيعىّ فی شهر رمضان سنة ست و تسعين و مائتين، و نزل بالجيزة و أراد الدخول إلى مصر فمنعه من الدخول إليها؛ فوقع بين أصحابه و بين جند مصر مناوشة و بعض قتال إلى أن وقع الصلح بينهم على أن يعبرها وحده من غير جند، فدخلها و أقام بها. و لم تطل أيام الأمير عيسى بعد ذلک، و مرض و لزم الفراش إلى أن مات، فی يوم سادس عشرين من شعبان سنة سبع و تسعين و مائتين و هو على إمرة مصر. و کانت ولايته على مصر خمس سنين و شهرين و نصف شهر؛ منها ولاية الخلنجىّ على مصر سبعة أشهر و اثنان و عشرون يوما. و قام من بعده على مصر ابنه أبو الفتح محمد بن عيسى، إلى أن ولّى تکين الحربىّ، و حمل عيسى النوشرىّ إلى القدس و دفن به. و کان عيسى هذا أميرا جليلا شجاعا مقداما عارفا بالأمور، طالت أيامه فی السعادة، و ولى الأعمال مثل إمرة دمشق من قبل المنتصر و المستعين، و ولى شرطة بغداد أيام المکتفى، ثم ولى أصبهان و الجبال، إلى أن ولّاه المکتفى إمرة مصر.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۹۲]

السنة التى حكم فيها أربعة أمراء على مصر، و هى سنة اثنتين و تسعين و مائتين، و الأمراء الأربعة: شيبان بن أحمد بن طولون، و محمد بن سليمان الكاتب، و عيسى النّوشرىّ، و محمد بن علىّ الخلنجىّ- فيها (أعنى سنة اثنتين و تسعين و مائتين) قدم بدر الحمّامىّ الذى قتل القرمطىّ، فنلقّاه أرباب الدولة، و خلع عليه الخليفة و خلع على ابنه أيضا، و طوّق بدر المذكور و سوّر و قيّدت بين يديه خيل الخليفة جنائب و حمل إليه مائة ألف درهم. و فيها وافت هديّة إسماعيل بن أحمد أمير خراسان الى بغداد كان فيها ثلثمائة جمل عليها صناديق فيها المسك و العنبر و الثياب من كلّ لون

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۵۷

و مائة غلام و أشياء كثيرة غير ذلك. و فيها حجّ بالناس الفضل بن عبد الملك الهاشمى و فيها فى ليلة الأحد لإحدى عشرة ليلة خلت من رجب و لتسع عشرة خلت من أيّار،- و هو بشنس بالقبطىّ- طلع كوكب الذنب فى الجوزاء. و فيها فى جمادى الأولى زادت دجلة زيادة لم ير مثلها حتّى خربت بغداد، و بلغت الزيادة إحدى و عشرين ذراعا. و فيها توفّى إبراهيم بن عبد اللّه بن مسلم الحافظ أبو مسلم الكجّىّ البصرىّ، ولد سنة مائتين، و قدم بغداد و كان يملى برحبة غسان، و كان يملى على سبعة، كلّ واحد منهم يبلّغ الذى يليه، و كتب الناس عنه قياما بأيديهم المحابر، و مسح المكان الذى كانوا قياما فيه، فحزروا نيّفا و أربعين ألف محبرة؛ و كانت وفاته ببغداد لتسع خلون من المحرّم. و فيها توفى إدريس بن عبد الكريم أبو الحسن الحدّاد المقرئ، ولد سنة تسع و تسعين و مائة، و مات ببغداد يوم الأضحى و هو ابن تسعين سنة؛ سئل عنه الدارقطنىّ فقال: هو ثقة و فوق الثقة.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أحمد بن الحسين المصرىّ الأيلىّ، و أبو بكر أحمد بن علىّ بن سعيد قاضى حمص، و أحمد بن

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۵۸

عمرو أبو بكر البزّار، و أبو مسلم الكجّىّ، و إدريس بن عبد الكريم المقرئ؛ و أسلم ابن سهل الواسطىّ، و أبو حازم القاضى عبد الحميد بن عبد العزيز، و علىّ بن محمد ابن عيسى الجكّانىّ، و على بن جبلة الأصبهانىّ.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثلاث أذرع و ستّ عشرة إصبعا، مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و إصبع واحدة و نصف.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۹۳]

السنة الثانية من ولاية عيسى النّوشرىّ على مصر، و هى سنة ثلاث و تسعين و مائتين- فيها توجّه القرمطىّ الى دمشق و حارب أهلها، فغلب عليها و دخلها و قتل عامّة أهلها من الرجال و النساء، و نهبها و انصرف الى ناحية البادية. و فيها حجّ بالناس الفضل بن عبد الملك الهاشمىّ. و فيها عمل على دجلة من جانبيها مقياس مثل مقياس مصر، طوله خمس و عشرون ذراعا، و لكلّ ذراع علامات يعرفون بها الزيادة، ثم خرب بعد ذلك. و فيها توفّى عبد اللّه بن محمد أبو العباس الأنبارىّ الناشى الشاعر المشهور، كان فاضلا بارعا، و له تصانيف ردّ فيها على الشعراء و أهل المنطق، و عمل قصيدة واحدة فى قافية واحدة و روىّ واحد أربعة آلاف بيت، و مات بمصر. و من شعره:

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۵۹

عدلت على ما لو علمت بقدره بسطت فكان العدل و اللوم من عذرى

جهلت و لم تعلم بأنّك جاهل فمن لى بأن تدرى بأنّك لا تدرى

و من شعره قوله:

و كان لنا أصدقاء حماة و أعداء سوء فما خلّدوا

تساقوا جميعا بكأس الردى فمات الصديق و مات العدو

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى إبراهيم بن على الذّهلى، و داود بن الحسين البيهقىّ، و عبدان المروزىّ، و عيسى بن محمد [بن عيسى] ابن طهمان المروزىّ، و الفضل بن العبّاس بن صفوان الأصبهانىّ، و محمد بن أسد المدنىّ، و محمد بن عبدوس بن كامل السرّاج، و هميم بن همّام الطبرىّ.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و سبع أصابع و نصف، مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و سبع أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۹۴]

السنة الثالثة من ولاية عيسى النّوشرىّ على مصر، و هى سنة أربع و تسعين و مائتين- فيها خرج زكرويه القرمطىّ من بلاد القطيف يريد الحاجّ، فوافاهم و قاتلهم حتّى ظفر بهم، و واقع الحاجّ و أخذ جميع ما كان معهم، و كان قيمة ذلك

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۶۰

ألفى ألف دينار بعد أن قتل من الحاجّ عشرين ألفا. و جاء الخبر إلى بغداد بذلك، فعظم ذلك على المكتفى و على المسلمين، و وقع النّوح و البكاء و انتدب جيش لقتاله فساروا، و سار زكرويه الى زبالة فنزلها، و كانت قد تأخرت القافلة الثالثة و هى معظم الحاجّ، فسار زكرويه المذكور ينتظرها، و كان فى القافلة أعين أصحاب السلطان و معهم الخزائن و الأموال و شمسة الخليفة، فوصلوا إلى فيد و بلغهم الخبر فأقاموا ينتظرون عسكر السلطان فلم يرد عليهم الجند، فساروا فوافوا الملعون بالهبير فقاتلهم يوما إلى الليل ثم عاودهم الحرب فى اليوم الثانى، فعطشوا و استسلموا، فوضع فيهم السيف فلم يفلت منهم إلا اليسير، و أخذ الحريم و الأموال؛ فندب المكتفى لقتاله القائد وصيفا و معه الجيوش، و كتب إلى شيبان أن يوافوا فجاءوا فى ألفين و مائتى فارس، فلقيه و صيف يوم السبت رابع شهر ربيع الأوّل، فاقتتلوا حتى حجز بينهم الليل، و أصبحوا على القتال فنصر اللّه و صيفا و قتل عامّة أصحاب زكرويه المذكور، الرجال و النساء، و خلّصوا من كان معه من النساء و الأموال، و خلص بعض الجند إلى زكرويه فضربه و هو مولّ على قفاه، ثم أسره و أسروا خليفته و خواصّه و ابنه و أقاربه و كاتبه و امرأته؛ فعاش زكرويه خمسة أيام و مات من الضربة، فشقّوا بطنه و حمل إلى بغداد، و قتل الأسارى و أحرقوا. و قيل: إن

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۶۱

الذى جرح زكرويه هو وصيف بنفسه. قلت: لا شلّت يداه. و تفرّق أصحاب زكرويه فى البرّيّة و ماتوا عطشا. و فيها توفّى محمد بن نصر أبو عبد اللّه المروزىّ الفقيه أحد الأئمة الأعلام و صاحب التصانيف الكثيرة و الكتب المشهورة؛ مولده ببغداد فى سنة اثنتين و مائتين و نشأ بنيسابور و استوطن سمرقند، و كان أعلم الناس باختلاف الصحابة و من بعدهم فى الأحكام. و فيها توفّى صالح بن محمد ابن عمرو بن حبيب بن حسان بن المنذر بن أبى الأبرش عمّار، مولى أسد بن خزيمة، الحافظ أبو علىّ الأسدىّ البغدادىّ المعروف بجزرة نزيل بخارى، ولد سنة خمس و مائتين ببغداد. قال أبو سعيد الإدريسىّ الحافظ: صالح بن محمد جزرة ما أعلم فى عصره بالعراق و خراسان فى الحفظ مثله. و لقّب جزرة لأنه جاء فى حديث عبد اللّه بن بشر أنه كانت عنده خرزة يرقى بها المرضى، و كانت لأبى أمامة الباهلىّ، فصحّفها جزرة (بجيم و زاى معجمتين).

الذين ذكر الذهبى وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى الحسن بن المثنّى العنبرىّ، و أبو على صالح بن محمد جزرة، و عبيد العجلىّ، و محمد بن إسحاق بن

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۶۲

[مخلد المعروف بابن] راهويه الفقيه، و محمد بن أيوب بن الضّريس الرازىّ، و محمد بن معاذ الحلبىّ دران، و محمد بن نصر المروزىّ الفقيه، و موسى بن هارون الحافظ.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و إصبع واحدة، مبلغ الزيادة خمس عشرة ذراعا و إحدى عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۹۵]

السنة الرابعة من ولاية عيسى النّوشرىّ على مصر، و هى سنة خمس و تسعين و مائتين- فيها كان الفداء بين المسلمين و بين الروم، فكانت عدّة من فودى من المسلمين ثلاثة آلاف إنسان. و فيها بعث الخليفة المكتفى خاقان البلخىّ الى إقليم أذربيجان لحرب يوسف بن أبى الساج فسار فى أربعة آلاف. و فيها فى ذى القعدة مات الخليفة المكتفى بالله أبو محمد علىّ بن المعتضد بالله أحمد ابن ولىّ العهد طلحة الموفّق ابن الخليفة المتوكّل على اللّه جعفر بن محمد المعتصم بن الرشيد هارون بن المهدىّ محمد بن أبى جعفر المنصور عبد اللّه بن محمد بن علىّ بن عبد اللّه بن العبّاس العباسىّ الهاشمىّ أمير المؤمنين؛ ولد سنة أربع و ستين و مائتين، و كان يضرب المثل بحسنه فى زمانه، كان معتدل القامة درّىّ اللون أسود الشعر حسن اللحية جميل الصورة، و أمّه أمّ ولد تسمّى خاضع. بويع بالخلافة بعد موت والده المعتضد فى جمادى الأولى سنة تسع و ثمانين و مائتين، و كانت خلافته ستة أعوام و نصفا، و بويع بالخلافة بعده أخوه جعفر المقتدر. و خلّف المكتفى فى بيت المال خمسة عشر ألف ألف دينار،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۶۳

و هو الذى خلّفه المعتضد و زاد على ذلک المكتفى أمثالها. و فيها توفّى إبراهيم بن محمد ابن نوح بن عبد اللّه الحافظ أبو إسحاق النّيسابورىّ، كان إمام عصره بنيسابور فى معرفة الحديث و العلل و الرجال و الزهد و الورع، و كان الإمام أحمد بن حنبل يثنى عليه. و فيها توفى أبو الحسين أحمد بن محمد [بن الحسين] النّورىّ البغدادىّ المولد و المنشأ، و أصله من خراسان من قرية بين هراة و مرو الروذ. و إنما سمّى النّورىّ لأنه كان إذا حضر فى مكان ينوّر، كان أعظم مشايخ الصوفيّة فى وقته، كان صاحب لسان و بيان، كان من أقران الجنيد بل أعظم. و فيها توفّى إسماعيل بن أحمد بن أسد بن سامان أحد ملوک السامانية، و هم أرباب الولايات بالشاش و سمرقند و فرغانة و ما وراء النهر، ولى إمرة خراسان بعد عمرو بن الليث الصفّار، و كان ملكا شجاعا صالحا بنى الرّبط فى المفاوز و أوقف عليها الأوقاف، و كل رباط يسع ألف فارس، و هو الذى كسر الترک؛ و لمّا توفّى تمثّل الخليفة بقول أبى نواس:

لم يخلق الدهر مثله أبدا هيهات هيهات شأنه عجب

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۶۴

و فيها توفى أبو حمزة الصّوفىّ الصالح الزاهد الورع، كان من أقران الجنيد و أبى تراب النّخشبىّ، كان من كبار مشايخ القوم و أزهدهم و أورعهم و أفتاهم، و له المجاهدات و الرياضات المشهورة.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أبو الحسين النّورىّ شيخ الصوفيّة أحمد بن محمد، و إبراهيم بن أبى طالب الحافظ، و إبراهيم بن معقل قاضى نسف، و الحسن بن على المعمرىّ، و الحكم بن معبد الخزاعىّ، و أبو شعيب الحرّانىّ، و المكتفى بالله بن المعتضد، و أبو جعفر محمد بن أحمد التّرمذىّ الفقيه.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و ثلاث أصابع، مبلغ الزيادة خمس عشرة ذراعا و ستّ عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۹۶]

السنة الخامسة من ولاية عيسى النّوشرىّ على مصر، و هى سنة ستّ و تسعين و مائتين- فيها خلع الخليفة جعفر المقتدر من الخلافة و بويع عبد اللّه بن المعتزّ بالخلافة، و سبب خلعه صغر سنّه و قصوره عن تدبير الخلافة و استيلاء أمّه و القهرمانة على الخلافة، و كانت أمّه أمّ ولد تسمّى شغب؛ فآتفق الجند على قتله و قتل وزيره

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۶۵

العبّاس [بن الحسن] و قتل فاتك المعتضدىّ، وثبوا على هؤلاء و قتلوهم. و كان المقتدر بالحلبة يلعب بالصّوالجة - أعنى بالكرة على عادة الملوك- فلما بلغه قتلهم نزل و أغلق باب القصر؛ فبايعوا عبد اللّه بن المعتزّ بشروط شرطها عبد اللّه عليهم، و كان عبد اللّه بن المعتزّ أشعر بنى العباس و [من] خيارهم؛ و لقّبوه بالمنصف بالله، و قيل: بالغالب بالله، و قيل: بالراضى بالله، و قيل: بالمرتضى؛ و استوزر محمد بن داود بن الجرّاح.

و لما بلّغ هذا الخبر الى أبى جعفر الطبرىّ قال: و من رشّح للوزارة؟ قالوا: محمد بن داود؛ قال: و من ذكر للقضاء؟ قالوا: أبو المثّنى أحمد بن يعقوب؛ ففكّر طويلا و قال:

هذا أمر لا يتمّ؛ قيل: و لم؟ قال: لأن كلّ واحد من هؤلاء الذين ذكرتم مقدّم فى نفسه عالى الهمة رفيع الرتبة فى أبناء جنسه، و الزمان مدبر و الدولة مولّية. و كان كما قال.

و خلع عبد اللّه بن المعتزّ من يومه و قتل من الغد؛ و كانت خلافته يوما و ليلة، و قيل:

بل نصف نهار و هو الأصحّ. و قتل ابن المعتزّ و وصيف بن صوارتكين و يمن الخادم و جماعة من القضاة و الفقهاء الذين اتفقوا على خلع المقتدر، قتلهم مؤنس الخادم، و أعيد جعفر المقتدر الى الخلافة. و فيها استوزر المقتدر أبا الحسن علىّ بن محمد بن الفرات.

و فيها أمر المقتدر ألّا يستخدم أحد [من] اليهود و النصارى إلا فى الطب و الجهبذة فقط، و أن يطالبوا بلبس العسلىّ و تعليق الرّقاع المصبوغة بين أظهرهم. و فيها وقع ببغداد ثلج فى كانون فى أوّل النّهار الى العصر و أقام أيّاما لم يذب. و فيها انصرف أبو عبد اللّه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۶۶

الداعى إلى سجلماسة فافتتحها و أخرج المهدىّ عبيد اللّه و ولده من حبس اليسع [ابن مدرار] و أظهر أمره و أعلم أصحابه أنّه صاحب دعوته و سلّم عليه بأمير المؤمنين، و ذلك فى سابع ذى الحجة من سنة ستّ هذه. و عبيد اللّه هذا هو والد الخلفاء الفاطميّين و هو أوّل من ظهر منهم كما سيأتى ذكره إن شاء اللّه تعالى فى هذا الكتاب فى ترجمة المعزّ و غيره. و فيها توفّى أحمد بن محمد بن هانئ أبو بكر الطائى الأثرم الحافظ، سمع الكثير و رحل [الى] البلاد و صنّف علل الحديث و الناسخ و المنسوخ فى الحديث، و كان حافظا ورعا متقنا. و فيها توفّى أمير المؤمنين أبو العبّاس عبد اللّه ابن الخليفة المعتزّ بالله محمد ابن الخليفة المتوكّل على اللّه جعفر ابن الخليفة المعتصم بالله محمد ابن الخليفة الرشيد هارون ابن الخليفة محمد المهدىّ ابن الخليفة أبى جعفر المنصور عبد اللّه بن محمد بن علىّ بن عبد اللّه بن العباس الهاشمىّ العباسىّ البغدادىّ، الشاعر الأديب صاحب الشعر البديع و التشبيهات الرائقة و النثر الفائق، أخذ العربيّة و الأدب عن المبرّد و ثعلب و عن مؤدّبه أحمد بن سعيد الدمشقىّ، و مولده فى شعبان سنة تسع و أربعين و مائتين، و أمّه أمّ ولد تسمّى خاين، بويع بالخلافة بعد خلع المقتدر و كاد أمره أن يتمّ ثم تفرّق عنه جمعه فقبض عليه و قتل سرّا فى شهر ربيع الآخر، كما ذكرناه فى أوّل هذه السنة. و من شعره:

انظر إلى اليوم ما أحلى شمائله صحو و غيم و إبراق و إرعاد

كأنّه أنت يا من لا شبيه له وصل و هجر و تقريب و إبعاد

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۶۷

و له فى خال مليح:

أسفر ضوء الصبح من وجهه فقام خال الخدّ فيه بلال

كأنّما الحال على خدّه ساعة هجر فى رمان الوصال

قلت: و يعجبنى فى هذا المعنى قول السروجىّ:

فى الجانب الأيمن من خدّها نقطة مسک أشتهى شمّها

حسبته لما بدا خالها وجدته من حسنه عمّها

و أخذ فى هذا المعنى المعزّ الموصلىّ فقال:

لحظت من وجنتها شامة فابتسمت تعجب من حالى

قالت قفوا و اسمعوا ما جرى قد هام عمّى الشيخ فى خالى

و من شعر ابن المعتزّ أيضا بيت مفرد:

فنون و المدام و لون خدّى شقيق فى شقيق فى شقيق

قلت: و يشبه هذا قول ابن الرومىّ حيث قال:

كأنّ الكأس فى يده و فيه عقيق فى عقيق فى عقيق

قلت: و من تشابيه ابن المعتز البديعة قوله ينعت البنفسج:

و لا زورديّة تزهو بزرقتها وسط الرياض على حمر اليواقيت

كأنّها و ضعاف القضب تحملها أوائل النار فى أطراف كبريت

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۶۸

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أحمد بن نجدة الهروىّ، و أحمد بن يحيى الحلوانىّ، و خلف بن عمرو العكبرىّ، و عبد اللّه بن المعتزّ، و أبو الحصين الوادعىّ محمد بن الحسين، و محمد بن محمد بن شهاب البلخىّ، و يوسف ابن موسى القطّان الصغير.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع اذرع و تسع عشرة إصبعا، مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و تسع عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۹۷]

اشارة

السنة السادسة من ولاية عيسى النّوشرىّ على مصر، و هى سنة سبع و تسعين و مائتين- فيها حجّ بالناس الفضل بن عبد الملك الهاشمىّ. و فيها وصل الخبر إلى العراق بظهور عبيد اللّه المسمى بالمهدىّ- أعنى جدّ الخلفاء الفاطميّين- و أخرج الأغلب من بلاده و بنى المهديّة، و خرجت بلاد المغرب عن حكم بنى العباس من هذا التاريخ، و هرب ابن الأغلب و قصد العراق؛ فكتب إليه الخليفة أن يصير إلى الرقّة و يقيم بها. و فيها أدخل طاهر و يعقوب ابنا محمد بن عمرو بن الليث الصفّار بغداد أسيرين. و فيها توفّى الجنيد بن محمد بن الجنيد الشيخ الزاهد الورع المشهور أبو القاسم القواريرىّ الخزّاز، و كان أبوه يبيع الزجاج و كان هو يبيع الخزّ؛

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۶۹

و أصله من نهاوند إلا أنّ مولده و منشأه ببغداد؛ و كان سيّد طائفة الصوفيّة من كبار القوم و ساداتهم، مقبول القول على جميع الألسن، و كان يتفقّه على مذهب أبى ثور الكلبىّ؛ أفتى فى حلقته و هو ابن عشرين سنة؛ و أخذ الطريقة عن خاله سرىّ السّقطىّ، و كان سرىّ

أخـذها عن معروف الكرخيّ، و معروف الكرخيّ أخـذها عن عليّ بن موسـى الرّضا. قال الجنيـد: ما أخرج اللّه إلى الناس علما و جعل لهم إليه سبيلا إلّا و قد جعل لى فيه حظّا و نصيبا. و قيل: إنه كان اذا جلس بدكّانه كان ورده فى اليوم ثلثمائة ركعة و كذا و كذا ألف تسبيحة. و قيل: إنه كان يفتح دكّانه و يسبل الستر و يصلّى أربعمائة ركعة. و قال الجريرىّ: سمعته يقول: ما أخذنا التصوّف عن القال و القيـل لكن عن الجوع و ترك الـدنيا و قطع المألوفات [و المستحسـنات]. و ذكر أبو جعفر الفرغانىّ أنه سـمع الجنيـد يقول: أقلّ ما فى الكلام سقوط هيبة الرب سبحانه و تعالى من القلب، و القلب إذا عرى من الهيبة عرى من الإيمان. و يقال: إنّ نقش خاتم الجنيد ": إن كنت تأمله فلا تأمنه. "و عن الخلدىّ عن الجنيد قال: أعطى أهل بغداد الشطح و العبادة، و أهل خراسان القلب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۷۰

و السخاء، و أهل البصرة الزهد و القناعة، و أهل الشأم الحلم و السلامة، و أهل الحجاز الصبر و الإنابة. و قال إسماعيل بن نجيد: هؤلاء الثلاثة لا رابع لهم: الجنيد ببغداد، و أبو عثمان بنيسابور، و أبو عبد اللّه بن الجلّى بالشأم. و قال أبو بكر العطوىّ:

كنت عند الجنيد حين احتضـر فختم القرآن، قال: ثم ابتدأ فقرأ من البقرة سبعين آية ثم مات. و قال أبو نعيم: أخبرنا الخلدىّ كتابة قال: رأيت الجنيـد فى النوم فقلت: مـا فعـل اللّه بـك؟ قـال: طاحت تلك الإشارات، و غابت تلك العبارات، و فنيت تلك العلوم، و نفـدت تلك الرسوم، و ما نفعنا إلا ركعتان كنا نركعهما فى الأسـحار. قال أبو الحسـين [بن] المنادى: مات الجنيـد ليلـة النّوروز فى شوّال سـنة ثمـان و تسـعين و مائتين، قال: فـذكر لى أنهم حزروا الجمع الـذين صـلّوا عليه نحو ستين ألف إنسان، ثم ما زالوا يتعاقبون قبره فى كلّ يوم نحو الشهر. و دفن عند قبر سرىّ السّقطىّ. قال الذهبىّ: و ورّخه بعضهم فى سنة سبع فوهم. قلت:

ورّخه صاحب المرآة و غيره فى سـنة سـبع. و فيها توفّى عمرو بن عثمان أبو عبد اللّه المكىّ، سـكن بغداد و كان شـيخ القوم فى وقته، صحب الجنيد و غيره. و فيها توفّى الشيخ أبو الحارث الفيض بن الخضر أحمد، و قيل: الفيض بن محمد الأولاسىّ

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۷۱

الطّرسوسـىّ أحـد الزهاد و مشايخ القوم، مات بطرسوس و كان صاحب حال و قال، و له إشارات و لسان حلو فى علم التصوّف. و فيها توفّى محمـد بن داود [بن علىّ] بن خلف الشـيخ أبو بكر الأصـبهانىّ الظـاهرىّ صـاحب كتاب الزهرة، كان عالما أديبا فصـيحا، و كان يلقّب بعصـفور الشوك لنحافته و صـفرة لونه؛ و لما جلس محمـد هـذا بعد وفاة أبيه فى مجلسه استصـغروه عن ذلك، فسأله رجل عن حدّ السـكر ما هو، و متى يكون الرجل سـكران؟ فقال محمد على البديهة: إذا عزبت عنه الهموم، و باح بسـرّه المكتوم؛ فاستحسنوا منه ذلك.

الـذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السـنة، قال: و فيها توفى إبراهيم بن هاشم البغوىّ، و إسـماعيل بن محمد بن قيراط، و عبد الرّحمن بن القاسم بن الروّاسىّ الهاشمىّ، و عبيد بن غنّام، و محمد بن عبد اللّه مطيّن، و محمد بن عثمان بن [محمد بن] أبى شيبة، و محمد بن داود الظاهرىّ، و يوسف بن يعقوب القاضى.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم تسع أذرع و إحدى عشرة إصبعا، مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا، و إحدى عشرة إصبعا.

ذكر ولاية تكين الأولى على مصر

هو تكين بن عبـد اللّه الحربىّ، الأـمير أبو منصور المعتضـدىّ الخزرىّ، ولّـاه الخليفـة المقتـدر بـالله على صـلاة مصر بعـد موت عيسـى النّوشرىّ، فدعى له بها فى يوم الجمعة لإحدى عشرة ليلة خلت من شوّال سنة سبع و تسعين و مائتين. ثم قدم خليفته

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۷۲

إلى مصـر يوم الأربعاء فى ثالث عشـرين شوّال، و دام خليفته بها إلى أن قدمها تكين المذكور فى يوم ثانى ذى الحجّة من سـنة سبع و تسعين و مائتين.

قال صاحب «البغية و الاغتباط فيمن ولى الفسطاط»: قدم تكين يوم السبت لليلتين خلتا من ذى الحجّة موافقا لنا، لكنّه زاد فى يوم السبت. و تكين هذا مولى المعتضد باللّه، نشأ فى دولته حتى صار من جملة القوّاد، ثم ولّاه المقتدر دمشق و مصر و أقرّه عليهما القاهر. و كان تكين جبّارا مهيبا و لكنّه كانت لديه فضيلة. و حدّث عن القاضى يوسف و غيره. و دام تكين على إمرة مصر مدّة إلى أن بعث للخليفة فى سنة تسع و تسعين و مائتين هدايا و تحفا، و فى جملة الهدايا ضلع إنسان طوله أربعة عشر شبرا فى عرض شبر، زعموا أنّه من قوم عاد؛ و فى جملة الهدايا أيضا تيس له ضرع يحلب لبنا، و خمسمائة ألف دينار، ذكر تكين أنه وجدها فى كنز بمصر. و استمر تكين بعد ذلك على إمرة مصر حتّى خرج عليها جماعة من الأعراب و الأحواش فجهّز تكين لحربهم جيشا إلى برقة، و جعل على الجيش المذكور أبا اليمنى و خرج الجيش إلى برقة- و كان هؤلاء الأعراب من جملة عساكر المهدىّ عبيد اللّه الفاطمىّ الذى استولى على بلاد المغرب- فلما قارب الجيش برقة خرج إليهم حباسة بن يوسف بعساكر المهدىّ عبيد اللّه الفاطمىّ المقدّم ذكره، و قاتل

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة؛ ج۳؛ ص۱۷۳

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۷۳

أبا اليمنى المذكور حتّى هزمه و استولى على برقة؛ ثم سار إلى الإسكندرية فى زيادة على مائة ألف مقاتل. و لما عاد جيش تكين منهزما إلى مصر، أرسل تكين الى الخليفة يطلب منه المدد، فأمدّه الخليفة بالعساكر، و فى العسكر حسين [بن أحمد] الماذرائىّ و أحمد بن كيغلغ فى جمع من القوّاد، و سار الجميع نحو مصر. و كان دخول عسكر المهدىّ الى الإسكندريّة فى أوّل المحرم سنة اثنتين و ثلثمائة. و وصلت عساكر الخليفة من العراق الى مصر فى صفر و نزلت بها، فتلقّاهم تكين و أكرم نزلهم؛ ثم تهيّأ تكين بعساكره الى القتال، و خرج هو بعساكر مصر و معه عساكر العراق و سار الجميع نحو الإسكندريّة، و نزلوا بالجيزة فى جمادى الأولى، ثم سار الجميع حتى وافوا حباسة بعساكره و قاتلوه؛ فكانت بينهم وقعة عظيمة قتل فيها آلاف من الناس من الطائفتين، و ثبت كلّ من العسكرين حتى استظهر عسكر الخليفة على جيش حباسة العبيدىّ الفاطمىّ و كسره و أجلاه عن الإسكندريّة و برقة؛ و عاد حباسة بمن بقى معه من عساكره الى المغرب فى أسوإ حال. و هذا أوّل عسكر ورد الى الإسكندرية من جهة عبيد اللّه المهدىّ الفاطمىّ. ثم عاد تكين الى مصر بعساكره بعد أن مهّد البلاد. و عند ما قدم تكين الى مصر وصل اليها بعده مؤنس الخادم مع جمع من القوّاد- أعنى الذين قدموا معه من العراق- و نزلوا بالحمراء فى النصف من شهر رمضان و لقى الناس منهم شدائد الى أن خرج الأمير أحمد بن كيغلغ الى الشأم فى شهر رمضان المذكور، فلم تطل مدّة تكين بعد ذلك على مصر و صرف عن إمرتها فى يوم الخميس لأربع عشرة ليلة خلت من ذى القعدة، صرفه مؤنس الخادم المقدّم ذكره و أرسل الى الخليفة بذلك، فدام تكين بمصر الى أن خرج منها فى سابع ذى الحجة سنة اثنتين و ثلثمائة؛ و أقام مؤنس الخادم بمصر يدعى له بها

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۷۴

و يخاطب بالأستاذ الى أن ولّى الخليفة المقتدر ذكا الرومىّ إمرة مصر عوضا عن تكين المذكور. فكانت ولايته على مصر خمس سنين و أياما.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۹۸]

السنة الأولى من ولاية تكين الأولى على مصر، و هى سنة ثمان و تسعين و مائتين- فيها قدم الحسين بن حمدان من قمّ، فولّاه المقتدر ديار بكر و ربيعة. و فيها توفّى محمد ابن عمرويه صاحب الشّرطة، توفّى بآمد و حمل الى بغداد. و فيها توفّى صافى الحرمىّ فقلّد المقتدر مكانه مؤنسا الخادم المقدّم ذكره. و فيها خرج على عبيد اللّه المهدىّ داعياه أبو عبد اللّه الشّيعىّ و أخوه أبو العباس، و جرت لهما وقعة هائلة، و ذلك فى جمادى الآخرة، فقتل الداعيان فى جندهما، ثم خالف على المهدىّ أهل طرابلس المغرب، فجهّز اليهم

ابنه أبا القاسم القائم بأمر اللّه فأخذها عنوة فى سنة ثلثمائة، و تمهّد بأخذها بلاد المغرب

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۷۵

للمهدىّ المذكور. و فيها قدم القاسم بن سيما من غزوة الصائفة بالروم و معه خلق من الأسارى و خمسون علجا قد شهّروا على الجمال و بأيديهم صلبان الذهب و الفضة.

و فيها استخلف على الحرم بدار الخليفة نظير الحرمىّ. و فيها توفّى أحمد بن محمد بن مسروق الشيخ أبو العباس الصوفىّ الطّوسىّ أحد مشايخ القوم و أصحاب الكرامات، قدم بغداد و حدّث بها. و فيها توفّى أحمد بن يحيى بن إسحاق أبو الحسين البغدادىّ المعروف بابن الرّاوندىّ الماجن المنسوب الى الهزل و الزندقة؛ كان أبوه يهوديا

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۷۶

فأسلم [هو]؛ فكانت اليهود تقول للمسلمين: احذروا أن يفسد هذا عليكم كتابكم كما أفسد أبوه علينا كتابنا. و صنّف أحمد هذا فى الزندقة كتبا كثيرة، منها: كتاب بعث الحكمة، و كتاب الدامغ للقرآن و غير ذلک، و كان زنديقا، و كان يقول: إنا نجد فى كلام أكثم بن صيفىّ أحسن من (إِنَّا أَعْطَيْناکَ الْكَوْثَرَ) و (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ)، و إنّ الأنبياء وقعوا بطلّسمات كما أنّ المغناطيس يجذب الحديد؛ و قوله صلّى اللّه عليه و سلّم لعمّار ": تقتلک الفئة الباغية، "قال: فإنّ المنجّم يقول مثل هذا إذا عرف المولد و [أخذ] الطالع. و لهذا التعيس الضالّ أشياء كثيرة من هذا الكفر البارد الذى يسئم أسماع الزنادقة لعدم طلاوة كلامه. و أمره فى الزندقة و المخرقة أشهر من

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۷۷

أن يذكر؛ عليه اللعنة و الخزى. و لما تزايد أمره صلبه بعض السلاطين و هو ابن ستّ و ثمانين سنة. و فيها توفّى أبو عثمان سعيد بن إسماعيل بن سعيد النيسابورىّ الحيرىّ الواعظ الإمام، مولده بالرّىّ ثم قدم نيسابور و سكنها، و كان أوحد مشايخ عصره و عنه انتشرت طريقة التصوّف بنيسابور.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أبو العباس أحمد ابن محمد بن مسروق، و بهلول بن إسحاق الأنبارىّ، و الجنيد شيخ الطائفة، و الحسن ابن علّويه القطّان، و أبو عثمان الحيرىّ الزاهد، و محمد بن علىّ بن طرخان البلخىّ الحافظ، و محمد بن سليمان المروزىّ، و محمد بن طاهر الأمير، و يوسف بن عاصم.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثمانى أذرع و أربع أصابع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و ثمانى أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۲۹۹]

السنة الثانية من ولاية تكين الأولى على مصر، و هى سنة تسع و تسعين و مائتين- فيها قبض المقتدر على وزيره أبى الحسن علىّ بن الفرات و نهبت دوره و هتكت حرمه، بسبب أنه قيل للخليفة: إنه كاتب الأعراب أن يكبسوا بغداد، و نهبت بغداد عند القبض عليه؛ و استوزر المقتدر أبا علىّ محمد بن عبيد اللّه بن يحيى ابن خاقان. و فيها سار عبيد اللّه المهدىّ الفاطمىّ الى المهديّة ببلاد المغرب و دعى له بالخلافة برقّادة و القيروان و تلک النواحى؛ و عظم ملكه فشقّ ذلک على الخليفة

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۷۸

المقتدر العباسىّ. و فيها توفّى أحمد بن نصر بن إبراهيم الحافظ أبو عمرو الخفّاف، رحل فى طلب الحديث و لقى الشيوخ، و كان زاهدا متعبّدا صام نيّفا و ثلاثين سنة و تصدّق سرّا و علانية بأموال كثيرة. و فيها توفّى الحسين بن عبد اللّه بن أحمد الفقيه أبو على الخرقىّ والد الإمام عمر مصنف كتاب ["مختصر] الخرقىّ "فى مذهب الإمام أحمد ابن حنبل، و كان زاهدا عابدا، مات يوم عيد الفطر. و فيها توفّى محمد بن أحمد بن كيسان الإمام أبو الحسن النحوىّ اللغوىّ أحد الأئمة النحاة، كان يحفظ مذاهب البصريّين و

الکوفیّین فی النحو، لأنه أخذ عن المبرّد و ثعلب. و فیها توفّی محمد بن إسماعیل الشیخ أبو عبد اللّه المغربیّ الزاهد أستاذ ابراهیم الخوّاص و ابراهیم بن شیبان و غیرهما، کان کبیر الشأن فی علم المعاملات و المکاشفات، و حجّ علی قدمیه سبعا و تسعین حجّة. قال إبراهیم بن شیبان: توفّی أبو عبد اللّه علی جبل الطور فدفنته إلی جانب أستاذه علیّ بن رزین بوصیّة منه، و عاش کلّ واحد منهما عشرین و مائة سنة.

قلت: و لهذا حجّ سبعا و تسعین حجّة. و فیها توفّی محمد بن یحیی بن محمد البغدادیّ المعروف ب «حامل کفنه»، کان فاضلا، وقع له غریبة و هو أنّه مرض فأغمی علیه فغسّل و کفّن و دفن، فلمّا کان اللیل جاءه نبّاش فنبش عنه، فلما حلّ أکفانه لیأخذها استوی قائما، فخرج النبّاش هاربا؛ فقام هو و حمل أکفانه و جاء إلی منزله و أهله و هم یبکون علیه، فدقّ الباب، فقالوا: من؟ قال: أنا فلان؛ فقالوا: یا هذا، لا یحلّ لک أن تزیدنا علی ما نحن فیه! قال: افتحوا فو اللّه أنا فلان؛ فعرفوا صوته ففتحوا

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۷۹

له و عاد حزنهم فرحا، و یسمّی من حینئذ "حامل کفنه؛ "سکن "حامل کفنه "دمشق و حدّث بها. قال أبو بکر الخطیب: و مثل هذا سعید الکوفیّ فإنّه لمّا دلّی فی قبره اضطرب فحلّت عنه أکفانه فقام و رجع الی منزله، ثم ولد له بعد ذلک ابنه مالک.

و فیها توفّی ممشاد الدّینوریّ الزاهد المشهور، کان من أولاد الملوک فتزهّد و ترک الدنیا و صحب أبا تراب النّخشبیّ و أبا عبید [البسریّ] و غیرهما، و کان عظیم الشأن؛ یحکی عنه خوارق، قیل: إنه لما احتضر قالوا له: کیف تجدک؟ فقال: سلوا العلّة عنّی؛ فقیل له: قل لا إله إلا اللّه؛ فحوّل وجهه الی الحائط فقال:

أفنیت کلّی بکلّک هذا جزا من یحبّک

الذین ذکر الذهبیّ وفاتهم فی هذه السنة، قال: و فیها توفی أحمد بن أنس ابن مالک الدمشقیّ، و أبو عمرو الخفّاف الزاهد أحمد بن نصر الحافظ، و الحسین بن عبد اللّه الخرقیّ والد مصنّف ["مختصر] الخرقیّ "و علیّ بن سعید بن بشیر الرازیّ، و محمد بن یزید بن عبد الصمد، و ممشاد الدینوریّ الزاهد.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم ستّ أذرع و إحدی عشرة إصبعا.

مبلغ الزیادة سبع عشرة ذراعا و ثمانی أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۰۰]

السنة الثالثة من ولایة تکین الأولی علی مصر، و هی سنة ثلثمائة- فیها تتبع الخلیفة أصحاب الوزیر أبی الحسن بن الفرات و صودروا و خرّبت دیارهم و ضربوا، و عذّب ابن الفرات حتی کاد یتلف؛ ثم رفقوا به بعد أن أخذت أمواله. ثم عزل

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۸۰

الخاقانیّ عن الوزارة و رشّح لها علیّ بن عیسی. و یقال: فیها ولدت بغلة، فسبحان اللّه القادر علی کلّ شیء!. و فیها ظهر محمد بن جعفر بن علیّ بن محمد بن موسی بن جعفر ابن علیّ بن الحسین بن علیّ بن أبی طالب فی أعمال دمشق، فخرج إلیه أمیر دمشق أحمد بن کیغلغ، ثم اقتتلا فقتل محمد فی المعرکة و حمل رأسه الی بغداد فنصب علی الجسر. و فیها وقع ببغداد و البادیة و باء عظیم و موت جارف، فمات الناس علی الطریق. و فیها ساخ جبل بالدّینور فی الأرض و خرج من تحته ماء کثیر غرّق القری. و فیها وقعت قطعة عظیمة من جبل لبنان فی البحر، و تناثرت النجوم فی جمادی الآخرة تناثرا عجیبا و کلّه الی ناحیة المشرق. و فیها حجّ بالناس الفضل بن عبد الملک الهاشمیّ. و فیها توفّی عبد اللّه بن محمد بن عبد الرّحمن بن الحکم بن هشام ابن عبد الرّحمن بن معاویة بن هشام بن عبد الملک بن مروان بن الحکم بن أبی العاص ابن أمیّة الأمویّ المغربی أمیر الأندلس، و أمّه أمّ ولد یقال لها عشار؛ بویع بالإمرة فی

صفر سنة خمس و سبعين و مائتين فى السنة التى توفّى فيها أخوه المنذر فى أيّام المعتمد؛ و كان زاهدا تاليا لكتاب اللّه تعالى؛ بنى الرّباط بقرطبة و لزم الصلوات الخمس بالجامع حتى مات فى شهر ربيع الأوّل، و كانت أيّامه على الأندلس خمسا و عشرين سنة و ستّة أشهر و أياما؛ و تولّى مكانه ابن ابنه عبد الرّحمن بن محمد بن عبد اللّه فى اليوم الذى مات فيه جدّه المذكور، و كنيته أبو المظفّر فلقّب نفسه بالناصر؛ و توفّى عبد الرّحمن هذا فى سنة خمسين و ثلثمائة. و قد تقدّم الكلام فى ترجمة جدّ هؤلاء الثلاثة عبد الرّحمن الداخل أنّه فرّ من الشأم جافلا من بنى العبّاس و دخل المغرب و ملكها، فسمّى لذلك عبد الرّحمن الداخل. و فيها توفّى عبيد اللّه [بن عبد اللّه] بن طاهر بن الحسين

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۸۱

الأمير أبو محمد الخزاعىّ، كان من أجلّ الأمراء، ولى إمرة بغداد و نيابتها عن الخليفة و عدّة ولايات جليلة، و كان أديبا فاضلا شاعرا فصيحا، و قد تقدّم ذكر والده فى أمراء مصر فى هذا الكتاب، و أيضا نبذة من أخبار جدّه فى عدّة حوادث؛ و فى الجملة هو من بيت رياسة و فضل و كرم.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أبو العباس أحمد ابن محمد البراثىّ، و أبو أميّة الأحوص بن الفضل الغلّابىّ، و الحسين بن عمر بن أبى الأحوص، و علىّ بن سعيد العسكرىّ الحافظ، و عبيد اللّه بن عبد اللّه بن طاهر بن الحسين الأمير، و عبد اللّه بن محمد بن عبد الرّحمن الأموىّ صاحب الأندلس، و محمد بن أحمد بن جعفر أبو العلاء الوكيعىّ، و محمد بن الحسن بن سماعة، و مسدّد ابن قطن.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم سبع أذرع و إصبع واحدة. مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا و إصبع واحدة.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۰۱]

السنة الرابعة من ولاية تكين الأولى على مصر، و هى سنة إحدى و ثلثمائة- فيها قبض المقتدر على وزيره الخاقانىّ فى يوم الاثنين لعشر خلون من المحرّم، و كانت مدّة وزارته سنة واحدة و شهرا و خمسة أيام؛ و كان المقتدر قد أرسل يلبق المؤنسىّ

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۸۲

فى ثلثمائة غلام إلى مكّة لإحضار علىّ بن عيسى للوزارة، فقدم ابن عيسى المذكور فى المحرّم و تولّى الوزارة. و فيها فى شعبان ركب الخليفة المقتدر من داره الى الشماسيّة ثم عاد فى دجلة، و هى أوّل ركبة ظهر فيها للعامّة منذ ولى الخلافة. و فيها فى يوم الاثنين سادس شهر ربيع الأوّل أدخل الحسين بن منصور المعروف بالحلّاج مشهورا على جمل إلى بغداد و صلب و هو حىّ فى الجانب الغربىّ و عليه جبّة عوديّة، و نودى عليه: هذا أحد دعاة القرامطة؛ ثم أنزلوه و حبس وحده فى دار و رمى بعظائم، نسأل اللّه السلامة فى الدين؛ فأحضره علىّ بن عيسى الوزير و ناظره فلم يجد عنده شيئا من القرآن و لا من الفقه و لا من الحديث و لا من العربيّة؛ فقال له الوزير: تعلّمك الوضوء و الفرائض أولى من رسائل ما تدرى ما فيها ثم تدّعى الإلهية! فردّه الى الحبس فدام به إلى ما يأتى ذكره فى محلّه. و فيها أفرج المقتدر عن الوزير الخاقانىّ فأطلق و توجّه إلى داره. و فيها فى شعبان خلع المقتدر على ابنه أبى العبّاس و قلّده أعمال الحرب بمصر و الغرب، و عمره أربع سنين، و استخلف له [على مصر] مؤنس الخادم. و فيها توفّى الحسن بن بهرام أبو سعيد القرمطىّ المتغلّب على هجر، كان أصله كيالا فهرب و استغوى خلقا من القرامطة و الأعراب و غلب على القطيف و هجر، و شغل المعتضد عنه الموت، فاستفحل أمره و وقع له مع عساكر المكتفى وقائع و أمور، و قتل الحجيج و أفسد البلاد، و فعل مالا يفعله مسلم، حتّى قتله خادم صقلبىّ فى الحمّام أراده على الفاحشة فخنقه الخادم و قتله و ذهبت روحه الى سقر. و فيها توفّى حمدويه بن أسد الدمشقىّ المعلم، كان من

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۸۳

الأبـدال [و] كان مجاب الـدعوة و له كرامات و أحوال، مات بـدمشق. و فيها توفّى عبـد اللّه بن على بن محمـد بن عبد الملك بن أبى الشوارب القاضـى، كان إماما فاضلا عالما، استقضاه الخليفة المكتفى على مدينة المنصور فى سنة اثنتين و تسعين و مائتين الى أن نقله المقتدر الى الجانب الشرقىّ فى سنة ست و تسعين و مائتين فأصابه فالج و مات منه. و توفّى ابنه بعده بثلاثة و سبعين يوما و كان يخلفه على القضـاء. و فيهـا توفّى علىّ بن أحمـد الراسبىّ الأـمير أبو الحسن، كـان متولّيـا من حـدود واسط الى جنـديسابور و من السوس الى شهرزور، و كان شـجاعا مات بجنـديسابور و خلّف ألف ألف دينار و [من] آنية الذهب و الفضة [ما قيمته] مائة ألف دينار [و من الخزّ ألف ثوب] و ألف فرس و ألف بغـل و ألف جمـل، و كـان له ثمـانون طرازا تنسـج فيهـا الثيـاب التى لملبوسه. و فيها توفّى محمـد بن عثمان بن إبراهيم بن زرعة الثّقفىّ مولاهم، كان قاضـى دمشق ثم ولى قضاء مصر؛ كان إماما عالما عفيفا؛ و لما أراد أحمد بن طولون خلع الموفّق من ولايـة العهـد أمره بخلعه، فوقف بإزاء منبر دمشق و قال: قد خلعت أبا أحمق (يعنى [أبا] أحمد) كما خلعت خاتمى من إصبعى، و مضى سنون الى أن ولى المعتضد بن الموفّق الخلافة و دخل الشأم يطلب من كان يبغض أباه، فأحضر القاضى هذا و جماعة فحملوا فى القيود معه و سافر؛ فلما كان

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۸۴

فى بعض الأيام رآهم المعتضد فى الطريق فطلبهم و أراد الفتك بهم، فقال: من الذى قال "أبا أحمق؟ "فخرس القوم؛ فقال له القاضى: يا أمير المؤمنين، نسائى طوالق و عبيدى أحرار و مالى فى سبيل اللّه إن كان فى هؤلاء القوم من قال هذه المقالة؛ فاستظرفه المعتضد و أطلق الجميع؛ و مشى له ذلک فى باب المماجنة.

الـذين ذكر الـذهبىّ وفاتهم فى هـذه السـنة، قال: و فيها توفّى أحمـد بن محمـد ابن عبـد العزيز بن الجعـد الوشّاء، و أبو بكر أحمد بن هارون البرذعىّ، و إبراهيم بن يوسف الرازىّ، و الحسـين بن إدريس الأنصارىّ الهروىّ، و عبـد اللّه بن محمـد بن ناجية فى رمضان، و عمرو بن عثمان المكىّ الزاهد، و محمد بن العبّاس بن الأخرم الأصبهانىّ، و محمد بن يحيى بن مندة العبدىّ.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و اثنتا عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا و إصبع واحدة.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۰۲]

اشارة

السنـة الخامسـة من ولايـة تكين الأـولى على مصـر، و هى سـنة اثنتين و ثلثمائـة- فيها عاد المهـدىّ عبيـد اللّه الفاطمىّ من المغرب الى الإسـكندريّة و معه صاحبه حباسـة المقـدّم ذكره، فجرت. بينه و بين جيش الخليفـة حروب قتل فيها حباسـة، و عاد مولاه عبيـد اللّه الى القيروان. و فيها فى المحرّم ورد كتاب نصـر بن أحمد السامانىّ أمير خراسان أنّه واقع عمّه إسـحاق بن إسماعيل و أنّه أسره؛ فبعث إليه المقتدر بالخلع و اللواء.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۸۵

و فيها صادر المقتدر أبا عبد اللّه الحسـين بن عبد اللّه بن الجصّاص الجوهرىّ، و كبست داره و أخذ من المال و الجوهر ما قيمته أربعة آلاف ألف دينار. و قال أبو الفرج ابن الجوزىّ: أخذوا منه ما مقداره سـتة عشر ألف ألف دينار عينا و ورقا [و آنية] و قماشا و خيلا [و خـدما]. قـال أبو المظفّر فى مرآة الزمـان: و أكثر أموال ابن الجصّـاص المـذكور من قطر النّـدى بنت خمـارويه صاحب مصـر، فإنّه لما

حملها من مصر الی زوجها المعتضد کان معها أموال و جواهر عظیمة؛ فقال لها ابن الجصّاص: الزمان لا یدوم و لا یؤمن علی حال، دعی عندی بعض هذه الجواهر تکن ذخیرة لک، فأودعته، ثم ماتت فأخذ الجمیع. و فیها خرج الحسن بن علیّ العلویّ الأطروش، و یلقّب بالداعی، و دعا الدیلم إلی اللّه، و کانوا مجوسا، فأسلموا و بنی لهم المساجد، و کان فاضلا عاقلا أصلح اللّه الدیلم به. و فیها قلّد المقتدر أبا الهیجاء عبد اللّه بن حمدان الموصل و الجزیرة. و فیها صلّی العید فی جامع مصر، و لم یکن یصلّی فیه العید قبل ذلک، فصلّی بالناس علیّ بن أبی شیخة، و خطب فغلط بأن قال: اتقوا اللّه حقّ تقاته و لا تموتنّ إلا و أنتم مشرکون. نقلها علیّ بن الطحّان عن أبیه و آخر.

و فیها فی الرجعة قطع الطریق علی الحاجّ العراقیّ الحسن بن عمر الحسینیّ مع عرب طیّئ و غیرهم، فاستباحوا الوفد و أسروا مائتین و ثمانین امرأة، و مات الخلق بالعطش و الجوع. و فیها توفّی العبّاس بن محمد أبو الهیثم کاتب المقتدر، کان کاتبا جلیلا، کان یطمع فی الوزارة، و لما ولی علیّ بن عیسی الوزارة اعتقله فمات یوم الأحد سلخ ذی الحجّة، و أوصی أن یصلّی علیه أبو عیسی البلخیّ و أن یکبّر علیه أربعا و أن یسمّ قبره.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۸۶

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم خمس أذرع و عشرون إصبعا. مبلغ الزیادة ستّ عشرة ذراعا و إحدی عشرة إصبعا.

ذکر ولایة ذکا الرومیّ علی مصر

الأمیر أبو الحسن ذکا الرومیّ الأعور، ولی إمرة مصر بعد عزل تکین الحربیّ عن مصر، ولّاه الخلیفة المقتدر علی الصلاة؛ فخرج من بغداد و سافر إلی أن قدم مصر فی یوم السبت لاثنتی عشرة خلت من صفر سنة ثلاث و ثلثمائة؛ فجعل علی الشّرطة محمد بن طاهر مدّة ثم عزله بیوسف الکاتب؛ و قدم بعده الحسین ابن أحمد الماذرائیّ علی الخراج؛ ثم ردّ محمد بن طاهر علی الشرطة. ثم بعد قدوم ذکا إلی مصر خرج منها مؤنس الخادم بجمیع جیوشه لثمان خلون من شهر ربیع الآخر من سنة ثلاث و ثلثمائة؛ و کان ورد علی مؤنس کتاب الخلیفة المقتدر یعرّفه بخروج الحسین بن حمدان عن الطاعة و أن یعود إلی بغداد و یأخذ معه من مصر أعیان القوّاد: مثل أحمد بن کیغلغ و علی بن أحمد بن بسطام و العبّاس بن عمرو و غیرهم ممن یخاف منهم؛ ففعل مؤنس ذلک. و استمرّ ذکا بمصر علی إمرتها من غیر منازع إلی أن خرج إلی الاسکندریّة فی أوّل المحرّم سنة أربع و ثلثمائة؛ فلم تطل غیبته عنها و عاد إلیها فی ثامن شهر ربیع الأوّل؛ فبلغه أنّ جماعة من المصریّین یکاتبون المهدیّ، فتتبّع کلّ من اتّهم بذلک، فقبض علی جماعة منهم و سجنهم و قطع أیدی أناس و أرجلهم، فعظمت هیبته فی قلوب الناس. ثم أجلی أهل لوبیة و مراقیة من مصر الی

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۸۷

الإسکندریّة. ثم فسد بعد ذلک ما بینه و بین جند مصر و الرعیّة، بسبب ذکر الصحابة رضی اللّه عنهم بما لا یلیق، و نسب القرآن الکریم إلی مقالة المعتزلة و غیرهم. و بینما الناس فی ذلک قدمت عساکر المهدیّ عبید اللّه الفاطمیّ من إفریقیّة إلی لوبیة و مراقیة، و علی العساکر أبو القاسم، فدخل الإسکندریّة فی ثامن صفر سنة سبع و ثلثمائة، و فرّ الناس من مصر إلی الشأم فی البرّ و البحر فهلک أکثرهم؛ فلما رأی ذکا ذلک تجهّز لقتالهم، و جمع العساکر و خرج بهم و هم مخالفون علیه، فعسکر بالجیزة، و کان الحسین بن أحمد الماذرائیّ علی خراج مصر فجدّد العطاء للجند و أرضاهم، و تهیّأ ذکا للحرب و جدّ فی ذلک و حفر خندقا علی عسکره بالجیزة؛ و بینما هو فی ذلک مرض و لزم الفراش حتی مات بالجیزة فی عشیّة الأربعاء لإحدی عشرة خلت من شهر ربیع الأوّل سنة سبع و ثلثمائة، فغسّل و صلّی علیه و حمل حتی دفن بالقرافة.

و کانت ولایته علی مصر أربع سنین و شهرا واحدا. و تولّی تکین الحربیّ عوضه مصر إمرة ثانیة. و کان ذکا أمیرا شجاعا مقداما، و فیه ظلم و جور مع اعتقاد سیئ علی معرفة کانت فیه و عقل و تدبیر.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۰۳]

السنة الأولى من ولاية ذكاء الرومىّ على مصر، و هى سنة ثلاث و ثلثمائة- فيها ولد سيف الدولة على بن عبد اللّه بن حمدان. و فيها كاتب الوزير علىّ بن عيسى

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۸۸

القرامطة و أطلق لهم ما أرادوا من البيع و الشراء، فنسبه الناس الى موالاتهم، و ليس هو كذلك، و إنما قصد أن يتألّفهم خوفا على الحاجّ منهم. و فيها تواترت الأخبار أنّ الحسين بن حمدان قد خالف، و كان مؤنس الخادم مشغولا بحرب عسكر المهدىّ بمصر، فندب علىّ بن عيسى الوزير رائقا الكبير لمحاربته؛ فتوجّه إليه رائق بالعساكر و واقعه فهزمه ابن حمدان، فسار رائق إلى مؤنس الخادم و انضم عليه، و كان بين مؤنس و ابن حمدان خطوب و حروب. و فيها توفى أحمد [بن علىّ] بن شعيب بن علىّ ابن سنان بن بحر الحافظ أبو عبد الرّحمن القاضى النّسائىّ مصنّف السنن و غيرها من التصانيف، ولد سنة خمس عشرة و مائتين، و سمع الكثير، و رحل الى نيسابور و العراق و الشأم و مصر و الحجاز و الجزيرة؛ و روى عنه خلق و كان فيه تشيّع حسن.

قال أبو عبد اللّه بن مندة عن حمزة العقبىّ المصرىّ و غيره: إن النّسّائىّ خرج من مصر فى آخر عمره الى دمشق، فسئل بها عن معاوية و ما روى من فضائله؛ فقال:

أما يرضى [معاوية أن يخرج] رأسا برأس حتّى يفضّل! انتهى. و قال الدّارقطنىّ:

إنّه خرج حاجّا فامتحن بدمشق و أدرک الشهادة، فقال: احملونى الى مكّة، فحمل و توفّى بها، و هو مدفون بين الصفا و المروة؛ و كانت وفاته فى شعبان، و قيل فى وفاته غير ذلک: إنه مات بفلسطين فى صفر. و فيها توفّى جعفر بن أحمد بن نصر الحافظ أبو محمد النيسابورىّ الحصرىّ أحد أركان الحديث، كان ثقة عابدا صالحا.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۸۹

و فيها توفّى الحسن بن سفيان بن عامر بن عبد العزيز بن النعمان الشيبانىّ النّسوىّ الحافظ أبو العبّاس مصنّف المسند؛ تفقّه على أبى ثور إبراهيم بن خالد و كان يفتى على مذهبه، و سمع أحمد بن حنبل و يحيى بن معين و إسحاق بن إبراهيم الحنظلىّ و غيرهم. و فيها توفّى محمد بن عبد الوهاب بن سلّام أبو علىّ الجبّائىّ البصرىّ شيخ المعتزلة، كان رأسا فى علم الكلام و أخذ هذا العلم عن أبى يوسف يعقوب ابن عبد اللّه الشحّام البصرىّ، و له مقالات مشهورة و تصانيف، و أخذ عنه ابنه أبو هاشم و الشيخ أبو الحسن الأشعرىّ.

قال الذهبىّ: وجدت على ظهر كتاب عتيق: سمعت أبا عمرو يقول سمعت عشرة من أصحاب الجبّائىّ يحكون عنه، قال:

الحديث لأحمد بن حنبل، و الفقه لأصحاب أبى حنيفة، و الكلام للمعتزلة، و الكذب للرافضة. و فيها توفى رويم بن أحمد- و قيل: ابن محمد بن رويم- الشيخ أبو محمد الصوفىّ، قرأ القرآن و كان عارفا بمعانيه، و تفقّه على مذهب داود الظاهرىّ، و كان مجرّدا من الدنيا مشهورا بالزهد و الورع و الدّين. و فيها توفى علىّ بن محمد بن منصور ابن نصر بن بسّام البغدادىّ الشاعر المشهور، و كان شاعرا مجيدا، إلا أن غالب شعره كان فى الهجاء حتّى هجا نفسه و هجا أباه و إخوته و سائر أهل بيته، و كان يكنى أبا جعفر، فقال:

بنى أبو جعفر دارا فشيّدها و مثله لخيار الدّور بنّاء

فالجوع داخلها و الذلّ خارجها و فى جوانبها بؤس و ضرّاء

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۹۰

و له يهجو المتوكّل على اللّه لما هدم قبور العلويّين:

تاللّه إن كانت أميّة قد أتت قتل ابن بنت نبيّها مظلوما

فلقد أتاه بنو أبيه بمثله هذا لعمرك قبره مهدوما

و من شعره فى الزهد:

أقصرت عن طلب البطالة و الصّبا لمّا علانى للمشيب قناع

للّه أيّام الشباب و لهوه لو أنّ أيّام الشباب تباع

فدع الصّبا يا قلب و اسل عن الهوى ما فيك بعد مشيبك استمتاع

و انظر الى الدنيا بعين مودّع فلقد دنا سفر و حان و داع

[و الحادثات موكّلات بالفتى و الناس بعد الحادثات سماع]

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ستّ أذرع سواء. مبلغ الزيادة خمس عشرة ذراعا و ثمانى عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۰۴]

السنة الثانية من ولاية ذكا الرومىّ على مصر، و هى سنة أربع و ثلثمائة- فيها فى المحرّم عاد نصر الحاجب من الحجّ و معه العلوىّ الـذى قطع الطريق على ركب الحاجّ عام أوّل، فحبس فى المطبق. و فيها غزا مؤنس الخادم بلاد الروم من ناحية ملطية و فتح حصونا كثيرة و آثارا جميلة و عاد الى بغداد فخلع المقتدر عليه. و فيها وقع ببغداد حيوان يسمّى الزّبزب، و كان يرى فى الليل على السطوح، و كان يأكل أطفال

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۹۱

الناس، و ربّما قطع يد الإنسان و هو نائم و ثدى المرأة فيأكلهما، فكانوا يتحارسون طول الليل و لا ينامون و يضربون الصوانىّ و الهواوين ليفزعوه فيهرب، و ارتجّت بغداد من الجانبين و صنع الناس لاطفالهم مكابّ من السّعف يكبونها عليهم بالليل، و دام ذلك عدّة ليال. و فيها عزل المقتدر الوزير علىّ بن عيسى، و كان قد ثقل عليه أمر الوزارة و ضجر من سوء أدب الحاشية و استعفى غير مرّة؛ و لما عزله المقتدر لم يتعرّض له بسوء، و كانت وزارته ثلاث سنين و عشرة أشهر و ثمانية عشر يوما؛ و أعيد أبو الحسن بن الفرات الى الوزارة. و فيها توفّى زيادة اللّه بن عبد اللّه بن إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب الأمير أبو نصر، و قيل: أبو منصور، صاحب القيروان. قال الحميرىّ: يقال له زيادة اللّه الأصغر و جدّ جدّه زيادة اللّه الأكبر. و ردّ زيادة اللّه الى مصر منهزما من عبيد اللّه المهدىّ الخارجىّ فأكرم، و قيل: إنه مات فى برقة، و قيل: بالرملة. و فيها توفّى يموت ابن المزرّع بن يموت أبو بكر العبدى من عبد القيس، كان من البصرة ثم رحل عنها و نزل بغداد ثم قدم دمشق ثم سكن طبريّة، و كان حافظا ثقة محدّثا أخباريا. و فيها توفى يوسف بن الحسين بن علىّ الحافظ أبو يعقوب الرازىّ شيخ الرىّ و الجبال فى وقته، كان عالما زاهدا ورعا كبير الشأن.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ستّ أذرع سواء. مبلغ الزيادة خمس عشرة ذراعا و ثمانى عشرة إصبعا مثل الماضية.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۹۲

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۰۵]

السنة الثالثة من ولاية ذكا الرومىّ على مصر، و هى سنة خمس و ثلثمائة- فيها حجّ بالناس الفضل بن عبد الملك الهاشمىّ و هى تمام ستّ عشرة حجّة حجّها بالناس.

و فيها خلع الخليفة المقتدر على أبى الهيجاء عبد اللّه بن حمدان و إخوته خلعة الرضا.

و فيها قدمت رسل ملك الروم بهدايا تطلب عقد هدنة، فشحنت رحبات دار الخلافة و الدهاليز بالجند و السلاح، و فرشت سائر القصور بأحسن الفرش، ثم احضر الرسل و المقتدر على سريره و الوزير و مؤنس الخادم قائمان بالقرب منه. و ذكر الصّولىّ احتفال المقتدر بمجىء الرسل فقال: أقام المقتدر العساكر و صفّهم بالسلاح، و كانوا مائة و ستين ألفا، و أقامهم من باب الشمّاسيّة الى دار الخلافة، و بعدهم الغلمان و كانوا سبعة آلاف خادم و سبعمائة حاجب؛ ثم وصف أمرا مهولا قال: كانت الستور ثمانية و ثلاثين ألف ستر من الديباج، و من البسط اثنان و عشرون ألفا، و كان فى الدار مائة سبع فى السلاسل، ثم أدخلوا دار الشجرة و كان فى وسطها بركة و الشجرة فيها، و لها ثمانية عشر غصنا عليها الطيور المصوغة تصفر، ثم أدخلوا الى الفردوس و بها من الفرش ما لا يقوّم، و فى الدهاليز عشرة آلاف جوشن مذهّبة معلّقة و أشياء كثيرة يطول الشرح فى ذكرها. و فيها وردت هدايا صاحب عمان، فيها طير أسود يتكلّم بالفارسيّة و الهندية أفصح من الببّغاء، و ظباء سود. و فيها توفّى الأمير غريب خال الخليفة المقتدر بالله بعلّة الذّرب، كان محترما فى الدولة، و هو قاتل عبد اللّه بن المعتزّ حتّى قرّر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۹۳

جعفرا المقتدر. و فيها توفّى سليمان بن محمد بن أحمد أبو موسى النحوىّ كان يعرف بالحامض، و كان إماما فى النحو و غيره و له تصانيف كثيرة، منها ": خلق الانسان، "و "كتاب الوحوش و النبات، "و "غريب الحديث "و مات فى ذى الحجّة. و فيها توفّى عبد الصمد بن عبد اللّه القاضى أبو محمد القرشىّ قاضى دمشق، حدّث عن هشام ابن عمّار و غيره، و روى عنه أبو زرعة الدّمشقىّ و جماعة أخر. و فيها توفّى الفضل بن الحباب بن محمد بن شعيب أبو خليفة الجمحىّ البصرىّ، كان رحلة الآفاق فى زمانه، و اسم أبيه عمرو و لقبه الحباب، ولد سنة ستّ و مائتين، و كان محدّثا ثقة راوية للأخبار فصيحا مفوها أديبا.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و عشر أصابع. مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و إصبعان.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۰۶]

اشارة

السنة الرابعة من ولاية ذكا الرومىّ على مصر، و هى سنة ستّ و ثلثمائة- فيها فتح بيمارستان السيدة أمّ المقتدر ببغداد، و كان طبيبه سنان بن ثابت، و كان مبلغ النفقة فيه فى العام سبعة آلاف دينار. و فيها أمرت أمّ المقتدر ثمل القهرمانة أن تجلس بالتّربة التى بنتها بالرّصافة للمظالم و تنظر فى رقاع الناس فى كلّ يوم جمعة؛ فكانت

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۹۴

ثمل المذكورة تجلس و يحضر الفقهاء و القضاة و الأعيان و تبرز التواقيع و عليها خطّها.

و فيها حجّ بالناس الفضل بن عبد الملك الهاشمىّ؛ و قيل: أحمد بن العباس أخو أمّ موسى القهرمانة. و فيها توفّى أحمد بن عمر بن سريج القاضى أبو العبّاس البغدادىّ الفقيه العالم المشهور، قال الدارقطنىّ: كان فاضلا لولا ما أحدث فى الإسلام مسألة الدور فى الطلاق. و فيها توفّى أحمد بن يحيى الشيخ أبو عبد اللّه بن الجلّى أحد مشايخ الصوفيّة الكبار، صحب أباه و ذا النون المصرىّ و أبا تراب النّخشبىّ؛ قال الرّقىّ:

[لقيت نيّفا و ثلثمائة من المشايخ المشهورين فما لقيت أحدا بين يدى اللّه و هو يعلم أنه بين يدى اللّه أهيب من ابن الجلّى]. و فيها توفّى الأمير أبو عبد اللّه الحسين بن حمدان ابن حمدون التّغلبىّ عمّ السلطان سيف الدولة بن حمدان، كان معظّما فى الدول، ولّاه الخليفة المكتفى محاربة الطّولونيّة، ثم ولى حرب القرامطة فى أيام المقتدر؛ ثم ولى ديار ربيعة فغزا و افتتح حصونا و قتل خلقا من

الروم، ثم خالف و عصى على الخلافه فسار لحربه رائق الكبير فانكسر فتوجّه رائق إلى مؤنس الخادم و انضم إليه و عاد إليه

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۹۵

و قاتله حتى ظفر به و أسره و وجّهه الى الخليفة فحبسه الى أن قتل فی محبسه ببغداد؛ و كان من أجلّ الأمراء بأسا و شجاعة، و هو أوّل من ظهر أمره من ملوك بنی حمدان.

و فيها توفّی عبدان بن أحمد بن موسى بن زياد أبو محمد الأهوازیّ الجواليقیّ الحافظ، و كان اسمه عبد اللّه فخفّف بعبدان، و هو أحد من طاف البلاد فی طلب الحديث و سمع الكثير و صنّف التصانيف و رحل الناس إليه، و كان أحد الحفّاظ الأثبات.

و فيها توفّی محمد بن خلف بن حيّان بن صدقة أبو بكر القاضی الضّبّیّ و يعرف بوكيع، كان عالما نبيلا فصيحا عارفا بالسّير و أيام الناس، و له تصانيف كثيرة فی أخبار القضاء و عدد آيات القرآن و غير ذلك.

أمر النيل فی هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع سواء. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و تسع عشرة إصبعا.

ذكر ولاية تكين الثانية على مصر

ولاية الأمير تكين الثانية على مصر- وليها من قبل المقتدر بعد موت ذكا الرومیّ فی شهر ربيع الأوّل سنة سبع و ثلثمائة، و سار من بغداد الى مصر؛ و كان المقتدر قد جهّز جيشا الى مصر نجدة لذكا و على الجيش الأمير إبراهيم بن كيغلغ و الأمير محمود ابن جمل فدخلوا مصر قبل تكين فی شهر ربيع الأوّل المذكور؛ ثم دخل تكين بعدهم بمدّة فی حادی عشرين من شعبان من السنة؛ فلما وصل تكين الى مصر أقرّ على شرطته ابن طاهر، ثم تجهّز بسرعة و خرج من الديار المصريّة بجيوش مصر و العراق و نزل بالجيزة و حفر بها خندقا ثانيا غير الذی حفره ذكا قبل موته.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۹۶

و أمّا عسكر المغاربة فإنّ مقدّمة القائم ابن المهدیّ عبيد اللّه الفاطمیّ دخلت الإسكندريّة فی صفر هذه السنة، فاضطرب أهل مصر و لحق كثير منهم بالقلزم و الحجاز لا سيما لمّا مات ذكا؛ فلما قدم تكين هذا تراجع الناس. ثم إنّ تكين بلغه أنّ القائم محمدا قد اعتلّ بالإسكندريّة علّة صعبة و كثر المرض فی جنده فمات داود بن حباسة و وجوه من القوّاد؛ ثم تحاملوا و مشوا إلى جهة مصر، فاستمرّ تكين بمنزلته من الجيزة إلى أن أقبلت عساكر المهدیّ، فاستقبله المذكور فتقاتلا- قتالا شديدا انتصر فيه تكين و ظفر بالمراكب فی شوّال من السنة؛ و توجّهت عساكر المهدیّ إلى نحو الصعيد، و عاد تكين إلى مصر مؤيّدا منصورا، و دام بها إلى أن حضر إليها مؤنس الخادم فی نحو ثلاثة آلاف من عساكر العراق فی المحرّم سنة ثمان و ثلثمائة، و خرج تكين إلى الجيزة ثانيا و بعث ابن كيغلغ إلى الأشمونين لقتال عساكر المهدیّ (أعنی المغاربة) فتوجّه إليه ابن كيغلغ المذكور فمات بالبهنسا فی أوّل ذی القعدة. ثم بلغ تكين أنّ ابن المدينیّ القاضی و جماعة بمصر يدعون إلى المهدیّ، فأخذهم و ضرب أعناقهم و حبس أصحابه. و ملك أصحاب المهدیّ الفيّوم و جزيرة الأشمونين و عدّة بلاد، و ضعف أمر تكين عنهم؛ فقدم عليه نجدة ثانية من العراق عليها جنّیّ الخادم فی ذی الحجّة من السنة؛ خرج جنیّ أيضا بمن معه إلى الجزيرة؛ و توجّه الجميع لقتال عساكر المهدیّ، فكانت بينهم حروب و خطوب بالفيوم و الإسكندريّة، و طال ذلك بينهم أياما كثيرة إلى أن رجع أبو القاسم القائم محمد بن المهدیّ عبيد اللّه بعساكره إلى برقة.

و أقام تكين بعد ذلك مدّة، و صرفه مؤنس الخادم عن إمرة مصر فی يوم الأحد

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۹۷

لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأوّل من سنة تسع و ثلثمائة، و ولّی مكانه على مصر أبا قابوس محمود بن جمل؛ و كانت ولاية تكين هذه الثانية على مصر نحو السنة و سبعة أشهر تخمينا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۰۷]

السنة التی حکم فیها ذکا و فی آخرها تکین علی مصر، و هی سنة سبع و ثلثمائة- فیها اجدبت العراق فخرج أبو العباس أخو أمّ موسی القهرمانة و الناس معه فاستقبوا. و فیها خلع المقتدر علی نازوک الخادم و ولّاه دمشق. و فیها خلع المقتدر علی أبی منصور بن أبی دلف و ولّاه دیار بکر و سمیساط. و فیها دخلت القرامطة البصرة فنهبوها و قتلوا و سبوا. و فیها توفّی الفضل بن عبد الملک الهاشمیّ العباسیّ البغدادیّ بها، و کان صاحب الصلاة بمدینة السلام و أمیر مکّة و الموسم، و قد تقدّم ذکر أنه حجّ بالناس نحو العشرین سنة، و تولّی ابنه عمر مکانه، و کانت وفاته فی صفر.

و فیها توفّی أحمد بن علیّ بن المثنّی بن یحیی بن عیسی بن هلال أبو یعلی التمیمیّ الموصلیّ الحافظ صاحب المسند، ولد فی شوّال سنة عشرین و مائتین، و کان إماما عالما محدّثا فاضلا؛ وثّقه ابن حبّان و وصفه بالإتقان و الدّین، و قال: بینه و بین النّبیّ صلی اللّه علیه و سلم ثلاثة أنفس. و قال الحاکم: هو ثقة مأمون، سمعت أبا علیّ الحافظ یقول:

کان أبو یعلی لا یخفی علیه من حدیثه إلا الیسیر. و فیها توفّی علیّ بن سهل بن الأزهر

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۹۸

أبو الحسن الأصبهانیّ، کان أوّلا من أبناء الدنیا المترفین فتزهّد و خرج عما کان فیه، و کان یکاتب الجنید فیقول الجنید: ما أشبه کلامه بکلام الملائکة!.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم ثلاث أذرع و عشرون إصبعا. مبلغ الزیادة سبع عشرة ذراعا و تسع عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۰۸]

اشارة

السنة الثانیة من ولایة تکین الثانیة علی مصر، و هی سنة ثمان و ثلثمائة- فیها غلت الأسعار ببغداد و شغبت العامّة و وقع النهب، فرکبت الجند؛ و سبب ذلک ضمان حامد بن العباس السواد و تجدید المظالم لمّا ولی الوزارة، و قصدوا دار حامد فخرج الیهم غلمانه فحاربوهم و دام القتال بینهم أیاما و قتل منهم خلائق، ثم اجتمع من العامّة نحو عشرة آلاف، فأحرقوا الجسر و فتحوا السجون و نهبوا الناس، فرکب هارون [بن غریب] فی العساکر و رکب حامد بن العباس فی طیّار فرجموه، و اختلّت أحوال الدولة العبّاسیة و غلبت الفتن و محقت الخزائن. و فیها استولی عبید اللّه الملقّب بالمهدیّ الداعی علی بلاد المغرب و عظم أمره؛ و من یومئذ أخذ أمر عبید اللّه هذا فی إقبال،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۱۹۹

و أخذت الدولة العباسیّة فی إدبار. و فیها توفّی جعفر بن محمد بن جعفر بن الحسن ابن جعفر بن الحسن بن علیّ بن أبی طالب العلویّ، کان فاضلا ورعا، مات فی ذی القعدة. و فیها توفّی عبد اللّه بن ثابت بن یعقوب الشیخ أبو عبد اللّه التّوّزیّ (بزای معجمة) ولد سنة ثلاث و عشرین و مائتین، و سکن بغداد و مات غریبا بالرّملة، و کان فاضلا عالما. و فیها توفّی إمام جامع المنصور الشیخ محمد بن هارون بن العباس بن عیسی بن أبی جعفر المنصور بن محمد بن علی بن عبد اللّه بن العباس الهاشمیّ العباسیّ، کان معرقا فی النسب، أمّ بجامع المنصور خمسین سنة، و ولی ابنه جعفر بعده فعاش تسعة أشهر و مات. و فیها توفّیت میمونة بنت المعتضد بالله الهاشمیّة العباسیّة عمّة الخلیفة المقتدر، کانت من عظماء نساء عصرها.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم ستّ أذرع و عشرون إصبعا. مبلغ الزیادة سبع عشرة ذراعا و عشر أصابع.

ذکر ولایة أبی قابوس محمود علی مصر

هو محمود بن جمل أبو قابوس، ولّاه مؤنس الخادم إمرة مصر بعد عزل تکین عنها لأمر اقتضی ذلک فی یوم الأحد ثالث عشر شهر ربیع الأوّل سنة تسع و ثلثمائة، فلم ینجح أمره، و خالفت علیه جند مصر استصغارا له؛ فعزله مؤنس بعد ثلاثة أیّام فی یوم الثلاثاء لستّ عشرة خلت من شهر ربیع الأوّل المذکور؛ و عاد الأمیر

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۰۰

نکین علی إمرة مصر لثالث مرّة. و کانت ولایة محمود هذا علی مصر ثلاثة أیام، علی أنه لم یبتّ فیها أمراء قلت: و متی تفرّغ للنظر فی الأمور! فانه یوم لبس الخلعة جلس فیه للتهانیّ، و یوم عزل للتآسی؛ فإمرته علی هذا یوم واحد و هو یوم الاثنین، فما عسی [أن] یصنع فیه!. و کان مؤنس الخادم حضر إلی مصر فی عسکر من قبل الخلیفة المقتدر فی سنة ثمان و ثلثمائة، فصار یدبّر أمرها و یراجع الخلیفة.

ذکر ولایة تکین الثالثة علی مصر

و لما عزل مؤنس الخادم تکین هذا بأبی قابوس فی ثالث عشر شهر ربیع الأوّل سنة تسع و ثلثمائة بغیر جنحة عظم ذلک علی المصریین، فلم یلتفت مؤنس لذلک و ولّی أبا قابوس علی إمرة مصر عوضه، فکثر الکلام فی عزل تکین المذکور و ولایة أبی قابوس حتی أشیع بوقوع فتنة؛ و تکلّم الناس و أعیان مصر مع مؤنس الخادم فی أمر تکین و خوّفوه عاقبة ذلک و ألحّوا علیه فی عوده، فأذعن لهم بذلک و أعاده فی یوم الثلاثاء سادس عشرین شهر ربیع الأوّل علی رغمه حتی أصلح من أمره ما دبّره من أمر المصریین، و قرّر مع القوّاد ما أراده من عزل تکین المذکور عن إمرة مصر، و لا زال بهم حتی وافقه الجمیع؛ فلما رأی مؤنس أن الذی رامه تمّ له عزله بعد أربعة أیام من ولایته، و ذلک فی یوم تاسع عشرین شهر ربیع الأوّل و هو یوم سلخه من سنة تسع و ثلثمائة. ثم بدا لمؤنس إخراج تکین هذا من الدیار المصریّة خوف الفتنة، فأخرجه منها إلی الشأم فی أربعة آلاف من أهل الدیوان؛ و بعث مؤنس إلی الخلیفة یعرّفه بما فعل؛ فلما بلغ الخلیفة ذلک ولّی علی مصر الأمیر هلال آبن بدر الآتی ذکره، و أرسله إلی الدّیار المصریه.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۰۱

ذکر ولایة هلال بن بدر علی مصر

هو هلال بن بدر الأمیر أبو الحسن؛ ولی إمرة مصر بعد عزل تکین عنها فی شهر ربیع الآخر- أعنی من دخوله إلی مصر؛ فإنه قدمها فی یوم الاثنین لسّت خلون من شهر ربیع الآخر من سنة تسع و ثلثمائة، ولّاه الخلیفة المقتدر علی الصلاة.

و لما دخل إلی مصر أقرّ ابن طاهر علی الشّرطة ثم صرفه بعد مدّة بعلیّ بن فارس.

و کان هلال هذا لما قدم إلی مصر جاء معه کتاب الخلیفة المقتدر لمؤنس بخروجه من مصر وعوده إلی بغداد، فلما وقف مؤنس علی کتاب الخلیفة تجهّز و خرج من الدیار المصریّة بعساکر العراق و معه محمود بن جمل الذی کان ولی مصر. و کان خروج مؤنس من مصرفی یوم ثامن عشر شهر ربیع الآخر من سنة تسع و ثلثمائة المذکورة.

و أقام هلال بن بدر المذکور علی إمرة مصر و أحوالها مضطربة إلی أن خرج علیه جماعة من المصریین و أجمعوا علی قتاله، و تشغّبت الجند أیضا و وافقوهم علی حربه، و انضمّ الجمیع بمن معهم و خرجوا من الدیار المصریة إلی منیة الأصبغ و معهم الأمیر محمد بن طاهر صاحب الشرطة. و لمّا بلغ هلالا هذا أمرهم تهیّأ و تجهّز لقتالهم، و جمع من بقی من جند مصر و طلب المقاتلة و أنفق فیهم و ضمّهم إلیه و جهّزهم، ثم خرج بهم و حواشیه إلی أن وافاهم و قاتلهم أیاما عدیدة؛ و طال الأمر فیما بینه و بینهم، و وقع له

معهم حروب، و کثر القتل و النهب بینهم، و فشا الفساد و قطع الطریق بالدیار المصریة؛ فعظم ذلک علی أهل مصر، لا سیما الرعیّة. و ضعف ابن هلال هذا عن إصلاح أحوال مصر، فصار کلّما سدّ أمرا انخرق علیه آخر؛ فکانت أیامه علی مصر شرّ أیام. و لما تفاقم الأمر عزله الخلیفة المقتدر بالله جعفر عن إمرة مصر بالأمیر

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۰۲

أحمد بن کیغلغ. فکانت ولایة هلال المذکور علی مصر سنتین و أیاما، قاسی فیها خطوبا و حروبا و وقائع و فتنا، إلی أن خلص منها کفافا لا له و لا علیه.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۰۹]

السنة التی حکم فی أوّلها تکین إلی ثالث عشر شهر ربیع الأوّل، ثم أبو قابوس محمود ثلاثة أیام، ثم تکین المذکور أربعة أیام، ثم هلال بن بدر إلی آخرها، و هی سنة تسع و ثلثمائة- فیها کانت مقتلة الحلّاج و اسمه الحسین بن منصور بن محمّی أبو مغیث، و قیل: أبو عبد اللّه، الحلّاج. کان جدّه محمّی مجوسیّا فأسلم. و نشأ الحلّاج بواسط، و قیل: بتستر، و تلمذ لسهل بن عبد اللّه التستریّ، ثم قدم بغداد و خالط الصوفیّة و لقی الجنید و النّوریّ و ابن عطاء و غیرهم. و کان فی وقت یلبس المسوح و فی وقت الثیاب المصبّغة و فی وقت الأقبیة. و اختلفوا فی تسمیته بالحلّاج، قیل: إن أباه کان حلّاجا، و قیل: إنه تکلّم علی الناس [و علی ما فی قلوبهم] فقالوا: هذا حلّاج الأسرار، و قیل: إنه مرّ علی حلّاج فبعثه فی شغل له فلما عاد الرجل وجده قد حلّج کلّ قطن فی الدکان. و قد دخل الحلّاج الهند و أکثر الأسفار و جاور بمکة سنین، ثم وقع له أمور یطول شرحها، و تکلّم فی اعتقاده بأقوال کثیرة حتی اتفقوا علی زندقته، و اللّه أعلم بحاله. و کان قد حبس فی سنة إحدی و ثلثمائة فأخرج فی هذه السنة من الحبس فی یوم الثلاثاء لثلاث بقین من ذی القعدة، و قیل: لستّ بقین منه، فضرب

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۰۳

ألف سوط ثم قطعت أربعته ثم حزّ رأسه و أحرقت جثّته، و نصب رأسه علی الجسر أیاما، ثم أرسل إلی خراسان فطیف به. و فیها وقع بین أبی جعفر محمد بن جریر الطبریّ و بین السادة الحنابلة کلام، فحضر أبو جعفر عند الوزیر علیّ بن عیسی لمناظرتهم و لم یحضروا. و فیها قدم مؤذن؟؟؟ الخادم علی الخلیفة من مصر فخلع علیه و لقّبه بالمظفّر.

قلت: و هذا أوّل لقب سمعناه من ألقاب ملوک زماننا. و فیها توفی محمد بن خلف بن المرزبان بن بسّام أبو بکر المحوّلیّ- و المحوّل: قریة غربیّ بغداد- کان إماما عالما، و له التصانیف الحسان، و هو مصنّف کتاب "تفضیل الکلاب علی کثیر ممن لبس الثیاب، "و حدّث عن الزبیر بن بکّار و غیره، و روی عنه ابن الأنباریّ و غیره، و کان صدوقا ثقة. و فیها توفی محمد بن [أحمد بن] راشد بن معدان الحافظ أبو بکر الثقفیّ مولاهم، کان حفّاظا محدّثا، طاف البلاد و لقی الشیوخ و صنّف الکتب، و مات بشروان.

الذین ذکر الذهبیّ وفاتهم فی هذه السنة، قال: و فیها توفّی أحمد بن أنس ابن مالک الدمشقیّ، و أبو عمرو أحمد بن نصر الخفّاف الزاهد، و علی بن سعید بن بشیر

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۰۴

الرازیّ، و محمد بن حامد بن سریّ یعرف بخال السّنّیّ، و محمد بن یزید بن عبد الصمد، و ممشاد الدّینوریّ الزاهد.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم ثلاث أذرع و ثلاث عشرة إصبعا.

مبلغ الزیادة سبع عشرة ذراعا و ثلاث أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۱۰]

اشارة

السنة الثانية من ولاية هلال بن بدر على مصر، و هى سنة عشر و ثلثمائة- فيها قبض الخليفة المقتدر على أمّ موسى القهرمانة و صادر أخاها و حواشيها و أهلها؛ و سبب ذلك أنّها زوّجت بنت أخيها أبى بكر أحمد بن العباس من أبى العباس محمد بن إسحاق بن المتوكّل على اللّه، و كان من سادة بنى العباس يترشّح للخلافة، فتمكّن أعداؤها من السعى عليها، و كانت قد أسرفت بالمال فى جهازها، و بلغ المقتدر أنها تعمل له على الخلافة؛ فكاشفتها السيدة أمّ المقتدر و قالت: قد دبرّث على ولدى و صاهرت ابن المتوكّل حتى تقعديه فى الخلافة؛ فسلّمتها الى ثمل القهرمانة و معها أخوها و أختها، و كانت ثمل مشهورة بالشرّ و قساوة القلب، فبسطت عليهم العذاب و استخرجت منهم الأموال و الجوهر؛ يقال: إنه حصّل من جهتهم ما مقداره ألف ألف دينار. و فيها قلّد الخليفة المقتدر نازوك الشّرطة بمدينة السلام مكان محمد بن

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۰۵

عبد اللّه بن طاهر. و فيها توفّى بدر [بن عبد اللّه] الحمامىّ الكبير أبو النجم المعتضدىّ، كان أوّلا مع ابن طولون فولّاه الأعمال الجليلة، ثم جهّزه خمارويه إلى الشأم لقتال القرمطىّ فواقعه و قتله، ثم ولى من قبل الخلفاء أصبهان و غيرها إلى أن مات على عمل مدينة فارس، و كان أميرا ديّنا شجاعا و جوادا محبّا للعلماء و الفقراء؛ و قيل: إنّه كان مستجاب الدعوة؛ و لما مات ولّى المقتدر مكانه ابنه محمّدا. و فيها توفّى محمد بن جرير ابن يزيد بن كثير بن غالب أبو جعفر الطبرىّ العالم المشهور صاحب التاريخ و غيره، مولده فى آخر سنة أربع و عشرين و مائتين أو أوّل سنة خمس و عشرين و مائتين، و هو أحد أئمة العلم، يحكم بقوله و يرجع إلى رأيه، و كان متفنّنا فى علوم كثيرة، و كان واحد عصره؛ و كانت وفاته فى شوّال بخراسان، و أصله من مدينة طبرستان. قال أبو بكر الخطيب: «جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره، فكان حافظا لكتاب اللّه، بصيرا بالمعانى، فقيها فى أحكام القرآن، عالما بالسنن و طرقها، صحيحها و سقيمها، ناسخها و منسوخها، عارفا بأقوال الصحابة و التابعين، بصيرا بأيّام الناس و أخبارهم؛ له الكتاب المشهور فى تاريخ الأمم، و كتاب التفسير، و كتاب تهذيب الآثار لكن لم يتمّه؛ و له فى الأصول و الفروع كتب كثيرة». انتهى. و فيها توفّى أحمد بن يحيى بن زهير أبو جعفر التسترىّ الحافظ الزاهد، سمع الكثير و حدّث و روى عنه خلق كثير. قال الحافظ أبو عبد اللّه بن منده: ما رأيت فى الدنيا أحفظ من أبى جعفر التسترىّ؛ و قال التسترىّ: ما رأيت فى الدنيا أحفظ من أبى زرعة الرازىّ؛ و قال أبو زرعة: ما رأيت فى الدنيا أحفظ من أبى بكر بن أبى شيبة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۰۶

الذين ذكر الذهبى وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى إسحاق بن إبراهيم ابن محمد بن حنبل الأصبهانىّ، و أبو شيبة داود بن إبراهيم، و على بن عبّاس المقانعىّ البجلىّ، و محمد بن أحمد بن حمّاد أبو بشر الدّولابىّ فى ذى القعدة، و أبو جعفر محمد ابن جرير الطبرىّ فى شوّال، و له أربع و ثمانون سنة، و أبو عمران موسى بن جرير الرّقّىّ، و الوليد بن أبان أبو العباس الأصبهانىّ.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و إحدى و عشرون إصبعا. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و تسع أصابع.

ذكر ولاية أحمد بن كيغلغ الأولى على مصر

هو أحمد بن كيغلغ الأمير أبو العبّاس؛ ولّاه المقتدر إمرة مصر بعد عزل هلال ابن بدر عنها فى شهر ربيع الآخر سنة إحدى عشرة و ثلثمائة؛ فلما وليها قدم ابنه العباس خليفته على مصر، فدخلها العباس المذكور فى مستهلّ جمادى الأولى من سنة إحدى عشرة و ثلثمائة، فأقرّ ابن منجور على الشرطة، ثم قدم أحمد بن كيغلغ إلى مصر و معه محمد بن الحسين بن عبد الوهاب الماذرائىّ على

الخراج؛ و لما دخلا إلى مصر أحضرا الجند و وضعا العطاء لهم، و أسقطا كثيرا من الرّجالة، و كان ذلك بمنية الأصبغ، فثار الرجّالة، ففرّ أحمد بن كيغلغ منهم الى فاقوس، و هرب الماذرائيّ و دخل المدينة لثمان خلون من شوّال. و أما الأمير أحمد بن كيغلغ هذا فإنه أقام بفاقوس الى أن صرف عن إمرة مصر بتكين فى ثالث ذى القعدة سنة إحدى عشرة و ثلثمائة؛ فكانت ولايته على مصر نحوا من سبعة أشهر؛ و تولّى تكين مصر عوضه و هى ولايته الرابعة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۰۷

على مصر. و شقّ ذلک على الخليفة. غير أنه أطاع الجند و أرضاهم و استمالهم مخافة من عساكر المهدىّ الفاطمىّ؛ فإن عساكره تداول تحكّمهم الى نحو الديار المصريّة فى كلّ قليل؛ و صار أمير مصر فى حصر من أجل ذلك و هو محتاج الى الجند و غيرهم، لأجل القتال و الدفع عن الديار المصريّة. قلت: و يأتى بقيّة ترجمة أحمد بن كيغلغ هذا فى ولايته الثانية على مصر إن شاء اللّه تعالى.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۱۱]

اشارة

السنة التى حكم فى غالبها الأمير أحمد بن كيغلغ على مصر، و هى سنة إحدى عشرة و ثلثمائة- فيها صرف أبو عبيد بن حربويه عن قضاء مصر و تأسّف الناس عليه و فرح هو بالعزل و انشرح له؛ و ولى قضاء مصر بعده أبو يحيى عبد اللّه بن إبراهيم ابن مكرم. و فى هذه السنة ظهر شاكر الزاهد صاحب حسين الحلّاج و كان من أهل بغداد. قال السّلمىّ فى تاريخ الصوفيّة: شاكر خادم الحلّاج كان متّهما مثل الحلّاج، ثم حكى عنه حكايات إلى أن قتل و ضربت رقبته بباب الطاق. و فيها صرف المقتدر حامد بن العبّاس عن الوزارة، و علىّ بن عيسى عن الديوان؛ و كانت ولايتهما أربع سنين و عشرة أشهر و أربعة عشر يوما. و استوزر المقتدر أبا الحسن علىّ بن محمد بن الفرات الثالثة فى يوم الخميس لسبع بقين من شهر ربيع الآخر؛ و هذه ولاية ابن الفرات الثالثة للوزارة. و فيها نكب الوزير أبو الحسن بن الفرات المذكور أبا علىّ بن مقلة كاتب حامد بن العبّاس و ضيّق عليه. و ابن مقلة هذا هو صاحب الخطّ المنسوب [إليه]، يأتى ذكره إن شاء اللّه تعالى فى محلّه. و فيها دخل أبو طاهر سليمان بن

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۰۸

الحسن الجنّابىّ القرمطىّ الى البصرة و وضع السيف فى أهلها و أحرق البلد و الجامع و مسجد طلحة و هرب الناس و ألقوا بأنفسهم فى الماء فغرق معظمهم. و فيها توفّى ابراهيم بن السّرىّ بن سهل أبو إسحاق الزجّاج الإمام الفاضل مصنّف "كتاب معانى القرآن "و" الاشتقاق "و "القوافى و العروض "و "فعلت و أفعلت "و مختصرا فى النحو، و غير ذلك. و فيها توفّى الوزير الأمير حامد بن العبّاس، كان أوّلا على نظر فارس و أضيف إليها البصرة، ثم آل أمره إلى أن طلب و ولّى الوزارة للمقتدر؛ و كان كثير الأموال و الحشم بحيث إنه كان له أربعمائة مملوك يحملون السلاح و فيهم جماعة أمراء؛ كان جوادا ممدّحا كريما، غير أنه كان فيه شراسة خلق، و كان ينتصب فى بيته كلّ يوم عدّة موائد و يطعم كلّ من حضر إلى بيته حتى العامة و الغلمان، فيكون فى بعض الأيام أربعون مائدة. و رأى يوما فى دهليزه قشر باقلاء، فأحضر وكيله و قال له: ويحك! يؤكل فى دارى باقلاء! فقال: هذا فعل البوّابين؛ فقال: أو ليست لهم جراية لحم؟ قال: بلى؛ [فقال: سلهم عن السبب؛ فسألهم] فقالوا: لا- نتهنّا بأكل اللحم دون عيالنا فنحن نبعثه إليهم و نجوع بالغداة فنأكل الباقلاء؛ فأمر أن يجرى عليهم لحم لعيالهم. و قيل: إنه ركب قبل الوزارة بواسط إلى بستان له فرأى شيخا يولول و حوله نساء و صبيان يبكون، فسأل حامد عن خبرهم؛ فقيل له: احترق منزله و قماشه فافتقر؛ فرقّ له حامد و طلب وكيله و قال له: أريد منك أن تضمن لى ألّا أرجع عشيّة من النزهة إلّا و داره كما كانت مجصّصة، و بها المتاع و القماش و النّحاس كما كانت، و تبتاع له و لعياله كسوة الشتاء

و الصيف مثل ما كانوا؛ فأسرع فى طلب الصّنّاع و بادروا فى العمل، و صبّ الدراهم و أضعف الأجر حتى فرغوا من

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۰۹

الجميع بعد العصر، فلما ردّ حامد وقت العتمة شاهدها مفروغا منها بآلاتها و أمتعتها الجدد، و ازدحم الناس يتفرّجون و ضجّوا لحامد بالدعاء؛ و نال التاجر من المال فوق ما ذهب له، ثم زاده بعد ذلك كلّه خمسة آلاف درهم ليقوّى بها تجارته. و فيها توفّى محمد بن إسحاق بن خزيمة بن المغيرة بن صالح بن بكر السّلمىّ النيسابورىّ الحافظ أبو بكر، ولد فى صفر سنة ثلاث و عشرين و مائتين. قال الدارقطنى: كان ابن خزيمة إماما ثبتا معدوم النظير. توفّى ثانى ذى القعدة. و فيها توفّى محمد بن زكريا أبو بكر الرازىّ الطبيب العلّامة فى علم الأوائل و صاحب المصنّفات المشهورة، مات ببغداد و قد انتهت إليه الرياسة فى فنون من العلوم، و كان فى صباه مغنّيا [يضرب] بالعود.

قيل: إنه لما ترك الضرب بالعود و الغناء قيل له فى ذلك؛ فقال: كل غناء يطلع بين شارب و لحية لا يستحسن.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أحمد بن محمد بن هارون أبو بكر الخلّال الحنبلىّ، و إبراهيم بن السّرىّ أبو إسحاق الزجّاج فى جمادى الآخرة، و حمّاد بن شاكر النسفىّ، و عبد اللّه بن إسحاق المدائنىّ، و أبو حفص عمر بن محمد ابن بجير السّمرقندىّ، و أبو بكر بن إسحاق بن خزيمة السّلمىّ فى ذى القعدة، و محمد ابن زكريا الرازىّ الطبيب.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و إحدى و عشرون إصبعا. مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و ثلاث عشرة إصبعا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۱۰

ذكر ولاية تكين الرابعة على مصر

قد تقدّم ذكره فى ولايته على مصر، و أنه صرف عن إمرة مصر فى النّوبة الثالثة بهلال بن بدر، ثم ولى بعد هلال بن بدر الأمير ابن كيغلغ؛ فلما وقع لابن كيغلغ ما وقع من خروج جند مصر عليه و اضطربت أحوال الديار المصرية و بلغ الخليفة المقتدر ذلك صرف ابن كيغلغ و أعاد تكين هذا على إمرة مصر رابع مرّة.

و وصل رسول تكين هذا إلى مصر بإمرته يوم الخميس لثلاث خلون من ذى القعدة سنة إحدى عشرة و ثلثمائة؛ و خلفه ابن منجور على الصلاة إلى أن قدم مصر فى يوم عاشوراء من سنة اثنتى عشرة و ثلثمائة، فأقرّ ابن منجور على الشّرطة ثم عزله، و ولى قرا تكين، ثم عزل قراتكين و ولّى وصيفا الكاتب، ثم عزله أيضا و ولّى بجكم الأعور؛ كلّ ذلك من اضطراب المصريّين، حتى مهّد أمور الديار المصريّة و تمكّن [و] أسقط كثيرا من الجند و كانوا أهل شرّ و نهب و نفاق؛ ثم نادى ببراءة الذمّة ممن أقام منهم بالديار المصريّة بعد ذلك؛ فخرج الجميع على حميّة و أجمعوا على قتله؛ فتهيأ تكين أيضا لقتالهم و جمع العساكر؛ و صلّى الجمعة بدار الإمارة بالعسكر و ترك حضور الجماعة خوفا من وقوع فتنة؛ و لم يصلّ قبله أحد من الأمراء بدار الإمارة الجمعة؛ و أنكر عليه أبو الحسن علىّ بن محمد الدّينورىّ ذلك و أشياء أخر؛ و بلغ تكين ذلك فأمر بإخراج الدينورىّ من مصر إلى القدس فخرج منها؛ و لم يقع له مع الجند ما راموا من القتال. و أخذ فى تمهيد مصر إلى أن حسن حالها و تمكّنت

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۱۱

قدمه فيها و رسخت، حتى ورد عليه الخبر بموت الخليفة المقتدر فى شوّال سنة عشرين و ثلثمائة، و بويع بالخلافة من بعده أخوه القاهر باللّه محمد؛ فأقرّ القاهر تكين هذا على عمله بمصر و أرسل إليه بالخلع؛ و دام تكين على ذلك حتى مرض و مات بها فى يوم السبت لستّ عشرة خلت من شهر ربيع الأوّل سنة إحدى و عشرين و ثلثمائة، و حمل فى تابوت الى بيت المقدس فدفن به. و تولّى مصر بعده محمد بن طغج.

و كانت ولاية تكين هذه المرّة على مصر تسع سنين و شهرين و خمسة أيام. و كان تكين المذكور يعرف بتكين الخاصّة و بالخزرىّ،

و کان أمیرا عاقلا شجاعا عارفا مدبّرا، ولی الأعمال الجلیلة، و ظالت أیّامه فی السعادة، و کان عنده سیاسة و دربة بالأمور و معرفة بالحروب. رضی اللّه عنه.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۱۲]

السنة الأولى من ولایة تکین الرابعة علی مصر، و هی سنة اثنتی عشرة و ثلثمائة- فیها حجّ بالناس الحسن بن عبد العزیز الهاشمیّ. و فیها عارض أبو طاهر بن أبی سعید الجنّابیّ القرمطیّ الحاجّ و هو فی ألف فارس و ألف راجل، و کان من جملة الحجّاج أبو الهیجاء عبد اللّه بن حمدان و أحمد بن بدر عمّ السیدة أمّ المقتدر، و شقیق خادمها و جماعة من الأعیان؛ فأسر القرمطیّ الجمیع و أخذ جمیع أموال الحاجّ، و سار بهم الی

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۱۲

هجر؛ ثم بعد أشهر أطلق القرمطیّ أبا الهیجاء عبد اللّه بن حمدان المذکور. و فیها أرسل القرمطیّ المقدّم ذکره یطلب من المقتدر البصرة و الأهواز. و ذکر ابن حمدان أنّ القرمطیّ قتل من الحاجّ من الرجال ألفین و مائتین و من النساء ثلثمائة، و بقی عنده بهجر ألفان و مائتا رجل و خمسمائة امرأة. و فیها فتحت فرغانة علی ید أمیر خراسان.

و فیها أطلق أبو نصر و أبو عبد اللّه ولدا أبی الحسن بن الفرات و خلع علیهما؛ و قد وزّر أبوهما ابن الفرات ثالث مرّة، و ملک من المال ما یزید علی عشرة آلاف ألف دینار، و أودع المال عند وجوه بغداد؛ و کان جبّارا فاتکا، و فیه کرم و سیاسة، و مات فی هذه السنة. و فیها توفّیت فاطمة بنت عبد الرّحمن ابن أبی صالح الشیخة أمّ محمد الصوفیّة، کانت من الصالحات المتعبّدات، طال عمرها حتی جاوزت الثمانین، و لقیت جماعة کثیرة من مشایخ القوم، و کان لها أحوال و کرامات. و فیها توفّی محمد بن محمد بن سلیمان بن الحارث الحافظ أبو بکر الواسطیّ المعروف بالباغندیّ، سمع علیّ بن المدینی و محمد بن عبد اللّه بن نمیر و شیبان بن فرّوخ و غیرهم بمصر و الشام و العراق، و عنی بشأن الحدیث أتمّ عنایة، و روی عنه دعلج و محمد بن المظفّر و عمر بن شاهین و أبو بکر بن المقریّ و خلق کثیر. قال أبو بکر الأبهریّ و غیره سمعنا أبا بکر الباغندیّ یقول: أجبت فی ثلثمائة ألف مسئلة فی حدیث

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۱۳

النبی صلی اللّه علیه و سلم. و قال الدارقطنی: کان کثیر التدلیس یحدّث بما لم یسمع.

و مات فی ذی الحجّة.

الذین ذکر الذهبیّ وفاتهم فی هذه السنة، قال: و فیها توفّی أبو الحسن علیّ ابن محمد بن موسی بن الفرات الوزیر، و أبو بکر محمد بن محمد بن سلیمان الباغندیّ، و أبو بکر محمد بن هارون بن المجدّر.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم خمس أذرع و سبع أصابع. مبلغ الزیادة ثمانی عشرة ذراعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۱۳]

السنة الثانیة من ولایة تکین الرابعة علی مصر، و هی سنة ثلاث عشرة و ثلثمائة- فیها سار الحاجّ من بغداد و معهم جعفر بن ورقاء فی ألف فارس، فلقیهم القرمطیّ فناوشهم بالحرب، فرجع الناس الی بغداد، و نزل القرمطیّ علی الکوفة، فقاتلوه فغلبهم و دخل البلد و نهب ما لا- یحصی؛ فندب المقتدر مؤنسا الخادم لحرب القرمطیّ، و جهّزه بألف ألف دینار. و فیها عزل المقتدر أبا القاسم الخاقانیّ الوزیر عن الوزارة؛ فکانت وزارته [سنة و] ستة أشهر؛ و استوزر أحمد ابن عبید اللّه بن أحمد بن الخصیب، فسلّم إلیه الخاقانیّ،

فصادره و کتّابه و أخذ أموالهم. و فیها کان الرّطب کثیرا ببغداد حتی أبیع کلّ ثمانیة أرطال بحبّة. و فیها قدم مصر علیّ بن عیسی الوزیر من مکّة لیکشفها و خرج بعد ثلاثة أشهر للرملة.

و فیها عزل عن قضاء مصر عبد اللّه بن ابراهیم [بن محمد] بن مکرم بهارون [بن إبراهیم] بن حمّاد القاضی من قبل المقتدر. و فیها توفّی علیّ بن عبد الحمید [بن عبد اللّه

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۱۴

ابن سلیمان] بن سلیمان أبو الحسن الغضائریّ نزیل حلب، کان صالحا زاهدا، حجّ أربعین حجّة علی أقدامه؛ قال: طرقت باب السّریّ السّقطیّ فسمعته یقول:

«اللهمّ اشغل من شغلنی عنک بک» [قال فنالنی برکة هذه الدعوة فحججت علی قدمی من حلب الی مکّة أربعین سنة ذاهبا و آئبا]. و فیها توفّی علیّ بن محمد بن بشّار الشیخ أبو الحسن الزاهد العابد البغدادیّ صاحب الکرامات، کان من الأبدال، کان یتکلّم و یعظ الناس و کان لکلامه تأثیر فی القلوب؛ و کانت وفاته ببغداد و دفن غربیّها، و قبره هناک یقصد للزیارة. و فیها توفّی محمد بن إسحاق بن إبراهیم الثّقفیّ مولاهم النّیسابوریّ الحافظ أبو العبّاس السّراج محدّث خراسان و مسندها. قال أبو إسحاق المزکّی سمعته یقول: «ختمت عن رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم اثنتی عشرة ألف ختمة، و ضحّیت عنه اثنتی عشرة ألف ضحیّة». قال محمد بن أحمد الدقّاق:

رأیت السّراج یضحّی فی کل أسبوع أو أسبوعین أضحیة عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم، ثم یصیح بأصحاب الحدیث فیأکلون. و قال الحاکم: سمعت أبی یقول: لمّا ورد الزعفرانیّ و أظهر خلق القرآن سمعت السّراج غیر مرّة إذا مرّ بالسوق یقول:

«العنوا الزعفرانیّ»؛ فیصیح الناس بلعنه، حتی ضیّق علیه نیسابور و خرج الی بخاری. و کانت وفاة السّراج فی شهر ربیع الآخر، و له سبع و تسعون سنة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۱۵

الذین ذکر الذهبیّ وفاتهم فی هذه السنة، قال: و فیها توفّی أبو العباس أحمد ابن محمد الماسرجسیّ، و عبد اللّه بن زیدان بن یزید البجلیّ، و علی بن عبد الحمید الغضائریّ، و أبو لبید محمد بن إدریس الشامیّ السّرخسیّ، و محمد بن إسحاق أبو العباس السّراج فی [شهر] ربیع الآخر و له سبع و تسعون سنة، و أبو قریش محمد ابن جمعة القوهستانیّ.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم ستّ أذرع و ثلاث أصابع. مبلغ الزیادة سبع عشرة ذراعا و خمس أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۱۴]

السنة الثالثة من ولایة تکین الرابعة علی مصر، و هی سنة أربع عشرة و ثلثمائة- فیها جمدت دجلة بالموصل و عبرت علیها الدوابّ، و هذا لم یعهد مثله، و سقطت ثلوج کثیرة ببغداد. و فیها نزح أهل مکّة عنها خوفا من القرمطیّ، و لم یحجّ الرّکب العراقیّ فی هذین العامین. و فیها دخلت الروم ملطیة بالسیف فقتلوا و سبوا و بقوا فیها أیّاما. و فیها ردّ حجّاج خراسان خوفا من القرمطیّ. و فیها قبض المقتدر علی الوزیر ابن الخصیب لاشتغاله باللهو و اختلال الدولة، فأحضر الوزیر علیّ بن عیسی فأعید الی الوزارة. و فیها فی شهر رمضان هبّت ریح عظیمة فقلعت شجر نصیبین و هدمت دورها. و فیها توفّی الحسین بن أحمد بن رستم أبو علیّ الکاتب، و یعرف بأبی زنبور الماذرائی، کان من کبار آل طولون، و کان من الفضلاء، أحضره

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۱۶

المقتدر لمناظرة ابن الفرات، ثم قلّده خراج مصر، ثم سخط علیه و أحضره الی بغداد و أخذ خطّه بثلاثة آلاف ألف دینار و ستمائة

ألف دينار؛ ثم أخرج الى مصر مع مؤنس الخادم فمات بدمشق؛ كان فاضلا كاتبا، حدّث عن أبى حفص العطّار و غيره و حدّث عنه الدارقطنىّ. و فيها توفّى نصر بن القاسم [بن نصر] بن زيد الشيخ الإمام أبو الليث الحنفىّ، كان عالما فقيها دينّا إماما فى الفرائض جليلا نبيلا ثقة ثبتا، حدّث عن القواريرىّ و غيره، و روى عنه ابن شاهين و جماعة؛ و له مصنّفات كثيرة.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أبو بكر أحمد بن محمد بن عمر القرشىّ المنكدرىّ، و محمد بن محمد بن [عبد اللّه] النفّاح الباهلىّ، و محمد ابن يحيى [بن عمر] بن لبابة القرطبىّ، و أبو الليث نصر بن القاسم الفرائضىّ.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و إصبع واحدة.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و خمس أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۱۵]

السنة الرابعة من ولاية تكين الرابعة على مصر، و هى سنة خمس عشرة و ثلثمائة- فيها ظهرت الدّيلم على الرىّ و الجبال؛ و أوّل من غلب منهم لنكى بن النعمان، فقتل من أهل الجبال مقتلة عظيمة و ذبح الأطفال فى المهد؛ ثم غلب على قزوين أسفار بن

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۱۷

شيرويه و ألزم أهلها مالا؛ و كان له قائد يسمى مرداويج، فوثب على أسفار المذكور و قتله و ملك البلاد مكانه، و أساء السيرة بأصبهان، و جلس على سرير من ذهب و قال:

أنا سليمان بن داود و هؤلاء الشياطين أعوانى. و كان مع هذا سيّئ السيرة فى أصحابه؛ فدخل الحمّام يوما فدخل عليه أصحابه الأتراك فقتلوه و نهبوا خزائنه، و مشى الدّيلم بأجمعهم حفاة تحت تابوته أربعة فراسخ. و فيها جاء أبو طاهر القرمطىّ فى ألف فارس و خمسة آلاف راجل؛ فجهّز المقتدر لحربه يوسف بن أبى الساج فى عشرين ألف فارس و راجل. فلما رآه يوسف احتقره، ثم تقاتلا فكان بينهم مقتلة عظيمة لم يقع فى هذه السنين مثلها، أسر فيها يوسف بن أبى الساج جريحا و قتل فيها جماعة كثيرة من أصحابه. و بلغ المقتدر فانزعج و عزم على النّقلة الى شرقىّ بغداد.

و خرج مؤنس بالعساكر الى الأنبار فى أربعين ألفا، و انضم إليه أبو الهيجاء عبد اللّه ابن حمدان و إخوته: أبو الوليد و أبو العلاء و أبو السّرايا فى أصحابهم و أعوانهم.

و تقدّم نصر الحاجب، فأشار أبو الهيجاء على مؤنس بقطع القنطرة، فتثاقل مؤنس عن قطعها؛ فقال له أبو الهيجاء: أيها الأستاذ، اقطعها و اقطع لحيتى معها فقطعها.

ثم صبّحهم القرمطىّ فى ثانى عشر ذى القعدة فأقام بإزائهم يومين. ثم سار القرمطىّ نحو الأنبار، فلم يتجاسر أحد أن يتبعه. و لو لا قطع القنطرة لكان القرمطىّ عبر عليها و هزم عسكر الخليفة و ملك بغداد. فانظر الى هذا الخذلان؛ فإن القرمطىّ كان فى دون الألف و مؤنس الخادم وحده فى أربعين ألفا سوى من انضم إليه من بنى حمدان و غيرهم من الملوك مع شدّة بأس مؤنس فى الحروب. فما شاء اللّه كان. و وقع فى هذه السنة من القرمطىّ بالأقاليم من البلاء و القتل و السبى و النهب ما لا مزيد عليه.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۱۸

قلت: و كيف لا و هو الذى انزعج منه الخليفة بنفسه و انكسرت عساكره منه، و ذهب من بغداد و لم يتبعه أحد؛ فحينئذ خلاله الجوّ و أخذ كلّ ما أراد ممّا لم يدفع كلّ واحد عن نفسه. و فيها تشغّبت الجند على الخليفة المقتدر و وقع أمور. و فيها فى صفر قدم علىّ بن عيسى الوزير على المقتدر، فزاد المقتدر فى إكرامه و بعث إليه بالخلع و بعشرين ألف دينار. و ركب من الغد فى الدّست، ثم أنشد:

ما النّاس إلّا مع الدنيا و صاحبها فكيفما انقلبت يوما به انقلبوا

يعظّمون أخا الدنيا فإن وثبت يوما عليه بما لا يشتهى وثبوا

و فيها توفّى الحسين بن عبد اللّه أبو عبد اللّه الجوهرىّ، و يعرف بابن الجصّاص، التاجر الجوهرىّ صاحب الأموال و الجوهر، كان تاجرا يبيع الجوهر؛ و قد تقدّم أنّ المقتدر صادره و أخذ منه ستة آلاف ألف دينار غير المتاع و الدوابّ و الغلمان؛ و مع هذا المال كان فيه سلامة باطن، يحكى عنه منها أمور، من ذلك: أنه دخل يوما على الوزير ابن الفرات فقال: أيها الوزير عندنا كلاب ما تدعنا ننام؛ قال:

لعلهم جربى؛ قال: لا- و اللّه إلّا كلب كلب مثلى و مثلك. و نزل مرّة مع الوزير الخاقانىّ فى المركب و بيده بطّيخة كافور، [فأراد أن يبصق فى دجلة و يعطى الوزير البطّيخة]، فبصق فى وجه الوزير و ألقى البطّيخة فى دجلة؛ [فارتاع الوزير و قال له: ويحك! ما هذا؟]؛ ثم أخذ يعتذر للوزير فيقول: أردت أن أبصق فى وجهك و ألقى البطّيخة فى الماء فغلطت؛ فقال: كذا فعلت يا جاهل!. [فغلط فى الفعل و أخطأ فى الاعتذار!]. و مع هذه البليّة كان متجوّلا محظوظا عند الخلفاء و الملوك. و فيها

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۱۹

توفّى عبد اللّه بن محمد بن جعفر أبو القاسم القزوينىّ الشافعىّ، ولى قضاء دمشق نيابة عن محمد بن العبّاس الجمحىّ و كان محمود السيرة فقيها، و اختلط قبل موته. و فيها توفّى علىّ بن سليمان بن الفضل أبو الحسن البغدادىّ النحوىّ، و يعرف بالأخفش الصغير، كان متفنّنا يضاهى الأخفش الكبير فى فضله وسعة علمه؛ و مات ببغداد. و فيها توفّى محمد بن إسماعيل بن ابراهيم طباطبا الحسنىّ العلوىّ. و إنما سمّى جدّه "طباطبا "لأن أمّه كانت ترقّصه و تقول: طباطبا (يعنى نم نم). كان سيّدا فاضلا جوادا، يسكن مصر، و كان له بها جاه و منزلة، و بها مات، و قبره يزار بالقرافة. و فيها توفّى محمد بن المسيّب بن إسحاق بن عبد اللّه النيسابورىّ ثم الأرغيانىّ، ولد سنة ثلاث و عشرين و مائتين و طاف البلاد فى طلب العلم، و كان زاهدا عابدا، بكى حتى ذهب بصره؛ و كان يقول: ما بقى من منابر الإسلام منبر إلا دخلته لسماع الحديث؛ و كان يعرف بالكوسج.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أبو بكر أحمد بن [على بن] الحسين الرازىّ الحافظ بنيسابور، و أبو القاسم عبد اللّه بن محمد بن جعفر القزوينىّ القاضى، و علىّ بن سليمان النحوىّ الأخفش الصغير، و أبو حفص محمد ابن الحسين الخثعمىّ الأشنانىّ، و أبو الحسن محمد بن الفيض الغسّانىّ، و محمد بن المسيّب الأرغيانىّ.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و اثنتان و عشرون إصبعا.

مبلغ الزيادة أربع عشرة ذراعا و سبع عشرة إصبعا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۲۰

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۱۶]

السنة الخامسة من ولاية تكين الرابعة على مصر، و هى سنة ستّ عشرة و ثلثمائة- فيها فى المحرّم دخل أبو طاهر القرمطىّ الرّحبة بعد حروب و وضع فيها السيف؛ فبعث إليه أهل قرقيسياء يطلبون الأمان فأمّنهم؛ و بعث سراياه فى الأعراب فقتلوا و نهبوا و سبوا؛ ثم دخل قرقيسياء و نادى: لا- يظهر أحد من أهلها نهارا، فلم يظهر أحد. ثم توجّه الى الرّقّة فأخذها. و لما رأى الوزير علىّ بن عيسى أن الهجرىّ- أعنى القرمطىّ- استولى على البلاد استعفى من الوزارة. و لما رجع القرمطىّ من سفره بنى دارا و سمّاها دار الهجرة، و دعا الى المهدىّ العلوىّ، و تفاقم أمره و كثر أتباعه؛ فعند ذلك ندب الخليفة المقتدر هارون بن غريب و بعثه الى واسط و بعث صافيا الى الكوفة؛ فوقع هارون بجماعة من القرامطة فقتلهم، و بعث بجماعة منهم أسارى على الجمال الى بغداد و معهم مائة و سبعون رأسا. و فيها وقع بين نازوك و هارون حرب فى ذى القعدة؛ و سببها أن سواس نازوك و هارون تغايروا على غلام أمرد، و قتل من الفريقين

جماعة؛ فركب الوزير ابن مقلة برسالة الخليفة بالكفّ عن القتال فكفّا.

و فيها سار ملك الروم الدّمستق فی ثلثمائة ألف، فقصد ناحية خلاط و بدليس فقتل و سبی؛ ثم صالحه أهل خلاط علی قطيعة و هی عشرة آلاف دينار؛ و أخرج المنبر من جامعها و جعل مكانه الصليب. فإنا للّه و إنا إليه راجعون. و فيها توفّی بنان بن محمد ابن حمدان أبو الحسن الزاهد المشهور المعروف بالحمّال، أصله من واسط و نشأ ببغداد

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۲۱

و سمع الحديث؛ ثم انتقل الی مصر و سكنها الی أن مات بها؛ و هو أحد الأبدال؛ كان صاحب مقامات و كرامات؛ و بزهده و عبادته يضرب المثل؛ صحب الجنيد و غيره؛ و هو أستاذ أبی الحسين النّوریّ. قال أبو عبد الرّحمن السّلمیّ فی محن الصوفيّة: إنّ بنانا الحمّال قام الی وزير خمارويه فأنزله عن دابّته، و كان نصرانيّا، و قال: لا تركب الخيل، و يلزمك ما هو مأخوذ عليكم فی ملّتكم؛ فأمر خمارويه ببنان المذكور بأن يؤخذ و يطرح بين يدی سبع، فطرح و بقی ليلته ثم جاء السبع يلمسه؛ فلما أصبحوا وجدوه قاعدا مستقبل القبلة و السبع بين يديه؛ فأطلقه و اعتذر إليه. و ذكر إبراهيم بن عبد الرّحمن أنّ القاضی أبا عبيد احتال علی بنان ثم ضربه سبع درر؛ فقال: حسبك اللّه بكل درّة سنة!؛ فحبسه ابن طولون سبع سنين. و يروی أنه كان لرجل علی رجل دين مائة دينار بوثيقة، فطلبها الرجل- أعنی الوثيقة- فلم يجدها؛ فجاء الی بنان ليدعو له؛ فقال له بنان: أنا رجل قد كبرت و أحبّ الحلواء، اذهب الی عند دار قربج فاشتر رطل حلواء و أتنی به حتّی أدعو لك، ففعل الرجل و جاءه؛ فقال: بنان افتح و رقة الحلواء، ففتحها فإذا هی الوثيقة؛ فقال: هذه وثيقتی؛ فقال: خذها و أطعم الحلواء صبيانك.

و كانت وفاته فی شهر رمضان، و خرج فی جنازته أكثر أهل مصر. و فيها توفّی داود بن الهيثم بن إسحاق بن البهلول أبو سعد التّنوخیّ، مولده بالأنبار و بها توفّی و له ثمان و ثمانون سنة؛ كان إماما عارفا بالنحو و اللغة و الأدب، و صنّف كتبا فی اللغة و النحو علی مذهب الكوفيّين، و له كتاب كبير فی خلق الإنسان. و فيها توفّی عبد اللّه بن سليمان بن الأشعث

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۲۲

الحافظ أبو بكر بن الحافظ أبی داود السّجستانی محدّث العراق و ابن محدّثها، ولد بسجستان سنة ثلاثين و مائتين، و رحل به أبوه و طوّف به البلاد شرقا و غربا، و استوطن بغداد، و صنّف السّنن و المسند و التفاسير و القراءات و الناسخ و المنسوخ و غير ذلك. قال أبو بكر الخطيب: سمعت الحسن بن محمد الخلّال يقول: كان أبو بكر بن أبی داود أحفظ من أبيه. قلت: و أبوه أبو داود هو صاحب السنن: أحد الكتب السّتّة؛ و قد وقع لنا سماعه ثلاثا حسبما ذكرناه فی ترجمة أبيه رضی اللّه عنه. و فيها توفّی يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم بن يزيد أبو عوانة الإسفراينیّ النّيسابوریّ الحافظ المحدّث، كان إماما، طف البلاد و صنّف المسند الصحيح المخرّج علی صحيح مسلم، حجّ عدّة حجّات، و كان زاهدا عابدا. رضی اللّه عنه.

الذين ذكر الذهبیّ وفاتهم فی هذه السنة، قال: و فيها توفی بنان الحمّال أبو الحسن الزاهد، و أبو بكر عبد اللّه بن أبی داود السّجستانیّ و له ستّ و ثمانون سنة، و أبو بكر محمد بن حريم العقيلیّ، و أبو بكر محمد بن السّریّ بن السرّاج صاحب المبرّد، و محمد ابن عقيل البلخیّ، و أبو عوانة يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الإسفراينی.

أمر النيل فی هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و ثلاث عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة ثمانی عشرة ذراعا سواء.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۲۳

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۱۷]

السنة السادسة من ولایة تکین الرابعة علی مصر، و هی سنة سبع عشرة و ثلثمائة- فیها خلع أمیر المؤمنین المقتدر بالله جعفر من الخلافة، خلعه مؤنس الخادم و نازوک الخادم و أبو الهیجاء عبد اللّه بن حمدان، و أحضروا من دار الخلافة محمد ابن الخلیفة المعتضد، و بایعوه بالخلافة و لقّبوه بالقاهر بالله؛ و ذلک فی الثّلث الأخیر من لیلة السبت خامس عشر المحرّم من السنة المذکورة. و تولّی أبو علیّ بن مقله صاحب الخط المنسوب [الیه] الوزارة، و قلّد نازوک الحجبة مضافة الی شرطة بغداد، و أضیف الی أبی الهیجاء عبد اللّه بن حمدان ولایة حلوان و الدّینور و نهاوند و همذان و غیرها مع ما کان بیده قبل ذلک من الولایات، مثل: الموصل و الجزیرة و میّافارقین.

و وقع النهب فی دار الخلافة؛ و کان لأمّ المقتدر سمّائة ألف دینار فی الرّصافة فأخذت؛ و استتر المقتدر عند أمّه. و بعد ثلاثة أیّام حضرت الرّجّالة من الجند و امتلأت دار الخلافة و ازدحم الناس و دخلوا الی المقتدر و حملوه علی رقابهم، و صاحوا: یا مقتدر یا منصور، و خرجوا به و بایعوه ثانیا بالخلافة بعد أمور وقعت بین القوّاد و الجند من وقائع و حروب؛ و قتل أبو الهیجاء عبد اللّه بن حمدان و نازوک، و خلع القاهر محمد، و أمّنه أخوه المقتدر هذا؛ و سکنت الفتنة بعد حروب وقعت ببغداد و قتل فیها عدّة من الأعیان و الجند. قلت: و هذه ثانی مرّة خلع فیها المقتدر من الخلافة؛ لأنه خلع أوّلا بعبد اللّه بن المعتزّ فی شهر ربیع الأول سنة ستّ و تسعین و مائتین، و هذه الثانیة.

ثم استقر بعد هذه فی الخلافة الی أن مات، حسبما یأتی ذکره فی محلّة. و فیها ظهر

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۲۴

هارون بن غریب و دخل الی مؤنس و سلّم علیه، و قلّد الجبل فخرج إلیه. و قلّد المقتدر إبراهیم و محمدا ابنی رائق شرطة بغداد، و قلّد مظفّر بن یاقوت الحجابة. و ماتت ثمل القهرمانة و خلّفت أموالا کثیرة. و فیها سیّر المقتدر رکب الحاجّ مع منصور الدیلمیّ فوصلوا الی مکّة سالمین؛ فوافاهم یوم الترویة عدوّ اللّه أبو طاهر القرمطیّ فقتل الحجیج قتلا ذریعا فی فجاج مکّة و فی داخل البیت الحرام- لعنه اللّه- و قتل ابن محارب أمیر [مکة]، و عرّی البیت، و قلع باب البیت، و اقتلع الحجر الأسود و أخذه، و طرح القتلی فی بئر زمزم، و فعل أفعالا لا یفعلها النصاری و لا الیهود بمکّة؛ ثم عاد الی هجر و معه الحجر الأسود؛ فدام الحجر الأسود عندهم الی أن ردّ الی مکانه فی خلافة المطیع، علی ما سیأتی ذکره إن شاء اللّه تعالی. [و جلس أبو طاهر علی باب الکعبة و الرجال تصرع حوله فی المسجد الحرام یوم الترویة، الذی هو من أشرف الأیام، و هو یقول]:

أنا للّه و بالله أنا یخلق الخلق و أفنیهم أنا

و دخل رجل من القرامطة الی حاشیة الطواف و هو راکب سکران، فبال فرسه عند البیت، ثم ضرب الحجر الأسود بدبّوس فکسره ثم اقتلعه. و کانت إقامة القرمطیّ بمکّة أحد عشر یوما. فلما عاد القرمطیّ الی بلاده رماه اللّه تعالی فی جسده حتی طال عذابه و تقطّعت أوصاله و أطرافه و هو ینظر الیها، و تناثر الدود من لحمه.

قلت: هذا ما عذّب به فی الدنیا، و أما الأخری فأشدّ إن شاء اللّه تعالی و أدوم علیه

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۲۵

و أعوانه و ذرّیته لعنة اللّه علیهم. و فیها وقعت الوحشة بین الأمیر تکین أمیر مصر صاحب الترجمة و بین محمد بن طغج أمیر الحوف، فخرج محمد بن طغج من مصر سرّا خوفا من تکین و لحق بالشام. و فیها هلک القرمطیّ أبو طاهر سلیمان بن أبی سعید الحسن بن بهرام الجنّابیّ القرمطیّ لعنه اللّه. ولی أبو طاهر هذا أمر القرامطة بعد موت أبیه- علیهما اللعنة- بوصیّة أبیه إلیه، و غلط أبو القاسم السّمنانیّ فی تاریخه، قال: الذی قلع الحجر الأسود أبو سعید الجنّابیّ؛ و إنما هو ابنه أبو طاهر هذا، علیهما اللعنة. و لما ولی أبو طاهر هذا أمر القرامطة قوی أمره و حارب عساکر الخلیفة، و اتسع ملکه و کثرت جنوده و نال من الدنیا ما لم ینله أبوه و لا جدّه؛ و کان زندیقا ملحدا لا یصلّی و لا یصوم شهر رمضان، مع أنه کان یظهر الإسلام و یزعم أنه داعیة المهدیّ عبید اللّه. و قد تقدّم من أخباره ما

فيه كفاية عن ذكره هنا: من قتله الحجّاج، و سفكه الدماء، و أخذه أموال الناس، و أشياء كثيرة من ذلك.

و قد كان هذا الملعون أشدّ ما يكون من البلاء على الإسلام و أهله، و طالت أيّامه.

و منهم من يقول: إنه هلك عقيب أخذه الحجر الأسود- أعنى فى هذه السنة- و الظاهر خلافه. و كان أبو طاهر المذكور مع قلّة دينه عنده فضيلة و فصاحة و أدب. و من شعره القصيدة التى أوّلها:

أغرّكم منّى رجوعى الى هجر فعمّا قليل سوف يأتيكم الخبر

إذا طلع المرّيخ من أرض بابل و قارنه كيوان فالحذر الحذر

فمن مبلغ أهل العراق رسالة بأنّى أنا المرهوب فى البدو و الحضر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۲۶

و منها:

فيا ويلهم من وقعة بعد وقعة يساقون سوق الشاء للذّبح و البقر

سأصرف خيلى نحو مصر و برقة الى قيروان الترك و الروم و الخزر

و منها:

أكيلهم بالسيف حتّى أبيدهم فلا أبق منهم نسل أنثى و لا ذكر

أنا الدّاع للمهدىّ لا شكّ غيره أنا الصارم الضّرغام و الفارس الذكر

أعمّر حتّى يأتى عيسى بن مريم فيحمد آثارى و أرضى بما أمر

و لكنّه حتم علينا مقدّر فنفنى و يبقى خالق الخلق و البشر

و فيها توفّى أحمد بن الحسين الإمام العلامة أبو سعيد البردعىّ الحنفىّ شيخ الحنفيّة فى زمانه، استشهد بمكّة بيد القرامطة. و فيها توفّى أحمد بن مهدىّ بن رستم، كان شيخا صالحا ذا مال كثير أنفقه كلّه على العلم، و لم يعرف له فراش أربعين سنة.

و فيها توفّى عبد اللّه بن محمد بن عبد العزيز بن المرزبان بن شابور بن شاهنشاه أبو القاسم البغوىّ الأصل البغدادىّ، مسند الدنيا و بقيّة الحفّاظ، و هو ابن بنت أحمد بن منيع؛ ولد ببغداد فى أوّل شهر رمضان سنة أربع عشرة و مائتين، و سمع الكثير و رحل [الى] البلاد، و روى عنه خلائق لا يحصيهم إلا اللّه، لأنه طال عمره و تفرّد فى الدنيا بعلوّ السند. رضى اللّه عنه. و فيها توفى نازوك الخادم قتيلا فى هذه السنة فى واقعة خلع المقتدر. كان نازوك المذكور شجاعا فاتكا، غلب على الأمر و تصرّف فى الدولة، و علم مؤنس الخادم أنه متى وافقه على خلع المقتدر لم يبق له فى الدولة أمر و لا نهى، فوافقه ظاهرا و واطأ الرّجالة على قتله حتى تمّ له ذلك.

و كان لنازوك أكثر من ثلثمائة مملوك.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۲۷

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ستّ أذرع و ثلاث عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و ثلاث و عشرون إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۱۸]

السنة السابعة من ولاية تكين الرابعة على مصر، و هى سنة ثمانى عشرة و ثلثمائة- فيها حجّ بالناس عبد السميع بن أيّوب بن عبد العزيز الهاشمىّ، و قيل:

عمر بن الحسن بن عبد العزيز. قال أبو المظفّر فى مرآة الزمان: «و الظاهر أنه لم يحجّ أحد منذ سنة سبع عشرة و ثلثمائة الى سنة ستّ و

عشرين و ثلثمائة خوفا من القرامطة». و فيها فى المحرّم صرف المقتدر ابنى رائق عن الشّرطة و قلّدها أبا بكر محمد بن ياقوت. و فيها فى شهر ربيع الآخر هبّت ريح شديدة حملت رملا- أحمر، قيل: إنه من جبل ذرود فامتلأت به أزقّة بغداد و سطوحها. و فيها قبض المقتدر على الوزير ابن مقلة، و أحرقت داره و كانت عظيمة، و قد ظلم الناس فى عمارتها؛ و عزّ على مؤنس الخادم حتّى لم يشاوره المقتدر فى القبض عليه.

ثم استوزر المقتدر سليمان بن الحسن، فكان لا يصدر عن أمر حتّى يشاور علىّ بن عيسى. و كانت وزارة ابن مقلة سنتين و أربعة أشهر و ثلاثة أيّام. و فيها توفّى جعفر بن محمد بن يعقوب الشيخ أبو الفضل الصّيدنلىّ البغدادىّ، كان من الأبدال، سمع علىّ بن حرب و غيره، و اتفقوا على ثقته و صدقه. و فيها توفّى سعيد بن عبد العزيز بن مروان الشيخ أبو عثمان الحلبىّ الزاهد، و هو من أكابر مشايخ الشام، صحب سريّا السّقطىّ، و روى عنه أبو الحسين الرازىّ و غيره، و مات بدمشق. و فيها

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۲۸

توفّى عبد الواحد بن محمد بن المهتدىّ أبو أحمد الهاشمىّ، سمع يحيى بن أبى طالب، و روى عنه أبو الحسين الرازىّ و غيره. و فيها توفّى عبد اللّه بن محمد بن مسلم أبو بكر الإسفراينىّ، ولد بقرية من أعمال أسفراين يقال لها «جوربذ»، و سافر فى طلب الحديث، و كان من الأثبات. و فيها توفّى محمد بن سعيد بن محمد أبو عبد اللّه الميورقىّ، قدم بغداد و حدّث بها، و كان يتفقّه على مذهب الإمام الأعظم أبى حنيفة. و فيها توفّى يحيى بن محمد بن صاعد أبو محمد مولى أبى جعفر المنصور، كان محدّثا فاضلا.

قال الدارقطنىّ: بنو صاعد ثلاثة: يوسف و أحمد و يحيى. و كانت وفاة يحيى هذا ببغداد.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أبو جعفر أحمد بن إسحاق بن بهلول الأنبارىّ قاضى مدينة المنصور، و أبو عروبة الحسين بن محمد بن أبى معشر الحرّانىّ، و سعيد بن عبد العزيز الحلبىّ الزاهد، و أبو بكر عبد اللّه بن محمد ابن مسلم الإسفراينىّ، و أبو بكر محمد بن إبراهيم بن فيروز الأنماطىّ، و يحيى بن محمد ابن صاعد فى ذى القعدة و له تسعون سنة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و إحدى عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و إصبعان.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۱۹]

السنة الثامنة من ولاية تكين الرابعة على مصر، و هى سنة تسع عشرة و ثلثمائة- فيها نزل القرامطة الكوفة فهرب أهلها الى بغداد. و فيها دخل الديلم

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۲۹

الدّينور و قتلوا أهلها و سبوا؛ فورد بعض أهل دينور بغداد و قد سوّدوا وجوههم و رفعوا المصاحف على رءوس القصب، و حضروا يوم عيد النحر الى جامع بغداد و استغاثوا و منعوا الخطيب من الخطبة و الصلاة، و ثار معهم عامّة بغداد، و أعلنوا بسبّ المقتدر؛ و لازم الناس المساجد و أغلقوا الأسواق خوفا من القرمطىّ. و فيها ولد المعزّ أبو تميم معدّ العبيدىّ رابع خلفاء بنى عبيد و أوّل من ملك منهم ديار مصر الآتى ذكره فى محلّه من هذا الكتاب إن شاء اللّه تعالى. و فيها قبض المقتدر على الوزير سليمان بن الحسن و حبسه، و كانت وزارته سنة و شهرين، و كان المقتدر يميل الى وزارة الحسين بن القاسم فلا يمكّنه مؤنس، و أشار مؤنس بعبيد اللّه بن محمد الكلوذانىّ، فاستوزره المقتدر مع مشاورة علىّ بن عيسى فى الأمور. و فيها كانت وقعة بين هارون بن غريب و بين مرداويج الديلمىّ بنواحى همذان، فانهزم هارون؛ و ملك الديلمىّ الجبل بأسره الى حلوان. و فيها أيضا عزل المقتدر الكاوذانىّ، و استوزر الحسين بن القاسم بن عبيد اللّه؛ لأنه كتب الى المقتدر و هو على حاجة ": أنا أقوم بالنفقات و زيادة ألف ألف دينار فى كلّ سنة. "و كانت وزارة

الکلوذانیّ شهرین. و فیها فی ذی الحجّة استوحش مؤنس من الخلیفة المقتدر لأنه بلغه اجتماع الوزیر و القوّاد علی العمل علی مؤنس، فعزم خواصّ مؤنس علی کبس الوزیر؛ فعلم الوزیر فتغیّب عن داره؛ و طلب من المقتدر عزل الوزیر فعزله، فقال: انفه الی عمان، فامتنع المقتدر. و أوقع الوزیر فی ذهن المقتدر أنّ مؤنسا یرید أن یأخذ أبا العباس من داره و یذهب به الی الشأم و مصر و یبایعه بالخلافة هناک. ثم

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۳۰

وقعت أمور ألجأت مؤنسا الی الخروج من بغداد الی الشمّاسیّة، و کتب الی المقتدر یطلب منه مفلحا الأسود؛ فقویت الوحشة بین المقتدر و بین مؤنس حتی أرسل المقتدر الی قتاله ثلاثین ألفا، و کان مؤنس فی ثمانمائة، فانتصر علیهم و هزمهم و ملک الموصل. و فیها کان الوباء المفرط ببغداد حتی کان یدفن فی القبر الواحد جماعة.

و فیها توفّی الحسن بن علیّ بن أحمد بن بشّار أبو بکر الشاعر المشهور الضریر النّهروانیّ المعروف بابن العلّاف، أحد ندماء المعتضد، و کان من الشعراء المجیدین. قال: کنت فی دار المعتضد مع جماعة من ندمائه، فأتی الخادم لیلا فقال: أمیر المؤمنین یقول لکم: أرقت اللیلة بعد انصرافکم، فقلت:

و لمّا انتبهنا للخیال الذی سری إذا الدّار قفر و المزار بعید

و قد أریج علیّ تمامه. فمن أجازه بما یوافق غرضی أمرت له بجائزة؛ قال: فأرتج علی الجماعة، و کلّهم شاعر فاضل، فابتدرت و قلت:

فقلت لعینی عاودی النوم و اهجعی لعلّ خیالا طارقا سیعود

و من شعر ابن العلّاف هذا قصیدته التی رثی فیها [المحسن بن أبی] الحسن ابن الفرات الوزیر و کنی عنه بالهرّ خوفا من الخلیفة، و عددها خمسة و ستون بیتا، و أوّلها:

یاهرّ فارقتنا و لم تعد و کنت منّا بمنزل الولد

فکیف ننفکّ عن هواک و قد کنت لنا عدّة من العدد

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۳۱

تطرد عنّا الأذی و تحرسنا بالغیب من حیّة و من جرد

و تخرج الفأر من مکامنها ما بین مفتوحها الی السّدد

و کلّها علی هذا المنوال، و فیها حکم أضربت عن ذکرها لطولها. و فیها توفّی الحسن ابن علیّ بن زکریا بن صالح بن عاصم بن زفر أبو سعید العدویّ البصریّ، روی عنه الدارقطنیّ و غیره، و عاش مائة و ثمانین سنة. و فیها توفّی علیّ بن الحسین بن حرب أبو عبید القاضیّ البغدادیّ، و یعرف بابن حربویه، ولی قضاء مصر و أقام بها دهرا طویلا. قال الرّقاشیّ: سألت عنه الدارقطنیّ فقال: ذلک الجلیل الفاضل. و فیها توفّی محمد بن سعید، و قیل: ابن سعد، أبو الحسین الورّاق النّیسابوریّ صاحب أبی عثمان الحیریّ، کان من کبار المشایخ، عالما بالشریعة و الحقیقة. و فیها توفّی محمد بن الفضل بن العباس أبو عبد اللّه البلخیّ الزاهد، کان أحد الأبدال و له کرامات؛ قال: ما خطوت أربعین سنة خطوة لغیر اللّه. و فیها توفّی المؤمّل.

ابن الحسن بن عیسی بن ماسرجس أبو الوفاء النّیسابوریّ الماسرجسیّ شیخ نیسابور فی عصره؛ و کان أبوه من بیت حشمة فی النصاری فأسلم علی ید ابن المبارک و هو شیخ.

سمع المؤمّل هذا الکثیر و رحل [الی] البلاد، و روی عنه ابناه أبو بکر محمد و أبو القاسم علیّ و غیرهما. قال الحاکم: سمعت محمد بن المؤمّل یقول: حجّ جدّی و هو ابن نیّف و سبعین سنة فدعا اللّه تعالی أن یرزقه ولدا، فلمّا رجع رزق أبی فسمّاه المؤمّل، لتحقیق ما أمّله، و کنّاه أبا الوفاء لیفی للّه بالنّذور، و وفّاها.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۳۲

الـذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السـنة، قال: و فيها توفّى أبو الجهم أحمد بن الحسين [بن أحمد] بن طلّاب خطيب مشـغرى، و أبو إسحاق إبراهيم بن عبـد الرّحمن ابن عبد الملك بن مروان فى رجب، و أبو سـعيد الحسن بن علىّ بن زكرياء العدوىّ الكذّاب، و أبو القـاسم عبـد اللّه بن أحمـد البلخىّ رأس المعتزلـة، و أبو عبيـد علىّ بن الحسـين بن حربويه القاضـى، و أبو الوفـاء المؤمّـل بن الحسـن الماسرجسىّ.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و تسع أصابع. مبلغ الزيادة خمس عشرة ذراعا و أربع أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۲۰]

اشارة

السـنة التاسـعة من ولايـة تكين الرابعـة على مصـر، و هى سـنة عشـرين و ثلثمائـة- فيها عزل المقتـدر الحسـين بن القاسم من الوزارة، و استوزر أبا الفتح بن الفرات.

و فيها بعث المقتـدر بالعهـد و اللواء لمرداويـج الـدّيلمىّ على إمرة أذربيجان و إرمينيـة و أرّان و قم و نهاونـد و سجسـتان. و فيها نهب الجند دور الوزير الفضل بن جعفر بن الفرات، فهرب الوزير إلى طيّار له فى الشطّ فأغرق الجند الطّيارات، و سخّم الهاشميّون وجوههم و صـاحوا: الجوع الجوع!؛ و كـان قـد اشـتدّ الغلاء لأن القرمطىّ و مؤنسـا الخـادم منعا الغلّات من النواحى أن تصل. و لم يحـجّ ركب العراق فى هذه السنة. و فيها فى صفر غلب مؤنس على الموصل، فتسلّل إليه الجند و الفرسان من بغداد و أقام بالموصل أشهرا؛ ثم تهيّأ المقتدر لقتاله و أخرج مضربه الى باب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۳۳

الشمّاسيّة، و بعث أبا العلاء سعيد بن حمدان الى سرّمن رأى فى ألف فارس؛ فأقبل مؤنس فى جمع كبير، فلمّا قارب [العكبرا] اجتهد المقتدر بهارون بن غريب أن يحارب مؤنسا فامتنع و احتجّ بأن أصحابه مع مؤنس فى الباطن و لا يثق بهم. و قيل: إنه عسـكر هارون و ابن ياقوت و ابنا رائق و صافى الحرمىّ و مفلح بباب الشمّاسيّة و انضمّوا الى المقتدر، و قالوا له: إنّ الرجال لا يقاتلون إلا بالمال، و إن أخرجت المـال أسـرع اليـك رجال مؤنس و تركوه؛ و سألوه مائتى ألف دينار فلم يرض، و أمر بجمع الطيّارات لينحـدر فيها بأولاده و حرمه إلى واسط و يستنجد منها و من البصرة و غيرها على مؤنس.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة؛ ج۳؛ ص۲۳۳

ال له محمد بن ياقوت: اتّق اللّه فى المسـلمين و لا تسلّم بغداد بلا حرب، و أمعن فى ذلك؛ حتّى قال له المقتدر: أنت رسول إبليس و بنى عزمه و أصبح يقاتـل مؤنسا و أبلى ابن ياقوت المـذكور بلاء حسـنا. و كان غالب عسـكر مؤنس البربر؛ فلمّا انكشف عن المقتـدر أصـحابه جاءه واحد من البربر فضـربه من خلفه ضربة سقط منها إلى الأرض؛ فقال له: ويلك! أنا الخليفة؛ فقال: أنت المطلوب و ذبحه بالسـيف و شال رأسه على رمح، ثم سـلب ما عليه و تركه مكشوف العورة حتى ستر بالحشيش و حفر له فى الموضع و دفن فيه و عفّى أثره، و ذلك فى شوّال. و بات مؤنس [بالشمّاسيّة]، و وقع له بعد قتل المقتدر أمور، حتّى أخرج القاهر و بايعه بالخلافة و تمّ أمره.

ذكر ترجمـة المقتـدر- اسـمه جعفر، و كنيته أبـو الفضـل، ابن الخليفـة المعتضـد بـالله أحمـد ابن ولىّ العهـد طلحـة الموفّق ابن الخليفة المتوكّل على اللّه جعفر ابن الخليفة المعتصم بالله محمـد ابن الخليفـة الرشـيد بالله هارون ابن الخليفـة المهـدىّ محمد ابن الخليفة أبى جعفر المنصور عبد اللّه بن محمد بن علىّ بن عبد اللّه بن العبّاس، أمير المؤمنين الهاشمىّ العباسىّ

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۳۴

البغـدادىّ. بويع بالخلافـة بعد وفاة أخيه المكتفى بالله علىّ فى سـنة خمس و تسـعين و مائتين، و له ثلاث عشـرة سـنة، و لم يل الخلافة أحد قبله أصـغر منه. و خلع من الخلافة أوّل مرّة بعبد اللّه بن المعتزّ فى شـهر ربيع الأوّل فى سنة ستّ و تسعين و مائتين، ثم أعيد و قتل ابن المعتزّ؛ ثم خلع فى سـنة سبع عشـرة و ثلثمائـة بأخيه القاهر ثلاثـة أيام؛ ثم أعيد إلى الخلافة إلى أن قتل فى هذه السـنة. و قد تقدّم ذكر ذلك كلّه فى الحوادث من هـذا الكتاب كلّ واقعـة فى موضـعها. و اسـتخلف من بعده أخوه القاهر محمد، و كنيته أبو منصور، و عمره يوم ولى الخلافة ثلاث و ثلاثون سـنة. و كانت خلافة المقتدر خمسا و عشـرين سـنة إلّا بضعة عشر يوما؛ و كانت النساء قد غلبن عليه، و كان سـخيّا مبذّرا يصـرف فى السنة للحجّ أكثر من ثلثمائة ألف دينار، و كان فى داره أحد عشر ألف غلام خصىّ غير الصّقالبة و الروم؛ و أخرج جميع جواهر الخلافة و نفائسـها على النساء و غيرهنّ؛ و أعطى الدّرّة اليتيمة لبعض حظاياه، و كان زنتها ثلاثة مثاقيل؛ و أخـذت زيـدان القهرمانـة سبحة جوهر لم ير مثلها، [قيمتها ثلثمائة ألف دينار]؛ هـذا مع ما ضيّع من الـذهب و المسك و الأشـياء و التّحف. قيـل: إنه فرّق ستين حبّا من الصـينىّ. و قـال الصولىّ: كان المقتـدر يفرّق يوم عرفـة من الإبل و البقر أربعين ألف رأس، و من الغنم خمسـين ألفـا. و يقـال: إنه أتلف من المال فى أيّام خلافته ثمانين ألف ألف دينار. و خلّف المقتـدر عـدّة أولاد ذكور و إناث. و فيهـا توفّى أحمـد ابن عمير بن يوسف الحافظ أبو الحسين بن جوصـى، كـان حافظ الشام فى وقته، كان إماما حافظا متقنا رحالا. قال الدارقطنىّ: تفرّد بأحاديث و ليس بالقوىّ.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۳۵

و فيهـا توفّى الحسين بن صالـح أبو علىّ بن خيران الفقيه الشافعىّ القاضـى، كان من أفاضل الشـيوخ و أماثل الفقهاء. و فيها توفّى عبد الوهّاب بن عبـد الرزّاق بن عمر بن مسـلم أبو محمـد القرشـىّ مولاـهم الدمشـقىّ؛ حـدّث عن هشام بن عمّار و طبقته، و روى عنه أبو الحسـين الرازىّ و غيره. و فيهـا توفّى محمـد بن يوسف بن إسـماعيل أبو عمر القاضـى الأزدىّ مولى جرير بن حازم، ولى قضاء مـدينة المنصور، و كان عالما عاقلا ديّنا متفننا.

و فيها توفّى أبو عمرو الدمشـقىّ أحـد مشايـخ الصوفيّة، صـحب ابن الجلىّ و أصـحاب ذى النون، و كان من عظماء مشايخ الفقه، و له مقالات و أحوال.

الـذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السـنة، قال: و فيها توفّى أبو الحسن أحمد بن القاسم الفرائضـىّ، و المقتدر بالله جعفر بن المعتضد، قتل فى شوّال عن ثمان و ثلاثين سـنة، و أبو القاسم عبد اللّه بن محمد بن يوسف الفربرىّ، و أبو عمر محمد بن يوسف القاضى، و أبو علىّ بن خيران الشافعىّ الحسين بن صالح.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثلاث أذرع و سبع عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و ثلاث عشرة إصبعا.

ذكر ولاية محمد بن طغج الأولى على مصر

هو محمد بن طغج بن جفّ بن يلتكين بن فوران بن فورى، الأمير أبو بكر الفرغانىّ التركىّ. مولده فى يوم الاثنين منتصف شـهر رجب سنة ثمان و ستين و مائتين

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۳۶

ببغـداد بشارع باب الكوفة. ولى إمرة مصـر بعد موت تكين، ولّاه أمير المؤمنين القاهر بالله على الصـلاة بعد أن اضـطربت أحوال الديار المصـريّة؛ و خرج ابن تكين منها فى سادس عشـر [شـهر] ربيع الأوّل سنة إحدى و عشرين و ثلثمائة؛ فأرسل محمد ابن طغج هذا كتابه بولايته على مصر فى سابع شـهر رمضان من سـنة إحدى و عشـرين و ثلثمائة المذكورة. و لم يدخل مصـر فى هذه الولاية، و ما دخلها أميرا عليها إلا فى ولايته الثانية من قبل الخليفة الراضى بالله. و قال ابن خلّكان بعد ما سمّاه و أباه الى أن قال:

"الفرغانىّ الأصل، صاحب سرير الذهب، المنعوث بالإخشيذ صاحب مصر و الشام و الحجاز. أصله من أولاد ملوك فرغانة؛ و كان المعتصم بالله بن هارون الرشيد قد جلبوا اليه من فرغانة جماعة كثيرة، فوصفوا له جفّ و غيره بالشجاعة و التقدّم فى الحروب، فوجّه اليهم المعتصم من أحضرهم؛ فلما وصلوا إليه بالغ فى إكرامهم و أقطعهم قطائع بسرّمن‌رأى. و قطائع جفّ الى الآن معروفة هناك؛ فلم يزل جفّ بها الى أن مات ليلة قتل المتوكّل. "انتهى كلام ابن خلكان. قلت: و دعى له على منابر مصر و هو مقيم بدمشق نحوا من ثلاثين يوما- و قال صاحب البغية: اثنين و ثلاثين يوما- الى أن قدم رسول الأمير أحمد بن كيغلغ بولايته على مصر ثانى مرّة من قبل الخليفة القاهر بالله فى تاسع شوّال من السنة. و أما الأيّام التى قبل ولاية محمد بن طغج على مصر فكان يحكم فيها ابن تكين باستخلاف والده تكين له، و يشاركه فى ذلك أيضا الماذرائىّ صاحب خراج مصر المقدّم ذكره. و وقع فى هذه الأيّام بمصر أمور و وقائع، و كان الزمان مضطربا لقتل الخليفة المقتدر بالله جعفر و اشتغال الناس بحرب القرمطى. و كان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۳۷

فى تلك الأيّام كلّ من غلب على أمر صار له. و فى ولاية محمد بن طغج هذا على مصر ثانيا- على ما سيأتى ذكره إن شاء اللّه تعالى- لقّب بالإخشيذ. و الإخشيذ بلسان الفرغانة:

ملك الملوك. و طغج: عبد الرّحمن. و الإخشيذ: لقب ملوك فرغانة، كما أن أصبهبذ: لقب ملوك طبرستان، وصول: لقب ملوك جرجان، و خاقان: لقب ملوك الترك، و الأفشين: لقب ملوك أشروسنة، و سامان: لقب ملوك سمرقند، و قيصر:

لقب ملوك الروم، و كسرى: لقب ملوك العجم، و النجاشى و الحطىّ: لقب ملوك الحبشة، و فرعون قديما: [لقب] ملوك مصر، و حديثا السلطان. و لما مات جدّه جفّ فى سنة سبع و أربعين و مائتين اتصل ابنه طغج أبو محمد هذا بالأمير أحمد ابن طولون صاحب مصر، و كان من أكابر قوّاده؛ و دام على ذلك حتى قتل خمارويه ابن أحمد بن طولون: فسار طغج الى الخليفة المكتفى بالله علىّ؛ فأكرم الخليفة مورده.

ثم بدا من طغج المذكور تكبّر على الوزير، فحبس هو و ابنه محمد الى أن مات طغج المذكور فى الحبس. و بعد مدّة أخرج محمد هذا من الحبس؛ و جرت له أمور يطول شرحها، إلى أن قدم مصر فى دولة تكين، و ولّى الأحواف بأعمال مصر و أقام على ذلك مدّة إلى أن وقّع بينه و بين تكين، و خرج من مصر مختفيا إلى الشام؛ ثم ولّى إمرة الشام، ثم أضيف إليه إمرة مصر فلم يدخلها، على ما تقدّم ذكره، و عزل بالأمير أحمد بن كيغلغ. و تأتى بقيّة ترجمته فى ولايته الثانية على مصر إن شاء اللّه تعالى.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۲۱]

اشارة

السنة التى حكم فيها عدّة أمراء على مصر، حكم فى أوّلها تكين الى أن مات فى شهر ربيع الأوّل، ثم ابنه من غير ولاية الخليفة بل باستخلاف أبيه، ثم الأمير محمد بن طغج من أواخر شعبان الى أواخر شهر رمضان، و كانت ولايته اثنين

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۳۸

و ثلاثين يوما و لم يدخلها، ثم الأمير أحمد بن كيغلغ من آخر [شهر] رمضان؛ و لم يصل رسوله إلا لسبع خلون من شوّال، و هى سنة إحدى و عشرين و ثلثمائة- فيها شغب الجند على الخليفة القاهر بالله و هجموا [على] الدار، فنزل فى طيّار إلى دار مؤنس الخادم فشكا إليه، فصبّرهم مؤنس عشرة أيام. و كان الوزير ابن مقلة منحرفا عن محمد بن ياقوت، فنقل الى مؤنس أن ابن ياقوت يدبّر عليهم؛ فاتفّق مؤنس و ابن مقلة و يلبق و ابنه على الإيقاع بابن ياقوت، فعلم فاستتر. ثم جاء علىّ بن يلبق الى دار الخلافة فوكل بها أحمد بن زيرك

و أمره بالتضييق على القاهر. و طالب ابن يلبق [القاهر] بما كان عنده من أثاث أمّ المقتدر. و فيها استوحش المظفّر مؤنس و ابن مقلة و يلبق من الخليفة القاهر. و فيها أشيع ببغداد أن يلبق و الحسن بن هارون كاتبه عزما على سبّ معاوية بن أبى سفيان على المنابر، فاضطربت الناس، و قبض يلبق على جماعة من الحنابلة و نفاهم الى البصرة. و فيها تأكّدت الوحشة بين الخليفة القاهر و بين وزيره ابن مقلة و يلبق، و قبض على يلبق و على أحمد بن زيرک و على يمن المؤنسىّ صاحب شرطة بغداد و حبسوا، و صار الحبس كلّه فى دار الخلافة. ثم طلب الخليفة مؤنسا فضر إليه، فقبض عليه أيضا. و اختفى الوزير ابن مقلة؛ فاستوزر القاهر عوضه أبا جعفر [محمد] بن القاسم بن عبيد اللّه، و أحرقت دار ابن مقلة كما أحرقت قبل هذه المرّة.

ثم ظفر القاهر بعلىّ بن يلبق بعد جمعة فحبسه بعد الضرب؛ ثم ذبح القاهر يلبق و ابنه عليّا و مؤنسا و خرج برءوسهم الى الناس و طيف بها. و وقع فى هذه السنة أمور. و أطلق

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۳۹

القاهر أرزاق الجند فسكنوا، و استقامت له الأمور و عظم فى القلوب، و زيد فى ألقابه:

«المنتقم من أعداء دين اللّه»، و نقش ذلک على السّكّة. و فيها أمر القاهر بتحريم القيان و الخمر، و قبض على المغنّين، و نفى المخنّثين، و كسر آلات اللهو، و أمر بتتبع المغنّيات من الجوارى، و كان هو مع ذلك يشرب المطبوخ و لا يكاد يصحو من السكر. و فيها عزل القاهر الوزير محمدا، و استوزر أبا العباس بن الخصيب. و فيها حجّ بالناس مؤنس الورقانىّ. و فيها توفّيت السيدة شغب أمّ الخليفة المقتدر بالله جعفر، كان متحصّلها فى السنة ألف ألف دينار، فتتصدّق بها و تخرج من عندها مثلها؛ و كانت صالحة. و لما قتل ابنها كانت مريضة، فقوى مرضها و امتنعت من الأكل حتى كادت تهلک؛ ثم عذّبها القاهر حتى ماتت. و لم يظهر لها إلا ما قيمته مائة و ثلاثون ألف دينار؛ و كان لها الأمر و النهى فى دولة ابنها. و فيها قتل مؤنس الخادم، و كان لقّب بالمظفّر لمّا عظم أمره، و كان شجاعا مقداما فاتكا مهيبا، عاش تسعين سنة، منها ستون سنة أميرا، و كان كل ما له فى علوّ و رفعة، و كان قد أبعده المعتضد الى مكة. و لما بويع المقتدر بالخلافة أحضره و قرّبه و فوّض إليه الأمور، فنال من السعادة و الوجاهة ما لم ينله خادم قبله. و فيها توفّى أحمد بن محمد بن سلامة بن سلمة بن عبد الملک أبو جعفر الأزدىّ الحجرىّ المصرىّ الطّحاوىّ الفقيه الحنفى المحدّث الحافظ أحد الأعلام و شيخ الإسلام- و طحا: قرية من قرى مصر من ضواحى القاهرة بالوجه البحرىّ- قال ابن يونس: ولد سنة تسع و ثلاثين و مائتين. و سمع هارون بن سعيد

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۴۰

الأيلىّ و عبد الغنىّ بن رفاعة و يونس بن عبد الأعلى و محمد بن عبد اللّه بن عبد الحكم و طائفة غيرهم؛ و روى عنه أبو الحسن الإخميمىّ و أحمد بن القاسم الخشّاب و أبو بكر ابن المقرئ و أحمد بن عبد الوارث الزجّاج و الطبرانىّ و خلق سواهم، و رحل الى البلاد.

قال أبو اسحاق الشيرازىّ: انتهت الى أبى جعفر رياسة أصحاب أبى حنيفة بمصر.

أخذ العلم عن أبى جعفر أحمد بن أبى عمران و أبى حازم و غيرهم، و كان إمام عصره بلا مدافعة فى الفقه و الحديث و اختلاف العلماء و الأحكام و اللغة و النحو، و صنّف المصنّفات الحسان، و صنّف "اختلاف العلماء "و "أحكام القرآن "و "معانى الآثار "و" الشروط، "و كان من كبار فقهاء الحنفيّة. و المزنىّ الشافعىّ هو خال الطحاوىّ، و قصّته معه مشهورة فى ابتداء أمره. و كانت وفاة الطحاوىّ فى مستهل ذى القعدة. و فيها توفى محمد ابن الحسن بن دريد بن عتاهية، العلّامة أبو بكر الأزدىّ البصرىّ نزيل بغداد، تنقّل فى جزائر البحر و فارس، و طلب الأدب و اللغة حتّى صار رأسا فيهما و فى أشعار العرب، و له شعر كثير و تصانيف؛ و كان أبوه من رؤساء زمانه. و حدّث ابن دريد عن أبى حاتم السّجستانىّ و أبى الفضل العبّاس الرّياشىّ و ابن أخى الأصمعى؛ و روى عنه أبو سعيد السّيرافىّ و أبو بكر بن شاذان و أبو الفرج صاحب الأغانى و أبو عبد اللّه المرزبانىّ.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۴۱

و عاش ابن درید بضعا و تسعین سنة؛ فإنّ مولده فی سنة ثلاث و عشرین و مائتین.

و قال أبو حفص بن شاهین: کنّا نـدخل علی ابن دریـد، فنسـتحی مما نری من العیـدان المعلّقـة و الشـراب و قد جاوز التسـعین. و لابن دریـد من المصـنّفات: کتـاب: «الجمهرة» و کتـاب «الأمالی» و کتاب «اشـتقاق أسـماء القبائل» و کتاب «المجتبی» و هو صـغیر و کتاب «الخیل» و کتاب «السـلاح» و کتاب «غریب القرآن» و لم یتمّ، و کتاب «أدب الکاتب» و أشـیاء غیر ذلک. و کان یقال: ابن دریـد أعلم الشـعراء و أشـعر العلماء. و لما مات دفن هو و أبو هاشم الجبّائیّ فی یوم واحد فی مقبرة الخیزران لاثنتی عشرة لیلة بقیت من شعبان. و من شعره قوله:

و حمراء قبل المزج صفراء بعده أتت بین ثوبی نرجس و شقائق

حکت و جنة المعشوق صرفا فسلّطوا علیها مزاجا فاکتست لون عاشق

و له:

ثوب الشباب علیّ الیوم بهجته فسوف ینزعه عنّی یدا الکبر

أنا ابن عشرین لا زادت و لا نقصت إنّ ابن عشرین من شیب علی خطر

الذین ذکر الذهبیّ وفاتهم فی هذه السـنة، قال: و فیها توفّی أبو حامد أحمد [ابن حماد] بن حمدون النّیسابوریّ الأعمشـیّ، و أحمد بن عبد الوارث العسّال،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۴۲

و أبو جعفر أحمد بن محمد بن سـلامة الطحاویّ فی ذی القعدة عن اثنتین و ثمانین سنة، و أبو هاشم عبد السلام بن أبی علیّ الجبّائیّ، و أبـو بکر محمـد بن الحسن بن دریـد الأـزدیّ ببغـداد، و مکحـول الـبیروتیّ محمـد [بن عبـد اللّه] بن عبـد السـلام، و محمـد بن نوح الجندیسابوریّ، و مؤنس الخادم الملقّب بالمظفّر، و أبو حامد محمد بن هارون الحضرمیّ.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم أربع أذرع و ستّ عشرة إصبعا.

مبلغ الزیادة ستّ عشرة ذراعا و نصف إصبع.

ذکر ولایة أحمد بن کیغلغ الثانیة علی مصر

ولی أحمد بن کیغلغ المذکور مصـر ثانیا من قبل القاهر محمد لمّا اضـطربت أحوال الدیار المصریّة بعد عزل الأمیر محمد بن طغج بن جفّ فی آخر شـهر رمضان؛ و قدم رسوله إلی الدیار المصریّة بولایته لتسع خلون من شوّال سنة إحدی و عشرین و ثلثمائة. و استخلف ابن کیغلغ المذکور أبا الفتح [محمد] بن عیسـی النّوشریّ علی مصر؛ فتشغّب علیه الجند فی طلب أرزاقهم؛ و طلبوا ذلک من الماذرائیّ صـاحب خراج مصـر، فاسـتتر المـاذرائیّ منهـم، فـأحرقوا داره و دور أهله. و وقعت فتنـة عظیمـة و حروب قتـل فیهـا جماعـة کـثیرة من المصـریّین. و دامت الفتنة إلی أن قدم محمد ابن تکین إلی مصـر من فلسـطین لثلاث عشرة خلت من شهر جمادی الأولی سنة اثنتین و عشرین و ثلثمائة؛ فظهر الماذرائیّ صاحب الخراج و أنکر ولایة ابن تکین علی مصر؛ فتعصّب لمحمد المذکور جماعة من المصریّین و دعی له بالإمارة علی المنابر؛ و وقع

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۴۳

بین الناس بسبب ذلک، و صاروا فرقتین: فرقـة تنکر ولایـة محمـد بن تکین و تثبت ولایـة أحمد بن کیغلغ، و فرقة تتعصّب لمحمد بن تکین و تنکر ولایـة ابن کیغلغ. و وقع بسـبب ذلک فتن، و خرج منهم قوم إلی الصـعید: فیهم ابن النّوشـریّ خلیفـة ابن کیغلغ و غیره، و أمّر ابن النّوشـریّ علیهم، و هم مسـتمرّون [فی] الدعاء لابن کیغلغ. فکانت حروب کثیرة بدیار مصـر بسبب هذا الاختلاف إلی أن أقبل

الأمیر أحمد بن کیغلغ و نزل بمنیة الأصبع فی یوم ثالث شهر رجب سنة اثنتین و عشرین و ثلثمائة. فلما وصل ابن کیغلغ لحق به کثیر من أصحاب محمد بن تکین، فقوی أمره بهم. فلما رأی محمد بن تکین أمره فی إدبار فرّ لیلا من مصر، و دخلها من الغد الأمیر أحمد بن کیغلغ، و ذلک لستّ خلون من شهر رجب. فکان مقام ابن تکین علی مصر فی هذه الأیّام مائة یوم و اثنی عشر یوما و هو غیر وال بل متغلّب علیها؛ و کان المتولّی من الخلیفة فی هذه المرّة ابن کیغلغ المذکور؛ غیر أنه کان قد تأخّر عن الحضور إلی الدیار المصریّة لأمر ما. و لما دخل ابن کیغلغ إلی مصر و أقام بها أقرّ بجکم الأعور علی شرطة مصر، ثم عزله بعد أیام بالحسین بن علیّ بن معقل مدّة ثم أعید بجکم. و أخذ ابن کیغلغ فی إصلاح أمر مصر و النظر فی أحوالها و فی أرزاق الجند. و مع هذه الفتن التی مرّت کان بمصر فی هذه السنة و الماضیة زلازل عظیمة خربت فیها عدّة بلاد و دور کثیرة و تساقطت عدّة کواکب. و بینما أحمد بن کیغلغ فی إصلاح أمر مصر ورد علیه الخبر بخلع الخلیفة القاهر بالله و تولیة الراضی بالله محمد بن المقتدر جعفر. فلما بلغ محمّد بن تکین تولیة الراضی بالله عاد إلی مصر بجموعه و أظهر أن الراضی ولّاه مصر؛ فخرج إلیه عسکر مصر و أعوان أحمد بن کیغلغ و حاربوه فیما بین بلبیس و فاقوس شرقیّ مصر؛ فکانت بینهم مقتلة انکسر فیها محمد بن تکین و أسروجیء به إلی الأمیر أحمد بن کیغلغ المذکور؛ فحمله ابن کیغلغ إلی الصعید؛ و استقامت الأمور بمصر لأحمد بن کیغلغ. و بعد

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۴۴

ذلک بمدّة یسیرة ورد کتاب الخلیفة بخبر ولایة الأمیر محمد بن طغج علی مصر و عزل أحمد بن کیغلغ هذا عنها، و أن محمد بن طغج واصل الیها عن قریب. فأنکر ابن کیغلغ ذلک و تهیّأ لحربه و جهّز إلیه عساکر مصر لیمنعوه من الدخول إلی الفرما. فأقبلت مراکب محمد بن طغج من البحر إلی تنّیس، و سارت مقدّمته فی البر؛ و التقوا مع عساکر أحمد بن کیغلغ؛ فکانت بینهم وقعة هائلة و قتال شدید فی سابع عشر شعبان سنة ثلاث و عشرین و ثلثمائة؛ فانکسر أصحاب ابن کیغلغ؛ و أقبلت مراکب محمد بن طغج الی دیار مصر فی سلخ شعبان؛ فسلّم أحمد بن کیغلغ الأمر الی محمد بن طغج من غیر قتال و اعتذر أنه ما قاتله إلا جند مصر بغیر إرادته. و ملک محمد بن طغج دیار مصر و هی ولایته الثانیة علیها. و کانت ولایة ابن کیغلغ علی مصر فی هذه المرّة الثانیة سنة واحدة و أحد عشر شهرا تنقص أیّاما قلیلة. و أحمد بن کیغلغ هذا غیر منصور بن کیغلغ الشاعر الذی من جملة شعره هذه الأبیات الخمریّة:

یدیر من کفّه مداما ألذّ من غفلة الرقیب

کأنّها إذ صفت و رقّت شکوی محبّ إلی حبیب

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۲۲]

السنة الثانیة من ولایة أحمد بن کیغلغ الثانیة علی مصر (أعنی بالثانیة أنه حکم فی الماضیة أشهرا، و قد تقدّم ذکر ذلک فتکون هذه السنة هی الثانیة) و هی سنة اثنتین و عشرین و ثلثمائة- فیها ظهرت الدّیلم عند دخول أصحاب مرداویج إلی أصبهان، و کان علیّ بن بویه من جملة أصحاب مرداویج، فاقتطع مالا- جزیلا- و انفرد عن مرداویج، و التقی مع ابن یاقوت فهزمه و استولی علی فارس و أعمالها.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۴۵

قلت: و هذا أوّل ظهور بنی بویه. قیل: إنّ بویه کان فقیرا؛ فرأی فی منامه أنه بال فخرج من ذکره عمود من نار، ثم تشعّب یمنة و یسرة و أماما و خلفا حتی ملأ- الدنیا؛ فقصّ رؤیاه علی معبّر؛ فقال له المعبّر: ما أعبّرها إلا بألف درهم؛ فقال بویه: و اللّه ما رأیتها قطّ و لا عشرها، و إنما أنا صیّاد أصطاد السمک؛ ثم اصطاد سمکة فأعطاها للمعبّر؛ فقال له المعبّر: أ لک أولاد؟ قال نعم؛ قال: أبشر، فإنهم یملکون الأرض و یبلغ سلطانهم فیها علی قدر ما احتوت علیه النار. و کان معه أولاده الثلاثة: علیّ أکبرهم و هو أوّل ما بقل عذاره، و

ثانيهم الحسن، و ثالثهم أحمد. قلت: علىّ هو عماد الدولة، و الحسن هو ركن الدولة، و أحمد هو معزّ الدولة.

و فيها دخل مؤنس الورقانىّ بالحجّاج سالمين من القرمطىّ إلى بغداد. و فيها قتل القاهر بالله الأمير أبا السّرايا نصر بن حمدان، و إسحاق بن إسماعيل بن يحيى، و هو الذى أشار على مؤنس بخلافة القاهر لما قتل المقتدر. و فيها مات مؤنس الورقانىّ الذى حجّ فى هذه السنة بالناس. و فيها استوحش الناس من الخليفة القاهر بالله، و لا زالوا به حتّى خلعوه فى يوم السبت ثالث جمادى الأولى و سملوا عينيه حتى سانتا على خدّيه فعمى؛ و هو أوّل خليفة سملت عيناه؛ و سملوه خوفا من شرّه. فكانت خلافته الى حين سمل سنة و ستة أشهر و سبعة أيّام أو ثمانية أيّام. و بويع بالخلافة من بعده ابن أخيه الراضى بن المقتدر جعفر. و الراضى المذكور اسمه محمد.

قال الصّولىّ: كان القاهر هرجا سافكا للدماء محبّا للمال قبيح السيرة كثير التلوّن و الاستحالة مدمنا على شرب الخمر، فإذا شربها تغيّرت أحواله و ذهب عقله.

و يأتى بقيّة ترجمة القاهر بالله فى وفاته. و فيها قتل مرداويج مقدّم الديلم بأصبهان

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۴۶

و كان قد عظم أمره و أساء السيرة فى أصحابه، فقتله مماليكه الأتراک. و فيها بعث علىّ ابن بويه الى الخليفة الراضى يقاطعه على البلاد التى فى حكمه فى كلّ سنة ثمانية آلاف ألف درهم؛ فأجابه الى ذلک و بعث له [لواء و] خلعا مع حرب بن إبراهيم المالكىّ.

و فيها تحكّم محمد بن ياقوت فى الأمور و استقل بها، و بقى الوزير ابن مقلة معه كالعارية.

و فيها توفّى أحمد بن سليمان بن داود أبو عبد اللّه الطّوسىّ، مات و له ثلاث و ثمانون سنة، روى عنه ابن شاذان و غيره. و فيها توفّى أحمد بن عبد اللّه بن مسلم بن قتيبة أبو جعفر الكاتب الدّينورىّ ابن صاحب "المعارف "و ""أدب الكاتب "و غيرهما، ولد ببغداد ثم قدم مصر و ولى القضاء بها حتى مات فى شهر ربيع الأوّل. و فيها توفّى عبيد اللّه بن محمد بن ميمون بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، و كنيته أبو محمد و يلقّب بالمهدىّ، جدّ الخلفاء الفاطميّين المصريّين الآتى ذكرهم باستيعاب.

و أمّ عبيد اللّه هذا أمّ ولد. و ولد هو بسلمية، و قيل ببغداد، سنة ستين و مائتين.

و دخل مصر فى زىّ التجّار، ثم مضى الى المغرب الى أن ظهر بسجلماسة ببلاد، المغرب فى يوم الأحد سابع ذى الحجّة فى سنة ستّ و تسعين و مائتين، و سلّم عليه بأمير المؤمنين فى أرض الجوّانيّة؛ ثم انتقل الى رقّادة من أرض القيروان، و بنى المهديّة و سكنها. يأتى ذكر نسبهم و ما قيل فيه من الطعن و غيره عند ذكر جماعة من أولاده ممن ملک الديار المصريّة بأوسع من هذا؛ لأنّ شرطنا فى هذا الكتاب ألا نوسّع

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۴۷

إلا فى ترجمة من ولى مصر خاصّة، و ما عدا ذلک يكون على سبيل الاختصار.

و قد ولى جماعة كبيرة من ذريّة المهدىّ هذا ديار مصر فينظر ذلک فى ترجمة أوّل من ولى منهم، و هو المعزّ لدين اللّه معدّ. و فيها توفّى الأمير هارون بن غريب ابن خال الخليفة المقتدر، كان يلى حلوان و غيرها؛ و لمّا زالت دولة ابن عمته المقتدر عصى على الخلافة حتى حاربه جيش الخليفة الراضى و ظفروا به و قتلوه و بعثوا برأسه الى بغداد. و فيها توفّى يعقوب بن إبراهيم بن أحمد بن عيسى الحافظ أبو بكر البزّار البغدادىّ، كان زاهدا متعبّدا، روى عنه الدارقطنىّ و غيره، و كان ثقة صدوقا، مات و هو ساجد. و فيها توفّى أبو علىّ الرّوذبارىّ، و اسمه محمد بن أحمد بن القاسم بن المنصور بن شهريار من أولاد كسرى. أصله من بغداد من أبناء الوزراء، و صحب الجنيد و لزمه و أخذ عنه حتى صار أحد أئمّة الزمان؛ و أقام بمصر و صار شيخ الصوفيّة بها الى ان مات بها، و كان ثقة صدوقا، يقول: أستاذى فى التصوف الجنيد، و فى الحديث إبراهيم الحربىّ، و فى النحو ثعلب، و فى الفقه ابن سريج.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أبو عمر أحمد بن خالد بن الجباب القرطبىّ الحافظ، و خير النسّاج أبو الحسن الزاهد، و المهدىّ

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۴۸

أبو محمـد عبیـد اللّه أوّل خلفـاء الفاطمیّـة، و کانت دولته بضـعا و عشـرین سـنة، و محمـد بن ابراهیم الـدّیبلیّ، و أبو محمـد بن عمرو العقیلیّ، و القاهر بالله محمد بن المعتضد خلع و سمل فی جمادی الأولی ثم بقی خاملا سبع عشرة سنة، و هو الذی سأل یوم الجمعة.

- قلت: و معنی قول الـذهبیّ. «و هو الذی سأل یوم الجمعة» شـرح ذلک أن القاهر لما طال خموله فی عماه قلّ ما بیده و وقف فی یوم من أیّام جمعة و سأل الناس، لیقیم بتلک الشـناعة علی خلیفة الوقت- قال الذهبیّ: و أبو بکر محمد بن علیّ الکنانیّ الزاهد، و أبو علی الرّوذباریّ، یقال: اسمه محمد بن أحمد.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم خمس أذرع و ستّ أصابع. مبلغ الزیادة سبع عشرة ذراعا و أربع عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۲۳]

اشارة

السـنة الثالثة من ولایة أحمد بن کیغلغ الثانیة علی مصـر، و هی سـنة ثلاث و عشـرین و ثلثمائة- فیها تمکّن الراضی بالله من الخلافة، و قلّـد ابنیه المشـرق و المغرب و همـا أبو جعفر و أبو الفضل، و اسـتکتب لهما أبا الحسـین علیّ بن محمـد بن مقلـة. و فیها بلغ الوزیر أبا [الحسـین] علیّ بن مقلـة أن ابن شـنّبود المقرئ- و شـنّبود بشـین معجمة و نون مشدّدة و باء مضـمومة و دال- بغیّر حروفا من القرآن و یقرأ بخلاف ما أنزل؛ فأحضـره و أحضـر عمر بن أبی عمر محمـد بن یوسف القاضـی و أبا بکر بن مجاهد و جماعة من القراء، و نوظر فأغلظ للوزیر فی الخطاب و للقاضـی و لابن مجاهد و نسبهم الی الجهل و أنهم ما سافروا فی طلب العلم کما سافر؛ فأمر الوزیر بضربه؛ فنصب بین یدیه

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۴۹

و ضـرب سبع درر و هو یدعو علی الوزیر بأن تقطع یده و یشتّت شمله. ثم وقف علی الحروف التی قیل إنه کان یقرأ بها، من ذلک": فامضوا الی ذکر اللّه فی الجمعة."

"و کـان أمـامهم ملـک یأخـذ کلّ سـفینة غصـبا "."و تکون الجبال کالصوف المنفوش "."تبّت یـدا أبی لهب و قـد تبّ "."فلما خرّ تیقّنت الإنس أنّ الجنّ لو کانوا یعلمون الغیب ما لبثوا حولا فی العذاب المهین. "ثم اسـتتیب غصـبا و نفی الی البصرة. و کان إماما فی القراءة. و فیها قبض الخلیفة الراضـی علی محمد بن یاقوت و أخیه المظفّر و أبی إسـحاق القراریطیّ، و أخذ خطّ القراریطیّ بخمسمائة ألف دینار.

و عظم شأن الوزیر ابن مقلة و استقلّ بتدبیر الدولة. و فیها أخرج المنصور اسماعیل العبیدیّ یعقوب بن إسحاق فی أسطول من المهدیّة عـدّته ثلاثون [مرکبا] حربیا الی ناحیـة فرنجة، ففتح مدینة جنوة، و مرّوا بجزیرة سـردانیة فأوقعوا بأهلها و سـبوا و أحرقوا عدّة مراکب و قتلوا رجالها، ثم عادوا بالغنائم الی المهدیّة. و فیها فی جمادی الأوّلی هبّت ریح عظیمة ببغداد و اسودّت الدنیا و أظلمت من العصر الی المغرب برعد و برق.

و فیها فی ذی القعدة انقضّت النجوم سائر اللیل انقضاضا عظیما ما رئی مثله. و فیها غلا السعر ببغداد حتی بیع کرّ القمح بمائة و عشرین دینارا و الشـعیر بتسـعین دینارا، و أقام الناس أیّاما لا یجـدون القمح فأکلوا خبز الذرة و الدّخن و العدس. و فیها توفّی إبراهیم بن حمّاد بن إسـحاق، الشـیخ أبو إسحاق الأزدیّ المحدّث الصوفیّ، سمع خلقا کثیرا و کان زاهدا عابدا. و فیها توفّی أبو عبد اللّه محمد بن زید الواسطیّ المتکلّم.

و فيها توفى إبراهيم بن محمد بن عرفة بن سليمان بن المغيرة بن حبيب بن المهلّب بن

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۵۰

أبى صفرة، أبو عبد اللّه الأزدىّ العتكىّ الواسطىّ النحوىّ، و يعرف بنفطويه، ولد بواسط سنة أربعين و مائتين، و قيل: سنة خمسين و مائتين، و كان إمام عصره فى النحو و الأدب و غيرهما. و من شعره قوله:

أحبّ من الإخوان كلّ مواتى و كلّ غضيض الطرف عن عثراتى

يطاوعنى فى كلّ أمر أريده و يحفظنى حيّا و بعد وفاتى

و هجاه أبو عبد اللّه محمد بن زيد الواسطىّ المتكلّم فقال:

من سرّه ألّا يرى فاسقا فليجتهد ألّا يرى نفطويه

أحرقه اللّه بنصف اسمه و صيّر الباقى صراخا عليه

و فيها توفّى أحمد بن جعفر بن موسى بن يحيى بن خالد بن برمك أبو الحسن النديم الشاعر المشهور البرمكىّ، و يعرف بجحظة، ولد فى شعبان سنة أربع و عشرين و مائتين، كان فاضلا صاحب فنون و أخبار و نوادر و منادمة، و هو من ذرّية البرامكة.

و جحظة (بفتح الجيم و سكون الحاء المهملة و فتح الظاء المعجمة و بعدها هاء) هو لقب غلب عليه لقّبه به عبد اللّه بن المعتزّ؛ و كان كثير الأدب عارفا بالنحو و اللغة، و أما صنعة الغناء فلم يلحقه [فيها] أحد فى زمانه. و من شعره:

فقلت لها بخلت علىّ يقظى فجودى فى المنام لمستهام

فقالت لى: و صرت تنام أيضا و تطمع أن أزورك فى المنام

و كتب إليه الوزير ابن مقلة مرة بصلة، فمطله الجهبذ؛ فكتب إليه جحظ- المذكور يقول:

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۵۱

اذا كانت صلاتكم رقاعا تخطّط بالأنامل و الأكفّ

و لم تجد الرقاع علىّ نفعا فها خطّى خذوه بألف ألف

و فيها توفّى محمد بن إبراهيم بن عبدويه الشيخ أبو عبد اللّه الهذلىّ من ولد عبد اللّه بن مسعود رضى اللّه عنه؛ ولد بنيسابور و رحل فى طلب العلم و صنّف الكتب و خرج حاجّا فأصابه جراح فى نوبة القرمطىّ و ردّ الى الكوفة فمات بها.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أبو طالب أحمد بن نصر البغدادىّ الحافظ، و إبراهيم بن محمد بن عرفة النحوىّ نفطويه، و إسماعيل بن العباس الورّاق، و أبو نعيم عبد الملك بن محمد بن عدىّ الأسترآباذىّ، و أبو عبيد القاسم بن إسماعيل المحاملىّ.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و ستّ عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و سبع عشرة إصبعا.

ذكر ولاية محمد بن طغج الإخشيذ ثانية على مصر

الإخشيذ محمد بن طغج بن جفّ الفرغانىّ، وليها ثانيا من قبل الخليفة الراضى بالله محمد على الصلاة و الخراج بعد عزل الأمير أحمد بن كيغلغ عنها، بعد أمور وقعت تقدّم ذكر بعضها فى ترجمة ابن كيغلغ. و دخل الإخشيذ هذا إلى مصر أميرا عليها، بعد أن سلّم الأمير أحمد بن كيغلغ فى يوم الخميس لستّ بقين من شهر رمضان- و قال صاحب البغية: لخمس بقين من شهر رمضان- سنة ثلاث و عشرين و ثلثمائة. و أقرّ

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۵۲

على شرطته سعيد بن عثمان. ثم ورد عليه بالديار المصريّة أبو الفتح الفضل بن جعفر ابن محمد بالخلع من الخليفة الراضى بالله بولايته على مصر، فلبسها و قبّل الأرض. و رسم الخليفة الراضى بالله بأن يزاد فى ألقاب الأمير محمد هذا "الإخشيد "فى شهر رمضان سنة سبع و عشرين و ثلثمائة- و قد تقدّم ذكر ذلک فى ولايته الأولى على مصر و ما معنى الإخشيد- فزيد فى ألقابه و دعى له بذلک على منابر مصر و أعمالها. ثم وقع بين الإخشيد هذا و بين أصحاب أحمد بن كيغلغ فتنة و كلام أدّى ذلک للقتال و الحرب؛ و وقع بينهما قتال، فانكسر فى آخره أصحاب ابن كيغلغ، و خرجوا من مصر على أقبح وجه و توجّهوا الى برقة، ثم خرجوا من برقة و صاروا الى القائم بأمر اللّه ابن المهدىّ عبيد اللّه العبيدىّ بالمغرب، و حرّضوه على أخذ مصر و هوّنوا عليه أمرها؛ و كان فى نفسه من ذلک شیء، فجهّز إليها الجيوش لأخذها. و بلغ محمد بن طغج الإخشيد ذلک، فتهيّأ لقتالهم و جمع العساكر و جهّز الجيوش الى الإسكندرية و الصعيد. و بينما هو فى ذلک إذ ورد عليه كتاب الخليفة يعرّفه بخروج محمد بن رائق؛ و لمّا بلغه حركة محمد بن رائق و مجيئه الى الشامات، عرض الإخشيد عساكره و جهّز جيشا فى المراكب لقتال ابن رائق؛ ثم خرج هو بعد ذلک بنفسه فى المحرّم سنة ثمان و عشرين و ثلثمائة، و سار من مصر، بعد أن استخلف أخاه الحسن بن طغج على مصر، حتى نزل الإخشيد بجيوشه الى الفرما؛ و كان محمد بن رائق بالقرب منه؛ فسعى بينهما الحسن ابن طاهر بن يحيى العلوى فى الصلح حتّى تمّ له ذلک و اصطلحا؛ و عاد الإخشيد الى مصر فى مستهل جمادى الأولى من سنة ثمان و عشرين و ثلثمائة. و بعد قدوم الإخشيد الى مصر انتقض الصلح و سار محمد بن رائق من دمشق فى شعبان من السنة

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۵۳

الى نحو الديار المصرية. و بلغ ذلک الإخشيد فتجهّز و عرض عساكره و أنفق فيهم و خرج بجيوشه من مصر لقتال محمد بن رائق فى يوم سادس عشر شعبان، و سار كل منهما بعساكره حتى التقيا بالعريش- و قال أبو المظفّر فى مرآة الزمان: باللّجون - فكانت بينهما وقعة عظيمة انكسرت فيها ميمنة الإخشيد و ثبت هو فى القلب؛ ثم حمل هو بنفسه على أصحاب محمد بن زائق حملة شديدة فأسر كثيرا منهم و أمعن فى قتلهم و أسرهم؛ و قتل أخوه الحسين بن طغج فى الحرب. و افترق العسكران و عاد كل واحد الى محل إقامته، فمضى ابن رائق نحو الشام و عاد الإخشيد الى الرملة بخمسمائة أسير؛ ثم تداعيا الى الصلح. و كان لما قتل الحسين بن طغج أخو الإخشيد فى المعركة عزّ ذلک على محمد بن رائق، و أخذه و كفّنه و حنّطه و أنفذ معه ابنه مزاحما الى الإخشيد، و كتب معه كتابا يعزّيه فيه و يعتذر إليه و يحلف له أنه ما أراد قتله، و أنه أرسل ابنه مزاحما إليه ليفتديه بالحسين بن طغج إن أحبّ الإخشيد ذلک. فاستعاذ الإخشيد بالله من ذلک و استقبل مزاحما بالرّحب و القبول و خلع عليه و عامله بكلّ جميل، و ردّه الى أبيه. و اصطلحا على أن يفرج محمد بن رائق للإخشيد عن الرّملة، و يحمل إليه الإخشيد فى كلّ سنة مائة و أربعين ألف دينار، و يكون باقى الشام فى يد ابن رائق، و أن كلّا منهما يفرج عن أسارى الآخر؛ فتمّ ذلک. و عاد الإخشيد الى مصر فدخلها لثلاث خلون من المحرّم سنة تسع و عشرين و ثلثمائة، و عاد محمد بن رائق الى دمشق، فلم تطل مدّة الإخشيد بمصر إلّا و ورد عليه الخبر من بغداد بموت الخليفة الراضى بالله

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۵۴

فى شهر ربيع الآخر من السنة، و أنه بويع أخوه المتقى بالله إبراهيم بن المقتدر جعفر بالخلافة، و كان ورود هذا الخبر على الإخشيد بمصر فى شعبان من السنة، و أن المتقى أقرّ الإخشيد هذا على عمله بمصر. فاستمرّ الإخشيد على عمله بمصر بعد ذلک مدّة طويلة الى أن قتل محمد بن رائق فى قتال كان بينه و بين بنى حمدان بالموصل فى سنة ثلاثين و ثلثمائة؛ فعند ذلک جهزّ الإخشيد جيوشه الى الشام لمّا بلغه قتل محمد ابن رائق، ثم سار هو بنفسه لستّ خلون من شوّال سنة ثلاثين و ثلثمائة المذكورة، و استخلف أخاه أبا المظفّر الحسن بن طغج على مصر؛ و سار الإخشيد حتى دخل دمشق و أصلح أمورها و أقام بها مدّة. ثم خرج منها عائدا الى الديار المصريّة حتى وصلها فى ثالث عشر جمادى الأولى سنة إحدى و ثلاثين و ثلثمائة، و نزل البستان الذى يعرف الآن بالكافورىّ داخل القاهرة؛ ثم انتقل بعد أيّام الى داره؛ و أخذ البيعة على المصريّين لابنه أبى القاسم أنوجور و على جميع القوّاد و الجند، و ذلک فى آخر ذى

القعدة. و بعد مدّة بلغ الإخشيذ مسير الخليفة المتقى بالله الى بلاد الشام و معه بنو حمدان؛ فخرج الإخشيذ من مصر و سار نحو الشام لثمان خلون من شهر رجب سنة اثنتين و ثلاثين و ثلثمائة، و استخلف أخاه أبا المظفّر الحسن بن طغج على مصر، و وصل دمشق ثم سار حتّى وافى المتقى بالرّقّة، فلم يمكن من دخولها لأجل سيف الدولة علىّ بن حمدان. ثم بان للخليفة المتّقى من بنى حمدان الملل و الضجر منه، فراسل توزون و استوثق منه. ثم اجتمع بالإخشيذ هذا و خلع عليه؛ و أهدى إليه الإخشيذ

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۵۵

تحفا و هدايا و أموالا. و بلغ الإخشيذ مراسلة توزون، فقال للخليفة: يا أمير المؤمنين أنا عبدك و ابن عبدک، و قد عرفت الأتراك و غدرهم و فجورهم، فاللّه فى نفسك! سر معى إلى الشام و مصر فهى لک، و تأمن على نفسک؛ فلم يقبل المتقى ذلك؛ فقال له الإخشيذ: فأقم هنا و أنا أمدّك بالأموال و الرجال، فلم يقبل منه أيضا. ثم عدل الإخشيذ الى الوزير ابن مقلة و قال له: سر معى، فلم يقبل ابن مقلة أيضا مراعاة للخليفة المتقى. و كان ابن مقلة بعد ذلک يقول: يا ليتنى قبلت نصح الإخشيذ!.

ثم سلّم الإخشيذ على الخليفة و رجع الى نحو بلاده حتى وصل الى دمشق؛ فأمّر عليها الحسين بن لؤلؤ؛ فبقى ابن لؤلؤ على إمرة دمشق سنة و أشهرا؛ ثم نقله الإخشيذ الى نيابة حمص؛ و ولّى على دمشق يأنس المؤنسىّ. و عاد الإخشيذ الى الديار المصريّة و دخلها لأربع خلون من جمادى الأولى سنة ثلاث و ثلاثين و ثلثمائة، و نزل بالبستان المعروف بالكافورىّ على عادته. فلم تكن مدّة إلا و ورد عليه الخبر بخلع المتقى من الخلافة و تولية المستكفى، و ذلک لسبع خلون من جمادى الآخرة من السنة؛ و أن الخليفة المستكفى أقرّ الإخشيد هذا على ولايته بمصر و الشأم على عادته. ثم وقع بين الإخشيذ و بين سيف الدولة علىّ [ابن عبد اللّه] بن حمدان وحشة و تأكدت الى أوّل سنة أربع و ثلاثين و ثلثمائة؛ ثم اصطلحا على أن يكون لسيف الدولة حلب و أنطاكية و حمص، و يكون باقى بلاد الشام للإخشيذ. و تزوّج سيف الدولة ببنت أخى الإخشيذ.

ثم وقّع أيضا بين الإخشيذ و بين سيف الدولة ثانيا، و جهّز الإخشيذ الجيوش لحربه و على الجيوش خادمه كافور الإخشيذى وفاتک الإخشيذى؛ ثم خرج الإخشيذ بعدهما من مصر فى خامس شعبان سنة ثلاث و ثلاثين و ثلثمائة، و استخلف أخاه أبا المظفّر الحسن ابن طغج على مصر، و سار الإخشيذ بعساكره حتّى لقى سيف الدولة علّى بن عبد اللّه ابن حمدان بقنّسرين، و حاربه فكسره و أخذ منه حلب. ثم بلغه خلع المستكفى من

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۵۶

الخلافة و بيعة المطيع للّه الفضل فى شوّال سنة أربع و ثلاثين و ثلثمائة؛ و أرسل المطيع الى الإخشيذ باستقراره على عمله بمصر و الشام. فعاد الإخشيذ الى دمشق، فمرض بها و مات فى يوم الجمعة لثمان بقين من ذى الحجّة سنة أربع و ثلاثين و ثلثمائة. و ولى بعده ابنه أبو القاسم أنوجور باستخلاف أبيه له. فكانت مدّة ولاية الإخشيذ على مصر فى هذه المرّة الثانية إحدى عشرة سنة و ثلاثة أشهر و يومين. و الإخشيذ: بكسر الهمزة و سكون الخاء المعجمة و كسر الشين المعجمة و بعدها ياء ساكنة مثناة من تحتها ثم ذال معجمة، و تفسيره بالعربىّ ملك الملوک. و طغج: بضم الطاء المهملة و سكون الغين المعجمة و بعدها جيم. و جفّ: بضم الجيم و فتحها و بعدها فاء مشدّدة.

و كان الإخشيذ ملكا شجاعا مقداما حازما متيقّظا حسن التدبير عارفا بالحروب مكرما للجند شديد البطش ذا قوّة مفرطة لا يكاد أحد يجرّ قوسه، و له هيبة عظيمة فى قلوب الرعيّة، و كان متجمّلا فى مركبه و ملبسه. و كان موكبه يضاهى موكب الخلافة. و بلغت عدة مماليكه ثمانية آلاف مملوک، و كان عدّة جيوشه أربعمائة ألف. و كان قوىّ التحرّز على نفسه، و كانت مماليكه تحرسه بالنّوبة عند ما ينام كلّ يوم ألف مملوک، و يوكّل الخدم بجوانب خيمته، ثم لا يثق بأحد حتّى يمضى الى خيمة الفراشين فينام فيها. و عاش ستين سنة. و خلّف أولادا ملوكا. و هو أستاذ كافور الإخشيذىّ الآتى ذكره. قال الذهبىّ: و توفّى بدمشق فى ذى الحجّة عن ستّ و ستين سنة، و نقل فدفن ببيت المقدس الشريف، و مولده ببغداد. و قال ابن خلكان ": و لم يزل فى مملكته و سعادته الى أن توفّى فى الساعة

الرابعة يوم الجمعة لثمان بقين من ذى الحجّة سنة أربع و ثلاثين و ثلثمائة. "انتهى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۵۷

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۲۴]

السنة الثانية من ولاية الإخشيذ محمد بن طغج على مصر، و قد تقدّم أنه حكم فى السنة الماضية على مصر من شهر رمضان سنة ثلاث و عشرين و ثلثمائة، فتكون سنة أربع و عشرين و ثلثمائة هذه هى الثانية من ولايته، و لا عبرة بتكملة السنين- فيها (أعنى سنة أربع و عشرين و ثلثمائة) قطع محمد بن رائق الحمل عن بغداد، و احتج بكثرة كلف الجيش عنده. و فيها توفّى هارون بن المقتدر أخو الخليفة المطيع للّه و حزن عليه أخوه الخليفة و اغتمّ له، و أمر بنفى الطبيب بختيشوع بن يحيى و اتهمه بتعمّد الخطأ فى علاجه. و فيها فى شهر ربيع الأوّل أطلق من الحبس المظفّر بن ياقوت، و حلف للوزير على المصافاة، و فى نفسه الحقد عليه، لأنه نكبه و نكب أخاه محمدا؛ ثم أخذ يسعى فى هلاكه، و لا زال يدبّر على الوزير ابن مقلة حتى قبض عليه و أحرقت داره، و هذه المرّة الثالثة؛ و استوزر عوضه عبد الرّحمن بن عيسى، و هو أخو الوزير علىّ بن عيسى برغبة أخيه عن الوزارة- و كان ابن مقلة قد أحرق دار سليمان ابن الحسن- و كتبوا على داره:

أحسنت ظنّك بالأيّام إذ حسنت و لم تخف سوء ما يجرى به القدر

و سالمتك الليالى فاغتررت بها و عند صفو الليالى يحدث الكدر

ثم وقع بعد ذلك أمور يطول شرحها. و قبض الراضى على الوزير عبد الرّحمن ابن عيسى و على أخيه علىّ بن عيسى لعجزه عن القيام بالكلف؛ و استوزر أبا جعفر محمد بن القاسم الكرخىّ، و سلّم ابنى عيسى للكرخىّ، فصادرهما برفق، فأدّى كلّ واحد سبعين ألف دينار. ثم عجز الكرخىّ أيضا؛ فاستوزر الراضى عوضه أبا القاسم سليمان ابن الحسن؛ فكان سليمان فى العجز بحال الكرخىّ و زيادة. فدعت الضرورة أن الراضى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۵۸

كاتب محمد بن رائق و استقدمه و قلّده جميع أمور الدولة؛ و بطل حينئذ أمر الوزارة و الدواوين و بقى اسم الوزارة لا غير، و تولّى الجميع محمد بن رائق. و فيها كان الوباء العظيم بأصبهان و بغداد، و غلت الأسعار. و فيها سار الدّمستق بجيوش الروم إلى آمد و سميساط؛ فسار سيف الدولة بن حمدان [إلى آمد]- و هذا أوّل مغازيه- و حاربه و وقع له معه أمور حتّى ملك الدّمستق سميساط و أمّن أهلها؛ و كان الحسن أخو سيف الدولة قد غلب على الموصل و استفحل أمره. و فيها عاثت العرب من بنى نمير و قشير و ملكوا ديار ربيعة و مضر و شنّوا الغارات و قطعوا السّبل؛ و خلت المدائن من الأقوات لضعف أمر الخلافة، لأن الخليفة الراضى صار مع ابن رائق كالمحجور عليه و الأسير فى يده، و الأمر كلّه لابن رائق. و فيها توفّى أحمد بن موسى بن العباس الشيخ أبو بكر المقرئ البغدادىّ الإمام العلّامة. مولده فى سنة خمس و أربعين و مائتين، و كان إمام القرّاء فى زمانه، و له مشاركة فى فنون. و فيها توفّى الحسن بن محمد بن أحمد الشيخ أبو القاسم السّلمىّ الدّمشقىّ، و يعرف بابن برغوث. روى عن صالح بن الإمام أحمد بن حنبل قصّة الشعر. و فيها توفّى صالح بن محمد بن شاذان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۵۹

الشيخ أبو الفضل الأصبهانىّ الحافظ المحدّث، رحل الى البلاد و سمع الكثير ثم توجّه الى مكة فمات بها فى شهر رجب من السنة. و فيها توفى عبد اللّه [بن أحمد] ابن محمد بن المغلّس أبو الحسن الفقيه الظاهرىّ؛ أخذ الفقه عن أبى بكر بن داود الظاهرىّ و برع فى علم الظاهر. و فيها توفّى محمد بن الفضل بن عبد اللّه الشيخ أبو ذرّ التّميمىّ الشافعىّ فقيه جرجان و رئيسها. و فيها توفّى عبد اللّه بن

محمد ابن زياد بن واصل بن ميمون الحافظ أبو بكر النيسابوريّ الفقيه الشافعيّ مولى آل عثمان بن عفّان رضى اللّه عنه. قال الدارقطنىّ: ما رأيت أحفظ منه. و مولده فى سنة ثمان و ثلاثين و مائتين، و مات فى رابع شهر ربيع الآخر. و فيها توفّى على ابن إسماعيل بن أبى بشر إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبد اللّه بن موسى بن بلال ابن أبى بردة بن أبى موسى بن عبد اللّه بن قيس الأشعرىّ البصرىّ المتكلم أبو الحسن، صاحب التصانيف فى الكلام و الأصول و الملل و النحو؛ و مولده سنة ستّين و مائتين؛ و كان معتزليا ثم تاب. و فيها كان الطاعون العظيم بأصبهان و مات فيه خلق كثير و تنقّل فى عدّة بلاد.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أبو عمرو أحمد ابن بقىّ بن مخلد، و جحظة النّديم أحمد بن جعفر بن موسى البرمكىّ، و أبو بكر أحمد ابن موسى بن العبّاس بن مجاهد المقرئ، و أبو الحسن عبد اللّه بن أحمد المغلّس البغدادىّ الداودىّ إمام أهل الظاهر فى زمانه، و أبو بكر عبد اللّه بن محمد بن زياد النّيسابورىّ، و أبو القاسم عبد الصمد بن سعيد الحمصىّ، و أبو الحسن علىّ بن إسماعيل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۶۰

الأشعرىّ المتكلّم، و علىّ بن عبد اللّه بن المبشّر الواسطىّ، و أبو القاسم علىّ بن محمد ابن كاس النّخعىّ الكوفىّ الحنفىّ قاضى دمشق.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و ستّ عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و ثلاث و عشرون إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۲۵]

السنة الثالثة من ولاية الإخشيد على مصر، و هى سنة خمس و عشرين و ثلثمائة- فيها لم يحجّ أحد من العراق خوفا من القرمطىّ. و فيها ظهرت الوحشة بين محمد بن رائق و بين أبى عبد اللّه البريدىّ. و [فيها] وافى أبو طاهر القرمطىّ الكوفة فدخلها فى شهر ربيع الآخر؛ فخرج ابن رائق فى جمادى الأولى و عسكر بظاهر بغداد و سيّر رسالته الى القرمطىّ فلم تغن شيئا. و فيها استوزر الراضى أبا الفتح بن جعفر ابن الفرات بمشورة ابن رائق، و كان ابن الفرات بالشام فأحضروه. و فيها أسّس أمير الأندلس الناصر لدين اللّه الأموىّ مدينة الزّهراء، و كان منتهى الإنفاق فى بنائها كلّ يوم ما لا يحدّ؛ كان يدخل فيها كلّ يوم من الحجر المنحوت ستة آلاف صخرة سوى الآجرّ و غيره؛ و حمل إليها الرّخام من أقطار الغرب، و دخل فيها أربعة آلاف و ثلثمائة سارية؛ و أهدى له ملك الفرنج أربعين سارية رخام؛ و أما الوردىّ و الأخضر فمن إفريقيّة؛ و الحوض المذهّب جلب من قسطنطيتّة، و الحوض الصغير عليه صورة أسد و صورة غزال و صورة عقاب و صورة ثعبان و غير ذلك، و الكلّ بالذهب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۶۱

المرصّع بالجوهر؛ و بقوا فى بنائها ستّ عشرة سنة؛ و كان ينفق عليها ثلث دخل الأندلس، و كان دخل الأندلس يومئذ خمسة آلاف ألف و أربعمائة ألف و ثمانين ألف درهم. و بين هذه المدينة (أعنى الزهراء) و بين قرطبة أربعة أميال. و أطوالها ألف و ستمائة ذراع، و عرضها ألف و سبعون ذراعا. و لم يبن فى الإسلام أحسن منها؛ لكنّها صغيرة بالنسبة إلى المدائن. و كان بسورها ثلثمائة برج. و عمل ثلثها قصورا للخلافة، و ثلثها للخدم، و ثلثها الثالث بساتين. و قيل: إنه عمل فيها بحرة ملأها بالزئبق. و قيل: إنه كان يعمل فيها ألف صانع مع كلّ صانع اثنا عشر أجيرا. و قد أحرقت هذه المدينة و هدمت فى حدود سنة أربعمائة، و بقيت رسومها و سورها.

و فيها توفّى أحمد بن محمد بن حسن أبو حامد الشّرقىّ النّيسابورىّ الحافظ الحجة تلميذ مسلم، سمع الكثير، و صنّف الصحيح، و كان أوحد عصره، و روى عنه غير واحد، و مات فى شهر رمضان، و صلّى عليه أخوه عبد اللّه. و فيها توفّى الأمير عدنان ابن الأمير أحمد بن طولون، قدم بغداد و حدّث بها عن الربيع بن سليمان المزنىّ، و قدم دمشق أيضا و حدّث بها، و كان ثقة صالحا. رضى اللّه عنه. و فيها

توفّى موسى بن عبيد اللّه ابن يحيى بن خاقان أبو مزاحم، كان أبوه وزير المتوكّل، و كان موسى هذا ثقة خيّرا من أهل السّنّة.

الـذين ذكر الـذهبى وفاتهم فى هذه السـنة، قال: و فيها توفّى أبو حامد أحمد بن محمد بن [حسن] الشّرقىّ، و أبو إسـحاق إبراهيم بن عبـد الصـمد بن موسـى الهاشـمى، و أبو العبّاس محمـد بن عبد الرّحمن، و مكّى بن عبدان التّميمىّ، و أبو مزاحم موسـى بن عبيد اللّه الخاقانىّ.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۶۲

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و ستّ عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و ستّ عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۲۶]

السـنة الرابعة من ولاية الإخشيذ على مصـر، و هى سـنة ستّ و عشرين و ثلثمائة- فيها سار أبو عبد اللّه البريدىّ لمحاربة بجكم بعد أن استعان البريدىّ بالأمير علىّ ابن بويه؛ فبعث علىّ بن بويه معه أخاه أبا الحسـين أحمد بن بويه. و أما البريديّون فهم ثلاثة: أبو عبد اللّه، و أبو الحسين، و أبو يوسف، كانوا كتّابا على البريد. و فيها قطعت يد الوزير ابن مقلة الكاتب المشهور ثم قطع لسانه و مات فى حبسه. و سـببه أنّ ابن رائق لمّا وصل إليه التدبير كتب ابن مقلة الى بجكم يطمعه فى الحضـرة، و بلغ ابن رائق، و أظهر الخليفة أمره و اسـتفتى القضاة، فيقال: إنهم أفتوا بقطع يـده، و لم يصـحّ ذلک؛ فأخرجه الراضـى الى الـدّهليز و قطع يـده بحضـرة الأمراء؛ و حبس ابن مقلـة و اعتلّ؛ فلما قرب بجكم من بغداد قطع ابن رائق لسانه أيضا؛ و بقى فى الحبس الى أن مات، حسـبما يأتى ذكره. و فيها ورد كتاب ملک الروم الى الراضـى، و كانت الكتابـة بالروميّة بالذهب و الترجمة العربيّة بالفضّة، و عنوانه من رومانس و قسـطنطين و إسـطفانس عظماء ملوک الروم الى الشريف البهىّ ضابط سلطان المسلمين:

"بـاسم الأب و الابن و روح القـدس الإله الواحـد، الحمـد للّه ذى الفضل العظيم، الرءوف بعباده الجامع للمفترقات، و المؤلّف للأمم المختلفة فى العداوة حتى يصيروا

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۶۳

واحدا، " ... و حاصل الكتاب أنّه أرسل بطلب الهدنة. فكتب اليهم الراضى بإنشاء أحمد بن محمد بن جعفر بن ثوابة بعد البسملة:

"من عبـد اللّه أبى العبـاس الإمام الراضـى بالله أمير المؤمنين الى رومانس و قسـطنطين و إسـطفانس رؤساء الروم. سـلام على من اتّبع الهدى، و تمسّک بالعروة الوثقى، و سـلک سبيل النجاة و الزّلفى». ... ثم أجابهم الى ما طلبوا. و فيها قلّد الخليفة الراضـى بجكم إمارة بغداد و خراسان، و ابن رائق مسـتتر. و فيها كانت ملحمة عظيمة بين الحسن بن عبد اللّه بن حمدان و بين الدّمسـتق، و نصر اللّه الاسلام و هرب الدّمسـتق، و قتل من ناصـريه خلائق، و أخذ سـرير الدمسـتق و صليبه، و فيها توفّى إبراهيم بن داود أبو إسحاق الرّقّىّ؛ كان من جلّة مشايخ دمشق و له كرامات و أحوال. و فيها توفّى عبد اللّه بن محمد بن سـفيان أبو الحسـين الجزّار النحوىّ، كان له التصانيف فى علوم القرآن و غيرها.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۶۴

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السـنة، قال: و فيها توفّى أبو ذرّ أحمد بن محمد ابن محمد بن سليمان بن الباغندىّ، و عبد الرّحمن بن أحمد بن محمد بن الحجّاج بن رشّد بن، و محمد بن زكرياء بن القاسم المحاربىّ.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و أربع أصابع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و عشر أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۲۷]

السنة الخامسة من ولاية الإخشيذ على مصر، و هى سنة سبع و عشرين و ثلثمائة- فيها سافر الراضى و بجكم لمحاربة الحسن بن عبد اللّه بن حمدان، و كان قد أخّر الحمل عما ضمنه من الموصل و الجزيرة؛ فأقام الراضى بتكريت، ثم التقى بجكم و ابن حمدان، و انهزم أصحاب بجكم و أسر بعضهم؛ فحنق بجكم و حمل بنفسه فانهزم أصحاب ابن حمدان؛ و أتبعه بجكم الى أن بلغ نصيبين، و هرب ابن حمدان الى آمد. ثم صالحا بعد ذلك؛ و صاهر بجكم الحسن بن حمدان المذكور. و فيها مات الوزير أبو الفتح الفضل [بن جعفر] بن الفرات بالرّملة. و فيها استوزر الراضى أبا عبد اللّه أحمد بن محمد البريدىّ، أشار عليه بذلك ابن شيرزاد، و قال: نكفى شرّه؛ فبعث الراضى قاضى القضاة أبا الحسين عمر بن محمد بن يوسف إليه بالخلع و التقليد. و فيها كتب أبو علىّ عمر بن يحيى العلوىّ الى القرمطىّ- و كان يحبّه- أن يطلق طريق الحاجّ و يعطيه عن كلّ حمل خمسة دنانير، فأذن و حجّ بالناس؛ و هى أوّل سنة أخذ فيها المكس من الحجّاج. و فيها توفّى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۶۵

عبد الرّحمن [بن محمد] بن إدريس أبو محمد بن أبى حاتم الرازىّ الحافظ ابن الحافظ؛ كان إماما، صنّف "الجرح و التعديل. "قال أحمد بن عبد اللّه النّيسابورىّ: كنا عنده و هو يقرأ علينا الجرح و التعديل الذى صنّفه؛ فدخل يوسف بن الحسين الرازىّ، فجلس و قال: يا أبا محمد، ما هذا؟ فقال: الجرح و التعديل؛ قال: و ما معناه؟

قال: أظهر أحوال العلماء من كان ثقة و من كان غير ثقة؛ فقال له يوسف:

أما استحييت من اللّه تعالى! تذكر أقواما قد حطّوا رواحلهم فى الجنة، أو عند اللّه، منذ مائة سنة أو مائتى سنة تغتابهم!؛ فبكى عبد الرّحمن و قال: يا ابا يعقوب، و اللّه لو طرق سمعى هذا الكلام قبل أن أصنّفه ما صنّفته؛ و ارتعد و سقط الكتاب من يده، و لم يقرأ فى ذلك المجلس. قلت: فلو رأى الشيخ يوسف كلام الخطيب فى تاريخ بغداد، و هو يقع فى حقّ العلماء الأعلام الزهّاد بكلام يخرجهم من الإسلام بذلك اللسان الخبيث، فما كان يفعل به!. و فيها توفّى محمد بن جعفر بن محمد أبو بكر الخرائطىّ من أهل سرّ من رأى، و كان عالما ثقة جيّد التصانيف متفنّنا. رضى اللّه عنه.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أبو علىّ الحسين بن القاسم الكوفىّ، و عبد الرّحمن بن أبى حاتم الرازىّ فى المحرّم، و أبو بكر محمد بن جعفر السّامرّىّ الخرائطىّ.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثلاث أذرع و عشرون إصبعا. مبلغ الزيادة أربع عشرة ذراعا و إحدى و عشرون إصبعا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۶۶

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۲۸]

السنة السادسة من ولاية الإخشيذ على مصر، و هى سنة ثمان و عشرين و ثلثمائة- فيها ورد الخبر الى بغداد بأنّ سيف الدولة علىّ بن عبد اللّه بن حمدان هزم الدّمستق.

و فيها خرج بجكم الى الجبل و عاد. و فيها غرقت بغداد غرقا عظيما، بلغت الزيادة تسع عشرة ذراعا، و انبثق بثق من نواحى الأنبار فاجتاح القرى، و غرق من الناس و السباع و البهائم ما لا يحصى، و دخل الماء الى بغداد من الجانب الغربىّ، و تساقطت الدّور، و انقطعت القنطرتان: القنطرة العتيقة و الجديدة عند باب البصرة. و فيها تزوّج بجكم بسارّة بنت الوزير أبى عبد اللّه البريدىّ. و فيها فى شعبان توفّى قاضى القضاة أبو الحسين عمر بن محمد بن يوسف و قلّد مكانه ابنه القاضى أبو نصر يوسف.

و فيها فسد الحال بين بجكم و بين الوزير أبى عبد اللّه البريدىّ بعد المصاهرة لأمور صدرت؛ فعزل بجكم الوزير المذكور و استوزر مكانه أبا القاسم سليمان [بن الحسن] ابن مخلد، و خرج بجكم الى واسط. و فى شهر رمضان ملك محمد بن رائق حمص و الشام إلى الرّملة و إلى العريش، و وقع بينه و بين الإخشيذ وقعة انهزم فيها الإخشيذ.

قلت: هى الوقعة التى ذكرناها فى ترجمة الإخشيذ. و فيها توفّى أحمد بن محمد بن عبد ربه بن حبيب أبو عمر الأموىّ مولى هشام بن عبد الرّحمن الداخل الأموىّ الأندلسىّ القرطبىّ صاحب كتاب العقد [الفريد] فى الأخبار. ولد سنة ستّ و أربعين و مائتين؛ و كان أديب الأندلس و فصيحها، مدح ملوك الأندلس، و كان صدوقا ثقة. و هو القائل:

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۶۷

الجسم فى بلد و الروح فى بلد يا وحشة الروح بل يا غربة الجسد

إن تبك عيناك لى يا من كلفت به من رحمة فهما سهماك فى كبدى

و له:

يا ليلة ليس فى ظلمائها نور إلّا وجوها تضاهيها الدنانير

خود سقتنى كأس الموت أعينها ما ذا سقتنيه تلك الأعين الحور

إذا ابتسمن فدرّ الثّغر منتظم و إن نطقن فدرّ اللفظ منثور

و فيها توفّى الحسن بن أحمد بن يزيد أبو سعيد الإصطخرىّ شيخ الشافعيّة؛ سمع الكثير و حدّث و برع فى الفقه و غيره، و مات فى جمادى الآخرة. و فيها توفّى محمد ابن أحمد بن أيّوب بن الصّلت أبو الحسين المقرئ المشهور المعروف بابن شنّبود، و قد تقدّم ذكر واقعته مع الوزير ابن مقلة فى سنة ثلاث و عشرين و ثلثمائة. قرأ ابن شنّبود على أبى حسّان محمد بن أحمد العنبرىّ و إسماعيل بن عبد اللّه النحّاس و الزبير ابن محمد بن عبد اللّه العمرىّ المدنىّ صاحب «قالون» و غيرهم؛ و سمع الحديث أيضا من جماعة، و قرأ القرآن ببغداد سنين، قرأ عليه خلائق؛ و كان قد تخيّر لنفسه شواذ قراءة كان يقرأ بها فى المحراب حتى فحص أمره و قبض عليه فى سنة ثلاث و عشرين و ثلثمائة، و وقع له ما حكيناه مع ابن مقلة. و فيها توفّى محمد بن عبد الوهاب ابن عبد الرّحمن بن عبد الوهاب أبو علىّ الثّقفىّ النّيسابورىّ الزاهد الواعظ الفقيه، هو من ولد الحجّاج بن يوسف الثّقفىّ، ولد بقوهستان سنة أربع و أربعين و مائتين، و سمع الحديث فى كبره من جماعة، و روى عنه آخرون؛ و كان كبير الشأن أعجوبة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۶۸

زمانه فى الوعظ و التصوّف و الفقه و الزهد. و فيها توفّى محمد بن علىّ بن الحسن ابن مقلة أبو على الوزير صاحب الخطّ المنسوب [إليه]، ولى بعض أعمال فارس ثم وزر للمقتدر سنة ستّ عشرة و ثلثمائة، ثم قبض عليه و صادره و حبسه عامين، ثم وزر بعد ذلك ثانيا و ثالثا لعدّة خلفاء؛ و وقع له حوادث و محن حتّى قطعت يده و لسانه و حبس حتّى مات. قال الصّولى: ما رأيت وزيرا منذ توفّى القاسم بن عبيد اللّه أحسن حركة، و لا أظرف إشارة، و لا أملح خطّا، و لا أكثر حفظا، و لا أسلط قلما، و لا أقصد بلاغة، و لا آخذ بقلوب الخلفاء، من محمد بن علىّ (يعنى ابن مقلة). قال: و له بعد هذا كلّه علم بالإعراب و حفظ اللغة. و قال محمد بن إسماعيل الكاتب: لما نكب أبو الحسن بن الفرات أبا علىّ بن مقلة لم أدخل إليه فى حبسه و لا- كاتبته، خوفا من ابن الفرات، فلما طال أمره كتب إلىّ يقول:

ترى حرّمت كتب الأخلّاء بينهم أبن لى أم القرطاس أصبح غاليا

فما كان لو ساءلتنا كيف حالنا و قد دهمتنا نكبة هى ما هيا

صديقك من راعاك عند شديدة و كلّ تراه فى الرخاء مراعيا

فهبك عدوّى لا صديقى فربّما تكاد الأعادى يرحمون الأعاديا

و أنفذ فی طیّ الورقة ورقة الی الوزیر، فیها:

"أمسکت- أطال اللّه بقاء الوزیر- عن الشکوی، حتی تناهت البلوی؛ فی النفس و المال، و الجسم و الحال؛ الی ما فیه شفاء للمنتقم، و تقویم للمجترم؛ حتی أفضیت الی الحیرة و التبلّد، و عیالی الی الهتکة و التشرد. و ما أبداه الوزیر- أیّده اللّه- فی أمری إلا بحقّ واجب، و ظنّ غیر کاذب. و علی کل حال فلی ذمام و حرمة،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۶۹

و صحبة و خدمة؛ إن کانت الإساءة أضاعتها، فرعایة الوزیر أیده اللّه تعالی بحفظه، و لا مفزع إلا إلی اللّه بلطفه، و کنف الوزیر و عطفه؛ فإن رأی- أطال اللّه بقاءه- أن یلحظ عبده بعین رأفته، و ینعم بإحیاء مهجته، و تخلیصها من العذاب الشدید، و الجهد الجهید؛ و یجعل له من معروفه نصیبا، و من البلوی فرجا قریبا. "و فیها توفّی محمد ابن القاسم بن محمد بن بشّار أبو بکر [بن] الأنباریّ النحویّ اللغویّ العلّامة، ولد سنة إحدی و سبعین و مائتین، سمع الکثیر و روی عنه جماعة کثیرة. و قال أبو علیّ القالیّ تلمیذه: کان أبو بکر یحفظ ثلثمائة ألف بیت شاهد فی القرآن. و فیها توفّی أبو الحسن المزیّن أحد مشایخ الصوفیّة ببغداد، کان اسمه فیما قیل علیّ بن محمد. قال السّلمیّ:

صحب الجنید و سهل بن عبد اللّه؛ و أقام بمکّة مجاورا الی أن مات، و کان من أورع المشایخ و أحسنهم حالا. و هذا هو أبو الحسن المزیّن الصغیر؛ و أما أبو الحسن المزین الکبیر فبغدادیّ أیضا، و له ترجمة فی تاریخ السّلمیّ مختصرة. و فیها توفّی المرتعش الزاهد النّیسابوریّ، هو عبد اللّه بن محمد، أصله من محلة الحیرة، و صحب ابا حفص و الجنید، و کان أحد مشایخ العراق. قال أبو عبد اللّه الرازیّ: کان مشایخ العراق یقولون: عجائب بغداد فی التصوّف ثلاث: إشارات الشّبلیّ، و نکت أبی محمد المرتعش،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۷۰

و حکایات جعفر الخلدیّ. و سئل المرتعش: بماذا ینال العبد المحبّة لمولاه؟ قال: بموالاة أولیاء اللّه و معاداة أعدائه. و قیل له: إن فلانا یمشی علی الماء؛ فقال: عندی أن من یمکّنه اللّه من مخالفة هواه أعظم من المشی علی الماء.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم ثلاث أذرع و خمس أصابع. مبلغ الزیادة ستّ عشرة ذراعا و ستّ أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۲۹]

السنة السابعة من ولایة الإخشید علی مصر، و هی سنة تسع و عشرین و ثلثمائة- فیها استکتب بجکم أبا عبد اللّه الکوفیّ، و عزل ابن شیرزاد عن کتابته و صادره. و فیها فی صفر وصلت الروم الی کفرتوثا من أعمال الجزیرة، فقتلوا و سبوا.

و فیها فی شهر ربیع الأوّل اشتدّت علّة الراضی، وقاء فی یومین أرطالا من الدم؛ فأرسل أبا عبد اللّه الکوفیّ المذکور الی بجکم یسأله أن یولّی العهد ابنه أبا الفضل و هو الأصغر، و کان بجکم بواسط، ثم توفّی الراضی. و فیها فی سابع جمادی الآخرة سقطت القبّة الخضراء بمدینة المنصور، و کانت تاج بغداد و مأثرة بنی العباس. قال الخطیب فی تاریخه: إنّ المنصور بناها ارتفاع ثمانین ذراعا، و إن تحتها إیوانا طوله عشرون ذراعا فی مثلها. و قیل: کان علیها مثال فارس فی یده رمح، اذا استقبل به جهة علم أن خارجیّا یظهر من تلک الجهة؛ فسقط رأس هذه القبّة لیلة ذات مطر و برد و رعد. و فیها کان غلاء مفرط و وباء عظیم ببغداد، و خرج الناس یستسقون و ما فی السماء غیم، فرجعوا یخوضون فی الوحل، و استسقی بهم أحمد بن الفضل الهاشمیّ.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۷۱

و فیها عزل المتّقی الوزیر سلیمان، و استوزر أبا الحسین أحمد بن محمد بن میمون الکاتب؛ ثم قدم أبو عبد اللّه البریدیّ یطلب الوزارة فأجابه المتّقی. و کانت وزارة ابن میمون شهرا. و فیها قلّد الخلیفة المتّقی إمرة [الأمراء] الأمیر کورتکین الدیلمیّ، و قلّد بدرا الخرشنیّ

الحجابة. و فيها توفى أمير المؤمنين الراضى بالله أبو إسحاق محمد ابن الخليفة جعفر المقتدر ابن الخليفة المعتضد أحمد ابن ولّى العهد الموفّق طلحة ابن الخليفة المتوكّل جعفر ابن الخليفة المعتصم محمد ابن الخليفة الرشيد هارون ابن الخليفة المهديّ محمد ابن الخليفة أبى جعفر المنصور عبد اللّه بن محمد بن علىّ بن عبد اللّه ابن العباس الهاشمىّ البغدادىّ العباس؛ بويع بالخلافة بعد موت عمّه القاهر بالله، و مات فى منتصف شهر ربيع الآخر و هو ابن إحدى و ثلاثين سنة و ستّة أشهر.

و بويع بالخلافة أخوه إبراهيم، و لقّب بالمتّقى. و أم الراضى أم ولد روميّة. كان الراضى فاضلا سمحا جوادا شاعرا محبّا للعلماء؛ و هو آخر خليفة له شعر مدوّن، و آخر خليفة انفرد بتدبير الجند، و آخر خليفة خطب يوم الجمعة، و آخر خليفة جالس الندماء.

قال الصولىّ: سئل الراضى أن يخطب يوم جمعة، فصعد المنبر بسرّمن‌رأى، فحضرت أنا و إسحاق بن المعتمد؛ فلما خطب شنّف الأسماع و بالغ فى الموعظة. انتهى.

قلت: و من شعر الراضى رضى اللّه عنه:

كلّ صفو الى كدر كلّ أمن الى حذر

و مصير الشباب لل موت فيه أو الكبر

درّدرّ المشيب من واعظ ينذر البشر

أيّها الآمل الذى تاه فى لجّة الغرر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۷۲

أين من كان قبلنا ذهب الشخص و الأثر

ربّ فاغفر لى الخطى ئة يا خير من غفر

و فيها فى شوّال اجتمعت العامّة و تظلّموا من الديلم و نزولهم فى دورهم، فلم يقع لذلك إنكار؛ فمنعت العامّة الإمام من الصلاة و كسرت المنبر، و منعهم الديلم من ذلك، فقتل من الفريقين جماعة كثيرة. و فيها استوزر المتّقى القراريطىّ، و خلع المتقى على بدر الخرشنىّ، و قلّده الحجابة و جعله حاجب الحجّاب. قلت: هذا أوّل ما سمعنا بمن سمّى حاجب الحجّاب؛ و لكن لا نعلم هل كان بهذه الكيفيّة أو غير هذه الصورة من أنه كبير الحجبة؛ و لعلّه ذلك. و فيها توفّى بجكم التركىّ الأمير أبو الخير، كان أمير الأمراء قبل بنى بويه، و كان عاقلا يفهم العربيّة، و لا يتكلّم بها بل يتكلّم بترجمانه، و يقول: [أخاف] أن أتكلّم فأخطئ، و الخطأ من الرئيس قبيح. و كان عاقلا سيوسا عارفا، يتولّى المظالم بنفسه. قال القاضى التّنوخىّ: جاء رجل من الصوفيّة الى بجكم، فوعظه بالعربيّة و للفارسيّة حتى أبكاه؛ فلما خرج قال بجكم لرجل: احمل معك ألف درهم و ادفعها إليه؛ فأخذها الرجل و لحقه؛ و أقبل بجكم يقول: ما أظنّه يقبلها؛ فلمّا عاد الغلام و يده فارغة قال بجكم: أخذها؟ قال: نعم؛ فقال بجكم بالفارسيّة:

كلّنا صيّادون و لكن الشباك تختلف. و فيها وقع الحرب بين محمد بن رائق و بين كورتكين و انكسر كورتكين و اختفى. و فيها توفّى عبد اللّه بن طاهر بن حاتم أبو بكر الأبهرىّ، كان من أقران الشّبلىّ. سئل: ما بال الإنسان يحتمل من معلّمه مالا يحتمل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۷۳

من أبويه؟ فقال: لأن أبويه سبب لحياته الفانية، و معلّمه سبب لحياته الباقية. و فيها توفّى العباس بن الفضل بن العبّاس بن موسى الأمير أبو الفضل الهاشمى العباسىّ، كان فاضلا، سمع الحديث و رواه، و مات فى جمادى الأولى.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى الحسن بن علىّ أبو محمد البربهارىّ شيخ الحنابلة، و القاضى أبو محمد عبد اللّه بن أحمد بن زبر، و أبو القاسم عبد اللّه بن محمد بن إسحاق المروزىّ الحامض، و الراضى بالله أبو إسحاق محمد بن المقتدر فى [شهر] ربيع الآخر عن اثنتين و ثلاثين سنة، و أبو نصر محمد بن حمدويه المروزىّ القارئ، و أبو بكر يوسف بن يعقوب التّنوخىّ الأزرق.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثلاث أذرع و إحدى عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة خمس عشرة ذراعا و ثلاث عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۳۰]

السنة الثامنة من ولاية الإخشيد على مصر، و هى سنة ثلاثين و ثلثمائة- فيها استوزر الخليفة المتقى أبا عبد اللّه البريدىّ برأى ابن رائق لمّا رأى انضمام الأتراك إليه، فاحتاج إلى مداراته. و فيها فى المحرّم وجد كورتكين الديلمىّ فى درب، فأحضر الى دار [ابن] رائق فحبسه. و فيها كان الغلاء العظيم ببغداد، و أبيع كرّ القمح بمائتى دينار و عشرة دنانير، و أكلوا الميتة، و كثرت الأموات على الطرق، و عمّ البلاء؛ و خرج فى [شهر] ربيع الآخر الحرم من قصر الرّصافة يستغثن فى الطرقات: الجوع الجوع!

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۷۴

و خرج الأتراك و توزون فساروا الى البريدىّ بواسط. و فى هذه الأيام وصلت الروم إلى حموص من أعمال حلب- و هى على ستة فراسخ من حلب- فأخربوا و أحرقوا و سبوا عشرة آلاف نسمة. و فيها ولى قضاء الجانبين و مدينة أبى جعفر القاضى أبو الحسن أحمد بن عبد اللّه بن إسحاق الخرقىّ التاجر؛ و تعجّب الناس من تقليد مثله القضاء. و فيها عزل البريدىّ و قلّد القراريطىّ الوزارة. و فيها فى جمادى الأولى ركب المتّقى و معه ابنه أبو منصور و محمد بن رائق و الوزير القراريطىّ و الجيش و ساروا بين أيديهم القرّاء فى المصاحف لقتال البريدىّ، و اجتمع الخلق على كرسى الجسر فثقل بهم و انخسف فغرق خلق؛ و أمر ابن رائق بلعن البريدىّ على المنابر. ثم أقبل أبو الحسين علىّ بن محمد أخو البريدىّ إلى بغداد و قارب المتقى و ابن رائق و قاتلهما فهز مهما، و كان معه الترك و الديلم و القرامطة؛ و دخلوا بغداد و كثر النهب بها؛ و تحصّن ابن رائق بها؛ فزحف أبو الحسين البريدىّ على الدار، و استفحل الشر، و دخل طائفة دار الخلافة و قتلوا جماعة؛ و خرج الخليفة المتقى و ابنه هاربين الى الموصل و معهما ابن رائق، و استتر الوزير القراريطىّ؛ و دخلوا على الحرم و نهبت دار الخلافة؛ و وجدوا فى السجن كورتكين الديلمىّ و أبا الحسن [سعيد بن عمرو بن سنجلا] و علىّ بن يعقوب، فجىء بهم إلى أبى الحسين؛ فقيّد كورتكين و بعث به الى أخيه بالبصرة؛ و كان آخر العهد به. و نزل أبو الحسين دار ابن رائق، و قلّد الشرطة [فى الجانب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۷۵

الشرقى] لتوزون و لأبى منصور نوشتكين الشرطة فى الجانب الغربىّ. و اشتدّ القحط ببغداد، حتى أبيع كرّ القمح بثلاثمائة و ستة عشر دينارا. ثم وقع بين البريدىّ و بين توزون و نوشتكين حرب، و وقع لهم أمور؛ و انصرف توزون إلى الموصل و انضم إلى ناصر الدولة الحسن بن عبد اللّه بن حمدان. و فيها كانت وقعة بين الأتراك و القرامطة فانهزمت القرامطة. و فيها انضم محمد بن رائق على الحسن بن عبد اللّه بن حمدان المذكور؛ ثم وقّع بينهما؛ و قتل ابن رائق، قتله أعوان الحسن بن عبد اللّه بن حمدان المذكور؛ و خلع المتقى على الحسن بن عبد اللّه بن حمدان المذكور و لقّبه بناصر الدولة، و على أخيه علىّ و لقّبه بسيف الدولة؛ و عاد الخليفة إلى بغداد. قلت: و هذا أول عظمة بنى حمدان، فهم على هذا الحكم أقدم الملوك. و لما قدم الخليفة المتقى إلى بغداد و معه بنو حمدان هرب منها البريدىّ الى واسط بعد أن أقام ببغداد ثلاثة أشهر و عشرين يوما. و فيها توفّى العارف بالله أبو يعقوب إسحاق بن محمد النّهر جورىّ شيخ الصوفيّة، مات بمكّة؛ و كان صحب سهل بن عبد اللّه و الجنيد و غيرهما، و كان من كبار المشايخ. و فيها توفّى المحاملىّ الزاهد، [و] أبو صالح مفلح بن عبد اللّه الدّمشقىّ صاحب الدعاء و غيره، و إليه ينسب مسجد أبى صالح خارج الباب الشرقىّ، و كان من الصلحاء الزهّاد. و فيها توفّى محمد بن رائق الأمير أبو بكر، و كان من أكابر القوّاد، ولى الأعمال الجليلة، ثم قدم دمشق و أخرج منها بدرا الإخشيذى، و أقام بها شهرا، ثم توجّه إلى مصر و التقى هو و الإخشيذ- و قد ذكرنا ذلك كلّه مفصّلا فى ترجمة الإخشيد و

غيره- ثم عاد إلى بغداد فدخلها، و خلع عليه المتقى خلعة الإمارة و ألبسه

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۷۶

الطّوق و السّوار و قلّده الأمور. ثم خرج مع المتقى لجرب ناصر الدولة بن حمدان، و جرت له أمور طويلة حتى قتل بالموصل. قال الصولىّ أنشدنا الأمير محمد بن رائق فى فتاة مشرقيّة:

يصفرّ اونى إذا بصرت به خوفا و يحمّر وجهه خجلا

حتّى كأنّ الذى بوجنته من دم قلبى إليه قد نقلا

و فيها توفّى نصر بن أحمد أبو القاسم البصرىّ الخبز أرزىّ الشاعر المشهور، قدم بغداد و كان يخبز خبز الأرز يتكسّب بذلك؛ و كان له نظم رائق، و كان أمّيّا لا- يتهجّى و لا- يكتب، و كان ينشد أشعاره و هو يخبز خبز الأرز بمربد البصرة فى دكّان، و كان الناس يزدحمون عليه لاسمّاع شعره، و يتعجبون من حاله؛ و كان أبو الحسين محمد بن محمد [بن لنكك] الشاعر المشهور ينتاب دكانه ليستمع شعره، و اعتنى به و جمع له ديوانا. و من شعره قوله:

خليلىّ هل أبصرتما أو سمعتما بأكرم من مولى تمشّى الى عند

أتى زائرا من غير وعد و قال لى أحلّك عن تعليق قلبك بالوعد

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۷۷

فمازال نجم الكأس بينى و بينه يدور بأفلاك السعادة و السعد

فطورا على تقبيل نرجس ناظر و طورا على تعضيض تفّاحة الخدّ

و له:

كم أناس وفوا لناحين غابوا و أناس جفوا و هم حضّار

عرّضوا ثم أعرضوا و استمالوا ثم مالوا و جاوروا ثم جاروا

لا تلمهم على التجنّى فلو لم يتجنوا لم يحسن الاعتذار

و له:

و كان الصديق يزور الصديق لشرب المدام و عزف القيان

فصار الصديق يزور الصديق لبثّ الهموم و شكوى الزمان

و له القصيدة للطنّانة التى أوّلها:

بات الحبيب منادمى و السكر يصبغ وجنتيه

ثم اغتدى و قد ابتدا صبغ الخمار بمقلتيه

و هى طويلة. و من شعره قوله:

رأيت الهلال و وجه الحبيب فكانا هلالين عند النظر.

فلم أدر من حيرتى فيهما هلال الدّجى من هلال البشر

و لو لا التورّد فى الوجنتين و ما راعنى من سواد الشّعر

لكنت أظنّ الهلال الحبيب و كنت أظنّ الحبيب القمر

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثلاث أذرع و نصف إصبع. مبلغ الزيادة خمس عشرة ذراعا و ثمانى أصابع.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۷۸

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۳۱]

السنة التاسعة من ولاية الإخشيذ على مصر، و هى سنة إحدى و ثلاثين و ثلثمائة- فيها تزوّج أبو منصور إسحاق ابن الخليفة المتّقى بالله ببنت ناصر الدولة الحسن بن عبد اللّه بن حمدان التّغلبىّ؛ و الصداق مائتا ألف دينار، و قيل: مائة ألف دينار و خمسمائة ألف درهم. و فيها فى صفر وصلت الروم أرزن و ميّافارقين و نصيبين فقتلوا و سبوا؛ ثم طلبوا منديلا من كنيسة الرّها يزعمون أن المسيح مسح به وجهه فارتسمت صورته فيه، على أنهم يطلقون جميع من سبوا من المسلمين.

فاستفتى الخليفة الفقهاء فأفتوا بأنّ إرساله مصلحة للمسلمين؛ فأرسل الخليفة اليهم المنديل و أطلق الأسارى. و فيها ضيّق الأمير ناصر الدولة حسن بن عبد اللّه بن حمدان على الخليفة المتّقى فى نفقاته، و أخذ ضياعه و صادر الدواوين و أخذ الأموال، فكرهه الناس. و فيها وافى الأمير أحمد بن بويه يقصد قتال البريدى، فاستأمن إليه جماعة من الديلم. و فيها هاج الأمراء على سيف الدولة علىّ بن عبد اللّه بن حمدان بواسط، فهرب منهم فى البرّيّة يريد بغداد؛ ثم سار ناصر الدولة الى الموصل خائفا لهروب أخيه سيف الدولة، و نهبت داره؛ و استوزر المتقى أبا الحسين على بن أبى علىّ محمد بن مقلة. و فيها سار توزون من واسط و قصد بغداد فى شهر رمضان؛ فانهزم سيف الدولة الى الموصل أيضا؛ فخلع الخليفة المتقى على توزون و لقّبه أمير الأمراء. ثم وقعت الوحشة بين المتقى و توزون، فعاد توزون الى واسط. و فيها نزح خلق كثير من بغداد مع الحجّاج الى الشام و مصر خوفا من الفتنة. و فيها ولد لأبى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۷۹

طاهر القرمطىّ ولد، فأهدى إليه أبو عبد اللّه البريدىّ هدايا عظيمة، فيها مهد ذهب مجوهر. و فيها استوزر المتّقى الخليفة غير وزير من هؤلاء الحاملين و يعزله، فاستوزر أبا العباس الكاتب الأصبهانىّ. و كان أبو العباس المذكور ساقط الهمّة بحيث إنه كان يركب أيام وزارته و بين يديه اثنان، و ما ذلك إلا لضعف دست الخلافة و وهن دولة بنى العباس. و فيها حجّ بالناس القرمطىّ على مال أخذه منهم. و فيها توفّى بدر الخرشنىّ، و كان قد جرت له أمور ببغداد، و كان من أكابر القوّاد؛ ثم سار الى الإخشيذ محمد بن طغج أمير مصر- أعنى صاحب الترجمة- فولّاه الإخشيذ إمرة دمشق، فوليها شهرين، و مات فى ذى القعدة. و قد تقدّم ذكر بدر هذا فى عدّة أماكن فى الحوادث و غيرها. و فيها توفّى أبو سعيد سنان بن ثابت المتطبّب، والد ثابت مصنّف التاريخ. و قد أسلم سنان على يد الخليفة القاهر بالله؛ و طبّب سنان المذكور جماعة من الخلفاء، و كان مفتّنا فى علم الطبّ و غيره. و فيها توفّى محمد بن عبدوس مصنف "كتاب الوزراء "ببغداد، كان فاضلا رئيسا، و له مشاركة فى فنون.

و فيها توفّى محمد بن إسماعيل أبو بكر الفرغانىّ الصوفىّ أستاذ أبى بكر الدقّاق، كان من المجتهدين فى العبادة. قال الرّقّىّ: ما رأيت أحسن منه ممن يظهر الغنى فى الفقر، كان يلبس قميصين و رداء و سراويل و نعلا نظيفا و عمامة، و فى يده مفتاح و ليس له بيت، ينطرح فى المساجد، و يطوى الخمس و الستّ. و قال عبد الواحد بن بكر:

سمعت الرقىّ يقول سمعت الفرغانىّ محمد بن إسماعيل يقول ": دخلت الدّير الذى بطور سيناء، فأتانى مطرانهم بأقوام كأنهم نشروا من القبور، فقال: هؤلاء يأكل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۸۰

أحدهم فى الأسبوع مرّة، يفخرون بذلك؛ فقلت لهم: كم صبر مسيحكم هذا؟

قالوا: ثلاثين يوما، و كنت قاعدا فى وسط الدّير، فلم أزل جالسا أربعين يوما لم آكل و لم أشرب؛ فخرج إلىّ مطرانهم فقال: يا هذا قم، فقد أفسدت قلوب كلّ من فى الدير؛ فقلت: حتى أتمّ ستين يوما؛ فألحّوا فخرجت.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى حسن بن سعد الكتامىّ القرطبىّ الحافظ، و محمد بن أحمد بن يعقوب بن شيبة السّدوسىّ، و محمد ابن مخلد بن حفص العطّار، و يعقوب بن عبد الرّحمن الجصّاص.

أمر النيل فی هذه السنة- الماء القديم ذراعان و ستّ أصابع. مبلغ الزيادة تسع عشرة ذراعا سواء.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۳۲]

السنة العاشرة من ولاية الإخشيذ على مصر، و هی سنة اثنتين و ثلاثين و ثلثمائة- فيها قدم أبو جعفر بن شيرزاد من واسط من قبل توزون الى بغداد، فحكم على بغداد؛ فخرج الخليفة المتقى الى تكريت بأولاده و معه الوزير؛ فقدم عليه سيف الدولة و أشار عليه بأن يصعد الى الموصل ليتّفقوا على رأی؛ فقال المتقی: ما على هذا عاهدتمونی.

ثم حضر ناصر الدولة بن حمدان و التقى مع توزون و اقتتلوا أيّاما و أردفه أخوه، ثم انهزم بنو حمدان و فرّوا و معهم المتّقى الى نصيبين. ثم أرسل المتقى لتوزون فی الصلح فأجاب توزون الى الصلح. و رجع الخليفة الى بغداد بعد أمور صدرت له. و فيها قتل أبو عبد اللّه البريدیّ أخاه أبا يوسف، ثم مات بعده بيسير. و فيها ولیّ ناصر الدولة بن حمدان ابن عمّه الحسين بن سعيد بن حمدان قنّسرين و العواصم فسار الى حلب. و فيها كتب المتقى إلى الإخشيذ صاحب مصر أن يحضر إليه؛ فخرج من مصر

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۸۱

و سار إلى الرقّة. و قد تقدّم ذكر ذلك فی أوّل هذه الترجمة. و فيها قتل حمدی اللص، و كان لصّا فاتكا، أمّنه ابن شيرزاد و خلع عليه، و شرط معه أن يصله كلّ شهر بخمسة عشر ألف دينار، و كان يكبس بيوت الناس بالمشعل و الشّمع و يأخذ الأموال، و كان أسكورج الدّيلمیّ قد ولی شرطة بغداد فقبض عليه و وسّطه. قلت: لعل حمدی هذا هو الذی يقال له عند العامة فی سالف الأعصار ": أحمد الدنف."

و فيها دخل أحمد بن بويه واسطا، و هرب أصحاب البريدیّ الى البصرة. و فيها فی شوّال عرض لتوزون صرع و هو على سرير الملك، فوثب ابن شيرزاد و أرخى عليه السّتر، و قال: قد حدثت للأمير حمّی. و فيها لم يحجّ أحد لموت القرمطیّ.

و فيها توفّی أحمد بن محمد بن سعيد بن عبد الرّحمن مولى بنی هاشم أبو العباس الكوفیّ الحافظ المعروف بابن عقدة و هو لقب أبيه، سمع الكثير حتّى من أقرانه، و كان حافظا مفتنا، جمع الأبواب و التراجم، و روى عنه الدارقطنیّ و غيره. و فيها هلك الخبيث الطريد من رحمة اللّه أبو طاهر سليمان بن أبی سعيد الجنّابی الهجریّ القرمطیّ فی شهر رمضان بالجدریّ، بعد أن رأى فی نفسه العبر و تقطّعت أوصاله؛ و هو الذی قتل الحجيج و استباحهم غير مرّة، و اقتلع الحجر الأسود. و تولّى مكانه أبو القاسم سعيد [بن الحسن أخوه]. و قد تقدّم ذكر أبی طاهر فيما مضی؛ غير أن صاحب المرآة أرّخ وفاته فی هذه السنة. و قد ذكرناها ثانيا لهذا المنكر، عليه اللعنة و الخزی.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۸۲

و فيها دخل الدّمستق إلى رأس العين فی ثمانين ألفا من الروم، فقتل و سبى خلقا كثيرا؛ و قيل: كان ذلك فی الماضية.

الذين ذكر الذهبیّ وفاتهم فی هذه السنة، قال: و فيها توفّی أبو العباس أحمد ابن محمد بن سعيد بن عقدة الحافظ، و أبو بكر محمد بن الحسين النّيسابوریّ القطّان، و عبد اللّه بن أحمد بن إسحاق المصریّ الجوهری. رضی اللّه عنهم.

أمر النيل فی هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و إصبع واحدة. مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و تسع أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۳۳]

السنة الحادية عشرة من ولاية الإخشيذ على مصر، و هی سنة ثلاث و ثلاثين و ثلثمائة- فيها خلع المتقى إبراهيم من الخلافة و سمل،

فعل به ذلك توزون. قال المسعودىّ: لما التقى توزون بالمتقى ترجّل و قبّل الأرض، فأمره المتقى بالركوب فلم يفعل، و مشى بين يديه الى المخيّم الذى ضرب له؛ فلمّا نزل قبض عليه توزون و أكحله، فصاح المتقى و صاح النساء، فأمر توزون بضرب الدبادب حول المخيّم، ثم دخل توزون بالمتّقى الى بغداد مسمول العينين؛ و أحضر توزون عبد اللّه بن المكتفى و بايعه بالخلافة و لقّبه بالمستكفى باللّه. و لما بلغ القاهر باللّه المخلوع عن الخلافة و المسمول أيضا قبل تاريخه أن المتقى خلع و سمل، قال: صرنا اثنين و نحتاج الى ثالث؛ يعرّض بالمستكفى الذى بويع بالخلافة؛ و كان كما قال على ما يأتى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۸۳

ذكره إن شاء اللّه تعالى. و كنية المستكفى أبو القاسم. و أمّه أمّ ولد. و بويع بالخلافة و عمره إحدى و أربعون سنة. و عاش المتقى بعد خلعه و سمله خمسا و عشرين سنة أعمى. و كان خلعه فى عشرين صفر؛ فلم يحل الحول على توزون حتى مات. و فيها كانت وقعات عديدة بين توزون و بين أحمد بن بويه و كلّها على توزون و الصّرع يعتريه، حتّى كلّ الرجال من الطائفتين؛ و رجع ابن بويه الى الأهواز، و رجع توزون الى بغداد مشغولا بنفسه من العلّة بالصرع الى أن مات. و فيها سار سيف الدولة ابن حمدان الى حلب فملكها و هرب أميرها يأنس المؤنسى الى مصر؛ فجهّز الإخشيذ صاحب الترجمة جيشا لحربه، كما تقدّم فى أول الترجمة. و فيها غزا سيف الدولة ابن حمدان بلاد الروم و ردّ سالما بعد أن بدّع بالعدوّ. و سبب هذه الغزوة أنه بلغ الدّمستق ما فيه سيف الدولة من الشغل بحرب أضداده، فسار فى جيش عظيم و أوقع بأهل بغراس و مرعش و قتل و سبى؛ فأسرع سيف الدولة الى مضيق و شعاب و أوقع

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۸۴

بجيش الدمستق و بيّتهم و استنقذ الأسارى و الغنيمة من أيدى الروم، و انهزم الروم أقبح هزيمة. ثم بلغ سيف الدولة أنّ مدينة الروم قد تهدم بعض سورها، و كان ذلك فى الشتاء، فاغتنم سيف الدولة الفرصة فأناخ عليهم و قتل و سبى؛ لكن أصيب بعض جيشه.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أبو الطيب أحمد ابن إبراهيم الشّيبانىّ، و أبو عمرو أحمد بن محمد بن إبراهيم بن حكيم المدنىّ، و المتقى باللّه إبراهيم بن المقتدر خلع و سمل فى صفر، ثم بقى خاملا منسيّا الى سنة سبع و خمسين و ثلثمائة، و أبو علىّ محمد بن أحمد بن عمرو اللؤلؤى.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ذراعان و اثنتا عشرة إصبعا. مبلغ الزيادة خمس عشرة ذراعا و اثنتا عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۳۴]

اشارة

السنة الثانية عشرة من ولاية الإخشيذ على مصر، و هى سنة أربع و ثلاثين و ثلثمائة- فيها كانت وفاة الإخشيذ كما تقدّم ذكره. و فيها لقّب الخليفة المستكفى نفسه بإمام الحقّ و ضرب ذلك على السّكّة. و فيها فى المحرّم توفّى توزون التركى الأمير بهيت، و كان معه كاتبه أبو جعفر بن شيرزاد؛ فطمع فى المملكة و حلّف العساكر لنفسه، و سار حتى نزل بباب حرب (أحد أبواب بغداد)؛ فخرج إليه الديلم و الجند؛ و بعث إليه المستكفى بالإقامات و بخلع بيض. و لم يكن مع ابن شيرزاد مال، فضاق

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۸۵

ما بيده، فشرع فى مصادرات التجّار و الكتّاب و سلّط الجند على العامّة، و تفرّغ لأذى الخلق؛ فهرب أعين بغداد و انقطع الجلب، فخربت و تخلخل أمرها. و فيها قدم معزّ الدولة أحمد بن بويه الى بغداد بعد أمور صدرت، و خلع عليه المستكفى و لقّبه "معزّ الدولة، "و لقّب أخاه عليّا "عماد الدولة، "و أخاه الحسن "ركن الدولة، "و ضربت ألقابهم على السّكّة. ثم ظهر ابن شيرزاد و اجتمع

بمعزّ الدولـة. و معزّ الدولة المذكور هو أوّل من ملك من الديلم من بنى بويه، و هو أوّل من وضع السّـعاة ببغداد ليجعلهم رسـلا بينه و بين أخيه ركن الدولـة الى الرىّ. و كان له ساعيان: فضل و مرعوش، و كان كلّ واحـد [منهما] يمشـى فى اليوم سـتة و ثلاثين فرسـخا، فضـرى بـذلك شـباب بغداد و انهمكوا فيه، حتى نجب منهم عدّة سـعاة. و فيها خلع المسـتكفى من الخلافة و سـمل، خلعه معزّ الدولة أحمـد بن بويه الـديلمىّ. و سـببه أنه لمّا كان أوّل جمادى الآخرة دخل معزّ الدولة على الخليفة المسـتكفى فوقف و الناس وقوف على مراتبهم، فتقـدّم اثنان من الـديلم فطلبا من الخليفة الرزق، فمدّ يده إليهما ظنّا منه أنّهما يريدان تقبيلها؛ فجذباه من السـرير و طرحاه الى الأرض و جرّاه بعمامته. ثم هجم الـديلم على دار الخلافـة، و على الحرم و نهبوا و قبضوا على القهرمانة و خواصّ الخليفة. و مضـى معزّ الدولة الى منزله. و ساقوا المستكفى ماشيا إليه، و لم يبق بدار الخلافة شيء إلّا نهب.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۸۶

و خلع المسـتكفى و سـملت عيناه. و كانت خلافته سـنة و أربعة أشـهر و يومين. و توفّى بعد ذلك فى سـنة ثمان و ثلاثين و ثلثمائة، و عمره ستّ و أربعون سنة. على ما يأتى ذكره فى محلّه.

و هذا ثالث خليفة خلع و سمل كما بشّر به القاهر لمّا خلع المتّقى و سمل؛ فإنّه قال:

بقينا اثنين و لا بـدّ لنا من ثالث. و قـد تقـدّم ذكر ذلك عنـد خلع المتّقى. ثم أحضـر معزّ الدولـة أبا القاسم الفضل بن المقتدر جعفر و بايعه بالخلافة و لقّبه بالمطيع للّه، و سـنّه يومئذ أربع و ثلاثون سـنة. ثم قدّموا ابن عمّه المسـتكفى المذكور فسلّم عليه بالخلافة و أشهد على نفسه بالخلع؛ و ذلك قبل أن يسـمل. ثم صادر المطيع خواصّ المسـتكفى و أخـذ منهم أموالا كثيرة. و قرّر له معزّ الدولـة فى كلّ يوم مائة دينار. و فيها عظم الغلاء ببغداد فى شعبان و أكلوا الجيف و الرّوث و ماتوا على الطّرق، و أكلت الأكلب لحومهم، و بيع العقار بالرّغفان، و وجـدت الصـغار مشويّة مع المساكين، و هرب الناس إلى البصـرة و واسط فمات خلق فى الطّرقات. و ذكر ابن الجوزىّ أنّه اشترى لمعزّ الدولة كرّ دقيق بعشـرين ألف درهم. قلت: و الكرّ: سبعة عشر قنطارا بالدّمشقىّ، لأن الكرّ: أربعة و ثلاثون كارة، و الكارة: خمسون رطلا بالدمشـقىّ. و فيها وقّع بين معزّ الدولـة أحمـد بن بويه و بين ناصـر الدولـة الحسن بن عبد اللّه بن حمدان التّغلبىّ؛ و جاء فنزل سامرّا؛ فخرج إليه معزّ الدولة و معه الخليفة المطيع للّه فى شـعبان، و ابتدأت الحروب بينهم بعكبرا. و كان معزّ الدولة قد تغيّر على ابن شـيرزاد و اسـتخانه فى الأموال. فلما وقع القتال جاء ناصـر الدولـة فنزل بغداد من الجانب الشـرقىّ و ملكها؛ و جاء معزّ الدولة و معه المطيع كالأسير فنزل فى الجانب الغربىّ، ثم

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۸۷

قوى أمر معزّ الدولـة حتّى ملك بغـداد، و نهبت عساكره الديلم أهل بغداد، و هرب ناصـر الدولة من بغداد. و فيها توفّى القائم بأمر اللّه نزار، و قيل: محمـد و هو الأشـهر، و كنيته أبو القاسم بن المهـدىّ عبيد اللّه الذى توثّب على الأمر و ادّعى أنّه علوىّ فاطمىّ. يأتى ذكر أحوالهم فى تراجم من ملك مصر من ذرّيتهم كالمعزّ و غيره.

ولى القائم هذا بعد موت أبيه المهدىّ بعهد منه إليه، و سار إلى مصـر مرّتين، و وقع له مع أصـحاب مصر حروب و خطوب؛ تقدّم ذكر بعضها فى تراجم ملوك مصر يوم ذاك. و كانت وفاة القائم هذا بالمهـديّة من بلاد المغرب فى شوّال. قال الحافظ أبو عبد اللّه الذهبىّ: و كـان القائم شـرّا من أبيه المهـدىّ زنـديقا ملعونا. ذكر القاضـى عبـد الجبّار أنّه أظهر سبّ الأنبياء عليهم السـلام؛ و كان مناديه ينادى العنـوا الغـار و مـا حوى. و قتـل خلقـا من العلمـاء. و كـان يراسـل أبـا طـاهر القرمطىّ الى البحرين و هجر، و أمره بـإحراق المساجـد و المصـاحف. فلمـا كثر فجوره خرج عليه رجـل يقـال له مخلـد بن كيـداد. و سـاق الـذهبىّ أمورا نـذكر بعضـها فى تراجم أولاده الآتى ذكرهم فى أخبار ملوك مصر؛ فحينئذ نطلق هناك عنان القلم فى نسبهم و كيفيّة دخولهم الى مصر و أحوالهم مبسوطا مستوعبا. و فيها توفّى أحمد بن محمد بن الحسن أبو بكر المعروف بالصّنوبرىّ الضبىّ الحلبىّ الشاعر المشهور. كان إماما بارعا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۸۸

فى الأدب فصيحا مفوّها. روى عنه من شعره أبو الحسن الأديب و أبو الحسن ابن جميع و غيرهما. و من شعره:

لا النوم أدرى به و لا الأرق يدرى بهذين من به رمق

إنّ دموعى من طول ما استبقت كلّت فما تستطيع تستبق

ولى مليك لم تبد صورته مذ كان إلّا صلّت له الحدق

نويت تقبيل نار وجنته و خفت ادنو منها فأحترق

و فيها توفّى علىّ بن عيسى بن داود بن الجرّاح أبو الحسن البغدادىّ الكاتب الوزير؛ وزر للمقتدر و القاهر، و حدّث عن أحمد بن شعيب النّسائىّ و الحسن بن محمد الزعفرانىّ و حميد بن الرّبيع، و روى عنه ابنه عيسى و الطبرانىّ و أبو طاهر الهذلىّ، و كان صدوقا ديّنا خيّرا صالحا عالما من خيار الوزراء و من صلحاء الكبراء؛ و كان كبير البر و المعروف و الصلاة و الصيام و مجالسة العلماء. حكى أبو سهل بن زياد القطّان أنّه كان معه لما نفى إلى مكّة، قال: فطاف يوما [و سعى] و جاء فرمى بنفسه، و قال: أشتهى على اللّه شربة ماء مثلوج؛ فنشأت بعد ساعة سحابة فبرقت و رعدت و جاءت بمطر يسير و برد كثير، و جمع الغلمان منه جرارا، و كان الوزير صائما؛ فلمّا كان الإفطار جئته بأقداح مملوءة من أصناف الأشربة؛ فأقبل يسقى المجاورين، ثم شرب و حمد اللّه، و قال: ليتنى تمنّيت المغفرة. و قال أحمد بن كامل القاضى:

سمعت علىّ بن عيسى الوزير يقول: كسبت سبعمائة ألف دينار أخرجت منها

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۸۹

فى وجوه البرّ ستمائة و ثمانين ألف دينار. و قال الصّولىّ: لا أعلم أنه وزر لبنى العباس وزير يشبهه فى عفّته و زهده و حفظه للقرآن و علمه بمعانيه، و كان يصوم نهاره و يقوم ليله؛ و لا- أعلم أنّنى خاطبت أحدا أعرف [منه] بالشعر. و لما نكب و عزل عن الوزارة قال أبياتا منها:

و من يك عنّى سائلا لشماتة لما نابنى أو شامتا غير سائل

فقد أبرزت منّى الخطوب ابن حرّة صبورا على أهوال تلك الزلازل

و فيها توفّى عمر بن الحسين بن عبد اللّه أبو القاسم الخرقىّ البغدادىّ الحنبلىّ صاحب «المختصر» فى الفقه. و قد مرّ ذكر أبيه فى محلّه. قال أبو يعلى بن الفرّاء:

كانت لأبى القاسم مصنّفات كثيرة لم تظهر، لأنه خرج من بغداد لمّا ظهر بها سبّ أصحابه، و أودع كتبه فى دار فاحترقت تلك الدار. و كانت وفاته بدمشق و دفن بباب الصغير. و فيها توفّى أبو بكر الشّبلىّ الصوفىّ المشهور صاحب الأحوال، و اسمه دلف بن جحدر، و قيل: جعفر بن يونس، و قيل: جعفر بن دلف، و قيل غير ذلك؛ أصله من الشّبليّة، و هى قرية بالعراق، و مولده بسرّمن‌رأى. ولى خاله إمرة الإسكندريّة، و ولّى أبوه حجابة الحجّاب، و ولّى هو حجابة الموفّق ولىّ العهد.

و سبب توبته أنه حضر مجلس خير النساج و تاب فيه، و صحب الجنيد و من فى عصره، و صار أحد مشايخ الوقت حالا و قالا فى حال صحوه لا فى حال غيبته؛ و كان فقيها مالكى المذهب، و سمع الحديث، و كان له كلام و عبارات، و مات فى آخر هذه السنة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۹۰

و قد نيّف على الثمانين. قيل: إنّه سأله سائل: هل يتحقّق العارف بما يبدوله؟

فقال: كيف يتحقّق بما لا يثبت! و كيف يطمئن الى ما يظهر! و كيف يأنس بما لا يخفى! فهو الظاهر الباطن؛ ثم أنشأ:

فمن كان فى طول الهوى ذاق سلوة فإنّى من ليلى بها غير واثق

و أكثر شيء نلته من وصالها أمانىّ لم تصدق كلمحة بارق

و له:

تغنّى العود فاشتقنا الى الأحباب إذ غنّى

و كنّا حيثما كانوا و كانوا حيثما كنّا

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أبو الفضل أحمد ابن عبد اللّه بن نصر بن هلال السّلمىّ، و أبو بكر الصّنوبرىّ الحلبىّ أحمد بن محمد، و الحسين بن يحيى بن عيّاس القطّان، و المستكفى بالله عبد اللّه بن المكتفى خلع فى جمادى الآخرة و سمل و سجن ثم مات بعد أربعة أعوام، و علىّ بن إسحاق المادرانىّ، و أبو الحسن علىّ بن عيسى بن داود بن الجرّاح الوزير، و أبو القاسم عمر بن الحسين الخرقىّ الحنبلىّ صاحب «المختصر»، و أبو علىّ محمد بن سعيد القشيرىّ الحرّانىّ الحافظ، و الإخشيذ محمد بن طغج التركىّ فى ذى الحجة بدمشق عن ستّ و ستين سنة، و القائم بأمر اللّه نزار، و يقال: محمد بن المهدىّ عبيد اللّه، مات بالمهديّة فى شوّال، و أبو بكر الشّبلىّ شيخ الصوفيّة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثلاث أذرع و عشر أصابع.

مبلغ الزيادة خمس عشرة ذراعا و ستّ أصابع.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۹۱

ذكر ولاية أنوجور بن الإخشيذ على مصر

هو أنوجور بن الإخشيذ محمد بن جفّ الأمير أبو القاسم الفرغانىّ التركىّ.

و أنوجور اسم أعجمىّ غير كنية، معناه باللغة العربية محمود. ولى مصر بعد وفاة أبيه الإخشيذ فى يوم الجمعة لثمان بقين من ذى الحجّة سنة أربع و ثلاثين و ثلثمائة؛ ولّاه الخليفة المطيع للّه على مصر و الشام و على كلّ ما كان لأبيه من الولاية؛ فإنّه كان أبوه استخلفه و جعله ولىّ عهده؛ فأقرّه الخليفة على ما عهده له أبوه. و لما ثبت أمر أنوجور المذكور صار الخادم كافور الإخشيذىّ مدبّر مملكته، فكان كافور يطلق فى كلّ سنة لابن أستاذه أنوجور هذا أربعمائة ألف دينار، و يتصرّف كافور فيما يبقى. ثم قبض كافور على أبى بكر محمد بن علىّ بن مقاتل صاحب خراج مصر فى يوم ثالث المحرّم سنة خمس و ثلاثين و ثلثمائة، و ولّى مكانه على الخراج محمد بن علىّ الماذرائىّ. و لما تمّ أمر أنوجور بدمشق خرج منها و صحبته الأستاذ كافور الإخشيذى الى مصر؛ فدخلها بعساكره فى أوّل صفر؛ فأقام بها مدّة، ثم خرج منها بعساكره الى الشام أيضا لقتال سيف الدولة علىّ بن عبد اللّه بن حمدان؛ فإنّ سيف الدولة كان بعد خروج أنوجور من دمشق ملكها. و لما خرج أنوجور من مصر الى الشام فى هذه المرّة خرج معه عمّه الحسن بن طغج أخو الإخشيذ، و مدبّر دولته الخادم كافور الإخشيذىّ؛ فخرج سيف الدولة من دمشق و توجّه نحو الديار المصريّة حتّى وصل الى الرّملة؛ فالتقى مع المصريّين؛ فكان بينهم وقعة هائلة انكسر

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۹۲

فيها سيف الدولة و انهزم الى السام، فسار المصريّون وراءه فانهزم الى حلب، فساروا خلفه فانهزم الى الرّقّة. و قال المسبّحىّ: كان بين سيف الدولة و بين أبى المظفّر الحسن بن طغج و هو أخو الإخشيذ- قلت: ذكر المسعودىّ الحسن هذا لصغر سنّ أنوجور- وقعة باللّجّون؛ فانكسر سيف الدولة و وصل الى دمشق بعد شدّة و تشتّت؛ و كانت أمّه بدمشق فنزل بالمرج خائفا، و أخرج حواصله، و سار نحو حمص على طريق قارة. و سار أخو الإخشيذ و كافور الإخشيذىّ الى دمشق.

و استقر أمرهم على الصلح، على أن يعود سيف الدولة الى ما كان بيده من حلب و غيرها. و أقرّ أنوجور يأنس المؤنسىّ على عادته فى إمرة دمشق؛ فإنّه كان أولا انهزم من سيف الدولة و سلّمه دمشق بالأمان. و عاد أنوجور و عمّه الحسن بن طغج و كافور الإخشيذىّ الى الديار المصرية سالمين. و لما كان أنوجور بالشام خرج بمصر غلبون متولّى الريف فى جموع و نهب مصر و تغلّب عليها؛ فقدم أنوجور فهرب غلبون من مصر، فتبعه أبو المظفر الحسن بن طغج أخو الإخشيذ حتى ظفر به و قتله.

ثم استوزر أنوجور أبا القاسم جعفر بن الفضل بن الفرات. و دام أنوجور على إمرة مصر سنين الى أن وقع بينه و بين كافور وحشة فى سنة ثلاث و أربعين و ثلثمائة.

و سببها أنّ قوما كلّموا أنوجور و قالوا له: قد احتوى كافور على الأموال و انفرد بتدبير الجيوش، و أخذ أملاك أبيك و أنت معه مقهور، و حملوه على التنكّر؛ فلزم

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۹۳

أنوجور الصيد و التباعد فيه الى المحلّة و غيرها و انهمك فى اللهو، ثمّ أجمع على المسير الى الرملة. فأعلمت أمّه كافورا بما عزم عليه ولدها خوفا عليه من كافور. فلمّا علم كافور بذلك راسله، ثم بعثت أمّه إليه تخوّفه الفتنة؛ فاصطلحا و دام الأمر على حاله. و لم يزل أنوجور على إمرة مصر الى أن مات بها فى يوم السبت سابع أو ثامن ذى القعدة سنة تسع و أربعين و ثلثمائة، و حمل الى القدس فدفن عند أبيه الإخشيذ. و كانت مدّة ولايته على مصر أربع عشرة سنة و عشرة أيّام. و لمّا مات أنوجور أقام كافور الإخشيذى أخاه عليّا أبا الحسين بن الإخشيذ مكانه، و أقرّه الخليفة المطيع على إمرة مصر على الجند و الخراج، و أضاف إليه الشام، كما كان لأبيه الإخشيذ و لأخيه أنوجور. و قويت شوكة كافور فى ولاية علىّ هذا أكثر مما كانت فى ولاية أخيه لوجوه عديدة.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۳۵]

السنة الأولى من ولاية أنوجور بن الإخشيذ على مصر، و هى سنة خمس و ثلاثين و ثلثمائة- فيها جدّد معزّ الدولة أحمد بن بويه الأمان بينه و بين الخليفة المطيع للّه بعد أن انهزم ناصر الدولة بن حمدان فى السنة الماضية من معزّ الدولة المذكور؛ ثم وقع الصلح بينهما على أن يكون لناصر الدولة من تكريت الى الشام.

و فيها استولى ركن الدولة الحسن بن بويه على الرىّ. و فيها أقيمت الدعوة بطرسوس لسيف الدولة علىّ بن عبد اللّه بن حمدان، فنفّذ لهم الخلع و الذهب و نفّذ لهم ثمانين

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۹۴

ألف دينار للفداء. و فيها توفّى أحمد بن أبى أحمد [بن القاصّ] أبو العباس الطبرىّ القاضى الفقيه صاحب أبى العباس بن سريج؛ كان إماما فقيها، صنّف فى مذهبه كتاب «المفتاح» و «أدب القاضى» و «المواقيت» و «التلخيص»، و تفقّه عليه أهل طبرستان.

و كانت وفاته بطرسوس. و فيها لم يحجّ أحد من العراق خوفا من القرامطة. و فيها توفّى محمد بن أحمد بن الرّبيع بن سليمان أبو رجاء الفقيه الشافعىّ الشاعر؛ كان فاضلا شاعرا، و له قصيدة ذكر فيها أخبار العالم و قصص الأنبياء؛ و سئل قبل موته: كم بلغت قصيدتك إلى الآن؟ فقال: ثلاثين ألفا و مائة بيت. و فيها توفّى هارون ابن محمد بن هارون بن علىّ بن موسى أبو جعفر الضّبّىّ؛ كان أسلافه ملوك عمان، و كان معظّما عند السلطان، و انتشرت مكارمه و عطاياه، و قصده الشعراء من كلّ مكان، و أنفق أموالا عظيمة فى [برّ] العلماء و الأشراف و [اقتناء] الكتب النفيسة، و كان عارفا بالنحو و اللغة و الشعر و معانى القرآن و الكلام، و كانت داره مجمعا لأهل العلم.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أبو العباس القاضى صاحب ابن سريج، و أبو عمر حمزة بن القاسم الهاشمىّ، و أبو بكر محمد بن جعفر [الصّيرفىّ] المطيرىّ، و أبو بكر محمد بن يحيى الصّولىّ [الشّطرنجىّ]، و الهيثم بن كليب الشّاشىّ.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۹۵

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثلاث أذرع و إحدى عشرة إصبعا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة؛ ج۳؛ ص۲۹۵

لغ الزيادة خمس عشرة ذراعا و ثمانى أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۳۶]

السنة الثانية من ولاية أنوجور على مصر، و هى سنة ستّ و ثلاثين و ثلثمائة- فيها خرج الخليفة المطيع و معزّ الدولة أحمد بن بويه إلى البصرة لمحاربة أبى القاسم عبد اللّه بن البريدىّ و سلكوا البرّيّة اليها؛ فلما قاربوها استأمن إلى معزّ الدولة جيش البريدىّ، و هرب هو إلى القرامطة؛ و ملك معزّ الدولة البصرة، و أقطع المطيع فيها من ضياعها. و فيها قدم عماد الدولة علىّ بن بويه إلى الأهواز؛ فبادر أخوه معزّ الدولة أحمد إلى خدمته، و جاء فقبّل الأرض و وقف، و تأدّب معه معزّ الدولة؛ ثم بعد أيّام ودّعه؛ و عاد معزّ الدولة و قد أخذ واسطا و البصرة. و فيها ظفر المنصور العبيدىّ بمخلد بن كيداد و قتل قوّاده و مزّق جيشه. و فيها أغارت الروم على أطراف الشام فسبوا و أسروا، فساق وراءهم سيف الدولة بن حمدان، و لحقهم فقتل منهم مقتلة عظيمة و استردّ ما أخذوا من المسلمين؛ ثم أخذ حصن برزوية من الأكراد بعد أن نازلهم مدّة.

و فيها وردت الأخبار أن نوحا صاحب خراسان أكحل أخويه و عمّه إبراهيم. و فيها توفّى أحمد بن جعفر بن محمد أبو الحسين المعروف بابن المنادىّ البغدادىّ؛ كان إماما

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۹۶

محدّثا، سمع الكثير و صنّف كتبا كثيرة. قال أبو يوسف القزوينىّ: صنّف فى علوم القرآن أربعمائة و نيّفا و أربعين كتابا ليس فيها شىء من الحشو، و جمع فيها حسن العبارة و علوّ الرواية. و فيها توفّى العلّامة أبو بكر محمد بن يحيى بن عبد اللّه بن العباس ابن محمد بن صول تكين الصّولىّ، الإمام المفتنّ المعروف بالصولىّ الشّطرنجىّ الكاتب، و كان صول من ملوک خراسان و جرجان؛ كان أحد علماء الفنون كالأدب و حسن المعرفة بأيّام الناس و طبقات الشعراء، واسع الرواية كثيرا لحفظ؛ صنّف كتاب "الأوراق "و كتاب" الوزراء "و غيرهما؛ و انتهى إليه علم الهندسة [و] الشّطرنج؛ و نادم جماعة من الخلفاء؛ و كان له نظم رائق؛ من ذلک قوله:

أحببت من أجله من كان يشبهه و كلّ شىء من المعشوق معشوق

حتّى حكيت بجسمى ما بمقلته كأنّ سقمى من جفنيه مسروق

و فيها توفّى محمد بن علىّ بن إسماعيل أبو بكر الشاشىّ القفّال الكبير أحد أئمة الشافعيّة، كان إماما فاضلا، و هو أوّل من صنّف فى الجدل، مات فى صفر؛ قاله العلامة يوسف بن قزأوغلى. و ذكر الذهبىّ وفاته فى سنة خمس و ستين و ثلثمائة، و هو المشهور.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أبو الحسين أحمد ابن جعفر المنادىّ، و حاجب بن أحمد الطّوسىّ، و أبو العباس محمد بن أحمد بن حمّاد الأثرم، و أبو عبد اللّه محمد بن أحمد بن إبراهيم الحكيمىّ، و أبو علىّ محمد بن أحمد بن محمد بن معقل الميدانىّ، و أبو طاهر محمد بن الحسين المحمّداباذىّ.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۹۷

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثلاث أذرع و ثلاث عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة أربع عشرة ذراعا و سبع عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۳۷]

السنة الثالثة من ولاية أنوجور على مصر، و هى سنة سبع و ثلاثين و ثلثمائة- فيها كان الغرق ببغداد، و زادت دجلة إحدى و عشرين

ذراعـا، و هرب الناس و وقعت الـدّور و مات تحت الرّدم خلق كثير. و فيها دخل بغـداد أبو القاسم عبـد اللّه ابن البريـدىّ بأمان من معزّ الدولـة، و أقطعه معزّ الدولـة قرى بأعمال بغداد. و فيها اختلف معزّ الدولة أحمد بن بويه و ناصـر الدولة الحسن بن عبد اللّه بن حمدان التّغلبىّ، و سار معزّ الدولة الى الموصل، فتأخّر ناصـر الدولة الى نصـيبين خائفا، ثم صالحه ناصـر الدولة فى كلّ سـنة على ثمانية آلاف ألف درهم. و فيهـا خرجت الروم، فتلقّاهم سـيف الدولـة علىّ بن عبـد اللّه بن حمـدان التّغلبىّ على مرعش، فهزموه و ملكوا مرعش. و فيها لم يحـجّ أحـد فى هـذه السـنة من العراق. و فيها ولى إمرة دمشق أبو المظفّر الحسن بن طغـج بن جفّ نيابـة لابن أخيه أنوجور بن الإخشـيذ؛ و قـد وليها مرّة أخرى فى أيّام القاهر من قبل أخيه الإخشـيذ محمد بن طغج. و فيها توفّى عبد اللّه بن محمد بن حمدويه بن نعيم بن الحكم أبو محمد المعروف بالبيّع والد الحاكم [أبى عبد اللّه] النّيسابورىّ، صاحب التصانيف. أذّن عبد اللّه هذا بمسجد ثلاثا و ثلاثين سنة، و غزا اثنتين و عشرين غزوة، و أنفق على العلماء و الزهّاد مائة ألف درهم، و كان كثير العبادة، و روى عن مسلم و غيره. و فيها توفّى قدامة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۹۸

ابن جعفر أبو الفرج الكـاتب صـاحب المصـنفات: مثـل «كتـاب البلـدان» و «الخراج» و «صـناعة الكتابـة» و غيرها، و كان عالما، جالس المبرّد و ثعلبا و غيرهما.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السـنة، قال: و فيها توفّى أبو إسحاق إبراهيم ابن شيبان القرميسينىّ الزاهد، و أبو علىّ محمد بن علىّ بن عمر المذكّر النّيسابورىّ.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثلاثة أذرع و خمس عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة خمس عشرة ذراعا و اثنتا عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۳۸]

السـنة الرابعـة من ولايـة أنوجور على مصـر، و هى سـنة ثمان و ثلاثين و ثلثمائـة- فيها وصـلت تقادم أنوجور بن الإخشـيذ عامل مصـر صاحب الترجمة، و سأل معزّ الدولة أن يكون أخوه مشاركا له فى إمرة مصر، و يكون من بعده، فأجابه.

و فيها تقلّد أبو السائب عتبـة بن عبيـد اللّه الهمـذانىّ قضاء القضاة ببغـداد. و فيها تحرّكـت القرامطة، و لم يحجّ أحد فى هذه السـنة من العراق. و فيها عمّر المنصور العبيدىّ صاحب بلاد المغرب مدينة المنصوريّة. و فيها ولى إمرة دمشق شعلة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۲۹۹

ابن بـدر الإخشـيذىّ من قبل صاحب الترجمـة، و كان أحد الأبطال الموصوفين بالشـجاعة، و فيه ظلم. و فيها توفّى أحمد بن محمد بن علىّ أبو بكر المراغىّ؛ روى عن الربيع بن سليمان أبياتا سمعها من الشافعىّ رضى اللّه عنه، و هى:

شهدت بأنّ اللّه لا ربّ غيره و أشهد أنّ البعث حقّ و أخلص

و أنّ عرا الإيمان قول محسّن و فعل زكىّ قد يزيد و ينقص

و أنّ أبا بكر خليفة ربّه و كان أبو حفص على الخير يحرص

و أشهد ربّى أنّ عثمان فاضل و أنّ عليّا فضله متخصّص

[أئمة قوم نهتدى بهداهم لحا اللّه من إيّاهم يتنقّص]

و فيها توفّى أمير المؤمنين المسـتكفى بالله عبـد اللّه ابن الخليفة المكتفى بالله علىّ ابن الخليفة المعتضد بالله أحمد ابن ولىّ العهد طلحة الموفق ابن الخليفـة جعفر المتوكّل الهاشـمىّ العباسـىّ البغـدادىّ، مات معتقلا بعـد أن خلع من الخلافة و سـمل قبل تاريخه بسـنين فى

جمادى الآخرة سنة أربع و ثلاثين و ثلثمائة، حسب ما تقدّم ذكره فى محلّه.

و مات برمى الدم، و كان محبوسا بدار معزّ الدولة بن بويه. و مات و له ستّ و أربعون سنة؛ و كان بويع بالخلافة بعد خلع المتقى بالله و سمله فى سنة ثلاث و ثلاثين و ثلثمائة. و أمّ المستكفى بالله هذا أمّ ولد تسمّى غصن. و فيها توفّى السلطان عماد الدولة أبو الحسن علىّ بن بويه بن فنّا خسرو الديلمىّ- و قد ذكرنا من أمر بنى بويه و مبدأ ملكهم نبذة فى حوادث سنة اثنتين و عشرين و ثلثمائة- و كان قد ملك جميع بلاد

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۳۰۰

فارس، و كان ملكا عاقلا شجاعا مهيبا، اعتلّ بقرحة فى الكلى أنحلت جسمه، و مات بشيراز و له تسع و خمسون سنة. و أقام الخليفة المطيع للّه مقامه أخاه أبا علىّ الحسن ركن الدولة والد السلطان عضد الدولة بن بويه. و كان معزّ الدولة أحمد بن بويه صاحب أمر الخلافة يومئذ يحبّ أخاه عماد الدولة المتوفّى و يحترمه و يكاتبه بالعبوديّة و يقبّل الأرض بين يديه اذا اجتمعا مع عظم سلطانه، لكونه الأكبر سنّا. و فيها توفّى محمد بن عبد اللّه بن دينار أبو عبد اللّه الفقيه الزاهد العدل النّيسابورىّ، و كان صالحا عابدا يحجّ دائما، و مات عند منصرفه من الحجّ فى صفر؛ رضى اللّه عنه.

و فيها توفّى أحمد بن محمد بن إسماعيل العلّامة أبو جعفر النحاس المصرىّ النحوىّ، كان من نظراء ابن الأنبارىّ و نفطويه، و له كتاب «إعراب القرآن» و كتاب «المعانى» و كتاب «اشتقاق الأسماء الحسنى»، و مصنّفات كثيرة غير ذلك. و فيها توفّى إبراهيم بن عبد الرزاق بن الحسن أبو إسحاق الأنطاكىّ الفقيه المقرئ؛ قرأ على هارون بن موسى الأخفش و أحمد بن أبى رجاء و غيرهما، و صنّف كتابا فى القراءات الثمان، و سمع الكثير و حدّث.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أحمد بن سليمان ابن زبّان الكندىّ الدّمشقىّ، و أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحّاس، و إبراهيم بن عبد الرزّاق الأنطاكىّ، و أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن أحمد بن أبى ثابت، و أبو علىّ الحسن بن حبيب الحضائرىّ، و عماد الدولة علىّ بن بويه الدّيلمىّ صاحب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۳۰۱

بلاد فارس، و كانت أيّامه ستّ عشرة سنة، و أبو الحسن علىّ بن محمد الواعظ المصرىّ، و على بن حمشاد العدل.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثلاث أذرع و سبع عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و ثمانى عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۳۹]

السنة الخامسة من ولاية أنوجور على مصر، و هى سنة تسع و ثلاثين و ثلثمائة- فيها غزا سيف الدولة علىّ بن عبد اللّه بن حمدان بلاد الروم فى ثلاثين ألفا، ففتح حصونا و قتل و سبى و غنم؛ فأخذ الروم عليه الدرب عند خروجه فاستولوا على عسكره قتلا و أسرا، و استردّوا جميع ما أخذ لهم، و أخذوا جميع خزائن سيف الدولة، [و نجا] فى عدد يسير. و فيها استولى [منصور بن] قرا تكين على الرّىّ و الجبال و دفع عنها عسكر ركن الدولة. و فيها ردّ الحجر الأسود الى موضعه، بعث به القرمطىّ مع [أبى] محمد بن سنبر الى الخليفة المطيع للّه، و كان بجكم قد دفع فيه قبل تاريخه خمسين ألف دينار و ما أجابوا، و قالوا: أخذناه بأمر و ما نردّه إلا بأمر؛ فلما ردّوه فى هذه السنة قالوا: رددناه بأمر من أخذناه بأمره. و كذبوا؛ فإن اللّه تعالى قال: (وَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً قالُوا وَجَدْنا عَلَيْها آباءَنا وَ اللَّهُ أَمَرَنا بِها). [فكذّبهم اللّه تعالى بقوله]: (قُلْ إِنَ

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۳۰۲

اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ). و إن عنوا بالأمر القدر فليس ذلك حجّة لهم، فاللّه تعالى قدّر عليهم الضلال و المروق من الدين، و قدّر عليهم أن يدخلهم النار، فلا ينفعهم قولهم: «أخذناه بأمر». و لما أتوا بالحجر الأسود أعطاهم المطيع مالا له جرم؛ و كان الحجر الأسود قد بقى اثنتين و عشرين سنة. و قال المسبّحىّ: و فيها وافى سنبر بن الحسن الى مكّة و معه الحجر الأسود، و أمير مكّة معه. فلما صار بفناء البيت أظهر الحجر، و عليه ضباب فضّة قد عملت من طوله و عرضه تضبط شقوقا قد حدثت عليه بعد انقلاعه، و أحضر له صانعا معه جصّ يشدّه [به]. فوضع سنبر بن الحسن ابن سنبر الحجر الأسود بيده و شدّه الصانع بالجصّ. و قال لمّا ردّه: أخذناه بقدرة اللّه ورددناه بمشيئته. و فيها توفّى محمد بن أحمد الصّيمرىّ كاتب معزّ الدولة و وزيره، فقلّد مكانه أبا محمد الحسن بن محمد المهلّبىّ. و فيها فى عيد الأضحى قتل الناصر لدين اللّه عبد الرّحمن بن محمد الأموىّ صاحب الأندلس ولده عبد اللّه، و كان قد خاف من خروجه عليه؛ و كان الناصر من كبار العلماء، روى عن محمد بن عبد الملك بن أيمن و قاسم بن أصبغ و له تصانيف: منها مجلّد فى "مناقب بقىّ بن مخلد "رواه عنه مسلمة ابن قاسم. و فيها توفّى عبد الرّحمن بن إسحاق أبو القاسم الزّجّاجىّ النحوىّ من أهل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۳۰۳

بغداد، و سكن طبريّة و أيلة و حدّث بدمشق و صنّف فى النحو "مختصرا. "و فيها غزا سيف الدولة فى شهر ربيع الأوّل و وافاه عسكر طرسوس فى أربعة آلاف عليهم القاضى أبو الحصين، فسار إلى قيساريّة و فتح عدّة حصون و سبى و قتل، ثم سار إلى سمندو ثم إلى خرشنة يقتل و يسبى، ثم الى صارخة بينها و بين قسطنطينيّة سبعة أيّام. فلمّا نزل عليها واقع الدّمستق مقدّمته فظهرت عليه فلجأ إلى الحصن، و خاف على نفسه؛ ثم جمع و التقى بسيف الدولة، فهزمه اللّه أقبح هزيمة و أسرت بطارقته.

و كانت غزوة مشهورة، و غنم المسلمون مالا يوصف؛ و بقوا فى الغزو أشهرا. و فيها توفّى الخليفة القاهر أبو منصور محمد ابن الخليفة المعتضد بالله أحمد ابن ولىّ العهد أبى أحمد طلحة الموفّق ابن الخليفة المتوكّل جعفر العباسى الهاشمىّ البغدادىّ.

استخلف أوّلا بعد خلع المقتدر بالله جعفر، ثم خلع بعد ثلاثة أيّام، و دام دهرا الى أن بويع ثانيا بالخلافة بعد قتل جعفر المقتدر سنة عشرين و ثلثمائة؛ فأقام فى الخلافة الى أن خلعوه من الخلافة فى جمادى الأولى سنة اثنتين و عشرين و ثلثمائة بالراضى بالله أبى العباس محمد، و سملت عيناه فسالتا على خدّه، و حبسوه مدّة ثم أهملوه و سيّبوه حتّى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۳۰۴

مات فى هذه السنة فى جمادى الأولى. و كان ربعة أسمر أصهب الشعر طويل الأنف؛ و كان قد افتقر و سأل قبل موته. و هو أوّل خليفة خلع و سمل. و فيها توفّى محمد بن عبد اللّه بن أحمد أبو عبد اللّه الصّفّار الأصبهانىّ، كان محدّث عصره بخراسان، و كان مجاب الدعوة، أقام أربعين سنة لم يرفع رأسه الى السماء حياء من اللّه تعالى.

و كان يقول: اسم رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم كاسمى، و اسم أبيه اسم أبى.

و كانت وفاته فى ذى القعدة.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى السنة، قال: و فيها توفّى علىّ بن عبد اللّه بن يزيد ابن أبى مطر الإسكندرىّ القاضى و له مائة سنة، و عمر بن الحسن أبو الحسين بن الأشنانىّ القاضى، و أبو عبد اللّه محمد بن عبد اللّه بن أحمد الصفّار الأصبهانىّ، و أبو جعفر محمد بن عمر بن البخترىّ، و أبو نصر الفارابىّ صاحب الفلسفة محمد بن محمد بن طرخان. قلت: يأتى ذكر الفارابىّ أيضا فى هذا الكتاب فى غير هذه السنة على ما ورّخه صاحب المرآة و غيره.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و عشرون إصبعا. مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و إصبعان.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۴۰]

السنة السادسة من ولایة أنوجور علی مصر، و هی سنة أربعین و ثلثمائة- فیها قصد صاحب عمان البصرة و ساعده أبو یعقوب القرمطیّ، فسار الیهم أبو محمد [الحسن بن محمد] المهلّبیّ فی الدّیلم و الجند، فالتقوا فهزمهم المهلّبیّ و استباح عسكرهم،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۳۰۵

و عاد إلی بغداد بالأساری و الغنائم. و فیها جمع سیف الدولة بن حمدان جیوش الموصل و الجزیرة و الشام و الأعراب و وغل فی بلاد الروم، و قتل و سبی شیئا كثیرا و عاد الی حلب سالما. و فیها قلعت حجبة الكعبة الحجر الأسود الذی نصبه سنبر ابن الحسن صاحب القرمطیّ و جعلوه فی الكعبة، فأحبّوا أن یجعلوا له طوقا من فضّة فیشدّ به كما كان قدیما، كما عمله عبد اللّه بن الزبیر. و أخذ فی إصلاحه صانعان حاذقان فأحكماه. قال أبو الحسن محمد بن نافع الخزاعیّ: دخلت الكعبة فیمن دخلها فتأمّلت الحجر فإذا السواد فی رأسه دون سائره و سائره أبیض، و كان طوله، فیما حزرت، مقدار عظم الذراع. قال: و مبلغ ما علیه من الفضّة، فیما قیل، ثلاثة آلاف و سبعمائة و سبعة و تسعون درهما و نصف. و فیها كثرت الزلازل بحلب و العواصم و دامت أربعین یوما و هلك خلق كثیر تحت الردم؛ و تهدّم حصن رعبان و دلوك و تلّ حامد، و سقط من سور دلوك ثلاثة أبرجة. و فیها توفّی شیخ الحنفیّة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۳۰۶

بالعراق عبید اللّه بن الحسین الشیخ أبو الحسن الكرخیّ، سمع ببغداد إسماعیل [بن إسحاق] القاضی و محمد بن عبد اللّه الحضرمیّ مطیّنا، و روی عنه ابن شاهین و عبد اللّه ابن محمد الأكفانیّ القاضی، و كان علّامة كبیر الشأن فقیها أدیبا بارعا عارفا بالأصول و الفروع، انتهت إلیه ریاسة السادة الحنفیّة فی زمانه و انتشرت تلامذته فی البلاد؛ و كان عظیم العبادة كثیر الصلاة و الصوم صبورا علی الفقر و الحاجة ورعا زاهدا صاحب جلالة. قال أبو بكر الخطیب: حدّثنی الصّیمریّ حدّثنی أبو القاسم بن علّان الواسطیّ، قال: لما أصاب أبا الحسن الكرخیّ الفالج فی آخر عمره حضرته و حضر أصحابه أبو بكر [الرازیّ و أبو عبد اللّه] الدامغانیّ و أبو علیّ الشاشیّ و أبو عبید اللّه البصریّ، فقالوا: هذا مریض یحتاج الی نفقة و علاج، و الشیخ مقلّ؛ فكتبوا الی سیف الدولة بن حمدان؛ فأحسّ أبو الحسن فیما هم فیه فبكی و قال: اللهم لا تجعل رزقی إلّا من حیث عوّدتنی، فمات قبل أن یحمل إلیه شیء؛ ثم ورد من سیف الدولة عشرة آلاف درهم فتصدّق بها. توفّی و له ثمانون سنة، و أخذ عنه الفقه الذین ذكرناهم: الدّامغانیّ و الشاشیّ و البصریّ و الإمام أبو بكر أحمد بن علی الرازیّ و أبو القاسم علیّ بن محمد التّنوخیّ. و فیها توفّی أحمد بن محمد بن زیّاد الغنویّ البصریّ

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۳۰۷

الإمام أبو سعید بن الأعرابیّ نزیل مكّة، كان إماما حافظا ثبتا، سمع الكثیر، و روی عنه عالم كثیر، و كان كثیر العبادة، شیخ الحرم فی وقته علما و زهدا و تسلیكا و كان صحب الجنید و عمرو بن عثمان المكیّ و أبا أحمد القلانسیّ و غیرهم.

الذین ذكر الذهبیّ وفاتهم فی هذه السنة، قال: و فیها توفّی أبو سعید أحمد ابن محمد بن زیاد بن بشر البصریّ ابن الأعرابیّ، و إبراهیم بن أحمد أبو إسحاق المروزیّ الشافعیّ، و أبو علیّ الحسین بن صفوان البردعیّ، و الكلاباذیّ المعروف بالأستاذ أحد أئمة الخلیفة، و الزجاجیّ صاحب «الجمل» أبو القاسم عبد الرّحمن بن إسحاق، و أبو محمد قاسم بن أصبغ القرطبیّ، و أبو جعفر محمد بن یحیی بن عمر بن علیّ ابن حرب، و أبو الحسن الكرخیّ شیخ حنفیّة العراق عبید اللّه بن الحسین.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم ثلاث أذرع و أربع عشرة إصبعا.

مبلغ الزیادة ست عشرة ذراعا و سبع أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۴۱]

السنة السابعة من ولایة أنوجور علی مصر، و هی سنة إحدی و أربعین و ثلثمائة- فیها ظفر الوزیر المهلّبیّ بقوم التناسخیّة، و فیهم شاب

يزعم أن روح علىّ بن أبى طالب رضى اللّه عنه انتقلت فيه، و فيهم امرأة تزعم أن روح فاطمة رضى اللّه عنها انتقلت اليها، و فيهم آخر يزعم أنّه جبريل؛ فضربوا، فتعزّوا بالانتماء لأهل البيت؛ فأمر معزّ الدولة بإطلاقهم لتشيّع كان فيه. قلت: و المشهور عن بنى بويه

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۳۰۸

التشيّع و الرّفض. و فيها أخذت الروم سروج فقتلوا و سبوا و أحرقوا البلد. و فيها حجّ بالناس أحمد بن عمر بن يحيى العلوىّ. و فيها فى آخر شوال توفّى المنصور أبو طاهر إسماعيل بن القائم بأمر اللّه محمد بن عبيد اللّه المهدىّ العبيدىّ الفاطمىّ صاحب المغرب، مات بالمنصورة التى بناها و مصرها، و صلّى عليه ابنه ولىّ عهده أبو تميم معد الملقّب بالمعزّ لدين اللّه؛ و هو الذى تولّى الخلافة بعده. و كان ملكا حادّ الذهن سريع الجواب فصيحا مفوّها يخترع الخطب، عادلا فى الرعيّة، أبطل كثيرا من المظالم مما أحدثه آباؤه؛ و مات و له أربعون سنة، و كانت مدّة مملكته سبعة أعوام و أيّاما؛ و خلّف خمسة بنين و خمس بنات. و قام بعده ابنه المعزّ لدين اللّه فأحسن السّيرة و صفت له المغرب. ثم افتتح المعزّ لدين اللّه مصر و بنى القاهرة؛ على ما يأتى ذكره إن شاء اللّه تعالى بأطول من هذا فى ترجمة المعزّ المذكور. و فيها توفّى أحمد بن محمد أبو العبّاس الدّينورىّ، كان من أجلّ المشايخ و أحسنهم طريقة، و كان يتكلّم على لسان أهل المعرفة بأحسن كلام. تكلّم يوما فصاحت عجوز فى مجلسه؛ فقال لها: موتى؛ فقامت و خطت خطوات، ثم التفتت إليه و قالت: هأنا قد متّ، و وقعت ميّتة. و كان يقول:

مكاشفات الأعيان بالأبصار، و مكاشفات القلوب بالاتصال. و فيها توفّى الشيخ العابد القدوة أبو الخير التّيناتىّ الأقطع صاحب الكرامات- و تينات: قرية من قرى أنطاكية، و قيل: هى على أميال من المصّيصة- أقام بتينات مدّة سنين، و كان يسمّى الأقطع لأن يده كانت قطعت ظلما فى واقعة جرت له يطول الشرح فى ذكرها. و من كراماته [أن] كانت الوحوش تأنس به رضى اللّه عنه.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۳۰۹

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أبو طاهر أحمد بن أحمد بن عمرو المدينىّ، و أبو علىّ إسماعيل بن محمد الصفّار فى المحرّم، و المنصور إسماعيل ابن القائم العبيدىّ الرافضىّ صاحب المغرب، و أبو الطيب محمد بن حميد الحورانىّ، و أبو الحسن محمد بن النّضر الرّبعىّ المقرئ ابن الأخرم.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و عشرون إصبعا.

مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و عشر أصابع سواء.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۴۲]

السنة الثامنة من ولاية أنوجور على مصر، و هى سنة اثنتين و أربعين و ثلثمائة- فيها جاء صاحب خراسان ابن محتاج إلى الرىّ محاربا لابن بويه و جرت بينهما حروب و عاد إلى خراسان. و فيها عاد سيف الدولة بن حمدان من الروم سالما غانما مؤيّدا، و قد أسر قسطنطين بن الدّمستق ملك الروم، و دخل سيف الدولة حلب و ابن الدمستق بين يديه، و كان مليح الصورة، فبقى عنده مكرما حتّى مات. و فيها توفّى القاسم بن [القاسم بن] مهدىّ أبو العباس السيّارىّ، كان من أهل مرو، كتب الحديث و تفقّه، و كان شيخ أهل مرو و أوّل من تكلّم عندهم

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۳۱۰

فى حقائق الأحوال. و من كلامه: من حفظ قلبه مع اللّه بالصدق أجرى اللّه الحكمة على لسانه. و فيها توفّى أحمد بن إسحاق بن أيّوب بن يزيد أبو بكر النّيسابورىّ الفقيه الشافعىّ المعروف بالصّبغىّ، سمع الحديث و روى عنه جماعة، و كان إماما فقيها عالما عابدا؛ ولد سنة ثمان و خمسين و مائتين، و له تصانيف كثيرة فى عدّة علوم، منها: كتاب «الأسماء و الصفات» و كتاب «الإيمان و القدر» و كتاب

«فضائل الخلفاء الأربعة» و عدّة تصانيف أخر. و فيها توفّى الحسن بن طغج بن جفّ الأمير أبو المظفّر الفرغانىّ التركىّ أخو الإخشيذ. ولى إمرة دمشق من قبل أخيه الإخشيذ مدّة، ثم عزله أخوه الإخشيذ و ولّى أخاه عبيد اللّه بن طغج مكانه. ثم ولى الحسن هذا إمرة دمشق مرّة أخرى من قبل ابن أخيه أنوجور صاحب الترجمة، ثم ردّ الى الرملة فمات بها و دفن بالقدس. و كان أميرا جليلا شجاعا مقداما، باشر الحروب و ولى الأعمال الجليلة إلى أن مات. و فيها توفّى عثمان بن محمد بن علىّ أبو الحسين الذهبىّ البغدادىّ، سكن مصر و حدّث بها و بدمشق. و فيها توفّى علىّ بن محمد بن أبى الفهم داود بن إبراهيم بن تميم أبو القاسم التّنوخىّ، أصله من ملوك تنوخ الأقدمين من ولد قضاعة، ولد بأنطاكية فى سنة ثمان و سبعين و مائتين، و هو صاحب كتاب «الفرج بعد الشدّة»؛ كان فقيها حنفيّا بارعا فى الفقه و الأصول و النحو، و كان شاعرا فصيحا، و له ديوان شعر. و كانت وفاته بالبصرة فى شهر ربيع الأول. و من شعره فى مليح دخل الحمّام:

رأيت فى الحمّام بدر الدّجى و شعره الأسود محلول

قد عمّموه بدجى شعره و نقّطوا الفضّة باللول

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۳۱۱

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أبو بكر أحمد بن إسحاق بن أيّوب الصبغىّ الشافعىّ، و أحمد بن عبد الأسد الجذامىّ، و إبراهيم بن المولد الزاهد، و الحسن بن يعقوب أبو الفضل البخارىّ، و عبد الرّحمن بن حمدان الهمذانىّ الجلّاب، و أبو الحسن محمد بن أحمد الأسوارىّ الأصبهانىّ، و محمد بن داود بن سليمان النّيسابورىّ الحافظ الزاهد.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و أربع عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا سواء.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۴۳]

السنة التاسعة من ولاية أنوجور على مصر، و هى سنة ثلاث و أربعين و ثلثمائة- فيها خطب أبو علىّ بن محتاج الى المطيع بخراسان و لم يكن خطب له قبل ذلك، فبعث إليه المطيع بالخلع و اللواء. و فيها مرض معزّ الدولة أحمد بن بويه بعلّة الإنطاظ الدائم و أرجف بموته و اضطربت بغداد، فركب معزّ الدولة بكلفة لتسكين الناس. و فيها كانت وقعة عظيمة بين سيف الدولة بن حمدان و بين الدّمستق، و كان الدمستق قد جمع أمما من الترك و الروس و الخزر، فكانت الدائرة عليه و للّه الحمد، و قتل معظم بطارقته، و هرب هو و أسر صهره و جماعة من بطارقته؛ و أمّا القتلى فلا يحصون؛ و غنم سيف الدولة عسكرهم بما فيه. و فيها توفّى الأمير نوح بن نصر السامانىّ عامل بخارى فى جمادى الأولى. و أظنّ أن نوحا هذا من ذرّيّة نوح عامل بخارى فى زمن المأمون، الذى أهدى إليه طولون والد أحمد، و هذا أهداه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۳۱۲

الى الخليفة عبد اللّه المأمون. و فيها توفّى خيثمة بن سليمان بن حيدرة الحافظ أبو الحسن القرشىّ الأطرابلسىّ أحد الحفّاظ الثّقات المشهورين، و مولده سنة خمسين و مائتين، و قيل غير ذلك؛ و مات فى ذى القعدة من هذه السنة. و فيها توفّى محمد بن العبّاس بن الوليد القاضى أبو الحسين البغدادىّ، كان فاضلا بارعا، مات ببغداد فى شوّال، و كان ثقة صدوقا.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أحمد ابن الزاهد أبى عثمان سعيد بن إسماعيل الحيرىّ، و خيثمة بن سليمان الأطرابلسىّ، و علىّ بن الفضل [بن إدريس] السامرىّ، و أبو الحسن علىّ بن محمد [بن محمد] بن عقبة الشّيبانىّ.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثلاث أذرع و عشرون إصبعا. مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و سبع أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۴۴]

السنة العاشرة من ولایة أنوجور علی مصر، و هی سنة أربع و أربعین و ثلثمائة- فیها تحرّک ابن محتاج صاحب خراسان علی رکن الدولة الحسن بن بویه، فنجده أخوه معزّ الدولة بجیش من العراق. و فیها فی المحرّم عقد معزّ الدولة بن بویه إمرة الأمراء لابنه أبی منصور بختیار. و فیها دخل [محمد] بن ما کان الدیلمیّ أحد قوّاد صاحب خراسان الی أصبهان، فخرج عن أصبهان أبو منصور بن رکن الدولة، فتبعه ابن ما کان، فأخذ خزائنه؛ و عارضه أبو الفضل بن العمید وزیر رکن الدولة و معه

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۳۱۳

القرامطة، فأوقعوا به و أثخنوه بالجراح و أسروا قوّاده، و سار ابن العمید الی أصبهان.

و فیها وقع و باء عظیم بالرّیّ، و کان الأمیر أبو علیّ بن محتاج صاحب خراسان قد نزلها فمات فی الوباء. و فیها فلج أبو الحسین علیّ بن أبی علیّ بن مقلة و أسکت و له تسع و ثلاثون سنة. و فیها زلزلت مصر زلزلة عظیمة هدمت البیوت و دامت مقدار ثلاث ساعات زمانیّة، و فزع الناس الی اللّه تعالی بالدعاء. و فیها توفّی محمد بن أحمد بن محمد بن جعفر أبو بکر بن الحدّاد الکنانیّ المصریّ الفقیه الشافعیّ شیخ المصریّین، ولد یوم وفاة المزنیّ، و کان إماما فقیها له وجه فی مذهب الشافعیّ رضی اللّه عنه. و فیها توفّی شعلة بن بدر الأمیر أبو العباس الإخشیذیّ، ولی إمرة دمشق من قبل أبی القاسم أنوجو بن الإخشید، و کان شجاعا بطلا قتل فی طبریّة فی حرب کان بینه و بین مهلهل العقیلی. و فیها توفی محمد بن یعقوب بن یوسف الحافظ أبو عبد اللّه الشّیبانیّ النّیسابوریّ ابن الأخرم، و یعرف أبوه بابن الکرمانیّ. قال الحاکم: کان أبو عبد اللّه صدرا من أهل الحدیث ببلادنا بعد أبی حامد بن الشّرقیّ، و کان یحفظ و یفهم، و صنّف علی صحیح البخاریّ و مسلم، و صنّف المسند الکبیر؛ و سأله أبو العباس بن السراج أن یخرّج له علی صحیح مسلم ففعل ذلک. و فیها حجّ الناس من غیر أمیر. و فیها توفّی محمد بن محمد بن یوسف بن الحجّاج الشیخ أبو النّضر الطّوسیّ الزاهد العابد، کان یصوم النهار و یقوم اللیل و یتصدّق بالفاضل من قوته،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۳۱۴

و رحل [الی] البلاد فی طلب الحدیث و سمع الکثیر، و کان یجزّئ اللیل ثلاثة أجزاء: جزءا لقراءة القرآن، و جزءا للتصنیف، و جزءا یستریح فیه.

الذین ذکر الذهبیّ وفاتهم فی هذه السنة، قال: و فیها توفّی أبو الحسین أحمد ابن عثمان بن بویان المقرئ، و أبو یعقوب إسحاق بن إبراهیم بن هاشم الأذرعیّ، و أبو عمرو عثمان بن أحمد الدقّاق بن السّماک فی [شهر] ربیع الأول، و أبو بکر بن الحدّاد الکنانیّ محمد بن أحمد شیخ الشافعیّة بمصر و له نحو ثمانین سنة، و أبو النّضر محمد بن محمد بن یوسف الطّوسیّ الفقیه فی شعبان، و أبو عبد اللّه محمد بن یعقوب بن الأخرم الحافظ، و أبو زکریا یحیی بن محمد بن عبد اللّه العنبریّ الحافظ المفسّر الأدیب.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم خمس أذرع و سبع عشرة إصبعا.

مبلغ الزیادة سبع عشرة ذراعا و ستّ أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۴۵]

السنة الحادیة عشرة من ولایة أنوجور علی مصر، و هی سنة خمس و أربعین و ثلثمائة- فیها أوقع الروم بأهل طرسوس و قتلوا و سبوا و أحرقوا قراها. و فیها زاد السلطان معزّ الدولة فی إقطاع الوزیر أبی محمد المهلّبیّ و عظم قدره عنده. و فیها خرج روزبهان الدّیلمیّ علی

معز الدولة، فسيّر معزّ الدولة لقتاله الوزير المهلّبىّ؛ فلمّا كان

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۳۱۵

المهلّبىّ بقرب الأهواز تسلّل رجال المهلّبىّ إلى روزبهان؛ فانحاز المهلّبىّ بمن معه الى حصن. فخرج معزّ الدولة بنفسه لقتال روزبهان المذكور، و انحدر معه الخليفة المطيع للّه، فقاتله حتى ظفر به فى المصافّ و فيه ضربات، و أسر قوّاده. و قدم معزّ الدولة بغداد و روزبهان بين يديه على جمل، ثم غرّق. و فيها غزا سيف الدولة بلاد الروم و افتتح حصونا و سبى و غنم و عاد الى حلب؛ ثم أغارت الروم على نواحى ميّافارقين. و فيها توفّيت أمّ المطيع بعلّة الاستسقاء، و خرج المطيع فى جنازتها فى وجوه دولته و عظم عليه مصابها؛ و كانت تسمّى مشعلة. و فيها توفّى على بن إبراهيم بن سلمة بن بحر أبو الحسن القزوينىّ الحافظ القطّان. قال الخليلىّ: كان عالما بجميع العلوم و التفسير و الفقه و النحو و اللغة، ارتحل و سمع أبا حاتم الرازىّ، و إبراهيم [بن الحسين بن ديزيل بن سيفنّة]، و محمد بن الفرج الأزرق، و خلقا سواهم؛ و انتهت اليه رياسة العلم و علوّ السند بتلك الديار. و مولده سنة أربع و خمسين و مائتين، و روى عنه خلائق كثيرة. قال ابن فارس فى بعض أماليه: سمعت أبا الحسن القطّان يقول: بعد ما علّمت سنة كنت حين رحلت أحفظ مائة ألف حديث، و أنا اليوم لا- أقوم على حفظ مائة حديث. و فيها توفّى علىّ بن الحسين بن على الشيخ الإمام المؤرّخ العلامة أبو الحسن المسعودىّ صاحب التاريخ المسمّى «بمروج الذهب» قيل: إنه من ذريّة ابن مسعود، و كان أصله من بغداد ثم أقام بمصر الى أن مات بها فى جمادى الآخرة. قاله المسبّحىّ فى تاريخه: و كان أخباريا علّامة صاحب

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۳۱۶

غرائب و ملح و نوادر و له عدّة مصنّفات: التاريخ المقدّم ذكره و هو غاية فى معناه، و كتاب «تحف الأشراف و الملوك» و كتاب «ذخائر العلوم» و «كتاب الرسائل»، و كتاب «الاستذكار لما مرّ فى سالف الأعصار» و كتاب «المقالات فى أصول الديانات» و كتاب «أخبار الخوارج» و غير ذلك؛ و مات قبل أن يطول عمره. قال الذهبىّ و كان معتزليّا، فإنّه ذكر غير واحد من المعتزلة و يقول فيه: «كان من أهل العدل». و له رحلة الى البصرة التى فيها أبو خليفة. و فيها توفّى محمد بن عبد الواحد ابن أبى هاشم أبو عمر الزاهد الصالح، ولد سنة إحدى و ستين و مائتين، و كان بارعا فى العربيّة و النحو و اللغة عابدا غزير العلم.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفى أبو بكر أحمد بن سليمان ابن أيّوب العبّادانىّ و له سبع و تسعون سنة، و أبو [بكر] أحمد بن عثمان بن غلام السبّاك المقرئ، و إسماعيل بن يعقوب بن الجراب البزّاز بمصر، و أبو أحمد بكر بن محمد بن حمدان المروزىّ الصّيرفىّ، و أبو على الحسن بن [الحسين بن] أبى هريرة شيخ الشافعيّة ببغداد، و أبو عمرو عثمان بن محمد بن أحمد السّمرقندىّ، و أبو الحسن على بن إبراهيم بن سلمة القزوينىّ القطّان الزاهد؛ و له إحدى و تسعون سنة، و أبو عمر

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۳۱۷

الزاهد غلام ثعلب و اسمه محمد بن عبد الواحد اللغوىّ، و أبو بكر محمد بن علىّ بن أحمد بن رستم الماذرائىّ بمصر، و له ثمان و ثمانون سنة، و أبو بكر مكرم بن أحمد القاضى، و المسعودىّ صاحب مروج الذهب فى جمادى الآخرة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع سواء. مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و سبع أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۴۶]

السنة الثانية عشرة من ولاية أنوجور على مصر، و هى سنة ستّ و أربعين و ثلثمائة- فيها كان بالرىّ و نواحيها زلازل عظيمة خارجة عن الحدّ، ثم خسف ببلاد الطّالقان فى ذى الحجّة فلم يفلت من أهلها إلا نحو ثلاثين رجلا، و خسف بمائة و خمسين قرية من قرى الرّىّ؛ و اتصل الخسف الى حلوان، فخسف بأكثرها.

و قـذفت الأرض عظام الموتى و تفجّرت منها المياه، و تقطّع بالرّىّ جبل، و علّقت قريـة بين السـماء و الأرض بمن فيها نصف نهار ثم خسف بها؛ و انخرقت الأرض خروقا عظيمـة و خرج منها مياه نتنة و دخان عظيم. هكذا نقل الحافظ أبو الفرج ابن الجوزىّ فى تاريخه. و فيهـا نقص البحر ثمانين ذراعا و ظهر فيه جبال و جزائر و أشـياء لم تعـدّ. قلت: لعلّه البحر المالـح، و اللّه أعلم. و فيها توفّى محمـد بن يعقوب ابن يوسف بن معقل بن سـنان الحافظ أبو العبّاس الأموىّ النّيسابورىّ مولى بنى أميـة المعروف بالأصمّ، صمّ بعـد أن رحل الى البلاد و سـمع الحديث، كان إماما محدّث عصـره بلا مدافعة، حدّث سـتّا و سـبعين سنة، لأنّ مولده سنة سبع و أربعين و مائتين، و مات فى شهر ربيع الاخر و له تسع و تسعون سنة، و قد انتهت إليه رياسة أهل الحديث بخراسان.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۳۱۸

الـذين ذكر الـذهبىّ وفاتهم فى هـذه السـنة، قال: و فيها توفّى أبو الحسن أحمد ابن مهران السّيرافىّ، و أحمد بن جعفر [بن أحمد] بن معبد السّـمسار، و أحمد ابن محمد بن عبدوس، و سـعيد بن فحلون البيرىّ الأندلسىّ آخر أصحاب يوسف [بن يحيى] المغامىّ، و عبد اللّه بن جعفر بن أحمد بن فارس، و أبو الحسـين عبد الصمد ابن على الطّستىّ، و أبو يعلى عبد المؤمن بن خلف النّسفىّ، و أبو العبّاس محمد [بن أحمد] ابن محبوب المروزىّ، و أبو بكر محمد بن بكر بن محمد [بن عبد الرّزاق] بن داسة، و أبو منصور محمد بن القاسـم العتكىّ، و أبو جعفر محمـد بن محمـد بن عبد اللّه بن خالد البغدادىّ بما وراء النهر، و أبو العباس محمد بن يعقوب بن يوسف الأصـمّ فى شهر ربيع الآخر و له تسع و تسعون سنة، و أبو الحزم وهب بن مسرّة التّميمىّ الحجارىّ الأندلسىّ.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ستّ أذرع و أربع أصابع. مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و تسع عشرة إصبعا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۳۱۹

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۴۷]

السـنة الثالثة عشـرة من ولاية أنوجور على مصـر، و هى سـنة سـبع و أربعين و ثلثمائة- فيها عادت الزّلازل بحلوان و قمّ و الجبال فقتلت خلقـا عظيمـا و هـدمت [حصونـا]، ثم جاء بعـد ذلك جراد طبّق الـدنيا، فأتى على جميع الغلّات و الأشـجار. و فيها فى شـهر ربيع الأول خرجت الروم إلى آمـد و أرزن و ميّافـارقين ففتحوا حصونـا كثيرة و قتلوا خلائق كثيرة و هـدموا سـميساط. و فيها فى شـهر ربيع الآخر شغبت الترك و الـدّيلم بالموصل على ناصـر الدولـة بن حمـدان و أحاطوا بـداره؛ فحاربهم بغلمانه و العامّـة، فظفر بهم فقتل جماعـة و أمسك جماعـة، و هرب أكثرهم الى بغـداد. و فيها فى شعبان كانت وقعة عظيمة بنواحى حلب بين الروم و سـيف الدولة علىّ بن عبد اللّه بن حمدان، و انكسر سيف الدولة و قتلوا معظم رجاله و غلمانه و أسروا أهله، و هرب فى عدد يسير.

و فيها سار معزّ الدولـة بن بويه إلى الموصل فـدخلها، فنزح عنها ناصـر الدولة بن حمدان المقدّم ذكره و توجّه إلى نصـيبين، فسار معزّ الدولة وراءه إلى نصـيبين، و خلّف على الموصل سـبكتكين الحاجب و نزل على نصـيبين؛ فسار ناصـر الدولة بن حمدان إلى ميّافارقين بعد أن اسـتأمن معظم عسـكره إلى معزّ الدولة؛ فهرب ناصر الدولة إلى حلب مستجيرا بأخيه سيف الدولة؛ فأكرم سيف الدولة مورده و بـالغ فى خـدمته. و جرت فصول إلى أن قـدم فى الرسالـة أبو محمـد القاضـى بكتاب سـيف الدولـة إلى الموصل و تقرّر الأمر على أن يكون الموصل و ديار ربيعـة و الرّحبـة لسـيف الدولـة على مال يحمله فى كلّ سـنة، لأن معزّ الدولـة لم يثق بناصـر الدولة، فإنّه غدر به مرارا و منعه الحمل، فقال معزّ

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۳۲۰

الدولـة المـذكور: أنت عنـدى ثقـة، غير أنّه يقـدّم لى ألـف ألـف درهم. ثم انحـدر معز الدولـة إلى بغـداد، و تـأخّر الوزير المهلّبىّ و سبكتكين الحاجب الموصل إلى أن يحمل ناصر الدولة مال التعجيل. و فيها توفّى قاضى دمشق أبو الحسن أحمد بن سليمان ابن أيوب

بن حذلم الأسدىّ الأوزاعىّ المذهب، كان إماما عالما فقيها على مذهب الأوزاعىّ، و كان له حلقة بالجامع. و فيها توفّى علىّ بن أحمد بن سهل، و يقال:

علىّ بن إبراهيم، أبو الحسن البوشنجىّ الزاهد شيخ الصوفيّة، صحب أبا عمرو الدمشقى و أبا العبّاس بن عطاء، و سمع بهراة من محمد بن عبد الرّحمن الشامىّ و الحسين ابن إدريس، و روى عنه أبو عبد اللّه الحاكم و أبو الحسن العلوىّ و عبد اللّه بن يوسف الأصبهانىّ. قال السّلمىّ: هو أحد أئمّة خراسان و له معرفة بعلوم عديدة. و كان أكثر الخراسانيّين تلامذته؛ و كان عارفا بعلوم القوم. قال الحاكم: و سمعته يقول و سئل ما التوحيد، قال: ألّا تشبّه الذات، و لا تنفى الصفات. و فيها توفّى محمد بن الحسن بن عبد اللّه [بن علىّ] بن محمد بن عبد الملك بن أبى الشوارب أبو الحسن القرشىّ الأموىّ القاضى، ولى القضاء بمدينة السلام، ثم ولى أعمالا كثيرة فى أيّام المطيع، ثم صرف عن الجميع؛ و كان جوادا واسع الأخلاق كريما مع قبح سيرة فى الأحكام. و فيها توفّى محمد بن عبد اللّه بن جعفر بن عبد اللّه بن الجنيد أبو الحسين الرازىّ الحافظ، كان عالما فاضلا زاهدا ثقة صدوقا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۳۲۱

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى القاضى أبو الحسن أحمد بن سليمان بن أيّوب بن حذلم الأسدىّ الأوزاعىّ المذهب. قلت: و قد تقدّم ذكره. قال: و أبو أحمد حمزة [بن محمد] بن العبّاس، و الزبير بن عبد الواحد الأسداباذىّ، و عبد اللّه بن جعفر درستويه النحوىّ، و أبو الميمون عبد الرّحمن ابن عبد اللّه بن عمر بن راشد البجلىّ، و الحافظ المؤرخ أبو سعيد عبد الرّحمن بن أحمد ابن يونس بن عبد الأعلى و له ستّ و ستون سنة، و أبو الحسن علىّ بن عبد الرّحمن ابن عيسى بن زيد بن مانى الكوفى الكاتب، و محمد بن أحمد بن الحسن الكسائىّ الأصبهانىّ، و محمد بن عبد اللّه بن جعفر أبو الحسين الرازى بدمشق، و أبو علىّ محمد ابن القاسم بن معروف الدّمشقى.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ستّ أذرع و خمس أصابع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و عشرون إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۴۸]

السنة الرابعة عشرة من ولاية أنوجور على مصر، و هى سنة ثمان و أربعين و ثلثمائة- فيها خلع الخليفة المطيع على بختيار بن معزّ الدولة خلعة السلطنة، و عقد له لواء و لقّبه «عزّ الدولة أمير الأمراء». و فيها خرج محمد بن ناصر الدولة بن حمدان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۳۲۲

فى سريّة نحو بلاد الروم، و كانت الروم قد وصلوا إلى الرّها و حران فأسروا أبا الهيثم ابن القاضى أبى الحصين، و سبوا و قتلوا. و فيها فى سابع ذى القعدة غرق من الحجّاج الواردين من الموصل إلى بغداد فى دجلة بضعة [عشر زورقا] فيها من الرجال و النساء نحو ستمائة نفس. و فيها مات ملك الروم و طاغيتهم الأكبر بالقسطنطينيّة و أقعد ابنه مكانه، ثم قتل و نصب فى الملك غيره. و فيها وصلت الروم الى طرسوس، فقتلوا جماعة و فتحوا حصن الهارونيّة و خرّبوا الحصن المذكور و قتلوا أهله، ثم كرّت الروم الى ديار بكر و وصلوا ميافارقين؛ فعمل فى ذلك الخطيب عبد الرّحيم بن نباتة الخطب الجهاديّة. و فيها هرب عبد الواحد ابن الخليفة المطيع للّه من بغداد الى دمشق. و فيها توفّى الوزير عبد الرّحمن بن عيسى بن داود بن الجرّاح. و فيها توفّى الشيخ أبو بكر أحمد ابن سليمان الفقيه النّجاد شيخ الحنابلة؛ كان إماما عالما فقيها، مات فى ذى الحجّة و له خمس و تسعون سنة. و فيها توفّى جعفر بن محمد بن نصير الخلدىّ الزاهد المحدّث أبو محمد الخوّاص فى شهر رمضان عن خمس و تسعين سنة و له ستّ و خمسون حجّة؛ صحب الجنيد و إليه كان منتميا و كان المرجع إليه فى علوم القوم؛ حجّ قريبا من ستّين حجة. قال: ما حججت إلّا على التوكّل، و كانت الأعطية حولى كثيرة. و فيها توفّى أبو بكر محمد بن جعفر الأدمىّ المحدّث القارئ كان فاضلا محدّثا مقرئا. و فيها توفّى جعفر بن حرب الوزير، كان

جليل القدر يتقلّد كبار الأعمال؛ فاجتاز يوما بموكبه

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۳۲۳

فسمع قارئا يقرأ: (أَ لَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَ ما نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ)، فصاح: بلى! و اللّه قد آن؛ و نزل عن دابّته و دخل الماء و لم يخرج منه حتّى فرّق جميع أمواله، و بقى فى الماء حتّى أعطاه رجل قميصا فلبسه و خرج إلى المسجد و لزم العبادة حتى مات.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم سبع أذرع و ثلاث عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و عشرون إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۴۹]

اشارة

السنة الخامسة عشرة من ولاية أنوجور على مصر، و هى سنة تسع و أربعين و ثلثمائة، و هى السنة التى مات فيها أنوجور صاحب الترجمة كما تقدّم ذكره- فيها أوقع نجا غلام سيف الدولة بن حمدان بالروم فقتل و سبى و أسر. و فيها جرت وقعة هائلة ببغداد فى شعبان بين السّنّيّة و الشّيعة، و تعطّلت الصلوات فى الجوامع سوى جامع براثا الذى يأوى إليه الرافضة. و كان جماعة بنى هاشم قد أثاروا الفتنة؛ فاعتقلهم معزّ الدولة بن بويه فسكنت الفتنة. و فيها ظهر ابن لعيسى بن المكتفى بالله بناحية أرمينية و تلقّب بالمستجير بالله، يدعو إلى الرّضى من آل رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم، و لبس الصوف و أمر بالمعروف، و مضى إلى جبال الديلم فاستنصر بهم؛ فخرج معه جماعة منهم و ساروا إلى أذربيجان، فاستولى المستجير بالله على عدّة بلدان؛ و بعض البلاد التى استولى عليها كانت فى يد سلار الدّيلمىّ، فسار سلار فهزمه، و يقال: قتله، لأنه لم يظهر له حسّ بعد ذلك. و فيها فى شوال عرض للسلطان

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۳۲۴

معزّ الدولة أحمد بن بويه مرض كلاه فبال الدم، ثم احتبس بوله، ثم رمى حصى صغارا و رملا و أرجفوا بموته. و فيها جمع سيف الدولة بن حمدان جموعا كثيرة و غزا بلاد الروم فقتل و أسر و سبى، فسارت الروم و كثروا عليه، فعاد فى ثلثمائة من خواصّه، و ذهب جميع ما كان معه و قتل أعيان قوّاده، و خرج من ناحية طرسوس. و فيها مات أحمد بن محمد بن ثوابة كاتب ديوان الرسائل لمعزّ الدولة؛ فقلّد معزّ الدولة مكانه أبا إسحاق إبراهيم بن هلال الصابئ. و فيها أسلم من الترک مائتا الف خركاه، كذا ذكر أبو المظفّر سبط بن الجوزىّ. و فيها بذل القاضى الحسين بن محمد الهاشمىّ مائتى ألف درهم على أن يقلّد قضاء البصرة، فأخذ منه المال و لم يقلّد. قلت: يرحم اللّه من فعل معه ذلک و خاتله، و يرحم من يقتدى بفعله مع كلّ من يسعى فى القضاء بالبذل و البرطيل. و فيها توفّى الإمام أبو الوليد حسّان بن محمد الفقيه شيخ أهل الحديث و الفقه بخراسان عن اثنتين و ثمانين سنة. و فيها توفّى الحسين بن علىّ بن يزيد ابن داود الحافظ أبو علىّ النيسابورىّ. قال الحاكم: هو واحد عصره فى الحفظ و الإتقان و الورع و المذاكرة و التصنيف، و مولده فى سنة سبع و سبعين و مائتين، و أوّل سماعه سنة أربع و تسعين و مائتين؛ و مات فى جمادى الأولى. قال أبو عبد الرّحمن السّلمىّ: سألت الدارقطنىّ عن أبى علىّ النيسابورىّ فقال: إمام مهذّب. و فيها توفّى محمد بن جعفر [بن محمد] بن فضالة الأدمىّ القارئ صاحب الألحان، كان من أحسن الناس صوتا بالقرآن يسمع صوته من فرسخ. قال محمد [بن عبد اللّه]

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۳۲۵

الأسدىّ، حججت أنا و أبو القاسم البغوىّ و أبو بكر الأدمىّ، فلما صرنا بالمدينة وجدنا ضريرا قائما يروى أحاديث موضوعة؛ فقال

بعضنا: ننكر عليه؛ فقال الأدمىّ: تثور علينا العامّة و لكن اصبروا و شرع يقرأ، فما هو إلّا أن أخذ يقرأ فانفضت العامة عن الضرير و جاءوا إليه، و سكت الضرير و كفى أمره.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أبو الحسين أحمد ابن عثمان الأدمىّ [العطشىّ]. و أبو الفوارس الصابونىّ أحمد بن محمد بن الحسين فى شوال و له خمس و مائة سنة، و أبو الوليد حسّان بن محمد الفقيه شيخ خراسان، و الحسين بن علىّ بن يزيد النّيسابورىّ الحافظ، و عبد اللّه بن إسحاق بن إبراهيم الخراسانىّ، و عبد اللّه بن محمد بن موسى الكعبىّ النيسابورىّ، و أبو طاهر عبد الواحد ابن عمر [بن محمد] بن أبى هاشم شيخ القرّاء ببغداد، و القاضى أبو أحمد محمد بن أحمد بن إبراهيم العسّال فى رمضان، و أبو بكر محمد بن عبد اللّه بن عمرويه الصفّار.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم سبع أذرع و تسع عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا سواء.

ذكر ولاية علىّ بن الإخشيذ على مصر

هو علىّ بن الإخشيذ محمد بن طغج بن جفّ الأمير أبو الحسن الفرغانىّ التركىّ.

ولى سلطنة مصر بعد موت أخيه أنوجور بن الإخشيذ محمد فى يوم السبت عشرين

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۳۲۶

ذى القعدة سنة تسع و أربعين و ثلثمائة. أقامه خادمه كافور الإخشيذىّ الخصىّ فى مملكة مصر باتفاق حواشى والده و الجند، و أقرّه الخليفة المطيع للّه على ذلك. و صار كافور الإخشيذىّ هو القائم بتدبير مملكته و المتصرّف فيها كما كان أيّام أخيه أنوجور. و جمع له الخليفة جميع ما كان لأبيه و أخيه من أعمال الديار المصريّة و الممالك الشاميّة و الثغور و الحرمين الشريفين. و أطلق كافور لعلىّ هذا فى السنة ما كان يطلقه لأخيه أنوجور؛ و هو فى كلّ سنة أربعمائة ألف دينار. و قويت شوكة كافور بعد موت أنوجور و تولية علىّ هذا أعظم مما كانت أيّام أنوجور. و مولد علىّ المذكور (أعنى صاحب الترجمة) لأربع بقين من صفر سنة ستّ و ثلثمائة. و دام علىّ هذا فى الملك، و له الاسم فقط و المعنى لكافور، إلى سنة إحدى و خمسين و ثلثمائة. [و] وقع بمصر الغلاء و اضطربت أمور الديار المصريّة و الإسكندرية بسبب المغاربة أعوان الخلفاء الفاطميّين الواردين إليها من المغرب، و تزايد الغلاء [و عزّ وجود القمح]. ثم قدم القرمطىّ الى الشام فى سنة اثنتين و خمسين و ثلثمائة و وقع له بها أمور، و عجز المصريّون عن دفعه عنها لشغلهم بالغلاء و المغاربة الفاطميّين. و مع هذا قلّ ماء النيل فى هذه السنين فارتفعت الأسعار أكثر مما كانت عليه؛ و وهنت ضياع مصر و قراها من عدم زيادة النيل، و عظم الغلاء و كثرت الفتن؛ و سار ملك النوبة إلى أسوان و وصل الى إخميم و قتل و نهب و سبى و أحرق. و عظم اضطراب أعمال الديار المصريّة قبليّها و بحريّها. ثم فسد ما بين علىّ بن الإخشيذ صاحب مصر و بين مدبّر مملكته كافور الإخشيذىّ، و منع كافور الناس من الاجتماع به، حتّى اعتل علىّ المذكور بعلّة أخيه أنوجور و مات لإحدى عشرة خلت من المحرّم سنة خمس و خمسين و ثلثمائة، و حمل الى المقدس و دفن عند أبيه الإخشيذ و أخيه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۳۲۷

أنوجور. و بقيت مصر من بعده أيّاما بغير أمير، و كافور يدبّر أمرها على عادته فى أيّام أولاد الإخشيذ و معه أبو الفضل جعفر بن الفرات. ثم ولى كافور إمرة مصر باتفاق أعيان الديار المصريّة و جندها. و كانت مدّة سلطنة علىّ بن الإخشيذ المذكور على مصر خمس سنين و شهرين و يومين.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۵۰]

السنة الأولى من ولاية علىّ بن الإخشيذ على مصر، و هى سنة خمسين و ثلثمائة.

أعنى بذلك أنّه ولى فى ذى القعدة سنة تسع و أربعين و ثلثمائة. و قد ذكرنا تلك السنة فى أيّام أخيه أنوجور، فلذلك ذكرنا أن سنة خمسين و ثلثمائة أوّل السنين لعلىّ هذا على مصر بهذا المقتضى- فيها (أعنى سنة خمسين و ثلثمائة) دخل غلام سيف الدولة بن حمدان الى بلاد الروم و سبى ألف نفس و غنم أموالا كثيرة.

و فيها أخذ ملك الروم أرمانوس بن قسطنطين من المسلمين جزيرة أقريطش من بلاد المغرب. و كان الذى افتتح أقريطش عمر بن شعيب، غزاها و افتتحها فى حدود سنة ثلاثين و مائتين، و صارت فى يد أولاده إلى هذا الوقت. و فيها شرع معزّ الدولة بن بويه فى بناء دار هائلة عظيمة ببغداد و أخرب لأجلها دورا و قصورا، و قلع أبواب الحديد التى كانت على أبواب مدينة المنصور، و ألزم الناس ببيع أملاكهم ليدخلها فى البناء، و نزل فى الأساسات ستّا و ثلاثين ذراعا، فلزمه من الغرامات عليها الى أن مات ثلاثة عشر ألف ألف درهم، و صادر الدواوين و غيرها، و جعل كلّما حصّل له شىء أخرجه فى بنائها. و قد درست هذه الدار من قبل سنة ستمائة،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۳۲۸

و لم يبق لها أثر، و بقى مكانها دحلة تأوى اليها الوحوش، و بقى شىء من الأساس يعتبر به من يراه. قلت: دار الظالم خراب و لو بعد حين. و فيها قلّد قضاء القضاة أبو العباس عبد اللّه بن الحسن بن أبى الشوارب، و ركب بالخلع من دار معزّ الدولة و بين يديه الدبادب و البوقات و فى خدمته الجيش؛ و شرط على نفسه أن يحمل كلّ سنة الى خزانة معزّ الدولة مائتى ألف درهم، و كتب عليه بذلك سجلّا. فانظر الى هذه المصيبة!. و امتنع المطيع من تقليده و من دخوله عليه، و أمر ألا يمكّن من الدخول عليه أبدا. و فيها أيضا ضمّن معزّ الدولة الحسبة و الشرطة ببغداد.

و فيها فى شعبان توفّى بمصر متولّى خراجها أبو بكر محمد بن على بن مقاتل، فوجدوا فى داره ثلثمائة ألف دينار مدفونة. و فيها توفّى الحسين بن القاسم الإمام أبو علىّ الطبرىّ الشافعىّ الفقيه مصنّف «المحرّر»، و هو أوّل كتاب صنّف فى الخلاف؛ كان إماما عالما بارعا فى عدّة فنون. و فيها توفّى الأمير عبد الملك بن نوح السامانىّ صاحب بلاد خراسان و غيرها، تقطّر به فرسه فحمل ميّتا، و نصبوا مكانه أخاه منصور ابن نوح السامانىّ، و أرسل إليه الخليفة المطيع للّه بالخلع و التقليد. و فيها توفّى محدّث بغداد الحافظ أبو سهل أحمد بن محمد بن [عبد اللّه بن] زياد القطّان فى شعبان، كان إماما ورعا صوّاما قوّاما، سمع الحديث و روى الكثير، و مات و له إحدى و تسعون سنة. و فيها توفّى إسماعيل بن علىّ بن إسماعيل الشيخ أبو محمد الخطبىّ، كان إماما

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۳۲۹

عالما أخباريّا محدّثا، كان يرتجل الخطب و يخطب بها. و فيها توفّى محمد بن أحمد بن يوسف أبو الطيّب المقرئ، و يعرف بغلام ابن شنّبود- و قد تقدّم ذكر ابن شنبود فى محلّه- كان إماما عارفا بالقراءات زاهدا. و فيها توفّى عبد اللّه ابن إسماعيل بن إبراهيم بن عيسى بن الخليفة أبى جعفر المنصور الخطيب أبو جعفر الهاشمىّ العباسىّ خطيب جامع المنصور و ابن خطيبه؛ كان عالى النسب من بنى العبّاس، كان فى طبقة هارون الواثق فى علوّ النسب. و فيها توفّى القاضى أبو السائب عتبة بن عبيد اللّه بن موسى الهمذانى، مولده بهمذان فى سنة أربع و ستين و مائتين، و كان أبوه تاجرا؛ ولى قضاء أذربيجان ثم قضاء همذان ثم آل به الأمر الى أن تقلّد قضاء القضاة؛ و كان إماما عالما، غلب عليه الزهد و سافر و لقى الجنيد فى سفره و أخذ عنه؛ ثم تفقّه بجماعة من العلماء، و كان عالما فاضلا.

و فيها توفّى الأمير فاتك الإخشيذىّ المجنون أبو شجاع، و كان أكبر مماليك الإخشيذ، و ولى إمرة دمشق، و كان فارسا شجاعا؛ كان رومىّ الجنس، و كان رفيقا للأستاذ كافور الإخشيذىّ. فلما صار كافور مدبّر مملكة أولاد الإخشيذ و عظم أمره، أنف فاتك هذا من المقام بمصر كيلا يكون كافور أعلى مرتبة منه، فانتقل من مصر الى إقطاعه و هو بلاد الفيّوم؛ و كان كافور يخافه و يكرهه؛ فلم يصحّ

مزاج فاتک بالفيّوم و مرض و عاد إلى مصر فمات بها. و كان فاتک المذكور كريما جوادا. و لما قدم المتنبيّ إلى مصر سمع بعظمة فاتک و تكرّمه، فلم يجسر أن يمدحه خوفا من كافور.

و كان فاتک يراسله بالسلام و يسأل عنه. فاتفق اجتماعهما يوما بالصحراء، و جرت بينهما مفاوضات. فلما رجع فاتک إلى داره بعث إلى المتنبيّ هديّة قيمتها ألف دينار،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۳۳۰

ثم أتبعها بهدايا أخر. فاستأذن المتنبّى كافورا فى مدحه فأذن له؛ فمدحه بقصيدته التى أوّلها:

لا خيل عندك تهديها و لا مال فليسعد النطق إن لم تسعد الحال

و يأتى شىء من ذكر فاتک أيضا فى ترجمة كافور إن شاء اللّه تعالى. و لما مات فاتک رثاه المتنبى أيضا. و فيها توفّى أبو وهب الزاهد أحد المشهورين بالأندلس.

قال أبو جعفر أحمد [بن] عون اللّه [بن حدير]: سمعت أبا وهب يقول: «و اللّه لا عانق الأبكار فى جنّات النعيم و الناس فى الحساب إلّا من عانق الذلّ، و ضاجع الصّبر، و خرج منها كما دخل فيها». و فيها توفّى الناصر لدين اللّه أبو المطرّف صاحب الأندلس الملقّب بأمير المؤمنين؛ و اسمه عبد الرّحمن بن محمد بن عبد اللّه بن محمد بن عبد الرّحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرّحمن الداخل، المقدّم ذكره، ابن معاوية، الأموىّ المروانىّ ثم الأندلسىّ؛ ولى الأمر بعد جدّه؛ و كان ذلک من غرائب الوجود لأنّه كان شابّا و بالحضرة أكابر من أعمامه و أعمام أبيه؛ و تقدّم هو و هو ابن اثنتين و عشرين سنة. فاستقام له الأمر و بنى مدينة الزّهراء- و قد ذكرنا أمر بنائها فى محلّه- و مات فى هذه السنة. و كانت مدّة أيّامه خمسين سنة، و كان من أجلّ ملوک الأندلس.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و أربع عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا سواء.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۳۳۱

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۵۱]

السنة الثانية من ولاية علىّ بن الإخشيذ على مصر، و هى سنة إحدى و خمسين و ثلثمائة- فيها نقلت سنة خمسين و ثلثمائة [من حيث الغلّات] إلى سنة إحدى و خمسين الخراجيّة، و كتب بذلک عن المطيع كتاب فى هذا المعنى. فمنه أنّ السنة الشمسيّة خمسة و ستون و ثلثمائة يوم و ربع بالتقريب؛ و أنّ السنة الهلاليّة أربعة و خمسون و ثلثمائة و كسر؛ و ما زالت الأمم السالفة تكبس زيادات السنين على اختلاف مذاهبها، و فى كتاب اللّه تعالى شهادة بذلک؛ قال اللّه تعالى: (وَ لَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَ ازْدَادُوا تِسْعاً)؛ فكانت هذه الزيادة هى المشار إليها.

و أما الفرس فإنّهم أجروا معاملاتهم على السنة المعتدلة التى شهورها اثنا عشر شهرا و أيّامها ستون و ثلثمائة يوم، و لقّبوا الشهور اثنى عشر لقبا، و سمّوا الأيّام بأسامىّ، و أفردوا الأيّام الخمسة الزائدة و سمّوها المشرقة، و كبسوا الرّبع فى كلّ مائة و عشرين سنة شهرا؛ فلما انقرض ملكهم بطل ذلک. و فيها دخل الدّمستق ملک الروم عين زربى فى مائة و ستّين ألفا- و عين زربى فى سفح جبل مطلّ عليها- فصعد بعض جيشه الجبل، و نزل هو على بابها و أخذوا فى نقب السور؛ فطلبوا الأمان فأمّنهم و فتحوا له فدخلها، و ندم حيث أمّنهم؛ و نادى بأن يخرج جميع من فى البلد إلى الجامع. فلمّا

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۳۳۲

أصبح بثّ رجاله و كانوا مائة ألف، و كلّ من وجدوه فى منزله قتلوه، فقتلوا عالما لا يحصى؛ ثم فعل فى البلد تلک الأفاعيل القبيحة. و

فيها عاد الدّمستق الى حلب؛ فخرج إليه سيف الدولة بغير استعداد و حاربه، فحاربه الدّمستق بمائتى ألف مقاتل، فانهزم سيف الدولة فى نفر يسير؛ و كانت داره بظاهر حلب، فنزلها الدّمستق و أخذ منها ثلثمائة و تسعين بدرة دراهم، و أخذ منها ألفا و أربعمائة بغل؛ و من السلاح ما لا يحصى، ثم نهبها الدّمستق و أحرقها ثم أحرق بلاد حلب. و قاتله أهل حلب من وراء السور فقتلوا جماعة من الروم، فسقطت قائمة من السور على جماعة من أهل حلب فقتلتهم؛ فأكبّ الروم على تلك الثّلمة و قاتلوا حتى ملكوا حلب، و وضعوا فيها السيف حتّى كلّوا و ملّوا، و أخربوا الجامع و أحرقوا ما عجزوا عن حمله؛ و لم ينج إلا من صعد القلعة؛ فألّح ابن أخت الملك فى أخذ القلعة فقتل بحجر. و كان عند الدمستق ألف و مائتا أسير من أهل حلب فضرب أعناقهم. ثم عاد الى الروم و لم يعرض لأهل القرى، و قال لهم: ازرعوا فهذا بلدنا و عن قليل نعود إليكم. و فيها كتبت الشّيعة ببغداد على أبواب المساجد لعنة معاوية رضى اللّه عنه، و لعنة من غصب فاطمة رضى اللّه عنها حقّها من فدك، و لعنة من منع الحسن أن يدفن مع جدّه

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۳۳۳

صلّى اللّه عليه و سلم؛ ثم محى فى الليل. فأراد معز الدّولة إعادته؛ فأشار عليه الوزير المهلّبىّ أن يكتب مكان ما محى: لعن اللّه الظالمين لآل رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم؛ و صرّحوا بلعنة معاوية رضى اللّه عنه فقط. و فيها أسرت الروم أبا فراس بن سعيد ابن حمدان من مدينة منبج، و كان واليها. و فيها وقع بالعراق برد وزن البعض منه رطل و نصف بالعراقىّ. و فيها توفّى الوزير أبو محمد الحسن بن محمد بن هارون المهلّبىّ، أصله من بنى المهلّب بن أبى صفرة، أقام [فى] وزارة معزّ الدولة ثلاث عشرة سنة.

و كان فاضلا شاعرا فصيحا نبيلا- سمحا جوادا ذا مروءة و كرم، و عاش أربعا و ستين سنة. و استوزر معزّ الدولة عوضه أبا الفضل العبّاس بن الحسن الشّيرازىّ. ثم صادر معزّ الدولة أولاد المهلّبىّ من بعد موته. و فيها توفى دعلج بن أحمد بن دعلج أبو محمد السّجزىّ الفقيه العدل؛ ولد سنة ستّين و مائتين أو قبلها، و سمع الكثير. قال الحاكم:

أخذ عن ابن خزيمة المصنّفات، و كان يفتى بمذهبه، و كان شيخ الحديث، له صدقات جارية على أهل الحديث بمكّة و العراق؛ مات فى جمادى الآخرة و له نيّف و تسعون سنة.

و فيها توفّى عبد الباقى بن قانع بن مرزوق بن واثق أبو الحسين الأموىّ مولاهم البغدادىّ الحافظ، سمع الكثير و روى عنه الدارقطنى و غيره، و صنّف معجم الصحابة، و مات فى شوّال.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۳۳۴

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى إبراهيم بن علىّ أبو إسحاق الهجيمى، و الحسن بن محمد الوزير أبو محمد المهلّبىّ، و دعلج بن أحمد السّجزىّ، و عبد اللّه بن جعفر بن محمد بن الورد البغدادىّ بمصر، و عبد الباقى بن قانع أبو الحسين فى شوّال، و أبو بكر محمد بن الحسن بن محمد بن زياد النقّاش فى شوّال، و له خمس و ثمانون سنة، و أبو جعفر محمد بن علىّ بن دحيم الشّيبانىّ، و أبو محمد يحيى بن منصور قاضى نيسابور.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ستّ أذرع و إحدى عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و سبع أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۵۲]

السنة الثالثة من ولاية علىّ بن الإخشيد على مصر، و هى سنة اثنتين و خمسين و ثلثمائة- فيها فى يوم عاشوراء ألزم معزّ الدولة الناس بغلق الأسواق و منع الطبّاخين من الطبخ، و نصبوا القباب فى الأسواق و علّقوا عليها المسوح، و أخرجوا النساء منشورات الشعور يقمن المأتم على الحسين بن علىّ رضى اللّه عنه. قلت: و هذا أوّل يوم وقع فيه هذه العادة القبيحة الشّيعيّة ببغداد. و كان ذلك فى صحيفة

معزّ الدولة بن بويه؛ ثم اقتدى به من جاء بعده من بنى بويه، و كلّ منهم رافضىّ خبيث.
نذكر ذلک كلّه فيما يأتى فى الحوادث إن شاء اللّه تعالى. و فيها أصاب سيف الدولة علىّ بن عبد اللّه بن حمدان فالج فى يده و رجله. و فيها قال ثابت بن سنان: أرسل بعض بطارقة الأرمن الى ناصر الدولة الحسن بن حمدان رجلين ملتصقين عمرهما
النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۳۳۵
خمس و عشرون سنة و معهما أبوهما؛ و الالتصاق كان فى الجنب، و لهما بطنان و سرّتان و معدتان، و تختلف أوقات جوعهما و عطشهما و بولهما، و كلّ واحد منهما يكمل الخلق، و كان أحدهما يميل الى النساء و الآخر الى المرد. و قال القاضى [علىّ بن الحسن التنوخىّ]: و مات أحدهما و بقى أيّاما و أنتن و أخوه حىّ. فجمع ناصر الدولة الأطباء على أن يقدروا على فصلهما فلم يقدروا؛ و مات الآخر من رائحة الميّت بعد أيّام. و فيها قتل ملک الروم و صار الدّمستق هو الملک و اسمه تقفور. و فيها توفّيت خولة أخت سيف الدولة بن حمدان بحلب؛ و هى التى رثاها المتنبى بقوله:
يا أخت خير أخ يا بنت خير أب كناية بهما عن أشرف النّسب
و فيها انتصرت الرّوم على الإسلام بكائنة حلب و ضعف أمر سيف الدولة بعد تلک الملاحم الكبار التى طيّر فيها لبّ العدوّ و مزّقهم. و للّه الأمر.
و فيها خرج أيضا سيف الدولة غازيا، فسار الى حرّان و عطف على ملطية، و قتل من الروم خلائق و ملأ يده سبيا و غنائم، و للّه الحمد.
و فيها فى شعبان ورد غزاة خراسان نحو ستمائة رجل الى الموصل يريدون الجهاد نجدة لأهل الموصل.
و فيها عبرت الروم الفرات لقصد الجزيرة؛ فتهيّأ ناصر الدولة بن حمدان لقتالهم. و فيها اجتمع أهل بغداد و وبّخوا الخليفة المطيع للّه بكائنة حلب، و طلبوا منه أن يخرج بنفسه الى الغزو و يأخذ بثأر أهل حلب. و بينما هم فى ذلک ورد الخبر بموت طاغية الرّوم و أن الخلف وقع بينهم فيمن يملّكونه عليهم، و أن أهل طرسوس غزوهم و انتصروا
النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۳۳۶
عليهم و عادوا بغنائم لم يرفى دهر مثلها؛ فآنتدب المسلمون لغزو الروم من كلّ جانب.
الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أحمد [بن عبيد بن أحمد] أبو بكر الحمصىّ الصفار، و أبو الحسين أحمد بن محمود البيهقىّ، و أبو بكر محمد [بن محمد] بن أحمد بن مالک الإسكافىّ.
أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثلاث أذرع سواء. مبلغ الزيادة خمس عشرة ذراعا و ستّ عشرة إصبعا.
***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۵۳]

السنة الرابعة من ولاية علىّ بن الإخشيذ على مصر، و هى سنة ثلاث و خمسين و ثلثمائة- فيها عمل يوم عاشوراء كعام أوّل من المأتم و النّوح الى الضّحا، فوقعت فتنة عظيمة بين أهل السنّة و الرافضة، و جرح جماعة و نهب الناس. و فيها نزل ملک الروم الدّمستق المصّيصة فى جيش ضخم، فأقام أسبوعا و نقب السور من أماكن؛ و قاتله أهلها الى أن رحل عنها بعد أن أهلک الضّياع. و كان رحيله لشدّة الغلاء؛ فإنّ القحط كان بالشام و الثغور. و فيها بعث القرامطة الى سيف الدولة يستهدونه حديدا؛ فسيّر اليهم شيئا كثيرا، و حمل ذلک إليهم فى الفرات ثم فى البرّية الى هجر.
و فيها خرج معزّ الدولة ابن بويه إلى الموصل لقتال ناصر الدولة بن حمدان، فلحقه ذرب شديد؛ و سار ناصر الدولة أمامه الى ميّا فارقين ثم عاد الى الموصل، و اقتتل مع أعوان معزّ الدولة فاستأمن إليه الدّيلم و استأسر جميع الترک، و أخذ
النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۳۳۷

حواصل معزّ الدولـة و ثقله. فعاد معزّ الدولـة يريـد الموصل فوقع له مع ناصـر الدولـة فصول ثم اصـطلحوا؛ و عاد معزّ الدولة الى بغداد خائبا. و فيها عمل سـيف الدولـة ابن حمـدان خيمـة عظيمـة ارتفاع عمودها خمسون ذراعا. و فيها ورد الخبر أنّ الروم يريدون [أذنة و] المصّـيصة؛ فاسـتنجد أهل أذنة بأهل طرسوس فجاءوهم بخمسة عشـر ألفا من فارس و راجل، فالتقوا و اشتدّ القتال و انهزم المشركون، فركب المسـلمون أقفية الروم و اتبعوهم؛ فخرج للروم كمين نحو أربعة آلاف مقاتل، فتحيّز المسـلمون الى تلّ هناك فقاتلوهم يومين؛ ثم كثر عليهم جموع الروم فاستأصـلوهم، و حاصـروا أهـل المصّـيصة و نقبوا سورهـا من مواضع، فقاتلهم المسـلمون أشـدّ قتال الى أن ترحّلوا عنها مخذولين. و فيها ملك المسـلمون حصن اليمانيّة و هو على ثلاثة فراسخ من آمد. و فيها جاء عسـكر من الروم و كادوا أن يملكوا حصـنا من نواحى حلب، فسار لحربهم عسـكر سـيف الدولـة و قاتلوهم فلم يفلت من الروم أحـد، و قتل منهم خمسـمائة نفر، و تجرّح المسـلمون و خيولهم. ثم جـاء الخبر بنزول الروم أيضـا الى المصّـيصة [والى طرسوس] مع تقفور ملك الروم، و أنهم فى ثلثمائة ألف و عـاثوا و أفسـدوا؛ ثم سـاروا لعظم القحط كما وقع لهم أوّلا؛ فتبعهم أهل المصّـيصة و طرسوس فقتلوا و أسـروا طائفـة كثيرة من الروم. و فيها توفّى إبراهيم بن محمـد بن حمزة بن عمارة الحافظ أبو إسـحاق ابن حمزة الأصـبهانىّ. قال أبو نعيم: كان أوحد زمانه فى الحفظ لم ير بعد عبد اللّه ابن مظاهر فى الحفظ مثله، جمع الشيوخ و السند؛ و توفّى فى سابع رمضان. و عمارة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۳۳۸

جدّهم، هو ابن حمزة بن يسار بن عبد الرّحمن بن حفص؛ و حفص هو أخو أبى مسـلم الخراسانىّ صاحب الدولة العباسيّة. و فيها توفّى سعيد بن عثمان بن سـعيد بن السّـكن الحافظ أبو علىّ البغدادىّ ثم المصرىّ البزّاز؛ ولد سـنة أربع و تسـعين و مائتين، و سـمع بمصر و الشام و الجزيرة و العراق و خراسان و ما وراء النهر، و كان كبير الشأن مكثرا متقنا مصـنّفا بعيد الصيـت، له تجارة فى البريّة، و مات فى المحرّم. و قـد روى عنه صـحيح البخارىّ [عبـد اللّه بن محمد] بن أسد الجهمىّ و أبو عبد اللّه محمد بن أحمد ابن محمد بن يحيى بن مفرّج و أبو جعفر بن عون اللّه. و فيها توفّى بندار بن الحسين محمد بن المهلّب أبو الحسين الشّيرازىّ؛ كان يسكن بمدينة أرّجان، كان عالما بالأصول و له لسان فى علوم الحقائق، و كان الشّبلىّ يعظّمه.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السـنة، قال: و فيها توفّى أبو إسـحاق إبراهيم ابن محمد بن حمزة الأصـبهانىّ الحافظ فى رمضان، و أبو عيسى بكّار بن أحمد [بن بكّار ابن بنان] المقرئ، و أبو علىّ سعيد بن عثمان [بن سعيد] بن السكن الحافظ بمصر،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۳۳۹

و ابن أبى الفوارس شـجاع بن جعفر الورّاق الواعظ فى عشـر و المائة، و عبد اللّه بن الحسن بن بندار الأصـبهانىّ، و أبو محمد عبد اللّه بن محمد بن العبّاس الفاكهىّ، و أبو القاسم علىّ بن يعقوب الهمذانىّ بن أبى العقب فى ذى الحجّة عن اثنتين و تسعين سنة، و أبو بكر محمد بن أحمد بن محمد بن خروف بمصر، و أبو علىّ محمد بن هارون ابن شعيب الأنصارىّ.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثلاث أذرع و خمس عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة خمس عشرة ذراعا و أربع أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۵۴]

السـنة الخامسـة من ولاية علىّ بن الإخشـيذ على مصـر، و هى سـنة أربع و خمسـين و ثلثمائة- فيها عمل فى يوم عاشوراء المأتم ببغداد كالسـنة الماضـية، و لم يتحرّك لهم السّـنيّة خوفا من معزّ الدولـة بن بويه. و فيها وثب غلمان سـيف الدولـة بن حمدان على غلامه نجا الكبير و ضربوه بالسيوف، و كان أكبر غلمانه [و] مقدّم جيشه و غلمانه (أعنى مماليكه). و فيها توفّيت أخت معزّ الدولة بن بويه ببغداد، فنزل الخليفـة المطيع فى طيّارة الى دار معزّ الدولـة يعزّيه؛ فخرج إليه معزّ الدولة و لم يكلّفه الصـعود من الطيّارة و قبّل الأرض مرّات، و

رجع الخليفة الى داره. و فيها حجّ الركب من بغداد. و فيها بنى تقفور ملك الروم قيسارّيّة قريبا من بلاد المسلمين و سكنها. و كان الناس فى هذه السنة الماضية فى شغل بالغلاء و القحط بسائر بلاد حلب و ديار بكر.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۳۴۰

و فيها توفّى أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد أبو الطيب المتنبىّ الجعفىّ الكوفىّ الشاعر المشهور حامل لواء الشعر فى عصره، ولد سنة ثلاث و ثلثمائة و أكثر المقام بالبادية لاقتباس اللغة، و نظر فى فنون الأدب، و تعاطى قول الشعر من صغره حتّى بلغ فيه الغاية، وفاق أهل زمانه؛ و مدح الملوك و سار شعره فى الدنيا، و مدح سيف الدولة بن حمدان و كافورا الإخشيدىّ و غيرهما. و قال أبو القاسم التنوخىّ:

و قد كان خرج المتنبىّ الى كلب و أقام فيهم و ادّعى أنه علوىّ، ثم ادّعى بعد ذلك النبوّة، الى أن شهد عليه بالكذب فى الدعويين و حبس دهرا و أشرف على القتل، ثم استتابوه و أطلقوه. و قال: و حدّثنى أبى الى أن قال: و كان المتنبى قرأ على البوادى كلاما ذكر أنّه قرآن أنزل عليه، نسخت منه سورة فصاحته، و بقى أوّلها فى حفظى، و هو ": و النجم السيّار، و الفلك الدوّار، و الليل و النهار، [إنّ] الكافر لفى أخطار؛ امض على سننك و اقف أثر من كان قبلك من المسلمين، فإن اللّه قامع بك زيغ من ألحد فى الدين، و ضلّ عن السبيل. "قال: و كان المتنبىّ ينكر ذلك و يجحده.

و قال له ابن خالويه النحوىّ يوما فى مجلس سيف الدولة: لو لا أن الآخر جاهل لما رضى أن يدعى المتنبى، لأن المتنبى معناه كاذب؛ [و من رضى أن يدعى بالكاذب فهو جاهل]. فقال: إنى لم أرض أن أدعى به. انتهى. و من شعر المتنبىّ- و هو أشهر من أن يذكر- قوله:

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۳۴۱

و ما أنا بالباغى على الحبّ رشوة قبيح هوى يرجى عليه ثواب

إذا نلت منك الودّ فالمال هيّن و كلّ الذى فوق التراب تراب

و من [شعره]- و هو البيت الذى ذكروا أنه ادّعى النبوّة فيه-:

و من نكد الدنيا على الحرّ أن يرى عدوّا له ما من صداقته بدّ

و من [شعره] قصيدته التى أوّلها:

لک يا منازل فى القلوب منازل

و منها:

جمح الزمان فلا لذيذ خالص مما يشوب و لا سرور كامل

فإذا أتتک مذمّتى من ناقص فهى الشهادة لى بأنّى فاضل

و هذا البيت الأخير الذى وقع لأبى العلاء المعرىّ مع الشريف المرتضى الموسوىّ ما وقع بسببه.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۳۴۲

و من شعر المتنبىّ قصيدته التى أولها:

أجاب دمعى و ما الداعى سوى طلل [دعا فلبّاه قبل الركب و الإبل]

فمنها قوله:

و الهجر أقتل لى ممّا أراقبه أنا الغريق فما خوفى من البلل

و منها:

لعلّ عتبك محمود عواقبه فربّما صحّت الأجسام بالعلل

و يعجبنى قوله من شعره:

خير أعضائنا الرءوس و لكن فضلتها بقصدك الأقدام

و ما أحسن مطلع قصيدته:

إذا غامرت فى شرف مروم فلا تقنع بما دون النجوم

و منها:

فطعم الموت فى أمر حقير كطعم الموت فى أمر عظيم

و منها:

و كلّ شجاعة فى المرء تغنى و لا مثل الشجاعة فى الحكيم

و كم من عائب قولا صحيحا و آفته من الفهم السقيم

و لكن تأخذ الأذهان منه على قدر القرائح و العلوم

مات المتنبىّ قتيلا بالنّعمانيّة. و فيها توفّى محمد بن حبّان بن أحمد بن حبّان الحافظ العلامة أبو حاتم التّميمى البستىّ صاحب التصانيف المشهورة، كان عالما بالفقه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۳، ص: ۳۴۳

و الحديث و الطبّ و النجوم و فنون من العلوم، و ألّف «المسند الصحيح» و «التاريخ» و «الضعفاء». قال الحاكم: كان من أوعية العلم فى الفقه و اللغة و الحديث و الوعظ. و فيها توفّى محمد بن عبد اللّه بن إبراهيم بن عبدويه أبو بكر البزّاز الشافعىّ المحدّث، ولد سنة ستين و مائتين و سكن بغداد، و سمع الكثير و حدّث، روى عنه الدارقطنىّ و جماعة.

الذين ذكر الذهبى وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أبو الطيب أحمد بن الحسين بن الحسن الجعفىّ المتنبّى و له إحدى و خمسون سنة، و أبو حاتم محمد بن حبّان ابن أحمد التّميمىّ البستىّ فى شوّال، و أبو بكر محمد بن الحسن بن يعقوب بن مقسّم العطّار المقرئ، و أبو بكر محمد بن عبد اللّه بن إبراهيم الشافعىّ البزّاز فى ذى الحجّة و له خمس و تسعون سنة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثلاث أذرع و خمس أصابع. مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و خمس عشرة إصبعا.

انتهى الجزء الثالث من النجوم الزاهرة و يليه الجزء الرابع و أوّله ذكر ولاية كافور الإخشيذى على مصر

[الجزء الرابع]

اشارة

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم و صلّى اللّه على سيّدنا محمد و آله و صحابته و المسلمين الجزء الرابع من كتاب النجوم الزاهرة

[تتمة ما وقع من الحوادث سنة ۳۵۴]

ذكر ولاية كافور الإخشيذىّ على مصر

الأستاذ أبو المسك كافور بن عبد اللّه الإخشيذىّ الخادم الأسود الخصىّ صاحب مصر و الشام و الثغور، اشتراه سيّده أبو بكر محمد الإخشيذ بثمانية عشر دينارا من الزيّاتين، و قيل: من بعض رؤساء مصر، و ربّاه و أعتقه؛ ثم رقّاه حتّى جعله من كبار القوّاد لمّا رأى منه الحزم و العقل و حسن التدبير. و لمّا مات الإخشيذ فى سنة خمس و ثلاثين و ثلثمائة، أقام كافور هذا أبناءه واحدا بعد واحد. و كان الذى ولّى أوّلا أبا القاسم أنوجور بن الإخشيذ- و معنى أنوجور بالعربية محمود- و قد تقدّم ذلك كلّه. فدام أنوجور فى الملك إلى

أن مات فی یوم السبت لثمان خلون من ذی القعدة سنة تسع و أربعین و ثلثمائة. ثم بعد موت أنوجور أقام أخاه أبا الحسن علیّ بن الإخشید کما تقدّم ذکر ذلک کلّه فی ترجمتهما. و کان کافور هذا هو مدبّر ملکهما. و دخل کافور فی أیّام ولایتهما فی ضمان البلاد مع الخلیفة، و وفّی بما ضمنه.

و لمّا مات الإخشید اضطربت أحوال الدیار المصریّة، فخرج کافور منها بآبنی الإخشید و توجّه بهما إلی الخلیفة المطیع للّه، و أصلح أمرهما معه، و التزم کافور

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲

للخلیفة بأمر الدیار المصریّة، ثم عاد کافور بهما إلی الدیار المصریّة. و کان غلبون قد تغلّب علی مصر بعد موت الإخشید فی غیبة کافور لمّا توجّه إلی العراق؛ فقدم کافور إلی مصر و تهیّأ لحرب غلبون المذکور و حاربه و ظفر به و قتله، و أصلح أحوال الدیار المصریّة؛ و استمر مدبّرها إلی أن مات أنوجور و تولّی أخوه علیّ؛ ثم مات علیّ أیضا فی سنة خمس و خمسین و ثلثمائة؛ و استقل کافور بالأمر و خطب له علی المنابر و تمّ أمره.

قال الحافظ أبو عبد اللّه الذهبیّ فی تاریخ الإسلام: کافور الإخشیذیّ الحبشیّ الأستاذ السلطان أبو المسک اشتراه الإخشید من بعض رؤساء مصر، کان أسود بصّاصا. ثم ساق الذهبیّ نحو ما حکیناه، إلی أن قال: تقدّم عند الإخشید صاحب مصر لعقله و رأیه و سعده إلی أن صار من کبار القوّاد، و جهّزه الإخشید فیّ جیش لحرب سیف الدولة بن حمدان. ثم إنه لمّا مات أستاذه صار أتابک ولده أبی القاسم أنوجور و کان صبیّا؛ فغلب کافور علی الأمر، و بقی الاسم لأبی القاسم و الدّست لکافور، حتّی قال وکیله: خدمت کافورا و راتبه فی الیوم ثلاث عشرة جرایة، و توفّی و قد بلغت جرایته علی یدی فی کلّ یوم ثلاثة عشر ألف جرایة. قلت: و هو أتابک السلطان أنوجور، أمّا لمّا استقلّ بالملک فکان أکثر من ذلک.

و قال أبو المظفّر فی تاریخه مرآة الزمان: کان کافور شجاعا مقداما جوادا یفضل علی الفحول. و قصده المتنبیّ و مدحه فأعطاه أموالا کثیرة، ثم فارقه إلی

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۳

العراق. و قال أبو الحسن بن أذین النحویّ: حضرت مع أبی مجلس کافور و هو غاصّ بالناس، فقام رجل فدعا له، و قال فی دعائه: أدام اللّه أیّام مولانا (بکسر المیم من أیّام) فأنکر کافور و الحاضرون ذلک؛ فقام رجل من أوساط الناس فقال:

لا غرو إن لحن الداعی لسیّدنا أو غصّ من دهش بالریق أو بهر

و مثل سیّدنا حالت مهابته بین البلیغ و بین القول بالحصر

فإن یکن خفض الأیام من غلط فی موضع النصب لا من قلّة البصر

فقد تفاءلت من هذا لسیّدنا و الفأل مأثورة عن سیّد البشر

بأنّ أیامه خفض بلا نصب و أنّ أوقاته صفو بلا کدر

فعجب الحاضرون من ذلک، و أمر له کافور بجائزة.

و قال أبو جعفر مسلم بن عبید اللّه بن طاهر العلویّ النّسابة: ما رأیت أکرم من کافور! کنت أسایره یوما و هو فی موکب خفیف یرید التنزّه و بین یدیه عدّة جنائب بمراکب ذهب و فضة و خلفه بغال المراکب؛ فسقطت مقرعته من یده و لم یرها رکابیّته، فنزلت عن دابّتی و أخذتها من الأرض و دفعتها إلیه؛ فقال:

أیّها الشریف، أعوذ بالله من بلوغ الغایة، ما ظننت أن الزمان یبلّغنی حتی تفعل بی أنت هذا! و کاد یبکی؛ فقلت: أنا صنیعة الأستاذ و ولیّه. فلما بلغ باب داره ودّعنی؛ فلما سرت التفتّ فإذا بالجنائب و البغال کلّها خلفی؛ فقلت: ما هذا؟

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۴

قالوا: أمر الأستاذ أن يحمل مركبه كلّه إليک، فأدخلته دارى؛ و كانت قيمته تزيد على خمسة عشر ألف دينار. و راوى هذه الحكاية مسلم بن عبيد اللّه المذكور من صالحى الأشراف.

و وقع له حكاية غريبة نذكرها فى ضمن هذه الترجمة، ثمّ نعود إلى ما نحن فيه من ترجمة كافور، و هى أنّه كان لمسلم بن عبيد اللّه المذكور غلام قد ربّاه من أحسن الغلمان، فرآه بعض القوّاد فبعث إليه ألف دينار مع رجل، و قال له: اشتر لى منه هذا الغلام؛ قال الرجل: فوافيته- يعنى الشريف مسلم ابن عبيد اللّه- فى الحمّام و رأيت الغلام عريانا فرأيت منظرا حسنا؛ فقلت فى نفسى: لا شكّ أنّ الشريف لا يفوته هذا الغلام، و أدّيت الرسالة؛ فقال الشريف ما دفع فيه هذا الثمن إلّا و هو يريد [أن] يعصى اللّه فيه، ارجع إليه بماله فلا أبيعه.

فعدت إليه و أخبرته و نمت تلک الليلة، فرأيت النّبىّ صلى اللّه عليه و سلم فى المنام، فسلّمت عليه فما ردّ علىّ، و قال: ظننت فى ولدى مسلم الخنا مع الغلام امض إليه و اسأله أن يجعلک فى حلّ. فلما طلع الفجر مضيت إليه و أخبرته و بكيت و قبّلت يديه و رجليه و سألته أن يجعلنى فى حلّ؛ فبكى و قال: أنت فى حلّ و الغلام حرّ لوجه اللّه تعالى.

و أمّا كافور فإنّه لمّا صار قبل سلطنته مدبّر الممالک المصرية و عظم أمره أنف من ذلک خشداشه الأمير أبو شجاع فاتک الرومىّ الإخشيذىّ المقدّم ذكره فى سنة نيّف و خمسين و ثلثمائة. و كان فاتک يعرف بالمجنون، و كان الإخشيذ قد اشترى

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۵

فاتكا هذا من أستاذه بالرملة كرها و أعتقه، و حظى عند الإخشيذ، و كان رفيقا لكافور هذا، و هو الأعظم مع طيش و خفّة و حبورة، و كان كافور عاقلا سيوسا؛ فكان كلّما تزايد أمر كافور و عظم يزيد جنون فاتک و حسده، فلا يلتفت كافور إليه بل يدرّ عليه الإحسان و يراعيه إلى الغاية. و كان الفيّوم إقطاع فاتک المجنون، فاستأذن فاتک كافورا أن يتوجّه إلى إقطاعه بالفيّوم و يسكن هناک حتى لا يرى عظمة كافور؛ فأذن له كافور فى ذلک و ودّعه؛ فخرج فاتک إلى الفيّوم، فلم يصحّ مزاجه بها لو خامتها فعاد بعد مدّة مريضا إلى مصر ليتداوى بها. و كان المتنبىّ الشاعر بمصر قد مدح كافورا بغرر القصائد، فسمع المتنبىّ بكرم المجنون فأحبّ أن يمدحه و لم يجسر خوفا من كافور. و كان كافور يكره فاتكا فى الباطن و يخافه، و صار فاتک يراسل المتنبىّ و يسأل عنه إلى أن اتّفق اجتماعهما يوما بالصحراء و جرت بينهما مفاوضات. فلمّا رجع فاتک إلى داره بعث إلى المتنبىّ بهديّة قيمتها ألف دينار، ثم أتبعها بهدايا أخر. فاستأذن المتنبىّ كافورا فى مدح فاتک فأذن له خوفا من فاتک و فى النفس شىء من ذلک؛ فمدحه المتنبىّ بقصيدته التى أوّلها:

لا خيل عندک تهديها و لا مال فليسعد النطق إن لم تسعد الحال

إلى أن قال:

كفاتک و دخول الكاف منقصة كالشمس قلت و ما للشمس أمثال

فحقد كافور على المتنبّى لذلک، و فطن المتنبىّ بعدوانه. فخرج من مصر هاربا، و كان هذا سببا لهجو المتنبىّ كافورا بعد أن كان مدحه بعدّة مدائح، على ما يأتى ذكره إن شاء اللّه تعالى.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۶

قال الذهبىّ: و كان كافور يدنى الشعراء و يجيزهم، و كان تقرأ عنده فى كلّ ليلة السّير و أخبار الدولة الأموية و العباسيّة و له ندماء، و كان عظيم الحرمة و له حجاب يمتنع عن الأمراء، و له جوار مغنّيات، و له من الغلمان الروم و السّود ما يتجاوز الوصف؛ زاد ملكه على ملک مولاه الإخشيذ؛ و كان كريما كثير الخلع و الهبات خبيرا بالسياسة فطنا ذكيا جيّد العقل داهية؛ كان يهادى المعزّ صاحب المغرب و يظهر ميله إليه، و كذا يذعن بالطاعة لبنى العبّاس و يدارى و يخدع هؤلاء و هؤلاء و تمّ له الأمر.

و كان وزيره أبو الفضل جعفر بن الفرات راغبا فى الخير و أهله. و لم يبلغ أحد من الخدّام ما بلغ كافور؛ و كان له نظر فى العربيّة و الأدب و العلم. و ممّن كان فى خدمته أبو إسحاق إبراهيم بن عبد اللّه النّجيرمىّ النحوىّ صاحب الزّجاج. و قال إبراهيم بن إسماعيل

إمام مسجد الزبیر: کان کافور شدید الساعد لا یکاد أحد یمدّ قوسه، فإذا جاءوه برام دعا بقوسه [و قال: ارم علیه]؛ فإن أظهر الرجل العجز ضحک و قدّمه و أثبته؛ و إن قوی علی مدّها و استهان بها عبس و سقطت منزلته من عنده. ثم ذکر له حکایات تدلّ علی أنه کان مغری بالرمی. قال: و کان یداوم الجلوس غدوة و عشیّة لقضاء حوائج الناس، و کان یتهجّد و یمرّغ وجهه ساجدا و یقول: اللهمّ لا تسلّط علیّ مخلوقا. انتهی.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۷

قلت: و نذکر حینئذ أحوال المتنبیّ معه و ما مدحه به من القصائد. لما فارق المتنبیّ سیف الدولة بن حمدان مغاضبا له، قصد کافورا الإخشیذیّ و دخل مصر و مدحه بقصیدته التی منها:

قواصد کافور توارک غیره و من ورد البحر استقلّ السواقیا

فجاءت بنا إنسان عین زمانه و خلّت بیاضا خلفها و مآقیا

و هو أوّل مدیح قاله فیه، و کان ذلک فی جمادی الآخرة سنة ست و أربعین و ثلثمائة.

و قال ابن خلّکان: و أنشده أیضا فی شوّال سنة سبع و أربعین و ثلثمائة قصیدته البائیة التی یقول فیها:

و أخلاق کافور إذا شئت مدحه و إن لم أشأ تملی علیّ فأکتب

إذا ترک الإنسان أهلا وراءه و یمّم کافورا فما یتغرّب

و منها أیضا:

فإن لم یکن إلّا أبو المسک أوهم فإنّک أحلی فی فؤادی و أعذب

و کلّ امرئ یولی الجمیل محبّب و کلّ مکان ینبت العزّ طیّب

و آخر شیء أنشده فی شوّال سنة تسع و أربعین و ثلثمائة- و لم یلقه بعدها- قصیدته البائیّة:

أری لی بقربی منک عینا قریرة و إن کان قربا بالبعاد یشاب

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۸

و هل نافعی أن ترفع الحجب بیننا و دون الذی أمّلت منک حجاب

أقلّ سلامی حبّ ما خفّ عنکم و أسکت کیما لا یکون جواب

و منها:

و ما أنا بالباغی علی الحبّ رشوة ضعیف هوی یبغی علیه ثواب

و ما شئت ألا أن أدلّ عواذلی علی أنّ رأیی فی هواک صواب

و أعلم قوما خالفونی فشرّقوا و غرّبت أنی قد ظفرت و خابوا

و منها:

و إنّ مدیح الناس حقّ و باطل و مدحک حقّ لیس فیه کذاب

إذا نلت منک الودّ فالمال هیّن و کلّ الذی فوق التراب تراب

و ما کنت لولا أنت إلّا مهاجرا له کلّ یوم بلدة و صحاب

و لکنّک الدنیا إلیّ حبیبة فما عنک لی إلّا إلیک ذهاب

و أقام المتنبیّ بعد إنشاد هذه القصیدة سنة لا یلقی کافورا غضبا علیه، لکنه یرکب فی خدمته [خوفا منه] و لا یجتمع به؛ و استعدّ للرحیل فی الباطن و جهّز جمیع ما یحتاج إلیه. و قال فی یوم عرفة قبل مفارقته مصر بیوم واحد قصیدتّه الدالیّة التی هجا کافورا فیها. و فی آخر هذه القصیدة المذکورة یقول:

من علّم الأسود المخصیّ مکرمة أقومه البیض أم آباؤه الصّید

أم أذنه فی ید النّخاس دامیة أم قدره و هو بالفلسین مردود

و منها:

و ذاک أنّ الفحول البیض عاجزة عن الجمیل فکیف الخصیة السّود

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۹

و له فیه أهاج کثیرة تضمّنها دیوان شعره. و رحل المتنبیّ من مصر إلی عضد الدّولة بن بویه.

و قال ابن زولاق: أقام کافور الإخشیذیّ الأستاذ إحدی و عشرین سنة و شهرین و عشرین یوما- یعنی أقام مدبّر مملکة مصر- من قبل ولدی أستاذه، و هما أنوجور و علیّ ابنا الإخشید محمد بن طغج، و أقام هو فیها سنتین و أربعة أشهر و سبعة أیّام ملکا مستقلّا بنفسه. قلت: و نذکر ذلک محرّرا بعد ذلک. قال ابن زولاق: و کان کافور دیّنا کریما. و سماطه، علی ما ذکره صاحب کنز الدّرر، فی الیوم: مائتا خروف کبار، و مائة خروف رمیس، و مائتان و خمسون إوزّة، و خمسمائة دجاجة، و ألف طیر من الحمام، و مائة صحن حلوی کلّ صحن عشرة أرطال، و مائتان و خمسون قرابة أقسما.

قال: و لما توفّی کافور اجتمع الأولیاء و تعاقدوا و تعاهدوا ألّا یختلفوا، و کتبوا بذلک کتابا ساعة توفّی کافور و عقدوا الولایة لأحمد بن علیّ الإخشید، و کان إذ ذاک صبیّا ابن إحدی عشرة سنة- و کافور بعد فی داره لم یدفن- و دعی له علی المنابر بمصر و أعمالها و الشامات و الحرمین، ثم من بعده للحسن

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۰

ابن عبید اللّه. ثم عقد للحسن بن عبید اللّه المذکور علی بنت عمّه فاطمة بنت الإخشید بوکیل سیّره من الشام؛ و جعل التدبیر بمصر فیما یتعلّق بالأموال إلی الوزیر أبی الفضل جعفر بن الفرات، و ما یتعلّق بالرجال و العساکر لسمول الإخشیذیّ صاحب الحمّام بمصر. و کلّ ذلک کان فی یوم الثلاثاء لعشر بقین من جمادی الأولی سنة سبع و خمسین و ثلثمائة. انتهی کلام ابن زولاق رضی اللّه عنه.

و أمّا وفاة کافور المذکور فإنّه توفّی بمصر فی جمادی الأولی سنة ستّ و خمسین و ثلثمائة، و قیل: سنة سبع و خمسین و ثلثمائة، و قیل: سنة ثمان و خمسین و ثلثمائة، و الأصحّ سنة سبع و خمسین و ثلثمائة، قبل دخول القائد جوهر المعزّیّ إلی مصر. و قیل: إنّه لمّا دخل جوهر القائد إلی مصر خرج منها کافور هذا؛ و لیس بشیء، و الأوّل أصحّ. و ملک بعده أحمد بن علیّ بن الإخشید الآتی ذکره. و عاش کافور بضعا و ستین سنة، و کانت إمارته علی مصر اثنتین و عشرین سنة، منها استقلالا بالملک سنتان و أربعة أشهر، خطب له فیها علی منابر مصر و الشام و الحجاز و الثغور، مثل طرسوس و المصّیصة و غیرهما، و حمل تابوته إلی القدس فدفن به؛ و کتب علی قبره:

ما بلل قبرک یا کافور منفردا بالصحصح المرت بعد العسکر اللّجب

یدوس قبرک آحاد الرجال و قد کانت أسود الشّری تخشاک فی الکتب

و قال الولید بن بکر العمریّ وجدت علی قبر کافور مکتوبا:

انظر إلی عبر الأیّام ما صنعت أفنت أناسا بها کانوا و ما فنیت

دنیاهم ضحکت أیّام دولتهم حتّی إذا فنیت ناحت لهم و بکت

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۱

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۵۵]

السنة الأولى من ولاية كافور الإخشيذىّ على مصر- و هى سنة خمس و خمسين و ثلثمائة.

فيها أقيم المأتم على الحسين رضى اللّه عنه فى يوم عاشوراء ببغداد على العادة.

و فيها ورد الخبر بأنّ ركب الشام و مصر و المغرب من الحجّاج أخذوا و هلك أكثرهم و وصل الأقلّ إلى مصر، و تمزّق الناس كلّ ممزّق، و أخذتهم بنو سليم؛ و كان ركبا عظيما نحو عشرين ألف جمل، معهم الأمتعة و الذهب؛ فما أخذ لقاضى طرسوس المعروف بالخواتيمى [مائة ألف و] عشرون ألف دينار.

و فيها قدم أبو الفوارس محمد بن ناصر الدولة من الأسر إلى ميّافارقين؛ كانت أخت ملك الروم أخذته لتفادى به أخاها، فنفّذ سيف الدولة أخاها فى ثلثمائة إلى حصن الهياج، فلما شاهد بعضهم بعضا سرّح المسلمون أسيرهم فى خمسة فوارس و سرّح الروم أسيرهم أبا الفوارس فى خمسة؛ فآلتقيا فى وسط الطريق و تعانقا، ثم صار كلّ واحد إلى أصحابه فترجّلوا له و قبّلوا الأرض؛ و احتفل سيف الدولة بن حمدان لقدوم ابن أخيه و عمل الأسمطة الهائلة، و قدّم له الخيل و المماليك و العدد التامّة؛ فمن ذلك مائة مملوك بمناطقهم و سيوفهم و خيولهم.

و فيها جاء الخبر بأنّ نائب أنطاكية محمد بن موسى الصّيلحىّ أخذ الأموال التى فى خزائن أنطاكية و خرج بها كأنّه متوجّه إلى سيف الدولة بن حمدان فدخل بلاد الروم مرتدّا. و قيل: إنه كان عزم على تسليم أنطاكية إلى الروم، فلم يمكنه ذلك

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۲

لاجتماع أهل البلد على ضبطه، فخشى أن ينمّ خبره إلى سيف الدولة فيتلفه فهرب بالأموال.

و فيها قدم الغزاة الخراسانية من الغزو إلى ميّافارقين، فتلقّاهم أبو المعالى بن سيف الدولة و بالغ فى إكرامهم بالأطعمة و العلوفات. و كان رئيس الغزاة المذكورين محمد بن عيسى.

و فيها سار طاغية الروم بجموعه إلى الشام، فعاث و أفسد و أقام به نحو خمسين يوما؛ فبعث سيف الدولة يستنجد أخاه ناصر الدولة لبعده؛ و وقع لسيف الدولة مع الروم حروب و وقائع كثيرة.

و فيها توفّى محمد بن عمر بن محمد بن سالم أبو بكر [بن] الجعابىّ التميمىّ البغدادىّ الحافظ قاضى الموصل، سمع الكثير و رحل و كان حافظ زمانه، يحب أبا العباس ابن عقدة، و صنّف الأبواب و الشيوخ و التاريخ، و كان يتشيّع؛ و روى عنه الدارقطنىّ و أبو حفص بن شاهين و الحاكم أبو عبد اللّه و آخرون آخرهم وفاة أبو نعيم الحافظ.

و مولده فى صفر سنة أربع و ثمانين و مائتين. قال أبو علىّ الحافظ النيسابورىّ:

ما رأيت فى المشايخ أحفظ من عبدان، و لا رأيت فى أصحابنا أحفظ من أبى بكر [بن] الجعابىّ!.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۳

و فيها توفّى محمد بن الحسين بن علىّ بن الحسن الأنبارىّ الشاعر المشهور، كان انتقل إلى نيسابور فسكنها إلى أن مات بها فى شهر رمضان. و كان من فحول الشعراء. و من شعره و قد رأيته لغيره:

أبكى و تبكى الحمام لكن شتّان ما بينها و بينى

تبكى بعين بغير دمع و ابكى بدمع بغير عين

و يعجبنى فى هذا قول أمير المؤمنين عبد اللّه بن المعتز:

بكت عينى غداة البين حزنا و أخرى بالبكا بخلت علينا

فعاقبت التى بخلت بدمع بأن غمّضتها يوم التقينا

و مما يجيش ببالى أيضا فى هذا المعنى قول القائل، و لم أدر لمن هو غير أننى أحفظه قديما:

قالت سعاد أتبكى بالدمع بعد الدماء

فقلت قد شاب دمعی من طول عمر بکائی

الـذین ذکر الـذهبیّ وفاتهم فی هذه السـنة، قال: و فیها توفّی أبو الحسن علیّ بن الحسن بن علّان الحرّانی الحافظ یوم النحر، و أبو بکر محمد بن عمر بن محمد بن سالم التمیمیّ [ابن] الجعابیّ، و أبو الحکم منذر بن سعید البلّوطیّ قاضی الأندلس و عالمها و مفتیها.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم خمس أذرع و ثمانی أصابع.

مبلغ الزیادة أربع عشرة ذراعا و تسع عشرة إصبعا.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۴

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۵۶]

السنة الثانیة من ولایة کافور الإخشیذیّ علی مصر- و هی سنة ست و خمسین و ثلثمائة.

فیها عملت الرافضة المأتم فی یوم عاشوراء ببغداد علی العادة.

و فیهـا مات السـلطان معزّ الدولـة بن بویه الآتی ذکره، و تولّی مملکـة العراق من بعـده ابنه عزّ الدولـة بختیار بن أحمـد بن بویه. و فیها قبض علی الملک ناصـر الدولة الحسن بن عبد اللّه بن حمدان ولده أبو تغلب، لأنّ أخلاقه ساءت و ظلم و قتل جماعة و شـتم أولاده و تزاید أمره؛ فقبض علیه ولده المذکور بمشورة [رجال] الدولة فی جمادی الأولی، و بعثه إلی القلعة و رتّب له کل ما یحتاج إلیه و وسّع علیه.

و فیها توفی السلطان معزّ الدولة أبو الحسن أحمد بن بویه بن فنّا خسرو بن تمام بن کوهی؛ کان أبوه بویه یصطاد السمک و کان ولده هذا ربما احتطب.

و قـد تقـدّم ذکر ذلک کلّه فی محلّه فی هـذا الکتاب؛ مآل أمره إلی الملک. و کان قـدومه إلی بغداد سـنة أربع و ثلاثین و ثلثمائة، و کان موته بالبطن، فعهد إلی ولده عزّ الدولة أبی منصور بختیار، و کان الرّفض فی أیّامه ظاهرا ببغداد؛ و یقال:

إنه تـاب قبل موته و تصـدّق و أعتق. قلت: و جمیع بنی بویه علی هـذا المـذهب القبیـح غیر أنهم لا یفشون ذلک خوفا علی الملک. و مات معزّ الدولة فی سابع عشر شـهر ربیع الآخر عن ثلاث و خمسـین سنة؛ و کانت دولته اثنتین و عشرین سنة. و کان قد ردّ المواریث إلی ذوی الأرحام. و یقال: إنه من ذرّیّة سابور ذی الأکتاف.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۵

و هو أخو رکن الدولـة الحسن، و عماد الدّولـة علیّ. و کان معزّ الدولة یعرف بالأقطع؛ کان أصابته جراح طارت بیده الیسـری و بعض أصابع الیمنی. و هو عمّ عضد الدولة الآتی ذکره أیضا.

و فیها توفی علیّ بن الحسـین بن محمد بن أحمد بن الهیثم الإمام العلّامة أبو الفرج الأصـبهانیّ الکاتب، مصنّف کتاب الأغانی و غیره؛ سمع الحدیث و تفقّه و برع و اسـتوطن بغداد من صباه، و کان من أعیان أدبائها؛ کان أخباریّا نسّابة شاعرا ظاهرا بالتشـیّع. قال أبو علیّ التّنوخیّ: کـان أبو الفرج یحفظ من الشـعر و الأغانی و الأخبار و المسـندات و الأنساب مالـم أر قطّ مثله، و یحفظ سوی ذلک من علوم أخر، منها: اللغة و النحو و المغازی و السّیر. قلت: و کتاب الأغانی فی غایة الحسن.

و کان منقطعا إلی الوزیر المهلّبیّ و له فیه غرر مدیح، و له فیه من جملة قصیدة یهنّئه بمولود من سرّیّة:

اسعد بمولود أتاک مبارکا کالبدر أشرق جنح لیل مقمر

سعد لوقت سعادة جاءت به أمّ حصان من بنات الأصفر

متبجح فی ذروتی شرف العلا بین المهلّب منتماه و قیصر

شمس الضحى قرنت إلى بدر الدّجى حتى إذا اجتمعا أتت بالمشترى

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۶

و شعره كثير و محاسنه مشهورة. ولادته فى سنة أربع و ثمانين و مائتين، و هى السنة التى مات فيها البحترىّ الشاعر. و مات فى يوم الأربعاء رابع عشر ذى الحجة.

و فيها توفّى سيف الدولة أبو الحسن علىّ بن عبد اللّه بن حمدان بن حمدون بن الحارث بن لقمان بن راشد بن المثنّى بن رافع بن الحارث بن غطيف بن محربة بن حارثة بن مالك بن عبيد بن عدىّ بن أسامة بن مالك بن بكر بن حبيب بن عمرو ابن غنم بن تغلب التغلبىّ، و مولده فى يوم الأحد سابع عشر ذى الحجة سنة ثلاث و ثلثمائة، و قيل: سنة إحدى و ثلثمائة. قال أبو منصور الثعالبى: «كان بنو حمدان ملوكا، و [أمراء]؛ أوجههم للصباحة، و ألسنتهم للفصاحة، و أيديهم للسماحة، و عقولهم للرّجاحة؛ و سيف الدولة مشهور بسيادتهم، و واسطة قلادتهم. و حضرته مقصد الوفود، و مطلع الجود؛ و قبلة الآمال، و محطّ الرحال؛ و موسم الأدباء، و حلبة الشعراء».

و كان سيف الدولة ملكا شجاعا مقداما كريما شاعرا فصيحا ممدّحا.

و قصده الشعراء من الآفاق، و مدحه المتنبىّ بغرر المدائح. و من شعر سيف الدولة فى قوس قزح:

و ساق صبيح للصّبوح دعوته فقام و فى أجفانه سنة الغمض

يطوف بكاسات العقار كأنجم فمن بين منقضّ علينا و منفضّ

و قد نشرت أيدى الجنوب مطارفا على الجود كنا و الحواشى على الأرض

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۷

يطرّزها قوس السحاب بأصفر على أحمر فى أخضر إثر مبيضّ

كأذيال خود أقبلت فى غلائل مصبّغة و البعض أقصر من بعض

قال ابن خلّكان: و هذا من التشبيهات الملوكيّة التى لا يكاد يحضر مثلها السوقة. و يحكى أنّ ابن عمّه أبا فراس الأمير الشاعر كان يوما بين يدى سيف الدولة فى نفر من ندمائه؛ فقال لهم سيف الدولة: أيّكم يجيز قولى؟ و ليس له إلّا سيّدى (يعنى ابن عمّه أبا فراس المذكور) و قال:

لک جسمى تعلّه فدمى لم تحلّه

فارتجل أبو فراس و قال:

أنا إن كنت مالكا فلى الأمر كلّه

فاستحسنه و أعطاه ضيعة بأعمال منبج تغلّ ألفى دينار فى كلّ سنة.

و من شعر سيف الدولة أيضا:

تجنّى علىّ الذنب و الذنب ذنبه و عاتبنى ظلما و فى شقّه العتب

و أعرض لمّا صار قلبى بكفّه فهلّا جفانى حين كان لى القلب

إذا برم المولى بخدمة عبده تجنّى له ذنبا و إن لم يكن ذنب

و له:

أقبّله على جزع كشرب الطائر الفزع

رأى ماء فأطمعه و خاف عواقب الطمع

فصادف خلسة فدنا و لم يلتذّ بالجرع

و أما ما قيل فى سيف الدولة من المديح فكثير يضيق هذا المحلّ عن ذكر شىء منه. و كانت وفاته يوم الجمعة فى ثالث ساعة، و قيل:

رابع ساعة، لخمس بقين من

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۸

صفر بحلب. و نقل إلى ميّافارقين و دفن فى تربة أمّه و هى داخل البلد. و كان مرضه بعسر البول. و كان قد جمع من نفض الغبار الذى يجتمع عليه فى غزواته شيئا، و جعله لبنة بقدر الكفّ، و أوصى أن يوضع خدّه عليها فى لحده، فنفّذت وصيّته فى ذلك. و كان ملك حلب فى سنة ثلاث و ثلاثين و ثلثمائة؛ انتزعها من يد أحمد بن سعيد الكلابىّ صاحب الإخشيذ، و كان قبل ذلك ملك واسط و تلك النواحى.

و فيها توفّى جعفر بن محمد بن الحارث الشيخ أبو محمد المراغى المحدّث المشهور؛ كان فاضلا رواية للشعر. قال: أنشدنى منصور بن إسماعيل الفقيه:

لى حيلة فيمن ينمّ و ليس فى الكذّاب حيله

من كان يخلق ما يقو ل فحيلتى فيه قليله

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ذراعان و أربع عشرة إصبعا. مبلغ الزيادة اثنتا عشرة ذراعا و سبع عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۵۷]

اشارة

السنة الثالثة من ولاية كافور الإخشيذىّ على مصر- و هى سنة سبع و خمسين و ثلثمائة، و هى التى مات فيها كافور المذكور حسب ما تقدّم ذكره.

فيها عملت الرافضة مأتم الحسين بن علىّ فى بغداد على العادة فى كلّ سنة فى يوم عاشوراء.

و فيها لم يحجّ أحد من الشام و لا من مصر. و فيها فى ذى القعدة أقبل تقفور عظيم الروم بجيوشه إلى الشام فخرج من دربند و نازل أنطاكية فلم يلتفتوا إليه؛ فقال أرحل و أخرّب الشام ثم أعود إليكم من الساحل؛ و رحل و نازل معرّة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۹

مصرين فأخذها و غدر بهم و أسر منهم أربعة آلاف و ستمائة نسمة. ثم نزل على معرّة النّعمان فأحرق جامعها؛ و كان الناس قد هربوا فى كلّ وجه إلى الحصون و البرارىّ و الجبال. ثم سار إلى كفرطاب و شيزر، ثم إلى حماة و حمص و خرج من بقى بها فأمّنهم و دخلها و صلّى فى البيعة و أخذ منها رأس يحيى بن زكريا، و أحرق الجامع. ثمّ سار إلى عرقة فافتتحها، ثم سار إلى طرابلس فأخذ ربضها. و أقام فى الشام أكثر من شهرين و رجع؛ فأرضاه أهل أنطاكية بمال عظيم.

و فيها تزوّج عزّ الدولة بختيار بن معزّ الدولة أحمد بن بويه بابنة عسكر الرومىّ الكردىّ على صداق مائة ألف دينار.

و فيها قتل أبو فراس [الحارث] بن أبى العلاء سعيد بن حمدان التغلبىّ العدوىّ الأمير الشاعر الفصيح، تقدّم بقية نسبه فى ترجمة ابن عمّه سيف الدولة بن حمدان، و مولده بمنبج فى سنة عشرين و ثلثمائة، و كان يتنقّل فى بلاد الشام فى دولة ابن عمّه سيف الدولة بن حمدان؛ و كان من الشّجعان و الشعراء المفلقين؛ و ديوان شعره موجود. و من شعره قصيدة:

رأيت الشيب لاح فقلت أهلا و ودّعت الغواية و الشبابا

و ما إن شبت من كبر و لكن لقيت من الأحبّة ما أشابا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۰

و له أيضا:

من يتمنّ العمر فليدّرع صبرا على فقد أحبّائه

و من يؤجّل ير فى نفسه ما يتمنّاه لأعدائه

و فيها توفّى حمزة بن محمد بن علىّ بن العبّاس الحافظ أبو القاسم الكنانىّ المصرىّ، سمع الكثير و رحل و طوّف و جمع و صنّف، و روى عنه ابن مندة و الدارقطنىّ و الحافظ عبد الغنى [بن سعيد الأزدىّ] و غيرهم. و قال ابن مندة: سمعت حمزة ابن محمد الحافظ يقول: كنت أكتب الحديث فلا أكتب «و سلّم»؛ فرأيت النّبىّ صلى اللّه عليه و سلم فى المنام، فقال [لى]: أما تختم الصلاة علىّ فى كتابك!

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أحمد بن الحسن ابن إسحاق بن عتبة الرّازى بمصر، و أبو سعيد أحمد بن محمد بن رميح النّسوىّ، و حمزة بن محمد أبو القاسم الكنانىّ بمصر، و أبو العباس عبد اللّه بن الحسين النّضرىّ المروزىّ فى شعبان عن سبع و تسعين سنة، و عمر بن جعفر البصرىّ الحافظ، و أبو عبد اللّه محمد بن أحمد بن علىّ بن محرم المحتسب، و أبو سليمان محمد بن الحسين الحرّانىّ، و أبو علىّ محمد [بن محمد بن عبد الحميد بن خالد بن إسحاق] ابن آدم الفزارىّ.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ذراع واحدة و إحدى و عشرون إصبعا. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و أربع عشرة إصبعا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۱

ذكر ولاية أحمد بن علىّ بن الإخشيذ على مصر

هو أحمد بن علىّ بن الإخشيذ محمد بن طغج بن جفّ الأمير أبو الحسن التّركىّ الفرغانىّ المصرىّ. ولى سلطنة مصر بعد موت مولى جدّه كافور الإخشيذىّ فى العشرين من جمادى الأولى سنة سبع و خمسين و ثلثمائة و هو يوم مات كافور، و سنّه يوم ولى إحدى عشرة سنة؛ و صار الحسن بن عبيد اللّه بن طغج- أعنى ابن عمّ أبيه- [خليفته]، و أبو الفضل جعفر بن الفرات [وزيره]، و معهما أيضا سمول الإخشيذىّ مدبّر العساكر. فأساء أبو الفضل جعفر بن الفرات السيرة و قبض على جماعة و صادرهم، منهم يعقوب بن كلّس الآتى ذكره؛ فهرب يعقوب بن كلّس المذكور إلى المغرب، و هو من أكبر أسباب حركة المعزّ، و إرسال جوهر القائد إلى الديار المصريّة. و لما زاد أمر ابن الفرات اختلف عليه الجند و اضطربت أمور الديار المصريّة على ما سنذكره بعد أن نذكر مقالة ابن خلكان إن شاء اللّه تعالى.

قال ابن خلّكان ": و كان عمر أبى الفوارس أحمد بن علىّ بن الإخشيذ يوم ولى إحدى عشرة سنة، و جعل الجند خليفته فى تدبير أموره أبا محمد الحسن بن

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۲

عبيد اللّه بن طغج بن جفّ، و هو ابن عمّ أبيه، و كان صاحب الرملة من بلاد الشام، و هو الذى مدحه المتنبىّ بقصيدته التى أوّلها:

أنا لائمى إن كنت وقت اللوائم علمت بمابى بين تلك المعالم

و قال فى مخلصها:

إذا صلت لم أترك مصالا لفاتك و إن قلت لم أترك مقالا لعالم

و إلّا فخانتنى القوافى و عافنى عن ابن عبيد اللّه ضعف العزائم

و منها:

أرى دون ما بين الفرات و برقة ضرابا يمشّى الخيل فوق الجماجم

و طعن غطاريف كأنّ أكفّهم عرفن الرّدينيات قبل المعاصم

حمته على الأعداء من كل جانب سيوف بنى طغج بن جفّ القماقم

هم المحسنون الكرّ فى حومة الوغى و أحسن منه كرّهم فى المكارم

و هم يحسنون العفو عن كلّ مذنب و يحتملون الغرم عن كلّ غارم

قال: و لمّا تقرّر الأمر على هذه القاعدة تزوّج الحسن بن عبيد اللّه فاطمة ابنة عمّه الإخشيذ، و دعوا له على المنابر بعد أبى الفوارس أحمد بن علىّ صاحب الترجمة.

قال: و الحسن بالشام. و استمرّ الحال على ذلك إلى ليلة الجمعة لثلاث عشرة خلت من شعبان من سنة ثمان و خمسين و ثلثمائة، و دحل إلى مصر رايات المغاربة الواصلين صحبة القائد جوهر المعزّى، و انقرضت الدولة الإخشيذيّة من مصر. و كانت مدّتها أربعا و ثلاثين سنة و عشرة أشهر و أربعة و عشرين يوما. و كان قد قدم الحسن بن

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۳

عبيد اللّه من الشام منهزما من القرامطة لمّا استولوا على الشام. و دخل الحسن على ابنة عمّه التى تزوّجها و حكم بمصر و تصرّف و قبض على الوزير جعفر بن الفرات و صادره و عذّبه؛ ثم سار إلى الشام فى مستهلّ شهر ربيع الآخر من سنة ثمان و خمسين و ثلثمائة. و لمّا سيّر القائد جوهر جعفر بن فلاح إلى الشام و ملك البلاد أسر ابن فلاح المذكور أبا محمد الحسن بن عبيد اللّه بن طغج و سيّره إلى مصر مع جماعة من الأمراء إلى جوهر القائد، و دخلوا إلى مصر فى جمادى الأولى سنة تسع و خمسين و ثلثمائة. و كان الحسن بن عبيد اللّه قد أساء إلى أهل مصر فى مدّة ولايته عليهم، فلمّا وصلوا إلى مصر تركوهم وقوفا مشهورين مقدار خمس ساعات و الناس ينظرون إليهم و شمت بهم من فى نفسه منهم شىء؛ ثم أنزلوا الى مضرب القائد جوهر و جعلوا مع المعتقلين من آل الإخشيذ. ثمّ فى السابع عشر من جمادى الأولى أرسل القائد جوهر ولده جعفرا إلى مولاه المعزّ و معه هدايا عظيمة تجلّ عن الوصف، و أرسل معه المأسورين الواصلين من الشام، و فيهم الحسن بن عبيد اللّه، و حملوا فى مركب بالنيل و جوهر ينظرهم، و انقلب المركب، فصاح الحسن بن عبيد اللّه على القائد جوهر: يا أبا الحسن، أ تريد أن تغرقنا! فاعتذر إليه و أظهر له التوجع، ثم نقلوا إلى مركب آخر». انتهى كلام ابن خلّكان باختصار. و لم يذكر ابن خلّكان أمر أحمد بن علىّ بن الإخشيذ- أعنى صاحب الترجمة- و أظنّ ذلك لصغر سنّه.

و قال غير ابن خلكان فى أمر انقراض دولة بنى الإخشيد وجها آخر، و هو أن الجند لمّا اختلفوا على الوزير أبى الفضل بن الفرات و طلب منه الأتراك الإخشيذيّة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۴

و الكافوريّة مالا ـ قدرة له به من المال، و لم تحمل إليه أموال الضمانات، قاتلوه و نهبت داره و دور جماعة من حواشيه. ثم كتب جماعة منهم إلى المعزّ العبيدىّ بالمغرب يستدعونه و يطلبون منه إنفاذ العساكر إلى مصر؛ و فى أثناء ذلك قدم الحسن بن عبيد اللّه بن طغج من الشام منهزما من القرامطة، و دخل على ابنة عمّه، و قبض على الوزير أبى الفضل جعفر بن الفرات لسوء سيرته و لشكوى الجند منه؛ فعذّبه و صادره؛ و تولّى الحسن بن عبيد اللّه تدبير مصر بنفسه ثلاثة أشهر، و استوزر كاتبه الحسن بن جابر الرّياحىّ؛ ثم أطلق الوزير جعفر بن الفرات من محبسه بوساطة الشريف أبى [جعفر] مسلم الحسينى، و فوّض إليه أمر مصر ثانيا؛ كلّ ذلك و أحمد بن علىّ صاحب الترجمة ليس له من الأمر إلّا مجرّد الاسم فقط. ثم سافر الحسن بن عبيد اللّه بن طغج من مصر إلى الشام فى مستهلّ شهر ربيع الآخر سنة ثمان و خمسين و ثلثمائة، و بعد مسيره بمدّة يسيرة فى جمادى الآخرة من السنة وصل الخبر بمسير عسكر المعزّ صحبة جوهر القائد الرومىّ إلى مصر؛ فجمع الوزير جعفر بن الفرات [أنصاره] و استشارهم فيما يعتمد؛ فاتّفق الرأى على أمر فلم يتمّ. و قدم جوهر القائد إلى الديار المصريّة بعد أمور نذكرها فى ترجمته إن شاء اللّه تعالى؛ و زالت دولة بنى الإخشيذ من مصر و انقطع الدعاء منها لبنى العباس. و كانت مدّة دولة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۵

الإخشيذ و بنيه بمصر أربعا و ثلاثين سنة و أربعة و عشرين يوما؛ منها دولة أحمد بن علىّ هذا- أعنى أيام سلطنته بمصر- سنة واحدة و ثلاثة أشهر إلّا ثلاثة أيام. و كانت مدّة الدعاء لبنى العباس بمصر منذ ابتدأت دولة بنى العبّاس إلى أن قدم القائد جوهر المعزّىّ و خطب باسم مولاه المعزّ معدّ العبيدىّ الفاطمىّ مائتى سنة و خمسا و عشرين سنة. و منذ افتتحت مصر إلى أن انتقل كرسى الإمارة منها إلى القائد جوهر ثلثمائة سنة و تسعا و ثلاثين سنة. انتهت ترجمة أحمد بن علىّ ابن الإخشيذ.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۵۸]

اشارة

السنة التى حكم فى بعضها أحمد بن علىّ بن الإخشيذ على مصر، و كانت ولايته فى جمادى الأولى من السنة الماضية، غير أننا ذكرنا تلك السنة فى ترجمة كافور، و نذكر هذه السنة فى ولاية أحمد هذا، على أنّ القائد جوهرا حكم فى آخرها؛ و ليس ما نحن فيه من ذكر السنين على التحرير، و إنّما المقصود ذكر الحوادث على أىّ وجه كان. و هذه السنة هى سنة ثمان و خمسين و ثلثمائة.

فيها عملت الرافضة المأتم فى يوم عاشورا ببغداد و زادوا فى النّوح و تعليق المسوح، ثم عيّدوا يوم الغدير.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۶

و فيها كان القحط ببغداد و أبيع الكرّ بتسعين دينارا.

و فيها ملك جوهر القائد العبيدىّ مصر و خطب لبنى عبيد المغاربة، و انقطع الدعاء لبنى العبّاس من مصر، حسب ما ذكرناه فى ترجمة أحمد بن علىّ ابن الإخشيذ هذا.

و فيها حجّ بالناس من العراق الشريف أبو أحمد الموسوىّ والد الرضىّ و المرتضى.

و فيها ولى إمرة دمشق الحسن بن عبيد اللّه بن طغج [ابن] أخى الإخشيذ فأقام بها شهورا ثم رحل فى شعبان، و استناب بها سمول الكافورىّ؛ ثم سار الحسن إلى الرملة فالتقى مع ابن فلاح مقدّمة جوهر القائد فى ذى الحجة بالرملة؛ فانهزم جيشه.

و أخذ أسيرا و حمل إلى المغرب، حسب ما ذكرناه فى ترجمة أحمد بن علىّ الإخشيذ صاحب الترجمة.

و فيها عصى جند حلب على ابن سيف الدولة، فجاء من ميافارقين و نازل حلب، و بقى القتال عليها مدّة.

و فيها استولى الرّعيلىّ على أنطاكية، و هو رجل غير أمير و إنّما هو من الشّطّار، و انضم عليه جماعة فقوى أمره بهم؛ فجاءت الروم و نزلوا على أنطاكية و أخذوها فى ليلة

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۷

واحدة؛ و هرب الرعيلىّ من باب البحر هو و خمسة آلاف إنسان و نجوا إلى الشام؛ و كان أخذها فى ذى الحجة من هذه السنة، و أسر الروم أهلها و قتلوا جماعة كثيرة.

و فيها جاء القائد جعفر بن فلاح مقدّمة القائد جوهر العبيدى المعزّى إلى الشام؛ فحاربه أميرها الشريف ابن أبى يعلى، فانهزم الشريف و أسره جعفر بن فلاح و تملّك دمشق.

و فيها توفّى ناصر الدولة الحسن بن أبى الهيجاء عبد اللّه بن حمدان- تقدّم بقيّة نسبه فى ترجمة أخيه سيف الدولة- كان ناصر الدولة صاحب الموصل و نواحيها، و كان أخوه سيف الدولة يتأدّب معه، و كان هو أيضا شديد المحبة لسيف الدولة. فلما مات سيف الدولة تغيّرت أحواله لحزنه عليه، و ساءت أخلاقه و ضعف عقله؛ فقبض عليه ابنه أبو تغلب الغضنفر بمشورة الأمراء و حبسه مكرّما- حسب ما ذكرناه- فلم يزل محبوسا إلى أن مات فى شهر ربيع الأوّل.

و قیل: إنّ ناصر الدولة هذا کان وقع بینه و بین أخیه سیف الدولة وحشة؛ فکتب إلیه سیف الدولة، و کان هو الأصغر و ناصر الدولة الأکبر، یقول:

رضیت لک العلیا و قد کنت أهلها و قلت لهم بینی و بین أخی فرق

و لم یک بی عنها نکول و إنّما تجافیت عن حقّی فتمّ لک الحقّ

و لا بدّ لی من أن أکون مصلّیا إذا کنت أرضی أن یکون لک السبق

و فیها توفّی سابور بن أبی طاهر القرمطیّ فی ذی الحجة، کان طالب قبل موته عمومته بتسلیم الأمر إلیه فحبسوه، فأقام فی الحبس أیّاما ثم خرج من الحبس؛ و عمل فی ذی الحجة ببغداد «غدیر خمّ» علی ما جرت به العادة، ثم مات بعد مدّة یسیرة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۸

و فیها توفّی أحمد بن الراضی بالله بعد أن طالت علّته بمرض البواسیر.

و فیها توفّی محمد بن أحمد بن جعفر الشیخ أبو بکر البیهقیّ، کان من کبار مشایخ نیسابور فی زمانه. سئل عن الفتوّة، فقال: هی حسن الخلق و بذل المعروف.

الذین ذکر الذهبیّ وفاتهم فی هذه السنة، قال: و فیها توفّی ناصر الدولة الحسن بن عبد اللّه بن حمدان التّغلبیّ صاحب الموصل و کان أسنّ من سیف الدولة.

و الحسن بن محمد بن أحمد بن کیسان الحربیّ. و أبو القاسم زید بن علیّ بن أبی بلال الکوفیّ. و محمد بن معاویة الأمویّ القرطبیّ فی شهر رجب.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم ثلاث أذرع و ثلاث عشرة إصبعا.

مبلغ الزیادة سبع عشرة ذراعا و تسع أصابع.

ذکر ولایة جوهر القائد الرومیّ المعزّیّ علی مصر

هو أبو الحسن جوهر بن عبد اللّه القائد المعزّی المعروف بالکاتب، مولی المعزّ لدین اللّه أبی تمیم معدّ العبیدیّ الفاطمیّ. کان خصیصا عند أستاذه المعزّ، و کان من کبار قوّاده؛ ثم جهّزه أستاذه المعزّ إلی أخذ مصر بعد موت الأستاذ کافور الإخشیذی؛ و أرسل معه العساکر و هو المقدّم علی الجمیع؛ و کان رحیله من إفریقیّة فی یوم السبت رابع عشر شهر ربیع الأوّل سنة ثمان و خمسین و ثلثمائة؛ و تسلّم مصر فی یوم الثلاثاء ثامن عشر شعبان من السنة. علی ما سنحکیه.

و لمّا دخل مصر صعد المنبر یوم الجمعة خطیبا و خطب و دعا لمولاه المعزّ بإفریقیّة؛ و ذلک فی نصف شهر رمضان سنة ثمان و خمسین و ثلثمائة المذکورة. و کان المعزّ لما ندب جوهرا هذا إلی التوجّه إلی الدیار المصریّة أصحبه من الأموال و الخزائن

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۹

ما لا یحصی، و أطلق یده فی جمیع ذلک، و أفرغ الذهب فی صور الأرحاء، و حملها علی الجمال لعظم ذلک فی قلوب الناس. و قال فی رحیله من القیروان شاعر الأندلس محمد بن هانئ قصیدته المشهورة فی جوهر، و هی:

رأیت بعینی فوق ما کنت أسمع و قد راعنی یوم من الحشر أروع

غداة کأنّ الأفق سدّ بمثله فعاد غروب الشمس من حیث تطلع

فلم أدر إذ ودّعت کیف أودّع و لم أدر إذ شیّعت کیف أشیّع

ألا إنّ هذا حشد من لم یذق له غرار الکری جفن و لا بات یهجع

إذا حلّ فی أرض بناها مدائنا و إن سار عن أرض غدت و هی بلقع

تحلّ بيوت المال حيث محلّه و جمّ العطايا و الرّواق المرفّع

و كبّرت الفرسان للّه إذ بدا و ظلّ السلاح المنتضی يتقعقع

و عبّ عباب الموكب الفخم حوله و زفّ كما زفّ الصباح الملمّع

رحلت إلی الفسطاط أوّل رحلة بأيمن فال فی الذی أنت تجمع

فإن يك فی مصر ظماء لمورد فقد جاءهم نيل سوی النّيل يهرع

و يمّمهم من لا يغار بنعمة فيسلبهم لكن يزيد فيوسع

النجوم الزاهرة فی ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۳۰

و لما استولی علی مصر أرسل جوهر هذا يهنّئ مولاه المعزّ بذلك؛ فقال ابن هانئ المذكور أيضا فی ذلك:

يقول بنو العبّاس هل فتحت مصر فقل لبنی العبّاس قد قضی الأمر

و مد جاوز الإسكندريّة جوهر تصاحبه البشری و يقدمه النصر

ذكر دخول جوهر إلی الديار المصريّة و كيف ملكها

قال غير واحد: كان قد انخرم نظام مصر بعد موت كافور الإخشيذیّ لمّا قام علی مصر أحمد بن علیّ بن الإخشيذ و هو صغير؛ فصار ينوب عنه ابن عمّ أبيه الحسن ابن عبيد اللّه بن طغج، و الوزير يومئذ جعفر بن الفرات؛ فقلّت الأموال علی الجند، فكتب جماعة منهم إلی المعزّ لدين اللّه معدّ و هو بالمغرب يطلبون منه عسكرا ليسلّموا إليه مصر؛ فجهّز المعزّ جوهرا هذا بالجيوش و السلاح فی نحو ألف فارس أو أكثر فسار جوهر حتّی نزل بجيوشه إلی تروجة بقرب الإسكندريّة، و أرسل إلی أهل مصر فأجابوه بطلب الأمان و تقرير أملاكهم لهم؛ فأجابهم جوهر إلی ذلك و كتب لهم العهد. فعلم الإخشيذيّة بذلك، فتأهّبوا لقتال جوهر المذكور؛ فجاءتهم من عند جوهر الكتب و العهود بالأمان؛ فاختلفت كلمتهم؛ ثم اجتمعوا علی قتاله و أمّروا عليهم ابن الشويزانی، و توجّهوا لقتاله نحو الجيزة و حفظوا الجسور؛ فوصل جوهر إلی الجيزة، و وقع بينهم القتال فی حادی عشر شعبان و دام القتال بينهم مدّة، ثم صار

النجوم الزاهرة فی ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۳۱

جوهر إلی منية الصيّادين و أخذ مخاضة منية شلقان؛ و وصل إلی جوهر طائفة من العسكر فی مراكب، فقال جوهر للأمير جعفر بن فلاح: لهذا اليوم أرادك المعزّ الدين اللّه! فعبر عريانا فی سراويل و هو فی موكب و معه الرجال خوضا، و التقی مع المصريين و وقع القتال بينهم و ثبت كلّ من الفريقين، فقتل كثير من الإخشيذيّة و انهزم الباقون بعد قتال شديد. ثم أرسلوا يطلبون الأمان من جوهر فأمّنهم، و حضر رسوله و معه بند و طاف بالأمان و منع من النهب؛ فسكن الناس و فتحت الأسواق و دخل جوهر من الغد إلی مصر فی طبوله و بنوده و عليه ثوب ديباج مذهّب، و نزل بالمناخ، و هو موضع القاهرة اليوم؛ و اختطّها و حفر أساس القصر فی الليلة؛ و بات المصريّون فی أمن؛ فلمّا أصبحوا حضروا للتهنئة فوجدوه قد حفر أساس القصر فی الليل و كان فيه زورات غير معتدلة؛ فلمّا شاهد ذلك جوهر لم يعجبه؛ ثم قال: قد حفر فی ليلة مباركة و ساعة سعيدة، ثم تركه.

النجوم الزاهرة فی ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۳۲

ثم كتب جوهر إلی مولاه المعزّ يبشره بالفتح، و بعث إليه برءوس القتلی؛ و قطّع خطبة بنی العباس و لبس السواد، و لبس الخطباء البياض؛ و أمر أن يقال فی الخطبة:

«اللهمّ صلّ علی محمد المصطفی، و علی علیّ المرتضی؛ و [علی] فاطمة البتول، و علی الحسن و الحسين سبطی الرسول؛ [الذين أذهب اللّه عنهم الرّجس و طهّرهم تطهيرا].

و صلّ علی الأئمة الطاهرين آباء أمير المؤمنين، المعزّ لدين اللّه». ففعل ذلك؛ و انقطعت دعوة بنی العباس فی هذه السنة من مصر و

الحجاز و اليمن و الشام. و لم تزل الدعوة لبنى عبيد فى هذه الأقطار من هذه السنة إلى سنة خمس و ستين و خمسمائة، مائتى سنة و ثمانى سنين. على ما يأتى ذكره فى خلافة المستضىء العباسىّ. و كان الخليفة فى هذه الأيّام عند انقطاع خطبة بنى العباس من مصر المطيع للّه الفضل. و مات المطيع و من بعده سبعة خلفاء من بنى العباس ببغداد حتى انقرضت دولة بنى عبيد من مصر على يد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب، و الخليفة يوم ذاك المستضىء العباسىّ، على ما يأتى ذلك فى محلّه إن شاء اللّه تعالى. ثمّ فى شهر ربيع الآخر سنة تسع و خمسين و ثلثمائة أذّنوا بمصر ب «حىّ على خير العمل». و استمرّ ذلك.

ثمّ شرع جوهر فى بناء جامعه بالقاهرة المعروف بجامع الأزهر، و هو أوّل جامع بلته الرافضة بمصر؛ و فرغ من بنائه فى شهر رمضان سنة إحدى و ستين و ثلثمائة بعد أن كان ابتنى القاهرة؛ كما سيأتى ذكر بنائها فى هذه الترجمة أيضا. و لمّا ملك جوهر مصر كان الحسن بن عبيد اللّه بن الإخشيذ المقدّم ذكره بالشام و هو بيده إلى الرملة؛ فبعث إليه جوهر بالقائد جعفر بن فلاح المقدّم ذكره أيضا، فقاتل ابن فلاح حسنا المذكور بالرملة حتى ظفر به، و بعث به إلى مصر، حسب ما تقدّم ذكره، و بعثه القائد جوهر إلى المغرب؛ فكان ذلك آخر العهد به. ثم سار جعفر

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۳۳

ابن فلاح إلى دمشق و ملكها بعد أمور، و خطب بها للمعزّ فى المحرّم سنة تسع و خمسين و ثلثمائة. ثم عاد ابن فلاح إلى الرملة؛ فقام الشريف أبو القاسم إسماعيل بن أبى يعلى بدمشق و قام معه العوامّ و لبس السّواد و دعا للمطيع، و أخرج إقبالا أمير دمشق الذى كان من قبل جوهر القائد، فعاد جعفر بن فلاح إلى دمشق فى ذى الحجة و نازلها، فقاتله أهلها، فطاولهم حتّى ظفر بهم؛ و هرب الشريف أبو القاسم إلى بغداد على البرّيّة. فقال ابن فلاح: من أتى به فله مائة ألف درهم، فلقيه ابن غلبان العدوىّ فى البريّة فقبض عليه و جاء به إلى ابن فلاح؛ فشهّره على جمل و على رأسه قلنسوة من لبود، و فى لحيته ريش مغروز و من ورائه رجل من المغاربة يوقع به، ثمّ حبسه؛ ثمّ طلبه ابن فلاح ليلا و قال له: ما حملك على ما صنعت؟ و سأله من ندبه إلى ذلك؛ فقال: ما حدّثنى به أحد إنّما هو أمر قدّر؛ فرقّ له جعفر بن فلاح و وعده أنه يكاتب فيه القائد جوهرا، و استرجع المائة ألف درهم من الذين أتوا به، و قال لهم: لا جزاكم اللّه خيرا! غدرتم بالرجل. و كان ابن فلاح يحبّ العلويّين، فأحسن إليه و أكرمه.

و استمرّ جوهر حاكم الديار المصريّة إلى أن قدم إليها مولاه المعزّ لدين اللّه معدّ فى يوم الجمعة ثامن شهر رمضان سنة اثنتين و ستين و ثلثمائة؛ فصرف جوهر عن الديار المصريّة بأستاذه المعزّ، و صار من عظماء القوّاد فى دولة المعزّ و غيره. و لا زال جوهر على ذلك إلى أن مات فى سنة إحدى و ثمانين و ثلثمائة، و رثاه الشعراء. و كان جوهر حسن السيرة فى الرّعية عادلا عاقلا شجاعا مدبّرا.

قال ابن خلّكان (رضى اللّه عنه): توفّى يوم الخميس لعشر بقين من ذى القعدة سنة إحدى و ثمانين و ثلثمائة. و كان ولده الحسين بن جوهر قائد القوّاد للحاكم صاحب مصر، ثم نقم عليه فقتله فى سنة إحدى و أربعمائة؛ و كان الحسين

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۳۴

قد خاف على نفسه من الحاكم، فهرب هو و ولده و صهره القاضى عبد العزيز ابن [محمد بن] النعمان، و كان زوج أخته؛ فأرسل الحاكم من ردّهم و طيّب قلوبهم و آنسهم مدّة، ثم حضروا إلى القصر بالقاهرة للخدمة، فتقدّم الحاكم إلى راشد و كان سيف النّقمة، فاستصحب عشرة من الغلمان الأتراک، فقتلوا الحسين ابن جوهر و صهّره القاضى و أحضروا رأسيهما إلى بين يدى الحاكم. و قد ذكرنا الحسين هنا حتى يعرف بذكره أن جوهرا المذكور فحل غير خصىّ، بخلاف الخادم بهاء الدين قراقوش و الأستاذ كافور الإخشيذى و الخادم ريدان و غيرهم.

ذكر بناء جوهر القائد القاهرة و حاراتها

قال القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر فى كتابه الروضة ["البهية] الزاهرة، فى الخطط المعزّية القاهرة؛ "قال: «اختطّ جوهر القصر و

حفر أساسه فى أوّل ليلة نزوله القاهرة، و أدخل فيه دير العظام، و هو المكان المعروف الآن بالركن المخلّق قبالة حوض جامع الأقمر، قريب من بئر العظام، و المصريون يسمّونها بئر العظمة، و يزعمون أنّ طاسة وقعت من شخص فى بئر زمزم و عليها اسمه، فطلعت من هذه البئر. و نقل جوهر القائد العظام التى كانت فى الدير المذكور و الرمم إلى دير

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۳۵

فى الخندق فدفنها؛ لأنه يقال: إنّها عظام جماعة من الحواريّين، و بنى مكانها مسجدا من داخل السور، و أدخل أيضا قصر الشوك فى القصر المذكور، و كان منزلا تنزله بنو عذرة، و جعل للقصر أبوابا: أحدها باب العيد و إليه تنسب رحبة باب العيد، و إلى جانبه باب يعرف بباب الزّمرّذ. و باب آخر قبالة دار الحديث يعنى المدرسة الكامليّة. و باب آخر قبالة القطبيّة و هى البيمارستان الآن، يعرف الباب المذكور

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۳۶

بباب الذهب. و باب الزّهومة. و باب آخر من ناحية قصر الشوك. و باب آخر من عند مشهد الحسين، و يعرف بباب التّربة. و باب آخر يعرف بباب الدّيلم، و هو باب مشهد الحسين الآن قبالة دار الفطرة. قال: و أمّا أبواب القاهرة التى استقرّ عليها الحال الآن فيأتى ذكرها.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۳۷

قال: و إنّ حدّ القاهرة من مصر من السبع سقايات إلى تلك الناحية عرضا. قال: و لمّا نزل جوهر القائد اختطت كلّ قبيلة خطّة عرفت بها، فزويلة بنت البابين المعروفين ببابى زويلة، و هما البابان اللذان عند مسجد ابن البنّاء و عند الحجّارين، و هما بابا القاهرة. و مسجد ابن البنّاء المذكور بناه الحاكم. و ذكر ابن القفطىّ: أنّ المعزّ لمّا وصل مصر دخل إلى القاهرة من الباب الأيمن، فالناس إلى اليوم يزدحمون فيه، و قليل من يدخل من الباب الأيسر، لأنّه أشيع فى الناس أنّ من دخله لم تقض له حاجة، و هو الذى عند دكاكين الحجّارين [و] الذى يتوصّل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۳۸

منه إلى المحمودية. قلت: و قد دثر رسوم هذا الباب الثانى المذكور، و هو مكان يمرّ منه الآن من باب سر الجامع المؤيّدىّ إلى الأنماطيين.

قال: و الباب الآخر من أبواب القاهرة القوس الذى هو قريب من باب النصر، الذى يخرج منه إلى الرحبة، و هو عند باب سعيد السعداء، [و] دكاكين العطّارين الآن. و باب آخر يعرف بالقوس أيضا و هو الذى يخرج منه إلى السوق الذى [هو] قريب [من] حارة بهاء الدين قراقوش، على يسرة باب الجامع الحاكمىّ من ناحية الحوض، و تعرف قديما بالرّيحانيّة. و كلّ هذه الأبواب و السور كانت باللّبن.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۳۹

و أمّا باب زويلة الآن و باب النصر و باب الفتوح فبناها الوزير الأفضل بن أمير الجيوش، و كتب على باب زويلة تاريخه و اسمه، و ذلك فى سنة ثمانين و أربعمائة.

و قالت المهندسون: إنّ فى باب زويلة عيبا لكونه ليست له باشورة قدّامه و لا خلفه على عادة الأبواب. و أمّا باب القنطرة فبناه القائد جوهر المذكور.

و أمّا السّور الحجر الذى على القاهرة و مصر و الأبواب التى به فبناها الطواشى بهاء الدين قراقوش الرومىّ فى أيّام أستاذه السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب فى سنة سبعين و خمسمائة؛ فبنى فيه [قلعة] المقس، و هو البرج الكبير الذى كان على

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۴۰

النیل. قلت: و قد نسف هذا البرج من تلک الأماکن فی سنة سبعین و ستمائة.

یأتی ذکر ذلک فی ترجمة الملک المنصور قلاوون إن شاء اللّه تعالی من هذا الکتاب.

قال: و بنی باب الجامع و القلعة التی بالجبل و البرج الذی بمصر قریبا من باب القنطرة المسمی بقلعة یازکوج، و جعل السور طائفا بمصر و القاهرة، و لم یتمّ بناؤه إلی الآن؛ و أعانه علی عمله و حفر البئر التی بقلعة الجبل أساری الفرنج، و کانوا ألوفا.

و هذه البئر من عجائب الأبنیة، تدور البقر من أعلاها و تنقل الماء من نقّالة فی فی وسطها، و تدور أبقار فی وسطها تنقل الماء من أسفلها؛ و لها طریق إلی الماء تنزل البقر إلی معینها فی مجاز؛ و جمیع ذلک حجر منحوت لیس فیه بناء؛ و قیل: إن أرض هذه البئر مسامتة لأرض برکة الفیل؛ و ماؤها عذب. سمعت من یحکی عن المشایخ أنّها لمّا حفرت جاء ماؤها حلوا، فأراد قراقوش الزیادة فی مائها فوسعها، فخرجت منها عین مالحة غیّرت حلاوتها.

و طول هذا السور الذی بناه قراقوش علی القاهرة و مصر و القلعة بما فیه من ساحل البحر تسعة و عشرون ألف ذراع و ثلثمائة ذراع و ذراعان [بذراع العمل، و هو الذراع الهاشمیّ]، من ذلک ما بین قلعة المقسم علی شاطئ النیل و البرج بالکوم الأحمر

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۴۱

بساحل مصر عشرة آلاف و خمسمائة ذراع. و من قلعة المقسم إلی حائط القلعة بالجبل بمسجد سعد الدولة ثمانیة آلاف و ثلثمائة [و اثنتان] و تسعون ذراعا. و من جانب حائط القلعة من جانب مسجد سعد الدولة إلی البرج بالکوم الأحمر سبعة آلاف و مائتا ذراع. و دائر القلعة بالجبل بمسجد سعد الدولة ثلاثة آلاف و مائتان و عشر أذرع؛ و ذلک طول قوسه فی ابتدائه، و أبراجه من النیل إلی النیل علی التحقیق و التعدیل». انتهی کلام ابن عبد الظاهر. علی أنه لم یسلم من الاعتراض علیه فی کثیر مما نقله، و أیضا مما سکت عنه.

و قال غیره: دخل جوهر القائد مصر بعسکر عظیم و معه ألف حمل مال، و من السلاح و العدد و الخیل ما لا یوصف. فلمّا انتظم حاله و ملک مصر ضاقت بالجند و الرعیة، و اختط سور القاهرة و بنی بها القصور، و سمّاها المنصوریّة؛ و ذلک فی سنة ثمان و خمسین و ثلثمائة. فلمّا قدم المعزّ العبیدی من القیروان غیّر اسمها و سمّاها القاهرة. و السبب فی ذلک أنّ جوهرا لمّا قصد إقامة السور و بناء القاهرة جمع المنجّمین و أمرهم أن یختاروا طالعا لحفر الأساس و طالعا لرمی حجارته؛ فجعلوا [بدائر السور] قوائم من خشب، و بین القائمة و القائمة حبل فیه أجراس، و أفهموا البنّائین ساعة تحریک الأجراس [أن] یرموا ما فی أیدیهم من اللّبن و الحجارة، و وقف المنجمون لتحریر هذه الساعة و أخذ الطالع؛ فاتّفق وقوف غراب علی خشبة من

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۴۲

تلک الخشب، فتحرّکت الأجراس، و ظنّ الموکّلون بالبناء أنّ المنجّمین حرّکوها فألقوا ما بأیدیهم من الطین و الحجارة فی الأساس؛ فصاح المنجّمون: لا لا، القاهر فی الطالع! و مضی ذلک وفاتهم ما قصدوه. و کان غرض جوهر أن یختاروا للبناء طالعا لا یخرج البلد عن نسلهم أبدا، فوقع أنّ المریخ کان فی الطالع، و هو یسمی عند المنجّمین القاهر، فحکموا لذلک أنّ القاهرة لا تزال تحت حکم الأتراک، و أنّهم لا بدّ أن یملکوا هذه البلد. فلمّا قدم المعزّ إلیها و أخبر بهذه القصة و کان له خبرة بالنّجامة، وافقهم علی ذلک، و أنّ الترک تکون لهم الغلبة علی هذا البلد؛ فغیّر اسمها و سمّاها القاهرة. و قیل فیها وجه آخر، و هو أنّ بقصور القاهرة قبّة تسمّی القاهرة، فسمیت علی اسمها. و القول الأوّل هو المتواتر بین الناس و الأقوی.

و قیل غیر ذلک.

ثم بنیت حارات القاهرة من یومئذ، فعمّر فیها:

حارة الروم- و هما حارتان، حارة الروم الآن المشهورة، و حارة الروم الجوّانیّة، و هی التی بقرب باب النصر علی یسار الداخل إلی القاهرة، ثم استثقل الناس قول حارة الروم الجوّانیة فحذفوا صدر الکلمة و قالوا «الجوّانیة»؛ و الورّاقون یکتبون حارة الروم السفلی، و حارة الروم العلیا المعروفة بالجوّانیة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۴۳

و قال القاضی زین الدین: إنّ الجوّانیة منسوبة للأشراف الجوّانیین، منهم الشریف النّسابة الجوّانی. و هاتان الحارتان اختطهما الروم، و نزلوا بهما فعرفتابهم.

و حارة الدّیلم – هی منسوبة إلی الدیلم الواصلین صحبة أفتکین المعزّی غلّام معز الدولة بن بویه حین قدم إلی القاهرة أولاد مولاه معزّ الدولة.

و فندق مسرور– منسوب لمسرور خادم من خدّام القصر فی الدولة العبیدیة.

و خلیج القاهرة – حفره أمیر المؤمنین عمر بن الخطّاب رضی اللّه عنه، و یعرف بخلیج أمیر المؤمنین، و کان حفره عام الرّمادة، و هی سنة ست عشرة من

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۴۴

الهجرة فسافر إلی القلزم، فلم یأت علیه الحول حتی جرت فیه السفن و حمل فیها الزاد و الأقوات إلی مکّة و المدینة، و انتفع بذلک أهل الحجاز. و قال الکندیّ: کان حفره فی سنة ثلاث و عشرین و فرغ منه فی ستة أشهر، و جرت فیه السفن و وصلت إلی الحجاز فی الشهر السابع؛ ثم بنی علیه عبد العزیز بن مروان قنطرة و کتب علیها اسمه، و قام ببنائها سعید أبو عثمان؛ ذکره القضاعیّ صاحب الخطط. قال: ثمّ دثرت ثمّ أعیدت ثمّ عمّرت فی أیّام العزیز بالله، و لیس لها أثر فی هذا الزمان. و إنّما بنی السلطان الملک الصالح نجم الدین أیّوب قنطرة السّدّ الآن التی علیها بستان الخشّاب. و کان

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۴۵

یخرج الماء من البحر بالمقس من البرانج، فوسّعه الملک الکامل محمد ابن الملک العادل أبی بکر بن أیّوب و جعله خلیجا، و هو خلیج الذکر. و أوّل من رتّب حفر الخلیج علی الناس الوزیر المأمون بن البطائحی صاحب الجامع الأقمر بالقاهرة؛ و کذلک جعل علی أصحاب البساتین، و جعل علیه والیا بمفرده؛ و هو أوّل من رتّب السقّائین عند معونة المأمون هذا؛ و کذلک القرّابة و الفعلة.

الحسینیّة – هی منسوبة لجماعة الأشراف الحسینیّین، کانوا فی أیّام الملک الکامل محمد بن العادل، قدموا من الحجاز فنزلوا بها و استوطنوها، و بنوا بها المدابغ و صنعوا فیها الأدیم المشبّه بالطائفیّ؛ ثمّ سکنها الأجناد بعد ذلک؛ و کانت برسم الرّیحانیّة الغزّاویّة و المولّدة و العجمان و عبید الشراء؛ و کانت ثمانی حارات: حارة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۴۶

حامد، و المنشیّة الکبری، و المنشیّة الصغری، و الحارة الکبیرة، و الحارة الوسطی، کانت هی لعبید الشراء، و الوزیریّة؛ کانت کلّها سکن الأرمن، فارسهم و راجلهم.

و خان السبیل – بناه الخادم الأستاذ الخصیّ بهاء الدین قراقوش الذی بنی السور و أرصده لأبناء السبیل.

اللؤلؤة – عند باب القنطرة بناها الظاهر لإعزاز دین اللّه الخلیفة العبیدی، و کانت نزهة الخلفاء الفاطمیّین، و بها کانت قصورهم. و یأتی ذکر شیء من ذلک فی تراجمهم إن شاء اللّه تعالی.

حارة الباطلیّة – کان المعزّ لدین اللّه العبیدیّ لما قسم العطاء فی الناس جاءت إلیه طائفة فسألت العطاء، فقیل: فرغ المال؛ فقالوا: رحنا نحن فی الباطل؛ فسمّوا الباطلیّة، فعرفت الحارة بهم.

حارة کتامة – هی قبیلة معروفة، عرفت بهم.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۴۷

البرقیّة – هذه الحارة نزل فیها جماعة من أهل برقة و استوطنوها، فعرفت بهم. و کانوا جماعة کبیرة، حضروا صحبة المعزّ لدین اللّه لمّا قدم من بلاد المغرب.

خزانة البنود - کانت هذه الخزانة خزانة السلاح فی الدولة الفاطمیّة.

دار القطبیّة- هی دار ستّ الملک بنت العزیز لدین اللّه نزار، و أخت الحاکم بأمر اللّه منصور. یأتی ذکرها فی ترجمة أخیها الحاکم. و سکن هذه الدار فی دولة الأیّوبیّة مؤنسة، ثم الأمیر فخر الدین جهارکس صاحب القیساریة بالقاهرة، ثمّ سکنها الملک الأفضل قطب الدین؛ و استمرّت ذرّیته بها حتّی أخرجهم الملک المنصور قلاوون منها، و بناها بیمارستانه المعروف فی القاهرة بین القصرین. و لسکن قطب الدین الأفضل هذا سمّیت القطبیّة، و الأفضل المذکور من بنی أیّوب.

حارة الخرنشف - کانت قدیما میدانا للخلفاء، فلمّا تسلطن المعزّ أیبک الترکمانیّ بنوا به إصطبلات، و کذلک القصر الغربیّ؛ و کانت النساء اللاتی أخرجن

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۴۸

منه سکنّ بالقصر النافعیّ؛ فامتدّت الأیدی إلی طوبه و أخشابه و حجارته، فتلاشی حاله و تهدّم و تشعّث، فسمّی بالخرنشف لهذا المقتضی، و إلّا فکان هذا المیدان من محاسن الدنیا.

حارة الکافوریّ - هذه الحارة کانت بستانا للأستاذ الملک کافور الإخشیذیّ صاحب مصر؛ ثمّ من بعده صار للخلفاء المصریّین، ثم هدم البستان فی الدولة المعزیّة أیبک لما خرب المیدان و القصور، و بنی أیضا إصطبلات و دورا و مساکن.

حارة برجوان - منسوبة إلی الخادم برجوان. کان برجوان من جملة خدّام القصر فی أیام العزیز بالله نزار العبیدیّ الفاطمیّ، ثم کان برجوان هذا مدبّر مملکة الحاکم بأمر اللّه.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۴۹

حارة بهاء الدین - منسوبة إلی الأستاذ بهاء الدین قرافوش الصلاحیّ الخادم الخصیّ الذی بنی السور و قلعة الجبل. و قد تقدّم ذکر ذلک کلّه.

قیساریة أمیر الجیوش- المعروفة الآن بسوق مرجوش. و أوّلها من باب حارة بهاء الدین قراقوش إلی قریب من الجامع الحاکمیّ، بناها أمیر الجیوش الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالیّ الذی کان إلیه تدبیر الملک و الوزارة فی دولة الخلیفة المستنصر معدّ العبیدیّ. و ذکر ابن أبی منصور فی کتابه المسمّی أساس السیاسة أنه کان فی موضعها دار تعرف بدار القبّانیّ، و دور قوم یعرفون ببنی هریسة.

درب ابن أسد- و هو خادم عرف به. و هو خلف إصطبل الطارمة.

الرمیلة - تحت قلعة الجبل، کانت میدان أحمد بن طولون، و بها کانت قصوره و بساتینه.

درب ملوخیة - هو منسوب لأمیر اسمه ملوخیة، کان صاحب رکاب الخلیفة الحاکم بأمر اللّه العبیدیّ، و کان یعرف أیضا بملوخیة الفرّاش.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۵۰

العطوف - منسوبة إلی الخادم عطوف أحد خدّام القصر فی دولة الفاطمیة، و کان أصله من خدّام أم ستّ الملک بنت العزیز بالله أخت الحاکم المقدّم ذکرها.

رحبة باب العید - [کان] الخلیفة لا یرکب یوم العید إلّا من باب القصر الذی من هذه الناحیة خاصة. و یأتی ذکر ذلک کلّه فی ترجمة المعزّ لدین اللّه العبیدیّ.

خانقاه السلطان الملک الناصر صلاح الدین یوسف بن أیوب- و هی دار سعید السعداء خادم الخلیفة المستنصر معدّ العبیدیّ أحد خلفاء مصر، ثمّ صارت فی آخر الوقت سکن الوزیر طلائع بن رزّیک و ولده رزّیک بن طلائع. و کان طلائع یلقب فی أیام وزارته بالملک الصالح، و هو صاحب جامع الصالح خارج بابی زویلة. و لمّا سکنها طلائع المذکور فتح لها من دار الوزارة- أعنی التی هی الآن خانقاه بیبرس الجاشنکیر - سردابا تحت الأرض، و جمع بین دار سعید

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۵۱

السعداء و دار الوزارة فی السکن لکثرة حشمه، و صار یمشی فی السرداب من الدار الواحدة إلی الأخری.

الحجر – و هی قریبة من باب النصر قدیما علی یمین الخارج من القاهرة، و کان یأوی فیها جماعة من الشباب یسمّون صبیان الحجر یکونون فی جهات متعددة.

الوزیریة – منسوبة إلی الوزیر أبی الفرج یعقوب بن کلّس وزیر العزیز بالله نزار العبیدیّ، و کان الوزیر هذا یهودیّ الأصل ثمّ إنّه أسلم و تنقّل فی الخدم إلی أن ولی الوزارة.

الجودریة – منسوبة إلی جماعة یعرفون بالجودریّة اختطوها، و کانوا أربعمائة رجل. منسوبون إلی جودر خادم المهدیّ.

سوق السّراجین– استجدّ فی أیّام المعزّ أیبک الترکمانیّ سنة ثلاث و خمسین و ستمائة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة؛ ج۴؛ ص۵۱

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۵۲

سقیفة العدّاسین – هی الآن معروفة بالأساکفة و بالبندقانیین، و کانت تلک الناحیة کلّها تعرف بسقیفة العدّاسین.

حارة الأمراء– هی درب شمس الدولة.

العدویة – هی من أوّل باب الخشیبة إلی أوّل حارة زویلة.

درب الصقالبة – هو درب من جملة حارة زویلة.

حارة زویلة – اختطها امرأة تعرف بزویلة، و هی صاحبة البئر و بابی زویلة، لا أعرف من حالها شیئا.

باب الزهومة – کان بابا من أبواب القصر أعنی [قصر] القاهرة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۵۳

الصاغة بالقاهرة – کانت مطبخا للقصر یخرج إلیه من باب الزهومة.

درب السلسلة – هو الملاصق للسیوفیین.

دار الضرب – بنیت فی أیام الوزیر المأمون بن البطائحیّ المقدّم ذکره، و هی بالقشاشین قبالة البیمارستان المنصوریّ.

الصالحیة – هی منسوبة للوزیر الملک الصالح طلائع بن رزّیک المقدّم ذکره لأنّ غلمانه– أعنی ممالیکه– کانوا ینزلون بها.

المقس – قال القضاعی: کانت ضیعة تعرف بأمّ دنین، و إنّما سمیّت المقس لأنّ العشّار و هو المکّاس کان فیها یستخرج الأموال، فقیل له المکس، ثم قیل المقس.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۵۴

المسجد المعلق– کان هناک مساجد ثلاثة معلقة بناها الحاکم بأمر اللّه فی أیام خلافته.

و أمّا هذه المبانی التی هی الآن خارج القاهرة فکلّها تجدّدت فی الدولة الترکیة، و معظمها فی دولة الملک الناصر محمد بن قلاوون و من بعده، من سدّ مصر إلی باب زویلة طولا و عرضا. یأتی ذکر ذلک کلّه إن شاء اللّه تعالی فی تراجم من جدّد الکورة و القناطر و الجوامع و المدارس و غیرهم من السلاطین و الملوک، کلّ واحد علی جدته بحسب ما یقتضیه الحال.

ترجمة القائد جوهر و ما یتعلق به من بنیان القاهرة و غیرها

قد تقدّم الکلام أن جوهر القائد هذا غیر خصیّ، و ولده القائد الحسین بن جوهر کان من کبار قوّاد الحاکم بأمر اللّه، و جوهر هذا هو صاحب الجامع الأزهر.

و قد تقدّم ذکر ذلک کلّه؛ غیر أننا ذکرناه هنا ثانیا تنبیها لمن نظر فی ترجمة جوهر القائد المذکور، لئلا یلتبس علیه بشیء آخر.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۵۵

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۵۹]

السنة الأولى من ولایة جوهر الرومیّ المعزّی القائد على مصر، و هی سنة تسع و خمسین و ثلثمائة.

فیها أقامت الرافضة المأتم على الحسین بن علیّ ببغداد فی یوم عاشوراء على عادتهم و فعلهم القبیح فی کلّ سنة.

و فیها ورد الخبر فی المحرّم بأن تقفور ملک الروم خرج بالروم إلی جهة أنطاکیة و نازلها و أحاط بها و قاتل أهلها حتی ملکها بالأمان؛ ثم أخرج أهلها منها و أطلق العجائز و الشیوخ و الأطفال، و قال لهم: امضوا حیث شئتم، ثم أخذ الشباب و الصبیان و الغلمان سیا؛ فکانوا أکثر من عشرین ألفا. و کان تقفور المذکور قد طغی و تجبّر و قهر العباد و ملک البلاد و عظمت هیبته فی قلوب الناس، و اشتغل عنه الملوک بأضدادهم فاستفحل أمر تقفور بذلک. ثم تزوّج تقفور المذکور بامرأة الملک الذی کان قبله على کره منها؛ و کان لها ولدان، فأراد تقفور أن یخصیهما و یهدیهما للبیعة لیستریح منهما لئلا یملکا الروم فی أیامه أو بعده؛ فعلمت زوجته أمّهما بذلک، فأرسلت الی الدمستق لیأتی إلیها فی زیّ النساء و معه جماعة فی زی النساء؛ فجاءوا و باتوا عندها لیلة المیلاد، فوثبوا علیه و قتلوه؛ و أجلس فی الملک بعده ولدها الأکبر، و تّم لها ما أرادت. و للّه الحمد على موت هذا الطاغیة.

و فیها فی ذی الحجة انقضّ بالعراق کوکب عظیم أضاءت منه الدنیا حتی صار کأنّه شعاع الشمس و سمع فی انقضاضه صوت کالرعد الشدید، فهال ذلک الناس و ارتعجوا له.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۵۶

و فیها حجّ بالناس من العراق الشریف النقیب أبو أحمد الموسویّ والد الرضی و المرتضی و الثلاثة رافضة، و هم محطّ رحال الشیعة فی زمانهم.

و فیها توفّی الأمیر صالح بن عمیر العقیلیّ أمیر دمشق، ولی إمرة دمشق خلافة عن الحسن بن عبید اللّه بن طغج [ابن] أخی الإخشید فی دولة أحمد بن علی ابن الإخشید فی سنة سبع و خمسین و ثلثمائة، و وقع له فی ولایته على دمشق أمور و حروب. و لما انهزم الأستاذ فاتک الکافوریّ من القرمطیّ و غلب القرمطیّ على الشام خرج منها صالح هذا و غاب عنها مدّة أیّام، ثم عاد إلیها بعد خروج القرمطیّ منها، و دام بها و أصلح أمورها؛ فلم تطل مدّته و مات بعد مدّة یسیرة. و کان شجاعا جوادا مقداما. و هو آخر من ولی دمشق من قبل الإخشید محمد و بنیه.

و فیها توفّی الأمیر أبو شجاع فاتک الإخشیذیّ الخازن، ولی إمرة دمشق أیضا قبل تاریخه من قبل أنوجور الإخشیذیّ، و کان شجاعا مقداما جوادا، ولی عدّة بلاد، و طالت أیّامه فی السعد. و هو غیر فاتک المجنون الذی مدحه المتنبیّ و رثاه؛ لأنّ فاتکا المذکور کان بمصر فی دولة خشداشه کافور الإخشیذیّ؛ و وفاة هذا کانت بدمشق.

و فیها هلک تقفور طاغیة الروم: لم یکن أصله من أولاد ملوک الروم بل قیل إنه کان ولد رجل مسلم من أهل طرسوس یعرف بابن الفقّاس، فتنصّر و غلب على الملک؛ و کان شجاعا مدبّرا سیوسا لم یر مثله من عهد إسکندر ذی القرنین؛ و هو الذی

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۵۷

افتتح حلب و أخذها من سیف الدولة بن حمدان؛ و لم یأخذ حلب أحد قبله من ملوک الروم؛ فعظم بذلک فی أعین ملوک الروم و ملّکوه علیهم إلی أن قتل. و قد تقدّم قتله فی حوادث هذه السنة.

الذین ذکر الذهبیّ وفاتهم فی هذه السنة، قال: و فیها توفّی أحمد بن بندار ابن إسحاق الشعّار. و أبو بکر أحمد بن یوسف بن خلّاد فی صفر. و أبو القاسم حبیب بن الحسن القزّاز. و محمد بن أحمد بن الحسن أبو علیّ الصوّاف. و محمد بن علی بن حبیش الناقد.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و سبع عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و تسع عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۶۰]

السنة الثانية من ولاية جوهر الرومىّ المعزىّ القائد على مصر، و هى سنة ستين و ثلثمائة.

فيها عمل الرافضة المأتم ببغداد فى يوم عاشوراء على العادة فى كلّ سنة من النوح و اللّطم و البكاء و تعليق المسوح و غلق الأسواق، و عملوا العيد و الفرح يوم الغدير و هو ثامن عشر ذى الحجة.

و فيها فى أوّل المحرّم لحق الخليفة المطيع للّه سكتة آل الأمر فيها إلى استرخاء جانبه الأيمن و ثقل لسانه.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۵۸

و فيها فى صفر أعلن المؤذّنون بدمشق: ب "حىّ على خير العمل "بأمر القائد جعفر بن فلاح نائب دمشق للمعزّ لدين اللّه العبيدىّ، و لم يجسر أحد على مخالفته؛ ثمّ فى جمادى الآخرة أمرهم ابن فلاح المذكور بذلك فى الإقامة؛ فتألّم الناس لذلك، فهلك ابن فلاح فى عامه.

و فيها فى شهر ربيع الأوّل وقع الصلح بين أبى المعالى بن سيف الدولة بن حمدان و بين قرعويه، و كان بينهما حروب منذ مات سيف الدولة إلى اليوم، فأقاما الخطبة بحلب للمعزّ لدين اللّه العبيدىّ؛ و أرسل إليهما جوهر القائد من مصر بالأموال و الخلع.

و فيها سار أبو محمد الحسن بن أحمد القرمطىّ إلى الشام فى قبائل العرب و حاصر دمشق؛ فخرج إليه من مصر القائد جعفر بن فلاح بعساكره من المغاربة و اقتتلوا أيّاما إلى أن حمل القرمطىّ بنفسه على جعفر بن فلاح فقتله و قتل عامّة عسكره، و ملك دمشق و ولّى عليها ظالم بن موهوب العقيلىّ، ثمّ عاد القرمطىّ إلى بلاد هجر؛ فلم يثبت ظالم بعده بدمشق، و خرج منها بعد مدّة يسيرة.

و فيها حجّ بالناس النقيب الشريف أبو أحمد الموسوىّ من بغداد.

و فيها توفّى الأمير جعفر بن فلاح أحد قوّاد المعزّ لدين اللّه العبيدىّ؛ كان مقدّم عساكر القائد جوهر، و بعثه جوهر إلى دمشق لمحاربة الحسن بن عبيد اللّه بن

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۵۹

طغج؛ فحاربه و أسره و مهّد البلاد، و ولى دمشق و أصلح أمورها، إلى أن قدم عليه القرمطىّ و حاربه و ظفر به و قتله. و هو أوّل أمير ولى إمرة دمشق لبنى عبيد المغربىّ.

و العجب أنّ القرمطىّ لمّا قتله بكى عليه و رثاه؛ لأنّهما يجمع التشيّع بينهما و إن كانا عدوّين. و كان جعفر بن فلاح المذكور أديبا شاعرا فصيحا. كتب مرّة إلى الوزير يعقوب يقول له:

ولى صديق ما مسّنى عدم مذ نظرت عينه إلى عدمى

أعطى و أقنى و لم يكلّفنى تقبيل كفّ له و لا قدم

و فيها توفّى سليمان بن أحمد بن أيّوب الحافظ أبو القاسم الطّبرانىّ اللّخمىّ. و لخم:

قبيلة من العرب قدموا من اليمن إلى بيت المقدس و نزلوا بالمكان الذى ولد فيه عيسى عليه السلام، و بينه و بين بيت المقدس فرسخان، و العامّة تسمّيه «بيت لحم» (بالحاء المهملة) و صوابه «بيت لخم» (بالخاء المعجمة). و كان مولده بعكّا فى سنة ستين و مائتين؛ و هو أحد الحفّاظ المكثرين الرحّالين، سمع الكثير و صنّف المصنّفات الحسان، منها «المعجم الكبير فى أسامى الصحابة» و «المعجم الأوسط فى غرائب شيوخه»، و «المعجم الأصغر فى أسامى شيوخه»، و «كتاب الدعاء» و «كتاب عشرة النساء» و «كتاب حديث

الشاميّين» و «كتاب المناسك» و «كتاب الأوائل» و «كتاب السنة» و «كتاب النوادر» و «مسند أبى هريرة» و «كتاب التفسير» و «كتاب دلائل النبوّة» و غير ذلك. و مات فى ذى القعدة. و ذكر الحافظ سليمان ابن إبراهيم الأصبهانىّ أن أبا أحمد العسّال قاضى أصبهان قال: أنا سمعت من

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۶۰

الطّبرانىّ عشرين ألف حديث، و سمع منه إبراهيم بن محمد بن حمزة ثلاثين ألفا، و سمع منه أبو الشيخ أربعين ألفا.

و فيها توفّى محمد بن الحسين بن عبد اللّه الحافظ أبو بكر الآجرّىّ البغدادىّ، كان محدّثا ديّنا صالحا ورعا مصنّفا، صنّف كتاب «العزلة» و غيره. و مات فى هذه السنة.

و فيها توفّى محمد بن أبى عبد اللّه الحسين بن محمد الكاتب أبو الفضل المعروف بابن العميد- هو كان لقب والده- كان فيه فضل و أدب و ترسّل؛ وزر لركن الدولة الحسن بن بويه بعد موت أبيه. و من بعض أصحاب أبيه الصاحب بن عبّاد. قال الثعالبىّ فى كتابه اليتيمة: «و كان يقال: بدئت الكتابة بعبد الحميد، و ختمت بابن العميد». و كان الصاحب بن عبّاد قد سافر إلى بغداد؛ فلمّا عاد إليه قال له ابن العميد: كيف وجدتها؟ قال: بغداد فى البلاد، كالأستاذ فى العباد.

و كان ابن العميد سيوسا مدبّرا قائما بحقوق المملكة، و قصده الشعراء من الآفاق، و مدحه المتنبىّ و ابن نباتة السعدىّ و غيرهما. و من شعر ابن العميد قوله:

آخ الرجال من الأبا عد و الأقارب لا تقارب

إنّ الأقارب كالعقا رب بل أضرّ من العقارب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۶۱

و قيل: إنّ الصاحب بن عبّاد اجتاز بدار ابن العميد بعد وفاته فلم ير هناك أحدا بعد أن كان الدّهليز يغصّ من زحام الناس؛ فقال:

أيّها الرّبع لم علاك اكتئاب أين ذاك الحجاب و الحجّاب

أين من كان يفزع الدهر منه فهو اليوم فى التراب تراب

و قال علىّ بن سليمان: رأيت بالرىّ دار قوم لم يبق منها سوى بابها- يعنى دار ابن العميد- و عليها مكتوب:

اعجب لصرف الدهور معتبرا فهذه الدار من عجائبها

عهدى بها بالملوك زاهية قد سطع النور من جوانبها

تبدّلت وحشة بساكنها ما أوحش الدار بعد صاحبها

و كان ابن العميد قبل أن يقتل بمدّة قد لهج بإنشاد هذين البيتين، و هما:

دخل الدنيا أناس قبلنا رحلوا عنها و خلّوها لنا

و نزلناها كما قد نزلوا و نخلّيها لقوم بعدنا

و كانت وفاته فى صفر.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى جعفر بن فلاح أوّل من حكم على الشام لبنى عبيد، قتله أبو علىّ القرمطىّ. و سليمان بن أحمد بن أيّوب الطّبرانىّ فى ذى القعدة و له مائة سنة و عشرة أشهر. و أبو علىّ عيسى بن محمد

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۶۲

الطّومارىّ. و أبو بكر محمد بن جعفر بن محمد بن الهيثم الأنبارى. و أبو عمرو محمد بن جعفر بن محمد بن مطر النّيسابورىّ. و أبو الفضل محمد بن الحسين بن العميد وزير ركن الدولة بن بويه. و أبو بكر محمد بن الحسين الآجرّىّ فى المحرّم.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع سواء. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و إحدى و عشرون إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۶۱]

السنة الثالثة من ولاية جوهر القائد على مصر، و هى سنة إحدى و سنين و ثلثمائة.

فيها عملت الرافضة مأتم الحسين بن علىّ رضى اللّه عنهما ببغداد على العادة فى يوم عاشوراء.

و فيها عاد الهجرىّ كبير القرامطة من الموصل إلى الشام، و انصرفت المغاربة- أعنى عسكر العبيديّة- إلى مصر، و دخل القرمطىّ إلى دمشق و سار إلى الرملة.

و فيها وقع الصلح بين منصور بن نوح السامانىّ صاحب خراسان و بين ركن الدولة الحسن بن بويه و بين ولده عضد الدولة بن ركن الدولة المذكور بأن يحمل ركن الدولة إلى منصور بن نوح السامانىّ فى كلّ سنة مائة ألف دينار، و يحمل ابنه عضد الدولة خمسين ألف دينار.

و فيها اعترض بنو هلال الحاج البصرىّ و الخراسانىّ و نهبوهم و قتلوا منهم خلقا، و لم يسلم منهم إلّا من مضى مع الشريف أبى أحمد الموسوىّ أمير الحاجّ، فإنّه مضى بهم على طريق المدينة، فحجّ و عاد.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۶۳

و فيها توفّى سعيد بن أبى سعيد أبو القاسم الجنّابىّ القرمطىّ الهجرىّ، عليه و على أقاربه اللعنة و الخزى. و لم يبق من أولاد أبى سعيد غيره و غير أخيه يوسف، و قام بأمر القرامطة بعده مكانه أخوه يوسف المذكور. و عقد القرامطة بعد يوسف لستة نفر من أولادهم على وجه الشركة بينهم لا يستبدّ أحد منهم بشىء دون الآخر.

قلت: و هذا يدلّ على قطع أثرهم و اضمحلال أمرهم و زوال ملكهم، إلى جهنم و بئس المصير؛ فإنّهم كانوا أشرّ خلق اللّه و أقبحهم سيرة و أظلمهم سطوة، هذا مع الفسق و قلّة الدين و سفك الدماء و انتهاك المحارم، و قتل الأشراف و أخذ الحجّاج و نهبهم، و الاستخفاف بأمر الشرع و السنة و هتك حرمة البيت العتيق و اقتلاع الحجر الأسود منه؛ حسب ما تقدّم ذكر ذلك كله فى حوادث السنين السابقة. و قد طال أمرهم و قاسى المسلمون منهم شدائد؛ و خرّب فى أيّامهم ممالك و بلاد. ألا لعنة اللّه على الظالمين.

و فيها توفّى علىّ بن إسحاق بن خلف أبو القاسم الزاهى الشاعر البغدادىّ، كان وصّافا محسنا كثير الملح حسن الشعر فى التشبيهات، و كان قطّانا، و كانت دكّانه فى قطيعة الربيع الحاجب. و من شعره و أجاد إلى الغاية من قصيدة:

و بيض بألحاظ العيون كأنّما هززن سيوفا و استللن خناجرا

تصدّين لى يوما بمنعرج اللّوى فغادرن قلبى بالتصبّر غادرا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۶۴

سفرن بدورا و انتقبن أهلة و مسن غصونا و التفتن جآذرا

و أطلعن فى الأجياد بالدرّ أنجما جعلن لحبّات القلوب ضرائرا

هذا مثل قول المتنبى، و مذهب الزاهى زها عليه. و قول المتنبى:

بدت قمرا و مالت خوط بان و فاحت عنبرا و رنت غزالا

و ذكر الثعالبىّ لبعض شعرا عصره على هذا الأسلوب فى وصف مغنّ:

فديتك يا أتمّ الناس ظرفا و أصلحهم لمتّخذ حبيبا

فوجهك نزهة الأبصار حسنا و صوتك متعة الأسماع طيبا

و سائلة تسائل عنك قلنا لها فى وصفك العجب العجيبا

رنا ظبیا و غنّی عندلیبا و لاح شقائها و مشی قضیبا

و مات الزاهی ببغداد. و من شعره أیضا قوله:

قم فهنئ عاشقین أصبحا مصطلحین

جمعا بعد فراق فجعا منه ببین

ثم عادا فی سرور من صدود آمنین

فهما روح و لکن رکّبا فی بدنین

الذین ذکر الذهبیّ وفاتهم فی هذه السنة، قال: و فیها توفّی الحسن بن الخضر الأسیوطی. و خلف بن محمد بن إسماعیل ببخاری. و عثمان بن عثمان بن خفیف الدرّاج.

و محمد بن الحارث بن أسد القیروانیّ أبو عبد اللّه الفقیه الحافظ.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۶۵

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم أربع أذرع و عشرون إصبعا.

مبلغ الزیادة سبع عشرة ذراعا و أربع عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۶۲]

اشارة

السنة الرابعة من ولایة جوهر القائد علی مصر، و هی سنة اثنتین و ستین و ثلثمائة.

فیها لم تعمل الرافضة المأتم ببغداد بسبب ما جری علی المسلمین من الروم، و کان عزّ الدولة بختیار بن بویه بواسط و الحاجب سبکتکین ببغداد، و کان سبکتکین المذکور یمیل إلی السّنّة فمنعهم من ذلک.

و فیها حشدت الروم و أخذوا نصیبین و استباحوا و قتلوا و سبوا، و قدم بغداد من نجا منهم؛ و استنفروا الناس فی الجوامع، و کسروا المنابر و منعوا الخطیب، و حاولوا الهجوم علی الخلیفة المطیع للّه، و اقتلعوا بعض شبابیک دار الخلافة حتی غلقّت أبوابها، و رماهم الغلمان بالنّشّاب من الرّواشن، و خاطبوا الخلیفة بالتعنیف و بأنّه عاجز عمّا أوجبه اللّه علیه من حمایة حوزة الإسلام و أفحشوا القول. و وافق ذلک غیبة السلطان عزّ الدولة بختیار بن معزّ الدولة أحمد بن بویه فی الکوفة؛ فخرج إلیه أهل العقل و الدین من بغداد، و فیهم الإمام أبو بکر الرازیّ الفقیه و أبو الحسن علیّ بن عیسی النّحویّ و أبو القاسم الدّارکیّ و ابن الدّقاق الفقیه، و شکوا إلیه ما دهم الإسلام من هذه الحادثة العظمی؛ فوعدهم عزّ الدولة بالغزو، و نادی بالنفیر فی الناس؛ فخرج من العوامّ

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۶۶

خلق مثل عدد الرمل ثمّ جهّز جیشا و غزوا، فهزموا الروم و قتلوا منهم مقتلة عظیمة و أسروا أمیرهم و جماعة من بطارقته، و أنفذت رءوس القتلی إلی بغداد؛ و فرح المسلمون بنصر اللّه تعالی.

و فیها فی شهر رمضان دخل المعزّ لدین اللّه أبو تمیم معدّ العبیدی إلی مصر بعد أن بنیت له القاهرة و معه توابیت آبائه، و کان قد مهّد له ملک الدیار المصریة مولاه جوهر القائد، و بنی له القاهرة و أقام له بها دار الإمارة و القصر.

و فیها وزر ببغداد أبو طاهر بن بقیّة و لقّب بالناصح، و کان سمحا کریما، له راتب کلّ یوم من الثلج ألف رطل، و راتبه من الشّمع فی کلّ شهر ألف منّ؛ و کان أبو طاهر من صغار الکتّاب یکتب علی المطبخ لمعزّ الدولة؛ فآل الأمر إلی الوزارة.

فقال الناس: من الغضارة إلى الوزارة! و كان كريما فغطّى كرمه عيوبه.

و فيها زلزلت بلاد الشام و هدمت الحصون و وقع من أبراج أنطاكية عدّة، و مات تحت الردم خلق كثير.

و فيها حجّ بالناس النقيب أبو أحمد الموسوىّ. و فيها ضاق الأمر على عزّ الدولة بختيار بن بويه، فبعث إلى الخليفة و طلب إسعافه على قتال الروم؛ فباع الخليفة المطيع ثيابه و أنقاض داره من ساج و رصاص، و جمع من ذلك أربعمائة ألف درهم و بعث بها إليه.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۶۷

و فيها توفّى السّرىّ بن أحمد بن السّرىّ أبو الحسن الكندىّ الرفّاء الشاعر المشهور، كان فى صباه يرفو و يطرّز فى دكّان بالموصل و مع ذلك يتولّع [بالأدب و ينظم الشعر]، و لم يزل على ذلك حتى جاد شعره و مهر فيه؛ و قصد سيف الدولة ابن حمدان بحلب و مدحه و أقام عنده [مدّة]، ثمّ بعد وفاته قدم بغداد و مدح الوزير المهلبىّ و غيره، و كان بينه و بين أبى بكر محمد و أبى عثمان سعيد ابنى هاشم الخالديّين الموصليّين الشاعرين المشهورين معاداة، فادّعى عليهما سرقة شعره و شعر غيره.

و كان شاعرا مطبوعا عذب الألفاظ، كثير الافتنان فى التشبيهات و الأوصاف؛ و كان لا يحسن من العلوم شيئا غير قول الشعر. و من شعره [أبيات] يذكر فيها صناعته:

و كانت الإبرة فيما مضى صائنة وجهى و أشعارى

فأصبح الرزق بها ضيّقا كأنّه من ثقبها جارى

و من محاسن شعره فى المديح:

يلقى الندى برقيق وجه مسفر فإذا التقى الجمعان عاد صفيقا

رحب المنازل ما أقام فإن سرى فى جحفل ترك الفضاء مضيقا

و من غرر شعره فى النسيب قوله و هو فى غاية الحسن:

بنفسى من أجود له بنفسى و يبخل بالتحية و السلام

و حتفى كامن فى مقلتيه كمون الموت فى حدّ الجسام

و فيها توفّى محمد بن هانئ أبو القاسم، و قيل: أبو الحسن، الأزدىّ الأندلسىّ الشاعر المشهور؛ قيل: إنّه من ولد يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلّب بن أبى صفرة؛ و قيل: بل هو من ولد أخيه روح بن حاتم. و كان أبوه هانئ من قرية

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۶۸

من قرى المهديّة بإفريقيّة. و كان شاعرا أديبا، كان ماهرا فى الأدب، حافظا لأشعار العرب و أخبارهم، و اتّصل بصاحب إشبيلية و حظى عنده؛ و كان كثير الانهماك فى اللذات متّهما بمذهب الفلاسفة؛ و لمّا اشتهر عنه ذلك نقم عليه أهل إشبيلية، و اتّهم الملك بمذهبه، فأشار عليه الملك بالغيبة عن البلد مدّة [ينسى فيها خبره]؛ فانفصل و عمره يومئذ سبع و عشرون سنة. و قصّته طويلة إلى أن قتل ببرقة فى عوده إلى المغرب من مصر بعد أن مدح المعزّ العبيدىّ بغرر المدائح. و كان عوده إلى المغرب لأخذ عياله و عوده بهم إلى مصر. و تأسّف المعزّ عليه كثيرا. و من شعره قصيدته النونيّة فى مدح المعزّ لدين اللّه المذكور، منها:

بيض و ما ضحكك الصباح و إنّها بالمسك من طرر الحسان لجون

أدمى لها المرجان صفحة خدّه و بكى عليها اللؤلؤ المكنون

و كان ابن هانئ هذا فى المغرب مثل المتنبىّ فى المشرق، و كان موته فى شهر رجب. و هو صاحب القصيدة المشهورة التى أوّلها:

فتقت لكم ريح الشّمال عبيرا و فيها توفّى الوزير عبّاس بن الحسين أبو الفضل الشيرازىّ، كان جبّارا ظالما، قتل بالكوفة بسقى الذّراريح، و دفن بمشهد علىّ عليه السلام. و ممّا يحكى عن ظلمه أنّه قتل ببغداد رجل من أعوان الوالى، فبعث أبو الفضل الشيرازىّ هذا من طرح النار من النحّاسين الى السمّاكين، فاحترق ببغداد حريق عظيم لم يعهد مثله، و أحرقت أموال عظيمة و جماعة كثيرة من

النساء و الرجال و الصبيان و الأطفال، فأحصى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۶۹

ما أحرق ببغداد فكان سبعة عشر [ألف إنسان] و ثلثمائة دكان و ثلثمائة و عشرين دارا؛ أجرة ذلك فى الشهر ثلاثة و أربعون [ألف دينار]. فلمّا وقع ذلك قال له رجل:

أيّها الوزير أريتنا قدرتك و نحن نأمل من اللّه أن يرينا قدرته فيك! فبعد قليل قبض عليه عزّ الدولة و صادره و عاقبه، ثم سقى ذراريح فتقرّحت مثانته و هلك فى ذى الحجة.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أبو إسحاق إبراهيم ابن محمد بن يحيى المزكّى. و أبو العباس. اسماعيل بن عبد اللّه بن محمد بن ميكال.

و أبو بحر محمد بن الحسن بن كوثر البربهارىّ، و أبو جعفر محمد بن عبد اللّه البلخىّ شيخ الحنفية ببخارى فى ذى الحجة، كان إمام عصره بلا مدافعة. و أبو عمر محمد بن موسى بن فضالة. و أبو الحسن محمّد بن هانئ شاعر الأندلس

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و سبع عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و إصبعان.

ذكر ولاية المعزّ العبيدى على مصر

هو أبو تميم معدّ بن المنصور إسماعيل بن القائم بأمر اللّه محمد بن المهدىّ عبيد اللّه العبيدىّ الفاطمىّ المغربىّ الملقّب بالمعزّ لدين اللّه، و الذى تنسب إليه القاهرة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۷۰

المعزّيّة. مولده بالمهديّة فى يوم الاثنين حادى عشر شهر رمضان سنة تسع عشرة و ثلثمائة؛ و بويع بالخلافة فى الغرب يوم الجمعة التاسع و العشرين من شوّال سنة إحدى و أربعين و ثلثمائة بعد موت أبيه. يأتى ذكر نسبه و أقوال الناس فيه بعد أن نذكر قدومه إلى القاهرة و ما وقع له مع أهلها ثم مع القرمطىّ.

و قال ابن خلكان: «و كان المعزّ قد بويع بولاية العهد فى حياة أبيه المنصور إسماعيل، ثم جدّدت له البيعة [بعد وفاته] فى يوم الأحد سابع ذى الحجة سنة إحدى و أربعين و ثلثمائة». قلت: هو أوّل خليفة كان بمصر من بنى عبيد.

قال الحافظ أبو عبد اللّه الذهبىّ فى تاريخ الإسلام: «و هو أوّل من تملّك ديار مصر من بنى عبيد [الرافضة] المدّعين أنهم علويّون. و كان ولىّ عهد أبيه إسماعيل، فاستقل بالأمر [فى آخر] سنة إحدى و أربعين و ثلثمائة، و سار فى نواحى إفريقيّة ليمهّد مملكته، فأذلّ العصاة و استعمل على المدن غلمانه و استخدم الجند. ثم جهّز مولاه جوهرا القائد فى جيش كثيف؛ فسار فافتتح سجلماسة، و سار حتى وصل إلى البحر المحيط و صيدله من سمكه، و افتتح مدينة فاس، و أرسل بصاحبها و صاحب سبتة أسيرين إلى المعزّ؛ و وطّأ له جوهر من إفريقيّة إلى البحر سوى مدينة سبتة فإنّها بقيت لبنى أميّة أصحاب الأندلس».

و قال الشيخ شمس الدين أبو المظفّر فى تاريخه مرآة الزمان: «و كان مغرّى بالنجوم (يعنى المعزّ) و النظر فيما يقتضيه الطالع؛ فنظر فى مولده و طالعه فحكم له بقطع فيه، فاستشار منجّمه فيما يزيله عنه؛ فأشار عليه أن يعمل سردابا تحت

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۷۱

الأرض و يتوارى فيه إلى حين جواز الوقت؛ فعمل [على] ذلك، و أحضر قوّاده و كتّابه و قال لهم: إن بينى و بين اللّه عهدا فى وعد وعدنيه و [قد] قرب أوانه، و قد جعلت نزارا ولدى ولىّ عهدى بعدى، و لقّبته العزيز باللّه، و استخلفته عليكم و على تدبير أموركم مدّة غيبتى، فالزموا الطاعة له و اتركوا المخالفة و اسلكوا الطريق السديدة؛ فقالوا: الأمر أمرك، و نحن عبيدك و خدمك؛ و وصّى العزيز

ولده بما أراد، و جعل القائد جوهرا مدبّره و القائم بأمره بين يديه؛ ثم نزل إلى سرداب اتخذه و أقام فيه سنة؛ و كانت المغاربة إذا راوا غماما سائرا ترجّل الفارس منهم إلى الأرض، و أومأ بالسلام يشير [إلى] أن المعزّ فيه؛ ثمّ خرج المعزّ بعد ذلك و جلس للناس، فدخلوا عليه على طبقاتهم و دعوا له، فأقام على ما كان عليه». انتهى.

و قيل: إنّه دخل مصر و معه خمسمائة جمل موسوقة ذهبا عينا و أشياء كثيرة غير ذلك.

و قال القفطيّ: «إنّ المعزّ كان قد عزم على تجهيز عسكر إلى مصر؛ فسألته أمّه تأخير ذلك لتحجّ خفية، فأجابها و حجّت. فلمّا وصلت إلى مصر أحسّ بها كافور الإخشيذيّ الأستاذ فحضر إليها و خدمها و حمل إليها هدايا و بعث فى خدمتها أجنادا، فلمّا رجعت من حجّها منعت ولدها من غزو بلاده. فلمّا توفّى كافور بعث المعزّ جيوشه فأخذوا مصر». انتهى.

و لمّا أرسل المعزّ القائد جوهرا إلى مصر و فتحها و بلغه ذلك سار بنفسه إلى المهديّة فى الشتاء فأخرج من قصور آبائه من الأموال خمسمائة حمل، ثم سار نحو الديار المصريّة بعد أن مهّد له جوهر القائد و بنى له القاهرة. و كان صادف مجىء

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۷۲

جوهر إلى مصر الغلاء و الوباء، فلم يلتفت إلى ذلك و افتتحها؛ ثم افتتح الحجاز و الشام، و أرسل يعرّف المعزّ. و قد ذكرنا شيئا من ذلك فى ترجمة جوهر القائد.

و خرج المعزّ من المغرب فى سنة إحدى و ستين و ثلثمائة بعد أن استخلف على إفريقيّة [يوسف] بلكّين بن زيرى الصّينهاجى، و جدّ المعزّ فى السير فى خزائنه و جيوشه حتى دخل الإسكندريّة فى شعبان سنة اثنتين و ستين و ثلثمائة؛ فتلقّاه قاضى مصر أبو طاهر الذّهلى و الأعيان، و طال حديثهم معه، و أعلمهم بأنّ قصده القصد المبارك من إقامة الجهاد و الحقّ و أن يختم عمره بالأعمال الصالحة، و أن يعمل بما أمره به جدّه رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلّم، و وعظهم و طوّل حتى أبكى بعضهم و خلع على جماعة. ثمّ نزل بالجيزة و أخذ جيشه فى التعدية إلى مصر ثمّ ركب هو و دخل القاهرة؛ و قد بنيت له بها دور الإمارة، و لم يدخل مدينة مصر، و كانوا قد احتفلوا و زيّنوا مصر بأحسن زينة. فلمّا دخل القصر خرّ ساجدا و صلّى ركعتين.

و قال عبد الجبّار البصرىّ: «و كان السبب فى مجيئه إلى مصر؛ أنّ الرّوم كانوا قد استولوا على الشام و الثغور و طرسوس و أنطاكية و أذنة [و عين زربة] و المصّيصة و غيرها و فرح بمصاب المسلمين؛ و بلغه أن بنى بويه قد غلبوا على بنى العباس و أنهم لا حكم لهم معهم؛ فاشتدّ طمعه فى البلاد؛ و كان له بمصر شيعة فكاتبوه يقولون: إذا زال الحجر الأسود ملك مولانا المعزّ الدنيا كلّها، و يعنون بالحجر الأسود الأستاذ كافورا الإخشيذىّ الخصىّ، و كان كافور يومئذ أمير مصر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۷۳

نيابة عن ابن الإخشيذ و عن الحسن بن عبيد اللّه بن طغج أمير الشام، و كان الحسن قد دخل مع الشّيعة فى الدعوة، و كان الحسن ضعيفا رخوا؛ و لذلك كان كافور هو المتكلّم عنه لأنّ الجند كانوا قد طمعوا فيه (أعنى الحسن) و كرهوه و كرههم؛ فقال له أبو جعفر بن نصر، و كان من دعاة المعزّ بالقاهرة: هؤلاء القوم قد طمعوا فيك، و المعزّ لك مثل الوالد، فإن شئت كاتبته ليشدّ منك و يكون من وراء ظهرك؛ فقال الحسن: إى و اللّه قد أحرقوا قلبى!. فكتب إلى المعزّ يخبره؛ فبعث المعزّ القائد جوهرا، و هو عبد رومىّ غير خصىّ؛ فجاء جوهر إلى مصر فى مائة ألف مقاتل، فدخل مصر فى سنة ثمان و خمسين و ثلثمائة، حسب ما ذكرناه، و أخرج الحسن المذكور بعد أن قاتله؛ و استولى جوهر على الخزائن و الأموال و الذخائر. و توجّه الحسن إلى الرملة ثم ظفر به جوهر و بعث به إلى المعزّ إلى الغرب؛ فلمّا دخل عليه الحسن قرّ به المعزّ و؟؟؟ بشّ به، و قال: أنت ولدى؛ و كاتبتنى على دخول مصر و إنّما بعثت جوهرا لينصرك، و لقد لحقنى بتجهيز الجيوش إلى مصر أربعة آلاف ألف [و خمسمائة ألف] دينار. فظنّ الحسن أنّ الأمر كما قال المعزّ، و لم يدر أنه خدعه؛ فسعى إليه بجماعة من قوّاد مصر و الأمراء و أرباب الأموال و عرّفه حال المصريّين، و كان كلّ واحد من هؤلاء الذين دلّ الحسن المعزّ عليهم مثل قارون فى الغنى؛ فكتب المعزّ إلى جوهر باستئصالهم و مصادرتهم [و أن يبعث بهم إليه] ثمّ حبسهم مع

الحسن؛ فكان ذلك آخر العهد بهم». فقال الذهبىّ: هذا قول منكر بل أخرج الحسن بن عبيد اللّه من مصر و بايع للمعزّ، ثم قدم بعد ذلك و وقعت الوحشة بينهم.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۷۴

و لمّا دخل المعزّ إلى القاهرة احتجب فى القصر فبعث عيونه ينقلون إليه أخبار الناس و هو متوفّر فى النعم و الأغذية المسمنة و الأطلية التى تنقّى البشرة و تحسّن اللّون. ثمّ ظهر للناس بعد مدّة و قد لبس الحرير الأخضر و جعل على وجهه اليواقيت و الجواهر تلمع كالكواكب. و زعم أنّه كان غائبا فى السماء و أنّ اللّه رفعه إليه؛ فامتلأت قلوب العامّة و الجهّال منه رعبا و خوفا، و قطع ما كان على ابن الإخشيد فى كلّ سنة من الأتاوة للقرامطة، و هى ثلثمائة ألف دينار. و لمّا بلغ القرمطىّ ذلك عظم عليه؛ لأنّ المعزّ كان يصافيه لمّا كان بالمغرب و يهاديه، فلمّا وصل إلى مصر قطع ذلك عنه. و سار القرمطىّ، و اسمه الحسن بن أحمد بن أبى سعيد الحسن بن بهرام القرمطىّ، إلى بغداد و سأل الخليفة المطيع بالله العباسىّ على لسان عزّ الدولة بختيار أن يمدّه بمال و رجال و يولّيه الشام و مصر ليخرج المعزّ منها؛ فامتنع الخليفة المطيع بالله من ذلك، و قال: كلّهم قرامطة و على دين واحد؛ فأمّا المصريون (يعنى بنى عبيد) فأماتوا السنن و قتلوا العلماء؛ و أمّا هؤلاء (يعنى القرامطة) فقتلوا الحاجّ، و قلعوا الحجر الأسود، و فعلوا ما فعلوا. فقال عزّ الدولة بختيار للقرمطىّ: اذهب فافعل ما بدالك. و قيل: إنّ بختيار أعطاه مالا و سلاحا. فسار القرمطىّ إلى الشام و معه أعلام سود، و أظهر أنّ الخليفة المطيع ولّاه و كتب على الأعلام اسم المطيع عبد الكريم، و تحته مكتوب "السادة الراجعون إلى الحقّ "و ملك القرمطىّ الشام و لعن المعزّ هذا على منبر دمشق و أباه؛ و قال: هؤلاء من ولد القدّاح كذّابون مخترقون أعداء الإسلام، و نحن أعلم بهم؛ و من عندنا خرج جدّهم القدّاح. ثم أقام القرمطىّ الدعوة لبنى العباس و سار إلى مصر بعساكره. و لمّا بلغ المعزّ مجيئه تهيّأ لقتالهم؛ فنزل القرمطىّ بمشتول الطواحين، و حصل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۷۵

بينه و بين المعزّ مناوشات، ثم تقهقر المعزّ و دخل القاهرة و انحصر بها إلى أن أرضى القرمطىّ بمال و خدعه، و انخدع القرمطىّ و عاد إلى نحو الشام، فمات بالرّملة فى شهر رجب، و أراح اللّه المسلمين منه، وصفا الوقت للمعزّ فإنّ القرمطىّ كان أشدّ عليه من جميع الناس للرّعب الذى سكن فى قلوب الناس منه؛ فكانت القرامطة إذا كانوا فى ألف حطّموا مائة ألف و انتصفوا. خذلان من اللّه تعالى لأمر يريده.

ذكر ما قيل فى نسب المعزّ و آبائه

قال القاضى عبد الجبّار البصرىّ: «اسم جدّ الخلفاء المصريّين سعيد، و يلقّب بالمهدىّ، و كان أبوه يهوديّا حدّادا بسلمية؛ ثم زعم سعيد هذا أنّه ابن الحسين بن أحمد بن عبد اللّه بن ميمون القدّاح. و أهل الدعوة أبو القاسم الأبيض العلوىّ و غيره يزعمون أنّ سعيدا إنّما هو من امرأة الحسين المذكور، و أنّ الحسين ربّاه و علّمه أسرار الدعوة، و زوجته بنت أبى الشلغلغ، فجاءه ابن فسمّاه عبد الرّحمن. فلمّا دخل الغرب و أخذ سجلماسة تسمّى بعبيد اللّه ثمّ تكنّى بأبى محمد، و سمّى ابنه الحسن، و زعمت المغاربة أنّه يتيم ربّه و ليس بابنه و لا بابن زوجته؛ و كناه أبا القاسم و جعله ولىّ عهده». انتهى.

و قال القاضى أبو بكر بن الباقلانى: «القدّاح جدّ عبيد اللّه كان مجوسيا، و دخل عبيد اللّه المغرب و ادّعى أنه علوىّ و لم يعرفه أحد من علماء النسب، و كان باطنيا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۷۶

خبيثا حريصا على إزالة ملّة الإسلام؛ أعدم الفقه و العلم ليتمكّن من إغراء الخلق؛ و جاء أولاده أسلوبه و أباحوا الخمر و الفروج و أشاعوا الرّفض، و بثّوا دعاة فأفسدوا عقائد جبال الشام، كالنّصيرية و الدّروزيّة. و كان القدّاح كاذبا مخترقا، و هو أصل دعاة القرامطة».

انتهى.

و قال ابن خلكان: «اختلف فى نسبهم، فقال صاحب تاريخ القيروان: هو عبيد اللّه بن الحسن بن علىّ بن محمد بن علىّ بن موسى بن جعفر بن محمد بن علىّ بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب رضى اللّه عنهم». انتهى. و قال غيره: هو عبيد اللّه ابن محمد بن إسماعيل بن جعفر المذكور فى قول صاحب تاريخ القيروان. و قيل:

هو علىّ بن الحسين بن أحمد بن عبد اللّه بن الحسن بن محمد بن علىّ بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى اللّه عنهم. و قيل: هو عبيد اللّه بن التقىّ بن الوفىّ بن الرضىّ، و هؤلاء الثلاثة يقال لهم المستورون فى ذات اللّه. و الرضىّ المذكور هو ابن محمد بن إسماعيل بن جعفر. و اسم التقىّ الحسين. و اسم الوفىّ أحمد. و اسم الرضىّ عبد اللّه. و إنّما استتروا خوفا على أنفسهم لأنّهم كانوا مطلوبين من جهة الخلفاء من بنى العباس، لأنّهم علموا أنّ فيهم من يروم الخلافة؛ [أسوة غيرهم من العلويّين، و قضاياهم و وقائعهم فى ذلك مشهورة]. و إنّما تسمّى المهدىّ عبيد اللّه استتارا.

هذا عند من يصحّح نسبه ففيه اختلاف كثير. و أهل العلم بالأنساب من المحقّقين ينكرون دعواه فى النسب. و قيل: هو عبيد اللّه بن الحسين بن علىّ بن محمد بن على

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۴، ص: ۷۷

الرضى بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق. و قيل: هو علىّ بن الحسين بن أحمد ابن عبد اللّه بن الحسين بن محمد بن زين العابدين بن محمد بن الحسين، و إنّما سمّى نفسه [عبيد اللّه] استتارا. و هذا أيضا على قول من يصحّح نسبهم. و الذى ينكر نسبه يقول: اسمه سعيد، و لقبه عبيد اللّه، و زوج أمّه الحسين بن أحمد القدّاح، كان كحّالا يقدح العين إذا نزل فيها ماء.

و قال ابن خلكان: «و جاء المعزّ من إفريقيّة و كان يطعن فى نسبه. فلمّا قرب من البلد (يعنى مصر) و خرج الناس للقائه، اجتمع به جماعة من الأشراف؛ فقال له من بينهم الشريف عبد اللّه بن طباطبا: إلى من ينتسب مولانا؟ فقال له المعزّ:

سنعقد مجلسا و نسرد عليكم نسبنا. فلمّا استقرّ المعزّ بالقصر جمع الناس فى مجلس عامّ و جلس لهم و قال: هل بقى من رؤسائكم أحد؟ فقالوا: لم يبق معتبر، فسلّ [عند ذلك نصف] سيفه و قال: هذا نسبى! و نثر عليهم ذهبا كثيرا، و قال: هذا حسبى! فقالوا جميعا: سمعنا و أطعنا». قلت: و فى نسب المعزّ أقوال كثيرة أخر أضربت عن ذكرها خوف الإطالة. و الظاهر أنه ليس بشريف، و أنّه مدّع. و اللّه أعلم.

و استمر بالقاهرة إلى أن مرض بها و توفّى يوم الجمعة السابع عشر من شهر ربيع الأوّل سنة خمس و ستين و ثلثمائة، و له ست و أربعون سنة؛ و قام ولده العزيز نزار بعده بالأمر. و أقام المعزّ واليا ثلاثا و عشرين سنة و خمسة أشهر و سبعة و عشرين يوما، منها بمصر ثلاث سنين، و باقى ولايته كانت بالمغرب:

و خلّف عشرة أولاد: نزارا الذى ولى مصر بعده و عبد اللّه و عقيلا و سبع بنات.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۴، ص: ۷۸

و أقام بتدبير مملكة ولده العزيز جوهرا القائد بانى القاهرة و صاحب جامع الأزهر المقدّم ذكره.

قال ابن خلّكان: إنّه توفّى يوم الجمعة الحادى عشر من شهر ربيع الآخر.

و قيل: الثالث عشر [و قيل لسبع خلون] منه. فخالف ما قلنا فى اليوم و الشهر إلّا أنّه وافق فى السنة. قال: و (معدّ بفتح الميم و العين المهملة و تشديد الدال المهملة).

انتهى. قلت: و كان المعزّ عاقلا حازما أديبا جوادا ممدّحا، فيه عدل و إنصاف للرعية، فمن عدله [ما] حكى عنه أنّ زوجة الإخشيد الذى كان ملك مصر لمّا زالت دولتهم أودعت عند يهودىّ بغلطاقا كلّه جوهر، ثمّ فيما بعد طالبته فأنكر؛ فقالت: خذ كمّ البغلطاق و أعطنى ما فضل فأبى؛ فلم تزل به حتّى قالت: هات الكمّ و خذ الجميع فلم يفعل؛ و كان فى البغلطاق بضع عشرة درّة؛ فأتت المرأة إلى

قصـر المعزّ فـأذن لهـا فـأخبرته بأمرها، فأحضـره و قرّره فلم يقرّ؛ فبعث إلى داره من خرّب حيطانها فظهرت جرّة فيها البغلطاق؛ فلما رآه المعزّ تحيّر من حسنه، و وجد اليهودىّ قد أخذ من صدره درّتين، فآعترف أنه باعهما بألف و ستمائة دينار؛ فسلّمه المعز بكماله للمرأة. فاجتهدت أن يأخذه المعزّ هديّة أو بثمن فلم يفعل؛ فقالت: يا مولاى، هذا كان يصلح لى و أنا صاحبة مصـر، و أمّا اليوم فلا؛ فلم يقبله المعزّ و أخذته و انصرفت.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۷۹

و كان المعزّ قد أتقن فنونا من العلم و الأدب. و من شعره قوله:

للّه ما صنعت بنا تلك المحاجر فى المعاجر

أمضى و أقضى فى النفو س من الخناجر فى الحناجر

و لقد تعبت ببينكم تعب المهاجر فى الهواجر

ذكر ركوب الخلفاء الفاطميين فى أوّل العام من كلّ سنة

و المعزّ هـذا هو الذى اسـتسنّ ذلك كلّه، فكان أمره إذا كان أواخر ذى الحجّة من كلّ سـنة انتصب كلّ من المسـتخدمين فى الأماكن الآتى ذكرها لإخراج آلات الركوب:

فيخرج من خزائن الأسـلحة ما يحمله صبيان الرّكاب حول الخليفـة، و هو الصّـِماصم المصـقولة المذهّبة، [مكان السـيوف]، و الدبابيس الملبّسة الكيمخت الأحمر و الأسود مدوّرة الرأس مضـرّسة؛ و لتوت رءوسها مستطيلة؛ و آلات يقال لها المستوفيات، و هى عمد حديد طول ذراعين مربّعـة الشـكل، لها مقابض مـدوّرة فى اليد، و عدد معلومة أيضا من كلّ صـنف يتسـلّمها نقباؤهم؛ و سـتّمائة حربة بأسـنّة مصـقولة تحتها جلب فضّة، كل اثنتين فى شرّابة تعطى لثلثمائة عبد [من] السودان الشباب يقال لهم أرباب السلاح الصغير و يعطى لكل منهم درقة. هذا من خزائن السلاح.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۸۰

ثمّ يخرج من خزائن التجمّـِل، و هى من حقـوق خزائن السـلاح، القضب الفضـة [برسم] تشـريف الوزير و أربـاب الرتب من الأـمراء و العساكر من الرّجالـة و المشاة، و هى رماح ملبّسـة بأنابيب الفضة المنقوشة بالذهب سوى ذراعين منها، فإنّها مشدودة بالمعاجر الشـرب الملوّنـة، و تبقى أطرفها المرقومـة مسبلة كالسـناجق، و برأس كلّ رمح رمامين فضة منفوخة و أهلّة مجوّفة و فيها جلاجل لها حسّ إذا تحرّكت، و عدّتها مائة رمح.

و من العماريّات و هى شـبه الكجاوات مائة عماريّة ملبّسة بالديباج الأحمر و الأصـفر و السـقلاطون مبطّنة مضـبوطة بزنانير من حرير، و على دائر التربيع مناطق بكوامخ فضّة مسمورة فى جلد.

و يخرج للوزير لواءان على رمحين ملفوفين غير منشورين، فيسيران أمام الوزير.

ثمّ يسير للأمراء أرباب الرتب فى الخدم، أوّلهم صاحب الباب عشر قصبات و عشر

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۸۱

عماريّات. و للإسفهسالار مثل ذلك عدّة عماريّات بألوان مختلفة؛ و من سواهما من الأمراء خمس.

ثمّ يخرج من البنود الخاصّ الـدّبيقىّ المرقوم الملوّن برماح ملبّسة بالأنابيب، على رءوسـها الرمامين و الأهلة للوزير أيضا خاصّة. و دون هذه البنود مما هو حرير على رماح غير ملبّسة، رءوسها و رمامينها نحاس مجوّف مذهّب، أمام الأمراء المذكورين.

ثمّ يخرج لقوم يقـال لهم السبربريـة سـلاح، كـلّ قطعـة طول ثلاث أدرع برأسـها طلعـة مصـقولة و هى من خشب القنطاريـة داخلـة فى الطلعة، و فى عقبها حديد مدوّر السّفل، فهى فى كفّ حاملها الأيمن، و هو يفتلها فتلا متدارك الدوران؛ و فى يده اليسرى نشّابة كبيرة

يخطر بها.

ثمّ يخرج من النّقّارات حمل خمسين بغلا على خمسين بغلا على كلّ بغل خمس مثل الكوسات يقال لها طبول. قلت: و لها حسّ مستحسن. و يسيرون فى المواكب ثلاثا. ثمّ يخرج لقوم متطوّعين ليس لهم جراية و لا نفقة، و عدّتهم مائة رجل،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۸۲

لكل واحد درقة من درق اللّمط واسعة و سيف؛ و يسيرون رجّالة. هذا ما يخرج من خزائن السلاح.

ثمّ يحضر حامى خزائن السروج، و هو من الأستاذين المحنّكين، إليها مع مشارفها و هو من الشهود المعدّلين، فيخرج منها من خاصّ الخليفة من الرّكاب المحلّى ما هو برسم ركوبه، و ما يجنب فى الموكب مائة سرج تشدّ على عدّة حصن. و يقال: كلّ مركب مصوغ من ذهب و فضّة، أو من ذهب منزّل فيه المينا، و روادفها و قرابيسها من نسبتها. و منها مرصّع بحبّ اللؤلؤ الفائق. و الخيل مطوّقة بأعناق الذهب و قلائد العنبر، و فى أيدى أكثرها خلاخل مسطّحة بالذهب، و مكان الجلد من السروج الديباج الأحمر و الأصفر و غيرهما من الألوان المنقوشة؛ قيمة كلّ دابّة و ما عليها ألف دينار. فيشرّف الوزير منها بعشرة لركوبه و أولاده و من يشاء من أقاربه. و يتسلّم ذلک كلّه عرفاء الإصطبلات.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۸۳

ثمّ يخرج من الخزانة أيضا لأرباب الدواوين المرتّبين فى الخدم مراكب على مقدارهم، عليها من العدّة دون ما تقدّم ذكرهم، و عدّتهم ثلثمائة خيل و بغال. ثم ينتدب حاجب يفرّق لأرباب الخدم كلّ واحد سيفا و قلما؛ فيحضر سحر اليوم المذكور إلى منازل أرباب الخدم بالقاهرة و مصر، و لهم رسوم من الرّكاب من دينار إلى نصف دينار إلى ثلث دينار. فإذا تكمّل ما وصفنا و تسلّمه أربابه من العرفاء يجلس الخليفة فى الشبّاک لعرض الخيل الخاصّ المقدّم ذكرها، و يقال له يوم عرض الخيل، فيستدعى الوزير بصاحب الرسالة، و هو من كبار الأستاذين المحنّكين، فيمضى مسرعا على حصان دهراج، فيعود و يعلم باستدعاء الوزير؛ فيخرج الخليفة من مكانه راكبا فى القصر و الناس بين يديه مشاة، فينزل بمكان لا بدهليز باب الملک الذى فيه الشباک، و عليه ستر؛ فيقف زمام القصر من جانبه الأيمن و صاحب بيت المال من جانبه الأيسر. فيركب الوزير من داره و بين يديه الأمراء. فيترجّل الأمراء من باب القصر و الوزير راكب، و يدخل من باب العيد فى هذا اليوم، و ينزل عند أوّل الدّهاليز الطّوال، و يمشى و حوله حاشيته و أقاربه إلى الشبّاک، فيجلس على كرسىّ جيّد و رجلاه تطأ الأرض. فعند ما يجلس يرفع الأستاذان جانبى الستر الذى على الخليفة. فإذا رأى الوزير الخليفة وقف و سلّم و خدم بيده إلى الأرض خمس مرّات. ثم يؤذن له فى الجلوس على كرسيّه،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۸۴

و يقرأ القرّاء آيات لائقة بذلک الحال نصف ساعة. ثم تعرض الخيول كالعرائس بأيدى شدّاديها، فيقرأ القرّاء عند تمام العرض و يرخى جنبات الستر. و يقوم الوزير فيدخل و يقبّل يد الخليفة و رجله؛ ثمّ ينصرف فيركب من مكان نزوله و الأمراء فى ركابه ركبانا و مشاة إلى قريب من داره. فإذا صلّى الإمام الظهر جلس الخليفة لعرض ما يلبسه فى الغد من خزائن الكسوة الخاصّة، و يكون لباسه البياض، فيعين منديلا خاصّا و بدلة. و يتسلّم المنديل شادّ التاج الشريف، و يقال له شدّ الوقار، و هو من الأستاذين المحنّكين و له ميزة، فيشدّها شدّة غريبة لا يعرفها سواه، شكل الإهليلجة.

ثم يحضر إليه اليتيمة، و هى جوهرة عظيمة لا تعرف لها قيمة، فتنظم و حولها ما هو دونها من الجواهر؛ و هى موضوعة فى هلال من ياقوت أحمر ليس له مثال فى الدنيا، زنته أحد عشر مثقالا و قيل أكثر، يقال له الحافر، فتنظم فى خرقة حرير أحسن ما يمكن من الوضع، و يخاط على التاج بخياطة خفيفة، فيكون ذلک بأعلى جبهة الخليفة، و بدائرها قصب الزّمرذ الذّبابىّ العظيم القدر.

ثمّ يؤمر بشدّ المظلّة التى تشاكل تلک البدلة، و هى اثنا عشر شوزكا، عرض أسفل كلّ شوزک شبر و طوله ثلاث أذرع و ثلث؛ و آخر الشوزک من فوق دقيق جدا. فيجتمع ما بين الشوازک فى رأس عمودها دائرة. و العمود من الزان ملبّس بأنابيب الذهب. و فى آخر

أنبوبة تلی الرأس فلكة بارزة قدر عرض إبهام. فيشدّ

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۸۵

آخر الشوازك فی حلقة ذهب. و للمظلة أضلاع من خشب الخلنج مربّعات مكسوّة بالذهب على عدد الشوازك خفاف بطول الشوازك. و فيها خطاطيف لطاف، و حلق يمسك بعضها بعضا تنضمّ و تنفتح، و رأسها كالرمّانة، و يعلوه أيضا رمّانة صغيرة كلها ذهب مرصّع بجوهر، و لها رفرف دائر عرضه أكثر من شبر و نصف، و تحت الرّمانة عنق مقدار ستّ أصابع. فاذا أدخلت الحلقة الذهب الجامعة لآخر الشوازك فی رأس العمود ركّبت عليها الرمانة و لفّت فی عرضی دبيقیّ مذهب، فلا يكشفها منه إلّا حاملها عند تسليمها وقت الركوب.

ثمّ يؤمر بشدّ لواءی الحمد المختصّين بالخليفة، و هما رمحان [طويلان ملبّسان بمثل أنابيب عمود المظّلة إلی حدّ نصفهما] برأسهما لواءان حريرا أبيض مرقوما بالذهب ملفوفين على رماحهما، و يخرجان بخروج المظّلة، فيحملهما أميران.

ثمّ يخرج إحدى و عشرون راية لطيفة من حرير مرقوم، ملوّنة بكتابة فی كلّ واحدة بما يخالف لونها [و نص كتابتها]: (نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَ فَتْحٌ قَرِيبٌ). طول كلّ راية ذراعان فی ذراع و نصف، فتسلّم لواحد و عشرين رجلا.

ثمّ يخرج رمحان فی رءوسهما أهلّة من ذهب فی كلّ واحد سبع من ديباج أحمر و أصفر، و فی فمه طارة مستديرة، يدخل فيها الريح فينفتحان فيظهر شكلهما، و يتسلمهما فارسان يسيران أمام الرايات.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۸۶

ثمّ يخرج السيف الخاصّ، و جلبته [ذهب] مرصّعة بالجواهر، فی خريطة مرقومة بالذهب، لا يظهر سوى رأسه، فيخرج مع المظّلة، و حامله أمير، عظيم القدر، و هو أكبر حامل.

ثمّ يخرج الرمح، و هو رمح لطيف، فی غلاف منظوم من لؤلؤ، و له سنان مختصر بحلية ذهب [و له شخص مختص بحمله]. و درقة بكوامخ ذهب وسيعة، تنسب إلی حمزة بن عبد المطّلب، فی غشاء حرير، فيحملها أمير مميّز له جلالة. ثمّ يعلم الناس سلوك الموكب. و الموكب دورتين؛ إحداهما كبرى، و هی من باب القصر إلی باب النصر، مارّا إلی الحوض حوض عزّ الملك. ثمّ ينعطف على اليسار إلی باب الفتوح إلی القصر. و الأخرى هی الصغرى، إذا خرج من باب النصر سار حول السور و دخل من باب الفتوح إلی القصر. فكان إذا ركب ساروا بين يديه بغير اختلال و لا تبديل. فإذا أصبح الصبح يوم غرّة العام اجتمع أرباب الرتب من القاهرة و مصر و أرباب السيوف و الأقلام، فصفّوا بين القصرين، و لم يكن فيه بناء كاليوم بل كان خلاء. و يبكّر الأمراء إلی دار الوزير؛ فيركب الوزير من غير استدعاء، و يسير أمامه تشريفه المقدّم ذكره، و الأمراء بين يديه ركّابا و مشاة، و أمامه بنوه و إخوته، و كلّ منهم يرخی الذؤابة بغير حنك؛ و هو فی أبّهة عظيمة من الثياب الفاخرة و المنديل

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۸۷

بالحنك، متقلدا سيفا مذهّبا؛ فيدخل أهله عند القصر فی أخصّ مكان لا يصل الأمراء إليه؛ و يدخل الوزير من باب القصر راكبا وحده إلی دهليز العمود، فينزل على مصطبة هناك و يمشی إلی القاعة و يجلس بها. فإذا دخلت الدّابة لركوب الخليفة و أسندت إلی الكرسیّ الذی يركب عليه الخليفة من باب المجلس أخرجت المظلّة إلی حاملها، فيكشفها بإعانة جماعة من الصقالبة برسم خدمتها، فيركزها فی آلة من حديد متّخذة شكل القرن المصطحب، و هو مشدود فی ركاب حاملها الأيمن بقوّة و تأكيد بعقبها، فيمسك العمود بحاجز فوق يده فيبقی و هو منتصب لا يضطرب فی ريح عاصف.

ثمّ يخرج السيف فيتسلّمه حامله، و يرخی له ذؤابة ما دام حاملا له.

ثمّ تخرج الدواة فيتسلّمها حاملها، و هو من الأستاذين المحنّكين، و هی الدواة التی كانت من أعاجيب الزمان، و هی من الذهب، و حليتها من المرجان، تلفّ فی منديل شرب بياض مذهب. و فيها يقول بعض الشعراء:

ألين لداود الحديد كرامة فقدّره فى السّرد كيف يريد

و لان لك المرجان و هو حجارة على أنّه صعب المرام شديد

ثمّ يخرج الوزير و من معه و ينضمّ إليه الأمراء، فيقف إلى جانب الدّابة، فيرفع صاحب [المجلس] السّتر، فيخرج منه الخليفة بالهيئة المشروحة قبل تاريخه: من

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۸۸

الثياب و المنديل الحامل لليتيمة بأعلى جبهته، و هو محنّك مرخى الذؤابة مما يلى جانبه الأيسر، متقلّد سيفا عربيا و بيده قضيب الملك، و هو طول شبر و نصف، من عود مكسوّ بالذهب المرصّع بالجوهر؛ فيسلّم على الوزير قوم مرتّبون لذلك، و يسلّمون على أهله و على الأمراء بعدهم.

ثمّ يخرجون شيئا بعد شيء إلى أن يبقى الوزير فيخرج بعدهم، و يركب و يقف قبالة باب القصر إلى أن يخرج الخليفة و حوله الأستاذون، و دابّته تمشى على بسط مفروشة خيفة أن تزلق على الرّخام. فعند ما يقرب من الباب يضرب رجل ببوق من ذهب لطيف معوجّ الرأس، يقال له العربانة، بصوت عجيب يخالف أصوات البوقات، فتضرب أبواق الموكب و تنشر المظلّة، و يخرج الخليفة من الباب فيقف مقدار ما يركب الأستاذون المحنّكون و أرباب الرتب الذين كانوا بالقاعة.

ثمّ يسيرون و المظلّة على يسار الخليفة و صاحبها يبالغ ألّا يزول عنه ظلّها، و صبيان الركاب، منهم جماعة كبيرة من الشكيمتين، و جماعة أخرى فى عنق الدّابة، و جماعة أخرى فى ركابيه. فالأيمن مقدّم المقدّمين، و هو صاحب المقرعة التى يناولها [للخليفة و يتناولها منه]، و يؤدّى عن الخليفة الأوامر و النواهى مدّة ركوبه.

و يسير الموكب و بأوّله أخلاط بعض العسكر، ثمّ الأماثل، ثمّ أرباب المناصب، ثم أرباب الأطواق، ثمّ الأستاذون المحنّكون، ثمّ حاملا لواءى الحمد من الجانبين،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۸۹

ثمّ حامل الدّواة، و موضعها من حاملها بينه و بين قربوس السّرج، ثمّ صاحب السيف و هما فى الجانب الأيسر. و كلّ ممّن تقدّم ذكره بين العشرة و العشرين من أصحابه.

و أهل الوزير من الجانب الأيمن بعد الأستاذين المحنّكين؛ ثمّ الخليفة و حوله صبيان الرّكاب المذكورة تفرقة السلاح [فيهم]، و هم ما يزيد على ألف رجل، و عليهم المناديل الطبقيّات يتقلّدون بالسيوف، و أوساطهم مشدودة بمناديل، و السلاح مشهور بأيديهم، من جانبى الخليفة كالجناحين، و بينهم فرجة لوجه الدّابة ليس فيها أحد.

و بقرب من رأس الدّابة صقلبيّان محمّلان مذبّتين، كلّ واحدة، كالنخلتين، لما يسقط من طائر و غيره؛ و هو سائر على تؤدة و رفق. و بطول الموكب والى القاهرة رائح و عائد يفسح الطرقات و يسيّر الفرسان، فيلقى فى عوده الإسفهسالار كذلك فى حثّ الأجناد فى الحركة و ينكر على المزاحمين. و يلقى أيضا فى عوده صاحب الباب بمن فى زمرة الخليفة إلى أن يصل إلى الإسفهسالار، فيعود لترتيب الموكب، و بيد كلّ منهم دبّوس. و خلف دابة الخليفة قوم من صبيان الركاب لحفظ أعقابه، و خلفهم أيضا أخر يحمل كلّ واحد سيفا فى خريطة ديباج أحمر و أصفر بشراريب، يقال لها «سيوف الدم» لضرب الأعناق. ثمّ صبيان السلاح الصغير أرباب الفرنجيات [المقدّم ذكرهم] أوّلا.

ثمّ يأتى الوزير و فى ركابه قوم من أصحابه و قوم يقال لهم صبيان الزّرد من أقوياء الأجناد، يختارهم لنفسه نحو من خمسمائة رجل من جانبيه، كأنّه على قلق من

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۹۰

حراسة الخليفة، و يجتهد ألّا يغيب عن نظره، و خلفه الطّبول و الصّنوج و الصفافير، بحيث تدوّى منهم الدنيا فى عدد كثير. ثمّ يأتى

حامل الدّرقة و الرمح. ثمّ طوائف الراجل من الركابيّة و الجيوشيّة و قبلهما المصامدة، ثمّ الفرنجية، ثمّ الوزيريّة زمرة بعد زمرة فى عدد وافر يزيد على أربعة آلاف نفر، ثمّ أصحاب الرايات، ثمّ طوائف العساكر من الامريّة و الحافظيّة و الحجريّة الكبار و الحجريّة الصّغار و الصّيقليّة، ثمّ الأتراك المصطنعون، ثمّ الديلم، ثم الأكراد و الغزّ المصطنعة و هم البحريّة. و يقدم هذه الفرسان عدّة وافرة من المترجّلة أرباب قسيّ اليد و قسيّ الرّجل فى نيّف و خمسمائة نفر، و هم المعدّون للأساطيل، و جملتهم نحو ثلاثة آلاف و أكثر. و هؤلاء الذين ذكرناهم بعض من كلّ لا جميع عسكر الخليفة. ثمّ يدخلون من باب الفتوح و يقفون بين القصرين كما كانوا.

فإذا وصل الخليفة إلى موضع جامع الأقمر الآن وقف وقفة و انفرج الموكب، فيمرّ الموكب بالخليفة، و يسكع الوزير ليظهر للناس خدمته، و يشير إليه الخليفة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۹۱

بالسلام إشارة خفيفة؛ و هذه أعظم مكارمة تصدر عن الخليفة، و هى للوزير صاحب السيف خاصّة؛ فيسبق إذا لدخول الباب بالقصر راكبا إلى موضعه على العادة، خاصّة له، و الأمراء مشاة. فيصل الخليفة إلى الباب و قد ترجّل الوزير و قبله الأستاذون المحنّكون، فيحدقون به، و الوزير أمام الدّابة إلى أن ينزل الخليفة؛ فيخرج الوزير و يركب من مكانه، و الأمراء فى خدمته و أقاربه بين يديه، فيسيرون إلى داره فيسلّمون و ينصرفون إلى أماكنهم، فيجدون قد أحضر إليهم المقرر من الخليفة، يأمر بضرب دنانير و رباعيّة و دراهم فى العشر الأخير من ذى الحجة، عليها تاريخ السنة التى ركب فيها؛ فيحمل للوزير منها شيء كثير و إلى أولاده و أقاربه، ثم إلى أرباب الرتب من أرباب السيوف و الأقلام، من عشرة دنانير إلى رباعيّ إلى قيراط و إلى دينار واحد، فيقبلون ذلك تبرّكا.

و لا ينقطع الركوب من أوّل العام إلّا متى شاء، و لا يتعدّى ما ذكرناه فى يومى السبت و الثلاثاء. فإذا عزم على الركوب فى هذه الأيّام أعلم بذلك، و علامته إنفاق الأسلحة فى صبيان الركاب من خزائن السلاح. و كان أكثر ركوبه إلى مصر. فإذا ركب ركب الوزير وراء الخليفة فى أقلّ جمع مما تقدّم ذكره فى ركوب أوّل العام. فيشقّ الخليفة القاهرة إلى جامع أحمد بن طولون إلى المشاهد إلى درب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۹۲

الصّفا، و يقال له الشارع، الأعظم إلى دار الأنماط إلى جامع مصر، فيجد ببابه الشريف الخطيب واقفا على مصطبة فيها محراب مفروش بحصير معلّق عليه سجادة، و فى يده مصحف، يقال: إنه بخط علىّ بن أبى طالب رضى اللّه عنه، و هو من خاصله، فيناول الشريف الخليفة المصحف فيأخذه و يقبّله و يتبارك به، و يعطيه صاحب الخريطة المقرّر للصلاة ثلاثين دينارا، و هى رسمه كلّما مرّ به الخليفة، فيعطيها الشريف إلى مشارف الجامع، فيأخذ منها أربعة عشر دينارا، و يفرّق الباقى على القامة و المؤذنين خاصّة.

ثمّ يسير الخليفة إلى دار الملك، فينزلها و الوزير معه؛ و كلّما مرّ من القصر إلى دار الملك بمسجد أعطى قيّمه دينارا. ثمّ تأتى المائدة من القصر و عدّتها خمسون

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۹۳

شدّة على رءوس الفرّاشين مع صاحب المائدة، و هو أستاذ جليل إلّا أنّه ليس بمحنّك؛ و فى كلّ شدّة طيفور، فيه الأوانى الخاصّ، فيها من الأطعمة الخاصّ من كلّ نوع شهيّ و كلّ صنف من المطاعم العالية، و له روائح عبقة مسك أرخية و على كلّ شدّة طرحة حرير تعلو الشدّة. فيحمل الخليفة إلى الوزير منها جزءا وافرا، و يعطى الأمراء و من حضر، ثم يوصل إلى أهل مصر من ذلك كثيرا من الفضلات.

ثمّ يصلّى الخليفة العصر و يتحرّك إلى العود، و الناس فى الطريق جلوس لنظره. و زيّه فى هذه الأيام لبس الثياب البياض المذهّبة و الملوّنة، و هى العمامة، و المنديل مشدود، و شدّته مفردة عن شدّات الرعيّة و ذؤابته تقرب من الجانب الأيسر؛ و يتقلّد السيف العربىّ المجوهر بغير حنك و لا مظلّة و لا يتيمة، و لذلك أوقات مخصوصة، فلا يمرّ بمسجد فى طريقه إلّا و يعطى قيّمه دينارا، كما جرى فى

الرّواح. و ينعطف من [باب] الخرق، فيدخل من بابى زويلة، و يشقّ القاهرة إلى القصر. و يكون ذلك من المحرّم إلى شهر رمضان؛ كما مرّ فى أوّل العام.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۹۴

و كان إذا ركب فى أوّل العام يكتب إلى ولاة الأعمال و النوّاب سجلات مخلّقة يذكر فيها ركوب الخليفة. و هذا كلّه سوى ركوبه فى شهر رمضان إلى الخطبة، على ما سنذكر إن شاء اللّه تعالى.

ذكر ركوب الخليفة فى يومى عيد الفطر و النّحر

إذا تكمّلت عدّة شهر رمضان، و هى عندهم أبدا ثلاثون يوما، و تهيّأت الأمور، كما تقدّم ذكره، ركب الخليفة بالمظلّة و اليتيمة، و لباسه فى هذا اليوم الثّياب البياض الموشّحة، و هى أجلّ لباسهم؛ و المظلّة أبدا زيّها تابع لزىّ ثياب الخليفة. و يخرج الخليفة من باب العيد إلى المصلّى، و عساكره و أجناده من الفرسان و الرجّالة زائدة على العادة موفورة العدد، فيقفون صفّين من باب العيد إلى المصلّى. [و يكون صاحب بيت المال قد تقدّم على الرسم لفرش المصلّى، فيفرش الطرّاحات على رسمها فى المحراب مطابقة؛ و يعلّق سترين يمنة و يسرة]، على الستر الأيمن الفاتحة و سبّح اسم ربّك الأعلى، و على الأيسر الفاتحة و هل أتاك حديث الغاشية؛ و يركز

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۹۵

فى جانبى المصلّى لواءين مشدودين على رمحين قد لبّست أنابيبهما من الفضّة، و يرخيهما. فيدخل الخليفة من شرقىّ المصلّى إلى مكان يستريح فيه قليلا، ثم يخرج محفوظا كما يخرج للجمعة، فيصلّى بالتكبيرات المسنونة و القوم من ورائه على ترتيبهم فى صلاة الجمعة. و يقرأ فى الأولى بعد الفاتحة سبّح اسم ربّك الأعلى، و فى الأخرى الغاشية؛ ثم يصعد إلى ذروة المنبر و عليها طرّاحة سامان أو دبيقىّ، و باقى درجه مستور بالأبيض. و يقف الوزير أسفل المنبر و معه قاضى القضاة و صاحب الباب [و] إسفهسلار العساكر و صاحب السيف و صاحب الرّسالة و زمام القصر و صاحب دفتر المجلس و صاحب المظلّة و إمام الأشراف الأقارب و صاحب بيت المال و حامل الرمح و نقيب الأشراف الطالبيين.

فيشير الخليفة إلى الوزير فيصعد و يقبّل رجله بحيث يراه الناس، ثمّ يقف على يمينه. ثمّ يشير إلى القاضى فيصعد إلى سابع درجة، فيشير إليه الخليفة فيخرج من كمّه درجا أحضر إليه أمس من ديوان الإنشاء قد عرض على الخليفة و الوزير؛ فيقرؤه معلنا؛ و أوّله البسملة و يليها «ثبت بمن شرّف بصعوده المنبر الشريف فى يوم كذا من سنة كذا من عبيد أمير المؤمنين، صلوات اللّه عليه و على آبائه الطاهرين و أبنائه الأكرمين، بعد صعود السيّد الأجل» ... و يذكر الوزير بألقابه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۹۶

و نعوته. و مرّة يشرّف الخليفة أحدا من أقارب الوزير، فيستدعيه القاضى.

ثمّ يتلو ذلك ذكر القاضى [و هو القارئ] فلا يسع القاضى أن يقول نعوت نفسه بل يقول [المملوك] فلان [بن فلان]. و قرأه [مرّة] ابن [أبى] عقيل القاضى فقال عن نفسه: العبد الذليل، المعترف بالصنع الجميل، فى المقام الجليل، أحمد بن عبد الرّحمن بن [أبى] عقيل. أو غير ذلك بحسب ما يكون اسم القاضى. ثمّ يستدعى من ذكرنا وقوفهم على باب المنبر، فيصعدون، وكّل له مقام يمنة أو يسرة؛ ثمّ يشير إليهم الوزير فيأخذ كلّ واحد نصيبا من اللواء الذى يحاذيه، فيسترون الخليفة و يستترون؛ ثمّ يخطب الخليفة خطبة بليغة. فإذا فرغ كشفوا ما بأيديهم من الألوية و ينزلون أوّلا بأوّل القهقرى.

ثمّ ينزل الخليفة إلى مكانه الذى خرج منه، و يركب فى زيّه المفخّم إلى قريب من القصر؛ فيتقدّمه الوزير، كما ذكرنا، و يدخل من باب العيد، فيجلس فى الشّبّاك، و قد نصب منه إلى فسقية كانت فى وسط الإيوان سماط طوله عشرون قصبة، عليه من الخشكنان و البستندود و البرماورد مثل الجبل الشاهق، و فيه كلّ قطعة منها ربع قنطار فما دون ذلك إلى رطل؛ فيدخل الناس فيأكلون

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۹۷

و لا منع و لا حجر، فیمرّ ذلک بأیدی الناس و لیس هذا ممّا یعتدّ به، بل یفرّق إلی الناس، و یحمل إلی دورهم. و نذکر مصروفها فی ترجمة العزیز؛ فإنّه أوّل من رتّبها فی عید الفطر خاصّة.

*** و أمّا سماط الطعام [ففی یوم عید الفطر اثنتان] أولی و ثانیة، و فی عید النحر مرّة واحدة. و یعبّی السّماط فی اللیل، و طوله ثلثمائة ذراع فی عرض سبع أذرع، و علیه من أنواع المأکل أشیاء کثیرة. فیحضر إلیه الوزیر أوّل صلاة الفجر و الخلیفة جالس فی الشبّاک، و مکّنت الناس منه فاحتملوا و نهبوا ما لا یأکلونه، و یبیعونه و یدّخرونه. و هذا قبل صلاة العید. فإذا فرغ من صلاة العید مدّ السّماط المقدّم ذکره فیؤکل، ثمّ یمدّ سماط ثان من فضّة، یقال له المدوّرة، علیها أوانی الفضّة و الذهب و الصّینی، فیها من الأطعمة الخاصّ ما یستحی من ذکره. و السّماط بطول القاعة؛ و هو خشب مدهون شبه الدکک اللاطیة، عرضه عشر أذرع. و یحطّ فی وسط السماط واحد و عشرون طبقا فی کلّ طبق واحد و عشرون خروفا؛ و من الدجاج ثلثمائة و خمسون طائرا، و من الفراریح مثلها، و من فراخ الحمام مثلها. و تتنوّع الحلوی أنواعا؛ ثم یمدّ بخلل تلک الأطباق أصحن خزفیّات فی جنبات السّماط، فی کلّ صحن تسع دجاجات فی ألوان فائقة من الحلوی، و الطّباهجة المفتقة بالمسک الکثیر. و عدّة الصحون خمسمائة صحن، مرتّب کلّ ذلک أحسن ترتیب. ثم یؤتی بقصرین من حلوی قد عملا بدار الفطرة، زنة کلّ واحد سبعة عشر قنطارا؛ فیمضی بواحد من طریق

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۹۸

قصر الشوک إلی باب الذهب، و یشقّ بالآخر من الجانب الآخر، فینصبان أوّل السّماط و آخره. ثمّ یخرج الخلیفة راکبا فینزل علی السریر الذی علیه المدوّرة الفضّة، و علی رأسه أربعة من کبار الأستاذین المحنّکین، و أربعة من خواصّ الفرّاشین.

ثمّ یستدعی الوزیر فیجلس عن یمینه، و الأمراء و من دونهم [فیجلسون] علی السّماط؛ فیتداول الناس السّماط، و لا یردّ أحد عنه حتّی یذهب عن آخره؛ فلا یقوم الخلیفة إلّا قریب الظهر. ثم یخرج الوزیر و یذهب إلی داره؛ و یعمل سماط یقارب سماط الخلیفة. و هکذا یقع فی عید النحر فی أوّل یوم منه. انتهی الرکوب فی عید الفطر.

*** و أمّا رکوب الخلیفة فی عید الأضحی، فهو أیضا بالزّیّ المقدّم ذکره و الصلاة کذلک، إلّا أنّ الرکوب یکون فی أیّام متتابعة، أوّلها یوم العید إلی المصلی، ثمّ یرکب ثانی یوم ثم ثالث یوم من باب الرّیح، و هو فی رکن القصر، و الباب مقابل سعید السعداء؛ و کان الموضع المذکور فضاء لا عمارة فیه؛ فیخرج الخلیفة من باب الریح، فیجد الوزیر واقفا فیمشی بین یدیه إلی المنحر، فینحر فیه ماشاء اللّه أن ینحر، و یعطی الرسوم. و رسوم الأضحیة کرسوم رکوب الخلیفة أوّل العام،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۹۹

و یفرّق الضحایا إلی المساجد و جوامع القاهرة و غیرها. فإذا انقضی ذلک خلع الخلیفة علی الوزیر ثیابه الحمر التی کانت علیه، و مندیلا آخر بغیر الیتیمة [و] العقد المنظوم عند ما یطلع من المنحر؛ فیشقّ الوزیر بذلک القاهرة إلی باب زویلة، و یسلک علی الخلیج إلی باب القنطرة؛ و یدخل دار الوزارة؛ فلذلک یفضّل عید النحر علی عید الفطر لکونه یخلع فیه علی الوزیر.

*** و أمّا الرکوب لفتح خلیج السدّ عند وفاء النیل، فهو یضاهی رکوبهم فی أوّل العام. نذکر منه علی سبیل الاختصار نبذة یسیرة. إذا کان لیالی الوفاء حمل إلی المقیاس من المطابخ نحو عشرة قناطیر خبز، و عشرة خراف مشویّة، و عشر جامات حلوی، و عشر شمعات، و توجّه القرّاء و أرباب الجوامع فیقرءون تلک اللیلة بجامع المقیاس حتّی یکون الوفاء؛ فیهتم الخلیفة لذلک و یرکب و یستدعی الوزیر علی العادة، و یسیر بالزیّ المقدّم من غیر مظلّة، و ینزل بالصناعة؛ ثمّ یرکب

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۰۰

العشاری، و یدخل البیت المذهّب فی العشاری، و معه من شاء من المحنّکین و لا تزید عدّتهم علی أربعة نفر. و یطلع إلی العشاری خواصّ الخلیفة و خواصّ الوزیر؛ و هم اثنان أو ثلاثة؛ و الناس کلّهم فیه قیام إلّا الوزیر فإنّه یجلس. ثمّ یمرّ العشاری إلی المقیاس؛ ثم

تساق أشیاء من التجمّل یطول شرحها من جنس رکوبه أوّل العام. ثمّ یخرج بعد فراغه من تخلیق المقیاس و یرکب العشاری و یعود إلی دار الملک بمصر و تارة إلی المقس، و من أحدهما إلی القاهرة فی زیّ مهول من کثرة ما یهتمّ له من العساکر و الزینة و السلاح. و یکون هذا الرکوب أولی و ثانیة؛ فالأولی فی لیلة یتوجّه القرّاء، و الثانیة یوم فتح الخلیج. و عند ما یفتح الخلیج ینشده الشعراء فی المعنی. فمن ذلک:

فتح الخلیج فسال منه الماء و علت علیه الرایة البیضاء

فصفت موازده لنا فکأنّه کفّ الإمام فعرفها الإعطاء

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۰۱

*** و أمّا رکوبهم فی المواکب فی یومی الاثنین و الخمیس و غیر ذلک، فأمر عظیم. فأوّل الرکوب رکوب [متولّی] دفتر المجلس بالقصر الباطن. و یتضمّن هذا الرکوب الإنعام بالعطاء بأداء الرسوم و العطایا المفترقة فی غرّة السنة، ثم یأتی رکوب و ثالث و رابع و خامس.

*** و أمّا خزانة الکتب، فکانت فی أحد مجالس البیمارستان العتیق الیوم، کان فیها ما یزید علی مائة ألف مجلد فی سائر العلوم، یطول الأمر فی عدّتها.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۰۲

و قد اختصرنا من أمور الفاطمیین نبذة کثیرة خشیة الإطالة و الخروج عن المقصود، و فیما ذکرناه کفایة، و یعلم به أیضا أحوالهم بالقیاس. و ربّما یأتی ذکرهم فی عدة تراجم أیضا؛ فإنّهم ثلاثة عشر خلیفة بمصر، نذکرهم إن شاء اللّه فی هذا الکتاب کلّ واحد علی حدته.

*** و أمّا خطبة الخلیفة فی شهر رمضان، فنذکرها من قول ابن عبد الظاهر.

قال: «و أمّا عظم الخلیفة فی أیّامه و ما کانت قاعدته و طریقته التی رتّبها و دامت من بعده عادة لکل خلیفة فشیء کثیر؛ من ذلک: أنّه کان یخطب فی شهر رمضان ثلاث خطب و یستریح فیه جمعة، و کانوا یسمّونها جمعة الراحة. و کان إذا أراد أن یخطب یتقدّم متولّی خزانة الفرش إلی الجامع و یغلق المقصورة التی برسم الخلیفة و المنظرة و أبواب مقاصیرها و بادهنج المنبر ثمّ یرکب متولّی بیت المال، و علی ید کلّ واحد منهما تعلیقه و فرشه، و هی عدّة سجّادات مفروزة منطّقة و بأعلاها سجادة لطیفة، لا تکشف إلّا عند توجّه الخلیفة إلی المحراب. ثم یفرش الجامع بالحصر المحاریب المفروزة ممّا یلی المحراب- و کان ذلک بجامع الأزهر قبل أن یبنی الحاکم جامعه، ثمّ صار بعد ذلک بجامع الحاکم- ثم یهیّأ للداخل للجامع مثل ذلک، ثم یطلق البخور، و تغلق أبواب الجامع و یجعل علیها الحجّاب و البوّابون؛ و لا یمکّن

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة؛ ج۴؛ ص۱۰۲

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۰۳

أحد أن یدخله إلّا من هو معروف من الخواصّ و الأعیان. فإذا کان حضور الخلیفة إلی الجامع ضربت السلسلة من رکن الجامع إلی الوجه الذی قبالته، و لا یمکّن أحد من الترجّل عندها. ثمّ یرکب الخلیفة، و یسلّم لکلّ واحد من مقدّمی الرّکاب فی المیمنة و المیسرة أکیاس الذهب و الورق سوی الرسوم المستقرّة و الهبات و الصدقات فی طول الطریق. و یخرج الخلیفة من باب الذهب و المظلّة بمشدّة الجوهر علی رأسه، و علی الخلیفة الطّیلسان. فعند ذلک یستفتح المقرئون بالقراءة فی رکابه بغیر رهجیّة، و الدکاکین مزیّنة مملوءة بأوانی الذهب و الفضّة؛ فیسیر الخلیفة إلی أن یصل إلی وجه الجامع، و وزیره بین یدیه، فتحطّ السلسلة و یتمّ الخلیفة راکبا إلی باب جامع الأزهر الذی تجاه درب الأتراک، فینزل و یدخل من باب الجامع إلی الدّهلیز الأول الصغیر و منه إلی القاعة المعلّقة التی کانت برسم جلوسه، فیجلس فی مجلسه و ترخی المقرمة الحریر، و یقرأ المقرئون و تفتح أبواب الجامع حینئذ.

فإذا استحقّ الأذان أذّن مؤذنو القصر كلّهم على باب مجلس الخليفة و رئيس الجامع على باب المنبر و بقيّة المؤذّنين فى المآذن. فعند ما يسمع قاضى القضاة الأذان يتوجّه إلى المنبر فيقبّل أوّل درجة، و بعده متولّى بيت المال و معه المبخرة و هو يبخّر، و لم يزالا يقبّلان درجة بعد درجة إلى أن يصلا ذروة المنبر؛ فيفتح القاضى بيده التزرير و يرفع السّتر، و يتناول من متولّى بيت المال المبخرة و يبخّر هو أيضا، ثم يقبّلان الدّرج أيضا و هما نازلان. و بعد نزولهما يخرج الخليفة و المقرئون بين يديه بتلك الأصوات الشجيّة إلى أن يصل إلى المنبر و يصعد عليه. فإذا صار بأعلاه

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۰۴

أشار للوزير بالطلوع فيطلع إليه و هو يقبّل الدرج حتّى يصلّ إليه فيزر عليه القبّة، ثمّ ينزل الوزير و يقف على الدرجة الأولى و يجهر المقرئون بالقراءة، ثم يكبّر المؤذّنون ثمّ يشرع المؤذّنون فى الصمت، و يخطب الخليفة؛ حتّى إذا فرغ من الخطبة طلع إليه الوزير و حلّ الأزرار فينزل الخليفة، و عن يمينه الوزير و عن يساره القاضى و الداعى بين يديه- و القاضى و الداعى هما اللذان يوصّلان الأذان إلى المؤذّنين- حتّى يدخل المحراب و يصلّى بالناس و يسلّم. فإذا انقضت الصلاة أخذ لنفسه راحة بالجامع بمقدار ما تعرض عليه الرسوم و تفرّق؛ و هى للنائب فى الخطابة ثلاثة دنانير، و للنائب فى صلوات الخمس ثلاثة دنانير، و للمؤذّنين أربعة دنانير، و لمشارف خزانة الفرش و فرّاشها و متولّيها لكلّ ثلاثة دنانير، و لصبيان بيت المال ديناران، و لمعبّى الفاكهة ديناران. و أمّا القرّاء فكان لهم رسوم غير ذلک. و من حين يركب الخليفة من القصر إلى الجامع حتى يعود، الصدقات تعمّ الناس».

قلت: و أظنّ أنّ الدينار كان غير دينار زماننا هذا؛ فإنّه قال- بعد ما ذكر لمعبّى الفاكهة دينارين-: فأمّا الفواكه التى كانت تعبى بالجامع فإنّها كانت تباع بجملة كثيرة و يتزاحم الناس على شرائها لبركاتها و يقسم ثمنها بين الإمام و المؤذّنين.

قلت: و لعلّ هذا كان رسما للمعبىّ غير ثمن الفاكهة. و اللّه أعلم.

و دام هذا الترتيب إلى آخر وقت، إلى أيّام العاضد آخر خلفاء مصر من بنى عبيد. و نذكر أيضا فى ترجمة الامر بأحكام اللّه من العبيديين كيفية خروج الخليفة إلى الجامع بأزيد من هذا عند ما نحكى ما كان يقع له من الوجد فى خطبته، إن شاء اللّه تعالى.

انتهى ترجمة المعز لدين اللّه، رحمه اللّه تعالى.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۰۵

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۶۳]

السنة الاولى من ولاية المعزّ معدّ على مصر، و هى سنة ثلاث و ستين و ثلثمائة.

فيها أعاد عزّ الدولة بختيار النّوح فى يوم عاشوراء إلى ما كان عليه.

و فيها أظهر الخليفة المطيع ما كان يستره من علّته. و ثقل لسانه و تعذّر الحركة عليه للفالج الذى كان ناله قديما، و انكشف ذلک لسبكتكين، فدعا الخليفة المطيع إلى خلع نفسه و تسليم الأمر إلى ولده الطائع للّه عبد الكريم ففعل ذلک؛ و عقد له الأمر فى يوم الأربعاء لثلاث عشرة خلت من ذى القعدة من السنة المذكورة.

فكانت خلافته إلى أن خلع نفسه تسعا و عشرين سنة و أربعة أشهر و أربعة و عشرين يوما. و صورة ما كتب:

«هذا ما أشهد على متضمّنه أمير المؤمنين الفضل المطيع للّه ابن المقتدر بالله، حين نظر لدينه و رعيّته و شغل بالعلّة الدائمة عمّا كان يراعيه من الأمور الدينية اللازمة، و انقطع إفصاحه عما يجب عليه للّه فى ذلک، فرأى اعتزال ما كان عليه من هذا الأمر و تسليمه إلى ناهض به قائم بحقّه [ممّن يرى له الرأى].

عقده له و أشهد بذلک طوعا» و ذكر التاريخ المذكور. و فى آخره بخط القاضى أبى الحسن محمد بن صالح: «شهد عندى بذلک

أحمد بن حامد بن محمد، و عمر بن محمد ابن أحمد، و طلحة بن محمد بن جعفر». قلت: و انقطع المطيع بداره، و كان يسمّى بعد ذلك الشيخ الصالح إلى أن مات فى سنة أربع و ستين و ثلثمائة، على ما يأتى ذكره فى الآتية إن شاء اللّه تعالى.

و فيها توفّى عبد العزيز بن أحمد بن جعفر الفقيه الحنبلىّ العالم المشهور، مولده سنة اثنتين و ثمانين و مائتين، و صنّف المصنّفات الكبيرة؛ منها كتاب "المقنع "مائة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۰۶

جزء، و كتاب "الكافى "مائتى جزء، و "الشافى "ثمانين جزءا، و أشياء غير ذلك، و مات فى شوّال.

و فيها توفّى أبو الفتح على بن محمد بن أبى الفتح البستى الشاعر المشهور، و كان إماما فاضلا، يعانى الجناس. و من شعره قوله:

يأيّها الذاهب فى مكره مهلا فما المكر من المكرمات

عليك بالصحة فهى المنى يحيا محيّاك إذا المكرمات

و فيها توفّى محمد بن أحمد بن سهل أبو بكر الرّملىّ [المعروف بابن] النابلسى الزاهد المشهور.

بعث إليه كافور الإخشيذىّ بمال؛ فردّه و قال للرسول: قل لكافور قال اللّه تعالى:

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) فالاستعانة بالله و كفى. فردّ كافور الرسول بالمال و قال قل له: (لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما وَ ما تَحْتَ الثَّرى) فأين ذكر كافورها هنا! الملك و المال للّه.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى جمح بن القاسم المؤذّن. و أبو بكر عبد العزيز بن أحمد بن جعفر صاحب الخلّال. و أبو بكر محمد ابن أحمد بن سهل الرملىّ ابن النابلسى الشهيد. و أبو العباس محمد بن موسى [ابن] السمسار. و مظفّر بن حاجب بن أرّكين. و النّعمان بن محمد أبو حنيفة المغربىّ الباطنىّ

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۰۷

قاضى مملكة المعزّ، و كان حنفىّ المذهب لأنّ الغرب كان يوم ذاك غالبه حنفية، إلى أن حمل الناس على مذهب مالك فقط المعزّ بن باديس الآتى ذكره.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع سواء. مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و أربع عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۶۴]

السنة الثانية من ولاية المعزّ معدّ على مصر، و هى سنة أربع و ستين و ثلثمائة.

فيها فى المحرّم أوقع العيّارون ببغداد حريقا من الخشّابين إلى باب الصغير، فاحترق أكثر هذا السوق، و هلك شىء كثير. و استفحل أمر العيّارين ببغداد حتى ركبوا الجند و تلقّبوا بالقوّاد و غلبوا على الأمور، و أخذوا الحفارة عن الأسواق و الدروب. و كان فيهم أسود يقال له الزّبد، كان يأوى "قنطرة الزّبد "يشحذ و هو عريان. فلمّا كثر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۰۸

الفساد رأى هذا الأسود من هو أضعف منه قد أخذ بالسيف، فطلب الأسود سيفا و نهب و أغار، و حفّ به طائفة و تقوّى و أخذ أموال الناس، و تموّل حتى اشترى جارية بألف دينار؛ فراودها فتمنعت؛ فقال: ما تكرهين منّى؟ قالت: أكرهك كلّك؛ قال: ما تحبّين؟ قالت: تبيعنى؛ قال: أو [أفعل] خيرا لك من ذلك؛ فحملها إلى القاضى و أعتقها و وهبها ألف دينار؛ فتعجّب الناس من سماحته.

ثمّ خرج إلى الشام فهلك هناك.

و فيها خرج الخليفة الطائع و معه سبكتكين من بغداد فى المحترم يريدان واسطا لقتال بختيار؛ فمات الخليفة المطيع الفضل فى يوم

الاثنين لثمان بقين من المحرّم، و كان المطيع قد خرج مع ولده الخليفة الطائع يريد واسطا، فردّه ولده فى تابوت إلى بغداد فدفن بها، ثمّ مات سبكتكين بعده بيوم واحد، فحمل أيضا إلى بغداد. و كان أصل سبكتكين من مماليك عزّ الدولة الأتراك، و خلع عليه الخليفة الطائع بالإمارة عوضا عن أستاذه عزّ الدولة، و خرجا لقتاله فمات. و كانت مدّة إمارته شهرين و ثلاثة عشر يوما. و لمّا مات سبكتكين عقد الأتراك لأفتكين الرّامى مولى معزّ الدولة، و كان أعور، و أطاعوه. و عرض عليه الطائع اللّقب فامتنع و اقتصر على الكنية. و عمل على لقاء عزّ الدولة؛ فاستنجد عزّ الدولة بابن عمّه عضد الدولة فنجده؛ و قاتل الأتراك و كسرهم بعد حروب كثيرة. ثمّ طمع عضد الدولة فى الإمارة و عزله عزّ الدولة، و خلع عليه الخليفة الطائع مكانه؛ و عظم أمر عضد الدولة بعد ذلك.

و فيها توفّى الخليفة المطيع للّه أبو القاسم الفضل أمير المؤمنين المقدّم ذكر وفاته لمّا خرج مع ولده الطائع. و هو ابن الخليفة المقتدر جعفر ابن الخليفة المعتضد

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۰۹

أبى العباس أحمد الهاشمىّ العباسىّ. و أمّه أمّ ولد اسمها مشعلة. بويع بالخلافة بعد المستكفى فى سنة أربع و ثلاثين و ثلثمائة. و كان مولده سنة إحدى و ثلثمائة. و خلع نفسه من الخلافة غير مكره لذلك، حسب ما ذكرناه فى السنة الماضية؛ و نزل عن الخلافة لولده الطائع، و مات فى المحرّم فى هذه السنة، كما تقدّم.

و فيها توفّى الأمير محمد بن بدر الحمّامى، و كنيته أبو بكر. كان والده بدر الحمّامىّ مولى أحمد بن طولون، و كان أميرا على فارس فمات؛ فقام ولده هذا بعده. قال أبو نعيم: و كان ثقة، مات ببغداد.

الذين ذكر الذهبى وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أبو بكر أحمد بن محمد بن إسحاق الدّينورىّ بن السّنّى. و أبو هاشم عبد الجبّار بن عبد الصمد السّلمىّ.

و المطيع للّه الفضل بن المقتدر. و محمد بن بدر الحمّامىّ أمير فارس. و محمد بن عبد اللّه ابن إبراهيم السّليطىّ أبو الحسن.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع سواء. مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعا و عشرون إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۶۵]

اشرة

السنة الثالثة من ولاية المعزّ معدّ على مصر، و هى السنة التى مات فيها، حسب ما تقدّم ذكره فى ترجمته، و هى سنة خمس و ستين و ثلثمائة.

فيها كتب ركن الدولة أبو على الحسن بن بويه إلى ولده عضد الدولة أبى شجاع:

أنّه قد كبرت سنّه و يؤثر مشاهدته، فآجتمعا؛ فقسم ركن الدولة الملك بين أولاده،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۱۰

فجعل لعضد الدولة فارس و كرمان [و أرّجان]، و لمؤيّد الدولة الرّىّ و أصبهان، و لفخر الدولة همذان و الدّينور، و جعل ولده الأصغر أبا العباس فى كنف عضد الدولة.

و فيها عاد جواب ركن الدولة إلى عزّ الدولة بما يطيّب خاطره: و كان لمّا بلغ عزّ الدولة ما فعل ركن الدولة من قسمة البلاد بين أولاده كتب إليه يخبره ما عمله عضد الدولة و يسأله زجره عنه، و أن يؤمّنه ممّا يخاف؛ فخاطب ركن الدولة ولده عضد الدولة فى الكفّ عنه؛ فشكا إليه عضد الدولة ما عامله عزّ الدولة به و انضمام وزيره ابن بقيّة عليه؛ فلم يزل به ركن الدولة حتّى أجابه بالكفّ عنه.

و فيها خلع على أبى عبد اللّه أحمد بن محمد بن عبد اللّه العلوىّ لإمارة الحاجّ من دار عزّ الدولة، و ركب معه أبو طاهر الوزير ابن بقية إلى داره و حجّ بالناس.

و فيها حجّ بالناس من مصر من جهة العزيز بن المعزّ، عند ما تخلّف بعد موت أبيه المعزّ، [رجل علوىّ]؛ و أقيمت له الدعوة بمكّة و المدينة بعد أن منع أهل مكّة و المدينة من الميرة، و لاقوا من عدم ذلك شدائد حتى اذعنوا له.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۱۱

و فيها توفّى الأمير أبو صالح منصور بن نوح السامانىّ صاحب خراسان، و قام ولده أبو القاسم نوح مقامه و سنّه ثلاث عشرة سنة.

و فيها توفّى ثابت بن سنان بن ثابت بن قرّة أبو الحسن صاحب التاريخ؛ كان طبيبا فاضلا، عاشر الخلفاء و الملوك، و كان ثقة فريدا فى وقته.

و فيها توفّى الحسين بن محمد بن أحمد بن ماسرجس الحافظ أبو علىّ الماسرجسىّ.

أسلم ماسرجس على يد عبد اللّه بن المبارك و كان نصرانيّا. أخذ بدمشق عن أصحاب هشام بن عمّار، [و] ما صنّف فى الإسلام أكبر من مسنده، و صنّف "المسند الكبير "مهذّبا معلّلا فى ألف و ثلثمائة جزء، و جمع حديث الزّهرىّ جمعا لم يسبقه إليه أحد [و كان يحفظه مثل الماء].

و فيها توفّى عبد اللّه بن عدىّ بن عبد اللّه بن محمد بن المبارك الحافظ أبو أحمد الجرجانىّ. و يعرف بابن القطّان. رحل إلى الشام و مصر رحلتين؛ أولاهما سنة سبع و تسعين. قال الذهبىّ: كان لا يعرف العربية مع عجمة فيه، و أمّا فى العلل و الرّجال فحافظ لا يجارى.

و فيها توفّى محمد بن علىّ بن إسماعيل أبو بكر الشّاشىّ الفقيه الشافعىّ المعروف بالقفّال الكبير، كان إمام عصره بما وراء النهر، و لم يكن للشافعيّة بما وراء النهر مثله.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۱۲

و فيها توفّى عبد السلام بن محمد بن أبى موسى أبو القاسم الصوفىّ البغدادىّ، سافر و لقى الشيوخ من أهل الحديث و التصوّف، و جمع بين علم الشريعة و الحقيقة.

و فيها توفّى عبد العزيز بن عبد الملك بن نصر أبو الأصبغ الأموىّ الأندلسىّ.

ولد بقرطبة ثمّ رحل إلى بخارى و استوطن بها. قال الحاكم أبو عبد اللّه: سمعته ببخارى يروى أنّ مالك بن أنس كان يحدّث، فجاءت عقرب فلدغته ستّ عشرة مرّة فتغيّر لونه و لم يتحرّك؛ فقيل له فى ذلك فقال: كرهت أن أقطع حديث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و إحدى و عشرون إصبعا. مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و ثلاث و عشرون إصبعا. و اللّه سبحانه و تعالى أعلم بالصواب.

ذكر ولاية العزيز نزار على مصر

هو نزار أبو منصور العزيز باللّه بن المعزّ لدين اللّه أبى تميم معدّ بن المنصور باللّه أبى طاهر إسماعيل بن القائم بأمر اللّه محمد بن المهدىّ أبى محمد عبيد اللّه العبيدىّ الفاطمىّ المغربىّ ثمّ المصرىّ، ثانى خلفاء مصر من بنى عبيد، و الخامس من المهدىّ إليه ممّن ولى من آبائه الخلافة بالمغرب. مولده بالمهديّة من القيروان ببلاد المغرب فى يوم عاشوراء سنة أربع و أربعين، و قيل: سنة اثنتين و أربعين و ثلثمائة. و خرج مع أبيه المعزّ من المغرب إلى القاهرة و دام بها إلى أن مات أبوه المعزّ معدّ بعد أن عهد إليه بالخلافة. فولى بعده فى شهر ربيع الآخر سنة خمس و ستّين و ثلثمائة و له اثنتان و عشرون سنة، و ملك مصر و خطب له بها و بالشام و بالمغرب و الحجاز،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۱۳

و حسنت أيّامه. و كان القائم بتدبير مملكته مولى أبيه جوهرا القائد. و كان العزيز كريما شجاعا سيوسا، و فيه رفق بالرعيّة.

قال المسبّحىّ: «و فى أيّامه بنى قصر البحر بالقاهرة الذى لم يكن مثله لا فى الشرق و لا فى الغرب، و قصر الذهب، و جامع القرافة. قلت: وقد محى آثار هؤلاء المبانى حتّى كأنها لم تكن. قال المسبّحىّ: و كان أسمر، أصهب الشعر، أعين أشهل [العين]، بعيد ما بين المنكبين، حسن الخلق، قريبا من الناس، لا يؤثر سفك الدماء؛ و كان مغرى بالصيد، و كان يتصيّد السباع، و كان أديبا فاضلا». انتهى.

و ذكره أبو منصور الثعالبىّ فى يتيمة الدهر، و ذكر له هذه الأبيات و قد مات له ابن فى العيد فقال: [المنسرح]

نحن بنو المصطفى ذوو محن يجرعها فى الحياة كاظمنا

عجيبة فى الأنام محنتنا أوّلنا مبتلى و خاتمنا

يفرح هذا الورى بعيدهم طرّا و أعيادنا مآتمنا

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۱۴

و أما بناؤه القصر بالبحر فكان فى.

و قال أبو منصور أيضا: «سمعت الشيخ أبا الطيّب يحكى أن الأموىّ صاحب الأندلس كتب إليه نزار هذا (يعنى العزيز صاحب مصر) كتابا يسبّه فيه و يهجوه؛ فكتب إليه الأموىّ: «أمّا بعد، قد عرفتنا فهجوتنا، و لو عرفناك لأجبناك».

قال فاشتدّ ذلك على نزار المذكور و أفحمه عن الجواب. يعنى أنه غير شريف و أنّه لا يعرف له قبيلة حتّى كان يهجوه». انتهى كلام أبى منصور.

و لمّا تمّ أمر العزيز بمصر و استفحل أمره و أخذ فى تمهيد أمور بلاده، خرج عليه قسّام الحارثىّ و غلب على دمشق. و كان قسّام المذكور من الشّجعان، و كان أصله من قرية «تلفيتا» من قرى جبل سنّير. كان ينقل التّراب على الحمير؛ و تنقّلت به الأحوال حتّى صار له ثروة و أتباع و غلب بهم على دمشق حتّى لم يبق لنوّابها معه أمر و لا نهى؛ و دام على ذلك سنين. فلمّا ملك العزيز و عظم أمره أراد زواله، فندب إليه جيشا مع تكين، فسار تكين إليه و حاربه أيّاما، و صار العزيز يمدّه بالعساكر إلى أن ضعف أمر قسّام و اختفى أيّاما، ثم استأمن؛ فقيّدوه و حملوه إلى العزيز إلى مصر.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۱۵

و قال القفطىّ غير ذلك، قال: «فغلب على دمشق رجل من العيّارين يعزف بقسّام و تحصّن بها (يعنى دمشق) و خالف على صاحب مصر، فسار لحربه الأمير الفضل من مصر، فحاصر دمشق و ضاق بأهلها الحال؛ فخرج قسّام متنكّرا فأخذته الحرس؛ فقال: أنا رسول، فأحضروه إلى الفضل؛ فقال له: أنا رسول قسّام إليك لتحلف له و تعوّضه عن دمشق بلدا يعيش به، و قد بعثنى إليك سرّا؛ فحلف الفضل له. فلمّا توثّق منه قام و قبّل يديه و قال: أنا قسّام؛ فأعجب الفضل ما فعله وزاد فى إكرامه و ردّه إلى البلد و سلّمه إليه؛ و قام الفضل بكلّ ما ضمنه و عوّضه موضعا عاش به. فلمّا بلغ ذلك العزيز أحسن صلته». انتهى.

و قال الذهبىّ رواية أخرى فى أمر قسّام، قال: «و هو الذى يتحدّث الناس أنّه ملك دمشق، و أنّه قسم البلاد، و قدم لقتاله سلمان بن جعفر بن فلاح إلى دمشق بجيش، فنزل بظاهرها و لم يمكنه دخولها؛ فبعث إليه قسّام بخطّه: أنا مقيم على الطاعة. و بلغ العزيز ذلك فبعث البريد إلى سلمان ليردّه؛ فترحّل سلمان من دمشق؛ و ولّى العزيز عليها أبا محمود المغربىّ؛ و لم يكن له أيضا مع قسّام أمر و لا حلّ و لا عقد». انتهى كلام الذهبىّ.

قلت: و لعلّ الذى ذكره الذهبىّ كان قبل توجّه عسكرتكين و الفضل؛ فإنّ الفضل لمّا سار بالجيوش أخذ دمشق من قسام و عوّضه بلدا، و هو المتواتر.

و اللّه أعلم.

و قال الحافظ أبو الفرج بن الجوزىّ: «كان العزيز قد ولّى عيسى بن نسطورس النّصرانىّ و منشا اليهودىّ؛ فكتبت إليه امرأة: بالذى أعزّ اليهود بمنشا، و النصارى

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۱۶

بابن نسطورس، و أذلّ المسلمين بک، إلّا نظرت فى أمرى. فقبض العزيز على اليهودىّ و النصرانىّ، و أخذ من ابن نسطورس ثلثمائة ألف دينار». انتهى.

و قال ابن خلكان: و أكثر أهل العلم لا يصحّحون نسب المهدىّ عبيد اللّه والد خلفاء مصر، حتّى إنّ العزيز فى أوّل ولايته صعد المنبر يوم الجمعة، فوجد هناک ورقة فيها:

[السريع]

إنّا سمعنا نسبا منكرا يتلى على المنبر فى الجامع

إن كنت فيما تدّعى صادقا فاذكر أبا بعد الأب الرابع

و إن ترد تحقيق ما قلته فانسب لنا نفسک كالطائع

أو فدع الأنساب مستورة و ادخل بنا فى النسب الواسع

فإنّ أنساب بنى هاشم يقصر عنها طمع الطامع

فقرأها العزيز و لم يتكلّم. ثمّ صعد العزيز المنبر يوما آخر فرأى ورقة فيها مكتوب:

[البسيط]

بالظّلم و الجور قد رضينا و ليس بالكفر و الحماقه

إن كنت أعطيت علم غيب فقل لنا كاتب البطاقه

قال: و ذلک لأنّهم ادّعوا علم المغيّبات و النجوم. و أخبارهم فى ذلک مشهورة.

انتهى كلام ابن خلكان باختصار.

و قال غيره: كان العزيز ناهضا، و فى أيّامه فتحت حمص و حماة و حلب، و خطب له صاحب الموصل أبو الذّوّاد محمد بن المسيّب بالموصل، و خطب له باليمن. ثمّ

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۱۷

انتقض ما بينه و بين صاحب حلب أبى الفضائل بن سعد الدولة و مدبّر ملكه لؤلؤ بعد وفاة سعد الدولة بن سيف الدولة بن حمدان صاحب حلب لمّا قتل بكجور و هرب كاتبه (أعنى كاتب بكجور، و هو علىّ بن الحسين المغربىّ) من حلب إلى مشهد الكوفة على البرّيّة؛ ثم اجتهد حتى وصل إلى مصر، و اجتمع بالعزيز هذا و عظّم أمر حلب عنده و كثّرها، و هوّن عليه حصونها و أمر متولّيها أبى الفضائل.

قلت: و لؤلؤ و أبو الفضائل يأتى بيان ذكرهما فيما يقع بينهما و بين العزيز، و تأتى أيضا وفاتهما فى الحوادث، فيظهر بذلک أمرهما على من لا يعرفهما.

فلمّا هوّن علىّ بن الحسين أمر حلب على العزيز، تشوّقت نفسه إلى أخذ حلب من أبى الفضائل. و كان للعزيز غلامان، أحدهما يسمى منجوتكين و الآخر بازتكين من الأتراک، و كانا أمر دين مشتدّين؛ فأشار على العزيز المغربىّ المذكور بإنفاذ أحدهما لقتال الحلبيّين لتنقاد إليه الأتراک مماليک سعد الدولة؛ فإنّه كان قبل ذلک قد استأمن إلى العزيز جماعة من أصحاب سعد الدولة بن سيف الدولة بن حمدان بعد موت سعد الدولة، فأمّنهم العزيز و أحسن إليهم و قرّبهم؛ منهم و فىّ الصّقلبىّ فى ثلثمائة غلام (يعنى مملوكا) و بشارة الإخشيذىّ فى أربعمائة غلام، و رباح السيفىّ؛ فولّى العزيز وفيّا الصقلبىّ عكّا، و ولّى بشارة طبريّة، و ولّى رباحا غزة. ثمّ إنّ العزيز ولّى

مملوکه منجوتکین حرب حلب، و قدّمه علی العساکر و ولّاه الشأم، و استکتب له أحمد بن محمد النّشوریّ، ثمّ ضمّ إلیه أیضا أبا الحسن علیّ بن الحسین المغربیّ المقدّم ذکره لیقوم المغربیّ بأمر منجوتکین و تدبیره مع الحلبیّین؛ فإنّه کان أصل

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۱۸

هذه الحرکة. و خرج العزیز حتّی شیّعهم بنفسه و ودّعهم. فسار منجوتکین حتّی وصل دمشق، فتلقّاه أهلها و القوّاد و عساکر الشام و القبائل، فأقام منجوتکین بعساکره علیها مدّة، ثم رحل طالبا لحلب فی ثلاثین ألفا. و کان بحلب أبو الفضائل بن سعد الدّولة ابن سیف الدولة بن حمدان و معه لؤلؤ، فأغلقا أبوابها و استظهرا فی القتال غایة الاستظهار علی المصریّین. و کان لؤلؤ لمّا قدم عسکر مصر إلی الشام کاتب بسیل ملک الرّوم فی النجدة علی المصریّین و متّ له بما کان بینه و بین سعد الدولة من المعاهدة و المعاقدة، و أنّ هذا ولده قد حصر مع عساکر المصریّین؛ و حثّه علی إنجاده؛ ثمّ بعث إلیه بهدایا و تحف کثیرة، و سأله فی المعونة و النّصرة علی المصریّین، و بعث الکتاب و الهدایا مع ملکون السریانیّ؛ فتوجّه ملکون السریانیّ إلیه فوجد ملک الرّوم بقاتل ملک البلغر؛ فأعطاه الهدیّة و الکتاب، فقبل الهدیّة و کتب إلی البرجیّ نائبه بأنطاکیة أن یسیر بالعساکر إلی حلب و یدفع المغاربة (أعنی عساکر العزیز) عن حلب. فسار البرجیّ فی خمسین ألفا؛ و نزل البرجیّ بعساکره الجسر الجدید بین أنطاکیة و حلب. فلمّا بلغ ذلک منجوتکین استشار علیّ بن الحسین المغربیّ و القوّاد فی ذلک، فأشاروا علیه بالانصراف من حلب و قصد الروم و الابتداء بهم قبل وصول الروم الی حلب، لئلا یحصلوا بین عدوّین. فساروا حتّی نزلوا تحت حصن إعزاز و قاربوا الروم، و صار بینهم النهر

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۱۹

المعروف بالمقلوب. فلمّا وقع بصرهم علی الروم رموهم بالنّشاب و بینهم النهر المذکور، و لم یکن لأحد الفریقین سبیل للعبور لکثرة الماء. و کان منجوتکین قد حفظ المواضع التی یقلّ الماء فیها، و أقام جماعة من أصحابه یمنعون عسکره من العبور لوقت یختاره المنجّم. فخرج من عسکره من الدّیلم رجل شیخ کبیر فی السن و بیده ترس و ثلاث روسات؛ فوقف علی جانب النهر و بإزائه قوم من الروم، فرموه بالنّشاب و هو یسبح حتّی قطع النهر، و صار علی الأرض من ذلک البرّ و الماء فی النهر إلی صدره.

فلمّا رآه عساکر منجوتکین رموا بأنفسهم فی الماء فرسانا و رجّالة، و منجوتکین یمنعهم فلا یمتنعون حتّی صاروا مع الروم فی أرض واحدة و قاتلوا الروم؛ فأنزل اللّه نصره علی المسلمین، فولّی الروم و أعطوهم ظهورهم، و رکبهم المسلمون فاثخنوهم قتلا و أسرا، و أفلت کبیر الروم البرجیّ فی عدد یسیر إلی أنطاکیة، و غنم المسلمون من عساکرهم و أموالهم شیئا لا یعدّ و لا یحصی. و کان مع الروم ألفان من عسکر حلب المسلمین فقتل منجوتکین منهم ثلثمائة. و تبع منجوتکین الروم إلی أنطاکیة فأحرق ضیاعها و نهب رساتیقها، ثمّ کرّ راجعا إلی حلب، و کان وقت الغلّات؛ فعلم لؤلؤ أنّه لا له نجدة و أنّه یضعف عن مقاومة المصریّین؛ فکاتب المغربیّ و النّشوریّ کاتب منجوتکین و أرغبهما فی المال و بذل لهما ما أرضاهما، و سألهما أن یشیرا علی منجوتکین بالانصراف عن حلب إلی دمشق و أن یعود فی العام المقبل؛ فخاطباه فی ذلک، و صادف قولهما له شوق منجوتکین إلی دمشق؛ و کان منجوتکین أیضا

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۲۰

قد ملّ الحرب فانخدع؛ و کتب هو و الجماعة إلی العزیز یقولون: قد نفدت المیرة و لا طاقة للعساکر علی المقام، و یستأذنونه فی الرجوع إلی دمشق. و قبل أن یجیء جواب العزیز رحلوا عن حلب إلی دمشق. و بلغ العزیز ذلک فشقّ علیه رحیلهم، و وجد أعداء المغربیّ طریقا إلی الطعن فیه عند العزیز، فصرف العزیز المغربیّ و قلّد الأمر للأمیر صالح بن علیّ الرّوذباریّ و أقعده مکانه. ثمّ حمل العزیز من غلّات مصر فی البحر إلی طرابلس شیئا کثیرا. ثمّ رجع منجوتکین إلی حلب فی السنة الآتیة و بنی الدور و الحمّامات و الخانات و الأسواق بظاهر حلب، و قاتل أهل حلب. و اشتدّ الحصار علی لؤلؤ و أبی الفضائل بحلب، و عدمت الأقوات عندهم بداخل حلب، فکاتبوا ملک الروم ثانیا و قالوا له: متی أخذت حلب أخذت أنطاکیة؛ و متی أخذت أنطاکیة أخذت قسطنطیّة. فلمّا سمع ملک الروم ذلک سار بنفسه فی مائة ألف و تبعه من کلّ بلد من معاملته عسکره؛ فلمّا قرب من البلاد أرسل لؤلؤ إلی منجوتکین یقول: إنّ

الإسلام جامع بینی و بینک، و أنا ناصح لکم، و قد وافاکم ملک الروم بجنوده فخذوا لأنفسکم؛ ثم جاءت جواسیس منجوتکین فأخبروه بمثل ذلک، فأحرق منجوتکین الخزائن و الأسواق و ولّی منهزما؛ و بعث أثقاله إلی دمشق، و أقام هو بمرج قنّسرین ثم سار إلی دمشق. و وصل بسیل ملک الروم بجنوده إلی حلب، و نزل موضع عسکر المصریّین، فهاله ما کان فعله منجوتکین، و علم کثرة عساکر المصریّین و عظموا فی عینه؛ و خرج إلیه أبو الفضائل صاحب حلب و لؤلؤ و خدماه. ثم سار ملک الرّوم فی الیوم الثالث و نزل علی [حصن] شیزر و فیه منصور بن کرادیس أحد قوّاد العزیز، فقاتله یوما واحدا، ثم طلب منه

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۲۱

الأمان فأمّنه؛ فخرج بنفسه إلیه، فأهّل به بسیل ملک الروم و أعطاه مالا و ثیابا، و سلّم الحصن إلیه؛ فرتّب ملک الروم [علیه] أحد ثقاته. ثمّ نازل حمص فافتتحها عنوة و سبی منها و من أعمالها أکثر من عشرة آلاف نسمة. ثمّ نزل علی طرابلس أربعین یوما، فقاتلها فلم یقدر علی فتحها، فرحل عائدا إلی الروم. و وصل خبره إلی العزیز فعظم علیه ذلک إلی الغایة، و نادی فی الناس بالنفیر، و فتح الخزائن و أنفق علی جنده، ثمّ سار بجیوشه و معه توابیت آبائه فنزل إلی الشام، و وصل إلی بانیاس، فأخذه مرض القولنج و تزاید به حتّی مات منه و هو فی الحمام فی سنة ستّ و ثمانین و ثلثمائة.

و قیل فی وفاته غیر ذلک أقوال کثیرة، منها أنّه مات بمدینة بلبیس من ضواحی القاهرة، و قیل: إنّه مات فی شهر رمضان قبل خروجه من القاهرة فی الخمّام، و عمره اثنتان و أربعون سنة و ثمانیة أشهر. و کانت مدّة ولایته علی مصر إحدی و عشرین سنة و خمسة أشهر و أیّاما. و تولّی مصر بعده ابنه أبو علیّ منصور الملقّب بالحاکم الآتی ذکره إن شاء اللّه. و کان العزیز ملکا شجاعا مقداما حسن الأخلاق کثیر الصّفح حلیما لا یؤثر سفک الدماء، و کانت لدیه فضیلة؛ و له شعر جیّد، و کان فیه عدل و إحسان للرعیّة. قلت: و هو أحسن الخلفاء الفاطمیّین حالا بالنسبة لأبیه المعز و لابنه الحاکم؛ علی ما یأتی ذکره إن شاء اللّه.

قال ابن خلکان: «و زادت مملکته علی مملکة أبیه، و فتحت له حمص و حماة و شیزر و حلب؛ و خطب له المقلّد العقیلیّ صاحب الموصل بالموصل [و أعمالها]

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۲۲

فی المحرم سنة اثنتین و ثمانین و ثلثمائة، و ضرب اسمه علی السکة و البنود، و خطب له بالیمن. و لم یزل فی سلطانه و عظم شأنه إلی أن خرج إلی بلبیس متوجّها إلی الشام، فابتدأت به العلّة فی العشر الأخیر من رجب سنة ستّ و ثمانین و ثلثمائة. و لم یزل مرضه یزید و ینقص، حتّی رکب یوم الأحد لخمس بقین من شهر رمضان من السنة المذکورة إلی الحمّام بمدینة بلبیس، و خرج إلی منزل الأستاذ أبی الفتوح برجوان، و کان برجوان صاحب خزانته بالقصر، فأقام عنده و أصبح یوم الاثنین، و قد اشتدّ به الوجع یومه ذلک و صبیحة نهار الثّلاثاء، و کان مرضه من حصاة و قولنج، فاستدعی القاضی محمد بن النّعمان و أبا محمد الحسن بن عمّار الکتامیّ الملقّب أمین الدولة- و هو أوّل من تلقّب من المغاربة، و کان شیخ کتامة و سیّدها- ثمّ خاطبهما فی أمر ولده الملقّب بالحاکم، ثمّ استدعی ولده المذکور و خاطبه أیضا بذلک.

و لم یزل العزیز فی الحمّام و الأمر یشتدّ به إلی بین الصلاتین من ذلک النهار، و هو الثلاثاء الثامن و العشرون من شهر رمضان سنة ستّ و ثمانین و ثلثمائة، فتوفّی فی مسلخ الحمّام. هکذا قال المسبّحیّ».

قلت: و العزیز هذا هو الذی رتّب الفطرة فی عید شوّال، و کانت تعمل علی غیر هذه الهیئة. و کانت الفطرة تعمل و تفرّق بالإیوان، ثم نقلت فی عدّة أماکن؛ و کان مصروفها فی کلّ سنة عشرة آلاف دینار. و تفصیل الأنواع: دقیق ألف حملة، سکّر سبعمائة قنطار، قلب فستق ستة قناطیر، لوز ثمانیة قناطیر، بندق أربعة قناطیر، تمر أربعمائة إردب، زبیب ثلثمائة إردب، خلّ ثلاثة قناطیر،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۲۳

عسل نحل خمسة قناطیر، شیرج مائتا قنطار، حطب ألف و مائتا حملة، سمسم إردبان، آنیسون إردبان، زیت طیّب للوقود ثلاثون

قنطارا، ماء ورد خمسون رطلا، مسک خمس نوافج، کافور عشرة مثاقيل، زعفران مائة و خمسون درهما.

ثمن مواعين و أجرة صنّاع و غيرها خمسمائة دينار. انتهى باختصار. و لنعد إلى ذکر وفاة العزيز صاحب الترجمة.

و قال صاحب تاريخ القيروان: «إنّ الطّبيب وصف له دواء يشربه فى حوض الحمّام، و غلط فيه فشربه فمات من ساعته؛ و لم ينكتم تاريخ موته ساعة واحدة.

و ترتّب موضعه ولده الحاكم أبو علىّ منصور. و بلغ الخبر أهل القاهرة، فخرج الناس غداة الأربعاء لتلقى الحاكم؛ فدخل البلد و بين يديه البنود و الرايات و على رأسه المظلّة يحملها ريدان الصّقلبىّ، فدخل القصر عند اصفرار الشمس، و والده العزيز بين يديه فى عماريّة و قد خرجت رجلاه منها، و أدخلت العماريّة القصر؛ و تولى غسله القاضى محمد بن النّعمان، و دفن عند أبيه المعزّ فى حجرة من القصر. و كان دفنه عند العشاء [الأخيرة]. و أصبح الناس يوم الخميس سلخ الشهر و الأحوال مستقيمة، و قد نودى فى البلدان: لا مؤونة و لا كلفة، و قد أمّنكم اللّه على أموالكم و أرواحكم؛ فمن نازعكم أو عارضكم فقد حلّ ماله و دمه. و كانت ولادة العزيز يوم الخميس رابع عشر المحرّم سنة أربع و أربعين و ثلثمائة». انتهى كلام ابن خلكان باختصار رحمه اللّه.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۲۴

و قال المختار المسبّحى صاحب التاريخ المشهور: «قال لى الحاكم، و قد جرى ذكر والده العزيز: يا مختار، استدعانى والدى قبل موته و هو عارى الجسم، و عليه الخرق و الضّماد (يعنى كونه كان فى الحمام) قال: فاستدعانى و قبّلنى و ضمّنى إليه، و قال: و اغمّى عليک يا حبيب قلبى! و دمعت عيناه، ثمّ قال: امض يا سيّدى فآلعب فأنا فى عافية. قال الحاكم: فمضيت و التهيت بما يلتهى به الصّبيان من اللعب إلى أن نقل اللّه تعالى العزيز إليه». انتهى كلام المسبّحى.

و قد ذكرنا فى وفاة العزيز عدّة وجوه من كلام المؤرّخين رحمهم اللّه تعالى.

و كان العزيز حازما فصيحا. و كتابه إلى عضد الدولة بحضرة الخليفة الطائع العباسىّ يدلّ على فضل و قوّة. و كان كتابه يتضمّن بعد البسملة:

«من عبد اللّه و وليّه نزار أبى منصور الإمام العزيز بالله أمير المؤمنين، إلى عضد الدولة الإمام نصير ملة الإسلام أبى شجاع بن أبى علىّ. سلام عليک؛ فإنّ أمير المؤمنين يحمد إليک اللّه الذى لا إله إلّا هو، و يسأله الصّلاة على جدّه محمد رسول ربّ العالمين، و حجّة اللّه على الخلق أجمعين، صلاة باقية نامية متّصلة دائمة بعترته الهادية، و ذرّيته الطّيبة الطاهرة. و بعد، فإنّ رسولک وصل إلى حضرة أمير المؤمنين، مع الرسول المنفذ اليک، فأدّى ما تحمله من إخلاصک فى ولاء أمير المؤمنين و مودّتک، و معرفتک بحقّ إمامته، و محبتک لآبائه الطائعين الهادين المهديّين. فسرّ أمير المؤمنين بما سمعه عنک، و وافق ما كان يتوسّمه فيک و أنّک لا تعدل عن الحقّ- ثم ذكر كلاما طويلا فى المعنى إلى أن قال-: و قد علمت ما جرى على ثغور المسلمين من المشركين، و خراب الشام و ضعف أهله، و غلاء الأسعار. و لو لا ذلک لتوجّه

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۲۵

أمير المؤمنين بنفسه إلى الثغور، و سوف يقدم إلى الحيرة، و كتابه يقدم عليک عن قريب، فتأهّب إلى الجهاد فى سبيل اللّه». و فى آخر الكتاب: «و كتبه يعقوب ابن يوسف بن كلّس عند مولانا أمير المؤمنين». فكتب إليه عضد الدولة كتابا يعترف فيه بفضل أهل البيت، و يقرّ للعزيز أنّه من أهل تلک النّبعة الطاهرة، [و أنّه فى طاعته] و يخاطبه بالحضرة الشريفة، و ما هذا معناه. انتهى.

قلت: و أنا أتعجّب من كون عضد الدولة كان إليه أمر الخليفة العباسى و نهيه، و يقع فى مثل هذا لخلفاء مصر، و قد علم كلّ أحد ما كان بين بنى العباس و خلفاء مصر من الشّنان. و ما أظنّ عضد الدولة كتب له ذلک إلّا عجزا عن مقاومته، فإنّه قرأ كتابه فى حضرة الخليفة الطائع، و أجاب بذلک أيضا بعلمه، فهذا من العجب.

قال الوزير يعقوب بن كلّس: «سمعت العزيز بالله يقول لعمّه حيدرة: يا عمّ، أحبّ أن أرى النّعم عند الناس ظاهرة، و أرى عليهم الذهب

و الفضّة و الجوهر، و لهم الخيل و اللّباس و الضّياع و العقار، و أن يكون ذلك كلّه من عندى». قال المسبّحى: و هذا لم يسمع بمثله قطّ من ملك. انتهت ترجمة العزيز. و لمّا مات رثاه الشعراء بعدّة قصائد.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۶۶]

السنة الأولى من ولاية العزيز نزار العبيدىّ على مصر و هى سنة ست و ستين و ثلثمائة.

فيها فى جمادى الأولى زفّت بنت عزّ الدولة إلى الخليفة الطائع للّه العباسىّ.

و فيها جاء أبو بكر محمد بن علىّ بن شاهويه صاحب القرامطة، و معه ألف رجل من القرامطة إلى الكوفة، و أقام الدعوة بها لعضد الدولة، و أسقط خطبة عزّ الدولة بختيار. و كان قدومه معونة لعضد الدولة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۲۶

و فيها عمل فى الدّيار المصرية المأتم فى يوم عاشوراء على حسين بن علىّ رضى اللّه عنهما، و هو أوّل ما صنع ذلك بديار مصر. فدامت هذه السّنة القبيحة سنين إلى أن انقرضت دولتهم، على ما سيأتى ذكره.

و فيها كانت وقعة بين عزّ الدولة بن معزّ الدولة أحمد و بين ابن عمّه عضد الدولة بن ركن الدولة الحسن بن بويه، وقعة هائلة أسر فيها غلام تركىّ لعزّ الدولة؛ فاشتدّ حزنه عليه، و امتنع عزّ الدولة من الأكل و الشرب و أخذ فى البكاء و احتجب عن الناس و حرّم على نفسه الجلوس فى الدّست؛ و بذل لعضد الدولة فى الغلام المذكور جاريتين عوّادتين كان قد بذل له فى الواحدة مائة ألف درهم؛ فرّده عضد الدولة عليه.

و فيها حجّ بالناس أبو عبد اللّه أحمد بن [أبى] الحسين العلوىّ. و حجّت فى السنة جميلة بنت ناصر الدولة بن حمدان، و معها أخواها إبراهيم [و هبة اللّه] حجّة ضرب بها المثل، و فرّقت أموالا عظيمة؛ منها أنّها لمّا رأت الكعبة نثرت عليها عشرة آلاف دينار، و سقت جميع أهل الموسم السّويق بالسكر و الثّلج. كذا قال أبو منصور الثعالبىّ. و قتل أخوها هبة اللّه فى الطريق. و أعتقت ثلثمائة عبد و مائتى جارية، و فرّقت المال فى المجاورين حتى أغنتهم، و خلعت على كبار الناس خمسين ألف ثوب. و كان معها أربعمائة عماريّة. ثم ضرب الدهر ضربانه و استولى عضد الدولة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۲۷

ابن بويه على أموالها و حصونها؛ فإنّه كان خطبها فامتنعت، و لم يدع لها شيئا إلى أن احتاجت و افتقرت. فانظر إلى هذا الدهر كيف يرفع و يضع!.

و فيها توفّى المستنصر بالله صاحب الأندلس أبو العاصى الحكم بن الناصر لدين اللّه عبد الرّحمن الأموىّ. بقى فى الملك ستة عشر عاما، و عاش ثلاثا و ستين سنة.

و كان حسن السيرة، جمع من الكتب ما لا يحدّ و لا يوصف.

و فيها توفّى السلطان ركن الدولة أبو علىّ الحسن بن بويه بن فنّاخسرو بن تمام ابن كوهى بن شيرزيل الأصغر بن شيركوه بن شيرزيل [الأكبر] الدّيلمىّ، صاحب أصبهان و الرّىّ و همذان و عراق العجم كلّه. و هؤلاء الملوك الثلاثة: عضد الدولة و فخر الدولة و مؤيّد الدولة أولاده. و كان ملكا جليلا سعيدا فى أولاده، قسم عليهم الممالك، فقاموا بها أحسن قيام. و ملك ركن الدولة أربعا و أربعين سنة و أشهرا.

و كان أبو الفضل بن العميد وزيره، و الصاحب إسماعيل بن عبّاد كان وزير ولديه مؤيد الدولة ثم فخر الدولة. و مات ركن الدولة المذكور فى المحرّم. و بويه بضم الباء الموحّدة و فتح الواو و سكون الياء المثناة من تحتها و بعدها هاء ساكنة، و فنّاخسرو بفتح الفاء و

تشديد النون و بعد الألف خاء معجمة مضمومة ثم سين مهملة ساكنة ثم راء مضمومة و بعدها واو. و قد ضبطته لكى يعرف بعد ذلك اسم من يأتى من أولاده فى هذا الكتاب.

و فيها توفّى إسماعيل الشيخ أبو عمر السلمىّ، كان من كبار المشايخ و له قدم صدق و حكايات مشهورة، رحمه اللّه.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۲۸

و فيها توفّى الحسن بن أحمد بن أبى سعيد الحسن بن بهرام أبو علىّ، و قيل: أبو محمد، القرمطىّ الجنّابى الخارجىّ. ولد بالأحساء فى شهر رمضان سنة ثمان و سبعين و مائتين، و غلب على الشام لمّا قتل جعفر بن فلاح، و توجّه إلى مصر لقتال المعزّ العبيدىّ، كما ذكرناه فى ترجمة المعزّ، ثم مات بالرّملة فى عوده إلى دمشق فى شهر رجب.

و جدّه أبو سعيد هو أوّل القرامطة، و قد مرّ من أخبارهم القبيحة نبذة كبيرة فى عدّة سنين. و كان الحسن هذا صاحب الترجمة فصيحا شاعرا، و كان يلقّب بالأعظم، و كان يلبس الثياب القصيرة، و هو أحد من قتل العباد، و أخرب البلاد.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى الحسن بن أحمد ابن أبى سعيد الجنّابى القرمطىّ، كان ملك الشام و حاصر مصر شهرا. و ركن الدولة الحسن بن بويه صاحب عراق العجم، و كانت دولته خمسا و أربعين سنة، و وزر له أبو الفضل بن العميد. و توفّى أبو الحسن محمد بن عبد اللّه بن زكرياء بن حيّويه النّيسابورىّ بمصر. و أبو الحسن محمد بن الحسن النيسابورىّ السرّاج المقرئ الزاهد.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع سواء. مبلغ الزيادة ستّ عشرة، ذراعا و أربع أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۶۷]

السنة الثانية من ولاية العزيز نزار على مصر و هى سنة سبع و ستين و ثلثمائة.

فيها دخل عضد الدولة بن ركن الدولة بن بويه بغداد، و خرج منها ابن عمه عزّ الدولة بختيار بن معزّ الدولة بن بويه، ثم تقاتلا فانتصر عزّ الدولة ثم قتل، حسب ما سنذكره فى هذه السنة.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۲۹

و فيها زادت دجلة فى نيسان حتى بلغت إحدى و عشرين ذراعا، فهدمت الدور و الشوارع، و هرب الناس فى السفن، و هيّأ عضد الدولة الزبازب تحت داره (و الزبازب هى المراكب الخفيفة).

و فيها حجّ بالناس أبو عبد اللّه العلوىّ.

و فيها جاء الخبر بهلاك أبى يعقوب يوسف بن الحسن الجنّابىّ القرمطىّ صاحب هجر، و أغلقت الأسواق له بالكوفة ثلاثة أيّام، و كان قد توزّر لعضد الدولة.

و فيها توفّى أبو القاسم إبراهيم بن محمد بن أحمد النّصرپادىّ النّيسابورىّ (و نصرپاد: محلّة من نيسابور. و كلّ پاد يأتى فى اسم بلد من هؤلاء البلدان هو بالتفخيم حتى يصحّ معناه). كان أبو القاسم حافظ خراسان و شيخها، و إليه يرجع فى علوم القوم و السّير و التواريخ، و كان صحب الشّبلىّ و غيره من المشايخ. مات بمكّة حاجّا، و دفن عند قبر الفضيل بن عياض.

و فيها توفّى السلطان أبو منصور بختيار عزّ الدولة بن معزّ الدولة أحمد بن بويه الدّيلمىّ. ولى ملك العراق بعد أبيه، و تزوّج الخليفة الطائع للّه عبد الكريم بابنته شاه زمان على صداق مائة ألف دينار. و كان عزّ الدولة شجاعا قويّا يمسك الثّور العظيم بقرنيه فلا يتحرّك. و كان بينه و بين ابن عمّه عضد الدولة منافسات و حروب على الملك، و تقاتلا غير مرّة آخرها فى شوّال، قتل فيها عزّ الدولة المذكور فى المعركة، و حمل رأسه إلى عضد الدولة، فوضع المنديل على وجهه و بكى. و تملّك عضد الدولة العراق بعده، و استقلّ

بالممالك. و عاش عزّ الدولة ستّا و ثلاثين سنة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۳۰

و فيها توفّى محمد بن أحمد بن عبد اللّه بن نصر أبو طاهر الذهلىّ البغدادىّ القاضى نزيل مصر و قاضيها. ولد ببغداد فى ذى الحجة سنة تسع و سبعين و مائتين.

و فيها توفّى الوزير أبو طاهر محمد بن محمد بن بقيّة وزير عزّ الدولة، و كان عضد الدولة قد بعث إليه يميله عن عزّ الدولة؛ فقال: الخيانة و الغدر ليستا من أخلاق الرجال. فلمّا قتل عزّ الدولة قبض عليه عضد الدولة و شهّره فى بغداد من الجانبين و على رأسه برنس، ثم أمر به أن يطرح تحت أرجل الفيلة فقتلته الفيلة، ثم صلب فى طرف الجسر من الجانب الشرقىّ، و لم يشفع فيه الخليفة الطائع لأمر كان فى نفسه منه أيّام مخدومه عزّ الدولة، و أقيم عليه الحرس. فاجتاز به أبو الحسن محمد ابن عمر الأنبارىّ الصوفىّ الواعظ، و كان صديقا لابن بقيّة المذكور، فرثاه بمرثيته المشهورة و هى: [وافر]

علوّ فى الحياة و فى الممات لحقّ أنت إحدى المعجزات

كأنّ الناس حولك حين قاموا وفود نداك أيّام الصّلات

كأنّك قائم فيهم خطيبا و كلّهم قيام للصّلاة

مددت يديك نحوهم احتفاء كمدّهما إليهم بالهبات

و تشعل عندك النّيران ليلا كذلك كنت أيّام الحياة

ركبت مطيّة من قبل زيد علاها فى السنين الماضيات

و لم أر قبل جذعك قطّ جذعا تمكّن من عناق المكرمات

و تلك فضيلة فيها تأسّ تباعد عنك تعيير العداة

أسأت إلى النوائب فاستثارت فأنت قتيل ثأر النّائبات

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۳۱

و كنت تجير من جور الليالى فعاد مطالبا لك بالتّراب

و صيّر دهرك الإحسان فيه إلينا من عظيم السّيّئات

و كنت لمعشر سعدا فلمّا مضيت تفرّقوا بالمنحسات

غليل باطن لك فى فؤادى يخفّف بالدّموع الجاريات

و لو أنّى قدرت على قيام لفرضك و الحقوق الواجبات

ملأت الأرض من نظم القوافى و نحت بها خلاف النائحات

و لكنّى أصبّر عنك نفسى مخافة أن أعدّ من الجناة

و ما لك تربة فأقول تسقى لأنّك نصب هطل الهاطلات

و لمّا ضاق بطن الأرض عن أن يضمّ علاك من بعد الممات

أصاروا الجوّ قبرك و استنابوا عن الأكفان ثوب السافيات

عليك تحيّة الرّحمن تترى برحمات غواد رائحات

قلت: و لم أذكر هذه المرثية بتمامها هنا إلّا لغرابتها و حسن نظمها. و استمر ابن بقيّة مصلوبا إلى أن توفّى عضد الدولة.

و فيها توفّى الأمير الغضنفر بن ناصر الدولة بن حمدان صاحب الموصل و ابن صاحبها.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أبو القاسم إبراهيم ابن محمد النّصرپادىّ الواعظ العارف. و عزّ الدولة

بختيار بن معز الدولة بن بويه ملك العراق، قتل فى مصافّ بينه و بين ابن عمه عضد الدولة. و الغضنفر بن ناصر الدولة بن حمدان صاحب الموصل و ابن صاحبها. و أبو طاهر محمد بن أحمد بن

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۳۲

عبد اللّه الذّهلىّ بمصر فى ذى القعدة، و له ثمان و ثمانون سنة. و أبو بكر محمد بن عمر القرطبىّ ابن القوطيّة اللغوىّ. و الوزير أبو طاهر محمد بن محمد بن بقيّة نصير الدولة، وزير عزّ الدولة، صلبه عضد الدولة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثلاث أذرع و ثلاث و عشرون إصبعا. مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعا و أربع أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۶۸]

السنة الثالثة من ولاية العزيز نزار على مصر و هى سنة ثمان و ستين و ثلثمائة.

فيها أمر الخليفة الطائع أن تضرب على باب عضد الدولة الدبادب (أعنى الطبلخانات) فى وقت الصبح و المغرب و العشاء، و أن يخطب له على منابر الحضرة.

قلت: و هذا أوّل ملك دقّت الطبلخانة على بابه، و صار ذلك عادة من يومئذ. و قال الحافظ أبو الفرج بن الجوزىّ: «و هذان أمران لم يكونا من قبله و لا أطلقا لولاة العهود، [و لا خطب بحضرة السلطان إلّا له، و لا ضربت الدبادب إلّا على بابه]. و قد كان معزّ الدولة أحبّ أن تضرب له الدبادب بمدينة السلام، فسأل الخليفة المطيع للّه فى ذلك فلم يأذن له». قال الحافظ أبو عبد اللّه الذهبى: و ما ذاك إلّا لضعف أمر الخلافة. انتهى.

و فيها توفّى أحمد بن جعفر بن حمدان بن مالك الحافظ أبو بكر القطيعىّ البغدادىّ، كان يسكن قطيعة الرقيق. و مولده فى أوائل سنة أربع و سبعين و مائتين. و كان مسند العراق فى زمانه و سمع الكثير، و روى عنه الدارقطنىّ و ابن شاهين و الحاكم و خلق سواهم.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۳۳

و فيها توفّى عبد اللّه بن إبراهيم بن يوسف الحافظ أبو القاسم الجرجانى الآبندونىّ، و آبندون: قرية من قرى جرجان. كان رفيق ابن عدىّ فى الرحلة، سكن بغداد و حدّث بها عن جماعة، و روى عنه رفيقه الإمام أبو بكر الإسماعيلى و غيره.

و فيها توفّى محمد بن عيسى بن عمرويه الشيخ أبو أحمد الجلودىّ الزاهد راوى صحيح مسلم، سمع الكثير، و روى عنه غير واحد. قال الحاكم: كان من أعيان الفقراء الزهّاد، و أصحاب المعاملات فى التصوّف؛ ضاعت سماعاته من ابن سفيان، فنسخ البعض من نسخة لم يكن له فيها سماع.

و فيها توفّى هفتكين الأمير أبو منصور التركى الشرابى. هرب من بغداد خوفا من عضد الدولة، و وقع له أمور مع العزيز هذا صاحب الترجمة بمصر، ثمّ أطلقه العزيز. و صار له موكب؛ فخافه الوزير يعقوب بن يوسف بن كلّس، فدسّ عليه من سقاه السمّ. و كان إليه المنتهى فى الشجاعة.

و فيها توفّى تميم بن المعزّ معدّ العبيدىّ الفاطمىّ أخو العزيز هذا صاحب مصر.

و كان تميم أميز أولاد المعزّ، و كان فاضلا جوادا سمحا يقول الشعر. و شقّ موته على أخيه العزيز.

و فيها توفّى الحسن بن عبد اللّه بن المرزبان أبو سعيد السّيرافىّ النحوىّ القاضى.

كان أبوه مجوسيّا و اسمه بهزاد فأسلم فسمىّ عبد اللّه. سكن الحسن بغداد، و ولى القضاء بها، و كان مفتنّا فى علوم القراءات و النحو و اللغة و الفقه و الفرائض و الكلام

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۳۴

و الشعر و العروض و القوافى و الحساب و سائر العلوم، و شرح كتاب سيبويه، مع الزهد و الورع.

و فيها توفّى عبد اللّه بن محمد [بن] ورقاء أبو أحمد الشيبانىّ، كان من أهل البيوتات، و أسرته من أهل الثغور، مات فى ذى الحجة.

و فيها توفّى محمد بن محمد بن يعقوب النيسابورىّ من ولد الحجاج بن الجرّاح؛ سمع الكثير، و كان عابدا صالحا حافظا ثقة صدوقا.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أبو بكر أحمد بن جعفر القطيعىّ فى ذى الحجة عن خمس و تسعين سنة. و أبو سعيد الحسن بن عبد اللّه السّيرافىّ النحوىّ فى رجب و له أربع و ثمانون سنة. و أبو القاسم عبد اللّه بن إبراهيم الجرجانىّ الآبندونىّ الحافظ الزاهد ببغداد، و له خمس و تسعون سنة. و عيسى ابن حامد الرّخّجىّ القاضى. و أبو أحمد محمد بن عيسى بن عمرويه الجلودىّ فى ذى الحجة و له ثمانون سنة. و أبو الحسين محمد بن محمد بن يعقوب الحجّاجىّ الحافظ المفيد الصالح فى ذى الحجة بنيسابور عن ثلاث و ثمانين سنة. و هفتكين التركى الذى هرب خوفا من عضد الدولة، و تملّك دمشق و حارب المصريّين مرات.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و خمس عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و إصبع واحدة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۳۵

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۶۹]

السنة الرابعة من ولاية العزيز نزار على مصر و هى سنة تسع و ستين و ثلثمائة.

فيها تزوّج الخليفة الطائع ببنت عضد الدولة؛ و قد مرّ ذلك، و لكن الأصح فى هذه السنة. و عقد العقد بحضرة الخليفة الطائع على صداق مبلغه مائتا ألف دينار.

و كان الوكيل عن عضد الدولة فى العقد أبا على الحسن بن أحمد الفارسىّ النحوىّ.

و الخطيب أبو على المحسّن بن على القاضى التّنوخىّ وكيلا عن الخليفة.

و فيها حجّ بالناس أبو الفتح أحمد بن عمر بن يحيى العلوىّ.

و فيها توفّى فارس بن زكريّا، والد ابن فارس أبى الحسين اللغوىّ صاحب كتاب المجمل فى اللغة. كان عالما بفنون العلوم، و روى عنه الأئمة، و مات ببغداد.

و فيها توفّى أحمد بن عطاء بن أحمد بن محمد بن عطاء أبو عبد اللّه الرّوذبارىّ ابن أخت أبى علىّ الرّوذبارىّ. كان شيخ الشام فى وقته، و كان ممّن جمع بين علم الشريعة و الحقيقة، و مات بقرية بين عكّا و صور يقال لها منواث.

و فيها توفّى الحسين بن على أبو عبد اللّه البصرىّ؛ و يعرف بالجعل، سكن بغداد.

و كان من شيوخ المعتزلة، و صنّف على مذاهب المعتزلة، و مات يوم الجمعة ثانى ذى الحجة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۳۶

و فيها توفّى عبد اللّه بن محمد الراسبىّ، كان بغدادىّ الأصل و كان من كبار المشايخ و أرباب المعاملات. و من كلامه قال: خلق اللّه الأنبياء للمجالسة، و العارفين للمواصلة، و المؤمنين للمجاهدة. و من كلامه: أعظم حجاب بينك و بين الحق اشتغالك بتدبير نفسك، و اعتمادك على عاجز مثلك فى أسبابك. و توفّى ببغداد.

و فيها توفّى أبو تغلب الغضنفر بن ناصر الدولة الحسن بن حمدان التغلبىّ، و قد تقدّم ذكر وفاته، و الأصحّ أنّه فى هذه السنة. كان ملك الموصل و ديار ربيعة و قلاع ابن حمدان، و وقع له حروب مع بنى بويه و أقاربه بنى حمدان، إلى أن طرقه عضد الدولة و أخذ منه بلاده فانهزم إلى أخلاط؛ ثمّ توجّه نحو الديار المصريّة و حارب أعوان العزيز صاحب مصر فقتل فى المعركة، و بعث برأسه إلى

العزيز صاحب الترجمة.

و فيها توفّى عبد اللّه بن محمد بن جعفر بن حيّان الحافظ أبو محمد الأصبهانىّ أبو الحافظ صاحب التصانيف؛ ولد سنة أربع و سبعين و مائتين، و سمع فى صغره من جدّه لأمّه محمود بن الفرج الزاهد و غيره، و هو صاحب تاريخ بلده، و التاريخ على السنين، و "كتاب السنّة "و "كتاب العظمة "و غيرها.

و فيها توفّى أبو سهل محمد بن سليمان بن محمد بن سليمان بن هارون العجلىّ الصّعلوكىّ النّيسابورىّ الفقيه الشافعىّ. كان أديبا لغويّا مفسرا نحويّا شاعرا صوفيّا. ولد سنة ستّ و تسعين و مائتين، و مات فى ذى القعدة. و من شعره: [الطويل]

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۳۷

أنام على سهو و تبكى الحمائم و ليس لها جرم و منّى الجرائم

كذبت و بيت اللّه لو كنت عاشقا لما سبقتنى بالبكاء الحمائم

و فيها توفّى محمد بن صالح بن علىّ بن يحيى بن عبد اللّه أبو الحسن القاضى القرشىّ الهاشمى، و يعرف بابن أمّ شيبان؛ سمع الكثير، و تفقّه على مذهب مالك رضى اللّه عنه، و كان عاقلا متميّزا كثير التصانيف. و لم يل القضاء بمدينة السلام من بنى هاشم غيره.

و فيها توفّى محمد بن على بن الحسن أبو بكر التّنّيسىّ، سمع منه الدارقطنى؛ وراه وحده فقال له: يا أبا بكر، ما فى بلدك مسلم؟ قال: بلى، و لكنّهم اشتغلوا بالدنيا عن الآخرة.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى ابو عبد اللّه بن عطاء الروذبارىّ. و عبد اللّه بن إبراهيم، أيّوب بن ماسى فى رجب و له خمس و تسعون سنة. و أبو محمد عبد اللّه بن محمد بن جعفر بن حيّان أبو الشيخ فى المحرّم و له خمس و تسعون سنة. و أبو سهل محمد بن سليمان الصعلوكىّ ذو الفنون فى آخر السنة و له ثمانون سنة. و قاضى العراق ابن أمّ شيبان أبو الحسن محمد بن صالح الهاشمىّ فجأة فى جمادى الأولى عن ستّ و سبعين سنة. و أبو بكر محمد بن على بن الحسن المصرىّ بن النقاش فى شعبان، و كان حافظا. و أبو عمرو محمد بن صالح ببخارى.

و أبو علىّ مخلّد بن جعفر الباقرحىّ.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۳۸

- أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و خمس أصابع.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا سواء.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۷۰]

السنة الخامسة من ولاية العزيز نزار على مصر و هى سنة سبعين و ثلثمائة.

فيها خرج عضد الدولة للقاء الصاحب إسماعيل بن عبّاد؛ فقدم عليه ابن عبّاد، فقدم عليه ابن عبّاد من الرىّ من عند أخيه مؤيّد الدولة، فبالغ عضد الدولة فى إكرامه إلى الغاية لكونه وزير أخيه مؤيّد الدولة و صاحب أمره و نهيه. و تردّد إليه عضد الدولة فى إقامته ببغداد غير مرّة إلى أن سافر إلى مخدومه مؤيّد الدولة فى شهر ربيع الآخر.

و فيها توجّه عضد الدولة إلى همذان. فلمّا عاد إلى بغداد خرج الخليفة لتلقّيه؛ و لم يكن ذلك بعادة أنّ الخليفة يلاقى أحدا من الأمراء. قلت: و هذا كان أوّلا، و أمّا فى الآخر فإنّ الطائع كان قد بقى تحت أوامر عضد الدولة كالأسير.

و فيها حجّ بالناس أبو الفتح أحمد بن عمر العلوىّ و خطب بمكة و المدينة للعزيز هذا صاحب مصر.

و فيها غرقت بغداد من الجانبين و أشرف أهلها على الهلاك، و وقعت القنطرتان و غرم على بنائهما أموال كثيرة.

و فيها توفّى أحمد بن علىّ الإمام العلّامة أبو بكر الرازىّ الحنفىّ العالم المشهور.

مولده فى سنة خمس و ثلثمائة، كان إمام الحنفية فى زمانه، و كان مشهورا بالدّين و الورع و الزّهد. قال أبو المظفر فى تاريخه: و حاله كان يزيد على حال الرهبان من كثرة التقشّف، و هو صاحب التصانيف و تلميذ أبى الحسن الكرخىّ.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۳۹

و فيها توفّى محمد بن جعفر بن الحسين بن محمد بن زكرياء الحافظ أبو بكر الورّاق المعروف بغندر، كان حافظا متقنا، و رحل [إلى] البلاد و سمع الكثير، و كتب مالم يكتبه أحد، و كان حافظا ثقة.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أبو بكر أحمد بن علىّ الرازىّ عالم الحنفيّة فى ذى الحجة و له خمس و ستون سنة. و بشر بن أحمد أبو سهل الإسفراينى فى شوّال عن نيّف و تسعين سنة. و أبو محمد الحسن بن أحمد السّبيعىّ الحلبىّ الحافظ. و أبو محمد الحسن بن رشيق بمصر فى جمادى الآخرة. و أبو عبد اللّه الحسين بن أحمد بن خالويه النحوىّ. و أبو بكر عبد اللّه بن محمد بن محمد بن فورك فى ذى القعدة. و أبو منصور محمد بن أحمد الأزهرىّ صاحب [تهذيب] اللغة فى ربيع الآخر.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ذراع واحدة. مبلغ الزيادة خمس عشرة ذراعا و أربع أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۷۱]

السنة السادسة من ولاية العزيز نزار على مصر و هى سنة إحدى و سبعين و ثلثمائة.

فيها اتّفق فخر الدولة و قابوس بن و شمكير على عداوة أخيه عضد الدولة فى الباطن. قلت: و هذه أوّل فتنة بدت بين الإخوة أولاد ركن الدولة الثلاثة:

عضد الدولة، و فخر الدولة، و مؤيّد الدولة. و فطن عضد الدولة لذلك و لم يظهره،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۴۰

و جهّز العساكر لأخيه مؤيّد الدولة لقتال قابوس المذكور؛ فتوجّه إليه مؤيّد الدولة و حصره و أخذ بلاده، و لم ينفعه فخر الدولة. و كان لقابوس من البلاد طبرستان و غيرها.

و فيها حجّ بالناس أبو عبد اللّه العلوىّ من العراق.

و فيها توفّى أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل الحافظ أبو بكر الجرجانىّ، كان إماما، طاف البلاد، و لقى الشيوخ، و؟؟؟ سمع الكثير، و صنّف الكتب الحسان، منها:

"الصحيح "صنّفه على صحيح البخارىّ، و "الفرائد "و "العوالى "و غير ذلك، و مات فى شهر رجب.

و فيها توفّى الحسن بن أحمد بن صالح الحافظ أبو محمد السّبيعىّ الكوفىّ، كان حافظا مكثرا إلّا أنّه كان عسر الرواية، و كان الدارقطنىّ يجلس بين يديه جلوس الصبىّ بين يدى المعلّم هيبة له، و مات فى ذى الحجة ببغداد.

و فيها توفّى عبد العزيز بن الحارث بن أسد أبو الحسن التميمى الحنبلىّ، كان فقيها فاضلا، و له تصانيف فى أصول الكلام و فى مذهبه و الفرائض و غير ذلك.

و فيها توفّى علىّ بن إبراهيم أبو الحسن [الحصرىّ] البصرىّ الصوفىّ الواعظ، سكن بغداد و صحب الشّبلىّ و غيره، و كان صاحب خلوات و مجاهدات، و له كلام حسن فى التوفيق.

و فيها توفّى محمد بن أحمد بن طالب الأخبارىّ، رحل و سمع الكثير، و كان فاضلا محدّثا أخباريّا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۴۱

الذین ذکر الذهبیّ وفاتهم فی هذه السنة، قال: و فیها توفّی أبو بکر أحمد بن إبراهیم الإسماعیلیّ الجرجانیّ فی رجب و له أربع و تسعون سنة. و أبو العباس الحسن ابن سعید العبّادانیّ المطّوّعیّ المقرئ و له مائة و سنتان. و أبو محمد عبد اللّه بن إسحاق القیروانیّ شیخ المالکیة. و أبو زید محمد بن أحمد المروزیّ الفقیه فی رجب.

و أبو عبد اللّه محمد بن خفیف الشّیرازی شیخ الصوفیّة بفارس.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم ثلاث أذرع و سبع عشرة إصبعا.

مبلغ الزیادة خمس عشرة ذراعا و إصبعان.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۷۲]

السنة السابعة من ولایة العزیز نزار علی مصر و هی سنة اثنتین و سبعین و ثلثمائة.

فیها وثب أبو الفرج بن عمران بن شاهین علی أخیه أبی محمد الحسن بن عمران صاحب البطیحة، فقتله و استولی علی بلده.

و فیها حجّ بالناس أبو الفتح أحمد بن عمر العلویّ، و قیل: إنّه لم یحجّ أحد من العراق من هذه السنة إلی سنة ثمانین، بسبب الفتن و الخلف بین خلفاء بنی العباس و بین خلفاء مصر بنی عبید.

و فیها أنشأ عضد الدولة بیمارستانه ببغداد فی الجانب الغربیّ، و رتّب فیه الأطباء و الوکلاء و الخزّان و کلّ ما یحتاج إلیه.

قال الحافظ أبو عبد اللّه الذهبیّ: «و فی هذا الزمان کانت البدع و الأهواء فاشیة ببغداد و مصر من الرّفض و الاعتزال و الضلال فإنّا للّه و إنا إلیه راجعون!».

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۴۲

قلت: و معنی قول الذهبیّ ": و مصر "فإنّه معلوم من کون خلفاء بنی عبید کانوا یظهرون الرفض و سبّ الصحابة، و کذلک جمیع أعوانهم و عمّالهم. و أمّا قوله:

"ببغداد "فإنّه کان بسبب عضد الدولة الآتی ذکره، فإنّه کان أیضا یتشیّع و یکرم جانب الرافضة.

و فیها توفّی السلطان عضد الدولة أبو شجاع فنّاخسرو- و قیل بویه علی اسم جدّه، و فنّاخسرو أشهر- ابن السلطان رکن الدولة الحسن بن بویة بن فنّاخسرو الدّیلمیّ.

ولی مملکة فارس بعد عمّه عماد الدولة، ثمّ قوی علی ابن عمّه عزّ الدولة بختیار بن معزّ الدولة بن بویه، و أخذ منه العراق و بغداد. و قد تقدّم من ذلک نبذة یسیرة فی حوادث بعض السنین. و بلغ سلطانه من سعة المملکة و الاستیلاء علی الممالک ما لم یبلغه أحد من بنی بویه، و دانت له البلاد و العباد. و هو أوّل من خوطب بالملک شاهنشاه فی الإسلام، و أوّل من خطب له علی منابر بغداد بعد الخلفاء، و أوّل من ضربت الدبادب علی باب داره. و کان فاضلا نحویّا، و له مشارکة فی فنون کثیرة، و له صنّف أبو علیّ الفارسیّ " الإیضاح. "قال أبو علی الفارسیّ، منذ تلقّب شاهنشاه تضعضع أمره، و ما کفاه ذلک حتّی مدح نفسه؛ فقال: [الرمل]

عضد الدولة و ابن رکنها ملک الأملاک غلّاب القدر

و لمّا أحسّ بالموت تمثّل بشعر القاسم بن عبد اللّه الوزیر، و هو قوله: [الطویل]

قتلت صنادید الرجال فلم أدع عدوّا و لم أمهل علی ظنّة خلقا

و أخلیت دور الملک من کلّ نازل و بدّدتهم غربا و شرّدتهم شرقا

ثمّ جعل یبکی و یقول ": ما أغنی عنّی مالیه! هلک عنی سلطانیه "!و صار یردّدها إلی أن مات فی شوّال ببغداد و له سبع و أربعون سنة. و تولّی الملک من بعده ابنه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۴۳

صمصام الدولة، و لم يجلس للعزاء إلّا فى أوّل السنة. أظنّ أنّهم كانوا أخفوا موت عضد الدولة لأمر، أو أنّه اشتغل بملك جديد حتّى فرغ منه.

و فيها توفّى محمد بن جعفر بن أحمد أبو بكر الحريرىّ المعدّل البغدادىّ، و كان يعرف بزوج الحرّة، و كان جليل القدر، من الثّقات. مات ببغداد، و دفن عند قبر معروف الكرخىّ. رحمة اللّه عليهما.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثلاث أذرع و سبع عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و أربع أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۷۳]

السنة الثامنة من ولاية العزيز نزار على مصر و هى سنة ثلاث و سبعين و ثلثمائة.

فيها فى ثانى عشر المحرّم أظهرت وفاة عضد الدولة و حمل تابوته إلى المشهد، و جلس ابنه صمصام الدولة للعزاء، و جاءه الخليفة الطائع معزّيا، و لطم عليه الناس فى [دوره و فى] الأسواق أيّاما عديدة. ثمّ ركب صمصام الدولة إلى دار الخلافة، و خلع عليه الخليفة الطائع عبد الكريم سبع خلع، و عقد له لواءين، و لقّب شمس الملّة.

و فيها بعد مدّة يسيرة ورد الخبر على صمصام الدولة المذكور بموت عمّه مؤيّد الدولة أبى منصور بن ركن الدولة بجرجان، فجلس صمصام الدولة أيضا للتعزية؛ و جاءه الخليفة الطائع مرّة ثانية معزّيا فى عمّه مؤيّد الدولة المذكور. و لمّا مات مؤيّد الدولة كتب وزيره الصاحب إسماعيل بن عبّاد إلى أخيه فخر الدولة علىّ بن ركن الدولة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۴۴

بالإسراع إليه و ضبط ممالك أخيه مؤيّد الدولة؛ فقدم فحر الدولة إليه و ملك بلاد أخيه، و استوزر الصاحب بن عباد المذكور. و عظم ابن عبّاد فى أيام فخر الدولة إلى الغاية.

و فيها كان الغلاء المفرط بالعراق، و بلغ الكرّ القمح أربعة آلاف و ثمانمائة درهم، و مات خلق كثير على الطريق جوعا، و عظم الخطب.

و فيها ولّى العزيز نزار صاحب الترجمة خطلخ القائد إمرة دمشق.

و فيها توفّى السلطان مؤيّد الدولة أبو منصور بويه ابن السلطان ركن الدولة حسن بن بويه المقدّم ذكره. مات بجرجان و له ثلاث و أربعون سنة و شهر.

و كانت مدّة إمرته سبع سنين و شهرا. و كان قد تزوّج ببنت عمّه معزّ الدولة، فأنفق فى عرسها سبعمائة ألف دينار. و كان موته فى ثالث عشر شعبان؛ فيكون بعد موت أخيه عضد الدولة بنحو عشرة أشهر. وصفا الوقت لأخيهما فخر الدولة.

و فيها توفّى سعيد بن سلّام أبو عثمان المغربىّ. مولده بقرية يقال لها كركنت، كان أوحد عصره فى الزهد و الورع و العزلة.

و فيها توفّى عبد اللّه بن محمد بن عثمان بن المختار أبو محمد المزنىّ الواسطىّ الحافظ، كان ثقة، مات بواسط. و من كلامه قال: «الذين وقع عليهم اسم الخلافة ثلاثة:

آدم، و داود عليهما السلام، و أبو بكر الصديق رضى اللّه عنه. قال اللّه تعالى فى حقّ آدم: (إِنِّی جاعِلٌ فِی الْأَرْضِ خَلِیفَةً)، و قال فى حقّ داود: (یا داوُدُ إِنَّا جَعَلْناکَ

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۴۵

خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ). و قبض رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن ثلاثين ألف مسلم كلّهم يقول لأبى بكر: يا خليفة رسول اللّه».

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع سواء. مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و إصبعان.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۷۴]

السنة التاسعة من ولاية العزيز نزار على مصر و هى سنة أربع و سبعين و ثلثمائة.

فيها دخلت القرامطة البصرة لمّا علموا بموت عضد الدولة، و لم يكن لهم قوّة على حصارها، فجمع لهم مال فأخذوه و انصرفوا.

و فيها وقع الصلح بين صمصام الدولة و بين عمّه فخر الدولة بمكاتبة أبى عبد اللّه ابن سعدان إلى الصاحب بن عبّاد. فكان ابن سعدان يخاطب الصاحب بن عبّاد بالصاحب الجليل، و الصاحب بن عباد يخاطب ابن سعدان بالأستاذ مولاى و رئيسى.

و فيها ملكت الأكراد ديار بكر بن ربيعة. و سببه. أنّه كان بجبال حيزان رجل كردىّ يقطع الطريق، يقال له أبو عبد اللّه الحسين بن دوستك، و لقبه پاد، و اجتمع عليه خلق كثير، و جرت له مع بنى حمدان حروب إلى أن قتل. فلمّا قتل پاد، المذكور كان له صهر يقال له مروان بن كسرى و كان له أولاد ثلاثة، و كانوا

من قرية يقال لها كرماس بين إسعرذ و المعدن، و كانوا رؤساءها. فلمّا خرج پاد خرج معه أولاد مروان المذكور و هم: الحسن و سعيد و أحمد و أخ آخر. فلمّا قتل پاد انضمّ عسكره على ابن أخته الحسين، و استفحل أمره و تقاتل مع من بقى من بنى حمدان فهزمهم. ثمّ مات عضد الدولة بن بويه، فصفا له الوقت و ملك ديار بكر و ميّافارقين، و أحسن السيرة فى الناس فأحبّته الرعيّة؛ ثم افتتح بعد ذلك عدّة حصون، يأتى ذكرها إن شاء اللّه تعالى فى محلّها.

و فيها توفّى عبد الرّحيم بن محمد بن إسماعيل بن نباتة الخطيب الفارقىّ صاحب الخطب، و الذى من ذرّيته الشيخ جمال الدين محمد بن نباتة الشاعر المتأخر، الآتى ذكره إن شاء اللّه تعالى. و كان مولده بميّافارقين فى سنة خمس و ثلاثين و ثلثمائة.

و كان بارعا فى الأدب، و كان يحفظ "نهج البلاغة "و عامّة خطبه بألفاظها و معانيها، و مات بميافارقين عن تسع و ثلاثين سنة. و لولده أبى طاهر محمد خطب أيضا.

و فيها توفّى محمد بن محمد بن مكّىّ أبو أحمد القاضى الجرجانى، رحل فى طلب الحديث و لقى الشيوخ، و كان حافظا فاضلا أديبا. و من شعره رحمة اللّه:

[الوافر]

مضى زمن و كان الناس فيه كراما لا يخالطهم خسيس

فقد دفع إلى الكرام إلى زمان أخسّ رجالهم فيه رئيس

[تعطّلت المكارم يا خليلى و صار الناس ليس لهم نفوس]

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع سواء. مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و أربع أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۷۵]

السنة العاشرة من ولاية العزيز نزار على مصر و هى سنة خمس و سبعين و ثلثمائة.

فيها توفّى أحمد بن الحسين بن علىّ الحافظ أبو زرعة الرازىّ الصغير، كان إماما طاف البلاد فى طلب الحديث، و جالس الحفّاظ، و صنّف التراجم و الأبواب، و كان متقنا صدوقا؛ فقد بطريق مكّة فى هذه السنة.

و فيها توفّى الحسين بن علىّ بن محمد بن يحيى الحافظ أبو أحمد النيسابورىّ، و يقال له حسينك، مولده سنة ثلاث و تسعين و مائتين، و مات بنيسابور فى شهر ربيع الآخر، و كان ثقة جليلا مأمونا حجّة.

و فيها توفّى محمد بن عبد اللّه بن محمد أبو بكر التّميمىّ الأبهرىّ الفقيه المالكىّ، ولد سنة تسع و ثمانين و مائتين، و صنّف التصانيف الحسان فى مذهبه، و انتهت إليه رياسة المالكيّة فى زمانه.

و فيها توفّى عبد الرّحمن بن محمد بن عبد اللّه بن مهران أبو مسلم البغدادىّ الحافظ الثقة العابد العارف، رحل الى البلاد و أقام بسمرقند و جمع المسند، و كان يعدّ من الزهّاد.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۴۸

و فيها توفّى عبد اللّه بن علىّ بن عبيد اللّه أبو القاسم الواردىّ البصرىّ القاضى شيخ أهل الظاهر فى عصره، سمع الكثير و حدّث، و كان موصوفا بالفضل و حسن السيرة، و ولى القضاء بعدّة بلاد و حسنت سيرته.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أبو زرعة الرازىّ الصغير أحمد بن الحسين الحافظ. و أبو علىّ الحسين بن علىّ التميمىّ حسينك. و الحسين ابن محمد بن عبيد أبو عبد اللّه العسكرىّ الدّقاق فى شوّال. و أبو مسلم عبد الرّحمن بن محمد بن عبد اللّه بن مهران البغدادىّ الحافظ الزاهد. و أبو القاسم عبد العزيز بن عبد اللّه الدّاركىّ شيخ الشافعيّة ببغداد. و أبو القاسم عبد العزيز بن جعفر الخرقىّ.

و عمر بن محمد بن على أبو حفص الزيّات. و محمد بن عبد اللّه بن محمد القاضى أبو بكر الأبهرىّ شيخ المالكيّة بالعراق. و يوسف بن القاسم القاضى أبو بكر الميانجىّ.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و اثنتان و عشرون إصبعا. مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و عشر أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۷۶]

السنة الحادية عشرة من ولاية العزيز نزار على مصر و هى سنة ست و سبعين و ثلثمائة.

فيها استقرّ الأمر على الطاعة لشرف الدّولة بن عضد الدّولة، و تحالف الإخوة الثلاثة أولاد عضد الدولة و تعاقدوا؛ و مضمون ما كتب بينهم:

«هذا ما اتّفق عليه و تعاهد و تعاقد شرف الدولة أبو الفوارس، و صمصام الدولة، و أبو النصر أبناء عضد الدولة بن ركن الدولة، اتفقوا على طاعة أمير المؤمنين الطائع

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۴۹

للّه و لشرف الدولة بن عضد الدولة»، و ذكر ما جرت به العادة؛ و كان ذلك بعد أمور وقعت بين صمصام الدولة و بين أخيه شرف الدولة المذكور حتى أذعن له صمصام الدولة.

و فيها توفّى أبو القاسم المظفّر بن علىّ الملقب بالموفّق أمير البطيحة، و ولى بعده أبو الحسن علىّ بن نصر بعهد منه. فبعث ابن نصر هذا لشرف الدولة يبذل الطاعة و سأل الخلع و التقليد؛ فأجيب إلى ذلك و لقّب مهذّب الدولة؛ فسار بالناس أحسن سيرة.

و فيها توفّى الحكم بن عبد الرّحمن بن عبد اللّه بن محمد الأموىّ المغربىّ أمير الأندلس. ولى مملكة الأندلس بعد وفاة أبيه يوم مات سنة خمسين و ثلثمائة.

و کنیته أبو العاصی، و لقبه المستنصر بالله؛ و أقام والیا علی الأندلس خمسا و عشرین سنة، و مات فی صفر. و أمّه أم ولد یقال لها مرجان. و تولّی بعده ولده هشام ابن الحکم، و کان مشکور السیرة. و هو الذی کتب إلیه العزیز صاحب الترجمة من مصر یهجوه، و قد ذکرنا ذلک فی أوّل ترجمة العزیز؛ فردّ المستنصر هذا جواب العزیز، و کتب فی أوّل کتابه قصیدة أوّلها:

[الطویل]

ألسنا بنی مروان کیف تقلّبت بنا الحال أو دارت علینا الدوائر

إلی أن قال:

إذا ولد المولود منّا تهلّلت له الأرض و اهتزّت إلیه المنابر

ثمّ قال: و بعد، فقد عرفتنا فهجوتنا، و لو عرفناک لهجوناک. و السلام.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۵۰

و فیها توفّی محمد بن أحمد بن حمدان بن علیّ بن عبد اللّه بن سنان أبو عمرو الحیریّ الزاهد، صحب جماعة من الزهّاد، و کان عالما بالقراءات و النحو، و کان متعبّدا، مات ببغداد فی ذی القعدة.

الذین ذکر الذهبیّ وفاتهم فی هذه السنة، قال: و فیها توفّی إبراهیم بن أحمد أبو إسحاق المستملی ببلخ، طوّف و خرّج المعجم. و أبو سعید الحسن بن جعفر السمسار الخرقیّ. و أبو الحسن علیّ بن الحسن بن علیّ القاضی الجرّاحیّ الضعیف.

و أبو الحسن علی بن عبد الرّحمن البکّائیّ. و أبو القاسم عمر بن محمد بن سبنک. و قسّام الحارثیّ الغالب علی دمشق قبض علیه فی هذه السنة. و أبو عمرو محمد بن أحمد بن حمدان الحیریّ فی ذی القعدة عن ثلاث و تسعین سنة. و أبو بکر محمد بن عبد اللّه ابن عبد العزیز الرازیّ الواعظ.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم ستّ أذرع سواء. مبلغ الزیادة سبع عشرة ذراعا و إحدی و عشرون إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۷۷]

السنة الثانیة عشرة من ولایة العزیز نزار علی مصر و هی سنة سبع و سبعین و ثلثمائة.

فیها توفّیت والدة شرف الدولة، فجاءه الخلیفة الطائع للّه معزّیا.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۵۱

و فیها فی شعبان ولد لشرف الدولة بن عضد الدولة ولدان توءمان؛ فکنّی أحدهما أبا حرب و سماه سلار، و الثانی أبا منصور و سماه فنّاخسرو.

و فیها ولّی العزیز صاحب الترجمة بکتکین الترکیّ إمرة دمشق، و ندبه لقتال قسّام، حسب ما تقدّم ذکره.

و فیها توفّی الحسن بن أحمد بن عبد الغفار أبو علیّ الفارسیّ النحویّ الإمام المشهور، ولد ببلدة فسا، و قدم بغداد، و سمع الحدیث و برع فی علم النحو و انفرد به، و قصده الناس من الأقطار، و علت منزلته فی العربیّة، و صنّف فیها کتبا کثیرة لم یسبق إلی مثلها حتّی اشتهر ذکره فی الآفاق؛ و تقدّم عند عضد الدولة حتی قال عضد الدولة: أنا غلام أبی علیّ فی النحو. و من تصانیف أبی علیّ": الإیضاح "و "التکملة "و کتاب "الحجة فی القراءات؛ "و مات ببغداد فی شهر ربیع الأوّل عن نیّف و تسعین سنة.

و فیها کان قد هیّأ العزیز صاحب مصر عدّة شوانی لغزو الروم، فاحترقت مراکبه فاتّهم بها أناسا. ثمّ بعد ذلک وصلت رسل الروم فی البحر إلی ساحل القدس بتقادم للعزیز، و دخلوا مصر یطلبون الصلح؛ فأجابهم العزیز و اشترط شروطا شدیدة التزموا بها کلّها؛ منها: أنّهم یحلفون أنّه لا یبقی فی مملکتهم أسیر

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۵۲

إلّا أطلقوه، و أن يخطب للعزيز فى جامع قسطنطينية كلّ جمعة، و أن يحمل إليه من أمتعة الروم كلّ ما افترضه عليهم؛ ثمّ ردّهم بعقد الهدنة سبع سنين.

و فيها توفّيت ستيتة، و قيل آمنة، بنت القاضى أبى عبد اللّه الحسين المحاملىّ، و أمّ القاضى أبى الحسين محمد بن أحمد بن القاسم المحاملىّ، كنيتها أمة الواحد.

كانت فاضلة، من أعلم الناس و أحفظهم لفقه الشافعىّ، و تقرأ القراءات و الفرائض و النحو و غير ذلک من العلوم مع الزهد و العبادة و الصدقات، و كانت تفتى مع أبى على ابن أبى هريرة؛ و ماتت فى شهر رمضان.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع سواء. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و عشر أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۷۸]

السنة الثالثة عشرة من ولاية العزيز نزار على مصر و هى سنة ثمان و سبعين و ثلثمائة.

فيها فى المحرّم أمر شرف الدولة بأن ترصد الكواكب السبعة فى مسيرها و تنقّلها فى بروجها على مثال ما كان المأمون يفعل، و تولّى ذلک ابن رستم الكوهىّ، و كان له علم بالهيئة و الهندسة، و بنى بيتا فى دار المملكة بسبب ذلک فى آخر البستان، و أقام الرصد لليلتين بقيتا من صفر.

و فيها كثرت العواصف و هبّت ريح بفم الصّلح عظيمة جرفت دجلة من غربيها إلى شرقيها، فأهلكت خلقا كثيرا و غرّقت كثيرا من السفن الكبار.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۵۳

و فيها بدأ المرض بشرف الدولة و لحقه سوء مزاج.

و فيها لحق الناس بالبصرة حرّ عظيم فى نيّف و عشرين يوما من تموز، و هو «أبيب» بالقبطىّ، فكان الناس يتساقطون موتى بالعراق فى الشوارع.

و فيها ولّى العزيز صاحب مصر على دمشق منيرا الخادم، و عزل عنها بكتكين التركىّ، لأنّه كان قيل عنه: إنّه خرج عن الطاعة.

و فيها توفّى أحمد بن الحسين بن أحمد بن علىّ بن محمد العلوىّ الدّمشقىّ، و يعرف بالعقيقى، صاحب الدار المشهورة بدمشق، و كان من وجوه الأشراف جوادا ممدّحا، مات بدمشق فى جمادى الأولى.

و فيها توفّى الخليل بن أحمد بن محمد بن الخليل أبو سعيد السّجزىّ القاضى الحنفىّ، و قيل: اسمه محمد، و الخليل لقب له، و يعرف أيضا بابن جنک. كان شيخ أهل الرأى فى عصره، و كان مع كثرة علمه أحسن الناس كلاما فى الوعظ و التذكير، و كان صاحب فنون من العلوم، و طاف الدنيا شرقا و غربا و سمع الحديث، و كان شاعرا فصيحا؛ مات قاضيا بسمرقند فى جمادى الآخرة، و رثاه أبو بكر الخوارزمىّ.

و فيها توفّى عبد اللّه بن علىّ بن محمد أبو نصر السرّاج الصوفى الطوسىّ، كان من كبار مشايخ طوس و زهّادهم، مات بنيسابور فى شهر رجب و هو ساجد.

و من شعره: [البسيط]

ما ناصحتک خبايا الودّ من أحد ما لم تنلک بمكروه من العذل

مودّتى فيک تأبى أن تسامحنى بأن أراک على شىء من الزلل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة؛ ج۴؛ ص۱۵۳

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۵۴

و فيها توفّى محمد بن محمد بن أحمد بن إسحاق أبو أحمد الحافظ النيسابورىّ الكرابيسىّ الحاكم الكبير إمام عصره صاحب التصانيف، سمع الكثير و روى عنه خلق كثير، و صنّف على كتابى البخارىّ و مسلم و على جامع أبى عيسى التّرمذىّ، و صنّف كتابى الأسماء و الكنى و العلل و المخرّج على كتاب المزنىّ و غير ذلك، و ولى القضاء بمدن كثيرة، و مات فى شهر ربيع الأوّل عن ثلاث و تسعين سنة.

و فيها توفّى [أبو] القاسم بن الجلّاب المالكى، و قيل اسمه عبد الرّحمن بن عبيد اللّه، و سمّاه القاضى عياض: محمد بن الحسين، تفقّه بالقاضى أبى بكر محمّد الأبهرىّ، و صنّف كتابا جليلا فى مسائل الخلاف، و كتاب "التفريع "فى مذهبه، و كان أحفظ أصحاب الأبهرىّ.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثلاث أذرع سواء. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و اثنتا عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۷۹]

السنة الرابعة عشرة من ولاية العزيز نزار على مصر و هى سنة تسع و سبعين و ثلثمائة.

فيها مات شرف الدولة شيرزيل بن عضد الدولة بويه، و قيل: فنّاخسرو، ابن ركن الدولة الحسن بن بويه الديلمىّ بعد أن عهد بالملك إلى أخيه أبى نصر.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۵۵

و جاء الطائع الخليفة لأبى نصر و عزّاه فى أخيه شرف الدولة، ثمّ ركب أبو نصر إلى دار الخليفة و حضر الأعيان. و خلع الخليفة الطائع على أبى نصر المذكور سبع خلع أعلاها سوداء و عمامة سوداء، و فى عنقه طوق كبير، و فى يديه سواران، و مشى الحجّاب بين يديه بالسيوف. فلمّا حصل بين يدى الطائع قبّل الأرض، ثمّ أجلس على كرسىّ، و قرأ أبو الحسن علىّ بن عبد العزيز بن حاجب النّعمان كاتب الخليفة عهده، و قدّم إلى الطائع لواءه فعقده و لقبه بهاء الدولة و ضياء الملة. قلت: و هذا الثالث من بنى عضد الدولة بن بويه؛ فإنّه ولى بعد عضد الدولة صمصام الدولة، ثمّ شرف الدولة، ثمّ بهاء الدولة هذا.

و كان بهاء الدولة المذكور من رجال بنى بويه. و بلغ الأتراك بفارس ولايته فوثبوا و أخرجوا صمصام الدولة من معتقله، و كان اعتقله أخوه شرف الدولة.

و لمّا خرج صمصام الدولة و استفحل أمره، وقّع بينه و بين الأتراك، فتركوه و أقاموا ابن أخيه أبا علىّ و لقّبوه شمس الدولة. و وقع لهم أمور يطول شرحها.

و فيها توفّى محمد بن المظفّر بن موسى بن عيسى أبو الحسين البزّاز البغدادىّ الحافظ المشهور، ولد سنة ستّ و ثمانين و مائتين فى المحرّم، و رحل و سمع الكثير، و روى عنه خلائق، كتب عنه الدارقطنىّ. و قد روينا مسنده الذى جمعه من حديث أبى حنيفة رضى اللّه عنه عن المسند المعمّر الحاكم عبد الرّحيم بن الفرات الحنفى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۵۶

أنبأنا ابن أبى عمر و غير واحد قالوا أنبأنا أبو الحسن بن البخارىّ أنبأنا الخشوعىّ أنبأنا ابن خسرو البلخىّ عن المبارك بن عبد الجبّار الصّيرفىّ عن أبى محمد الفارسىّ عن ابن المظفّر. و قال محمد بن أبى الفوارس: انتهى إليه علم الحديث مع الفقه و الأمانة و حسن الخط.

و فيها توفّى شرف الدولة شيرزيل بن عضد الدولة بويه بن ركن الدولة الحسن ابن بويه بن فناخسرو الديلمىّ سلطان بغداد و ابن سلطانها. ظفر بأخيه صمصام الدولة بعد حروب و حبسه و ملك العراق. و كان حسن السيرة، يميل إلى الخير، و أزال المصادرات. و كان مرضه بالاستسقاء، و امتنع من الحمية فمات منه فى جمادى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۵۷

الآخرة عن تسع و عشرين سنة، و ملك سنتين و ثمانية أشهر. و تولّى السلطنة بعده أخوه أبو نصر بهاء الدولة، حسب ما ذكرناه فى أوّل هذه السنة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثلاث أذرع سواء. مبلغ الزيادة خمس عشرة ذراعا و تسع عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۸۰]

السنة الخامسة عشرة من ولاية العزيز نزار على مصر و هى سنة ثمانين و ثلثمائة.

فيها قلّد أبو أحمد الحسين بن موسى الموسوىّ العلوىّ نقابة الطالبيين و النظر فى المظالم و إمرة الحاجّ، و كتب عهده على جميع ذلك؛ و استخلف ولديه المرتضى و الرضىّ على النّقابة، و خلع عليهما من دار الخلافة ببغداد.

و فيها تغيّر بهاء الدولة على الخليفة الطائع للّه عبد الكريم حتّى نكبه فى السنة الآتية.

و فيها حجّ بالناس أبو عبد اللّه أحمد بن محمد بن عبيد اللّه نيابة عن الشريف أبى أحمد الموسوىّ.

و فيها توفّى حمزة بن أحمد بن الحسين الشريف أبو الحسن العلوىّ الدمشقىّ، كان جوادا رئيسا، يسكن بباب الفراديس. و لما قرئ نسب خلفاء مصر الفاطميّين على منبر دمشق استهزأ بهم و نال منهم، فبعث ابن كلّس وزير العزيز [من] قبض عليه، و حبسه بالإسكندريّة إلى أن مات بها.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۵۸

و فيها توفّى الوزير يعقوب بن يوسف بن كلّس أبو الفرج وزير العزيز صاحب مصر. كان يهوديّا من أهل بغداد ثم انتقل إلى الرملة و عمل سمسارا، فانكسر عليه مال فهرب إلى مصر. و تاجر لكافور الإخشيذىّ فرأى منه فطنة، فقال:

لو أسلم لصلح للوزارة، فأسلم؛ فقصده الوزير يوم ذلك، فهرب ابن كلّس هذا إلى المغرب، و ترقّى إلى أن وزّره العزيز صاحب الترجمة سنة خمس و ستين و ثلثمائة.

فاستقامت أمور العزيز بتدبيره إلى أن مات. فلما أشرف على الموت عاده العزيز و عمّه أمره. فقال له العزيز: ودت أنك تباع فاشتريك بملكى أو تفتدى فأفديك بولدى، فهل من حاجة [توصى بها؟] فبكى ابن كلّس و قبّل يده و جعلها على عينيه، ثم أوصى العزيز بوصايا و مات. فصلّى عليه العزيز و ألحده فى قبره بيده فى قبّة فى دار العزيز كان بناها العزيز لنفسه، و أغلق الدواوين بعده أيّاما. و قيل:

إنه كان حسن إسلامه و قرأ القرآن و النحو، و كان يجمع العلماء و الفضلاء. و لمّا مات خلّف شيئا كثيرا. و قيل: إنه كفّن و حنّط بما قيمته عشرة آلاف دينار، قاله الذهبىّ و غيره من المؤرخين، و رثاه مائة شاعر.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أبو القاسم طلحة ابن محمد بن جعفر الشاهد. و أبو عبد اللّه محمد بن أحمد بن محمد بن يحيى بن مفرّج

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۵۹

القرطبىّ قاضى الجماعة. و وزير مصر يعقوب بن يوسف بن كلّس. و أبو بكر محمد ابن عبد الرّحمن بن صبر الحنفىّ المعتزلىّ.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثلاث أذرع سواء. مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و عشرون إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۸۱]

السنة السادسة عشرة من ولاية العزيز نزار على مصر و هى سنة إحدى و ثمانين و ثلثمائة.

فيها خلع الخليفة الطائع عبد الكريم فى تاسع عشر شعبان، و تولّى القادر الخلافة.

و سببه أن أبا الحسين بن المعلّم كان من خواصّ بهاء الدولة فحبسه الطائع؛ و جاء بهاء الدولة إلى دار الخلافة و قد جلس الطائع متقلّدا سيفا. فلمّا قرب [منه] بهاء الدولة قبّل الأرض و جلس على كرسىّ؛ و تقدّم أصحابه فجذبوا الطائع بحمائل سيفه و تكاثروا عليه و لفّوه فى كساء، و حمل فى زبزب فى الدّجلة و أصعد الى دار الملك، و اختلط الناس و ظنّ أكثرهم أنّ القبض على بهاء الدولة، و نهبت دار الخلافة؛ و ماج الناس، إلى أن نودى بخلافة القادر. و كتب على الطائع كتاب بخلع نفسه، و أنه سلّم الأمر إلى القادر بالله؛ فتشغّبت الجند يطلبون رسم البيعة، و تردّدت الرسل بينهم و بين بهاء الدولة، [و منعوا الخطبة باسم القادر]، ثم أرضوهم و سكنوا؛ و أقيمت الخطبة للقادر فى الجمعة الآتية.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۶۰

و القادر هذا ابن عمّ الطائع المخلوع عن الخلافة به. و اسمه أحمد، و كنيته أبو العباس ابن الأمير إسحاق ابن الخليفة جعفر المقتدر. و الطائع الذى خلع اسمه عبد الكريم، و كنيته أبو بكر ابن الخليفة المطيع الفضل ابن الخليفة جعفر المقتدر المذكور؛ حبس و أقام سنين بعد ذلك إلى أن مات. على ما سيأتى ذكره فى محلّه إن شاء اللّه تعالى.

و فيها حجّ بالناس أبو الحسن محمد بن الحسن بن يحيى العلوىّ الشريف أمير الحجّ، [و كذلك] حجّ بالناس عدّة سنين.

و فيها توفّى أحمد بن الحسين بن مهران أبو بكر النّيسابورىّ المقرئ العابد، مصنّف كتاب "الغاية فى القراءات. "قال الحاكم: كان إمام عصره فى القراءات، و كان أعبد من رأينا من القرّاء، و كان مجاب الدعوة. مات فى شوّال و له ستّ و ثمانون سنة.

و فيها توفّى أحمد بن محمد بن الفضل بن جعفر بن محمد بن الجرّاح أبو بكر الخزّاز، كان أديبا فاضلا فارسا شجاعا.

و فيها توفى بكجور التركىّ، ولى إمرة دمشق لأستاذه العزيز صاحب الترجمة، نقل إليها من ولاية حمص. و كان ظالما جبّارا، ساءت سيرته فى ولايته. و لما كثر ظلمه عزله العزيز صاحب مصر و ولّى مكانه منيرا الخادم سنة ثمان و سبعين. فلم

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۶۱

يسلّم بكجور المذكور البلد إلّا بعد قتال، و توجّه إلى جهة حلب؛ ثم قتل بمكان يقال له الناعورة. و كان أصل بكجور المذكور من موالى سعد الدولة بن سيف الدولة بن حمدان.

و فيها توفّى سعد الدولة أبو المعالى شريف بن سيف الدولة علىّ بن عبد اللّه ابن حمدان التّغلبىّ الأمير صاحب حلب و ابن صاحبها فى شهر رمضان. و عهد إلى ولده أبى الفضائل، و وصّى لؤلؤا الكبير به و بولده الآخر أبى الهيجاء. و وقع بينهم و بين العزيز صاحب مصر وقائع و حروب، ذكرناها فى أوّل ترجمة العزيز هذا، و ما وقع له معهم إلى أن مات العزيز.

و فيها توفّى عبد اللّه بن أحمد بن حمّويه بن يوسف بن أعين أبو محمد السّرخسىّ، مولده فى سنة ثلاث و تسعين و مائتين. قال أبو ذرّ: قرأت عليه. و هو صاحب أصول حسان.

و فيها توفّى عبيد اللّه بن عبد الرّحمن بن محمد بن عبيد اللّه بن سعد بن إبراهيم ابن عبد الرّحمن بن عوف أبو الفضل الزّهرىّ العوفىّ، هو إمام مسند كبير القدر.

قال أبو بكر الخطيب: كان ثقة. ولد سنة تسعين و مائتين.

و فيها توفّى محمد بن إبراهيم بن علىّ بن عاصم بن زاذان الحافظ أبو بكر بن المقرئ مسند أصبهان، طاف البلاد و سمع الكثير و روى عنه خلق. قال ابن مردويه:

هو ثقة مأمون صاحب أصول، مات فى شوّال و له ستّ و تسعون سنة.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۶۲

و فيها توفّى عبيد اللّه بن أحمد بن معروف أبو محمد القاضى، ولى القضاء من الجانبين ببغداد، و كانت له منزلة عالية من الخلفاء و الملوک خصوصا من الطائع، و كان من العلماء الثّقات الفضلاء العقلاء.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثلاث أذرع و اثنتا عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و ثلاث و عشرون إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۸۲]

السنة السابعة عشرة من ولاية العزيز نزار على مصر و هى سنة اثنتين و ثمانين و ثلثمائة.

فيها منع أبو الحسين علىّ بن محمد بن المعلّم الكوكبىّ صاحب أمر بغداد الرافضة من أهل الكرخ و باب الطاق من النّوح فى يوم عاشوراء و من تعليق المسوح؛ و كان ذلک يعمل من نحو ثلاثين سنة.

و فيها جلس الخليفة القادر بالتاج و حضر القضاة و الأشراف و الأعيان، و أحضر رسول صاحب المولتان، فذكر الرسول رغبة مرسله فى الإسلام و الدخول فيه برعيّته، و سأل أن ينفذ إليه الخليفة من يعلّمهم السنن و الفرائض و الشرائع و الحدود؛ فكتب على يده كتابا و وعد بكلّ جميل، و سرّ الناس بذلک غاية السرور.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۶۳

و فيها شغب الديلم و الترک و الجند على بهاء الدولة و طلبوا منه تسليم أبى الحسين ابن المعلّم، و كان ابن المعلّم قد استولى على بهاء الدولة و حكم عليه و قصّر فى حقّ الجند؛ فامتنع بهاء الدولة من تسليمه؛ ثم غلب و سلّمه لخاله شيرزيل، فسقاه السمّ مرّتين فلم يعمل فيه، فخنقه بحبل الستارة حتى مات و دفنه.

و فيها غلت الأسعار ببغداد، فبيع رطل الخبز بأربعين درهما، و الجوزة بدرهم.

و فيها حجّ بالناس محمد بن الحسن العلوىّ.

و فيها توفى أحمد بن علىّ بن عمر أبو الحسين الحريرىّ. ولد سنة اثنتين و ثلثمائة، و هو غير صاحب المقامات. أخرج له الخطيب حديثا من حديث أبى هريرة قال:

قال رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم ": يقول اللّه تعالى: أنا ثالث الشريكين ما لم يخن أحدهما صاحبه فإذا خانه خرجت من بينهما."

و مات أبو الحسين فى شهر رمضان.

و فيها توفّى عبد اللّه بن محمد بن عبد الوهّاب أبو سعيد الرازىّ القرشىّ الصوفىّ نزيل نيسابور، كان كالرّيحانة بين الصوفيّة، سيّدا ثقة.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أبو أحمد الحسن بن عبد اللّه بن سعيد العسكرىّ فى ذى الحجة. و أبو القاسم عبد اللّه بن أحمد بن محمد بن يعقوب النّسائىّ الشافعىّ راوى مسند الحسن بن سفيان عنه. و أبو سعيد عبد اللّه ابن محمد بن عبد الوهّاب الرازىّ و له أربع و تسعون سنة. و أبو عمر محمد بن العباس ابن حيّويه الخزّاز فى [شهر] ربيع الآخر عن سبع و ثمانين سنة.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۶۴

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و اثنتا عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و ثمانى عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۸۳]

السنة الثامنة عشرة من ولاية العزيز نزار على مصر و هى سنة ثلاث و ثمانين و ثلثمائة.

فيها تزوّج الخليفة القادر بالله سكينة بنت بهاء الدولة على صداق مائة ألف دينار؛ فماتت قبل الدخول بها.

و فيها عظم الغلاء حتى بلغ ثمن كرّ القمح ببغداد ستة آلاف درهم و ستمائة درهم غياثىّ، و الكارة الدقيق مائتين و ستّين درهما.

و فيها ابتنى الوزير أبو نصر سابور بن أردشير دارا بالكرخ سمّاها "دار العلم "و وقفها على العلماء و نقل إليها كتبا كثيرة.

و فيها توفّى أحمد بن إبراهيم بن الحسن بن شاذان الحافظ أبو بكر البزّاز، ولد فى شهر ربيع الأول سنة ثمان و تسعين و مائتين، و مات فى شوّال ببغداد.

و كان ثبتا ثقة صاحب أصول. قيل له: أسمعت من الباغندىّ شيئا؟ قال:

لا أعلم؛ ثمّ وجد سماعه منه، فلم يحدّث به تورّعا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۶۵

و فيها توفّى جعفر بن عبد اللّه بن يعقوب أبو القاسم الرازىّ. روى عن محمد ابن هارون الرّويانىّ مسنده، و سمع عبد الرّحمن بن أبى حاتم و جماعة. قال أبو يعلى الخليل: موصوف بالعدالة و حسن الديانة، و هو آخر من روى عن الرّويانىّ.

و فيها توفّى عبد اللّه بن عطيّة بن عبد اللّه بن حبيب أبو محمد المقرئ الدمشقىّ المفسّر العدل إمام مسجد عطيّة داخل باب الجابية. كان يحفظ خمسين ألف بيت من شعر العرب فى الاستشهادات على معانى القرآن و اللغة. مات بدمشق فى شوال. و من شعره قوله:

[الكامل]

احذر مودّة ماذق مزج المرارة بالحلاوه

يحصى الذنوب عليك أيّام الصداقة للعداوه

و فيها توفّى عبد اللّه بن محمد بن [القاسم بن] حزم أبو محمد الأندلسىّ القلعىّ من أهل قلعة أيّوب. رحل إلى مصر و الشام و العراق سنة خمسين و ثلثمائة، و سمع الكثير و عاد إلى الأندلس، و صنّف الكتب. و كانوا يشبّهونه بسفيان الثورىّ فى الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر. و مات فى شهر ربيع الآخر و له ثلاث و ستون سنة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۶۶

و فيها توفّى محمد بن صالح بن محمد بن سعد أبو عبد اللّه الأندلسىّ الفقيه المالكىّ، سمع بمصر و الشام و الجزيرة و بغداد، ثم أقام ببخارى حتّى مات بها فى شهر رجب.

و كان فاضلا أديبا ثقة. و من شعره:

[الكامل]

ودّعت قلبى ساعة التوديع و أطعت قلبى و هو غير مطيعى

إن لم أشيّعهم فقد شيّعتهم بمشيّعين: حشاشىّ و دموعى

و فيها توفّى نصر بن محمد بن أحمد بن يعقوب أبو الفضل الطوسىّ العطّار الصوفىّ الحافظ، أحد أركان الحديث بخراسان مع الدّين و الزّهد و السخاء و العفّة.

و قد سافر إلی العراق و مصر و الشام و الحجاز، و جمع من الحديث ما لم يجمعه أحد، و صنّف الكتب. و مات و هو ابن ثلاث و سبعين سنة.

أمر النيل فی هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و ثماني عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و إحدى و عشرون إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۸۴]

السنة التاسعة عشرة من ولاية العزيز نزار على مصر و هی سنة أربع و ثمانين و ثلثمائة.

فيها تزوّج مهذّب الدولة علیّ بن نصر ببنت بهاء الدولة بن بويه، و عقد أيضا للأمير أبی منصور بن بهاء الدولة على بنت مهذّب الدولة، كلّ صداق مائة ألف دينار.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۶۷

و فيها سار صمصام الدولة بن عضد الدولة من شيراز يريد الأهواز، فخرج بهاء الدولة من بغداد و نزل واسطا، و أرسل جيشا لقتال صمصام الدولة بن بويه، فالتقوا مع صمصام الدولة و انتصروا عليه.

و فيها عزل الشريف أبو أحمد الموسویّ عن نقابة الطالبيّين، و صرف ولداه الرضی و المرتضی عن النيابة عنه، و تولّى عوضه الشريف الزينبیّ.

و فيها رجع الحاجّ إلى بغداد، و لم يحجّ أحد من العراق خوفا من القرامطة.

و فيها توفّی إبراهيم بن هلال أبو إسحاق الصابئ صاحب الرسائل؛ كان فاضلا شاعرا، نكب غير مرّة بسبب رسائله. و مولده فی شهر رمضان سنة ثلاث عشرة و ثلثمائة، و مات فی هذه السنة، و دفن بالشّونيزيّة. و رثاه الشريف الرضی الموسویّ بقصيدته الدالية التی أوّلها: [الكامل]

أ رأيت من حملوا على الأعواد أ رأيت كيف خبا ضياء النادی

و عاتبه الناس فی ذلک لكونه شريفا و رثی صابئا؛ فقال: إنما رثيت فضله.

قال ابن خلكان: و جهد فيه عزّ الدولة أن يسلم فلم يفعل. و كان يصوم شهر رمضان مع المسلمين و يحفظ القرآن الكريم أحسن حفظ.

و فيها توفّی عبد اللّه بن محمد بن نافع بن مكرم أبو العباس البستیّ الزاهد، كان ورث من آبائه أموالا عظيمة أنفقها على الفقهاء و الفقراء، أقام سبعين سنة لا يستند إلى جدار و لا إلى غيره، و مات فی المحرّم.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۶۸

و فيها توفّی علیّ بن عيسى بن علیّ الإمام أبو الحسن الرّمّانیّ النحویّ. مولده سنة ستّ و تسعين و مائتين، و برع فی علم النحو و اللغة و الأصول و التفسير و غيرها.

و له كتاب "التفسير الكبير، "و هو كثير الفوائد إلا أنه صرّح فيه بالاعتزال؛ و سلک الزمخشریّ سبيله و زاد عليه. مات ببغداد و دفن بالشّونيزيّة.

و فيها توفّی محمد بن العبّاس بن أحمد بن محمد الحافظ أبو الحسن بن الفرات، ولد سنة تسع عشرة و ثلثمائة، و كتب الكثير، و جمع ما لم يجمعه أحد من أقرانه؛ و كان عنده عن علیّ بن محمد المصریّ وحده ألف جزء، و كتب مائة تفسير و مائة تاريخ، و خلّف ثمانية عشر صندوقا مملوءة كتبا غير ما سرق منه، و أكثرها بخطّه.

و كانت له جارية تعارض معه بما يكتبه. و مات ببغداد فى شوّال، و كان مأمونا ثقة. انتهى كلام صاحب مرآة الزمان.

و فيها توفّى محمد بن عمران بن موسى بن عبيد اللّه أبو عبد اللّه الكاتب المرزبانى، كان صاحب أخبار و روايات للآداب، و صنّف كتبا فى فنون العلوم. و كان أبو علىّ الفارسىّ يقول عنه: هو من محاسن الدنيا.

و فيها توفّى المحسّن بن علىّ بن محمد بن أبى الفهم القاضى أبو علىّ التّنوخىّ مصنّف كتاب "الفرج بعد الشدّة. "مولده سنة سبع و عشرين و ثلثمائة بالبصرة.

و كان أديبا شاعرا. تقلّد القضاء بسرّمن‌رأى، و مات ببغداد فى المحرّم.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۶۹

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و اثنتان و عشرون إصبعا. مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و سبع أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۸۵]

السنة العشرون من ولاية العزيز نزار على مصر و هى سنة خمس و ثمانين و ثلثمائة.

فيها تحرّكت القرامطة على البصرة، فجهّز بهاء الدولة إليهم جيشا فرجعوا عنها.

و فيها زلزلت الدنيا زلزلة عظيمة، مات فيها تحت الهدم خلق كثير.

و فيها أمر صمصام الدولة بقتل من كان بفارس من الأتراك، كلّ ذلك و لم ينتج أمر صمصام الدولة.

و فيها توفّى طغان صاحب بهاء الدولة الذى كان ندبه لقتال صمصام الدولة بشيراز.

و فيها حجّ بالناس أحمد بن محمد بن عبد اللّه العلوىّ من العراق، و بعث بدر بن حسنويه الكردىّ خمسة آلاف دينار إلى الأصفر الأعرابىّ الذى كان يقطع الطريق على الحاجّ عوضا عما كان يأخذه من الحاجّ، و جعل ذلك رسما عليه فى كل سنة من ماله، رحمه اللّه.

و فيها توفّى الوزير الصاحب إسماعيل بن عبّاد بن العباس أبو القاسم وزير مؤيّد الدولة بن ركن الدولة الحسن بن بويه، ثمّ وزر لأخيه فخر الدولة. كان أصله

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۷۰

من الطالقان، و كان نادرة زمانه و أعجوبة عصره فى الفضائل و المكارم. أخذ الأدب عن الوزير أبى الفضل بن العميد وزير ركن الدولة بن بويه، و سمع الحديث من أبيه و من غير واحد، و حدّث باليسير. و هو أوّل وزير سمّى بالصاحب لأنه صحب مؤيد الدولة من الصّبا فسمّاه الصاحب، فغلب عليه، ثمّ سمّى به كلّ من ولى الوزارة حتى حرافيش زماننا حملة اللحم و أخذة المكوس! و قيل: إنه كان يصحب ابن العميد فقيل له صاحب ابن العميد، ثم خفّف فقيل الصاحب. و لمّا ولى الوزارة قال فيه أبو سعيد الرّستمىّ:

[الكامل]

ورث الوزارة كابرا عن كابر موصولة الإسناد بالإسناد

يروى عن العباس عبّاد وزا رته و إسماعيل عن عبّاد

و لمّا مات مؤيّد الدولة تولّى السلطنة أخوه فخر الدولة، فأقرّ الصاحب هذا على وزارته؛ فعظم أمره أكثر ما كان؛ و بقى فى الوزارة ثمانية عشر عاما، و فتح خمسين قلعة و سلّمها إلى فخر الدولة. و كان عالما بفنون كثيرة. و أما الشعر فإليه المنتهى فيه. و من شعره:

[الكامل]

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۷۱

رقّ الزّجاج و راقت الخمر و تشابها فتشا کل الأمر

فکأنما خمر و لا قدح و کأنّما قدح و لا خمر

و له القصیدة التی أوّلها:

[الوافر]

تبسّم إذ تبسّم عن أقاحی و أسفر حین أسفر عن صباح

و قیل: إنّ القاضی العمیریّ أرسل الی الصاحب کتبا کثیرة، و کتب معها یقول:

[الخفیف]

العمیریّ عبد کافی الکفاة و إن اعتدّ فی وجوه القضاة

خدم المجلس الرفیع بکتب مفعمات من حسنها مترعات

فأخذ منها الصاحب بن عبّاد کتابا واحدا، و کتب معها:

قد قبلنا من الجمیع کتابا ورددنا لوقتها الباقیات

لست أستغنم الکثیر فطبعی قول «خذ» لیس مذهبی قول «هات»

و مات الصاحب بالرّیّ عشیّة لیلة الخمیس خامس عشرین صفر، و أغلقت له مدینة الرّیّ، و حضر مخدومه فخر الدولة و جمیع أعیان مملکته، و قد غیّروا لباسهم.

فلمّا خرج نعشه صاح الناس صیحة واحدة، و قبّلوا الأرض لنعشه، و مشی فخر الدولة أمام نعشه، و قعد للعزاء أیّاما، و رثاه الشعراء بعدّة قصائد.

قلت: و أخبار ابن عبّاد کثیرة، و قد استوعبنا أمره فی کتاب «الوزراء».

و لیس هذا محلّ الإطناب فی التراجم سوی تراجم ملوک مصر التی بسببها صنّف هذا الکتاب.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۷۲

و فیها توفّی علیّ بن عمر بن أحمد بن مهدیّ بن مسعود بن النعمان بن دینار بن عبد اللّه أبو الحسن البغدادیّ الدّارقطنیّ، الحافظ المشهور صاحب التصانیف.

سمع من أبی القاسم البغویّ و خلق کثیر ببغداد و الکوفة و البصرة و واسط، و رحل فی کهولته الی الشام و مصر، فسمع القاضی أبا الطاهر الذّهلیّ و طبقته؛ و روی عنه أبو حامد الإسفراینی و أبو عبد اللّه الحاکم و عبد الغنی بن سعید المصریّ و خلق سواهم قال الخطیب أبو بکر: کان الدارقطنیّ فرید عصره، و وحید دهره، و نسیج وحده، و إمام وقته؛ انتهی إلیه علم الأثر و المعرفة بعلل الحدیث و أسماء الرجال [و أحوال الرواة]، مع الصّدق و الثقة، و صحة الاعتقاد. و کانت وفاته فی ثامن ذی القعدة.

و فیها توفّی عمر بن أحمد بن عثمان بن أحمد بن أیوب بن أزداد الشیخ أبو حفص بن شاهین الحافظ الواعظ محدّث بغداد و مفیدها، سمع الکثیر و حدّث؛ و مولده سنة سبع و تسعین و مائتین. قال ابن ماکولا: کان ثقة مأمونا، سمع بالشام و العراق و البصرة و فارس، و جمع الأبواب و التراجم، و صنّف کثیرا.

و فیها توفی أبو الحسن عبّاد بن العباس والد الصاحب بن عبّاد المقدّم ذکره، مات بعد ابنه بمدّة یسیرة. و کان فاضلا جلیلا، سمع الحدیث، و صنّف کتاب "أحکام القرآن. "و قد تقدّم أن أصلهم من «الطّالقان» و هی قریة کبیرة بین قزوین و أبهر، و حولها عدّة قری؛ و قیل: هو إقلیم یقع علیه هذا الاسم. و بخراسان مدینة یقال لها «طالقان» غیر هذه.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۷۳

و فیها توفّی بشر بن هارون أبو نصر النصرانیّ الکاتب، کان شاعرا هجّاء خبیث اللسان کتب مرّة إلی إبراهیم الصابئ:

[السريع]

حضرت بالجسم و قد كنت بالن فس و إن لم ترنى حاضرا

أنطقنى بالشعر حبّى لكم و لم أكن من قبلها شاعرا

فكتب إليه الصابئ تحت خطّه: «و لا بعدها».

و فيها توفّى الحسن بن حامد بن الحسن بن حامد بن الحسن بن حامد أبو محمد الأديب الشاعر، كان فاضلا يتّجر و له مال كثير. و لمّا قدم المتنبّى بغداد خدمه؛ فقال له المتنبى: لو كنت مادحا تاجرا لمدحتك.

و فيها توفّى عقيل بن محمد أبو الحسن الأحنف العكبرىّ الأديب الشاعر.

و من شعره:

[الرمل]

من أراد الملك و الرا حة من همّ طويل

فليكن فردا من النا س و يرضى بالقليل

و فيها توفّى محمد بن عبد اللّه بن سكّرة أبو الحسن الهاشمىّ البغدادىّ الشاعر المشهور، و يعرف بابن رابطة. هو من ولد علىّ بن المهدىّ من بنى العباس.

كان شاعرا ظريفا فصيحا؛ و شعره فى غاية الجودة و الرقّة. من ذلك قوله:

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۷۴

[المنسرح]

فى وجه إنسانة كلفت بها أربعة ما اجتمعن فى أحد

الوجه بدر و الصّدغ غالية و الرّيق خمر و الثغر من برد

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثلاث أذرع و خمس عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و سبع أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۸۶]

اشارة

السنة الحادية و العشرون من ولاية العزيز يزار على مصر- و فيها مات- و هى سنة ستّ و ثمانين و ثلثمائة.

فيها فى المحرّم ادّعى أهل البصرة أنهم كشفوا عن قبر عتيق فوجدوا فيه ميتا [طريّا] بثيابه و سيفه، و أنه الزّبير بن العوّام؛ فأخرجوه و كفّنوه و دفنوه بالمربد؛ و بنى عليه أبو المسك عنبر بناء و جعله مشهدا، و أوقف عليه أوقافا و نقل إليه القناديل و الآلات. قال الذهبىّ: فاللّه أعلم من ذلك الميّت.

و فيها توفّى أحمد بن علىّ بن أحمد أبو علىّ المدائنى، و يلقب بالهائم. روى عن السّرىّ الرفّاء ديوان شعره. و كان شاعرا ماهرا. و من شعره فى كوسج:

[المنسرج]

وجه اليمانىّ من تأمّله أبصر فيه الوجود و العدما

قد شاب عثنونه و شاربه و عارضاه لم يبلغا الحلما

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۷۵

و فيها توفّى محمد بن علىّ بن عطيّة أبو طالب الحارثىّ، مصنّف كتاب "قوت القلوب. " كان من أهل الجبل و نشأ بمكة و تزهّد، و كان له لسان حلو فى الوعظ و التصوّف.

و فيها توفى محمد بن إبراهيم بن أحمد أبو بكر السّوسىّ شيخ الصوفيّة بدمشق، كان زاهدا عابدا، ما عقد على درهم و لا دينار، و لا اغتسل من حلال و لا حرام، حدّث عن أحمد بن عطاء الرّوذبارىّ و أقرانه، و لقى المشايخ.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أبو حامد أحمد بن عبد اللّه النّعيمىّ بهراة فى شهر ربيع الأوّل. و أبو أحمد عبد اللّه بن الحسين بن حسنون السّامرّىّ. و أبو أحمد عبيد اللّه بن يعقوب بن إسحاق الأصبهانى، روى عن جدّه مسند أحمد بن منيع. و أبو الحسن علىّ بن عمر الحربىّ السّكّرى فى شوّال و له تسعون سنة. و أبو عبد اللّه الختن شيخ الشافعيّة محمد بن الحسن الأسترآباذى.

و أبو طالب محمد بن علىّ بن عطيّة المكىّ صاحب "القوت "فى جمادى الآخرة.

و العزيز نزار بن المعزّ العبيدىّ فى رمضان عن ثلاث و أربعين سنة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۷۶

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثلاث أذرع و خمس أصابع. مبلغ الزيادة خمس عشرة ذراعا و ثلاث و عشرون إصبعا.

ذكر ولاية الحاكم بأمر اللّه على مصر

هو أبو علىّ منصور الحاكم بأمر اللّه بن العزيز بالله نزار بن المعزّ بالله معدّ بن المنصور بالله إسماعيل بن القائم بأمر اللّه محمد بن المهدىّ عبيد اللّه، العبيدىّ الفاطمىّ المغربىّ الأصل، المصرىّ المولد و الدار و المنشأ، الثالث من خلفاء مصر من بنى عبيد و السادس منهم ممن ولى من أجداده بالمغرب، و هم: المهدىّ و القائم و المنصور المقدّم ذكرهم.

مولده يوم الخميس لأربع ليال بقين من شهر ربيع الأوّل سنة خمس و سبعين و ثلثمائة بالقاهرة؛ و قيل: فى الثالث و العشرين منه. و ولّاه أبوه العزيز عهد الخلافة فى شعبان سنة ثلاث و ثمانين و ثلثمائة، و بويع بالخلافة يوم مات أبوه يوم الثلاثاء لليلتين بقيتا من شهر رمضان سنة ستّ و ثمانين و ثلثمائة؛ فولى الخلافة و له إحدى عشرة سنة و نصف، و قيل: عشر سنين و نصف و ستّة أيام، و قيل غير ذلك.

قال العلّامة أبو المظفّر بن قزأوغلى فى تاريخه: «و كانت خلافته متضادّة بين شجاعة و إقدام، و جبن و إحجام، و محبّة للعلم و انتقام من العلماء، و ميل الى الصلاح و قتل الصلحاء. و كان الغالب عليه السخاء؛ و ربّما بخل بما لم يبخل به أحد قطّ.

و أقام يلبس الصوف سبع سنين، و امتنع من دخول الحمام؛ و أقام سنين يجلس فى الشمع ليلا و نهارا، ثمّ عنّ له أن يجلس فى الظّلمة فجلس فيها مدّة. و قتل من العلماء و الكتّاب و الأماثل ما لا يحصى؛ و كتب على المساجد و الجوامع سبّ أبى بكر و عمر و عثمان و عائشة و طلحة و الزّبير و معاوية و عمرو بن العاص رضى اللّه عنهم

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۷۷

فى سنة خمس و تسعين و ثلثمائة، ثمّ محاه فى سنة سبع و تسعين؛ و أمر بقتل الكلاب و بيع الفقّاع، ثم نهى عنه؛ و رفع المكوس عن البلاد و عمّا يباع فيها؛ و نهى عن النجوم، و كان ينظر فيها؛ و نفى المنجّمين و كان يرصدها؛ و يخدم زحل و طالعه المرّيخ، و لهذا كان يسفك الدّماء. و بنى جامع القاهرة، و جامع راشدة على النيل بمصر، و مساجد كثيرة، و نقل إليها المصاحف المفضّضة و الستور الحرير و قناديل الذهب و الفضّة؛ و منع من صلاة التراويح عشر سنين، ثم أباحها؛ و قطع الكروم و منع من بيع العنب، و لم يبق فى

ولایته کرما؛ و أراق خمسة آلاف جرّة من عسل فی البحر خوفا من أن تعمل نبیذا؛ و منع النساء من الخروج من بیوتهنّ لیلا و نهارا؛ و جعل لأهل الذمّة علامات یعرفون بها، و ألبس الیهود العمائم السّود، و أمر ألّا یرکبوا مع المسلمین فی سفینة، و ألّا یستخدموا غلاما مسلما، و لا یرکبوا حمار مسلم، و لا یدخلوا مع المسلمین حمّاما، و جعل لهم حمامات علی حدة؛ و لم یبق فی ولایته دیرا و لا کنیسة إلّا هدمها؛ و نهی عن تقبیل الأرض بین یدیه و الصلاة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۷۸

علیه فی الخطب و المکاتبات؛ و جعل مکان الصلاة علیه: السلام علی أمیر المؤمنین، ثمّ رجع عن ذلک؛ و أسلم خلق من أهل الذّمّة خوفا منه ثم ارتدّوا؛ و أعاد الکنائس إلی حالها». انتهی کلام أبی المظفر.

قال الحافظ أبو عبد اللّه الذهبیّ فی تاریخه: «کان جوادا سمحا، خبیثا ماکرا، ردیء الاعتقاد، سفّاکا للدّماء؛ قتل عددا کبیرا من کبراء دولته صبرا؛ و کان عجیب السیرة، یخترع کلّ وقت أمورا و أحکاما یحمل الرعیّة علیها؛ فأمر بکتب سبّ الصحابة علی أبواب المساجد و الشوارع، و أمر العمّال بالسبّ فی الأقطار فی سنة خمس و تسعین و ثلثمائة، و أمر بقتل الکلاب فی مملکته و بطّل الفقّاع و الملوخیّا؛ و نهی عن السمک، و ظفر بمن باع ذلک فقتلهم؛ و نهی فی سنة اثنتین و أربعمائة عن بیع الرطب ثمّ جمع منه شیئا عظیما فأحرق الکلّ؛ و منع من بیع العنب و أباد کثیرا من الکروم؛ و أمر النصاری بأن تعمل فی أعناقهم الصّلبان، و أن یکون طول الصلیب ذراعا و زنته خمسة أرطال بالمصریّ؛ و أمر الیهود أن یحملوا فی أعناقهم قرامی الخشب فی زنة الصلبان أیضا، و أن یلبسوا العمائم السّود، و لا یکتروا من مسلم بهیمة، و أن یدخلوا الحمّام بالصّلبان، ثمّ أفرد لهم حمّامات. و فی العام أمر بهدم الکنیسة المعروفة بالقمامة. و لّما أرسل إلیه ابن بادیس ینکر علیه أفعاله، أراد استمالته فأظهر التفقه و حمل فی کمّه الدفاتر و طلب إلیه فقیهین و أمر هما بتدریس مذهب مالک فی الجامع؛ ثمّ بدا له فقتلهما صبرا؛ و أذن للنصاری الذین أکرههم إلی الإسلام فی الرجوع إلی الشّرک. و فی سنة أربع و أربعمائة منع النساء من الخروج

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۷۹

فی الطریق، و منع من عمل الخفاف لهنّ؛ فلم یزلن ممنوعات سبع سنین و سبعة أشهر حتّی مات. ثمّ إنّه بعد مدّة أمر ببناء ما کان أمر بهدمه من الکنائس. و کان أبوه العزیز قد ابتدأ ببناء جامعه الکبیر بالقاهرة (یعنی الذی هو داخل باب النصر) فتمّمه هو. و کان علی بنائه و نظره الحافظ عبد الغنی بن سعید. و کان الحاکم یفعل الشیء ثمّ ینقضه. و خرج علیه أبو رکوة الولید بن هشام العثمانیّ الأمویّ الأندلسیّ بنواحی برقة فمال إلیه خلق عظیم؛ فجهّز الحاکم لحربه جیشا فانتصر علیهم أبو رکوة و ملک؛ ثمّ تکاثروا علیه و أسروه؛ و یقال: إنه قتل من أصحابه مقدار سبعین ألفا.

و حمل أبو رکوة إلی الحاکم فذبحه فی سنة سبع و تسعین». انتهی کلام الذهبیّ باختصار.

قلت: و نذکر واقعته مع عسکر الحاکم و کیف ظفر به الحاکم و قتله مفصّلا فی سنة سبع و تسعین المذکورة فی الحوادث بأوسع من هذا، إن شاء اللّه تعالی؛ لأن قصّته غریبة فتنظر هناک.

و قال ابن خلّکان: «و کان أبو الحسن علیّ المعروف بابن یونس المنجّم قد صنع له "الزّیج "المعروف بالحاکمیّ و هو زیج کبیر مبسوط. قال: نقلت من خطّ الحافظ أبی طاهر أحمد بن محمد السّلفیّ رحمه اللّه تعالی أن الحاکم المذکور کان جالسا فی مجلسه العام و هو حفل بأعیان دولته، فقرأ بعض الحاضرین:

(فَلا وَ رَبِّکَ لا یُؤْمِنُونَ حَتَّی یُحَکِّمُوکَ فِیما شَجَرَ بَیْنَهُمْ ثُمَّ لا یَجِدُوا فِی أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَیْتَ وَ یُسَلِّمُوا تَسْلِیماً)، و القارئ فی أثناء ذلک کلّه یشیر إلی الحاکم. فلمّا

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۸۰

فرغ من القراءة قرأ شخص یعرف بابن المشجّر (و المشجّر بضم المیم و فتح الشین المعجمة و الجیم المشدّدة و بعدها راء مهملة) و

كان ابن المشجّر رجلا صالحا فقرأ:

(يا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُباباً وَ لَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَ إِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَ الْمَطْلُوبُ ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ). فلمّا انتهت قراءته تغيّر وجه الحاكم، ثمّ أمر لابن المشجّر المذكور بمائة دينار، و لم يطلق للآخر شيئا. ثمّ إنّ بعض أصحاب ابن المشجّر، قال له: أنت تعرف خلق الحاكم و كثرة استحالاته و ما تأمن أن يحقد عليك [و أنّه لا يؤاخذك فى هذا الوقت] ثم يؤاخذك بعدها فالمصلحة عندى أن تغيب عنه. فتجهّز ابن المشجّر إلى الحجّ و ركب فى البحر و غرق. فرآه صاحبه فى النوم [فسأله عن حاله] فقال: ما قصّر الرّبان معنا، أرسى بنا على باب الجنّة». انتهى كلام ابن خلكّان رحمه اللّه.

و قال ابن الصابئ: «كان الحاكم يواصل الركوب ليلا و نهارا، و يتصدّى له الناس على طبقاتهم، فيقف عليهم و يسمع منهم، فمن أراد قضاء حاجته قضاها فى وقته، و من منعه سقطت المراجعة فى أمره. و كان المصريّون موتورين منه؛

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۸۱

فكانوا يدسّون إليه الرّقاع المختومة بالدعاء عليه و السبّ له و لأسلافه، و الوقوع فيه و فى حرمه، حتى انتهى فعلهم الى أن عملوا تمثال امرأة من قراطيس بخفّ و إزار، و نصبوها فى بعض الطّرق و تركوا فى يدها رقعة كأنها ظلامة؛ فتقدّم الحاكم و أخذها من يدها. فلمّا فتحها رأى فى أوّلها ما استعظمه، فقال: انظروا هذه المرأة من هى؟ فقيل له: إنها معمولة من قراطيس؛ فعلم أنهم قد سخروا منه، و كان فى الرقعة كلّ قبيح. فعاد من وقته إلى القاهرة، و نزل فى قصره و استدعى القوّاد و العرفاء، و أمرهم بالمسير إلى مصر و ضربها بالنار و نهبها، و قتل من ظفروا به من أهلها؛ فتوجّه إليها العبيد و الروم و المغاربة و جميع العساكر. و علم أهل مصر بذلك فاجتمعوا و قاتلوا عن نفوسهم، و أوقعوا النار فى أطراف البلد؛ فاستمرّت الحرب بين العبيد و العامّة و الرعيّة ثلاثة أيّام، و الحاكم يركب فى كلّ يوم إلى القرافة، و يطلع إلى الجبل و يشاهد النار و يسمع الصّياح و يسأل عن ذلك، فيقال له: العبيد يحرقون مصر و ينهبونها، فيظهر التوجّع، و يقول: لعنهم اللّه! من أمرهم بهذا. فلمّا كان اليوم الرابع اجتمع الأشراف [و الشيوخ] إلى الجوامع و رفعوا المصاحف و ضجّوا بالبكاء و ابتهلوا إلى اللّه تعالى بالدعاء، فرحمهم الأتراك ورّقوا لهم و انحازوا اليهم و قاتلوا معهم، و كان أكثرهم مخالطا لهم و مداخلا و مصاهرا، و انفرد العبيد و صار القتال معهم؛ و عظمت القصّة و زادت الفتنة، و استظهرت كتامة و الأتراك عليهم، و راسلوا الحاكم، و قالوا: نحن عبيد و مماليك، و هذا البلد بلدك و فيه حرمنا و أموالنا و أولادنا و عقارنا، و ما علمنا أنّ أهله جنوا جناية تقتضى سوء المقابلة، و تدعو إلى مثل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۸۲

هذه المعاملة. فإن كان هناك باطن لا نعرفه فأخبرنا به، و انتظرنا حتّى نخرج بعيالنا و أموالنا منه. و إن كان ما عليه هؤلاء العبيد مخالفا لرأيك فأطلقنا فى معاملتهم بما يعامل به المفسدون و المخالفون. فأجابهم بأنه ما أراد ذلك، و لعن الفاعل له و الآمر به، و قال: أنتم على الصواب فى الذبّ عن المصريّين، و قد أذنت لكم فى نصرتهم، و الإيقاع بمن تعرّض لهم. و أرسل إلى العبيد سرّا يقول: كونوا على أمركم؛ و حمل إليهم سلاحا قوّاهم به. و كان غرضه فى هذا أن يطرح بعضهم على بعض، و ينتقم من فريق بفريق. و علم القوم بما يفعل، فراسلته كتامة و الأتراك:

قد عرفنا غرضك، و هذا هلاك هذه البلدة و أهلها و هلا كنا معهم؛ و ما يجوز أن نسلّم نفوسنا و المسلمين لفتك الحريم و ذهاب المهج. و لئن لم تكفّهم لنحرقنّ القاهرة، و نستنفرنّ العرب و غيرهم؟ فلمّا سمع الرسالة. و كانوا قد استظهروا على العبيد.

ركب حماره و وقف بين الصّفّين و أوما للعبيد بالانصراف فانصرفوا، و استدعى كتامة و الأتراك و وجوه المصريّين و اعتذر إليهم، و حلف أنه برىء مما فعله العبيد؛ و كذب فى يمينه؛ فقبّلوا الأرض بين يديه و شكروه، و سألوه الأمان لأهل مصر، فكتب لهم، و قرئ الأمان على المنابر، و سكنت الفتنة و فتح الناس أسواقهم و راجعوا معايشهم. و احترق من مصر مقدار ثلثها، و نهب نصفها. و تتبع

المصريّون من أخذ أزواجهم و بناتهم و أخواتهم، و ابتاعوهنّ من العبيد بعد أن فضحوهنّ، و قتل بعضهنّ نفوسهنّ خوفا من العار. و استغاث قوم من العلويّين الأشراف إلى الحاكم، و ذكروا أنّ بعض بناتهم فى أيدى العبيد على أسوأ حال، و سألوه أن يستخلصهنّ؛ فقال الحاكم: [انظروا] ما يطالبونكم به عنهنّ لأطلقه لكم؛

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۸۳

فقال له بعضهم: أراك اللّه فى أهلك و ولدك مثل ما رأينا فى أهلنا و أولادنا، فقد اطّرحت الدّيانة و المروءة بأن رضيت لبنات عمّك بمثل هذه الفضيحة، و لم يلحقك منهنّ امتعاض و لا- غيرة. فحلم عنه الحاكم و قال له: أنت أيها الشريف محرج و نحن حقيقون باحتمالك و إلا- غضبنا عليك و زاد الأمر على الناس فيما يفجؤهم به حالا بعد حال من كلّ ما تنخرق به العادات و تفسد الطاعات.

ثم عنّ له أن يدّعى الرّبوبيّة، و قرّب رجلا يعرف بالأخرم ساعده على ذلك؛ و ضمّ إليه طائفة بسطهم للأفعال الخارجة عن الدّيانة. فلمّا كان فى بعض الأيام خرج الأخرم من القاهرة راكبا فى خمسين رجلا من أصحابه، و قصد مصر و دخل الجامع راكبا دابّته، و معه أصحابه على دوابّهم و قاضى القضاة ابن [أبى] العوّام جالس فيه ينظر فى الحكم، فنهبوا الناس و سلبوهم ثيابهم و سلّموا للقاضى رقعة فيها فتوى، و قد صدّرت باسم الحاكم الرّحمن الرّحيم. فلمّا قرأها القاضى رفع صوته منكرا، و استرجع و ثار الناس بالأخرم و قتلوا أصحابه و هرب هو. و شاع الحديث فى دعواه الرّبوبيّة، و تقرّب إليه جماعة من الجهّال، فكانوا إذا لقوه قالوا: السلام عليك يا واحد يا أحد يا محيى يا مميت، و صارت له دعاة يدعون أوباش الناس، و من سخف عقله إلى اعتقاد ذلك، فمال إليه خلق [كثير] طمعا فى الدنيا و التقرّب اليه. و كان اليهودىّ و النّصرانىّ إذا لقيه يقول: إلهى قد رغبت فى شريعتى الأولى، فيقول الحاكم: افعل ما بدا لك، فيرتدّ عن الإسلام. و زاد هذا الأمر بالناس.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۸۴

و قال الشيخ شمس الدين فى تاريخه مرآة الزمان: «رأيت فى بعض التواريخ بمصر أنّ رجلا يعرف بالدّرزىّ قدم مصر، و كان من الباطنيّة القائلين بالتناسخ؛ فاجتمع بالحاكم و ساعده على ادّعاء الربوبيّة و صنّف له كتابا ذكر فيه أنّ روح آدم عليه السلام انتقلت إلى علىّ بن أبى طالب، و أن روح علىّ انتقلت الى أبى الحاكم، ثمّ انتقلت إلى الحاكم. فنفق على الحاكم و قرّبه و فوّض الأمور إليه، و بلغ منه أعلى المراتب، بحيث إنّ الوزراء و القوّاد و العلماء كانوا يقفون على بابه و لا- ينقضى لهم شغل إلّا على يده. و كان قصد الحاكم الانقياد الى الدرزى المذكور فيطيعونه.

فأظهر الدّرزىّ الكتاب الذى فعله و قرأه بجامع القاهرة؛ فثار الناس عليه و قصدوا قتله، فهرب منهم؛ و أنكر الحاكم أمره خوفا من الرعيّة، و بعث إليه فى السرّ مالا، و قال: اخرج إلى الشام و انشر الدعوة فى الجبال، فإنّ أهلها سريعو الانقياد.

فخرج الى الشام، و نزل بوادى تيم اللّه بن ثعلبة، غربىّ دمشق من أعمال بانياس، فقرأ الكتاب على أهله، و استمالهم إلى الحاكم و أعطاهم المال، و قرّر فى نفوسهم الدّرزىّ التناسخ، و أباح لهم شرب الخمر و الزناء و أخذ مال من خالفهم فى عقائدهم و إباحة دمه؛ و أقام عندهم يبيح [لهم] المحظورات إلى أن انتهى».

و قال الذهبىّ: «و كان يحبّ العزلة- يعنى الحاكم- و يركب على بهيمة وحده فى الأسواق، و يقيم الحسبة بنفسه، و كان خبيث الاعتقاد، مضطرب العقل.

يقال: إنّه أراد أن يدّعى الإلهية و شرع فى ذلك؛ فكلّمه أعيان دولته و خوّفوه،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۸۵

بخروج الناس كلّهم عليه فانتهى. [و اتّفق أنّه خرج ليلة فى شوّال سنة إحدى عشرة] من القصر إلى ظاهر القاهرة، فطاف ليلته كلّها، ثم أصبح فتوجّه إلى شرقىّ حلوان و معه ركابيّان، فردّ أحدهما مع تسعة من العرب السّويديين، ثم أمر الآخر بالانصراف. فذكر أنه فارقه

عند قبر الفقاعىّ، فكان آخر العهد به (يعنى الحاكم)» انتهى كلام الذهبىّ.

و نذكر أمر موته بأطول من هذا من طرق عديدة.

قال ابن الصابئ و غيره: «إنّ الحاكم لمّا بـدت عنه هذه الأمور الشـنيعة اسـتوحش الناس منه. و كان له أخت يقال لها ستّ الملك، من أعقل النساء و أحزمهنّ، فكانت تنهاه و تقول: يا أخى، احذر أن يكون خراب هذا البيت على يديك.

فكان يسمعها غليظ الكلام و يتهدّدها بالقتل. و بعث إليها يقول: رفع إلىّ أصحاب الأخبار أنّك تدخلين الرجال إليك و تمكّنينهم من نفسك، و عمل على إنفاذ القوابل لاستبرائها، فعلمت أنّها هالكـة معه. و كان بمصـر سـيف الدولة بن دوّاس من شـيوخ كتامة، و كان شديد الحذر من الحاكم، و ممتنعا من دخول قصره و لقائه إلّا فى المواكب على ظهر فرسه، و استدعاه الحاكم مرّة إلى قصره فامتنع.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۸۶

فلمّـا كـان يوم الموكب عاتبه الحاكم على تأخّره، فقال له سـيف الدولـة المـذكور: قـد خـدمت أباك ولى عليكم حقوق كثيرة يجب لمثلها المراعاة، و قد قام فى نفسى أنّك قاتلى، فأنا مجتهد فى دفعك بغاية جهدى، و ليس لك حاجة إلى حضورى فى قصرك، فإن كـان بـاطن رأيـك فى مثل ظاهره فـدعنى على حالى، فإنّه لا ضـرر عليك فى تأخّرى عن حضور قصـرك. و إن كنت تريـد بى سوءا فلأن تقتلنى فى دارى بين أهلى و ولـدى يكفّنوننى و يتولّوننى أحبّ إلىّ من أن تقتلنى فى قصـرك و تطرحنى تأكل الكلاب لحمى؛ فضـحك الحاكم و أمسك عنه. و راسـلت ستّ الملك أخت الحاكم ابن دوّاس هذا مع بعض خدمها و خوّاصـها، و هى تقول له: لى إليـك أمر لاـ بـدّ لى فيه من الاجتماع بك؛ فإمّا تنكّرت و جئتنى ليلا، أو فعلت أنا ذلك. فقال: أنا عبـدك و الأمر لك. فتوجّهت إليه ليلا فى داره متنكرة؛ و لم تصحب معها أحدا.

فلمّا دخلت عليه قام و قبّل الأرض بين يديها دفعات و وقف فى الخدمة، فأمرته بالجلوس، و أخلى المكان. فقالت: يا سـيف الدولة. قد جئت فى أمر أحرس به نفسى و نفسك و المسلمين، و لك فيه الحظّ الأوفر، و أريد مساعدتك فيه؛ فقال:

أنا عبدك. فاستحلفته و استوثقت منه، و قالت له: أنت تعلم ما يقصده أخى فيك، و أنّه متى تمكّن منك لم يبق عليك، و كذا أنا، و نحن على خطر عظيم. و قد انضاف [إلى] ذلك [تظاهره] بادّعائه الإلهية و هتكه ناموس الشـريعة و ناموس آبائه؛ و قد زاد جنونه. و أنا خائفـة أن يثور المسـلمون عليه فيقتلوه و يقتلونا معه، و تنقضـى هـذه الدولـة أقبـح انقضاء. فقال سـيف الدولـة: صـدقت يا مولاتنا، فما الرأى؟

قالت: قتله و نستريـح منه، فإذا تمّ لنا ذلك أقمنا ولـده موضـعه و بـذلنا الأموال؛ و كنت أنت صاحب جيشه و مـدبّره، و شـيخ الدولة و القائم بأمره؛ و أنا امرأة من

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۸۷

وراء حجاب، و ليس غرضى إلّا السلامة منه، و أنى أعيش بينكم آمنة من الفضيحة.

ثم أقطعته إقطاعات كثيرة، و وعـدته بالأموال و الخلع و المراكب [السـنية]. فقال لها عنـد ذلك: مرى بأمرك؛ قالت: أريـد عبـدين من عبيدك تثق بهما فى سـرّك، و تعتمد عليهما فى مهمّاتك. فأحضـر عبدين و وصـفهما بالشهامة؛ فاستحلفتهما و وهبتهما ألف دينار، و وقّعت لهما بثياب و إقطاعات و خيل و غير ذلك، و قالت لهما: أريد منكما أن تصعدا غدا إلى الجبل، فإنّها نوبة الحاكم فى الركوب، و هـو ينفرد و لاـ يبقى معه غير القرافىّ الرّكـابىّ، و ربّمـا ردّه، و يـدخل الشّـعب و ينفرد بنفسه؛ فاخرجـا عليه فاقتلاه و اقتلاـ القرافىّ و الصبىّ إن كانا معه؛ و أعطتهما سكّينين من عمل المغاربة تسمى [الواحدة منهما ":]يافورت "و لهما رأس كرأس المبضع الذى يفصد به الحجّام، و رجعت إلى القصر و قد أحكمت الأمر و أتقنته. و كان الحاكم [ينظر فى النجوم فنظر مولده و كان] قد حكم عليه بالقطع فى هذا الوقت، فإن تجاوزه عاش نيّفا و ثمانين سنة. و كان الحاكم لا يترك الركوب بالليل و طوف القاهرة. فلما كان تلك الليلة قال لوالـدته: علىّ فى هـذه الليلة و فى غد قطع عظيم، و الدليل عليه علامة تظهر فى السـماء طلوع نجم سـمّاه، و كأنى بك و قد انتهكت و

هلكت مع أختى، فإنّى ما أخاف عليك أضرّ منها. فتسلّمى هذا المفتاح فهو لهذه الخزانة، و فيها صناديق تشتمل على ثلثمائة ألف دينار، خذيها و حوّليها إلى قصرك تكون ذخيرة لك. فقبّلت الأرض و قالت: إذا كنت تتصور هذا فارحمنى و اقض حقّى ودع ركوبك الليلة، و كان يحبّها، فقال: أفعل، و لم يزل يتشاغل حتّى مضى صدر

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۸۸

من الليل، و كان له قوم ينتظرونه كلّ ليلة على باب القصر، فإذا ركب ركبوا معه و يتبعه أبو عروس صاحب العسس. و من رسمه أن يطوف كلّ ليلة حول القصر فى ألف رجل بالطبول الخفاف و البوقات البحرية. فإذا خرج الحاكم من باب القاهرة قال له: ارجع و أغلق الأبواب؛ فلا يفتحها حتّى يعود. و ضجر الحاكم من تأخّره عن الركوب فى تلك الليلة، و نازعته نفسه إليه؛ فسألته أمّه و قالت: نم ساعة، فنام ثمّ انتبه و قد بقى من الليل ثلثه، و هو ينفخ و يقول:

إن لم أركب الليلة و أتفرّج و إلّا خرجت روحى. ثمّ قام فركب حماره، و أخته تراعى ما يكون من أمره، و كان قصرها مقابل قصره، فإذا ركب علمت. و لمّا ركب سار فى درب يقال له درب السباع، و ردّ صاحب العسس و نسيما الخادم صاحب السّتر و السيف، و خرج إلى القرافة و معه القرافىّ الرّكابىّ و الصبىّ. فحكى أبو عروس صاحب العسس أنه لما صعد الجبل وقف على تلّ كبير و نظر إلى النجوم و قال: إنّا للّه و إنّا إليه راجعون! و ضرب بيد على يد، و قال: ظهرت يا مشئوم! ثمّ سار فى الجبل، فعارضه عشرة فوارس من بنى قرّة، و قالوا: قد طال مقامنا على الباب، و بنا من الفاقة و الحاجة ما نسأل معه حسن النظر و الإحسان؛ فأمر الحاكم القرافىّ أن يحملهم إلى صاحب بيت المال و يأمره أن يعطيهم عشرة آلاف درهم؛ فقالوا له: لعلّ مولانا ينكر تعرّضنا له فى هذا المكان فيأمر بنا بمكروه، و نحن نريد الأمان قبل الإحسان، فما وقفنا إلّا من الحاجة؛ فأعطاهم الأمان و ردّ القرافىّ معهم؛ و بقى هو و الصبىّ، فسار إلى الشّعب الذى جرت عادته بدخوله،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۸۹

و قد كمن العبدان الأسودان له، و قد قرب الصّباح، فوثبا عليه و طرحاه إلى الأرض، فصاح: ويلكما! ما تريدان؟ فقطعا يديه من رأس كتفيه، و شقّا جوفه و أخرجا ما فيه، ولفاه فى كساء، و قتلا الصبىّ، و حملا الحاكم إلى ابن دوّاس بعد أن عرقبا الحمار؛ فحمله ابن دوّاس مع العبدين إلى أخته ستّ الملك، فدفنته فى مجلسها و كتمت أمره، و أطلقت لابن دوّاس و العبدين مالا كثيرا و ثيابا. و أحضرت خطير الملك الوزير و عرّفته الحال، و استكتمته و استحلفته على الطاعة و الوفاء، و رسمت له بمكاتبة ولىّ العهد، و كان مقيما بدمشق نيابة عن الحاكم، بأن يحضر إلى الباب، فكتب إليه بذلك. و أنفذت علىّ بن داود أحد القوّاد إلى الفرما (و هى مدينة على ساحل البحر) فقالت له: إذا دخل ولىّ العهد فاقبض عليه، و احمله إلى تنيس، و قيل غير ذلك، كما سيأتى ذكره. ثمّ كتبت إلى عامل تنّيس عن الحاكم بإنفاذ ما عنده من المال، فأنفذه و هو ألف ألف دينار و ألف ألف درهم، خراج ثلاث سنين.

و جاء ولىّ العهد إلى الفرما، فقبض عليه و حمل إلى تنّيس. و فقد الناس الحاكم فى اليوم الثانى، و منع أبو عروس من فتح أبواب القاهرة انتظارا للحاكم، على حسب ما أمره به. ثمّ خرج الناس فى اليوم الثالث إلى الصحراء و قصدوا الجبل فلم يقفوا له على أثر. و أرسل القوّاد إلى أخته و سألوها عنه؛ فقالت: ذكر لى أنّه يغيب سبعة أيام، و ما هنا إلّا الخير، فأنصرفوا على سكون و طمانينة. و لم تزل أخته فى هذه الأيّام ترتّب الأمور و تفرّق الأموال و تستحلف الجند؛ ثمّ بعثت إلى ابن دوّاس المذكور و أمرته أن يستحلف الناس لابن الحاكم كتامة و غيرها، ففعل ذلك. فلمّا كان

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۹۰

فى اليوم السابع ألبست أبا الحسن علىّ بن الحاكم أفخر الملابس و استدعت ابن دوّاس و قالت له: المعوّل فى قيام هذه الدولة عليك، و تدبيرها موكل إليك، و هذا الصبىّ ولدك، فابذل فى خدمته وسعك؛ فقبّل الأرض و وعدها بالطاعة. و وضعت التاج على رأس الصبىّ، و هو تاج عظيم فيه من الجواهر مالا يوجد فى خزانة خليفة، و هو تاج المعزّ جدّ أبيه، و أركبته مركبا من مراكب الخليفة، و

خرج بين يديه الوزير و أرباب الدولة. فلمّا صار إلى باب القصر صاح خطير الملك الوزير: يا عبيد الدولة، مولاتنا السيدة تقول لكم هذا مولاكم فسلّموا عليه؛ فقبّلوا الأرض بأجمعهم، و ارتفعت الأصوات بالتكبير و التهليل، و لقّبوه الظاهر لإعزاز دين اللّه، و أقبل الناس أفواجا فبايعوه، و أطلق المال و فرح الناس و أقيم العزاء على الحاكم ثلاثة أيّام.

و قال القضاعىّ فى قتله و جها آخر، قال: «خرج الحاكم إلى الجبل المعروف بالمقطم ليلة الاثنين السابع و العشرين من شوّال هذه السنة (يعنى سنة إحدى عشرة و أربعمائة) فطاف ليلته كلّها، و أصبح عند قبر الفقّاعىّ، ثمّ توجه شرقىّ حلوان: موضع بالمقطم، و معه ركابيّان؛ فردّ أحدهما مع تسعة نفر من العرب، كانت لهم رسوم، و يقال لهم السّويديّون، إلى بيت المال و أمر لهم بجائزة، ثمّ عاد الرّكابىّ الآخر؛ و ذكر أنّه فارقه عند قبر الفقّاعىّ و القصبة، و أصبح الناس على و سمهم؛ فخرجوا و معهم الموكب و القضاة و الأشراف و القوّاد فأقاموا عند الجبل إلى آخر النهار، ثمّ رجعوا إلى القاهرة ثمّ عادوا؛ ففعلوا ذلك ثلاثة أيام. فلمّا كان يوم الخميس سلخ شوّال خرج مظفّر صاحب المظلّة و نسيم صاحب السّتر و [ابن]

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۹۱

مسكين صاحب الرّمح و جماعة من الأولياء الكتاميّين و الأتراك و القضاة و العدول و أرباب الدولة، فبلغوا دير القصير (المكان المعروف بحلوان)، و أمعنوا فى الجبل؛ فبينما هم كذلك بصروا بالحمار الذى كان راكبه على قرن الجبل قد ضربت يداه بسيف فقطعتا، و عليه سرجه و لجامه، فتتّبعوا الأثر فإذا أثر راجل خلف أثر الحمار، و أثر راجل قدّامه فقصّوا [الأثر] حتّى أتوا إلى البركة التى شرقىّ حلوان؛ فنزلها بعض الرجالة فوجد فيها ثيابه، و هى سبع جباب مزرّرة لم تحلّ أزرارها، و فيها أثر السكاكين فتيقّنوا قتله. و كان عمره ستا و ثلاثين سنة و سبعة أشهر، و ولايته على مصر خمسا و عشرين سنة و شهرا واحدا.

قال ابن خلكان بعد ما ذكر قتلته بنحو ما ذكرناه هنا: «مع أنّ جماعة من الغالين فى حبّهم السّخيفى العقول يظنّون حياته، و أنه لا بدّ أن يظهر، و يحلفون بغيبة الحاكم، و تلك خيالات هذيانية». انتهى.

قال القضاعىّ بعد ما ساق سبب قتله بنحو ما ذكرناه إلى أن قال: «ثمّ أمرت ستّ الملك بخلع عظيمة و مال كثير و مراكب ذهب و فضة للأعيان، و أمرت ابن دوّاس أن يشاهدها فى الخزانة، و قالت له: غدا نخلع عليك، فقبّل ابن دوّاس الأرض و فرح و أصبح من الغد، فجلس عند الستر ينتظر الإذن حتّى يأمر و ينهى؛ و كان للحاكم مائة عبد يختصّون بركابه، و يحملون السيوف بين يديه، و يقتلون من

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۹۲

يأمرهم بقتله، فبعثت بهم ستّ الملك إلى ابن دوّاس ليكونوا فى خدمته، فجاءوا فى هذا اليوم و وقفوا بين يديه، فقالت ستّ الملك لنسيم صاحب السّتر: اخرج قف بين يدى ابن دوّاس، و قل للعبيد: يا عبيد، مولاتنا تقول لكم هذا قاتل مولانا الحاكم فاقتلوه، فخرج نسيم فقال لهم ذلك فمالوا على ابن دوّاس بالسيوف فقطّعوه، و قتلوا العبدين اللذين قتلا الحاكم؛ و كلّ من اطلع على سرّها قتلته، فقامت لها الهيبة فى قلوب الناس». انتهى كلام القضاعى.

و قال ابن الصابئ: لما قتلت ستّ الملك ابن دوّاس قتلت الوزير الخطير و من كانت تخاف منه ممّن عرف بأمرها.

و أمّا ما خلّفه الحاكم من المال فشىء كثير. قيل: إنّه ورد عليه أيّام خلافته رسول ملك الرّوم، فأمر الحاكم بزينة القصر. قالت السّيدة رشيدة عمّة الحاكم:

فأخرج أعدالا مكتوبا على بعضها: الحادى و الثلاثون و الثلاثمائة، و كان فى الأعدال الديباج المغرّز بالذهب، فأخرج ذلك و فرش الإيوان و علّق فى حيطانه حتّى صار الإيوان يتلألأ بالذّهب، و علّق فى صدره العسجدة، و هى درقة من ذهب مكلّلة بفاخر الجوهر يضىء لها ما حولها، إذا وقعت عليها الشمس لا تطبق العيون النظر إليها. و أيضا ممّا يدلّ على كثرة ماله ما خلّفته ابنته ستّ مصر بعد موتها، فخلّفت شيئا كثيرا يطول الشرح فى ذكره، من ذلك ثمانية آلاف جارية- قاله المقريزى و غيره- و نيّف و ثمانون زيرا صينيّا

مملوءة جمیعا مسکا؛ و وجد لها جوهر نفیس، من جملته قطعة یاقوت زنتها عشرة مثاقیل. و کان إقطاعها فی السنة خمسین ألف دینار، و کانت مع ذلک کریمة سمحة، و الشیء بالشیء یذکر.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۹۳

و ماتت فی أیّام الحاکم عمّته السیدة رشیدة بنت المعزّ؛ فخلّفت ما قیمته ألف ألف و سبعمائة ألف دینار؛ و من جملة ما وجد لها فی خزائن کسوتها ثلاثون ألف ثوب خزّ، و اثنا عشر ألفا من للثیاب المصمتة ألوانا، و مائة قطرمیز مملوءة کافورا، و کانت مع ذلک دیّنة تأکل من غزلها لا من مال السلطان. و ماتت أختها عبدة بنت المعزّ بعدها بثلاثة أیّام، و کانتا قد ولدتا برقّادة من عمل القیروان.

و ترکت أیضا عبدة المذکورة مالا یحصی، من ذلک: أنّه ختم علی موجودها بأربعین رطل شمع مصریّة؛ و من جملة ما وجد لها ألف و ثلثمائة [قطعة] مینا فضة، زنة کلّ مینا عشرة آلاف درهم، و أربعمائة سیف محلّی بذهب، و ثلاثون ألف شقّة صقلیّة، و من الجوهر اردبّ زمرّد؛ و کانت لا تأکل عمرها إلّا الثرید. و قد خرجنا عن المقصود و نعود إلی ما یتعلق بالحاکم و أسبابه.

و أمّا ولیّ العهد الذی کان بدمشق و کتبت بحضوره فاسمه الیاس، و قیل:

عبد الرّحیم، و قیل: عبد الرّحمن بن أحمد؛ و کنیته أبو القاسم و یلقّب بالمهدیّ، ولّاه الحاکم العهد سنة أربع و أربعمائة. و قد قدّمنا من ذکره أنه کان وصل إلی تنّیس، و قبض علیه صاحب تنّیس، و بعث به إلی ستّ الملک، فحبسته فی دار و أقامت له الإقامات، و وکلت بخدمته خواصّ خدمها، و واصلته بالملاطفات و الافتقادات فلمّا مرضت و یئست من نفسها أحضرت الظاهر لإعزاز دین اللّه (أعنی ابن

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۹۴

أخیها الحاکم) و قالت له: قد علمت ما عاملتک به، و أقلّه حراسة نفسک من أبیک، فإنّه لو تمکّن منک لقتلک، و ما ترکت لک أحدا تخافه إلّا ولیّ العهد؛ فبکی بین یدیها هو و والدته؛ و سلّمت إلیهما مفاتیح الخزائن، و أوصتهما بما أرادت.

و قالت لمعضاد الخادم: امض إلی ولیّ العهد و تفقّد خدمته، فإذا دخلت علیه فانکبّ کأنّک تسائله بعد أن توافق الخدم علی ضربه بالسکاکین؛ فمضی إلیه معضاد فقتله و دفنه و عاد فأخبرها، فأقامت بعد ذلک ثلاثة أیام و ماتت. و تولّی أمر الدولة معضاد الخادم المذکور و رجل آخر علویّ من أهل قزوین و آخرون.

و ذکر القضاعیّ فی قصّة ولیّ العهد شیئا غیر ذلک، قال: إن ستّ الملک لمّا کتبت إلی دمشق بحمل ولیّ العهد إلی مصر لم یلتفت إلی ذلک؛ و استولی علی دمشق، و رخّص للناس ما کان الحاکم حظره علیهم من شرب الخمر، و سماع الملاهی، فأحبّه أهل دمشق. و کان بخیلا ظالما، فشرع فی جمع المال و مصادرة الناس، فأبغضه الجند و أهل البلد. فکتبت أخت الحاکم إلی الجند فتتبعوه حتّی مسکوه و بعثوا به مقیّدا إلی مصر، فحبس فی القصر مکرما، فأقام مدّة. و حمل إلیه یوما بطّیخ و معه سکّین فأدخلها فی سرّته حتی غابت. و بلغ ابن عمّه الظاهر بن الحاکم فبعث إلیه القضاة و الشهود؛ فلمّا دخلوا علیه اعترف أنّه الذی فعل ذلک بنفسه. و حضر الطبیب فوجد طرف السکین ظاهرا، فقال لهم: لم تصادف مقتلا. فلمّا سمع ولیّ العهد ذلک وضع یده علیها، فغیّبها فی جوفه فمات.

و قال ابن الصابئ: «و کان علی حلب عند هلاک الحاکم عزیز الدولة فاتک الوحیدیّ، و قد استفحل أمره و عظم شأنه و حدّث نفسه بالعصیان؛ فلاطفته

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۹۵

ستّ الملک و راسلته و آنسته، و بعثت إلیه بالخلع و الخیل بمراکب الذهب و غیرها، و لم تزل تعمل علیه [الحیل] حتّی أفسدت غلاما له یقال له بدر، و کان مالک أمره، و غلمانه تحت یده، و بذلت له العطاء الجزیل، [علی الفتک به، و وعدته أن تولّیه مکانه]. و کان لفاتک غلام هندیّ یهواه، فاستغواه بدر المذکور و قال:

قد عرفت من مولاک ملالک، و تغیّر نیّته فیک، و عزم علی قتلک، و دافعته عنک دفعات، و أنا أخاف علیک. ثم ترکه بدر أیاما، و

وهب له دنانیر و ثیابا؛ ثم أظهر له المحبّة و قال: إن علم بنا الأمیر قتلنا؛ فقال الهندیّ: فما أفعل؟ فاستحلفه بدر و استوثق منه، و قال: إن قبلت مـا أقول أعطیتـک مالاـ و أغنیتـک و عشـنا جمیعا فی أطیب عیش. قال: فما تریـد؟ قال: تقتله و نستریـح منه؛ فأجابه و قال: اللیلة یشـرب و أنا أسـقیه و أمیل علیه، فإذا سکر فأقتله. و جلس فاتک المذکور علی الشّرب، فلمّا قام إلی مرقده حمل الهندیّ سیفه، و کان ماضـیا، ثمّ دخل فی اللّحاف و بـدر علی باب المجلس واقف. فلمّا ثقل فاتک فی نومه غمز بـدر الهندیّ فضـربه بالسـیف فقطع رأسه؛ فصاح بـدر و اسـتدعی الغلمان و أمرهم بقتل الهنـدیّ فقتلوه. و اسـتولی بدر علی القلعة و ما فیها؛ و کتب إلی أخت الحاکم بما جری؛ فأظهرت الوجـد علی فاتک فی الظاهر، و شـکرت بـدرا فی الباطن علی ما کان منه من حفظ الخزائن، و بعثت إلیه بالخلع، و وهبت له جمیع مـا خلّفه مولاـه، و قلّدته موضـعه. و نظرت ستّ الملک فی أمور الدولـة بعـد قتـل الحاکم أربع سـنین، أعادت الملک فیها الی غضارته، و عمّرت الخزائن بالأموال، و اصطنعت الرجال. ثم اعتلّت علّة لحقها فیها ذرب فماتت منه.

و کانت عارفة مدبّرة غزیرة العقل». و قد خرجنا عن المقصود علی سبیل الاستطراد.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۹۶

و کانت وفاة الحاکم لیلـة الثلاثاء للیلتین بقیتا من شوّال سـنة إحدی عشـرة و أربعمائة، و کان فیه کسوف الشـمس. و کانت مدّة عمره ستا و ثلاثین سنة و سبعة أشهر، و قیل: سبعا و ثلاثین سنة. و کانت ولایته علی مصر خمسا و عشرین سنة و شهرا واحدا، قاله القضاعیّ. و تولّی الملـک من بعـده ابنه الظـاهر لإـعزاز دین اللّه علیّ بن الحـاکم، و قام بتـدبیر مملکته عمته ستّ الملک المقـدّم ذکرها إلی أن ماتت، حسب ما ذکرناه.

انتهت ترجمة الحاکم. و نذکر أیضا من أحواله نبذة کبیرة فی الحوادث المتعلّقة بأیّامه مرتبة علی السـنین، فیها عجائب و غرائب. و أمّا ما ینسب إلیه من الشعر- و قیل: هو للآمر العبیدیّ الآتی ذکره- فهو قوله:

دع اللّوم عنّی لست منّی بموثق فلا بدّ لی من صدمة المتحنّق

و أسقی جیادی من فرات و دجلة و أجمع شمل الدّین بعد التفرّق

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۸۷]

السنة الأولی من ولایة الحاکم منصور علی مصر و هی سنة سبع و ثمانین و ثلثمائة.

فیها استولی الحاکم صاحب الترجمة خلیفة مصر علی السواحل و الشامات.

و فیها حجّ بالناس أبو عبد اللّه العلویّ.

و فیها توفّی الحسن بن عبد اللّه بن سعید أبو أحمد العسکریّ العلّامة الرّاویة، صاحب التصانیف الحسان فی اللغة و الأدب و الأمثال.

و فیها توفّی الحسن بن مروان أبو علیّ الکردیّ الأمیر صاحب میّافارقین.

قد ذکرنا مبدأ أمره و کیف تغلّب علی دیار بکر و ملک حصونها. مات قتیلا علی باب آمد.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۹۷

و فیها توفّی صندل الخادم مولی بهاء الدولة و صاحب خیله (أعنی أمیر اخوره) و قام الأمیر أبو المسک عنبر مقامه.

و فیها توفّی السلطان فخر الدولـة أبو الحسن علیّ ابن السـلطان رکن الدولة الحسن ابن بویه بن فنّاخسـرو الدیلمیّ، مات بالریّ، و کان ابن أخیه بهاء الدولـة بواسط، فجلس للعزاء و جلس ابنه أبو منصور ببغداد. و قیل: إنّ فخر الدولة سمّ و سمّ ولداه من بعده فمات الکلّ فی هذه السـنة؛ فملک أبو الحسن قابوس بن وشمکیر من بعده طبرستان و جرجان؛ فإنّهما کانا فی مملکته، و أخذهما منه مؤیّد الدولة أخو فخر الدولة هذا المقدّم ذکره. و کان فخر الدولة شـجاعا، لقّبه الخلیفة الطائع ب "ملک الأمّة "أو ب "فلک الأمّة. "و کانت وفاته

فى عاشر شعبان، و له ستّ و أربعون سنة و خمسة أيّام. و كانت مدّة ملكه ثلاث عشرة سنة و عشرة أشهر و سبعة و عشرين يوما. و خلّف مالا كثيرا.

قال ابن الصابئ بعد ما عدّد ما خلّفه من المتاع و غيره، قال: «و خلّف ألفى ألف و ثمانمائة ألف و خمسة و سبعين ألفا و مائتين و أربعة و ثمانين دينارا، و من الورق و النّقرة و الفضّة مائة ألف ألف و ثمانمائة ألف و ستين ألفا و سبعمائة و تسعين درهما، و من الجواهر و اليواقيت الحمر و الصّفر و الحلىّ و اللؤلؤ و البلخش و الماس و غيره أربعة عشر ألفا و خمسمائة و عشرين قطعة، قيمتها ثلاثة آلاف ألف دينار، و من أوانى الذهب ما وزنه ثلاثة آلاف ألف دينار، و من البلّور و الصينى و نحوه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۹۸

ثلاثة آلاف، و من السلاح و الثّياب و الفرش ثلاثة آلاف حمل». و قيل: إنّه خلّف من الخيل و البغال و الجمال ثلاثين ألف رأس، و من الغلمان و المماليك خمسة آلاف، و من السّرارى خمسمائة؛ و من الخيام عشرة آلاف خيمة. و كان شحيحا.

كانت مفاتيح خزائنه فى الكيس الحديد مسمّرا بالمسامير لا يفارقه. و ملك بعده آبنه أبو طالب رستم و عمره أربع سنين.

و فيها توفّى محمد بن أحمد بن إسماعيل بن عنبس أبو الحسين البغداديّ الواعظ، و يعرف بابن سمعون، و كان يسمّى الناطق بالحكمة. قال أبو عبد الرّحمن السّيلميّ: هو من مشايخ بغداد، له لسان عال فى العلوم، لا ينتمى إلى أستاذ، و هو لسان الوقت المرجوع إليه فى آداب المعاملات.

و فيها توفّى نوح بن منصور بن نوح أبو القاسم السّامانىّ. كان هو و آباؤه من ملوك ما وراء النهر و سمرقند. و ولى نوح هذا و له ثلاث عشرة سنة، و تعصّب له عضد الدولة بن بويه، و أخذ له من الخليفة الطائع العهد على خراسان و الخلع؛ فأقام على خراسان إحدى و عشرين سنة، و مات فى شهر رجب.

و فيها توفّى صمصام الدولة المرزبان، و كنيته أبو كاليجار بن عضد الدولة بن بويه بن ركن الدولة الحسن بن بويه الديلمىّ. ولى المملكة بعد موت أبيه عضد الدولة، فلم ينجح أمره، و غلب عليه أخوه شرف الدولة و قهره و حبسه و أخذ بغداد منه و أكحله. فدام فى الحبس إلى أن مات أخوه شرف الدولة، و نزل من الحبس و هو أعمى. و انضمّ إليه الناس، و سار إلى فارس و ملك شيراز. و وقع له

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۱۹۹

أمور مع أولاد أخيه و حروب. و أقام بشيراز إلى أن قتل بها فى هذه السنة؛ و قيل: فى السنة الآتية، و هو الأصحّ.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثلاث أذرع و إصبع واحدة.

مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و سبع أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۸۸]

السنة الثانية من ولاية الحاكم منصور على مصر و هى سنة ثمان و ثمانين و ثلثمائة.

فيها توفّى محمد بن أحمد بن إبراهيم أبو الفرج المقرئ الشّنّبوذىّ، مولده فى سنة ثلثمائة. كان يقول: أحفظ خمسين ألف بيت من الشعر من شواهد القرآن.

و مات ببغداد، و بها كان مولده.

و فيها توفّى أحمد بن محمد بن إبراهيم بن خطّاب الإمام أبو سليمان الخطّابىّ البستىّ، الفقيه الأديب، مصنّف كتاب "معالم السنن " و

کتاب "غریب الحدیث "و کتاب "شرح أسماء اللّه الحسنی "و کتاب "الغنیة "عن الکلام و أهله "و کتاب "العزلة "و غیر ذلک.

و فیها توفّی محمد بن عبد اللّه بن محمد بن زکریّاء الحافظ أبو بکر الشّیبانیّ الجوزقی المعدّل، شیخ نیسابور و محدّثها و ابن أخت محدّثها أبی إسحاق إبراهیم بن محمد- و جوزق: من قری نیسابور- کان حافظا إماما، صنّف "المسند الصحیح "علی کتاب مسلم. و مات فی شوّال عن اثنتین و ثمانین سنة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۰۰

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم ثلاث أذرع و اثنتا عشرة إصبعا.

مبلغ الزیادة ستّ عشرة ذراعا و سبع أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۸۹]

السنة الثالثة من ولایة الحاکم منصور علی مصر و هی سنة تسع و ثمانین و ثلثمائة.

فیها حجّ بالناس محمد بن محمد بن عمر من العراق و کان فی الحجّ الشریفان: الرضیّ و المرتضی؛ فاعترض رکب الحاجّ أبو الجرّاح الطائیّ، فأعطیاه تسعة آلاف دینار من أموالهما حتی أطلق الحاجّ.

و فیها استولی الأمیر أبو القاسم محمود بن سبکتکین علی أعمال خراسان بعد أن هزم الأمیر عبد الملک بن نوح السّامانیّ، و أزال السامانیّة منها؛ و أقام الدعوة للخلیفة القادر بعد أن کانت للطائع الذی خلع.

و فیها توفّی زاهر بن أحمد بن محمد بن عیسی أبو علیّ السّرخسیّ الفقیه الشافعیّ المقرئ المحدّث. سمع الکثیر و روی عنه غیر واحد. و مات فی شهر ربیع الآخر و له ستّ و تسعون سنة.

و فیها توفّی عبد اللّه بن أبی زید عبد الرّحمن الفقیه أبو محمد القیروانیّ شیخ المالکیّة بالمغرب. جمع مذهب الإمام مالک رضی اللّه عنه و شرح أقواله. و کان واسع العلم کثیر الحفظ ذا صلاح و عفّة و ورع. قال القاضی عیاض بن موسی بن عیاض: حاز ریاسة الدّین و الدنیا، و رحل إلیه من الأمصار.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۰۱

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم أربع أذرع و عشرون إصبعا.

مبلغ الزیادة ست عشرة ذراعا و عشرون إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۹۰]

السنة الرابعة من ولایة الحاکم منصور علی مصر و هی سنة تسعین و ثلثمائة.

فیها ظهر بسجستان معدن الذهب، فکانوا یصفّون من التراب الذهب الأحمر.

و فیها ولّی الحاکم صاحب مصر علی نیابة الشام فحل بن تمیم، فمرض و مات بعد أشهر؛ فولّی الحاکم عوضه علی دمشق علیّ بن جعفر بن فلاح.

و فیها حجّ بالناس من العراق أبو الحارث العلویّ.

و فیها توفّی الحسین بن محمد بن خلف أبو عبد اللّه الفرّاء والد القاضی أبی یعلی.

کان إماما فقیها علی مذهب الإمام الأعظم أبی حنیفة، و سمع الحدیث و تفقّه و برع. و مات فی شعبان ببغداد.

و فيها توفّى المعافى بن زكريّاء بن يحيى بن حميد بن حمّاد بن داود أبو الفرج النّهروانىّ، و يعرف بابن طرارى. ولد سنة ثلاث و ثلثمائة، و قيل: سنة خمس و ثلثمائة. و كان إماما فى النحو و اللغة و أصناف الآداب، و كان يتفقّه على مذهب محمد بن جرير الطبرىّ. و صنّف كتاب "الجليس و الأنيس. "قال المعافى المذكور:

حججت فكنت بمنًى فسمعت مناديا ينادى: يا أبا الفرج؛ فقلت: لعلّه غيرى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۰۲

ثم نادى يا أبا الفرج المعافى؛ فهممت أن أجيبه. ثم إنه رجع فنادى: يا أبا الفرج المعافى بن زكريّاء النّهروانىّ؛ فقلت عند ذلك: هأنا: فما تريد؟ قال: لعلك من نهروان الشرق؟ قلت نعم؛ قال: نحن نريد نهروان الغرب. قال: فعجبت من هذا الاتفاق. قلت: و هذا من الغرائب كونه طابق اسمه و اسم أبيه و الكنية و الشهرة و يكون هذا من نهروان الشرق، و ذاك من نهروان الغرب. و كانت وفاته فى ذى الحجّة و له خمس و ثمانون سنة.

و فيها توفّى ناجية بن محمد بن سليمان أبو الحسن الكاتب البغدادىّ، نادم الخلفاء و الأكابر، و كان شجاعا شاعرا فصيحا. و من شعره قوله:

[الطويل]

و لمّا رأيت الصبح قد سلّ سيفه و ولّى انهزاما ليله و كواكبه

و لاح احمرار قلت قد ذبح الدجى و هذا دم قد ضمّخ الافق ساكبه

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثلاث أذرع و أربع عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و إصبعان.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۹۱]

السنة الخامسة من ولاية الحاكم منصور على مصر و هى سنة إحدى و تسعين و ثلثمائة.

فيها جلس الخليفة القادر بأبّهة الخلافة، و دخل عليه الحجّاج بعد عودهم من الحج و القضاة و الأشراف؛ فأعلمهم أنه قد جعل الأمر فى ولده أبى الفضل، و لقّبه الغالب بأمر اللّه، و عمره ثمانى سنين و أربعة أشهر و أيام.

و فيها حجّ من العراق بالناس أبو الحارس محمد بن محمد بن عمر العلوىّ.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۰۳

و فيها توفّى جعفر بن الفضل بن جعفر بن محمد بن الفرات، الوزير المحدّث أبو الفضل المعروف بابن حنزابة. كان أبوه قد وزر للمقتدر سنة خلع. و سافر هو إلى مصر، و تقلّد الوزارة لكافور الإخشيذىّ، و سمع الحديث بمصر و رواه، و مات بمصر.

و فيها توفّى المقلّد بن المسيّب بن رافع حسام الدولة أبو حسّان العقيلىّ صاحب الموصل. كان أخوه أبو الذّوّاد أوّل من تغلّب على الموصل و ملكها فى سنة ثمانين و ثلثمائة؛ و ملك حسام الدولة هذا الموصل بعده؛ و كان حسن التدبير، و اتسعت مملكته. و أرسل إليه الخليفة القادر اللّواء و الخلع. و كان له شعر، و فيه رفض فاحش.

قتله غلام له تركىّ فى صفر. قلت: لا شلّت يداه!. يقال: إنّه قتله لأنّه سمعه يوصى رجلا من الحاجّ أن يسلّم على رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم و يقول له:

لو لا صاحباك لزرتك. و ذكر الذهبىّ هذه الحكاية بإسناد إلى جماعة إلى أن قال عن الرجل الذى قال له المقلّد هذا بالسلام إنّه قال: فأتيت المدينة و لم أقل ذلك إجلالا؛ فنمت فرأيت النّبىّ صلى اللّه عليه و سلم فى منامى، فقال: يا فلان لم لم تؤد الرسالة؟ فقلت:

يا رسول اللّه أجللتک؛ فرفع رأسه إلى رجل قائم فقال له:

خـذ هـذا الموسـى و اذبحه به (يعنى المقلّـد). ثم رجعنا فوافينا العراق، فسـمعت أنّ الأمير المقلّد ذبح على فراشه و وجد الموسـى عند رأسه؛ فذكرت للناس الرؤيا فشاعت؛ فأحضرنى ابنه (يعنى ابن المقلد) الذى ولى بعده، و اسمه قرواش، فحدّثته؛ فقال:

أتعرف الموسى؟ فقلت نعم؛ فأحضر طبقا مملوءا مواسى فأخرجته منها؛ فقال:

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۰۴

صـدقت، هذا وجدته عند رأسه و هو مذبوح. قلت: هذا ما جوزى به فى الدنيا، و أمّا فى الأخرى فجهنّم و بئس المصـير، هو و كلّ من يعتقد معتقده إن شاء اللّه تعالى.

و فيها توفّى جيش بن محمد بن صـمصامة أبو الفتوح القائد المغربىّ ابن أخت أبى محمود الكتامى أمير أمراء جيوش المغرب و مصـر و الشـام، و تولّى نيابـة دمشق غير مرّة، و كـان ظالما سـفّاكا للـدماء؛ ظلم الناس فاجتمع الصـلحاء و الزّهاد و دعوا عليه، فسـلّط اللّه عليه الجذام حتّى رأى فى نفسه العبر، و لم ينته حتّى أخذه اللّه.

و فيها توفّى الحسـين بن أحمد بن الحجّاج أبو عبد اللّه الشاعر، كان من أولاد العمّال و الكتّاب ببغداد، و تولّى حسـبة بغداد لعز الدولة بختيار بن بويه، فتشاغل بالشعـر و السّخف و الخلاعة عمّا هو بصدده. قلت: و ابن الحجّاج هذا يضرب به المثل فى السخف و المداعبة و الأهاجى. و غالب شعره فى الفحش و الأهاجى و الهزل؛ من ذلک قوله:

[المجتث]

المستعان بربّى من كسّ ستّى و زبّى

قد كلّفانى نيكا قد كاد يقصف صلبى

و قال ابن خلكان: الشاعر المشـهور ذو المجون و الخلاعة فى شـعره. كان فرد زمانه فى فنّه، فإنه لم يسـبق إلى تلک الطريقة مع عذوبة ألفاظه و سـلامة شـعره من التكلف؛ و مدح الملوک و الأمراء و الوزراء. و ديوانه كبير أكثر ما يوجد فى عشرة مجلدات. و الغالب عليه الهزل، و له فى الجدّ أيضا. و يقال: إنّه فى الشعر [فى] درجة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۰۵

امرئ القيس و إنه لم يكن بينهما مثلهما، لأنّ كلّ واحد منهما مخترع طريقة. و لمّا مات رثاه الشـريف الرضـى. انتهى كلام ابن خلّكان باختصار.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و إصبعان. مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و عشرون إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۹۲]

السنة السادسة من ولاية الحاكم منصور على مصر و هى سنة اثنتين و تسعين و ثلثمائة.

فيها فى المحرّم غزا السـلطان محمود بن سـبكتكين الهنـد؛ فالتقاه صاحبها الملک جيبال و معه ثلثمائة فيل؛ فنصـر اللّه ابن سـبكتكين و قتل من الكفّار خمسة آلاف و من الفيلة خمسة عشر فيلا.

و فيها ولّى الحاكم على دمشق أبا منصور ختكين القائد، فظلم و أساء السّيرة.

و فيهـا تـوفّى عثمـان بن جنّى العلّامـة أبـو الفتـح النحوىّ اللغوىّ الموصـلىّ صـاحب المصـنّفات، منهـا "اللمع "و ["الكـافى فى] شـرح القوافى "و "المـذكر و المؤنث "و "سـرّ الصـناعة "و "الخصـائص "و "شـرح المتنبّى "و غير ذلـک. و كـان أبوه جنّى مملوكـا روميّا لسليمان بن فهد بن أحمد الأزدىّ الموصلىّ. و سكن ابن جنّى المذكور بغداد و درّس بها و أقرأ حتّى مات فى صفر.

و فيها توفّى علىّ بن عبد العزيز أبو الحسن الجرجانى قاضى الرّى. سمع الحديث الكثير و ترقّى فى العلوم حتّى برع فى الفقه و الشعر و النحو و غير ذلک من العلوم.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة؛ ج۴؛ ص۲۰۵

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۰۶

و فيها توفّى محمد بن محمد بن جعفر أبو بكر القاضى الشافعىّ، و يعرف بابن الدّقّاق، صاحب الأصول، كان معدودا من الفضلاء، مات ببغداد.

و فيها توفّى الوليد بن بكر بن مخلد بن أبى زياد أبو العباس الأندلسىّ، رحل فى طلب العلم إلى مصر و الشام و العراق و الحجاز و خراسان و ما وراء النهر، و سمع الكثير. و كان إماما عالما بالفقه و النحو و الحديث و الأدب و الشعر. و من شعره قوله:

[المتقارب]

لأىّ بلائک لا تدّكر و ما ذا يضرّک لو تعتبر

فبان الشّباب و حلّ المشيب و حان الرحيل فما تنتظر

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ست أذرع و سبع أصابع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و عشر أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۹۳]

السنة السابعة من ولاية الحاكم منصور على مصر و هى سنة ثلاث و تسعين و ثلثمائة.

فيها منع عميد الجيوش يوم عاشوراء من النّوح و تعليق المسوح ببغداد و غيرها، ثم منع أهل السنة ممّا كانوا ابتدعوه أيضا فى مقابلة الرافضة من التوجّه إلى قبر مصعب بن الزّبير و غيره، و سكنت الفتنة لذلک.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۰۷

و فى [شهر] ربيع الآخر منها أمر نائب دمشق من قبل الحاكم صاحب مصر تمصولت الأسود الحاكمىّ [بمغربى] فضرب و طيف به على حمار، و نودى عليه:

هذا جزاء من يحبّ أبا بكر و عمر؛ ثم أمر به فضربت عنقه. رحمه اللّه تعالى.

و فيها نازل السلطان محمود بن سبكتكين سجستان و أخذها من صاحبها خلف ابن أحمد بالأمان.

و فيها لم يحجّ أحد من العراق خوفا من الأصيفر الأعرابىّ.

و فيها زلزل الشام و العواصم و الثغور، فمات تحت الهدم خلائق كثيرة.

و فيها توفّى إسماعيل بن حمّاد أبو نصر الجوهرىّ، مصنّف كتاب "الصّحاح "فى اللغة. كان أصله من فاراب أحد بلاد الترک، و كان يضرب المثل به فى حفظ اللغة و حسن الكتابة؛ و خطّه يذكر مع خط ابن مقلة و مهلهل و اليزيدىّ. و كان يؤثر الغربة على الوطن، دخل بلاد ربيعة و مضر فى طلب العلم و اللغة. و فى كتابه الصحاح يقول إسماعيل بن محمد النيسابورىّ:

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۰۸

[المنسرح]

هذا كتاب الصّحاح سيّد ما صنّف قبل الصحاح فى الأدب

يشمل أنواعه و يجمع ما فرّق فى غيره من الكتب

مات الجوهرىّ متردّيا من سطح داره بنيسابور.

و فيها توفّى أمير المؤمنين الطائع للّه أبو بكر عبد الكريم ابن الخليفة المطيع للّه الفضل ابن الخليفة المقتدر بالله جعفر ابن الخليفة المعتضد بالله أحمد الهاشميّ العباسى البغداديّ. و أمّه أمّ ولد. ولى الخلافة بعد أن خلع والده المطيع نفسه لمرض تمادى به فى ذى القعدة سنة ثلاث و ستين و ثلثمائة؛ فدام فى الخلافة إلى أن خلع بعد القبض عليه فى شعبان سنة إحدى و ثمانين و ثلثمائة، و بويع القادر بالله بالخلافة.

و استمرّ الطائع محبوسا فى دار عند القادر مكرّما إلى أن مات فى هذه السنة فى ليلة عيد الفطر؛ و صلّى عليه القادر و كبر عليه خمسا. و مات الطائع و له ثلاث و سبعون سنة.

و فيها توفّى محمد بن عبد الرّحمن بن العباس بن عبد الرّحمن بن زكرياء الحافظ أبو طاهر البغداديّ الذهبيّ المخلّص محدّث العراق. قال الخطيب أبو بكر: كان ثقة. مولده فى شوّال سنة خمس و ثلثمائة، و سمع الكثير و روى عنه غير واحد.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۰۹

و فيها توفّى إبراهيم بن أحمد [بن محمد أبو إسحاق] الطبريّ المقرئ شيخ الشهود و مقدّمهم ببغداد و البصرة و الكوفة و مكة و المدينة. قرأ القرآن و سمع الكثير، و كان مالكيّ المذهب، و حجّ فأمّ بالناس بالمسجد الحرام أيّام الموسم؛ و ما تقدّم فيه إمام ليس بقرشيّ سواه. و قرأ عليه الرضيّ الموسويّ القرآن. و سكن بغداد و حدّث بها إلى أن توفّى بها رحمه اللّه.

و فيها توفّى محمد بن عبد اللّه [بن محمد بن محمد] بن حليس السّلاميّ الشاعر المشهور، كان فصيحا بليغا. و من شعره و هو فى المكتب و هو أوّل قوله:

[المنسرح]

بدائع الحسن فيه مفترقه و أعين الناس فيه متّفقه

سهام ألحاظه مفوّقة فكلّ من رام وصله رشقه

قال الثعالبيّ فى حقّه: هو من أشعر أهل العراق قولا بالإطلاق، و شهادة بالاستحقاق. ثم قال بعد ما أثنى عليه: و قال الشعر و هو ابن عشر سنين.

و فيها توفّيت ميمونة بنت ساقولة الواعظة البغدادية، كان لها لسان حلو فى الوعظ.

قالت: هذا قميصى له اليوم سبع و أربعون سنة ألبسه و ما تخرّق، غزلته لى أمّى؛ الثوب إذا لم يعص اللّه فيه لا يتخرّق.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۱۰

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و عشرون إصبعا.

مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعا و خمس عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۹۴]

السنة الثامنة من ولاية الحاكم منصور على مصر و هى سنة أربع و تسعين و ثلثمائة.

فيها قلّد بهاء الدولة الشريف أبا أحمد الحسين بن موسى الموسويّ قضاء القضاة و الحجّ و المظالم و نقابة الطالبيين، و لقّبه [الطاهر] الأوحد ذا المناقب؛ فلم ينظر فى القضاء لامتناع الخليفة القادر بالله من الإذن له فى ذلك.

و فيها حجّ بالناس من العراق أبو الحارث محمد العلويّ؛ فاعترض الركب الأصيفر الشّيعيّ الأعرابيّ، و عوّل على نهبهم؛ فقالوا: من يكلّمه و يقرّر له ما يأخذه من الحاجّ؟ فقدّموا أبا الحسين بن الرّفّاء و أبا عبد اللّه بن الدّجاجيّ، و كانا من أحسن الناس قراءة؛ فدخلا عليه و قرأ بين يديه؛ فقال لهما: كيف عيشكما ببغداد؟

قالا: نعم العیش، تصلنا الخلع و الصّلات. فقال: هل وهبوا لکما ألف ألف دینار فی مرّة واحدة؟ قالا: لا، و لا ألف دینار؛ فقال: قد وهبت لکما الحاجّ و أموالهم؛ فدعوا له و انصرفوا و فرح الناس. و لمّا قرأ بعرفات قال أهل مصر و الشام: ما سمعنا عنکم تبذیرا مثل هذا، یکون عندکم شخصان مثل هذین فتصحبوئهما معکم معا، فإن هلکا فبأیّ شیء تتجمّلون بعد ذلک!. و من حسن قراءتهما و طیب

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۱۱

صوتهما اخذهما أبو الحسن بن بویه مع أبی عبد اللّه بن البهلول، فکانوا یصلّون به بالنوبة التراویح، و هم أحداث السنّ.

و فیها توفّی الحسن بن محمد بن إسماعیل أبو علیّ الإسکافیّ الملقّب بالموفّق.

کان بهاء الدولة قد فوّض إلیه أموره و قام بتدبیر ملکه. و کان شجاعا مقداما، لا یتوجّه فی أمر إلّا و ینصر. و ارتفع أمره حتّی قال رجل أ بهاء الدولة: یا مولانا، زینّک اللّه فی عین الموفّق. و لا زال الناس به حتّی قبض علیه بهاء الدولة و خنقه.

و فیها توفّی خلف بن القاسم بن سهل الحافظ أبو القاسم الأندلسیّ، کان یعرف بابن الدبّاغ، مولده سنة خمس و عشرین و ثلثمائة، کان حافظا مکثرا جمع مسند الإمام مالک بن أنس رضی اللّه عنه، و حدیث شعبة بن الحجّاج، و أسامی المعروفین بالکنی من الصحابة و التابعین و سائر المحدّثین، و کان أعلم الناس برجال الحدیث و التواریخ و التفسیر.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم أربع أذرع سواء. مبلغ الزیادة سبع عشرة ذراعا و خمس عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۹۵]

السنة التاسعة من ولایة الحاکم منصور علی مصر و هی سنة خمس و تسعین و ثلثمائة.

فیها حجّ بالعراقیّین أبو جعفر [بن] شعیب، و لحقهم عطش کبیر فی طریقهم فهلک خلق کثیر.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۱۲

و فیها قتل الحاکم صاحب مصر جماعة بمصر من أعیانها صبرا.

و فیها کانت وقعة بین بهاء الدولة بن بویه و بین عمید الجیوش، انکسر فیها عمید الجیوش و انهزم أقبح هزیمة.

و فیها خرج أبو رکوة علی الحاکم، و تعاظم أمره حتّی عزم الحاکم علی الخروج إلی الشام، و برز إلی بلبیس بالعساکر و الأموال، فأشیر علیه بالعود إلی مصر فعاد و جهّز إلیه جیشا فواقعوه غیر مرّة حتّی هزموه، حسب ما ذکرناه فی أصل ترجمة الحاکم من هذا المحلّ، و نذکره أیضا فی السنة الآتیة.

و فیها توفّی أحمد بن محمد البشریّ الصوفیّ المحدّث، رحل فی طلب الحدیث و جاور بمکة مدّة و صار شیخ الحرم، ثمّ عاد إلی مصر فتوفّی بالطریق بین مصر و مکّة، و کان صالحا ثقة.

و فیها توفّی أحمد بن فارس بن زکریّاء بن محمد بن حبیب أبو الحسین الرازیّ، و قیل: القزوینی المعروف بالرازیّ المالکیّ اللغویّ نزیل همذان، و صاحب "المجمل "فی اللغة. سمع الحدیث و روی عنه جماعة، و ولد بقزوین و نشأ بهمذان، و کان أکثر مقامه بالرّیّ، و کان کاملا فی الأدب فقیها مالکیا مناظرا فی الکلام

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۱۳

و ینصر أهل السّنة، و طریقته فی النحو طریقة الکوفیین. و له مصنّفات بدیعة.

و من شعره قوله:

[السریع]

مرّت بنا هيفاء مجدولة تركيّة تنمى لتركيّ

ترنو بطرف فاتن فاتر أضعف من حجّة نحويّ

و فيها توفّى أحمد بن محمد بن أحمد بن عمر الزاهد أبو الحسين بن أبى نصر النّيسابورىّ الخفّاف. قال الحاكم: كان مجاب الدعوة، و سماعاته صحيحة بخطّ أبيه من أبى العباس السرّاج و أقرانه، و بقى واحد عصره فى علوّ الإسناد؛ و مات فى شهر ربيع الأوّل. قال الحاكم: و صلّيت عليه و له ثلاث و تسعون سنة.

و فيها توفّى محمد بن إسحاق بن محمد بن يحيى بن مندة- و اسم مندة إبراهيم بن الوليد ابن سيدة- الحافظ الكبير أبو عبد اللّه العبدىّ الأصبهانىّ المعروف بابن مندة؛ رحل و طوّف الدنيا، و جمع و صنّف و كتب ما لا ينحصر. و حدّث عن أبيه و عمّ أبيه عبد الرّحمن بن يحيى و خلق كثير، و روى عنه جماعة. قال أبو نعيم – و هو معاصره-:

ابن مندة حافظ من أولاد المحدّثين، توفّى فى سلخ ذى القعدة، و اختلط فى آخر عمره.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم سبع أذرع و خمس عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و ثلاث أصابع.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۱۴

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۹۶]

السنة العاشرة من ولاية الحاكم منصور على مصر و هى سنة ستّ و تسعين و ثلثمائة.

فيها حجّ بالناس من العراق محمد بن محمد بن عمر العلوىّ، و خطب بالحرمين للحاكم صاحب مصر على العادة، و أمر الناس بالحرمين بالقيام عند ذكر الحاكم، و فعل مثل ذلک بمصر و غيرها؛ فكان إذا ذكر قاموا و سجدوا فى السوق و فى مواضع الاجتماع.

و فيها جلس الخليفة القادر بالله العباسىّ لأبى المنيع قرواش بن أبى حسّان و لقّبه بمعتمد الدولة؛ و تفرّد قرواش المذكور بالإمارة وحده.

و فيها توفّى إسماعيل بن أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل أبو سعد الجرجانىّ، كان عالما بفنون العلم و الحديث و الفقه و العربية، و دخل بغداد و عقد مجلس المناظرة، و حضره أبو الطيّب الطّبرىّ و أبو حامد الإسفراينى.

و فيها توفّى عبد الوهاب بن الحسن بن الوليد بن موسى الكلابىّ المحدّث أبو الحسين الدمشقىّ، يعرف بأخى تنوک، سمع الكثير و روى عنه الناس.

قال عبد العزيز الكتّانى: كان ثقة نبيلا مأمونا. و كانت وفاته فى شهر ربيع الأوّل، و مات و هو مسند وقته.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى الحافظ أبو عمر أحمد بن عبد اللّه بن محمد بن على بن الباجىّ فى المحرّم. و أبو الحسن أحمد بن محمد بن

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۱۵

عمران بن الجندىّ، و هو ضعيف. و أبو سعد إسماعيل بن أبى بكر الإسماعيلىّ شيخ الشافعية. و أبو الحسين عبد الوهاب بن الحسن الكلابىّ فى [شهر] ربيع الأول، و له تسعون سنة. و القاضى أبو الحسن على بن محمد بن إسحاق الحلبىّ بمصر. و أبو بكر محمد ابن [الحسن بن] الفضل بن المأمون. و أبو بكر محمد بن على بن النضر الدّيباجىّ.

و أبو بكر محمد بن عمر بن زنبور الورّاق.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و عشر أصابع. مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعا و ست عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۹۷]

السنة الحادية عشرة من ولاية الحاكم منصور على مصر و هى سنة سبع و تسعين و ثلثمائة.

فيها دخل بهاء الدولة البصرة و ملكها و استولى على ذخائر ابن واصل.

و فيها استفحل أمر أبى ركوة الذى خرج على الحاكم، و ذكرنا أمره فى الماضية، و دعا لعمّه هشام الأمويّ. و أبو ركوة المذكور اسمه الوليد، و هو من ذرّيّة هشام ابن عبد الملك بن مروان؛ و عظم أمره و انضم عليه الخلائق و استولى على برقة و غيرها، و كسر عسكر الحاكم، و ضرب السّكّة، و صعد المنبر و خطب خطبة بليغة، و لعن الحاكم و آباءه، و صلّى بالناس و عاد إلى دار الإمارة، و قد استولى على جميع ما كان فيها.

و عرف الحاكم بما جرى فانزعج و كفّ عن القتل و انقطع عن الركوب الذى كان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۱۶

يواصله؛ ثم جهّز الحاكم إلى حرب أبى ركوة قائدا من الأتراك يقال له ينّال الطويل، و أرسل معه خمسة آلاف فارس- و كان معظم جيش ينّال [من] كتامه، و كانت مستوحشة من ينال فإنه قتل كبار كتامة بأمر الحاكم- فتوجّه ينّال و واقع أبا ركوة فهزمه أبو ركوة و أخذه أسيرا، و قال له: العن الحاكم، فبصق فى وجه أبى ركوة؛ فأمر أبو ركوة به فقطّع إربا إربا. و أخذ أبو ركوة مائة ألف دينار كانت مع ينال و جميع ما كان معه، فقوى أمره أكثر ما كان. و اشتدّ الأمر على الحاكم أكثر و أكثر بكسر ينال؛ و بعث إلى الشام و استدعى الغلمان الحمدانيّة و القبائل و أنفق عليهم الأموال و جهّزهم، و جعل عليهم الفضل بن عبد اللّه؛ فطرقهم أبو ركوة و كسرهم و ساق خلفهم حتّى نزل عند الهرمين بالجيزة؛ و غلّق الحاكم أبواب القاهرة؛ ثمّ عاد أبو ركوة إلى عسكره. فندب الحاكم العساكر ثانيا، فسار بهم الفضل فى جيوش كثيرة، و التقى مع أبى ركوة فهزمه و قتل من عسكره نحو ثلاثين ألفا. ثم ظفر الفضل بأبى ركوة و سار به مكرما إلى الحاكم. و سبب إكرامه له خوفه عليه من أن يقتل نفسه، و قصد الفضل أن يأتى به الحاكم حيّا. فأمر الحاكم أن يشهّر أبو ركوة على جمل و يطاف به. و كانت القاهرة قد زيّنت أحسن زينة، و كان بها شيخ يقال له الأبزاريّ، إذا خرج خارجيّ صنع له طرطورا و عمل فيه ألوان الخرق المصبوغة و أخذ قردا و يجعل فى يده درّة و يعلّمه [أن] يضرب بها الخارجيّ من ورائه، و يعطى مائة دينار و عشر قطع قماش. فلمّا قطع أبو ركوة الجيزة أمر به الحاكم، فأركب جملا بسنامين و ألبس الطّرطور و أركب الأبزاريّ خلفه و القرد بيده الدّرّة و هو يضربه و العساكر حوله، و بين يديه خمسة عشر فيلا مزيّنة؛ و دخل القاهرة على هذا الوصف و رءوس أصحابه بين يديه على الخشب و القصب؛ و جلس الحاكم فى منظرة على باب الذهب، و الترك و الديلم عليهم السلاح و بأيديهم اللّتوت و تحتهم

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۱۷

الخيول بالتّجافيف حول أبى ركوة؛ و كان يوما عظيما، و أمر به الحاكم أن يخرج إلى ظاهر القاهرة و يضرب عنقه على تلّ بإزاء مسجد ريدان خارج القاهرة. فلمّا حمل إلى هناك أنزل فإذا به ميّت فقطع رأسه و حمل به إلى الحاكم؛ فأمر بصلب جسده. و ارتفعت منزلة الفضل عند الحاكم بحيث إنّه مرض فعاده مرّتين أو ثلاثا، و أقطعه إقطاعات كثيرة ثم عوفى من مرضه، و بعد أيام قبض عليه الحاكم و قتله شرّ قتلة.

و فيها كسا الحاكم الكعبة القباطيّ البيض، و بعث مالا لأهل الحرمين.

و فيها توفّى عبد الصمد بن عمر بن محمد بن إسحاق أبو القاسم الدّينوريّ الواعظ الزاهد، كان فقيها زاهدا عابدا محدّثا منقطعا عن الناس، و هو من كبار الشيوخ رحمه اللّه.

و فيها توفّى الشيخ الإمام العالم الحافظ أبو الحسن على بن عمر القصّار المالكىّ ببغداد.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و أربع أصابع. مبلغ الزيادة أربع عشرة ذراعا و ستّ عشرة إصبعا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۱۸

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۹۸]

السنة الثانية عشرة من ولاية الحاكم منصور على مصر و هى سنة ثمان و تسعين و ثلثمائة.

فيها فى يوم عاشوراء عمل أهل الكرخ [ما جرت به] العادة من النّوح و غيره.

و اتفق يوم عاشوراء يوم المهرجان؛ فأخّره عميد الجيوش إلى اليوم الثانى مراعاة لأجل الرافضة، هذا ما كان ببغداد. فأمّا مصر فإنه كان يفعل بها فى يوم عاشوراء من النوح و البكاء و الصّراخ و تعليق المسوح أضعاف ذلك لا سيّما أيّام خلفاء مصر بنى عبيد، فإنّهم كانوا أعلنوا الرّفض و سبّ الصحابة من غير تستّر و لا خيفة.

و فيها كانت فتنة عظيمة بين أهل السّنة و الرافضة ببغداد.

و فيها زلزلت الدّينور فهدمت المنازل و أهلكت ستة عشر ألف إنسان، و خرج من سلم إلى الصحراء و بنوا لهم أكواخا من القصب، و ذهب من الأموال ما لا يعدّ و لا يحصى.

و فيها هدم الحاكم بيعة قمامة التى ببيت المقدس و غيرها من الكنائس بمصر و الشام، و ألزم أهل الذمّة بما ذكرناه فى ترجمة الحاكم.

و فيها توفّى أحمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد أبو الفضل الهمذانىّ الملقّب ببديع الزمان، صاحب الرسائل الرائقة، و صاحب المقامات [الفائقة]؛ التى على منوالها نسج الحريرىّ مقاماته، و اعترف له بالفضل عليه. و كان إمام وقته فى المنثور

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۱۹

و المنظوم. و من كلامه النثر: الماء إذا طال مكثه، ظهر خبثه؛ و إذا سكن متنه، تحرّك نتنه. و [له من تعزية]: الموت خطب قد عظم حتّى هان، و مسّ [قد] خشن حتّى لان؛ و الدنيا [قد] تنكّرت حتّى صار الموت أخفّ خطوبها، و جنّت حتّى صار أصغر ذنوبها. و له من هذا أشياء كثيرة. و أمّا شعره فجيّد إلى الغاية.

من ذلك قوله من جملة قصيدة: [البسيط]

و كاد يحكيك صوب الغيث منسكبا لو كان طلق المحيّا يمطر الذّهبا

و الدهر لو لم يخن و الشمس لو نطقت و الليث لو لم يصد و البحر لو عذبا

و كانت وفاته فى هذه السنة بمدينة هراة.

و فيها توفّى عبد الواحد بن نصر بن محمد أبو الفرج المخزومىّ النّصيبىّ الشاعر المشهور المعروف بالببّغاء و الببّغاء هو الطير المعروف بالدّرّة، و قيل غيرها. خدم الببغاء المذكور سيف الدولة بن حمدان و مدحه؛ و كان شاعرا مجيدا و كاتبا مترسّلا، جيّد المعانى حسن القول فى المدائح. و من شعره: [الكامل]

و كأنّما نقشت حوافر خيله للناظرين أهلّة فى الجلمد

و كأنّ طرف الشمس مطروف و قد جعل الغبار له مكان الإثمد

و فيها توفّى عبد اللّه بن محمد أبو محمد البخارىّ الخوارزمىّ الفقيه الشافعى، كان فقيها فصيحا أديبا يرتجل الخطب الطّوال و يقول الشعر على البديهة. و من شعره:

[الخفیف]

کم حضرنا و لیس یقضی التلاقی نسأل اللّه غیر هذا الفراق

إن أغب لم تغب و إن لم تغب غبت کأنّ افتراقنا باتفاق

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۲۰

و فیها توفّی أبو منصور بن بهاء الدولة، و قیل: إنّ اسمه بویه. کان أبوه بهاء الدولة یخافه، و منع الخدم من الکلام معه و ضیّق علیه. و لمّا مات وجد علیه وجدا عظیما، و لبس السواد، و واصل البکاء و الحزن إلی أن اجتمع إلیه وجوه الدیلم و سألوه أن یرجع إلی عادته.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم خمس أذرع سواء. مبلغ الزیادة أربع عشرة ذراعا و تسع أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۳۹۹]

السنة الثالثة عشرة من ولایة الحاکم منصور علی مصر و هی سنة تسع و تسعین و ثلثمائة.

فیها لحق الحاجّ عند عودهم من مکة الأصیفر الأعرابیّ، و قرّر علیهم أبو الحارث محمد بن محمد بن عمر العلویّ أمیر الحاجّ مالا فأوردوه، و دخلوا الکوفة بعد أن لاقوا مشقّة شدیدة، و أقاموا بها حتّی أرسل إلیهم أبو الحسن علی بن مزید أخاه حمّادا فحملهم إلی المدائن، ثمّ دخلوا بغداد.

و فیها صرف أبو عمر عبد الواحد عن قضاء البصرة، و ولیها أبو الحسن بن أبی الشّوارب. فقال العصفریّ الشاعر فی هذه المعنی:

[المجتث]

عندی حدیث ظریف بمثله یتغنّی

من قاضیین یعزّی هذا و هذا یهنّی

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۲۱

فذا یقول اکرهونا و ذا یقول استرحنا

و یکذبان جمیعا و من یصدّق منّا

و فیها ولّی الحاکم القائد أبا الجیش حامد بن ملهم أمیرا علی دمشق بعد علیّ بن جعفر بن فلاح، فولیها سنة و أربعة أشهر، ثم عزل بمحمد بن بزال.

و فیها لم یحجّ أحد من العراق خوفا من العطش و العرب، و خرجوا ثمّ عادوا.

و فیها توفّیت یمنی أمّ القادر. کانت مولاة عبد الواحد بن الخلیفة المقتدر، و کانت من أهل الدین و الصلاح. و صلّی علیها القادر فی داره و کبّر أربعا، و حملت إلی الرّصافة فی طیّار فدفنت بها.

و فیها توفّی الأمیر لؤلؤ غلام سیف الدولة بن حمدان صاحب حلب و الذی کان واقع العزیز نزارا والد الحاکم؛ و قد تقدّم ذکر ذلک فی ترجمة العزیز مفصّلا. کان لؤلؤ شجاعا مقداما. و لما مات لؤلؤ تولّی الملک بعده ابنه مرتضی الدولة، و هرب بعد ذلک إلی الروم.

و فیها توفّی هشام بن الحکم بن عبد الرّحمن الأمویّ صاحب الأندلس، و لقبه المؤیّد، و هو من ذرّیة مروان بن الحکم الأمویّ و هو عمّ أبی رکوة الذی کان خرج علی الحاکم المقدّم ذکره، و باسمه کان یخطب أبو رکوة المذکور. ولی هشام هذا الملک و له تسع سنین، و أقام والیا علی الأندلس تسعا و ثلاثین سنة.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم ذراعان و ستّ عشرة إصبعا. مبلغ الزیادة ستّ عشرة ذراعا و ثلاث و عشرون إصبعا.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۲۲

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۰۰]

السنة الرابعة عشرة من ولاية الحاكم منصور على مصر و هى سنة أربعمائة.

فيها أرجف بموت الخليفة القادر، فجلس للناس بعد صلاة الجمعة و دخل عليه القضاة و الأشراف، و عليه أبّهة الخلافة، و قبّل أبو حامد الإسفراينى يده.

و فيها أرسل الحاكم إلى المدينة إلى دار جعفر الصادق من فتحها و أخذ منها ما كان فيها، و كان فيها مصحف و سرير و آلات، و كان الذى فتحها ختكين العضدىّ الداعى، و حمل معه رسوم الأشراف، و عاد إلى مصر بما وجد فى الدار؛ و خرج معه من شيوخ العلويّين جماعة؛ فلمّا وصلوا إلى الحاكم أطلق لهم نفقات قليلة [و ردّ عليهم السرير] و أخذ الباقى، و قال: أنا أحقّ به؛ فانصرفوا داعين عليه.

و شاع فعله فى الأمور التى خرق العادات فيها، و دعى عليه فى أعقاب الصلوات و ظوهر بذلك، فأشفق فخاف؛ و أمر بعمارة دار العلم و فرشها، و نقل إليها الكتب العظيمة و أسكنها من شيوخ السنّة شيخين، يعرف أحدهما بأبى بكر الأنطاكىّ، و خلع عليهما و قرّبهما و رسم لهما بحضور مجلسه و ملازمته، و جمع الفقهاء و المحدّثين إليها، و أمر أن يقرأ بها فضائل الصحابة، [و رفع عنهم الاعتراض فى ذلك] و أطلق صلاة التراويح و الضحى، و غيّر الأذان و جعل مكان "حىّ على خير العمل ""الصلاة خير من النوم؛ "و ركب بنفسه الى جامع عمرو بن العاص و صلّى فيه الضحى، و أظهر الميل الى مذهب الإمام مالك و القول به، و وضع للجامع تنّورا من فضة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۲۳

يوقد فيه ألف و مائتا فتيلة، و اثنين آخرين من دونه. و زفّهم بالدبادب و البوقات و التهليل و التكبير، و نصبهم ليلة النصف من شعبان؛ و حضر أوّل يوم من رمضان الى الجامع الذى بالقاهرة، و حمل إليه الفرش الكثيرة و قناديل الذهب و الفضة، فكثر الدعاء له؛ و لبس الصوف فى هذه السنة يوم الجمعة عاشر شهر رمضان، و ركب الحمار و أظهر النسك و ملأ كمّه دفاتر، و خطب بالناس يوم الجمعة و صلّى بهم؛ و منع من أن يخاطب يا مولانا و من تقبيل الأرض بين يديه؛ و أقام الرواتب لمن يأوى المساجد من الفقراء و القرّاء و الغرباء و أبناء السبيل، و أجرى لهم الأرزاق؛ و صاغ محرابا عظيما من فضة و عشرة قناديل؛ و رصّع المحراب بالجوهر و نصبه بالمسجد الجامع. و أقام على ذلك ثلاث سنين يحمل الطّيب و البخور و الشموع إلى الجوامع، و فعل ما لم يفعله أحد. ثم بدا له بعد ذلك فقتل الفقيه أبا بكر الأنطاكى و الشيخ الآخر و خلقا كثيرا أخر من أهل السنّة لا لأمر يقتضى ذلك؛ و فعل ذلك كلّه فى يوم واحد. و أغلق دار العلم، و منع من جميع ما كان فعله؛ و عاد إلى ما كان عليه أوّلا من قتل العلماء و الفقهاء و أزيد؛ و دام على ذلك حتّى مات قتيلا حسب ما ذكرناه.

و فيها توفّى الحسين بن موسى بن محمد بن إبراهيم بن موسى بن جعفر الصادق الشريف أبو أحمد الموسوى، والد الشريف الرضى و المرتضى. مولده فى سنة أربع و ثلثمائة. و كان سيّدا عظيما مطاعا، كانت هيبته أشدّ من هيبة الخلفاء؛ خاف منه عضد الدولة فاستصفى أمواله. و كانت منزلته عند بهاء الدولة أرفع المنازل، و لقّبه بالطاهر و الأوحد و ذى المناقب، و كان فيه كلّ الخصال الحسنة إلا أنّه كان رافضيّا هو و أولاده على مذهب القوم. و مات ببغداد عن سبع و تسعين سنة، و صلى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۲۴

عليه ابنه المرتضى، و دفن فى داره ثم نقل إلى مشهد الحسين، و رثاه ولده المرتضى.

و فيها توفّى أبو الحسين بن الرفّاء القارئ المجيد الطيّب الصوت الذى ذكرنا قصته مع الأصيفر الأعرابىّ عند ما اعترض الحاجّ فى سنة أربع و تسعين؛ و كانت وفاته ببغداد.

و فیها توفّی أبو عبد اللّه القمّی التاجر المصریّ، کان بزّاز خزانة الحاکم؛ مات فی ذی القعدة بین مصر و مکة، و حمل إلی البقیع و دفن به، و کان ذا مال عظیم؛ خرج فی هذه السنة مع حجّاج مصر بعد أن اشتملت وصیّته علی ألف ألف دینار غیر المتاع و القماش و الجوهر.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم أربع أذرع سواء. مبلغ الزیادة ستّ عشرة ذراعا و ثلاث و عشرون إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۰۱]

السنة الخامسة عشرة من ولایة الحاکم منصور علی مصر و هی سنة إحدی و أربعمائة.

فیها خطب أبو المنیع قرواش بن المقلّد الملقّب بمعتمد الدولة للحاکم صاحب مصر بالموصل. و کان الحاکم قد استماله؛ فجمع معتمد الدولة أهل الموصل و أظهر طاعة الحاکم، فأجابوه و فی القلوب ما فیها؛ فأحضر الخطیب یوم الجمعة رابع المحرّم و [خلع] علیه قباء دبیقیّا و عمامة صفراء و سراویل دیباج أحمر و خفّین أحمرین، و قلّده سیفا، و أعطاه نسخة ما یخطب به و أوّلها:

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۲۵

«اللّه أکبر اللّه أکبر لا إله إلا اللّه، و اللّه أکبر و للّه الحمد. الحمد للّه الذی انجلت بنوره غمرات الغضب، و انهدّت بقدرته أرکان النصب، و أطلع بقدره شمس الحقّ من الغرب؛ الذی محا بعدله جور الظّلمة، و قصم بقوّته ظهر الغشمة؛ فعاد الأمر إلی نصابه، و الحقّ إلی أربابه؛ البائن بذاته، المنفرد بصفاته، الظاهر بآیاته، المتوحّد بدلالاته؛ لم تفنه الأوقات فتسبقه الأزمنة، و لم یشبه الصور فتحویه الأمکنة، و لم تره العیون فتصفه الألسنة؛ سبق کلّ موجود وجوده، وفات کلّ جود جوده؛ و استقرّ فی کلّ عقل توحیده، و قام فی کلّ مرأی شهیده.

أحمده کما یجب علی أولیائه الشاکرین تحمیده، و أستعینه علی القیام بما یشاء و یریده، و أشهد له بما شهد أصفیاؤه و شهوده. و أشهد أن لا إله إلا اللّه وحده لا شریک له شهادة لا یشوبها دنس الشرک، و لا یعتریها و هم الشکّ؛ خالصة من الإدهان، قائمة بالطاعة و الإذعان.

و أشهد أن محمدا عبده و رسوله صلی اللّه علیه و سلم، اصطفاه و اختاره لهدایة الخلق، و إقامة الحق؛ فبلّغ الرسالة و أدّی الأمانه، و هدی من الضلاله؛ و الناس حینئذ عن الهدی غافلون، و عن سبیل الحقّ ضالّون؛ فأنقذهم من عبادة الأوثان، و أمرهم بطاعة الرّحمن؛ حتی قامت حجج اللّه و آیاته، و تمّت بالتبلیغ کلماته؛ صلی اللّه علیه و علی أوّل مستجیب إلیه علیّ أمیر المؤمنین، و سیّد الوصیّین؛ أساس الفضل و الرحمة، و عماد العلم و الحکمة؛ و أصل الشجرة الکرام البررة، النابتة [فی] الأرومة المقدّسة المطهّرة؛ و علی خلفائه الأغصان البواسق [من تلک الشجرة]، و علی ما خلص منها و زکا من الثمرة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۲۶

أیّها الناس، اتقوا اللّه حقّ تقاته، و ارغبوا فی ثوابه و احذروا من عقابه، فقد تسمعون ما یتلی علیکم من کتابه؛ قال اللّه عزّ و جلّ: (یَوْمَ نَدْعُوا کُلَّ أُناسٍ بِإِمامِهِمْ). فالحذر ثمّ الحذر، فکأنّی و قد أفضت بکم الدنیا إلی الآخرة، و قد بان أشراطها، و لاح سراطها؛ و مناقشة حسابها، و العرض علی کتابها؛ (فَمَنْ یَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَیْراً یَرَهُ وَ مَنْ یَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا یَرَهُ). ارکبوا سفینة نجاتکم قبل أن تغرقوا، (وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِیعاً وَ لا تَفَرَّقُوا)؛ و أنیبوا إلیه خیر الإنابة، و أجیبوا داعی اللّه علی باب الإجابة؛ قبل (أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ یا حَسْرَتی عَلی ما فَرَّطْتُ فِی جَنْبِ اللَّهِ - ... إلی قوله: - فَأَکُونَ مِنَ الْمُحْسِنِینَ). تیقّظوا من الغفلة و الفترة، قبل الندامة و الحسره؛ و تمنّی الکرّ و التماس الخلاص، ولات حین مناص؛ و أطیعوا إمامکم ترشدوا، و تمسّکوا بولاة العهود تهتدوا؛ فقد نصب اللّه لکم علما لتهتدوا به، و سبیلا لتقتدوا به؛ جعلنا اللّه و إیاکم ممن تبع مراده، و جعل الإیمان زاده، و الهمّة تقواه و رشاده؛ أستغفر اللّه العظیم لی و لکم و لجمیع

المؤمنين». ثم جلس و قام و قال:

«الحمد للّه ذى الجلال و الإكرام، و خالق الأنام و مقدّر الأقسام، المنفرد بحقيقة البقاء و الدوام؛ فالق الإصباح، و خالق الأشباح، و فاطر الأرواح؛ أحمده أوّلا و آخرا، و أشكره باطنا و ظاهرا، و أستعين به إلها قادرا، و [أستنصره] وليّا ناصرا.

و أشهد أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له، و أن محمدا عبده و رسوله، شهادة من أقرّ بوحدانيته إيمانا، و اعترف بربوبيته إيقانا؛ و علم برهان ما يدعو إليه، و عرف حقيقة الدلالة عليه. اللهمّ و صلّ على وليّك الأزهر، و صديقك الأكبر؛ علىّ بن أبى طالب أبى الخلفاء الراشدين المهديّين. اللهمّ و صلّ على السّبطين الطاهرين

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۲۷

الحسن و الحسين؛ و على الأئمة الأبرار، و الصفوة الأخيار؛ من أقام منهم و ظهر، و من خاف فاستتر. اللهمّ و صلّ على الإمام المهدىّ بك، و الذى بلّغ بأمرك، و أظهر حجّتك؛ و نهض بالعدل فى بلادك، هاديا لعبادك. اللهمّ و صلّ على القائم بأمرك، و المنصور بنصرك، اللذين بذلا نفوسهما فى رضائك، و جاهدا أعداءك. اللهمّ و صلّ على المعزّ لدينك، المجاهد فى سبيلك؛ المظهر للآيات الخفيّه، و الحجج الجليـة. اللهمّ و صلّ على العزيز بك الذى مهّدت به البلاد، و هديت به العباد. اللهمّ و اجعل نوامى صلواتك، و زواكى بركاتك؛ على سيّدنا و مولانا إمام الزمان، و حصن الإيمان؛ و صاحب الدعوة العلويّه، [و] الملّة النبويه؛ عبدك و وليّك المنصور أبى علىّ الحاكم بأمر اللّه أمير المؤمنين؛ كما صلّيت على آبائه الراشدين، و أكرمت أجداده المهديّين.

اللهمّ وفّقنا لطاعته، و اجمعنا على كلمته و دعوته؛ و احشرنا فى حزبه و زمرته. اللهمّ و أعنه على ما ولّيته، و احفظه فيما استرعيته، و بارك له فيما آتيته؛ و انصر جيوشه و [أعل] أعلامه فى مشارق الأرض و مغاربها؛ إنك على كل شيء قدير».

فلما سمع الخليفة القادر ذلك أزعجه و أرسل عميد الجيوش فى تجهيز العساكر.

فلما بلغ قرواشا ذلك أرسل يعتذر للخليفة، و أبطل دعوة الحاكم من بلاده و أعادها للقادر على العادة.

و فيها لم يحجّ أحد من العراق خوفا من الأعراب، و حجّ الناس من مصر و غيرها.

و فيها ولّى الحاكم لؤلؤ بن عبد اللّه الشيرازىّ دمشق، و لقّبه بمنتخب الدولة؛ فقدم إليها فى جمادى الآخرة من الرقّة، ثم عزله عنها فى يوم عيد الأضحى، و ولّى عوضه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۲۸

أبا المطاع ذا القرنين بن حمدان، و كان يوم الجمعة فصلّى لؤلؤ بالناس العيد و أبو المطاع الجمعة. و حمل لؤلؤ الى بعلبك، فقتل بها بأمر الحاكم.

و فيها توفّى أبو على الأمير عميد الجيوش و اسمه الحسين بن [أبى] جعفر. كان أبوه من حجّاب عضد الدولة بن بويه؛ و جعل ابنه هذا برسم صمصام الدولة، فخدم المذكور صمصام الدولة و بهاء الدولة؛ فولّاه بهاء الدولة العراق، فقدمها و الفتن قائمة، فقتل و صلب و غرّق حتى بلغ من هيبته أنه أعطى غلاما له صينيّة فضّة فيها دنانير، فقال: خذها على رأسك و سر من النجمى الى الماصر الأعلى، فإن اعترضك معترض فأعطه إياها و اعرف المكان؛ فجاء الغلام و قد انتصف الليل، و قال مشيت الحدّ جميعه فلم يلقنى أحد.

و فيها توفّى أحمد بن محمد بن عبد الرّحمن أبو عبيد الهروىّ اللغوىّ المؤدّب، مصنّف الغريبين فى اللغة، لغة القرآن و لغة الحديث، و مات فى شهر رجب.

و فيها توفّى علىّ بن محمد أبو الفتح البستى الكاتب الشاعر. قال الحاكم: «هو واحد عصره، و حدّثنى أنه سمع الكثير من أبى حاتم بن حبّان». انتهى. قلت:

و هو صاحب النظم الرائق، و النثر الفائق. و من كلامه النثر: من أصلح فاسده، أرغم حاسده. عادات السادات، سادات العادات. و من شعره رحمه اللّه تعالى:

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۲۹

[الوافر]

أعلّل بالمنى روحى لعلّى أروّح بالأمانى الهمّ عنى

و أعلم أنّ وصلك لا يرجّى و لكن لا أقلّ من التمنّى

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و ثمانى عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و ثمانى عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۰۲]

السنة السادسة عشرة من ولاية الحاكم منصور على مصر و هى سنة اثنتين و أربعمائة.

فيها فى شهر ربيع الآخر كتب الخليفة القادر العباسىّ محضرا فى معنى الخلفاء المصريّين و القدح فى أنسابهم و عقائدهم، و قرئت النسخ ببغداد، و أخذت فيها خطوط القضاة و الأئمة و الأشراف بما عندهم من العلم بمعرفة نسب الديصانيّة؛ قالوا ": و هم منسوبون الى ديصان بن سعيد الخرّمى إخوان الكافرين، و نطف الشياطين؛ شهادة يتقرّبون بها الى اللّه، و معتقدين ما أوجب اللّه على العلماء أن ينشروه للناس؛ فشهدوا جميعا أن الناجم بمصر و هو منصور بن نزار الملقب بالحاكم- حكم اللّه عليه بالبوار و الخزى و النكال- ابن معدّ بن إسماعيل بن عبد الرّحمن بن سعيد- لا أسعده اللّه- فإنه لمّا صار الى المغرب تسمّى بعبيد اللّه و تلقّب بالمهدىّ، هو و من تقدّمه من سلفه الأرجاس الأنجاس- عليه و عليهم اللعنة- أدعياء

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۳۰

خوارج لا- نسب لهم فى ولد علىّ بن أبى طالب، و أن ذلك باطل و زور، و أنهم لا يعلمون أن أحدا من الطالبيّين توقّف عن إطلاق القول فى هؤلاء الخوارج إنهم أدعياء. و قد كان هذا الإنكار شائعا بالحرمين فى أوّل أمرهم بالمغرب، منتشرا انتشارا يمنع من أن يدلّس على أحد كذبهم، أو يذهب وهم الى تصديقهم؛ و أن هذا الناجم بمصر هو و سلفه كفّار و فسّاق فجّار زنادقة، و لمذهب الثنويّة و المجوسيّة معتقدون؛ قد عطّلوا الحدود، و أباحوا الفروج، و سفكوا الدماء، و سبّوا الأنبياء، و لعنوا السلف، و ادّعوا الربوبيّة. و كتب فى [شهر] ربيع الآخر سنة اثنتين و أربعمائة». و كتب خلق كثير فى المحضر المذكور منهم الشريف الرضى و المرتضى أخوه، و ابن الأزرق الموسوىّ، و محمد بن محمد بن عمر بن أبى يعلى العلويّون، و القاضى أبو محمد عبد اللّه بن الأكفانىّ، و القاضى أبو القاسم الجزرىّ، و الإمام أبو حامد الإسفراينى، و الفقيه أبو محمد الكشفلى، و الفقيه أبو الحسين القدورىّ الحنفىّ، و الفقيه أبو على بن حمكان و أبو القاسم التنوخىّ، و القاضى أبو عبد اللّه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۳۱

الصّيمرىّ. انتهى أمر المحضر باختصار. فلما بلغ الحاكم قامت قيامته و هان فى أعين الناس لكتابة هؤلاء العلماء الأعلام فى المحضر.

و فيها حجّ بالناس من العراق أبو الحارث محمد بن محمد بن عمر العلوىّ، و هبّت عليهم ريح سوداء و فقدوا الماء و لقوا شدائد.

و فيها توفّى أحمد بن مروان أبو نصر، و قيل: أبو منصور، ممهّد الدولة الكردىّ صاحب ميّافارقين. و قد ذكرنا مقتل الحسن بن مروان على باب آمد، و أنهم من غير بيت فى الرياسة، و أنهم و ثبوا على ديار بكر و ملكوها. و وقع لأحمد هذا أمور و وقائع و حروب.

و فيها توفّى عبد الرّحمن بن محمد بن عيسى بن فطيس بن أصبغ بن فطيس أبو المطرّف الإمام قاضى الجماعة بقرطبة، سمع الحديث و روى عنه جماعة، و كان من الحفّاظ و كبار العلماء، عارفا بعلل الحديث و الرجال، و له مشاركة فى سائر العلوم.

و فيها توفّى محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن عبد الرّحمن بن يحيى بن جميع أبو الحسين الصّيداوىّ الغسّانىّ. رحل [إلى]

البلاد و سمع الكثير، و روى عنه غير واحد. ولد سنة خمس و ثلثمائة، و كان ثقة محدّثا كبير الشأن، و وفاته فى شهر رجب.

و فيها توفّى محمد بن عبد اللّه بن الحسن أبو الحسين بن اللبّان البصرىّ العلامة صاحب الفرائض، سمع الحديث و برع فى الفرائض حتى إنه كان يقول:

ليس فى الدنيا فرضىّ إلّا من أصحابى و أصحاب أصحابى أو لا يحسن شيئا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۳۲

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ذراعان و ثمانى أصابع. مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و عشر أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۰۳]

السنة السابعة عشرة من ولاية الحاكم منصور على مصر و هى سنة ثلاث و أربعمائة.

فيها فى يوم الجمعة سادس عشر المحرّم قلّد الشريف الرضى نقابة الطالبيّين بسائر الممالك.

و فيها أرسل الحاكم صاحب الترجمة كتابا إلى السلطان محمود بن سبكتكين صاحب غزنة يدعوه الى طاعته، فبعث محمود بالكتاب إلى القادر بعد أن خرقه و بصق فى وسطه.

و فيها لم يحجّ أحد من العراق.

و فيها توفّى الحسن بن حامد بن على بن مروان أبو عبد اللّه الفقيه الحنبلىّ الورّاق، كان مدرّس الحنابلة و فقيههم، و له مصنّفات، منها كتاب "الجامع "أربعمائة جزء.

و هو شيخ القاضى أبى يعلى الفرّاء، و كان معظّما فى النفوس مقدّما عند السلطان، و كان زاهدا ورعا، ينسخ بالأجرة و يتقوّت منه.

و فيها توفّى السلطان فيروز أبو نصر بهاء الدولة بن عضد الدولة بويه بن ركن الدولة حسن بن بويه [بن] فنّاخسرو الديلمىّ، و قيل: اسمه خاشاد. و بهاء الدولة هذا هو الذى قبض على الخليفة الطائع و خلعه من الخلافة، و ولّى القادر الخلافة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۳۳

عوضه، و قد ذكرنا ذلك فى وقته. و كان بهاء الدولة ظالما غشوما سفّاكا للدماء، حتى إنه كان خواصّه يهربون من قربه. و جمع من المال ما لم يجمعه أحد من بنى بويه إلا- إن كان عمه فخر الدولة المقدّم ذكره. و لم يكن فى ملوك بنى بويه أظلم منه و لا- أقبح سيرة. و كان به مرض الصرع يصرع فى دست الملك؛ ورث ذلك عن أبيه، و مات به فى أرّجان فى يوم الاثنين خامس جمادى الاخرة. و كانت مدّة سلطنته أربعا و عشرين سنة و تسعة أشهر و أياما، و مات و له اثنتان و أربعون سنة و تسعة أشهر، و حمل من أرّجان إلى الكوفة. و تولّى الملك من بعده ولده أبو شجاع بعهد منه.

و فيها توفّى قابوس بن و شمكير أمير الجبال بنيسابور و غيرها. كان أيضا سيّئ السيرة، قتل جماعة من خواصّه و حجّابه ففسدت القلوب عليه، و دبّروا فى قتله و قصدوا ابنه منوجهر، و لا زالوا به حتى قبض على أبيه قابوس هذا و قتله بالبرد، ثم قتل منوجهر جماعة ممن أشار عليه بقتل أبيه، و ندم حين لا ينفع الندم.

و فيها توفّى الشريف محمد بن محمد بن عمر العلوىّ أبو الحارث نقيب الطالبيّين بالكوفة. كان شجاعا جوادا ديّنا رئيسا، كانت إليه النقابة مع تسييرا لحاجّ، حجّ بالناس عشر سنوات، و كان ينفق عليهم [من ماله] و يحمل المنقطعين رحمه اللّه. و مات بالكوفة فى جمادى الآخرة.

و فيها توفّى علىّ بن محمد بن خلف الإمام أبو الحسن المعافرىّ القروىّ القابسىّ الفقيه المالكىّ. كان عالم أهل إفريقيّة حجّ و سمع جماعة، و أخذ بإفريقيّة عن

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۴، ص: ۲۳۴

ابن مسرور الدبّاغ و غيره، و كان حافظا للحديث و علله، فقيها أصوليّا متكلّما مصنّفا صالحا، و كان أعمى لا يرى شيئا، و هو مع ذلك من أصحّ الناس كتبا و أجودهم تقييدا، يضبط كتبه ثقات أصحابه؛ و الذى ضبط له صحيح البخارىّ بمكة رفيقه أبو محمد الأصيلىّ.

و فيها توفّى محمد بن الطيّب بن محمد بن جعفر بن القاسم القاضى أبو بكر الباقلانى البصرىّ صاحب التصانيف فى علم الكلام، سكن بغداد و كان فى وقته أوحد زمانه، صنّف فى الردّ على الرافضة و المعتزلة و الخوارج و الجهميّة. و ذكره القاضى عياض فى طبقات الفقهاء المالكية فقال: «هو الملقّب بسيف السنّة، و لسان الأمّة، المتكلّم على لسان أهل الحديث، و طريق أبى الحسن الأشعرىّ، و إليه انتهت رياسة المالكية».

و فيها توفّى محمد بن موسى أبو بكر الخوارزمىّ الحنفىّ شيخ الحنفيّة و عالمهم و مفتيهم، انتهت إليه رياسة الحنفية فى زمانه، و كان تفقّه على أبى بكر أحمد بن علىّ الرازىّ، و سمع الحديث من أبى بكر الشافعىّ، و روى عنه أبو بكر البرقانىّ. قال القاضى أبو عبد اللّه الصّيمرىّ بعد ما أثنى عليه: «و ما شاهد الناس مثله فى حسن الفتوى [و الإصابة فيها] و حسن التدريس. و قد دعى إلى ولاية الحكم مرارا فامتنع تورّعا». و مات فى جمادى الأولى.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۴، ص: ۲۳۵

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ذراعان و ثلاث و عشرون إصبعا.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و اثنتا عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۰۴]

السنة الثامنة عشرة من ولاية الحاكم منصور على مصر و هى سنة أربع و أربعمائة.

فيها قلّد فخر الملك الأمر، و لقّبه الخليفة القادر سلطان الدولة و عقد لواءه بيده، و قرئ تقليده، و كتب القادر خطّه عليه.

و فيها أبطل الحاكم المنجّمين من بلاده، و أعتق أكثر مماليكه، و جعل ولىّ عهده ابن عمه عبد الرّحيم بن إلياس و خطب له بذلك؛ و أمر بحبس النساء فى البيوت، و صلحت سيرته.

و فيها حجّ بالناس من العراق أبو الحسن محمد بن الحسن، و كذلك فى سنة خمس.

و فيها كانت الملحمة الهائلة بين ملك الترك طغان و بين ملك الصين، فقتل فيها من الكفّار نحو من مائة ألف، و دامت الحرب بينهم أياما، ثم انتصر المسلمون (أعنى الترك) و للّه الحمد.

و فيها استولى الحاكم على حلب و زال ملك بنى حمدان منها.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۴، ص: ۲۳۶

و فيها توفّى إبراهيم بن عبد اللّه بن حصن أبو إسحاق الغافقىّ محتسب دمشق من قبل الحاكم، و كان شهما فى الحسبة؛ أدّب رجلا، فلما ضربه درّة، قال المضروب:

هذه فى قفا أبى بكر؛ فلمّا ضربه أخرى قال: هذه فى قفا عمر؛ فضربه أخرى فقال: هذه فى قفا عثمان؛ ثم ضربه أخرى فسكت. فقال له الغافقىّ: أنت ما تعرف ترتيب الصحابة، أنا أعرّفك، و أفضلهم أهل بدر، لأصفعنّك على عددهم فصفعه ثلثمائة و ستّ عشرة درّة؛ فحمل من بين يديه فمات بعد أيام. قلت: الى سقر. و بلغ الحاكم ذلك، فأرسل يشكره و يقول: هذا جزاء من ينتقص السلف الصالح. قلت: لعلّ هذه الواقعة كانت صادفت من الحاكم أيام صلاحه و إظهاره الزهد و التفقّه.

و فيها توفّى الحسين بن أحمد بن جعفر أبو عبد اللّه، كان زاهدا عابدا لا ينام إلا عن غلبة، و كان لا يدخل الحمّام، و يأكل خبز

الشعیر؛ و مات فی شعبان.

و فیها توفّی علی بن سعید الإصطخریّ أحد شیوخ المعتزلة، صنّف للقادر "الردّ علی الباطنیة "و أجری علیه القادر جرایة ستیّة و حبسها من بعده علی بنیه.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم ثلاث أذرع سواء. مبلغ الزیادة سبع عشرة ذراعا سواء.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۰۵]

السنة التاسعة عشرة من ولایة الحاکم منصور علی مصر و هی سنة خمس و أربعمائة.

فیها منع الحاکم النساء من الخروج من بیوتهنّ، و قتل بسبب ذلک عدّة نسوة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۳۷

و فیها جلس الخلیفة القادر ببغداد و أحضر العلویّین و العباسیّین و القضاة، و أحضر الخلع السلطانیة ما عدا التاج و لواء واحدا، و قرئ عهد أبی طاهر رکن الدین بن بهاء الدولة، و لقّبه بجلال الدولة و جمال الملّة رکن الدین. قلت: و هذا أوّل لقب سمعناه فی الإسلام (أعنی رکن الدین). و لا أدری متی لقّب به ابن بهاء الدولة المذکور، غیر أننی سمعت من بعض علماء العجم أنّ ابن بهاء الدولة المذکور مشی بین یدی الخلیفة القادر، فقال له الخلیفة: ارکب رکن الدین؛ فسمّی بذلک.

و اللّه أعلم.

و فیها حجّ بالناس من العراق أبو الحسن محمد بن الحسن العلویّ الأقساسیّ.

و فیها توفّی بدر بن حسنویه بن الحسین أبو النجم الکردیّ، کان من أهل الجبال، و ولّاه عضد الدولة الجبال و همذان و دینور و نهاوند و سابور و تلک النواحی بعد وفاة أبیه حسنویه. و کان شجاعا عادلا کثیر الصدقات. و الخلیفة القادر کناه أبا النجم، و لقّبه ناصر الدولة، و عقد له لواء بیده.

و فیها توفّی بکر بن شاذان بن بکر أبو القاسم المقرئ الواعظ البغدادیّ، قرأ القرآن، و سمع الحدیث، و کان عابدا زاهدا، و کانت وفاته فی شوّال.

و فیها توفّی عبد اللّه بن محمد بن عبد اللّه أبو محمد بن الأکفانیّ الحنفیّ القاضی الأسدیّ، کان عالما دیّنا، ولد سنة ستّ عشرة و ثلثمائة. قال أبو إسحاق الطبریّ:

من قال: إن أحدا أنفق علی العلم مائة ألف دینار غیر أبی محمد [بن] الأکفانیّ فقد کذب. قلت: هذا هو العلم الخالص لوجه اللّه تعالی.

و فیها توفّی عبد الرّحمن بن محمد بن محمد بن عبد اللّه بن إدریس الحافظ أبو سعید، کان أبوه من أستراباد و سکن سمرقند و صنّف "تاریخ سمرقند "و عرضه علی الدارقطنیّ فاستحسنه، و کان ثقة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۳۸

و فیها توفّی عبد السلام بن الحسین بن محمد أبو أحمد البصریّ اللغویّ، کان رجلا فاضلا عارفا بالقرآن سمحا جوادا.

و فیها توفّی عبد العزیز بن عمرو بن محمد بن یحیی بن حمید بن نباتة (و نباتة بضم النون) أبو نصر البغدادیّ، کان من الشعراء المجیدین، مات ببغداد فی شوال. و من شعره: [الکامل]

و إذا عجزت من العدوّ فداره و امزج له إنّ المزاج وفاق

فالنار بالماء الذی هو ضدّها تعطی النّضاج و طبعها الإحراق

و فيها توفّى عبـد الغفار بن عبـد الرّحمن أبو بكر الدينورىّ؛ لم يكن ببغداد مفت على مذهب سـفيان الثورىّ غيره، و هو آخر من أفتى بجامع المنصور على مذهب الثورىّ.

قلت: لعلّ ذلك كان بالشـرق، و أمّا بالغرب فـدام مـذهب الثورىّ بعـد هذا التاريخ عدّة سـنين. كان عبد الغفار عالما فاضـلا مناظرا، و مات فى شوال.

و فيها توفّى محمد بن عبد اللّه بن محمد بن حمدويه بن نعيم الحافظ أبو عبد اللّه الحاكم النيسابورىّ، و يعرف بابن البيّع، الضّبىّ، ولد سنة إحـدى و عشـرين و ثلثمائـة، كان أحد أركان الاسـلام، و سيّد المحدّثين و إمامهم فى وقته و المرجوع إليه فى هذا الشأن؛ رحل [إلى] البلاد، و صنّف الكتب، و سمع الكثير، و روى عنه الجمّ الغفير، و مات فى صفر.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۳۹

و فيها توفّى هبة اللّه بن عيسى، كاتب مهذّب الدولة البطائحىّ و وزيره، كان فاضلا راوية للأخبار و شاعرا فصيحا.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثلاث أذرع سواء. مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و إصبعان.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۰۶]

السنة العشرون من ولاية الحاكم منصور على مصر و هى سنة ستّ و أربعمائة.

فيها منع فخر الملك يوم عاشوراء من النوح مخافـة الفتنة؛ و كان الشـريف الرضـى قد توفّى فى خامس المحرّم فاشـتغلوا به؛ و كان قد وقع بالعراق و باء عظيم خصوصا بالبصـرة. و فى صـفر قلّد الشريف المرتضى نقابة الطالبيّين و الحجّ و المظالم بعد موت أخيه الشريف الرضى بإشارة سلطان الدولة فخر الملك.

و فيها ولّى الحاكم ساتكين سهم الدولة دمشق، و عزله سنة ثمان.

و فيها لم يحجّ أحد من العراق، و حجّ الناس من مصر و غيرها.

و فيها توفّى أحمـد بن محمـد بن أحمد أبو حامد الإسـفراينى الفقيه الشافعىّ، كان إماما فقيها عالما، انتهت إليه رياسة مذهب الشافعىّ فى زمانه. كان يقال: لو رآه الشافعىّ لفرح به. و كان يتوسّط بين الخليفة القادر و بين السلطان محمود بن سبكتكين. و مات ليلة السبت لإحدى عشرة ليلة بقيت من شوّال.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۴۰

و فيها توفى محمد بن الحسين بن موسى بن محمد بن موسـى بن إبراهيم بن موسى ابن جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب، رضـى اللّه عنه، الشـريف أبو الحسن الرضى الموسوىّ؛ ولد سنة تسع و خمسين و ثلثمائة. كان عارفا باللغة و الفرائض و الفقه و النحو، و كان شاعرا فصـيحا، عالى الهمّـة متديّنا، إلّا أنه كان على مذهب القوم إماما للشّـيعة هو و أبوه و أخوه. و من شـعره من جملة أبيات:

[البسيط]

يا صاحبىّ قفالى و اقضيا وطرا و حدّثانى عن نجد بأخبار

هل روّضت قاعة الوعساء أو مطرت خميلة الطّلح ذات البان و الغار

تضوع أرواح نجد من ثيابهم عند القدوم لقرب العهد بالدار

و فيها توفّى محمد بن الحسن بن فورك أبو بكر الأصـبهانىّ الفقيه المتكلّم، كان إماما عالما، اسـتدعى الى نيسابور و تخرّج به جماعة فى الأـصول و الكلاـم، و له فيهما تصانيف. و كان رجلا صالحا، سـمع الحـديث، و روى عنه أبو بكر البيهقىّ و أبو القاسم القشـيرىّ و

غيرهما. قتله محمود بن سبكتكين بالسمّ لكونه قال: كان رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم رسولا فى حياته فقط، و إنّ روحه قد بطل و تلاشى، و ليس هو فى الجنة عند اللّه تعالى (يعنى روحه) صلى اللّه عليه و سلم.

و فيها كان الطاعون العظيم بالبصرة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ذراع و عشرون إصبعا. مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و إصبعان.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۴۱

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۰۷]

السنة الحادية و العشرون من ولاية الحاكم منصور على مصر و هى سنة سبع و أربعمائة.

فيها وقعت القبّة الكبيرة التى على الصخرة ببيت المقدس.

و فيها كانت الفتنة بين الرافضة و أهل السنّة بواسط، و نهبت دور الشّيعة و العلويّين، و قصدوا علىّ بن مزيد و استنصروا به.

و فيها احترق مشهد الحسين بن علىّ بكر بلاء من شمعتين غفلوا عنهما.

و فيها فى أوّلها تشعّب الركن اليمانىّ من البيت الحرام.

و فيها كانت الوقعة بين سلطان الدولة و بين أخيه أبى الفوارس، و انهزم أبو الفوارس.

و فيها ملك السلطان محمود بن سبكتكين خوارزم.

و فيها توفّى أحمد بن محمد بن يوسف بن محمد بن دوست أبو عبد اللّه، كان حافظا متقنا، مات فى شهر رمضان.

و فيها توفّى سليمان بن الحكم الأموىّ المغربىّ صاحب الأندلس. وثب عليه رجلان ادّعيا أنهما من الأشراف و تغلّبا على الأندلس. و كانت مدّة ولاية سليمان هذا على الأندلس ثلاث سنين و ثلاثة أشهر و ثلاثة أيام. و انقطعت بموته ولاية بنى أميّة على الأندلس سبع سنين و ثمانية أشهر و أيّاما، ثم عادت سنة أربع عشرة و أربعمائة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۴۲

و فيها توفّى محمد بن علىّ بن خلف أبو غالب الوزير فخر الملك. أصله من واسط، و كان أبوه صيرفيّا؛ فتنقّلت به الأيام الى أن استوزره بهاء الدولة، و بعثه نائبا عنه إلى بغداد. و كان جوادا ممدّحا، أثّر ببغداد الآثار الجميلة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع سواء. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و أربع أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۰۸]

السنة الثانية و العشرون من ولاية الحاكم منصور على مصر و هى سنة ثمان و أربعمائة.

فيها عزل الحاكم ساتكين من إمرة دمشق، و كان ظالما غشوما، و هو الذى بنى جسر الحديد تحت قلعة دمشق، و اتفق أنّ يوم فراغ الجسر [قال]:

لا يعبر غدا أحد عليه. فلما أصبح جلس على الباب ينظر إليه و قد عزم على أن يكون أوّل من يركب و يعبر عليه، و اذا بفارس قد أقبل فعبر عليه؛ فأنكره و قال:

من أين؟ قال: من مصر؛ و ناوله كتابا من الحاكم بعزله، فقال بعض أهل دمشق:

[الرمل]

عقد الجسر و قد حل عراه بیدیه ما دری أنّ علیه یعبر العزل إلیه

و لم یحجّ أحد فی هذه السنین الی سنة اثنتی عشرة و أربعمائة؛ أعنی من العراق.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۴۳

و فیها توفّی شباشی المشطّب، و لقبه السعید و کنیته أبو طاهر، مولی شرف الدولة بن عضد الدولة بن بویه. و لقّبه بهاء الدولة بالسعید و ذی الفضیلتین، ثم لقّب بهاء الدولة أبا الهیجاء بختکین بالمناصح، و أشرک بینهما فی أمور الأتراک ببغداد.

و کان السعید هذا کثیر الصدقات فائض المعروف و الإحسان لأهل بغداد، کان یکسو الأیتام و الضعفاء و ینظر فی حال الفقراء، و کان من محاسن الدنیا، و عاش بعد المناصح رفیقه ستّة أشهر و مات. و کان رفیقه المناصح أیضا من رجال الدهر و عقلائهم و من أعلاهم همّة، و لم یخلف بعده مثله.

و فیها توفّی محمد بن إبراهیم بن محمد أبو الفتح الطرسوسی المجاهد فی سبیل اللّه، استوطن بیت المقدس بنیة الرّباط، و توفّی به.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم خمس أذرع و عشرون إصبعا.

مبلغ الزیادة ستّ عشرة ذراعا و ستّ عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۰۹]

السنة الثالثة و العشرون من ولایة الحاکم منصور علی مصر و هی سنة تسع و أربعمائة.

فیها توفّی عبد اللّه بن أبی علّان أبو محمد قاضی الأهواز و أحد شیوخ المعتزلة، کان فاضلا، صنّف الکتب الکثیرة فی علم الکلام و غیره. و من جملة تصانیفه:

کتاب جمع فیه فضائل النّبیّ صلی اللّه علیه و سلم، ذکر له فیه ألف معجزة؛ و کان له مال عظیم و ضیاع کثیرة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۴۴

و فیها توفّی عبد الغنی بن سعید بن علی بن سعید بن بشر بن مروان بن عبد العزیز ابن مروان الحافظ أبو محمد المصریّ المحدّث المشهور، مولده فی ثانی ذی القعدة سنة اثنتین و ثلاثین و ثلثمائة، و سمع الکثیر، و برع فی علم الحدیث، و صنّف الکتب:

منها کتاب «المؤتلف و المختلف»، و کان عالما بأسامی الرجال و علل الحدیث.

و کان الدار قطنیّ یعظّمه و یقول: ما رأیت فی طریقی مثله، ما اجتمعت به و انفصلت منه إلا بفائدة. و مات بمصر فی شوّال.

و فیها توفّی علی بن نصر أبو الحسن مهذّب الدولة صاحب البطیحة، کان جوادا ممدّحا صاحب ذمّة و وفاء؛ و هو الذی استجار به القادر بالله قبل أن یتخلّف، فأجاره و منع الطائع منه، و قام فی خدمته أحسن قیام.

و فیها توفّی محمد بن الحسین أبو عبد اللّه العلویّ؛ ولّاه الحاکم القضاء و النقابة و الخطابة بدمشق، و کان فی القضاء قبل ذلک نائبا عن مالک بن سعید ابن أخت الفارقیّ قاضی قضاة الحاکم، و کانت وفاته بدمشق فی شهر رمضان.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم خمس أذرع و ثمانی أصابع.

مبلغ الزیادة ست عشرة ذراعا و ثلاث و عشرون إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۱۰]

السنة الرابعة و العشرون من ولایة الحاکم منصور علی مصر و هی سنة عشر و أربعمائة.

فيها جلس الخليفة القادر بالله ببغداد، و حضر القضاة و الشهود و كتب عهد أبى الفوارس بن بهاء الدولة على كرمان و أعمالها، و بعث إليه بالخلع السلطانية على العادة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۴۵

و فيها ورد كتاب السلطان يمين الدولة محمود بن سبكتكين على الخليفة القادر بما فتحه من بلاد الهند و ما وصل إليه من غنائمهم.

و فيها توفّى إبراهيم بن مخلد بن جعفر بن إسحاق أبو إسحاق الباقرحىّ، كان محدّثا صدوقا جيّد النقل حسن الضبط، من أهل الديانة و العلم و الأدب، و كان يتفقّه على مذهب محمد بن جرير الطبرىّ.

و فيها توفى محمد بن المظفّر بن عبد اللّه أبو الحسن المعدّل، كان فاضلا شاعرا؛ مات ببغداد فى جمادى الأولى.

و فيها توفّى هبة اللّه بن سلامة أبو القاسم الضرير البغدادىّ، كان من أحفظ الناس لتفسير القرآن، و سمع الحديث و رواه، و كان ثقة صالحا.

و فيها توفّى أحمد بن موسى بن مردويه الحافظ أبو بكر الأصبهانىّ فى شهر رمضان؛ قاله الذهبىّ. و كان إماما حافظا ثقة سمع الكثير، و روى عنه جماعة.

و فيها توفّى عبد الواحد بن محمد بن [عبد اللّه بن محمد بن] مهدىّ الحافظ أبو عمر الفارسىّ البزاز فى شهر رجب عن إحدى و تسعين سنة و أشهر، و كان إماما فقيها محدّثا ثقة من كبار المشايخ.

و فيها توفّى عبد الصمد بن منصور بن الحسن بن بابك أبو القاسم الشاعر المشهور أحد الشعراء المجيدين المكثرين، و ديوانه فى ثلاثة مجلدات. و من شعره بيت من جملة قصيدة فى غاية الرقة:

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۴۶

[الوافر]

و مرّ بى النسيم فرقّ حتّى كأنّى قد شكوت إليه مابى

و مات ببغداد. و بابك بفتح الباءين الموحدتين و بينهما ألف و فى الآخر كاف.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ستّ أذرع و عشرون إصبعا.

مبلغ الزيادة تسع عشرة ذراعا و ثمانى أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۱۱]

اشارة

السنة الخامسة و العشرون من ولاية الحاكم منصور على مصر و هى التى مات فيها الحاكم حسب ما ذكرناه فى ترجمته. و السنة المذكورة سنة إحدى عشرة و أربعمائة.

فيها توفّى محمد بن عبد اللّه بن أحمد أبو الفرج الدمشقىّ و يعرف بابن المعلّم، و هو الذى بنى الكهف بقاسيون، و يقال له كهف جبريل، و فيه المغارة التى يقال:

إنّ الملائكة عزّت آدم عليه السلام فيها لمّا قتل قابيل هابيل. و كان محمد هذا شيخا صالحا زاهدا عابدا، مات فى شهر رجب، و دفن بمقبرة الكهف.

و فيها توفّى الحسن بن الحسن بن علىّ بن المنذر أبو القاسم، كان إماما فاضلا محدّثا؛ و مات ببغداد فى هذه السنة.

و ممن ذکر الذهبیّ وفاتهم، قال: و توفّی أبو نصر أحمد بن محمد بن أحمد بن حسنون النّرسیّ. و الحاکم منصور بن العزیز العبیدیّ صاحب مصر (یعنی صاحب

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۴۷

الترجمة). و أبو القاسم الحسن بن الحسن بن علیّ بن المنذر ببغداد. و أبو القاسم علیّ بن أحمد الخزاعیّ ببلخ. انتهی.

- أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم ثمانی أذرع و خمس أصابع.

مبلغ الزیادة سبع عشرة ذراعا و ثلاث أصابع.

ذکر ولایة الظاهر علی مصر

هو الظاهر لإعزاز دین اللّه أبو هاشم، و قیل: أبو الحسن، علیّ بن الحاکم بأمر اللّه أبی علیّ منصور بن العزیز بالله نزار بن المعزّ لدین اللّه معدّ بن المنصور إسماعیل بن القائم محمد بن المهدیّ عبید اللّه العبیدیّ الفاطمیّ المغربیّ الأصل، المصریّ المولد و المنشأ و الوفاة، الرابع من خلفاء مصر من بنی عبید و السابع من المهدیّ. مولده بالقاهرة فی لیلة الأربعاء عاشر شهر رمضان سنة خمس و تسعین و ثلثمائة؛ و ولی الخلافة بعد قتل أبیه الحاکم فی شوّال من سنة إحدی عشرة و أربعمائة؛ حسب ما ذکرناه مفصّلا فی أواخر ترجمة أبیه الحاکم، و قیام عمّته ستّ الملک فی أمره.

و قال صاحب مرآة الزمان: «و ولی الخلافة فی یوم عید النحر سنة إحدی عشرة و أربعمائة، و له ستّ عشرة سنة و ثمانیة أشهر و خمسة أیّام و تمّ أمره».

و وافقه علی ذلک القاضی شمس الدین بن خلکان، لکنّه قال: «و کانت ولایته بعد أبیه بمدّة، لأنّ أباه فقد فی السابع و العشرین من شوّال سنة إحدی عشرة و أربعمائة، و کان الناس یرجون ظهوره، و یتّبعون آثاره إلی أن تحقّقوا [عدمه]، فأقاموا ولده المذکور فی یوم النحر». انتهی کلام ابن خلکان.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۴۸

و قال أبو المظفر فی المرآة: و ملک الظاهر لإعزاز دین اللّه سائر ممالک والده، مثل الشام و الثغور و إفریقیة، و قامت عمّته ستّ الملک بتدبیر مملکته أحسن قیام، و بذلت العطاء فی الجند و ساست الناس أحسن سیاسة. و کان الظاهر لإعزاز دین اللّه عاقلا سمحا جوادا یمیل إلی دین و عفّة و حلم مع تواضع. أزال الرسوم التی جدّدها أبوه الحاکم الی خیر، و عدل فی الرعیّة و أحسن السیرة، و أعطی الجند و القوّاد الأموال، و استقام له الأمر مدّة؛ و ولّی نوّابه بالبلاد الشامیة، إلی أن خرج علیه صالح بن مرداس الکلابیّ و قصد حلب و بها مرتضی الدولة أبو [نصر بن] لؤلؤ الحمدانیّ نیابة عن الظاهر هذا؛ فحاصرها صالح المذکور إلی أن أخذها. ثم تغلّب حسّان بن المفرّج البدویّ صاحب الرملة علی أکثر الشأم؛ و تضعضعت دولة الظاهر، و استوزر الوزیر نجیب الدولة علیّ بن أحمد الجرجرائیّ. و کان الوزیر هذا من بیت حشمة و ریاسة، و کان أقطع الیدین من المرفقین، قطعهما الحاکم بأمر اللّه فی سنة أربع و أربعمائة؛ و کان یکتب عنه العلامة القاضی أبو عبد اللّه القضاعیّ، و کانت العلامة «الحمد للّه شکرا لنعمته». و لم یظهر أمر هذا الوزیر إلا بعد موت عمّة الظاهر ستّ الملک بعد سنة خمس عشرة و أربعمائة. و کان الظاهر لإعزاز دین اللّه کثیر الصدقات منصفا من نفسه، لا یدّعی دعاوی والده و جدّه فی معرفة النجوم و غیرها من الأشیاء المنکرة، لا سیما لمّا وقع من بعض حجّاج المصریّین کسر الحجر الأسود بالبیت الحرام فی سنة ثلاث عشرة و أربعمائة. و کان أمر الحجر أنّه لمّا وصل الحاجّ المصریّ الی مکة المشرّفة، وثب شخص من الحاجّ الی الحجر الأسود و هو مکانه من البیت الحرام، و ضربه بدبّوس کان فی یده حتی شعثه و کسر قطعا

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۴۹

منه، و عاجله الناس فقتلوه؛ و ثار المکیّون بالمصریّین فقتلوا منهم جماعة و نهبوهم، حتّی رکب أبو الفتوح الحسن بن جعفر فأطفأ

الفتنة و دفع عن المصريّين. و قيل:

إنّ الرجل الذى فعل ذلک كان من الجهّال الذين استغواهم الحاكم و أفسد عقائدهم.

فلمّا بلغ الظاهر ذلک شقّ عليه و كتب كتابا فى هذا المعنى.

قال هلال بن الصابئ ": وجدت كتابا كتب من مصر فى سنة أربع عشرة و أربعمائة على لسان المصريّين، و هو كتاب طويل، فمنه ": و ذهبت طائفة من النّصيريّة الى الغلوّ فى أبينا أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب، رضوان اللّه عليه، غلت و ادّعت فيه ما ادّعت النصارى فى المسيح. و نجمت من هؤلاء الكفرة فرقة سخيفة العقول ضالّة بجهلها عن سواء السبيل؛ فغلوا فينا غلوّا كبيرا، و قالوا فى آبائنا و أجدادنا منكرا من القول و زورا؛ و نسبونا بغلوّهم الأشنع، و جهلهم المستفظع، إلى ما لا يليق بنا ذكره. و إنا لنبرأ الى اللّه تعالى من هؤلاء الجهلة الكفرة الضّلّال. و نسأل اللّه أن يحسن معونتنا على إعزاز دينه و توطيد قواعده و تمكينه، و العمل بما أمرنا به جدّنا المصطفى، و أبونا علىّ المرتضى، و أسلافنا البررة أعلام الهدى. و قد علمتم يا معشر أوليائنا و دعاتنا ما حكمنا به من قطع دابر هؤلاء الكفرة الفسّاق، و الفجرة المرّاق؛ و تفريقنا لهم فى البلاد كل مفرّق؛ فظعنوا فى الآفاق هاربين، و شردوا مطرودين خائفين. و كان من جملة من دعاه الخوف منهم الى الانتزاح رجل من أهل البصرة أهوج أثول، ضالّ مضلّ، سار مع الحجيج الى مكّة- حرسها اللّه- فرقا من وقع

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۵۰

الحسام، و تستّرا بالحجّ الى بيت اللّه الحرام. فلمّا حصل فى البيت المفضّل المعظّم، و المحل المقدّس المكرّم؛ أعلن بالكفر و ما كان يخفيه من المكر، و حمله [لمم فى عقله] على قصد الحجر الأسود حتّى قصده و ضربه بدبّوس ضربات متواليات، أطارت منه شظايا وصلت بعد ذلک. ثم إنّ هذا الكافر عوجل بالقتل على أسوء حاله و أضلّ أعماله، و ألحق بأمثاله من الكفرة الواردين موارد ضلاله؛ ذلک لهم خزى فى الدنيا و لهم فى الآخرة عذاب عظيم. و لعمرى إنّ هذه لمصيبة فى الإسلام قادحة، و نكاية فادحة؛ فإنّا للّه و إنّا إليه راجعون. لقد ارتقى هذا الملعون مرتقى عظيما و مقاما جسيما، أذكر به ما كان أقدم عليه غلام ثقيف المعروف بالحجّاج- لعنه اللّه- من إحراق البيت و هدمه، و إزالة بنيانه وردمه "ثم ذكر كلاما طويلا فى هذا المعنى يطول الشرح فى ذكره». انتهى كلام ابن الصابئ.

و روى ابن ناصر بإسناد إلى أبى عبد اللّه محمد بن علىّ العلوىّ، قال:

"و فى سنة ثلاث عشرة و أربعمائة كسر الحجر الأسود لمّا صلّيت الجمعة يوم النّفر الأوّل بمنى، و لم يكن رجع الناس بعد من منى، قام رجل ممن ورد من ناحية مصر بيده سيف مسلول و بالأخرى دبّوس بعد ما قضى الإمام الصلاة، فقصد الحجر الأسود ليستلمه على الرسم، فضرب وجه الحجر ثلاث ضربات متواليات بالدبّوس، و قال: إلى متى يعبد الحجر! و لا محمد و لا علىّ يقدران على منعى عما أفعله؛ إنى أريد أن أهدم هذا البيت و أرفعه. فاتّقاه الحاضرون و تراجعوا عنه، و كاد يفلت. و كان رجلا تامّ القامة أحمر اللون أشقر الشعر سمينا، و كان على باب المسجد عشرة فرسان على أن ينصروه؛ فاحتسب رجل من أهل اليمن أو من أهل مكّة أو غيرها نفسه،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۵۱

فوجأه بخنجر و احتوشه الناس فقتلوه، و قطّعوه و أحرقوه بالنار، و ثارت الفتنة؛ فكان الظاهر من القتلى أكثر من عشرين غير ما أخفى منهم. و تقشّر بعض وجه الحجر فى وسطه من تلک الضربات و تخشّن. و زعم بعض الحجّاج أنه سقط منه ثلاث قطع، و كأنه نقب ثلاثة نقوب، و تساقطت منه شظايا مثل الأظفار؛ و موضع الكسر أسمر يضرب إلى صفرة، محبّب مثل الخشخاش. فجمع بنو شيبة ما تفرّق منه و عجنوه بالمسک، و حشوا تلک المواضع و طلوها بطلاء من اللّک فهو بيّن لمن تأمّله، و هو على حاله الى اليوم». انتهى.

ثم بعد هذه الواقعة بلغ الظاهر هذا أنّ السلطان يمين الدولة محمود بن سبكتكين عظم أمره، فأحبّ أن يكتب إليه كتابا يدعوه إلى طاعته؛ فكتب إليه و ارسل إليه بالخلع، و أن يخطب باسمه بتلک البلاد. و كان أبوه الحاكم بأمر اللّه أرسل إليه قبل ذلک، فخرق محمود بن سبكتكين كتاب الحاكم و بصق فيه؛ و مات الحاكم و فى قلبه من ذلک أمور، و قد ذكرنا ذلک فى ترجمته. فلما علم

الظاهر هـذا بما كان والـده الحاكم عزم عليه من أمر محمود المـذكور أخـذ هو أيضا فى ذلك، و كاتب السـلطان محمودا؛ فلم يلتفت محمود لكتابه، و بعث به و بالخلع الى الخليفة القادر العباسـىّ، و تبرأ من الظاهر هذا. فجمع القادر القضاة و الأشراف و الجند و غيرهم ببغـداد، و أخرج الخلع الى بـاب النوبىّ، و كـانت سـبع جبب و فرجّيـة و مركب ذهب، و أضـرمت النار و ألقيت الثياب فيها، و سـبك المركب الـذهب، فظهر منه أربعون ألف دينار و خمسائـة، و قيل: أخرج منه دراهم هـذا العدد؛ فتصدّق بها الخليفة القادر على ضـعفاء بنى هاشم.

و بلغ الظاهر فقامت قيامته، و انكف عن مكاتبة محمود بعدها.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۵۲

و كان الظاهر ينظر فى مصالـح الرعيّـة بنفسه و فى إصـلاح البلاد. فلمّا وقع الفناء فى ذوات الأربع فى سـنة سبع عشـرة و أربعمائة، منع الظاهر من ذبح البقر السليمة من العيوب التى تصلح للحرث و غيره، و كتب على لسانه كتاب قرئ على الناس، فمنه:

«إن اللّه تعـالى بتتـابع نعمته و بـالغ حكمته، خلق ضـروب الأنعـام، و عمـل فيها منافع الأنام؛ فوجب أن تحمى البقر المخصوصـة بعمارة الأرض، المذلّلـة لمصالـح الخلق؛ فإنّ فى ذبحها غايـة الفساد، و إضـرارا للعباد و البلاد». و أباح ذبـح مالا يصـلح للعمل و لا يحصل به النفع. فمنع الناس ذبح البقر، و حصل بذلك النفع التام.

و مات فى أيّام الظاهر المـذكور مبارك الأنماطىّ البغدادىّ التاجر، و كان له مال عظيم، و كان قد خرج من بغداد الى مصـر فتوفّى بها فى سـنة سـبع عشـرة و أربعمائـة، و كان معه ثلثمائة ألف دينار. فقال الظاهر: هل له وارث؟ فقيل: ماله سوى بنت ببغداد؛ فترك الظاهر المال كلّه للبنت و لم يأخذ منه شيئا.

و فى سـنة عشـرين و أربعمائـة خرج على الظاهر بالبلاد الشاميّـة صالـح بن مرداس أسد الدولة و حسّان بن المفرّج بن الجرّاح، و جمعا الجموع و استوليا على الأعمال، و انتهيا الى غزّة. فجهز الظاهر لحربهما جيشا عليه القائد أنوشتكين منتخب الدولة التركىّ أمير الجيوش المعروف بالدّز برىّ، فالتقى معهما؛ فانهزم حسّان بن

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۵۳

المفرّج، و قتل صالح و ابنه الأصـغر. و بعث الدّزبرىّ برأس صالح الى الظاهر بمصر، و أفلت نصر بن صالح الأكبر الى حلب. و استولى اللـدزبرىّ على الشـام و نزل على دمشق، و كتب الى الظـاهر كتابـا مضـمونه النصـر، و يعرّفه فيه بمـا جرى؛ و كـان بينه و بينهما ملحمة هائلة. و لما فرغ الدزبرىّ من القتال مدحه مظفر الدولة بن حيّوس بأبيات بسبب هذه الواقعة، أوّلها: [الكامل]

هل للخليط المستقلّ إياب أم هل لأيّام مضت أعقاب

يامىّ هل لدنوّ دارك رجعة أم للعتاب لديكم إعتاب

لا أرتجى يوما سلوّا عنكم هيهات سدّت دونه الأبواب

أوصاب جسمى من جناية بعدكم و الصبر صبر بعدكم أو صاب

و لمصطفى الملك اعتزام المصطفى لمّا أحاط بيثرب الأحزاب

يومان للإسلام عزّ لديهما دين الإله و ذلّت الأعراب

طلبوا العقاب ليسلموا بنفوسهم فابتزهم دون العقاب عقاب

و استشعروا نصرا فكان عليهم و تقطّعت دون المراد رقاب

كانوا حديدا فى الوغى لكنّهم لما اصطلوا نار المظفّر ذابوا

و القصـيدة أطول من هذا، و كلّها على هذا النّموذج. و لمّا انهزم شبل الدولة نصر بن صالح المذكور الى حلب و ملكها، طمع صاحب أنطاكية الرومىّ فى حلب،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۵۴

و جمع الروم و سار اليها و أحاط بها و قاتل أهلها؛ فكبسه شبل الدولة نصر المذكور من داخلها و معه أهل البلد فقتلوا معظم أصحابه؛ و انهزم ملكهم صاحب أنطاكية اليها فى نفر يسير من أصحابه، و غنم نصر أموالهم و عساكرهم. و قيل: كبسه نصر المذكور على إعزاز فغنم منه أموالا عظيمة. و سرّ الظاهر هذا بنصرة نصر لكون الإسلام يجمع بينهما. و كان المتغلّبون على البلاد فى أيّام الظاهر كثيرين جدا، و ذلك لصغر سنّه و ضعف بدنه. و وقع له فى أيّامه خطوب قاساها إلى أن توفّى بالقاهرة فى يوم الأحد النصف من شعبان سنة سبع و عشرين و أربعمائة، و عمره إحدى و ثلاثون سنة. و كانت ولايته على مصر ستّ عشرة سنة و تسعة أشهر.

و تولّى الملك بعده ابنه أبو تميم معدّ، و لقب بالمستنصر و سنه ثمانى سنين؛ و قام علىّ بن أحمد الجرجرائىّ الوزير بالأمر، و أخذ له البيعة، و قرّر للجند أرزاقهم، و استقامت الأحوال. و كانت وفاة الظاهر بعلّة الاستسقاء، طالت به نيّفا و عشرين سنة من عمره.

قلت: و لهذا أشرنا أنه كان كثرة من تغلب عليه لضعف بدنه و صغر سنه.

و كان الظاهر جوادا ممدّحا سمحا حليما محببا للرعيّة، و لا بأس به بالنسبة لآبائه و أجداده. و هو الذى بنى قصر اللؤلؤة عند باب القنطرة، و هو من القصور المعدودة بالقاهرة، و صار يتنزّه به هو و من جاء بعده من خلفاء مصر من ذرّيته و أقاربه، و كان التوصل الى القصر من باب مراد، و صار الخلفاء يقيمون به فى أيّام النيل.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۵۵

و دام أمر هذا القصر مستقيما إلى أن وقع الغلاء بالدّيار المصريّة فى زمن المستنصر، و ذهب من محاسن القاهرة شيء كثير من عظم الغلاء و الوباء؛ كما سيأتى ذكره إن شاء اللّه فى محلّه.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۱۲]

السنة الأولى من ولاية الظاهر لإعزاز دين اللّه على مصر و هى سنة اثنتى عشرة و أربعمائة.

فيها وقّع بين سلطان الدولة و بين مشرّف الدولة بن بويه، و استفحل فى الآخر أمر مشرّف الدولة، و خطب له ببغداد فى المحرّم، و خوطب بشاهنشاه مولى أمير المؤمنين، و قطعت الخطبة لسلطان الدولة من بغداد.

و فيها لم يحجّ أحد من العراقيّين و لا فى الماضية. فقصد الناس يمين الدولة محمود بن سبكتكين و قالوا له: أنت سلطان الإسلام و أعظم ملوك الأرض، و فى كلّ سنة تفتح من بلاد الكفر ما تحبّه، و الثواب فى فتح طريق الحجّ أعظم، و قد كان الأمير بدر بن حسنويه، و ما فى أمرائك إلّا من هو أكبر منه [شأنا]، يسيّر الحاجّ بماله و تدبيره عشرين سنة. فتقدّم ابن سبكتكين إلى قاضيه أبى محمد الناصحىّ بالتأهب للحجّ و نادى فى أعمال خراسان بالحجّ، و أطلق للعرب ثلاثين ألف دينار سلّمها الى الناصحىّ المذكور غير ما للصدقات؛ فحجّ بالناس أبو الحسن الأقساسىّ. فلمّا بلغوا فيد حاصرتهم العرب؛ فبذل لهم القاضى الناصحىّ خمسة آلاف دينار؛ فلم يقنعوا و صمّموا على أخذ الحاجّ؛ فركب رأسهم جماز بن عدى و قد انضم عليه ألفا رجل من بنى نبهان،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۵۶

و أخذ بيده رمحا و جال حول الحاجّ، و كان فى السّمرقنديّين غلام يعرف بابن عفّان، فرماه بسهم فسقط منه ميتا و هرب جمعه، و عاد الحاجّ فى سلامة.

و فيها توفّى أحمد بن محمد بن أحمد أبو سعيد المالينىّ الصوفىّ الحافظ، سافر إلى الأقطار، و سمع خلقا كثيرا، و صنّف و صحب المشايخ، و كان يقال له طاوس الفقهاء.

و فيها توفّى الحسن بن علىّ أبو علىّ الدقّاق النيسابورىّ أحد المشايخ، كان صاحب حال و مقال. قال القشيرىّ: سمعت الأستاذ أبا علىّ

الدقّاق يقول فى قول النّبىّ صلى اللّه عليه و سلم ": من تواضع لغنىّ لأجل دنياه ذهب ثلثا دينه "قال:
لأنّ المرء بأصغريه قلبه و لسانه، فإذا خدمه بأركانه و تواضع له بلسانه ذهب ثلثا دينه، فإن خدمه بقلبه ذهب الكلّ.
و فيها توفّى محمد بن أحمد بن محمد أبو الحسن بن رزقويه البغدادىّ البزّاز، ولد سنة خمس و عشرين و ثلثمائة، و درس الفقه، و سمع الحديث فأكثر؛ و كان ثقة صدوقا كثير السماع حسن الاعتقاد جميل المذهب.
و فيها توفّى محمد بن الحسين بن محمد بن موسى أبو عبد الرّحمن السّلمىّ النيسابورىّ الحافظ الكبير شيخ شيوخ الدنيا فى زمانه، طاف الدنيا شرقا و غربا، و لقى الشيوخ الأبدال، و إليه المرجع فى علوم الحقائق و السير و غيرها، و له المصنفات الحسان.
النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة؛ ج۴؛ ص۲۵۶
فيها توفّى محمد بن عمر أبو بكر العنبرىّ الشاعر، مات يوم الخميس ثانى عشر جمادى الأولى ببغداد.
النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۵۷
أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و ستّ عشرة إصبعا.
مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و ثلاث أصابع.
***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۱۳]

السنة الثانية من ولاية الظاهر لإعزاز دين اللّه على مصر و هى سنة ثلاث عشرة و أربعمائة.
فيها وقع الصلح بين سلطان الدولة بن بهاء الدولة بن بويه و بين أخيه مشرّف الدولة على يد الأوحد أبى محمد وزير سلطان الدولة، و خطب لسلطان الدولة ببغداد كما كان أوّلا قبل الخلاف.
و فيها توفّى علىّ بن عيسى بن سليمان أبو الحسن القاضى المعروف بالسكرىّ الفارسىّ، مولده فى صفر ببغداد سنة سبع و ثلثمائة، كان فاضلا عالما مات فى شعبان رحمه اللّه.
و فيها توفّى علىّ بن هلال الإمام الأستاذ أبو الحسن صاحب الخطّ المنسوب الفائق المعروف بابن البوّاب. كان أبوه بوّابا لبنى بويه، و قرأ هو القرآن و تفقّه وفاق أهل عصره فى الخطّ المنسوب، حتى شاع ذكره شرقا و غربا. و من شعر أبى العلاء المعرّى من قصيدة: [الطويل]
و لاح هلال مثل نون أجادها بماء النّضار الكاتب ابن هلال
يعنى بابن هلال ابن البوّاب هذا. و قال هلال ابن الصابئ: دخل أبو الحسن البتّىّ دار فخر الملك، فوجد ابن البوّاب هذا جالسا على عتبة الباب ينتظر خروج
النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۵۸
فخر الملك، فقال له: جلوس الأستاذ فى العتب، رعاية للنسب. فغضب ابن البواب و قال: لو كان لى الأمر ما مكنت مثلك من الدخول؛ فقال البتّىّ: حتى لا يترك الشيخ صنعته. انتهى. و قد قال فيه بعضهم: [البسيط]
هذا و أنت ابن بوّاب و ذو عدم فكيف لو كنت ربّ الدار و المال
و فيها توفّى محمد بن [محمد بن] النعمان أبو عبد اللّه فقيه الشيعة و شيخ الرافضة و عالمها و مصنّف الكتب فى مذهبها. قرأ عليه الرضى و المرتضى و غيرهما من الرافضة، و كان له منزلة عند بنى بويه و عند ملوك الأطراف الرافضة. قلت: كان ضالّا مضلّا هو و من قرأ عليه و من رفع منزلته؛ فإن الجميع كانوا يقعون فى حقّ الصحابة رضوان اللّه عليهم أجمعين؛ عليهم من اللّه ما يستحقّونه. و رثاه الشريف المرتضى؛ و لو عاش أخوه لكان أمعن فى ذلك، فإنّهما كانا أيضا من كبار الرافضة. و قد تكلّم أيضا فى بنى بويه أنّهم كانوا

یمیلون إلی هذا المذهب الخبیث؛ و لهذا نفرت القلوب منهم، و زال ملکهم بعد تشییده.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم أربع أذرع و عشرون إصبعا. مبلغ الزیادة ست عشرة ذراعا و ثمانی عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۱۴]

السنة الثالثة من ولایة الظاهر لإعزاز دین اللّه علی مصر و هی سنة أربع عشرة و أربعمائة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۵۹

فیها دخل مشرّف الدولة بن بهاء الدولة إلی بغداد، و تلقّاه الخلیفة فی زبزب بأبّهة الخلافة؛ و لم یکن القادر لقی أحدا من الملوک قبله.

و فیها ورد کتاب السلطان یمین الدولة محمود بن سبکتکین علی الخلیفة القادر أنه أوغل فی بلاد الهند. و عنوان الکتاب ": عبد مولانا أمیر المؤمنین و صنیعته محمود بن سبکتکین."

و فیها عادت دولة بنی أمیّة إلی الأندلس بعد أن انقطعت سبع سنین.

و فیها توفّی الحسن بن الفضل بن سهلان أبو محمد وزیر سلطان الدولة، و هو الذی بنی [سور] الحائر بمشهد الحسین بکربلاء، و کان من کبار الشیعة، کان رافضیّا خبیثا، قبض علیه و صودر و سمل و حبس حتی مات.

و فیها توفّی محمد بن أحمد أبو جعفر النسفیّ الفقیه الحنفیّ العلّامة، صاحب التصانیف و مصنّف کتاب التعلیقة المشهورة و غیره. کان عالما فاضلا و ورعا و زاهدا مفتّنا فی علوم، و کانت وفاته فی شعبان.

و فیها توفّی محمد بن الخضر بن عمر أبو الحسین الحمصیّ القاضی الفرضیّ، ولی القضاء بدمشق نیابة عن أبی عبد اللّه محمد بن الحسین النّصیبیّ، و کان نزها عفیفا.

مات بدمشق فی جمادی الأولی.

و فیها توفّی تمّام بن محمد بن عبد اللّه بن جعفر بن عبد اللّه بن الجنید الحافظ أبو القاسم ابن الحافظ أبی الحسین الرازیّ ثم الدمشقیّ المحدّث. ولد بدمشق سنة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۶۰

ثلاثین و ثلثمائة، و سمع الکثیر و حدّث. قال أبو بکر الحدّاد: «ما لقینا مثل تمام فی الحفظ و الخیر». مات فی المحرّم.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم ثلاث أذرع و ثمانی أصابع.

مبلغ الزیادة أربع عشرة ذراعا و أربع عشرة إصبعا:

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۱۵]

السنة الرابعة من ولایة الظاهر لإعزاز دین اللّه علی مصر و هی سنة خمس عشرة و أربعمائة.

فیها حجّ من العراقیّین أبو الحسن الأقساسیّ و معه حسنک صاحب محمود بن سبکتکین؛ فأرسل إلیه الظاهر صاحب مصر خلعا و صلة، فقبلها حسنک ثم خاف من القادر فلم یدخل بغداد؛ و کاتب القادر ابن سبکتکین فیما فعل حسنک؛ فأرسل إلیه حسنک بالخلع المصریّة، فأحرقها القادر. و کان حسنک أمیر خراسان من قبل ابن سبکتکین.

و فیها ولی وزارة مصر للظاهر صاحب الترجمة نجیب الدولة علیّ بن أحمد الجرجرائیّ بعد موت ستّ الملک عمّة الظاهر.

و فيها منع الرافضة من النوح في يوم عاشوراء؛ و وقع بسبب ذلك فتنة بين الشيعة و أهل السنّة قتل فيها خلق كثير؛ و منع الرافضة من النوح و عيد الغدير، و أيّد اللّه أهل السنة، و للّه الحمد.

و فيها توفّى أحمد بن محمد بن عمر بن الحسن أبو الفرج العدل البغدادىّ الفقيه الحنفىّ، و يعرف بابن المسلمة؛ مولده سنة سبع و ثلاثين و ثلثمائة، و سمع الحديث، و كان إماما عالما فاضلا صدوقا ثقة كثير المعروف، و داره مأوى لأهل العلم.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۶۱

و فيها توفّى سلطان الدولة أبو شجاع بن بهاء الدولة فيروز بن عضد الدولة بويه ابن ركن الدولة الحسن بن بويه بن فنّاخسرو الديلمىّ بشيراز. و كان مدّة ملكه اثنتى عشرة سنة و أشهرا، و تولّى الملك صبيّا؛ و مات و له ثلاث و عشرون سنة.

و قال صاحب مرآة الزمان: مات عن اثنتين و ثلاثين سنة. انتهى. قلت:

و كان فى مدّة ملكه وقع له حروب كثيرة مع أخيه مشرّف الدولة و خطب له ببغداد ثم اصطلحا، حسب ما ذكرناه؛ و خطب لمشرّف الدولة على عادته الى أن توفّى سلطان الدولة هذا.

و فيها توفّى عبد اللّه بن عبد اللّه بن الحسين أبو القاسم الخفّاف، كان يعرف بابن النقيب البغدادىّ، رأى الشّبلىّ و غيره، و سمع الكثير و كان سماعه صحيحا، و كان شديدا فى السنة؛ و لما مات ابن المعلم فقيه الشيعة جلس رضى اللّه عنه للتهنئة؛ و قال: ما أبالى أىّ وقت متّ بعد أن شاهدت موته. و أقام عدّة سنين يصلّى الفجر بوضوء العشاء الآخرة. قلت: و مما يدلّ على دينه و حسن اعتقاده بغضه للشيعة عليهم الخزىّ. و لو لم يكن من حسناته إلّا ذلك لكفاة عند اللّه.

و فيها توفّى محمد بن الحسن الشريف أبو الحسن الأقساسىّ العلوىّ. هو من ولد زيد بن علىّ بن الحسين رضى اللّه عنه. حجّ بالناس من العراق سنين كثيرة نيابة عن المرتضى، و كان فاضلا شاعرا فصيحا، و هو أيضا من كبار الشيعة.

و فيها توفّى الأمير أبو طاهر بن دمنة صاحب آمد من ديار بكر. كان قتل ابن مروان صاحب ميّا فارقين و قتل عبد البر شيخ آمد و استولى عليهما من سنة سبع و ثمانين و ثلثمائة الى هذه السنة. و كان يصانع ممهد الدولة بن مروان، و أيضا يصانع شروة. فلمّا قتل شروة ممهد الدولة و ولى أخوه أبو منصور، طمع هذا فى البلاد و استفحل أمره.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۶۲

و فيها توفّى أحمد بن محمد بن أحمد بن القاسم بن إسماعيل الضبىّ [أبو الحسن] المحاملىّ الفقيه الشافعىّ، كان تفقّه بأبى حامد الإسفراينى و غيره، و كان إماما فقيها مصنّفا، مات فى شهر ربيع الأول.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ذراعان و خمس أصابع. مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا سواء.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۱۶]

السنة الخامسة من ولاية الظاهر لإعزاز دين اللّه على مصر و هى سنة ستّ عشرة و أربعمائة.

فيها توفى فى شهر ربيع الآخر السلطان مشرّف الدولة أبو على الحسن ابن السلطان أبى نصر فيروز بهاء الدولة ابن السلطان عضد الدولة بويه ابن السلطان ركن الدولة الحسن بن بويه الديلمىّ. و استقر الأمر بعد موته على تولية جلال الدولة أبى طاهر، فخطب له على منابر بغداد و هو بالبصرة، و خلع على شرف الملك أبى سعيد بن ماكولا وزيره، و لقّبه علم الدين سعد الدولة أمين الملة شرف الملك.

قلت: و هذا ثانى لقب سمعناه من اسم مضاف إلى الدين. و أوّل ما سمعنا من هذه الألقاب لقب بهاء الدولة بن بويه "ركن الدين." قلنا: لعل ذلك كان تعظيما فى حقّه لكونه سلطانا، فيكون هذا على هذا الحكم هو أوّل لقب لقّب به فى الإسلام؛ و اللّه أعلم. و من يومئذ ظهرت الألقاب و تغالت فيها الأعاجم، حتّى إنّهم لم يدعوا شيئا إلا و أضافوا الدين له، حتى اشتهر ذلك و شاع و سمّى به كلّ

أحد حتى الأسالمة،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۴، ص: ۲۶۳

فمنهم من يسمى جلال الدين، و سعد الدين، و جمال الدين، فلا قوة إلا بالله. و حقّ المغاربة فى حنقهم ممن يلقّب بهذه الألقاب. و أنا بالله أحلف لو ملكت أمرى ما لقّبت بجمال الدين و لا غيره، و أكره من يسمينى بذلك و لا أقدر على تغيير الاصطلاح. و هذا لا يكون إلّا من ولىّ أمر أو حاكم بلدة. و قد خرجنا عن المقصود فنعود إلى ذكر مشرّف الدولة.

و مات مشرّف الدولة و له ثلاث و عشرون سنة و ثلاثة أشهر و أربعة عشر يوما.

و كانت مدّة ملكه خمس سنين و شهرا و خمسة و عشرين يوما. و كان شجاعا مقداما جوادا، إلا أنّه كان يميل إلى الشيعة على عادة آبائه و أجداده ميلا ليس بذاك، و ينصر أهل السنة فى بعض الأحيان. و كل ملوك بنى بويه كانوا على ذلك، غير أنهم كانوا يميلون فى الباطن للشيعة. و اللّه أعلم بحالهم.

و فيها توفّى عبد الرّحمن بن عمر بن محمد بن سعيد أبو محمد التّجيبىّ المصرىّ البزّار، المعروف بابن النحاس، مسند ديار مصر فى وقته. مولده ليلة النحر سنة ثلاث و عشرين و ثلثمائة، و مات فى عاشر صفر.

و فيها توفّى علىّ بن محمد أبو الحسن التّهامىّ الشاعر المشهور، كان من الشعراء المجيدين، و شعره فى غاية الحسن. قدم القاهرة مستخفيا و معه كتب كثيرة من حسّان بن المفرّج البدوىّ و هو متوجّه إلى بنى قرّة، فظفروا به فاعتقل بخزانة البنود فى سادس عشرين شهر ربيع الآخر، ثم قتل سرّا فى سجنه فى تاسع جمادى الأولى. و التهامىّ بكسر التاء المثناة من فوقها و فتح الهاء و بعد الألف ميم، هذه النسبة الى تهامة، و هى تطلق على مكّة حرسها اللّه. و من شعر التهامىّ من جملة قصيدة: [السريع]

قلت لخلّى و ثغور الرّبا مبتسمات و ثغور الملاح

أيّهما أحلى ترى منظرا فقال لا أعلم كلّ أقاح

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۴، ص: ۲۶۴

و له بيت بديع من جملة قصيدة: [الكامل]

و إذا جفاك الدهر و هو أبو الورى طرّا فلا تعتب على أولاده

و فيها توفّى محمد بن يحيى بن أحمد بن الحذّاء أبو عبد اللّه القرطبىّ الحافظ المحدّث العلامة، سمع الكثير و روى الحديث، و كتب و صنّف، و مات فى شهر رمضان.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثلاث أذرع و عشرون إصبعا.

مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و أربع أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۱۷]

السنة السادسة من ولاية الظاهر لإعزاز دين اللّه على مصر و هى سنة سبع عشرة و أربعمائة.

فيها عاد جلال الدولة إلى البصرة، و قبض على وزيره أبى سعيد عبد الواحد بن أحمد بن جعفر بن ماكولا و على أبى علىّ ابن عمه. ثمّ جرت أسباب استوجبت إطلاق ابن عمه؛ و استوزه جلال الدولة و لقّبه يمين الدولة وزير الوزراء، و خلع عليه.

و فيها توفّى أحمد بن محمد بن عبد اللّه بن العباس بن محمد بن عبد الملك بن أبى الشوارب أبو الحسن القرشىّ الأموىّ قاضى القضاة، كان عفيفا جليلا. قال القاضى أبو العلاء: ما رأينا مثله جلالة و صيانة و شرفا.

و فيها توفّى محسّن بن عبد اللّه بن محمد أبو القاسم التنوخىّ اللغوىّ القاضى الحنفىّ، ولد يوم الأحد الثامن و العشرين من شهر ربيع

الآخر سنة تسع و أربعين و ثلثمائة، و قدم دمشق مجتازا إلى الحجّ، فأدركه أجله فى الطريق فى ذى القعدة، فحمل إلى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۶۵

مدينة النّبيّ صلى اللّه عليه و سلم و دفن بالبقيع. و كان من أوعية العلم، و له مصنّفات كثيرة و شعر جيّد؛ من ذلك: [الطويل]

و كلّ أداريه على حسب حاله سوى حاسدى فهى التى لا أنالها

و كيف يدارى المرء حاسد نعمة إذا كان لا يرضيه إلا زوالها

و فيها توفّى عبد اللّه بن أحمد الإمام أبو بكر المروزىّ القفّال شيخ الشافعيّة بخراسان، كان يعمل الأقفال و حذق فى عملها حتّى صنع قفلا- بآلاته و مفتاحه وزن أربع حبّات. فلما صار ابن ثلاثين سنة اشتغل بالعلم و تفقّه حتّى برع فيه وفاق أقرانه. و مات فى جمادى الآخرة و له تسعون سنة.

و فيها توفّى علىّ بن أحمد بن عمر بن حفص أبو الحسن بن الحمّامىّ، كان إماما محدّثا كبير الشأن، سمع و حدّث، و مات فى شعبان عن تسع و ثمانين سنة.

و فيها توفّى، فى قول الذهبىّ، عمر بن أحمد بن إبراهيم بن عبدويه أبو حازم الهذلىّ العبدوىّ الحافظ الكبير الرحّال، سمع الحديث و حدّث، و روى عنه غير واحد، و مات بنيسابور.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و أربع عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و سبع أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۱۸]

السنة السابعة من ولاية الظاهر لإعزاز دين اللّه على مصر و هى سنة ثمانى عشرة و أربعمائة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۶۶

فيها خطب لجلال الدولة على المنابر ببغداد بعد أن منع الأتراك من ذلك و خطبوا لأبى كاليجار.

و فيها ورد كتاب للسلطان محمود بن سبكتكين على الخليفة القادر يخبر بما فتح من البلاد من أرض الهند، و كسره الصنم المعروف بسومنات.

و فيها توفّى الحسين بن علىّ بن الحسين أبو القاسم الوزير المغربىّ، ولد بمصر فى ذى الحجّة سنة سبعين و ثلثمائة، و هرب منها لمّا قتل الحاكم أباه عليّا و عمّه محمدا.

و قيل: إن أباه وزر للعزيز بمصر ثم للحاكم ابنه. و هرب الحسين هذا للعراق، و خدم بنى بويه، و وقع له بالشرق أمور، و وزر لغير واحد من ملوك الشرق.

و كان فاضلا عاقلا- شاعرا شهما شجاعا كافيا فى فنّه، حتى قيل: إنّه لم يل الوزارة لخليفة و لا ملك أكفى منه. و من شعره قوله: [المجتث]

الدهر سهل و صعب و العيش مرّ و عذب

فاكسب بمالك حمدا فليس للحمد كسب

و ما يدوم سرور فآختم وطينك رطب

و فيها توفّى عبد الرّحمن بن هشام القرشىّ الأموىّ صاحب الأندلس، الذى كان لقّب نفسه فى سنة أربع عشرة و أربعمائة بالمستظهر و المستكفى و المعتمد؛ و عاد ملك بنى أميّة إلى الأندلس بسببه؛ فلما كان فى هذه السنة وثب الجند عليه فقتلوه؛ و انقطعت ولاية بنى

أمیة عن الأندلس إلی سنة ثلاث و أربعین و أربعمائة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۶۷

و کانت ولاة الأندلس من بنی أمیّة أربعة عشر علی عدد أسلافهم، و مدّة سنینهم مائتان و ثمانون سنة، فأوّلهم عبد الرّحمن بن معاویة بن هشام بن عبد الملک بن مروان بن الحکم أبو المطرّف الملقّب بالداخل، لکونه دخل المغرب؛ بویع سنة تسع و ثلاثین و مائة فی أیّام أبی جعفر المنصور العباسیّ. ثمّ ولی بعده ابنه هشام فی سنة اثنتین و سبعین. ثم ولی بعده ابنه الحکم بن هشام بن عبد الرّحمن فی سنة ثمانین و مائة. ثم ولی بعده ابنه عبد الرّحمن بن الحکم فی سنة ستّ و ثمانین و مائة. ثم ولی بعده ابنه محمد فی سنة ثمان و ثلاثین و مائتین. ثم ولی بعده ابنه المنذر بن محمد سنة ثلاث و سبعین و مائتین و مات سنة خمس و سبعین، و لم یکن له ولد؛ فولی عبد اللّه ابن محمد بن عبد الرّحمن بن الحکم بن هشام بن عبد الرّحمن الداخل. ثم ولی بعده ابنه عبد الرّحمن سنة ثلثمائة. ثم ولی بعده الحکم بن عبد الرّحمن سنة ثمان و خمسین و ثلثمائة. ثم ولی بعده ابنه هشام سنة سبعین و ثلثمائة و مات سنة تسع و تسعین و ثلثمائة بعد أن تغلّب علیه محمد بن هشام بن عبد الجبّار الملقّب بالناصر لدین اللّه؛ ثم غلب علیه سلیمان بن الحکم. ثم ولی هشام بن الحکم بن عبد الرّحمن، ثم وقع خباط کبیر؛ علی ما یأتی ذکره فی محلّه إن شاء اللّه.

و فیها توفّی الشریف أبو الحسن علیّ ابن طباطبا العلویّ، کان فاضلا شاعرا فصیحا، مات ببغداد فی ذی القعدة، و کان علی مذهب القوم.

و فیها توفّی إبراهیم بن محمد بن إبراهیم أبو إسحاق الإسفراینیّ الأصولیّ المتکلّم الفقیه الشافعیّ إمام أهل خراسان رکن الدین، و هو أوّل من لقّب من الفقهاء. کان

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۶۸

إماما مفتّنا له التصانیف المشهورة، و کانت وفاته یوم عاشوراء بنیسابور. و قد تقدّم أن الألقاب ما تداول تسمیتها إلّا من الأعاجم لحبّهم للریاسة و التعظیم کما هی عادتهم.

و فیها توفّی معمر بن أحمد بن محمد بن زیاد أبو منصور الأصبهانیّ الزاهد، کان من کبار المشایخ، و له قدم هائلة فی الفقه و الصلاح.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم أربع أذرع و عشرون إصبعا.

مبلغ الزیادة ست عشرة ذراعا و ثلاث عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۱۹]

السنة الثامنة من ولایة الظاهر لإعزاز دین اللّه علی مصر و هی سنة تسع عشرة و أربعمائة.

فیها ولّی الظاهر أمر دمشق لأمیر الجیوش الدزبریّ، و کان شجاعا شهما و اسمه أبو منصور أنوشتکین الترکیّ.

و فیها توفّی محمد بن عمر بن یوسف أبو عبد اللّه بن الفخّار القرطبیّ المالکیّ الحافظ عالم الأندلس فی عصره، سمع الحدیث و حدّث و حجّ و جاور بالمدینة و أفتی بها، و کان إماما عالما زاهدا ورعا متقشّفا عارفا بمذاهب الأئمة و أقوال العلماء، یحفظ المدوّنة حفظا جیدا.

و فیها توفّی حمزة بن إبراهیم أبو الخطاب، کان بلغ من بهاء الدولة بن بویه منزلة عظیمة لم یبلغها غیره، کان یعلّمه النجوم. و کان حاکما علی الدولة و الوزراء، و القوّاد یخافونه، و ما کان یقنع من الوزراء بالقلیل. و لما فتح فخر الملک قلعة سابور حمل إلیه مائة ألف دینار فاستقلّها؛ و ما کان بهاء الدولة یخالفه أبدا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۶۹

و فيها توفّى عبد المحسن بن محمد بن أحمد غالب بن غلبون أبو محمد الصورىّ الشاعر المشهور. كان أبو الفتيان بن حيّوس مغرى بشعره، و يفضّله على أبى تمّام و البحترىّ و المتنبى؛ فقال أبو العلاء المعرّى ": الأمراء لا يناظرون ("يعنى أنّه ليس فى هذا المقام). و كان أبو الفتيان يقول: إن أغزل ما قيل قول جرير:

[البسيط]

إنّ العيون التى فى طرفها حور قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

يصرعن ذا اللّب حتّى لا حراك به و هنّ أضعف خلق اللّه إنسانا

و قال الصورىّ أغزل منهما، و هو قوله: [الرمل]

بالذى ألهمّ تعذى بى ثناياك العذابا

ما الذى قالته عينا ک لقلبى فأجابا

قلت: و قال غير ابن حيّوس: إن أرقّ ما قيل قول القائل:

[الطويل]

عيون عن السحر المبين تبين لها عند تحريك القلوب سكون

إذا أبصرت قلبا خليّا من الهوى تقول له كن مغرما فيكون

و من شعره أيضا: [المتقارب]

صددت فكنت مليح الصدود و أعرضت أفديک من معرض

و من كان فى سخطه محسنا فكيف يكون إذا ما رضى

و له أيضا: [الكامل]

[و] تريک نفسک فى معاندة الورى رشدا و لست إذا فعلت براشد

شغلتک عن أفعالها أفعالهم هلّا اقتصرت على عدوّ واحد

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۷۰

و فيها توفّى محمد بن محمد بن إبراهيم بن مخلد الفقيه أبو الحسن البغدادىّ الحنفىّ، ولد سنة تسع و عشرين و ثلثمائة، و سمع الكثير و رواه، و كان يتّجر و له مال عظيم، صادره ملوک بنى بويه حتى افتقر، و مات فلم يكفّن حتّى بعث إليه الخليفة كفنا.

و مات و لم يكن فى زمانه أعلى سندا منه. و كان صدوقا صالحا ثقة فقيها فاضلا عالما.

و فيها توفّى أبو الفوارس قوام الدولة بن بهاء الدولة فيروز بن عضد الدولة بويه بن ركن الدولة الحسن بن بويه الديلمىّ. كان عزم على نقض الصلح بينه و بين أخيه أبى كاليجار فعاجلته منيّته فمات فى ذى القعدة، و حمل تابوته الى شيراز فدفن فى تربة عماد الدولة بن بويه.

و فيها هلک قسطنطين أخو بسيل ملک الروم، و بعد موته انتقل الملک إلى بنت له و زوجها، و هو ابن خالها، يسمى أرمانوس، و لم يكن من بيت الملک، و جعلت ولاية العهد فى أرمانوس المذكور، و لبس الخفّ الأحمر، و تسمّى قيصرا.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم سبع أذرع سواء. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و أربع أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۲۰]

السنة التاسعة من ولاية الظاهر لإعزاز دين اللّه على مصر و هى سنة عشرين و أربعمائة.

فيها وقع بالعراق برد فى الواحدة مائة و خمسون رطلا كانت كالثور النائم، و نزلت فى الأرض مقدار ذراع؛ قاله أبو المظفر فى مرآة الزمان.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۷۱

و فيها فسد الأمر بين قرواش صاحب الموصل و بين أبى نصر بن مروان صاحب ميّافارقين. و سببه أن قرواشا كان تزوّج ببنت أبى نصر المذكور فأقامت عنده مدّة، ثمّ هجرها؛ فطلبها أبو نصر فنقلها إليه، و هذا أوّل الشر.

و فيها توفّى على بن عيسى بن الفرج أبو الحسن الرّبعىّ صاحب أبى علىّ الفارسىّ، قرأ الأدب ببغداد على السّيرافىّ، و خرج الى شيراز و درس بها النحو على الفارسىّ عشرين سنة، ثم عاد الى بغداد و أقام بها باقى عمره. خرج يوما يمشى على جانب الشطّ، فرأى الشريف الرضى و المرتضى فى سفينة و معهما عثمان بن جنىّ النحوىّ، فصاح أبو الحسن: من أعجب أحوال الشريفين أن يكون «عثمان» جالسا فى صدر السفينة «و على» يمشى على الحافة؛ فضحكا و قالا: باسم اللّه. قلت:

و هذا مما يدل على أن الرضى و المرتضى كانا يصرّحان بالرفض.

و فيها توفّى الأستاذ الأمير المختار عزّ الملك محمد بن أبى القاسم عبد اللّه بن أحمد ابن إسماعيل بن عبد العزيز المعروف بالمسبّحىّ الكاتب، الحرانىّ الأصل المصرىّ المولد و المنشأ، صاحب التاريخ المشهور و غيره من المصنّفات. قال ابن خلكان:

«كانت فيه فضائل ولديه معارف، و رزق حظوة فى التصانيف، و اتصل بخدمة الحاكم العبيدىّ. قال: و تاريخه ثلاثة عشر ألف ورقة» انتهى. قلت: و له عدّة تصانيف أخر. مات فى شهر ربيع الآخر. و المسبحى: بضم الميم و فتح السين المهملة و كسر الباء الموحدة ثانية الحروف و فى آخرها حاء مهملة. قال السمعانىّ: هذه النسبة إلى الجدّ.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۷۲

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و عشرون إصبعا.

مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعا سواء.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۲۱]

السنة العاشرة من ولاية الظاهر لإعزاز دين اللّه على مصر و هى سنة إحدى و عشرين و أربعمائة.

فيها عملت الرافضة النّوح فى يوم عاشوراء بالكرخ، و وقع بينهم و بين أهل السنّة وقعة قتل فيها جماعة من الفريقين.

و فيها خطب للأمير أبى سعيد مسعود بن محمود بن سبكتكين بعد موت أبيه بأرمينية و الأطراف.

و فيها عاد جلال الدولة إلى بغداد من واسط. و لم يحجّ أحد من العراقيّين فى هذه السنة، و حجّ الناس من مصر و غيرها.

و فيها توفّى أحمد بن عبد اللّه بن أحمد أبو الحسن و يعرف بابن الدان، أصله من الجزيرة و سكن دمشق، و كان يعظ، و كان صاحب مقالات و كرامات، و هو معدود من المشايخ.

و فيها توفّى أحمد بن محمد بن العاص بن أحمد بن سليمان بن عيسى بن درّاج أبو عمر القسطلّىّ الشاعر المشهور. قال ابن حزم: كان عالما بنقد الشعر، لو قلت إنه لم يكن بالأندلس أشعر من ابن درّاج لم أبعد. و هو من مدينة قسطلّة درّاج،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۷۳

و قيل هو اسم ناحية. و كان من كتّاب الإنشاء فى أيّام المنصور بن أبى عامر.

و من شعره من جملة قصيدة طويلة: [الطويل]

أضاء لها فجر النّهى فنهاها عن المدنف المضنى بحرّ هواها

و ضلّلها صبح جلا ليله الدجى و قد كان يهديها إلىّ دجاها

و فيها توفى السلطان يمين الدولة أبو القاسم محمود بن سبكتكين [ابن] الأمير ناصر الدولة أبى منصور صاحب غزنة و غيرها. كان السلطان محمود هذا يلقّب قبل السلطنة بسيف الدولة، و كان من عظماء ملوك الدنيا، و فتح عدّة بلاد من الهند و غيرها، و اتسعت مملكته [حتّى بلغت أوقافه عشرة آلاف قرية، و امتلأت خزائنه من أصناف الأموال و الجواهر]؛ و كان ديّنا خيّرا متعبّدا فقيها على مذهب أبى حنيفة.

و ما حكاه ابن خلكان من قصّة القفّال فى صلاة الحنفيّة بين يدى ابن سبكتكين المذكور ليس لها صحّة؛ يعرف ذلك من له أدنى ذوق من وجوه عديدة؛ فإنّ محمودا المذكور كان قد قرأ فى ابتداء أمره و برع فى الفقه و الخلاف و صار معدودا من العلماء، و صنّف كتابا فى فقه الحنفيّة قبل سلطنته بمدّة سنين، و ذلك قبل أن يشتهر القفّال. فمن يكون بهذه المثابة لا يحتاج الى من يعرّفه الصلاة على المذاهب الأربعة بل و لا غيرها؛ و أصاغر الفقهاء من طلبة العلم يعرفون الخلاف فى مثل هذه المسألة.

و أيضا حاشا القفّال من أن يقع فى مثل هذه القبائح من كشف العورة و الضراط فى الملأ و تحكيم رجل نصرانىّ فى قراءة كتب المذهبيين و الافتراء على مذهب الإمام

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۷۴

الأعظم أبى حنيفة؛ و ما ثمّ أمر يحتاج الى ذلك و لا ألجأت الضرورة الى أن يفعل بعض ما قيل عنه. و إنما محمود بن سبكتكين رجل من المسلمين لا يزيد فى الحنفيّة و لا ينقص من الشافعيّة؛ و لعلّ بعض الفقراء يكون أفضل منه عند اللّه تعالى. و هأنا لم أكن مثل القفّال فى كثرة علومه بل و لا أصاغر تلامذته، لو قيل لى: افعل بين يدى السلطان بعض ما قيل عن القفّال لا أرضى بذلك، و لا ألتفت الى السلطان و لا الى غيره، و لا أهزأ بصلاة مسلم كائن من كان. فهذا كله موضوع على القفّال من أهل التحامل و التعصّب. فنعوذ بالله من الاستخفاف بالعلماء و الوقوع فى حقّهم، و نسأل اللّه السلامة فى الدين. و كانت وفاة السلطان محمود فى جمادى الأولى من هذه السنة، رحمه اللّه تعالى. و تولّى بعده الملك ابنه مسعود بن محمود الآتى ذكره.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و ثلاث و عشرون إصبعا. مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و ستّ أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۲۲]

السنة الحادية عشرة من ولاية الظاهر لإعزاز دين اللّه على مصر و هى سنة اثنتين و عشرين و أربعمائة.

فيها قتل أبو [علىّ] الحسن [بن] علىّ بن ماكولا بالأهواز، قتله غلام له يعرف بعدنان، كان يجتمع مع امرأة فى داره، ففطن بهما، فعلما بذلك فخافا منه، و ساعدهما فرّاش كان فى داره، فغمّوه بشىء و عصروا خصاه حتّى مات، و أظهروا أنه مات فجأة؛ فأخذ الغلام و الفرّاش و ضربا فأقرّا بما وقع من أمره، فصلبا و حبست المرأة فى دار.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۷۵

و فيها أخذ ملك الروم مدينة الرّها.

و فيها ولد بمدينة إسكاف ولد له رأس و بقيّة بدنه كالحيّة، فنطق ساعة مولده و قال: الناس تحت غضب منذ أربع سنين، و الواجب أن يخرجوا فيستسقوا ليكشف عنهم البلاء. فكتب قاضى إسكاف للخليفة بذلك، فاجتمع الناس و استسقوا فلم يسقوا.

و فيها توفّى الخليفة القادر بالله أمير المؤمنين أبو العباس أحمد ابن الأمير أبى أحمد إسحاق ابن الخليفة جعفر المقتدر ابن الخليفة المعتضد أحمد ابن الأمير أبى أحمد طلحة الموفق ابن الخليفة جعفر المتوكّل ابن الخليفة محمد المعتصم ابن الخليفة الرشيد هارون

ابن الخليفـة المهديّ محمد ابن الخليفة أبی جعفر المنصور عبد اللّه بن محمد بن علیّ بن عبد اللّه بن عبّاس بن عبد المطّلب الهاشـمیّ العباسـیّ البغـدادیّ. بويع بالخلافـة بعد القبض علی الطائع عبد الكريم فی حادی عشـر شـهر رمضان سـنة إحدی و ثمانين و ثلثمائة، و مولده فی سنة ستّ و ثلاثين و ثلثمائة. و أمّه أمّ ولد تسمی يمنی، ماتت فی خلافته.

و توفّی ليلة الاثنين حادی عشر ذی الحجّة، و دفن ليلة الثلاثاء بين المغرب و العشاء.

و كانت خلافته إحدی و أربعين سـنة و ثلاثة أشهر؛ و هو أطول الخلفاء العبّاسيّة مدّة، لا نعلم خليفة أقام فی الخلافة هذه المدّة من بنی العبّاس و لا غيرهم إلا المستنصـر معدّا العبيدیّ الآتی ذكره، فإنه أقام فی خلافة مصـر ستّين سنة. و تخلّف بعد القادر ابنه أحمد و لقّب بالقائم بأمر اللّه. و كان القادر- رحمه اللّه- أبيض كثّ اللحية يخضب؛ و كان ديّنا خيّرا حسن الاعتقاد أمّارا بالمعروف فاضلا. صنّف

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۷۶

كتبا كثيرة فی فنون من العلم، منها كتاب فی أصول الدين، و كتاب فی فضائل الصحابة و عمر بن عبد العزيز، و كتاب كفّر فيه القائلين بخلق القرآن. و كان كثير الصيام و الصدقات، رحمه اللّه تعالی.

و فيها توفّی عبد الوهاب بن علیّ بن نصـر بن أحمد القاضـی أبو محمد البغدادیّ المالكیّ الفقيه، سمع الحديث و روی عنه غير واحد، و كان شيخ المالكيّة فی عصره و عالمهم؛ و صنّف كتاب «التلقين» و شرح الرسالة و غير ذلك.

و فيها توفّی يحيی بن نجاح أبو الحسين بن القلّاس الأمویّ مولاهم القرطبیّ.

رحل الی البلاد و سمع الكثير و حجّ و استوطن مصر. و كان عالما ورعا ديّنا.

أمر النيل فی هذه السنة- الماء القديم ثلاث أذرع و عشرون إصبعا.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و ستّ أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۲۳]

السنة الثانية عشرة من ولاية الظاهر لإعزاز دين اللّه علی مصر و هی سنة ثلاث و عشرين و أربعمائة.

فيها بعث الظاهر صاحب الترجمة بكسوة الكعبة فكسيت.

و فيها لم يحجّ أحد من العراق و لا من خراسان و حجّ الناس من مصر.

و فيهـا رأی رجل من أهل أصـبهان فی النوم أن شـخصا وقف علی منارة أصـبهان و قال ": سـكت نطق، نطق سـكت. "فآنتبه و حكی للناس، فما عرف أحد معناه؛ فقال رجل: يأهل أصبهان، احذروا فإن أبا العتاهية الشاعر يقول:

سكت الدهر زمانا عنهم ثم أبكاهم دما حين نطق

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۷۷

فما كان بعد ذلك إلا قليل، و دخل عسكر مسعود بن محمود بن سبكتكين و نهب البلد و قتل عالما لا يحصی.

و فيها توفّی علیّ بن أحمد بن الحسن بن محمد بن نعيم أبو الحسن البصـریّ الحافظ الشاعر. قال محمد بن علیّ الصوریّ: لم أر ببغداد أكمل منه. و جمع بين معرفة الحديث و علم الكلام و الأدب و الفقه و الشعر. و من شعره و أجاد: [المتقارب]

إذا عطّشتك أكفّ اللئام كفتك القناعة شبعا وريّا

فكن رجلا رجله فی الثری و همّة هامته فی الثريّا

و فيها توفّی محمد بن الطيب بن سـعيد بن موسـی أبو بكر الصبّاغ البغدادیّ، ولد سـنة ثمان و ثلاثين و ثلثمائة، و سمع الكثير. قال أبو بكر الخطيب: كتبت عنه، و كـان صـدوقا ثقـة. و قـال رئيس الرؤسـاء أبـو القـاسم علیّ بن الحسن: تزوّج محمـد بن الطيب زيـادة علی

تسعمائة امرأة.

الـذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السـنة، قال: و فيها توفّى أبو القاسم عبد الرّحمن ابن عبد اللّه الحربىّ الحرفىّ فى شوّال و له سبع و ثمانون سـنة. و أبو الحسن علىّ بن أحمد النّعيمىّ المحدّث الأديب. و أبو الفضل منصور بن نصـر بن عبد الرّحيم ابن بنت السّـمرقندىّ الكاغدىّ فى ذى القعدة، و قد قارب المائة. انتهى كلام الذهبى.

و فيها كان الطاعون ببلاد الهنـد و العجم و عظم الى الغايـة، و كان أكثره بغزنة و خراسان و جرجان و الرىّ و أصـبهان و نواحى الجبل الى حلوان، و امتدّ الى الموصل و الجزيرة و بغداد، حتى قيل: إنّه خرج من أصبهان وحدها أربعون ألف جنازة، ثم امتدّ الى شيراز.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۷۸

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و عشرون إصبعا.

مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و أربع أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۲۴]

السنة الثالثة عشرة من ولاية الظاهر لإعزاز دين اللّه على مصر و هى سنة أربع و عشرين و أربعمائة.

فيها عملت الرافضـة المأتم ببغـداد فى يوم عاشورا على العادة، فأقام بذلك العيّارون. أعنى عن الزعران الذين كانوا غلبوا على بغداد، و عجزت الحكّام عنهم.

و فيها توفّى أحمد بن الحسـين بن أحمد أبو الحسـين المعروف بابن السّماك الواعظ البغدادىّ، مولده سنة ثلاث و ثلاثين و ثلثمائة، و كان يعظ بجامع المنصور و المهـدىّ و يتكلم على طريق الصوفيـة، و كان لكلامه رونق، غير أنهم تكلموا فيه؛ و كانت وفاته ببغداد فى ذى الحجة من السنة.

و فيها فى المحرّم خرجوا ببغداد للاستسقاء بسبب القحط.

و فيهـا ثـار أهـل الكرخ بالعيّارين فهربوا، و كبسوا دورهم و نهبوا سـلاحهم، و طلبوا من السـلطان المعاونـة. و سـبب ذلك أن العيّارين نهبوا تاجرا فغضب له أهل سوقه، فرد العيّارون بعض ما أخـذوا؛ ثم كبسوا دار ابن العلواء الواعظ و أخـذوا ماله، ثمّ فعلوا ذلك بجماعة كثيرة، حتّى قام عليهم أهل الكرخ، و وقع بينهم بسبب ذلك قتال و حروب يطول شرحها.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۷۹

و فيها توفى أبو بكر بن محمد بن إبراهيم الأردستانىّ، كان إماما زاهدا فاضلا معدودا من كبار المشايخ، و له كرامات و أحوال.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و عشر أصابع. مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و إصبعان.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۲۵]

السنة الرابعة عشرة من ولاية الظاهر لإعزاز دين اللّه على مصر و هى سنة خمس و عشرين و أربعمائة.

فيها هبّت بنصيبين ريح سوداء قلعت معظم شجرها، و كان بين البساتين قصر عظيم فرمته من أصله.

و فيها زلزلت الرملة زلزلة هدمت ثلث مدينة الرملة، و نزل البحر مقدار ثلاثة فراسخ، فنزل الناس يصـيدون السمك، فرجع عليهم فغرق من لم يحسن السباحة.

و فيهـا توفّى أحمـد بن محمـد بن عبـد الرّحمن أبو العبّـاس القاضـى الأـبيوردىّ، ولـد سـنة سـبع و خمسـين و ثلثمائـة، و تولّى القضاء

بالجانبين ببغداد، و سمع الحديث و رواه؛ و كان عالما ورعا مفتنا، يصوم الدهر و يفطر على الخبز و الملح، و كان فقيرا و يظهر الثروة، و مات فى جمادى الأولى، و دفن بباب حرب.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۸۰

و فيها توفّى أحمد بن محمد [بن أحمد] بن غالب الحافظ أبو بكر الخوارزمىّ، ولد سنة ستّ و ثلاثين و ثلثمائة، و رحل [إلى] البلاد و سمع الكثير و حدّث، و كان إماما فى اللغة و الفقه و الحديث، و مات فى يوم الاربعاء غرّة شهر رجب.

و فيها توفّى عبد الوهاب بن عبد العزيز بن الحارث أبو الفرج التميمىّ الفقيه الحنبلىّ الواعظ، ولد سنة ثلاث و خمسين و ثلثمائة، و سمع الحديث و رواه، و كان فقيها محدّثا واعظا؛ و كانت وفاته فى شهر ربيع الأوّل ببغداد، و دفن عند قبر الإمام أحمد ابن حنبل رضى اللّه عنه.

و فيها توفّى محمد بن عبد اللّه أبو عبد اللّه بن باكويه الشيرازىّ أحد مشايخ الصوفية، كان أوحد زمانه، و له كرامات و إشارات، و لقى خلقا من المشايخ و حكى عنهم، و سمع الحديث الكثير و روى عنه خلق كثير.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفى أبو بكر أحمد بن محمد ابن أحمد بن غالب البرقانىّ الحافظ فى رجب و له تسع و ثمانون سنة. و أبو علىّ الحسن بن أبى بكر أحمد بن إبراهيم بن شاذان البزاز فى آخر يوم من السنة، و ولد فى ربيع الأوّل عام تسعة و ثلاثين و ثلثمائة. و أبو سعيد عبد الرّحمن بن محمد بن عبد اللّه ابن بندار بن شبانة الهمذانىّ. و أبو الحسن عبد الرّحمن بن محمد بن يحيى الجوبرىّ

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۸۱

فى صفر. و أبو نصر عبد الوهّاب بن عبد اللّه بن عمر المرىّ الدمشقىّ. و أبو الفضل عمر بن أبى سعد ابراهيم بن إسماعيل الهروىّ الزاهد. و أبو بكر محمد بن علىّ بن إبراهيم ابن مصعب الأصبهانى التاجر. انتهى كلام الذهبىّ.

و فيها وقع الطاعون بشيراز، فكانت الأبواب تسدّ على الموتى؛ ثم انتقل إلى واسط و بغداد و البصرة و الأهواز و غيرها.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و خمس عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و إحدى و عشرون إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۲۶]

السنة الخامسة عشرة من ولاية الظاهر لإعزاز دين اللّه على مصر و هى سنة ست و عشرين و أربعمائة.

فيها استولى العيّارون على بغداد و ملكوا الجانبين (أعنى الحراميّة) قال:

و لم يبق للخليفة و لا لجلال الدولة معهم حكم. و كان العيّارون فى دور الأتراك و الحواشى يقيمون نهارا و يخرجون ليلا، و الأتراك و الحواشى تقوم معهم فى الباطن، فكانوا يخرجون ليلا و يعملون العملات، و أفسدوا و فعلوا أفعالا قبيحة، و أظهروا الإفطار فى شهر رمضان نهارا، و كان ذلک كلّه بمواطأة الأتراك.

و فيها ورد كتاب مسعود بن محمود بن سبكتكين على الخليفة أنّه افتتح جرجان و طبرستان، و غزا الهند و افتتح بلادا كثيرة.

و فيها توفّى أحمد بن كليب الشاعر المغربىّ. قال أبو عبد اللّه محمد بن أبى نصر الحميدىّ فى تاريخه: «كان أحمد هذا يهوى أسلم بن حمد بن سعيد قاضى قضاة

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۸۲

الأندلس؛ و كان أسلم من أحسن أهل زمانه؛ فافتتن به و قال فيه الأشعار الرائقة».

ثم سكت الحميدىّ و لم يذكر ما قاله فى أسلم المذكور من الأشعار.

و فيها توفّى الحسن بن أحمد بن إبراهيم بن الحسن بن محمد بن شاذان أبو علىّ البزّاز، إمام محدّث مشهور من أهل بغداد، ولد سنة تسع و ثلاثين و ثلثمائة؛ سمع خلقا كثيرا، و كان صالحا ثقة صدوقا.

و فيها توفّى الحسن بن عثمان بن أحمد بن الحسين بن سورة أبو عمر الواعظ البغدادىّ، سمع الحديث و تفقه، و كان شيخا، له لسان حلو فى الوعظ، و كان له شعر على طريق القوم؛ فمنه قوله: [الطويل]

دخلت على السلطان فى دار عزّه بفقر و لم أجلب بخيل و لا رجل

فقلت انظروا ما بين فقرى و ملككم بمقدار ما بين الولاية و العزل

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثلاث أذرع و عشرون إصبعا.

مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و خمس عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۲۷]

السنة السادسة عشرة من ولاية الظاهر لإعزاز دين اللّه على مصر و هى سنة سبع و عشرين و أربعمائة. و فيها كانت وفاته، حسب ما تقدّم فى ترجمته.

فيها (أعنى سنة سبع و عشرين) أرسل الظاهر قبل موته خمسة آلاف دينار، فصلّح بها نهر ينتهى الى الكوفة و يرد إليه ماء الفرات؛ و جاء أهل الكوفة يستأذنون القائم بأمر اللّه فى ذلک، فثقل عليه و سأل الفقهاء؛ فقالوا: هذا مال تغلّب عليه من فىء المسلمين، فصرفه فى هذا الوجه؛ فأذن لهم القائم فى ذلک.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۸۳

و فيها لم يحجّ أحد من العراق، و حجّوا من الشام و مصر.

و فيها توفّى أحمد بن محمد بن إبراهيم أبو إسحاق الثعلبىّ صاحب التفسير المشهور.

قال الحافظ أبو الفرج ابن الجوزىّ: «ليس فيه ما يعاب به إلا ما ضمّنه من الأحاديث الواهية التى هى فى الضعف متناهية خصوصا فى أوائل السور».

و فيها توفّى الحسن بن وهب أبو علىّ الكاتب المجوّد، كان فاضلا إماما مجوّدا، و خطّه معروف مشهور بالحسن.

و فيها توفّى حمزة بن يوسف بن إبراهيم الجرجانىّ الحافظ، هو من ولد هشام ابن العاص بن وائل السهمىّ، و كان عالما فاضلا، رحل فى طلب العلم، و سمع الحديث الكثير، و قال أنبأنا الحسين بن عمر الضرّاب، أنشدنا شعبان الصّيرفىّ:

[البسيط]

أشدّ من فاقة الزمان وقوف حرّ على هوان

فاسترزق اللّه و استعنه فإنّه خير مستعان

و إن نأى منزل بحرّ فمن مكان إلى مكان

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ستّ أذرع و عشرون إصبعا.

مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و خمس عشرة إصبعا.

انتهى الجزء الرابع من النجوم الزاهرة و يليه الجزء الخامس و أوّله: ذكر ولاية المستنصر بالله على مصر

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۸۴

تنبيه- أشرنا أثناء تعليقات هذا الجزء إلى أن صاحب العزة العالم المحقق الأستاذ محمد رمزى بك المفتش بوزارة المالية سابقا هو الذى أفادنا بتعليقاته المفيدة القيمة الخاصة بتعيين الأماكن الأثرية و القرى القديمة التى وردت فى هذا الجزء مع تحديد موقعها الآن بغاية الدقة، مما يدلّ على سعة اطلاعه و غزارة علمه و طول باعه فى البحث و التحقيق، فنسدى إليه جزيل الشكر على هذه المعاونة التاريخية لخدمة الجمهور.

و كنا نبهنا القارئ إلى أن تعليقاته الخاصة بتحديد الأماكن الأثرية هى من صفحة ۳۰- ۵۴ من هذا الجزء و لكنه واصل شرحه الى نهاية هذا الجزء، عدا الحاشية رقم ۱ ص ۵۴ الخاصّة بالجوامع الثلاثة المعلقة فمنقولة من كتاب الخطط التوفيقية كما هى؛ فجزاه اللّه خير الجزاء عن خدمته للعلم و أهله.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۴، ص: ۲۸۵

فهرس الولاة الذين تولوا مصر من سنة ۳۵۵ ه- ۴۲۷ ه

الجزء الخامس

[تتمة ما وقع من الحوادث سنة ۴۲۷]

اشارة

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم و صلى اللّه على سيدنا محمد و آله و صحابته و المسلمين

الجزء الخامس من كتاب النجوم الزاهرة

ذكر ولاية المستنصر باللّه على مصر

هو أبو تميم معدّ الملقّب بالمستنصر باللّه بن الظاهر لإعزاز دين اللّه علىّ بن الحاكم بأمر اللّه منصور بن العزيز باللّه نزار بن المعزّ لدين اللّه معدّ أوّل خلفاء الفاطميّين بمصر ابن المنصور باللّه إسماعيل بن القائم باللّه محمد بن المهدىّ عبيد اللّه العبيدىّ الفاطمىّ المغربىّ الأصل، المصرىّ المولد و المنشأ و الدار و الوفاة؛ و هو الخامس من خلفاء مصر من بنى عبيد، و الثامن من المهدىّ عبيد اللّه. ولى الخلافة بعد موت أبيه الظاهر لإعزاز دين اللّه فى يوم الأحد منتصف شعبان سنة سبع و عشرين و أربعمائة. و كان عمره يوم ولى الخلافة سبع سنين و سبعة و عشرين يوما، و خيّن و هو ابن ستّ سنين.

قال الذهبیّ رحمه اللّه: «هو معدّ أبو تمیم الملقّب بأمیر المؤمنین المستنصر بالله ابن الظاهر بن الحاکم بأمر اللّه- و ساق بقیة نسبه بنحو ما سقناه إلی أن قال-:

بقی فی الخلافة ستّین سنة و أربعة أشهر؛ و هو الذی خطب له بإمرة المؤمنین

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲

علی منابر العراق فی نوبة الأمیر أبی الحارث أرسلان المعروف بالبساسیریّ فی سنة إحدی و خمسین و أربعمائة. و لا أعلم أحدا فی الإسلام، لا خلیفة و لا سلطانا، طالت مدّته مثل المستنصر هذا. و ولی و هو ابن سبع سنین. و لمّا کان فی سنة ثلاث و أربعین و أربعمائة قطع الخطبة له من المغرب الأمیر المعزّ بن بادیس- و قیل:

بل قطعها فی سنة خمس و ثلاثین- و خطب لبنی العبّاس و خرج عن طاعة بنی عبید الباطنیّة. و حدث فی أیّام المستنصر بمصر الغلاء الذی ما عهد بمثله منذ زمان یوسف علیه السلام، و دام سبع سنین حتّی أکل الناس بعضهم بعضا، حتّی قیل: إنّه بیع رغیف واحد بخمسین دینارا- فإنّا للّه و إنّا الیه راجعون- و حتّی إنّ المستنصر هذا بقی یرکب وحده، و خواصّه لیس لهم دوابّ یرکبونها؛ و إذا مشوا سقطوا من الجوع؛ و آل الأمر إلی أن استعار المستنصر بغلة یرکبها من صاحب دیوان الإنشاء.

و آخر شیء نزحت أمّ المستنصر و بناته إلی بغداد خوفا من أن یمتن جوعا. و کان ذلک فی سنة ستّین و أربعمائة. و لم یزل هذا الغلاء حتّی تحرّک الأمیر بدر الجمالیّ والد الأفضل أمیر الجیوش من عکّا و رکب فی البحر و جاء إلی مصر و تولّی تدبیر الأمور

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳

و شرع فی إصلاح الأمر. و توفّی المستنصر فی ذی الحجّة. و فی دولته کان الرّفض و السبّ فاشیا مجهرا، و السنّة و الإسلام غریبا! فسبحان الحلیم الخبیر الذی یفعل فی ملکه ما یرید. و قام بعده ابنه المستعلی أحمد، أقامه أمیر الجیوش الأفضل.

و استقامت الأحوال؛ فخرج أخوه نزار من مصر خفیة، فسار إلی ناصر الدولة أمیر الإسکندریة، فأعانه و دعا إلیه، فتمّت بین أمیر الجیوش و بینهم حروب و أمور إلی أن ظفر بهم». انتهی کلام الذهبیّ فی أمر المستنصر.

و نشرع الآن فی ذکر المستنصر و أمر الغلاء بأوسع ممّا ذکره الذهبیّ من أقوال جماعة من المؤرّخین و غیرهم.

قال العلّامة أبو المظفّر فی تاریخه: «و لم یل أحد من الخلفاء الأمویّین و لا العباسیّین و لا المصریّین مثل هذه المدّة (یعنی مدّة إقامة المستنصر فی الخلافة ستّین سنة) قال: و عاش المستنصر سبعا و ستّین سنة و خمسة أشهر فی الهزاهز و الشدائد و الوباء و الغلاء و الجلاء و الفتن. و کان القحط فی أیّامه سبع سنین مثل سنی یوسف الصدّیق صلوات اللّه و سلامه علیه، من سنة سبع و خمسین إلی سنة أربع و ستّین و أربعمائة. أقامت البلاد سبع سنین یطلع النیل فیها و ینزل، و لا یوجد من یزرع لموت النّاس و اختلاف الولاة و الرعیّة، فاستولی الخراب علی کلّ البلاد، و مات أهلها، و انقطعت السّبل برّا و بحرّا. و کان معظم الغلاء سنة اثنتین و ستّین.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۴

و قال أبو یعلی بن القلانسیّ: «فی أیّامه (یعنی المستنصر) ثارت الفتن فی بنی حمدان و أکابر القوّاد، و غلت الأسعار، و اضطربت الأحوال، و اختلّت الأعمال، و حصر فی قصره و طمع فیه. و لم یزل علی ذلک حتّی استدعی أمیر الجیوش بدرا الجمالیّ من عکّا إلی مصر فاستولی علی التدبیر، و قتل جماعة ممّن یطلب الفساد، فتمهّدت الأمور؛ و لم یبق للمستنصر أمر و لا نهی إلّا الرکوب فی العیدین. و لم یزل کذلک حتّی مات بدر الجمالیّ و قام بعده ولده الأفضل. و لمّا مات المستنصر و قام المستعلی مقامه و تقرّرت الأمور، خرج عبد اللّه و نزار ابنا المستنصر من مصر خفیة، و قصد نزار الإسکندریّة إلی ناصر الدولة و الیها، و جرت بینه و بین الأفضل حروب بسبب ذلک إلی أن ثبت أمر المستعلی». انتهی کلام أبی یعلی باختصار.

قلت: و أمّا ما ذکره الذهبیّ- رحمه اللّه- من الخطبة للمستنصر علی منابر بغداد و بالعراق کلّه، و خلع القائم بأمر اللّه العبّاسیّ من الدعوة، فکان من قصّته أنّ السلطان

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۵

طغرلبک اشتغل بحصار تلک النّواحی و نازل الموصل، ثمّ توجّه إلی نصیبین لفتح الجزیرة و تمهیدها. و أرسل الأمیر أبو الحارث أرسلان المعروف بالبساسیریّ إلی إبراهیم ینّال أخی السلطان طغرلبک لینجده؛ فأخذ البساسیریّ یعده و یمنّیه و یطمعه فی الملک حتّی أصغی إلیه و خالف أخاه طغرلبک. و ساق إبراهیم ینّال فی طائفة من العسکر إلی الرّیّ.

و بلغ السلطان طغرلبک خبر عصیان إبراهیم فانزعج، و سار وراءه و ترک بعض عسکره فی دیار بکر مع زوجته الخاتون و وزیره عمید الملک الکندریّ، فتفرّقت العساکر.

و عادت زوجته الخاتون بالعسکر الذی صحبها إلی بغداد. و أمّا زوجها السلطان طغرلبک فإنّه التقی هو و أخوه إبراهیم ینّال و تقاتلا، فظفر علیه أخوه إبراهیم ینّال و انهزم السلطان طغرلبک إلی همذان؛ فساق أخوه إبراهیم خلفه و حاصره بها. فعزمت الخاتون علی إنجاد زوجها. و اختبطت بغداد و عظم البلاء بها، و قامت الفتنة علی ساق. و تمّ للأمیر أبی الحارث أرسلان البساسیریّ ما دبّره من المکر. و أرجف النّاس ببغداد بمجیء البساسیریّ. و نفر الوزیر عمید الملک وزیر طغرلبک و الأمیر أنوشروان إلی الجانب الغربیّ من بغداد و قطعا الجسر. و نهبت الغزّ دار خاتون. و أکل القویّ الضعیف. و وقع ببغداد و أعمالها أمور هائلة شنعة. ثمّ دخل الأمیر

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۶

أبو الحارث أرسلان البساسیریّ بغداد فی ثامن ذی القعدة بالرّایات المستنصریّة و علیها ألقاب المستنصر هذا صاحب مصر؛ فمال إلی البساسیریّ أهل باب الکرخ و فرحوا به لکونهم رافضة، و البساسیریّ و خلفاء مصر أیضا رافضة؛ فانضمّوا إلی البساسیریّ و تشفّوا من أهل السّنّة، و شمخت أنوف المنافقین الرافضة، و أعلنوا بالأذان ب «حیّ علی خیر العمل» ببغداد. و اجتمع خلق من أهل السنّة علی الخلیفة القائم بأمر اللّه العباسیّ و قاتلوا معه، و فشت الحرب بین الفریقین فی السفن أربعة أیام. و خطب یوم الجمعة ثالث عشر ذی القعدة ببغداد للمستنصر هذا صاحب الترجمة بجامع المنصور و أذّنوا ب «حیّ علی خیر العمل». و عقد الجسر و عبرت عساکر البساسیریّ إلی الجانب الشرقیّ؛ فحندق الخلیفة القائم بأمر اللّه علی نفسه حول داره و حول نهر المعلّی، فأحرقت الغوغاء نهر المعلّی و نهبت ما فیه، و قوی البساسیریّ و تفلّل عن الخلیفة القائم أکثر النّاس. فاستجار القائم بقریش بن بدران أمیر العرب، و کان مع البساسیریّ، فأجاره و من معه و أخرجه إلی مخیّمه. و قبض البساسیریّ علی وزیر القائم بأمر اللّه رئیس الرؤساء أبی القاسم بن المسلمة، و قیّده

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۷

و شهّره علی جمل و علیه طرطور و عباءة، و جعل فی رقبته قلائد کالمسخرة و طیف به بالشوارع، و خلفه من یصفعه، ثم سلخ له ثور و ألبس جلده و خیط علیه، و جعلت قرون الثور فی رأسه، ثمّ علّق علی خشبة، و عمل فی فیه کلّو بان، فلم یزل یضطرب حتّی مات رحمه اللّه. و نصب للقائم الخلیفة خیمة صغیرة بالجانب الشرقیّ فی المعسکر، و نهبت العامّة دار الخلافة، فأخذوا منها ما لا یحصی و لا یوصف کثرة. فلمّا کان یوم الجمعة رابع ذی الحجة لم تصلّ الجمعة بجامع الخلیفة، و خطب بسائر الجوامع للمستنصر المذکور، و قطعت الخطبة العباسیّة بالعراق. و هذا شیء لم یفرح به أحد من آباء المستنصر.

ثم حمل القائم بأمر اللّه إلی حدیثة عانة فجلس بها، و سلّم إلی صاحبها مهارش.

و ذلک أن البساسیریّ و قریشا اختلفا فی أمر القائم بأمر اللّه، ثمّ وقع اتفاقهما بعد أمور علی أن یکون عند مهارش إلی أن یتّفقا علی ما یتّفقان علیه فی أمره. ثمّ جمع أبو الحارث أرسلان البساسیریّ القضاة و الأشراف ببغداد، و أخذ علیهم البیعة للمستنصر العبیدیّ صاحب الترجمة فبایعوا قهرا علی رغم الأنف.

و قال الشیخ عزّ الدّین ابن الأثیر فی تاریخه: «إنّ إبراهیم ینّال کان أخوه السلطان طغرلبک قد ولّاه الموصل عام أوّل، و إنّه فی سنة خمسین فارق [الموصل] و رحل نحو

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۸

بلاد الجبل، فنسب السلطان رحيله إلى العصيان، فبعث وراءه رسولا معه الفرجيّة التى خلعها عليه الخليفة. و لمّا فارق الموصل قصدها البساسيرىّ و قريش بن بدران و حاصراها، و أخذا البلد ليومه، و بقيت القلعة، فحاصراها أربعة أشهر حتّى أكل أهلها دوابّهم ثمّ سلّموها بالأمان، فهدمها البساسيرىّ و عفّى أثرها. و سار طغرلبك بجريدة فى ألفين إلى الموصل، فوجد البساسيرىّ و قريشا فارقاها فساق وراءهم، ففارقه أخوه و طلب همذان فوصلها فى رمضان. قال: و قد قيل إنّ المصريّين كاتبوه، و إن البساسيرىّ استماله و أطمعه فى السلطنة، فسار طغرلبك فى أثره (يعنى أثر أخيه إبراهيم ينّال).

قال: و أمّا البساسيرىّ فوصل إلى بغداد فى ثامن ذى القعدة و معه أربعمائة فارس على غاية الضّر و الفقر، فنزل بمشرعة الروايا، و نزل قريش فى مائتى فارس عند مشرعة باب البصرة، و مالت العامّة للبساسيرىّ: أما الشّيعة فللمذهب، و أمّا أهل السنة فلما فعل بهم الأتراك. و كان رئيس الرؤساء لقلّة معرفته بالحرب و لما عنده من ضعف البساسيرىّ يرى المبادرة إلى الحرب؛ فاتّفق أنه فى بعض الأيام التى تحاربوا فيها حضر القاضى الهمذانىّ عند رئيس الرؤساء، ثمّ استأذن فى الحرب و نمن له قتل البساسيرىّ، فأذن له من غير أن يعلم عميد العراق، و كان رأى عميد العراق المطاولة رجاء أن ينجدهم طغرلبك، فخرج الهمذانىّ بالهاشميّين و الخدم و العوامّ إلى الحلبة و أبعدوا؛ و البساسيرىّ يستجرّهم. فلمّا أبعدوا حمل عليهم فانهزموا، و قتل جماعة و هلك آخرون فى الزّحمة بباب الأزج. و كان رئيس الرؤساء واقفا دون الباب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۹

فدخل داره و هرب كلّ من فى الحريم؛ و لطم عميد العراق على وجهه كيف استبدّ رئيس الرؤساء بالأمر و لا معرفة له بالحرب. فاستدعى الخليفة عميد العراق و أمره بالقتال على سور الحريم، فلم يرعهم إلا الزّعقات؛ و قد نهب الحريم و دخلوا من باب النّوبى، فركب الخليفة لابسا للسّواد و على كتفه البردة و على رأسه اللّواء و بيده السيف و حوله زمرة من العباسيّين و الخدم بالسيوف المسلّلة، فرأى النّهب إلى باب الفردوس من داره، فرجع إلى ورائه نحو عميد العراق، فوجده قد استأمن إلى قريش، فعاد و صعد إلى المنظرة. وصاح رئيس الرؤساء: علم الدّين (يعنى قريشا) أمير المؤمنين يستدنيك، فدنا منه؛ فقال: قد أنالك اللّه منزلة لم ينلها أمثالك، و أمير المؤمنين يستذمّ منك على نفسه و أصحابه بذمام اللّه و ذمام رسوله و ذمام العربيّة؛ فقال: قد أذمّ اللّه تعالى له؛ قال: ولى و لمن معه؟ قال نعم؛ و خلع قلنسوته و أعطاها الخليفة، و أعطى رئيس الرؤساء بحضرته ذماما. فنزل إليه الخليفة و رئيس الرؤساء و سارا معه. فأرسل إليه البساسيرىّ يقول: أ تخالف ما استقرّ بيننا؟- و كانا قد تحالفا ألّا ينفرد أحدهما عن الآخر بشىء، و يكون العراق بينهما نصفين- فقال قريش: ما عدلت عمّا استقرّ بيننا، عدوّك ابن المسلمة (يعنى رئيس الرؤساء) فخذه، و أنا آخذ الخليفة، فرضى البساسيرىّ بذلك. فبعث رئيس الرؤساء إليه مع منصور بن مزيد، فحين رآه البساسيرىّ قال مرحبا بمدمّر الدولة، و مهلك الأمم، و مخرّب البلاد، و مبيد العباد. فقال له: أيّها الأجلّ، العفو عند المقدرة. فقال:

قد قدرت فما عفوت، و أنت تاجر صاحب طيلسان، و لم تبق على الحريم و الأموال

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۰

و الأطفال، فكيف أعفو عنك و أنا صاحب سيف و قد أخذت أموالى و عاقبت أصحابى و درست دورى و سببتنى و أبعدتنى!. و اجتمع العوامّ على ابن المسلمة (يعنى رئيس الرؤساء) و سبّوه و لعنوه و همّوا به. فأخذه البساسيرىّ بيده و سيّره إلى جانبه خوفا عليه من العامّة. و حصل فى يد البساسيرىّ جميع من كان يطلبه مثل ابن المردرسىّ، و أبى عبد اللّه الدّامغانىّ قاضى القضاة، و هبة اللّه بن المأمون، و أبى علىّ بن الشّيروانىّ، و أبى عبد اللّه بن عبد الملك؛ و كان من التّجار الكبار و بينه و بين البساسيرىّ عداوة، و كان قد سكن فى دار الخلافة خوفا منه على ماله و نعمته. و ظفر بالسيدة خاتون بنت الأمير داود زوجة الخليفة، فأحسن معاملتها و لم يتعرّض لها.

و أمّا قريش فحصل فى يده الخليفة و عميد العراق و أبو منصور [بن] يوسف و ولده؛ فحمل الحليفة إلى معسكره راكبا و على كنفه البردة و بيده سيف مسلول و على رأسه اللّواء. و لحق الخليفة ذرب عظيم قام منه فى اليوم مرارا، و امتنع من الطّعام و الشراب؛ فسأله قريش و ألحّ عليه حتّى أكل و شرب، و حمله فى هودج و سار به إلى حديثة عانة فنزل بها. و سار حاشية الخليفة على حامية إلى السلطان طغرلبك مستنفرين له.

و لمّا وصل الخليفة إلى الأنبار شكا البرد، فبعث يطلب من متولّيها ما يلبس، فأرسل إليه جبّة و لحافا. و ركب البساسيرىّ يوم الأضحى و على رأسه الألوية المصريّة و عبر إلى المصلّى بالجانب الشرقىّ، و أحسن إلى الناس، و أجرى الجرايات على الفقهاء، و لم يتعصّب لمذهب، و أفرد لوالدة الخليفة دارا و راتبا، و كانت قد قاربت التسعين

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۱

سنة. ثمّ فى آخر ذى الحجّة أخرج رئيس الرؤساء مقيّدا و على رأسه طرطور، و فى رقبته مخنقة جلود، و هو يقرأ: قُلِ اللَّهُمَّ مالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشاءُ ... الآية.

فبصق أهل الكرخ فى وجهه، لأنّه كان متعصّبا لأهل السّنّة، رحمه اللّه، ثمّ صلب على صورة ما ذكرناه أوّلا.

و أمّا عميد العراق فقتله البساسيرى أيضا، و كان شجاعا شهما، و هو الذى بنى رباط شيخ الشيوخ. ثمّ بعث البساسيرىّ البشائر إلى مصر، و كان وزير المستنصر هناك أبا الفرج بن أخى أبى القاسم المغربىّ، و كان أبو الفرج ممّن هرب من البساسيرىّ، فذمّ للمستنصر فعله و خوّفه من سوء عاقبته؛ فتركت أجوبته مدّة، ثمّ عادت على البساسيرىّ بغير الذى أمّله، فسار البساسيرىّ إلى البصرة و واسط و خطب بهما أيضا للمستنصر. و أمّا طغرلبك فإنّه انتصر فى الآخر على أخيه إبراهيم ينّال و قتله، و كرّ راجعا إلى العراق، ليس له همّ إلّا إعادة الخليفة إلى رتبته.

و فى الجملة أنّ الذى حصل للمستنصر فى هذه الواقعة من الخطبة باسمه فى العراق و بغداد لم يحصل ذلک لأحد من آبائه و أجداده. و لو لا تخوّف المستنصر من البساسيرىّ و ترک تحريضه على ما هو بصدده و إلا كانت دعوته تتمّ بالعراق زمانا طويلا، فإنّه كان أوّلا أمدّ البساسيرىّ بجمل مستكثرة. فلو دام المستنصر على ذلک لكان البساسيرىّ يفتتح له عدّة بلاد. قال الحسن بن محمد العلوىّ: «إنّ الذى وصل إلى البساسيرىّ من المستنصر من المال خمسمائة ألف دينار، و من الثياب ما قيمته

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۲

مثل ذلک، و خمسمائة فرس، و عشرة آلاف قوس، و من السيوف ألوف، و من الرماح و النّشّاب شىء كثير». يعنى قبل هذه الواقعة؛ و لهذا قلنا: لو دام المستنصر على عطائه للبساسيرىّ لكان افتتح له عدّة بلاد. قلت: و للّه الحمد على ما فعله المستنصر من التقصير فى حقّ البساسيرىّ، و إلّا فكانت السّنّة تذهب بالعراق، و تملكها الرافضة بأجمعها كما كان وقع بمصر فى أيّام دولة الفاطميّين (أعنى صاحب الترجمة و آباءه).

و لمّا خطب البساسيرىّ فى بغداد باسم المستنصر معدّ هذا غنّته مغنّية بقولها:

[الرمل]

يا بنى العبّاس صدّوا ملک الأمر معدّ

ملككم كان معارا و العوارى تستردّ

فطرب المستنصر لذلک و وهبها أرضا بمصر رزقة لها جائزة لإنشادها هذا الشعر، و تلک الأرض الآن تعرف بأرض الطّبّالة بالقرب من بركة الرّطلىّ لكونها غنّته بهذه الأبيات و هى تطبّل بدفّ كان فى يدها، فعرفت بأرض الطّبّالة، و حكرت الأرض

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۳

المذكورة و بنيت. و كان ما وقع للمستنصر هذا تمام سعده. و من حينئذ أخذ أمره فى إدبار من وقوع الغلاء و الوباء بالديار المصريّة. و

قاسى النّاس شدائد، و اختلّ أمر مصر- على ما سنذكره إن شاء اللّه تعالى فى وقته من هذه الترجمة- من استيلاء ناصر الدولة بن حمدان على ممالك الديار المصريّة، و زاد ابن حمدان فى عطاء الجند حتّى نفدت الخزائن، و قلّت الارتفاعات. و اتّفق ابن حمدان مع الشريف أبى طاهر حيدرة بن الحسن الحسينىّ، و كان قد نفاه بدر الجمالىّ من دمشق، و كان محبّبا للناس، و تلقّبه العامّة بأمير المؤمنين، و كان لمّا نفاه بدر الجمالى من دمشق دخل إلى مصر شاكيا إلى ابن حمدان من بدر الجمالىّ- فاتّفق ابن حمدان و الشريف و حازم و حميد ابنا بحرّاح و هما من أمراء عرب الشام، و كان لهما فى حبس المستنصر نيّف و عشرون سنة، فأخرجهما ابن حمدان و اتّفقوا على الفتك ببدر الجمالىّ، فأعطاهم ابن حمدان أربعين ألف دينار ينفقونها فى هذا الوجه. و تحدّث ابن حمدان بأن يرتّب الشريف إذا عاد مكان المستنصر فى الخلافة لنسبه الصحيح. و انقسم عسكر مصر قسمين:

قسما مع ابن حمدان، و قسما عليه؛ و زادت مطالبة ابن حمدان بالأموال حتى استوعبها و أخرج جميع ما فى القصر من ثياب و أثاث و باعها بالثمن البخس. و حالف الأتراك سرّا على المستنصر. و علم المستنصر بما فعله مضافا لما سمع عنه من أمر الشّريف، فقلق و أرسل لابن حمدان يقول: بأنّك قدمت علينا زائرا و جئتنا ضيفا؛ فقا بلناك بالإحسان و أكرمناك، فقابلتنا بما لا نستحقّه منك؛ و نحن عليك صابرون، و عنك مغضون. و قد انتهت بك الحال إلى محالفة العسكر علينا و السعى فى إتلافنا، و ما ذاك مما يهمّك؛ و نحبّ أن تنصرف عنّا موفورا فى نفسك و مالك، و إلّا قابلناك على قبيح

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۴

أفعالك. فأغلظ ابن حمدان فى الجواب و استهزأ بالرسول. فبعث المستنصر إلى إلدكز الملقّب بأسد الدولة، و كان شيخ الأتراك و المقدّم عليهم، و كان من المخالفين على ابن حمدان؛ فاستحضره و استحلفه و توثّق منه و من جماعة ممّن جرى مجراه، و جمع الأتراك الذين معه و المغاربة و كتامة إلى باب القصر. و عرف ابن حمدان بذلك فبرز بخيمة إلى بركة الحبش، و أخرج المستنصر خيمته الحمراء، و تسمّى خيمة الدّم، فضربها بين القصرين من القاهرة. و اجتمع الناس على المستنصر، و ركب و سار إلى حرب ابن حمدان. و التقوا بمكان يعرف بالباب الجديد، فورد أكثر من كان مع ابن حمدان بالأمان إلى المستنصر. و كان فى جملة من ورد الأمير أبو علىّ ابن الملك أبى طاهر ابن بويه، ثمّ قتل المذكور بعد ذلك بمدّة. و وقع القتال فانكسر ابن حمدان و هرب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۵

بنفسه إلى الإسكندريّة، و نهبت دوره و أمواله و دور أصحابه. و مضى ابن حمدان إلى حىّ من العرب و تزوّج منهم و قوى بهم، فصار يشنّ الغارات على أعمال مصر؛ و يبعث إليه المستنصر فى كلّ وقت جيشا فيهزمه ابن حمدان. و لا زال على ذلك حتّى جمع ابن حمدان جمعا كبيرا و نزل الصالحيّة؛ فخرج إليه من كان يهواه من المشارقة، و امتدّت عسكره نحو عشرة فراسخ و حاصر مصر؛ فضعف المستنصر عن مقاومته و انحصر بالقاهرة. و طال الحصار و غلت الأسعار حتّى بلغت الرّاوية الماء ثلاثة عشر قيراطا، و كلّ ثلاثة عشر رطلا من الخبز دينارا، و عدمت الأقوات، فضجّ العوامّ، فخاف المستنصر أن يسلّموه إليه، فراسله و صالحه. و اقترح عليه ابن حمدان إبعاد الدكز و من يعاديه من المشارقة، و أن ينفرد ابن حمدان بالبلاد و تدبير الأمور و العساكر، فرضى المستنصر بذلك كلّه؛ و رفع الحصار عن مصر، و عادت الأمور إلى ما كانت عليه.

فهرب غالب من كان مع المستنصر إلى الشام، و وفدوا على صاحبها بدر الجمالىّ. و كان بدر الجمالىّ يكره ابن حمدان و الشريف المذكور. ثمّ ظفر الجمالىّ بالشريف المذكور و قتله خنقا. على ما سيأتى ذكره إن شاء اللّه تعالى. و صار المستنصر فى قصره كالمحجور عليه و لا حكم له.

هذا و الغلاء بمصر يتزايد، حتّى إنّه جلا من مصر خلق كثير لما حصل بها من الغلاء الزائد عن الحدّ، و الجوع الذى لم يعهد مثله فى الدنيا، فإنّه مات أكثر أهل مصر، و أكل بعضهم بعضا. و ظهروا على بعض الطبّاخين أنّه ذبح عدّة من الصّبيان و النساء و أكل لحومهم و باعها بعد أن طبخها. و أكلت الدوابّ بأسرها، فلم يبق

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۶

لصاحب مصر- أعنی المستنصر- سویّ ثلاثة أفراس بعد أن کانت عشرة آلاف ما بین فرس و جمل و دابّة. و بیع الکلب بخمسة دنانیر، و السّنّور بثلاثة دنانیر.

و نزل الوزیر أبو المکارم وزیر المستنصر علی باب القصر عن بغلته و لیس معه إلّا غلام واحد، فجاء ثلاثة و أخذوا البغلة منه، و لم یقدر الغلام علی منعهم لضعفه من الجوع فذبحوها و أکلوها، فأخذوا و صلبوا، فأصبح الناس فلم یروا إلّا عظامهم، أکل الناس فی تلک اللیلة لحومهم. و دخل رجل الحمّام فقال له الحمّامیّ: من ترید أن یخدمک سعد الدولة أو عزّ الدولة أو فخر الدولة؟ فقال له الرجل: أ تهزأ بی! فقال: لا و اللّه، انظر إلیهم، فنظر فإذا أعیان الدّولة و رؤساؤها صاروا یخدمون الناس فی الحمّام لکونهم باعوا جمیع موجودهم فی الغلاء و احتاجوا إلی الخدمة.

و أعظم من هذا أنّ المستنصر الخلیفة صاحب الترجمة باع جمیع موجوده و جمیع ما کان فی قصره حتّی أخرج ثیابا کانت فی القصر من زمن الطائع الخلیفة العباسیّ، لمّا نهب بهاء الدولة دار الخلیفة فی إحدی و ثمانین و ثلثمائة، و أشیاء أخر أخذت فی نوبة البساسیریّ، و کانت هذه الثیاب التی لخلفاء بنی العباس عند خلفاء مصر یحتفظون بها لبغضهم لبنی العبّاس، فکانت هذه الثیاب عندهم بمصر بسبب المعیرة لبنی العبّاس. فلمّا ضاق الأمر علی المستنصر أخرجها و باعها بأبخس ثمن لشدّة الحاجة. و أخرج المستنصر أیضا طستا و إبریقا بلّورا یسع الإبریق رطلین ماء، و الطّست أربعة أرطال، و أظنّه بالبغدادیّ، فبیعا باثنی عشر درهما فلوسا، ثمّ باع المستنصر من هذا البلور ثمانین ألف قطعة. و أمّا ما باع من الجواهر و الیواقیت و الخسروانیّ فشیء لا یحصی. و أحصی من الثیاب التی أبیعت فی هذا الغلاء من

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۷

قصر الخلیفة ثمانون ألف ثوب، و عشرون ألف درع، و عشرون ألف سیف محلّی؛ و باع المستنصر حتّی ثیاب جواریه و تخوت المهود، و کان الجند یأخذون ذلک بأقلّ ثمن. و باع رجل دارا بالقاهرة کان اشتراها قبل ذلک بتسعمائة دینار بعشرین رطل دقیق. و بیعت البیضة بدینار، و الإردبّ القمح بمائة دینار فی الأوّل، ثمّ عدم وجود القمح أصلا. و کان السّودان یقفون فی الأزقّة یخطفون النساء بالکلالیب و یشرّحون لحومهنّ و یأکلونها، و اجتازت امرأة بزقاق القنادیل بمصر و کانت سمینة، فعلّقها السّودان بالکلالیب و قطعوا من عجزها قطعة، و قعدوا یأکلونها و غفلوا عنها، فخرجت من الدار و استغاثت، فجاء الوالی و کبس الدار فأخرج منها ألوفا من القتلی، و قتل السّودان. و احتاج المستنصر فی هذا الغلاء حتّی إنّه أرسل فأخذ قنادیل الفضّة و الستور من مشهد إبراهیم الخلیل علیه السلام. و خرجت امرأة من القاهرة فی هذا الغلاء و معها مدّ جوهر، فقالت: من یأخذ هذا و یعطینی عوضه دقیقا أو قمحا؟ فلم یلتفت إلیها أحد؛ فألقته فی الطریق و قالت: هذا ما ینفعنی وقت حاجتی فلا حاجة لی به بعد الیوم؛ فلم یلتفت إلیه أحد و هو مبدّد فی الطریق! فهذا أعجب من الأوّل.

و قیل: إنّ سبب ما حصل لمصر من الخلل فی أوّل الأمر الفتنة التی کانت بمصر فی أیّام المستنصر هذا بین الأتراک و العبید، و هو أنّ المستنصر کان من عادته

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۸

فی کلّ سنة أن یرکب علی النّجب مع النساء و الحشم إلی جبّ عمیرة، و هو موضع نزهة، فیخرج إلیه بهیئة أنّه خارج إلی الحجّ علی سبیل الهزء و المجانة، و معه الخمر فی الرّوایا عوضا عن الماء و یسقیه الناس، کما یفعل بالماء فی طریق مکّة. فلمّا کان فی جمادی الآخرة خرج علی عادته المذکورة، فاتّفق أنّ بعض الأتراک جرّد سیفا فی سکرته علی بعض عبید الشّراء، فاجتمع علیه طائفة من العبید فقتلوه؛ فاجتمع الأتراک بالمستنصر هذا و قالوا له: إن کان هذا عن رضاک فالسمع و الطاعة، و إن کان عن غیر رضاک فلا نرضی بذلک، فأنکر المستنصر ذلک؛ فاجتمع جماعة من الأتراک و قتلوا جماعة من العبید بعد أن حصل بینهم و بین العبید قتال شدید علی

کوم شریک و انهزم العبید من الأتراک. و کانت أمّ المستنصر تعین العبید بالأموال و السّلاح؛ فظفر بعض الأیام أحد الأتراک بذلک، فجمع طائفة الأتراک و دخلوا علی المستنصر و قاموا علیه و أغلظوا له فی القول، فحلف لهم أنّه لم یکن عنده خبر.

و صار السیف قائما بینهم. ثمّ دخل المستنصر علی والدته و أنکر علیها. و دامت الفتنة بین الأتراک و العبید إلی أن سعی وزیر الجماعة أبو الفرج بن المغربیّ- و أبو الفرج هذا هو أوّل من ولی کتابة الإنشاء بمصر- و لا زال الوزیر أبو الفرج هذا یسعی بینهم

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۹

حتی اصطلحوا صلحا یسیرا، فآجتمع العبید و خرجوا إلی شبری دمنهور. فکانت هذه الواقعة أوّل الاختلاف بدیار مصر؛ فإنّه قتل من الأتراک و العبید خلائق کثیرة، و فسدت الأمور فطمع کلّ أحد. و کان سبب کثرة السودان میل أمّ المستنصر إلیهم؛ فإنّها کانت جاریة سوداء لأبی سعد التّستریّ الیهودیّ. فلمّا ولی المستنصر الخلافة و مات الوزیر صفیّ الدین الجرجرائیّ فی سنة ستّ و ثلاثین حکمت والدة المستنصر علی الدولة، و استوزرت سیّدها أبا سعد المذکور، و وزر لابنها المستنصر الفلّاحیّ، فلم یمش له مع أبی سعد حال؛ فاستمال الأتراک و زاد فی واجباتهم حتّی قتلوا أبا سعد المذکور؛ فغضبت لذلک أمّ المستنصر و قتلت أبا منصور الفلّاحیّ، و شرعت فی شراء العبید السّود، و جعلتهم طائفة و استکثرت منهم. فلمّا وقع بینهم و بین الأتراک قامت فی نصرهم.

و قال الشیخ شمس الدین بن قزأوغلی فی المرآة: «و کلّ هذه الأشیاء کان ابن حمدان سببها، و وافق ذلک انقطاع النیل؛ و ضاقت ید أبی هاشم محمد أمیر مکّة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۰

بانقطاع ما کان یأتیه من مصر، فأخذ قنادیل الکعبة و ستورها و صفائح الباب و المیزاب، و صادر أهل مکّة فهربوا. و کذا فعل أمیر المدینة مهنأ، و قطعا الخطبة للمستنصر، و خطبا لبنی العبّاس الخلیفة القائم بأمر اللّه، و بعثا إلی السلطان ألب أرسلان السّلجوقیّ حاکم بغداد بذلک، و أنهما أذّنا بمکّة و المدینة الأذان المعتاد، و ترکا الأذان ب «حیّ علی خیر العمل»؛ فأرسل ألب أرسلان إلی صاحب مکّة أبی هاشم المذکور بثلاثین ألف دینار، و إلی صاحب المدینة بعشرین ألف دینار. و بلغ الخبر بذلک المستنصر، فلم یلتفت إلیه لشغله بنفسه و رعیّته من عظم الغلاء. و قد کاد الخراب أن یستولی علی سائر الإقلیم. و دخل ابن الفضل علی القائم بأمر اللّه العبّاسیّ ببغداد، و أنشده فی معنی الغلاء الذی شمل مصر قصیدة، منها:

[الطویل]

و قد علم المصریّ أنّ جنوده سنو یوسف منها و طاعون عمواس

أحاطت به حتی استراب بنفسه و أوجس منها خیفة أیّ إیجاس

قلت: و هذا شأن أرباب المناصب، إذا عزل أحدهم بآخر أراد هلاکه و لو هلک العالم معه. و هذا البلاء من تلک الأیّام إلی یومنا هذا. ثمّ فی سنة ستّ و ستین سار بدر الجمالیّ أمیر الجیوش من عکّا إلی مصر، و معه عبد اللّه بن المستنصر باستدعاء المستنصر بعد قتل ابن حمدان بمدّة. و اسم ابن حمدان الحسن بن الحسین بن حمدان أبو محمد التغلبیّ الأمیر ناصر الدولة ذو المجدین.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۱

ذکر سبب قتل ابن حمدان المذکور

و سببه أنّه کان ابن حمدان اتّفق مع إلدکز الترکیّ، و کان إلدکز تزوّج بابنته؛ فاتّفقا اتفاقا کلیّا و تحالفا و أمن أحدهما للآخر. و وصل ناصر الدولة إلی مصر- أعنی بعد توجهه إلی الإسکندریة حسب ما ذکرناه- علی طمأنینة مرتّبا للمواکب و العساکر، فرکب إلدکز یوم الجمعة مستهلّ شهر رمضان فی خمسین فارسا، و کان له غلام یقال له: أبو منصور کمشتکین و یلقّب حسام الدولة؛ و کان یثق به. فقال له الدکز: أرید أن أطلعک علی أمر لم أر له أهلا غیرک؛ قال: و ما هو؟ قال: قد علمت ما فعل ابن حمدان بالمسلمین من سفک

الـدماء و الغلاء و الجلاء، و قـد عزمت على قتله، فهل فيك موافقـة و مشاركـة و أريح الإسـلام منه؟ فقال نعم، و لكن أخاف أن يفلت فتتبرّأ منّى؛ قـال لا، و قصـدوا ابن حمـدان قبل أن يلحقه أصـحابه و اسـتأذنوا عليه، فأذن لهم فـدخلوا و الفرّاشون ينفّضون البسط ليقعد عليها ابن حمدان، و هو يتمشّـى فى صـحن الدار، و مشـى الدكز معه، ثم تأخّر عنه و ضربه ب «يافروت» كان معه، و هو سكّين مغربىّ فى خاصـرته، و ضـربه كمشـتكين فقطع رجليـه، فصـاح: فعلتموهـا! فحزّوا رأسه. و كـان محمـود بن ذبيـان أمير بنى سـنبس فى خزانة الشّـراب، فـدخلوا عليه و قتلوه. ثم خرجوا إلى دار كان فيها فخر العرب ابن حمـدان و قـد شـرب دواء و عنـده الأمير شاور فقتلوهما. و خرجوا إلى خيمـة الأمير تـاج المعالى بن حمـدان أخى ناصـر الدولـة، و كان على عزم المسـير إلى الصـعيد، فهرب إلى خراب مقابل خيمته، فكمن فيه فرآه بعض العبيد فأعطاه معضدة فيها مائة دينار، و قال له: اكتم علىّ؛

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۲

فأخـذها العبـد و جاء إلى الدكز و نمّ عليه، فدخل و قتله. و انهزم ابن أخى ابن المدبر فى زىّ المكدّين فأخذ، و كان قد تزوّج بإحدى بنات نزار بن المستنصـر الخليفـة، فقطع ذكره و جعل فى فمه ثمّ قتل. و قطّع ابن حمـدان قطعا، و أنفـذ كلّ قطعة إلى بلد. و جاءوا إلى القصـر إلى الخليفـة المستنصـر هـذا و معهم الرءوس، و أرسـلوا إلى الخليفـة و قالوا: قـد قتلنا عدوّك و عدوّنا، من أخرب البلاد و قتل العباد، و نريد من المستنصر الأموال. فقال المستنصر: أمّا المال فما نزك ابن حمدان عندى مالا.

و أمّا ابن حمـدان فما كان عدوّى، و إنّما كانت الشّـحنة بينك و بينه يا إلدكز، فهلكت الدنيا بينكما، و إنّى ما اخترت ما فعلت من قتله و لا رضـيته، و سـتعلم غبّ الغدر، و نقض العهد. و وقع بينهما كلام كثير. و آل الأمر إلى بيع المستنصـر قطع مرجان و عروضا و حمل إلى إلـدكز و رفقته مالا من أثمان ذلك و غيره. ثمّ علم المستنصـر أنّ أمره يؤول مع إلدكز إلى شـرّ حال؛ فلذلك أرسل أحضـر بدرا الجمالىّ المقدّم ذكره.

و لما حضـر بدر الجمالىّ إلى مصر وجد إلدكز تغلّب عليها. و وصل إلى دمياط و بها ابن المدبّر، و كان قد هرب منه، فقتله و صلبه، و عاد إلى مصـر، و اتفق مع بـدر الجمالىّ و تحالفا و تعاهـدا. فلم يكن إلّا مدّة يسيرة و قبض بدر الجمالىّ على إلدكز و أهانه و عذّبه و طـالبه بالمال؛ فلم يظهر سوى اثنى عشـر ألف دينار، و كان له من الأموال و الجواهر شـىء كثير إلّا أنّه لم يقرّبه، فقتله بـدر الجمالىّ، و قيل: هرب إلى الشام.

و أخذ بدر الجمالىّ فى إصـلاح امور الديار المصـريّة: انتزع الشـرقية من أيدى عرب لواتة، و قتل منهم مقتلة عظيمة و أسر أمراءهم، و أخذ منهم أموالا جمّة. و عمّر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۳

الريف فرخصت الأسعار و رجعت إلى عادتها القديمة. ثمّ أخذ الإسكندرية و سلّمها إلى القاضى ابن المحيرق. و أصلح أموال الصعيد و اسـتدعى أكابرهم إليه، فجاءه منهم الكثير. و صـلح الحال لهلاك الأضداد، و رفعت الفتن، و انفرد أمير الجيوش بدر الجمالىّ بالأمر إلى أن مات فى خلافة المستنصر. و تولّى بعده ابنه الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالىّ المذكور. و يأتى ذكر ذلك و غيره ممـا ذكرنـا من الغلاء و الفناء و الحروب فى الحوادث المتعلّقـة بالمستنصـر من سـنين خلافته على سبيل الاختصار، كما هو عادة هـذا الكتاب إن شاء اللّه تعالى.

و دام المستنصـر فى الخلافـة و هو كالمحجور عليه مع بـدر الجمالىّ؛ ثم من بعـده مع ولده الأفضل شاهنشاه إلى أن توفّى بالقاهرة فى يوم عيـد الفطر، و هو يوم الخميس سـنة سـبع و ثمـانين و أربعمائـة. و بـايع النـاس ابنه أحمـد من بعـده، و لقّب بالمسـتعلى بالله. و قام الأفضل شاهنشاه بن بـدر الجمالى بتـدبير ملكه. و قـد تقـدّم مـدّة إقامة المستنصـر فى الخلافة، و كم عاش من السـنين فى أوّل ترجمته فيطلب هناك.

و ممّا رثى به المستنصر قول حظّى الدولة أبى المناقب عبد الباقى بن علىّ التنوخىّ الشاعر:

[الطويل]

و ليس ردى المستنصر اليوم كالرّدى و لا أمره أمر يقاس به أمر

لقد هاب ملك الموت إتيانه ضحّى ففاجأه ليلا و لم يطلع الفجر

فأجرى عليه حين مات دموعنا سماء فقال الناس لا بل هو القطر

و قد بكت الخنساء صخرا و إنّه ليبكيه من فرط المصاب به الصخر

و قلّدها المستعلى الظّهر حسب ما عليه قديما نصّ والده الطّهر

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۴

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۲۸]

السنة الأولى من ولاية المستنصر معدّ على مصر و هى سنة ثمان و عشرين و أربعمائة.

فيها فى المحرّم خلع الخليفة القائم بأمر اللّه على الأفضل أبى تمّام محمد بن محمد ابن علىّ الزينبىّ الحنفىّ العلوىّ و فوّض إليه نقابة الهاشميّين و الصلاة، و أمره باستخلاف أبى منصور محمد على ذلك؛ و أحضر الخليفة القضاة و الأعيان و قال لهم:

قد عوّلنا على محمد بن محمد بن علىّ الزينبى فى نقابة أهله من العباسيّين رعاية لحقوق سالفة. فقبّل أبو تمّام الأرض؛ و خلع عليه السّواد و الطيلسان، و لقّب عميد الرؤساء.

و فيها لم يحجّ أحد من العراق. و حجّ الناس من مصر و غيرها.

و فيها توفّى أحمد بن محمد بن أحمد بن جعفر بن حمدان الإمام العلّامة أبو الحسين الحنفىّ الفقيه البغدادى المشهور بالقدورىّ- قال أبو بكر الخطيب: لم يحدّث إلّا شيئا يسيرا؛ كتبت عنه، و كان صدوقا، انتهت إليه بالعراق رياسة أصحاب أبى حنيفة، و عظم [عندهم] قدره و ارتفع جاهه، و كان حسن العبارة فى النظر، جرىء اللسان مديما للتلاوة. قلت: و الفضل ما شهدت به الأعداء، و لو لا أنّ شأن هذا الرجل كان قد تجاوز الحدّ فى العلم و الزّهد ما سلم من لسان الخطيب، بل مدحه مع عظم تعصّبه على السادة الحنفية و غيرهم؛ فإنّ عادته ثلم أعراض العلماء و الزّهّاد بالأقوال الواهية، و الروايات المنقطعة، حتّى أشحن تاريخه من هذه القبائح. و صاحب الترجمة هو مصنّف «مختصر القدّورىّ» فى فقه الحنفية، و «شرح مختصر الكرخىّ»

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۵

فى عدّة مجلّدات، و أملى «التجريد فى الخلافيّات» أملاه فى سنة خمس و أربعمائة، و أبان فيه عن حفظه لما عند الدار قطنىّ من أحاديث الأحكام و عللها، و صنّف كتاب «التقريب الأوّل» فى الفقه فى خلاف أبى حنيفة و أصحابه فى مجلد، و «التقريب الثانى» فى عدّة مجلّدات. و كانت وفاته فى منتصف رجب من السنة. و مولده سنة اثنتين و ستين و ثلثمائة. و قد روينا جزأه المشهور عن الشيخ رضوان بن محمد العقبىّ عن أبى الطاهر بن الكويك عن محمد بن البلوىّ انا عبد اللّه بن عبد الواحد بن علّاق انا فاطمة بنت سعد الخير الأنصارية انا أبو بكر بن أبى طاهر انا العلّامة أبو الحسين القدورىّ رحمه اللّه تعالى.

و فيها توفّى الحسين بن عبد اللّه بن الحسن بن علىّ بن سينا الرئيس أبو علىّ صاحب الفلسفة و التصانيف الكثيرة. كان إمام عصره فى الحكمة و علوم الأوائل، بل كان إماما فى سائر العلوم. و تصانيفه كثيرة فى فنون العلوم، حتّى قيل عنه: إنّه ليس فى الإسلام من هو فى رتبته. قال أبو عبد اللّه الذهبىّ: كان ابن سينا آية فى الذكاء، و هو رأس الفلاسفة الإسلاميّين الذين مشوا خلف العقول، و خالفوا الرسول- قلت-: لم يكن ابن سينا بهذه المثابة بل كان حنفىّ المذهب، تفقّه على

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۶

الإمام أبی بکر بن أبی عبد اللّه الزاهد الحنفی- و تاب فی مرض موته، و تصدّق بما کان معه، و أعتق ممالیکه، و ردّ المظالم علی من عرفه، و جعل یختم فی کلّ ثلاثة أیّام ختمة إلی أن توفّی یوم الجمعة فی شهر رمضان. قلت: و من یمشی حلف العقول، و یخالف الرسول لا یقلّد الأحکام الشرعیة، و لا یتقرّب بتلاوة القرآن العظیم.

و فیها توفّی محمد بن أحمد بن أبی موسی أبو علیّ الهاشمیّ البغدادیّ شیخ الحنابلة و عالمهم، و صاحب التصانیف الکثیرة. مات فی شهر ربیع الاخر.

و فیها توفّی مهیار بن مرزویه الدّیلمیّ أبو الحسن الکاتب الشاعر المشهور، کان مجوسیّا فأسلم علی ید الشریف الرضیّ، و هو أستاذه فی الأدب و النّظم و التشیع. اشتغل حتّی مهر فی الأدب و الکتابة و التشیّع حتّی صار من کبار الشعراء الروافض. قال أبو القاسم بن برهان النحویّ: کان مجوسیّا فأسلم فی سنة أربع و تسعین و ثلثمائة؛ فقلت له: یا أبا الحسن، انتقلت [بإسلامک] من زاویة إلی زاویة فی جهنّم؛ قال: و کیف؟

قلت: لأنّک کنت مجوسیّا ثمّ صرت تتعرّض لأصحاب رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم، و المجوسیّ و الرافضیّ فی النار. انتهی. قلت: و أمّا شعر مهیار ففی غایة الجودة. فمن ذلک قوله:

[البسیط]

أستنجد الصبر فیکم و هو مغلوب و أسأل النوم عنکم و هو مسلوب

و أبتغی عندکم قلبا سمحت به و کیف یرجع شیء و هو موهوب

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۷

و له فی إنجاز وعد:

[الطویل]

أظلّت علینا منک یوما غمامة أضاء لها برق و أبطا رشاشها

فلا غیمها یجلی فییأس طامع و لا غیثها یأتی فیروی عطاشها

و فیها توفّی الحسن بن عبد اللّه بن حمدان ناصر الدولة أبو المطاع التّغلبیّ و یعرف بذی القرنین و وجیه الدولة. ولی إمرة دمشق للحاکم بأمر اللّه ثمّ عزل عنها بلؤلؤ، ثمّ أعید إلیها سنة خمس عشرة و أربعمائة من قبل الظاهر بن الحاکم؛ و مات بها و قیل بمصر. و کان شاعرا أدیبا شجاعا فصیحا. و من شعره:

[الرمل]

موعدی بالبین ظنّا أننی بالبین أشقی

ما أری بین مماتی و فراقی لک فرقا

لا تهدّدنی ببین لست منه أتوقّی

إنّما یشقی ببین منک من بعدک یبقی

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم أربع أذرع و ثمانی عشرة إصبعا.

مبلغ الزیادة خمس عشرة ذراعا و تسع أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۲۹]

السنة الثانیة من ولایة المستنصر معدّ علی مصر و هی سنة تسع و عشرین و أربعمائة.

فيها توفّى عبد الرحمن بن عبد اللّه بن علىّ أبو علىّ العدل، و يعرف بابن أبى العجائز، ولد سنة أربعين و ثلثمائة بدمشق و بها مات فى المحرّم؛ و كان ثقة سمع الحديث و رواه،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۸

روى عنه غير واحد؛ قال: و حدّثنا محمد بن سليمان الرّبعىّ عن محمد بن تمّام الحرّانى.

عن محمد بن قدامة قال: أتينا سفيان بن عيينة فحجبنا، فجاء خادم لهارون الرشيد يقال له حسين فى طلبه فأخرجه، فقمنا إليه فقلنا: أمّا أهل الدنيا فيصلون إليك، و أمّا نحن فلا نصل! فنظر إلينا و قال: لا أفلح صاحب عيال؛ ثم أنشد:

[البسيط]

اعمل بعلمى و لا تنظر إلى عملى ينفعك علمى و لا يضررك تقصيرى

ثم قال: بم تشبّهون قوله عليه [الصلاة و] السلام إخبارا عن ربّه تعالى:

«ما أشغل عبدى ذكرى عن مسألتى إلّا أعطيته أفضل ما أعطى السائلين»؟ فقلنا:

قل يرحمك اللّه؛ فقال قول القائل:

[الكامل]

و فتى خلا من ماله و من المروءة غير خال

أعطاك قبل سؤاله و كفاك مكروه السؤال

و فيها توفّى أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد اللّه العلوىّ الطّلمنكىّ الحافظ، كان إماما حافظا محدّثا. مات فى ذى الحجة و له تسعون سنة.

و فيها توفّى الحسن بن علىّ بن الصّيقر الإمام الكاتب المقرئ صاحب زيد بن أبى بلال الكوفىّ، كان فاضلا قرأ القراءات بالرّوايات و برع فى فنون.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۹

و فيها توفّى أبو الوليد يونس بن عبد اللّه بن محمد بن مغيث المقرئ القرطبىّ الفقيه المعروف بابن الصفّار قاضى الجماعة، كان من أوعية العلم، كان فقيها محدّثا عالما زاهدا. مات فى شهر رجب.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و خمس أصابع. مبلغ الزيادة خمس عشرة ذراعا و عشرون إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۳۰]

السنة الثالثة من ولاية المستنصر معدّ على مصر و هى سنة ثلاثين و أربعمائة.

فيها سأل جلال الدولة الخليفة القائم بأمر اللّه أن يلقّب ابنه لقبا، فلقّبه «الملك العزيز» و كان مقيما بواسط. قلت: و هذا أوّل لقب سمعناه من ألقاب ملوك الأتراك و غيرهم من ملوك زماننا.

و فيها استولى بنو سلجوق على خراسان و الجبال، و هرب منهم السلطان مسعود ابن محمود بن سبكتكين إلى غزنة، و اقتسموا البلاد. و هذا أوّل ظهور بنى سلجوق الآتى ذكرهم فى عدّة أماكن. و أصلهم أتراك من [ما] وراء النهر، فزوّج سلجوق ابنته من رجل يعرف بعلىّ تكين، فأفسدوا على محمود بن سبكتكين البلاد بالنهب و الغارات، فقصدهم محمود بن سبكتكين فقبض على سلجوق المذكور و هرب علىّ تكين و طغرلبك، و اسمه محمد بن ميكائيل بن سلجوق، و بقى طغرلبك فى أربعة آلاف خركاه، إلى أن توفّى محمود بن سبكتكين، و اشتغل ابنه مسعود بن محمود

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۰

ابن سبكتكين باللهو. فصار أمر طغرلبك ينمو إلى أن واقع مسعودا و هزمه و استولى على خراسان، و ولّى أخاه داود مرو و سرخس و بلخ، و ولّى ابن عمّه الحسن بن موسى هراة و بوشنج و سجستان، و ولّى أخاه لأمّه إبراهيم ينّال دهستان. و عظم أمر طغرلبك إلى أن كان من أمره ما سنذكره فى عدّة أماكن إن شاء اللّه تعالى.

و فيها توفّى أحمد بن عبد اللّه بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الحافظ أبو نعيم الأصبهانىّ الصوفىّ و الأحول سبط الزاهد محمد بن يوسف البنّاء؛ كان أحد الأعلام، جمع بين علوّ الرواية و كثرة الدّراية، و رحل إليه من الأقطار، و ألحق الصغار بالكبار؛ و ولد سنة ستّ و ثلاثين و ثلثمائة بأصبهان. و استجاز له أبوه طائفة من شيوخ العصر حتّى تفرّد فى آخر عمره فى الدنيا عنهم.

و فيها توفّى عبد الملك بن محمد بن عبد اللّه الشيخ أبو القاسم البغدادىّ الواعظ.

كان مسند العراق فى زمانه، سمع الحديث و روى الكثير. قال أبو بكر الخطيب:

كتبنا عنه و كان ثقة ثبتا صالحا؛ ولد فى شوّال سنة تسع و ثلاثين و ثلثمائة.

و فيها توفّى موسى بن عيسى بن أبى حاجّ الفاسىّ المقرئ الإمام أبو عمران، الفاسىّ الدار الغفجومىّ النسب- و غفجوم: قبيلة من زناتة- البربرىّ الفقيه المالكىّ نزيل القيروان و إليه انتهت رياسة العلم بها. تفقّه على أبى الحسن القابسىّ و هو أجل أصحابه؛ و دخل الأندلس فتفقّه على أبى محمد الأصيلىّ، و سمع و حدّث و حجّ غير مرّة، و كان من كبار العلماء.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۱

و فيها توفّى الفضل بن منصور أبو الرضا البغدادىّ المعروف بابن الظّريف، كان شاعرا أديبا.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و ست أصابع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و عشرون إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۳۱]

السنة الرابعة من ولاية المستنصر معدّ على مصر و هى سنة إحدى و ثلاثين و أربعمائة.

فيها توفّى محمد بن علىّ بن أحمد بن يعقوب بن مروان القاضى أبو العلاء الواسطىّ، أصله من فم الصّلح، و نشأ بمدينة واسط. و كان فقيها فاضلا محدّثا، سمع الحديث، و ولى القضاء. و مات ببغداد فى جمادى الآخرة من السنة.

و فيها توفّى محمد بن الفضل بن نظيف أبو عبد اللّه المصرىّ الفرّاء مسند الديار المصريّة فى زمانه، سمع الكثير و تفرّد بأشياء، و روى عنه خلائق كثيرة. و مات فى شهر ربيع الآخر، و له تسعون سنة.

و فيها شغب الأتراك و خرجوا بالخيم [إلى شاطىء دجلة] و شكوا من تأخّر النفقة و وقوع الاستيلاء على إقطاعاتهم، [فعرف السلطان هذا]، فكاتب دبيس [بن علىّ] ابن مزيد [و] أبا الفتح [بن ورّام] و أبا الفوارس بن سعد؛ ثمّ كتب إلى الأتراك يلومهم. و حاصل الأمر أنّ الناس ماجوا و انزعجوا، و وقع النهب و غلت الأسعار و زاد الخوف، حتّى إنّ الخطيب صلّى صلاة الجمعة بجامع براثا و ليس وراءه إلا ثلاثة

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۲

أنفس، و نودى فى الجمعة المقبلة من أراد الصلاة بجامع براثا فكلّ ثلاثة أنفس بدرهم خفارة.

و فيها توفّى القاضى أبو العلاء صاعد بن محمد بن أحمد الفقيه الاستوائىّ الحنفىّ قاضى نيسابور و فقيهها و عالمها، كان إماما فقيها عالما عفيفا و رعا كثير العلم، كان المعوّل على فتواه بنيسابور فى زمانه. و مات فى هذه السنة. قاله الذهبىّ رحمه اللّه.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى القاضى أبو العلاء صاعد بن محمد بن أحمد الفقيه الاستوائىّ الحنفىّ

قاضى نيسابور و فقيهها. و القاضى أبو العلاء محمد بن على الواسطى المقرئ. و أبو الحسن محمد بن عوف المزنىّ فى [شهر] ربيع الآخر. و أبو عبد اللّه محمد بن الفضل بن نظيف المصرىّ الفرّاء فى [شهر] ربيع الآخر، و له تسعون سنة. و أبو المعمّر مسدّد بن علىّ الأملوكىّ خطيب حمص.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و عشر أصابع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و عشر أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۳۲]

السنة الخامسة من ولاية المستنصر معدّ على مصر و هى سنة اثنتين و ثلاثين و ثلثمائة.

فيها اتّفق جلال الدولة مع قرواش و تحالفا و سكنت الفتنة بينهما.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۳

و فيها توفّى القاضى أبو العلاء صاعد المقدّم ذكره فى السنة الماضية، فى قول صاحب مرآة الزمان.

و فيها توفّى أبو بكر محمد بن عمر بن بكير بن النّجّار، كان إماما عالما محدّثا. مات فى هذه السنة.

و فيها توفّى عبد الباقى بن محمد الحافظ أبو القاسم الطحّان، كان إماما فاضلا فقيها محدّثا. مات ببغداد فى جمادى الأولى من هذه السنة.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى الحافظ أبو العبّاس جعفر بن محمد بن المعتزّ المستغفرىّ. و أبو القاسم عبد الباقى بن محمد الطحّان ببغداد فى جمادى الأولى. و أبو بكر محمد بن عمر بن بكير النجّار.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و عشر أصابع مثل الخالية. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و عشرون إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۳۳]

السنة السادسة من ولاية المستنصر معدّ على مصر و هى سنة ثلاث و ثلاثين و أربعمائة.

فيها توفّى محمد بن جعفر أبو الحسين البغدادىّ المقرئ، كان فاضلا قارئا أديبا شاعرا محدّثا. و من شعره:

[الكامل]

يا ويح قلبى من تقلّبه أبدا يحنّ إلى معذّبه

قالوا كتمت هواه عن جلد لو كان لى جلد لبحت به

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۴

و فيها توفّى السلطان مسعود ابن السلطان محمود بن سبكتكين أبو سعيد صاحب خراسان و غزنة و غيرهما. كان ملكا عادلا حسن السّيرة فى الرعيّة، سلك طريق أبيه فى الغزو و فتح البلاد، إلّا أنّه كان عنده محبّة فى اللهو و الطّرب. و كان ولى الملك بعد موت أبيه السلطان محمود فى ذى الحجّة سنة إحدى و عشرين و أربعمائة، فكانت مدّة حكمه على بلاد الهند و غيرها اثنتى عشرة سنة إلّا أشهرا.

و فيها توفّى الأمير أنوشتكين الدّزبرىّ قسيم الدولة نائب الشام للمستنصر صاحب الترجمة، كان خصيصا عند المستنصر يندبه إلى المهمّات، و كان شجاعا مقداما عظيم الهيبة حسن السياسة؛ طرد العرب من الشام و أباد المفسدين، و مهّد أمور الشام حتى أمنت السّبل فى أيّامه. و قد قدّمنا من ذكره نبذة فى ترجمة المستنصر فى هذا المحلّ. و لمّا مات ولى دمشق بعده الأمير ناصر الدولة الحسن بن الحسين ابن عبد اللّه بن حمدان.

و فيها توفّى الأمير أبو جعفر علاء الدولة بن كاكويه صاحب أصبهان. ولى بعده منصور، و أقام الدعوة و السّكة للملك أبى كاليجار فى جميع بلاد أبيه.

و فيها توفّى سعيد بن العبّاس الحافظ أبو عثمان القرشىّ الهروىّ، كان إماما فاضلا محدّثا فقيها. مات فى المحترم من هذه السنة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و عشرون إصبعا.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و سبع عشرة إصبعا.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۵

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۳۴]

السنة السابعة من ولاية المستنصر معدّ على مصر و هى سنة أربع و ثلاثين و أربعمائة.

فيها ورد الخبر من تبريز أنّ زلزلة عظيمة وقعت بها هدمت قلعتها و سورها و كثيرا من دورها و مساكنها، و نجا أميرها بنفسه. و أحصى من مات تحت الهدم فكانوا خمسين ألفا، و لبس الناس بها السّواد و جلسوا على المسوح لعظم هذه المصيبة.

ثمّ زلزلت تدمر أيضا و بعلبک، فمات تحت الهدم معظم أهل تدمر.

و فيها توفّى حمزة بن الحسن بن العبّاس الشريف العلوىّ أبو يعلى فخر الدولة ولى قضاء دمشق عن الظاهر العبيدىّ، و هو الذى أجرى الفوّارة بجيرون، و بنى قيساريّة الأشراف و تعرف بالفخريّة. قال الشريف أبو الغنائم عبد اللّه بن الحسين:

أنشدنى لقسّ بن ساعدة فى النجوم:

[الكامل]

علم النجوم على العقول وبال و طلاب شىء لا ينال ضلال

ما ذا طلابک علم شىء أغلقت من دونه الأبواب و الأقفال

افهم فما أحد بغامض فطنة يدرى متى الأرزاق و الآجال

إلّا الذى من فوق سبع عرشه فلوجهه الإكرام و الإفضال

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۶

و فيها توفّى عبيد اللّه بن هشام بن عبد اللّه بن سوار أبو الحسين من أهل داريّا بدمشق، كان إماما فاضلا متديّنا.

و فيها توفّى عبد بن أحمد بن محمد بن عبد اللّه بن غفير أبو ذرّ الأنصارىّ الهروىّ المالكىّ الحافظ، كان يعرف فى بلده بابن السمّاک، سمع الحديث و رحل [إلى] البلاد، و كان إماما عالما فاضلا سخيّا صوفيّا. قال القاضى عيّاض: و لأبى ذرّ كتاب كبير مخرّج على الصحيحين [و] «كتاب السنة و الصفات». رحمه اللّه تعالى.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و سبع عشرة إصبعا. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و ست عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۳۵]

السنة الثامنة من ولاية المستنصر معدّ على مصر و هى سنة خمس و ثلاثين و أربعمائة.

فيها لم يحجّ أحد من العراق. و حجّ الناس من مصر و غيرها.

و فيها توفّى الحسين بن عثمان بن أحمد بن سهل بن أحمد بن عبد العزيز أبى دلف أبو سعد العجلىّ، كان إماما محدّثا، سافر إلى

خراسان ثمّ عاد إلى بغداد و حدّث بها، ثم انتقل إلى مكّة فتوفّى بها فى شوّال.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۷

و فيها توفّى عبيد اللّه بن أحمد بن عثمان بن الفرج بن الأزهر أبو القاسم الصّيرفىّ المحدّث، كان صالحا ثقة مكثرا فى الحديث.

و فيها توفّى السلطان أبو طاهر جلال الدولة بن بهاء الدولة فيروز بن عضد الدولة بويه بن ركن الدولة الحسن بن بويه. ولد سنة ثلاث و ثمانين و ثلثمائة.

و كان ملكا محبّبا للرعيّة حسن السيرة، و كان يحبّ الصالحين. و لقى فى سلطنته من الأتراك شدائد. و مات ليلة الجمعة خامس شعبان، و غسّله أبو القاسم بن شاهين الواعظ و أبو محمد عبد القادر بن السمّاك، و دفن بداره فى دار المملكة فى بيت كان دفن فيه عضد الدولة و بهاء الدولة قبل نقلهما إلى الكوفة، ثم نقل بعد سنة إلى مقابر قريش. و كان عمره لمّا مات إحدى و خمسين سنة و شهرا؛ و مدّة ولايته على بغداد ستّ عشرة سنة و أحد عشر شهرا. و لمّا مات كان ابنه الملقّب بالملك العزيز بواسط، فكتب إليه الخليفة القائم بأمر اللّه يعزّيه فيه. قلت: و جلال الدولة هذا أحسن بنى بويه حالا إن لم يكن رافضيّا على قاعدتهم النّجسة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و اثنتان و عشرون إصبعا. مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا و ستّ أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۳۶]

السنة التاسعة من ولاية المستنصر معدّ على مصر و هى سنة ست و ثلاثين و أربعمائة.

فيها دخل أبو كاليجار بغداد و لم يخرج الخليفة القائم بأمر اللّه إلى لقائه، فنزل فى دار المملكة و أخرج منها عيال جلال الدولة، و ضرب الدّبادب على بابه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۸

فى أوقات الصلوات الخمس؛ فروسل بالاقتصار على ثلاثة أوقات، كما كانت العادة، فلم يلتفت إلى رسول الخليفة، و استمرّت الدّبادب فى خمسة أوقات.

و فيها توفّى الحسين بن علىّ بن محمد بن جعفر أبو عبد اللّه الصّيميرىّ العلّامة.

ولد سنة إحدى و خمسين و ثلثمائة، و كان أحد الفقهاء الحنفيّة الأعلام؛ كان جيّد النظر حسن العبارة وافر العقل صدوقا ثقة، انتهت إليه رياسة الحنفية ببغداد، و ولى القضاء بالمدائن و غيرها؛ و كان فى ولايته نزها عفيفا ديّنا ورعا. مات ليلة الأحد حادى عشرين شوّال و دفن فى داره بدرب الزرّادين.

و فيها توفّى عبد اللّه بن محمد بن عبد الرحمن أبو محمد الأصبهانىّ و يعرف بابن اللبّان، كان صائما قائما صدوقا ثقة أحد أوعية العلم، و له التصانيف الحسان.

و فيها توفّى علىّ بن الحسن بن إبراهيم أبو الحسن الصوفىّ الوكيل، كان ديّنا خيّرا، سكن مصر، و بها كانت وفاته فى شعبان.

و فيها توفّى محمد بن أحمد بن بكير أبو بكر التّنوخىّ الخيّاط الدمشقى، كان يؤمّ بمسجد أبى صالح خارج الباب الشرقىّ بدمشق، و كان صالحا ثقة.

و فيها توفّى محمد بن علىّ بن الطيّب أبو الحسين البصرىّ المتكلم، سكن بغداد و درس بها على مذهب المعتزلة، و له تصانيف كثيرة: منها «المعتمد فى أصول الفقه» لم يصنّف فى فنه مثله.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۹

و فيها توفّى محسّن بن محمد بن العبّاس الشريف الحسينىّ، كان نقيب الطالبيّين بدمشق، و ولى القضاء بها بعد أخيه لأمّه فخر الدولة

نيابة عن أبى [محمد القاسم بن] النّعمان قاضى قضاة خليفة مصر. و مات بدمشق فى المحرّم.

و فيها توفّى علىّ بن الحسين بن موسى بن محمد بن إبراهيم بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علىّ زين العابدين بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب رضى اللّه عنه، الشريف أبو طالب العلوىّ الموسوىّ المعروف بالشريف المرتضى نقيب الطالبيّين ببغداد، و هو أخو الشريف الرضى. قال الحافظ أبو عبد اللّه الذهبىّ: و كلّ منهما رافضىّ، و كان المرتضى أيضا رأسا فى الاعتزال كثير الاطلاع و الجدل. ثمّ ذكر كلاما عن ابن حزم فى هذا المعنى، أنّزه الشريف عن ذكره مراعاة لسلفه الطاهر لا لاعتقاده القبيح فى الصحابة. و كان الشريف المرتضى عالما فاضلا أديبا شاعرا. و من شعره من جملة قصيدة قوله:

[الخفيف]

و التقينا كما اشتهينا و لا عى ب سوى أنّ ذاك فى الأحلام

و إذا كانت الملاقاة ليلا فالليالى خير من الأيام

و كانت وفاة الشريف فى يوم الأحد الخامس و العشرين من شهر ربيع الأوّل.

و فيها توفّى محمد بن عبد اللّه بن أحمد أبو الوليد المرسى يعرف بابن منقذ، حدّث عن سهل بن إبراهيم و غيره، و كان عالما فاضلا و رعا محدّثا صدوقا ثقة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۴۰

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثمانى أذرع و سبع عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و عشرون إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۳۷]

السنة العاشرة من ولاية المستنصر معدّ على مصر و هى سنة سبع و ثلاثين و أربعمائة.

فيها مات بواسط نصرانىّ يقال له ابن سهل، و أخرجت جنازته نهارا، فثارت العامّة بالنّصارى و جزدوا الميّت و أحرقوه، و مضوا إلى الدّير فنهبوه. و كان الملك العزيز بن جلال الدولة بن بويه بواسطّ، و عمّه الملك أبو كاليجار ببغداد، و لم يكن له تلك الهيبة، و كانوا قد أحسّوا بانقراض دولة بنى بويه بظهور طغرلبك السّلجوقىّ صاحب خراسان، فلم ينتطح فى ذلك شاتان.

و فيها جهّز المستنصر صاحب الترجمة جيشا من مصر إلى حلب، فحصروا ابن مرداس فيها و استظهروا عليه، فاستنجد بالرّوم فلم ينجدوه. و قد تقدّم ذكر هذه الواقعة فى ترجمة المستنصر.

و فيها لم يحج أحد من العراق. و حجّ الناس من مصر و غيرها.

و فيها توفى الحسن بن محمد بن أحمد أبو محمد الدمشقىّ المعروف بابن السّكن؛ كان عابدا زاهدا صام الدهر و له اثنتا عشرة سنة من العمر، و عاش سبعا و ثمانين سنة. و كان لا يشرب الماء فى الصيف، و أقأم سنة و خمسة أشهر لا يشربه.

فقال له طبيب: معدتك تشبه الآبار، فى الصيف باردة و فى الشتاء حارّة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۴۱

و فيها توفّى محمد بن محمد بن علىّ [بن الحسن بن علىّ بن إبراهيم بن علىّ] بن عبد اللّه ابن الحسين [الأصغر] أبو الحسن العلوىّ الحسينىّ البغدادىّ النسابة شيخ الأشراف.

كان فريدا فى علم الأنساب، و له تصانيف كثيرة، و له شعر.

و فيها توفّى مكّى بن أبى طالب حمّوش بن محمد بن مختار الإمام أبو محمد القيسىّ القيروانىّ ثم القرطبىّ المقرئ شيخ الأندلس فى

زمانه، حجّ و سمع بمكّة و غيرها. و كان إماما عالما محدّثا ورعا، صنّف الكثير فى علوم القرآن. و مولده بالقيروان سنة خمس و خمسين و ثلثمائة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم سبع أذرع و سبع أصابع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و عشرون إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۳۸]

السنة الحادية عشرة من ولاية المستنصر معدّ على مصر و هى سنة ثمان و ثلاثين و أربعمائة.

فيها أغارت الترک على ما وراء النهر و استولوا على بخارى و سمرقند و خوارزم، فقطع طغرلبک جيحون. و بعث أخاه إبراهيم إلى العراق فاستولى على حلوان ثم عاد إلى الرىّ. و التقى طغرلبک مع الترک فهزمهم و عاد إلى خراسان.

و فيها زلزلت أخلاط و ديار بكر زلازل هدمت القلاع و الحصون و قتلت خلقا كثيرا.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۴۲

و فيها لم يحجّ أحد من العراق. و حجّ الناس من مصر و الشام.

و فيها توفّى عبد اللّه بن يوسف بن عبد اللّه بن يوسف بن حيّويه الجوينىّ الشافعى والد أبى المعالى الجوينى. و جوين (بضم الجيم): بلدة من أعمال نيسابور.

و أصلهم من العرب من بنى سنبس. سمع الحديث، و تفقّه بمرو على القفّال، و صنّف التصانيف الكثيرة. و مات بنيسابور.

و فيها توفّى محمد بن يحيى بن محمد أبو بكر. كان أصله من قرية بالعراق يقال لها الزيديّة. كان عالما بالقرآن و الفرائض و سمع الحديث. و مات فى شهر رمضان.

قال أبو بكر الخطيب: «كتبت عنه، و كان ثقة».

و فيها توفّى الحسن بن محمد بن إبراهيم أبو علىّ البغدادىّ المالكىّ المقرئ العالم المشهور، مصنّف «الروضة». كان عالما بالقراءات و غيرها، مفتنّا. مات فى هذه السنة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ست أذرع و عشر أصابع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و تسع عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۳۹]

السنة الثانية عشرة من ولاية المستنصر معدّ على مصر و هى سنة تسع و ثلاثين و أربعمائة.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۴۳

فيها وقع الغلاء و الوباء بالموصل و الجزيرة و بغداد، و وصل كتاب من الموصل أنهم أكلوا الميتة، و صلّى الجمعة أربعمائة نفس، و مات الباقون و كانوا زيادة على ثلثمائة إنسان، و بيعت الزمّانة بقيراطين، و اللّينوفرة بقيراطين أيضا، و الخيارة بقيراط.

قاله صاحب مرآة الزمان.

و فيها توفّى أحمد [بن أحمد] بن محمد أبو عبد اللّه القصرىّ (من قصر ابن هبيرة).

ولد سنة ست و أربعين و ثلثمائة. و سمع الحديث، و كان من أهل العلم و القرآن، يختم القرآن فى كلّ يوم مرّة، و كان معروفا بالسنّة.

و مات فى شهر رجب، و دفن بباب حرب. و كان صدوقا صالحا ثقة.

و فيها توفّى أحمد بن عبد العزيز بن الحسن أبو يعلى الطاهرىّ (من ولد طاهر ابن الحسين الأمير). ولد سنة إحدى و ثمانين و ثلثمائة،

و قرأ الأدب و سمع الحديث.

و مات فی شوّال. و کان فصيحا صدوقا.

و فيها توفّی أحمد بن محمد بن عبد اللّه بن أحمد أبو الفضل الهاشمیّ العباسیّ، من ولد هارون الرشيد. ولی النّضاء بسجستان، و سمع الحديث، و کان له شعر و فضل.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۴۴

و فيها کان الطاعون العظيم بالموصل و الجزيرة و بغداد، و صلّی بالموصل علی أربعمائة نفس دفعة واحدة، و بلغت الموتی ثلثمائة ألف إنسان.

و فيها توفّی عبد الواحد بن محمد بن يحيی بن أيّوب أبو القاسم البغدادیّ الشاعر المشهور، کان يعرف بالمطرّز. مات ببغداد فی جمادی الآخرة.

و فيها توفّی محمد بن الحسين بن علیّ بن عبد الرحيم الوزير أبو سعد وزير جلال الدولة بن بويه. لقی شدائد من المصادرات من الأتراک، حتی آل أمره أنّه خرج من بغداد مستترا و أقام بجزيرة ابن عمر حتّی مات فی ذی القعدة.

و فيها توفّی محمد بن علیّ بن محمد بن إبراهيم أبو الخطّاب الشاعر الجبّلیّ، أصله من قرية جبّل عند النّعمانيّة ببغداد. کان فصيحا شاعرا. رحل إلی البلاد ثم عاد إلی بغداد، و قد کفّ بصره فمات بها. و کان رافضيّا خبيثا. و من شعره:

[المنسرح]

ما حکم الحبّ فهو ممتثل و ما جناه الحبيب محتمل

تهوی و تشکو الضّنی و کلّ هوّی لا ينحل الجسم فهو منتحل

أمر النيل فی هذه السنة- الماء القديم سبع أذرع و ثلاث و عشرون إصبعا. مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعا و سبع أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۴۰]

السنة الثالثة عشرة من ولاية المستنصر معدّ علی مصر و هی سنة أربعين و ربعمائة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۴۵

فيها تمت عمارة سور شيراز، و دوره اثنا عشر ألف ذراع، و ارتفاع حائطه عشرون ذراعا، و له عشرة أبواب.

و فيها ولّی المستنصر صاحب الترجمة خليفة مصر القائد طارقا الصّقلبیّ علی دمشق؛ و عزل عنها ناصر الدولة الحسن بن الحسين بن عبد اللّه بن حمدان، و قبض عليه و استقدمه إلی مصر؛ ثمّ صرف المستنصر طارقا عن إمرة دمشق فی سنة إحدی و أربعين، و ولّی مکانه عدة الدولة المستنصریّ؛ ثمّ صرفه أيضا عنها و بعث به إلی حلب، و ولّی دمشق حيدرة بن الحسين بن مفلح، و يعرف بأبی الکرم المؤيّد؛ فأقام عليها حيدرة تسع سنين.

و فيها فی شعبان ختن الخليفة القائم بأمر اللّه العباسیّ ابنه أبا العبّاس محمدا، و لقبه بذخيرة الدين و ذکر اسمه علی المنابر.

و فيها لم يحجّ أحد من العراق. و حجّ الناس من مصر و غيرها.

و فيها توفّی محمد بن جعفر [بن] أبی الفرج الوزير أبو الفرج و يلقّب ذا السعادات.

و زر لأبی کاليجار بفارس و بغداد. و کان وزيرا فاضلا عادلا شاعرا. و مات فی شهر ربيع الآخر، و قيل: فی جمادی الأولی. و من شعره: [الوافر]

أودّعکم و إنی ذو اکتئاب و أرحل عنکم و القلب آبی

و إنّ فراقكم فى كل حال لأوجع من مفارقة الشباب

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۴۶

و فيها توفّى السلطان أبو كاليجار، و اسمه المرزبان بن سلطان الدولة بن بهاء الدولة فيروز بن عضد الدولة بويه بن ركن الدولة الحسن بن بويه بن فنّا خسرو الدّيلمىّ.

ولد بالبصرة سنة تسع و تسعين و ثلثمائة فى شوّال، و مات ليلة الخميس منتصف جمادى الأولى. و كانت ولايته على العراق أربع سنين و شهرين و أياما، و مدّة ولايته على فارس و الأهواز خمسا و عشرين سنة. و كان شجاعا فاتكا مشغولا بالشرب و اللّهو.

و لمّا مات كان ولده أبو نصر ببغداد فى دار الملك نيابة عن أبيه، فلقّبه الخليفة القائم بأمر اللّه «الملك الرحيم» و خلع عليه خلعة السلطنة. و كانت الخلع سبع جباب كاملة و التاج و الطّوق و السوارين و اللواءين كما كان فعل بعضد الدولة.

و فيها توفّى الفضل- و قيل: فضل اللّه- بن أبى الخير محمد بن أحمد أبو سعيد الميهنىّ العارف بالله صاحب الأحوال و الكرامات. مات بقرية ميهنة من خراسان فى شهر رمضان و له تسع و سبعون سنة بعد أن سمع الحديث، و روى عنه جماعة، و تكلّم فى اعتقاده ابن حزم. و اللّه أعلم بحاله.

و فيها توفّى محمد بن عبد اللّه بن أحمد بن إبراهيم بن إسحاق بن زياد أبو بكر الأصبهانىّ التاجر المعروف بابن ريذة. روى عن الطّبرانىّ معجميه الكبير و الصغير.

و طال عمره، و سار ذكره، و تفرّد بأشياء. ذكره أبو زكريّا بن مندة و قال: «الفقيه الأمين». كان أحد وجوه الناس، وافر العقل، كامل الفضل.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۴۷

و فيها توفّى محمد بن محمد بن إبراهيم بن غيلان بن عبد اللّه بن غيلان بن حكيم أبو طالب الهمذانىّ البغدادىّ البزّاز أخو غيلان المقدّم ذكره. سمع من أبى بكر الشافعىّ أحد عشر جزءا معروفة بالغيلانيّات، و تفرّد فى الدنيا عنه. قال أبو بكر الخطيب: «كتبنا عنه، و كان صدوقا ديّنا صالحا».

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و ثلاث و عشرون إصبعا.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و سبع عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۴۱]

السنة الرابعة عشرة من ولاية المستنصر معدّ على مصر و هى سنة إحدى و أربعين و أربعمائة.

فيها كانت فتنة بين أهل السنّة و الرافضة. قال القاضى أبو القاسم علىّ بن المحسّن التنوخىّ: «أهل الكرخ طائفة نشأت على سبّ الصحابة، و ليس للخلافة عليها أمر». قلت: و عدم أمر الخليفة عليهم لميل بنى بويه إليهم فى الباطن، فإنهم أيضا من كبار الشيعة، و هم يوم ذلک سلاطين بغداد؛ غير أنهم كانوا لا يظهرون ذلک خوفا على الملک.

و فيها هبّت ريح سوداء ببغداد أظلمت الدنيا و قلعت رواشن دار الخلافة و دار المملكة و دور الناس، و اقتلعت من الشجر و النخل شيئا كثيرا.

و فيها نزل طغرلبک السّلجوقىّ الرّىّ و لم يتحقّق موت أبى كاليجار بن بويه، ثمّ فحص عن ذلک حتّى تحقّق وفاته.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۴۸

و فيها دخل السلطان مودود بن مسعود بن محمود بن سبكتكين بلاد الهند، و وصل إلى الأماكن التى كان وصل إليها جدّه محمود.

و فيها توفّى أحمد بن حمزة بن محمد بن حمزة بن خزيمة أبو إسماعيل الهروىّ الصوفىّ. كان يعرف بعمّويه و كان شيخ الصوفية بهراة. سمع الكثير بالعراق و الشام.

و مات بهراة فى شهر رجب.

و فيها توفّى محمد بن علىّ بن عبد اللّه أبو عبد اللّه الصّورىّ الحافظ. ولد بصور سنة ست و سبعين و ثلثمائة و قدم بغداد، و سمع الحديث على كبر السنّ و عنى به.

و كان إماما صحيح النقل دقيق الخطّ صائما قائما لا يفطر إلّا فى العيدين و أيام التشريق. و كان حسن المحاضرة. و له شعر على طريق القوم؛ فمن ذلك من قصيدة:

[المجتث]

نعم الأنيس كتاب إن خانك الأصحاب

تنال منه فنونا تحظى بها و تثاب

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع سواء. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و تسع أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۴۲]

السنة الخامسة عشرة من ولاية المستنصر معدّ على مصر و هى سنة اثنتين و أربعين و أربعمائة.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۴۹

فيها كان من العجائب أنّه وقع الصلح بين أهل السّنّة و الرافضة و صارت كلمتهم واحدة. و سبب ذلك أنّ أبا محمد النّسوىّ ولّى شرطة بغداد و كان فاتكا، فاتّفقوا على أنه متى رحل إليهم قتلوه، و اجتمعوا و تحالفوا، و أذّن بباب البصرة ب «- حىّ على خير العمل» و قرىء فى الكرخ فضائل الصحابة، و مضى أهل السّنة و الشّيعة إلى مقابر قريش، فعدّ ذلك من العجائب؛ فإنّ الفتنة كانت قائمة و الدماء تسكب، و الملوك و الخلفاء يعجزون عن ردّهم، حتّى ولىّ هذا الشرطة، فتصالحوا على هذا الأمر اليسير.

فللّه الأمر من قبل و من بعد.

و فيها توفّى علىّ بن عمر بن محمد بن الحسن أبو الحسن الزاهد المعروف بابن القزوينىّ. ولد بالحربيّة ببغداد فى المحرّم سنة ستّين و ثلثمائة؛ و كان إماما فاضلا زاهدا، قرأ النّحو و سمع الحديث الكثير؛ و كان صاحب كرامات و صلاح، يقصد للزيارة. و مات فى شعبان.

و فيها توفّى الأمير قرواش بن المقلّد أبو المنيع صاحب الموصل و الكوفة و الأنبار.

و قرواش بفتح القاف و الراء المهملة و الواو و بعد الألف شين معجمة ساكنة.

و معناه باللغة التركية عبد أسود. و كان قرواش هذا قد خلع عليه الخليفة القادر بالله و لقّبه معتمد الدولة. و كان قد جمع بين أختين، فلامه النّاس على ذلك؛ فقال لهم: خبّرونى، ما الذى نستعمله مما تبيحه الشريعة! فهذا من ذاك. و كان الحاكم بأمر اللّه استماله فحطب له ببلاده ثمّ رجع عن ذلك. و لمّا مات قرواش ولى مكانه

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۵۰

ابن أخيه قريش بن بدران بن المقلّد المقدّم ذكره فى ترجمة المستنصر أنّه كان مع البساسيرىّ. و يأتى ذلك أيضا فى محلّه مختصرا.

و فيها توفّى السلطان مودود بن مسعود بن محمود بن سبكتكين صاحب غزنة، و غيرها من بلاد الهند و غيره. و مات بغزنة، و قام مقامه عمّه عبد الرشيد بن محمود بن سبكتكين؛ اختاره أهل المملكة فأقاموه.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع سواء. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و ستّ عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۴۳]

السنة السادسة عشرة من ولاية المستنصر معدّ على مصر و هى سنة ثلاث و أربعين و أربعمائة.

فيها فى صفر عادت الفتنة بين أهل السّنّة و الرافضة ببغداد، و كتب أهل الكرخ على برج الباب: «محمد و علىّ خير البشر، فمن رضى فقد شكر، و من أبى فقد كفر».

و ثارت الفتنة بينهم، و لم يقدر على منعهم الخليفة و لا السلطان. و استنجد الخليفة بعيّار من أهل درب ريحان، فأحضر إلى الديوان و استتيب عن الحرام، و سلّط على أهل الكرخ فقتل منهم جماعة كثيرة.

و فيها أقام ابن المعزّ بن باديس الصنهاجىّ ملك الغرب الدعوة بالمغرب للقائم بأمر اللّه العباسىّ، و أبطل دعوة بنى عبيد خلفاء مصر من الغرب. و كان المعزّ لدين

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۵۱

اللّه معدّ لمّا خرج من المغرب و قصد الديار المصريّة سلّمها إلى المعزّ بن باديس.

فأقام بها سنين إلى أن توفّى، و ملكها ابنه من بعده؛ فأقام مدّة سنين يخطب لبنى عبيد إلى هذه السنة؛ فأبطل الدعوة لهم و خطب لبنى العبّاس، و دعا للقائم بأمر اللّه و هو ببغداد. فلم تزل دعوة العباسية بعد ذلک بالمغرب حتى ظهر محمد بن تومرت بالمغرب و تلقّب بالمهدىّ، و قام بعده عبد المؤمن بن علىّ فقطع الدعوة لبنى العبّاس فى أيام المقتفى العبّاسىّ، على ما سيأتى ذكره إن شاء اللّه تعالى.

و فيها لم يحجّ أحد من العراق. و حجّ الناس من مصر و غيرها.

و فيها توفّى أحمد بن عثمان بن عيسى أبو نصر الجلّاب، كان محدّثا ثقة؛ و أخرج له أبو بكر الخطيب حديثا عن ابن عمر: أنّ النّبىّ صلّى اللّه عليه و سلم قرئت عنده سورة الرحمن فقال: «مالى أرى الجنّ أحسن جوابا لردّها منكم». قالوا: و ما ذاک يا رسول اللّه؟ قال: «ما أتيت على قول اللّه تعالى: فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ إلّا قالت الجنّ و لا بشىء من نعمک يا ربّنا نكذّب».

و فيها توفّى إسماعيل بن علىّ بن الحسين زنجويه أبو سعد الحافظ الرازىّ الحنفىّ؛ كان إماما فاضلا طاف الدنيا و لقى الشيوخ و أثنى عليه العلماء؛ و كان ورعا زاهدا فاضلا، إمام أهل زمانه [بغير مدافعة]، [و] ما رأى مثل نفسه [فى كلّ فنّ]،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۵۲

و كان يقال له: شيخ العدليّة و مات بالرّىّ، و دفن بجنب الإمام محمد بن الحسن صاحب أبى حنيفة. و كان قرأ على ألف و ثلثمائة شيخ، و قرأ عليه ثلاثة آلاف.

قال ابن عساكر: سمع نحوا من أربعة آلاف شيخ، و مات و له أربع و تسعون سنة.

و فيها توفّى محمد بن محمد بن أحمد أبو الحسن البصروىّ؛ كان شاعرا فصيحا فاضلا ظريفا صاحب نوادر. و من شعره:

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة؛ ج۵؛ ص۵۲

الوافر]

ترى الدنيا و زهرتها فتصبو و ما يخلو من الشّبهات قلب

فضول العيش أكثرها هموم و أكثر ما يضرّک ما تحبّ

و فيها توفّى المفضّل بن محمد بن مسعود أبو المحاسن التّنوخىّ المعزى الفقيه الحنفى. تفقّه على القدورىّ، و أخذ الأدب عن أبى عيسى الرّبعىّ و برع فى فنون، و ناب فى القضاء بدمشق، و ولى قضاء بعلبکّ؛ و صنّف تاريخ النحاة و أهل اللغة.

و مات بدمشق، و لم يخلف بعده مثله.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع سواء. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و اثنتا عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۴۴]

السنة السابعة عشرة من ولاية المستنصر معدّ على مصر و هى سنة أربع و أربعين و أربعمائة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۵۳

فيها برز محضر من ديوان الخليفة القائم بأمر اللّه العبّاسىّ بالقدح فى أنساب خلفاء مصر و أنّهم ديصانيّة خارجون عن الإسلام، من جنس المحضر الذى برز فى أيام للقادر بالله، و قد ذكرناه فى وقته، و أخذ فيه خطوط القضاة و الشهود و الأشراف و غيرهم.

و فيها كانت فى مدينة أرّجان و الأهواز زلازل عظيمة ارتجّت منها الأرض، و قلّعت الجبال و خرّبت القلاع، و امتدّت هذه الزلازل إلى بلاد كثيرة.

و فيها استولى طغرلبك محمد بن ميكائيل السّلجوقىّ على همذان و نواحيها، و طمع فى قصد العراق.

و فيها توفّى الحسن بن علىّ بن محمد بن علىّ أبو علىّ التميمىّ الواعظ، سمع الحديث الكثير و روى عنه مسند الإمام أحمد عن القطيعىّ.

و فيها توفّى سهل بن محمد بن الحسن أبو الحسن الفاسىّ الصوفىّ، سمع الكثير و حدّث بالعراق و دمشق و صور، و توجه إلى مصر فمات بها. و كان أديبا شاعرا على طريق القوم. فمن ذلك قوله:

[الطويل]

إذا كنت فى دار يهنيك أهلها و لم تك محبوبا بها فتحوّل

و أيقن بأن الرّزق يأتيك أينما تكون و لو فى قعر بيت مقفّل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۵۴

و فيها توفّى عثمان بن سعيد بن عثمان بن سعيد بن عمر الإمام أبو عمرو الأموى مولاهم القرطبىّ المقرئ الحافظ المعروف بآبن الصيرفىّ أوّلا، ثم بأبى عمرو الدّانى؛ صاحب التصانيف. كان أحد الأئمة فى علم القرآن و رواياته و تفسيره و معانيه و طرقه، و جمع فى ذلك كلّه تواليف حسانا مفيدة يطول تعدادها. قال الحافظ أبو عبد اللّه الذهبىّ: و بلغنى أن مصنّفاته مائة و عشرون مصنفا.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و أربع عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و خمس أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۴۵]

السنة الثامنة عشرة من ولاية المستنصر معدّ على مصر و هى سنة خمس و أربعين و أربعمائة.

فيها وقف طغرلبك السّلجوقىّ على مقالات الأشعرىّ، و كان طغرلبك حنفيّا، فأمر بلعن الأشعرىّ على المنابر، و قال: هذا يشعر بأن ليس للّه فى الأرض كلام.

فعزّ ذلك على أبى القاسم القشيرىّ، و عمل رسالة سمّاها «شكاية أهل السّنّة ما نالهم من المحنة». و وقع بعد ذلك أمور، حتّى دخل القشيرىّ و جماعة من الأشعريّة إلى السلطان طغرلبك المذكور و سألوه رفع اللّعنة عن الأشعرىّ. فقال طغرلبك:

الأشعرىّ عندى مبتدع يزيد على المعتزلة، لأنّ المعتزلة أثبتوا أنّ القرآن فى المصحف و هذا نفاه. قال الحافظ أبو الفرج بن الجوزىّ رحمه اللّه: لو أنّ القشيرىّ لم يعمل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۵۵

فى هذه رسالة كان أستر للحال، لأنّه إنّما ذكر فيها أنّه وقع اللعن على الأشعرىّ، و أنّ السلطان سئل أن يرفع ذلك فلم يجب؛ ثمّ لم يذكر له حجّة، و لا دفع للخصم شبهة.

و ذكر ابن الجوزىّ من هذا النوع أشياء كثيرة، حتّى قال: و ذكر مثل هذا نوع تغفّل. انتهى.

و فيها توفّى إبراهيم بن عمر بن أحمد أبو إسحاق الفقيه الحنبلىّ و يعرف بالبرمكىّ، لأنّ أهله كانوا يسكنون بالبرمكيّة؛ كان إماما عارفا بمذهبه، و له حلقة للفتوى بجامع المنصور، و سمع خلقا كثيرا، و روى عنه الخطيب و غيره؛ و كان صالحا زاهدا ورعا ديّنا صدوقا ثقة.

و فيها توفّى أحمد بن عمر بن روح أبو الحسين النّهروانىّ؛ كان فاضلا شاعرا قال: كنت على شاطئ دجلة، فمرّبى إنسان فى سفينة و هو يقول:

[الوافر]

و ما طلبوا سوى قتلى فهان علىّ ما طلبوا

فقلت له: قف، ثم قلت بديها: أضف إليه:

على قلبى الأحبّة بالت مادى فى الجفا غلبوا

و بالهجران طيب النّو م من عينىّ قد سلبوا

و ما طلبوا سوى قتلى فهان على ما طلبوا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۵۶

و فيها توفّى مطهّر بن محمد بن إبراهيم أبو عبد اللّه الصوفىّ الشّيرازىّ أحد أعيان مشايخ الصوفيّة، جاور بمدينة النّبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم أربعين سنة، و رحل إلى بغداد، ثمّ عاد إلى دمشق فمات بها فى شهر رجب.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و أربع عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا سواء.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۴۶]

السنة التاسعة عشرة من ولاية المستنصر معدّ على مصر و هى سنة ستّ و أربعين و أربعمائة.

فيها استوحش الخليفة القائم بأمر اللّه من الأمير أبى الحارث أرسلان البساسيرىّ و استوحش البساسيرىّ منه. و هذا أوّل الفتنة التى ذكرناها فى ترجمة المستنصر هذا من أنه خطب له على منابر بغداد. و كتب الخليفة القائم بأمر اللّه إلى طغرلبك السّلجوقىّ فى الباطن يستنهضه إلى السير إلى العراق، و كان بنواحى خراسان.

و فيها توفّى الحسن بن علىّ بن إبراهيم أبو علىّ الأهوازىّ المقرئ، كان إماما فى القراءات، و صنّف فى علوم القرآن كتبا كثيرة، و انتهت إليه الرياسة بالشام فى القراءة، و سمع الحديث الكثير، و كان يكره مذهب الأشعرىّ و يضعفه، و من أجله صنّف ابن عساكر كتابه المسمّى «تبيين [كذب] المفترى، [فيما نسب] إلى أبى الحسن الأشعرىّ».

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۵۷

و فیها توفّی الحسین بن جعفر بن محمد بن جعفر بن داود أبو عبد اللّه السّلماسیّ الفقیه الصالح، کان مشهورا بأفعال البرّ و الصدقات، ینفق ماله علی الفقراء و الصالحین، و أخذ منه السلطان عشرة آلاف دینار قرضا، ثمّ أراد ردّها فلم یقبلها، و قال: إننی رجل یأکل من مالی قوم لو علموا أنّنی أخذت من مال السلطان لأمتنعوا.

و فیها توفی عبد اللّه بن محمد بن عبد الرحمن الأصبهانیّ الفقیه المحدّث، کان زاهدا عالما و رعا، و کنیته أبو محمد، و یعرف بابن اللبّان. أثنی علی علمه و فضله جماعة من العلماء. و کانت وفاته فی جمادی الآخرة.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم خمس أذرع سواء. مبلغ الزیادة سبع عشرة ذراعا و أربع أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۴۷]

السنة العشرون من ولایة المستنصر معدّ علی مصر و هی سنة سبع و أربعین و أربعمائة.

فیها دخل طغرلبک السّلجوقیّ بغداد، و هرب منها أبو الحارث أرسلان البساسیریّ إلی الرّحبة، و کاتب البساسیریّ المستنصر صاحب مصر، و مشت الرّسل بینهما.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۵۸

و فیها استولی أبو کامل علیّ بن محمد الصّلیحیّ علی الیمن، و انتمی إلی المستنصر صاحب مصر، و خطب له بالیمن، و أزال دعوة بنی العبّاس منها، و کان یدعی بها للقائم بأمر اللّه، فصار یدعو للمستنصر هذا صاحب الترجمة.

و فیها توفّی الحسین [بن علیّ] بن جعفر بن علکان بن محمد بن دلف أبو عبد اللّه العجلیّ القاضی، و کان یعرف بآبن ماکولا، ولی قضاء البصرة و بغداد، و کان قاضیا نزها عفیفا دیّنا أدیبا شاعرا.

و فیها توفّی علی بن المحسّن بن علیّ بن محمد بن أبی الفهم أبو القاسم التّنوخیّ القاضی، تقلّد القضاء فی عدّة بلاد، و سمع الحدیث الکثیر، و صنف الکتب المفیدة؛ و مات فی بغداد فی المحرّم. و کان صدوقا محتاطا فی الحدیث. و قیل:

إنّه کان معتزلیّا یمیل إلی الرّفض.

و فیها توفّی محمد ابن الخلیفة القائم بأمر اللّه العباسیّ فی حیاة والده، کان قد نشأ نشوءا حسنا، و رشّحه أبوه القائم بأمر اللّه للخلافة، و لقّبه «ذخیرة الدین». و کانت وفاته فی ذی القعدة، و حزن علیه أبوه القائم حزنا شدیدا، و خرج حتّی صلّی علیه بنفسه، فصلّی علیه و بینه و بین الناس سرادق و هم یصلّون خلفه بصلاته؛ و جلس الوزیر رئیس الرؤساء للعزاء ثلاثة أیّام، و منع من ضرب الطّبول ثلاثة أیّام، فلمّا کان الیوم الرابع حضر عمید الملک وزیر السلطان بین یدی القائم بأمر اللّه، و أدّی عن السلطان رسالة تتضمّن التعزیة و السؤال بقیام الوزیر و الجماعة من مجلس التّعزیة فقاموا، ثم حمل تابوته بعد ذلک إلی الرّصافة فدفن هناک.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۵۹

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم أربع أذرع و ستّ عشرة إصبعا.

مبلغ الزیادة ستّ عشرة ذراعا و أربع أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۴۸]

السنة الحادیة و العشرون من ولایة المستنصر معدّ علی مصر و هی سنة ثمان و أربعین و أربعمائة.

فیها عم الوباء و القحط بغداد و الشام و مصر و الدنیا، و کان الناس یأکلون المیتة. و بلغت الرّمانة و السفرجلة دینارا، و کذا الخیارة و

اللّينوفرة، و انقطع ماء النيل بمصر، و كان يموت بها فى كلّ يوم عشرة آلاف إنسان. و باع عطّار واحد فى يوم واحد ألف قارورة شراب. و وقع بمصر أنّ ثلاثة لصوص نقبوا نقبا فوجدوا عند الصّباح موتى: أحدهم على باب النقب، و الثانى على رأس الدرجة، و الثالث على الكارة التى سرقها. و هذا الوباء و الغلاء خلاف الغلاء الذى ذكرناه فى ترجمة المستنصر؛ و يأتى ذكر ذلك أيضا فى محلّه. غير أنّه كان ينذر عن ذاك بأمور استرسلت إلى أن عظم الأمر.

و فيها أقيم الأذان فى مشهد موسى بن جعفر و مساجد الكرخ ب «الصلاة خير من النوم» على رغم أنف الشّيعة، و أزيل ما كانوا يقولونه فى الأذان من «حيّ على خير العمل».

و فيها توفّى جعفر بن محمد بن عبد الواحد أبو طالب الجعفرىّ الشريف الطّوسىّ شيخ الصوفية، كان محدّثا فاضلا، سافر [إلى] البلاد فى طلب الحديث، و سمع بالعراقين و الشام و خراسان و غيرها.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۶۰

و فيها توفّى علىّ بن أحمد بن علىّ أبو الحسن المؤدّب. أصله من قرية ببلاد خوزستان يقال لها «فالة» (بفاء) ثم قدم البصرة و سمع الحديث، ثم قدم بغداد و مات بها، و كان محدّثا شاعرا أديبا فصيحا ثقة.

و فيها توفّى هلال بن المحسّن بن إبراهيم بن هلال أبو الحسين الكاتب الصابئ صاحب التاريخ- قلت: نقلنا عنه كثيرا فى هذا التاريخ- و كان مولده فى سنة تسع و خمسين و ثلثمائة، و جدّه إبراهيم هو صاحب الرسائل المقدّم ذكر وفاته، و أن الشريف الرضى رثاه، و عيب عليه من كونه من الأشراف ورثى صابئا. و كان أبو هلال هذا المحسّن صابئا، و أسلم هو متأخرا؛ و كان قبل أن يسلم سمع جماعة من النحاة، منهم أبو علىّ الفارسىّ و علىّ بن عيسى الرّمّانىّ و غيرهما.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و خمس عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و ثلاث عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۴۹]

السنة الثانية و العشرون من ولاية المستنصر معدّ على مصر و هى سنة تسع و أربعين و أربعمائة.

فيها استعفى ابن النّسوىّ من ولاية الشّرطة ببغداد لأستيلاء الحراميّة و اللصوص عليها بحيث إنه أقيم جماعة لحفظ قصر الخليفة و الطّيّار الذى للخليفة من الحريق، لأنّ اللصوص كانوا إذا امتنع عليهم موضع حرّقوه.

و فيها كان الطاعون العظيم ببخارى، حتّى إنه خرج منها فى يوم واحد ثمانية عشر ألف إنسان. و حصر من مات فيه فكان ألف ألف و ستمائة ألف و خمسين ألف

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۶۱

شخص. ثمّ وقع فى أذربيجان و الأهواز و واسط و البصرة، حتّى كانوا يحفرون التّربة الواحدة و يلقون فيها العشرين و الثلاثين. ثمّ وقع بسمرقند و بلخ، فكان يموت فى كلّ يوم ستة آلاف و أكثر. و ذكر صاحب المرآة فى هذا الطاعون أشياء مهولة يطول الشرح فى ذكرها، منها أن مؤدّب أطفال كان عنده تسعمائة صغير فلم يبق منهم واحد. و مات من عاشر شوّال إلى سلخ ذى القعدة بسمرقند خاصّة مائتا ألف و ستة و ثلاثون ألفا. و كان ابتداء هذا الطاعون من تركستان إلى كاشغر و فرغانة انتهى.

و فيها توفّى أحمد بن عبد اللّه بن سليمان بن محمد بن سليمان بن أحمد بن سليمان ابن داود بن المطهّر بن زياد بن ربيعة [بن الحارث] بن أنور بن أسحم بن أرقم بن النّعمان بن عدىّ بن غطفان بن عمرو بن بريح بن خزيمة بن تيم اللّه بن أسد بن و برة ابن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة أبو العلاء المعرّىّ التّنوخىّ اللغوىّ الأعمى الشاعر المشهور صاحب التصانيف

المشهورة. قال الذهبىّ:

و صاحب الزندقة المأثورة. و قال أبو المظفّر فى مرآة الزمان: و تنوخ قبيلة من اليمن. و توفّى أبو العلاء بمعرّة النّعمان فى يوم الجمعة ثالث عشر [شهر] ربيع الأوّل.

و مولده يوم الجمعة لثلاث بقين من [شهر] ربيع الأوّل سنة ثلاث و ستين و ثلثمائة.

و أصابه جدرىّ بعد ثلاث سنين من عمره فعمى منه. و قال الشعر و هو ابن إحدى عشرة سنة. قلت: و قد اختلف الناس فى أبى العلاء المذكور، فمن الناس

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۶۲

من جعله زنديقا و هم الأكثر، و من الناس من أوّل كلامه و دفع عنه. و ممّا يستشهد عليه من المقالة الأولى قوله:

[الوافر]

عقول تستخفّ بها سطور و لا يدرى الفتى لمن الثّبور

كتاب محمد و كتاب موسى و إنجيل ابن مريم و الزّبور

و له فى غير هذا المعنى أشياء كثيرة، و تصانيف مشهورة، منها «سقط الزّند» و شرحه بنفسه و سماه «ضوء السقط». و له غير ذلك.

و فيها توفّى إسماعيل بن عبد الرحمن بن أحمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن عابد بن عامر أبو عثمان الواعظ المفسر الصّابونىّ النيسابورىّ شيخ الإسلام. قال أبو عبد اللّه المالكىّ: أبو عثمان ممن شهد له أعيان الرجال بالكمال فى الحفظ و التفسير و غيرهما.

و قال البيهقىّ: أنبأنا إمام المسلمين حقّا، و شيخ الإسلام صدقا أبو عثمان الصابونىّ.

و فيها توفّى علىّ بن هندىّ القاضى أبو الحسن قاضى حمص. ولد سنة أربعمائة.

كان عالما فاضلا نزها عفيفا فصيحا، مات بدمشق.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع سواء. مبلغ الزيادة سبع عشرة دراعا و ثلاث أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۵۰]

السنة الثالثة و العشرون من ولاية المستنصر معدّ على مصر و هى سنة خمسين و أربعمائة.

فيها أقام أبو الحارث أرسلان البساسيرىّ الدعوة للمستنصر ببغداد و خطب له على منابرها. و قد استوعبنا واقعته مع الخليفة القائم بأمر اللّه العباسىّ فى أوّل ترجمة المستنصر هذا، فيطلب هناك.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۶۳

و فيها ولّى المستنصر الأمير ناصر الدولة أبا محمد الحسن بن الحسين بن حمدان على دمشق، فدام بها إلى أن أمره المستنصر أن يتوجّه إلى حلب فى سنة اثنتين و خمسين لقتال العرب الذين استولوا عليها؛ فتوجّه إليها و دافع العرب بظاهرها فكانت بينهم وقعة هائلة انكسر فيها ناصر الدولة المذكور و عاد جريحا، و استولت العرب على أثقاله و ما كان معه.

و فيها توفّى داود جغرى بك أخو السلطان طغرلبك السّلجوقى، و داود كان الأكبر. و لم يقدم بغداد، و كان مقيما بخراسان بإزاء أولاد محمود بن سبكتكين. و هو حمو الخليفة القائم بأمر اللّه. و كان ملكا شجاعا عاقلا جوادا مدبّرا حكيما. مات ببلخ.

و توجّه ولداه ياقوتى بك و قاورد بك إلى عند أخيهما متملّك الأمر بعد أبيهما، و اسمه ألب أرسلان، و قرّر عمّهما السلطان طغرلبك أمورهما، و كان بأصبهان و قد عزم على قصد العراق.

و فيها توفّى طاهر بن عبد اللّه بن طاهر أبو الطيّب الطّبرىّ القاضى الشافعىّ.

تفقّه بخراسان و بالعراق، و ولى القضاء بربع الكرخ. و مولده سنة ثمان و أربعين و ثلثمائة، و مات يوم السبت عشرين [شهر] ربيع الأوّل، و قد بلغ مائة سنة و سنتين و هو صحيح العقل ثابت الفهم سليم الأعضاء و الحواسّ.

و فيها توفّى عبد اللّه بن علىّ بن عياض أبو محمد الصّورىّ، كان يلقّب بعين الدولة، كان جليلا- نبيلا، ولى القضاء بصور، و سمع الكثير، و خرّج له أبو بكر الخطيب فوائد فى أربعة أجزاء و قرأها عليه بصور. و هو الذى أخذ الخطيب مصنّفاته و ادّعاها لنفسه. و مات فجأة فى الزّيب (قرية بين عكّا و صور) فى شوّال. و كان صدوقا ثقة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۶۴

و فيها قتل الوزير رئيس الرؤساء علىّ بن الحسين بن أحمد بن محمد الوزير ابو القاسم، كان من بيت رياسة و مكانة، استكتبه القائم بأمر اللّه العبّاسىّ، ثمّ استوزره و لقّبه «رئيس الرؤساء شرف الوزراء». و مولده فى شعبان سنة تسع و تسعين و ثلثمائة. و كان عالما بفنون كثيرة مع سداد رأى و وفور عقل. قتله أبو الحارث أرسلان البساسيرىّ. حسب ما ذكرناه فى أوّل ترجمة المستنصر صاحب الترجمة.

و فيها توفّى علىّ بن محمد بن حبيب أبو الحسن الماوردىّ البصرىّ الإمام الفاضل الفقيه الشافعىّ صاحب التصانيف الحسان، منها «التفسير» و «كتاب الحاوى» و «الأحكام السلطانية» و «قوانين الوزارة» و «الأمثال». و ولى القضاء ببلدان كثيرة. و كان محترما عند الخلفاء و الملوك.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و سبع أصابع. مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و اثنتا عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۵۱]

السنة الرابعة و العشرون من ولاية المستنصر معدّ على مصر و هى سنة إحدى و خمسين و أربعمائة.

فيها انصرف أبو الأغرّ دبيس بن مزيد عن بغداد على غضب من البساسيرىّ.

و فيها كان بمكة رخص لم يعهد مثله، حتّى بلغ البرّ و التمر مائتى رطل بدينار.

و فيها قتل أبو الحارث أرسلان التركىّ المعروف بالبساسيرىّ صاحب الدعوة للمستنصر ببغداد، كان يلقّب بالمظفّر. و كان فى مبدأ أمره مقدّما على الأتراك

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۶۵

خصيصا عند القائم بأمر اللّه العباسىّ، لا يقطع القائم أمرا دونه. فتجبّر و طغى، فجفاه القائم و استنصر عليه بالسلطان طغرلبك السّلجوقىّ حتّى خرج من بغداد على غضب.

و صار يسعى فى زوال الخلافة عن القائم، و لا زال يدبّر عليه حتى فعل تلك الأمور، و دخل بغداد و قاتل الخليفة القائم و قطع خطبته و خطب للمستنصر صاحب الترجمة، و قتل الوزير رئيس الرؤساء المقدّم ذكره- و قد ذكرنا ذلك كلّه فى أوّل ترجمة المستنصر هذا- و ملك بغداد و دام بها حتّى ظفره السلطان طغرلبك السّلجوقىّ و قتله شرّ قتلة. و أعاد الخليفة القائم بأمر اللّه من حديثة عانة إلى بغداد، و أعيدت الخطبة باسمه، و أبطل طغرلبك اسم المستنصر هذا من بغداد و العراق، و مهّد أمورها (أعنى العراق) حتّى عادت كما كانت عليه، و كان قتله فى آخر السنة.

و فيها توفّى الحسن بن أبى الفضل الإمام أبو علىّ الشّرمقانىّ - و الشّرمقان:

قرية من قرى نيسابور- كان إماما فاضلا حافظا للقرآن و وجوه القراءات، زاهدا عابدا ورعا سليم الصدر. و كان لا يقبل من أحد، و يقنع بورق الخسّ. فاتفق أنّ ابن العلّاف خرج يوما متوجّها على دجلة فرأى الشّرمقانىّ هذا يأخذ ما يرمى به أصحاب الخسّ فيأكله، فشقّ عليه ذلك، فحكى أمره للوزير رئيس الرؤساء؛ فقال:

نبعث له شیئا؛ فقال: لا یقبل. فقال الوزیر: تحیّل فیه. فقال لغلام له: اذهب إلی مسجد الشّرمقانیّ و اعمل لغلقه مفتاحا من حیث لا یشعر ففعل. فقال:

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۶۶

احمل له فی کلّ یوم ثلاثة أرطال خبز، و دجاجة مشویة، و قطعة حلوی سکّر.

فکان الغلام یرصده، فإذا خرج من المسجد فتح الباب و ترک ذلک فی خلوته و خرج؛ فیقول الشّرمقانیّ: المفتاح معیّ، من أین ذلک! و ما هو إلّا من الجنّة! و سکت و لم یخبر أحدا خوفا من أن ینقطع، فأخصب جسمه و سمن؛ فقال له ابن العلّاف:

قد سمنت، فإیش تأکل؟ فأنشد الشّرمقانیّ یقول: [البسیط]

من أطلعوه علی سرّ فباح به لم یأمنوه علی الأسرار ما عاشا

و أخذ یورّی و لم یصرّح بما یقع له، فقال: هذا کرامة. فقال له بعضهم: ینبغی أن تدعو للوزیر؛ ففهم و انکسر قلبه و امتنع من أکل ذلک. و توفّی بعد ذلک بمدّة یسیرة.

و فیها توفّی سعید بن محمد بن أحمد الشیخ أبو عثمان النّجیرمیّ النیسابوریّ العدل.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم ثلاث أذرع و اثنتا عشرة إصبعا.

مبلغ الزیادة خمس عشرة ذراعا و ثلاث و عشرون إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۵۲]

السنة الخامسة و العشرون من ولایة المستنصر معدّ علی مصر و هی سنة اثنتین و خمسین و أربعمائة.

فیها فی صفر دخل عطیّة صاحب بالس إلی الرّحبة و حصرها و افتتحها. فلمّا دخلها أحسن معاملة أهلها، و خطب بها للمستنصر هذا صاحب الترجمة، بعد أن کانوا خطبوا فیها بأمر السلطان طغرلبک السّلجوقیّ للقائم بأمر اللّه العبّاسیّ.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۶۷

و فیها دخل السلطان طغرلبک بغداد و فی خدمته أبو کالیجار من ملوک بنی بویه، و اسمه هزارسب، و الأمیر أبو الأغرّ بن مزید، و الأمیر أبو الفتح بن ورّام، و صدقة ابن منصور بن الحسین؛ و نزل بدار الملک ببغداد. و انقرضت دولة بنی بویه من بغداد بسلطنة طغرلبک السلجوقیّ هذا.

و فیها توفّی أحمد بن عبد اللّه بن فضالة أبو الفتح الموازینیّ الحلبیّ الشاعر.

کان یعرف بالماهر. سکن دمشق و بها توفّی. و من شعره: [الکامل]

یا من توقّد فی الحشا بصدوده نار بغیر وصاله لا تنطفی

و ظننت جسمی أن سیخفی بالضّنا عن عاذلیّ فقد ضنیت و ما خفی

و فیها توفّیت الترنجان زوجة السلطان طغرلبک السّلجوقیّ و أمّ أنو شروان التی تزوّجها خوارزم شاه؛ کانت أمّ ولد، و فیها دین وافر، و معروف ظاهر، و صدقات کثیرة، و کانت صاحبة رأی و تدبیر و حزم و عزم؛ و کان زوجها السلطان طغرلبک سامعا لها و مطیعا، و الأمور مردودة إلی عقلها، و کانت تسیر بالعساکر و تنجده و تقاتل أعداءه.

و فیها توفّیت أمّ الخلیفة القائم بأمر اللّه العباسیّ، و هی أرمینیّة أمّ ولد. تسمّی قطر الندی- و قیل بدر الدجی، و قیل علم- و هی التی حبسها البساسیریّ لمّا ملک بغداد. و کانت وفاتها فی شهر رجب ببغداد، و صلّی علیها ابنها الخلیفة القائم بأمر اللّه.

و قد جاوزت التسعین سنة من العمر.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۶۸

و فيها توفّى الحسن بن أبى الفضل الأمير أبو محمد النّسوىّ صاحب شرطة بغداد الذى اصطلح أهل السنّة و الرافضة خوفا منه فيما تقدّم ذكره. و كان صار ما فاتكا ظالما، يقتل الناس و يأخذ أموالهم. و شهد عليه الشهود عند القاضى أبى الطيب فحكم بقتله، فصالح بمال فسلم، و عزل من الشّرطة ثم أعيد؛ فاتّفقت أهل السّنة و الرافضة عليه فقتلوه.

و فيها وقع الطاعون بالحجاز و اليمن، و خربت قرى كثيرة، و صار من يدخلها هلك من ساعته.

و فيها توفّى محمد بن عبيد اللّه بن أحمد أبو الفضل المالكىّ المعروف بابن عمروس، انتهت إليه رياسة المالكية ببغداد فى زمانه، و كان من القرّاء المجوّدين ثقة ديّنا؛ أخرج له الخطيب حديثا عن معاذ بن جبل رضى اللّه عنه قال قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «من عيّر أخاه بذنب لم يمت حتّى يعمله».

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و اثنتان و عشرون إصبعا. مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و تسع أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۵۳]

السنة السادسة و العشرون من ولاية المستنصر معدّ على مصر و هى سنة ثلاث و خمسين و أربعمائة.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۶۹

فيها توفّى الأمير أحمد بن مروان بن دوستک نصر الدولة الكردىّ صاحب ميّافارقين و ديار بكر، ملك البلاد بعد أن قتل أخوه أبو سعيد منصور. و كان نصر الدولة هذا عالى الهمّة، قوىّ الحرمة، مقبلا على اللّذّات، عادلا فى الرعيّة. قيل:

لم تفته صلاة الصبح مع الجماعة مع انهما كه فى اللهو. و كان له ثلثمائة و ستّون جارية، يخلو كلّ ليلة بواحدة على عدد أيّام السنة. و خلّف عدّة أولاد. و قد وزر له أبو القاسم الحسين بن على المغربىّ صاحب الرسائل. و كان أوّلا وزير صاحب مصر، فقدم عليه فوزر له مرّتين. و مات نصر الدولة فى شوّال بظاهر ميّافارقين و له سبع و سبعون سنة. و كانت سلطنته إحدى و خمسين سنة. و ملك بعده ولده نظام الدين أبو القاسم نصر بن أحمد.

و فيها توفّى علىّ بن رضوان بن علىّ بن جعفر أبو الحسن المصرىّ صاحب المصنّفات. كان من كبار الفلاسفة فى الإسلام، و كان له دار بمدينة مصر على قصر الشّمعة تعرف بدار ابن رضوان. و قد تهدّمت الآن. كان إماما فى الطّبّ و الحكمة، كثير الردّ على أرباب فنّه. و كان فيه سعة خلق عند بحثه، و له مصنّفات كثيرة.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۷۰

و فيها توفّى علىّ بن محمد بن يحيى بن محمد أبو محمد و أبو القاسم السلمىّ الدّمشقىّ المعروف بالسّميساطىّ واقف خانقاه دمشق و غيرها. سمع الحديث، و كان مقدّما فى علم الهندسة و الهيئة، و روى عنه أبو بكر الخطيب و غيره.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثلاث أذرع و أربع عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و ثمانى عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۵۴]

السنة السابعة و العشرون من ولاية المستنصر معدّ على مصر و هى سنة أربع و خمسين و أربعمائة.

فيها قبض المستنصر على وزيره أبى الفرج ابن المغربىّ، و استوزر أبا الفرج البابلىّ، ثمّ ردّ ابن المغربىّ إلى كتابة الجيش، و هى كانت

رتبته قبل الوزارة؛ و لم يكن قبله وزير يعزل فيعود إلى قديم تصرفه.

و فيها كانت وقعة بين أبى المكارم مسلم بن قريش بن بدران و بين عمّه مقبل ابن بدران. و كان مقبل قد طلب الأمر لنفسه و اجتمع إليه خلق من الأكراد و غيرهم، و التقيا على الخابور فانهزم مسلم، و ملك مقبل الجزيرة. فبذل مسلم المال و جمع و عاد إلى عمّه مقبل فهزمه. ثمّ اتّفقا و اجتمعا و اصطلحا على أمر مشى بينهما.

و فيها توفّى الحسن بن علىّ بن محمد بن الحسن أبو محمد الجوهرىّ ثم الشّيرازىّ ثمّ البغدادىّ، مسند العراق فى عصره. ولد فى شعبان سنة ثلاث و ستّين و ثلثمائة،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۷۱

و سمع الكثير و تفرّد بأشياء عوال. و كان يعرف بالمقنّعى لأنّه كان يتطيلس و يلتفّ بها تحت حنكه. و مات فى ذى القعدة، و كان له شعر. فمن ذلك قوله:

[السريع]

يا موت ما أجفاك من زائر تنزل بالمرء على رغمه

و تأخذ العذراء من خدرها و تسلب الواحد من أمّه

و فيها توفّى عبد الرحمن بن أحمد بن الحسن بن بندار أبو الفضل العجلىّ الرّازىّ المقرئ الإمام الزاهد. أصله من الرّىّ، و ولد بمكّة، و كان يتنقّل من بلد إلى بلد.

و كان مقرئا، جليل القدر، كثير التصانيف، حسن السّيرة، زاهدا متعبّدا.

و فيها توفّى المعزّ بن باديس بن منصور بن بلكّين الحميرىّ الصّنهاجىّ سلطان إفريقيّة و ما والاها من الغرب. كان الحاكم صاحب مصر قد لقّبه شرف الدولة، و أرسل إليه خلعة فى سنة سبع و أربعمائة، و عاش المعزّ إلى هذا الوقت. و كان ملكا رئيسا جليلا عالى الهمّة، و هو الّذى حسم مادّة الخلاف ببلاد الغرب. و كان مذهب أبى حنيفة ظاهرا بإفريقيّة، فحمل أهل مملكته بالاشتغال بمذهب مالك و ترك ما دونه من المذاهب. و كان المعزّ شيخا جوادا ممدّحا. و هو الذى خلع طاعة خلفاء مصر من بنى عبيد، و أبطل دعوتهم من الغرب، و خطب للقائم بأمر اللّه العبّاسىّ، فكتب إليه المستنصر هذا يتهدّده، فما التفت إلى ذلك. ثمّ وقع بين عساكره و عساكر المستنصر حروب بسبب ذلك.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۷۲

و فيها توفّى سبكتكين [بن عبد اللّه] التّركى أبو منصور تمام الدولة. تولى إمارة دمشق من قبل المستنصر صاحب الترجمة، و مات بها فى شهر ربيع الأول.

و كان صالحا عفيفا، سمع الحديث و رواه.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و ستّ أصابع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا سواء.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۵۵]

السنة الثامنة و العشرون من ولاية المستنصر معدّ على مصر و هى سنة خمس و خمسين و أربعمائة.

فيها دخل الصّليحىّ إلى مكّة، و استعمل الجميل مع أهلها، و أظهر العدل و الإحسان، و طابت قلوب الناس له و رخصت الأسعار؛ و كان شابّا أشقر اللّحية أزرق العينين، و ليس كان باليمن أشقر أزرق غيره. و كان متواضعا، إذا اجتاز بقوم سلّم عليهم بيده؛ و كسا البيت الحرام بثياب بيض، و ردّ بنى شيبة عن قبيح أفعالهم.

و فيها كانت واقعة بين قاورد بك بن داود و بين فضلويه الشونكاريّ على فرسخين من شيراز، فانهزم فضلويه و غنم قاورد بك أمواله. و كان فضلويه فى عشرين ألفا من الدّيلم و غيرهم؛ و كان قاورد بك فى أربعة آلاف من الترك لا غير.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۷۳

و فيها ثار أهل همذان على العميد فقتلوه مع سبعمائة رجل من أصحاب السلطان، و قتلوا أيضا شحنة البلد.

و فيها قصد قتلمش الرّىّ و معه خمسون ألفا من التركمان، فدفعه عميد الملك عنها.

و فيها توفّى السّلطان طغرلبك. و اسمه محمد بن ميكائيل بن سلجوق أبو طالب السّلجوقىّ. قدم بغداد سنة سبع و أربعين و أربعمائة، و خلع عليه الخليفة القائم بأمر اللّه العباسىّ، و خاطبه بملك المشرق و المغرب. قلت: و هذا أوّل ملوك السلجوقيّة، و هو الذى مهّد لهم الدولة، و ردّ ملك بنى العباس بعد أن كان اضمحلّ و زالت دعوتهم من العراق، و خطب لبنى عبيد خلفاء مصر لمّا استولى أبو الحارث أرسلان البساسيرىّ على بغداد. و قد تقدّم ذكر ذلك. فما زال طغرلبك هذا حتّى ردّ الخليفة القائم بأمر اللّه من الحديثة إلى بغداد، و أعاد الخطبة باسمه، و قتل البساسيرىّ.

و كان شجاعا مقداما حليما، عصى عليه جماعة فظفر بهم و عفا عنهم. و هو الذى أزال ملك بنى بويه من العراق و غيره. و كانت وفاته بالرّىّ فى يوم الجمعة ثامن شهر رمضان من هذه السنة. و كانت مدّة ملكه خمسا و عشرين سنة؛ و قيل ثلاثون سنة. و مات و عمره سبعون سنة- و قيل جاوز الثمانين- و الأول أشهر. و طغرلبك (بضم الطاء المهملة و كسر الراء المهملة و سكون اللام و فتح الباء ثانية الحروف و سكون الكاف).

و فيها توفّى مسلم بن إبراهيم أبو الفضل السلمىّ البزّاز، و يعرف بابن الشّويطر، كان أديبا فاضلا. و من شعره:

[البسيط]

ما فى زمانك من ترجو مودّته و لا صديق إذا خان الزمان وفا

فعش فريدا و لا تركن إلى أحد فقد نصحتك فيما قلته و كفى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۷۴

و فيها توفّى منصور بن إسماعيل بن أبى قرّة القاضى أبو المظفّر الفقيه الهروىّ الحنفىّ قاضى هراة و خطيبها و مسندها، سمع الكثير و حدّث. و هو أحد أعيان فقهاء الحنفيّة فى زمانه. كان إماما حافظا مفتّنا. مات فى ذى القعدة عن قريب تسعين سنة.

و فيها كان الطاعون العظيم بمصر و قراها فمات بمصر فى عشرة أشهر كلّ يوم ألف إنسان.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم سبع أذرع و خمس عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و اثنتا عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۵۶]

السنة التاسعة و العشرون من ولاية المستنصر معدّ على مصر و هى سنة ستّ و خمسين و أربعمائة.

فيها وقعت فتنة عظيمة بين عبيد مصر و التّرك؛ و وصل ناصر الدولة بن حمدان إلى الإسكندرية، و التقى مع العبيد بموضع يعرف بالكرم؛ فقتل من العبيد ألف رجل، و هرب من بقى. ثم تردّدت الرسل فى إصلاح ذات البين فتمّ. و قد تقدّم شىء من ذلك فى ترجمة المستنصر هذا.

و فيها جرت مراسلة بين قاورد بك ابن [أخى] طغرلبك السّلجوقىّ و بين أخيه ألب أرسلان، و سببه أن ألب أرسلان لمّا ملك الرىّ و استولى على الأموال.

کان قاورد بک علی أصبهان فرجع إلی کرمان و خطب لألب أرسلان المذکور و لنفسه من بعده؛ فلم یحصل له إنصاف من ألب أرسلان؛ فوقع بسبب ذلک ما وقع.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۷۵

و فیها توفّی الحسن بن عبد اللّه بن أحمد أبو الفتح الحلبیّ الشاعر المعروف بآبن أبی حصینة. کان فاضلا شجاعا فصیحا، یخاطب بالأمیر.

و فیها توفّی عبد الواحد بن علیّ بن برهان أبو القاسم النحویّ. کان إماما فاضلا نحویّا و فیه شراسة خلق؛ و لم یلبس سراویل قطّ و لا غطّی رأسه أبدا. و مات ببغداد فی جمادی الأولی.

و فیها توفّی علیّ بن أحمد بن سعید بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف ابن معدان بن سفیان بن یزید مولی یزید بن أبی سفیان بن حرب بن أمیّة الأموی الفارسیّ الأصل، ثمّ الأندلسیّ القرطبیّ أبو محمد المعروف بآبن حزم المحدّث صاحب التصانیف المشهورة. کان ظاهریّ المذهب. و قد تکلّم فیه کلّ أحد ما خلا أهل الحدیث، فإنّهم أثنوا علی حفظه. کان إماما عارفا بفنون الحدیث، إلا أنّه کان صاحب لسان خبیث، و یقع فی حقّ العلماء الأعلام حتّی صار مثلا، فیقال:

«نعوذ بالله من سیف الحجّاج و لسان ابن حزم». و کان له شعر جیّد. فمن ذلک قوله:

[الوافر]

لئن أصبحت مرتحلا بجسمی فقلبی عندکم أبدا مقیم

و لکن للعیان لطیف معنی له سأل المعاینة الکلیم

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم خمس أذرع و اثنتا عشرة إصبعا.

مبلغ الزیادة ستّ عشرة ذراعا و ثلاث أصابع.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۷۶

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۵۷]

السنة الثلاثون من ولایة المستنصر معدّ علی مصر و هی سنة سبع و خمسین و أربعمائة.

فیها توفّی محمد بن منصور أبو نصر عمید الملک الکندریّ وزیر السلطان طغرلبک السّلجوقی. کان فاضلا مدبّرا حازما عاقلا. و کان طغرلبک فی مبدأ أمره قد بعثه لیخطب له امرأة فتزوّجها هو، فخصاه طغرلبک ثم أقرّه علی خدمته، فآستولی علیه إلی أن مات. و وزر بعد موت طغرلبک لابنه ألب أرسلان و هو الذی قتله. و ولی الوزارة بعده نظام الملک الذی نشر مذهب الإمام الشافعی بالعجم. و کان عمید الملک المذکور فاضلا أدیبا شاعرا. و من شعره لمّا تحقّق قتله، و أجاد إلی الغایة:

[البسیط]

إن کان بالناس ضیق عن مزاحمتی فالموت قد وسّع الدنیا علی الناس

قضیت و الشامت المغرور یتبعنی إنّ المنیة کاس کلّنا حاسی

و فیها توفّی عبید اللّه بن عمر القاضی أبو زید الدّبوسیّ الحنفیّ شیخ الحنفیّة بما وراء النهر. کان إماما عالما فقیها نحویّا بارعا فی فنون عفیفا مشکور السّیرة،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۷۷

انتهت إلیه ریاسة مذهب أبی حنیفة فی زمانه بما وراء النهر، و مات و المعوّل علی فتواه بها.

و فيها توفّى عبد الملك بن محمد بن عبد اللّه بن بشران أبو القاسم الواعظ الفقيه المحدّث فى شهر ربيع الآخر. و كان له لسان حلو فى الوعظ مع دين و زهد و عفّة.

و فيها توفّى موسى بن عيسى بن أبى حاجّ أبو عمران الفقيه المالكىّ القابسىّ، شيخ المالكيّة فى زمانه. كان فقيها نحويّا إماما فاضلا بارعا فى فنون من العلوم.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و أربع عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و عشر أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۵۸]

السنة الحادية و الثلاثون من ولاية المستنصر معدّ على مصر و هى سنة ثمان و خمسين و أربعمائة.

فيها شرع أهل الكرخ فى عمل مأتم الحسين فى يوم عاشوراء، فثار عليهم أهل السنّة. فقال القائم بأمر اللّه: هذا شىء قد كان فلا تعاودوه، و نهى عنه. فانكفّت الرافضة بغيظهم إلى لعنة اللّه.

و فيها توفّى أحمد بن الحسين بن علىّ بن عبد اللّه الحافظ أبو بكر البيهقىّ؛ مولده سنة أربع و ثمانين. كان أوحد زمانه فى الحديث و الفقه، و له تصانيف كثيرة، جمع نصوص الإمام الشافعىّ- رضى اللّه عنه- فى عشرة مجلّدات. و مات بنيسابور فى جمادى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۷۸

الاخرة، و نقل تابوته إلى بيهق. و قد روينا سننه الكبرى عن الشيخ أبى النعيم رضوان العقبىّ ثنا التقىّ بن حاتم انا علىّ بن عمر الأرموىّ انا ابن البخارىّ انا منصور بن عبد المنعم الفراوىّ انا محمد بن إسماعيل الفارسىّ انا أبو بكر البيهقىّ.

و فيها توفّى محمد بن الحسين بن محمد بن خلف بن أحمد بن الفرّاء أبو يعلى القاضى الحنبلىّ. ولد سنة ثمانين و ثلثمائة فى المحرّم، و سمع الكثير و تفقّه على جماعة من العلماء، و انتهت إليه رياسة الحنابلة فى زمانه، و مات يوم الاثنين العشرين من شهر رمضان، و كانت جنازته مشهورة مشى فيها الأعيان مثل القاضى الدّامغانىّ الحنفىّ و نقيب الهاشميّين أبى الفوارس طرّاد و غيرهما.

و فيها توفّى محمد بن الفضل بن نظيف أبو عبد اللّه المصرىّ الفرّاء فى شهر ربيع الآخر و له تسعون سنة، و كان إماما عالما زاهدا و رعا.

و فيها توفّى المسدّد بن علىّ أبو المعمّر الأملوكىّ الإمام المحدّث البارع خطيب حمص. كان إماما فقيها فصيحا، سمع الحديث و رواه.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۷۹

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثلاث أذرع و أربع و عشرون إصبعا. مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و سبع عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۵۹]

السنة الثانية و الثلاثون من ولاية المستنصر معدّ على مصر و هى سنة تسع و خمسين و أربعمائة.

فيها بعث المستنصر صاحب الترجمة إلى محمود بن الرّوقلية المتغلّب على حلب يطالبه بحمل المال و غزّو الروم، و صرف ابن خاقان و من معه من الغزّ إن كان على طاعته. فأجاب بأنّنى التزمت على أخذ حلب من عمّى أموالا افترضتها و أنا مطالب بها، و ليس فى يدى ما أقضيها فضلا عمّا أصرفه لغيره. و أمّا الرّوم فقد هادنتهم مدّة و أعطيتهم ولدى رهينة على مال اقترضته منهم، فلا سبيل إلى محاربتهم. و أمّا ابن خاقان و الغزّ معه فيدهم فوق يدى. فلمّا وصل الجواب إلى المستنصر كتب المستنصر أيضا إلى بدر الجمالىّ أمير

الجيوش المقيم بـدمشق: إنّ ابن الرّوقلية خلع الطاعة و مال إلى جهة العراقية. ثم ندب بدر الجمالىّ المذكور عطيّة و هو بالرّحبة لقتاله؛ فدخل القاضى ابن عمّار المقيم بطرابلس بينهم و أصلح الحال.

و فيها كان بمصـر الغلاء و القحط المتواتر الـذى خرج عن الحدّ- و قد تقدّم ذكره- و لا زال فى زيادة فى هذه السـنة و التى قبلها إلى أن أخذ أمره فى نقص فى سنة إحدى و ستّين و أربعمائة. و أبيع القمح فى هذه السنة بثمانين دينارا الإردبّ.

و فيهـا توفّى سـعيد بن محمـد بن الحسن أبو القـاسم إمـام جـامع صور. كـان فاضـلا سـمع الحـديث و رواه، و من رواياته عن الحسـن البصرىّ أنه قال: «لا تشتروا مودّة ألف رجل بعداوة رجل واحد».

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۸۰

و فيها توفّى علىّ بن الخضر أبو الحسن العثمانىّ الدمشقىّ الحاسب. كان له تصانيف فى علم الحساب. و مات بدمشق فى شوّال.

و فيهـا كـان بالرملـة الزّلزلـة الهائلـة التى أخربتهـا حتّى طلع المـاء من رءوس الآبـار، و هلك من أهلها- كما نقل ابن الأثير- خمسـة و عشرون ألفا. و قال ابن الصابئ:

حدّثنى علوىّ كان بالحجاز: أنّ الزلزلة كانت عندهم فى الوقت المذكور، و هو يوم الثلاثاء حادى عشر جمادى الأولى، فرمت شرفتين من مسـجد النّبىّ صـلّى اللّه عليه و سـلّم، و انشـقّت الأرض فبان فيها كنوز ذهب و فضّة، و انفجرت فيها عين ماء، و أنها أهلكت أيلة و من فيها؛ و ذكر أشـياء كثيرة من هذه المقولة. و أمّا ابن الأثير فإنّه قال: و انشـقّت صخرة بيت المقدس و عادت بإذن اللّه، و أبعد البحر عن ساحله مسيرة يوم، فنزل النّاس إلى أرضه يلتقطون السمك فرجع الماء عليهم فأهلكهم.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ستّ أذرع و عشرون إصبعا.

مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و سبع عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۶۰]

السنة الثالثة و الثلاثون من ولاية المستنصر معدّ على مصر و هى سنة ستّين و أربعمائة.

فيهـا ولّى المستنصـر دمشق للأـمير بارزطغـان قطب الدولـة، و وصل معه الشـريف أبو طاهر حيـدرة، و نزل بـدار العقيقىّ، و انهزم بـدر الجمالىّ أمير الجيوش من دمشق، فنهب أهلها خزائنه لأنّه كان مسيئا إليهم؛ ثم ظفر بدر الجمالى بالشريف حيدرة بعد أمور صدرت و سلخه.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۸۱

و فيهـا جـاء ناصـر الدولـة بالأـتراك إلى باب المستنصـر بالقاهرة- و قيل: بالساحل- و زحف المـذكورون إلى باب وزيره ابن كـدينة فطالبوه بالمال؛ فقال: و أىّ مال بقى عنـدى بعـد أخذكم الأموال و اقتسامكم الإقطاعات! فقالوا: لا بدّ أن تكتب إلى المستنصـر. فكتب إليه بما جرى. فكتب المستنصر الجواب على الرّقعة بخطه يقول:

[السريع]

أصبحت لا أرجو و لا أتّقى إلّا إلهى و له الفضل

جدّى نبيّى و إمامى أبى و قولى التوحيد و العدل

المال مال اللّه، و العبد عبد اللّه، و الإعطاء خير من المنع وَ سَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ.

و فيها توفّى أحمد بن محمد بن عقيل الشّهرزورىّ الشاعر الفاضل فى القدس الشريف. و كان إماما فاضلا أديبا شاعرا. و من شعره:

[البسيط]

وا حسرتا مات حظّى من قلوبكم و للحظوظ كما للناس آجال

و فيها توفّى الحسن بن أبى طاهر بن الحسن أبو على الختّلىّ. كان يسكن دمشق و بها توفّى. و من رواياته عن الحسن عن الحسن عن الحسن عن الحسن عن النّبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «إنّ أحسن الحسن الخلق الحسن» فالحسن الأوّل

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۸۲

ابن حسّان التميمىّ، و الثانى ابن دينار، و الثالث البصرىّ، و الرابع ابن علىّ ابن أبى طالب، رضى اللّه عنهما.

و فيها توفّيت خديجة بنت محمد بن علىّ بن عبد اللّه الواعظة الشّاهجانيّة. كانت عظيمة مشهورة بالصدق و الورع و الزهد و الدّين المتين. ولدت سنة ستّ و سبعين و ثلثمائة. و كانت تسكن قطيعة الربيع. و صحبت ابن سمعون الواعظ. و لمّا ماتت دفنت إلى جانبه.

و فيها توفّى عبد الملك بن محمد بن يوسف أبو منصور البغدادىّ، كان إماما بارعا لم يكن فى زمانه من يخاطب بالشيخ الأجلّ سواه. ولد سنة خمس و تسعين و ثلثمائة، و كان أوحد زمانه فى فعل المعروف، و القيام بأمور العلماء، و قمع أهل البدع.

و فيها توفّى أبو جعفر الطّوسىّ فقيه الإماميّة الرافضة و عالمهم. و هو صاحب «التفسير الكبير» و هو عشرون مجلّدا، و له تصانيف أخر. مات بمشهد علىّ- رضى اللّه عنه- و كان مجاورا بضريحه. كان رافضيّا قوىّ التشيّع.

و فيها توفّى أحمد بن محمد بن عيسى بن هلال أبو عمر القرطبىّ المعروف بابن القطّان المالكىّ المغربىّ شيخ المالكيّة فى زمانه و عالمهم. مات فى هذه السنة و له سبعون سنة.

و فيها توفّى أحمد بن الفضل أبو بكر الباطرقانىّ المقرئ فى صفر و له ثمان و ثمانون سنة. كان إماما عالما بالقراءات رحمه اللّه.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۸۳

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و ثلاث أصابع. مبلغ الزيادة خمس عشرة ذراعا و ستّ أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۶۱]

السنة الرابعة و الثلاثون من ولاية المستنصر معدّ على مصر و هى سنة إحدى و ستّين و أربعمائة.

فيها خرج ناصر الدولة بن حمدان من عند الوزير أبى عبد اللّه [الماسكىّ] وزير المستنصر بمصر؛ فوثب عليه رجل صيرفىّ و ضربه بسكّين؛ فأمسك الصيرفىّ و شنق فى الحال، و حمل ناصر الدولة بن حمدان إلى داره جريحا، فعولج فبرىء بعد مدّة.

و قيل: إنّ المستنصر و والدته كانا دسّا الصيرفىّ عليه. و فى هذه الأيام اضمحلّ أمر المستنصر بالديار المصريّة لتشاغله باللّهو و الشرب و الطّرب. فلمّا عوفى ابن حمدان اتّفق مع مقدّمى المشارقة، مثل سنان الدولة و سلطان الجيوش و غيرهما، فركبوا و حصروا القاهرة. فاستنجد المستنصر و أمّه بأهل مصر، و أذكرهم حقوقه عليهم، و وعدهم بالإحسان؛ فقاموا معه و نهبوا دور أصحاب ابن حمدان و قاتلوهم. فخاف ابن حمدان و أصحابه، و دخلوا تحت طاعة المستنصر، بعد أمور كثيرة صدرت بين الفريقين.

و فيها أبيع القمح بمصر بمائة دينار الإردبّ، ثمّ عدم وجوده. و قد ذكرنا ذلک كلّه فى أوّل ترجمة المستنصر مفصّلا.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۸۴

و فيها توفّى عبد الرحيم بن أحمد بن نصر الحافظ أبو زكريّا البخارىّ التميمىّ، سمع الحديث و طاف البلاد فى طلب الحديث، و سمع بعدّة أقطار و اتّفقوا على صدقه و ثقته. و كانت وفاته فى المحرّم بمصر.

و فيها توفّى محمد بن مكّى بن عثمان الحافظ أبو الحسين الأزدىّ المصرىّ فى جمادى الأولى، و كان إماما فاضلا محدّثا، سمع الحديث و رحل البلاد.

و فيها توفّى نصر بن عبد العزيز أبو الحسين الشّيرازىّ الفارسىّ المقرئ، كان إماما فى علم القراءات، و له سماع و رواية.

أمر النيل فی هذه السنة- الماء القديم ستّ أذرع و أربع و عشرون إصبعا.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و ثمانی عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۶۲]

السنة الخامسة و الثلاثون من ولاية المستنصر معدّ على مصر و هی سنة اثنتين و ستّين و أربعمائة.

فيها كان معظم الغلاء بالديار المصريّة حتّى خربت و خرب غالب أعمالها. و أبطل صاحب مكّة و [صاحب] المدينة خطبة المستنصر، و خطبا للقائم بأمر اللّه العبّاسیّ؛ فلم يلتفت المستنصر لذلک لشغله بنفسه و رعيّته من عظم الغلاء.

و فيها وقف الوزير نظام الملک الأوقاف على مدرسته النظاميّة ببغداد.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۸۵

و فيها توفّی الحسن بن علیّ بن محمد أبو الجوائز الواسطیّ الكاتب، ولد سنة اثنتين و خمسين و ثلثمائة؛ و سكن بغداد دهرا طويلا. و كان شاعرا ماهرا. و من شعره- رحمه اللّه تعالى-:

[الرجز]

و احربا من قولها: خان عهودی ولها

و حقّ من صيّرنی وقفا عليها و لها

ما خطرت بخاطری إلا كستنی ولها

و فيها توفّی الشريف حيدرة بن إبراهيم أبو طاهر بن أبی الجنّ، الشريف العلویّ. كان عالما قارئا محدّثا و كان عدوّا لبدر الجمالیّ؛ فلمّا دخل بدر الجمالیّ دمشق هرب منها حيدرة المذكور إلى عمّان البلقاء؛ فغدر به بدر بن حازم و بعث به إلى بدر الجمالیّ بعد أن أعطاه بدر الجمالیّ اثنی عشر ألف دينار و خلعا كثيرة؛ فقتله بدر الجمالیّ أقبح قتله ثمّ سلخ جلده. و قيل: سلخه حيّا. و أظنّ القاضی شهاب الدين أحمد قاضی دمشق و كاتب مصر فی زماننا هذا كان من ذرّيّة ابن أبی الجنّ هذا. و اللّه أعلم.

و فيها توفّی محمد بن أحمد بن سهل أبو غالب بن بشران النحویّ الواسطیّ الحنفیّ و يعرف بابن الخالة. كان إماما عالما فاضلا عارفا بالأدب و النّحو و اللّغة و الحديث و للفقه، و كان شيخ العراق و رحلته. و ابن بشران جدّه لأمّه. و مات بواسط.

و من شعره:

[المتقارب]

يقول الحبيب غداة الوداع كأن قد رحلنا فما تصنع

فقلت أواصل سفح الدموع و أهجر نومی فما أهجع

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۸۶

و له أيضا:

[البسيط]

لمّا رأيت سلوّی غير متّجه و أنّ عزم اصطباری عاد مفلولا

دخلت بالرّغم منّی تحت طاعتكم ليقضی اللّه أمرا كان مفعولا

و فيها توفّی هزار سب بن تنكر بن عياض أبو كاليجار تاج الملوک الكردیّ. كان قدم على السلطان ألب أرسلان السلجوقیّ بأصبهان ثمّ عاد إلى خوزستان، و نزل بموضع يعرف بخرندة. و كان قد تجبّر و تكبر و تسلط و تفرعن و تزوّج بأخت السلطان ألب أرسلان،

فلحقه مرض الذّرب حتی مات منه.

و فیها توفّی محمـد بن عتّاب الإمام الفقیه أبو عبـد اللّه القرطبیّ المالکیّ مفتی قرطبة و عالمها، انتهت إلیه ریاسة مذهبه فی زمانه ببلاد قرطبة.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم أربع أذرع و عشر أصابع. مبلغ الزیادة ستّ عشرة ذراعا سواء.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۶۳]

السنة السادسة و الثلاثون من ولایة المستنصر معدّ علی مصر و هذه سنة ثلاث و ستین و أربعمائة.

فیها کانت الواقعة العظیمة بین السلطان ألب أرسلان بن طغرلبک السّلجوقیّ و بین ملک الرّوم، و انتصر المسلمون و للّه الحمد. ثم سار ألب أرسلان إلی دیار بکر و افتتح بها عدّة حصون، ثم نزل علی الفرات؛ و لم یخرج إلیه محمود صاحب حلب

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۸۷

فغاظه ذلک، فقدم حلب فسار إلیها و وصلها، و أخربت عساکره حلب و نهبوها، و وصلت عساکره إلی القریتین من أعمال حمص؛ ثم شفع فیه الخلیفة القائم بأمر اللّه، فقبل ألب أرسلان الشّفاعة و اصطلحا.

و فیها ملکت الفرنج جزیرة صقلّیة. و سببه أنّه کان بها وال، فبعث إلیه المستنصر صاحب مصر یطلب منه المال، و کان عاجزا عمّا طلب منه، فبعث إلی الفرنج و فتح لهم باب البلد فدخلوا و قتلوا و ملکوا الجزیرة.

و فیها ظهر أتسز بن أوق مقدّم الأتراک، و فتح الرّملة و بیت المقدس، و ضایق دمشق، و أخرب الشام.

و فیها توفّی أحمد بن علیّ بن ثابت بن أحمد بن مهدی أبو بکر الخطیب البغدادیّ.

ولـد سـنة إحـدی و تسـعین و ثلثمائة بدرزیجان (قریة من قری العراق) ثمّ انتقل إلی بغداد، و رحل و سـمع الحدیث، و صـنّف الکتب الکـثیرة. و یروی عن أبی الحسـین ابن الطیوریّ أنه قـال: أکثر کتب الخطیب مسـتفادة من کتب الصوریّ (یعنی أخـذها برقتهـا). منهـا: «تاریخ بغداد» الذی تکلّم فیه فی غالب علماء الإسلام بالألفاظ القبیحة بالرّوایات الواهیة الأسانید المنقطعة، حتی امتحن فی دنیاه بأمور قبیحة- نسأل اللّه السـلامة و حسن العاقبة- و رمی بعظائم. و أمر صاحب دمشق بقتله لو لا [أنه] استجار بالشریف ابن أبی الجنّ فأجاره. و قصته مع الصبیّ الذی عشقه

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۸۸

مشـهورة. و من أراد شـیئا من ذلک فلینظر فی تاریـخ الإمام الحافظ الحجة أبی الفرج ابن الجوزی المسـمّی ب «المنتظم»؛ و أیضا ینظر فی تاریـخ العلّامـة شـمس الـدین یوسف ابن قزأوغلی (أعنی مرآة الزمـان) و مـا وقع له من الأـمور و المحن. و مـا ربّک بظلّام للعبیـد. أضـربت عن ذکر [ذلک] کلّه لکونه متخلّقا بأخلاق الفقهاء، و أیضا من حملة الحدیث الشـریف. غیر أنّنی أذکر من شـعره ما تغزّل به فی محبوبه المذکور. فمن ذلک قوله من قصیدة أوّلها:

[البسیط]

تغیّب الناس عن عینی سوی قمر حسبی من الناس طرّا ذلک القمر

و کلّه علی هذه الکیفیّة.

و فیها توفّی أحمد بن عبد اللّه بن أحمد بن غالب بن زیدون أبو الولید المخزومیّ الأندلیسـیّ القرطبیّ الشاعر المشـهور المعروف بابن زیدون، حامل لواء الشعراء فی عصره. کانت وفاته فی شهر رجب بمدینة إشبیلیة. و من شعره:

[السریع]

أيّتها النفس إليه اذهبى فما لقلبى عنه من مذهب

مفضّض الثغر له نقطة من عنبر فى خدّه المذهب

أنسانى التّوبة من حبّه طلوعه شمسا من المغرب

و له القصيدة التى سارت بها الركبان الموسومة بالزيدونية التى أوّلها:

[البسيط]

بنتم و بنا فما ابتلت جوانحنا شوقا إليكم و لا جفّت مآقينا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۸۹

و فيها توفّى محمد بن علىّ بن محمد بن حباب أبو عبد اللّه الصّورىّ الشاعر المشهور.

كان فاضلا فصيحا. مات بطرابلس. و من شعره أوّل قصيدة:

[الكامل]

صبّ جفاه حبيبه فحلا له تعذيبه

و فيها توفّى محمد بن وشاح بن عبد اللّه أبو علىّ. ولد سنة تسع و سبعين و ثلثمائة.

و كان فاضلا كاتبا شاعرا فصيحا مترسّلا. رحمه اللّه.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و عشر أصابع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و ثلاث أصابع.

*** ا

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۶۴]

لسنة السابعة و الثلاثون من ولاية المستنصر معدّ على مصر و هى سنة أربع و ستين و أربعمائة.

فيها بعث الخليفة القائم بأمر اللّه الشريف أبا طالب الحسن بن محمد أخا طرّاد الزّينبىّ إلى أبى هاشم محمد أمير مكّة بمال و خلع، و قال له: غيّر الأذان و أبطل «حىّ على خير العمل». فناظره أبو هاشم المذكور مناظرة طويلة، و قال له: هذا أذان أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب. فقال له أخو الشريف: ما صحّ عنه، و إنّما عبد اللّه بن عمر بن الخطّاب روى عنه أنه أذّن به فى بعض أسفاره، و ما أنت و ابن عمر! فأسقطه من الأذان.

و فيها توفّى عبد اللّه بن محمد بن عثمان القاضى أبو طالب أمير الدولة، الحاكم على طرابلس الشأم و المتولّى عليها. و كان كريما، كثير الصدقة، عظيم المراعاة للعلويّين.

مات فى نصف شهر رجب.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۹۰

و فيها توفّى عيسون بن علىّ الشيخ أبو بكر الصّيقلّى الزاهد المشهور. كان كثير العبادة و الزّهد و الورع. صنّف كتابا سماه «دليل القاصدين» فى اثنى عشر مجلدا.

و فيها توفّى محمد بن أحمد بن محمد بن عبد اللّه بن عبد الصّمد ابن الخليفة المهتدى بالله أبو الحسين الهاشمىّ العبّاسىّ، خطيب جامع المنصور ببغداد. كان صالحا عالما زاهدا ثقة.

و فيها توفّى المعتضد بالله عبّاد بن محمد بن إسماعيل بن عبّاد الملك الجليل صاحب إشبيلية من بلاد الغرب، فى قول الذهبىّ. كان من أجلّ ملوك المغرب و أعظمهم؛ و كان محبّا للعلماء و الشعراء، و عنده فضيلة و مشاركة. و كان ابن زيدون الشاعر- المقدّم ذكره- عنده فى صورة وزير. رحمه اللّه تعالى.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و عشر أصابع. مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و عشر أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۶۵]

السنة الثامنة و الثلاثون من ولاية المستنصر معدّ على مصر و هى سنة خمس و ستين و أربعمائة.

فيها قتل الحسن بن الحسين بن حمدان الأمير أبو محمد ناصر الدولة التّغلبىّ ذو المجدين المقدّم ذكره فى أوّل ترجمة المستنصر هذا. وقع له أمور آل أمره بعدها إلى أن تزوج ببنت إلدكز، و اتّفق معه. و اتفق لهما أمور كثيرة مع المستنصر صاحب

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۹۱

الترجمة. و لما اتّفقا قوى أمر ناصر الدولة هذا و دخل إلى مصر و استولى عليها، و لقّب نفسه بسلطان الجيوش، و أمن إلدكز و ناصر الدولة هذا كلّ منهما إلى الآخر.

و وقع لهما أمور، إلى أن دخل ناصر الدولة مصر ثالث مرّة، فغدر إلدكز به و قتله، حسب ما ذكرناه مفصّلا فى ترجمة المستنصر. ثمّ خرج إلدكز بمن معه إلى محمود بن ذبيان أمير بنى سنبس فقتلوه، و كان عنده الأمير شاور فقتلوه أيضا، و خرجوا إلى خيمة تاج المعالى بن حمدان أخى ناصر الدولة فقتلوه بعد أن هرب منهم. ثم قطع ابن حمدان المذكور قطعا و أنفذ كلّ قطعة إلى بلد. قلت: و هذا ناصر الدولة آخر من بقى من أولاد بنى حمدان ملوک حلب و غيرها.

و فيها توفّى عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة بن محمد أبو القاسم القشيرىّ النيسابورىّ. ولد سنة ستّ و سبعين و ثلثمائة فى شهر ربيع الأوّل؛ و ربّى يتيما فقرأ و اشتغل بالأدب و العربية. و كان أوّلا من أبناء الدنيا، فجذبه أبو علىّ الدّقّاق فصار من الصوفيّة. و تفقّه على بكر بن محمد الطّوسىّ، و أخذ الكلام عن ابن فورک، و صنّف «التفسير الكبير» و «الرسالة». و كان يعظ و يتكلّم بكلام الصوفيّة.

و مات بنيسابور. و من شعره:

[السريع]

إن نابک الدهر بمكروهه فقل بتهوين تخاويفه

فعن قريب ينجلى غمّه و تنقضى كلّ تصاريفه

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۹۲

و قد روينا رسالته عن حافظ العصر قاضى القضاة شهاب الدّين أحمد بن علىّ ابن حجر انا أبو الحسن بن أبى المجد شفاها انا أبو محمد القاسم بن مظفّر بن عساكر إجازة إن لم يكن سماعا انا محمد بن على بن محمود العسقلانىّ سماعا انا أمّ المؤيّد زينب بنت عبد الرحمن الشّعريّة سماعا انا أبو الفتوح عبد الوهاب بن شاه الكرمانىّ انا المؤلّف رحمه اللّه.

و فيها توفّى السلطان ألب أرسلان عضد الدولة أبو شجاع محمد الملقّب بالملک العادل ابن جغرى بک داود بن ميكائيل بن سلجوق السلجوقىّ التركىّ، ثانى ملوک بنى سلجوق، كان اسمه بالعربىّ محمدا. و بالتركىّ ألب أرسلان. و أصل هؤلاء السّلجوقية من الأتراک فيما وراء النهر، فى موضع بينه و بين بخارى مسافة عشرين فرسخا، و كانوا لا يدخلون تحت طاعة سلطان حتّى صار من أمرهم ما صار. و هو ابن أخى السلطان طغرلبک محمد، و بعده تولّى السلطنة. و ألب أرسلان هذا هو أوّل من أسلم من إخوته، و أوّل من لقّب بالسلطان من بنى سلجوق، و ذكر على منابر بغداد. و كانت سلطنته بعد عمّه طغرلبک فى سنة سبع و خمسين و أربعمائة.

و نازعه أخوه قاورد بک فلم يتمّ [له] أمر. و كان ملكا مطاعا شجاعا. مات و هو أجلّ ملوک بنى سلجوق و أعد لهم فى الرعيّة. و هو الذى أنشأ وزيره نظام الملک. و تولّى السلطنة من بعده ولده ملكشاه. و مات ألب أرسلان و عمره أربعون سنة قتلا؛ و كان سبب موته

أنه سار فى سنة خمس و ستّين و أربعمائة فى مائتى ألف فارس إلى نحو

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۹۳

بلاد الروم، ثم عاد إلى ديار بكر، ثمّ إلى جهة حلب و قصد شمس الملك تكين. فلمّا دخل إليه أتاه أعوانه بوالى قلعة من قلاع شمس الملك، و اسم الوالى يوسف الخوارزمى، و قرّبوه إلى سرير السلطان ألب أرسلان، فأمر ألب أرسلان أن يضرب له أربعة أوتاد و تشدّ أطرافه الأربعة إليها. فقال يوسف المذكور للسلطان: يا مخنّث، مثلى يقتل هذه القتلة! فغضب السلطان و أخذ القوس و النّشّاب و قال: خلّوه، فرماه فأخطأه، و لم يكن يخطئ له سهم قبل ذلك، فأسرع يوسف المذكور و هجم على السلطان على السرير، فنهض السلطان و نزل فعثر و خرّ على وجهه؛ فوصل يوسف إليه و برك عليه و ضربه بسكّين فى خاصرته؛ و قتل يوسف فى الحال، و حمل السلطان فمات بعد أيّام يسيرة- و قيل فى يومه- و كان ذلك فى جمادى الآخرة من السنة. و ألب أرسلان بفتح الهمزة و سكون اللام و بعدها باء موحدة و بقية الأسم معروف.

و فيها توفّى قاوردبك بن داود بن ميكائيل السّلجوقىّ أخو السلطان ألب أرسلان المقدّم ذكره. و لمّا مات أخوه ألب أرسلان نازع ابن أخيه ملكشاه و قاتله، فظفر به ملكشاه بعد حروب و أسره و أمر بقتله؛ فحنقه رجل أرمنىّ بوترقوس، و تولّى سعد الدولة كوهرائين على قتله، و كان ذلك فى شعبان بهمذان. و أمر قاورد بك المذكور من العجائب؛ فإنّه كان يتمنّى موت ألب أرسلان و يتصوّر أنّه يملك الدنيا بعده، فكان هلاكه مقرونا بهلاكه. قلت: و كذلك كان أمر قتلمش مع أخيه طغرلبك عمّ ألب أرسلان و قاورد بك؛ فإنّه كان ينظر فى النجوم و يتحقّق أنه يملك بعده، و كان هلاكه أيضا مقرونا بهلاكه.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۹۴

و فيها توفّى محمد بن أحمد بن المسلمة الحافظ أبو جعفر. كان إماما حافظا محدّثا عالما. مات ببغداد فى جمادى الأولى من السنة.

و فيها توفّى علىّ بن الحسن بن علىّ بن الفضل الرئيس أبو منصور الكاتب المعروف بصرّدرّ الشاعر المشهور. كان أحد نجباء الشّعراء فى عصره، جمع بين جودة السّبك و حسن المعنى. و من شعره:

[البسيط]

أكلّف القلب أن يهوى و ألزمه صبرا و ذلك جمع بين أضداد

و أكتم الركب أو طارى و أسأله حاجات نفسى لقد أتعبت روّادى

و له أيضا:

[الكامل]

لم أبك أن رحل الشباب و إنّما أبكى لأن يتقارب الميعاد

شعر الفتى أوراقه فإذا ذوى جفّت على آثاره الأعواد

و له أيضا فى جارية سوداء:

[السريع]

علقتها سوداء مصقولة سواد قلبى صفة فيها

ما انكسف البدر على تمّه و نوره إلا ليحكيها

لأجلها الأزمان أوقاتها مؤرّخات بلياليها

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثلاث أذرع و سبع عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و سبع أصابع.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۹۵

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۶۶]

السنة التاسعة و الثلاثون من ولاية المستنصر معدّ على مصر و هى سنة ستّ و ستّين و أربعمائة.

فيها خرج عساكر غزنة و تعرّضوا لبلاد السلطان ملكشاه السّلجوقى؛ فخرج إليهم إلياس بن ألب أرسلان أخو ملكشاه، فقاتلهم و استأمن إليه سبعمائة منهم، و انهزم من بقى إلى غزنة، و أوغل خلفهم إلياس. و كان سلطان غزنة يوم ذاك إبراهيم بن مسعود بن محمود بن سبكتكين. ثم عاد إلياس من الوقعة و قد كفى ملكشاه أمر الغزنويّة. و لمّا وصل إلياس إلى بلخ مات بعدها بثلاثة أيّام، و سرّ أخوه ملكشاه بموته، فإنّه كان منحرفا على ملكشاه. فقال له وزيره نظام الملك: لا تظهر الشماتة و اقعد فى العزاء؛ ففعل و أظهر الجزن عليه.

و فيها بنى حسّان بن مسمار الكلبىّ قلعة صرخد، و كتب على بابها: أمر بعمارة هذا الحصن المبارك الأمير الأجلّ مقدّم العرب عزّ الدّين فخر الدولة عدّة أمير المؤمنين (يعنى المستنصر صاحب مصر) و ذكر عليها اسمه و نسبه.

و فيها قال ابن الصابئ: ورد إلى مكّة إنسان عجمىّ يعرف بسلار من جهة جلال الدولة ملكشاه، و دخل و هو على بغلة بمركب ذهب، و على رأسه عمامة سوداء، و بين يديه الطّبول و البوقات، و معه للبيت كسوة ديباج أصفر، و عليها اسم محمود بن سبكتكين و هى من استعماله؛ و كانت مودعة بنيسابور من عهد محمود ابن سبكتكين عند إنسان يعرف بأبى القاسم الدّهقان، فأخذها الوزير نظام الملك منه و أنفذها مع المذكور.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۹۶

و فيها توفّى أحمد بن محمد بن عقيل أبو العباس الشّهرزورىّ. كان محدّثا و سمع الكثير، و كان فاضلا فقيها شاعرا. مات ببيت المقدس فى ذى القعدة. و من شعره من قصيدة طويلة قوله:

[البسيط]

سألت طيفك عن تلفيق إفكهم فقال معتذرا لا كان ما قالوا

سعى الوشاة بقطع الودّ بينكما و للمودّات بين الناس آجال

و فيها توفّى عبد اللّه بن محمد بن سعيد بن سنان أبو محمد الخفاجىّ الحلبىّ الشاعر المشهور. كان فصيحا فاضلا. أخذ الأدب عن أبى العلاء المعرّى و غيره، و سمع الحديث و برع فيه. و مات بقلعة اعزاز من أعمال حلب. و من شعره قوله:

[الرمل]

أ ترى طيفكم لمّا سرى أخذ النّوم و أعطى السّهرا

يا عيونا بالغضا راقدة حرّم اللّه عليكن الكرى

و منها:

سل فروع البان عن قلبى فقد و هم البارق فيما ذكرا

قال فى الرّبع و ما أحسبه فارق الأظعان حتّى انفطرا

و فيها توفّى عبد العزيز بن أحمد بن محمد بن علىّ بن سليمان أبو محمد الكتّانىّ الصوفىّ الحافظ الدّمشقىّ أحد الرّحالين فى طلب العلم. كان من المكثرين فى الحديث كتابة و سماعا مع الصدق و الأمانة.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۹۷

و فيها توفّى محمد بن إبراهيم بن علىّ الحافظ أبو بكر العطار الأصبهانىّ. كان عظيم الشأن ببلده، عارفا بالرجال و المتون، و كان إماما ثقة.

و فيها توفّى محمد بن عبيد اللّه بن أحمد [بن محمد] بن أبى الرّعد الفقيه الحنفىّ قاضى عكبرا. كان إماما فقيها صادقا ثقة. مات بعكبرا يوم الجمعة ثالث شهر ربيع الآخر.

و فيها توفّيت الماورديّة البصرية. كانت زاهدة عابدة صالحة، تجتمع إليها النساء فتعظهنّ و تؤدّبهنّ، قاربت الثمانين سنة، أقامت منها خمسين سنة لا تفطر النهار و لا تنام الليل، و لا تأكل خبزا و لا رطبا و لا تمرا، و إنّما يطحن لها الباقلاء فتتقوّت به. و ماتت بالبصرة فلم يبق بالبلد إلّا من شهد جنازتها.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و عشرون إصبعا.

و لمّا كان ليلة النّوروز نقص أصابع، ثم زاد حتى أوفى. و نودى عليه فى سابع عشرين توت: إصبع من سبع عشرة ذراعا. و انتهت زيادته فى هذه السنة إلى ستّ عشرة ذراعا و ثلاث أصابع (أعنى أنه زاد بعد الوفاء إصبعين لاغير).

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۶۷]

السنة الأربعون من ولاية المستنصر معدّ على مصر و هى سنة سبع و ستين و أربعمائة.

فيها أعيدت الخطبة بمكّة للمستنصر صاحب الترجمة.

و فيها توفّى الخليفة أمير المؤمنين القائم بأمر اللّه عبد اللّه ابن الخليفة القادر بالله أحمد ابن الأمير إسحاق ابن الخليفة جعفر المقتدر ابن الخليفة المعتضد بالله أحمد

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة؛ ج۵؛ ص۹۷

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۹۸

ابن الأمير طلحة الموفّق ابن الخليفة المتوكّل على اللّه جعفر ابن الخليفة المعتصم بالله محمد ابن الخليفة الرشيد بالله هارون ابن الخليفة المهدى بالله محمد ابن الخليفة أبى جعفر.

المنصور عبد اللّه بن محمد بن علىّ بن عبد اللّه بن عباس، أمير المؤمنين أبو جعفر الهاشمىّ العباسىّ البغدادىّ. و أمّه أمّ ولد روميّة تسمّى قطر النّدى. ماتت فى خلافته، حسب ما ذكرناه فى هذا الكتاب فى محلّه. و مولده فى سنة إحدى و تسعين و ثلثمائة.

و بويع بالخلافة بعد موت أبيه و عمره إحدى و ثلاثون سنة فى ذى الحجة سنة اثنتين و عشرين و أربعمائة. و كان جميلا مليح الوجه أبيض اللّون مشربا بحمرة أبيض الرأس و اللّحية، متديّنا و رعا زاهدا عالما، فى وجهه أثر صفار من قيام اللّيل، و كان يسرد الصوم، و كان قليل الجماع، و لهذا قلّ نسله. و كان سبب تركه الجماع أنّه جامع ليلة و بين يديه شمعة فصار صورته على الحائط صورة شنيعة، فقام عنها و قال:

لاعدت إلى مثلها. و كانت وفاته فى يوم الخميس ثالث عشر شعبان من هذه السنة، و له خمس و سبعون سنة و ثمانية أشهر و أربعة و عشرون يوما، و قيل غير ذلك.

و أقام فى الخلافة أربعا و أربعين سنة. قلت: و من الغرائب أن القائم هذا كان معاصرا للمستنصر العبيدى صاحب الترجمة و هو خليفة مصر، و كلاهما مكث فى الخلافة ما لم يمكثه غيره من آبائه و أجداده من طول المدّة؛ فالقائم هذا كانت مدّته أربعا و أربعين سنة، و المستنصر ستّين سنة؛ فما وقع للقائم لم يقع لأحد من العباسيّين، و ما وقع للمستنصر لم يقع لأحد من الفاطميّين. و بويع بالخلافة بعد القائم حفيده عبد اللّه بن محمد الذّخيرة بن القائم المذكور. و مولده بعد وفاة أبيه الذخيرة بستّة أشهر، و تولّى تربيته جدّه القائم، و لقّب بالمقتدى بالله.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۹۹

و فيها توفّى عبد الرحمن بن محمد بن المظفّر بن محمد بن داود أبو الحسن بن أبى طلحة الداووديّ الحافظ. ولد سنة أربع و سبعين و ثلثمائة، و سمع الحديث و قرأ الفقه و درس و أفتى، و وعظ و صنّف، و كان له حظّ من النظم و النثر. و من شعره:

[الخفيف]

كان فى الاجتماع للناس نور فمضى النّور و ادلهمّ الظلام

فسد الناس و الزمان جميعا فعلى الناس و الزمان السلام

و فيها توفّى أبو الحسن علىّ بن الحسن بن علىّ بن أبى الطيّب الباخرزىّ. كان إماما فاضلا شاعرا، صنّف «دمية القصر فى شعراء أهل العصر». و العماد الكاتب حذا حذوه. و كان الباخرزىّ فريد عصره، و ديوان شعره مشهور بأيدى الناس.

و من شعره قوله:

[الطويل]

زكاة رءوس الناس فى عيد فطرهم بقول رسول اللّه صاع من البرّ

و رأسك أغلى قيمة فتصدّقى بفيك علينا فهو صاع من الدّرّ

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۰۰

و فيها توفّى علىّ بن الحسين بن أحمد بن الحسين أبو الحسن الثّعلبى، و يعرف بابن صصرى. ذكره الحافظ ابن عساكر و أثنى عليه. حدّث عن تمّام بن محمد و غيره، و كان ثقة. و أصل بنى صصرى من قرية بالموصل. و مات بدمشق.

و فيها توفّيت كوهر خاتون عمّة السلطان ملكشاه السّلجوقىّ أخت السلطان ألب أرسلان. كانت ديّنة عفيفة، صادرها نظام الملك لمّا مات أخوها ألب أرسلان و أخذ منها أموالا عظيمة. فخرجت إلى الرىّ لتمضى إلى المباركيّة تستنجدهم على قتال الوزير نظام الملك، فأشار نظام الملك على ملكشاه بقتلها فقتلها. فلما وصل خبر قتلها إلى بغداد ذمّ الناس نظام الملك و قالوا: ما كفاه بناء هذه المدرسة النظاميّة و غصبه لأراضى الناس و أخذ أنقاضهم حتى دخل فى الدماء من قتله هذه المرأة! و أيضا أنّه أشار على ملكشاه بقتل عمّه قاورد بك المقدّم ذكره، ثم أشار على ملكشاه بكحل أولاد عمّه. و هجا نظام الملك جماعة من أهل العراق؛ فلمّا بلغ نظام الملك قال: ما أقام هذه الشناعة علىّ إلّا فخر الدولة بن جهير.

و فيها توفّى محمود بن نصر بن صالح صاحب حلب و يعرف بابن الروقليّة. كان عمّه عطيّة قد أخذ حلب منه، فتجهّز محمود هذا و أتاه و حصره حتّى استعادها منه.

و مات بها فى ليلة الخميس ثالث عشر شعبان، و هى الليلة التى مات فيها الخليفة القائم بأمر اللّه العباسىّ. و سبب موته أنه عشق جارية لزوجته، و كانت تمنعه منها، فماتت الجارية فحزن عليها حتّى مات بعد يومين. و لمّا مات وقع بين العسكر الخلاف.

و كان محمود هذا قد أوصى إلى ولده أبى المعالى شبل و أسكنه القلعة و الخزائن عنده؛

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۰۱

و أسكن ولده نصرا البلد، و كان يكره نصرا و يحبّ شبلا، و العساكر تحب نصرا؛ فلا زالوا حتّى ملك نصر و خلع شبل.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثلاث أذرع و تسع عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و سبع أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۶۸]

السنة الحادية و الأربعون من ولاية المستنصر معدّ على مصر و هى سنة ثمان و ستين و أربعمائة.

فيها خرج مؤيّد الملك بن نظام الملك الوزير من بغداد يريد والده، و كان أبوه قد مرض، و خرج معه أبو عبد اللّه محمد بن محمد بن محمد البيضاوىّ الشاهد رسولا من الديوان إلى السلطان إبراهيم بن مسعود بن محمود بن سبكتكين صاحب غزنة، يخبره بوفاة الخليفة القائم بأمر اللّه و إقامة ولده المقتدى بعده فى الخلافة.

و فيها لبس بدر الجمالىّ أمير الجيوش من المستنصر خلعة الوزارة بمصر، و كانت منزلته قبل ذلك أجلّ من الوزارة، و لكن لبسها حتّى لا يترتّب أحد فى الوزارة فينازعه فى الأمر.

و فيها أيضا قبض بدر الجمالىّ على قاضى الإسكندرية ابن المحيرق و على جماعة من فقهائها و أعيانها، و أخذ منهم أموالا عظيمة.

و فيها استولى أتسز التّركمانىّ على دمشق و خطب بها للمقتدى العباسىّ، و كتب إلى المقتدى يذكر له تسليمها إليه و غلوّ الأسعار بها و موت أهلها، و أنّ الكارة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۰۲

الطعام بلغت فى دمشق نيّفا و ثمانين دينارا مغربيّة، و بقيت على ذلك أربع سنين.

و الكارتان و نصف غرارة بالشامىّ. فتكون الغرارة بمائتى دينار. و هذا شيء لم يعهد مثله فى سالف الأعصار. قلت: و لا بعده. و قد تقدّم ذكر هذا الغلاء بمصر و الشام فى ترجمة المستنصر هذا.

و فيها توفّى أحمد بن علىّ بن محمد القاضى أبو الحسين جلال الدولة الشريف العلوىّ، كان ولى قضاء دمشق للمستنصر، و هو آخر قضاة المصريّين الرافضة، و هو الذى أجار الخطيب البغدادىّ لمّا أمر أمير دمشق بقتله. قال يوما و عنده [أبو] الفتيان بن حيّوس: وددت أنّى فى الشجاعة مثل جدّى علىّ، و فى السخاء مثل حاتم. فقال له [أبو] الفتيان بن حيّوس: و فى الصدق مثل أبى ذرّ- [الغفارىّ].

فخجل الشريف، فإنّه كان يتزيّد فى كلامه.

و فيها توفّى إسماعيل بن علىّ أبو محمد العين زربىّ الشاعر الفصيح. كان يسكن دمّشق و بها مات. و من شعره:

[الطويل]

و حقّكم لا زرتكم فى دجنّة من الليل تخفينى كأنّى سارق

و لا زرت إلّا و السيوف شواهر علىّ و أطراف الرماح لواحق

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۰۳

و له أيضا:

[الطويل]

ألا يا حمام الأيك عيشك آهل و غصنك ميّال و إلفك حاضر

أتبكى و ما امتدّت اليك يد النّوى ببين و لم يذعر جناحك ذاعر

قلت: و هذا يشبه قول القائل فى أحد معانيه:

[الخفيف]

نسب الناس للحمامة حزنا و أراها فى الحزن ليست هنالك

خضبت كفّها و طوّقت الجى د و غنّت و ما الحزين كذلك

و فيها توفّى مسعود [بن عبد العزيز] بن المحسن بن الحسن بن عبد الرزاق أبو جعفر البياضىّ الشاعر البغدادىّ. كان أديبا فاضلا شاعرا. مات ببغداد فى ذى القعدة. و من شعره:

[الخفيف]

ليس لى صاحب معين سوى اللّى ل إذا طال بالصدود عليّا

أنا أشکو همّ الحبیب إلیه و هو یشکو بعد الصّباح إلیّا

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم أربع أذرع و إصبعان. مبلغ الزیادة ستّ عشرة ذراعا و أربع عشرة إصبعا. و أوفی یوم نصف توت.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۶۹]

السنة الثانیة و الأربعون من ولایة المستنصر معدّ علی مصر و هی سنة تسع و ستّین و أربعمائة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۰۴

فیها فی صفر غلب علی المدینة النبویّة محیط العلویّ و أعاد خطبة المستنصر هذا بها، و طرد عنها أمیرها الحسین بن مهنّا فقصد الحسین ملکشاه السّلجوقیّ.

و فیها توفّی- و الصحیح فی التی قبلها- علیّ بن أحمد بن محمد بن علیّ أبو الحسن الواحدیّ النیسابوریّ. کان من أولاد التجار من ساوة، و کان أوحد عصره فی التفسیر. کان إماما عالما بارعا محدّثا، صنف التفاسیر الثلاثة: «البسیط» و «الوجیز» و «الوسیط». و الغزالیّ أخذ هذه الأسماء برمّتها و سمّی بها تصانیفه.

و صنّف الواحدیّ أیضا «أسباب النزول» فی مجلّد و «شرح الأسماء الحسنی» و کتبا کثیرة غیر ذلک. و کان له أخ اسمه عبد الرحمن قد تفقّه و حدّث أیضا.

و فیها توفّی إسفهدوست بن محمد بن الحسن أبو منصور الدّیلمیّ الشاعر. کان أوّلا یهجو الصحابة- رضی اللّه عنهم- و الناس، ثم تاب و حسنت توبته.

و قال فی ذلک قصیدة طنّانة أولها:

[الکامل]

لاح الهدی فجلا عن الأبصار کاللّیل یجلوه ضیاء نهار

و رات سبیل الرشد عینی بعد ما غطّی علیها الجهل بالأستار

و منها:

و عدلت عما کنت معتقدا له فی الصحب صحب نبیّک المختار

السید الصدّیق و العدل الرّضی عمر و عثمان شهید الدار

و هی طویلة جدّا.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۰۵

و فیها توفّی طاهر بن أحمد بن باب شاذ أبو الحسن النحویّ المصریّ صاحب «المقدّمة» المشهورة. کان عالما فاضلا و له تصانیف فی النحو. سمع الحدیث و رواه، و قریء علیه الأدب بجامع مصر سنین. تردّی من سطح جامع مصر فی شهر رجب فمات من ساعته.

و فیها توفّی عبد الرحمن بن محمد بن إسحاق بن محمد بن یحیی بن منده- و اسم منده إبراهیم بن الولید- الحافظ أبو القاسم ابن الحافظ أبی عبد اللّه العبدیّ الأصبهانیّ. کان کبیر الشأن، جلیل القدر، حسن الخطّ واسع الرّوایة. ولد سنة إحدی و ثمانین و ثلثمائة، و هو أکبر إخوته- رحمه اللّه- و مات فی شوّال.

و قال الذهبیّ: مات فی سبعین و أربعمائة.

و فیها کان الطاعون العظیم بالشام، و مات خلائق لا تحصر.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثلاث أذرع و سبع أصابع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و ثلاث عشرة إصبعا. و أوفى بأواخر توت.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۷۰]

السنة الثالثة و الأربعون من ولاية المستنصر معدّ على مصر و هى سنة سبعين و أربعمائة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۰۶

فيها ورد كتاب أرتق بك على الخليفة المقتدى العباسىّ بأخذه بلاد القرامطة.

و فيها توفّيت بنت الوزير نظام الملك و زوجة الوزير عميد الدولة، و جلس الوزير و ولده للعزاء. و نظام الملك وزير السلطان ملكشاه، و عميد الدولة وزير الخليفة المقتدى بالله؛ و كان عميد الدولة فى المحلّ أعظم، و نظام الملك فى المال أكثر.

و فيها توفّى أحمد بن عبد الملك بن علىّ الحافظ أبو صالح النيسابورىّ المؤذّن.

ولد سنة ثمان و ثمانين و ثلثمائة، و سمع الحديث الكثير، و صنّف الأبواب و الشيوخ؛ و كان يؤذّن و يعظ، و كان شيخ الصوفيّة فى وقته علما و عملا و صدقا و ثقة و أمانة.

و فيها توفّى عبد الخالق بن عيسى بن أحمد بن محمد بن عيسى بن أحمد أبو جعفر ابن أبى موسى، الشريف الهاشمى، إمام الحنابلة و عالمهم فى زمانه. ولد سنة إحدى عشرة و أربعمائة. و كان عالما ورعا فاضلا، تفقّه على القاضى أبى يعلى.

و كان يشهد ثمّ ترك الشهادة. و كان صدوقا ثقة زاهدا عابدا مصنّفا. مات بنيسابور فى شهر رمضان.

و فيها توفّى أحمد بن محمد [بن أحمد] بن عبد اللّه بن النفور الحافظ أبو الحسن البزّاز. مات ببغداد فى شهر رجب و له تسعون سنة. و كان إماما محدّثا فاضلا بارعا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۰۷

و فيها توفّى الحسين بن محمد [بن أحمد] بن طلّاب أبو نصر خطيب دمشق فى صفر بها و له إحدى و تسعون سنة. و كان إماما بارعا محدّثا فصيحا خطيبا.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و اثنتان و عشرون إصبعا. و فتح الخليج فى سابع عشر مسرى، و الماء على اثنتى عشرة إصبعا من ست عشرة ذراعا. و أوفى فى رابع أيام النسىء، و بلغ سبع عشرة ذراعا و عشر أصابع.

و نقص فى ثالث عشر بابة.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۷۱]

السنة الرابعة و الأربعون من ولاية المستنصر معدّ على مصر و هى سنة إحدى و سبعين و أربعمائة.

فيما توفّى إبراهيم بن علىّ بن الحسين أبو إسحاق شيخ الصوفيّة بالشام. سمع الحديث، و كان صاحب رياضات و مجاهدات. أقام بصور أربعين سنة، و مات بدمشق.

و فيها توفّى الحسن بن أحمد بن عبد اللّه أبو علىّ بن البنّاء الحنبلىّ. ولد سنة سبع و تسعين و ثلثمائة. و برع فى الفقه و غيره، و صنّف فى كلّ فنّ. و كان يقول: صنّفت خمسين و مائة مصنّف. و كانت وفاته فى شهر رجب هذه السنة.

و فيها توفّى الحسين بن أحمد بن عقيل بن محمد أبو علىّ بن ريش الدمشقىّ. مات بدمشق فى جمادى الاخرة. و كان ثقة صدوقا

فاضلا أديبا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۰۸

و فيها توفّى سعد بن علىّ بن محمد بن علىّ بن الحسين الحافظ أبو القاسم الزّنجانىّ الصّوفىّ. ولد سنة ثمانين و ثلثمائة، و طاف البلاد و سمع الكثير. و انقطع فى آخر عمره بمكّة و صار شيخ الحرم.

و فيها توفّى عبد القاهر بن عبد الرحمن أبو بكر الجرجانىّ النحوىّ اللغوىّ شيخ العربيّة فى زمانه. كان إماما بارعا مفتّنا. انتهت إليه رياسة النّحاة فى زمانه.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و سبع و عشرون إصبعا. و فتح الخليج فى سابع عشرين مسرى و الماء على ثمانى عشرة إصبعا من ست عشرة ذراعا. و كان الوفاء فى ثالث توت بعد ما توقّف و لم يزد إلى عاشر مسرى. و كان مبلغ الزيادة فى هذه السنة سبع عشرة ذراعا و عشرين إصبعا، و نقص فى خامس بابة.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۷۲]

السنة الخامسة و الأربعون من ولاية المستنصر معدّ على مصر و هى سنة اثنتين و سبعين و أربعمائة.

فيها توفّى منصور بن بهرام الأمير نظام الملك صاحب ميّافارقين من ديار بكر، و ملك بعده ابنه ناصر الدولة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۰۹

و فيها توفّى هيّاج بن عبيد بن الحسين أبو محمد الحطّينىّ الزاهد- و حطّين: قرية غربىّ طبريّة. و يقال: إن قبر شعيب عليه السلام بها، و بنته صفوراء زوجة موسى عليه السلام أيضا بها. و حطّين بكسر الحاء المهملة و فتحها-. و كان هيّاج المذكور إماما زاهدا. سمع الحديث و برع، و جاور بمكّة و صار فقيه الحرم و مفتى مكّة.

و كان يصوم يوما و يفطر يوما، و يأكل فى كلّ ثلاثة أيام مرّة، و يعتمر فى كلّ يوم ثلاث مرّات على قدميه. و أقام بالحرم أربعين سنة لم يحدث فيه، و كان يخرج إلى الحلّ و يقضى حاجته. و كان يزور النّبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فى كلّ سنة ماشيا، و كان يزور عبد اللّه بن عبّاس فى كلّ سنة مرّة بالطائف؛ و يأكل أكلة بالطائف و أخرى بمكة، و ما كان يدّخر شيئا، و لم يكن له غير ثوب واحد. و فيه قال بعضهم:

[الوفر]

أقول لمكّة ابتهجى و تيهى على الدنيا بهيّاج الفقيه

إمام طلّق الدنيا ثلاثا فلا طمع لها من بعد فيه

و كان سبب موته أنّ بعض الرافضة شكا إلى صاحب مكّة محمد بن أبى هاشم، قال: إنّ أهل السّنة يستطيلون علينا بهيّاج، و كان صاحب مكّة المذكور رافضيا خبيثا، فأخذه و ضربه ضربا عظيما على كبر سنّه، فبقى أيّاما و مات، و قد نيّف على الثمانين سنة، و دفن إلى جانب الفضيل بن عياض، رحمة اللّه عليهما. و لمّا مات قال بعض العلماء: لو ظفرت النصارى بهيّاج لما فعلوا فيه ما فعله به صاحب مكة هذا الخبيث!. قلت: و هم الآن على هذا المذهب سوى أنّ اللّه تعالى قمعهم بالدولة التركية و نصر أهل السّنّة عليهم، و جعلهم رعايا ليس لهم بمكّة الآن غير مجرّد الاسم.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۱۰

و فيها توفّى الحسن بن عبد الرحمن أبو علىّ الفقيه المكىّ الشافعىّ فى ذى القعدة، و كان من الفضلاء.

و فيها توفّى أبو عبد اللّه يحيى بن أبى مسعود عبد العزيز بن محمد الفارسىّ بهراة فى شوّال، و كان إماما فقيها نحويّا محدّثا.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم لم يتحرّر، فإنّه زاد فى بؤونة خمس أذرع، ثم نقص ثلاث أذرع؛ و لم يزد إلى ثانى عشرين أبيب. و فتح الخليج فى عشرين مسرى و الماء على تسع عشرة إصبعا من ستّ عشرة ذراعا. و كثرت زيادته فى توت، و انتهى إلى خمس عشرة ذراعا و ثمانى عشرة إصبعا، ثم نقص فى ثانى بابة.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۷۳]

السنة السادسة و الأربعون من ولاية المستنصر معدّ على مصر و هى سنة ثلاث و سبعين و أربعمائة.

فيها وصل السلطان ملكشاه السّلجوقىّ إلى الرّىّ لقتال ابن عمّه سلطان شاه بن قاورد بک؛ فخرج إليه سلطان شاه مستأمنا و قبّل الأرض بين يديه. فقام السلطان ملكشاه له و أجلسه بجانبه و تحالفا و زوّجه ابنته، و عاد السلطان ملكشاه إلى أصبهان.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۱۱

و فيها ملک جلال الملک أبو الحسن بن عمّار قاضى طرابلس و صاحبها حصنّ جبلة، و كان ابن عمّار هذا قاضى طرابلس و صاحبها، غلب على تلک البلاد سنين، و عجز بدر الجمالىّ أمير الجيوش عن مقاومته.

و فيها عزل المقتدى بالله العباسىّ وزيره عميد الدولة و استوزر أبا شجاع محمد ابن الحسين الرّوذراورىّ، و كان صالحا عفيفا دينا. فهجاه الموصلىّ فقال:

[الكامل]

ما استبدلوا ابن جهير فى ديوانهم بأبى شجاع لرفعة و جلال

لكن رأوه أشحّ أهل زمانه فاستوزروه لحفظ بيت المال

و فيها توفّى محمد بن الحسين بن عبد اللّه بن أحمد بن يوسف بن الشّبلى أبو علىّ الشاعر البغدادىّ، كان شاعرا مجيدا؛ و مات فى المحرّم. و من شعره:

[الكامل]

لا تظهرنّ لعاذل أو عاذر حاليک فى السرّاء و الضرّاء

فلرحمة المتوجّعين مرارة فى القلب مثل شماته الأعداء

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۱۲

و فيها توفّى محمد بن سلطان بن محمد بن حيّوس الأمير الشاعر. كان أحد شعراء الشاميّين و فحولهم المجيدين، و كان له ديوان شعر. و مات بدمشق فى شعبان و قد جاوز الثمانين سنة. و أنشد له ابن عساكر قصيدة أولها:

[الطويل]

أسكّان نعمان الأراک تيقّنوا بأنكم فى ربع قلبى سكّان

و فيها توفّى علىّ بن محمد بن علىّ أبو كامل الصّليحىّ الخارج باليمن. قال ابن خلّكان: كان أبوه قاضيا باليمن سنّىّ المذهب، ثمّ ذكر عنه فضيلة و أشياء أخر تدلّ على أنّه كان رافضيا خبيثا، إلى أن قال: ثمّ إنه صار يحجّ بالناس على طريق السّراة و الطائف خمس عشرة سنة. انتهى كلام ابن خلّكان. قلت: و تغلّب على اليمن حتّى ملكه، و جعل كرسىّ ملكه بصنعاء، و بنى عدّة قصور، و طالت أيامه، و دخل سنة خمس و خمسين و أربعمائة إلى مكّة و استعمل الجميل مع أهلها، و رخصت الأسعار، و أحبّه الناس لتواضع كان فيه. و دخل معه مكّة زوجته الحرّة التى كان خطب لها على منابر اليمن؛ و أقام بمكّة شهرا ثمّ رحل. و كان يركب فرسا بألف دينار، و على رأسه العصائب. و إذا ركبت زوجته الحرّة ركبت فى مائتى جارية بالحلىّ و الجواهر، و بين يديها الجنائب بالسروج الذهب.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و إحدى و عشرون إصبعا. و فتح الخليج فى خامس توت و الماء على خمس عشرة إصبعا من ستّ عشرة ذراعا. و كان الوفاء فى خامس عشرين توت. و كان مبلغ الزيادة فى هذه السنة ست عشرة ذراعا و خمس عشرة إصبعا. و نقص فى ثالث بابة.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۱۳

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۷۴]

السنة السابعة و الأربعون من ولاية المستنصر معدّ على مصر و هى سنة أربع و سبعين و أربعمائة.

فيها توفّى داود ولد السلطان ملكشاه السّلجوقىّ فى يوم الخميس حادى عشرين ذى الحجة بأصبهان، و حزن عليه والده ملكشاه حزنا جاوز الحدّ، و فعل فى مصابه ما لم يسمع بمثله، و رام قتل نفسه دفعات و خواصّه تمنعه من ذلک، و لم يمكّن من أخذه و غسله لقلّة صبره على فراقه، حتّى تغيّر و كادت رائحته تظهر، فحينئذ مكّن منه.

و امتنع عن الطعام و الشراب. و اجتمع الأتراک و التّركمان فى دار المملكة و جزّوا شعورهم، و اقتدى بهم نساء الحواشى و الحشم و الأتباع و الخدم، و جزّت نواصى الخيول و قلبت السروج، و أقيمت الخيول مسوّدات، و كذا النساء المذكورات؛ و أقام أهل البلد المأتم فى منازلهم و أسواقهم. و بقيت الحال على هذا سبعة أيام، حتى كلّمه أرباب الدولة فى منع ذلک؛ و أرسل إليه الخليفة يحثّه على الجلوس بالديوان.

و فيها سار تنش صاحب دمشق فافتتح أنطرطوس و غيرها.

و فيها أخذ شرف الدولة صاحب الموصل حرّان من بنى وثّاب النّميريين، و صالحه صاحب الرّهاء و خطب له بها.

و فيها تملّک الأمير سديد الملک أبو الحسن علىّ بن مقلّد بن نصر بن منقذ الكنانىّ حصن شيزر، و انتزعه من الفرنج، بعد أن نازلها و تسلّمها بالأمان و بمال

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۱۴

للأسقف. فلم تزل شيزر بيده و بيد أولاده إلى أن هدمتها الزلزلة و قتلت أكثر من كان بها؛ فعند ذلک أخذها السلطان الملک العادل نور الدين محمود الشهيد و أصلحها و جدّدها. و أمّا سديد الملک فلم يحيى بعد أن تملّكها إلّا نحو السنة و مات. و كان شجاعا فارسا شاعرا. و ملكها بعده ابنه أبو المرهف نصر.

و فيها توفّى سليمان بن خلف بن سعد بن أيّوب بن وارث الإمام أبو الوليد التّجيبىّ القرطبىّ الباجىّ صاحب التصانيف. أصله بطليوسىّ، و انتقل آباؤه إلى باجة، و هى مدينة قريبة من إشبيلية. و ولد فى ذى القعدة سنة ثلاث و أربعمائة.

و رحل البلاد و حجّ و سافر إلى الشام و بغداد، و سمع بهما الكثير. قال القاضى عياض: و ولى قضاء مواضع من الأندلس، و ذكر مصنّفاته و أثنى على علمه و فضله.

و فيها توفّى نور الدولة دبيس بن علىّ بن مزيد أبو الأغرّ صاحب الحلّة. عاش ثمانين سنة، كان فيها أميرا نيّفا و ستّين سنة؛ و كان الطبول تضرب على بابه فى أوقات الصلوات، و كان جوادا ممدّحا، كان محطّ رحال الرافضة- أخزاهم اللّه- و ملک بعده ابنه أبو كامل بهاء الدولة منصور.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و ثمانى عشرة إصبعا. و فتح الخليج فى خامس عشرين مسرى، و الماء على ثمانى عشرة إصبعا من ستّ عشرة ذراعا. و كان الوفاء أوّل أيّام النسىء. و بلغ ثمانى عشرة ذراعا و ثلاث عشرة إصبعا. و نقص فى ثالث بابة.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۱۵

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۷۵]

السنة الثامنة و الأربعون من ولاية المستنصر معدّ على مصر و هى سنة خمس و سبعين و أربعمائة.

فيها شفع أرتق بك إلى تاج الدولة تتش صاحب الشام فى مسمار الكلبىّ فأفرج عنه، و سار الأمير أرتق بك إلى القدس.

و فيها فتح ابن قتلمش حصن أنطرطوس من الروم، و بعث إلى ابن عمّار قاضى طرابلس و صاحبها يطلب منه قاضيا و خطيبا.

و فيها سار مسلم بن قريش صاحب حلب إلى دمشق و حصر بها صاحبها تتش، ثم عاد عنها و لم يظفر بطائل.

و فيها توفّى ابن ماكولا- علىّ بن هبة اللّه بن علىّ بن جعفر بن علكان بن محمد ابن دلف ابن الأمير أبى دلف القاسم بن عيسى بن إدريس بن معقل العجلىّ.

و عجل: بطن من بكر بن وائل من أمة ربيعة أخى مضر ابنى نزار بن معدّ بن عدنان.

قال شيرويه فى طبقاته: و كان يعرف بالوزير سعد الملك بن ماكولا، و ولد بعكبرا فى سنة إحدى و عشرين و أربعمائة فى شعبان، و كنيته أبو نصر. قال صاحب مرآة الزمان: «الأمير الحافظ أبو نصر العجلىّ». قال أبو عبد اللّه الحميدىّ: ما راجعت الخطيب فى شيء إلّا و أحالنى على كتاب و قال: حتّى أبصره؛ و ما راجعت أبا نصر ابن ماكولا فى شيء إلّا و أجابنى حفظا، كأنّه يقرأ من كتاب. قلت: و هو الذى صنّف عن أوهام الخطيب كتابا سماه «مستمرّ الأوهام». و مات فى هذه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۱۶

السنة. و قيل سنة تسع و سبعين، و قيل سنة سبع و ثمانين. و من شعره- رحمه اللّه-:

[الطويل]

و لمّا توافينا تباكت قلوبنا فمسك دمع يوم ذاك كساكبه

فيا كبدى الحرّى البسى ثوب حسرة فراق الذى تهوينه قد كساك به

و فيها توفّى محمد بن أحمد بن عيسى الإمام أبو بكر السّمسار. مات فى شوّال.

كان إماما فاضلا بارعا، سمع الحديث و برع فى فنون.

و فيها وقع الطاعون ببغداد ثم بمصر و ما والاهما، فمات فيه خلق كثير.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثمانى عشرة ذراعا. ثم زاد حتّى كان مبلغ الزيادة فى هذه السنة خمس عشرة ذراعا و عشر أصابع. ثم نقص فى خامس بابة.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۷۶]

السنة التاسعة و الأربعون من ولاية المستنصر معدّ على مصر و هى سنة ستّ و سبعين و أربعمائة.

فيها عزل المقتدى بالله العباسىّ عميد الدولة عن الوزارة.

و فيها سلّم ابن صقيل قلعة بعلبكّ إلى تاج الدولة تتش صاحب الشام، و كان مقيما فيها من قبل المستنصر العبيدىّ صاحب الترجمة، و كان ذلك فى صفر.

و فيها عزم تتش صاحب دمشق على مصاهرة أمير الجيوش بدر الجمالىّ وزير مصر و صاحب عقدها و حلها [على ابنته]، فأشار ابن عمّار قاضى طرابلس و صاحبها على تتش بألّا يفعل، فثنى عزمه عن ذلك.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۱۷

و فيها توفّى سلطان شاه بن قاورد بك بن داود بن ميكائيل السّلجوقىّ صاحب كرمان و ابن عمّ السلطان ملكشاه؛ فقدمت أمّه على ملكشاه بهدايا و أموال، فأكرمها و أقرّ ولدها الآخر مكانه.

و فيها تغيّرت نيّة السلطان ملكشاة على وزيره نظام الملك، ثمّ أصلح نظام الملك أمره معه.

و فيها توفّى إبراهيم بن علىّ بن يوسف أبو إسحاق الفيروزاباديّ الشيرازىّ الشافعىّ. ولد سنة ثلاث و تسعين و ثلثمائة، و تفقّه بفارس على أبى عبد اللّه البيضاوىّ، و ببغداد على أبى الطّيب الطّبرىّ. و سمع الحديث، و كان إماما فقيها عالما زاهدا.

و لما قدم خراسان فى الرسالة تلقّاه الناس و خرجوا إليه من نيسابور، فحمل إمام الحرمين أبو المعالى الجوينىّ غاشيته و مشى بين يديه كالخدم و قال: أنا أفتخر بهذا.

قال أبو المظفر فى المرآة: و ما عيب عليه شىء إلّا دخوله النّظاميّة، و ذكره الدروس

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۱۸

[بها]، لأنّ حاله فى الزهد و الورع خلاف ذلك. ثم ساق له أشعارا كثيرة. منها فى غريق فى الماء:

[الطويل]

غريق كأنّ الموت رقّ لأخذه فلان له فى صورة الماء جانبه

أبى اللّه أن أنساه دهرى فإنّه توفّاه فى الماء الذى أنا شاربه

و له:

[الوافر]

سالت الناس عن خلّ وفى فقالوا ما إلى هذا سبيل

تمسّك إن ظفرت بود حرّ فإنّ الحرّ فى الدنيا قليل

و كانت وفاته ببغداد من الجانب الشرقى.

و فيها توفّى محمد بن أحمد بن محمد بن إسماعيل أبو طاهر بن أبى الصقر الأنبارىّ، كان محدّثا فاضلا ثقة صدوقا صاحب صيام و قيام. و له شعر. و أنشد لابن الرومىّ:

[الكامل]

يا دهر صافيت اللئام مواليّا أبدا و عاديت الأكارم عامدا

فغدرت كالميزان ترفع ناقصا أبدا و تخفض لا محالة زائدا

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و سبع عشرة إصبعا.

و فتح الخليج فى ثانى النسىء. و كان الوفاء فى ثامن توت. و كان مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و تسع أصابع. و نقص فى تاسع بابة.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۷۷]

السنة الخمسون من ولاية المستنصر معدّ على مصر و هى سنة سبع و سبعين و أربعمائة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۱۹

فيها بنى أمير الجيوش بدر الجمالىّ جامع العطّارين بالإسكندرية. و سببه أنّ ولد بدر الجمالىّ عصى عليه و تحصّن بالإسكندرية. فسار إليه أبوه بدر الجمالىّ حتى نزل على الإسكندرية و حاصرها شهرا حتّى طلب أهلها الأمان و فتحوا له الباب، فدخلها و أخذ ابنه أسيرا

ثم بنى هذا الجامع.

و فيها توفّى عبد السعيد بن محمد بن عبد الواحد أبو نصر بن الصبّاغ الفقيه الشافعىّ. ولد سنة أربعمائة، و تفقّه و برع حتّى صار فقيه العراق، و كان يقدّم على أبى إسحاق الشيرازىّ فى معرفة مذهبه. و صنّف الكتب فى الفقه، منها: «الشامل» و «الكامل» و «تذكرة العالم» و «الطريق السالم». و ولى تدريس النّظاميّة قبل أبى إسحاق عشرين يوما. و مات فى جمادى الأولى.

و فيها توفّى مسلم بن قريش بن بدران الأمير أبو البركات شرف الدولة أمير بنى عقيل صاحب الموصل و الجزيرة و حلب. و زوّجه السلطان ألب أرسلان السلجوقى أخته. و كان شجاعا جوادا ذا همّة و عزم، احتاج إليه الخلفاء و الملوك و الوزراء، و خطب له على المنابر من بغداد إلى العواصم و الشام. و أقام حاكما على البلاد نيّفا و عشرين سنة. و لمّا مدحه ابن حيّوس بقصيدته التى أوّلها:

[الكامل]

ما أدرك الطّلبات مثل مصمّم إن أقدمت أعداؤه لم يحجم

فأعطاه الموصل جائزة له، فأقامت فى حكمه ستة أشهر. و قتل مسلم هذا فى وقعة كانت بينه و [بين سليمان بن] قتلمش فى هذه السنة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۲۰

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و أربع عشرة إصبعا.

و فتح الخليج فى رابع عشرين مسرى، و الماء على اثنتى عشرة إصبعا من ست عشرة ذراعا. و كان الوفاء آخر أيام النسيء. و وقف مدّة ثم نقص فى العشرين من توت بعد ما بلغ سبع عشرة ذراعا و ثلاث عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۷۸]

السنة الحادية و الخمسون من ولاية المستنصر معدّ على مصر و هى سنة ثمان و سبعين و أربعمائة.

فيها وقع طاعون عظيم بالعراق ثم عمّ الدنيا؛ فكان الرجل قاعدا فى شغله فتثور به الصفراء فتصرعه فيموت من وقته. ثم هبّت ريح سوداء ببغداد، أظلمت الدنيا، و لاحت نيران فى أطراف السماء و أصوات هائلة، فأهلكت خلقا كثيرا من الناس و البهائم. فكان أهل الدرب يموتون فيسدّ الدرب عليهم. قاله صاحب مرآة الزمان- رحمه اللّه-.

و فيها اتّفق جماعة بمصر مع ولد أمير الجيوش بدر الجمالىّ على قتل والده و ينفرد الولد بالملك، ففطن به أبوه فقتل الجماعة و عفّى أثر ولده؛ و يقال: إنّه دفنه حيّا، و قيل: غرّقه، و قيل: جوّعه حتى مات. و كان بدر الجمالىّ أرمنىّ الجنس، فاتكا جبّارا، قتل خلقا كثيرا من العلماء و غيرهم، و أقام الأذان ب «حىّ على خير العمل»، و كبّر على الجنائز خمسا، و كتب سبّ الصحابة على الحيطان. قلت: و بالجملة إنّه كان من مساوئ الدنيا، جزاه اللّه. و غالب من كان بمصر فى تلك الأيام كان رافضيّا خبيثا بسبب ولاة مصر بنى عبيد إلّا من ثبّته اللّه تعالى على السنّة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۲۱

و فيها توفّى أحمد بن الحسن بن محمد بن إبراهيم أبو بكر سبط ابن فورك و ختن أبى القاسم القشيرىّ على ابنته، و كان يعظ فى النّظاميّة، و كان قبيح السّيرة.

و فيها توفّى عبد الملك بن عبد اللّه بن يوسف أبو المعالى الجوينىّ الفقيه الشافعىّ المعروف بإمام الحرمين. و جوين: قرية من قرى نيسابور. ولد سنة سبع عشرة و أربعمائة، و تفقّه على والده فأقعد مكانه و له دون العشرين من العمر، فأقام الدرس، و سمع بالبلاد، و حجّ و جاور؛ ثم عاد إلى نيسابور، و درّس بها ثلاثين سنة، و إليه المنبر و المحراب، و يجلس للوعظ، و تخرّج به جماعة، و صنّف «نهاية المطلب [فى رواية المذهب]». و صنّف فى الكلام الكتب الكثيرة: «الإرشاد» و غيره. قال صاحب مرآة الزمان: و قال محمد بن

علیّ تلمیذ أبی المعالی الجوینیّ: دخلت علیه فی مرضه الذی مات فیه و أسنانه تتناثر من فیه و یسقط منها الدود، لا یستطاع شمّ فیه؛ فقال:

هذه عقوبة اشتغالی بالکلام فاحذروه! و کانت وفاته لیلة الأربعاء الخامس و العشرین من شهر ربیع الأوّل عن تسع و خمسین سنة.

و فیها توفّی محمد بن أحمد بن عبد اللّه بن أحمد بن الولید أبو علیّ المتکلّم المعتزلیّ شیخ المعتزلة و الفلاسفة و الداعیة إلی مذهبهم. و هو من أهل الکرخ، و کان یدرّس هذه العلوم، فآضطرّه أهل السّنة إلی أنّه لزم بیته خمسین سنة لا یتجاسر أن یظهر.

و مات فی ذی الحجة.

و فیها توفّی محمد بن علیّ بن محمد بن الحسن بن عبد الملک بن عبد الوهّاب بن حمویه، الإمام أبو عبد اللّه الدّامغانیّ القاضی الحنفیّ. ولد بالدامغان فی شهر ربیع الآخر

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۲۲

سنة ثمان و تسعین و ثلثمائة، و تفقّه ببلده، ثم قدم بغداد و تفقّه أیضا بالصّیمریّ و القدوریّ، و سمع منهما الحدیث، و برع فی الفقه، و خصّ بالفضل الوافر و التواضع الزائد، و ارتفع و شیوخه أحیاء، و انتهت إلیه ریاسة المذهب فی زمانه. و کان فصیح العبارة ملیح الإشارة غزیر العلم سهل الأخلاق معظّما عند الخلفاء و الملوک. ولی قضاء القضاة ببغداد سنة سبع و أربعین، و صار رأس علماء عصره فی کلّ مذهب.

و حسنت سیرته فی القضاء حتّی أقام فیه ثلاثین سنة. و مات لیلة السبت الرابع و العشرین من شهر رجب. و کانت جنازته عظیمة، نزع العلماء طیالستهم و مشوا فیها، و کثر أسف الناس علیه. رحمه اللّه تعالی.

و فیها توفّی منصور بن دبیس بن علیّ بن مزید الأمیر الرافضیّ أبو کامل بهاء الدولة صاحب الحلّة. مات فیها فی شهر رجب، و کانت ولایته ستّ سنین. و قام بعده ولده سیف الدولة صدقة. قلت: و الجمیع رافضة، کلّ واحد أنجس من الآخر، عاملهم اللّه بما یستحقّونه.

و فیها توفّی هبة اللّه بن عبد اللّه بن أحمد أبو الحسن السّیبیّ البغدادیّ. سمع الحدیث و تفقّه، و کان أدیبا شاعرا فصیحا. مات فی المحرّم. و من شعره:

[المتقارب]

رجوت الثمانین من خالقی لما جاء فیها عن المصطفی

فبلّغنیها و شکرا له و زاد ثلاثا بها أردفا

و هأنا منتظر وعده لینجزه فهو أهل الوفا

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۲۳

و فیها توفّی یحیی بن محمد بن طباطبا الشریف أبو المعمّر بقیّة شیوخ الطالبیّین.

کان هو و أخوه من نسّابیهم، و کان فاضلا شاعرا فقیها فی مذهب الشّیعة. و مات فی شهر رمضان. و هو آخر من بقی من أولاد طباطبا بالعراق و لم یعقب.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم خمس أذرع و سبع عشرة إصبعا.

مبلغ الزیادة یأتی ذکره؛ لأنّ النیل لم یزد فی هذه السنة إلی أوّل مسری إلا ثلثی ذراع فقط، ثم زاد فی ثانی عشرین مسری أذرعا حتی صار فی یوم النوروز علی ثلاث عشرة ذراعا و ستّ عشرة إصبعا. ثم نقص إصبعین ثم ثمانیا، ثم زاد فی خامس توت ستّ أصابع؛ و خرج الناس إلی الجبل و استسقوا، فزاد حتّی بلغ ثلاث عشرة ذراعا و تسع عشرة إصبعا، ثم نقص سبع أصابع- و قیل: ثمانیا- ثم زاد فی عید الصلیب حتّی صار علی أربع عشرة ذراعا و خمس عشرة إصبعا. و نقص تسع أصابع، ثم زاد فی أوّل بابة حتّی بلغ خمس عشرة ذراعا و خمس أصابع. و کان ذلک منتهی زیادته فی هذه السنة.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۷۹]

السنة الثانية و الخمسون من ولاية المستنصر معدّ على مصر و هى سنة تسع و سبعين و أربعمائة.

فيها صاد السلطان ملكشاه أربعة آلاف غزال- و قيل: عشرة آلاف و بنى بقرونها منارة سمّاها أمّ القرون.

و فيها توفّى ختلغ بن كنتكين الأمير أبو منصور أمير الكوفة و الحاج. ذمّه محمد ابن هلال الصابئ و ذمّ سيرته فى تاريخه، إلّا أنّه كان شجاعا، و له وقائع مع العرب

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۲۴

فى البرّيّة. و كان محافظا على الصلوات فى الجماعة، و يختم القرآن فى كلّ يوم، و يختصّ بالعلماء و القرّاء، و له آثار جميلة بطريق الحجاز و المشاهد و المساجد. و مكث فى إمارة الحاج اثنتى عشرة سنة.

و فيها قتل سليمان بن قتلمش، هو ابن عمة السلطان ملكشاه السّلجوقىّ. كان أميرا شجاعا، فتح عدّة بلاد، و آخر ما فتحه أنطاكية، و كان قد حاصر حلب و رجع.

و قتل مسلم بن قريش فى حربه؛ فجاءه تاج الدولة تتش و الأمير أرتق بک من دمشق، و التّقوا معه و اقتتلوا فجاء سليمان هذا سهم فى وجهه فوقع عن فرسه ميتا، فدفن إلى جانب مسلم بن قريش الذى قتل فى محاربته قبل ذلک بأيام.

و فيها توفّى علىّ بن فضّال بن علىّ أبو الحسن المغربىّ الفيروانىّ. كان فاضلا أديبا، له نظم و نثر. و مات بغزنة فى شهر ربيع الأوّل. و من شعره قوله:

[السريع]

إن تلقک الغربة فى معشر قد أجمعوا فيک على بغضهم

فدارهم ما دمت فى دارهم و أرضهم ما دمت فى أرضهم

و فيها توفّى علىّ بن المقلّد بن نصر بن منقذ بن محمد بن مالک الأمير أبو الحسن الكنانىّ. كان بينه و بين ابن عمّار قاضى طرابلس و صاحبها مودّة، و كان شجاعا فاضلا نحويّا لغويّا شاعرا، و كان صاحب شيزر و بها توفّى. و تولّى شيزر بعده ابنه نصر بن علىّ. و كان له ديوان شعر مشهور. و من شعره:

[البسيط]

إذا ذكرت أياديک التى سلفت و سوء فعلى و زلّاتى و مجترمى

أكاد أقتل نفسى ثم يمنعنى علمى بأنّک مجبول على الكرم

و فيها توفى أبو سعيد أحمد بن محمد بن دوست النيسابورىّ الفقيه المحدّث الصوفىّ شيخ الشيوخ ببغداد.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۲۵

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ستّ أذرع و تسع عشرة إصبعا.

و زاد فى نصف بشنس، ثم نقص نصف ذراع، ثم زاد فى أوانه حتى أوفى فى ثالث أيام النسيء. و كان مبلغ الزيادة فى هذه السنة سبع عشرة ذراعا و خمس عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۸۰]

السنة الثالثة و الخمسون من ولاية المستنصر معدّ على مصر و هى سنة ثمانين و أربعمائة.

فيها بعث تتش أخو السلطان ملكشاه يقول لأخيه: قد استولى المصريّون على الساحل و ضايقوا دمشق، و أسأل السلطان أن يأمر آق سنقر و بوزان أن ينجدانى.

فكتب ملكشاه إليهما أن ينجداه. و كان الأمير بوزان بالرّهاء و آق سنقر بحلب.

و سبب ذلك أنّ أمير الجيوش بدرا الجمالىّ لمّا قوى أمره بمصر، و صار هو المتحدّث عن المستنصر صاحب الترجمة بهذه البلاد، و استرجع كثيرا مما كان ذهب من ممالكهم، جهّز جيشا إلى الساحل. فعظم ذلك على تتش صاحب دمشق.

و فيها بنى تاج الملك أبو الغنائم ببغداد المدرسة التاجيّة بباب أبرز و ضاهى بها النّظاميّة. قلت: و من باب أبرز هذا أصل بنى البارزى كتّاب سرّ زماننا هذا.

كان جدّهم مسلم يسكن فى بغداد بباب أبرز المذكور، ثم خرج من بغداد فى جفلة التتار إلى حلب فسمّى الأبرزىّ، ثم خفّف فسمّى البارزىّ. و يأتى ذكر جماعة منهم فى هذا الكتاب إن شاء اللّه تعالى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۲۶

و فيها توفّى شافع بن صالح بن حاتم أبو محمد الفقيه الحنبلىّ. كان إماما عالما، تفقّه على أبى يعلى، و مات فى صفر و دفن بباب حرب، و كان صالحا زاهدا ثقة.

و فيها توفّى محمد بن هلال بن المحسّن بن إبراهيم الصابئ أبو الحسن الملقّب بغرس النعمة صاحب التاريخ المسمّى ب «عيون التواريخ» ذيّله على تاريخ أبيه، و أبوه ذيّله على تاريخ ثابت بن سنان، و ثابت ذيّل على تاريخ محمد بن جرير الطّبرىّ. و كان تاريخ الطبرىّ انتهى إلى سنة اثنتين أو ثلاث و ثلثمائة. و تاريخ ثابت انتهى إلى سنة ستين و ثلثمائة. و تاريخ هلال انتهى إلى سنة ثمان و أربعين و أربعمائة. و تاريخ غرس النعمة هذا انتهى إلى سنة تسع و سبعين و أربعمائة. و كان غرس النعمة هذا فاضلا أديبا مترسّلا، و له صدقة و معروف، محترما عند الخلفاء و الملوك و الوزراء.

و جدّ أبيه إبراهيم الصابئ هو صاحب «الرسائل» فى أيام عضد الدولة بن بويه.

و قد تقدّم ذكره فى محلّه من هذا الكتاب.

و فيها توفّى أمير الملثّمين بمرّاكش و غيرها من بلاد المغرب الأمير أبو بكر بن عمر. أصله من ولد تاشفين. كان أميرا جليلا يجاهدا فى سبيل اللّه تعالى. ركب فى بعض غزواته فى خمسمائة ألف مقاتل من رجال الديوان و المطّوّعة. و كان يخطب فى بلاده للدولة العباسيّة، و كان يصلّى بالناس الصلوات الخمس، و يقيم الحدود، و يلبس الصوف، و ينصف المظلوم، و يعدل فى الرعيّة، و كان بين رعيّته كواحد منهم. رحمه اللّه تعالى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۲۷

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ستّ أذرع و خمس أصابع.

و كان الوفاء فى آخر أيّام النسىء. و كان مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و سبع أصابع.

و نقص فى رابع بابة.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۸۱]

السنة الرابعة و الخمسون من ولاية المستنصر معدّ على مصر و هى سنة إحدى و ثمانين و أربعمائة.

فيها توفّى أحمد بن محمد بن الحسن بن الخضر الحافظ أبو طاهر الجواليقىّ والد أبى منصور موهوب. كان شيخا صالحا متعبّدا، من

أهل البيوتات القديمة ببغداد، و كان جدّه صاحب دنيا واسعة. و مات هو فجأة فى شهر رجب.

و فيها توفّى عبد اللّه بن محمد بن علىّ بن محمد بن متّ بن أحمد بن علىّ بن جعفر ابن منصور بن متّ الحافظ شيخ الإسلام أبو إسماعيل الأنصارىّ الهروىّ. هو من ولد أبى أيّوب الأنصارىّ رضى اللّه عنه. سمع الكثير و روى عنه جماعة. و كان إماما حافظا بارعا فى اللغة إمام وقته. قال المؤتمن: و كان يدخل على الأمراء و الجبابرة فما كان يبالى بهم. و مات فى ذى الحجة و قد جاوز أربعا و ثمانين سنة.

و فيها توفّى محمد بن أحمد بن محمد بن الحسن بن ماجة أبو بكر الأبهرىّ الأصبهانىّ الإمام العالم المشهور. مات بأصبهان عن خمس و تسعين سنة، و قد انتهت إليه رياسة العلم بها.

و فيها توفّى عثمان بن محمد بن عبيد اللّه أبو عمرو المحمىّ. مات فى صفر. و كان إماما عالما مفتّنا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۲۸

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و سبع عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا و أربع أصابع. فهلكت الزروع و الغلّات و المخازن من كثرة الماء.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۸۲]

السنة الخامسة و الخمسون من ولاية المستنصر معدّ على مصر و هى سنة اثنتين و ثمانين و أربعمائة.

فيها جهّز بدر الجمالىّ أمير الجيوش عسكرا من مصر مع نصير الدولة الجيوشىّ، فنزل على صور و بها القاضى عين الدولة بن أبى عقيل، فسلّمها إليه لمّا لم يكن له به طاقة. و فتح نصير الدولة صيداء و عكّا. و كان لتتش بهذه البلاد ذخائر و أموال، فأخذها نصير الدولة المذكور، ثم نزل على بعلبكّ، و جاءه ابن ملاعب و خطب للمستنصر صاحب الترجمة (أعنى أنه دخل تحت طاعة المصريّين).

و بعث تتش إلى آق سنقر و بوزان و قال لهما: هذه البلاد كان لى فيها ذخائر و قد أخذت، و طلب منهما النجدة، فبعثا له عسكرا.

و فيها توفّى طاهر بن بركات بن إبراهيم الحافظ أبو الفضل القرشىّ الخشوعىّ.

كان عظيم الشأن، من أكابر شيوخ دمشق. قال ابن عساكر: سألت ولده إبراهيم ابن طاهر: لم سمّيتم الخشوعيّين؟ فقال: لأنّ جدّنا الأعلى كان يؤمّ الناس فمات بالمحراب. انتهى. و كانت وفاة طاهر هذا بظاهر دمشق. و كان ثقة صدوقا عالما.

و فيها توفى عاصم بن الحسن بن محمد بن على بن عاصم أبو الحسين. كان ظريفا أديبا شاعرا فصيحا حافظا للشعر.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۲۹

و فيها توفّى علىّ بن أبى يعلى بن زيد الشيخ أبو القاسم الدّبوسىّ من أهل دبوسية، و هى بلدة بين بخارى و سمرقند. كان إماما عالما. أقدمه الوزير نظام الملك إلى بغداد للتدريس [فى] مدرسته النظاميّة. و كان عارفا بالفقه و الجدل و المناظرة.

و مات ببغداد فى شعبان.

و فيها توفّى أحمد بن محمد بن صاعد رئيس نيسابور و عالمها و قاضيها أبو نصر النيسابورىّ الحنفىّ. كان إمام وقته و وحيد دهره علما و زهدا و فضلا و رياسة و عفّة. انتهت إليه رياسة السادة الحنفيّة فى زمانه.

و فيها توفّى الشيخ الإمام أبو حامد أحمد بن محمد السّرخسىّ الشّجاعىّ البلخىّ الفقيه العالم المشهور. كان إماما عالما فاضلا، سمع الحديث الكثير و تفقّه و برع فى فنون.

و فيها توفّى إبراهيم بن سعيد الحافظ أبو إسحاق النّعمانىّ مولاهم الحبّال. كان إماما فاضلا حافظا، سمع الكثير و رحل البلاد و حدّث و سمع منه خلائق، ثمّ سكن مصر، و بها كانت وفاته، و مات و له تسعون سنة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و ثماني عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و تسع أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۸۳]

السنة السادسة و الخمسون من ولاية المستنصر معدّ على مصر و هى سنة ثلاث و ثمانين و أربعمائة.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۳۰

فيها نزل تتش على حصن بعلبكّ و بها ابن ملاعب و مع تتش آق سنقر و بوزان فقاتلوه مدّة، و قالوا له: أنت توجّهت إلى مصر و خطبت للمستنصر. فلمّا أخافوه طلب الأمان فأعطوه؛ فنزل من القلعة و توجّه إلى مصر؛ و ملك تتش بعلبكّ. و أقام ابن ملاعب بمصر مدّة، و أحسن إليه المستنصر صاحب الترجمة، ثمّ عاد إلى الشام و دبّر الحيلة على حصن فامية حتّى ملكه.

و فيها توفّى الشيخ الإمام علىّ بن محمد القيروانىّ. كان فقيها عالما شاعرا. و من شعره- و أجاد إلى الغاية-:

[الكامل]

ما فى زمانک ماجد لو قد تأمّلت الشواهد

فاشهد بصدق مقالتى أو لا فكذّبنى بواحد

قلت: للّه درّه! لقد عبّر عن زماننا هذا كأنّه قد رآه.

و فيها توفّى محمد بن محمد بن جهير الوزير أبو نصر فخر الدولة. أصله من الموصل و بها ولد، و قدم ميّافارقين. و كتب للخليفة القائم بأمر اللّه العبّاسىّ يسأله أن يستوزره، فأجابه ثم نقم عليه و نفاه إلى الحلّة ثم أعاده. و لما تولّى المقتدى الخلافة و زرله، ثم عزل و نفى؛ فمضى إلى السلطان ملكشاه و انتمى إليه، و فتح له ديار بكر و أتحفه بالأموال. ثم تغيّر عليه السلطان؛ فاستأذن فى الإقامة بالموصل فأذن له؛ فتوجّه إليه فلم يقم به إلّا اليسير، و مرض و مات و دفن بالموصل. و كان سخيّا كريما شجاعا مدبّرا عارفا.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۳۱

و فيها توفّى الشيخ المسند أبو الحسين عاصم بن الحسن العاصمىّ الكرخىّ. كان إماما محدّثا، سمع الكثير و روى عنه خلق كثير، و كان أديبا شاعرا ثقة.

و فيها توفّى الحافظ أبو نصر عبد العزيز بن محمد بن علىّ التّرياقىّ. مات بمدينة هراة و له أربع و تسعون سنة. و كان عالما محدّثا فقيها فاضلا.

و فيها توفّى الشيخ الإمام العارف بالله أبو بكر محمد بن إسماعيل التّفليسىّ الصوفىّ النّيسابورىّ. مات فى شوّال بنيسابور، و كان إماما محدّثا فقيها صوفيا معدودا من أعيان الصوفيّة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و ست و عشرون إصبعا. مبلغ الزيادة ثماني عشرة ذراعا سواء.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۸۴]

السنة السابعة و الخمسون من ولاية المستنصر معدّ على مصر و هى سنة أربع و ثمانين و أربعمائة.

فيها فى صفر كتب الوزير أبو شجاع إلى الخليفة يعرّفه باستطالة أهل الذمّة على المسلمين، و أنّ الواجب تمييزهم عنهم؛ فأمره الخليفة أن يفعل ما يراه. فألزمهم الوزير لبش الغيّار و الزّنانير و تعليق الدراهم الرّصاص فى أعناقهم مكتوب على الدراهم [ذمىّ]، و تجعل هذه

الدراهم أيضا فى أعناق نسائهم فى الحمّامات ليعرفن بها، و أن يلبسن الخفاف فردا أسود و فردا أحمر، و جلجلا فى أرجلهنّ. فذلّوا و انقمعوا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۳۲

بذلك. و أسلم حينئذ أبو سعد بن الموصّلايا، كاتب الإنشاء للخليفة و ابن أخته أبو نصر هبة اللّه.

و فيها فى جمادى الأولى قدم أبو حامد الطّوسىّ الغزالىّ إلى بغداد مدرّسا بالنظاميّة و معه توقيع نظام الملك.

و فيها وقع بالشام زلزلة عظيمة و وافق ذلك تشرين الأوّل، و خرج الناس من دورهم هاربين، و انهدم معظم أنطاكية و وقع من سورها نحو من تسعين برجا.

و فيها نزل آق سنقر على فامية فأخذها من ابن ملاعب.

و فيها فى شهر رمضان خرج توقيع الخليفة المقتدى بالله العبّاسىّ بعزل الوزير أبى شجاع من الوزارة؛ و كان له أسباب، منها أنّ نظام الملك وزير السلطان ملكشاه السلجوقىّ كان يسعى عليه لابنه. فلمّا أتاه الخبر بعزله قام من الديوان و لم يتأثر؛ و أنشد:

[الوافر]

تولّاها و ليس له عدوّ و فارقها و ليس له صديق

و فيها حاصر تتش أخو السلطان ملكشاه طرابلس و معه آق سفر و بوزان و بها قاضيها، و هو صاحبها، و اسمه جلال الملك بن عمّار، و نصب عليها المجانيق. فاحتجّ عليهم ابن عمّار بأن معه منشور السلطان ملكشاه بإقراره على طرابلس؛ فلم يقبل منه تتش ذلك، و توقّف آق سنقر عن قتاله. فقال له تتش: أنت تبع لى، فكيف تخالفنى فقال: أنا تبع لك إلّا فى عصيان السلطان. فغضب تاج الدولة تتش

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۳۳

و رجع إلى دمشق، و مضى آق سنقر إلى حلب، و مضى بوزان إلى الرّهاء (أعنى كلّ واحد إلى بلده).

و فيها ملك يوسف بن تاشفين الأندلس و نفى ابن عبّاد عنها.

و فيها توفّى محمد بن أحمد بن علىّ بن حامد أبو نصر المروزىّ. كان إماما فى القراءات، و صنّف فيها التصانيف، و انتهت إليه الرياسة فيها. و كانت وفاته فى ذى القعدة.

و فيها توفّى محمد بن علىّ بن محمد أبو عبد اللّه التّنوخىّ الحلبىّ، و يعرف بابن العظيمىّ. كان إماما شاعرا فصيحا بليغا. و من شعره قوله:

[البسيط]

يلقى العدا بجنان ليس يرعبه خوض الحمام و متن ليس ينقصم

فالبيض تكسر و الأوداج دامية و الخيل تعرم و الأبطال تلتطم

و النقع غيم و وقع المرهفات به لمع البوارق و الغيث الملثّ دم

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و عشرون إصبعا.

مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعا و اثنتان و عشرون إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۸۵]

السنة الثامنة و الخمسون من ولاية المستنصر معدّ على مصر و هى سنة خمس و ثمانين و أربعمائة.

فيها ورد الأمير تاج الدولة تتش على السلطان ملكشاه شاكيا من آق سنقر فلم يلتفت السلطان إليه؛ فترك ابنه عند السلطان و عاد إلى دمشق.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۳۴

و فيها فى يوم الاثنين منتصف شهر ربيع الأوّل وقت الظهر، و هو السادس من نيسان، اقترن زحل و المرّيخ فى برج السّرطان، و ذكر أهل صناعة النجوم أن هذا القران لم يحدث مثله فى هذا البرج منذ بعث النّبىّ صلّى اللّه عليه و سلم إلى هذه السنة. قال صاحب مرآة الزمان: و كان تأثير هذا القران هلاك ملكشاه السلجوقىّ سيّد الملوك، و مقتل نظام الملك سيّد الوزراء. انتهى.

و فيها فى شهر رمضان توجّه السلطان ملكشاه من أصبهان إلى بغداد بنيّة غير مرضيّة فى حقّ الخليفة المقتدى بالله و عزم على تغييره، و كان معه وزيره نظام الملك، فقتل فى شهر رمضان فى الطريق، على ما سيأتى ذكره؛ إن شاء اللّه.

و وصل ملكشاه إلى بغداد فى ثامن عشر شهر رمضان. فأوّل ما وصل بعث يقول للخليفة: لا بدّ أن تترك لى بغداد و تذهب إلى أىّ بلد شئت. فانزعج الخليفة و بعث إليه يقول: أمهلنى شهرا؛ فقال: و لا ساعة. فأرسل الخليفة إلى تاج الملك أبى الغنائم، و كان السلطان ملكشاه استوزره بعد قتل نظام الملك، فقال: سله بأن يؤخّرنا عشرة أيّام. فدخل تاج الملك على السلطان و قال له: لو أنّ بعض العوامّ أراد أن ينتقل من دار إلى دار لم يقدر على النّقلة فى أقلّ من عشرة أيام، فكيف بالخليفة! فأمر السلطان له بالمهلة عشرة أيام. ثم اشتغل بنفسه من مرض حصل له و مات منه بعد أيام.

ذكر وفاته- هو السلطان جلال الدولة أبو الفتح ملكشاه بن ألب أرسلان [بن] محمد بن داود بن ميكائيل بن سلجوق بن دقمان التركىّ السلجوقىّ. تسلطن

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۳۵

بعد موت أبيه بوصية منه إليه فى سنة خمس و ستين و أربعمائة، و جعل وزيره نظام الملك وزيرا له و متكلّما فى الدولة، و فرّق البلاد على أولاده و جعل مرجعهم إلى ملكشاه هذا. فلمّا تسلطن ملكشاه خرج عليه عمّه قاورد بك صاحب كرمان؛ فواقعه فأخذه ملكشاه أسيرا. فلمّا مثل بين يدى ملكشاه قال: أمراؤك كاتبونى، و أظهر مكاتبات. فأخذها ملكشاه و أعطاها للوزير نظام الملك، فأخذها نظام الملك و ألقاها فى موقد نار كان بين يدى ملكشاه فاحترقت. فسكنت قلوب الأمراء، و بذلوا الطاعة؛ و ثبت ملكه بهذه الفعلة. ثم خنق عمّه قاورد بك المذكور بوتر، و تمّ له الأمر. و ملك من الأقاليم ما لم يملكه أحد من السلاطين؛ فكان فى مملكته جميع بلاد ما وراء النهر، و بلاد الهياطلة، و باب الأبواب، و بلاد الروم و الجزيرة و الشام؛ حتّى إنّه ملك من مدينة كاشغر، و هى أقصى مدينة للترك، إلى بيت المقدس طولا، و من القسطنطينيّة إلى بلاد الخزر و بحر الهند عرضا. و كان من أحسن الملوك سيرة، و لذلك كان يلقّب بالسلطان العادل. و كان منصورا فى حروبه، مغرى بالعمائر، حفر الأنهار و عمّر الأسوار و القناطر و عمّر جامع السلطان ببغداد و لم يتمّه، و أبطل المكوس فى جميع بلاده، و صنع بطريق مكة مصانع الماء، غرم عليها أموالا كثيرة. و كان مغرى بالصيد، حتى إنّه صاد مرّة فى حلقة واحدة عشرة آلاف صيد؛ و قد تقدّم ذكر ذلك. و كانت وفاته فى شوّال. قيل: إنّه سمّ فى خلال تخلّل به. و لم يشهده الدولة و لا عمل له عزاء. و حمل فى تابوت إلى أصبهان فدفن بها. و قام فى السلطنة بعده أكبر أولاده بركياروق، و لقّب بركن الدولة. و خالفه عمّه، و وقع له معه وقائع.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۳۶

و فيها توفّى الوزير نظام الملك وزير السلطان ملكشاه السلجوقىّ المقدّم ذكره.

و اسمه الحسن بن إسحاق بن العبّاس الوزير أبو على الطّوسىّ. كان من أولاد الدّهاقين بناحية بيهق، و كان فقيرا مشغولا بسماع الحديث، ثم بعد حين اتّصل بداود بن ميكائيل السلجوقىّ، فأخذه بيده و سلّمه إلى ولده ألب أرسلان، و قال له: يا محمد، هذا حسن الطوسىّ اتّخذه والدا و لا تخالفه. فلمّا وصل الملك إلى ألب أرسلان استوزره، فدبّر ملكه عشر سنين. و مات ألب أرسلان، فازدحم

أولاده على الملك، فقام بأمر ملكشاه حتّى تمّ أمره و تسلطن. و لمّا دخل نظام الملك على الخليفة المقتدى أمره بالجلوس، و قال له: يا حسن، رضى اللّه عنك لرضا أمير المؤمنين عنك.

و كان نظام الملك عالى الهمّة، وافر العقل، عارفا بتدبير الأمور، محبّا للعلماء و الصلحاء، على ظلم و جور كان عنده، على عادة الوزراء.

و لمّا خرج من أصبهان بعد مخدومه ملكشاه قاصدا بغداد نزل قرية من قرى نهاوند مكان الوقعة التى كانت فى زمان عمر بن الخطاب- رضى اللّه عنه- فقال:

هذا موضع مبارك؛ قتل فيه جماعة من الصحابة، طوبى لمن كان منهم. و كان جالسا و الأمراء بين يديه، و كان صائما، فإنّه كان يوم الخميس؛ فقدّم الأكل فأكل الناس؛ ثم ركب محفّته إلى خيمة النساء، و كان به مرض النّقرس، فاعترضه صبىّ ديلمىّ فى زىّ الصوفيّة و بيده قصّة، فدعا له و سأله أن يناوله إيّاها من يده إلى يده؛ فقال: هات؛ فمدّ يده ليأخذها فضربه بسكّين فى فؤاده، فحمل الى مضربه و مات؛ فهرب الديلمى فعثر بطنب خيمة فقطّع قطعا. و كانت وزارة نظام الملك لبنى سلجوق

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۳۷

أربعا و ثلاثين سنة- و قيل أربعين سنة- و كان عمره ستا و سبعين سنة. و من شعره:

[البسيط]

بعد الثمانين ليس قوّه لهفى على قوّة الصّبوّه

كأننى و العصا بكفّى موسى و لكن بلا نبوّه

و فيها توفّى مالك بن أحمد الإمام أبو عبد اللّه البانياسىّ ثم البغدادىّ المعروف بالفرّاء فى جمادى الآخرة شهيدا فى الحريق. و كان معدودا من العلماء الفضلاء.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ستّ أذرع و ستّ أصابع. مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعا و إحدى عشرة إصبعا. و أوفى فى سابع توت، و نقص فيه أيضا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۸۶]

السنة التاسعة و الخمسون من ولاية المستنصر معدّ على مصر و هى سنة ستّ و ثمانين و أربعمائة.

فيها خطب تاج الدولة تتش السلجوقىّ لنفسه بعد موت أخيه ملكشاه، و أرسل إلى الخليفة بأن يخطب له و يوعده؛ فما التفت إليه فى الجواب، غير أنّه أرسل يقول له: إنما تصلح للخطبة إذا حصلت الدنيا بحكمك، و الخزائن التى بأصبهان معك، و تكون صاحب الشرق و خراسان، و لم يبق من أولاد أخيك ملكشاه من يخالفك؛ و أمّا فى هذا الحال فلا سبيل إلى ما التمسته. فلمّا وقف تتش على ذلك سار إلى الموصل و بها إبراهيم بن قريش؛ فخرج إليه فى بنى عقيل و التقوا معه فقتل

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۳۸

إبراهيم و قتل عليه أعيان بنى عقيل. و كان علىّ بن مسلم بن قريش عند بركياروق ابن ملكشاه، فأخبره بمصاب عمّه، فعزّ عليه فكتب إلى تتش يلومه.

و فيها فتح عسكر مصر صور و حمل صاحبها إلى مصر و معه أصحابه. فضرب بدر الجمالىّ رقاب الجميع، و قطع على أهل صور ستين ألفا عقوبة لهم.

و فيها بطل مسير الحاجّ من العراق خوفا عليهم، و سار حجّاج دمشق، و لم يوصّلوا إلى أمير مكة ما يرضيه. فلمّا رحلوا خرج و نهبهم، و

عاد من سلم منهم على أقبح حال، و تخطّفهم العرب فی الطريق.
و فيها توفّى عبد القادر بن عبد الكريم بن الحسين أبو البركات. كان شيخا صالحا، خطّب بدمشق لبنى العباس و للمصريّين؛ و أنشد لبعضهم:
[الطويل]
يعدّ رفيع القوم من كان عاقلا و إن لم يكن فی قومه بحسيب
فإن حلّ أرضا عاش فيها بعقله و ما عاقل فی بلدة بغريب
و فيها توفّى علىّ بن أحمد بن يوسف بن جعفر بن عرفة الحافظ الفقيه الهكّارىّ.
كان ينعت بشيخ الإسلام- و الهكّاريّة: جبال فوق الموصل فيها قرّى و بنّى- و كنيته أبو الحسن. كان إماما عالما فقيها، سمع الحديث و رواه، و بنى أربطة، و قدم بغداد. و كان صالحا متعبّدا شيخ بلاده فی التصوّف، و كان من أهل السنة و الجماعة.
أمر النيل فی هذه السنة- الماء القديم ست أذرع و ثلاث أصابع. مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعا و ثلاث أصابع.
النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۳۹
***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۸۷]

اشارة

السنة الستون من ولاية المستنصر معدّ على مصر و هی سنة سبع و ثمانين و أربعمائة، و هی التی مات فيها المستنصر معدّ صاحب الترجمة حسب ما تقدّم ذكره.
و فيها أيضا توفّى الخليفة المقتدى بالله العباسىّ و بدر الجمالى أمير الجيوش بمصر، و آق سنقر صاحب حلب قتيلا، و بوزان بالشأم، و أمير مكة. و تسمّى هذه السنة سنة موت الخلفاء و الأمراء؛ فعدّ الناس هذا كلّه من القران المقدّم ذكره فی سنة خمس و ثمانين و أربعمائة. و يأتى كلّ واحد من هؤلاء على حدته فی هذه السنة.
و فيها كانت زلزلة عظيمة [ببغداد] بين العشاءين فی المحرّم.
و فيها حدث فتن و حروب و غلاء بسائر الأقاليم
و فيها توفّى الخليفة أمير المؤمنين أبو القاسم المقتدى بالله عبد اللّه ابن الأمير ذخيرة الدّين أبى العباس محمد ابن الخليفة القائم بأمر اللّه عبد اللّه ابن الخليفة القادر بأمر اللّه أحمد ابن الأمير إسحاق ابن الخليفة جعفر المقتدر ابن الخليفة المعتضد بالله أحمد ابن الأمير طلحة الموفّق ابن الخليفة المتوكّل على اللّه جعفر ابن الخليفة المعتصم بالله محمد ابن الخليفة الرشيد بالله هارون ابن الخليفة المهدى بالله محمد ابن الخليفة أبى جعفر المنصور عبد اللّه بن محمد بن على بن عبد اللّه بن عباس العباسى الهاشمى.
بويع بالخلافة بعد موت جدّه القائم بأمر اللّه فی ثالث عشر شعبان سنة سبع و ستين و أربعمائة، و هو ابن تسع عشرة سنة و ثلاثة أشهر.
و كان توفّى أبوه الذخيرة محمد، و المقتدى هذا حمل فی بطن أمّه، و كان اسم أمّه أرجوان- و قيل قرّة العين- و كانت أرمينيّة، فولدته بعد موت أبيه بستة أشهر. و كان المقتدى من رجال بنى العباس
النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۴۰
له همّة عالية، و شجاعة وافرة، و ظهرت فی أيامه خيرات؛ و خطب له فی الشرق بأسره و ما وراء النهر و الهند و غزنة و الصين و الجزيرة و الشام و اليمن؛ و عمّرت فی أيامه بغداد، و استرجع المسلمون الرّهاء. و أنطاكية و مات فجأة فی ليلة السبت خامس عشر

المحرّم، و کان عمره ثمانیا و ثلاثین سنة و ثمانیة أشهر و یومین. و تخلّف بعده ابنه أبو العبّاس أحمد. و کانت خلافة المقتدی تسع عشرة سنة و ثمانیة أشهر.

و فیها توفّی الشریف أمیر مکة محمد بن أبی هاشم. کان ظالما جبّارا فاتکا سفّا کاللدّماء مسرفا رافضیّا سبّابا خبیثا متلونا، تارة مع الخلفاء العباسیّین، و تارة مع المصریّین، و کان یقتل الحجّاج و یأخذ أموالهم. و هلک بمکّة و قد ناهز السبعین.

و فرح المسلمون و أهل مکّة بموته، و قام بعده ابنه هاشم.

و فیها توفّی المستنصر صاحب الترجمة العبیدیّ خلیفة مصر، و قد تقدّم ذکر وفاته فی ترجمته.

و فیها توفّی الحسن بن أسد أبو نصر الفارقیّ الشاعر المشهور. کان فصیحا فاضلا عارفا باللغة و الأدب، و هو الذی سلّم میّافارقین إلی [منصور بن] مروان.

فلمّا دخلها تتش السلجوقیّ اختفی، ثم ظهر لمّا عاد تتش، و وقف بین یدیه و أنشده قصیدة، منها:

[البسیط]

و استحلبت حلب جفنیّ فانهملا و بشّرتنی بحرّ القتل حرّان

فقال تتش: من هذا؟ فقیل له: هذا الفارقیّ؛ فأمر بضرب عنقه من وقته.

فکان قوله:

و بشّرتنی بحرّ القتل حرّان

فألا علیه.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۴۱

و من شعره:

[المنسرح]

کم ساءنی الدّهر ثم سرّ فلم یدم لنفسی همّا و لا فرحا

ألقاه بالصبر ثم یعرکنی تحت رحا من صروفه فرحا

و فیها توفّی الأمیر آق سنقر بن عبد اللّه قسیم الدولة التّرکیّ. کان شجاعا عادلا منصفا، و کان الملوک السلجوقیّة یحترمونه، و لم یکن له ولد غیر زنکی. و آق سنقر هذا هو جدّ الملک العادل نور الدین محمود المعروف بالشهید. و لمّا قتل آق سنقر انضمّ علی ولده زنکی ممالیک أبیه و صار معهم، و استفحل أمره، علی ما یأتی ذکره إن شاء اللّه فی عدّة مواطن.

و فیها توفّی أمیر الجیوش بدر الجمالیّ الأرمنیّ وزیر مصر للمستنصر بل صاحب أمرها و عقدها و حلّها. کان أوّلا ولی الشام و السواحل للمستنصر، ثم خالفه مدّة و أقام بعکّا، إلی أن استدعاه المستنصر المذکور إلی مصر بعد أن اختلّ أمرها من الغلاء و الفتن؛ و فوّض إلیه أمور مصر و الشام و جمیع ممالکه؛ فاستقامت الأمور بتدبیره و سکنت الفتن، و صار الأمر کلّه له؛ و لیس للخلیفة المستنصر معه سوی الاسم لا غیر. و مات قبل المستنصر بأشهر. و لمّا مات بدر الجمالیّ أقام المستنصر ابنه أبا القاسم شاهنشاه، و لقّبه الأفضل؛ فأحسن الأفضل السّیرة فی الرعیّة، لکنه عظم فی الدولة أضعاف مکانة أبیه. و خلّف بدر الجمالیّ أموالا کثیرة یضرب بها المثل.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم ستّ أذرع و إصبعان. مبلغ الزیادة ستّ عشرة ذراعا و إحدی و عشرون إصبعا.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۴۲

ذکر ولایة المستعلی باللّه علی مصر

المستعلی باللّه خلیفة مصر اسمه أحمد و کنیته أبو القاسم بن المستنصر باللّه معدّ ابن الظاهر باللّه علیّ بن الحاکم بأمر اللّه منصور بن

العزيز بالله نزار بن المعزّ لدين اللّه معدّ بن المنصور إسماعيل بن القائم محمد بن المهدىّ عبيد اللّه، السادس من خلفاء مصر الفاطميّين بنى عبيد، و التاسع ممّن ولى من أجداده الخلافة بالمغرب. بويع بالخلافة بعد موت أبيه المستنصر معدّ فى يوم عيد الغدير، يوم ثامن عشر ذى الحجة سنة سبع و ثمانين. و مولده بالقاهرة فى المحرّم سنة سبع و ستين و أربعمائة.

و لمّا ولى الخلافة كانت سنه يوم ذاك نيّفت على عشرين سنة. و قال ابن خلّكان:

مولده لعشر ليال بقين من المحرّم، و ذكر السنة. و كان القائم بأمره الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالىّ؛ فإنّ المستنصر كان قد أجلس بعده ابنه أبا منصور نزارا أكبر أولاده، و جعل إليه ولاية العهد بالخلافة. فلمّا مرض المستنصر أراد أخذ البيعة له فتقاعد الأفضل شاهنشاه و دافع المستنصر من يوم إلى يوم حتّى مات المستنصر؛ و كان ذلك كراهة من الأفضل فى نزار ولد المستنصر. و سببه أن نزارا خرج ذات يوم فى حياة أبيه المستنصر فإذا الأفضل راكب و قد دخل من أحد أبواب القصر، فصاح به نزار المذكور: انزل يا أرمنىّ يا نجس!. فحقدها عليه الأفضل و صار كلّ منهما يكره الآخر. فاجتمع الأفضل بعد موت المستنصر بالأمراء و الخواصّ و خوّفهم من نزار و أشار عليهم بولاية أخيه الصغير أبى القاسم أحمد، فرضوا بذلك ما خلا محمود بن مصال اللّكّىّ فإنّ نزارا كان وعده بالوزارة و التّقدمة على الجيوش مكان الأفضل. فلمّا علم ابن مصال الحال أعلم نزارا بذلك،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۴۳

و بادر الأفضل بإخراج أبى القاسم أحمد هذا و بايعه و نعته بالمستعلى بالله، و ذلك بكرة يوم الخميس لاثنتى عشرة ليلة بقيت من ذى الحجة، و أجلسه على سرير الخلافة، و جلس الأفضل شاهنشاه على دكّة الوزارة، و حضر قاضى القضاة المؤيّد بنصر الأنام علىّ بن نافع بن الكحّال و الشهود معه، و أخذوا البيعة على مقدّمى الدولة و رؤسائها و أعيانها. ثم مضى الأفضل إلى إسماعيل و عبد اللّه ابنى المستنصر و هما بالمسجد بالقصر و الموكّلون عليهما، فقال لهما: إنّ البيعة تمّت لمولانا المستعلى بالله، و هو يقرئكما السلام و يقول لكما: تبايعان أم لا؟ فقالا: السمع و الطاعة؛ إنّ اللّه اختاره علينا؛ و قاما و بايعاه. فكتب الأفضل بذلك سجلّا قرأه الشريف سناء الملك محمد بن محمد الحسينىّ الكاتب بديوان الإنشاء على الأمراء. و أمّا أمر نزار فإنّه بادر و خرج من وقته و أخذ معه أخاه عبد اللّه الذى بايع و ابن مصال اللّكّىّ و توجّهوا إلى الإسكندريّة، و كان الوالى بها ناصر الدولة أفتكين التركىّ أحد مماليك أمير الجيوش بدر الجمالىّ (أعنى والد الأفضل هذا)، فعرّفوه الحال و وعده نزار بالوزارة، فطمع أفتكين فى ذلك، و بايع نزارا المذكور، و بايع أيضا جميع أهل الإسكندرية، و لقّب المصطفى لدين اللّه. ثم وقع لنزار هذا أمور و حروب مع الأفضل نذكر منها نبذة من أقوال جماعة من المؤرخين.

قال العلّامة شمس الدين يوسف بن قزأوغلى فى تاريخه مرآة الزمان- بعد ما ساق نسبه بنحو ما ذكرناه و أقلّ- قال: و كان المتصرّف فى دولته الأفضل ابن أمير الجيوش (يعنى عن المستعلى). قال: و كان هرب أخوه نزار بن المستنصر إلى الإسكندريّة و بها أفتكين مولى أبيه. قلت: و هذا بخلاف ما ذكره غيره من أنّ أفتكين كان مولى لبدر الجمالىّ والد الأفضل شاهنشاه. قال: و زعم نزار أنّ أباه عهد إليه، فقام له بالأمر أفتكين و لقّبه ناصر الدولة. و أخذ له البيعة على

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۴۴

أهل البلد، و ساعده ابن عمّار قاضى الإسكندرية. فتوجّه الأفضل إلى الإسكندرية و ضايقها؛ فخرج إليه أفتكين فهزمه و عاد الأفضل إلى القاهرة (يعنى مهزوما) فحشد و عاد إليها و نازلها و افتتحها عنوة و قتل أعيان أهلها، و اعتقل أفتكين و ابن عمّار. فكتب ابن عمّار إلى الأفضل ورقة من الحبس يقول فيها:

[البسيط]

هل أنت منقذ شلوى من يدى زمن أضحى يقدّ أديمى قدّ منتهس

دعوتك الدّعوة الأولى و بى رمق و هذه دعوة و الدهر مفترسى

فلم تصل إليه الورقة حتّى قتل. فلمّا وقف عليها قال: و اللّه لو وقفت عليها قبل ذلک ما قتلته. و کان ابن عمّار المذکور من حسنات الدهر. و قدم الأفضل بأفتكين و نزار إلى القاهرة، و كان أفتكين يلعن المستعلى و الأفضل بن أمير الجيوش على المنابر؛ فقتله المستعلى بيده و بنى على أخيه نزار حائطا فهو تحته إلى الآن. و کان للمستعلى أخ اسمه عبد اللّه [فظفر به الأفضل]. انتهى كلام صاحب مرآة الزمان بآختصار.

و قال غيره: و لمّا استهلّت سنة ثمان و ثمانين خرج الأفضل بعساكر مصر إلى الإسكندريّة، و هناک نزار و أفتكين، فكانت بينهم حرب شديدة بظاهر الإسكندرية، انكسر فيها الأفضل بمن معه، و رجع إلى القاهرة منهزما؛ فخرج نزار و نهب أكثر البلاد بالوجه البحرىّ. و أخذ الأفضل فى التجهّز لقتال نزار، و دسّ إلى جماعة ممّن كان مع نزار من العربان و استمالهم عنه، ثمّ خرج بالعساكر ثانيا إلى نحو الإسكندريّة، فكانت بينهم أيضا وقعة بظاهر الإسكندريّة انكسر فيها نزار بمن معه إلى داخل الإسكندرية؛ فحاصرهم الأفضل حصارا شديدا إلى ذى القعدة.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۴۵

فلمّا رأى ذلک ابن مصال جمع ماله و فرّ إلى الغرب. و كان سبب فرار ابن مصال أنّه رأى فى منامه أنه راكب فرسا و سار و الأفضل ماش فى ركابه؛ فقال له المعبّر:

الماشى على الأرض أملک لها؛ فلمّا سمع ذلک فرّ. و لمّا فرّ ابن مصال صعفت قوى نزار و أفتكين و خافا و طلبا من الأفضل الأمان فأمّنهما و دخل البلد؛ ثم قبض على نزار و أفتكين و بعث بهما إلى مصر، و كان ذلک آخر العهد بنزار. و كان مولد نزار فى يوم الخميس العاشر من شهر ربيع الأول سنة سبع و ثلاثين و أربعمائة. و قيل:

إنّ الأفضل بنى لنزار حائطين و جعله بينهما إلى أن مات. و أمّا أفتكين نائب الإسكندريّة فإنّه قتله بعد ذلک. و لم يزل الأفضل يؤمّن ابن مصال حتّى حضر إليه بالقاهرة و لزم داره حتّى رضى عنه الأفضل. انتهى ذكر نزار و كيفيّة قتله.

و قال الحافظ أبو عبد اللّه الذهبىّ: و فى أيّامه و هنت دولتهم (يعنى المستعلى صاحب الترجمة). قال: و انقطعت دعوتهم من أكثر مدن الشام، و استولى عليها الأتراک و الفرنج، و نزل الفرنج على أنطاكية و حصروها ثمانية أشهر، و أخذوها فى سادس عشر رجب سنة إحدى و تسعين و أربعمائة، و أخذوا المعرة سنة اثنتين و تسعين، ثم أخذوا القدس فيها أيضا فى شعبان، و استولى الملاعين على كثير من مدن الساحل. و لم يكن المستعلى مع الأفضل بن أمير الجيوش حكم. و فى أيّامه هرب أخوه نزار إلى الإسكندريّة، فأخذ له البيعة على أهل الثغر أفتكين، و ساعده قاضى الثغر ابن عمّار، و أقاموا على ذلک سنة. فجاء الأفضل سنة ثمان و ثمانين و حاصر الثغر و خرج إليه أفتكين فهزمه، ثم نازلها ثانيا و افتتحها عنوة و قتل جماعة، و أتى القاهرة بنزار و أفتكين، فذبح أفتكين صبرا، و بنى المستعلى على أخيه حائطا، فهو تحته إلى

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۴۶

الآن: انتهى كلام الذهبىّ. قلت: و من حينئذ نذكر كيفيّة أخذ الفرنج للسواحل فى أيام المستعلى هذا، و هو كالشرح لمقالة الذهبىّ و غيره:

كان أوّل حركة الفرنج لأخذ السواحل و خروجهم إليها فى سنة تسعين و أربعمائة، فساروا إليها، فأوّل ما أخذوا نيقية، و هو أوّل بلد فتحوه و أخذوه من المسلمين.

ثمّ فتحوا حصون الدروب شيئا بعد شىء، و وصلوا إلى البارة و جبل السّمّاق و فامية و كفر طاب و نواحيها. و فى سنة إحدى و تسعين و أربعمائة ساروا إلى أنطاكية و لم ينازلوها، و جاءوا إلى المعرّة فنصبوا عليها السّلا لم فنزلوا إليها فقتلوا من أهلها مائة ألف إنسان، قاله أبو المظفّر سبط ابن الجوزىّ؛ قال: و سبوا مثلها. ثمّ دخلوا كفر طاب و فعلوا مثل ذلک، و عادوا إلى أنطاكية، و كان بها الأمير شعبان. و قيل شقبان، و قيل فى اسمه غير ذلک- و كان على الفرنج صنجيل، فحاصرها مدّة؛ فنافق رجل من أنطاكية يقال له فيروز و

فتح لهم فى الليل شبّاكا فدخلوا منه، و وضعوا السيف، و هرب شعبان و ترك أهله و أمواله و أولاده بها. فلما بعد عن البلد ندم على ذلك، فنزل عن فرسه فحثى التّراب على رأسه و بكى و لطم، و تفرّق عنه أصحابه و بقى وحده؛ فمرّ به رجل أرمنىّ حطّاب فعرفه فقتله و حمل رأسه إلى صنجيل ملك الفرنج.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة؛ ج۵؛ ص۱۴۶

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۴۷

و قال أبو يعلى [بن] القلانسىّ: فى جمادى الأولى ورد الخبر بأنّ قوما من أهل أنطاكية عملوا عليها و واطئوا الفرنج على تسليمها إليهم لإساءة تقدّمت من حاكم البلد فى حقّهم و مصادرته لهم، و وجدوا الفرصة فى برج من الأبراج التى للبلد مما يلى الجبل، فباعوهم إيّاه، و أصعدوا منه فى السّحر و صاحوا، فانهزم ياغى سيان و خرج فى خلق عظيم فلم يسلم منهم شخص؛ فسقط الأمير عن فرسه عند معرّة مصرين، فحمله بعض أصحابه و أركبه فلم يثبت على ظهر الفرس و سقط ثانيا فمات.

و أمّا أنطاكية فقتل منها و سبى من الرجال و النساء و الأطفال ما لا يدركه حصر، و هرب إلى القلعة قدر ثلاثة آلاف تحصّنوا بها.

و كان أخذ المعرّة فى ذى الحجّة بعد أخذ أنطاكية. و لمّا وقع ذلك اجتمع ملوك الإسلام بالشام، و هم رضوان صاحب حلب و أخوه دقماق و طغتكين و صاحب الموصل و سكمان بن ارتق صاحب ماردين و أرسلان شاه صاحب سنجار - و لم ينهض الأفضل بإخراج عساكر مصر. و ما أدرى ما كان السبب فى عدم إخراجه مع قدرته على المال و الرجال- فاجتمع الجميع و نازلوا أنطاكية و ضيّقوا على الفرنج حتّى أكلوا ورق الشجر. و كان صنجيل مقدّم الفرنج عنده دهاء و مكر، فرتّب مع راهب حيلة و قال: اذهب فآدفن هذه الحربة فى مكان كذا، ثم قل للفرنج بعد ذلك: رأيت المسيح فى منامى و هو يقول: فى المكان الفلانىّ حربة مدفونة فآطلبوها، فإن

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۴۸

وجدتموها فالظّفر لكم، و هى حربتى، فصوموا ثلاثة أيّام و صلّوا و تصدّقوا ثم قام و هم معه إلى المكان ففتّشوه فظهرت الحربة؛ فصاحوا و صاموا و تصدّقوا و خرجوا إلى المسلمين، و قاتلوهم حتى دفعوهم عن البلد؛ فثبت جماعة من المسلمين فقتلوا عن آخرهم، رحمهم اللّه تعالى. و العجب أنّ الفرنج لمّا خرجوا إلى المسلمين كانوا فى غاية الضعف من الجوع و عدم القوت حتّى إنهم أكلوا الميتة و كانت عساكر الإسلام فى غاية القوّة و الكثرة، فكسروا المسلمين و فرّقوا جموعهم، و انكسر أصحاب الجرد السوابق، و وقع السيف فى المجاهدين و المطّوّعين. فكتب دقماق و رضوان و الأمراء إلى الخليفة (أعنى المستظهر العباسىّ) يستنصرونه؛ فأخرج الخليفة أبا نصر ابن الموصلايا إلى السلطان بركياروق ابن السلطان ملكشاه السلجوقىّ يستنجده. كلّ ذلك و عساكر مصر لم تهيّأ للخروج.

و أمّا أخذ بيت المقدس فكان فى يوم الجمعة ثالث عشرين شعبان سنة اثنتين و تسعين و أربعمائة، و هو أنّ الفرنج ساروا من أنطاكية و مقدّم الفرنج كندهرى فى ألف ألف، منهم خمسمائة ألف مقاتل فارس، و الباقون رجّالة و فعلة و أرباب آلات من مجانيق و غيرها، و جعلوا طريقهم على الساحل و كان بالقدس افتخار الدولة من قبل المستعلى خليفة مصر صاحب الترجمة، فأقاموا يقاتلون أربعين يوما، و عملوا برجين مطلّين على السور؛ أحدهما بباب صهيون، و الآخر بباب العمود و باب الأسباط، و هو برج الزاوية؛ و منه فتحها السلطان صلاح الدّين بن أيوب، على ما يأتى ذكره إن شاء اللّه تعالى. فأحرق المسلمون البرج الذى كان بباب صهيون و قتلوا من فيه. و أمّا الآخر فزحفوا به حتّى ألصقوه بالسور، و حكموا به على البلد، و كشفوا من كان عليه من المسلمين؛ ثم رموا بالمجانيق و السّهام رمية رجل واحد،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۴۹

فانهزم المسلمون فنزلوا إلى البلد، و هرب الناس إلى الصخرة و الأقصى و اجتمعوا بها، فهجموا عليهم و قتلوا فى الحرم مائة ألف وسبوا مثلهم، و قتلوا الشيوخ و العجائز و سبوا النساء، و أخذوا من الصخرة و الأقصى سبعين قنديلا، منها عشرون ذهبا فى كلّ قنديل ألف

مثقال، و منها خمسون فضّة فى كلّ قنديل ثلاثة آلاف و ستمائة درهم بالشامىّ، و أخذوا تنّورا من فضّة زنته أربعون رطلا بالشامىّ، و أخذوا من الأموال ما لا يحصى. و كان بيت المقدس منذ افتتحه عمر بن الخطاب- رضى اللّه عنه- فى سنة ستّ عشرة من الهجرة، لم يزل بأيدى المسلمين إلى هذه السنة. هذا كلّه و عسكر مصر لم يحضر، غير أنّ الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالىّ صاحب أمر مصر لمّا بلغه أنّ الفرنج ضايقوا بيت المقدس خرج فى عشرين ألفا من عساكر مصر و جدّ فى السير، فوصل إلى القدس يوم ثانى فتحه و لم يعلم بذلك.

فقصده الفرنج و قاتلوه، فلم يثبت لهم و دخل عسقلان بعد أن قتل من أصحابه عدد كثير؛ فأحرق الفرنج ما حول عسقلان و قطعوا أشجارها، ثم عادوا إلى القدس. ثم عاد الأفضل إلى مصر بعد أمور وقعت له مع الفرنج. و استمرّ بيت المقدس مع الفرنج، فلا قوّة إلّا باللّه.

و قال ابن القلانسىّ: إنّ أخذ المعرّة كان فى هذه السنة أيضا، و إنّه كان قبل أخذ بيت المقدس. قال: و زحف الفرنج فى محرم هذه السنة إلى سور المعرّة من الناحية الشرقيّة و الشمالية، و أسندوا البرج إلى سورها، فكان أعلى منه. و لم يزل الحرب عليها إلى وقت المغرب من اليوم الرابع عشر من المحرّم، و صعدوا السور، و انكشف أهل البلد بعد أن تردّدت إليهم رسل الفرنج، و أعطوهم الأمان على نفوسهم و أموالهم و ألّا يدخلوا إليهم، بل يبعثوا إليهم شحنة فمنع من ذلك الخلف

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۵۰

بين أهلها، فملكت الفرنج البلد بعد المغرب بعد أن قتل من الفريقين خلق كثير، ثم أعطوهم الأمان. فلمّا ملكوها غدروا بهم و فعلوا تلك الأفعال القبيحة و أقاموا عليها، إلى أن رحلوا عنها فى آخر شهر رجب إلى القدس. و انجفل الناس بين أيديهم، فجاءوا إلى الرملة فأخذوها عند إدراك الغلّة، ثم انتهوا إلى القدس. و ذكر فى أمر القدس نحوا مما قلناه، غير أنّه زاد فقال: و لمّا بلغهم (يعنى الفرنج) خروج الأفضل من مصر جدّوا فى القتال و نزلوا من السور و قتلوا خلقا كثيرا، و جمعوا اليهود فى الكنيسة و أحرقوها عليهم، و هدموا المشاهد و قبر الخليل- عليه السلام- و تسلّموا محراب داود بالأمان. و وصل الأفضل بالعساكر و قد فات الأمر، فنزل عسقلان فى يوم رابع عشر شهر رمضان ينتظر الأسطول فى البحر و العرب؛ فنهض إليه مقدّم الفرنج فى خلق عظيم، فانهزم العسكر المصرىّ إلى ناحية عسقلان؛ و دخل الأفضل عسقلان، و لعبت سيوف الفرنج فى العسكر و الرجال و المطّوّعة و أهل البلد، و كانوا زهاء عن عشرة آلاف نفس، و مضى الأفضل. و قرّر الفرنج على أهل البلد عشرين ألف دينار تحمل إليهم، و شرعوا فى جبايتها من أهل البلد؛ فاختلف المقدّمون فرحلوا و لم يقبضوا من المال شيئا. ثم قال: و حكى أنّه قتل من أهل عسقلان من شهودها و تجارها و أحداثها سوى أجنادها ألفان و سبعمائة نفس.

و لما تمّت هذه الحادثة خرج المستنفرون من دمشق مع قاضيها زين الدين أبى سعد الهروىّ، فوصلوا بغداد و حضروا فى الديوان و قطّعوا شعورهم و استغاثوا و بكوا، و قام القاضى فى الديوان و أورد كلاما أبكى الحاضرين، و ندب من الديوان من يمضى إلى العسكر السلطانىّ و يعرّفهم بهذه المصيبة؛ فوقع التقاعد لأمر يريده

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۵۱

اللّه. فقال القاضى الهروىّ- و قيل: هى لأبى المظفّر الأبيوردىّ- القصيدة التى أوّلها:

[الطويل]

مزجنا دماء بالدموع السواجم فلم يبق منا عرضة للمراجم

و منها:

و كيف تنام العين ملء جفونها على هفوات أيقظت كلّ ناتم

و إخوانكم بالشام يضحى مقيلهم ظهور المذاكى أو بطون القشاعم

و منها:

و كاد لهنّ المستجنّ بطيبة ينادى بأعلى الصوت يا آل هاشم

أرى أمتى لا يشرعون إلى العدا رماحهم و الدين واهى الدعائم

و منها:

وليتهم إذ لم يذودوا حميّة عن الدين ضنّوا غيرة بالمحارم

و إذ زهدوا فى الأجر إذ حمى الوغى فهلّا أتوه رغبة فى الغنائم

و قال آخر:

[الوافر]

أحلّ الكفر بالإسلام ضيما يطول عليه للدين النّحيب

فحقّ ضائع و حمّى مباح و سيف قاطع و دم صبيب

و كم من مسلم أمسى سليبا و مسلمة لها حرم سليب

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۵۲

و كم من مسجد جعلوه ديرا على محرابه نصب الصليب

دم الخنزير فيه لهم خلوق و تحريق المصاحف فيه طيب

أمور لو تأملهنّ طفل لطفّل فى عوارضه المشيب

أ تسبى المسلمات بكلّ ثغر و عيش المسلمين إذا يطيب

أمّا للّه و الإسلام حقّ يدافع عنه شبّان و شيب

فقل لذوى البصائر حيث كانوا أجيبوا اللّه و يحكم أجيبوا

و قال الناس فى هذا المعنى عدّة مرات. و المقصود أنّ القاضى و رفقته عادوا من بغداد إلى الشام بغير نجدة. و لا قوة إلّا بالله!. ثم إنّ الأفضل بن أمير الجيوش جهّز من مصر جيشا كثيفا و عليه سعد الدولة القواسىّ فى سنة ثلاث و تسعين و أربعمائة، فخرج سعد الدولة المذكور من مصر بعسكره فالتقى مع الفرنج بعسقلان؛ و وقف سعد الدولة فى القلب، فقاتل قتالا شديدا، فكبا به فرسه فقتل. و ثبت المسلمون بعد قتله و حملوا على الفرنج فهزموهم إلى قيسارية. فيقال: إنّهم قتلوا من الفرنج ثلثمائة ألف، و لم يقتل من المسلمين سوى مقدّم عسكرهم سعد الدولة القواسىّ المذكور و نفر يسير. قاله صاحب مرآة الزمان. و قال الذهبىّ فى تاريخه: هذه مجازفة عظيمة (يعنى كونه قال قتل ثلثمائة ألف من الفرنج). انتهى. قلت: و من يومئذ بدأت الفرنج فى أخذ السواحل حتّى استولوا على الساحل الشامى بأجمعه إلى أن استولت الدولة الأيوبيّة و التركيّة و استرجعوها شيئا بعد شىء، حسب ما يأتى ذكره إن شاء اللّه فى هذا الكتاب.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۵۳

و مات المستعلى صاحب الترجمة فى يوم الثلاثاء تاسع صفر سنة خمس و تسعين و أربعمائة، و قيل: فى ثالث عشر صفر، و الأوّل أشهر. و مات و له سبع و عشرون سنة، و كانت خلافته سبع سنين و شهرين و أياما. و تولّى الخلافة بعده ابنه الآمر بأحكام اللّه منصور. و كان المتصرّف فى دولته و زيره الأفضل سيف الإسلام شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالىّ. فانتظمت أحوال مصر بتدبيره؛ و اشتغل بها عن السواحل الشاميّة حتى استولت الفرنج على غالبها؛ و ندم على ذلک حين لا ينفع الندم.

و كان المستعلى حسن الطريقة فى الرعيّة، جميل السيرة فى كافّة الأجناد، ملازما لقصره كعادة أبيه، مكتفيا بالأفضل فيما يريده، إلا أنّه كان مع تقاعده عن الجهاد و تهاونه فى أخذ البلاد متغاليا فى الرّفض و التشيّع؛ كان يقع منه الأمور الشنيعة فى مأتم عاشوراء، و يبالغ فى النّوح و المأتم، و يأمر الناس بلبس المسوح و غلق الحوانيت و اللطم و البكاء زيادة عما كان يفعله آباؤه، مع أنّ الجميع رافضة، و

لکنّ التفاوت نوع آخر.

و أما الـذی کان یفعله آباؤه و أجـداده من النّوح فی یوم عاشوراء و الحزن و ترتیبه، فإذا کان یوم العاشـر من المحرّم احتجب الخلیفة عن النـاس، فـإذا علاـ النهـار رکب قاضـی القضاة و الشـهود و قـد غیروا زیّهم و لبسوا قماش الحزن، ثم صاروا إلی المشـهد الحسـینیّ بالقاهرة- و کان قبل ذلک یعمل المأتم بالجامع الأزهر- فإذا جلسوا فیه بمن معهم من الأمراء و الأعیان و قرّاء الحضـرة و المتصـدّرین فی الجوامع، جاء الوزیر فجلس صـدرا، و القاضـی و داعی الدّعاة من جانبیه، و القرّاء یقرءون نوبة بنوبة، ثم ینشد قوم من الشـعراء غیر شعراء الخلیفة أشـعارا یرثون بها الحسن و الحسـین و أهل البیت، و تصـیح الناس بالضـجیج و البکاء و العویل- فإن کان الوزیر رافضیّا علی

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۵۴

مذهب القوم تغالوا فی ذلک و أمعنوا، و إن کان الوزیر سنّیّا اقتصروا- و لا یزالون کذلک حتّی تمضی ثلاث ساعات، فیستدعون إلی القصـر عند الخلیفة بنقباء الرسائل؛ فیرکب الوزیر و هو بمندیل صـغیر إلی داره، و یدخل قاضی القضاة و الداعی و من معهما إلی باب الـذهب (أحـد أبواب القصـر) فیجـدون الـدّهالیز قـد فرشت مساطبهـا بالحصـر و البسط، و ینصب فی الأماکن الخالیـة الـدکک لتلحق بالمساطب و تفرش؛ و یجدون صاحب الباب جالسا هناک، فیجلس القاضی و الداعی إلی جانبه و الناس علی اختلاف طبقاتهم؛ فیقرأ القرّاء و ینشـد المنشدون أیضا. ثم یفرش وسط القاعة بالحصـر المقلوبة (لیس علی وجوهها، و إنما تخالف مفارشـها)؛ ثمّ یفرش علیها سماط الحزن مقـدار ألف زبدیـة من العـدس و الملوحات و المخلّلات و الأجبان و الألبان الساذجـة و الأعسال النّحل و الفطیر و الخبز المغیّر لونه بالقصـد لأجـل الحزن. فـإذا قرب الظهر وقف صـاحب البـاب و صـاحب المائـدة (یعنی الحاجب و المشـدّ) و أدخل الناس للأکل من السّـماط. فیـدخل القاضـی و الـداعی و یجلس صاحب الباب ببابه؛ و من الناس من لا یدخل من شدّة الحزن، فلا یلزم أحد بالدخول. فإذا فرغ القوم انفصـلوا إلی مکانهم رکبانا بذلک [الزیّ] الذی ظهروا فیه من قماش الحزن. و طاف النّوّاح بالقاهرة فی ذلک الیوم، و أغلق البیّاعون حوانیتهم إلی بعد العصـر، و النّوح قائم بجمیع شوارع القاهرة و أزقّتها. فإذا فات العصـر یفتح الناس دکاکینهم و یتصـرّفون فی بیعهم و شـرائهم؛ فکـان [ذلـک] دأب الخلفاء الفاطمیّین من أولهم المعزّ لـدین اللّه معـدّ إلی آخرهم العاضـد عبـد اللّه. انتهت ترجمة المستعلی. و یأتی بعض أخباره أیضا فی السنین المتعلّقة به علی سبیل الاختصار، کما هو عادة هذا الکتاب.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۵۵

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۸۸]

السنة الأولی من ولایة المستعلی أحمد علی مصر و هی سنة ثمان و ثمانین و أربعمائة.

فیها اصطلح أهل السّنة و الرافضة ببغداد و عملوا الدعوات و دخل بعضهم إلی بعض.

و فیهـا قتـل تاج الدولـة تتش بن ألب أرسـلان محمـد بن داود بن میکائیل بن سـلجوق بن دقماق أبو سـعید السـلجوقیّ أخو السـلطان ملکشاه. کان أوّلا فی المشـرق، فاستنجده أتسـز الخوارزمیّ صاحب الشام فقدم دمشق، و قتل أتسـز المذکور و اسـتولی علی الشام، و امتـدّت أیّامه. و هو الـذی قتل آق سـنقر و بوزان، ثمّ خالف علی ابن أخیه برکیا روق بن ملکشاه، و وقع بینهما أمور آخرها فی هـذه السـنة؛ کانت بینهما وقعـة هائلة علی الرّیّ. و کان لمّا قتل آق سـنقر و بوزان أخذ جماعة من أمرائهما فقتلتهم بین یدیه؛ و کان بکجور من أکـابر الأـمراء، فقتـل أولاـده بین یـدیه صـبرا، و هرب بکجـور إلی برکیـا روق. فلمّـا انتصـر علی الرّیّ جاء بکجـور إلی السـلطان برکیاروق و هو یبکی، فقال: قد قتل عمّک أولادی و أنا قاتله بأولادی؛ فقال:

افعـل. و کان تش قـد وقف بالقلب مقابل ابن أخیه السـلطان برکیاروق، فقصـده الأمیر بکجور المـذکور و طعنه فألقاه عن فرسه؛ فنزل

سنقرجه- و کان أیضا صاحب ثار- فحزّ رأسه، و قیل؛ رماه مملوک بوزان بسهم فی ظهره فوقع منه، و انهزم أصحابه؛ و طیف برأسه. و أسر وزیره فخر الملک علیّ بن نظام الملک، فعفا عنه السلطان برکیاروق لأجل أخیه وزیره مؤیّد الملک بن نظام الملک. قلت: کان مؤیّد الملک وزیر برکیاروق، و فخر الملک وزیر تتش، و هما ابنا نظام الملک. ثم وقع أیضا لأولاد تاج الدولة تتش هذا أمور و فتن بعد موت أبیهم؛ و هم رضوان و إخوته، علی ما یأتی ذکره إن شاء اللّه تعالی.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۵۶

و فیها توفّی عبد السلام بن محمد بن یوسف بن بندار أبو یوسف القزوینیّ شیخ المعتزلة. کان إماما فی فنون، فسّر القرآن فی سبعمائة مجلّد- و قیل فی أربعمائة، و قیل ثلثمائة- و کان الکتاب وقفا فی مشهد أبی حنیفة رضی اللّه عنه. و کان رحل إلی مصر و أقام بها أربعین سنة. و کان محترما فی الدول، ظریفا، حسن العشرة، صاحب نادرة. قیل: إنّه دخل علی نظام الملک الوزیر و کان عنده أبو محمد التمیمیّ و رجل آخر أشعریّ، فقال له القزوینیّ: أیّها الصدر قد اجتمع عندک رءوس أهل النار.

قال نظام الملک: و کیف ذلک؟ قال: أنا معتزلیّ، و هذا مشبّه (یعنی التمیمیّ) و ذلک أشعریّ، و بعضنا یکفّر بعضا؛ فضحک النظام. و قیل: إنّه اجتمع مع ابن البراج متکلّم الشّیعة، فقال له ابن البراج: ما تقول فی الشیخین؟ فقال: سفلتین ساقطین. قال: من تعنی؟ قال: أنا و أنت. و کانت وفاة القزوینیّ هذا فی ذی القعدة، و قد بلغ ستّا و تسعین سنة، و دفن بمقابر الخیزران عند أبی حنیفة، رضی اللّه عنه.

و فیها توفّی محمد بن فتوح بن عبد اللّه بن حمید أبو عبد اللّه بن أبی نصر الحمیدیّ الأندلسیّ. کان من جزیرة میورقة. ولد قبیل الأربعمائة، و سمع الکثیر و رحل إلی الأقطار ثم استوطن بغداد. و کان مختصّا بصحبة ابن حزم الظاهریّ، و حمل عنه أکثر کتبه. قال ابن ماکولا: «صدیقنا أبو عبد اللّه الحمیدیّ من أهل العلم و الفضل، ورد بغداد و سمع أصحاب الدارقطنیّ و ابن شاهین و غیرهم، و سمع منه خلق کثیر، و صنّف «تاریخ الأندلس»، و لم أر مثله فی عفّته و نزاهته».

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۵۷

و فیها توفّی منصور [بن نظام الدین] بن نصر الدولة بن مروان صاحب میّافارقین، و کان استولی علی الجزیرة فمات بها، فحمل إلی آمد فدفن بقبّة بنتها له زوجته ستّ الناس بنت عمید الأمّة. و أوّل ولایة بنی مروان لدیار بکر فی سنة ثمانین و ثلثمائة، و استولی الوزیر ابن جهیر علی بلادهم سنة تسع و سبعین و أربعمائة، و مات منصور فی هذه السنة. فکانت ولایتهم نیّفا و مائة سنة. و أعیان ملوکهم أوّلهم باد الکردیّ، و بعده مروان و هو جدّهم، ثم بعده ولده أحمد، ثم بعده ولده نظام الدین ثم ولداه سعید و منصور هذا.

و فیها توفی محمد بن عبّاد بن محمد بن إسماعیل بن قریش السلطان المعتمد علی اللّه أبو القاسم ابن السلطان المعتضد بالله أبی عمرو ابن الفقیه قاضی إشبیلیة ثم سلطانها الظافر ابن المؤیّد بالله أبی العباس بن أبی الولید اللّحمیّ، من ولد النّعمان بن المنذر صاحب الحیرة. کان المعتمد هذا صاحب إشبیلیة و قرطبة. و أصلهم من بلد العریش التی کانت فی أوّل رمل مصر. و کان المعتمد عالما ذکیا شاعرا عادلا فی الرعیّة، کان من محاسن الدنیا.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۵۸

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم خمس أذرع و ست أصابع. مبلغ الزیادة سبع عشرة ذراعا و اثنتا عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۸۹]

السنة الثانیة من ولایة المستعلی أحمد علی مصر و هی سنة تسع و ثمانین و أربعمائة.

فیها حکم المنجّمون بأن یکون طوفان مثل طوفان نوح علیه السلام. فسأل الخلیفة ابن عیسون المنجّم، فقال: أخطأ المنجّمون، طوفان نوح قد اجتمع فی برج الحوت الطوالع السبعة، و الآن قد اجتمع فیه ستة، زحل لم یجتمع معها؛ و لکنّی أقول: إنّ بقعة من البقاع یجتمع

بها عالم من بلاد كثيرة فيغرقون. فقيل:

ما ثمّ أكبر من بغداد، و يجتمع فيها ما لا يجتمع فی غيرها، و ربّما كانت هی؛ فقال ابن عيسون: لا أدری غير ما قلت. فأمر الخليفة بإحكام المسنّيات و سدّ الفروج، و كان الناس يتوقّعون الغرق؛ فوصل الخبر بأن الحاج نزلوا فی واد عند نخلة، فأتاهم سيل عظيم و أخذ الجميع بالجمال و الرجال، و ما نجا منهم إلّا من تعلّق برءوس الجبال. فخلع الخليفة على ابن عيسون و أجرى له الجراية و أمن الناس.

و فيها ورد كتاب المستعلی صاحب مصر و كتاب وزيره الأفضل أمير الجيوش إلى رضوان بن تتش السلجوقیّ بالدخول فی الطاعة. فأجاب و خطب للمستعلی صاحب الترجمة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۵۹

و فيها خرج العسكر المصریّ إلى الساحل و نزل على صور و فتحوها عنوة، و أخذوا منها أموالا عظيمة، و كان بها رجل يعرف بالكتيلة، فأسر و حمل إلى مصر.

و فيها سار الأفضل أمير الجيوش المذكور من مصر بالعساكر إلى القدس، و كان به سكمان بن أرتق و أخوه ايلغازی؛ فحصر البلد و نصب عليها المجانيق و قاتلهم أربعين يوما؛ و أرسل أهل القدس فواطئوه على فتح الباب، و طلبوا منه الأمان فأمّنهم و فتحوا له الباب، و خرج سكمان من باب آخر و مضى إلى الرّها، و مضى أخوه ايلغازی إلى بغداد. و هما أول ملوك الارتقيّة ظهورا.

و فيها تواترت الأخبار بخروج ملك الروم من بلاد الروم بقصد البلاد الشاميّة.

و فيها قتل رضوان بن تاج الدولة تتش السلجوقیّ و قتل ولده و نهبت داره.

و كان ظالما فاتكا. كان استوزر أبا الفضل بن الموصلیّ مشيّد الدين.

و فيها توفّی عبد اللّه بن إبراهيم بن عبد اللّه أبو حكيم الخيریّ- و خير: إحدى بلاد فارس- و هو جدّ [أبی] الفضل بن ناصر لأبيه. تفقّه على أبی إسحاق الشيرازیّ و برع فی الفرائض، و له فيها مصنّف. و كان فقيها صالحا حسن الطريقة.

و فيها توفّی عبد الرزّاق بن عبد اللّه بن المحسّن أبو غانم التّنوخیّ المعرّیّ. كان فاضلا شاعرا. و من شعره فی كوز فقّاع:

[الوافر]

و محبوس بلا ذنب جناه له سجن بباب من رصاص

يضيّق بابه خوفا [عليه] و يوثق بعد ذلك بالعفاص

إذا أطلقته خرج أرتقاصا و قبل فاك من فرح الخلاص

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۶۰

و فيها توفّی منصور بن محمد بن عبد الجبّار الشيخ أبو المظفّر السمعانیّ، جدّ أبی سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور صاحب «الذيل». و كان أبو المظفّر هذا من أهل مرو، و تفقّه على مذهب أبی حنيفة حتى برع، ثمّ ورد بغداد و انتقل لمذهب الشافعیّ لمعنى من المعانی، و رجع إلى بلده فلم يقبلوه و قام عليه العوامّ، فخرج إلى طوس، ثم قصد نيسابور. و صنّف «التفسير» و «البرهان» و «الاصطلام» و «القواطع فی أصول الفقه» و غير ذلك. و مات فی شهر ربيع الأول بمرو.

أمر النيل فی هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و سبع عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة ثلاث عشرة ذراعا و سبع عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۹۰]

السنة الثالثة من ولاية المستعلى أحمد على مصر و هى سنة تسين و أربعمائة.

فيها أخذت الفرنج نيقية و هى أوّل بلد أخذوه، ثم [فتحوا حصون الدورب] شيئا بعد شيء، كما ذكرناه مفصّلا فى أوّل ترجمة المستعلى هذا.

و فيها توفّى المعمّر بن محمد بن المعمّر بن أحمد بن محمد أبو الغنائم الحسينىّ الطاهر ذو المناقب نقيب الطالبيّين. مات بالكرخ، فحمل إلى مقابر قريش فدفن بها. و كان من كبار الشيعة. و ولى النقابة بعده ولده أبو الفتوح حيدرة، و لقّب بالرضىّ ذى الفخرين.

و فيها توفّى نصر بن إبراهيم بن نصر بن إبراهيم أبو الفتح الفقيه القدسىّ الشافعىّ.

أصله من نابلس، و أقام بالقدس مدّة و درس بها. و كان فقيها عابدا زاهدا و رعا.

مات فى المحرّم من هذه السنة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۶۱

و فيها توفّى يحيى بن أحمد السّيبىّ. مات فى شهر ربيع الاخر و عاش مائة و ثلاثا و خمسين سنة و ثلاثة أشهر و أياما، و كان صحيح الحواسّ، يقرأ عليه القرآن، و يسمع الحديث، و رحل الناس إليه. و كان ثقة صالحا صدوقا.

و فيها قتل الملك أرسلان أرغون بن السلطان ألب أرسلان محمد بن داود بن ميكائيل بن سلجوق بن دقماق السلجوقىّ بمرو، كان قد حكم على خراسان. و سبب قتله أنه كان مؤذيا لغلمانه جبّارا عليهم؛ فوثب عليه رجل منهم فقتله بسكّين. و كان قد ملك مرو و نيسابور و بلخ و ترمذ، و أساء السيرة و خرّب أسوار مدن خراسان، و صادر وزيره عماد الملك بن نظام الملك، و أخذ منه ثلثمائة ألف دينار ثم قتله.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و إحدى عشرة إصبعا. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و إصبع واحدة.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۹۱]

السنة الرابعة من ولاية المستعلى أحمد على مصر و هى سنة إحدى و تسعين و أربعمائة.

فيها تواترت الشّكايات من الفرنج، و كتب السلطان بركياروق السلجوقىّ إلى العساكر يأمرهم بالخروج مع عميد الدولة للجهاد، و تجهّز سيف الدولة صدقة، و بعث مقدّماته إلى الأنبار. ثمّ وردت الأخبار إلى بغداد بأنّ الفرنج ملكوا أنطاكية و ساروا إلى معرّة النعمان فى ألف ألف إنسان، فقتلوا و سبوا، حسب ما ذكرنا فى أول ترجمة المستعلى هذا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۶۲

و فيها عزل السلطان بركياروق و زيره مؤيّد الملك بن نظام الملك عن وزارته، و استوزر أخاه فخر الملك. و كان مؤيّد الملك فى غاية من العقل و الفضل و حسن التدبير؛ و فخر الملك بعكس ذلك كلّه. فلحق مؤيّد الملك بأخى بركياروق محمد بن ملكشاه، و أطمعه فى الملك. و كان عزل مؤيد الملك بإشارة [مجد الملك] القمّى المستوفى.

و فيها خرج محمد بن ملكشاه المذكور على أخيه بركياروق. و كان لملكشاه عدّة أولاد، منهم بركياروق السلطان بعده و أمّه زبيدة، و محمود و أمه خاتون، و محمد شاه هذا الذى خرج، و سنجر؛ و محمد و سنجرهما أخوان لأب و أم. و كان محمد هذا رباه أخوه بركياروق و أقطعه كنجة و أعمالها، و رتّب معه شخصا كالأتابك، و اسمه أيضا محمد؛ فوثب عليه محمد شاه و قتله لكونه كان يحجر عليه، و لا يبتّ أمرا حتى يراجع بركياروق. و وافق ذلك مجيء مؤيّد الملك بن نظام الملك إليه، فجرت له مع أخيه بركياروق حروب و وقائع.

و فيها توفّى طرّاد بن محمد بن علىّ أبو الفوارس الزينبىّ العبّاسىّ الهاشمىّ. هو من ولد زينب بنت سليمان بن علىّ بن عبد اللّه بن

عباس. ولد سنة ثمان و تسعين و ثلثمائة، و سمع الكثير، و رحل الناس إليه من الأقطار، و أملى بجامع المنصور، و حجّ سنة تسع و ثمانين و أربعمائة، و أملى بمكة و المدينة، و ولى نقابة العباسيّين بالبصرة، و كانت له رياسة و جلالة. و مات فى شوّال و قد جاوز تسعين سنة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۶۳

و فيها توفّى نصر بن علىّ بن المقلّد بن نصر بن منقذ أبو المرهف الكنانىّ عزّ الدولة. ملك شيزر بعد أبيه، و قام بتربية إخوته أحسن قيام. و فيه يقول أبوه علىّ بن المقلّد من قصيدة:

[الطويل]

جزى اللّه نصرا خير ما جزيت به رجال قضوا فرض العلا و تنفلّوا

و منها:

سألقاك يوم الحشر أبيض واضحا و أشكر عند اللّه ما كنت تفعل

و منها:

إلى اللّه أشكو من فراقك لوعة توقّد فى الأحشاء ثم ترحّل

و من شعر نصر هذا:

[الخفيف]

كنت أستعمل البياض من الأم شاط عجبا بلمّى و شبابى

فاتّخذت السواد فى حالة الشّى ب سلوّا عن الصّبا بالتّصابى

و فيها توفى الحافظ أبو العباس أحمد بن بشرويه الأصبهانىّ الإمام المحدّث.

مات و له ست و تسعون سنة. و كان إماما حافظا، سمع الحديث و روى عنه غير واحد، و كان من أئمة المحدّثين. رحمه اللّه تعالى.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و ثمانى عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا و ست عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۹۲]

السنة الخامسة من ولاية المستعلى أحمد على مصر و هى سنة اثنتين و تسعين و أربعمائة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۶۴

فيها استولى الفرنج على بيت المقدس فى يوم الجمعة ثالث عشر شعبان، حسب ما ذكرناه فى ترجمة المستعلى هذا.

و فيها توفّى السلطان إبراهيم بن مسعود بن محمود بن سبكتكين صاحب غزنة و غيرها من بلاد الهند. كان ملكا عادلا منصفا منقادا إلى الخير كثير الصدقات، كان لا يبنى لنفسه مكانا حتى يبنى للّه مسجدا أو مدرسة. قال الفقيه أبو الحسن الطّبرى.

أرسلنى إليه بركياروق فى رسالة، فرأيت فى مملكته ما لا يتأتّى وصفه. و مات فى شهر رجب و قد جاوز السبعين، و أقام ملكا نيّفا و أربعين سنة.

و فيها توفّى الشيخ عبد الباقى بن يوسف بن علىّ بن صالح أبو تراب المراغىّ الفقيه الشافعىّ. كان إماما فقيها زاهدا مدرّسا. مات فى ذى القعدة عن اثنتين و تسعين سنة، و قد انتهت إليه رياسة العلم بنيسابور.

و فيها توفّى علىّ بن الحسن بن الحسين بن محمد القاضى أبو الحسن الموصلىّ الأصل المصرىّ الفقيه الشافعىّ المعروف بالخلعىّ.

ولد بمصر فى أوّل سنة خمس و أربعمائة، و سمع الحديث الكثير و رواه، و كان مسند الديار المصريّة فى وقته.

و مات فى ذى الحجة.

و فيها توفّى الحافظ أبو القاسم مكىّ بن عبد السلام الرّميلىّ ببيت المقدس شهيدا حين أخذته الفرنج فى شعبان، و استشهد به عالم لا يحصى. و كان إماما محدّثا حافظا.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ست أذرع و اثنتان و عشرون إصبعا. مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعا و أربع عشرة إصبعا.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۶۵

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۹۳]

السنة السادسة من ولاية المستعلى أحمد على مصر و هى سنة ثلاث و تسعين و أربعمائة.

فيها عادت الخطبة ببغداد باسم بركياروق بعد الخليفة، و كان بطل اسمه و خطب لأخيه محمد شاه؛ و هذا بعد أن وقع بينهما حروب إلى أن ملک بركياروق و أخرج أعوان محمد شاه من بغداد.

و فيها توفّى عبد اللّه بن أحمد بن علىّ بن صابر أبو القاسم السلمىّ الدمشقىّ و يعرف بابن سيدة. ولد سنة اثنتين و خمسين و أربعمائة، و مات فى شهر ربيع الآخر بدمشق. و أنشد:

[الوافر]

صبرا لحكمک أيّها الدهر لک أن تجور و منّى الصبر

آليت لا أشكوک مجتهدا حتى يردّک من له الأمر

و فيها توفّى محمد بن سلطان بن محمد بن حيّوس أبو الفتيان الأمير الشاعر.

ولد سنة إحدى و أربعمائة، و هو من بيت الفضل و العلم و الرياسة. و مات فى شهر رجب و قد جاوز تسعين سنة. و من شعره من قصيدة أوّلها:

[الطويل]

لكم أن تجوروا معرضين و تغضبوا و عادتكم أن تزهدوا حين تغضبوا

جنيتم علينا و اعتذرنا إليكم و لو لا الهوى لم يسأل الصّفح مذنب

و فيها توفّى الوزير محمد بن محمد [بن محمد] بن جهير الصاحب شرف الدين عميد الدولة. كان حسن التدبير، كافيا فى المهام، شجاعا جوادا عظيما فى الدول. و زر للخليفة القائم، ثم من بعده للمقتفى فعزله بأبى شجاع، ثم أعاده المستظهر فدبّر أموره ثمانى

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۶۶

سنين و أحد عشر شهرا و أربعة أيام. و كان له ترسّل بديع، و توقيعات و جيزة و أشعار رقيقة. و مدحه شعراء عصره؛ و فيه يقول أبو منصور علىّ بن الحسن المعروف بصرّدرّ الشاعر قصيدته العينية المشهورة التى أوّلها:

[الكامل]

قد بان عذرک و الخليط مودّع و هوى النفوس مع الهوادج يرفع

و فيها توفّى يحيى بن عيسى بن جزلة أبو علىّ المتطبّب صاحب «المنهاج» فى الطب. كان نصرانيّا يقرأ على أبى علىّ بن الوليد المعتزلىّ، فلم يزل يدعوه إلى الإسلام حتى أسلم و حسن إسلامه. و استخدمه أبو عبد اللّه الدامغانى قاضى القضاء فى كتب السّجلّات. و كان يطبّ أهل محلّته بغير عوض، و يعود الفقراء و يحسن إليهم. و وقف كتبه على مشهد أبى حنيفة- رضى اللّه عنه.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم عشر أذرع و ستّ عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا و خمس عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۹۴]

السنة السابعة من ولاية المستعلى أحمد على مصر و هى سنة أربع و تسعين و أربعمائة.

فيها قتل السلطان بركياروق خلقا من الباطنية، و كانوا ثلثمائة و نيّفا، و كتب إلى الخليفة بالقبض على من اتّهم أنّه منهم.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۶۷

و فيها التقى بركياروق مع أخيه محمد شاه، و كان مع محمد شاه خمسة عشر ألفا، و مع بركياروق خمسة و عشرون ألفا؛ فاقتتلوا قتالا شديدا، قتل من الفريقين عدّة كبيرة؛ فانهزم محمد شاه و هرب وزيره مؤيّد الملك بن نظام الملك، فتبعه غلمان بركياروق و أخذوه و جاءوا به إلى بركياروق، فقام و ضرب عنقه بيده. و مضى محمد شاه و استجار بأخيه سنجر شاه؛ فأرسل سنجر شاه إلى بركياروق يسأله فيه؛ فقال بركياروق: لا- بدّ أن يطأ بساطى. ثم وقع أمور؛ و انتصر سنجر شاه لأخيه محمد شاه، و لا زال حتّى دخل محمد بغداد و خالب له بها، و توجّه بركياروق إلى واسط.

و فيها أخذ الفرنج جبلة من بلاد الساحل و أرسوف و قيساريّة بالسيف.

و فيها توفّى محمد بن منصور أبو سعد شرف الملك المستوفى الخوارزمىّ. كان جليل القدر فاضلا نبيلا متعصّبا لأصحاب أبى حنيفة- رضى اللّه عنه- و هو الذى بنى على أبى حنيفة القبّة و المدرسة الكبيرة بباب الطّاق- و قد قدّمنا ذكره فى وفاة أبى حنيفة فى هذا الكتاب- و بنى أيضا مدرسة بمرو، و وقف فيها كتبا نفيسة، و بنى الرّباطات فى المفاوز، و عمل خيرات كثيرة. ثم انقطع فى آخر عمره. و بذل لملكشاه مائة ألف دينار حتى أعفاه من الخدمة. و مات بأصبهان فى جمادى الآخرة.

و فيها قتل أبو المحاسن وزير بركياروق. كان قد نقم على أبى سعيد شيئا فقتله؛ فركب بعد ذلك و سار على باب أصبهان، فوثب عليه غلام أبى سعيد الحدّاد فقتله و أخذ بثأر أستاذه. فأمر بركياروق بسلخ الغلام فسلخ و علّق.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۶۸

و فيها توفّى الشيخ أبو الحسن علىّ بن أحمد بن الأخرم المدينىّ المؤذّن. كان إماما محدّثا فاضلا. مات فى المحرّم و له تسع و ثمانون سنة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ست أذرع و ثمانى عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا و سبع أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۹۵]

اشارة

السنة التى حكم فى أوّلها المستعلى أحمد ثم الآمر ولده، و هى سنة خمس و تسعين و أربعمائة.

فيها جلس الخليفة المستظهر بالله أحمد العباسىّ لمحمد شاه و سنجر شاه ابنى ملكشاه جلوسا عامّا و دخلا عليه و قبلا الأرض له، فأدناهما و أفاض عليهما الخلع، و توّجهما و طوّقهما و سوّرهما، و قرأ الخليفة: وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً ...

الآیة. ثم خرجا إلی قتال أخیهما برکیاروق؛ فوقع بینهما وقائع و حروب أسفرت عن نصرة برکیاروق و انهزام محمد شاه.

و فیها قبض برکیاروق علی الکیا الهرّاسیّ الفقیه الشافعیّ، لأنه بلغه عنه أنه باطنیّ شیعیّ؛ فکتب الخلیفة إلیه ببراءة ساحته و حسن عقیدته و دینه، فأطلقه.

و فیها کانت وفاة صاحب الترجمة المستعلی بالله أحمد، کما تقدّم ذکره فی ترجمته.

و فیها توفّی حسین بن ملاعب جناح الدولة صاحب حمص. کان أمیرا مجاهدا شجاعا یباشر الحروب بنفسه. دخل جامع حمص یوم الجمعة فصلّی الجمعة، فوثب

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۶۹

علیه ثلاثة من الباطنیّة فقتلوه. و کان سبب قتله أنه کان عند رضوان بن تتش ملک حلب منجّم باطنیّ، و هو أوّل من أظهر مذهب الباطنیّة بالشام، فندب لقتل جناح الدولة هذا أولئک النفر. ثمّ قتل المنجم بحلب بعد ذلک بأربعة عشر یوما.

و فیها توفّی الشیخ أبو العلاء صاعد بن سیّار الکنانیّ الهروی الفقیه العالم المشهور.

کان إماما فقیها مفتیا مدرّسا صالحا ثقة.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم سبع أذرع و ثمانی أصابع. مبلغ الزیادة سبع عشرة ذراعا و ثلاث عشرة إصبعا.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۷۰

ذکر ولایة الآمر بأحکام اللّه علی مصر

الآمر اسمه منصور، و کنیته أبو علیّ، و لقبه الآمر بأحکام اللّه بن المستعلی بالله أبی القاسم أحمد بن المستنصر بالله أبی تمیم معدّ بن الظاهر بالله علیّ بن الحاکم بأمر اللّه منصور بن العزیز بالله نزار بن المعزّ لدین اللّه معدّ بن المنصور إسماعیل بن القائم بأمر اللّه محمد بن المهدیّ عبید اللّه العبیدیّ الفاطمیّ السابع من خلفاء مصر من بنی عبید و العاشر منهم ممن ملک بالمغرب.

قال الحافظ أبو عبد اللّه شمس الدّین محمد الذهبیّ فی تاریخ الإسلام: «کان رافضیّا کآبائه فاسقا ظالما جبّارا متظاهرا بالمنکر و اللّهو، ذا کبر و جبروت، و کان مدبّر سلطانه الأفضل شاهنشاه بن أمیر الجیوش. ولی الآمر و هو صبیّ فلما کبر قتل الأفضل و أقام فی الوزارة المأمون أبا عبد اللّه محمد بن مختار بن فاتک البطائحیّ، فظلم و أساء السّیرة إلی أن قبض علیه الآمر سنة تسع عشرة و خمسمائة، و صادره ثم قتله فی سنة اثنتین و عشرین و صلبه، و قتل معه خمسة من إخوته. و فی أیّام الآمر أخذ الفرنج عکّا سنة سبع و تسعین و أربعمائة، و أخذوا طرابلس فی سنة اثنتین و خمسمائة، فقتلوا و سبوا، و جاءتها نجدة المصریّین بعد فوات المصلحة؛ و أخذوا عرقة و بانیاس.

و تسلّموا فی سنة إحدی عشرة و خمسمائة تبنین و تسلّموا صور سنة ثمانی عشرة، و أخذوا بیروت بالسیف فی سنة ثلاث و خمسمائة، و أخذوا صیداء سنة أربع و خمسمائة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۷۱

ثم قصد الملک بردویل الإفرنجیّ مصر لیأخذها، و دخل الفرما و أحرق جامعها و مساجدها؛ فأهلکه اللّه قبل أن یصل إلی العریش. فشقّ أصحابه بطنه و صبرود، و رموا حشوته هناک؛ فهی ترجم إلی الیوم بالسبخة، و دفنوه بقمامة. و هو الذی أخذ بیت المقدس و عکا و عدّة حصون من السواحل. و هذا کله بتخلّف هذا المشئوم الطلعة. و فی أیّامه ظهر ابن تومرت بالغرب.

و ولد الآمر فی أوّل سنة تسعین و أربعمائة، و استخلف و له خمس سنین، و بقی فی الملک تسعا و عشرین سنة و تسعة أشهر، إلی أن خرج من القاهرة یوما فی ذی القعدة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۷۲

و عدّى على الجسر إلى الجزيرة؛ فكمن له قوم بالسلاح. فلما عبر نزلوا عليه بأسيافهم، و كان فى طائفة يسيرة، فردّوه إلى القصر و هو مثخن بالجراح، فهلك من غير عقب. و هو العاشر من أولاد المهدىّ عبيد اللّه الخارج بسجلماسة و بايعوا

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۷۳

بالآمر ابن عمه الحافظ أبا الميمون عبد المجيد بن محمد بن المستنصر بالله. و كان الآمر ربعة، شديد الأدمة، جاحظ العينين، حسن الخط، جيدّ العقل و المعرفة.

و قد ابتهج بقتله لفسقه و سفكه للدماء و كثرة مصادرته و استحسانه الفواحش.

و عاش خمسا و ثلاثين سنة. و بنى وزيره المأمون بالقاهرة الجامع الأقمر». انتهى كلام الذهبىّ برمّته. و نذكر إن شاء اللّه قتله و أحواله بأوسع مما قاله الذهبىّ من أقوال جماعة من المؤرّخين أيضا.

و قال العلّامة أبو المظفّر فى مرآة الزمان: «لما كان يوم الثلاثاء ثالث ذى القعدة خرج من القاهرة (يعنى الآمر) و أتى الجزيرة و عبر بعض الجسر، فوثب عليه قوم فلعبوا عليه بالسيوف- و قيل: كانوا غلمان الأفضل- فحمل فى مركب إلى القصر فمات فى ليلته، و عمره أربع و ثلاثون سنة- و زاد غيره فقال: و تسعة أشهر و عشرون يوما- و كانت أيّامه أربعا و عشرين سنة و شهرا.

قلت: و هم صاحب مرآة الزمان فى قوله: «و كانت مدّته أربعا و عشرين سنة و شهرا». و الصواب ما قاله الذهبىّ، فإنّه وافق فى ذلک جمهور المؤرخين.

و لعل الوهم يكون من الناسخ. و ما آفة الأخبار إلّا رواتها.

قال (أعنى صاحب مرآة الزمان): و مولده سنة تسعين و أربعمائة. قلت:

و زاد غيره و قال: فى يوم الثلاثاء ثالث عشر المحرّم. قال: و كانت سيرته قد ساءت بالظلم و العسف و المصادرة. قال: و لمّا قتل الامر وثب غلام له أرمنىّ فاستولى على القاهرة، و فرّق الأموال فى العساكر، و أراد أن يتأمر على الناس؛ فخالفه جماعة

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۷۴

و مضوا إلى أحمد بن الأفضل (يعنى الوزير) فعاهدوه و جاءوا به إلى القاهرة، فخرج الغلام الأرمنىّ فقتلوه، و ولّوا أبا الميمون عبد المجيد بن محمد بن المستنصر، و ولى الخلافة، و لقّبوه بالحافظ؛ و وزر له أبو علىّ أحمد بن الأفضل بن أمير الجيوش، و سمّاه أمير الجيوش. فأحسن إلى الناس، و أعاد إليهم ما صادرهم به الآمر و أسقطه؛ فأحبّه الناس؛ فحسده مقدّمو الدولة فاغتالوه. و قيل: إنّ الآمر لم يخلّف ولدا و ترک امرأة حاملا؛ فماج أهل مصر و قالوا: لا يموت أحد من أهل هذا البيت إلّا و يخلّف ولدا ذكرا، منصوصة عليه الإمامة؛ و كان قد نصّ على الحمل قبل موته، فوضعت الحامل بنتا، فعدلوا إلى الحافظ؛ و انقطع النّسل من الآمر و أولاده. و هذا مذهب طائفة من شيعة المصريّين؛ فإنّ الإمامة عندهم من المستنصر إلى نزار.

و كان نقش خاتم الآمر هذا «الآمر بأحكام اللّه أمير المؤمنين». و ابتهج الناس بقتله.

انتهى كلام صاحب مرآة الزمان أيضا برمّته.

قلت: و نذكر إن شاء اللّه قتلة الآمر هذا بأوسع من هذا فى آخر ترجمته بعد أن نذكر أقوال المؤرّخين فى أمره.

و قال قاضى القضاة شمس الدين أحمد بن محمد بن خلّكان- رحمه اللّه-:

«و كان الآمر سيّئ الرأى جائر السّيرة مستهترا متظاهرا باللّهو و اللّعب. و فى أيّامه أخذت الفرنج مدينة عكّا- ثم ذكر ابن خلّكان نحوا ممّا ذكره الذهبىّ من أخذ الفرنج للبلاد الشامية. إلى أن قال: - خرج من القاهرة (يعنى الآمر) صبيحة يوم الثلاثاء ثالث عشر ذى القعدة سنة أربع و عشرين و خمسمائة، و نزل إلى مصر و عدّى على الجسر إلى الجزيرة التى قبالة مصر (يعنى الرّوضة)؛ فكمن له قوم بالأسلحة

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۷۵

و تواعـدوا على قتله فى السـكة التى يمرّ بها. فلمّا مرّ بها و ثبوا عليه و لعبوا عليه بالسيوف، و كان قد جاوز الجسر وحده فى عدّة قليلة من غلمانه و بطانته و خاصّته و شيعته، فحمل فى زورق فى النيل و لم يمت، و أدخل القاهرة و هو حىّ و جىء به إلى القصر فمات من ليلته، و لم يعقب. و كان قبيح السّيرة، ظلم الناس و أخذ أموالهم، و سفك الدماء، و ارتكب المحظورات، و استحسن القبائح، و ابتهج الناس بقتله».

انتهى كلام ابن خلّكان.

و قيل: إنّ الآمر كان فيه هوج عند طلوعه المنبر فى خطبته فى الجمع و الأعياد، فاستحيا وزيره المأمون بن البطائحىّ أن يشافهه بما يقع له من الهوج؛ و أراد أن يفهمها له من غير مشافهة، فقال له: يا مولانا، قد مضى من الشهر أيّام و لم يبق إلا الرّكوب إلى الجمعة الأولى- قلت: و قد تقدّم فى ترجمة المعزّ لدين اللّه ترتيب خروج الخلفاء الفاطميّين إلى صلاة الجمعة- و يصلّوا بالناس ثلاث جمع، و الجمعة الأخيرة من كلّ شهر يصلّى بالناس الخطيب و تسمّى تلك الجمعة جمعة الراحة (أعنى يستريح فيها الخليفة). و نستطرد فى هذه الترجمة أيضا لذكر شىء من ذلك مما لم نذكره فى ترجمة المعزّ. قال الوزير: يا مولانا، و بعد غد جمعة الراحة، فإن حسن فى الرأى أن يخرج مولانا بحاشيته خاصّة من باب النوبة إلى القصر النافعىّ فما فيه سوى عجائز و قرائب و ألزام، و يجلس مولانا على القبّة التى على المحراب قبالة الخطيب ليشاهد نائبه فى الخطابة كيف يخطب، فإنّه رجل شريف فصيح اللّسان حافظ القرآن.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۷۶

فأجابه الخليفة الآمر إلى ذلك. و لمّا حضر الجامع و جلس فى القبّة و فتح الرّوشن و قام الخطيب فخطب، فهو فى الصلاة على النّبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فى الخطبة الثانية و إذا بالهوى قد فتح الطاق فرفع الخطيب رأسه فوقع وجهه فى وجه الخليفة فعرفه فأرتج عليه و ارتاع و لم يدر ما يقول، حتّى فتح عليه فقال: معاشر المسلمين، نفعكم اللّه و إيّاى بما سمعتم، و عن الضلال عصمكم. قال اللّه تعالى فى كتابه العزيز:

وَ لَقَدْ عَهِدْنا إِلى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً. إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ الْإِحْسانِ ... إلى آخر الآية، و صلّى بالناس. فلما انفصل المجلس تكلم الآمر مع وزيره المذكور بما وقع للخطيب. فانفتح الكلام للوزير و تكلّم فيما كان بصدده، فرجع الآمر عن الخطّابة و استناب وزيره المذكور؛ فصار الوزير يخطب بجامع القاهرة و جامع ابن طولون و جامع مصر.

و قال ابن أبى المنصور فى تاريخه: إنّ ابتداء خطبة الوزير المأمون كانت فى شهر رمضان سنة خمس و ثمانين؛ و ترك الآمر الخطابة مع ما كان له فى ذلك من الرغبة الزائدة، حتّى إنّه كان اقترح أشياء أخرى فى خروجه إلى الجامع زيادة على ما كانت آباؤه تفعله، غير أنّه كان يخطب فى الأعياد بعد ما استناب وزيره المأمون ابن البطائحىّ فى خطبة الجمع. فكان الآمر إذا خرج فى خطبة العيد خرج إلى المصلّى، و يخرجون قبله، على العادة السابقة المذكورة فى ترجمة المعزّ، بالفرش و الآلات، و علّق بالمحاريب الشروب المذهبة، و فرش فيه ثلاث سجّادات متراكبة، و بأعلاها السجادة اللطيفة التى كانت عندهم معظّمة، و هى قطعة من حصير، ذكر أنّها كانت من حصير لجعفر الصادق- رضى اللّه عنه- و كانت مما أخذه الحاكم بأمر اللّه عند فتح دار جعفر الصادق. ثم تغلق الأبواب الثلاثة التى بجنب القبّة التى فى صدرها المحراب.

قلت: و الذى ذكرناه فى ترجمة المعزّ لدين اللّه كانت صلاته بالجامع الأزهر،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۷۷

و الآمر هذا كانت صلاته فى الجمعة بالجامع الحاكمىّ، و فى العيد بالمصلّى.

و نذكر أيضا هيئة خروج الامر إلى الجامع بنحو ما ذكرناه هناك و زيادة أخرى لم نذكرها؛ فبهذا المقتضى يكون للإعادة نتيجة. قال: ثمّ تفرش أرض القبّة المذكورة جمعيا بالحصر المحاريب المبطّنة، ثم تعلّق الستور بالمحراب و جانبى المنبر، و يفرش درجه، و ينصب اللواءان و يعلّقان عليه، و يقف متولّى ذلك و القاضى تحت المنبر، و يطلق البخور، و يتقدّم الوزير بألّا يفتح الباب أحد، و هو الباب

الذی یدخل الخلیفة منه و یقف علیه، و یقعد الداعی فی الدّهلیز، و یقرأ المقرئون بین یدیه، و یدخل الأمراء و الأشراف و الشهود و الشیوخ، و لا یدخل غیرهم إلّا بضمان من الداعی. فإذا استحقّت الصلاة أقبل الخلیفة فی زیه الذی ذکرناه فی ترجمة المعزّ لدین اللّه و قصیب الملک بیده، و جمیع إخوته و بنو عمّه فی رکابه. فعند ذلک یتلقّاه المقرئون و یرجع من کان حوله من بنی عمه و إخوته. و یخرج من باب الملک إلی أن یصل إلی باب العید، فتنشر المظلّة علیه- و قد ذکرنا أیضا زیّ المظلّة فی ترجمة المعزّ- و یترتّب الموکب فی دعة لا یتقدّم أحد و لا یتأخّر عن مکانه، و کذلک وراء الموکب العماریات- هم عوض المحفّات- و الزّرافات و الفیلة و الأسود علیها الأسرّة مزیّنة بالأسلحة. و لا یدخل من باب المصلّی أحد راکبا إلا الوزیر خاصّة، ثم یدخل الباب الثانی فیترجّل الوزیر و یتسلّم شکیمه فرس الخلیفة حتّی ینزل الخلیفة و یمشی إلی المحراب، و القاضی و الداعی عن یمینه و یساره یوصّلان التکبیر لجماعة المؤذّنین. و کاتب الدّست و جماعة الکتّاب یصلّون تحت عقد المنبر، لا یمکن غیرهم أن یکون معهم. و یکبّر فی الأولی سبعا و فی الثانیة خمسا علی

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۷۸

سنّة القوم، ثم یطلع الوزیر ثمّ یسلّم الدعو القاضی، فیستدعی من جرت عادته بطلوع المنبر، و کلّ لا یتعدّی مکانه. ثم ینزل الخلیفة بعد الخطبة و یعود فی أحسن زیّ علی هیئة خروجه من رحبة باب العید حتّی یأکل الناس السّماط. و قد ذکرنا کیفیّة السّماط و زیّ لبس الخلیفة و المظلّة و صفة رکوبه و طلوعه إلی المنبر و نزوله، فی ترجمة المعزّ لدین اللّه أوّل خلفائهم، فینظر هناک من هذا الکتاب.

قلت: و کان الآمر یتناهی فی العظمة و یتقاعد عن الجهاد. و ما قاله الذهبیّ فی ترجمته فبحقّ؛ فإنّه مع تلک المساوی التی ذکرت عنه کان فیه تهاون فی أمر الغزو و الجهاد حتّی استولت الفرنج علی غالب السواحل و حصونها فی أیّامه، و إن کان وقع لأبیه المستعلی أیضا ذلک و أخذ القدس فی أیامه فإنّه اهتمّ لقتال الفرنج و أرسل [الأفضل بن] بدر الجمالیّ أمیر الجیوش بالعساکر، فوصلوا بعد فوات المصلحة بیوم. فکان له فی الجملة مندوحة، بخلاف الآمر هذا، فإنّه لم ینهض لقتال الفرنج البتّة، و إن کان أرسل مع الأسطول عسکرا فهو کلا شیء. و سنبیّن ذلک عند استیلاء الفرنج علی طرابلس و غیرها علی سبیل الاختصار فی هذا المحلّ، فنقول:

أوّل ما وقع فی أیّامه من طمع الفرنج فی البلاد فإنّهم خرجوا فی أوّل سنة سبع و تسعین و أربعمائة من الرّهاء، و انقسموا قسمین، قسم قصد حرّان، و قسم قصد الرّقّة. فالذی توجّه إلی الرّقّة خرج لهم سکمان بن أرتق صاحب ماردین، و کان سالم بن بدر العقیلیّ فی بنی عقیل، و قد نزلوا علی رأس العین، فخرج بهم سکمان

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۷۹

المذکور، و التقوا مع الفرنج و اقتتلوا قتالا شدیدا أسر فیه سالم بن بدر المذکور، ثم کانت الدائرة علی الفرنج، فانهزموا و قتل منهم خلق کثیر. و القسم الآخر من الفرنج الذی قصد حرّان و البلاد الشامیّة لم ینهض لقتالهم و صالحهم ابن عمّار قاضی طرابلس و صاحبها و هادنهم، علی أن یکون لصنجیل ملک الفرنج ظاهر البلد، و ألّا یقطع المیرة عنها و أن یکون داخل البلد لابن عمّار. و هلک فی أثناء ذلک صنجیل المذکور ملک الروم. و لم ینهض أحد من المصریّین لقتال المذکورین.

فعلمت الفرنج ضعف من بمصر. ثم بعد ذلک فی سنة اثنتین و خمسمائة قصد الفرنج طرابلس و أخذوها، بعد أن اجتمع علیها ملوک الفرنج مع ریمند بن صنجیل المقدّم ذکره فی ستین مرکبا فی البحر مشحونة بالمقاتلة؛ و طنکری الفرنجیّ صاحب أنطاکیة، و بغدوین الفرنجیّ صاحب القدس بمن معهم، جاءوا من البرّ و شرعوا فی قتالها و ضایقوها من أوّل شعبان إلی حادی عشر ذی الحجّة، و أسندوا أبراجهم إلی سور البلد. فلمّا رأی أهل طرابلس ذلک أیقنوا بالهلاک مع تأخّر أسطول مصر عنهم. ثم حضر أسطول مصر من البحر. و صار کلّما سار نحو البلد ردّه الفرنج إلی نحو مصر.

قلت: و من هذا یظهر عدم اکتراث أهل مصر بالفرنج من کلّ وجه. الأوّل:

من تقاعدهم عن المسير فى هذه المدّة الطويلة. و الثانى: لضعف العسكر الذى أرسلوه مع أسطول مصر، و لو كان لعسكر الأسطول قوّة لـدفع الفرنـج من البحر عن البلـد على حسب الحال. و الثالث: لم لا خرج الوزير الأفضل بن أمير الجيوش بالعساكر المصـرية كما كان فعل والده بدر الجمالىّ فى أوائل الأمر. هذا مع قوّتهم

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۸۰

من العساكر و الأموال و الأسلحة. فللّه الأمر من قبل و من بعد. و للّه درّ السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب فيما فعله فى أمر الجهاد و فتح البلاد، كما يأتى ذلک كلّه إن شاء اللّه مفصّلا فى وقته و ساعته فى ترجمة السلطان صلاح الدين- رحمه اللّه-.

ثمّ إنّ الفرنـج لما علموا بحال أهل طرابلس و تحقّقوا أمرهم حملوا حملـة رجل واحد فى يوم الاثنين حادى عشـر ذى الحجة و هجموا على طرابلس، فأخـذوها و نهبوها و أسـروا رجالها و سـبوا نساءهـم و أخـذوا أموالها و ذخائرها؛ و كان فيها ما لا يحصـى و لا يحصـر و اقتسموها بينهم. و طمعوا فى الغنائم، فساروا إلى جبلة و بها فخر الملک ابن عمّار الذى كان صاحب طرابلس و قاضيها، و تسلّموها منه بالأمان فى ثانى عشـر ذى الحجّة فى يوم واحد، و خرج منها ابن عمّار سالما. ثم وصل بعد ذلک الأسطول المصرىّ بالعساكر، فوجدوا البلاد قد أخذت فعادوا كما هم إلى مصـر. و سار ابن عمّار إلى شيزر، فأكرمه صاحبها سلطان بن علىّ بن منقذ و احترمه و عرض عليه المقام عنـده فأبى، و توجّه إلى الأمير طغتكين صاحب دمشق، فأكرمه طغتكين و أنزله و أقطعه الزّبـدانىّ و أعماله. ثم وقع بين بغـدوين صاحب القدس و بين طغتكين المذكور أمور، حتّى وقع الاتفاق بينهما على أن يكون السّواد و جبل عوف مثلّثة، الثّلث للفرنج و الباقى للمسلمين. ثم انقضـى ذلک فى سـنة خمس و خمسائـة. و قصـد بغـدوين الفرنجىّ المذكور صور؛ فكتب و اليها و أهلها إلى طغتكين يسألونه أنهم يسـلّمونها إليه قبل مجىء الفرنج لأنّهم يئسوا من نصرة مصر؛ فأبى و بعث إليهم الفرسان و الرّجالة، و جاءهم هو من جبل عاملة ثمّ عاد. ثمّ سار إليهم بغدوين فى الخامس

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۸۱

و العشـرين من جمادى الأولى سنة خمس و خمسمائة فقطع أشجارها و قاتلها أياما، و هو يعود خاسرا. و خرج طغتكين و خيّم ببانياس و جهّز الخيّالـة و الرّجالـة إلى صور نجـدة، فلم يقـدروا على الدخول إليها من الفرنج و ثمّ رحلت الفرنج عنها، و نزلوا على الحبيس (و هو حصن عظيم) و حاصـروه حتى فتحوه عنوة؛ و قتلوا كلّ من كان فيه، ثم عاد بغدوين إلى صور و شـرع فى عمل الأبراج، و أخذ فى قتالها و الزحف فى كلّ يوم.

فلمّـا بلغ ذلک طغتكين زحف عليهم ليشـغلهم، فخنـدق عليهم و هجم الشـتاء فلم يبال الفرنـج به لأنّهم كانوا فى أرض رملـة، و الميرة تصل إليهم من صيداء فى المراكب.

ثمّ ركب طغتكين البحر و سـار إلى نحو صـيداء، و قتـل جماعـة من الفرنـج و غرّق مراكبهم و أوصـل مكـاتبته إلى أهـل صور، فقوّى قلوبهم. ثم عمل الفرنج برجين عظيمين، طول الكبير منهما زيادة على خمسين ذراعا، و طول الصغير زيادة على أربعين ذراعا، و زحفوا بهما أوّل شـهر رمضان، و خرج أهل صور بالنّفط و القطران و رموا النار، فهبّت الريـح فاحترق البرج الصـغير بعـد المحاربـة العظيمة، و نهب منه زرديات و طوارق و غير ذلک؛ و لعبت النار فى البرج الكبير أيضا فأطفأها الفرنج.

ثم إنّ الفرنج طمّوا الخندق، و واتروا الزّحف طول شـهر رمضان، و أشرف أهل البلد على الهلاک. فتحيّل واحد من المسلمين له خبرة بالحرب، فعمل كباشا من أخشاب تـدفع البرج الذى يلصـقونه بالسور. ثم تحيّل فى حريق البرج الكبير حتّى أحرقه، و خرج المسـلمون فأخذوا منه آلات و سلاحا. فحينئذ يئس الفرنج من

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۸۲

أخـذها، و رحلوا عنها بعـد ما أحرقوا جميع ما كان لهم من المراكب على الساحل و الأخشاب و العمائر و العلوفات و غيرها. و جاءهم طغتكين فما سـلّموا إليه البلـد؛ فقال طغتكين: أنا ما فعلت الـذى فعلته إلّا للّه تعالى لا لرغبة فى حصن و لا مال، و متى دهمكم عدوّكم

جئتكم بنفسى و برجالى، ثمّ رحل عنهم- فللّه درّه من ملك- كلّ ذلك و لم تأت نجدة المصريّين. و دام الأمر بين أهل صور و الفرنج، تارة بالقتال و تارة بالمهادنة، إلى أن طال على أهل صور الأمر و يئسوا من نصرة مصر، فسلّموها للفرنج بالأمان فى سنة ثمانى عشرة و خمسمائة.

قلت: و ما أبقى أهل صور- رحمهم اللّه تعالى- ممكنا فى قتالهم مع الفرنج و ثباتهم فى هذه السنين الطويلة مع عدم المنجد لهم من مصر. و قيل فى أخذ صور وجه آخر.

قال ابن القلانسىّ: و فى سنة تسع عشرة و خمسمائة، ملك الفرنج صور بالأمان.

و سببه خروج سيف الدولة مسعود منها، و كان قد حمل إلى مصر، و أقام الوالى الذى بها فى البلد. قلت: و هذه زيادة فى النّكاية للمسلمين من صاحب مصر؛ فإنّ سيف الدولة المذكور كان قائما بمصالح المسلمين، و فعل ما فعل مع الفرنج من قتالهم و حفظ سور المدينة هذه المدّة الطويلة، فأخذوه منها غصبا و خلّوا البلد مع من لا قبل له بمحاربة الفرنج. فكان حال المصريّين فى أوّل الأمر أنّهم تقاعدوا عن نصرة المسلمين، و الآن بأخذهم سيف الدولة من صور صاروا نجدة للفرنج.

و هذا ما فعله إلا الآمر هذا صاحب الترجمة بنفسه بعد أن قبض على الأفضل ابن أمير الجيوش و قتله، و قتل غيره أيضا معه.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۸۳

و نعود إلى كلام ابن القلانسىّ قال: و عرف الفرنج (يعنى بخروج سيف الدولة) فتأهّبوا للنزول عليها، و عرف الوالى أنه لا قبل له بهم لقلّة النجدة و الميرة بها؛ فكتب إلى صاحب مصر يخبره. فكتب إليه: قد رددنا أمرها إلى ظهير الدين- أظنه يعنى بظهير الدين طغتكين المقدّم ذكره أمير دمشق- قال: ليتولّى حمايتها و الذّب عنها، و بعث منشورا له بها. و نزل الفرنج عليها و ضايقوها بالحصار و القتال حتّى خفّت الأقوات، و جاء طغتكين فنزل ببانياس، و تواترت المكاتبات.

إلى مصر باستدعاء المؤن، فتمادت الأيّام إلى أن أشرف أهلها على الهلاك. و لم يكن للأتابك طغتكين قدرة على دفع الفرنج، و يئس من مصر؛ فراسل أهلها الفرنج و طلبوا الأمان على نفوسهم و أهاليهم و أموالهم، و من أراد الخروج خرج و من أراد الإقامة أقام. و جاء الاتابك بعسكره فوقف بإزاء الفرنج، و ركبت الفرنج و وقفوا بإزائه و صاروا صفّين؛ و خرج أهل البلد يمرّون بين الصّفّين و لم يعرض لهم أحد، و حملوا ما أطاقوه، و من ضعف منهم أقام. فمضى بعضهم إلى دمشق، و بعضهم إلى غزّة، و تفرّقوا فى البلاد، و عاد الأتابك إلى دمشق. و دخل الفرنج صور و ملكوها سنين إلى حين فتحت ثانيا، حسب ما سيأتى ذكره فى ترجمة السلطان الذى يتولّى فتحها. قلت: و هذا الذى ذكرناه هو كالشرح لكلام الذهبىّ و غيره من المؤرّخين فيما ذكروه عن الآمر هذا. و نعود إلى ترجمة الآمر.

و كان للآمر نظم و نظر فى الأدب. و مما نسب إليه من الشعر قوله:

[السريع]

أصبحت لا أرجو و لا أتّقى إلّا إلهى و له الفضل

جدّى نبيّى و إمامى أبى و مذهبى التوحيد و العدل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۸۴

و قد نسب هذا الشعر لغيره من الفاطميّين أيضا. و كان الآمر يحفظ القرآن، انفرد بذلك دون جميع خلفاء مصر من الفاطميّين، و كان ضعيف الخطّ. و أمّا ما وعدنا به من ذكر قتله فنقول: كان الامر صاحب الترجمة مطلوبا من جماعة من أعوان عمه نزار المقتول بيد أبيه بعد واقعة الإسكندرية المقدّم ذكرها؛ لأنّ الآمر و أباه المستعلى غصبا الخلافة، و أن النّص كان على نزار. و قد ذكرنا ذلك كلّه فى أوّل ترجمة المستعلى. فاتّصل بالآمر أنّ جماعة من النّزارية حصلوا بالقاهرة و مصر يريدون قتله، فاحترز الآمر على نفسه و تحيّل فى قبضهم، فلم يقدّر له ذلك لما أراده اللّه. و فشا أمر النّزارية و كانوا عشرة، فخافوا أن يقع عليهم الآمر فيقتلهم قبل قتله، فآجتمعوا فى بيت و قال بعضهم لبعض: قد فشا أمرنا و لا نأمن أن يظفر بنا الآمر فيقتلنا، و من المصلحة و الرأى أن نقتل واحدا منّا و نلقى رأسه بين

القصرين، و حلانا عندهم؛ فإن عرفوه فلا مقام لنا عندهم، و إن لم يعرفوه تمّ لنا ما نريد، لأنّ القوم فى غفلة. فقالوا للذى أشار عليهم: ما يتّسع لنا قتل واحد منّا، ينقص عددنا و ما يتمّ بذلک أمرنا، فقال الرجل: أليس هذا من مصلحتنا و مصلحة من تلزمنا طاعته؟ فقالوا نعم. فقال: و ما دللتكم إلّا على نفسى، و شرع فى قتل نفسه بيده بسكّين فى جوفه فمات من وقته. فأخذوا رأسه فرموه فى الليل بين القصرين، و أصبحوا متفرّقين ينظرون ما يجرى فى البلد بسبب الرأس. فلمّا وجد الرأس اجتمع عليه الناس و أبصروه، فلم يقل أحد منهم أنا أعرفه. فحمل إلى الوالى، فأحضر الوالى عرفاء الأسواق و أرباب المعايش فلم يعرف؛ فأحضر أيضا

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۸۵

أصحاب الأرباع و الحارات فلم يعرف؛ ففرح التسعة بذلک و وثقوا بالمقام بالقاهرة لقضاء مرادهم. و اتّفق للخليفة الآمر أن يمضى إلى الرّوضة- حسب ما ذكر فى أوّل ترجمته- و أنّه يجوز على الجسر الذى من مصر إلى جزيرة الرّوضة للمقام بها أياما للفرجة. و كان من شأن الخلفاء أنهم يشيعون الركوب فى أرباب خدمتهم حيثما قصدوا حتّى لا يتفرّقوا عنه، و أيضا لا يتخلّف أحد عن الركوب؛ فعلم النّزارية التسعة بركوبه فجاءوا إلى الجزيرة، و وجدوا قبالة الطالع من الجسر فرنا، فدخلوا فيه قبل مجىء الخليفة الآمر، و دفعوا إلى الفرّان دراهم وافرة ليعمل لهم بها فطيرا بسمن و عسل؛ ففرح الفرّان بها و عمل لهم الفطير؛ فما هو بأكثر ممّا أكلوه، و لم يتموا أكلهم إذ طلع الخليفة الآمر من آخر الجسر، و قد تفلّل عنه الرّكابيّة و من يصونه لحرج الجواز على الجسر لضيقه، فلمّا قابلوه و ثبوا عليه و ثبة رجل واحد و ضربوه بالسكاكين حتى إنّ واحدا منهم ركب وراءه و ضربه عدّة ضربات؛ و أدوكهم الناس فقتل التسعة. و حمل الآمر فى عشاريّ إلى قصر اللّؤلؤة، و كان ذلک فى أيّام النيل، ففاضت نفس الآمر قبل وصوله إلى اللؤلؤة. و قد تقدّم عمر الآمر و مدّة خلافته فى أوّل ترجمته، فلا حاجة لذكر ذلك ثانيا. و قيل: إنّ بعض منجّميه كان عرّفه أنّه يموت مقتولا بالسكاكين، فكان الآمر كثيرا ما يلهج بقوله: الآمر مسكين، المقتول بالسكين.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۹۶]

السنة الأولى من ولاية الآمر منصور على مصر و هى سنة ستّ و تسعين و أربعمائة.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۸۶

فيها أعيدت الخطبة ببغداد إلى السلطان بركياروق السلجوقيّ بعد أن التقى مع أخيه محمد شاه و هزمه بركياروق. فتوجّه محمد شاه إلى أرمينية و أخلاط، ثم عاد إلى تبريز فى جمادى الآخرة، و مضى بركياروق إلى زنجان. و وقع بينهما فى الآخر الاتّفاق على شىء فعلوه.

و فيها استوزر الخليفة المستظهر بالله العبّاسيّ زعيم الرؤساء أبا القاسم علىّ بن محمد [بن محمد] بن جهير على كره منه، و عزل وزيره سديد الملک أبا الفضل بن عبد الرزّاق.

فكانت ولايته عشرة أشهر.

و فيها توفّى أردشير بن منصور أبو الحسين العبّاديّ الواعظ الأستاذ. كان أصله من أهل مرو، و كان يخاطب بالأمير قطب الدين. قدم بغداد و جلس فى النّظاميّة، و حضر أبو حامد الغزاليّ مجلس وعظه، و كان يحضر مجلسه من الرجال و النساء ثلاثون ألفا. و كان صمته أكثر من نطقه، و إذا تكلّم هابته الناس؛ و بوعظه حلق أكثر الصّبيان رءوسهم، و لزموا المساجد و بدّدوا الخمور و كسروا الملاهى. و لمّا قدم بغداد و وعظ بها، و كان البرهان الغزنوىّ يعظ بها قبله فانكسر سوقه. فقال الدّهّان الشاعر المشهور فى ذلک:

[السريع]

للّه قطب الدّين من عالم منفرد بالعلم و الباس

قد ظهرت حجّته للورى قام بها البرهان للناس

و مات قطب الدين فى غرّة جمادى الآخرة. رحمه اللّه.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۸۷

و فيها توفّى الشيخ أبو المعالى الزاهد الصالح البغدادىّ. كان مقيما بمسجد باب الطاق ببغداد؛ فحضر مجلس ابن أبى عمامة فوقع كلامه فى قلبه فتزهّد. و كان لا ينام إلّا جالسا و لا يلبس إلّا ثوبا واحدا شتاء و صيفا. و كان منقطعا إلى العبادة، و يقصد للزيارة.

و فيها توفّى الشيخ أبو طاهر أحمد بن علىّ بن عبيد اللّه بن عمر بن سوار المقرئ المجوّد. كان إماما عارفا بالقراءات، و سمع الحديث و اشتغل فى القراءات سنين.

و فيها توفّى الشيخ أبو داود سليمان بن نجاح المؤيّدىّ المقرئ الإمام. مات فى شهر رمضان و له ثلاث و ثمانون سنة، و قد انتهت إليه رياسة القرّاء فى زمانه.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم سبع أذرع و ثمانى أصابع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و إصبع واحدة.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۹۷]

السنة الثانية من ولاية الآمر منصور على مصر و هى سنة سبع و تسعين و أربعمائة.

فيها وقع الصلح بين الإخوة أولاد السلطان ملكشاه السلجوقىّ، و هم السلطان بركياروق و محمد شاه و سنجر شاه، على أن يكون اسم السلطنة لبركياروق و ضرب النّوبة (أعنى الطبلخانات) فى أوقات الصلوات الخمس على بابه، و أن يكون لمحمد شاه أرمينية و أذربيجان و ديار بكر و الجزيرة و الموصل، و أن يكون لسنجر شاه خراسان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۸۸

على حاله أوّلا، و أن يكون لبركياروق الجبل و همذان و أصبهان و الرّىّ و بغداد و أعمالها و الخطبة ببغداد، و أن محمد شاه و سنجر شاه يخطبان لنفوسهما.

و فيها نزل الأمير سكمان بن أرتق صاحب ماردين، و جكرمش صاحب الموصل على رأس العين عازمين على لقاء الفرنج، و كان خرج ريمند و طنكرى صاحب أنطاكية بعساكر الفرنج إلى الرّهاء، فالتقوا فنصر اللّه المسلمين و قتلوا منهم عشرة آلاف، و انهزم ريمند و طنكرى فى نفر يسير من الفرنج.

و فيها نزل بغدوين صاحب القدس الفرنجىّ على عكّا فى البرّ و البحر فى نيّف و تسعين مركبا فحصروها من جميع الجهات، و كان واليها زهر الدولة الجيوشىّ، فقاتل حتّى عجز، فطلب الأمان له و للمسلمين فلم يعطوه لمّا علموا (الفرنج) من أهل مصر أنهم لم ينجدوه، ثم أخذوها بالسيف فى شهر رمضان. و قد قدّمنا ذكر ذلك فى ترجمة الآمر هذا بأكثر من هذا القول.

و فيها حاصر صنجيل الفرنجىّ طرابلس و بنى عليها حصنا؛ فخرج القاضى ابن عمّار صاحب طرابلس بعسكره فى ذى الحجة، و هدم الحصن و قتل من فيه من الفرنج و نهبه، و كان فيه شىء كثير.

و فيها توفّى أحمد بن الحسين بن حيدرة الأديب أبو الحسين، و يعرف بابن خراسان الطرابلسىّ الشاعر المشهور. و كان شاعرا مجيدا، هجا فخر الملك ابن عمّار قاضى طرابلس و صاحبها و أخاه؛ فأمر به قاضى طرابلس المذكور فضرب حتّى مات. و من شعره من قصيدة:

[الطويل]

[جزى اللّه عنا النّيرب الفرد صالحا لقد جمع المعنى الذى يذهب الفكرا

]خرجنا على أنّا نقيم ثلاثة فطاب لنا حتّى أقمنا به عشرا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۸۹

و فيها توفّى إسماعيل بن علىّ بن الحسن بن علىّ الشيخ أبو علىّ الجاجرمىّ الأصمّ النّيسابورىّ. ولد سنة ستّ و أربعمائة، و رحل فى طلب العلم، و طاف البلاد و عاد إلى نيسابور فمات بها فى المحرّم. و كان فقيها واعظا زاهدا و رعا صدوقا ثقة حسن الطريقة.

و فيها توفّى دقماق بن تش الأمير أبو نصر شمس الملوك السلجوقىّ صاحب دمشق. و سمّاه الذهبىّ و صاحب مرآة الزمان دقاقا بلا ميم. و لعلّ الذى قلناه هو الصواب؛ فإننا لم نسمع باسم قبل ذلك يقال له دقاق، و أيضا فإنّ جدّ السلجوقيّين الأعلى اسمه دقماق، و هذا من أكبر الأدلّة على أنّ اسمه دقماق. ولى دمشق بعد قتل أبيه تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان؛ و قام بأمره الأتابك ظهير الدّين طغتكين، و تزوّج طغتكين والدته. فأقام فى مملكة دمشق حتّى مات. و ملك دمشق بعده ابنه تتش و هو حدث السن، و أوصى أن يكون طغتكين أيضا القائم بدولته؛ فوقع ذلك، و قام طغتكين بالأمر أحسن قيام.

و فيها توفّى العلاء بن الحسن بن وهب بن الموصلا يا أبو سعد الكاتب الفاضل.

كتب فى الإنشاء للخلفاء خمسا و ستّين سنة. و كان نصرانيّا، فأسلم فى سنة أربع و ثمانين و أربعمائة على يد الخليفة المقتدى بالله العبّاسىّ. و مات فجاءة. و كان طاهر اللّسان كريم الأخلاق شاعرا مجيدا مترسّلا. و من شعره:

[الوافر]

يا خليلىّ خليّانى و وجدى فملام العدول ما ليس يجدى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۹۰

و دعانى فقد دعانى إلى الحك م غريم الغرامة الّت عندى

فعساه يرقّ إذ ملك الرّ قّ بنقد من وصله أو بوعد

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و اثنتا عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و ثلاث عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۹۸]

السنة الثالثة من ولاية الآمر منصور على مصر و هى سنة ثمان و تسعين و أربعمائة.

فيها هلك صنجيل عظيم الفرنج و صاحب أنطاكية.

و فيها بعث ضياء الدّين محمد وزير ميّافارقين إلى قلج أرسلان بن سليمان بن قتلمش و هو بملطية يستدعيه إلى ميّافارقين؛ فتوجّه إليه قلج أرسلان و ملك ميافارقين. و كان مبدأ قلج أرسلان هذا أنّه خدم ملكشاه السلجوقىّ، فأرسله على جيش لغزو الرّوم؛ فسار و افتتح ملطية و قيساريّة و أقصرى و قونية و سيواس و جميع ممالك الروم؛ فأقرّه ملكشاه بها، فأقام بها و عدّ من الملوك؛ إلى أن قدم ميافارقين و استولى عليها، و ولّاها لمملوك والده خمرتاش السليمانىّ. و استوزر قلج أرسلان ضيا الدّين المذكور، و أخذه معه و ولّاه أبلستين. ثمّ وقع بين قلج

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۹۱

أرسلان هذا و بين جاولى مملوك السلطان محمد شاه بن ملكشاه و تقاتلا، فانكسر فلج أرسلان. فلمّا رأى الهزيمة عليه ألقى نفسه فى الخابور فغرق، فأخرج و حمل تابوته إلى ميّافارقين و دفن بها.

و فيها بعث يوسف بن تاشفين صاحب المغرب إلى الخليفة المستظهر بالله العبّاسىّ يخبره أنّه خطب له على منابر ممالكه، و أرسل

یطلب منه الخلع و التقلید؛ فبعث إلیه بما طلب.

و فیها توفّی السلطان رکن الدولة برکیاروق ابن السلطان ملکشاه ابن السلطان ألب أرسلان بن داوود بن میکائیل بن سلجوق بن دقماق السلجوقیّ أبو المظفّر.

مات فی شهر ربیع الأوّل و هو ابن أربع و عشرین سنة. و کانت سلطنته اثنتی عشرة سنة. و عهد لولده ملکشاه، و أوصی به الأمیر آیاز؛ فتوجّه آیاز بالصبیّ إلیّ بغداد، و نزل به دار المملکة، و عمره أربع سنین و عشرة أیام، و أجلسه علی تخت الملک مکان أبیه برکیاروق؛ و خطب له ببغداد فی جمادی الأولی. فلم یتمّ أمر الصبیّ، و ملک عمّه محمد شاه الذی کان ینازع أخاه برکیاروق، و قتل آیاز المذکور.

و برکیاروق: بفتح الباء الموحدة و سکون الراء و الکاف و فتح الیاء المثناة من تحتها و بعد الألف راء مضمومة و بعد الراء واو و قاف.

و فیها توفّی محمد بن علیّ بن الحسن بن أبی الصقر أبو الحسن الواسطیّ. تفقّه علی أبی إسحاق الشّیرازیّ، و سمع الحدیث الکثیر. و کان أدیبا عالما. و من شعره لمّا کبر سنّه و صار لا یستطیع القیام لأصحابه:

[الوافر]

علّة سمّیت ثمانین عاما منعتنی للأصدقاء القیاما

فإذا عمّروا تمهّد عذری عندهم بالذی ذکرت و قاما

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۹۲

و فیها توفّی الحافظ أبو علیّ الحسین بن محمد الغسّانیّ الجیّانیّ عن إحدی و تسعین سنة. کان إماما حافظا، سمع الکثیر و حدّث و کتب و صنّف.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم سبع أذرع و خمس أصابع. مبلغ الزیادة ست عشرة ذراعا و اثنتا عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۴۹۹]

السنة الرابعة من ولایة الآمر منصور علی مصر و هی سنة تسع و تسعین و أربعمائة.

فیها ظهر رجل من نواحی نهاوند و ادّعی النبوّة، و کان ممخرقا بالسّحر و النجوم فتبعه خلق کثیر و حملوا إلیه أموالهم. و کان یعطی جمیع ما عنده لمن یقصده، و سمّی أصحابه بأسماء الصحابة الخلفاء، رضوان اللّه علیهم. و کان خرج أیضا فی هذه السنة بنهاوند رجل من ولد ألب أرسلان السلجوقیّ یطلب الملک؛ فخرج إلیهما العساکر، و أخذوا الرجل المدّعی النبوّة، و الذی طلب الملک معا و قتلا.

و فیها کان بین الفرنج و بین طغتکین واقعة عظیمة علی سواد طبریّة.

و فیها ملکت الإسماعیلیّة حصن فامیة، و قتلوا خلف بن ملاعب صاحب الحصن بأمر أبی طاهر الصائغ العجمیّ المقیم بحلب. و هذا الصائغ هو الذی أظهر مذهب الباطنیة الرافضة، و قتلته الفرنج، و أراح اللّه المسلمین منه.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۹۳

و فیها توفّی عمر بن المبارک بن عمر أبو الفوارس البغدادیّ. ولد سنة ثلاث عشرة و أربعمائة، و برع فی علم القرآن، و قرأ الناس علیه سنین کثیرة، و سمع الحدیث الکثیر، و کان من الصالحین.

و فیها توفّی مهارش البدویّ بن مجلّی الأمیر أبو الحارث صاحب الحدیثة، الذی خدم الخلیفة القائم بأمر اللّه، فیما تقدّم ذکره لمّا حصل عنده بالحدیثة. و کان مهارش هذا کثیر الصلاة و الصوم و الصدقة صالحا محبّا لأهل العلم. و عاش نیّفا و ثمانین سنة. رحمه اللّه.

و فیها توفّی الشیخ الإمام المقرئ أبو البرکات محمد بن عبد اللّه بن یحیی بن الوکیل المقرئ المحدّث؛ مات و له ثلاث و تسعون سنة. و کان عالما بفنون کثیرة، عارفا بعلوم القرآن.

و فیها توفّی الشیخ الإمام أبو البقاء المعمّر بن محمد بن علیّ الکوفیّ الحبّال؛ و مات و له ستّ و ثمانون سنة.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم ثمانی أذرع سواء. مبلغ الزیادة ستّ عشرة ذراعا و اثنتا عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۰۰]

السنة الخامسة من ولایة الآمر منصور علی مصر و هی سنة خمسمائة.

فیها ولی الخلیفة المستظهر بالله أبا جعفر عبد اللّه الدّامغانیّ أخا قاضی القضاة حجبة الباب؛ فرمی الطّیلسان و تزیّا بزیّ الحجبة، فشقّ ذلک علی أخیه.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۹۴

و فیها بعث السلطان محمد شاه برأس أحمد بن عبد الملک بن عطّاش مقدّم الباطنیّة، و رأس ولده. و کان ابن عطّاش هذا فی قلعة عظیمة بأصبهان.

و فیها توفّی جعفر بن أحمد بن الحسین بن أحمد الشیخ أبو محمد السّراج القارئ البغدادیّ. ولد سنة ستّ عشرة و أربعمائة. و قرأ بالروایات و أقرأ سنین، و سافر إلی مصر و الشام، و سمع الحدیث و صنّف المصنّفات الحسان، منها کتاب «مصارع العشّاق» و غیره. و کان فاضلا شاعرا لطیفا. نظم «کتاب التنبیه» و غیره. و لم یمرض فی عمره سوی مرض الموت. و من شعره:

[السریع]

یا ساکنی الدّیر حلولا به یطربهم فیه النواقیس

قیسوا لنا القرب و کم بینه و بین أیّام النّوی قیسوا

و فیها قتل السلطان محمد شاه بن ملکشاه بن ألب أرسلان السلجوقیّ وزیره سعد الملک، سعد بن محمد أبا المحاسن، و استوزر عوضه أبا نصر أحمد بن نظام الملک.

و کان سبب قتله أنه بلغه أنّه دبّر علیه هو و جماعة، و کاتب أخاه سنجر شاه، فقبض علیه و صلبه و أصحابه.

و فیها قتل أیضا الوزیر فخر الملک علیّ بن الوزیر نظام الملک حسن، و کنیته أبو المظفّر. کان استوزره برکیاروق، ثم توجّه إلی نیسابور، فوزر إلی سنجر شاه.

وثب علیه شخص فی زیّ الصوفیّة من الباطنیّة و ناوله قصّة ثم ضربه بسکّین فقتله.

قلت: و هکذا أیضا وقع لأبیه نظام الملک. حسب ما ذکرناه فی محلّه. فأخذ الباطنیّ و فصّل علی قبر فخر الملک عضوا عضوا.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۹۵

و فیها توفّی محمد بن إبراهیم أبو عبد اللّه الأسدیّ. ولد بمکّة سنة إحدی و أربعین و أربعمائة، و سافر البلاد و لقی العلماء. و کان إماما فاضلا شاعرا. و من شعره:

[الخفیف]

قلت ثقّلت إذ أتیت مرارا قال ثقّلت کاهلی بالأیادی

قلت طوّلت قال لا بل تطوّل ت و أبرمت قال حبل ودادی

و رأیت هذین البیتین فی شرح البدیعیّة لابن حجّة فی القول بالموجب، و نسبهما لابن حجّاج. و اللّه أعلم.

و فيها توفّى الحافظ أبو الفتح أحمد بن محمد بن أحمد الحدّاد الإمام العالم المحدّث.

مات فى ذى القعدة بأصبهان و له اثنتان و تسعون سنة.

و فيها توفّى الشيخ الإمام أبو غالب محمد بن الحسن الكرخىّ الباقلّانىّ العالم المشهور. مات و له ثمانون سنة.

و فيها توفّى أبو الكرم المبارك بن فاخر النحوىّ البغدادىّ. كان إماما عالما بالنحو و اللغة و العربيّة، و له مصنّفات حسان. و توفّى ببغداد.

و فيها توفّى سلطان المسلمين بالمغرب يوسف بن تاشفين اللّمتونىّ صاحب المغرب، كان من عظماء ملوك الغرب.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۹۶

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثمانى أذرع و تسع أصابع.

مبلغ الزيادة تسع عشرة ذراعا و إصبع واحدة.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۰۱]

السنة السادسة من ولاية الآمر منصور على مصر و هى سنة إحدى و خمسمائة.

فيها ظهرت ببغداد صبيّة عمياء تتكلّم عن أسرار الناس؛ فكانت تسأل عن نقوش الخواتم و ما عليها، و ألوان الفصوص، إلى غير ذلك.

و فيها حاصر بغدوين الفرنجىّ صاحب القدس صيداء و ضايقها. حسب ما ذكرناه فى أوّل هذه الترجمة.

و فيها توفّى الحسين بن أحمد بن النّقّار الشيخ أبو طاهر. ولد بالكوفة و نشأ ببغداد. و كان أديبا شاعرا فاضلا. و من شعره:

[السريع]

و زائر زار على غفلة و قد أماط الصبح ثوب الظلام

راح و قد سهّلت الراح من أخلاقه ما كان صعب المرام

و فيها قتل صدقة بن منصور بن دبيس بن مزيد الأمير أبو الحسن سيف الدولة صاحب الحلّة. كان كريما عفيفا عن الفواحش، و كانت داره ببغداد حرما للخائفين.

لم يتزوّج غير امرأة واحدة فى عمره، و لا تسرى قطّ. قتل فى واقعة كانت بينه و بين عسكر السلطان محمد شاه.

قلت: و كانت سيرته مشكورة، و خصاله محمودة و ما سلم من مذهب أهل الحلّة، فإنّ أباه كان من كبار الرافضة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۹۷

و فيها توفّى عبد الواحد بن إسماعيل بن أحمد بن محمد الشيخ الإمام أبو المحاسن الرّويانىّ الطّبرىّ فخر الإسلام. ولد فى ذى الحجّة سنة خمس عشرة و أربعمائة، و تفقّه ببخارى مدة؛ و برع فى مذهب الشافعىّ- رضى اللّه عنه- و له مصنّفات فى مذهبه منها كتاب «بحر المذهب» و هو أطول كتب الشافعيّة، و كتاب «مناصيص الشافعىّ» و كتاب «الكافى» و صنّف فى الأصول و الخلاف. و كان قاضى طبرستان؛ فقتلته الملاحدة فى يوم الجمعة حادى عشر المحرّم- و رويان:

بلدة بنواحى طبرستان- و قيل: إنّه مات فى سنة اثنين و خمسمائة.

و فيها توفّى يحيى بن علىّ بن محمد بن الحسن بن بسطام أبو زكريّاء الشّيبانى.

التّبريزىّ الخطيب اللغوىّ. كان إماما فى علم اللّسان. رحل إلى الشام، و قرأ اللغة على أبى العلاء المعرّىّ، و سمع الحديث و حدّث؛ و أقرأ اللغة. و مات فى جمادى الآخرة، و له إحدى و ثمانون سنة.

و فيها توفّى الملك تميم بن المعزّ بن باديس صاحب إفريقية و ما والاها من بلاد المغرب. امتدّت أيّامه و كان من أجلّ ملوك

المغرب، أقام هو و أبوه المعزّ نحوا من مائة سنة و أكثر؛ و مات و له تسع و سبعون سنة. و الصحيح أنه مات فى القابلة.

حسب ما يأتى ذكره. و قد أثبت الذهبىّ وفاته فى هذه السنة.

و فيها توفّى الشيخ المسلّك أبو محمد عبد الرحمن بن محمد الدّونىّ الصوفىّ، أحد كبار مشايخ الصوفيّة فى شهر رجب. و كان له قدم فى علم التصوّف.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۹۸

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم سبع أذرع و خمس أصابع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و ثمانى عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۰۲]

السنة السابعة من ولاية الآمر منصور على مصر و هى سنة اثنتين و خمسمائة.

فيها توفّى إسماعيل بن إبراهيم بن العبّاس بن الحسن الشريف أبو الفضل الحسينىّ الدمشقىّ المعروف بابن أبى الجنّ. كان فقيها فاضلا ثقة. ولى قضاء دمشق مدّة، و بها توفّى.

و فيها توفّى ملك المغرب تميم بن المعزّ بن باديس أبو يحيى صاحب إفريقيّة، و ينتهى نسبه إلى يعرب بن قحطان، قاله السمعانىّ. ولد سنة اثنتين و عشرين و أربعمائة، و عاش ثمانين سنة، و أقام فى الإمرة ستّا و أربعين سنة، و خلّف مائة ولد لصلبه، قاله صاحب مرآة الزمان؛ قال: لأنّه كان مغرى بالجوارى مع اهتمامه بالملك؛ و قيل: إنّه مات و له خمسون ولدا. و كان مقامه بالمهديّة. و كان عظيم القدر شاعرا جوادا ممدّحا. و له ديوان شعر. و من شعره:

[الكامل]

ما بان عذرى فيه حتّى عذّرا و مشى الدّجى فى خدّه فتحيّرا

همّت تقبّله عقارب صدغه فأسلّ ناظره عليها خنجرا

و اللّه لو لا أن يقال تغنى و صبا و إن كان التّصابى أجدرا

لأعدت تفّاح الخدود بنفسجا لثما و كافور الترائب عنبرا

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۱۹۹

و له أيضا:

[الطويل]

أما و الذى لا يعلم السّرّ غيره و من هو بالسّر المكتّم أعلم

لئن كان كتمان المصائب مؤلما لإعلامها عندى أشدّ و آلم

و فيها توفّى الحسن العلوىّ أبو هاشم رئيس همذان. كان جوادا ممدّحا مموّلا شجاعا صاحب صدقات و صلوات. صادره السلطان محمد شاه السلجوقىّ على تسعمائة ألف دينار، أدّاها فى نيّف و عشرين يوما، و لم يبع فيها عقارا.

و فيها توفّى الشيخ أبو القاسم علىّ بن الحسين الربعىّ البغدادىّ الفقيه المحدّث.

مات فى شهر رجب.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ستّ أذرع و ثمانى عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و ستّ عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۰۳]

السنة الثامنة من ولایة الآمر منصور علی مصر و هی سنة ثلاث و خمسمائة.

فیها کاتب السلطان محمد شاه السلجوقیّ الأمیر سکمان بن أرتق صاحب أرمینیة و أخلاط و میّافارقین، و الأمیر شرف الدّین مودودا صاحب الموصل، و نجم الدین إیلغازی صاحب ماردین بالاجتماع علی جهاد الفرنج؛ فآجتمعوا و بدءوا بالرّهاء.

و بلغ الفرنج، فاجتمع طنکری صاحب أنطاکیة، و ابن صنجیل صاحب طرابلس، و بغدوین صاحب القدس، و تحالفوا هم أیضا علی قتال المسلمین، و ساروا؛ فکانت وقعة عظیمة نصر اللّه المسلمین فیها و غنموا منهم شیئا کثیرا.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۰۰

و فیها توفّی [عمر بن] عبد الکریم بن سعدویه الحافظ ابو الفتیان الدّهستانیّ.

کان إماما حافظا محدّثا، رحل البلاد و سمع الکثیر، و روی عنه أبو بکر الخطیب و غیره، و اتّفقوا علی صدقه و ثقته و دینه. و مات فی شهر ربیع الأول.

و فیها توفّی وجیه بن عبد اللّه بن نصر الأدیب الفاضل أبو المقدام التّنوخیّ.

کان شاعرا فصیحا. و لمّا أخربت الفرنج المعرّة، أنشد فی المعنی لمحمود بن علیّ:

[الخفیف]

هذه صاح بلدة قد قضی اللّ ه علیها کما تری بالخراب

وقّف العیس وقفة و ابک من کا ن بها من شیوخها و الشّباب

و اعتبر إن دخلت یوما إلیها فهی کانت منازل الأحباب

و فیها توفّی الشیخ الإمام أبو سعید محمد بن محمد بن محمد الأصبهانیّ المعروف بالمطرّز. مات فی شوّال.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم ستّ أذرع و ثمانی عشرة إصبعا.

مبلغ الزیادة سبع عشرة ذراعا و خمس أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۰۴]

السنة التاسعة من ولایة الآمر منصور علی مصر و هی سنة أربع و خمسمائة.

فیها بنی الخلیفة المستظهر بالله العباسیّ علی الخاتون بنت ملکشاه السلجوقیّ أخت السلطان محمد شاه.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۰۱

و فیها أیضا جهّز السلطان محمد شاه المذکور العساکر إلی الشام لقتال الفرنج، و ندب جماعة من الملوک معهم، منهم شرف الدّین مودود صاحب الموصل، و قطب الدین سکمان بن أرتق صاحب دیار بکر فاجتمعوا و نزلوا علی تلّ باشر ینتظرون البرسقیّ صاحب همذان، فوصل إلیهم و هو مریض، فاختلفت آراؤهم لأمور وقعت، و رجع کلّ واحد إلی بلاده.

و فیها توفّی الأمیر قطب الدّین سکمان بن أرتق- المقدّم ذکره- صاحب دیار بکر. عاد من الرّهاء مریضا فی محفّة حتّی وصل میّافارقین فمات بها. و حمل تابوته من میّافارقین إلی أخلاط فدفن به. و کان ملکا عادلا مجاهدا. و أبوه أرتق مات بالقدس. و نجم الدّین إیلغازی بن أرتق أخو سکمان المذکور هو الذی ولی بعده. توجّه إیلغازی المذکور إلی السلطان محمد شاه السلجوقیّ، فولاه شحنجیة العراق عوضا عن أخیه سکمان، ثم أخذ منه ماردین فی سنة ثمان و خمسمائة، و میّافارقین فی سنة اثنتی عشرة و خمسمائة،

ثم أخذ منه حلب أيضا. و لسكمان هذا وقائع مع الفرنج كثيرة و مواقف. رحمه اللّه.

و فيها توفّى علىّ بن محمد بن علىّ الشيخ الإمام العلّامة الفقيه العالم المشهور بالكيا الهرّاسىّ الشافعىّ العجمىّ. لقبه عماد الدّين. كان من أهل طبرستان و خرج إلى نيسابور، و تفقّه على أبى المعالى الجوينىّ، و قدم بغداد و درس بالنظاميّة و وعظ

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۰۲

و ذكر مذهب الأشعرىّ، فرجم و ثارت الفتن، و اتّهم بمذهب الباطنيّة. فأراد السلطان قتله، فمنعه الخليفة المستظهر بالله و شهد له بالبراءة. و كانت وفاته فى يوم الخميس غرّة المحرم، و دفن عند الشيخ أبى إسحاق الشيرازىّ، و حضر لدفنه الشيخ أبو طالب الزّينبىّ و قاضى القضاة أبو الحسن الدامغانىّ- و كانا مقدّمى طائفة السادة الحنفية- فوقف أحدهما عند رأسه و الآخر عند رجليه، فقال الدّامغانىّ متمثّلا بهذا البيت:

[الوافر]

و ما تغنى النوادب و البواكى و قد أصبحت مثل حديث أمس

و أنشد الزّينبىّ أيضا متمثّلا بهذا البيت:

[الكامل]

عقم النساء فما يلدن شبيهه إنّ النساء بمثله عقم

و لمّا مات رثاه أبو إسحاق إبراهيم بن عثمان الغزّىّ الشاعر المشهور ارتجالا بقصيدة أوّلها:

[البسيط]

هى الحوادث لا تبقى و لا تذر ما للبريّة من محتومها و زر

لو كان ينجى علوّ من بوائقها لم تكسف الشمس بل لم يخسف القمر

و الكيا: بكسر الكاف و فتح الياء المثناة من تحتها و بعدها ألف. و الهرّاسىّ معروف. و الكيا بلغة الأعجام: الكبير القدر.

و فيها توفّى أبو يعلى حمزة بن محمد الزّينبىّ أخو الإمام العالم طرّاد. مات فى شهر رجب و له سبع و تسعون سنة.

و فيها توفّى الشيخ الإمام المقرئ أبو الحسين يحيى بن علىّ بن الفرج الخشّاب بمصر. كان عالم مصر و مقرئها.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ستّ أذرع و ثلاث أصابع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و أربع أصابع.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۰۳

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۰۵]

السنة العاشرة من ولاية الآمر منصور على مصر و هى سنة خمس و خمسمائة.

فيها عزل السلطان محمد شاه بن ملكشاه السلجوقىّ وزيره أحمد بن نظام الملك، و كانت وزارته أربع سنين و أحد عشر شهرا.

و فيها توفّى الشيخ الإمام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالىّ الطّوسىّ الفقيه الشافعىّ. كان إمام عصره. تفقّه على أبى المعالى الجوينىّ حتى برع فى عدّة علوم كثيرة، و درس و أفتى، و صنّف التصانيف المفيدة فى الأصول و الفروع، و درّس بالنّظاميّة، ثم ترك ذلك كلّه و لبس الخام الغليظ، و لازم الصوم و حجّ و عاد، ثم قدم إلى القدس، و أخذ فى تصنيف كتابه «الإحياء» و تمّمه بدمشق. و له من المصنفات «البسيط» «و الوسيط» «و الوجيز» و له غير ذلك. و ذكره ابن السمعانىّ فى الذيل فقال: و من شعره:

[الكامل]

حلّت عقارب صدغه فى خدّه قمرا يجلّ بها عن التشبيه

و لقد عهدناه یحلّ ببرجها و من العجائب کیف حلّت فیه

و فیها توفّی محمود بن علیّ بن المهنأ بن أبی المکارم الفضل بن عبد القاهر أبو سلامة المعرّیّ القائل فی حق المعرّة لما استولی علیها الفرنج الأبیات التی مرّت فی ترجمة وجیه بن عبد اللّه فی سنة ثلاث و خمسمائة التی أوّلها:

[الخفیف]

هذه صاح بلدة قد قضی اللّ ه علیها کما تری بالخراب

وجد والد محمود هذا الفضل بن عبد القاهر هو القائل:

[البسیط]

لیلی و لیلی نفی نومی اختلافهما بالطّول و الطّول یا طوبی لو اعتدلا

یجود بالطّول لیلی کلّما بخلت بالطّول لیلی و إن جادت به بخلا

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۰۴

و فیها توفّی مقاتل بن عطیّة بن مقاتل الأمیر شبل الدوله أبو الهیجاء البکریّ من ولد أبی بکر الصدّیق رضی اللّه عنه. قال العماد الکاتب: «کان شبل الدولة من أولاد العرب، وقع بینه و بین إخوته خشونة ففارقهم، و سار إلی خراسان و غزنة و مدح أعیانها، و اختصّ بنظام الملک الوزیر». انتهی کلام العماد. قلت و هو الذی رثی نظام الملک بقوله:

[البسیط]

کان الوزیر نظام الملک لؤلؤة نفیسة صاغها الرحمن من شرف

أضحت و لا تعرف الأیّام قیمتها فردّها غیرة منه إلی الصّدف

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم سبع أذرع و ثلاث أصابع. مبلغ الزیادة سبع عشرة ذراعا و أربع أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۰۶]

السنة الحادیة عشرة من ولایة الآمر منصور علی مصر و هی سنة ست و خمسمائة.

فیها توفّی محمد بن موسی بن عبد اللّه اللّامشیّ الترکیّ الإمام الفقیه الحنفیّ، مصنّف «أصول الفقه» علی مذهب أبی حنیفة رضی اللّه عنه. کان إماما عالما فقیها مفتّنا. ولی قضاء بیت المقدس مدّة. و کانت وفاته بدمشق فی یوم الجمعة ثالث عشر جمادی الآخرة. و سمّاه الذهبیّ البلاساغونیّ الحنفیّ قاضی دمشق عدوّ الشافعیّة.

و فیها توفّی قاضی القضاة أبو العلاء صاعد بن منصور النیسابوریّ الواعظ. کان إماما فقیها عالما واعظا، کان له لسان حلو فی الوعظ.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۰۵

و فیها توفّی الشیخ أبو سعد المعمّر بن علیّ [بن المعمّر] بن أبی عمامة الحنبلیّ الفقیه الواعظ، کان فقیه بغداد و واعظها.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم ثمانی أذرع و خمس عشرة إصبعا.

مبلغ الزیادة ثمانی عشرة ذراعا و إصبعان.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۰۷]

السنة الثانیة عشرة من ولایة الآمر منصور علی مصر و هی سنة سبع و خمسمائة.

فيها توفّى إسماعيل بن أحمد بن الحسين بن علىّ بن موسى أبو علىّ البيهقىّ ولد أبى بكر أحمد صاحب التصانيف. رحل البلاد، و لقى الشيوخ، و سكن خوارزم و درس بها، ثم عاد إلى بيهق فتوفى بها. و كان إماما فاضلا صدوقا ثقة.

و فيها توفّى الأمير رضوان ابن الأمير تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان بن داود ابن ميكائيل بن سلجوق بن دقماق السلجوقىّ المنعوت بفخر الملك صاحب حلب.

ملكها بعد قتل أبيه تتش فى سنة ثمان و ثمانين و أربعمائة. و كان غير مشكور السّيرة.

قتل أخويه أبا طالب و بهرام؛ و قتل خواصّ أبيه. و هو أوّل من بنى بحلب دار الدعوة. و كان ظالما بخيلا شحيحا قبيح السّيرة، ليس فى قلبه رأفة و لا شفقة على المسلمين. و كانت الفرنج تغاور و تسبى و تأخذ من باب حلب و لا يخرج إليهم.

و مرض أمراضا مزمنة، و رأى العبر فى نفسه، حتّى مات فى ثامن عشر جمادى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۰۶

الاخرة، و ملك بعده ابنه ألب أرسلان و عمره ستّ عشرة سنة، و قام بكفالته لؤلؤ الخادم.

و فيها توفّى محمد بن أحمد بن الحسين أبو بكر الشّاشىّ الفقيه الشافعىّ. ولد سنة سبع و عشرين و أربعمائة، و كان يعرف بالمستظهرىّ، تفقّه بجماعة و قرأ على ابن الصّبّاغ كتابه «الشامل» و درس بالنظاميّة. و مات فى شوّال، و دفن عند أبى إسحاق الشّيرازىّ. و كان كثيرا ما ينشد:

[الوافر]

تعلّم يافتى و العود رطب و طينك ليّن و الطبع قابل

فحسبك يا فتى شرفا و فخرا سكوت الحاضرين و أنت قائل

و فيها توفّى محمد بن أحمد بن محمد الإمام العلّامة أبو المظفّر الأبيوردىّ، و هو من ولد معاوية بن محمد بن عثمان بن عتبة بن عنبسة بن أبى سفيان صخر بن حرب.

كان عالما بالأنساب و فنون اللغة و الآداب، و سمع الحديث و رواه، و صنّف لأبيورد تاريخا، و صنّف «المختلف و المؤتلف» فى أنساب العرب. و كان له الشعر الرائق.

و كان فيه كبروتيه بحيث إنّه كان إذا صلّى يقول: اللهم ملّكنى مشارق الأرض و مغاربها. و كتب قصّة للخليفة و على رأسها «الخادم المعاوىّ» (يريد بذلك نسبه إلى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۰۷

معاوية). فأمر الخليفة بكشط الميم و ردّ القصة؛ فبقيت «الخادم العاوى».

و كانت وفاته بأصبهان. و من شعره و أجاد إلى الغاية:

[الطويل]

تنكّر لى دهرى و لم يدر أننى أعزّ و أحداث الزمان تهون

و ظلّ يرينى الخطب كيف اعتداؤه و بتّ أريه الصبر كيف يكون

و فيها توفّى الأمير مودود صاحب الموصل. كان قدم الشام لمساعدة الأتابك ظهير الدين طغتكين و كسر الفرنج. و كان مودود هذا يدخل كلّ جمعة فيصلى بجامع دمشق و يتبرّك بمصحف عثمان رضى اللّه عنه. فدخل على عادته و معه الأتابك طغتكين يمشى فى خدمته و الغلمان حوله بالسيوف مسلّلة؛ فلمّا صار فى صحن الجامع وثب عليه رجل لا يؤبه له، و قرب من مودود هذا كأنّه يدعو له، و ضربه بخنجر أسفل سرّته ضربتين، إحداهما نفذت إلى خاصرته، و الأخرى إلى فخذه، و السيوف تأخذه من كلّ ناحية؛ و قطع رأسه ليعرف شخصه فما عرف.

و مات مودود من يومه، و كان صائما فلم يفطر، و قال: و اللّه ما ألقى اللّه إلّا صائما.

و كـان من خيـار الملوك دينـا و شـجاعة و خيرا. و لمّـا بلغ السـلطان محمـدا شاه السـلجوقىّ موته أقطع الموصل و الجزيرة لآق سـنقر البرسـقىّ، و أمره بتقـديم عماد الـدين زنكى و الرجوع إلى إشارته. و زنكى هـذا هو والـد الملك العادل نور الدين محمود المعروف بالشهيد، المنشئ لدولة بنى أيوب.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثمانى أذرع و خمس عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا و إصبعان.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۰۸

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۰۸]

السنة الثالثة عشرة من ولاية الآمر منصور على مصر و هى سنة ثمان و خمسمائة.

فيها واطأ لؤلؤ خادم رضوان على قتل ابن أستاذه ألب أرسلان، ففتكوا به فى قلعة حلب.

و فيها نزل الأمير نجم الدين إيلغازى بن أرتق على حمص، و فيها خيرخان بن قراجا. و كان عادة نجم الدين إذا شـرب الخمر و تمكّن منه أقام أيّاما مخمورا لا يفيق، لتدبيره، و لا يستأمر فى أمور. و عرف منه خيرخان هذه العادة فتركه حتّى سكر، فهجم عليه برجاله و هو فى خيمته، فقبض عليه و حمله إلى قلعة حمص و سجنه بها أيّاما، حتى أرسل إليه طغتكين يوبّخه و يلومه فأطلقه.

و فيها هلك بغدوين الفرنجىّ صاحب القدس من جرح أصابه فى وقعة طبريّة، و أراح اللّه المسلمين منه، و مصيره إلى سقر.

و فيها قتل الأمير أحمديل الرّوّادى صاحب مراغة، قتله باطنىّ ضـربه بسكّين فى دار السلطان محمد شاه ببغداد. و كان شجاعا جوادا، و كان يركب فى خمسة آلاف فارس. و كان إقطاعه أربعمائة ألف دينار فى السنة.

و فيهـا توفّى علىّ بن محمـد بن محمـد بن محمـد بن جهير الصاحب أبو القاسم الوزير ابن الوزير ابن الوزير، وزر لجماعـة من الخلفاء غير مرّة. و مات فى سابع عشرين شهر ربيع الأوّل. و كان وزيرا عاقلا حليما سديد الرأى، حسن التدبير و الثبات، من بيت رياسة و وزر.

و فيها توفى الشـريف الحسـيب النسـيب أبو القاسم علىّ بن إبراهيم الحسـينىّ خطيب دمشق فى شـهر ربيع الآخر. و كان فاضـلا فصيحا خطيبا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۰۹

و فيها توفّى الحافظ الفقيه أبو عبد اللّه أحمد بن محمد بن عبد اللّه الخولانىّ القرطبىّ، كان عالم بلاده و مفتيها.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم سبع أذرع و أربع عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و عشر أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۰۹]

السنة الرابعة عشرة من ولاية الآمر منصور على مصر و هى سنة تسع و خمسمائة.

فيها صالـح الأفضل أمير الجيوش مـدبّر مملكـة الآمر صاحب الترجمـة بردويل الفرنجىّ صاحب القـدس. و كان بردويل قـد أخذ قافلة عظيمة من المسلمين بالسبخة المعروفة الآن بسبخة بردويل. فرأى الأفضل مهادنته لعجزه عنه، و أمر الناس بذلك، و ساروا إلى الشام و غيره.

و فيها توفّى علىّ بن جعفر بن القطّاع أبو القاسم السعدىّ الصقلىّ، من أولاد كبار علماء صقلّية. و قدم مصر و مدح الأفضل أمير الجيوش. و كان شاعرا بارعا.

و من شعره:

[الطويل]

ألا فليوطّن نفسه كلّ عاشق على سبعة محفوفة بغرام

رقيب و واش كاشح و مفنّد ملحّ و دمع و اكف و سقام

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۱۰

و فيها توفّى محمد بن علىّ- و قيل محمد بن محمد- بن صالح الشيخ الأديب أبو يعلى العبّاسىّ المعروف بابن الهبّاريّة الشاعر البغدادىّ. كان فيه إقدام بالهجو على أرباب المناصب. و قدم أصبهان و بها السلطان ملكشاه السلجوقىّ و وزيره نظام الملك حسن الطّوسىّ، فدخل على النظام المذكور و معه رقعتان، رقعة فيها هجوه و الأخرى فيها مدحه؛ فأعطاه التى فيها الهجو يظنّ أنها التى فيها المدح. و كان الهجو:

[الكامل]

لا غرو أن ملك ابن إس حاق و ساعده القدر

و صفا لدولته و خص أبا المحاسن بالكدر

فالدهر كالدّولاب لى س يدور إلّا بالبقر

- و أبو المحاسن الذى أشار إليه كان صهر نظام الملك، و كان بينهما عداوة- فكتب نظام الملك: يصرف لهذا القوّاد رسمه مضاعفا. ثم هجاه بعد ذلك فأهدر دمه. قال العماد الكاتب: كان ابن الهبّاريّة من شعراء نظام الملك، غلب على شعره الهجاء و الهزل و السّخف، و سلك فى قالب ابن حجّاج وفاقه فى الخلاعة و المجون.

و من شعره أيضا:

[الكامل]

و إذا البيادق فى الدّسوت تفرزنت فالرأى أن يتبيدق الفرزان

و إذا النفوس مع الدنوّ تباعدت فالحزم أن تتباعد الأبدان

خد جملة البلوى ودع تفصيلها ما فى البريّة كلّها إنسان

قلت: و ابن الهبّاريّة هذا هو صاحب «الصادح و الباغم».

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۱۱

و فيها توفّى الحافظ البارع أبو شجاع شيرويه بن شهردار بن شيرويه الديلمىّ الهمذانى بهمذان. كان إماما حافظا، سمع الكثير و رحل البلاد و حدّث، و كان من أوعية العلم.

و فيها توفّى- فى قول الذهبىّ- الأمير يحيى بن تميم بن المعزّ بن باديس صاحب بلاد المغرب. و قد تقدّم ذكر أبيه و جدّه فى هذا الكتاب. كان ملك بعد أبيه تميم فى سنة اثنتين و خمسمائة إلى أن مات فى هذه السنة رحمه اللّه.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم سبع أذرع و سبع عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا سواء.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۱۰]

السنة الخامسة عشرة من ولاية الآمر منصور على مصر و هى سنة عشر و خمسمائة.

فيها قتل الأمير لؤلؤ الذى كان قتل ابن أستاذه ألب أرسلان. و الصحيح أنّه قتل فى الآتية.

و فيها حجّ بالناس أمير الجيوش الجيوشى الحبشيّ المستظهرى العباسىّ، و دخل مكّة و على رأسه الأعلام و خلفه الكوسات و البوقات و السيوف فى ركابه، و قصد بذلك إذلال أمير مكة و السودان؛ فوقع له بمكة أمور، و لم يقاومه أحد.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۱۲

و فيها توفّى محمد بن علىّ بن ميمون الحافظ أبو الغنائم بن النّرسىّ الكوفىّ، محدّث مشهور و يعرف بأبىّ لأنّه كان جيّد القراءة، و سمع الحديث الكثير و سافر البلاد، و ختم به علم الحديث بالكوفة. قال محمد بن ناصر: ما رأيت مثل أبى الغنائم فى ثقته و حفظه، ما كان أحد يقدر أن يدخل فى حديثه ما ليس منه. و عاش ستا و ثمانين سنة.

و فيها توفّى محفوظ بن أحمد بن الحسن أبو الخطّاب الكلواذانىّ الفقيه الحنبلىّ.

تفقّه على القاضى أبى يعلى، و سمع الحديث و حدّث و أفتى و درّس، و صنّف «الهداية» و غيرها، و شهد عند قاضى القضاة أبى عبد اللّه الدّامغانىّ الحنفىّ. و كان فاضلا شاعرا. و له قصيدة من جنس العقيدة؛ أولها:

[الكامل]

دع عنك تذكار الخليط المنجد و الشّوق نحو الآنسات الخرّد

و النوح فى أطلال سعدى إنّما تذكار سعدى شغل من لم يسعد

و له أيضا من غير هذه القصيدة:

[الوافر]

لئن جار الزمان علىّ حتّى رمانى منه فى ضنك وضيق

فإنّى قد خبرت له صروفا عرفت بها عدوّى من صديقى

و مات و له ثمان و سبعون سنة.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۱۳

و فيها توفى المسند المعمّر أبو بكر عبد الغفّار بن محمد الشّيروىّ، مسند نيسابور فى ذى الحجة، و له ستّ و تسعون سنة، و رحل إليه الناس من الأقطار.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم سبع أذرع و تسع عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و ست أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۱۱]

السنة السادسة عشرة من ولاية الآمر منصور على مصر و هى سنة إحدى عشرة و خمسمائة.

فيها زلزلت بغداد يوم عرفة زلزلة عظيمة ارتجّت لها الدنيا؛ فكانت الحيطان تذهب و تجىء، و وقع الدّور على أهلها فمات تحتها خلق كثير. ثم كان عقبها موت السلطان محمد شاه السّلجوقى، ثم موت الخليفة المستظهر العباسىّ فى السنة الآتية، و حارب دبيس بن مزيد الخليفة المسترشد بالله، و غلت الأسعار حتى بلغ الكرّ القمح أو الدقيق ثلثمائة دينار، و فقد أصلا، و مات الناس جوعا، و أكلوا الكلاب و السنانير. ثم جاء سيل عظيم فأخرب سنجار. قال ذلك صاحب مرآة الزمان.

و فيها نزل آق سنقر البرسقى على حلب و بها يارقتاش الخادم بعد لؤلؤ، فحاصرها فلم يظفر منه بطائل، و عاد إلى الموصل.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۱۴

و فيها توفّى محمد بن سعيد بن إبراهيم بن نبهان أبو علىّ الكاتب سبط هلال ابن المحسّن الصابئ المقدّم ذكره، مات فى شوّال و دفن بداره بالكرخ. و كان فاضلا فصيحا شاعرا، إلّا أنّه كان شيعيّا رافضيّا. و من شعره:

[السريع]

لى أجل قدّره خالقى نعم و رزق أتوفّاه

حتّى إذا استوفيت منه الذى قدّر لى لم أتعدّاه

و فيها توفّى السلطان محمد شاه ابن السلطان ملكشاه ابن السلطان ألب أرسلان ابن داود بن ميكائيل بن سلجوق بن دقماق، أبو شجاع غياث الدين السّلجوقىّ. كان ملكا عادلا مهيبا شجاعا كريما. خرج فى السنة الماضية إلى أصبهان، فمرض بها مرضا طال به إلى أن مات فى حادى عشر ذى الحجّة، و عمره سبع و ثلاثون سنة، و مدّة ملكه بعد وفاة أخيه بركياروق اثنتا عشرة سنة. و خلّف خمسة أولاد: مسعودا و محمودا و طغرل و سليمان و سلجوق. و ولى السلطنة من بعده ولده محمود.

و فيها توفّى يمن بن عبد اللّه الخادم أبو الخير الحبشى خادم المستظهر العباسىّ.

كان مهيبا جوادا حسن التدبير ذا رأى و فطنة، مات بأصبهان.

و فيها توفّى المحدّث الفاضل أبو طاهر عبد الرحمن بن أحمد بن عبد القادر [ابن محمد] بن يوسف راوى سنن الدّار قطنىّ. كان من كبار المحدّثين.

و فيها توفّى الشيخ الإمام الفقيه الواعظ الحافظ أبو زكرياء يحيى بن عبد الوهاب ابن مندة بأصبهان. سمع الكثير و رحل البلاد و برع فى فنون و حدّث، و روى عنه غير واحد.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۱۵

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم سبع أذرع و اثنتا عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و تسع عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۱۲]

السنة السابعة عشرة من ولاية الآمر منصور على مصر و هى سنة اثنتى عشرة و خمسمائة.

فيها فى يوم الجمعة ثالث عشرين المحرّم خطب ببغداد لمحمود بن محمد شاه السلجوقىّ بعد موت أبيه على المنابر.

و فيها توفّى الخليفة أمير المؤمنين المستظهر بالله أبو العبّاس أحمد ابن الخليفة المقتدى بالله أبى القاسم عبد اللّه ابن الأمير محمد الذخيرة ابن الخليفة القائم بأمر اللّه أبى جعفر عبد اللّه ابن الخليفة القادر بالله أحمد ابن الأمير إسحاق ابن الخليفة المقتدر بالله جعفر ابن الخليفة المعتضد بالله أبى العباس أحمد ابن الأمير الموفّق طلحة ابن الخليفة المتوكّل على اللّه جعفر ابن الخليفة المعتصم بالله محمد ابن الخليفة الرشيد بالله هارون ابن الخليفة المهدىّ بالله محمد ابن الخليفة أبى جعفر المنصور بن محمد بن علىّ ابن عبد اللّه بن عبّاس العبّاسىّ الهاشمىّ البغدادىّ. و أمّه أمّ ولد تركيّة تسمّى الطن.

بويع بالخلافة بعد موت أبيه المقتدى بالله فى ثامن عشر المحرّم سنة تسع و ثمانين و أربعمائة، و عمره سبع عشرة سنة و شهران. و كان ميمون الطّلعة حميد الأيّام. قال ابن الأثير: كان ليّن الجانب، كريم الأخلاق، يسارع فى أعمال البرّ، و كانت أيّامه أيّام سرور للرعيّة، فكأنّها من حسنها أعياد. و كان حسن الخطّ جيّد

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۱۶

التوقیعات لا یقار به فیها أحد، تدلّ علی فضل غزیر و علم واسع. و مات بعلّة التّراقی و هی دمّل یطلع فی الحلق. و من شعره:

[البسیط]

أذاب حرّ الهوی فی القلب ما جمدا یوم مددت إلی رسم الوداع یدا

و کیف أسلک نهج الاصطبار و قد أری طرائق فی مهوی الهوی قددا

و کانت خلافته خمسا و عشرین سنة و أیّاما. و لم تصف له الخلافة، بل کانت أیّامه مضطربة کثیرة الحروب. و تولّی الخلافة من بعده ابنه المسترشد.

و فیها خرجت والدة السلطان محمود بن محمد شاه من أصبهان إلی السلطان سنجر شاه، فلقیها ببلخ فأکرمها. فقالت له: أدرک ابن أخیک و إلّا تلف، فإنّ الأموال قد تمزّقت، و البلاد قد أشرفت علی الأخذ، و هو صبیّ و حوله من یلعب بالملک. فقال لها: سمعا و طاعة. و کان وزیر محمود و مدبّر مملکته أبو القاسم، و کان سیئ التدبیر ظالما، و کان یخاف من مجیء سنجر شاه المذکور إلی البلاد؛ فأنفق ما فی خزائن محمد شاه فی أربعة أشهر، و باع الجواهر [و الأثاث] و أنفقه فی العساکر فلم یفده ذلک، علی ما سیأتی ذکره.

و فیها توفّی بکر بن محمد بن علیّ بن الفضل بن الحسن بن أحمد بن إبراهیم، الإمام الفقیه الحافظ المحدّث أبو الفضل الأنصاریّ الزّرنجریّ- و زرنجر: قریة علی خمسة فراسخ من بخاری- سمع الحدیث الکثیر من جماعة کثیرة، و تفرّد بالروایة عن جماعة منهم، لم یحدّث عنهم غیره. و کان بارعا فی الفقه یضرب به المثل، و یقولون: هو أبو حنیفة الصغیر. و کان إذا طلب منه أحد من المتفقهة الدرس ألقی

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۱۷

علیه من أیّ موضع أراد من غیر مطالعة و لا نظر فی کتاب، و کان إذا أشکل علی الفقهاء شیء رجعوا إلی قوله و نقله.

و فیها توفّی الحسین بن محمد بن علیّ بن الحسن الإمام العلّامة أبو طالب الزینبیّ الحنفیّ فرید عصره. ولد سنة عشرین و أربعمائة، و قرأ القرآن و سمع الحدیث و برع فی الفقه و أفتی و درّس. انتهت إلیه ریاسة السادة الحنفیّة فی زمانه ببغداد، و لقّب بنور الهدی. و ترسّل إلی ملوک الأطراف من قبل الخلیفة، و ولی نقابة الطالبیّین و العباسیّین. و کان شریف النفس و الحسب، کثیر العلم جلیل القدر. و مات یوم الاثنین حادی عشر صفر، و صلّی علیه ابنه القاسم، و حمل إلی قبّة أبی حنیفة فدفن داخل القبّة، و له اثنتان و تسعون سنة. و کان سمع من غیلان و غیره، و انفرد ببغداد بروایته صحیح البخاریّ عن کریمة بنت أحمد.

و فیها توفّی محمد بن عتیق بن محمد التمیمیّ القیروانیّ. قدم الشام مجتازا إلی العراق. و کان یقرئ علم الکلام بالنّظامیّة، و کان یحفظ کتاب سیبویه. و سمع یوما قائلا ینشد أبیات أبی العلاء المعرّی:

[الطویل]

ضحکنا و کان الضّحک منّا سفاهة و حقّ لسکّان البسیطة أن یبکوا

و تحطمنا الأیّام حتّی کأنّنا زجاج و لکن لا یعاد لنا سبک

فقال مجیبا:

کذبت و بیت اللّه حلفة صادق سیسبکنا بعد النّوی من له الملک

و نرجع أجساما صحاحا سلیمة تعارف فی الفردوس ما عندنا شکّ

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۱۸

و فیها توفّی أبو الفضل بن الخازن الشاعر المشهور. کان دیّنا فاضلا شاعرا.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم سبع أذرع سواء. مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا و أربع أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۱۳]

السنة الثامنة عشرة من ولاية الامر منصور على مصر و هى سنة ثلاث عشرة و خمسمائة.

فيها قدم السلطان سنجر شاه السلجوقىّ الرىّ و ملكها؛ و اصطلح مع ابن أخيه محمود بن محمد شاه بعد حروب، و زوّجه ابنته، و أقرّه على ملكه.

و فيها وقعت المباينة بين الآمر خليفة مصر (أعنى صاحب الترجمة) و بين مدبّر مملكته الأفضل بن أمير الجيوش؛ و احتجب الآمر عنه و تعلّل بمرض.

و اجتهد الأفضل أن يغتاله بالسمّ فلم يقدر، و دسّ إليه السمّ مرارا فلم يصل إليه.

و كان للآمر قهرمانة كاتبة فاضلة تعرف أنواع العلوم: الطب و النجوم و الموسيقى، حتّى كانت تعمل التحويلات و تحكم على الحوادث، فاحترزت على الآمر؛ و لم تزل تدبّر على الأفضل بن أمير الجيوش حتى قتل، حسب ما يأتى ذكره.

قال ابن القلانسىّ: و فيها ظهرت صور الأنبياء عليهم السلام: الخليل و ولديه إسحاق و يعقوب - صلوات اللّه عليهم- و هم مجتمعون فى مغارة بأرض بيت المقدس، و كأنّهم أحياء لم يبل لهم جسد و لا رمّ لهم عظم، و عليهم قناديل من ذهب و فضّة معلّقة، فسدّوا باب المغارة و أبقوا على حالهم.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۱۹

و فيها توفّى علىّ بن محمد بن علىّ بن محمد بن الحسن بن عبد الملک بن حمّويه قاضى القضاة أبو الحسن الدامغانىّ الحنفىّ. ولد فى رجب سنة تسع و أربعين و أربعمائة، و قلّد القضاء و هو ابن ستّ عشرة سنة بعد موت أبيه؛ و ولى القضاء لأربعة خلفاء. و هذا لم يقع لغيره إلّا للقاضى شريح. و أمّا القاضى أبو طاهر محمد ابن أحمد الكوفىّ فذاک ولى لخمسة خلفاء.

قلت: الشىء بالشىء يذكر؛ و هذا قاضى قضاة زماننا، جلال الدين عبد الرحمن بن عمر البلقينىّ، ولى القضاء لستة سلاطين: الناصر فرج، و المنصور عبد العزيز ابنى الظاهر برقوق، و الخليفة المستعين بالله العباسى، و المؤيّد شيخ، و ابنه المظفّر أحمد، و الظاهر ططر. و وقع مثل هذا كثير فى آخر الزمان؛ و المقصود غير ذلک. و كان الدامغانىّ إماما عالما عفيفا ديّنا معظّما عند الخلفاء و الملوک. و ناب عن الوزارة، و انفرد بأخذ البيعة للخليفة المسترشد. و كان ذا مروءة و صدقات و إحسان، و معرفة بصناعتى القضاء و الشروط. و مات ليلة رابع عشر المحرّم، و دفن فى مشهد أبى حنيفة- رضى اللّه عنه- و عاش ثلاثا و ستين سنة و أشهرا.

ولى القضاء منها تسعا و عشرين سنة و خمسة أيّام. و سمع الحديث من القاضى أبى يعلى الفرّاء و الخطيب و غيرهما، و كان صدوقا ثقة.

و فيها توفّى الإمام العلّامة أبو الوفاء علىّ بن عقيل بن محمد بن عقيل البغدادىّ الحنبلىّ شيخ الحنابلة فى عصره. كان إماما عالما صالحا مفتّنا؛ و مات ببغداد و له اثنتان و ثمانون سنة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ست أذرع و اثنتان و عشرون إصبعا. مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا و سبع أصابع.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۲۰

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۱۴]

السنة التاسعة عشرة من ولایة الآمر منصور علی مصر و هی سنة أربع عشرة و خمسمائة.

فیها خطب ببغداد لسنجر شاه السلجوقیّ و لابن أخیه محمود بن محمد شاه جمیعا فی المحرّم، و لقب سنجر شاه بالسلطان عضد الدولة، و محمود بجلال الدولة.

و فیها توفّی الحسین بن علیّ بن محمد الإمام العلّامة مؤیّد الدین الطّغرائیّ الکاتب وزیر السلطان محمود بن محمد شاه السلجوقیّ، المقدّم ذکره، و الطغرائی هذا جدّ محمد بن الحسین وزیر الظاهر غازی ابن السلطان صلاح الدین یوسف بن أیوب. و کان السلطان محمود نسب خروج أخیه مسعود علیه إلی الطّغرائیّ فقتله.

و قال الذهبیّ: وزیر السلطان مسعود قتل فی المصافّ بین مسعود و أخیه محمود.

و کان أفصح الفصحاء، و أفضل الفضلاء، و أمثل العلماء؛ و هو صاحب «لامیّة العجم»، و دیوانه مشهور بأیدی الناس. و من شعره یمدح الوزیر نظام الملک علی قافیتین:

[الکامل]

یا أیّها المولی الذی اص طنع الوری، شرقا و غربا

و القصیدة کلها علی هذا المنوال.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۲۱

و من شعره أیضا:

[السریع]

قوموا إلی لذّاتکم یا نیام و نبّهوا العود و صفّوا المدام

هذا هلال الفطر قد جاءنا بمنجل یحصد شهر الصیام

و فیها توفی الحافظ أبو منصور محمود بن إسماعیل الأشقر الأصبهانیّ عالم أصبهان و محدّثها، مات فی ذی القعدة.

و فیها توفّی الشیخ الإمام المقرئ أبو الحسن عبد العزیز بن عبد الملک بن شفیع الأندلسیّ المریّ المقرئ المجوّد. کان رأسا فی علوم القرآن، و أفاد و أقرأسنین.

و فیها توفّی الشیخ أبو الحسن علیّ بن الحسن بن الموازینیّ العالم المحدّث المشهور.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم تسع أذرع و اثنتا عشرة إصبعا.

مبلغ الزیادة ثمانی عشرة ذراعا و إصبع واحدة.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۱۵]

السنة العشرون من ولایة الآمر منصور علی مصر و هی سنة خمس عشرة و خمسمائة.

فیها کتب الخلیفة المسترشد بالله العباسیّ و السلطان محمود بن محمد شاه السلجوقیّ إلی إیلغاری یأمرانه بإبعاد بیس بن صدقة، و فسخ الکتاب الذی عقده له علی ابنته.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۲۲

و فیها توفّی عبد الرزّاق بن عبد اللّه بن علیّ بن إسحاق الطوسیّ ابن أخی نظام الملک. کان فاضلا، تفقّه علی أبی المعالی الجوینیّ، و أفتی و ناظر، و وزر للسلطان سنجر شاه السلجوقیّ. و مات بنیسابور.

و فیها توفّی محمد بن محمد بن عبد العزیز أبو علیّ بن المهتدی الخطیب. کان فاضلا، شهد عند القاضی أبی عبد اللّه الدامغانیّ

الحنفیّ، و کان ظریفا صالحا دیّنا.

و مات فی شوّال، و دفن بباب حرب من بغداد.

و فیها قتل الأفضل شاهنشاه أمیر الجیوش أبو القاسم بن أمیر الجیوش بدر الجمالیّ الأرمنیّ وزیر مصر و مدبّر ممالکها. ولی مملکة مصر بعد موت أبیه بدر الجمالیّ فی أیّام المستعلی إلی أن مات المستعلی؛ فأقام الأفضل هذه ولده مکانه فی الخلافة، و لقّبه بالآمر (أعنی صاحب الترجمة) و دبّر دولته و حجر علیه. و کان الخلیفة المستنصر جدّ الآمر هذا و ولده المستعلی والد الآمر کلاهما أیضا تحت حجر بدر الجمالی والد الأفضل هذا. فلمّا ملک الأفضل سار علی سیرة أبیه مع الخلفاء من الحجر و التضییق علیهم. و زاد الأفضل هذا فی حقّ الآمر صاحب الترجمة حتّی إنّه منعه من شهواته، و أراد قتله بالسّم. فحمله ذلک علی قتله، و اتّفق الآمر مع جماعة، و کان الأفضل یسکن بمصر؛ فلمّا رکب فی غیر موکب و ثبوا علیه و قتلوه فی سلخ شهر رمضان بعد أمور وقعت. و خلّف الأفضل من الأموال و النقود و القماش و المواشی ما یستحیا من ذکره کثرة. و قد ذکرنا ذلک فی «کتاب الوزراء» و هو محلّ الإطناب فی الوزراء، و لیس لذکره هنا محلّ. و المقصود فی هذا الکتاب تراجم ملوک مصر لا غیر، و ما عدا ذلک یکون علی سبیل الاستطراد.

قال ابن الأثیر: کانت ولایته (یعنی الأفضل) ثمانیا و عشرین سنة، و کان حسن السیرة عادلا. ثم أخذ فی تعداد أمواله.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۲۳

و فیها توفّی الإمام الحافظ المحدّث أبو محمد الحسین بن مسعود البغویّ المعروف بابن الفرّاء. کان إماما حافظا، رحل إلی البلاد و سمع الکثیر و حدّث و ألّف و صنّف. و کان یقال له محیی السنة. و مات فی شوّال.

و فیها توفّی الحافظ أبو محمد عبد اللّه بن أحمد بن عمر السّمرقندیّ الإمام الحافظ المشهور. سمع الکثیر و روی عنه غیر واحد، و کان صدوقا ثقة دیّنا.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم سبع أذرع و أربع أصابع. مبلغ الزیادة سبع عشرة ذراعا و عشر أصابع، و قیل: خمس أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۱۶]

السنة الحادیة و العشرون من ولایة الآمر منصور علی مصر و هی سنة ست عشرة و خمسمائة.

فیها کانت وقعة عظیمة بین الأمیر إیلغازی بن أرتق صاحب ماردین و بین الکفّار علی تفلیس، فعاد مریضا فمات بعد أیّام.

ذکر وفاته- هو نجم الدین إیلغازی بن أرتق صاحب ماردین و دیار بکر و حلب، و هو ثالث من ظهر أمره من ملوک بنی أرتق الأعیان. و کان ملکا شجاعا جوادا، له غزوات و مواقف مشهورة مع الفرنج. و کانت وفاته فی هذه السنة عند عوده من تفلیس بمیافارقین فی شهر رمضان. و ذکر الذهبیّ وفاته فی الخالیة؛ و الأصحّ ما قلناه؛ فإنّه عاد إلی میّافارقین مریضا، فنزل بظاهرها و معه زوجته الخاتون بنت الأمیر ظهیر الدین طغتکین صاحب دمشق؛ فمات یوم الخمیس سابع عشر شهر

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۲۴

رمضان فی قریة تعرف بالفحول؛ فحمل تابوته إلی میّافارقین. و کان عنده ابنه شمس الدولة سلیمان فاستولی علی میّافارقین؛ و استولی ابنه الآخر حسام الدولة تمرتاش علی ماردین.

و فیها توفّی عبد اللّه بن محمد بن عبد اللّه بن محمد بن عبد اللّه بن سلیمان أبو محمد والد أبی الیسر شاکر التنوخیّ المعرّیّ. ولد بالمعرّة، و قرأ الأدب، و قال الشعر.

و من شعره:

[الکامل]

یا من تنکّب قوسه و سهامه و له من اللّحظ السقیم سیوف

یغنیک عن حمل السلاح إلی العدا أجفانک المرضی و هنّ حتوف

و فیها توفّی عبد اللّه بن یحیی بن البهلول الأندلسیّ. کان أصله من مدینة سر قسطة من الغرب، و کان فاضلا أدیبا شاعرا. و من شعره قوله: [الطویل]

و لست بمن یبغی علی الشعر رشوة أبّی ذاک لی جدّ کریم و والد

و إنّی من قوم قدیما و محدثا تباع علیهم بالألوف القصائد

و فیها توفّی الحسین بن مسعود بن محمد الشیخ الإمام العلّامة أبو محمد البغویّ الشافعیّ المعروف بابن الفرّاء، الفقیه المحدّث المفسر. و قد تقدّم ذکر وفاته فی الماضیة. و الصحیح أنّه مات فی هذه السنة. و هو مصنّف «شرح السنّة» و «معالم التنزیل» و «المصابیح» و کتاب «التهذیب فی الفقه» «و الجمع بین الصحیحین». و کان أبوه یعمل الفراء و یبیعها. و مات بمرو الرّوذ فی شوّال.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۲۵

و فیها توفّی عبد الرحمن بن أبی بکر عتیق بن خلف أبو القاسم الصّقلّیّ المقرئ المجوّد المعروف بابن الفحّام، مصنّف «التجرید» فی القراءات السبع. کان من کبار شیوخ القرّاء، سکن الإسکندریّة، و قصده الناس من النواحی لعلوّ إسناده و إتقانه.

و فیها توفّی القاسم بن علیّ بن محمد بن عثمان الشیخ الإمام العلّامة الأدیب اللغویّ النحویّ أبو محمد البصریّ الحرامیّ الحریریّ، مصنّف «المقامات». کان یسکن بنی حرام أحد محالّ البصرة مما یلی الشطّ. مولده و مرباه بقریة المشان من أعمال البصرة فی حدود سنة ستّ و أربعین و أربعمائة، و کان أحد أئمة عصره فی الأدب و البلاغة و الفصاحة، و له مصنّفات کثیرة، منها کتاب «المقامات» الذی لا نظیر له فی معناه، و قد سلک فیه منوال بدیع الزمان صاحب المقامات الذی عملها قبل الحریریّ؛ و قد تقدّم ذکره فی هذا الکتاب فی محلّه. و فی مقامات الحریری هذا یقول إمام الدنیا محمود الزمخشریّ:

[السریع]

أقسم باللّه و آیاته و معشر الحجّ و میقاته

إنّ الحریری حریّ بأن نکتب بالتّبر مقاماته

و من شعر الحریریّ:

[البسیط]

لا تخطونّ إلی خطء و لا خطأ من بعد ما الشیب فی فودیک قد و خطا

و أیّ عذر لمن شابت ذوائبه إذا سعی فی میادین الصّبا و خطا

و قد أرّخ الذهبیّ وفاته فی السنة الماضیة. و اللّه أعلم

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۲۶

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم ست أذرع و ست و عشرون إصبعا.

مبلغ الزیادة ثمانی عشرة ذراعا و ثلاث أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۱۷]

السنة الثانیة و العشرون من ولایة الآمر منصور علی مصر و هی سنة سبع عشرة و خمسمائة.

فیها قبض السلطان محمود السلجوقیّ علی وزیره عثمان بن نظام الملک، و بعث الخلیفة بعزل أخیه أحمد عن وزارته. فبلغ أحمد

فانقطع عن الديوان.

و فيها سار الأمير نور الدولة بلك [بن بهرام] بن أرتق إلى غزو مدينة الرّهاء فى شهر رجب.

و فيها توفّى الأمير الحاجب فيروز شحنة دمشق. و كان أميرا صالحا ديّنا، و له آثار جميلة بدمشق و غيرها.

و فيها توفّى أحمد بن محمد بن علىّ أبو عبد اللّه بن الخيّاط التغلبىّ الدمشقىّ الكاتب الشاعر المجيد، طاف البلاد و مدح الأكابر و الملوك؛ قيل: إنّه دخل حلب فى حداثة سنّه، فقصد دار أبى الفتيان بن حيّوس الشاعر و قد أسنّ، قال: فدخلت عليه؛ فقال: من أين أنت؟ فقلت: من دمشق. فقال: ما صناعتك؟ قلت: الشعر.

قال: فأنشدنى من شعرك. فأنشدته قولى:

[الكامل]

لم يبق عندى ما يباع بحبّة و كفاك شاهد منظرى عن مخبرى

إلّا صبابة ماء وجه صنتها من أن تباع و أين أين المشترى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۲۷

قال: نعيت إلىّ نفسى. قلت: و لم؟ قال: لأنّ الشام لا تخلو من شاعر مجيد، و لا يجتمع فيها شاعران، و أنت موازنى فى هذه الصناعة.

ثم أعطانى دنانير و كسوة. و من شعره أيضا قوله فى جواب كتاب:

[البسيط]

وافى كتابك أسنى ما يعود به و فد المسّرة منّى إذ يوافينى

فظلت أطويه من شوق و أنشره و الشوق ينشرنى فيه و يطوينى

و فيها قتل الوزير عثمان بن نظام الملك. كان استوزره السلطان محمود بن محمد شاه السلجوقىّ؛ فبعث عمّه سنجر شاه السلجوقىّ يطلبه. فقال أبو نصر المستوفى:

متى بعثت به حيّا إلى عمّك سنجر شاه لم تأمنه، اقتله و ابعث إليه برأسه. فبعث عنبرا الخادم إليه ليقتله. فعرف عثمان و قال: أمهلنى حتّى أصلّى ركعتين؛ فقام و صلّى و قال لعنبر: أرنى سيفك ما أراه إيّاه، سيفى أمضى منه، فلا تقتلنى إلّا به؛ و ناوله إيّاه فقتله به. فلمّا كان بعد قليل بعث السلطان محمود إلى أبى نصر المستوفى من فعل به كذلك، و ذبحه ذبح الشاة. قلت: الجزاء من جنس العمل.

و فيها توفّى عبد المنعم بن حفاظ بن أحمد بن خلف المحدّث أبو البركات الأنصارىّ الدمشقىّ، و يعرف بابن البقلىّ. كان جوادا فاضلا، سمع الكثير؛ و استوزره خير خان بن قراجا صاحب حمص؛ ثم بلغه أنه كاتب طغتكين صاحب دمشق، فقبض عليه و كحله، فرجع إلى دمشق أعمى، فأقام بها حتّى مات.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثمانى أذرع و عشر أصابع.

مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا و عشر أصابع.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۲۸

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۱۸]

السنة الثالثة و العشرون من ولاية الآمر منصور على مصر و هى سنة ثمانى عشرة و خمسمائة.

فيها عزم دبيس على قصد بغداد؛ و كان دبيس قد التجأ إلى طغرل بن محمد شاه السلجوقىّ. فتأهّب الخليفة المسترشد باللّه للقائهما، و جمع الجيوش من كلّ جانب؛ ثم ترك دبيس المجىء فى هذه السنة لأمر ما.

و فيها كاتب أهل حلب آق سنقر صاحب الموصل؛ فسار إلى حلب فسلمها إليه أهلها، و هرب منها الأمير سكمان بن أرتق؛ فساق آق سنقر البرسقىّ خلفه، فلحقه بمنبج فقتله.

و فيها استولت الفرنج على صور بالأمان بعد أمور و حروب ذكرناها فى أوّل ترجمة الآمر هذا.

و فيها توفّى عبد اللّه بن محمد بن علىّ بن محمد القاضى أبو جعفر الدّامغانىّ الحنفىّ، شهد عند أبيه، ثم ولى قضاء الكرخ من قبل أخيه، ثم ترك ذلك و رمى الطيلسان و ولى حجبة باب النوبىّ للخليفة؛ و عظم ذلك على أخيه. و كان فاضلا كريم الأخلاق حسن العشرة خليقا بالرياسة.

و فيها توفّى محمد بن نصر بن منصور أبو سعد القاضى الهروىّ. كان فى بداءة أمره فقيرا حتّى اتّصل بالخليفة، و صار سفيرا بينه و بين الملوك. و استشهد هو و ولده بهمذان، و كانت له اليد الباسطة فى النظم و النثر. و من شعره:

[الوافر]

أودّعكم و أودعكم جنانى و أنثر دمعىّ نثر الجمان

و إنّى لا أريد لكم فراقا و لكن هكذا حكم الزمان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۲۹

و فيها توفّى الفقيه أبو الفتح سلطان بن إبراهيم المقدسىّ الشافعىّ بمصر؛ قاله الذهبىّ. كان فقيها عالما بارعا فى فنون.

أمر النيل فى هذه- الماء القديم سبع أذرع و أربع و عشرون إصبعا.

مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا و أربع عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۱۹]

السنة الرابعة و العشرون من ولاية الامر منصور على مصر و هى سنة تسع عشرة و خمسمائة.

فيها جسّر دبيس بن صدقة طغرل بن محمد شاه السلجوقىّ على قصد بغداد و أن يطلب السلطنة لنفسه، فسار؛ و استعدّ له الخليفة المسترشد، و وقع له معهما حروب آلت إلى أنّ دبيسا توجّه بعد هزيمته إلى سنجر شاه السلجوقىّ مستجيرا به، فأجاره ثم قبض عليه.

و فيها قبض الآمر صاحب الترجمة على وزيره المأمون أبى عبد اللّه بن البطائحىّ و على أخيه أحمد المؤتمن، و استولى على أموالهما و ذخائرهما ثم قتلهما، و كانا قد دبّرا فى القبض عليه. و المأمون هذا هو بانى جامع الأقمر بالقاهرة. و كان الآمر استوزره بعد قتل الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش.

و فيها توفى أحمد بن محمد بن الفضل أبو الفضل الكاتب الأديب الفاضل الشاعر المشهور، المعروف بابن الخازن، و قد تقدّم ذكر وفاته فيما مضى. و اللّه أعلم.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۳۰

و فيها قتل الأمير آق سنقر البرسقىّ صاحب الموصل. كان أميرا شجاعا جوادا عادلا فى الرعيّة، و كان الخلفاء و الملوك يحترمونه، و كان قد احترز من الباطنيّة بالرجال و السلاح و الجانداريّة. فدخل يوم الجمعة لجامع الموصل، فجاء إلى المقصورة و فيها جماعة من الصوفيّة لهم عادة يصلّون فيها، فاستراب بهم و دخل فى الصلاة و تأخّر عنه اصحابه؛ فوثب عليه ثلاثة فى زىّ الصوفيّة فضربوه بالسكاكين، فلم تعمل فى جسده للدرع الذى كان عليه؛ فصاحوا: رأسه وجهه، فضربوه حتّى قتلوه، و قتل الثلاثة. و حزن الناس عليه، و أقاموا ابنه مسعودا مقامه.

و فيها توفّى الأمير سليمان بن إيلغازى بن أرتق صاحب ميّافارقين. كان عادلا شجاعا جوادا، مات فى شهر رمضان و دفن عند أبيه. و

جاء أخوه تمرتاش من ماردين، فملك ميّافارقين و أحسن إلى أهلها.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم تسع أذرع و ثلاث أصابع. مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا و أربع عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۲۰]

السنة الخامسة و العشرون من ولاية الآمر منصور على مصر و هى سنة عشرين و خمسمائة.

فيها توفّى أحمد بن محمد بن محمد الشيخ أبو الفتوح الغزالىّ الطوسىّ، أخو أبى حامد الغزالىّ المقدّم ذكره. كان متصوّفا متزهّدا فى أوّل عمره ثم وعظ، و كان مفوّها.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۳۱

قال ابن الجوزىّ: و لمّا وعظ قبّله العوامّ. و جلس فى دار السلطان محمود فأعطاه ألف دينار، فلمّا خرج رأى فرس الوزير فى الدهليز بمركب ذهب و قلائد و طوق ذهب، فركبه و مضى. و بلغ الوزير فقال: لا يتبعه أحد و لا يعاذ الفرس.

و فيها توفّى عبد اللّه بن القاسم بن المظفّر بن علىّ القاضى أبو محمد المرتضى الشّهرزورىّ والد قاضى القضاة كمال الدين. كان أحد الفضلاء الشّهرزوريّين و العلماء المذكورين، و كان له النظم و النثر. و من شعره:

[الطويل]

و بانوا فكم دمع من الأسر أطلقوا نجيعا و كم قلب أعادوا إلى الأسر

فلا تنكروا خلعى عذارى تأسّفا عليهم فقد أوضحت عندكم عدرى

و فيها توفّى محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان بن أيّوب الشيخ الإمام الفقيه الصوفىّ المالكىّ أبو بكر الطّرطوشىّ الاندلسىّ العالم المشهور نزيل الإسكندرية- و طرطوشة آخر بلاد المسلمين من الأندلس، و قد عادت الآن للفرنج- و كان يعرف بابن أبى رندقة. حجّ و دخل العراق و سمع الكثير، و كان عالما زاهدا و رعا ديّنا متواضعا متقشّفا متقلّلا من الدنيا راضيا باليسير. و قال ابن خلّكان: إنّه دخل على الأفضل بن أمير الجيوش بمصر فبسط تحته مئزره، و كان إلى جانب الأفضل نصرانىّ، فوعظ الأفضل حتى أبكاه، ثم أنشد:

[السريع]

يا ذا الذى طاعته قربة و حقّه مفترض واجب

إنّ الذى شرّفت من أجله يزعم هذا أنّه كاذب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۳۲

و أشار إلى النصرانىّ. فأقام الأفضل النصرانىّ من موضعه و أبعده. و قد صنّف الشيخ أبو بكر كتاب «سراج الملوك» للمأمون الذى ولى وزارة مصر بعد الأفضل، و قد تقدّم ذكره فى الماضية، و له تصانيف أخرى، و فضله مشهور لا يحتاج إلى بيان.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثمانى أذرع و ثلاث أصابع.

مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا و إصبع واحدة.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۲۱]

السنة السادسة و العشرون من ولاية الامر منصور على مصر و هى سنة إحدى و عشرين و خمسمائة.

فيها قتل الباطنيّة وزير السلطان سنجر شاه السلجوقىّ. و كان قد أفنى منهم اثنى عشر ألفا. فبعثوا إليه سائسا يخدم فى إصطبله مدّة إلى أن وجد الفرصة؛ فدخل الوزير يوما يفتقد خيله، فوثب عليه المذكور فقتله، و قتل بعده.

و فيها قتل الأمير مسعود بن آق سنقر البرسقىّ بالرّحبة؛ و كان عزمه أخذ دمشق فعوجل. و كان ولى بعد موت أبيه آق سنقر فى الخالية، فلم تطل مدّته.

و فيها توفّى أحمد [بن أحمد] بن عبد الواحد بن أحمد بن محمد بن عبد اللّه بن محمد بن المتوكّل على اللّه الإمام المحدّث أبو السعادات. سمع الحديث الكثير و رحل البلاد. مات متردّيا من سطحه فى شهر رمضان ببغداد. و كان صحيح السماع ثقة.

و فيها توفّى هبة اللّه بن علىّ بن إبراهيم أبو المعالى الشيرازىّ. كان من أعيان الفضلاء، و له شعر جيّد.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۳۳

و فيها توفّى العبد الصالح الزاهد أبو الحسن علىّ بن المبارك بن الفاعوس زاهد بغداد. كان كبير القدر، أحد أعيان الصوفيّة، و له أحوال و كرامات. مات ببغداد و كان له مشهد عظيم.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثمانى أذرع و سبع عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا، و أصابع لم تحرّر.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۲۲]

السنة السابعة و العشرون من ولاية الامر منصور على مصر و هى سنة اثنتين و عشرين و خمسمائة.

فيها توفّى الحسن بن علىّ بن صدقة الوزير أبو علىّ جلال الدين وزير الخليفة المسترشد بالله العباسىّ. كان فاضلا ديّنا رئيسا عاقلا حسن السّيرة محمود الطريقة محبوبا للخاصّة و العامّة جوادا ممدّحا؛ مات ببغداد و حزن عليه الخليفة. و تطاول بعد موته للوزارة جماعة، منهم عزّ الدولة بن المطلّب، و ابن الأنبارىّ، و أحمد ابن نظام الملك و غيرهم؛ فلم يستوزر الخليفة أحدا منهم، و استناب نقيب النقباء علىّ بن طرّاد الزينبىّ الحنفىّ.

و فيها توفى الحسين بن علىّ بن أبى القاسم الفقيه العلّامة أبو علىّ اللّامشىّ السّمرقندىّ الحنفىّ. كان إماما مفتّنا يضرب به المثل فى النظر، و سمع الحديث و رواه، و كان صالحا دينا على طريق السلف مطّرحا للكلفة. و مات بسمرقند.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۳۴

و فيها توفّى الأمير ظهير الدين أبو المنصور طغتكين بن عبد اللّه الأتابك صاحب الشأم مملوك تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان السلجوقىّ. كان طغتكين مقدّما عند أستاذه تتش المذكور، و زوّجه أم ابنه دقماق، و نصّ عليه فى أتابكيّة ابنه دقماق المذكور. فقام بتدبير ملكه أحسن قيام، و غزا الفرنج غير مرّة، و له فى الجهاد اليد البيضاء. و قد ذكرنا بعض وقائعه فى أوّل ترجمة الآمر هذا مع الفرنج على سبيل الاختصار، نعرّف من ذلك همّته و شجاعته. و كان عادلا فى الرعيّة. و لمّا احتضر أوصى بالملك إلى ولده تاج الملوك بورى؛ فسار فى الناس أيضا أحسن سيرة. و مات طغتكين فى صفر بعد أن حكم دمشق سنين كثيرة. رحمه اللّه تعالى.

و فيها توفى عبد اللّه بن طاهر بن محمد بن كاكو أبو محمد الواعظ. ولد بصور و نشأ بالشام. قال أنشدنى أبو إسحاق الشيرازىّ لنفسه: [البسيط]

لمّا أتانى كتاب منك مبتسما عن كلّ معنى و لفظ غير محدود

حكت معانيه فى أثناء أسطره أفعالك البيض فى أحوالى السّود

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم سبع أذرع و ثمانى أصابع. مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا و ثلاث عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۲۳]

السنة الثامنة و العشرون من ولایة الآمر منصور علی مصر و هی سنة ثلاث و عشرین و خمسمائة.

فیها ضـمن زنکی بن آق سـنقر للسـلطان مائة ألف دینار علی ألّا یعزله عن الموصل؛ و ضـمن الخلیفـة للسلطان أیضا مثل ذلک، و لا یولّی دبیسا ولایة- و کان الخلیفة یکره دبیسا- فقبل السلطان ذلک.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۳۵

و فیها توفّی طاهر بن سعد الصاحب الوزیر أبو علیّ المزدقانیّ. کان شجاعا جوادا، بنی المسجد علی الشرف شمالی دمشق، و یسمّی مسجد الوزیر، و کان قد عاداه وجیه الدولة بن الصوفیّ، فآنتمی إلی الإسماعیلیّة خوفا منه، فقتل هناک.

و فیها توفّی هبة اللّه بن أحمد بن محمد الحافظ المحدّث أبو محمد الأنصاریّ المعروف یا بن الأکفانیّ. سمع الکثیر و لقی الشیوخ، و سمع جدّه لأمّه أبا الحسن ابن صصری و غیره.

و فیها توفّی الحافظ أبو الفضل جعفر بن عبد الواحد الثقفی الفقیه العالم المشهور؛ مات و له تسع و ثمانون سنة.

و فیها توفّی أبو الحسن عبید اللّه بن محمد بن الإمام أبی بکر البیهقیّ ببغداد فی جمادی الأولی، و کان فاضلا فقیها، سمع الحدیث.

و فیهـا توفّی الفقیه المحـدّث أبو الحجّاج یوسف بن عبـد العزیز المیورقیّ الأصـل ثمّ الإسـکندری، و بها توفّی. کان إماما فقیها عالما بارعا مفتّنا فی کثیر من العلوم.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم سبع أذرع و ست و عشرون إصبعا. مبلغ الزیادة ثمانی عشرة ذراعا و خمس أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۲۴]

اشارة

السنة التاسعة و العشرون من ولایة الآمر منصور علی مصر و هی سنة أربع و عشرین و خمسمائة، و هی السنة التی قتل فیها الآمر صاحب الترجمة، حسب ما ذکرناه مفصّلا فی ترجمته أوّلا.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۳۶

و فیها (أعنی سنة أربع و عشرین) استوزر بوری بن طغتکین صاحب دمشق المفرّج بن الصوفیّ.

و فیها وصل زنکی بن آق سنقر إلی حلب من الموصل، و قد أظهر أنّه علی عزم الجهاد؛ و راسل بوری یلتمس منه المعونة علی محاربة الفرنج. فأرسل إلیه بوری من استحلفه الأیمان المغلّظة، و استوثق منه لنفسه و لصاحب حمص و حماة.

و فیها ظهرت بالعراق عقارب طیارة لها أجنحة، و هی ذات شوکتین؛ فقتلت من الأطفال خلقا کثیرا. قاله صاحب مرآة الزمان؛ و العهدة علیه فیما نقلناه عنه.

و فیها توفّی إبراهیم بن عثمان بن محمد أبو إسحاق العزّیّ الکلبیّ الشاعر. مولده بغزّة. کان أحد فضلاء الدهر، رحل إلی البلاد و امتدح جماعة من الرؤساء. و من شعره و أجاد إلی الغایة:

[الکامل]

قالوا هجرت الشعر قلت ضرورة باب البواعث و الدّواعی مغلق

خلت البلاد فلا كريم يرتجى منه النوال و لا مليح يعشق

و من العجائب أنّه لا يشترى و يخان فيه مع الكساد و يسرق

و فيها توفّى الحسين بن محمد بن عبد الوهّاب الإمام البارع أبو عبد اللّه النحوى، و هو أخو أبى الكرم بن فاخر النحوىّ لأمّه. قرأ بالروايات، و سمع الحديث الكثير، و اشتغل باللغة و الأدب، و قال الشعر الرائق.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم سبع أذرع و أربع أصابع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و أربع أصابع.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۳۷

ذكر ولاية الحافظ لدين اللّه على مصر

الحافظ لدين اللّه أبو الميمون عبد المجيد ابن الأمير أبى القاسم محمد ابن الخليفة المستنصر بالله معدّ بن الظاهر بالله علىّ بن الحاكم بأمر اللّه منصور بن العزيز بالله نزار بن المعزّ لدين اللّه معدّ بن المنصور إسماعيل بن القائم محمد بن المهدىّ عبيد اللّه، العبيدىّ الفاطمىّ المصرىّ، الثامن من خلفاء مصر من بنى عبيد، و الحادى عشر منهم ممن ولى من آبائه بالمغرب، و هم ثلاثة: المهدىّ و القائم و المنصور. و أوّل من ولى من آبائه بالقاهرة المعزّ لدين اللّه؛ فلهذا قلنا: هو الثامن من خلفاء مصر، و الحادى عشر منهم ممن ولى بالمغرب.

و ولى الحافظ الخلافة بمصر بعد قتل ابن عمه الامر أبى علىّ منصور، على ما يأتى بيانه من أقوال كثيرة. و لم يكن من خلفاء مصر من أبوه غير خليفة سواه و العاضد الآتى ذكره. و لقبوه الحافظ لدين اللّه، و وزر له أبو على أحمد بن الأفضل و لقّب أمير الجيوش، فأحسن إلى الناس و عاملهم بالخير و أعاد لهم مصادراتهم.

و كان قبل ولاية الحافظ هذا اضطرب أمر الديار المصرية؛ لأنّ الآمر قتل و لم يخلف ولدا ذكرا، و ترك امرأة حاملا، فماج أهل مصر و قالوا: لا يموت أحد من أهل هذا البيت إلّا و يخلّف ولدا ذكرا منصوصا عليه الإمامة. و كان الآمر قد نص على الحمل قبل موته؛ فوضعت الحامل بنتا، فعدلوا إلى الحافظ هذا، و انقضع

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۳۸

النسل من الآمر و أولاده. و هذا مذهب طائفة من الشّيعة المصريّين؛ فإنّ الإمامة عندهم من المستنصر إلى نزار الذى قتل بعد واقعة الإسكندريّة.

و قال صاحب مرآة الزمان: و لمّا استمر الحافظ فى خلافة مصر، ضعف أمره مع وزيره أبى علىّ أحمد بن الأفضل أمير الجيوش و قوى شوكة الوزير المذكور، و خطب للمنتظر المهدىّ، و أسقط من الأذان «حىّ على خير العمل» و دعا الوزير المذكور لنفسه على المنابر بناصر إمام الحق، هادى العصاة إلى اتباع الحق؛ مولى الأمم؛ و مالك فضيلتى السيف و القلم. فلم يزل كذلك حتى قتل الوزير المذكور، على ما يأتى ذكره.

و قال ابن خلّكان: «و هذا الحافظ كان كثير المرض بعلة القولنج، فعمل له شيرماه الديلمىّ طبل القولنج الذى كان فى خزائنهم. و لمّا ملك السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب مصر كسر فى أيّامه، و قصته مشهورة. [و] أخبرنى حفيد شيرماه المذكور أن جدّه ركّب هذا الطبل من المعادن السبعة، و الكواكب السبعة فى أشرافها، و كل واحد منها فى وقته. و كان من خاصّته إذا ضربه أحد خرج الريح من مخرجه. و لهذه الخاصيّة كان ينفع من القولنج». انتهى كلام ابن خلكان.

قلت: و نذكر سبب كسر هذا الطبل فى ترجمة السلطان صلاح الدين عند استقلاله بمملكة مصر.

و لما عظم أمر الحافظ بعد قتل الوزير المقدّم ذكره، جدد له ألقاب لم يسبق إليها، و خطب له بها على المنابر؛ و كان الخطيب يقول: «أصلح من شيّدت به الدّين

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۳۹

بعد دثوره، و أعززت به الإسلام بأن جعلته سببا لظهوره؛ مولانا و سیّدنا إمام العصر و الزمان، أبا المیمون عبد المجید الحافظ لدین اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم و علی آبائه الطاهرین، حجج اللّه علی العالمین». و لمّا قتل الوزیر أبو علیّ أحمد المذکور- علی ما یأتی ذکره- وزر للحافظ جماعة، فأساءوا التدبیر، منهم أبو الفتح یانس أمیر الجیوش و مات، فوزر له ابنه الحسن، ثم وزر له بهرام، ثم تولّی الحافظ الأمر بنفسه إلی أن مات.

و کان أمره مع الوزیر أبی علیّ أحمد بن الأفضل أنّه لمّا قتل الخلیفة الآمر کان الحافظ هذا محبوسا، فأخرجوه و أشغلوا الوقت به إلی أن یولد حمل الآمر، فإن کان صبیّا یلی الخلافة و یخلع الحافظ. و تولّی أحمد المذکور الوزارة و جعلوا الأمور إلیه، و لیس للحافظ إلّا مجرّد الاسم فی الخلافة. و کان الوزیر المذکور شهما شجاعا عالی الهمة کابیه الأفضل و جدّه بدر الجمالی السابق ذکرهما، فاستولی علی الدیار المصریّة. و ولدت الحامل بنتا، فاستمرّ الحافظ فی الخلافة تحت الحجر، و صار الأمر کلّه للوزیر؛ فضیّق علی الحافظ و حجر علیه و منعه من الظهور و أودعه فی خزانة لا یدخل إلیه أحد إلّا بأمر الأکمل (أعنی الوزیر المذکور) فإنّه کان لقّب بالأکمل فی أیام وزارته. و طلع الوزیر إلی القصر و أخذ جمیع ما فیه، و قال: هذا کله مال أبی و جدّی؛ ثم أهمل خلفاء بنی عبید و الدعاء لهم، فإنّه کان سنّیا کأبیه، و أظهر التمسّک بالإمام المنتظر فی آخر الزمان، فجعل الدعاء فی الخطبة له، و غیّر قواعد الرافضة.

فأبغضه الأمراء و الدعاة؛ لأنّ غالبهم کان رافضیّا بل الجمیع. ثم أمر الوزیر الخطباء بأن یدعو له بألقاب اختصّها لنفسه. فلمّا کرهه الشیعة المصریّون صمّموا علی قتله.

فخرج فی العشرین من المحرّم إلی لعب الکرة، فکمن له جماعة و حمل علیه مملوک إفرنجی

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۴۰

للحافظ فطعنه و قتله و قطعوا رأسه، و أخرجوا الحافظ و بایعوه ثانیا، و نهبت دار الوزیر المذکور.

و رکب الحافظ إلی دار الخلافة و استولی علی الخزائن، و استوزر مملوکه أبا الفتح یانس الحافظیّ. و لقّب أمیر الجیوش أیضا و هو صاحب حارة الیانسیة، فظهر هو أیضا شیطانا ما کرا بعید الغور حتی خاف منه أستاذه الحافظ، فتحیّل علیه بکل ممکن و عجز حتی و اطأه فرّاشه بأن جعل له فی الطهارة ماء مسموما، فاستنجی به فعمّل علیه سفله و دوّد؛ فکان یعالج بأن یلصق علیه اللحم الطریّ فیتعلق به الدود إلی أن مات.

و قال صاحب کتاب «المقلتین فی أخبار الدولتین»: «کان الآمر قد اصطفی مملوکین، یقال لأحدهما هزبر الملوک، و اسمه جوامزد؛ و الآخر برغش، و ینعت بالعادل. و هو صاحب المسجد قبالة الروضة من بر مصر. و کان الآمر یؤثر هذا الأصغر لرشاقته. فلما قتل الآمر، و ما ثم من یدبر الأمر، اعتمدا علی الأمیر أبی المیمون عبد المجید، و کان أکبر الجماعة سنّا، فتحیّلا بأن قالا: إنّ الخلیفة المنتقل (یعنون الآمر) کان قبل وفاته بأسبوع أشار إلی شیء من ذلک، و إنّه کان یقول عن نفسه: المسکین المقتول بالسکین، و إنّه قال: إنّ الجهة الفلانیّة حامل

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۴۱

منه، و إنّه رأی رؤیا تدلّ علی أنّها ستلد ولدا ذکرا، و هو الخلیفة من بعده؛ و إنّ کفالته للأمیر عبد المجید أبی المیمون. فجلس عبد المجید المذکور کفیلا، و نعت بالحافظ لدین اللّه، و أن یکون هزبر الملوک وزیرا، و أن یکون الأمیر الأجل السعید یانس متولّی الباب و إسفهسالار. و کان أصله من غلمان الأفضل بن أمیر الجیوش (یعنی من ممالیکه)؛ و کان من أعیان الأمراء بمصر، و قرئ بهذا التقریر سجلّ بالإیوان، و الحافظ فی الشبّاک جالس، قرأه قاضی القضاة علی منبر نصب له أمام الشبّاک بحضور أرباب الدولة. و استمرّ الحافظ، و انفشّ ورم الحبلی، و وزر له هذا المذکور و أمیران بعده، و هما: بهرام الأرمنیّ، و رضوان بن و لخشی.

قلت: و لم یذکر هذا المؤرّخ أمر أحمد الوزیر، و لا ما وقع له مع الحافظ، و هو أجدر بأخبار الفاطمیّین من غیره. و لعلّه حذف ذلک

لكونه كان فی أوّل الأمر. و اللّه أعلم.

قال: استمرّ الحافظ خليفة من سنة أربع و عشرين و خمسمائة إلی جمادی الآخرة سنة أربع و أربعين و خمسمائة. و كان له من الأولاد عدّة: سليمان و هو أكبرهم و أحبّهم إليه، و حسن و كان عاقّا له، و يوسف و جبريل، هؤلاء قبل خلافته.

و ولد له فی خلافته أبو منصور إسماعيل، و خلّف بعد موته. و لما ولّی العهد لسليمان أكبر أولاده فی حياته جعله يسدّ مكان الوزير، و يستريح من مقاساة الوزراء الذين يحيفون عليه و يضايقونه فی أمره و نهيه. فمات سليمان بعد ولايته العهد بشهرين، فحزن عليه شهورا. و ترشّح حسن ثانيه فی العمر لولاية العهد، فلم يستصلحه أبوه الحافظ لذلک و لا أجابه إليه. فعظم ذلک علی حسن المذكور، و دعا لنفسه و كاتب الأمراء و عوّل علی اعتقال أبيه ليستبدّ هو بالأمر، و أطمع الناس فيما يواصلهم به إذا تمّ له الأمر؛ فامتدّت إليه الأعناق، و كاتب الأمراء و كاتبوه.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۴۲

ثم عاودتهم عقولهم بأنّ هذا لا يتمّ مع وجود الخليفة. و كاتبوا أباه بخلاف ذلک.

فسيّر أبوه تلک الكتب إليه؛ قال: لا تعتقد أن معک أحدا. فأوقع بعدّة من الأمراء، و أخذ ما فی آدرهم. و قصد أبوه الحافظ إضعافه و صرفه عن جرأته بغير فتک، ففسد أمره و افتقر إلی أبيه. و كان حسن المذكور سيّر بهرام الأرمنی المقدّم ذكره حاشدا له ليصل إليه بالأرمن، و كان هذا (بهرام) أميرهم و كبيرهم.

فلمّا لجأ حسن إلی أبيه الحافظ احتفظ به أبوه و حرص عليه. فلما علم من بقی من الأمراء، و هم علی تخوّف منه، اجتمعوا علی طلبه من أبيه ليقتلوه و يأمنوا أمره؛ فوقفوا ببين القصرين فی عشرة آلاف. فراسلهم الخليفة الحافظ بلين الكلام و تقبيح مرادهم من قتل ولده، و أنّه قد أزال عنهم أمره، و أنّ ضمانه عليه فی ألّا يتصرّف أبدا؛ و وعدهم بالزيادة فی الأرزاق و الإقطاعات. فلم يقبلوا شيئا من ذلک بوجه؛ و قالوا: إمّا نحن و إمّا هو؛ و إن لم نتحقّق الراحة الأبديّة منه و إلّا فلا حاجة لنا بک أيضا و نخلع طاعتک. و أحضروا الأحطاب و النيران لتحريق القصر، و بالغوا فی الإقدام عليه. فلم يجد الخليفة من ينصره عليهم؛ لأنّهم أنصاره و جنده الذين يستطيل بهم علی غيرهم. فألجأته الضرورة أنّه استصبرهم ثلاثة أيّام ليتروّی فيما يعمل فی حق ولده؛ فرأی أنّه لا ينفکّ من هذه المنازلة العظيمة التی لم ير مثلها إلّا أن يقتله مستورا و يحسم مادّته و يأمن مباينة عسكره، و أنّه لا يأمن هو علی نفسه، و أنّه لا بدّ من التصرف بهم و فيهم، و أنّهم لا ينفكّون من المقام ببين القصرين علی هذا الأمر إلّا بعد إنجازه. و كان لخاصته طبيبان يهوديّان يقال لأحدهما أبو منصور، و للآخر ابن قرقة. و كان ابن قرقة خبيرا بالاستعمالات ذكيا. فحضر إليه أبو منصور قبل ابن قرقة، ففاوضه الخليفة فی عمل السقية القاتلة لولده؛ فتحرّج من ذلک و أنكر معرفته،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۴۳

و حلف برأس الخليفة و بالتوراة أنّه لا يعرف شيئا من هذا فتركه. ثم حضر ابن قرقة ففاوضه فی السقية فقال: الساعة، و لا يتقطّع الجسد بل تفيض النفس لا غير، فأحضرها فی يومه؛ و ألزم الخليفة ولده حسنا علی شربها فشر بها و مات، و قيل للقوم سرّا: قد كان ما أردتم، فامضوا إلی دوركم. فلم يثقوا بذلک بل قالوا:

يشاهد منّا من نثق به. فأحضروا أميرا معروفا بالجرأة يقال له المعظّم جلال الدين محمد جلب راغب؛ فدخل المذكور إلی المكان الذی فيه القتيل، فوجده مسجّی و عليه ملاءة، فكشف عن وجهه و أخرج من وسطه بارشينا، فغرزه بها فی مواضع خطرة من جسده حتی تحقّق موته، و عاد إلی القوم فأخبرهم فوثقوا منه و تفرّقوا. و لما نسّاهم الحافظ أمر ابنه قبض علی ابن قرقة صاحب السقية فرماه فی خزانة البنود، و أمر بارتجاع جميع أملاكه و موجوده إلی الديوان. و كانت داره بالزقاق الذی كان يسكنه فرّوخ شاه بن أيّوب، تطلّ علی الخليج قبالة الغزالة و ما فيه من الدور و الحمّام؛ و هذا الدرب يعرف بدرب ابن قرقة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۴۴

قريب باب الخوخة. ثم أنعم الخليفة على رفيقه أبى منصور و جعله رئيس اليهود، و حصلت له نعمة ضخمة.

قال: و كان الحافظ فى كلّ ستة أشهر يجرّد عسكرا إلى عسقلان بما يتحقّقه من عزمات الفرنج فى القلّة و الكثرة مع من هو فيها مقيم من المركزية و الكنانيّة و غيرهم؛ فكان القلّة من الفرسان من ثلثمائة إلى أربعمائة (يعنى الذين يسيّرهم فى التجريدة)، و الكثرة من أربعمائة إلى ستمائة؛ و يقدّم على كلّ مائة فارس أميرا، و يسلّم للأمير الخريطة؛ و هذا اسم لحمل أوراق العرض من الديوان ليتّفق مع والى عسقلان على عرضهم. ثم يسلّم إليه مبلغا من المال ينفقه فيمن فاتته النفقة.

و كانت النفقة للأمراء مائة دينار، و للأجناد ثلاثين دينارا. فاتّفق أنّ والى عسقلان أرسل كتابا يعرّف الخليفة أنّ عند الفرنج حركة؛ فجرّد الخليفة فى تلك المرة العدّة الكبيرة، و فيهم جلال الدين جلب راغب الأمير الذى كشف صحة موت حسن ابن الخليفة بسقية السمّ؛ فسيّر إليه الخليفة مائة دينار، و هى علامة التجريد و الاهتمام؛ فتجهّز المذكور للسفر فى جملة الناس، و فى نفسه تلك الجناية التى قدّمها عند الخليفة فى ولده حتى قتله. فلمّا كان السفر جلس الخليفة ليخدموه بالوداع و يدعو لهم بالنصر و السلامة؛ فدخلوا إليه و مثلوا بين يديه لذلك و انصرفوا إلّا جلال الدين جلب راغب المذكور. فقال الخليفة: قولوا للأمير: ما وقوفك دون أصحابك! أ لك حاجة؟

فقال: يأمرنى مولانا بالكلام. فقال له: قل. قال: يا مولانا ليس على وجه الأرض خليفة ابن بنت رسول اللّه غيرك. و قد كان الشيطان استزلّنى فأذنبت ذنبا

عظيما، عفو مولانا أوسع منه. فقال له: قل ما تريد غير هذا، فإنّا غير مؤاخذيك به.

فقال: يا مولانا، قد توهّمت بل تحقّقت أنّى ماض فى حالة السخط منك، و قد آليت على نفسى أن أبذلها فى الجهاد، فلعلّى أموت شهيدا فيضيع ذلك سخط مولانا علىّ.

فقال له الخليفة: أنت غنىّ عن هذا الكلام، و قد قلنا لك: إنّا ما آخذناك، فأىّ شىء تقصد؟ قال: لا يسيّرنى مولانا تبعا لغيرى، فقد سرت مرارا كثيرة مقدّما، و أخشى أن يظنّ هذا التأخير للذنب الذى أنا معترف به. قال: لا، بل مقدّما و صاحب الخريطة. و أمر بنقل الحال عن المقدّم الذى كان تقرّر للتقدّمة و الخريطة.

فسّر جلال الدين جلب راغب بذلك. ثم أعطاه الخليفة أيضا مائتى دينار، و قال له: اتّسع بهذه.

قال: و كان الأغلب على أخلاق الحافظ الحلم. و مرض الخليفة مرضته التى توفّى فيها، فحمل إلى اللؤلؤة خارج القصر فأثخن فى المرض فمات بها. و ظهر من وصيّته أنّ ولده أبا منصور إسماعيل، و هو أصغر أولاده، هو الخليفة من بعده، مع وجود ولدين كاملين، هما أبو الحجّاج يوسف و هو أبو الخليفة العاضد الآتى ذكره، و أبو الأمانة جبريل. فعقدت عليه الخلافة من بعده، و نعت بالظافر بأمر اللّه، و أن يستوزر له الأمير نجم الدين بن مصال». انتهى كلام صاحب المقلتين.

و قال ابن القلانسىّ: «و فى سنة أربع و أربعين و خمسمائة ورد الخبر من مصر بوفاة الحافظ بأمر اللّه، و ولى الوزارة أمير الجيوش أبو الفتح بن مصال المغربىّ؛ فأحسن السيرة و أجمل السياسة، فاستقامت الأحوال. ثم حدث بعد ذلك من

اضطراب الأمور و الخلف بين السودان و العساكر بحيث قتل بين الفريقين العدد الكثير و سكنت الفتنة». انتهى كلام ابن القلانسىّ.

و كانت ولاية الحافظ على مصر تسع عشرة سنة و سبعة أشهر، و تولّى الخلافة بعده أصغر أولاده، حسب ما ذكرناه عن كلام صاحب المقلتين.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۲۵]

السنة الأولى من ولاية الحافظ عبد المجيد على مصر و هى سنة خمس و عشرين و خمسمائة.

فيها توفّى حمّاد بن مسلم الرّحبىّ الشيخ الإمام الصالح المسّلک، أستاذ الشيخ عبد القادر فى التصوّف و شيخه. سمع الحديث. و كان على طريق التصوّف يدّعى المعرفة و المكاشفة و علوم الباطن. و كان يعطى كلّ من تصيبه حمّى لوزة و زبيبة فيأكلهما فيبرأ، و صار الناس يتردّدون إليه و ينذرون إليه النذور، فيقبل الأموال و يفرّقها على أصحابه، ثم كره أخذ النذور، حتّى مات فى شهر رمضان ببغداد، و دفن بالشّونيزيّة. و كان من الأبدال الصالحين. و يعرف بحمّاد الدّبّاس. رحمة اللّه عليه.

و فيها توفّى السلطان محمود بن السلطان محمد شاه ابن السلطان ملكشاه ابن السلطان ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق بن دقماق، عضد الدولة السلجوقىّ. كان ملكا شجاعا. و كان قد عزم على إفساد الأمور على الخليفة المسترشد

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۴۷

العباسىّ، فعاجله الموت بهمذان فى يوم الخميس خامس عشر شوّال؛ و عمره ثمان و عشرون سنة؛ و مدّة مملكته أربع عشرة سنة. و كان قد عهد إلى ابنه داود و هو صغير فى حجر زوج أمّه أحمد يلى صاحب أذربيجان. فجدّد أبو القاسم وزير محمود على الأمراء العهود، و كتب إلى أحمديلى بذلک. و كان مسعود أخو محمود المتوفّى ببلاد أرمينية، فتحرّک لطلب السلطنة، فكتب إلى الخليفة و لم يكتب لعمّه سنجر شاه السلجوقىّ، فمشى سنجر شاه و ولى السلطنة لابن أخيه طغرل (أعنى لعمّ الصبىّ داود) و رتّب لداود ما يكفيه إلى أن يكبر. و وقع بعد ذلک أمور.

و فيها توفّى محمد بن أحمد بن إبراهيم بن أحمد أبو عبد اللّه الرازىّ ثم المصرىّ المعدّل الشاهد، و يعرف بابن الحطّاب، مسند الديار المصريّة و شيخ الإسكندريّة، مات فى سادس جمادى الأولى و له إحدى و تسعون سنة.

و فيها توفّى هبة اللّه بن محمد بن عبد الواحد بن أحمد بن العبّاس بن الحصين أبو القاسم الشيبانىّ الهمذانىّ الكاتب البغدادىّ مسند العراق. ولد سنة اثنتين و ثلاثين و أربعمائة، و سمع الكثير و حدّث و روى عنه غير واحد.

و فيها قتل الوزير أبو علىّ أحمد بن الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالىّ الأرمنىّ ثم المصرىّ وزير الحافظ العبيدىّ. قال الحافظ أبو عبد اللّه الذهبىّ:

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۴۸

«صاحب مصر و سلطانها الملک الأكمل أبو علىّ و ابن صاحبها و وزيرها» (يعنى الأفضل). قلت: و الحقّ ما نعته به الذهبىّ؛ فإن أحمد هذا و والده و جدّه هم كانوا أصحاب مصر، و الخلفاء معهم كانوا تحت الحجر و الضيق. و تصديق [ذلک] ما خلفه الأفضل شاهنشاه أبو صاحب الترجمة من الأموال و المواشى و غير ذلک. و إنما كان يطلق عليهم بالوزراء إلّا لكون العادة كانت جرت بأن الملک للخليفة لا و هم بلا مدافعة انهم كانوا أعظم من سلاطين زماننا هذا.

و لمّا قتل أبوه الأفضل فى سنة خمس عشرة و خمسمائة فى خلافة الآمر و أخذ الآمر أمواله، سجن ابنه أحمد هذا إلى أن مات. فلمّا مات الآمر أخرج من السجن و جعل أمر مصر إليه، و وزر و استولى على الديار المصريّة. و حجر على الحافظ الخليفة و منعه من الظهور، حسب ما ذكرناه فى ترجمة الحافظ. من أمر قتلته و كيف قتل، فلا يحتاج للتكرار هنا. و بموته صفا الوقت للحافظ و استولى على الملک، و سكن القصر على عادة الخلفاء إلى أن مات.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم سبع أذرع و إصبعان. مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و ثمانى عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۲۶]

السنة الثانية من ولاية الحافظ عبد المجيد على مصر و هى سنة ست و عشرين و خمسمائة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۴۹

فيها توفّى أحمد بن حامد بن محمد أبو نصر المستوفى المعروف بالعزيز عمّ العماد الكاتب. قبض عليه الأنساباذىّ وزير طغرل و سلّمه إلى بهروز الخادم، فحمله إلى تكريت فقتل بها. و كان من رؤساء الأعاجم، ولد بأصبهان، و هو من بيت كتابة و فضل.

و فيها توفّى الملك تاج الملوك بورى بن ظهير الدين طغتكين صاحب دمشق.

ولى أمر دمشق بعد موت أبيه الأتابك طغتكين فى سنة اثنتين و عشرين و خمسمائة.

و كان حليما شجاعا شهما. قتل أبا علىّ المزدقانىّ و جماعة كثيرة من الإسماعيليّة. قال ابن عساكر: بعث إليه الإسماعيليّة برجلين فضرباه بالسكاكين، و هو قد خرج من الحمام، فأثّر فيه بعض الأثر، و أقام ينتقض عليه الجرح تارة و يندمل تارة إلى أن مات فى شهر رجب بعد سنين. و لما احتضر أوصى إلى ولده شمس الملوك إسماعيل فولى بعده. و كانت ولاية بورى على دمشق ثلاث سنين و شهورا.

و فيها توفّى عبد الكريم بن حمزة بن الخضر المحدّث الفاضل ابن محمد السلمىّ الدمشقىّ، سمع الكثير، و توفّى بدمشق. و أنشد لأبى القاسم العجلىّ قوله:

[البسيط]

الضيف مرتحل و المال عارية و إنّما الناس فى الدنيا أحاديث

فلا تغرنّك الدنيا و زهرتها فإنّها بعد أيّام مواريث

و اعمل لنفسك خيرا تلق نائله فالخير و الشر بعد الموت مبثوث

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۵۰

و فيها توفّى علىّ بن عبيد اللّه بن نصر بن عبيد اللّه بن سهل، الإمام أبو الحسن ابن الزاغونىّ شيخ الحنابلة ببغداد. سمع الكثير بنفسه و نسخ بخطّه. و ولد سنة خمس و خمسين و أربعمائة. و كان إماما فقيها متبحّرا فى الأصول و الفروع متقنا واعظا شاعرا.

و فيها توفّى أحمد بن عبيد اللّه بن كادش، الإمام المحدّث أبو العز العكبرىّ، مات فى جمادى الأولى و له تسعون سنة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و سبع أصابع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و عشر أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۲۷]

السنة الثالثة من ولاية الحافظ عبد المجيد على مصر و هى سنة سبع و عشرين و خمسمائة.

فيها خطب لمسعود بن محمد شاه بن ملكشاه السلجوقىّ ببغداد، و من بعده لابن أخيه داود، و خلع عليهما و على [آق] سنقر الأحمديلى.

و فيها فتح شمس الملوك بن تاج الملوك بورى ابن الأتابك طغتكين صاحب دمشق [حصن] بانياس من يد الفرنج.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۵۱

و فيها توفّى أحمد بن عمّار بن أحمد بن عمّار أبو عبد اللّه الحسينىّ، العالم الفاضل الفصيح الكوفىّ. قدم بغداد و مدح الوزير ابن صدقة. و من شعره:

[السريع]

و شادن فى الشّرب قد أشربت و جنته ما مجّ راووقه

ما شبّهت يوما أباريقه بريقه إلّا أبى ريقه

قلت: و هذا يشبه قول القائل مواليا، و لم أدر من السابق لهذا المعنى:

قم اسقنى ما تبقّى فى أباريق أما ترى الصبح قد لاحت أباريق

مع شادن قد روّق سقاريق يسقى المدام و إن عزّت سقاريق

و قريب من هذا الشخص كان بخدمتى، يسمّى بدر الدين حسن الزركشىّ رحمه اللّه:

أفدى مهفهف و قد روّق دواريق بالسقم داوى لقلبى من دواريق

داساحر اللحظ قد صفّت نماريق مزج المدام بحضرا من نماريق

و فيها توفّى محمد بن أحمد بن محمد بن صاعد القاضى أبو سعيد النيسابورىّ.

ولد بنيسابور و قدم بغداد، و كان رئيس نيسابور و قاضيها، و له دنيا واسعة و منزلة تامّة عند الخاص و العامّ. و مات فى ذى الحجة بنيسابور. و كان فقيها نبيلا ثقة.

و فيها توفّى محمد بن الحسين بن علىّ بن إبراهيم الإمام المحدّث الفرضىّ أبو بكر المزرفىّ، سمع الكثير و انفرد بعلم الفرائض فى عصره. و مات فى سجوده فى المحرّم.

و كان ثقة صالحا.

و فيها توفّى أبو خازم محمد ابن القاضى أبى يعلى بن الفرّاء الحنبلىّ الفقيه الصالح.

مات فى صفر و هو من بيت علم و فضل.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۵۲

و فيها توفّى الفقيه العلّامة أسعد بن أبى نصر الميهنىّ شيخ الشافعيّة فى عصره و عالمهم، مات فى هذه السنة فى قول الذهبىّ.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و خمس و عشرون إصبعا. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و خمس عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۲۸]

السنة الرابعة من ولاية الحافظ عبد المجيد على مصر و هى سنة ثمان و عشرين و خمسمائة.

فيها عاد طغرل إلى همذان و مالت العساكر إليه و انحلّ أمر أخيه مسعود.

و مسعود و طغرل كلاهما ولد محمد شاه بن ملكشاه السلجوقىّ.

و فيها خرج شمس الملوك صاحب دمشق يتصيّد، و انفرد من عسكره؛ فوثب عليه أحد مماليك جدّه طغتكين يعرف بإيلبا. و ضربه بالسيف ضربة هائلة، فآنقلب السيف من يده، فرمى بنفسه إلى الأرض؛ و ضربه أخرى فوقعت فى عنق الفرس، و حال بينهما الفرس فانهزم إيلبا. و عاد شمس الملوك إلى دمشق سالما، و رتّب الغلمان فى طلب إيلبا حتى ظفروا به. فلمّا جاءوا به إليه، قال: ما الذى حملك على قتلى؟ قال: لم أفعله إلّا تقرّبا إلى اللّه لظلمك الناس. ثم قرّره فأقرّ على جماعة؛ فجمع شمس الملوك الجميع و قتلهم صبرا بين يديه. و لم يكفه قتلهم حتّى اتّهم أخاه سونج فجعله فى بيت، و سدّ عليه الباب حتّى مات. ثم بعد ذلك بالغ فى سفك الدماء و الظلم و الأفعال القبيحة إلى أن أخذه اللّه، حسب ما يأتى ذكره.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۵۳

و فيها أيضا وقع الخلف بين ولدى الخليفة الحافظ صاحب الترجمة، و هما أبو علىّ الحسن المقتول بالسمّ المقدّم ذكره فى ترجمة أبيه، و هو كان ولىّ العهد بعد سليمان، و بين أخيه أبى تراب حيدرة، و كان ذلك بحضرة و الدهم الحافظ بمصر.

و انقسم العسكر فرقتين، أحدهما على مذهب السنّة، و الثانى على مذهب الرافضة، و وقع بينهم القتال، فكان النصر لولىّ العهد؛ و أباد الحسن من تبع أخاه من السودان و الأمراء بالقتل. و بعد هذا كان ركوب الأمراء بين القصرين على الحافظ لطلب حسن هذا حتّى قتله أبوه الحافظ بالسمّ الذى صنعه ابن قرقة اليهودىّ، و قد تبيّن ذكر ذلك كلّه مفصّلا فى ترجمة الحافظ.

و فيها توفّى أحمد بن إبراهيم الشيخ الإمام أبو الوفاء الفيروزآبادى- و فيروزآباذ:

أحد بلاد فارس- و قد تقدّم الكلام على أنّ كل اسم بلد يكون فيها «باذ» فهو بالتفخيم- كان إماما محدّثا، سمع الكثير، و خدم مشايخ الصوفيّة، و كان حافظا لسيرهم و أشعارهم، و كان يسمع الغناء، و يقول لعبد الوهّاب الأنماطىّ: إنى لأدعولك وقت السماع. و كان الأنماطىّ يتعجّب و يقول: أليس هذا يعتقد أن ذلك وقت إجابة! و كانت وفاته فى صفر، و حصر جنازته خلق كثير، و كان صالحا ديّنا.

و فيها توفّى عبد اللّه بن محمد بن أبى بكر الشاشىّ، كان فقيها مفتيا مناظرا ظريف الشمائل حسن العبارة، و يعظ و ينشئ الكلام المطابق المجانس. و من شعره:

[الدوبيت]

الدمع دما يسيل من أجفانى إن عشت مع الفراق ما أجفانى

سجنى شجنى و حالتى سجّانى و العاذل بالملام قد سجّانى

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۵۴

و الذكر لهم يزيد فى أشجانى و النوح مع الحمام قد أشجانى

ضاقت ببعاد منيتى أعطانى و البين به الهموم قد أعطانى

و فيها توفّى علىّ بن محمد الأديب أبو الحسن العنبرىّ، و يقال له: ابن دوّاس القنّاء. كان شاعرا فصيحا. أصله من البصرة و سكن واسطا و بها مات. و من شعره من أوّل قصيدة:

[البسيط]

هل أنت منجزة بالوصل ميعادى أم أنت مشمتة بالهجر حسّاى

و فيها توفّى محمد بن عبد اللّه بن تومرت الأمير أبو عبد اللّه المنعوت بالمهدىّ الهرغىّ صاحب دعوة عبد المؤمن بن علىّ. كان ابن تومرت هذا ينسب إلى الحسن ابن علىّ بن أبى طالب- رضى اللّه عنهما- و أصله من جبل السوس من أقصى بلاد المغرب، و نشأ هناك، ثم رحل فى شبيبته إلى العراق و غيره، و سمع الحديث و تنسّك و هجر لذّات الدنيا؛ ثم عاد إلى المغرب و انتهى إلى بجاية، فكسّر بها آلات اللهو و أهرق الخمور. ثمّ خرج منها إلى قرية يقال لها ملّالة، فرأى بها عبد المؤمن ابن علىّ فتفرّس فيه النجابة، و سأله عن نسبه حتى عرّفه عبد المؤمن. فقال له:

أنت بغيّى. و قال ابن تومرت هذا لأصحابه: هذا الذى بشّر به النّبىّ صلى اللّه عليه و سلّم فقال: «إنّ اللّه تعالى ينصر هذا الدين برجل من قيس سليم» و استبشر به ابن تومرت هذا. ثمّ وقع له مع ملوك المغرب وقائع و أمور يطول شرحها حتّى ملك عدّة بلاد. و كان ابتداء أمره فى سنة اثنتى عشرة و خمسمائة- و قيل: سنة

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۵۵

أربع عشرة و خمسمائة- و مولده فى يوم عاشوراء سنة خمس و ثمانين و أربعمائة.

و مات فى هذه السنة، و قال ابن خلّكان: فى سنة أربع و عشرين. و اللّه أعلم.

و من شعره:

[المتقارب]

أخذت بأعضادهم إذ نأوا و خلّفك القوم إذ ودّعوا

فكم أنت تنهى و لا تنتهى و تسمع وعظا و لا تسمع

فيا حجر الشّحذ حتّى متى تسنّ الحديد و لا تقطع

و كان كثيرا ما يتمثّل بهذا البيت:

[الطويل]

تجرّد من الدنيا فإنك إنّما سقطت على الدنيا و أنت مجرّد

و كان يتمثّل أيضا بقول المتنبى:

[الوافر]

إذا غامرت فى شرف مروم فلا تقنع بما دون النجوم

فطعم الموت فى أمر حقير كطعم الموت فى أمر عظيم

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم سبع أذرع و خمس عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و ثلاث و عشرون إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۲۹]

السنة الخامسة من ولاية الحافظ على مصر و هى سنة تسع و عشرين و خمسمائة.

فيها توفّى شمس الملوك إسماعيل بن تاج الملوك بورى ابن الأتابك ظهير الدين طغتكين صاحب دمشق. كانت ساءت سيرته و صادر الناس و أخذ أموالهم و سفك الدماء، و ظهر منه شحّ زائد، و قتل مماليك أبيه و جدّه. و قد ذكرنا من أخباره فى السنة الماضية تبيين ذلك. و زاد ظلمه حتى كتب أهل دمشق إلى زنكى بن آق سنقر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۵۶

بالمسير إليهم. فقيل: إنه مات قبل وصول زنكى إلى الشام، و استراح أهل دمشق منه.

و فيها توفّى دبيس بن صدقة بن منصور بن دبيس بن علىّ بن مزيد الأمير أبو الأغرّ الأسدىّ. أصله من بنى أسد- و قيل: من بنى خفاجة- و أوّل من ظهر من بيته جدّه الأكبر مزيد فى أيّام بنى بويه؛ و مات مزيد فقام علىّ ولده مقامه؛ و كان عائنا، ما وقعت عينه على شىء إلّا هلك. ثم قام بعده ابنه دبيس، ثمّ منصور؛ فجرى من منصور فى الخليفة القائم بأمر اللّه ما جرى. ثم مات منصور و خلّف ابنه صدقة، فخدم ملكشاه السلجوقىّ ثم خالف ابنه بركياروق فقتله بركياروق. و قام بعده ابنه دبيس صاحب الترجمة؛ و كان شرّ أهل بيته، يرتكب الكبائر و يفعل العظائم، و لقى منه الخليفة و المسلون شرورا كثيرة، و أبطل الحجّ، و أباح الفروج فى شهر رمضان.

و كانت أيّامه سبعا و ستين سنة إلى أن قتله السلطان مسعود السلجوقىّ صبرا فى ذى الحجّة.

و كان دبيس المذكور كثيرا ما ينشد:

[الكامل]

إنّ الليالى للأنام مناهل تطوى و تبسط بينها الأعمار

فقصارهنّ مع الهموم طويلة و طوالهنّ مع السرور قصار

و كان قتله بالمراغة.

و فيها توفّى الخليفة أمير المؤمنين المسترشد بالله أبو منصور الفضل ابن الخليفة المستظهر بالله أحمد ابن الخليفة المقتدى بالله عبد اللّه

ابن الأمير محمد الذخيرة ابن الخليفة القائم بأمر اللّه عبد اللّه العباسىّ الهاشمى البغدادىّ. بويع بالخلافة بعد موت أبيه فى شهر ربيع الآخر سنة اثنتى عشرة و خمسمائة. و مولده فى حدود

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۵۷

سنه خمس و ثمانين و أربعمائة. و أمّه أمّ ولد تسمّى لبابة. و كان شهما شجاعا ذا همّة و معرفة و عقل، و كان مشتغلا بالعبادة، سالكا فى الخلافة سيرة القادر. قرأ القرآن و سمع الحديث و قال الشعر، و من شعره:

[الطويل]

أنا الأشقر الموعود بى فى الملاحم و من يملك الدنيا بغير مزاحم

و مات قتيلا. و كان سبب ذلك أنّه خرج لقتال مسعود بن محمد شاه بن ملكشاه السلجوقىّ فخالف عليه عسكره فانكسر و أسر. فراسل سنجر شاه عمّ مسعود يلوم مسعودا؛ فرجع مسعود عن قتاله و ضرب له السّرادق، فنزل المسترشد هذا فيه. ثمّ وصل رسول سنجر شاه إلى الخليفة و معه سبعة عشر نفرا من الباطنيّة؛ فركب مسعودا لتلقّى رسول عمّه سنجر شاه و معه العسكر، فسبقت الباطنيّة فى زىّ الغلمان و دخلوا على الخليفة و ضربوه بالسكاكين حتّى قتلوه و قتلوا من كان عنده؛ و عادت العساكر فأحدقت بالسرادق، و خرج الباطنيّة و السكاكين بأيديهم فيها الدم؛ فمالت العساكر عليهم فقتلوهم و أحرقوهم. و غطّى الخليفة بسندسة خضراء لفّوه فيها، و دفن على حاله بباب مراغة. و كان قتله فى سابع عشر ذى القعدة، و عمره خمس و أربعون سنة، و خلافته سبع عشرة سنة و ثمانية أشهر و أيام. و بويع بالخلافة بعده ابنه أبو جعفر منصور، و لقب بالراشد، و كان ببغداد.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و أربع و عشرون إصبعا. مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا و ثلاث أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۳۰]

السنة السادسة من ولاية الحافظ عبد المجيد على مصر و هى سنة ثلاثين و خمسمائة.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۵۸

فيها خلع الخليفة الراشد بالله أبو جعفر منصور بن المسترشد المقدّم ذكره، لأمور وقعت بينه و بين السلطان سنجر شاه و ابن أخيه السلطان مسعود و قطع خطبته. و كاتب الخليفة زنكى بن آق سنقر و أطمعه فى الملك، و قال: يكون السلطان ألب أرسلان بن محمود بن محمد شاه بن ملكشاه، و أنت تكون أتابكه؛ فكان هذا أوّل سبب الفتنة، و خرج الخليفة من بغداد، و وقع له أمور آلت إلى خلعه.

قال صدقة الحدّاد الحنبلىّ فى تاريخه: إن الوزير أبا القاسم بن طرّاد صدّر محضرا على الراشد فيه أنواع من الكبائر ارتكبها من الفسق و الفجور و نكاح أمّهات أولاد أبيه و أخذ أموال الناس و سفک الدماء، و أنّه فعل أشياء لا يجوز أن يكون معها إماما. فتوقّف الشهود؛ فهدّدهم ابن طرّاد و قال: علمتم صحّة هذا، فما المانع من إقامة الشهادة! فشهدوا. و كان السلطان مسعود قد جمع القضاة و الشهود و الأعيان و أخرج لهم نسخة يمين كانت بينه و بين الراشد، أخذها عليه بخطّه: «متى حشدت أو حاذيت و جذبت سيفا فى وجه مسعود فقد خلعت نفسى من هذا الأمر»، و فيها خطوط القضاة و الشهود بذلک. فحكم القضاة حينئذ بخلعه؛ فخلع فى يوم الاثنين ثامن عشر ذى القعدة. و ولّوا المقتفى محمد ابن المستظهر أخ المسترشد عمّ الراشد هذا، و حبس الراشد إلى أن مات، حسب ما يأتى ذكره إن شاء اللّه فى محله.

و فيها توفّى القاسم بن عبد اللّه بن القاسم القاضى شمس الدين الشّهرزورىّ أخو القاضى كمال الدّين الشهرزورىّ، ولى قضاء الموصل، و كان يعظ و له قبول حسن، و للناس فيه اعتقاد.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۵۹

و فيها توفّى يوسف بن فيروز حاجب شمس الملوك إسماعيل. كان [من] مماليك طغتكين. حقدوا عليه لأنّه هو الذى أشار على شمس الملوك بقتل إيلبا الذى ضرب شمس الملوك بالسيف، حسب ما ذكرناه؛ فاتّفقوا على قتله؛ فالتقاه بزاوش الأتابكىّ عند المسجد الجديد فضربه بالسيف على وجهه فقتله فى جمادى الآخرة.

و فيها توفّى الإمام العلّامة أبو الحسن علىّ بن أحمد بن منصور بن قيس الغسّانىّ المالكىّ النحوىّ. كان إماما فقيها عالما نحويّا، حلّق و درّس سنين و أقرأ النحو و قصده الناس و انتفع به خلق كثير.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ست أذرع و ثمانى أصابع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و سبع أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۳۱]

السنة السابعة من ولاية الحافظ على مصر و هى سنة إحدى و ثلاثين و خمسمائة.

فيها أرسل السلطان مسعود طالب الخليفة المقتفى لأمر اللّه العبّاسىّ و حواشيه بمائة ألف دينار. فبعث إليه المقتفى يقول: ما رأيت أعجب من أمرك! أنت تعلم أنّ أخى المسترشد سار من بغداد إليك بأمواله، فوصل الكلّ إليك و رجع أصحابه بعد قتله عراة، و ولى ابن أخى الراشد ففعل ما فعل، ثمّ رحل و أبقى أمواله و خزائنه فى الدار، فأخذت الجميع. و أمّا الناس فإنّى عاهدت اللّه أنّى لا آخذ لأحد شيئا، و قد أخذت أنت أيضا الجوالى و التركات؛ فمن أىّ وجه أقيم لك هذا المال!.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۶۰

و فيها تتبع المقتفى القوم الذين أفتوا بفسق الراشد و كتبوا المحضر، و عاقب من استحقّ العقوبة، و عزل من يستحقّ العزل، و نكب الوزير شرف الدّين علىّ بن طرّاد. و قال المقتفى: إذا فعلوا هذا مع غيرى فهم يفعلونه معى؛ و استصفى أموال الزينبى، و استوزر عوضه سديد الدولة بن الأنبارىّ، و كان كاتب الإنشاء.

و فيها توفى مرشد بن علىّ بن المقلد بن نصر بن منقذ الأمير أبو سلامة صاحب شيزر. كان عارفا بفنون العلوم و الآداب، صالحا كثير العبادة و التلاوة. و كان أخوه نصر ولّاه شيزر فتركها و قال: لا أدخل فى الدنيا! و ولّاها أخاه سلطان بن علىّ.

و سافر البلاد، و كان له يد طولى فى العربيّة و المكاتبة و الشعر. كان كثير الصوم شديد البأس و النجدة فى الحرب حسن الخطّ، كتب بخطّه سبعين ختمة، و كان له شعر.

و فيها توفّى بدران بن صدقة بن منصور، و هو من بنى مزيد، و لقبه شمس الدولة.

و لمّا فعل أخوه دبيس ما فعل بالعراق و تغيّرت أحواله، خرج إلى مصر، فأكرمه صاحبها الحافظ صاحب الترجمة. و كان أديبا فاضلا، مات فى هذه السنة.

و فيها توفّى إسماعيل بن أبى القاسم بن أبى بكر النيسابورىّ الإمام القارئ، مات فى شهر رمضان. و كان رأسا فى علم القرآن و غيره.

و فيها توفى الحافظ أبو جعفر محمد بن أبى علىّ الهمذانىّ الحافظ المحدّث المشهور، سمع الكثير و كتب و صنّف و حدّث، و روى عنه غير واحد.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ستّ أذرع سواء. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و ستّ عشرة إصبعا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۶۱

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۳۲]

السنة الثامنة من ولاية الحافظ عبد المجيد على مصر و هى سنة اثنتين و ثلاثين و خمسمائة.

فيها توفّى أحمد بن محمد بن أحمد الشيخ أبو بكر الدّينورىّ الحنبلىّ، تفقّه على أبى الخطّاب الكاوذانىّ، و برع فى الفقه و المناظرة. و مات فى جمادى الأولى، و دفن قريبا من الإمام أحمد بن محمد بن حنبل. رضى اللّه عنه.

و فيها توفّى الوزير أنوشروان [بن محمد] بن خالد بن محمد أبو نصر القاشانىّ القينىّ (و قين: قرية من قرى قاشان) وزر المسترشد الخليفة و للسلطان مسعود السلجوقىّ.

و كان مهيبا عاقلا فاضلا. و هو كان السبب فى عمل الحريرىّ المقامات التى أنشأها.

حكى أنّ الحريرىّ كان جالسا بمسجد ببنى حرام، و هى محلّة من محال البصرة، إذ دخل شيخ ذو طمرين عليه أهبة السفر رثّ الثياب. فاستنطقه الحريرىّ فإذا هو فصيح اللّهجة حسن العبارة. فسأله من أين الشيخ؟ فقال: من سروج.

قال: فما كنيته؟ قال: أبو زيد. فعمل الحريرىّ المقامة الحراميّة بعد قيامه من ذلك المجلس. هكذا قال صاحب مرآة الزمان.

قلت: و لعلّ الحريرىّ كان سمع به قبل ذلك و ما اجتمع به؛ فإنّ الذهبىّ قال عن أبى زيد السّروجىّ: إنّه رجل مكد لحوح فصيح العبارة يسمى المطهّر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۶۲

ابن سلّار. و كان الوزير أنوشروان كريما جوادا ذا همّة عالية و إقدام. و مات فى شهر رمضان. رحمه اللّه.

و فيها توفّى المسند بدر بن عبد اللّه أبو النجم، سمع الحديث الكثير، و مات فى شهر رمضان عن ثمانين سنة ببغداد. و كان سليم الباطن. طلب منه أصحاب الحديث إجازة، فقال: كم تستجيزون! ما بقى عندى إجازة.

و فيها توفّى الأمير البقش السّلاحىّ. كان أميرا كبيرا، ناب عن السلطان فى ممالك؛ ثم توهّم السلطان منه و قبض عليه و حبسه بقلعة تكريت، ثم أمر بقتله، فغرّق نفسه فى دجلة، فأخرج من الماء و قطع رأسه و حمل إلى السلطان.

و فيها توفّى الحسين بن تلمش بن يزدمر أبو الفوارس التركىّ الصوفىّ البغدادىّ.

كان شاعرا. و من شعره:

[الخفيف]

أتمنّى أنّى أكون مريضا علّها أن تعود فى العوّاد

فتراها عينى فيذهب عنّى ما أقاسيه من جوى فى فؤادى

و فيها توفّى محمد بن عبد الملك بن محمد الشيخ أبو الحسن الكرجىّ. كان محدّثا فقيها شاعرا شافعىّ المذهب، و صنّف فى مذهبه. و كان كريما جوادا. و من شعره:

[الوافر]

تناءت داره عنّى و لكن خيال جماله فى القلب ساكن

إذا امتلأ الفؤاد به فماذا يضرّ إذا خلت منه المساكن

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۶۳

و فيها توفّى الخليفة الراشد بالله أبو جعفر منصور ابن الخليفة المسترشد بالله أبى منصور الفضل ابن الخليفة المستظهر بالله أحمد ابن الخليفة المقتدى بأمر اللّه عبد اللّه ابن الأمير ذخيرة الدين محمد ابن الخليفة القائم بأمر اللّه عبد اللّه، العباسىّ الهاشمى. بويع بالخلافة بعد قتل أبيه المسترشد فى ذى القعدة سنة تسع و عشرين و خمسمائة. و مولده فى سنة اثنتين و خمسمائة. و خرج بعد خلافته بمدّة إلى الموصل لقتال مسعود و غيره، فخذله أصحابه؛ فقبض السلطان مسعود عليه، و خلعه من الخلافة، حسب ما ذكرناه فى سنة ثلاثين و خمسمائة، و حبسه إلى أن قتله فى هذه السنة. و أمّه أمّ ولد حبشية يقال لها [أمّ السادة]. و يقال: إنّ الراشد هذا ولد مسدودا، فأحضر

أبوه المسترشد الأطبّاء، فأشاروا أن يفتح له مخرج بالة من ذهب، ففعل به ذلك فنفع. و حكى عن الراشد هذا أيضا أن والده أعطى له عدّة جوار و عمره أقلّ من تسع سنين، و أمرهنّ أن يلاعبنه؛ و كانت فيهنّ جارية حبشية فحملت من الراشد فلمّا ظهر الحمل و بلغ المسترشد أنكره لصغر سنّ ولده الراشد؛ و سألها فقالت:

و اللّه ما تقدّم إلىّ غيره، و إنّه احتلم. فسأل باقى الجوارى فقلن كذلك. و وضعت الجارية صبيا و سمّى أمير الجيش. و قيل لأبيه: إنّ صبيان تهامة يحتلمون لتسع، و كذلك نساؤهم. و كانت قتلة الراشد هذا فى شهر رمضان من هذه السنة بظاهر أصبهان. و قال الذهبىّ: إنّ قتلته كانت فى الخالية. و اللّه أعلم.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و إصبع واحدة.

مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا و اثنتا عشرة إصبعا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۶۴

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۲۳]

السنة التاسعة من ولاية الحافظ عبد المجيد على مصر و هى سنة ثلاث و ثلاثين و خمسمائة.

فيها كانت زلزلة عظيمة أهلكت مائتى ألف و ثلاثين ألف إنسان، قاله صاحب مرآة الزمان. و قال ابن القلانسىّ: إنّها كانت بالدنيا كلّها، و إنما كانت يحلب أعظم، جاءت ثمانين مرّة، و رمت أسوار البلد و أبراج القلعة، و هرب أهل البلد إلى ظاهرها.

و فيها توفى إسماعيل بن محمد بن أحمد الشيخ الأديب أبو طاهر الوثّابىّ. كان شاعرا فصيحا مترسّلا.

و فيها توفّى علىّ بن أفلح الرئيس أبو القاسم الكاتب البغدادىّ. كان عالما فاضلا كاتبا شاعرا. تقدّم عند الخليفة المسترشد حتّى إنّه لقّبه جمال الملك و أعطاه الذهب و رتّب له الرواتب. ثمّ بلغه عنه أنّه كاتب دبيسا، فأراد القبض عليه، فهرب إلى تكريت و استجار ببهروز الخادم؛ فشفع فيه فعفا عنه الخليفة. و من شعره:

[البسيط]

دع الهوى لأناس يعرفون به قد ما رسوا الحبّ حتّى لان أصعبه

بلوت نفسك فيما لست تخبره و الشيء صعب على من لا يجرّ به

و فيها توفّى الأمير محمود بن تاج الملوك بورى بن الأتابك ظهير الدين طغتكين، الملك شهاب الدين صاحب دمشق. ولى دمشق مكان أبيه- قلت: و لعلّه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۶۵

ولى بعد أخيه شمس الملوك إسماعيل. و اللّه أعلم- و لمّا ولى إمرة دمشق ساءت سيرته، فاستوحش منه جماعة من أمرائه و اتّفقوا على قتله مع يوسف الخادم و التّفش الأرمنىّ. و كانا ينامان حول سريره و ساعدهما عنبر الفرّاش الخركاوىّ على ذلك. فلمّا كان ليلة الجمعة ثالث عشرين شوّال ذبحوه على فراشه و خرجوا هاربين؛ فظفروا بهم و أخذوا يوسف و عنبرا فصلبا، و هرب التّغش. و كتب الأمراء إلى أخى محمود هذا، و هو محمد بن بورى بن طغتكين و كان ببعلبكّ، و كان صبيّا لم يبلغ الحلم، فجاء مسرعا و دخل دمشق، فملّكوه و لقّبوه جمال الدين. و انتهى الخبر إلى خاتون صفوة الملك والدة محمود المقتول؛ فراسلت الأمير عماد الدين زنكى بن آق سنقر تعرّفه الحال و تطلب منه أخذ الثأر؛ فجاء إلى دمشق و ملكها بالأمان، ثم غدر بهم و أمر بقتلهم و صلبهم.

قلت: و عماد الدين زنكى هذا هو والد السلطان نور الدين محمود بن زنكى المعروف بالشهيد.

و فيها توفّى الشيخ الإمام المقرئ أبو العبّاس أحمد بن عبد الملك بن أبى جمرة.

كان عالما فاضلا سمع الحديث و روى عنه غير واحد، و هو آخر من روى بالإجازة عن أبى عمرو الدانى.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و أربع عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا و خمس أصابع.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۶۶

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۳۴]

السنة العاشرة من ولاية الحافظ على مصر و هى سنة أربع و ثلاثين و خمسمائة.

فيها قتل الأمير جوهر خادم السلطان سنجر شاه بن ملكشاه السلجوقىّ.

كان خادما حبشيّا حاكما فى الدّول. قتله باطنىّ جاءه فى صورة امرأة فاستغاث به؛ فوقف له جوهر لأخذ ظلامته؛ فرمى الإزار و وثب عليه و قتله؛ فقتلته خدم جوهر فى الوقت. و عزّ على سنجر شاه قتله و حزن عليه.

و فيها توفّى يحيى بن علىّ بن عبد العزيز القاضى الزّكىّ أبو الفضل قاضى دمشق، و هو جدّ ابن عساكر لأمّه. تفقّه على أبى بكر الشاشىّ ببغداد، و تفقّه بدمشق على القاضى المروزىّ، و مات بدمشق فى هذه السنة. و قال الذهبىّ: فى الآتية، و كان إماما فاضلا عالما. رحمه اللّه.

و فيها توفّى الأمير جمال الدين محمد ابن الأمير تاج الملوك بورى ابن الأتابك ظهير الدين طغتكين صاحب دمشق. كان ملك دمشق بعد قتل أخيه محمود، فلم تطل مدّته، و حضر الأمير زنكى بن آق سنقر و أخذ دمشق منه و استولى عليها، حسب ما ذكرناه. و مات فى شعبان و لم أدر مات قتيلا أم حتف أنفه.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ست أذرع و ثمانى عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و سبع عشرة إصبعا، و شرقت البلاد.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۳۵]

السنة الحادية عشرة من ولاية الحافظ على مصر و هى سنة خمس و ثلاثين و خمسمائة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۶۷

فيها نقل الخليفة المقتفى لأمر اللّه العبّاسىّ المظفّر بن محمد بن جهير من الأستاداريّة إلى الوزر. قلت: و هذا أوّل ما سمعنا بوظيفة الأستاداريّة فى الدّول.

و فيها توفّى محمد بن عبد الباقى الشيخ الإمام أبو بكر الأنصارىّ. هو من ولد كعب بن مالك أحد الثلاثة الذين خلّفوا. كان إماما عالما. و كان إذا سئل عن مولده يقول: أقبلوا على شأنكم، لا ينبغى لأحد أن يخبر [عن] مولده، إن كان صغيرا يستحقرونه، و إن كان كبيرا يستهرمونه. و كان ينشد:

[الكامل]

لى مدّة لا بدّ أبلغها فإذا انقضت و تصرّمت متّ

لو عاندتنى الأسد ضارية ما ضرّ بى ما لم يجى الوقت

و فيها توفّى الشيخ الإمام حافظ عصره أبو القاسم إسماعيل بن محمد بن الفضل الطّلحىّ الأصبهانى التيمىّ. ولد سنة تسع و خمسين و

أربعمائة، و سافر البلاد و سمع الکثیر و برع فی فنون، و کان إماما فی التفسیر و الحدیث و الفقه و اللغة، و هو أحد الحفّاظ المتقنین. و مات بأصبهان فی یوم عید النحر.

و فیها توفّی الشیخ الإمام الفقیه المحدّث أبو الحسن رزین بن معاویة العبدریّ السّرقسطیّ، مات بمکّة فی المحرّم.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۶۸

و فیها توفّی القدوة الصالح الواعظ أبو یعقوب یوسف بن أیّوب الهمذانیّ الواعظ المفسّر، کان إماما فاضلا، و له لسان حلو فی الوعظ، و للناس فیه محبّة و علیه القبول.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم ستّ أذرع سواء. مبلغ الزیادة سبع عشرة ذراعا و اثنتا عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۳۶]

السنة الثانیة عشرة من ولایة الحافظ عبد المجید علی مصر و هی سنة ست و ثلاثین و خمسمائة.

فیها توفّی شیخ الإسلام الحسام عمر بن عبد العزیز بن مازة، إمام الحنفیّة ببخاری و صدر الإسلام. کان علّامة عصره، و کانت له الحرمة العظیمة، و النعمة الجلیلة، و التصانیف المشهورة؛ و کان الملوک یصدرون عن رأیه. و لمّا عزم سنجر شاه ابن ملکشاه علی لقاء الخطا، أخرجه معه، و فی صحبته من الفقهاء و الخطباء و الوعّاظ و المطّوّعة ما یزید علی عشرة آلاف نفر، فقتلوا فی المصافّ عن آخرهم، و أسر الحسام هذا و أعیان الفقهاء. فلمّا فرغ المصافّ أحضرهم ملک الخطا و قال:

ما الذی دعاکم إلی قتال من لم یقاتلکم و الإضرار بمن لم یضرّکم؟ و ضرب أعناق الجمیع. و انهزم سنجرشاه فی ستّ أنفس، و أسرت زوجته و أولاده و أمّه و هتک حریمه، و قتل عامّة أمرائه. قال صاحب مرآة الزمان: و قتل مع سنجرشاه اثنا عشر ألف

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۶۹

صاحب عمامة کلّهم رؤساء، و کان یوما عظیما لم یر مثله فی جاهلیّة و لا إسلام، و کانت قتلة ابن مازة المذکور فی صفر.

و فیها توفّی الشیخ الإمام أبو سعد أحمد بن محمد بن الشیخ علیّ بن محمود الزّوزنیّ الصّوفی. کان إماما عالما فاضلا رأسا فی علم التصوّف. مات ببغداد فی شعبان.

و فیها توفّی الشیخ العارف بالله أبو العبّاس أحمد [بن محمد] بن موسی الصّنهاجیّ الأندلسیّ المالکیّ العالم الصوفیّ. کان ممن جمع بین علمی الشریعة و الحقیقة.

و فیها توفّی الحافظ أبو القاسم إسماعیل بن أحمد بن عمر بن أبی الأشعث السّمرقندیّ، مات ببغداد فی ذی القعدة. و کان حافظا مفتّنا، سمع الکثیر و سافر البلاد و کتب و حصّل و حدّث، روی عنه غیر واحد.

و فیها توفّی شرف الإسلام عبد الوهّاب ابن الشیخ أبی الفرج عبد الواحد بن محمد الشّیرازیّ الفقیه الحنبلیّ الواعظ. کان رأسا فی الوعظ مشارکا فی فنون کثیرة.

و مات بدمشق.

و فیها توفّی الحافظ أبو عبد اللّه محمد بن علیّ المازریّ المالکیّ الحافظ المحدّث المشهور، مات فی شهر ربیع الأوّل و له ثلاث و ثمانون سنة. و کان إماما حافظا متقنا عارفا بعلوم الحدیث، و سمع الکثیر و سافر البلاد و کتب الکثیر.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۷۰

و فیها توفّی إمام جامع دمشق أبو محمد هبة اللّه بن أحمد بن عبد اللّه بن علیّ بن طاوس. کان رجلا فقیها صالحا و رعا حسن القراءة، أمّ سنین بجامع دمشق، و مات بها.

الذین ذکر الذهبیّ وفاتهم فی هذه السنة، قال: و فیها توفّی أبو سعد أحمد بن محمد ابن الشیخ علی بن محمود الزّوزنی الصوفیّ ببغداد فی شعبان. و أبو العبّاس أحمد ابن محمد بن موسی [بن عطاء اللّه] بن العزیف الصنهاجیّ الأندلسیّ العارف.

و الحافظ أبو القاسم إسماعیل بن أحمد بن عمر بن أبی الأشعث السّمرقندیّ ببغداد فی ذی القعدة. و الفقیه أبو محمد عبد الجبّار بن محمد بن أحمد الخواریّ البیهقیّ فی شعبان. و أبو الحکم عبد السلام بن عبد الرحمن بن أبی الرجال، و قد تغیّر.

و شرف الإسلام عبد الوهاب ابن الشیخ أبی الفرج عبد الواحد بن محمد الشّیرازیّ الحنبلیّ الواعظ بدمشق. و أبو حفص عمر بن العزیز بن مازة شیخ الحنفیّة بما وراء النهر، قتل صبرا فی صفر. و أبو عبد اللّه محمد بن علیّ المازریّ المالکیّ الحافظ فی شهر ربیع الأوّل، و له ثلاث و ثمانون سنة. و أبو الکرم نصر اللّه بن محمد بن محمد بن مخلد بن الجلخت بواسط فی ذی الحجّة. و إمام جامع دمشق أبو محمد هبة اللّه بن أحمد بن عبد اللّه بن علیّ بن طاوس. و أبو محمد یحیی بن علیّ بن الطرّاح المدینیّ فی رمضان.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۷۱

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم أربع أذرع و خمس أصابع.

مبلغ الزیادة ست عشرة ذراعا و إحدی عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۳۷]

السنة الثالثة عشرة من ولایة الحافظ علی مصر و هی سنة سبع و ثلاثین و خمسمائة.

فیها ملک الأمیر زنکی بن آق سنقر الترکی والد بنی زنکی قلعة الحدیثة التی علی الفرات، و نقل من کان بها من آل مهارش إلی الموصل، و رتّب فیها نوّابه.

و فیها توفّی الحسن بن محمد بن علیّ بن أبی الضوء الشریف أبو محمد الحسینی البغدادیّ، نقیب مشهد موسی بن جعفر ببغداد. کان إماما فاضلا فصیحا شاعرا إلّا أنّه کان علی مذهب القوم، متغالیا فی التشیّع، فشان سودده بذلک. و من شعره قوله فی المرثیة التی عملها فی الشریف النقیب طاهر، و أظنّها من جملة أبیات:

[الخفیف]

قرّبانی إن لم یکن لکما عق ر إلی جنب قبره فاعقرانی

و انضحا من دمی علیه فقد کا ن دمی من نداه لو تعلمان

قلت: للّه درّه! لقد أحسن و أبدع فیما قال. و قد ساق ابن خلّکان هذه الأبیات فی ترجمة خالد الکاتب، و ساق له حکایة ظریفة، و ذکر الأبیات فی صمنها فلتنظر هناک.

و فیها توفی السلطان داود ابن السلطان محمود شاه ابن السلطان محمد شاه ابن السلطان ملکشاه ابن السلطان ألب أرسلان بن داود بن میکائیل بن سلجوق

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۷۲

ابن دقماق السلجوقیّ، صاحب أذربیجان و غیرها، الذی کسره السلطان مسعود و جری له معه وقائع و حروب- تقدّم ذکر بعضها- حتّی استولی علی تلک النواحی. و کان سبب موته أنّه رکب یوما فی سوق تبریز، فوثب علیه قوم من الباطنیّة فقتلوه غیلة، و قتلوا معه جماعة من خواصّه، و دفن بتبریز. و کان ملکا شجاعا جوادا عادلا فی الرعیّة یباشر الحروب بنفسه.

و فیها توفّی العلامة قاضی القضاة عبد المجید بن إسماعیل بن محمد أبو سعید الهرویّ الحنفیّ قاضی بلاد الروم. کان إماما فقیها متبحّرا مصنّفا، و له مصنّفات کثیرة فی الأصول و الفروع، و خطب و رسائل، و أدّب و أفتی و درّس سنین عدیدة.

و مات بمدينة قيساريّة فى شهر رجب من السنة المذكورة. و من شعره:

[الكامل]

و إذا متتّ إلى الكريم خديعة فرأيته فيما تروم يسارع

فاعلم بأنّك لم تخادع جاهلا إنّ الكريم بفعله يتخادع

و فيها توفّى القان ملك الخطا و الترك الملك كوخان و هو على كفره. و أظنّه هو الـذى كسـر سـنجرشاه السـلجوقىّ المقدّم ذكره، و قتل تلك الأمم. و اللّه أعلم.

و فيها توفّى القاضى المنتخب أبو المعالى محمد بن يحيى بن علىّ القرشىّ قاضى قضاة دمشق و عالمها، مات بها فى شهر ربيع الأوّل و له تسع و تسعون سنة.

و فيها توفّى صاحب المغرب أمير المسلمين أبو الحسن على بن يوسف بن تاشفين المعروف بالملثّم، قاله الذهبىّ فى تاريخ الإسلام.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۷۳

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أبو عبد اللّه الحسين ابن علىّ سبط أبى منصور الخيّاط. و أبو الفتح عبد اللّه بن محمد بن محمد البيضاوىّ فى جمادى الأولى. و أبو طالب علىّ بن عبد الرحمن بن أبى عقيل الصورىّ بدمشق.

و كوخان سلطان الخطا و هو على كفره. و الخطيب أبو الفضل محمد بن عبد اللّه بن المهتدى بالله. و أبو الفتح مفلح بن أحمد الرومىّ الورّاق ببغداد.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثلاث أذرع و ست عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا سواء.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۳۸]

السنة الرابعة عشرة من ولاية الحافظ على مصر و هى سنة ثمان و ثلاثين و خمسمائة.

فيهـا توفّى نقيب النقبـاء علىّ بن طرّاد بن محمـد بن علىّ أبو القـاسم الزينبىّ. كان معظّما فى الـدول. ولّاه الخليفـة المسـتظهر بالله نقابة النقباء، و لقّبوه بالرضى ذى الفخرين. و كان من بيت الرياسة و النقابة و الفضل.

قلت: و كان ولى الوزارة؛ فنقم عليه الخليفة المقتفى بالله و صادره بما فعله مع الخليفة الراشد من كتابة المحضـر المقدّم ذكره فى سـنة ثلاثين و خمسمائة. و كان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۷۴

الزينبىّ هذا إماما فاضلا فقيها بارعا فى مذهب الإمام أبى حنيفة، و كان جوادا ممدّحا. مدحه الحيص بيص بقصيدته التى أوّلها:

[الكامل]

ما أنصفت بغداد نائبها الذى كبرت نيابته على بغداد

و فيها توفّى الشـيخ الإمام العالم العلّامة فريد عصـره و وحيد دهره و إمام وقته أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الزمخشرى الخوارزمىّ النحوىّ اللغوىّ الحنفىّ المتكلم المفسّـِر صاحب «الكشّاف» فى التفسير و «المفصّل» فى النحو. و كان يقال له جار اللّه؛ لأنّه جاور بمكّة المشرّفة زمانا، و قرأ بها على ابن وهّاس الذى يقول فيه:

[الطويل]

و لو لا ابن وهّاس و سابق فضله رعيت هشيما و استقيت مصرّدا

و زمخشر: قريـة من قرى خوارزم، و مولده بها فى رجب سـنة سـبع و ستين و أربعمائة. و قدم بغداد و سـمع الحديث و تفقّه و برع فى فنون؛ و صار إمام عصره فى عدّة علوم. و من شعره يرثى شيخه أبا مضر منصورا:

[الطويل]

و قائلة ما هذه الدّرر الّتى تساقط من عينيك سمطين سمطين

فقلت لها الدّرّ الذى كان قد حشا أبو مضر أذنى تساقط من عينى

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع سواء. مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعا و تسع أصابع.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ٢٧۵

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۳۹]

السنة الخامسة عشرة من ولاية الحافظ على مصر و هى سنة تسع و ثلاثين و خمسمائة.

فيهـا افتتـح زنكى بن آق سـنقر الرّهاء من يـد الفرنـج مع أمور و حروب، و ردم سورها، و كتب إلى النصارى أمانا و أحسن للرعيّـة، و حفر بها أساسا عميقا. و أول صـخرة ظهرت فى هـذا الأساس و جدوا مكتوبا عليها سـطرين بالسـريانيّة؛ فجاء شـيخ يهودىّ فحلّهما إلى العربيّة، و هما:

[السريع]

أصبحت خلوا من بنى الأصفر أختال بالأعلام و المنبر

فظهر الرّحب على أنّنى لو لا ابن سنقر لم أظهر

و فيها توفّى هبة اللّه بن الحسن الشيخ أبو القاسم المعروف بالبديع الأسطرلابىّ.

كـان فريـد وقته فى عمـل الأسـطرلابات و آلات الفلـك و الطّلّسـمات، و كان مع ذلك أديبا فاضـلا. و من شـعره و قـد أرسل لبعض الرؤساء هديّة:

[الكامل]

أهدى لمجلسك الشريف و إنّما أهدى له ما حزت من نعمائه

كالبحر يمطره السحاب و ما له منّ عليه لأنّه من مائه

و فيها توفّى صاحب المغرب و أمير المسـلمين تاشـفين بن علىّ بن يوسف بن تاشـفين المصمودىّ المغربىّ. و تمكن بعده عبد المؤمن بن علىّ بعد أمور وقعت له مع تاشفين هذا و بعده.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ٢٧۶

و فيهـا توفّى الشـيخ الإمام أبو الحسن شـريح بن محمـد بن شـريح الرّعبنىّ المالكىّ الفقيه خطيب إشبيليـة. كان إماما عالما خطيبا أديبا شاعرا.

و فيها توفّى المسـند المعمّر أبو الحسن علىّ بن هبة اللّه بن عبد السلام الكاتب الفقيه مسند الأندلس، سمع الكثير و رحل البلاد و تفرّد بأشياء عوال.

الـذين ذكر الـذهبىّ وفـاتهم فى هـذه السـنة، قال: و فيها توفى أبو البـدر إبراهيم بن محمـد بن منصور الكرخىّ فى شـهر ربيع الأوّل. و تاشـفين بن علىّ بن يوسف بن تاشفين المصمودىّ أمير المسلمين، و تمكّن بعده عبد المؤمن. و أبو منصور سعيد بن محمد ابن الرزاز شيخ الشافعيّة ببغداد. و أبو الحسن شـريح بن محمد بن شريح الرّعبنىّ خطيب إشبيلية. و مسند الأندلس أبو الحسن علىّ بن هبة اللّه بن

عبد السلام الكاتب. و أبو البركات عمر بن إبراهيم بن محمد الزّيدىّ العلوىّ النحوىّ الكوفىّ.

و فاطمة بنت محمد بن أبى سعد محمد البغدادىّ بأصبهان، و لها أربع و تسعون سنة.

و أبو المعالى محمد بن إسماعيل الفارسىّ النيسابورىّ. و أبو منصور [محمد بن] عبد الملك [بن الحسن بن إبراهيم] بن خيرون المقرئ فى رجب. و أبو المكارم المبارك ابن علىّ.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ستّ أذرع و أربع عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا و أربع أصابع.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۷۷

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۴۰]

السنة السادسة عشرة من ولاية الحافظ عبد المجيد على مصر و هى سنة أربعين و خمسمائة.

فيها توفّى بهروز الخادم أبو الحسن مجاهد الدين خادم السلطان مسعود السّلجوقىّ. كان خادما أبيض، و يلقّب مجاهد الدين. ولى إمرة العراق نيّفا و ثلاثين سنة، و له به مآثر. منها أخذ كنيسة و بناها رباطا على شاطىء دجلة و أوقف عليها أوقافا، و بها دفن. و بهروز (بكسر الباء الموحدة ثانية الحروف و هاء ساكنة وراء مهملة مضمومة و واو و زاى ساكنة) و معناه باللغة العجميّة يوم جيّد على التقديم و التأخير على عادة اللغة العجمية و التركية.

و فيها توفّى موهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر الجواليقىّ الشيخ أبو منصور إمام المقتفى العبّاسىّ. سمع الحديث ببغداد و قرأ الأدب فأكثر، و انتهى إليه علم اللغة و درّس النحو و العربيّة بالنظاميّة بعد أبى زكريا التّبريزى. فلمّا ولى المقتفى الخلافة اختصه و جعله إمامه، فكان غزير العلم طويل الصمت متواضعا مليح الخطّ. مات فى المحرّم.

و فيها توفّى الشيخ أبو بكر بن تقىّ (بتاء مثناة من فوق ثالثة الحروف) الأندلسى القرطبى الفقيه الشاعر، كان فاضلا شاعرا فصيحا. و من شعره:

[الطويل]

و مشمولة فى الكأس تحسب أنّها سماء عقيق زيّنت بكواكب

بنت كعبة اللّذّات فى حرم الصّبا فحجّ إليها اللّهو من كلّ جانب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۷۸

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى الحافظ أبو سعيد أحمد بن محمد بن أبى سعد البغدادىّ ثم الأصبهانىّ فى شهر ربيع الأوّل. و أبو بكر عبد الرحمن بن عبد اللّه بن عبد الرحمن النيسابورىّ فى جمادى الأولى. و أبو منصور موهوب بن أحمد بن محمد الجواليقىّ النحوىّ اللغوىّ إمام المقتفى فى المحرّم.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و أربع عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا سواء.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۴۱]

السنة السابعة عشرة من ولاية الحافظ عبد المجيد على مصر و هى سنة إحدى و أربعين و خمسمائة.

فيها بنى حسام الدين بن أرتق جسر القرمان بأرض ميّافارقين.

و فيها توفّى الأمير جاولى صاحب أذربيجان. كان شجاعا شهما يخافه السلطان مسعود و غيره. و سبب موته أنه افتصد و ركب للصيد، فعنّ له أرنب فرماه بسهم فانفجر فصاده فضعف، و لم يقدر الطبيب على حبس الدم فمات.

و فيها توفّى الملك أبو المظفّر عماد الدين زنكى ابن الأتابك آق سنقر. كان أبوه يكنى بقسيم الدولة. و كان (أعنى اق سنقر) من خواصّ السلطان ملكشاه السلجوقىّ

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۷۹

و ولّاه حلب و الحمص؟؟؟ و غيرهما. و لمّا مات ملك بعده ابنه زنكى جميع هذه البلاد، و زاد مملكته حتّى ملك الشام من محمد بن بورى بن طغتكين بعد حروب. ثم استولى زنكى هذا على الشام جميعه، و أقام على ذلك سنين، إلى أن توجّه إلى قلعة جعبر، فقاتل صاحبها شهاب الدين سالم بن مالك العقيلىّ و نصب عليها المجانيق حتى لم يبق إلّا أخذها. فلمّا كان ليلة الثلاثاء سابع عشر شهر ربيع الآخر اتّفق ثلاثة من خدّامه على قتله فذبحوه على فراشه و هربوا إلى القلعة و عرّفوا من بها. و كان مع زنكى أولاده الثلاثة: سيف الدين غازى، و نور الدين محمود المعروف بالشهيد، و قطب الدين مودود. فملك بعده ابنه نور الدين محمود الشهيد، و سار غازى إلى الموصل.

قلت: و بنو زنكى هؤلاء هم أوسط الدول؛ فإن أوّل من ملك مع الخلفاء و تلقّب بالسلطان و الألقاب العظيمة بنو بويه، ثم أنشأ بنو بويه بنى سلجوق.

و أنشأ بنو سلجوق بنى أرتق و آق سنقر جدّ بنى زنكى هؤلاء. ثم أنشأ بنو زنكى (أعنى الملك العادل نور الدين محمود الشهيد) بنى أيّوب سلاطين مصر و غيرها.

ثم أنشأ بنو أيوب المماليك و دولة الترك. و أوّل ملوكهم الملك المعزّ أيبك التركمانىّ.

فانظر إلى أمر الدنيا و كيف كلّ طائفة نعمة طائفة و نشؤها إلى يومنا هذا.

و فيها توفّى الأمير عبّاس شحنة مدينة الرّىّ. كان أميرا شجاعا مقداما جوادا يباشر الحروب بنفسه.

و فيها توفّى عبد الرحيم بن المحسّن بن عبد الباقى الشيخ أبو محمد التّنوخىّ. كان شاعرا فصيحا، مات بميّافارقين.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۸۰

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أبو البركات إسماعيل ابن أبى سعد أحمد بن محمد بن دوست الصوفىّ شيخ الشيوخ فى جمادى الآخرة.

و أبو جعفر [حسن] بن علىّ البخارىّ الصوفىّ بهراة. و عماد الدين زنكى الأتابك ابن قسيم الدولة آق سنقر، قتله غلام له و هو محاصر قلعة جعبر. و أبو الفتح محمد ابن محمد بن عبد الرحمن بن علىّ النيسابورىّ الخشّاب، آخر من حدّث بأصبهان عن القشيرى. و أبو عبد اللّه محمد بن محمد [بن أحمد] بن السّلال الورّاق. و أبو بكر وجيه بن طاهر الشّحّامى العدل فى جمادى الاخرة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ست أذرع و إصبعان. مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعا و عشرون إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۴۲]

السنة الثامنة عشرة من ولاية الحافظ على مصر و هى سنة اثنتين و أربعين و خمسمائة.

فيها افتتح نور الدين محمود المعروف بالشهيد صاحب الشام حصن أرتاح و غيرها من يد الفرنج. قلت: و هذا أوّل أمر الفتوحات الزّنكيّة و الأيّوبيّة الآتى ذكرها إن شاء اللّه تعالى.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۸۱

و فیها استولی عبد المؤمن بن علیّ علی مدینة مرّاکش من المغرب بالسیف و قتل من بها من المقاتلة، و لم یتعرّض للرعیّة، و أحضر الیهود و النصاری و قال:

إنّ الإمام المهدیّ أمرنی ألّا أقرّ الناس إلّا علی ملّة واحدة و هی الإسلام، و أنتم تزعمون أن بعد الخمسمائة عام یظهر من یعضد شریعتکم، و قد انقضت المدّة؛ و أنا مخیّرکم بین ثلاث: إمّا أن تسلموا، و إمّا أن تلحقوا بدار الحرب، و إمّا أن أضرب رقابکم. فأسلم منهم طائفة، و لحق بدار الحرب أخری. و أخرب عبد المؤمن الکنائس و البیع و ردّها مساجد، و أبطل الجزیة، و فعل ذلک فی جمیع ولایاته.

و فیها قتل الوزیر رضوان بن و لخشی أمیر الجیوش وزیر الحافظ صاحب الترجمة و مدبّر ممالکه بدیار مصر و غیرها. کان استوزره الحافظ صاحب مصر المذکور.

فلمّا ولی الوزر استولی علی مصر، و حجر علی الخلیفة الحافظ، و سلک فی ذلک طریق الأفضل بن أمیر الجیوش بدر الجمالی. و زاد أمره، حتی دسّ علیه الحافظ السودان فوثبوا علیه و قتلوه.

و فیها توفّی الأستاذ هبة اللّه بن علی بن محمد بن حمزة أبو السعادات العلویّ النحویّ، و یعرف بابن الشّجریّ. انتهی إلیه فی زمانه علم النحو و العربیّة ببغداد، و سمع الحدیث و طال عمره و أقرأ و حدّث.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم خمس أذرع و ثلاث أصابع.

مبلغ الزیادة ثمانی عشرة ذراعا و ثلاث عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۴۳]

السنة التاسعة عشرة من ولایة الحافظ عبد المجید علی مصر و هی سنة ثلاث و أربعین و خمسمائة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۸۲

فیها أزال السلطان نور الدین محمود بن زنکی صاحب دمشق من حلب الأذان ب «حیّ علی خیر العمل» و سبّ الصحابة بها، و قال: من عاد إلیه قتلته؛ فلم یعد أحد. رحمه اللّه تعالی.

و فیها ظهر بمصر رجل من ولد نزار ابن الخلیفة المستنصر العبیدیّ یطلب الخلافة، فاجتمع علیه خلق، حتّی جهّز إلیه الخلیفة الحافظ صاحب الترجمة العساکر فالتقوا بالصعید، و قتل من الفریقین جماعة. ثم انهزم النّزاریّ الذی خرج و قتل ولده.

و فیها أغار نور الدین محمود صاحب دمشق المعروف بالشهید المقدّم ذکره علی بلاد الفرنج و فتح عدّة حصون- تقبّل اللّه منه- و أسر و قتل و غنم.

و فیها حجّ بالناس من العراق الأمیر قایماز.

و فیها توفّی قاضی القضاة أبو القاسم علیّ بن الحسین بن محمد بن علیّ الزینبی البغدادیّ الحنفیّ. ولد فی نصف شهر ربیع الأول سنة سبع و أربعین و أربعمائة، و سمع الحدیث و تفقّه و برع فی مذهبه. ولّاه الخلیفة المسترشد قضاء القضاة، و طالت مدّته و حسنت سیرته، و ناب فی الوزارة فی بعض الأحیان.

و فیها توفی الفقیه أبو الحجّاج یوسف بن درناس الفندلاویّ شیخ المالکیّة بدمشق، استشهد بظاهر دمشق فی حرب الفرنج و محاصرتهم لدمشق. و کان إماما عالما دیّنا بارعا فی فنون.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۸۳

و فيها توفّى الأستاذ أبو الدرّ ياقوت الرومىّ الكاتب مولى أبى المعالى أحمد بن علىّ بن البخارىّ التاجر بدمشق. قلت: و تسمّى بهذا الاسم جماعة كثيرة لهم ذكر، فمنهم من يذكر هنا و منهم من لا يذكر على حسب الاتفاق، و هم ياقوت هذا المذكور. و ياقوت بن عبد اللّه الصّيقلبى أبو الحسن المعروف بالجمالى مولى الخليفة المسترشد بالله الفضل العبّاسىّ، و وفاته سنة ثلاث و ستين و خمسمائة. و ياقوت بن عبد اللّه أبو سعيد مولى أبى عبد اللّه عيسى بن هبة اللّه بن النقّاش، و وفاته سنة أربع و سبعين و خمسمائة. و ياقوت بن عبد اللّه الموصلىّ الكاتب أمين الدين المعروف بالملكىّ نسبته إلى أستاذه السلطان ملكشاه السّلجوقىّ، انتشر خطّه فى الآفاق، توفّى بالموصل سنة ثمانى عشرة و ستمائة. و ياقوت بن عبد اللّه الحموىّ الرومىّ شهاب الدين أبو الدرّ. كان من خدّام بعض التجار ببغداد يعرف بعسكر الحموىّ، و هو صاحب التصانيف؛ توفّى سنة ست و عشرين و ستمائة. و ياقوت بن عبد اللّه مهذّب الدين الرومىّ مولى أبى منصور الجيلىّ التاجر، كان شاعرا ماهرا، و هو صاحب القصيدة التى أوّلها:

[البسيط]

إن غاض دمعك و الأحباب قد بانوا فكلّ ما تدّعى زور و بهتان

توفّى سنة اثنتين و عشرين و ستمائة. و ياقوت بن عبد اللّه المستعصمىّ الرومىّ جمال الدين أبو المجد صاحب الخطّ البديع، مولى الخليفة المستعصم بالله العباسىّ، توفّى سنة ثمان و تسعين و ستمائة. و ياقوت الشّيخىّ افتخار الدين الحبشى مقدّم المماليك فى دولة الأشرف شعبان بن حسين، توفّى سنة سبع و سبعين و سبعمائة.

و ياقوت بن عبد اللّه الحبشىّ المعزّىّ المسعودىّ المحدّث الفاضل، توفّى سنة أربع و خمسين و ستمائة. و ياقوت بن عبد اللّه الأرغون شاوى الحبشىّ مقدّم

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۸۴

المماليک للأشرف برسباى، توفّى سنة ثلاث و ثلاثين و ثمانمائة. قلت: و هؤلاء الأعيان. و أمّا غير الأعيان فكثير. و قد استطردنا ذكرهم هنا جملة لئلّا يلتبس أحد منهم على من ينظر فى ترجمة أحدهم فى محلّه.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم سبع أذرع و ثمانى أصابع. مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا و ثلاث عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۴۴]

اشارة

السنة العشرون من ولاية الحافظ عبد المجيد على مصر- مات فى جمادى الآخرة، حسب ما تقدّم ذكره- و هى سنة أربع و أربعين و خمسمائة.

فيها واقع السلطان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى بن آق سنقر المعروف بالشهيد صاحب دمشق الفرنج و كسرهم الكسرة المشهورة، و قتل منهم ألفا و خمسمائة، و أسر مثلهم؛ و عاد إلى حلب بالغنائم العظيمة و الأسارى، و بعث بعضها إلى أخيه مودود. و فيها يقول ابن القيسرانىّ الشاعر:

[السريع]

و كم له من وقعة يومها عند ملوك الشّرك مشهود

حتّى إذا عادوا إلى مثلها قالت لهم هيبته عودوا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۸۵

مناقب لم تك موجودة إلا و نور الدين موجود

و كيف لانثنى على عيشنا ال محمود و السلطان محمود

و فيها افتتح نور الدين محمود أيضا حصن فامية؛ و كان على حماة و حمص منه ضرر عظيم.

و فيها توفّى القاضى الإمام الأديب العلّامة ناصح الدين أبو بكر أحمد بن محمد ابن الحسين الأرّجانىّ قاضى تستر. قال ابن خلّكان: «و الأرجانىّ: بفتح الهمزة و تشديد الراء و الفتح و الجيم و بعد الألف نون، هذه نسبة إلى أرّجان، و هى من كور الأهواز من بلاد خوزستان». انتهى. و قال صاحب المرآة: «كان إمام عصره فقيها أديبا شاعرا صاحب النظم الرائق. و ديوان شعره مشهور بأيدى الناس، سمع الحديث و تفقّه. و كان بليغا مفوّها. و هو القائل:

[الكامل]

أنا أشعر الفقهاء غير مدافع فى العصر و انا أفقه الشعراء

قلت: و من شعره- و البيت الثانى يقرأ معكوسا: -

[الوافر]

أحبّ المرء ظاهره جميل لصاحبه و باطنه سليم

مودّته تدوم لكلّ هول و هل كلّ مودته تدوم

و فيها توفّى الحافظ الناقد الحجة عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن موسى ابن عياض بن محمد بن موسى بن عياض اليحصبىّ السّبتىّ أبو الفضل المعروف بالقاضى عياض أحد عظماء المالكيّة. ولد بسبتة فى منتصف شعبان سنة ست و تسعين و أربعمائة. و أصله من الأندلس ثم انتقل أخير أجداده إلى مدينة قاس، ثم من فاس إلى سبتة. كان إماما حافظا محدّثا فقيها متبحّرا، صنّف التصانيف المفيدة، و انتشر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۸۶

اسمه فى الافاق و بعد صيته. و من مصنّفاته كتاب «الشفا فى شرف المصطفى».

و كتاب «ترتيب المدارك و تقريب المسالك فى ذكر فقهاء مذهب مالك» و كتاب «العقيدة» و كتاب «شرح حديث أمّ زرع» و كتاب «[جامع] التاريخ» و هو كتاب جليل، و شيء كثير غير ذلك. و مات بمرّاكش فى جمادى الآخرة. و من شعره رحمه اللّه:

[السريع]

انظر إلى الزرع و خاماته تحكى و قد هبّت عليها الرياح

كتيبة خضراء مهزومة شقائق النّعمان فيها جراح

و فيها توفّى الملك غازى بن زنكى بن آق سنقر التركىّ، أخو السلطان نور الدين محمود الشهيد الأتابك، سيف الدين صاحب الموصل، و هو أكبر أولاد زنكى.

مات فى سلخ جمادى الآخرة و له أربع و خمسون سنة، و أقام فى الملك ثلاث سنين و شهورا. و كان شجاعا جوادا. و هو أوّل من حمل السّنجق على رأسه فى الأتابكيّة، و لم يحمله أحد قبله لأجل ملوك السلجوقيّة.

و فيها توفّى الأمير معين الدين أنر مملوك الأتابك طغتكين. كان مدبّر دولة أولاد أستاذه الأتابك طغتكين، و كان جليل القدر عالى الهمّة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۸۷

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى القاضى أبو بكر أحمد بن محمد بن الحسين الأرّجانى الشاعر بتستر. و معين الدين أنر الطّغتكىّ مدبّر دولة أولاد أستاذه. و الحافظ لدين اللّه عبد المجيد بن محمد [بن] المستنصر العبيدىّ.

و القاضی عیاض بن موسی بن عیاض أبو الفضل الیحصبیّ السّبتیّ بمرّاکش فی جمادی الآخرة. و صاحب الموصل سیف الدین غازی ابن الأتابک.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم ستّ أذرع و أربع و عشرون إصبعا.

مبلغ الزیادة سبع عشرة ذراعا و ثمانی عشرة إصبعا.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۸۸

ذکر ولایة الظافر علی مصر

الظافر بالله أبو منصور إسماعیل بن الحافظ لدین اللّه أبی المیمون عبد المجید ابن الأمیر محمد ابن الخلیفة المستنصر معدّ بن الظاهر علیّ بن الحاکم منصور بن العزیز بالله نزار بن المعزّ لدین اللّه معدّ، التاسع من خلفاء مصر من بنی عبید، و الثانی عشر منهم ممّن ولی من أجداده خلفاء المغرب.

بویع بالخلافة بعد موت أبیه الحافظ فی جمادی الآخرة سنة أربع و أربعین و خمسمائة، و هو ابن سبع عشرة سنة و أشهر؛ لأنّ مولده فی یوم الأحد منتصف شهر ربیع الآخر سنة سبع و عشرین و خمسمائة. و أمّه أم ولد تدعی ستّ الوفاء، و قیل: ست المنی.

قال العلّامة شمس الدین أبو المظفّر یوسف بن قزأوغلی سبط ابن الجوزیّ فی تاریخه مرآة الزمان-، بعد أن سمّاه یوسف، و الصواب ما قلناه أنّه إسماعیل- قال: «و کانت أیّامه مضطربة لحداثة سنّه و اشتغاله باللّهو، و کان عبّاس الصّنهاجیّ لمّا قتل ابن سلّار و زر له و استولی علیه. و کان له ولد اسمه نصر، فأطمع نفسه فی الأمر و أراد قتل أبیه، و دسّ إلیه سمّا لیقتله. فعلم أبوه و احترز و أراد أن یقبض علیه فما قدر؛ و منعه مؤیّد الدولة أسامة بن منقذ و قبّح علیه ذلک، و قال:

إن فعلت هذا لم یبق لک أحد و یفرّ الناس عنک. فشرع أبوه یلاطفه (یعنی

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۸۹

الوزیر عباس یلاطف ابنه نصرا) و قال له: عوض ما تقتلنی اقتل الظافر. و کان نصر ینادم الظافر و یعاشره، و کان الظافر یثق به و ینزل فی اللیل إلی داره متخفّیا.

فنزل لیلة إلی داره و کانت بالسوفیّین داخل القاهرة و معه خادم له، فشربا و نام الظافر؛ فقام نصر فقتله و رمی به فی بئر. فلمّا أصبح عبّاس (یعنی الوزیر أبا نصر المذکور) جاء إلی باب القصر یطلب الظافر؛ فقال له خادم القصر: ابنک یعرف أین هو [و من] قتله. فقال عبّاس: ما لی فیه علم. و أحضر أخوی الظافر و ابن أخیه فقتلهم صبرا بین یدیه؛ و أحضر أعیان الدولة و قال: إنّ الظافر رکب البارحة فی مرکب فانقلبت به فغرق. ثمّ أخرج عیسی ولد الظافر. فتفرّقوا عن عبّاس و ابنه، و ثار الجند و العبید و أهل القاهرة و طلبوا بثأر الظافر من عبّاس و ابنه نصر.

فأخذ عبّاس و ابنه نصر ما قدرا علیه من المال و الجواهر و هربا إلی الشام. فبلغ الفرنج فخرجوا إلیهما، و قتلوا عبّاسا و أسروا ابنه نصرا؛ و قتل نصر فی السنة الآتیة».

انتهی.

و قال القاضی شمس الدّین أحمد بن خلّکان: «بویع یوم مات أبوه بوصیة أبیه، و کان أصغر أولاد أبیه سنّا. کان کثیر اللهو و اللّعب، و التفرّد بالجواری، و استماع المغانی. و کان یأنس بنصر بن عبّاس. فاستدعاه إلی دار أبیه لیلا سرّا

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۹۰

بحیث لا یعلم به أحد، و تلک الدار فی المدرسة الحنفیّة السیوفیّة الآن، فقتله بها و أخفی أمره. قال: و قصّته مشهورة، و ذلک فی نصف المحرّم سنة تسع و أربعین و خمسمائة. و کان من أحسن الناس صورة. و الجامع الظّافریّ الذی بالقاهرة داخل بآب زویلة

منسوب إليه، و هو الذى عمّره و أوقف عليه شيئا كثيرا».

انتهى كلام ابن خلّكان. قلت: و الجامع الظافرىّ هو المعروف الآن بجامع الفاكهانيّين على الشارع الأعظم بالقرب من حارة الدّيلم.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۹۱

و قال ابن القلانسىّ: «إنّ الظافر إنّما قتله أخواه يوسف و جبريل و ابن عمهما صالح بن الحسن. قلت: و هذا القول يؤيّده قول ما نقله أبو المظفر من أنّ عبّاسا قتل أخوى الظافر و ابن عمه صبرا (أعنى لمّا بلغه قتلهم للظافر قتلهم به)؛ غير أنّ جمهور المؤرخين اتّفقوا على أنّ قاتل الظافر نصر بن عبّاس المقدّم ذكره.

قال: و كان الظافر قد ركن إليهم (يعنى أخويه و ابن عمه) و أنس بهم فى وقت مسرّاته؛ فاتّفقوا عليه و اغتالوه، و ذلك فى يوم الخميس سلخ صفر. و حضر العادل عبّاس الوزير و ابنه ناصر الدين نصر و جماعة [من] الأمراء و المقدّمين [للسلام] على الرسم. فقيل لهم: إن أمير المؤمنين ملتاث الجسم. فطلبوا الدخول إليه فمنعوا؛ فألحّوا فى الدخول بسبب العيادة فلم يمكّنوا. فهجموا و دخلوا القصر و انكشف أمره، فقتلوا الثلاثة و أقاموا ولده عيسى و هو ابن ثلاث سنين، و لقّبوه بالفائز بنصر اللّه و بايعوه؛ و عبّاس الوزير إليه تدبير الأمور. ثم ورد الخبر بأن طلائع بن رزّيك فارس المسلمين قد امتعض من ذلك و جمع و حشد و قصد القاهرة، و كان من أكابر الأمراء. و علم عبّاس أنّه لا طاقة له به، فجمع أمراءه و أسبابه و أهله و خرج من القاهرة. فلمّا قرب من عسقلان و غزّة خرج عليه جماعة من خيّالة الفرنج، فاغترّ بكثرة من معه؛ فلمّا حمل عليهم قتل أكثر أصحابه و انهزموا، فانهزم هو و ابنه الصغير و أسر ابنه الكبير الذى قتل ابن سلّار مع ولده و حرمه و ماله و كراعه، و صار الجميع للفرنج، و من هرب مات من الجوع و العطش.

و وصل طلائع بن رزّيك إلى القاهرة، فوضع السيف فيمن بقى من أصحاب عبّاس، و جلس فى منصب الوزارة». انتهى كلام ابن القلانسىّ. و ما نقله غالبه مخالف لغيره من المؤرّخين. و اللّه أعلم.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۹۲

و قيل غير ذلك: إنّ خدّام القصر كتبوا إلى طلائع بن رزّيك و هو والى قوص و أسوان و الصعيد يخبرونه بقتل الظافر و يستنجدونه على عبّاس و ابنه نصر. و كتب إليه فيمن كتب القاضى الجليس أبو المعالى عبد العزيز بن الحبّاب قصيدته الداليّة التى أوّلها:

[الطويل]

دمعى عن نظم القريض غوادى و شفّ فؤادى شجوه المتمادى

و أرّق عينى و العيون هواجع هموم أقضّت مضجعى و وسادى

بمصرع أبناء الوصىّ و عترة الن بىّ و آل الذاريات و صاد

فأين بنو رزّيك عنهم و نصرهم و مالهم من منعة و ذياد

أولئك أنصار الهدى و بنو الردّى و سمّ العدا من حاضرين و باد

لقد هدّ ركن الدّين ليلة قتله بخير دليل للنّجاة و هاد

تدارك من الإيمان قبل دثوره حشاشة نفس آذنت بنفاد

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۹۳

و قد كاد أن يطفى تألّق نوره على الحقّ عاد من بقية عاد

فلو عاينت عيناك بالقصر يومهم و مصرعهم لم تكتحل برقاد

و هى طويلة كلّها على هذا المنوال فى معنى النجدة. و قد نقلتها من خطّ عقد لا يقرأ إلّا بجهد. فلمّا بلغ ذلك طلائع بن رزّيك جمع و دخل القاهرة فى تاسع شهر ربيع الأوّل، و جلس فى دست الوزارة، و تلقّب بالملك الصالح؛ و هو صاحب الجامع خارج بابى زويلة، و أخرج جسد الظافر من البئر التى كان رمى فيها بعد قتله و جعله فى تابوت و مشى بين يديه حافيا مكشوف الرأس، و فعل الناس

كذلک، و كثر الضجيج و البكاء و العويل فی ذلک اليوم.

و قال بعضهم و أوضح الأمر، و قوله: إنّ الظافر كان قد أحبّ نصر بن عبّاس حبّا شديدا، و بقی لا يفارقه ليلا و لا نهارا. فقدم مؤيّد الدولة أسامة بن منقذ من الشام، فقال لعبّاس الوزير يوما: كيف تصبر على ما أسمع من قبيح القول! قال عبّاس: و ما يقولون؟ قال يقولون: إن الظافر بنی على ابنک نصر. فغضب عبّاس من ذلک، و أمر ابنه نصرا، فدعا الظافر لبيته فوثب عليه و قتله. و ساق نحوا مما سقناه من قول أبی المظفّر و ابن خلّكان. و انتهى كلامه.

و قال صاحب كتاب المقلتين فی أخبار الدولتين: «و لمّا تمّ أمر الظافر ركب بزیّ الخلافة و عاد إلى القصر؛ و لم يقدّم شيئا على انتقامه من ابنی الأنصاری لما كان يبلغه عنهما فی أيام والده الحافظ.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۹۴

و خبر ابنی الأنصاریّ أنّهما كانا من جملة الكتّاب، و توصّلا إلى الحافظ، فاستخدمهما فی ديوان الجيش قصدا لتمييزهما؛ و هما غير قانعين بذلک، لما يعلمانه من إقبال الحافظ عليهما؛ فوثبا على السادة من رؤساء الدولة مثل الأجلّ الموفّق أبی الحجّاج يوسف كاتب دست الخليفة و مشورته، و من يليه مثل القاضی المرتضى المحنّک، و الخطيری البوّاب؛ فتجرّأا على المذكورين و غيرهم من الأمراء مع قلّة دربة.

فتتبّع القوم عوراتهم، و الخليفة الحافظ لا يزداد فيهما إلّا رغبة. و وقع لهما أمور قبيحة، و القوم يبلّغون الخليفة خبرهم شيئا بعد شیء، و هو لا يلتفت إلى قولهم.

و لا زال ابنا الأنصاریّ حتى صار الأكبر شريک الأجلّ الموفّق فی ديوان المكاتبات، و لكن خصّص الموفّق بالإنشاء جميعه. و لمّا تولّى ابن الأنصاریّ نصف الديوان نعت بالقاضی الأجلّ سناء الملک، بعد أن وصّاه الخليفة الحافظ أن يقنع مع الموفق بالرتبة و يدع المباشرة، و يخدم الموفّق. و صبر الأجلّ الموفّق على ذلک مراعاة لخاطر الخليفة. و أمّا ابن الأنصاری الصغير فإنّه تجنّد فتأمّر فی يوم، و خلع عليه بالطّوق و ما يلزم الأمريّة، و صار أمير طوائف الأجناد. فقال الناس: هو الأمير الطاری ابن الأنصاری!. و بينما هم فی ذلک مرض الخليفة الحافظ و مات، و آلت الخلافة لولده الظافر هذا. فنرجع لما كنّا عليه من أمر الظافر مع ولدی الأنصاریّ المذكورين. فركب الخليفة الظافر بعد العشاء الآخرة فی الشمع بالقصر، و وقف على باب الملک بالإيوان المجاور للشباک، و أحضر ابنی الأنصاریّ و استدعى متولّی؟؟؟

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۹۵

السّتر، و هو صاحب العذاب، و أحضرت آلات العقوبة، فضرب الأكبر بحضوره بالسّياط إلى أن قارب الهلاک، و ثنّى بأخيه كذلک؛ و امر بإخراجهما و قطع أيديهما و سلّ ألسنتهما من قفيّهما، و صلبا على بابی زويلة الأوّل و الثانی زمانا.

و أقام الظافر ابن مصال المغربیّ وزيرا مدة شهرين. فخرج عليه ابن سلّار، و كان واليا على البحيرة و الإسكندرية، و لم يرض بوزارة ابن مصال المذكور، و تابعه عباس و كان واليا على الغربية، و هو ولد زوجته. فلمّا بلغ الوزير ابن مصال ذلک، خرج إلى الصعيد لكونه لم يطق لقاء ابن سلّار و من معه على غير موافقة من الخليفة الظافر. و دخل ابن سلّار إلى القاهرة وزيرا؛ فما طابت به نفس الخليفة الظافر بالله، فباشر الأمور مباشرة بجدّ. و أقام الظافر خليفة إلى أوائل سنة تسع و أربعين و خمسمائة، و لم يصف بين الخليفة و الوزير عيش قطّ، و جرت بينهما أمور؛ و ثبت عند ابن سلّار كراهة الخليفة فيه، فاحترز على نفسه منه، و أقام كذلک أربع سنين و بعض الخامسة، حتّى قتله نصر بن عبّاس اغتيالا فی داره. و ذكر أنّ ذلک بموافقة الخليفة الظافر على ذلک؛ لأنّ هذا نصرا كان قد اختلط بالخليفة اختلاطا دائما أدّى إلى حسد أكثر أهل الدولة له على ذلک. و خشی عبّاس على نفسه من ولده نصر المذكور لما تمّ منه فی حقّ ابن سلّار؛ فرمى بينه و بين الخليفة بموهمات قبيحة، حتّى قتل نصر الخليفة أيضا. و دفنه فی داره التی بالسيوفيّين، و قتل أستاذين معه.

و لمّا عدم الخليفة استخلف ولده بعده، و هو أبو القاسم عيسى، و نعت بالفائز بنصر اللّه، و كان عمره يومئذ خمس سنين. أخرجه الوزير عبّاس من عند جدّته أمّ

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۹۶

أبيه الخليفة يوم قتل عمّيه يوسف و جبريل ابنى الحافظ- و هما مظلومان- بتهمة أنّهما قتلا أخاهما الخليفة الظافر حسدا على الرتبة لينالاها بعده. و ليس الأمر كذلك، بل عبّاس الوزير و ولده نصر قتلاه. فرآهما الخليفة هذا الصغير مقتولين، فتفزّع و اضطرب و غشى عليه، و لازمه ذلك و كثر به.

قلت: و قول هذا عندى فى قتل الخليفة الظافر أثبت الأقاويل. و بكلامه أيضا يعرف جميع ما ذكرناه فى أمره من أقوال المؤرّخين؛ فانّه ساق أمره على جليّته من غير إدخال شيء معه.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة؛ ج۵؛ ص۲۹۶

أمّا تفصيل أمر عبّاس الوزير و ابنه نصر فإنّ عبّاسا كان رجلا من بنى تميم ملوك الغرب، و دخل عبّاس القاهرة فاجتمع بالخليفة، فأكرمه و أنعم عليه بأشياء ثم خلع عليه بالوزارة على العادة و لقبه؛ فباشر عبّاس الوزارة و خدم الأمور و أكرم الأمراء و أحسن إلى الأجناد لينسيهم العادل ابن سلّار. و استمرّ ابنه نصر على مخالطة الخليفة الظافر؛ حتّى اشتغل الظافر عن كلّ أحد بآبن عبّاس المذكور، و أبوه عبّاس يكره خلطته بالخليفة. و انتهى الخليفة معه إلى أن يخرج من قصره لزيارة ابن عبّاس بداره التى بالسيوفيين، بحيث لا يعلم عبّاس بذلك. فلمّا علم استوحش من الخليفة لجرأة ابنه، و توهّم أنّه ربما يحمله الخليفة على قتله. فقال عباس لابنه سرّا: قد أكثرت من ملازمة الخليفة حتى تحدّث الناس فى حقّك معه بما أزعج باطنى، و ربّما يتناقل الناس ذلك و يصل إلى أعدائنا منه ما لا يزول، ففهم ابنه نصر عنه و أخذته حدّة الشباب؛ فقال نصر لأبيه: أ يرضيك قتله؟ فقال أزل التهمة عنك كيف شئت. فخرج الخليفة ليلة إلى نصر بن عبّاس على عادته، فقتله بالجماعة الذين قتل بهم الوزير ابن سلّار، و قتل أيضا أستاذين كانا مع الخليفة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۹۷

الظافر، و طرحهم فى بئر هناك. و أصبح عبّاس فبايع عيسى بن الظافر، و لقّبه الفائز، على ما يأتى ذكره فى أوّل ترجمة الفائز.

و لما تمّ لعبّاس ما قصده من قتل الخليفة و تولية ولده الخلافة، كثرت الأقاويل و وقع الناس على الخبر الصحيح بالحدس، فاستوحش الناس قتل هؤلاء الأئمة.

و كان طلائع بن رزّيك واليا على الأشمونين و البهنسا؛ فتحرّك حاشدا على عبّاس، و لبس السواد و حمل شعور النساء حرم الخليفة على الرماح. فتخلخل أمر عبّاس و تفرّق الناس عنه، و صار الناس تسمبه المكروه فى الطّرقات من كلّ فجّ، حتى إنّه رمى من طاق ببعض الشوارع و هو جائز بهاون نحاس، و فى يوم آخر بقدر مملوءة ماء حارّا؛ فقال عبّاس: ما بقى بعد هذا شيء. فصار يدبّر كيف يخرج و أين يسلك. فأشار عليه بعض أصحابه بتحريق القاهرة قبل خروجه منها فلم يفعل، و قال: يكفى ما جرى. فلمّا قرب طلائع بن رزيك إلى القاهرة خرج عبّاس و ابنه و معهما كلّ ما يملكانه طالبا للشرق. فحال الفرنج بينه و بين طريقه، فقاتل حتّى قتل و أسر ولده نصر، و فاز الفرنج بما كان معه، و ذلك فى شهر ربيع الأوّل سنة تسع و أربعين و خمسمائة. و أمّا ولده نصر فنذكر أمره و قتله فى أوّل ترجمة الفائز بأوسع من هذا إن شاء اللّه تعالى.

و كانت قتلة الخليفة الظافر هذا فى سلخ المحرّم سنة تسع و أربعين و خمسمائة على قول من رحّج ذلك، و له اثنتان و عشرون سنة؛ و كانت خلافته أربع سنين و سبعة أشهر و سبعة أيام. و تولّى الخلافة بعده ولده الفائز عيسى.

و نذكر إن شاء اللّه أمر قتله أيضا فى ترجمة الفائز بأوسع من هذا هناك.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۹۸

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۴۵]

السنة الأولى من ولاية الظافر بأمر اللّه أبى منصور إسماعيل على مصر و هى سنة خمس و أربعين و خمسمائة.

فيها مطرت اليمن مطرا دما، و بقى أثره فى الأرض و فى ثياب الناس.

و فيها فى المحرّم نزل الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى صاحب الشام على دمشق و حاصرها؛ فراسله صاحبها مجير الدين، و خرج إليه هو و الرئيس ابن الصوفىّ و بذلا له الطاعة و أن يخطب له مجير الدين بعد الخليفة و السلطان، و أن ينقش اسمه على الدينار و الدرهم؛ فرضى نور الدين و خلع عليه و رحل عنه. و عاد و افتتح قلعة اعزاز.

و فيها اختلف وزير مصر ابن مصال المغربى و العادل ابن سلّار و جمعا العساكر و اقتتلا، فقتل الوزير ابن مصال، و استقلّ ابن سلّار بالوزر و الملک. و قد ذكرنا نحو ذلک فى ترجمة الظافر هذا.

و فيها توفّى أبو المفاخر الحسن بن ذى النون الواعظ [بن أبى القاسم]. كان فاضلا صالحا إماما فقيها حنفىّ المذهب، كان يعيد الدرس خمسين مرّة. و من شعره:

[البسيط]

مات الكرام و مرّوا و انقضوا و مضوا و مات بعدهم تلک الكرامات

و خلّفونى فى قوم ذوى سفه لو أبصروا طيف ضيف فى الكرى ماتوا

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۲۹۹

و فيها توفّى الأمير أبو الحسن علىّ بن دبيس صاحب الحلّة. كان شجاعا جوادا إلّا أنّه كان على عادة أهل الحلّة رافضيّا خبيثا.

و فيها توفّى قتيلا الوزير علىّ بن سلّار وزير الظافر صاحب الترجمة بديار مصر.

كان يلقّب بالملک العادل. و تولّى الوزر بعده عبّاس أبو نصر الذى قتل الظافر، حسب ما ذكرنا ذلک كلّه مفصّلا.

و فيها ملكت الفرنج عسقلان بالأمان بعد أن قتل من الفريقين خلق كثير، و كان قد تمادى القتال بينهم فى كلّ سنة إلى أن سلّموها. و أخذ الفرنج جميع ما كان فيها من الذخائر و غيرها.

و فيها توفّى أحمد بن منير بن أحمد الأديب أبو الحسين الطرابلسىّ الشاعر المشهور المعروف بالرّفاء. ولد سنة ثلاث و سبعين و أربعمائة بطرابلس. و كان بارعا فى اللغة و العربيّة و الأدب إلّا أنّه خبيث اللّسان كثير الفحش. حبسه الملک تاج الملوک بورى صاحب دمشق، و عزم على قطع لسانه؛ فاستوهبه منه الحاجب يوسف بن فيروز فوهبه له فنفاه. و كان هجا خلائق كثيرة، و كان بينه و بين ابن القيسرانى مهاجاة، و كان رافضيّا. و كانت وفاته بحلب فى جمادى الآخرة.

و من شعره:

[الطويل]

جنى و تجنّى و الفؤاد يطيعه فلا ذاق من يجنى عليه كما يجنى

فإن لم يكن عندى كعينى و مسمعى فلا نظرت عينى و لا سمعت أذنى

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۰۰

و فيها توفّى الأمير تمرتاش بن نجم الدين إيلغازى الأرتقىّ صاحب ماردين و ديار بكر.

كان شجاعا جوادا عادلا محبّا للعلماء و الفضلاء يبحث معهم فى فنون العلوم. و كان لا يرى القتل و لا الحبس. و مات فى ذى القعدة، و كانت مدّته نيّفا و ثلاثين سنة.

و قام بعده ابنه.

و فيها توفّى حيدره بن الصوفىّ الذى كان أقامه مجير الدين صاحب دمشق مقام أخيه، ثم وقع منه سعى بالفساد، فاستدعاه مجير الدين إلى القلعة على حين غفلة فضرب عنقه لسوء سيرته و قبح أفعاله.

الـذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفى أبو بكر محمد بن أبى حامد بن عبد العزيز بن على الدّينورىّ البيّع ببغداد. و المبارك بن أحمد ابن بركة الكندىّ الحبّار.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ست أذرع و أربع و عشرون إصبعا.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و ثلاث عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۴۶]

السنة الثانية من ولاية الظافر على مصر و هى سنة ست و أربعين و خمسمائة.

فيها دخل السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه السلجوقىّ إلى بغداد، و خرج الوزير ابن هبيرة و أرباب الدولة إلى لقائه فأكرمهم.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۰۱

و فيها عاد الملك العادل نور الـدين محمود إلى حصار دمشق، و وقع له مع مجير الدين صاحب دمشق أمور حتّى استنجد مجير الدين بالفرنج، فرحل عنها نور الدين؛ ثم نازلها و تراسلا على يد الفقيه برهان الدين البلخىّ و أسد الدين شيركوه الكردىّ و أخيه نجم الدين أيوب، ثم تحالف نور الدين مع مجير الدين على أمر و رحل عنه.

و فيها توفّى الأمير علىّ بن مرشد [بن علىّ] بن المقلّد بن نصر بن منقذ عزّ الدين.

ولد بشيزر. و كان فاضلا أديبا حسن الخط، مات بعسقلان شهيدا. و كان أكبر إخوته و بعده أسامة. و من شعره:

[الكامل]

قد قلت للمنثور إنّ الورد قد وافى على الأزهار و هو أمير

فافترّ ثغر الأقحوان مسرّة لقدومه و تلوّن المنثور

و فيها توفّى الفامىّ الحافظ أبو نصر عبد الرحمن بن عبد الجبّار الهروىّ العجمىّ.

كان إماما عالما فاضلا، رحل و سمع الحديث و تفقّه و برع فى علوم شتّى. مات فى هذه السنة فى قول الذهبىّ.

و فيها توفّى الأمير نوشتكين بن عبد اللّه الرّضوانىّ السلجوقىّ ببغداد. كان أميرا معظّما فى الدول و له مواقف و وقائع.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۰۲

و فيها توفّى القاضى أبو بكر محمد بن عبد اللّه بن العربىّ الأندلسىّ المالكىّ.

كان إمام وقته مفتّنا فى علوم كثيرة، و ولى القضاء مدّة طويلة، و كان مشكور السّيرة عدلا فى حكمه.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أبو نصر عبد الرحمن ابن عبد الجبّار الهروىّ الفامىّ الحافظ. و القاضى أبو بكر محمد بن عبد اللّه الأندلسىّ.

و الأمير نوشتكين الرّضوانىّ ببغداد. و أبو الوليد يوسف بن عبد العزيز بن الدّبّاغ اللّخمىّ الأندلسىّ.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ست أذرع و إصبعان. مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا و أربع أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۴۷]

السنة الثالثة من ولایة الظافر أبی منصور علی مصر و هی سنة سبع و أربعین و خمسمائة.

فیها توفّی محمد بن نصر أبو عبد اللّه العکّاویّ و یقال له ابن صغیر القیسرانیّ الشاعر المشهور. ولد بعکّا و نشأ بقیساریّة الساحل، ثم انتقل إلی حلب و إلی دمشق. فبلغ تاج الملوک بوری بن طغتکین أنّه هجاه فتنکّر له، فهرب إلی حلب و مدح نور الدین محمود بن زنکی صاحبها. و له دیوان شعر مشهور، و مات بدمشق.

و من شعره فی مغنّ و أجاد إلی الغایة:

[البسیط]

و اللّه لو أنصف الفتیان أنفسهم أعطوک ما ادّخروا منها و ما صانوا

ما أنت حین تغنّی فی مجالسهم إلا نسیم الصّبا و القوم أغصان

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۰۳

و فیها توفّی السلطان مسعود ابن السلطان محمد شاه ابن السلطان ملکشاه ابن السلطان ألب أرسلان بن داود بن میکائیل بن سلجوق بن دقماق السلجوقیّ.

کان ملکا جلیلا- شجاعا طالت أیامه. قال أبو المظفّر: لم یر أحد ما رأی من الملوک و السلاطین حتّی مرض علی همذان بأمراض حارّة، و عسرت مداواته. و مات فی سلخ جمادی الآخرة. و أقیم بعده فی الملک ابن أخیه ملکشاه بن محمود بن محمد شاه ابن ملکشاه، فأقام ملکشاه المذکور خمسة أشهر ثمّ وقع له أمور و خلع. قلت:

یکون ملکشاه هذا ثانی ملک من بنی سلجوق سمّی بملکشاه.

و فیها توفّی الشیخ الإمام الواعظ المظفّر بن أردشیر أبو منصور العبّادیّ الواعظ.

سمع الحدیث الکثیر، و قدم بغداد و وعظ بجامع القصر و النّظامیّة، و حصل له قبول زائد. و کان فصیحا بلیغا. و ترسّل بین الخلیفة و الملوک، و عظم أمره.

و فیها توفّی القاضی أبو الفضل محمد بن عمر بن یوسف الأرمویّ الشافعیّ.

کان إماما عالما فقیها مفتّنا فی عدّة فنون، و ولی القضاء زمانا، و حمدت سیرته.

الذین ذکر الذهبیّ وفاتهم فی هذه السنة، قال: و فیها توفّی أبو عبد اللّه محمد ابن الحسن بن محمد بن سعید الدّانیّ، المقرئ ابن غلام الفرس. و أبو الفضل محمد ابن عمر بن یوسف الأرمویّ القاضی الشافعیّ. و أبو نصر محمد بن منصور ابن عبد الرحیم النّیسابوریّ الحرضیّ فی شوّال، و له تسعون سنة. و السلطان مسعود ابن محمد بن ملکشاه السلجوقیّ.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم ستّ أذرع و سبع أصابع. مبلغ الزیادة ثمانی عشرة ذراعا و أربع أصابع.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۰۴

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۴۸]

اشارة

السنة الرابعة من ولایة الظافر أبی منصور علی مصر و هی سنة ثمان و أربعین و خمسمائة.

فیها انحل أمر بنی سلجوق باستیلاء الترک علی السلطان سنجرشاه السلجوقیّ.

و سببه أنّه لمّا التقی مع خاقان ملک الترک و خوارزم شاه قبل تاریخه، و انهزم منهم تلک الهزیمة القبیحة التی قتل فیها خلائق من

العلماء و الفقهاء و غيرهم، و عاد خاقان إلى بلاده، ثم صالح سنجرشاه خوارزم شاه، و بقى فى قلب سنجر شاه ما جرى عليه.

فلمّا حسن أمره تجهّز للقاء الترك ثانيا بعد أمور صدرت بينهم، و التقى معهم فانكسر ثانيا؛ و استولوا عليه و جعلوه فى قفص خديد؛ فبقى فيه مدّة و هو يخدم نفسه و ليس معه أحد. و اقتصّ اللّه منه للخليفة المسترشد و ابنه الراشد ما كان فعله معهما حسب ما تقدّم ذكره. و امتحن بأشياء إلى أن مات، على ما يأتى ذكره إن شاء اللّه.

و فيها توفّى القاضى محفوظ بن أبى محمد الحسن بن صصرى أبو البركات، و يعرف بالقاضى الكبير. كان إماما عالما مشهورا بالخير و العفاف. و مات بدمشق فى ذى الحجّة و قد بلغ ثمانين سنة.

و فيها توفّى الشيخ الزاهد المسلّك أبو العبّاس أحمد بن أبى غالب بن الطّلاية الصوفيّ العارف فى شهر رمضان.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۰۵

و فيها توفّى الحافظ أبو الفرج عبد الخالق بن أحمد بن عبد القادر اليوسفيّ.

كان إماما حافظا محدّثا، سمع الكثير و رحل و كتب و صنّف. و مات فى المحرّم و له أربع و ثمانون سنة.

و فيها توفّى الأفضل أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشّهرستانيّ الإمام العالم المتكلّم. كان إمام عصره فى علم الكلام عالما بفنون كثيرة من العلوم، و به تخرّج جماعة كثيرة من العلماء.

و فيها توفّى شيخ الصوفيّة فى زمانه أبو الفتح محمد بن عبد الرحمن بن محمد المروزيّ الكشميهنيّ. كان إماما مسلّكا عارفا بطريق القوم، إمام عصره فى علم التصوّف و غيره، و للناس فيه محبّة و اعتقاد حسن.

و فيها توفّى الشيخ الإمام أبو سعد محيّ الدين محمد بن يحيى النّيسابوريّ الشافعيّ تلميذ أبى حامد الغزاليّ فى شهر رمضان حين استباحت الترك نيسابور. و كان فقيها إماما عالما مصنّفا.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و خمس عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و ستّ أصابع.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۰۶

ذكر ولاية الفائز بنصر اللّه على مصر

هو أبو القاسم عيسى ابن الخليفة الظافر بأمر اللّه أبى منصور إسماعيل ابن الخليفة الحافظ أبى الميمون عبد المجيد بن محمد- و محمد هذا ليس بخليفة- ابن الخليفة المستنصر بالله معدّ ابن الخليفة الظاهر لإعزاز دين اللّه على ابن الخليفة الحاكم بأمر اللّه منصور ابن الخليفة العزيز بالله نزار ابن الخليفة المعزّ لدين اللّه معدّ أول خلفاء مصر ابن الخليفة المنصور إسماعيل ابن الخليفة القائم بأمر اللّه محمد ابن الخليفة المهديّ عبيد اللّه، العبيديّ الفاطميّ المغربيّ الأصل المصريّ العاشر من خلفاء مصر من بنى عبيد و الثالث عشر من أصلهم المهديّ أحد خلفاء بنى عبيد بالمغرب.

و أمّ الفائز هذا أمّ ولد يقال لها زين الكمال.

قال أبو المظفّر بن قزأوغلى فى تاريخه مرآة الزمان: «مولده فى المحرّم سنة أربع و أربعين و خمسمائة، و توفّى و هو ابن إحدى عشرة سنة و شهور». و زاد ابن خلّكان بأن قال: لتسع بقين من المحرّم. قال: و كانت أيّامه ستّ سنين و ستة أشهر و سبعة عشر يوما. و بين وفاته و وفاة المقتفى (يعنى خليفة بغداد العبّاسيّ) أربعة أشهر و أيّام. قلت: و قوله «و بين وفاته و وفاة المقتفى أربعة أشهر و أيام» لا يعرف بذلك من السابق منهما بالوفاة. و أنا أقول: أمّا السابق فهو الخليفة المقتفى الآتى ذكره، إن شاء اللّه؛ فإنّ وفاة المقتفى فى شهر ربيع الأوّل، و وفاة الفائز هذا صاحب الترجمة فى شهر رجب.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۰۷

قال صاحب المرآة: «و قام بعده أبو محمد عبد اللّه بن یوسف بن الحافظ.

و لم یکن أبوه خلیفة، و أمّه (یعنی عبد اللّه) أمّ ولد تدعی ستّ المنی، و لقّب بالعاضد».

انتهی کلام صاحب المرآة.

و قال صاحب کتاب المقلتین فی أخبار الدولتین: «و لمّا أصبح الوزیر عبّاس (یعنی صبیحة قتل الخلیفة الظافر بأمر اللّه) رکب إلی القصر و دخل إلی مقطع الوزارة من غیر استدعاء، فأطال جلوسه و لم یجلس الخلیفة له، فاستدعی عبّاس زمام القصر، و قال له: إن کان لمولانا ما یشغله عنّا فی هذا الیوم عدنا إلیه فی الغد. فمضی الأستاذ و هو حائر فیما یعمل و قد فقد الخلیفة. فدخل إلی أخوی الخلیفة یوسف و جبریل، و هما رجلان أحدهما مکتهل، فأخبرهما بالقصّة؛ و ما کان عندهما من خروج أخیهما البارحة إلی دار نصر بن عبّاس خبر و لا اطّلعا علیه إلّا فی تلک الساعة؛ فما شکّا فی قتل أخیهما الخلیفة الظافر، و قالا للزّمام: إن اعتذرت الیوم هل یتمّ لک هذا مع الزمان؟ فقال الزّمام: ما تأمرانی به؟ قالا: تصدقه و تحقّقه. و کان للخلیفة ولد عمره خمس سنین اسمه عیسی. فعاد الزّمام إلی عبّاس و قال له: ثمّ سرّ أقوله إلیک بحضور الأمراء و الأستاذین. فقال عبّاس: ما ثمّ إلّا الجهر. قال: إنّ الخلیفة خرج البارحة لزیارة ولدک نصر فلم یعد بغیر العادة. فقال عبّاس: تکذب یا عبد السوء! إنّما أنت مبایع أخویه یوسف و جبریل اللذین حسداه علی الخلافة فاغتالاه، و اتفقتم علی هذا القول. فقال الزّمام: معاذ اللّه! قال عبّاس: فأین هما؟ فخرجا إلیه و معهما ابن أخ لهما اسمه صالح بن حسن الذی قتل والده الخلیفة الحافظ بالسمّ.

و قد تقدّم ذکر قتله فی ترجمة أبیه الحافظ عبد المجید.

قال: فلمّا حضروا قال لهم عبّاس الوزیر: أین الخلیفة؟ فقالوا: حیث یعلم ابنک ناصر الدین. قال لا. قالوا: بلی! و هذا بهتان منک، لأنّ بیعة أخینا

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۰۸

فی أعناقنا، و هؤلاء الأمراء الحاضرون یعلمون ذلک، و إنّا فی طاعته بوصیّة والدنا، و أقاما الحجّة علیه. فکذّبهما و أمر غلمانه بقتل الثلاثة فی دارهم. ثم قال للزّمام:

أین ابن مولانا؟ قال حاضر. فقال عبّاس: قدّامی إلی مکانه. فدخل الوزیر عبّاس بنفسه إلیه، و کان عند جدّته لأمّه، فحمله علی کتفه و أخرجه للنّاس قبل رفع المقتولین، و بایع له بالخلافة، و لقّبه بالفائز بنصر اللّه. فرأی الصبیّ القتلی فتفزّع و اضطرب و دام مدّة خلافته لا یطیب له عیش من تلک الرجفة. و تم أمر الفائز فی الخلافة، و وزر له عبّاس المذکور، إلی أن وقع له مع طلائع بن رزّیک ما سنذکره من أقوال جماعة من المؤرّخین. و قد ذکرنا منه أیضا نبذة جیّدة فیما مضی، و لکن اختلاف النقول فیها فوائد.

و قال الحافظ أبو عبد اللّه الذهبیّ فی تاریخ الإسلام- بعد أن ساق نسب الفائز هذا حتّی قال-: «بویع: بالقاهرة حین قتل والده الظافر و له خمس سنین، و قیل: بل سنتان، فحمله الوزیر عبّاس علی کتفه و وقف فی صحن الدار به مظهر الحزن و الکآبة، و أمر أن یدخل الأمراء فدخلوا؛ فقال لهم: هذا ولد مولاکم، و قد قتل عمّاه مولاکم، و قد قتلتهما کما ترون به، و أشار إلی القتلی، و الواجب إخلاص الطاعة لهذا الولد الطفل. فقالوا کلّهم: سمعنا و أطعنا، و ضجّوا ضجّة واحدة بذلک. ففزع الطفل (یعنی الفائز)، و مال علی کتف عبّاس من الفزع. و سمّوه الفائز، ثم سیّروه إلی أمّه و قد اختلّ عقله من تلک الضجّة فیما قیل، فصار یتحرّک فی بعض الأوقات و یصرع- قلت: علی کلّ قول کان الفائز قد اختلّ عقله-. قال:

«و لم یبق علی ید عبّاس الوزیر ید و دانت له الممالک. و أمّا أهل القصر فإنّهم اطّلعوا علی باطن القصّة فأخذوا فی إعمال الحیلة فی قتل عبّاس و ابنه، فکاتبوا طلائع بن

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۰۹

رزّیک الأرمنیّ والی منیة بنی خصیب. ثم ساق الذهبیّ قصّة طلائع مع الوزیر عبّاس.

و قال ابن الأثير: «اتّفق أنّ أسامة بن منقذ قدم مصر، فاتّصل بعبّاس الوزير و حسّن له قتل زوج أمّه العادل بن سلّار فقتله، و ولّاه الظافر الوزارة من بعده؛ فاستبدّ بالأمر و تمّ له ذلک. و علم الأمراء [و الأجناد] أنّ ذلک من فعل ابن منقذ فعزموا على قتله. فخلا بعبّاس و قال له: كيف تصبر على ما أسمع من قبيح قول الناس إنّ الظافر يفعل بابنک نصر- و كان من أجمل الناس، و كان ملازما للظافر- فانزعج لذلک و قال: كيف الحيلة؟ قال: اقتله فيذهب عنک العار. فاتّفق مع ابنه على قتله.

و قيل: إنّ الظافر أقطع نصر بن عبّاس [قرية] قليوب كلّها فدخل و قال: أقطعنى مولانا قليوب. فقال ابن منقذ: ما هى فى مهرک بكثير!».

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۱۰

فجرى ما ذكرناه، و هربوا و قصدوا الشام على ناحية أيلة فى شهر ربيع الأوّل سنة تسع و أربعين. و ملک الصالح طلائع بن رزّيک ديار مصر من غير قتال؛ و أتى إلى دار عبّاس المعروفة بدار الوزير المأمون بن البطائحىّ التى هى اليوم المدرسة السّيوفيّة الحنفيّة؛ فاستحضر الخادم الصغير الذى كان مع الظافر لمّا نزل سرّا، و سأله عن الموضع الذى دفن فيه فعرّفه به. فقلع البلاطة التى كانت على الظافر و من معه من المقتولين، و حملوا و قطّعت عليهم الشعور و ناحوا عليهم بمصر، و مشى الأمراء قدّام الجنازة إلى تربة آبائه. فتكفّل الصالح طلائع بن رزّيک بالصغير (يعنى الفائز هذا) و دبّر أحواله.

و أمّا عبّاس و من معه فإنّ أخت الظافر كاتبت الفرنج الذين بعسقلان الذين استولوا عليها من مديدة يسيرة، و شرطت لهم مالا جزيلا إذا خرجوا عليه و أخذوه، فخرجوا عليه فواقعهم فقتل عباس و أخذت الفرنج أمواله و هرب ابن منقذ فى طائفة إلى الشام؛ و أرسلت الفرنج نصر بن عبّاس إلى مصر فى قفص حديد.

فلما وصل سلّم رسولهم المال و ذلک فى [شهر] ربيع الأوّل سنة خمسين و خمسمائة، ثم خلعت أخت الظافريد نصر و ضرب ضربا مهلكا، و قرض جسمه بالمقاريض، ثم صلب على باب زويلة حيّا ثم مات، و بقى مصلوبا إلى يوم عاشوراء سنة إحدى و خمسين، ثم أنزل و أحرقت عظامه. و قيل: إنّ الصالح طلائع بن رزّيک بعث إلى الفرنج بطلب نصر بن عبّاس و بذل إليهم أموالا. فلمّا وصل سلّمه الملک الصالح

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۱۱

إلى نساء الظافر فأقمن يضربنه بالقباقيب و الزّرابيل أياما، و قطّعن لحمه و أطعمنه إيّاه، إلى أن مات ثم صلب.

و تكفّل الصالح طلائع بن رزّيک أمر الصبىّ (أعنى الفائز) وساس الأمور و تلقّب بالملک الصالح، و سار فى الناس أحسن سيرة. و فخم أمره و كان طلائع أديبا كاتبا. و لمّا ولى الوزر و تلقّب بالملک الصالح خلع عليه مثل الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالىّ من الطيلسان المقوّر، و أنشئ له السّجلّ؛ فتناهى فيه كتّاب الإنشاء. فمما قيل فيه:

«و اختصّک أمير المؤمنين بطيلسان غدا للسيف توءما، ليكون كلّ ما أسند إليک من أمور الدولة معلما. و لم يسمع بذلک إلّا ما أكرم به الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين أمير الجيوش أبا النجم بدرا و ولده أبا القاسم شاهنشاه، و أنت أيّها السيد الأجلّ الملک الصالح. و أين سعيهما من سعيک، و رعيهما الذّمام من رعيک؛ لأنّک كشفت الغمّة، و انتصرت للأئمة، و بيّضت غياهب الظلمة، و شفيت قلوب الأمة».

و أشياء غير ذلک. و عظم أمر الصالح طلائع إلى أن وقع له ما سنذكره. كلّ ذلک و الفائز ليس له من الخلافة إلّا مجرّد الاسم فقط، و ذلک لصغر سنّه.

و لمّا استفحل أمر الصالح طلائع أخذ فى جمع المال، فإنّه كان شرها حريصا على التحصيل. و كان مائلا إلى مذهب الإماميّة (أعنى أنّه كان متغاليا فى الرّفض) فمال على المستخدمين فى الأموال، و أخذ يعمل على الأمراء المقدّمين فى الدولة، مثل ناصر الدولة ياقوت، و كان صاحب الباب، و ناب عن الحافظ فى مرضة مرضها

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۱۲

مـدّة ثلاثة أشـهر؛ و طلب أن يوزّره فأبى ياقوت المذكور. و مثل الأوحد بن تميم، فإنّه كان من أعيان الأمراء. و لمّا سـمع بقصّة عبّاس من قتله الظافر، و كان واليا على دمياط و تنّيس، تحرّك لطلب دم الظافر و قصـد القاهرة، فسبقه طلائع بن رزيك بيوم واحـد، فخاب قصـده؛ فردّه طلائـع بن رزّيـك إلى ولايته، و أضـاف إليه الدّقهليّـة و المرتاحيّـة. و بقى تـاج الملوك قايمـاز بالقاهرة، و هو من كبار الأمراء، و ابن غـالب لاحق به؛ فحمـل الأجناد عليهمـا يطلبونهمـا، فخرجا فى جماعتهما، فتكاثر عليهما الأجناد فقتلا و نهبت دورهما بأطماع الصالح طلائع بن رزيك فى ذلك.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۱۳

ثم إنّ طلائع ما اتّسع له قرب الأوحد بن تميم بدمياط، فقلّده أسيوط و إخميم.

و كان ناصـر الدولة بقوص من وزارة عباس؛ و كان ابن رزّيك لمّا استدعى لأخذ الثأر و هو بالأشمونين لم يجسر على الحركة إلّا بعد مكاتبة ناصـر الدولة بذلك، و استدعاه ابن رزّيك ليكون الأمر له. فكاتبه ناصر الدولة بإزهاده فى ذلك، و أنّه سئل به و تركه فى أيام الحافظ عن قدرة، و اعتقد أنّه لا يفلح لأنّه لم يتحقق ما كان من عبّاس.

فعند ذلك خلت القاهرة لطلائع بن رزّيك من مماثل. و أظهر مذهب الإماميّة، و باع الولايات للأمراء، و جعل لها أسعارا، و مدّتها ستة أشـهر؛ فتضـرّر الناس من تردّد الولاة عليهم فى كلّ سـتة أشهر. و صايق الفصر طمعا فى صغر سنّ الخليفة، فتعب الناس معه. و جعل له مجلسا فى أكثر الليالى يحضـره أهل الأدب، و نظم هو شعرا و دوّنه، و صار الناس يهرعون إلى نقل شعره؛ و ربّما أصلحه له شاعر كان يصحبه يقال له ابن الزّبير. و ممّا نسب إليه من الشعر.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۱۴

قوله

[الكامل]

كم ذا يرينا الدهر من أحداثه عبرا و فينا الصّدّ و الإعراض

ننسى الممات و ليس نجرى ذكره فينا فتذكرنا به الأمراض

و له من قصيدة:

[الوافر]

مشيبك قد رمى صبغ الشباب و حلّ الباز فى وكر الغراب

و منها:

فكيف بقاء عمرك و هو كنز و قد أنفقت منه بلا حساب

فلمّا ثقلت وطأته على القصـر، و كان الخليفـة الفائز فى تدبير عمته، شـرعت فى قتل طلائع بن رزّيك المذكور، و فرّقت فى ذلك مالا يقرب من خمسـين ألـف دينـار. فعلم ابن رزّيـك بـذلك، فـأوقع بهـا و قتلهـا بالأسـتاذين و الصـقالبة سـرّا، و الخليفـة فى واد آخر من الاضـطراب. ثم نقل ابن رزّيك كفالة الفائز إلى عمّته الصـغرى، و طيّب قلبها و راسـلها. فما حماه ذلك منها بل رتّبت قتله. و سعى لها فى ذلك أصحاب أختها المقتولة؛ فرتّبت قوما من السودان الأقوياء فى باب السّرداب فى الدّهليز المظلم الذى يدخل منه إلى القاعة، و قوم أخر فى خزانـة هنـاك و فيهم واحـد من الأجنـاد يقال له ابن الراعى. فـدخل يوم خمسـة من شـهر رمضان سـنة ستّ و خمسـين و خمسمائة؛ فلمّا انفصل من السلام على الخليفة، و كان صاحب الباب فى ذلك اليوم أميرا يقال له ابن قوّام الدولة، و كان إماميّا، فيقال: إنّه أخلى الدّهليز من الناس حتّى لم يبق فيه أحد، و إنّه استوقفه أستاذ يقال له عنبر الربعىّ بحديث طويل.

و تقدّم طلائع بن رزّيك و معه ولده رزّيك، فأرادت الجماعة المخبّأة أن تخرج،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۱۵

فوجدوا الباب مغلقا، و خافوا من خلعه التشغيب؛ فخرجت عليه الجماعة الأخرى فضربوا رزّيک بن الصالح طلائع ضربة أوقعت عضده الأيمن، و جرح أبوه الصالح طلائع بن رزّيک من ابن الراعی المذکور. و قيل: إنّ طلائع کان متخوما فاستفرغ بالدّم، فأکبّ على وجهه و أخذ منديله من على رأسه؛ فعاد إليه رجل يقال له ابن الزّبد، فألبسه المنديل، و خرج به محمولا على الدّابة لا يفيق. فقيل: إنّه کان يقول إذا أفاق: رحمک اللّه يا عبّاس (يعنی بذلک عبّاسا الوزير الذی قتل الخليفة الظافر).

و کان الفائز قد مات، و تولّى الخلافة العاضد، و هو أيضا تحت حجر طلائع المذکور. فمات طلائع سحرا. و کان طلائع قد ولّى شاور قوص و ندم على ولايته، فأراد استعادته من الطريق؛ فسبقه شاور حتّى حصل بها، و طلب منه کلّ شهر أربعمائة دينار، و قال: لا بدّ لقوص من وال، و أنا ذلک؛ و اللّه لا أدخل القاهرة، و متى صرفنی دخلت النّوبة. و لمّا مات الصالح طلائع بن رزّيک و طاب ولده رزّيک، طلبت عمّة الفائز رزّيک، و أحضرت له الذی ضربه فی عضده الأيمن، و أحضرت أيضا سيف الدين حسين ابن أخی طلائع، و حلفت لهما أنّها لم تدر بما جرى على أبيه الصالح، و أنّ فاعل ذلک أصحاب أختها المقتولة؛ و خلعت على رزّيک بالوزارة عوضا عن أبيه طلائع بن رزّيک، و فسحت له فی أخذ من ارتاب به فی قتل أبيه.

فأخذ ابن قوّام الدولة فقتله و ولده، و الأستاذ الذی شغله. و أقام رزّيک المذکور

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۱۶

فی الوزارة سنة و کسرا، فما رأى الناس أحسن من أيامه، و سامح الناس بما عليهم من الأموال البواقی الثابتة فی الدواوين، و لم يسبق إلى ذلک. و دام فی الوزارة حتى قيل: اصرف شاور من قوص يتمّ الأمر لک. فأشار عليه سيف الدين حسين بإبقائه؛ فقال رزّيک: مالی طمع فيما آخذه منه، و لکن أريده يطأ بساطی. فقيل له:

ما يدخل أبدا، فما قبل. و خلع على أمير يقال له ابن الرفعة بولاية قوص عوضا عن شاور؛ فخرج شاور من قوص فی جماعة قليلة إلى الواحات.

و أما رزّيک الوزير فإنّه رأى مناما أخبر به ابن عمّه سيف الدين حسين؛ فقال له حسين: إنّ بمصر رجلا يقال له ابن الإيتاخی حاذقا فی التعبير، فأحضره رزّيک و قال له: رأيت کأنّ القمر قد أحاط به حنش، و کأنّنی روّاس فی حانوت.

فغالطه المعبّر فی التفسير؛ و ظهر ذلک لسيف الدين حسين، فأمسک إلى أن خرج المعبّر فقال له: ما أعجبنی کلامک، و اللّه لا بدّ أن تصدقنی و لا بأس عليک. فقال:

يا مولای، القمر عندنا هو الوزير، کما أنّ الشمس خليفة؛ و الحنش المستدير عليه هو جيش مصحف؛ و کونه روّاسا اقلبها تجدها شاور مصحّفا أيضا. فقال له حسين: اکتم هذا عن الناس. و اهتمّ حسين فی أمره، و وطّأ له التوجّه إلى مدينة النّبیّ عليه السّلام، و کان أحسن إلى المقيمين بها، و حمل إليها مالا و أودعه عند من يثق به. و صار أمر شاور يزداد و يقوى حتى قرب من القاهرة، و صاح

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۱۷

الصائح فی بنی رزيک و کانوا أکثر من ثلاثة آلاف فارس. فأوّل من نجا بنفسه حسين. فلمّا بلغ رزّيک توجّه حسين انقطع قلبه، و أخذ أمواله على البغال و خرج فی خاصّيته إلى إطفيح، فأخذه مقدّم إطفيح بعد أمور و کلّ من معه، و أتى بهم إلى شاور فی الحديد؛ فاعتقله شاور و أخاه جلال الإسلام؛ فطلب رزّيک من بعض غلمان أبيه مبردا فبرد قيده؛ فعلم أخوه جلال الإسلام فأعلم شاور بذلک، فقتل شاور رزّيک و أبقى على أخيه جلال الإسلام لهذه النصيحة. و استمر شاور فی الوزر أشهرا حتى وقع له مع الضّرغام أحد أمراء بنی رزّيک ما وقع، و استنجد عليه بتوجّهه إلى نور الدين محمود بن زنکی؛ فأرسل معه نور الدين أسد الدين شيرکوه بن شادی. و شاور هو صاحب القصّة مع أسد الدين شيرکوه و ابن أخيه السلطان صلاح الدين. يأتی ذکر ذلک فی ترجمة العاضد مفصّلا، إن شاء اللّه.

و کانت وفاة الفائز صاحب الترجمة فی شهر رجب سنة خمس و خمسين و هو ابن عشر سنين أو نحوها. و بايعوا العاضد لدين اللّه أبا

محمد عبد اللّه بن یوسف

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۱۸

ابن الحافظ عبد المجید بن محمد بن المستنصر ابن عم الفائز هذا. و أجلسه الملک الصالح طلائع بن رزّیک علی سریر الخلافة. و أزوجه ابنته. ثم بعد ذلک استعمل طلائع شاور علی بلاد الصعید. و هو شاور البدریّ الذی استولی علی دیار مصر فی خلافة العاضد آخر خلفاء بنی عبید، علی ما سیأتی ذکره إن شاء اللّه تعالی.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۴۹]

السنة التی حکم فی أوّلها الظافر و فی آخرها الفائز، و کلاهما لیس له فی الخلافة إلّا مجرّد الاسم فقط، و هی سنة تسع و أربعین و خمسمائة.

فیها حنقت الترک علی سنجرشاه السلجوقیّ و ترکوه فی قید من حدید فی خیمة، و وکّل به جماعة و أجروا علیه ما لا یجری علی الکفرة، و کاد یموت خوفا، و صار یبکی لیلا و نهارا علی نفسه، و یتمّنی الموت.

و فیها ملک نور الدین محمود بن زنکی بن آق سنقر المعروف بالشهید دمشق من الأمیر مجیر الدّین. و ساعده فی ذلک بعض أهل دمشق علی مجیر الدین المذکور لزیادة ظلمه و مصادراته الناس؛ فلمّا تحرک نور الدین لطلب دمشق وافقه أهلها لما فی نفوسهم من مجیر الدین.

و فیها توفی المظفّر بن علیّ [بن محمد بن محمد] بن جهیر الوزیر أبو نصر ابن الوزیر فخر الدولة، و جدّه کان أیضا وزیرا. و هو من بیت وزارة و فضل، و زر للمقتفی سبع سنین، و عزل عن الوزارة فی سنة اثنتین و أربعین و خمسمائة، و کان الخلیفة المقتفی نقله من الأستاداریّة إلی الوزر. و کانت وفاته فی ذی الحجة. و کان فاضلا نبیلا، سمع الحدیث و حجّ و تصدّق.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۱۹

و فیها توفی محمد بن أحمد بن إبراهیم العلّامة أبو بکر البغدادیّ الحنفیّ. کان فقیها عالما نحویّا. مات فی ذی القعدة.

الذین ذکر الذهبیّ وفاتهم فی هذه السنة، قال: و فیها توفّی الظافر بالله إسماعیل ابن الحافظ العبیدیّ، اغتاله عبّاس فی المحرّم و له اثنتان و عشرون سنة، و أجلس مکانه ولده الفائز طفلا- و أبو البرکات عبد اللّه بن محمد بن الفضل الفراویّ، مات جوعا فی ذی القعدة فی کائنة الغزّ. و أبو منصور عبد الخالق بن زاهر بن طاهر الشّحّامیّ، هلک فی شوّال بنیسابور. و أبو سعد محمد بن جامع الصّیرفیّ خیّاط الصوف، توفّی فی [شهر] ربیع الآخر. و أبو العشائر محمد بن خلیل بن فارس القیسیّ بدمشق فی ذی الحجّة. و الحافظ أبو المعمّر المبارک بن أحمد الأنصاری الأزجیّ فی رمضان. و الوزیر أبو نصر المظفّر بن علیّ ابن الوزیر فخر الدولة بن جهیر، وزر للمقتفی سبع سنین، و مات فی ذی الحجة. و أبو المحاسن نصر بن المظفّر البرمکیّ بهمذان.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم ستّ أذرع و سبع أصابع. مبلغ الزیادة سبع عشرة ذراعا و عشرون إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۵۰]

السنة الثانیة من ولایة الفائز بنصر اللّه علی مصر و هی سنة خمسین و خمسمائة.

فیها دخلت الترک نیسابور بعد أن کان بینهم و بین أهلها قتال عظیم و نهبوا و سبوا و قتلوا بها نحوا من ثلاثین ألف نسمة، منهم محمد بن یحیی شیخ الشافعیّة،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۲۰

و كان الملك سنجر شاه السلجوقىّ معهم فى الأسر، و عليه اسم السلطنة و هو مقيّد معتقل على أقبح وجه يخدم نفسه و يجلس وحده فى أضيق مكان.

و فيها توفّى محمد بن ناصر بن محمد بن علىّ بن عمر السّلامىّ الدار الفارسىّ الأصل. سمع الحديث و رحل إلى البلاد، و كان حافظا متقنا عالما بالأسانيد و المتون، ضابطا ثقة من أهل السنّة. و مات فى شعبان. و أنشد لغيره:

[البسيط]

دع المقادير تجرى فى أعنّتها و اصبر فليس لها صبر على حال

ما بين رقدة عين و انتباهتها يقلّب الدهر من حال إلى حال

و فيها توفّى هبة اللّه بن علىّ أبو محمد بن عرام، كان فاضلا شاعرا. و من شعره فى ذمّ إنسان:

[البسيط]

جميع أقواله دعاوى و كلّ أفعاله مساوى

ما زال فى وقته غريبا ليس له فى الورى مساوى

و فيها توفّى محمد بن علىّ بن محمد بن أحمد بن إبراهيم أبو بكر القيسىّ المغربىّ المالكىّ، مات بفاس فى ذى القعدة. و كان فقيها أديبا مترسّلا شاعرا.

و من شعره:

[الخفيف]

أطيب الطّيبات قتل الأعادى و اختيالى على متون الجياد

و رسول يأتى بوعد حبيب و حبيب يأتى بلا ميعاد

قلت: و قد تغالى الناس فى رسول الحبيب و قالوا فيه أحسن الأقوال.

فمن ذلك قول بهاء الدين زهير فى أول قصيدة:

[الطويل]

رسول الرضا أهلا و سهلا و مرحبا حديثك ما أحلاه عندى و أطيبا

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۲۱

و أحسن ما سمعت فى هذا المعنى قول صفىّ الدين الحلّىّ:

[الكامل]

من كنت أنت رسوله كان الجواب قبوله

هو طلعة الشمس الذى جاء الصباح دليله

و فى المعنى للسّراج الورّاق:

[الكامل]

إن كانت العشّاق من أشواقهم جعلوا النسيم إلى الحبيب رسولا

فأنا الذى أتلو لهم: يا ليتنى كنت اتّخذت مع الرسول سبيلا

و مما يقارب هذا المعنى ما أنشدنى الحافظ شهاب الدّين بن حجر لنفسه إجازة إن لم يكن سماعا:

[الطويل]

أتى من أحبّائى رسول فقال لى ترفّق و هن و اخضع تفز؟؟؟ برضانا

فكم عاشق قاسى الهوان بحبّنا فصار عزيزا حين ذاق هوانا

و قد خرجنا عن المقصود.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أبو العباس أحمد ابن معدّ التّجيبىّ الأقليشىّ. و أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن العصائدىّ النّيسابورىّ. و أبو القاسم سعيد بن أحمد بن الحسن [بن عبد اللّه] بن أحمد بن البنّاء فى ذى الحجّة. و أبو الفتح محمد بن علىّ بن هبة اللّه بن عبد السلام الكاتب. و الحافظ

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۲۲

أبو الفضل محمد بن ناصر بن محمد بن علىّ السّلامىّ فى شعبان، و له ثلاث و ثمانون سنة.

و أبو الكرم المبارك بن الحسن الشهرزورىّ المقرئ فى ذى الحجّة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و تسع عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و سبع عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۵۱]

السنة الثالثة من ولاية الفائز بنصر اللّه على مصر و هى سنة إحدى و خمسين و خمسمائة.

فيها خلع الخليفة المقتفى بالله على سليمان شاه بن محمد شاه بن ملكشاه السلجوقىّ بعد عمّه سنجرشاه خلعة السلطنة: التاج و الطوق و السّوار و المركب الذهب، و استحلفه الخليفة أن يكون العراق للخليفة و لا يكون لسليمان شاه المذكور إلّا ما يفتحه بسيفه من غير العراق، و خطب له على منابر العراق بالسلطنة، و تمّ أمره إلى ما سيأتى ذكره.

و فيها خلص السلطان سنجر شاه من أسر الترك بحيلة، و هرب إلى قلعة ترمذ بعد أن أقام عندهم أربع سنين فى الذلّ و الهوان حتى ضرب بحاله عندهم الأمثال.

و فيها توفّى عبد القاهر بن عبد اللّه بن الحسين أبو الفرج المعروف بالواوا الشاعر المشهور. كان أصله من بزاعة و نشأ بحلب (و بزاعة بضم الباء الموحدة و فتح الزاى و بعد الألف عين مهملة مفتوحة و هاء، و هى قرية من أعمال حلب) و تأدّب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۲۳

بحلب و برع فى الأدب و قول الشعر، و شرح ديوان المتنّبىّ. و مما ينسب إليه من الخمريات- و قيل هما لغيره- قوله:

[الوافر]

مجرّة جدول و سماء آس و أنجم نرجس و شموس ورد

و رعد مثلّث و سحاب كأس و برق مدامة و ضباب ندّ

قلت: و يعجبنى فى هذا المعنى قول يزيد بن معاوية:

[الكامل]

و مدامة حمراء فى قارورة زرقاء تحملها يد بيضاء

فالراح شمس و الحباب كواكب و الكفّ قطب و الإناء سماء

و ما أظرف قول ديك الجنّ عبد السلام بن رغبان:

[الوافر]

شربنا فى غروب الشمس شمسا لها وصف يجلّ عن الصفات

عجبت لعاصريها كيف ماتوا و قد صنعوا لنا ماء الحياة

و مما قيل فى هذا المعنى- دو بيت-:

يا ساقى خصّنى بما تهواه لا تمزج اقداحى رعاك اللّه

دعها صرفا فإنّنى أمزجها إذ أشربها بذكر من أهواه

و فيها توفّى علىّ بن الحسين الشيخ الإمام الواعظ أبو الحسن الغزنوىّ الملقّب بالبرهان. قدم بغداد و سمع الحديث و وعظ، و كان فصيحا مفوّها. كان السلطان مسعود السّلجوقىّ يزوره. و لمّا أقام ببغداد أمرت الخاتون زوجة الخليفة المستظهر أن يبنى له رباط و وقفت عليه قرية اشترتها من الخليفة المسترشد. و انتفع الناس بجاهه و ماله. و كان له أدب و نظم. فمن شعره قوله:

[السريع]

كم حسرة لى فى الحشا من ولد إذا نشا

و كم أردت رشده فما نشا كما نشا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۲۴

و له فى غير هذا المعنى و أجاد:

[السريع]

يحسدنى قومى على صنعتى لأنّنى فى صنعتى فارس

سهرت فى ليلى و استنعسوا هل يستوى الساهر و الناعس

و فيها توفّى السلطان مسعود بن محمد ملك الروم. و تولّى ممالك الروم بعده ابنه قليج أرسلان بن مسعود.

و فيها توفّى الشيخ أبو العزّ بن أبى الدنيا القرشىّ الصوفىّ البصرىّ. كان أبوه محتسب البصرة، و كان شاعرا مجيدا (أعنى أباه). و من شعره:

[الرجز]

ما بال قلبى زائدا غرامه و دمع عينى هاطلا غمامه

و ذلك الجمر الذى خلفتم على الحشا لا ينطفى ضرامه

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أبو القاسم إسماعيل ابن علىّ النيسابورىّ ثم الأصبهانىّ الحمّامىّ الصوفى فى صفر و قد شارف المائة.

و أبو القاسم الحسين بن الحسن بن البنّ الأسدىّ بدمشق فى ربيع الآخر. و أبو الحسن علىّ بن أحمد [بن الحسين بن أحمد بن الحسين] بن محمويه اليزدىّ الشافعىّ المصرىّ.

و أبو عبد اللّه محمد بن عبد اللّه بن سلامة الكرخىّ فى شوّال. و الشيخ أبو البيان [نبا] ابن محمد بن محفوظ القرشىّ بن الحورانىّ الدمشقىّ اللغوىّ الشافعىّ الزاهد القدوة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ستّ أذرع و تسع عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و ثمانى أصابع.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۲۵

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۵۲]

السنة الرابعة من ولایة الفائز بنصر اللّه علی مصر و هی سنة اثنتین و خمسین و خمسمائة.

فیها جمع الملک محمد شاه بن محمود شاه بن محمد شاه بن ملک شاه السّلجوقیّ الترکمان و الأکراد و سار حتّی قارب بغداد، و بعث إلی الخلیفة المقتفی یطلب منه الخطبة و السلطنة، فقیل له: السلطان هو سنجر شاه بن ملکشاه عمّ أبیک، و أنتم مختلفون.

فلم یلتفت محمد شاه حتّی قدم بغداد و حصرها، و وقع له بها أمور؛ و طال الأمر بینهم إلی أن رحل منها إلی جهة همذان.

و فیها کانت زلازل عظیمة بالشأم و حلب و حماة و شیزر و غالب بلاد الشام و الشرق، و هلک خلق کثیر، حتّی حکی أن معلّما کان بحماة فی کتّاب، فقام من المکتب یقضی حاجة ثم عاد و قد وقع المکتب علی الصبیان فماتوا بأسرهم. و العجب أنه لم یأت أحد یسأل عن صبیّ منهم بل جمیع آبائهم ماتوا أیضا تحت الهدم فی دورهم. و وقعت أبراج قلعة حلب و غیرها، و هلک جمیع من کان فی شیزر إلا امرأة واحدة و خادما. و ساخت قلعة فامیة، و انشقّ تلّ حرّان نصفین، و ظهر فیه بیوت و عمائر قدیمة. و انشقّ فی اللّاذقیّة موضع ظهر فیه صنم قائم فی الماء، و خربت صیداء و بیروت و طرابلس و عکّا و صور و جمیع قلاع الفرنج. و عمل شعراء ذلک العصر فی هذه الزلزلة أشعارا کثیرة.

و فیها ملک الملک العادل نور الدین محمود بن زنکی بن آق سنقر المعروف بالشهید حصن شیزر، و زال ملک بنی منقذ عنها بعد أن ملکوها سنین کثیرة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۲۶

و فیها توفّی أحمد بن عمر الشیخ الإمام العلّامة أبو اللّیث السّمرقندیّ الحنفیّ.

کان إماما فقیها حسن الهیئة کثیر الصّمت غزیر العلم واسع الحفظ. حجّ و عاد إلی بغداد، و صنّف التصانیف المفیدة النافعة، و تفقّه به جماعة کبیرة. و لمّا خرج من بغداد خرج الناس لوداعه، فلمّا ودّعهم أنشد:

[البسیط]

یا عالم الغیب و الشّهادة إنّ بتوحیدک الشهاده

أسأل فی غربتی و کربی منک وفاة علی الشهاده

و خرج فی قافلة؛ فلما ساروا قطع قوم الطریق علی القافلة المذکورة و قتلوا منهم جماعة کبیرة من العلماء، فیهم صاحب الترجمة، فقتل الجمیع شهداء.

و فیها توفّی أحمد بن المبارک بن محمد بن عبد اللّه. ولد سنة اثنتین و ثمانین و أربعمائة. کان أدیبا شاعرا فاضلا. و من شعره:

[دو بیت]

ساروا و أقام فی فؤادی الکمد لم یلق کما لقیت منهم أحد

شوق و جوی و نار وجد تقد مالی جلد ضعفت مالی جلد

و فیها توفّی السلطان سنجر شاه ابن السلطان ملکشاه بن ألب أرسلان بن داود بن میکائیل بن سلجوق بن دقماق، السلطان أبو الحارث- و قیل:

اسمه أحمد. و سمّی بسنجر لأنّه ولد بسنجار فی شهر رجب سنة تسع و سبعین و أربعمائة حین توجّه أبوه إلی غزو الروم- و نشأ ببلاد الخوز، و سکن خراسان و استوطن مدینة مرو. و کان دخل بغداد مع أخیه محمد شاه علی الخلیفة المستظهر.

قال سنجر شاه: فلمّا وقفنا بین یدی الخلیفة المذکور ظنّ أنی أنا السلطان، فافتتح

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۲۷

کلامه معی؛ فخدمت و قلت: یا مولانا أمیر المؤمنین، السلطان هو أخی، و أشرت إلی أخی محمد شاه؛ ففوّض إلیه السلطنة و جعلنی

ولىّ عهده.

قلت: و لمّا مات محمد شاه خوطب سنجر شاه هذا بالسلطنة، و كان قبلها فى ملك ضخم نحوا من عشرين سنة، و خطب له على عامّة منابر الإسلام؛ و أسره الترك أربع سنين، حسب ما ذكرناه فى وقته. ثم خلص و كاد ملكه أن يرجع إليه، فأدركته المنيّة فمات فى يوم الاثنين رابع عشر شهر ربيع الأوّل. و دفن بمرو فى قبّة بناها بها. و كان روى الحديث و عنده فضيلة. و أصابه صمم فى آخر عمره. و استقرّ الملك بعده لابن أخيه أبى القاسم محمود بن محمد شاه بن ملكشاه السّلجوقىّ.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى السلطان معزّ الدين أبو الحارث سنجر بن ملكشاه السّلجوقىّ فى [شهر] ربيع الأوّل، و بقى فى الملك نحوا من خمسين سنة. و أبو صابر عبد الصّبور بن عبد السلام الهروىّ. و أبو عمرو عثمان ابن علىّ البيكندىّ الزاهد ببخارى. و أبو حفص عمر بن عبد اللّه الحربىّ المقرئ.

و أبو بكر محمد بن عبيد اللّه بن نصر بن الزّاغونىّ. و شيخ الشافعيّة أبو الحسن محمد بن المبارك بن الخلّ. و أبو القاسم نصر بن نصر العكبرىّ الواعظ فى ذى الحجّة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ستّ أذرع و إحدى و عشرون إصبعا. مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا و إحدى عشرة إصبعا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۲۸

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۵۳]

السنة الخامسة من ولاية الفائز بنصر اللّه على مصر و هى سنة ثلاث و خمسين و خمسمائة.

فيها اتّفق السلطان محمد شاه السّلجوقىّ مع أخيه ملكشاه و أمدّه بعساكر، فسار إلى خوزستان و فتحها.

و فيها توفّى عبد الأوّل بن عيسى بن شعيب بن إبراهيم أبو الوقت الهروىّ المنشأ السّجزىّ الأصل. و مولده فى سنة ثمان و خمسين و أربعمائة. و حمله أبوه من هراة إلى بوشنج على عنقه، فسمع صحيح البخارى، و قدم بغداد و طال عمره و حدّث و سمع منه خلائق و ألحق الصّغار بالكبار. و كان كثير التعبّد و التهجّد. و مات ببغداد و دفن بالشّونيزيّة عن نيّف و تسعين سنة.

و فيها توفّى يحيى بن سلامة بن الحسين بن محمد الشيخ أبو الفضل الحصكفىّ ولد بطنزة (مدينة صغيرة بديار بكر) و نشأ بحصن كيفا و انتقل إلى ميّافارقين.

و كان إماما فى كلّ فنّ، و له أدب و ترسّل و شعر. و من شعره:

[البسيط]

و اللّه و لو كانت الدّنيا بأجمعها تبقى علينا و يأتى رزقها رغدا

ما كان من حقّ حرّ أن يذلّ لها فكيف و هى متاع يضمحلّ غدا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۲۹

قلت: و هذا الشعر تكلّم [به] الحصكفىّ المذكور عن خاطرى. و كثيرا ما كنت ألهج بهذا المعنى نثرا قبل أن أقف على هذين البيتين، فطابقا ما كان يخطر ببالى، فللّه درّه!. و من شعره أيضا قوله:

[البسيط]

على ذوى الحبّ آيات مترجمة تبين من أجله عن كلّ مشتبه

عرف يلوح و آثار تلوح و أس رار تبوح و أحشاء تنوح به

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أبو الوقت عبد الأوّل بن عيسى السّجزىّ الصوفىّ فى ذى القعدة، و له ستّ

و تسعون سنة.

و أبو مسعود عبد الجليل بن محمد كوتاه الحافظ بأصبهان فى شعبان. و علىّ بن عساكر ابن سرور المقدسىّ الكيّال بدمشق فى شوّال عن ست و تسعين سنة. و العلّامة أبو حفص عمر بن أحمد بن منصور النّيسابورىّ الصّفّار يوم النحر.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم سبع أذرع سواء. مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا و عشر أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۵۴]

السنة السادسة من ولاية الفائز بنصر اللّه على مصر و هى سنة أربع و خمسين و خمسمائة.

فيها غرقت بغداد و صارت تلالا لا يعرف أحد موضع داره.

و فيها توفّى عبد الواحد بن حميد بن مفرّج الدمشقىّ. كان أديبا شاعرا فصيحا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۳۰

و من شعره قوله من أوّل قصيدة:

[الرمل]

ظالمى فى الحبّ أضحى حكمى كيف لا يأثم فى سفكك دمى

كم كتمت الحبّ عن عاذلتى حذر البين فلم ينكتم

و كانت وفاته بدمشق فى ذى القعدة.

و فيها توفّى السلطان محمد شاه بن محمود شاه [بن محمد شاه] بن ملكشاه بن ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن دقماق بن سلجوق، أبو نصر السلجوقىّ. قد تقدّم نبذة كبيرة من ذكره فى الحوادث. و لمّا حاصر بغداد كان مريضا، و بلغه موت عمّه سنجر شاه فزاد به المرض إلى أن مات على باب همذان فى ذى الحجّة.

و اختلف الأمراء بعد موته؛ فمنهم من مال إلى أخيه ملكشاه، و منهم من مال إلى سليمان شاه، و منهم من مال إلى أرسلان شاه؛ ثم اتّفقوا على سليمان شاه.

و كان محبوسا بالموصل؛ فجهّزه زين الدين صاحب الموصل بإشارة الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى المعروف بالشهيد؛ فأجلسوه على سرير الملك بهمذان.

و كان قصدهم أن يأكلوا به البلاد، لأنّه كان مشغولا باللّهو إلّا أنّه كان فاضلا جوادا مشفقا أمينا. و أما محمد شاه صاحب الترجمة فإنه كان شابّا و عنده شجاعة و إقدام و كرم.

و فيها توفّى محمد بن أبى عقامة أبو عبد اللّه قاضى زبيد. كان حاكما على اليمن، و لمّا تغلّب ابن مهدى على اليمن قتله و قتل ولده، و كانا فاضلين.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۳۱

و من شعر محمد هذا من أوّل قصيدة قوله:

[البسيط]

للوجد عنكم روايات و أخبار و للعلا نحوكم حاج و أوطار

و حيث كنتم فثغر الرّوض مبتسم و أين سرتم فدمع العين مدرار

للّه قوم إذا حلّوا بمنزلة حلّ النّدى و يسير الجود إن ساروا

تشتاقکم کلّ أرض تنزلون بها کأنّکم لبقاع الأرض أمطار

الذین ذکر الذهبیّ وفاتهم فی هذه السنة، قال: و فیها توفّی أبو القاسم أحمد بن المبارک بن عبد الباقی الذهبیّ القطّان. و أبو جعفر أحمد بن محمد بن عبد العزیز العبّاسیّ المکیّ النقیب فی شعبان. و أبو زید جعفر بن زید بن جامع الحمویّ صاحب «الرسالة». و أبو علیّ الحسن بن جعفر [بن عبد الصمد] بن المتوکّل.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم سبع أذرع و ثمانی عشرة إصبعا.

مبلغ الزیادة خمس عشرة ذراعا و إصبع واحدة.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۵۵]

اشارة

السنة السابعة من ولایة الفائز بنصر اللّه علی مصر و هی سنة خمس و خمسین و خمسمائة علی أنّ الفائز مات فیها فی شهر رجب، و حکم فی باقیها العاضد بالله عبد اللّه.

فیها فی یوم الجمعة سلخ صفر أرجف ببغداد بموت الخلیفة المقتفی بالله العباسیّ، فلمّا کان ثانی شهر ربیع الأوّل تحقّق الناس موته، و دعی الناس إلی بیعة ولیّ العهد المستنجد بالله أبی المظفر یوسف بن محمد المقتفی، و تمّ ذلک و بویع بالخلافة.

و فیها توفّی الحسن بن علیّ بن عبد اللّه بن أبی جرادة أبو علیّ ثقة الملک الحلبیّ الحنفیّ. نشأ بحلب ثم سافر إلی مصر، فتقدّم عند وزیرها الملک الصالح طلائع

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۳۲

ابن رزّیک، و کان طلائع المذکور یحترمه لفضله و بیته. و مات بمصر فی هذه السنة- و قیل: فی سنة إحدی و خمسین و خمسمائة- و کان إماما بارعا فصیحا شاعرا.

و من شعره:

[البسیط]

یا صاحبیّ أطیلا فی مؤانستی و ذکّرانی بخلّانی و عشّاقی

و حدّثانی حدیث الخیف إنّ به روحا لروحی و تسهیلا لآماقی

و فیها توفّی حمزة بن أسد بن علیّ بن محمد أبو یعلی التمیمیّ العمید الدمشقیّ، و یعرف بآبن القلانسیّ. کان فاضلا أدیبا مترسلا، جمع تاریخ دمشق و سماه الذیل، و ذکر فی أوّله طرفا من أخبار المصریّین و بعض حوادث السنین. و قد نقلنا عنه نبذة فی هذا الکتاب. و کانت وفاته بدمشق فی یوم الجمعة سابع شهر ربیع الأوّل، و دفن یوم السبت بقاسیون. و من شعره:

[الکامل]

إیاک تقنط عند کلّ شدیدة فشدائد الأیّام سوف تهون

و انظر أوائل کلّ أمر حادث أبدا فما هو کائن سیکون

و فیها توفّی الأمیر قایماز الأرجوانیّ أمیر الحاج حجّ غیر مرّة بالناس. و کان شجاعا عادلا رفیقا بالحاجّ محسنا إلیهم. دخل میدان دار الخلافة یلعب بالکرة فسقط من الفرس فمات، فحزن الخلیفة علیه و الناس، ثم أمر الخلیفة أمراء الدولة أن یمشوا فی جنازته. و کان حجّ بالناس مدّة سنین.

و فيها توفّى الخليفة المقتفى بالله أمير المؤمنين أبو عبد اللّه محمد ابن الخليفة المستظهر بالله أحمد بن المقتدى بالله عبد اللّه ابن الأمير محمد ابن الخليفة القائم بأمر اللّه عبد اللّه بن القادر بالله أحمد ابن الأمير إسحاق ابن الخليفة المقتدر بالله جعفر ابن المعتضد بالله أحمد ابن الأمير الموفّق طلحة ابن الخليفة المتوكّل على اللّه جعفر ابن المعتصم محمد بن الرشيد هارون بن المهدى محمد بن أبى جعفر المنصور بن محمد

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۳۳

ابن علىّ بن عبد اللّه بن عباس الهاشمىّ العباسىّ البغدادىّ. بويع بالخلافة بعد قتل ابن أخيه الراشد بالله فى شهر رمضان سنة اثنتين و ثلاثين و خمسمائة. و مولده فى سنة تسع و ثمانين و أربعمائة. و أمّه أمّ ولد تدعى بغية النفوس- و قيل: نسيم- و مات فى يوم الأحد ثانى شهر ربيع الأوّل و دفن بداره بعد أن صلّى عليه بالمسجد.

و كانت خلافته أربعا و عشرين سنة و ثلاثة أشهر و واحدا و عشرين يوما. و ولى الخلافة من بعده ابنه المستنجد يوسف. و كان إماما عالما أديبا شجاعا حليما دمث الأخلاق كامل السّودد، خليقا بالخلافة قليل المثل فى الأئمة. رحمه اللّه تعالى.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى العميد أبو يعلى حمزة ابن أسد التميمىّ ابن القلانسىّ رئيس دمشق فى عشر التسعين. و أبو يعلى حمزة ابن علىّ بن هبة اللّه بن الحبوبىّ الثعلبىّ البزّاز فى جمادى الأولى. و صاحب غزنة خسروشاه بن مسعود السّبكتكينىّ. و الفائز عيسى بن الظافر بن الحافظ العبيدىّ، أقاموه فى الخلافة بمصر و له خمس سنين أو دونها، و كان يصرع، فمات فى رجب و بايعوا العاضد. و توفّى المقتفى لأمر اللّه أمير المؤمنين محمد بن المستظهر بالله ابن المقتدى فى شهر ربيع الأوّل و له ستّ و ستون سنة، و كانت دولته خمسا و عشرين سنة، و أمه حبشيّة. و أبو المظفّر محمد بن أحمد بن التّريكىّ الهاشمىّ.

و أبو الفتوح محمد بن محمد بن علىّ الطائىّ الهمذانىّ.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و عشر أصابع. مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا و عشر أصابع.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۳۴

ذكر ولاية العاضد بالله على مصر

الخليفة أبو محمد عبد اللّه العاضد بالله ابن الأمير يوسف ابن الخليفة الحافظ بالله عبد المجيد ابن الأمير محمد ابن الخليفة المستنصر بالله معدّ بن الظاهر باللّه علىّ بن الحاكم بأمر اللّه منصور بن العزيز بالله نزار بن المعزّ لدين اللّه معدّ بن المنصور إسماعيل بن القائم بالله محمد بن المهدىّ عبيد اللّه، الفاطمىّ العبيدىّ، المغربىّ الأصل المصرىّ، الحادى عشر من خلفاء بنى عبيد بمصر، و الرابع عشر بالثلاثة الذين ولوا بالمغرب: المهدىّ و القائم و المنصور. ولد سنة أربع و أربعين و خمسمائة، و قيل سنة أربعين.

و قال قاضى القضاة شمس الدين أحمد بن خلّكان- رحمه اللّه-: «ولد يوم الثلاثاء لعشر بقين من المحرّم سنة سبع و أربعين و خمسمائة، و بويع فى رجب بعد موت ابن عمّه الفائز بنصر اللّه سنة خمس و خمسين و خمسمائة، و هو ابن إحدى عشرة سنة و شهور. و كان أبوه يوسف أحد الأخوين اللذين قتلهما عبّاس الوزير بعد قتل الظافر». انتهى.

و قال أبو المظفّر بن قزأوغلى فى تاريخه: «و توفّى (يعنى العاضد) يوم عاشوراء و عمره ثلاث و عشرون سنة، فكانت أيّامه إحدى عشرة سنة. و اختلفوا فى سبب وفاته على أقوال. أحدها أنّه تفكّر فى أموره فرآها فى إدبار فأصابه ذرب عظيم فمات منه. و الثانى أنّه لمّا خطب لبنى العباس بلغه فاغتمّ و مات؛ و قيل: إنّ أهله أخفوا عنه ذلك، و قالوا: إن سلم فهو يعلم، و إن مات فلا ينبغى أن ننغّص عليه هذه الأيام التى بقيت من عمره. و الثالث أنّه لمّا أيقن بزوال دولته كان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۳۵

فى يده خاتم، له فصّ مسموم فمصّه فمات منه. و جلس صلاح الدين فى عزائه و مشى فى جنازته و تولّى غسله و تكفينه، و دفنه عند

أهله. و استولى السلطان صلاح الدين على ما فى القصر من الأموال و الذخائر و التّحف و الجواهر و العبيد و الخدم و الخيل و المتاع و غيره. و كان فى القصر من الجواهر النفيسة ما لم يكن عند خليفة و لا ملك، مما كان قد جمع فى طول السنين. فمنه: القضيب الزّمرّد و طوله قبضة و نصف، و الجبل الياقوت الأحمر، و الدرّة اليتيمة مثل بيض الحمام، و الياقوتة الحمراء و تسمّى الحافر، و زنتها أربعة عشر مثقالا. و من الكتب المنتخبة بالخطوط النفيسة مائة ألف مجلد. و وجد عمامة القائم و طيلسانه، كان البساسيرىّ بعث بهما إلى المستنصر» (يعنى لمّا استولى البساسيرىّ على بغداد، و أسر الخليفة القائم العباسىّ، و خطب ببغداد للمستنصر من بنى عبيد، ثم بعث بعمامة القائم و طيلسانه، فأخذوهما خلفاء مصر فاحتفظوا عليهما، نوعا من النكاية فى بنى العبّاس، فهذا شرح قول أبى المظفّر من عمامة القائم و الطيلسان). قال: «و وجدوا أموالا لا تحدّ و لا تحصى. و أفرد صلاح الدين أهل العاضد ناحية عن القصر، و أجرى عليهم جميع ما يحتاجون إليه، و سلّمهم إلى الخادم قراقوش؛ فعزل الرجال عن النساء و احتاط عليهم.

و ممّا وجد فى خزانة العاضد طبل القولنج الذى صنع للظافر، و كان من ضربه خرج منه ريح و استراح من القولنج- قلت: قد تقدّم الكلام قبل ذلك على هذا الطبل فى محلّه-. قال: «فوقع الطبل إلى بعض الأكراد فلم يدر ما هو فكسره، لأنّه ضرب عليه فخرج منه ريح فحنق و ضربه و كسره.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۳۶

قال: «و فرّق صلاح الدين الأموال التى أخذها من القصر فى العساكر، و باع بعض الجوارى و العبيد، و أعطى للقاضى الفاضل من الكتب ما أراد، و بعث إلى نور الدين بعمامة القائم و طيلسانه و هدايا و تحف و طيب و مائة ألف دينار. و كان نور الدين بحلب فلمّا حضرت بين يديه قال: و اللّه ما كان لى حاجة إلى هذا، ما وصل إلينا عشر معشار ما أنفقناه على العساكر التى جهّزناها إلى مصر، و ما قصدنا بفتحها إلّا فتح الساحل، [و قلع الكفّار منه]. و انقضت أيام الخلفاء المصريّين بوفاة العاضد، و عدّتهم أربعة عشر على عدد بنى أمية، إلّا أنّ أيّامهم طالت فملكوا مائتين و ثمانى سنين، و بنو أمية ملكوا نيّفا و تسعين سنة. قال: و أوّل المصريّين عبيد اللّه الملقّب بالمهدىّ».

قلت: ليس هو كما قال: إنّ عبيد اللّه أوّل خلفاء المصريّين، و إنما أوّلهم المعزّ لدين اللّه معدّ. نعم إن كان قصد بأن يكون أوّلهم ممّن دعى له على المنابر بالمغرب و أطلق عليه اسم الخليفة فيكون، و أمّا أنّه ملك مصر فلا. و يأتى بيان ذلك.

و قد تقدّم أيضا فى ترجمة المعزّ و غيره.

قال أبو المظفّر: «قال ابن عبد البرّ: هو عبيد اللّه بن محمد بن ميمون بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق- عليه السلام-. و الثانى ابنه أبو القاسم محمد و يلقّب بالقائم بأمر اللّه، و الثالث ابنه إسماعيل و يلقّب بالمنصور، و الرابع ابنه معدّ و يلقّب بالمعزّ لدين اللّه».

- قلت: و هذا المعز هو الذى تقدّم ذكره أنّه أوّل من ولى مصر من بنى عبيد، و بنى له جوهر القائد القاهرة، و هو أوّل خليفة سكن مصر من بنى عبيد؛ و لهذا

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۳۷

كنا نقول فى تراجمهم الأوّل من خلفاء مصر و الرابع ممّن ولى من آبائه بالمغرب، و على هذا سلكنا فى تراجمهم-.

قال: و الخامس ابنه نزار و يلقّب بالعزيز بالله، و السادس ابنه منصور و يلقب بالحاكم بأمر اللّه، و السابع ابنه علىّ و يلقّب بالظاهر لدين اللّه، و الثامن ابنه معدّ و يلقّب بالمستنصر بالله و قد ولى ستين سنة، و التاسع أبو القاسم أحمد و يلقّب بالمستعلى، و العاشر ابنه منصور و يلقّب بالآمر بأحكام اللّه، و انقطع نسله، و ولى ابن عمّه أبو الميمون عبد المجيد بن أبى القاسم بن المستنصر [و يلقّب بالحافظ لدين اللّه] و هو الحادى عشر، و الثانى عشر ولده إسماعيل و يلقّب بالظافر، و الثالث عشر أبو القاسم عيسى و يلقّب بالفائز بنصر اللّه، و الرابع عشر عبد اللّه بن يوسف بن الحافظ و يلقّب بالعاضد». انتهى كلام صاحب مرآة الزمان و غيره.

قلت-: فائدة جليلة- لم يل الخلافة أحد من الفاطميّين بعد أخيه، و هذا لم يقع لغيرهم. و أمّا عدد خلفاء بنى أمية فهم كما قال: أربعة

عشر، لكنه ما عدّهم، فنقول: هم معاوية بن أبى سفيان، ثم ابنه يزيد بن معاوية، ثم ابنه معاوية بن يزيد، ثم مروان بن الحكم، ثم ابنه عبد الملك بن مروان، ثم ابنه الوليد ابن عبد الملك، ثم أخوه سليمان بن عبد الملك، ثم ابن عمّه عمر بن عبد العزيز بن مروان، ثم يزيد بن عبد الملك، ثم أخوه هشام بن غبد الملك ثم الوليد الفاسق ابن يزيد بن عبد الملك، ثم ابن عمّه يزيد بن الوليد بن عبد الملك، المعروف بالناقص، ثم أخوه إبراهيم، ثم مروان بن محمد بن مروان بن الحكم المعروف بالحمار؛ و هو آخرهم، قتل بسيف بنى العباس. و قد خرجنا عن المقصود و لنعد إلى ترجمة العاضد و ما يتعلّق به.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۳۸

قلت: و كان وزير العاضد شاور. و شاور هذا هو الذى وقع له مع الأمير أسد الدين شيركوه الآتى ذكره ما وقع. يأتى ذلك كلّه فى ترجمة ابن أخيه السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب مفصّلا؛ لكن نذكر هنا من أحوال شاور المذكور نبذة كبيرة ليكون الناظر بعد ذلك فيما يأتى على بصيرة بترجمة شاور المذكور.

و كان شاور قد وزر للعاضد بعد قتل رزّيك ابن الملك الصالح طلائع بن رزّيك.

و كان دخوله إلى القاهرة من قوص فى سنة ثمان و خمسين و خمسمائة لمّا ملكها رزّيك، و دخل معه خلق كثير و نزل بدار سعيد السعداء، و دخل معه أولاده طيىء و شجاع. فلما وزر زاد الأجناد على ما كان لهم عشر مرّات. و كان يجلس و الأبواب مغلّقة عليه خيفة من حواشى رزّيك. و كان رزّيك أنشأ أمراء يقال لهم البرقية، و يقال لكبيرهم ضرغام. فولّى شاور ضرغاما المذكور الباب، و كان فارسا شجاعا، جمع على شاور حتى أخرجه من القاهرة و قتل ولده الأكبر المسمى بطيّئ، و بقى ابنه شجاع المنعوت بالكامل. فسار شاور إلى الشام، و استنجد بالملك العادل نور الدين محمود بن زنكى بن آق سنقر المعروف بالشهيد؛ فأرسل معه الملك العادل أحد أمرائه و هو الأمير أسد الدين شيركوه بن شادى. يأتى ذكر ذلك كلّه فى آخر هذه الترجمة، و أيضا فى ترجمة السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب بأوسع من هذا، بعد أن نذكر أقوال جماعة من المؤرّخين فى حقّ العاضد هذا و أحواله.

قال الحافظ أبو عبد اللّه الذهبىّ فى تاريخ الإسلام- بعد ما ساق نسبته إلى أن قال-: العبيدىّ الرافضىّ الذى زعم هو و بيته أنّهم فاطميّون، و هو آخر خلفاء مصر.

ولد سنة ستّ و أربعين و خمسمائة فى أوّلها. فلمّا هلك الفائز ابن عمّه و استولى الملك الصالح طلائع بن رزّيك الديار المصريّة، بايع العاضد و أقامه صورة، و كان كالمحجور عليه لا يتصرّف فى كلّ ما يريد، و مع هذا كان رافضيّا سبّابا خبيثا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۳۹

قال ابن خلّكان: كان إذا رأى سنّيا استحلّ دمه. و سار وزيره الملك الصالح طلائع بن رزّيك بسيرة مذمومة، و احتكر الغلّات فغلت الأسعار، و قتل أمراء الدولة خيفة منهم، و أضعف أحوال دولتهم، فقتل ذوى الرأى و البأس و صادر أولى الثروة. و فى أيام العاضد ورد حسين بن نزار بن المستنصر العبيدىّ من المغرب و قد جمع و حشد؛ فلمّا قارب مصر غدر به أصحابه و قبضوا عليه و أتوا به إلى العاضد فذبحه صبرا فى سنة سبع و خمسين. ثم قتل العاضد طلائع بن رزّيك و وزر له شاور؛ فكان سبب خراب دياره؛ و دخل أسد الدين إلى ديار مصر و قتل شاور، و مات أسد الدين شيركوه و قام فى الأمر ابن أخيه صلاح الدين يوسف ابن أيوب، و تمكّن فى المملكة. انتهى.

و قال القاضى جمال الدين بن واصل: حكى لى الأمير حسام الدين بن أبى علىّ قال: كان جدّى فى خدمة صلاح الدّين، فحكى أنّه لمّا وقعت هذه الواقعة (يعنى وقعة السودان بالقاهرة) التى زالت دولتهم فيها، و زالت آل عبيد من مصر (يأتى ذكر هذه الواقعة فى آخر ترجمة العاضد إن شاء اللّه تعالى) قال: و شرع صلاح الدين يطلب من العاضد أشياء من الخيل و الرقيق و الأموال ليتقوّى بذلك. قال: فسيّرنى يوما إلى العاضد أطلب منه فرسا و لم يبق عنده إلّا فرس واحد، فأتيته و هو راكب فى البستان المعروف بالكافورىّ الذى يلى القصر، فقلت: السلطان صلاح الدين يسلّم عليك و يطلب منك فرسا؛ فقال: ما عندى إلّا الفرس الذى أنا راكبه، و نزل عنه و شقّ خفّيه

و رمى بهما و سلّم إلىّ الفرس، فأتيت به صلاح الدين، و لزم العاضد بيته.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۴۰

و اشتغل صلاح الدين بالأمر و بقى العاضد معه صورة إلى أن خلعه و خطب فى حياته لأمير المؤمنين المستضىء بأمر اللّه العبّاسىّ، و أزال اللّه تلك الدولة المخذولة.

انتهى.

و قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة: اجتمعت بالأمير أبى الفتوح بن العاضد و هو مسجون مقيد فى سنة ثمان و عشرين و ستمائة، فحكى لى أن أباه فى مرضه استدعى صلاح الدين فحضر، فأحضرونا (يعنى أولاده) و نحن صغار فأوصاه بنا، فالتزم إكرامنا و احترامنا. ثم قال أبو شامة: و هم أربعة عشر خليفة و عدّهم نحوا ممّا ذكرناه، إلى أن قال: و يدّعون الشرف، و نسبتهم إلى مجوسىّ أو يهودىّ، حتّى اشتهر لهم ذلک بين العوامّ، فصاروا يقولون الدولة الفاطميّة و الدولة العلويّة، و إنما هى الدولة اليهودية و المجوسية الملحدة الباطنيّة. قال: و قد ذكر ذلک جماعة من العلماء الأكابر [و] أنهم لم يكونوا لذلک أهلا و لا نسبهم صحيحا بل المعروف أنهم بنو عبيد، و كان والد عبيد هذا من نسل القدّاح الملحد المجوسىّ. قال: و قيل إن والد عبيد هذا كان يهوديّا من أهل سلمية و كان جوادا. و عبيد كان اسمه سعيدا، فلمّا دخل المغرب تسمّى بعبيد اللّه و ادّعى نسبا ليس بصحيح؛ قال ذلک جماعة من علماء الأنساب. ثم ترقّت به الحال إلى أن ملک المغرب و بنى المهديّة و تلقّب بالمهدىّ، و كان زنديقا خبيثا عدوّا للإسلام، من أوّل دولتهم إلى آخرها، و ذلک من ذى الحجة سنة تسع و تسعين و مائتين إلى سنة سبع و ستين و خمسمائة. و قد بيّن نسبهم جماعة مثل القاضى أبى بكر الباقلانى، فإنّه كشف فى أوّل كتابه المسمّى

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۴۱

«كشف أسرار الباطنيّة» عن بطلانى نسب هؤلاء إلى علىّ- رضى اللّه عنه-، و كذلک القاضى عبد الجبار بن أحمد استقصى الكلام فى أصولهم. انتهى.

قلت. و قد ذكرنا نوعا من ذلک فى عدّة تراجم من هذا الكتاب من بنى عبيد المذكورين، و فى المحضر المكتتب من جهة الخليفة القائم بأمر اللّه العبّاسىّ و غيره و قال بعضهم: كانت وفاة العاضد فى يوم عاشوراء بعد إقامة الخطبة بيويمات قليلة فى أوّل جمعة من المحرّم لأمير المؤمنين المستضىء بالله، و العاضد آخر خلفاء مصر؛ فلمّا كانت الجمعة الثانية خطب بالقاهرة أيضا للمستضىء بسائر الجوامع، و رجعت الدعوة العبّاسيّة بعد أن كانت قد قطعت بها (أعنى الديار المصريّة و أعمالها) أكثر من مائتى سنة. و تسلّم السلطان الملک الناصر صلاح الدين يوسف بن أيّوب قصر الخلافة، و استولى على ما كان به من الأموال و الذخائر، و كانت عظيمة الوصف، و قبض على أولاد العاضد و حبسهم فى مكان واحد بالقصر، و أجرى عليهم ما يموّنهم و عفّى آثارهم، و قمع مواليهم و سائر نسائهم. قال: و كانت هذه الفعلة من أشرف أفعاله، فلنعم ما فعل؛ فإنّ هؤلاء كانوا باطنيّين زنادقة دعوا إلى مذهب التناسخ و اعتقاد حلول الجزء الإلهى فى أشباحهم. و قد قال الحاكم لداعيه: كم فى جريدتک؟ قال ستة عشر ألفا يعتقدون أنّک الإله. و قال قائلهم- و أظنّه فى الحاكم بأمر اللّه-:

[الكامل]

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهّار

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۴۲

قال: فلعن اللّه المدّاح و الممدوح؛ فليس هذا فى القبح إلّا كقول فرعون: أنا ربّكم الأعلى. و قال الحافظ شمس الدين الذهبىّ: و قال بعض شعرائهم فى المهدىّ- و هو غاية فى الكفر-:

[البسيط]

حلّ برقّادة المسیح حلّ بها آدم و نوح

حلّ بها اللّه فی علاه و ما سوی اللّه فهو ریح

قال: و هذا أعظم کفرا من النصاری؛ لأنّ النصاری یزعمون أن الجزء الإلهی حلّ بناسوت عیسی فقط، و هؤلاء یعتقدون حلوله فی جسد آدم و نوح و الأنبیاء و جمیع الأمة. هذا اعتقادهم. لعنهم اللّه!.

و قال القاضی شمس الدین بن خلّکان- رحمه اللّه-: سمعت جماعة من المصریّین یقولون: هؤلاء القوم فی أوائل دولتهم قالوا لبعض العلماء: اکتب لنا ألقابا فی ورقة تصلح للخلفاء، حتی إذا تولّی واحد لقّبوه ببعض تلک الألقاب.

فکتب لهم ألقابا کثیرة، و آخر ما کتب فی الورقة العاضد؛ فاتّفق أنّ آخر من ولی منهم تلقّب بالعاضد. و هذا من عجیب الاتّفاق. و أخبرنی أحد علماء المصریّین أیضا: أنّ العاضد المذکور فی آخر دولته رأی فی منامه أنّه بمدینة مصر، و قد خرجت إلیه عقرب من مسجد هو معروف بها، فلدغته. فلما استیقظ ارتاع لذلک فطلب بعض معبّری الرؤیا و قصّ علیه المنام؛ فقال: ینالک مکروه من شخص هو مقیم بالمسجد. فطلب والی مصر و قال له: اکشف عمّن هو مقیم بالمسجد الفلانیّ- و کان العاضد قد رأی ذلک المسجد- فإذا رأیت به أحدا أحضره إلیّ. فمضی الوالی

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۴۳

إلی المسجد فوجد به رجلا صوفیّا، فأخذه و دخل به إلی العاضد. فلمّا رآه سأله من أین هو، و متی قدم البلاد، و فی أیّ شیء قدم؟ [و هو یجاو به عن کلّ سؤال].

فلمّا ظهر منه ضعف الحال و الصدق و العجز عن إیصال المکروه إلیه أعطاه شیئا و قال له: یا شیخ، ادع لنا و خلّی سبیله، و خرج من عنده و عاد إلی المسجد. فلمّا استولی السلطان صلاح الدّین علی الدیار المصریّة و عزم علی قبض العاضد [و أشیاعه] و استفتی الفقهاء [و أفتوه] بجواز ذلک لما کان علیه من انحلال العقیدة و فساد الاعتقاد و کثرة الوقوع فی الصحابة و الاشتهار بذلک، فکان أکثرهم مبالغة فی الفتیا الصوفیّ المقیم بالمسجد، و هو الشیخ نجم الدین الخبوشانیّ. انتهی کلام ابن خلّکان.

و لمّا استولی السلطان صلاح الدین یوسف بن أیّوب علی مصر، کتب إلی الوزیر ببغداد علی ید شمس الدین محمد بن المحسّن بن الحسین بن أبی المضاء البعلبکّیّ الذی خطب أوّل شیء بمصر لبنی العبّاس بإشارة السلطان صلاح الدین، و کان الکتاب من إنشاء القاضی الفاضل عبد الرحیم البیسانیّ، و کان ممّا فیه:

«و قد توالت الفتوح غربا و یمنا و شاما، و صارت البلاد [بل الدنیا] و الشهر بل الدهر حرما حراما، و أضحی الدّین واحدا بعد ما کان أدیانا، و الخلافة إذا ذکّر بها أهل الخلاف لم یخرّوا علیها صمّا و عمیانا؛ و البدعة خاشعة، و الجمعة جامعة، و المذلّة فی شیع الضلال شائعة؛ و ذلک بأنّهم اتّخذوا عباد اللّه من دونه أولیاء، و سمّوا

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۴۴

أعداء اللّه أصفیاء؛ و تقطّعوا أمرهم [بینهم] شیعا، و فرّقوا أمر الأمة و کان مجتمعا؛ و کذّبوا بالنار فعجّلت لهم نار الجتوف، و نثرت أقلام الظّبا حروف رءوسهم نثر الأقلام للحروف؛ و مزّقوا کلّ ممزّق، و أخذ منهم کلّ مخنّق، و قطع دابرهم، و وعظ آئبهم غابرهم، و رغمت أنوفهم و منابرهم؛ و حقّت علیهم الکلمة تشریدا و قتلا، و تمّت کلمات ربّک صدقا و عدلا. و لیس السیف عمّن سواهم من [کفّار] الفرنج بصائم، و لا اللّیل عن السیر إلیهم بنائم. و لا خفاء عن المجلس الصاحبیّ أنّ من شدّ عقد خلافة و حلّ [عقد] خلاف، و قام بدولة و قعد بأخری قد عجز عنها الأخلاف و الأسلاف؛ فإنّه مفتقر إلی أن یشکر ما نصح، و یقلّد ما فتح، و یبلّغ ما اقترح، و یقدّم حقّه و لا یطّرح، و یقرّب مکانه و إن نزح؛ و تأتیه التشریفات الشریفة.

- ثم قال بعد کلام آخر-: و قد أنهض لإیصال ملطّفاته، و تنجیز تشریفاته؛ خطیب الخطباء بمصر، و هو الذی اختاره بمصر لصعود المنبر، و قام بالأمر قیام من برّ.

و استفتح بلبس السواد الأعظم، الذی جمع اللّه علیه السواد الأعظم».

ثم کتب السلطان صلاح الدّین إلی الملک العادل نور الدین یطلب منه أباه و أقاربه. و یأتی ذلک کلّه فی ترجمهٔ صلاح الدین مفصّلا، إن شاء اللّه تعالی.

و قد ذکرنا أقوال جماعهٔ من العلماء و المؤرّخین فی أحوال العاضد و تولیته و وفاته و نسبه.

و الآن نذکر الأسباب التی کانت سببا لذهاب ملک العاضد و زوال دولهٔ الفاطمیّین بنی عبید من دیار مصر، و ابتداء ملک بنی أیّوب علی سبیل الاختصار مجملا.

و قد ذکرنا ذلک کلّه فی التراجم و الحوادث علی عادهٔ سیاق هذا الکتاب من أوّله

النجوم الزاهرهٔ فی ملوک مصر و القاهرهٔ، ج۵، ص: ۳۴۵

إلی آخره؛ غیر أنّ الذی نذکره هنا متعلّق بالوزراء و کیفیّهٔ انفصال الدولهٔ الفاطمیهٔ و اتّصال الدولهٔ الأیّوبیّهٔ.

فأوّل الأمر قتل العاضد وزیره الملک الصالح طلائع بن رزّیک، و کنیته أبو الغارات الأرمنیّ الأصل. أقام وزیرا بمصر سبع سنین، و قد ذکرنا ابتداء أمره فی آخر ترجمهٔ الظافر و أوّل ترجمهٔ الفائز، و کان الفائز معه کالمحجور علیه. و لمّا مات الفائز أقام العاضد هذا فی الخلافهٔ، و تولّی تدبیر ملکه علی عادته، و ولّی شاور بن مجیر السعدیّ الصعید. ثم ثقل طلائع هذا علی العاضد فدبّر فی قتله. فلمّا کان عاشر شهر رجب سنهٔ ستّ و خمسین و خمسمائهٔ حضر الصالح طلائع إلی قصر الخلافهٔ، فوثب علیه باطنیّ فضر به بسکّین فی رأسه، ثم فی ترقوته فحمل إلی داره، و قتل الباطنیّ.

و مات الملک الصالح طلائع بن رزّیک من الغد، فحزن الناس علیه لحسن سیرته، و أقیم المأتم علیه بالقصر و بالقاهرهٔ و مصر. و کان جوادا ممدّحا فاضلا شاعرا کثیر الصدقات حسن الآثار، بنی جامعا خارج بابی زویلهٔ یعرف بجامع الصالح، و آخر بالقرافهٔ و تربهٔ إلی جانبه، و هو مدفون بها. و قام بعده فی الوزر أبنه رزّیک بن طلائع

النجوم الزاهرهٔ فی ملوک مصر و القاهرهٔ، ج۵، ص: ۳۴۶

ابن رزیک، و لقّب بمجد الإسلام. و فرح العاضد بقتل طلائع المذکور إلی الغایهٔ، و کان فی ذلک عکسه؛ علی ما یأتی: و هو أن رزّیک لمّا وزر مکان والده طلائع سار علی سیرهٔ أبیه، فلم یحسن ذلک ببال العاضد، فأحبّ ذهابه أیضا لیستبدّ بالأمور من غیر وزیر؛ فدسّ إلی شاور، فتحرّک شاور بن مجیر السعدیّ من بلاد الصعید و جمع أوباش الصعید من العبید و الأوغاد، و قدم إلی القاهرهٔ تحرابا لرزّیک.

فخرج إلیه رزیک بن طلائع و قاتله و العاضد فی الباطن مع شاور، فانهزم رزّیک.

و دخل شاور إلی القاهرهٔ و ملکها و أخرب دور الوزارهٔ و دور بنی رزّیک؛ و اختفی الوزیر رزّیک المذکور إلی أن ظفر به شاور و قتله. یأتی بعض ذکر ذلک فی الحوادث کلّ واحد علی حدته.

و تولّی شاور الوزارهٔ، فعلمل العاضد بأفعال قبیحهٔ و أساء السّیرهٔ فی الرعیّهٔ، و أخذ أمر مصر فی وزارته فی إدبار. و لمّا کثر ظلمه خرج علیه أبو الأشبال ضرغام بن عامر من الصعید- و قیل من مصر- و حشد. فخرج إلیه شاور بدسته فهزمه ضرغام، و قتل ولده الأکبر طییء؛ و خذل أهل القاهرهٔ شاور لبغضهم له.

النجوم الزاهرهٔ فی ملوک مصر و القاهرهٔ؛ ج۵؛ ص۳۴۶

رب شاور إلی الشام و دخل إلی السلطان الملک العادل نور الدین محمود بن زنکی المعروف بالشهید؛ فالتقاه نور الدین و أکرمه. فطلب شاور منه النجدهٔ و العساکر و أطمعه فی الدیار المصریهٔ، و قال له: أکون نائبک بها، و أقنع بما تعیّن لی من الضّیاع و الباقی لک. فأجّابه نور الدین لذلک و جهّز له العساکر مع الأمیر أسد الدین شیرکوه بن شادی الکردیّ، أحد أمراء نور الدین. و خرجوا من دمشق فی العشرین

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۴۷

من جمادى سنة سبع و خمسين و خمسمائة، و كان مع أسد الدين شيركوه ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيّوب فى خدمته. فلمّا و صلوا إلى القاهرة خرج إليهم أبو الأشبال ضرغام بن عامر بن سوار، فحار بهم أيّاما و وقع بينهم حروب و أمور يطول شرحها، إلى أن التقوا على باب القاهرة؛ فحمل ضرغام بنفسه فى أوائل الناس فطعن و قتل، و استقام أمر شاور. فكانت وزارة ضرغام تسعة أشهر. و استولى شاور ثانيا على القاهرة. و كان خبيثا سفّا كالدماء. و لمّا ثبت أمره ظهر منه أمارات الغدر بأسد الدّين شيركوه. فأشار صلاح الدين يوسف بن أيّوب على عمّه أسد الدين شيركوه بالتأخّر إلى بلبيس. و كان أسد الدين لا يقطع أمرا دون صلاح الدين، ففعل ذلك و خرج إلى بلبيس، و بعث أسد الدين يطلب من شاور رزق الجند (أعنى النفقة) فاعتذر و تعلّل عليه. فكتب أسد الدين إلى نور الدين يخبره بما جرى، و دسّ شاور إلى الفرنج رسلا يدعوهم إلى مصر و يبذل لهم الأموال، فاجتمع الفرنج من الساحل و ساروا من الدّاروم متّفقين مع شاور على أسد الدين شيركوه. فتهيّأ أسد الدين لحربهم و حاربهم فقوى الفرنج عليه و حاصروه بمدينة بلبيس نحو شهرين حتّى صالحهم أسد الدين على مال. و كان حصارهم له من أوّل شهر رمضان إلى ذى القعدة. و وقع بينهم حروب و أمور حتى بلغهم أنّ نور الدين

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۴۸

الشهيد قصد بلادهم من الشام؛ فعند ذلك رجعت الفرنج و صالحوا أسد الدين شيركوه، فعاد أسد الدين إلى الشام و هو فى غاية من القهر.

و أقام شاور بالقاهرة على عادته يظلم و يقتل و يصادر الناس، و لم يبق للعاضد معه أمر و لا نهى. و أقام أسد الدين بدمشق فى خدمة نور الدين إلى سنة اثنتين و ستين، فعاد بعساكر الشام إلى مصر ثانيا. و سببه أنّ العاضد لمّا غلب عليه شاور كتب إلى نور الدين يستنجده على شاور و أنّه قد استبدّ بالأمر و ظلم و سفك الدم. و كان فى قلب نور الدين من شاور حرازة لكونه غدر بأسد الدين شيركوه و استنجد عليه بالفرنج. فخرج أسد الدين بعساكر الشام من دمشق فى منتصف شهر ربيع الأوّل من سنة اثنتين و ستين المذكورة، و سار أسد الدين و معه ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيّوب حتّى نزل برّ الجيزة غربىّ مصر على بحر النيل. و كان شاور قد أعطى الفرنج الأموال و أقطعهم الإقطاعات و أنزلهم دور القاهرة و بنى لهم أسواقا تخصّهم. و كان مقدّم الفرنج الملك مرّى و ابن نيرزان.

فأقام أسد الدين على الجيزة شهرين، و عدّى إلى برّ مصر و القاهرة فى خامس عشرين جمادى الآخرة، و خرج إليه شاور و الفرنج. و رتّب شاور عساكره، فجعل الفرنج على الميمنة مع ابن نيرزان، و عسكر مصر فى الميسرة، و أقام الملك مرّى الفرنجىّ فى القلب فى عسكره من الفرنج. و رتّب أسد الدين عساكره فجعل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۴۹

صلاح الدين فى الميمنة؛ و فى الميسرة الأكراد، و أسد الدين فى القلب، فحمل الملك مرّى على القلب فتعتعه، و كانت أثقال المسلمين خلفه فاشتغل الفرنج بالنهب؛ و حمل صلاح الدين على شاور فكسره و فرّق جمعه. و عاد أسد الدين إلى ابن أخيه صلاح الدين و حملا على الفرنج فانهزموا، فقتلا منهم ألوفا و أسرا مائة و سبعين فارسا.

و طلبوا القاهرة، فلو ساق أسد الدين خلفهم فى الحال ملك القاهرة، و إنّما عدل إلى الإسكندرية فتلقّاه أهلها طائعين، فدخلها و ولّى عليها صلاح الدين.

فأقام صلاح الدين بها و سار أسد الدين إلى الصعيد فاستولى عليه، و أقام يجمع أمواله. و خرج شاور و الفرنج من القاهرة فحصروا الإسكندرية أربعة أشهر، و أهلها يقاتلون مع صلاح الدين و يقوّونه بالمال. و بلغ أسد الدين فجمع عرب البلاد و سار إلى الإسكندرية، فعاد شاور إلى القاهرة و راسل أسد الدين حتّى تمّ الصلح بينهم، و أعطى شاور أسد الدين إقطاعا بمصر و عجّل له مالا.

فعاد أسد الدين إلى الشام و معه صلاح الدين. و اعتذر أسد الدين إلى الملك العادل نور الدين محمود بكثرة الفرنج و المال. و رأى صلاح الدين لأهل الإسكندرية ما فعلوا، فلمّا ملك مصر بعد ذلك أحسن إليهم.

ثم إنّ الفرنج طلبوا من شاور أن يكون لهم شحنة بالقاهرة و يكون أبوابها بأيدى فرسانهم و تحمل إليهم فى كلّ سنة مائة ألف دينار، و من سكن منهم بالقاهرة يبقى على حاله و يعود بعض ملوكهم إلى الساحل؛ فأجابهم شاور إلى ما طلبوا منه.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۵۰

كل ذلك تقرّر بين شاور و الفرنج و العاضد لا يعلم بشيء منه. و سار بعض الفرنج إلى الساحل. و كان الملك العادل نور الدين محمود يخاف على مصر من غلبة الفرنج عليها، فسار بعساكره من دمشق و فتح المنيطرة و قلاعا كثيرة؛ فخاف من كان بمصر من الفرنج. و بيناهم فى ذلك عاد الفرنج من الساحل إلى نحو مصر فى سنة أربع و ستين، و طمعوا فى أخذها. و كان خروجهم من عسقلان و الساحل إلى نحو مصر فى أوائل السنة، و ساروا حتّى نزلوا ببلبيس، و أغاروا على الريف و أسروا و قتلوا.

هذا و قد تلاشى أمر الديار المصرية من الظلم و لم يبق للعاضد من الخلافة سوى الاسم و الخطبة لا غير.

فلمّا بلغ شاور فعل الفرنج بالأرياف، أخرج من كان بمصر من الفرنج بعد أن أساء فى حقّهم قبل ذلك، و قتل منهم جماعة كبيرة و هرب الباقون. ثم أمر شاور أهل مصر بأن ينتقلوا إلى القاهرة ففعلوا، و أحرق شاور مصر. و سار الفرنج من بلبيس حتّى نزلوا على القاهرة فى سابع صفر، و ضايقوها و ضربوها بالمجانيق. فلم يجد شاور بدّا أن كاتب الملك العادل نور الدين محمودا بأمر العاضد. و كان الفرنج لمّا و صلوا إلى مصر فى المرّتين الأوليين اطّلعوا على عوراتها و طمعوا فيها؛ و علم نور الدين بذلك فأسرع بتجهيز العساكر خوفا على مصر. ثم جاءته كتب شاور و العاضد؛ فقال نور الدين لأسد الدين شيركوه: خذ العساكر و توجّه إليها؛ و قال لصلاح الدين: اخرج مع عمّك أسد الدين؛ فامتنع و قال: يا مولاى، يكفى ما لقينا من الشدائد فى تلك المرّة.

فقال نور الدين: لا بدّ من خروجك؛ فما أمكنه مخالفة مخدومه نور الدين المذكور؛ فخرج مع عمّه، و ساروا إلى مصر. و بلغ الفرنج ذلك فرجعوا عن مصر إلى الساحل.

و قيل: إن شاور أعطاهم مائة ألف دينار. و جاء أسد الدين بمن معه من العساكر

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۵۱

و نزل على باب القاهرة. فاستدعاه العاضد إلى القصر و خلع عليه فى الإيوان خلعة الوزارة و لقّبه بالمنصور، و سرّ أهل مصر بذلك. و قيل: إنّه لم يستدعه، و إنّما بعث إليه بالخلع و الأموال و الإقامات؛ و كذلك إلى الأمراء الذين كانوا معه. و أقام أسد الدين مكانه و أرباب الدولة يتردّدون إلى خدمته فى كلّ يوم، و لم يقدر شاور على منعهم لكثرة العساكر و لكون العاضد مائلا إلى أسد الدين المذكور. فكاتب شاور أيضا الفرنج و استدعاهم و قال لهم: يكون مجيئكم إلى دمياط فى البحر و البرّ. فبلغ ذلك أعيان الدولة بمصر، فاجتمعوا عند الملك المنصور أسد الدين شيركوه و قالوا له:

شاور فساد العباد و البلاد، و قد كاتب الفرنج، و هو يكون سبب هلاك الإسلام. ثم إنّ شاور خاف لما تأخّر وصول الفرنج، فعمل فى عمل دعوة لأسد الدين المذكور و لأمرائه و يقبض عليهم. فنهاه ابنه الكامل و قال له: و اللّه لئن لم تنته عن هذا الأمر لأعرّفنّ أسد الدين. فقال له أبوه شاور: و اللّه لئن لم نفعل هذا لنقتلنّ كلّنا. فقال له ابنه الكامل: لأن نقتل و البلاد بيد المسلمين خير من أن نقتل و البلاد بيد الفرنج.

و كان شاور قد شرط لأسد الدين شيركوه ثلث أموال البلاد؛ فأرسل أسد الدين يطلب منه المال؛ فجعل شاور يتعلّل و يماطل و ينتظر وصول الفرنج؛ فابتدره أسد الدين و قتله.

و اختلفوا فى قتله على أقوال، أحدها أنّ الأمراء اتّفقوا على قتله لمّا علموا مكاتبته للفرنج، و أنّ أسد الدين تمارض، و كان شاور يخرج إليه فى كلّ يوم و الطبل و البوق يضربان بين يديه على عادة وزراء مصر.- قلت: و على هذا القول يكون قول من قال: إنّ

الغاضد خلع على أسد الدين شيركوه بالوزارة و لقّبه بالمنصور فى أوّل قدومه إلى مصر ليس بالقوىّ، و لعلّ ذلک يكون بعد قتل شاور، على ما سيأتى

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۵۲

ذكره.- فجاء شاور ليعود أسد الدين فقبض عليه و قتله. و الثانى أنّ صلاح الدين و جرديک اتّفقا على قتله و أخبرا أسد الدين فنهاهما، و قال: لا تفعلا، فنحن فى بلاده و معه عسكر عظيم، فأمسكا عن ذلک إلى أن اتّفق أنّ أسد الدين ركب إلى زيارة الإمام الشافعىّ- رضى اللّه عنه- و أقام عنده، فجاء شاور على عادته إلى أسد الدين فالتقاه صلاح الدين و جرديک و قالا: هو فى الزيارة انزل، فامتنع؛ فجذباه فوقع إلى الأرض فقتلاه. و الثالث أنّهما لمّا جذباه لم يمكنهما قتله بغير أمر أسد الدين فسحبه الغلمان إلى الخيمة و انهزم أصحابه عنه إلى القاهرة ليجيّشوا عليهم.

و علم أسد الدين فعاد مسرعا، و جاء رسول من العاضد برقعة يطلب من أسد الدين رأس شاور، و تتابعت الرّسل. و كان أسد الدين قد بعث إلى شاور مع الفقيه عيسى يقول: لک فى رقبتى أيمان، و أنا خائف عليک من الذى عندى فلا تجىء. فلم يلتفت و جاء على العادة فوقع ما ذكرناه. و لما تكاثرت الرسل من العاضد دخل جرديک إلى الخيمة و جزر رأسه، و بعث أسد الدين برأسه إلى العاضد فسرّبه. ثم طلب العاضد ولد شاور الملک الكامل و قتله فى الدّهليز و قتل أخاه، و استوزر أسد الدين شيركوه، و ذلک فى شهر ربيع الأوّل. و هذا الذى أشرنا إليه من أنّ ولاية أسد الدين للوزر كانت بعد قتل شاور.

و لما قتل شاور و ابنه الكامل، بعث العاضد منشورا بالوزارة لأسد الدين بخطّ القاضى الفاضل و عليه خطّ العاضد بما صورته:

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۵۳

«هذا عهد لم يعهد إلى وزير بمثله، فتقلّد ما أراک اللّه أهلا بحمله؛ و خذ كتاب أمير المؤمنين بقوّة، و اسحب ذيل الافتخار بخدمتک بيت النبوّة؛ و الزم حقّ الإمامة تجد إلى الفوز سبيلا، و لا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها و قد جعلتم اللّه عليكم كفيلا». ثم أرسل العاضد نسخة الأيمان إلى أسد الدين، و حلف كلّ واحد منهما لصاحبه على الوفاء و الطاعة و الصفاء. فتصرّف أسد الدين شهرين و مات. و لمّا احتضر أوصى إلى ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيّوب، فولّى صلاح الدين الوزارة و لقّب بالملک الناصر، على ما يأتى ذكر ذلک كلّه فى ترجمتهما بأوضح من ذلک.

و لمّا وزر صلاح الدين اختلف عليه جماعة من الأمراء عقيب وفاة أسد الدين.

و بلغ الملک العادل نور الدين اتّفاق الأمراء عليه بمصر؛ فقال له توران شاه بن أيّوب الذى لقّب بعد ذلک بالملک المعظّم، و كان أسنّ من صلاح الدين: يا مولانا، أريد أن أسير إلى أخى (يعنى إلى صلاح الدين) فقال له نور الدين: إن كنت تسير إلى مصر و ترى يوسف أخاک بعين أنّه كان يقف فى خدمتک و أنت قاعد فلا تسر، فإنّک تفسد العباد و البلاد فتحوجنى إلى عقوبتک بما تستحقّه، و إن كنت تسير إليه و ترى أنّه قائم مقامى و تخدمه كما تخدمنى، و إلّا فلا تذهب إليه. فقال:

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۵۴

يا مولانا، سوف يبلغک ما أفعل من الخدمة و الطاعة. و سار إلى مصر فتلقّاه صلاح الدين من بلبيس و خدمه و قدّم له المال و الخيل و التّحف، و أقام عنده على أحسن حال، و فعل ما ضمن لنور الدين من خدمة أخيه صلاح الدين، و قوى أمر صلاح الدين به و استقام أمره. كلّ ذلک و الخطبة باسم العاضد فى هذه السنين إلى سنة سبع و ستين و خمسمائة، على ما يأتى ذكره فى ترجمة السلطان صلاح الدين.

و لمّا تمّ أمر صلاح الدين بمصر خاف العاضد عاقبة أمره. و كان للعاضد خادم يقال له مؤتمن الخلافة، و كان مقدّم السودان و الخدم و المشار إليه بالقصر.

فأمره العاضد بقتال الترک و الغزّ. و اتّفق العسكر المصرىّ مع الخادم و ثاروا على الترک فقتلوا منهم جماعة. فركب صلاح الدين و

شمس الدولة و دخلا إلى باب القصر، و تقاتلا مع مؤتمن الخلافة، و أبلى شمس الدولة بلاء حسنا، و قتل الخادم مؤتمن الخلافة و جماعة كبيرة من السودان بعد حروب و قتال عظيم. فأرسل العاضد إلى صلاح الدين يتعتّب عليه و يقول له: فأين أيماناتكم! هذا الخادم جاهل فعل ما فعل بغير أمرنا فقال صلاح الدين: نحن على الأيمان و العهود ما نتغيّر، و ما قتلنا إلّا من قصد قتلنا. و قول العاضد: أين الأيمان و العهود يعنى بذلك أنّه لمّا مات أسد الدين شيركوه و أوصى لابن أخيه صلاح الدين المذكور اختلف جماعة من أمراء نور الدين الذين كانوا قدموا مع أسد الدين على صلاح الدين، و رام كلّ واحد منهم الأمر لنفسه استصغارا بصلاح الدين، و هم: عين الدين الياروقى رأس الأتراك، و سيف الدين المشطوب ملك الأكراد، و شهاب الدين محمود صاحب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۵۵

حارم و هو خال صلاح الدين، و جماعة أخر؛ فبادر العاضد و استدعى صلاح الدين و خلع عليه فى الإيوان خلعة الوزارة و كتب عهده و لقّبه الملك الناصر. و قيل:

الذى لقّبه بالملك الناصر إنّما هو الخليفة المستضىء العباسىّ بعد ذلك.

و لمّا ولى الوزارة شرع الفقيه عيسى فى تفريق البعض عن بعض، و أصلح الأمور لصلاح الدين، على ما يأتى فى ترجمة صلاح الدين بعد ذلك. و بذل صلاح الدين الأموال و أحسن لجميع العسكر الشامىّ و المصرىّ فأحبّوه و أطاعوه، و أقام نائبا عن نور الدين، يدعى لنور الدين على منابر مصر بعد الخليفة العاضد، و لصلاح الدين بعدهما. و استمرّ صلاح الدين على ذلك و الخطبة للعاضد، و قد ضعف أمره و قوى أمر صلاح الدين، حتّى كانت أوّل سنة سبع و ستين و خمسمائة، فكتب إليه الملك العادل نور الدين محمود يأمره بقطع الخطبة لبنى عبيد، و أن يخطب بمصر لبنى العبّاس. فخاف صلاح الدين من أهل مصر ألّا يجيبوه و لم يسعه مخالفة أمر نور الدين، و قال: ربّما وقعت فتنة لا تتدارك؛ فكتب الجواب إلى نور الدين يخبره بذلك، فلم يسمع منه نور الدين و خشّن عليه فى القول، و ألزمه إلزاما لا محيد عنه.

و مرض العاضد، فجمع صلاح الدين الأمراء و الأعيان و استشارهم فى أمر نور الدين بقطع الخطبة للعاضد و الدعاء لبنى العبّاس، فمنهم من أجاب و منهم من امتنع؛ و قالوا: هذا باب فتنة و ما يفوت ذلك، و الجميع أمراء نور الدين، فعاودوا نور الدين فلم يلتفت و أرسل إلى صلاح الدين يستحثّه فى ذلك؛ فأقامها و العاضد مريض. و اختلفوا فى الخطيب فقيل: إنّه رجل من الأعاجم يسمّى الأمير العالم، و قيل: هو رجل من أهل بعلبكّ يقال له محمد بن المحسّن بن أبى المضاء البعلبكّىّ

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۵۶

المقدّم ذكره الذى توجّه فى الرسلية من قبل صلاح الدين إلى بغداد، و قيل: إنّه كان رجلا شريفا عجميا، ورد من العراق أيام الوزير الملك الصالح طلائع بن رزّيك.

قلت: فأشبه أمر الفاطميّين فى هذا الأمر أمر العباسيين لمّا انتقلت الدعوة منهم إلى الفاطميّين بنى عبيد؛ فإنّه أوّل من خطب للمعزّ معدّ أوّل خلفاء مصر من بنى عبيد الخطيب عمر بن عبد السميع العبّاسىّ الخطيب بجامع عمرو و جامع أحمد ابن طولون، و هذا من باب المكافأة و المجازاة (أعنى أنّ الذى خطب لبنى عبيد كان عبّاسيا و الذى خطب لبنى العبّاس الآن علوىّ). انتهى أمر الفاطميّين. و أقيمت الخطبة لبنى العبّاس فى أوّل المحرّم، و العاضد مريض، فأخفى عنه أهله ذلك؛ و قيل:

بلغه، فأرسل إلى صلاح الدين يستدعيه ليوصيه، فخاف أن يكون خديعة فلم يتوجّه إليه.

و مات العاضد فى يوم عاشوراء سنة سبع و ستين و خمسمائة، و انقضت دولة الفاطميّين من مصر بموته. و ندم صلاح الدين على قطع خطبته، و قال: ليتنى صبرت حتّى يموت. ثمّ كتب صلاح الدين يخبر الملك العادل نور الدين بإقامة الدعوة العبّاسيّة بمصر. فكتب نور الدين كتابا إلى بغداد من إنشاء العماد الكاتب الأصبهانىّ، و فيه:

[الخفيف]

قد خطبنا للمستضیء بمصر نائب المصطفى إمام العصر

و لدینا تضاعفت نعم اللّ ه و جلّت عن کلّ عدّ و حصر

و استنارت عزائم الملک العا دل نور الدین الهمام الأغرّ

هو فتح بکر و دون البرایا خصّنا اللّه بافتراع البکر

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۵۷

و هی أطول من ذلک. و صفا الوقت لصلاح الدین و سمی السلطان، و صار یخطب باسمه على منابر مصر بعد الخلیفة العبّاسیّ و الملک العادل نور الدین محمود.

و کان ابتداء مرض العاضد من أواخر ذی الحجة سنة ست و ستین و خمسمائة. فلمّا کان رابع المحرّم سنة سبع و ستین جلس العاضد فی قصره بعد الإرجاف بأنّه أثخن فی مرضه، فشوهد و هو على ما حقّق الإرجاف من ضعف القوى و تخاذل الأعضاء و ظهور الحمّى. و قیل: إنّ الحمّى فشت بأعضائه، و أمسک طبیبه المعروف بابن السدید عن الحضور إلیه، و امتنع من مداواته و خدله، مساعدة علیه للزمان و میلا مع الأیام. ثم خطب فی سابع المحرّم باسم الخلیفة المستضیء بالله العبّاسیّ و صرّح باسمه و لقبه و کنیته بمصر، حسب ما تقدم ذکره. فمات العاضد بعد ذلک بثلاثة أیام فی یوم الاثنین یوم عاشوراء. و کان لموته بمصر یوم عظیم إلى الغایة، و عظم مصابه على المصریّین إلى الغایة، و وجدوا علیه وجدا عظیما لا سیّما الرافضة؛ فإنّ نفوسهم کادت تزهق حزنا لانقضاء دولة الرافضة من دیار مصر و أعمالها. و قد تقدّم التعریف بأحوال العاضد فی أوّل ترجمته من عدة أقوال، فلا حاجة لتکرار ذلک فی هذا المحل.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۵۸

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۵۶]

السنة الأولى من ولایة العاضد على مصر و هی سنة ستّ و خمسین و خمسمائة.

فیها توفی محمود بن نعمة الشیخ أبو الثناء الشّیرازیّ الشاعر المشهور. کان أدیبا فاضلا بارعا. و من شعره یعارض قول ابن سکّرة فی قوله:

[البسیط]

جاء الشتاء و عندی من حوائجه سبع إذا القطر عن حاجاتنا حبسا

کیس و کنّ و کانون و کأس طلا مع الکباب و کسّ ناعم و کسا

فقال الشّیرازیّ:

[الطویل]

یقولون کافات الشتاء کثیرة و ما هی إلّا فرد کاف بلا مرا

إذا صحّ کاف الکیس فالکلّ حاصل لدیک و کلّ الصید یوجد فی الفرا

و لغیره فی المعنى:

[الوافر]

و کافات الشتاء تعدّ سبعا و ما لی طاقة بلقاء سبع

إذا ظفرت بکاف الکیس کفی ظفرت بمفرد یأتی بجمع

و أمّا ما یشبه قول ابن سکّرة فکثیر. من ذلک ما قاله ابن قزل:

[البسيط]

عجّل إلىّ فعندى سبعة كملت و ليس فيها من اللّذات إعواز

طار و طبل و طنبور و طاس طلا و طفلة و طباهيج و طنّاز

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۵۹

قلت: لم يحك وفاته الشنب. و أكثر الصّفدىّ فى المعنى فقال:

[البسيط]

إن قدّر اللّه لى بالعمر و اجتمعت سبع فما أنا فى اللّذات مغبون

قصر و قدر و قوّاد و قحبته و قهوة و قناديل و قانون

و له أيضا:

[الطويل]

ثمانية إن يسمح الدهر لى بها فمالى عليه بعد ذلك مطلوب

مقام و مشروب و مزج و مأكل و ملهى و مشموم و مال و محبوب

و للّسراج الورّاق فى هذا المعنى أيضا- و هو عندى أقربهم لقول ابن سكّرة-:

[البسيط]

عندى فديتك لذّات ثمانية أنفى بها الحزن إن وافى و إن وردا

راح و روح و ريحان و ريق رشا و رفرف و رياض ناعم وردا

و لغيره فى المعنى:

[البسيط]

إذا بلغت من الدّنيا و لذّتها سبعا فإنّى فى اللذات سلطان

خمر و خود و خاتون و خاتمها و خضرة و خلاعات و خلّان

و قد خرجنا عن المقصود فى الاستطراد فى معنى هذين البيتين. و لنعد لما نحن بصدده.

و فيها كانت مقتلة وزير العاضد الملك الصالح طلائع بن رزّيك الأرمنىّ أبى الغارات، أقام وزيرا سبع سنين. و قد تقدّم ذكر طلائع هذا فى ترجمة جماعة من خلفاء مصر: الحافظ و الفائز و العاضد، و كيف كان قدومه إلى مصر و كيف قتل.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۶۰

و كان ملكا جوادا ممدّحا شاعرا بليغا. و من شعره من جملة أبيات، و كان قد خرج من الحمّام فقال:

[الخفيف]

نحن فى غفلة و نوّم و للمو ت عيون يقظانة لا تنام

قد دخلنا الحمّام عاما و دهرا ليت شعرى متى يكون الحمام

فقتل بعد قوله بثلاثة أيام. و من شعره أيضا إلى صديق له بالشام:

[البسيط]

أحباب قلبى إن شطّ المزار بكم فأنتم فى صميم القلب سكّان

و إن رجعتم إلى الأوطان إنّ لكم صدورنا عوض الأوطان أوطان

جاورتم غيرنا لمّا نأت بكم دار و أنتم لنا بالودّ جيران

فکیف ننساکم یوما لبعدکم عنا و أشخصکم للعین إنسان

و فیها توفّی القاضی الأعزّ أبو البرکات بن أبی جرادة، أخو القاضی ثقة الملک الحسن بن علیّ بن أبی جرادة. کان أبو البرکات هذا أمینا علی خزانة الملک العادل نور الدین الشهید، و کان فاضلا بلیغا. کتب إلی أخیه بمصر قصیدة منها:

[الطویل]

أحباب قلبی و الذین أودّهم و أشتاقهم فی کلّ صبح و غیهب

الذین ذکر الذهبیّ وفاتهم فی الإشارة، قال: و فیها توفّی أبو حکیم إبراهیم بن دینار النّهروانیّ الحنبلیّ الزاهد. و الملک الصالح طلائع بن رزّیک الأرمنیّ الرافضیّ.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۶۱

و أبو الفتح عبد الوهاب بن محمد بن الحسین بن الصابونیّ الخفّاف. و أبو محمد محمد ابن أحمد بن عبد الکریم التمیمیّ بن المادح.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم خمس أذرع و أربع عشرة إصبعا.

مبلغ الزیادة ثمانی عشرة ذراعا و سبع عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۵۷]

السنة الثانیة من ولایة العاضد علی مصر و هی سنة سبع و خمسین و خمسمائة.

فیها توفّی الحسین بن علیّ بن القاسم بن المظفّر قاضی القضاة أبو علیّ الشّهرزوریّ قاضی الموصل. کان عظیم الشأن عالما فاضلا عفیفا، رحمه اللّه.

و فیها توفّی الشیخ الصالح الزاهد عدیّ بن مسافر بن إسماعیل بن موسی بن مروان ابن الحسن بن مروان بن الحکم بن مروان، القدوة شرف الدین أبو الفضائل الأمویّ الهکّاریّ، استوطن لیلش من جبل الهکّاریّة إلی أن مات بها فی سنة ثمان، و قیل سنة سبع و خمسین و خمسمائة، و دفن بزاویته؛ و قبره بها ظاهر یزار. و کان فقیها عالما عابدا فصیحا متواضعا حسن الأخلاق مع کثرة الهیبة و الوقار، و هو أحد کبار

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۶۲

مشایخ الطریقة، و أحد العلماء الأعلام فیها. سلک فی المجاهدة طریقا صعبا بعیدا.

و کان القطب محیی الدین عبد القادر ینوّه بذکره و یثنی علیه کثیرا، و شهد له بالسلطنة (یعنی علی الأولیاء)، و قال: لو کانت النبوّة تنال بالمجاهدة لنا لها الشیخ عدیّ ابن مسافر. و کان فی أوّل أمره فی الجبال و الصحاری مجرّدا یأخذ نفسه بأنواع المجاهدات مدّة سنین، و کانت الحیّات و السباع تألفه، ثم عاد و سکن بزاویته.

و تلمذ له خلق کثیر من الأولیاء، و تخرّج بصحبته غیر واحد من ذوی الأحوال.

و کان له کلام علی لسان أهل الطریقة فی توحید الباریٔ عظیم. و مناقبه کثیرة یضیق هذا المحلّ عن استیعابها، رحمه اللّه.

الذی ذکرهم الذهبیّ وفاتهم فی هذه السنة، قال: و فیها توفّی أبو یعلی حمزة بن أحمد [بن فارس] بن کروّس السلمیّ الدمشقیّ. و الشیخ عدیّ بن مسافر الهکّاریّ الزاهد العارف، یوم عاشوراء. و أبو المظفّر هبة اللّه بن أحمد الشّبلیّ القصّار فی سلخ العام.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم أربع أذرع و عشر أصابع. مبلغ الزیادة سبع عشرة ذراعا و أربع أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۵۸]

السنة الثالثة من ولایة العاضد علی مصر و هی سنة ثمان و خمسین و خمسمائة.

فیها سار الملک العادل نور الدین محمود بن زنکی المعروف بالشهید إلی قتال قلیج أرسلان ابن السلطان مسعود صاحب بلاد الروم، و وقع له معه أمور و حروب.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۶۳

و فیها ظهر شاور بن مجیر السعدیّ و جمع جمعا کثیرا و قتل وزیر العاضد صاحب الترجمة رزّیک بن طلائع بن رزّیک، و تولّی الوزارة عوضه.

و فیها توفّی عبد المؤمن بن علیّ أبو محمد القیسیّ الکومیّ الذی قام بأمره محمد بن تومرت المعروف بالمهدیّ. قال ابن خلّکان: رأیت فی بعض تواریخ الغرب أن ابن تومرت کان قد ظفر بکتاب یقال له الجفر، و فیه ما یکون علی یده. فأقام ابن تومرت مدّه یتطلّبه حتی وجده و صحبه و هو إذ ذاک غلام، و کان یتفرّس فیه النجابة، و ینشد إذا أبصره:

[البسیط]

تکاملت فیک أوصاف خصصت بها فکلّنا بک مسرور و مغتبط

السنّ ضاحکة و الکفّ مانحة و النفس واسعة و الوجه منبسط

و کان یقول ابن تومرت لأصحابه: صاحبکم هذا غلّاب الدّول. و لم یصح عنه أنّه استخلفه، بل راعی أصحابه فی تقدیمه [إشارته]، فتمّ له الأمر. و أوّل ما أخذ من البلاد و هران ثم تلمسان ثم فاس ثم مرّاکش بعد أن حاصرها أحد عشر شهرا، و ذلک فی سنة اثنتین و أربعین و خمسمائة، و استوثق له الأمر و امتدّ ملکه إلی الغرب الأقصی و الأدنی و بلاد إفریقیّة، و تسمّی أمیر المؤمنین. و قصدته الشعراء و امتدحته.

ذکر العماد الکاتب الأصبهانیّ فی «کتاب الخریدة» أنّ الفقیه أبا عبد اللّه محمد بن أبی العبّاس لمّا أنشده:

[البسیط]

ما هزّ عطفیه بین البیض و الأسل مثل الخلیفة عبد المؤمن بن علی

أشار إلیه بأن یقتصر علی هذا البیت، و أمر له بألف دینار. و کانت وفاة عبد المؤمن المذکور فی العشر الأخیر من جمادی الآخرة، و کانت مدّة ولایته ثلاثا و ثلاثین سنة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۶۴

و أشهرا. و الکومیّ المنسوب إلیها هی کومیة قبیلة صغیرة نازلة بساحل البحر من أعمال تلمسان.

و فیها توفّی محمد بن عبد الکریم أبو عبد اللّه سدید الدولة بن الأنباری کاتب الإنشاء بدیوان الخلیفة. أقام کاتبا به نیّفا و خمسین سنة، و ناب فی الوزارة. و کان بینه و بین الحریریّ صاحب المقامات مکاتبات و مراسلات.

و فیها توفّی یحیی بن سعید النصرانیّ البغدادیّ أوحد زمانه فی الطّبّ و الأدب، له ستون مقامة ضاهی بها مقامات الحریریّ، و له شعر جیّد. من ذلک فی الشیب:

[الخفیف]

نفرت هند من طلائع شیبی و اعترتها سآمة من وجوم

هکذا عادة الشیاطین ینفر ن إذا ما بدت رجوم النجوم

الذین ذکرهم الذهبیّ وفاتهم فی هذه السنة؛ قال: و فیها توفّی الزاهد أبو العبّاس أحمد بن محمد بن قدامة. و أبو منصور شهردار بن شیرویه الدیلمیّ بهمذان. و صاحب الغرب عبد المؤمن بن علیّ بن علویّ القیسیّ التلمسانیّ فی جمادی الآخرة بمدینة سلا.

و الصاحب جمال الدين محمد بن علىّ الأصبهانىّ الملقّب بالجواد وزير الموصل.

أمر النيل فى هذه السنة الماء القديم خمس أذرع و ثلاث عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و ثمانى أصابع.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۶۵

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۵۹]

السنة الرابعة من ولاية العاضد على مصر و هى سنة تسع و خمسين و خمسمائة.

فيها توفّى الحسن بن محمد بن الحسن الشيخ أبو المعالى الوزكانىّ الفقيه الشافعىّ- و وركان: بلد بنواحى قاشان- كان إماما فى فنون العلوم، عاش نيّفا و ثمانين سنة.

و فيها توفّى محمد بن علىّ بن [أبى] المنصور الوزير أبو جعفر جمال الدين الأصبهانىّ وزير الأتابك زنكى و سيف الدين غازى و قطب الدين مودود، و كان هو الحاكم على الدولة. و كان بينه و بين زين الدين كوجك مصافاة و عهود و مواثيق.

و كانت الموصل فى أيامه ملجأ لكلّ ملهوف. و لم يكن فى زمانه من يضاهيه و لا يقاربه فى الجود و النّوال؛ و كان كثير الصّلات و الصدقات، بنى مسجد الخيف بمنى و غرم عليه أموالا عظيمة، و جدّد الحجر إلى جانب الكعبة، و زخرف البيت بالذهب، و بنى أبواب الحرم و شيّدها و رفع أعتابها صيانة للحرم؛ و بنى المسجد الذى على عرفة و الدرج الذى فيها، و أجرى الماء إلى عرفات، و عمل البرك و المصانع؛ و بنى على مدينة النّبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم سورا، و كانت الأعراب تنهبها، و كان الخطيب يقول على المنبر: اللّهمّ صن من صان حرم حريم نبيّك محمد صلى اللّه عليه و سلم. و كانت صدقاته تسير إلى المشرق و المغرب، رحمه اللّه تعالى.

و فيها توفّى أبو الفرج عبد اللّه بن أسعد بن علىّ بن عيسى الموصلىّ المعروف بابن الدهّان و بالحمصىّ أيضا، الفقيه الشافعى المنعوت بالمهذّب الشاعر المشهور.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۶۶

كان فصيحا فقيها فاضلا أديبا شاعرا، غلب عليه الشعر و اشتهر به، و له ديوان صغير و كلّه جيّد، و رحل البلاد و مدح بمصر الوزير الصالح طلائع بن رزّيك و غيره. و من شعره فى غلام لسبته نحلة فى شفته:

[الرمل]

بأبى من لسبته نحلة آلمت أكرم شى‌ء و أجلّ

أثّرت لسبتها فى شفة ما براها اللّه إلّا للقبل

حسبت أنّ بفيه بيتها إذ رأت ريقته مثل العسل

و من شعره أيضا:

[الكامل]

قالوا سلا، صدقوا، عن السّ لّوان ليس عن الحبيب

قالوا فلم ترك الزيا رة قلت من خوف الرقيب

قالوا فكيف يعيش مع هذا فقلت من العجيب

الذين ذكرهم الذهبىّ [وفاتهم] فى هذه السنة، قال: فيها توفّى أبو سعد عبد الوهاب بن الحسن الكرمانىّ آخر من روى عن ابن خلف و غيره. و السيد أبو الحسن علىّ بن حمزة العلوىّ الموسوىّ بهراة، و كان مسندها و له إحدى و تسعون سنة. و أبو الخير محمد بن

أحمد بن محمد الباغبان.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثمانى أذرع و ثمانى أصابع. مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا و عشر أصابع. و زاد بعد طلوع السّماک بعدّة أيام.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۶۷

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۶۰]

السنة الخامسة من ولاية العاضد على مصر و هى سنة ستين و خمسمائة.

فيها فتح الملک العادل نور الدين محمود بن زنكى الشهيد بانياس عنوة، و كان معه أخوه نصرة الدين، فأصابه سهم فأذهب إحدى عينيه؛ فقال له أخوه نور الدين:

لو كشف عما أعدّ لک من الأجر لتمنّيت ذهاب الأخرى، فحمد اللّه على ذلک.

و فيها فوّض الملک العادل شحنجية دمشق إلى صلاح الدين يوسف بن أيوب، فأظهر صلاح الدين السياسة و هذّب الأمور، و ذلک فى حياة والده و عمّه أسد الدين شيركوه.

و فيها توفّى أمير أميران نصرة الدين بن زنكى بن آق سنقر التركىّ أخو الملک العادل نور الدين المقدّم ذكره فى ذهاب عينه فى فتح بانياس. و كان أميرا شجاعا مقداما عزيزا على أخيه نور الدين محمود، و عظم مصابه عليه؛ رحمه اللّه.

و فيها توفّى حسّان بن تميم بن نصر الشيخ أبو الندى الدمشقىّ المحدّث، سمع الحديث و حجّ و مات فى شهر رجب، و دفن بمقبرة باب الفراديس.

و فيها توفّى الشيخ المعتقد محمد بن إبراهيم الكيزانىّ أبو عبد اللّه الواعظ المصرىّ.

قيل إنه كان يقول: إنّ أفعال العباد قديمة. و لمّا مات دفن عند قبر الإمام الشافعىّ بالقرافة الصغرى، و استمرّ هناک إلى أن نبشه الشيخ نجم الدين الخبوشانىّ فى أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب و أخرجه، فدفن بمكان آخر فى القرافة.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۶۸

و قبره معروف يقصد للزيارة. قيل إنّ الخبوشانىّ لمّا أراد نبشه قال: لا يتّفق مجاورة زنديق إلى صدّيق. ثم نبشه قال صاحب المرآة و غيره: كان (يعنى الكيزانىّ) زاهدا عابدا قنوعا من الدنيا باليسير. و له شعر جيّد، و ديوانه مشهور. و من شعره:

[الرمل]

اصرفوا عنّى طبيبى و دعونى و حبيبى

علّلوا قلبى بذكرا ه فقد زاد لهيبى

طاب هتكى فى هواه بين واش و رقيب

ما أبالى بفوات النّ فس ما دام نصيبى

ليس من لام و إن أط نب فيه بمصيب (۱)

جسدى راض بسقمى و جفونى بنحيبى

و من شعره أيضا قوله من أبيات:

[الكامل]

يا من يتيه على الزمان بحسنه اعطف على الصّبّ المشوق التائه

أضحى يخاف على احتراق فؤاده أسفا لأنّك منه فى سودائه

قلت: و للكيزانىّ كلام فى علم الطريق و لسان حلو فى الوعظ، و كان للناس فيه محبّة و لكلامه تأثير فى القلوب؛ و لا يلتفت لقول الخبوشانىّ فيه؛ لأنّهما أهل عصر واحد، و تهوّر الخبوشانىّ معروف، كما سيأتى ذكره فى وفاته إن شاء اللّه تعالى.

و فيها توفّى محمد بن عبد اللّه بن عبّاس الشيخ أبو عبد اللّه الحرّانىّ. كان شهد عند القاضى أبى الحسن الدامغانىّ الحنفىّ، و عاش حتّى لم يبق من شهوده غيره. و سمع الحديث، و صنّف كتابا سمّاه «روض الأدباء». قال الحافظ أبو الفرج عبد الرحمن

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۶۹

ابن الجوزىّ فى تاريخه: زرته يوما و أطلت الجلوس عنده؛ فقلت له: ثقّلت عليك. فأنشدنى- رحمه اللّه-:

[الوافر]

لئن سمّيت إبراما و ثقلا زيارات رفعت بهنّ قدرى

فما أبرمت إلّا حبل ودّى و لا ثقّلت إلّا ظهر شكرى

و كانت وفاته فى جمادى الاخرة.

و فيها توفّى يحيى بن محمد بن هبيرة بن سعيد بن حسن الشيبانىّ- قد رفع نسبه صاحب مرآة الزمان إلى عدنان- هو الوزير عون الدين أبو المظفّر بن هبيرة.

ولد سنة تسع و تسعين و أربعمائة بقرية الدّور من أعمال العراق، و قرأ بالروايات و سمع الحديث الكثير، و قرأ النحو و اللغة و العروض، و تفقّه على مذهب الإمام أحمد ابن حنبل رضى اللّه عنه، و صنّف الكتب الحسان. و كان قبل وزارته فقيرا؛ فلما أضرّ الفقر بحاله تعرّض للخدمة، فجعله الخليفة المقتفى مشرفا فى المخزن، ثم صار صاحب الديوان ثم استوزره، فسار فى الوزارة أجمل سيرة. و كان دينّا جوادا كريما. دخل عليه الحيص بيص الشاعر مرّة؛ فقال له ابن هبيرة: قد نظمت بيتين، تقدر أن تعزّزهما بثالث؟ قال: و ما هما؟ قال:

[البسيط]

زار الخيال بخيلا مثل مرسله ما شاقنى منه إلّا الضّمّ و القبل

ما زارنى قطّ إلّا كى يوافقنى على الرّقاد فينفيه و يرتحل

فقال الحيص بيص من غير رويّة:

و ما درى أنّ نومى حيلة نصبت لوصله حين أعيا اليقظة الحيل

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۷۰

فأعجبه و أجازه. و كانت وفاة ابن هبيرة فى جمادى الأولى فجأة، و له إحدى و ستون سنة.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أبو العبّاس أحمد ابن عبد اللّه [بن أحمد بن هشام] بن الحطيئة الفاسىّ الناسخ المقرئ بمصر.

و أبو النّدى حسّان بن تميم الزيّات. و الوزير أبو المظفّر سعيد بن سهل الفلكىّ فى شوّال. و أبو الحسن علىّ بن أحمد اللّبّاد بأصبهان. و علىّ بن أحمد بن مقاتل السّوسىّ الشّاغورىّ. و أبو القاسم عمر بن محمد بن البزرىّ الشافعىّ فقيه الجزيرة.

و أبو عبد اللّه محمد بن عبد اللّه بن العبّاس الحرّانىّ العدل ببغداد. و القاضى أبو يعلى الصغير شيخ الحنابلة محمد بن أبى خازم ابن القاضى أبى يعلى بن الفرّاء. و الشريف أبو طالب محمد بن محمد بن أبى زيد العلوىّ البصرىّ النقيب. و الوزير عون الدّين يحيى بن محمد بن هبيرة الشيبانىّ فى جمادى الأولى فجأة و له إحدى و ستون سنة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و خمس عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و ثمانى عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۶۱]

السنة السادسة من ولاية العاضد على مصر و هى سنة إحدى و ستين و خمسمائة.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۷۱

فيها هرب عزّ الدين محمد بن الوزير عون الدّين بن هبيرة من دار الخلافة، و كان صودر بعد موت والده.

و فيها توفّى عبد العزيز بن الحسين بن الحبّاب أبو المعالى القاضى الجليس السعدىّ، كان يجالس خلفاء مصر من بنى عبيد فسمّى الجليس. و كان أديبا مترسّلا شاعرا. و من شعره و أبدع:

[الطويل]

و من عجيب أنّ الصوارم فى الوغى تحيض بأيدى القوم و هى ذكور

و أعجب من ذا أنّها فى أكفّهم تأجّج نارا و الأكفّ بحور

و فيها توفّى شيخ الإسلام تاج العارفين محيى الدين أبو محمد عبد القادر بن أبى صالح موسى بن عبد اللّه بن يحيى الزاهد بن محمد بن داود بن موسى بن عبد اللّه ابن موسى الجون بن عبد اللّه المحض بن الحسن أبى محمد المثنّى بن الحسن بن علىّ ابن أبى طالب الهاشمىّ القرشىّ العلوىّ الجيلىّ الحنبلىّ السيد الشريف الصالح المشهور المعروف بسبط أبى عبد اللّه الصّومعىّ الزاهد. و كان يعرف بجيلان. و أمّه أمّ الخير أمة الجبّار فاطمة بنت أبى عبد اللّه الصّومعىّ. مولده بجيلان فى سنة إحدى و سبعين و أربعمائة. كان شيخ العراق صاحب حال و مقال، عالما عاملا قطب الوجود، إمام أهل الطريقة، قدوة المشايخ فى زمانه بلا مدافعة. و مناقبه و شهرته أشهر من أن تذكر. كان ممّن جمع بين العلم و العمل، أفتى و درّس و وعظ سنين، و نظم و نثر؛ و كان محقّقا، صاحب لسان فى التحقيق، و بيان فى الطريق. و هو أحد المشايخ الذين طنّ ذكرهم فى الشرق و الغرب. أعاد اللّه علينا من بركاته و بركات أسلافه الطاهرين.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۷۲

و فيها توفّى محمد بن حيدر بن عبد اللّه الشيخ أبو طاهر البغدادىّ الأديب الشاعر المعروف بابن شعبان. و من شعره من أوّل قصيدة:

[الطويل]

خليلىّ هذا آخر العهد منكما و منّى فهل من موعد نستجدّه

و فيها توفّى محمد بن يحيى بن محمد بن هبيرة أبو عبد اللّه عزّ الدّين ابن الوزير عون الدين. كان فاضلا كبير الشأن عظيم القدر. ناب عن أبيه فى الوزارة مدّة، ثم قبض عليه بعد موت أبيه و صودر و حبس، ثم هرب من محبسه خوفا على نفسه فلم يستتر أمره؛ و أخذ و قتل خنقا. و كان من بيت علم و فضل و رياسة.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أبو طاهر إبراهيم ابن الحسن بن الحصين الشافعىّ بدمشق. و أبو عبد اللّه الحسن بن العبّاس الرّستمىّ الشافعىّ فى صفر و له ثلاث و تسعون سنة. و أبو محمد عبد اللّه بن رفاعة بن غدير السّعدىّ الفرضىّ فى ذى القعدة و له أربع و تسعون سنة. و الحافظ أبو محمد عبد اللّه ابن محمد الأشيرىّ- و أشير: بين حمص و بعلبكّ- و أبو طالب عبد الرحمن بن الحسن بن العجمىّ بحلب. و القدوة الشيخ عبد القادر الجيلى شيخ العراق و له تسعون سنة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ست أذرع و إحدى عشرة إصبعا. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و ثلاث و عشرون إصبعا.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۷۳

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۶۲]

السنة السابعة من ولاية العاضد على مصر و هى سنة اثنتين و ستين و خمسمائة.

فيها تزوّج الخليفة المستنجد بالله بابنة عمّه أبى نصر بن المستظهر، و دخل بها فى شهر رجب ليلة الدعوة التى كان يعملها فى كلّ سنة للصوفيّة و غيرهم؛ و غنّى المغنّى:

[الطويل]

يقول رجال الحىّ تطمع أن ترى محاسن ليلى مت بداء المطامع

و كيف ترى ليلى بعين ترى بها سواها و ما طهّرتها بالمدامع

و تلتذّ منها بالحديث و قد جرى حديث سواها فى خروق المسامع

و كان مع الصوفية رجل من أهل أصبهان، فقام قائما و جعل يقول للمغنّى:

«أى خواجا كفت» و هو يكرّر ذلك، و المغنّى يعيد الأبيات حتى وقع الرجل ميتا؛ فصار ذلك الفرح مأتما؛ و بكى الخليفة و الصوفيّة و لا زالوا يتراقصون حوله إلى الصباح، فحملوه إلى الشّونيزيّة فدفنوه بها، و كان له مشهد عظيم.

و فيها عاد الأمير أسد الدين شيركوه بعساكر دمشق إلى مصر، و هى المرّة الثانية. و قد تقدّم ذلك كلّه فى ترجمة العاضد.

و فيها احترقت اللّبّادون و باب الساعات بدمشق حريقا عظيما صار تاريخا.

و سببه أنّ بعض الطبّاخين أو قد نارا عظيمة تحت قدر هريسة و نام، فاحترقت دكّانه و لعبت النار فى اللّبّادين و غيرها إلى أن عظم الأمر.

و فيها توفّى أحمد بن علىّ بن الزّبير القاضى الرشيد. كان أصله من أسوان و سكن مصر، و كان من شعراء شاور بن مجير السّعدىّ، و له فيه مدائح، إلّا أنّه لم ينج من شرّ

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۷۴

شاور، اتّهمه بمكاتبة أسد الدين شيركوه فقتله. و كان فاضلا شاعرا، و له التصانيف المفيدة، من ذلك كتاب «جنّات الحنان و رياض الأذهان» ذيّل به على اليتيمة.

و من شعره:

[الطويل]

تواطا على ظلمى الأنام بأسرهم و أظلم من لاقيت أهلى و جيرانى

لكل امرئ شيطان جنّ يكيده بسوء ولى دون الورى ألف شيطان

و فيها توفّى يحيى بن عبد اللّه بن القاسم القاضى تاج الدين الشّهرز ورىّ. كان إماما فاضلا شاعرا فصيحا، مات بالموصل. و من شعره يوازن قصيدة مهيار التى يقول فيها:

[المتقارب]

و عطّل كئوسك إلّا الكبار تجد للصغار أناسا صغارا

و فيها توفّى محمد بن الحسن [بن محمد] بن على العلّامة أبو المعالى بن حمدون الكاتب، الملقّب كافى الكفاة، بهاء الدين البغدادىّ.

كان فاضلا ذا معرفة تامّة بالأدب و الكتابة من بيت مشهور بالرياسة و الفضل هو و أبوه و أخواه أبو نصر و أبو المظفّر. و أبو المعالى هذا هو مصنّف كتاب «التذكرة» و هو من أحسن التصانيف، يشتمل على التاريخ

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۷۵

و الأدب و الأشعار، وقفت عليه و هو فى غاية الحسن. و كان ابن حمدون المذكور صاحب ديوان الخليفة المستنجد العباسىّ، و روى عن المستنجد قول أبى حفص الشّطرنجىّ فى جارية حولاء، و هو:

[الطويل]

حمدت إلهى إذ بليت بحبّها و بى حول يغنى عن النظر الشّزر

نظرت إليها و الرقيب يخالنى نظرت إليه فاسترحت من العذر

و قال ابن خلّكان: إنّه توفّى ببغداد فى يوم الأربعاء من شهر رجب سنة خمس و سبعين و خمسمائة، بخلاف ما ذكرناه من قول أبى المظفّر.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: فيها توفّى أبو البركات الخضر ابن شبل بن الحسين بن عبد الواحد خطيب دمشق. و الحافظ أبو سعد عبد الكريم [بن محمد] بن منصور التميمىّ السّمعانىّ تاج الإسلام محدّث خراسان فى شهر ربيع الأوّل و له ست و خمسون سنة. و أبو عروبة عبد الهادى بن محمد بن عبد اللّه بن عمر بن مأمون السجستانىّ الزاهد. و جمال الأئمة بن الماسح أبو القاسم علىّ بن الحسن الكلابىّ الدمشقىّ فى ذى الحجّة. و أبو الحسن علىّ بن مهدىّ بن

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۷۶

الهلال الطبيب. و العلّامة أبو شجاع عمر بن محمد البسطامىّ ثم البلخىّ. و أبو عاصم قيس بن محمد السّويقىّ المؤذّن. و أبو عبد اللّه محمد بن إبراهيم بن ثابت المصرىّ الكيزانىّ الواعظ فى المحرّم. و أبو المعالى محمد بن محمد فى شهر ربيع الآخر.

و المبارك بن المبارك بن صدقة السمسار. و أبو طالب المبارك بن خضير الصيرفىّ.

و أبو الفرج مسعود بن الحسن الثقفىّ فى رجب و له مائة سنة. و أبو القاسم هبة اللّه ابن الحسن الدقّاق فى المحرّم.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و أربع و عشرون إصبعا. مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعا و ثلاث و عشرون إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۶۳]

السنة الثامنة من ولاية العاضد على مصر و هى سنة ثلاث و ستين و خمسمائة.

فيها أبيع الورد ببغداد مائة رطل بقيراط و حبّة.

و فيها زاد ظلم أبى جعفر بن البلدىّ وزير الخليفة، و استغاث أهل بغداد منه.

و فيها توفّى ظافر بن القاسم الأديب أبو منصور الجذامىّ الإسكندرىّ المعروف بالحدّاد الشاعر المشهور. كان فصيحا فاضلا بليغا. و شعره فى غاية الحسن. و هو صاحب القصيدة الذالية التى أوّلها:

[الكامل]

لو كان بالصبر الجميل ملاذه ما سحّ و ابل دمعه و رذاذه

ما زال جيش الحبّ يغزو قلبه حتّى و هى و تقطّعت أفلاذه

لم يبق فيه من الغرام بقيّة إلّا رسيس يحتويه جذاذه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۷۷

من كان يرغب فى السلامة فليكن أبدا من الحدق المراض عياذه

لا تخدعنّك بالفتور فإنّه نظر يضرّ بقلبك استلذاذه

يأيّها الرّشأ الذى من طرفه سهم إلى حبّ القلوب نفاذه

درّ يلوح بفيك من نظّامه خمر يجول عليه من نبّاذه

و قناة ذاك القدّ كيف تقوّمت و سنان ذاك اللّحظ ما فولاذه

رفقا بجسمك لا يذوب فإنّنى أخشى بأن يجفو عليه لاذه

هاروت يعجز عن مواقع سحره و هو الإمام فمن ترى أستاذه

تاللّه ما علقت محاسنك امرأ إلّا و عزّ على الورى استنقاذه

أغربت حبّك بالقلوب فأذعنت طوعا و قد أودى بها استحواذه

مالى أتيت الحبّ من أبوابه جهدى فدام نفاره و لواذه

إيّاك من طمع المنى فعزيزه كذليله و غنّيه شحّاذه

و منها:

دالّية ابن دربد استهوى بها قوما غداة نبت به بغداذه

دانوا لزخرف قوله فتفرّقت طمعا بهم صرعاه أو جذاذه

و يحكى أنّ ابن ظفر أمير الإسكندريّة أحضره مرّة ليبرد له خاتما قد ضاق فى خنصره؛ فقال ظافر المذكور:

[السريع]

قصّر عن أوصافك العالم فاعترف الناثر و الناظم

من يكن البحر له راحة يضيق عن خنصره الخاتم

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۷۸

و كانت وفاته فى هذه السنة. و قال ابن خلّكان: فى سنة تسع و عشرين و خمسمائة.

و فيها توفّى عبد الكريم بن محمد بن منصور بن محمد بن عبد الجبّار الإمام الحافظ أبو سعيد بن السّمعانىّ التميمىّ، مولده بمرو. و كان إماما فاضلا محدّثا فقيها. ذيّل على تاريخ أبى بكر الخطيب، و رحل إلى دمشق. قال ابن عساكر: ثمّ عاد من دمشق إلى بغداد فسمّع تاريخ الخطيب و ذيّله، و عاد إلى خراسان و عبر النهر، و حدّث ببلخ و هراة. و صنّف كتابا سماه «فرط الغرام إلى ساكنى الشام» و أرسل به إلى دمشق و هو بخطّه فى ثمانية أجزاء تشتمل على أخبار و حكايات. و مات بمرو فى شهر ربيع الأوّل.

و فيها توفّى الأمير زين الدّين علىّ بن بكتكين بن مظفّر الدّين كوكبورى، المعروف كوجك، التركىّ. كان حاكما على الموصل و غيرها، و كان حسن السّيرة عادلا فى الرعيّة.

و كان أوّلا بخيلا مسيكا، ثمّ إنّه جاد فى آخر عمره، و بنى المدارس و القناطر و الجسور.

و حكى أنّ بعض الجند جاءه بذنب فرس و قال له: مات فرسى، فأعطاه عوضه؛ و أخذ ذلك الذنب آخر و جاءه به و قال له: مات فرسى، فأعطاه عوضه؛ و لا زال يتداول الذنب اثنا عشر رجلا، و هو يعلم أنّه الأوّل و يعطيهم الخيل. فلمّا أعجزوه أنشد:

[الكامل]

ليس الغبىّ بسيّد فى قومه لكنّ سيّد قومه المتغابى

فعلموا أنّه علم فتركوه. و لما كبر سنّه سلّم البلاد إلى قطب الدين مودود، و قال له:.

إنّك لا تنتفع بى، فقد كبرت و ضعفت قوّتى و خاننى سمعى و بصرى. و كان الأتابك

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۷۹

زنكى قد أعطاه إربل، فمضى إليها و أقام بها حتّى مات فى ذى الحجّة. و كانت أيّامه على الموصل إحدى و عشرين سنة و نصفا. و ملك بعده ابنه زين الدّين يوسف ابن علىّ بن مظفّر الدّين كوكبورى.

و فيها توفّى محمد بن عبد الحميد أبو الفتح علاء الدّين الرازىّ السّمرقندىّ صاحب «التعليقة» و «المعترض و المختلف» على مذهب الإمام الأعظم أبى حنيفة، رضى اللّه عنه. و كان إماما بارعا مفتّنا، كان من فرسان الكلام؛ قدم بغداد و ناظر و برع وفاق أهلها. و كان شحيحا بكلامه؛ فكانوا يوردون عليه أسئلة و هو عالم بأخوبتها، فيكاد ينقطع و لا يذكرها لشحّه و لئلّا تستفاد منه؛ و علم ذلك منه علماء عصره. و قيل: إنّه تنسّك و ترك المناظرة مع شهادة أهل عصره من العلماء له بالسّبق و الفضيلة.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أبو المعالى أحمد ابن عبد الغنى الباجسرائىّ. و القاضى الرشيد أبو الحسين [أحمد بن] علىّ بن الزّبير الأسوانى الكاتب بمصر. و أبو المظفّر أحمد بن محمد بن علىّ الكاغدىّ فى رجب ببغداد. و أبو بكر أحمد بن المقرّب الكرخىّ فى ذى الحجّة. و أبو المناقب حيدرة بن عمر بن إبراهيم العلوىّ الزّيدىّ فى ذى الحجّة بالكوفة. و أبو طاهر الخضر بن الفضل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۸۰

الصّفّار، و يعرف بزحل، فى جمادى الأولى، و له إجازة عالية. و أبو الفضل شاكر ابن علىّ الأسوارىّ. و أبو محمد عبد اللّه بن علىّ الطّامذىّ المقرئ بأصبهان فى شعبان. و الشيخ العلّامة أبو النجيب عبد القاهر بن عبد اللّه السهروردىّ عن ثلاث و سبعين سنة. و أبو الحسن علىّ بن عبد الرحمن الطّوسىّ بن تاج القرّاء.

و عمرو بن سمّان البغدادىّ. و أبو الحسن محمد بن إسحاق بن محمد بن الصابئ.

و الشريف الخطيب أبو الفتوح ناصر بن الحسن الحسينىّ المقرئ بمصر. و أبو بكر محمد ابن علىّ [بن عبد اللّه] بن ياسر الجيّانىّ الأندلسىّ. و نفيسة بنت محمد بن علىّ البزّازة.

و الصائن هبة اللّه بن الحسن بن هبة اللّه بن عساكر فى شعبان و له خمس و سبعون سنة. و أبو المظفّر هبة اللّه بن عبد اللّه بن أحمد بن السّمرقندىّ. و أبو الغنائم هبة اللّه بن محفوظ بن صصرى. و مدرّس النّظاميّة أبو الحسن يوسف بن عبد اللّه ابن بندار الدمشقىّ.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و أربع عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و ثلاث و عشرون إصبعا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۸۱

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۶۴]

السنة التاسعة من ولاية العاضد على مصر و هى سنة أربع و ستين و خمسمائة.

فيها ملك السلطان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى الشّهيد قلعة جعبر من صاحبها ابن مالك العقيلىّ.

و فيها قدم أسد الدين شيركوه إلى الديار المصريّة و معه ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيّوب لقتال الفرنج. و هذه قدمته إلى مصر الثالثة التى ملك فيها مصر، حسب ما تقدّم ذكره فى ترجمة العاضد: من قتله لشاور، و توليته الوزر للعاضد، و وفاته بديار مصر، و تولية صلاح الدين يوسف بعده.

و فيها توفّى حميد بن مالك بن مغيث بن نصر بن منقذ الأمير أبو الغنائم الكنانىّ.

مولده بشيزر، ثمّ انتقل منها و سكن دمشق، ثم رحل إلى حلب و مات بها فى شعبان.

و كان أديبا فاضلا شاعرا.

و فيها توفّى عبد الخالق بن أسد بن ثابت الإمام أبو محمد الدّمشقىّ الحنفىّ. كان فقيها مفتّنا عارفا بالحديث و فنون العلوم، و درس بالصادريّة بدمشق و مات بها.

و من شعره:

[الکامل]

قال العواذل ما اسم من أضنی فؤادک قلت أحمد

قالوا أتحمده و قد أضنی فؤادک قلت أحمد

الذی ذکر الذهبیّ وفاتهم فی هذه السنة، قال: و فیها توفّی الأمیر مجیر الدّین [آبق بن محمد] بن بوری بن طغتکین الذی أخذ منه نور الدین دمشق، ثم صار

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۸۲

أمیرا ببغداد. و الملک أبو شجاع شاور بن مجیر بن نزار السعدیّ، وزیر العاضد، قتله جردیک النّوریّ. و الملک المنصور أسد الدین شیرکوه بن شادی فجأة بعد شاور بشهرین. و أبو محمد عبد الخالق بن أسد الحنفیّ الحافظ فی المحرّم. و أبو الحسن علیّ ابن محمد بن علیّ البلنسیّ المقرئ فی رجب و له أربع و تسعون سنة. و قاضی القضاة زکیّ الدّین علیّ بن المنتخب [محمد بن] یحیی القرشیّ الدمشقیّ فی شوّال غریبا ببغداد و له سبع و خمسون سنة. و أبو الفتح محمد بن عبد الباقی بن البطّیّ الحاجب مسند العراق فی جمادی الأولی و له سبع و ثمانون سنة. و الحافظ أبو أحمد معمر ابن عبد الواحد القرشیّ بن الفاخر الأصبهانیّ فی ذی القعدة بطریق الحجاز و له سبعون سنة.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم ستّ أذرع و ثمانی أصابع. مبلغ الزیادة ست عشرة ذراعا و اثنتا عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۶۵]

السنة العاشرة من ولایة العاضد علی مصر، و قد وزر له الملک الناصر صلاح الدّین یوسف بن أیّوب، و لم یکن له مع صلاح الدین إلّا مجرّد الاسم فقط، و هی سنة خمس و ستین و خمسمائة.

فیها نزل الفرنج علی دمیاط یوم الجمعة فی ثالث صفر، و جدّوا فی القتال، و أقاموا علیها ثلاثة و خمسین یوما یحاصرونها لیلا و نهارا. و نذکر هذه الواقعة بأوسع من هذا فی أوّل ترجمة صلاح الدّین إن شاء اللّه.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۸۳

و فیها توفّی حمّاد بن منصور البزاعیّ الحلبیّ و یعرف بالخرّاط. کان أدیبا شاعرا فصیحا. و من شعره فی کریم:

[الخفیف]

ما نوال الغمام وقت ربیع کنوال الأمیر وقت سخاء

فنوال الأمیر بدرة مال و نوال الغمام قطرة ماء

قلت: و من الغایة فی هذا المعنی قول الشیخ علاء الدین علیّ الوداعیّ.

[البسیط]

من زار بابک لم تبرح جوارحه تروی أحادیث ما أولیت من منن

فالعین عن قرّة و الکفّ عن صلة و القلب عن جابر و السمع عن حسن

و فیها توفّی محمد بن إبراهیم بن هانیء أبو القاسم المغربیّ. کان من شعراء الخلفاء الفاطمیّین. و من شعره من أوّل قصیدة مدح بها بعض خلفاء مصر:

[الرمل]

امسحوا عن ناظری کحل السّهاد و انفضوا عن مضجعی شوک القتاد

أو خذوا منّی الذی أبقیتم ما أحبّ الجسم مسلوب الفؤاد

و فیها توفّی مودود بن زنکی بن آق سنقر الملک قطب الدّین صاحب الموصل و أخو السلطان الملک العادل نور الدین محمود الشهید. و لمّا احتضر مودود هذا

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۸۴

أوصی بالملک لولده عماد الدین زنکی، و کان أکبرهم و أعزّهم علیه. و کان الحاکم علی الموصل فخر الدین عبد المسیح، و کان یکره عماد الدّین زنکی هذا؛ و کان عماد الدین قد أقام عند عمّه نور الدین محمود بحلب مدّة و تزوّج بابنته، فلا زال فخر الدین المذکور بقطب الدین مودود حتّی جعل العهد من بعده لولده سیف الدین غازی و عزل عماد الدین زنکی؛ فعزّ ذلک علی نور الدین و قصد الموصل و قال: أنا أحقّ بتدبیر ملک أولاد أخی.

الذین ذکرهم الذهبیّ فی هذه السنة، قال: و فیها توفّی أبو بکر عبد اللّه ابن محمد بن أحمد بن النّقور البزّاز فی شعبان عن إحدی و ثمانین سنة. و أبو المکارم عبد الواحد بن محمد بن المسلّم بن الحسن بن هلال الأزدیّ العدل فی جمادی الآخرة.

و أبو القاسم محمود بن عبد الکریم الأصبهانیّ التاجر. و صاحب الموصل قطب الدین مودود ابن أتابک زنکی.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم خمس أذرع و ثمانی عشرة إصبعا.

مبلغ الزیادة ست عشرة ذراعا و أربع عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۶۶]

اشارة

السنة الحادیة عشرة من ولایة العاضد علی مصر، و تحکّم وزیره الملک الناصر صلاح الدین یوسف بن أیّوب، و هی سنة ست و ستین و خمسمائة.

فیها سار الملک العادل نور الدین محمود من دمشق إلی الموصل و سلّمها لابن أخیه عماد الدین زنکی بعد أمور وقعت بینه و بین فخر الدین عبد المسیح المقدّم ذکره فی الماضیة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۸۵

و فیها بنی الملک الناصر صلاح الدین یوسف بن أیّوب مدرسة للشافعیّة، و کان موضعها حبس المعونة، و بنی بها أیضا مدرسة للمالکیّة تعرف بدار الغزل. و ولّی صدر الدّین عبد الملک بن درباس الکردیّ القضاء بالقاهرة.

و فیها فی جمادی الآخرة خرج صلاح الدّین یوسف بن أیّوب بعساکر العاضد إلی الشام فأغار علی غزّة و عسقلان و الرملة و مضی إلی أیلة، و کان بها قلعة فیها

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۸۶

جماعة من الفرنج، و التقاه الأسطول فی البحر؛ فافتتحها و قتل من فیها و شحنها بالرجال و العدد؛ و کان علی درب الحجاز منها خطر عظیم. ثم عاد صلاح الدین إلی مضر فی جمادی الآخرة.

و فیها فی شعبان اشتری تقیّ الدین عمر بن شاهنشاه منازل العزّ بمصر، و عملها مدرسة للشافعیّة.

و فیها توفّی الخلیفة المستنجد بالله أمیر المؤمنین أبو المظفر یوسف بن المقتفی لأمر اللّه محمد بن المستظهر بالله أحمد بن المقتدی

بأمر اللّه عبد اللّه الهاشمىّ العباسىّ البغدادىّ. استخلف يوم مات أبوه فى شهر ربيع الآخر سنة خمس و خمسين و خمسمائة.
و مولده فى سنة ثمانى عشرة و خمسمائة. و أمّه أمّ ولد تسمى «طاوس» كرجيّة، أدركت خلافته. و كان المستنجد أسمر طويل اللّحية معتدل القامة شجاعا مهيبا عادلا فى الرعيّة ذكيا فصيحا فطنا، أزال المظالم و المكوس. و كانت وفاته فى يوم السبت ثامن شهر ربيع الآخر، و دفن بداره. و كانت خلافته إحدى عشرة سنة و شهرا.
أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم سبع أذرع سواء. مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعا و إحدى و عشرون إصبعا.
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۸۷

ذكر ولاية أسد الدين شيركوه على مصر

و قد اختلف المؤرّخون فى أمر ولايته على مصر، فمنهم من عدّه من الأمراء، و منهم من ذكره من الوزراء. و لهذا أخّرنا ترجمته إلى هذه السنة، و لم نسلك فيها طريق أمراء مصر. و قد ذكرنا من تردّده إلى مصر و قتله لشاور و توليته الوزارة من قبل العاضد نبذة كبيرة فى ترجمة العاضد المذكور. و نذكر ترجمته الآن على هيئة تراجم أمراء مصر؛ ففى مساق هذه الترجمة و فى سياق تلك الترجمة جمع بين القولين، و للناظر فيهما الاختيار، فمن شاء يجعله وزيرا، و من شاء يجعله أميرا.
هو الملك المنصور أسد الدّين شيركوه بن شادى بن مروان عمّ السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب. يأتى بقيّة نسبه و ما قيل فى أصله فى ترجمة ابن أخيه صلاح الدين المذكور، من أقوال كثيرة. و قد تقدّم من حديثه نبذة كبيرة. و نسوق ذلك كلّه هنا على سبيل الاختصار، فنقول:
كان شاور قد توجّه إلى الشام يستنجد نور الدين فى سنة تسع و خمسين و خمسمائة؛ فنجده بأسد الدين شيركوه هذا بالعساكر، و وصلوا إلى مصر فى الثانى من جمادى الآخرة من سنة تسع و خمسين، و غدر بهم شاور و لم يف بما وعدهم به؛ فعادوا إلى دمشق و عرّفوا نور الدين بذلك. ثم إنّ شاور ألجأته الضرورة لطلبهم ثانيا خوفا من الفرنج؛ فعاد أسد الدين ثانيا إلى مصر فى شهر ربيع الأول سنة اثنتين و ستين؛ و سلك
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۸۸
طريق وادى الغزلان و خرج عند وادى إطفيح، فكانت بينه و بينهم وقعة هائلة.
و توجّه صلاح الدين إلى الإسكندرية و احتمى بها و حاصره شاور؛ لأنّه كان قد وقّع بينهم و بينه أيضا، و اصطلح عليهم مع الفرنج. ثم رجع أسد الدين من الصعيد نجدة لابن أخيه صلاح الدين، و أخذه و سار إلى بلبيس حتّى وقع الصلح بينه و بين المصريّين؛ و عاد إلى الشام. فحنق نور الدين لذلك و لم يمكنه الكلام لاشتغاله بفتح السواحل، و دام ذلك إلى أن وصل الفرنج إلى مصر و ملكوها فى سنة أربع و ستين و قتلوا أهلها. أرسل العاضد يطلب النجدة من نور الدين فنجدهم بأسد الدين شيركوه، و هى ثالث مرّة، فمضى إليهم أسد الدين و طرد الفرنج عنهم، و ملك مصر فى شهر ربيع الأوّل من سنة أربع و ستين و خمسمائة. و عزم شاور على قتل أسد الدين و قتل أصحابه أكابر أمراء نور الدين معه؛ ففطن أسد الدين لذلك فاحترز على نفسه. و علم ذلك صلاح الدين يوسف بن أيوب أيضا، فاتّفق صلاح الدين يوسف مع الأمير جرديك النّورىّ على مسك شاور و قتله؛ و اتّفق ركوب أسد الدين إلى زيارة قبر الإمام الشافعىّ- رضى اللّه عنه- و كان شاور يركب فى كلّ يوم إلى أسد الدين؛ فلمّا توجّه إليه فى هذا اليوم المذكور قيل له: إنّه توجّه إلى الزيارة.
فطلب العود؛ فلم يمكنه صلاح الدين و قال: انزل، الساعة يحضر عمّى. فامتنع فجذبه هو و جرديك فأنزلوه عن فرسه و قبضوا عليه و قتلوه بعد حضور أسد الدين. و قد تقدم ذكر ذلك كلّه مفصلا فى ترجمة العاضد.
و خلع العاضد على الأمير أسد الدين شيركوه المذكور بالوزارة، و لقّبه بالملك المنصور. فلم تطل مدّته و مات بعد شهرين فجأة فى

یوم السبت ثانی عشر جمادی

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۵، ص: ۳۸۹

الآخرة- و قیل: یوم الأحد ثالث عشرینه- سنة أربع و ستین و خمسمائة، و دفن بالقاهرة ثم نقل إلی المدینة. و قال ابن شدّاد: «کان أسد الدین شیرکوه کثیر الأکل، کثیر المواظبة علی أکل اللحوم الغلیظة، فتواتر علیه التّخم و الخوانیق و هو ینجو منها بعد مقاساة شدّة عظیمة، ثم اعترضه بعد ذلک مرض شدید و اعتراه خانوق فقتله فی التاریخ المقدّم ذکره».

قلت: و لمّا مات تولّی ابن أخیه صلاح الدین یوسف بن أیّوب الوزارة من بعده. و کان أسد الدین أمیرا عاقلا شجاعا مدبّرا عارفا فطنا و قورا. کان هو و أخوه أیّوب من أکابر أمراء نور الدین محمود الشهید، و هو الذی أنشأهم حتی صار منهم ما صار. رحمهم اللّه تعالی.

*** انتهی الجزء الخامس من النجوم الزاهرة، و یلیه الجزء السادس، و أوّله:

ذکر ولایة السلطان الناصر صلاح الدین علی مصر

[الجزء السادس]

[تتمة ما وقع من الحوادث سنة ۵۶۶]

اشارة

بسم اللّه الرّحمن الرّحیم و صلی اللّه علی سیدنا محمد و آله و صحابته و المسلمین الجزء السادس من النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة

ذکر ولایة السلطان صلاح الدین علی مصر

هو السلطان الملک الناصر أبو المظفّر صلاح الدین یوسف ابن الأمیر نجم الدین أیّوب بن شادی بن مروان، و یقال: إنّ مروان من أولاد خلفاء بنی أمیّة، و قال ابن القادسی: کان شادی مملوک بهروز الخادم. قال صاحب مرآة الزمان:

«و هذا من غلطات ابن القادسی، ما کان شادی مملوکا قطّ، و لا جری علی أحد من بنی أیّوب رقّ، و إنّما شادی خدم بهروز الخادم، فاستنابه بقلعة تکریت». انتهی.

قلت: کان بدایة أمر بنی أیّوب أنّ نجم الدین أیّوب والد صلاح الدین هذا، و أخاه أسد الدین شیرکوه- و نجم الدین هو الأکبر- کان أصلهم من

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۴

دوین: بلدة صغیرة فی العجم، و قیل: هو من الأکراد الرّوادیّة، و هو الأصحّ.

فقدم نجم الدین أیّوب و أخوه أسد الدین شیرکوه إلی العراق و خدما مجاهد الدین بهروز الخادم شحنة بغداد، فرأی بهروز من نجم الدین رأیا و عقلا، فولّاه دزدارا بتکریت، و کانت تکریت لبهروز، أعطاها له السلطان مسعود بن غیاث الدین محمد ابن ملکشاه- المقدّم ذکره- السّلجوقیّ. و بهروز کان یلقّب مجاهد الدین.

و کان خادما رومیّا أبیض، ولّاه السلطان مسعود شحنة العراق. و بهروز (بکسر الباء الموحدة و سکون الهاء و ضم الراء و سکون الواو و بعدها زای)، و هو لفظ عجمیّ معناه: یوم جیّد. فأقام نجم الدین بتکریت و معه أخوه أسد الدین إلی أن انهزم الأتابک زنکی بن آق سنقر من الخلیفة المسترشد فی سنة ستّ و عشرین و خمسمائة، و وصل إلی تکریت و به نجم الدین أیّوب، فأقام له المعابر فعبر زنکی

بن آق سنقر [دجلة] من هناک، و بالغ نجم الدین فی إکرامه؛ فرأی له زنکی ذلک. و أقام نجم الدین بعد ذلک بتکریت إلی أن خرج منها بغیر إذن بهروز. و سببه أنّ نجم الدین کان یرمی یوما بالنشاب فوقعت نشّابة فی مملوک بهروز فقتلته من غیر قصد، فاستحی نجم الدین من بهروز فخرج هو و أخوه إلی الموصل. و قیل غیر ذلک: إنّ بهروز أخرجهما لمعنی من المعانی، و قیل فی خروجهما غیر ذلک أیضا.

و لمّا خرجا من تکریت قصدا الأتابک زنکی بن آق سنقر- المقدّم ذکره- و هو والد الملک العادل نور الدین محمود بن زنکی المعروف بالشّهید، فأحسن إلیهما زنکی و أقطعهما إقطاعات کثیرة، و صارا من جملة أجناده إلی أن فتح زنکی مدینة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۵

بعلبکّ، و ولّی نجم الدین أیّوب دزدارا بقلعتها، و الدّزدار (بضمّ الدال المهملة و سکون الزای و فتح الدال المهملة و بعدها ألف وراء مهملة) و معناها بالعجمی: ماسک القلعة. و دام نجم الدین ببعلبکّ إلی أن قتل زنکی علی قلعة جعبر. و توجّه صاحب دمشق [یومئذ مجیر الدین] و حصر نجم الدین المذکور فی بعلبکّ و ضایقه، فکتب نجم الدین إلی نور الدین الشهید بن زنکی و سیف الدین غازی یطلب منهما نجدة، فاشتغلا عنه بملک جدید؛ و اشتدّ الحصار علی بعلبکّ، فخاف نجم الدین من فتحها عنوة و تسلیم أهلها، فصالح مجیر الدّین صاحب دمشق علی مال؛ و انتقل هو و أخوه أسد الدین شیرکوه إلی دمشق و صارا من کبار أمرائها. و لا زال بها أسد الدین شیرکوه حتّی اتّصل بخدمة الملک العادل نور الدین محمود بن زنکی [صاحب حلب] و صار من أکابر دولته. فرأی منه محمود نجابة و شجاعة فأعطاه حمص و الرّحبة، و جعله مقدّم عساکره. فلمّا صرف نور الدین همّته لأخذ دمشق أمر أسد الدین أن یکاتب أخاه نجم الدین أیّوب علی المساعدة علی فتحها، فکتب أسد الدین إلی أخیه، و قال له: هذا یجب علیک؛ فإنّ مجیر الدین قد أعطی الفرنج بانیاس و ربما سلّم إلیهم دمشق بعد ذلک؛ فأجابه نجم الدین، و طلبا من نور الدین إقطاعا و أملاکا فأعطاهما، و حلف لهما و وفّی بیمینه. و أمّا مجیر الدین المذکور صاحب دمشق، فکان

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۶

اسمه ابق بن محمد بن بوری بن الأتابک ظهیر الدین طغتکین. و طغتکین مولی تتش ابن ألب أرسلان أخی ملکشاه السّلجوقیّ.

و لمّا ملک نور الدین محمود دمشق وفّی لهما بما وعدهما، و صارا من أکابر أمرائه خصوصا نجم الدین؛ فإنّ جمیع الأمراء کانوا إذا دخلوا علی نور الدین لا یقعد أحد حتّی یأمره نور الدین بالقعود إلّا نجم الدین هذا، فإنّه کان إذا دخل قعد من غیر إذن. و داما عند نور الدین فی أعلی المنازل إلی أن وقع من أمر شاور وزیر مصر ما وقع- و قد حکیناه فی ترجمة العاضد العبیدیّ- و دخول أسد الدین شیرکوه إلی الدیار المصریّة ثلاث مرّات، و معه ابن أخیه صلاح الدین یوسف هذا، حتّی ملک أسد الدین الدیار المصریّة فی الثالثة، و قتل شاور؛ و ولی أسد الدین وزارة مصر، و لقّب بالمنصور، و مات بعد شهرین؛ فولّی العاضد الخلیفة صلاح الدین هذا الوزارة، و لقّبه الملک الناصر؛ و ذلک فی العشر الأخیر من جمادی الآخرة سنة أربع و ستین و خمسمائة. و استولی علی الدیار المصریّة و مهّد أمورها. و صار یدعی للعاضد، ثمّ من بعده للملک العادل نور الدین محمود، ثمّ من بعدهما لصلاح الدین هذا. و نذکر ولایته إن شاء اللّه بأوسع من هذا من کلام ابن خلّکان، بعد أن نذکر نبذة من أموره.

و استمرّ صلاح الدین بمصر و أرسل یطلب أباه نجم الدین أیّوب من الملک العادل نور الدین محمود الشهید، فأرسله إلیه معظّما مبجّلا؛ و کان وصوله (أعنی نجم الدین) إلی القاهرة فی شهر رجب سنة خمس و ستین و خمسمائة؛ فلمّا قرب نجم الدین إلی الدیار المصریّة خرج ابنه السلطان صلاح الدین بجمیع أمراء مصر إلی ملاقاته، و ترجّل صلاح الدین و جمیع الأمراء و مشوا فی رکابه؛ ثمّ قال له ابنه صلاح الدین: هذا الأمر لک (یعنی الوزارة) و هی السلطنة الآن، و تدبیر ملک مصر، و نحن بین یدیک؛

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۷

فقال له نجم الدین: یا بنیّ، ما اختارک اللّه لهذا الأمر إلّا و أنت أهل له، و أبی نجم الدین عن قبول السلطنة، غیر أنّه حکّمه ابنه صلاح

الدين فى الخزائن، فكان يطلق منها ما يختار من غير مراجعة صلاح الدين. و كانت الفرنج تولّت على دمياط فى ثالث صفر من السنة المذكورة و جدّوا فى قتالها، و أقاموا عليها نحو الشهرين يحاصرونها بالمجانيق و يزحفون عليها ليلا و نهارا، و صلاح الدين يوجّه إليها العساكر مع خاله شهاب الدين و تقىّ الدين، و طلب من العاضد مالا فبعث إليه شيئا كثيرا، حتّى قال صلاح الدين: ما رأيت أكرم من العاضد! جهّز إلىّ فى حصار الفرنج لدمياط ألف ألف دينار سوى الثياب و غيرها.

و لمّا سمع نور الدين بما وقع لدمياط أخذ فى غزو الفرنج بالغارات عليهم.

ثم وقع فيهم الوباء و الفناء فرحلوا عن دمياط بعد أن مات منهم خلق كثير. كلّ ذلك فى حياة العاضد فى أوائل أمر صلاح الدين، ثمّ أخذ السلطان صلاح الدين فى إصلاح أحوال مصر و عمارة البلاد و بينا هو فى ذلك ورد عليه كتاب الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى من دمشق، فأمره فيه بقطع خطبة العاضد و إقامتها لبنى العبّاس خلفاء بغداد، فخاف صلاح الدين من أهل مصر ألّا يجيبوه إلى ذلك، و ربّما وقعت فتنة؛ فعاد الجواب لنور الدين يخبره بذلك، فلم يسمع له نور الدين؛ و أرسل إليه و خشّن له فى القول، و ألزمه بذلك إلزاما كلّيّا إلى أن وقع ذلك؛ و قطعت خطبة العاضد فى أوّل المحرّم سنة سبع و ستين و خمسمائة. و كان العاضد مريضا فأخفى عنه أهله ذلك حتّى مات يوم عاشوراء، فندم صلاح الدين على قطع خطبته، و قال:

ليتنى صبرت حتّى مات. و قد ذكرنا ذلك كلّه مفصّلا فى ترجمة العاضد السابقة لهذه الترجمة. و من هنا نذكر- إن شاء اللّه تعالى- أقوال المؤرّخين فى أحوال السلطان صلاح الدين هذا و غزواته و أموره، كلّ مؤرّخ على حدته. و من يوم مات العاضد

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۸

عظم أمر صلاح الدين و استولى على خزائن مصر و استبدّ بأمورها من غير منازع.

غير أنّه كان من تحت أوامر الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى المعروف بالشهيد صاحب دمشق على ما سنّبينه فى هذا المحلّ. و كان يدعو له الخطيب بمصر و أعمالها بعد نور الدين المذكور و يدعو لنور الدين بعد الخليفة.

و كان مولد صلاح الدين بتكريت فى سنة اثنتين و ثلاثين و خمسمائة، و نشأ فى حجر أبيه نجم الدين أيّوب فى الدولة النّوريّة، و ترقّى فيها؛ و كان ولّاه نور الدين قبل خروجه مع عمّه أسد الدين شيركوه الثالثة إلى ديار مصر، شحنجية دمشق، فخرج عنها غضبا على ما سنذكره إن شاء اللّه.

قال العلّامة أبو المظفّر شمس الدين يوسف بن قزأوغلى فى تاريخه مرآة الزمان:

«كان السلطان صلاح الدين شجاعا شهما مجاهدا فى سبيل اللّه، و كان مغرما بالإنفاق فى سبيل اللّه، و حسب ما أطلقه و وهبه مدّة مقامه على عكّا مرابطا للفرنج، من شهر رجب سنة خمس و ثمانين، إلى يوم انفصاله عنها فى شعبان سنة ثمان و ثمانين، فكان اثنى عشر ألف رأس من الخيل العراب و الأكاديش الجياد للحاضرين معه للجهاد، غير ما أطلقه من الأموال. قال العماد الكاتب: لم يكن له فرس يركب إلّا و هو موهوب، و لا جاءه قود إلّا و هو مطلوب؛ و ما كان يلبس إلّا ما يحلّ لبسه، كالكتّان و القطن و الصوف؛ و كانت مجالسه منزّهة عن الهزء و الهزل؛ و محافله حافلة بأهل العلم و الفضل؛ و يؤثر سماع الحديث و كان من جالسه لا يعلم

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۹

أنه جالس سلطانا لتواضعه. قال: و رأى معى يوما دواة محلّاة بفضّة فأنكر علىّ و قال: ما هذا! فلم أكتب بها عنده بعدها. و كان محافظا على الصلوات فى أوقاتها لا يصلّى إلّا فى جماعة، و كان لا يلتفت إلى قول منجّم، و إذا عزم على أمر توكّل على اللّه. انتهى كلام العماد باختصار.

و ذكره القاضى ابن شدّاد فى السّيرة فقال: كان حسن العقيدة، كثير الذكر للّه تعالى؛ و إذا جاء وقت صلاة و هو راكب نزل فصلّى، و ما قطعها إلّا فى مرضه الذى مات فيه ثلاثة أيّام اختلط ذهنه فيها. و كان قد قرأ عقيدة القطب النّيسابورىّ.

و علّمها أولاده الصغار لترسخ فى أذهانهم، و كان يأخذها عليهم. و أمّا الزكاة فإنّه مات و لم تجب عليه قطّ. و أمّا صدقة النوافل

فاستنفدت أمواله كلّها فيها. و كان يحبّ سماع القرآن؛ و اجتاز يوما على صبىّ صغير بين يدى أبيه و هو يقرأ القرآن فاستحسن قراءته، فوقف عليه و على أبيه مزرعـة. و كان شديـد الحياء خاشع الطّرف، رقيق القلب، سريع الدمعة، شديد الرغبة فى سماع الحديث. و إذا بلغه عن شيخ روايـة عاليـة و كان ممّن يحضر عنده، استحضره و سمع عليه و أسمع أولاده و مماليكه، و يأمرهم بالقعود عند سماع الحديث إجلالا ـ له، و إن لم يكن ممن يحضر عنده، و لا ـ يطرق أبواب الملوك سعى إليه. و كـان مبغضا لكتب الفلاسفة و أرباب المنطق و من يعاند الشريعة. و لمّا بلغه عن السّهروردىّ ما بلغه أمر ولده الملك

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ١٠

الظاهر بقتله. و كـان محبّا للعـدل يجلس فى كلّ يوم اثنين و خميس [فى] مجلس عام يحضـره القضاة و الفقهاء، و يصل إليه الكبير و الصغير و الشيخ و العجوز، و ما استغاث إليه أحد إلّا أجابه و كشف ظلامته؛ و استغاث اليه ابن زهير الدّمشقىّ على تقىّ الدين عمر [ابن أخيه] و قال: ما يحضر معى مجلس الشرع، فأمر تقىّ الدين بالحضور معه.

و ادّعى رجل على السلطان صلاح الدين المذكور بأنّ سنقر الخلاطىّ مملوكه و مات على ملكه. قال ابن شدّاد: فأخبرته فأحضر الرجل، و قد خرج عن طرّاحته و ساواه فى الجلوس، فادّعى الرجل؛ فرفع السلطان رأسه إلى جماعة الأمراء و الشيوخ الأخيار، و هم وقوف على رأسه، فقال: أ تعرفون سنقر الخلاطىّ؟ قالوا: نشهد أنّه مملوكك، و أنّه مات على ملكك. و لم يكن للرجل المدّعىّ بيّنة، فأسقط فى يده.

فقلت: يـا مولانـا، رجـل غريب، و قد جاء من خلاط فى طمع، و نفـدت نفقته، و ما يحسن أن يرجع خائبا؛ فقال: يا قاضى، هـذا إنّما يكون على غير هذا الوجه، و وهب له نفقة و خلعة و بغلة و أحسن إليه.

قال: و فتح آمد، و وهبها لابن قرا أرسلان. و اجتمع عنده و فود بالقدس و لم يكن عنده مال، فباع ضيعة و فرّق ثمنها فيهم. قال ابن شدّاد: و سألت باليان بن بارزان يوم انعقاد الصلح عن عدّة الفرنج الذين كانوا على عكّا، و هو جالس بين يدى السلطان، فقال للتّركمان: قل له كانوا من خمسمائة ألف إلى ستّمائة ألف، قتل منهم أكثر من مائة ألف و غرق معظمهم. قال: و كان يوم المصاف يدور على الأطلاب و يقول: و هل أنا إلا واحد منكم! و كان

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ١١

فى الشتاء يعطى العساكر دستورا و هو نازل على برج عكّا، و يقيم طول الشتاء فى نفر يسير. و كان على الرّملة فجاءه كتاب بوفاة تقىّ الدين [ابن أخيه]، فقال و قد خنقته العبرة: مات تقىّ الدين! اكتموا خبره مخافة العدوّ. قال: و لقد واجهه الجناح على يافا بذلك الكلام القبيح، فما قال له كلمة، و استدعاه فأيقن بالهلاک؛ و ارتقب الناس أن يضرب رقبته فأطعمه فاكهة قدمت من دمشق و سقاه ماء و ثلجا. قال: و كان للمسلمين لصوص يدخلون خيام الفرنج بالليل و يسرقونهم، فسرقوا ليلة صبيّا رضيعا فباتت أمّه تبكى طول الليل، فقال لها الفرنج: إنّ سلطانهم رحيم القلب فاذهبى إليه، فجاءته و هو على تلّ الخرّوبة راكب، فعفرت وجهها و بكت، فسأل عنها فأخبر بقصّتها، فرقّ لها و دمعت عيناه، و تقدّم إلى مقدّم اللصوص بإحضار الطفل، و لم يزل واقفا حتّى أحضروه؛ فلمّا رأته بكت و شهقت و أخذته و أرضعته ساعة و ضمّته إليها، و أشارت إلى ناحية الفرنج؛ فأمر أن تحمل على فرس و تلحق بالفرنج ففعلوا. قال ابن شدّاد: و كان حسن العشرة طيّب الخلق حافظا لأنساب العرب، عارفا بخيولهم، طاهر اللسان و القلم، فما شتم أحدا قطّ و لا كتب بيده ما فيه أذى مسلم. و ما حضر بين يديه يتيم إلّا و ترحّم على من خلّفه، و جبر قلبه و أعطاه ما يكفيه؛ فإن كان له كافل [سلّمه إليه] و إلّا كفله. و سرق يوما من خزائنه ألفا دينار و جعل فى الكيس فلوس فما قال شيئا. انتهى كلام ابن شدّاد باختصار.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ١٢

قال أبو المظفّر: و حكى لى المبارز سنقر الحلبىّ– رحمه اللّه تعالى– قال: كان الحجّاب يزدحمون على طرّاحته فجاء سنقر الخلاطىّ و معه قصص فقدّم إليه قصّة، و كان السلطان مدّ يده اليمنى على الأرض ليستريح، فداسها سنقر الخلاطىّ و لم يعلم؛ و قال له: علّم

علیها، فلم یجبه، فکرّر علیه القول؛ فقال له: یا طواشی، أعلّم بیدی أم برجلی! فنظر سنقر فرأی ید السلطان تحت رجله فخجل، و تعجّب الحاضرون من هذا الحلم؛ ثم قال السلطان: هات القصّة فعلّم علیها».

و قال القاضی شمس الدین أحمد بن محمد بن خلّکان- رحمه اللّه- فی تاریخه:

«و صلاح الدین کان واسطة العقد، و شهرته أکبر من أن یحتاج إلی التنبیه علیه.

اتّفق أهل التاریخ علی أنّ أباه و أهله من دوین (بضم الدال المهملة و کسر الواو و سکون الیاء المثناة من تحتها و بعدها نون)، و هی بلدة فی آخر عمل أذربیجان من جهة أرّان و بلاد الکرج، و أنّهم أکراد روادیّة (بفتح الراء و الواو و بعد الألف دال مهملة [مکسورة] ثم یاء مثنّاة من تحتها مشدّدة ثم هاء). و الرّوادیّة: بطن من الهذانیّة (بفتح الهاء و الذال المعجمة و بعد الألف نون مکسورة ثم یاء مثنّاة مشدّدة من تحتها و بعدها هاء) و هی قبیلة کبیرة من الأکراد. و قال لی رجل عارف بما یقول، و هو من أهل دوین: إنّ علی باب دوین قریة یقال لها:

أجدانقان (بفتح الهمزة و سکون الجیم و فتح الدال المهملة و بعد الألف نون مفتوحة ثم قاف و بعد الألف الثانیة نون أخری) و جمیع أهلها أکراد روادیّة؛ و مولد أیّوب والد صلاح الدین بها، و شادی أخذ ولدیه، [منها]: أسد الدین شیرکوه،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۳

و نجم الدین أیّوب، و خرج بهما إلی بغداد؛ و من هناک إلی تکریت. و مات شادی بها، و علی قبره قبة داخل البلد. و لقد تتبّعت نسبهم کثیرا فلم أجد أحدا [ذکر] بعد شادی أبا آخر، حتّی إنی وقفت علی کتب کثیرة بأوقاف و أملاک باسم شیرکوه و أیّوب فلم أر فیها سوی شیرکوه بن شادی [و أیّوب] بن شادی لا غیر. و قال لی بعض أعوانهم: هو شادی بن مروان، و قد ذکرته فی ترجمة أیوب و شیرکوه.

قال: و رأیت مدرجا رتّبه الحسن بن غریب بن عمران الحرسی یتضمّن أن أیّوب ابن شادی بن مروان بن [أبی] علی بن عنترة بن الحسن بن علیّ بن أحمد ابن علیّ بن عبد العزیز بن هدبة بن الحصین بن الحارث بن سنان بن عمرو بن مرة بن عوف بن أسامة بن بیهس بن الحارث صاحب الحمالة ابن عوف بن أبی حارثة بن مرّة بن نشبة بن غیظ بن مرّة بن عوف بن سعد بن ذبیان بن بغیض ابن ریث بن غطفان [بن سعد] بن قیس بن عیلان بن الیاس بن مضر بن نزار ابن معدّ بن عدنان، ثم رفع هذا النسب إلی أن انتهی إلی آدم علیه السلام. ثم ذکر بعد ذلک أن علیّ بن أحمد بن أبی علیّ فقال: هو ممدوح المتنبیّ، و یعرف بالخراسانیّ.

و فیه یقول من جملة قصیدة:

شرق الجوّ بالغبار إذا سا ر علیّ بن أحمد القمقام

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۴

و أمّا الحارث بن عوف بن أبی حارثة صاحب الحمالة فهو الذی حمل الدماء بین عبس و ذبیان، و شارکه فی الحمالة خارجة بن سنان أخو هرم بن سنان.

و فیهما قال زهیر بن أبی سلمی المزنیّ قصائد کثیرة، منها قوله:

و هل ینبت الخطّیّ إلّا و شیجه و تغرس إلّا فی منابتها النخل

هذا آخر ما ذکره فی المدرّج و کان قد قدّمه إلی الملک المعظّم شرف الدین عیسی بن الملک العادل صاحب دمشق، و سمعه علیه هو و ولده الملک الناصر صلاح الدین أبو المفاخر داود بن الملک المعظّم، و کتب لهما بسماعهما علیه فی آخر رجب سنة تسع عشرة و ستمائة. و اللّه أعلم. انتهی ما ذکرته من المدرّج. ثم قال:

«و أقول ذکر المؤرّخون أنّ أسد الدین شیرکوه لمّا مات استقرّت الأمور بعده لصلاح الدین یوسف بن أیّوب و تمهّدت القواعد، و مشی الحال علی أحسن الأوضاع، و بذل الأموال و ملک قلوب الرجال، و شکر نعمة اللّه تعالی علیه، فتاب عن الخمر و أعرض عن

أسباب اللهو، و تقمّص بقميص الجدّ و الاجتهاد، و لا زال على قدم الخير و ما يقرّبه إلى اللّه تعالى إلى أن مات». قال: «و قال شيخنا ابن شدّاد- رحمه اللّه-: [سمعته] يقول قال صلاح الدين- رحمه اللّه-: لمّا يسّر اللّه تعالى بملك الديار المصرية علمت أنّ اللّه أراد فتح الساحل لأنه أوقع ذلک فى نفسى. قال:

و من حين استقام له الأمر ما زال صلاح الدين يشنّ الغارات على الفرنج إلى أن ملک الكرک و الشّوبک و غيرهما من البلاد، و غشى الناس من سحائب الإفضال و الإنعام [ما لم يؤرّخ غير تلك الأيام. و] هذا كلّه و هو وزير متابع للقوم، و لكنّه يقول

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۵

بمذهب أهل السّنة؛ [مارس فى البلاد أهل الفقه و العلم و التصوّف و الدين، و الناس يهرعون إليه من كلّ صوب و يفدون عليه من كل جانب و هو لا يخيّب قاصدا، و لا يعدم وافدا] إلى سنة خمس و ستين و خمسمائة. فلمّا عرف نور الدين استقرار أمر صلاح الدين بمصر أخذ حمص من نوّاب أسد الدين شيركوه، و ذلک فى رجب سنة أربع و ستين. و لمّا علم الفرنج ما جرى من المسلمين و عساكرهم، و ما تمّ للسلطان من استقامة الأمر له بالبلاد المصرية علموا أنه يملك بلادهم، و يخرّب ديارهم، و يقطع آثارهم؛ فاجتمع الفرنج و الروم جميعا و قصدوا الديار المصريّة، و نزلوا دمياط و معهم آلات الحصار و ما يحتاج إليه».

قلت: و هذه الواقعة التى ذكرناها فى أوّل هذه الترجمة. غير أنّنا نذكرها أيضا من قول ابن خلّكان لزيادات تأتى فيها.

قال: «و لمّا سمع فرنج الشام ذلک اشتدّ أمرهم، فسرقوا حصن عكّا من المسلمين و أسروا صاحبها، و كان مملوكا لنور الدين محمود، يقال له: «خطلخ العلم دار».

و ذلک فى شهر ربيع الآخر سنة خمس و ستّين. و لمّا رأى نور الدين ظهور الفرنج و نزولهم على دمياط قصد شغل قلوبهم، فنزل على الكرک فحاصرها فى شعبان من السنة المذكورة، فقصده فرنج الساحل فرحل عنها، و قصد لقاءهم فلم يقووا له. ثم بلغه وفاة مجد الدين بن الدّاية، و كانت وفاته بحلب فى [شهر] رمضان سنة خمس و ستين، فاشتغل قلبه، فإنّه كان صاحب أمره. و عاد يطلب الشام فبلغه أمر الزلازل بحلب التى أخربت البلاد، و كانت فى ثانى عشر شوّال فسار يطلب حلب، فبلغه موت أخيه

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۶

قطب الدين مودود بالموصل، و بلغه خبر موته و هو بتلّ باشر، فسار من ليلته طالبا لبلاد الموصل. و دام صلاح الدين فى قتال الفرنج بدمياط إلى ان رحلوا عنها خائبين».

قال ابن خلّكان: «و الذى ذكره شيخنا عزّ الدين بن الأثير: [أمّا] كيفيّة ولاية صلاح الدين فإنّ جماعة من الأمراء النّوريّة الذين كانوا بمصر طلبوا التقدّم على العساكر و [ولاية] الوزارة (يعنى بعد موت أسد الدين شيركوه): منهم الأمير عين الدولة الياروقى؛ و قطب الدين خسرو بن تليل، و هو ابن أخى أبى الهيجاء الهدبانىّ الذى كان صاحب إربل. قلت: [و هو] صاحب المدرسة القطبيّة بالقاهرة؛ و منهم سيف الدين علىّ بن أحمد الهكّارىّ، و جدّه كان صاحب القلاع الهكاريّة. قلت: هو المعروف بالمشطوب- و لوالده أحمد ترجمة فى تاريخنا «المنهل الصافى و المستوفى بعد الوافى» - و منهم شهاب الدين محمود الحارمىّ، و هو خال صلاح الدين؛ و كلّ واحد من هؤلاء قد خطبها لنفسه؛ فأرسل العاضد صاحب مصر إلى صلاح الدين يأمره بالحضور إلى قصره ليخلع عليه خلعة الوزارة

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۷

و يولّيه الأمر بعد عمّه. و كان الذى حمل العاضد على تولية صلاح الدين ضعف صلاح الدين، فإنّه ظنّ أنّه إذا ولّى صلاح الدين، و ليس له عسكر و لا رجال، كان فى ولايته مستضعفا، يحكم عليه و لا يقدر على المخالفة، و أنّه يضع على العسكر الشامىّ من يستميلهم، فإذا صار معه البعض أخرج الباقين، و تعود البلاد إليه؛ و عنده من العساكر الكتاميّة من يحميها من الفرنج و نور الدين. و القصّة مشهورة «أردت عمرا و أراد اللّه خارجة». فامتنع صلاح الدين و ضعفت نفسه عن هذا المقام، فألزمه العاضد و أخذ كارها؛ إنّ اللّه ليعجب من قوم يقادون إلى الجنّة بالسلاسل.

فلمّا حضـر فى القصر خلع عليه خلعة الوزارة: الجبّة و العمامة و غيرهما، و لقّب بالملك الناصر، و عاد إلى دار عمّه أسد الدين شيركوه و أقام بهـا، و لم يلتفت إليه أحـد من أولئـك الأـمراء الـذين يريـدون الأمر لأنفسـهم و لا خـدموه. و كان الفقيه ضـياء الـدين عيسـى الهكّارىّ معه، فسعى مع سيف الدين علىّ بن أحمد حتّى أماله إليه، و قال له:

إنّ هـذا الأمر لا يصل إليك مع وجود عين الدولـة و الحارمىّ و ابن تليل، فمال إلى صـلاح الدين. ثم قصد شـهاب الدين الحارمىّ، و قال له: إنّ هـذا صـلاح الـدين هو ابن أختك و ملكه لك، و قـد اسـتقام له الأمر فلا تكن أوّل من يسـعى فى إخراجه عنه [و لا يصـل إليك]، و لم يزل به حتى أحضره أيضا عنده و حلّفه له.

ثم عـدل إلى قطب الدين و قال له: إنّ صـلاح الدين قد أطاعه الناس و لم يبق غيرك و غير الياروقىّ، و على كلّ حال فيجمع بينك و بين صلاح الدين أنّ أصله من الأكراد، و وعده و زاد فى إقطاعه فأطاع صلاح الدين. ثم عدل إلى عين الدولة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۸

الياروقىّ، و كان أكبر الجماعة و أكثرهم جمعا، فاجتمع به فلم ينفع فيه رقاه و لا نفذ فيه سـحره، و قال: أنا لا أخدم يوسف أبدا! و عاد إلى نور الدين محمود و معه غيره.

فأنكر عليهم نور الدين فراقه، و قد فات الأمر، ليقضى اللّه أمرا كان مفعولا.

و ثبتت قـدم صـلاح الدين و رسخ ملكه، و هو نائب عن الملك العادل نور الدين، و الخطبة لنور الدين فى البلاد كلّها، و لا يتصـرّفون إلّا عن أمره. و كان نور الدين يكاتب صـلاح الدين بالأمير الإسـفهسالار، و يكتب علامته فى الكتب تعظيما أن يكتب اسمه، و كان لا يفرده بمكاتبة، بل يكتب الأمير الإسـفهسالار صـلاح الدين، و كافّة الأمراء بالديار المصريّة يفعلون كذا و كذا. و استمال صلاح الدين قلوب الناس و بذل الأموال ممّا كان أسد الدين قد جمعه، فمال الناس إليه و أحبّوه، و قويت نفسه على القيام بهذا الأمر و الثبات فيه؛ و ضعف أمر العاضد، و كان العاضد كالباحث عن حتفه بظلفه».

قـال ابن الأـثير فى تاريخه الكبير: قـد اعتبرت التواريـخ فرأيت كثيرا من التواريـخ الإسـلاميّة، و رأيت كثيرا ممّن يبتـدئ الملك تنتقل الدولـة عن صـلبه إلى بعض أهله و أقاربه: منهم فى أوّل الإسـلام معاوية بن أبى سـفيان، أوّل من ملك من أهل بيته، تنقّل الملك عن أعقابه إلى بنى مروان من بنى عمّه. ثم من بعـده السـفّاح أوّل من ملك من ملوك بنى العبّاس، انتقل الملك عن أعقابه إلى أخيه أبى جعفر المنصور. ثم السامانيّـة أوّل من ملك منهم نصـر بن أحمد فانتقل الملك عنه إلى أخيه إسـماعيل بن أحمد و أعقابه. ثم يعقوب الصّفّار أوّل من ملك من أهل بيته فانتقل الملك عنه إلى أخيه عمرو و أعقابه. ثم عماد الدولة بن بويه أوّل من ملك

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۹

من أهل بيته ثم انتقل الملك عنه إلى أخويه: ركن الدولـة و معزّ الدولة. ثم السّـلجوقيّة أوّل من ملك منهم طغرلبك. ثم انتقل الملك إلى أولاد أخيه داود. ثم هذا شـيركوه كما ذكرنا انتقل الملك عنه إلى ولد أخيه نجم الدين أيّوب. و لو لا خوف الإطالة لذكرنا أكثر من هذا. و الذى أظنّه السبب فى ذلك أن الذى يكوّن أوّل دولة يكثر القتل، فيأخذ الملك و قلوب من كان فيه متعلّقة به؛ فلهذا يحرم اللّه تعالى أعقابه و يفعل ذلك لأجلهم عقوبة [له]. انتهى.

قلت: و ما ذكره ابن الأثير من انتقال الملك من عقب من يلى الملك أوّلا إلى أقاربه، هو بعكس ما وقع لخلفاء مصر بنى عبيد، فإنّه لم يل الخلافـة منهم أحـد بعـد أخيه من أوّلهم المعزّ إلى آخرهم العاضـد. قلت: و نادرة أخرى وقعت لخليفـة زماننا هذا، فإنّه خامس أخ ولى الخلافة بعد إخوته، و هو أمير المؤمنين المستنجد بالله يوسف، و هم خمسة إخوة من أولاد المتوكّل، كلّ منهم ولى الخلافة:

و أوّلهم المسـتعين بالله العباسـىّ، الذى تسـلطن بعد خلع الملك الناصر فرج بن برقوق، فى سنة خمس عشرة [و ثمانمائة]؛ ثم من بعده المعتضد داود؛ ثمّ من بعده المستكفى سليمان؛ ثم من بعده القائم حمزة؛ ثم يوسف هذا خليفة زماننا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۰

و أكثر من ولى من بنى أميّة أربعة من أولاد عبد الملك بن مروان: و هم الوليد و سليمان و يزيد و هشام؛ قيل: إنّ عبد الملك رأى فى نومه أنّه بال فى محراب النّبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم أربع بولات، فأوّله المعبّرون بأنّه يلى الخلافة من ولده لصلبه أربعة، فكان كذلك. و أمّا ثلاثة الإخوة: فالأمين محمد و المأمون عبد اللّه و المعتصم محمد أولاد الرشيد هارون. ثم وقع ذلك أيضا لبنى العبّاس فى أولاد المتوكّل جعفر، ولى من أولاده ثلاثة: المنتصر و المعتزّ و المعتمد. ثمّ وقع ذلك أيضا للمعتضد ولى من أولاده ثلاثة: و هم المكتفى علىّ و المقتدر جعفر و القاهر محمد. ثم وقع ذلك للمقتدر جعفر ولى من أولاده ثلاثة: الراضى و المتّقى و المطيع. و نادرة أخرى، قيل: إنّ المستنجد بن المقتفى رأى فى حياة والده فى منامه كأنّ ملكا نزل من السماء فكتب فى كفه أربع خاءات معجمات، فعبّروه أنّه يلى الخلافة سنة خمس و خمسين و خمسمائة فكان كذلك. و قد خرجنا عن المقصود، و نعود إلى ذكر صلاح الدين.

ثم ذكر ابن الأثير شيئا عن أحوال صلاح الدين إلى أن قال: و توفّى العاضد و جلس صلاح الدين للعزاء، و استولى على قصره و جميع ما فيه؛ فكان قد رتّب فيه قبل وفاة العاضد بهاء الدين قراقوش، و هو خصىّ يحفظه، فحفظ ما فيه حتّى تسلّمه صلاح الدين، و نقل صلاح الدين أهله إلى مكان منفرد، و وكّل بهم من يحفظهم، و جعل أولاده و عمومته و أبناءه فى إيوان بالقصر، و أخرج من كان فيه من العبيد و الإماء، فأعتق البعض و وهب البعض و أخلى القصر من سكّانه و أهله. فسبحان؟؟؟

من لا ـ يزول ملكه! قال: و لمّا استولى صلاح الدين على القصر و أمواله و ذخائره اختار منه ما أراد، و وهب أهله و أمراءه، و باع منه كثيرا، و كان فيه من

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۱

الجواهر النفيسة ما لم يكن عند ملك من الملوك. قال ابن الأثير: و لمّا وصل الخبر إلى الإمام المستضىء بأمر اللّه أبى محمد الحسن بن الإمام المستنجد، و هو والد الإمام الناصر لدين اللّه، بما تجدّد من أمر مصر، و عود الخطبة و السكّة بها باسمه بعد انقطاعها بمصر هذه المدّة الطويلة عمل أبو الفتح محمد سبط [ابن] التعاويذىّ قصيدة طنّانة مدح بها المستضىء، و ذكر هذا الفتوح المتجدّد له، و فتوح بلاد ايمن، و هلاك الخارجىّ بها الذى سمّى نفسه المهدىّ. نذكر فى آخر ترجمته أمر القصيدة التى نظمها ابن التّعاويذىّ من كلام ابن خلّكان و غيرها إن شاء اللّه تعالى. و كان صلاح الدين قد أرسل له من ذخائر مصر و أسلاب المصريّين شيئا كثيرا.

ثم ذكر ابن الأثير فصلا فى سنة سبع و ستين و خمسمائة يتضمّن حصول الوحشة بين نور الدين الشهيد و بين صلاح الدين باطنا؛ فقال: «فى هذه السنة جرت أمور أوجبت تأثّر نور الدين من صلاح الدين، و لم يظهر ذلك. و كان سببه أنّ صلاح الدين سار [عن مصر] فى صفر منها إلى بلاد الفرنج، و نازل حصن الشّوبك، و بينه و بين الكرك يوم، و حصره و ضيّق على من به من الفرنج، و أدام القتال؛ فطلبوا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۲

الأمان و استمهلوه عشرة أيّام، فأجابهم إلى ذلك. فلمّا سمع نور الدين ما فعله صلاح الدين سار من دمشق قاصدا بلاد الفرنج ليدخل إليها من جهة أخرى، فقيل لصلاح الدين: إن دخل نور الدين إلى بلاد الفرنج و هم على هذه الحال- أنت من جانب و نور الدين من جانب- ملكها، و متى زال ملك الفرنج عن الطريق لم يبق لك بديار مصر مقام مع نور الدين؛ و متى جاء نور الدين إليك و أنت هاهنا فلا بدّ لك من الاجتماع به؛ و حينئذ يكون هو المتحكّم فيك، إن شاء تركك و إن شاء عزلك، و لا تقدر على الامتناع عليه؛ و حينئذ المصلحة الرجوع إلى مصر.

فرحل عن الشّوبك عائدا إلى مصر [و لم يأخذه من الفرنج]. و كتب إلى نور الدين يعتذر باختلال الديار المصريّة لأمور بلغته عن بعض شيعة العلويّين، و أنّهم عازمون على الوثوب بها، و أنّه يخاف عليها من البعد عنها أن يقوم أهلها على من تخلّف بها.

فلم يقبل نور الدين هذا الاعتذار منه و تغيّر عليه، و عزم على الدخول إلى مصر و إخراجه عنها. و ظهر ذلك لصلاح الدين فجمع أهله و فيهم أبوه نجم الدين أيّوب، و خاله شهاب الدين الحارمىّ و سائر الأمراء، و أعلمهم بما بلغه من عزم نور الدين و حركته إليه،

فاستشارهم فلم يجبه أحد منهم بكلمة؛ فقام تقىّ الدين عمر ابن أخيه و قال: إذا جاء قاتلناه و منعناه عن البلاد، و وافقه غيره من أهله؛ فشتمهم نجم الدين أيّوب و أنكر ذلک و استعظمه، و قال لصلاح الدين: أنا أبوک و هذا شهاب الدين خالک، و نحن أكثر محبّة لک من جميع من ترى، و اللّه لو رأيت أنا و خالک نور الدين لم يمكّنا إلّا أن نقبّل الأرض بين يديه، و لو أمرنا أن نضرب عنقک لفعلنا، فإذا كنّا نحن هكذا فما ظنّک بغيرنا! و كلّ من ترى من الأمراء لو رأى نور الدين وحده لم يتجاسروا من الثبات على سروجهم. ثم قال: و هذه البلاد له، و نحن مماليكه و نوّابه فيها،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۳

فإن اراد غير ذلک سمعنا و أطعنا؛ و الرأى أن تكتب إليه و تقول: بلغنى أنّک تريد الحركة لأجل البلاد، فأىّ حاجة إلى هذا! يرسل المولى نجّابا يضع فى رقبتى منديلا و يأخذنى إليک، فما هاهنا من يمتنع عليک؛ و قام الأمراء و تفرّقوا. فلمّا خلا نجم الدين أيّوب بابنه صلاح الدين قال له: يا بنىّ، بأىّ عقل قلت هذا! أمّا علمت أنّ نور الدين متى سمع عزمنا على منعه و محاربته جعلنا أهمّ الوجوه عنده؛ و حينئذ لا نقوى به؛ و إذا بلغه طاعتنا له تركنا و اشتغل بغيرنا، و الأقدار تعمل عملها؛ و اللّه لو أراد نور الدين قصبة من قصب السّكّر لقاتلته أنا عليها حتى أمنعه أو أقتل.

ففعل صلاح الدين ما أشار به والده عليه؛ فترک نور الدين قصده و اشتغل بغيره؛ فكان الأمر كما ظنّه أيّوب. و توفّى نور الدين و لم يقصده. و ملک صلاح الدين البلاد، و كان هذا من أصوب الآراء و أحسنها». انتهى كلام ابن الأثير باختصار.

قال ابن شدّاد: «و لم يزل صلاح الدين فى نشر الإحسان و إفاضة النعم على الناس إلى سنة ثمان و ستّين و خمسمائة، فعند ذلک خرج بالعسكر يريد بلاد الكرک و الشّوبک، و إنّما بدأ بها لأنّها كانت أقرب إليه، و كانت على الطريق تمنع من يقصد الديار المصريّة، و كان لا يمكن أن تعبر قافلة حتّى يخرج هو بنفسه يعبرها، فأراد توسيع الطريق و تسهيلها، فحاصرها فى هذه السنة، و جرى بينه و بين الفرنج وقعات، و عاد إلى مصر و لم يظفر منها بشىء. و لمّا عاد بلغه خبر وفاة والده نجم الدين قبل وصوله إليه. قال: و لمّا كانت سنة تسع و ستين رأى قوّة عسكره و كثرة عدده، و كان بلغه أنّ باليمن إنسانا استولى عليها و ملک حصونها، و كان يسمّى عبد النّبىّ ابن مهدىّ، فأرسل أخاه توران شاه فقتله و أخذ البلاد منه. ثم مات الملک العادل نور الدين محمود صاحب دمشق فى سنة تسع و ستين و خمسمائة. على

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۴

ما سيأتى ذكره فى الوفيات. ثم بلغ صلاح الدين أنّ إنسانا جمع بأسوان خلقا كثيرا من السودان، و زعم أنّه يعيد الدولة العبيديّة المصريّة. و كان أهل مصر يؤثرون عودهم و انضافوا إليه، فسيّر صلاح الدين إليه جيشا كثيفا و جعل مقدّمه أخاه الملک العادل، فساروا و التقوا به، و كسروه فى السابع من صفر سنة سبعين و خمسمائة.

ثم بعد ذلک استقرّت له قواعد الملک. و كان نور الدين محمود قد خلّف ولده الملک الصالح إسماعيل، و كان بدمشق عند وفاة أبيه. و كان بحلب شمس الدين علىّ بن الدّاية، و كان ابن الداية حدّث نفسه بأمور، فسار الملک الصالح من دمشق إلى حلب، فوصل إلى ظاهرها فى المحرّم سنة سبعين و معه سابق الدّين، فخرج بدر الدين حسن بن الدّاية فقبض على سابق الدين. و لمّا دخل الملک الصالح قلعة حلب قبض على شمس الدين علىّ بن الداية، و على أخيه بدر الدين حسن المذكور، و أودع الثلاثة السجن. و فى ذلک اليوم قتل أبو الفضل بن الخشّاب لفتنة جرت [بحلب]، و قيل: بل قتل قبل القبض على أولاد الدّاية.

ثم إنّ صلاح الدين بعد وفاة نور الدين علم أنّ ولده الملک الصالح صبىّ لا يستقلّ بالأمر، و لا ينهض بأعباء الملک، و اختلفت الأحوال بالشام. و كاتب شمس الدين [محمد بن عبد الملک] بن المقدّم صلاح الدين، فتجهّز صلاح الدين من مصر فى جيش كثيف، و ترک بالقاهرة من يحفظها، و قصد دمشق مظهرا أنّه يتولى مصالح الملک الصالح؛ فدخلها بالتسليم فى يوم الثلاثاء سلخ شهر ربيع الآخر سنة سبعين و خمسمائة، و تسلّم قلعتها و اجتمع الناس إليه و فرحوا به، و أنفق فى ذلک اليوم مالا

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۵

جزیلا، و أظهر السرور بالدّمشقیّین و صعد القلعة؛ ثم سار إلی حلب و نازل حمص و أخذ مدینتها فی أوّل جمادی الأولی، و لم یشتغل بقلعتها و توجّه إلی حلب، و نازلها فی یوم الجمعة سلخ جمادی الأولی من السنة، و هی الوقعة الأولی.

ثم إنّ سیف الدین غازی بن قطب الدین مودود بن زنکی صاحب الموصل لمّا أحسّ بما جری علم أنّ الرجل قد استفحل أمره و عظم شأنه، فخاف إن غفل عنه استحوذ علی البلاد و استقرّت قدمه فی الملک و تعدّی الأمر إلیه، فأرسل عسکرا وافرا، و جیشا عظیما، و قدّم علیه أخاه عزّ الدین مسعود بن قطب الدین مودود، و ساروا یریدون لقاء صلاح الدین نجدة لابن عمّه الملک الصالح ابن نور الدین، لیردّوا صلاح الدین عن البلاد. فلمّا علم صلاح الدین ذلک رحل من حلب فی مستهلّ رجب من السنة عائدا إلی حماة، ثم رجع إلی حمص و أخذ قلعتها. و وصل عزّ الدین مسعود إلی حلب و أخذ معه عسکر ابن عمّه الملک الصالح إسماعیل بن نور الدین محمود، و هو صاحب حلب یومئذ، و خرجوا فی جمع عظیم؛ و ما علم صلاح الدین بخروجهم حتّی وافاهم علی قرون حماة، فراسلهم و راسلوه، و اجتهد صلاح الدین علی أن یصالحوه فلم یصالحوه؛ و رأی أن ضرب المصافّ معهم ربّما نالوا به غرضهم، و القضاء یجری إلی أموره و هم لا یشعرون، فتلاقوا فقضی اللّه تعالی أنهم انکسروا بین یدیه، و أسر جماعة منهم فمنّ علیهم و أطلقهم، و ذلک فی تاسع غشر شهر رمضان من السنة عند قرون حماة. ثم سار صلاح الدین عقیب انکسارهم و نزل علی حلب، و هی الدفعة الثانیة فصالحوه علی المعرّة و کفر طاب و بارین. و لمّا جرت هذه الواقعة کان سیف الدین غازی محاصرا أخاه عماد الدین زنکی صاحب سنجار، و عزم علی أخذها

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۶

منه، لأنّه کان قد انتمی إلی صلاح الدین؛ و کان قد قارب أخذها، فلمّا بلغه خبر هذه الواقعة، و أنّ عسکره انکسر من صلاح الدین علی قرون حماة خاف أن یبلغ أخاه عماد الدین الخبر فیشتدّ أمره و یقوی جأشه، فراسله و صالحه. ثم سار غازی من وقته إلی نصیبین و اهتمّ بجمع العساکر و الإنفاق فیها، و سار إلی الفرات و عبر البیرة و خیّم علی الجانب الشامیّ، و راسل ابن عمّه الملک الصالح ابن الملک العادل نور الدین صاحب حلب حتّی تستقرّ له قاعدة یصل إلیها. ثم إنّه وصل إلی حلب و خرج ابن عمّه الملک الصالح صاحب حلب إلی لقائه، و أقام غازی علی حلب مدّة، و صعد قلعتها جریدة؛ ثم نزل و سار إلی تلّ السلطان، و هی منزلة بین حلب و حماة و معه جمع کبیر. و أرسل صلاح الدین إلی مصر و طلب عسکرها، فوصل إلیه منها جمع کبیر؛ فسار بهم صلاح الدین حتّی نزل قرون حماة ثانیا، و تصافّوا بکرة یوم الخمیس العاشر من شوّال سنة إحدی و سبعین و خمسمائة، و جری قتال عظیم، و انکسرت میسرة صلاح الدین من مظفّر الدین بن زین الدین صاحب إربل؛ فإنّه کان علی میمنة سیف الدین غازی، فحمل صلاح الدین بنفسه علی عسکر سیف الدین غازی حملة شدیدة فانکسر القوم، و أسر منهم جماعة من کبار الأمراء، فمنّ علیهم صلاح الدین و أطلقهم. و عاد سیف الدّین غازی إلی حلب فأخذ منها خزائنه و سار حتّی عبر الفرات، و ترک ابن عمّه الملک الصالح صاحب حلب بها و عاد إلی بلاده. و منع صلاح الدین من تتبّع القوم، و نزل فی بقیّة الیوم فی خیامهم، فإنّهم ترکوا أثقالهم و انهزموا؛ و فرّق صلاح الدین الأطلاب و وهب الخزائن و أعطی خیمة سیف الدین غازی لابن أخیه عزّ الدین فرخشاه بن شاهنشاه بن أیّوب أخی تقیّ الدین عمر صاحب

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۷

حماة، و کان فرخشاه صاحب بعلبکّ. ثم سار صلاح الدین إلی منبج فتسلّمها، ثم سار إلی قلعة عزاز و حاصرها فی رابع ذی القعدة سنة إحدی و سبعین و خمسمائة.

و بینما صلاح الدین بها وثب علیه جماعة من الإسماعیلیّة (أعنی الفداویة) فنجّاه اللّه منهم و ظفر بهم. و أقام علیها حتّی أخذها فی رابع عشر ذی الحجّة من السنة. ثم سار فنزل علی حلب فی سادس عشر ذی الحجّة و أقام علیها مدّة. ثم رحل عنها بعد أن أخرجوا له

ابنة صغيرة لنور الدين محمود فسألته عزاز فوهبها لها. ثم عاد صلاح الدين إلى مصر ليتفقّد أحوالها، و كان مسيره إليها فى شهر ربيع الأوّل سنة اثنتين و سبعين و خمسمائة؛ و كان أخوه شمس الدولة توران شاه بن أيّوب قد وصل إليه من اليمن فاستخلفه بدمشق. ثم بعد ذلک تأهّب صلاح الدين للغزاة و خرج يطلب الساحل حتى وافى الفرنج على الرّملة، و ذلک فى أوائل جمادى الأولى سنة ثلاث و سبعين و خمسمائة، و كانت الكسرة على المسلمين فى ذلک الوقت، و لمّا انهزموا لم يكن لهم حصن قريب يأوون إليه، فطلبوا جهة الديار المصريّة و ضلّوا فى الطريق و تبدّدوا، و أسر منهم جماعة: منهم الفقيه عيسى الهكّاريّ، و كان ذلک و هنا عظيما، جبره اللّه تعالى بوقعة حطّين المشهورة.

و وصل صلاح الدين إلى مصر و لمّ شعثه و شعث أصحابه من أثر كسرة الرّملة ثم بلغه تخبّط الشام فعاد إليه و اهتم بالغزاة، فوصله رسول صاحب الروم يلتمس الصلح و يتضرّر من الأرمن، يقصد بلاد ابن لاون (يعنى بلادسيس الفاصلة بين حلب و الروم من جهة الساحل)؛ فتوجّه صلاح الدين إليه، و استدعى عسكر

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۸

حلب، لأنّه كان فى الصلح متى استدعاه حضر إليه؛ (يعنى صلح صلاح الدين مع الملک الصالح صاحب حلب). ثم دخل صلاح الدين بلاد ابن لاون و أخذ فى طريقه حصنا و أخربه، و رغبوا إليه فى الصلح فصالحهم و رجع عنهم. ثم سأله قليج أرسلان [صاحب الروم] فى صلح الشرقيّين أسرهم (يعنى سيف الدين غازى و إخوته) فأجاب ذلک صلاح الدين و حلف فى عاشر جمادى الأولى سنة ستّ و سبعين و خمسمائة، و دخل فى الصلح قليج أرسلان و المواصلة. ثم عاد صلاح الدين بعد تمام الصلح إلى دمشق؛ ثم منها إلى مصر. فورد عليه الخبر بموت الملک الصالح ابن الملک العادل نور الدين محمود الشهيد بعد أن استحلف أمراء حلب و أجنادها قبل موته لابن عمّه عز الدين مسعود صاحب الموصل، و هو ابن عم قطب الدين مودود. و لمّا بلغ عزّ الدين مسعودا خبر موت ابن عمّه الملک الصالح المذكور، و أنّه أوصى له بحلب بادر إلى التوجّه إليها خوفا أن يسبقه صلاح الدين إليها فأخذها. و كان أوّل قادم إليها مظفّر الدين بن زين الدين صاحب إربل، و كان إذ ذاک صاحب حرّان، و هو مضاف إلى الموصل، و وصلها مظفّر الدين المذكور فى ثالث شعبان من سنة سبع و سبعين.

و فى العشرين منه وصلها عزّ الدين مسعود و طلع إلى القلعة و استولى على ما فيها من الحواصل، و تزوّج بأم الملک الصالح فى الخامس من شوّال من السنة. قال:

و حاصل الأمر أنّ عزّ الدين مسعودا قايض عماد الدين زنكى صاحب سنجار عن حلب بسنجار، و خرج عزّ الدين من حلب و دخلها عماد الدين زنكى، فلمّا بلغ صلاح الدين ذلک توجّه إليه و حاصره فلم يقدر عماد الدين على حفظ حلب، و كان نزول صلاح الدين على حلب فى السادس و العشرين من المحرّم سنة سبع و سبعين و خمسمائة. فتحدّث عماد الدين زنكى مع الأمير حسام الدين طمان بن غازى فى السرّ

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۹

بما يفعله، فأشار عليه أن يطلب من صلاح الدين بلادا و ينزل له عن حلب، بشرط أن يكون له جميع ما فى القلعة من الأموال؛ فقال له عماد الدين: و هذا كان فى نفسى.

ثم اجتمع حسام الدين طمان بن غازى مع صلاح الدين فى السرّ على تقرير القاعدة لذلک، فأجابه صلاح الدين إلى ما طلب و وقّع له بسنجار و خابور و نصيبين و سروج، و وقّع لطمان المذكور بالرّقّة لسفارته بينهما، و حلف صلاح الدين على ذلک فى سابع صفر من السنة؛ و كان صلاح الدين قد نزل قبل تاريخه على سنجار و أخذها فى ثانى شهر رمضان من سنة ثمان و سبعين و أعطاها لابن أخيه تقىّ الدين عمر؛ فلمّا جرى الصلح على هذا أخذها من عمر و أعطاها لعماد الدين المذكور. و تسلّم صلاح الدين قلعة حلب و صعد إليها فى يوم الاثنين السابع و العشرين من صفر [سنة تسع و سبعين و خمسمائة]، و أقام بها حتّى رتّب أمورها ثم رحل عنها فى الثانى و

العشرين من شهر ربيع الآخر من السنة، و جعل فيها ولده الملك الظاهر و كان صبيّا، و ولّى القلعة لسيف الدين يازكوج الأسدىّ و جعله يرتّب مصالح ولده.

ثم سار صلاح الدين إلى دمشق و توجّه من دمشق لقصد محاصرة الكرك فى الثالث من رجب من السنة، و سيّر إلى أخيه الملك العادل و هو بمصر، يستدعيه ليجتمع به على الكرك، فسار إليه الملك العادل أبو بكر بجمع عظيم و جيش كبير، و اجتمع به على الكرك فى رابع شعبان. فلمّا بلغ الفرنج نزوله على الكرك حشدوا خلقا عظيما و جاءوا إلى الكرك ليكونوا من خارج قبالة عسكر المسلمين، فخاف صلاح الدين على الديار المصريّة، فسيرّ اليها ابن أخيه تقىّ الدين عمر، ثم تزحزح

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۰

صلاح الدين عن الكرك فى سادس عشر شعبان من السنة (و استصحب أخاه الملك العادل معه و دخل دمشق فى الرابع و العشرين من شعبان من السنة، و أعطى أخاه العادل حلب، فتوجّه إليها العادل و دخلها يوم الجمعة الثانى و العشرين من شهر رمضان من السنة. و خرج الملك الظاهر و يازكوج من حلب و دخلا دمشق يوم الاثنين الثامن و العشرين من شوّال من السنة. و كان الملك الظاهر أحب أولاد أبيه إليه لما فيه من الخلال الحميدة، و لم يأخذ منه حلب إلّا لمصلحة رآها أبوه صلاح الدين فى ذلك الوقت. و قيل: إنّ الملك العادل أعطاه على أخذ حلب ثلثمائة ألف دينار يستعين بها على الجهاد. ثم إنّ صلاح الدين رأى أنّ عود الملك العادل إلى مصر، و عود الملك الظاهر إلى حلب أصلح. قيل: إنّ علم الدين سليمان بن جندر كان هو السبب لذلك، فإنّه قال لصلاح الدين، و كانت بينهما مؤانسة قبل أن يتملّك البلاد، و قد سايره يوما، و كان من أمراء حلب، و الملك العادل لا ينصفه، و قدّم عليه غيره؛ و كان صلاح الدين قد مرض على حصار الموصل! و عمل الى حرّان و أشفى على الهلاك، و لمّا عوفى و رجع إلى الشام و اجتمعا فى المسير، قال له: و كان صلاح الدين قد أوصى لكلّ واحد من أولاده بشىء من البلاد-: بأىّ رأى كنت تظنّ أنّ وصيّتك تنفذ! كأنّك كنت خارجا إلى الصيد ثم تعود فلا يخالفونك! أما تستحى [أن] يكون الطائر أهدى منك إلى المصلحة! قال صلاح الدين: و كيف ذلك؟ و هو يضحك؛ قال: إذا أراد الطائر أن يعمل عشّا لفراخه قصد أعالى الشجر ليحمى فراخه، و أنت سلّمت الحصون إلى أهلك و جعلت أولادك على الأرض؛ هذه حلب- و هى أمّ البلاد- بيد أخيك،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۱

و حماة بيد ابن أخيك، و حمص بيد ابن عمك أسد الدين؛ و ابنك الأفضل مع تقىّ الدين بمصر يخرجه متى شاء، و ابنك الآخر مع أخيك فى خيمة يفعل به ما أراد؛ فقال له صلاح الدين: صدقت، فاكتم هذا الأمر؛ ثم أخذ حلب من أخيه العادل و أعادها إلى ابنه الملك الظاهر، و أعطى العادل بعد ذلك حرّان و الرّها و ميّافارقين ليخرجه من الشام. و فرق الشام على أولاده، فكان ما كان. و زوّج السلطان صلاح الدين ولده الملك الظاهر بغازية خاتون ابنة أخيه الملك العادل المذكور.

ثم كانت وقعة حطّين المباركة على المسلمين، و كانت فى يوم السبت رابع عشر شهر ربيع الآخر سنة ثلاث و ثمانين و خمسمائة فى وسط نهار الجمعة. و كان صلاح الدين كثيرا ما يقصد لقاء العدوّ فى يوم الجمعة عند الصلاة تبرّكا بدعاء المسلمين و الخطباء على المنابر، فسار فى ذلك الوقت و اجتمع له من العساكر الإسلاميّة عدد يفوت الحصر، و كان قد بلغه أنّ العدوّ اجتمع فى عدّة كثيرة بمرج صفّورية بأرض عكّا عند ما بلغهم اجتماع العساكر الإسلامية، فسار صلاح الدين و نزل على طبريّة على سطح الجبل ينظر قصد الفرنج، فلمّا بلغهم نزوله فى الموضع المذكور لم يتحرّكوا و لا خرجوا من منزلتهم، و كان نزولهم فى الموضع المذكور يوم الأربعاء الحادى و العشرين من شهر ربيع الآخر؛ فلمّا رآهم لا يتحرّكون ترك جريدة على طبريّة، و ترك الأطلاب على حالها قبالة العدوّ، و نزل طبريّة و هجمها و أخذها فى ساعة واحدة، و انتهب الناس ما فيها، و أخذوا فى القتل و السّبى و الحريق؛ و بقيت القلعة ممتنعة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۲

بمن فيها. و لمّا بلغ العدوّ ما جرى فى طبريّة قلقوا لذلك و رحلوا نحوها، فبلغ السلطان صلاح الدين ذلك فترك على طبريّة من

يحاصرها و لحق بالعسكر، و التقى بالعدوّ على سطح جبل طبريّة الغربىّ منها، و ذلك فى يوم الخمس الثانى و العشرين من شهر ربيع الآخر، فحال الليل بين العسكرين، فناما على المصافّ إلى بكرة يوم الجمعة الثالث و العشرين منه، فركب العسكران و تصادما و التحم القتال و اشتدّ الأمر؛ و دام القتال حتّى لم يبق إلّا الظّفر، فحال الليل بينهم، و ناما على المصافّ، و تحقّق المسلمون أنّ من ورائهم الأردنّ، و من بين أيديهم بلاد العدوّ، و أنّهم لا ينجيهم إلّا القتال و الجهاد، و أصبحوا من الغد فحملت أطلاب المسلمين من جميع الجوانب، و حمل القلب و صاحوا صيحة رجل واحد: [اللّه أكبر] و ألقى اللّه الرّعب فى قلوب الكافرين، و كان حقّا عليه نصر المؤمنين.

و لما أحسّ الملك القومص بالخذلان هرب فى أوائل الأمر، فتبعه جماعة من المسلمين، فنجا منهم، و أحاط المسلمون بالكافرين من كلّ جانب، و أطلقوا عليهم السهام، و حملوا عليهم بالسيوف، و سقوهم كأس الحمام، و انهزمت طائفة منهم فتبعهم المسلمون يقتلونهم؛ و اعتصمت طائفة منهم بتلّ يقال [له]: تلّ حطّين، و هى قرية عندها قبر النّبىّ شعيب عليه السلام، فضايقهم المسلمون و أشعلوا حولهم النيران، و اشتدّ بهم العطش فاستسلموا [للأسر خوفا من] القتل، فأسر مقدّمتهم، و قتل الباقون، و كان ممّن أسر من مقدميهم الملك جفرى و أخوه الملك، [و البرنس أرناط] صاحب الكرك و الشوبك، و ابن الهنفرى و ابن صاحب طبريّة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۳

قال ابن شدّاد: لقد حكى لى من أثق به أنّه رأى بحوران شخصا واحدا و معه نيّف و ثلاثون أسيرا ربطهم بطنب خيمة، لما وقع عليهم من الخذلان؛ ثم إنّ الملك القومص الذى هرب فى أوّل الوقعة وصل إلى طرابلس، و أصابه ذات الجنب فهلك. و أمّا مقدّم الأسبتار و الدّيويّة فإنّه قتلهما السلطان صلاح الدين، و قتل من بقى من أصحابهما حيّا، و أمّا البرنس أرناط فإنّ السلطان كان نذر أنّه إن ظفر به قتله، و ذلك أنّه كان عبر إليه بالشّوبك قوم من الديار المصريّة فى حال الصلح فغدر بهم و قتلهم، فناشدوه الصلح الذى بينه و بين السلطان، فقال: ما يتضمّن الاستخفاف بالنبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم؛ و بلغ ذلك السلطان، فحملته حميّة دينه على أن أهدر دمه.

و لمّا فتح اللّه عليه بالنصر جلس بالدّهليز (يعنى الخيمة) فإنّها لم تكن نصبت بعد لشغل السلطان بالجهاد، و عرضت عليه الأسارى، و صار الناس يتقرّبون إليه بما فى أيديهم منهم، و هو فرح بما فتح اللّه عليه؛ و استحضر الملك جفرى و أخاه، و البرنس أرناط، و ناول السلطان الملك جفرى شربة من جلّاب و ثلج فشرب منها، و كان على أشدّ حال من العطش ثم ناولها للبرنس، ثم قال السلطان للتّرجمان:

قل للملك أنت الذى سقيته و إلّا أنا فما سقيته، فإنّه كان من جميل عادة العرب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۴

و كريم أخلاقهم أنّ الأسير إذا أكل أو شرب من مال من أسره أمن؛ فلذا قال السلطان للتّرجمان: أنت الذى سقيته. ثمّ أمر السلطان بمسيرهم إلى موضع عيّنه لهم فأكلوا شيئا، ثم عادوا بهم و لم يبق عند السلطان سوى بعض الخدم؛ فآستحضرهم و أقعد الملك فى دهليز الخيمة، فطلب البرنس أرناط و أوقفه بين يديه، و قال [له]: هأنا أنتصر لمخمد منك، ثم عرض عليه الإسلام فلم يفعل، فسلّ النّيمجاه فضربه بها فحلّ كتفه، و تمّم قتله من حضر، و أخرجت جثّته و رميت على باب الخيمة؛ فلما رآها الملك جفرى لم يشكّ أنه يلحقه به، فاستحضره السلطان و طيّب قلبه، و قال له: لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك إلّا أنّ هذا تجاوز الحدّ و تجرّأ على الأنبياء صلوات اللّه عليهم، ثم أمره بالانصراف. و بات الناس تلك الليلة على أتمّ سرور. و فى هذه الواقعة يقول العماد الكاتب قصيدة طنّانة منها:

حططت على حطّين قدر ملوكهم و لم تبق من أجناس كفرهم جنسا

بطون ذئاب الأرض صارت قبورهم و لم ترض أرض أن تكون لهم رمسا

و قد طاب ريّانا على طبريّة فياطيبها ريّا و يا حسنها مرسى

و قال ابن السّاعاتیّ قصیدة أخری عظیمة فی هذا الفتح، أوّلها:

جلت عزماتک الفتح المبینا فقد قرّت عیون المؤمنینا

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۵

ثمّ رحل السلطان بعد أن تسلم طبریّة و نزل علی عکّا فی یوم الأربعاء سلخ شهر ربیع الآخر، و قاتلها بکرة یوم الخمیس مستهلّ جمادی الأولی سنة ثلاث و ثمانین و خمسمائة؛ و أخذها و استنقذ من کان فیها من أساری المسلمین، و کانوا أکثر من أربعة آلاف أسیر، و استولی علی ما کان فیها من الأموال و الذخائر و البضائع، لأنّها کانت مظنّة التجّار؛ و تفرّقت العساکر فی بلاد الساحل یأخذون الحصون و القلاع.

ثم سار السلطان من عکّا و نزل علی تبنین یوم الأحد حادی عشر جمادی الأولی، و هی قلعة منیعة، فحاصرها حتّی أخذها فی یوم الأحد ثامن عشر جمادی الأولی، المذکور عنوة. ثمّ رحل عنها إلی صیدا فنزل علیها و تسلّمها فی غد یوم نزوله علیها.

ثم رحل عنها و أتی بیروت فنازلها یوم الخمیس الثانی و العشرین من جمادی الأولی، حتی أخذها فی یوم الخمیس تاسع عشرین جمادی الأولی. و لمّا فرغ باله من هذا رأی قصد عسقلان، و لم یر الاشتغال بصور بعد أن نزل علیها؛ ثم رأی أنّ العسکر قد تفرّق فی الساحل و کانوا قد ضرسوا من القتال؛ و کان قد اجتمع بصور من بقی من الفرنج فرأی أنّ قصده عسقلان أولی، لأنّها أیسر من صور؛ فأتی عسقلان و نزل علیها یوم الأحد سادس عشر جمادی الآخرة. و أقام علیها إلی أن تسلّم أصحابه مدینة غزّة و بیت جبریل و الماطرون من غیر قتال، و کان بین فتح عسقلان و أخذ الفرنج لها ثانیا من المسلمین خمس و ثلاثون سنة؛ فإنّ أخذها کان فی سنة ثمان و أربعین و خمسمائة. و لمّا تسلّم السلطان عسقلان و البلاد المحیطة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۶

بالقدس شمّر عن ساق الجدّ و الاجتهاد فی قصد القدس المبارک، و اجتمع علیه العساکر التی کانت متفرّقة فی الساحل، فسار بهم نحو القدس معتمدا علی اللّه تعالی مفوّضا أمره إلیه منتهزا الفرصة فی فتح باب الخیر الذی حثّ علی انتهازه بقوله صلّی اللّه علیه و سلّم: «من فتح له باب خیر فلینتهزه فإنّه لا یعلم متی یغلق دونه».

و کان نزول السلطان علی القدس فی یوم الأحد الخامس عشر من شهر رجب سنة ثلاث و ثمانین المذکورة، و نزل بالجانب الغربیّ، و کان مشحونا بالمقاتلة من الخیّالة و الرّجّالة حتّی إنّه حزر أهل الخبرة، ممّن کان مع السلطان، من کان فیه من المقاتلة فکانوا یزیدون علی ستین ألفا خارجا عن النساء و الصّبیان؛ ثم انتقل السلطان لمصلحة رآها إلی الجانب الشمالی فی یوم الجمعة العشرین من رجب و نصب علیها المجانیق و ضایق البلد بالزّحف و القتال حتّی أخذ النّقب فی السور ممّا یلی وادی جهنّم؛ و لمّا رأی العدوّ ما نزل بهم من الأمر الذی لا مدفع لهم عنه، و ظهرت لهم أمارات فتح المدینة و ظهور المسلمین علیهم، و کان قد اشتدّ روعهم لما جری علی أبطالهم ما جری، فاستکانوا إلی طلب الأمان، و سلّموا المدینة فی یوم الجمعة السابع و العشرین من رجب، و لیلته کانت لیلة المعراج المنصوص علیها فی القرآن الکریم. فانظر إلی هذا الاتفاق العظیم، کیف یسر اللّه تعالی عوده إلی المسلمین فی مثل زمان الإسراء بنبیّهم صلّی اللّه علیه و سلّم.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۷

قال: و کان فتحا عظیما شهده من العلماء خلق، و من أرباب الحرب و الزّهد عالم کثیر، و ارتفعت الأصوات بالضّجیج بالدعاء و التهلیل و التکبیر، و صلّیت فیه الجمعة یوم فتحه، و نکّس الصلیب الذی کان علی قبّة الصخرة، و کان الصلیب شکلا عظیما، و نصر اللّه الإسلام. و کان الفرنج قد استولوا علی القدس- بعد فتحه الأوّل فی زمن عمر- فی یوم الجمعة الثالث و العشرین من شعبان سنة اثنتین و تسعین و أربعمائة؛ و قیل: فی ثانی شعبان و قیل یوم الجمعة السادس و العشرین من شهر رمضان من السنة (أعنی سنة اثنتین و تسعین)، و ذلک کان فی خلافة المستعلی أبی القاسم أحد خلفاء مصر من بنی عبید، و کان فی وزراة بدر الجمالی بدیار مصر.

و قد حكينا طرفا من ذلك فى ترجمة المستعلى فى هذا الكتاب. قلت: و على هذا الحساب يكون القدس أقام بيد الفرنج نيّفا و تسعين سنة من يوم أخذوه فى خلافة المستعلى إلى أن فتحه السلطان صلاح الدين فى هذه المرّة ثانيا. و للّه الحمد. قال ابن شدّاد: «و كانت قاعدة الصلح أنهم قطعوا على أنفسهم عن كلّ رجل عشرين دينارا، و عن كلّ امرأة خمسة دنانير صوريّة، و عن كلّ صغير ذكر أو أنثى دينارا واحدا، فمن أحضر قطيعته نجا بنفسه و إلّا أخذ أسيرا، و أفرج عمّن كان بالقدس من أسارى المسلمين، و كانوا خلقا عظيما؛ و أقام السلطان بالقدس يجمع الأموال و يفرّقها على الأمراء و الرجال، ثم رسم بإيصال من قام بقطيعته من الفرنج إلى مأمنه، و هى مدينة صور، فلم يرحل السلطان من القدس و معه من المال الذى جى شىء، و كان يقارب مائتى ألف دينار [و عشرين ألف دينار].

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۸

و لمّا فتح القدس حسن عنده فتح صور، و علم أنّه متى أخّره عسر عليه فتحه، فسار نحوها حتى أتى عكّا فنزل عليها و نظر فى أمورها؛ ثم رحل عنها متوجّها إلى صور فى يوم الجمعة خامس شهر رمضان من سنة ثلاث و ثمانين المذكورة، فنزل قريبا منها، و أرسل لإحضار آلات القتال حتّى تكاملت عنده، نزل عليها فى ثانى عشر الشهر المذكور، و قاتل أهلها قتالا شديدا و ضايقها، و استدعى أسطول مصر، و كان السلطان يضايقها فى البرّ و البحر؛ و خرج أسطول صور فى الليل فكبس أسطول المسلمين فى البحر، و أخذوا المقدّم و الرئيس و خمس قطع للمسلمين، و قتلوا خلقا كثيرا من الرجال، و ذلك فى السابع و العشرين من شهر شوّال؛ و عظم ذلك على السلطان و ضاق صدره؛ و كان الشتاء قد هجم و تراكمت الأمطار و امتنع الناس من القتال لكثرة الأمطار، فجمع السلطان الأمراء و استشارهم فيما يفعل، فأشاروا عليه بالرحيل لنستريح الرجال، فرحل عنها فى يوم الأحد ثانى ذى القعدة و تفرّقت العساكر، و أعطى كلّ طائفة منها دستورا؛ فسار كلّ قوم إلى بلادهم، و أقام هو فى جماعة من خواصّه بمدينة عكّا إلى أن دخلت سنة أربع و ثمانين و خمسمائة. فرحل و نزل على كوكب فى أوّل المحرّم، و لم يبق معه من العسكر إلّا القليل؛ و كان كوكب حصنا حصينا فيه الرجال [و الأقوات]، فعلم السلطان أنّه لا يؤخذ إلّا بقتال شديد. فرحل إلى دمشق فدخلها فى سادس عشرين شهر ربيع الأوّل من السنة؛ و أقام بدمشق خمسة أيّام.

و بلغه أنّ الفرنج قصدوا جبلة و اغتالوها، فخرج مسرعا و قد سيّر يستدعى العساكر

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۹

من جميع البلاد، و سار يطلب جبلة؛ فلمّا علم الفرنج بخروجه كفّوا عن ذلك.

و كان السلطان بلغه وصول عماد الدين صاحب سنجار و مظفّر الدين [بن] زين الدين صاحب إربل و عسكر الموصل إلى حلب قاصدين خدمته و الغزاة معه؛ فسار السلطان نحو حصن الأكراد حتى اجتمع بالمذكورين [و] تقوّى بهم للغاية». انتهى كلام ابن شدّاد.

و قال القاضى شمس الدين بن خلّكان: «و فى يوم الجمعة رابع جمادى الأولى دخل السلطان (يعنى صلاح الدين) بلاد العدوّ على تعبئة حسنة و رتّب الأطلاب، و سارت الميمنة أوّلا و مقدّمها عماد الدين زنكى، و القلب فى الوسط، و الميسرة فى الأخير و مقدّم الميسرة مظفّر الدين بن زين الدين صاحب إربل، فوصل إلى أنطرطوس يوم الأحد سادس جمادى الأولى، فوقف قبالتها ينظر إليها فإنّ قصده مجبلة، فاستهان أمرها و عزم على قتالها فسيّر من ردّ الميمنة، و أمرها بالنزول إلى جانب البحر، و الميسرة على الجانب الآخر، و نزل هو موضعه و العساكر محدقة بها من البحر إلى البحر، و هى مدينة راكبة على البحر و لها برجان، فركبوا و قاربوا البلد و زحفوا عليها، و اشتدّ القتال فما استتمّ نصب الخيام حتّى صعد المسلمون سورها و أخذوها بالسيف، و غنم المسلمون جميع ما فيها، و أحرق البلد و أقام عليها إلى رابع عشر جمادى الأولى، و سلّم أحد البرجين إلى مظفّر الدين، فما زال يحار به حتىّ أخربه. و حضر إلى السلطان ولده الملك الظاهر بعساكر حلب، لإنّه كان طلبه فجاء بعساكر عظيمة. ثم سار السلطان يريد جبلة فوصلها فى ثانى عشر جمادى الأولى،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۴۰

و ما استتمّ نزول العسکر علیها حتّی أخذت البلد؛ و کان فیه مسلمون مقیمون وقاض یحکم بینهم، و قوتلت القلعة قتالا شدیدا ثم سلّمت بالأمان. ثم سار السلطان عنها إلی اللّاذقیّة فنزل علیها یوم الخمیس الرابع و العشرین من جمادی الأولی، و لها قلعتان (یعنی اللّاذقیّة) متّصلتان علی تلّ مشرف علی البلد، و اشتدّ القتال إلی آخر النهار، فأخذ البلد دون القلعتین، و غنم المسلمون منه غنیمة عظیمة لأنّه کان بلد التجّار؛ ثم جدّوا فی أمر القلعتین بالنّقوب حتّی بلغ طول النّقب ستین ذراعا و عرضه أربع أذرع. فلمّا رأی أهل القلعتین الغلبة لاذوا بطلب الأمان، و ذلک فی عشیّة یوم الجمعة الخامس و العشرین من الشهر، و التمسوا الصلح علی سلامة أنفسهم و ذراریهم و نسائهم و أموالهم ما خلا الغلال و الذخائر و السلاح و آلات الحرب، فأجاب السلطان إلی ذلک، و رفع العلم الإسلامیّ علیها فی یوم السبت و أقام علیها إلی یوم الأحد السابع و العشرین من الشهر. ثم رحل عنها و نزل صهیون و قاتلهم أشدّ قتال حتّی أخذ البلد یوم الجمعة ثانی عشر جمادی الآخرة؛ ثم تقدّموا إلی القلعة و صدقوا القتال، فلمّا عاینوا الهلاک طلبوا الأمان فأجابهم إلیه بحیث یؤخذ من الرجل عشرة دنانیر، و من المرأة خمسة دنانیر، و من کل صغیر دیناران، الذکر و الأنثی سواء.

و أقام السلطان صلاح الدین بهذه الجهات حتّی أخذ عدّة قلاع منها بلاطنس و غیرها من الحصون المتعلّقة بصهیون. ثم رحل عنها و أتی بکاس، و هی قلعة حصینة علی العاصی و لها نهر یخرج من تحتها، و کان النزول علیها فی یوم الثلاثاء

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۴۱

سادس جمادی الآخرة، و قاتلوها قتالا شدیدا إلی یوم الجمعة تاسع الشهر ففتحها عنوة، فقتل أکثر من بها و أسر الباقون، و غنم المسلمون جمیع ما کان فیها، و لها قلعة تسمّی الشّغر، و هی فی غایة المنعة یعبر إلیها بجسر و لیس علیها طریق، فسلّطت المجانیق علیها من جمیع الجوانب، فرأوا أن لا ناصر لهم فطلبوا الأمان فی یوم الثلاثاء ثالث عشر الشهر. ثم سار السلطان الی برزیه، و هی أیضا من الحصون المنیعة فی غایة القوّة یضرب بها المثل، و یحیط بها أودیة من جمیع جوانبها، و علوّها خمسمائة و نیّف و سبعون ذراعا، و کان نزوله علیها یوم السبت الرابع و العشرین من الشهر، فقاتلوها حتّی أخذوها عنوة فی یوم الثلاثاء السابع و العشرین منه. ثم سار السلطان إلی دربساک فنزل علیها یوم الجمعة ثامن رجب، و هی قلعة منیعة فقاتلها قتالا شدیدا حتی أخذها و ترقّی العلم الإسلامیّ علیها یوم الجمعة الثانی و العشرین من رجب، و أعطاها للأمیر علم الدین سلیمان بن جندر، و سار عنها بکرة یوم السبت الثالث و العشرین من رجب و نزل علی بغراس، و هی قلعة حصینة بالقرب من أنطاکیة، و قاتلها قتالا شدیدا حتّی صعد العلم الإسلامی علیها فی ثانی شعبان؛ و راسله أهل أنطاکیة فی طلب الصلح فصالحهم لشدّة ضجر العسکر؛ فکان الصلح بینهم علی أن یطلقوا کلّ أسیر عندهم لا غیر، و الصلح إلی سبعة أشهر؛ فإن جاءهم من ینصرهم و إلّا سلّموا البلد.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۴۲

ثم رحل السلطان فسأله ولده الملک الظاهر صاحب حلب أن یجتاز به فأجابه إلی ذلک، فوصل إلی حلب فی حادی عشر شعبان، و أقام بالقلعة ثلاثة أیام، و ولده یقوم بالضّیافة حقّ القیام. ثم سار من حلب فاعترضه تقیّ الدین عمر ابن أخیه، و أصعده إلی قلعة حماة، و صنع له طعاما و أحضر له سماعا من جنس ما یعمل الصّوفیّة، و بات فیها لیلة واحدة، و أعطاه السلطان جبلة و اللّاذقیّة. ثم سار السلطان علی طریق بعلبکّ، و دخل دمشق قبل شهر رمضان بأیّام یسیرة. ثم سار فی أوائل شهر رمضان یرید صفد، فنزل علیها و لم یزل القتال عمّالا فی کلّ یوم حتّی تسلّمها بالأمان فی رابع عشر شوّال؛ و فی شهر رمضان المذکور سلّمت الکرک، سلّمها نوّاب صاحبها و خلّصوا صاحبها بذلک، فإنّه کان فی الأسر من نوبة حطّین. ثم نزل السلطان بالغور، و أقام بقیّة الشهر، فأعطی الجماعة دستورا. و سار السلطان مع أخیه العادل یرید زیارة القدس و وداع أخیه العادل المذکور، لأنّ العادل المذکور کان متوجّها إلی مصر، فدخل السلطان القدس فی ثامن ذی الحجّة و صلّی به العید. و توجّه فی حادی عشر ذی الحجّة إلی عسقلان لینظر فی أمورها، فتوجّه إلیها و أخذها من أخیه، و عوّضه عنها الکرک. ثم مرّ علی بلاد الساحل یتفقّد أحوالها. ثم سار فدخل عکّا و أقام بها معظم المحرّم

من سنة خمس و ثمانين و خمسمائة يصلح أحوالها، و رتّب فيها الأمير بهاء الدين قراقوش، و أمره بعمارتها و عمارة سورها.

و دخل السلطان دمشق فی مستهل صفر من السنة، و أقام بها إلى شهر ربيع الأوّل من السنة. ثم خرج إلى شقيف أرنون، و هو موضع حصين، فخيّم فی مرج عيون

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۴۳

بالقرب من الشّقيف فی سابع عشر شهر ربيع الأوّل فأقام أيّاما على قتاله، و العسكر تتواصل إليه؛ فلمّا تحقّق صاحب الشّقيف أنّه لا طاقة له به نزل إليه بنفسه، فلم يشعر به إلّا و هو قائم على باب خيمته، فأذن له فی الدخول و أكرمه السلطان و احترمه، و كان من أكبر الفرنج قدرا، و كان يعرف بالعربية، و عنده اطّلاع على بعض التواريخ و الأحاديث، و كان حسن التأتّی؛ لمّا خضر بين يدی السلطان و أكل معه الطعام، ثم خلا به و ذكر أنّه مملوكه و تحت طاعته، و أنّه يسلّم إليه المكان من غير تعب، و اشترط عليه أن يعطى موضعا يسكنه بدمشق، فإنّه بعد ذلک لا يقدر على مساكنة الفرنج، و إقطاعا بدمشق يقوم به و بأهله، و شروطا غير ذلک، فأجابه إلى ذلک. و فی أثناء شهر ربيع الأوّل وصل إلى السلطان [الخبر] بتسليم الشّوبک، و كان قد أقام عليه جمعا يحاصرونه مدّة سنة كاملة إلى أن نفد زاد من كان فيه فسلّموه بالأمان. ثم ظهر للسلطان بعد ذلک أنّ جميع ما قاله صاحب شقيف كان خديعة، فرسم عليه. ثم بلغه أنّ الفرنج قصدوا عكّا و نزلوا عليها فی ثالث عشر شهر رجب من سنة خمس و ثمانين المذكورة. و فی ذلک اليوم سيّر السلطان صاحب الشّقيف إلى دمشق بعد الإهانة الشديدة. ثم سار السلطان و أتى عكّا و دخلها بغتة ليقوّی قلوب من بها، و استدعى العساكر من كلّ ناحية؛ و كان العدوّ مقدار ألفی فارس و ثلاثين ألف راجل، و تكاثر الفرنج و استفحل أمرهم، و أحاطوا بعكّا و منعوا من يدخل إليها و يخرج، و ذلک فی يوم الخميس سلخ رجب، فضاق صدر السلطان لذلک، ثم اجتهد فی فتح الطريق إليها لتستمرّ السابلة بالميرة و النّجدة، و شاور الأمراء فاتّفقوا على مضايقة العدوّ لفتح الطريق،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۴۴

ففعلوا ذلک و انفتح الطريق و سلكه المسلمون؛ و دخل السلطان عكّا فأشرف على أمورها؛ ثم جرى بين الفريقين مناوشات فی عدّة أيام، و تأخّر الناس إلى تلّ العياضيّة و هو مشرف على عكّا. و فی هذه المنزلة توفّی الأمير حسام الدين طمان المقدّم ذكره، و ذلک فی نصف شعبان من سنة خمس و ثمانين و خمسمائة، و كان من الشّجعان».

قال ابن خلّكان: «قال شيخنا ابن شدّاد: و سمعت السلطان ينشد- و قد قيل له: إنّ الوخم قد عظم بعكّا، و إنّ الموت قد فشا بين الطائفتين-:

اقتلانی و مالكّا و اقتلا مالكّا معی

- قلت: و هذا الشعر له سبب ذكرناه فی ترجمة الأشتر النّخعیّ، اسمه مالک، فی أوائل هذا الكتاب فإنّه ملک مصر، و كان الأشتر من أصحاب علیّ بن أبی طالب- رضی اللّه عنه- و الحكاية مطوّلة تنظر فی ترجمة مالک (أعنی الأشتر النّخعیّ من هذا الكتاب-.

قال ابن شدّاد: ثم إنّ الفرنج جاءهم الإمداد من البحر، و استظهروا على الجماعة الإسلاميّة بعكّا، و كان فيهم الأمير سيف الدين علیّ بن أحمد الهكّاریّ المعروف بالمشطوب، و الأمير بهاء الدين قراقوش الخادم الصّلاحیّ، و ضايقوهم أشدّ مضايقة إلى أن غلبوا عن حفظ البلد. فلمّا كان يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة [سنة سبع و ثمانين و خمسمائة] خرج من عكّا رجل عوّام فی البحر، و معه كتب إلى السلطان من المسلمين يذكرون حالهم و ما هم فيه، و أنّهم تيقّنوا

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۴۵

الهلاک، و متى أخذوا البلد عنوة ضربت رقابهم، و أنّهم صالحوا على أن يسلّموا البلد و جميع ما فيه من الآلات و الأسلحة و المراكب، و مائتی ألف دينار و خمسمائة أسير مجاهيل و مائة أسير معيّنين من جماعتهم، و صليب الصلبوت، على أن يخرجوا بأنفسهم سالمين، و ما معهم من الأموال و الأقمشة المختصّة بهم و ذراريهم و نسائهم، و صمنوا للمركيس- لأنه كان الواسطة فی هذا الأمر-

أربعة آلاف دينار. فلمّا وقف السلطان على الكتب المشار إليها أنكر ذلك إنكارا عظيما، و عظم عليه هذا الأمر، و جمع أهل الرأى من أكابر دولته، و شاورهم فيما يصنع، و اضطربت آراؤه، و تقسّم فكره و تشوّش حاله، و عزم أن تكتب فى تلك الليلة كتب مع الرجل العوّام الذى قدم عليه بهذا الخبر ينكر المصالحة على هذا الوجه، و بينما هو يتردّد فى هذا فلم يشعر إلّا و قد ارتفعت أعلام العدوّ و صلبانه و ناره على سور البلد؛ و ذلك فى يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة؛ و صاح الفرنج صيحة واحدة، و عظمت المصيبة على المسلمين، و اشتدّ حزنهم، و وقع من الصباح و العويل و البكاء ما لا يذكر.

ثم خرجت الفرنج بعد أن ملكوا عكّا قاصدين عسقلان ليأخذوها أيضا من المسلمين، و ساروا على الساحل و السلطان و عساكره قبالتهم إلى أن وصلوا إلى أرسوف، فكان بينهما قتال عظيم، و نال المسلمين و هن شديد. ثم ساروا على تلك الهيئة تتمّة عشر منازل من سيرهم من عكّا، فأتى السلطان الرّملة، فأتاه من أخبر بأنّ القوم على عزم عمارة يافا و تقويتها بالرجال و العدد و الآلات، فأحضر السلطان أرباب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۴۶

مشورته، و شاورهم فى أمر عسقلان، و هل الصواب خرابها أو بقاؤها؟ فاتّفقت آراؤهم أن يبقى الملك العادل فى قبالة العدوّ، و يتوجّه السلطان بنفسه و يخربها خوفا من أن يصل العدوّ إليها و يستولى عليها و هى عامرة و يأخذ بها القدس، و ينقطع بها طريق مصر، و امتنع العسكر من الدخول و خافوا ممّا جرى على المسلمين بعكّا. فلا قوّة إلّا بالله. و رأوا أنّ حفظ القدس أولى، فتعيّن خرابها من عدّة جهات؛ و كان هذا الاجتماع يوم الثلاثاء سابع عشر شعبان من سنة سبع و ثمانين و خمسمائة، فسار إليها السلطان فى سحر يوم الأربعاء ثامن عشر شعبان المذكور. قال ابن شدّاد: و تحدّث معى فى معنى خرابها (يعنى عسقلان) بعد أن تحدّث مع ولده الملك الأفضل أيضا فى أمرها، ثم قال السلطان: لأن أفقد ولدى جميعهم أحبّ إلىّ من أهدم منها حجرا واحدا، و لكن إذا قضى اللّه تعالى ذلك، و كان فيه مصلحة للمسلمين، فما الحيلة فى ذلك! فلمّا اتّفق الرأى على خرابها أوقع اللّه ذلك فى نفسه، و أنّ المصلحة فيه لعجز المسلمين عن حفظها. و شرع فى إخرابها فى سحر يوم الخميس التاسع عشر من شعبان من السنة المذكورة، و قسّم السور على الناس و جعل لكلّ أمير و طائفة من العسكر بدنه معلومة و برجا معلوما يخربه، و دخل الناس البلد و وقع فيهم الضّجيج و البكاء لفرقة بلدهم و أوطانهم، و كان بلدا خفيفا على القلب محكم الأسوار عظيم البناء مرغوبا فى سكنه، فلحق الناس على خرابه حزن عظيم. و شرع أهل البلد فى بيع ما لا يقدرون على حمله، فباعوا ما يساوى عشرة دراهم بدرهم واحد، حتّى باعوا اثنى عشر طير دجاج بدرهم، و اختبط أهل البلد و خرجوا بأولادهم و أهليهم إلى الخيم و تشتّتوا، فذهب منهم قوم إلى مصر و قوم إلى الشام، و جرت عليهم أمور عظيمة، و اجتهد السلطان و أولاده فى خراب البلد كى لا يسمع العدوّ فيسرع إليها؛

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۴۷

فلا يمكن إخرابه، و كانت الناس على أصعب حال، و اشتد تعب الناس مما قاسوه فى خرابها.

و فى تلك الليلة وصل للملك العادل من حلب من أخبره أنّ الفرنج تحدّثوا معه فى الصلح، و طلبوا جميع البلاد الساحليّة، فرأى السلطان أنّ ذلك مصلحة لما علم من نفوس الناس و العساكر من الضّجر من القتال و كثرة ما عليه من الديون؛ فكتب السلطان إلى أخيه الملك العادل يأذن له فى ذلك، و فوّض الأمر إلى رأيه، و أصبح السلطان يوم الجمعة و هو مصرّ على الخراب، و يستعجل الناس عليه و يحثّهم على العجلة فيه؛ و أباحهم ما فى الهرى الذى كان مدخرا للميرة خوفا من أن يهجم العدوّ و العجز عن نقله. ثمّ أمر السلطان بإحراق البلد فأضرمت النيران فى بيوته، و لم يزل الخراب يعمل فى البلد الى سلخ شعبان المذكور؛ ثم أصبح السلطان يوم الاثنين مستهلّ شهر رمضان، أمر ولده الملك الأفضل أن يباشر خراب البلد بنفسه و خواصّه.

قال ابن شدّاد، و لقد رأيته يحمل الخشب بنفسه (يعنى الملك الأفضل).

و فى يوم الأربعاء ثالث شهر رمضان أتى السلطان الرّملة و أشرف عليها، و أمر أيضا بإحراقها و إخراب قلعتها (يعنى الرملة) فأحرقت و

أخربت قلعتها خوفا أیضا من الفرنج.

و فی یوم السبت ثالث عشر رمضان تأخّر السلطان و العسکر إلی جهة الجبل لیتمکّن الناس من تسییر دوابّهم لإحضار ما یحتاجون إلیه. ثم شرع السلطان أیضا فی خراب قلعة الماطرون، و کانت قلعة منیعة فشرع الناس فی ذلک. ثم ذکر ابن شدّاد فصلا طویلا یتضمّن الصلح بین الأنکلتیر ملک الفرنج و بین السلطان صلاح الدین المذکور إلی أن قال: و حاصل الأمر أنه تمّ الصلح بینهم، و کانت الأیمان یوم

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۴۸

الأربعاء الثانی و العشرین من شعبان سنة ثمان و ثمانین و خمسمائة؛ و نادی المنادی بانتظام الصلح، و أنّ البلاد الإسلامیة و النّصرانیة واحدة فی الأمن و المسالمة، فمن شاء من کلّ طائفة أن یتردّد إلی بلاد الطائفة الأخری من غیر خوف و لا محذور.

و کان یوما مشهودا نال الطائفتین فیه من السرور ما لا یعلمه إلّا اللّه تعالی؛ و قد علم اللّه تعالی أنّ الصلح لم یکن عن مرضاة السلطان، لکنّه رأی المصلحة فی الصلح لسآمة العسکر من القتال، و مظاهرتهم للمخالة. و کان مصلحة فی علم اللّه تعالی، فإنّه اتّفقت وفاته بعد الصلح، فلو اتّفق ذلک فی أثناء وقعاته کان الإسلام علی خطر ثم إنّ السلطان أعطی العساکر الوافدة علیه من البلاد البعیدة برسم الغزاة و النّجدة دستورا، فساروا عنه. و عزم السلطان علی الحجّ لمّا فرغ باله من هذه الجهة، و أمن الناس و تردّد المسلمون إلی بلاد الفرنج، و جاءوا هم أیضا إلی بلاد المسلمین، و حملت البضائع و المتاجر إلی البلاد؛ و توجّه السلطان إلی القدس لیتفقّد أحواله، و توجّه أخوه الملک العادل إلی الکرک، و ابنه الملک الظاهر إلی حلب، و ابنه الملک الأفضل إلی دمشق. ثم تأهّب السلطان إلی المسیر إلی الدیار المصریّة، و لم یزل کذلک إلی أن صحّ عنده سیر مرکب الأنکلتیر ملک الفرنج إلی بلاده فی مستهلّ شوّال، فعند ذلک قوی عزمه علی أن یدخل الساحل جریدة یتفقّد أحواله و أحوال القلاع البحریّة إلی بانیاس. ثم یدخل دمشق فیقیم بها قلیلا، ثم یعود إلی القدس و منه إلی الدیار المصریّة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۴۹

قال ابن شدّاد: و أمرنی بالمقام بالقدس إلی حین عوده إلیه لعمارة بیمارستان أنشأه به، و تکمیل المدرسة التی أنشأها به، و سار ضحوة نهار الخمیس السادس من شوّال سنة ثمان و ثمانین و خمسمائة. فلمّا فرغ السلطان من افتقاد أحوال القلاع و إزاحة خللها دخل دمشق بکرة یوم الأربعاء سادس عشرین شوّال، و فیها أولاده:

الملک الأفضل، و الملک الظاهر، و الملک الظافر مظفّر الدّین الخضر المعروف بالمشمّر و أولاده الصغار؛ و کان السلطان یحبّ البلد (یعنی دمشق) و یؤثر الإقامة به علی سائر البلاد، و جلس للناس فی بکرة یوم الخمیس السابع و العشرین منه، و حضروا عنده و بلّوا أشواقهم منه، و أنشده الشعراء، و لم یتخلّف عنه أحد من الخاصّ و العامّ، و أقام ینشر جناح عدله بدمشق إلی أن کان یوم الاثنین مستهلّ ذی القعدة، عمل الملک الأفضل دعوة للملک الظاهر أخیه لأنّه لمّا وصل إلی دمشق و بلغه حرکة السلطان أقام بها [حتّی یتملّی بالنظر إلیه ثانیا]، و لمّا عمل الأفضل الدعوة أظهر فیها من الهمم العالیة ما یلیق بهمّته، و کان أراد بذلک مجازاته لما خدمه [به] حین وصوله إلی بلده، و حضر الدعوة المذکورة أرباب الدنیا و الآخرة، و سأل الأفضل والده السلطان فی الحضور فحضر، و کان یوما مشهودا علی ما بلغنی. قال: و لمّا أصلح الملک العادل الکرک سار قاصدا الدیار الفراتیّة، و أحبّ أن یدخل دمشق،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۵۰

فوصل إلیها و خرج السلطان إلی لقائه، و أقام یتصیّد حول غباغب إلی الکسوة حتّی لقی أخاه الملک العادل و سارا جمیعا یتصیّدان، ثم عادا إلی دمشق؛ فکان دخولهما دمشق آخر نهار یوم الأحد حادی عشرین ذی القعدة سنة ثمان و ثمانین و خمسمائة.

و أقام السلطان بدمشق یتصیّد هو و أخوه الملک العادل و أولاده و یتفرّجون فی أراضی دمشق، و کأنه وجد راحة ممّا کان فیه من ملازمة التعب و النّصب و سهر اللیل، فکان ذلک کالوداع لأولاده، و نسی عزمه إلی مصر، و عرضت له أمور أخر و عزمات غیر ما

تقدّم.

قال ابن شدّاد: و وصلنى كتابه إلى القدس يستدعينى لخدمته، فخرجت من القدس فى يوم الجمعة الثالث و العشرين من المحرّم سنة تسع و ثمانين و خمسمائة، و كان الوصول إلى دمشق يوم الثلاثاء ثانى عشر صفر من السنة. و ركب السلطان ليتلقى الحاج فى يوم الجمعة خامس عشر صفر، و كان ذلك آخر ركوبه. و لمّا كانت ليلة السبت وجد كسلا عظيما و ما انتصف الليل حتّى غشيته حمّى صفراوية، و كانت فى باطنه أكثر ممّا فى ظاهره، و أصبح يوم السبت متكسّلا، عليه أثر الحمّى، و لم يظهر ذلك للناس، لكن حضرت عنده أنا و القاضى الفاضل، فدخل ولده الملك الأفضل و طال جلوسنا عنده و أخذ يشكو قلقه بالليل، و طاب له الحديث إلى وقت الظهر، ثم انصرفنا و قلوبنا عنده، فتقدّم إلينا بالحضور على الطعام فى خدمة

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۵۱

ولده الأفضل، و لم يكن للقاضى الفاضل فى ذلك عادة فآنصرف، و دخلت إلى الإيوان القبلىّ و قد مدّ السّماط، و ابنه الملك الأفضل قد جلس موضعه، فانصرفت و ما كانت لى قوّة للجلوس استيحاشا له، و بكى فى ذلك اليوم جماعة تفاؤلا بجلوس ولده الأفضل موضعه. ثمّ أخذ المرض يترايد به من حينئذ، و نحن نلازم التردّد له طرفى النهار، و كان مرضه فى رأسه. و كان من أمارات انتهاء العمر غيبة طبيبه الذى كان قد عرف مزاجه سفرا و حضرا، و رأى الأطباء فصده ففصدوه فى الرابع، فاشتدّ مرضه و حلّت رطوبات بدنه، و كان يغلب على مزاجه اليبس، فلم يزل المرض يتزايد به حتّى انتهى إلى غاية الضعف، و اشتدّ مرضه فى السادس و السابع و الثامن، و لم يزل يتزايد و يغيب ذهنه؛ و لمّا كان التاسع حدثت له غشية و امتنع من تناول المشروب، و اشتدّ الخوف فى البلد؛ و خاف الناس و نقلوا أقمشتهم من الأسواق، و علا الناس من الكآبة و الحزن ما لا يمكن حكايته. و لمّا كان اليوم العاشر من مرضه أيس منه الأطبّاء. ثم شرع ولده الملك الأفضل فى تحليف الناس له. ثم إنّه توفّى- إلى رحمة اللّه تعالى- بعد صلاة الصبح من يوم الأربعاء السابع و العشرين من صفر سنة تسع و ثمانين و خمسمائة. و كان يوم موته يوما لم يصب الإسلام و المسلمون بمثله بعد فقد الخلفاء الراشدين- رضى اللّه عنهم- و غشى القلعة و الملك و الدنيا وحشة لا يعلمها إلّا اللّه تعالى. و بالله لقد كنت أسمع من الناس أنّهم يتمنّون فداء من يعزّ عليهم بنفوسهم، و كنت أتوهّم أنّ هذا على ضرب من التجوّز و الترخّص إلى ذلك اليوم، فإنّى علمت من نفسى و من غيرى أنّه لو قبل الفداء لفدى

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۵۲

بالأنفس. تم جلس ولده الملك الأفضل للعزاء و غسّله أبو القاسم ضياء الدّين عبد الملك بن زيد الدّولعىّ خطيب دمشق، و أخرج تابوت السلطان- رحمه اللّه تعالى- بعد صلاة الظهر مسجّى بثوب فوط، فارتفعت الأصوات عند مشاهدته، و عظم الضّجيج و أخذ الناس فى البكاء و العويل، و صلّوا عليه أرسالا ثم أعيد إلى داره التى فى البستان، و هى التى كان متمرضا بها، و دفن فى الصّفّة الغربيّة منها. و كان نزوله فى حفرته قريبا من صلاة العصر. ثم أطال ابن شدّاد القول فى هذا المعنى إلى أن أنشد فى آخر السيرة بيت أبى تمّام الطائىّ، و هو قوله:

ثمّ انقضت تلك السّنون و أهلها فكأنّها و كأنّهم أحلام

و لقد كان- رحمه اللّه تعالى-. من محاسن الدنيا و غرائبها.

ثم ذكر ابن شدّاد أنّه مات و لم يخلّف فى خزائنه من الذهب و الفضّة إلا سبعة و أربعين درهما ناصريّة و دينارا واحدا ذهبا صوريّا، و لم يخلّف ملكا و لا دارا و لا عقارا و لا بستانا و لا قرية و لا مزرعة. و فى ساعة موته كتب القاضى الفاضل إلى ولده الملك الظاهر صاحب حلب بطاقة مضمونها:

«لقد كان لكم فى رسول اللّه أسوة حسنة. إنّ زلزلة الساعة شيء عظيم.

كتبت إلى مولانا السلطان الملك الظاهر، أحسن اللّه عزاءه و جبر مصابه؛ و جعل

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۵۳

فیه الخلف لممالیک المرحوم و أصحابه، و قد زلزل المسلمون زلزالا شدیدا؛ [و قد حفرت الدموع المحاجر، و بلغت القلوب الحناجر؛ و قد ودّعت أباک و مخدومی و داعا لا تلافیّ بعده]؛ و قد قبلّت وجهه عنّی و عنک، و أسلمته إلی اللّه تعالی مغلوب الحیلة، ضعیف القوّة، راضیا عن اللّه، و لا حول و لا قوّة إلّا بالله؛ و بالباب من الجنود المجنّدة، و الأسلحة المغمدة؛ ما لا یدفع البلاء، و لا یردّ القضاء؛ و تدمع العین و یخشع القلب، و لا نقول إلّا ما یرضی الربّ؛ و إنّا علیک یا یوسف لمحزونون.

و أمّا الوصایا فما یحتاج إلیها، و الآراء فقد شغلنی المصاب عنها؛ و أمّا لائح الأمر فإنّه إن وقع اتّفاق فما عدمتم إلا شخصه الکریم، و إن کان غیر ذلک فالمصائب المستقبلة أهونها موته، و هو الهول العظیم و السلام». انتهی کلام القاضی الفاضل بما کتبه للملک الظاهر.

قال ابن خلّکان: «و استمرّ السلطان صلاح الدین مدفونا بقلعة دمشق إلی أن بنیت له قبّة شمالیّ الکلّاسة التی هی شمالیّ جامع دمشق، و لها بابان، أحدهما إلی الکلّاسة و الآخر زقاق غیر نافذ؛ و هو مجاور المدرسة العزیزیّة. ثم نقل من مدفنه بالقلعة إلی هذه القبّة فی یوم عاشوراء فی یوم الخمیس من سنة اثنتین و تسعین و خمسمائة. ثم إنّ ولده الملک العزیز عثمان لمّا ملک دمشق من أخیه الملک الأفضل بنی إلی جانب هذه القبّة المدرسة العزیزیّة». قلت: فی أیّامه بنی الخصیّ

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۵۴

بهاء الدین قراقوش قلعة الجبل ثم قلعة المقس ثم سور القاهرة، و ذرع السور المذکور سبعة و عشرون ألف ذراع و ثلثمائة ذراع.

قال ابن خلّکان: «و کان السلطان صلاح لمّا ملک الدیار المصریة لم یکن بها شیء من المدارس، فإنّ الدولة المصریّة کان مذهبها مذهب الإمامیّة، فلم یکونوا یقولون بهذه الأشیاء، فعمّر السلطان صلاح الدین بالقرافة الصغری المدرسة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۵۵

المجاورة للإمام الشافعیّ- رضی اللّه عنه- و بنی مدرسة مجاورة للمشهد المنسوب للحسین ابن علیّ- رضی اللّه عنهما- بالقاهرة. و جعل دار سعید السعداء خادم الخلفاء المصریّین خانقاه، و وقف علیها وقفا هائلا؛ و کذلک وقف علی کلّ مدرسة عمّرها وقفا جیّدا، و جعل دار عبّاس الوزیر العبیدی مدرسة للحنفیّة، و أوقف علیها وقفا جیّدا أیضا و هی بالقاهرة، و بنی المدرسة التی بمصر المعروفة [بابن] زین التجّار للشافعیّة، و وقف علیها وقفا جیّدا، و بنی بالقصر داخل القاهرة بیمارستانا، و أوقف له وقفا جیدا؛ و له بالقدس مدرسة و خانقاه.

قال ابن خلّکان: «و لقد فکّرت فی نفسی فی أمور هذا الرجل، و قلت: إنه سعید فی الدنیا و الآخرة، فإنّه فعل فی الدنیا هذه الأفعال المشهورة من الفتوحات الکثیرة و غیرها، و رتّب هذه الأوقاف العظیمة، و لیس شیء منسوبا إلیه فی الظاهر،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۵۶

فإنّ المدرسة التی بالقرافة ما یسمّونها الناس إلّا بالشافعیّ، و المجاورة للمشهد لا یقولون إلّا المشهد، و الخانقاه لا یقولون إلّا سعید السعداء، و المدرسة الحنفیّة لا یقولون إلا السیوفیّة، و التی بمصر لا یقولون إلّا مدرسة زین التّجار، و التی بمصر أیضا مدرسة المالکیّة، و هذه صدقة السّرّ علی الحقیقة. و العجب أنّ له بدمشق فی جانب البیمارستان النّوریّ مدرسة أیضا، و یقال لها: الصلاحیّة، و هی منسوبة إلیه و لیس لها وقف.

قال: و کان مع هذه المملکة المتّسعة و السلطنة العظیمة کثیر التواضع و اللّطف قریبا من الناس رحیم القلب کثیر الاحتمال و المداراة، و کان یحبّ العلماء و أهل الخیر و یقرّبهم و یحسن إلیهم؛ و کان یمیل إلی الفضائل، و یستحسن الأشعار الجیّدة و یردّدها فی مجالسه، حتّی قیل: إنّه کان کثیرا ما ینشد قول أبی المنصور محمد بن الحسین بن أحمد بن الحسین بن إسحاق الحمیریّ، و هو قوله:

و زارنی طیف من أهوی علی حذر من الوشاة و داعی الصبح قد هتفا

فكدت أوقظ من حولى به فرحا و كاد يهتك سترا لحبّ بى شفغا

ثم انتبهت و آمالى تخيّل لى نيل المنى فاستحالت غبطتى أسفا

و قيل: إنّه كان يعجبه قول نشو الملك أبى الحسن علىّ بن مفرّج المعروف بابن المنجّم المغربىّ الأصل المصرىّ الدار و الوفاة، و هو فى خضاب الشّيب و أجاد:

و ما خضب الناس البياض لقبحه و أقبح منه حين يظهر ناصله

و لكنّه مات الشباب فسوّدت على الرسم من حزن عليه منازله

قالوا: فكان [إذا قال: مات الشباب] يمسك كريمته و ينظر إليها و يقول:

إى و اللّه مات الشباب!. و ذكر العماد الكاتب الأصبهانىّ فى كتابه الخريدة أنّ السلطان صلاح الدين فى أوّل ملكه كتب إلى بعض أصحابه بدمشق:

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۵۷

أيّها الغائبون عنّا و إن كن تم لقلبى بذكركم جيرانا

إنّنى مذ فقدتكم لأراكم بعيون الضمير عندى عيانا

قال ابن خلّكان: و أمّا القصيدتان اللتان ذكرت أنّ سبط بن التّعاويذىّ أنفذهما إليه من بغداد، و أنّ إحداهما و ازن بها قصيدة صرّدرّ الشاعر، و قد ذكرت منها أبياتا فى ترجمة الكندرىّ و أوّلها:

أكذا يجازى ودّ كلّ قرين أم هذه شيم الظّباء العين

ثم ذكر قصيدة سبط [بن] التّعاويذىّ. و هى على هذا الوزن أضربت عن ذكرها لطولها. ثم قال ابن خلّكان: و أمّا القصيدة الثانية (يعنى التى كتبها إليه الخليفة فى أوائل أمر صلاح الدين) قال: فمنها قوله:

حتّام أرضى فى هواک و تغضب و إلى متى تجنى علىّ و تعتب

ما كان لى لو لا ملالک زلّة لمّا مللت زعمت أنّى مذنب

خذ فى أفانين الصدود فإنّ لى قلبا على العلّات لا يتقلّب

أ تظنّنى أضمرت بعدک سلوة هيهات عطفک من سلوّى أقرب

لى فيک نار جوانح ما تنطفى حزنا و ماء مدامع ما ينضب

أنسيت أيّاما لنا و لياليا للّهو فيها و البطالة ملعب

أيام لا الواشى يعدّ ضلالة و لهى عليک و لا العذول يؤنّب

قد كنت تنصفنى المودّة راكبا فى الحبّ من أخطاره ما أركب

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۵۸

و اليوم أقنع أن يمرّ بمضجعى فى النوم طيف خيالک المتأوّب

ما خلت أنّ جديد أيّام الصّبا يبلى و لا ثوب الشّبيبة يسلب

حتّى انجلى ليل الغواية و اهتدى سارى الدجى و انجاب ذاک الغيهب

و تنافر البيض الحسان فأعرضت عنّى سعاد و أنكرتنى زينب

قالت و ريعت من بياض مفارقى و نحول جسمى بان منک الأطيب

إن تنكرى سقمى فخصرک ناحل أو تنكرى شيبى فثغرک أشنب

يا طالبا بعد المشيب غضارة من عيشه ذهب الزمان المذهب

أ تروم بعد الأربعين تعدّها وصل الدّمى هيهات عزّ المطلب

و القصيدة طويلة ذكرها ابن خلّكان، و قد نقلتها من خط عسر. ثم قال ابن خلّكان: و قد مدحه جميع شعراء عصره، فمنهم العلم الشّاتانىّ و اسمه الحسن- رحمه اللّه- مدحه بقصيدة أوّلها:

أرى النصر مقرونا برايتك الصّفرا فسرو املك الدنيا فأنت بها أحرى

و مدحه المهذّب أبو حفص عمر بن محمد بن علىّ بن أبى نصر المعروف بابن الشّحنة الموصلىّ الشاعر المشهور بقصيدته التى أوّلها:

سلام مشوق قد براه التشوّق على جيرة الحىّ الذين تفرّقوا

و عدد أبياتها مائة و ثلاثة عشر بيتا، و فيها البيتان السائران أحدهما:

و إنّى امرؤ أحببتكم لمكارم سمعت بها و الأذن كالعين تعشق

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۵۹

و قد أخذ هذا المعنى من قول بشّار بن برد، و هو:

يا قوم أذنى لبعض الحى عاشقة و الأذن تعشق قبل العين أحيانا

و البيت الثانى من قول ابن الشّحنة المذكور.

و قالت لى الآمال إن كنت لا حقا بأبناء أيّوب فأنت الموفّق

قال: و مدحه ابن قلاقس و ابن الذّروىّ و ابن المنجّم و ابن سناء الملك و ابن الساعاتى و الإربلىّ و محمد بن إسماعيل بن حمدان. انتهى ما أوردته من كلام ابن خلّكان و من كلام ابن شدّاد و ابن الأثير و ابن الجوزىّ و غيرهم باختصار.

و قال العلّامة أبو المظفّر فى تاريخه مرآة الزمان: «و لمّا كان فى سادس عشر صفر وجد السلطان كسلا و حمّ حمّى صفراويّة، ثم ذكر نحوا ممّا ذكره ابن شدّاد إلى أن قال: و أحضر الأفضل (يعنى ولده) الأمراء: سعد الدين مسعودا أخا بدر الدين مودود شحنة دمشق، و ناصر الدّين صاحب صهيون، و سابق الدين عثمان صاحب شيزر ابن الداية، و ميمونا القصرىّ، و البكى الفارسى، و أيبك فطيس، و حسام الدين

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۶۰

بشارة، و أسامة الحلبىّ و غيرهم، فاستحلفهم لنفسه. و كان عند السلطان أبو جعفر إمام الكلّاسة يقرأ القرآن، فلمّا انتهى إلى قوله تعالى: هُوَ اللَّهُ الَّذِی لا إِلهَ إِلَّا هُوَ عالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ، و كان قد غاب ذهنه فتح عينيه، و قال: صحيح. ثم قال أبو المظفّر: و غسّله ابن الدّولعىّ، و صلّى عليه القاضى محيى الدّين بن الزّكىّ. و بعث القاضى الفاضل له الأكفان و الحنوط من أجلّ الجهات. ثم قال: «و قال العماد الكاتب: دخلنا عليه ليلة الأحد للعيادة، و مرضه فى زيادة؛ و فى كلّ يوم تضعف القلوب، و تتضاعف الكروب؛ ثم انتقل من دار الفناء، إلى دار البقاء، سحر يوم الأربعاء؛ و مات بموته رجاء الرجال، و أظلم بغروب شمسه فضاء الإفضال. و رثاه الشعراء؛ فمن ذلك قول بعضهم:

شمل الهدى و الملك عمّ شتاته و الدهر ساء و أقلعت حسناته

بالله أين الناصر الملك الذى للّه خالصة صفت نيّاته

أين الذى [مذ] لم يزل مخشيّة مرجوّة رهباته و هباته

أين الذى كانت له طاعاتنا مبذولة و لربّه طاعاته

أين الذى ما زال سلطانا لنا يرجى نداه و تتّقى سطواته

أين الذى شرف الزمان بفضله و سمت على الفضلاء تشريفاته

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۶۱

لا تحسبوه مات شخصا واحدا قد عمّ كلّ العالمين مماته

ملك عن الإسلام كان محاميّا أبدا لماذا أسلمته حماته

قد أظلمت مذ غاب عنّا دوره لمّا خلت من بدره داراته

دفن السماح فليس تنشر بعدما أودى إلى يوم النشور رفاته

الدين بعد أبى المظفّر يوسف أقوت قراه و أقفرت ساحاته

بحر خلا من وارديه و لم تزل محفوفة بوروده حافاته

من لليتامى و الأرامل راحم متعطّف مفضوضة صدقاته

لو كان فى عصر النّبيّ لأنزلت فى ذكره من ذكره آياته

بكت الصوارم و الصواهل إذ خلت من سلّها و ركوبها عزماته

يا وحشة الإسلام حين تمكّنت من كلّ قلب مؤمن روعاته

يا راعيا للدين حين تمكنت منه الذئاب و أسلمته رعاته

ما كان ضرّك لو أقمت مراعيا دينا تولّى مذ رحلت ولاته

فارقت ملكا غير باق متعبا و وصلت ملكا باقيا راحاته

فعلى صلاح الدين يوسف دائما رضوان ربّ العرش بل صلواته

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۶۲

ذكر أولا السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب- رحمه اللّه- كانوا ستة عشر ذكرا و ابنة واحدة، أكبرهم الأفضل علىّ، ولد بمصر سنة خمس و ستين يوم عيد الفطر. و أخوه لأبيه و أمّه الملك الظافر خضر، ولد بمصر سنة ثمان و ستين. و أخوهما أيضا لأبيهما و أمّهما قطب الدين موسى، ولد بمصر سنة ثلاث و سبعين. فهؤلاء الثلاثة أشقّاء. ثم الملك العزيز عثمان الذى ملك مصر بعد أبيه، ولد بها سنة سبع و ستين. و أخوه لأبيه و أمّه الأعز يعقوب، ولد بمصر سنة اثنتين و سبعين. و الملك الظاهر غازى صاحب حلب، ولد بمصر سنة ثمان و ستين. و أخوه لأبيه و أمّه الملك الزاهر داود، ولد بمصر سنة ثلاث و سبعين. و الملك المعز إسحاق، ولد سنة سبعين. و الملك المؤيّد مسعود، ولد بدمشق سنة إحدى و سبعين. و الملك الأشرف محمد، ولد بالشام سنة خمس و سبعين. و أخوه أيضا لأبيه و أمّه الملك المحسن أحمد، ولد بمصر سنة سبع و سبعين. و أخوه أيضا لأبيه و أمّه الملك الغالب ملكشاه، ولد بالشام سنة ثمان و سبعين. و أخوهم أيضا لأبيهم و أمّهم أبو بكر النصر، ولد بحرّان بعد وفاة أبيه سنة تسع و ثمانين. و البنت مؤنسة خاتون تزوّجها ابن عمّها الملك الكامل- الآتى ذكره- ابن الملك العادل و ماتت عنده.

و ملك بعد السلطان صلاح الدين مصر ابنه الملك العزيز عثمان الآتى ذكره إن شاء اللّه تعالى و ملك دمشق بعده ابنه الملك الأفضل علىّ، و ملك حلب ابنه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۶۳

الظاهر غازى كما كانوا أيام أبيهم. ثم وقع بين الملك العزيز و الأفضل أمور نذكرها فيما يأتى إن شاء اللّه تعالى. انتهت ترجمة السلطان صلاح الدين- رحمه اللّه-. و نذكر الآن ما وقع فى أيامه من الحوادث، و من توفّى من الأعيان فى زمانه على سبيل الاختصار على عادة هذا الكتاب. و بالله المستعان.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۶۷]

السنة الأولى من ولاية الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيّوب على مصر، و هى سنة سبع و ستين و خمسمائة. (أعنى سلطنته بعد موت العاضد العبيدىّ آخر خلفاء الفاطميّين بمصر). و أمّا وزارته فكانت قبل ذلك بمدّة من يوم مات عمّه الملك المنصور أسد الدين شيركوه بن أيّوب فى يوم السبت ثانى عشر جمادى الآخرة سنة أربع و ستين و خمسمائة. و قد ذكرنا حوادث وزارته فيما مضى، و نذكر الآن من يوم سلطنته بعد الخليفة العاضد (أعنى حوادث سنة سبع و ستين و خمسمائة).

فيها خطب لبنى العباس بمصر و أبطل الخطبة لبنى عبيد حسب ما تقدّم ذكره فى ترجمة العاضد، و فى ترجمة صلاح الدين أيضا؛ و لمّا وقع ذلك كتب العماد الكاتب عن السلطان صلاح الدين لنور الدين الشهيد يخبره بذلك:

قد خطبنا للمستضىء بمصر نائب المصطفى إمام العصر

و لدينا تضاعفت نعم اللّ ه و جلّت عن كلّ عدّ و حصر

و استنارت عزائم الملك العا دل نور الدين الهمام الأغرّ

و فيها بعث الملك العادل نور الدين محمود المذكور بالبشارة للخليفة المستضىء على يد الشيخ شهاب الدين المطهّر بن شرف الدين بن أبى عصرون، فلمّا وصل

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۶۴

شهاب الدين المذكور للخليفة قال فى المعنى ابن الحرستانىّ الشاعر المشهور قصيدة أوّلها:

جاء البشير فسرّ الناس و ابتهجوا فما على ذى سرور بعدها حرج

و خلع الخليفة على شهاب الدين المذكور. ثم بعث جواب الملك العادل على يد الخادم صندل و على يديه الخلع و التقاليد له، و فى الخلعة الطّوق و فيه ألف دينار و الفرجيّة و العمامة، ثم أرسل مع الخادم المذكور لصلاح الدين صاحب الترجمة خلعا دون خلع نور الدين. و بعث أيضا لنور الدين سيفا قلّده للشام، ثم سيفا آخر قلّده بمصر، و يكون صلاح الدين نائبه بمصر. و زيّنت بغداد و ضربت القباب لذلك.

و فيها وقعت الوحشة بين نور الدين و صلاح الدين. هذا لأمر ذكرناه فى أوائل ترجمة صلاح الدين، ثم سكن ذلك.

و فيها توفّى حسّان بن نمير الكلبىّ أبو النّدى الشاعر المشهور المعروف بعرقلة الدمشقىّ، و يقال له عرقلة من حاضرة دمشق، كان شيخا خليعا أعور مطبوعا لطيفا ظريفا، كان اختصّ بالسلطان صلاح الدين و له فيه مدائح، و له شعر رائق كثير. من ذلك قصيدته المشهورة:

كتم الهوى فوشت عليه دموعه من حرّ نار تحتويه ضلوعه

صبّ تشاغل بالربيع و زهره زمنا و فى وجه الحبيب ربيعه

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۶۵

يا لائمى فيمن تمتّع وصله عن صبّه أحلى الهوى ممنوعه

كيف التخلّص إن تجنّى أو جنى و الحسن شىء ما يردّ شفيعه

شمس و لكن فى فؤادى حرّها بدر و لكن فى القباء طلوعه

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة؛ ج۶؛ ص۶۵

قال العواذل ما الذى استحسنته منه و ما يسبيک قلت جميعه

و فيها توفّى عبد اللّه بن أحمد بن أحمد بن أحمد العلّامة أبو محمد المعروف بابن الخشّاب النحوىّ اللغوىّ حجّة العرب، برع فى فنون العلوم و انفرد بعلم النحو و العربيّة حتّى فاق أهل عصره.

و فيها توفّى عبد اللّه بن أحمد بن الحسين [بن أحمد بن الحسين] بن إسحاق أبو محمد الحميرىّ و يعرف بابن النّقّار الكاتب. ولد بطرابلس سنة تسع و سبعين و أربعمائة. و لمّا استولى الفرنج على طرابلس انتقل منها إلى دمشق؛ و كان شاعرا ماهرا. و من شعره-

رحمه اللّه- القصيدة المشهورة التى أوّلها:

بادر إلى اللّذات فى أزمانها و اركض خيول اللّهو فى ميدانها

و استقبل الدنيا بصدر واسع ما أوسعت لك من رحيب مكانها

و له:

اللّه يعلم أنّنى ما خلته يصبو إلى الهجران حين و صلته

من منصفى من ظالم متعنّت يزداد ظلما كلّما حكّمته

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۶۶

ملّكته روحى ليحفظ ملكه فأضاعنى و أضاع ما ملّكته

لا ذنب لى إلّا هواه لأنّه لمّا دعانى للسّقام أجبته

و فيها توفّى العاضد خليفة مصر، حسب ما ذكرناه فى ترجمته.

الـذين ذكر الـذهبىّ وفاتهم فى هذه السـنة، قال: و فيها توفّى أبو علىّ أحمد بن محمد ابن علىّ الرّحبىّ الحرمىّ فى صـفر. و أبو محمد عبد اللّه بن منصور بن الموصلىّ.

و أبـو محمـد عبـد اللّه بن أحمـد بن أحمـد [بن أحمـد] بن الخشّـاب النحوىّ. و العاضـد عبـد اللّه بن يوسف بن الحافظ العبيـدىّ فى المحرّم، و انقضت دولة الرّفض عن مصر.

و أبو الحسن علىّ بن عبد اللّه بن خلف بن النّعمة الأندلسىّ بسبتة فى رمضان.

و أبو المطهّر القاسم بن الفضل بن عبـد الواحد الصّيدلانىّ بأصـبهان فى جمادى الأولى، و قد نيّف على التسـعين. و أبو المظفّر محمد بن أسعد [بن محمد بن نصر] بن حكيم العراقىّ الواعظ شيخ الحنفيّة بدمشق. و أبو المكارم المبارك بن محمد بن المعمّر البادرايىّ.

و أبو العلاء وجيه بن عبد اللّه السّقطىّ. و أبو بكر يحيى بن سعدون القرطبىّ الأزدىّ و نزيل الموصل يوم الفطر.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و سبع أصابع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و عشرون إصبعا.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۶۷

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۶۸]

السنة الثانية من ولاية السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب على مصر، و هى سنة ثمان و ستين و خمسمائة.

فيها سار الملك العادل نور الدين محمود صاحب دمشق إلى الموصل، و صلّى بالجامع الذى بناه وسط الموصل و تصدّق بمال عظيم.

و لمّا علم صـلاح الدين صاحب الترجمة بتوجّهه إلى الموصل خرج بعساكره من مصـر إلى الشام، و حصـر الكرک و الشّوبک و نهب أعمالهما؛ ثم عاد لمّا بلغه عود نور الدين إلى الشام. و هذه أوّل غزوات صلاح الدين.

و فيها توفّى الأمير نجم الدين أيّوب بن شادى بن مروان والد صـلاح الدين المذكور. كان أميرا عاقلا حازما شـجاعا جوادا عاطفا على الفقراء و المساكين محبّا للصالحين، قليل الكلام جدّا لا يتكلّم إلّا لضـرورة. و لمّا قدم مصـر سأله ولده السـلطان صـلاح الدين صاحب الترجمة أن يكون هو السـلطان، فقال: أنت أولى. و كان سـبب موته أنّه ركب يوما و خرج من باب النّصر يريد الميدان، فشبّ به فرسه فوقع على رأسه، فأقام ثمانيـة أيام و مات فى ليلة الثلاثاء السابع و العشـرين من ذى الحجّة، و دفن إلى جانب أخيه أسد الدين شـيركوه بن أيوب فى الدار

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۶۸

السلطانية ثم نقلا بعد سنتين إلى مدينة النّبىّ صلّى اللّه عليه و سلم. و كان ابنه السلطان، صلاح الدين قد عاد من الكرك فبلغه خبر موته فى الطريق، فوجد عليه و تأسّف حيث لم يحضره. و خلّف من الذكور ستة: السلطان صلاح الدين يوسف، و أبا بكر العادل الآتى ذكره فى ملوك مصر، و شمس الدولة توران‌شاه و هو أكبر الجميع، و شاهنشاه، و سيف الإسلام طغتكين، و تاج الملوك بورى و هو الأصغر.

و فيها توفّى الحسن بن أبى الحسن صافى ملك النحاة مولى الحسين بن الأرموىّ التاجر البغدادىّ، قرأ النحو و أصول الدين و الفقه و الخلاف و الحديث و برع فى النحو وفاق أهل زمانه، و سافر البلاد و صنّف الكتب فى فنون العلوم، من ذلك «المقامات» التى من جنس «مقامات الحريرىّ»؛ و كان يقول: مقاماتى جدّ و صدق، و مقامات الحريرىّ هزل و كذب. قلت: و لكن بين ذلك أهوال.

و من مصنّفاته كتاب أربعمائة كراسة، سمّاها «التذكرة السفريّة».

و فيها توفى سعد الدين بن القاسم بن علىّ بن علىّ أبو المعالى الكتبىّ الحظيرىّ الحنفىّ، كان شاعرا فاضلا. و الحظيرة: قرية فوق بغداد و هى (بفتح الحاء المهملة و كسر الظاء المعجمة و سكون الياء المثناة من تحتها و بعدها راء) و إلى هذه القرية ينسب كثير من العلماء. و من شعر الحظيرىّ- رحمه اللّه تعالى و عفا عنه-:

صبح مشيبى بدا و فارقنى ليل شبابى فصحت وا قلقى

و صرت أبكى دما عليه و لا بدّ لصبح المشيب من شفق

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۶۹

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى نجم الدين أيّوب بن شادى والد الملوك. و ملك النحاة أبو نزار الحسن بن صافى البغدادىّ بدمشق.

و أبو جعفر محمد بن الحسن الصّيدلانىّ بأصبهان، و له خمس و تسعون سنة. و صالح ابن إسماعيل أبو طالب ابن بنت معافى المالكىّ مفتى الإسكندريّة- رحمه اللّه-.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و عشرون إصبعا.

مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا و ثمانى عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۶۹]

السنة الثالثة من ولاية السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب على مصر، و هى سنة تسع و ستّين و خمسمائة.

فيها كتب صلاح الدين صاحب الترجمة لنور الدين يستأذنه فى إنفاذ جيش إلى اليمن فأذن له، فبعث صلاح الدين أخاه شمس الدولة توران شاه بن أيّوب، فسار إليها، و كان فيها عبد النّبىّ بن مهدىّ من أصحاب المصريّين، و كان ظالما فاتكا، فحصره شمس الدولة توران شاه فى قصره بزبيد مدّة، حتّى طلب الأمان فأمّنه؛ فلمّا نزل إليه قيّده و وكّل به، و فتح صنعاء و حصون اليمن و المدائن، يقال: إنّه فتح ثمانين حصنا و مدينة و استولى على أموالها و ذخائرها، و قتل عبد النّبىّ المذكور. و ولّى على زبيد سيف الدولة مبارك بن منقذ، و عزّ الدّين عثمان بن الزّنجيلىّ على باقى البلاد.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۷۰

و فيها قبض صلاح الدين على جماعة من أعيان الدولة العبيديّة: مثل داعى الدّعاة، و عمارة اليمنىّ و غيرهما، بلغه أنّهم يجتمعون على إثارة الفتن، و اتّفقوا مع السّودان و كاتبوا الفرنج، فقتل داعى الدعاة، و صلب عمارة اليمنىّ. قال القاضى شمس الدين ابن خلّكان: هو أبو محمد عمارة بن أبى الحسن على بن زيدان ابن أحمد بن محمد الحكمىّ اليمنىّ، الملقّب نجم الدين الشاعر؛ و هو من جبال اليمن

من مدينة مرطان، بينها و بين مكّة من جهة الجنوب أحد عشر يوما. و كان فقيها فصيحا، أقام بزبيد مدّة يقرأ عليه مذهب الشافعىّ، و له فى الفرائض مصنّف مشهور باليمن، و مدح خلفاء مصر، فقرّبوه و أعطوه الأموال، فكان عندهم بمنزلة الوزير، و كان أيضا معظّما قبل ذلك فى اليمن؛ ثم ظهرت أمور اقتضت خروجه منها، فقدم إلى مصر فى سنة خمسين و خمسمائة. و قيل: إنّ سبب قتله أنّه مدح توران شاه، و حرّضه على أخذ اليمن بقصيدة أوّلها:

العلم مذ كان محتاج إلى العلم و شفرة السيف تستغنى عن القلم

إلى أن قال:

هذا ابن تومرت قد كانت بدايته كما يقول الورى لحما على وضم

و كان أوّل هذا الدّين من رجل سعى إلى أن دعوه سيّد الأمم

قال العماد الكاتب: اتّفقت لعمارة اتّفاقات: منها أنّه نسب إليه قول هذا البيت فكان أحد أسباب قتله؛ و أفتى قضاة مصر بقتله، و قيل: إنّه لمّا أمر صلاح الدين

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۷۱

بصلبه، مرّوا به على دار القاضى الفاضل، فرمى بنفسه على بابه و طلب الدخول إليه ليستجير به فلم يؤذن له، فقال:

عبد الرحيم قد احتجب إنّ الخلاص من العجب

فصلب و هو صائم فى شهر رمضان.

و فيها توفّى السلطان الملک العادل نور الدين أبو القاسم محمود بن زنکى بن آق سنقر صاحب الشام و مصر المعروف بنور الدين الشهيد. قال ابن عساكر: «ولد سنة إحدى عشرة و خمسمائة، و كان معتدل القامة أسمر اللّون واسع الجبهة حسن الصورة، لحيته شعرات خفيفة فى حنكه، و نشأ على الخير و الصلاح. و كان زنکى يقدّمه على أولاده، و يرى فيه مخايل النّجابة. و فتح فى أيام سلطنته نيّفا و خمسين حصنا».

قلت: و مصر أيضا من جملة فتوحاته، و أيضا ما فتحه صلاح الدين من البلاد و الحصون هو شريكه فى الأجر و الثواب، و لولاه إيش كان صلاح الدين! حتّى ملک مصر من أيدى تلک الرافضة من بنى عبيد خلفاء مصر و قوّة بأسهم!. قلت:

و ترجمة الملک العادل طويلة، يضيق هذا المحلّ عن ذكرها، و أحواله أشهر من أن تذكر. غير أنّنا نذكر مرض موته و وفاته. و كان ابتداء مرضه أنّه ختن ولده الملک الصالح إسماعيل يوم عيد الفطر، فهنّىء بالعيد و الطهور، فقال العماد الكاتب- رحمه اللّه-:

عيدان فطر و طهر فتح قريب و نصر

كلاهما لک فيه حقّا هناء و أجر

فمرض بعد عوده من صلاة العيد بالخوانيق، و ما كان يرى الطبّ؛ على قاعدة الأتراک، فأشير عليه بالفصد فى أوّل مرضه فامتنع؛ و كان مهيبا فما روجع؛ فمات يوم الأربعاء حادى عشر شوّال، و دفن بالقلعة، ثم نقل إلى مدرسته التى أنشأها مجاورة

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۷۲

الخوّاصين بدمشق. و عاش ثمانيا و خمسين سنة. و كانت سلطنته ثمانيا و عشرين سنة و ستة أشهر. و رثاه العماد الكاتب بعدّة مراث؛ من ذلک قوله:

يا ملكا أيّامه لم تزل لفضله فاضلة فاخره

ملكت دنياک و خلّفتها و سرت حتّى تملک الآخره

قال أبو اليسر شاكر بن عبد اللّه [التّنوخىّ المعرّىّ]: تعدّى بعض أمراء صلاح الدين بن أيّوب [على رجل] و أخذ ماله، فجاء إلى صلاح الدين فلم يأخذ له بيد؛ فجاء إلى قبر نور الدين و شقّ ثيابه، و حثا التراب على رأسه، و جعل يستغيث:

یـا نور الـدین أین أیّامک! و یبکی. فبلغ صـلاح الـدین فاسـتدعاه و أعطاه ماله، فازداد بکاؤه؛ فقال له صـلاح الـدین: ما یبکیک و قد أنصفناک؟ فقال: إنّما أبکی علی ملک أنصفت ببرکاته و بعد موته، کیف یأکله التراب و یفقده المسلمون!.

و تسلطن بعده ولده الملک الصالح إسماعیل و لم یبلغ الحلم. و قد مرّ من أخباره نبذة کبیرة فی ترجمة صلاح الدین.

الـذی ذکر الـذهبیّ وفاتهم فی هـذه السـنة، قال: و فیها توفّی النقیب أبو عبد اللّه أحمد [بن علیّ] بن المعمّر العلویّ ببغداد فی جمادی الأولی. و الحافظ أبو العلاء الحسن بن أحمد الهمذانیّ العطّار المقرئ فی جمادی الأولی، و له إحدی و ثمانون سنة.

و دهبل بن علیّ [بن منصور بن إبراهیم بن عبد اللّه المعروف با] بن کارة الحنبلیّ.

و ناصح الدین سعید بن المبارک بن الدهّان النحویّ ببغداد، و له خمس و سبعون سنة.

و أبو تمیم سلمان بن علیّ الرّحبیّ الخبّاز بدمشق. و عبد النبی بن المهدیّ صاحب الیمن،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۷۳

و کان باطنیّا استأصـله أخو صلاح الدین. و أبو الحسن علیّ بن أحمد الکنانیّ القرطبیّ بفاس، و له ثلاث و تسعون سنة. و الفقیه عمارة بن علیّ بن زیدان الیمنیّ الشاعر؛ شـنق فی جماعة سـعوا فی إعادة الدولة العبیدیّة. و السلطان نور الدین محمود بن زنکی الأتابکیّ بن آق سنقر الترکیّ الملکشاهیّ فی شوّال، و له ثمان و خمسون سنة.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم ستّ أذرع و ستّ عشرة إصبعا.

مبلغ الزیادة سبع عشرة ذراعا و عشر أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۷۰]

السنة الرابعة من ولایة السلطان صلاح الدین یوسف بن أیّوب علی مصر، و هی سنة سبعین و خمسمائة.

فیها ملک السـلطان صـلاح الدین دمشق من الملک الصالح ابن الملک العادل نور الدین محمود، حسب ما ذکرناه فی ترجمته. و کان أخـذه لـدمشق بمکاتبـة القاضـی کمال الـدین الشّـهرزوریّ و [صـدّیق] بن الجاولیّ و الأعیان، و کان بالقلعة ریحان الخادم، فعزم علی قتـاله، فجهّز إلیه عسـکر دمشق، و رکب صـلاح الـدین من الجسور، فالتقـاه أهـل دمشق بأسـرهم و أحـدقوا به، فنـثر علیهم الـدراهم و الدنانیر، و دخل دمشق فلم یغلق فی وجهه باب و لا منعه مانع، فملکها عنایة لا عنوة.

و فیها استخدم صلاح الدین العماد الکاتب الأصبهانیّ، و سببه أنه التقی بالقاضی الفاضل و مدحه بأبیات منها:

عاینت طود سکینة و رأیت شم س فضیلة و وردت بحر فواضل

و رأیت سحبان البلاغة ساحبا ببیانه ذیل الفخار لوائل

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۷۴

حلف [الحصافة] و الفصاحة و السما حة و الحماسة و التّقی و النّائل

بحر من الفضل الغزیر خضمّه طامی العباب و ماله من ساحل

فی کفّه قلم یعجّل جریه ما کان من أجل و رزق آجل

أبصرت قسّا فی الفصاحة معجزا فعرفت أنّی فی فهاهة باقل

فـدخل القاضـی الفاضل علی السـلطان صـلاح الـدین و قال: غـدا تأتیک تراجم الأعاجم، و ما یحلّها مثل العماد الکاتب. فقال: [مالی] عنک مندوحـة، أنت کاتبی و وزیری، و قـد رأیت علی وجهک البرکـة، فإذا اسـتکتبت غیرک تحدّث الناس؛ فقال الفاضل: هذا یحلّ التراجم، و ربّمـا أغیب أنـا و لا أقـدر علی ملازمتک، فإذا غبت قام العماد الکاتب مقامی، و قـد عرفت فضل العماد، و خـدمته للـدولة

النوریة، فاستکنبه.

و فیها توفّی السلطان أرسلان شاه بن طغرل [بن محمد] بن ملکشاه بن ألب أرسلان ابن داود بن میکائیل بن سلجوق بن دقماق السّلجوقیّ. و قام بعده فی الملک ابنه طغرل شاه، و کان صغیر السّن، فتولّی تدبیر ملکه محمد بن إیلدکز الأتابک و کان یلقّب بالبهلوان.

و فیها توفّی یحیی بن جعفر أبو الفضل زعیم الدّین، صاحب مخزن الخلفاء:

المقتفی و المستنجد و المستضیء، و ناب فی الوزارة، و تقلّب فی الأعمال نیّفا

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۷۵

و عشرین سنة، و کان حافظا للقرآن فاضلا عارفا منصفا، محبّا للعلماء و الصالحین؛ و مات فی شهر ربیع الأوّل، و کانت جنازته مشهودة. قال العماد الکاتب: جلس یوما فی دیوان الوزارة فقام شهاب الدین بن الصّیفیّ فأنشده:

لکلّ زمان من أمائل أهله برامکة یمتارهم کلّ معسر

أبو الفضل یحیی مثل یحیی بن خالد یدا و أبوه جعفر مثل جعفر

ثم قام ثابت الواعظ- رحمه اللّه- فأنشد بدیها:

و فی الجانب الشرقیّ یحیی بن جعفر و فی الجانب الغربیّ موسی بن جعفر

فذاک إلی اللّه الکریم شفیعنا و هذا إلی المولی الإمام المطهّر

(یعنی ساکن الجانب الشرقیّ صاحب الترجمة، و بالجانب الغربیّ موسی بن جعفر الصادق).

الذین ذکر الذهبیّ وفاتهم فی هذه السنة، قال: و فیها توفّی قاضی القضاة أبو طالب روح بن أحمد الحدیثیّ، و له ثمان و ستّون سنة. و فخر النساء خدیجة بنت أحمد النّهروانیّة فی شهر رمضان. و عبد اللّه [بن عبد الصمد] بن عبد الرّزاق السّلمیّ العطّار. و أبو بکر محمد بن علیّ بن محمد الطّوسیّ. و أبو عبد اللّه محمد بن عبد اللّه بن خلیل القیسیّ مسند المغرب.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۷۶

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم سبع أذرع و إحدی و عشرون إصبعا. مبلغ الزیادة سبع عشرة ذراعا و تسع عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۷۱]

السنة الخامسة من ولایة صلاح الدین یوسف بن أیّوب علی مصر، و هی سنة إحدی و سبعین و خمسمائة.

فیها عزل الخلیفة المستضیء بالله الحسن صندل الخادم عن الأسناداریّة، و ضیّق علی ولده الأمیر أبی العبّاس أحمد، لأمر بلغه عنهما، و ولّی [ابن] الصاحب الأستاداریة عوضا عن صندل المذکور.

و فیها و ثبت الإسماعیلیّة علی السلطان صلاح الدین یوسف بن أیّوب و هو علی اعزاز، جاءه ثلاثة فی زیّ الأجناد، فضربه واحد بسکّین فی رأسه فلم یجرحه و خدشت السکّین خدّه و قتل الثلاثة، فرحل صلاح الدین إلی حلب، فلمّا نزل علیها بعث إلیه الملک الصالح إسماعیل بن الملک العادل نور الدین محمود أخته خاتون بنت نور الدین فی اللّیل، فدخلت علیه فقام قائما و قبّل الأرض لها و بکی علی نور الدین؛ فسألته أن یردّ علیهم اعزاز، فأعطاها إیّاها، و قدّم لها من الجواهر و التّحف شیئا کثیرا؛ و اتّفق مع الملک الصالح أنّ من حماة و ما فتحه إلی مصر له، و باقی البلاد الحلبیّة للصالح.

و فیها قدم شمس الدولة توران شاه بن أیّوب أخو صلاح الدین من الیمن إلی دمشق فی سلخ ذی الحجّة.

و فیها فوّض سیف الدولة غازی أمر الموصل إلی مجاهد الدین قیماز الخادم.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۷۷

و فیها توفّی علیّ بن الحسن بن هبة اللّه بن عبد اللّه بن الحسین الحافظ أبو القاسم الدمشقی المعروف بابن عساکر، مولده فی أوّل المحرم سنة تسع و تسعین و أربعمائة. کان أحد أئمة الحدیث المشهورین، و العلماء المذکورین، سمع الکثیر و سافر، و صنّف تاریخا لدمشق، و صنّف کتبا کثیرة، و کان إماما فی الفنون، فقیها محدّثا حافظا مؤرّخا.

قال العماد الکاتب: أنشدنی لنفسه بالمزّة:

أیا نفس و یحک جاء المشیب فماذا التّصابی و ما ذا الغزل

تولّی شبابی کأن لم یکن و جاء مشیبی کأن لم یزل

[کأنّی بنفسی علی غرة و خطب المنون بها قد نزل]

فیالیت شعری ممّن أکون و ما قدّر اللّه لی فی الأزل

الذین ذکر الذهبیّ وفاتهم فی هذه السنة، قال: و فیها توفّی الحافظ ثقة الدّین أبو القاسم علیّ بن الحسن بن هبة اللّه بن عساکر فی رجب، و له ثلاث و سبعون سنة إلا شهرا. و مجد الدین أبو منصور محمد بن أسعد بن [محمد المعروف ب] حفدة الطّوسیّ العطّاریّ الشافعیّ الواعظ. و أبو حنیفة محمد بن عبید اللّه الأصبهانیّ الخطیبیّ فی صفر. و أبو جعفر هبة اللّه بن یحیی بن البوقیّ الشافعیّ.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم أربع أذرع و ست عشرة إصبعا.

مبلغ الزیادة ستّ عشرة ذراعا و عشر أصابع.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۷۸

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۷۲]

السنة السادسة من ولایة السلطان صلاح الدین یوسف بن أیّوب علی مصر، و هی سنة اثنتین و سبعین و خمسمائة.

فیها تزوّج السلطان صلاح الدین یوسف بالخاتون عصمة الدّین بنت الأمیر معین الدین أنر زوجة الملک العادل نور الدین محمود، و کانت بقلعة دمشق.

و فیها کانت فتنة مقدّم السّودان من صعید مصر، سار من الصعید إلی مصر فی مائة ألف أسود، لیعید الدولة المصریّة الفاطمیّة، فخرج إلیه أخو صلاح الدین الملک العادل أبو بکر، و أبو الهیجاء الهکّاریّ، و عزّ الدین موسک بمن معهم من عساکر مصر؛ و التقوا مع السّودان، فکانت بینهم وقعة هائلة، قتل کبیر السودان المذکور و من معه. قال الشیخ شمس الدین یوسف فی مرآة الزمان: «یقال إنهم قتلوا منهم ثمانین ألفا و عادوا إلی القاهرة».

و فیها خرج السلطان صلاح من دمشق إلی مصر، و استناب أخاه شمس الدولة توران شاه علی الشام. و جاءت الفرنج إلی داریّا، فأحرقوا و نهبوا و عادوا.

و فیها أمر السلطان صلاح الدین قراقوش الخادم بعمارة سور القاهرة و مصر، و ضیّع فیه أموالا کثیرة و لم ینتفع به أحد.

و فیها أبطل صلاح الدین المکوس التی کانت تؤخذ من الحاج بجدّة، ممّا یحمل فی البحر؛ و عوّض صاحب مکّة عنها فی کلّ سنة ثمانیة آلاف اردبّ قمحا تحمل إلیه فی البحر، [و یحمل مثلها] فتفرّق فی أهل الحرمین.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۷۹

و فیها عمّر صلاح الدین مدرسة الشافعیّ بالقرافة، و تولّی الشیخ نجم الدین الخبوشانیّ عمارتها. و عمّر البیمارستان فی القصر، و وقف علیه الأوقاف.

و فیها حجّ بالناس من الشام قیماز النّجمیّ.

و فیها توفّی علیّ بن منصور أبو الحسن السّروجیّ الأدیب، مؤدّب أولاد الأتابک زنکی بن آق سنقر، کان یأخذ الماء بفیه و یکتب به على الحائط کتابة حسنة کأنّها کتبت بقلم الطومار، و ینقط ما یکتب و یشکله. و من شعره فی فصل الربیع و فضل دمشق، و مدح نور الدین قصیدة طنّانة أوّلها:

فصل الربیع زمان نوره نور أنفاس أشجاره مسک و کافور

و فیها توفّی محمد بن مسعود أبو المعالی، خرج إلى الحجّ فی هذه السنة فتوفّی یفند، کان أدیبا فاضلا. و من شعره هجو فی قاض ولی القضاء:

و لمّا [أن] تولّیت القضایا و فاض الجور من کفّیک فیضا

ذبحت بغیر سکّین و إنّی لأرجو الذبح بالسّکّین أیضا

و فیها توفّی محمد بن عبد اللّه بن القاسم أبو الفضل کمال الدین الشهرزوریّ قاضی دمشق. مولده فی سنة اثنتین و تسعین و أربعمائة، کان إماما فاضلا فقیها مفتّنا، کان إلیه فی أیّام نور الدین الشهید مع القضاء أمر المساجد و المدارس و الأوقاف و الحسبة، و الأمور الدینیّة و الشرعیّة. و کان صاحب القلم و السیف، و کانت شحنجیة دمشق إلیه، ولّى فیها بعض غلمانه؛ ثم ولّاها نور الدین بعد ذلک

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۸۰

لصلاح الدین یوسف بن أیّوب قبل قدومه إلى مصر. و کان مع فضله و دینه له الشعر الجیّد، و کان بینه و بین صلاح الدین یوسف بن أیّوب، صاحب الترجمة فی أیام نور الدین مضاغنة. و من شعره:

و جاءوا عشاء یهرعون و قد بدا بجسمی من داء الصبابة ألوان

فقالوا و کلّ معظم بعض ما رأى أصابتک عین قلت عین و أجفان

قلت: و هذا شبه قول القائل و لم أدر من السابق:

و لمّا رأونی العاذلون متیما کئیبا بمن أهوى و عقلی ذاهب

رثوا لی و قالوا کنت بالأمس عاقلا أصابتک عین قلت عین و حاجب

الذین ذکر الذهبیّ وفاتهم فی هذه السنة، قال: و فیها توفّی أبو [محمد] صالح ابن المبارک بن الرّخلة القزّاز. و المحدّث أبو [محمد] عبد اللّه بن عبد الرحمن الأمویّ الدّیباجیّ الأصبهانیّ العثمانیّ الإسکندرانیّ. و أبو الحسن علیّ بن عساکر. و أبو بکر محمد بن أحمد بن ماه شاده الأصبهانیّ المقرئ، آخر من روى عن سلیمان الحافظ.

و قاضی الشام کمال الدین أبو الفضل محمد بن عبد اللّه بن القاسم بن المظفّر الشّهرزوریّ فی المحرّم. و القاضی أبو الفتح نصر بن سیّار بن صاعد الکتّانیّ الهرویّ الحنفیّ مسند خراسان یوم عاشوراء، و له سبع و تسعون سنة.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم ستّ أذرع و إحدى و عشرون إصبعا. مبلغ الزیادة ستّ عشرة ذراعا و إحدى و عشرون إصبعا.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۸۱

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۷۳]

السنة السابعة من ولایة صلاح الدین یوسف بن أیّوب على مصر، و هی سنة ثلاث و سبعین و خمسمائة.

فیها توفّی صدقة بن الحسین بن الحسن أبو الفرج الناسخ الحنبلیّ، کان یعرف بابن الحدّد، کان فقیها مفتّنا مناظرا. قال أبو المظفّر: لکنّه قرأ «الشفاء» و کتب الفلاسفة، فتغیّر اعتقاده، و کان یبدو من فلتات لسانه ما یدلّ على ذلک. و من شعره- رحمه اللّه تعالى-:

لا توطّنها فليست بمقام و اجتنبها فهى دار الانتقام

أ تراها صنعة من صانع أم تراها رمية من غير رام

و فيها توفّى كمشتكين خادم السلطان نور الدين الشهيد. كان من أكابر خدّامه (أعنى مماليكه)، و كان ولّاه الموصل نيابة عنه. فلمّا مات نور الدين هرب إلى حلب، و خدم شمس الدين ابن الداية، ثم جاء إلى الملك الصالح ابن نور الدين الشهيد فأعطاه حارم، ثم غضب عليه لأمر و طلب منه قلعة حارم بعد أن قبض عليه، فامتنعوا أصحابه من تسليمها، فعلّقه الملك الصالح منكّسا، و دخّن تحت أنفه حتّى مات.

و فيها توفّى محمد بن عبد اللّه بن هبة اللّه بن المظفّر، الوزير أبو الفرج ابن رئيس الرؤساء، و لقبه عضد الدولة. و كان أبوه أستادار المقتفى و أقرّه المستنجد. فلمّا ولى المستضىء استوزره، فشرع ظهير الدين [ابن العطّار] أبو بكر صاحب المخزن فى عداوته،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۸۲

حتّى غيّر قلب الخليفة عليه، فطلب الحجّ فأذن له، فتجهّز جهازا عظيما و اشترى ستّمائة جمل لحمل المنقطعين و زادهم، و حمل معه جماعة من العلماء و الزهّاد، و أخذ معه بيمارستانا فيه جميع ما يحتاج إليه، و سافر بتجمّل زائد. فلمّا وصل إلى باب قطفتا خرج إليه رجل صوفىّ بيده قصّة، فقال: مظلوم! فقال الغلمان: هات قصّتک. فقال: ما أسلّمها إلّا للوزير. فلمّا دنا منه ضربه بسكّين فى خاصرته، فصاح: قتلتنى، و سقط من دابّته، و بقى على قارعة الطريق ملقى، و تفرّق من كان معه إلّا حاجب الباب، فإنّه رمى بنفسه عليه، فضربه الباطنىّ بسكّين فجرحه، و ظهر للباطنىّ رفيقان فقتلوا و أحرقوا. ثم حمل الوزير إلى داره فمات بها. و كان مشكور السّيرة محبّبا إلى الرعيّة، غير أنّ القاضى الفاضل لمّا بلغه خبر قتله، أنشد:

و أحسن من نيل الوزارة للفتى حياة تريه مصرع الوزراء

و ما ربّک بظلّام للعبيد. کان- عفا اللّه عنه- قد قتل ولدى الوزير ابن هبيرة و خلقا كثيرا.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى الوزير أبو الفرج محمد بن عبد اللّه ابن رئيس الرؤساء، و ثبت عليه الإسماعليّة فى ذى القعدة. و هارون ابن العبّاس أبو محمد بن المأمونىّ صاحب التاريخ. و أبو شاكر يحيى بن يوسف السّقلاطونىّ.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و ثلاث أصابع.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و إحدى و عشرون إصبعا.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۸۳

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۷۴]

السنة الثامنة من ولاية صلاح الدين يوسف بن أيّوب على مصر، و هى سنة أربع و سبعين و خمسمائة.

فيها جرى بحث فى مجلس ظهير الدين بن العطّار [صاحب المخزن]، فى قتال عائشة لعلىّ. فقال ابن البغدادىّ الحنفىّ: كانت عائشة باغية على علىّ، فصاح عليه ابن العطّار و أقامه من مكانه و أخبر الخليفة، فجمع الفقهاء و سأل: ما يجب عليه؟ فقالوا: يعزّر. فقال ابن الجوزىّ: لا يجب عليه التعزير، لأنّه رجل ليس له علم بالنّقل، و قد سمع أنّه جرى قتال و لم يعلم أنّ السفهاء أثاروه بغير رضا الفريقين، و تأديبه العفو عنه، فأطلق.

و فيها توفّى سعد بن محمد بن سعد أبو الفوارس شهاب الدين [بن] الصّيفىّ التّميمىّ، المعروف بالحيص بيص، كان شاعرا فاضلا، مدح الخلفاء و الوزراء و الأكابر، و له ديوان شعر، و كانت وفاته ببغداد فى شعبان. و سبب تسميته بالحيص بيص أنّه رأى الناس فى يوم حركة فقال: ما للناس فى حيص بيص! فغلب عليه هذا اللّقب. و معنى هاتين الكلمتين: الشدّة و الاختلاط. تقول العرب: وقع الناس

فی حیص بیص [أی فی شدّة و اختلاط]. و من شعر الحیص بیص- رحمه اللّه و عفا عنه-:

لم ألق مستکبرا إلّا تحوّل لی عند اللقاء له الکبر الذی فیه

و لا حلا لی من الدنیا و لذّتها إلّا مقابلتی للتّیه بالتّیه

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۸۴

و کان الحیص بیص یلبس زیّ العرب، و یتقلّد سیفا، فعمل فیه أبو القاسم ابن الفضل:

کم تنادی و کم تطوّل طرطو رک ما فیک شعرة من تمیم

فکل الضّبّ و اقرض الحنظل [الیا بس] و اشرب ما شئت بول الظلیم

لیس ذا وجه من یضیف و لا یقری و لا یدفع الأذی عن حریم

الذین ذکر الذهبیّ وفاتهم فی هذه السنة، قال: و فیها توفّی أبو أحمد أسعد بن بلدرک الجبریلیّ البوّاب. و الحیص بیص الشاعر شهاب الدین أبو الفوارس سعد ابن محمد بن سعد بن صیفیّ التّمیمیّ فی شوّال. و فخر النساء شهدة بنت أحمد ابن الفرج الإبریّ فی المحرّم، و قد جاوزت التسعین. و أبو رشید عبد اللّه بن عمر الأصبهانیّ فی شهر ربیع الآخر. و أبو نصر عبد الرحیم بن عبد الخالق الیوسفیّ.

و أبو الخطّاب عمر بن محمد التاجر بدمشق. و أبو عبد اللّه محمد بن نسیم العیشونیّ.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم أربع أذرع و ثلاث عشرة إصبعا.

مبلغ الزیادة ستّ عشرة ذراعا و تسع عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۷۵]

السنة التاسعة من ولایة السلطان صلاح الدین یوسف بن أیّوب علی مصر، و هی سنة خمس و سبعین و خمسمائة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۸۵

فیها ختن السلطان صلاح الدین ولده الملک العزیز عثمان.

و فیها توفّی الخلیفة أمیر المؤمنین المستضیء بأمر اللّه أبو محمد الحسن بن یوسف المستنجد بن المقتفی محمد العباسیّ الهاشمیّ البغدادیّ. کان أحسن الخلفاء سیرة، کان إماما عادلا شریف النفس حسن السیرة لیس للمال عنده قدر، حلیما شفیقا علی الرعیّة، أسقط المکوس و الضرائب فی أیّام خلافته، و کانت وفاته ببغداد فی ثانی ذی القعدة عن ستّ و ثلاثین سنة، و کانت خلافته تسع سنین. و هو الذی عادت الخطبة باسمه فی الدیار المصریّة و البلاد الشامیّة و الثغور، و اجتمعت الأمّة علی خلیفة واحد، و انقطع فی أیّامه دولة بنی عبید الفاطمیّین الرافضة من مصر و أعمالها.

و للّه الحمد. و أمّه أمّ ولد مولّدة.

و فیها توفّیت الزاهدة العابدة علم بنت عبد اللّه بن المبارک. کانت تضاهی رابعة العدویّة فی زمانها، مرض ولدها أحمد بن الزّبیدیّ فاحتضر، و جاء وقت الصلاة، فقالت: یا بنی، ادخل فی الصلاة، فدخل و کبر و مات، فخرجت إلی النساء و قالت: هنّیننی! قلن ما ذا؟ قالت: ولدی مات فی الصلاة. فتعجّب الناس من ذلک. و کانت وفاتها ببغداد، و عمرها مائة سنة و ستّ سنین، و لم یتغیّر لها شیء من حواسّها.

و فیها توفّی منصور بن نصر بن الحسین الرئیس ظهیر الدین صاحب المخزن للخلفاء، و نائب الوزارة. نال من الوجاهة و الریاسة ما لم ینله غیره من أطباقه، إلی أن قبض علیه الخلیفة الناصر لدین اللّه، و علی أصحابه و حواشیه، و صادره و أجری علیه العقوبة إلی أن مات.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۸۶

الـذين ذكر الـذهبىّ وفاتهم فى هـذه السـنة قال: و فيها توفّى أبو الفتـح أحمـد بن أبى الوفاء الحنبلىّ بحرّان. و المستضـىء بأمر اللّه أبو محمد الحسن بن المستنجد يوسف ابن المقتفى فى شوّال. و أبو الحسين عبد الحقّ بن عبد الخالق اليوسفىّ فى جمادى الأولى. و أبو الفضل عبـد الحسن بن تريك الأزجىّ. و أبو الحسن علىّ بن أحمـد الزّيدىّ المحدّث الزاهد. و أبو المعالى علىّ بن هبة اللّه [بن علىّ] بن خلدون. و القاضى أبو المحاسن عمر بن علىّ القرشى عمّ كريمة. و أبو هاشم عيسى بن أحمد الهاشمىّ الدّوشابىّ.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و ستّ أصابع. مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا و سبع أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۷۶]

السنة العاشرة من ولاية السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب على مصر، و هى سنة ستّ و سبعين و خمسمائة.

فيها قدمت امرأة إلى القاهرة عديمة اليدين، و كانت تكتب برجليها كتابة حسنة، فحصل لها القبول التام، و نالها مال جزيل.

و فيها حجّ من العراق الأمير طاشتكين، و من الشام الأمير سيف الدين علىّ بن المشطوب.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۸۷

و فيها توفّى أحمـد بن محمـد بن أحمـد الحافظ أبو طاهر السّـِلفىّ الأصـبهانىّ، ولـد سـنة سـبعين و أربعمائة، و كان طاف الدنيا و لقى المشايخ، و كان يمشـى حافيا لطلب العلم و الحديث، و قدم دمشق و غيرها، و سـمع بعدّة بلاد، ثم دخل مصـر و سـمع بها، و اسـتوطن الإسـكندريّة حتى مات بها فى يوم الجمعـة خامس شـهر ربيع الآخر، و دفن داخل الإسـكندرية و قـد جاوز المائة بخمس سـنين. و من شعره فى معنى كبر سنّه:

أنا إن بان شبابى و مضى فلربّى الحمد ذهنى حاضر

و لئن خفّت و جفّت أعظمى كبرا غصن علومى ناضر

و فيها توفّى الملك المعظّم فخر الدين شـمس الدولة توران شاه بن أيّوب أخو السلطان صلاح الدين صاحب الترجمة لأبيه. كان أكبر من صـلاح الـدين فى السنّ، و كـان يرى فى نفسه أنّه أحقّ بالملك من صـلاح الـدين يوسف المـذكور، و كان تبـدو منه كلمات فى سكره فى حقّ صـلاح الدين، و يبلغ صـلاح الدين، فأبعده و بعثه إلى اليمن، فسفك الدماء و قتل الأمائل و أخذ الأموال. و لم يطب له اليمن فعـاد إلى الشـام على مضـض من صـلاح الـدين، فأعطاه بعلبكّ فبلغه عنه أشـياء فأبعـده إلى الإسـكندريّة، فتوجّه إليها و أقام بها معتكفا على اللهو، و لم يحضـر حروب أخيه صـلاح الدين و لا غزواته؛ و مات بالإسكندريّة، فأرسلت أخته شقيقته ستّ الشام، فحملته فى تابوت إلى دمشق فـدفنته فى تربتها التى أنشأتها بدمشق. و كان توران شاه المذكور جوادا ممدّحا حسن الأخلاق؛ إلّا أنّه كان أسوأ بنى أيّوب سيرة و أقبحهم طريقة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۸۸

و فيها توفّى الملك غازى بن مودود بن زنكى بن آق سـنقر التركىّ سـيف الدين صاحب الموصل و ابن أخى السلطان الملك العادل نور الدين محمود الشـهيد. كان غازى من أحسن الناس صورة، و كان وقورا عاقلا غيورا، ما يدع خادما بالغا يدخل داره على حرمه، و كان طاهر اللّسان عفيفا عن أموال الناس، قليل السفك للدماء، مع شحّ كان فيه.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السـنة، قال: و فيها توفّى الحافظ أبو طاهر أحمد بن محمد السّـِلفىّ فى شـهر ربيع الآخر، و قد جاوز المائة بيقين. و شـمس الدولـة توران شـاه بن أيّوب بن شـادى صـاحب اليمن بالإسـكندرية فى صـفر. و أبو المعـالى عبـد اللّه بن عبد الرحمن [بن أحمـد بن علىّ] بن صابر السـلمىّ فى رجب. و أبو المفاخر سـعيد بن الحسـين المأمونىّ. و أبو الفهم عبد الرحمن بن عبد

العزيز بن محمد الأزدىّ ابن أبى العجائز فى جمادى الآخرة. و أبو الحسن علىّ بن عبد الرحيم بن العصّار السّلمىّ البغدادىّ اللغوىّ فى المحرّم. و صاحب الموصل سيف الدين غازى بن مودود ابن اتابك فى صفر، و له ثلاثون سنة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثلاث أذرع و عشر أصابع. مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و ستّ عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۷۷]

السنة الحادية عشرة من ولاية السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب على مصر، و هى سنة سبع و سبعين و خمسمائة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۸۹

فيها عاد السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيّوب صاحب الترجمة من دمشق إلى القاهرة، و استناب على الشام [ابن] أخيه عزّ الدين فرخشاه.

و فيها أمر السلطان صلاح الدين أخاه سيف الإسلام طغتكين بالمسير إلى اليمن، فأخذ يتجهّز للمسير.

و فيها بعث السلطان صلاح الدين الخادم بهاء الدين قراقوش إلى اليمن، فتوجّه و قبض على سيف الدولة مبارك بن كامل بن منقذ، و طلب منه المال؛ و كان نائب أخيه توران شاه.

و فيها بنيت قلعة الجبل بالقاهرة.

و فيها توفّى الملك الصالح إسماعيل ابن الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى ابن آق سنقر صاحب حلب بمرض القولنج، و كان لمّا اشتدّ به مرض القولنج وصف له الحكماء قليل خمر، فقال: لا أفعل حتّى أسأل الفقهاء. فسأل الشافعيّة فأفتوه بالجواز فلم يقبل، و قال: إن اللّه تعالى قرّب أجلى، أ يؤخّره شرب الخمر! قالوا: لا. قال: فو اللّه لا لقيت اللّه و قد فعلت ما حرّم علىّ، فمات و لم يشر به.

و لمّا أشرف على الموت أحضر الأمراء و استحلفهم لابن عمّه عزّ الدين [مسعود ابن مودود] صاحب الموصل؛ فقيل له: لو أوصيت لابن عمك عماد الدين صاحب سنجار! فإنّه صعلوك ليس له غير سنجار، و هو تربية أبيك و زوج أختك،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۹۰

و شجاع كريم، و عزّ الدين له من الفرات إلى همذان؛ فقال: هذا لم يخف عنىّ، و لكن قد علمتم استيلاء صلاح الدين على الشام، [سوى ما بيدى]، و مصر و اليمن، و عماد الدين لا يثبت له إذا أراد أخذ البلاد؛ و عزّ الدين له العساكر و الأموال فهو أقدر على حفظ حلب و أثبت من عماد الدين، و متى ذهبت حلب ذهب الجميع؛ فاستحسنوا قوله.

قلت: و لم يخطر ببال أحد أخذ صلاح الدين بن أيّوب الشام من الملك الصالح هذا قبل تاريخه، فإنّه كان غرس نعمة أبيه الملك العادل، فلم يلتفت صلاح الدين للأيادى السالفة، و انتهز الفرصة حيث أمكنته، و قاتل الملك الصالح هذا حتّى أخذ منه دمشق، فلهذا صار عند الصالح كمين من صلاح الدين.

و فيها توفّى عبد الرحمن بن محمد [بن عبيد اللّه] بن أبى سعيد أبو البركات الأنبارىّ النحوىّ، مصنّف كتاب «الأسرار فى علم العربيّة» و كتاب «هداية الذاهب فى معرفة المذاهب». كان إماما فى فنون كثيرة مع الزهد و الورع و العبادة، و كانت وفاته فى شعبان.

و فيها توفّى عمر بن حموّيه عماد الدين والد شيخ الشيوخ صدر الدين و تاج الدين، و هو من ولد حموّيه بن علىّ الحاكم على خراسان إمام السامانيّة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۹۱

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة فى كتاب الإشارة، قال: و فيها توفّى الملك الصالح إسماعيل ابن السلطان نور الدين بحلب فى رجب، و له ثمانى عشرة سنة.

و الكمال أبو البركات عبد الرحمن بن محمد الأنبارىّ النحوىّ العبد الصالح. و شيخ الشيوخ أبو الفتوح عمر بن علىّ الجوينىّ.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و عشر أصابع. مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا و خمس أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۷۸]

السنة الثانية عشرة من ولاية الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيّوب على مصر، و هى سنة ثمان و سبعين و خمسمائة.

فيها سار سيف الإسلام طغتكين أخو صلاح الدين من مصر إلى اليمن إلى أن نزل زبيد، و بها حطّان [بن منقذ الكنانىّ]، فأمره أن يسير إلى الشام، فجمع أمواله و ذخائره و نزل بظاهر زبيد فقبض عليه سيف الإسلام، و أخذ جميع ما كان معه، و قيمته ألف ألف دينار، ثم قتله بعد ذلك. و كان عثمان الزنجيلىّ بعدن، فلمّا بلغه ذلك سافر إلى الشام بعد أن أثّر باليمن آثارا كبيرة و وقف الأوقاف؛ و له مدرسة أيضا بمكّة، و رباط بالمدينة و غيرها.

و فيها فى خامس المحرّم خرج صلاح الدين من مصر فنزل البركة قاصدا الشام، و خرج أعيان الدولة لوداعه، و أنشده الشعراء أبياتا فى الوداع، فسمع قائلا يقول فى ظاهر المخيّم:

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۹۲

تمتّع من شميم عرار نجد فما بعد العشيّة من عرار

فطلب القائل فلم يجده. فوجم الناس و تطيّر الحاضرون، فكان كما قال.

قلت: و قول من قال، فكان كما قال، ليس بشىء، فإنّ صلاح الدين عاش بعد ذلك نحو العشر سنين، غير أنّه ما دخل مصر بعدها فيما أظنّ، فإنّه اشتغل بفتح الساحل و قتال الفرنج، كما تقدّم ذكره فى ترجمته.

و فيها توفّى أحمد بن علىّ بن أحمد الشيخ أبو العبّاس المعروف بابن الرّفاعىّ، إمام وقته فى الزهد و الصلاح و العلم و العبادة. كان من الأفراد الذين أجمع الناس على علمه و فضله و صلاحه. كان يسكن أمّ عبيدة بالعراق، و كان شيخ البطائحة، و كان له كرامات و مقامات، و أصحابه يركبون السّباع و يلعبون بالحيّات، و يتعلّق أحدهم فى أطول النخل ثم يلقى نفسه إلى الأرض و لا يتألّم، و كان يجتمع عنده كلّ سنة فى المواسم خلق عظيم. قال الشيخ شمس الدين يوسف فى تاريخه مرآة الزمان:

«حكى لى بعض أشياخنا قال: حضرت عنده ليلة نصف شعبان، و عنده نحو من مائة ألف إنسان قال: فقلت له: هذا جمع عظيم، فقال لى: حشرت محشر هامان إن خطر ببالى أنّى مقدّم هذا الجمع. قال: و كان متواضعا سليم الصدر مجرّدا من الدنيا ما ادّخر شيئا قطّ». انتهى.

قلت: و علم الشيخ أحمد بن الرفاعىّ و فضله و ورعه أشهر من أن يذكر، و هو أكثر الفقراء أتباعا شرقا و غربا، و الأعاجم يسمّونه: سيّدى أحمد الكبير، و قيل:

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۹۳

إنّ سبب مرضه الذى مات منه، أنّ عبد الغنىّ بن محمد بن نقطة الزاهد مضى إلى زيارته، فأنشد أبياتا منها:

إذا جنّ ليلى هام قلبى ذكركم أنوح كما ناح الحمام المطوّق

و فوقى سحاب يمطر الهمّ و الأسى و تحتى بحار بالأسى تتدفّق

سلوا أمّ عمرو كيف بات أسيرها تفكّ الأسارى دونه و هو موثق

فلا هو مقتول ففى القتل راحة و لا هو ممنون عليه فيعتق

و كانت وفاة الشيخ أحمد فى يوم الخميس ثانى عشر جمادى الأولى، و قد جاوز سبعين سنة.

و فیها توفّی الأمیر فرخشاه بن شاهنشاه بن أیّوب أبو سعد عزّ الدین. کان من الأماثل الأفاضل، کان متواضعا سخیّا جوادا شجاعا مقداما، و کان عمّه صلاح الدین قد استنابه بالشام، و کان فصیحا شاعرا. مات بدمشق فی جمادی الأولی. و من شعره- رحمه اللّه تعالی-:

أقرضونی زمنا قرّبهم و استعادوا بالنّوی ما أقرضوا

أنا راض بالذی یرضیهم لیت شعری بالتلاقی هل رضوا؟

و فیها توفّی الأمیر یوسف بن عبد المؤمن بن علیّ أبو یعقوب صاحب المغرب، أمیر الموحّدین. کان حسن السیرة عادلا دیّنا ملازما للصلوات الخمس، لا بسا للصوف، مجاهدا فی سبیل اللّه تعالی.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۹۴

الذین ذکر الذهبیّ وفاتهم فی هذه السنة، قال: و فیها توفّی الشیخ الکبیر أبو العبّاس أحمد بن علیّ بن أحمد الرفاعیّ بالبطائح. و أبو طالب الخضر بن هبة اللّه بن أحمد بن طاوس فی شوّال. و الحافظ أبو القاسم خلف بن عبد الملک بن مسعود بن موسی ابن بشکوال الأنصاریّ القرطبیّ فی شهر رمضان، و له أربع و ثمانون سنة. و أبو طالب أحمد بن المسلم بن رجاء اللّخمیّ التّنوخیّ فی شهر رمضان بالإسکندریّة. و خطیب الموصل أبو الفضل عبد اللّه بن أحمد بن محمد الطّوسیّ فی شهر رمضان عن اثنتین و تسعین سنة. و عزّ الدین فرخشاه بن شاهنشاه بن أیّوب نائب دمشق فی جمادی الأولی. و القطب النّیسابوریّ أبو المعالی مسعود بن محمد بن مسعود شیخ الشافعیّة فی آخر شهر رمضان. و أبو محمد هبة اللّه بن محمد بن هبة اللّه الشّیرازیّ بدمشق فی شهر ربیع الأوّل.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم ستّ أذرع و إحدی و عشرون إصبعا. مبلغ الزیادة سبع عشرة ذراعا و إصبعان.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۷۹]

السنة الثالثة عشرة من ولایة صلاح الدین یوسف بن أیّوب علی مصر، و هی سنة تسع و سبعین و خمسمائة.

فیها فی یوم الأحد عاشر المحرّم تسلّم السلطان صلاح الدین آمد من دیار بکر، و دخل إلیها و جلس فی دار الإمارة، ثم سلّمها و أعمالها إلی نور الدین محمد بن قرا أرسلان صاحب حصن کیفا، و کان قد وعده بها لمّا جاء إلی خدمته. ثم عاد

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۹۵

إلی حلب و حاصرها حتی أخذها من عماد الدین زنکی ابن أخی نور الدین الشهید، و بذل له عوضها سنجار، و عمل الناس فی ذلک أشعارا کثیرة، منها:

و بعت بسنجار خیر القلاع ثکلتک من بائع مشتری

و کان فی أیّام حصار حلب أصاب تاج الملوک بوری بن أیّوب سهم فی عینه فمات بعد أیّام، فحزن أخوه السلطان صلاح الدین علیه حزنا شدیدا، و کان یبکی و یقول:

ما وفت حلب بشعرة من أخی تاج الملوک بوری. و خرج عماد الدین من حلب و سار إلی سنجار. و لمّا طلع صلاح الدین إلی قلعة حلب فی سلخ صفر [أنشدنا] القاضی [محیی الدین بن] زکیّ الدین محمد بن علیّ القرشیّ قاضی دمشق أبیاتا منها:

و فتحه حلبا بالسیف فی صفر مبشّر بفتوح القدس فی رجب

فکان کما قال، لکن بعد سنین؛ و هو الذی [خطب] بالقدس لمّا فتحه صلاح الدین فی رجب.

و فیها توفّی محمد بن بختیار الأدیب، أبو عبد اللّه المولّد المعروف بالأبله البغدادیّ الشاعر المشهور، کان شاعرا ماهرا جمع فی شعره بین الصناعة و الرقّة.

و من شعره:

زار من أحيا بزورته و الدّجى فى لون طرّته

قمر يثنى معاطفه بانة فى ثنى بردته

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۹۶

بتّ أستجلى المدام على غرّة الواشى و غرّته

يا لها من زورة قصرت فأماتت طول جفوته

يا له فى الحسن من صنم كلّنا فى جاهليّته

و له قصيدة طنّانة أولها:

دعنى أكابد لوعتى و أعانى أين الطّليق من الأسير العانى

و فيها توفّى الملك تاج الملوك بورى بن أيّوب بن شادى أبو سعيد أخو السلطان صلاح الدين من سهم أصابه فى حصار حلب كما تقدّم ذكره. كان مولد تاج الملوك فى ذى الحجّة سنة ستّ و خمسين و خمسمائة، و كان قد جمع فيه محاسن الأخلاق: من مكارم و شيم و لطف طباع، مع شجاعة و فضل و فصاحة، و كان شاعرا بليغا. و من شعره:

رمضان بل مرضان إلّا أنّهم غلطوا إذا فى قولهم و أساءوا

مرضان فيه تخالفا فنهاره سلّ و أما ليله استسقاء

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى إسماعيل بن قاسم الزّيات بمصر. و تقيّة بنت [غيث بن] علىّ الأرمنازيّة الشاعرة. و أبو الفتح عبد اللّه بن أحمد الأصبهانىّ الخرقىّ فى رجب، و له تسع و ثمانون سنة. و محمد بن بختيار البغدادىّ الشاعر المعروف بالأبله. و أبو العلاء محمد بن جعفر بن عقيل، و له ثلاث و تسعون سنة. و أبو طالب محمد بن علىّ الكتّانىّ المحتسب. و العلّامة رضىّ الدين يونس بن محمد بن منعة فقيه الموصل.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۹۷

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ستّ أذرع و إحدى و عشرون إصبعا. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و ثلاث و عشرون إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۸۰]

السنة الرابعة عشرة من ولاية صلاح الدين يوسف بن أيّوب على مصر، و هى سنة ثمانين و خمسمائة.

فيها حجّ بالناس من العراق طاشتكين.

و فيها توفّى إيلغازى بن ألبى بن تمرتاش بن إيلغازى بن أرتق قطب الدين صاحب ماردين، كانت وفاته فى جمادى الآخرة. و خلّف ولدين صغيرين. و كان ملكا شجاعا عادلا منصفا عاقلا.

و فيها توفّى عبد الرحيم بن إسماعيل بن أبى سعد شيخ الشيوخ صدر الدين و ابن شيخ الشيوخ النّيسابورىّ. ولد سنة ثمان و خمسمائة، و كان فاضلا رسولا بين الخليفة و صلاح الدين، و كان يلبس الثياب الفاخرة، و يتخصّص بالأطعمة الطّيبة، فكان أهل بغداد يعيبون عليه حيث لم يسلك طريق المشايخ فى التعفّف عن الدنيا، و لمّا مات رثاه ابن المنجّم المصرىّ:

يا أخلّائى و حقّكم ما بقى من بعدكم فرح

أىّ صدر فى الزمان لنا بعد صدر الدين ينشرح

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۹۸

و تولّى مشيخة الرّباط بعده الشيخ صفىّ الدين إسماعيل.

و فيها توفّى محمد بن قرا أرسلان نور الدين صاحب حصن كيفا؛ الذى كان أعطاه السلطان صلاح الدين آمد. و ترك ابنه ظهير الدين سكمان صغيرا، عمره عشر سنين.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى صدر الدين عبد الرحيم بن إسماعيل بن أبى سعد شيخ الشيوخ فى رجب بالرّحبة راجعا فى الرسليّة.

و أبو عبد اللّه محمد بن حمزة بن أبى الصّيقر القرشىّ. و أبو الوفا محمود بن أبى القاسم [عمر] الأصبهانىّ فى شهر ربيع الآخر، و له إحدى و سبعون سنة. أجاز له طرّاد [الزّينبى النّقيب] و سمع من أبى الفتح [أحمد بن محمد] البيود رحانىّ. و صاحب المغرب أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن شهيدا على حصار شنترين بالأندلس فى رجب.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ستّ أذرع و ثلاث عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا و ثلاث عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۸۱]

السنة الخامسة عشرة من ولاية السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب على مصر، و هى سنة إحدى و ثمانين و خمسمائة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۹۹

فيها قطع السلطان صلاح الدين الفرات و نزل على الموصل و افتتح عدّة بلاد.

و فيها توفّى عبد السلام بن يوسف بن محمد الأديب أبو الفتوح الجماهرىّ.

كان فاضلا شاعرا. و من شعره من قصيدة:

على ساكنى بطن العقيق سلام و إن أسهرونى بالفراق و ناموا

حرمتم علىّ النوم و هو محلّل و حلّلتم التعذيب و هو حرام

ألا يا حمامات الأراك إليكم فمالى فى تغريدكّنّ مرام

فوجدى و شوقى مسعد و مؤانس و نوحى و دمعى مطرب و مدام

و فيها توفّيت عصمة الدين خاتون بنت معين الدين أنر زوجة السلطان صلاح الدين صاحب الترجمة، تزوّجها بعد زوجها الملك العادل نور الدين الشهيد.

كانت من أعفّ الناس و أكرمهنّ، كان لها صدقات كثيرة و برّ عظيم؛ بنت بدمشق مدرسة للحنفيّة فى حجر الذهب، و رباطا للصوفيّة، و بنت تربة بقاسيون على نهر بردى، و بها دفنت؛ و أوقفت على هذه الأماكن أوقافا كثيرة. و ماتت فى رجب، فبلغ صلاح الدين موتها و هو مريض بحرّان فتزايد مرضه لموتها و لحزنه عليها. ثم مات بعدها أخوها سعد الدين مسعود بن أنر فى هذه السنة، و كان من أكابر الأمراء، زوّجه صلاح الدين أخته ربيعة خاتون. فلمّا توفّى تزوّجها بعده الأمير مظفّر الدين بن زين الدين.

و فيها توفّى محمد ابن الملك المنصور أسد الدين شيركوه بن شادى الأمير ناصر الدين ابن عمّ السلطان صلاح الدين. كان السلطان صلاح الدين يخافه لأنّه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۰۰

كان يدّعى أنّه أحقّ بالملك منه. و كان السلطان صلاح الدين يبلغه عنه هذا، و كان زوج أخت السلطان صلاح الدين ستّ الشام بنت أيّوب. و مات بحمص فى يوم عرفة، و تناثر لحمه حتّى قيل إنّه سمّ، و قيل: مات فجأة، فنقلته زوجته ستّ الشام إلى تربتها، و دفنته عند

أخيها الملك المعظّم توران شاه بن أيّوب المقدّم ذكره. و لمّا بلغ صلاح الدين موته أبقى على ولده أسد الدين شيركوه بن محمد المذكور ما كان بيد والده: حمص و تدمر و الرّحبة و سلمية، و خلع عليه و كتب منشورا بذلك.

و فيها توفّى محمد بن أحمد بن فتح الدين البغدادىّ الحنفىّ، كان فقيها شاعرا أديبا.

و من شعره فى مليح عليه قباء كمّه مطرّز:

ضممت معذّبى لمّا أتانى و رقم طرازه قد راق عينى

فياطرزيه هل يدنى زمانى ليالى وصلنا بالرّقمتين

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أبو الطاهر إسماعيل ابن مكّىّ [بن إسماعيل بن عيسى] بن عوف الزّهرىّ شيخ المالكيّة بالثغر فى شعبان.

و صاحب أذربيجان البهلوان [محمد] بن إيلدكز. و الشيخ حياة بن قيس الحرّانىّ العابد فى جمادى الأولى. و أبو اليسر شاكر بن عبد اللّه بن محمد التّنوخىّ كاتب نور الدين. و المهذّب عبد اللّه بن أسعد [بن علىّ] بن الدهّان الموصلىّ الشافعىّ النحوىّ الشاعر فى شعبان بحمص. و الحافظ أبو محمد عبد الحقّ بن عبد الرحمن الأزدىّ الإشبيلىّ فى شهر ربيع الآخر بيجاية، و له سبعون سنة. و الحافظ أبو زيد عبد الرحمن

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۰۱

ابن عبد اللّه السّهيلىّ المالقىّ الأديب فى شعبان. و عبد الرازق بن نصر بن المسلم النجّار الدمشقىّ. و أبو الفتح [عبيد اللّه بن] عبد اللّه [بن محمد بن نجا] بن شاتيل الدبّاس فى رجب، و له تسعون سنة. و أبو الجيوش عساكر بن علىّ المقرئ بمصر. و أبو حفص عمر بن عبد المجيد الميانشىّ بمكّة. و أبو المجد الفضل بن الحسين البانياسىّ فى شوّال.

و صاحب حمص ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه. و الحافظ أبو سعد محمد بن عبد الواحد الصائغ بأصبهان فى ذى القعدة. و الحافظ العلّامة أبو موسى محمد بن أبى بكر عمر بن أبى عيسى المدينىّ فى جمادى الأولى، و له ثمانون سنة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم سبع أذرع و تسع عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و إصبع واحدة.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۸۲]

السنة السادسة عشرة من ولاية صلاح الدين يوسف بن أيّوب على مصر، و هى سنة اثنتين و ثمانين و خمسمائة.

فيها حكم المنجّمون فى الآفاق بخراب العالم فى جمادى الآخرة، و قالوا: تقترن الكواكب السيّارة: الشمس و القمر و زحل و المرّيخ [و الزّهرة] و عطارد و المشترى فى برج الميزان أو السّرطان، فتؤثّر تأثيرا يضمحلّ به العالم، و تهبّ سموم محرقة تحمل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۰۲

و ملا أحمر، فاستعدّ الناس و حفروا السراديب و جمعوا فيها الزاد. و انقضت المدّة المعيّنة، و ظهر كذب المنجّمين. فقال [أبو الغنائم محمد] بن المعلّم فى أبى الفضل المنجّم قصيدة طنّانة:

قل لأبى الفضل قول معترف مضى جمادى و جاءنا رجب

و ما جرت زعزع كما حكموا و لا بدا كوكب له ذنب

و منها:

مدبّر الأمر واحد ليس للسب عة فى كلّ حادث سبب

لا المشترى سالم و لا زحل باق و لا زهرة و لا قطب

و منها:

فليبطل المدّعون ما وضعوا فى كتبهم و لتحرق الكتب

قلت: و هذا الكذب متداول بين القوم إلى زماننا هذا، حتّى إنّه لا يمضى شهر إلّا و قد أوعدوا الناس بشىء لا حقيقة له. و العجب أنّ الشخص من العامّية إذا كذب مرّة على رجل يستحى و لا يعود إلى مثلها، و هؤلاء القوم لا عرض لهم و لا دين و لا مروءة. و للّه درّ القائل و لم أدر لمن هو:

دع النجوم لصوفىّ يعيش بها و بالعزائم فانهض أيّها الملك

إنّ النّبىّ و أصحاب النبى نهوا عن النجوم و قد أبصرت ما ملكوا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۰۳

و فيها عاد السلطان صلاح الدين إلى الشام و تلقّاه شيركوه بن محمد بن شيركوه و أخته سفرى خاتون أولاد ابن عمّه محمد بن أسد الدين شيركوه و زوجته ستّ الشام، و هى أخت السلطان صلاح الدين؛ فقال السلطان لأخيه العادل أبى بكر بن أيّوب: اقسم التركة بينهم على فرائض اللّه تعالى. و كان محمد قد خلّف أموالا عظيمة، فكان مبلغ التركة ألف ألف دينار.

و فهيا دخل سيف الإسلام أخو صلاح الدين إلى مكّة، و منع من الأذان فى الحرم ب «حىّ على خير العمل».

و فيها قسّم السلطان صلاح الدين يوسف البلاد بين أهله و ولده برأى القاضى الفاضل، فأعطى مصر لولده العزيز عثمان؛ و الشام لولده الأفضل؛ و حلب لولده الظاهر؛ و أعطى أخاه العادل أبا بكر إقطاعات كثيرة بمصر، و جعله أتابك العزيز؛ و أعطى لابن أخيه تقىّ الدين حماة و المعرّة و منبج و أضاف إليه ميّافارقين.

و فيها توفّى الحسن بن علىّ بن بركة أبو محمد المقرئ النحوىّ، كان إماما فاضلا انتفع بعلمه خلائق كثيرة، و كان أديبا بارعا و مات فى شوّال. و من شعره:

و ما شنآن الشّيب من أجل لونه و لكنّه حاد إلى الموت مسرع

إذا ما بدت منه الطّليعة آذنت بأنّ المنايا بعدها تتطلّع

و فيها توفّى عبد اللّه [بن برّىّ] بن عبد الجبّار المعروف بآبن برّىّ النحوىّ بمصر، كان إماما أديبا فاضلا بارعا فى علم النحو و العربيّة، و انتفع به خلق كثير، و مات بمصر فى شوّال. و كان حجّة ثقة. و من شعره- رحمه اللّه-:

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۰۴

خدّ و ثغر فجلّ ربّ بمبدع الحسن قد تفرّد

فذا عن الواقدىّ يروى و ذاك يروى عن المبرّد

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أبو محمد عبد اللّه ابن برّى النحوىّ بمصر فى شوّال، و له ثلاث و ثمانون سنة. و أبو محمد عبد اللّه بن محمد بن جرير القرشىّ الناسخ ببغداد. و أبو محمد الحسن بن علىّ [بن بركة] بن عبيدة الكوفىّ النحوىّ المقرئ فى شوّال.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ستّ أذرع و اثنتا عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و إصبع واحدة.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۸۳]

السنة السابعة عشرة من ولاية السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب على مصر، و هى سنة ثلاث و ثمانين و خمسمائة.

فيها فتح السلطان صلاح الدين بيت المقدس و عكّا و حصونا كثيرة بالساحل، بعد أمور و حروب ذكرناها فى ترجمته.

و فيها توفّى علىّ بن أحمد بن علىّ بن محمد قاضى القضاة أبو الحسن بن الدامغانىّ الحنفىّ قاضى قضاة بغداد. قال أبو المظفّر: قاضى ابن قاضى ابن قاضى ابن قاضى ابن قاضى. ولد سنة ثلاث عشرة و خمسمائة، و ولّاه الخليفة المقتفى القضاء بمدينة السلام و سائر البلاد مشرقا و مغربا، و أقرّه المستنجد ثم عزله؛ ثم أعاده

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۰۵

المستضىء سنة سبعين و خمسمائة؛ ثم أقرّه الناصر لدين اللّه تعالى إلى أن توفّى ببغداد فى ذى القعدة و دفن بالشّونيزيّة عند جدّه لأمّه أبى الفتح الشاوى. و كان إماما فقيها عالما نزها عفيفا معدودا من كبار فقهاء السادة الحنفية- رحمه اللّه تعالى-.

و فيها توفّى محمد بن عبد الملك بن المقدّم الأمير شمس الدين، كان من أكابر أمراء الملك العادل نور الدين، ثم صلاح الدين يوسف بن أيّوب. و له المواقف المشهودة، و حضر جميع فتوحات السلطان صلاح الدين، ثم إنّه استأذن صلاح الدين فى الحجّ فأذن له على كره من مفارقته؛ فلمّا وصل إلى عرفات أراد أن يرفع علم صلاح الدين و يضرب الطّبل، فمنعه طاشتكين و قال: لا يرفع هنا سوى علم الخليفة.

فقال ابن المقدّم هذا: و السلطان مملوك الخليفة. فمنعه طاشتكين، فأمر ابن المقدّم غلمانه فرفع العلم فنكّسوه، فركب ابن المقدّم و من معه، و ركب طاشتكين له، و اقتتلوا فقتل من الفريقين، و رمى مملوك طاشتكين ابن المقدّم بسهم فوقع فى عينه فخرّ صريعا، و جاء طاشتكين و حمله إلى خيمته فتوفّى فى يوم الخميس يوم النحر و دفن بالمعلى. ثم أرسل الخليفة يعتذر لصلاح الدين أنّ ابن المقدّم كان الباغى، فلم يقبل صلاح الدين، و قال: أنا الجواب عن الكتاب. و لو لا اشتغاله بالجهاد لكان له و للخليفة شأن.

و فيها توفّى محمد بن عبيد اللّه الأديب أبو الفتح البغدادىّ، المعروف بسبط [ابن] التّعاويذىّ. الشاعر المشهور. و له ديوان شعر كبير، الموجود غالبه فى المديح.

و من شعره- رحمه اللّه- فى غير المديح، فى الزهد:

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۰۶

اجعل همومك واحدا و تخلّ عن كلّ الهموم

فعساك أن تحظى بما يغنيك عن كلّ الهموم

و له:

فكم ليلة قد بتّ أرشف ريقه و جرت على ذاك الشّنيب المنضّد

و بات كما شاء الغرام معانقى و بتّ و إيّاه كحرف مشدّد

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى شيخ الفتوى عبد الجبّار بن يوسف ببغداد. و المحدّث أبو العزّ عبد المغيث بن زهير الحربىّ.

و قاضى القضاة أبو الحسن علىّ بن أحمد ابن قاضى القضاة علىّ بن محمد بن الدامغانىّ الحنفىّ. و أبو الفتح محمد بن يحيى بن محمد بن مواهب البردانىّ. و الأمير الكبير شمس الدين محمد [بن عبد الملك] بن المقدّم النّورىّ، قتل بعرفات. و أبو السعادات نصر اللّه بن عبد الرحمن بن محمد [يعرف] بابن زريق القزّاز فى شهر ربيع الآخر، و له اثنتان و تسعون سنة. و شيخ الحنابلة ناصح الدين أبو الفتح نصر بن فتيان [بن مطرّف المعروف با] بن المنّى فى رمضان عن إحدى و ثمانين سنة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ستّ أذرع و ثمانى أصابع.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و اثنتا عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۸۴]

السنة الثامنة عشرة من ولایة السلطان صلاح الدین یوسف بن أیّوب علی مصر، و هی سنة أربع و ثمانین و خمسمائة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۰۷

فیها توفّی الأمیر أسامة بن مرشد بن علیّ بن المقلّد بن نصر بن منقذ الأمیر أبو الحارث مؤیّد الدولة مجد الدین الکنانیّ. مولده بشیزر فی سنة ثمان و ثمانین و أربعمائة، و کانت له الید الطّولی فی الأدب و الکتابة و الشعر، و کان فارسا شجاعا عاقلا مدبّرا، کان یحفظ عشرین ألف بیت من شعر العرب الجاهلیّة، و طاف البلاد ثم استوطن حماة فتوفّی فیها فی شهر رمضان، و قد بلغ ستا و تسعین سنة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة؛ ج۶؛ ص۱۰۷

له دیوان شعر مشهور، و کان السلطان صلاح الدین مغری بشعره. و من شعره فی قلع الضّرس:

و صاحب لا أملّ الدهر صحبته یشقی لنفعی و یسعی سعی مجتهد

لم ألقه مذ تصاحبنا فمذ وقعت عینی علیه افترقنا فرقة الأبد

و قال فی أیّام الملک العادل نور الدین الشهید:

سلطاننا زاهد و الناس قد زهدوا له فکلّ علی الخیرات منکمش

أیّامه مثل شهر الصّوم طاهرة من المعاصی و فیها الجوع و العطش

و فیها توفّی مجاهد الدین خالص بن عبد اللّه الناصریّ خادم الخلیفة الناصر لدین اللّه، کان قریبا من الخلیفة سلّم إلیه ممالیکه الخواص؛ و کان سلیم الباطن دیّنا، صلی به إمامه صلاة الفجر فقرأ الإمام فیها: إِنَّ اللَّهَ وَ مَلائِکَتَهُ یُصَلُّونَ عَلَی النَّبِیِ فلمّا سمع خالص ذلک رفع صوته و هو فی الصلاة و قال: صلّی اللّه علیک یا رسول اللّه.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۰۸

فضحک القوم و قطعوا الصلاة. فقال لهم خالص المذکور: مجانین أنتم! یقول اللّه:

صَلُّوا عَلَیْهِ وَ سَلِّمُوا تَسْلِیماً و أسکت أنا!

و فیها توفّی محمد بن محمد بن عبد اللّه بن القاسم بن المظفّر بن علیّ؛ أبو حامد محیی الدین الشّهرزوریّ الإمام الفقیه؛ ولی القضاء بالموصل، و قدم بغداد رسولا من صاحب الموصل، فأکرمه الخلیفة و خلع علیه. ثم عاد فمات فی جمادی الأولی.

و من شعره:

و لمّا شاب رأس الدهر غیظا لما قاساه من فقد الکرام

أقام یمیط عنه الشیب عمدا و ینشر ما أماط علی الأنام

الذین ذکر الذهبیّ وفاتهم فی هذه السنة، قال: و فیها توفّی الأمیر مؤیّد الدولة أبو المظفر أسامة بن مرشد بن علیّ بن مقلّد بن نصر بن منقذ الکنانیّ فی شهر رمضان عن سبع و تسعین سنة. و ظاعن بن محمد الزّبیریّ الخیّاط. و أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن عبد اللّه [بن یوسف بن أبی عیسی القاضی] بن حبیش الأنصاریّ بمرسیة، و کان خطیبها و قاضیها و محدّثها و مسندها، توفّی فی صفر. و أبو القبائل ابن علیّ عن مائة سنة و زیادة. و العلّامة شمس الأئمّة عماد الدین عمر بن شمس الأئمّة بکر بن محمد الزّرنجریّ البخاریّ شیخ الحنفیّة فی شوّال، و له خمس و ستون سنة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۰۹

و أبو عبد اللّه محمد بن علیّ بن محمد بن الحسن بن صدقة الحرّانیّ التاجر، و له سبع و تسعون سنة. و الحافظ أبو بکر محمد بن

موسى بن عثمان الحازمىّ الهمذانىّ فى جمادى الأولى شابّا، و له خمس و ثلاثون سنة. و أبو الفرج يحيى بن محمود الثّقفىّ الصّوفىّ فى نواحى همذان غريبا.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ستّ أذرع و اثنتا عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و ثلاث عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۸۵]

السنة التاسعة عشرة من ولاية صلاح الدين يوسف بن أيّوب على مصر، و هى سنة خمس و ثمانين و خمسمائة.

فيها ولّى السلطان صلاح الدين على عكّة حسام الدين بشارة، و ولّى على عمارة سورها الخادم بهاء الدين قراقوش.

و فيها توفّى الأمير طمان بن عبد اللّه النّورىّ صاحب الرّقّة، كان شجاعا جوادا محبّا للخير كثير الصدقات يحبّ الفقهاء و العلماء، بنى مدرسة بحلب للحنفيّة. و كانت وفاته فى ليلة نصف شعبان؛ و حزن السلطان صلاح الدين عليه و المسلمون لحرصه على الجهاد و لمواقفة المشهودة.

و فيها توفّى عبد اللّه بن محمد بن هبة اللّه بن المطهّر بن علىّ أبو سعد بن أبى السّرىّ التّميمىّ الموصلىّ القاضى شرف الدين بن أبى عصرون. كان إماما فاضلا مصنّفا، و كان خصيصا بالملك العادل نور الدين، ثم اقتضى به السلطان صلاح الدين، و ولى القضاء بعدّة بلاد و ضرّ قبل وفاته بعشر سنين. و من شعره قوله:

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۱۰

كلّ جمع إلى الشتات يصير أىّ صفو ما شانه التكدير

أنت فى اللّهو و الأمانى مقيم و المنايا فى كلّ وقت تسير

و فيها توفّى الفقيه عيسى الهكّارىّ ضياء الدين، حضر فتح مصر مع أسد الدين شيركوه، و هو الذى مشى بين الأمراء و بين السلطان صلاح الدين لمّا ولى وزارة العاضد بعد موت عمّه أسد الدين شيركوه، حسب ما تقدّم ذكره حتّى تمّ أمره.

ثمّ حضر مع السلطان صلاح الدين فتح القدس و الغزوات، و كان صلاح الدين يميل إليه و يستشيره، و كأنّ اللّه قد أقامه لقضاء حوائج الناس و التفريج عن المكروبين مع الورع و العفّة و الدين- رحمه اللّه-.

و فيها توفّى الأمير موسك بن جكو [ابن] خال صلاح الدين. كان حافظا للقرآن سامعا للحديث، و كان محسنا إلى الناس ملازما للسلطان فى غزواته، و كان ديّنا صالحا جوادا، مرض بمرج عكّا فأمره السلطان أن يمضى إلى دمشق ليتطبّب بها، فتوجّه إلى دمشق و مات بها- رحمه اللّه-.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أبو العبّاس التّرك أحمد بن أحمد بن محمد بن ينّال شيخ الصوفيّة بأصبهان و مسندها فى شعبان. و أبو الحسين أحمد بن حمزة الموازينىّ فى المحرّم. و قاضى القضاة شرف الدين أبو سعد عبد اللّه ابن محمد بن أبى عصرون التّميمىّ الموصلىّ فى رمضان. و أبو الفضل عبد المجيد بن [الحصينىّ بن يوسف بن الحسن بن أحمد بن] دليل الإسكندرانىّ المعدّل. و شيخ

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۱۱

الشافعيّة أبو طالب المبارك بن المبارك [بن المبارك] الكرخىّ صاحب ابن الخلّ.

و أبو المعالى [و أبو النجاح] منجب بن عبد اللّه المرشدىّ الخادم فى المحرّم. و الحافظ يوسف بن أحمد الشّيرازىّ ثم البغدادىّ الصوفىّ.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و خمس عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و اثنتان و عشرون إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۸۶]

السنة العشرون من ولاية السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب على مصر، و هى سنة ستّ و ثمانين و خمسمائة.

فيها ملك سيف الإسلام أخو السلطان صلاح الدين صنعاء من بلاد اليمن.

و فيها حجّ بالناس من العراق طاشتكين المذكور فى السنة الماضية.

و فيها توفّى مسعود [بن علىّ] بن عبيد اللّه أبو الفضل بن النادر الصفّار الأديب الشاعر، كان بارعا فى الأدب، و كتب خطّا حسنا نحوا من مائة ربعة. و من شعره قوله:

تولّوا فأولوا الجسم من بعدهم ضنا و حراً شديدا فى الحشا يتزايد

و زاد بلائى بالذين أحبّهم و للناس فيما يذهبون مقاصد

و فيها توفّى يوسف بن علىّ بن بكتكين الأمير زين الدين صاحب إربل.

كان قدم إلى السلطان صلاح الدين نجدة فمرض و مات، و فرح بموته أخوه مظفّر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۱۲

الدين، و تولّى إربل مكانه من قبل السلطان صلاح الدين. و كان زين الدين أميرا كبيرا شجاعا مقداما مدبرا.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى الحافظ أبو المواهب الحسن بن هبة اللّه بن محفوظ بن صصرى التّغلبىّ الدمشقىّ، و له تسع و اربعون سنة.

و أبو الطيّب عبد المنعم بن يحيى [بن خلف بن نفيس] بن الخلوف الغرناطىّ المقرئ.

و أبو عبد اللّه محمد بن سعيد [بن أحمد بن عبد العزيز بن عبد البرّ بن مجاهد المعروف ب] ابن زرقون الإشبيلىّ المالكىّ المسند. و أبو بكر محمد بن عبد اللّه بن يحيى بن الفرح بن الجدّ الفهرىّ الحافظ بإشبيلية. و قاضى القضاة محيى الدين أبو حامد محمد ابن قاضى القضاة كمال الدين بن الشّهرزورىّ، و له اثنتان و ستون سنة. ولى حلب ثم الموصل.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و خمس و عشرون إصبعا. مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا و أربع أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۸۷]

السنة الحادية و العشرون من ولاية السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب على مصر، و هى سنة سبع و ثمانين و خمسمائة.

فيها كان استيلاء الفرنج على عكّا، كما تقدّم فى ترجمة السلطان صلاح الدين من هذا الكتاب.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۱۳

و فيها توفّى الموفّق أسعد بن [إلياس بن جرجس] المطران الطبيب. كان نصرانيّا فأسلم على يد السلطان، و كان غزير المروءة حسن الأخلاق كريم العشرة. و كان يصحبه صبىّ حسن الصورة اسمه عمر. و كان الموفّق يحبّ أهل البيت و يبغض ابن عنين الشاعر لخبث لسانه، و كان يحرّض السلطان صلاح الدين عليه و يقول له:

أليس هذا هو القائل:

سلطاننا أعرج و کاتبه أعمش و الوزیر منحدب

فهجاه ابن عنین بقوله:

قالوا الموفّق شیعیّ فقلت لهم هذا خلاف الذی للناس منه ظهر

فکیف یجعل دین الرّفض مذهبه و ما دعاه إلی الإسلام غیر عمر

و فیها توفّی سلیمان بن جندر. کان من أکابر أمراء حلب، و مشایخ الدولتین:

النّوریّة و الصلاحیّة، شهد مع السلطان صلاح الدین حروبه کلّها، و هو الذی أشار بخراب عسقلان مصلحة للمسلمین. و مات فی أواخر ذی الحجّة.

و فیها توفّی عمر بن شاهنشاه بن أیّوب الملک المظفّر تقیّ الدین. قد ذکرنا من أمره: أنّ عمّه السلطان صلاح الدین کان أعطاه حماة، و عدّة بلاد من حماة إلی دیاربکر، فطمع فی ملکة الشرق فنفرت عنه و عن عمّه صلاح الدین القلوب لعظم طمعهما. و وقع لتقیّ الدین هذا مع بکتمر [بن عبد اللّه مملوک شاه أرمن] صاحب خلاط وقائع و حروب، فمات تقیّ الدین بتلک البلاد، فکتم محمد ولده موته، و حمله

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۱۴

إلی میّافارقین، فدفن بها. و کانت وفاته یوم الجمعة عاشر شهر رمضان، ثم بنیت له مدرسة بظاهر حماة، فنقل إلیها. و کان السلطان صلاح الدین یکره ابنه محمدا فأخذ منه بلاد أبیه، و أبقی معه حماة لا غیر. و لقّب محمد هذا بالملک المنصور. و هو أبو ملوک حماة من بنی أیّوب الآتی ذکرهم. و کان تقیّ الدین شجاعا مقداما شاعرا فاضلا، عاشر العلماء و الأدباء و تخلّق بأخلاقهم، و له دیوان شعر.

و من شعره:

یا ناظریه ترفّقا ما فی الوری لکما مبارز

هبکم حجبتم أن أرا ه فهل لقلب الصّب حاجز

و فیها توفّی یحیی السّهروردیّ المقتول بحلب، کان یعانی علوم الأوائل و المنطق و السیمیاء و أبواب النّیرنجیّات، فاستمال بذلک خلقا کثیرا و تبعوه، و له تصانیف فی هذه العلوم. و اجتمع بالملک الظاهر ابن السلطان صلاح الدین صاحب حلب، فأعجب الظاهر کلامه و مال إلیه. فکتب أهل حلب إلی السلطان صلاح الدین:

أدرک ولدک و إلّا تتلف عقیدته؛ فکتب إلیه أبوه صلاح الدین بإبعاده فلم یبعده، فکتب بمناظرته، فناظره العلماء فظهر علیهم بعبارته، فقالوا: إنّک قلت فی بعض تصانیفک: إنّ اللّه قادر علی أن یخلق نبیّا، و هذا مستحیل. فقال: ما وجه استحالته؟

فإنّ اللّه القادر هو الذی لا یمتنع علیه شیء. فتعصّبوا علیه، فحبسه الظاهر و جرت بسببه خطوب و شناعات. و کان السّهروردیّ ردیء الهیئة، زریّ الخلقة، دنس الثیاب، و سخ البدن، لا یغسل له ثوبا و لا جسما، و لا یقصّ ظفرا و لا شعرا، فکان القمل یتناثر علی وجهه، و کان من رآه یهرب منه لسوء منظره، و قبح زیّه.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۱۵

و طال أمره إلی أن أمر السلطان بقتله فقتل فی یوم الجمعة منسلخ ذی الحجّة من هذه السنة، أخرج من الحبس میّتا. و ممّا ینسب إلیه من الشعر القصیدة التی أوّلها:

أبدا تحنّ إلیکم الأرواح و وصالکم ریحانها و الراح

و قلوب أهل ودادکم تشتاقکم و إلی کمال جمالکم ترتاح

و قال السیف الآمدیّ: اجتمعت بالسّهروردیّ بحلب، فقال لی: لا بدّ أن أملک الأرض. فقلت: من أین لک هذا؟ فقال رأیت فی المنام أنّی شربت ماء البحر؛ فقلت: لعلّ ذلک یکون اشتهار العلم فلم یرجع؛ فرأیته کثیر العلم قلیل العقل. و یقال: إنّه لمّا تحقّق القتل کان

كثيرا ما ينشد:

أرى قدمى أراق دمى و هان دمى فهاندمى

و الأوّل قول أبى الفتح البستى و هو قوله:

إلى حتفى سعى قدمى أرى قدمى أراق دمى

فلا أنفك من ندم و ليس بنافعى ندمى

و فيها توفّى الشيخ نجم الدين الخبوشانىّ. قال صاحب المرآة: «قدم إلى الديار المصريّة و أظهر الناموس و تزهّد، و كان يركب الحمار فيقف على السلطان صلاح الدين و أهله. و أعطاه السلطان مالا فبنى به المدرسة التى بجانب الشافعىّ- رحمة اللّه عليه-. و كان كثير الفتن- منذ دخل مصر إلى أن مات- ما زالت الفتنة قائمة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۱۶

بينه و بين الحنابلة [و] ابن الصابونىّ و زين الدين بن نجيّة، يكفّرونه و يكفرهم؛ و كان طائشا متهوّرا، نبش على ابن الكيزانىّ و أخرج عظامه من عند الشافعىّ، و قد تقدّم ذلك. و كان يصوم و يفطر على خبز الشعير، فلمّا مات وجد له ألوف الدنانير، و بلغ صلاح الدين فقال: يا خيبة المسعى! و مات فى صفر. و تولّى بعده- تدريس مدرسة الشافعىّ التى بناها- شيخ الشيوخ صدر الدين ابن حمّويه».

انتهى كلام صاحب المرآة باختصار بعد أن ثلب الخبوشانىّ المذكور بمساوئ أضربت عن ذكرها- رحمه اللّه تعالى-.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفى الفقيه أبو محمد عبد الرحمن بن علىّ الحرقىّ اللّحمىّ فى ذى القعدة، و له ثمان و ثمانون سنة. و أبو المعالى عبد المنعم بن عبد اللّه بن محمد الفراوىّ فى شعبان. و صاحب حماة المظفّر عمر بن شاهنشاه بن أيّوب. و نجم الدين محمد بن الموفّق الخبوشانىّ الشافعى الزاهد. و الشهاب السّهروردىّ الفيلسوف. و يعقوب بن يوسف الحربىّ المقرئ.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ستّ أذرع و عشرون إصبعا.

مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا و أربع عشرة إصبعا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۱۷

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۸۸]

اشارة

السنة الثانية و العشرون من ولاية صلاح الدين يوسف بن أيّوب على مصر، و هى سنة ثمان و ثمانين و خمسمائة.

فيها توفّى سنان بن سليمان، صاحب الدعوة بقلاع الشام. كان أصله من البصرة من حصن ألموت، فرأى منه صاحب الأمر بتلك البلاد نجابة و شهامة و عقلا و تدبيرا، فسيّره إلى حصون الشام، فسار حتّى وصل إلى البلاد الشاميّة، و كان فيه معرفة و سياسة. و جدّ فى إقامة الدعوة و استجلاب القلوب، و كان مجيئه إلى الشام فى أيّام السلطان الملك العادل نور الدين الشهيد. فجرت له معه حروب و خطوب، و استولى سنان هذا على عدّة قلاع و أقام واليا ثلاثين سنة و البعوث ترد عليه فى كلّ قليل من قبل نور الدين. ثم إنّ السلطان نور الدين عزم على قصده فتوفّى. و أقام سنان على ذلك إلى أن توفّى ببلاد الشام فى هذه السنة.

و فيها توفّى علىّ بن أحمد الأمير سيف الدين بن المشطوب ملك الهكّاريّة.

و كان أميرا شجاعا صابرا فى الحروب مطاعا فى قبيلته، دخل مع أسد الدين شيركوه إلى مصر فى مرّاته الثلاث، ثم عاد بعد سلطنة

صلاح الدين إلى البلاد الشاميّة، فدام بها إلى أن مات فى آخر شوّال. و قال ابن شدّاد: مات بالقدس و صلّى عليه بالجامع الأقصى.

و فيها توفّى السلطان قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان بن قتلمش بن إسرائيل بن سلجوق، الملك عزّ الدين السلجوقىّ صاحب بلاد الروم.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۱۸

طالت أيّامه و اتّسعت ممالكه. و لمّا أسنّ أصابه الفالج فتعطّلت حركته، و تنافس أولاده فى الملك، و حكم عليه ولده قطب الدين ملكشاه، و قتل كثيرا من خواصّه فى حياة أبيه. و كان قطب الدين مقيما بسيواس و أبوه بقونية. ثم جاء إلى أبيه يقاتله فأخرج إليه العساكر، فالتقاهم قطب الدين و كسرهم و بدّد شمل أصحاب أبيه، ثم ظفر بأبيه فأخذه مكرها و حمله إلى قيساريّة، و وقع له معه أمور أخر. و آخر الأمر أنّه عهد إلى ولده غياث الدين بالملك و لم يعهد لقطب الدين. و كانت وفاته فى نصف شعبان.

و فيها توفّى نصر بن منصور أبو المرهف النّميرىّ الشاعر المشهور، منسوب إلى نمير بن عامر بن صعصعة. ولد برقّة الشام، و أمّه بنت سالم بن مالك صاحب الرّحبة، و ربّى بالشام و عاشر الأدباء و قال الشعر و هو ابن ثلاث عشرة سنة. و قلّ بصره بالجدرىّ و له أربع عشرة سنة. و قدم بغداد ليداوى عينيه فآيسه الأطبّاء، فحفظ القرآن و تفقّه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل- رضى اللّه عنه- و كان طاهر اللسان عفيفا ديّنا. و له مدائح فى صلاح الدين و غيره. و من شعره- رحمه اللّه تعالى-:

ترى يتألّف الشمل الصديع و آمن من زمان ما يروع

و تأنس بعد وحشتنا بنجد منازلنا القديمة و الرّبوع

ذكرت بأيمن العلمين عصرا مضى و الشمل ملتئم جميع

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۱۹

فلم أملك لدمعى ردّ غرب و عند الشوق تعصيك الدموع

ينازعنى إلى خنساء قلبى و دون لقائها بلد شسوع

و أخوف ما أخاف على فؤادى إذا ما أنجد البرق اللّموع

لقد حملّت من طول التنائى عن الأحباب ما لا أستطيع

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى الفقيه أحمد ابن الحسين بن علىّ العراقىّ الحنبلىّ بدمشق. و المحدّث أبو الفضل إسماعيل بن علىّ الجنزوىّ الشّروطىّ بدمشق فى سلخ جمادى الأولى. و أبو ياسر عبد الوهاب [بن هبة اللّه بن عبد الوهاب] بن أبى حبّة الدقاق بحرّان فى شهر ربيع الأول. و أبو جعفر عبيد اللّه بن أحمد [بن علىّ بن علىّ] بن السّمين. و الأمير الكبير سيف الدين علىّ بن أحمد الهكّارىّ المشطوب فى شوّال بالقدس. و صاحب الروم قليج أرسلان بن مسعود السلجوقىّ. و النّسابة أبو علىّ محمد بن أسعد الحسينىّ الجوّانىّ بمصر.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ستّ أذرع و ثلاث و عشرون إصبعا. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و إحدى عشرة إصبعا.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۲۰

ذكر ولاية الملك العزيز عثمان على مصر

هو الملك العزيز عماد الدين أبو الفتح عثمان سلطان الديار المصريّة و ابن سلطانها الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن الأمير نجم الدين أيّوب بن شادى ابن مروان الأيّوبىّ الكردىّ الأصل المصرىّ. ولى سلطنة مصر فى حياة والده صورة؛ ثم تسلطن بعد وفاته استقلالا باتّفاق الأمراء و أعيان الدولة بديار مصر، لأنه كان نائبا عن أبيه صلاح الدين بها لمّا كان أبوه مشتغلا بفتح السواحل بالبلاد الشاميّة و تمّ أمره. و كان مولده بالقاهرة فى ثامن جمادى الأولى سنة سبع و ستين و خمسمائة. و كان الملك العزيز هذا أصغر من

أخيه الملك الظاهر غازى صاحب حلب، و أصغر من أخيه الأفضل صاحب دمشق. و كان الأفضل هو أكبر الإخوة، و هو المشار إليه فى أيّام أبيه صلاح الدين و من بعده، و هو الذى جلس للعزاء بعد موت صلاح الدين، و صار هو السلطان الأكبر إلى أن ظهر منه أمور، منها: أنّه كان استوزر ضياء الدين الجزرىّ، فأساء ضياء الدين السّيرة؛ و شغّف قلوب الجند إلى مصر، و ساروا إليها فالتقاهم الملك العزيز و أكرمهم، و كانوا معظم الصلاحيّة. و اشتغل الأفضل بلهوه. و كان القدس فى يده فعجز عنه و سلّمه إلى نوّاب الملك العزيز هذا؛ فبان للناس عجز الأفضل. ثم وقعت الوحشة بين العزيز هذا و بين أخيه الأفضل المذكور. و بلغ الفرنج ذلك، فطمعوا فى البلاد و حاصروا جبلة، و كان بها جماعة من الأكراد فباعوها للفرنج. و برز الملك العزيز من مصر يريد قتال الفرنج فى الظاهر، و فى الباطن أخذ دمشق من أخيه الأفضل؛

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۲۱

و علم الأفضل بذلك فكتب إلى عمّه العادل أبى بكر بن أيّوب، و للمشارقة بالنجدة، فأجابوه إلى ما يريد؛ و كان مع العادل عدّة بلاد بالشرق، و كان لمّا توفّى أخوه السلطان الملك الناصر صلاح الدين بالكرك قدم دمشق معزّيا للأفضل و أقام عنده أيّاما؛ ثم رحل إلى محلّ ولايته بالجزيرة و الرّها و سميساط و الرّقّة و قلعة جعبر و ديار بكر و ميّافارقين. و هى البلاد التى كان أعطاها له أخوه صلاح الدين فى حياته، و كان له أيضا مع ذلك بالبلاد الشاميّة الكرك و الشّوبك.

و المقصود أنّ الملك العزيز هذا لمّا رحل من مصر إلى نحو دمشق، سار حتى نزل بظاهر دمشق، و قيل بعقبة الشّحورة؛ و جاء العادل بعساكر الشرق و نزل بمرج عدواء. فأرسل إليه العزيز يقول: أريد الاجتماع بالعادل؛ فاجتمعا على ظهور خيلهما و تفاوضا؛ فقال له العادل: لا تخرّب البيت و تدخل عليه الآفة! و العدوّ وراءنا من كلّ جانب، و قد أخذوا جبلة؛ فارجع إلى مصر و احفظ عهد أبيك. و أيضا فلا تكسر حرمة دمشق، و تطمع فيها كل أحد! و عاد الملك العادل عنه إلى دمشق، و اقام العزيز فى منزلته. و قدمت العساكر على الأفضل و بعث العادل إلى العزيز يقول له: ارحل إلى مرج الصّفّر؛ فرحل و هو مريض. و كان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۲۲

قصد العادل أن يبعده عن البلد. فوصل الملك الظاهر غازى من حلب، و الملك المنصور من حماة، و شيركوه بن محمد بن شيركوه من حمص، و الأمجد من بعلبكّ، و الجميع نجدة للأفضل. فقال لهم العادل: قد تقرّر أنّه يرحل إلى مصر. و اشتدّ مرض العزيز فاحتاج إلى المصالحة، و لو لا المرض ما صالح؛ فأرسل الملك العزيز كبراء دولته فخر الدين اياز جهاركس و غيره يحلّف الملوك، و طلب مصاهرة عمّه العادل فزوّجه ابنته الخاتون. و رجع كلّ واحد إلى بلده، و ذلك فى شعبان سنة تسع و ثمانين و خمسمائة.

و قال العماد الكاتب الأصفهانىّ: خرج الملوك لتوديع الملك العزيز إلى مرج الصّفّر واحدا بعد واحد. و أوّل من خرج إليه أخوه الملك الظاهر غازى صاحب حلب، فبات عنده ليلة و عاد، فخرج إليه أخوه الأفضل صاحب الواقعة، فقام إليه و اعتنقا و بكيا، و أقام عنده أيضا يوما، و كان قد فارقه منذ تسع سنين، فلمّا عاد كتب إلى العزيز من إنشائه من عدّة أبيات:

نظرتك نظرة من بعد تسع تقضّت بالتفرّق من سنين

و لمّا انفصل العساكر عن دمشق شرع الأفضل على عادته فى اللّهو و اللّعب، فاحتجب عن الرعيّة فسمّى «الملك النوّام» و فوّض الأمر إلى وزيره ضياء الدين الجزرىّ، و حاجبه الجمال محاسن بن العجمىّ، فأفسدا عليه الأحوال، و كانا سببا لزوال دولته. و استمرّ الملك العزيز هذا بمصر و أمره ينمو و يزداد إلى سنة تسعين.

و فيها عاد الاختلاف ثانيا بين العزيز و الأفضل؛ و سببه إغراء الجند و الوسائط.

و كان أكبر المحرّضين للعزيز على أخيه الأفضل أسامة، حتّى قال له: إنّ اللّه يسألك عن

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۲۳

الرعيّة، هذا الرجل قد غرق فى اللهو و شربه، و استولى عليه الجزرىّ و ابن العجمىّ.

ثم قال له القاضی ابن أبی عصرون: لا تسلم یوم القیامة. و بلغ الأفضل قول أسامة و ابن أبی عصرون فأقلع عمّا كان علیه، و تاب و ندم علی تفریطه، و عاشر العلماء و الصلحاء، و شرع یکتب مصحفا بخطّه، و کان خطّه فی النهایة، فلم یغن عنه ذلک. و تحرّک العزیز یقصده، فسار الأفضل إلی عمّه العادل یستنجد به، فالتقاه العادل علی صفّین، فسار معه بعساکر الشرق إلی دمشق؛ و کان الأفضل لمّا اجتاز بحلب اتّفق مع أخیه الظاهر غازی و تحالفا، و جاء إلی حماة ففعل کذلک مع ابن عمّه المنصور.

و صار العادل یشیر علیه بعزل الجزریّ عن الوزارة، و یقول له: هذا یخرّب بیتک.

فصار لا یلتفت إلیه فحنق منه. ثم إنّ العادل سأل الملک الظاهر غازی فی شیء فلم یجبه، فغضب لذلک العادل و انفرد عنهم، و کتب إلی العزیز یخبره أنّه معه، و یستحثّه علی القدوم إلی دمشق؛ فخرج العزیز من مصر مسرعا، ثم علم العادل أنّه لا طاقة له بالعزیز و لا بالظاهر؛ فراسل الأسدیّة الذین کانوا بمصر، و أوعدهم بالأموال و الإقطاعات. و کان الملک العزیز قد قدّم علیهم الصلاحیّة ممالیک أبیه. و الأسدیّة هم ممالیک عمّه أسد الدین شیرکوه و حواشیه الأکراد؛ ثم دسّ العادل للأسدیّة الأموال، و کان مقدّم الأکراد الأسدیّة أبو الهیجاء السّمین؛ و کان العزیز قد عزله عن ولایة القدس، و تقدّمت الأسدیّة بسیف الدین جردیک؛ فرکب أبو الهیجاء بجموعه، و معه أزکش فی اللیل، و قصدوا دمشق، فأصبح العزیز فلم یرفی الخیام من الأسدیّة أحدا، فرجع إلی مصر. و شرع أزکش و أبو الهیجاء و الأسدیّة یحرّضون العادل علی أخذ مصر؛ و کانت الأسدیّة و الأکراد یکرهون العادل، و إنّما دعتهم

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۲۴

الضرورة إلیه. و اتّفق العادل مع ابن أخیه الأفضل و سارا إلی جهة العزیز نحو مصر.

فلمّا و صلوا إلی القدس ولّوا أبا الهیجاء کما کان، و عزلوا جردیک عنها؛ ثم ساروا حتّی نزلوا ببلبیس و بها جماعة من الصلاحیّة. فتوقّف العادل عن القتال و لم یر انتزاع مصر من ید العزیز، و ظهرت منه قرائن تدلّ علی أنّه لا یؤثر السلطنة للأفضل، و لا یری بتقدمته علی العزیز. فأرسل العادل إلی العزیز یطلب منه القاضی الفاضل، و کان الفاضل قد اعتزلهم و انقطع إلی داره، فأرسل إلیه العزیز یسأله فامتنع، فتضرّع إلیه و أقسم علیه، فخرج إلی العادل، فاحترمه العادل و أکرمه و تحدّث معه بما قرّره، و عاد الفاضل إلی العزیز و تحدّث معه، فأرسل العزیز و لدیه الصغیرین مع خادم له برسالة ظاهرة، مضمونها: «لا تقاتلوا المسلمین و لا تسفکوا دماءهم، و قد أنفذت ولدیّ یکونان تحت کفالة عمّی العادل، و أنا أنزل لکم عن البلاد و أمضی إلی الغرب».

و کان ذلک بمشهد من الأمراء، فرقّ العادل و بکی من حضر. فقال العادل:

معاذ اللّه! ما وصل الأمر إلی هذا الحدّ.

و کان العادل قد قرّر مع القاضی الفاضل ردّ خیر الأسدیّة و إقطاعاتهم و أملاکهم، و أن یبقی أبو الهیجاء علی ولایة القدس. ثم قال العادل للأفضل:

المصلحة أن تمضی إلی أخیک و تصالحه، ما عذرنا عند اللّه و عند الناس إذا فعلنا بابن أخینا ما لا یلیق!. و کان العزیز أرسل یقول للعادل مع الخادم المقدّم ذکره: «البلاد بلادک و أنت السلطان و نحن رعیّتک». ففهم الأفضل أنّ العادل رجع عن یمینه، و أنّه اتّفق مع العزیز علی أخذ البلاد منه، لکنّه لم یمکنه الکلام، و مضی إلی أخیه الملک العزیز و اصطلحا، و عاد إلی دمشق. و دخل العزیز و العادل و الأسدیّة إلی القاهرة یوم الخمیس رابع ذی الحجّة. و سلطن العادل العزیز و مشی بین یدیه بالغاشیة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۲۵

و لو أراد العادل مصر فی هذه المرّة لأخذها؛ و إنّما کان قصده الإصلاح بین الإخوة.

ثم وقع بین العزیز هذا و الأفضل ثالثا، و هو أنّه لمّا عاد الأفضل إلی دمشق ازداد وزیره الجزریّ من الأفعال القبیحة، و الأفضل یسمع منه و لا یخالفه، فکتب قیماز النّجمیّ و أعیان الدولة إلی العادل یشکونه، فأرسل العادل إلی الأفضل:

«ارفع ید هذا الأحمق السیّئ التدبیر القلیل التوفیق»، فلم یلتفت. فاتّفق العادل مع ابن أخیه العزیز هذا علی التوجّه إلی الشام فسارا. و

استشار الأفضل أصحابه، فكلّ أشار عليه بأن يلتقى عمّه العادل و أخاه العزيز و لا يخالفهما إلّا الجزرىّ، فإنّه أشار بالعصيان، فاستعد الأفضل للقتال و الحصار و حلّف الأمراء و المقدّمين، و فرّقهم فى الأبراج و الأسوار، فراسلوا العزيز و العادل و أصلحوا أمرهم فى الباطن؛ و اتّفق العادل مع عزّ الدين الحمصى على فتح الباب الشرقىّ؛ و كان مسلّما إليه، فلمّا كان يوم الأربعاء سادس عشرين شهر رجب ركب العادل و العزيز و جاءا إلى الباب الشرقىّ ففتحه ابن الحمصى فدخلا إلى البلد من غير قتال؛ فنزل العزيز دار عمّته ستّ الشام، و نزل العادل دار العقيقىّ، و نزل الأفضل إليهما و هما بدار العقيقى؛ فدخل عليهما و بكى بكاء شديدا، فأمره العزيز بالانتقال من دمشق إلى صرخد، فأخرج وزيره الجزرىّ فى الليل فى جملة الصناديق خوفا عليه من القتل، فأخذ أموالا عظيمة و هرب إلى بلاده.

و كان العزيز قد قرّر مع عمّه العادل أن يكون نائبه بمصر، و يقيم العزيز بدمشق.

ثم ندم فأرسل إلى أخيه الأفضل رسالة فيها صلاح حاله. ثم وقعت أمور إلى أن سلّم العزيز بصرى إلى العادل، و كان بها الظافر. و أقام العزيز بعد ذلك بدمشق مدّة، و صلّى الجمعة عند قبر والده بالكلّاسة و أمر ببناء القبّة و المدرسة إلى جانبها،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۲۶

ثم أمر محيى الدين بن الزّكىّ بعمارة المدرسة العزيزيّة، و نقل السلطان صلاح الدين إلى الكلّاسة فى سنة اثنتين و تسعين و خمسمائة. و كان الأفضل قد شرع فى بناء تربة عند مشهد القدم بوصيّة من السلطان صلاح الدين. و كان الملك العزيز إذا جلس فى مجالس لهوه يجلس العادل على بابه، كأنّه برد [ه] داره. فلمّا كان آخر ليلة من مقام العزيز بدمشق، و كانت ليلة الاثنين تاسع شعبان، قال العادل لولده المعظم عيسى:

ادخل إلى العزيز فقبّل يده و اطلب منه دمشق، و كان المعظّم قد راهق الحلم، فدخل إلى ابن عمّه العزيز و قبّل يده و طلب منه دمشق، فدفعها إليه و أعطاه مستحقّه، و قيل: بل استناب العادل فيها، ثم أعطاها للمعظّم فى سنة أربع و تسعين. و كان خروج الملك العزيز من دمشق فى يوم تاسع شعبان المذكور. و سار إلى مصر و مضى الأفضل إلى صرخد، و اجتاز العزيز بالقدس فعزل أبا الهيجاء السمين عن نيابتها، و ولّاها لسنقر الكبير، و مضى أبو الهيجاء إلى بغداد.

و استمرّ الملك العزيز بمصر، و استقامت الأمور فى أيّامه، و عدل فى الرعيّة، و عفّ عن أموالها حتّى قيل: إنّ ابن البيسانىّ أخا القاضى الفاضل بذل على قضاء المحلّة أربعين ألف دينار، فعجّل منها عشرين ألفا، و كان رسوله فى ذلك الملك العادل عمّ العزيز المقدّم ذكره، و بذل له عن ترسّله خمسة آلاف دينار، و للحاجب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۲۷

أبى بكر ألف دينار، و لجهاركس ألف دينار. فاجتمعوا على العزيز جميعا و خاطبوه فى ذلك، و ألحّ عليه الملك العادل. فقال له العزيز: و اللّه يا عمّ، هذا الرجل بذل لنا هذا البذل [لا] عن محبّة لنا، و اللّه إنّه ليأخذ من أموال الرعيّة أضعاف ذلك، لا ولّيته أبدا! فرجع العادل عن مساعدته، فلمّا آل الأمر إلى العادل صادر ابن البيسانىّ المذكور، و أخذ منه أموالا كثيرة. انتهى.

و قال القاضى شمس الدين بن خلّكان فى ترجمة الملك العزيز هذا بعد أن ذكر اسمه و لقبه قال: «و كان ملكا مباركا كثير الخير واسع الكرم محسنا إلى الناس معتقدا فى أرباب الخير و الصلاح، و سمع بالإسكندرية الحديث من [الحافظ] السّلفىّ، و الفقيه أبى طاهر بن عوف الزّهرىّ، و سمع [بمصر] من العلّامة أبى محمد بن برّىّ النحوىّ و غيرهم. و يقال: إنّ والده لمّا كان بالشام و القاضى الفاضل عبد الرحيم بالقاهرة عند العزيز ولد للعزيز المذكور ولد، فكتب القاضى الفاضل يهنّئ والده السلطان صلاح الدين بولد ولده، فقال: «المملوك يقبّل الأرض بين يدى مولانا الملك الناصر، دام رشده و إرشاده، و زاد سعده و إسعاده، و كثر أولياؤه و عبيده و أحفاده، و اشتدّ بأعضاده فيهم اعتضاده، و أنمى اللّه عدده حتّى يقال هذا آدم الملوك و هذه أولاده؛ و ينهى أنّ اللّه تعالى- و له الحمد- رزق الملك العزيز- عزّ نصره- ولدا مباركا عليّا، ذكرا سريّا، [برّا] زكيّا، نقيّا تقيّا؛ من ورثة كريمة بعضها من بعض، و بيت شريف كادت ملوكه تكون ملائكة فى السماء، و مماليكه ملوكا فى الأرض». انتهى ما كتبه القاضى الفاضل فى التهنئة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۲۸

قال ابن خلّکان- رحمه اللّه-: «و کانت ولادة العزیز بالقاهرة فی ثامن جمادی الأولی سنة سبع و ستین و خمسمائة. و کان قد توجّه إلی الفیّوم، فطرد فرسه وراء، صید فتقنطر به فرسه، فأصابته الحمّی من ذلک، و حمل إلی القاهرة فتوفّی بها فی الساعة السابعة من لیلة الأربعاء الحادی و العشرین من المحرّم سنة خمس و تسعین و خمسمائة- رحمه اللّه تعالی- قال: و لمّا مات کتب القاضی الفاضل إلی عمّه العادل رسالة یعزّیه، من جملتها:

«فنقول فی تودیع النّعمة بالملک العزیز: لا حول و لا قوّة إلا بالله قول الصابرین، و نقول فی استقبالها بالملک العادل؛ الحمد للّه ربّ العالمین قول الشاکرین؛ و قد [کان] من أمر هذه الحادثة ما قطّع کلّ قلب و جلب کلّ کرب و مثّل وقوع هذه الواقعة لکلّ أحد و لا سیما لأمثال المملوک، و مواعظ الموت بلیغة، و أبلغها ما کان فی شباب الملوک؛ فرحم اللّه ذلک الوجه و نضّره، ثمّ السبیل إلی الجنة یسّره.

و إذا محاسن أوجه بلیت فعفا الثری عن وجهه الحسن

و المملوک فی حال تسطیر هذه الخدمة جامع بین مرضی قلب و جسد، و وجع أطراف و علیل کبد؛ فقد فجع المملوک بهذا المولی، و العهد بوالده غیر بعید، و الأسی فی کلّ یوم جدید؛ و ما کان لینـدمل ذلک القرح، حتّی أعقبه هذا الجرح؛ و اللّه تعالی لا یعدم المسلمین بسلطانهم الملک العادل [السلوة، کما لم یعدمهم بنبیّهم صلّی اللّه علیه و سلم الأسوة]- و أخذ فی نعت الملک العادل إلی أن قال-: و دفن بالقرافة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۲۹

الصغری (یعنی العزیز) فی قبّة الإمام الشافعیّ- رضی اللّه عنه-. و قبره معروف هناک» انتهی کلام ابن خلّکان برمّته، و لم یتعوّض لشیء من أحواله، و لا إلی ما کان فی بدایة أمره.

و قال أبو المظفّر سبط ابن الجوزیّ فی تاریخه: «و فیها (یعنی سنة خمس و تسعین) توفّی الملک العزیز عثمان بن صلاح الدین صاحب مصر. کان صلاح الدین یحبّه، و کان جوادا شجاعا عادلا منصفا لطیفا کثیر الخیر رفیقا بالرعیّة حلیما. حکی لی المبارز سنقر الحلبیّ- رحمه اللّه- قال: ضاق ما بیده بمصر (یعنی عن العزیز) و لم یبق فی الخزانة درهم و لا دینار، فجاء رجل من أهل الصعید إلی أزکش سیف الدین، قال: عندی للسلطان عشرة آلاف دینار و لک ألف دینار، و تولینی قضاء الصعید؛ فدخل أزکش إلی العزیز فأخبره؛ فقال: و اللّه لا بعت دماء المسلمین و أموالهم بملک الأرض! و کتب ورقة لأزکش بألف دینار. و قال: اخرج فاطرد هذا الدبر، و لولاک لأدّبته.

و قد ذکرنا أنّه وهب دمشق [للملک] المعظّم، و کان یطلق عشرة آلاف دینار و عشرین ألفا. و کان سبب وفاته أنّه خرج إلی الفیّوم یتصیّد، فلاح له ظبی فرکض الفرس خلفه فکبا به الفرس، فدخل قربوس [السرج] فی فؤاده، فحمل إلی القاهرة فمات فی العشرین من المحرّم، و دفن عند الشافعی- رحمه اللّه- عن سبع و عشرین سنة و شهور؛ و قیل: عن ثمان و عشرین سنة. و لمّا مات نصّ علی ولده ناصر الدین محمد، و هو أکبر أولاده، و کان له عشرة أولاد، و لم یذکر عمّه العادل فی الوصیّة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۳۰

و أوصی للأمیر أزکش، و کان مقدّم الأسدیّة و کبیرهم، و عاش بعد العزیز مدّة طویلة». انتهی کلام أبی المظفّر.

و قال ابن القادسیّ- خلاف ما نقل أبو المظفّر و ابن خلّکان و غیرهما- قال:

«کان قد رکب و تبع غزالة فوقع فاندقّت عنقه، و بقی أربعة أیّام و مات. و نصّ علی ولده الأکبر محمد إن أمضی العادل ذلک. و کانت الوصیّة إلی أمیر کبیر اسمه أزکش فوثبت الأسدیّة علیه فقتلته». انتهی.

و قال الشیخ شمس الدین یوسف بن قزأوغلی فی تاریخه: «و لمّا مات العزیز کان لابنه محمد عشر سنین، و کان مقدّم الصّلاحیّة فخر

الدين جهاركس، و أسد الدين سرا سنقر، و زين الدّين قراجا؛ فاتّفقوا على ناصر الدين محمد (يعنى ابن العزيز)، و حلّفوا له الأمراء. و كـان سيف الـدين أزكش مقـدّم الأسديـة غائبـا بـأسوان، فقـدم فصوّب رأيهم و ما فعلوه، إلّا أنّه قال: هو صـغير السّن لا ينهض بأعباء الملـك، و لاـ بـدّ من تـدبير كبير يحسم الموادّ و يقيم الأـمور؛ و العادل مشـغول فى الشـرق بماردين، و ما ثمّ أقرب من الأفضل نجعله أتابك العساكر. فلم يمكن الصّلاحيّة مخالفته.

و قالوا: افعل، فكتب أزكش إلى الأفضل يستدعيه و هو بصرخد، و كتبت الصلاحيّة إلى من بدمشق من أصحابهم يقولون: قد اتّفقت الأسديّة على الأفضـل، و إن ملكوا حكموا علينـا، فامنعوه من المجىء؛ فركب عسـكر دمشق ليمنعوه ففاتهم؛ و كان الأفضل قـد التقى نجّابا من جهاركس إلى من بدمشق بهذا المعنى، و معه كتب فأخذها منه و قال: ارجع فرجع إلى مصـر. و لمّا وصل الأفضل إلى مصـر التقاه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۳۱

الأسديّة- نحكى ذلك كلّه فى أوّل ترجمة الملك المنصور بن العزيز هذا، إن شاء اللّه-

و كان الملك العزيز قوّيا ذا بطش و خفّة حركة، كريما محسـنا عفيفا لم يردّ سائلا؛ و بلغ من كرمه أنّه لم يبق له خزانة و لا خاصّ و لا ترك و لاـ فرش. و أمّا عفته فإنّه كان له غلام تركىّ اشتراه بألف دينار يقال له: أبو شامـة، فوقف يوما على رأسه فى خلوة ليس معهما ثالث، فنظر العزيز إلى جماله، و أمره أن ينزع ثيابه، و قعد العزيز منه مكان الفاحشة؛ فأدركه التوفيق و نهض مسـرعا إلى بعض سـراريه فقضى و طره، و خرج إلى الغلام و أمره بالخروج عنه». انتهى.

و يحكى عن عفّته عن الأموال: أنّ عرب المحلّة قتلوا بعض أمرائه، و كان والى المحلة ابن بهرام، فجباهم عشرة آلاف دينار، و جاء بها إلى القاهرة؛ فصادف فى الدّهليز غلاما خارجا من عند السـلطان؛ فقال ابن بهرام: ارجع إلى السـلطان و استأذنه لى؛ فقال الغلام: دعنى، أنا فى أمر مهمّ للسـلطان، قد وهب لشـيخ صـيّاد دينارين، و قد سـيّرنى إلى الجهات كلّها فلم أجد فيها شيئا، و قد تعذّر عليه هذا المبلغ اليسـير؛ فقال: ارجع إليه، معى مال عظيم. فلمّا دخل ابن بهرام إلى العزيز فضّ المال بين يـديه و قال: هـذا ديـة فلان؛ فقال: أخذتها من القاتـل؟ قال: لا، بل من القبيلـة؛ فقال العزيز: لا أسـتجيز أخـذه، ردّه على أربابه، فراجعه فاكفهرّ؛ فخرج ابن بهرام بالمال و هو يقول: ما يردّ هذا مع شدّة الحاجة إلّا مجنون!. فرحم اللّه هذه الشّيم.

انتهت ترجمة الملك العزيز من عدّة أقوال. رحمه اللّه تعالى و عفا عنه و عن جميع المسلمين و الحمد للّه رب العالمين.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۳۲

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۸۹]

السنة الأولى من ولاية السلطان العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف على مصر، و هى سنة تسع و ثمانين و خمسمائة، على أنّ والده السلطان صلاح الدين يوسف حكم منها المحرّم و صفرا.

فيها كانت وفاة السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب حسب ما تقدّم ذكره فى ترجمته.

و فيها توفّى الأمير بكتمر [ابن عبد اللّه مملوك] شاه أرمن. و عزّ الدين صاحب الموصل كما سيأتى.

و فيهـا بنى الخليفـة الناصـر لـدين اللّه العباسـىّ دار الكتب بالمدرسـة النظاميّـة ببغـداد، و نقـل إليها عشـرة آلاف مجلـد، فيها الخطوط المنسوبة و غيرها.

و فيها توفّى أسعد بن نصر بن أسعد النحوىّ، كان إماما فاضلا أديبا شاعرا.

و من شعره قوله:

يجمع المرء ثم يترك ما جمّ ع من كسبه لغير شكور

ليس يحظى إلّا بذكر جميل أو بعلم من بعده مأثور

و فيها توفّى الأمير بكتمر بن عبد اللّه مملوك شاه أرمن بن سكمان صاحب خلاط، مات شاه أرمن و لم يخلّف ولدا، فاتّفق خواصّه على بكتمر فولّى، و ضبط الأمور و أحسن للرعيّة، و صاحب العلماء، و كان حسن السّيرة متصدّقا ديّنا صالحا؛ جاءه أربعة على زىّ الصوفيّة فتقدّم إليه واحد منهم فمنعه الجانداريّة. فقال:

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۳۳

دعوه، فتقدّم و بيده قصّة فأخذها منه، فضربه بسكّين فى جوفه فمات فى ساعته.

فأخذوا الأربعة و قرّروا، فقالوا: نحن إسماعيليّة؛ فقتلوا و أحرقوا؛ و ذلك فى جمادى الأولى.

و فيها توفّى السلطان مسعود بن مودود بن زنكى بن آق سنقر عزّ الدّين صاحب الموصل و ابن أخى السلطان الملك العادل نور الدين الشهيد. كان خفيف العارضين أسمر مليح اللّون، عادلا عاقلا محسنا إلى الرعية شجاعا، صبر على حصار السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب له بالموصل ثلاث مرّات، و حفظ البلد و فرّق الأموال العظيمة. و كان ديّنا صالحا، خرج من الموصل لقتال الملك العادل أبى بكر ابن أيّوب، و كان العادل على حرّان بعد موت صلاح الدين. فعاد مريضا و مات فى شهر رمضان، و كانت أيّامه ثلاث عشرة سنة و ستّة أشهر. و أوصى بالملك من بعده لولده الأكبر نور الدين أرسلان شاه، و كان أخوه شرف الدين مودود يروم السلطنة، فصرفت عنه لنور الدين هذا فعزّ ذلك عليه.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى الشيخ سنان بن سليمان البصرىّ زعيم الإسماعيليّة. و أبو منصور عبد اللّه بن محمد [بن علىّ بن هبة اللّه] ابن عبد السلام الكاتب. و القاضى أبو عبد اللّه محمد بن عبد الرحمن الحضرمىّ بالإسكندريّة. و صاحب الموصل عزّ الدين مسعود بن قطب الدين مودود بن زنكى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۳۴

و المكرم بن هبة اللّه بن المكرم الصّوفىّ. و السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن أيّوب فى صفر بقلعة دمشق، و له سبع و خمسون سنة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ستّ أذرع و ثلاث أصابع.

مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا و ثمانى أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۹۰]

السنة الثانية من ولاية العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف على مصر، و هى سنة تسعين و خمسمائة.

فيها توفّى أحمد بن إسماعيل بن يوسف الشيخ الإمام أبو الخير القزوينىّ الشافعىّ.

كان إماما عالما بالتفسير و الفقه، و كان متعبّدا يختم القرآن فى كلّ يوم و ليلة.

و مولده بقزوين فى سنة اثنتى عشرة و خمسمائة. و قدم بغداد و وعظ و مال إلى الأشعرىّ، فوقعت الفتن. و جلس يوم عاشوراء فى النظاميّة فقيل له: العن يزيد بن معاوية؛ فقال: ذاك إمام مجتهد، فجاءه الرّجم حتّى كاد يقتل، و سقط عن المنبر فأدخل إلى بيت فى النظاميّة، و أخذت فتاوى الفقهاء بتعزيره؛ فقال بعضهم يضرب عشرين سوطا: قيل له: من أين لك هذا. فقال: عن عمر ابن عبد العزيز، سمع قائلا يقول: أمير المؤمنين يزيد بن معاوية، فضربه عشرين سوطا. ثم خلّص القزوينىّ بعد ذلك و أخرج من بغداد إلى قزوين.

و فيها توفى السلطان طغرلبك شاه بن أرسلان شاه بن طغرل شاه بن محمد ابن ملكشاه بن ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن

سلجوق السّلجوقیّ آخر ملوک

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۳۵

السّـلجوقیّة بالعراق سوی صاحب الروم. و کان مبدأ أمره- عند وفاة والده- سـنة ثلاث و سـبعین و خمسمائة، و کان صغیر السّنّ فکفله البهلوان إلی أن مـات فی سـنة اثنتین و ثمـانین، فکفله بعـده أخو البهلوان لأـبیه حتّی أنف من الحجر و خرج عن یـده، و انضـاف إلیه جماعـة من الأمراء، و کسـر عسـکر الخلیفـة و أسـر ابن یونس و هابته الملوک. و کان طغرلبک هـذا سـفّا کالدماء، قتل وزیره رضـیّ الـدین الغزنویّ، و فخر الـدین العلویّ رئیس همـذان. ثم وقع له أمور و محن و أخذ و حبس. و قد تقدّم أن طغرلبک هذا آخر ملوک السّـلجوقیّة، و عدّتهم نیّف و عشـرون ملکا، و مدّة ملکهم مائة و سـتون سنة. و أوّل من ملک منهم طغرلبک فی سنة اثنتین و ثلاثین و أربعمائة؛ ثم ألب أرسـلان بن داود بن میکائیـل بن سـلجوق بن دقمـاق، و هو ابن أخی طغرلبـک؛ ثم بعـده ولـده ملکشـاه؛ ثم ولـده محمود؛ ثم أخوه برکیاروق؛ ثم أخوه محمـد شاه؛ ثم ولده محمود؛ ثم واحد بعد واحد. حسب ما ذکرناهم فی هذا الکتاب کلّ واحد فی محلّه. و طغر یلبک (بضم الطاء المهملة و سکون الغین المعجمة و کسر الراء

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۳۶

المهملة و بعدها یاء و لام ساکنتان). و هو اسم باللغة الترکیّة لطائر معروف عندهم.

و بک: هو الأمیر، واضح لا یحتاج إلی تفسیر.

الـذین ذکر الـذهبیّ وفـاتهم فی هـذه السـنة، قال: و فیها توفّی العلّامـة رضـیّ الـدّین أبو الخیر أحمـد بن إسـماعیل الطّالقانیّ القزوینیّ الشافعیّ الواعظ فی المحرّم، و له ثمان و ثمانون سـنة. و طغرلبک شاه السلطان ابن أرسلان بن طغرل بن محمد بن ملکشاه السّلجوقیّ، قتله [فی] المصـاف خـوارزم شـاه تکش. و أبـو المظفّر عبـد الخـالق بن فیروز الجـوهریّ. و الإمـام أبـو محمـد القـاسم بن فیّره الرّعینیّ الشّاطبیّ المقرئ فی جمادی الآخرة، و له اثنتان و خمسون سـنة. و الحافظ محمـد بن إبراهیم بن خلف المالقیّ أبو عبـد اللّه بن الفخّار بمرّاکش. و الفخر محمد بن علیّ بن شعیب بن الدّهّان الأدیب المؤرّخ فجأة بالحلّة.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم ست أذرع و خمس أصابع.

مبلغ الزیادة ست عشرة ذراعا و اثنتان و عشرون إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۹۱]

السنة الثالثة من ولایة العزیز عثمان بن صلاح الدین یوسف علی مصر، و هی سنة إحدی و تسعین و خمسمائة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۳۷

فیها اقطع الملک العزیز فارس الدین میمون القصریّ نابلس فی سعمائة فارس من مقاتلة الفرنج.

و فیها کانت وقعـة الزّلّاقـة بین یعقوب بن یوسف بن عبـد المؤمن و بین ألفنش الفرنجیّ ملک طلیطلـة، و کان قد اسـتولی علی جزیرة الأنـدلس و قهر ولاتهـا، و یعقوب المـذکور مشـغول بقتـال الخارجین علیه، و بینه و بین الأنـدلس زقاق سـبتة، و عرضه ثلاث فراسـخ، فجمع یعقوب العساکر و عرض جنـده، و کانوا مائتی ألف [مقاتل: مائـة ألف] یأکلون الأرزاق، و مائـة ألف مطّوّعـة، و عبر الزّقاق إلی مکان یقال له الزّلّاقة؛ و التقوا فجری بینهم قتال لم یجر فی جاهلیة و لا إسـلام حتّی أنزل اللّه نصره علی المسـلمین. فولّی ألفنش هاربا فی نفر یسـیر إلی طلیطلـة، و غیم المسـلمون ما کان فی عسـکره. و کان عدّة من قتل من الفرنج مائة ألف و سـتة و أربعین ألفا، و عدّة الأساری ثلاثین ألفا؛ و من الخیام: مائـة ألف خیمـة و خمسـین ألفا؛ و من الخیل ثمانین ألفا؛ و من البغال و الأموال و الجواهر و الثیاب ما لا یحدّ و لا یحصی.

و يبع الأسير من الفرنج بدرهم؛ و السيف بنصف درهم، و الحصان بخمسة دراهم، و الحمار بدرهم. و قسم الملک يعقوب هذه الغنائم بين المسلمين على مقتضى الشريعة،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۳۸

فاستغنوا إلى الأبد. و وصل ألفنش إلى طليطلة على أقبح وجه، فحلق رأسه و لحيته، و نكّس صليبه و آلى أنّه لا ينام على فراش و لا يقرّب النساء و لا يركب فرسا حتّى يأخذ بالثأر.

و فيها اعتنى الخليفة الناصر لدين اللّه العباسىّ بحمام البطاقة اعتناء زائدا، حتى صار يكتب بأنساب الطير المحاضر أنّه من ولد الطير الفلانىّ؛ و قيل: إنّه باع طيرا بألف دينار.

و فيها حجّ بالناس من بغداد سنجر الناصرىّ، و من الشام سرا سنقر و أيبک فطيس الصلاحيّان، و من مصر الشريف إسماعيل بن ثعلب الجعفرىّ الطالبىّ.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال. و فيها توفّى أبو القاسم ذاكر بن كامل الخفّاف. و الفقيه أبو محمد عبد اللّه الزاهد ابن محمد بن على الأندلسىّ فى المحرّم عن بضع و ثمانين سنة. و أبو الحسن نجبة بن يحيى [بن خلف] بن نجبة الإشبيلىّ المقرئ النحوىّ. أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ست أذرع و إصبعان. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و عشر أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۹۲]

السنة الرابعة من ولاية العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف على مصر، و هى سنة اثنتين و تسعين و خمسمائة.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۳۹

فيها بعد خروج الحاجّ من مكّة هبّت ريح سوداء عمّت الدنيا، و وقع على الناس رمل أحمر، و وقع من الركن اليمانىّ قطعة، و تحرّک البيت الحرام مرارا. و هذا شىء لم يعهد منذ بناه عبد اللّه بن الزّبير- رضى اللّه عنهما-.

و فيها أيضا كانت الوقعة الثانية بين السلطان يعقوب و بين ألفنش ملک الفرنج بعد أن حشد ألفنش جمعا كبيرا و التقوا، فكان بينهم قتلة عظيمة؛ و نصر اللّه المسلمين. و هزمه يعقوب و تبعه و حصره على الزّلّاقة و بطليطلة و نصب عليها المجانيق و ضيّق عليها، و لم يبق إلّا أخذها. فخرجت إليه والدة ألفنش و بناته و نساؤه و بكين بين يديه، و سألته إبقاء البلد عليهنّ، فرقّ لهنّ و منّ عليهنّ بها؛ و لو فتح طليطلة لفتح إلى مدينة النّحاس. ثم عاد يعقوب إلى قرطبة فأقام بها شهرا يقسم الغنائم، و جاءته رسل ألفنش أيضا تسأل الصلح، فصالحه على مدّة معيّنة.

و فيها توفّى محمد بن علىّ بن أحمد، الوزير أبو الفضل مؤيّد الدّين بن القصّاب.

أصله من شيراز، و قدم بغداد و استخدم فى الديوان، ثم ترقّى إلى أن ولى الوزارة؛ و قرأ الأدب و النحو. و كان داهية ردىء الاعتقاد إلّا أنّه كان له خبرة بالأمور و الحروب و فتح البلاد، و كان الخليفة الناصر لدين اللّه يثنى عليه و يقول: لو قبلوا من رأيه ما جرى ما جرى، و لقد أتعب الوزراء من بعده.

و فيها توفّى محمد بن علىّ بن شعيب، الشيخ أبو شجاع الفرضىّ الحاسب البغدادىّ المعروف بابن الدّهان. كان فاضلا عالما و صنّف تاريخا من عشر و خمسمائة إلى سنة اثنتين و تسعين و خمسمائة.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۴۰

و فيها توفّى محمد بن علىّ بن فارس الشيخ أبو الغنائم [المعروف ب] ابن المعلّم الهرثىّ الشاعر المشهور. و هرث: قرية تحت واسط. كان رقيق الشعر، لطيف المعانى، و له ديوان شعر. و من شعره القصيدة التى أوّلها:

لو قضى من أهل نجد أربه لم يهج نشر الخزامى طربه

علّلوا الصبّ بأنفاس الصّبا إنّها تشفى النفوس الوصبه

فهى إن مرّت عليه نشرت ما انطوى عنه و جلّت كربه

كلفى فيكم قديم عهده ما صباباتى بكم مكتسبه

أين ورق الجزع من لى أن أرى عجمه إن لم أشاهد عربه

و منها:

عن جفونى النوم من بعّده و إلى جسمى الضّنا من قرّبه

وصلوا الطّيف إذا لم تصلوا مستهاما قد قطعتم سببه

و إلى أن تحسنوا صنعابنا قد أساء الحبّ فينا أدبه

و هى أطول من هذا.

الـذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السـنة، قال: و فيها توفّى المحدّث أبو الرّضا أحمد بن طارق الكركىّ فى ذى الحجّة ببغداد. و عبد الخـالق بـن عبـد الوهّـاب بن محمـد المـالكىّ الصـابونىّ الخفّـاف. و أبـو الغنـائم محمـد بن علىّ بن فـارس [المعروف ب] ابن المعلّم الواسـطىّ شاعر العراق عن إحـدى و تسـعين سـنة. و الوزير مؤيّـد الـدّين محمـد بن علىّ بن القصّاب. و العلّامة مجير الدين محمود بن المبارك البغدادىّ الشافعىّ عن خمس و سبعين سنة. و يوسف بن معالى الكتّانىّ المقرئ بدمشق.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۴۱

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و ست و عشرون إصبعا. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و ثمانى عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۹۳]

السنة الخامسة من ولاية الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف على مصر، و هى سنة ثلاث و تسعين و خمسمائة.

فيهـا قـدم حسـام الـدّين أبو الهيجـاء السّـمين بغـداد و خرج الموكـب للقـائه، و دخل أبو الهيجاء فى زىّ عظيم [و] رتّب الأطلاب على ترتيب أهل الشام، و كان فى خـدمته عـدّة من الأمراء؛ و أوّل ما تقدّم من الأمراء طلب ابن أخيه المعروف بكور الغرس ثم أمير أمير؛ و جاء هو بعـد الكلّ فى العدّة الكاملة و السـلاح التامّ، و خرج أيضا أهل بغداد للقائه، و كان رأسه صـغيرا و بطنه كبيرا جدّا، بحيث كان بطنه على رقبـة البغلـة؛ فرآه رجل كوّاز فعمل فى الساعة كوزا من طين على هيئته، و سـبقه فعلّقه فى السوق؛ فلمّا اجتاز به ضـحك. ثم عمل بعد ذلك أهل بغداد كيزانا سمّوها:

أبا الهيجاء. و أكرمه الخليفة و أقام له بالضّيافات.

قلت: أبو الهيجـاء هـذا هو الـذى عزله الملك العزيز هـذا عن نيابـة القـدس بجرديك فى أوائل أمره. حسب ما تقـدّم ذكره فى ترجمة العزيز.

و فيها توفّى الأمير طغتكين بن أيّوب أخو السـلطان صلاح الدين بن أيوب، و لقبه سيف الإسلام. كان والى اليمن، ملكها من زبيد إلى حضر موت، و كان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۴۲

شجاعا مقداما شهما. و توفّى بزبيد. و ولى اليمن بعده ولده شمس الملوك إسماعيل و ادّعى الخلافة.

و فيها توفّى عبد اللّه بن منصور بن عمران الشـيخ أبو بكر الباقلانىّ. و مولده فى سـنة خمسـمائة. و انفرد بالرّواية فى القراءات العشر، و

كان حسن التلاوة. و قدم بغداد و مات بواسط فى سلخ شهر ربيع الآخر.

و فيها توفّى عبيد اللّه بن يونس بن أحمد الوزير جلال الدين أبو المظفّر الحنبلىّ، ولى حجابة الديوان ثم استوزره الخليفة؛ و كان إماما عالما فى الأصلين و الحساب و الهندسة و الجبر و المقابلة، غير أنّه شان أمره بأمور فعلها، منها: أنّه أخرب بيت الشيخ عبد القادر [الجيلانىّ] و شتّت أولاده، و يقال: إنّه بعث فى الليل من نبش على الشيخ عبد القادر و رمى بعظامه فى اللّجّة، و قال: هذا وقف ما يحلّ أن يدفن فيه أحد.

قلت: و ما فعله هو بعظام الشيخ أقبح من أن يدفن بعض المسلمين فى بعض أوقاف المسلمين، و ما ذاك إلّا الحسد داخله من الشيخ عبد القادر و عظم شهرته حتّى وقع منه ما وقع؛ و لهذا كان موته على أقبح وجه، بعد أن قاسى خطوبا و محنّا و حبس سنين، حتى أخرج من الحبس ميّتا؛ و هذا ما وقع له فى الدنيا، و أمّا الأخرى فأمره إلى اللّه تعالى. و بالجملة فإنّه كان من مساوىء الدهر.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى سيف الإسلام طغتكين بن أيّوب بن شادى صاحب اليمن فى شوّال، و ولى بعده ابنه إسماعيل.

و مقرئ العراق أبو بكر عبد اللّه بن منصور الرّبعىّ الباقلانىّ بواسط فى شهر ربيع

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۴۳

الأول عن ثلاث و تسعين سنة. و الوزير جلال الدين عبيد اللّه بن يونس، مات فى المطمورة. و عذراء بنت شاهنشاه بن أيّوب و دفنت بالعذراويّة. و قاضى القضاة أبو طالب علىّ بن علىّ بن أبى البركات البخارىّ الشافعىّ ببغداد. و أبو المعمّر محمد ابن حيدرة بن عمر بن إبراهيم العلوىّ الزّيدىّ الرافضىّ. و أبو الفتح الأصبهانىّ ناصر الدين بن محمد الوترح فى ذى الحجّة. و أبو القاسم يحيى بن أسعد بن [يحيى] بن بوش الخبّاز فى ذى القعدة، غصّ بلقمة، و عاش بضعا و ثمانين سنة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و خمس و عشرون إصبعا. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و إحدى و عشرون إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۹۴]

اشارة

السنة السادسة من ولاية العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف على مصر، و هى سنة أربع و تسعين و خمسمائة.

فيها توفّى الأمير جرديك بن عبد اللّه النّورىّ. كان من أكابر أمراء الملك العادل نور الدين محمود الشهيد؛ ثم خدم السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب فى جميع غزواته و حروبه من يوم قتل شاور بمصر و ابن الخشّاب بحلب. و كان أميرا شجاعا مهيبا جوادا، ولّاه صلاح الدين نيابة القدس إلى أن أخذها منه الأفضل.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۴۴

و فيها توفى زنكى بن مودود بن زنكى بن آق سنقر عماد الدين صاحب سنجار، و ابن أخى نور الدين الشهيد. كان عاقلا جوادا لم يزل مع السلطان صلاح الدين؛ و كان السلطان صلاح الدين يحترمه مثل ما كان يحترم نور الدين، و يعطيه الأموال و الهدايا، و كانت وفاته بسنجار. و لمّا احتضر أوصى إلى أكبر أولاده قطب الدين محمد، و لقّب بالملك المنصور.

و فيها توفّى قيماز بن عبد اللّه مجاهد الدين الخادم الرومىّ الحاكم على الموصل، و هو الذى بنى الجامع المجاهدىّ و المدرسة و الرّباط و البيمارستان بظاهر الموصل على دجلة و وقف عليها الأوقاف. و كان عليه رواتب بحيث إنّه لم يدع [بالموصل بيت] فقير إلّا أغنى أهله، و كان ديّنا صالحا عابدا عادلا كريما، يتصدّق كلّ يوم خارجا عن الرواتب بمائة دينار. و لمّا مات عزّ الدّين مسعود و ولى

ابنه أرسلان شاه حبس قيماز هذا و ضيّق عليه و آذاه إلى أن مات فى حبسه.

و فيها توفّى يحيى بن سعيد بن هبة اللّه العلّامة أبو طالب قوام الدّين الشّيبانىّ المنشئ الكاتب الواسطىّ الأصل، البغدادىّ المولد و الدار و الوفاة. مولده فى سنة اثنتين و عشرين و خمسمائة. و اشتغل بالأدب و برع فى الإنشاء و فنون من العلوم كالفقه و علم الكلام و الأصول و الحساب و الشعر، و جالس أبا منصور بن الجواليقىّ و قرأ عليه، و سمع أبا القاسم بن الصائغ و غيره؛ و ولى للخليفة عدّة خدم: حجبة الباب، ثم الأستادارية، ثم كتابة الإنشاء آخر عمره و مات فى ذى الحجّة. و من شعره- و أحسن فيما قال-:

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۴۵

باضطراب الزمان ترتفع الأن ذال فيه حتّى يعم البلاء

و كذا الماء ساكنا فإذا حرّك ثارت من قعره الأقذاء

قلت: و فى هذين البيتين شرح حال زماننا هذا لكثرة من ترقّى فيه من الأوباش إلى الرّتب السنيّة من كلّ طائفة، و قد أذكرنى ذلك واقعة جرت فى أوّل سلطنة الملك الأشرف إينال، و هى أنّ بعض أوباش الخاصكيّة ممّن ليس له ذات و لا أدوات وقف إلى السلطان و طلب منه إمرة عشرة، و قال له: يا مولانا السلطان، إمّا أن تنعم علىّ بإمرة عشرة و إلّا وسّطنى هنا؛ و قيل: إنّه تمدّد و نام بين يديه حتّى أخذ إمرة عشرة؛ و هو معروف لا يحتاج إلى تسميته. و من هذه المقولة شىء كثير، و مع ذلك خرج الزمان و للدولة أعيان، فلا قوّة إلّا باللّه.

و فيها توفّى أبو الهيجاء السّمين الأمير حسام الدين الكردىّ المقدّم ذكره فى عدّة أماكن، و ذكرنا أيضا دخوله إلى بغداد، و أنّه صار من جملة أمراء الخليفة حتى سيّره إلى همذان، فلم يتمّ له أمر، و اختلف أصحابه عليه فاستحيا أن يعود إلى بغداد، فسار إلى الشام و مرض بها و مات بعد أيّام. و كان أميرا شجاعا مقداما عارفا متجمّلا سيوسا.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و أربع و عشرون إصبعا. مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا و إصبعان.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۴۶

ذكر ولاية الملك المنصور محمد على مصر

اختلف المؤرّخون فيمن ولى ملك مصر بعد موت الملك العزيز عثمان ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب. فمن الناس من قال: أخوه الأفضل نور الدين علىّ بن صلاح الدين يوسف بن أيّوب؛ و منهم من قال: ولده الملك المنصور محمد هذا. و الصواب المقالة الثانية، فإنّه كان ولّاه والده العزيز من بعده، و إليه أوصى العزيز بالملك، و أيضا ممّا يقوّى المقالة الثانية أنّ المنصور كان تحت كنف والده العزيز بمصر، و كان الأفضل بصرخد، و لم يحضر إلى مصر، حتّى تمّ أمر المنصور و تسلطن بعد موت أبيه. و بيان ذلك أيضا يأتى فيما نذكره الآن فى سياق ترجمة الملك المنصور، فيعرف بهذا السياق من كان فى هذه المدّة السلطان بمصر إلى حين ملك الملك العادل أبو بكر بن أيّوب؛ فنقول:

لمّا مات الملك العزيز عثمان بديار مصر فى العشرين من المحرّم أوصى بالملك لأكبر أولاده و هو ناصر الدين محمد المذكور، و نصّ عليه فى الوصيّة؛ و كان للعزيز عشرة أولاد، و لم يذكر فى الوصيّة عمّه العادل؛ و جعل وصيّه الأمير أزكش مقدّم الأسديّة.

قال أبو المظفّر سبط ابن الجوزىّ فى تاريخه: «كان لابنه محمد عشر سنين و كان مقدّم الصلاحيّة فخر الدين جهاركس، و أسد الدين سرا سنقر، و زين الدين قراجا؛ فاتّفقوا على ناصر الدين محمد و حلّفوا له الأمراء؛ و كان سيف الدين أزكش مقدّم الأسديّة غائبا بأسوان، فقدم و صوّب رأيهم و ما فعلوه، إلّا أنّه قال: هو صغير السن لا ينهض بأعباء الملك، و لا بدّ من تدبير كبير يحسم الموادّ و يقيم الأمور، و العادل مشغول فى الشرق بماردين، و ما ثمّ أقرب من الأفضل نجعله أتابك العساكر، فلم يمكن

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۴۷

الصلاحيّة مخالفة الأسديّة و قالوا: افعلوا ففعلوا. فكتب أزكش إلى الأفضل يستدعيه و هو بصرخد. و كتبت الصلاحيّة إلى من بدمشق من أصحابهم يقولون: قد اتّفقت الأسديّة على الأفضل، و إن ملك الأفضل الديار المصريّة حكموا علينا، فامنعوا الأفضل من المجىء؛ فركب عسكر دمشق ليمنعوه ففاتهم؛ و كان الأفضل قد التقى النّجّاب المتوجّه إلى دمشق ثانيا من قبل الصلاحيّة، و على يده الكتب التى تتضمّن ما ذكرناه من منع الأفضل من المجىء إلى الديار المصريّة، فأخذ الأفضل النّجّاب و عاد به إلى مصر، و لمّا وصل الأفضل إلى مصر التقاه الأسديّة و الصلاحيّة، و رأى جهاركس النّجّاب الذى أرسله، فقال له: ما أسرع ما عدت! فأخبره الخبر، فساق هو و قراجا بمن معهما من وقتهما إلى القدس و تحصّنا به. فلمّا وقع ذلك أشارت الأسديّة على الأفضل بقصد دمشق، و أنّ العادل مشغول بماردين.

فكتب الأفضل إلى أخيه الملك الظاهر غازى صاحب حلب يستنجده، فأجابه و قال: اقدم حتّى أساعدك. فسار الأفضل بالعساكر المصريّة إلى الشام و استناب بمصر سيف الدين أزكش، و وصل الأفضل إلى دمشق فى شعبان من السنة فأحدق بها. و بلغ هذا الخبر الملك العادل و هو على ماردين، و قد أقام عليها عشرة أشهر، و لم يبق إلّا تسليمها و صعدت أعلامه على القلعة؛ فلمّا سمعوا بوفاة العزيز توقّفوا عن تسليمها؛ فرحل الملك العادل أبو بكر عنها، و ترك على حصارها ولده الكامل محمدا الآتى ذكره فى سلاطين مصر- إن شاء اللّه تعالى- و سار العادل إلى نحو الشام فوصلها و معه جماعة من الأمراء؛ و كان الأفضل نازلا فى الميدان الأخضر فأشار عليه جماعة من الأمراء أن يتأخّر إلى مشهد القدم [حتّى يصل الظاهر و صاحب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۴۸

حمص و الأمراء]. و دخل العادل و من معه إلى دمشق، و جاء الظاهر بعسكر حلب، و جاء عسكر حماة و حمص، و بشارة من بانياس، و عسكر الحصون، و سعد الدين مسعود صاحب صفد، و ضايقوا دمشق و بها العادل، و كسروا باب السلامة؛ و جاء آخرون إلى باب الفراديس و كان العادل فى القلعة و قد استأمن إليه جماعة من المصريين مثل ابن كهدان و مثقال الخادم و غيرهما. فلمّا بلغه أنّ ابن الحنبلىّ و أخاه شهاب الدين و أصحابهما قد كسروا باب الفراديس ركب من وقته و خرج إليهم و جاء إلى جيرون و المجد أخو الفقيه عيسى قائم على فرسه يشرب الفقّاع، ثم صاح العادل: يا فعلة يا صنعة إلى هاهنا! فلمّا سمعوا كلامه انهزموا و خرجوا؛ فأغلق العادل باب السلامة، و جاء إلى باب الفراديس فوجدهم قد كسروا الأقفال بالمرزبّات؛ فقال من فعل هذا؟ قالوا: الحنابلة؛ فسكت و لم يقل شيئا. و قال أبو المظفّر:

و حكى لى المعظّم عيسى- رحمه اللّه- قال: [لمّا] رجعنا من باب الفراديس [و] وصلنا إلى باب مدرسة الحنابلة رمى على رأس أبى (يعنى العادل) حبّ الزّيت فأخطأه، فوقع فى رقبة الفرس فوقع ميتا، فنزل أبى و ركب غيره و لم ينطق بكلمة،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۴۹

و جاء جهاركس و قراجا فى اللّيل من جبل سنير فدخلا دمشق. و أمّا المواصلة فساقوا على الكامل محمد فرحّلوه عن ماردين، فجاء أيضا يقصد دمشق، و جمع التّركمان و غيرهم.

و أمّا أمر دمشق فإنّه لمّا اشتدّ الحصار عليها، و قطعوا أشجارها و مياهها الداخلة إليها، انقطعت عن أهلها الميرة و ضجّوا، فبعث العادل إلى ابن أخيه الظاهر غازى صاحب حلب يقول له: أنا أسلّم إليك دمشق على أن تكون أنت السلطان، و تكون دمشق لك لا للأفضل، فطمع الظاهر و أرسل إلى الأفضل يقول: أنت صاحب مصر فآثرنى بدمشق، فقال الأفضل: دمشق لى من أبى، و إنّما أخذت منّى غصبا. فلا أعطيها لأحد، فوقع الخلف بينهما و وقع التقاعد، و خرجت السّنة على هذا.

ثمّ دخلت السنة السادسة و التسعون، و الحصار على دمشق. و كان أتابك أرسلان شاه صاحب الموصل قد رحّل الكامل من ماردين كما تقدّم ذكره. فقدم الكامل دمشق و معه خلق كثير من التّركمان و عسكر حرّان و الرّها، فتأخّر الأفضل بالعساكر إلى عقبة الشّحورة فى سابع عشر صفر. و وصل الكامل فى تاسع عشره فنزل بجوسق أبيه على الشرف، ثم رحل الأفضل إلى مرج الصّفّر، و رحل الظاهر

إلى حلب، و أحرقوا ما عجزوا عن حمله. و سار الأفضل إلى مصر. و أحضر العادل

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۵۰

بنی الحنبلیّ: الناصح و أخاه شهاب الدین و غیرهما، و کان الأفضل قد وعد الناصح بقضاء دمشق، و الشهاب بالحسبة، فقال لهم العادل: ما الذی دعاکم إلى کسر باب الفرادیس، و مظاهرة أعدائی علیّ، و سفک دمی؟ فقال له الناصح: أخطأنا و ما ثمّ إلّا عفو السلطان.

- ثم ساق أبو المظفّر کلاما طویلا محصوله العفو عن الحنابلة، إلى أن قال:-

و أمّا الأفضل فإنّه سار إلى مصر، فأرسل العادل وراءه [أبا محمد] نجیب الدین إلیه بالزّبدانیّ یقول [له]: ترفّق، فأنا لک مثل الوالد، و عندی کلّ ما ترید. فقال الأفضل: قل له: إن صحّت مقالتک فأبعد عنک أعدائی الصّلاحیّة. و بلغ ذلک الصلاحیّة، فقالوا للعادل: إیش قعودنا هنا؟ قم بنا، و ساروا خلف الأفضل مرحلة مرحلة؛ فنزل الأفضل ببلبیس و نزل العادل السائح؛ فرجع الأفضل و ضرب معهم المصافّ، و تقاتلوا فانکسر الأفضل و تفرّق عنه أصحابه؛ و رحل إلى القاهرة و أغلق أبوابها. و جاء العادل فنزل البرکة، و دخل سیف الدین أزکش بین العادل و الأفضل، و اتّفقوا أن یعطیه العادل میّافارقین و جبل جور و دیار بکر، و یأخذ منه مصر؛ فاتّفق الأمر على ذلک.

و رحل الأفضل من مصر فی شهر ربیع الآخر، و دخل العادل إلى القاهرة، و أحسن إلى أزکش، و قال للأفضل: جمیع من کان معک کاتبنی إلّا سیف الدین أزکش. ثمّ قدّم العادل أزکش المذکور و حکّمه فی البلاد، و ردّ القضاء

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۵۱

إلى صدر الدین عبد الملک بن درباس الکردیّ، و ولیّ شیخ الشیوخ ابن حمّویه التدریس بالشافعیّ و مشهد الحسین و النّظر فی خانقاه الصّوفیّة، و جلس الوزیر صفیّ الدین عبد اللّه بن علیّ بن شکر فی دار السلطنة فی حجرة القاضی الفاضل، و نظر فی الدواوین. و سار الأفضل إلى میّافارقین. و استدعى العادل ولده الکامل إلى مصر فخرج من دمشق فی ثالث عشرین شعبان و ودّعه أخوه الملک المعظّم عیسى إلى رأس الماء. قال العماد الکاتب: و سرت معه إلى مصر و أنشدته:

دعتک مصر إلى سلطانها فأجب دعاءها فهو حقّ غیر مکذوب

قد کان یهضمنی دهری فأدرکنی محمد بن أبی بکر بن أیّوب

و وصل الکامل إلى مصر فی عاشر شهر رمضان، و التقاه أبوه العادل من العبّاسة، و أنزله فی دار الوزارة. و کان قد زوّجه بنت أخیه صلاح الدین فدخل بها.

و لم یقطع العادل الخطبة لولد العزیز.

قلت: و هذا ممّا یدلّ أیضا على أنّ الأفضل کان عند الملک المنصور محمد ابن العزیز عثمان بمنزلة الأتابک. و الظاهر أنّه کان ظنّ الأفضل إذا تمّ أمره مع عمّه العادل هذا استقلّ بالملک، فلم یقع له ذلک؛ و لهذا لم نذکره فی ملوک مصر، و ما ذکرناه هنا إلّا فی ضمن ترجمة المنصور صاحب الترجمة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۵۲

قال: ثم إنّه جمع الفقهاء (یعنی الملک العادل) و قال لهم: هل یجوز ولایة الصغیر على الکبیر؟ فقالوا: الصغیر مولّى علیه. قال: فهل یجوز للکبیر أن ینوب عن الصغیر؟ قالوا: لا، لأنّ الولایة من الأصل إذا کانت غیر صحیحة فکیف تصحّ النیابة! فعند ذلک قطع خطبة ابن العزیز (یعنی عن المنصور صاحب الترجمة) و خطب لنفسه و لولده الکامل من بعده. و نقص النیل فی هذه السنة و لم یبلغ ثلاث عشرة ذراعا. و وقع الغلاء بدیار مصر».

قلت: و على هذا یکون أوّل سلطنة العادل على مصر فی یوم خطب له بمصر؛ و هو یوم الجمعة الحادی و العشرین من شوّال سنة ست

و تسعین و خمسمائة.

قال ابن المستوفی فی تاریخ إربل: فتکون أوّل سلطنة الملک العادل من هذا الیوم، و لا عبرة باستیلائه علی مصر قبل ذلک. و علی هذا أیضا تکون مدّة الملک المنصور محمد صاحب الترجمة علی سلطنة مصر سنة واحدة و تسعة أشهر سواء، فإنّ والده العزیز عثمان مات فی عشرین المحرّم من سنة خمس و تسعین و خمسمائة فتسلطن من یوم موت أبیه، و خلع فی العشرین من شوّال سنة ست و تسعین و خمسمائة.

انتهی. و لم أقف علی وفاته الآن.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۵۳

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۹۵]

السنة الأولی من ولایة الملک المنصور محمد ابن الملک العزیز عثمان ابن الملک الناصر یوسف علی مصر، و هی سنة خمس و تسعین و خمسمائة، علی أنّ الملک العزیز والده حکم منها نحو العشرین یوما من المحرّم کما تقدّم ذکره.

فیها حجّ بالناس من بغداد مظفّر الدین وجه السّبع.

و فیها کانت وفاة الملک العزیز عثمان حسب ما تقدّم ذکره فی ترجمته.

و فیها توفّی یحیی بن علیّ بن الفضل أبو القاسم بن فضلان مدرّس النّظامیّة، کان فقیها بارعا، قدم بغداد و ناظر و أفتی و درّس، و کان مقطوع الید، وقع من الجمل فعملت علیه یده فحیف علیه فقطعت. و کانت وفاته فی شعبان. و من شعره:

- رحمه اللّه تعالی-:

و إذا أردت منازل الأشراف فعلیک بالإسعاف و الإنصاف

و إذا بغی باغ علیک فخلّه و الدهر فهو له مکاف کاف

و فیها توفّی یعقوب بن یوسف بن عبد المؤمن الملک المنصور أبو یوسف صاحب المغرب. کان ملکا مغازیا مجاهدا، و هو الذی کسر ألفنش ملک الفرنج المقدّم ذکره علی الزّلّاقة، و هو أعظم ملوک المغرب و أحسنهم سیرة لما کان جمع من المحاسن: الدّین و الصلاح و الشجاعة و الکرم و الحزم و العزم، و دام فی ملکه إلی أن مات فی شهر ربیع الأوّل بعد أن أوصی بالملک إلی ولده أبی عبد اللّه محمد.

و کانت مدّة أیامه خمس عشرة سنة. و فیه یقول شاعره أبو بکر یحیی بن عبد الجلیل

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۵۴

ابن عبد الرحمن بن مجیر الأندلسیّ المرسیّ قصیدته المطوّلة، و عدّة أبیاتها مائة و سبعة أبیات. أوّلها:

أ تراه یترک الغزلا و علیه شبّ و اکتهلا

و مدحه أیضا إبراهیم بن یعقوب الشاعر المشهور بقصیدة طنّانة أوّلها:

أزال حجابه عنی و عینی تراه من المهابة فی حجاب

و قرّبنی تفضّله و لکن بعدت مهابة عند اقترابی

الذین ذکر الذهبیّ وفاتهم فی هذه السنة، قال: و فیها توفی الملک العزیز عثمان ابن صلاح الدین یوسف بن أیّوب صاحب مصر فی المحرّم، و له ثمان و عشرون سنة.

و الحفید ابن رشد العلّامة أبو الولید محمد بن أحمد بن أبی الولید محمد بن أحمد بن رشد القرطبیّ المتکلّم. و أبو جعفر محمد بن

إسماعيل الطّرسوسىّ بأصبهان فى جمادى الآخرة. و أبو الحسن مسعود بن أبى مسعود الأصبهانىّ الخيّاط الجمّال فى شوّال. و أبو الفضل منصور بن أبى الحسن الطّبرىّ الصوفىّ الواعظ. و العلّامة جمال الدّين يحيى بن علىّ بن فضلان البغدادىّ الشافعىّ فى شعبان. و صاحب المغرب المنصور أبو يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن القيسىّ.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثلاث أذرع و أربع و عشرون إصبعا. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و ستّ عشرة إصبعا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۵۵

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۹۶]

اشارة

السنة الثانية من ولاية الملك المنصور محمد ابن الملك العزيز عثمان على مصر، على أنّه حكم فى آخرها من شهر رمضان إلى آخر السنة عمّ أبيه الملك العادل أبو بكر ابن أيّوب، و هى سنة ستّ و تسعين و خمسمائة.

فيها توفّى تكش بن أرسلان شاه بن أتسز الملك علاء الدّين خوارزم شاه، هو من ولد طاهر بن الحسين. كان شجاعا مقداما جودا، ملك الدنيا من الصّين و الهند و ما وراء النهر إلى خراسان إلى باب بغداد، و كان نوّابه فى حلوان، و كان فى ديوانه مائة ألف مقاتل، و هو الذى أزال دولة بنى سلجوق، و كان عارفا بعلم الموسيقى؛ و لم يكن فى زمانه أعرف منه بضرب العود، و كان يباشر الحروب بنفسه حتّى ذهبت إحدى عينيه فى الحرب، و كان قد عزم على أخذ بغداد و سار إليها؛ فلمّا وصل إلى دهستان توفّى بها فى شهر رمضان. و وقع له فى مسيره إلى أخذ بغداد فى هذه المرّة طريفة: و هو أنّ الباطنيّة جهّزوا إليه رجلا ليقتله، و كان قوىّ الاحتراس، فجلس تلك الليلة يلعب بالعود، و قد شرّع الخيمة و غنّى بيتا بالعجميّة، و فيه «ببيتم» و معناه بالعجمىّ: أبصرتك؛ و كرّر هذه اللفظة؛ فلمّا سمع الباطنىّ ذلك خاف و ظنّ أنه رآه فهرب، فأخذ و حمل إليه فعزّره و أمر بقتله. فكان ذلك من الطرائف.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۵۶

و فيها توفّى إمام عصره و وحيد دهره، القاضى الفاضل عبد الرحيم ابن القاضى الأشرف أبى المجد علىّ [ابن القاضى السعيد أبى محمد محمد] بن الحسن بن الحسين ابن أحمد [بن المفرّج بن أحمد] اللّخمىّ العسقلانىّ المولد، المصرىّ [الدار]، المعروف بالقاضى الفاضل الملقّب محيى الدين؛ وزير السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب.

قال ابن خلّكان- رحمه اللّه-: [و] تمكّن منه غاية التمكّن (يعنى من صلاح الدين) و برز فى صناعة الإنشاء وفاق المتقدّمين، و له فيه الغرائب مع الإكثار. أخبرنى أحد الفضلاء الثّقات المطّلعين على حقيقة أمره: أنّ مسودات رسائله فى المجلّدات، و التعليقات فى الأوراق إذا جمعت ما تقصر عن مائة مجلد، و هو مجيد فى أكثرها.

قال العماد الكاتب الأصبهانىّ فى كتاب الخريدة فى حقّه: «ربّ القلم و البيان، و اللّسن و اللّسان؛ و القريحة الوقّادة، و البصيرة النقّادة؛ و البديهة المعجزة، و البديعة المطرّزة؛ و الفضل الذى ما سمع فى الأوائل ممّن لو عاش فى زمانه لتعلّق فى غباره، أو جرى فى مضماره؛ فهو كالشريعة المحمديّة التى نسخت الشرائع، و رسخت بها الصنائع؛ يخترع الأفكار، و يفترع الأبكار، و يطلع الأنوار، و يبدع الأزهار؛ و هو ضابط الملك بآرائه، و رابط السلك بلألائه؛ إن شاء أنشأ فى اليوم الواحد بل فى الساعة، ما لو دوّن لكان لأهل الصناعة، [خير] بضاعة» انتهى كلام العماد باختصار.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة؛ ج۶؛ ص۱۵۷

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۵۷

و قال غيره: و كان مع فضله كثير العبادة تاليا للقرآن العزيز دينّا خيّرا، و كان السلطان صلاح الدين يقول: لا تظنّوا أنّى ملكت البلاد بسيوفكم، بل بقلم الفاضل. و كان بين الفاضل و بين الملك العادل أبى بكر بن أيّوب وحشة، فلمّا بلغ الفاضل مجىء العادل إلى مصر دعا اللّه على نفسه بالموت، فمات قبل دخوله.

و قيل: إنّ العادل كان داخلا من باب النصر، و جنازة الفاضل خارجة من باب زويلة. انتهى.

قلت: و فضل الفاضل و بلاغته و فصاحته أشهر من أن يذكر. و من شعره:

قوله:

و إذا السعادة لاحظتك عيونها نم فالمخاوف كلّهنّ أمان

و اصطد بها العنقاء فهى حبائل و اقتد بها الجوزاء فهى عنان

و قد استشهد علماء البديع بكثير من شعره فى أنواع كثيرة، فممّا ذكره الشيخ تقىّ الدين أبو بكر [بن علىّ] بن حجّة فى شرح بديعيّته فى نوع «تجاهل العارف» قوله من قصيدة:

أهذى كفّه أم غوث غيث و لا بلغ السحاب و لا كرامه

و هذا بشره أم لمع برق و من للبرق فينا بالإقامه

و هذا الجيش أم صرف اللّيالى و لا سبقت حوادثها زحامه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۵۸

و هذا الدهر أم عبد لديه يصرّف عن عزيمته زمامه

و هذا نصل غمد أم هلال إذا أمسى كنون أم قلامه

و هذا التّرب أم خدّ لثمنا فآثار الشّفاه عليه شامه

و منها و هو غير تجاهل العارف [و لكنّه من المرقص و المطرب]:

و هذا الدرّ منثور و لكن أرونى غير أقلامى نظامه

و هذى روضة تندى و سطرى بها غصن و قافيتى حمامه

و هذا الكأس روّق من بنانى و ذكرك كان من مسك ختامه

و ذكر أيضا فى «تجاهل العارف» قوله من قصيدة:

أهذه سير فى المجد أم سور و هذه أنجم فى السعد أم غرر

و أنمل أم بحار و السيوف لها موج و إفرندها فى لجّها درر

و أنت فى الأرض أم فوق السماء و فى يمينك البحر أم فى وجهك القمر

و فيها توفّى علىّ بن نصر بن عقيل المعروف بالهمام البغدادىّ العبدىّ الشاعر المشهور، قدم الشام و مدح الملك العادل، و الملك الأمجد صاحب بعلبك. و من شعره:

و ما الناس إلّا كامل الحظّ ناقص و آخر منهم ناقص الحظّ كامل

و إنّى لمثر من حياء و عفّة و إن لم يكن عندى من المال طائل

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أبو جعفر أحمد ابن علىّ القرطبىّ المقرئ إمام الكلّاسة. و إسماعيل بن صالح بن يس بمصر فى ذى الحجّة. و أبو سعيد خليل بن أبى الرجاء الرّارانىّ الصوفىّ فى شهر ربيع الآخر،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۵۹

و له ست و تسعون سنة. و السلطان علاء الدين خوارزم شاه تكش بن خوارزم شاه أرسلان بن أتسز بن محمد فى رمضان بالخوانيق، و

تملّك بعده ابنه علاء الدين محمد. و القاضى الفاضل أبو علىّ عبد الرحيم بن علىّ [بن محمد] بن حسن اللّخمىّ البيسانىّ الوزير فى شهر ربيع الآخر، و له سبع و ستون سنة. و أبو الحسن عبد اللطيف بن إسماعيل ابن [أبى] سعد الصّوفىّ فى ذى الحجّة بدمشق. و أبو الفرج عبد المنعم بن عبد الوهاب [بن سعد بن صدقة بن الحضر] بن كليب فى شهر ربيع الأول، و له ست و تسعون سنة و شهر. و الأثير أبو الفضل محمد بن محمد بن بيان الأنبارىّ ثم المصرىّ الكاتب فى شهر ربيع الآخر. و العلّامة شهاب الدين محمد بن محمود الطّوسىّ بمصر.

و أبو جعفر المبارك بن المبارك بن أحمد بن زريق الواسطىّ الحدّاد المقرئ.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم لم يذكر لقلّته. و كان مبلغ الزيادة فى هذه السنة اثنتى عشرة ذراعا و إحدى و عشرين إصبعا. و شرقت الأراضى، و عمّ البلاء و الغلاء الديار المصريّة و أعمالها.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۶۰

ذكر ولاية الملك العادل على مصر

هو السلطان الملك العادل سيف الدين أبو بكر محمد ابن الأمير أبى الشكر نجم الدين أيّوب بن شادى بن مروان الدّوينىّ التّكريتىّ ثم الدمشقىّ. و قد تقدّم ذكر نسبه و أصله فى ترجمة أخيه السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب. و قد ذكرنا أيضا من أحوال العادل هذا نبذة كبيرة فى ترجمة أخيه صلاح الدين المذكور، و أيضا فى ترجمة أولاده، ثم فى ترجمة حفيده الملك المنصور محمد ابن الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف، الذى خلعه العادل هذا و تسلطن مكانه فى العشرين من شوّال سنة ستّ و تسعين و خمسمائة. و قد تقدّم ذلك كلّه فى ترجمة المنصور محمد المخلوع عن السلطنة. و لا بدّ من ذكر شىء من أحوال العادل هنا على حدته، و إيراد قطعة جيّدة من أقوال الناس فى ترجمته- إن شاء اللّه تعالى-.

قال الحافظ أبو عبد اللّه شمس الدين محمد الذهبىّ فى تاريخه: «ولد ببعلبكّ فى سنة أربع و ثلاثين، و أبوه نائب عليها للأتابك زنكى والد نور الدين محمود، و هو أصغر من أخيه صلاح الدين بسنتين؛ و قيل: ولد فى سنة ثمان و ثلاثين؛ و قيل: ولد فى أوائل سنة أربعين. قال أبو شامة: توفّى الملك العادل سيف الدين أبو بكر محمد، و هو بكنيته أشهر. و مولده ببعلبكّ، و عاش ستّا و سبعين سنة.

و نشأ فى خدمة نور الدين مع أبيه و إخوته؛ [و حضر مع أخيه صلاح الدين فتوحاته و قام أحسن قيام فى الهدنة مع الأنكلتير ملك الفرنج بعد أخذهم عكّا]، و كان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۶۱

صلاح الدين يعوّل عليه كثيرا، و استنابه بمصر مدّة، ثم أعطاه حلب، ثم أخذها منه و أعطاها لولده الظاهر، و أعطاه الكرك عوضها، ثم حرّان». انتهى كلام الذهبىّ.

و قال الشيخ شمس الدين أحمد بن خلّكان- رحمه اللّه- فى وفيات الأعيان:

«كان الملك العادل قد وصل إلى مصر صحبة أخيه و عمّه أسد الدين شيركوه المقدّم ذكره. و كان يقول: لمّا عزمنا على المسير إلى مصر احتجت الى چرمدان فطلبته من والدى فأعطانى، و قال يا أبا بكر: إذا ملكتم مصر أعطونى ملأه ذهبا.

فلمّا جاء إلى مصر، قال يا أبا بكر: [أين] الجرمدان؟ فرحت و ملأته له من الدّراهم السّود، و جعلت على أعلاها شيئا من الذهب و أحضرته إليه، فلمّا رآه اعتقده ذهبا، فقلبه فظهرت الفضّة السوداء، فقال يا أبا بكر: تعلمت زغل المصريّين! قال: و لمّا ملك السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب مصر كان ينوب عنه فى حال غيبته بالشام، و يستدعى منه الأموال للإنفاق فى الجند و غيرهم. قال:

و رأيت فى بعض رسائل القاضى الفاضل أنّ الحمول تأخّرت مدّة فتقدّم السلطان صلاح الدين إلى العماد الأصبهانىّ أن يكتب إلى

أخيه العادل يستحثّه على إنفاذها حتّى قال: يسير [لنا] الحمل من مالنا أو من ماله! فلمّا وصل الكتاب إليه، و وقف على هذا الفصل شقّ عليه، و كتب إلى القاضى الفاضل يشكو من السلطان لأجل ذلك. فكتب القاضى الفاضل جوابه، و فى جملته: «و أمّا ما ذكره المولى من قوله: يسير لنا الحمل من مالنا أو من ماله، فتلك لفظة ما المقصود منها من الملك النّجعة، و إنّما المقصود من الكاتب السّجعة. و كم من لفظة فظّة، و كلمة فيها غلظة؛ حيّرت عييّ الأقلام، فسدّت خلل الكلام. و على المملوك الضمان فى هذه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۶۲

النّكتة، و قد فات لسان القلم منها أىّ سكتة». قال: و لمّا ملك السلطان (يعنى صلاح الدين) مدينة حلب فى صفر سنة تسع و سبعين و خمسمائة كما تقدّم ذكره، [أعطاها لولده الملك الظاهر غازى ثم أخذها منه و] أعطاها للملك العادل فانتقل إليها [و قصد قلعتها يوم الجمعة الثانى و العشرين] من شهر رمضان من السنة المذكورة؛ ثم نزل عنها للملك الظاهر غازى ابن السلطان صلاح الدين؛ ثم أعطاه السلطان قلعة الكرك، و تنقّل فى الممالك فى حياة السلطان صلاح الدين و بعد وفاته. و قضاياه مشهورة مع الملك الأفضل و الملك العزيز و الملك المنصور فلا حاجة إلى الإطالة فى شرحها. و آخر الأمر أنّه استقلّ بملكة الديار المصريّة. و كان دخوله إلى القاهرة لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الآخر سنة ست و تسعين و خمسمائة، و استقرّت له القواعد. و قال أبو البركات بن المستوفى فى تاريخ إربل: فى ترجمة ضياء الدين أبى الفتح نصر اللّه المعروف بابن الأثير [الوزير] الجزرىّ ما مثاله- و جدت بخطّه-: خطب للملك العادل أبى بكر بن أيّوب بالقاهرة و مصر يوم الجمعة الحادى و العشرين من شوّال سنة ست و تسعين و خمسمائة، و خطب له بحلب يوم الجمعة حادى عشر جمادى الآخرة سنة ثمان و تسعين و خمسمائة- و اللّه أعلم بالصواب- هذا ما ذكره ابن خلّكان و هو بخلاف ما ذكرناه من أنّه خطب له فى عاشر شهر رمضان من السنة، و يمكن الجمع بين القولين، لأنّنا قلنا فى شهر رمضان تخمينا، لأنّ الاتّفاق كان فى شهر رمضان، و لعلّ الخطبة كانت فى شوّال- انتهى.

قال: «و ملك مع ذلك البلاد الشاميّة و المشرقيّة، و صفت له الدنيا، ثم ملك بلاد اليمن فى سنة اثنتى عشرة و ستمائة [و] سيّر إليها ولد ولده الملك المسعود صلاح الدين

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۶۳

أبا المظفر يوسف ابن الملك الكامل محمد الآتى ذكره. و كان ولده الملك الأوحد نجم الدين أيّوب ينوب عنه فى ميّافارقين و تلك النواحى، فاستولى على مدينة خلاط و [بلاد] أرمينية، و اتّسعت مملكته، و ذلك فى سنة أربع و ستمائة.

و لمّا تمهدت له البلاد قسمها بين أولاده، فأعطى الملك الكامل محمدا الديار المصريّة، و أعطى الملك المعظّم عيسى البلاد الشاميّة، و أعطى الملك الأشرف موسى البلاد الشرقيّة، و الأوحد فى المواضع التى ذكرناها. و كان ملكا عظيما ذا رأى و معرفة تأمّة قد حنّكته التجارب، حسن السّيرة جميل الطويّة وافر العقل، حازما فى الأمور صالحا محافظا على الصلوات فى أوقاتها، متتبعا لأرباب السّنّة مائلا إلى العلماء.

صنّف له فخر الدين الرازىّ «كتاب تأسيس التقديس»، و ذكر اسمه فى خطبته، و سيره إليه من بلاد خراسان. و بالجملة فإنّه كان رجلا مسعودا، و من سعادته أنّه كان خلّف أولادا لم يخلّف أحد من الملوك أمثالهم؛ فى نجابتهم [و بسالتهم] و معرفتهم و علوّ همّتهم، و دان لهم العباد و ملكوا البلاد. و لمّا مدحه ابن عنين بقصيدته الرائية ذكر منها فى مديح أولاده المذكورين، فقال:

و له البنون بكلّ أرض منهم ملك يقود إلى الأعادى عسكرا

من كلّ وضّاح الجبين تخاله بدرا و إن شهد الوغى فغضنفرا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۶۴

متقدّم حتّى إذا النّقع انجلى بالبيض عن سبى الحريم تأخّرا

قوم زكوا أصلا و طابوا محتدا و تدفّقوا جودا و راقوا منظرا

قال و من جملة هذه القصيدة فی مدح الملك العادل هذا قوله، و لقد أحسن فيها،

[العادل الملك الذی أسماؤه فی كلّ ناحية تشرّف منبرا]

و بكلّ أرض جنّة من عدله الصّ افی أسال [نداه] فيها كوثرا

عدل يبيت الذئب منه على الطّوى غرثان و هو يرى الغزال الأعفرا

ما فی أبی بكر لمعتقد الهدى شكّ مريب أنّه خير الورى

سيف صقال المتن أخلص متنه و أبان طيب الأصل منه الجوهرا

ما مدحه بالمستعار له و لا آيات سؤدده حديث يفترى

بين الملوك الغابرين و بينه فی الفضل ما بين الثّريّا و الثّرى

نسخت خلائقه الحميدة ما أتى فی الكتب عن كسرى الملوك و قيصرا

ملك إذا خفّت حلوم ذوی النّهی فی الرّوع زاد رصانة و توقّرا

ثبت الجنان تراع من و ثباته و ثباته يوم الوغى أسد الشّرى

يقظ يكاد يقول عمّا فی غد ببديهة أغنته أن يتفكّرا

حلم تخفّ له الحلوم وراءه رأی و عزم يخفر الإسكندرا

يعفو عن الذنب العظيم تكرّما و يصدّ عن قيل الخنا متكبّرا

لا تسمعنّ حديث ملك غيره يروى فكلّ الصّيد فی جوف الفرا

قال: و لمّا قسم البلاد بين أولاده كان يتردّد بينهم، و يتنقّل من مملكة إلى أخرى، و كان يصيف بالشام لأجل الفواكه و المياه الباردة، و يشتّی بالديار المصريّة لاعتدال

النجوم الزاهرة فی ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۶۵

الوقت فيها و قلّة البرودة؛ و عاش فی أرغد عيش. و كان يأكل كثيرا خارجا عن المعتاد، حتّى يقال إنّه كان يأكل وحده خروفا لطيفا مشويّا، و كان له فی النكاح نصيب وافر. و حاصل الأمر أنّه كان ممتّعا فی دنياه. و كانت ولادته بدمشق فی المحرّم سنة أربعين؛ و قيل: ثمان و ثلاثين و خمسمائة.

قلت: وافق الذهبیّ فی مولده فی السنة، مع خلاف ذكره الذهبیّ فيه، و خالفه فی المكان الذی ولد فيه، فإنّ الذهبیّ قال: كانت ولادته ببعلبكّ كما تقدّم ذكره.

قال: و توفّی فی سابع جمادى الآخرة سنة خمس عشرة و ستمائة بعالقين. و نقل إلى دمشق، و دفن بالقلعة ثانی يوم وفاته، ثمّ نقل إلى مدرسته المعروفة به، و دفن بالتّربة التی بها؛ [و قبره] على الطريق يراه المجتاز من الشّبّاك المركّب هناك. و عالقين (بفتح العين المهملة و بعد الألف لام مكسورة و قاف مكسورة أيضا و ياء مثناة من تحتها ساكنة و بعدها نون) و هی قرية بظاهر دمشق». انتهى كلام ابن خلّكان- رحمه اللّه تعالى- بتمامه.

و قال غيره: و لمّا افتتح ولده الكامل إقليم أرمينية فرح العادل فرحا شديدا، و سيّر أستاداره [شمس الدين] إيلدكز و قاضی العسكر نجم الدين خليل إلى الخليفة يطلب التقليد بمصر و الشام و خلاط و بلاد الجزيرة، فأكرمهما الخليفة و أرسل إليه الشيخ شهاب الدين أبا حفص عمر بن محمد السّهروردیّ بالتشريف، و مرّ بحلب و وعظ بها؛ و احترمه الظاهر غازی صاحب حلب، و بعث معه بهاء الدّين ابن شدّاد بثلاثة آلاف دينار لينثرها على عمّه العادل، إذا لبس خلعة الخليفة. و لمّا وصل السّهروردیّ إلى دمشق فرح العادل و تلقّاه من القصير، و كان يوما مشهودا،

النجوم الزاهرة فی ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۶۶

ثمّ من الغد أفيضت عليه الخلع؛ و هى: جبّة سوداء بطراز ذهب، و عمامة سوداء بطراز ذهب، و طوق ذهب فيه جوهر، و قلّد سيفا محلّى جميع قرابه بالذهب، و حصان أشهب بمركب ذهب، و علم أسود مكتوب فيه بالبياض ألقاب الناصر لدين اللّه. ثمّ خلع السّهروردىّ على ولدى العادل: المعظّم عيسى و الأشرف موسى، لكلّ واحد عمامة سوداء، و ثوبا أسود واسع الكمّ؛ و خلع على الصاحب ابن شكر كذلك. و نثر الذهب على رأس العادل من رسل صاحب حلب و حماة و حمص و غيرهم.

و ركب الأربعة (أعنى العادل و ولديه و ابن شكر الوزير) بالخلع، ثمّ عادوا إلى القلعة؛ و قرأ ابن شكر التقليد على كرسىّ، و خوطب العادل: بشاهنشاه ملك الملوك خليل أمير المؤمنين. ثمّ قدم السّهروردىّ إلى مصر و خلع على الملك الكامل بن العادل.

و هو يوم ذاك صاحب مصر نيابة عن أبيه العادل كما تقدّم ذكره.

و قال الموفّق عبد اللّطيف فى سيرة الملك العادل: «كان أصغر الإخوة و أطولهم عمرا و أعمقهم فكرا و أبصرهم فى العواقب و أشدّهم إمساكا و أحبّهم للدرهم؛ و كان فيه حلم و أناة و صبر على الشدائد، و كان سعيد الجدّ عالى الكعب مظفّرا بالأعداء من قبل السماء، و كان نهمّا أكولا- يحبّ الطعام و اختلاف ألوانه، و كان أكثر أكله باللّيل كالخيل، و له عند ما ينام رضيع، و يأكل رطلا بالدّمشقىّ خبيص السّكّر، يجعل هذا كالجوارش؛ و كان كثير الصلاة و يصوم الخميس؛ و له صدقات فى كثير من الأوقات، و خاصّة عندما تنزل به الآفات، و كان كريما على الطعام يحب من يؤاكله، و كان قليل الأمراض. قال لى طبيبه بمصر: إنّى آكل خير هذا السلطان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۶۷

سنين كثيرة و لم يحتج إلىّ سوى يوم واحد، أحضر إليه من البطّيخ أربعون حملا- فكسر الجميع بيده، و بالغ فى الأكل منه و من الفواكه و الأطعمة، فعرض له تخمة فأصبح، فأشرت عليه بشرب الماء الحارّ، و أن يركب طويلا ففعل، و آخر النهار تعشّى و عاد إلى صحّته. و كان نكّاحا يكثر من اقتناء السّرارىّ، و كان غيورا لا يدخل فى داره خصىّ إلّا دون البلوغ، و كان يحبّ أن يطبخ لنفسه مع أنّ فى كلّ دار من دور حظاياه مطبخا [دائرا]، و كان عفيف الفرج لا يعرف له نظر إلى غير حلائله.

نجب له أولاد من الذكور و الإناث، سلطن الذكور و زوّج البنات بملوك الأطراف.

و كان العادل قد أوقع اللّه تعالى بغضته فى قلوب رعاياه، و المخامرة عليه فى قلوب جنده؛ و عملوا فى قتله أصنافا من الحيل الدقيقة مرّات كثيرة، و عند ما يقال إنّ الحيلة تمّت تنفسخ و تنكشف و تحسم موادّها، و لو لا أولاده يتولّون بلاده لما ثبت ملكه؛ بخلاف أخيه صلاح الدين فإنّه إنّما حفظ ملكه بالمحبّة له و حسن الطاعة، و لم يكن- رحمه اللّه- بالمنزلة المكروهة؛ و إنّما كان الناس قد ألفوا دولة صلاح الدين و أولاده، فتغيرت عليهم العادة دفعة واحدة. ثم إن وزيره ابن شكر بالغ فى الظّلم. قال: و كان العادل يواظب على خدمة أخيه صلاح الدين، يكون أوّل داخل و آخر خارج، و بهذا جلبه، و كان يشاوره فى أمور الدولة، لما جرّب من نفوذ رأيه. و لمّا تسلطن الأفضل بدمشق و العزيز بمصر قصد العزيز دمشق، و وقع له ما حكيناه إلى أن ملكها. قال: ثم أخذ العادل يدبّر الحيلة حتى يستنيبه العزيز على مصر، و يقيم العزيز بدمشق، ففطن بعض أصحاب العزيز فرمى قلنسوتا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۶۸

بين يديه، و قال: أ لم يكفك أنّك أعطيته دمشق حتّى تعطيه مصرا! فنهض العزيز لوقته على غرّة و لحق بمصر.

قال الموفّق: و مات الملك الظاهر غازى قبله بسنتين فلم يتهنّ العادل بالملك من بعده، و كان كلّ واحد منهما ينتظر موت الآخر، فلم يصف للعادل العيش بعد موته، لأمراض لزمته بعد طول الصّحّة، و الخوف من الفرنج بعد طول الأمن.

و خرجوا (يعنى الفرنج) إلى عكّا و تجمّعوا على الغور، فنزل العادل قبالتهم على بيسان، و خفى عليه أن ينزل على عقبة أفيق، و كانوا قد هدموا قلعة كوكب، و كانت ظهرهم، و لم يقبل من الجواسيس ما أخبروه بما عزم عليه الفرنج من الغارة، فاغترّ بما عوّدته المقادير من طول السلامة، فغشيت الفرنج عسكره على غرّة، و كان قد آوى إليه خلق من البلاد يعتصمون به، فركب مجدّا؛ و ماج الفرنج فى

أثره حتّى وصل دمشق على شفا و همّ؛ فدخل إليها فمنعه المعتمد و شجّعه، و قال له: المصلحة أن تقيم بظاهر دمشق. و أمّا الفرنج فاعتقدوا أنّ هزيمته مكيدة فرجعوا من قرب دمشق بعد ما عاثوا فى البلاد قتلا و أسرا و عادوا إلى بلادهم، و قصدوا دمياط فى البحر فنازلوها.

و كان قد عرض له قبل ذلك ضعف و صار يعتريه و رم الأنثيين. فلمّا هزّته الحيل على خلاف العادة و دخله الرّعب، لم يبق إلّا مدّة يسيرة و مات بظاهر دمشق.

و كان مع حرصه يهين المال عند الشدائد غاية الإهانة ببذله. و شرع فى بناء قلعة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۶۹

دمشق فقسم أرضها على أمرائه و أولاده، و كان الحفّارون يحفرون الخندق و يقطعون الحجارة، فخرج من تحته خرزة بئر فيها ماء معين. قال: و دعا مرة فقال: اللّهمّ حاسبنى حسابا يسيرا؛ فقال له رجل ماجن من خواصّه: يا مولانا، إنّ اللّه قد يسّر حسابك؛ قال: ويلك! و كيف ذلك؟ قال: إذا حاسبك قل له: المال كلّه فى قلعة جعبر لم أفرّط فيه فى قليل و لا كثير. و كانت خزائنه بالكرك ثمّ نقلها إلى قلعة جعبر و بها ولده الملك الحافظ، فسوّل له بعض أصحابه الطمع فيها، فأتاها الملك العادل و نقل ما فيها إلى قلعة دمشق، فحصلت فى قبضة ولده الملك المعظّم عيسى، فلم ينازعه فيها إخوته؛ و قيل: إنّ الذى سوّل للحافظ الطمع و العصيان هو المعظّم ففعل ذلك الحافظ، و كانت مكيدة من المعظّم حتّى رجع إليه المال». انتهى كلام الموفّق باختصار.

و قال أبو المظفّر شمس الدين يوسف بن قزاوغلى فى تاريخه: «سألته عن مولده فقال: فتوح الرّها (يعنى سنة تسع و ثلاثين و خمسمائة)- و هذا نقل آخر فى مولده- قال: و قد ذكرنا أحواله فى السنين إلى أن استقرّ له الملك و امتدّ من بلاد الكرخ إلى همذان و الجزيرة و الشام و مصر و الحجاز و مكّة و المدينة و اليمن إلى حضر موت، و كان ثبتا خليقا بالملك حسن التدبير، حليما صفوحا مدبّرا للملك على وجه الرضا، عادلا- مجاهدا دينا عفيفا متصدّقا، آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر، طهّر جميع ولاياته من الخمور و الخواطىء و القمار و المكوس و المظالم. و كان الحاصل من هذه الجهات بدمشق على الخصوص مائة ألف دينار، فأبطل الجميع للّه تعالى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۷۰

و كان واليه على دمشق المبارز و المعتمد، أعانه المبارز على ذلك، أقام رجالا على عقاب قاسيون و جبل الثّلج و حوالى دمشق بالجامكيّة و الجراية يحرمون أحدا يدخل دمشق بمنكر. بلغنى أنّ بعض المغانى دخلت على العادل فى عرس فقال لها: أين كنت؟ فقالت: ما قدرت أجىء حتّى وفيت ما علىّ للضامن. فقال:

و أىّ ضامن؟ قالت ضامن القيان، فقامت عليه القيامة، و طلب المعتمد [و عمل به ما لا يليق]، و قال: و اللّه لئن عاد بلغنى مثل هذا لأفعلنّ و لأصنعنّ.

و لقد فعل العادل فى غلاء مصر عقيب موت العزيز ما لم يفعله غيره؛ كان يخرج فى الليل بنفسه و يفرّق الأموال فى ذوى البيوتات و المساكين، و كفّن تلك الأيام من ماله ثلثمائة ألف من الغرباء، و كان إذا مرض أو تشوّش مزاجه خلع جميع ما عليه و باعه حتى فرسه و تصدّق به.

قال أبو المظفّر: و قد ذكرنا وصول شيخ الشيوخ إليه بخبر برج دمياط، و أنّه انزعج و أقام مريضا إلى يوم الجمعة سابع أو ثامن جمادى الآخرة و توفّى بعالقين.

و كان المعظّم قد كسر الفرنج على القيمون يوم الخميس خامس جمادى الآخرة، و قيل يوم الأربعاء. و لمّا توفّى العادل لم يعلم بموته غير كريم الدّين الخلاطىّ، فأرسل الطير إلى نابلس إلى المعظم، فجاء يوم السبت إلى عالقين فاحتاط على الخزائن،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۷۱

و صبّر العادل و جعله فى محفّة و عنده خادم يروّح عليه و قد رفع طرف سجافها و أظهر أنّه مريض، و دخلوا به دمشق يوم الأحد و الناس يسلّمون على الخادم، و هو يومئ إلى ناحية العادل و يردّ السلام؛ و دخلوا به القلعة و كتموا موته؛ و [من العجائب أنهم] طلبوا له كفنا فلم يقدروا عليه، فأخذوا عمامة الفقيه ابن فارس فكفّنوه بها، و أخرجوا قطنا من مخدّة فلفّوه به، و صلّى عليه [وزيره] ابن فارس و دفنوه فى القلعة.

قال أبو المظفّر: و كنت قاعدا إلى جانب المعظّم عند باب الدار التى فيها الإيوان و هو واجم و لم أعلم بحاله؛ فلمّا دفن أبوه قام قائما و شقّ ثيابه و لطم رأسه و وجهه، و كان يوما عظيما، و عمل له العزاء ثلاثة أيام بالإيوان الشمالى، و عمل له العزاء فى الدنيا كلّها، و نودى ببغداد من أراد الصلاة على الملك العادل الغازى المجاهد فى سبيل اللّه فليحضر إلى جامع القصر، فحضر الناس و لم يتخلّف سوى الخليفة، و صلّوا عليه صلاة الغائب و ترحّموا عليه، و تقدّموا إلى خطباء الجوامع بأسرهم، ففعلوا ذلک بعد صلاة الجمعة. و بقى العادل بالقلعة إلى سنة تسع عشرة و ستمائة، [ثم] نقل إلى تربته التى أنشأها عند دار العقيقىّ و مدرسته.

- قلت: لا أعلم ما كان السبب فى عدم وجود الكفن القطن للملك العادل مع همة ولده الملک المعظّم عيسى و أخذه من عالقين ميتا فى محفّة و لم يفطن به أحد.

و هذا أعظم و أكثر كلفة و أصعب من شراء ثوب بعلبكّىّ، و ما يحتاج إليه الميت من الحنوط و القطن و غيره فلعلّ لها عذرا و أنت تلوم-.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۷۲

قال: و كان له عدّة أولاد: منهم شمس الدين مودود والد الملک الجواد [يونس].

و الكامل محمد. و الأشرف موسى. و المعظّم عيسى. و الأوحد أيّوب. و الفائز إبراهيم [و يلقّب بسابق الدين]. و شهاب الدّين غازى. و العزيز عثمان. و الأمجد حسن.

و الحافظ أرسلان. و الصالح إسماعيل. و المغيث عمر. و مجير الدين يعقوب.

و تقىّ الدين عبّاس. و قطب الدين أحمد. و القاهر إسحاق. و خليل أصغرهم.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۷۳

و كان له عدّة بنات أفضلهنّ صفيّة خاتون صاحبة حلب أم الملک العزيز». انتهت ترجمة الملک العادل- رحمه اللّه تعالى-.

و لمّا مات العادل استقرّ كلّ واحد من أولاده فى مملكته، فإنه كان قسم ممالكه فى أولاده حسب ما تقدّم ذكر ذلک كلّه فى صدر هذه الترجمة، فالذى كان بمصر الملک الكامل محمد، و بالشام المعظّم عيسى، و بالشرق الأشرف شاه أرمن، و باقى أولاده كلّ واحد فى مملكة، أو فى خدمة أخ من إخوته. انتهى.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۹۷]

السنة الأولى من ولاية الملک العادل أبى بكر بن أيّوب على مصر، و هى سنة سبع و تسعين و خمسمائة.

فيها كان هبوط النيل، و لم يعهد ذلک فى الإسلام إلّا مرّة واحدة فى دولة الفاطميّين، و لم يبق منه إلّا شىء يسير؛ و اشتدّ الغلاء و الوباء بمصر، فهرب الناس إلى المغرب و الحجاز و اليمن و الشام و تفرّقوا و تمزّقوا كلّ ممزّق.

قال أبو المظفّر: «كان الرجل يذبح ولده الصغير و تساعده أمّه على طبخه و شيّه؛ و أحرق السلطان جماعة فعلوا ذلک و لم ينتهوا. و كان الرجل يدعو صديقه و أحبّ الناس إليه إلى منزله ليضيفه فيذبحه و يأكله، و فعلوا بالأطبّاء كذلک، [فكانوا يدعونهم ليبصروا المرضى فيقتلونهم و يأكلونهم] و فقدت الميتات و الجيف [من كثرة ما أكلوها]. و كانوا يختطفون الصّبيان من الشوارع فيأكلونهم. و

کفّن السلطان فی مدّة یسیرة مائتی ألف و عشرین ألفا؛ و امتلأت طرقات المغرب و المشرق و الحجاز

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۷۴

و الشام برمم الناس، و صلّی إمام جامع الإسکندریّة فی یوم علی سبعمائة جنازة.

و قال العماد الکاتب الأصبهانیّ: «[و] فی سنة سبع و تسعین و خمسمائة: اشتدّ الغلاء، و امتدّ البلاء؛ و تحقّقت المجاعة، و تفرّقت الجماعة؛ و هلک القویّ فکیف الضعیف! و نحف السمین فکیف العجیف! و خرج الناس حذر الموت من الدیار، و تفرّق فریق مصر فی الأمصار؛ و لقد رأیت الأرامل علی الرمال، و الجمال بارکة تحت الأحمال، و مراکب الفرنج واقفة بساحل البحر علی اللّقم، تسترقّ الجیاع باللّقم». انتهی.

قال: و جاءت [فی شعبان] زلزلة هائلة من الصّعید هدمت بنیان مصر، فمات تحت الهدم خلق کثیر، ثم امتدّت إلی الشام و الساحل فهدمت مدینة نابلس، فلم تبق فیها جدارا قائما إلّا حارة السّمرة؛ و مات تحت الهدم ثلاثون ألفا، و هدمت عکّا و صور و جمیع قلاع الساحل؛ و امتدّت إلی دمشق فرمت بعض المنارة الشرقیّة بجامع دمشق، و أکثر الکلّاسة و البیمارستان النّوریّ، و عامّة دور دمشق إلّا القلیل؛ فهرب الناس إلی المیادین، و سقط من الجامع ستّ عشرة شرفة، و تشقّقت قبّة النّسر». انتهی کلام صاحب المرآة باختصار، فإنّه أمعن و ذکر أشیاء مهولة من هذا النّموذج.

و فیها توفّی عبد الرحمن بن علیّ بن محمد بن علیّ بن عبید اللّه بن عبد اللّه بن حمّادی ابن أحمد بن محمد بن جعفر الجوزیّ بن عبد اللّه بن القاسم بن النضر بن القاسم

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۷۵

ابن محمد بن عبد اللّه بن عبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبی بکر الصدیق عبد اللّه ابن أبی قحافة، الشیخ الإمام الحافظ الواعظ المفسّر العلّامة جمال الدین أبو الفرج القرشی التّیمی البکریّ البغدادیّ الحنبلیّ المعروف بابن الجوزیّ؛ صاحب التصانیف المشهورة فی أنواع العلوم: کالتفسیر و الحدیث و الفقه و الوعظ و الزّهد و التاریخ و الطبّ و غیر ذلک. مولده ببغداد سنة عشر و خمسمائة تقریبا بدرب حبیب. و توفی أبوه و له ثلاث سنین.

قلت: و فضل الشیخ جمال الدین و حفظه و غزیر علمه أشهر من أن یذکر هنا، و المقصود أنّ وفاته کانت فی لیلة الجمعة بین العشاءین فی داره بقطفتا و دفن من الغد، و کانت جنازته مشهودة، و کثر أسف الناس علیه، و لم یخلّف بعده مثله.

قال ابن خلّکان: «و بالجملة فکتبه أکثر من أن تعدّ، و کتب بخطّه کثیرا، و الناس یغالون فی ذلک حتّی یقولوا إنّه جمعت الکراریس الّتی کتبها، و حسبت مدّة عمره و قسمت الکراریس علی المدّة، فکان ما خصّ کلّ یوم تسع کراریس؛ و هذا شیء عظیم لا یکاد یقبله العقل. و یقال: إنّه جمعت برایة أقلامه التی کتب بها حدیث رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم فحصل منها شیء کثیر، و أوصی أن یسخّن بها الماء الذی یغسل به بعد موته ففعل ذلک [فکفت]». انتهی کلام ابن خلّکان باختصار.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۷۶

و من شعره:

یا صاحبی إن کنت لی أو معی فعج إلی وادی الحمی نرتع

وسل عن الوادی و سکّانه و انشد فؤادی فی ربا المجمع

حیّ کثیب الرّمل رمل الحمی وقف و سلّم لی علی لعلع

و اسمع حدیثا قد روته الصّبا تسنده عن بانة الأجرع

و ابک فما فی العین من فضلة و نب فدتک النفس عن مدمعی

و له:

رأیت خیال الظّلّ أعظم عبرة لمن کان فی أوج الحقیقة راق

شخوص و أشکال تمرّ و تنقضی و تفنی جمیعا و المحرّک باق

و فیها توفّی الأمیر بهاء الدین قراقوش [بن عبد اللّه] الأسدیّ الخادم الخصیّ المنسوب إلیه حارة بهاء الدّین بالقاهرة داخل باب الفتوح، و هو الذی بنی قلعة الجبل بالقاهرة، و السّور [علی مصر و القاهرة]

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۷۷

و القنطرة التی عند الأهرام و غیر ذلک؛ و کان من أکابر الخدّام، من خدّام القصر، و قیل إنّ أصله من خدّام العاضد، و قیل إنّه من خدّام أسد الدین شیرکوه و هو الأصحّ. و اتّصل بخدمة السلطان صلاح الدین، و کان صلاح الدّین یثق به و یعوّل

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۷۸

علیه فی مهمّاته. و لمّا افتتح عکّا من الفرنج سلّمها إلیه؛ ثم لمّا استولوا علیها أخذ أسیرا، ففداه صلاح الدین بعشرة آلاف دینار؛ و قیل: بستین ألف دینار.

قال ابن خلّکان: «و الناس ینسبون إلیه أحکاما عجیبة فی ولایته نیابة مصر عن صلاح الدین، حتّی إنّ الأسعد بن ممّاتی له فیه کتاب لطیف سماه: «الفاشوش فی أحکام قراقوش». و فیه أشیاء یبعد وقوع مثلها منه، و الظاهر أنّها موضوعة؛ فإنّ صلاح الدین کان یعتمد فی أحوال المملکة علیه، و لو لا وثوقه بمعرفته و کفایته ما فوّضها إلیه. و کانت وفاته فی مستهلّ رجب».

و فیها توفّی محمد بن محمد بن حامد بن محمد بن عبد اللّه بن علیّ بن محمود بن هبة اللّه أبو عبد اللّه الإمام العلّامة عماد الدّین الأصبهانیّ المنشئ المعروف بالعماد الکاتب، و بآبن أخی العزیز. ولد بأصبهان سنة تسع عشرة و خمسمائة و بها نشأ.

و قدم بغداد مع أبیه و بها تفقّه، و اشتغل بالأدب و برع فی الإنشاء، و خدم الوزیر یحیی [بن محمد] بن هبیرة، و کان أحد کتّابه. ثم قدم دمشق أیّام نور الدین الشهید و اتّصل به و خدمه. و کان فاضلا حافظا لدواوین العرب، و له عدّة مصنّفات، منها: «خریدة القصر فی شعراء العصر» و غیر ذلک و کان القاضی الفاضل یقول: العماد الکاتب. کالزناد الوقّاد (یعنی أنّ النّار فی باطنه کامنة، و ظاهره فیه فترة). و کانت وفاة العماد بدمشق فی یوم الاثنین غرّة شهر رمضان. و دفن عند مقابر الصوفیة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۷۹

عند المنیبع. و قیل إنّ العماد اجتمع بالقاضی الفاضل یوما فی موکب السلطان فسارا جمیعا، و قد انتشر الغبار لکثرة الفرسان ما سدّ الفضاء فتعجّبا من ذلک، فأنشد العماد فی الحال:

أمّا الغبار فإنّه ممّا أثارته السّنابک

و الجوّ منه مظلم لکن أنار به السّنابک

یا دهر لی عبد الرح یم فلست أخشی مسّ نابک

و من شعره:

دار غیر اللّبیب إن کنت ذا لبّ و لا طفه حین یأتی بحذق

فأخو السّکر لا یخاطبه الصّا حی إلی أن یفیق إلّا برفق

و فیها توفّی محمد بن المبارک بن محمد الطّهیر أبو غالب المصریّ، کان فاضلا أدیبا. ولد سنة ثلاث و عشرین و خمسمائة؛ و من شعره- رحمه اللّه تعالی- قوله:

تقنّع بالقلیل و عش عزیزا خفیف الظّهر من کلف و إثم

و إلّا هیّ نفسک للبلایا و همّ وارد فی إثر همّ

الذین ذکر الذهبیّ وفاتهم فی هذه السنة، قال: و فیها توفی القاضی أبو المکارم أحمد بن محمد التّمیمیّ الأصبهانیّ

المعروف بابن اللّبان العدل فى ذى الحجّة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۸۰

و مفيد بغداد تميم بن أحمد البندنيجىّ فى جمادى الآخرة، أدرك ابن الزّاغونىّ. و الإمام أبو الفرج عبد الرحمن بن علىّ بن الجوزىّ، و قد ناهز التسعين. و أبو محمد عبد المنعم ابن محمد المالكىّ فقيه الأندلس. و الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدىّ الخادم الأبيض. و محمد بن أبى زيد الكرّانىّ الخبّاز بأصبهان فى شوّال، و قد كمّل المائة.

و العماد الكاتب العلّامة محمد بن محمد بن حامد الأصبهانىّ فى [شهر] رمضان، و له سبع و سبعون سنة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ذراعان سواء. مبلغ الزيادة خمس عشرة ذراعا و ستّ عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۹۸]

السنة الثانية من ولاية الملك العادل أبى بكر بن أيّوب على مصر، و هى سنة ثمان و تسعين و خمسمائة.

فيها برز العادل المذكور من ديار مصر طالبا حلب، و كان الملك الأفضل بحمص عند شيركوه، فجاء إلى العادل فأكرمه العادل و عوّضه عن ميّافارقين سميساط و سروج، ثم سار العادل و نزل على حماة، و صالحه الملك الظاهر صاحب حلب، و عاد الملك العادل إلى حمص.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۸۱

و فيها توفّى عبد الملك بن زيد بن يس التّغلبىّ الدّولعىّ خطيب دمشق؛ و الدّولعيّة: قرية من قرى الموصل. قدم دمشق و استوطنها و صار خطيبها، و درّس بالزاوية الغربيّة من جامع دمشق؛ و كان منزّها حسن الأثر حميد الطريقة.

مات فى شهر ربيع الأوّل.

و فيها توفّى هبة اللّه بن الحسن بن المظفّر الهمذانىّ، محدّث ابن محدّث ابن محدّث. كانت وفاته بباب المراتب ببغداد فى المحرّم.

قال أبو المظفّر أنشدنا لغيره:

إذا الفتى ذمّ عيشا فى شبيبته فما يقول إذا عصر الشباب مضى

و قد تعوّضت عن كلّ بمشبهه فما وجدت لأيّام الصّبا عوضا

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى الملك المعزّ إسماعيل ابن سيف الإسلام [طغتكين] صاحب اليمن. و أبو طاهر بركات بن إبراهيم الخشوعىّ.

و المحدّث حمّاد بن هبة اللّه الحرّانىّ التاجر فى ذى الحجّة. و عبد اللّه [بن أحمد] بن أبى المجد الحربىّ الإسكاف فى المحرّم بالموصل. و زين القضاة أبو بكر عبد الرحمن بن سلطان ابن يحيى القرشىّ الزّكوىّ فى ذى الحجّة، سمع من جدّه. و أبو الحسن عبد الرحيم ابن أبى القاسم [عبد الرحمن] الشّعرى، أخو زينب فى المحرّم. و خطيب دمشق الضّياء عبد الملك بن زيد بن يس الدّولعىّ فى شهر ربيع الأول، و له إحدى و تسعون سنة. و قاضى القضاة محيى الدين أبو المعالى محمد ابن القاضى الزّكى علىّ بن محمد القرشىّ،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۸۲

و له ثمان و أربعون سنة، توفّى فى شعبان. و أبو القاسم هبة اللّه بن علىّ بن مسعود الأنصارىّ البوصيرىّ فى صفر، و له اثنتان و تسعون سنة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ذراع واحدة و أربع عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة خمس عشرة ذراعا و ثلاث و عشرون إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۹۹]

السنة الثالثة من ولاية الملك العادل أبى بكر بن أيّوب على مصر، و هى سنة تسع و تسعين و خمسمائة.

فيها فى ليلة السبت سلخ المحرّم ماجت النجوم فى السماء شرقا و غربا، و تطايرت كالجراد المنتشر يمينا و شمالا؛ و لم ير هذا إلّا عند مبعث النبى صلّى اللّه عليه و سلّم؛ و فى سنة إحدى و أربعين و مائتين، و كانت هذه السنة أعظم.

و فيها توفّى إبراهيم بن أحمد بن محمد أبو إسحاق الموفّق الفقيه بن الصّقال الحنبلى.

ولد سنة خمس و عشرين و خمسمائة. و تفقّه على أبى يعلى الفرّاء، و سمع الحديث الكثير، و كان شيخا ظريفا صالحا زاهدا. مات فى ذى الحجّة، و دفن بباب حرب ببغداد.

و فيها توفّيت زمرّد خاتون امّ الخليفة الناصر لدين اللّه العباسىّ ببغداد. كانت صالحة كثيرة البرّ و الصدقات، و حجّت مرّة فأنفقت ثلثمائة ألف دينار، و كان معها نحو ألفى جمل، و تصدّقت على أهل الحرمين، و أصلحت البرك و المصانع؛ و عمرّت التّربة عند قبر معروف الكرخىّ و المدرسة إلى جانبها. و ماتت فى جمادى الأولى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۸۳

و فيها توفّى علىّ بن الحسن بن إسماعيل أبو الحسن [العبدىّ] من عبد القيس، كان فاضلا بارعا فى الأدب و غيره، و له شعر جيّد؛ من ذلك قوله- رحمه اللّه تعالى-:

لا تسلك الطّرق إذا أخطرت لو أنها تفضى إلى المملكه

قد أنزل اللّه تعالى و لا تلقوا بأيديكم إلى التّهلكه

و فيها توفّى القاسم بن يحيى بن عبد اللّه بن القاسم أبو الفضائل ضياء الدين الشّهرزورىّ، و هو ابن أخى القاضى كمال الدين [محمد] الشّهرزورىّ. كان فقيها فاضلا جوادا كريما أديبا شاعرا. و من شعره أوّل قصيدة:

فى كلّ يوم ترى للبين آثار و ماله فى التئام الشّمل آثار

يسطو علينا بتفريق فواعجبا هل كان للبين فيما بيننا ثار

و فيها توفّى يحيى بن طاهر بن محمد أبو زكرياء الواعظ، و يعرف بابن النجار البغدادىّ. كان فاضلا فصيحا. و كان ينشد فى مجلسه- رحمه اللّه تعالى-

عاشر من الناس من تبقى مودّته فأكثر الناس جمع غير مؤتلف

منهم صديق بلا قاف و معرفة بغير فاء و إخوان بلا ألف

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى السنة، قال: و فيها توفّى أبو القاسم عبد الرحمن ابن مكّىّ بن حمزة بن موقا الأنصارىّ الإسكندرانىّ التاجر فى شهر ربيع الآخر، و له أربع و تسعون سنة. و زين الدين أبو الحسن علىّ بن إبراهيم بن نجا الدمشقىّ

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۸۴

الحنبلىّ الواعظ بمصر فى رمضان، و له إحدى و تسعون سنة. و أبو الحسن علىّ بن حمزة بن علىّ بن طلحة البغدادىّ الكاتب بمصر فى شعبان. و سلطان غزنة غياث الدين.

و قاضى القضاة ضياء الدين القاسم بن يحيى بن عبد اللّه بن القاسم الشّهرزورى [أبو الفضائل] الشافعىّ، و له خمس و ستون سنة، ولى القضاء بدمشق بعد عمّه، ثم استعفى لأمر ما، ثمّ بعد مدّة ولى قضاء العراق، ثم استعفى و خاف [العواقب] ثمّ سكن حماة؛ و ولى

قضاءها؛ و بها مات فى رجب. و الزاهد أبو عبد اللّه محمد بن أحمد القرشیّ الهاشمیّ الأندلسیّ ببیت المقدس. و الشهاب أبو الفضل محمد بن یوسف الغزنویّ الحنفیّ المقرئ بمصر. و أبو طاهر المبارک بن المبارک [بن هبة اللّه] ابن المعطوش فی جمادی الأولی عن اثنتین و تسعین سنة ببغداد.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم ذراعان و ست و عشرون إصبعا.

مبلغ الزیادة سبع عشرة ذراعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۰۰]

السنة الرابعة من ولایة الملک العادل أبی بکر بن أیّوب علی مصر، و هی سنة ستمائة.

فیها وصل إلی بغداد أبو الفتح بن أبی نصر الغزنویّ رسولا من صاحب غزنة و جلس بباب بدر، و قال: هنیئا لکم یأهل بغداد، أنتم تحظون بأمیر المؤمنین، و نحن محرومون! و أنشد- رحمه اللّه-:

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۸۵

ألا قل لسکّان وادی العقیق هنیئا لکم [فی] الجنان الخلود

أفیضوا علینا من الماء فیضا فنحن عطاش و أنتم ورود

و فیها توفّی الحافظ عبد الغنیّ بن عبد الواحد [بن علیّ] بن سرور أبو محمد المقدسیّ. ولد بجمّاعیل، و هی قریة من أعمال نابلس فی شهر ربیع الآخر سنة إحدی و أربعین و خمسمائة، و کان أکبر من الشیخ موفّق الدین بأربعة أشهر [و هما ابنا خالة] و کان إماما حافظا متقنا مصنّفا ثقة، سمع الکثیر و رحل إلی البلاد و کتب الکثیر، و هو أحد أکابر أهل الحدیث و أعیان حفّاظهم، و وقع له محن ذکرها صاحب مرآة الزمان، و نجّاه اللّه منها. و مات فی یوم الاثنین ثالث عشرین شهر ربیع الأوّل، و دفن بالقرافة عند الشیخ أبی عمرو بن مرزوق، و کان إماما عابدا زاهدا و رعا.

قال تاج الدین الکندیّ: هو أعلم من الدّارقطنیّ و الحافظ أبی موسی.

قال أبو المظفّر: و فی هذه السنة سافرت من بغداد إلی الشام، و هی أوّل رحلتی، فاجتزت بدقوقا و جلست بها (یعنی للموعظة) ثم قدمت إربل و اجتمعت بمحیی الدین الساعاتیّ، و أنشدنی مقطعات لغیره. منها- رحمه اللّه-:

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۸۶

رحمت أسود هذا الخال حین بدا فی جمرة الخدّ مرمیّا بأبصار

کأنّه بعض عبّاد المجوس و قد ألقی بمهجته فی لجّة النار

الذین ذکر الذهبیّ وفاتهم فی هذه السنة، قال: و فیها توفّی منتخب الدین أبو الفتح أسعد بن أبی الفضائل محمود بن خلف العجلیّ الأصبهانیّ شیخ الشافعیّة ببلده فی صفر، و له خمس و ثمانون سنة. و أبو سعد عبد اللّه بن عمر بن أحمد النیسابوریّ الصفّار فی رمضان، و له اثنتان و تسعون سنة. و الحافظ تقیّ الدین عبد الغنی بن عبد الواحد بن علیّ الجمّاعیلیّ المقدسیّ فی شهر ربیع الأوّل، و له تسع و خمسون سنة. و فاطمة بنت سعد الخیر الأنصاریّة فی شهر ربیع الأوّل، و لها ثمان و سبعون سنة. و بهاء الدین أبو محمد القاسم ابن الحافظ علیّ بن الحسن بن هبة اللّه ابن عساکر فی صفر، و له ثلاث و سبعون سنة.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم ثلاث أذرع و ست أصابع. مبلغ الزیادة سبع عشرة ذراعا و إحدی و عشرون إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۰۱]

السنة الخامسة من ولاية الملك العادل أبى بكر بن أيّوب على مصر، و هى سنة إحدى و ستمائة.

فيها جاءت الفرنج حماة بغتة و أخذوا النساء الغسّالات من باب البلد على العاصى، و خرج إليهم الملك المنصور بن تقىّ الدين و قاتلهم و ثبت و أبلى بلاء حسناء

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۸۷

و كسر الفرنج عسكره، فوقف على الساقة، و لو لا وقوفه ما أبقوا من المسلمين أحدا.

و فيها حجّ بالناس من العراق وجه السبع، و من الشام صارم الدين برغش العادلى و زين الدين قراجا صاحب صرخد.

و فيها توفّى عبد المنعم بن علىّ [بن نصر] بن الصّيقلىّ أبو محمد نجم الدين الحرّانىّ، قدم بغداد و تفقّه بها؛ و سمع الحديث؛ ثم عاد إلى حرّان و وعظ بها و حصل له القبول التام، ثم عاد إلى بغداد و استوطنها. قال أبو المظفّر سبط ابن الجوزىّ فى تاريخه: سمعته ينشد:

و أشتاقكم يا أهل ودّى و بيننا كما زعم البين المشتّ فراسخ

فأمّا الكرى عن ناظرى فمشرّد و أما هواكم فى فؤادى فراسخ

و فيها توفّى محمد بن سعد اللّه بن نصر أبو نصر بن الدّجاجىّ الواعظ الحنبلىّ.

ولد سنة أربع و عشرين و خمسمائة، و مات فى شهر ربيع الأوّل، و دفن بباب حرب.

و من شعره- رحمه اللّه-:

نفس الفتى إن أصلحت أحوالها كان إلى نيل المنى أحوى لها

و إن تراها سدّدت أقوالها كان على حمل العلا أقوى لها

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۸۸

و فيها توفّى ملك خلاط سيف الدين بكتمر. كان من أحسن الشباب؛ و لم يبلغ عشرين سنة من العمر، قتله الهزار دينارى؛ قيل: إنّه غرّقه فى بحر خلاط، و قتل الهزار دينارى بعده بمدّة يسيرة.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى المحدّث أحمد بن سليمان الحربىّ الملقب بالسّكّر. و أبو الفضل محمد بن الحسين بن الخصيب بدمشق.

و يوسف بن المبارك بن كامل الخفّاف. و عبد اللّه بن عبد الرحمن بن أيّوب الحربى البقلىّ. و شميم الحلّىّ أبو الحسن علىّ بن الحسن بن عنتر الأديب. و محمد بن أحمد بن حامد أبو عبد اللّه الأرتاحىّ الحنبلىّ بمصر، و له بضع و تسعون سنة.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۸۹

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و ست أصابع. مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا و ثمانى أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۰۲]

السنة السادسة من ولاية الملك العادل أبى بكر بن أيّوب على مصر، و هى سنه اثنتين و ستمائة.

فيها توجّه ناصر الدين صاحب ماردين إلى خلاط بمكاتبة أهلها و ملكها، فجاء الملك الأشرف موسى شاه أرمن ابن الملك العادل هذا فنزل على دنيسر، و أقطع بلاد ماردين؛ فلمّا بلغ ذلك ناصر الدين عاد إلى ماردين بعد أن غرم مائة ألف دينار، و لم تسلّم له

خلاط.

و فيها أغار [ابن] لاون على حلب و أخذ الجشار من نواحى حارم، فبعث إليه الملك الظاهر غازى ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب- و هو يوم ذاك صاحب حلب- فارس الدين ميمونا القصرىّ، و أيبك فطيس، و الأمير حسام الدين [ابن أمير تركمان] فتقاتلا قتالا شديدا، و كان ميمون تقدّم و لو لا هما لأخذ ميمون؛ فلمّا بلغ ذلك الملك الظاهر خرج من حلب و نزل مرج دابق، ثمّ جاء إلى حارم،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۹۰

فهرب ابن لاون إلى بلاده. و كان ابن لاون قد بنى قلعة فوق دربساك، فأخذها الظاهر و أخربها، ثم عاد الملك الظاهر إلى حلب.

و فيها حجّ بالناس من العراق وجه السّبع، و من الشام الشّجاع علىّ بن السّلّار.

و فيها توفّى الأمير طاشتكين بن عبد اللّه المقتفوىّ مجير الدين أمير الحاجّ، حجّ بالناس ستّا و عشرين حجّة، و كان يسير فى طريق الحجّ مثل الملوک. شكاه ابن يونس [الوزير] إلى الخليفة أنّه يكاتب السلطان صلاح الدين صاحب مصر [و زوّر عليه كتابة]، فحبسه الخليفة مدّة، ثم تبيّن له أنّه برىء، فأطلقه و أعطاه خوزستان؛ ثم أعاده إلى إمرة الحاجّ؛ و كانت الحلّة إقطاعه. و كان شجاعا جوادا سمحا قليل الكلام يمضى عليه الأسبوع و لا يتكلّم. استغاث إليه رجل يوما فلم يكلّمه، فقال الرجل: اللّه كلّم موسى، فقال: و أنت موسى! [فقال الرجل: و أنت اللّه! فقضى حاجته. و كان حليما، التقاه رجل فآستغاث إليه من نوّابه فلم يجبه] فقال الرجل: أنت حمار؟ فقال طاشتكين: لا. و فى قلّة كلامه يقول ابن التّعاويذىّ الشاعر المشهور:

و أمير على البلاد مولّى لا يجيب الشاكى بغير السكوت

كلّما زاد رفعة حطّنا اللّ ه بتغفيله إلى البهموت

و فيها توفّى مسعود بن سعد الدين صاحب صفد. و أخوه بدر الدين ممدود شحنة دمشق، و هما ابنا الحاجب مبارک بن عبد اللّه، و أمّهما أمّ فرخشاه

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۹۱

ابن شاهنشاه بن أيّوب [ففرخشاه أخوهما لأمّهما]، و أختهما لأمّهما أيضا الستّ عذراء صاحبة المدرسة العذراويّة المجاورة لقلعة دمشق. و كانا أميرين كبيرين (أعنى ممدودا و مسعودا) صاحبى الترجمة، و لهما مواقف مع السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب، و تقدّمت وفاة ممدود على أخيه مسعود، فإنّه مات بدمشق فى يوم الأحد خامس شهر رمضان من هذه السنة. و توفّى مسعود هذا بصفد فى يوم الاثنين خامس شوّال- رحمهما اللّه تعالى-.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفى سلطان غزنة شهاب الدين [أبو المظفر محمد بن سام] الغورى قتلته الباطنيّة. و أبو علىّ ضياء الدين ابن أبى القاسم [أحمد بن الحسن أبى علىّ] بن الخريف. و المفتى أبو المفاخر خلف بن أحمد الأصبهانىّ الفرّاء، و له أربع و ثمانون سنة. و أبو يعلى حمزة بن علىّ [بن حمزة بن فارس] بن القبّيطىّ، قرأ القرآن على سبط الخيّاط و جماعة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم سبع أذرع و أربع عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و ست عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۰۳]

السنة السابعة من ولاية الملك العادل أبى بكر بن أيّوب على مصر، و هى سنة ثلاث و ستمائة.

فيها فارق وجه السّبع الحاجّ، و قصد الشام مغضبا، و كان فى الحجّ جماعة من الأعيان، فبكوا و سألوه العود معهم على العادة، فقال:

مولای أمیر المؤمنین محسن

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۹۲

إلیّ، و ما أشکو إلّا من الوزیر ابن مهدی، و ما عن التوجّه بدّ؛ ففارقهم و سار إلی الشام، فتلقّاه الملک العادل صاحب الترجمة و أولاده، و أحسن العادل إلیه و أکرم نزله، و حزن الخلیفة علی فراقه.

و فیها ولّی الخلیفة عماد الدین أبا القاسم عبد اللّه بن الدّامغانیّ الحنفیّ قاضی قضاة بغداد.

و فیها قبض الخلیفة علی عبد السلام بن عبد الوهاب بن الشیخ عبد القادر الجیلیّ، و استأصله حتّی احتاج إلی الطلب من الناس.

و فیها نزلت الفرنج علی حمص، و کان الملک الظاهر غازی صاحب حلب قد بعث المبارز یوسف بن خطلخ الحلبیّ إلیها نجدة لأسد الدین صاحبها، و حصل القتال بینهم و بین الفرنج و أسر الصّمصام بن العلائیّ، و خادم صاحب حمص.

و رجع الفرنج إلی بلادهم.

و فیها توفّی عبد الرزاق ابن الشیخ عبد القادر الجیلیّ المعروف بالکیلانی- رضی اللّه عنه- و کان عبد الرزاق هذا زاهدا ورعا عابدا مقتنعا من الدنیا بالیسیر صالحا ثقة، لم یدخل فی الدنیا کما دخل فیها غیره من إخوته. و کان مولده سنة ثمان و عشرین و خمسمائة، و مات فی شوّال ببغداد و دفن بباب حرب.

و فیها توفّی أبو القاسم [أحمد] ابن المقرئ صاحب دیوان الخلیفة ببغداد، کان شابا حسنا یعاشر ابن الأمیر أصبه، و کان ابن أصبه شابّا جمیلا- جلسا یوما فداعب ابن المقرئ ابن أصبه فرماه بسکّین صغیرة، فوقعت فی فؤاده فقتلته، فسلّم الخلیفة ابن المقرئ إلی أولاد أصبه، فلمّا خرجوا به لیقتلوه أنشد.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۹۳

قدمت علی الإله بغیر زاد من الأعمال بالقلب السلیم

و سوء الظن أن تعتدّ زادا إذا کان القدوم علی کریم

فقتلوه- رحمه اللّه تعالی-.

الذین ذکر الذهبیّ وفاتهم فی هذه السنة، قال: و فیها توفّی أبو جعفر محمد بن أحمد بن نصر الصّیدلانیّ، و له أربع و تسعون سنة. و أبو عبد اللّه محمد بن معمّر [بن عبد الواحد بن رجاء] بن الفاخر القرشیّ. و أبو بکر عبد الرزّاق بن عبد القادر ابن أبی صالح الجیلیّ الحافظ فی شوّال، و له خمس و سبعون سنة.

أمر النیل فی هذه السنة، الماء القدیم خمس أذرع سواء. مبلغ الزیادة سبع عشرة ذراعا و أربع أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۰۴]

السنة الثامنة من ولایة الملک العادل أبی بکر بن أیّوب علی مصر، و هی سنة أربع و ستمائة.

فیها ملک الأوحد ابن الملک العادل صاحب الترجمة خلاط بمکاتبة أهلها بعد قتل ابن بکتمر و الهزار دیناری المقدّم ذکرهما؛ و کانت بنت بکتمر مع صاحب أرزن الروم،- فقالت بعد قتل أخیها-: لا أرضی حتّی تقتل قاتل أخی، و هو الهزار

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۹۴

دیناری و تأخذ بثأره؛ فسار صاحب أرزن إلی خلاط، و خرج الهزار دیناری للقائه، فضربه صاحب أرزن فأبان رأسه، و عاد إلی أرزن الروم. و بقیت خلاط بغیر ملک، و کان الأوحد بن العادل صاحب میّافارقین، فکاتبوه أهل خلاط فجاء إلیهم و استولی علیها.

و فیها حجّ بالناس من العراق یاقوت.

و فیها توفّی محمود بن هبة اللّه بن أبی القاسم الحلبیّ أبو الثناء البزّاز. کان فاضلا قرأ القرآن، و سمع الحدیث علی إسماعیل بن موهوب بن الجوالیقیّ، و حکی عنه قال:

کنت فی حلقة والدی بجامع القصر، فوقف علیه شابّ و قال: ما معنی قول القائل:

وصل الحبیب جنان الخلد أسکنها و هجره النار یصلینی به النارا

فالشمس بالقوس أضحت و هی نازلة إن لم یزرنی و بالجوزاء إن زارا

فقال له والدی: یا بنیّ، هذا شیء یتعلّق بعلم النجوم لا بعلم الأدب. ثم قام والدی و آلی علی نفسه ألّا یعود إلی مکانه حتّی ینظر فی علم النجوم، و یعرف مسیر الشمس و القمر، فنظر فیه و علمه. و معنی الشعر: أنّ الشمس إذا نزلت القوس یکون اللیل فی غایة الطول، و إذا کانت فی الجوزاء کان فی غایة القصر.

قلت: و محصول البیتین: أنّه إذا لم یزره محبوبه کان اللیل علیه أطول اللیالی، و إذا زاره کان علیه أقصر اللیالی، فقصد القوس للطّول، و الجوزاء للقصر.

و هذا یشبه قول القائل، و قد تقدّم ذلک فی غیر هذا المحلّ من هذا الکتاب،:

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۹۵

لیلی و لیلی نفی نومی اختلافهما بالطّول و الطّول یا طوبی لو اعتدلا

یجود بالطّول لیلی کلّما بخلت بالطّول لیلی و إن جادت به بخلا

و مثل هذا قول شرف الدین أحمد بن نصر بن کامل- و قیل هما لغیره-:

عهدی بهم و رداء الوصل یجمعنا و اللیل أطوله کاللّمح بالبصر

فالیوم لیلی مذ غابوا فدیتهم لیل الضریر فصبحی غیر منتظر

و یعجبنی قول من قال- و هو قریب من هذا المعنی إن لم یکن هو بعینه-:

هجم السّهاد علی عیونی فی الدّجی سرق الرقاد و دمع عینی سافح

و غدا یسامح للدجی فی بیعه و اللّصّ کیف یبیع فهو الرابح

و قد استوعبنا هذا النوع (أعنی ما قیل فی طول اللیل و قصره فی کتابنا المسمّی:

ب «حلیة الصفات فی الأسماء و الصناعات») فلینظر هناک فی حرف الطاء المهملة.

الذین ذکر الذهبیّ وفاتهم فی هذه السنة، قال: و فیها توفّی حنبل بن عبد اللّه ابن الفرج بن سعادة أبو علیّ الرّصافیّ المکبّر [بجامع المهدی] الدلّال فی المحرّم.

و عبد المجیب بن عبد اللّه بن زهیر الحربیّ بحماة. و أبو الفضل عبد الواحد ابن عبد السلام بن سلطان المقرئ. و ستّ الکتبة نعمة بنت علیّ بن یحیی [بن محمد] ابن الطراح بدمشق.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم خمس أذرع و سبع أصابع. مبلغ الزیادة سبع عشرة ذراعا سواء.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۹۶

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۰۵]

السنة التاسعة من ولایة الملک العادل أبی بکر بن أیّوب علی مصر، و هی سنة خمس و ستمائة.

فیها زلزلت نیسابور زلزلة عظیمة دامت عشرة أیام، فمات تحت الردم خلق کثیر.

و فيها اتّفق الفرنج من طرابلس و حصن الأكراد على الإغارة على أعمال حمص، فتوجّهوا إليها و حاصروها، فعجز صاحب حمص أسد الدين شيركوه عنهم، و نجده ابن عمّه الملك الظاهر غازى صاحب حلب، فعاد الفرنج إلى طرابلس. و بلغ السلطان الملك العادل صاحب الترجمة، فخرج إليهم من مصر بالجيوش و قصد عكّا، فصالحه صاحبها، فسار حتّى نزل على بحيرة قدس، و أغار على بلاد طرابلس و أخذ من أعمالها حصنا صغيرا.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال و فيها توفّى قاضى القضاة صدر الدين أبو القاسم عبد الملك بن عيسى بن درباس بمصر عن تسع و ثمانين سنة.

و القاضى أبو الفتح محمد بن أحمد بن بختيار بواسط فى شعبان، و له ثمان و ثمانون سنة. و أبو الجود غياث بن فارس اللّخمىّ مقرئ ديار مصر. و أبو بكر محمد بن المبارك [بن محمد بن أحمد بن الحسين] بن مشّق محدّث بغداد، و له اثنتان و سبعون سنة.

و الحسين بن أبى نصر [بن الحسين بن هبة اللّه بن أبى حنيفة] بن القارص الحريمىّ

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۹۷

الضرير آخر من روى شيئا عن المسند، توفّى فى شعبان. و خطيب القدس علىّ بن محمد بن علىّ بن جميل المعافرى.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و عشرون إصبعا.

مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعا و اثنتا عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۰۶]

السنة العاشرة من ولاية الملك العادل أبى بكر بن أيّوب على مصر، و هى سنة ستّ و ستمائة.

فيها توفّى الحسن بن أحمد [بن محمد] بن جكينا من أهل الحرم الطاهرىّ، كان فاضلا رئيسا شاعرا. و من شعره:

قد بان لى عذر الكرام و صدّهم عن أكثر الشعراء ليس بعار

لم يسأموا بذل النوال و إنّما جمد النّدى لبرودة الأشعار

و فيها توفّى محمد بن عمر بن الحسين العلّامة أبو المعالى فخر الدين الرازىّ المتكلّم صاحب التصانيف فى علم الكلام و المنطق و التفسير. كان إماما بارعا فى فنون من العلوم، صنّف «التفسير» و «المحصّل» و «الأربعين» و «نهاية العقول» و غير ذلك. قال صاحب المرآة: «و اختصّ بكتب ابن سينا فى المنطق و شرحها، و كان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة؛ ج‌۶؛ ص۱۹۷

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۹۸

يعظ و ينال من الكرّاميّة و ينالون منه، و يكفّرهم و يكفّرونه، و قيل: إنّهم دسّوا عليه من سقاه السم فمات ففرحوا بموته؛ و كانوا يرمونه بالكبائر، و كانت وفاته فى ذى الحجّة. ثم ذكر عنه صاحب المرآة أشياء، الأليق الإضراب عنها و السّكات عن ذكرها.

و فيها توفّى المبارك بن محمد بن محمد بن عبد الكريم أبو السعادات مجد الدين ابن الأثير الموصلىّ الجزرىّ الكاتب، ولد سنة أربعين و خمسمائة بجزيرة ابن عمر، ثم انتقل إلى الموصل و كتب لأمرائها، و كانوا يحترمونه، و كان عندهم بمنزلة الوزير الناصح إلّا أنّه كان منقطعا إلى العلم قليل الملازمة لهم. صنّف الكتب الحسان، منها: «جامع الأصول فى أحاديث الرسول»، جمع فيه بين الصّحاح الستة. و كتاب «النهاية فى غريب الحديث» فى خمسة مجلدات. و كتاب «الإنصاف فى الجمع بين الكشف و الكشّاف» فى تفسير القرآن، أخذه من تفسير الثّعلبىّ و الزمخشرىّ، و له كتاب «المصطفى و المختار فى الأدعية و الأذكار» و له كتاب لطيف فى صناعة الكتابة، و كتاب «البديع فى شرح الفصول فى النحو لابن الدّهان» و له «ديوان رسائل»، و كتاب «الشافى فى شرح مسند الإمام الشافعىّ»

- رضى اللّه عنه-. و من شعره

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۹۹

- رحمه اللّه- ما أنشده لصاحب الموصل، و قد زلّت به بغلته و ألقته إلى الأرض:

إن زلّت البغلة من تحته فإنّ فى زلّتها عذرا

حمّلها من علمه شاهقا أو من ندى راحته بحرا

و كانت وفاته بالموصل فى يوم الخميس سلخ ذى الحجّة، و دفن برباطه بدرب درّاج، و هو أخو أبى الحسن علىّ بن الجزرىّ الكاتب. الـذين ذكر الـذهبىّ وفاتهم فى هـذه السـنة، قال: و فيها توفّى القاضـى وجيه الـدين أسـعد بن المنجّا التّنوخىّ فى المحرّم، و له سبع و ثمانون سـنة. و أبو مسـلم المؤيّد [هشام] بن عبد الرحيم [بن أحمد بن محمد] بن الإخوة العدل بأصبهان فى جمادى الآخرة. و أبو عبد اللّه محمود بن أحمد المضرىّ الأصبهانىّ إمام جامع أصبهان عن تسع و ثمانين سنة. و أبو القاسم إدريس بن محمد العطّار بأصبهان، و له نحو مائة سنة.

و فخر الدين أبو عبد اللّه محمد بن عمر بن الحسـين الرازىّ المصـنّف ابن خطيب الرىّ يوم عيد الفطر، و له اثنتان و ستون سنة. و مجد الدين يحيى بن الربيع الواسطىّ مدرس النظاميّة عن ثمان و سبعين سنة. و مجد الدين أبو السعادات المبارک بن الأثير الجزرىّ الكاتب صاحب «جامع الأصول» و «النهاية» فى سلخ العام، و له ثلاث

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۰۰

و ستون سنة. و أمّ هانىء عفيفة بنت أحمد الفارفانيّة مسندة أصبهان، و لها ستّ و تسعون سنة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و عشرون إصبعا.

مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعا و ست عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۰۷]

السنة الحادية عشرة من ولاية الملک العادل أبى بكر بن أيّوب على مصر، و هى سنة سبع و ستمائة.

فيها حجّ بالناس من الشام سيف الدّين [علىّ] بن علم الدين سليمان بن جندر.

و فيهـا توفّى أرسـلان [شـاه] بن عزّ الـدين مسـعود الأـمير نور الـدين الأتابـک صـاحب الموصـل، كـان متكبّرا جبّارا بخيلا فاتكا سـفّا كالـدماء، حبس أخاه علاء الـدين سـنين حتّى مات فى حبسه، و ولّى الموصل لرجل ظالم يقال له السـراج فأهلک الحرث و النّسل، و كانت وفاة أرسـلان هذا فى صـفر. و خلّف و لدين: القاهر مسـعودا و زنكى، و أوصى إلى بدر الدين لؤلؤ أن يكون مسعود السلطان و يكون زنكى فى شهرزور.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۰۱

و فيها توفّى عبد الوهّاب بن علىّ الشـيخ أبو محمد الصّوفىّ ضـياء الدين المعروف بابن سـكينة سـبط شـيخ الشيوخ إسماعيل بن أحمد النّيسابورىّ. و كان فاضلا محدّثا عابدا زاهدا، و كان ينشد لمحمد الفارقىّ - رحمه اللّه-:

تحمّل أخاک على خلقه فما فى استقامته مطمع

و أنّى له خلق واحد و فيه طبائعه الأربع

و فيهـا تـوفّى عمر بـن محمـد بن معمّر بن أحمـد بن يحيى بن حسّ‍ان المسـند الـكبير رحلـة الآفـاق أبـو حفص بن أبى بكر البغـدادىّ الدّارقزّىّ المؤدّب المعروف بآبن طبرزذ، و الطّبرزذ: هو السّ‍كر. ولد فى ذى الحجّة سـنة ست عشـرة و خمسـمائة، و سمع الكثير بإفادة

أخيه المحدّث أبى البقاء محمد ثم بنفسه، و حصّل الأصول و حفظها إلى وقت الحاجة إليه، فلمّا كبرت سنّه حدّث بالكثير، و صار رحلة الزمان إلى أن مات فى تاسع شهر رجب ببغداد؛ و دفن بباب حرب.

و فيها توفّى محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة بن مقدام الإمام القدوة الزاهد أبو عمر المقدسىّ الجمّاعيلىّ. قال ابن أخته الحافظ ضياء الدين: مولده فى سنة ثمان و عشرين و خمسمائة بجمّاعيل، و سمع الكثير بدمشق من والده و خلق كثير سواه، و روى عنه أخوه الشيخ الموفّق و ولداه شرف الدين عبد اللّه و شمس الدين عبد الرحمن و جماعة كثيرة، و كان إماما عالما زاهدا و رعا متقنا متعبّدا: قال أبو المظفّر: و كان معتدل القامة حسن الوجه، عليه أنوار العبادة لا يزال مبتسما،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۰۲

نحيل الجسم من كثرة الصيام و القيام. ثم قال- بعد كلام طويل و بعد أن أورد أشعارا كثيرة- و أنشدنى لغيره:

لى حيلة فيمن ينمّ و ليس فى الكذّاب حيله

من كان يخلق ما يقو ل فحيلتى فيه قليله

و فيها توفّى الوجيه بن النّورىّ المصرىّ الفقيه المقرئ الحنفىّ إمام مقصورة الحنفية الغربية بجامع دمشق، كان صالحا ديّنا فقيرا قارئا للقرآن بالسبع. قال أبو المظفّر و أنشد لغيره:

و من عادة السادات أن يتفقّدوا أصاغرهم و المكرمات مصايد

سليمان ذو ملک تفقد هدهدا و إنّ أقلّ الطائرات الهداهد

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفى أبو محمد جعفر بن محمد [بن أبى محمد] بن آموسان الأصبهانىّ بعد حجّه بالمدينة فى المحرّم، و له خمس و سبعون سنة. و أبو محمد عبد الوهّاب ابن الأمين علىّ بن سكينة الصوفىّ مسند العراق و شيخها، و له ثمان و ثمانون سنة. مات فى شهر ربيع الآخر. و الشيخ أبو عمر محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة الزاهد شيخ المقادسة فى شهر ربيع الآخر، و له تسع و سبعون سنة. و عائشة بنت معمّر بن الفاخر عن بضع و ثمانين سنة. و أبو الفرج محمد بن هبة اللّه بن كامل الوكيل ببغداد عن خمس و ثمانين سنة. و أبو حفص عمر ابن محمد بن معمّر بن طبرزذ عن إحدى و تسعين سنة، كلاهما فى رجب.

و أبو المجد زاهر بن أحمد بن أبى غانم الثّقفىّ الأصبهانىّ و قد قارب التسعين

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۰۳

فى ذى القعدة. و أسعد بن سعيد [بن محمود بن محمد بن أحمد بن جعفر] بن روح التاجر بأصبهان فى ذى الحجّة، و له تسعون سنة، و ختم به حديث الطّبرانىّ فى الدنيا.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم لم يوجد له قاع فى هذه السنة.

مبلغ الزيادة خمس عشرة ذراعا و أربع أصابع، بعد ما توقّف عن الزيادة أيّاما.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۰۸]

السنة الثانية عشرة من ولاية الملک العادل أبى بكر بن أيّوب على مصر، و هى سنة ثمان و ستمائة.

فيها قدم بغداد رسول جلال الدين حسن صاحب ألموت، يخبر الخليفة بأنّهم تبرّءوا من الباطنيّة، و بنوا الجوامع و المساجد، و أقيمت الجمعة و الجماعات عندهم، و صلّوا التراويح فى شهر رمضان؛ فسرّ الخليفة و الناس بذلک. و قدمت الخاتون أمّ جلال الدين حاجّة، و احتفل بها الخليفة، و جهّز لها ما يليق بها.

و فيها بعث الخليفة الناصر لدين اللّه خاتمه للأمير وجه السّبع بالشام، و قد تقدّم ذكره فيما مضى، فتوجّه وجه السبع إلى الخليفة و معه رسول الملك العادل صاحب الترجمة، فأكرم الخليفة وجه السبع، و أعطاه الكوفة إقطاعا.

و فيها توفّى عبد الواحد بن عبد الوهّاب بن علىّ بن سكينة و يلقّب بالمعين.

ولد سنة اثنتين و خمسين و خمسمائة، و سافر إلى الشام فى أيام الأفضل، و بسط

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۰۴

لسانه فى الدولة، ثم عاد إلى بغداد بأمان من الخليفة؛ و ولى مشيخة الشيوخ.

و مات غريقا فى البحر، و كان سمع جدّه لأمّه شيخ الشيوخ عبد الرحيم و غيره.

و أنشد لجدّه المذكور قوله فى الخضاب:

و لم أخضب مشيبى و هو زين لإيثارى جهالات الشبّاب

و لكن كى يرانى من أعادى فأرهبه بوثبات التّصابى

و فيها توفّى مظفر الماسكى البغدادىّ، كان ظريفا أديبا، و كان يقول من الشعر «كان و كان» و غيره. و من شعره فى «كان و كان» قوله:

ذى زوجها ما شطها و كل من جا حفّها قصده يرى النقش عنده فى كفّها ألوان

إن شندرت فلوجهه تصيب قبل كفوفها ما صحّ ذاك النشادر إلّا من الدّخان

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أبو المعالى محمد ابن صالح آخر من حدّث عن الميورقىّ. و يحيى بن البنّاء، و له تسعون سنة.

و أبو الفتح منصور بن عبد المنعم بن عبد اللّه بن [محمد] الفراوىّ العدل بنيسابور، و له ستّ و ثمانون سنة فى شعبان. و القاضى أبو القاسم هبة اللّه بن جعفر بن سناء الملك بمصر. و أبو عبد اللّه محمد بن أيّوب بن محمد بن [وهب بن محمد بن وهب] بن نوح

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۰۵

الغافقىّ ببلنسية، و له ثمان و سبعون سنة. و الخضر بن كامل [بن سالم] بن سبيع الدلّال بدمشق. و أبو العبّاس أحمد بن الحسن بن أبى البقاء العاقولىّ فى ذى الحجّة ببغداد.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و ست أصابع. مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعا و عشر أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۰۹]

السنة الثالثة عشرة من ولاية الملك العادل أبى بكر بن أيّوب على مصر.

و هى سنة تسع و ستمائة.

فيها اجتمع الملك العادل المذكور و أولاده: الكامل و الفائز و المعظّم على دمياط لقتال الفرنج، و كان الأمير أسامة بالقاهرة، فاتّهم بمكاتبة الملك الظاهر غازى صاحب حلب، و وجدوا كتبا إليه و أجوبة؛ فخرج أسامة المذكور من القاهرة كأنّه يتصيّد و ساق إلى الشام فى مماليكه يطلب قلعة كوكب و عجلون. و كان ذلك فى يوم الاثنين سلخ جمادى الآخرة. فأرسل و الى بلبيس الحمام إلى دمياط بالخبر؛ فقال العادل: من ساق خلفه فله أمواله و قلاعه؛ فقال ولده الملك المعظم عيسى: أنا، و ركب من دمياط يوم الثلاثاء غرّة رجب. قال أبو المظفّر سبط ابن الجوزىّ:

«و كنت معه، فقال لى: أنا أريد أن أسوق فآبق أنت مع قماشى و دفع لى بغلة، و ساق و معه نفر يسير و على يده حصان، فكان صباح

يوم الجمعة بغزّة، [ساق مسيرة ثمانية أيام فى ثلاثة أيّام] فسبق أسامة. [و أمّا أسامة] فتقطّع عنه مماليكه و بقى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۰۶

وحده؛ و كان به مرض النّقرس (يعنى بأسامة)، فجاء إلى بلد الدّاروم؛ و كان المعظّم أمسك عليه من البحر إلى الزّرقاء، فرآه بعض الصيّادين فى برّية الدّاروم فعرفه، فقال له: انزل، فقال: هذه ألف دينار و أوصلنى إلى الشام، فأخذها الصيّاد و جاء إلى رفاقه [فعرفوه أيضا]، فأخذوه على طريق الخليل ليحملوه إلى عجلون، فدخلوا به إلى القدس فى يوم الأحد فى سادس رجب بعد وصول المعظّم بثلاثة أيام، فتسلّمه المعظّم و أنزله بصهيون، و بعث إليه بثياب و طعام و لا طفه [و راسله] و قال له:

أنت شيخ كبير و بك نقرس و ما تصلح لك قلعة، سلّم إلىّ كوكب و عجلون، و أنا أحلف لك على مالك و جميع أسبابك، و تعيش بيننا مثل الوالد. فامتنع و شتم المعظّم، فبعث به المعظّم إلى الكرك فاعتقله بها، و استولى على قلاعه و أمواله و ذخائره [و خيله]، فكان قيمة ما أخذ منه ألف ألف دينار.

و فيها حجّ بالناس من العراق حسام الدين بن أبى فراس نيابة عن محمد بن ياقوت، و كان معه مال و خلع لقتادة صاحب مكّة. و حجّ بالناس من الشام شجاع الدين بن محارب، من على أيلة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۰۷

و فيها توفّى الملك الأوحد نجم الدين أيّوب ابن السلطان الملك العادل أبى بكر صاحب الترجمة. كان صاحب خلاط و غيرها فى أيام أبيه الملك العادل، و قد تقدّم ذكر أخذه خلاط و غيرها؛ و كان قد ابتلى بأمراض مزمنة، و كان يتمنّى الموت و كان قد استزار أخاه الملك الأشرف موسى من حرّان، فأقام عنده أياما، و اشتدّ مرضه فطلب الأشرف الرجوع إلى حرّان لئلا يتخيّل منه الأوحد، فقال له الأوحد: يا أخى، لم تلحّ فى الرّواح! و اللّه إنّى ميّت و أنت تأخذ البلاد من بعدى، فكان كذلك. و ملك الأشرف بعد موته خلاط و أحبّه أهلها. كلّ ذلك فى حياة أبيهما الملك العادل هذا. فكانت مدّة تملّك الأوحد خلاط أقلّ من خمس سنين، و وجد عليه الملك العادل كثيرا.

و فيها توفّى محمود بنعثمان بن مكارم أبو الثناء الحنبلىّ، كان شيخا زاهدا عابدا صاحب رياضات و مجاهدات يصوم الدهر، و انتفع بصحبته خلق كثير، و كان من الأبدال.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أبو جعفر أحمد ابن علىّ الأنصارىّ الدّانىّ الحصّار المقرئ ببلنسية، استشهد فى وقعة العقاب هو و خلق من المسلمين. و أبو الفرج محمد بن علىّ بن حمزة بن القبّيطىّ، و له نيّف و ثمانون سنة. و الحافظ أبو نزار ربيعة بن الحسن الحضرمىّ اليمنىّ بمصر عن اثنتين و ثمانين سنة. و أبو [شجاع] زاهر بن رستم المقرئ بمكّة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۰۸

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و عشر أصابع. مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و إحدى عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۱۰]

السنة الرابعة عشرة من ولاية الملك العادل أبى بكر بن أيّوب على مصر، و هى سنة عشر و ستمائة.

فيها حجّ بالناس من العراق ابن أبى فراس نيابة عن ابن ياقوت. و حجّ بالناس من الشام الغرز صديق بن تمرداش التّركمانىّ من على عقبة أيلة بحجّاج الكرك و القدس.

و حجّ فى هذه السنة الملك الظافر خضر ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب من على تيماء، و معه حجّ الشام بأذن عمّه السلطان الملك العادل- فيما قيل-، فلمّا بلغ الملك الكامل محمّد بن العادل أنّه توجّه إلى الحجاز خاف على بلاد اليمن منه، فوجّه

إليه عسكرا من مصر فلحقوه، و قالوا له: ارجع؛ فقال: قد بقى بينى و بين مكّة مسافة يسيرة، و اللّه ما قصدى اليمن، و إنّما قصدى الحجّ، فقيّدونى و احتاطوا بى حتّى أقضى المناسك و أعود إلى الشام؛ فلم يلتفتوا لكلامه؛ فأراد أن يقاتلهم فلم يكن له بهم طاقة، فرجع إلى الشام و لم يحجّ.

و فيها توفّى الأمير أيدغمش صاحب همذان، أرسله الخليفة إلى همذان فسار و انتظر العسكر و طال عليه الأمر فرحل عن همذان. فالتقاه عسكر منكلى بغا ملك

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۰۹

التتار، و قاتلوه فقتلوه، و حملوا رأسه إلى منكلى بغا المذكور. و كان أميرا صالحا كثير الصدقات ديّنا صائما عادلا كثير المحاسن- رحمه اللّه-.

و فيها توفّى الوزير الرئيس سعيد بن علىّ بن أحمد أبو المعالى بن حديدة من ولد قطبة بن عامر بن حديدة الأنصارىّ الصحابىّ. و كان مولده بكرخ سامرّا سنة ست و ثلاثين و خمسمائة؛ و كان له مال كثير، و استوزره الخليفة الناصر لدين اللّه، و وقع له بعد ذلك محن، فهرت و اختفى إلى أن توفّى.

و فيها توفّى الأمير سنجر [بن عبد اللّه] الناصرىّ صهر طاشتكين، و كان ذليلا بخيلا ساقط النفس مع كثرة المال. و تولّى مرّة إمرة الحاجّ [سنة تسع و ثمانين و خمسمائة] فاعترض الحاجّ رجل بدوىّ فى نفر يسير جدّا، و كان مع سنجر هذا خمسمائة نفس، فذلّ و جبن عن ملاقاته، و جبى له مالا من الحجّ؛ فلمّا دخل بغداد رسم عليه الخليفة حتّى أخذ منه المال و ردّه إلى أصحابه، ثمّ عزله و أخذ إقطاعه.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أبو الحسن مهذّب الدين علىّ بن أحمد بن علىّ [المعروف بابن هبل] البغدادىّ الطبيب بالموصل.

و أبو عبد اللّه الحسين بن سعيد بن الحسين بن شنيف الدّارقزّىّ الأمين ببغداد، كلاهما فى المحرّم. و أمّ النور عين الشمس بنت أحمد بن أبى الفرج الثّقفيّة، و لها ستّ و ثمانون سنة. و أبو مسعود عبد الجليل بن أبى غالب [بن أبى المعالى بن محمد بن الحسين]

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۱۰

ابن مندويه الصوفىّ بدمشق عن ثمان و ثمانين سنة، و إنّما سمع فى كبره. و تاج الأمناء أحمد بن محمد بن الحسن بن هبة اللّه بن عساكر الدمشقىّ. و الفخر إسماعيل بن علىّ الحنبلىّ المتكلّم غلام بن المنّى.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و عشر أصابع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و إصبع واحدة.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۱۱]

السنة الخامسة عشرة من ولاية الملك العادل أبى بكر بن أيّوب على مصر، و هى سنة إحدى عشرة و ستمائة.

قلت: و فى مدّة هذه السنين كلّها [كان] صاحب مصر ولده الكامل محمد بن العادل، و الملك العادل يتنقّل فى البلاد، غير أنّه هو الأصل فى السلطنة و عليه المعوّل؛ و لا تحسب سلطنة الكامل على مصر إلّا بعد موت أبيه العادل هذا.

كما سيأتى ذكره إن شاء اللّه تعالى.

فيها ملك اليمن أضيس بن الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبى بكر صاحب الترجمة. و لقب أضيس المذكور بالملك المسعود، و العامّة يسمّونه «أقسيس» و غلب عليه مقالة العامّة، و الصواب ما قلناه لأنّ والده الملك الكامل ما كان يعيش له ولد، فلمّا ولد له هذا أضسيس قال له بعض الأتراك: فى بلادنا إذا كان الإنسان

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۱۱

لا یعیش له ولد یسمّونه أضسیس. و معناه باللغة الترکیة: ماله اسم؛ فسمّاه والده الملک الکامل بذلک؛ فلمّا کبر ثقل علی العامّة لفظ أضسیس؛ فسمّوه «أقسیس».

انتهی.

و کان أقسیس المذکور شابّا جبّارا فاتکا قتل بالیمن نحو ثمانمائة شریف.

و دخل إلی مکّة إلی حاشیة الطواف راکبا. و قیل إنه: کان یسکر و ینام بدار علی المسعی، فتخرج أعوانه تمنع الناس من الصّیاح و الضّجیج فی المسعی، و یقولون:

الأمیر سکران نائم! لا ترفعوا أصواتکم بالذکر و التّلبیة! و قتل أقسیس هذا خلقا کثیرا من الأکابر و العظماء. و لو لم یحجّ عمّه الملک المعظّم عیسی صاحب دمشق ما قدر أقتسیس هذا علی أخذ الیمن. کلّ ذلک فی حیاة جدّه الملک العادل صاحب الترجمة.

و فیها أخذ الملک المعظم عیسی ابن الملک العادل هذا قلعة صرخد من الأمیر [ابن] قراجا، و عوّضه مالا و إقطاعا.

و فیها حجّ بالناس من العراق ابن أبی فراس بن ورّام نائبا عن محمد بن یاقوت.

و فیها حجّ الملک المعظّم عیسی المقدّم ذکره من دمشق، و حجّ معه عدّة أمراء من أعیان دمشق، و حجّ علی مذهب أبی حنیفة و استمرّ علی المذهب، و کلّمه والده الملک العادل صاحب الترجمة فی العود إلی مذهب الشافعیّ فلم یقبل، و جاو به بکلام السّکات عنه ألیق.

و فیها توفّی عبد العزیز بن محمود بن المبارک [بن محمود بن الأخضر] الشیخ أبو محمد البزاز، سمع الحدیث و أکثر و صنّف و کتب، و کان فاضلا دیّنا صالحا.

مات فی شوّال.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۱۲

الذین ذکر الذهبیّ وفاتهم فی هذه السنة، قال: و فیها توفّی الحافظ شرف الدین أبو الحسن علیّ بن المفضّل بن [علیّ] المقدسیّ الإسکندرانیّ المالکیّ، و له سبع و ستون سنة. و فقیه بغداد أبو بکر محمد بن معالی بن غنیمة بن الحلاوی الحنبلیّ، و کان من أبناء السبعین. و الحافظ عبد العزیز بن محمود [بن المبارک بن محمود] بن الأخضر، و له سبع و ثمانون سنة فی شوّال.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم ثلاث أذرع و أربع عشرة إصبعا.

مبلغ الزیادة ستّ عشرة ذراعا و ثمانی عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۱۲]

السنة السادسة عشرة من ولایة الملک العادل أبی بکر بن أیّوب علی مصر، و هی سنة اثنتی عشرة و ستمائة.

فیها خرج وجه السّبع من بغداد بالعساکر إلی همذان للقاء منکلی مملوک السلطان أزبک خان، و کان قد عصی علی مولاه و علی الخلیفة و قطع الطریق، فکتب الخلیفة إلی ابن زین الدین، و إلی الملک الظاهر غازی صاحب حلب، و إلی الملک العادل هذا یطلب العساکر، فجاءته العساکر من کلّ مکان؛ و توجّه ابن زین الدین مقدّم العساکر، و جاء أزبک و جلال الدین مقدّم الإسماعیلیّة. و جمع أیضا منکلی جموعا کثیرة و التقوا قریبا من همذان، و اقتتلوا قتالا شدیدا، فکانت الدائرة علی منکلی، و قتل من أصحابه ستة آلاف، و نهبوا أثقاله، فحال بینهم اللّیل فصعد

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۱۳

منكلى على جبل، و ابن زين الـدين و العساكر أسـفل، و أوقـد منكلى نارا عظيمة و هرب فى اللّيل، فأصـبح الناس و ليس لمنكلى أثر؛ ثم قتل منكلى بعد ذلك. و أزبك خان هذا هو غير أزبك خان التّترىّ المتأخّر.

و فيها أخذ خوارزم شاه محمد [بن تكش] مدينة غزنة من يلدز تاج الدين مملوك شهاب الدين [أحمد] الغورىّ بغير قتال.

و فيها أخذ ابن لاون الإفرنجىّ أنطاكية فى يوم الأحد رابع عشرين شوّال.

و فيها حجّ بالناس ابن أبى فراس من العراق نيابة عن محمد بن ياقوت.

و فيها توفّى علىّ ابن الخليفة الناصر لدين اللّه العباسىّ و كنيته أبو الحسن. و كان لقّبه أبوه الخليفة بالملك المعظّم، و كان جليلا نبيلا. مات فى ذى القعدة و أخرج تابوته و بين يديه أرباب الدولة. و من الاتّفاق الغريب أنّه يوم الجمعة دخل بغداد رأس منكلى على رمح، و زيّنت بغـداد و أظهر الخليفـة السـرور و الفرح، و وافق تلك الساعـة وفاة ابن الخليفـة علىّ هـذا، و وقع صـراخ عظيم فى دار الخلافة، فانقلب ذلك الفرح بحزن. و خرجت المخدّرات من خدورهنّ و نشرن شعورهنّ.

قال أبو المظفّر: «و لطمن و قام النوائـح فى كلّ ناحيـة، و عظم حزن الخليفـة بحيث إنه امتنع من الطعام و الشـراب، و غلّقت الأسواق، و عطّلت الحمّامات، و بطل البيع و الشّراء، و جرى ما لم يجر قبله. و كان الخليفة قد رشّـحه للخلافة، ففعل اللّه فى ملكه ما أراد. و خلّف و لدين: أبا عبد اللّه الحسين و لقّبه جدّه «المؤيد» و يحيى و لقّبه ب «الموفّق».

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۱۴

و فيهـا توفّى المبـارك بن المبارك أبو بكر الواسـطىّ النحوىّ. ولـد سـنة أربع و ثلاثين و خمسـمائة، و كان حنبليّا، ثم صار حنفيّا، ثم صار شافعيّا لأسباب وقعت له، و كان قرأ الأدب على ابن الخشّاب و غيره، و كان أديبا فاضلا شاعرا.

و من شعره- رحمه اللّه- قوله:

لا خير فى الخمر فمن شأنها إفقادها العقل و جلب الجنون

أو أن ترى الأقبح مستحسنا و تظهر السرّ الخفىّ المصون

قلت: و يعجبنى قول القائل، و هو قريب ممّا نحن فيه:

على قدر عقل المرء فى حال صحوه تؤثّر فيه الخمر فى حال سكره

فتأخذ من عقل كبير أقلّه و تأتى على العقل اليسير بأسره

الـذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السـنة، قال: و فيها توفّى الفقيه سـليمان بن محمد بن علىّ الموصـلىّ فى صـفر، و له أربع و ثمانون سنة. و أبو العبّاس أحمد بن يحيى ابن بركة الدّبيقىّ البزّاز فى شهر ربيع الأول، و له أربع و ثمانون سنة أيضا.

و الحافظ عبـد القـادر [بن عبـد اللّه أبو محمـد] الرّهـاوى بحرّان، و له ست و سبعون سـنة فى جمادى الأولى. و أبو الفرج [يحيى] بن ياقوت الفرّاش فى جمادى الاخرة. و القدوة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۱۵

الزاهـد أبو الحسن علىّ بن الصّبّاغ بن حميـد الصّعيدىّ ببلـدة قنا. و أبو الفتوح محمد بن علىّ الجلاجلىّ التاجر بالقدس عن إحدى و سبعين سـنة. و محمـد بن أبى المعالى [عبـد اللّه] بن موهوب الصوفىّ ابن البنّاء فى ذى القعـدة. و أبو محمـد عبـد العزيز بن معالى [بن غنيمة بن الحسن المعروف ب] ابن منينا الاشنانىّ، و له سبع و ثمانون سنة.

مات فى ذى الحجّة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع سواء. مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعا و ثمانى عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۱۳]

السنة السابعة عشرة من ولاية الملك العادل أبى بكر بن أيّوب على مصر، و هى سنة ثلاث عشرة و ستمائة.

فيها جهّز الخليفة الناصر لدين اللّه ولدى ولده المقدّم ذكرهما إلى تستر، و ضمّهما إلى بدر الدين محمد سبط العقاب، و خرج أرباب الدولة بين يديهما، و ضرب لهما خيمة الأطلس بأطناب خضر إبريسم، و على رءوسهما الشمسيّة و البنود و الأعلام،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۱۶

و خلفهما الكوسات، و سار معهما نجاح الشرّابىّ و المكين القمّىّ بالعساكر فى سابع المحرّم، فأقاما بتستر شهرين فلم تطب لهما، فعادا إلى بغداد عند جدّهما الخليفة فى شهر ربيع الآخر.

و فيها توفّى الملك الظاهر غازى- على ما يأتى ذكره- فى هذه السنة. و توجّه الشيخ أبو العبّاس عبد السلام بن [أبى] عصرون رسولا من الملك العزيز محمد بن الظاهر غازى المذكور إلى الخليفة الناصر لدين اللّه يطلب تقريره بسلطنة حلب على ما كان أبوه عليها.

و فيها قصد الملك المعظّم عيسى صاحب دمشق الاجتماع بأخيه الملك الأشرف موسى، فاجتمعا بنواحى الرّقة، و فاوض المعظّم الأشرف فى أمر حلب.

و فيها حجّ بالناس من العراق ابن أبى فراس، و من الشام الشيخ علم الدين الجعبرىّ.

و فيها توفّى زيد بن الحسن بن زيد بن الحسن [بن زيد بن الحسن] بن سعيد بن عصمة بن حمير العلامة تاج الدين أبو اليمن الكندى البغدادىّ المقرئ النحوىّ اللغوىّ. مولده فى شعبان سنة عشرين و خمسمائة، و حفظ القرآن و هو ابن سبع سنين، و كمّل القراءات العشر و له عشر سنين.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۱۷

قال الذهبىّ: «و كان أعلى أهل الأرض إسنادا فى القراءات، فإنّى لا أعلم أحدا من الأئمة عاش بعد ما قرأ القراءات [ثلاثا و] ثمانين سنة غيره. هذا مع أنّه قرأ على أسنّ شيوخ العصر بالعراق، و لم يبق أحد ممّن قرأ عليه مثل بقائه و لا قريبا منه، بل آخر من قرأ عليه الكمال [بن] فارس، و عاش بعده نيّفا و ستين سنة. ثم إنّه سمع الحديث على الكبار، و بقى مسند الزمان فى القراءات و الحديث».

انتهى كلام الذهبىّ باختصار. و كان فاضلا أديبا و مات فى شوّال. و من شعره- رحمه اللّه تعالى-:

دع المنجّم يكبو فى ضلالته إن ادّعى علم ما يجرى به الفلك

تفرّد اللّه بالعلم القديم فلا ال إنسان يشركه فيه و لا الملك

و فيها توفّى سعيد بن حمزة بن أحمد أبو الغنائم بن شاروخ الكاتب العراقىّ.

كان فاضلا بارعا فى الأدب، و له رسائل و مكاتبات و شعر. و من شعره القصيدة التى أوّلها:

يا شائم البرق من نجدىّ كاظمة يبدو مرارا و تخفيه الدياجير

و فيها توفّى السلطان الملك الظاهر أبو منصور غازى صاحب حلب ابن السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن الأمير نجم الدين أيّوب. ولد بالقاهرة فى سنة ثمان و ستين و خمسمائة فى سلطنة والده. و نشأ تحت كنف والده، و ولّاه أبوه سلطنة حلب فى حياته. و كان ملكا مهيبا و له سياسة و فطنة، و دولة معمورة بالعلماء و الأمراء و الفضلاء. و كان محسنا للرعيّة و الوافدين عليه. و حضر معظم غزوات والده

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۱۸

السلطان صلاح الدين، و كان فى دولة الظاهر هذا من الأمراء: ميمون القصرىّ، و المبارز ابن يوسف بن خطلخ، و سنقر الحلبىّ، و سرا سنقر، و أيبك فطيس و غيرهم من الصلاحيّة. و من أرباب العمائم القاضى بهاء الدين بن شدّاد، و الشريف الافتخارىّ الهاشمىّ، و الشريف النّسّابة، و بنو العجمىّ و القيسرانىّ، و بنو الخشّاب [و غيرهم].

و کان ملجأ للغرباء و کهفا للفقراء، یزور الصالحین و یتفقّدهم، و دام علی ذلک إلی أن توفّی لیلة الثلاثاء العشرین من جمادی الآخرة بعلّة الذّرب. و دفن بقلعة حلب، ثم نقل بعد ذلک إلی مدرسته التی أنشأها. و قام بعده ولده الملک العزیز محمد بوصیّته، و ولّاه الخلیفة حسب ما تقدّم ذکره.

و فیها توفّی الشیخ عزّ الدین محمد بن الحافظ عبد الغنی المقدسیّ، ولد سنة ستّ و ستین و خمسمائة، و سمع الحدیث و رحل البلاد، و کان حافظا دیّنا و رعا زاهدا.

و دفن بقاسیون.

و فیها توفّی یحیی بن محمد بن محمد بن محمد [بن محمد] أبو جعفر الشریف الحسینیّ.

ولی نقابة الطالبیّین بالبصرة بعد أبیه؛ و قرأ الأدب، و سمع الحدیث، و من شعره- رحمه اللّه تعالی-:

هذا العقیق و هذا الجزع و البان فاحبس فلی فیه أوطار و أوطان

آلیت و الحرّ لا یلوی ألیّته ألّا تلذّ بطیب النوم أجفان

حتّی تعود لیالینا التی سلفت بالأجرعین و جیرانی کما کانوا

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۱۹

الذین ذکر الذهبیّ وفاتهم فی هذه السنة، قال: و فیها توفّی العلّامة تاج الدین أبو الیمن زید بن الحسن الکندیّ فی شوّال، و له ثلاث و تسعون سنة و شهران.

و الملک الظاهر أبو منصور غازی ابن السلطان صلاح الدین بحلب فی جمادی الآخرة.

و المحدّث عزّ الدین محمد ابن الحافظ عبد الغنی المقدسیّ فی شوّال.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم أربع أذرع و أربع أصابع. مبلغ الزیادة ست عشرة ذراعا و ثلاث و عشرون إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۱۴]

السنة الثامنة عشرة من ولایة الملک العادل أبی بکر بن أیّوب علی مصر، و هی سنة أربع عشرة و ستمائة.

فیها قدم الملک خوارزم شاه و اسمه محمد [بن تکش] إلی همذان بقصد بغداد فی أربعمائة ألف مقاتل، و قیل فی ستمائة ألف، فأستعدّ له الخلیفة الناصر لدین اللّه، و فرّق المال و السلاح، و أرسل إلیه الشیخ شهاب الدّین السّهروردیّ فی رسالة فأهانه و استدعاه و أوقفه إلی جانب تخته، و لم یأذن له بالقعود.

قال أبو المظفّر: - «حکی الشهاب قال- استدعانی فأتیت إلی خیمة عظیمة لها دهلیز لم أر فی الدنیا مثله، و الدّهلیز و الشقة أطلس و الأطناب حریر، و فی الدّهلیز ملوک العجم علی اختلاف طبقاتهم: صاحب همذان و أصبهان و الرّی و غیرهم، فدخلنا إلی خیمة أخری إبریسم؛ و فی دهلیزها ملوک خراسان: مرو و نیسابور و بلخ و غیرهم؛ ثم دخلنا خیمة أخری، و ملوک ما وراء النهر فی دهلیزها، کذلک ثلاث خیام.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۲۰

ثم دخلنا علیه و هو فی خرکاة عظیمة من ذهب؛ و علیها سجاف مرصّع بالجواهر.

و هو صبیّ له شعرات قاعد علی تخت ساذج و علیه قباء بخاریّ یساوی خمسة دراهم، و علی رأسه قطعة من جلد تساوی درهما، فسلّمت علیه فلم یردّ، و لا أمرنی بالجلوس؛ فشرعت فخطبت خطبة بلیغة، ذکرت فیها فضل بنی العبّاس و وصفت الخلیفة بالزّهد و الورع و التّقی و الدین؛ و التّرجمان یعید علیه قولی. [فلمّا فرغت] قال للترجمان: قل له هذا الذی و صفته ما هو فی بغداد؟.: قلت: نعم.

قال [أنا] أجيء و أقيم خليفة يكون بهذه الأوصاف. ثم ردّنا بغير جواب. فنزل الثّلج عليهم فهلكت دوابّهم و ركب خوارزم شاه يوما فعثر به فرسه فتطيّر، و وقع الفساد فى عسكره و قلّت الميرة. و كان معه سبعون ألفا من الخطا فردّه اللّه و نكب تلك النكبة العظيمة». و سنذكرها- إن شاء اللّه تعالى- فى محلّها.

و فيها توفّى إبراهيم [بن عبد الواحد] بن علىّ بن سرور الشيخ العماد المقدسىّ الزاهد القدوة الحنبلىّ أخو الحافظ عبد الغنى، ولد بجمّاعيل فى سنة ثلاث و أربعين و خمسمائة، فهو أصغر من الحافظ عبد الغنى بسنتين و سمع الكثير، و كان إماما حافظا عالما محدّثا زاهدا عابدا فقيها. مات فجأة فى ليلة الأربعاء سادس عشر ذى القعدة.

و فيها توفّى عبد الصمد بن محمد بن أبى الفضل بن علىّ بن عبد الواحد أبو القاسم القاضى جمال الدين الحرستانىّ الأنصارىّ شيخ القضاة. ولد بدمشق فى سنة عشرين و خمسمائة، و رحل و سمع الحديث و تفقّه، و كان إماما عفيفا خطيبا ديّنا صالحا. له حكايات مع الملك المعظّم عيسى فى أحكامه- رحمه اللّه تعالى-.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۲۱

و فيها توفّى محمد بن أبى القاسم بن محمد أبو عبد اللّه الهكّارىّ الأمير بدر الدين، استشهد على الطور، و أبلى بلاء حسنا ذلك اليوم و كان من المجاهدين، له المواقف المشهودة فى قتال الفرنج، و كان من أكابر أمراء الملك المعظّم، كان يستشيره و يصدر عن رأيه و يثق به لصلاحه و دينه و كان سمحا جوادا.

الذين ذكر الذهبى وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى المحدّث أبو الخطّاب أحمد بن محمد البلنسىّ بمرّاكش. و أبو الحسن علىّ بن محمد بن علىّ الموصلىّ أخو سليمان. و أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكنانىّ البلنسىّ الأديب الإسكندرانىّ بها، و له أربع و سبعون سنة. و قاضى القضاة أبو القاسم عبد الصمد بن محمد الحرستانىّ فى ذى الحجّة، و له أربع و تسعون سنة و أشهر. و الإمام عماد الدين إبراهيم ابن عبد الواحد المقدسىّ فجأة فى ذى القعدة، و له سبعون سنة. و المحدّث أبو محمد عبد اللّه بن عبد الجبّار العثمانىّ الإسكندرانىّ الكارمىّ بمكّة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و أربع عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و سبع عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۱۵]

اشارة

السنة التاسعة عشرة من ولاية الملک العادل أبى بكر بن أيّوب على مصر، و هى التى مات فيها العادل فى جمادى الآخرة حسب ما تقدّم ذكره، و هى سنة خمس عشرة و ستمائة.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۲۲

و فيها نزلت الفرنج على دمياط فى شهر ربيع الأوّل، و كان العادل بمرج الصّفّر، فبعث بالعساكر التى كانت معه إلى مصر إلى ولده الكامل، و أقام المعظّم بالساحل بعسكر الشام فى مقابلة الفرنج ليشغلهم عن دمياط.

و فيها استدعى الملك العادل صاحب الترجمة ابنه الملك المعظّم المقدّم ذكره و قال له: قد بنيت هذا الطّور، و هو يكون سببا لخراب الشام، و قد سلّم اللّه من كان فيه من أبطال المسلمين، و سلاح الدنيا و الذخائر؛ و أرى من المصلحة خرابه ليتوفّر من فيه من المسلمين و العدد على حفظ دمياط، و أنا أعوّضك عنه؛ فتوقّف المعظّم و بقى أيّاما لا يدخل إلى أبيه العادل، فبعث إليه العادل ثانيا و أرضاه

بالمال، و وعده فى مصر ببلاد، فأجاب المعظّم و بعث و نقل ما كان فيه.

و فيها فى يوم الجمعة ثانى عشر شهر ربيع الآخر كسر الملك الأشرف موسى صاحب خلاط و ديار بكر و حلب ابن الملك العادل هذا ملك الروم كيكاوس.

و فيها أيضا بعث الأشرف المذكور بالأمير سيف الدين بن كهدان و المبارز ابن خطلخ بجماعة من العساكر نجدة إلى أخيه الملك الكامل بدمياط، كلّ ذلک و القتال عمّال بين الملک الكامل و الفرنج على ثغر دمياط.

و فيها فى آخر جمادى الأولى أخذ الفرنج برج السّلسلة من الكامل، فأرسل الكامل شيخ الشيوخ صدر الدين إلى أبيه العادل و أخبره، فدقّ العادل بيده على صدره، و مرض من قهره مرض الموت.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۲۳

و فيها فى جمادى الآخرة التقى الملك المعظّم الفرنج بساحل الشام و قاتلهم فنصره اللّه عليهم، و قتل منهم مقتلة، و أسر من الدّاويّة مائة فارس، و أدخلهم القدس منكّسى الأعلام.

و فيها وصل رسول خوارزم شاه إلى الملك العادل هذا و هو بمرج الصّفّر، فبعث بالجواب الخطيب الدّولعىّ و نجم الدين خليل [ابن علىّ الحنفى] قاضى العسكر، فوصلا همذان فوجدا الخوارزمىّ قد اندفع بين يدى الخطا [و التتار]، و قد خامر عليه عسكره، فسارا إلى حدّ بخارى؛ فاجتمعا بولده الملك جلال الدين فأخبرهما بوفاة العادل صاحب الترجمة مرسلهما، فرجعا إلى دمشق.

و فيها حجّ بالناس من بغداد أقباش الناصرى.

و فيها توفّى عبد اللّه بن الحسين أبو القاسم عماد الدين الدّامغانىّ الحنفىّ قاضى القضاة ببغداد؛ و مولده فى شهر رجب سنة أربع و ستين و خمسمائة. و كان له صمت و وقار و دين و عصمة و عفّة و سيرة حسنة مع العلم و الفضل، و كانت وفاته فى ذى القعدة و دفن بالشّونيزيّة.

و فيها توفّى كيكاوس الأمير عزّ الدين صاحب الروم، كان جبّارا ظالما سفّاكا للدماء، و لمّا عاد إلى بلده من كسرة الأشرف موسى اتّهم أقواما من أمراء دولته

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۲۴

أنهم قصّروا فى قتال الحلبيّين، و سلق منهم جماعة فى القدور، و جعل آخرين فى بيت و أحرقه؛ فأخذه اللّه بغتة. و مات سكران فجأة؛ و قيل: بل ابتلى فى بدنه، و تقطّعت أوصاله. و كان أخوه علاء الدين كيقباد محبوسا فى قلعة، و قد أمر كيكاوس بقتله، فبادروا و أخرجوه، و أقاموه فى الملك. و كانت وفاة كيكاوس فى شوّال، و هو الذى أطمع الفرنج فى دمياط.

و فيها توفّى خوارزم شاه و اسمه محمد بن تكش بن إيل أرسلان بن أتسر ابن محمد بن أنوشتكين السلطان علاء الدين المعروف بخوارزم شاه.

قال ابن واصل: نسبه ينتهى إلى إيلتكين أحد مماليك السلطان ألب أرسلان ابن طغرلبك السّلجوقىّ، و كانت سلطنة خوارزم شاه المذكور فى سنة ست و تسعين و خمسمائة عند موت والده السلطان علاء الدين تكش.

و قال عز الدين بن الأثير: كان صبورا على التعب و إدمان السّير غير متنعّم و لا مقبل على اللّذات، إنّما همّته فى الملك و تدبيره و حفظه و حفظ رعيّته، و كان فاضلا عالما بالفقه و الأصول و غيرهما، و كان مكرما للعلماء محبّا لهم محسنا إليهم يحبّ مناظرتهم بين يديه و يعظم أهل الدين و يتبرّك بهم.

- قلت: و هذا بخلاف ما ذكره أبو المظفّر ممّا حكاه عن الشيخ شهاب الدين السّهروردىّ، لمّا توجه إلى خوارزم شاه هذا رسولا من قبل الخليفة الناصر لدين اللّه فإنّه ذكر عنه أشياء من التكبر و التعاظم عليه، و عدم الالتفات له، و إنّه صار لا يفهم كلام السّهروردىّ إلّا بالتّرجمان؛ و لعلّه كان فعل ذلک لإظهار العظمة، و هو نوع من تجاهل العارف- قال: و كان أعظم ملوک الدنيا و اتّسعت ممالكه

شرقا و غربا

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۲۵

و هابته الملوک حتّی لم یبق إلّا من دخل تحت طاعته و صار من عسکره. و محق أبوه التّتار بالسیف و ملک منهم البلاد. و وقع له أمور طویلة حتّی إنّه نزل همذان، و کان فی عسکره سبعون ألفا من الخطا؛ فکاتب القمّیّ عساکره و وعدهم بالبلاد، فآتّفقوا مع الخطا علی قتله. و کان خاله من الخطا و حلّفوه ألّا یطلعه علی ما دبّروا علیه، فجاء إلیه فی اللیل و کتب فی یده صورة الحال، فقام و خرج من وقته و معه ولداه: جلال الدین و آخر؛ و لمّا خرج من الخیمة دخل الخطا و العساکر من بابها ظنّا منهم أنّه فیها، فلم یجدوه فنهبوا الخزائن، یقال: إنّه کان فی خزائنه عشرة آلاف ألف دینار، و ألف حمل قماش أطلس، و عشرون ألف فرس و بغل، و کان له عشرة آلاف مملوک، فتمزّق الجمیع و هرب ولداه إلی الهند، و هرب خوارزم شاه إلی الجزیرة، و فیها قلعة لیتحصّن بها، فمات دون طلوع القلحة المذکورة فی هذه السنة، و قیل: فی سنة سبع عشرة و ستمائة. و اللّه أعلم.

و فیها توفّی الملک القاهر عزّ الدّین مسعود [بن أرسلان بن مسعود بن مودود ابن زنکی أبو الفتح] صاحب الموصل، و ترک ولدا صغیرا اسمه محمود، فأخرج الأمیر بدر الدین لؤلؤ زنکیّ أخا القاهر من الموصل و استولی علیها، و دبّر مملکة محمود المذکور.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۲۶

الذین ذکر الذهبیّ وفاتهم فی هذه السنة، قال: و فیها توفّی الشهاب فتیان بن علیّ الشاغوریّ الأدیب. و صاحب الروم السلطان عزّ الدین کیکاوس، و ولی بعده علاء الدین أخوه. و صاحب الموصل عزّ الدین مسعود بن أرسلان شاه الاتابکیّ.

و صاحب مصر و غیرها السلطان الملک العادل سیف الدین أبو بکر بن أیّوب فی جمادی الآخرة عن سبع و سبعین سنة. و أبو الفتوح محمد بن محمد [بن محمد] بن عمروک البکریّ النّیسابوریّ الصّوفیّ فی جمادی الآخرة، و هو فی عشر المائة.

و الشمس أبو القاسم أحمد بن عبد اللّه بن عبد الصمد السلمیّ العطّار فی شعبان.

و الحافظ أبو العبّاس أحمد بن أحمد بن أحمد بن کرم البندنیجیّ فی رمضان عن أربع و سبعین سنة، سمع ابن الزّاغونیّ. و أمّ المؤیّد زینب بنت عبد الرحمن بن الحسن الشّعریّة، و لها إحدی و تسعون سنة.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم ستّ أذرع و ستّ أصابع. مبلغ الزیادة ستّ عشرة ذراعا و ستّ أصابع.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۲۷

ذکر سلطنة الملک الکامل علی مصر

أعنی بذلک استقلالا بعد وفاة أبیه العادل، لأنّ الکامل هذا کان متولّی سلطنة مصر فی حیاة والده العادل، لمّا قسم العادل الممالک فی أولاده من سنین عدیدة؛ أعطی المعظّم عیسی دمشق، و أعطی الأشرف موسی الشرق، و أعطی الملک الکامل محمدا هذا مصر، و صار هو یتنقّل فی ممالک أولاده، و العمدة فی کلّ الممالک علیه إلی أن مات الملک العادل تفرّد الملک الکامل محمد بالخطبة فی دیار مصر و أعمالها، و استقلّ بأمورها و تدبیر أحوالها، و ذلک من یوم وفاة والده الملک العادل المذکور، و هو من یوم الجمعة سابع جمادی الآخرة من سنة خمس عشرة و ستمائة.

قلت: و قد تقدّم نسب الملک الکامل هذا فی ترجمة عمه السلطان صلاح الدین، و استوعبنا ذلک من عدّة أقوال و حررناه، فلینظر هناک.

قال أبو المظفّر: «ولد الکامل سنة ثلاث و سبعین و خمسمائة، و کان أکبر أولاد العادل بعد مودود، و کان العادل قد عهد إلیه لما رأی من ثباته و عقله و سداده.

و کان شجاعا ذکیّا فطنا یحبّ العلماء و الأمائل و یلقی علیهم المشکلات، و یتکلّم علی صحیح مسلم بکلام ملیح، و یثبت بین یدی

العدوّ. و أمّا عدله فإليه المنتهى» انتهى كلام أبى المظفّر باختصار.

و قال الحافظ أبو عبد اللّه شمس الدين محمد الذهبىّ فى تاريخ الإسلام: «الملك الكامل محمد السلطان ناصر الدين أبو المعالى و أبو المظفّر ابن السلطان الملك العادل سيف الدين أبى بكر محمد بن أيّوب بن شادى صاحب مصر. ولد بمصر سنة ست و سبعين و خمسمائة.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۲۸

- قلت: و هذا بخلاف ما نقله أبو المظفّر فى سنة مولده، و عندى أنّ أبا المظفر أثبت لصحبته بأخيه المعظم عيسى، و كونه أيضا عصرى الملك الكامل هذا-.

و اللّه أعلم.

قال (أعنى الذهبىّ): و أجاز له العلّامة عبد اللّه بن برّى، و أبو عبد اللّه ابن صدقه الحرّانىّ، و عبد الرحمن بن الخرقىّ، قرأت بخطّ ابن مسدىّ فى معجمه. كان الكامل محبّا للحديث و أهله، حريصا على حفظه و نقله، و للعلم عنده شرف؛ خرّج له أبو القاسم بن الصّفراوىّ أربعين حديثا، و سمعها جماعة.

و حكى لى عنه مكرم الكاتب أنّ أباه العادل استجاز له السّلفىّ قبل موت السّلفىّ بأيّام، قال ابن المسدىّ: ثم وقفت أنا على ذلک و أجاز لى [و] لابنى. قال الذهبىّ:

و تملّک الديار المصريّة أربعين سنة، شطرها فى أيّام والده. و قيل: بل ولد فى ذى القعدة سنة خمس و سبعين. قلت: و هذا قول ثالث فى مولده.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۲۹

و قال الحافظ عبد العظيم المنذرىّ استادار الحديث بالقاهرة (يعنى بذلک المدرسة الكامليّة بين القصرين). قال: و عمّر القبّة على ضريح الشافعىّ، و أجرى الماء من بركة الحبش إلى حوض السّبيل و السّقاية، و هما على باب القبّة المذكورة،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۳۰

و وقف غير ذلک من الوقوف على أنواع من أعمال البر بمصر و غيرها. و له المواقف المشهودة فى الجهاد بدمياط المدّة الطويلة، و أنفق الأموال الكثيرة، و كافح العدوّ المخذول برّا و بحرا ليلا و نهارا. يعرف ذلک من مشاهده. و لم يزل على ذلک حتّى أعزّ اللّه الإسلام و أهله، و خذل الكفر و أهله. و كان معظّما للسّنّة النبويّة و أهلها، راغبا فى نشرها و التمسّک بها، مؤثّرا الاجتماع مع العلماء و الكلام معهم حضرا و سفرا.

انتهى كلام المنذرى باختصار.

و قال القاضى شمس الدين ابن خلّكان فى تاريخه بعد ما ساق نسبه و ذكره نحوا ممّا ذكرناه حتّى قال: «و لمّا وصل الفرنج إلى دمياط كما تقدّم ذكره، كان الملک الكامل فى مبدأ استقلاله بالسلطنة، و كان عنده جماعة كثيرة من أكابر الأمراء:

منهم: عماد الدين أحمد بن المشطوب، فاتّفقوا مع أخيه الملک الفائز سابق الدين إبراهيم ابن الملک العادل، و انضموا إليه، فظهر للملک الكامل منهم أمور تدلّ على أنّهم عازمون على تفويض الملک إليه و خلع الكامل، و اشتهر ذلک بين الناس؛ و كان الملک الكامل يداريهم لكونه فى قبالة العدوّ و لا يمكنه المقاهرة، و طوّل روحه معهم، و لم يزل على ذلک حتّى وصل إليه أخوه الملک المعظّم عيسى صاحب دمشق يوم الخميس تاسع عشر ذى القعدة من سنة خمس عشرة و ستمائة، فأطلعه الكامل فى الباطن على صورة الحال، و أنّ رأس هذه الطائفة ابن المشطوب، فجاءه يوما على غفلة فى خيمته و استدعاه فخرج إليه، فقال [له]: أريد أن أتحدّث [معک] سرّا فى خلوة، فركب فرسه (يعنى [ابن] المشطوب). و سار معه جريدة، و قد جرّد المعظّم جماعة ممّن يعتمد عليهم و يثق إليهم، و قال لهم: اتّبعونا، و لم يزل المعظّم يشغله

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۳۱

بالحديث و يخرج معه من شيء إلى شيء حتّى أبعد عن المخيّم، ثم قال له: يا عماد الدين هذه البلاد لک، [و] نشتهى أن تهبها لنا، ثم أعطاه شيئا من النفقـة، و قال لأولئک المجرّدين: تسلّموه حتّى تخرجوه من الرمل، فلم يسعه إلا الامتثال لانفراده و عدم القدرة على الممانعة فى تلک الحال؛ ثم عاد المعظّم إلى أخيه الملک الكامل و عرّفه صورة ما جرى. ثم جهّز أخاه الملک الفائز المذكور إلى الموصل لإحضار النجدة منها [و] من بلاد الشرق فمات بسنجار. و كان ذلک خديعة لإخراجه من البلاد. فلمّا خرج هذان الشخصان من العسكر تحلّلت عزائم من بقى من الأمراء الموافقين لهما، و دخلوا فى طاعة الملک الكامل كرها لا طوعا. و جرى فى قصّة دمياط ما هو مشهور فلا حاجة للإطالة فى ذكره.

و لمّا ملک الفرنج دمياط و صارت فى أيديهم خرجوا منها قاصدين القاهرة و مصر [و] نزلوا فى رأس الجزيرة التى دمياط فى برّها، و كان المسلمون قبالتهم فى القرية المعروفة بالمنصورة، و البحر حائل بينهم، و هو بحر أشموم، و نصر اللّه- سبحانه و تعالى- بمنّه

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۳۲

و جميل لطفه المسلمين عليهم كما هو مشهور؛ و رحل الفرنج عن منزلتهم ليلة الجمعة سابع رجب سنة ثمانى عشرة و ستمائة، و تمّ الصلح بينهم و بين المسلمين فى حادى عشر الشهر المذكور، و رحل الفرنج عن البلاد فى شعبان من السنة المذكورة، و كانت مدّة إقامتهم فى بلاد الإسلام ما بين الشام و الديار المصريّة أربعين شهرا و أربعة عشر يوما؛ و كفى اللّه- تعالى- المسلمين شرّهم و الحمد للّه على ذلک.

- قلت و نذكر أمر دمياط من كلام أبى المظفّر فى آخر هذه الترجمة بأوسع من ذلک، لأنّه معاصر الكامل و صاحب المعظّم، فهو أجدر بهذه الواقعة-.

فلمّا استراح خاطر الملک الكامل من جهة هذا العدوّ تفرّغ للأمراء الذين كانوا متحاملين عليه فنفاهم عن البلاد و بدّد شملهم و شرّدهم، و دخل القاهرة و شرع فى عمارة البلاد و استخراج الأموال من جهاتها، و كان سلطانا عظيم القدر جميل الذكر محبّا للعلماء متمسّكا بالسّنة، حسن الاعتقاد معاشرا لأرباب الفضائل حازما فى أموره لا يضع الشيء إلّا فى مواضعه من غير إسراف و لا إقتار، و كان يبيت عنده كلّ ليلة [جمعة] جماعة من الفضلاء يشاركهم فى مباحثهم، و يسألهم عن المواضع المشكلة فى كلّ فنّ، و هو معهم كواحد منهم، و كان- رحمه اللّه- يعجبه هذان البيتان و ينشدهما كثيرا و هما:

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۳۳

ما كنت [من] قبل ملک قلبى تصدّ عن مدنف حزين

و إنّما قد طمعت لمّا حللت فى موضع حصين

قال: و لمّا مات أخوه الملک المعظّم عيسى صاحب الشام، و قام ابنه الملک الناصر صلاح الدين دواد مقامه، خرج الملک الكامل من الديار المصريّة قاصدا أخذ دمشق منه؛ و جاءه أخوه الملک الأشرف مظفّر الدين موسى، و اجتمعا على أخذ دمشق بعد فصول يطول شرحها. و ملک الكامل دمشق فى أوّل شعبان سنة ست و عشرين و ستمائة، و كان يوم الاثنين؛ فلمّا ملكها دفعها لأخيه الملک الأشرف، و أخذ عوضها من بلاد الأشرف: حرّان و الرّها و سروج و الرّقّة و رأس العين؛ و توجّه إليها بنفسه فى تاسع شهر رمضان من السنة. قال ابن خلّكان: و اجتزت بحرّان فى شوّال سنة ستّ و عشرين و ستمائة و الملک الكامل مقيم به بعساكر الديار المصريّة؛ و جلال الدين خوارزم شاه يوم ذاک محاصر لخلاط، و كانت لأخيه الملک الأشرف. ثم رجع إلى الديار المصريّة؛ ثم تجهّز فى جيش عظيم، و قصد آمد فى سنة تسع و عشرين و ستمائة فأخذها مع حصن كيفا و البلاد من الملک المسعود بن الملک الصالح أبى الفتح محمود بن نور الدين محمد بن فخر الدين قرا أرسلان بن ركن الدولة داود بن قطب الدين سقمان؛ و يقال سكمان بن أرتق، قال: ثمّ مات أخوه الملک الأشرف و جعل ولىّ عهد أخاه الملک الصالح إسماعيل بن العادل، فقصده الملک الكامل أيضا، و انتزع منه

دمشق بعد مصالحة جرت بينهما فى التاسع من جمادى

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۳۴

الأولى سنة خمس و ثلاثين و ستمائة، و أبقى له بعلبکّ و أعمالها، و بصرى و أرض السّواد و تلک البلاد. و لمّا ملک البلاد المشرقيّة: آمد و تلک النواحى استخلف فيها ولده الملک الصالح نجم الدين أيّوب، و استخلف ولده الأصغر الملک العادل سيف الدين أبا بکر بالـديار المصـريّة. و قـد تقـدّم فى ترجمة الملک العادل أنّه سيّر ولده الملک المسـعود أقسـيس إلى اليمن، و کان أکبر أولاد الملک الکامل. و ملک الملک المسـعود مکّة- حرسـها اللّه تعالى- و بلاد الحجاز مضافة إلى اليمن، و کان رحيل الملک المسعود من الديار المصـريّة متوجّها إلى اليمن فى يوم الاثنين سابع عشـر رمضان سنة إحدى عشرة و ستمائة، و دخل مکّة فى ثالث ذى القعدة من السنة، و خطب له بها و حجّ؛ و دخل زبيد و ملکها مستهلّ المحرّم سنة اثنتى عشرة و ستمائة. ثم ملک مکّة فى شهر ربيع الآخر سنة عشرين و ستمائة، أخذها من الشريف حسن بن قتادة الحسينىّ.

قلت: و قـد ذکرنا خروج الملک المسـعود إلى اليمن من وقته فى ترجمـة جدّه الملک العادل. و توفّى الملک المسعود فى حياة والده الملک الکامل بمکّة فى ثالث جمادى الأولى سـنة ست و عشـرين و سـتمائة. و کان مولده فى سـنة سـبع و تسـعين و خمسمائة و أظنّه أکبر أولاد الکامل. و اللّه أعلم.

قال ابن خلّکان: و اتّسـعت المملکـة للملک الکامل، و لقـد حکى لى من حضـر الخطبـة يوم الجمعـة بمکّة أنّه لمّا وصل الخطيب إلى الـدعاء للملک الکامل قال: سـلطان مکّـة و عبيـدها، و اليمن و زبيـدها و مصـر و صـعيدها، و الشام و صـناديدها، و الجزيرة و وليدها، سلطان القبلتين و ربّ العلامتين و خادم الحرمين الشريفين الملک الکامل

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۳۵

أبو المعـالى ناصـر الـدين محمـد خليـل أمير المؤمنين. قـال: و لقـد رأيته بـدمشق سـنة ثلاث و ثلاثين و سـتمائة عنـد رجوعه من بلاد المشـرق، و اسـتنقاذه إيّاها من الأمير علاء الدين کيقباد بن کيخسـرو بن قليج أرسـلان بن مسـعود [بن قليج أرسـلان] بن سـليمان [بن قتلمش] بن إسرائيل بن سلجوق بن دقماق السّلجوقىّ صاحب الروم.

و هى وقعة مشهورة يطول شرحها؛ و فى خدمته يومئذ بضعة عشر ملکا، منهم:

[أخوه] الملک الأشـرف، و لم يزل فى علوّ شأنه و عظيم سـلطانه إلى أن مرض بعـد أخـذه دمشق و لم يرکب، و کان ينشد فى مرضـه کثيرا:

يا خليلىّ خبّرانى بصدق کيف طعم الکرى فإنّى نسيته

و لم يزل کـذلک إلى أن توفّى يوم الأربعاء بعـد العصـر، و دفن بالقلعـة بمدينـة دمشق يوم الخميس الثانى و العشـرين من رجب سـنة خمس و ثلاـثين و سـتمائة، و أنا بـدمشق يومئـذ، و حضـرت الصّـيحة يوم السـبت فى جامع دمشق، لأنّهم أخفوا موته إلى وقت صـلاة الجمعـة، فلمّـا دنت الصـلاة قام بعض الـدّعاة [على العريش الـذى] بين يـدى المنبر و ترحّم على الملک الکامل، و دعا لولـده الملک العادل صاحب مصـر، و کنت حاضـرا فى ذلک الوقت، فضـجّ الناس ضـجّة واحـدة، و کانوا قـد أحسّوا بـذلک، لکنهم لم يتحقّقوا إلّا ذلک الوقت، و ترتّب ابن أخيه الملک الجواد مظفّر الدين يونس ابن شـمس الدين مودود بن الملک العادل فى نيابة السـلطنة بدمشق عن الملک العادل بن الکامل صاحب مصر باتفاق الأمراء الذين کانوا حاضرين ذلک الوقت بدمشق؛ ثم بنى له تربة مجاورة للجامع، و لها شبّاک إلى الجامع، و نقل إليها. قال: و أمّا ولـده الملک العادل [فإنه] أقام فى المملکـة إلى يوم الجمعـة ثامن ذى الحجة من سـنة سبع و ثلاثين و ستمائة،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۳۶

فقبض عليه أمراء دولته بظاهر بلبيس». انتهى کلام ابن خلّکان على جليّته.

و نذكر أيضا من أحوال الكامل نبذة جيّدة من أقوال غيره من المؤرّخين. إن شاء اللّه تعالى.

قال بعضهم: كان الملك الكامل فاضلا عالما شهما مهيبا عاقلا محبّا للعلماء، و له شعر حسن، و اشتغال فى العلم. قيل: إنّه شكا إليه ركبدار أستاذه بأنّه استخدمه ستة أشهر بلا جامكيّة، فأنزل أستاذه من فرسه و ألبسه ثياب الركبدار، و ألبس الركبدار ثيابه، و أمره بخدمة الركبدار و حمل مداسه ستة أشهر حتّى شفع فيه.

و كانت الطرق آمنة فى زمانه. و لمّا بعث ابنه الملك المسعود أقسيس و افتتح اليمن و الحجاز ثم مات قبله كما ذكرناه ورث منه أموالا عظيمة، ففرّق غالبها فى وجوه البرّ و الصدقات. و كانت راية الملك الكامل صفراء. و فيه يقول البهاء زهير:

- رحمه اللّه تعالى-.

بك اهتزّ عطف الدّين فى حلل النّصر و ردّت على أعقابها ملّة الكفر

و أقسم إن ذاقت بنو الأصفر الكرى لما حلمت إلّا بأعلامك الصفر

ثلاثة أعوام أقمت و أشهرا تجاهد فيهم لا بزيد و لا عمرو

و ليلة غزو للعدوّ كأنّها بكثرة من أرديته ليلة النّحر

فياليلة قد شرّف اللّه قدرها فلا غرو إن سمّيتها ليلة القدر

و قال: و كان فيه جبروت مع سفك الدماء.

و ذكر الشيخ شمس الدين محمد بن إبراهيم الجزرىّ: أنّ عماد الدين يحيى البيضاوىّ الشريف قال: حكى لى الخادم الذى للكامل قال: طلب منّى الكامل

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۳۷

طستا حتّى يتقيّأ فيه فأحضرته، و كان الملك الناصر داود على الباب، جاء ليعود عمّه الكامل؛ فقلت: داود على الباب، فقال: ينتظر موتى! فانزعج، فخرجت و قلت: ما ذاك وقتك السلطان منزعج، فنزل إلى داره؛ و دخلت إلى السلطان فوجدته قد قضى و الطست بين يديه و هو مكبوب على المخدّة.

و قال ابن واصل: حكى لى طبيبه قال: أصابه لمّا دخل قلعة دمشق زكام، فدخل الحمّام و صبّ على رأسه ماء شديد الحرارة، اتّباعا لقول محمد بن زكريّا الرازىّ فى كتاب سمّاه «طبّ ساعة»؛ قال فيه: من أصابه زكام يصبّ على رأسه ماء شديد الحرارة انحلّ زكامه لوقته، و هو لا ينبغى أن يعمل على إطلاقه؛ قال الطبيب: فانصبّ من دماغه إلى فم معدته فتورّمت، و عرضت له حمّى شديدة، و أراد القيء فنهاه الأطبّاء، و قالوا: إن تقيّأ هلك، فخالفهم و تقيّأ فهلك لوقته.

قال ابن واصل: و حكى لى الحكم رضىّ الدين قال: عرضت له خوانيق، و تقيّأ دما كثيرا و مدّة؛ فأراد القيء أيضا فنهاه موفّق الدين إبراهيم، و أشار عليه بعض الأطباء بالقيء فتقيّأ، فانصبّت بقيّة المادة إلى قصبة الرئة و سدّتها فمات.

و قال ابن واصل: و كان ملكا جليلا حازما، سديد الآراء حسن التدبير لممالكه عفيفا حليما؛ عمّرت فى أيّامه الديار المصريّة عمارة كبيرة، و كان عنده مسائل غريبة من الفقه و النحو يوردها، فمن أجابه حظى عنده.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۳۸

ذكر أخذ دمياط

قال أبو المظفّر فى تاريخه: «فى شعبان أخذ الفرنج دمياط، و كان المعظّم قد جهّز إليها الناهض بن الجرخى فى خمسمائة راجل، فهجموا على الخنادق فقتل ابن الجرخى و من كان معه، و صفّوا رءوس القتلى على الخنادق، و كان الفرنج قد طمّوها (يعنى الخنادق) و ضعف أهل دمياط و أكلوا الميتات، و عجز الملك الكامل عن نصرتهم، و وقع فيهم الوباء و الفناء، فراسلوا الفرنج على أن يسلّموا

إليهم البلد و يخرجوا منه بأموالهم و أهلهم، و اجتمعوا؟؟؟ و حلّفوهم على ذلك، فركبوا فى المراكب و زحفوا فى البرّ و البحر، و فتح لهم أهل دمياط الأبواب، فدخلوا و رفعوا أعلامهم على السّور، و غدروا بأهل دمياط، و وضعوا فيهم السيف قتلا و أسرا، و باتوا تلك الليلة بالجامع يفجرون بالنساء، و يفتضّون البنات، و أخذوا المنبر و المصاحف و رءوس القتلى، و بعثوا بها إلى الجزائر، و جعلوا الجامع كنيسة؛ و كان أبو الحسن ابن قفل بدمياط، فسألوا عنه، فقيل لهم: هذا رجل صالح من مشايخ المسلمين يأوى اليه الفقراء، فما تعرّضوا له. و وقع على المسلمين كآبة عظيمة. و بكى الكامل و المعظّم بكاء شديدا، ثم تأخّرت العساكر عن تلك المنزلة. ثم قال الكامل لأخيه المعظّم:

قد فات المطلوب، و جرى المقدر بما هو كائن، و ما فى مقامك هاهنا فائدة؛ و المصلحة أن تنزل إلى الشام تشغل خواطر الفرنج، و تستجلب العساكر من بلاد الشرق.

قال أبو المظفّر: فكتب المعظّم إلىّ و أنا بدمشق كتابا بخطّه، يقول- فى أوّله -

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۳۹

قد علم الأخ العزيز بأن قد جرى على دمياط ما جرى، و أريد أن تحرّض الناس على الجهاد، و نعرّفهم ما جرى على إخوانهم أهل دمياط من الكفرة أهل العناد.

و إنّى كشفت ضياع الشام فوجدتها ألفى قرية، منها ألف و ستّمائة أملاك لأهلها، و أربعمائة سلطانيّة، و كم مقدار ما تقوم به هذه الأربعمائة من العساكر؟ و أريد أن تخرج الدماشقة ليذبّوا عن أملاكهم الأصاغر منهم و الأكابر. و يكون لقاؤنا و هم صحبتك إلى نابلس فى وقت سمّاه. قال: فجلست بجامع دمشق و قرأت كتابه عليهم، فأجابوا بالسمع و الطاعة، [و قالوا: نمتثل أمره بحسب الاستطاعة]. و تجهّزوا؛ فلمّا حلّ ركابه بالساحل وقع التقاعد، و كان تقاعدهم سببا لأخذه الثمن و الخمس من أموالهم. و كتب إلىّ يقول: إذا لم يخرجوا فسر أنت إلينا، فخرجت إلى الساحل و هو نازل على قيسارية، فأقمنا حتّى فتحها عنوة، ثم سرنا إلى النفر ففتحه و هدمه؛ و عاد إلى دمشق بعد أن أخرج العساكر إلى السواحل. و استمرّ الملك الكامل على مقاتلة الفرنج إلى أن فتح اللّه عليه فى سنة ثمانى عشرة و ستمائة، و طلب من إخوته النجدة، و توجّه المعظّم فى أوّل السنة إلى أخيه الأشرف موسى، و اجتمعا على حرّان.

و كتب صاحب ماردين إلى الأشرف يسأله أن يصعد المعظّم إليه، فسأله فسار إلى ماردين، فتلقّاه صاحب ماردين من دنيسر، و أصعده إلى القلعة و خدمه خدمة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۴۰

عظيمة، و قدّم له التّحف و الجواهر و تحالفا و اتّفقا على ما أرادا، ثم عاد المعظّم إلى أخيه الأشرف. و جاء خبر دمياط. و كان المعظّم أحرص الناس على خلاص دمياط و الغزاة، و كان مصافيا لأخيه الكامل، و كان الأشرف مقصّرا فى حقّ الكامل مباينا له فى الباطن؛ فلمّا اجتمعت العساكر على حرّان قطع بهم المعظّم الفرات، و سار الأشرف فى آثاره، و نزل المعظّم حمص و الأشرف سلمية. قال: و كنت قد خرجت من دمشق إلى حمص لطلب الغزاة، فإنّهم كانوا على عزم الدخول إلى طرابلس، فاجتمعت بالمعظّم فى شهر ربيع الآخر فقال لى: قد سحبت الأشرف إلى هاهنا و هو كاره، و كلّ يوم أعتبه فى تأخّره و هو يكاسر و أخاف من الفرنج أن يستولوا على مصر، و هو صديقك؛ و أشتهى أن تقوم تروح إليه فقد سألنى عنك [مرارا]؛ ثم كتب إلى [أخيه] كتابا بخطّه نحو ثمانين سطرا، فأخذته و مضيت إلى سلمية؛ و بلغ الأشرف وصولى فخرج من الخيمة و تلقّانى و عاتبنى على انقطاعى، [عنه] و جرى بينى و بينه فصول؛ و قلت له: المسلمون فى ضائقة، و إذا أخذ الفرنج الديار المصريّة ملكوا إلى حضرموت، و عفّوا آثار مكّة و المدينة و الشام [و أنت تلعب]، قم الساعة و ارحل؛ فقال: ارموا الخيام [و الدهليز]، و سبقته إلى حمص فتلقّانى المعظّم؛ و قال: ما نمت البارحة و لا أكلت اليوم شيئا، فقلت: غدا يصبّح أخوك الأشرف حمص.

فلمّا كان من الغد أقبلت الأطلاب و جاء طلب الأشرف، و اللّه ما رأيت أجمل منه و لا أحسن رجالا و لا أكمل عدّة، و سرّ المعظّم

سرورا عظیما؛ و جلسوا تلک اللیلهٔ

النجوم الزاهرهٔ فی ملوک مصر و القاهرهٔ، ج۶، ص: ۲۴۱

یتشاورون، فاتّفقوا علی الدخول فی السحر إلی طرابلس، و کانوا علی حال، فأنطق اللّه الملک الأشرف من غیر قصد و قال للمعظّم: یاخوند، عوض ما ندخل الساحل و تضعف خیلنا و عساکرنا و یضیع الزمان ما نروج إلی دمیاط و نستریح؟ فقال له المعظّم- قول رماهٔ البندق قال-: نعم، فقبّل المعظّم قدمه و نام الأشرف، فخرج المعظّم من الخیمهٔ کالأسد الضاری یصیح: الرحیل الرحیل إلی دمیاط؛ و ما کان یظنّ أنّ الأشرف یسمح بذلک، و ساق المعظّم إلی دمشق و تبعته العساکر، و نام الأشرف فی خیمته إلی قرب الظهر، و انتبه فدخل الحمّام فلم یر [حول] خیمته أحدا، فقال: و أین العساکر؟ فأخبروه الخبر فسکت، و ساق إلی دمشق فنزل القصیر یوم الثلاثاء رابع جمادی الأولی، فأقام إلی سلخه، و عرض العساکر تحت قلعهٔ دمشق، و کان هو و أخوه المعظّم فی الطّیارهٔ بقلعهٔ دمشق، و ساروا إلی مصر.

و أمّا الفرنج فإنّهم خرجوا بالفارس و الراجل، و کان البحر زائدا جدّا، فجاءوا إلی ترعهٔ فأرسوا علیها، و فتح المسلمون علیهم الترع من کلّ مکان، و أحدق بهم عساکر الکامل، فلم یبق [لهم] وصول إلی دمیاط؛ و جاء أسطول المسلمین فأخذوا مراکبهم، و منعوهم أن تصل إلیهم المیرهٔ من دمیاط، و کانوا خلقا عظیما، و انقطعت أخبارهم عن دمیاط، و کان فیهم مائهٔ کند و ثمانمائهٔ من الخیّالهٔ المعروفین و ملک عکّا و الدوک؟ و اللوکان نائب البابا؛ و من الرجّالهٔ مالا یحصی، فلمّا عاینوا الهلاک أرسلوا إلی الکامل یطلبون الصلح و الرهائن، و یسلّمون دمیاط؛ فمن حرص الکامل علی

النجوم الزاهرهٔ فی ملوک مصر و القاهرهٔ، ج۶، ص: ۲۴۲

خلاص دمیاط أجابهم، و لو أقاموا یومین أخذوا برقابهم؛ فبعث إلیهم الکامل ابنه الملک الصالح نجم الدین أیّوب، و ابن أخیه شمس الملوک؛ و جاء ملوکهم إلی الکامل ممّن سمّینا، فالتقاهم و أنعم علیهم و ضرب لهم الخیام. و وصل المعظّم و الأشرف فی تلک الحال إلی المنصورهٔ فی ثالث رجب، فجلس الکامل مجلسا عظیما فی خیمهٔ کبیرهٔ عالیهٔ، و قد مدّ سماطا عظیما، و أحضر ملوک الفرنج [و الخیّالهٔ]، و وقف المعظّم و الأشرف و الملوک فی خدمته، و قام الحلّی الشاعر- رحمه اللّه تعالی- فأنشد:

هنیئا فإنّ السعد راح مخلّدا و قد أنجز الرحمن بالنصر موعدا

حبانا إله الخلق فتحا بدا لنا مبینا و إنعاما و عزّا مؤبّدا

تهلّل وجه الدهر بعد قطوبه و أصبح وجه الشرک بالظلم أسودا

و لمّا طغی البحر الخضمّ بأهله ال طغاهٔ و أضحی بالمراکب مزبدا

أقام لهذا الدّین من سلّ سیفه صقیلا کما سلّ الحسام مجرّدا

فلم ینج إلّا کلّ شلو مجدّل ثوی منهم أو من تراه مقیّدا

و نادی لسان الکون فی الأرض رافعا عقیرته فی الخافقین و منشدا

أعبّاد عیسی إنّ عیسی و حزبه و موسی جمیعا یخدمون محمّدا

و هذا من أبیات کثیرهٔ.

قلت: صحّ للشاعر فیما قصد من التوریهٔ فی المعظّم عیسی و الأشرف موسی، لمّا وقفا فی خدمهٔ الکامل محمد، فلله دره! لقد أجاد فیما قال.

النجوم الزاهرهٔ فی ملوک مصر و القاهرهٔ، ج۶، ص: ۲۴۳

و وقع الصلح بین الملک الکامل و بین الفرنج فی یوم الأربعاء تاسع عشر شهر رجب سنهٔ ثمانی عشرهٔ و ستمائهٔ، و سار بعض الفرنج فی البرّ و بعضهم فی البحر إلی عکّا، و تسلّم الکامل دمیاط.

قلت: و یعجبنی قول البارع کمال الدین علیّ بن النّبیه فی مدح مخدومه الملک الأشرف موسی لمّا حضر مع أخیه المعظّم إلی دمیاط فی هذه الکائنة قصیدته التی أوّلها:

للذّة العیش و الأفراح أوقات فانشر لواء له بالنصر عادات

إلی أن قال منها:

دمیاط طور و نار الحرب موقدة و أنت موسی و هذا الیوم میقات

ألق العصا تتلقّف کلّ ما صنعوا و لا تخف ما حبال القوم حیّات

و هی قصیدة طویلة مثبتة فی دیوان ابن النبیه.

قال أبو المظفّر فخر الدین ابن شیخ الشیوخ: لمّا حضر الفرنج دمیاط صعد الکامل علی مکان عال، و قال لی: ما تری ما أکثر الفرنج! ما لنا بهم طاقة؛ [قال] فقلت [له]: أعوذ بالله من هذا الکلام؛ قال: و لم؟ قلت لأنّ السعد [موکّل] بالمنطق، قال: فأخذت الفرنج دمیاط بعد قلیل، فلمّا طال الحصار صعد یوما علی مکان عال، و قال: یا فلان، تری الفرنج ما أقلّهم! و اللّه ما هم شیء؛

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۴۴

فقلت: أخذتهم و اللّه؛ قال: و کیف؟ قلت: قلت فی یوم کذا و کذا: کذا و کذا، فأخذوا دمیاط، و قد قلت الیوم: کذا، و الملوک منطّقون بخیر و شرّ؛ فأخذ دمیاط بعد قلیل». انتهی. و قد تقدّم ذکر الکامل فی أوائل الترجمة من قول جماعة من المؤرّخین، و یأتی أیضا- من ذکره فی السنین المتعلّقة به- نبذة کبیرة. إن شاء اللّه تعالی. و اللّه الموفّق لذلک بمنّه و کرمه.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۱۶]

السنة الأولی من ولایة الملک الکامل محمد ابن الملک العادل أبی بکر بن أیّوب علی مصر، و هی سنة ستّ عشرة و ستّمائة، و قد تقدّم أنّ الکامل کان ولی مصر فی حیاة والده العادل سنین عدیدة فلا عمدة بولایته تلک الأیام، فإنّه کان کالنائب بمصر لأبیه العادل، و لا عبرة إلّا بعد استقلاله بسلطنة مصر بعد وفاة أبیه.

فیها (أعنی سنة ستّ عشرة و ستمائة) أخرب الملک المعظّم عیسی صاحب دمشق القدس، لأنّه کان توجّه إلی أخیه الملک الکامل صاحب الترجمة فی نوبة دمیاط فی المرّة الأولی، فبلغه أنّ الفرنج علی عزم أخذ القدس، فاتّفق الأمراء علی خرابه؛ و قالوا: قد خلا الشام من العساکر، فلو أخذ الفرنج القدس حکموا علی الشام جمیعه. و کان بالقدس [أخوه] العزیز عثمان، و عزّ الدین أیبک أستادار، فکتب إلیهما المعظّم بخرابه، فتوقّفا و قالا: نحن نحفظه، فکتب إلیهما المعظّم ثانیا:

لو أخذوه لقتلوا کلّ من فیه و حکموا علی الشام و بلاد الإسلام، فألجأت الضرورة إلی خرابه. فشرعوا فی خراب السور أوّل یوم من المحرّم، و وقع فی البلد ضجّة عظیمة. و خرج النساء المخدّرات و البنات و الشیوخ و غیرهم إلی الصخرة و الأقصی

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۴۵

و قطعوا شعورهم و مزّقوا ثیابهم، و فعلوا أشیاء من هذه الفعال؛ ثم خرجوا هاربین و ترکوا أموالهم و أهالیهم، و ما شکّوا أنّ الفرنج تصبّحهم، و امتلأت بهم الطّرقات؛ فتوجّه بعضهم إلی مصر، [و بعضهم الی الکرک]، و بعضهم إلی دمشق، و کانت البنات المخدّرات یمزّقن ثیابهنّ و یربطنها علی أرجلهن من الحفا؛ و مات خلق کثیر من الجوع و العطش، و نهبت الأموال التی کانت لهم بالقدس، و بلغ ثمن القنطار الزیت عشرة دراهم، و الرّطل النّحاس نصف درهم؛ و ذمّ الناس المعظّم؛ فقال بعض أهل العلم فی ذلک:

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة؛ ج۶؛ ص۲۴۵

فی رجب حلّل الحمیّا و أخرب القدس فی المحرّم

و قال القاضى مجد الدين محمد بن عبد اللّه الحنفىّ قاضى الطّور فى خراب القدس:

مررت على القدس الشريف مسلّما على ما تبقّى من ربوع كأنجم

ففاضت دموع العين منّى صبابة على ما مضى من عصرنا المتقدّم

و قد رام علج أن يعفّى رسومه و شمّر عن كفّى لئيم مذمّم

فقلت له شلّت يمينك خلّها لمعتبر أو سائل أو مسلّم

فلو كان يفدى بالنفوس فديته بنفسى و هذا الظنّ فى كلّ مسلم

و فيها حجّ بالناس من العراق أقباش [ابن عبد اللّه] الناصرىّ، و من الشام مملوك الملك المعظّم عيسى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۴۶

و فيها توفّيت ستّ الشام بنت الأمير نجم الدّين أيّوب أخت السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب، كانت سيّدة الخواتين فى زمنها، كانت كثيرة البرّ و الصدقات، كانت تعمل فى دارها الأشربة و المعاجين و العقاقير كلّ سنة بألوف دنانير و تفرّقها على الناس، و كان بابها ملجأ للقاصدين؛ و كان زوجها ابن عمّها الأمير ناصر الدين محمد بن شيركوه صاحب حمص، و هى أمّ حسام الدّين [محمد بن عمر بن] لاچين، و صاحبة الأوقاف و الأربطة بدمشق و غيرها- رحمها اللّه تعالى-.

و فيها توفّى محمد بن زنكى الملك المنصور صاحب سنجار، كان ملكا عادلا عاقلا جوادا، خلّف عدّة أولاد: سلطان شاه و زنكى و مظفّر الدّين، و عدّة بنات.

و كان من بيت ملك و سلطنة.

و فيها توفّى علىّ بن القاسم بن علىّ بن الحسن بن هبة اللّه بن عساكر ابن صاحب تاريخ دمشق. كان فاضلا سمع الحديث و تفقّه و سافر إلى بغداد، فلمّا عاد قطع عليه الطريق، فأصابه جراح فمات منه بعد أيّام.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى العدل أبو منصور سعيد بن محمد بن سعيد الرزّاز فجأة فى المحرّم. و أبو منصور عتيق بن أحمد فى صفر.

و العلّامة أبو البقاء عبد اللّه بن الحسين بن أبى البقاء العكبرىّ الضّرير فى شهر ربيع الآخر. و قد قارب الثمانين. و أبو البركات داود بن أحمد بن محمد [بن منصور ابن ثابت] بن ملاعب الأزجىّ الوكيل فى رجب، ولد فى أوّل سنة اثنتين و أربعين.

و أبو الفضل أحمد بن محمد بن سيّدهم الأنصارىّ بن الهرّاس الجابى فى شعبان،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۴۷

و له أربع و ثمانون سنة. و أبو الفرج عبد الرحمن بن محمد بن علىّ الأنبارىّ الكاتب سبط قاضى القضاة أبى الحسن بن الدّامغانىّ، و له تسعون سنة. و أبو يعلى حمزة ابن السيّد [المعروف با] بن أبى لقمة الصفّار فى شهر رمضان، و هو أصغر من أخيه.

و أبو محمد عبد العزيز بن أحمد بن مسعود [بن سعد بن علىّ] بن الناقد المقرئ، و يقال: كان آخر من قرأ المصباح على مؤلّفه الشّهرزورىّ، مات فى شوّال عن ستّ و ثمانين سنة. و الخاتون ستّ الشام أخت الملك العادل فى ذى القعدة. و العلّامة افتخار الدين أبو هاشم عبد المطّلب بن الفضل الهاشمىّ الحنفىّ بحلب.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و نصف إصبع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا سواء.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۱۷]

السنة الثانية من ولاية الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيّوب على مصر، و هى سنة سبع عشرة و ستمائة.

فيها قتل صاحب سنجار أخاه، فسار الملك الأشرف موسى أخو الملك الكامل هذا إليها، فأخذها و عوّض صاحبها الرّقّة.

و فيها نزل الملك الأشرف المذكور على الموصل نجدة لبدر الدين على بن زين الدين، و عزم على قصد إربل، فبعث الخليفة من ردّه عن إربل و أصلح بينهما.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۴۸

و فيها فى شهر رجب كانت واقعة البرلّس بين الكامل صاحب الترجمة و بين الفرنج، و نصر اللّه الكامل و قتل منهم عشرة آلاف و غنم خيولهم و سلاحهم و رجعوا إلى دمياط مهزومين.

و فيها عزل الملك المعظّم عيسى صاحب دمشق [المبارز] المعتمد عن ولاية دمشق، و ولّى عوضه عليها العزيز خليلا.

و فيها كان أوّل ظهور التّتار و عبورهم جيحون، و كان أوّل ظهورهم من [ما] وراء النهر سنة خمس عشرة و ستمائة، و قبل عبورهم جيحون قصدوا بخارى و سمرقند، و قتلوا أهلها و سبوهم، و حصروا خوارزم شاه، فآنضمّ إليهم الخطا، و صاروا تبعا لهم.

و كان خوارزم شاه قد أخلى البلاد من الملوك، فلم يجدوا أحدا يردّهم، و وصلوا فى هذه السنة إلى الرّىّ و قزوين و همذان، و قتلوا أهلها و أحرقوا مساجدها، ثم فعلوا بأذربيجان كذلك.

و فيها حجّ بالناس من العراق أقباش الناصرىّ و قتل بمكّة، و لم يحجّ أحد من العجم [بسبب التّتار]، و عاد الحجّ البغدادىّ من على الشام. و حجّ بالناس من الشام [المبارز] المعتمد.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۴۹

و فيها توفّى الملك الفائز إبراهيم ابن الملك العادل أبى بكر ابن الأمير نجم الدين أيّوب أخو الملك الكامل صاحب الترجمة. و قد تقدّم أنّه كان يريد الوثوب على أخيه الملك الكامل، و اتّفق مع ابن المشطوب حتّى أخرجهما أخوه الملك المعظّم عيسى من مصر؛ فمات الفائز بين سنجار و الموصل، فحمل إلى سنجار و دفن بتربة عماد الدّين زنكى والد السلطان الملك العادل نور الدين محمود الشهيد، و مات و هو فى عنفوان شبيبته.

و فيها توفّى الأمير أقباش بن عبد اللّه الناصرى. قال أبو المظفّر: «اشتراه الخليفة (يعنى الناصر لدين اللّه) و هو ابن خمس عشرة سنة بخمسة آلاف دينار، و لم يكن بالعراق أجمل صورة منه، ثم قرّبه إليه و لم يكن يفارقه؛ فلمّا ترعرع ولّاه إمرة الحاجّ و الحرمين، و كان متواضعا محبوبا إلى القلوب. قتل بمكّة المشرّفة فى واقعة بين أشراف مكّة، خرج ليصلح بينهم فقتل. و كان قتله فى سادس عشر ذى الحجّة.

و فيها توفّى الشيخ عبد اللّه بن عثمان بن جعفر بن محمد اليونينىّ، أصله من قرية من قرى بعلبك يقال لها «يونين». كان صاحب رياضات و كرامات و مجاهدات و مكاشفات، و كان من الأبدال. و كانت وفاته يوم السبت فى العشر الأوّل من ذى الحجّة- رحمه اللّه-.

و فيها توفّى الشريف قتادة بن إدريس أبو عزيز الحسينىّ المكىّ أمير مكّة.

كان شيخا عارفا منصفا نقمة على عبيد مكّة المفسدين، و كان الحاجّ فى أيّامه فى أمان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۵۰

على أموالهم و نفوسهم، و كان يؤذّن فى الحرم ب «حىّ على خير العمل» على قاعدة الرافضة، و ما كان يلتفت إلى أحد من خلق اللّه تعالى، و لا وطئ بساط الخليفة و لا غيره، و كان يحمل إليه من بغداد فى كلّ سنة الذهب و الخلع و هو بداره فى مكّة، و هو يقول: أنا أحقّ بالخلافة [من الناصر لدين اللّه]، و لم يرتكب كبيرة فيما قيل.

قلت: و أىّ كبيرة أعظم من الرّفض و سبّ الصحابة!- رضى اللّه عنهم-.

و فيها توفّى محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيّوب الملك المنصور صاحب حماة.

کان شجاعا محبّا للعلماء و الفضلاء، مات بحماة و دفن بها. و قام بعده ولده الأکبر الملک الصالح الناصر قلیج أرسلان. و جری له مع الملک الکامل صاحب الترجمة أمور و فصول.

و فیها توفّی محمود بن محمد بن قرا أرسلان بن أرتق الملک الصالح ناصر الدین صاحب آمد، کان شجاعا عاقلا جوادا محبّا للعلماء، و کان الأشرف یحبّه، و جاء إلی الأشرف و خدمه غیر مرّة؛ و مات بآمد فی صفر. و قام بعده ولده مسعود، و کان مسعود ضدّ اسمه بخیلا فاسقا، حصره الملک الکامل هذا و ظفر به و أخذه إلی مصر و أحسن إلیه؛ فکاتب الروم و سعی فی هلاک الکامل، فحبسه الکامل- لمّا سمع ذلک- فی الجبّ مدّة ثم أطلقه، فمضی إلی التتار، و کان معه الجواهر و الأموال فقتلته التتار، و أخذوا جمیع ما کان معه.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۵۱

الذین ذکر الذهبیّ وفاتهم فی هذه السنة، قال: و فیها توفّی عبد الرحمن بن أحمد ابن هدیّة الورّاق فی شهر ربیع الأوّل، و قد جاوز التسعین، و هو آخر من روی عن عبد الوهّاب الأنماطیّ. و شیخ الشیوخ صدر الدین أبو الحسن محمد بن أبی الفتح عمر بن علیّ بن محمد بن حمّویه فی جمادی الأولی ذاهبا فی الرسلیّة من الکامل بالموصل، و له أربع و سبعون سنة. و صاحب حماة الملک المنصور محمد ابن تقیّ الدّین عمر بن شاهنشاه. و الزاهد الکبیر الشیخ عبد اللّه الیونینیّ فی ذی الحجّة ببعلبک. و صاحب مکّة قتادة بن إدریس الحسینیّ. و أبو الحسن المؤیّد بن محمد ابن علی الطّوسی المقرئ فی شوّال.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم ثلاث أذرع و نصف إصبع.

مبلغ الزیادة ستّ عشرة ذراعا و ثمانی أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۱۸]

السنة الثالثة من ولایة الملک الکامل محمد بن العادل أبی بکر بن أیوب علی مصر، و هی سنة ثمانی عشرة و ستمائة.

فیها توفّی إسماعیل بن عبد اللّه أبو طاهر الأنماطیّ المحدّث، کان إماما فاضلا سمع الکثیر و لقی الشیوخ و حدّث، و توفّی بدمشق فی شهر رجب و کان ثقة.

و فیها توفّی محمد بن خلف بن راجح المقدسیّ و یلقّب بالشهاب والد القاضی نجم الدین، کان زاهدا عابدا فاضلا فی فنون العلوم.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۵۲

و فیها توفّی محمد بن محمد الشیخ الإمام النحوی التّکریتیّ، کان بارعا فی النحو و الأدب و الشعر. و من شعره قوله:

من کان ذمّ الرّقیب یوما فإنّنی للرقیب شاکر

لم أروجه الرقیب وقتا إلّا و وجه الحبیب حاضر

و له فی مجنونة:

أمسیت مجنونا بمجنونة یغار من قامتها الغصن

فمن عذیری من هوی ظبیة قد عشقتها الإنس و الجنّ

قلت: و طریف قول الشیخ زین الدّین عمر بن الوردیّ - رحمه اللّه- فی هذا المعنی:

زاد جنونی بذی جنون معذّر و العذار زین

قالوا به عارض و عین قلت و بی عارض و عین

الذین ذکر الذهبیّ وفاتهم فی هذه السنة، قال: و فیها توفی شهابّ الدین محمد ابن خلف بن راجح المقدسیّ فی صفر، و له ثمان و

ستون سنة. و أبو محمد هبة اللّه ابن الخضر بن هبة اللّه [بن أحمد بن عبد اللّه] بن طاوس فى جمادى الأولى، و له إحدى و ثمانون سنة. و أبو نصر موسى ابن الشيخ عبد القادر الجيلىّ فى جمادى الآخرة.

و استشهد بهمذان خلق بأيدى التتار، منهم: الإمام تقىّ الدين أبو جعفر محمد بن

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۵۳

محمود بن إبراهيم الحمّامىّ الواعظ. و أبو عبد اللّه محمد بن أحمد بن هبة اللّه الرّوذراورىّ.

و بهراة أبو روح [عبد المعزّ] بن محمد الهروىّ. و بنيسابور أبو بكر القاسم بن عبد اللّه ابن عمر بن الصّفّار. و أبو النّجيب إسماعيل بن عثمان بن إسماعيل بن أبى القاسم القارئ الصوفى.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثلاث أذرع و ستّ أصابع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و إصبعان.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۱۹]

السنة الرابعة من ولاية الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيّوب على مصر، و هى سنة تسع عشرة و ستمائة.

فيها ظهر جراد بالشام أكل الشجر و الزروع و الثمر و لم ير مثله.

و فيها نقلت رمّة الملك العادل أبى بكر من قلعة دمشق إلى مدرسته التى عند دار العقيقىّ، فدفن بها.

و فيها توفّى مسمار بن عمر بن محمد الشيخ أبو بكر بن العويس البغدادىّ فى شعبان بالموصل، و كان. فاضلا ثقة.

و فيها توفّى نصر بن أبى الفرج الفقيه الحنبلىّ، كان إمام الحنابلة بمكّة، جاور بمكّة سنين، ثم خرج إلى اليمن فمات بالمهجّم و دفن به، و كان صالحا متعبّدا لا يفتر عن الطّواف.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۵۴

و فيها توفّى الأمير قطب الدين أحمد ابن الملك العادل أبى بكر بن أيّوب أخو الملك الكامل محمد هذا. مات بالفيّوم فنقل إلى القاهر و دفن بها.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى الحافظ أبو الفتوح نصر بن أبى الفرج البغدادىّ ابن الحصرىّ المقرئ الحنبلىّ فى المحرّم، و له ثلاث و ثمانون سنة. و الحافظ أبو الطاهر تقىّ الدين إسماعيل بن عبد اللّه بن عبد المحسن المصرىّ ابن الأنماطىّ فى رجب كهلا. و أبو بكر مسمار بن عمر بن محمد بن العويس النّيّار بالموصل فى شعبان. و القدوة الشيخ علىّ [بن أبى بكر محمد بن عبد اللّه] بن إدريس اليعقوبىّ فى ذى القعدة. و أبو سعد ثابت بن مشرف المعمار فى ذى الحجّة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۵۵

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثلاث أذرع و سبع أصابع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و ثلاث أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۲۰]

السنة الخامسة من ولاية الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيّوب على مصر، و هى سنة عشرين و ستمائة.

قال أبو شامة: ففيها عاد الملك الأشرف موسى من مصر [إلى الشام قاصدا بلاده بالشرق]، فالتقاه أخوه المعظّم عيسى و عرض عليه النزول [بالقلعة] فامتنع، و نزل بجوسق والده العادل، و بدت الوحشة بين الإخوة الثلاثة (يعنى الكامل محمدا صاحب الترجمة، و المعظّم عيسى صاحب دمشق، و الأشرف موسى صاحب خلاط و غيرها). قال: ثم رحل الأشرف سحرا على ضمير ثم سار إلى حرّان،

و كان [الأشرف] قد استناب أخاه شهاب الدين غاز يا صاحب ميّافارقين على خلاط، [لمّا سافر إلى مصر] و جعله ولىّ عهده، و مكّنه من بلاده؛ فسوّلت له نفسه العصيان، و حسّن له ذلك الملك المعظّم و كاتبه و أعانه، و كذا كاتبه صاحب إربل [و المشارقة]، فأرسل الأشرف إلى غازى المذكور يطلبه فامتنع، فأرسل إليه: يا أخى لا تفعل، أنت ولىّ عهدى و البلاد فى حكمك فأبى؛ فجمع الأشرف عساكره و قصده، و وقع له معه أمور حتّى هزمه، ثم رضى عنه الأشرف حسب ما نذكره فى السنة الآتية.

و فيها كانت بين التّتار الذين جاءوا إلى الدّربند و بين القبجاق و الروس وقعة هائلة، و صبر الفريقان أيّاما، ثم انهزم القبجاق و الروس، و لم يسلم منهم إلّا اليسير.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۵۶

و فيها توفّى عبد اللّه بن أحمد بن محمد بن قدامة بن مقدام بن نصر شيخ الإسلام موفّق الدين أبو محمد المقدسىّ الجمّاعيلىّ الدمشقىّ الصالحىّ الحنبلى صاحب التصانيف.

ولد بجمّاعيل فى شعبان سنة إحدى و أربعين و خمسمائة، و قرأ القراءات و اشتغل فى صغره و سمع من أبيه سنة نيّف و خمسين، و رحل إلى البلاد و سمع الكثير، و كتب و صنّف و برع فى الفقه و الحديث، و أفتى و درّس و شاع ذكره و بعد صيته.

و كانت وفاته فى يوم عيد الفطر، و له ثمانون سنة.

و فيها توفّى عبد الرحمن بن محمد بن الحسن بن هبة اللّه بن عبد اللّه بن الحسين الإمام المفتى فخر الدين أبو منصور الدّمشقىّ الشافعىّ المعروف بابن عساكر شيخ الشافعيّة بالشام. ولد فى سنة خمسين و خمسمائة، و سمع من عميّه: [الصائن] هبة اللّه، و الحافظ أبى القاسم و جماعة أخر، و تفقّه على حميه قطب الدين النّيسابورىّ، و كان بارعا مفتنّا مدرّسا فقيها عالما محدّثا، و كانت وفاته فى شهر رجب.

و فيها توفّى ملك الغرب يوسف بن محمد بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ابن علىّ السلطان المستنصر بالله الملقّب بأمير المؤمنين المكنى أبا يعقوب القيسىّ المغربىّ صاحب بلاد المغرب، لم يكن فى بنى عبد المؤمن أحسن صورة منه، و لا أبلغ خطابا، و لكنّه كان مشغولا باللّذات؛ و مات و هو شابّ فى هذه السنة، و لم يخلّف ولدا؛ فاتفق أهل دولته على تولية الأمر لأبى محمد عبد الواحد بن يوسف ابن عبد المؤمن بن علىّ، فولى و لم يحسن التدبير و لا المداراة. و كان مولد يوسف صاحب الترجمة فى سنة أربع و تسعين و خمسمائة، و أمّه أم ولد روميّة اسمها قمر، و كانت دولته عشر سنين و شهرين.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۵۷

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أبو سعد عبد السلام ابن المبارك [بن عبد الجبّار بن محمد بن عبد السلام] بن البرد عول فى المحرّم، و له تسع و ثمانون سنة. و العلّامة فخر الدين أبو منصور عبد الرحمن بن محمد بن الحسن ابن عساكر الشافعىّ فى رجب، و له سبعون سنة. و العلامة موفّق الدين عبد اللّه بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسىّ شيخ الحنابلة فى يوم الفطر، و له ثمانون سنة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و نصف إصبع.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا سواء.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۲۱]

السنة السادسة من ولاية الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيّوب على مصر، و هى سنة إحدى و عشرين و ستمائة.

فيها استردّ الملك الأشرف موسى مدينة خلاط من أخيه شهاب الدين غازى، و أبقى عليه ميّافارقين، و رضى عنه بعد أمور وقعت

بينهما، و قد تقدّم ذكر ذلك أيضا.

و فيها ظهر السلطان جلال الدين بن خوارزم شاه بعد ما انفصل عن بلاد الهند و كرمان، و استولى على أذربيجان و حكم عليها. و راسله الملك المعظّم عيسى ليعينه على قتال أخيه الملك الأشرف موسى؛ ثم كتب المعظّم أيضا لصاحب إربل فى هذا المعنى، و بعث ولده الملك الناصر داود إليه رهينة.

و فيها استولى بدر الدين لؤلؤ على الموصل و أظهر أنّ الملك محمود بن القاهر قد توفّى، و كان قد أمر بخنقه.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۵۸

و فيها بنى الملك الكامل صاحب الترجمة دار الحديث الكامليّة بالقاهرة فى بين القصرين، و جعل أبا الخطّاب بن دحية شيخها.

و فيها قدم الملك مسعود أضسيس (المشهور بأقسيس) على أبيه الملك الكامل من اليمن طائعك، و عزمه أخذ الشام من عمّه الملك المعظّم عيسى، و قدّم لأبيه أشياء عظيمة، منها مائتا خادم.

قال ابن الأثير: و فيها عادت التتار من بلاد القبجاق و وصلت إلى الرّىّ، و كان من سلم من أهلها قد عمّروها، فلم يشعروا إلّا بقدوم التتار بغتة، فوضعوا فيهم السيف، ثم فعلوا بعدّة بلاد أخر كذلك، فما شاء اللّه كان.

و فيها حدثت واقعه قبيحة من الكرج، و هو أنّ الكرج- لعنهم اللّه- لم يبق فيهم من بيت الملك أحد سوى امرأة فملّكوها عليهم. قال ابن الأثير: ثم طلبوا لها زوجا يتزوّجها و ينوب عنها فى الملك، و يكون من بيت مملكة. و كان صاحب أرزن الروم مغيث الدين طغرل شاه بن قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان و هو من الملوك السّلجوقيّة وله ولد، فأرسل إلى الكرج يخطب الملكة لولده فامتنعوا، و قالوا: لا يملكنا مسلم، فقال لهم: إنّ ابنى يتنصّر و يتزوّجها، فأجابوه فتنصّر و تزوّج بها، و أقام عندها حاكما فى بلادهم، فنعوذ بالله من الخذلان! و كانت الملكة تهوى مملوكا، فكان هذا الزوج يسمع عنها من القبائح أشياء و لا يمكنه الكلام لعجزه، فدخل يوما فرآها مع المملوك، فأنكر ذلك، فقالت: إن رضيت بذا و إلّا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۵۹

أنت أخبر بما أفعله معك!. [فقال: إنّنى لا أرضى بهذا] فنقلته إلى بلد [آخر] و وكّلت به من يحفظه و حجرت عليه؛ و أحضرت لها رجلين و صفا لها بحسن الصورة فتزوّجت بأحدهما، و بقى معها ذاك يسيرا، ثمّ فارقته و أحضرت آخر من كنجة و هو مسلم، فطلبت منه أن يتنصّر و يتزوّجها فلم يفعل، فأرادت أن تتزوّجه [و هو مسلم] فقام عليها الأمراء و معهم إبوانى مقدّمهم؛ و قالوا لها: فضحتينا بين الملوك بما تفعلين! [ثم تريد بن أن يتزوّجك مسلم، و هذا لا نمكّنك منه أبدا]، و الأمر بينهم متردّد، و الرجل الكنجىّ عندهم [لم يجبهم إلى الدخول فى النّصرانيّة]، و هى تهواه. انتهى كلام ابن الأثير.

و فيها توفّى فخر الدين أبو المعالى محمد بن أبى الفرج الموصلىّ المقرئ ببغداد فى شهر رمضان. و كان إماما فاضلا بارعا فى فنون.

و من شعره «مواليا»:

ساق قمر بكفّه شمس ضحا قد أسكرنى من راحتيه و صحا

لو أمكننى و الراح فى راحته فى الحان شربت كفّه و القدحا

قلت: و يعجبنى فى هذا المعنى قول أبى الحسن علىّ بن عبد الغنىّ الفهرىّ القيروانىّ الضّرير المعروف بالحصرىّ الشاعر المشهور، و وفاته سنة ثمان [و ثمانين] و أربعمائة، و هما:

أقول له و قد حيّا بكأس لها من مسك ريقته ختام

أمن خدّيك يعصر قال كلّا متى عصرت من الورد المدام

و فيها توفّى القاضى أبو البركات عبد القوىّ بن عبد العزيز بن الجبّاب السّعدىّ فى شوّال، و له خمس و ثمانون سنة. و كان عالما بارعا ديّنا عفيفا أفتى و درّس سنين.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۶۰

الـذين ذكر الـذهبیّ وفاتهم فی هـذه السـنة، قال: و فيها توفیّ أبو جعفر محمـد بن هبـة اللّه بن مكرّم الصوفیّ ببغداد فی المحرّم. و أبو طالب عبد الرحمن بن محمد بن عبد السـميع الهاشـمیّ المقرئ بواسط. و أبو العبّاس أحمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن صـرمی الأزجیّ فی شعبان. و فخر الدين أبو المعالی محمد بن أبی الفرج الموصلیّ البغدادیّ المقرئ فی رمضان.

أمر النيل فی هذه السنة- الماء القديم ثلاث أذرع سواء. مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و ثلاث و عشرون إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۲۲]

السنة السابعة من ولاية الملك الكامل محمد بن العادل أبی بكر بن أيّوب علی مصر، و هی سنة اثنتين و عشرين و ستمائة.

فيها فی شـهر ربيع الأول وصل السـلطان جلال الـدين بن خوارزم شاه إلی دقوقا فافتتحها بالسـيف، و أحرق البلـد و نهب أهلها، و فعل فيها ما لا تفعله الكفّار لكونهم شـتموه و لعنوه علی الأسوار؛ ثم عزم علی قصد بغداد، فانزعج الخليفة الناصر لدين اللّه و استعدّ لقتاله و أنفق ألف ألف دينار فی هذا المعنی.

قال أبو المظفّر: «قال لی الملك المعظّم عيسی: كتب إلیّ جلال الدين يقول:

تحضر أنت و من عاهدنی فنتّفق حتّی نقصد الخليفة، فإنّه كان السبب فی هلاك المسلمين، و فی هلاك أبی، و فی مجیء الكفّار إلی البلاد؛ و وجدنا كتبه إلی الخطا

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۶۱

و تواقيعه لهم بالبلاد و الخلع و الخيل؛ فقال المعظّم: فكتبت إليه: أنا معك علی كلّ أحد إلّا علی الخليفة فإنّه إمام المسلمين!». انتهی.

قلت: ثم وقع لجلال الـدين المذكور فی هذه السـنة أمور و وقائع مع غير الخليفة من الملوك يطول شـرحها. يأتی ذكر بعضـها إن شاء اللّه.

و فيهـا تـوفّی الخليفـة الناصـر لـدين اللّه أمير المؤمنين أبو العبّـاس أحمـد ابن الخليفـة المستضـیء بـالله أبی محمـد الحسن ابن الخليفة المسـتنجد بالله أبی المظفر يوسف ابن الخليفة المقتفی بأمر اللّه أبی عبد اللّه محمد ابن الخليفة المسـتظهر بالله أحمد الهاشمیّ العباسیّ البغدادیّ. ولد يوم الاثنين عاشـر شـهر رجب سـنة ثلاث و خمسين و خمسمائة، و بويع بالخلافة بعد موت أبيه المستضیء فی أوّل ذی القعدة سنة خمس و سبعين و خمسمائة. و أمّه أمّ ولد تركيّة.

قال الشيخ شمس الدين: «و كان أبيض اللّون تركیّ الوجه مليح العينين، أنور الجبهة، أقنی الأنف، خفيف العارضين، أشقر اللّحية رقيق المحـاسن. كـان نقش خـاتمه: «رجـائی من اللّه عفوه». لم يل الخلافـة قبله أحـد من بنی العبّاس أطول مـدّة منه، إلّا ما ذكرنا من خلفاء العبيديّة المستنصـر معدّ» انتهی. و فی أيّام الناصر لدين اللّه ظهرت الفتوّة ببغداد و رمی البندق و لعب الحمام [المناسيب]، و افتنّ الناس فی ذلك، و دخل فيه الأجلّاء ثم الملوك؛ فألبسوا الملك العادل ثم أولاده سـراويل الفتوّة، و لبسها أيضا الملك شهاب الدين صاحب غزنة و الهند من الخليفة الناصـر لدين اللّه، و لبسها جماعة أخر من الملوك. و أمّا لعب الحمام فخرج فيه عن الحدّ، يحكی عنه أنّه لمّا دخلت التّتار البلاد و ملكوا من [ما] وراء النهر إلی العراق، و قتلوا تلك المقتلة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۶۲

من المسـلمين، التی ما نكب المسلمون بأعظم منها، دخل عليه الوزير فقال له: آه يا مولانا، إنّ التّتار قد ملكت البلاد و قتلت المسلمين! فقال له الناصر لدين اللّه:

دعنی أنا فی شـیء أهمّ من ذلك! طيرتی البلقاء، لی ثلاثـة أيام ما رأيتها! و فی هـذه الحكاية كفاية إن صـحّت عنه. و كانت وفاته فی

سلخ شهر رمضان، و کانت خلافته سبعا و أربعین سنة. و بویع بعده لولده أبی نصر و لقّب بالظاهر بأمر اللّه، فکانت خلافة الظاهر المذکور تسعة أشهر و مات. حسب ما یأتی ذکره.

و فیها توفّی السلطان الملک الأفضل علیّ ابن السلطان صلاح الدین یوسف ابن الأمیر نجم الدین أیّوب فی یوم الجمعة من شهر ربیع الأوّل من السنة، و هو الذی کان ملک الشام فی حیاة أبیه ثمّ من بعده، و وقع له تلک الأمور مع أخیه و عمّه العادل، و قد تقدّم ذکر ذلک کلّه؛ و تنقّلت به الأحوال إلی أن صار صاحب سمیساط، و بقی بها إلی أن مات فی هذه السنة. و کان مولده بمصر فی سلطنة والده سنة خمس و ستین و خمسمائة. و کان فاضلا شاعرا حسن الخطّ قلیل الحظّ غیر مسعود فی حرکاته- رحمه اللّه تعالی- و من شعره- ممّا کتبه إلی الخلیفة لمّا خرج من دمشق، و اتّفق علیه الملک العادل عمّه و العزیز أخوه-:

مولای إنّ أبا بکر و صاحبه عثمان قد غصبا بالسیف حقّ علی

فانظر إلی حظّ هذا الاسم کیف لقی من الأواخر ما لاقی من الأول

الذین ذکر الذهبیّ وفاتهم فی هذه السنة، قال: و فیها توفّی الواعظ أبو إسحاق إبراهیم بن المظفّر [بن إبراهیم] بن البرنیّ بالموصل فی المحرّم. و الخطیب المفسّر فخر

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۶۳

الدین محمد بن الخضر بن محمد [بن الخضر بن علیّ بن عبد اللّه] بن تیمیّة الحرّانی فی صفر.

و الملک الأفضل علیّ بن السلطان صلاح الدین بسمیساط فی صفر، و له سبع و خمسون سنة. و أبو الحسن علیّ بن أبی الکرم [نصر بن المبارک] الجلال بن البنّاء بمکّة فی شهر ربیع الأوّل. و عبد المحسن خطیب الموصل ابن عبد اللّه بن أحمد الطّوسی فی شهر ربیع الأوّل. و قاضی القضاة بالقاهرة زین الدین علیّ ابن العلّامة یوسف بن عبد اللّه بن بندار الدّمشقیّ. و الوزیر الکبیر صفیّ الدین عبد اللّه بن علیّ الشّیبیّ ابن شکر بالقاهرة فی شعبان. و مجد الدین أبو المجد محمد بن الحسین القزوینی الصوفیّ بالموصل فی شعبان. و الناصر لدین اللّه أبو العبّاس أحمد بن المستضیء بالله حسن بن المستنجد فی سلخ شهر رمضان، و له سبعون سنة، و کانت خلافته سبعا و أربعین سنة.

و فخر الدین محمد بن إبراهیم بن أحمد الفارسیّ الخبریّ الصوفیّ بمصر فی ذی الحجّة، و له أربع و تسعون سنة.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم أربع أذرع و نصف إصبع. مبلغ الزیادة ست عشرة ذراعا و تسع عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۲۳]

السنة الثامنة من ولایة الملک الکامل محمد بن العادل أبی بکر بن أیّوب علی مصر، و هی سنة ثلاث و عشرین و ستمائة.

فیها قدم الشیخ محیی الدین بن الجوزیّ إلی دمشق رسولا إلی الملک المعظّم عیسی صاحب دمشق، و معه الخلع له و لإخوته أولاد العادل من الخلیفة الظاهر

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۶۴

بأمر اللّه أبی نصر محمد العبّاسیّ المتولّی الخلافة بعد وفاة والده الناصر لدین اللّه.

[و مضمون رسالته طلب رجوع المعظّم عن موالاة ابن الخوارزمیّ].

قال أبو المظفّر سبط ابن الجوزیّ، قال لی الملک المعظّم، قال خالک:

المصلحة رجوعک عن هذا الخارجیّ (یعنی جلال الدین [بن] الخوارزمیّ و ترجع إلی إخوتک و نصلح بینکم؛ قال: فقلت لخالک: إذا رجعت عن [ابن] الخوارزمیّ و قصدنی إخوتی تنجدوننی؟ قال: نعم؛ فقلت: مالکم عادة تنجدون أحدا! هذه کتب الخلیفة الناصر

لدين اللّه عندنا، و نحن على دمياط نكتب و نستصرخ به، فيجىء الجواب بأنّا قد كتبنا إلى ملوك الجزيرة و لم يفعلوا. قال: قلت: مثلى معكم كمثل رجل كان يخرج إلى الصلاة و بيده عكّاز خوفا من الكلاب، فقال له بعض أصدقائه: أنت شيخ كبير، و هذا العكّاز يثقلك، و أنا أدلك على شىء يغنيك عن حمله، قال: و ما هو؟ قال: تقرأ سورة يس عند خروجك من الدار، و ما يقربك كلب، و أقام مدّة فرأى الشيخ حامل العكّاز، فقال له: أما قد علّمتك ما يغنيك عن حمله؟ فقال: هذا العكّاز لكلب لا يعرف القرآن. و قد اتّفق إخوتى علىّ، و قد أنزلت [ابن] الخوارزمىّ على خلاط، إن قصدنى أخى الأشرف منعه؛ و إن قصدنى أخى الكامل (يعنى صاحب الترجمة) فأنا له. ثم اصطلح الإخوة بعد ذلك فى السنة.

و فيها توفّى كافور بن عبد اللّه شبل الدولة الحسامىّ خادم ستّ الشام بنت أيّوب. كان عاقلا ديّنا صالحا، بنى مدرسته على نهر ثورا بدمشق لأصحاب أبى حنيفة- رضى اللّه عنه- و الخانقاه إلى جانب مدرسته. و كانت وفاته بدمشق فى شهر رجب.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۶۵

و فيها توفّى الخليفة أمير المؤمنين الظاهر بأمر اللّه أبو نصر محمد ابن الخليفة الناصر لدين اللّه أبى العباس أحمد الهاشمىّ العباسىّ البغدادىّ. ولى الخلافة بعد وفاة أبيه فى السنة الماضية فلم تطل مدّته فيها، و وقع له شدائد إلى أن مات فى شهر رجب؛ و امّه أمّ ولد. و كانت خلافته تسعة أشهر و أيّاما، و كان مولده فى المحرّم سنة سبعين و خمسمائة، و كان جميل الصورة أبيض مشربا بحمرة حلو الشمائل شديد القوى.

أفضت الخلافة إليه، و له اثنتان و خمسون سنة إلا أشهرا، فقيل له: ألا تنفسح؟

فقال: قد فات الزرع! فقيل له: يبارك اللّه فى عمرك، فقال: من فتح دكّانا بعد العصر إيش يكسب!. و كان خيّرا عادلا قطع الظّلامات و المكوس، حتّى قيل:

إنّ جملة ما قطع من الظّلامات و المكوس ثمانية آلاف دينار فى كلّ سنة، و تصدّق فى ليلة العبد بمائة ألف دينار. و سببه أنّه لمّا ولى الخلافة ولّى الشيخ عماد الدين ابن الشيخ عبد القادر الجيلىّ القضاء، فما قبل عماد الدين إلّا بشرط أن يورّث ذوى الأرحام، فقال له الخليفة: أعط كلّ ذى حقّ حقّه و اتّق اللّه و لا تتق بسواه؛ فكلّمه القاضى أيضا فى الأوراق التى ترفع إلى الخليفة؛ و هو أنّ حرّاس الدروب كانت ترفع إلى الخليفة فى صبيحة كلّ يوم ما يكون عندهم من أحوال الناس الصالحة و الطالحة، فأمر الظاهر بتبطيل ذلك، و قال: أىّ فائدة فى كشف أحوال الناس! فقيل له: إن تركت ذلك فسدت أحوال الرعيّة، فقال: نحن ندعو لهم بالإصلاح.

ثم أعطى القاضى المذكور عشرة آلاف دينار يفى بها ديون من فى السجون من الفقراء، ثم فرّق بقيّة المائة الألف الدينار فى العلماء و الفقراء. و لمّا مات الظاهر تولّى الخلافة بعده ولده المستنصر بالله أبو جعفر.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۶۶

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أبو المحاسن محمد بن السيد بن أبى لقمة الأنصارىّ الصفّار فى شهر ربيع الأوّل عن أربع و تسعين سنة.

و قاضى الشام جمال الدين يونس بن بدران القرشىّ المصرىّ الشافعىّ فى شهر ربيع الأوّل، و دفن بقرب الصليحيّة. و شمس الدين أحمد بن عبد الواحد المقدسىّ الملقّب بالبخارىّ الفقيه المناظر فى جمادى الآخرة، و له تسع و خمسون سنة. و التقىّ خزعل ابن عسكر المصرىّ النحوىّ اللغوىّ بدمشق. و المحارى الزاهد أبو محمد عبد الرحمن ابن عبد اللّه بن علوان بحلب فى جمادى الآخرة، و له تسعون سنة. و العلّامة إمام الدين عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم بن الفضل الرافعىّ القزوينىّ صاحب الشرح. و الظاهر بأمر اللّه أبو نصر محمد بن الناصر لدين اللّه فى رجب، و له ثلاث و خمسون سنة، و كانت خلافته عشرة أشهر. و بويع بعده ابنه المستنصر.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و عشرون إصبعا.

مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا و إصبع واحدة.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۲۴]

السنة التاسعة من ولاية الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيّوب على مصر، و هى سنة أربع و عشرين و ستمائة.

فيها عاد الملك الأشرف موسى ابن الملك العادل إلى بلاده بعد أن صالح أخاه الملك المعظّم عيسى ابن الملك العادل، و كلاهما أخو الملك الكامل هذا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۶۷

و فيها حجّ بالناس من الشام الشجاع [علىّ] بن السلّار، و من ميافارقين الشهاب غازى ابن الملك العادل.

و فيها توفّى السلطان الملك المعظّم شرف الدين عيسى ابن الملك العادل أبى بكر ابن أيّوب بن شادى الأيّوبىّ صاحب الشام. قال أبو المظفّر: و فيها توفّى الملك المعظّم العالم الفقيه المجاهد فى سبيل اللّه الغازى النحوىّ اللغوىّ. ولد بالقاهرة سنة ستّ و سبعين و خمسمائة، و نشأ بالشام و قرأ القرآن و تفقّه على مذهب أبى حنيفة بجمال الدين الحصيرىّ، و حفظ المسعودىّ، و اعتنى «بالجامع الكبير»، و قرأ الأدب [و النحو] على تاج الدين الكندىّ، فأخذ عنه «كتاب سيبويه» و شرحه الكبير للسيرافىّ، «و الحجّة فى القراءات» لأبى علىّ الفارسىّ «و الحماسة»، و قرأ عليه «الإيضاح» لأبى علىّ حفظا؛ ثمّ ذكر مسموعاته فى الحديث و غيره إلى أن قال:

و شرح الجامع الكبير، و صنّف الردّ على الخطيب، و العروض، و له «ديوان شعر».

قال: و كان شجاعا مقداما كثيرا لحياء متواضعا مليح الصورة ضحوكا غيورا جوادا حسن السّيرة. و أطلق أبو المظفّر عنان القلم فى ميدان محاسنه حتّى إنّه ساق ترجمته فى عدّة أوراق فى مرآة الزمان.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۶۸

قلت: و يحقّ له ذلك، فإنّ المعظّم كان فى غاية ما يكون من الكمال فى عدّة علوم و فنون، و هو رجل بنى أيّوب و عالمهم بلا مدافعة، و محاسنه أشهر من أن تذكر.

و كانت وفاته- رحمه اللّه- فى ثالث ساعة من نهار الجمعة أوّل يوم من ذى الحجّة، و دفن بقلعة دمشق، ثم نقل بعد ذلك من قلعة دمشق و دفن مع والدته فى القبّة عند الباب. و خلّف عدّة أولاد: الملك الناصر داود، و الملك المغيث عبد العزيز، و الملك القاهر عبد الملك؛ و من البنات تسعا، و قيل إحدى عشرة. و تولّى ابنه الناصر داود دمشق بعده إلى أن أخذها منه عمّه الملك الكامل صاحب الترجمة.

و فيها توفّى الملك چنكز خان التركىّ، طاغية التّتار و ملكهم الأوّل الذى خرّب البلاد و أباد العباد، و ليس للتتار ذكر قبله.

قلت: هو صاحب «التورا» «و اليسق»، و قد أوضحنا أمره فى غير هذا الكتاب، و ذكرنا أصله و اعتقاد التتار فيه و أشياء كثيرة. و التورا باللغة التركية هو المذهب، و اليسق هو الترتيب، و أصل كلمة اليسق سى يسا، و هو لفظ مركّب من أعجمىّ و تركىّ، و معناه: التراتيب الثلاث، لأنّ سى بالعجمى فى العدد ثلاثة، و يسا بالتركى: الترتيب؛ و على هذا مشت التتار من يومه إلى يومنا هذا، و انتشر ذلك فى سائر الممالك حتّى ممالك مصر و الشام، و صاروا يقولون: «سى يسا» فثقلت عليهم فقالوا: «سياسة» على تحاريف أولاد العرب فى اللغات الأعجمية. و لمّا أن تسلطن الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارىّ أحبّ أن يسلك فى ملكه بالديار المصريّة طريقة چنكزخان هذا و أموره، ففعل ما أمكنه، و رتّب فى سلطنته

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۶۹

أشياء كثيرة؛ لم تكن قبله بديار مصر: مثل ضرب البوقات، و تجديد الوظائف، على ما نذكره- إن شاء اللّه تعالى- فى ترجمته. و استمرّ أولاد چنكزخان فى ممالكه التى قسمها عليهم فى حياته، و لم يختلف منهم واحد على واحد، و مشوا على ما أوصاهم به، و على

طريقته «التورا» و «اليسق» إلى يومنا هذا. انتهى.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى داود بن معمّر بن عبد الواحد بن الفاخر القرشىّ فى رجب أو فى شعبان، و له تسعون سنة. و طاغية التتار چنكزخان فى شهر رمضان. و قاضى القضاة بحرّان أبو بكر عبد اللّه بن نصر الحنبلىّ، و له خمس و سبعون سنة. و أبو محمد عبد البرّ ابن الحافظ ابن العلاء الهمذانىّ بروذراور فى شعبان. و البهاء عبد الرحمن بن إبراهيم المقدسىّ الحنبلىّ الفقيه المحدّث فى ذى الحجّة، و له تسع و ستون سنة. و الملك المعظّم شرف الدين عيسى بن العادل فى ذى القعدة، و له ثمان و أربعون سنة. و أبو الفرج الفتح بن عبد اللّه [بن محمد ابن علىّ بن هبة اللّه] بن عبد السلام الكاتب فى المحرّم، و له سبع و ثمانون سنة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و عشرون إصبعا.

مبلغ الزيادة سبع أذرع و اثنتا عشرة إصبعا. هكذا وجدته مكتوبا، و لعلّه و هم من الكاتب.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۲۵]

السنة العاشرة من ولاية الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيّوب على مصر، و هى سنة خمس و عشرين و ستمائة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۷۰

فيها نزل جلال الدين بن خوارزم شاه على خلاط مرّة ثانية، و هجم عليه الشتاء فرحل عنها إلى أذربيجان، و خرج الحاجب علىّ من خلاط بالعسكر، فاستولى على خوىّ و سلماس و تلك النواحى، و أخذ خزائن جلال الدين المذكور و عاد إلى خلاط، فقيل له: بئس ما فعلت! و هذا يكون سببا لهلاك العباد و البلاد، فلم يلتفت.

و فيها كان فراغ مدرسة ركن الدين الفلكى بقاسيون دمشق.

و فيها توفّى عبد الرحيم بن علىّ بن إسحاق سبط القاضى جمال الدين القرشىّ.

كان إماما عالما فاضلا غزير المروءة كثير الإحسان شاعرا مترسّلا، و كانت وفاته بدمشق فى سابع المحرّم. و من شعره قوله فى مليح بالحمّام:

تجرّد للحمّام عن قشر لؤلؤ و ألبس من ثوب المحاسن ملبوسا

و قد زيّن الموسى لتزيين رأسه فقلت لقد أوتيت سؤلك يا موسى

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أبو المعالى أحمد ابن الخضر بن هبة اللّه بن طاوس الصوفىّ فى رمضان. و المحدّث محبّ الدين أحمد ابن تميم اللّبلىّ. و أبو منصور أحمد بن يحيى بن البرّاج الصوفىّ الوكيل فى المحرّم.

و العلامة أبو القاسم أحمد بن يزيد القرطبىّ آخر من روى بالإجازة عن شريح

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۷۱

فى رمضان. و أبو علىّ الحسن بن إسحاق بن موهوب بن [أحمد] الجواليقىّ فى شعبان، و له إحدى و ثمانون سنة. و نفيس الدين الحسن بن علىّ [بن أبى القاسم الحسين] بن الحسن بن البنّ الأسدىّ فى شعبان، و له ثمان و ثمانون سنة.

و الرئيس المنشئ جمال الدين عبد الرحيم بن علىّ بن إسحاق بن شيث القرشىّ الفرضىّ بدمشق فى المحرّم، و كان كاتب المعظّم. و أبو منصور محمد بن عبد اللّه بن المبارك البندنيجىّ.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و تسع عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و خمس أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۲۶]

السنة الحادية عشرة من ولاية الملک الکامل محمد بن العادل أبی بکر بن أیّوب علی مصر، و هی سنة ستّ و عشرین و ستمائة.

فيها أعطی الملک الکامل صاحب الترجمة بیت المقدس لملک الفرنج الأنبرور.

و فيها خرج الملک الکامل فی صفر من مصر، و نزل تل العجول، و کان الملک الناصر داود ابن الملک المعظّم عیسی صاحب دمشق کاتب عمّه الملک الأشرف موسی بالحضور إلی دمشق، فوصل إلیها و نزل بالنّیرب؛ و کان عزّ الدین أیبک قد أشار علی الملک الناصر داود بمداراة عمّه الملک الکامل محمد صاحب مصر

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۷۲

فخالفه؛ و قال الناصر لعمّه الأشرف فی قتال عمّه الکامل، فلم یلتفت الأشرف إلی کلامه؛ و اجتمع الأشرف مع أخیه الملک الکامل و اتّفقا علی حصار دمشق.

و وصلت الأخبار بتسلیم القدس إلی الأنبرور، فقامت قیامة الناس لذلک و وقع أمور، و تسلّم الأنبرور القدس؛ و الکامل و الأشرف علی حصار دمشق، فلم یقم الأنبرور بالقدس سوی لیلتین، و عاد إلی یافا بعد أن أحسن إلی أهل القدس، و لم یغیّر من شعائر الإسلام شیئا.

و فیها سلّم الملک الناصر داود إلی عمّه الملک الکامل دمشق و عوّضه عمّه الکامل الشّوبک، و ذلک فی شهر ربیع الآخر من السنة.

و فیها توفی أضسیس المعروف بأقسیس المنعوت بالملک المسعود بن الملک الکامل صاحب الترجمة، مرض بعد خروجه من الیمن مرضا مزمنا، و مات بمکّة و دفن بالمعلی فی حیاة والده الملک الکامل، و کان معه من الأموال شیء کثیر. و کان ظالما جبّارا سفّاکا للدماء قتل بالیمن خلائق لا تدخل تحت حصر، و استولی علی أموالهم.

و کان أبوه الملک الکامل یکرهه و یخافه. و دام بالیمن حتی سمع بموت عمّه الملک المعظّم عیسی، فخرج من الیمن بطمع دمشق، فمرض و مات. فلمّا سمع أبوه الملک الکامل بموته سرّ بذلک، و استولی علی جمیع أمواله.

و فیها توفّی الحسن بن هبة اللّه بن محفوظ بن صصرّی الشیخ الإمام أبو القاسم الدمشقیّ التّغلبیّ. سمع الحافظ ابن عساکر و غیره، و روی الکثیر، و کان صالحا ثقة- رحمه اللّه-.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۷۳

الذین ذکر الذهبیّ وفاتهم فی هذه السنة، قال: و فیها توفّی أبو القاسم [الحسن] ابن هبة اللّه بن محفوظ بن صصرّی التّغلبیّ فی المحرّم، و قد قارب التسعین. و توفّیت أمة اللّه بنت أحمد بن عبد اللّه بن علیّ الآبنوسیّ. و أبو الحسن محمد بن محمد بن أبی حرب النّرسیّ الشاعر. و المهذّب بن علیّ بن قنیدة أبو نصر الأزجیّ. و الملک المسعود أقسیس صاحب الیمن ابن الملک الکامل فی جمادی الآخرة.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم أربع أذرع و ثلاث أصابع. مبلغ الزیادة ستّ عشرة ذراعا و إحدی عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۲۷]

السنة الثانیة عشرة من ولایة الملک الکامل محمد بن العادل أبی بکر بن أیّوب علی مصر، و هی سنة سبع و عشرین و ستمائة.

فیها أخذ السلطان جلال الدین بن خوارزم شاه مدینة خلاط بعد حصار طویل أقام علیها عشرة أشهر، و لمّا بلغ صاحبها الملک

الأشرف ذلک استنجد بملک الروم و غیره من الملوک، و واقع جلال الدین الخوارزمیّ المذکور و کسره بعد أمور، و قتل معظم عسکره، و امتلأت الجبال و الأودیة منهم، و شبعت الوحوش و الطیور من رممهم، و عظم الملک الأشرف فی النفوس.

و فیها توفّی الحسن بن محمد بن الحسن بن هبة اللّه الشیخ أبو البرکات زین الأمناء المعروف بابن عساکر فی لیلة الجمعة سابع عشر صفر، و دفن عند أخیه فخر الدین، و کان فاضلا محدّثا، سمع الکثیر و روی تاریخ الحافظ ابن عساکر.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۷۴

و فیها توفّی فتیان بن علیّ بن فتیان الأسدیّ الحریمیّ المعروف بالشّاغوریّ المعلّم الشاعر المشهور، کان فاضلا شاعرا خدم الملوک و مدحهم و علّم أولادهم، و له دیوان شعر مشهور. قال الإسعردیّ: إنّه مات فی هذه السنة. و قال ابن خلّکان:

إنّه توفّی سحر الثانی و العشرین من المحرّم سنة خمس عشرة و ستمائة بالشّاغور، و دفن [بمقابر] الباب الصغیر، و قول ابن خلّکان هو الأرجح. انتهی. و من شعر الشاغوریّ فی مدح أرض الزّبدانی من دمشق:

قد أجمد الخمر کانون بکلّ قدح و أخمد الجمر فی الکانون حین قدح

یا جنّة الزّبدانی أنت مسفرة بحسن وجه إذا وجه الزمان کلح

فالثلج قطن علیه السحب تندفه و الجو یحلجه و القوس قوس قزح

و له و قد دخل الحمّام و ماؤها شدید الحرارة، و کان قد شاخ، فقال:

أری ماء حمّامکم کالحمیم نکابد منه عناء و بوسا

و عهدی بکم تسمطون الجداء فما بالکم تسمطون التّیوسا

و مثل هذا قول بعضهم:

حمّامکم هذه حمام وقودها الناس و الحجاره

أعجب شیء رأیت فیها طهورها ینقض الطّهاره

و من أحسن لغز سمعناه فی الحمّام:

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۷۵

و ما لیل یخالطه نهار و أقمار تصدّ عن الشموس

و أنهار علی النّیران تجری و أسلحة تسلّ علی الرءوس

الذین ذکر الذّهبیّ وفاتهم فی هذه السنة، قال: و فیها توفّی زین الأمناء الحسن ابن محمد بن الحسن بن عساکر فی صفر، و له ثلاث و ثمانون سنة. و الشرف راجح ابن إسماعیل الحلیّ الشاعر. و عبد الرحمن بن عتیق [بن عبد العزیز] بن صیلا المؤدّب. و عبد السلام بن عبد الرحمن [ابن الأمین] علیّ [بن علیّ] بن سکینة.

و أبو المعالی محمد [بن أحمد] بن صالح الحنبلیّ ببغداد. و فخر الدین محمد بن عبد الوهاب الأنصاریّ یوم عید الأضحی.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم ذراعان سواء. مبلغ الزیادة ست عشرة ذراعا و ثلاث أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۲۸]

السنة الثالثة عشرة من ولایة الملک الکامل محمد بن العادل أبی بکر بن أیّوب علی مصر، و هی سنة ثمان و عشرین و ستمائة.

فیها ساق التّتار خلف السلطان جلال الدین بن خوارزم شاه بعد أن واقعهم عدّة وقائع من بلاد تبریز، فانهزم بین أیدیهم إلی دیار بکر، فقتل فی قریة من أعمال میّافارقین.

و فيها توفى بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن أيّوب، الملك الأمجد صاحب بعلبكّ. كان السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب أعطاه بعلبكّ عند وفاة أبيه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۷۶

سنة ثمان و سبعين و خمسمائة، فأقام فيها خمسين سنة حتّى حصره الملك الأشرف موسى بن العادل أبى بكر بن أيّوب و أخرجه منها، و ساعده عليه ابن عمّه أسد الدين شيركوه صاحب حمص؛ فانتقل الملك الأمجد إلى الشام و سكنها حتّى قتله بعض مماليكه غيلة؛ و كان فاضلا شاعرا فصيحا كاتبا، و له ديوان شعر كبير. و من شعره «دو بيت»:

كم يذهب هذا العمر فى الخسران يا غفلتى فيه و ما أنسانى

ضيّعت زمانى كلّه فى لعب يا عمر فهل بعدك عمر ثان

قلت: و ما أحسن قول قاضى القضاة شهاب الدين أحمد بن حجر- رحمه اللّه- فى هذا المعنى، و هو ممّا أنشدنى من لفظه لنفسه- عفا اللّه عنه-:

خليلىّ ولّى العمر منا و لم نتب و ننوى فعال الصالحات و لكنّا

فحتّى متى نبنى بيوتا مشيدة و أعمارنا منا تهدّ و ما تبنى

و ما ألطف قول السّراج الورّاق- رحمه اللّه- و هو قريب ممّا نحن فيه:

يا خجلتى و صحائفى سودا غدت و صحائف الأبرار فى إشراق

و فضيحتى لمعنّف لى قائل أكذا تكون صحائف الورّاق

و فيها قتل السلطان جلال الدين بن خوارزم شاه، و اسمه تكش، و قيل محمود ابن السلطان علاء الدين خوارزم شاه؛ و اسمه محمد بن تكش، و هو من نسل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۷۷

عبد اللّه بن طاهر بن الحسين، و جدّه تكش هو الذى أزال ملك السّلجوقيّة. قتل بديار بكر، كما ذكرناه فى أوّل هذه السنة. و لمّا قتل دخل جماعة على الملك الأشرف موسى فهنّئوه بموته؛ فقال: تهنّونى به و تفرحون! سوف ترون غبّه! و اللّه لتكوننّ هذه الكسرة سببا لدخول التتار إلى بلاد الإسلام، ما كان الخوارزمىّ إلّا مثل [السدّ] الذى بيننا و بين يأجوج و مأجوج؛ فكان كما قال الأشرف. كان الخوارزمىّ يقاتل التتار عشرة أيّام بلياليها بعساكره، يترجّلون عن خيولهم و يلتقون بالسيوف، و يبقى الرجل منهم يأكل و يبول و هو يقاتل.

و فيها توفّى المهذّب بن الدّخوار الطبيب، كان فاضلا حاذقا بعلم الطبّ أستاذ عصره، تقدّم على جميع أطبّاء زمانه، و مع هذا مات بستة أمراض مختلفة، و وقف داره و كتبه على الأطبّاء.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أبو نصر أحمد بن الحسين بن عبد اللّه بن النّرسىّ البيّع فى رجب، و له ثلاث و ثمانون سنة. و الملك الأمجد مجد الدين بهرام شاه بن فرخشاه صاحب بعلبكّ. و محمد بن عمر بن حسين المقرئ الكردىّ بدمشق. و المهذّب عبد الرحيم بن علىّ رئيس الطبّ، و يعرف بالدّخوار فى صفر. و أبو الفضل عبد السلام بن عبد اللّه الدّاهرىّ الخفّاف فى شهر ربيع الأوّل عن ثنتين و ثمانين سنة. و أبو الرضا محمد بن أبى الفتح المبارك [ابن عبد الرحمن] ابن عصيّة الحربىّ فى المحرّم، و له ثلاث و ثمانون سنة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۷۸

و العلّامة زين الدين يحيى بن عبد المعطى بن عبد النّور الزّواوىّ النحوىّ فى ذى القعدة بمصر.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ذراع واحدة و نصف إصبع.

مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا سواء.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۲۹]

السنة الرابعة عشرة من ولاية الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيّوب على مصر، و هى سنة تسع و عشرين و ستمائة.

فيها عاد التّتار إلى الجزيرة و حرّان و قتلوا و أسروا و سبوا، و خرج الملك الكامل صاحب الترجمة من مصر إلى أن وصل إلى ديار بكر و اجتمع مع أخيه الأشرف موسى، و اجتمعوا على دفع التّتار؛ و كان أهل حرّان قد خرجوا لقتال التّتار، فما رجع منهم إلّا القليل. و عاد التّتار إلى بلادهم بعد أمور صدرت منهم فى حقّ المسلمين.

فلمّا بلغ الكامل عود التّتار نزل على مدينة آمد و معه أخوه الأشرف، و حاصرها حتّى استولى عليها و على عدّة قلاع.

و فيها توفّى إسماعيل بن إبراهيم الشيخ شرف الدين الفقيه الحنفىّ و هو ابن خالة شمس الدين ابن الشّيرازىّ. كان فقيها فاضلا زاهدا عابدا و رعا و له تصانيف حسان، منها «مقدمة فى الفرائض»، و كان بعث إليه الملك المعظّم عيسى صاحب دمشق يقول: أفت بإباحة الأنبذة، و ما يعمل من ماء الرمّان و نحوه، فقال: لا أفتح هذا الباب على أبى حنيفة! إنّما هى رواية النوادر، و قد صحّ عن أبى حنيفة أنّه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۷۹

ما شربه قطّ، و حديث ابن مسعود لا يصحّ، و كذا ما يروى عن عمر فى إباحة شربه لا يثبت عنه. فغضب المعظّم و أخرجه من مدرسة طرخان.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أبو القاسم أحمد بن أحمد بن السّمّذىّ الكاتب. و الحافظ أبو موسى عبد اللّه ابن الحافظ عبد الغنى بن عبد الواحد المقدسىّ فى رمضان، و له ثمان و أربعون سنة. و عبد اللطيف بن عبد الوهاب بن الطّبرىّ فى شعبان. و العلّامة موفّق الدين عبد اللطيف بن يوسف ابن محمد البغدادىّ النحوىّ الطبيب فى المحرّم عن اثنتين و سبعين سنة. و الزاهد الشيخ عمر بن عبد الملك الدّينورىّ بقاسيون. و أبو حفص عمر بن كرم بن أبى الحسن الدّينورىّ الحمّامى فى رجب، و له تسعون سنة. و أبو القاسم عيسى بن عبد العزيز بن عيسى المقرئ بالإسكندريّة. و الحافظ معين الدين أبو بكر محمد بن عبد الغنى بن نقطة الحنبلىّ فى صفر كهلا.

*** أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثلاث أذرع و ثمانى أصابع.

مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و ثلاث أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۳۰]

السنة الخامسة عشرة من ولاية الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيّوب على مصر، و هى سنة ثلاثين و ستمائة.

فيها فتح الملك الكامل محمد صاحب الترجمة آمد، و أخرج منها صاحبها الملك المسعود بن مودود بعد حصار طويل؛ و تسلّم منه جميع القلاع التى كانت بيده،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۸۰

و بقى حصن كيفا عاصيا؛ فبعث الكامل أخاه الأشرف، و أخاه شهاب الدين غازيا، و معهما صاحب آمد تحت الحوطة؛ فسألهم صاحب آمد فى تسليم الحصن فلم يسلّموا البلد، فعذّبه الأشرف عذابا عظيما، و كان يبغضه؛ و لا زال الأشرف يحاصر حصن كيفا حتّى تسلّمها بعد أمور فى صفر من السنة، و وجد عند مسعود المذكور خمسمائة بنت من بنات الناس للفراش.

و فيها فتحت دار الحديث الأشرفيّة المجاورة لقلعة دمشق التى بناها الملك الأشرف موسى، و أملى بها ابن الصلاح الحديث، و ذلك فى ليلة النصف من شعبان، و وقف عليها الأشرف الأوقاف، و جعل بها نعل النّبىّ صلّى اللّه عليه و سلم.

و فيها توفّى الوزير صفىّ الدين عبد اللّه بن علىّ بن شكر، وزير الملك العادل؛ و أصله من الدّميرة، و هى قرية بالوجه البحرى من أعمال مصر. و كان صفىّ الدين المذكور وزيرا مهيبا عالما فاضلا له معرفة بقوانين الوزارة، و كانت عنايته مصروفة إلى العلماء و الفقهاء و الادباء، و كان مالكىّ المذهب. و مات بالقاهرة و هو على حرمته، و له بالقاهرة مدرسة معروفة به.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۸۱

و فيها توفّى الملك العزيز عثمان ابن السلطان الملك العادل أبى بكر بن أيّوب أخو الملك الكامل هذا، و كان شقيق المعظّم عيسى، و هو صاحب بانياس و تبنين و الحصون، و هو الذى بنى الصّبيبة؛ و دام مالكا لهذه القلاع إلى أن مات فى يوم الاثنين عاشر شهر رمضان ببستانه ببيت لهيا، و حمل تابوته فدفن بقاسيون عند أخيه الملك المعظّم عيسى، و قد تقدّم أنّه كان شقيقه.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى بهاء الدين إبراهيم ابن أبى اليسر شاكر بن عبد اللّه التّنوخىّ الشافعىّ فى المحرّم، ولى قضاء المعرّة خمسة أعوام. و أبو الحسن علىّ بن أحمد بن يوسف الأزجىّ بالقدس فى صفر. و أبو محمد الحسن ابن الأمير السيد علىّ بن المرتضى العلوىّ الحسينىّ فى شعبان. و صفىّ الدين أبو بكر عبد العزيز بن أحمد [بن عمر بن سالم بن محمد] بن باقا التاجر فى رمضان، و له خمس و سبعون سنة. و صاحب الصّبيبة الملك العزيز عثمان بن العادل- رحمه اللّه- و العلّامة عزّ الدين أبو الحسن علىّ بن الأثير بن محمد بن محمد بن عبد الكريم

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۸۲

الشّيبانىّ الجزرىّ المؤرّخ فى شعبان، و قد قارب ستّا و سبعين سنة. و صاحب إربل مظفّر الدّين كوكبورى ابن صاحب إربل أيضا زين الدين علىّ بن بكتكين التّركمانىّ فى رمضان. و الوزير مؤيّد الدّين محمد بن محمد بن محمد بن القمّىّ ببغداد. و شرف الدين محمد بن نصر اللّه بن مكارم الدّمشقىّ الشاعر الكاتب فى شهر ربيع الأوّل.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و عشر أصابع. مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا و ستّ أصابع، و طال مكثه على الأراضى. و اللّه أعلم.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۳۱]

السنة السادسة عشرة من ولاية الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيّوب على مصر، و هى سنة إحدى و ثلاثين و ستمائة.

فيها اجتمع الملك الكامل صاحب الترجمة و إخوته و أسد الدين شيركوه صاحب حمص، و ساروا ليدخلوا بلاد الروم من عند النهر الأزرق، فوجدوا الروم قد حفظوا الدّربند، و وقفوا على رءوس الجبال و سدّوا الطرق، فامتنعت العساكر من الدخول؛ و كان الملك الأشرف صاحب دمشق يومئذ ضيّق الصدر من أخيه الملك الكامل هذا، لأنّه طلب منه الرّقّة فامتنع؛ و قال له: ما يكفيك كرسىّ بنى أميّة! فاجتمع أسد الدين شيركوه صاحب حمص بالأشرف و قال له: إن

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۸۳

حكم الكامل على الروم أخذ جميع ما بأيدينا فوقع التقاعد، فلمّا رأى الكامل ذلك عبر الفرات و نزل السّويداء، و جاءه صاحب خرتبرت، و هو من بنى أرتق، و قال له: عندنا طريق سهلة تدخل منها إلى الروم. فجهّز الملك الكامل بين يديه ولده الملك الصالح نجم الدين أيّوب، و ابن أخيه الملك الناصر داود بن المعظّم، و الخادم صوابا، فجاءتهم عساكر الروم؛ و كان الناصر تأخّر و تقدّم صواب فى خمسة آلاف فارس، و معه الملك المظفّر صاحب حماة، و قاتلوا الروم و انهزموا؛ فعاد الملك الكامل إلى آمد. و كان

أسر صواب و جماعة من الأمراء فأطلقهم الروم بعد أن أحسنوا إليهم.

و فيها قدم رسول الأنبرور الفرنجىّ على الملك الكامل بهدايا فيها دبّ أبيض، و شعره مثل شعر السّبع، ينزل البحر فيصعد بالسمك فيأكله و معه أيضا طاوس أبيض.

و فيها توفّى الشيخ العارف المسلّك الزاهد شهاب الدين أبو حفص- و قيل أبو عبد اللّه- عمر بن محمد بن عبد اللّه بن [محمد بن عبد اللّه] بن عمّويه القرشىّ التّيمىّ البكرىّ السّهروردىّ الصّوفىّ. و ذكر الذهبىّ وفاته فى سنة اثنتين و ثلاثين و هو الأشهر.

قلت: و مولده فى شهر رجب سنة تسع و ثلاثين و خمسمائة بسهرورد، و قدم بغداد و هو أمرد، فصحب عمّه الشيخ أبا النّجيب عبد القاهر و أخذ عنه التصوّف و الوعظ

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۸۴

و صحب أيضا الشيخ عبد القادر الجيلى، و سمع الحديث من عمّه المذكور و غيره، و روى عنه البرزالى و جماعة كثيرة؛ و كان له فى الطريقة قدم ثابتة و لسان ناطق، و ولى عدّة ربط للصّوفيّة، و نفّذه الخليفة إلى عدّة جهات رسولا؛ و كان فقيها عالما واعظا مفتّنا مصنّفا، و هو صاحب التصانيف المشهورة، و اشتهر اسمه و قصد من الأقطار، و ظهرت بركات أنفاسه على خلق من العصاة فتابوا، و وصل به خلق إلى اللّه تعالى، و كفّ بصره قبل موته.

قال أبو المظفّر سبط بن الجوزىّ: رأيته فى سنة تسعين و خمسمائة يعظ برباط درب المقير على منبر طين، و على رأسه مئزر صوف؛ قال: و صنّف كتابا للصوفيّة و سمّاه «عوارف المعارف». قال: و جلس يوما ببغداد و ذكر أحوال القوم و أنشد- رحمه اللّه تعالى و عفا عنه-:

ما فى الصّحاب أخو وجد نطارحه حديث نجد و لا صبّ نجاريه

و جعل يردّد البيت و يطرب، فصاح به شابّ من أطراف المجلس، و عليه قباء و كلوتة؛ و قال: يا شيخ، لم تسطح و تنتقص القوم! و اللّه إنّ فيهم من لا يرضى أن يجاريک، و لا يصل فهمک إلى ما يقول، هلّا أنشدت:

ما فى الصّحاب و قد سارت حمولهم إلّا محبّ له فى الرّكب محبوب

كأنّه يوسف فى كلّ راحلة و الحىّ فى كلّ بيت منه يعقوب!

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۸۵

فصاح الشيخ و نزل من على المنبر و قصده فلم يجده، و وجد موضعه حفرة بها دم ممّا فحص برجلية عند إنشاد الشيخ البيت. انتهى كلام أبى المظفّر باختصار.

و فيها توفّى الشيخ طىّ المصرىّ مويد الشيخ محمد الفزارىّ، قدم الشام و أقام مدّة بزاويته، و كان يغشاه الأكابر، و انتفع بصحبته جماعة، و كان زاهدا عابدا، و دفن بزاويته بدمشق.

و فيها توفّى الشيخ عبد اللّه الارمنى الزاهد العابد الورع، كان رحّالا سافر إلى البلاد و لقى الأبدال و أخذ عنهم، و كان له مجاهدات و رياضات و عبادات و سياحات، و كان فى بداية أمره لا يأوى إلّا البرارى القفار و يتناول المباحات؛ قرأ القرآن و كتاب القدورى فى الفقه، و صحب رجالا من الأولياء، و كان معدودا من فقهاء الحنفية؛ و له حكايات و مناقب كثيرة. و مات فى يوم الجمعة تاسع عشرين ذى القعدة، و دفن بسفح قاسيون، و قد جاوز سبعين سنة.

و فيها توفّى العلّامة سيف الدّين علىّ بن أبى علىّ بن محمد بن سالم المعروف بالسيف الآمدىّ، كان إماما بارعا لم يكن فى زمانه من يجاريه فى علم الكلام.

قال أبو المظفّر: و كان يرمى بأشياء ظاهرها أنّه كان بريئا منها، لأنّه كان سريع الدّمعة، رقيق القلب سليم الصدر، و كان مقيما بحماة و سكن دمشق، و كان بنو العادل:

المعظّم و الأشرف و الكامل يكرهونه لما اشتهر عنه من الاشتغال بالمنطق و علوم الأوائل. ثم قال أبو المظفّر بعد كلام آخر: و أقام السيف خاملا فى بيته إلى أن توفّى فى صفر، و دفن بقاسيون فى تربته.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۸۶

و فيها توفّى كريم الدين الخلاطىّ الأمير، كان أديبا لطيفا حسن اللّقاء ذا مروءة خدم الأشرف و المعظّم و الكامل، و حجّ بالناس أميرا من الشام، و توفّى بدمشق و دفن بقاسيون عند مغارة الجوع.

و فيها توفّى الصلاح الإربلىّ، كان أديبا فاضلا شاعرا، خدم مظفّر الدّين صاحب إربل، ثمّ انتقل إلى خدمة الملك المغيث بن العادل، ثمّ خدم الكامل و تقدّم فى دولته و صار نديمه؛ ثم سخط عليه، لأنّه بعثه رسولا إلى أخيه المعظّم فنقل عنه أنّ المعظّم استماله، فحبسه الكامل فى الجبّ مدّة سنتين، ثم رضى عنه و أخرجه. و من شعره من قصيدة:

من يوم فراقنا على التحقيق هذى كبدى أحقّ بالتمزيق

لو دام لنا الوصال ألفى سنة ما كان يفى بساعة التفريق

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفى إسماعيل بن علىّ بن إسماعيل ابن ماتكين الجوهرىّ فى ذى القعدة، و له ثمانون سنة. و نجم الدين ثابت بن باذان التّفليسى الصّوفىّ شيخ الأسديّة. و سراج الدين الحسين بن أبى بكر المبارك بن محمد الزّبيدىّ الحنبلىّ فى صفر، و له خمس و ثمانون سنة. و زكريّا بن علىّ بن حسّان العلبىّ فى شهر ربيع الأوّل. و الخادم طغريل أتابك الملك العزيز و مدبّر دولته.

و الشيخ القدوة عبد اللّه بن يونس الأرمنىّ. و السيف الآمدىّ علىّ بن أبى علىّ بن محمد بن سالم الثّعلبى فى صفر، و له ثمانون سنة. و المحدّث أبو رشيد محمد بن أبى بكر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۸۷

الأصبهانىّ الغزالىّ المقرئ. و أبو عبد اللّه محمد بن عمر بن يوسف القرطبىّ فى صفر بالمدينة. و أبو الغنائم المسلم بن أحمد المازنى النّصيبىّ فى شهر ربيع الأوّل.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع سواء. مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و ثلاث أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۳۲]

السنة السابعة عشرة من ولاية الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيّوب على مصر، و هى سنة اثنتين و ثلاثين و ستمائة.

فيها خرجت عساكر الروم نحو آمد و حاصروها و أقاموا عليها أياما، ثم نازلوا السّويداء فأخذوها.

و فيها كان الوباء العظيم بمصر حيث إنّه مات فى شهر نيّف و ثلاثون ألف إنسان.

و فيها توفّى عبد السلام بن المطهّر بن عبد اللّه بن محمد بن [أبى] عصرون. كان فقيها فاضلا زاهدا إلّا أنّه كان مغرى بالنكاح، كان عنده نيّف و عشرون جارية للفراش. و مات بدمشق و دفن بقاسيون، و هو والد قطب الدين و تاج الدين.

و فيها توفّى صواب العادلى مقدّم عسكر الملك الكامل الذى كانت الروم أسرته فى عام أوّل، و كان خادما عاقلا شجاعا، و كان العادل و الكامل يعتمدان عليه، و كان حاكما على الشرق كلّه من قبل الكامل.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۸۸

و فيها توفّى الشيخ شرف الدين أبو حفص عمر بن أبى الحسن علىّ بن المرشد ابن علىّ المعروف بابن الفارض الحموىّ الأصل، المصرىّ [المولد و] الدار و الوفاة الصالح الشاعر المشهور، أحد البلغاء الفصحاء الأدباء. مولده فى رابع ذى القعدة سنة ستّ و سبعين و

خمسمائة، و توفّى بالقاهرة فى يوم الثلاثاء الثانى من جمادى الأولى، و دفن من الغد بسفح المقطم، و قبره معروف به يقصد للزيارة. و الفارض (بفتح الفاء و بعدها ألف وراء مكسورة و ضاد معجمة). و هو الذى مكتب الفروض على النساء و الرجال. و هو صاحب النظم الرائق و الشعر الفائق الغرامىّ. و ديوان شعره مشهور كثير الوجود بأيدى الناس، و شعره أشهر من أن يذكر. فمن مقطّعات شعره قوله:

و حياة أشواقى إلى ک و حرمة الصبر الجميل

لا أبصرت عينى سوا ک و لا صبوت إلى خليل

و من قصائده المشهورة- رحمه اللّه و عفا عنه-:

سائق الأظعان يطوى البيد طىّ منعما عرّج على كثبان طىّ

و بذات الشّيح عنّى إن مرر ت بحىّ من عريب الجزع حىّ

و تلطّف و اجر ذكرى عندهم علّهم أن ينظروا عطفا إلىّ

قل تركت الصّبّ فيكم شبحا ماله ممّا براه الشّوق فىّ

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۸۹

خافيا عن عائد لاح كما لاح فى برديه بعد النّشر طىّ

صار وصف الضّرّ ذاتيّا له عن عناء و الكلام الحىّ لىّ

كهلال الشّكّ لو لا أنّه أنّ عينى عينه لم تتأىّ

مثل مسلوب حياة مثلا صار فى حبّكم ملسوب حىّ

مسبلا للنّأى طرفا جاد إن ضنّ نوء الطّرف إذ يسقط خىّ

بين أهليه غريبا نازحا و على الأوطان لم يعطفه لىّ

جامحا إن سيم صبرا عنكم و عليكم جانحا لم يتأىّ

نشر الكاشح ما كان له طاوى الكشح قبيل النأى طىّ

فى هواكم رمضان عمره ينقضى ما بين إحياء و طىّ

صاديا شوقا لصدّى طيفكم جدّ ملتاح إلى رؤيا ورىّ

حائرا فيما إليه أمره حائر و المرء فى المحنة عىّ

فكأيّن من أسى أعيا الأسى نال لو يغنيه قولى و كأىّ

رائيا إنكار ضرّ مسّه حذر التعنيف فى تعريف رىّ

و الذى أرويه عن ظاهر ما باطنى يزويه عن علمى زىّ

يا أهيل الودّ أنّى تنكرو نى كهلا بعد عرفانى فتىّ

و هوى الغادة عمرى عادة يجلب الشّيب إلى الشابّ الأحىّ

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة؛ ج۶؛ ص۲۸۹

نصبا أكسبنى الشوق كما تكسب الأفعال نصبا لام كىّ

[و متى أشكو جراحا بالحشى زيد بالشّكوى إليها الجرح كىّ]

عين حسّادى عليها لى كوت لا تعدّاها أليم الكىّ كىّ

عجبا فى الحرب أدعى باسلا و لها مستبسلا فى الحبّ كىّ

هل سمعتم أو رأيتم أسدا صاده لحظ مهاة أو ظبىّ

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۹۰

سهم شهم القوم أشوی و شوی سهم ألحاظكم أحشایی شیّ

وضع الآسی بصدری كفّه قال مالی حیلة فی ذا الهویّ

أیّ شیء مبرد حرّا شوی للشّوی حشو حشای أیّ شیّ

سقمی من سقم أجفانكم و بمعسول الثّنایا لی دویّ

أوعدونی أوعدونی و امطلوا حكم دین الحبّ دین الحبّ لیّ

رجع اللّاحی علیكم آیسا من رشادی و كذاك العشق غیّ

أ بعینیه عمّی عنكم كما صمم عن عذله فی أذنیّ

أو لم ینه النّهی عن عذله زوایا وجه قبول النّصح زی

ظلّ یهدی لی هدی فی زعمه ضلّ كم یهذی و لا أصغی لغیّ

و لما یعذل عن لمیاء طوع هوی فی العذل أعصی من عصیّ

لومه صبّا لدی الحجر صبا بكم دلّ علی حجر صبیّ

عاذلی عن صبوة عذریّة هی بی لا فتئت هیّ بن بیّ

ذابت الرّوح اشتیاقا فهی بع د نفاد الدمع أجری عبرتیّ

فهبوا عینیّ ما أجدی البكا عین ماء فهی إحدی منیتیّ

أو حشا سال و لا أختارها إن تروا ذاك بها منّا علیّ

بل أسیئوا فی الهوی أو أحسنوا كلّ شیء حسن منكم لدیّ

و فیها توفّی عیسی بن سنجر بن بهرام بن جبریل بن خمارتكین الشیخ الإمام الأدیب البارع حسام الدین أبو یحیی- و قیل: أبو الفضل- الإربلیّ المعروف بالحاجریّ الشاعر المشهور. كان جندیّا من أولاد الأتراك. و كان أدیبا فاضلا ظریفا فصیحا، و له دیوان شعر مشهور، یغلب علی شعره الرّقة و الانسجام.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۹۱

قال ابن خلّكان- رحمه اللّه-: و كان صاحبی و أنشدنی كثیرا من شعره، فمن ذلك و هو معنی جیّد فی نهایة الجودة:

ما زال یحلف لی بكلّ ألیّة ألّا یزال مدی الزمان مصاحبی

لمّا جفا نزل العذار بخدّه فتعجّبوا لسواد وجه الكاذب

قال و أنشدنی لنفسه أیضا:

لک خال من فوق عر ش شقیق قد استوی

بعث الصّدغ مرسلا یأمر الناس بالهوی

انتهی.

قلت: و من شعره أیضا:

لک أن تشوّقنی إلی الأوطان و علیّ أن أبكی بدمعی القانی

إنّ الألی رحلوا غداة محجّر ملئوا القلوب لواعج الأحزان

فلأبعثنّ مع النسیم إلیهم شكوی تمیل لها غصون البان

نزلوا برامة قاطنین فلا تسل ما حلّ بالأغصان و الغزلان

و کانت وفاته فی یوم الخمیس ثانی شوّال، و تقدیر عمره خمسون سنة. و الحاجریّ (بفتح الحاء المهملة و بعد الألف جیم مکسورة و بعدها راء) و هذه النسبة إلی حاجر، و کانت بلیدة بالحجاز. و سبب تسمیته بذلک لأنّه کان یکثر من ذکر الحاجر فی شعره فسمّی بذلک.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۹۲

الذین ذکر الذهبیّ وفاتهم فی هذه السنة، قال: و فیها توفّی الحسن بن صباح بن حسام المخزومیّ الکاتب فی رجب، و له إحدی و تسعون سنة، و تقی الدین علیّ بن أبی الفتح [المبارک بن الحسن بن أحمد] بن ماسویه الواسطیّ فی شعبان، و له ست و سبعون سنة. و الأدیب شرف الدّین عمر بن علیّ بن المرشد الحمویّ بن الفارض بمصر فی جمادی الأولی. و الزاهد العارف أبو حفص عمر بن محمد بن عبد اللّه التّیمیّ السّهروردیّ فی أوّل السنة، و له ثلاث و تسعون سنة. و أبو عبد اللّه محمد بن عماد ابن محمد الحرّانیّ التاجر فی صفر بالإسکندریة، و له تسعون سنة. و القدوة الزاهد غانم بن علیّ [بن إبراهیم بن عساکر] المقدسیّ. و القاضی العلّامة بهاء الدین یوسف ابن رافع بن تمیم الشافعیّ ابن شدّاد بحلب فی صفر. و سیف الدولة محمد بن غسّان الحمصی فی شعبان. و أبو الوفا محمود [بن إبراهیم بن سفیان] بن مندة التاجر بأصفهان شهیدا فی خلق لا یحصون بسیف التتار فی شوّال. و أبو سعد محمد بن عبد الواحد المدینی. و حسام الدین عیسی بن سنجر بن بهرام الإربلیّ المعروف بالحاجریّ الشاعر المشهور، قتله شخص فی شوّال، و له خمسون سنة.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم خمس أذرع سواء. مبلغ الزیادة ست عشرة ذراعا و ثلاث عشرة إصبعا.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۹۳

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۳۳]

السنة الثامنة عشرة من ولایة الملک الکامل محمد بن العادل أبی بکر بن أیّوب، علی مصر، و هی سنة ثلاث و ثلاثین و ستمائة.

فیها استعاد الکامل من الروم حرّان و الرّها و غیرهما، و أخرب قلعة الرّها و نزل علی دنیسر فأخربها و معه أخوه الأشرف، و بینما هم فی ذلک جاء کتاب بدر الدین لؤلؤ إلی الأشرف یقول: قد قطع التّتار دجلة فی مائة طلب کلّ طلب خمسمائة فارس، و وصلوا إلی سنجار، فخرج إلیهم معین الدین بن کمال الدین بن مهاجر فقتلوه علی باب سنجار، ثم رجع التتار ثم عادت. فأمّنهم الأشرف للتوجّه إلی جهة الشرق.

و فی هذه السنة کان الطاعون العظیم بمصر و قراها، مات فیه خلق کثیر من أهلها و غیرها حتی تجاوز الحدّ.

و فیها جاءت الخوارزمیّة إلی صاحب ماردین فنزل إلیهم و قاتلهم، ثم نزلوا نصیبین و أحرقوها، و فعلوا فیها أعظم ما فعل الکامل بدنیسر.

و فیها توفّی الحسن بن محمد القاضی القیلویّ، و قیلویّة: قریة من قری بغداد.

کان فاضلا کاتبا، ولد بالعراق سنة أربع و ستین و خمسمائة، و کان کثیر الأدب ملیح الخطّ عارفا بالتواریخ حسن العبارة متواضعا، و کانت وفاته فی ذی القعدة و دفن بمقابر الصوفیّة عند المنیبع.

و فیها توفّی أبو المحاسن محمد بن نصر [الدین بن نصر بن الحسین] بن عتین الزرعی، أصله من حوران.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۹۴

قال أبو المظفّر: «کان خبیث اللّسان هجّاء فاسقا متهتّکا، عمل قصیدة سمّاها:

«مقراض الأعراض» خمسمائة بیت، لم یفلت أحد من أهل دمشق منها بأقبح هجو. و نفاه السلطان صلاح الدین إلی الهند، فمضی و

مدح ملوكها و اكتسب مالا، و عاد إلى دمشق. و من هجوه فى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب- رحمه اللّه تعالى- قوله:

سلطاننا أعرج و كاتبه ذو عمش و الوزير منحدب

و صاحب الأمر خلقه شرس و عارض الجيش داؤه عجب

و الدّولعىّ الخطيب معتكف و هو على قشر بيضة يثب

و لابن باقا وعظ يغرّ به الن اس و عبد اللطيف محتسب

و لمّا نفى كتب من الهند إلى دمشق:

فعلام أبعدتم أخا ثقة لم يجترم ذنبا و لا سرقا

انفوا المؤذّن من بلادكم إن كان ينفى كلّ من صدقا

و لمّا عاد إلى دمشق هجا الملك العادل سيف الدين أبا بكر بن أيّوب بقوله:

إن سلطاننا الذى نرتجيه واسع المال ضيّق الإنفاق

هو سيف كما يقال و لكن قاطع للرّسوم و الأرزاق

قال: و استكتبه الملك المعظّم، و كان من أكبر سيّئات المعظّم. و مات عن إحدى و ثمانين سنة». انتهى كلام أبى المظفّر باختصار.

و قال ابن خلّكان: «كان خاتمة الشعراء، لم يأت بعده مثله، و لا كان فى أواخر عصره من يقاس به، و لم يكن شعره مع جودته مقصورا على أسلوب واحد. ثم نعته بأشياء إلى أن قال: و لمّا ملك الملك العادل دمشق كتب إليه قصيدته الرائيّة

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۹۵

يستأذنه فى الدخول إليها، و يصف دمشق و يذكر ما قاساه فى الغربة؛ و قد أحسن فيها كلّ الإحسان و استعطفه كلّ الاستعطاف، و أوّلها:

ما ذا على طيف الأحبّة لو سرى و عليهم لو سامحونى فى الكرى

ثم وصف دمشق و قال:

فارقتها لا عن رضا و هجرتها لا عن قلّى و رحلت لا متخيّرا

أسعى لرزق فى البلاد مشتّت و من العجائب أن يكون مقتّرا

و أصون وجه مدائحى متقنّعا و أكفّ ذيل مطامعى متستّرا

و منها يشكو الغربة:

أشكو إليك نوى تمادى عمرها حتّى حسبت اليوم منها أشهرا

لا عيشتى تصفو و لا رسم الهوى يعفو و لا جفنى يصافحه الكرى

أضحى عن الأحوى المريع محلّأ و أبيت عن ورد النّمير منفّرا

و من العجائب أن يقيل بظلّكم كلّ الورى و أبيت وحدى بالعرا

فلمّا وقف عليها العادل أذن له فى الدخول إلى دمشق، فلمّا دخلها قال:

هجوت الأكابر فى جلّق و رعت الوضيع بسبّ الرّفيع

و أخرجت منها و لكنّنى رجعت على رغم أنف الجميع

و فيها توفّى أبو الخطّاب بن دحية المغربىّ. قال أبو المظفّر: كان فى المحدّثين مثل ابن عنين فى الشعراء، يثلب علماء المسلمين و يقع فيهم، و يتزيّد فى كلامه، فترك الناس الرواية عنه و كذّبوه. و كان الكامل مقبلا عليه، فلمّا انكشف له حاله

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۹۶

أعرض عنه، و أخذ منه دار الحديث و أهانه، فمات فى شهر ربيع الأوّل بالقاهرة و دفن بقرافة مصر.

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى الجمال أبو حمزة أحمد ابن عمر بن الشيخ أبى عمر المقدسى. و عفيف الدين علىّ بن عبد الصمد [بن محمد بن مفرج] بن الرمّاح المصرىّ المقرئ النحوى. و أبو الحسن [علىّ] بن أبى بكر بن روزبة القلانسىّ الصّوفىّ فى شهر ربيع الآخر، و قد جاوز التسعين. و العلّامة أبو الخطّاب عمر [بن الحسن] بن علىّ البلنسىّ المعروف بابن دحية فى شهر ربيع الأوّل عن سبع و ثمانين سنة. و الفخر محمد بن إبراهيم بن مسلم الإربلىّ الصّوفى بإربل فى شوّال أو شهر رمضان. و قاضى القضاة عماد الدين أبو صالح نصر بن عبد الرزاق ابن الشيخ عبد القادر الجيلىّ الحنبلىّ فى شوّال.

امر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و سبع عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و إصبعان.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۳۴]

السنة التاسعة عشرة من ولاية الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر ابن أيّوب على مصر، و هى سنة أربع و ثلاثين و ستمائة.

فيها نزلت التّتار على إربل و حاصرتها مدّة حتّى أخذوها عنوة، و قتلوا كلّ من فيها و سبوا و فضحوا البنات، و صارت الابار و الدّور قبورا للناس. و كان أيدكين

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۹۷

مملوك الخليفة بالقلعة فقاتلهم، فنقبوا القلعة و جعلوا لها سردابا و طرقا، و قلّت عندهم المياه حتّى مات بعضهم عطشا، فلم يبق سوى أخذها؛ فرحلوا عنها فى ذى الحجّة، و قد عجزوا عن حمل ما أخذوا من الأموال و الغنائم.

و فيها استخدم الملك الصالح نجم الدين أيّوب ابن الملك الكامل- صاحب الترجمة- الخوارزميّة أصحاب جلال الدين، فانضمّوا عليه و انفصلوا من الروم؛ و سرّ والده الملك الكامل بذلك.

و فيها بدت الوحشة بين الأخوين، و سببها أنّ الأشرف طلب من الكامل الرّقّة و قال: الشرق كلّه صار له، و أنا أركب كلّ يوم فى خدمته، فتكون الرّقّة برسم عليق دوابّى، فأبى الكامل و أغلظ فى الجواب، فوقعت الوحشه بينهم بسبب ذلك.

و فيها توفى الناصح عبد الرحمن بن نجم بن عبد الوهّاب الحنبلىّ، ولد بدمشق و نشأ بها، و تفقّه و وعظ و صنّف و درّس بمدرسة ربيعة خاتون. و مات فى غرّة المحرّم.

و فيها توفّى السلطان الملك العزيز محمد ابن السلطان الملك الظاهر غازى ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب. كان صاحب حلب، وليها بعد وفاة أبيه الظاهر.

و مولده فى ذى الحجّة سنة تسع أو عشر و ستمائة. و توفّى والده و هو طفل، فنشأ تحت حجر شهاب الدين الخادم، فرتّب شهاب الدين أموره أحسنى ترتيب إلى سنة تسع و عشرين و ستمائة. استقلّ الملك العزيز هذا بالأمر إلى أن توفّى بحلب فى شهر ربيع الأوّل. و كان حسن الصورة كريما عفيفا، و لم يبلغ أربعا و عشرين سنة. و دفن بقلعة حلب، و إليه تنسب المماليك العزيزيّة الآتى ذكرهم فى عدّة أماكن.

و فيها توفّى كيقباذ السلطان علاء الدين صاحب الروم. كان عاقلا شجاعا مقداما جوادا، و هو الذى كسر الخوارزمىّ و كسر الكامل و استولى على بلاد الشرق.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۹۸

و كان الملك العادل زوّجه ابنته فأولدها أولادا؛ و كان عادلا منصفا مهيبا، ما وقف له مظلوم إلّا و كشف ظلامته، و كانت وفاته فى

شوّال.

قلت: و بنو قرمان ملوک الروم فی زماننا هذا یزعمون أنّهم من نسل السلطان علاء الدین هذا- و اللّه أعلم-.

الذین ذکر الذهبیّ وفاتهم فی هذه السنة، قال: و فیها توفّی الملک المحسن أحمد ابن السلطان صلاح الدین فی المحرّم، و له سبع و خمسون سنة. و الخطیب أبو طاهر الخلیل أحمد الجوسقیّ فی شهر ربیع الأوّل. و أبو منصور سعید بن محمد بن یس السفّار، و قد حجّ تسعا و أربعین حجّة، فی صفر. و الحافظ أبو الربیع سلیمان بن موسی بن سالم الکلاعیّ البلنسیّ فی ذی الحجّة، و له سبعون سنة. و الإمام ناصح الدین عبد الرحمن بن نجم بن عبد الوهاب الحنبلیّ فی المحرّم، و قد نیّف علی الثمانین. و مفتی حرّان ناصر الدّین عبد القادر بن عبد القاهر بن أبی الفهم الحنبلیّ فی شهر ربیع الأوّل عن اثنتین و سبعین سنة. و علیّ بن محمد بن جعفر بن کب المؤدّب. و کمال الدین علیّ بن أبی الفتح بن الکباری الطبیب بحلب فی المحرّم. و سلطان الروم علاء الدین کیقباذ بن کیخسرو بن قلج أرسلان السّلجوقیّ فی شوّال. و الحافظ أبو الحسن محمد بن أحمد بن عمر القطیعیّ فی شهر ربیع الآخر عن تسع و ثمانین سنة. و الملک العزیز

محمد ابن الملک الظاهر غازی بن [صلاح الدین] یوسف صاحب حلب بها فی شهر ربیع الأوّل. و محتسب دمشق الفخر محمود بن عبد اللطیف. و أبو الحسن مرتضی ابن أبی الجود حاتم بن المسلم الحارثیّ المصریّ فی شوّال. و أبو بکر هبة اللّه بن عمر ابن الحسن القطّان، و کان آخر من روی عن أمّه کمال بنت عبد اللّه بن السّمرقندیّ، و عن هبة اللّه الشّبلیّ، عاش نیفا و ثمانین سنة. و یاسمین بنت سالم [بن علیّ] بن البیطار یوم عاشوراء.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم سبع أذرع سواء. مبلغ الزیادة ست عشرة ذراعا و ثلاث و عشرون إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۳۵]

اشارة

السنة العشرون من ولایة الملک الکامل محمد بن العادل أبی بکر بن أیّوب علی مصر، و هی سنة خمس و ثلاثین و ستمائة، و هی السنة التی مات الکامل المذکور فی رجبها، و حکم ابنه العادل فی باقیها حسب ما تقدّم [فی] وفاة الکامل فی ترجمة.

و فیها أیضا توفّی الملک الأشرف موسی، ثم بعده أخوه الملک الکامل. و ملک دمشق بعد موت الأشرف الملک الجواد بن الأشرف. علی ما سیأتی ذکره [فی] وفاة الأشرف فی هذه السنة.

و فیها اختلفت الخوارزمیّة علی الملک الصالح أیّوب بن الکامل، و أرادوا القبض علیه فهرب إلی سنجار، و ترک خزائنه و أثقاله، فنهبوا الجمیع. و لمّا قدم الصالح سنجار سار إلیه بدر الدین لؤلؤ فی ذی القعدة و حصره بها، فأرسل إلیه الصالح یسأله الصلح؛ فقال: لا بدّ من حمله فی قفص إلی بغداد، و کان لؤلؤ [و] المشارقة

یکرهونه و ینسبونه إلی التکبّر و الظلم؛ فاحتاج الصالح أن یبعث إلی الخوارزمیّة، و هم علی حرّان یستنجدهم، فساقوا جریدة من حرّان، و کبسوا لؤلؤا، فنجا وحده، و نهبوا أمواله و خرائنه و جمیع ما کان فی عسکره.

و فیها توفّی الملک الأشرف أبو الفتح مظفر الدین موسی شاه أرمن ابن السلطان الملک العادل أبی بکر ابن الأمیر نجم الدین أیّوب، أخو الملک الکامل محمد صاحب الترجمة. و أوّل شیء ملکه الأشرف هذا من القلاع و البلاد الرّها فی أیّام أبیه، و آخر شیء دمشق.

و مات بها بعد أن ملك قلاع ديار بكر سنين. و قد تقدّم من ذكره نبذة كبيرة فى حوادث دولة أخيه الكامل، و فى غزوة دمياط و غير ذلك.

و مولده سنة ثمان و سبعين و خمسمائة بقصر الزّمرّد بالقاهرة قبل أخيه المعظّم عيسى بليلة واحدة، و كان مولدهما بموضع واحد- و قيل: كان بقلعة الكرك- و الأول أشهر. و كان الملك الأشرف ملكا كريما حليما واسع الصدر كريم الأخلاق كثير العطايا، لا يوجد فى خزائنه شىء من المال مع اتّساع مملكته؛ و لا تزال عليه الديون؛ و نظر يوما فى دواة كاتبه و شاعره كمال الدين علىّ بن النّبيه المصرىّ فرأى بها قلما واحدا فأنكر عليه، فأنشد الكمال بديها دو بيت:

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۰۱

قال الملك الأشرف قولا رشدا أقلامك يا كمال قلّت عددا

جاوبت لعظم كتب ما تطلقه تحفى فتقطّ فهى تفنى أبدا

و لكمال الدين ابن النبيه المذكور فيه غرر المدائح معروفة بمخالص قصائده فى ديوانه، و تسمّى الأشرفيّات. و كانت وفاة الأشرف فى يوم الخميس رابع المحرّم بدمشق، و دفن بقلعتها؛ ثم نقل بعد مدّة إلى التربة التى أنشئت له بالكلّاسة فى الجانب الشمالى من جامع دمشق.

و فيها توفّى يحيى بن هبة اللّه بن الحسن القاضى شمس الدين أبو البركات بن سناء الدولة، كان إماما فقيها فاضلا حافظا للقوانين الشرعيّة، ولى القضاء بالبيت المقدّس ثمّ بدمشق، و كان الملك الأشرف موسى يحبّه و يثنى عليه. و مات فى ذى القعدة.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى الأنجب بن أبى السعادات الحمّامى فى شهر ربيع الآخر، و له نيّف و ثمانون سنة. و أبو محمد الحسين بن علىّ بن الحسين بن رئيس الرؤساء فى رجب. و قاضى حلب زين الدّين أبو محمد عبد اللّه بن عبد الرحمن بن عبد اللّه بن علوان الأسدىّ ابن الأستاذ. و أبو المنجّا عبد اللّه بن عمر بن علىّ بن اللّتّى القزّاز فى جمادى الأولى، و له تسعون سنة.

و أبو طالب علىّ بن عبد اللّه بن مظفّر ابن الوزير علىّ بن طرّاد الزّينبىّ فى رمضان.

و الرّضى عبد الرحمن بن محمد بن عبد الجبّار المقدسىّ المقرئ. و شيخ الشيوخ صدر الدين عبد الرزّاق بن عبد الوهّاب [بن علىّ بن علىّ] بن سكينة فى جمادى الأولى. و السلطان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۰۲

الملك الكامل ناصر الدين محمد بن العادل فى رجب بدمشق، و له ستون سنة. و أبو بكر محمد بن مسعود بن بهروز الطبيب فى شهر رمضان، و قد نيّف على التسعين، و هو آخر من حدّث ببغداد عن أبى الوقت. و شرف الدين محمد بن نصر المقدسىّ ابن أخى الشيخ أبى البيان فى رجب. و القاضى شمس الدين أبو نصر محمد بن هبة اللّه بن محمد ابن الشّيرازىّ فى جمادى الآخرة، و له ستّ و ثمانون سنة. و خطيب دمشق جمال الدين محمد بن أبى الفضل الدّولعىّ فى جمادى الأولى، و دفن بمدرسته بجيرون، و له ثمانون سنة. و نجم الدين مكرّم بن محمد بن حمزة بن أبى الصّقر القرشىّ السفّار فى رجب، و له سبع و ثمانون سنة. و السلطان الملك الأشرف مظفّر الدين موسى بن العادل فى المحرّم، و له تسع و خمسون سنة. و قاضى القضاة شمس الدين يحيى بن هبة اللّه بن سناء الدولة فى ذى القعدة، و له ثلاث و ثمانون سنة، و هو من تلامذة القطب النّيسابورىّ. و الشهاب يوسف بن إسماعيل الحلبىّ بن الشّوّاء الشاعر المشهور.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و نصف إصبع.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا سواء.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۰۳

ذکر سلطنة الملک العادل الصغیر علی مصر

هو السلطان الملک العادل أبو بکر ابن السلطان الملک الکامل محمد ابن السلطان الملک العادل أبی بکر ابن الأمیر نجم الدین أیّوب الأیوبیّ المصریّ. و سبب تسلطنه و تقدّمه علی أخیه الأکبر نجم الدین أیّوب أنّه لمّا مات أبوه الملک الکامل محمد بقلعة دمشق فی رجب- حسب ما ذکرناه فی أواخر ترجمته- کان ابنه الملک الصالح نجم الدین أیوب- و هو الأکبر- نائب أبیه الملک الکامل علی الشرق و إقلیم دیار بکر، و کان ابنه الملک العادل أبو بکر هذا- و هو الأصغر- نائب أبیه بدیار مصر؛ فلمّا مات الکامل قعد الأمراء یشتورون فیمن یولّون من أولاده فوقع الاتفاق بعد اختلاف کبیر- نذکره من قول صاحب المرآة- علی إقامة العادل هذا فی سلطنة مصر و الشام، و أن یکون نائبه بدمشق ابن عمّه الملک الجواد یونس، و أن یکون أخوه الملک الصالح نجم الدین أیّوب علی ممالک الشرق علی حاله، فتم ذلک و تسلطن الملک العادل هذا فی أواخر سنة خمس و ثلاثین و ستمائة، و تمّ أمره و نعت بالعادل سیف الدین علی لقب جدّه. و مولد العادل هذا بالمنصورة، و والده الملک الکامل علی قتال الفرنج بدمیاط فی ذی الحجّة سنة سبع عشرة و ستمائة.

و قال العلّامة شمس الدین یوسف بن قزأوغلی فی مرآة الزمان: «ذکر ما جری بعد وفاة الملک الکامل، اجتمع الأمراء و فیهم سیف الدین [علیّ] بن قلیج، و عزّ الدّین أیبک، و الرکن الهیجاوی، و عماد الدین و فخر الدین ابنا الشیخ، و تشاوروا و انفصلوا علی غیر شیء؛ و کان الناصر داود (یعنی ابن الملک المعظّم عیسی) بدار أسامة، [فجاءه] الهیجاویّ؛ و أرسل إلیه عزّ الدین أیبک یقول: أخرج

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۰۴

المال و فرّقه فی ممالیک أبیک المعظّم و العوامّ معک، و تملّک البلد و یبقوا فی القلعة محصورین فما اتّفق ذلک؛ و أصبحوا یوم الجمعة فی القلعة فحضر من سمّینا [بالأمس]، و ذکروا الناصر و الجواد- قلت: و الناصر داود هو ابن المعظم عیسی، و الجواد مظفّر الدین یونس هو ابن شمس الدین مودود بن العادل (أعنی هما أولاد عمّ).

انتهی- قال: و کان أضرّ ما علی الناصر عماد الدین ابن الشیخ، لأنّه کان یجری فی مجالس الکامل مباحثات فیخطئه فیها و یستجهله فبقی فی قلبه، و کان أخوه فخر الدین یمیل إلی الناصر؛ فأشار عماد الدین بالجواد، و وافقوا أمره، و أرسلوا الهیجاویّ فی یوم الجمعة إلی الناصر، و هو فی دار أسامة، فدخل علیه و قال له: إیش قعودک فی بلد القوم؟ قم فاخرج، فقام و رکب [و جمیع من فی دمشق من دار أسامة إلی القلعة] و ما شکّ أحد أنّ الناصر لمّا رکب من دار أسامة إلّا أنّه طالع إلی القلعة، فلمّا تعدّی مدرسة العماد الکاتب و خرج من باب الدّرب عرج إلی باب الفرج، فصاحت العامّة لا لا [لا]؛ و انقلبت دمشق و خرج الناصر من باب الفرج إلی القابون، فوقع بهاء الدین بن ملکیشوا و غلمانه فی الناس بالدبابیس، فأنکوا فیهم فهربوا.

و أمّا الجواد فإنّه فتح الخزائن و أخرج المال و فرّق ستة آلاف ألف دینار، و خلع خمسة آلاف خلعة، و أبطل المکوس و الخمور، و نفی الخواطیء. و أقام الناصر بالقابون أیّاما، فعزموا علی قبضه، فرحل و بات بقصر أمّ حکیم، و خرج خلفه أیبک الأشرفیّ لیمسکه، و عرف عماد الدّین بن موسک فبعث إلیه فی السرّ، فسار فی اللیل إلی عجلون، و وصل أیبک إلی قصر أمّ حکیم، و عاد إلی دمشق.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۰۵

و سار الناصر إلی غزّة، فاستولی علی الساحل؛ فخرج إلیه الجواد فی عسکر مصر و الشام، و قال للأشرفیّة: کاتبوه و أطمعوه فکاتبوه و أطمعوه فاغترّ بهم، و ساق من غزّة فی سبعمائة فارس إلی نابلس بأثقاله و خزائنه و أمواله، و کانت علی سبعمائة جمل، و ترک العساکر منقطعة خلفه، و ضرب دهلیزه علی سبسطیة، و الجواد علی جیتین فساقوا علیه و أحاطوا به، فساق فی نفر قلیل إلی نابلس، و أخذوا الجمال بأحمالها و الخزائن و الجواهر و الجنائب و استغنوا غنی الأبد، و افتقر هو فقرا ما افتقره أحد؛ و وقع عماد الدین بسفط صغیر فیه اثنتا عشرة قطعة من الجوهر و فصوص لیس لها قیمة؛ فدخل علی الجواد فطلبه منه فأعطاه إیّاه. و سار الناصر لا یلوی علی

شیء إلی الکرک. ثم وقع له أمور نذکر بعضها فی حوادث العادل و الصالح و غیرهما». انتهی.

و لمّا تمّ أمر العادل و تسلطن بمصر و استقرّ الجواد بدمشق علی أنّه نائب العادل، و بلغ هذا الخبر الملک الصالح نجم الدین أیّوب عظم علیه ذلک، کونه کان هو الأکبر، فقصد الشام بعد أمور وقعت له مع الخوارزمیّة و مع لؤلؤ صاحب الموصل؛ ثم سار الملک الصالح بعساکر الشرق حتّی وافی دمشق و دخلها فی جمادی الآخرة سنة ست و ثلاثین و ستمائة، فخرج إلیه الملک الجواد و التقاه؛ و اتّفق معه علی مقایضة دمشق بسنجار و عانة، و سببه [ضیق] عطن الجواد، [و عجزه عن القیام بمملکة الشام] فإنّه کان یظهر أنّه نائب العادل بدمشق فی مدّة إقامته، ثم خاف الجواد أیضا من العادل، و ظنّ أنّه یأخذ دمشق منه، فخرج الجواد إلی البرّیّة و کاتب الملک الصالح

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۰۶

المذکور حتّی حضر، فلمّا حضر استانس به و قایضه و دخلا دمشق، و مشی الجواد بین یدی الصالح و حمل الغاشیة من تحت القلعة، ثمّ حملها بعده الملک المظفّر صاحب حماة من باب الحدید، و نزل الملک الصالح أیّوب بقلعة دمشق، و الجواد فی دار فرخشاه؛ ثم ندم الجواد علی مقایضة دمشق بسنجار، و استدعی المقدّمین و الجند و استحلفهم، و جمع الصالح أصحابه عنده فی القلعة، و أراد الصالح أن یرحق دار فرخشاه، فدخل ابن جریر فی الوسط و أصلح الحال. ثم خرج الجواد إلی النّیرب، و اجتمع الخلق عند باب النصر یدعون علیه و یسبّونه فی وجهه، و کان قد أساء السّیرة فی أهل دمشق. ثم خرج الصالح من دمشق و توجّه إلی خربة اللّصوص علی عزم الدیار المصریّة، فکاتب عمّه صاحب بعلبکّ الملک الصالح إسماعیل بن العادل، و سار الملک الصالح نجم الدین إلی نابلس فاستولی علیها و علی بلاد الناصر داود؛ فتوجّه الناصر داود إلی مصر داخلا فی طاعة الملک العادل، فأکرمه العادل و أقام الصالح بنابلس ینتظر مجیء عمّه الصالح إسماعیل، فلم یلتفت الملک الصالح إسماعیل إلی ابن أخیه الصالح نجم الدین أیّوب هذا؛ و توجّه نحو دمشق و هجم علیها و معه أسد الدین شیرکوه صاحب حمص فدخلوها یوم الثلاثاء سابع عشرین صفر من سنة سبع و ثلاثین؛ کلّ ذلک و الصالح نجم الدین مقیم بنابلس؛ و اتّفق الملک الصالح إسماعیل صاحب بعلبکّ، و أسد الدین شیرکوه صاحب حمص علی أن تکون البلاد بینهما مناصفة.

و نزل الصالح إسماعیل فی دمشق بداره بدرب الشعّارین، و نزل صاحب جمص بداره

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۰۷

أیضا، و أصبحوا یوم الأربعاء فزحفوا علی القلعة و نقبوها من ناحیة باب الفرج، و هتکوا حرمتها و دخلوها، و بها الملک المغیث عمر بن الملک الصالح أیّوب، فآعتقله الصالح إسماعیل فی برج، و استولی علی جمیع ما فی القلعة. و بلغ الملک الصالح نجم الدین أیّوب ما جری، و قیل له فی العود إلی دمشق، فخلع الصالح أیّوب علی عمّیه مجیر الدین و تقیّ الدین و علی غیرهم، و أعطاهم الأموال و قال لهم: ما الرأی؟

قالوا: نسوق إلی دمشق قبل أن تؤخذ القلعة. فخرجوا من نابلس فنزلوا القصیر فبلغهم أخذ القلعة، فنفر بنو أیّوب بأسرهم و خافوا علی أولادهم و أهلیهم بدمشق، و کان الفساد قد لعب فیهم، فترکوا الصالح أیّوب و توجّهوا إلی دمشق؛ و بقی الصالح فی ممالیکه و غلمانه لا غیر، و معه جاریته شجرة الدّرّ أمّ خلیل؛ فرحل من القصیر یرید نابلس فطمع فیه أهل الغور و القبائل، و کان مقدّمهم شیخا جاهلا یقال له مسبل من أهل بیسان قد سفک الدماء، فتقاتل عسکر الصالح معه حتّی کسروه؛ ثم اتّفق بعد ذلک مجیء الملک الناصر داود من مصر بغیر رضا من الملک العادل صاحب مصر و وصل إلی الکرک؛ و کتب الوزیریّ إلی الناصر یخبره الخبر، فلمّا بلغ الناصر ذلک أرسل عماد الدین بن موسک و الظّهیر بن سنقر الحلبیّ فی ثلثمائة فارس إلی نابلس. فرکب الصالح أیّوب و التقاهم فخدموه و سلّموا علیه بالسلطنة، و قالوا له:

طیّب قلبک، إلی بیتک جئت، فقال الصالح: لا ینظر ابن عمّی فیما فعلت، فلا زال الملوک علی هذا؛ و قد جئت إلیه أستجیر به، فقالوا:

قد أجارك و ما عليك بأس؛

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۰۸

و أقاموا عنده أيّاما حول الدار. فلمّا كان فى بعض الليالى ضربوا بوق النّفير و قالوا: جاءت الفرنج، فركب الناس و مماليك الصالح و وصلوا إلى سبسطية، و جاء عماد الدين و الظهير بالعسكر إلى الدار، و قالوا للصالح: تطلع إلى الكرك، فإنّ ابن عمّك له بك اجتماع، و أخذ سيفه. و كانت شجرة الدّرّ حاملا فسقطت، و أخذوه و توجّهوا به إلى الكرك. و استفحل أمر أخيه الملك العادل صاحب مصر بالقبض على الصالح هذا، و أخذ و أعطى و أمر و نهى، فتغيّر عليه بعض أمراء مصر، و لكن ما أمكنهم يومئذ إلّا السّكات.

و أمّا الصالح، قال أبو المظفّر: و لمّا اجتمعت به (يعنى الصالح) فى سنة تسع و ثلاثين و ستمائة بالقاهرة حكى لى صورة الحال قال: أركبونى بغلة بغير مهماز و لا مقرعة، و ساروا إلى الموتة فى ثلاثة أيام، و اللّه ما كلّمت أحدا منهم كلمة، و لا أكلت لهم طعاما حتى جاءنى خطيب الموتة و معه بردة عليها دجاجة، فأكلت منها و أقاموا بى فى الموتة يومين و ما أعلم إيش كان المقصود، فإذا بهم يريدون [أن] يأخذوا طالعا نحسا يقتضى ألّا أخرج من حبس الكرك، ثم أدخلونى إلى الكرك ليلا-على الطالع الذى كان سبب سعادتى و نحوسهم.

قلت: و أنا ممّن ينكر على أرباب التقاويم أفعالهم و أقوالهم لأنّى من عمرى أصحب أعيانهم فلم أر لما يقولونه صحّة، بل الكذب الصريح المحض، و يعجبنى قول الإمام الرّبانىّ عبد المؤمن بن هبة اللّه الجرجانى فى كتابه «أطباق الذهب» الذى يشتمل على مائة مقالة [و اثنتين]، و الذى أعجبنى من ذلك هى المقالة الثالثة و العشرون،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۰۹

و هى ممّا نحن فيه من علم الفلك و النجوم، قال: «أهل التسبيح و التقديس، لا يؤمنون بالتربيع و التسديس؛ و الإنسان بعد علوّ النفس، يجلّ عن ملاحظة السعد و النحس؛ و إنّ فى الدين القويم، استغناء عن الزيج و التقويم؛ و الإيمان بالكهانة، باب من أبواب المهانة؛ فأعرض عن الفلاسفة، و غضّ بصرك عن تلك الوجوه الكاسفة، فأكثرهم عبدة الطبع، و حرسة الكواكب السبع؛ ما للمنجم الغبىّ، و العلم الغيبىّ، [و ما للكاهن الأجنبىّ]، و سرّ حجب عن النّبىّ؛ و هل ينخدع بالفال، إلّا قلوب الأطفال؛ و إنّ امرأ جهل حال قومه، و ما الذى يجرى عليه فى يومه؛ كيف يعرف علم الغد و بعده، و نحس الفلك و سعده! و إنّ قوما يأكلون من قرصة الشمس لمهزولون، و إنهم عن السمع لمعزولون؛ ما السماوات إلّا مجاهل خالية، و الكواكب صواها، و النجوم إلّا هياكل عالية، و من اللّه قواها؛ سبعة سيّرة نيّرة، خمسة منها متحيّرة، شرّارة و خيّرة طباعها متغايرة؛ كلّ يسرى لأمر معمّى، و كلّ يجرى لأجل مسمّى!» انتهت المقالة بتمامها و كمالها. و قد خرجنا بذكرها عن المقصود، و لنرجع إلى ما نحن فيه من ترجمة العادل و أخبار أخيه الصالح.

قال: و وكّلوا بى مملوكا لهم، [فظّا غليظا] يقال له: زريق، و كان أضرّ علىّ من كلّ ما جرى، فأقمت عندهم إلى شهر رمضان سبعة أشهر، و لقد كان عندى خادم صغير فاتّفق أن أكل ليلة كثيرا فاتّخم وبال على البساط، فأخذت البساط بيدى و الخادم، و قمت من الإيوان إلى قرب الدّهليز، و فى الدهليز ثمانون رجلا يحفظوننى، و قلت: يا مقدّمون، هذا الخادم قد أتلف هذا البساط، فاذهبوا به إلى الوادى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۱۰

و اغسلوه فنفر فىّ زريق، و قال: إيش جاء بك إلى هاهنا! و صاحوا علىّ فعدت إلى موضعى. انتهى.

قلت: و أمّا مماليكه و خزائنه فإنّ الوزيرىّ توجّه بهم إلى قلعة الصّلت. و أقام مماليكه بنابلس، و استمرّ الحال على ذلك إلى أن بلغ الملك العادل صاحب الترجمة ما جرى على أخيه الصالح، فأظهر الفرح و دقّت الكوسات و زيّنت القاهرة؛ ثم أرسل الملك العادل المذكور العلاء بن النّابلسىّ إلى الملك الناصر داود صاحب الكرك، يطلب الملك الصالح نجم الدين المذكور منه، و يعطيه مائة ألف دينار فما أجاب. ثم كاتبه الملك الصالح صاحب بعلبك، و صاحب حمص أسد الدين شيركوه فى إرساله إلى الملك العادل

إلى مصر؛ كلّ ذلك و العادل فی قلق من جهة الصالح، فلم يلتفت الملك الناصر داود لكلامهم؛ و أقام الصالح مدّة فی الحبس حتّى أشار عماد الدين و ابن قليج و الظّهير على الملك الناصر بالاتّفاق مع الصالح نجم الدين أيّوب و إخراجه، فأخرجه الناصر و تحالفا و اتّفقا، و ذلك فی آخر شهر رمضان، و كان تحليف الناصر داود للصالح أيّوب على شیء ما يقوم به أحد من الملوك، و هو أنّه يأخذ له دمشق و حمص و حماة و حلب و الجزيرة و الموصل و ديار بكر و نصف ديار مصر و نصف ما فی الخزائن من المال و الجواهر و الخيل و الثياب و غيرها، فحلف الصالح على هذا كلّه و هو تحت القهر و اليف. و لمّا علم الملك العادل صاحب الترجمة بخلاص أخيه الصالح اتّفق مع عمّه الملك الصالح إسماعيل صاحب بعلبكّ الذی ملك دمشق؛ فسار الملك العادل من مصر و الملك الصالح من

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۱۱

دمشق و معه أسد الدين صاحب حمص، ثم عزموا على قصد الناصر و الصالح؛ فأوّل من برز لهم الملك العادل صاحب الترجمة بعساكر مصر، و خرج و سار حتى وصل إلى بلبيس؛ و كان قد أساء السّيرة فی أمرائه و حواشيه، فوقع الخلف بينهم و تزايد الأمر حتى قبضوا عليه، و أرسلوا إلى الصالح نجم الدين أيّوب يعرّفونه و يسألونه الإسراع فی المجیء إلى الديار المصريّة. فسار و معه الملك الناصر داود صاحب الكرك و جماعة من أمرائه ابن موسك و غيره، فكان وصول الصالح إلى بلبيس فی يوم الأحد رابع عشرين ذی القعدة، فنزل فی خيمة العادل، و العادل معتقل فی خركاه. قال أبو المظفّر: حكى لی الصالح واقعات جرت له فی مسيره إلى مصر [منها] أنّه قال: ما قصدت بمجیء الناصر معی إلّا خوفا أن تكون معمولة علیّ، و منذ فارقنا غزّة تغيّر علیّ، و لا شكّ أنّ بعض أعدائی أطمعه فی الملك، فذكر لی جماعة من مماليكی أنّه تحدّث معهم فی قتلی. قال: و منها أنّه لما أخرجنی (يعنی الناصر) ندم و عزم على حبسی، فرميت روحی على ابن قليج، فقال:

ما كان قصده إلّا أن يتوجّه إلى دمشق أوّلا فإذا أخذنا دمشق عدنا إلى مصر.

قال: و منها أنّه ليلة وصل إلى بلبيس شرب و شطح إلى العادل، فخرج له من الخركاه فقبّل الأرض بين يديه، فقال له: كيف رأيت ما أشرت عليك و لم تقبل منی! فقال: يا خوند، التوبة، فقال: طيّب قلبك، الساعة أطلقك، و جاء فدخل علينا الخيمة و وقف، فقلت: باسم اللّه اجلس، فقال: ما أجلس حتى تطلق العادل، فقلت: اقعد، و هو يكرّر الحديث؛ ثم سكت و نام فما صدّقت بنومه و قمت فی باقی اللّيل، فأخذت العادل فی محفة و رحلت به إلى القاهرة. و لمّا دخلنا القاهرة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۱۲

بعثت إليه بعشرين ألف دينار، فعادت إلیّ مع غلمانی، و غضب و أرد نصف ما فی خزائن مصر.

قلت: و استولى الصالح على ملك مصر و قبض على أخيه العادل صاحب الترجمة فی يوم الاثنين خامس عشرين ذی الحجّة و حبسه عنده بالقلعة سنين.

قال سعد الدين مسعود بن حمّويه: و فی خامس شوّال سنة ستّ و أربعين و ستمائة جهّز الصالح أخاه أبا بكر العادل و نفاه إلى الشّوبك، و بعث إليه الخادم محسنا يكلّمه فی السفر، فدخل عليه الحبس و قال له: السلطان يقول لك: لا بدّ من رواحك إلى الشّوبك، فقال: إن أردتم أن تقتلونی فی الشوبك فهاهنا أولی و لا أروح أبدا، فعذله محسن، فرماه بدواة كانت عنده، فخرج و عرّف الصالح أيّوب بقوله، فقال: دبّر أمره، فأخذ المحسن ثلاث مماليك و دخلوا عليه ليلة الاثنين ثانی عشر شوّال فخنقوه بشاش و علّقوه به، و أظهروا أنه شنق نفسه و أخرجوا جنازته مثل بعض الغرباء، و لم يتجاسر أحد أن يترحّم عليه أو يبكی حول نعشه، و عاش بعده الملك الصالح عشرة أشهر رأى فی نفسه العبر من مرض تمادى به و ما نفعه الاحتراز كما سيأتی ذكره فی ترجمته. إن شاء اللّه تعالى.

و زاد ابن خلّكان فی وفاته بأن قال: و دفن فی تربة شمس الدولة خارج باب النصر- رحمه اللّه تعالى-.

و كان للعادل المذكور ولد صغير يقال له الملك المغيث مقيم بالقلعة فلا زال بها إلى أن وصل ابن عمّه الملك المعظم توران شاه

بعـد موت أبيه الصالـح نجم الـدين إلى المنصورة، و سيّر المغيث المـذكور من هنـاك و نقله إلى الشّوبـك؛ فلمّـا جرت الكائنـة على المعظّم ملك المغيث الكرك و تلك النواحى. قلت: و كانت ولاية الملك العادل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۱۳

على مصـر سنة واحدة و نحو شهرين و أيّاما مع ما وقع له فيها من الفتن و الأنكاد، و لم يعرف حاله فيها لصغر سنه و قصر مدّته- رحمه اللّه تعالى- و العادل هذا يعرف بالعادل الصغير، و العادل الكبير هو جدّه.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۳۶]

السنة الأولى من ولاية الملك العادل الصغير أبى بكر ابن الملك الكامل محمد على مصر، و هى سنة ست و ثلاثين و ستمائة. على أنّه ولى السلطنة فى شهر رجب منها.

فيها توفّى محمود بن أحمد الشيخ الإمام العلّامة جمال الدين الحصيرىّ الحنفىّ، أصله من بخارى من قرية يقال لها حصير، و تفقّه فى بلـده و سـمع الحـديث و برع فى علوم كثيرة، و قـدم الشـام و درّس بالنوريّـة؛ و انتهت إليه رياسـة الحنفيّـة فى زمانه، و صـنّف الكتب الحسان، و شـرح «الجامع الكبير»، و قرأ عليه الملك المعظّم عيسى الجامع الكبير و غيره. و كان كثير الصدقات غزير الدّمعة، عاقلا ديّنا نزها عفيفا وقورا، و كان المعظّم يحترمه و يجلّه. و كانت وفاته فى يوم الأحـد ثامن صـفر، و دفن بمقابر الصوفيّة عند المنيبع، و مات و له تسعون سنة.

و فيها توفّى عماد الدين عمر ابن شيخ الشـيوخ محمد المنعوت بالصاحب، و هو الذى كان السـبب فى عطاء دمشق الجواد، فلمّا مضى إلى مصـر لامه العـادل على ذلك و تهـدّده، فقال: أنا أمضـى إلى دمشق، و أنزل بالقلعـة و أبعث بالجواد إليك، و إن امتنع قمنا عليه؛ فسار إلى دمشق فوصـلها قبل مجىء الملك الصالـح نجم الـدين أيّوب، و نزل بقلعة دمشق و أمر و نهى، و قال: أنا نائب العادل، و أمر الجواد بالمسير

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۱۴

إلى مصـر. و كان أسـد الدين صاحب حمص بدمشق، فاتّفق مع الجواد على قتل عماد الدين، فآستدعى صاحب حمص بعض نصارى قارة و أمره بقتله، فركب ابن الشـيخ يوما من القلعة بعد العصـر فوثب عليه النّصرانىّ و ضربه بالسكاكين حتّى قتله؛ و ذلك فى جمادى الأولى. و دخل الصالح أيّوب دمشق فحبس النّصرانىّ أياما ثم أطلقه، و مات عماد الدين و له ستّ و خمسون سنة.

و فيها توفّى الحافظ زكىّ الدين أبو عبد اللّه محمد بن يوسف البرزالىّ الإشبيلىّ بحماة فى رابع عشرين شهر رمضان و دفن بها، و كان إماما فقيها محدّثا فاضلا ديّنا- رحمه اللّه-

الـذين ذكر الـذهبىّ وفاتهم فى هـذه السـنة، قال: و فيها توفّى أبو العباس أحمـد بن علىّ القسـطلانىّ المالكىّ بمكّة. و صاحب ماردين ناصر الدين أرتق الأرتقىّ.

و أبو المعالى أسـعد بن المسـلم بن مكّىّ بن علّان القيسىّ فى رجب، و له ست و تسعون سنة. و المحدّث بدل بن أبى المعمّر التّبريزىّ فى جمادى الأولى. و أبو الفضل جعفر بن علىّ بن هبة اللّه الهمذانىّ المالكىّ المقرئ فى صفر، و له تسعون سنة.

و العلّامـة جمال الـدين أبو القاسم عبـد الرحمن بن عبد المجيد بن إسـماعيل [بن عثمان ابن يوسف بن حسـين] بن حفص الصّـفراوىّ المالكىّ مفتى الإسكندرية و مقرئها فى شهر ربيع الآخر، و له اثنتان و تسعون سنة. و الشيخ عثمان القصير الزاهد. و شيخ

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۱۵

نصـيبين عسـكر بن عبد الرحيم بن عسـكر بن نيّف و سـبعين سنة. و الصاحب عماد الدين عمر ابن شيخ الشيوخ صدر الدين محمد بن

عمر الجوينىّ قتيلا بقلعة دمشق.

و أبو الفضل محمد بن محمد بن الحسن بن السّبّاك فى شهر ربيع الآخر. و الحافظ زكىّ الدين أبو عبد اللّه محمد بن يوسف بن البرزالىّ الإشبيلىّ بحماة فى رمضان، و له ستون سنة. و العلّامة جمال الدين محمود بن أحمد بن عبد السيد البخارىّ الحصيرىّ شيخ الحنفية بدمشق فى صفر، و له تسعون سنة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و عشرون إصبعا. مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعا و إحدى عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۳۷]

اشارة

السنة الثانية من ولاية الملك العادل الصغير ابن الملك الكامل على مصر، و هى سنة سبع و ثلاثين و ستمائة.

فيها خلع الملك العادل المذكور من ملك مصر بأخيه الملك الصالح نجم الدين أيّوب حسب ما تقدّم ذكره.

و فيها هجم الملك الصالح إسماعيل صاحب بعلبكّ على دمشق، و معه أسد الدين شيركوه صاحب حمص و ملكها فى يوم الثلاثاء سابع عشرين صفر.

و فيها توفّى الملك ناصر الدين أرتق صاحب ماردين الأرتقى، كان الملك المعظّم عيسى بن العادل تزوّج أخته، و هى التى بنت المدرسة و التربة عند الجسر الأبيض بقاسيون، و لم تدفن فيها لأنّها نقلت بعد موت زوجها المعظم إلى عند أبيها بماردين

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۱۶

فماتت هناك. و كان ناصر الدين المذكور شيخا شجاعا شهما جوادا ما قصده أحد و خيّبه. قتله ولده بماردين خنقا و هو سكران.

و فيها توفّى الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن محمد بن أسد الدين شيركوه ابن شادى الأيّوبى صاحب حمص، أعطاه ابن عمّ أبيه السلطان صلاح الدين يوسف ابن أيّوب حمص بعد وفاة أبيه محمد بن شيركوه فى سنة إحدى و ثمانين، فأقام بها إلى هذه السنة، و حفظ المسلمين من الفرنج و العرب، و مات بحمص فى يوم الثلاثاء العشرين من شهر رجب و دفن بها.

و فيها توفّى يعقوب الخيّاط كان يسكن مغارة الجوع بقاسيون. و كان شيخا صالحا لقى المشايخ و عاصر الرجال و مات بقاسيون- رحمه اللّه تعالى-.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى قاضى القضاة شمس الدين أحمد بن الخليل الخويّىّ فى شعبان، و له أربع و خمسون سنة.

و أبو البقاء إسماعيل بن محمد بن يحيى المؤدّب راوى مسند إسحاق، فى المحرّم. و الصدر علاء الدين أبو سعد ثابت بن محمد [بن أبى بكر] الخجندى بشيراز، و له تسع و ثمانون سنة. و أمين الدين سالم ابن الحافظ ابن صصرّى فى جمادى الآخرة، و له ستون سنة.

و صاحب حمص الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن شادى فى رجب، و كانت

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۱۷

دولته ستّا و خمسين سنة. و القاضى أبو بكر عبد المجيد بن عبد الرشيد بن علىّ بن سمّان الهمذانى سبط الحافظ أبى العلّاء فى شوّال عن ثلاث و سبعين سنة.

و أبو القاسم عبد الرحيم بن يوسف بن هبة اللّه بن الطّفيل فى ذى الحجّة. و إمام الرّبوة عبد العزيز بن دلف المقرئ الناسخ فى صفر. و أبو الحسن علىّ بن أحمد الأندلسىّ الحرّانىّ الصوفىّ المفسّر بحماة. و شمس الدين محمد بن الحسن بن محمد بن عبد الكريم

الکاتب بدمشق فی رجب. و الحافظ أبو عبد اللّه محمد بن سعید بن یحیی فی شهر ربیع الآخر، و له تسع و سبعون سنة. و تقیّ الدین محمد بن طرخان السلمیّ الصالحیّ فی المحرّم، و له ستّ و سبعون سنة. و أبو طالب محمد بن عبد اللّه بن عبد الرحمن [بن أحمد ابن علیّ] بن صابر السلمیّ الزاهد فی المحرّم. و المحتسب رشید الدین أبو الفضل محمد بن عبد الکریم بن الهادی التّنسیّ فی جمادی الآخرة، و له ثمان و ثمانون سنة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۱۸

و الصاحب شرف الدّین أبو البرکات المبارک بن أحمد المستوفیّ بالموصل فی المحرّم.

و الصاحب ضیاء الدّین نصر اللّه بن محمد بن محمد بن عبد الکریم [بن عبد الواحد المعروف با] بن الأثیر الشّیبانیّ الجزریّ الکاتب مؤلّف کتاب «المثل السائر» فی شهر ربیع الآخر، و له نحو من ثمانین سنة.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم خمس أذرع و ثمانی أصابع.

مبلغ الزیادة ست عشرة ذراعا و تسع عشرة إصبعا.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۱۹

ذکر سلطنة الملک الصالح نجم الدین أیّوب علی مصر

هو السلطان الملک الصالح نجم الدین أیّوب ابن السلطان الملک الکامل ناصر الدین محمد ابن السلطان الملک العادل سیف الدین أبی بکر ابن الأمیر نجم الدین أیّوب بن شادی الأیّوبیّ سلطان الدیار المصریّة. و قد تقدّم أنّ الملک الصالح هذا ولی الشرق و دیار بکر فی أیّام والده الملک الکامل سنین، و ذکرنا أیضا ما وقع له بعد موت الکامل مع أخیه العادل، و مع ابن عمّه الملک الناصر داود و غیرهما فی ترجمة أخیه العادل مفصّلا إلی أن ملک الدیار المصریّة فی یوم الاثنین الخامس و العشرین من ذی الحجّة سنة سبع و ثلاثین و ستمائة. و مولده بالقاهرة فی سنة ثلاث و ستّمائة و بها نشأ، و استخلفه أبوه علی مصر لمّا توجه إلی الشرق فأقام الصالح هذا بمصر مع صواب الخادم لا أمر له و لا نهی إلی أن عاد أبوه الکامل إلی الدیار المصریّة، و أعطاه حصن کیفا فتوجّه إلیها، و وقع له بها أمور و وقائع مع ملوک الشرق بتلک البلاد فی حیاة والده حتّی مات أبوه، و وقع له ما حکیناه إلی أن ملک مصر؛ و لمّا تمّ أمره بمصر أصلح أمورها و مهّد قواعدها.

قلت: و الملک الصالح هذا هو الذی أنشأ الممالیک الأتراک و أمّرهم بدیار مصر، و فی هذا المعنی یقول بعضهم:

الصالح المرتضی أیّوب أکثر من ترک بدولته یا شرّ مجلوب

قد آخذ اللّه أیّوبا بفعلته فالناس کلّهم فی ضرّ أیّوب

و قال الحافظ أبو عبد اللّه شمس الدین الذهبیّ فی تاریخه- بعد أن ذکر من مبدأ أمره نبذة إلی أن قال-: «ثم ملک مصر بلا کلفة و اعتقل أخاه، ثم جهّز من أوهم

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۲۰

الناصر بأنّ الصالح فی نیّة القبض علیه، فخاف و غضب فأسرع إلی الکرک. ثم تحقّق الصالح [فساد] نیّات الأشرفیّة، و أنّهم یریدون الوثوب علیه؛ فأخذ فی تفریقهم و القبض علیهم، فبعث مقدّم الأشرفیّة و کبیرهم أیبک الأشقر نائبا علی جهة، ثم سیّر من قبض علیه، ثم مسکهم عن بکرة أبیهم و سجنهم؛ و أقبل علی شراء الممالیک الترک و الخطائیّة، و استخدم الأجناد؛ ثم قبض علی أکبر الخدّام: شمس الدّین الخاصّ و جوهر النّوبیّ و علی جماعة من الأمراء الکاملیّة و سجنهم بقلعة صدر بالقرب من ایلة؛ و أخرج فخر الدین ابن الشیخ من سجن العادل فرکب رکبة عظیمة، و دعت له الرعیّة لکرمه و حسن سیرته، فلم یعجب الصالح ذلک و تخیّل، فأمره بلزوم بیته.

و استوزر أخاه معين الدين. ثم شرع يؤمّر غلمانه (يعنى مماليكه) فأكثر من ذلک، و أخذ فى بناء قلعة الجزيرة و اتّخذها سكنا، و أنفق عليها أموالا عظيمة، و كانت الجزيرة قبلا متنّزها لوالده، فشيّدها فى ثلاثة أعوام و تحوّل إليها. و أمّا الناصر داود فإنّه اتّفق مع عمّه الصالح إسماعيل و المنصور صاحب حمص فاتّفقوا على الصالح.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۲۱

و أمّا الخوارزميّة فإنّهم تغلّبوا على عدّة قلاع و عاثوا و خرّبوا البلاد، و كانوا شرّا من التّتار، لا يعفون عن قتل و لا [عن] سبى و لا فى قلوبهم رحمة. و فى سنة إحدى و أربعين وقع الصلح بين الصالحين و صاحب حمص على أن تكون دمشق للصالح إسماعيل؛ و أن يقيم هو و الحلبيّون و الحمصيّون الخطبة فى بلادهم لصاحب مصر، و أن يخرج ولده الملک المغيث من اعتقال الملک الصالح إسماعيل.- و الملک المغيث هو ابن الملک الصالح نجم الدين، كان معتقلا قبل سلطنته فى واقعة جرت.

قلت: (يعنى أنّ الصالح قبض عليه لمّا ملک دمشق بعد خروج الصالح من دمشق قاصدا الديار المصريّة قبل أن يقبض عليه الناصر داود) و قد ذكرنا ذلک كلّه فى ترجمة العادل مفصّلا. قلت: و كذلک أطلق أصحاب الصالح، مثل حسام الدين ابن أبى علىّ، و مجير الدين بن أبى ذكرى، فأطلقهم الملک الصالح إسماعيل-.

و ركب الملک المغيث و بقى يسير و يرجع إلى القلعة، و ردّ على حسام الدين ما أخذ منه.

ثم ساروا إلى مصر، و اتّفق الملوک على عداوة الناصر داود و جهّز الصالح إسماعيل عسكرا يحاصرون عجلون و هى للناصر، و خطب لصاحب مصر فى بلاده، [و بقى عنده المغيث حتّى تأتيه نسخ الأيمان، ثم بطل ذلک كلّه]. و قال ابن واصل:

فحدّثنى جلال الدين الخلاطىّ قال:

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۲۲

كنت رسولا من جهة الصالح إسماعيل، فورد علىّ منه كتاب و فى طيّه: كتاب من الصالح نجم الدين إلى الخوارزمية يحثّهم على الحركة و يعلمهم [أنّه] إنّما صالح عمّه الصالح ليخلّص ابنه المغيث من يده، و أنّه باق على عداوته، و لا بدّ له من أخذ دمشق منه، فمضيت بهذا الكتاب إلى الصاحب معين [الدين] فأوقفته عليه، فما أبدى عنه عذرا يسوغ. و ردّ الصالح إسماعيل المغيث بن الصالح نجم الدين إلى الاعتقال، و قطع الخطبة و ردّ عسكره عن عجلون و أرسل إلى الناصر داود و اتّفق معه على عداوة صاحب مصر؛ و كذلک رجع صاحب حلب و صاحب حمص عنه، و صاروا كلمة واحدة عليه، و اعتقلت رسلهم بمصر؛ و اعتضد صاحب دمشق بالفرنج، و سلّم إليهم القدس و طبريّة و عسقلان، و تجهّز صاحب [مصر] الملک الصالح هذا لقتالهم، و جهّز البعوث و جاءته الخوارزمية فساقوا إلى غزّة و اجتمعوا بالمصريّين، و عليهم ركن الدين بيبرس البندقدارىّ الصالحىّ. قلت: و بيبرس هذا هو غير بيبرس البندقدارىّ الظاهرىّ، و إنّما هذا أيضا على اسمه و شهرته، و هذا أكبر من الظاهر بيبرس [و أقدم]، و قبض عليه الملک الصالح بعد ذلک و أعدمه. انتهى.

قال ابن واصل: و تسلّم الفرنج حرم القدس و غيره، و عمّروا قلعتى طبريّة و عسقلان و حصّنوهما، و وعدهم الصالح إسماعيل بأنّه إذا ملک مصر أعطاهم بعضها، فتجمّعوا و حشدوا و سارت عساكر الشام إلى غزة، و مضى المنصور صاحب حمص بنفسه إلى عكّا و طلبها فأجابوه. قال: و سافرت أنا إلى مصر و دخلت القدس، فرأيت الرّهبان على الصخرة و عليها قنانى الخمر، و رأيت الجرس

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۲۳

فى المسجد الأقصى، و أبطل الأذان بالحرم و أعلن الكفر. و قدم- و أنا بالقدس- الناصر داود إلى القدس فنزل بغربيّه.

و فيها ولّى الصالح نجم الدين قضاء مصر للأفضل بعد أن عزل ابن عبد السلام نفسه بمديدة. و لمّا عدّت الخوارزميّة الفرات، و كانوا أكثر من عشرة آلاف ما مرّوا بشىء إلّا نهبوه و تقهقر الذين بغزّة منهم، و طلع الناصر إلى الكرک و هربت الفرنج من القدس، فهجمت الخوارزميّة القدس و قتلوا من به من النصارى، و هدموا مقبرة القمامة، و جمعوا بها عظام الموتى فحرقوها، و نزلوا بغزّة و راسلوا

صاحب مصر (یعنی الملک الصالح هذا) فبعث إلیهم بالخلع و الأموال و جاءتهم العساکر، و سار الأمیر حسام الدین بن أبی علیّ بعسکر لیکون مرکزا بنابلس، و تقدّم المنصور إبراهیم علی الشامیّین (یعنی لقتال المصریّین) و کان شهما شجاعا قد انتصر علی الخوارزمیّة غیر مرّة، و سار بهم و رافقته الفرنج من عکّا و غیرها بالفارس و الراجل، و نفّذ الناصر داود عسکرا فوقع المصافّ بظاهر غزّة، فانکسر المنصور إبراهیم شرّ کسرة. و أخذت سیوف المسلمین الفرنج فأفنوهم قتلا و أسرا، و لم یفلت منهم إلّا الشارد، و أسر أیضا من عسکر دمشق و الکرک جماعة من المقدّمین.

قال ابن واصل: حکی لی عن المنصور أنّه قال: و اللّه لقد قصّرت ذلک الیوم

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۲۴

و وقع فی قلبی أنّه لا ننتصر لانتصارنا بالفرنج- قلت: علیه من اللّه ما یستحقّه من الخزی. و إیش یفید تقصیره بعد أن صار هو و الفرنج یدا واحدة علی المسلمین!- قال: و وصلت عسکر دمشق معه فی أسوأ حال.

و أمّا مصر فزیّنت زینة لم یر مثلها، و ضربت البشائر و دخلت أساری الشام الفرنج و الأمراء، و کان یوما مشهودا بالقاهرة. ثم عطف حسام الدین بن أبی علیّ، و رکن الدین بیبرس فنازلوا عسقلان و حاصروها و بها الفرنج الذین تسلّموها فجرح حسام الدین، ثم ترحّلوا إلی نابلس، و حکموا علی فلسطین و الأغوار إلا عجلون فهی بید سیف الدین [بن] قلیج نیابة عن الناصر داود. ثم بعث السلطان الملک الصالح نجم الدین وزیره معین الدین ابن الشیخ علی جیشه و أقامه مقام نفسه، و أنفذ معه الخزائن و حکّمه فی الأمور، و سار إلی الشام و معه الخوارزمیّة، فنازلوا دمشق و بها الصالح إسماعیل و المنصور صاحب حمص؛ فذلّ الصالح إسماعیل، و بعث وزیره أمین الدولة مستشفعا بالخلیفة لیصلح بینه و بین ابن أخیه الملک الصالح نجم الدین، فلم یظفر بطائل، و رجع و اشتدّ الحصار علی دمشق، و أخذت بالأمان لقلّة من مع صاحبها، و لعدم المیرة بالقلعة، و لتخلّی الحلبیّین عنه، فترحّل الصالح إسماعیل إلی بعلبکّ، و المنصور إلی حمص، و تسلّم الصاحب معین الدین القلعة و البلد.

و لمّا رأت الخوارزمیّة أنّ السلطان قد تملّک الشام بهم و هزم أعداءه صار لهم علیه إدلال کثیر، مع ما تقدّم من نصرهم له علی صاحب الموصل قبل سلطنته و هو بسنجار، فطمعوا فی الأخباز العظیمة؛ فلمّا لم یحصلوا علی شیء فسدت نیتهم له و خرجوا علیه، و کاتبوا الأمیر رکن الدین بیبرس البندقداریّ، و هو أکبر أمراء الصالح نجم الدین أیّوب، و کان بغزّة، فأصغی إلیهم- فیما قیل- و راسلوا صاحب

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۲۵

الکرک فنزل إلیهم [و وافقهم]. و کانت أمّه [أیضا] خوارزمیّة و تزوّج منهم، ثم طلع إلی الکرک و استولی حینئذ علی القدس و نابلس [و تلک الناحیة]، و هرب منه نوّاب صاحب مصر، ثم راسلت الخوارزمیة الملک الصالح إسماعیل و هو فی بعلبکّ و حلفوا له فسار إلیهم، و اتّفقت کلمة الجمیع علی حرب الصالح صاحب مصر، فقلق الصالح لذلک و طلب رکن الدین بیبرس فقدم مصر فاعتقله. و کان آخر العهد به، ثم خرج بعساکره فخیم بالعبّاسة و کان قد نفذّ رسوله إلی الخلیفة المستعصم یطلب تقلیدا بمصر و الشام [و الشرق]، فجاءه التشریف و الطّوق الذهب و المرکوب، فلبس التشریف الأسود و العمامة و الجبّة، و رکب الفرس بالحلیة الکاملة، و کان یوما مشهودا؛ ثم جاء الصالح إسماعیل و الخوارزمیّة و نازلوا دمشق و لیس بها کبیر عسکر، و بالقلعة الطّواشی رشید، و بالبلد نائبها حسام الدین بن أبی علیّ الهذبانی، فضبطها و قام بحفظها بنفسه لیلا و نهارا، و اشتدّ بها الغلاء و هلک أهلها جوعا و وباء.

قال: و بلغنی أنّ رجلا مات فی الحبس فأکلوه؛ کذلک حدّثنی حسام الدین بن أبی علیّ، فعند ذلک اتّفق عسکر حلب و المنصور صاحب حمص علی حرب الخوارزمیّة و قصدوهم، فترکوا حصار دمشق و ساقوا أیضا یقصدونهم فالتقی الجمعان، و وقع المصافّ فی أوّل سنة أربع و أربعین علی القصب، و هی منزلة برید من حمص من قبلیها، فاشتدّ القتال و الصالح إسماعیل مع الخوارزمیّة فانکسروا عند ما قتل مقدّمهم حسام الدین برکة خان، و انهزموا و لم تقم لهم بعدها قائمة، و قتل برکة خان مملوک من الحلبیّین و تشتّتت

الخوارزميّة، و خدم طائفة منهم بالشام و طائفة بمصر

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۲۶

و طائفة مع كشلو خان ذهبوا إلى التّتار و خدموا معهم؛ و كفى اللّه شرّهم. و علّق رأس بركة خان على قلعة حلب. و وصل الخبر إلى القاهرة فزيّنت، و حصل الصلح التامّ بين السلطان (يعنى الصالح نجم الدين أيّوب) و بين صاحب حمص و الحلبيّين.

و أمّا الصالح إسماعيل [فإنّه] التجأ إلى ابن أخته الملك الناصر صلاح الدين صاحب حلب. و أما نائب دمشق حسام الدين فإنّه سار إلى بعلبك و حاصرها و بها أولاد الصالح إسماعيل فسلّموها بالأمان؛ ثم أرسلوا إلى مصر تحت الحوطة هم و الوزير أمين الدولة و الأستادار ناصر الدين بن يغمور فاعتقلوا بمصر. و صفت البلاد للملك الصالح. و بقى الملك الناصر داود بالكرك فى حكم المحصور، ثم رضى السلطان على فخر الدين ابن الشيخ و أخرجه من الحبس بعد موت أخيه الوزير معين الدين، و سيّره إلى الشام و استولى على جميع بلاد الناصر داود، و خرّب ضياع الكرك ثم نازلها أياما، و قلّ ما عند الناصر من المال و الذخائر و قلّ ناصره، فعمل قصيدة يعاتب فيها السلطان فيما له عنده من اليد من الذبّ عنه و تمليكه ديار مصر، و هى:

قل للذى قاسمته ملك اليد و نهضت فيه نهضة المستأسد

عاصيت فيه ذوى الحجى من أسرتى و أطعت فيه مكارمى و تودّدى

يا قاطع الرّحم التى صلتى بها كتبت على الفلك الأثير بعسجد

إن كنت تقدح فى صريح مناسبى فأصبر بعزمك للّهيب المرصد

عمّى أبوك و والدى عمّ به يعلو انتسابك كلّ ملك أصيد

صالا و جالا كالأسود ضواريا فارتدّ تيّار الفرات المزيد

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۲۷

دع سيف مقولى البليغ يدبّ عن أعراضكم بفرنده المتوقّد

فهو الذى قد صاغ تاج فخاركم بمفصّل من لؤلؤ و زبرجد

ثم أخذ يصف نفسه [وجوده و محاسنه و سؤدده] إلى أن قال:

يا محرجى بالقول و اللّه الذى خضعت لعزّته جباه السّجّد

لو لا مقال الهجر منك لما بدا منّى افتخار بالقريض المنشد

إن [كنت] قلت خلاف ما هو شيمتى فالحاكمون بمسمع و بمشهد

و اللّه يا بن العمّ لو لا خيفتى لرميت ثغرك بالعداة المرّد

لكننى ممّن يخاف حرامه ندما يجرّعنى سمام الأسود

فأراك ربّك بالهدى ما ترتجى لنراك تفعل كلّ فعل مرشد

لتعيد وجه الملك طلقا ضاحكا و تردّ شمل البيت غير مبدّد

كى لا ترى الأيام فينا فرصة للخارجين و ضحكة للحسّد

قال: ثم إنّ السلطان طلب الأمير حسام الدين بن أبى علىّ و ولّاه نيابة الديار المصريّة، و استناب على دمشق الصاحب جمال الدين يحيى بن مطروح، ثم قدم الشام و جاء إلى خدمته صاحب حماة الملك المنصور و هو ابن اثنتى عشرة سنة و صاحب حمص [و هو صغير]، فأكرمهما و قرّبهما، و وصل إلى بعلبكّ، ثم ردّ إلى الشام، ثم رجع السلطان و مرض فى الطريق.

قال ابن واصل: حكى لى الأمير حسام الدين قال: لمّا ودّعنى السلطان قال:

إنّى مسافر و أخاف أن يعرض لى موت و أخى العادل بقلعة مصر، فيأخذ البلاد و ما يجرى عليكم منه خير، فإن مرضت و لو أنّه حمّى

يوم فأعدمه، فإنّه لا خير فيه؛

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۲۸

و ولدى توران شاه لا يصلح للملک، فإن بلغک موتى فلا تسلّم البلاد لأحد من أهلى، بل سلّمها للخليفة. انتهى.

قال: و دخل السلطان مصر، و صرف حسام الدين عن نيابة مصر بجمال الدين ابن يغمور، و بعث الحسام بالمصريّين إلى الشام، فأقاموا [بالصالحيّة] أربعة أشهر.

قال ابن واصل: و أقمت مع حسام الدين هذه المدّة، و كان السلطان فى هذه المدّة و قبلها مقيما بأشمون طنّاح، ثم فى السنة خرج الحلبيّون و عليهم شمس الدين لؤلؤ الأمينىّ، فنازلوا حمص، و معهم الملک الصالح إسماعيل يرجعون إلى رأيه، فحاصروها شهرين و لم ينجدها صاحب مصر؛ و كان السلطان مشغولا بمرض عرض له فى بيضه ثم فتح، و حصل منه ناسور بعسر بول، و حصلت له فى رئته بعض قرحة متلفة، لكنّه عازم على إنجاد صاحب حمص. و لمّا اشتدّ الحصار بالأشرف صاحب حمص اضطرّ إلى أن أذعن بالصلح، و طلب العوض عن حمص تلّ باشر مضافا إلى ما بيده، و هو الرّحبة و تدمر، فتسلمها الأمير شمس الدين لؤلؤ الأمينىّ، و أقام بها نوّابا لصاحب

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۲۹

حلب. فلمّا بلغ السلطان أخذ حمص، و هو مريض، غضب و عظم عليه، و ترحّل إلى القاهرة فاستناب بها ابن يغمور و بعث الجيوش إلى الشام لاستنقاذ حمص، و سار السلطان فى محفّة، و ذلک فى سنة ستّ و أربعين و ستمائة؛ فنزل بقلعة دمشق و بعث جيشه فنازلوا حمص و نصبوا عليها المجانيق، منها منجنيق مغربىّ. ذكر الأمير حسام الدين أنّه كان يرمى حجرا زنته مائة و أربعون رطلا بالدمشقىّ؛ و نصب عليها قرابغا اثنى عشر منجنيقا سلطانيّة، و ذلک فى الشتاء. و خرج صاحب حلب بعسكره فنزل بأرض كفر طاب، و دام الحصار إلى أن قدم البادرانىّ للصلح بين صاحب حلب و السلطان، على أن تقرّ حمص بيد صاحب حلب، فوقع الاتّفاق على ذلک؛ و ترحّل السلطان عن حمص لمرض السلطان و لأنّ الفرنج تحرّكوا [و قصدوا مصر]، و ترحّل السلطان إلى الديار المصريّة كذلک و هو فى محفّة.

و كان الناصر صاحب الكرک قد بعث شمس الدين الخسرو شاهى إلى السلطان و هو بدمشق يطلب خبزا بمصر و الشّوبک و ينزل له عن الكرک، فبعث السلطان تاج الدين [بن] مهاجر فى إبرام ذلک إلى الناصر، فرجع عن ذلک لمّا سمع حركة الفرنج؛ و طلب السلطان نائب مصر جمال الدين بن يغمور فاستنابه بدمشق و بعث على نيابة مصر حسام الدين بن أبى علىّ فدخلها فى المحرّم سنة سبع و أربعين؛ و سار السلطان فنزل بأشموم طنّاح ليكون فى مقابلة الفرنج إن قصدوا دمياط، و تواترت الأخبار بأنّ ريدا فرنس مقدّم الأفرنسيسيّة قد خرج من بلاده فى جموع عظيمة و شتّى بجزيرة قبرص؛ و كان من أعظم ملوک الفرنج و أشدّهم بأسا. و ريدا

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۳۰

بلسانهم: الملک، فشحنت دمياط بالذخائر و أحكمت الشوانى، و نزل فخر الدين ابن الشيخ بالعساكر على جزيرة دمياط، فأقبلت مراكب الفرنج فأرست فى البحر بازاء المسلمين فى صفر من الستة، ثم شرعوا من الغد فى النزول إلى البرّ الذى فيه المسلمون و ضربت خيمة حمراء لريدا فرنس و ناوشهم [المسلمون] القتال، فقتل يومئذ الأمير نجم الدين ابن شيخ الإسلام، و الأمير الوزيرىّ- رحمهما اللّه تعالى- فترحّل فخر الدين ابن الشيخ بالناس، و قطع بهم الجسر إلى البرّ الشرقى الذى فيه دمياط، و تقهقر إلى أشمون طنّاح، و وقع الخذلان على أهل دمياط، فخرجوا منها طول الليل على وجوههم حتّى لم يبق بها أحد؛ و كان هذا من قبيح رأى فخر الدين، فإنّ دمياط كانت فى نوبة سنة خمس عشرة و ستمائة أقلّ ذخائر و عددا، و ما قدر عليها الفرنج إلّا بعد سنة، و إنّما هرب أهلها لمّا رأوا هرب العسكر و ضعف السلطان؛ فلمّا أصبحت الفرنج ملكوها صفوا بما حوت من العدد و الأسلحة و الذخائر و الغلال و المجانيق، و هذه مصيبة لم يجر مثلها! فلمّا وصلت العساكر و أهل دمياط إلى السلطان حنق على الشجعان الذين كانوا بها، [و أمر بهم] فشنقوا

جميعا ثم رحل بالجيش، و سار إلى المنصورة فنزل بها فى المنزلة التى كان أبوه نزلها، و بها قصر بناه أبوه الكامل، و وقع النّفير العامّ فى المسلمين، فاجتمع بالمنصورة أمم لا يحصون من المطّوّعة و العربان؛ و شرعوا فى الإغارة على الفرنج و مناوشتهم و تخطّفهم، و استمرّ ذلك أشهرا، و السلطان يتزايد و الأطباء قد آيسته لاستحكام المرض به.

و أمّا صاحب الكرك (يعنى الملك الناصر داود) فإنّه سافر إلى بغداد فاختلف أولاده، فسار أحدهم إلى الملك الصالح نجم الدين أيّوب و سلّم إليه الكرك، ففرح [بها] مع ما فيه من الأمراض، و زيّنت بلاده و بعث إليها بالطواشى بدر الدين الصّوابى

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۳۱

نائبا، و قدم عليه أولاد الناصر داود، فبالغ الملك الصالح فى إكرامهم و أقطعهم أخبازا جليلة. و لم يزل يتزايد به المرض إلى أن مات، و أخفى موته على ما سيأتى ذكره. إن شاء اللّه تعالى.

قال ابن واصل فى سيرة الملك الصالح نجم الدين أيّوب هذا: و كان مهيبا عزيز النفس عفيفا طاهر اللّسان و الذّيل، لا يرى الهزل و لا العبث، شديد الوقار كثير الصّمت، اشترى من المماليک الترك ما لم يشتره أحد من أهل بيته حتّى صاروا معظم عسكره، و رجّحهم على الأكراد [و أمّرهم]، و اشترى و هو بمصر خلقا منهم، و جعلهم بطانته و المحيطين بدهليزه، و سمّاهم «البحرية». حكى لى حسام الدين ابن أبى علىّ: أن هؤلاء المماليک مع فرط جبروتهم و سطوتهم كانوا أبلغ من يعظّم هيبته، كان إذا خرج و شاهدوا صورته يرعدون خوفا منه، و أنّه لم يقع منه فى حال غضبه كلمة قبيحة قطّ، أكثر ما يقول إذا شتم: يا متخلّف، و كان كثير الباه بجواريه فقط، و لم يكن عنده فى آخر وقت غير زوجتين: إحداهما شجرة الدّر، و الأخرى بنت العالمة، تزوّجها بعد مملوكه الجوكندار؛ و كان إذا سمع الغناء لا يتزعزع و لا يتحرّک، و كذلک الحاضرون يلتزمون حالته كأنّما على رءوسهم الطير؛ و كان لا يستقلّ أحدا من أرباب دولته بأمر بل يراجعون القصص مع الخدّام، فيوقّع عليها بما يعتمده كتّاب الإنشاء؛ و كان يحبّ أهل الفضل و الدّين، و ما كان له ميل لمطالعة الكتب؛ و كان كثير العزلة و الانفراد، و له نهمة باللّعب بالصّوالجة، و فى إنشاء الأبنية العظيمة الفاخرة. انتهى كلام ابن واصل.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۳۲

و قال غيره: و كان ملكا مهيبا جبّارا ذا سطوة و جلالة، و كان فصيحا حسن المحاورة عفيفا عن الفواحش، أمّر مماليكه الترک؛ و جرى بينه و بين عمّه الملك الصالح أمور و حروب إلى أن أخذ نقابة دمشق عام ثلاثة و أربعين؛ و ذهب إسماعيل إلى بعلبکّ، ثم أخذت من إسماعيل بعلبک، و تعثّر و التجأ إلى ابن أخته الناصر صاحب حلب. و لمّا خرج الملك الصالح هذا من مصر إلى الشام خاف من بقاء أخيه الملك العادل فقتله سرّا و لم يتمتع بعده؛ و وقعت الأكلة فى خدّه بدمشق.

و نزل الأفرنس ملك الفرنج بجيوشه على دمياط فأخذها، فسار إليه الملك الصالح فى محفّة حتى نزل المنصورة عليلا، ثم عرض له إسهال إلى أن مات فى ليلة النصف من شعبان بالمنصورة، و أخفى موته حتى أحضروا ولده الملك المعظم توران شاه من حصن كيفا و ملّكوه.

و قال سعد الدين: إنّ ابن عمّه فخر الدين نائب السلطنة أمر بتحليف الناس لولده الملك المعظم توران شاه، و لولىّ عهده فخر الدين فتقرّر ذلک، و طلبوا الناس فحضروا و حلفوا إلّا أولاد الناصر داود صاحب الكرک توقّفوا، و قالوا: نشتهى [أن] نبصر السلطان، فدخل خادم و خرج و قال: السلطان يسلّم عليكم، و قال: ما يشتهى أن تروه فى هذه الحالة، و قد رسم لكم أن تحلفوا.

فحلفوا؛ و كان للسلطان مدّة من وفاته و لا يعلم به أحد، و زوجته شجرة الدرّ توقّع مثل خطّه على التواقيع- على ما يأتى ذكره- و لمّا حلف أولاد الناصر صاحب الكرک جاءتهم المصيبة من كلّ ناحية، لأنّ الكرک راحت من يدهم، و اسودّت وجوههم عند أبيهم، و مات الملك الصالح الذى أمّلوه و أعطوه الكرک؛

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۳۳

ثم عقيب ذلک نفوهم من مصر. ثم إنّ الأمير فخر الدين نفذ نسخة الأيمان إلى البلاد [ليحلفوا للمعظّم] ثم كلّ ذلک و السلطان لم

يظهر موته. قال: و كانت أمّ ولده شجرة الدرّ ذات رأى و شهامة، فدبّرت أمر الملك الصالح و أخفت موته. و هى التى و ليت الملك مدّة شهرين بعد ذلك، و خطب لها على المنابر بمصر و غيرها- على ما يأتى ذكر ذلك فى محلّه إن شاء اللّه تعالى. ثم ملك بعدها الأتراك إلى يومنا هذا. انتهى.

و قال الشيخ شمس الدين يوسف بن قزأوغلى فى تاريخه مرآة الزمان- بعد ما ذكر اسم الملك الصالح و مولده قال-: «و لما ملك مصر اجتهد فى خلاص ولده المغيث فلم يقدر. قلت (يعنى المغيث الذى كان حبسه الملك الصالح إسماعيل بقلعة دمشق فى مبادئ أمر الملك الصالح). قال: و كان مهيبا، هيبته عظيمة، جبّارا أباد الأشرفيّة و غيرهم. و قال جماعة من أمرائه: و اللّه ما نقعد على بابه إلّا و نقول من هاهنا نحمل إلى الحبوس، و كان إذا حبس إنسانا نسيه، و لا يتجاسر أحد أن يخاطبه فيه، و كان يحلف أنّه ما قتل نفسا بغير حقّ. قال صاحب المرآة: و هذه مكابرة ظاهرة؛ فإنّ خواص أصحابه حكوا أنّه لا يمكن إحصاء من قتل من الأشرفية و غيرهم، و لو لم يكن إلّا قتل أخيه العادل [لكفى]. قال:

و كانت عتيقته شجرة الدرّ تكتب خطّا يشبه خطّه، فكانت تعلّم على التواقيع، و كان قد نسر مخرج السلطان و امتدّ إلى فخذه اليمنى و رجله و نحل جسمه و عملت له محفّة يركب فيها، و كان يتجلّد، و لا يطّلع أحد على حاله؛ و لمّا مات حمل تابوته إلى الجزيرة فعلّق بسلاسل حتّى قبر فى تربته إلى جانب مدرسته بالقاهرة».

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۳۴

قلت: و ذكر القطب اليونينىّ فى كتابه الذيل على مرآة الزمان، قال فى ترجمة البهاء زهير كاتب الملك الصالح قال:

فلمّا خرج الملك الصالح بالكرك من الاعتقال و سار إلى الديار المصرية، كان بهاء الدين زهير المذكور فى صحبته، و أقام عنده فى أعلى المنازل و أجلّ المراتب، و هو المشار إليه فى كتّاب الدرج و المقدّم عليهم، و أكثرهم اختصاصا بالملك الصالح و اجتماعا به، و سيّره رسولا فى سنة خمس و أربعين و ستمائة إلى الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب حلب يطلب منه إنفاذ الملك الصالح عماد الدين إسماعيل إليه فلم يجب إلى ذلك، و أنكر الناصر هذه الرسالة غاية الإنكار، و أعظمها و استصعبها، و قال: كيف يسعنى أن أسيّر عمّه إليه، و هو خال أبى و كبير البيت الأيّوبىّ حتى يقتله، و قد استجار بى! و اللّه هذا شىء لا أفعله أبدا. و رجع البهاء زهير إلى الملك الصالح نجم الدين بهذا الجواب، فعظم عليه و سكت على ما فى نفسه من الحنق.

و قبل موت الملك الصالح نجم الدين أيّوب بمديدة يسيرة- و هو نازل على المنصورة- تغيّر على بهاء الدين زهير و أبعده لأمر لم يطّلع عليه أحد. قال: حكى لى البهاء أن سبب تغيّره عليه أنّه كتب عن الملك الصالح كتابا إلى الملك الناصر داود صاحب الكرك، و أدخل الكتاب إلى الملك الصالح ليعلّم عليه على العادة، فلمّا وقف عليه الملك الصالح كتب بخطّه بين الأسطر: «أنت تعرف قلّة عقل ابن عمّى، و أنّه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۳۵

يحبّ من يعظّمه و يعطيه من يده فاكتب له غير هذا الكتاب ما يعجبه»، و سيّر الكتاب إلى البهاء زهير ليغيّره، و البهاء زهير مشغول، فأعطاه لفخر الدين إبراهيم بن لقمان و أمره بختمه، فختمه و جهّزه إلى الناصر على يد نجّاب، و لم يتأمّله فسافر به النجّاب لوقته؛ و استبطأ الملك الصالح عود الكتاب إليه ليعلّم عليه؛ ثم سأل عنه بهاء الدين زهير بعد ذلك، و قال له: ما وقفت على ما كتبته بخطّى بين الأسطر؟

قال البهاء زهير: و من يجسر أن يقف على ما كتبه السلطان بخطه إلى ابن عمّه! و أخبره أنّه سيّر الكتاب مع النجّاب، فقامت قيامة السلطان، و سيّروا فى طلب النجّاب فلم يدركوه؛ و وصل الكتاب إلى الملك الناصر بالكرك فعظم عليه و تألّم له، ثم كتب جوابه إلى الملك الصالح، و هو يعتب فيه العتب المؤلم، و يقول له فيه: و اللّه ما بى ما يصدر منك فى حقّى، و إنما بى اطلاع كتّابك على مثل هذا! فعزّ ذلك على الملك الصالح، و غضب على بهاء الدين زهير، و بهاء الدين لكثرة مروءته نسب ذلك إلى نفسه و لم ينسبه

لکاتب الکتاب، و هو فخر الدین بن لقمان- رحمه اللّه تعالی-.

قال: و کان الملک الصالح کثیر التخیّل و الغضب و المؤاخذة علی الذنب الصغیر و المعاقبة علی الوهم، لا یقیل عثرة و لا یقبل معذرة و لا یرعی سالف خدمة، و السیئة عنده لا تغفر، و التوسّل إلیه لا یقبل، و الشفائع لدیه لا تؤثّر، فلا یزداد بهذه الأمور التی تسلّ سخائم الصدور إلا انتقاما. و کان ملکا جبّارا متکبّرا شدید السطوة کثیر التجبّر و التعاظم علی أصحابه و ندمائه و خواصه، ثقیل الوطأة؛ لا جرم أن اللّه تعالی قصّر مدّة ملکه و ابتلاه بأمراض عدم فیها صبره. و قتل ممالیکه ولده توران شاه من بعده؛ لکنه کان عنده سیاسة حسنة و مهابة عظیمة و سعة صدر فی إعطاء العساکر و الإنفاق فی مهمّات الدولة، لا یتوقّف فیما یخرجه فی هذا الوجه؛ و کانت همّته عالیة جدا، و آماله بعیدة، و نفسه تحدّثه بالاستیلاء علی الدنیا بأسرها و التغلّب

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۳۶

علیها، و انتزاعها من ید ملوکها، حتّی لقد حدّثته نفسه بالاستیلاء علی بغداد و العراق؛ و کان لا یمکّن القویّ من الضعیف، و ینصف المشروف من الشریف؛ و هو أوّل من استکثر من الممالیک من ملوک البیت الأیّوبیّ، ثم اقتدوا به لمّا آل الملک إلیهم.

قلت: و من ولی مصر بعد الصالح من بنی أیّوب حتی اقتنی الممالیک! هو آخر ملوک مصر، و لا عبرة بولایة ولده الملک المعظم توران شاه، اللهم إن کان الذی بالبلاد الشامیّة فیمکن، و أمّا بمصر فلا.

و کانت ولایته بمصر تسع سنین و سعة أشهر و عشرین یوما لأنّه ولی السلطنة فی عشرین ذی الحجّة سنة سبع و ثلاثین، و مات فی نصف شعبان سنة سبع و أربعین و ستمائة. انتهی.

قال: و لمّا مات الملک الصالح نجم الدین لم یحزن لموته إلّا القلیل مع ما کان الناس فیه من قصد الفرنج الدیار المصریة و استیلائهم علی قلعة منها، و مع هذا سرّ معظم الناس بموته حتّی خواصّه، فإنّهم لم یکونوا یأمنون سطوته و لا یقدرون علی الاحتراز منه. قال: و لم یکن فی خلقه المیل لأحد من أصحابه و لا أهله و لا أولاده و لا المحبة لهم و لا الحنوّ علیهم علی ما جرت به العادة. و کان یلازم فی خلواته و مجالس أنسه من الناموس ما یلازمه إذا کان جالسا فی دست السلطنة.

و کان عفیف الذیل طاهر اللسان قلیل الفحش فی حال غضبه، ینتقم بالفعل لا بالقول- رحمه اللّه تعالی-. انتهی ما أوردناه فی ترجمة الملک الصالح من أقوال جماعة کثیرة من المؤرّخین ممّن عاصره و بعدهم، فمنهم من شکر و منهم من أنکر.

قلت: و هذا شأن الناس فی أفعال ملوکهم، و الحاکم أحد الخصمین غضبان منه إذا حکم بالحقّ، فکیف السلطان! و فی الجملة هو عندی أعظم ملوک بنی أیّوب

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۳۷

و أجلّهم و أحسنهم رأیا و تدبیرا و مهابة و شجاعة و سؤددا بعد السلطان صلاح الدین یوسف بن أیّوب، و هو أخو جدّه الملک العادل أبی بکر بن أیّوب؛ و لو لم یکن من محاسنه إلّا تجلّده علی مقابلة العدوّ بالمنصورة، و هو بتلک الأمراض المزمنة المذکورة و موته علی الجهاد، و الذبّ عن المسلمین.- و اللّه یرحمه- ما کان أصبره و أغزر مروءته.

و لمّا مات رثاه الشعراء بعدّة مراث. و أمّا مدائحه فکثیرة من ذلک ما قاله فیه کاتبه و شاعره بهاء الدین زهیر من قصیدته التی أوّلها:

وعد الزیارة طرفه المتملّق و بلاء قلبی من جفون تنطق

إنّی لأهوی الحسن حیث وجدته و أهیم بالقدّ الرشیق و أعشق

یا عاذلی أنا من سمعت حدیثه فعساک تحنو أو لعلّک ترفق

لو کنت منّا حیث تسمع أو تری لرأیت ثوب الصبر کیف یمزّق

و رأیت ألطف عاشقین تشاکیا و عجبت ممّن لا یحبّ و یعشق

أ یسومنی العذّال عنه تصبّرا و حیاته قلبی أرقّ و أشفق

إن عنّفوا أو سوّفوا أو خوّفوا لا انتهى لا أنثنى لا أفرق

أبدا أزيد مع الوصال تلهّفا كالعقد فى جيد المليحة يقلق

يا قاتلى إنّى عليك لمشفق يا هاجرى إنّى اليك لشيّق

و أذاع أنّى قد سلوتك معشر يا ربّ لا عاشوا لذاك و لا بقوا

ما أطمع العذّال إلّا أنّنى خوفا عليك إليهم أتملّق

و إذا وعدت الطيف منك بهجعة فاشهد علىّ بأنّنى لا أصدق

فعلام قلبك ليس بالقلب الذى قد كان لى منه المحبّ المشفق

و أظنّ قدّك شامتا لفراقنا فلقد نظرت إليه و هو مخلّق

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۳۸

و لقد سعيت إلى العلا بعزيمة فقضى لسعيى أنّه لا يحقق

و سريت فى ليل كأنّ نجومه من فرط غيرتها إلىّ تحدّق

حتّى وصلت سرادق الملك الذى تقف الملوك ببابه تسترزق

و وقفت من ملك الزمان بموقف ألفيت قلب الدهر منه يخفق

فإليك يا نجم السماء فإنّنى قد لاح نجم الدين لى يتألّق

الصالح الملك الذى لزمانه حسن يتيه به الزمان و رونق

ملك تحدّث عن أبيه و جدّه نسب لعمرى فى العلا لا يلحق

سجدت له حتّى العيون مهابة أو ما تراها حين يقبل تطرق

و القصيدة أطول من هذا تركتها خوف الإطالة و الملل.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۳۸]

السنة الأولى من ولاية الملك الصالح نجم الدين أيّوب بن الكامل محمد على مصر، و هى سنة ثمان و ثلاثين و ستمائة.

فيها سلّم الملك الصالح إسماعيل الشّقيف لصاحب صيداء الفرنجىّ. و عزل عزّ الدين بن عبد السلام عن الخطابة و حبسه، و حبس أيضا أبا عمرو بن الحاجب لأنّهما أنكرا عليه فعله، فحبسهما مدّة ثم أطلقهما؛ و ولّى العماد ابن خطيب بيت الأبّار الخطابة عوضا عن ابن عبد السلام.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۳۹

و فيها ظهر بالروم رجل تركمانىّ يقال له البابا و ادّعى النبوّة، و كان يقول قولوا:

لا إله إلا اللّه البابا ولىّ اللّه، و اجتمع إليه خلق كثير؛ فجهّز إليه صاحب الروم جيشا فالتقوا، فقتل بينهم أربعة آلاف، و قتل البابا المذكور. قال أبو المظفّر:

«و فيها ذكر أنّ بمازندران – و هى مدينة العجم– عين ماء يطلع منها فى كلّ ستّ و ثلاثين سنة حيّة عظيمة مثل المنارة، فتقيم طول النهار، فإذا غربت الشمس غاصت الحيّة فى العين فلا ترى إلّا مثل ذلك الوقت؛ و قيل: إنّ بعض ملوك العجم جاء بنفسه إليها فى مثل ذلك اليوم، و ربطها بسلاسل حتّى يعوقها، فلمّا غربت الشمس غاصت فى العين، و هى إلى الآن إذا طلعت رأوا السلاسل فى وسطها».

قلت: و لعلّها لم تتعرّض لأحد بسوء، و إلّا فكان الناس تحيّلوا فى قتلها و قتلوها بأنواع المكايد. و أمر هذه الحيّة مشهور ذكره غير

واحد من المؤرّخين.

و فيها وصل الملك الناصر داود من مصر إلى غزّة، و كان بينه و بين الفرنج وقعة، و كسرهم فيها و غنم منهم أشياء كثيرة.

و فيها توفّى أبو بكر محمد بن علىّ بن محمد الشيخ الإمام محى الدين العالم المشهور بابن عربى الطائىّ [الأندلسىّ] الحاتمىّ فى شهر ربيع الآخر، و له بمان و سبعون سنة.

و كان إماما فى علوم الحقائق، و له المصنّفات الكثيرة. و قد اختلف الناس فى تصانيفه و أقواله اختلافا كبيرا. قال: و كان يقول: أعرف الاسم الأعظم، و أعرف الكيمياء

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۴۰

بطريق المنازلة لا بطريق الكسب، و كانت وفاته بدمشق و دفن بقاسيون بتربة القاضى محيى الدين [بن الزكىّ]. و من شعره فى جزار:

ناديت جزّارا تروق صفاته قد أخجلت سمر القنا حركاته

يا واضع السّكين فى فمه و قد أهدى بها ماء الحياة لهاته

ضعها على المذبوح ثانى كرّة و أنا الضمين بأن تعود حياته

قلت: و أحسن من هذا قول البرهان القيراطىّ - رحمه اللّه- فى المعنى:

ربّ جزّار هواه صار لى دما و لحما

فزت بالألية منه و امتلا قلبى شحما

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أبو علىّ أحمد بن محمّد بن محمود الحرّانىّ ثم البغدادىّ فى المحرّم. و العلّامة القاضى نجم الدين أبو العبّاس أحمد بن محمد بن خلف بن راجح المقدسىّ الشافعىّ مدرس العذراويّة فى شوّال.

و خطيب داريّا سمح بن ثابت. و جمال الملك علىّ بن مختار العامرىّ ابن الجمل فى شعبان، و له تسعون سنة. و محيى الدين أبو بكر محمد بن علىّ بن محمد بن العربىّ الطائى الحاتمىّ المرسىّ، و له ثمان و سبعون سنة. مات فى شهر ربيع الآخر.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و عشرون إصبعا.

مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعا و تسع أصابع.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۴۱

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۳۹]

السنة الثانية من ولاية الملك الصالح نجم الدين أيّوب على مصر، و هى سنة تسع و ثلاثين و ستمائة.

فيها شرع الملك الصالح المذكور فى عمارة المدارس ببين القصرين من القاهرة، و شرع أيضا فى بناء قلعة الجزيرة، و أخذ أملاك الناس، و أخرب نيّفا و ثلاثين مسجدا، و قطع ألف نخلة، و غرم عليها خراج مصر سنين كثيرة؛ فلم تقم بعد وفاته، و أخر بها مماليكه الأتراك سنة إحدى و خمسين و ستمائة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۴۲

و فيها توفّى أحمد بن الحسين بن أحمد الشيخ الإمام العالم شمس الدين النحوى الإربلىّ ثم الموصلىّ الضّرير [المعروف بابن الخبّاز] صاحب التصانيف. كان إماما بارعا مفتّنا عالما بالنحو و اللغة و الأدب. و من شعره فى العناق:

كأنّنى عانقت ريحانة تنفّست فى ليلها البارد

فلو ترانا فى قميص الدّجى حسبتنا فى جسد واحد

قلت: و مثل هذا قول العلّامة أبى الحسن علىّ بن الجهم- رحمه اللّه تعالى -:

سقى اللّه ليلا ضمّنا بعد هجعة و أدنى فؤادا من فؤاد معذّب

فبتنا جميعا لو تراق زجاجة من الخمر فيما بيننا لم تسرّب

و مثل هذا قول القائل:

لا و المنازل من نجد و ليلتنا بالخيف إذ جسدانا بيننا جسد

كم رام منّا الكرى من لطف مسلكه نوما فما انفكّ لا خد و لا عضد

و مثل هذا أيضا قول [ابن] النّعاويذىّ - رحمه اللّه تعالى-:

فكم ليلة قد بتّ أرشف ريقه و جرت على ذاك الشّنيب المنضّد

و بات كما شاء الغرام معانقى و بتّ و إيّاه كحرف مشدّد

و قد خرجنا عن المقصود و لنرجع لما نحن بصدده.

و فيها توفى موسى بن يونس بن محمد بن منعة بن مالك العلّامة كمال الدين أبو الفتح الموصلىّ الشافعىّ. مولده فى صفر سنة إحدى و خمسين و خمسمائة بالموصل، و تفقّه على والده و غيره، و برع فى عدّة علوم.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۴۳

قال ابن خلّكان- رحمه اللّه-: و كان الشيخ يعرف الفقه و الأصلين و الخلاف و المنطق و الطبيعى و الإلهى و المجسطى و أقليدس و الهيئة و الحساب و الجبر و المقابلة و المساحة و الموسيقى معرفة لا يشاركه فيها غيره. ثم قال بعد ثناء زائد إلّا أنّه كان يتّهم فى دينه لكون العلوم العقليّة غالبة عليه.

و عمل فيه العماد المغربىّ و هو عمر بن عبد النور الصّنهاجى النحوىّ هجوا- رحمه اللّه تعالى-

أجدّك أن قد جاد بعد التعبّس غزال بوصل لى و أصبح مؤنسى

و عاطيته صهباء من فيه مزجها كرقّة شعرى أو كدين ابن يونس

و كان العماد المذكور قد مدحه قبل ذلك بأبيات منها:

كمال كمال الدين للعلم و العلا فهيهات ساع فى مساعيك يطمع

إذا اجتمع النّظّار فى كلّ موطن فغاية كلّ أن تقول و يسمعوا

فلا تحسبوهم من عناد تطيلسوا و لكن حياء و اعترافا تقنّعوا

و من شعر ابن يونس ما كتبه لصاحب الموصل يشفع عنده شفاعة، و هو:

لئن شرّفت أرض بمالك قدرها فمملكة الدنيا بكم تتشرّف

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۴۴

بقيت بقا نوح و أمرك نافذ و سعيك مشكور و ظلّك منصف

و مكّنت فى حفظ البسيطة مثل ما تمكّن فى أمصار فرعون يوسف

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة؛ ج۶؛ ص۳۴۴

ذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى العلّامة شمس الدين أحمد بن الحسين بن أحمد الإربلىّ ثم الموصلىّ الضّرير النحوىّ صاحب التصانيف.

و أحمد بن يعقوب أبو العيناء المارستانىّ الصّوفىّ فى ذى الحجّة. و الفقيه إسحاق ابن طرخان الشّاغورىّ فى رمضان، و له نحو تسعين سنة. و أبو الطاهر إسماعيل ابن ظفر النابلسىّ فى شوّال، و له خمس و ستّون سنة. و أبو علىّ الحسن بن إبراهيم ابن هبة اللّه بن دينار

الصائغ فى جمادى الآخرة. و خطيب بيت لهيا أبو الرّبيع سليمان بن إبراهيم بن هبة اللّه بن رحمة الإسعردىّ الحنبلىّ فى شهر ربيع الآخر.

و الفقيه عبد الحميد بن محمد بن أبى بكر بن ماض. و العلّامة كمال الدين أبو الفتح موسى بن يونس الموصلىّ، ذو الفنون فى شعبان عن تسع و ثمانين سنة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و عشرون إصبعا.

مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و إحدى و عشرون إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۴۰]

السنة الثالثة من ولاية الملك، الصالح نجم الدين أيّوب على مصر، و هى سنة أربعين و ستّمائة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۴۵

فيها كان الوباء ببغداد و تزايدت الأمراض. و توفّى الخليفة المستنصر و بويع ابنه المستعصم.

و فيها عزم الملك الصالح المذكور على التوجّه إلى الشام، فقيل له: البلاد مختلّة و العساكر مختلفة، فجهّز إليها العساكر و أقام هو بمصر.

و فيها توفّى كمال الدين أحمد ابن صدر الدين شيخ الشيوخ بمدينة غزّة فى صفر عن ستّ و خمسين سنة، و بنى عليه أخوه معين الدين قبّة على جانب الطريق، و كان قد كسره الجواد بعسكر الملك الناصر داود صاحب الكرك؛ و قيل: إنّه مات مسموما.

و من شعره ما كتبه لابن عمّه سعد الدين:

لو أنّ فى الأرض جنّات مزخرفة تحفّ أركانها الولدان و الخدم

و لم تكن رأى عينى فالوجود بها إذ لا أراك وجود كلّه عدم

و فيها توفّى الخليفة أمير المؤمنين المستنصر بالله أبو جعفر منصور ابن الخليفة الظاهر بأمر اللّه محمد ابن الخليفة الناصر لدين اللّه أبى العباس أحمد ابن الخليفة المستضىء بأمر اللّه حسن ابن الخليفة المستنجد بالله يوسف العباسىّ الهاشمىّ البغدادىّ.

مولده فى سنة ثمان و ثمانين و خمسمائة ببغداد، و أمّه أمّ ولد تركيّة، بويع بالخلافة بعد موت أبيه الظاهر بأمر اللّه فى شهر رجب سنة ثلاث و عشرين و ستمائة؛ و لمّا ولى الخلافة نشر العدل فى الرعايا و بذل الإنصاف، و قرّب أهل العلم و الدين، و بنى المساجد و الرّبط و المدارس، و أقام منار الدين و قمع المتمرّدة، و نشر السنن و كفّ الفتن. و كان أبيض أشقر الشعر ضخما قصيرا، و خطه الشيب فخضب بالحنّاء، ثم ترك الخضاب. و مات فى العشرين من جمادى، و قيل: فى يوم الجمعة عاشر جمادى الآخرة عن إحدى و خمسين سنة و أربعة أشهر و تسعة أيام و كتم موته،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۴۶

و خطب له يومئذ بالجامع حتى أقبل شرف الدين إقبال الشّرابىّ و معه جمع من الخدّام، و سلّم على ولده المستعصم بالله أمير المؤمنين، و استدعاه إلى سدّة الخلافة، ثم عرّف الوزير و أستاذ الدار، ثم طلبوا الناس، و بايعوه بالخلافة و تمّ أمره.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى زين الدين أحمد بن عبد الملك بن عثمان المقدسىّ المحدّث الشّروطىّ.

و إبراهيم بن بركات بن إبراهيم الخشوعىّ فى رجب. و عبد العزيز بن محمد بن الحسن بن عبد اللّه و يعرف بابن الدجاجيّة. و علم الدين علىّ بن محمود ابن الصابونىّ الصّيوفى فى شوّال، و له أربع و ثمانون سنة. و أبو الكرم محمد بن عبد الواحد بن أحمد المتوكّلىّ، المعروف بابن شفنين فى رجب، و له إحدى و تسعون سنة. و المستنصر بالله أبو جعفر منصور بن الظاهر، و له اثنتان و

خمسون سنة، توفّى فى جمادى الآخرة، و كانت خلافته ثلاث عشرة سنة.

قلت: لعل الذهبىّ و هم فى مدّة خلافته، و الصحيح أنّه ولى فى سنة ثلاث و عشر بن و ستمائة، و توفّى سنة أربعين.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و أربع عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و ثلاث أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۴۱]

السنة الرابعة من ولاية الملك الصالح نجم الدين أيّوب على مصر، و هى سنة إحدى و أربعين و ستمائة.

فيها تردّدت الرسل بين السلطان الملك الصالح نجم الدين أيّوب المذكور و بين عمّه الملك الصالح إسماعيل صاحب الشام [فى الصلح]، و كان الملك المغيث بن الصالح

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۴۷

نجم الدين هذا فى حبس الصالح إسماعيل صاحب الشام بدمشق، فأطلقه الصالح إسماعيل و خطب للصالح هذا ببلاده، ثم تغيّر ذلك كلّه و قبض الصالح إسماعيل ثانيا على الملك المغيث بن الصالح نجم الدين و حبسه.

قال أبو المظفر- رحمه اللّه-: «و فيها قدمت القاهرة و سافرت إلى الإسكندريّة فى هذه السنة، فوجدتها كما قال اللّه تعالى: ذات قرار و معين معمورة بالعلماء، مغمورة بالأولياء، [الذين هم فى الدنيا شامة]: كالشيخ محمد القبّارىّ و الشاطبىّ و ابن أبى أسامة. و هى أولى بقول القيسرانىّ رحمه اللّه فى وصف دمشق:

أرض تحلّ الأمانى من أماكنها بحيث تجتمع الدنيا و تفترق

إذا شدا الطير فى أغصانها وقفت على حدائقها الأسماع و الحدق

قلت: و أين [قول] أبى المظفّر من قول مجير الدين بن تميم فى وصف الإسكندريّة!:

لمّا قصدت سكندريّة زائرا ملأت فؤادى بهجة و سرورا

ما زرت فيها جانبا إلّا رأت عيناى فيها جنّة و حريرا

و فيها صالح صاحب الروم التتار على أن يدفع إليهم فى كلّ يوم ألف دينار و فرسا و مملوكا و جارية و كلب صيد؛ و كان صاحب الروم يومئذ ابن علاء الدين كيقباذ، و هو شابّ لعّاب ظالم قليل العقل، يلعب بالكلاب و السباع و يسلّطها على الناس فعضّه بعد ذلك سبع فمات، فأقام التّتار شحنة على الروم.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۴۸

و فيها توفّى الشيخ نجم الذين خليل بن علىّ بن الحسين الحموىّ الحنفىّ الفقيه [قاضى العسكر]، قدم دمشق و تفقّه بها و خدم المعظّم و درس فى الرّيحانيّة بدمشق، و ناب فى القضاء بها عن الرّفيع. و مات فى شهر ربيع الأوّل و دفن بقاسيون.

و فيها توفّى مظفّر الدين الملك الجواد يونس بن مودود بن الملك العادل أبى بكر بن أيّوب. و قد تقدّم من ذكره نبذة كبيرة عند وفاة الملك الكامل محمد بدمشق.

انتهى. و كان مظفّر الدين هذا قد جاء إلى ابن عمّه الملك المعظّم لمّا وقع بينه و بين الملك الكامل صاحب مصر [ما وقع] فأحسن إليه المعظّم، ثم عاد إلى مصر لمّا مات الملك الأشرف موسى شاه أرمن، فأقام بها عند الكامل إلى أن عاد.

صحبته إلى دمشق و أقام بها إلى أن مات الكامل فملّكوه دمشق، حسب ما حكيناه فى ترجمة الكامل و العادل ابنه؛ و وقع له بعد ذلك أمور. و كان جوادا كما اسمه، و يحبّ الصالحين و الفقراء.

قال أبو المظفّر: «إنّما أنّه كان حوله من ينهب الناس و يظلم و ينسب ذلك إليه». قلت: ثمّ قبض عليه عمّه الملك الصالح إسماعيل و اعتقله، فطلبه منه الفرنج لصحبة كانت بينهم، فحنقه ابن يغمور و قال: إنّه مات، و كان ذلك فى شوّال، و دفن بقاسيون دمشق فى تربة المعظّم. و أمّا ابن يغمور فإنّه حبس بأذن الصالح بقلعة دمشق، ثم شنقه الملك الصالح أيّوب لما ملك دمشق بعث به ابن شيخ

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۴۹

الشيوخ إلى مصر، فحبسه الصالح بالجبّ، ثم شنقه بعد مدّة هو و أمين الدولة على قلعة القاهرة.

و فيها توفّى الشيخ الصالح الزاهد أبو بكر [الشّعيبى]، كان من أهل ميّافارقين و كان من الأبدال، بعث إليه غازى صاحب ميّافارقين مرارا يسأله الإذن فى الزيارة، فلم يأذن له، فقيل له: هل يطرق البلاد التتار؟ فرفع رأسه إلى السماء و أنشد:

و ما كلّ أسرار القلوب مباحة و لا كلّ ما حلّ الفؤاد يقال

ثم خرج إلى الشّعيبة و هى قرية هناك و قال: احفروا لى‌ها هنا، فبعد يومين اموت، فمات بعد يومين- رحمه اللّه تعالى-.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أبو تمّام علىّ ابن أبى الفخار هبة اللّه بن محمد الهاشمىّ خطيب جامع ابن المطّلب [ببغداد]، و له تسعون سنة. و أبو الوفاء عبد الملك بن عبد الحقّ [بن عبد الوهّاب بن عبد الواحد] ابن الحنبلى. و أمّ الفضل كريمة بنت عبد الوهاب القرشيّة فى جمادى الآخرة.

و العدل أبو المكارم عبد الواحد بن عبد الرحمن بن عبد الواحد [بن محمد] بن هلال فى رجب. و أبو طالب عبد اللطيف بن محمد بن علىّ بن القبّيطىّ التاجر، و له ستّ و ثمانون سنة. و أبو محمد عبد الحقّ بن خلف الحنبلىّ. و أبو الرضا علىّ بن زيد التّسارسىّ الخيّاط بالثغر. و الأعزّ بن كرم بن محمد الإسكاف. و القاضى شمس الدين عمر بن أسعد بن المنجّا الحنبلى، و له أربع و ثمانون سنة. و الحافظ تقىّ الدين إبراهيم

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۵۰

ابن محمد بن الأزهر بدمشق، و له ستون سنة. و قيصر بن فيروز المقرئ البوّاب فى رجب. و قاضى القضاة الرّفيع الحنبلىّ فى آخر السنة.

أمر النيل فى هذه السنة الماء القديم ثلاث أذرع، و قيل أكثر. مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا و ثمانى أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۴۲]

السنة الخامسة من ولاية الملك الصالح نجم الدين أيّوب على مصر، و هى سنة اثنتين و أربعين و ستمائة.

فيها توفّى شهاب الدين أحمد [بن محمد بن علىّ بن أحمد] بن الناقد وزير الخليفة. كان أبوه وكيل أمّ الخليفة الناصر لدين اللّه، و نشأ ابنه هذا و تنقّل فى الخدم حتّى ولى الوزارة للخليفة المستنصر، و لقّب مؤيّد الدين، و حسنت سيرته. و كان رجلا صالحا فاضلا عفيفا ديّنا صار فى وزارته أحسن سيرة- رحمه اللّه تعالى-.

و فيها توفّى شيخ الشيوخ تاج الدين أبو محمد عبد اللّه بن عمر [بن علىّ] بن محمد ابن حمّويه. كان فاضلا نزها شريف النفس عالى الهمّة، صنّف التاريخ و غيره، و كان معدودا من العلماء الفضلاء. و مات فى صفر.

و فيها قتل القاضى الرّفيع عبد العزيز بن عبد الواحد بن إسماعيل أبو حامد الملقّب بالرّفيع. قال أبو المظفّر فى تاريخه: قيل إنّه كان فاسد العقيدة دهريّا مستهترا بأمور الشريعة، يخرج إلى الجمعة سكران، و كذلك كان يجلس فى مجلس الحكم، و كانت داره مثل الحانات، قبض عليه أمين الدولة و بعث به فى الليل إلى بعلبكّ،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۵۱

و صودر هناک، و باع أملاکه؛ و بعد ذلک جاءه داود النصرانیّ [سیف النّقمة] فقال: قد أمرنا بحملک إلی بعلبکّ، فأیقن بالهلاک؛ فقال: دعونی أصلی رکعتین! فقال له داود: صلّ، فقام یصلّی فأطال، فرفسه داود من رأس شقیف مطلّ علی نهر إبراهیم فوقع، فما وصل إلی الماء إلا و قد تقطّع- و قیل: إنّه تعلّق بذیله بسنّ الجبل فما زال داود یضربه بالحجارة حتّی قتله-. قلت: لا شلّت یداه! فإنّه کان من مساوىء الدنیا!.

و فیها توفّی الملک المغیث عمر بن السلطان الملک الصالح نجم الدین أیّوب صاحب الترجمة، مات فی حیاة والده الملک الصالح فی حبس دمشق- بعد أن عجز والده فی خلاصه- فی یوم الجمعة ثانی عشرین شهر ربیع الآخر، و حمل إلی تربة جدّه الملک الکامل محمد فدفن بها، و کان شابّا حسنا عاقلا دیّنا. و قد مرّ من ذکره نبذة کبیرة فی عدّة مواضع من هذا الکتاب.

و فیها توفّی شمس الأئمة محمد بن عبد السّتار بن محمد الإمام العلّامة فرید دهره و وحید عصره المعروف بشمس الأئمة الکردریّ البراتقینیّ الحنفیّ. و براتقین: قصبة من قصبات کردر من أعمال جرجانیّة. قال الذهبیّ: کان أستاذ الأئمة علی الإطلاق و الموفود إلیه من الآفاق؛ برع فی علوم، و أقرأ فی فنون؛ و انتهت إلیه ریاسة الحنفیّة فی زمانه. انتهی. قلت: و شمس الأئمة أحد العلماء الأعلام و أحد من سار ذکره شرقا و غربا، و انتشرت تصانیفه فی الدنیا- رحمه اللّه تعالی-.

الذین ذکر الذهبیّ وفاتهم فی هذه السنة، قال: و فیها توفّی شیخ الشیوخ تاج الدین عبد اللّه بن عمر بن علیّ الجوینیّ فی صفر، و له سبعون سنة. و أبو المنصور

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۵۲

ظافر بن طاهر [بن ظافر بن إسماعیل] بن سحم الأزدی المطرّز بالإسکندریّة فی شهر ربیع الأوّل. و أبو الفضل یوسف بن عبد المعطی بن منصور بن نجا العسالیّ ابن المخیلیّ أحد رءوس الثغر فی جمادی الآخرة، و له أربع و سبعون سنة. و أبو الضوء قمر بن هلال بن بطّاح القطیعیّ فی رجب. و تاج الدین أحمد بن محمد بن هبة اللّه بن محمد بن الشّیرازیّ فی رمضان، و قد نیّف علی السبعین.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم أربع أذرع سواء. مبلغ الزیادة خمس عشرة ذراعا سواء.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۴۳]

السنة السادسة من ولایة الملک الصالح نجم الدین أیّوب علی مصر، و هی سنة ثلاث و أربعین و ستمائة.

فیها کان الحصار علی دمشق [من المصریین و] من الخوارزمیّة.

و فیها کان الغلاء العظیم بدمشق، و بلغت الغرارة القمح ألفا و ستمائة درهم، و أبیعت الأملاک و الأمتعة بالهوان.

و فیها أیضا کان الغلاء بمصر، و قاسی أهلها شدائد.

و فیها توفّی الوزیر معین الدین الحسن ابن شیخ الشیوخ أبو علیّ وزیر الملک الصالح أیّوب، و هو الذی حصر دمشق فیما مضی. کان استوزره الملک الصالح بعد أخیه

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۵۳

عماد الدین، و کانت وفاته بدمشق فی شهر رمضان، و دفن إلی جانب أخیه عماد الدین المذکور بقاسیون.

و فیها توفّی عبد المحسن بن حمّود بن [عبد] المحسن أبو الفضل أمین الدین الحلبیّ، کان کاتبا لعزّ الدین أیبک المعظّمیّ، و کان فاضلا دیّنا بارعا حسن الخط.

و من شعره فی إجازة- رحمه اللّه تعالی-:

قد أجزت الذی فیها إلی ما التمسوه منی

فلهم بعدها رواية ما صح لديهم من الرواية عنّى

و كانت وفاته فى شهر رجب، و دفن بباب توما.

و فيها توفّيت ربيعة خاتون بنت أيّوب أخت السلطان صلاح الدين يوسف ابن أيّوب، و أخت الملك العادل أبى بكر بن أيّوب، كان تزوّجها أوّلا سعد الدين مسعود بن معين [الدين] أنر، و بعد موته تزوّجها صلاح الدين بن مظفّر الدين بن زين الدين صاحب إربل، ثم قدمت دمشق، و هى صاحبة الأوقاف، و ماتت بدمشق و دفنت بقاسيون، و قد جاوزت ثمانين سنة.

و فيها توفّى أحمد بن عيسى ابن العلّامة موفّق الدين عبد اللّه بن أحمد بن محمد بن قدامة الإمام الحافظ الزاهد سيف الدين بن المجد الحنبلىّ. ولد سنة خمس و ستمائة.

و سمع الحديث الكثير، و كتب و صنّف و جمع و خرّج، و كان ثقة حجّة بصيرا بالحديث و رجاله، و مات فى أوّل شعبان.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۵۴

و فيها توفى عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان بن موسى أبى نصر الإمام المفتى تقىّ الدين أبو عمرو ابن الإمام البارع صالح الدين النّصرى الكردىّ الشّهرزورىّ الشافعىّ المعروف بابن الصلاح. ولد سنة سبع و سبعين و خمسمائة و تفقّه على والده الصلاح بشهرزور و غيره، و برع فى الفقه و الحديث و العربيّة و شارك فى فنون.

و مات فى شهر ربيع الآخر و دفن بمقابر الصوفيّة.

و فيها توفّى علىّ بن محمد بن عبد الصمد العلّامة شيخ القرّاء بدمشق علم الدين أبو الحسن الهمذانىّ السّخاوىّ المصرىّ. ولد سنة ثمان أو تسع و خمسين و خمسمائة، و كان إماما علّامة مقرئا محققا مجوّدا بصيرا بالقراءات، ماهرا فى النحو و اللغة إماما فى التفسير، مات بدمشق فى جمادى الآخرة.

و فيها توفى محمد بن عبد الواحد بن أحمد بن عبد الرحمن بن إسماعيل الحافظ ضياء الدين أبو عبد اللّه المقدسىّ السّعدىّ ثم الدّمشقىّ الصالحىّ صاحب التصانيف المشهورة. ولد سنة تسع و ستين و خمسمائة، و سمع الكثير و رحل البلاد، و كتب و صنّف و حصّل شيئا كثيرا من الأجزاء و الأسانيد. و مات يوم الاثنين الثامن و العشرين من جمادى الآخرة، و له أربع و سبعون سنة.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى الحافظ أبو القاسم عبد الرحمن بن مقرّب التّجيبى الإسكندرىّ فى صفر. و الحافظ أبو العبّاس أحمد ابن محمود بن إبراهيم بن نبهان بن الجوهرىّ بدمشق فى صفر. و الحافظ العلّامة تقىّ الدين عثمان بن الصلاح عبد الرحمن بن عثمان الكردىّ فى شهر ربيع الآخر، و له ست و ستون سنة. و الحافظ سيف الدين أحمد بن المجد عيسى بن الموفّق فى شعبان. و الحافظ ضياء الدين محمد بن عبد الواحد المقدسىّ فى جمادى الآخرة، و له أربع و سبعون سنة. و الحافظ الفقيه تقىّ الدين أحمد بن المعزّ محمد بن عبد الغنى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۵۵

ابن عبد الواحد المقدسىّ فى شهر ربيع الآخر، و له اثنتان و خمسون سنة. و الحافظ المفيد تاج الدين محمد بن أبى جعفر [أحمد بن علىّ] القرطبىّ إمام الكلّاسة فى جمادى الأولى. و الرئيس عزّ الدين ابن النّسابة محمد بن أحمد بن محمد [بن الحسن] ابن عساكر فى رجب، و له ثمان و سبعون سنة. و العلّامة موفّق الدين يعيش بن علىّ بن يعيش النحوىّ بحلب فى جمادى الأولى، و له تسعون سنة. و العلّامة علم الدين علىّ بن محمد بن عبد الصمد الهمذانىّ السّخاوىّ المقرئ المفسّر؛ و له خمس و ثمانون سنة فى جمادى الآخرة. و أبو غالب منصور بن أحمد بن أبى غالب [محمد بن محمد] المراتبىّ ابن المعوج فيه، و له ثمان و ثمانون سنة. و خطيب الجبل شرف الدين عبد اللّه ابن الشيخ أبى عمر [محمد] المقدسىّ فيه أيضا. و الحافظ مجد الدين محمد بن محمود بن حسن [بن هبة اللّه بن محاسن] بن النّجار محدث العراق فى شعبان، و له خمس و تسعون سنة. و الصاحب معين الدين حسن ابن شيخ الشيوخ صدر الدين محمد بن عمر الجوينىّ بدمشق فى رمضان. و الشيخ أبو الحسن علىّ بن الحسين بن المقيّر النّجار بمصر فى ذى القعدة، و له ثمان و

تسعون سنة. و أبو بكر محمد بن سعد بن الموفّق الصّوفىّ بن الخازن ببغداد فى ذى الحجّة، و له سبع و ثمانون سنة. و الأمير سيف الدين علىّ بن قليج، و دفن بتربته داخل دمشق.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و عشرون إصبعا.

مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا و أربع عشرة إصبعا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۵۶

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۴۴]

السنة السابعة من ولاية الملك الصالح نجم الدين أيّوب على مصر، و هى سنة أربع و أربعين و ستمائة.

فيها توفّى الملك المنصور صاحب حمص و اسمه إبراهيم بن شيركوه بن محمد بن أسد الدين شيركوه الكبير أخو أيّوب. كان المنصور هذا شجاعا متواضعا موافقا للملك الصالح إسماعيل و مصاهرا له. و مات بدمشق فى يوم الأربعاء حادى عشر صفر، و حمل فى تابوت إلى حمص، و مات و له عشرون سنة. و قام بعده على حمص ولده الأشرف موسى، فأقام بها سنتين و شهورا و أخذت منه.

و فيها تسلّم السلطان الملك الصالح أيّوب قلعة الصّبيبة من ابن عمّه الملك السعيد ابن الملك العزيز، ثم أخذ السلطان أيضا حصن الصّلت من الملك الناصر داود صاحب الكرك.

و فيها قدم رسولان من التّتار إلى بغداد، أحدهما من بركة خان، و الآخر من ناخو، فاجتمعا بالوزير مؤيّد الدين ابن العلقمىّ، فتغمّت على الناس بواطن الأمور.

و فيها أخذت الفرنج مدينة شاطبة من بلاد المغرب صلحا، ثم أجلوا أهلها بعد سنة عنها. فما شاء اللّه كان.

و فيها توفّى بركة خان الخوارزمىّ أحد الخانات الأربعة، كان أصلحهم فى الميل إلى الخير، و كان الملك الصالح نجم الدين- صاحب الترجمة- قد صاهره و أحسن إليه، و جرى منه [عليه] ما جرى فى حياة والده الملك الكامل. و لمّا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۵۷

قتل انحلّ نظام الخوارزميّة من بعده، و كان قتله بالقرب من حلب فى قتال كان بينه و بين صاحب حلب و حمص. و قد تقدّم ذكر ذلك كلّه فى أوّل ترجمة الصالح هذا.

قال الأمير شمس الدين لؤلؤ: لمّا التقينا على حمص رأيت الخوارزمية خلقا عظيما، و كنا بالنسبة إليهم كالشّامة السوداء فى الثور الأبيض، فقال لى غلمانى (يعنى مماليكه): أيّما أحبّ إليك، نأخذ بركة خان أسيرا، أو نحمل رأسه إليك؟

فقلت: رأسه، كأنّ اللّه أنطقنى و التقينا. فلمّا كان بعد ساعة و إذا بواحد من أصحابنا يحمل رأسا مليح الصّورة و ليس فى وجهه سوى شعرات يسيرة، و لم يعرفه أحد و لا نحن عرفناه، و انهزموا، و جىء بطائفة منهم أسارى، فلمّا رأوا الرأسّ رموا نفوسهم من خيولهم و حثوا التراب على رءوسهم، فعلمنا حينئذ أنّه رأسه، و بعثنا به إلى حلب.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أبو عبد اللّه محمد بن حسّان بن رافع العامرىّ خطيب الموصل. و عبد المنعم بن محمد [بن محمد] بن أبى الضياء الدّمشقىّ بحماة. و الزاهد إسماعيل بن علىّ الكورانىّ، و دفن بمقابر الصّوفيّة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ستّ أذرع سواء. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و تسع أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۴۵]

السنة الثامنة من ولاية الملك الصالح نجم الدين أيّوب على مصر، و هى سنة خمس و أربعين و ستّمائة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۵۸

فيها نزل الوزير فخر الدين ابن الشيخ بعسكر الصالح نجم الدين المذكور على طبريّة ففتحها عنوة، و حاصر عسقلان و قاتل عليها قتالا عظيما [و أخذها المسلمون].

و فيها وجّه الملك الصالح نجم الدين تاج الدين بن مهاجر من مصر إلى دمشق و معه المبارز نسيبه و معهما تذكرة فيها أسماء جماعة من أعيان الدّماشقة بأن يحملوا إلى مصر فحملوا، و هم: [القاضى] محيى الدين بن الزّكىّ و ابن الحصيرىّ و ابن العماد الكاتب و بنو صصرّى الأربعة، و شرف الدين بن المعتمد و ابن الخطيب العقربانىّ و التاج [الإسكندرانىّ] الملقّب بالشّحرور و أبو الشامات و الحكيمىّ مملوك إسماعيل و غازى والى بصرى و ابن الهادى المحتسب؛ و أخرج العماد ابن خطيب بيت الأبّار من جامع دمشق، و ولّى العماد الحرستانىّ الخطابة عوضه. و سبب حمل هؤلاء الجماعة إلى مصر، أنّه نقل إلى الملك الصالح أيّوب أنّهم خواصّ الصالح إسماعيل، فخاف أن يجرى ما جرى فى النوبة الأولى من أخذ دمشق. و لمّا وصلوا إلى مصر حبس منهم السلطان الملك الصالح جماعة فأقاموا فى الحبس إلى أن مات الملك الصالح، فأخرجوا و عادوا إلى دمشق.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفى العلّامة أبو علىّ عمر بن محمد الأزدىّ الإشبيلىّ النحوىّ الشّلوبينى فى صفر، و له ثلاث و ثمانون سنة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۵۹

و أبو مدين شعيب بن يحيى الإسكندرانىّ الزّعفرانىّ التاجر بمكّة- شرّفها اللّه تعالى- و الشيخ علىّ الحريرىّ فى رمضان عن سنّ عالية.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ستّ أذرع سواء. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و تسع عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۴۶]

السنة التاسعة من ولاية الملك الصالح نجم الدين أيّوب على مصر، و هى سنة ستّ و أربعين و ستمائة.

فيها قايض الملك الأشرف موسى صاحب حمص تلّ باشر بحمص مع الملك الناصر يوسف [بن العزيز بن الظاهر بن صلاح الدين] صاحب حلب، و لذلك خرج الملك الصالح نجم الدين أيّوب هذا من مصر بالعساكر حسب ما ذكرناه فى ترجمته، ثم عاد مريضا لمّا بلغه مجىء الفرنج إلى دمياط.

و فيها أخذ الملك الصالح نجم الدين المذكور من الأمير علاء الدين أيدكين البندقدارىّ بيبرس البندقدارىّ الذى تسلطن، اشتراه منه و رقّاه إلى أن صار من أمره ما صار.

و فيها زار الملك الصالح فى عوده إلى مصر القدس الشريف، و أمر أن يذرع سوره، فجاء ستة آلاف ذراع، فأمر بأن يصرف مغلّ القدس فى عمارته. و تصدّق السلطان الملك الصالح بألفى دينار فى الحرم، و زار الخليل- عليه السلام- ثم عاد إلى مصر.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۶۰

و فيها توفّى علىّ بن أبى الجنّ بن منصور الشيخ أبو الجنّ. و أبو محمد الحريرىّ، مقدّم الطائفة الفقراء الحريريّة، ولد بقرية بسر و قدم دمشق صبيّا فنشأ بها.

و فى أحوال الحريرىّ هذا أقوال كثيرة، أثنى عليه أبو شامة و غيره، و تكلّم فيه جماعة منهم الذهبىّ و غيره. و اللّه أعلم بحاله. و قال ابن إسرائيل: و توفّى فى الساعة التاسعة من يوم الجمعة السادس و العشرين من رمضان سنة خمس و أربعين من عير مرض، و كان أخبر بذلك قبل موته بمدّة.

و فیهـا توفّی عثمان بن عمر بن أبی بکر بن یونس الشیـخ الإمام العالم العلّامـة جمال الـدین أبو عمرو المعروف بابن الحاجب الکردیّ المالکیّ النحویّ الأصولیّ صاحب التصانیف فی النحو و غیره. مولـده فی سـنة سـبعین و خمسـمائة بإسنا من بلاد الصـعید، و مات فی شوّال، و فی شهرته ما یغنی عن الإطناب فی ذکره- رحمه اللّه تعالی-.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۶۱

الذین ذکر الذهبیّ وفاتهم فی هذه السـنة، قال: و فیها توفّی أبو علیّ منصور ابن سـند [بن منصور المعروف با] بن الدبّاغ بالإسـکندریّة فی شهر ربیع الأوّل.

و أبو القاسم عبـد اللّه بن الحسـین بن عبـد اللّه [بن الحسـین بن عبـد اللّه] بن رواحـة الأنصاریّ فی جمادی الآخرة. و له ستّ و ثمانون سنة. و أمّ حمزة صـفیّة بنت عبد الوهّاب بن علیّ القرشیّة أخت کریمة فی رجب. و العلّامة أبو الحسن علیّ بن جابر بن الدّبّاح الإشبیلیّ بها عنـد استیلاء الفرنـج علیها. و الوزیر الأکرم علیّ بن یوسف جمال الـدین القفطی بحلب. و العلّامة جمال الدین أبو عمرو عثمان بن الحاجب. و عمرو بن عبد اللّه بن أبی بکر الإشبیلیّ فی شوّال بالإسکندریّة، و له ستّ و سبعون سنة.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم خمس أذرع و أربع و عشرون إصبعا. مبلغ الزیادة سبع عشرة ذراعا و ثلاث و عشرون إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۴۷]

السـنة العاشرة من ولایة السلطان الملک الصالح نجم الدین أیوب علی مصر، و هی سنة سبع و أربعین و ستمائة، و فهیا کانت وفاته فی شعبان، حسب ما تقدّم ذکره.

فیها فی أوّلها کان عود السـلطان الملک الصالح المذکور من دمشق- حسب ما ذکرناه فی العام الماضی- قال الذهبیّ: و فیها فی أوّلها عاد الملک الصالح إلی

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۶۲

الـدیار المصـریّة مریضا فی محفّـة، و کان قـد قتل أخاه الملک العادل قبل خروجه من مصـر فما هنّأه اللّه. و اسـتعمل علی نیابة دمشـق الأمیر جمال الـدین [موسـی] ابن یغمور. قال: و فیها ولـدت امرأة ببغداد ابنین و بنتین فی جوف، و شاع ذلک فطلبوا إلی دار الخلافة و أحضروا، و قد مات واحد، فأحضر میّتا فتعجّبوا، و أعطیت الأمّ من الثیاب و الحلیّ ما یبلغ ألف دینار.

و فیها توجّه الملک الناصـر داود صاحب الکرک إلی الملک الناصـر یوسف صاحب حلب، و بلغ السـلطان الملک الصالح نجم الدین ذلک، فأرسل إلی نائبه ابن یغمور بـدمشق بخراب دار أسامـة و قطع شـجر بسـتان القصـر الذی للنّاصـر داود بالقابون و خراب القصـر، ففعل ذلک.

و فیها سار الملک الظاهر [شادی] و الملک الأمجد ابنا الملک الناصـر داود المقدّم ذکره من الکرک إلی مصـر، و سـلّما الکرک إلی السـلطان الملـک الصالـح نجم الـدین بغیر رضا أبیهما الناصـر، فأعطی الملک الصالـح للظاهر بن الناصـر داود عوضًا عن الکرک خبز مائتی فارس بمصـر، و خمسین ألف دینار، و ثلثمائة قطعة قماش، و الذخائر التی بالکرک؛ و أعطی لأخیه الأمجد إخمیم، و خبزمائة و خمسـین فارسا بمصـر؛ فلم تطل مـدّتهم بمصـر و مات الملک الصالـح و زال ذلک کلّه من أیـدیهم حسب ما تقدّم ذکره، و حسب ما یأتی ذکره أیضا.

و فیها هجمت الفرنج دمیاط و أحاطت بها فی شهر ربیع الأوّل، و قد ذکر ذلک کلّه.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۶۳

و فیهـا تـوفّی الصّ‍احب فخر الـدین یوسف بن صـدر الـدین شـیخ الشـیوخ [أبی الحسن محمـد بن عمر بن علی بن محمـد بن حمّویه

الجوينىّ]. كـان عاقلا جوادا ممـدّحا مـدبّرا خليقا بالملك محبوبا إلى الناس. و لمّا مات الملك الصالـح نجم الـدين أيّوب على دمياط ندب إلى الملك فامتنع، و لو أجاب لما خالفوه، و استشهد على دمياط بعد أخذها.

و من شعره قوله:

عصيت هوى نفسى صغيرا فعند ما رمتنى الليالى بالمشيب و بالكبر

أطعت الهوى عكس القضيّة ليتنى خلقت كبيرا و انتقلت إلى الصّغر

قلت: و يذكر هذا الشعر أيضا لغيره فيما يأتى- إن شاء اللّه تعالى-.

الـذين ذكر الـذهبىّ وفاتهم فى هذه السـنة، قال: و فيها توفّى أبو يعقوب يوسف ابن محمود بن الحسـين الساوىّ فى رجب بالقاهرة، و ولد بدمشق فى سنة ثمان و ستّين. و السلطان الملك الصالح نجم الدين أيّوب بن الكامل بن العادل بالمنصورة فى شعبان، و له أربع و أربعـون سـنة. و الأـمير مقـدّم الجيـوش فخر الـدين يوسـف ابن شـيخ الشـيوخ صـدر الـدين الجـوينىّ فى ذى القعـدة شـهيدا يوم وقعة المنصورة.

و أبو جعفر محمد بن عبد الكريم بن محمد ببغداد. و صفىّ الدين عمر بن عبد الوهّاب ابن البرادعىّ فى شهر ربيع الآخر.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و ستّ أصابع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و ثمانى أصابع.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۶۴

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۴۸]

ذكر سلطنة الملك المعظّم توران شاه على مصر

هو السـلطان الملك المعظّم توران شاه ابن السـلطان الملك الصالح نجم الدين أيّوب ابن السـلطان الملك الكامل ناصـر الدين محمد ابن الملك العادل سـيف الـدين محمد أبى بكر ابن الأمير نجم الدين أيّوب بن شادى، سـلطان الديار المصـريّة الأيّوبىّ الكردىّ، آخر ملوك بنى أيّوب بمصـر، و لا عبرة بولاية الأشـرف فى سـلطنة الملك المعزّ أيبك. تسـلطن الملك المعظّم هذا بعد موت أبيه الملك الصالـح بنحو شـهرين و نصف، و قيل: أربعـة أشـهر و نصف و هو الأصـحّ؛ لأنّ الملك الصالح أيّوب كانت وفاته فى ليلة النصف من شعبان سـنة سـبع و أربعين بالمنصورة، و الفرنـج محدقـة بعساكر الإسـلام، فأخفت زوجته أمّ ولـده خليل شـجرة الـدّرّ موته مخافة على المسـلمين، و بايعوا لابنه المعظّم هذا بالسـلطنة فى غيبته، و صارت شـجرة الدّرّ تدبرّ الأمور و تخفى موت السلطان الملك الصالح إلى أن حضـر المعظّم توران شاه هـذا من حصن كيفا إلى المنصورة فى أوّل المحرّم من سـنة ثمان و أربعين و سـتمائة. و كان المعظّم هذا نائبـا لأـبيه الملـك الصالـح على حصن كيفا و غيرها من ديار بكر. و لمّا وصل المعظّم إلى المنصورة فتـح اللّه على يـديه، و نصـر اللّه الإسـلام فى يوم دخوله فتيمّن النـاس بطلعته. و سـبب النصـر أنّه لمّـا اسـتهلّت سـنة ثمـان و أربعين و الفرنـج على المنصورة و الجيوش الإسـلاميّة بإزائهم، و قد طال القتال بين الفريقين أشهرا ضعف حال الفرنج لانقطاع الميرة عنهم، و وقع فى خيلهم و باء و موت، و عزم ملكهم الفرنسـيس على أن يركـب فى أوّل اللّيل و يسير إلى دمياط، فعلم المسـلمون بـذلك. و كان الفرنج قد عملوا جسـرا عظيما من الصّـنوبر على النيـل، فسـهوا عن قطعه، فعبر منه المسـلمون فى الليل إلى برّهم، و خيامهم على حالها و ثقلهم، و أحـدق المسـلمون بهم يتخطّفونهم طول الليل قتلا و أسرا، فالتجئوا

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۶۵

إلى قرية تسـمّى منية أبى عبد اللّه و تحصّـنوا بها، و دار المسـلمون حولها، و ظفر أسـطول المسلمين بأسطولهم، فغنموا جميع المراكب بمن فيهـا. و اجتمع إلى الفرنسيس خمسـمائة فـارس من أبطال الفرنـج، و قعـد فى حوش منيـة أبى عبـد اللّه؛ و طلب الطّواشـى رشـيد

[الدين]، و الأمير سيف الدين القيمرىّ فحضرا إليه؛ فطلب منهما، الأمان على نفسه و من معه؛ فأجاباه و أمّناه فلم يرض الفرنج و حملوا على حميّة؛ و أحدق المسلمون بهم؛ و بقوا يحملون عليهم حملة بعد حملة، حتّى أبيدت الفرنج، و لم يبق منهم سوى فارسين، فرموا نفوسهم بخيولهم إلى البحر فغرقوا [و لم يصل إلى دمياط من يخبر بحالهم] و غنم المسلمون منهم ما لا يوصف و استغنى خلق؛ و أنزل الفرنسيس فى حرّاقة، و أحدقت به مراكب المسلمين تضرب فيها الكوسات و الطّبول. و فى البرّ الشرقىّ العسكر سائر منصور مؤيّد، و البرّ الغربىّ فيه العربان و العامّة فى لهو و تهان و سرور بهذا الفتح العظيم، و الأسرى تقاد فى الحبال؛ فكان يوما من الأيّام العظيمة المشهودة. و قال سعد الدين فى تاريخه: لو أراد الفرنسيس أن ينجو بنفسه لخلص على خيل سبق أو فى حرّاقة، لكنّه أقام فى الساقة يحمى أصحابه. و كان فى الأسر ملوك و كنود من الفرنج.

و أحصى عدّة الأسرى فكانوا نيّفا و عشرين ألف آدمىّ، و الذى غرق و قتل سبعة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۶۶

آلاف نفس. قال: فرأيت القتلى و قد ستروا وجه الأرض من كثرتهم، و كان الفارس العظيم يأتيه و سائق يسوقه وراءه كأذلّ ما يكون، و كان يوما لم يشاهد المسلمون مثله؛ و لم يقتل فى ذلك اليوم من المسلمين مائة نفس، و نفّذ السلطان الملك المعظّم توران شاه للفرنسيس و الملوك الذين معه و الكنود خلعا. و كانوا نيّفا و خمسين، فلبس الكلّ سواه. و قال: إنّ بلادى بقدر بلاد صاحب مصر، كيف ألبس خلعته! و عمل السلطان من الغد دعوة عظيمة فامتنع الملعون أيضا من حضورها؛ و قال: أنا ما آكل طعامه و ما يحضرنى إلاـ ليهزأ بى عسكره و لا سبيل إلى هذا! و كان عنده عقل و ثبات و دين، فالنصارى كانوا يعتقدون فيه بسبب ذلك. و كان حسن الخلقة. و أبقى الملك المعظّم الأسرى، و أخذ أصحاب الصنائع، ثم أمر بضرب رقاب الجميع. انتهى. و قال غيره: و حبسوا الفرنسيس بالمنصورة بدار ابن لقمان يحفظه الطواشى [جمال الدين] صبيح [المعظّمىّ] مكرما غاية الكرامة. و قال آخر: بمصر بدار ابن لقمان و هو الأصحّ، و زاد بعضهم فقال:

دار ابن لقمان هى الدار الكبيرة بالقرب من باب الخرق (يعنى دار ابن قطينة) انتهى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۶۷

و قال أبو المظفّر فى تاريخه مرآة الزمان: «و فى أوّل ليلة منها (يعنى سنة ثمان و أربعين) كان المصافّ بين الفرنج و المسلمين على المنصورة بعد وصول المعظّم توران شاه إلى المخيّم، و مسك الفرنسيس و قتل من الفرنج مائة [ألف]، و وصل كتاب المعظّم توران شاه إلى جمال الدين بن يغمور (يعنى إلى نائب الشام) يقول: «الحمد للّه الذى أذهب عنّا الحزن. و ما النصر إلّا من عند اللّه. و يومئذ يفرح المؤمنون بنصر اللّه ينصر من يشاء و هو العزيز الرحيم. و أمّا بنعمة ربّك فحدّث. و إن تعدّوا نعمة اللّه لا تحصوها. نبشّر المجلس السامى الجمالىّ، بل نبشّر الإسلام كافّة بما منّ اللّه به على المسلمين، من الظّفر بعدوّ الدين، فإنّه كان قد استفحل أمره و استحكم شرّه؛ و يئس العباد من البلاد، [و الأهل] و الأولاد؛ فنودوا: وَ لا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ الآية. و لمّا كان يوم الأربعاء مستهلّ السنة المباركة تمّم اللّه على الإسلام بركتها؛ فتحنا الخزائن، و بذلنا الأموال، و فرّقنا السلاح، و جمعنا العربان و المطّوّعة و اجتمع خلق لا يحصيهم إلّا اللّه تعالى، فجاءوا من كلّ فجّ عميق، و من كلّ مكان بعيد سحيق؛ و لمّا رأى العدوّ ذلك أرسل يطلب الصلح على ما وقع عليه الاتّفاق بينهم و بين الملك العادل أبى بكر فأبينا. و لمّا كان فى الليل تركوا خيامهم و أثقالهم و أموالهم و قصدوا دمياط هاربين، فسرنا فى آثارهم طالبين؛ و ما زال السيف يعمل فيهم عامّة الليل، و يدخل فيهم الخزى و الويل. فلمّا أصبحنا نهار الأربعاء قتلنا منهم ثلاثين ألفا غير من ألقى نفسه فى اللّجج. و أمّا الأسرى فحدّث عن البحر و لا حرج؛ و التجأ الفرنسيس إلى المنية و طلب الأمان فأمّناه، و أخذناه و أكرمناه؛ و تسلّمنا دمياط بعونه و قوته، و جلاله و عظمته».

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۶۸

و أرسل الملك المعظّم مع الكتاب إلى ابن يغمور المذكور بغفارة الفرنسيس فلبسها ابن يغمور فى دست مملكته بدمشق، و كانت

سقرلاط أحمر بفرو سنجاب.

فكتب ابن يغمور فى الجواب إلى السلطان الملك المعظّم المذكور بيتين لابن إسرائيل، و هما:

أسيّد أملاك الزمان بأسرهم تنجّزت من نصر الإله و عوده

فلا زال مولانا يبيح حمى العدا و يلبس أسلاب الملوك عبيده

انتهى كلام أبى المظفّر بعد أن ساق كلاما طويلا من هذا النموذج بنحو ما حكيناه.

و قال غيره: و بقى الفرنسيس فى الاعتقال إلى أن قتل الملك المعظّم توران شاه ابن الملك الصالح نجم الدين أيّوب (يعنى صاحب الترجمة)، فدخل حسام الدين ابن أبى علىّ فى قضيّته، على أن يسلّم للمسلمين دمياط و يحمل خمسمائة ألف دينار.

فأركبوه بغلة و ساقت معه الجيوش إلى دمياط، فما وصلوا إلّا و المسلمون على أعلاها بالتكبير و التهليل، و الفرنج الذين كانوا بها قد هربوا إلى المراكب و أخلوها، فخاف الفرنسيس و اصفرّ لونه. فقال الأمير حسام الدين بن أبى علىّ [للملك المعزّ]: هذه دمياط قد حصلت لنا، و هذا الرجل فى أسرنا و هو عظيم النصرانيّة، و قد اطّلع على عوراتنا، و المصلحة ألّا نطلقه؛ و كان قد تسلطن أيبك التّركمانىّ الصالحىّ أو صار حاكما عن الملكة شجرة الدّر؛ فقال أيبك و غيره من المماليك الصالحيّة: ما نرى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۶۹

الغدر! و كانت المصلحة ما قاله حسام الدين. فقووا عليه و أطلقوه طمعا فى المال! فركب فى البحر الرومىّ فى شينىّ. و ذكر حسام الدين أنّه سأل الفرنسيس عن عدّة العسكر الذى كان معه لمّا قدم لأخذ دمياط؛ فقال: كان معى تسعة آلاف و خمسمائة فارس، و مائة ألف و ثلاثون ألف طبسىّ سوى الغلمان و السّوقة و البحّارة. انتهى.

قال سعد الدين فى تاريخه: اتّفقوا على أن يسلّم الفرنسيس دمياط، و أن يعطى هو و الكنود ثمانمائة ألف دينار عوضا عما كان بدمياط من الحواصل، و يطلقوا أسرى المسلمين، فحلفوا على هذا؛ و ركبت العساكر ثانى صفر إلى دمياط قرب الظهر، و ساروا حتّى دخلوها، و نهبوا و قتلوا من بقى من الفرنج حتّى ضربتهم الأمراء و أخرجوهم، و قوّموا الحواصل التى بقيت فى دمياط بأربعمائة ألف دينار؛ و أخذوا من الملك الفرنسيس أربعمائة ألف دينار، و أطلقوه العصر هو و جماعته؛ فانحدروا فى شينى إلى البطس، و أنفذ رسولا- إلى الأمراء الصالحيّة يقول: ما رأيت أقلّ عقلا- و لا دينا منكم! أمّا قلّة الدين فقتلتم سلطانكم بغير ذنب (يعنى لمّا قتلوا ابن أستاذهم الملك المعظّم توران شاه بعد أخذ دمياط بأيّام) على ما سنذكره هنا إن شاء اللّه تعالى. قال: و أمّا قلّة العقل فكذا، مثلى ملك البحر وقع فى أيديكم بعتموه بأربعمائة ألف دينار، و لو طلبتم مملكتى دفعتها لكم حتّى أخلص. ثم لمّا سار إلى بلاده أخذ فى الاستعداد و العود إلى دمياط فأهلكه اللّه تعالى. و ندمت الأمراء على إطلاقه. و لمّا أراد الفرنسيس العود إلى دمياط قال فى ذلك الصاحب جمال الدين يحيى بن مطروح قصيدته المشهورة، و كتب بها إليه يعنى إلى الفرنسيس، و هى:

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۷۰

قل للفرنسيس إذا جئته مقال صدق من قؤول فصيح

آجرك اللّه على ما جرى من قتل عبّاد يسوع المسيح

أتيت مصر تبتغى ملكها تحسب أنّ الزمر يا طبل ريح

فساقك الحين إلى أدهم ضاق به عن ناظريك الفسيح

و كلّ أصحابك أودعتهم بحسن تدبيرك بطن الضريح

خمسون ألفا لا ترى منهم إلّا قتيلا أو أسيرا جريح

وفّقك اللّه لأمثالها لعلّ عيسى منكم يستريح

إن كان باباكم بذا راضيا فربّ غشّ قد أتى من نصيح

و قل لهم إن أضمروا عودة لأخذ ثار أو لعقد صحيح

دار ابن لقمان على حالها و القيد باق و الطواشى صبيح

قلت: للّه درّه! فيما أجاب عن المسلمين مع اللطف و البلاغة و حسن التركيب، رحمه اللّه.

و أمّا أمر الملك المعظّم توران شاه صاحب الترجمة، قال العلّامة شمس الدين يوسف بن قزأوغلى فى تاريخه فى سبب قتله، قال: «ذكرنا مجيئه إلى الشام و ذهابه إلى مصر، و اتّفق كسرة الفرنج عند قدومه فتيمّن الناس بطلعته، [و استبشروا بمشاهدته]؛ غير أنّه بدت منه أسباب نفّرت القلوب عنه فاتّفقوا على قتله و كان فيه نوع خفّة، فكان يجلس على السماط، فإذا سمع فقيها يذكر مسألة و هو بعيد عنه، يصيح: لا نسلّم!. ثمّ احتجب عن الناس أكثر من أبيه؛ و كان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۷۱

إذا سكر يجمع الشموع و يضرب رءوسها بالسيف فيقطعها و يقول: كذا أفعل بالبحريّة! يعنى مماليك أبيه الذين كان جعلهم بقلعة البحر بجزيرة الرّوضة، ثم يسمّى مماليك أبيه بأسمائهم؛ و أهانهم و قدّم الأرذال و أبعد الأماثل. و وعد [الفارس] أقطاى أن يؤمّره و لم يف له، فاستوحش منه. و كانت أمّ خليل (يعنى شجرة الدرّ) زوجة والده الملك الصالح لمّا وصل إلى القاهرة مضت هى إلى القدس، فبعث يهدّدها و يطلب المال و الجواهر منها فخافت منه، فكاتبت فيه، فاتّفق الجميع عند ذلك على قتله. فلمّا كان يوم الاثنين سابع عشرين المحرّم جلس المعظّم على السّماط فضربه بعض مماليك أبيه البحريّة بالسيف فتلقّاه بيده فقطع بعض أصابعه؛ و قام من وقته و دخل البرج [الخشب الذى كان قد عمل هناك بفارسكور] و صاح: من جرحنى؟ قالوا: الحشيشيّة. فقال: لا و اللّه إلّا البحريّة، و اللّه لا أبقيت منهم بقيّة.

و استدعى المزيّن فخيّط يده و هو يتوعّدهم، فقال بعضهم لبعض: تمّموه و إلّا أبادكم! فدخلوا عليه فانهزم إلى أعلى البرج، فأوقدوا النّيران حول البرج و رموه بالنّشّاب، فرمى بنفسه و هرب نحو البرج، و هو يقول: ما أريد ملكا! دعونى أرجع إلى الحصن يا مسلمون! ما فيكم من يصطنعنى و يجيرنى! و العساكر واقفة فما أجابه أحد، و النّشّاب تأخذه، فتعلق بذيل [الفارس] أقطاى فما أجاره، فقطّعوه قطعا و بقى على جانب البحر ثلاثة أيّام منتفخا لا يجسر أحد أن يدفنه حتّى شفع فيه رسول الخليفة، فحمل إلى ذلك الجانب فدفن به. و لمّا قتلوه دخلوا على

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۷۲

الفرنسيس الخيمة بالسيوف، فقالوا: نريد المال، فقال: نعم، فأطلقوه و سار إلى عكّا على ما اتّفقوا عليه معه. قال: و كان الذى باشر قتله أربعة؛ و كان أبوه الملك الصالح أيّوب قال لمحسن الخادم: اذهب إلى أخى العادل إلى الحبس، و خذ معك من المماليك من يخنقه، فعرض محسن ذلك على جميع المماليك فامتنعوا إلّا هؤلاء الأربعة فإنّهم مضوا معه و خنقوه، فسلّطهم اللّه على ولده فقتلوه أقبح قتلة، و مثّلوا به أعظم مثلة لما فعل بأخيه!

قال الأمير حسام الدين بن أبى علىّ: كان توران شاه لا يصلح للملك؛ كنا نقول لأبيه الملك الصالح نجم الدين أيّوب: ما تنفذ تحضره إلى هاهنا، فيقول: دعونى من هذا، فألححنا عليه يوما، فقال: أجيبه إلى‌ها هنا أقتله!

و قال عماد الدين بن درباس: رأى بعض أصحابنا الملك الصالح أيّوب فى المنام و هو يقول:

قتلوه شرّ قتله صار للعالم مثله

لم يراعوا [فيه] إلّا لا و لا من كان قبله

ستراهم عن قليل لأقلّ الناس أكله

و كانوا قد جمعوا فى قتله ثلاثة أشياء: السيف و النار و الماء!

و تسلطن بعده زوجة والده أمّ خليل شجرة الدرّ باتّفاق الأمراء و خشدا شينها المماليك الصالحيّة، و خطب لها على المنابر بمصر و

القاهرة. و کانت ولایة توران شاه هذا علی مصر دون الشهر، و قتل فی یوم الاثنین سابع عشرین المحرّم من سنة ثمان و أربعین و ستّمائة، و کان قدومه من حصن کیفا إلی المنصورة فی لیلة مستهلّ المحرّم من السنة المذکورة حسب ما تقدّم ذکره.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۷۳

ذکر ولایة الملکة شجرة الدّر علی مصر

هی الملکة شجرة الدرّ بنت عبد اللّه جاریة السلطان الملک الصالح نجم الدین أیّوب و زوجته و أمّ ولده خلیل، و کانت حظیّة عنده إلی الغایة، و کانت فی صحبته و هو ببلاد المشرق فی حیاة أبیه الملک الکامل، ثم سارت معه لمّا حبسه الملک الناصر داود صاحب الکرک بالکرک، و معها ولدها خلیل أیضا، و قاست مع الصالح تلک الأهوال و المحن، ثم قدمت معه مصر لمّا تسلطن؛ و عاش ابنها خلیل بعد ذلک و توفّی صغیرا. و لا زالت فی عظمتها من الحشم و الخدم و إلیها غالب تدبیر الدیار المصریّة فی حیاة سیّدها الملک الصالح و فی مرضه و بعد موته، و الأمور تدبّرها علی أکمل وجه إلی أن قدم ولد زوجها الملک المعظّم توران شاه، فلم یشکر لها توران شاه ما فعلته من الإخفاء لموت والده و قیامها بالتدبیر أتمّ قیام، حتّی حضر إلی المنصورة و جلس فی دست السلطنة. و لم تدع أحدا یطمع فی الملک لعظمتها فی النفوس، فترک توران شاه ذلک کلّه و أخذ فی تهدیدها، و طلب الأموال منها سرعة، فلم یحسن ذلک ببال أحد. و اتّفقوا علی ولایتها لحسن سیرتها و غزیر عقلها و جودة تدبیرها، و جعلوا المعزّ أیبک الترکمانیّ أتابکا لها، و خطب لها علی المنابر بمصر و القاهرة لکنّها لم تلبس خلعة السلطنة الخلیفتی علی العادة، غیر أنّهم بایعوها بالسلطنة فی أیّام أرسالا و تمّ أمرها.

قال الشیخ صلاح الدین خلیل بن أیبک الصفدیّ فی تاریخه: «شجرة الدر أمّ خلیل الصالحیّة و جاریة السلطان الملک الصالح نجم الدین أیّوب، و أمّ ولده خلیل؛

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۷۴

کان الملک الصالح یحبّها حبّا عظیما، و یعتمد علیها فی أموره و مهمّاته، و کانت بدیعة الجمال ذات رأی و تدبیر و دهاء و عقل، و نالت من السعادة ما لم ینله أحد فی زمانها.

و لمّا مات الملک الصالح فی شعبان سنة سبع و أربعین و ستمائة علی دمیاط فی حصار الفرنج، أخفت موته و صارت تعلّم بخطّها مثل علامة الملک الصالح، و تقول:

السلطان ما هو طیّب. و تمنع الناس من الدخول إلیه؛ و کان أرباب الدولة یحترمونها.

و لمّا علموا بموت السلطان ملّکوها علیهم أیّاما. و تسلطنت بعد قتل السلطان الملک المعظّم ابن الملک الصالح نجم الدین أیّوب، و خطب لها علی المنابر، و کان الخطباء یقولون علی المنبر بعد الدعاء للخلیفة: «و احفظ اللهمّ الجهة الصالحیة ملکة المسلمین، عصمة الدنیا و الدین أمّ خلیل المستعصمیّة صاحبة السلطان الملک الصالح».

انتهی کلام الصّفدیّ.

و قال غیره: و کانت تعلّم علی المناشیر و غیرها «والدة خلیل»، و بقیت علی ذلک مدّة ثلاثة أشهر إلی أن خلعت نفسها، و استقرّ زوجها الملک المعزّ أیبک التّرکمانیّ الصالحیّ الآتی ذکره [مدّة، إلی أن اتّفقت الممالیک البحریّة و قالوا: لا بدّ لنا من واحد من بنی أیّوب یجتمع الکلّ علی طاعته، و کان القائم بهذا الأمر الأمیر الفارس أقطای الجمدار، و بیبرس البندقداریّ، و بلبان الرشیدیّ و سنقر الرّومیّ؛ فأقاموا فی السلطنة] الملک الأشرف الأیّوبیّ. و قیل: إنه تزوّجها أیبک بعد سلطنته، و کانت مستولیة علی أیبک فی جمیع أحواله لیس له معها کلام، و کانت ترکیّة ذات

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۷۵

شهامة و نفس قويّة و سيرة حسنة، شديدة الغيرة. فلمّا بلغها أنّ زوجها الملك المعزّ أيبك يريد أن يتزوّج ببنت الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، و قد عزم على ذلك، فتخيّلت منه [أنه] ربّما عزم على إبعادها أو إعدامها [بالكليّة] لأنّه سئم من حجرها عليه و استطالتها، فعاجلته و عزمت على الفتك به و إقامة غيره فى الملك.

قال الشيخ قطب الدين: «و طلبت صفىّ الدين [إبراهيم] بن مرزوق و كان بمصر فاستشارته و وعدته بالوزارة، فأنكر عليها و نهاها عن ذلك فلم تصغ إلى قوله، و طلبت مملوكا للطّواشى محسن [الجوهرىّ] الصالحى و عرضت عليه أمرها و وعدته و منّته إن قتل المعزّ! ثم استدعت جماعة من الخدّام و اتّفقت معهم. فلمّا كان يوم الثلاثاء الثالث و العشرون من شهر ربيع الأوّل لعب المعزّ بالكرة و من معه، و صعد إلى القلعة آخر النهار، و أتى الحمّام ليغتسل، فلمّا قلع ثيابه و ثب عليه سنجر الجوهرىّ و الخدم فرموه و خنقوه؛ و طلبت شجرة الدر ابن مرزوق على لسان الملك المعزّ، فركب حماره و بادر و طلع القلعة من باب السرّ، فرآها جالسة و المعزّ بين يديها ميّت، فأخبرته الأمر فعظم عليه جدّا، و استشارته فقال: ما أعرف ما أقول، و قد وقعت فى أمر عظيم مالك منه مخلص! ثم طلبت الأمير جمال الدين بن أيدغدى [بن عبد اللّه] العزيزىّ و عزّ الدين أيبك الحلبىّ، و عرضت عليهما السلطنة فامتنعا؛ فلمّا ارتفع النهار شاع الخبر و اضطربت الناس». انتهى كلام قطب الدين.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۷۶

و قيل فى قتله وجه آخر: و هو أنّ شجرة الدرّ لمّا غارت رتّبت للمعزّ سنجر الجوهرىّ مملوك الفارس أقطاى، فدخل عليه الحمّام [و] لكمه و رماه، و ألزم الخدّام معاونته، و بقيت هى تضربه بالقبقاب و هو يستغيث و يتضرّع إليها إلى أن مات، و انطوت الأخبار عن الناس تلك الليلة. فلمّا كان سحر يوم الأربعاء الرابع و العشرين من شهر ربيع الأول ركب الأمراء الأكابر إلى القلعة على عادتهم، و ليس عندهم خبر بما جرى، و لم يركب الفائزىّ فى ذلك اليوم؛ و تحيّرت شجرة الدرّ فيما تفعل، فأرسلت إلى الملك المنصور نور الدين علىّ ابن الملك المعزّ تقول له عن أبيه: إنه ينزل إلى البحر فى جمع من الأمراء لإصلاح الشوانى التى تجهّزت للمضى إلى دمياط ففعل، و قصدت بذلك لتقلّ الناس من على الباب لتتمكن ممّا تريد، فلم يتمّ مرادها.

و لمّا تعالى النهار شاع الخبر بقتل الملك المعزّ، و اضطربت الناس فى البلد و اختلفت أقاويلهم و لم يقفوا على حقيقة الأمر، و ركب العسكر إلى جهة القلعة، و أحدقوا بها و دخلها مماليك الملك المعزّ أيبك و الأمير بهاء الدين بغدى الأشرفىّ مقدّم الحلقة؛ و طمع الأمير عزّ الدين الحلبىّ فى التقدّم، و ساعده على ذلك جماعة من الأمراء الصالحيّة، فلم يتمّ له ذلك. ثم استحضر الذين فى القلعة الوزير شرف الدين الفائزىّ و اتّفقوا على تمليك الملك المنصور نور الدين علىّ بن الملك المعزّ أيبك، و عمره يومئذ نحو خمس عشرة سنة، فرتّبوه فى الملك و نودى فى البلد بشعاره، و سكن الناس و تفرّقوا إلى دورهم، و نزل الأمراء الصالحيّة إلى دورهم. فلمّا كان يوم الخميس خامس عشرين الشهر وقع فى البلد خبطة عظيمة و ركب العسكر إلى القلعة.

و اتّفق رأى الذين بالقلعة على نصب الأمير علم الدين سنجر الحلبىّ فى السلطنة، و كان أتابك الملك المعزّ و يعرف بالمشدّ، و استحلفوا العسكر له، و حلف له الأمراء الصالحيّة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۷۷

على كره من أكثرهم، و امتنع الأمير عزّ الدين ثم خاف على نفسه فحلف و انتظمت الأمور، ثم انتقض بعد ذلك. و فى يوم الجمعة سادس عشرين شهر ربيع الأوّل خطب للملك المنصور بمصر و القاهرة.

و أمّا شجرة الدر صاحبة الترجمة فإنّها امتنعت بدار السلطنة، هى و الذين قتلوا الملك المعزّ أيبك، و طلب المماليك المعزيّة هجوم الدار عليهم، فحالت الأمراء الصالحيّة بينهم و بينها، حمية لشجرة الدر لأنّها خشداشتهم؛ فلمّا غلبوا مماليك المعزّ منهم و منها أمّنوها و حلفوا لها أنّهم لا يتعرّضون لها بسوء. فلمّا كان يوم الاثنين التاسع و العشرون منه أخرجت من دار السلطنة إلى البرج الأحمر فحبست به و عندها بعض جواريها، و قبض على الخدّام و اقتسمت الأمراء جواريها؛ و كان نصر العزيزىّ الصالحىّ، و هو أحد الخدّام القتلة، قد

تسرّب إلى الشام يوم ظهور الواقعة، و أحاطت المماليك المعزيّة بالدار السلطانيّة و جميع ما فيها؛ و يوم ظهور الواقعة أحضر الصفىّ بن مرزوق من الدار و سئل عن حضوره عند شجرة الدر لمّا طلبته بعد قتل المعزّ و استشارته، فعرّفهم صورة الحال فصدّقوه و أطلقوه. و حضر الأمير جمال الدين أيدغدى العزيزىّ، و كان الناس قد قطعوا بموت المعزّ، فعند حضور أيدغدى العزيزىّ المذكور أمر باعتقاله بالقلعة، ثم نقل إلى الإسكندريّة، فاعتقل بها، ثمّ صلب الخدّام الذين اتّفقوا على قتل المعزّ، و هرب سنجر غلام الجوهرىّ ثم ظفر به و صلب إلى جانب أستاذه محسن، فمات سنجر من يوم الاثنين المذكور وقت العصر على

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۷۸

الخشبة، و تأخّر موت الباقين إلى تمام يومين. و استمرّت شجرة الدرّ بالبرج الأحمر بقلعة الجبل، و الملک المنصور علىّ ابن الملک المعز أيبک و والدته يحرّضان المعزية على قتلها، و المماليک الصالحيّة تمنعهم عنها، لكونها جارية أستاذهم، و لا زالوا على ذلک إلى يوم السبت حادى عشر شهر ربيع الآخر وجدت مقتولة مسلوبة خارج القلعة، فحملت إلى التّربة التى كانت بنتها لنفسها بقرب مشهد السيدة نفيسة - رحمها اللّه تعالى- فدفنت بها. و لشجرة الدرّ أوقاف على التربة المذكورة و غيرها. و كان الصاحب بهاء الدين علىّ بن محمد بن سليم المعروف بابن حنّا وزيرها، و وزارته لها أوّل درجة ترقّاها من المناصب الجليلة. و لما تيقّنت شجرة الدرّ أنّها مقتولة أودعت جملة من المال و الجواهر، و أعدّت أيضا جملة من الجواهر النفيسة فسحقتها فى الهاون لئلا يأخذها الملک المنصور ابن المعزّ أيبک و أمّه، فإنّها كانت تكره المنصور و والدته،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۷۹

و كانت غير متجمّلة فى أمرها لمّا تزوّجها أيبک حتّى منعته الدخول إليهما بالكليّة، فلهذا كان المنصور و أمّه يحرّضان المماليک المعزيّة على قتلها. و كانت خيّرة ديّنة رئيسة عظيمة فى النفوس، و لها مآثر و أوقاف على وجوه البرّ معروفة بها. و الذى وقع لها من تملّكها الديار المصريّة لم يقع ذلک لأمرأة قبلها و لا بعدها فى الإسلام.

*** انتهى الجزء السادس من النجوم الزاهرة، و يليه الجزء السابع، و أوّله: ذكر ولاية المعزّ أيبک التّركمانىّ على مصر

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۸۰

استدراكات

اشارة

على بعض تعليقات وردت فى الأجزاء الثالث و الرابع و الخامس من هذا الكتاب

منبوبة

ورد فى الحاشية رقم ۳ ص ۹۹ بالجزء الثالث (من هذه الطبعة) أن منبوبة هى المعروفة اليوم باسم انبابه التى يقال لها أيضا أنبوبة. و الصواب أن منبوبة و انبابه ناحيتان إحداهما منفصلة عن الأخرى:

فأما منبوبة و يقال لها أنبوبة فهذه تعرف اليوم باسم أمبوبة و قد أضيفت إلى ناحيتى وراق الحضر و ميت النصارى و أصبح يتكوّن من هذه النواحى الثلاث قرية واحدة مشتركة فى الزمام و الادارة باسم «وراق الحضر و أمبوبة و ميت النصارى بمركز امبابة بمديرية الجيزة».

و أما انبابة و تعرف اليوم باسم امبابة فقد وردت فى نزهة المشتاق للإدريسىّ ثم حدث أن قسمت هذه البلدة إلى خمس نواح: و هى منية تاج الدولة التى تعرف اليوم باسم تاج الدول، و منية كرداک التى تعرف اليوم باسم ميت كردک، و منية أبو على التى تعرف

الیوم باسم کفر الشوام، و کفر الشیخ إسماعیل، و جزیرة امبابة.
و هذه النواحی مدرجة فی جدول أسماء البلاد الحالیة بأسمائها المذکورة کلّ ناحیة قائمة بذاتها إلّا أنّه بسبب تجاورها فی السکن لا یزال یطلق علی مجموعها اسم «امبابة» و إلیها ینسب مرکز امبابة أحد مراکز مدیریة الجیزة.

خلیج القاهرة

ورد فی التعلیق الخاص بهذا الخلیج فی صفحة ۴۳ من الجزء الرابع أن الخلیج المصری ردم فی سنة ۱۸۹۶. و الصواب أنه بدئ فی ردمه من جهة قنطرة غمرة فی أول ابریل سنة ۱۸۹۷ و أتم ردمه من جهة فم الخلیج فی یونیة سنة ۱۸۹۹
النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۸۱

قنطرة السدّ

بما أنّ الشرح الخاصّ بهذه القنطرة المدرج فی صفحة ۴۴ بالجزء الرابع جاء غیر واف فیستبدل به الشرح الآتی:
یستفاد مما ورد فی الجزء الثانی من الخطط المقریزیة ص ۱۴۶: أن هذه القنطرة أنشأها الملک الصالح نجم الدین أیّوب فی سنة ۶۴۳ ه علی الخلیج المصری (خلیج القاهرة) بالقرب من فمه و کانت واقعة فی شارع الخلیج المصری تجاه النقطة التی یتلاقی فیها هذا الشارع بشارع مدرسة الطب.
و کانت هذه القنطرة موجودة و معروفة کما شاهدتها باسم قنطرة الماوردی إلی منتصف سنة ۱۸۹۹ التی تم فیها ردم هذا الخلیج، و بردمه اختفت هذه القنطرة من تلک السنة.
و ذکر المقریزی أنها عرفت بقنطرة السد بسبب السدّ الذی کان یقام سنویا من التراب بجوار هذه القنطرة عند ما یبدأ ماء النیل فی الزیادة وقت الفیضان لکی یصد الماء، و متی وصلت الزیادة إلی ست عشرة ذراعا یفتح السدّ حینئذ باحتفال رسمی عظیم و یمرّ الماء فی الخلیج فتملأ منه صهاریج مدینة القاهرة و برکها و تروی منه بساتینها کما تروی الأراضی الزراعیة الواقعة علی جانبی الخلیج حتی نهایته الشمالیة فی مدیریة الشرقیة.

برکة الحبش

بما أنّ الشرح الخاصّ بهذه البرکة المدرج فی صفحة ۱۴ بالجزء الخامس جاء غیر واف فیستبدل به الشرح الآتی:
هذه البرکة کانت واقعة جنوبی مدینة مصر فیما بین النیل و الجبل. و ذکر المقریزی فی الجزء الثانی من خططه عند الکلام علی البرک ص ۱۵۲: بأن هذه البرکة کانت تعرف ببرکة المغافر و برکة حمیر و باصطبل قرة و باصطبل قامش و برکة الأشراف و برکة الحبش و هو الاسم الذی اشتهرت به.
النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۸۲
و هذه البرکة لم تکن برکة عمیقة فیها ماء راکد بالمعنی المفهوم الآن من لفظ برکة و إنّما کانت تطلق علی حوض من الأراضی الزراعیّة التی یغمرها ماء النیل وقت فیضانه سنویا بواسطة خلیج بنی وائل الذی کان یأخذ ماءه من النیل جنوبی مصر القدیمة، فکانت الأرض وقت أن یغمرها الماء تشبه البرک و لهذا سمیت برکة. و بعد أن ینتهی فیضان النیل و یصرف الماء عنها تنکشف أرضها و لا تحتاج إلی الحرث للینها بل تلاق لوقا و تزرع أصنافا شتویة أسوة بأراضی الملق التی فی حیاض الوجه القبلی.
و أمّا الیوم فقد بطلت طریقة الریّ الحوضی لهذه الأرض و أصبحت تروی ریّا صیفیا و شتویّا من ترعة الخشاب التی تأخذ میاهها من النیل بواسطة طلمبات اللیثی ببلدة الصف فی أیام الصیف، و بواسطة طلمبات بلدة الکریمات فی أیام فیضان النیل.

و يتّضح ممّا ذكر المقريزى أنّها سمّيت بركة الحبش لأنّه كان يوجد بجوارها من الجهة الجنوبية جنان تعرف بالحبش فنسبت إليها البركة. و يستفاد مما ذكره أبو صالح الأرمنى فى كتاب الديارات أن هذه الجنان عرفت بالحبش لأنها كانت لطائفة من الرهبان الحبش، يؤيّد ذلك ما ذكره المقريزى أيضا عند الكلام على هذه البركة حيث قال: «و فى تواريخ النصارى أن الأمير أحمد بن طولون صادر البطريق ميخائيل بطرك اليعاقبة على عشرين ألف دينار قباع النصارى رباع الكنائس بالإسكندرية و أرض الحبش بظاهر مصر».

و من تطبيق الحدود التى ذكرها المقريزى لهذه البركة على موضعها اليوم يتبين أنها كانت تشغل من الأرض مساحة قدرها نحو ۱۵۰۰ فدان: منها ۲۱۳ فدانا و هو مجموع الزمام المنزرع من أرأضى قرية دير الطين، و الباقى من زمام ناحية البساتين، و تحدّ هذه المنطقة اليوم من الشمال بصحراء جبانة مصر و جبل الرصد الذى يعرف اليوم بجبل اصطبل عنتر و أرض قرية أثر النبى فى الحدّ الفاصل بينها و بين دير الطين،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۸۳

و من الغرب جسر النيل بين قرية دير الطين و معادى الخبيرى، و من الجنوب و الشرق باقى أراضى ناحية البساتين التابعة لمركز الجيزة بمديرية الجيزة.

قوص

يضاف إلى ما ورد فى شرحها المدرج بصفحة ۲۹۲ بالجزء الخامس ما يأتى:

و كانت مدينة قوص قاعدة لإقليم يعرف بالأعمال القوصية نسبة إلى قوص من عهد الدولة الفاطمية إلى آخر أيام حكم المماليک. و فى أيام الحكم العثمانى اندمجت الأعمال القوصية كلها بما فيها مدينة قوص فى ولاية جرجا التى كانت تمتدّ فى ذاک الوقت على جانبى النيل من مدينة أسيوط شمالا إلى وادى حلفا عند الشلال الثانى جنوبا.

و لمّا أنشئت مديرية قنا فى سنة ۱۸۳۳ تتبعت لها مدينة قوص و جعلت قاعدة لأحد أقسام هذه المديرية و لا تزال قوص قاعدة لمركز قوص بمديرية قنا إلى اليوم.

منية ابن خصيب

ذكر سهوا فى صفحة ۳۰۹ بالجزء الخامس أن منية ابن خصيب واقعة على الشاطئ الشرقى للنيل. و الصواب أنها واقعة على الشاطئ الغربى للنيل كما هو معلوم.

*** تنبيه: التعليقات الخاصة بالأماكن الأثرية على اختلاف أنواعها و المدن و القرى القديمة و غيرها مع تعيين و تحديد مواضعها هى من وضع حضرة الأستاذ محمد رمزى بک المفتش بوزارة المالية سابقا. فنسدى إليه حزيل الشكر و نسأل اللّه جلت قدرته أن يجزيه خير الجزاء عن خدمته للعلم و أهله.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۸۴

فهرس الولاة الذين تولوا مصر من سنة ۵۶۷ ه الى سنة ۶۴۸ ه

(ا) ابن العزيز- المنصور محمد بن العزيز عثمان.

أبو بكر- العادل سيف الدين بن أيوب.

أبو المظفر- صلاح الدين يوسف بن أيوب.

أبو المظفر- الكامل محمد بن العادل.

أبو المعالی ناصر الدین- الکامل محمد بن العادل.

أم خلیل المستعصمیة- شجرة الدر.

(ش) شاهنشا ملک الملوک- العادل سیف الدین أبو بکر بن أیوب.

شجرة الدر بنت عبد اللّه جاریة السلطان الملک الصالح نجم الدین أیوب و زوجته و أم ولده خلیل ۳۷۳- ۳۷۹

(ص) الصالح نجم الدین أیوب بن الکامل محمد بن العادل أبی بکر ابن أیوب بن شادی بن مروان ۳۱۹- ۳۶۳

صلاح الدین یوسف ابن الأمیر نجم الدین أیوب بن شادی ابن مروان الملک الناصر أبو المظفر ۱- ۱۱۹

(ع) العادل سیف الدین أبو بکر محمد بن نجم الدین أیوب بن شادی ابن مروان ۱۶۰- ۲۲۶

العادل الصغیر أبو بکر بن الکامل محمد بن العادل أبی بکر بن أیوب ابن شادی بن مروان ۳۰۳- ۳۱۸

العزیز عماد الدین أبو الفتح عثمان بن صلاح الدین یوسف ابن أیوب ۱۲۰- ۱۴۵

(ک) الکامل محمد بن العادل أبی بکر بن أیوب بن شادی بن مروان ۲۲۷- ۳۰۲

(م) محمد بن أبی بکر بن أیوب- الکامل محمد بن العادل.

محمد بن العزیز عثمان بن صلاح الدین یوسف بن أیوب ۱۴۶- ۱۵۹

المعظم توران شاه بن الصالح نجم الدین أیوب بن الکامل ابن العادل أبی بکر بن أیوب بن شادی بن مروان ۳۶۴- ۳۷۲

المنصور- محمد بن العزین عثمان.

(ن) الناصر- صلاح الدین یوسف بن أیوب.

ناصر الدین- محمد بن العزیز عثمان.

[الجزء السابع]

[تتمة ما وقع من الحوادث سنة ۶۴۸]

اشارة

بسم اللّه الرّحمن الرّحیم و صلّی اللّه علی سیّدنا محمد و آله و صحابته و المسلمین الجزء السابع من کتاب النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة

ذکر ولایة الملک المعزّ أیبک التّرکمانیّ علی مصر

هو السلطان الملک المعزّ عزّ الدین أیبک بن عبد اللّه الصالحیّ النّجمیّ المعروف بالتّرکمانیّ، أوّل ملوک الترک بالدیار المصریة. و قد ذکرهم بعض الناس فی أبیات موالیّا إلی یومنا هذا، و هم الملوک الذین مسّهم الرّق، غیر أولادهم، فقال:

أیبک قطز یعقبو بیبرس یا ذا الدین بعدو قلاوون بعدو کتبغا لاچین

بیبرس برقوق بعدو شیخ ذو التبیین ططربرسبای جقمق صاحب التمکین

قلت: هذا قبل أن یتسلطن الملک الأشرف إینال العلائی، فلمّا ملک إینال قلت أنا:

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۴

أیبک قطز یعقبو بیبرس ذو الإکمال بعدو قلاوون بعدو کتغا المفضال

لاچین بیبرس برقوق شیخ ذو الإفضال ططر برسبای جقمق ذو العلا إینال

و قد خرجنا عن المقصود، و لنعد إلى ذكر الملك المعزّ أيبك المذكور، فنقول:

أصله من مماليك السلطان الملك الصالح نجم الدين أيّوب، اشتراه فى حياة والده الملك الكامل محمد، و تنقّلت به الأحوال عنده، و لازم أستاذه الملك الصالح فى الشرق حتّى جعله جاشنكيره، و لهذا لمّا أمّره كان عمل رنكه صورة خوانجا.

و استمرّ على ذلك إلى أن قتل المعظّم توران شاه و ملكت شجرة الدّرّ بعده، اتّفق الأمراء على سلطنة الملك المعزّ أيبك هذا و سلطنوه بعد أن بقيت الديار المصريّة بلا سلطان مدّة، و تشوّف إلى السلطنة عدّة أمراء، فحيف من شرّهم؛ و مال الناس إلى أيبك المذكور، و هو من أوسط الأمراء، [و] لم يكن من أعيانهم؛ غير أنّه كان معروفا بالسّداد و ملازمة الصلاة، و لا يشرب الخمر؛ و عنده كرم و سعة صدر و لين جانب. و قالوا أيضا: هذا متى أردنا صرفه أمكننا ذلك لعدم شوكته. و كونه من أوسط الأمراء. فبايعوه و سلطنوه و أجلسوه فى دست الملك فى أواخر شهر ربيع الآخر سنة ثمان و أربعين و ستّمائة. و حملت الغاشية بين يديه، و ركب

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۵

بشعائر السلطنة، و أوّل من حمل الغاشية بين يديه الأمير حسام الدّين بن أبى علىّ، ثمّ تداولها أكابر الأمراء واحدا بعد واحد. و تمّ أمره فى السلطنة و خطب له على المنابر، و نودى فى القاهرة و مصر بسلطنته، إلى أن كان الخامس من جمادى الأولى بعد سلطنته بخمسة أيّام ثارت المماليك البحريّة الصالحيّة و قالوا: لابدّ لنا من سلطان يكون من بنى أيّوب يجتمع الكلّ على طاعته؛ و كان الذى قام بهذا الأمر الأمير فارس الدين أقطاى الجمدار، و الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارىّ، و الأمير سيف الدين بلبان الرشيدىّ، و الأمير شمس الدين سنقر الرّومىّ، و اتّفقوا على أن يكون الملك المعزّ أيبك هذا أتابكا عليهم، و اختاروا أن يقيموا صبيّا عليهم من بنى أيّوب يكون له اسم السلطنة، و هم يدبّرونه كيفما شاءوا و يأكلون الدنيا به!

كلّ ذلك و الملك المعزّ سامع مطيع. فوقع الاتّفاق على الملك الأشرف مظفّر الدين موسى ابن الملك الناصر يوسف ابن الملك المسعود أقسيس ابن السلطان الملك الكامل محمد ابن السلطان الملك العادل أبى بكر ابن الأمير نجم الدين أيّوب؛ و كان هذا الصبىّ عند عمّاته القطبيّات، و تقدير عمره عشر سنين، فأحضروه

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۶

و سلطنوه و خطبوا له، و جعلوا الملك المعزّ أيبك التّركمانىّ أتابكه، و تمّ ذلك. فكان التوقيع يخرج و صورته: «رسم بالأمر العالى المولوىّ السلطانىّ الملكىّ الأشرفىّ و الملكىّ المعزّىّ». و استمرّ الحال على ذلك مدّة، و المعزّ هو المستولى بالتدبير و يعلّم على التواقيع، و الأشرف المذكور صورة

و بينما هم فى ذلك ورد الخبر عليهم بخروج السلطان الملك الناصر صلاح الدّين يوسف صاحب الشام و حلب، خرج من دمشق إلى المزّة يريد الديار المصريّة ليملكها لمّا بلغه قتل ابن عمّه الملك المعظم توران شاه. فاجتمع الامراء عند الملك المعزّ أيبك و أجمعوا على قتاله و تأهّبوا لذلك، و جهّزوا العساكر و تهيّئوا للخروج من مصر.

و أمّا الملك الناصر فإنّه سار من دمشق نحو الديار المصرية بإشارة الأمير شمس الدين لؤلؤ [الأمينىّ]، فإنّه ألحّ عليه فى ذلك إلحاحا كان فيه سببا لحضور منيّته، و كان لؤلؤ المذكور يستهزئ بالعساكر المصريّة، و يستخفّ بالمماليك، و يقول: آخذها بمائتى قناع، و كانت تأتيه كتب من مصر من الأصاغر فيظنّها من الأعيان، و دخلوا الرّمل و دنوا من البلاد؛ و تقدّم عسكر الشام و معهم الأمير جمال الدين بن يغمور نائب الشام و سيف الدين المشدّ و جماعة؛ و انفرد شمس الدين لؤلؤ، و الأمير ضياء الدين القيمرىّ؛ و خرجت العساكر المصريّة إليهم، و التقوا معهم و تقاتلوا فانهزم المصريّون و نهبت أثقالهم، و وصلت طائفة منهم من البحريّة على وجوههم إلى الصعيد،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۷

و كانوا قد أساءوا إلى المصريّين و نهبوهم و ارتكبوا معهم كلّ قبيح، فخافوا منهم فتوجّهوا إلى الصعيد. و خطب فى ذلك النهار

بالقاهرة و مصر و القلعة للملك الناصر صلاح الدين يوسف المذكور و فى جميع البلاد. و أيقن كلّ أحد بزوال دولة الملك المعزّ أيبك. و بات فى تلك الليلة جمال الدين بن يغمور بالعبّاسة، و أحمى الحمّام للملك الناصر صلاح الدين يوسف، و هيّأ له الإقامة. كلّ ذلك و الملك الناصر ما عنده خبر بما وقع من القتال و الكسرة، و هو واقف بسناجقه و أصحابه ينتظر ما يرد عليه من أمر جيشه.

و أمّا أمر المصريّين فإنّه لمّا وقعت الهزيمة عليهم ساق الملك المعزّ أيبك و أقطاى الجمدار المعروف ب «أقطيا» فى ثلثمائة فارس طالبين الشام هاربين، فعثروا فى طريقهم بشمس الدين لؤلؤ المقدّم ذكره و الضّياء القيمرىّ، فساق شمس الدين لؤلؤ عليهم فحملوا عليه فكسروه و أسّروه و قتلوا ضياء الدين القيمرىّ، و جىء بشمس الدين لؤلؤ إلى بين يدى الملك المعزّ أيبك، فقال الأمير حسام الدين بن أبى علىّ: لا تقتلوه لنأخذ به الشام، فقال أقطاى الجمدار: هذا الذى يأخذ مصر منّا بمائتى قناع! و جعلنا مخانيث، كيف نتركه! و ضربوا عنقه، و ساقوا على حميّة إلى جهة، فاعترضوا طلب السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف فوقع المصافّ بينهم،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۸

فخامر على الملك الناصر جماعة من المماليك العزيزيّة من مماليك أبيه، و جاءوا إلى الملك المعزّ أيبك التّركمانىّ، و قالوا له: إلى أين تتوجّه؟ هذا السلطان واقف فى طلبه ليس له علم بكسرتهم، فعطفوا على الطّلب، و تقدمتهم العزيزيّة فكسروا سناجق السلطان و صناديقه و نهبوا ماله، و رموه بالنّشّاب، فأخذه نوفل الزّبيدىّ و جماعة من مماليكه و أصحابه و عادوا به إلى الشام، و أسر المصريّون الملك المعظّم [توران شاه] ابن السلطان صلاح الدين بعد أن جرحوه و جرحوا ولده تاج الملوك، و أخذوا الملك الأشرف صاحب حمص، و الملك الزاهر عمّه، و الملك الصالح إسماعيل صاحب الوقائع مع الملك الصالح نجم الدين أيّوب، و جماعة كثيرة من أعيان الحلبيّين؛ و مات تاج الملوك من جراحته فحمل إلى بيت المقدس و دفن به؛ و ضرب الشريف المرتضى فى وجهه بالسيف ضربة هائلة عرضا و أرادوا قتله، فقال: أنا رجل شريف و ابن عمّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فتركوه؛ و تمزّق عساكر دمشق كلّ ممزّق، و مشوا فى الرمل أيّاما.

و أمّا المصريّون فإنّهم لمّا وقعت لهم هذه النّصرة عادوا إلى القاهرة بالأسارى، و سناجق الناصر مقلوبة و طبوله مشقّقة، و معهم الخيول و الأموال و العدد و شقّوا القاهرة، فلمّا وصلت المماليك الصالحيّة النّجميّة إلى تربة أستاذهم الملك الصالح نجم الدين أيّوب ببين القصرين أخذوا الملك الصالح إسماعيل الذى أسروه فى الوقعة،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۹

و كان عدوّ أستاذهم الملك الصالح المذكور، و وقفوا به عند التّربة، و قالوا: يا خوند، أين عينك ترى عدوّك أسيرا بأيدينا! ثمّ سحبوه و مضوا به إلى الحبس، فحبسوه هو و أولاده أيّاما ثم غيّبوه إلى يومنا هذا، و لم يسمع عنه خبر إلّا ما تحدّث به العوامّ بإتلافه.

و أمّا عساكر الناصر الذين كانوا بالعبّاسة (أعنى الذين كسروا الملك المعزّ أيبك أوّلا) فإنّ المعزّ لمّا تمّ له النصر و هزم الناصر ردّ إلى المذكورين فى عوده إلى القاهرة، و مال عليهم بمن معه قتلا و أسرا حتى بدّد شملهم، و رحل إلى القاهرة بمن معه من الأسارى و غيرهم. و لمّا دخل الملك المعزّ أيبك هذا إلى القاهرة و معه المماليك الصالحيّة مالوا على المصريّين قتلا و نهبا و نهبوا أموالهم و سبوا حريمهم و فعلوا بهم ما لم يفعله الفرنج بالمسلمين.

قلت: و سبب ذلك أنّه لمّا بلغهم كسرة المعزّ فرحوا و تباشروا بزوال المماليك من الديار المصريّة، و أسرعوا أيضا بالخطبة للملك صلاح الدّين يوسف صاحب الشام المقدّم ذكره. و كان وزير الملك الصالح إسماعيل المقدّم ذكره معتقلا بقلعة الجبل هو و ناصر الدين [إسماعيل] بن يغمور نائب الشام و سيف الدين القيمرىّ و الخوارزمىّ صهر الملك الناصر يوسف، فخرجوا من الجبّ و عصوا بقلعة الجبل، فلم يوافقهم سيف الدين القيمرىّ بل جاء و قعد على باب الدار التى فيها أعيان الملك المعزّ أيبك و حماها من النهب، و لم يدع أحدا يقربها؛ و أمّا الباقون فصاحوا:

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۰

«الملک الناصر یا منصورا!». فلما جاء الترک فتحوا باب القلعة و دخلوها، و أخذوا من کان عصی فیها، و شنقوا وزیر الصالح و ابن یغمور و الخوارزمیّ متقابلین، و شنقوا أیضا مجیر الدین بن حمدان، و کان شابّا حسنا، و کان تعدّی علی بعض الممالیک و أخذ خیله.

و أمّا الملک الناصر یوسف فإنّه سار حتّی وصل إلی غزّة و أقام ینتظر اصحابه، فوصل إلیه منهم من سلم من عسکر الشام و عسکر الموصل و مضوا إلی الشام.

و أمّا العساکر المصریّة فإنّ الملک المعزّ أیبک المذکور لمّا دخل إلی مصر بعد هذه الوقعة عظم أمره و ثبتت قواعد ملکه و رسخت قدمه. ثمّ وقع له فصول مع الملک الناصر یوسف المذکور یطول شرحها. محصول ذلک: أنّه لمّا کانت سنة إحدی و خمسین و ستمائة وقع الاتّفاق بینه و بین الملک الناصر المذکور علی أن یکون للعزّ و خشداشیته الممالیک الصالحیّة البحریّة الدیار المصریّة و غزّة و القدس، و ما بقی بعد ذلک من البلاد الشامیّة تکون للملک الناصر صلاح الدین یوسف. و أفرج الملک المعزّ عن الملک المعظّم توران شاه ابن الملک الناصر صلاح الدین یوسف المذکور و عن أخیه نصرة الدین و عن الملک الأشرف صاحب حمص و غیرهم من الاعتقال، و توجّهوا إلی الشام.

و لمّا فرغ الملک المعزّ من ذلک أخذ ینظر فی أمره مع فارس الدّین أقطای الجمدار فإنّه کان أمره قد زاد فی العظمة و التفّت علیه الممالیک البحریّة، و صار أقطای المذکور

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۱

یرکب بالشاویش و غیره من شعار الملک، و حدّثته نفسه بالملک، و کان أصحابه یسمّونه «الملک الجواد» فیما بینهم. کلّ ذلک و المعزّ سامع مطیع، حتّی خطب أقطای بنت الملک المظفّر تقیّ الدین محمود صاحب حماة و کان أخوها الملک المنصور هو یومئذ صاحب حماة بعد موت أبیه. و تحدّث أقطای مع الملک المعزّ أیبک أنّه یرید یسکنها فی قلعة الجبل لکونها من بنات الملوک، و لا یلیق سکناها بالبلد، فاستشعر الملک المعزّ منه بما عزم علیه، و أخذ یدبّر أمره و عمل علی قتله فلم یقدر علی ذلک.

فکاتب الملک المعزّ السلطان صلاح الدین یوسف و استشاره فی الفتک به، فلم یجبه فی ذلک بشیء، مع أنّه کان یؤثر ذلک، لکنّه علم أنّه مقتول علی کلّ حال، فترک الجواب. ثم سیّر فارس الدّین أقطای الجمدار المذکور جماعة لإحضار بنت صاحب حماة إلیه، فخرجت من حماة و وصلت إلی دمشق بتجمّل عظیم فی عدّة محفّات مغشّاة بالأطلس و غیره من فاخر الثیاب و علیها الحلیّ و الجواهر، ثم خرجت بمن معها من دمشق متوجّهة إلی الدیار المصریّة.

و أمّا الملک المعزّ فإنّه لمّا أبطأ علیه جواب الملک الناصر صلاح الدین فی أمر أقطای و تحقّق أن بنت صاحب حماة فی الطریق بقی متحیّرا، إن منعه من سکنی القلعة حصلت المباینة الکلیّة، و إن سکّنه قویت أسبابه بها و لا یعود یتمکّن من إخراجه، و یترتّب علی ذلک استقلال الأمیر فارس الدین أقطای بالملک فعمل علی معاجلته؛

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۲

فدخل أقطای علیه علی عادته، و قد رتّب له الملک المعزّ جماعة للفتک به، منهم:

الأمیر سیف الدین قطز المعزی (أعنی الذی تسلطن بعد ذلک)، فلمّا دخل أقطای و ثبوا علیه و قتلوه فی دار السلطنة بقلعة الجبل فی سنة اثنتین و خمسین و ستمائة؛ فتحرّک لقتله جماعة من خشداشیته البحریّة، ثم سکن الحال و لم ینتطح فی ذلک شاتان!.

و لمّا وقع ذلک التفت الملک المعزّ إلی خلع الملک الأشرف مظفّر الدین موسی الأیّوبیّ فخلعه و أنزله من قلعة الجبل إلی حیث کان أوّلا عند عمّاته القطبیّات.

و رکب الملک المعزّ بالسناجق السلطانیّة و حملت الأمراء الغاشیة بین یدیه و استقلّ علی الملک بمفرده استقلالا تامّا إلی أن قصدت الممالیک العزیزیّة القبض علیه فی سنة ثلاث و خمسین، فشعر بذلک قبل وقوعه فقبض علی بعضهم و هرب بعضهم. م وقعت الوحشة

ثانیا بین الملک المعزّ هذا و بین الملک الناصر صلاح الدین یوسف، فمشی الشیخ نجم الدین البادرائیّ بینهما حتّی قرّر الصلح بین المعزّ و بین الناصر، علی أن تکون الشام جملة للملک الناصر، و دیار مصر للملک المعزّ؛ و حدّ ما بینهما بئر القاضی،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۳

و هو فیما بین الورّادة و العریش؛ و استمرّ الحال علی ذلک. ثم إنّ الملک المعزّ تزوّج بالملکة شجرة الدّرّ أمّ خلیل فی هذه السنة و دخل بها، و کان زواجه بها سببا لقتله علی ما تقدّم فی ترجمتها، و علی ما یأتی فی هذه الترجمة أیضا.

و لمّا تزوّجها و أقام معها مدّة أراد أن یتزوّج ببنت الملک الرحیم صاحب الموصل، و کانت شجرة الدرّ شدیدة الغیرة، فعملت علیه و قتلته فی الحمّام، و أعانها علی ذلک جماعة من الخدّام. و قد ذکرنا ذلک کلّه مفصّلا فی ترجمة شجرة الدرّ فیما مضی. و کان قتل الملک المعزّ فی یوم الثلاثاء الثالث و العشرین من شهر ربیع الأوّل سنة خمس و خمسین و ستّمائة. و کان ملکا شجاعا کریما عاقلا سیوسا کثیر البذل للاموال، أطلق فی مدّة سلطنته من الأموال و الخیول و غیر ذلک ما لا یحصی کثرة حتّی رضی الناس بسلطان مسّه الرّقّ. و أمّا أهل مصر فلم یرضوا بذلک إلی أن مات، و هم یسمعونه ما یکره، حتّی فی وجهه إذا رکب و مرّ بالطرقات، و یقولون: لا نرید إلّا سلطانا رئیسا مولودا علی الفطرة. علی أنّ الملک المعزّ کان عفیفا طاهر الذّیل بعیدا عن الظلم و العسف کثیر المداراة لخشداشیته و الاحتمال لتجنّیهم علیه و شرّ أخلاقهم، و کذلک مع الناس. و خلّف عدّة أولاد منهم الملک المنصور علیّ الذی تسلطن بعده، و ناصر الدین قان.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۴

قال الشیخ قطب الدین الیونینیّ فی الذیل علی مرآة الزمان: «و رأیت له ولدا آخر بالدیار المصریّة فی سنة تسع و ثمانین و ستمائة، و هو فی زیّ الفقراء الحریریّة».

انتهی. و کان للمعزّ برّ و معروف و عمائر، من ذلک: المدرسة المعزّیّة علی النیل بمصر القدیمة و وقف علیها أوقافا. و دهلیز المدرسة متّسع طویل مفرط؛ قیل: إنّ بعض الأکابر دخل إلی هذه المدرسة المذکورة فرآها صغیرة بالنسبة إلی دهلیزها، فقال:

هذه المدرسة مجاز بلا حقیقة! انتهی. و کان مدرّسها القاضی برهان الدین الخضر ابن الحسن السّنجاریّ إلی أن مات. و کانت مدّة سلطنة الملک المعزّ علی مصر سبع سنین. و مات و قد ناهز الستّین سنة- رحمه اللّه تعالی-.

قلت: و قد تقدّم أنّ الملک المعزّ أیبک هذا هو أوّل من ملک الدیار المصریّة من الأتراک الذین مسّهم الرّقّ. و قد ذکرنا مبدأ أمره و ما وقع له من الحروب

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۵

و غیرها علی سبیل الاختصار. و لنذکر هنا أیضا من عاصره من ملوک الأقطار لیعلم الناظر فی هذه الترجمة بأصل جماعة کبیرة من الملوک الآتی ذکرهم فی الحوادث، و أیضا بحدّ مملکة الملک المعزّ یوم ذاک، و حد تحکّمه من البلاد؛ و مع هذا کان له من الممالیک و الحشم و العساکر أضعاف ما لملوک زماننا هذا مع اتّساع ممالکهم. انتهی.

و نذکر أیضا من أمر النار التی کانت بأرض الحجاز فی أیّام سلطنته فی سنة أربع و خمسین و ستمائة، فنقول:

استهلّت سنة أربع و خمسین المذکورة و الخلیفة المستعصم باللّه أبو أحمد عبد اللّه العباسیّ ببغداد، و سلطان مصر الملک المعزّ أیبک الترکمانیّ هذا، و سلطان الشام إلی الفرات الملک الناصر صلاح الدین یوسف الأیوبیّ ما خلا حماة و حمص و الکرک و بلادا أخر نذکر ملوکها فیما یأتی- إن شاء اللّه تعالی- و هم: صاحب حماة الملک المنصور ناصر الدین محمد بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أیّوب. و صاحب الکرک و الشوبک الملک المغیث فتح الدین عمر ابن الملک العادل أبی بکر ابن الملک الکامل محمد ابن الملک العادل أبی بکر بن أیّوب. و صاحب صهیون و برزیه و بلاطنس الأمیر مظفّر الدین عثمان ابن الأمیر ناصر الدین منکورس. و صاحب تلّ باشر و الرّحبة و تدمر الملک الأشرف مظفّر الدین موسی بن إبراهیم بن شیر کوه بن محمد بن شیر کوه بن

شادی.

و صاحب الموصل و أعمالها الملک الرحیم بدر الدین لؤلؤ الأتابکیّ. و صاحب میّافارقین

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۶

و دیار بکر و تلک الأعمال الملک الکامل ناصر الـدین محمـد ابن الملک المظفّر شـهاب الدین غازی بن الملک العادل أبی بکر بن أیوب. و صـاحب ماردین الملک السـعید إیلغازی الأرتقیّ. و صاحب إربل و أعمالها الصاحب تاج الـدین بن صـلایا العلویّ من جهة الخلیفة. و النائب فی حصون الإسماعیلیّة الثمانیة بالشام رضیّ الدین أبو المعالی. و صاحب المدینة الشریفة- صلوات اللّه و سلامه علی ساکنهـا- الأـمیر عزّ الـدین أبو ملک منیف بن شـیحة بن قاسم الحسـینیّ. و صاحب مکّـة المشـرّفة- شـرفّها اللّه تعالی- الشـریف قتادة الحسینیّ. و صاحب الیمن الملک المظفّر شمس الدین یوسف بن عمر.

و أمّا ملوک الشـرق: فسلطان ما وراء النهر و خوارزم السـلطان رکن الـدین و أخوه عزّ الـدین و البلاد بینهما مناصـفة، و هما فی طاعة هولاکو ملک التّتار.

و أمّا أمر النار التی ظهرت بالحجاز قال قاضی المدینة سنان الحسینیّ: «لمّا کان لیلة الأربعاء ثالث جمادی الآخرة سنة أربع و خمسین و ستّمائة، ظهر بالمدینة الشریفة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۷

دویّ عظیم ثم زلزلة عظیمة رجفت منها المدینة و الحیطان و السّقوف ساعة بعد ساعة إلی یوم الجمعة خامس الشهر المذکور ظهرت نار عظیمة، و قد سالت أودیة منها بالنّار إلی وادی شظا حیث یسیل الماء، و قد سدّت مسیل شظا و ما عاد یسیل.

ثم قال: و اللّه لقـد طلعنا جماعة نبصـرها فإذا الجبال تسـیل نیرانا، و قد سدّت الحرّة طریق الحاجّ العراقیّ، و سارت إلی أن وصـلت إلی الحرّة فوقفت بعد ما أشـفقنا أن تجیء إلینا؛ و رجعت تسیر فی الشرق، یخرج من وسطها مهود و جبال نیران تأکل الحجارة، کما أخبر اللّه فی کتابه العزیز فقال عزّ من قائل: (إنّها ترمی بشـرر کالقصـر. کأنّه جمالت صـفر). قال: و قد کتبت هذا الکتاب یوم خامس رجب سنة أربع و خمسین و النار فی زیادة ما تغیّرت؛ و قد عادت إلی الحرّة و فی قریظة طریق الحاجّ العراقیّ.

و أمّـا أمر النـار الکبیرة فهی جبـال نیران حمر، و الأـمّ الکبیرة النار التی سالت النیران منها من عنـد قریظـة و قـد زادت، و ما عاد الناس یدرون أیّ شیء یتمّ بعد ذلک، و اللّه یجعل العاقبة إلی خیر؛ و ما أقدر أصف هذه النار». انتهی کلام القاضی فی کتابه.

و قـال غیره بعـد مـا سـاق من أمر النـار المـذکورة عجـائب نحوا ممّـا ذکرناه و أعظم إلی أن قال: «و قـد سال من هـذه النار واد یکون مقداره أربعة فراسخ و عرضه

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۸

أربعـة أمیـال و عمقه قامـة و نصـفا، و هی تجری علی وجه الأرض، و تخرج منها أمهاد و جبال صـغار تسـیر علی الأرض، و هو صـخر یـذوب حتّی یبقی مثـل الآنک، فإذا جمـد صار أسود، و قبل الجمود لونه أحمر؛ و قـد حصل بسـبب هـذه النار إقلاع عن المعاصـی و التقرّب إلی اللّه تعالی بالطاعات؛ و خرج أمیر المدینة عن مظالم کثیرة».

ثم قال قطب الدین فی الذّیل: «و من کتاب شـمس الدین سـنان بن نمیلة الحسینیّ قاضی المدینة إلی بعض أصحابه یصف الزّلزلة إلی أن ذکر قصّة النار و حکی منها شیئا إلی أن قال: و أشفقنا منها و خفنا خوفا عظیما، و طلعت إلی الأمیر و کلّمته و قلت:

قد أحاط بنا العذاب، ارجع إلی اللّه! فاعتق کلّ ممالیکه، و ردّ علی جماعة أموالهم، فلمّا فعل هذا قلت له: اهبط الساعة معنا إلی النّبیّ- صلّی اللّه علیه و سـلّم- فهبط، و بتنا لیلة السبت و الناس جمیعهم و النسوان و أولادهم، و ما بقی أحد لا فی النخیل و لا فی المدینة إلّا عند رسول اللّه- صـلّی اللّه علیه و سـلّم- و أشفقنا منها و ظهر ضوءها إلی أن أبصرت من مکّة، و من الفلاة جمیعها. ثم سال من ذلک نهر من نـار و أخـذ فی وادی أحیلین و سـدّ الطریـق ثم طلع إلی بحرة الحـاجّ، و هـو بحر نـار یجری و فـوقه جمر یسـیر إلی أن قطعت

الوادی: وادی الشّظا، و ما عاد یجری سیل قطّ لأنّها حفرته نحو قامتین. و المدینة قد تاب جمیع أهلها و لا بقی یسمع فیها رباب و لا دفّ. ثمّ ذکر أشیاء مهولة من هذا الجنس إلی أن قال: و الشمس و القمر من یوم طلعت النار ما یطلعان إلّا کاسفین! قال: و أقامت هذه النار أکثر من شهرین». و فیها یقول بعضهم:

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۹

یا کاشف الضّرّ صفحا عن جرائمنا لقد أحاطت بنا یا ربّ بأساء

نشکو إلیک خطوبا لا نطیق لها حملا و نحن بها حقّا أحقّاء

زلازلا تخشع الصمّ الصّلاب لها و کیف یقوی علی الزّلزال شمّاء

أقام سبعا یرجّ الأرض فانصدعت عن منظر منه عین الشمس عشواء

و القصیدة طویلة جدّا کلّها علی هذا المنوال. و لو لا خشیة الإطالة لذکرنا أمر هذه النار و ما وقع منها، فرأینا أنّ الشرح یطول، و المقصود هنا بقیّة ترجمة السلطان الملک المعزّ أیبک.

و لمّا مات المعزّ رثاه سراج الدّین الورّاق بقصیدة أوّلها:

نقیم علیه مأتما بعد مأتم و نسفح دمعا دون سفح المقطّم

و لو أنّنا نبکی علی قدر فقده لدمنا علیه نتبع الدّمع بالدم

و سل طرفی ینبیک عنّی أنّنی دعوت الکری من بعده بالمحرّم

و منها فی ذکر ولده الملک المنصور علیّ- رحمه اللّه-:

بنی اللّه بالمنصور ما هدّم الرّدی و إنّ بناء اللّه غیر مهدّم

ملیک الوری بشری لمضمر طاعة و بؤسی لطاغ فی زمانک مجرم

فما للذی قدّمت من متأخّر و لا للذی أخّرت من متقدّم

و أیبک صوابه کما هو مکتوب، و هو لفظ ترکیّ مرکّب من کلمتین. فأی هو القمر، و بک أمیر، فمعنی الاسم باللغة العربیة أمیر قمر، و لا عبرة بالتقدیم و التأخیر فی اللفظ، و أیبک (بفتح الهمزة و سکون الیاء المثناة من تحت و تفخیمهما معا) و بک معروف لا حاجة إلی التعریف به. انتهی.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۰

السنة التی حکم فی محرّمها الملک المعظّم توران شاه ابن الملک الصالح نجم الدین، ثم فی صفر و الربیعین منها الملکة شجرة الدّرّ أمّ خلیل الصالحیّة، ثمّ فی باقیها الملک المعزّ أیبک صاحب الترجمة، و معه الملک الأشرف مظفّر الدین موسی، و العمدة فی ذلک علی المعزّ هذا، و هی سنة ثمان و أربعین و ستّمائة.

فیها کانت کسرة الفرنج علی دمیاط و قبض علی الفرنسیس کما تقدّم.

و فیها قتل الملک المعظّم توران شاه، و قد مرّ أیضا.

و فیها کانت الوقعة بین الملک الناصر صلاح الدین یوسف و بین الملک المعزّ هذا.

و فیها حجّ طائفة من العراق، و لم یحجّ أحد من الشام و لا مصر فی هذه السنة.

و فیها ثارت الجند ببغداد لقطع أرزاقهم. و کلّ ذلک کان من عمل الوزیر ابن العلقمیّ الرافضیّ، فإنّه کان حریصا علی زوال دولة بنی العبّاس و نقلها إلی العلویّین، و کان یرسل إلی التّتار فی السرّ و الخلیفة المستعصم لا یطّلع علی باطن الأمور.

و فیها لمّا فرغوا من حرب دمیاط و تفرّق أهلها نقلوا أخشاب بیوتهم و أبوابهم منها و ترکوها خاویة علی عروشها، ثم بنیت بعد ذلک بلیدة بالقرب منها تسمّی المنشیّة.

و کان سور دمیاط من أحسن الأسوار.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۱

و فیها توفّیت أرغوان الحافظیة عتیقة الملک العادل أبی بکر بن أیّوب، سمّیت الحافظیّة لأنّها ربّت الملک الحافظ صاحب [قلعة] جعبر، و کانت امرأة عاقلة صالحة، و کانت مدّة حبس الملک المغیث ابن الملک الصالح نجم الدین أیّوب بدمشق تهیّی له الأطعمة و الأشربة و تبعث له النیاب، فحقد علیها الملک الصالح إسماعیل فصادرها و أخذ منها أموالا عظیمة، یقال: إنّه أخذ منها أربعمائة صندوق. و لها تربة و مسجد و وقفت علیهما أوقافا.

و فیها قتل الأمیر شمس الدین لؤلؤ بن عبد اللّه مقدّم عسکر حلب، و هو الذی قتلته الممالیک الصالحیّة فی الوقعة التی کانت بین الناصر و المعزّ صاحب الترجمة. و کان أمیرا شجاعا مقداما زاهدا مدبّرا عظیم الشأن، و کان فیه قوّة و بأس غیر أنّه کان مستخفّا بالممالیک، و یقول: کلّ عشرة من الممالیک فی مقابلة کریّ، و لا زال یمعن فی ذلک حتی کانت منیته بأیدی الممالیک الصالحیّة کما تقدّم ذکره.

و فیها توفّی ابو الحسن المتطبّب وزیر الملک الصالح إسماعیل، و هو الذی کان السبب زوال ملک مخدومه، فإنّه کان سیّیء السّیرة کثیر الظلم قلیل الخیر، و کان یتستّر بالإسلام، و کان یرمی فی دینه بعظائم؛ و قیل: إنّه کان أوّلا سامریّا فلم یحسن إسلامه؛ و ظهر له بعد موته من الأموال و الجواهر و التّحف و الذخائر ما لا یوجد فی خزائن الخلفاء، و أقاموا ینقلونه مدّة سنین. و قیمة ما ظهر له غیر ما ذهب عند الناس ثلاثة آلاف ألف دینار؛ و وجد له عشرة آلاف مجلّد من الکتب النفیسة و الخطوط المنسوبة. قال الشیخ إسماعیل [بن علیّ] الکورانیّ یوما و قد زاره الوزیر

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۲

المذکور: لو بقیت علی دینک کان أصلح لأنّک تتمسّک بدین فی الجملة؛ و أمّا الآن فأنت مذبذب لا إلی هؤلاء و لا إلی هؤلاء!.

الذین ذکر الذهبیّ وفاتهم فی هذه السنة، قال: و فیها توفّی الإمام أبو محمد إبراهیم بن محمود بن سالم بن الخیّر فی شهر ربیع الاخر، و له خمس و ثمانون سنة. و الحافظ شمس الدین یوسف بن خلیل الدّمشقیّ الأدمیّ بحلب فی جمادی الاخرة، و له ثلاث و تسعون سنة. و القاضی أبو الفضل أحمد بن محمد بن عبد العزیز بن الحبّاب التّمیمیّ السّعدیّ، و له سبع و ثمانون سنة فی شهر رمضان. و المحدّث أبو محمد عبد الوهاب ابن رواح، و اسمه ظافر بن علیّ بن فتوح القرشیّ المالکیّ، و له أربع و تسعون سنة.

و أبو المنصور مظفّر بن عبد الملک بن الفوّیّ المالکیّ. و نائب الملک الناصر الأمیر شمس الدین لؤلؤ قتل فی جماعة فی الوقعة الکائنة بین المصریّین و الشامیّین.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم خمس أذرع و أربع أصابع. مبلغ الزیادة سبع عشرة ذراعا و إصبعان.

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۴۹]

السنة الثانیة من ولایة السلطان الملک المعزّ أیبک الصالحیّ النّجمیّ التّرکمانیّ علی مصر، و هی سنة تسع و أربعین و ستمائة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۳

فیها عاد الملک الناصر صلاح الدین یوسف من غزّة إلی دمشق، و أرسل المعزّ عسکر مصر فنزل إلی غزّة و الساحل، ثم عادوا إلی القاهرة.

و فیها أیضا أخذ الملک المغیث ابن الملک العادل بن الملک الکامل الکرک و الشّوبک، أعطاه إیّاهما الخادم. و لمّا سمع الملک المعزّ بذلک جهّز الأمیر فارس الدین أقطای الجمدار فی ألف فارس إلی غزّة.

و فیها نقلوا تابوت الملک الصالح نجم الدین أیّوب إلی تربته بالقاهرة ببین القصرین، و لبس الأمراء ثیاب العزاء و ناحوا علیه ببین

القصرين، و تصدّقت جاريته شجرة الدّرّ فى ذلك اليوم بمال عظيم.

و فيها أخرب الترك دمياط و حملوا آلاتها إلى مصر و أخربوا الجزيرة (أعنى الروضة) و أخلوها.

و فيها كثر الظلم بالديار المصريّة و عظم الجور و المصادرات لكلّ أحد حتى أخذوا مال الأوقاف و مال الأيتام على نيّة القرض، و من أرباب الصنائع كالأطباء و الشهود.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۴

و فيها توفّى الفقيه بهاء الدين علىّ بن هبة اللّه بن سلامة بن الجميزىّ، كان إماما فاضلا عارفا بمذهب الشافعىّ ديّنا، و كان يخالط الملوك. و لمّا حجّ قبل هدية صاحب اليمن فأعرض عنه الملك الصالح نجم الدين أيّوب لذلك. و كانت وفاته فى ذى الحجة بمصر، و دفن بالقرافة.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفى الإمام عبد الظاهر ابن نشوان السّعدىّ المقرئ النحوىّ الضرير فى جمادى الأولى. و أبو نصر عبد العزيز ابن يحيى بن الزبيدىّ، و له تسع و ثمانون سنة. و الإمام أبو المظفّر محمد بن مقبل ابن فتيان النّهروانىّ بن المنّىّ فى جمادى الآخرة. و أبو نصر الأعزّ بن فضائل ببغداد فى رجب. و الأمير الصاحب جمال الدين يحيى بن عيسى المصرى ابن مطروح الأديب. و أبو القاسم عيسى بن أبى الحرم مكّىّ بن حسين العامرىّ المصرىّ المقرئ فى شوّال. و الإمام أبو محمد عبد الخالق بن الأنجب بن المعمّر النّشتبرىّ بماردين فى ذى الحجة. و الإمام العلّامة بهاء الدين أبو الحسن علىّ بن هبة اللّه بن سلامة بن الجمّيزىّ فى ذى الحجّة، و له تسعون سنة و أسبوعان. و الفقيه عبيد اللّه بن عاصم خطيب رندة، و له سبع و ثمانون سنة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و عشرون إصبعا.

مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا و ثمانى عشرة إصبعا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۵

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۵۰]

السنة الثالثة من ولاية الملك المعزّ أيبك التّركمانىّ على مصر، و هى سنة خمسين و ستّمائة.

فيها وصلت التّتار إلى الجزيرة و نهبوا ديار بكر و ميّافارقين، و جاءوا إلى رأس عين و سروج و غيرها، و قتلوا زيادة على عشرة آلاف إنسان، و صادفوا قافلة خرجت من حرّان تقصد بغداد، فأخذوا منها أموالا عظيمة: منها ستّمائة حمل سكّر مصرىّ و ستّمائة ألف دينار، قاله أبو المظفّر فى مرآة الزمان، قال: و قتلوا الشيوخ و العجائز و ساقوا من النساء و الصّبيان ما أرادوا، ثم رجعوا إلى خلاط. و قطع أهل الشرق الفرات و خاض الناس فى القتلى من دنيسر إلى الفرات. قال بعض التّجار:

عددت على جسر بين حرّان و رأس عين فى مكان واحد ثلثمائة و ثمانين قتيلا من المسلمين؛ ثم قتل ملك التّتار كشلوخان.

و فيها حجّ بالناس من بغداد بعد أن كان بطل الحجّ منذ عشر سنين من سنة مات الخليفة المستنصر.

و فيها قدم الشيخ نجم الدين البادرانىّ رسولا من الخليفة و أصلح بين المعزّ أيبك صاحب الترجمة و بين الناصر يوسف، و قد تقدّم ذلك، و كان كلّ واحد من الطائفتين قد سئم و ضرس من الحرب، و سكنت الفتنة بين الملوك و استراح الناس.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۶

و فيها توفّى العلّامة رضىّ الدين أبو الفضائل الحسن بن محمد بن الحسن بن حيدر بن علىّ القرشىّ العدوىّ العمرىّ الصاغانىّ الأصل الهندىّ اللاهورىّ المولد البغدادىّ الوفاة المحدّث الفقيه الحنفىّ اللغوىّ الإمام صاحب التصانيف، ولد بمنية لاهور فى عاشر صفر سنة سبع و سبعين و خمسمائة و نشأ بغزنة، و دخل بغداد فسمع الكثير فى عدّة بلاد و رحل. و كان إليه المنتهى فى علم العربية و اللغة، و صنّف كتاب «مجمع البحرين» فى اللغة، اثنا عشر مجلّدا، و كتاب «العباب الزاخر» فى اللّغة أيضا عشرون مجلدا، و أشياء غير ذلك. قال

الحافظ الدّمياطى: و كان شيخا صدوقا صالحا صموتا عن فضول الكلام إماما فى اللّغة و الفقه و الحديث؛ قرأت عليه يوم الأربعاء و توفّى ليلة الجمعة تاسع عشر شعبان، و حضرت دفنه بداره بالحريم الطاهرىّ ببغداد. ثم ترجمه الدمياطى ترجمة طويلة و أثنى على علمه و فضله و دينه.

و فيها توفّى الشيخ شمس الدين محمد بن سعد [بن عبد اللّه بن سعد بن مفلح بن هبة اللّه] الكاتب المقدسىّ نشأ بقاسيون على الخير و الصلاح و قرأ النحو و العربيّة و سمع الحديث الكثير، و برع فى الأدب. و كان ديّنا حسن الخط و كتب للملك الصالح إسماعيل و للملك الناصر داود. و من شعره:

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ٢٧

لنا بقدوم طلعتك الهناء و للأعداء و يحهم الفناء

قدمت فكنت شبه الغيث وافى بلادا قد أحلّ بها الظّماء

قلت: و يعجبنى فى هذا المعنى قول القائل و لم أدر لمن هو:

قدومك أشهى من زلال على ظما و أحسن من نيل المنى فى المآرب

حكى الغيث وافى الأرض من بعد جدبها و أطلع فيها النبت من كلّ جانب

و فيها توفّى الأمير الصاحب جمال الدين أبو الحسين يحيى بن عيسى بن إبراهيم ابن الحسين بن علىّ بن حمزة بن إبراهيم بن الحسين بن مطروح. كان أصله من صعيد مصر، و ولد به و نشأ هناك، ثم قدم القاهرة و اشتغل و برع فى الأدب و الكتابة و اتّصل بخدمة الملك الصالح نجم الدين أيّوب. قال أبو المظفّر: كان فاضلا كيسا شاعرا. و من شعره لمّا فتح الناصر داود برج داود بالقدس، قال:

المسجد الأقصى له عادة سارت فصارت مثلا سائرا

إذا غدا للكفر مستوطنا أن يبعث اللّه له ناصرا

فناصر طهّره أوّلا و ناصر طهّره آخرا

قال: و توفى فى شعبان و دفن بساريه بالقرافة و كانت له أخبار عظيمة، و كان قد دخل بين الخوارزميّة و الصالح أيّوب، و استنابه أيّوب بالشام و لبس ثياب الجند و ما كانت تليق به. ثمّ غضب عليه الصالح و أعرض عنه إلى أن مات، فأقام خاملا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ٢٨

إلى أن مات. و قد كان جوادا ذا مروءة متعصّبا سمحا حليما حسن الظنّ بالفقراء عارفا فاضلا. انتهى كلام أبى المظفّر. قلت: و ديوان شعره مشهور. و من شعره القصيدة المشهورة:

هى رامة فخذوا يمين الوادى و ذروا السيوف تقرّ فى الأغماد

و حذار من لحظات أعين عينها فلكم صرعن بها من الاساد

من كان منكم واثقا بفؤاده فهناك ما أنا واثق بفؤادى

يا صاحبىّ ولى بجرعاء الحمى قلب أسير ماله من فادى

سلبته منّى يوم بانوا مقلّة مكحولة أجفانها بسواد

و بحىّ من أنا فى هواه ميّت عين على العشّاق بالمرصاد

و أغنّ مسكىّ اللّمى معسوله لو لا الرقيب بلغت منه مرادى

كيف السبيل إلى وصال محجّب ما بين بيض ظبا و سمر صعاد

فى بيت شعر نازل من شعره فالحسن منه عاكف فى بادى

حرسوا مهفهف قدّه بمثقّف فتشابه الميّاس بالميّاد

قالت لنا ألف العذار بخدّه فى ميم مبسمه شفاء الصادى

و هى أطول من ذلک اختصرتها خوف الإطالة. و يعجبنى قصيدة الجزّار فى مدح ابن مطروح هذا. أذكر غزلها:

هو ذا الرّبع ولى نفس مشوقه فاحبس الركب عسى أقضى حقوقه

فقبيح بى فى شرع الهوى بعد ذاک البرّ أن أرضى عقوقه

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۹

لست أنسى فيه ليلات مضت مع من أهوى و ساعات أنيقة

و لئن أضحى مجازا بعدهم فغرامى فيه ما زال حقيقة

يا صديقى و الكريم الحرّ فى مثل هذا الوقت لا ينسى صديقه

ضع يدا منک على قلبى عسى أن تهدّى بين جنبىّ خفوقه

فاض دمعى مذ رأى ربع الهوى و لکم فاض و قد شام بروقه

نفد اللؤلؤ من أدمعه فغدا ينثر فى التّرب عقيقه

قف [معى] و استوقف الركب فإن لم يقف فاتركه يمضى و طريقه

فهى أرض قلّما يلحقها آمل و الرّكب لم أعدم لحوقه

طالما استجليت فى أرجائها من يتيه البدر إذ يدعى شقيقه

يفضح الورد احمرارا خدّه و تودّ الخمر لو تشبه ريقه

فبه الحسن خليق لم يزل و المعالى بابن مطروح خليقه

و له بيتان ضمّنهما بيت المتنبّى الذى هو أوّل قصيدته، و هو:

تذكّرت ما بين العذيب و بارق مجرّ عوالينا و مجرى السوابق

فقال ابن مطروح مضمّنا:

إذا ما سقانى ريقه و هو باسم تذكّرت ما بين العذيب و بارق

و يذكرنى من قدّه و مدامعى مجرّ عوالينا و مجرى السوابق

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أبو البركات هبة اللّه ابن محمد بن الحسين [المعروف بآ] بن الواعظ المقدسىّ ثم الإسكندرانىّ عن إحدى

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۰

و ثمانين سنة. و أبو القاسم يحيى بن أبى السعود [نصر] بن قميرة التاجر فى جمادى الأولى، و له خمس و ثمانون سنة. و العلّامة أبو الفضائل الحسن بن محمد بن الحسن العدوى العمرىّ الصّيغانىّ النحوىّ اللغوىّ. و الأديب شمس الدين محمد بن سعد بن عبد اللّه المقدسىّ الكاتب فى شوّال. و المسند رشيد الدين أحمد بن المفرّج بن علىّ [ابن عبد العزيز] بن مسلمة العدل فى ذى القعدة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و سبع أصابع. مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا و سبع عشرة إصبعا.

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۵۱]

السنة الرابعة من ولاية الملك المعزّ أيبك الصالحىّ النّجمىّ التّركمانىّ على مصر، و هى سنة إحدى و خمسين و ستمائة.

فيها كانت الوقفة الجمعة.

و فيها عظم بمصر أمر الأمير فارس الدين أقطاى الجمدار و رشّح للسلطنة، و كان من حزبه من خشداشيته بيبرس البندقدارىّ، و بلبان

الرّشيدىّ، و سنقر الرّومىّ، و سنقر الأشقر. و صار الملك المعزّ فى خوف. و قد تقدّم ذكر هذه الحكاية فى ترجمة المعزّ.

و فيها كان الغلاء بمكّة المشرّفة، و أبيع فيها الشّربة الماء بدرهم، و الشاة بأربعين درهما.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٧، ص: ٣١

و فيها توفّى الشيخ الإمام سعد الدين محمد بن المؤيّد [بن عبد اللّه بن علىّ] بن حمّويه ابن عمّ شيخ الشيوخ صدر الدين. مات بخراسان، و كان زاهدا عابدا ديّنا متكلّما فى الحقيقة، و له مجاهدات و رياضات، و قدم الشام و حجّ و سكن بدمشق، ثمّ عاد إلى الشرق بعد أن افتقر بالشام، و اجتمع بملك التّتار فأحسن به الظنّ و أعطاه مالا كثيرا، و أسلم على يده خلق كثير من التّتار، و بنى هناك خانقاه و تربة إلى جانبها، و أقام يتعبّد، و كان له قبول عظيم هناك- رحمه اللّه تعالى-.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أبو البقاء صالح بن شجاع بن محمد بن سيّدهم المدلجىّ الخيّاط فى المحرّم. و سبط السّلفىّ أبو القاسم عبد الرحمن بن أبى الحرم مكّىّ بن عبد الرحمن الطّرابلسىّ الإسكندرانىّ فى شوّال عن إحدى و ثمانين سنة. و أبو محمد عبد القادر بن حسين [بن محمد بن جميل] البندنيجىّ البوّاب آخر من روى عن عبد الحق اليوسفىّ.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و ثمانى أصابع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و سبع عشرة إصبعا.

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۵۲]

السنة الخامسة من ولاية الملك المعزّ أيبك الصالحىّ النّجمىّ التّركمانىّ على مصر؛ و هى سنة اثنتين و خمسين و ستمائة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٧، ص: ٣٢

فيها وصلت الأخبار من مكّة بأنّ نارا ظهرت فى أرض عدن فى بعض جبالها، بحيث يطير شررها إلى البحر فى الليل، و يصعد منها دخان عظيم فى النهار، فما شكّوا أنّها النار التى ذكر النّبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم أنّها تظهر فى آخر الزمان. فتاب الناس و أقلعوا عمّا كانوا عليه من المظالم و الفساد، و شرعوا فى أفعال الخير و الصدقات.

قلت: و قد تقدّم ذكر هذه النار بأوسع من هذا فى ترجمة الملك المعزّ هذا.

و فيها وصلت الأخبار من الغرب باستيلاء إنسان على إفريقيّة و ادّعى أنّه خليفة، و تلقّب بالمستنصر، و خطب له فى تلك النواحى، و أظهر العدل و بنى برجا و أجلس الوزير و القاضى و المحتسب بين يديه يحكمون بين الناس، و أحبّته الرعيّة و تمّ أمره.

و فيها توفّى الإمام عبد الحميد بن عيسى الخسرو شاهىّ. كان إماما فاضلا فى فنون، و صحب الفخر الرازىّ ابن خطيب الرّىّ، و أقام عند الملك الناصر داود سنين كثيرة بدمشق و الكرك، و كان متواضعا كبير القدر كثير الإحسان. مات بدمشق و دفن بقاسيون فى تربة المعظّم عيسى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٧، ص: ٣٣

و فيها توفّى الشيخ الإمام العلّامة مجد الدين أبو البركات عبد السلام بن عبد اللّه [ابن أبى القاسم الخضر بن محمد بن علىّ] بن تيميّة الحرّانىّ الحنبلىّ جدّ الشيخ تقىّ الدين ابن تيميّة. ولد فى حدود سنة تسعين و خمسمائة و تفقّه فى صغره على عمّه الخطيب فخر الدين؛ و سمع الكثير و رحل البلاد و برع فى الحديث و الفقه و غيره، و درّس و أفتى و انتفع به الطلبة، و مات يوم الفطر بحرّان.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفى سديد [الدين] أبو محمد مكّى [بن أبى الغنائم] ابن المسلم [بن مكّى] بن علّان القيسى فى صفر، و له تسع و ثمانون سنة. و الرشيد إسماعيل بن أحمد بن الحسين العراقىّ الحنبلىّ عن نيّف و ثمانين سنة فى جمادى الأولى. و المفتى كمال الدين أبو سالم محمد بن طلحة النّصيبىّ بحلب عن سبعين سنة. و أبو البقاء محمد بن على بن بقاء [بن] السبّاك. و العلّامة مجد الدين أبو البركات عبد السلام بن عبد اللّه بن أبى القاسم ابن تيميّة بحرّان يوم الفطر عن اثنتين و ستين سنة. و أبو الغيث فرج [بن عبد اللّه] الحبشىّ فتى أبى جعفر القرطبى فى شوّال. و الإمام شمس الدين عبد الحميد بن عيسى الخسرو

شاهىّ بدمشق. و أبو العزائم عيسى بن سلامة بن سالم الخيّاط بحرّان فى أواخر السنة، و له مائة و سنة. و الفارس أقطاى مقدّم البحريّة، قتله المعزّ بمصر.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۴

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و ستّ أصابع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و اثنتا عشرة إصبعا.

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۵۳]

السنة السادسة من ولاية الملك المعزّ أيبک الصالحىّ النّجمىّ التّركمانىّ على مصر، و هى سنة ثلاث و خمسين و ستمائة.

فيها عزمت المماليک العزيزيّة على القبض على الملک المعزّ و كاتبوا الملک الناصر فلم يوافقهم أيدغدىّ العزيزىّ، و استشعر الملک المعزّ منهم بذلک و علم الخبر، و علموا هم أيضا فهربوا على حميّة، و كبيرهم آقوش البرنلى، و لم يهرب أيدغدى و أقام بمخيّمه، فجاء الملک المعزّ راكبا إلى قرب خيمته فخرج إليه أيدغدى فأمر المعزّ بحمله، و قبض أيضا على الأمير الأتابكى و نهبت خيام العزيزيّة و كانوا بالعبّاسة، و الأعيان الذين هربوا: هم بلبان الرّشيدىّ، و عزّ الدين أزدمر، و بيبرس البندقدارىّ، و سنقر الأشقر، و سيف الدين قلاوون الألفى، و بدر الدين بيسرى، و سنقر الرّومى، و بلبان المستنصرىّ.

و فيها عاد الملک الناصر داود من الأنبار إلى دمشق بعد أن حبسه الملک الناصر صلاح الدين يوسف بقلعة حمص ثلاث سنين و بعث به إلى بغداد، ثم عاد إلى دمشق و أقام بها، ثم عاد فى سنة ثلاث و خمسين إلى العراق، و حجّ و أقام بالحلّة، و كان قد جرى بين الحجّ العراقىّ و أصحاب أمير مكّة فتنة، فأصلح بينهم.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى المفتى ضياء الدين صقر بن يحيى بن سالم الحلبىّ فى صفر عن نيّف و تسعين سنة. و المحدّث

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۵

شهاب الدين أبو العرب إسماعيل بن حامد الأنصارى القوصىّ فى شهر ربيع الأوّل عن ثمانين سنة. و النور محمد بن أبى بكر بن أحمد بن خلف البلخىّ ثم الدّمشقىّ، فى شهر ربيع الآخر، و قد رأى السّلفىّ.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و اثنتا عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا سواء.

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۵۴]

السنة السابعة من ولاية الملك المعزّ أيبک الصالحىّ النّجمىّ التّركمانىّ على مصر، و هى سنة أربع و خمسين و ستمائة.

فيها فتح الملک الناصر صلاح الدين يوسف مدرسته التى أنشأها بدمشق بباب الفراديس.

و فيها غرقت بغداد الغرق العظيم الذى لم يعهد مثله بحيث انتقل الخليفة، و دخل الماء إلى دار الوزير و غرقت خزائن الخليفة، و جرى شيء لم يجر مثله، و كان ذلک فى شهر ربيع الآخر و جمادى الأولى.

و فيها توفّى الشيخ الزاهد العابد الورع المجاهد عماد الدين عبد اللّه [بن أبى المجد الحسن بن الحسين بن علىّ الأنصارىّ] ابن النّحّاس، خدم فى مبادئ أمره الملوک، و ولى الوزارة لبعضهم، ثم انقطع فى آخر عمره بقاسيون بزاويته، فأقام بها ثلاثين سنة صائما قائما مشغولا بالله تعالى و يقضى حوائج الناس بنفسه و ماله، و دفن بقاسيون، و كان له مشهد هائل.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۶

و فيها كان ظهور النار العظيمة بالمدينة الشريفة و هى غير التى ذكرناها فى السنة الماضية، و هذه النار التى تقدّم ذكرها فى ترجمة

الملک المعزّ هذا.

و فیها احترق مسجد رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم فی شهر رمضان، و هذا غیر النار التی ظهرت بنواحی المدینة، فإن هذا الحریق له سبب، ابتدأ من زاویة الحرم النبویّ [الغربیة من الشمال]، فعلقت فی آلات الحرم ثم دبّت فی السّقوف، فما کان إلّا ساعة حتّی احترقت سقوف المسجد أجمع، و وقع بعض أساطینه، و کان ذلک قبل أن ینام الناس، و احترق أیضا سقف الحجرة، و أصبح الناس فی یوم الجمعة فعزلوا موضعا للصلاة. و نظم فی حریق المسجد غیر واحد من الشعراء، فقال معین الدین بن تولو المغربیّ:

قل للرّوافض بالمدینة مالکم یقتادکم للذّمّ کلّ سفیه

ما أصبح الحرم الشریف محرّقا إلّا لسبّکم الصحابة فیه

و قال غیره:

لم یحترق حرم النبی لحادث یخشی علیه و لا دهاه العار

لکنها أیدی الرّوافض لامست ذاک الجناب فطهّرته النار

قال: و عدّ ما وقع من تلک النار الخارجة و حریق المسجد من جملة الآیات.

و قال أبو شامة: فی لیلة السادس عشر من جمادی الآخرة خسف القمر أوّل اللیل، و کان شدید الحمرة ثم انجلی، و کسفت الشمس فی غده، احمرّت وقت طلوعها

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۷

و [قریب] غروبها، و اتّضح بذلک ما صوّره الإمام الشافعیّ من اجتماع الخسوف و الکسوف، و استبعده أهل النّجامة.

و فیها تواترت الأخبار بوصول هولاکو إلی أذربیجان قاصدا بلاد الشام، فتصالح العسکر المصریّ و الشامیّ علی قتاله و تهیّأ کلّ منهم للقاء التّتار.

و فیها توفّی الأمیر مجاهد الدین إبراهیم بن أونبا [بن عبد اللّه] الصّوابی نائب دمشق، ولیها بعد حسام الدّین بن أبی علیّ، و کان فی أوّل أمره أمیر جاندار الملک الصالح نجم الدین أیّوب، و کان أمیرا کبیرا عاقلا فاضلا شاعرا. و من شعره- رحمه اللّه تعالی-:

أشبهک الغصن فی خصال القدّ و اللّین و التثنّی

لکن [تجنّیک] ما حکاه الغصن یجنی و أنت تجنی

و فیها توفّی الإمام العلّامة عبد العظیم بن عبد الواحد بن ظافر بن عبد اللّه بن محمد بن جعفر بن الحسن زکیّ الدین أبو محمد البغدادیّ ثم المصریّ المعروف بابن أبی الإصبع. کان أحد الشعراء المجیدین، و هو صاحب التصانیف المفیدة فی الأدب و غیره. و مولده فی سنة خمس و قیل سنة تسع و ثمانین و خمسمائة بمصر و توفّی بها.

و من شعره فی نوع «التصدیر» و سمّاه الأوائل «ردّ العجز علی الصدر» علی خلاف وقع فی ذلک:

اصبر علی خلق من تصاحبه و اصحب صبورا علی أذی خلقک

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۸

و ذکر أیضا فی نوع «المدح فی معرض الذم» أبیاتا یعارض بها القاضی السعید ابن سناء الملک فی قوّاد. فقال هو فیمن ادّعی الفقه و الکرم:

إنّ فلانا أکرم الناس لا یمنع ذا الحاجة من فلسه

و هو فقیه ذو اجتهاد و قد نصّ علی التقلید فی درسه

فیحسن البحث علی وجهه و یوجب الدّخل علی نفسه

و أمّا قول ابن سناء الملک فی قوّاد:

لی صاحب أفدیه من صاحب حلو التأتّی حسن الاحتیال

لو شاء من رقّة ألفاظه ألّف [ما] بین الهدی و الضلال

یکفیک منه أنّه ربّما قاد إلی المهجور طیف الخیال

قلت: و یعجبنی قول من قال فی هذا المعنی- أعنی فی قوّاد-:

إذا کان الذی تهواه غصنا و أقسم لا یرقّ لمن یهیم

فدونک و النّسیم له رسولا فإنّ الغصن یعطفه النسیم

و أحسن من هذا قول من قال:

لی صاحب ما زلت أشکر فعله قد عمّنی بلطائف الإحسان

لو لم یکن مثل النسیم لطافة ما کان یعطف لی غصون البان

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۹

و فیها توفّی الشیخ الإمام الفقیه الواعظ المؤرّخ العلّامة شمس الدین أبو المظفّر یوسف بن قزأوغلی بن عبد اللّه البغدادیّ ثم الدّمشقیّ الحنفیّ سبط الحافظ أبی الفرج ابن الجوزیّ. کان والده حسام الدین قزأوغلی من ممالیک الوزیر عون الدین یحیی ابن هبیرة، و کان عنده بمنزلة الولد، ربّاه و أعتقه و أدّبه. و مولد الشیخ شمس الدین هذا فی سنة اثنتین و ثمانین و خمسمائة ببغداد، و بها نشأ تحت کنف جدّه لأمّه الحافظ أبی الفرج ابن الجوزیّ إلی أن مات فی سنة سبع و تسعین و خمسمائة، و اشتغل و برع فی عدّة علوم، و وعظ ببغداد و غیرها، و قدم دمشق و استوطنها، و نالته السعادة و الوجاهة عند الملوک، لا سیّما الملک المعظّم عیسی، فإنّه کان عنده بالمنزلة العظمی؛ و رحل البلاد و سمع الحدیث و جلس للوعظ فی الأقطار، و کان له لسان حلو فی الوعظ و التّذکار، و لکلامه موقع فی القلوب، و علیه قابلیّة من الخاص و العام؛ و له مصنّفات مفیدة: تاریخه المسمّی «مرآة الزمان» و هو من أجلّ الکتب فی معناها. و نقلت منه فی هذا الکتاب معظم حوادثه. و کانت وفاته فی ذی الحجّة. رحمه اللّه تعالی.

و قد استوعبنا ترجمته فی تاریخنا «المنهل الصافی و المستوفی بعد الوافی» بأوسع من هذا إذ هو کتاب تراجم و لیس للإطناب فی ذکره هنا محلّ، کون أننا شرطنا فی هذا الکتاب ألّا نطنب إلّا فی تراجم ملوک مصر الذین تألیف هذا الکتاب بصددهم، و ما عداهم یکون علی سبیل الاختصار فی ضمن الحوادث المتعلقة بالمترجم من ملوک مصر. انتهی.

و فیها توفّی الأمیر سیف الدین أبو الحسن یوسف بن أبی الفوارس بن موسک القیمریّ واقف المارستان بجبل الصالحیّة، کان أکبر الأمراء فی آخر عمره و أعظمهم

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۴۰

مکانة، و جمیع أمراء الأکراد القیمریّة و غیرهم کانوا یتأدّبون و یقفون فی خدمته إلی أن مات فی شعبان، و هو أجلّ الأمراء مرتبة.

الذین ذکر الذهبیّ وفاتهم فی هذه السنة، قال: و فیها توفّی العماد أبو بکر عبد اللّه بن أبی المجد الحسن بن الحسین الأنصاریّ ابن النحّاس الأصمّ فی المحرّم، و له اثنتان و ثمانون سنة. و الإمام أبو إسحاق إبراهیم بن محمد [بن عبد الرحمن] بن وثیق الإشبیلیّ المقرئ بالإسکندریّة، و له سبع و ثمانون سنة، توفّی فی شهر ربیع الآخر.

و القاضی أبو بکر محمد بن الحسن بن عبد السلام بن المقدسیّة السّفاقسیّ، آخر من حضر علی السّلفیّ فی جمادی الأولی. و المفتی شمس الدین عبد الرحمن بن نوح المقدسیّ. و الواعظ شمس الدین یوسف بن قزأوغلی سبط ابن الجوزیّ فی ذی الحجّة.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم أربع أذرع و ستّ عشرة إصبعا.

مبلغ الزیادة ثمانی عشرة ذراعا و ثلاث أصابع.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۴۱

[ما وقع من الحوادث سنهٔ ۶۵۵]

ذكر سلطنهٔ الملك المنصور علىّ بن أيبك التّركمانى على مصر

السلطان الملك المنصور نور الدين علىّ ابن السلطان الملك المعزّ عزّ الدين أيبك التّركمانىّ الصالحىّ النجمىّ، ملك الديار المصريّهٔ بعد قتل أبيه المعزّ أيبك فى يوم الخميس خامس عشرين شهر ربيع الأوّل سنهٔ خمس و خمسين و ستمائهٔ، و تمّ أمره و خطب له من الغد فى يوم الجمعهٔ سادس عشرينه على منابر مصر و أعمالها. و المنصور هذا هو الثانى من ملوك مصر من الترك بالديار المصريّهٔ.

و تسلطن المنصور هذا و عمره خمس عشرهٔ سنهٔ، و ركب فى يوم الخميس ثانى شهر ربيع الآخر بشعار السلطنهٔ من القلعهٔ إلى قبهٔ النصر فى موكب هائل، ثم عاد و دخل القاهرهٔ من باب النصر، و ترجّل الأمراء و مشوا بين يديه ما خلا الأتابك علم الدين سنجر الحلبىّ، ثم صعد المنصور إلى القلعهٔ و جلس بدار السلطنهٔ و مدّ السّماط للأمراء فأكلوا، و وزر له وزير أبيه شرف الدين الفائزىّ و انفضّ الموكب.

و فى يوم الجمعهٔ ثالث شهر ربيع الآخر خطب للملك المنصور و بعده لأتابكه

النجوم الزاهرهٔ فى ملوك مصر و القاهرهٔ، ج۷، ص: ۴۲

علم الدين سنجر الحلبىّ المذكور. و فوّض القضاء بالقاهرهٔ و أعمالها إلى القاضى بدر الدين السّنجارىّ، و عزل تاج الدين ابن بنت الأعزّ و أبقى عليه قضاء مصر القديمهٔ و أعمالها.

و فى عاشر شهر ربيع الآخر قبض الأمير قطز و سنجر [الغتمى] و بهادر و غيرهم من الأمراء المعزّيّهٔ على الأتابك سنجر الحلبىّ، و أنزلوه إلى الجبّ بالقلعهٔ، و كان القبض عليه لأمور: أحدها أنّه كان طمع فى السلطنهٔ بعد قتل الملك المعزّ أيبك لمّا طلبته شجرهٔ الدّرّ و عرضت عليه الملك، و الثانى أنه بلغهم أنه ندم على ترك الملك و هو فى عزم الوثوب؛ فعاجلوه و قبضوا عليه. و لمّا قبض عليه اضطربت خشداشيته من المماليك الصالحيّهٔ النّجميّهٔ و خاف كلّ أحد على نفسه، فهرب أكثرهم إلى جههٔ الشام، فخرج فى إثرهم جماعهٔ من الأمراء المعزّيّهٔ و غيرهم، و تقنطر بالأمير عزّ الدين أيبك الحلبىّ الكبير فرسه، و كذلك الأمير خاصّ ترك الصغير فهلكا خارج القاهرهٔ و أدخلا ميتين، و كانوا ركبوا فى جماعهٔ من المماليك الصالحيّهٔ فى قصد الشام أيضا. و اتّبع العسكر المهزومين إلى الشام، فقبض على أكثرهم و حملوا إلى القلعهٔ و اعتقلوا بها. و قبض أيضا على الوزير شرف الدين الفائزى. و فوّض أمر الوزارهٔ إلى القاضى بدر الدين يوسف السّنجارىّ مضافا إلى القضاء، و أخذ موجود الفائزى

النجوم الزاهرهٔ فى ملوك مصر و القاهرهٔ، ج۷، ص: ۴۳

و كان له مال كثير. ثم قبض على بهاء الدين علىّ [بن محمد بن سليم] بن حنّا وزير شجرهٔ الدّرّ، و أخذ خطّه بستّين ألف دينار. ثم خلع الملك المنصور على الأمير أقطاى المستعرب باستقراره أتابكا عوضا عن سنجر الحلبىّ. ثم فى شهر رجب رفعت يد القاضى بدر الدين السّنجارىّ من الوزارهٔ و أضيف إليه قضاء مصر القديمهٔ، فكمل له قضاء الإقليم بكماله، و ولى القاضى تاج الدين ابن بنت الأعزّ الوزارهٔ.

ثم فى شعبان كثرت الأراجيف بين الناس بأنّ الأمراء و الأجناد اتّفقوا على إزالهٔ حكم مماليك الملك المعزّ من الدولهٔ، و أنّ الملك المنصور تغيّر على الأمير سيف الدين قطز المعزّى، و اجتمع الأمراء فى بيت الأمير بهاء الدين بغدى مقدّم الحلقهٔ، و تكلّموا إلى أن صلح الأمر بين الملك المنصور و بين مملوك أبيه الأمير قطز. و خلع عليه و طيّب قلبه؛ ثم وقع الكلام أيضا من المعزّيّهٔ و غيرهم. فلمّا كان رابع شهر رمضان ركب الأمير بغدى و بدر الدين بلغان و انضاف إليهما جماعهٔ و وقفوا بآله الحرب، فخرج إليهم حاشيهٔ السلطان فقاتلوهم و هزموهم و قبضوا على بغدى بعد أن جرح و على بلغان و حملا إلى القلعهٔ؛ و دخلت المعزّيهٔ إلى القاهرهٔ، فقبضوا على

الأمير عزّ الدين أيبك الأسمر و أرزن الرّومىّ و سابق الدين بوزنا الصّيرفىّ و غيرهم من المماليك الأشرفيّة و نهبت دورهم، فاضطربت القاهرة حتّى نودى بالأمان لمن دخل فى الطاعة و سكن الناس، و ركب السلطان الملك المنصور فى خامس

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۴۴

شهر رمضان و شقّ القاهرة و فى خدمته الأمير قطز و باقى مماليك أبيه، ثم نزل أيضا فى عيد الفطر و صلّى بالمصلّى. و ركب و عاد إلى القلعة و مدّ السّماط.

ثم ورد كتاب الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب الشام و حلب على الملك المنصور بمفارقة البحريّة و الصالحيّة له (أعنى الأمراء و المماليك الذين خرجوا من القاهرة بعد القبض على علم الدين سنجر الحلبىّ المقدّم ذكره). فلمّا وقف المصريّون على الكتاب ظنّوا أن ذلك خديعة من الملك الناصر فآحترزوا لأنفسهم.

ثم جهّز الملك المنصور عسكرا من المماليك و الأمراء و مقدّمهم الدّمياطىّ إلى الشام، فتوجّهوا و نزلوا بالعبّاسة؛ فوردت الأخبار على السلطان الملك المنصور بأنّ عساكر الملك الناصر وصلت إلى نابلس لقتال البحريّة الذين قدموا عليه من مصر ثم فارقوه، و كان البحرية نازلين بغزّة، ثم وردت الأخبار بأنّ البحريّة، و كان مقدّم البحريّة بلبان الرّشيدىّ و بيبرس البندقدارىّ، خرجوا من غزّة و كبسوا عسكر الملك الناصر و قتلوا منهم جماعة كثيرة ليلا. ثم ورد الخبر ثانيا بأنّ عسكر الملك الناصر كسروا البحريّة و أنّ البحريّة انحازوا إلى ناحية زغر من الغور. ثم ورد الخبر أيضا بمجىء البحريّة إلى جهة القاهرة طائعين للسلطنة، فقدم منهم الأمير عزّ الدين أيبك الأفرم و معه جماعة، فتلقّوا بالإكرام، و أفرج عن أملاك الأفرم و أرزاقه و نزل بداره بمصر. ثم بلغ السلطان أنّ البحرية (أعنى الذى بقى منهم) رحلوا من زغر طالبين بعض الجهات، فاتّضح من أمرهم أنّهم خرجوا من دمشق على حميّة و أنّهم قصدوا القدس الشريف، و مقطع القدس يوم ذاك سيف الدين كبك من جهة الملك الناصر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۴۵

يوسف صاحب الشام و حلب، فطلبوا منه البحريّة أن يكون معهم فامتنع فاعتقلوه، و خطبوا بالقدس للملك المغيث بن العادل بن الكامل بن العادل بن أيّوب.

ثم جاءوا إلى غزّة و قبضوا على واليها (أعنى نائبها) و أخذوا حواصل الملك الناصر من غزّة و القدس و غيرهما. ثم إنّهم أطمعوا الملك المغيث صاحب الكرك فى ملك مصر، و قالوا له: هذا ملك أبيك و جدّك و عمّك، ثم عزموا على قصد الديار المصريّة، فجاء الخبر إلى مصر بذلك فخرج إليهم العسكر المصرىّ، و اجتمعوا بالصالحيّة و أقاموا بها، فلمّا كان سحر ليلة السبت منتصف ذى القعدة وصلت البحريّة بمن معهم من عسكر الملك المغيث، و وقعت الحرب بين الفريقين و اشتدّ القتال بينهم و جرح جماعة، و المصريّون مع ذلك يزدادون كثرة و طلعت الشمس، فرأت البحريّة كثرة المصريّين فانهزموا و أسر منهم بلبان الرّشيدىّ و به جراحات و هو من كبار القوم، و هرب بيبرس البندقدارىّ و بدر الصّوابى إلى الكرك، و بعض البحريّة دخل فى العسكر المصرىّ، و دخل العسكر المصرىّ القاهرة، و زيّن البلد لهذا النصر و فرح الملك المنصور و الأمير قطز بذلك.

و أمّا البحريّة فإنّهم توجّهوا إلى الملك المغيث صاحب الكرك و حسّنوا له أن يركب و يجىء معهم لأخذ مصر فأصغى لهم و تجهّز و خرج بعساكره من الكرك فى أوّل سنة ستّ و خمسين و ستّمائة، و سار حتّى قدم غزّة، و أمر البحريّة راجع إلى بيبرس البندقدارىّ. فلمّا بلغ ذلك المصريّين خرج الأمير سيف الدين قطز بعساكر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۴۶

مصر و نزل بالعبّاسة، فلمّا تكامل عسكره سار منه قاصدا الشاميّين، و خرج الملك المغيث من غزّة إلى الرمل فالتقى بالعسكر المصرىّ و تقاتلا قتالا شديدا فى يوم الثلاثاء الحادى و العشرين من شهر ربيع الآخر، فانكسر الملك المغيث بمن معه من البحريّة، و قبض على جماعة كثيرة من المماليك البحرية الصالحيّة، و هم: الأمير عزّ الدين أيبك الرّومى و عزّ الدين أيبك الحموىّ و ركن الدين الصّيرفىّ

و ابن أطلس خان الخوارزمىّ و جماعة كثيرة، فأحضـروا بين يدى الأمير سـيف الدين قطز و الأمير الغتمىّ و الأمير بهادر المعزّيّة فأمروا بضـرب أعناقهم فضـربت، و حملت رءوسـهم إلى القاهرة و علّقت بباب زويلـة، ثم أنزلت من يومها لمّا أنكر قتلهم على المعزّية بعض أمراء مصر و استشنع ذلك.

و أمّا الملك المغيث فإنّه هرب هو و الطواشـى بدر الصّوابىّ و بيبرس البندقدارىّ و من معهم، و وصلوا إلى الكرك فى أسوأ حال بعد أن نهب مـا كـان معهم من الثّقل و الخيام و السـلاح و غير ذلك و أقاموا بالكرك؛ و بينما هم فى ذلك أرسل الملك الناصـر صـلاح الـدين يوسف صاحب الشام جيشا مقـدّمه الأمير مجير الـدين إبراهيم [بن أبى بكر] بن أبى زكرى و الأمير نور الدين علىّ بن الشـجاع الأكتع فى طلب البحريّة، و خرجت البحريّة لمّا بلغهم ذلك إلى غزّة، و التقوا مع العسـكر الشامىّ و تقاتلوا فآنكسـر العسـكر الشامىّ، و قبض على مجير الدين و نور الدين و حملوها البحريّة إلى الكرك، و قوى أمر البحريّة بهذه الكسرة و اشتدّوا.

و أمّـا الملـك الناصـر لمّـا بلغه كسـر عسـكره تجهّز و خرج بنفسه لقتال البحريّـة، و ضـرب دهليزه قبلى دمشق، فلمّا بلغ البحريّـة ذلك توجّهوا نحو دمشق و ضربوا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۴۷

أطراف عساكر الملك الناصر، و خفّ بيبرس البندقدارىّ حتّى إنّه أتى فى بعض الأيام و قطع أطناب خيمة الملك الناصر المضروبة، و ذلـك قبـل خروج الناصـر من دمشق. و بينمـا النـاس فى ذلك ورد الخبر بأخـذ التّتار لبغـداد و قتل هولاكو الخليفـة المسـتعصم بالله و إخراب بغداد.

قلت: نذكر سبب أخذ هولاكو لبغداد ثم نعود إلى أمر المصريّين و الشاميّين و البحريّة.

فأمّـا أمر هولاـكو فـإنّه هولاـكو: و قيل: هولاو [و قيل هلاوون] بن تولى خان ابن چنكز خان المغلىّ، ولى الملك بعـد موت أبيه تولى قان، و اتّسـعت ممالكه و عظم أمره و كثرت جيوشه من المغل و التّتار، و لا زال أمره فى زيادة حتى ملك مدينـة ألموت و قتل متولّيها شمس الشـموس و أخـذ بلاـده، ثم أخـذ الروم و أبقى بهـا ركن الـدين كيقبـاد بن غياث الـدين كيخسرو صورة بلا معنى و الحكم و التصـرّف لغيره؛ و كـان وزير الخليفـة المسـتعصم بالله مؤيّـد الـدّين بن العلقمىّ ببغـداد، و كان رافضـيّا خبيثا حريصا على زوال الـدولة العباسيّة و نقل الخلافة إلى العلويّين، يدبّر ذلك فى الباطن و يظهر للخليفة المستعصم خلاف ذلك، و لا زال يثير الفتن بين أهل السّنّة و الرافضـة حتّى تجالـدوا بالسـيوف، و قتل جماعـة من الرافضة و نهبوا، فاشـتكى أهل باب البصـرة إلى الأمير مجاهد الدين الدّوادار و للأمير أبى بكر ابن الخليفة فتقدّما إلى الجند بنهب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۴۸

الكرخ فركبوا من وقتهم و هجموا على الرافضـة بـالكرخ و قتلوا منهم جماعـة و ارتكبوا معهم العظـائم فحنق الوزير ابن العلقمى و نوى الشـرّ فى البـاطن و أمر أهـل الكرخ الرافضـة بالصّبر و الكفّ عن القتال، و قال لهـم: أنا أكفيكم فيهم و كان الخليفـة المستنصـر بالله قد اسـتكثر من الجنـد قبل موته حتّى بلغ عدد عسـكره مائة ألف، و كان الوزير ابن العلقمىّ مع ذلك يصانع التّتار فى الباطن و يكاتبهم و يهـاديهم، فلمّـا اسـتخلف المسـتعصم بعـد موت أبيه المستنصـر، و كـان المسـتعصم خليّـا من الرأى و التـدبير، فأشـار عليه ابن العلقمىّ المـذكور بقطع أرزاق أكثر الجنـد، و أنّه بمصانعـة التتـار و إكرامهم يحصـل بـذلك المقصود، و لا حاجـة لكثرة الجنـد ففعل الخليفة ذلك! قلت: و كلمة الشيخ مطاعة!

ثم إنّ الوزير بعـد ذلك كاتب التّتار و أطمعهم فى البلاد سرّا، و أرسل إليهم غلامه و أخاه و سـهّل عليهم فتح العراق و أخذ بغداد، و طلب منهم أن يكون نائبهم بالبلاد فوعـدوه بذلك، و تأهّبوا لقصد بغداد و كاتبوا لؤلؤا صاحب الموصل فى تهيئة الإقامات و السـلاح، فكاتب لؤلؤ الخليفة سرّا و حذّره، ثم هيّأ لهم الآلات و الإقامات.

و كـان الوزير ابن العلقمىّ المـذكور ليس لأحـد معه كلاـم فى تـدبير أمر الخليفـة، فصار لا يوصّل مكاتبات لؤلؤ و لا غيره للخليفـة، و

عمّى عنه الأخبار و النصائح، فكان يقرؤها هو و يجيب عنها بما يختار، فنتج أمر التّتار بذلك غاية النّتاج و أخذ أمر الخليفة و المسلمين فى إدبار! و كان تاج الدين بن صلايا نائب الخليفة بإربل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۴۹

حذّر الخليفة و حرّك عزمه، و الخليفة لا يتحرّك و لا يستيقظ! فلمّا تحقّق الخليفة حركة التّتار نحوه سيّر إليهم شرف الدين بن محيى الدين ابن الجوزى رسولا يعدهم بأموال عظيمة، ثم سيّر مائة رجل إلى الدّربند يكونون فيه يطالعون الخليفة بالأخبار، فمضوا فلم يطلع لهم خبر، لأنّ الأكراد الذين كانوا هناك دلّوا التّتار عليهم، فهجموا عليهم و قتلوهم أجمعين.

ثم ركب هولاكو بن تولى خان بن چنكز خان فى جيوشه من المغل و التّتار و قصدوا العراق، و كان على مقدّمته الأمير بايجونوين، و فى جيشه خلق من أهل الكرخ الرافضة و من عسكر بركة خان ابن عمّ هولاكو، و مدد من صاحب الموصل مع ولده الملك الصالح ركن الدين إسماعيل، فوصلوا قرب بغداد و اقتتلوا من جهة البرّ الغربىّ عن دجلة، فخرج عسكر بغداد و عليهم ركن الدين الدّوادار، فالتقوا على نحو مرحلتين من بغداد، فانكسر البغداديّون و أخذتهم السيوف، و غرق بعضهم فى الماء و هرب الباقون. ثم ساق بايجونوين مقدّمة هولاكو فنزل القرية مقابل دار الخلافة و بينه و بينها دجلة لا غير. و قصد هولاكو بغداد من البرّ الشرقىّ، و ضرب سورا و خندقا على عسكره و أحاط ببغداد، فأشار الوزير ابن العلقمىّ على الخليفة المستعصم بالله بمصانعتهم. و قال له: أخرج إليهم أنا فى تقرير الصلح فخرج إليهم، و اجتمع بهولاكو و توثّق لنفسه و ردّ إلى الخليفة، و قال: إنّ الملك قد رغب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۵۰

فى أن يزوّج بنته بآبنك الأمير أبى بكر، و يبقيك على منصب الخلافة كما أبقى صاحب الروم فى سلطنته، و لا يطلب إلّا أن تكون الطاعة له كما كان أجدادك مع السلاطين السّلجوقيّة، و ينصرف هو عنك بجيوشه! فتجيبه يا مولانا أمير المؤمنين لهذا، فإنّ فيه حقن دماء المسلمين، و يمكن أن تفعل بعد ذلك ما تريد! و الرأى أن تخرج إليه؛ فسمع له الخليفة و خرج إليه فى جمع من الأعيان من أقاربه و حواشيه و غيرهم.

فلمّا توجّه إلى هولاكو لم يجتمع به هولاكو و أنزل فى خيمة؛ ثم ركب الوزير و عاد إلى بغداد بإذن هولاكو، و استدعى الفقهاء و الأعيان و الأماثل ليحضروا عقد بنت هولاكو على ابن الخليفة، فخرجوا من بغداد إلى هولاكو، فأمر هولاكو بضرب أعناقهم! ثم مدّ الجسر و دخل بايجونوين بمن معه إلى بغداد و بذلوا السيف فيها و استمرّ القتل و النهب و السّبى فى بغداد بضعة و ثلاثين يوما، فلم ينج منهم إلّا من اختفى. ثمّ أمر هولاكو بعدّ القتلى فبلغوا ألف ألف و ثمانمائة ألف و كسرا.

و قال الذهبىّ- رحمه اللّه- فى تاريخ الإسلام: و الأصحّ أنّهم بلغوا ثمانمائة ألف.

ثم نودى بعد ذلك بالأمان، فظهر من كان اختفى و هم قليل من كثير.

و أمّا الوزير ابن العلقمىّ فلم يتمّ له ما أراد، و ما اعتقد أنّ التّتار يبذلون السيف مطلقا فى أهل السّنّة و الرافضة معا، و راح مع الطائفتين أيضا أمم لا يحصون كثرة، و ذاق ابن العلقمىّ الهوان و الذّلّ من التّتار! و لم تطل أيامه بعد ذلك كما سيأتى ذكره. ثم ضرب هولاكو عنق مقدّم جيشه بايجونوين لأنّه بلغه عنه من الوزير ابن العلقمىّ أنّه كاتب الخليفة المستعصم لمّا كان بالجانب الغربىّ.

و أمّا الخليفة فيأتى ذكره فى الحوادث على عادة هذا الكتاب فى محلّه غير أنّنا نذكره هنا على سبيل الاستطراد. و لمّا تمّ أمر هولاكو طلب الخليفة و قتله خنقا. و قيل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۵۱

غمّ فى بساط، و قيل جعله هو و ولده فى عدلين و أمر برفسهما حتّى ماتا. ثم قتل الأمير مجاهد الدين الدّوادار، و الخادم إقبال الشّرابى صاحب الرّباط بحرم مكّة، و الأستادار محيى الدين ابن الجوزىّ و ولداه و سائر الأمراء الأكابر و الحجّاب و الأعيان، و انقضت الخلافة من بغداد و زالت أيامهم من تلك البلاد، و خربت بغداد الخراب العظيم، و أحرقت كتب العلم التى كانت بها من سائر العلوم و الفنون

التى ما كانت فى الدنيا؛ قيل: إنّهم بنوا بها جسرا من الطين و الماء عوضا عن الآجرّ، و قيل غير ذلک. و كانت كسرة الخليفة يوم عاشوراء من سنة ستّ و خمسين و ستّمائة المذكورة، و نزل هولاكو بظاهر بغداد فى عاشر المحرّم، و بقى السيف يعمل فيها أربعة و ثلاثين يوما و آخر جمعة خطب الخطيب ببغداد، كانت الخطبة: الحمد للّه الذى هدم بالموت مشيّد الأعمار، و حكم بالفناء على أهل هذه الدار، إلى أن قال:

اللهمّ أجرنا فى مصيبتنا التى لم يصب الإسلام و أهله بمثلها، و إنّا للّه و إنّا إليه راجعون! ثم عمل الشعراء و العلماء قصائد فى مراثى بغداد و أهلها، و عمل الشيخ تقى الدين إسماعيل [ابن إبراهيم] بن أبى اليسر [شاكر بن عبد اللّه التّنوخىّ] قصيدته المشهورة، و هى:

لسائل الدّمع عن بغداد أخبار فما وقوفک و الأحباب قد ساروا

يا زائرين إلى الزّوراء لا تفدوا فما بذاک الحمى و الدار ديّار

تاج الخلافة و الرّبع الذى شرفت به المعالم قد عفّاه إقفار

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۵۲

أضحى لعطف البلى فى ربعه أثر و للدّموع على الآثار آثار

يا نار قلبى من نار لحرب وغى شبّت عليه و وافى الرّبع إعصار

علا الصليب على أعلى منابرها و قام بالأمر من يحويه زنّار

و منها:

و كم بدور على البدريّة انخسفت و لم يعد لبدور منه إبدار

و كم ذخائر أضحت و هى شائعة من النّهاب و قد حازته كفّار

و كم حدود أقيمت من سيوفهم على الرّقاب و حطّت فيه أوزار

ناديت و السّبى مهتوک يجرّهم إلى السّفاح من الأعداء دعّار

و منها:

و هم يساقون للموت الذى شهدوا النار يا ربّ ... و لا العار

يا للرّجال لأحداث تحدّثنا بما غدا فيه إعذار و إنذار

من بعد أسر بنى العبّاس كلّهم فلا أنار لوجه الصّبح إسفار

ما راق لى قطّ شىء بعده بينهم إلّا أحاديث أرويها و آثار

لم يبق للدّين و الدنيا و قد ذهبوا شوق لمجد و قد بانوا و قد باروا

إنّ القيامة فى بغداد قد وجدت و حدّها حين للإقبال إدبار

آل النّبىّ و أهل العلم قد سبيوا فمن ترى بعدهم تحويه أمصار.

ما كنت آمل أن أبقى و قد ذهبوا لكن أبى دون ما أختار أقدار

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة؛ ج۷؛ ص۵۲

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۵۳

و هى أطول من ذلک. و جملة القصيدة ستة و ستون بيتا. و قال غيره فى فقد الخلافة من بغداد بيتا مفردا و أجاد:

خلت المنابر و الأسرّة منهم فعليهم حتّى الممات سلام

انتهى ذكر بغداد هنا، و لا بدّ من ذكر شىء منها أيضا فى الحوادث.

و أمّا أمر البحريّة فإنّه لمّا دخلت سنة سبع و خمسين و ستمائة رحل الملک الناصر صلاح الدين يوسف صاحب الشام بعساكر فى أثر

البحريّة، فاندفعوا البحريّة أمامه إلى الكرك، فسار الناصر حتى نزل بركة زيزاء ليحاصر الكرك، و صحبته الملك المنصور صاحب حماة؛ فأرسل الملك المغيث عمر بن العادل بن الكامل صاحب الكرك رسله إلى الملك الناصر يطلب الصلح، و كان مع رسله الدار القطبيّة ابنة الملك المفضّل قطب الدّين بن العادل، و هى من عمّات الناصر و المغيث يتضرّعون إلى الناصر و يطلبون الصلح و رضاه على ابن عمه المغيث، فشرط عليه الناصر أن يقبض على من عنده من البحريّة، فأجاب إلى ذلك و قبض عليهم و جهّزهم إلى الملك الناصر على الجمال، و هو نازل ببركة زيزاء. فحملهم الملك الناصر إلى حلب و اعتقلهم بقلعتها ما خلا الأمير بيبرس البندقداريّ، فإنّه لمّا أحسّ بما وقع عليه الصلح هرب من الكرك فى جماعة من البحريّة و أتى إلى الملك الناصر صلاح الدين المذكور داخلا تحت طاعته، فأكرمه الملك الناصر و أكرم رفقته إكراما زائدا؛ و عاد الناصر إلى دمشق و فى خدمته الأمير ركن الدين بيبرس البندقداريّ و غيره من البحريّة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۵۴

و أمّا المصريّون فإنّه لمّا بلغ الملك المنصور عليّا و الأمير قطز المعزّىّ ما وقع للبحريّة فرحا فرحا زائدا، و زيّنت مصر أيّاما لذلك؛ وصفا الوقت للأمير قطز.

و بينما هو فى ذلك ورد الخبر عليه بنزول هولاكو على مدينة آمد من ديار بكر، و أنّه فى قصد البلاد الشاميّة، و أنّ هولاكو بعث رسله إلى الملك السعيد نجم الدين إيلغازى صاحب ماردين يستدعيه إلى طاعته و حضرته، فسيّر إليه الملك السعيد ولده الملك المظفّر قرا أرسلان و قاضى القضاة مهذّب الدين محمد [بن مجلّى] و الأمير سابق الدين بلبان و على أيديهم هديّة، و حمّلهم رسالة تتضمّن الاعتذار عن الحضور بمرض منعه الحركة، و وافق وصولهم إلى هولاكو أخذه لقلعة اليمانيّة و إنزاله من بها من حريم صاحب ميّافارقين و أولاده و أقاربه، و هم: ولده الملك الناصر صلاح الدين يوسف جفتاى، و الملك السعيد عمر و ابن أخيه الملك الأشرف أحمد و تاج الدين على ابن الملك العادل، فأدّوا الرسالة؛ فقال هولاكو: ليس مرضه بصحيح، و إنّما هو يتمارض مخافة الملك الناصر صاحب الشام، فإن انتصرت عليه اعتذر لى بزيادة المرض، و إن انتصر علىّ كانت له اليد البيضاء عنده، ثم قال: و لو كان للملك الناصر قوّة يدفعنى لم يمكّنى من دخول هذه البلاد؛ و قد بلغنى أنّه بعث حريمه إلى مصر؛ ثم أمر بردّ القاضى وحده فردّ القاضى و أخبر الملك السعيد بالجواب.

و أمّا هولاكو فإنّه لا زال يأخذ بلدا بعد أخرى إلى أن استولى على حلب و الشام، و اضمحلّ أمر الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب الشام بعد أمور و وقائع وقعت له، و انفلّ عنه أصحابه. فلمّا وقع ذلك فارقه الأمير بيبرس البندقداريّ و قدم إلى مصر و معه جماعة من البحريّة طائعا للملك المنصور هذا فأكرمه قطز

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۵۵

و أكرم رفقته و صاروا الجميع من عساكر مصر على العادة أوّلا. يأتى تفصيل ذلك فى ترجمة الملك المظفّر قطز. إن شاء اللّه تعالى.

و لمّا استفحل أمر قطز بديار مصر و صار هو المشار إليه فيها لصغر السلطان الملك المنصور علىّ، و لكثرة حواشى قطز المذكور، ثم تحقّق قطز مجىء التّتار إلى البلاد الشاميّة، و علم أنّه لا بدّ من خروجه من الديار المصريّة بالعساكر للذّبّ عن المسلمين، فرأى أنّه لا يقع له ذلك، فإنّ الآراء مغلولة لصغر السلطان و لاختلاف الكلمة، فجمع قطز كمال الدّين بن العديم الحنفىّ و غيره من الأعيان و الأمراء بالديار المصريّة، و عرّفهم أنّ الملك المنصور هذا صبّى لا يحسن التدبير فى مثل هذا الوقت الصّعب، و لا بدّ أن يقوم بأمر الملك رجل شهم يطيعه كلّ أحد، و ينتصب للجهاد فى التّتار، فأجابه الجميع: ليس لها غيرك! و كان قطز قبل ذلك قد قبض على الملك المنصور علىّ هذا و عوّقه بالدور السلطانيّة، فخلع الملك المنصور فى الحال من الملك و بويع الأمير قطز و لقّب بالملك المظفّر سيف الدين قطز، و اعتقل الملك المنصور و والدته بالدور السلطانيّة من قلعة الجبل، و حلّف قطز الناس لنفسه و تمّ أمره، و ذلك فى يوم السبت سابع عشر ذى القعدة سنة سبع و خمسين و ستمائة. و كانت مدّة الملك المنصور فى السلطنة بالديار المصريّة

سنتين و سبعة أشهر و اثنين و عشرين يوما، و بقى معتقلا سنين كثيرة إلى أن تولّى الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارىّ، فنفاه هو و والدته و أخاه ناصر الدين قاقان إلى بلاد الأشكرى فى ذى القعدة سنة ثمان و خمسين و ستمائة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۵۶

قلت: و الملك المظفر قطز هذا هو أوّل مملوك خلع ابن أستاذه من الملك و تسلطن عوضه، و لم يقع ذلك قبله من أحد من الملوك. و تمّت هذه السّنّة السيّئة فى حاصد إلى يوم القيامة. و بهذه الواقعة فسدت أحوال مصر.

السنة الأولى من ولاية الملك المنصور علىّ ابن الملك المعزّ أيبك التّركمانىّ على مصر، و هى سنة خمس و خمسين و ستمائة، على أنّ والده الملك المعزّ حكم فيها نحوا من ثلاثة أشهر.

فيها أرسل الملك الناصر يوسف صاحب الشام ولده الملك العزيز بهديّة إلى هولاكو ملك التّتار و طاغيتهم.

و فيها قتلت الملكة شجرة الدرّ الملك المعزّ أيبك، ثم قتلت هى أيضا. و قد تقدّم ذكر ذلك كلّ واحد على حدته فى ترجمته من هذا الكتاب، فلا حاجة إلى الإعادة.

و فيها توفّى الأمير عزّ الدين أيبك بن عبد اللّه الحلبىّ الكبير، كان من أعيان المماليك الصالحيّة النجميّة، و ممّن يضاهى الملك المعزّ أيبك التّركمانىّ فى موكبه، و كانت له المكانة العظمى فى الدولة، كان الأمراء يعترفون له بالتقدّم عليهم، و كان له عدّة مماليك نجباء صاروا من بعده أمراء، منهم: ركن الدين إياجى الحاجب، و بدر الدين بيليك الجاشنكير، و صارم الدين أزبك الحلبىّ و غيرهم. و لما قتل الملك

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۵۷

المعزّ أيبك التركمانىّ حدّثته نفسه بالسلطنة، فلمّا قبض قطز على الأمير سنجر الحلبى، ركب أيبك هذا و معه الأمراء الصالحيّة فتقنطر به فرسه فهلك خارج القاهرة و أدخل إليها ميتا؛ و كذلك وقع للامير خاصّ ترك. و قد تقدّم ذكر ذلك فى ترجمة الملك المنصور.

و فيها توفّى الشيخ الإمام العلّامة نجم الدين أبو محمد عبد اللّه بن محمد بن الحسن ابن عبد اللّه البغدادىّ البادرائىّ، ولد فى سنة أربع و تسعين و خمسمائة، و سمع الكثير و تفقّه و برع و أفتى و درّس، و ترسّل عن الخليفة إلى ملوك الشام و مصر غير مرّة إلى هذه السنة، ولى قضاء القضاة ببغداد. و مات فى سلخ ذى القعدة.

و فيها توفّى الشيخ الأديب أبو الحسن علىّ بن محمد بن الرضا الموسوىّ الحسينىّ الشريف المعروف بابن دفتر خوان. ولد سنة تسع و ثمانين بحماة، و كان فاضلا و له تصانيف و شعر جيّد، من ذلك قوله:

إذا لمت قلبى قال عيناك أبصرت و إن لمت عينى قالت الذنب للقلب

فعينى و قلبى قد تشاركن فى دمى فيا ربّ كن عونى على العين و القلب

و فيها توفّيت الصاحبيّة غازيّة خاتون بنت الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر ابن أيّوب، والدة الملك المنصور صاحب حماة. كانت صالحة ديّنة دبّرت ملك ولدها المنصور بعد وفاة زوجها الملك المظفّر أحسن تدبير، و هى والدة الملك الأفضل نور الدين أبى الحسن علىّ أيضا. و كانت وفاتها فى أواخر ذى القعدة أو فى ذى الحجّة من السنة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۵۸

و فيها توفّى الشيخ الإمام العالم العلّامة المقرئ أبو عبد اللّه محمد بن أبى القاسم [قاسم] بن فيّره بن خلف الرّعينىّ الشاطبىّ الأصل المصرىّ المولد و الدار الضّرير راوى القصيدة المشهورة فى القراءات التى لم يسبق إلى مثلها التى سمّاها «حرز الأمانى و وجه التهانى». و مولده فى حادى عشر ذى الحجّة سنة ست أو سبع و سبعين و خمسمائة بمصر، و توفّى بها فى حادى عشر شوّال و دفن من يومه بسفح المقطّم، و لم يخلف بعده مثله. و كان الشيخ كثيرا ما ينشد هذا اللّغز و هو «نعش الموتى» و اللّغز المذكور للخطيب أبى زكريّا يحيى بن سلامة الحصكفىّ، و هو:

أتعرف شيئا فى السماء نظيره إذا سار صاح الناس حين يسير

فتلقاه مركوبا و تلقاه راكبا و كلّ أمير يعتليه أسير

يحضّ على التّقوى و تكره قربه و تنفر منه النفس و هو نذير

و فيها توفّى الوزير الصاحب شرف الدين هبة اللّه بن صاعد الفائزىّ، كان أوّلا نصرانيّا يلقّب بالأسعد، و هو منسوب بالفائزىّ إلى الملك الفائز إبراهيم ابن الملك العادل أبى بكر بن أيّوب، ثم أسلم و تنقّل فى الخدم حتّى ولى الوزارة. و كان عنده رياسة و مكارم و عقل و حسن تدبير، و خدم عدّة ملوك و كان محفوظا عندهم، و هو الذى هجاه الصاحب جمال الدين يحيى بن مطروح، و قيل بهاء الدين زهير بقوله:

لعن اللّه صاعدا و أباه فصاعدا

و بنيه فنازلا واحدا ثم واحدا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۵۹

و فيها توفّى أبو الحسن المغربىّ المورقىّ الشيخ نور الدين، كان من أقارب المورقى الملك المشهور ببلاد الغرب، مات بدمشق و دفن بقاسيون، و كان فاضلا أديبا شاعرا. و من شعره من أبيات:

القضب راقصة و الطير صادحة و الستر مرتفع و الماء منحدر

و قد تجلّت من اللذات أوجهها لكنّها بظلال الدّوح تستتر

فكلّ واد به موسى يفجّره و كلّ روض على حافاته الخضر

قلت: و هذا يشبه قول من قال فى مليح حليق:

مرّت الموسى على عارضه فكأنّ الماء بالآس غمر

مجمع البحرين أضحى خدّه إذ تلاقى فيه موسى و الخضر

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى المحدّث أبو محمد عبد الرحمن بن أبى الفهم اليلدانىّ فى شهر ربيع الأوّل، و له سبع و ثمانون سنة.

و الإمام شرف الدين أبو عبد اللّه محمد بن عبد اللّه بن محمد بن أبى الفضل السّلمىّ المرسىّ فى نصف شهر ربيع الأوّل، و له ست و ثمانون سنة. و الإمام نجم الدين أبو محمد عبد اللّه بن أبى الوفاء البادرانىّ الشافعىّ فى ذى القعدة ببغداد.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و خمس و عشرون إصبعا. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و سبع عشرة إصبعا.

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۵۶]

السنة الثانية من ولاية الملك المنصور علىّ ابن الملك المعزّ أيبك على مصر، و هى سنة ست و خمسين و ستمائة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۶۰

فيها استولى الطاغية هولاكو على بغداد، و قتل الخليفة المستعصم بالله و معظم أهل بغداد؛ و قد تقدّم ذلك.

و فيها كان الوباء العظيم بدمشق و غيرها.

و فيها توفّى الأديب البارع شرف الدين أبو الطيب أحمد بن محمد بن أبى الوفا الربعىّ الموصلىّ المعروف بابن الحلاوى الشاعر المشهور، كان من أحسن الناس صورة و ألطفهم أخلاقا مع الفضيلة التامة، و رحل البلاد و مدح الخلفاء و الملوك و خدم الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤا صاحب الموصل و لبس زىّ الجند. و شعره فى نهاية الرّقّة و الجزالة، و هو صاحب القصيدة التى أوّلها:

حكاه من الغصن الرّطيب و ريقه و ما الخمر إلّا و جنتاه و ريقه

هلال و لکن أفق قلبی محلّه غزال و لکن سفح عینی عقیقه
و أسمر یحکی الأسمر اللّدن قدّه غدا راشقا قلب المحبّ رشیقه
علی خدّه جمر من الحسن مضرم یشبّ و لکن فی فؤادی حریقه
أقرّ له من کلّ حسن جلیله و وافقه من کلّ معنی دقیقه
بدیع التّثنّی راح قلبی أسیره علی أنّ دمعی فی الغرام طلیقه
علی سالفیه للعذار جریرة و فی شفتیه للسّلاف عتیقه
یهدّد منه الطّرف من لیس خصمه و یسکر منه الرّیق من لا یذوقه
علی مثله یستحسن الصّبّ هتکه و فی حبّه یجفو الصدیق صدیقه
من التّرک لا یصبیه وجد إلی الحمی و لا ذکر بانات الغویر تشوقه
و لا حلّ فی حیّ تلوح قبابه و لا سار فی رکب یساق و سوقه
النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۶۱
و لا بات صبّا بالفریق و أهله و لکن إلی خاقان یعزی فریقه
له مبسم ینسی المدام بریقه و یخجل نوّار الأقاحی بریقه
تداویت من حرّ الغرام ببرده فأضرم من ذاک الحریق رحیقه
إذا خفق البرق الیمانیّ موهنا تذکّرته فاعتاد قلبی خفوقه
حکی وجهه بدر السماء فلو بدا مع البدر قال الناس هذا شقیقه
رآنی خیالا حین وافی خیاله فأطرق من فرط الحیاء طروقه
فأشبهت منه الخصر سقما فقد غدا یحمّلنی کالخصر ما لا أطیقه
فما بال قلبی کلّ حبّ یهیجه و حتّام طرفی کلّ حسن یروقه
فهذا لیوم البین لم تطف ناره و هذا لبعد الدار ما جفّ موقد
و للّه قلبی ما أشدّ عفافه و إن کان طرفی مستمرّا فسوقه
فما فاز إلّا من یبیت صبوحه شراب ثنایاه و منها غبوقه

و فیها توفّی الأمیر بکتوت بن عبد اللّه سیف الدین العزیزیّ أستادار الملک الناصر صلاح الدین یوسف صاحب الشام، کان من أکابر الأمراء فی الدولة الناصریّة، و کان حسن السّیرة ملیح الشکل متجمّلا، کان موکبه یضاهی مواکب الملوک.

و فیها توفّی الملک الناصر أبو المظفّر و قیل أبو المفاخر داود صاحب الکرک ابن الملک المعظّم عیسی صاحب الشام ابن الملک العادل أبی بکر صاحب مصر ابن الأمیر نجم الدین أیّوب. مولده فی جمادی الآخرة سنة ثلاث و ستمائة؛ و وقع له أمور و حوادث و محن تکرّر ذکرها فی عدّة تراجم من هذا الکتاب. و کان تغلّب علی الشام بعد موت عمّه الملک الکامل محمد، و قدم مصر بعد ذلک غیر مرّة و توجّه إلی الشّرق، و وقع له أمور یطول شرحها إلی أن مات فی جمادی الأولی. و کان ملکا شجاعا
النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۶۲
مقداما فاضلا أدیبا شاعرا، و قد تقدّم من شعره عدّة أبیات یستعطف بها الملک الصالح نجم الدین أیّوب فی ترجمة الملک الصالح المذکور. و من شعره أیضا:

لئن عاینت عینای أعلام جلّق و بان من القصر المشید قبابه
تیقّنت أنّ البین قد بان و النّوی نأی شحطها و العیش عاد شبابه

و فيها توفّى العلّامة المفتن أبو الفضل و قيل أبو العلاء بهاء الدين زهير بن محمد ابن على بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن المنصور بن عاصم الأزدى المكّىّ القوصىّ المنشأ المصرىّ الدار، الكاتب الشاعر المشهور المعروف بالبهاء زهير صاحب الديوان المشهور. مولده بوادى نخلة بقرب مكّة فى خامس ذى الحجّة سنة إحدى و ثمانين و خمسمائة؛ و ربّى بصعيد مصر بقوص، و قرأ الأدب و سمع الحديث و برع فى النّظم و النّثر و الترسّل، و له الشعر الرائق الفائق، و كان رئيسا فاضلا حسن الأخلاق، اتّصل بخدمه الملك الصالح نجم الدين أيّوب فى حياة أبيه الملك الكامل، و دام فى خدمته إلى أن توفّى. و قد تقدّم من ذكره فى ترجمة الملك الصالح نبذة جيّدة. و كانت وفاة البهاء زهير هذا فى يوم الأحد قبل المغرب رابع ذى القعدة و قيل خامسه. و من شعره- رحمه اللّه-:

و لمّا جفانى من أحبّ و خاننى حفظت له الودّ الذى كان ضيّعا

و لو شئت قابلت الصدود بمثله و لكننى أبقيت للصلح موضعا

و قد كان ما قد كان بينى و بينه أكيدا و لكنّى رعيت و ما رعى

سعى بيننا الواشى ففرّق بيننا لك الذنب يا من خاننى لا لمن سعى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۶۳

و من شعره أيضا قصيدته التى أوّلها:

رويدك قد أفنيت يا بين أدمعى و حسبك قد أحرقت يا شوق أضلعى

إلى كم أقاسى لوعة بعد لوعة و حتّى متى يا بين أنت معى معى

و قالوا علمنا ما جرى منك بعدنا فلا تظلمونى ما جرى غير أدمعى

و فيها توفّى الإمام الحافظ الحجّة أبو محمد زكىّ الدين عبد العظيم بن عبد القوىّ ابن عبد اللّه بن سلامة بن سعد بن سعيد المنذرىّ الدّمشقىّ الأصل المصرىّ المولد و الدار و الوفاة. ولد سنة إحدى و ثمانين و خمسمائة، و سمع الكثير و رحل و كتب و صنّف و خرّج و أملى و حدّث بالكثير، و تخرّج به جماعة، و هو أحد الحفّاظ المشهورين.

و فيها توفّى الخليفة أمير المؤمنين المستعصم بالله أبو أحمد عبد اللّه ابن الخليفة المستنصر بالله منصور ابن الخليفة الظاهر بأمر اللّه محمد ابن الخليفة الناصر لدين اللّه أبى العباس أحمد ابن الخليفة المستضىء بالله أبى محمد الحسن ابن الخليفة المستنجد بالله أبى المظفّر يوسف ابن الخليفة المقتفى بالله أبى عبد اللّه محمد ابن الخليفة المستظهر بالله أبى العبّاس أحمد ابن الخليفة المقتدى بالله أبى القاسم عبد اللّه ابن الأمير محمد الذّخيرة، و هو غير خليفة، ابن الخليفة القائم بأمر اللّه عبد اللّه ابن الخليفة القادر بالله أبى العباس أحمد ابن الأمير إسحاق، و إسحاق غير خليفة، ابن الخليفة المقتدر بالله أبى الفضل جعفر ابن الخليفة المعتضد بالله أبى العباس أحمد ابن الأمير طلحة الموفّق، و طلحة غير خليفة أيضا، ابن الخليفة المتوكّل على اللّه أبى الفضل جعفر ابن الخليفة المعتصم بالله محمد ابن الخليفة الرشيد بالله هارون ابن الخليفة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۶۴

المهدىّ بالله محمد ابن الخليفة أبى جعفر عبد اللّه المنصور بن محمد بن علىّ بن عبد اللّه ابن العبّاس بن عبد المطلب الهاشمىّ البغدادىّ، آخر خلفاء بنى العباس ببغداد، و بموته انقرضت الخلافة من بغداد. ولى الخلافة بعد وفاة والده المستنصر بالله فى العشرين من جمادى الأولى سنة أربعين و ستمائة، و مات قتيلا بيد هولاكو طاغية التّتار فى هذه السنة. و قد تقدّم كيفية قتله فى ترجمة الملك المنصور علىّ هذا، و كانت مدّة خلافته خمس عشرة سنة و ثمانية أشهر و أيّاما. و تقدير عمره سبع و أربعون سنة. و كان قليل المعرفة بتدبير الملك نازل الهمة مهملا للأمور المهمّة محبّا لجمع الأموال يقدم على فعل ما يستقبح، أهمل أمر هولاكو حتّى كان فى ذلك هلاكه.

و شغرت الخلافة بعده سنين، و بقيت الدّنيا بلا خليفة حتّى أقام الملك الظاهر بيبرس البندقدارىّ بعض بنى العبّاس فى الخلافة. على ما

یأتی ذکر ذلک فی ترجمة الظاهر بیبرس البندقداریّ إن شاء اللّه تعالی.

و فیها توفّی الأمیر الأدیب الشاعر سیف الدین أبو الحسن علیّ بن عمر بن قزل المعروف بالمشدّ الشاعر المشهور. مولده بمصر فی شوّال سنة اثنتین و ستمائة، و تولّی شدّ الدواوین بمصر مدّة سنین، و کان من أکابر الأمراء الفضلاء و هو قریب الأمیر جمال الدین بن یغمور، و له دیوان شعر مشهور بأیدی الناس، و توفّی بدمشق فی یوم عاشوراء. و رثاه بعض الفضلاء، فقال:

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۶۵

عاشور یوم قد تعاظم ذنبه إذ حلّ فیه کلّ خطب مشکل

لم یکفه قتل الحسین و ما جری حتّی تعدّی بالمصاب علی علی

و من شعره- رحمه اللّه- بیت مفرد کلّ کلمة منه قلب نفسها و هو:

لیل أضاء هلاله أنّی یضیء بکوکب

و من شعره أیضا، قوله:

و شادن أو ردنی جبّه لهیب حرّ الشوق و الفرقه

أصبحت حرّانا إلی ریقه فلیت لی من قلبه الرّقّه

و له أیضا مضمّنا مقتبسا:

وافی إلیّ و کأس الراج فی یده فخلت من لطفه أنّ النسیم سری

لا تدرک الراح معنی من شمائله و الشمس لا ینبغی أن تدرک القمرا

و له فی خود عمیاء:

علقتها نجلاء مثل المها فخان فیها الزمن الغادر

أذهب عینیها فإنسانها فی ظلمة لا یهتدی حائر

تجرح قلبی و هی مکفوفة و هکذا قد یفعل الباتر

و نرجس اللحظ غدا ذابلا وا حسرتا لو أنّه ناظر

و له فی لاعب شطرنج:

لعبت بالشّطرنج مع شادن رشاقة الأغصان من قدّه

أحلّ عقد البند من خصره و ألثم الشامات من خدّه

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۶۶

و فیها توفّی الشیخ الإمام الأدیب الرّبانیّ جمال الدین أبو زکریّا یحیی بن یوسف ابن یحیی بن منصور بن المعمّر بن عبد السلام الصّرصریّ الضّریر الشاعر المشهور.

کان من العلماء الفضلاء الزّهّاد العبّاد، و کان له الید الطّولی فی النظم، و شعره فی غایة الجودة، و مدح النّبیّ صلّی اللّه علیه و سلّم بقصائد لا تدخل تحت الحصر کثرة؛ قیل: إنّ مدائحه فی النّبیّ صلّی اللّه علیه و سلّم تقارب عشرین مجلّدا. و من شعره من المدائح النبویّة قوله:

زار و هنّا و نحن بالزّوراء فی مقام خلا من الرّقباء

من حبیب القلوب طیف خیال فجلا نوره دجی الظّلماء

یا لها زورة علی غیر وعد بتّ منها فی لیلة سرّاء

نعمت عیشتی و طابت حیاتی فی دجاها یا طلعة الغرّاء

و منها:

يا هلال السرور يا قمر الأذ س و نجم الهدى و شمس البهاء

يا ربيع القلوب يا قرّة العى ن و باب الإحسان و النّعماء

و منها:

سيّد حبّه فخار و تشرى ف و عزّ باق لأهل الصّفاء

أحمد المصطفى السّراج المنير ال خير خاتم الأنبياء

و من شعره فى عدد الخلفاء بنى العبّاس إلى المستعصم آخر خلفاء بنى العبّاس ببغداد، قال

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۶۷

لكرب بنى العبّاس سفّاحهم جلا و جرّ لمنصور و مهدىّ الولا

و هاد و هارون الرشيد تلاهما أمين و مأمون و معتصم الملا

و واثقهم من بعده متوكّل و منتصر و المستعين بنو العلا

و طاب بمعتزّ جنى مهتد كما بمعتضد عيش لمعتمد حلا

قلت: لعله ما قال إلا:

...كما بمعتضد عيش لمعتضد حلا

لأن المعتمد عمّ المعتضد و تولى المعتضد الخلافة بعده. انتهى.

و مكتفيا فاعدد و مقتدرا و قد تلا قاهرا راض لمتّقى تلا

و مستكفيا ثم المطيع و طائعا و قادرهم و القائم أعدد محصّلا

و بالمقتدى مستظهر ساد مثلما بمسترشد و الراشد المقتفى علا

بمستنجد و المستضىء و ناصر و ظاهر و المستنصر اجل مقفّلا

و مستعصم لا زال بالنصر قاهرا لأعدائه ما حنّت العيس فى الفلا

قال الذهبىّ: «حكى لنا شيخنا ابن الدّباهىّ – و كان خال أمّه (يعنى الصّرصرىّ)- قال: بلغنا أنّه دخل عليه التّتار و كان ضريرا، فطعن بعكّازه بطن واحد فقتله، ثم قتل شهيدا بيد التّتار». انتهى.

قلت: كلّ ذلک فى واقعة هولاكو المقدّم ذكرها.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى الأمير سيف الدين المشدّ الشاعر صاحب الديوان، و اسمه علىّ بن عمر بن قزل فى المحرّم، و الشيخ يحيى ابن يوسف بن يحيى الصّرصرىّ الزاهد صاحب «الديوان»، استشهد ببغداد

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۶۸

فى صفر فى أمم لا يحصون: منهم المستعصم بالله أبو أحمد عبد اللّه بن المستنصر، و له سبع و أربعون سنة، و كانت خلافته ستّ عشرة سنة. و منهم أستاداره محيى الدين يوسف بن الشيخ أبى الفرج بن الجوزىّ. و مدرّس المستنصريّة الإمام أبو المناقب محمود بن أحمد بن محمود الزّنجانىّ الشافعىّ، و له ثلاث و ثمانون سنة. و المحدّث شمس الدين علىّ بن المظفّر بن القاسم النّشبىّ فى شهر ربيع الأوّل. و أبو عمرو عثمان ابن علىّ القرشىّ بن خطيب القرافة فى شهر ربيع الآخر، و له أربع و ثمانون سنة.

و أبو العزّ عبد العزيز بن محمد بن أحمد بن محمد بن صديق المؤدّب الحرّانىّ بدمشق.

و الملك الناصر أبو المظفّر داود بن الملك المعظّم بن العادل فى جمادى الأولى، و له ثلاث و خمسون سنة. و المحدّث نجيب الدين نصر اللّه [بن المظفّر بن عقيل بن حمزة أبو الفتح] بن أبى العزّ الشّيبانىّ بن شقيشقة فى جمادى الآخرة، و قد جاوز السبعين.

و أبو الفضل عبـد العزيز بن عبـد الوهاب بن بنان الكفر طابىّ فى شوّال، و له تسع و سـبعون سنـة. و الأديب شـرف الـدين الحسـين بن إبراهيم الإربلىّ اللغوىّ فى ذى القعـدة، و له ثمان و ثمانون سـنة. و الحافظ زكىّ الـدين عبـد العظيم ابن عبـد القوىّ المنـذرىّ فى ذى القعـدة، و له ستّ و سـبعون سـنة. و البهاء زهير بن محمـد ابن علىّ المهلّبى الكاتب الشاعر. و العارف أبو الحسن علىّ بن عبـد اللّه بن عبد الجبّار

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۶۹

الشّاذلىّ الضّرير [بصـحراء] عيـذاب فى ذى القعـدة. و أبو العبّاس القرطبى أحمد بن عمر بن إبراهيم العدل بالإسـكندريّة، و له ثمان و سبعون سنة. و خطيب مردا أبو عبد اللّه محمد بن إسماعيل بن أحمد الحنبلىّ فى ذى الحجّة. و الحافظ صدر الدين أبو على الحسن بن محمـد بن محمـد بن محمد البكرىّ بالقاهرة فى ذى الحجّة، و له اثنتان و ثمانون سـنة. و الشـيخ أبو عبد اللّه الفاسـىّ محمد بن حسـن شيخ الإقراء بحلب فى شهر ربيع الآخر.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و تسع عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و خمس أصابع.

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۵۷]

اشارة

السنة الثالثة من ولاية الملك المنصور علىّ ابن الملك المعزّ أيبك على مصر، و هى سنة سبع و خمسين و ستمائة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۷۰

فيها خلع الملك المنصور علىّ المذكور بمملوك ابيه الملك المظفّر قطز المعزّىّ.

و قد تقدّم ذلك.

و فيها دخل هولاكو ديار بكر قاصدا حلب. يأتى ذكر ذلك كلّه فى ترجمة الملك المظفّر قطز إن شاء اللّه تعالى.

و فيها توفى الملك الرحيم أبو الفضائل بـدر الـدين لؤلؤ بن عبد اللّه الأتابكىّ صاحب الموصل، كان من أجلّ الملوك. و طالت أيّامه بالموصل لأنّه أقام بتدبير أسـتاذه نور الدين أرسـلان شاه بن عزّ الدين مسعود بن مودود بن زنكى بن آق سنقر التّركىّ، فلمّا توفّى نور الدين قام بتدبير ولده الملك القاهر عزّ الدين مسـعود، فلما توفّى الملك القاهر سـنة أربع عشرة و ستمائة أقام صبّيين من ولده هما ابنا بنت مظفّر الدين صاحب إربل [ثم إنّه أخنى على أولاد أسـتاذه فقتلهم غيلة] واحدا بعد واحد، ثم بعد ذلك اسـتبدّ بمملكة الموصل و أعمالها سـبعا و أربعين سـنة. و كان كثير التجمّل بالرّسل و الوافـدين عليه، و كان له همّـة عالية و معرفة تامّة، و كان شديد البحث عن أخبـار رعاياه ما يخفى عنه من أحوالهم إلّا ما قلّ، و كان يغرم على القصّاد و الجواسـيس فى كلّ سـنة مالا عظيما، و كان إذا عـدم من بلاده ما قيمته مائة درهم هان عليه أن يبذل عشرة آلاف دينار ليبلغ غرضه فى عوده، و لا يذهب مال رعيّته.

قلت: للّه درّ هذا الملك! ما أحوج الناس إلى ملك مثل هذا يملك الدنيا بأسرها.

و كانت وفاته بالموصل و هو فى عشر التسعين سنة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۷۱

و فيهـا توفّى الأـديب الفاضل أبو عبـد اللّه بهاء الـدين محمـد بن مكّى بن محمـد بن الحسن القرشـىّ الدمشـقىّ العـدل المعروف بابن الدّجاجيّة، كان فاضلا شاعرا مطبوعا. و من شعره قوله:

كم تكتم الوجد يا معنّى منّا و ما يختفى اللّهيب

سل عرب الواديين عمّن بانوا فما بيننا غريب

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال و فيها توفّى أبو الحسين أحمد بن محمد بن أحمد الأنصارىّ الإشبيلىّ بن السّرّاج مسند الغرب ببجاية فى صفر، و له سبع و تسعون سنة، و كانت الرّحلة إليه من الأقطار. و صدر الدين أسعد بن عثمان [بن أسعد] بن المنجّى، و دفن بمدرسته الصّدريّة فى شهر رمضان، و المقرئ شمس الدين أبو الفتح محمد [بن علىّ] بن موسى الأنصارىّ بدمشق فى المحرّم. و الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل فى شعبان.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و ست و عشرون إصبعا.

مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا و إصبع واحدة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۷۲

ذكر سلطنة الملك المظفّر قطز على مصر

السلطان الملك المظفّر سيف الدين قطز بن عبد اللّه المعزّى الثالث من ملوك الترك بالديار المصريّة. و قطز (بضم القاف و الطاء المهملة و سكون الزاى)، و هو لفظ مغلىّ. تسلطن بعد خلع ابن أستاذه الملك المنصور علىّ ابن الملك المعزّ أيبك فى يوم السبت سابع عشر ذى القعدة سنة سبع و خمسين و ستمائة، و ذلك بعد أن عظمت الأراجيف بتحريك التّتار نحو البلاد الشاميّة و قطعهم الفرات و هجمهم بالغارات على البلاد الحلبيّة، و كان وصل إليه بسبب ذلك الصاحب كمال الدّين عمر بن العديم رسولا من الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب حلب و الشام يطلب منه النّجدة على قتال التّتار، فأنزله قطز بالكبش و جمع القضاة و الفقهاء و الأعيان لمشاورتهم فيما يعتمد عليه فى أمر التّتار و أن يؤخذ من الناس ما يستعان به على جهادهم، فحضروا فى دار السّلطنة بقلعة الجبل، و حضر الشيخ عزّ الدين ابن عبد السلام و القاضى بدر الدين السّنجارىّ قاضى الديار المصرية و غيرهما من العلماء، و جلس الملك المنصور علىّ فى دست السلطنة، و أفاضوا فى الحديث، فكان الاعتماد على ما يقوله ابن عبد السّلام، و خلاصة ما قال: إنّه إذا طرق العدوّ بلاد الإسلام وجب على العالم قتالهم، و جاز لكم أن تاخذوا من الرعيّة ما تستعينون به

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۷۳

على جهادكم، بشرط ألّا يبقى فى بيت المال شىء، و تبيعوا مالكم من الحوائص المذهبة و الآلات النفيسة، و يقتصر كلّ الجند على مركوبه و سلاحه و يتساووا هم و العامّة. و أمّا أخذ الأموال من العامّة مع بقايا فى أيدى الجند من الأموال و الآلات الفاخرة فلا، و انفضّ المجلس على ذلك، و لم يتكلّم السلطان بكلمة فى المجلس لعدم معرفته بالأمور و لصغر سنّه؛ فلهج الناس بخلع المنصور و سلطنة قطز حتّى يقوم بهذا الأمر المهمّ، و اتّفق ذلك بعد أيّام، و قبض قطز هذا على الملك المنصور علىّ، و احتجّ لكمال الدّين بن العديم و غيره بأنّه صبىّ لا يحسن تدبير الملك، و فى مثل هذا الوقت الصّعب لا بدّ أن يقوم بأمر الملك رجل شهم يطيعه الناس و ينتصب للجهاد. و كان الأميران: علم الدين سنجر [الغتمىّ المعظّمىّ] و سيف الدين بهادر حين جرى هذا الأمر غائبين فى الصيد، فاغتنم قطز لغيبتهما الفرصة، فلمّا حضرا قبض عليهما و اعتقلهما، و تسلطن. و ركب بشعار الملك، و جلس على كرسىّ السلطنة و تمّ أمره. و لمّا وقع ذلك تقدّم قطز إلى برهان الدين الخضر أن يتوجّه فى جواب رسالة الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب الشام صحبة الصاحب كمال الدين ابن العديم، و يعد الملك الناصر بالنّجدة و إنفاذ العساكر إليه؛ فتوجّها و وصلا إلى دمشق و أدّيا الرسالة؛ و لم يزل البرهان بدمشق إلى أن رحل الملك الناصر من دمشق إلى جهة الديار المصريّة جافلا من التّتار.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۷۴

و كان الناصر لمّا تحقّق بحركة التّتار رحل إلى برزة شمالى دمشق، و نزل بها بعساكره و اجتمع إليه أمم عظيمة من العرب و العجم و التّركمان و الأتراك و المطوّعة؛ فلم يعجب الناصر حاله لما رأى من تخاذل عسكره، و علم انّه إذا لاقى التّتار لم يثبت عسكره لهم

لكثرتهم و لقوّتهم، فإنّ هولاكو فی خلق لا يحصيهم إلّا اللّه تعالى من المغل و الكرج و العجم و غيرهم، و لم يكن من حين قدومهم على بلاد المسلمين من سنة ستّ عشرة و ستمائة إلى هذه السنة يلقاهم عسكر إلّا فلّوه سوى وقائع كانت بينهم و بين جلال الدين بن خوارزم شاه، انتصف جلال الدين فی بعضها، ثمّ كبسوه على باب آمد و بدّدوا جمعه، و أعقب ذلك موت جلال الدين بالقرب من ميّافارقين.

و أمّا أمر هلاكو فإنّه فی جمادى الأولى من هذه السنّة نزل حرّان و استولى عليها و ملك بلاد الجزيرة، ثمّ سيّر ولده أشموط بن هولاكو إلى الشام و أمره بقطع الفرات و أخذ البلاد الشاميّة، و سيّره فی جمع كثيف من التّتار فوصل أشموط إلى نهر الجوز و تلّ باشر، و وصل الخبر إلى حلب من البيرة بذلك. و كان نائب السلطان صلاح الدين يوسف بحلب ابنه الملك المعظّم توران شاه، فجفل الناس بين يدى

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۷۵

التّتار إلى جهة دمشق و عظم الخطب، و اجتمع الناس من كلّ فجّ عند الملك الناصر بدمشق، و احترز الملك المعظّم توران شاه ابن الملك الناصر بحلب غاية الاحتراز. و كذلك جميع نوّاب البلاد الحلبيّة؛ و صارت حلب فی غاية الحصانة بأسوارها المحكمة البناء و كثرة الآلات. فلمّا كان العشر الأخير من ذى الحجّة [سنة سبع و خمسين و ستمائة] قصد التّتار حلب و نزلوا على قرية يقال لها سلمية و امتدوا إلى حيلان و الحارى، و سيّروا جماعة من عسكرهم أشرفوا على المدينة. فخرج عسكر حلب و معهم خلق عظيم من العوام و السّوقة، و أشرفوا على التّتار و هم نازلون على هذه الأماكن، و قد ركبوا جميعهم لانتظار المسلمين، فلمّا تحقّق المسلمون كثرتهم كرّوا راجعين إلى المدينة؛ فرسم الملك المعظّم بعد ذلك ألّا يخرج أحد من المدينة.

و لمّا كان غد هذا اليوم رحلت التّتار من منازلهم طالبين مدينة حلب، و اجتمع عسكر المسلمين بالنّواشير و ميدان الحصا و أخذوا فی المشورة فيما يعتمدونه، فأشار عليهم الملك المعظّم أنّهم لا يخرجون أصلا لكثرة التّتار و لقوّتهم و ضعف المسلمين على لقائهم، فلم يوافقه جماعة من العسكر و أبوا إلّا الخروج إلى ظاهر البلد لئلّا يطمع العدوّ فيهم؛ فخرج العسكر إلى ظاهر حلب و خرج معهم العوامّ و السّوقة و اجتمعوا الجميع بجبل بانقوسا؛ و وصل جمع التّتار إلى أسفل الجبل فنزل إليهم جماعة من العسكر ليقاتلوهم؛ فلما رآهم التّتار اندفعوا بين أيديهم مكرا منهم و خديعة،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۷۶

فتبعهم عسكر حلب ساعة من النهار؛ ثم كرّ التّتار عليهم فولّوا منهزمين إلى جهة البلد و التّتار فی أثرهم. فلما حاذوا جبل بانقوسا و عليه بقيّة عسكر المسلمين و العوامّ اندفعوا كلّهم نحو البلد و التّتار فی أعقابهم، فقتلوا من المسلمين جمعا كثيرا من الجند و العوامّ.

و ممّن استشهد فی ذلك اليوم الأمير علم الدين زريق العزيزىّ- رحمه اللّه- و كان من أعيان الأمراء. و نازل التّتار المدينة فی ذلك اليوم إلى آخره، ثم رحلوا طالبين أعزاز فتسلّموها بالأمان.

ثم عادوا إلى حلب فی ثانى صفر من سنة ثمان و خمسين و ستمائة و حاصروها حتّى استولوا عليها فی تاسع صفر بالأمان، فلمّا ملكوها غدروا بأهل حلب و قتلوا و نهبوا و سبوا و فعلوا تلك الأفعال القبيحة على عادة فعلهم. و بلغ الملك الناصر يوسف أخذ حلب فی منتصف صفر، فخرج الناصر من الشام بأمرائه نحو القبلة. و كان رسل التّتار بقرية حرستا فأدخلوا دمشق ليلة الاثنين سابع عشر صفر. و قرئ بعد صلاة الظهر فرمان (أعنى مرسوما) جاء من عند ملك التّتار يتضمّن الأمان لأهل دمشق و ما حولها، و شرع الأكابر فی تدبير أمرهم. ثم وصلت التّتار إلى دمشق فی سابع عشر شهر ربيع الأوّل، فلقيهم أعيان البلد أحسن ملتقى و قرئ ما معهم من الفرمان المتضمّن الأمان، و وصلت عساكرهم من جهة الغوطة مارّين من وراء الضّياع إلى جهة الكسوة و أهلكوا فی ممرّهم جماعة كانوا قد تجمّعوا و تحزّبوا.

و فی السادس و العشرين منه جاء منشور من هولاكو للقاضى كمال الدين عمر بن بندار

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۷۷

التّفایسیّ بتفویض قضاء القضاة إلیه بمدائن الشام إلی الموصل و میّافارقین و غیر ذلک، و کان القاضی قبله صدر الدین أحمد بن سنیّ الدولة. و توجّه الملک الناصر نحو الدیار المصریّة و نزل العریش ثم قطیا بعد أن تفرّق عسکره عنه و توجّه معظم عسکره إلی مصر قبله مع الأثقال. فلمّا وصل الناصر إلی قطیا عاد منها إلی جهة الشام لشیء بلغه عن الملک المظفّر صاحب مصر، و نزل بوادی موسی ثم نزل برکة زیزاء، فکبسه التّتار بها و هو فی خواصّه و قلیل من ممالیکه، فاستأمن الناصر من التّتار و توجّه إلیهم، فلمّا وصل إلیهم احتفظوا به و بقی معهم فی ذلّ و هوان إلی أن قتل علی ما یأتی ذکره فی محله إن شاء اللّه تعالی.

و أمّا التّتار فإنّه بلغت غارتهم إلی غزّة و بلد الخلیل - علیه السلام- فقتلوا الرجال و سبوا النساء و الصّبیان و استاقوا من الأسری و الأبقار و الأغنام و المواشی شیئا کثیرا. کلّ ذلک و السلطان الملک المظفّر قطز سلطان مصر یتهیّأ للقاء التّتار.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۷۸

فلمّا اجتمعت العساکر الإسلامیّة بالدیار المصریّة ألقی اللّه تعالی فی قلب الملک المظفّر قطز الخروج لقتالهم بعد أن کانت القلوب قد أیست من النّصرة علی التّتار، و أجمعوا علی حفظ مصر لا غیر لکثرة عددهم و استیلائهم علی معظم بلاد المسلمین، و أنّهم ما قصدوا إقلیما إلّا فتحوه و لا عسکرا إلّا هزموه، و لم یبق خارج عن حکمهم فی الجانب الشرقیّ إلّا الدیار المصریّة و الحجاز و الیمن، و هرب جماعة من المغاربة الذین کانوا بمصر إلی الغرب، و هرب جماعة من الناس إلی الیمن و الحجاز، و الباقون بقوا فی وجل عظیم و خوف شدید یتوقّعون دخول العدوّ و أخذ البلاد؛ و صمّم الملک المظفّر- رحمه اللّه- علی لقاء التّتار، و خرج من مصر فی الجحافل الشامیّة و المصریّة فی شهر رمضان، و صحبته الملک المنصور صاحب حماة؛ و کان الأتابک فارس الدین أقطای المستعرب، الأمور کلّها مفوّضة إلیه؛ و سیّر الملک المظفّر قطز إلی صاحب حماة، و هو بالصالحیّة، یقول: له لا تحتفل فی مدّ سماط، بل کلّ واحد من أصحابک یفطر علی قطعة لحم فی صولقه. و سافر الملک المظفّر بالعساکر من الصالحیّة و وصل غزّة و القلوب وجلة.

و أما کتبغانوین مقدّم التّتار علی عسکر هولاکو لمّا بلغه خروج الملک المظفّر قطز کان بالبقاع؛ فاستدعی الملک الأشرف [موسی ابن المنصور صاحب حمص] و قاضی القضاة محیی الدین و استشارهم فی ذلک، فمنهم من أشار بعدم الملتقی

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۷۹

و الاندفاع بین یدی الملک المظفّر إلی حیث یجیئه مدد من هولاکو لیقوی علی ملتقی العسکر المصریّ، و منهم من أشار بغیر ذلک و تفرّقت الآراء، فاقتضی رأی کتبغانوین الملتقی، و توجّه من فوره لما أراد اللّه تعالی من إعزاز الإسلام و أهله، و إذلال الشّرک و حزبه، بعد أن جمع کتبغانوین من فی الشام من التّتار و غیرهم، و قصد محاربة المسلمین، و صحبته الملک السعید [حسن] ابن الملک العزیز عثمان. ثم رحل الملک المظفّر قطز بعساکره من غزّة و نزل الغور بعین جالوت، و فیه جموع التّتار فی یوم الجمعة خامس عشرین شهر رمضان، و وقع المصافّ بینهم فی الیوم المذکور، و تقاتلا قتالا شدیدا لم یر مثله حتّی قتل من الطائفتین جماعة کثیرة و انکسرت میسرة المسلمین کسرة شنیعة، فحمل الملک المظفّر- رحمه اللّه- بنفسه فی طائفة من عساکره و أردف المیسرة حتّی تحایوا و تراجعوا، و اقتحم الملک المظفّر القتال و باشر ذلک بنفسه و أبلی فی ذلک الیوم بلاء حسنا، و عظم الحرب و ثبت کلّ من الفریقین مع کثرة التتار. و المظفّر مع ذلک یشجّع أصحابه و یحسّن إلیهم الموت، و هو یکرّ بهم کرّة بعد کرّة حتّی نصر اللّه الإسلام و أعزّه، و انکسرت التّتار و ولّوا الأدبار علی أقبح وجه بعد أن قتل معظم أعیانهم و أصیب مقدّم العساکر التّتاریّة کتبغانوین، فإنّه أیضا لمّا عظم الخطب باشر القتال بنفسه فأخزاه اللّه تعالی و قتل شرّ قتلة. و کان الذی حمل علیه و قتله الأمیر جمال الدین آقوش الشّمسیّ- رحمه اللّه تعالی- و ولّوا التّتار الأدبار لا- یلوون علی شیء، و اعتصم منهم طائفة بالتلّ المجاور لمکان الوقعة، فأحدقت بهم العساکر و صابروهم علی القتال حتّی أفنوهم قتلا- و نجا من نجا. و تبعهم الأمیر رکن الدین بیبرس البندقداریّ فی جماعة من الشّجعان إلی أطراف البلاد؛

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۸۰

و استوفى أهل البلاد و الضّياع من التّتار آثارهم، و قتلوا منهم مقتلة عظيمة حتّى إنّه لم يسلم منهم إلّا القليل جدّا.

و فى حال الفراغ من المصافّ حضر الملک السعيد [حسن] ابن الملک العزيز عثمان ابن الملک العادل بين يدى السلطان الملک المظفّر قطز؛ و كان التّتار لمّا ملكوا قلعة البيرة وجدوه فيها معتقلا فأطلقوه و أعطوه بایاس و قلعة الصّبيبة فانضمّ على التّتار و بقى منهم، و قاتل يوم المصافّ المسلمين قتالا شديدا، فلما أيّد اللّه المسلمين بنصره و حضر الملوک عند الملک المظفّر فحضر الملک السعيد هذا من جملتهم على رغم أنفه، فلم يقبل المظفّر عذره، و أمر بضرب عنقه فضربت فى الحال. ثم كتب الملک المظفّر كتابا إلى أهل دمشق يخبرهم فيه بالفتح و كسر العدوّ المخذول و يعدهم بوصوله إليهم و نشر العدل فيهم، فسرّ عوامّ دمشق و أهلها بذلک سرورا زائدا، و قتلوا فخر الدين محمد بن يوسف بن محمد الكنجىّ فى جامع دمشق، و كان المذكور من أهل العلم، لكنّه كان فيه شرّ، و كان رافضيّا خبيثا و انضم على التّتار. و قتلوا أيضا بدمشق من أعوان التّتار ابن الماسكينى، و ابن النّفيل و غيرهما. و كان النّصارى بدمشق قد شمخوا و تجرّءوا على المسلمين و استطالوا بتردّد التّتار إلى كنائسهم.

و ذهب بعضهم إلى هولاكو و جاءوا من عنده بفرمان يتضمّن الوصيّة بهم و الاعتناء بأمرهم، و دخلوا بالفرمان من باب توما و صلبانهم مرتفعة، و هم ينادون بارتفاع دينهم و اتّضاع دين المسلمين، و يرشّون الخمر على الناس و فى أبواب المساجد، فحصل

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۸۱

عند المسلمين من ذلک همّ عظيم. فلمّا هرب نوّاب التّتار حين بلغتهم الكسرة أصبح الناس و توجّهوا إلى دور النّصارى ينهبونها و يأخذون ما استطاعوا منها، و أخربوا كنيسة اليعاقبة و أحرقوا كنيسة مريم حتّى بقيت كوما، و قتلوا منهم جماعة و اختفى الباقون. و كانت النصارى فى تلک الأيام ألزموا المسلمين بالقيام فى دكاكينهم للصّليب، و من لم يقم أخرقوا به و أهانوه، و شقّوا السّوق على هذا الوجه إلى عند القنطرة آخر سويقة كنيسة مريم؛ فقام بعضهم على الدّكّان الوسطى من الصف الغربىّ بين القناطر و خطب و فضّل دين النّصارى و وضع من دين الإسلام، و كان ذلک فى ثانى عشرين شهر رمضان. ثم من الغد طلع المسلمون مع قضاتهم و شهودهم إلى قلعة دمشق و بها التّتار فأهانوهم التتار، و رفعوا قسّيس النّصارى عليهم، ثم أخرجوهم بالضرب؛ فصار ذلک كلّه فى قلوب المسلمين. انتهى.

ثمّ إنّ أهل دمشق هموا أيضا بنهب اليهود فنهبوا منهم يسيرا، ثم كفّوا عنهم.

ثمّ وصل الملک المظفّر قطز إلى دمشق مؤيّدا منصورا فانجبرت بذلک قلوب الرّعايا و تضاعف شكرهم للّه تعالى. و التقاه أهل دمشق بعد أن عفّوا آثار النصارى و خرّبوا كنائسهم جزاء لما كانوا سلفوه من ضرب النواقيس على رءوس المسلمين، و دخولهم بالخمر إلى الجامع. و فى هذا المعنى يقول بعض شعراء دمشق:

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۸۲

هلک الكفر فى الشآم جميعا و استجدّ الإسلام بعد دحوضه

بالمليک المظفّر الملک الأر وع سيف الإسلام عند نهوضه

ملک [جاءنا] بعزم و حزم فآعتززنا بسمره و بيضه

أوجب اللّه شكر ذاک علينا دائما مثل واجبات فروضه

و فى نصرة الملک المظفّر هذا يقول الشيخ شهاب الدين أبو شامة:

غلب التّتار على البلاد فجاءهم من مصر تركى يجود بنفسه

بالشام أهلكهم و بدّد شملهم و لكلّ شىء آفة من جنسه

ثم قدم الخبر على السلطان بدمشق فى شوّال بأنّ المنهزمين من رجال التّتار و نسائهم لحقهم الطّلب من الأمير ركن الدين بيبرس

البندقداریّ، فإنّ بیبرس کان تقدّم قبل السلطان إلی دمشق یتتبع آثار التّتار إلی قرب حلب، فلمّا قرب منهم بیبرس سیّبوا ما کان فی أیدیهم من أساری المسلمین، و رموا أولادهم فتخطّفهم النّاس، و قاسوا من البلاء ما یستحقّونه.

و کان الملک المظفّر قطز قد وعد الأمیر بیبرس بحلب و أعمالها، فلمّا انتصر علی التّتار انثنی عزمه عن إعطائه حلب، و ولّاها لعلاء الدّین [علیّ ابن بدر الدین لؤلؤ] صاحب الموصل، فکان ذلک سبب الوحشة بین بیبرس و بین الملک المظفّر قطز.

علی ما یأتی ذکره.

و لمّا قدم الملک المظفّر إلی دمشق أحسن إلی الناس و أجراهم علی عوائدهم و قواعدهم إلی آخر أیّام الملک الناصر صلاح الدین یوسف. و سیّر الملک الأشرف صاحب حمص یطلب منه أمانا علی نفسه و بلاده، و کان الأشرف أیضا ممّن انضاف

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۸۳

إلی التّتار فأمّنه و أعطاه بلاده و أقرّه علیها؛ فحضر الأشرف إلی خدمة الملک المظفّر ثم عاد إلی بلده. ثم توجّه الملک المظفّر صاحب حماة إلی حماة علی ما کان علیه، و کان حضر مع الملک المظفّر قطز من مصر.

قلت: و الملک المظفّر قطز هو أوّل من ملک البلاد الشامیّة و استناب بها من ملوک الترک.

ثمّ إنّ الملک المظفّر قطز رتّب أمور الشام و استناب بدمشق الأمیر علم الدین سنجر الحلبیّ الکبیر. ثم خرج المظفّر من دمشق عائدا إلی مصر إلی أن وصل إلی القصیر، و بقی بینه و بین الصالحیّة مرحلة واحدة، و رحلت العساکر إلی جهة الصالحیّة و ضرب الدهلیز السلطانیّ بها و بقی المظفّر مع بعض خواصّه و أمرائه؛ و کان جماعة قد اتّفقوا مع الأمیر بیبرس البندقداریّ علی قتل الملک المظفّر: منهم الأمیر سیف الدین أنص من ممالیک [نجم الدین] الرومی الصالحی، و علم الدین صنغلی، و [سیف الدین بلبان] الهارونیّ و غیرهم؛ کلّ ذلک لکمین کان فی نفس بیبرس، لأجل نیابة حلب. و اتّفق عند القصیر بعد توجّه العساکر إلی الصالحیّة أن ثارت أرنب فساق الملک المظفّر قطز علیها، و ساق هؤلاء المتّفقون علی قتله معه، فلمّا أبعدوا و لم یبق معه غیرهم، تقدّم إلیه الأمیر بیبرس البندقداریّ و شفع عنده

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۸۴

شفاعة فی إنسان فأجابه، فأهوی بیبرس لیقبّل یده فقبض علیها؛ و حمل أنص علیه، و قد أشغل بیبرس یده، و ضربه بالسیف، ثمّ حمل الباقون علیه و رموه عن فرسه، و رشقوه بالنّشّاب فقتلوه، ثم حملوا علی العسکر و هم شاهرون سیوفهم حتّی وصلوا إلی الدّهلیز السلطانیّ بالصالحیّة؛ فنزلوا و دخلوا و الأتابک علی باب الدّهلیز فأخبروه بما فعلوا؛ فقال: من قتله منکم؟ فقال بیبرس: أنا، فقال: یا خوند، اجلس علی مرتبة السلطان! یأتی بقیة ذلک فی أوّل ترجمة الملک الظاهر بیبرس البندقداریّ المذکور. إن شاء اللّه تعالی.

و لمّا وقع ذلک و بلغ الأمیر علم الدین سنجر الحلبیّ الکبیر نائب دمشق عزّ علیه قتل الملک المظفّر، ثم دعا الناس لنفسه و استحلفهم و تلقّب بالملک المجاهد.

علی ما یأتی ذکره أیضا. أمّا الملک المظفّر قطز فإنّه دفن موضع قتله- رحمه اللّه تعالی- و کثر أسف الناس و حزنهم علیه. قال الحافظ أبو عبد اللّه شمس الدین محمد الذهبیّ فی تاریخه- رحمه اللّه تعالی- بعد ما سمّاه و نعته قال:

و کان المظفّر أکبر ممالیک الملک المعزّ أیبک التّرکمانیّ، و کان بطلا شجاعا مقداما حازما حسن التدبیر، یرجع إلی دین و إسلام و خیر، و له الید البیضاء فی جهاد التّتار، فعوّض اللّه شبابه بالجنّة و رضی عنه. و حکی الشیخ شمس الدین الجزریّ فی تاریخه

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۸۵

عن أبیه، قال: کان قطز فی رقّ ابن الزعیم بدمشق فی القصّاعین، فضربه أستاذه فبکی و لم یأکل شیئا یومه، ثم رکب أستاذه للخدمه و أمر الفرّاش أن یترضّاه و یطعمه، قال: فحدّثنی الحاجّ علیّ الفراش قال: فجئته و قلت: ما هذا البکاء من لطشة؟ فقال: إنّما بکائی من لعنة أبی و جدّی و هم خیر منه، فقلت: من أبوک؟ واحد کافر! فقال: و اللّه ما أنا إلّا مسلم ابن مسلم، أنا محمود بن ممدود ابن أخت

خوارزم شاه من أولاد الملوك، فسكّته و ترضّيته. و تنقّلت به الأحوال إلى أن تملّك مصر، و لمّا تملك أحسن إلى الحاج علىّ الفراش المذكور، و أعطاه خمسمائة دينار و عمل له راتبا. قال الذهبىّ أيضا: و لمّا تسلطن لم يبلغ ريقه و لا تهنّى بالسلطنة حتى امتلأت الشامات المباركة بالتّتار؛ ثم ساق الذهبىّ أمره مع التّتار بنحو ما حكيناه.

و قال الشيخ قطب الدين: حكى عن الملك المظفّر قطز أنّه قتل جواده يوم القتال مع التّتار، و لم يصادف المظفّر أحد من الأوشاقية فبقى راجلا، فرآه بعض الأمراء الشجعان فترجّل له و قدّم له حصانه، فامتنع المظفّر من ركوبه و قال:

ما كنت لأمنع المسلمين الانتفاع بك فى هذا الوقت! ثم تلاحقت الأوشاقيّة إليه.

و قال ابن الجزرىّ فى تاريخه: حدّثنى أبى قال حدّثنى أبو بكر بن الدّريهم الإسعردىّ و الزكىّ إبراهيم أستاذ الفارس أقطاى قالا: كنّا عند سيف الدين قطز لمّا تسلطن أستاذه الملك المعزّ أيبك التركمانىّ، فأمرنا قطز بالقعود، ثم أمر المنجّم فضرب الرّمل،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۸۶

ثم قال له قطز: اضرب لمن يملك بعد أستاذى الملك المعزّ أيبك، و من يكسر التّتار، فضرب و بقى زمانا يحسب، فقال: يطلع معى خمس حروف بلا نقط. فقال له قطز: لم لا تقول محمود بن ممدود، فقال: يا خوند لا ينفع غير هذا الاسم، فقال:

أنا هو، أنا محمود بن ممدود، و أنا أكسر التّتار و آخذ بثأر خالى خوارزم شاه، فتعجّبنا من كلامه، و قلنا: إن شاء اللّه يكون هذا يا خوند، فقال: اكتموا ذلك، و أعطى المنجّم ثلثمائة درهم.

قلت: و نقل الشيخ قطب الدين اليونينىّ فى تاريخه الذى ذيلّه على مرآة الزمان، فقال فى أمر المنجّم غير هذه الصورة. و سنذكرها فى سياق كلام قطب الدين المذكور. قال (أعنى قطب الدين): كان المظفّر أخصّ مماليك الملك المعزّ و أقربهم إليه و أوثقهم عنده. و هو الذى قتل الأمير فارس الدين أقطاى الجمدار.

قال: و كان الملك المظفّر بطلا شجاعا مقداما حازما حسن التدبير لم يكن يوصف بكرم و لا شحّ بل كان متوسّطا فى ذلك، و ذكر حكايته لمّا أن قتل جواده يوم الوقعة بنحو ممّا حكيناه، لكنّه زاد بأن قال: فلام المظفّر بعض خواصّه على عدم ركوبه، و قال: يا خوند- لو صادفك، و العياذ بالله تعالى- بعض المغل و أنت راجل كنت رحت و راح الإسلام! فقال: أما أنا فكنت رحت إلى الجنّة- إن شاء اللّه تعالى- و أما الإسلام فما كان اللّه ليضيعه؛ فقد مات الملك الصالح نجم الدين أيّوب، و قتل بعده ابنه الملك المعظّم توران شاه، و قتل الأمير فخر الدين ابن الشيخ مقدّم العساكر يوم ذاك، و نصر اللّه الإسلام بعد اليأس من نصره! (يعنى عن نوبة أخذ الفرنج دمياط). ثم قال قطب الدين، بعد ما ساق توجهه إلى دمشق و إصلاح أمرها إلى أن قال: و قتل الملك المظفّر قطز مظلوما بالقرب من القضير و هى المنزلة التى بقرب الصالحية، و بقى ملقى بالعراء فدفنه بعض من كان فى خدمته

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۸۷

بالقصير، و كان قبره يقصد للزيارة دائما. قال: و اجتزت به فى شهر رمضان سنة تسع و خمسين و ستمائة، و ترحّمت عليه و زرته. و كان كثير الترحّم عليه و الدعاء على من قتله. فلمّا بلغ بيبرس ذلك أمر بنبشه و نقله إلى غير ذلك المكان و عفّى أثره، و لم يعفّ خبره- رحمه اللّه تعالى و جزاه عن الإسلام خيرا- قال: و لم يخلّف ولدا ذكرا، و كان قتله يوم السبت سادس عشر ذى القعدة سنة ثمان و خمسين و ستمائة.

قلت: فعلى هذا تكون مدّة سلطنة الملك المظفّر قطز سنة إلّا يومنا واحدا، فإنّه تسلطن فى يوم السبت سابع عشر ذى القعدة من سنة سبع و خمسين و ستمائة، و قتل فيما نقله الشيخ قطب الدين فى يوم السبت سادس عشر ذى القعدة من سنة ثمان و خمسين و ستمائة: انتهى. قال: حكى لى المولى علاء الدين بن غانم فى غرّة شوّال سنة إحدى و تسعين و ستّمائة ببعلبكّ، قال: حدّثنى المولى تاج الدين أحمد ابن الأثير- تغمده اللّه برحمته- ما معناه: أنّ الملك الناصر صلاح الدين يوسف- رحمه اللّه- لمّا كان على برزة فى أواخر سنة سبع و خمسين وصله قصّاد من الديار المصريّة بكتب يخبرونه فيها أنّ قطز تسلطن و ملك الديار المصريّة و قبض على ابن أستاذه، قال

المولی تاج الدین- رحمه اللّه-: فطلبنی السلطان الملک الناصر قرأت علیه الکتب، و قال لی: خذ هذه الکتب و رح إلی الأمیر ناصر الدین القیمریّ، و الأمیر جمال الدین بن یغمور أوقف کلّا منهما علیها، قال: فأخذتها

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۸۸

و خرجت فلما بعدت عن الدّهلیز لقینی حسام الدین البرکة خانی و سلّم علیّ، و قال:

جاءکم بریدیّ أو قصّاد من الدیار المصریّة؟ فورّیت و قلت: ما عندی علم بشیء من هذا، قال: قطز تسلطن و تملّک الدیار المصریّة و یکسر التّتار؛ قال تاج الدین:

فبقیت متعجبا من حدیثه، و قلت له: إیش هذا القول، و من أین لک هذا؟

قال: و اللّه هذا قطز خشداشی، کنت أنا و إیّاه عند الهیجاوی من أمراء مصر و نحن صبیان، و کان علیه قمل کثیر، فکنت أسرّح رأسه علی أنّنی کلّما أخذت منه قملة أخذت منه فلسا أو صفعته، ثم قلت فی غضون ذلک: و اللّه ما أشتهی إلا أنّ اللّه یرزقنی إمرة خمسین فارسا، فقال لی: طیّب قلبک، أنا أعطیک إمرة خمسین فارسا، فصفعته و قلت: أنت تعطینی إمرة خمسین! قال: نعم فصفّعته، فقال لی: و أ لک علّة! إیش یلزم لک إلّا إمرة خمسین فارسا؟ أنا و اللّه أعطیک، قلت: ویلک! کیف تعطینی؟ قال: أنا أملک الدیار المصریّة، و أکسر التّتار و أعطیک الذی طلبت، قلت: ویلک أنت مجنون! أنت بقملک تملک الدیار المصریة؟ قال: نعم، رأیت النّبیّ صلّی اللّه علیه و سلّم فی المنام و قال لی: أنت تملک الدیار المصریّة و تکسر التّتار، و قول النّبیّ صلّی اللّه علیه و سلّم حقّ لا شکّ فیه، قال: فسکتّ و کنت أعرف منه الصدق فی حدیثه و عدم الکذب. قال تاج الدین:

فلمّا قال لی هذا، قلت له: قد وردت الأخبار بأنّه تسلطن، قال لی: و اللّه و هو یکسر التّتار. قال تاج الدین: فرأیت حسام الدین البرکة خانی- الحاکی ذلک- بالدیار المصریّة بعد کسر التّتار فسلّم علیّ، و قال: یا مولای تاج الدین،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۸۹

تذکر ما قلت لک فی الوقت الفلانیّ؟ قلت: نعم، قال: و اللّه حالما عاد الملک الناصر من قطیا دخلت الدیار المصریّة أعطانی إمرة خمسین فارسا کما قال، لا زائد علی ذلک. قال: و حکی لی عزّ الدین محمد بن أبی الهیجاء ما معناه: أنّ سیف الدین بلغاق حدّثه أنّ الأمیر بدر الدین بکتوت الأتابکیّ، حکی لی قال: کنت أنا و الملک المظفّر قطز و الملک الظاهر بیبرس- رحمهما اللّه تعالی- فی حال الصّبا کثیرا ما نکون مجتمعین فی رکوبنا و غیر ذلک، فاتّفق أن رأینا منجّما فی بعض الطریق بالدیار المصریّة، فقال له الملک المظفّر قطز: أبصر نجمی، فضرب بالرّمل و حسب و قال: أنت تملک هذه البلاد و تکسر التّتار، فشرعنا نهزأ به. ثم قال له الملک الظاهر بیبرس: أبصر نجمی، فقال: و أنت أیضا تملک الدیار المصریّة و غیرها، فتزاید استهزاؤنا به، ثم قالا لی، لا بدّ أن تبصر نجمک، فقلت له: أبصر لی نجمی، فحسب و قال: أنت تخلص لک إمرة مائة فارس، یعطیک هذا، و أشار إلی الملک الظاهر، فاتّفق أن وقع الأمر کما قال، و لم یخرم منه شیء. و هذا من عجیب الاتّفاق. انتهت ترجمة الملک المظفّر قطز. و یأتی ذکر حوادثه علی عادة هذا الکتاب إن شاء اللّه تعالی.

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۵۸]

اشارة

السنة التی حکم فیها الملک المظفّر قطز علی الدیار المصریّة، و هی سنة ثمان و خمسین و ستمائة علی أنّه حکم من سنة سبع شهرین و قتل قبل انقضاء السنة أیضا بشهرین.

فیها کانت کائنة التّتار مع الملک المظفّر قطز و غیره، حسب ما تقدّم ذکره من أنّهم ملکوا حلب و الشام ثم رحلوا عنها.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۹۰

و فيها غلت الأسعار بالبلاد الشاميّة.

و فيها توفّى الملك السعيد نجم الدين إيلغازى ابن الملك المنصور ناصر الدين أبى المظفّر أرتق بن أرسلان بن نجم الدين إيلغازى ابن ألبى بن تمرتاش بن إيلغازى ابن أرتق، السلطان أبو الفتح صاحب ماردين. كان ملكا جليلا- كبير القدر شجاعا جوادا حازما ممدّحا. مات فى ذى الحجّة، و ملك ماردين بعده ابنه الملك المظفّر رحمه اللّه.

و فيها توفّى الملك المعظّم فخر الدين أبو المفاخر توران شاه ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب، كان قد كبرت سنّه و صار كبير البيت الأيّوبىّ، و كانت نفسه لا تحدّثه بالوثوب على الأمر، فلذلك عاش عيشا رغدا و طال عمره. و كان الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب الشام يعظّمه و يحترمه و يثق به. و هو غير الملك المعظم توران شاه ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب. و قد تقدّم قتل هذاك فى كائنة دمياط، و عدّ أيضا من ملوك مصر. و توران شاه هذا هو ابن عم الملك الكامل محمد جدّ توران شاه هذاك. و هو أيضا غير توران شاه ابن الملك الكامل محمد المعروف بأقسيس. انتهى. و مولد توران شاه هذا بالقاهرة فى سنة سبع و سبعين و خمسمائة و مات فى شهر ربيع الأوّل من هذه السنة بحلب.

و فيها قتل الأمير كتبغانوين مقدّم عساكر التّتار الذى قتل فى الوقعة التى كانت بينه و بين المظفّر قطز بعين جالوت المقدّم ذكرها. كان كتبغانوين عظيما عند

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۹۱

التّتار يعتمدون على رأيه و شجاعته و تدبيره، و كان بطلا شجاعا مقداما خبيرا بالحروب و افتتاح الحصون و الاستيلاء على الممالك، و هو الذى فتح معظم بلاد العجم و العراق.

و كان هولاكو ملك التتار يثق به و لا- يخالفه فيما يشير إليه و يتبرّك برأيه. يحكى عنه عجائب فى حروبه، و كانت مقتلته فى يوم الجمعة خامس عشرين شهر رمضان فى المصافّ على عين جالوت.

قلت: إلى سقر و بئس المصير، و لقد استراح الإسلام منه، فإنّه شرّ عصابة على الإسلام و أهله. و للّه الحمد على هلاكه.

و فيها توفّى الملك المظفّر أبو المعالى ناصر الدين محمد ابن الملك المظفّر غازى بن أبى بكر محمد العادل بن أيّوب صاحب ميّافارقين و تلك البلاد. ملكها فى سنة خمس و أربعين و ستمائة عقيب وفاة والده، [و] دام فى الملك سنين إلى أن جفل من التّتار بعد أن كان يداريهم سنين، و قدم على الملك الناصر صلاح الدين يوسف بدمشق و استنجده على التّتار فوعده الناصر بالنّجدة، و آخر الأمر أنّه رجع إلى بلاده، و حصره التّتار بها نحو سنتين حتّى استشهد بأيديهم- رحمه اللّه تعالى و عفا عنه-.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى و استشهد بحلب خلائق لا يحصون؛ منهم، إبراهيم بن خليل الأدمىّ. و الرئيس أبو طالب عبد الرحمن ابن عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن العجمىّ، تحت عذاب التّتار. و بدمشق عبد اللّه ابن بركات بن إبراهيم [المعروف بابن] الخشوعىّ فى صفر. و العماد عبد الحميد بن عبد الهادى المقدسىّ فى شهر ربيع الأوّل عن خمس و ثمانين سنة. و الملك المعظّم

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۹۲

توران شاه ابن السلطان صلاح الدين فى شهر ربيع الأوّل، و له إحدى و ثمانون سنة.

و الشمس محمد بن عبد الهادى أخو العماد بقرية ساوية [من عمل نابلس] شهيدا. و قاضى القضاة صدر الدين أحمد ابن شمس الدين أبى البركات يحيى بن هبة اللّه بن سنىّ الدولة ببعلبك، و قد قارب السبعين فى جمادى الآخرة. و أبو الكرم لاحق بن عبد المنعم الأرتاحىّ بالقاهرة، و له خمس و ثمانون سنة. و الحافظ المفيد محبّ الدين عبد اللّه بن أحمد المقدسىّ. و الفقيه الكبير أبو عبد اللّه محمد بن أبى الحسين [أحمد] بن عبد اللّه اليونينىّ فى رمضان، و له سبع و ثمانون سنة فى المحرّم. و الحافظ البليغ أبو عبد اللّه محمد

بن عبد اللّه بن أبى بكر القضاعىّ البلنسىّ الكاتب المعروف بالأبّار بتونس مقتولا. و الملك الكامل الشهيد ناصر الدين محمد ابن المظفّر شهاب الدين غازى بن العادل. و الملك المظفّر الشهيد سيف الدين قطز فى ذى القعدة، فتكوا به فى الرمل. و صاحب الصّبيبة الملك السعيد حسن بن العزيز عثمان بن العادل، قتل صبرا يوم عين جالوت بأمر الملك المظفّر. و فى آخرها صاحب ماردين الملك السعيد نجم الدين إيلغازى بن أرتق. و الملك كتبغانوين رأس التّتار يوم عين

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۹۳

جالوت، قتله آقوش الشّمسىّ. و حسام الدين محمد بن أبى علىّ الهذبانىّ نائب السلطنة بمصر. و الأمير مجير الدين إبراهيم [بن أبى بكر] بن أبى زكرى بنابلس شهيدا بعد أن قتل جماعة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و ست عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا و إحدى عشرة إصبعا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۹۴

ذكر سلطنة الملك الظاهر بيبرس البندقدارىّ على مصر

السلطان الملك القاهر ثم الظاهر ركن الدين أبو الفتوح بيبرس بن عبد اللّه البندقدارىّ الصالحىّ النّجمىّ الأيّوبىّ التّركىّ، سلطان الديار المصريّة و البلاد الشاميّة و الأقطار الحجازيّة، و هو الرابع من ملوك الترك. مولده فى حدود العشرين و ستمائة بصحراء القبجاق تخمينا و القبجاق قبيلة عظيمة فى التّرك، و هو (بكسر القاف و سكون الباء ثانية الحروف و فتح الجيم ثم ألف و قاف ساكنة)، و بيبرس (بكسر الباء الموحدة ثانية الحروف و سكون الياء المثناة من تحتها ثم فتح الباء الموحدة و سكون الراء و السين المهملتين) و معناه باللغة التركية: أمير فهد. انتهى.

قلت: أخذ بيبرس المذكور من بلاده و أبيع بدمشق للعماد الصائغ. ثم اشتراه الأمير علاء الدين أيدكين الصالحى البندقدارىّ و به سمّى البندقدارىّ.

قلت: و العجيب أن علاء الدين أيدكين البندقدارىّ المذكور عاش حتّى صار من جملة أمراء الظاهر بيبرس هذا. على ما سيأتى ذكره مفصّلا- إن شاء اللّه تعالى- حكى شيخ الشيوخ شرف الدين عبد العزيز الأنصارىّ الحموىّ قال:

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۹۵

كان الأمير علاء الدين البندقدارىّ الصالحىّ لمّا قبض عليه و أحضر إلى حماة و اعتقل بجامع قلعتها اتّفق حضور ركن الدين بيبرس مع تاجر، و كان الملك المنصور (يعنى صاحب حماة) إذ ذاك صبيا و كان إذا أراد شراء رقيق تبصره الصاحبة والدته، فأحضر بيبرس هذا مع آخر فرأتهما من وراء السّتر فأمرت بشراء خشداشه، و قالت: هذا الأسمر لا يكون بينك و بينه معاملة فإنّ فى عينيه شرّا لائحا فردّتهما جميعا؛ فطلب البندقدارىّ الغلامين يعنى بيبرس و رفيقه فاشتراهما و هو معتقل، ثم أفرج عنه فسار إلى مصر؛ و آل أمر ركن الدين إلى ما آل.

و قال الذهبىّ: اشتراه الأمير علاء الدين البندقدارىّ الصالحىّ فطلع بطلا شجاعا نجيبا لا ينبغى [أن] يكون إلّا عند ملك، فأخذه الملك الصالح منه. و قيل: بقى بيبرس المذكور فى ملك البندقدارىّ حتى صادره أستاذه الملك الصالح نجم الدين أيوب، و أخذ بيبرس هذا فيما أخذه منه فى المصادرة فى شهر شوّال سنة أربع و أربعين و ستمائة.

قلت: و هذا القول هو المشهور.

و لمّا اشتراه الملك الصالح أعتقه و جعله من جملة مماليكه، و قدّمه على طائفة الجمداريّة لما رأى من فطنته و ذكائه؛ و حضر مع أستاذه الملك الصالح واقعة دمياط.

و قال الشیخ عزّ الـدین عمر بن علیّ بن إبراهیم بن شـدّاد: أخبرنی الأمیر بـدر الـدین بیسـری الشّمسـیّ أنّ مولد الملک الظاهر بأرض القبجاق سنة خمس و عشرین و ستمائة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۹۶

تقریبـا. و سـبب انتقـاله من وطنه إلی البلاد أنّ التّتار لمّا أزمعوا علی قصـد بلادهم سـنة تسع و ثلاثین و سـتمائة، و بلغهم ذلک، کاتبوا أنس خـان ملـک أولاـق أن یعبروا بحر صوداق إلیه لیجیرهم من التّتـار، فأجـابهم إلی ذلک و أنزلهم وادیا بین جبلین، و کان عبورهم إلیه فی سـنة أربعین و ستمائة؛ فلما اطمأنّ بهم المقام غدر بهم و شنّ الغارة علیهم، فقتل منهم و سبی. قال بیسری: و کنت أنا و الملک الظاهر فیمن أسـر؛ قال: و کان عمره إذ ذاک أربع عشـرة سـنة تقدیرا، فبیع فیمن بیع و حمل إلی سـیواس ثمّ افترقنا و اجتمعنا فی حلب فی خان ابن قلیـج ثم افترقنا؛ فاتّفق أن حمل إلی القاهرة فبیع علی الأمیر علاء الـدین أیـدکین البندقـداریّ و بقی فی یده إلی أن انتقل عنه بالقبض علیه فی جملة ما استرجعه الملک الصالح نجم الدین أیّوب منه، و ذلک فی شوّال سنة أربع و أربعین و ستمائة.

قلت: و هذا القول مطابق لقولنا الذی ذکرناه. قال: ثم قدّمه الملک الصالح علی طائفة الجمداریّة. انتهی.

و قـال غیره: و لمّـا مات الملک الصالـح نجم الـدین أیّوب و ملک بعـده ابنه الملک المعظّم توران شاه و قتل و أجمعوا علی الأمیر عزّ الدین أیبک التّرکمانیّ و ولّوه الأتابکیّة،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۹۷

ثم اسـتقلّ بالملک و قتل الأمیر فارس الـدین أقطای الجمـدار، رکـب الملک الظاهر بیبرس هذا و البحریّة و قصدوا قلعة الجبل؛ فلمّا لم ینـالوا مقصودهم خرجوا من القـاهرة مجاهرین بالعـداوة للملک المعزّ أیبک التّرکمانی و مهاجرین إلی الملک الناصـر صـلاح الـدین یوسف [ابن الملـک العزیز محمـد بن الظاهر غازی ابن السلطان صـلاح الـدین یوسف بن أیّوب] صاحب الشام. و هم: الملک الظاهر بیبرس هذا، و سـیف الدین بلبان الرّشـیدیّ، و عزّ الدین أزدمر السّـیفیّ، و شـمس الدین سـنقر الرّومی، و شمس الدین سنقر الأشقر، و بـدر الـدین بیسـری الشّمسـیّ، و سـیف الدین قلاوون الألفی، و سـیف الدین بلبان المسـتعرب و غیرهم؛ فلمّا شارفوا دمشق سـیّر إلیهم الملک الناصـر طیّب قلوبهم، فبعثوا فخر الدین إیاز المقرئ یسـتحلفه لهم فخلف الناصـر لهم و دخلوا دمشق فی العشـر الأخیر من شهر رمضان سنة اثنتین و خمسین و ستمائة، فأکرمهم الملک الناصر صلاح الدین و أطلق للملک الظاهر بیبرس ثلاثین ألف درهم، و ثلاثة قطر بغـال و ثلاثـة قطر جمـال و ملبوسـا، و فرّق فی بقیّة الجماعـة الأموال و الخلع علی قـدر مراتبهم. و کتب الملک المعزّ أیبک إلی الملـک الناصـر یحـذّره منهم و یغریه بهم، فلم یصغ إلیه الناصـر، و دام علی إحسـانه إلیهم. و کـان عیّن الناصـر لبیبرس إقطاعا بحلب، فطلب الملک الظاهر بیبرس من الملک الناصر أن یعوّضه عمّا کان له بحلب من الإقطاع بجینین و زرعین فأجابه الملک الناصر إلی

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۹۸

ذلک؛ فتوجّه بیبرس إلیها و عاد، فاستشـعر بیبرس من الملک الناصـر بالغـدر فتوجّه بمن معه و من تبعه من خشداشـیته إلی الکرک، و اجتمعـوا بصـاحب الکرک الملـک المغیـث عمر بـن العـادل أبی بکر بـن الکامـل محمـد، فجهّز الملـک المغیث عسـکره مع بیـبرس المذکور، و عدّة من کان جهّزه معه ستّمائة فارس، و خرج من عسکر مصر جماعة لملتقاه؛ فأراد بیبرس کبسهم فوجدهم علی أهبة، ثم واقع المصـریّین فانکسـر و لم ینج منهم إلّا القلیل، فالذی نجا من الأعیان: بیبرس و بیلیک الخازندار، و أسـر بلبان الرّشیدی. و قد تقدّم ذکر ذلک کلّه فی ترجمة المعزّ مجملا، و لکن نذکره هنا مفصّلا.

و عاد بیبرس هذا إلی الکرک و أقام بها، فتواترت علیه کتب المصـریّین یحرّضونه علی قصد الدیار المصریّة، و جاءه جماعة کثیرة من عسـکر الملک الناصـر. فأخذ بیبرس یطمع الملک المغیث صاحب الکرک فی ملک مصـر، و لا زال به حتّی رکب معه بعسکره و نزل غزّة، و ندب الملک المعزّ أیبک عسکرا لقتالهم، و قدّم علی العسکر المصریّ مملوکه الأمیر قطز و الأمیر أقطای المستعرب، و ساروا و هرب من عسکر مصر إلی بیبرس و المغیث الأمیر عزّ الدین أیبک الرومیّ، و الأمیر بلبان الکافوریّ و الأمیر سنقر شاه العزیری، و الأمیر

أیبک الخواشی، و الأمیر بدر الدین برخان، و الأمیر بغدی، و أیبک الحمویّ، و جمال الدین هارون القیمریّ و الجمیع أمراء، و اجتمعوا الجمیع مع بیبرس و الملک المغیث بعزّة، فقویت شوکتهما بهؤلاء، و ساروا الجمیع إلی الصالحیّة،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۹۹

و لقوا عسکر مصر یوم الثلاثاء رابع عشر شهر ربیع الآخر سنة ست و خمسین، فاستظهر عسکر بیبرس و المغیث أوّلا، ثم عادت الکسرة علیهم لثبات قطز المعزّیّ، و هرب الملک المغیث و لحقه بیبرس، و أسر من عسکر بیبرس عزّ الدین أیبک الرومیّ، و رکن الدین منکورس الصّیرفیّ، و بلبان الکافوریّ و عزّ الدین أیبک الحمویّ، و بدر الدین بلغان الأشرفی، و جمال الدین هارون القیمریّ، و سنقر شاه العزیزیّ، و بهاء الدین أیدغدی الإسکندرانیّ، و بدر الدین برخان، و بغدی، و بیلیک الخازندار الظاهریّ فضربت [أعناق] الجمیع صبرا، ما خلا الخازندار [فإنّ جمال الدین] الجوکنداری شفع فیه، و خیّروه بین المقام و الذّهاب فاختار الذّهاب إلی أستاذه، فأطلق و توجّه إلی أستاذه، و لمّا أن وصل الملک المغیث إلی الکرک حصل بینه و بین رکن الدین بیبرس هذا وحشة؛ و أراد المغیث القبض علیه بعد أمور صدرت، فأحسّ بیبرس بذلک و هرب و عاد إلی الملک الناصر صلاح الدین یوسف صاحب الشام، بعد أن استحلفه علی أن یعطیه خبز مائة فارس من جملتها قصبة نابلس، و جینین و زرعین فأجاب إلی نابلس لا غیر. و کان قدومه علی الناصر فی شهر رجب سنة سبع و خمسین و ستّمائة، و معه الجماعة الذین

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۰۰

حلف لهم الملک الناصر أیضا و هم: بیسری الشّمسیّ و أیتمش السّعدیّ و طیبرس الوزیریّ و آقوش الرومیّ الدّوادار، و کشتغدی الشّمسیّ و لاجین الدّرفیل، و أیدغمش الحلبیّ و کشتغدیّ الشرقی و أیبک السیخی و بیبرس خاص ترک الصغیر، و بلبان المهرانیّ، و سنجر الباشقردی و سنجر الهمامیّ، و أرسلان الناصریّ و یکنی الخوارزمیّ، و سیف الدین طمان [الشّقیری]، و أیبک العلائیّ، و لاچین الشّقیریّ، و بلبان الأقسیسیّ، و علم الدین سلطان الإلدکزیّ، فأکرمهم الملک الناصر، و وفّی لهم بما حلف، و داموا علی ذلک حتّی قبض الأمیر قطز علی ابن أستاذه الملک المنصور علیّ، و تسلطن و تلقّب بالملک المظفّر قطز، شرع بیبرس یحرّض الملک الناصر علی التوجّه إلی الدیار المصریّة لیملکها، فلم یجبه، فکلّمه بیبرس فی أن یقدّمه علی أربعة آلاف فارس، أو یقدّم علیهم غیره، و یتوجّه بها إلی شطّ الفرات یمنع التّتار من العبور إلی الشام، فلم یمکّنه ابن عمّه الملک الصالح إسماعیل لباطن کان له مع التّتار، قاتله اللّه! فاستمرّ بیبرس عند الناصر إلی سنة ثمان و خمسین فارقه بمن معه

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۰۱

و قصد الشّهرزوریّة و تزوّج منهم؛ ثم أرسل إلی الملک المظّفر قطز من استحلفه له، فحلف قطز. و دخل بیبرس إلی القاهرة فی یوم السبت الثانی و العشرین من شهر ربیع الأوّل سنة ثمان و خمسین، فرکب الملک المظفّر قطز للقائه و أنزله فی دار الوزارة و أقطعه قصبة قلیوب، فلم تطل مدّته بالقاهرة و تهیّأ الملک المظفّر قطز لقتال التّتار، و سیّر بیبرس هذا فی عسکر أمامه کالجالیش لیتجسّس أخبار التّتار؛ فکان أوّل ما وقعت عینه علیهم ناوشهم بالقتال، فلما انقضت الوقعة بعین جالوت تبعهم بیبرس هذا، یقتل من وجده منهم، إلی حمص؛ ثم عاد فوافی الملک المظفّر قطز بدمشق، و کان وعده بنیابة حلب، فأعطاها قطز لصاحب الموصل، فحقد علیه بیبرس فی الباطن، و اتّفق علی قتله مع جماعة لمّا عاد الملک المظّفر إلی نحو الدیار المصریّة. و الذین اتّفقوا معه: بلبان الرّشیدیّ، و بهادر المعزّی، و بکتوت الجوکندار المعزیّ، و بیدغان الرّکنیّ، و بلبان الهارونیّ، و أنص الأصبهانیّ، و اتّفقوا الجمیع مع بیبرس علی قتل الملک المظفّر قطز؛ و ساروا معه نحو الدیار المصریّة إلی أن وصل الملک المظفّر قطز إلی القصیر، و بقی بینه و بین الصالحیّة مرحلة، و رحل العسکر طالبا الصالحیّة، و ضرب دهلیز السلطان بها، و اتّفق عند القصیر أن ثارت أرنب فساق المظفّر قطز، و ساق هؤلاء المتّفقون علی

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۰۲

قتله معه، فلمّا أبعدوا و لم يبق مع المظفّر غيرهم، تقدّم إليه ركن الدين بيبرس و شفع عنده فى إنسان فأجابه المظفّر، فأهوى بيبرس ليقبّل يده فقبض عليها، و حمل أنص عليه و قد أشغل بيبرس يده و ضربه أنص بالسيف، و حمل الباقون عليه و رموه عن فرسه و رشقوه بالنّشّاب إلى أن مات، ثم حملوا على العسكر و هم شاهرون سيوفهم حتّى وصلوا إلى الدّهليز السلطانيّ، فنزلوا و دخلوه و الأتابك على باب الدهليز فأخبروه بما فعلوا، فقال فارس الدين الأتابك: من قتله منكم؟

فقال بيبرس: أنا؛ فقال: ياخوند، اجلس فى مرتبة السلطنة فجلس؛ و استدعيت العساكر للحلف، و كان القاضى برهان الدين قد وصل إلى العسكر متلقّيا للملك المظفّر قطز، فاستدعى و حلّف العسكر للملك الظاهر بيبرس، و تمّ أمره فى السلطنة و أطاعته العساكر؛ ثم ركب و ساق فى جماعة من أصحابه حتّى وصل إلى قلعة الجبل فدخلها من غير ممانع، و استقرّ ملكه. و كانت البلد قد زيّنت للملك المظفّر فاستمرّت الزينة، و كان الذى ركب معه من الصالحيّة إلى القلعة و هم خواصّه من خشداشيته، و هم: فارس الدين الأتابك، و بيسرى، و قلاوون الألفىّ، و بيليك الخازندار، و بلبان الرشيدىّ؛ ثم فى يوم الأحد سابع عشر ذى القعدة و هو صبيحة قتل المظفّر قطز؛ و هو أوّل يوم من سلطنة الظاهر بيبرس جلس بالإيوان من قلعة الجبل.

قلت: و لم يذكر أحد من المؤرّخين لبسه خلعة السلطنة الخليفتى، و لعلّه اكتفى بالمبايعة و الحلف. انتهى.

و لمّا جلس الظاهر بالإيوان رسم أن يكتب إلى الأقطار بسلطنته؛ فأوّل من بدأ به الملك الأشرف صاحب حمص، ثم الملك المنصور صاحب حماة؛ ثم الأمير

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۰۳

مظفّر الدين صاحب صهيون ثم إلى الإسماعيليّة، ثم إلى [الملك السعيد المظفّر علاء الدين علىّ بن لؤلؤ] صاحب الموصل الذى صار نائب السلطنة بحلب، ثم إلى من فى بلاد الشام يعرّفهم بما جرى ثم أفرج عمّن بالحبوس من أصحاب الجرائم؛ و اقرّ الصاحب زين الدين يعقوب بن الزّبير على الوزارة، و تقدّم بالإفراج عن الأجناد المحبوسين و الإنعام عليهم، و زيادة من رأى استحقاقه من الأمراء و خلع عليهم، و سيّر الأمير جمال الدين آقوش المحمّدى بتواقيع للامير سنجر الحلبى نائب دمشق، فتوجّه إليه فوجده قد تسلطن بدمشق و دعا لنفسه، و حلّف الأمراء، و تلقّب بالملك المجاهد؛ فعظم ذلک على الملک الظاهر بيبرس و أخذ فى إصلاح أمره معه و الإحسان إلى خشداشيته البحريّة الصالحيّة؛ و أمّر أعيانهم. ثم إنّه أخرج الملک المنصور نور الدين عليّا ابن الملک المعزّ أيبک التّركمانىّ و أمّه و أخاه ناصر الدين قاقان من مصر إلى بلاد الأشكرى، و كانوا معتقلين بقلعة الجبل.

و كان بيبرس لمّا تسلطن لقّب نفسه الملک القاهر، فقال الوزير زين الدين يعقوب بن الزّبير، و كان فاضلا فى الأدب و الترسّل و علم التاريخ، فأشار بتغيير هذا اللّقب، و قال: ما لقّب به أحد فأفلح: لقّب به القاهر بن المعتضد، فلم تطل مدّته

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۰۴

و خلع من الخلافة و سمل، و لقّب به القاهر ابن صاحب الموصل فسمّ، فأبطل بيبرس اللّقب الأوّل، و تلقّب بالملک الظاهر.

و أمّا أمر دمشق ففى العشر الأخير من ذى القعدة أمر الأمير علم الدين سنجر الحلبىّ الذى تسلطن بدمشق بتجديد عمارة [قلعة] دمشق، و زفّت بالمغانى و الطبول و البوقات، و فرحت أهل دمشق بذلک، و حضر كبراء الدولة و خلع على الصّناع و النقباء، و عمل الناس فى البناء حتّى النساء؛ و كان يوم الشروع فى تجديدها يوما مشهودا، ثم فى اليوم الأوّل من العشر الأوّل من ذى الحجّة دعا الأمير علم الدين سنجر الحلبى الناس بدمشق إلى الحلف له بالسلطنة فأجابوه، و حضر الجند و الأكابر و حلفوا له و لقّب بالملک المجاهد، و خطب له على المنابر، و ضربت السّكّة باسمه؛ و كاتب الملک المنصور صاحب حماة ليحلف له فامتنع، و قال: أنا مع من يملک الديار المصريّة كائنا من كان.

و لمّا صحّ عند التّتار قتل الملک المظفّر قطز- رحمه اللّه تعالى- و كان النائب ابن صاحب الموصل أساء السيرة فى الجند و الرعيّة، فاجتمع رأى الأمراء و الجند بحلب على قبضه و إخراجه من حلب، و تحالفوا على ذلک، و عيّنوا للقيام بالأمر الأمير حسام الدين

الجوکنداریّ العزیزیّ، فبینا هم علی ذلک وردت علیهم بطاقة نائب البیرة یخبر أنّ التّتار قاربوا البیرة لمحاصرتها، و استصرخ بهم لینجدوه بعسکر، و کان التّتار قد هدموا أبراج البیرة و أسوارها، و هی مکشوفة من جمیع

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۰۵

جهاتها، فجرّد الملک السعید ابن صاحب الموصل الذی هو نائب حلب عسکره إلیها، و قدّم علیهم الأمیر سابق الدین أمیر مجلس الناصریّ، فحضر الأمراء عنده، و قالوا له: هذا العسکر الذی جرّدته لا یمکنه ردّ العدوّ، و نخاف أن یحصل النّشوب بیننا و بین العدوّ، و عسکرنا قلیل فیصل العدوّ إلی حلب، و یکون ذلک سببا لخروجنا منها فلم یقبل منهم، فخرجوا من عنده و هم غضبانون، و سار العسکر المذکور إلی البیرة فی قلّة. فلّما وصلوا إلی عمق البیرة صادفوا التتار بجموعهم، فاقتتلوا قتالا شدیدا و قصد سابق الدین البیرة، فتبعه التّتار و قتلوا من أصحابه جماعة کثیرة، و ما سلم منهم إلّا القلیل؛ و ورد هذا الخبر لحلب فجفل أهل حلب إلی جهة القبلة و لم یبق بها إلّا القلیل، و ندم الملک السعید نائب حلب علی مخالفة الأمراء، و قوی بذلک غضبهم علیه و قاطعوه، و وقعت بطاقة نائب البیرة، فیها: أنّ التّتار توجّهوا إلی ناحیة منبج، فخرج نائب حلب و ضرب دهلیزه بباب إله شرقیّ حلب، و بعد یومین وصل الأمیر عزّ الدین أزدمر الدّاودار العزیزیّ، و کان قطز قد جعله نائبا باللّاذقیّة و جبلة، فقصده خشداشیته بحلب؛ فلمّا قرب رکبت العزیزیّة و الناصریة و التقوا به، فأخبرهم بأنّ الملک المظفّر قطز قتل، و أنّ رکن الدین بیبرس ملک الدیار المصریّة، و أنّ سنجر الحلبیّ خطب لنفسه بدمشق، و نحن أیضا نعمل بعمل أولئک، و نقیم واحدا من الجماعة و نقبض علی هذا (یعنی علی

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۰۶

نائب حلب) و نقتصر علی حلب و بلادها مملکة أستاذنا و ابن أستاذنا فأجابوه إلی ذلک و تقرّر بینهم: أنّه حال دخولهم إلی المخیّم یمضی إلیه الأمراء: حسام الدین الجوکنداری، و بکتمر الساقی و أزدمر الدّوادار؛ و کان الملک السعید نائب حلب نازلا بباب لا فی بیت القاضی، و هو فوق سطحه و العساکر حوله، فعند ما طلعوا إلیه و حضروا عنده علی السطح شرعت أعوانهم فی نهب و طاقه فسمع الضّجة فاعتقد أنّ التّتار قد کبست العسکر، ثم شاهد نهب العزیزیّة و الناصریّة لوطاقه، و وثب الأمراء الذین عنده لیقبضوا علیه، فطلب منهم الأمان علی نفسه فأمّنوه و شرطوا علیه أن یسلّم إلیهم جمیع ما حصّله من الأموال، ثم نزلوا به إلی الدار و قصدوا الخزانة، فما وجدوا فیها طائلا فهدّدوه، و قالوا له: أین الأموال التی حصّلتها؟ و طلبوا قتله، فقام إلی ساحة بستان فی الدار المذکورة و حفر و أخرج الأموال، و هی تزید علی أربعین ألف دینار، ففرّقت علی الأمراء علی قدر منازلهم، ثمّ رسموا علیه جماعة من الجند و سیّروه إلی قلعة حبسوه بها. ثمّ بعد أیّام قلائل دهم العدوّ حلب، فاندفع الأمیر حسام الدین الجوکنداری المقدّم علی عسکر حلب بمن معه إلی جهة دمشق، و دخلت التّتار حلب و أخرجوا من کان فیها إلی ظاهر حلب، و وضعوا السیف فیهم، فقتل بعضهم و فرّ بعضهم، و نزل العسکر الحلبیّ بظاهر حماة، فقام الملک المنصور بضیافتهم، ثمّ تقدّم التّتار إلی حماة، فلمّا قاربوا منها رحل صاحبها الملک المنصور و معه الجوکنداری بعساکر حلب إلی حمص، و نزل التّتار علی حماة فامتنعت علیهم، فاندفعوا من حماة طالبین العسکر، و جفل

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۰۷

الناس بین أیدهم، و خاف أهل دمشق خوفا شدیدا، و أقاموا الجمیع علی حمص حتّی قدم إلیهم التّتار فی أوائل المحرّم من سنة تسع و خمسین و ستمائة، و کانوا فی ستّة آلاف فارس، فخرج إلیهم الملک المنصور صاحب حماة و الأشرف صاحب حمص و الجوکنداریّ العزیزیّ بعساکر حلب، و حملوا علیهم حملة رجل واحد فهزموهم و قتلوا منهم مقتلة عظیمة، و هرب الأمیر بیدرا مقدّم التّتار فی نفر یسیر، و کانت الوقعة عند قبر خالد بن الولید- رضی اللّه عنه- ثم عاد التتار إلی حلب و فعلوا بأهلها تلک الأفعال القبیحة علی عادتهم.

و أمّا الملک الظاهر بیبرس صاحب الترجمة فإنّه کاتب أمراء دمشق یستمیلهم إلیه و یحضّهم علی منابذة الأمیر علم الدین سنجر الحلبیّ و القبض علیه، فأجابوه إلی ذلک و خرجوا من دمشق منابذین لسنجر، و فیهم: الأمیر علاء الدین أیدکین البندقداریّ (أعنی

أستاذ الملك الظاهر بيبرس المذكور) الذى قدّمنا من ذكره أنّ الملك الصالح نجم الدين أيّوب اشتراه منه. انتهى. و الأمير بهاء الدين بغدى فتبعهم الحلبىّ بمن بقى معه من أصحابه، فحاربوه فهزموه و ألجئوه إلى قلعة دمشق فأغلقها دونهم؛ و ذلك فى يوم السبت حادى عشر صفر من السنة. ثم خرج الأمير علم الدين سنجر الحلبىّ تلك الليلة من القلعة و قصد بعلبك، فدخل قلعتها و معه قريب عشرين نفرا من مماليكه؛ فدخل الأمير علاء الدين أيدكين البندقدارىّ دمشق، و استولى عليها و حكم فيها نيابة عن الملك الظاهر بيبرس؛ ثم جهّز عسكرا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۰۸

إلى بعلبكّ لحصار الحلبىّ و عليهم الأمير بدر الدين محمد بن رحال و كان من الشّجعان، و أمير آخر، فحال وصولهما إلى بعلبكّ دخلا المدينة و نزلا بالمدرسة النّوريّة، و كان الحلبىّ لمّا وصلها جعل عنده طائفة كبيرة من أهل محلّه مقدّمهم على بن عبور، فسيّر إليهم الأمير بدر الدين بن رحال و أفسدهم، فتدلّوا من القلعة ليلا و نزلوا إليه، فعند ذلك تردّدت المراسلات بين الحلبىّ و علاء الدين البندقدارىّ حتّى استقرّ الحال على نزول الحلبىّ و توجّهه إلى الملك الظاهر بيبرس بمصر، فخرج الحلبىّ من قلعة بعلبكّ راكبا [حصانه و] فى وسطه عدّته و فى قرابه قوسان و هو كالأسد، فجاء حتّى بعد عن القلعة، قدّم له بغلة فتحوّل إليها و قلع العدّة و ركبها، و سار حتّى وصل إلى دمشق و سار منها إلى مصر، فأدخل على الملك ليلا بقلعة الجبل، فقام إليه و اعتنقه و أدنى مجلسه منه و عاتبه عتابا لطيفا؛ ثم خلع عليه و رسم له بخيل و بغال و جمال و قماش و غير ذلك.

ثم التفت الملك الظاهر إلى إصلاح مملكته فخلع على الصاحب بهاء الدين على بن حنّا وزير شجرة الدّرّ بالوزارة، و ذلك فى شهر ربيع الاوّل من سنة تسع و خمسين، و هى أوّل ولايته للوزر. ثمّ حضر عند الظاهر شخص و أنهى إليه أنّ الأمير عزّ الدين الصّقلىّ يريد الوثوب على السلطان، و اتّفق معه الأمير علم الدين سنجر الغتمىّ و بهادر [المعزّىّ] و الشجاع بكتوت فقبض الملك الظاهر عليهم.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۰۹

ثم تسلّم الملك الظاهر الكرك من نوّاب الملك المغيث فى هذه السنة. ثم قبض على الأمير بهاء الدين بغدى الأشرفىّ بدمشق و حمل إلى القاهرة و حبس بقلعة الجبل إلى أن مات.

ثم جهّز الملك الظاهر عسكرا لخروج التّتار من حلب فساروا إليها و أخرجوهم منها على أقبح وجه، كلّ ذلك و الدنيا بلا خليفة من سنة ستّ و خمسين و ستمائة.

ففى هذه السنة كان وصول المستنصر باللّه الخليفة إلى مصر و بايعه الملك الظاهر بيبرس، و هو أبو القاسم أحمد، كان محبوسا ببغداد مع جماعة من بنى العبّاس فى حبس الخليفة المستعصم، فلمّا ملكت التّتار بغداد أطلقوهم، فخرج المستنصر هذا إلى عرب العراق، و اختلط بهم إلى أن سمع بسلطنة الملك الظاهر بيبرس، وفد عليه مع جماعة من بنى مهارش، و هم عشرة أمراء مقدّمهم ابن قسا و شرف الدين ابن مهنّا، و كان وصول المستنصر إلى القاهرة فى ثامن شهر رجب من سنة تسع و خمسين و ستمائة؛ فركب السلطان للقائه و معه الوزير بهاء الدين بن حنّا و قاضى القضاة تاج الدين بن بنت الأعزّ و الشهود و الرؤساء و القرّاء و المؤذّنون و اليهود بالتوراة و النصارى بالإنجيل فى يوم الخميس؛ فدخل من باب النّصر و شقّ القاهرة، و كان لدخوله يوم مشهود.

فلمّا كان يوم الاثنين ثالث عشر الشهر جلس السلطان الملك الظاهر و الخليفة بالإيوان و أعيان الدولة بأجمعهم و قرئ نسب الخليفة، و شهد عند القاضى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۱۰

بصحته فأسجل عليه بذلك و حكم به و بويع بالخلافة، و ركب من يومه و شقّ القاهرة فى وجوه الدولة و أعيانها، و كان أوّل من بايعه قاضى القضاة تاج الدين عبد الوهاب بن بنت الأعزّ عند ما ثبت نسبه عنده، ثم السلطان، ثم الشيخ عزّ الدين بن عبد السلام، ثم الأمراء و الوزراء على مراتبهم. و المستنصر هذا هو الثامن و الثلاثون من خلفاء بنى العباس- رضى اللّه عنهم- و هو المستنصر باللّه أبو القاسم

أحمـد الأسـمر ابن الظاهر بأمر اللّه محمـد ابن الناصـر لـدين اللّه أحمـد ابن المستضـيء الحسن ابن الخليفة المسـتنجد باللّه يوسف ابن الخليفـة المقتفى لأمر اللّه محمـد ابن الخليفـة المسـتظهر باللّه أحمد ابن الخليفة المقتدى بأمر اللّه عبد اللّه ابن الأمير محمد الذخيرة ابن الخليفة القائم بأمر اللّه عبد اللّه ابن الخليفة القادر باللّه أحمد ابن الأمير إسـحاق ابن الخليفة المقتدر باللّه جعفر ابن الخليفة المعتضد باللّه أحمـد ابن الأـمير طلحـة الموفّق ابن الخليفـة المتوكّل على اللّه جعفر ابن الخليفـة المعتصم باللّه محمـد ابن الخليفـة الرشـيد هارون ابن الخليفة المهدى محمد ابن الخليفة أبى جعفر المنصور عبد اللّه بن محمد بن على بن عبد اللّه بن عبّاس الهاشـمىّ العباسىّ البغدادىّ. و قـد تقدم أنّ الناس كانوا بغير خليفة منذ قتل التّتار ابن أخيه الخليفة المسـتعصم باللّه فى أوائل سـنة ست و خمسـين و سـتّمائة إلى يومنا هذا، فكانت مدة شغور الخلافة ثلاث سنين و نصفا و الناس بلا خليفة. و كان المستنصر هذا جسيما و سيما شديد السّمرة عالى الهمّة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۱۱

شديـد القوّة و عنده شـجاعة و إقدام، و هو أخو الخليفة المستنصـر و لقّب بلقبه، و هذا لم تجربه العادة من أنّ خليفة يلقّب بلقب خليفة تقدّمه من أهل بيته.

و فى يوم الجمعـة سابع عشـر الشـهر خرج الخليفـة المستنصـر باللّه و عليه ثياب سود إلى الجامع بالقلعـة و خطب خطبـة بليغـة ذكر فيها شرف بنى العبّاس، ثم صـلّى على النّبىّ صـلّى اللّه عليه و سـلّم. ثم فى مسـتهلّ شـعبان من سـنة تسع و خمسين المذكورة تقدّم الخليفة بتفصـيل خلعـة سوداء و بعمل طوق ذهب و قيـد ذهب و بكتابة تقليد بالسـلطنة للملك الظاهر بيبرس و نصب خيمة ظاهر القاهرة. فلمّا كان يوم الاثنين رابعه ركـب الخليفة و السـلطان و الوزير و القضاة و الأمراء و وجوه الدولة إلى الخيمة ظاهر القاهرة بقبّة النصـر، فألبس الخليفـة السـلطان الملك الظاهر بيبرس خلعـة السـلطنة بيـده و طوّقه و قيّـده، و صـعد فخر الـدين إبراهيم بن لقمان رئيس الكتّاب منبرا نصب له فقرأ التقليد و هو من إنشائه و بخطّه. ثم ركـب السـلطان بالخلعة و الطّوق و القيد و دخل من باب النّصر و قد زيّنت القاهرة له، و حمل الصاحب بهاء الدين التقليد على رأسه راكبا و الأمراء يمشون بين يديه؛ فكان يوما يقصر اللسان عن وصفه. و نسخة التقليد:

«الحمد للّه الذى أضـفى على الإسلام ملابس الشّرف، و أظهر بهجة درره، و كانت خافية، بما استحكم عليها من الصّدف، و شيّد ما و هى من علائه حتّى أنسى ذكر من

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة؛ ج۷؛ ص۱۱۱

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۱۲

سلف، و قيّض لنصره ملوكا اتّفق عليهم من اختلف، أحمـده على نعمته التى رتعت الأعين منها فى الرّوض الأنف، و ألطافه التى وقف الشـكر عليها فليس له عنها منصرف؛ و أشهد أن لا إله إلّا اللّه وحده لا شريك له شهادة توجب من المخاوف أمنا، و تسهّل من الأمور ما كان حزنا، و أشـهد أنّ محمّدا عبده الذى جبر من الدّين وهنا، و رسوله الذى أظهر من المكارم فنونا لا فنّا، صـلّى اللّه عليه و سلّم و على آله الذين أصـبحت مناقبهم باقية لا تفنى، و أصـحابه الذين أحسنوا فى الدّين فاستحقّوا الزيادة بالحسنى. و بعد: فإنّ أولى الأولياء بتقديم ذكره، و أحقّهم أن يصبـح القلم راكعا و ساجدا فى تسـطير مناقبه و برّه، من سعى فأضحى سعيد الجدّ متقدّما، و دعا إلى طاعته فأجاب من كان منجدا و متهما، و ما بدت يد فى المكرمات إلّا كان لها زندا و معصـما، و لا اسـتباح بسـيفه حمى و غى إلا أضـرم منه نـارا و أجراه دما. و لمّا كانت هـذه المناقب الشـريفة مختصّـة بالمقام العالى المولوىّ السـلطانىّ الملكىّ الظاهرىّ الرّكنىّ- شـرّفه اللّه و أعلاه- ذكرها الـديوان العزيز النّبوىّ الإمامىّ المستنصـرىّ- أعزّ اللّه سـلطانه- تنويها بشـريف قدره، و اعترافا بصـنعه الذى تنفد العبارة المسهبة و لاـ تقوم بشكره؛ و كيف لاـ و قـد أقـام الدولـة العبّاسيّة بعـد أن أقعـدتها زمانـة الزمان، و أذهبت ما كان لها من محاسن و إحسان؛ و عتب دهرها المسيء لها فأعتب، و أرضى عنها زمنها و قد كان صال عليها صولة مغضب؛ فأعاده لها سلما بعد أن كان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۱۳

[عليها] حربا، و صـرف إليها اهتمامه فرجع كلّ متضايق من أمورها واسـعا رحبا؛ و منـح أمير المؤمنين عند القدوم عليه حنوّا و عطفا، و

أظهر من الولاء رغبة فی [ثواب] اللّه ما لا يخفى؛ و أبدى من الاهتمام بأمر البيعة أمرا لو رامه غيره لامتنع عليه، و لو تمسّک بحبله متمسّک لانقطع به قبل الوصول إليه؛ و لکن اللّه ادّخر هذه الحسنة ليثقل بها [فی] الميزان ثوابه، و يخفّف بها يوم القيامة حسابه، و السعيد من خفّف حسابه! فهذه منقبة أبی اللّه إلّا أن يخلّدها فی صحيفة صنعه، و مکرمة قضت لهذا البيت الشريف بجمعه، بعد أن حصل الإياس من جمعه. و أمير المؤمنين يشکر لک هذه الصنائع، و يعترف أنّه لو لا اهتمامک لاتّسع الخرق على الراقع؛ و قد قلّدک الديار المصريّة و البلاد الشاميّة، و الديار بکريّة، و الحجازيّة و اليمنيّة و الفراتيّة؛ و ما يتجدّد من الفتوحات غورا و نجدا؛ و فوّض أمر جندها و رعاياها إليک حين أصبحت بالمکارم فردا». ثم أخذ فی آخر التقليد يذکر فضل الجهاد و الرفق بالرعيّة و طوّل فی الکلام إلى الغاية. و هذا الذی ذکرناه من نسخة التقليد هو المراد.

ثم إنّ الملک الظاهر ولّى الأمير علم الدين سنجر الحلبیّ نيابة حلب لمّا بلغه أن البرنلی تغلّب على حلب، و سيّر معه عسکرا فسار إليها الأمير علم الدين سنجر الحلبیّ، و دخل إليها و ملکها و خرج منها البرنلی و توجّه إلى الرّقّة؛ ثم حشد و جمع العساکر و أخذ البيرة، ثمّ عاد إلى حلب و أخرج منها الحلبیّ بعد أمور و وقائع جرت بينهم.

فلمّا بلغ الملک الظاهر ذلک عزم على التوجّه إلى البلاد الشاميّة، و برز من القاهرة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۱۴

و معه الخليفة المستنصر و أولاد صاحب الموصل، و کان خروجهم الجميع من القاهرة فی تاسع عشر شهر رمضان بعد أن رتّب السلطان الأمير عزّ الدين أيدمر الحلبی نائب السلطنة بقلعة الجبل؛ و الصاحب بهاء الدين بن حنّا مدبر الأمور، و خرج مع السلطان العساکر المصريّة و أقام ببرکة الجبّ إلى عيد الفطر؛ ثم سافر فی ثالث شوّال بعد ما عزل قاضی القضاة تاج الدين عبد الوهاب بن بنت الأعزّ عن القضاء ببرهان الدين خضر السّنجاریّ، و سار السلطان حتّى دخل دمشق فی يوم الاثنين سابع ذی القعدة، و قدم عليه الملک الأشرف صاحب حمص فخلع عليه و أعطاه ثمانين ألف دينار و حملين ثيابا، و زاده على ما بيده من البلاد تلّ باشر؛ ثم قدم عليه الملک المنصور صاحب حماة فخلع عليه و أعطاه ثمانين ألف درهم و حملين ثيابا، و کتب له توقيعا ببلاده التی بيده؛ ثم جهّز السلطان الخليفة و أولاد صاحب الموصل صحبته بتجمّل زائد و برک يضاهی برک السلطان من الأطلاب و الخيول و الجمال و أرباب الوظائف من الکبير إلى الصغير؛ قيل: إنّ الذی غرمه السلطان الملک الظاهر على تجهيز الخليفة و أولاد صاحب الموصل فوق الألف ألف دينار عينا.

ثم جهّز السلطان الأمير علاء الدين أيدکين البندقداریّ لنيابة السلطنة بحلب، و أيدکين هذا هو أستاذ الملک الظاهر بيبرس صاحب الترجمة المقدّم ذکره، فسبحان من يعزّ و يذلّ! و بعث السلطان مع البندقداریّ عسکر المحاربة البرنلی و صحبته أيضا الأمير بلبان الرّشيدیّ فخرجا من دمشق فی منتصف ذی القعدة؛ فلمّا وصلا حماة خرج البرنلی و قصد حرّان فتبعه الرشيدیّ بالعساکر، و دخل علاء الدّين البندقداریّ

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۱۵

إلى حلب؛ ثم عاد الرّشيدیّ إلى أنطاکية ثم رحل عنها بعد ما حاصرها مدّة لمّا بلغه عود الملک الظاهر إلى مصر.

و أمّا الخليفة فإنّه لمّا توجّه نحو العراق و معه أولاد صاحب الموصل، و هم:

الملک الصالح و ولده علاء الدين و الملک المجاهد سيف الدين صاحب الجزيرة، و الملک المظفّر علاء الدّين صاحب سنجار، و الملک الکامل ناصر الدين محمد؛ فلمّا وصلوا صحبة الخليفة إلى الرّحبة وافوا عليها الأمير يزيد بن علیّ بن حديثة أمير آل فضل و أخاه الأخرس فی أربعمائة فارس من العرب. و فارق الخليفة أولاد صاحب الموصل من الرّحبة؛ و کان الخليفة طلب منهم المسير معه فأبوا، و قالوا: ما معنا مرسوم بذلک، و أرسلوا معه من مماليک والدهم نحو ستّين نفرا فانضافوا إليه، و لحقهم الأمير عز الدين أيدکين من حماة و معه ثلاثون فارسا. و رحل الخليفة بمن معه من الرّحبة بعد ما أقام بها ثلاثة أيّام، و نزل مشهد علیّ- رضی اللّه عنه- ثم

رحل إلی قائم عنقه، ثم إلی عانة فوافوا الإمام الحاكم بأمر اللّه العبّاسیّ علی عانة من ناحیة الشرق و معه نحو سبعمائة فارس من التّرکمان. و کان البرنلی قد جهّزه من حلب، فبعث الخلیفة المستنصر بالله إلیهم و استمالهم؛ فلمّا جاوزوا الفرات فارقوا الحاکم فبعث إلیه المستنصر بالله یطلبه إلیه و یؤمّنه علی نفسه و یرغّب إلیه فی اجتماع الکلمة،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۱۶

فأجاب و رحل إلیه، فوفّی إلیه المستنصر و أنزله معه فی الدّهلیز. و کان الحاکم لمّا نزل علی عانة امتنع أهلها منه، و قالوا: قد بایع الملک الظاهر خلیفة و هو واصل فما نسلّمها إلّا إلیه؛ فلمّا وصل المستنصر بالله إلیها نزل إلیه نائبها و کریم الدین ناظرها و سلّماها إلیه و حملا له إقامة، فأقطعها الخلیفة للأمیر ناصر الدین أغلمش أخی الأمیر علم الدین سنجر الحلبیّ. ثم رحل الخلیفة عنها إلی الحدیثة ففتحها أهلها له، فجعلها خاصّا له، ثم رحل عنها و نزل علی شطّ قریة الناووسة؛ ثم رحل عنها قاصدا هیت، و لمّا اتّصل مجیء الخلیفة المستنصر بالله بقرابغا مقدّم عسکر التّتار بالعراق، و بهادر علیّ الخوارزمیّ شحنة بغداد و خرج قرابغا بخمسة آلاف فارس من التّتار علی الشطّ العراقی و قصد الأنبار، فدخلها إغارة؛ و قتل جمیع من فیها، ثم ردفه الأمیر بهادر علیّ الخوارزمیّ بمن بقی ببغداد من عساکر التّتار، و کان قد بعث ولده إلی هیت متشوّقا لما یرد من أخبار المستنصر، و قرّر معه أنّه إذا اتّصل به خبره بعث بالمراکب إلی الشطّ الآخر و أحرقها؛ فلمّا وصل الخلیفة هیت أغلق أهلها الباب دونه، فنزل علیها و حاصرها حتّی فتحها، و دخلها فی التاسع و العشرین من ذی الحجّة، و نهب من فیها من الیهود و النّصاری؛ ثم رحل عنها و نزل الدور و بعث طلیعة من عسکره مقدّمها الأمیر أسد الدین محمود ابن الملک المفضّل موسی، فبات تجاه الأنبار تلک اللّیلة، و هی لیلة الأحد ثالث المحرّم من سنة ستین و ستمائة؛ فلمّا رأی قرابغا

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۱۷

الطلیعة أمر من معه من العساکر بالعبور إلیها فی المخائض و المراکب لیلا، فلمّا أسفر الصبح أفرد قرابغا من معه من عسکر بغداد ناحیة.

و أمّا الخلیفة فإنّه رتّب اثنی عشر طلبا، و جعل التّرکمان و العربان میمنة و میسرة و باقی العساکر قلبا؛ ثم حمل بنفسه مبادرا و حمل من کان معه فی القلب فانکسر بهادر، و وقع معظم عسکره فی الفرات؛ ثم خرج کمین من التّتار، فلمّا رآه التّرکمان و العرب هربوا، و أحاط الکمین بعسکر الخلیفة فصدق المسلمون الحملة، فأفرج لهم التّتار، فنجا الحاکم و شرف الدین بن مهنّا و ناصر الدین بن صیرم و بوزنا و سیف الدین بلبان الشّمسی و أسد الدین محمود و جماعة من الجند نحو الخمسین نفرا، و قتل الشریف نجم الدین [جعفر] أستادار الخلیفة، و فتح الدین بن الشهاب أحمد، و فارس الدین [أحمد] بن أزدمر الیغموریّ، و لم یوقع للخلیفة المستنصر علی خبر، فقیل إنّه: قتل فی الوقعة و عفّی أثره؛ و قیل: إنّه نجا مجروحا فی طائفة من العرب فمات عندهم؛ و قیل: سلم و أضمرته البلاد.

و أمّا السلطان الملک الظاهر بیبرس فإنّه لمّا عاد إلی مصر عاد بعده بلبان الرشیدیّ فی أثره و عاد البرنلی إلی حلب و دخلها و ملکها، فجرّد إلیه الملک الظاهر عسکرا ثانیا، علیهم الأمیر شمس الدین سنقر الرومیّ، و أمره بالمسیر إلی حلب؛ ثمّ إلی الموصل و کتب إلی الأمیر علاء الدین طیبرس نائب السلطنة بدمشق و إلی الأمیر علاء الدین أیدکین البندقداریّ یأمرهما أن یکونا معه بعسکرهما حیث توجّه یتوجّه الجمیع، فسار الجمیع إلی جهة حلب، فخرج البرنلی من حلب و تسلّم نوّاب أیدکین

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۱۸

البندقداریّ حلب. ثم جاء مرسوم السلطان بتوجّه البندقداریّ إلی حلب، و یعود طیبرس إلی دمشق و یعود سنقر الرومیّ إلی مصر، فعاد الرومیّ إلی القاهرة. فلمّا اجتمع بالسلطان أوغر خاطره علی طیبرس، فکان ذلک سببا للقبض علی طیبرس المذکور و حبسه بالقاهرة مدّة سنین.

ثم وصل إلی الدیار المصریّة فی السابع و العشرین من شهر ربیع الآخر الإمام الحاکم بأمر اللّه أبو العبّاس أحمد ابن الأمیر أبی علیّ

الحسن ابن الأمير أبى بكر بن الحسن بن علىّ القبّى ابن الخليفة المسترشد بالله أبى منصور الفضل ابن الخليفة المستظهر بالله أحمد العبّاسىّ.

قلت: و من المستظهر يعرف نسبه من ترجمة المستنصر و غيره من أقاربه إلى العبّاس. و وصل صحبته شمس الدين صالح بن محمد بن أبى الرشيد الأسدىّ الحاكمىّ المعروف بابن البنّاء و أخوه محمد و نجم الدين محمد، و احتفل الملك الظاهر بيبرس بلقائه و أنزله بالبرج الكبير داخل قلعة الجبل، و رتّب له ما يحتاج إليه، و وصل معه ولده. و بايعه بالخلافة فى يوم الخميس تاسع المحرّم من سنة إحدى و ستين بقلعة الجبل. و كانت المسلمون بلا خليفة منذ استشهد الخليفة المستنصر بالله فى أوائل

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۱۹

السنة الحالية، و جلس السلطان بالإيوان لبيعته و حضر القضاة و الأعيان و ارباب الدولة، و قرئ نسبه على قاضى القضاة و شهد عنده جماعة بذلك، فأثبته و مدّ يده و بايعه بالخلافة، ثم بايعه السلطان ثم الوزير ثم الأعيان على طبقاتهم، و خطب له على المنابر، و كتب السلطان إلى الأقطار بذلك و أن يخطبوا باسمه، و أنزل إلى مناظر الكبش فسكن بها إلى أن مات فى ليلة الجمعة ثامن عشر جمادى الأولى سنة إحدى و سبعمائة و دفن بجوار السيّدة نفيسة، و هو أوّل خليفة مات بالقاهرة من بنى العبّاس حسب ما يأتى ذكره- إن شاء اللّه تعالى- فى محلّه بأوسع من هذا.

و أمّا الملک الظاهر فإنّه تجهّز للسفر إلى البلاد الشاميّة، و خرج من الديار المصريّة فى يوم السبت سابع شهر ربيع الآخر من سنة إحدى و ستين و ستمائة.

و فى هذه السّفرة قبض على الملك المغيث صاحب الكرک الذى كان معه تلك الأيّام على قتال المصريين و غيرهم، و لما قبض عليه الظاهر بعث به إلى قلعة الجبل صحبة الأمير آق سنقر الفارقانىّ، فوصل به إلى القاهرة فى يوم الأحد خامس عشر

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۲۰

جمادى الآخرة، فكان ذلک آخر العهد به. ثمّ عاد الملک الظاهر إلى الديار المصريّة فى يوم السبت سادس عشر شهر رجب. و لمّا دخل إلى القاهرة قبض على الأمير بلبان الرشيدى و أيبک الدّمياطى و آقوش البرنلى.

ثم فى هذه السنة شرع الملک الظاهر فى عمارة المدرسة الظاهريّة ببين القصرين، و تمّت فى أوائل سنة اثنتين و ستين و ستمائة. و رتّب فى تدريس الإيوان القبلىّ القاضى تقىّ الدين محمد بن الحسين بن رزين الشافعى، و فى تدريس الإيوان الذى يواجهه القاضى مجد الدين عبد الرحمن بن العديم، و الحافظ شرف الدين الدّمياطى لتدريس الحديث فى الإيوان الشرقىّ، و الشيخ كمال الدين المحلّى فى الإيوان [الذى] يقابله

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۲۱

لإقراء القرآن بالروايات و الطرق؛ ثم رتّب جماعة يقرءون السبع بهذا الإيوان أيضا بعد صلاة الصبح، و وقف بها خزانة كتب، و بنى إلى جانبها مكتبا لتعلم الأيتام و أجرى عليهم الخبز فى كلّ يوم، و كسوة الفصلين و سقاية تعين على الطّهارة؛ و جلس للتدريس بهذه المدرسة يوم الأحد ثالث عشر صفر من سنة اثنين و ستين، و حضر الصاحب بهاء الدين بن حنّا، و الأمير جمال الدين بن يغمور؛ و الأمير جمال الدين أيدغدى العزيزىّ و غيرهم من الأعيان.

و فى سنة إحدى و ستين أيضا تسلّم الأمير بيليک العلائىّ حمص بعد وفاة صاحبها الملک الأشرف الأيّوبى. ثم أمر الملک الظاهر أيضا بإنشاء خان فى القدس الشريف للسبيل، و فوّض بناءه و نظره إلى الأمير جمال الدين محمد بن نهار؛ و لمّا تمّ الخان المذكور أوقف عليه قيراطا و نصفا بالمطر، و ثلث و ربع قرية المشيرفة من بلد بصرى، و نصف قرية لبنى، يصرف ريع ذلک فى خبز و فلوس و إصلاح نعال من يرد عليه من المسافرين المشاة. و بنى له طاحونا و فرنا، و استمر ذلک كلّه.

ثم ولّى الملک الظاهر فى سنة ثلاث و ستين و ستمائة فى كلّ مذهب قاضيا مستقلّا بذاته، فصارت قضاة القضاة أربعة، و سبب ذلک

كثرة توقّف قاضى القضاة تاج الدين عبد الوهاب بن بنت الأعزّ فى تنفيذ الأحكام، و كثرة الشكاوى منه بسبب ذلك. فلمّا كان يوم الاثنين ثانى عشر ذى الحجّة شكا القاضى المذكور الأمير جمال الدين أيدغدى العزيزىّ فى المجلس، و كان يكره القاضى تاج الدين

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۲۲

المذكور؛ فقال أيدغدى بحضرة السلطان: يا تاج الدين، نترك مذهب الشافعىّ لك، و نولّى معك من كلّ مذهب قاضيا، فمال الملك الظاهر إلى كلامه، و كان لأيدغدى منه محلّ عظيم؛ فولّى السلطان الشيخ صدر الدين سليمان الحنفى قاضى قضاة الحنفيّة بالديار المصريّة، و كان للقضاة الحنفيّة أزيد من ثلثمائة سنة من أوّل الدولة الفاطميّة قد بطل حكمهم من ديار مصر استقلالا عند ما أبطل الفاطميّون القضاة من سائر المذاهب، و أقاموا قضاة الشّيعة بمصر. انتهى. و ولىّ القاضى شرف الدين عمر السّبكىّ المالكىّ قاضى قضاة المالكيّة. و ولّى الشيخ شمس الدين محمد ابن الشيخ العماد الحنبلى قاضى القضاة الحنابلة، و فوّض لكلّ واحد منهم أن يستنيب بالأعمال و غيرها؛ و أبقى على تاج الدين النّظر فى مال الأيتام، و كتب لهم التقاليد و خلع عليهم؛ ثم فعل ذلك ببلاد الشام كلّه.

قلت: و قد جمعت أسماء من ولى القضاء من المذاهب الأربعة من يوم رتّب الملك الظاهر بيبرس القضاة (أعنى من سنة ثلاث و ستين و ستمائة) إلى يومنا هذا على الترتيب على سبيل الاختصار لتكثر الفائدة فى هذا الكتاب، و إن كان يأتى ذكر غالبهم فى الوفيات فى حوادث الملوك على عادة هذا الكتاب، فذكرهم هنا جملة أرشق و أهون على من أراد ذلك، و اللّه المستعان. فنقول:

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۲۳

[ذكر قضاة الشافعيّة]

كان قاضى قضاة الشافعيّة يوم ذاك القاضى تاج الدين عبد الوهاب، و هى ولايته الثانية؛ و توفّى سنة خمس و ستين و ستمائة. ثم القاضى تقىّ الدين محمد بن رزين العامرىّ سنة خمس و ستين و ستمائة، و مولده فى شعبان سنة ثلاث و ستمائة، و توفّى ثالث رجب سنة ثمانين و ستمائة. ثم القاضى صدر الدين عمر بن عبد الوهاب بن بنت الأعزّ سنة ثمان و سبعين و ستمائة. ثم أعيد القاضى تقىّ الدين محمد بن رزين سنة تسع و سبعين و ستمائة. ثمّ القاضى وجيه الدين عبد الوهّاب البهنسىّ سنة ثمانين و ستمائة. ثم القاضى تقىّ الدين عبد الرحمن ابن القاضى تاج الدين عبد الوهّاب بن بنت الأعزّ سنة خمس و ثمانين و ستمائة. ثم القاضى بدر الدين محمد بن إبراهيم بن سعد اللّه بن جماعة الحموىّ الكنانىّ سنة تسعين و ستمائة. ثم أعيد القاضى تقىّ الدين عبد الرحمن بن بنت الأعزّ فى صفر سنة ثلاث و تسعين و ستمائة. ثم ولى القاضى تقىّ الدين محمد بن على بن دقيق العيد سنة خمس و تسعين و ستمائة، و مولده فى شعبان سنة خمس و عشرين و ستمائة، و توفّى سنة اثنتين و سبعمائة. ثم أعيد القاضى بدر الدين محمد بن إبراهيم بن جماعة الحموىّ فى سنة أربع و سبعمائة. ثمّ ولى القاضى جمال الدين

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۲۴

سليمان بن عمر الزّرعىّ سنة عشر و سبعمائة. ثم أعيد القاضى بدر الدين محمد بن إبراهيم ابن جماعة سنة إحدى عشرة و سبعمائة. ثم ولى القاضى جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزوينىّ سنة سبع و عشرين و سبعمائة، و توفّى سنة تسع و ثلاثين و سبعمائة. ثم ولى القاضى عزّ الدين عبد العزيز ابن القاضى بدر الدين محمد بن إبراهيم بن جماعة الحموىّ سنة ثمان و ثلاثين و سبعمائة. ثم ولى القاضى بهاء الدين عبد اللّه [بن عبد الرحمن] ابن عقيل سنة تسع و خمسين و سبعمائة. ثم أعيد القاضى عزّ الدين عبد العزيز بن جماعة سنة تسع و خمسين و سبعمائة. ثم ولى القاضى بهاء الدين محمد أبو البقاء بن عبد البرّ السّبكىّ فى سنة ست و ستين و سبعمائة. ثم ولى القاضى برهان الدين إبراهيم بن عبد الرحيم [بن محمد بن إبراهيم بن سعد اللّه] بن جماعة سنة ثلاث و سبعين و سبعمائة. ثم ولى القاضى بدر الدين محمد بن بهاء الدين محمد بن عبد البرّ السّبكىّ فى صفر سنة تسع و سبعين و سبعمائة. ثم أعيد القاضى برهان

الدین إبراهیم بن جماعة سنة إحدی و ثمانین و سبعمائة. ثم أعید القاضی بدر الدین محمد بن أبی البقاء السّبکیّ فی صفر سنة أربع و ثمانین و سبعمائة. ثم ولی القاضی ناصر الدین محمد [بن عبد الدائم ابن محمد بن سلامة] ابن بنت المیلق فی شعبان سنة تسع و ثمانین و سبعمائة، و امتحن و عزل. ثم ولی القاضی صدر الدین محمد بن إبراهیم السلمیّ المناویّ فی ذی القعدة سنة إحدی و تسعین و سبعمائة. ثم أعید القاضی بدر الدین محمد بن أبی البقاء

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۲۵

السّبکیّ سنة إحدی و تسعین و سبعمائة. ثم ولی القاضی عماد الدین أحمد الکرکیّ فی رجب [سنة اثنتین و تسعین، ثم عزل فی ذی الحجّة] سنة أربع و تسعین و سبعمائة. ثم أعید القاضی صدر الدین محمد بن إبراهیم المناویّ فی شعبان سنة خمس و تسعین و سبعمائة. ثم أعید القاضی بدر الدین محمد بن أبی البقاء السّبکیّ فی شهر ربیع الآخر سنة ست و تسعین و سبعمائة. ثم أعید القاضی صدر الدین محمد ابن إبراهیم المناویّ فی شعبان سنة سبع و تسعین و سبعمائة. ثم ولی القاضی تقیّ الدین الزّبیریّ فی جمادی الأولی سنة تسع و تسعین و سبعمائة. ثم أعید القاضی صدر الدین المناویّ فی شهر رجب سنة إحدی و ثمانمائة. ثم ولی القاضی ناصر الدین الصّالحیّ فی سلخ شعبان سنة ثلاث و ثمانمائة. ثم ولی القاضی جلال الدین عبد الرحمن بن عمر ابن رسلان بن نصیر البلقینیّ فی جمادی الأولی سنة أربع و ثمانمائة فی حیاة والده.

ثم أعید القاضی ناصر الدین الصالحی فی شوّال سنة خمس و ثمانمائة، و مات فی المحرّم سنة ست و ثمانمائة. ثم ولی القاضی شمس الدین محمد الإخنائیّ فی شهر اللّه المحرّم سنة ستّ و ثمانمائة. ثم أعید القاضی جلال الدین عبد الرحمن البلقینیّ فی شهر ربیع الأوّل سنة ستّ و ثمانمائة، و مولده سنة إحدی و ستین و سبعمائة؛ و هکذا حکی لی

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۲۶

من لفظه،- رحمه اللّه- و توفّی بالقاهرة فی شوّال سنة أربع و عشرین و ثمانمائة.

ثم أعید القاضی شمس الدین محمّد الإخنائیّ فی شهر شعبان سنة ستّ و ثمانمائة.

ثم أعید القاضی جلال الدین عبد الرحمن البلقینیّ فی ذی الحجّة من سنة ست و ثمانمائة.

ثم أعید القاضی شمس الدین الإخنائی فی ثانی عشرین جمادی الأولی سنة سبع و ثمانمائة. ثم أعید القاضی جلال الدین البلقینیّ فی ثالث عشر ذی القعدة سنة سبع و ثمانمائة. ثم أعید القاضی شمس الدین محمد الإخنائی فی حادی عشر صفر سنة ثمان و ثمانمائة. ثم أعید القاضی جلال الدین البلقینیّ فی خامس شهر ربیع الأوّل سنة ثمان و ثمانمائة، و هی ولایته الخامسة، و لم یزل فی هذه المرة قاضیا إلی أن توجّه صحبة الملک الناصر فرج إلی الشام سنة أربع عشرة و ثمانمائة. ثم عزل بالقاضی شهاب الدین أحمد الباعونیّ بدمشق فی المحرّم سنة خمس عشرة و ثمانمائة. ثم أعید القاضی جلال الدین البلقینیّ المذکور فی أوّل صفر من سنة خمس عشرة و ثمانمائة، فاستمرّ فی القضاء إلی آخر جمادی الأولی سنة إحدی و عشرین و ثمانمائة. ثم عزل بالقاضی شمس الدین محمد الهرویّ فی سلخ جمادی الأولی سنة إحدی و عشرین و ثمانمائة.

ثم أعید القاضی جلال الدین البلقینیّ فی شهر ربیع الأوّل سنة اثنتین و عشرین و ثمانمائة، و استمرّ إلی أن مات فی شوّال کما تقدّم ذکره.

قلت: و قاضی القضاة جلال الدین المذکور هو صهری و زوج کریمتی، و مات عنها. رحمهما اللّه تعالی و عفا عنهما.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۲۷

ثم ولی القاضی ولیّ الدین أحمد ابن الحافظ عبد الرحیم بن الحسین العراقیّ فی شوّال سنة أربع و عشرین و ثمانمائة. ثم ولی القاضی علم الدین صالح بن عمر البلقینیّ فی یوم السبت سادس ذی الحجّة سنة خمس و عشرین و ثمانمائة. ثم ولی القاضی شهاب الدین أحمد بن علیّ بن حجر فی سابع عشرین المحرّم سنة سبع و عشرین و ثمانمائة. ثم أعید القاضی شمس الدین الهرویّ فی سابع ذی

القعدة سنة سبع و عشرين و ثمانمائة. ثم أعيد القاضى شهاب الدين أحمد بن حجر فى ثانى رجب سنة ثمان و عشرين و ثمانمائة. ثم أعيد القاضى علم الدين صالح البلقينىّ فى خامس عشرين صفر سنة ثلاث و ثلاثين و ثمانمائة. ثم أعيد القاضى شهاب الدين أحمد بن حجر فى رابع عشرين جمادى الأولى سنة أربع و ثلاثين و ثمانمائة. ثم أعيد القاضى علم الدين صالح البلقينىّ فى خامس شوّال سنة أربعين و ثمانمائة. ثم أعيد القاضى شهاب الدين أحمد بن حجر فى يوم الثلاثاء سادس شوّال سنة إحدى و أربعين و ثمانمائة.

ثم ولى القاضى شمس الدين محمد القاياتىّ فى يوم الخميس رابع عشر المحرّم سنة تسع و أربعين و ثمانمائة، و مات فى ثامن عشرين المحرّم سنة خمسين و ثمانمائة- رحمه اللّه تعالى- ثم أعيد القاضى شهاب الدين أحمد بن حجر فى خامس صفر سنة خمسين و ثمانمائة.

ثم أعيد القاضى علم الدين صالح البلقينىّ فى يوم السبت مستهلّ سنة إحدى و خمسين

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۲۸

و ثمانمائة. ثم ولى القاضى ولىّ الدين محمد السّفطىّ فى يوم الخميس خامس عشر شهر ربيع الأوّل سنة إحدى و خمسين و ثمانمائة. ثم أعيد القاضى شهاب الدين أحمد بن حجر فى ثامن شهر ربيع الآخر سنة اثنتين و خمسين و ثمانمائة، ثم عزل نفسه و مات معزولا- رحمه اللّه تعالى-. ثم أعيد القاضى علم الدين صالح البلقينىّ فى سادس عشر جمادى الآخرة سنة اثنتين و خمسين و ثمانمائة. ثم ولى القاضى شرف الدين يحيى المناوىّ فى يوم الاثنين ثالث عشر رجب سنة ثلاث و خمسين و ثمانمائة. ثم أعيد القاضى علم الدين صالح البلقينىّ فى يوم السبت ثامن عشرين صفر سنة سبع و خمسين و ثمانمائة.

ذكر القضاة الحنفيّة

فالذى ولى أوّلا قاضى القضاة صدر الدين سليمان. ثمّ من بعده قاضى القضاة معزّ الدين النّعمان بن الحسن [ابن يوسف] إلى أن توفّى فى سابع عشر شعبان سنة اثنتين و تسعين و ستمائة. ثم ولى قاضى القضاة شمس الدين أحمد السّروجىّ فاستمرّ إلى أن تسلطن الملك المنصور لاچين عزله. ثم ولى قاضى القضاة حسام الدين الرازىّ فاستمرّ إلى أن قتل لاچين، نقل إلى قضاء دمشق سنة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۲۹

ثمان و تسعين. ثم أعيد شمس الدين السّروجىّ، ثمّ عزل أوّل شهر ربيع الآخر سنة عشر و سبعمائة. ثم ولى بعده قاضى القضاة شمس الدين محمد الحريرىّ إلى أن مات يوم السبت رابع جمادى الآخرة- رحمه اللّه- سنة ثمان و عشرين و سبعمائة. ثم ولى بعده قاضى القضاة برهان الدين إبراهيم بن عبد الحقّ إلى أن عزل يوم الأحد ثامن عشر جمادى الآخرة سنة ثمان و ثلاثين و سبعمائة. ثم ولى بعده قاضى القضاة حسام الدين الغورىّ إلى أن كانت واقعة الأمير قوصون نهبوا الرسل و العامّة بيته و طلبوه ليقتلوه فهرب. ثم ولى بعده قاضى القضاة زين الدين عمر البسطامىّ فى سنة اثنتين و أربعين و سبعمائة إلى أن عزل فى سنة ثمان و أربعين و سبعمائة. ثم تولّاها من بعده قاضى القضاة علاء الدين التّركمانىّ فى جمادى منها إلى أن توفّى عاشر المحرّم سنة خمسين. فولى بعده ولده قاضى القضاة جمال الدين عبد اللّه ابن التّركمانىّ إلى أن مات فى شعبان سنة تسع و ستين و سبعمائة. فولى بعده قاضى القضاة سراج الدين عمر الهندىّ إلى أن مات فى شهر رجب سنة ثلاث و سبعين و سبعمائة، ثم ولى بعده قاضى القضاة صدر الدين بن جمال الدين التّركمانىّ إلى أن

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۳۰

مات فى ذى القعدة سنة ست و سبعين. فوليها بعده قاضى القضاة نجم الدين بن الكشك، طلب من دمشق فى المحرّم سنة سبع و سبعين و سبعمائة، ثم عزل عنها.

و تولى من بعده قاضى القضاة صدر الدين علىّ بن أبى العز الأذرعىّ، ثم اعتفى عنها.

فتولّاها قاضى القضاة شرف الدين أبو العبّاس أحمد [بن علىّ] بن منصور فى سنة سبع و سبعين، فاستمرّ إلى سادس عشرين شهر رجب عزل. ثم تولّاها بعده قاضى القضاة جلال الدين جار اللّه، فاستمر قاضيا إلى أن مات فى يوم الاثنين رابع عشر شهر رجب سنة اثنتين و ثمانين و سبعمائة. فتولى بعده قاضى القضاة صدر الدين محمد بن علىّ بن منصور فى شهر رمضان سنة اثنتين و ثمانين و سبعمائة، فاستمرّ إلى أن مات فى شهر ربيع الأوّل سنة ستّ و ثمانين و سبعمائة. فتولّاها بعده قاضى القضاة شمس الدين محمد بن أحمد بن أبى بكر الطّرابلسىّ، فاستمرّ إلى بعد فتنة الأتابک يلبغا الناصرىّ و منطاش مع الظاهر برقوق سنة اثنتين و تسعين و سبعمائة عزل عنها. ثم تولّاها قاضى القضاة مجد الدين إسماعيل بن إبراهيم [بن محمد بن علىّ بن موسى] الكنانىّ، أقام فيها قليلا ثمّ عزل. ثم تولّاها من بعده قاضى القضاة جمال الدين محمود [بن محمد بن علىّ بن عبد اللّه] القيصرىّ العجمىّ مضافا لنظر

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۳۱

الجيش، فاستمرّ إلى أن مات فى ليلة الأحد سابع شهر ربيع الأوّل سنة تسع و تسعين و سبعمائة. ثم تولّاها من بعده قاضى القضاة شمس الدين الطّرابلسىّ ثانيا فى الشهر و السنة، فاستمرّ إلى أن مات فى آخر السنة المذكورة. و تولّى بعده قاضى القضاة جمال الدين يوسف بن موسى الملطىّ الحلبىّ فى يوم الخميس العشرين من شهر ربيع الآخر [سنة ثمانمائة]، طلب من حلب و استمرّ إلى أن مات فى ليلة الاثنين تاسع عشر شهر ربيع الآخر سنة ثلاث و ثمانمائة. و تولّاها من بعده قاضى القضاة أمين الدين عبد الوهّاب ابن القاضى شمس الدين الطرابلسىّ فى يوم الخميس ثانى عشر جمادى الآخرة من السنة، فاستمرّ إلى سادس عشرين شهر رجب سنة خمس و ثمانمائة، عزل. فتولّاها من بعده قاضى القضاة كمال الدين عمر بن العديم الحلبى، و استمرّ إلى أن مات فى ليلة السبت ثانى عشر جمادى الآخرة سنة إحدى عشرة و ثمانمائة، و مولده بحلب سنة إحدى و سبعين و سبعمائة. فتولّاها من بعده ابنه القاضى ناصر الدين محمد فى يوم الاثنين رابع عشر الشهر المذكور مضافا لمشيخة الشّيخونيّة، و استمرّ إلى أن صرف. و أعيد القاضى أمين الدين الطرابلسى ثانيا فى رابع عشرين

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۳۲

شهر رجب من سنة إحدى عشرة و ثمانمائة، فاستمرّ القاضى أمين الدين إلى سابع المحرّم من سنة اثنتى عشرة و ثمانمائة صرف. و أعيد قاضى القضاة ناصر الدين ابن العديم ثانيا؛ و استقرّ القاضى أمين الدين الطرابلسىّ فى مشيخة الشّيخونيّة عوضا عن ناصر الدين بن العديم المذكور.

قلت: و ناصر الدين المذكور هو صهرى زوج كريمتي. انتهى.

و استمرّ ناصر الدين بن العديم إلى أن عزل، فتولّاها قاضى القضاة صدر الدين علىّ [بن محمد بن محمد المعروف با] بن الأدمىّ الدّمشقىّ فى سنة خمس عشرة و ثمانمائة، و استمرّ إلى أن مات فى يوم السبت ثامن شهر رمضان من سنة ست عشرة و ثمانمائة.

ثم أعيد ناصر الدين بن العديم ثالثا، فاستمرّ إلى أن مات فى ليلة السبت تاسع شهر ربيع الآخر سنة تسع عشرة و ثمانمائة، و شغرت الوظيفة الى أن طلب الملک المؤيّد شيخ شمس الدين محمد الدّيرىّ من القدس، و قدم القاهرة فى ثالث عشر جمادى الأولى من سنة تسع عشرة المذكورة، و نزل بقاعة الحنفيّة بالمدرسة الصالحيّة إلى أن استقرّ فى القضاء يوم الاثنين سابع عشره، و استمرّ إلى أن عزل برغبة منه.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۳۳

و تولّاها من بعده قاضى القضاة زين الدين عبد الرحمن التّفهنىّ فى يوم الجمعة سادس ذى القعدة سنة اثنتين و عشرين و ثمانمائة، و استمرّ إلى أن عزل. ثم تولّاها من بعده قاضى القضاة بدر الدين محمود العينى فى يوم الخميس سابع عشرين شهر ربيع الآخر سنة تسع و عشرين و ثمانمائة، و استقرّ التّفهنىّ المذكور فى مشيخة خانقاه شيخون، بعد موت شيخ الإسلام سراج الدين عمر قارئ «الهداية»، و استمرّ العينىّ إلى أن عزل.

ثم أعيد التّقهنيّ فى يوم الخميس سادس عشرين صفر سنة ثلاث و ثلاثين و ثمانمائة، فدام إلى أن صرف لطول مرضه. ثم أعيد قاضى القضاة العينى ثانيا فى سابع عشرين جمادى الآخرة سنة خمس و ثلاثين و ثمانمائة، فاستمرّ العينيّ إلى أن صرف فى دولة الملك العزيز يوسف ابن الملك الأشرف برسباى بقاضى القضاة سعد الدين سعد ابن القاضى شمس الدين محمد بن الدّيرىّ فى أوّل سنة اثنتين و أربعين و ثمانمائة...

قلت: و هؤلاء القضاة الذين استجدّهم الملك الظاهر بيبرس البندقدارىّ.

حسب ما ذكرناه فى أوّل الترجمة. و ذلك بعد انقضاء الدولة الأيّوبيّة. و أمّا قبل خراب الديار المصرية فى الدّولة العبيديّة فكانت قضاة الحنفيّة هم حكّام مصر بل حكّام المشرق و المغرب إلى حدود نيّف و أربعمائة، لمّا حمل المعزّ بن باديس الناس

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۳۴

ببلاد المغرب على اتّباع مذهب الإمام مالك- رضى اللّه عنه- ثم ملكت العبيديّة مصر فمحوا آثار السّنّة و ولّوا قضاة الشّيعة و بطل الأربعة مذاهب من مصر إلى أن زالت دولتهم و تولّى السلطان صلاح يوسف بن أيّوب- رحمه اللّه- فولّى قاضيا شافعيّا فقط كونه كان شافعيّا، و أذهب الرافضة، و استمرّ ذلك نحو تسعين سنة حتّى ولى الملك الظاهر بيبرس فجدّد المذاهب الثلاثة كما سقناه. انتهى.

ذكر القضاة المالكيّة

فالذى كان أوّلهم ولاية فى دولة الظاهر بيبرس هو القاضى شرف الدين عمر السّبكيّ المالكيّ تغمّده اللّه برحمته و جميع المسلمين ...

ذكر قضاة الحنابلة

فالذى ولّاه الملك الظاهر بيبرس هو قاضى القضاة شمس الدين أبو بكر محمد الجمّاعيلىّ الحنبلىّ إلى أن امتحن و صرف فى ثانى شعبان سنة سبعين و ستمائة، و لم يل بعد عزله بالقاهرة أحد من الحنابلة حتى توفّى شمس الدين المذكور فى يوم الخميس فى العشر الأوّل من المحرّم سنة ست و سبعين. ثم ولى بعده قاضى القضاة عزّ الدين

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۳۵

عمر بن عبد اللّه [بن عمر] بن عوض فى النصف من جمادى الأولى سنة ثمان و سبعين، فاستمرّ حتى مات سنة ستّ و تسعين و ستمائة. ثم تولّى بعده قاضى القضاة شرف الدين أبو محمد عبد الغنى الحرّانىّ إلى أن مات فى رابع عشرين شهر ربيع الأوّل سنة تسع و سبعمائة. ثم تولّى بعده قاضى القضاة سعد الدين مسعود بن أحمد الحارثىّ فى ثالث شهر ربيع الآخر من السنة، و عزل بعد سنتين و نصف بقاضى القضاة تقىّ الدين ابن قاضى القضاة عزّ الدين عمر فى حادى عشر شهر ربيع الأوّل سنة اثنتى عشرة و سبعمائة، بعد ما شغر منصب القضاء ثلاثة أشهر، فلم تطل أيّامه و عزل بقاضى القضاة موفّق الدين عبد اللّه بن محمد بن عبد الملك المقدسىّ فى نصف جمادى الآخرة سنة ثمان و ثلاثين و سبعمائة، فدام فى المنصب إلى أن مات فى المحرّم سنة تسع و ستين و سبعمائة. ثم تولّى عوضه قاضى القضاة ناصر الدين نصر اللّه بن أحمد بن محمد العسقلانىّ حتّى مات فى ليلة الحادى و العشرين من شهر شعبان سنة خمس و تسعين و سبعمائة. ثم تولّى بعده ابنه قاضى القضاة برهان الدين إبراهيم بن نصر اللّه حتّى مات فى ثامن شهر ربيع الأوّل سنة اثنتين و ثمانمائة. ثم تولّى عوضه أخوه قاضى القضاة موفّق الدين أحمد بن نصر اللّه، فدام حتّى صرف بقاضى القضاة نور الدين علىّ [بن خليل بن علىّ بن أحمد بن عبد اللّه] الحكرىّ، فلم تطل مدّة الحكرىّ

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۳۶

و صرف. ثم أعيد موفّق الدين فاستمرّ إلى أن مات فى سنة ثلاث و ثمانمائة. ثم تولّى بعده قاضى القضاة مجد الدين سالم [بن أحمد] فى ثالث عشرين شهر رمضان من سنة ثلاث فاستمرّ فى القضاء إلى أن صرف بقاضى القضاة علاء الدين علىّ [بن محمود ابن أبى بكر] بن مغلى فى حدود سنة ست عشرة و ثمانمائة، فاستمرّ علاء الدين بن مغلى فى القضاء إلى أن توفّى بالقاهرة فى العشرين من صفر سنة ثمان و عشرين و ثمانمائة.

ثم تولّى بعده قاضى القضاة محبّ الدين أحمد بن نصر اللّه [بن أحمد بن محمد بن عمر] البغدادىّ من التاريخ المذكور إلى أن صرفه الملك الأشرف بقاضى القضاة عزّ الدين عبد العزيز [بن علىّ بن العزّ بن عبد العزيز] البغدادىّ فى ثالث عشر جمادى الآخرة سنة تسع و عشرين، فدام القاضى عزّ الدين إلى أن صرف فى يوم الثلاثاء ثانى عشر صفر سنة ثلاثين و ثمانمائة. ثم أعيد قاضى القضاة محبّ الدين، و استمرّ إلى أن مات فى يوم الأربعاء خامس عشر جمادى الأولى سنة أربع و أربعين و ثمانمائة.

ثم تولى بعده قاضى القضاة بدر الدين محمد [بن محمد] بن عبد المنعم البغدادىّ إلى أن مات فى ليلة الخميس سابع جمادى الأولى سنة سبع و خمسين و ثمانمائة.

ثم تولّى بعده قاضى القضاة عز الدين أحمد فى يوم السبت تاسع جمادى الأولى المذكور.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۳۷

قلت: و قد خرجنا عن المقصود فى ترجمة الملك الظاهر بيبرس بالإطالة فيما ذكرناه، غير أنّ ذلك كلّه هو أيضا ممّا يضاف إلى ترجمته، و لا بأس بالإطالة مع تحصيل الفائدة، و لنعد إلى ذكر السلطان الملك الظاهر بيبرس.

ثم أمر الملك الظاهر بأن يعمل بدمشق أيضا كذلك فى سنة أربع و ستين فوقع ذلك، و ولّى بها قضاة أربعة. و لمّا وقّع ولايته القضاء من كلّ مذهب بدمشق اتّفق أنّه كان لقب ثلاثة قضاة منهم شمس الدين، و هم: قاضى القضاة شمس الدين أحمد بن محمد بن خلّكان الشافعىّ. و قاضى القضاة شمس الدين عبد اللّه بن محمد بن عطا الأذرعىّ الحنفى. و قاضى القضاة شمس الدين عبد الرحمن ابن الشيخ أبى عمر الحنبلىّ؛ فقال بعض الشعراء رحمه اللّه فى هذا المعنى:

أهل الشآم استرابوا من كثرة الحكّام

إذ هم جميعا شموس و حالهم فى ظلام

و قال غيره:

بدمشق آية قد ظهرت للناس عاما

كلّما ولّى شمس قاضيا زادت ظلاما

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۳۸

فتوحاته رحمه اللّه

ثم سافر الملك الظاهر من مصر إلى البلاد الشامية فى هذه السنة (أعنى سنة أربع و ستين) فخرج منها فى يوم السبت مستهلّ شعبان، و جعل نائبه بديار مصر ولده الملك السعيد، و جعل الجيش فى خدمته و الوزير بهاء الدين بن حنّا؛ و سار الملك الظاهر حتّى نزل عين جالوت و بعث عسكرا مقدّمه الأمير جمال الدين أيدغدىّ العزيزىّ، ثم عسكرا آخر مقدّمه الأمير سيف الدين قلاوون الألفى للإغارة على بلاد الساحل، فأغاروا على عكّا و صور و طرابلس و حصن الأكراد و سبوا و غنموا ما لا يحصى؛ ثم نزل الملك الظاهر بنفسه على صفد فى ثامن شهر رمضان، و نصب عليها المجانيق، و دام الاهتمام بعمل الآلات الحربيّة إلى مستهلّ شوّال شرع فى الزّحف و الحصار و أخذ النّقوب من جميع الجهات إلى أن ملكها بكرة يوم الثلاثاء خامس عشر شوّال؛ و استمرّ الزّحف و القتال و نصب السلالم على القلعة و تسلطت عليها النقوب، و السلطان يباشر ذلك بنفسه، حتّى طلب أهل القلعة الأمان على أنفسهم و طلبوا اليمين على ذلك،

فأجلس السلطان الملك الظاهر الأمير كرمون [أغا] التّتارىّ فى دست السلطنة، و حضرت رسلهم فاستحلفوه فخلف [لهم كرمون التّتارىّ] و هم يظنونه الملك الظاهر، فإنه كان يشبه الملك الظاهر. و كان فى قلب الملك الظاهر منهم حزازة، ثم شرط عليهم ألّا يأخذوا معهم من أموالهم شيئا. فلمّا كان يوم الجمعة ثامن عشر شوّال طلعت السناجق على قلعة صفد، و وقف الملك الظاهر بنفسه على بابها و أخرج من كان فيها من الخيّالة و الرجّالة و الفلاحين؛ و دخل الأمير بدر الدين بيليك الخازندار و تسلّمها، و اطّلع على أنّهم أخذوا شيئا كثيرا من التّحف

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٧، ص: ١٣٩

له قيمة، فأمر الملك الظاهر بضرب رقابهم فضربت على تلّ هناك، و كتبت البشائر بهذا النصر إلى مصر و الأقطار، و زيّنت الديار المصريّة لذلك. ثم أمر الملك الظاهر بعمارة قلعة صفد و تحصينها و نقل الذخائر إليها و الأسلحة، و أزال دولة الكفر، منها، و للّه الحمد، و أقطع بلدها لمن رتّبه لحفظها من الأجناد، و جعل مقدّمهم الأمير علاء الدين الكبكى، و جعل فى نيابة السلطنة بالمدينة الأمير عزّ الدين العلائىّ، و ولاية القلعة للأمير مجد الدين الطّورىّ.

ثم رحل الملك الظاهر إلى دمشق فى تاسع عشر شوّال. و لمّا كان الملك الظاهر نازلا بصفد وصل إليه رسول صاحب صهيون بهديّة جليلة و رسالة مضمونها الاعتذار من تأخيره عن الحضور، فقبل الملك الظاهر الهديّة و العذر. ثمّ وصلت رسل صاحب سيس أيضا بهديّة فلم يقبلها و لا سمع رسالتهم. ثم وصلت البريديّة من متولّى قوص ببلاد الصّعيد بخبر أنّه استولى على جزيرة سواكن و أنّ صاحبها هرب، و أرسل يطلب من الملك الظاهر الدخول فى الطاعة و إبقاء سواكن عليه، فرسم

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٧، ص: ١٤٠

له الملك الظاهر بذلك. ثم رحل الملك الظاهر من دمشق يوم السبت ثالث ذى القعدة و أمر العساكر بالتقدّم إلى بلاد سيس للإغارة عليها، و قدّم عليهم الملك المنصور صاحب حماة و تدبير الأمور راجع إلى الأمير آق سنقر الفارقانىّ، فساروا حتّى وصلوا إلى الدّربند الذى يدخلون منه إليها، و كان صاحبها قد بنى عليها أبرجة فيها المقاتلة؛ فلمّا رأوا العسكر تركوها و مضوا فأخذها المسلمون و هدموها، و دخلوا بلاد سيس فنهبوا و أسروا و قتلوا؛ و كان فيمن أسر ابن صاحب سيس و ابن أخته و جماعة من أكابرهم، و دخلوا المدينة يوم السبت ثانى عشر ذى القعدة و أخذوا منها ما لا يحصى كثرة، و عادوا نحو دمشق. فلمّا قاربوها خرج الملك الظاهر لتلقّيهم فى ثانى ذى الحجّة، و اجتاز بقارة فى سادسه، فأمر بنهبها و قتل من فيها من الفرنج، فإنّهم كانوا يخيفون السبيل و يستأسرون المسلمين، فأراح اللّه منهم و جعلت كنيستها جامعا، و رتّب بقارة خطيبا و قاضيا، و نقل إليها الرعية من المسلمين؛ ثم التقى العساكر و خلع عليهم و عاد معهم، فدخل دمشق، و الغنائم و الأسرى بين يديه، فى يوم الاثنين خامس عشر شهر ذى الحجّة فأقام بها مدّة. ثم خرج منها طالبا الكرك فى مستهلّ المحرّم سنة خمس و ستين و ستّمائة، و أمر الملك الظاهر بعد خروجه من دمشق بعمارة جسر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٧، ص: ١٤١

بالغور على [نهر] الشّريعة؛ و كان المتولّى لعمارته جمال الدين محمد بن نهار و بدر الدين محمد بن رحال و هما من أعيان الأمراء؛ و لمّا تكامل عمارته اضطرب بعض أركانه، فقلق الملك الظاهر لذلك و أعاد الناس لإصلاحه فتعذّر ذلك لزيادة الماء، فاتّفق وقوف الماء عن جريانه حتّى أمكن إصلاحه؛ فلمّا تمّ إصلاحه عاد الماء إلى حاله؛ قيل إنّه كان وقع فى النهر قطعة كبيرة مما يجاوره من الأماكن العالية فسدّته من غير قصد. و هذا من عجيب الاتّفاق.

ثمّ عاد الملك الظاهر إلى ديار مصر و عند عوده إليها وصل إليه رسل صاحب اليمن الملك المظفر [شمس الدين] يوسف بن عمر و معهم فيل و حمار وحش أبيض و أسود و خيول و صينى و تحف، و طلب معاضدة الملك الظاهر له و شرط له أن يخطب له ببلاده. ثمّ خرج السلطان فى يوم السبت فى ثانى جمادى الآخرة إلى بركة الجب عازما على قصد الشام على حين غفلة، و جعل نائب السلطنة على مصر الأمير بيليك

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۴۲

الخازندار، و رحل فی سابع الشهر، فوردت علیه رسل صاحب یافا فی الطریق فاعتقلهم، و أمر العسکر بلبس آلة الحرب لیلا و سار فأصبح یافا، و أحاط بها من کل جانب، فهرب من کان فیها من الفرنج إلی قلعتها، فملک السلطان المدینة و طلب أهل القلعة الأمان، فأمّنهم و عوّضهم عما نهب لهم أربعین ألف درهم، فرکبوا فی المراکب إلی عکّا؛ و کان أخذ قلعة یافا فی الثانی و العشرین من الشهر المذکور و أمر بهدمها؛ فلمّا فرغ السلطان من هدمها رحل عنها یوم الأربعاء ثانی عشر شهر رجب طالبا للشّقیف، فنزل علیه یوم الثلاثاء و حاصرها حتّی تسلّمها یوم الأحد تاسع عشرین رجب؛ و کان الملک الظاهر أیضا ملک الباشورة بالسیف فی السادس و العشرین منه؛ ثم رحل الملک الظاهر عنها بعد أن رتّب بها عسکرا فی عاشر شعبان، و بعث أکثر أثقاله إلی دمشق و سار إلی طرابلس فشنّ علیها الغارة و أخرب قراها و قطع أشجارها و غوّر أنهارها. ثم رحل إلی حصن الأکراد و نزل بالمرج الذی تحته، فحضر إلیه رسول من فیه بإقامة و ضیافة، فردّها علیه و طلب منهم دیة رجل من أجناده، کانوا قتلوه، مائة ألف دینار فأرضوه. فرحل إلی حمص ثم إلی حماة ثم

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۴۳

إلی أفامیة ثم سار و نزل منزلة أخری؛ ثم رحل لیلا و أمر العسکر بلبس آلة الحرب، و نزل أنطاکیة فی غرّة شهر رمضان، فخرج إلیه جماعة من أهلها یطلبون الأمان و شرطوا شروطا لم یجب إلیها، و زحف علیها فملکها یوم السبت رابع الشهر؛ و رتّب علی أبوابها جماعة من الأمراء لئلّا یخرج أحد من الحرافشة بشیء من النهب، و من یوجد معه شیء یؤخذ منه، فجمع من ذلک ما أمکن جمعه و فرّقه علی الأمراء و الأجناد بحسب مراتبهم. و حصر من قتل بأنطاکیة فکانوا فوق الأربعین ألفا، و أطلق جماعة من المسلمین کانوا فیها أسراء من الحلبیّین، و کتب البشائر بذلک إلی مصر و إلی سائر الأقطار. و أنطاکیة: مدینة عظیمة مشهورة، مسافة سورها اثنا عشر میلا، و عدد أبراجها مائة و ستة و ثلاثون برجا، و عدد شرفاتها أربع و عشرون ألفا. و لم یفتحها السلطان صلاح الدین یوسف بن أیّوب- رحمه اللّه- فیما فتح.

قلت: کم ترک الأوّل للآخر!

و لمّا ملک الملک الظاهر أنطاکیة وصل إلیه قصّاد من أهل القصیر یطلبون تسلیمها إلیه، فسیّر السلطان الأمیر شمس الدین آق سنقر الفارقانیّ بالعساکر إلیها فوصلها

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۴۴

و وجد أکثر أهلها قد برح منها، فتسلّمها فی ثالث عشر شهر رمضان؛ و کان قد تسلّم درکوش بواسطة فخر الدین الجناحیّ فی تاسع شهر رمضان و عاد إلی دمشق، فدخلها فی سابع عشرین شهر رمضان، و عیّد السلطان بقلعة دمشق. ثم عاد إلی القاهرة فدخلها آخر نهار الأربعاء حادی عشر ذی الحجّة. و بعد وصوله بمدّة جلس فی الإیوان بقلعة الجبل یوم الخمیس تاسع صفر، و أحضر القضاة و الشهود و الأعیان و أمر بتحلیف الأمراء و مقدّمی الحلقة لولده الملک السعید برکة خان [بولایة عهده و خلیفته من بعده] فحلفوا. ثم رکب الملک السعید یوم الاثنین العشرین من الشهر بأبّهة السلطنة فی القلعة و مشی والده أمامه، و کتب تقلید [له] و قرئ علی الناس بحضور الملک الظاهر و سائر أرباب الدولة.

ثم فی یوم السبت ثانی عشر جمادی الآخرة خرج الملک الظاهر من القاهرة متوجّها إلی الشام و معه الأمراء بأسرهم جرائد، و استناب بالدیار المصریّة فی خدمة ولده الأمیر بدر الدین بیلیک الخازندار. و من هذا التاریخ علّم الملک السعید علی التواقیع و غیرها: و لمّا صار الملک الظاهر بدمشق وصلت إلیه کتب التّتار و رسلهم، و الرسل: محبّ الدین دولة خان، و سیف الدین سعید ترجمان و آخر، و معهم جماعة من أصحاب سیس، فأنزلهم السلطان بالقلعة و أحضرهم من الغد و أدّوا الرسالة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۴۵

و مضمونها: أنّ الملک أبغا بن هولاکو لمّا خرج من الشرق ملک جمیع البلاد و من خالفه قتل و أنت (یعنی للملک الظاهر) لو

صعدت إلى السماء أو هبطت إلى الأرض ما تخلص منّا، فالمصلحة أن تجعل بيننا صلحا، و أنت مملوک أبعت فى سيواس فكيف تشاقق ملوک الأرض و أولاد ملوكها! فأجابه فى وقته بأنّه فى طلب جميع ما استولوا عليه من العراق و الجزيرة و الروم و الشام و سفّرهم إليه بسرعة. ثم فى آخر شهر رجب خرج الملک الظاهر من دمشق و نزل خربة اللّصوص فأقام بها أيّاما؛ ثم ركب ليلة الاثنين ثامن عشر شعبان و لم يشعر به أحد و توجّه إلى القاهرة على البريد بعد أن عرّف الفارقانىّ أنّه يغيب أيّاما معلومة، و قرّر معه أنه يحضر الأطبّاء كلّ يوم و يستوصف منهم ما يعالج به متوعّک يشكو تغيير مزاجه، ليوهم الناس أنّ الملک الظاهر هو المتوعّک؛ فكان يدخل ما يصفونه إلى الجيمة ليوهم العسكر صحّة ذلک، و سار الملک الظاهر حتّى وصل قلعة الجبل ليلة الخميس حادى عشرين شعبان، فأقام بالقاهرة أربعة أيّام؛ ثم توجّه ليلة الاثنين خامس عشرين الشهر على البريد، فوصل إلى العسكر يوم تاسع عشرين الشهر. و كان غرضه بهذا السّفر كشف أحوال ولده الملک السعيد و غير ذلک. ثم فى يوم الأحد سادس عشر شهر رمضان

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۴۶

تسلّم نوّاب الملک الظاهر قلعة بلاطنس و قلعة كرابيل من عزّ الدين أحمد بن مظفّر الدين عثمان بن منكورس صاحب صهيون، و عوّضه غيرهما قرية تعرف بالخميلة من أعمال شيزر. ثم فى يوم الخميس العشرين من شهر رمضان توجّه الملک الظاهر إلى صفد فأقام بها يومين ثم شنّ الغارة على بلد صور، و أخذ منها شيئا كثيرا. ثم عاد الملک الظاهر إلى دمشق و عيّد بها. ثم خرج منها فى خامس عشرين شوّال يريد الكرک فوصله فى أوائل ذى القعدة. ثم توجّه فى سادسه إلى الحجاز، و صحبته بيليک الخازندار و القاضى صدر الدين سليمان الحنفى و فخر الدين إبراهيم بن لقمان و تاج الدين ابن الأثير و نحو ثلثمائة مملوک و جماعة من أعيان الحلقة، فوصل المدينة الشريفة فى العشر الأخير من الشهر فأقام بها ثلاثة أيام، و كان جمّاز قد طرق المدينة و ملكها، فلمّا قدم الظاهر هرب؛ فقال الملک الظاهر: لو كان جمّاز يستحقّ القتل ما قتلته! لأنه فى حرم النّبىّ صلّى اللّه عليه و سلم؛ ثم تصدّق فى المدينة بصدقات كثيرة، و خرج منها متوجّها إلى مكّة فوصلها فى ثامن ذى الحجّة، فخرج إليه أبو نمىّ و عمّه إدريس صاحبا مكّة، و بذلا له الطاعة فخلع عليهما و سارا بين يديه إلى عرفات، فوقف بها يوم الجمعة ثم عاد إلى منّى، ثم إلى مكّة و طاف بها طواف الإفاضة، و صعد الكعبة

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۴۷

و غسلها بماء الورد و طيّبها بيده، و أقام يوم الاثنين ثم ركب و توجّه إلى المدينة الشريفة، فزار بها قبر النّبىّ صلى اللّه عليه و سلم ثانيا. ثم توجّه إلى الكرک فوصله فى يوم الخميس تاسع عشرين ذى الحجة فصلّى به الجمعة. ثم توجّه إلى دمشق فوصل يوم الأحد ثانى المحرّم سنة ثمان و ستين و ستمائة فى السّحر، فحرج الأمير جمال الدين آقوش فصادفه فى سوق الخيل و اجتمع به. ثم سار إلى حلب فوصلها فى سادس المحرّم؛ ثم خرج منها فى عاشره و سار إلى حماة ثم إلى دمشق ثم إلى مصر، و صحبته الأمير عزّ الدين الأفرم فدخلها يوم الأربعاء رابع صفر، و اتّفق ذلک اليوم دخول ركب الحاجّ، و كانت العادة يوم ذاک بدخول الحاج إلى القاهرة بعد عاشر صفر، فأقام الملک الظاهر بالقاهرة أيّاما، و خرج منها فى صفر المذكور إلى الإسكندرية و معه ولده الملک السعيد و سائر الأمراء فصيّد أيّاما و عاد إلى نحو القاهرة فى يوم الثلاثاء ثامن شهر ربيع الأوّل، و خلع فى هذه السّفرة على الأمراء و فرّق فيهم الخيل و الحوائص الذهب و السيوف المحلّاة و الذهب و الدراهم و القماش و غير ذلک، فلم يقم بالقاهرة إلا مدّة يسيرة، و خرج منها متوجّها إلى الشام فى يوم الاثنين حادى عشرين شهر ربيع الأوّل فى طائفة يسيرة من أمرائه و خواصّه، فوصل إلى دمشق فى يوم الثلاثاء سابع شهر ربيع الآخر، و لقى أصحابه فى الطريق مشقّة شديدة من البرد. ثم خرج عقيب ذلک إلى الساحل و أسر ملک عكّا؛ و قتل و أسر و سبى. ثم

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۴۸

قصد الغارة على المرقب فوجد من الأمطار و الثلوج ما منعه، فرجع إلى حمص فأقام بها نحو عشرين يوما. ثم خرج إلى جهة حصن

الأكراد و نزل تحتها، و أقام يركب كلّ يوم و يعود من غير قتال إلى الثامن و العشرين من شهر رجب، فبلغه أنّ مراكب الفرنج دخلت ميناء الإسكندرية و أخذت مركبين للمسلمين، فرحل من فوره إلى نحو الديار المصريّة فوصلها ثانى عشر شعبان، فحين دخوله إلى مصر امر بعمارة القناطر التى على بحر أبى المنجّا، و هى من المبانى العجيبة فى الحسن و الإتقان؛ و بينما هو فى ذلك ورد عليه البريد من الشام أنّ الفرنج قاصدون الساحل، و المقدّم عليهم

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۴۹

شارل أخو ريدا فرنس، و ربّما كان محطّهم عكّا؛ فتقدّم الملك الظاهر إلى العسكر بالتوجّه إلى الشام. ثم ورد الخبر أيضا بأنّ اثنى عشر مركبا للفرنج عبروا على الإسكندرية و دخلوا ميناءها و أخذوا مركبا للتّجار و استأصلوا ما فيه و أحرقوه، و لم يجسر و الى الإسكندرية أن يخرج الشوانى من الصناعة لغيبة رئيسها فى مهمّ استدعاه الملك الظاهر بسببه. و لمّا بلغ الملك الظاهر ذلك بعث أمر بقتل الكلاب فى الإسكندرية و ألّا يفتح أحد حانوتا بعد المغرب و لا يوقد نارا فى البلد ليلا، ثم تجهّز بسرعة و خرج نحو دمياط يوم الخميس خامس ذى القعدة فى البحر. و فى ذى الحجّة أمر السلطان بعمل جسرين: أحدهما من مصر إلى الجزيرة (أعنى الروضة)، و الآخر من الجزيرة إلى الجيزة على مراكب لتجوز العساكر عليهما. ثم عاد الملك الظاهر من دمياط بسرعة و لم يلق حربا؛ و خرج من مصر إلى عسقلان فى يوم السبت عاشر صفر سنة تسع و ستين و ستمائة فى جماعة يسيرة من الأمراء و الأجناد، فوصل إلى عسقلان و هدم من سورها ما كان أهمل هدمه فى أيّام الملك الصالح، و وجد فيما هدم كوزان مملوءان ذهبا مقدار ألفى دينار ففرّقها على من صحبه، و ورد عليه الخبر و هو بعسقلان بأنّ عسكر ابن أخى بركة خان المغلىّ كسر عسكر أبغا بن هولاكو، فسرّ الملك الظاهر بذلك سرورا زائدا. و عاد إلى مصر يوم السبت ثامن شهر ربيع الأوّل. و فى هذه السنة انتهى الجسر و القناطر الذى عمل على بحر أبى المنجا، و وقف عليه الملك الظاهر وقفا يعمر منه ما دثر منه على طول السنين. و فى هذه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۵۰

السنة أيضا بنى الملك الظاهر جامع المنشيّة، و أقيمت فيه الخطبة يوم الجمعة ثامن عشرين شهر ربيع الآخر من سنة تسع و ستين و ستمائة المذكورة. ثم فى السنة المذكورة أيضا خرج الملك الظاهر من الديار المصريّة متوجّها إلى نحو حصن الأكراد فى ثانى عشر جمادى الآخرة، و دخل دمشق يوم الخميس ثامن شهر رجب، و كان معه فى هذه السّفرة ولده الملك السعيد و الصاحب بهاء الدين بن حنّا، و استخلف بمصر الأمير شمس الدين اقسنقر الفارقانىّ، و فى الوزارة الصاحب تاج الدين ابن حنّا. ثمّ خرج الملك الظاهر من دمشق فى يوم السبت عاشره و توجّه بطائفة من العسكر إلى جهة، و ولده و بيليك الخازندار بطائفة أخرى إلى جهة، و تواعدوا الاجتماع فى يوم واحد بمكان معيّن ليشنّوا الغارة على جبلة و اللّاذقيّة و المرقب و عرقة و مرقيّة و القليعات و صافيثا و المجدل و أنطرطوس، فلمّا اجتمعوا [على] أن يشنّوا الغارة فتحوا صافيثا و المجدل، ثم ساروا و نزلوا حصن الأكراد يوم الثلاثاء تاسع عشر شهر رجب من سنة تسع و ستين و ستمائة؛ و أخذوا فى نصب المجانيق و عمل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۵۱

الستاير، و لهذا الحصن ثلاثة أسوار؛ فاشتدّ عليه الزحف و القتال و فتحت الباشورة الأولى يوم الخميس حادى عشرين الشهر، و فتحت الثانية يوم السبت سابع شعبان، و فتحت الثالثة الملاصقة للقلعة فى يوم الأحد خامس عشره، و كان المحاصر لها الملك السعيد ابن الملك الظاهر و معه بيليك الخازندار و بيسرى، و دخلت العساكر البلد بالسيف و أسروا من فيه من الجبليّة و الفلّاحين ثم أطلقوهم. فلمّا رأى أهل القلعة ذلك أذعنوا بالتسليم و طلبوا الأمان، فأمّنهم الملك الظاهر و تسلّم القلعة يوم الاثنين ثالث عشرين شعبان، و كتبت البشائر بهذا الفتح إلى الأقطار، و أطلق الملك الظاهر من كان فيها من الفرنج فتوجّهوا إلى طرابلس. ثم رحل الملك الظاهر بعد أن رتّب الأمير عزّ الدين أيبك الأفرم لعمارته، و أقيمت فيه الجمعة، و رتّب نائبا و قاضيا. و لمّا وقع ذلك بعث صاحب أنطرطوس إلى الملك الظاهر يطلب المهادنة، و بعث إليه بمفاتيح أنطرطوس فصالحه على نصف ما يتحصّل من غلال بلده، و جعل عندهم نائبا من

قبله. ثم صالح صاحب المرقب على المناصفة أيضا، و ذلک فی يوم الاثنين مستهلّ شهر رمضان من سنة تسع و ستين، و قرّرت الهدنة عشر سنين و عشرة أشهر و عشرة أيّام.

ثم سار الملک الظاهر فی يوم الأحد رابع عشر شهر رمضان فأشرف على حصن ابن عکّار، و عاد إلى المرج فأقام به إلى أن سار و نزل على الحصن المذکور ثانيا فی يوم الاثنين ثانى عشرين شهر رمضان، و نصب المجانيق عليه فی يوم الثلاثاء،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۵۲

و فی يوم الأحد ثامن عشرينه رمى المنجنيق الذی قبالة الباب الشرقىّ رميا کثيرا فخسف خسفا کبيرا إلى جانب البدنة، و دام ذلک إلى اللّيل فطلبوا الأمان على أنفسهم من القتل و أن يمکّنهم من التوجّه إلى طرابلس فأجابهم، فخرجوا يوم الثلاثاء سلخ الشهر؛ و کتبت البشائر بالفتح و النصر إلى سائر الأقطار. ثم فی يوم السبت رابع شوّال خيّم السلطان الملک الظاهر بعساکر [ه] على طرابلس فسيّر صاحبها إليه يستعطفه فبعث إليه الملک الظاهر [فارس الدين] الأتابک [و] سيف الدين [بلبان] الرومىّ على أن يکون له من أعمال طرابلس نصف بالسويّة، و أن يکون له دار وکالة فيها، و أن يعطى جبلة و اللّاذقيّة بخراجهما من يوم خروجهما عن الملک الناصر إلى يوم تاريخه، و أن يعطى نفقات العساکر من يوم خروجه؛ فلمّا علم الرساله عزم على القتال و حصّن طرابلس، فنصب الملک الظاهر المجانيق؛ ثم تردّدت الرّسل ثانيا و تقرر الصلح أن تکون عرقة و جبلة و أعمالها للبرنس صاحب طرابلس، و أن يکون ساحل أنطرطوس و المرقب و بانياس و بلاد هذه النواحی بينه و بين الدّاويّة، و التی کانت خاصا لهم، و هی بارين و حمص القديمة تعود خاصا للملک الظاهر، و شرط أن تکون عرقة و أعمالها، و هی ست و خمسون قرية، صديقة من الملک الظاهر عليه، فتوقّف صاحب طرابلس و أنف؛ فلمّا بلغ الملک الظاهر امتناعه صمّم على ما شرط عليه حتى أجابه، و عقد الصلح بينهما مدّة عشر سنين و عشرة أشهر و عشرة أيام.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۵۳

و فی يوم السبت حادى عشر شوّال رحل الملک الظاهر عن مرج صافيثا، و أذن إلى صاحب حماة و صاحب حمص بالعود إلى بلادهم، و سار الظاهر حتى دخل دمشق يوم الأربعاء خامس عشر شوّال، و عزل القاضی شمس الدين أحمد بن خلّکان عن قضاء دمشق، و کانت مدّة ولايته عشر سنين، و ولّی عوضه القاضی عزّ الدين محمد بن عبد القادر بن عبد الخالق المعروف بابن الصائغ. ثم فی يوم الجمعة رابع عشرين شوّال خرج الملک الظاهر من دمشق قاصدا القرين، فنزل عليه يوم الاثنين سابع عشرين الشهر، و نصب عليه المجانيق، و لم يکن به نساء و لا أطفال بل مقاتلة، فقاتلوا قتالا شديدا، و أخذت النّقوب للحصن من کلّ جانب، فطلب من فيه الأمان، فأمّنوا يوم الاثنين ثالث عشر ذی القعدة، و تسلّم السلطان الحصن بما فيه من السلاح ثمّ هدمه، و کان بناؤه من الحجر الصّلد و بين کلّ حجرين عود حديد ملزوم بالرصاص، فأقاموا فی هدمه اثنى عشر يوما و فی حصاره خمسة عشر يوما.

و فی يوم الاثنين سادس عشرين الشهر نزل الملک الظاهر على کردانة قرية قريبة من عکّا، و لبس العسکر و سار إلى عکّا و أشرف عليها، ثم عاد إلى منزله. ثمّ رحل منها يوم الثلاثاء قاصدا مصر، فدخلها يوم الخميس ثالث عشر ذی الحجّة، و کان جملة ما صرفه الملک الظاهر فی هذه السّفرة من حين خروجه من مصر إلى حين عوده إليها ما ينيف على مائة ألف دينار و ثمانين ألف دينار عينا. و فی اليوم الثانی من وصوله إلى قلعة الجبل قبض على جماعة من الأمراء منهم: الأمير علم الدين سنجر

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۵۴

الحلبىّ الکبير، الذی کان تسلطن بدمشق فی أوّل سلطنة الملک الظاهر بيبرس، و الأمير جمال الدين آقوس المحمّدىّ، و الأمير جمال الدين أيدغدی الحاجبىّ الناصرىّ، و الأمير شمس الدين سنقر المسّاح و الأمير سيف الدين بيدغان الرّکنی و الأمير علم الدين سنجر طرطح و غيرهم، و حبسوا الجميع بقلعة الجبل؛ و سبب ذلک أنّه بلغه أنّهم تآمروا على قبضه لمّا کان بالشّقيف، فأسّرها فی نفسه إلى وقتها. و کان بلغ الملک الظاهر و هو على حصن الأکراد أنّ صاحب قبرص خرج منها فی مراکبه إلى عکا، فأراد السلطان اغتنام

خلوّها، فجّهز سبعة عشر شينيّا، فيها الرئيس ناصر الدين عمر بن منصور رئيس مصر و شهاب الدين محمد بن إبراهيم بن عبد السلام رئيس الإسكندرية، و شرف [الدين] علوى بن أبى المجد بن علوى العسقلانى رئيس دمياط، و جمال الدين مكّى بن حسّون مقدّما على الجميع؛ فوصلوا الجزيرة ليلا، فهاجت عليهم ريح طردتهم عن المرسى، و ألقت بعض الشّوانى على بعض، فتحطّم منها أكثر من أحد عشر شينيّا و أخذ من فيها من الرجال و الصنّاع أسراء، و كانوا زهاء ألف و ثمانمائة نفس، و سلم الرئيس ناصر الدين و ابن حسّون فى الشّوانى السالمة، و عادت إلى مراكزها؛ فعظم ذلك على الملك الظاهر بيبرس إلى الغاية.

و فى يوم الاثنين سابع عشر ذى الحجّة أمر الملك الظاهر بإراقة الخمور فى سائر بلاده، و أوعد من يعصرها بالقتل، فأريق على الأجناد و العوامّ منها ما لا تحصى قيمته، و كان ضمان ذلك فى ديار مصر خاصّة ألف دينار فى كلّ يوم، و كتب بذلك توقيع قرئ على منبر مصر و القاهرة. و فى العشر الأخير من ذى الحجّة اهتمّ الملك

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۵۵

الظاهر بإنشاء شوان عوضا عمّا ذهب على قبرص، و انتهى العمل من الشوانى فى يوم الأحد رابع عشر المحرّم سنة سبعين، و ركب السلطان إلى الصّناعة لإلقاء الشّوانى فى بحر النيل، و ركب السلطان فى شينىّ منها و معه الأمير بدر الدين بيليك الخازندار، فلمّا صار الشّينى فى الماء مال بمن فيه فوقع الخازندار منه إلى البحر، فنهض بعض رجال الشّينى و رمى بنفسه خلفه فأدركه و أخذ بشعره و خلّصه، و قد كاد يهلك، فخلع عليه الملك الظاهر و أحسن إليه.

و فى ليلة السبت السابع و العشرين منه خرج الملك الظاهر من الديار المصريّة إلى الشام فى نفر يسير من خواصّه و أمرائه و دخل حصن الكرك، و خرج منه و صحب معه نائبه الأمير عزّ الدين أيدمر و سار إلى دمشق، فوصل إليه يوم الجمعة ثانى عشر صفر، فعزل عنها الأمير جمال الدين آقوش النّجيبىّ، و ولّى مكانه الأمير عزّ الدين أيدمر المعزول عن نيابة الكرك. ثم خرج منها إلى حماة فى سادس عشره ثم عاد منها فى السادس و العشرين.

و فيها أمر ملك التّتار أبغا بن هولاكو عساكره بقصد البلاد الشاميّة، فخرج عسكره فى عدّة عشرة آلاف فارس و عليهم الأمير صمغرا و البرواناه، فلمّا بلغهم أنّ الملك الظاهر بالشام أرسلوا ألفا و خمسمائة من المغل ليتجسّسوا الأخبار و يغيروا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۵۶

على أطراف بلاد حلب، و كان مقدّمهم أمال بن بيجونوين و وصلت غارتهم إلى عينتاب ثم إلى قسطون و وقعوا على تركمان نازلين بين حارم و أنطاكية فاستأصلوهم؛ فتقدّم الملك الظاهر بتجفيل البلاد ليحمل التّتار الطمع فيدخلوا فيتمكّن منهم. و بعث إلى مصر بخروج العساكر فخرجت و مقدّمها الأمير بيسرى، فوصلوا إلى السلطان فى خامس الشهر و خرج بهم فى السابع منه، فسبق إلى التّتار خبره، فولّوا على أعقابهم. و كان الظاهر لمّا مرّ بحماة استصحب معه الملك المنصور صاحب حماة، و نزل الظاهر حلب يوم الاثنين ثانى عشر شهر ربيع الآخر من سنة سبعين و ستمائة و خيّم بالميدان الأخضر، ثم جهّز الأمير شمس الدين آق سنقر الفارقانىّ فى عسكر و أمره أن يمضى إلى بلاد حلب الشماليّة و لا يتعرّض ببلاد صاحب سيس، و جهّز الأمير علاء الدين طيبرس الوزيرىّ فى عسكر و أمره بالتوجّه إلى حرّان. فأمّا الفارقانىّ فإنه سار خلف التّتار إلى مرعش فلم يجد منهم أحدا، تم عاد إلى حلب فوجد الملك الظاهر مقيما بها، و قد أمر بإنشاء دار شمالىّ القلعة كانت تعرف بدار الأمير بكتوت، أستادار الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب حلب و اضاف إليها دارا أخرى، و وكّل بعمارتها الأمير عزّ الدين آقوش الأفرم.

و لمّا عاد الفارقانىّ إلى حلب رحل الملك الظاهر منها نحو الديار المصريّة فى ثامن عشرين شهر ربيع الآخر، و دخل مصر فى الثالث و العشرين من جمادى الأولى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۵۷

و لمّا وصل الظاهر إلى مصر قبض على الأمراء الذين كانوا مجرّدين على قاقون بسبب الفرنج لمّا أغاروا على الساحل ما عدا آقوش

الشّمسىّ ثم شفع فيهم فأطلقهم.

و فى يوم الأربعاء ثالث جمادى الآخرة عدّى الملك الظاهر إلى برّ الجيزة فأخبر أن ببوصير السّدر مغارة فيها مطلب، فجمع لها خلقا فحفروا مدى بعيدا، فوجدوا قطاطا ميتة و كلاب صيد و طيورا و غير ذلك من الحيوانات ملفوفا فى عصائب و خرق، فإذا حلّت اللفائف و لاقى الهواء ما كان فيها صار هباء منثورا؛ و أقام الناس ينقلون من ذلك مدّة و لم ينفد ما فيها، فأمر الملك الظاهر بتركها و عاد من الجيزة.

و فى يوم السبت سابع عشرين جمادى الآخرة ركب السلطان الملك الظاهر إلى الصّناعة ليرى الشوانى التى عملت و هى أربعون شينيّا فسرّ بها. و عند عوده إلى القلعة ولدت زرافة بقلعة الجبل [و هذا أمر لم يعهد] و أرضع ولدها لبن بقرة.

ثم سافر الملك الظاهر إلى الشام فى شعبان و سار حتى وصل الساحل و خيّم بين قيساريّة و أرسوف، و كان مركّزا بها الفارقانىّ فرحل الفارقانىّ عنها إلى مصر.

ثم إنّ الملك الظاهر شنّ الغارة على عكا، فطلب منه أهلها الصلح و تردّدوا فى ذلك حتى تقرّرت الهدنة بينهم مدّة عشر سنين و عشرة أشهر و عشرة أيّام و عشر ساعات، أوّلها ثانى عشرين شهر رمضان سنة سبعين و ستمائة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۵۸

ثم رحل الملك الظاهر إلى خربة اللّصوص، ثم سار منها إلى دمشق فدخلها فى الثامن من شوّال؛ و بينما هو فى دمشق تردّدت الرسل بينه و بين التّتار و انفصل الأمر من غير اتّفاق. و فى ذى الحجّة توجه الملك الظاهر من دمشق إلى حصن الأكراد لينقل حجارة المجانيق إليها و رؤية ما عمّر فيها ففعل ذلك. ثم سار إلى حصن عكّار فأشرف عليها. ثم عاد إلى دمشق فى خامس المحرّم من سنة إحدى و سبعين و ستمائة، و فى ثانى عشر المحرّم المذكور أفرج الملك الظاهر عن الأمير أيبك النّجيبى الصغير، و أيدمر الحلّىّ العزيزىّ و كانا محبوسين بالقاهرة. ثم خرج الملك الظاهر من دمشق فى المحرم أيضا عائدا إلى الديار المصريّة و صحبته الأمير بدر الدين بيسرىّ و الأمير آقوش الرومىّ و جرمك الناصرىّ، فوصل إليها فى يوم السبت ثالث عشرين المحرّم، فأقام بالقاهرة إلى ليلة الجمعة تاسع عشرينه، خرج من مصر و توجّه إلى دمشق فدخل قلعتها ليلة الثلاثاء رابع صفر، فأقام بدمشق إلى خامس جمادى الأولى اتّصل به أنّ فرقة من التّتار قصدت الرّحبة، فبرز إلى القصير فبلغه أنّهم عادوا من الرّحبة و نزلوا على البيرة، فسار إلى حمص و أخذ مراكب الصيّادين على الجمال ليجوز عليها، ثم سار حتّى وصل إلى الباب من أعمال حلب،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۵۹

و بعث جماعة من الأجناد و العربان لكشف أخبارهم، و سار إلى منبج فعادوا و أخبروا أنّ طائفة من التّتار مقدار ثلاثة آلاف فارس على شطّ الفرات ممّا يلى الجزيرة، فرحل عن منبج يوم الأحد ثامن عشر جمادى الأولى و وصل شطّ الفرات، و تقدّم إلى العسكر بخوضها، فخاض الأمير سيف الدين قلاوون الألفىّ و الأمير بدر الدين بيسرى فى أوّل الناس، ثم تبعهما هو بنفسه و تبعته العساكر، فوقعوا على التّتار فقتلوا منهم مقتلة عظيمة و أسروا تقدير مائتى نفس و لم ينج منهم إلّا القليل، و تبعهم بيسرى إلى قريب سروج ثم عاد. و كان على البيرة جماعة كثيرة من عسكر التّتار، و كانوا قد أشرفوا على أخذها، فلمّا بلغهم الخبر رحلوا عن البيرة؛ و دخلها السلطان فى ثانى عشرين الشهر و خلع على نائبها و فرّق فى أهلها مائة ألف درهم، و أنعم عليهم ببعض ما تركه التّتار عندهم لمّا هربوا. ثم رحل الملك الظاهر عنها بعساكره و عاد إلى دمشق. و فى هذه النّصرة قال العلّامة شهاب الدين أبو الثناء محمود كاتب الإنشاء- رحمه اللّه- قصيدة طنانة؛ أوّلها:

سر حيث شئت لك المهيمن جار و احكم فطوع مرادك الأقدار

لم يبق للدين الذى أظهرته يا ركنه عند الأعادى ثار

لمّا تراقصت الرءوس و حرّكت من مطربات قسّيك الأوتار

خضت الفرات بسابح أقصى منى هوج الصّبا من نعله آثار

حملتك أمواج الفرات و من رأى بحرا سواك تقلّه الأنهار

و تقطّعت فرقا و لم يك طودها إذ ذاك إلا جشك الجرّار

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۶۰

رشّت دماؤهم الصعيد فلم يطر منهم على الجيش السعيد غبار

شكرت مساعيك المعاقل و الورى و التّرب و الآساد و الأطيار

هذى منعت و هؤلاء حميتهم و سقيت تلك و عمّ ذا الإيسار

فلأملأنّ الدهر فيك مدائحا تبقى بقيت و تذهب الأعصار

و هى أطول من ذلك. و قال الشيخ ناصر الدين حسن بن النّقيب الكنانىّ الشاعر- رحمه اللّه تعالى- قصيدة و كان حاضر الوقعة منها:

و لمّا ترامينا الفرات بخيلنا سكرناه منا بالقوى و القوائم

فأوقفت التّيار عن جريانه إلى حيث عدنا بالغنى و الغنائم

و قال الموفّق عبد اللّه بن عمر الأنصارى- رحمه اللّه- و أجاد:

الملك الظاهر سلطاننا نفديه بالأموال و الأهل

اقتحم الماء ليطفى به حرارة القلب من المغل

ثم توجّه الملك الظاهر إلى نحو الديار المصريّة، فخرج ولده الملك السعيد لتلقّيه فى يوم الثلاثاء تاسع عشر جمادى الآخرة، فاجتمع به بين القصير و الصالحيّة فى يوم الجمعة ثانى عشرينه، فترجلا و اعتنقا طويلا؛ ثم ركبا و سارا جميعا إلى القلعة و بين يديهم أسارى التّتار ركّابا على الخيل، ثم فى سابع شهر رجب أفرج الملك الظاهر عن الأمير عز الدين أيبك الدّمياطى من الاعتقال، و كانت مدّة اعتقاله تسع سنين و عشرة أيام، ثم خلع الملك الظاهر على أمراء الدولة و مقدّمى الحلقة و أعطى،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۶۱

كلّ واحد منهم ما يليق به من الخيل و الذهب و الحوائص و الثّياب و السيوف، و كان قيمة ما صرفه فيهم فوق ثلثمائة ألف دينار، و فى سادس عشرين شعبان أفرج الملك الظاهر عن الأمير علم الدين سنجر الحلبى الغتمى المعزّى. و فى يوم الاثنين ثانى عشر شوّال استدعى الملك الظاهر الشيخ خضرا إلى القلعة و أحضره بين يديه.

قلت: و الشيخ خضر هذا هو صاحب الزاوية بالحسينية بالقرب من جامع الظاهر. انتهى. و أحضر معه جماعة من الفقراء حاققوه على أشياء كثيرة منكرة، و كثر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۶۲

بينه و بينهم فيها المقالة و رموه بفواحش كثيرة و نسبوه إلى قبائح عظيمة؛ فرسم الملك الظاهر باعتقاله، و كان للشيخ خضر المذكور منزلة عظيمة عند الملك الظاهر بحيث إنّه كان ينزل عنده فى الجمعة المرّة و المرّتين و يباسطه و يمازحه و يقبل شفاعته و يستصحبه فى سائر سفراته، و متى فتح مكانا أفرض له منه أوفر نصيب، فامتدّت يد الشيخ خضر بذلك فى سائر المملكة يفعل ما يختار لا يمنعه أحد من النوّاب، حتّى إنّه دخل إلى كنيسة قمامة ذبح قسّيسها بيده، و انتهب ما كان فيها تلامذته، و هجم كنيسة اليهود بدمشق و نهبها، و كان فيها ما لا يعبّر من الأموال، و عمرها مسجدا و عمل بها سماعا و مدّ بها سماطا. و دخل كنيسة الإسكندريّة و هى عظيمة عند النصارى فنهبها و صيّرها مسجدا، و سمّاها المدرسة الخضراء و أنفق فى تعميرها مالا كثيرا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۶۳

من بيت المال. و بنى له الملك الظاهر زاوية بالحسينية ظاهر القاهرة و وقف عليها و حبس عليها أرضا تجاورها تحتكر للبناء. و بنى

لأجله جامع الحسينية.

و فی يوم الاثنين سابع المحرّم سنة اثنتين و سبعين و ستمائة جلس الملک الظاهر بدار العدل و حكّم بين الناس و نظر فی أمور الرعيّة، فأنصف المظلوم و خلّص الحقوق و مال على القویّ و رفق بالضعيف. و فی العاشر منه هدمت غرفة على باب قصر من قصور الخلفاء الفاطميّين بالقاهرة، و يعرف هذا الباب بباب البحر، و هو من بناء الخليفة الحاكم بأمر اللّه منصور المقدّم ذكره، فوجد فی القصر الذی هدم امرأة فی صندوق منقوش عليها كتابة اسم الملک الظاهر بيبرس هذا و صفته، و بقی منها ما لم يمكن قراءته.

و فيها قبض على ملک الكرج و هو أنّه كان قد خرج من بلاده قاصدا زيارة القدس الشريف متنكّرا فی زیّ الرهبان و معه جماعة يسيرة من خواصّه، فسلک بلاد

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۶۴

الروم إلى سيس فركب البحر إلى عكّا، ثم خرج منها إلى بيت المقدس فاطّلع الأمير بدر الدين الخازندار على أمره و هو على يافا، فبعث إليه من قبض عليه، فلمّا حضر بين يديه بعثه مع الأمير ركن الدين منكورس إلى السلطان؛ و كان السلطان قد توجّه إلى دمشق فوصل إلى دمشق فی رابع عشر جمادى الأولى، فأقبل عليه السلطان و سأله حتى اعترف، فحبسه فی برج من أبراج قلعة دمشق، و أمره أن يبعث من جهته إلى بلاده من يعرّفهم بأسره، فبعث نفرين. و خرج الملک الظاهر من دمشق ثالث عشرين جمادى الآخرة، و قدم القاهرة يوم الخميس سابع شهر رجب من سنة اثنتين و سبعين المذكورة. ثم فی يوم الخميس خامس عشرين شهر رمضان أمر السلطان العسكر أن يركب بالزينة الفاخرة و يلعب فی الميدان تحت القلعة، فاستمرّ ذلک كلّ يوم إلى يوم عيد الفطر ختن السلطان الملک الظاهر ولده خضرا و معه جماعة من أولاد الأمراء و غيرهم، و كان الملک السعيد ابن الملک الظاهر فی يوم الأربعاء سابع عشر شهر رمضان خرج من القاهرة و توجّه إلى دمشق و معه شمس الدين آقسنقر الفارقانیّ و أربعون نفرا من خواصّه على خيل البريد، و عاد إلى القاهرة فی يوم الخميس الرابع و العشرين من شوّال.

و فی يوم الأحد سابع صفر من سنة ثلاث و سبعين و ستمائة ركب الملک الظاهر الهجن و توجّه إلى الكرک و معه بيسری و أتامش السّعدی، و سبب توجّهه أن وقع بالكرک برج فأحبّ أن يكون إصلاحه بحضوره. ثم عاد إلى مصر فدخلها فی يوم الثلاثاء ثانی عشرين شهر ربيع الأوّل، فأقام بها مدّة يسيرة. ثم توجّه إلى دمشق و أقام به إلى أن أرسل فی رابع عشرين المحرّم سنة أربع و سبعين و ستمائة الأمير

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۶۵

بدر الدين بيليک الخازندار على البريد إلى مصر لإحضار الملک السعيد، فعاد به إلى دمشق فی يوم الأربعاء سادس صفر من السنة. و فی الثالث و العشرين من جمادى الأولى فتح حصن القصير و هو بين حارم و أنطاكية، و كان فيه قسّيس عظيم عند الفرنج يقصدونه للتبرّک به، و كان الملک الظاهر قد أمر الترّكمان و بعض العرب بمحاصرته، و بعد أخذه عاد الملک الظاهر إلى مصر فلم تطل مدّته به و عاد إلى دمشق، فدخله يوم ثالث المحرّم من سنة خمس و سبعين، فأقام به مدة يسيرة أيضا، و عاد إلى الديار المصريّة فی يوم الاثنين ثالث شهر ربيع الآخر؛ و أمر بعمل عرس ولده الملک السعيد، و اهتمّ فی ذلک إلى يوم الخميس خامس جمادى الأولى أمر العسكر بالركوب إلى الميدان الأسود تحت القلعة فی أحسن زیّ، و أقاموا يركبون كلّ يوم كذلک و يتراكضون فی الميدان، و الناس تزدحم للفرجة عليهم خمسة أيام، و فی اليوم السادس افترق الجيش فرقتين، و حملت كلّ فرقة على الأخرى و جرى من اللعب و الزينة ما لا يوصف، و فی اليوم السابع خلع على سائر الأمراء و الوزراء و القضاة و الكتّاب و الأطباء مقدار ألف و ثلثمائة خلعة، و أرسل

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۶۶

إلى دمشق الخلع ففرقت كذلک، و فی يوم الخميس مدّ السّماط فی الميدان المذكور فی أربعة خيم، و حضر السّماط من علا و من دنا، و رسل التتار و رسل الفرنج، و عليهم الخلع أيضا، و جلس السلطان فی صدر الخيمة على تخت من آبنوس و عاج مصفّح بالذهب

مسمّر بالفضّة غرم عليه ألف دينار؛ و لمّا انقضى السّماط قدّم الأمراء الهدايا من الخيل و السلاح و التّحف و سائر الملابس، فلم يقبل السلطان من أحد منهم سوى ثوب واحد جبرا له؛ فلمّا كان وقت العصر ركب إلى القلعة و أخذ فى تجهيز ما يليق بالزّفاف و الدخول، و لم يمكّن أحد من نساء الأمراء على الإطلاق من الدخول إلى البيوت، و دخل الملك السعيد إلى الحمّام ثم دخل إلى بيته الذى هيّى له بأهله، و حملت العروس فدخل عليها. و لمّا بلغ الملك المنصور صاحب حماة ذلك قدم القاهرة مهنّئا للسلطان و معه هديّة سنيّة، فوصل القاهرة فى ثامن جمادى الآخرة، فركب الملك السعيد لتلقّيه و نزل بالكبش، و أقام مدّة يسيرة ثم عاد إلى بلده.

ثم خرج الملك الظاهر بعد ذلك من القاهرة فى يوم الخميس العشرين من شهر رمضان بعد أن استناب الأمير آق سنقر الفارقانىّ الأستادار نائبا عنه فى خدمة ولده الملك السعيد، و ترك معه من العسكر بالديار المصريّة لحفظ البلاد خمسة آلاف فارس، و رحل من المنزلة يوم السبت ثانى عشر شوّال قاصدا بلاد الروم فدخل دمشق ثم خرج منها و دخل حلب يوم الأربعاء مستهلّ ذى القعدة، و خرج منها

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۶۷

يوم الخميس إلى حيلان، فترك بها بعض الثّقل، و أمر الأمير نور الدين علىّ بن جبل مجلىّ نائب حلب أن يتوجّه إلى الساجور و يقيم على الفرات بمن معه من عسكر حلب و يحفظ معابر الفرات لئلا يعبر منها أحد من التّتار قاصدا الشام، و وصل إلى الأمير نور الدين الأمير شرف الدين عيسى بن مهنّا و أقام عنده، فبلغ نوّاب التّتار ذلك فجهّزوا إليهم جماعة من عرب خفاجة لكبسهم فحشدوا و توجّهوا نحوهم. فاتّصل بالأمير علىّ نائب حلب الخبر و كان يقظا، فركب إليهم و التقاهم و كسرهم أقبح كسرة، و أخذ منهم ألفا و مائتى جمل.

و أمّا الملك الظاهر فإنّه ركب من حيلان يوم الجمعة ثالث الشهر، و سار إلى عينتاب، ثم إلى دلوك، ثم إلى منزلة أخرى ثم إلى كينوك، ثم إلى كك صو (و معناه الماء الأزرق باللّغة التركيّة). ثم رحل عنه إلى أقجادر بند فقطعه فى نصف نهار؛

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۶۸

فلمّا خرجت عساكره و ملكت المفاوز، قدّم الأمير شمس الدين سنقر الأشقر على جماعة من العسكر و أمره بالمسير بين يديه، فوقع على كتيبة التّتار و عدّتهم ثلاثة آلاف فارس، و مقدّمهم كراى فهزمهم سنقر الأشقر و أسر منهم طائفة، و ذلك فى يوم الخميس تاسع ذى القعدة.

ثم ورد الخبر على الملك الظاهر بأنّ عسكر الروم و التّتار مع البرواناه اجتمعوا على نهر جيحان، فلمّا صعد العسكر الجبل أشرف على صحراء أبلستين فشاهد التّتار قد رتّبوا عساكرهم أحد عشر طلبا فى كلّ طلب ألف فارس، و عزلوا عسكر الروم عنهم خوفا من باطن يكون لهم مع المسلمين، و جعلوا عسكر الكرج طلبا واحدا؛ فلمّا تراءى الجمعان حملت ميسرة التّتار حملة واحدة و صدموا سنجق الملك الظاهر، و دخلت طائفة منهم بينهم، و شقّوا الميسرة و ساقوا إلى الميمنة؛ فلمّا رأى الملك الظاهر ذلك أردفهم بنفسه، ثم لاحت منه التفاتة فرأى الميسرة قد أتت عليها ميمنة التّتار، فأمر الملك الظاهر جماعة من أصحابه الشّجعان بإردافها، ثم حمل هو بنفسه- رحمه اللّه- فلمّا رأته العساكر حملت نحوه برمّتها حملة رجل واحد، فترجّل التّتار عن خيولهم و قاتلوا قتال الموت فلم يغن عنهم ذلك شيئا، و صبر لهم الملك الظاهر و عسكره و هو يكرّ فى القوم كالأسد الضّارى و يقتحم الأهوال بنفسه و يشجّع أصحابه و يطيّب لهم الموت فى الجهاد إلى أن أنزل اللّه تعالى نصره عليه، و انكسر التّتار أقبح كسرة و قتلوا و أسروا و فرّ من نجا منهم، فاعتصموا بالجبال فقصدتهم العساكر الإسلاميّة و أحاطوا بهم، فترجّلوا عن خيولهم و قاتلوا فقتل منهم جماعة كثيرة، و قتل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۶۹

ممّن قاتلهم من عساكر المسلمين الأمير ضياء الدين [محمود] بن الخطير، و كان من الشّجعان الفرسان، و الأمير شرف الدين قيران العلائىّ، و الأمير عزّ الدين أخو المحمّدىّ، و سيف الدين قفجاق الجاشنكير، و الأمير [عز الدين] أيبك الشّقيفىّ- رحمهم اللّه تعالى و

أسكنهم الجنّة- و أسر من كبار الروميّين مهذّب الدين ابن معين الدين البرواناه، و ابن بنت معين الدين المذكور، و الأمير نور الدين جبريل [بن جاجا]، و الأمير قطب الدين محمود أخو مجد الدين الأتابك، و الأمير سراج الدين إسماعيل [بن جاجا]، و الأمير سيف الدين سنقر جاه الزّوباشىّ، و الأمير نصرة الدين بهمن أخو تاج الدين كيوى (يعنى الصهر) صاحب سيواس، و الأمير كمال الدين إسماعيل عارض الجيش، و الأمير حسام الدين كاوک، و الأمير سيف الدين بن الجاويش، و الأمير شهاب الدين غازى بن على شير التّركمانى،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة؛ ج۷؛ ص۱۶۹

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۷۰

فوبّخهم السلطان الملک الظاهر من كونهم قاتلوه فى مساعدة التتار الكفرة، ثم سلّمهم لمن احتفظ بهم. و أسر من مقدّمى التّتار على الألوف و المئين بركة صهر أبغا بن هولاكو ملک التّتار، و سرطق، و خيز كدوس و سركده و تماديه. و لمّا أسر من أسر و قتل من قتل نجا البرواناه و ساق حتّى دخل قيصريّة يوم الأحد ثانى عشر ذى القعدة و اجتمع بالسلطان غياث الدين، و الصاحب فخر الدين، و الأتابک مجد الدين، و الأمير جلال الدين المستوفى، و الأمير بدر الدين ميكائيل النائب فأخبرهم بالكسرة، و قال لهم: إنّ التّتار المنهزمين متى دخلوا قيصريّة فتكوا بمن فيها حنقا على المسلمين، و أشار عليهم بالخروج منها فخرج السلطان غياث الدين بأهله و ماله إلى توقات و بينها و بين قيصريّة أربعة أيام. و عملت شعراء الإسلام فى هذه الوقعة عدّة قصائد و مدائح، من ذلک ما قاله العلّامة شهاب الدين أبو الثناء محمود كاتب الدّرج قصيدته التى أوّلها:

كذا فلتكن فى اللّه تمضى العزائم و إلّا فلا تجفو الجفون الصّوارم

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۷۱

عزائم حاذتها الرياح فأصبحت مخلّفة تبكى عليها الغمائم

سرت من حمى مصر إلى الروم فاحتوت عليه [و] سوراه الظّبا و اللهاذم

بجيش تظلّ الأرض منه كأنّها على سعة الأرجاء فى الضّيق خاتم

كتائب كالبحر الخضمّ جيادها إذا ما تهادت موجه المتلاطم

تحيط بمنصور اللّواء مظفّر له النّصر و التأييد عبد و خادم

مليک يلوذ الدين من عزمايه بركن له الفتح المبين دعائم

مليک لأبكار الأقاليم نحوه حنين كذا تهوى الكرام الكرائم

فكم وطئت طوعا و كرها جياده معاقل قرطاها السّها و النعائم

مليک به للدين فى كلّ ساعة بسائر للكفّار منها مآتم

جلاحين أقذى [ناظر] الكفر للهدى ثغورا بكى الشيطان و هى بواسم

إذا رام شيئا لم يعقه لبعدها و شقّتها عنه الإكام الطّواسم

فلو نازع النّسرين أمرا لناله و ذا واقع عجزا و ذا بعد حائم

و لمّا رمى الروم المنيع بخيله و من دونه سدّ من الصخر عاصم

يروم عقاب الجوّ قطع عقابه إليه فلا تقوى عليها القوادم

و منها:

و سالت عليهم أرضهم بمواكب لها النّصر طوع و الزمان مسالم

أدارت بهم سورا منيعا مشرّفا بسمر العوالى ما له الدهر هادم

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۷۲

من التّرک أمّا فی المغانی فإنّهم شموس و أما فی الوغی فضراغم

غدا ظاهرا بالظاهر النصر فیهم تبید اللیالی و العدا و هو دائم

فأهووا إلی لثم الأسنّة فی الوغی کأنّهم العشّاق و هی المباسم

و صافحت البیض الصّفاح رقابهم و عانقت السّمر القدود النواعم

فکم حاکم منهم علی ألف دارع غدا حاسرا و الرمح [فی] فیه حاکم

و کم ملک منهم رأی و هو موثق خزائن ما یحویه و هی غنائم

و منها:

فلا زلت منصور اللّواء مؤیّدا علی الکفر ما ناحت و أبکت حمائم

ثم جرّد الملک الظاهر الأمیر سنقر الأشقر لإدراک ما فات من التّرک و التوجّه إلی قیصریّة، و کتب معه کتابا بتأمین أهلها و إخراج الأسواق و التعامل بالدراهم الظاهریّة. ثم رحل الملک الظاهر بکرة السبت حادی عشر ذی القعدة قاصدا قیصریّة، فمرّ فی طریقه بقریة أهل الکهف ثم إلی قلعة سمندو فنزل إلیه و الیها مذعنا للطاعة، ثم سار إلی قلعة درندة و قلعة فالو ففعل متولّیها کذلک، ثم نزل بقریة من قری قیصریّة فبات بها، فلمّا أصبح رتّب عساکره و خرج أهل

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۷۳

قیصریّة بأجمعهم مستبشرین بلقائه، و کانوا لنزوله نصبوا الخیام بوطاة، فلمّا قرب الظاهر منها ترجّل وجوه الناس علی طبقاتهم و مشوا بین یدیه إلی أن وصلها.

فلمّا کان یوم الجمعة سابع عشر الشهر رکب السلطان للجمعة، فدخل قیصریّة و نزل دار السلطنة و جلس علی التّخت و حضر بین یدیه القضاة و الفقهاء و الصوفیّة و القرّاء و جلسوا فی مراتبهم علی عادة ملوک السّلجوقیّة، فأقبل علیهم السلطان و مدّ لهم سماطا فأکلوا و انصرفوا، ثمّ حضر الجمعة بالجامع و خطب له، و حضّر بین یدیه الدراهم التی ضربت له باسمه. و کتب إلیه البرواناه یهنّئه بالجلوس علی تخت الملک بقیصریّة، فکتب الملک الظاهر إلیه بعوده لیولّیه مکانه، فکتب إلیه یسأله أن ینتظره خمسة عشر یوما، و کان مراد البرواناه أن یصل أبغا و یحثّه علی المسیر لیدرک الملک الظاهر بالبلاد، فاجتمع تتاوون بالأمیر شمس الدین سنقر الأشقر و عرّفه مکر البرواناه فی ذلک، فکان ذلک سببا لرحیل الملک الظاهر عن قیصریّة مع ما انضاف إلی ذلک من قلق العساکر؛ فرحل یوم الاثنین، و کان علی الیزک عزّ الدین أیبک الشّیخیّ، و کان الملک الظاهر ضربه بسبب سبقه الناس فغضب و هرب إلی التّتار.

و کان أولاد قرمان قد رهنوا أخاهم الصغیر علیّ بک بقیصریّة، فأخرجه الملک الظاهر و أنعم علیه، و سأل السلطان فی تواقیع و سناجق له و لإخوته فأعطاه، و توجّه نحو إخوته بجبل لارندة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۷۴

و عاد السلطان و أخذ فی عوده أیضا عدّة بلاد إلی أن وصل مکان المعرکة یوم السبت، فرأی القتلی، فسأل عن عدّتهم فأخبر أنّ المغل خاصّة ستة آلاف و سبعمائة و سبعون نفسا؛ ثم رحل حتّی وصل أقجا دربند، بعث الخزائن و الدّهلیز و السناجق صحبة الأمیر بدر الدین بیلیک الخازندار لیعبر بها الدّربند، و أقام السلطان فی ساقة العسکر بقیّة الیوم و یوم الأحد، و رحل یوم الاثنین فدخل الدّربند.

ثم سار إلی أن وصل دمشق فی سابع المحرّم سنة ست و سبعین و ستمائة، و نزل بالجوسق المعروف بالقصر الأبلق جوار المیدان الأخضر و تواترت علیه الأخبار بوصول أبغا ملک التّتار إلی مکان الوقعة، فجمع السلطان الأمراء و ضرب مشورة، فوقع الاتفاق علی الخروج من دمشق بالعساکر و تلقّیه حیث کان، فأمر الملک الظاهر بضرب الدّهلیز علی القصیر، و فی أثناء ذلک وصل رجل من

التّرکمان و أخبر أنّ أبغا عاد إلی بلاده هاربا خائفا؛ ثمّ وصل الأمیر سابق الدین بیسری أمیر مجلس الملک الناصر صلاح الدین، و هو غیر بیسری الکبیر، و أخبر بمثل ما أخبر الترکمانیّ، فعند ذلک أمر الملک الظاهر بردّ الدّهلیز إلی الشام. و کان عود أبغا من ألطاف اللّه تعالی بالمسلمین، فإنّ الملک الظاهر فی یوم الجمعة نصف المحرّم من سنة ست و سبعین ابتدأ به مرض الموت.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۷۵

ذکر مرض الملک الظاهر و وفاته

لمّا کان یوم الخمیس رابع عشر المحرّم سنة ستّ و سبعین و ستمائة جلس الملک الظاهر بالجوسق الأبلق بمیدان دمشق یشرب القمزّ و بات علی هذه الحالة، فلمّا کان یوم الجمعة خامس عشره وجد فی نفسه فتورا و توعّکا فشکا ذلک إلی الأمیر شمس الدین سنقر الألفیّ السلحدار فأشار علیه بالقیء، فاستدعاه فاستعصی علیه القیء، فلمّا کان بعد صلاة الجمعة رکب من الجوسق إلی المیدان علی عادته، و الألم مع ذلک یقوی علیه، و عند الغروب عاد إلی الجوسق. فلمّا أصبح اشتکی حرارة فی باطنه فصنع له بعض خواصّه دواء، و لم یکن عن رأی طبیب فلم ینجع و تضاعف ألمه، فأحضر الأطبّاء فأنکروا استعماله الدواء، و أجمعوا علی استعمال دواء مسهل فسقوه فلم ینجع، فحرّکوه بدواء آخر کان سبب الإفراط فی الإسهال و دفع دما، فتضاعفت حمّاه و ضعفت قواه، فتخیّل خواصّه أنّ کبده یتقطّع و أنّ ذلک عن سمّ سقیه فعولج بالجوهر، و أخذ أمره فی انحطاط، و جهده المرض و تزاید به إلی أن قضی نحبه یوم الخمیس بعد صلاة الظهر الثامن و العشرین من المحرّم، فاتّفق رأی الأمراء علی إخفائه و حمله إلی القلعة لئلّا تشعر العامّة بوفاته، و منعوا من هو داخل من الممالیک من الخروج و من هو خارج منهم من الدخول. فلمّا کان آخر اللیل حمله من کبار الأمراء سیف الدین قلاوون الألفیّ و شمس الدین سنقر الأشقر، و بدر الدین بیسری، و بدر الدین بیلیک الخازندار، و عزّ الدین آقوس الأفرم،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۷۶

و عزّ الدین أیبک الحموی، و شمس الدین سنقر الألفیّ الظاهری، و علم الدّین سنجر الحمویّ أبو خرص، و جماعة من أکابر خواصّه. و تولّی غسله و تحنیطه و تصبیره و تکفینه مهتاره الشّجاع عنبر، و الفقیه کمال الدین الإسکندری المعروف بابن المنبجیّ، و الأمیر عز الدین الأفرم؛ ثم جعل فی تابوت و علّق فی بیت من بیوت البحریّة بقلعة دمشق إلی أن حصل الاتّفاق علی موضع دفنه. ثم کتب الأمیر بدر الدین بیلیک الخازندار إلی ولده الملک السعید مطالعة بیده و سیّرها إلی مصر علی ید بدر الدین بکتوت الجوکنداریّ الحمویّ، و علاء الدین أیدغمش الحکیمیّ الجاشنکیر، فلمّا وصلا و أوصلاه المطالعة خلع علیهما و أعطی کلّ واحد منهما خمسین ألف درهم، علی أنّ ذلک بشارة بعود السلطان إلی الدیار المصریّة. و لمّا کان یوم السبت رکب الأمراء إلی سوق الخیل بدمشق علی عادتهم و لم یظهروا شیئا من زیّ الحزن. و کان أوصی أن یدفن علی الطریق السالکة قریبا من داریّا و أن یبنی علیه هناک، فرأی ولده الملک السعید أن یدفنه داخل السور، فابتاع دار العقیقیّ بثمانیة و أربعین ألف درهم نقرة، و أمر أن تغیّر معالمها و تبنی مدرسة [للشافعیة و الحنفیة]: انتهی.

و أمّا الملک السعید فإنّه جهّز الأمیر علم الدین سنجر الحموی المعروف بأبی خرص، و الطواشی صفیّ الدین جوهر الهندیّ إلی دمشق لدفن والده الملک الظاهر، فلمّا وصلاها اجتمعا بالأمیر عز الدین أیدمر نائب السلطنة بدمشق، و عرّفاه المرسوم

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۷۷

فبادر إلیه، و حمل الملک الظاهر من القلعة إلی التّربة لیلا علی أعناق الرجال، و دفن بها لیلة الجمعة خامس شهر رجب الفرد، و کان قد ظهر موته بدمشق فی یوم السبت رابع عشر صفر، و شرع العمل فی أعزیته بالبلاد الشامیّة و الدیار المصریّة.

قال الأمیر بیبرس الدّوادار فی تاریخه- و هو أعرف بأحواله من غیره- قال: و کان القمر قد کسف کسوفا کاملا أظلم له الجوّ و تأوّل ذلک المتأوّلون بموت رجل جلیل القدر؛ فقیل: إنّ الملک الظاهر لمّا بلغه ذلک حذر علی نفسه و خاف و قصد أن یصرف التأویل

إلى غيره لعلّه يسلم من شرّه، و كـان بـدمشق شـخص من أولاـد الملوك الأيّوبيّـة، و هو الملـك القـاهر بهاء الـدين عبـد الملك ابن السـلطان الملـك المعظّم عيسـى ابن السـلطان الملـك العادل أبى بكر بن أيّوب، فأراد الظاهر، على ما قيل، اغتياله بالسمّ، فأحضـره فى مجلس شـرابه فـأمر السـاقى أن يسـقيه قمزّا ممزوجـا، فيمـا يقال، بسمّ، فسـقاه الساقى تلك الكأس فأحسّ به و خرج من وقته، ثم غلط السـاقى و ملأـ الكـأس المـذكورة و فيهـا أثر السمّ، و وقعت الكـأس فى يـد الملـك الظاهر فشـربه، فكان من أمره ما كان. انتهى كلام بيبرس الدّوادار باختصار.

قلت: و هذا القول مشهور و أظنّه هو الأصحّ فى علّة موته، و اللّه أعلم.

و كانت مدّة ملكه تسع عشـرة سـنة و شهرين و نصفا، و ملك بعده ابنه الملك السعيد ناصر الدين محمد المعروف ببركة خان؛ و كان تسلطن فى حياته من مدّة سنين حسب ما تقدّم ذكره.

و كان الملك الظاهر رحمه اللّه ملكا شـجاعا مقـداما غازيا مجاهـدا مرابطا خليقا بالملك خفيف الوطأة سـريع الحركة يباشـر الحروب بنفسه.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۷۸

قال الحافظ أبو عبد اللّه الذهبىّ فى تاريخه بعد ما أثنى عليه: «و كان خليقا بالملك لو لا ما كان فيه من الظّلم، و اللّه يرحمه و يغفر له، فإنّ له أياما بيضا فى الإسلام و مواقف مشهورة و فتوحات معدودة». انتهى كلام الذهبى باختصار.

و قال الشيخ قطب الدين اليونينىّ فى الذّيل على مرآة الزمان فى موت الملك الظاهر هذا نوعا ممّا قاله الأمير بيبرس الدّاوادار لكنّه زاد أمورا نحكيها، قال:

حكى لى ابن شيخ السلامية عن الأمير أزدمر العلائىّ نائب السلطنة بقلعة صفد قال: كان الملك الظاهر مولعا بالنجوم و ما يقوله أرباب التقـاويم، كثير البحث عن ذلك، فأخبر أنّه يموت فى سـنة ستّ و سـبعين ملك بالسمّ، فحصل عنـده من ذلك أثر كبير، و كان عنـده حسـد شديـد لمن يوصف بالشـجاعة، و اتّفق أنّ الملك القاهر عبـد الملك بن المعظّم عيسـى الآتى ذكره لمّا دخل مع الملك الظاهر إلى الروم، و كـان يوم المصافّ، فـدام الملك القاهر فى القتال فتأثّر الظاهر منه، ثم انضاف إلى ذلك أنّ الملك الظاهر حصل منه فى ذلك اليوم فتور على خلاف العادة، و ظهر عليه الخوف و النّدم على تورّطه فى بلاد الروم، فحدّثه الملك القاهر عبد الملك المذكور بما فيه نوع من الإنكار عليه و التّقبيح لأفعاله، فأثّر ذلك عنده أثرا آخر.

فلمّا عاد الظاهر من غزوته سـمع الناس يلهجون بما فعله الملك القاهر، فزاد على ما فى نفسه و حقـد عليه، فخيّل فى ذهنه أنّه إذا سـمّه كان هو الذى ذكره أرباب النجوم، فأحضره عنده ليشرب القمزّ معه، و جعل الذى أعدّه له من السمّ فى ورقة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۷۹

فى جيبه من غير أن يطّلع على ذلـك أحـد، و كـان للسـلطان هنّا بـات ثلاثـة مختصّـة به مع ثلاثـة سـقاة لاـ يشـرب فيها إلّا من يكرمه السـلطان، فأخـذ الملك الظاهر الكأس بيـده و جعل فيه ما فى الورقـة خفيـة، و أسـقاه للملك القاهر و قام الملك الظاهر إلى الخلاء و عاد، فنسى الساقى و أسقى الملك الظاهر فيه و فيه بقايا السمّ. انتهى كلام قطب الدين.

و خلّف الملك الظاهر من الأولاد: الملك السعيد ناصر الدين محمد بركة خان.

و مولده فى صـفر سـنة ثمان و خمسـين و ستمائة بضواحى مصر، و أمّه بنت الأمير حسام الدين بركة خان بن دولة خان الخوارزمىّ. و الملك [نجم الدين] خضـرا، أمّه أم ولد. و الملك بدر الدين سـلامش. و ولد له من البنات سبع. و أما زوجاته فأمّ الملك السعيد بنت بركـة خان، و بنت الأمير سـيف الـدين نوكاى التّتارىّ، و بنت الأمير سـيف الدين كراى التّتارىّ، و بنت الأمير سـيف نوغاى التّتارىّ، و شهرزوريّة تزوّجها لمّا قدم غزّة و حالف الشّهرزوريّة قبل سلطنته، فلما تسلطن طلّقها.

و أمّا وزراؤه- لمّا تولى السـلطنة اسـتمرّ زين الـدين يعقوب بن عبـد الرفيع بن الزّبير، ثم صـرفه و اسـتوزر الصاحب بهاء الدّين علىّ بن

محمد بن سليم بن حنّا. و كان للملك الظاهر أربعة آلاف مملوك مشتريات أمراء و خاصّكيّة و أصحاب وظائف.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۸۰

و أمّا سيرته و أحكامه و شرف نفسه حكى: أنّ الأشرف صاحب حمص كتب إليه يستأذنه فى الحجّ، و فى ضمن الكتاب شهادة عليه أنّ جميع ما يملكه انتقل عنه إلى الملك الظاهر، فلم يأذن له الملك الظاهر فى تلك السنة غضبا منه لكونه كتب ذلك، و اتّفق أنّ الأشرف مات بعد ذلك فتسلّم الملك الظاهر حصونه التى كانت بيده و لم يتعرّض للتركة، و مكّن ورثته من الموجود و الأملاك، و كان شيئا كثيرا إلى الغاية، و دفع الملك الظاهر إليهم الشهادة و قد تجنّبوا التّركة لعلمهم بالشهادة.

و منها أن شعرا بانياس و هى إقليم يشتمل على أرض كثيرة عاطلة بحكم استيلاء الفرنج على صفد، فلمّا افتتح صفد أفتاه بعض العلماء باستحقاق الشعرا فلم يرجع إلى الفتيا، و تقدّم أمره أنّ من كان له فيها ملك قديم فليتسلّمه.

و أمّا صدقاته فكان يتصدّق فى كلّ سنة بعشرة آلاف إردب قمح فى الفقراء و المساكين و أرباب الزوايا، و كان يرتّب لأيتام الأجناد ما يقوم بهم على كثرتهم، و وقف وقفا على تكفين أموات الغرباء بالقاهرة و مصر، و وقفا ليشترى به خبز و يفرّق فى فقراء المسلمين، و أصلح قبر خالد بن الوليد- رضى اللّه عنه- بحمص، و وقف وقفا على من هو راتب فيه من إمام و مؤذّن و غير ذلك، و وقف على قبر أبى عبيدة بن الجرّاح- رضى اللّه عنه- وقفا مثل ذلك، و أجرى على أهل الحرمين و الحجاز و أهل بدر و غيرهم ما كان انقطع فى أيّام غيره من الملوك.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۸۱

و أمّا عمائره: المدارس و الجوامع و الأسبلة و الأربطة فكثيرة، و غالبها معروفة به، و كان يخرج كلّ سنة جملة مستكثرة يستفكّ بها من حبسه القاضى من المقلّين، و كان يرتّب فى أوّل شهر رمضان بمصر و القاهرة مطابخ لأنواع الأطعمة، و تفرّق على الفقراء و المساكين.

و أمّا حرمته و مهابته، منها: أنّ يهوديا دفن بقلعة جعبر عند قصد التّتار لها مصاغا و ذهبا و هرب بأهله إلى الشام و استوطن حماة، فلمّا أمن كتب إلى صاحب حماة يعرّفه و يسأله أن يسيّر معه من يحفظه ليأخذ خبيئته و يدفع لبيت المال نصفه، فطالع صاحب حماة الملك الظاهر بذلك، فردّ عليه الجواب أنّه يوجّهه مع رجلين ليقضى حاجته؛ فلّما توجهوا مع اليهوديّ و وصلوا إلى الفرات امتنع من كان معه من العبور فعبر اليهوديّ وحده، فلمّا وصل و أخذ فى الحفر هو و ابنه و إذا بطائفة من العرب على رأسه، فسألوه عن حاله فأخبرهم، فأرادوا قتله و أخذ المال، فأخرج لهم كتاب الملك الظاهر مطلقا إلى من عساه يقف عليه، فلمّا رأوا المرسوم كفّوا عنه و ساعدوه حتّى استخلص ماله. ثم توجّهوا به إلى حماة و سلّموه إلى صاحب حماة، و أخذوا خطّه بذلك.

و منها: أنّ جماعة من التّجّار خرجوا من بلاد العجم قاصدين مصر، فلمّا مرّوا بسيس منعهم صاحبها من العبور، و كتب إلى أبغا ملك التّتار، فأمره أبغا بالحوطة عليهم و إرسالهم إليه، و بلغ الملك الظاهر خبرهم، فكتب إلى نائب حلب بأن يكتب إلى نائب سيس، إن هو تعرّض لهم بشيء يساوى درهما واحدا أخذت عوضه مرارا، فكتب إليه نائب حلب بذلك فأطلقهم، و صانع أبغا بن هولاكو

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۸۲

على ذلك بأموال جليلة حتّى لا يخالف مرسوم الظاهر، و هو تحت حكم غيره لا تحت حكم الظاهر.

و منها: أن تواقيعه التى كانت بأيدى التّجار المتردّدين إلى بلاد القبجاق [بإعفائهم من الصادر و الوارد] كان يعمل بها حيث حلّوا من مملكة بركة خان و منكوتمر و بلاد فارس و كرمان.

و منها: أنّه أعطى بعض التّجّار مالا ليشترى به مماليك و جوارى من التّرك فشرهت نفس التاجر فى المال فدخل به قراقوم من بلاد التّرك و استوطنها، فوقع الملك الظاهر على خبره، فبعث إلى منكوتمر فى أمره فأحضروه إليه تحت الحوطة إلى مصر. و له أشياء كثيرة من ذلك.

و كان الملك الظاهر يحبّ أن يطّلع على أحوال أمرائه و أعيان دولته حتى لم يخف عليه من أحوالهم شيء. و كان يقرّب أرباب

الکمالات من کلّ فنّ و علم. و کان یمیل إلی التاریخ و أهله میلا زائدا و یقول: سماع التاریخ أعظم من التجارب.

و کانت ترد علیه الأخبار و هو بالقاهرة بحرکة العدوّ، فیأمر العسکر بالخروج و هم زیادة علی ثلاثین ألف فارس، فلا یبیت منهم فارس فی بیته، و إذا خرج من القاهرة لا یمکّن من العود إلیها ثانیا.

قلت: کان الملک الظاهر- رحمه اللّه- یسیر علی قاعدة ملوک التّتار و غالب أحکام چنکز خان من أمر «الیسق و التّورا»، و الیسق: هو الترتیب، و التّورا:

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۸۳

المذهب باللغة الترکیة؛ و أصل لفظة الیسق: سی یسا، و هی لفظة مرکبة من کلمتین صدر الکلمة: سی بالعجمی، و عجزها یسا بالترکیّ، لأنّ سی بالعجمی ثلاثة، و یسا بالمغلیّ الترتیب، فکأنّه قال: التراتیب الثلاثة. و سبب هذه الکلمة أنّ چنکز خان ملک المغل کان قسّم ممالکه فی أولاده الثلاثة، و جعلها ثلاثة أقسام، و أوصاهم بوصایا لم یخرجوا عنها التّرک إلی یومنا هذا، مع کثرتهم و اختلاف أدیانهم، فصاروا یقولون: سی یسا (یعنی التراتیب الثلاثة التی رتّبها چنکز خان)، و قد أوضحنا هذا فی غیر هذا الکتاب بأوسع من هذا. انتهی. فصارت التّرک یقولون: «سی یسا» فثقل ذلک علی العامّة فحرّفوها علی عادة تحاریفهم، و قالوا: سیاسة. ثم إنّ الترک أیضا حذفوا صدر الکلمة، فقالوا: یسا مدّة طویلة، ثم قالوا: یسق، و استمرّ ذلک إلی یومنا هذا. انتهی.

قلت: و الملک الظاهر هذا هو الذی ابتدأ فی دولته بأرباب الوظائف من الأمراء و الأجناد، و إن کان بعضها قبله فلم تکن علی هذه الصّیغة أبدا؛ و أمثّل لذلک مثلا فیقاس علیه، و هو أنّ الدّوادار کان قدیما لا یباشره إلا متعمّم یحمل الدّواة و یحفظها. و أمیر مجلس هو الذی کان یحرس مجلس قعود السلطان و فرشه.

و الحاجب هو البوّاب الآن، لکونه یحجب الناس عن الدخول؛ و قس علی هذا.

فجاء الملک الظاهر جدّد جماعة کثیرة من الأمراء و الجند و رتّبهم فی وظائف:

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۸۴

کالدّوادار و الخازندار و أمیر آخور و السّراخور و السّقاة و الجمداریّة و الحجّاب و رءوس النّوب و أمیر سلاح و أمیر مجلس و أمیر شکار.

فأمّا موضوع أمیر سلاح فی أیّام الملک الظاهر فهو الذی کان یتحدّث علی السّلاح داریّة، و یناول السلطان آلة الحرب و السّلاح فی یوم القتال و غیره، مثل یوم الأضحی و ما أشبهه. و لم یکن إذ ذاک فی هذه المرتبة (أعنی الجلوس رأس میسرة السلطان)، و إنّما هذا الجلوس کان إذ ذاک مختصّا بأطابک. ثم بعده فی الدولة الناصریّة محمد بن قلاوون برأس نوبة الأمراء کما سیأتی ذکره فی محلّه. و تأیید ذلک یأتی فی أوّل ترجمة الملک الظاهر برقوق، فإنّ برقوق نقل أمیر سلاح قطلوبغا

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۸۵

الکوکائیّ إلی حجوبیّة الحجّاب. و أمیر مجلس کان موضوعها فی الدولة الظاهریّة بیبرس یتحدّث علی الأطبّاء و الکحّالین و المجبّرین، و کانت وظیفة جلیلة أکبر قدرا من أمیر سلاح.

و أمّا الدّواداریّة فکانت وظیفة سافلة. کان الذی یلیها أوّلا غیر جندی، و کانت نوعا من أنواع المباشرة، فجعلها الملک الظاهر بیبرس علی هذه الهیئة، غیر أنّه کان الذی یلیها أمیر عشرة. و معنی دوادار باللغة العجمیة: ماسک الدّواة، فإنّ لفظة «دار» بالعجمیّ: ماسک، لا ما یفهمه عوامّ المصریّین أنّ دارا هی الدار التی یسکن فیها، کما یقولون فی حقّ الزّمام: زمام الآدر؛ و صوابه زمام دار. و أوّل من أحدث هذه الوظیفة ملوک السّلجوقیّة. و الجمدار، الجمی هی البقجة باللغة العجمیة، و دار تقدّم الکلام علیه، فکأنّه قال: ماسک البقجة التی للقماش. و قس علی هذا فی کلّ لفظ یکون فیه دار من الوظائف.

و أمّا رأس نوبة فهی عظیمة عند التّتار، و یسمّون الذی یلیها «یسوول» بتفخیم السین. و الملک الظاهر أوّل من أحدثها فی مملکة مصر.

و الأمير آخور أيضا وظيفة عظيمة؛ و المغل تسمى الذى يليها «آق طشى». و أمير آخور لفظ مركب من فارسى و عربى، فأمير معروف و آخور هو اسم المذود بالعجمىّ، فكأنّه يقول:

أمير المذود الذى يأكل فيه الفرس. و كذلك السلاخورى و غيره؛ مما أحدثها الملك الظاهر أيضا.

و أمّا الحجوبيّة فوظيفة جليلة فى الدولة التركيّة، و ليس هى الوظيفة التى كان يليها حجبة الخلفاء، فأولئك كانوا حجبة يحجبون الناس عن الدخول على الخليفة، ليس من شأنهم الحكم بين الناس و الأمر و النهى؛ و هى ممّا جدده الملك

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۸۶

الظاهر بيبرس، لكنها عظمت فى دولة الملك الناصر محمد بن قلاوون حتّى عادلت النّيابة.

و أمّا ما عدا ذلك من الوظائف فأحدثها الملك الناصر محمد بن قلاوون كما سيأتى بيانه فى تراجمه الثلاث من هذا الكتاب، بعد أن جدّد والده الملك المنصور قلاوون وظائف أخر كما سيأتى ذكره أيضا فى ترجمته على ما شرطناه فى هذا الكتاب من أنّ كلّ من أحدث شيئا عزيناه له. و ممّا أحدثه الملك الظاهر أيضا البريد فى سائر ممالكه، بحيث إنّه كان يصل إليه أخبار أطراف بلاده على اتّساع مملكته فى أقرب وقت.

و أمّا ما افتتحه من البلاد و صار إليه من أيدى المسلمين فعدّة بلاد و قلاع.

و الذى افتتحه من أيدى الفرنج- خذلهم اللّه-: قيساريّة، و أرسوف، و صفد، و طبريّة، و يافا، و الشّقيف، و أنطاكية، و بغراس، و القصير، و حصن الأكراد و عكّار، و القرين، و صافيتا، و مرقيّة. و ناصفهم على المرقب و بانياس و بلاد أنطرطوس و على سائر ما بقى فى أيديهم من البلاد و الحصون و غيرها. و استعاد من صاحب سيس دربساك، و دركوش، و رعبان، و المرزبان و بلادا أخر. و الذى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۸۷

صار إليه من أيدى المسلمين: دمشق و بعلبك و عجلون و بصرى و صرخد و الصّلت، و كانت هذه البلاد التى تغلّب عليها الأمير علم الدين سنجر الحلبى بعد موت الملك المظفّر قطز، لما تسلطن بدمشق و تلقّب بالملك المجاهد. انتهى. و حمص، و تدمر، و الرّحبة، و دلويا، و تلّ باشر، و هذه البلاد انتقلت إليه عن الملك الأشرف صاحب حمص فى سنة اثنتين و ستين و ستمائة. و صهيون و بلاطنس، و برزيه، و هذه منتقلة إليه عن الأمير سابق الدين سليمان بن سيف الدين أحمد و عمّه عزّ الدين.

و حصون الإسماعيلّية و هى: الكهف، و القدموس، و المينقة، و العلّيقة، و الخوابى، و الرّصافة، و مصياف، و القليعة. و أمّا انتقل إليه عن الملك المغيث ابن الملك العادل أبى بكر ابن الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبى بكر بن أيّوب: الشّوبك، و الكرك.

و ما انتقل إليه عن التّتار: بلاد حلب الشماليّة بأسرها، و شيزر، و البيرة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۸۸

و فتح اللّه على يديه بلاد النّوبة، و فيها من البلاد ممّا يلى أسوان جزيرة بلاق؛ ويلى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۸۹

هذه البلاد بلاد العلى و جزيرة ميكائيل؛ و فيها بلاد و جزائر الجنادل و هى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۹۰

أيضا بلاد، و لمّا فتحها أنعم بها على ابن عمّ المأخوذة منه، ثم ناصفه عليها، و وضع عليه عبيدا و جوارى و هجنا و بقرا، و عن كلّ بالغ من رعيّته دينارا فى كلّ سنة.

و كانت حدود مملكة الملك الظاهر من أقصى بلاد النّوبة إلى قاطع الفرات. و وفد عليه من التّتار زهاء عن ثلاثة آلاف فارس، فمنهم من أمره طبلخاناه، و منهم من جعله أمير عشرة إلى عشرين، و منهم من جعله من السّقاة، ثم جعل منهم سلحداريّة و جمداريّة و منهم من أضافه إلى الأمراء.

و أمّا مبانيه فكثيرة منها ما هدمه التّتار من المعاقل و الحصون. و عمّر بقلعة الجبل دار الذهب، و برحبة الحبارج قبّة عظيمة محمولة على اثنى عشر عمودا من الرخام الملوّن، و صور فيها سائر حاشيته و أمرائه على هيئتهم، و عمّر بالقلعة أيضا طبقتين مطلّتين على رحبة الجامع و أنشأ برج الزاوية المجاورة لباب القلعة، و أخرج منه

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۹۱

رواشن، و بنى عليه قبّة و زخرف سقفها، و أنشأ جواره طباقا للمماليک أيضا.

و أنشأ برحبة باب القلعة دارا كبيرة لولده الملك السعيد، و كان فى موضعها حفير فعقد عليه ستة عشر عقدا، و أنشأ دورا كثيرة بظاهر القاهرة [ممّا يلى القلعة و إصطبلات] برسم الأمراء، فإنّه كان يكره سكنى الأمير بالقاهرة مخافة من حواشيه على الرعيّة.

و أنشأ حمّاما بسوق الخيل لولده الملك السعيد، و أنشأ الجسر الأعظم و القنطرة التى على الخليج، و أظنّها قنطرة السّباع، و أنشأ الميدان بالبورجى و نقل إليه النخيل بالثمن الزائد من الديار المصريّة، فكانت أجرة نقله ستة عشر ألف دينار، و أنشأ به

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۹۲

المناظر و القاعات و البيوتات. و جدّد جامع الأنور (أعنى جامع الظافر العبيدىّ) المعروف الآن بجامع الفاكهيّين و الجامع الأزهر، و بنى جامع العافية بالحسينيّة و أنفق عليه فوق الألف ألف درهم، و أنشأ قريبا منه زاوية الشيخ خضر و حمّاما و طاحونا و فرنا و عمّر بالمقياس قبّة رفيعة [مزخرفة]، و أنشأ عدّة جوامع بالديار المصريّة؛ و جدّد قلعة الجزيرة، و قلعة العمودين ببرقة، و قلعة السّويس، و عمّر جسرا بالقليوبيّة، و القناطر على

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۹۳

بحر أبى المنجّا و قنطرة بمنية السّيرج، و قنطرتين عند القصير على بحر إبراش بسبعة أبواب مثل قنطرة بحر أبى المنجّا، و أنشأ فى الجسر الذى يسلك فيه إلى دمياط ستّ عشرة قنطرة، و بنى على خليج الإسكندرية قريبا من قنطرتها [القديمة] قنطرة عظيمة بعقد واحد، و حفر خليج الإسكندرية و كان قد ارتدم بالطّين، و حفر بحر أشموم، و كان قد عمى، و حفر ترعة الصلاح و خورسخا و حفر المحامدى و الكافورى، و حفر فى ترعة أبى الفضل ألف قصبة، و حفر بحر الصّمصام بالقليوبيّة، و حفر بحر سردوس.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۹۴

و تمّم عمارة حرم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و عمل منبره، و جعل بالضريح النّبوىّ درابزينا، و ذهّب سقوفه و جدّدها و بيّض حيطانه؛ و جدّد البيمارستان بالمدينة النبويّة، و نقل إليه سائر المعاجين و الأكحال و الأشربة، و بعث إليه طبيبا [من الديار المصريّة].

و جدّد فى الخليل عليه السلام قبّته، و رمّ شعثه و أصلح أبوابه [و ميضأته] و بيّضه و زاد فى راتبه. و جدّد بالقدس الشريف ما كان قد تهدّم من [قبّة] الصخرة، و جدّد قبّة السلسلة و زخرفها و أنشأ بها خانا للسبيل، نقل بابه من دهليز كان للخلفاء المصريّين بالقاهرة، و بنى به مسجدا و طاحونا و فرنا و بستانا. و بنى على قبر موسى عليه السلام قبّة و مسجدا، و هو عند الكثيب الأحمر قبلى أريحا و وقف عليه وقفا. و جدّد بالكرک برجين كانا صغيرين فهدمهما و غيّرهما. و وسّع عمارة مشهد جعفر الطيّار- رضى اللّه عنه- و وقف عليه وقفا زيادة على وقفه على الزائرين له و الوافدين عليه. و عمر جسرا بقرية دامية بالغور على نهر الشّريعة، و وقف عليه وقفا برسم ما عساه يتهدّم منه. و أنشأ جسورا كثيرة بالغور و الساحل.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۹۵

و أنشأ قلعة قاقون و بنى بها جامعا و وقف عليه وقفا، و بنى على طريقها حوضا للسبيل. و جدّد جامع مدينة الرملة، و أصلح جامعا لبنى أميّة و وقف عليه وقفا.

و عدّة جوامع و مساجد بالساحل.

و جدّد باشورة لقلعة صفد و أنشأها بالحجر الهرقلىّ، و عمّر لها أبراجا و بدنات، و صنع بغلات مصفّحة دائر الباشورة بالحجر

المنحوت، و أنشأ بالقلعة صهريجا كبيرا مدرّجا من أربع جهاته، و بنى عليه برجا زائد [الارتفاع]، قيل إن ارتفاعه مائة ذراع، و بنى تحت البرج حمّاما، و صنع الكنيسة جامعا و أنشأ رباطا ثانيا، و بنى حمّاما و دارا لنائب السلطنة.

و كانت قلعة الصّبيبة قد أخربها التّتار، و لم يبقوا منها إلّا الآثار فجدّدها، و أنشأ لجامعها منارة، و بنى بها دارا لنائب السلطنة، و عمل جسرا يمشى عليه إلى القلعة.

و كان التّتار قد هدموا شراريف قلعة دمشق، و رءوس أبراجها، فجدّد ذلک كلّه، و بنى فوق برج الزاوية المطلّ على الميادين و سوق الخيل طارمة كبيرة، و جدّد منظرة على قائمة مستجدّة على البرج المجاور لباب النصر، و بيّض البحرة و جدّد دهان سقوفها: و بنى حمّاما خارج باب النصر بدمشق، و جدّد ثلاثة إسطبلات على الشّرف الأعلى، و بنى القصر الأبلق بالميدان بدمشق و ما حوله من العمائر. و جدّد مشهد زين العابدين رضى اللّه عنه بجامع دمشق، و أمر بترخيم الحائط الشمالى،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۹۶

و تجديد باب البريد و فرشه بالبلاط. و رمّ شعث مغارة الدم. و جدّد المبانى التى هدموها التّتار من قلعة صرخد. و جدّد قبر نوح عليه السلام بالكرک. و جدّد أسوار حصن الأكراد، و عمّر قلعتها. و عمّر جوامع و مساجد بالساحل يطول الشرح فى ذكرها حذفتها خوف الإطالة.

و بنى فى أيامه بالديار المصريّة ما لم يبن فى أيام الخلفاء المصريّين، و لا ملوک بنى أيّوب من الأبنية و الرّباع و الخانات و القواسير و الدّور و المساجد و الحمّمات، من قريب مسجد التّبن إلى أسوار القاهرة إلى الخليج و أرض الطّبّالة، و اتّصلت العمائر إلى باب المقسم إلى اللّوق إلى البورجى؛ و من الشارع إلى الكبش

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۹۷

و حدرة ابن قميحة إلى تحت القلعة و مشهد السيدة نفيسة رضى اللّه عنها إلى السّور القراقوشىّ. و كلّ ذلک من كثرة عدله و إنصافه للرعيّة و النّظر فى أمورهم و إنصاف الضعيف من المستضعف و الذّبّ عنهم من العدوّ المخذول رحمه اللّه و عفا عنه.

ذكر ما كان ينوب دولته من الكلف- كانت عدّة العساكر بالديار المصريّة أيّام الملک الكامل محمد و ولده الملک الصالح أيّوب عشرة آلاف فارس، فضاعفها أربعة أضعاف؛ و كان اولئک الذين كانوا قبله العشرة آلاف مقتصدين فى الملبوس و النفقات و العدد، و هؤلاء (أعنى عسكر الظاهر الأربعين ألفا)، كانوا بالضدّ من ذلک؛ و كانت كلف ما يلوذ بهم من إقطاعهم، و هؤلاء كلفهم على الملک الظاهر؛ و لذلک تضاعفت الكلف فى أيّامه. فإنّه كان يصرف فى كلف مطبخ أستاذه الملک الصالح أيّوب ألّف رطل [لحم] بالمصرىّ خاصّة نفسه فى كلّ يوم؛

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۹۸

و المصروف فى مطبخ الملک الظاهر عشرة آلاف رطل كلّ يوم عنها و عن توابلها عشرون ألف درهم نقرة، و يصرف فى خزانة الكسوة فى كل يوم عشرون ألف درهم، و يصرف فى الكلف الطارئة المتعلّقة بالرّسل و الوفود فى كلّ يوم عشرون ألف درهم، و يصرف عن قرط دوابّه و دوابّ من يلوذ به فى كلّ سنة ثمانمائة ألف درهم، و يقوم بكلف الخيل و البغال و الجمال و الحمير من العلوفات خمس عشرة ألف عليقة فى اليوم، عنها ستمائة إردب؛ و ما كان يقوم به لمن أوجب نفقته و ألزمها عليه تطحن و تحمل إلى المخابز المعدّة لعمل الجرايات خلا ما يصرف على أرباب الرواتب فى كلّ شهر عشرون ألف إردب؛ و ذلک بالديار المصريّة خاصة.

و هذا خلاف الطوارئ التى كانت تفد عليه فما يمكن حصرها. و كلف أسفاره و تجديد السلاح فى كلّ قليل؛ و ما كان عليه من الجوامک و الجرايات لمماليكه و لأرباب الخدم؛ فكان ديوانه يفى بذلک كلّه؛ و يحمل لحاصله جملة كبيرة فى السنة من الذهب.

و كان سبب ذلک أنه رفع أيدى الأقباط من غالب تعلّقاته فافتقر أكثرهم فى أيّامه؛ و باشروا الصنائع كالتجارة و البناية؛ و لا زال أمرهم على ذلک حتى تراجع فى أواخر الدولة الناصريّة محمد بن قلاوون. انتهت ترجمة الملک الظاهر بيبرس، رحمه اللّه تعالى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۱۹۹

و نـذكر بعض أحواله، إن شاء اللّه تعالى، فى حوادث سـنينه كما هو عادة هـذا الكتاب على سبيل الاختصار. و قد أطلت فى ترجمته و هو مستحقّ لذلك، لأنّه فرع فاق أصله، كونه كان من جملة مماليك الملك الصالح نجم الدين أيّوب فزادت محاسنه عليه.

و أمّا من يأتى بعـده فلا سبيل إليه. و يعجبنى فى هـذا المعنى المقالـة الثانيـة عشرة من قول الشـيخ الإمام العالم العارف الرّبّانىّ شـرف الـدين عبـد المؤمن بن هبة اللّه الأصـفهانىّ المعروف بشوروة رحمه اللّه فى كتابه الذى فى اللّغة و سـمّاه «أطباق الذهب» يشـتمل على مائة مقالة [و اثنتين] أحسن فيها غاية الإحسان، و هى:

«ليس الشريف من تطاول و تكاثر، إنّما الشريف من تطوّل و آثر؛ و ليس المحسن من روى القرآن، إنّما المحسن من أروى الظمآن؛ و ليس البرّ إبانة الحروف بالإمالة و الاشباع، لكنّ البرّ إغاثة الملهوف بالإنالة و الإشباع؛ و لا خير فى زكأة لا يسدى معروفا، و لا بركة فى لبنـة لاـ تروى خروفـا؛ فوا [هـا] لـك، لمن تـدّخر أموالـك! أنفق ألفك، قبل أن يقسم خلفك؛ إنّ منازل الخلق سواسـية، إلّا من له يد مواسية؛ فأرفعهم أنفعهم، و أسودهم أجودهم، و أفضلهم أبذلهم؛ و خير الناس من سقى ملواحا،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۰۰

و نصب للجنّة ملواحـا؛ و الكرم نوعـان، أحسـنهما إطعـام الجوعان؛ و الحازم من قـدّم الزاد لعقبـة العقبى، و آتى المال على حبّه ذوى القربى». انتهت المقالة. و اللّه سبحانه و تعالى أعلم بالصواب.

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۵۹]

السـنة الأولى من ولاية السـلطان الملك الظاهر بيبرس البندقدارىّ على مصـر، و هى سـنة تسع و خمسـين و سـتمائة، على أنّه حكم فى آخر السنة الماضية نحو الشهر.

قلت: و دخلت سـنة تسع و خمسـين المـذكورة و ليس للمسـلمين خليفـة، و كـان أوّلها يوم الاثنين لأيّام خلون من كانون أحـد شـهور الروم؛ و كانون بالقبطىّ كيهك. فـدخلت السـنة و السـلطان بـديار مصـر الملك الظاهر بيبرس، و صاحب مكّة نجم الدين أبو نمىّ بن أبى سـعد الحسـنىّ، و صاحب المدينة جمّاز بن شـيحة الحسينىّ، و صاحب دمشق و بعلبكّ و بانياس و الصّبيبة الأمير علم الدين سنجر الحلبىّ، تغلّب عليهـا و تسـلطن و تلقّب بالملـك المجاهـد، و نـائب حلب من قبـل الملـك الظـاهر بيبرس الأـمير حسـام الـدين لاـچين الجوكنـدار العزيزىّ، و صـاحب الموصـل الملـك الصالـح إسـماعيل ابن الملك الرحيم لؤلؤ، و صاحب جزيرة ابن عمر أخوه الملك المجاهد سـيف الدين إسـحاق بن لؤلؤ المذكور، و صاحب ماردين الملك السـعيد نجم الدين إيلغازى الأرتقىّ، و صاحب بلاد الروم ركن الدين قليج أرسلان ابن السلطان غياث الدين كيخسرو بن علاء الدين كيقباد السّلجوقىّ و أخوه عزّ الدين كيكاوس،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۰۱

و البلاـد بينهمـا مناصـفة، و صـاحب الكرك و الشّوبـك الملـك المغيث [فتـح الـدين عمر] ابن الملك العادل ابن الملك الكامل ابن الملك العادل بن أيّوب، و صاحب حماة الملك المنصور محمـد الأيّوبىّ، و صاحب حمص و تـدمر و الرّحبـة الملك الأشـرف مظفّر الـدين موسـى، و صـاحب مرّاكش من بلاد المغرب أبو حفص عمر الملقّب بالمرتضـى، و صاحب تونس أبو عبـد اللّه محمـد بن أبى زكريّا، و صاحب اليمن الملك المظفّر شمس الدين يوسف بن عمر التّركمانىّ من بنى رسول.

و فيها كانت كسرة التّتار على حمص، و قد تقدّم ذكر ذلك.

و فيها ملك السـلطان الملك الظاهر دمشق و أخرج منها علم الدّين سنجر الحلبىّ، و ولّى نيابتها الأمير علاء الدين أيدكين البندقدارىّ، أستاذ الملك الظاهر بيبرس هذا، الذى أخذه الملك الصالح نجم الدين أيّوب منه، حسب ما ذكرنا ذلك أوّل ترجمة الملك الظاهر.

و فيها وصل الخليفـة المستنصـر بالله إلى القاهرة و بويع بالخلافة، و سافر صـحبة الملك الظاهر إلى الشام، ثم فارقه و توجّه إلى العراق

فقتل، و قد مرّ ذكر ذلک كلّه أيضا.

و فيها توفّى الملک الصالح نور الـدين إسـماعيل ابن الملک المجاهد أسد الدين شـير كوه بن محمد بن أسد الدين شـير كوه الكبير، كان الملک الصالح هذا صاحب حمص

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۰۲

ملكها بعـد موت أبيه، و كان له اختصاص كبير بابن عمّه الملک الناصـر صـلاح الـدين يوسف صاحب حلب و الشام، و كان الصالح هذا يدارى التّتار و لا يشاققهم، و آخر الأمر أنه قتل فى وقعة هولاكو بيد التّتار رحمه اللّه تعالى لمّا توجّه إليهم صـبحبة الملک الناصر صلاح الدين يوسف المذكور، و كان عنده حزم و شجاعة.

و فيها توفّى الشيخ الأديب الفقيه مخلص الدين إسماعيل بن عمر [بن يوسف] ابن قرناص الحمویّ الشاعر المشهور، كان فصيحا شاعرا من بيت علم و أدب.

و من شعره رحمه اللّه تعالى:

أمّا و اللّه لو شقّت قلوب ليعلم ما بها من فرط حبّى

لأرضاک الذى لک فى فؤادى و أرضانى رضاک بشقّ قلبى

و فيهـا توفّى الملـک السـعيد إيلغازى نجم الـدين [ابن أبى الفتـح أرتق بن إيلغازى ابن ألبى بن تمرتاش بن إيلغازى] الأرتقى صاحب ماردين، مات فى سادس صفر، و قيل فى ذى الحجّة سنة ثمان و خمسين.

و فيهـا توفّى الشيـخ الإمـام الواعـظ المحـدّث أبو عمرو عثمـان بن مكّى بن عثمان السّـعدىّ الشّارعیّ الشّافعیّ، سـمع الكثير و اعتنى به والده فأسمعه من نفسه و غيره، و كان ينشد لأبى العتاهية:

اصبر لدهر نال من ک فهكذا مضت الدّهور

فرح و حزن مرّة لا الحزن دام و لا السّرور

و فيها توفّى الأديب الفاضل نور الدين أبو الحسن علیّ بن يوسف بن أبى المكارم عبد اللّه الأنصاریّ المصریّ المعروف بالعطّار، كان شاعرا فاضلا، مات قبل الأربعين سنة من عمره. و من شعره ملغزا فى كوز الزّير:

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۰۳

و ذى أذن بلا سمع له قلب بلا لبّ

مدى الأيّام فى خفض و فى رفع و فى نصب

إذا استولى على الحبّ فقل ما شئت فى الصّبّ

و فيها كانت مقتلـة السـلطان الملک الناصـر صـلاح الدين يوسف، و كنيته أبو المظفّر، ابن السـلطان الملک العزيز محمد ابن السـلطان الملک الظاهر غازى ابن السـلطان صـلاح الـدين يوسف ابن الأمير نجم الدين أيّوب الأيّوبى الحلبیّ، و كان صاحب حلب ثم صاحب الشام. ولد بقلعة حلب فى شـهر رمضان سـنة سـبع و عشرين و ستمائة، و سلطنوه عند موت أبيه سنة أربع و ثلاثين، و قام بتدبير مملكته الأـمير شـمس الـدين لؤلؤ الأـمينى، و عز الـدين بن المحلى، و الوزير الأـكرم جمـال الـدين القفطیّ، و الطواشـى جمـال الدولـة إقبـال الخـاتونیّ، و الأـمر كلّه راجع لأـمّ [أبيه] الصاحبـة صـفيّة خـاتون بنت الملک العادل أبى بكر بن أيّوب. و ماتت سـنة أربعين و اسـتقلّ الملک الناصـر هـذا و أمر و نهى. و وقع للملک الناصـر هـذا أمور و وقائع و محن، و هو الذى كان الملک الظاهر بيبرس لمّا خرج من مصـر فى نوبـة البحريّـة توجّه إليه و صار فى خـدمته. و قد مرّ ذكره فى مواطن كثيرة من هذا الكتاب، من قدومه نحو القاهرة فى جفلة التّتار، و رجوعه من قطية إلى البلاد الشاميّة، و غير ذلک، ثم آل أمره إلى أن توجّه إلى ملک التّتار هولاكو و توجّه معه أخوه

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۰۴

الملک الظاهر سیف الـدین غازی، و کان رشّح للملک، و الملک الصالح نور الدین إسـماعیل صاحب حمص المقدّم ذکره فی هذه السنـة؛ و لمّا وصل الملک الناصر إلی هولاکو أحسن إلیه و أکرمه إلی أن بلغه کسرة عین جالوت غضب علیه و أمر بقتله، فاعتذر إلیه فأمسک عن قتله، لکن أعرض عنه، فلمّـا بلغه کسـرة بیـدرا علی حمص قتله و قتـل أخاه سیـف الـدین غازیا المـذکور، و قتل الملک الصالـح نور الـدین صـاحب حمص و جمیع من کـان معه سوی ولـده الملـک العزیز. و کان الملک الناصـر ملیـح الشـکل إلّا أنّه کان أحول؛ و کـان عنـده فصاحـة و معرفـة بالأدب، و کان کریما عاقلا فاضـلا جلیلا متجمّلا فی ممالیکه و ملبسه و مرکبه، و کان فصـیحا شاعرا لطیفا.

قال ابن العدیم: أنشدنی لنفسه. (یعنی الملک الناصر هذا).

البدر یجنح للغروب و مهجتی لفراق مشبهه أسی تتقطّع

و الشّرب قد خاط النعاس جفونهم و الصبح من جلبابه یتطلّع

قال و أنشدنی لنفسه رحمه اللّه تعالی:

الیوم یوم الأربعا فیه یطیب المرتعی

یا صاحبی أما تری شمل المنی قد جمّعا

و قد حوی مجلسنا جلّ السرور أجمعا

فقم بنا نشربها ثلاثة و أربعا

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۰۵

من کفّ ساق أهیف شبیه بدر طلعا

فی خدّه و ثغره ورد و درّ صنعا

یسطو و یرنو تارة و اللیث و الظبی معا

و له لمّا مرّت به التّتار علی حلب، و هی خاویة علی عروشها و قد تهدّمت و النّیران بها تعمل، فقال:

یعزّ علینا أن نری ربعکم یبلی و کانت به آیات حسنکم تتلی

و له یشتاق إلی حلب و منازلها:

سقی حلب الشّهباء فی کل لزبة سحابة غیث نوءها لیس یقلع

فتلک دیاری لا العقیق و لا الغضا و تلک ربوعی لا زرود و لعلع

قلت: و قـد ذکرنـا من محاسنه و فضـله نبـذة کبیرة فی تاریخنـا «المنهل الصافی، و المسـتوفی بعـد الوافی» إذ هو کتاب تراجم یحسـن التطویل فیه. انتهی.

الذین ذکر الذهبیّ وفاتهم فی هذه السنـة، قال: و فیها توفّی الجمال عثمان بن مکیّ ابن السّـعدیّ الشارعیّ الواعظ فی شهر ربیع الآخر، و له خمس و سبعون سنة.

و أبو الحسن محمـد بن الأـنجب بن أبی عبـد اللّه الصوفیّ فی رجب، و له ثلاـث و ثمـانون سـنة. و حـافظ المغرب أبو بکر محمـد بن أحمـد بن عبـد اللّه بن محمـد بن یحیی بن سـیّد الناس الیعمریّ بتونس فی رجب، و له واحـد و سـتون عاما. و کمال الـدین أبو حامد محمـد ابن القاضـی صدر الدین عبد الملک بن عیسـی بن درباس الصدر العدل فی شوّال، و له اثنتان و ثمانون سـنة. و صاحب الشام الملک الناصر یوسف بن العزیز قتل صبرا،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۰۶

و له اثنتان و ثلاثون سـنة، و قتل معه شـقیقه الملک الظاهر غازی، و الملک الصالح إسماعیل ابن الملک المجاهد أسد الدین شیرکوه

صاحب حمص. و توفى بصهيون صاحبها مظفّر الدين عثمان بن منكورس فى شهر ربيع الأوّل عن سنّ عالية؛ تملّك بعد أبيه ثلاثا و ثلاثين سنة، و ولى بعد ابنه محمد.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و عشرون إصبعا.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و ثلاث عشرة إصبعا.

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۶۰]

السنة الثانية من ولاية الملك الظاهر بيبرس على مصر، و هى سنة ستين و ستمائة.

فيها استولى الملك الظاهر بيبرس صاحب الترجمة على دمشق و بعلبكّ و الصّبيبة و حلب و أعمالها خلا البيرة.

و فيها استولى التّتار على الموصل، و قتلوا الملك الصالح صاحبها الذى كان خرج مع الخليفة المستنصر من ديار مصر؛ على ما يأتى ذكرهما فى محلّه من هذه السنة.

و فيها توفّى الخليفة أمير المؤمنين المستنصر بالله أبو القاسم أحمد ابن الخليفة الظاهر بأمر اللّه محمد ابن الناصر لدين اللّه أحمد، الذى بويع بالقاهرة بالخلافة بعد شغور الخلافة نحو سنتين و نصف، و خرج الملك الظاهر بيبرس معه إلى البلاد الشاميّة، و قد مرّ ذكر قدومه القاهرة و بيعته و سفره و قتله و رفع نسبه إلى العبّاس رضى اللّه عنه فى ترجمة الملك الظاهر هذا، و لا حاجة للإعادة؛ و من أراد ذلك فلينظره هناك.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۰۷

و فيها قتل الملك الصالح إسماعيل ابن الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل.

و قد ذكرنا وفوده على الملك و خروجه مع أخيه و الخليفة المستنصر بالله المقدّم ذكره، فلا حاجة لذكره هنا ثانيا؛ قتل بأيدى التّتار فى ذى القعدة، و كان عارفا عادلا حسن السّيرة.

و فيها توفّى الأمير سيف الدين بلبان الزردكاش، كان من أعيان أمراء دمشق، و كان الأمير طيبرس الوزيرى نائب الشام إذا خرج من الشام استنابه عليها، و كان ديّنا خيّرا. مات بدمشق فى ذى الحجّة.

و فيها توفّى الحسن بن محمد بن أحمد بن نجا الشيخ الأديب أبو محمد الغنوىّ النّصيبىّ الشافعىّ الإربلىّ المنشأ الضّرير الملقّب بالعزّ. قال صاحب الذّيل على مرآة الزمان: المشهور بعدم الدّين و الزّندقة. كان فاضلا فى العربيّة و النحو و الأدب و علوم الأوائل، منقطعا فى منزله يتردّد إليه من يقرأ عليه تلك العلوم، و كان يتردّد إليه جماعة من المسلمين و اليهود و النصارى و السامرة يقرئ الجميع؛ قال: و كان يصدر عنه من الأقوال ما يشعر بانحلال عقيدته. و مات فى شهر ربيع الاخر بدمشق. و من شعره قوله:

توهّم واشينا بليل مزاره فهم ليسعى بيننا بالتباعد

فعانقته حتّى اتحدنا تعانقا [فلمّا] أتانا ما رأى غير واحد

قال الشهاب محمود: و لمّا أنشدت هذين البيتين يعنى قول العزّ.

توهم واشينا بليل مزاره

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۰۸

بين يدى الملك الناصر صلاح الدين صاحب دمشق قال: لا تلمه فإنّه لزمه لزوم أعمى؛ فلمّا بلغ العزّ قول الملك الناصر؛ قال: و اللّه هذا الكلام أحلى من شعرى.

و فيها توفّى الشيخ الإمام العلّامة شيخ الإسلام عزّ الدين أبو محمد عبد العزيز ابن عبد السلام بن أبى القاسم بن الحسن بن محمد بن المهذّب السلمى الدّمشقىّ الشافعىّ المعروف بابن عبد السلام. مولده سنة سبع أو ثمان و سبعين و خمسمائة.

قال الـذهبيّ: و تفقّه على الإمام فخر الدين ابن عساكر، و قرأ الأصول و العربيّة، و درّس و أفتى و صـنّف و برع فى المذهب و بلغ رتبة الاجتهاد، و قصـده الطلبـة من الآفاق و تخرّج به أئمـة، و له التصانيف المفيـدة و الفتاوى السديـدة، و كان إماما ناسـكا عابـدا، و تولّى قضاء مصر القديمة مدّة، و درّس بعدّة بلاد. و مات فى عاشر جمادى الأولى.

و فيها توفّى الشيـخ الإمام الواعظ عزّ الدين أبو محمد عبد العزيز ابن الشيخ الإمام العلّامة أبى المظفر شمس الدين يوسف بن قزأوغلى الدمشـقىّ الحنفىّ هو ابن صاحب مرآة الزمان. كان عزّ الـدين فقيها واعظا فصـيحا مفتّنا درّس بعـد أبيه فى المدرسـة المعزّية و وعظ و كان لوعظه موقع فى القلوب، و كانت وفاته بدمشق فى شوّال و دفن عند أبيه بسفح قاسيون.

و فيها توفّى الإمام العلّامـة كمال الـدين أبو القاسم عمر بن أحمـد بن هبـة اللّه بن محمـد ابن هبـة اللّه بن أحمـد بن يحيى بن زهير بن هارون بن موسى بن عيسى بن عبد اللّه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۰۹

ابن محمـد بن أبى جرادة عـامر بن ربيعـة بن خويلـد بن عوف بن عـامر بن عقيل العقيلىّ الحلبىّ الفقيه الحنفى الكاتب المعروف بابن العديم، و رفع نسبه بعض المؤرّخين إلى غيلان. مولده بحلب فى العشـر الأوّل من ذى الحجّة سـنة ستّ و ثمانين و خمسـمائة، و سمع الحـديث من أبيه و عمّه أبى غانم محمـد و من غيرهما، و حدّث بالكثير فى بلاد متعدّدة، و درّس و أفتى و صـنّف، و كان إماما عالما فاضـلا مفتّنا فى علوم كثيرة، و هو أحـد الرؤسـاء المشـهورين و العلماء المـذكورين. و أمّا خطّه ففى غايـة الحسن يضاهى ابن البوّاب الكاتب؛ و قيل: إنّه هو الذى اخترع قلم الحواشى، و عرّض بهذا فى شعره القيسرانىّ رحمه اللّه تعالى بقوله:

بوجه معذّبى آيات حسن فقل ما شئت فيه و لا تحاشى

و نسخة حسنة قرئت و صحّت وها خطّ الكمال على الحواشى

و جمع لحلب تاريخا كبيرا فى غاية الحسن، و مات و بعضه مسودّة.

قلت: و ذيّل عليه القاضـى علاء الدين علىّ ابن خطيب الناصـريّة قاضـى قضاة الشافعية بحلب ذيلا إلّا أنّه قصـير إلى الرّكبة، وقفت عليه فلم أجـده جال حول الحمى، و لا سـلك فيه مسـلك المـذيّل عليه من الشـروط، إلّا أنّه أخـذ علم التاريخ بقوّة الفقه، على أنّه كان من الفضلاء العلماء و لكنّه ليس من خيل هذا الميدان، و كان يقال فى الأمثال: من مدح بما ليس فيه فقد تعرّض للضّحكة. انتهى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۱۰

و محاسن ابن العديم كثيرة و علومه غزيرة، و هم بيت علم و رياسة و عراقة.

يأتى ذكر جماعة من ذرّيّته و أقاربه فى هذا الكتاب إن شاء اللّه تعالى. و من شعر الصاحب كمال الدين المذكور ممّا كتبه على ديوان الشيخ أيدمر مولى وزير الجزيرة، و هو:

و كنت أظنّ التّرك تختصّ أعين لهم إن رنت بالسّحر منها و أجفان

إلى أن أتانى من بديع قريضهم قواف هى السحر الحلال و ديوان

فأيقنت أنّ السحر أجمعه لهم يقرّ لهم هاروت فيه و سحبان

و من شعره أيضا رحمه اللّه و أجاد فيه إلى الغاية:

فواعجبا من ريقها و هو طاهر حلال و قد أمسى علىّ محرّما

هو الخمر لكن أين للخمر طعمه و لذّته مع أنّنى لم أذقهما

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السـنة، قال. و فيها توفّى العلّامة عزّ الدين عبد العزيز بن عبد السـلام السـلمىّ الدّمشـقى بالقاهرة فى جمادى الأولى عن ثلاث و ثمانين سـنة. و الصاحب كمال الـدين عمر بن أحمـد بن هبـة اللّه بن العـديم العقيلىّ بعـد ابن عبد السـلام بأيـام، و كـان له اثنتان و سـبعون سـنة. و نقيب الأشـراف بهاء الـدين علىّ بن محمـد بن إبراهيم بن أبى الجنّ الحسـينىّ فى رجب عن

إحدى و ثمانين سنة.

و ضياء الدين عيسى بن سليمان التّغلبىّ فى رمضان، و له تسعون سنة. و استشهد فى المصافّ المستنصر بالله أحمد ابن الظاهر محمد ابن الناصر فى أوائل المحرّم بالعراق،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۱۱

و تفرّق جمعه. و قتلت التّتار فى ذى القعدة الملك الصالح ركن الدين إسماعيل بن لؤلؤ صاحب الموصل بعد الأمان. و فى شهر ربيع الآخر العزّ الضرير الفيلسوف حسن ابن محمد بن أحمد الإربلى، و له أربع و سبعون سنة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ستّ أذرع و سبع أصابع. مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا سواء.

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۶۱]

السنة الثالثة من ولاية السلطان الملك الظاهر بيبرس على مصر، و هى سنة إحدى و ستين و ستمائة.

فيها بايع السلطان الملك الظاهر بيبرس المذكور الخليفة الحاكم بأمر اللّه أبا العباس أحمد ابن الأمير أبى علىّ الحسن؛ و قيل: ابن محمد بن الحسن بن علىّ القبّى ابن الخليفة الراشد، و هو التاسع و الثلاثون من خلفاء بنى العبّاس، و هو أوّل خليفة من بنى العبّاس سكن بمصر و مات بها؛ و بويع يوم الخميس تاسع المحرّم من سنة إحدى و ستين و ستمائة، و كان وصوله إلى الديار المصريّة فى السنة الحاليّة.

و فيها هلك ريدا فرنس، و اسمه بواش المعروف بالفرنسيس ملك الفرنج الذى كان ملك دمياط فى دولة الملك الصالح أيّوب.

و فيها توفّى المحدّث الفاضل عزّ الدين أبو محمد عبد الرّزاق [بن رزق اللّه] ابن أبى بكر بن خلف الرّسعنىّ، كان إماما فاضلا شاعرا محدّثا. و من شعره:

[و] لو أنّ إنسانا يبلّغ لوعتى و شوقى و أشجانى إلى ذلك الرّشا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۱۲

لأسكنته عينى و لم أرضها له فلو لا لهيب القلب أسكنته الحشا

و فيها توفّى الأمير مجير الدين أبو الهيجاء [بن] عيسى الأزكشىّ الكردىّ الأموىّ، كان عن أعيان الأمراء و شجعانهم، و لمّا ولى الملك المظفّر قطز السلطنة، و ولّى الأمير علم الدين سنجر الحلبىّ نيابة الشام جعله مشاركا له فى الرأى و التدبير فى نيابة الشام، و كان الملك الأشرف موسى بن العادل سجنه مدّة لأمر اقتضى ذلك. فلمّا كان فى السجن كتب بعض الأدباء يقول:

يا أحمد ما زلت عماد الدين يا أشجع من أمسك رمحا بيمين

لا تيئسنّ إن حصلت فى سجنهم‌ها يوسف قد أقام فى السجن سنين

و كان مولده بمصر فى سنة ثمان و ستين و خمسمائة؛ و مات فى جمادى الأولى بمدينة إربل.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى عبد الغنى بن سليمان ابن بنين البنانىّ فى شهر ربيع الأوّل، و له ستّ و ثمانون سنة، و هو آخر من روى عن عمر. و العلّامة علم الدين القاسم بن أحمد الأندلسىّ فى رجب بدمشق، و له ستّ و ثمانون سنة. و الإمام تقىّ الدين أبو القاسم عبد الرحمن بن مرهف النّاشرىّ المصرىّ المقرئ فى شعبان، و له إحدى و ثمانون سنة. و الإمام كمال الدين علىّ بن شجاع ابن سالم العبّاسىّ الضّرير فى ذى الحجّة، و له تسعون سنة إلّا شهرا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۱۳

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و سبع أصابع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و ثلاث عشرة إصبعا.

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۶۲]

السنة الرابعة من ولاية السلطان الملك الظاهر بيبرس على مصر، و هى سنة اثنتين و ستين و ستمائة.

فيها انتهت عمارة مدرسة السلطان الملك الظاهر بيبرس ببين القصرين من القاهرة. و قد تقدّم ذكرها فى ترجمته.

و فيها استدعى الملك الظاهر الأمير علاء الدين أيدكين البندقدارىّ إلى القاهرة؛ و أمره أن يجعل نائبه بحلب بعد خروجه الأمير نور الدين علىّ بن مجلّى ففعل ذلك، و قدم القاهرة؛ فلمّا وصل إليها عزله و أقام نور الدين عوضه فى نيابة حلب. و قد تقدّم أنّ علاء الدين أيدكين هو أستاذ الملك الظاهر بيبرس الذى اشتراه منه الملك الصالح نجم الدين أيّوب.

و فيها كان الغلاء بديار مصر فبلغ الإردبّ القمح مائة درهم و خمسة دراهم نقرة، و الشّعير سبعين درهما الإردبّ، و ثلاثة أرطال خبز بالمصرىّ بدرهم نقرة، و رطل اللحم بالمصرىّ و هو مائة و أربعة و أربعون درهما بدرهم؛ و كان هذا الغلاء عظيما بديار مصر. فلمّا وقع ذلك فرّق الملك الظاهر الفقراء على الأغنياء و الأمراء و ألزمهم بإطعامهم، ثم فرّق من شونه القمح على الزوايا و الأربطة، و رتّب للفقراء

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۱۴

كلّ يوم مائة اردبّ مخبوزة تفرّق بجامع ابن طولون. و دام على ذلك إلى أن دخلت السنة الجديدة و المغلّ الجديد؛ و أبيع القمح فى الإسكندريّة فى هذا الغلاء الإردبّ بثلاثمائة و عشرين درهما.

و فيها أحضر بين يدى السلطان طفل ميّت له رأسان و أربع أعين و أربع أيد و أربع أرجل، فأمر بدفنه.

و فيها توفّى القاضى كمال الدين أبو العبّاس أحمد بن عبد اللّه بن عبد الرحمن الأسدىّ الحلبىّ الشافعىّ المعروف بابن الأستاذ قاضى حلب، مولده سنة إحدى عشرة و ستمائة، سمع الكثير و حدّث و درّس، و كان فاضلا عالما مشكور السّيرة مات فى شوّال.

و فيها توفّى شيخ الشيوخ الصاحب شرف الدين عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن بن منصور الأنصارىّ الأوسىّ الدمشقىّ المولد الحموىّ الدار و الوفاة الإمام الأديب العلّامة، مولده يوم الأربعاء ثانى عشرين جمادى الأولى سنة ستّ و ثمانين و خمسمائة، و سمع الحديث و تفقّه و برع فى الفقه و الحديث و الأدب، و أفتى و درّس و تقدّم عند الملوك، و ترسّل عنهم غير مرّة. و كانت له الوجاهة التامّة و له اليد الطّولى فى الترسّل و النظم، و شعره فى غاية الحسن. و من شعره- رحمه اللّه- قوله:

إنّ قوما يلحون فى حبّ سعدى لا يكادون يفقهون حديثا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۱۵

سمعوا وصفها و لاموا عليها أخذوا طيّبا و أعطوا خبيثا

و له رحمه اللّه:

قلت و قد عقرب صدغا له عن شقّة الحاجب لم يحجب

قدّست يا ربّ الجمال الذى ألّف بين النون و العقرب

و له عفا اللّه عنه:

مرضت ولى جيرة كلّهم عن الرّشد فى صحبتى حائد

فأصبحت فى النقص مثل الذى و لا صلة لى و لا عائد

و له غفر اللّه له:

و لقد عجبت لعاذلى فى حبّه لمّا دجى ليل العذار المظلم

أو ما درى من سنّتى و طريقتى أنّى أميل مع السواد الأعظم

قلت: و قد استوعبنا ترجمة شيخ الشيوخ بأوسع من ذلك فى تاريخنا «المنهل الصافى» و ذكرنا من محاسنه و شعره نبذة كبيرة، و كانت

وفاته ليلة الجمعة ثامن شهر رمضان بحماة رحمه اللّه تعالى.

و فيها توفّى الملك المغيث فتح الدين أبو الفتح عمر صاحب الكرك ابن السلطان الملك العادل أبى بكر محمد ابن السلطان الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبى بكر محمد ابن الأمير نجم الدين أيّوب الأيّوبىّ المصرىّ ثم الكركىّ. و قد ذكرنا من أمره نبذة كبيرة فى ترجمة عمّه الملك الصالح ثم من بعده فى عدّة تراجم لا سيما لمّا توجّه إليه الملك الظاهر بيبرس مع جماعة البحريّة، و أقام عنده و حرّكه على ملك مصر حسب ما تقدّم ذكر ذلك كلّه. انتهى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٧، ص: ٢١٦

قلت: و مولد الملك المغيث هذا بالديار المصريّة و ربّى يتيما عند عمّاته القطبيّات بنات الملك العادل، و القطبيات عرفن بالقطبيات لأنهنّ أشقّاء الملك المفضّل قطب الدين ابن الملك العادل، و بقى المغيث هذا عندهنّ إلى أن أخرج إلى الكرك و اعتقل بها ثم ملكها بعد موت عمّه الملك الصالح نجم الدين أيّوب، و وقع له بها أمور، إلى أن قدم فى العام الماضى على الملك الظاهر بيبرس بمصر، فقبض عليه و قتله فى محبسه، رحمه اللّه تعالى، لما كان فى نفسه منه أيام كان بخدمته فى الكرك مع البحريّة.

و فيها توفّى الأمير حسام الدين لاچين بن عبد اللّه العزيزىّ [الجوكندار]، كان من أكابر الأمراء و أعظمهم، و كان شجاعا جوادا ديّنا له اليد البيضاء فى غزو التّتار، و كان يجمع الفقراء و يصنع لهم الأوقات و السماعات، و كان كبير القدر عظيم الشأن، رحمه اللّه تعالى.

و فيها توفّى الشيخ محيى الدين أبو بكر محمد بن محمد بن إبراهيم بن الحسين بن سراقة الأنصارىّ الأندلسىّ الشاطبىّ، كان فاضلا محدّثا، سمع الكثير و ولى مشيخة دار الحديث بحلب، ثم ولى مشيخة الحديث بمصر بالمدرسة الكامليّة و حدّث بها.

و من شعره، رحمه اللّه تعالى:

و صاحب كالزّلال يمحو صفاؤه الشكّ باليقين

لم يحص إلّا الجميل منّى كأنّه كاتب اليمين

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٧، ص: ٢١٧

قلت: و هذا بعكس قول الأديب شهاب الدين المنازىّ، رحمه اللّه تعالى:

و صاحب خلته خليلا و ما جرى غدره ببالى

لم يحص إلّا القبيح منّى كأنّه كاتب الشمال

و فيها توفّى الملك الأشرف مظفّر الدين موسى ابن الملك المنصور إبراهيم بن الملك المجاهد أسد الدين شير كوه بن محمد ابن الملك المنصور أسد الدين شير كوه الكبير، ملك الأشرف هذا حمص بعد وفاة أبيه، و طالت مدّته به و وقع له أمور، و كان فيه مداراة للتّتار و استمرّ على ذلك إلى أن توفى بحمص فى حادى عشر صفر قبل صلاة الجمعة، و دفن ليلا على جدّه الملك المجاهد أسد الدين شير كوه.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفى المحدّث ضياء الدين علىّ بن محمد البالسىّ فى صفر، و له سبع و خمسون سنة. و أبو عبد اللّه محمد بن إبراهيم الأنصارىّ البابشرقىّ فى شهر ربيع الأوّل. و الحافظ رشيد الدين أبو الحسين يحيى ابن علىّ الأموىّ العطّار المالكىّ فى جمادى الأولى، و له ثمان و سبعون سنة. و أبو الطاهر إسماعيل بن صارم الخيّاط بعده بأيام. و الخطيب عماد الدين عبد الكريم [ابن جمال الدين أبى القاسم عبد الصمد] بن محمد الأنصارىّ بن الحرستانىّ فى جمادى الأولى. و الورع الزاهد أبو القاسم بن منصور فى شعبان. و الإمام محيى الدين

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٧، ص: ٢١٨

أبو بكر محمد بن محمد بن سراقة الشاطبىّ بمصر، و له سبعون سنة. و شيخ الشيوخ شرف الدين عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن الأنصارىّ بحماة فى رمضان. و الملك المغيث فتح الدين عمر بن العادل أبى بكر بن الكامل محمد صاحب الكرك، أعدمه الملك

الظاهر. و الأمير الكبير حسام الدين لا چين الجوكندار العزيزىّ فى المحرّم، و دفن بقاسيون. و صاحب حمص الملك الأشرف موسى ابن المنصور إبراهيم بن أسد الدين بحمص فى صفر، و له خمس و ثلاثون سنة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و أربع عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و اثنتا عشرة إصبعا.

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۶۳]

السنة الخامسة من ولاية الملك الظاهر بيبرس على مصر، و هى سنة ثلاث و ستين و ستمائة.

فيها ولّى الملك الظاهر بيبرس من كلّ مذهب قاضيا و قد تقدّم ذكر ذلك.

و فيها توفّى الأديب البارع شرف الدين محاسن [الكتبىّ] الصّورىّ، كان عالما فاضلا أديبا شاعرا، و مات فى شهر رجب. و من شعره، رحمه اللّه:

عتبت علىّ فقلت إن عاتبتها كان العتاب لوصلها استهلاكا

و أردت أن تبقى المودّة بيننا موقوفة فتركت ذاك لذاك

و فيها توفّى الأمير جمال الدين موسى بن يغمور بن جلدك بن بليمان بن عبد اللّه أبو الفتح، مولده فى جمادى الآخرة سنة تسع و تسعين و خمسمائة بالقوب من أعمال

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة؛ ج۷؛ ص۲۱۸

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۱۹

قوص بصعيد مصر و سمع الحديث، و تنقّل فى الولايات الجليلة مثل نيابة السلطنة بالقاهرة و نيابة دمشق، و لم يكن فى الأمراء من يضاهيه فى منزلته و شجاعته و قربه من الملوك، و كان أميرا جليلا خبيرا حازما سيوسا مدبّرا جوادا ممدّحا، و كان الملك الظاهر إذا عمل مشورة و تكلّم جمع خشداشيته من الأمراء فلا يصغى إلّا إلى قول ابن يغمور هذا و يفعل ما أشار به عليه. و كانت وفاته فى مستهلّ شعبان بالقصير من أعمال الفاقوسيّة بين الغرابى و الصالحيّة. و من شعره قوله:

ما أحسن ما جاء كتاب الحبّ يبدى حرقا كأنّه عن قلبى

فازددت بما قرأت شوقا و ضمّا لا يبرّده إلا نسيم القرب

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى المحدّث معين الدين إبراهيم بن عمر بن عبد العزيز القرشىّ الزّكوىّ. و الحافظ زين الدين أبو البقاء خالد ابن يوسف بن سعد النابلسىّ بدمشق، و له ثمان و سبعون سنة فى سلخ جمادى الأولى. و الأمير الكبير جمال الدين موسى بن يغمور. و النجيب فراس بن علىّ بن زيد العسقلانىّ التاجر. و قاضى الديار المصريّة بدر الدين يوسف بن الحسن السّنجارىّ فى رجب. و الشيخ أبو القاسم الحوّارىّ الزاهد.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۲۰

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم سبع أذرع و إصبعان. مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و أربع عشرة إصبعا.

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۶۴]

السنة السادسة من ولاية الملك الظاهر بيبرس على مصر، و هى سنة أربع و ستين و ستمائة.

فيها توفّى شهاب الدين أبو العبّاس أحمد بن صالح، كان فاضلا أديبا. و من شعره، رحمه اللّه، فى مكار مليح:

علقته مكاريا شرّد عن عينى الكرى

قد أشبه البدر فلا يملّ من طول السّرى

و فيها توفّى طاغية التّتار و ملكهم هولاكو و قيل هولاوون و قيل هولاو بن تولى خان بن چنكز خان المغلى التّركىّ، ملك مكان أبيه بعد موته و كان من أعظم ملوك التّتار، و كان حازما شجاعا مدبرا، استولى على الممالك و الأقاليم فى أيسر مدّة، و فتح بلاد خراسان و أذربيجان و عراق العجم و عراق العرب و الموصل و الجزيرة و ديار بكر و الشام و الروم و الشرق و غير ذلك. و هو الذى قتل الخليفة المستعصم المقدّم ذكره، و كان على قاعدة المغل لا يتديّن بدين، و إنّما كانت زوجته ظفر خاتون قد تنصّرت، فكانت تعضد النصارى و تقيم شعائرهم فى تلك البلاد. و كان هولاكو سعيدا فى حروبه لا يروم أمرا إلّا و يسهل عليه، و كانت وفاته بعلّة الصّرع، و كان الصّرع يعتريه من عدّة سنين فى كلّ وقت، حتّى إنّه كان يعتريه فى اليوم الواحد المرّة و المرّتين و الثلاث، ثم زاد به فمرض و لم يزل ضعيفا نحو شهرين و هلك، فأخفوا موته و صبّروه حتى حضر ولده أبغا و جلس مكانه فى الملك، و قيل: إنّه لم يدفن

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٧، ص: ٢٢١

و علّق بسلاسل، و مات و له ستّون سنة أو نحوها. و خلّف من الأولاد الذكور سبعة عشر ولدا: و هم أبغا الذى ملك بعده و أشموط و تمشين و تكشى و كان [تكشى فاتكا] جبّارا، و أجاى و تستز و منكوتمر الذى التقى مع الملك المنصور قلاوون على حمص و انهزم جريحا، كما سيأتى ذكره إن شاء اللّه تعالى، و باكودر و أرغون و تغاى تمر و الملك أحمد و جماعة أخر.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أبو الفضل إسماعيل ابن إبراهيم بن يحيى القرشى بن الدّرجىّ فى صفر. و الشيخ جمال الدين أحمد بن عبد اللّه بن شعيب التّميمىّ فى شهر ربيع الاخر، و له اثنتان و سبعون سنة.

و رضىّ الدين إبراهيم بن البرهان عمر الواسطىّ التاجر بالإسكندرية فى رجب، و له إحدى و سبعون سنة، و خلّف أموالا عظيمة. و الأمير الكبير جمال الدين أيدغدى العزيزىّ. و الشيخ أحمد بن سالم المصرىّ النحوىّ فى شوّال بدمشق.

و الطاغية هولاكو بمراغة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و سبع و عشرون إصبعا. مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا و اثنتا عشرة إصبعا.

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۶۵]

السنة السابعة من ولايه الملك الظاهر بيبرس على مصر، و هى سنة خمس و ستين و ستمائة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٧، ص: ٢٢٢

فيها توفّى بركة خان [بن توشى] بن چنكز خان ملك التّتار، هو ابن عمّ هولاكو المقدّم ذكره، و كانت مملكته عظيمة متّسعة جدّا و هى بعيدة عن بلادنا و له عساكر وافرة العدد، و كان بركة هذا يميل إلى المسلمين ميلا زائدا و يعظّم أهل العلم و يقصد الصلحاء و يتبرّك بهم. و وقع بينه و بين ابن عمّه هولاكو، و قاتله بسبب قتله للخليفة المستعصم بالله و غيره من المسلمين؛ و كان بينه و بين الملك الظاهر مودّة و يعظّم رسله، و كان قد أسلم هو و كثير من جنده و بنى المساجد و أقيمت الجمعة ببلاده، و كان جوادا عادلا شجاعا، و مات ببلاده فى هذه السنة و هو فى عشر الستين، و قام مقامه منكوتمر.

و فيها توفّى الأمير ناصر الدين أبو المعالى حسين بن عزيز بن أبى الفوارس القيمرىّ، كان من أكابر الأمراء و أجلّهم قدرا و أكبرهم شأنا، و كان شجاعا كريما عادلا، و كان الملك الظاهر قد جعله مقدّم العساكر بالساحل فتوجّه إليه فمات به مرابطا فى يوم الأحد ثالث عشر شهر ربيع الأوّل، و هو صاحب المدرسة القيمريّة بدمشق، و كان عالى الهمة يضاهى السلاطين فى موكبه و خيله و مماليكه و حواشيه.

و فيها توفّى القاضى تاج الدين عبد الوهاب بن خلف بن محمود بن بدر أبو محمد العلامىّ الفقيه الشافعىّ المعروف بابن بنت الأعزّ،

کان إماما عالما فاضلا و ولی

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۲۳

المناصب الجلیلة کنظر الدواوین و الوزارة و قضاء القضاة و درس بالشافعیّ، و کانت له مکانة عند الملک الظاهر، و مولده سنة أربع عشرة و ستمائة، و مات لیلة السابع و العشرین من شهر رجب و دفن من الغد بسفح المقطّم.

و فیها توفّی الشیخ الإمام المحدّث تاج الدین أبو الحسین علیّ بن أحمد بن علیّ ابن محمد بن الحسن بن عبد اللّه بن أحمد بن میمون القیسی المصریّ المالکیّ المعروف بابن القسطلانیّ، ولد سنة ثمان و ثمانین و خمسمائة بمصر، و بها تفقّه و سمع الحدیث من جماعة کثیرة و حدّث بالکثیر و درّس و أفتی و تولّی مشیخة دار الحدیث الکاملیّة بالقاهرة إلی أن مات بکرة السابع و العشرین من شوّال و دفن من یومه بسفح المقطّم.

و فیها توفّی الشیخ الإمام الفقیه المحدّث شمس الدین ملکشاه بن عبد الملک ابن یوسف بن إبراهیم المقدسیّ الأصل المصریّ المولد الدّمشقیّ الدار الحنفیّ المعروف بقاضی بیسان، کان فقیها عالما فاضلا مفتّنا فی علوم، ولد بحارة زویله بالقاهرة سنة ثلاث و سبعین و خمسمائة و مات فی سادس عشر صفر بدمشق، رحمه اللّه.

الذین ذکر الذهبیّ وفاتهم فی هذه السنة، قال: و فیها توفّی أبو الحجّاج یوسف ابن مکتوم السّویدیّ الحبّال. و الشیخ الصالح الأثریّ محمود بن أبی القاسم [اسفندیار ابن بدران بن أیّان] الدّشتیّ بالقاهرة فی رجب. و قاضی القضاة تاج الدین

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۲۴

عبد الوهاب بن خلف بن بنت الأعزّ فی رجب، و له إحدی و ستون سنة. و العلّامة شهاب الدین أبو شامة أبو القاسم عبد الرحمن بن إسماعیل المقدسیّ ثم الدّمشقیّ فی رمضان، و له ستّ و ستون سنة. و الإمام تاج الدین علیّ ابن الشیخ أبی العبّاس أحمد بن علی القسطلانیّ بمصر، و له سبع و سبعون سنة. و السلطان برکة خان بن توشی بن چنکز خان. و الأمیر الکبیر ناصر الدین حسین بن عزیز بن أبی الفوارس القیمریّ صاحب القیمریّة.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم خمس أذرع و أربع عشرة إصبعا.

مبلغ الزیادة ستّ عشرة ذراعا و أربع عشرة إصبعا.

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۶۶]

السنة الثامنة من ولایة الملک الظاهر بیبرس علی مصر، و هی سنة ستّ و ستین و ستمائة.

فیها توفّی الرئیس کمال الدین أبو یوسف أحمد بن عبد العزیز بن محمد بن عبد الرحیم بن الحسن بن عبد اللّه الحلبیّ المعروف بابن العجمیّ، کان شاعرا رئیسا عالما فاضلا حسن الخط و الإنشاء، کتب للملک الناصر صلاح الدین یوسف، و کان من أعیان الکتّاب و أماثلهم، بلغ من العمر ستّا و أربعین سنة، و مات بظاهر صور من بلاد الساحل فی العشر الأوّل من ذی الحجّة و حمل إلی ظاهر دمشق فدفن بها. و من شعره فی خال ملیح، قال:

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۲۵

و ما خاله ذاک الذی خاله الوری علی خده نقطا من المسک فی ورد

و لکنّ نار الخدّ للقلب أحرقت فصار سواد القلب خالا علی الخدّ

قلت: یعجبنی قول ابن صابر المنجنیقیّ فی هذا المعنی:

أهلا بوجه کالبدر حسنا صیّرنی حبّه هلالا

قد رقّ حتّی لحظت فیه سواد عینی فخلت خالا

و مثل هذا أيضا قول القائل فى هذا المعنى، و لم أدر لمن هو غير أنّنى أحفظه قديما، و هو فى خال تحت العذار.

له خال تغشّاه هلال يفوت العين إن نظرت إليه

كشحرور تخبّأ فى سياج مخافة جارح من مقلتيه

و فى هذا المعنى للعزّ الموصلىّ و أبدع إلى الغاية:

لحظت من وجنتها شامة فابتسمت تعجب من حالى

قالت قفوا و استمعوا ما جرى قد هام عمّى الشيخ فى خالى

و فى هذا المعنى:

تفاخر الحسن فى انتساب لمّا بدا خاله الأنيق

فقالت العين ذا ابن أختى و قال لى الخدّ ذا شقيق

و قد استوعبنا هذا النوع و غيره فى كتابنا «حلية الصفات فى الأسماء و الصناعات» فلينظر هناک.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۲۶

و فيها توفّى عفيف الدين أبو الحسن على بن عدلان بن حمّاد بن علىّ الموصلىّ النحوىّ المترجم، كان إماما عالما أديبا مفتّنا شاعرا، مات بمصر فى يوم الجمعة تاسع شوّال. و من شعره، رحمه اللّه:

لا تعجبنّ إذا ما فاتک المطلب و عوّد النفس أن تشقى و أن تتعب

إن دام ذا الفقر فى الدنيا فلا تعجب مات الكرام و ما فيهم فتى أعقب

و فيها توفّى السلطان ركن الدين كيقباد ابن السلطان غياث الدين كيخسرو ابن السلطان علاء الدين كيقباد بن كيخسرو بن قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان بن قطلمش بن أتسز بن إسرائيل بن سلجوق بن دقماق السّلجوقىّ صاحب الروم، كان ملكا جليلا شجاعا لكنّه كان غير سديد الرأى، كان جعل أمره بيد البرواناه فاستفحل أمر البرواناه، فأراد ركن الدين هذا قتله فعاجله البرواناه و عمل على قتله حتى قتل (و كيقباد بفتح الكاف و سكون الياء آخر الحروف و ضم القاف و فتح الباء ثانية الحروف و بعد الألف دال مهملة ساكنة). و كيخسرو مثل ذلک غير أن الخاء المعجمة مضمومة و بعدها سين مهملة ساكنة و راء مهملة مضمومة. و قليج أرسلان بكسر القاف و اللام و سكون الياء و الجيم معا.

و أرسلان معروف.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أيّوب بن أبى بكر عمر الحمّامى ابن الفقّاعىّ. و مجد الدين أحمد بن عبد اللّه [بن أبى الغنائم المسلم بن

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۲۷

حمّاد بن محفوظ] بن ميسرة الأزدىّ ابن الحلوانيّة فى شهر ربيع الأوّل. و الشيخ القدوة إبراهيم بن عبد اللّه ابن الشيخ أبى عمر [محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة] المقدسىّ فى شهر ربيع الأوّل، و له ستون سنة. و أبو بكر عبد اللّه بن أحمد بن ناصر النّحّاس فى ذى القعدة. و فيها قتلت التّتار السلطان ركن الدين كيقباد ابن السلطان غياث الدين كيخسرو ابن السلطان علاء الدين كيقباد صاحب الروم، و له ثمان و عشرون سنة و أجلسوا ولده كيخسرو على التخت و هو ابن عشر سنين.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و عشرون إصبعا.

مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا سواء.

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۶۷]

السنة التاسعة من ولاية الملك الظاهر بيبرس على مصر، و هى سنة سبع و ستين و ستمائة.

فيها توفّى الأمير عز الـدين أيـدمر بن عبد اللّه الحلىّ الصالحىّ النجمىّ، كان من أكبر أمراء الدولة و أعظمهم محلّا عند الملك الظاهر، و كان نائب السلطنة عنه بالديار المصرية فى غيبته عنها لوثوقه به و اعتماده عليه، و كان قليل الخبرة لكن رزق السعادة.

قلت: له أسوة بأمثاله. قال: و كان محظوظا من الـدنيا له الأموال الجمّة و المتاجر الكثيرة و الأملاك الوافرة. و أمّا ما خلّفه من الأموال و الخيول و الجمال و البغال

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۲۸

و العـدد فيقصـر الوصف عنه. و مات بقلعة دمشق فى يوم الخميس سابع شـعبان و دفن بتربته بجوار مسـجد الأمير موسـى بن يغمور. و مات و قد نيّف على الستين.

و فيها توفّى الشيـخ المحدّث عماد الدين محمد بن محمد بن علىّ أبو عبد اللّه، كان فاضـلا سـمع الكثير، و مات بدمشق فى شهر ربيع الأوّل؛ و لما كان بحلب كتب إليه أخوه سعد الدين سعد يقول:

ما للنّوى رقّة ترثى لمكتئب حرّان فى قلبه و الدمع فى حلب

قد أصبحت حلب ذات العماد بكم و جلّق إرما هذا من العجب

الـذين ذكر الـذهبىّ وفاتهم فى هـذه السـنة، قال: و فيها توفّى زين الـدين إسـماعيل ابن عبـد القوىّ بن عزّون الأنصارىّ فى المحرّم. و الإمـام مجـد الـدين علىّ بن وهب القشـيرى [والـد] ابن دقيـق العيـد. و الحـافظ زين الـدين أبو الفتـح محمـد بن محمـد [بن أبى بكر] الأبيوردىّ الصوفىّ فى جمادى الأولى. و اللغوىّ مجد الدين عبد المجيد بن أبى الفرج [بن محمد] الرّوذراورىّ بدمشق فى صفر.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و ست عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و سبع أصابع.

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۶۸]

السنة العاشرة من ولاية الملك الظاهر بيبرس على مصر، و هى سنة ثمان و ستين و ستمائة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۲۹

فيهـا توفّى الشـيخ موفّق الـدين أبو العبّـاس أحمـد بن القاسم بن خليفـة الخزرجىّ المعروف بابن أبى أصـيبعة الحكيم الفاضل صاحب المصـنّفات منها «طبقات الأطباء». مات بصـرخد فى جمادى الأولى، و قد نيّف على سبعين سنة، و كان فاضلا عالما فى الطّبّ و الأدب و التاريخ و له شعر كثير، من ذلك ما مدح به الصاحب أمين الدولة، و هى قصيدة طنّانة أوّلها:

فؤادى فى محبّتهم أسير و أنّى سار ركبهم يسير

يحنّ إلى العذيب و ساكنيه حنينا قد تضمّنه سعير

و يهوى نسمة هبّت سحيرا بها من طيب نشرهم عبير

و إنّى قانع بعد التّدانى بطيف من خيالهم يزور

و معسول اللّمى مرّ التجنّى يجور على المحبّ و لا يجير

تصدّى للصدود ففى فؤادى بوافر هجره أبدا هجير

و قد وصلت جفونى فيه سهدى فما هذى القطيعة و النفور

و هى طويلة كلّها على هذا النّمط.

و فيها توفّى الأمير عزّ الدين أيبك بن عبد اللّه الظاهرىّ نائب حمص، كان فيه صـرامه مفرطة، و كان موصوفا بالعسف و الظلم و سيرة

قبيحة، و مع هذه المساوئ كان أيضا فيه رفض. مات بحمص و فرح بموته أهل بلده.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۳۰

و فيها توفّى الأمير عزّ الدين أيبك بن عبد اللّه المعروف بالزّرّاد، كان نائب قلعة دمشق، و كان من المماليك الصالحيّة النّجميّة، و كانت حرمته وافرة و سيرته جميلة. و مات فى ذى القعدة.

و فيها توفّى موسى بن غانم بن علىّ بن إبراهيم بن عساكر بن حسين الأنصارىّ المقدسىّ، كان كبير القدر صدرا كبيرا شجاعا وافر لحرمة، تولّى مشيخة الحرم بالقدس الشريف، و كان كريما و له سمعة وصيت. مات بالقدس فى المحرّم و قد جاوز سبعين سنة.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى المحدّث زين الدين أحمد بن عبد الدائم بن نعمة المقدسى فى رجب، و له ثلاث و تسعون سنة. و قاضى القضاة محيى الدين يحيى بن محمد بن الزّكى القرشىّ فى رجب، و له اثنتان و سبعون سنة.

و أبو حفص عمر بن محمد بن أبى سعد الكرمانىّ الواعظ فى شعبان، و له ثمان و تسعون سنة. و فيها قتل فى المصافّ صاحب المغرب الملك أبو دبّوس أبو العلاء [الواثق بالله] إدريس بن عبد اللّه بن محمد المؤمنى.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ستّ أذرع و اثنتان و عشرون إصبعا.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و اثنتان و عشرون إصبعا.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۳۱

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۶۹]

السنة الحادية عشرة من ولاية الملك الظاهر بيبرس البندقدارىّ على مصر، و هى سنة تسع و ستين و ستمائة.

فيها توفّى الشيخ شمس الدين أبو إسحاق إبراهيم بن المسلم بن هبة اللّه [المعروف با] بن البارزىّ الفقيه الحموىّ الشافعىّ، مولده سنة ثمانين و خمسمائة، و كان فقيها فاضلا ورعا، و له شعر جيّد و أفتى و درّس بمعرّة النّعمان و غيرها، و مات فى شعبان بحماة.

و من شعره، رحمه اللّه، يصف دمشق:

دمشق لها منظر رائق و كلّ إلى وصلها تائق

و أنّى يقاس بها بلدة أبى اللّه و الجامع الفارق

و فيها توفّى القاضى كمال الدين أبو السعادات أحمد بن مقدام بن أحمد بن شكر المعروف بابن القاضى الأعزّ، كان أحد الأكابر بالديار المصريّة متأهّلا للوزارة و غيرها، و تولّى المناصب الجليلة، و كان له يد فى النظم و معرفة بالأدب و مشاركة فى غيره. و مات فى شهر رمضان بالقاهرة.

و فيها توفّى الأمير علم الدين سنجر بن عبد اللّه الصّيرفىّ، كان من أعيان الأمراء بالديار المصريّة و ممّن يخشى جانبه، فلمّا تمكّن الملك الظّاهر بيبرس أخرجه إلى دمشق ليأمن غائلته و أقطعه بها خبزا جيّدا، فدام به إلى أن مات ببعلبكّ و هو فى عشر الستين.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۳۲

و فيها توفّى الأمير قطب الدين سنجر بن عبد اللّه المستنصرىّ البغدادىّ المعروف بالياغز، كان من مماليك الخليفة المستنصر بالله، و كان محترما فى الدولة الظاهريّة و عنده معرفة و حسن عشرة و محاضرة بالأشعار و الحكايات.

و فيها توفّى الملك الأمجد تقىّ الدين عبّاس ابن الملك العادل أبى بكر محمد بن أيّوب ابن شادى، و كنيته أبو الفضل، كان محترما عند الملك الظاهر لا يرتفع عليه أحد فى المجالس، و هو آخر من مات من أولاد الملك العادل لصلبه، و كان دمث الأخلاق حسن العشرة لا تملّ مجالسته. و مات بدمشق فى جمادى الآخرة و دفن بسفح قاسيون.

و فيها توفّى قطب الدين عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن نصر بن محمد بن نصر ابن محمد بن سبعين أبو محمد المرسىّ الرّقوطىّ

الصوفیّ المعروف بابن سبعین.

قال الذهبیّ فی تاریخ الإسلام: کان صوفیّا علی قاعدة زهّاد الفلاسفة و تصوّفهم، و له کلام کثیر فی العرفان علی طریق الاتّحاد و الزّندقة. و قد ذکرنا محطّ هؤلاء الجنس فی ترجمة ابن الفارض و ابن العربیّ و غیرهما، فیا حسرة علی العباد! کیف لا یغضبون للّه تعالی و لا یقومون فی الذبّ عن معبودهم، تبارک اللّه و تقدّس فی ذاته عن أن یمتزج بخلقه أو یحلّ فیهم، و تعالی اللّه عن أن یکون هو عین السماوات و الأرض و ما بینهما، فإنّ هذا الکلام شرّ من مقالة من قال بقدم العالم.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۳۳

و من عرف هؤلاء الباطنیّة عذرنی أو هو زندیق مبطن للاتّحاد یذبّ عن الاتّحادیّة و الحلولیّة، و من لم یعرفهم فاللّه یثیبه علی حسن قصده. ثم قال بعد کلام طویل:

و اشتهر عنه (یعنی عن ابن سبعین هذا) أنّه قال: لقد تحجّر ابن آمنة واسعا بقوله:

"لا نبیّ بعدی. "ثم ساق الذهبیّ أیضا من جنس هذه المقولة أشیاء أضربت عنها إجلالا فی حقّ اللّه و رسوله لا لأجل هذا النّجس.

قلت: إن صحّ عنه ما نقله الحافظ الذهبیّ و هو حجّة فی نقله فهو کافر زندیق مارق من الدین مطرود من رحمة اللّه تعالی. انتهی. و الرّقوطیّ نسبة إلی حصن من عمل مرسیة یقال له رقوطة.

و فیها توفی الأمیر شرف الدین أبو محمد عیسی بن محمد بن أبی القاسم بن محمد بن أحمد بن إبراهیم بن کامل الکردیّ الهکّاری، کان أحد أعیان الأمراء سمع الحدیث و حدّث، و مولده سنة ثلاث و تسعین و خمسمائة بالقدس، و کان أحد الأمراء المشهورین بالشجاعة و الإقدام و له وقائع معدودة و مواقف مشهورة مع العدوّ بأرض الساحل؛ ولی الأعمال الجلیلة و قدّمه الملک الظاهر بیبرس علی العساکر فی الحروب غیر مرّة، و مات بدمشق فی شهر ربیع الآخر. و من شعره مما کتبه للوزیر شرف الدین بن المبارک وزیر إربل:

أ أحبابنا إن غبت عنکم و کان لی إلی غیر مغناکم مراح و إیسام

فما عن رضا کانت سلیمی بدیلة بلیلی و لکن للضرورات أحکام

و فیها توفّی محمد بن عبد المنعم بن نصر [اللّه] بن جعفر بن أحمد بن حواری الفقیه الأدیب أبو المکارم تاج الدین التّنوخی المعرّیّ الأصل الحنفیّ الدّمشقی المولد

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۳۴

و الدار و الوفاة المعروف بابن شقیر. ولد سنة ست و ستمائة و سمع و حدّث بدمشق و القاهرة، و کان فقیها محدّثا فاضلا بارعا أدیبا و عنده ریاسة و مکارم و دماثة أخلاق و حسن محاضرة، و هو معدود من شعراء الملک الناصر [صلاح الدین یوسف بن العزیز] و مات فی صفر. و من شعره:

قد أقبل الصیف و ولّی الشّتا و عن قریب نشتکی الحرّا

أما تری البان بأغصانه قد قلب الفرو إلی برّا

و قال، رحمه اللّه:

وا حیرة القمرین منه إذا بدا و إذا انثنی وا خجلة الأغصان

کتب الجمال و یاله من کاتب سطرین فی خدّیه بالرّیحان

قلت: و یعجبنی قول ابن المعتزّ فی هذا المعنی و قد أبدع فی التشبیه فقال:

کأنّ خطّ عذار شقّ عارضه میدان آس علی ورد و نسرین

و خطّ فوق حجاب الدر شاربه بنصف صاد و دار الصّدغ کالنون

و لمحمد بن يوسف [بن عبد اللّه المعروف با] لخيّاط الدّمشقى فى معنى العذار:

عدار حبّى دقيق معنى تجلّ عن حسنه الصفات

حلا لرائيه و هو نبت هذا هو السكّر النّبات

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۳۵

و لابن نباتة:

و بمهجتى رشأ يميس قوامه فكأنّه نشوان من شفتيه

شغف العذار بخدّه و رآه قد نعست لواحظه فدبّ عليه

و للصّفدىّ:

عيناه قد شهدت بأنّى مخطئ و أتت تخطّ عذاره تذكارا

يا حاكم الحبّ اتّئد فى قتتى فالخطّ زور و الشهود سكارى

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى الشيخ حسن ابن أبى عبد اللّه بن صدقة الصّقلّىّ المقرئ فى شهر ربيع الأوّل و قد نيّف على سبعين.

و شيخ السّبعينيّة قطب الدين عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن سبعين المرسىّ بمكّة فى شوّال، و له خمس و خمسون سنة. و مجد الدين محمد بن إسماعيل بن عثمان ابن مظفّر بن هبة اللّه بن عساكر فى ذى القعدة. و قاضى حماة شمس الدين إبراهيم ابن المسلم بن البارزىّ فى شعبان، و له تسع و ثمانون سنة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ست أذرع و إحدى و عشرون إصبعا.

مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعا و اثنتا عشرة إصبعا.

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۷۰]

السنة الثانية عشرة من ولاية الملک الظاهر بيبرس على مصر، و هى سنة سبعين و ستمائة.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۳۶

فيها توفّى الملک الأمجد مجد الدين أبو محمد الحسن ابن الملک الناصر داود ابن الملک المعظّم عيسى ابن الملک العادل أبى بكر بن أيّوب، كان الملک الأمجد هذا من الفضلاء و عنده مشاركة جيّدة فى كثير من العلوم، و له معرفة تامّة بالأدب.

و فيها توفّى الشيخ عماد الدين عبد الرحيم بن عبد الرحيم بن عبد الرحيم بن عبد الرحمن ابن الحسن بن عبد الرحمن بن طاهر بن محمد بن محمد بن الحسين الحلبىّ الشافعىّ المعروف بابن العجمىّ، كان فاضلا سمع الحديث و تفقّه و حدّث و درّس و تولّى الحكم بمدينة الفيّوم من أعمال مصر و غيرها و ناب فى الحكم بدمشق، و كان مشكور السّيرة.

و مات بحلب فى رابع عشر شهر رمضان. و مولده فى سنة خمس و ستمائة بحلب.

و فيها توفّى الأديب أمين الدين علىّ بن عثمان بن علىّ بن سليمان بن علىّ بن سليمان ابن علىّ أبو الحسن المعروف بأمين الدين السّليمانىّ الصوفى الإربلىّ الشاعر المشهور، ولد سنة اثنتين و ستمائة. و مات بمدينة الفيّوم من أعمال مصر فى جمادى الأولى، و كان فاضلا مقتدرا على النظم، و هو من أعيان شعراء الملک الناصر صلاح الدين يوسف صاحب الشام، و كان أوّلا جنديّا ثم ترک ذلک و تزهّد. و من شعره و قد أرسل إلى بعض الرؤساء هديّة فقال:

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۳۷

هديّة عبد مخلص فى ولائه لها شاهد منها على عدم المال

و ليست على قدرى و لا قدر مالكى و لكنّها جاءت على قدر الحال

و قال رحمه اللّه:

ألا فاحفظ لسانك فهو خير و طرفك و استمع نصحى و وعظى

فربّ عداوة حصلت بلفظ و ربّ صبابة حصلت بلحظ

و فيها توفّى الرئيس الصدر عماد الدين أبو عبد اللّه محمد بن سالم بن الحسن بن هبة اللّه بن محفوظ بن الحسن بن محمد بن الحسن بن أحمد بن الحسين بن صصرّى التّغلبىّ، البلدىّ الأصل الدّمشقى المولد و الدار و الوفاة العدل الكبير، مولده سنة ثمان و تسعين و خمسمائة و سمع الكثير و حدّث، و كان شيخا جليلا من بيت العلم و الحديث، و قد حدّث هو و أبوه و جدّه و جدّ أبيه و جدّ جدّه و غير واحد من بيته.

و مات فى ذى القعدة.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى العلّامة الكمال سلّار بن الحسن الإربلىّ الشافعىّ فى جمادى الآخرة، و معين الدين أحمد ابن القاضى زين الدين علىّ بن يوسف الدمشقىّ العدل بمصر فى رجب. و الإمام جمال الدين عبد الرحمن بن سلمان الحرّانىّ البغدادىّ الحنبلىّ فى شعبان، و له خمس و ثمانون سنة.

و القاضى عماد الدين أبو عبد اللّه محمد بن سالم بن الحسن بن هبة اللّه الدّمشقى ابن

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۳۸

صصرىّ فى ذى القعدة. و الملك الأمجد السيد الجليل حسن ابن الناصر داود صاحب الكرك فى جمادى الأولى كهلا. و الصدر وجيه الدين محمد بن علىّ [بن أبى طالب] ابن سويد التّكريتىّ التاجر فى ذى القعدة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم سبع أذرع و إصبعان. مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا و إحدى عشرة إصبعا.

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۷۱]

السنة الثالثة عشرة من ولاية الملك الظاهر بيبرس على مصر، و هى سنة إحدى و سبعين و ستمائة.

فيها توفّى الأديب الفاضل مخلص الدين أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن هبة اللّه ابن أحمد بن قرناص الخزاعى الحموىّ الشاعر المشهور، كان أديبا فاضلا و له اليد الطّولى فى النظم، و مات بحماة يوم الأحد رابع شوّال. و من شعره:

ليلى و ليلك يا سؤلى و يا أملى ضدان هذا به طول و ذا قصر

و ذاک أنّ جفونى لا يلمّ بها نوم و جفنك لا يحظى به السّهر

قلت: و هذا يشبه قول القائل و ما أدرى أيهما أسبق إلى هذا المعنى و هو:

ليلى و ليلى نفى نومى اختلافهما بالطّول و الطّول يا طوبى لو اعتدلا

يجود بالطّول ليلى كلّما بخلت بالطّول ليلى و إن جادت به بخلا

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۳۹

و فيها توفّى الشريف شرف الدين أبو عبد اللّه محمد بن رضوان بن علىّ بن أبى المظفّر بن أبى العتاهية المعروف بالشريف الناسخ. مات بدمشق فى شهر ربيع الآخر، و كان من الفضلاء و له مشاركة فى كثير من العلوم و له اليد الطّولى فى النظم و النثر. و من شعره:

عانقته عند الوداع و قد جرت عينى دموعا كالنّجيع القانى

و رجعت عنه و طرفه فى فترة يملى علىّ مقاتل الفرسان

قلت: و ما أحسن قول القاضى ناصح الدين الأرّجانىّ فى هذا المعنى:

إذا رأيت الوداع فاصبر و لا يهمّنك البعاد

و انتظر العود عن قريب فإنّ قلب الوداع عادوا

و أجاد أيضا من قال فى هذا المعنى:

فإن سرت بالجثمان عنكم فإنّنى أخلّف قلبى عندكم و أسير

فكونوا عليه مشفقين فإنّه رهين لديكم فى الهوى و أسير

و فيها توفّى المحدّث شرف الدين أبو المظفّر يوسف بن الحسن بن بدر بن الحسن ابن مفرّج بن بكّار النّابلسى الأصل الدّمشقىّ المولد و الدار و المنشأ و الوفاة المحدّث المشهور، كان فاضلا و سمع الكثير و حدّث، و كانت لديه فضيلة و مشاركة و معرفة بالأدب.

و من شعره:

عرّج بعيسك و احبس أيّها الحادى عند الكثيب و عرّس يمنة الوادى

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۴۰

و اقر السّلام على سكّان كاظمة منّى و عرّض بتهيامى و تسهادى

و قل محبّ بنار الشّوق محترق أودى به الوجد خلّفناه بالنّادى

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى الحافظ شرف الدين أبو المظفّر يوسف بن الحسن بن النابلسى الدّمشقىّ فى المحرّم. و خطيب المقياس أبو الفتح عبد الهادى بن عبد الكريم القيسىّ المقرئ، و له أربع و تسعون سنة فى شعبان. و المحدّث شمس الدين محمد بن عبد المنعم بن عمّار بن هامل الحرّانىّ فى رمضان. و أبو العبّاس أحمد بن هبة اللّه بن أحمد السّلمىّ الكهفى فى رجب.

و صاحب «التعجيز» الإمام تاج الدين أبو القاسم عبد الرحيم بن محمد بن محمد ابن يونس الموصلىّ فى جمادى الأولى ببغداد، و له ثلاث و سبعون سنة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم سبع أذرع و إحدى عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و ثلاث عشرة إصبعا.

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۷۲]

السنة الرابعة عشرة من ولاية الملك الظاهر بيبرس على مصر، و هى سنة اثنتين و سبعين و ستمائة.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۴۱

فيها ملك الملك الظاهر بيبرس برقة بعد حروب كثيرة.

و فيها توفّى الصاحب محيى الدين أحمد بن علىّ بن محمد بن سليم الصاحب محيى الدين أبو العباس ابن الصاحب بهاء الدين بن حنّا فى ثامن شعبان بمصر و دفن بسفح المقطّم، و وجد عليه والده وجدا شديدا، و عملت له الأعزية و الختم، و كان فاضلا و سمع من جماعة و حدّث و درّس بمدرسة والده التى أنشأها بزقاق القناديل بمصر إلى حين وفاته.

و فيها توفى المحدّث مؤيّد الدين أبو المعالى أسعد بن المظفر بن أسعد بن حمزة بن أسد بن علىّ بن محمد التّميمىّ المعروف بابن القلانسىّ، مولده بدمشق سنة ثمان أو تسع و تسعين و خمسمائة، و سمع الكثير و حدّث بدمشق و مصر، و هو من البيوتات

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۴۲

المشهورة بالحديث و العدالة و التقدّم. و مات فى ثالث [عشر] المحرّم ببستانه ظاهر دمشق، و كان وافر الحرمة متأهّلا للوزارة كثير الأملاك واسع الصدر

و فيها توفّى الأمير فارس الـدين أقطاى بن عبد اللّه الأتابكىّ المعروف بالمسـتعرب الصالحىّ النجمىّ، كان من أكابر الأمراء و أعيانهم، و كان الملك المظفّر قطز قرّبه و جعله أتابكا و علّق جميع أمور المملكة به. فلمّا تسلطن الملك الظاهر قام معه و حلف له و سلطنه فلم يسع الملـك الظـاهر إلّـا أن أبقـاه على حاله، و صار الظاهر فى الباطن يتبرّم منه و لا يسـعه إلّا تعظيمه لعـدم وجود من يقوم مقامه، فإنّه كان من رجال الدهر حزما و عزما و رأيا، فلمّا أنشأ الملك الظاهر بيليك الخازندار أمره بملازمته و الاقتباس منه فلازمه مدّة، فلمّا علم الظاهر منه الاسـتقلال جعله مشاركا له فى الجيش، و قطع الرواتب التى كانت لأقطاى المذكور؛ فجمع أقطاى نفسه و تعلّل قريب السنة و صار يتداوى إلى أن مات، و كان أظهر أن به طرف جذام و لم يكن به شىء من ذلك، رحمه اللّه تعالى.

و فيها توفّى مجاهد بن سـليمان بن مرهف بن أبى الفتح التّميمىّ المصرىّ الخياط الشاعر المشهور، و كان يعرف بابن أبى الربيع. مات فى جمادى الآخرة بالقرافة الكبرى، و كان بها سـكنه و بها دفن، و كان فاضـلا أديبا. و من شـعره فى أبى الحسين الجزّار و كان بينهما مهاجاة:

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۴۳

أبا الحسين تأدّب ما الفخر بالشّعر فخر

و ما ترشّحت منه بقطرة و هو بحر

و فيه يقول أيضا:

إن تاه جزاركم عليكم بفطنة عنده و كيس

فليس يرجوه غير كلب و ليس يخشاه غير تيس

و من شعره قوله: لغز فى إبرة و كستبان:

ثلاثة فى أمر خصمين إلفين لكن غير إلفين

هما قريبان و إن فرّقت بينهما الأيام فرقين

فواحد يعضده واحد و يعضد الآخر باثنين

تراهما بينهما وقعة إذ تقع العين على العين

و فيها توفّى الشـيخ الإمام أبو عبـد اللّه محمـد بن سـليمان [بن محمـد بن سـليمان] بن عبـد الملك بن علىّ المعافرىّ الشاطبىّ المقرئ الزاهد نزيل الإسـكندرية، قرأ بالسّبع فى الأندلس و برع فى القراءات و التفسير و له تفسير صغير. و مات فى العشرين من شهر رمضان، و له سبع و ثمانون سنة.

و فيها توفّى الشـيخ الإمام العلّامـة فريـد عصـره جمال الـدين أبو عبـد اللّه محمـد بن عبـد اللّه [بن عبـد اللّه] بن مالك النحوىّ الجيّانىّ الشافعىّ الطائىّ العالم المشهور

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۴۴

صاحب التصانيف فى النحو و العربيّة نزيل دمشق مولده سـنة إحدى و ستمائة، و سمع الحديث و تصدّر بحلب لإقراء العربيّة، و صرف همّته إلى النحو حتى بلغ فيه الغاية، و صـنّف التصانيف المفيدة، و كان إماما فى القراءات، و صنّف فيها أيضا قصيدة مرموزة فى مقدار الشاطبيّة، و كان إماما فى اللّغة.

قلت: و شهرته تغنى عن الإطناب فى ذكره. و مات فى ثانى عشر شعبان و قد نيّف على السبعين، رحمه اللّه تعالى.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى مؤيّد الدين أسعد ابن المظفّر التّميمىّ ابن القلانسىّ عن ثلاث و سبعين سنة فى المحرّم، و السـيد تجيب الدين عبد اللطيف بن أبى محمد عبد المنعم [بن علىّ بن نصـر بن منصور بن هبة اللّه أبو الفرج ابن الإمام الواعظ أبى محمد] بن الصّـيقل الحرانىّ فى صـفر، و له خمس و ثمانون سـنة. و المسـند تقىّ الدين إسماعيل بن إبراهيم بن أبى اليسر

[شاكر بن عبد اللّه] التّنوخىّ الكاتب فى صفر، و له ثلاث و ثمانون سنة. و أبو عيسى عبد اللّه بن عبد الواحد ابن محمد [بن عبد الواحد] بن علّاق الأنصارىّ الرزاز فى شهر ربيع الأوّل عن ستّ و ثمانين سنة. و القاضى كمال الدين عمر بن بندار التّفليسىّ بمصر فى شهر ربيع الأوّل و قد جاوز السبعين. و المحدّث نجم الدين علىّ بن عبد الكافى الرّبعىّ الشافعىّ فى شهر ربيع الآخر شابّا. و الشيخ كمال الدين عبد العزيز بن عبد المنعم فى شعبان عن ثلاث و ثمانين سنة. و العلّامة جمال الدين محمد بن عبد اللّه [بن عبد اللّه] بن مالك الطائى الجيّانىّ فى شعبان عن نحو سبعين سنة. و الأمير الكبير أتابك المستعرب، و اسمه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۴۵

فارس الدين أقطاى الصالحىّ، و قد ولى نيابة المظفر قطز؛ توفى فى جمادى الأولى، و الزاهد الكبير الشيخ محمد بن سليمان [بن محمد بن سليمان] الشاطبىّ بالإسكندريّة و خواجا [محمد بن محمد بن الحسن أبو عبد اللّه] نصير [الدين] الطّوسىّ فى ذى الحجة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ستّ أذرع و إحدى و عشرون إصبعا.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و ست أصابع.

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۷۳]

السنة الخامسة عشرة من ولاية الملك الظاهر بيبرس على مصر، و هى سنة ثلاث و سبعين و ستمائة.

فيها كانت أعجوبة فى السابع و العشرين من شعبان و هو أنّه وقع رمل بمدينة الموصل ظهر من القبلة و انتشر يمينا و شمالا حتى ملأ الآفاق و عمّيت الطّرق، فخرج العالم إلى ظاهر البلد، و لم يزالوا يبتهلون إلى اللّه تعالى بالدعاء إلى أن كشف اللّه ذلك عنهم.

و فيها توفّى الأمير شهاب الدين أبو العبّاس أحمد بن موسى بن يغمور بن جلدك.

و قد تقدّم ذكر والده الأمير جمال الدين موسى، كان شهاب الدين هذا، مروفا بالشجاعة و الشهامة و الصّرامة و الحرمة، ولّاه الملك الطاهر المحلّة و أعمالها من الغربيّة من إقليم مصر، فهذّبها و مهّد قواعدها و أباد المفسدين بها بحيث إنّه قطع من الأيدى و الأرجل ما لا يحصى كثرة، و شنق و وسّط فخافه البرىء و السقيم. و مات بالمجلّة فى الرابع و العشرين

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۴۶

من جمادى الأولى، و كان عنده رياسة و حشمة و برّ لمن يقصده؛ و له نظم و عنده فضيلة.

و من شعره يخاطب الأمير علم الدين الدّوادارى:

إن صددتم عن منزلى فلكم فى ه ثناء كنشر روض بهىّ

أو رددتم فأنا المحبّ الذى من آل موسى فى الجانب الغربىّ

و له:

خطب أتى مسرعا فآذى أصبح جسمى به جذاذا

خضّد قلبى و عمّ غيرى يا ليتنى متّ قبل هذا

و له فى مليح نحوىّ:

و مليح تعلّم النحو يحكى مشكلات له بلفظ و جيز

ما تميزت حسنه قطّ إلّا قام أيرى نصبا على التمييز

و فيها هلك بيمند الفرنجىّ متملّك طرابلس بها فى العشر الأوّل من شهر رمضان و دفن فى كنيسة بها، و نملّك بعده ابنه، و كان حسن الشكل مليح الصورة.

و فيها توفّى الشيخ الإمام أبو محمد شمس الدين عبد اللّه ابن شرف الدين محمد بن عطاء الأذرعىّ الأصل الدّمشقىّ الوفاة الحنفىّ،

كـان إمامـا فقيهـا مفتيا عالما مفتّنا، أفتى و درّس بعـدّة مـدارس، و هو أوّل قاض ولى القضاء اسـتقلالا بـدمشق من الحنفيّـة فى العصـر الثانى. و أمّا أوّل الزمان فوليها جماعـة كثيرة من العلماء فى أوائل الدولة العبّاسـيّة. و حسـنت سـيرته فى القضاء إلى الغاية؛ و قصّـته مع الملك الظاهر بيبرس مشهورة لمّا أوقع الظاهر الحوطة على الأملاك و البساتين بدمشق، و قعد

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۴۷

الظاهر فى دار العدل بدمشق و جرى الحديث فى هذا المعنى بحضور القضاة الأربعة و العلماء و غيرهم، فكلّ من القضاة ألان له القول و خشـى سطوة الملك الظاهر إلّا شمس الدين هذا، فإنّه صدع بالحقّ و قال: ما يحلّ لمسلم أن يتعرّض لهذه الأملاك و البساتين! فإنّها بيـد أربابها و يـدهم ثابتة عليها. فغضب الملك الظاهر من هذا القول و قام من دار العدل و قال: إذا كنّا ما نحن مسـلمون إيش قعودنا! فشـرع الأـمراء يتألّفوه و لا زالوا به حتى سـكن غضـبه؛ فلمّا رأى الظاهر صـلابة دينه حظى عنـده و قال: أثبتوا كتبنا عنـد هـذا القاضـى الحنفىّ و عظم فى عينه و هابه.

و كـان من العلمـاء الأعيـان تـامّ الفضـيلة وافر الديانـة كريم الأخلاق حسن العشـرة كثير التواضع عـديم النظير، و انتفع بعلمه جمّ غفير، رحمه اللّه تعالى.

و فيهـا توفّى الشيـخ جمـال الـدين أبو المحـاسن يوسف بن أحمـد بن محمود بن أحمـد ابن محمـد التّكريتىّ الجـدّ، الموصـلىّ الأب، الدمشـقىّ المولـد، المحلىّ الوفـاة المعروف- بـابن الطحّـان الشـهير بالحافـظ اليغمورىّ، كان فاضـلا سـمع الكثير بعـدّة بلاد، و كان له مشاركة فى فنون، و كان أديبا شاعرا. و من شعره:

رجع الودّ على رغم الأعادى و أتى الوصل على وفق مرادى

ما على الأيام ذنب بعد ما كفّر القرب إساءات البعاد

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السـنة، قال: و فيها توفى الحافظ وجيه الدين أبو المظفّر منصور بن سـليم الهمدانى بالإسكندريّة فى شوّال. و قاضى القضاة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۴۸

شمس الدين عبد اللّه بن محمد بن عطاء الحنفىّ فى جمادى الأولى و هو فى عشر الثمانين.

و أبو الفتح عمر بن يعقوب الإربلىّ الصوفىّ فى يوم النحر.

أمر النيل فى هذه السنة المباركة- الماء القديم خمس أذرع و أربع أصابع.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و ثلاث أصابع.

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۷۴]

السنة السادسة عشرة من ولاية الملك الظاهر بيبرس على مصر، و هى سنة أربع و سبعين و ستمائة.

فيها توفّى الأمير عزّ الدين أبو محمد أيبك بن عبد اللّه الإسـكندرانىّ الصالحىّ النجمىّ، كان أستاذه الملك الصالح نجم أيّوب يبق به و يعتمـد عليه و ولّاه الشّوبك، و جعل عنـده جماعة كثيرة من خواصّه: منهم الأمير عزّ الدين أيدمر الحلّى، و الأمير سـنجر الحصـنىّ، و الأـمير أيبك الزرّاد؛ و كان عنـده كفايـة و خبرة تامّـة و صـرامة شديـدة و مهابـة عظيمـة يقيم الحـدود على ما تجب، ثم نقل فى عـدّة وظائف إلى أن مات فى شهر رمضان بقلعة الرّحبة و دفن بظاهرها.

و فيها توفّى الحسن بن علىّ بن الحسن بن ماهك بن طاهر أبو محمـد فخر الـدين الحسـينى نقيب الأشـراف و ابن نقيبهم، مولـده سـنة ثمان و سـتمائة، و مات يوم الأحـد تاسع شـهر ربيع الأوّل ببعلبكّ، و كان عنده فضـيلة و معرفة بأنساب العلويّين و نظم نظما متوسّـطا و كان مبذّرا للأموال.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۴۹

و فیها توفّی الأمیر الکبیر رکن الدین خاص ترک بن عبد اللّه الصالحیّ النجمیّ، و کان شجاعا مقداما مقدّما عند الملوک. مات فی شهر ربیع الأوّل بدمشق.

و فیها توفی الشیخ زین الدین أبو المظفّر عبد الملک بن عبد اللّه بن عبد الرحمن ابن الحسن بن عبد الرحمن بن طاهر الحلبیّ الشافعیّ المعروف بابن العجمیّ، مولده بحلب سنة إحدی و تسعین و خمسمائة، و سمع الحدیث و حدّث و کان شیخا فاضلا.

مات فی ذی القعدة بالقاهرة، و دفن بسفح المقطّم و هو خال قاضی القضاة کمال الدین أحمد بن الأستاذ.

و فیها توفّی الشیخ بهاء الدین أبو عبد اللّه محمد بن عبید اللّه [بن جبریل] کان صدرا کبیرا عالما فاضلا شاعرا. مات بالقاهرة و دفن بالقرافة و هو فی عشر الستین، و من شعره، رحمه اللّه تعالی:

و لقد شکوت لمتلفی حالی و لطّفت العباره

فکأنّنی أشکو إلی حجر و إنّ من الحجارة

و له:

یا راحلا قد کدت أقضی بعده أسفا و أحشائی علیه تقطّع

شطّ المزار فما القلوب سواکن لکنّ دمع العین بعدک ینبع

و فیها توفّی الشیخ الإمام تاج الدین أبو الثناء محمود بن عابد بن الحسین بن محمد [بن] الحسین بن جعفر بن عمارة بن عیسی بن علیّ بن عمارة التمیمی الصّرخدیّ

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۵۰

الحنفیّ، مولده سنة ثمان و سبعین و خمسمائة بصرخد. و مات لیلة الجمعة السادس و العشرین من شهر ربیع الآخر بدمشق، و دفن بمقابر الصوفیّة عند قبر شیخه جمال الدین الحصیریّ، کان من الصلحاء العلماء العاملین، کان کثیر التواضع قنوعا من الدنیا معرضا عنها، و کانت له وجاهة عظیمة عند الملوک و انتفع به جم غفیر من الطلبة، و کانت له الید الطّولی فی النظم و النثر. و من شعره قوله:

ما نلت من حبّ من کلفت به إلّا غراما علیه أو ولها

و محنتی فی هواه دائرة آخرها ما یزال أوّلها

قلت: و أرشق من هذا من قال:

محبّتی ما تنقضی لجفوة تبطلها

کأنّها دائرة آخرها أوّلها

الذین ذکر الذهبیّ وفاتهم فی هذه السنة، قال: و فیها توفّی المحدّث مکین الدین أبو الحسن بن عبد العظیم الحصنیّ المصریّ فی رجب، و له أربع و سبعون سنة.

و سعد الدین أبو الفضل محمد بن مهلهل بن بدران الأنصاریّ الجبتی المصری سمع الأرتاحیّ. و توفی تاج الدین محمود بن عابد التمیمیّ الصّرخدی الحنفی الشاعر المشهور

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۵۱

فی شهر ربیع الآخر عن نیّف و تسعین سنة. و سعد الدین الخضر بن شیخ الشیوخ تاج الدین عبد اللّه [بن شیخ الشیوخ أبی الفتح عمر] بن حمّویه الجوینی فی ذی الحجّة عن ثلاث و ثمانین سنة. و أبو الفتح عثمان بن هبة اللّه بن عبد الرحمن [بن مکّی ابن إسماعیل] بن عوف الزهری آخر أصحاب ابن موقا فی شهر ربیع الآخر بالإسکندریة.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم القاعدة لم تحرّر لاختلاف المؤرّخین.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و خمس عشرة إصبعا.

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۷۵]

السنة السابعة عشرة من ولاية الملك الظاهر بيبرس على مصر، و هى سنة خمس و سبعين و ستمائة.

فيها توفّى إبراهيم بن سعد [اللّه] بن جماعة بن علىّ بن جماعة بن حازم بن صخر أبو إسحاق الحموىّ الكنانىّ المعروف بابن جماعة، سمع الفخر بن عساكر و غيره و حدّث. و مولده يوم الاثنين منتصف رجب سنة ستّ و تسعين و خمسمائة بحماة، و هو والد القاضى بدر الدين بن جماعة. مات يوم عيد النّحر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۵۲

و فيها توفّى الأمير ناصر الدين محمد بن أيبك [بن عبد اللّه بن] الإسكندرىّ، و كان ممّن جمع بين حسن الصورة و حسن السّيرة و وفور العقل و الرياسة و مكارم الأخلاق. مات غريقا، مرّ بفرسه على جسر حجر فزلق الفرس و وقع به فى النهر و خرج الفرس سباحة و مات هو. فكأنّ الجلال بن الصفّار الماردينىّ عناه بقوله:

يأيّها الرّشأ المكحول ناظره بالسّحر حسبك قد أحرقت أحشائى

إنّ انغماسك فى التّيار حقّق أنّ الشمس تغرب فى عين من الماء

أو بقوله أيضا. و قيل إنهما لأبى إسحاق الشّيرازىّ، و اللّه أعلم:

غريق كانّ الموت رقّ لحسنه فلان له فى صفحة الماء جانبه

أبى اللّه أن يسلوه قلبى فإنّه توفّاه فى الماء الذى أنا شاربه

و فيها توفّى الشيخ المعتقد الصالح أبو الفتيان أحمد بن علىّ بن إبراهيم [بن محمد] ابن أبى بكر المقدسىّ الأصل البدوىّ المعروف بأبى اللّثامين السطوحىّ. مولده

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۵۳

سنة ستّ و تسعين و خمسمائة، و توفّى فى سنة خمس و سبعين فى شهر ربيع الأوّل، و دفن بطندتا و قبره يقصد للزيارة هناك، و كان من الأولياء المشهورين، و سمّى بأبى اللّثامين لملازمته اللّثامين صيفا و شتاء، و كان له كرامات و مناقب جمة، رحمه اللّه تعالى و نفعنا ببركاته.

و فيها توفّى العلّامة بدر الدين أبو عبد اللّه محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن حفّاظ السّلمىّ الحنفىّ المعروف بابن الفويرة. مات بدمشق فى يوم السبت حادى عشرين جمادى الأولى و قال الحافظ عبد القادر فى طبقاته:

رأيت بخط الحافظ الدّمياطىّ فى مشيخته أنّه توفّى ليلة الجمعة فجأة منتصف شهر ربيع الآخر سنة أربع و سبعين و ستمائة. و كان إماما عالما متبحّرا فى العلوم، درّس

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۵۴

بالشّبليّة [بجبل] الصالحيّة و أفتى سنين و برع فى الفقه و العربيّة و سمع الكثير، و كان يكتب خطّا حسنا، و له معرفة أيضا بالأصول و الأدب و له نظم رائق، و كان رئيسا و عنده ديانة و مروءة و مكارم أخلاق. و من شعره [فى مليح شاعر]:

و شاعر يسحرنى طرفه و رقّة الألفاظ من شعره

أنشدنى نظما بديعا فما أحسن ذاك النظم من ثغره

و له فى معذّر:

عاينت حبّة خاله فى روضة من جلّنار

فغدا فؤادى طائرا فاصطاده شرک العذار

و له:

کانت دموعى حمرا یوم بینهم فمذ نأوا قصّرتها لوعة الحرق

قطفت باللّحظ وردا من خدودهم فاستقطر البعد ماء الورد من حدقى

و قیل إنّه رئى فى المنام بعد موته فسئل عمّا لقى بعد موته فکان جوابه.

ما کان لى من شافع عنده إلّا اعتقادى أنّه واحد

و فیها توفّى الشیخ شمس الدین أبو عبد اللّه محمد بن عبد الوهاب بن منصور الحرّانىّ الحنبلىّ، کان فقیها إماما عالما عارفا بعلم الأصول و الخلاف و الفقه و درّس

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۵۵

و أفتى و اشتغل [على الشیخ علم الدین القاسم فى الأصول و العربیّة] و مات فى جمادى الأولى. و من شعره قوله:

طار قلبى یوم ساروا فرقا و سواء فاض دمعى أورقا

حار فى سقمى من بعدهم کلّ من فى الحىّ داوى أورقى

بعدهم لاطلّ وادى المنحنى و کذا بان الحمى لا أورقا

و فیها توفى الأدیب الشاعر شهاب الدین أبو المکارم محمد بن یوسف بن مسعود ابن برکة الشیبانى التّلعفرىّ الشاعر المشهور، مولده سنة ثلاث و تسعین و خمسمائة بالموصل، و مات بحماة فى شوّال. کان أدیبا فاضلا حافظا للأشعار و أیّام العرب و أخبارها، و کان یتشیّع، و کان من شعراء الملک الأشرف موسى شاه أرمن، و کان التّلعفرىّ هذا مع تقدّمه فى الأدب و براعته ابتلى بالقمار، و وقع له بسبب القمار أمور منها: أنه نودى بحلب من قبل السلطان: من قامر مع الشّهاب التلعفرىّ قطعنا یده، فضاقت علیه الأرض، فجاء إلى دمشق و لم یزل یستجدى و یقامر حتى بقى فى اتون من الفقر.

قلت: و دیوان شعره لطیف فى غایة الحسن و هو موجود بأیدى الناس. و من شعره قصیدته المشهورة:

أىّ دمع من الجفون أساله إذ أتته مع النسیم رساله

حمّلته الریاح أسرار عرف أودعتها السحائب الهطّاله

یا خلیلى و للخلیل حقوق واجبات الأداء فى کلّ حاله

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۵۶

سل عقیق الحمى و قل إذ تراه خالیا من ظبائه المختاله

أین تلک المراشف العسلیّ ات و تلک المعاطف العسّاله

و لیال قضیتها کلأل بغزال تغار منه الغزاله

بابلىّ الألحاظ و الریق و الأل فاظ کلّ مدامة سلساله

من بنى التّرک کلّما جذب القو س رأینا فى برجه بدر هاله

أوقع الوهم حین یرمى فلم ند ر یداه أم عینه النّباله

قلت لمّا لوى دیون وصالى و هو مثر و قادر لا محاله

بیننا الشرع قال سربى فعندى من صفاتى لکلّ دعوى دلاله

و شهودى من خال حدّى و [من] قد ى شهود معروفة بالعداله

أنا وکلت مقلتى فى دم الخل ق فقالت قبلت هذى الوکاله

و له موشّحة مدح بها شهاب الدين الأعزازىّ، ثم وقع بينهما و تهاجيا.

و أوّل الموشّحة:

ليس يروى ما بقلبى من ظما غير برق لائح من إضم

إن تبدّى لک بان الأجرع و أثيلات النّقا من لعلع

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۵۷

يا خليلى قف على الدّار معى و تأمّل کم بها من مصرع

و احترز و احذر فأحداق الدّمى کم أراقت فى رباها من دم

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة؛ ج۷؛ ص۲۵۷

حظّ قلبى فى الغرام الوله فعذولى فيک ما لى و له

حسبى الليل فما أطوله لم يزل آخره أوّله

فى هوى أهيف معسول اللّمى ريقه کم قد شفى من ألم

و له فى القمار:

ينشرح الصدر لمن لاعبنى و الأرض بى ضيّقة فروجها

کم شوّشت شيوشها عقلى و کم عهدا سقتنى عامدا بنوجها

و من شعره و أجاد، عفا اللّه عنه:

أحبّ الصالحين و لست منهم رجاء أن أنال بهم شفاعه

و أبغض من به أثر المعاصى و إن کنّا سواء فى البضاعه

الذين ذکر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى القاضى شمس الدين علىّ بن محمود الشهرزورىّ مدرّس القيمريّة فى شوّال. و الشيخ قطب الدين أحمد بن عبد السلام [بن المطهّر بن عبد اللّه بن محمد بن هبة اللّه بن علىّ] بن أبى عصرون بحلب

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۵۸

فى جمادى الآخرة. و الإمام شمس الدين محمد بن عبد الوهّاب بن منصور الحرّانىّ الحنبلىّ فى جمادى الأولى. و الشهاب محمد بن يوسف بن مسعود التّلّعفرىّ الشاعر بحماة فى شوّال، و له ثلاث و ثمانون سنة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ستّ أذرع و ثلاث عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا و إحدى عشرة إصبعا.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۵۹

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۷۶]

ذکر ولاية السلطان الملک السعيد محمد ابن الملک الظاهر بيبرس على مصر

هو السلطان الملک السعيد ناصر الدين أبو المعالى محمد المدعو برکة خان ابن السلطان الملک الظاهر بيبرس البندقدارىّ الصالحىّ النّجمىّ، الخامس من ملوک التّرک بمصر. سمّى برکة خان على اسم جدّه لأمّه برکة خان بن دولة خان الخوارزمىّ.

تسلطن الملک السعيد هذا فى حياة والده حسب ما ذکرناه فى ترجمة والده فى يوم الخميس ثالث عشر شوّال سنة اثنتين و ستّين و ستمائة. و أقام على ذلک سنين، و ليس له من السلطنة إلّا مجرّد الاسم، إلى أن توفّى أبوه الملک الظاهر بيبرس فى يوم الخميس بعد

صلاة الظهر التاسع و العشرين من المحرّم من سنة ستّ و سبعين و ستمائة بدمشق. اتفق رأى الأمراء [على] إخفاء موت الظاهر، و كتب الأمير بيليك الخازندار عرّف الملك السعيد هذا بذلك على يد الأمير بدر الدين بكتوت

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۶۰

الجوكندار الحمويّ، و على يد الأمير علاء الدين أيدغمش الحكيميّ الجاشنكير.

فلمّا بلغ الملك السعيد موت والده الملك الظاهر أخفاه أيضا، و خلع عليهما و أعطى كلّ واحد منهما خمسين ألف درهم، على أنّ ذلك بشارة بعود السلطان إلى الديار المصريّة. و سافرت العساكر من دمشق إلى جهة الديار المصريّة فدخلوها يوم الخميس سادس عشرين صفر من سنة ستّ و سبعين و ستمائة، و مقدّمهم الأمير بدر الدين بيليك الخازندار؛ و دخلوا مصر و هم يخفون موت الملك الظاهر فى الصورة الظاهرة، و فى صدر الموكب مكان تسيير السلطان تحت العصائب، محفّة وراءها السّلحدارية و الجمداريّة و غيرهم من أرباب الوظائف توهم أنّ السلطان فى المحفّة مريض، هذا مع عمل جدّ فى إظهار ناموس السلطنة و الحرمة للمحفّة و التأدّب مع من فيها حتى تمّ لهم ذلك.

قلت: للّه درّهم من أمراء و حاشية! و لو كان ذلك فى عصرنا هذا ما قدر الأمراء على إخفاء ذلك من الظهر إلى العصر.

و لمّا وصلوا إلى قلعة الجبل، ترجّل الأمراء و العساكر بين يدى المحفّة، كما كانت العادة فى الطريق فى كل منزلة من حين خروجهم من دمشق إلى أن وصلوا إلى قلعة الجبل من باب السرّ، و عند دخولها إلى القلعة اجتمع الأمير بدر الدين بيليك الخازندار بالملك السعيد هذا، و كان الملك السعيد لم يركب لتلقّيهم، و قبّل الأرض و رمى بعمامته ثم صرخ، و قام العزاء فى جميع القلعة، و لوقتهم جمعوا الأمراء

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۶۱

و المقدّمين و الجند و حلّفوهم بالإيوان المجاور لجامع القلعة للملك السعيد، و استثبت له الأمر على هذه الصورة، و خطب له يوم الجمعة [سابع عشرين صفر] بجوامع القاهرة و مصر، و صلّى على والده صلاة الغائب.

و مولد الملك السعيد هذا فى صفر سنة ثمان و خمسين و ستمائة؛ و قيل: سنة سبع و خمسين بالعشّ من ضواحى مصر، و نشأ بديار مصر تحت كنف والده إلى أن سلطنه فى حياته؛ كما تقدّم ذكره.

و أمّا الأمير بدر الدين بيليك الخازندار فإنّه لم تطل مدّته، و مات فى ليلة الأحد سابع شهر ربيع الأوّل. و خلع الملك السعيد على الأمير شمس الدين آق سنقر الفارقانيّ بنيابة السلطنة عوضا عن بيليك الخازندار المذكور.

و فى سادس عشر شهر ربيع الأوّل [يوم الأربعاء] ركب السلطان الملك السعيد من القلعة تحت العصائب على عادة والده و سار إلى تحت الجبل الأحمر، و هذا أوّل ركوبه بعد قدوم العسكر، ثم عاد و شقّ القاهرة و سرّ الناس به سرورا زائدا، و كان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۶۲

عمره يومئذ تسع عشرة سنة، و طلع القلعة و أقام إلى يوم الجمعة خامس عشرين شهر ربيع الأوّل المذكور قبض على الأمير سنقر الأشقر و على الأمير بدر الدين بيسرى و حبسهما بقلعة الجبل. ثم فى يوم السبت ثامن عشر شهر ربيع الآخر قبض الملك السعيد على الأمير آق سنقر الفارقانيّ نائب السلطنة بديار مصر المقدّم ذكره.

ثم فى تاسع عشر الشهر المذكور أفرج الملك السعيد عن الأمير سنقر الأشقر و بيسرى و خلع عليهما و أعادهما إلى مكانتهما.

و فى يوم الاثنين رابع جمادى الأولى فتحت المدرسة التى أنشأها الأمير آق سنقر الفارقانيّ المجاورة للوزيريّة بالقاهرة و جعل شيخها على مذهب أبى حنيفة رضى اللّه عنه.

و فى يوم الجمعة [رابع عشر جمادى الآخرة] قبض الملك السعيد على خاله الأمير بدر الدين محمد ابن الأمير حسام الدين بركة خان الخوارزميّ و حبسه بقلعة الجبل لأمر

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۶۳

نقمه علیه، ثم أفرج عنه فی لیلة خامس عشرینه، و خلع علیه و أعاده إلی منزلته.

و کان الملک السعید هذا أمر ببناء مدرسة لدفن أبیه فیها، حسب ما أوصی به والده، فنقل تابوت الملک الظاهر بیبرس فی لیلة الجمعة خامس شهر رجب من قلعة دمشق إلی التربة المذکورة بدمشق داخل باب الفرج قبالة المدرسة العادلیّة، و التربة المذکورة کانت دار الشریف العقیقی فاشتریت و هدمت، و بنی موضع بابها قبّة الدفن و فتح لها شبابیک علی الطریق و جعل بقیّة الدار مدرسة علی فریقین:

حنفیّة و شافعیّة. و کان دفنه بها فی نصف اللیل و لم یحضره سوی الأمیر عزّ الدین أیدمر الظاهریّ نائب الشام، و من الخواصّ دون العشرة لا غیر.

ثم وقع الاهتمام إلی السّفر للبلاد الشامیة و تجهّز السلطان و العساکر. فلمّا کان یوم السبت سابع ذی القعدة برز الملک السعید بالعساکر من قلعة الجبل إلی مسجد

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۶۴

التّبن خارج القاهرة فأقام به إلی یوم السبت حادی عشرینه، انتقل بخواصّه إلی المیدان الذی أنشأه بین مصر و القاهرة، و دخلت العساکر إلی منازلهم، و بطلت حرکة السفر بعد أن أعاد قاضی القضاة شمس الدین أحمد بن خلّکان إلی قضاء دمشق و أعمالها من العریش الی سلمیة، و توجّه ابن خلکان إلی الشام، و طلع الملک السعید إلی قلعة الجبل و أبطل حرکة السفر بالکلیّة إلی وقت یریده حسب ما وقع الاتفاق علیه، و استمرّ بالقلعة إلی أن أمر العساکر بالتّأهب إلی السفر و تجهّز هو أیضا لأمر اقتضی ذلک.

و خرج من الدیار المصریّة فی العشر الأوسط من ذی القعدة من سنة سبع و سبعین و ستمائة و خرج من القاهرة بعساکره و أمرائه، و سار حتی وصل إلی الشام فی خامس ذی الحجّة، فخرج أهل دمشق إلی ملتقاه و زیّنوا له البلد و سرّوا بقدومه سرورا زائدا. و عمل عید النّحر بقلعة دمشق و صلّی العید بالمیدان الأخضر.

و ورد علیه الخبر بموت الصاحب بهاء الدین علی بن محمد بن سلیم بن حنّا بالقاهرة، فقبض السلطان علی حفیده الصاحب تاج الدین محمد، و ضرب الحوطة علی موجوده بسبب موت جدّه الصاحب بهاء الدین المذکور.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۶۵

ثم أرسل السلطان الملک السعید إلی برهان الدین الخضر بن الحسن السّنجاریّ باستقراره وزیرا بالدیار المصریة ثم خلع السلطان علی الصاحب فتح الدین عبد اللّه [ابن محمد بن أحمد بن خالد بن نصر] بن القیسرانیّ بوزارة دمشق، و بسط یده فی بلاد الشام و أمر القضاة و غیرهم بالرکوب معه.

ثم جهّز السلطان العساکر إلی بلاد سیس للنّهب و الإغارة، و مقدّمهم الأمیر سیف الدین قلاوون الألفیّ. و أقام الملک السعید بدمشق فی نفر یسیر من الأمراء و الخواصّ، فصار فی غیبة العسکر یکثر التردّد الی الربعیة من قری المرج یقیم فیها أیّاما ثمّ یعود. ثم أسقط السلطان ما کان قرّره والده الملک الظاهر علی بساتین دمشق فی کلّ سنة، فسرّ الناس بذلک و تضاعفت أدعیتهم له و استمرّ السلطان بدمشق إلی أن وقع الخلف فی العشر الأوسط من شهر ربیع الأوّل من سنة ثمان و سبعین بین الممالیک الخاصّکیّة الملازمین لخدمته و بین الأمراء لأمور یطول شرحها.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۶۶

و عجز الملک السعید عن تلافی ذلک، و خرج عن طاعته الأمیر سیف الدین کوندک الظاهریّ نائب السلطنة و مقدّم العساکر مغاضبا للسلطان الملک السعید، و خرج معه نحو أربعمائة مملوک من الظاهریّة: منهم جماعة کثیرة مشهورة بالشجاعة و نزلوا بمنزلة القطیّفة فی انتظار العساکر التی ببلاد سیس ففی العشر الأخیر من شهر ربیع الأوّل عادت العساکر من بلاد سیس إلی جهة دمشق فنزلوا بمرج

عذراء إلى القصير؛ و كان قد اتّصل بهم سيف الدين كوندك و من معه و استمالوهم فلم يدخل العسكر دمشق، و أرسلوا إلى الملك السعيد فى معنى الخلف الذى حصل بين الطائفتين، و كان كوندك مائلا إلى الأمير بيسرى. و لمّا اجتمع بالأمير سيف الدين قلاوون الألفى و الأمير بدر الدين بيسرى و الأمراء الكبار أوحى إليهم عن السلطان ما غلّت صدورهم، و خوّفهم من الخاصّكيّة و عرّفهم أنّ نيّتهم لهم غير جميلة، و أنّ الملك السعيد موافق على ذلك و أكثر من القول المختلق؛ فوقع الكلام بين الأمراء الكبار و بين السلطان الملك السعيد، و تردّدت الرّسل بينهم، فكان من جملة ما اقترح الأمراء على الملك السعيد إبعاد الخاصّكيّة عنه، و ألّا يكون لهم فى الدولة تدبير و لا حديث، بل يكونوا على أخبازهم و وظائفهم مقيمين؛ فلم يجب الملك السعيد إلى ذلك؛ فرحل العسكر من مرج عذراء إلى ذيل عقبة الشّحورة بأسرهم و لم يعبروا المدينة بل جعلوا طريقهم من المرج، و أقاموا بهذه المنزلة ثلاثة أيام، و الرّسل تتردّد بينهم و بين

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۶۷

الملك السعيد؛ ثم رحلوا و نزلوا بمرج الصّفّر و عند رحيلهم رجع الأمير عزّ الدين أيدمر الظاهرى نائب الشام و أكثر عسكر دمشق، و قدموا مدينة دمشق و دخلوا فى طاعة السلطان. و فى يوم رحيلهم من مرج الصّفّر سيّر الملك السعيد والدته بنت بركة خان فى محفّة و فى خدمتها الأمير شمس الدين قرا سنقر، و كان من الذين لم يتوجّهوا إلى بلاد سيس و لحقوا العسكر؛ فلمّا سمعوا بوصولها خرج الأمراء الأكابر المقدّمون لملتقاها، و ترجّلوا بأجمعهم و قبّلوا الأرض أمام المحفّة، و بسطوا الحرير العتّابى و غيره تحت حوافر بغال المحفّة و مشوا أمام المحفّة حتى نزلت فى المنزلة، فلمّا استقرّت بها تحدّثت معهم فى الصلح و الانقياد و اجتماع الكلمة، فذكروا ما بلغهم من تغيّر السلطان عليهم، و موافقته الخاصّكيّة على ما يرومونه من إمساكهم و إبعادهم؛ فحلفت لهم على بطلان ما نقل إليهم، فاشترطوا شروطا كثيرة التزمت لهم بها، و عادت إلى ولدها و عرّفته الصورة؛ فمنعه من حوله من الخاصّكيّة من الدخول تحت تلك الشروط، و قالوا: ما القصد إلّا إبعادنا عنك حتّى يتمكنوا منك و ينزعوك من الملك، فمال إلى كلامهم و أبى قبول تلك الشروط.

فلمّا بلغ العسكر ذلك رحل من مرج الصّفّر قاصدا الديار المصريّة؛ فخرج السلطان الملك السعيد بنفسه فيمن معه من الخاصّكيّة جريدة، و ساق فى طلبهم ليتلافى الأمر إلى أن بلغ رأس الماء، فوجدهم قد عدوه و أبعدوا، فعاد من يومه و دخل قلعة دمشق فى الليل و هى ليلة الخميس سلخ شهر ربيع الأوّل سنة ثمان و سبعين و ستمائة. و أصبح فى يوم الجمعة مستهلّ شهر ربيع الآخر خرج السلطان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۶۸

الملك السعيد بجميع من تخلّف معه من العساكر المصريّة و الشاميّة إلى جهة الديار المصريّة بعد أن صلّى الجمعة بها، و سار بمن معه فى طلب العساكر المقدّم ذكرهم، و جهّز والدته و خزائنه إلى الكرك؛ و سار حتّى وصل إلى بلبيس يوم الجمعة خامس عشر شهر ربيع الآخر المذكور، فوجد العسكر قد سبقه إلى القاهرة؛ فأمر بالرحيل من بلبيس؛ فلمّا أخذت العساكر فى الرحيل من بلبيس بعد العصر فارق الأمير عزّ الدين أيدمر الظاهرىّ نائب الشام و صحبته أكثر أمراء دمشق السلطان الملك السعيد، و انضاف إلى المصريّين، و بلغ الملك السعيد ذلك فلم يكترث؛ و ركب بمن بقى معه من خواصّه و عساكره و سار بهم حتّى وصل ظاهر القاهرة؛ و كان نائبه بالديار المصريّة الأمير عز الدين أيبك الأفرم، و هو بقلعة الجبل و العساكر محدقة بها، فتقدّم الملك السعيد بمن معه لقتال العساكر، و كان الذى بقى مع السلطان الملك السعيد جماعة قليلة بالنسبة إلى من يقاتلونه، و وقع المصافّ بينهم و تقاتلوا فحمل الأمير علم الدين سنجر الحلبىّ من جهة الملك السعيد و شقّ الأطلاب و دخل إلى قلعة الجبل بعد أن قتل من الفريقين نفر يسير، و ملك القلعة و شال علم السلطان، ثم نزل و فتح للملك السعيد طريقا و طلع به إلى القلعة.

و أمّا سنقر الأشقر فإنّه بقى فى المطريّة وحده و صار لا إلى هؤلاء و لا إلى هؤلاء.

و لمّا طلع السلطان إليها أحاطت العساكر بها و حاصروها و قاتلوا من بها قتالا شديدا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۶۹

و ضايقوها و قطعوا الماء الذى يطلع إليها و زحفوا عليها فجدّوا فى القتال، و رأى الملك السعيد تخلّى من كان معه و تخاذل من بقى معه من الخاصّيكيّة، و علم أنّه لا طاقة له بهم، و كان المشار إليه فى العسكر المخامر الأمير سيف الدين قلاوون الألفىّ، و هو حمو الملك السعيد فإنّ الملك السعيد كان تزوّج ابنته قبل ذلک بمدّة، فجرت المراسلات بينهم و كثر الكلام و تردّدت الرّسل غير مرّة، حتّى استقرّ الحال على أن الملك السعيد يخلع من السلطنة و ينصّبون فى السلطنة أخاه بدر الدين سلامش ابن الملك الظاهر بيبرس، و يقطعون الملك السعيد هذا و أخاه نجم الدين خضرا الكرك و الشّوبک و أعمالهما؛ فسيّر الملك السعيد الأمير علم الدين سنجر الحلبىّ و القاضى تاج الدين محمد بن الأثير إلى الأمير سيف الدين قلاوون و أعيان الأمراء ليستوثق لنفسه منهم، فحلفوا له على الوفاء بما التزموه من إعطاء الكرك و الشّوبک له و لأخيه.

و خرج من قلعة الجبل يوم الأحد سابع عشر شهر ربيع الآخر المذكور و نزل إلى دار

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۷۰

العدل التى على باب القلعة، و كانت مركز الأمير قلاوون فى حال المصافّ و القتال، و كان الحصار ثلاثة أيام بيوم القدوم لا غير.

و لمّا حضر الملك السعيد إلى عند قلاوون أحضر أعيان القضاة و الأمراء و المفتين و خلعوا الملك السعيد هذا من السلطنة و سلطنوا مكانه أخاه بدر الدين سلامش و لقّبوه بالملک العادل سلامش، و عمره يومئذ سبع سنين و جعلوا أتابكه الأمير سيف الدين قلاوون الألفى الصالحىّ النّجمىّ. و استمرّت بنت قلاوون عند زوجها الملك السعيد المذكور إلى ما سيأتى ذكره.

ثم أخذ قلاوون فى تحليف الأمراء للملک العادل فحلفوا له بأجمعهم على العادة، و ضربت السّكّة فى أحد الوجهين: اسم الملك العادل و الآخر اسم قلاوون، و خطب لهما أيضا معا على المنابر، و استمرّ الأمر على ذلک؛ و تصرّف قلاوون فى المملكة و الخزائن، و عامله الأمراء و الجيوش بما يعاملون به السلطان. ثم عمل قلاوون بخلع الملك السعيد محضرا شرعيّا و وضع الأمراء خطوطهم عليه و شهادتهم فيه، و كتب فيه المفتون و القضاة و أعطوا الملك السعيد الكرك و عملها، و أخاه نجم الدين خضرا الشّوبک و عملها. و خرج الملك السعيد من قلعة الجبل إلى بركة الحجّاج متوجّها إلى الكرك فى يوم الاثنين ثامن عشر شهر ربيع الآخر المذكور من سنة ثمان و سبعين (أعنى ثانى يوم من خلعه) و معه جماعة من العسكر صورة ترسيم، و مقدّمهم الأمير

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۷۱

سيف الدين بيدغان الرّكنى، ثم بدا لهم أن يرجعوا به إلى القلعة فعادوا إليها فى نهار الاثنين لأمر أرادوه و قرّروه معه ثم أمروه بالتوجه؛ فخرج و سافر ليلة الثلاثاء إلى الكرك بمن معه فوصلها يوم الاثنين خامس عشرين شهر ربيع الآخر المذكور، و تسلّم أخوه نجم الدين خضر الشّوبک، و كان الأمير بيدغان و من معه قد فارقوا الملك السعيد من غزّة و رجعوا إلى الديار المصريّة؛ و أقام الملك السعيد بالكرك و زال ملكه؛ فكانت مدّة حكمه و سلطنته بعد موت أبيه الملك الظاهر بيبرس إلى يوم خلعه سنتين و شهرين و خمسة عشر يوما، و استمرّ بالكرك مع مماليكه و عياله، و قصده الناس و الأجناد، فصار ينعم على من يقصده، و استكثر من استخدام المماليک.

ثم رسم الأمير سيف الدين قلاوون بانتقال الملك خضر من الشّوبک إلى عند أخيه الملك السعيد بالكرك، و تسلّم نوّاب قلاوون الشّوبک؛ و دام الملک السعيد على ذلک حتى خلع سلامش من السلطنة و تسلطن قلاوون حسب ما يأتى ذكر ذلک كلّه فى ترجمتهما.

فلمّا تسلطن قلاوون بلغه عن الملك السعيد أنّه استكثر من استخدام المماليک و أنّه ينعم على من يقصده فاستوحش منه، و تأثّر من ذلک. فمرض الملك السعيد بعد ذلک بمدّة يسيرة و توفّى، رحمه اللّه تعالى، فى يوم الجمعة حادى عشر ذى القعدة سنة ثمان و سبعين و ستمائة بالكرك، و دفن من يومه بأرض مؤتة عند جعفر بن أبى طالب، رضى اللّه عنه، ثم نقل بعد ذلک إلى دمشق فى سنة ثمانين و ستمائة فدفن إلى جنب والده الملك الظاهر بيبرس بالتّربة التى أنشأها قبالة المدرسة العادليّة السّيفيّة، و ألحده

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۷۲

قاضى القضاة عزّ الدين محمد بن الصائغ. و كانت مدة إقامته بالكرك بعد أن خلع من السلطنة ستة أشهر و خمسة و عشرين يوما. و وجد الناس عليه كثيرا و عمل عزاوه بسائر البلاد، و خرجت الخوندات حاسرات بجواريهنّ يلطمن بالملاهى و الدّفوف أياما عديدة، و يسمعن الملك المنصور قلاوون الكلام الخشن و أنواع السبّ و هو لا يتكلّم، فإنّه نسب اليه أنه اغتاله بالسمّ لمّا سمع كثرة استخدامه للمماليک و غيرهم.

قلت: و لا يبعد ذلک عن الملک المنصور قلاوون لكثرة تخوّفه من عظم شوكته و كثرة مماليک والده و حواشيه. و أبغض الناس الملک المنصور قلاوون سنينا كثيرة إلى أن أرضاهم بكثرة الجهاد و الفتوحات؛ و أبغض الملک المنصور قلاوون حتى ابنته زوجة الملک السعيد المذكور، فإنّها وجدت على زوجها الملک السعيد وجدا عظيما و تألّمت لفقده؛ و لم تزل باكية عليه حزينة لم تتزوّج بعده إلى أن توفّيت بعد زوجها الملک السعيد بمدّة طويلة فى مستهلّ شهر رجب سنة سبع و ثمانين و ستمائة.

و كانت شقيقة الملک الأشرف خليل بن قلاوون، و دفنت فى تربة معروفة بوالدها بين مصر و القاهرة.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۷۳

و صلّى على الملک السعيد بدمشق صلاة الغائب يوم الجمعة رابع و عشرين ذى الحجّة. ثم أنعم الملک المنصور بالكرک بعد موته على أخيه خضر و لقّب بالملک المسعود خضر.

و كان الملک السعيد، رحمه اللّه، سلطانا جليلا كريما سخيّ الكفّ، كثير العدل فى الرعيّة، محسنا للخاصّ و العامّ، لا يردّ سائلا و لا يخيّب آملا، و كان متواضعا بشوشا، حسن الأخلاق ليس فى طبعه عسف و لا ظلم، كثير الشفقة و الرحمة على الناس، ليّن الكلمة محبّا لفعل الخير، قليل الحجاب على الناس يتصدّى للأحكام بنفسه، و كان لا يميل لسفک الدماء مع قدرته على ذلک، و كان يوم دخوله إلى قلعة الجبل ولد له مولود ذكر من بعض حظاياه فى شهر ربيع الآخر من هذه السنة.

و كان يحبّ التجمّل و يكثر من الإنعام على الناس و يخلع حتّى فى الأعزية. و لمّا مات خاله الأمير بدر الدين محمد بن بركة خان بن دولة خان، و كان من أعيان الأمراء بالديار المصريّة فى الدولة الظاهريّة، و كان حصل له عند إفضاء الملک لابن أخته الملک السعيد تقدّم كبير و مكانة عالية، و توجّه معه إلى دمشق فمرض بها إلى أن توفّى ليلة الخميس تاسع شهر ربيع الأوّل، و دفن بسفح قاسيون بالتّربة المجاورة لرباط الملک الناصر صلاح الدين يوسف؛ و مقدار عمره خمسون سنة، عمل له

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۷۴

عدّة أعزية و قرئ بالتّربة عدّة ختمات، حضر إحداها ابن أخته الملک السعيد، و مدّ خوان فيه من عظيم فاخر الأطعمة و الحلاوات، فأكل من حضر، و خلع الملک السعيد على والدته و مماليكه و خواصّه و هو فى العزاء فلبسوا الخلع و قبّلوا الأرض، و كانت الخلع خارجة عن الحدّ. فهذا أيضا ممّا يدلّ على كرمه و وسع نفسه و كثرة إنعامه حتّى فى الأعزية، رحمه اللّه تعالى. انتهت ترجمة الملک السعيد.

و يأتى ذكر حوادث سنين سلطنته على عادة هذا الكتاب، إن شاء اللّه تعالى.

السنة الأولى من ولاية الملک السعيد محمد بركة خان على مصر، و هى سنة ستّ و سبعين و ستمائة.

فيها توفى الشيخ كمال الدين أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل [بن إبراهيم ابن فارس] الإسكندرى المقرئ، كان عارفا بالقراءات، و انتفع به خلق كثير، و تولّى نظر حبس دمشق، و نظر بيت المال بها مضافا إلى نظر الحبس، و باشر عدّة وظائف دينيّة. و مات فى صفر. و كان رئيسا فاضلا.

و فيها توفّى الأمير جمال الدين آقوش بن عبد اللّه المحمّديّ الصالحيّ النّجميّ، كان من أعيان الأمراء و من أكابرهم، و كان الملک الظاهر بيبرس يخافه، فحبسه مدّة طويلة ثم أفرج عنه فمات فى شهر ربيع الأوّل، و دفن بتربته بالقرافة الصغرى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۷۵

و فيها توفّى الأمير عزّ الدين أيبك بن عبد اللّه الموصلىّ الظاهرىّ نائب السلطنة بحمص، و كان ولى حمص مدّة ثم عزله الملك الظاهر عنها و نفاه إلى حصن الأكراد، و كان شجاعا مقداما.

و فيها توفّى الأمير عزّ الدين أيبك بن عبد اللّه الدّمياطىّ الصالحىّ النّجمىّ أحد أكابر الأمراء المقدّمين على الجيوش، كان قديم الهجرة [بينهم] فى علوّ المنزلة و سموّ المكانة، و كان الملك الظاهر أيضا حبسه مدّة طويلة ثم أطلقه و أعاده إلى مكانته.

و مات بالقاهرة فى شعبان و دفن بتربته التى أنشأها بين القاهرة و مصر فى القبّة المجاورة لحوض السبيل المعروف به.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۷۶

و فيها توفّى الأمير عزّ الدين أيدمر بن عبد اللّه العلائىّ نائب قلعة صفد، حضر بعد موت الملك الظاهر إلى القاهرة و مات بها و دفن بالقرافة الصغرى، و كان ديّنا عفيفا أمينا، و هو أخو الأمير علاء الدين أيدكين الصالحىّ.

و فيها توفّى الأمير بدر الدين بيليك بن عبد اللّه الظاهرىّ الخازندار نائب السلطنة بالديار المصريّة بل بالممالك كلّها. قد تقدّم من ذكره نبذة جيّدة فى عدّة مواطن، و هو الذى أخفى موت الملك الظاهر حتى قدم به إلى مصر حسب ما تقدّم ذكره، و كانت وفاته بالقاهرة فى سادس شهر ربيع الأوّل بقلعة الجبل و دفن بتربته التى أنشأها بالقرافة الصغرى، و حزن الناس عليه حزنا شديدا حتى شمل مصابه الخاصّ و العامّ، و عمل عزاؤه بالقاهرة ثلاثة أيام، فى الليل بالشّموع و أنواع الملاهى. و صدّع موته القلوب و أبكى العيون؛ و قيل: إنّه مات مسموما، و كان عمره خمسا و أربعين سنة، و محاسنه كثيرة يطول الشرح فى ذكرها.

و فيها توفّى الشيخ المعتقد خضر بن أبى بكر [محمد] بن موسى أبو العبّاس المهرانىّ العدوىّ، كان أصله من قرية المحمّديّة من أعمال جزيرة ابن عمر، و هو شيخ الملك الظاهر بيبرس، و صاحب الزاوية التى بناها له الملك الظاهر بالحسينيّة على الخليج بالقرب من جامع الظاهر. و قد تقدّم من ذكره فى ترجمة الملك الظاهر ما يغنى عن الإعادة هاهنا. و كان الشيخ خضر بشّر الملك الظاهر قبل سلطنته بالملك، فلمّا تسلطن صار له فيه العقيدة العظيمة حتّى إنّه كان ينزل إليه فى الجمعة المرّة و المرّتين،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۷۷

و كان يطلعه على غوامض أسراره، و يستشيره فى أموره، و يستصحبه فى أسفاره، و فيه يقول الشريف محمد بن رضوان الناسخ.

ما الظاهر السلطان إلا مالك الد نيا بذاك لنا الملاحم تخبر

و لنا دليل واضح كالشمس فى وسط السماء بكلّ عين تنظر

لمّا رأينا الخضر يقدم جيشه أبدا علمنا أنّه الإسكندر

و كان الشيخ يخبر الملك الظاهر بأمور قبل وقوعها فتقع على ما يخبره، ثم تغيّر الملك الظاهر عليه لأمور بلغته عنه و أحضر السلطان من حاققه، و ذكروا عنه من القبائح ما لم يصدر عن مسلم! و اللّه أعلم بصحّة ذلك؛ فآستشار الملك الظاهر الأمراء فى أمره، فمنهم من أشار بقتله، و منهم من أشار بحبسه، فمال الظاهر إلى قتله ففهم خضر؛ فقال للظاهر: اسمع ما أقول لك، إنّ أجلى قريب من أجلك، و بينى و بينك مدّة أيّام يسيرة، فمن مات منّا لحقه صاحبه عن قريب! فوجم الملك الظاهر و كفّ عن قتله، فحبسه فى مكان لا يسمع له فيه حديث، و كان حبسه فى شوّال سنة إحدى و سبعين و ستمائة، و توفّى يوم الخميس أو فى ليلة الجمعة سادس المحرّم سنة ست و سبعين و ستمائة، و دفن بزوايته بالحسينيّة. و كان الملك الظاهر بدمشق، فلمّا بلغه موته اضطرب و خاف على نفسه من الموت لما كان قال له الشيخ خضر: إنّ أجله من أجله قريب، فمرض الظاهر بعد أيام يسيرة و مات، فكان بين الشيخ خضر و بين الملك الظاهر دون الشهر. انتهى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۷۸

و فيها توفّى شيخ الإسلام محيى الدين أبو زكريّا يحيى بن شرف بن مرى بن الحسن ابن الحسين النّووىّ الفقيه الشافعىّ الحافظ الزاهد

صاحب المصنّفات المشهورة.

ولد فی العشر الأوسط من المحرّم سنة إحدی و ثلاثین و ستمائة، و مات لیلة الأربعاء رابع عشرین شهر رجب بقریة نوی.

قلت: و فضله و علمه و زهده أشهر من أن یذکر. و قد ذکرنا من أمره نبذة کبیرة فی تاریخنا «المنهل الصافی و المستوفی بعد الوافی»؛ إذ هو کتاب تراجم یحسن الإطناب فیه. انتهی.

الذین ذکر الذهبیّ وفاتهم فی هذه السنة، قال: و فیها توفّی الملک القاهر عبد الملک بن المعظّم [عیسی] بن العادل [أبی بکر بن أیّوب] فی المحرّم مسموما.

و السلطان الملک الظاهر رکن الدین الصالحیّ بیبرس فی أواخر المحرّم بالقصر الأبلق،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۷۹

و له بضع و خمسون سنة. و کمال الدین إبراهیم بن الوزیری نجیب الدین [أحمد] بن إسماعیل [بن إبراهیم] بن فارس التّمیمیّ الکاتب المقرئ فی صفر، و له ثمانون سنة.

و الواعظ نجم الدین علیّ بن علیّ بن إسفندیار بدمشق فی رجب، و له خمس و أربعون سنة و أشهر. و بیلیک الظاهریّ الخازندار نائب مصر. و الصاحب معین الدین سلیمان بن علیّ [بن محمد بن حسن] البرواناه الرومیّ، قتله أبغا فی المحرّم. و الشیخ خضر بن أبی بکر العدویّ شیخ السلطان. و الشیخ الإمام شمس الدین محمد [بن إبراهیم ابن عبد الواحد بن علیّ بن سرور قاضی القضاة أبو بکر و أبو عبد اللّه المعروف ب] ابن العماد الحنبلیّ فی المحرّم بمصر. و القاضی تقیّ الدین محمد بن حیاة الرّقّیّ قاضی حلب بتبوک فی المحرّم.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم ست أذرع و ثلاث عشرة إصبعا.

مبلغ الزیادة ثمانی عشرة ذراعا و ثمانی أصابع.

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۷۷]

اشارة

السنة الثانیة من ولایة الملک السعید علی مصر، و هی سنة سبع و سبعین و ستمائة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۸۰

فیها توفّی الشیخ الإمام زین الدین أبو العباس إبراهیم بن أحمد بن أبی الفرج الدّمشقیّ الحنفیّ المعروف بابن السّدید إمام مقصورة الحنفیّة شمالی جامع دمشق و ناظر وقفها. کان إماما فقیها دیّنا کثیر الخیر غزیر المروءة. مات فی جمادی الأولی ببستانه بالمزّة و دفن بسفح قاسیون.

و فیها توفّی الأمیر شمس الدّین آق سنقر بن عبد اللّه الفارقانیّ، کان أصله من ممالیک الأمیر نجم الدین حاجب الملک الناصر صلاح الدین یوسف صاحب الشام، ثم انتقل إلی ملک السلطان الملک الظاهر بیبرس، و تقدّم عنده و جعله أستادارا کبیرا. و کان للملک الظاهر عدّة أستاداریة، و کان الملک الظاهر کثیر الوثوق به فی أموره و یستنیبه فی غیبته و یقدّمه علی عساکره، و لمّا صار الأمر إلی الملک السعید جعله نائبه لسائر الممالک بعد بیلیک الخازندار، فلمّا ثارت الخاصّکیّة قبضوا علیه و قتلوه، و قیل إنّه بقی فی هذه السنة، و الأصحّ أنّهم قبضوا علیه و سجنوه إلی أن مات فی جمادی الأولی من هذه السنة. و کان أمیرا کبیرا جسیما شجاعا مقداما مهابا ذا رأی و تدبیر و عقل و دهاء، کثیر البرّ و الصدقات عالی الهمّة، و له مدرسة عند داره داخل باب سعادة بالقاهرة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۸۱

و فيها توفّى الأمير جمال الدين آقوش بن عبد اللّه النّجيبىّ الصالحىّ النّجمىّ الأيّوبىّ، كان مقرّبا عند أستاذه الملك الصالح و ولّاه أستادارا، و كان كثير الاعتماد عليه. ثم ولّاه الملك الظاهر بيبرس نيابة دمشق فأقام بها تسع سنين، ثم عزله و تركه بطّالا بالقاهرة إلى أن مات بها فى ليلة الجمعة خامس شهر ربيع الآخر بداره بدرب ملوخيّا من القاهرة، و دفن يوم الجمعة بتربته بالقرافة الصغرى.

و فيها توفّى الشيخ جمال الدين طه بن إبراهيم بن أبى بكر بن أحمد بن بختيار الهذبانى الإربلىّ، كان عنده فضيلة و أدب و رياسة، و له يد فى النظم. و مات فى جمادى الأولى. و من شعره فى النهى عن النظر فى النجوم:

دع النجوم لطرقىّ يعيش بها و بالعزيمة فانهض أيّها الملك

إنّ النّبىّ و أصحاب النّبىّ نهوا عن النجوم و قد أبصرت ما ملكوا

و فيها توفّى قاضى القضاة مجد الدين أبو المجد عبد الرحمن بن عمر بن أحمد بن هبة اللّه العقيلىّ الحلبىّ الحنفىّ ابن الصاحب كمال الدين عمر بن العديم. كان إماما

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۸۲

عالما فاضلا كبير الديانة و الورع، كان جمع بين العلم و العمل و الرياسة، ولى قضاء دمشق مع عدّة تداريس، و لم يزل قاضيا إلى أن توفّى بظاهر دمشق بجوسقه الذى على الشّرف [الأعلى] القبلى فى يوم الثلاثاء سادس عشر شهر ربيع الاخر، و دفن فى تربة أنشأها قبالة الجوسق المذكور. و من شعره ما كتبه لخاله عون الدين سليمان ابن العجمىّ بسبب ابن مالك، فقال:

أمولاى عون الدين يا راويا لنا حديث المعالى عن عطاء و نافع

بعيشك حدّثنى حديث ابن مالك فأنت له يا مالكى خير شافع

و فيها توفّى الشيخ موفّق الدين أبو محمد عبد اللّه بن عمر بن نصر اللّه الأنصارىّ، كان أديبا فاضلا. قال الشيخ قطب الدين اليونينىّ فى الذيل على المرآة: «صاحبنا [كان أديبا فاضلا مقتدرا على النظم]، و له مشاركة فى علوم كثيرة، منها: الكحل و الطبّ، و غير ذلك من الفقه و النحو و الأدب، و يعظ الناس، حلو النادرة حسن المحاضرة». انتهى كلام قطب الدين. قلت و من شعره:

قلبى و طرفى فى ديارهم هذا يهيم بها و ذا يهمى

رسم الهوى لما وقفت بها للدمع أن يجرى على الرسم

و فيها توفّى الأديب نجم الدين أبو المعالى محمد بن سوّار بن إسرائيل بن الخضر بن إسرائيل الشّيبانىّ الدمشقىّ المولد و الدار و الوفاة، كان أديبا فاضلا قادرا على النظم

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۸۳

صوفيّا. و قد ذكرنا حكايته مع الشّهاب الخيمىّ لمّا ادّعى كلّ منهما القصيدة البائية التى أوّلها:

يا مطلبا ليس لى فى غيره أرب

و تداعيا عند الشيخ شرف الدين عمر بن الفارض فأمر ابن الفارض أن يعمل كل منهما قصيدة على الوزن و القافية فعملا ذلك، فحكم ابن الفارض بالقصيدة للشهاب الخيمىّ. و قد ذكرنا القصائد الثلاث فى «المنهل الصافى» فى ترجمة شهاب الدين الخيمىّ. و ابن إسرائيل هذا ممّن تكلّموا فيه و رموه بالاتّحاد.

و اللّه أعلم بحاله. و من شعر ابن إسرائيل هذا على مذهب القوم:

خلا منه طرفى و امتلا منه خاطرى فطرفى له شاك و قلبى شاكر

و لو أنّنى أنصفت لم تشك مقلتى بعادا و دارات الوجود مظاهر

و له أيضا:

يا من تناءى و فؤادى داره مضناك قد أقلقه تذكاره

صددت عنه قبل ما وصلته و کان قبل سکره خماره

و فیها توفّی الشیخ الإمام العلّامة مجد الدین أبو عبد اللّه محمد بن أحمد بن عمر ابن أحمد بن أبی شاکر الإربلیّ الأدیب الفقیه الحنفیّ المعروف بابن الظّهیر. مولده بإربل فی ثانی صفر سنة اثنتین و ستمائة و نشأ بها، و طلب العلم و تفقّه و برع فی الفقه و الأصول و العربیّة، و قدم دمشق و تصدّی بها للإقراء و التدریس و درّس بالقایمازیّة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۸۴

بدمشق؛ و هو من أعیان شیوخ الأدب و فحول المتأخرین و له دیوان شعر، و سمع الحدیث ببغداد من أبی بکر بن الخازن و الکاشغریّ [و] بدمشق من السّخاویّ و کریمة و تاج الدین بن حمّویه؛ و روی عنه أبو شامة و القوصیّ و الدّمیاطی و الشهاب محمود، و علیه تدرّب فی الأدب، و [أبو الحسین] الیونینیّ و الحافظ جمال الدین المزّیّ.

و لمّا مات رثاه تلمیذه الشّهاب محمود بقصیدة أوّلها:

تمکّن لیلی و اطمأنّت کواکبه و سدّت علی صبح الغداة مذاهبه

بکته معالیه و لم یر قبله کریم مضی و المکرمات نوادبه

و من شعر ابن الظّهیر:

قلبی و طرفی ذا یسیل دما و ذا دون الوری أنت العلیم بقرحه

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۸۵

و هما بحبّک شاهدان و إنّما تعدیل کلّ منهما فی جرحه

و القلب منزلک القدیم فإن تجد فیه سواک من الأنام فنحّه

الذین ذکر الذهبیّ وفاتهم فی هذه السنة، قال: و فیها توفّی الأدیب نجم الدین محمد [بن سوّار] بن إسرائیل الحریری الشاعر المشهور فی شهر ربیع الآخر. و الإمام مجد الدین محمد بن أحمد بن عمر بن الظّهیر الحنفیّ الأدیب فی شهر ربیع الآخر أیضا.

و الأمیر شمس الدین آق سنقر الفارقانیّ فی الحبس فی جمادی الأولی. و الأمیر جمال الدین آقوش النّجیبیّ بالقاهرة فی شهر ربیع الآخر. و شیخ الحنفیة و قاضیهم الصّدر سلیمان بن أبی العزّ بن وهیب الحنفی فی شعبان، و له ثلاث و ثمانون سنة.

و الصاحب مجد الدین أبو المجد عبد الرحمن بن أبی القاسم عمر بن أحمد بن هبة اللّه العقیلیّ قاضی الحنفیة فی شهر ربیع الآخر، و له ثلاث و ستون سنة. و الوزیر بهاء الدین علیّ بن محمد بن سلیم المصریّ بن حنّا فی ذی القعدة. و المحدّث ناصر الدین محمد ابن عربشاه الهمذانیّ فی جمادی الأولی. و المحدّث شهاب الدین أحمد بن محمد بن عیسی الجزریّ. و أبو المرجیّ المؤمّل بن محمد بن علیّ [بن محمد بن علیّ بن منصور عزّ الدین] البالسیّ فی رجب.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم سبع أذرع و إحدی و عشرون إصبعا. مبلغ الزیادة ثمانی عشرة ذراعا و خمس أصابع.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۸۶

ذکر سلطنة الملک العادل سلامش علی مصر

هو السلطان الملک العادل بدر الدین سلامش ابن السلطان الملک الظاهر رکن الدین بیبرس البندقداریّ الصالحیّ النجمیّ السادس من ملوک الترک بمصر.

تسلطن بعد خلع أخیه الملک السعید أبی المعالی ناصر الدین محمد برکة خان باتّفاق الأمراء علی سلطنته، و جلس علی سریر الملک فی یوم الأحد سابع عشر شهر ربیع الآخر سنة ثمان و سبعین و ستمائة و عمره یوم تسلطن سبع سنین. و جعلوا أتابکه و مدبّر مملکته الأمیر سیف الدین قلاوون الصالحی النّجمیّ. و ضربت السّکّة علی أحد الوجهین باسم الملک العادل سلامش هذا، و علی الوجه

الآخر اسم الأمير قلاوون؛ و خطب لهما أيضا على المنابر. و استمرّ الأمر على ذلك و صار الأمير قلاوون هو المتصرّف فى الممالك و العساكر و الخزائن، و لم يكن لسلامش فى السلطنة مع قلاوون إلّا مجرّد الاسم فقط. و أخذ قلاوون فى الأمر لنفسه. فلمّا استقام له الأمر دخل إليه الأمير شمس الدين سنقر الأشقر و وافقه على السلطنة و أخفى ذلك لكونه كان خشداشه، و كان الأمير عزّ الدين أيدمر نائب الشام عاد إلى الشام بمن معه بعد خلع الملك السعيد، فوصل إلى دمشق يوم الأحد مستهلّ جمادى الأولى، فخرج لتلقّيه من كان تخلّف بدمشق من الأمراء و الجند، و المقدّم عليهم الأمير جمال الدين آقوش الشمسىّ. و كان قلاوون قد كاتب آقوش فى أمر أيدمر هذا و القبض عليه، فلمّا وصلوا إلى مصلّى العيد بقصر حجّاج احتاط الأمير جمال الدين آقوش الشمسى و الأمراء الذين معه على الأمير أيدمر نائب الشام و أخذوه بينهم، و فرّقوا بينه و بين عسكره الذين حضروا معه من الديار المصريّة، و دخلوا إلى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۸۷

دمشق من باب الجابية، و رسموا عليه بدار فى دمشق؛ ثمّ نقلوه إلى قلعة دمشق و اعتقلوه بها. و كان الملك السعيد قبل أن يخرج من الشام سلّم قلعة دمشق للأمير علم الدين سنجر الدّويدارىّ و جعله النائب عنه أيضا فى البلد. ثمّ أرسل قلاوون جمال الدين آقوش الباخلى و شمس الدين سنقر جاه [الكنجىّ] إلى البلاد الشاميّة و على يدهم نسخة الأيمان بالصورة التى استقرّ الحال عليها بمصر، و أحضروا الأمراء و الجند و القضاة و العلماء و أكابر البلد للحلف، و كان معهم نسخة بالمكتوب المتضمّن خلع الملك السعيد و تولية الملك العادل سلامش، فقرئ ذلك على الناس و حلفوا و استمرّ الحلف أيّاما. ثمّ إنّ الأمير قلاوون ولّى خشداشه الذى اتّفق معه على السلطنة، و هو الأمير شمس الدين سنقر الأشقر، نيابة الشام و أعمالها فتوجّه سنقر الأشقر إليها، و دخلها يوم الأربعاء ثالث جمادى الآخرة من سنة ثمان و سبعين المذكورة بتجمّل زائد، فكان موكبه يضاهى موكب السلطان، و عند وصوله إلى دمشق أمر الأمير علم الدين سنجر الدّويداريّ بالنزول من قلعة دمشق فنزل فى الحال. و صفا الوقت للأمير قلاوون بمسك أيدمر نائب الشام، و بخروج سنقر الأشقر من الديار المصريّة و انبرم أمره مع الأمراء و الخاصّكيّة، و اتّفقوا معه على خلع الملك العادل سلامش من السلطنة و توليته إيّاها. فلمّا كان يوم الثلاثاء حادى عشرين شهر رجب سنة ثمان و سبعين و ستمائة اجتمع الأمراء و القضاة و الأعيان بقلعة الجبل و خلعوا الملك العادل بدر الدين سلامش من السلطنة لصغر سنّه، و تسلطن عوضه أتابكه الأمير سيف الدين قلاوون الألفى الصالحىّ النّجمىّ،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۸۸

و نعت بالملك المنصور، على أنّه كان هو المتصرّف فى المملكة منذ خلع الملك السعيد و تسلطن الملك العادل سلامش، و لم يكن لسلامش فى أيام سلطنته غير الاسم، و قلاوون هو الكلّ! و كان عدم سلطنة قلاوون قبل سلامش أنّه خاف ثورة المماليك الظاهريّة عليه، فإنّهم كانوا يوم ذاك هم معظم عسكر الديار المصريّة، و أيضا كانت بعض القلاع فى يد نوّاب الملك السعيد فلمّا مهّد أمره تسلطن. و لمّا بلغ سنقر الأشقر سلطنة قلاوون داخله الطّمع فى الملك و أظهر العصيان، على ما سيأتى ذكره فى ترجمة الملك المنصور قلاوون إن شاء اللّه تعالى.

و كانت مدّة سلطنة الملك العادل بدر الدين سلامش على مصر ثلاثة أشهر و ستّة أيام. و لزم الملك العادل سلامش داره عند أمّه إلى أن أرسله الملك المنصور قلاوون إلى الكرك، فأقام به عند أخيه الملك خضر مدّة؛ ثم رسم الملك المنصور بإحضاره إلى القاهرة فحضر إليها، و بقى خاملا إلى أن مات الملك المنصور قلاوون و تسلطن من بعده ولده الملك الأشرف خليل بن قلاوون، جهزه و أخاه الملك خضرا و أهله إلى مدينة اسطنبول بلاد الأشكرى، فأقام هناك إلى أن توفّى بها فى سنة تسعين و ستمائة. و كان شابّا مليحا جميلا تامّ الشكل رشيق القدّ طويل الشّعر ذا حياء

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۸۹

و وقار و عقل تامّ. مات و له من العمر قريب من عشرين سنة؛ قيل: إنّه كان أحسن أهل زمانه، و به افتتن جماعة من الناس، و شبّب به

الشعراء و صار یضرب به المثل فی الحسن حتی یقول القائل: «ثغر سلامسیّ». انتهت ترجمة الملک العادل سلامش، رحمه اللّه.

ما وقع من الحوادث سنة السنة التی حکم فیها الملک السعید إلی سابع عشر شهر ربیع الآخر، ثم حکم من سابع عشر شهر ربیع الآخر إلی حادی عشرین شهر رجب الملک العادل سلامش، ثم فی باقیها الملک المنصور سیف الدین قلاوون الألفیّ، و هی سنة ثمان و سبعین و ستمائة.

فیها کان خلع ولدی الملک الظاهر بیبرس من السلطنة: الملک السعید محمد برکة خان، و الملک العادل بدر الدین سلامش، و تسلطن بعد سلامش الأمیر قلاوون.

و قد تقدّم ذکر ذلک کلّه.

و فیها توفّی الفقیه المحدّث صفیّ الدین أبو [محمد] إسحاق [بن] إبراهیم بن یحیی الشّقراویّ الحنبلی، ولد بشقراء من ضیاع برزة من عمل دمشق سنة خمس و ستمائة.

و مات بدمشق فی ذی الحجّة، و کان فاضلا فقیها سمع الکثیر و حدّث.

و فیها توفّی الأمیر جمال الدین آقوش بن عبد اللّه الرّکنیّ المعروف بالبطاح أحد أکابر أمراء دمشق، عاد من تجریدة سیس مریضا و مات بحلب و نقل إلی حمص فدفن عند قبر خالد بن الولید، رضی اللّه عنه. و الرکنی: نسبة الی أستاذه

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۹۰

الأمیر رکن الدین بیبرس الصالحیّ النّجمیّ الذی لقی الفرنج بأرض غزّة و کسرهم، و هو غیر الملک الظاهر بیبرس.

و فیها توفّی الأمیر جمال الدین آقوش بن عبد اللّه الشّهابیّ السّلحدار، کان أیضا فی تجریدة سیس و عاد مریضا، و توفّی بحماة ثم نقل إلی دمشق و دفن عند خشداشه أیدکین [بن عبد اللّه] الشهابی، نسبة إلی الطّواشی شهاب الدین رشید الخادم الصالحیّ الکبیر و هو أستاذهما.

و فیها توفّی الأمیر نور الدین أبو الحسن علیّ بن عمر بن مجلّیّ الهکّاریّ، کان من أجل الأمراء و أعظمهم، ولی نیابة حلب، و کان حسن السیرة عالی الهمة کریم الأخلاق شجاعا مقداما عارفا مدبّرا معظّما فی الدّول. مات بعد عزله عن نیابة حلب فی مرض موته باستعفائه عنها بها فی شهر ربیع الآخر و دفن بها، و قد نیّف علی السبعین سنة، رحمه اللّه تعالی.

و فیها توفّی الشیخ جمال الدین أبو زکریّا یحیی بن أبی المنصور بن أبی الفتح ابن رافع بن علیّ الحرّانیّ الحنبلیّ المعروف بابن الصّیرفیّ، کان إماما فقیها عالما مفتّنا فی الفقه متبحّرا فیه کثیر الإفادة، و أفتی و درّس و انتفع به الطلبة، و مات فی صفر.

الذین ذکر الذهبی وفاتهم فی هذه السنة، قال: و فیها توفّی السلطان الملک السعید ناصر الدین محمد بن الظاهر بالکرک فی ذی القعدة، و له عشرون سنة و أشهر.

و المسند أبو العبّاس أحمد بن أبی الخیر سلامة بن إبراهیم الحدّاد الحنبلیّ یوم عاشوراء.

و الإمام جمال الدین یحیی بن أبی المنصور بن الصّیرفیّ الحرّانیّ فی صفر، و له خمس

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۹۱

و تسعون سنة. و صفیّ الدین إسحاق بن إبراهیم الشّقراویّ. و فاطمة بنت الملک المحسن ببزاعة.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم ست أذرع سواء. مبلغ الزیادة ثمانی عشرة ذراعا و إصبع واحدة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۹۲

ذکر سلطنة الملک المنصور سیف الدین قلاوون علی مصر

السلطان الملک المنصور سیف الدین أبو المعالی و أبو الفتح قلاوون بن عبد اللّه الألفیّ الترکیّ الصالحیّ النّجمیّ السابع من ملوک

الترک بالدیار المصریة، و الرابع ممن مسّه الرّق.

ملک الدیار المصریة بعد خلع الملک السعید و صار مدبّر مملکة الملک العادل بدر الدین سلامش إلی أن خلع سلامش و تسلطن الملک المنصور قلاوون هذا من بعده فی حادی عشرین، و قیل عشر شهر رجب سنة ثمان و سبعین و ستمائة، و جلس علی سریر الملک بأبّهة السلطنة و شعار الملک و تمّ أمره. و لمّا استقل بالمملکة أمسک جماعة کثیرة من الممالیک و الأمراء الظاهریّة و غیرهم، و استعمل ممالیکه علی البلاد و القلاع، فلم یبلع ریقه حتّی خرج علیه الأمیر شمس الدین سنقر الأشقر نائب دمشق، فإنّه لمّا وصل إلیه البرید إلی دمشق بسلطنة المنصور قلاوون فی یوم الأحد سادس عشری رجب، و علی یده نسخة یمین التّحلیف للأمراء و الجند و أرباب الدولة و أعیان الناس، فأحضروا إلی دار السعادة بدمشق و حلفوا إلّا الأمیر سنقر الأشقر نائب الشام، فإنّه لم یحلف و لا رضی بما جری من خلع سلامش و سلطنة قلاوون،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۹۳

فلم یلتفت أهل دمشق إلی کلامه. و خطب بجامع دمشق للملک المنصور قلاوون و جوامع الشام بأسرها خلا مواضع یسیرة توقّفوا، ثم خطبوا بعد ذلک.

و أمّا الملک المنصور قلاوون فإنّه فی شهر رمضان عزل الصاحب برهان الدین السّنجاریّ عن الوزارة بالدیار المصریّة، و أمره بلزوم مدرسة أخیه قاضی القضاة بدر الدین السّنجاریّ بالقرافة الصغری، و استقرّ مکانه فی الوزاره الصاحب فخر الدین إبراهیم بن لقمان صاحب دیوان الإنشاء الشریف بالدیار المصریّة، و تولّی عوضه صحابة الدیوان القاضی فتح الدین محمد ابن القاضی محیی الدین [عبد اللّه] بن عبد الظاهر، و هو أوّل کاتب سرّ کان فی الدولة التّرکیة و غیرها، و إنما کانت هذه الوظیفة فی ضمن الوزارة، و الوزیر هو المتصرّف فی الدیوان، و تحت یده جماعة من الکتاب الموقّعین، و فیهم رجل کبیر کنائب کاتب السّر الآن، سمّی فی الآخر صاحب دیوان الإنشاء. و من الناس من قال: إنّ هذه الوظیفة قدیمة. و استدلّ بقول صاحب صبح الأعشی و غیره ممّن کتب للنبیّ، صلی اللّه علیه و سلم، و من بعده.

و ردّ علی من قال ذلک جماعة أخر، و قالوا: لیس فی ذکر من کتب للنبیّ، صلّی اللّه علیه و سلّم، و غیره من الخلفاء دلاله علی وظیفة کتابة السّر، و إنّما هو دلیل لکلّ کاتب کتب لملک أو سلطان أو غیرهما کائنا من کان، فکلّ کاتب کتب عند رجل یقول: هو أنا ذاک الکاتب، و إذا الأمر احتمل و احتمل سقط الاحتجاج به. و من قال: إنّ هذه الوظیفة ما أحدثها إلّا الملک المنصور قلاوون فهو الأصح، و نبیّن ذلک، إن شاء اللّه تعالی، فی أواخر هذه الترجمة، و تذکر من ذکره

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۹۴

صاحب صبح الأعشی و غیره من الکتّاب من عهد النّبیّ، صلّی اللّه علیه و سلّم، إلی یومنا هذا علی سبیل الاختصار. انتهی. و قد خرجنا عن المقصود.

و أمّا سنقر الأشقر فإنّه فی یوم الجمعة رابع عشری ذی القعدة من السنة رکب من دار السعادة بدمشق بعد صلاة العصر و معه جماعة من الأمراء و الجند، و هم رجّالة و هو راکب وحده و قصد القلعة من الباب الذی یلی المدینة فهجمها بمن کان معه، و طلعها و جلس بها من ساعته و حلّف الأمراء و الجند و من حضر و تسلطن و تلقب «بالملک الکامل»، و نادت المنادیة فی المدینة بسلطنته و استقلاله بالممالک الشامیّة، و فی بکرة یوم السبت خامس عشرین ذی القعدة طلب القضاة و العلماء و رؤساء البلد و أکابره و أعیانه إلی مسجد أبی الدّرداء، رضی اللّه عنه، بقلعة دمشق و حلّفهم و حلّف بقیّة الناس علی طاعته؛ ثم وجّه العساکر فی یوم الأربعاء تاسع عشرینه إلی بلاد غزّة لحفظ البلاد و مغلّها و دفع من یأتی إلیها من الدیار المصریّة. و خرجت سنة ثمان و سبعین و لیس للملک المنصور قلاوون حکم إلّا علی الدیار المصریة و أعمالها فقط.

و لمّا استهلت سنة تسع و سبعین و الملک المنصور سلطان مصر، و الملک الکامل شمس الدین سنقر الأشقر سلطان دمشق و ما

والاهـا، و صـاحب الكرك الملك المسـعود خضـر ابن الملك الظاهر بيبرس، و صاحب حماة و المعرّة الملك المنصور ناصـر الـدين محمد ابن الملك تقى الدين محمود الأيّوبىّ؛ و العراق و الجزيرة و الموصل و إربل و أذربيجان و ديابكر و خلاط و خراسان و العجم و ما وراء ذلك بيـد التّتار و الروم؛ و صاحب اليمن الملك المظفّر شـمس الدين يوسف بن عمر [بن علىّ بن رسول]، و صاحب مكّة، شرّفها اللّه تعالى، الشريف نجم الدين أبو نمىّ الحسنىّ، و صاحب المدينة الشريفة،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۹۵

على ساكنها أفضل الصـلاة و السـلام، الأمير عزّ الـدين جمّاز بن شـيحة الحسـينىّ؛ ذكرنا هؤلاء تنبيها للناظر فى الحوادث الآتية، ليكون فيما يأتى على بصيرة. انتهى.

ثم إنّ السـلطان الملك المنصور قلاوون فى أوّل سـنة تسع و سـبعين و سـتّمائة المذكورة جهّز عسـكرا لغزّة، فلمّا قاربوها لقيهم عسكر الملك الكامل سـنقر الأشـقر و قاتلوهم حتّى نزحوهم عنها، و انكسر العسكر المصرىّ و قصد الرّمل و اطمأنّ الشاميّون بغزّة و نزلوا بها ساعة من النهار، و كانوا فى قلّة، فكرّ عليهم عساكر الديار المصريّة ثانيا و كبسوهم و نالوا منهم منالا كبيرا، و رجع عسكر الشام منهزما إلى مدينة الرّملة.

و أمّا الملك الكامل سـنقر الأشـقر فإنّه قدم عليه بدمشق الأمير شـرف الدين عيسـى ابن مهنّا ملك العرب بالبلاد الشـرقيّة و الشماليّة؛ و دخل على الكامل و هو على السّماط فقام له الكامل، فقبّل عيسى الأرض و جلس عن يمينه فوق من حضر.

ثم وصل إلى الملك الكامل أيضا الأمير شـهاب الـدين أحمد بن حجّىّ بن بريد ملك العرب بالبلاد الحجازيّة فأكرمه الملك الكامل غاية الإكرام.

و أمّا الملك المنصور لما بلغه ما وقع لعسـكره بغزّة جهّز عسـكرا آخر كثيفا إلى دمشق لقتال الملك الكامل سـنقر الأشـقر، و مقدّمهم الأـمير علم الـدين سـنجر الحلبىّ، و خرجوا من مصـر و ساروا إلى جهـة الشام، فصار عسـكر دمشق الـذى بالرّملـة كلّما تقـدّم العسـكر المصـرىّ منزلـة تـأخّر هو منزلـة إلى أن وصـل أوائلهم إلى دمشق فى أوائـل صـفر. و فى يوم الأربعاء ثانى عشـر صـفر المـذكور خرج الملك الكامل من دمشق بنفسه بجميع من عنده من العساكر، و ضرب دهليزه بالجسورة و خيّم هناك

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۹۶

بجميع الجيش، و اسـتخدم المماليك و أنفق الأموال، و جمع خلقا عظيما و حضـر عنـده عرب الأميرين: ابن مهنّا و ابن حجّىّ و نجـدة حلب و نجـدة حماة، مقـدّمهما الملك الأفضل نور الـدين علىّ أخو صاحب حماة؛ و رجّالة كثيرة من جبال بعلبكّ، و رتّب العساكر و الأطلاب بنفسه وصفّ العساكر ميمنة و ميسـرة و وقف هو تحت عصائبه؛ و سار العسكر المصرى أيضا بترتيب هائل و عساكر كثيرة، و الأطلاب أيضا مرتّبة، و التقى الجيشان فى يوم الأحد [سادس عشـر صـفر] وقت طلوع الشمس فى المكان المذكور و تقاتلا أشدّ قتال، و ثبت كلّ من الطائفتين ثباتا لم يسـمع بمثله إلّا نادرا لا سيّما الملك الكامل سنقر الأشقر، فإنّه ثبت و قائل بنفسه قتالا شديدا، و استمرّ المصافّ بين الطائفتين إلى الرابعـة من النهار و لم يقتل من الفريقين إلا نفر يسـير جـدّا، و أمّا الجراح فكثيرة. فلمّا كانت الساعة الرابعة من النهار خامر أكثر عسـكر دمشق على الملك الكامل سـنقر الأشقر و غدروا به و انضافوا إلى العسكر المصرىّ، و كان لما وقع العين على العين قبـل أن يلتحم القتال انهزم عساكر حماة و تخاذل عسـكر الشام على الكامل، فمنهم: من دخل بساتين دمشق و اختفى بها، و منهم من دخـل دمشق راجعـا، و منهم من ذهب إلى طريق بعلبـكّ، فلم يلتفت الملـك الكامل لمن ذهب منه من العساكر و قاتل، فلمّا انهزم عنه من ذكرنا فى حال القتال ضـعف أمره و مع هذا استمرّ يقاتل بنفسه و مماليكه إلى أن رأى الأمير عيسى بن مهنّا الهزيمة على الملك الكامل أخذه و مضى به إلى الرّحبة، و أنزله عنده و نصب له بيوت الشّعر.

و أمّا الأمير شهاب الدين أحمد بن حجّىّ فإنّه دخل إلى دمشق بالأمان، و دخل و طاعة الملك المنصور قلاوون.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۹۷

و أمّا عساكر الشام فإنهم اجتمعوا على القصب من عمل حمص، ثم عاد أكثر الأمراء إلى جهـة دمشق و طلبوا الأمان من مقدّم العساكر المصرية الأمير علم الدين سنجر الحلبىّ.

و أمّا العساكر المصرية فإنّهم ساقوا من وقتهم إلى مدينـة دمشق و أحاطوا بها، و نزلوا بخيامهم و لم يتعرّضوا للزحف، و راسلوا من بالقلعة إلى العصر من ذلك النهار، و فتح من المدينة باب الفرج و دخل منه إلى دمشق بعض مقدّمى الجيش؛ ثم طلب من بالقلعة الأمان فأمّنهم سنجر الحلبى، ففتحت القلعة فدخلوا إليها من الباب الذى داخل المدينة و تسلّموها بالأمان و أفرجوا عن جماعة كثيرة من الأمراء و غيرهم، كان اعتقلهم سنقر الأشقر، منهم: الأمير ركن الدين بيبرس العجمىّ المعروف بالجالق، و الجالق: اسم للفرس الحادّ المزاج باللغة التركية، و الأمير حسام الدين لاچين المنصورىّ، و القاضى تقىّ الدين توبة التّكريتىّ و غيرهم.

و كتب الأمير علم الدين سنجر الحلبىّ بالنصر إلى الملك المنصور قلاوون فسرّ المنصور بذلك، و دقّت البشائر لذلك أياما بالديار المصرية و زيّنت القاهرة و مصر.

و أما سنجر الحلبىّ فإنه لما ملك دمشق و قلعتها جهز فى الحال قطعة جيّدة من الجيش المصرىّ تقارب ثلاثة آلاف فارس فى طلب سنقر الأشقر و من معه من الأمراء و الجند. ثم حضر جواب الملك المنصور قلاوون بسرعة يتضمّن: بأننا قد عفونا عن جميع الناس الخاصّ و العام أرباب السيوف و الأقلام، و أمّناهم على أنفسهم و أهليهم و أموالهم؛ و حضر التشريف للأمير حسام الدين لاچين المنصورى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۹۸

السّلحدار بنيابة دمشق، فلبس الخلعة و قبّل الأرض؛ ثم أردف الأمير سنجر الحلبىّ العسكر الذى كان توجّه لقتال سنقر الأشقر بعسكر آخر، مقدّمه الأمير عزّ الدين الأفرم، فلحق بمن كان توجّه قبله و سار الجميع فى طلب سنقر الأشقر. فلّما بلغ سنقر ذلك رحل عن عيسى بن مهنّا و توجّه فى البرّيّة إلى الحصون التى كانت بقيت فى يد نوّابه، فتحصّن هو و من معه بها فى أواخر الشهر المذكور و هى: صهيون، كان بها أولاده و خزائنه و دخلها هو أيضا، و بلاطنس و حصن برزيه و حصن عكّار و جبلة و اللّاذقيّة و غيرها؛ ثم عادت العساكر إلى دمشق و تردّدت الرسل بينهم و بين سنقر الأشقر.

و بينما هم فى ذلك وردت الأخبار فى أوائل جمادى الآخرة أنّ التّتار قصدوا البلاد الشاميّة، فخرج من كان بدمشق من العساكر الشاميّة و المصريّة، و مقدّمهم الأمير ركن الدين اياجى، و لحقهم العساكر الذين كانوا فى طلب سنقر الأشقر، و نزل الجميع بظاهر حماة؛ و كانوا كاتبوا الملك المنصور قلاوون بمجىء التّتار. فجهّز إليهم فى الحال عسكرا عليه الأمير بدر الدين بكتاش النّجمىّ، فلحق بهم الأمير بكتاش المذكور بمن معه من العسكر المصرىّ، و اجتمع الجميع على حماة و أرسلوا كشّافة فى العشر الأوسط من جمادى الآخرة إلى بلاد التّتار. هذا و قد جفل غالب من بالبلاد الشاميّة و خرجوا عن دورهم و منازلهم و لم يبق هناك إلّا من عجز عن الحركة. و كان سبب حركة التّتار أنّهم لمّا سمعوا اختلاف الكلمة، و ظنّوا أنّ

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۲۹۹

سنقر الأشقر بمن معه يتّفق معهم على قتال الملك المنصور قلاوون. فأرسل أمراء العساكر المصريّة إلى سنقر الأشقر يقولون له: هذا العدوّ قد دهمنا و ما سببه إلا الخلف بيننا! و ما ينبغى هلاك الإسلام، و المصلحة أنّنا نجتمع على دفعه؛ فامتثل سنقر ذلك و أنزل عسكره من صهيون و أمر رفيقه الحاج أزدمر أن يفعل كذلك من شيزر، و خيّمت كلّ طائفة تحت قلعتها، و لم يجتمعوا بالمصريين، غير أنهم اتّفقوا على اجتماع الكلمة و دفع العدوّ المخذول عن الشام؛ و استمرّوا على ذلك إلى يوم الجمعة حادى عشرين جمادى الآخرة. وصل طائفة كبيرة من عساكر التّتار إلى حلب و دخلوها من غير مانع يمنعهم عنها، و أحرقوا الجوامع و المساجد و المدارس المعتبرة و دار السلطنة و دور الأمراء، و أفسدوا إفسادا كبيرا على عادة أفعالهم القبيحة، و أقاموا بها يومين على هذه الصورة؛ ثم رحلوا عنها فى يوم الأحد ثالث عشرينه راجعين إلى بلادهم بعد أن تقدّمتهم الغنائم التى كسبوها و كان شيئا كثيرا. و كان سبب رجوعهم

لمّا بلغهم اتّفاق الطائفتين على قتالهم؛ و قيل فى رجوعهم وجه آخر، و هو أن بعض من كان استتر بحلب يئس عن نفسه من الحياة؛ فطلع منارة الجامع و كبّر بأعلى صوته على التّتار، و قال: جاء النّصر من عند اللّه و أشار بمنديل كان معه إلى ظاهر البلد، و أوهم أنّه أشار به إلى عسكر المسلمين، و جعل يقول فى خلال ذلك: اقبضوهم من البيوت مثل النّساء! فتوهّم التّتار من ذلك و خرجوا من البلد على وجوههم و سلم الذى فعل ذلك.

و أمّا سنقر الأشقر فإنّ جماعة من الأمراء و الأعيان الذين كانوا معه فرّوا إلى العسكر المصرىّ و دخلوا تحت طاعة الملك المنصور قلاوون.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۰۰

و أمّا الملك المنصور قلاوون فإنّه لما طال عليه أمر سنقر الأشقر و أمر التّتار جمع أعيان مملكته فى هذا الشهر بقلعة الجبل، و جعل ولده الأمير علاء الدين عليّا ولىّ عهده، و لقبه «الملك الصالح»، و خطب له على المنابر. ثم تجهّز السلطان و خرج من الديار المصريّة بعساكره، و سار حتى وصل إلى غزّة بلغه رجوع العدو المخذول، فأقام بالرّملة و توقّف عن التوجّه إلى دمشق لعدم الحاجة إلى ذلك، و قصد تخفيف الوطأة عن البلاد و أهلها. ثم رحل يوم الخميس عاشر شعبان راجعا من الرّملة إلى الديار المصريّة، فدخلها و أقام بها أقلّ من أربعة أشهر. ثم بدا له التوجّه إلى الشام ثانيا، فتجهّز و تجهّزت عساكره و خرج بهم من مصر فى يوم الأحد مستهلّ ذى الحجّة قاصدا الشام، و ترك ولده الملك الصالح عليّا يباشر الأمور عنه بالديار المصريّة.

و سار الملك المنصور قلاوون حتى وصل إلى الرّوحاء من عمل الساحل، و نزل عليها فى يوم الثلاثاء سابع عشر ذى الحجّة، و أقام قبالة عكّا، فراسلته الفرنج من عكّا فى تجديد الهدنة، فإنّها كانت انقضت مدّتها، و أقام بهذه المنزلة حتى استهلّت سنة ثمانين و ستّمائة رحل عنها يوم الخميس عاشر المحرّم. و نزل اللّجّون، و حضر رسل الفرنج بها بحضرة الأمراء، و سمعوا رسالة الفرنج، فآستشارهم السلطان فحصل الاتّفاق على الهدنة، و حلف لهم الملك المنصور على الصورة التى وقع الاتّفاق عليها، و انبرم الصلح و انعقدت الهدنة فى يوم الأحد ثالث عشر المحرّم. ثم قبض الملك المنصور على الأمير كوندك الظاهرىّ و على جماعة من الأمراء الظاهريّة لمصلحة اقتضاها الحال، و عند قبضهم هرب الأمير سيف الدين بلبان الهارونىّ و معه

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۰۱

جماعة و قصدوا صهيون إلى عند سنقر الأشقر، و ركبت الخيل فى طلبهم فلم يدركوهم، ثم هرب الأمير أيتمش السّعدىّ أيضا و معه جماعة إلى صهيون من منزلة خربة اللّصوص.

ثم سار الملك المنصور إلى دمشق فدخلها فى يوم السبت تاسع عشره، و أقام بدمشق الى أن قدم عليه فى صفر الملك المنصور محمد صاحب حماة، فخرج الملك المنصور قلاوون لتلقّيه و أكرمه. ثم تردّدت الرسل بين السلطان الملك المنصور قلاوون و بين سنقر الأشقر فى تقرير قواعد الصلح. فلمّا كان يوم الأحد رابع شهر ربيع الأوّل من سنة ثمانين و ستمائة وصل من جهة سنقر الأشقر الأمير علم الدين سنجر الدّويدارىّ و معه خازندار سنقر الأشقر فى معنى الصلح و الوقوف على اليمين، فحلف الملك المنصور قلاوون يوم الاثنين خامسه، و نادت المنادية فى دمشق بانتظام الصلح و اجتماع الكلمة، فرجع رسل سنقر الأشقر و معهم الأمير فخر الدين اياز المقرئ ليحضر يمين سنقر الأشقر، فحلفه و عاد إلى دمشق يوم الاثنين ثانى عشره، فضربت البشائر بالقلعة و سرّ الناس بذلك غاية السرور. و صورة ما انتظم الصلح عليه أنّ سنقر الأشقر يرفع يده عن شيزر و يسلّمها إلى نوّاب الملك المنصور قلاوون، و عوّضه قلاوون عنها فامية و كفر طاب و أنطاكية و السّويديّة و بكاس و دركوش بأعمالها كلّها و عدّة ضياع معروفة، و أن يقيم على ذلك، و على ما كان استقرّ بيده عند الصلح، و هو صهيون و بلاطنس و حصن برزة و جبلة و اللّاذقيّة

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۰۲

بستمائة فارس، و أنه يسلّم الأمر إلى الملك المنصور قلاوون؛ و خوطب سنقر الأشقر فى مكاتباته «بالمقرّ العالى المولوى السّيّدىّ

العـالمىّ العادلىّ الشمسـىّ» و لم يصـرح فى مخاطباته بالملك و لا بالأمير، و كان يخاطب قبل ذلك فى مكاتباته من الملك المنصور قلاوون إلى الجناب العالى الأميرى الشمسىّ. انتهى.

و بينما السـلطان فى ذلك ورد عليه مجىء التّتار إلى البلاد الشامية و هو بدمشق، فتهيّأ لقتالهم و أرسل يطلب العساكر المصـرية، و بعد قليـل حضـرت عساكر مصـر إلى دمشق و اجتمعت العساكر عنـد السـلطان، و لم يتأخر أحـد من التّركمان و العربان و سائر الطوائف. و وصل الخبر بوصول التّتار إلى أطراف بلاد حلب، فخلت حلب من أهلها و جنـدها و نزحوا إلى جهـة حماة و حمص، و تركوا الغلال و الحواصـل و الأمتعـة، و خرجوا جرائـد على وجوههم؛ ثم ورد الخبر بوصول منكوتمر بن هولاـكو ملك التّتار إلى عينتاب و ما جاورها فى يوم الأحـد سـادس عشـرين جمـادى [الاـخرة] فخرج الملك المنصور قلاوون بعساكره فى يوم الأحـد المـذكور و خيّم بالمرج، و وصـل التتار الى بغراس، فقـدّم الملك المنصور عسـكره أمامه، ثم سافر هو بنفسه فى سـلخ جمادى الآخرة المـذكور، و سار حتى نزل السـلطان بعسـاكره على حمص فى يوم الأحـد ثـالث عشـرين شـهر رجب، و راسـل سـنقر الأشـقر بالحضور إليه بمن معه من الأمراء و العساكر، و كذلك الأمير أيتمش السّـعدىّ الذى كان هرب من عند السـلطان لما قبض على الأمراء الظاهريّة؛ فامتثل سـنقر الأشـقر أمر السـلطان بالسمع و الطاعة و ركب من وقته بجماعته، و حضر إلى عند الملك المنصور قلاوون، و استحلفه لأيتمش السّعدىّ يمينا ثانية ليزداد طمأنينة، ثم أحضره و تكامل حضورهم

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۰۳

عند السلطان، و عامل السلطان سنقر الأشقر بالاحترام التامّ و الخدمة البالغة و الإقامات العظيمة و الرّواتب الجليلة. و شرعت التّتار تتقدّم قليلا قليلا بخلاف عادتهم، فلمّا وصـلوا حماة أفسدوا بنواحيها، و شـعّثوا و أحرقوا بسـتان الملك المنصور صاحب حماة و جوسقه و ما به من الأبنيـة. و اسـتمرّ عسـكر السـلطان بظاهر حمص على حاله إلى أن وصـلت التّتار إليه فى يوم الخميس رابع عشـر شـعبان، فركب الملـك المنصور بعسـاكره و صـافف العـدوّ، و التقى الجمعان عنـد طلوع الشـمس، و كان عـدد التّتار على ما قيل مائـة ألف فارس أو يزيدون، و عسـكر المسلمين على مقدار النّصف من ذلك أو أقلّ، و تواقعوا من ضحوة النهار إلى آخره، و عظم القتال بين الفريقين و ثبت كلّ منهم.

قال الشيـخ قطب الـدين اليونينىّ: «و كانت وقعـة عظيمـة لم يشـهد مثلها فى هذه الأزمان و لا من سـنين كثيرة، و كان الملتقى فيما بين مشـهد خالـد بن الوليـد، رضـى اللّه عنه، إلى الرّسـتن و العاصـى، و اضـطربت ميمنة المسـلمين، و حملت التّتار على ميسـرة المسـلمين فكسروها و انهزم من كان بها، و كذلك انكسر جناح القلب الأيسر و ثبت الملك المنصور سيف الدين قلاوون، رحمه اللّه تعالى، فى جمع قليل بالقلب ثباتا عظيما، و وصل جماعة كثيرة من التّتار خلف المنكسـرين من المسـلمين إلى بحيرة حمص، و أحدق جماعة من التّتـار بحمص، و هى مغلقـة الأبواب، و بـذلوا نفوسـهم و سـيوفهم فيمن وجـدوه من العوامّ و السّوقـة و الغلمان و الرّجّالـة المجاهـدين بظاهرها، فقتلوا منهم جماعة كثيرة، و أشـرف الإسـلام على خطّة صعبة! ثم إنّ أعيان الأمراء و مشاهيرهم و شجعانهم: مثل سنقر الأشقر المقدّم ذكره، و بدر الدين بيسرى،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۰۴

و علم الـدين سـنجر الدّويـدارىّ، و علاء الـدين طيبرس الوزيرى، و بدر الدين بيليك أمير سـلاح، و سـيف الدين أيتمش السّـعدىّ، و حسام الدين لاچين المنصورىّ، و الأمير حسام الدين طرنطاى و أمثالهم لمّا رأوا ثبات السلطان ردّوا على التّتار و حملوا عليهم حملات حتّى كسروهم كسرة عظيمة، و جرح منكوتمر مقدّم التّتار، و جاءهم الأمير شرف الدين عيسى بن مهنّا فى عربه عرضا فتّمت هزيمتهم، و قتلوا منهم مقتلة عظيمة تجاوز الوصف، و اتّفق أنّ ميسـرة المسلمين كانت انكسرت كما ذكرنا، و الميمنة ساقت على العدوّ و لم يبق مع السلطان إلّا النّفر اليسير، و الأمير حسام الدّين طرنطاى قدّامه بالسناجق، فعادت الميمنة الذين كسروا ميسرة المسلمين فى خلق عظيم و مرّوا به، و هو فى ذلـك النّفر تحت السـناجق (يعنى الملـك المنصور قلاـوون) و الكوسات تضـرب. قال: و لقـد مررت به فى ذلك

الوقت و ما حوله من المقاتلة ألف فارس إلا دون ذلك، فلمّا مرّوا به (يعنى ميمنة التّتار التى كانت كسرت ميسرة المسلمين) ثبت لهم ثباتا عظيما، ثم ساق عليهم بنفسه فانهزموا أمامه لا يلوون على شيء، و كان ذلك تمام النّصر؛ و كان انهزامهم عن آخرهم قبل الغروب، و افترقوا فرقتين: فرقة أخذت جهة سلمية و البرّيّة، و فرقة أخذت جهة حلب و الفرات.

و لمّا انقضى الحرب فى ذلك النهار عاد السلطان إلى منزلته، و أصبح بكرة يوم الجمعة سادس عشر رجب جهّز السلطان وراءهم جماعة كثيرة من العسكر و العربان، و مقدّمهم الأمير بدر الدين بيليك الأيدمرىّ، و كان لمّا لاحت الكسرة على المسلمين

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۰۵

نهب لهم من الأقمشة و الأمتعة و الخزائن و السلاح ما لا يحصى كثرة، و ذهب ذلك كلّه أخذته الحرافشة من المسلمين مثل الغلمان و غيرهم. و كتبت البشائر بهذا النصر العظيم إلى سائر البلاد، و حصل للناس السرور الذى لا مزيد عليه، و عملت القلاع و زيّنت المدن».

و أمّا أهل دمشق فإنّه كان ورد عليهم الخبر أوّلا بكسرة المسلمين، و وصل إليهم جماعة ممّن كان انهزم؛ فلمّا بلغهم النصر كان سرورهم أضعاف سرور غيرهم.

و كان أهل البلاد الشامية من يوم خرج السلطان من عندهم إلى ملتقى التّتار و هم يدعون اللّه تعالى فى كلّ يوم و يبتهلون إليه، و خرج أهل البلاد بالنساء و الأطفال إلى الصّحارى و الجوامع و المساجد، و أكثروا من الابتهال إلى اللّه، عزّ و جلّ، فى تلك الأيام لا يفترون عن ذلك حتى ورد عليهم هذا النصر العظيم و للّه الحمد، و طابت قلوب الناس، و ردّ من كان نزح عن بلاده و أوطانه و اطمأنّ كلّ أحد و تضاعف شكر الناس لذلك. و قتل فى هذه الوقعة من التّتار ما لا يحصى كثرة؛ و كان من استشهد من عسكر المسلمين دون المائتين على ما قيل؛ و ممّن قتل الأمير الحاج أزدمر، و سيف الدين بلبان الرّومىّ، و شهاب الدين توتل الشّهرزورىّ، [و ناصر الدين بن جمال الدين الكاملىّ]، و [عزّ الدين بن النّصرة] من بيت الأتابك صاحب الموصل و كان أحد الشّجعان المفرطين فى الشجاعة، رحمهم اللّه تعالى أجمعين.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۰۶

ثم إن السلطان انتقل من منزلته بظاهر حمص إلى البحيرة التى بحمص ليبعد عن الجيف، ثم توجّه عائدا إلى دمشق فدخلها يوم الجمعة الثانى و العشرين من شعبان قبل الصلاة، و خرج الناس إلى ظاهر البلد للقائه، فدخل دمشق و بين يديه جماعة من أسرى التّتار و بأيديهم رماح عليها رءوس القتلى من التّتار، فكان يوما مشهودا. و دخل السلطان الشام و فى خدمته جماعة من الأعيان، منهم: سنقر الأشقر الذى كان تسلطن و تلقّب بالملك الكامل، و أيتمش السعدىّ، و [الأمير علم الدين سنجر] الدّويدارىّ، و بلبان الهارونىّ؛ ثم قدم بعد ذلك [الأمير بدر الدين] الأيدمرىّ بمن معه من العسكر عائدا من تتبع التّتار بعد ما أنكى فيهم نكاية عظيمة، و وصل إلى حلب و أقام بها، و سيّر أكثر من معه يتبعونهم، فهلك من التّتار خلق كثير غرقوا بالفرات عند عبورهم. و عند ما عدوه نزل إليهم أهل البيرة فقتلوا منهم مقتلة عظيمة و أسروا منهم جمعا كثيرا، و تفرّق جمع التّتار و أخذت أموالهم.

و أقام السلطان بدمشق إلى ثانى شهر رمضان خرج منه عائدا إلى الديار المصريّة، و خرج الناس لوداعه مبتهلين بالدعاء له، و سار حتى دخل الديار المصريّة يوم ثانى عشرين الشهر بعد أن احتفل أهل مصر لملاقاته، و زيّنت الديار المصرية زينة لم ير مثلها من مدّة سنين، و عملت بها القلاع، و شقّ القاهرة فى مروره إلى قلعة الجبل حتى طلع إليها؛ فكان هذا اليوم من الأيام المشهودة، و تضاعف سرور الناس بسلامته و بنصر المسلمين على العدوّ المخذول.

ثمّ إنّ السلطان عقيب دخوله إلى مصر قبض على الأمير ركن الدين اياجى الحاجب، و بهاء الدين يعقوب مقدّم الشّهرزوريّة بقلعة الجبل. و استمرّ السلطان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۰۷

بمصر إلى خامس ذى القعدة من السنة قبض على الأمير أيتمش السّعدىّ بقلعة الجبل و حبسه بها، ثم أرسل إلى نائب دمشق بالقبض

على الأمير بلبان الهارونىّ بدمشق فقبض عليه.

و فى هذه السنة (أعنى سنة ثمانين و ستمائة) تربت جزيرة كبيرة ببحر النيل تجاه قرية بولاق

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٧، ص: ٣٠٨

و اللّوق، و انقطع بسببها مجرى البحر ما بين قلعة المكس و ساحل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٧، ص: ٣٠٩

باب البحر، و الرّملة [و] بين جزيرة الفيل و هو المار تحت منية السّيرج، و انسدّ هذا البحر و نشف بالكلّية، و اتصل ما بين المقس و جزيرة الفيل بالمشى، و لم يعهد

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٧، ص: ٣١٠

فيما تقدّم، و حصل لأهل القاهرة مشقّة من نقل الماء الحلو لبعد البحر، فأراد السلطان حفره فنهوه عن ذلك، و قالوا له: هذا ينشف إلى الأبد، فتأسّف السلطان و غيره على ذلك.

قلت: و كذا وقع، و نحن الآن لا نعرف أين كان جريان البحر المذكور إلّا بالحدس، لإنشاء الأملاك و البساتين و العمائر و الحارات فى محلّ مجرى البحر المذكور، فسبحان القادر على كلّ شىء!

ثم فى أوّل سنة إحدى و ثمانين و ستمائة ورد الخبر على السلطان أنّه تسلطن فى مملكة التّتار مكان أبغا بن هولاكو أخوه لأبيه أحمد بن هولاكو، و هو مسلم حسن الإسلام و عمره يومئذ مقدار ثلاثين سنة، و أنّه وصلت أوامره إلى بغداد تتضمّن إظهار شعائر الإسلام و إقامة مناره، و أنّه أعلى كلمة الدين، و بنى الجوامع و المساجد و الأوقاف و رتّب القضاة، و أنه انقاد إلى الأحكام الشرعية، و أنّه ألزم أهل الذّمّة بلبس الغيار، و ضرب الجزية عليهم، و يقال إنّ إسلامه كان فى حياة والده هولاكو، فسرّ السلطان بذلك سرورا عظيما. و بعد مدّة قبض السلطان على

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٧، ص: ٣١١

الأمير بدر الدين بيسرى، و على علاء الدين كشتغدى الشّمسىّ و اعتقلهما بقلعة الجبل، و ذلك فى يوم الأحد مستهلّ صفر من السنة. و استمرّ السلطان على ذلك إلى يوم الأربعاء ثانى عشرين شعبان طافوا بكسوة البيت العتيق التى عملت برسم الكعبة، عظّمها اللّه تعالى، بمصر و القاهرة على العادة، و لعبت مماليك السلطان الملك المنصور قلاوون أمام الكسوة بالرّماح و السلاح.

قلت: و أظنّ هذا هو أوّل ابتداء سوق المحمل المعهود الآن، فإنّنا لم نقف فيما مضى على شىء من ذلك مع كثرة التفاتنا إلى هذا المعنى، و لهذا غلب على ظنّى من يوم ذاك بدأ السوق المعهود الآن، و لم يكن إذ ذاك على هيئة يومنا هذا، و إنّما ازداد بحسب اجتهاد المعلّمين، كما وقع ذلك فى غيره من الفنون و الملاعيب و العلوم، فإن مبدأ كلّ أمر ليس كنهايته، و إنّما شرع كلّ معلّم فى اقتراح نوع من أنواع السّوق إلى أن انتهى إلى ما نحن عليه الآن، و لا سبيل إلى غير ذلك.

يعرف ما قلته من له إلمام بالفنون و العلوم إذا كان له ذوق و عقل. و على هذه الصيغة أيضا اللعب بالرمح فإنّ مماليك قلاوون هم أيضا أحدثوه، و إن كانت الأوائل كانت تلعبه، فليس كان لعبهم على هذه الطريقة؛ و أنا أضرب لك مثلا لمصداق قولى فى هذا الفنّ، و هو أنّ مماليك الملك الظاهر برقوق كان أكثرهم قد حاز من هذا الفنّ طرفا جيّدا، و صار فيهم من يضرب بلعبه المثل، و هم جماعة كثيرة يطول الشرح فى ذكرهم، و مع هذا أحدث معلّمو زماننا هذا أشياء لم يعهدوها أولئك من تغيير القبض على الرمح فى مواطن كثيرة فى اللّعب، حتى إنّ لعب زماننا هذا يكاد أنّه يخالف لعب أولئك فى غالب قبوضاتهم و حركاتهم. و هذا أكبر شاهد لى على ما نقلته من أمر المحمل، و تعداد فنونه، و كثرة ميادينه، و اختلاف

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٧، ص: ٣١٢

أسمائها لتغيير لعب الرمح فى هذه المدّة اليسيرة من صفة إلى أخرى، فكيف و هذا الذى ذكرناه من ابتداء السوق من سنة إحدى و

ثمانين و ستمائة! فمن باب أولى تكون زيادات أنواع سوق المحمل أحقّ بهذا لطول السنين، و لكثرة من باشره من المعلّمين الأستاذين، و لتغير الدّول، و لمحبّة الملوك و تعظيمهم لهذا الفن، و لإنفاق سوق من كان حاذقا فى هذا الفن. و قد صنّفت أنا ثمانية ميادين كلّ واحد يخالف الآخر فى نوعه لم أسبق إلى مثلها قديما و لا حديثا، لكنّنى لم أظهرها لكساد هذا الفنّ و غيره فى زماننا هذا، و لعدم الإنصاف فيه و كثرة حسّاده ممّن يدّعى فيه المعرفة و هو أجنبىّ عنها، لا يعرف اسم نوع من أندابه على جليّته بل يدّعيه جهلا، و يقوى على دعواه بالشّوكة و العصبيّة. و للّه درّ القائل:

أيّها المدّعى سليمى كفاحا لست منها و لا قلامة ظفر

إنّما أنت من سليمى كواو ألحقت فى الهجاء ظلما بعمرو

و شاهدى أيضا قول العلّامة جار اللّه محمود الزّمخشرىّ و أجاد، رحمه اللّه تعالى:

و أخّرنى دهرى و قدّم معشرا على أنّهم لا يعلمون و أعلم

و مذ أفلح الجهّال أيقنت أنّنى أنا الميم و الأيام أفلح أعلم

قلت: و تفسير الأفلح هو مشقوق الشّفة العليا، و الأعلم مشقوق الشّفة السّفلى، و فائدة ذلك أن مشقوق الشفتين العليا و السّفلى لا يقدر أن يتلفّظ بالميم و لا ينطق بها. فانظر إلى حسن هذا التخيّل و الغوص على المعانى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۱۳

و ما أحسن قول الإمام العلّامة القاضى الفاضل عبد الرحيم وزير السلطان صلاح الدّين، و هو:

ما ضرّ جهل الجاهلى ن و لا انتفعت أنا بحذقى

و زيادة فى الحذق فه ى زيادة فى نقص رزقى

و قول الشّريف الرّضى فى المعنى:

ما قدر فضلك ما أصبحت ترزقه ليس الحظوظ على الأقدار و المهن

قد كنت قبلك من دهرى على حنق فزاد ما بك فى غيظى على الزمن

و فى المعنى:

كم فاضل فاضل أعيت مذاهبه و جاهل جاهل تلقاه مرزوقا

هذا الذى ترك الألباب حائرة و صيّر العالم النّحرير زنديقا

قلت: و يعجبنى المقالة السادسة عشرة من كتاب «أطباق الذهب» للعلّامة شرف الدين عبد المؤمن الأصفهانىّ المعروف بشوروة، و هى: «طبع الكريم لا يحتمل حمة الضّيم، و هواء الصيف لا يقبل غمّة الغيم؛ و النّبيل يرضى النّبال و الحسام، و يأبى أن يسام؛ و لأن يقتل صبرا، و يودع قبرا؛ أحبّ إليه من أن يصيبه نشّاب الجفاء، من جفير الأكفاء؛ يهوى المنيّة، و لا يرضى الدّنيّة؛ يستقبل السيف، و لا يقبل الحيف؛ إن سيم أخذته الهزّة، و إن ضيم أخذته

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۱۴

العزّة؛ إن عاشرته سال عذبا، و إن عاسرته سلّ عضبا؛ إن شاربته تخمّر، و إن حاربته تنمّر؛ يرى العزّ مغنما، و الذّل مغرما، و كان كأنف اللّيث لا يشتمّ مرغما!.

فيا هذا كن فى الدنيا مىّ الأنف منيع الجناب، أبىّ النفس طرير النّاب؛ و لا تصحب الدنيا صحبة بعال، و لا تنظر إلى أبنائها إلّا من عال؛ و لا تخفض جناحك لبنيها، و لا تضعضع ركنك لبانيها؛ و لا تمدّن عينيك إلى زخارفها، و لا تبسط يدك إلى مخارفها؛ و كن من الأكياس، و اتل على اللّئام سورة الناس، و لا تصعّر خدّك للناس». انتهى.

قلت: و قد خرجنا عن المقصود غير أنّنا وجدنا المقال فقلنا. و لنعد إلى ما نحن فيه من ترجمة الملك المنصور قلاوون.

و دام السلطان الملک المنصور بدیار مصر إلی سنة ثلاث و ثمانین و ستمائة، توفّی صاحب حماة الملک المنصور محمد الأیوبیّ، فأنعم السلطان الملک المنصور علی ولده بسلطنة حماة، و ولّاه مکان والده المنصور. ثم تجهّز السلطان فی السنة المذکورة و خرج من الدیار المصریّة بعسکره متوجّها إلی الشام فی أواخر جمادی الأولی، و سار حتی دخل دمشق فی ثانی عشر جمادی الآخرة، و أقام بدمشق إلی أن عاد إلی جهة الدیار المصریّة فی الثّلث الأخیر من لیلة السبت ثالث عشرین شعبان، و سار حتی دخل مصر فی النصف من شهر رمضان، و أقام بدیار مصر إلی أوّل سنة أربع و ثمانین و ستمائة تجهّز و خرج منها بعساکره إلی جهة الشام، و سافر حتی دخل دمشق یوم السبت ثانی عشرین المحرّم من السنة المذکورة، و عرض العسکر الشامی عدّة أیّام، و خرجوا جمیعا قاصدین المرقب فی یوم الاثنین ثانی صفر. و کان

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۱۵

قد بقی فی ید سنقر الأشقر قطعة من البلاد، منها: بلاطنس و صهیون و برزیه و غیر ذلک، و کان عمل السلطان فی الباطن انتزاع ما یمکن انتزاعه من ید سنقر الأشقر المذکور و إفساد نوّابه. فاتّفق الحال بین نوّاب السلطان و بین نوّاب سنقر الأشقر علی تسلیم بلاطنس فسلّمت فی أوّل صفر. و وافی السلطان البشری بتسلیمها و هو علی عیون القصب فی توجّهه إلی حصار المرقب فسرّ بذلک و استبشر بنیل مقصوده من المرقب؛ و کان فی نفس السلطان من أهل المرقب لما فعلوا مع عسکره ما فعلوا فی السنین الماضیة، فنازل السلطان حصن المرقب فی یوم الأربعاء عاشر صفر، و شرع العسکر فی عمل الستائر و المجانیق. فلمّا انتهت الستائر التی للمجانیق حملتها المقاتلة لباب الحصن، فسقطت السّتارة إلی برکة کبیرة کان علیها جماعة من أصحاب الأمیر علم الدین سنجر الدّویداریّ، منهم شمس الدین سنقر أستاداره و عدّة من ممالیکه فاستشهدوا جمیعهم، رحمهم اللّه تعالی.

ثمّ فی یوم الأحد رابع عشره، حضر رسل الفرنج من عند ملکهم الإسبتار، و سألوا السلطان الصّلح و الأمان لأهل المرقب علی نفوسهم و أموالهم و یسلّمون الحصن المذکور، فلم یجبهم السلطان إلی ذلک، و کمل نصب المجانیق و رمی بها و شعّث الحصن و هدم معظم أبراجه و استمرّ الحال إلی سادس عشر شهر ربیع الأوّل، زحف السلطان علی الحصن فأذعن من فیه بالتسلیم؛ و حصلت المراسلة فی معنی ذلک.

فلمّا کان یوم الجمعة ثامن عشر شهر ربیع الأوّل المذکور سلّم، و رفعت علیه الأعلام الإسلامیّة و نزل من به بالأمان علی أرواحهم فرکبوا، و جهّز معهم من أوصلهم إلی أنطرطوس. [و] بالقرب من هذا الحصن [مرقیّة] و هی بلدة صغیرة علی البحر، و کان

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۱۶

صاحبها قد بنی فی البحر برجا عظیما لا یرام و لا تصله النّشّاب و لا حجر المنجنیق و حصّنه؛ و اتفق حضور رسل صاحب طرابلس إلی السلطان بطلب مراضیه، فآقترح علیه خراب هذا البرج و إحضار من کان فیه أسیرا من الجبیلیّین الذین کانوا مع صاحب جبیل فأحضر من بقی منهم فی قید الحیاة و اعتذر عن هدم البرج بأنّه لیس له، و لا هو تحت حکمه؛ فلم یقبل السلطان اعتذاره و صمّم علی طلبه منه، فقیل: إنّه اشتراه من صاحبه

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۱۷

بعدّة قری و ذهب کثیر، و دفعه إلی السلطان، فأمر بهدمه فهدم و استراح الناس منه. و حصل الاستیلاء فی هذه الغزوة علی المرقب و أعماله و مرقیّة. و المرقب هو من الحصون المشهورة بالمنعة و الحصانة و هو کبیر جدا، و لم یفتحه السلطان صلاح الدین یوسف بن أیوب فیما فتح، فأبقاه السلطان الملک المنصور بعد أن أشیر علیه بهدمه، و رمّم شعثه و استناب فیه بعض أمرائه و رتّب أحواله. و کتبت البشائر بهذا الفتح إلی الأقطار.

و لمّا کان السلطان الملک المنصور علی حصار المرقب جاءته البشری بولادة ولده «الملک الناصر محمد بن قلاوون»، فمولد الملک الناصر محمد هذه السنة، فیحفظ إلی ما یأتی ذکره فی ترجمته، إن شاء اللّه تعالی، فإنّه أعظم ملوک الترک بلا مدافعة.

و لمّا فتح السلطان الملک المنصور المرقب عملت الشعراء فی ذلک عدّة قصائد، فمن ذلک ما قاله العلّامة شهاب الدین أبو الثّناء محمود، و هی قصیدة طنّانة أوّلها:

اللّه أکبر هذا النّصر و الظّفر هذا هو الفتح لا ما تزعم السّیر

هذا الذی کانت الآمال إن طمحت إلی الکواکب ترجوه و تنتظر

فانهض و سر و املک الدّنیا فقد نحلت شوقا منابرها و ارتاحت السّرر

کم رام قبلک هذا الحصن من ملک فطال عنه و ما فی باعه قصر

و کیف تمنحه الأیّام مملکة کانت لدولتک الغرّاء تدّخر

و کیف یسمو إلیها من تأخّر عن إسعاده منجداک القدر و القدر

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۱۸

غرّ العدا منک حلم تحته همم لأشقر البرق من تحجیلها غرر

لها و إن أشبهت لطف النّسیم سری معنی العواصف لا تبقی و لا تذر

أوردتها المرقب العالی و لیس سوی ماء المجرّة فی أرجائها نهر

کأنّه و کأنّ الجوّ یکنفه و هم تمثّله فی طیّها الفکر

یختال کالغادة العذراء قد نظمت منه مکان اللآلی الأنجم الزّهر

له الهلال سوار و السّها شنف و القلب قلب و مسودّ الدّجی طرر

تعلو الریاح إلیه کی تحیط به [خبرا] و تدنو و ما فی ضمنها خبر

و یومض البرق یهفو نحوه لیری أدنی رباه و یأتی و هو معتذر

و لیس یروی بماء السّحب مصعدة إلیه من فیه إلّا و هو منحدر

و منها:

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة؛ ج۷؛ ص۳۱۸

و أضرمت حوله نار لها لهب من السّیوف و من نبل الوغی شرر

و منها:

کأنّها و مجانیق الفرنج لها فرائس الأسد فی أظفارها الظّفر

و کم شکا الحصن ما یلقی فما اکترثت یا قلبها أ حدید أنت أم حجر

و للنقوب دبیب فی مفاصله تثیر سقما و لا یبدو له أثر

أضحی به مثل صبّ لا تبین به نار الهوی و هی فی الأحشاء تستعر

و منها:

رکبت فی جندک الأولی إلیه ضحا و النصر یتلوک منه جندک الأخر

قد زال تجلی قواه عن قواعده و خرّ أعلاه نحو الأرض یبتدر

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۱۹

و ساخ و انکشفت أقباؤه و بدا لدیک من مضمرات النصر ما ستروا

فمال یهوی إلیهم کلّ لیث وغی له من البیض ناب و القنا ظفر

و منها بعد أبیات کثیرة براعة المقطع:

إن لم يوفّ الورى بالشكر ما فتحت يداك فاللّه و الأملاك قد شكروا

ثم سار الملك المنصور قلاوون من المرقب إلى دمشق و أقام بها أياما، ثم خرج منها عائدا إلى نحو الديار المصريّة فى بكرة الاثنين ثانى عشر جمادى الأولى؛ فدخل الديار المصريّة فى أوائل شهر رجب.

و لمّا دخل القاهرة و أقام بها أخذ فى عمل أخذ الكرك من الملك المسعود نجم الدين خضر ابن السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداريّ حتى أخذت، و ورد عليه الخبر بأخذها فى ليلة الجمعة سابع صفر [سنة خمس و ثمانين و ستمائة] و دقّت البشائر بالديار المصريّة ثلاثة أيام.

ثمّ فى سنة ستّ و ثمانين و ستمائة جهّز السلطان طائفة من العسكر بالديار المصريّة صحبة الأمير حسام الدين طرنطاى إلى الشام لحصار صهيون و برزيه و انتزاعهما من يد سنقر الأشقر، فسار حسام الدين المذكور بمن معه حتى وصل دمشق فى أثناء المحرّم، و استصحب معه الأمير حسام الدين لاچين نائب الشام، و توجّه الجميع إلى صهيون بالمجانيق فوصلوها و شرعوا فى حصارها؛ و كان سنقر الأشقر قد استعدّ لهم و جمع إلى القلعة خلقا كثيرا؛ فحاصروه أيّاما، ثم بعد ذلك توجّه الأمير حسام الدين إلى برزيه و حصرها و استولى عليها، و هى ممّا يضرب المثل بحصانتها. و لمّا فتحها وجد فيها خيولا لسنقر الأشقر. و لمّا فتحت برزيه لانت عريكة سنقر الأشقر،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۲۰

و أجاب إلى تسليم صهيون على شروط اشترطها، فأجابه طرنطاى إليها، و حلف له بما وثق به من الأيمان، و نزل من قلعة صهيون بعد حصرها شهرا واحدا، و أعين على نقل أثقاله بجمال كثيرة و حضر بنفسه و أولاده و أثقاله و أتباعه إلى دمشق. ثم توجّه إلى الديار المصريّة صحبة طرنطاى المذكور و وفّى له بجميع ما حلف عليه؛ و لم يزل يذبّ عنه أيام حياته أشدّ ذبّ. و أعطى السلطان لسنقر الأشقر بالديار المصريّة خبز مائة فارس، و بقى وافر الحرمة إلى آخر أيام الملك المنصور قلاوون. و انتظمت صهيون و برزيه فى سلك الممالك المنصوريّة.

ثم خرج الملك المنصور من الديار المصرية قاصدا الشام فى يوم سابع عشرين شهر رجب سنة ستّ و ثمانين و سار حتى وصل غزّة أقام بتلّ العجول أياما إلى شوّال، ثم رجع إلى الديار المصرية فدخلها يوم الاثنين ثالث عشرين شوّال، و لم يعلم أحد ما كان غرضه فى هذه السّفرة. و فى شوّال هذا سلطن الملك المنصور ولده الملك الأشرف صلاح الدين خليلا و جعله مكان أخيه الملك الصالح علاء الدين علىّ بعد موته، و دقّت البشائر لذلك سبعة أيام بالديار المصرية و غيرها، و حلف الناس له و العساكر، و خطب له بولاية العهد.

ثمّ فى سنة ثمان و ثمانين و ستّمائة فتحت طرابلس، و هو أنّ صاحب طرابلس كان وقع بينه و بين سير تلميه الفرنجيّ، و كان من أصحاب صاحب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۲۱

الحصن الذى أخربه صاحب طرابلس رضاء للملك المنصور قلاوون حسب ما تقدّم ذكره.

فحصلت بينه و بين صاحب طرابلس وحشة بسبب ذلك، و اتّفق موت صاحب الحصن، و سأل سير تلميه من السلطان الملك المنصور المساعدة، و أن يتقدّم للأمير بلبان الطّبّاخى السّلحدار أن يساعده على تملّك طرابلس، على أن تكون مناصفة، و بذل فى ذلك بذولا كثيرة، فسوعد إلى أن تمّ له مراده، و رأى أنّ الذى بذله للسلطان لا يوافقه الفرنج عليه، فشرع فى باب التّسويف و المغالطة و مدافعة الأوقات؛ فلمّا علم السلطان باطن أمره عزم على قتاله قبل استحكام أمره، فتجهّز و خرج من الديار المصريّة بعساكره لحصار طرابلس، و سار حتّى وصل دمشق و أقام بها، ثم تهيّأ و خرج منها، و نازل طرابلس فى مستهلّ شهر ربيع الأوّل، و نصب عليها المجانيق و ضايقها مضايقة شديدة إلى أن ملكها بالسيف فى الرابعة من نهار الثلاثاء رابع شهر ربيع الآخر، و شمل القتل و الأسر لسائر من كان بها، و

غرق منهم فى الماء جماعة كثيرة، و نهب من الأموال و الذخائر و المتاجر و غير ذلك ما لا يوصف، ثم أحرقت و خرّب سورها، و كان من أعظم الأسوار و أمنعها. ثم تسلّم حصن أنفة و كان أيضا لصاحب طرابلس

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۲۲

فأمر السلطان بتخريبه، ثم تسلّم السلطان البترون و جميع ما هناك من الحصون.

و كان لطرابلس مدّة طويلة بأيدى الفرنج من سنة ثلاث و خمسمائة إلى الآن.

قلت: و كان فتح طرابلس الأوّل فى زمن معاوية بن أبى سفيان، رضى اللّه عنه، و تنّقلت فى أيدى الملوک، و عظمت فى زمن بنى عمّار قضاة طرابلس و حكّامها. فلمّا كان فى آخر المائة الخامسة ظهرت طوائف الفرنج فى الشام و استولوا على البلاد فامتنعت عليهم طرابلس مدّة حتّى ملكوها بعد أمور فى سنة ثلاث و خمسمائة، و استمرّت فى أيديهم إلى أن فتحها الملک المنصور قلاوون فى هذه السنة.

و قال شرف الدين محمد بن موسى المقدسىّ الكاتب فى «السّيرة المنصوريّة»:

إن طرابلس كانت عبارة عن ثلاثة حصون مجتمعة باللسان الرومى، و كان فتحها على يد سفيان بن مجيب الأزدىّ، بعثه لحصارها معاوية بن أبى سفيان فى خلافة عثمان بن عفّان، رضى اللّه عنه، انتهى كلام شرف الدين باختصار.

قلت: و أما طرابلس القديمة كانت من أحسن المدن و أطيبها، ثمّ بعد ذلک اتخذوا مكانا على ميل من البلدة و بنوه مدينة صغيرة بلا سور، فجاء مكانا ردىء الهوى و المزاج من الوخم. انتهى.

و لمّا فتحت طرابلس كتبت الشائر إلى الآفاق بهذا النصر العظيم، و دقّت البشائر و التهانى و زيّنت المدن و عملت القلاع فى الشوارع و سرّ الناس بهذا النصر غاية السّرور. و أنشأ فى هذا المعنى القاضى تاج الدين ابن الأثير كتابا إلى صاحب اليمن بأمر الملک المنصور يعرّفه بهذا الفتح العظيم و بالبشارة به. و أوّله:

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۲۳

[بسم اللّه الرحمن الرحيم أعزّ اللّه] نصر المقام العالىّ السلطانىّ الملكىّ المظفّرىّ الشمسىّ. ثم استطرد و حكى أمر الفتح و غيره إلى أن قال فأحسن فيما قال: و كانت الخلفاء و الملوک فى ذلک الوقت ما فيهم إلا من هو مشغول بنفسه، مكبّ على مجلس أنسه؛ يرى السلامة غنيمة، و إذا عنّ له وصف الحرب لم يسأل [منها إلا] عن طرق الهزيمة؛ قد بلغ أمله من الرتبة، و قنع [من ملكه كما يقال با] لسكة و الخطبة؛ أموال تنهب، و ممالک تذهب؛ لا يبالون بما سلبوا، و هم كما قيل:

إن قاتلوا قتلوا أو طاردوا طردوا أو حاربوا حربوا أو غالبوا غلبوا

إلى أن أوجد اللّه من نصر دينه، و أذلّ الكفر و شياطينه. انتهى.

قلت: و الكتاب هذا خلاصته و الذى أعجبنى منه.

و عمل الشعراء فى هذا الفتح عدّة قصائد، فمن ذلک ما قاله العلّامة شهاب الدين أبو الثّناء محمود كاتب الدّرج المقدّم ذكره يمدح الملک المنصور قلاوون و يذكر فتحه طرابلس، و القصيدة أولها:

علينا لمن أولاک نعمته الشكر لأنّک للإسلام يا سيفه ذخر

و منّا لک الإخلاص فى صالح الدّعا إلى من له فى أمر نصرتک الأمر

و للّه فى إعلاء ملكک فى الورى مراد و فى التأييد يوم الوغى سرّ

ألا هكذا يا وارث الملک فليكن جهاد العدا لا ما توالى به الدّهر

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۲۴

و منها:

نهضت إلى عليا طرابلس التى أقلّ عناها أنّ خندقها البحر

و القصيدة طويلة كلّها على هذا المنوال، أضربت عنها خوف الإطالة. انتهى.

ثم عاد الملك المنصور إلى الديار المصريّة فى جمادى الآخرة من السنة، و استمرّ بالقاهرة إلى أوّل سنة تسع و ثمانين و ستمائة، جهّز الأمير حسام الدين طرنطاى كافل الممالك الشاميّة إلى بلاد الصّعيد، و معه عسكر جيّد من الأمراء و الجند، فسكّن تلك النواحى و أباد المفسدين و أخذ خلقا عظيما من أعيانهم رهائن، و أخذ جميع أسلحتهم و خيولهم، و كان معظم سلاحهم السيوف و الحجف و الرماح، و أحضروا إلى السلطان من ذلك عدّة أحمال، ففرّق السلطان من الخيول و السلاح فيمن أراد من الأمراء و الجند و أودع الرهائن الحبوس.

و فى هذه السنة أيضا عاد الأمير عزّ الدين أيبك الأفرم من غزو بلاد السودان بمغانم كثيرة و رقيق كثير من النساء و الرجال و فيل صغير.

ثم فى هذه السنة أيضا رسم السلطان ألّا يستخدم أحد من الأمراء و غيرهم فى دواوينهم أحدا من النصارى و اليهود و حرّض على ذلك، فامتثل ذلك الأمراء جميعهم.

و فى هذه السنة عزم السلطان الملك المنصور على الحجّ فبلغه خبر فرنج عكّا، ففتر عزمه و تهيّأ للخروج إلى البلاد الشاميّة، و رأى أن يقدّم غزوهم و الانتقام على الحجّ؛ و أخذ فى تجهيز العساكر و البعوث، و ضرب دهليزه خارج القاهرة، و باب الدهليز إلى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۲۵

جهة عكّا. و خرج من القاهرة إلى مخيّمه و هو متوعّك لأيام خلت من شوّال، و لا زال متمرّضا بمخيّمه عند مسجد التبن خارج القاهرة إلى أن توفّى به فى يوم السبت سادس ذى القعدة من سنة تسع و ثمانين و ستمائة، و حمل إلى القلعة ليلة الأحد.

و تسلطن من بعده ولده الملك الأشرف صلاح الدين خليل الذى كان عهد له بالسلطنة قبل تاريخه حسب ما ذكرناه. و كثر أسف الناس عليه.

قال الحافظ أبو عبد اللّه شمس الدين محمد الذهبىّ فى «تاريخ الإسلام» بعد ما سماه و لقّبه قال: اشترى بألف دينار، و لهذا كان فى حال إمرته يسمّى بالألفىّ، و كان من أحسن الناس صورة فى صباه، و أبهاهم و أهيبهم فى رجوليّته، كان تامّ الشكل مستدير اللّحية قد و خطه الشّيب، على وجهه هيبة الملك و على أكتافه حشمة السلطنة، و عليه سكينة و وقار، رأيته مرات آخرها منصرفه من فتح طرابلس. و كان من أبناء الستين. ثم قال: و حدّثنى أبى أنه كان معجم اللسان لا يكاد يفصح بالعربية، و ذلك لأنه أتى به من بلاد التّرك و هو كبير. ثم قال بعد كلام آخر:

و عمل بالقاهرة ببين القصرين تربة عظيمة و مدرسة كبيرة، قال: و بيمارستانا للمرضى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۲۶

قلت: و من عمارته البيمارستان المذكور و عظم أوقافه تعرّف همّته، و نذكر عمارة البيمارستان إن شاء اللّه تعالى بعد ذلك. انتهى.

و قال غيره: و كان يعرف أيضا قلاوون الآقسنقرىّ الكاملىّ الصالحىّ النّجمىّ، لأن الأمير آق سنقر الكاملى كان اشتراه من تاجره بألف دينار، ثم مات الأمير آق سنقر المذكور بعد مدّة يسيرة، فارتجع هو و خشداشيته إلى الملك الصالح نجم الدين أيّوب فى سنة سبع و أربعين و ستمائة، و هى السنة التى مات فيها الملك الصالح أيّوب، و هذا القول هو الصحيح فى أصل مشتراه.

قلت: و لمّا طلع الملك المنصور قلاوون إلى قلعة الجبل ميّتا، أخذوا فى تجهيزه و غسله و تكفينه إلى أن تمّ أمره، و حملوه و أنزلوه إلى تربته ببين القصرين فدفن بها. و كانت مدّة ملكه إحدى عشرة سنة و ثلاثة أشهر، رحمه اللّه تعالى، و كان سلطانا كريما حليما شجاعا مقداما عادلا عفيفا عن سفك الدماء مائلا إلى فعل الخير و الأمر بالمعرف، و له مآثر كثيرة:

منها البيمارستان الذى أنشأه ببين القصرين، و تمّم عمارته فى مدة يسيرة، و كان مشدّ عمارته الأمير علم الدين سنجر الشّجاعىّ

المنصوری وزیر الدیار المصریة و مشدّ

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۲۷

دواوینها، ثمّ ولی نیابة دمشق و نهض بهذا العمل العظیم و فرغ منه فی أیّام قلائل، و لمّا کمل عمارة الجمیع امتدحه معین الدین بن تولوا بقصیدة أوّلها:

أنشأت مدرسة و مارستانا لتصحّح الأدیان و الأبدانا

قلت: و هذا البیمارستان و أوقافه و ما شرطه فیه لم یسبقه إلی ذلک أحد قدیما و لا حدیثا شرقا و لا غربا. و جدّد عمارة قلعة حلب و قلعة کرکر و غیر موضع.

و أمّا غزواته فقد ذکرناها فی وقتها. و جمع من الممالیک خلقا عظیما لم یجمعهم أحد قبله، فبلغت عدّتهم اثنی عشر ألفا، و صار منهم الأمراء الکبار و النوّاب، و منهم من تسلطن من بعده علی ما یأتی ذکره. و تسلطن أیضا من ذریّته سلاطین کثیرة آخرهم الملک المنصور حاجّیّ الذی خلعه الملک الظاهر برقوق. و أعظم من هذا أنّه من تسلطن من بعده من یوم مات إلی یومنا هذا، إمّا من ذریته، و إمّا من ممالیکه أو ممالیک ممالیک أولاده و ذریّته، لأنّ یلبغا مملوک السلطان حسن، و حسن ابن محمد بن قلاوون، و برقوق مملوک یلبغا، و السلاطین بأجمعهم ممالیک برقوق و أولاده. انتهی. و کان من محاسن الملک المنصور قلاوون أنّه لا یمیل إلی جنس بعینه بل کان میله لمن یتخیّل فیه النّجابة کائنا من کان.

قلت: و لهذا طالت مدّة ممالیکه و ذرّیته باختلاف أجناس ممالیکه، و کانت حرمته عظیمة علی ممالیکه لا یستطیع الواحد منهم أن ینهر غلامه و لا خادمه خوفا

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۲۸

منه، و لا یتجاهر أحد منهم بفاحشة، و لا یتزوّج إلا إن زوّجه هو بعض جواریه؛ هذا مع کثرة عددهم.

قلت رحمه اللّه تعالی: لو لم یکن من محاسنه إلّا تربیة ممالیکه و کفّ شرّهم عن الناس لکفاه ذلک عند اللّه تعالی، فإنّه کان بهم منفعة للمسلمین، و مضرّة للمشرکین و قیامهم فی الغزوات معروف، و شرّهم عن الرعیّة مکفوف؛ بخلاف زماننا هذا، فإنّه مع قلّتهم و ضعف بنیتهم و عدم شجاعتهم، شرّهم فی الرّعیة معروف، و نفعهم عن الناس مکفوف؛ هذا مع عدم التجارید و التقاء الخوارج و قلّة الغزوات، فإنّه لم یقع فی هذا القرن، و هو القرن التاسع، لقاء مع خارجیّ غیر وقعة تیمور، و افتضحوا منه غایة الفضیحة، و سلّموا البلاد و العباد و تسحّب أکثرهم من غیر قتال.

و أمّا الغزوات فأعظم ما وقع فی هذا القرن فتح قبرس، و کان النصر فیها من اللّه سبحانه و تعالی، انکسر صاحبها و أخذ من جماعة یسیرة، تلقّاهم بعض

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۲۹

عساکره. خذلان من اللّه تعالی! وقع ذلک کلّه قبل وصول غالب عسکر المسلمین.

و أمّا غیر ذلک من الغزوات فسفر فی البحر ذهابا و إیابا، فکیف لو کان هؤلاء أیام السلطان صلاح الدین یوسف بن أیّوب عند ما غزا الساحل، و غاب عن الدیار المصریّة نحو العشر سنین، لا یفارق فیها الخیم و التّشتّت عن الأوطان و اتّصال الغزوة بالغزوة! أو لو کانوا أیّام الملک الکامل محمد لمّا قاتل الفرنج علی دمیاط نحو الثلاث سنین لم یدخل فیها مصر إلی أن فتح اللّه علیه، أو لو کانوا أیّام الملک الظاهر بیبرس و هو یتجرّد و یغزو فی السنة الواحدة المرّة و المرّتین و الثلاث و هلمّ جرّا! إلی أیّام الملک الأشرف شعبان بن حسین لمّا أخذت الإسکندریة. و هذا شیء معروف لا یشاحّ فیه أحد. و أعجب من هذا کلّه أنّ أولئک کانوا علی حظّ وافر من الأدب و الحشمة و التواضع مع الأکابر، و إظهار الناموس و عدم الازدراء بمن هو دونهم، و هؤلاء است فی الماء و أنف فی السماء، لا یهتدی أحدهم لمسک لجام الفرس، و إن تکلّم تکلّم بنفس؛ لیس لهم صناعة، إلّا نهب البضاعة؛ یتقوّون علی الضعیف، و یشرهون حتّی فی

الرّغيف؛ جهادهم الإخراق بالرئيس، و غزوهم فى التّبن و الدريس؛ و حظّهم منقام، و لا مروءة لهم و السلام. انتهى.

قال ابن كثير فى حقّ الملك المنصور قلاوون المذكور: اشتراه الملك الصالح نجم الدين أيّوب من الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيّوب بألف دينار، فلذلك سمّى بالألفىّ.

قلت: و هذا بخلاف ما نقله الشيخ صلاح الدين خليل بن أيبك الصّفدىّ فى أنّ الذى اشتراه بألف دينار إنّما هو الأمير آق سنقر الكاملىّ، و الأرجح عندى ما قاله الصّفدىّ فى أنّ الذى اشتراه بألف دينار إنما هو الأمير آق سنقر من وجوه عديدة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۳۰

قال ابن كثير أيضا: و كان الملك المنصور قد أفرد من مماليكه ثلاثة آلاف و سبعمائة مملوك من الأمراء و الجراكسة و جعلهم بالقلعة، و سمّاهم «البرجيّة»، و أقام نوّابه فى البلدان من مماليكه، و هم الذين غيروا ملابس الدولة الماضية.

قال الصلاح الصّفدىّ: و لبسوا أحسن الملابس، لأنّ فى الدولة الماضية الصلاحيّة كان الجميع يلبسون كلّوتات صفر مضرّبة بكلبندات بغير شاشات،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۳۱

و شعورهم مضفورة دبابيق فى أكياس حرير ملوّنة، و كان فى خواصرهم موضع الحوائص بنود ملوّنة أو بعلبكّية، و أكمام أقبيتهم ضيّقة على زى ملابس الفرنج، و أخفافهم برغالى أو سقامين و من فوق قماشهم كمرات بحلق و إبزيم، و صوالقهم كبار يسع كلّ صولق نصف و يبة أو أكثر، و منديلهم كبير طوله ثلاث أذرع، فأبطل المنصور ذلک كلّه بأحسن منه، و كانت الخلع للأمراء المقدّمين المروزىّ،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۳۲

فخصّص الملك المنصور من الأمراء بلبس الطّرد وحش أربعة من خشداشيته، و هم: سنقر الأشقر الذى كان تسلطن و لقّب بالملک الكامل و البيسرى و الأيدمرىّ و الأفرم. و باقى الأمراء و الخاصّكيّة و البرّانيّة تلبس المروزىّ و الطبلخانات بالملّون، و العشرات بالعتّابى.

قلت: و هذا أيضا بخلاف زماننا فإنّه لبس فيه أوباش الناس الخلع السّنيّة، و أعجب من هذا أنّه لمّا لبس هؤلاء الخلع السّنيّة زالت تلك الأبّهة و الحشمة عن الخلع المذكورة و صارت كمن دونها من الخلع فى أعين الناس لمعرفتهم بمقام اللابس. انتهى.

قلت: و الآن نذكر ما وعدنا بذكره فى أوائل ترجمة الملك المنصور قلاوون من أمر كتّاب السّرّ، لأنّه هو الذى أحدث هذه الوظيفة و سمّى صاحبها بكاتب السّرّ على ما نبيّنه من أقوال كثيرة:

منها أنّه لمّا كان أيّام الملك الظاهر بيبرس كان الدّوادار يوم ذاک بلبان بن عبد اللّه الرومى. قال الشيخ صلاح الدين خليل الصّفدىّ: كان من أعيان الأمراء (يعنى عن بلبان المذكور) و من نجبائهم، و كان الملك الظاهر بيبرس يعتمد عليه و يحمّله أسراره إلى القصّاد. و لم يؤمّره إلا الملك السعيد ابن الملك الظاهر بيبرس.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۳۳

و استشهد بمصافّ حمص سنة ثمانين و ستمائة، و كان يباشر وظيفة الدّواداريّة و لم يكن معه كاتب سرّ، فاتّفق أنّه قال يوما لمحيى الدين بن عبد الظاهر: اكتب إلى فلان مرسوما أن يطلق له من الخزانة العالية بدمشق عشرة آلاف درهم، نصفها عشرون ألفا، فكتب المرسوم كما قال له و جهّزه إلى دمشق، فأنكروه و أعادوه إلى السلطان، و قالوا: ما نعلم! هل هذا المرسوم بعشرين نصفها عشرة أو بعشرة نصفها خمسة؟ فطلب السلطان محيى الدين و أنكر عليه ذلک، فقال: يا خوند، هكذا قال لى الأمير سيف الدين بلبان الدّوادار؛ فقال السلطان: ينبغى أن يكون للملک كاتب سرّ يتلقّى المرسوم منه شفاها. و كان الملك المنصور قلاوون حاضرا من جملة الأمراء فسمع هذا الكلام. و خرج الملک الظاهر عقيب ذلک إلى نوبة أبلستين، فلمّا توفّى الملک الظاهر و ملک الملک المنصور قلاوون

اتّخذ كاتب سرّ. انتهى.

كلام الصّفدىّ باختصار.

قلت: و فى هـذه الحكايـة دلالـة على أن وظيفة كتابة السرّ لم تكن قبل ذلك أبدا، لقوله: ينبغى للملك أن يكون له كاتب سرّ يتلقّى المرسوم منه شفاها. و أيضا تحقيق ما قلناه: أنّ وظيفة كتابة السرّ لم تكن قديما، و إنّما كانت الملوك لا يتلقّى الأمور عنهم إلّا الوزراء. قضيـة فخر الـدين بن لقمان مع القاضـى فتح الدين محمد بن عبد الظاهر فى الدولة الأشـرفيّة خليل بن قلاوون، و هو أنه لمّا توزّر فخر الدين بن لقمان قال له الملك المنصور:

من يكون عوضك فى الإنشاء؟ قال: فتح الدين بن عبد الظاهر، فولّى فتح الدين و تمكّن عند السلطان و حظى عنده؛ و فتح الدين هذا هو الذى قلنا عنه فى أوّل الكتاب إنه أوّل كاتب سرّ كان، و ظهر اسم هذه الوظيفة من ثمّ. انتهى. و حظى فتح الدين

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۳۴

عنـد السـلطان إلى الغايـة. فلمّـا كان بعض الأيام دخل فخر الـدين بن لقمان على السـلطان فأعطاه السـلطان كتابا يقرؤه، فلمّا دخل فتح الدين أخذ السلطان الكتاب منه و أعطاه لفتح الدين، و قال لفخر الدين: تأخّر! فعظم ذلک على فخر الدين بن لقمان.

قلت: و لو لا ـ أنّ هـذه الواقعـة خرق العـادة ما غضب ابن لقمان من ذلک، لأنّ العادة كانت يوم ذاک لا يقرأ أحـد على السـلطان كتابا بحضرة الوزير. انتهى.

و منها واقعة القاضـى فتح الدين المذكور مع شـمس الدين ابن السّـلعوس لمّا ولى الوزارة للملک الأشـرف خليل بن قلاوون، فإنّه قال لفتح الدين: اعرض علىّ كلّ ما تكتبه عن السـلطان كما هى العادة، فقال فتح الدين: لا سبيل إلى ذلک، فلما بلغ الملک الأشـرف هذا الخبر من الوزير المذكور، قال: صدق فتح الدين، فغضب من ذلک الوزير ابن السّلعوس.

قلت: و عندى دليل آخر أقوى من جميع ما ذكرته، أنّه لم أقف على ترجمة رجل فى الإسلام شرقا و لا غربا نعت بكاتب السرّ قبل فتح الدين هذا، و فى هذا كفاية. و ما ذكره صاحب صبح الأعشى و غيره ممّن كتبوا للنبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم و من بعده ليس فى ذلک دليـل على أنّهم كتّاب السّـرّ؛ بل ذلک دليل لكلّ كاتب كتب عن مخـدومه كائنا من كان. و نحن أيضا نـذكر الـذين ذكرهم صاحب صبـح الأعشـى و غيره من الكتّاب، و نذكر أيضا من ألحقناه بهم من كتّاب السّـرّ إلى يومنا هذا، ليعلم بذلک صدق مقالتى بذكرهم و ألقابهم و زمانهم. انتهى. قال: اعلم أنّ كتّاب النّبىّ، صـلّى اللّه عليه و سـلّم، كانوا نيّفا على ستة و ثلاثين كاتبا، لكن المشهور منهم: أبو بكر و عمر و عثمان و علىّ و معاوية بن أبى سفيان و مروان بن الحكم.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۳۵

قلت: و فى مروان خلاـف، لأـنّ الحافظ أبـا عبـد اللّه الـذهبىّ قـال فى ترجمـة مروان بن الحكم: له رؤيـة إن شـاء اللّه، و لم يعـدّه من الصـحابة، فكيف يكون من الكتّاب! و أيضا حذف جماعة من كبار الصـحابة كتّاب النّبىّ صـلّى اللّه عليه و سـلّم و أثبت مروان هذا، و فى صـحبته خلاف. و لو لا خشـية الإطالة لذكرنا من ذكره الحافظ العلامة مغلطاى ممّن كتب للنبىّ صـلّى اللّه عليه و سلّم ليعلم بذلک غلط من عـدّ مروان من الكتّاب. انتهى. قال: و لمّا توفّى النّبىّ، صـلّى اللّه عليه و سـلّم و صارت الخلافة إلى أبى بكر كتب عنه عمر بن الخطّـاب و عثمان و علىّ رضـى اللّه عنهم. فلمّا اسـتخلف عمر كتب عنه عثمان و علىّ و معاويـة و عبـد اللّه بن خلف الخزاعىّ، و كان زيـد بن ثـابت و زيـد بن أرقم يكتبان على بيت المال. فلمّا اسـتخلف عثمان كتب عنه مروان بن الحكم. فلمّا اسـتخلف علىّ كتب عنه عبـد اللّه بن رافع مولى النّبىّ صـلّى اللّه عليه و سـلّم و سـعيد بن نمران. فلمّـا اسـتخلف الحسن كتب عنه كتّـاب أبيه. فلمّا بايعوا معاوية كتب عنه عبـد اللّه بن أوس، و كتب عبد اللّه المذكور عن ابنه يزيد أيضا، و ابن أبيه معاوية بن يزيد. فلمّا خلع معاوية ابن يزيد نفسه و تولّى مروان بن الحكم كتب عنه سفيان الأحول و قيل عبيد اللّه بن أوس.

فلمّا اسـتخلف عبـد الملک بن مروان كتب عنه روح بن زنباع الجـذامىّ. فلما اسـتخلف الوليد كتب عنه قرّة بن شـريک، ثم قبيصة بن

ذؤيب، ثم الضحّاك ابن زمل. فلما استخلف سليمان كتب عنه يزيد بن المهلّب، ثم عبد العزيز بن

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ٣٣٦

الحارث. فلما استخلف الإمام عمر بن عبد العزيز رضى اللّه عنه كتب عنه رجاء بن حيوة الكندىّ، ثم ابن أبى رقيّة؛ فلما استخلف يزيد بن عبد الملك كتب عنه سعيد بن الوليد الأبرش، ثم محمد بن عبد اللّه بن حارثة الأنصارىّ.

فلما استخلف هشام بن عبد الملك أبقاهما على عادتهما، و استكتب معهما سالما مولاه. فلما استخلف الوليد بن يزيد كتب عنه العباس بن مسلم. فلما استخلف يزيد بن الوليد كتب عنه ثابت بن سليمان. فلما استخلف إبراهيم بن الوليد كتب عنه أيضا ثابت على عادته. فلما صارت الخلافة إلى مروان بن محمد بن مروان كتب عنه عبد الحميد بن يحيى مولى بنى عامر إلى حين انقراض الدول الأمويّة. ثم صارت الخلافة لبنى العباس فاتخذوا كتّابهم وزراء، و كان أوّل خلفاء بنى العباس أبو العباس عبد اللّه ابن محمد السفّاح فاتخذ أبا سلمة [حفص بن سليمان] الخلّال، و هو أوّل وزير وزر فى الإسلام؛ ثم استوزر معه [خالد بن] برمك و سليمان بن مخلد و الربيع بن يونس، فتراكمت عليهم الأشغال، و اتّسعت عليهم الأمور، فأفردوا للمكاتبات ديوانا، و كانوا يعبّرون عنه تارة بصاحب ديوان الرسائل، و تارة بصاحب ديوان المكاتبات، و تفرّقت دواوين الإنشاء فى الأقطار، فكان بكلّ مملكة ديوان إنشاء؛ و كانت الديار المصريّة من حين الفتح الإسلامى و إلى الدولة الطّولونية إمارة، و لم يكن لديوان الإنشاء فيها كبير أمر. فلما استولى أحمد بن طولون عظمت مملكتها و قوى أمرها فكتب عنه أبو جعفر محمد بن أحمد بن مودود. و كتب لولده خمارويه إسحاق بن نصر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ٣٣٧

العبادىّ. و توالت دواوين الإنشاء بذلك إلى حين انقراض الدولة الإخشيدية.

ثم كانت الدولة الفاطمية فعظم ديوان الإنشاء بها، و وقع الاعتناء به و اختيار بلغاء الكتّاب ما بين مسلم و ذمّىّ، فكتب للعزيز بن المعزّ فى الدولة الفاطمية أبو المنصور بن جورس النّصرانىّ، ثم كتب لابنه الحاكم و مات فى أيامه، و كتب للحاكم بعده القاضى أبو الطاهر النهركىّ. ثم تولى الظاهر بن الحاكم فكتب عنه أبو الطاهر المذكور. ثم تولى المستنصر فكتب عنه القاضى ولى الدين بن خيران، و ولىّ الدولة موسى بن الحسن بعد انتقاله إلى الوزارة، و أبو سعيد العميدىّ.

ثم تولى الآمر و الحافظ فكتب عنهما الشيخ أبو الحسن علىّ بن أبى أسامة الحلبىّ إلى أن توفّى فى أيام الحافظ، فكتب بعده ولده أبو المكارم إلى أن توفّى، و معه الشيخ أمين الدين تاج الرياسة أبو القاسم علىّ بن سليمان بن منجب المعروف بابن الصّيرفىّ، و القاضى كافى الكفاة محمود ابن القاضى الموفّق أسعد بن قادوس، و ابن أبى الدّم اليهودىّ، ثم كتب بعد أبى المكارم القاضى الموفّق بن الخلّال بقية أيام الحافظ إلى آخر أيام العاضد آخر خلفائهم، و به تخرّج القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانىّ.

ثم أشرك العاضد مع الموفّق بن الخلّال فى ديوان الإنشاء القاضى جلال الدين محمودا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ٣٣٨

الأنصارىّ. ثم كتب القاضى الفاضل بين يدى الموفّق بن الخلّال فى وزارة صلاح الدين يوسف بن أيّوب. ثم كانت الدولة الأيّوبية، فكتب للسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب القاضى الفاضل المذكور، ثم أضيفت اليه الوزارة. ثم كتب بعد الناصر لابنه العزيز و لأخيه العادل أبى بكر، ثم مات العادل و الفاضل.

قلت: هنا مجازفة لم يكتب القاضى الفاضل للعادل و كان بينهما مشاحنة، و مات الفاضل قبل وصول العادل إلى مصر، و قيل وقت دخول العادل من باب النصر إلى القاهرة كانت جنازة القاضى الفاضل خارجة. و قد ذكرنا ذلك كلّه فى هذا الكتاب، و إنما كتب الفاضل للعزيز عثمان و لولده الملك المنصور محمد، فالتبس المنصور على الناقل بالعادل. انتهى.

قال: ثم تولّى الكامل بن العادل فكتب له أمين الدين سليمان المعروف بكاتب الدّرج إلى أن توفّى، فكتب له بعده الشيخ أمين الدين عبد المحسن [بن حمود] الحلبى مدّة قليلة؛ ثم كتب للصالح نجم الدين أيّوب، ثم ولى ديوان الإنشاء الصاحب بهاء الدين زهير، ثم

صرف و ولى بعده الصاحب فخر الدين إبراهيم بن لقمان الإسعردىّ، فبقى إلى انقراض الدولة الأيّوبية. فلما كانت الدولة التركية كتب للمعز أيبك الصاحب فخر الدين المذكور، ثم بعده للمظفر قطز، ثم للظاهر بيبرس، ثم للمنصور قلاوون، ثم نقله قلاوون من ديوان الإنشاء للوزارة، و ولى ديوان الإنشاء مكانه القاضى فتح الدين بن عبد الظاهر فكتب عنه بقية أيامه؛ ثم كتب لابنه الأشرف خليل إلى أن توفّى، فولّى مكانه القاضى تاج الدين [أحمد] بن الأثير فكتب إلى أن

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۳۹

توفّى؛ فكتب بعده القاضى شرف الدين عبد الوهاب بن فضل اللّه فكتب بقية أيام الأشرف. فلما تولّى أخوه الناصر محمد كتب عنه القاضى شرف الدين المذكور فى سلطنته الأولى ثم فى أيام العادل كتبغا ثم أيام المنصور لاچين ثم فى أيام سلطنة الناصر محمد الثانية؛ ثم نقله إلى كتابة السّرّ بدمشق عوضا عن أخيه القاضى محيى الدين، و تولى مكانه بمصر القاضى علاء الدين [بن تاج الدين] بن الأثير فبقى حتى مرض بالفالج فاستدعى الملك الناصر محيى الدين بن فضل اللّه من دمشق و ولده شهاب الدين [أحمد] و ولّاهما ديوان الإنشاء بمصر. ثم ولّى بعدهما القاضى شمس الدين ابن الشهاب محمود فبقى إلى عود السلطان من الحجّ فأعاد القاضى محيى الدين و ولده القاضى شهاب الدين إلى ديوان الإنشاء بمصر فبقيا مدّة. ثم تغيّر السلطان على القاضى شهاب الدين و صرفه عن المباشرة، و أقام أخاه القاضى علاء الدين و كلاهما معين لوالده لكبر سنّه، ثم سأل القاضى محيى الدين السلطان فى العود إلى دمشق فأعاده و صحبته ولده شهاب الدين؛ و استمرّ ولده القاضى علاء الدين بالديار المصريّة فباشر بقيّة أيام الناصر، ثم أيّام ولده الملك المنصور، ثم أيام الأشرف كجك، ثم أيام الناصر أحمد إلى أن خلع نفسه و توجّه إلى الكرك توجه معه القاضى علاء الدين؛ فلمّا تولّى الملك الصالح إسماعيل السلطنة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۴۰

بمصر بعد أخيه الناصر أحمد قرّر القاضى بدر الدين محمد ابن القاضى محيى الدين بن فضل اللّه عوضا عن أخيه علاء الدين.

قلت: لم يل بدر الدين محمد بعد أخيه علاء الدين الوظيفة استقلالا و إنّما ناب عنه إلى حين حضوره. انتهى.

قال: ثم أعيد علاء الدين أيّام الصالح إسماعيل و أيام الكامل شعبان، ثم أيام المظفّر حاجّى ثم أيّام الناصر حسن فى سلطنته الأولى، ثم فى أيّام الصالح صالح، ثم فى أيّام الناصر حسن فى سلطنته الثانية، ثم أيام المنصور محمد ابن المظفر حاجّى، ثم فى أيّام الأشرف شعبان و توفّى فى أيّامه.

قلت: و كانت وفاته فى شهر رمضان سنة تسع و ستين و سبعمائة بعد أن باشر كتابة السر نيّفا و ثلاثين سنة لأحد عشر سلطانا.

قال: ثم ولى الوظيفة بعده ولده بدر الدين محمد ابن القاضى علاء الدين، فباشر بقيّة أيام الأشرف شعبان، ثم ولده المنصور علىّ، ثم أخيه الملك الصالح حاجّى بن شعبان إلى أن خلع بالظاهر برقوق، فاستقرّ برقوق بالقاضى أوحد الدين عبد الواحد ابن إسماعيل التّركمانىّ إلى أن توفّى.

قلت: و كانت وفاته فى ذى الحجة سنة ستّ و ثمانين و سبعمائة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۴۱

قال: ثم أعيد بدر الدين فباشر حتى خلع الظاهر برقوق بالمنصور حاجّىّ، فاستمر بدر الدين إلى أن عاد برقوق إلى سلطنته الثانية، صرفه بالقاضى علاء الدين على بن عيسى الكركى، ثم صرف الكركىّ.

قلت: و مات معزولا فى شهر ربيع الأوّل فى سنة أربع و تسعين و سبعمائة.

قال: ثم أعيد القاضى بدر الدين من بعد عزل القاضى علاء الدين فاستمرّ بدر الدين إلى أن عاد برقوق فتوفّى بدمشق.

قلت: و وفاته فى شوّال سنة ست و تسعين و سبعمائة.

قال: و ولى بعده القاضى بدر الدين محمود الكلستانىّ فباشر إلى أن توفّى.

قلت: و كانت وفاته فی عاشر جمادى الأولى سنة إحدى و ثمانمائة.

قال: فتولى بعده القاضی فتح الدين فتح اللّه [التّبريزیّ] فباشر بقية أيام الظاهر، و مدّة من أيام الناصر إلى أن صرفه الناصر فرج بالقاضی سعد الدين بن غراب مدّة يسيرة، ثم صرف ابن غراب و أعيد القاضی فتح اللّه ثانيا، فباشر إلى أن صرف بالقاضی فخر الدين بن المزوّق، فباشر مدة يسيرة، ثم صرف و أعيد فتح اللّه فباشر إلى أن صرفه الملك المؤيّد شيخ و قبض عليه و صادره.

قلت: و مات تحت العقوبة خنقا فی ليلة الأحد خامس عشر شهر ربيع الأوّل سنة ست عشرة و ثمانمائة، و هو فتح اللّه بن مستعصم بن نفيس التّبريزی الحنفی الداوودی، يأتی ذكره هو و غيره من كتّاب السّرّ فی محلهم من هذا الكتاب إن شاء اللّه تعالى.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۴۲

قال: و تولّى بعده القاضی ناصر الدين محمد البارزیّ فباشر إلى أن توفّی.

قلت: و كانت وفاته يوم الأربعاء ثامن شوّال سنة ثلاث و عشرين و ثمانمائة، و مولده بحماة فی يوم الاثنين رابع شوّال سنة تسع و ستين و سبعمائة. و تولى بعده ولده القاضی كمال الدين محمد بن البارزی، فباشر إلى أن صرفه الملك الظاهر ططر و ولّى علم الدين داود [بن عبد الرحمن] بن الكويز، فباشر إلى أن توفّی سنة ست و عشرين و ثمانمائة فی دولة الملك الأشرف برسبای. و ولّی بعده جمال الدين يوسف بن الصّيفیّ الكركیّ فباشر قليلا إلى أن صرف بقاضی القضاة شمس الدين محمد الهرویّ، و دام الكركیّ بعد ذلك و باشر عدّة وظائف بالبلاد الشامية إلى أن توفّی فی حدود سنة خمس و خمسين و ثمانمائة، و باشر الهروی إلى أن عزل بقاضی القضاة نجم الدين عمر ابن حجّی، فباشر ابن حجّی إلى أن عزل و توجّه إلى دمشق على قضائها، و دام إلى أن قتل بها فی ذی القعدة سنة ثلاثين و ثمانمائة، و ولّی بعده القاضی بدر الدين محمد [ابن محمد بن أحمد] بن مزهر، و استمرّ إلى أن مات فی ليلة الأحد سابع عشرين جمادى الآخرة من سنة اثنتين و ثلاثين و ثمانمائة. و ولی بعده ابنه جلال الدين؛ و قيل بدر الدين محمد مدّة يسيرة. و صرف بالشريف شهاب الدين أحمد [بن علیّ بن إبراهيم ابن عدنان] الحسينی الدمشقی، فباشر مدة يسيرة و توفّی بالطاعون فی سنة ثلاث و ثلاثين،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۴۳

و ولی بعده أخوه نحو الجمعة بغير خلعة و توفّی بالطاعون أيضا. و ولی بعدهما شهاب الدين أحمد [بن صالح بن أحمد بن عمر المعروف با] بن السّفاح الحلبی فباشر إلى أن مات فی سنة خمس و ثلاثين. و ولی بعده الوزير كريم الدين عبد الكريم ابن كاتب المناخ مضافا للوزارة، فباشر أشهرا و صرف؛ و أعيد القاضی كمال الدين محمد بن البارزیّ فی يوم السبت العشرين من شهر ربيع الآخر سنة ستّ و ثلاثين، فباشر إلى أن صرف يوم الخميس سابع شهر رجب سنة تسع و ثلاثين؛ و ولی مكانه الشيخ محبّ الدين محمد ابن الأشقر فباشر إلى أن صرف، و ولی صلاح الدين محمد ابن الصاحب بدر الدين حسن بن نصر اللّه، فباشر إلى أن توفّی بالطاعون فی سنة إحدى و أربعين، و ولی مكانه والده الصاحب بدر الدين حسن فباشر إلى أن صرف، و أعيد القاضی كمال الدين بن البارزیّ فی يوم الثلاثاء سابع عشر شهر ربيع الآخر سنة اثنتين و أربعين و ثمانمائة، و هی ولايته الثالثة؛ فباشر إلى أن توفّی بكرة يوم الأحد سادس عشرين صفر سنة ستّ و خمسين و ثمانمائة. و لم يخلّف بعده مثله، و ولی بعده القاضی محب الدين محمد بن الأشقر المقدّم ذكره، و باشر إلى أن صرفه الملك الأشرف إينال بالقاضی محب الدين محمد بن الشّحنة الحلبیّ، فباشر ابن الشّحنة أشهرا ثم صرف، و أعيد القاضی محب الدين محمد بن الأشقر و هی ولايته الثالثة. انتهى.

قلت: و غالب من ذكرناه من هؤلاء الكتّاب قد تقدّم ذكر أكثرهم، و يأتی ذكر باقيهم فی محلّهم من هذا الكتاب إن شاء اللّه تعالى. و قد استطردنا من ترجمة الملك المنصور إلى غيرها، و لكن لا بأس بالتطويل فی تحصيل الفوائد. انتهى.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۴۴

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۷۹]

السنة الأولى من سلطنة الملك المنصور قلاوون على مصر و قد تقدّم ذكرها فى ترجمة الملك السعيد، و الملك العادل سلامش ولدى الملك الظاهر بيبرس، و هى سنة ثمان و سبعين و ستمائة، فإنه حكم فيها من شهر رجب إلى آخرها.

و هذه السنة الثانية من ولاته الملك المنصور قلاوون المذكور، و هى سنة تسع و سبعين و ستمائة.

فيها توفّى الشيخ محيى الدين أبو العباس أحمد [بن علىّ] بن عبد الواحد بن السابق الحلبى العدل الكبير، كان من أكابر بيوت حلب، و كان عنده فضيلة و رياسة و مات بدمشق فى ذى الحجة.

و فيها توفّى الأمير سيف الدين، و قيل صارم الدين، أزبك بن عبد اللّه الحلبى العدل الكبير، كان من أعيان أمراء دمشق، و هو منسوب إلى أستاذه الأمير عزّ الدين أيبك الحلبى، و كان قد تجرّد إلى بعلبكّ فتمرّض بها، فحمل فى محفّة إلى دمشق، فمات بها فى شوّال.

و فيها توفّى الأمير جمال الدين آقوش بن عبد اللّه الشّمسىّ، كان من أعيان الامراء و أماثلهم و شجعانهم، و هو الذى أمسك الأمير عزّ الدين أيدمر الظاهرى، و هو الذى باشر قتل كتبغا نوين مقدّم التّتار يوم عين جالوت، و كان ولى نيابة حلب فى السنة الخالية؛ و مات بها فى يوم الاثنين خامس المحرّم و دفن بحلب، و هو فى عشر الخمسين.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۴۵

و فيها توفّى الشيخ الإمام كمال الدين أبو محمد عبد الرحمن بن محمد الحنفىّ الفقيه العدل، كان من أعيان الفقهاء العدول، و كان كثير الديانة و التعبّد، و هو أخو قاضى القضاة شمس الدين الحنفىّ.

و فيها توفّى الشيخ شمس الدين أبو عبد اللّه محمد [بن أيّوب بن أبى رحلة] الحمصى المولد و الدار البعلبكّى الوفاة، كان فاضلا ظريفا أديبا شاعرا، و مما ينسب إليه من الشعر قوله:

و الدهر كالطيف بؤساه و أنعمه عن غير قصد فلا تحمد و لا تلم

لا تسأل الدهر فى البأساء يكشفها فلو سألت دوام البؤس لم يدم

و فيها توفّى الأديب الفاضل الشاعر المفتنّ جمال الدين أبو الحسين يحيى ابن عبد العظيم بن يحيى بن محمد بن علىّ المصرىّ المولد و الوفاة، المعروف بالجزّار، الشاعر المشهور أحد فحول الشعراء فى زمانه. مولده سنة إحدى و ستمائة. و مات يوم الثلاثاء ثانى عشر شوّال و دفن بالقرافة، و كان من محاسن الدنيا، و له نوادر مستظرفة و مداعبات و مفاوضات مع شعراء عصره، و له ديوان شعر كبير.

قال الشيخ صلاح الدين الصّفدىّ: لم يكن فى عصره من يقاربه فى جودة النظم غير السّراج الورّاق، و هو كان فارس تلك الحلبة، و منه أخذوا، [و] على نمطه نسجوا، و من مادّته استمدّوا. انتهى كلام الصّفدىّ.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۴۶

قلت: و نذكر قطعة من شعره فمن ذلك قوله:

أكلّف نفسى كلّ يوم و ليلة هموما على من لا أفوز بخيره

كما سوّد القصار بالشمس وجهه ليجهد فى تبييض أثواب غيره

و قيل: إنه بات ليلة فى رمضان عند الصاحب بهاء الدين بن حنّا، فصلّى عنده التراويح و قرأ الإمام فى تلك الليلة سورة الأنعام فى ركعة واحدة؛ فقال أبو الحسين:

ما لى على الأنعام من قدرة لا سيّما فى ركعة واحده

فلا تسومونى حضورا سوى فى ليلة الأنفال و المائدة

و من شعره:

طرف المحبّ فم يذاع به الجوى و الدمع إن صمت اللسان لسان

تبکی الجفون علی الکری فاعجب لمن تبکی علیه إذا نأی الأوطان

و فیها توفّی الشیخ الإمام عماد الدین أبو بکر بن هلال بن عبّاد الجیلیّ الحنفی معید المدرسة الشّبلیّة. کان إماما عالما صالحا منقطعا عن الناس مشتغلا بنفسه، و کان معدودا من العلماء، أفتی و أعاد و درّس و انتفع به الناس و مات فی تاسع عشر شهر رجب، و قد کمل له مائة سنة و أربع سنین. و روی عنه ابن الزّبیدیّ؛ و روی بالإجازة العامّة عن السّلفیّ.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۴۷

الذین ذکر الذهبیّ وفاتهم فی هذه السنة، قال: و فیها توفّی الفقیه شمس الدین محمد بن عبد اللّه [بن محمد بن عمر بن مسعود] بن النّنّ. و الأدیب البارع أبو الحسین یحیی بن عبد العظیم الجزّار بمصر. و شیخ الرافضة النّجیب أبو القاسم بن الحسین ابن العود الحلّیّ بجزّین فی شعبان. و الشیخ الزاهد یوسف [بن نجاح بن موهوب] الفقّاعیّ بزاویته بقاسیون.

أمر فی هذه السنة- الماء القدیم ثلاث أذرع و خمس أصابع. مبلغ الزیادة ثمانی عشرة ذراعا و ثلاث و عشرون إصبعا.

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۸۰]

السنة الثالثة من ولایة السلطان الملک المنصور قلاوون علی مصر، و هی سنة ثمانین و ستمائة.

فیها تربت جزیرة کبیرة ببحر النیل تجاه قریة بولاق و اللّوق، و انقطع بسببها مجری البحر ما بین قلعة المقس و ساحل باب البحر و الرّملة و بین جزیرة الفیل؛ و لم یعهد هذا فیما تقدّم، و حصل لأهل القاهرة مشقّة یسیرة من نقل الماء لبعد البحر عنهم؛ و أراد السلطان حفره فمنعوه، و قالوا له: هذا نشف إلی الأبد.

قلت: و کذا وقع، و غالب أملاک باب البحر و البساتین خارج باب البحر و داخله هی مکان البحر الذی نشف، و التصقت المبانی و البساتین بجزیرة الفیل و صارت غیر جزیرة، فسبحان القادر علی کل شیء!.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۴۸

و فیها توفّی الشیخ الصالح المولّه المعتقد إبراهیم بن سعید الشّاغوریّ المعروف بجیعانة فی یوم الأحد سابع جمادی الأولی بدمشق، و دفن بمقبرة المولّهین بسفح قاسیون، و له من العمر نحو سبعین سنة، و کانت له جنازة عظیمة، و کان له أحوال و مکاشفات، رحمه اللّه.

و فیها توفّی ملک التّتار أبغا بن هولاکو بن تولی خان بن چنکز خان ملک التّتار و طاغیتهم، کان ملکا جلیل القدر علی الهمّة شجاعا مقداما خبیرا بالحروب، لم یکن بعد والده مثله، و کان علی مذهب التّتار و اعتقادهم، و مملکته متّسعة جدّا و عساکره کثیرة، و کان مع ذلک کلمته مسموعة فی جنده مع کثرتهم. و لمّا توجّه أخوه منکوتمر بالعساکر إلی جهة الشام لم یکن ذلک عن رأیه بل أشیر علیه فوافق، و نزل فی ذلک الوقت الرّحبة، أو بالقرب منها، فلما بلغ أبغا کسرة منکوتمر رجع الی همذان فمات غمّا و کمدا و مات منکوتمر بعد أخیه أبغا بمدّة یسیرة بین العیدین، و له من العمر نحو خمسین سنة، و قیل: ثلاثین سنة و الثانی أرجح. و مات بعده بیومین أخوه آجای علی ما یأتی ذکر منکوتمر فی القابلة.

و فیها توفّی التاجر نجم الدین أبو العبّاس أحمد بن علیّ بن المظفّر بن الحلّیّ، کان ذا نعمة ضخمة و ثروة ظاهرة، و أمول جمّة، و له التقدّم فی الدولة.

و فیها توفّی الشیخ موفّق الدین أبو العباس أحمد بن یوسف المعروف بالکواشیّ الإمام العالم المفسّر صاحب التفسیر الکبیر و التفسیر الصغیر و هما من أحسن التفاسیر، و کانت له الید الطّولی فی القراءات و مشارکة فی غیر ذلک من العلوم، و کان مقیما

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۴۹

بالجامع العتیق بالموصل منقطعا عن الناس مجتهدا فی العبادة لا یقبل لأحد شیئا، و کان یزوره الملک و من دونه فلا یقوم لهم و لا

يعبأ بهم، و كان له مجاهدات و كشوف و كرامات، و لأهل تلك البلاد فيه عقيدة. و مات و له تسعون سنة تقريبا، و كانت وفاته فى سابع عشر جمادى الآخرة بالموصل و دفن بها.

و فيها توفّى الأمير عزّ الدين المعروف بالحاجّ أزدمر بن عبد اللّه الجمدار، كان من أعيان الأمراء، و كان ممن انضاف إلى سنقر الأشقر لمّا تسلطن، و كان سنقر جعله نائبا بدمشق، و وقع له أمور ذكرنا بعضها فى أوّل ترجمة الملك المنصور قلاوون إلى أن استشهد فى واقعة التّتار مع المنصور قلاوون بظاهر حمص مقبلا غير مدبر رحمه اللّه و تقبّل منه.

و فيها توفّى الأمير عزّ الدين أيبك بن عبد اللّه الشّجاعىّ الصالحى العمادى والى الولاة بالجهات القبلية، كان ديّنا خيّرا ليّن الجانب شديدا على أهل الرّيب وجيها عند الملوك، و كان الملك الظاهر بيبرس يعتمد عليه فى أموره؛ ثم إنه ترك الأمر باختياره و لزم داره إلى أن مات بدمشق فى جمادى الآخرة، و قد بلغ خمسا و ثمانين سنة.

و فيها توفّى الأمير بدر الدين بكتوت بن عبد اللّه الخازندار، استشهد أيضا فى وقعة التّتار بحمص و كان أميرا جليلا.

و فيها توفّى الأمير سيف الدين بلبان الرّومى الدّوادار المقدّم ذكره فى قضيّة كتّاب السرّ، كان الملك الظاهر بيبرس يعتمد عليه و ولّاه دوادارا، و كان المطّلع

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۵۰

على أسراره، و تدبير أمور القصّاد و الجواسيس و المكاتبات لا يشاركه فى ذلك وزير و لا نائب سلطنة، بل كان هو و الأمير حسام الدين لاچين الأيدمرىّ المعروف بالدّرفيل، فلما توفّى لاچين المذكور انفرد بلبان بذلك وحده، و كان مع هذه الخصوصية عند الملك الظاهر أمير عشرة، و قيل جنديا.

قال الصّفدى: لم يؤمّره طبلخاناه إلى أن مات الملك الظاهر أنعم عليه ولده الملك السعيد بإمرة ستين فارسا بالشام، و بقى بعد ذلك إلى أن استشهد بظاهر حمص رحمه اللّه و قد نيّف على ستين سنة.

و فيها توفّى الأمير شمس الدين سنقر بن عبد اللّه الألفى، كان من أعيان الأمراء الظاهريّة، و ولى نيابة السلطنة بمصر للملك السعيد بعد موت الأمير بدر الدين بيليك الخازندار، و باشر النّيابة أحسن مباشرة إلى أن استعفى فأعفى، و ولى النيابة عوضه الأمير كوندك، فكان ذهاب الدولة على يده. ثم قبض الملك المنصور على سنقر هذا و اعتقله بالإسكندرية، و قيل بقلعة الجبل، إلى أن مات، و له من العمر نحو أربعين سنة.

و فيها توفّى الشيخ علاء الدين أبو الحسن علىّ بن محمود بن الحسن بن نبهان اليشكرى ثم الربعىّ، كان له اليد الطّولى فى علم الفلك، و تفرّد بحلّ الأزياج و عمل التقاويم، و غلب ذلك عليه مع فضلية تامة فى علم الأدب و جودة النظم. و من شعره:

و لما أتانى العاذلون عدمتهم و ما منهم إلا للحمى قارض

و قد بهتوا لما رأونى شاحبا و قالوا به عين فقلت و عارض

و له:

إنى أغار من النّسيم إذا سرى بأريج عرفك خيفة من ناشق

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۵۱

و أودّ لو سهّرت لا من علّة حذرا عليك من الخيال الطارق

قلت: و أجاد الصاحب جمال الدين يحيى بن مطروح فى هذا المعنى حيث قال:

فلو أمسى على تلفى مصرّا لقلت معذّبى بالله زدنى

و لا تسمح بوصلك لى فإنّى أغار عليك منك فكيف منّى

و مثل هذا أيضا قول حفصة المغربية، رحمها اللّه:

أغار علیک من غیری و منّی و منک و من مکانک و الزمان

و لو أنّی خبأتک فی جفونی إلی یوم القیامة ما کفانی

و فیها توفّی الشیخ الإمام الأدیب البارع بدر الدین یوسف بن لؤلؤ بن عبد اللّه الذّهبیّ الشاعر المشهور، کان أبوه لؤلؤ عتیق الأمیر بدر الدین صاحب تلّ باشر.

و کان بدر الدین هذا فاضلا شاعرا ماهرا. و من شعره ممّا کتبه للشیخ نجم الدین [محمد] بن إسرائیل و له صاحب یمیل إلیه یسمّی بالجارح:

قلبک الیوم طائر عنک فی الجوائح

کیف یرجی خلاصه و هو فی کفّ جارح

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۵۲

و من شعره فی دولاب:

و روضة دولابها إلی الغصون قد شکا

من حین ضاع زهرها دار علیه و بکی

و له:

یا عاذلی فیه قل لی إذا بدا کیف أسلو

یمرّ بی کلّ حین و کلما مرّ یحلو

و له:

حلا نبات الشّعر یا عاذلی لمّا بدا فی خدّه الأحمر

فشاقنی ذاک العذار الذی نباته أحلی من السّکّر

و له فی غلام علی وجهه حبّ شباب:

تعشّقته لدن القوام مهفهفا شهیّ اللمّی أحوی المراشف أشنبا

و قالوا بدا حبّ الشباب بوجهه فیا حسنه وجها إلیّ محبّبا

و له:

رفقا بصبّ مغرم أبلیته صدّا و هجرا

وافاک سائل دمعه فرددته فی الحال نهرا

الذین ذکر الذهبیّ وفاتهم فی هذه السنة، قال: و فیها توفّی العلّامة الزاهد موفّق الدین أحمد بن یوسف الکواشیّ المفسّر بالموصل فی جمادی الآخرة، و قد جاوز التسعین. و القاضی نجم الدین محمد ابن القاضی صدر الدین بن سنیّ الدولة بدمشق

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۵۳

فی المحرّم. و العلّامة قاضی القضاة تقیّ الدین محمد بن الحسین بن رزین العامریّ بالقاهرة فی رجب، و له سبع و سبعون سنة. و الحافظ المسند جمال الدین أبو حامد محمد بن علیّ بن محمود بن الصابونیّ فی ذی القعدة. و المسند شمس الدین أبو الغنائم المسلم بن محمد بن المسلم بن علّان فی ذی الحجّة، و له سبع و ثمانون سنة. و العدل أمین الدین القاسم بن أبی بکر بن القاسم الإربلیّ فی جمادی الأولی. و العارف الزاهد ولیّ الدین علیّ بن أحمد بن بدر الجزریّ المقیم بجامع بیت لهیا فی شوّال.

و أبغا بن هولاکو ملک التّتار ببلاد همذان. و الحاج أزدمر الأمیر بمصافّ حمص شهیدا.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم خمسة أذرع و ثلاث أصابع. مبلغ الزیادة ثمانی عشرة ذراعا و أربع أصابع.

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۸۱]

السنة الرابعة من ولاية الملک المنصور قلاوون على مصر، و هى سنة إحدى و ثمانين و ستمائة.

فيها توفّى قاضى القضاة شمس الدين أبو العبّاس أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبى بكر بن خلّكان بن باول بن عبد اللّه بن شاكل بن الحسين بن مالک بن جعفر بن يحيى بن خالد بن برمک البرمکىّ الإربلىّ الشافعىّ قاضى قضاة دمشق و عالمها و مؤرّخها.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۵۴

مولده فى ليلة الأحد حادى عشر جمادى الآخرة سنة ثمان و ستمائة بإربل و بها نشأ.

ذكره ابن العديم فى تاريخه فقال: من بيت معروف بالفقه و المناصب الدينية. و قال غيره: كان إماما عالما فقيها أديبا شاعرا مفتّنا مجموع الفضائل معدوم النظير فى علوم شتّى، حجّة فيما ينقله محقّقا لما يورده منفردا فى علم الأدب و التاريخ، و كانت وفاته فى شهر رجب و له ثلاث و سبعون سنة.

قلت: و هو صاحب التاريخ المشهور، و قد استوعبنا من حاله نبذة جيّدة فى تاريخنا «المنهل الصافى و المستوفى بعد الوافى». انتهى.

و كان ولى قضاء دمشق مرّتين: الأولى فى حدود الستين و ستمائة و عزل و قدم القاهرة، و ناب فى الحكم بها عن قاضى القضاة بدر الدين السّنجارىّ، و أفتى بها و درّس و دام بها نحو سبع سنين؛ ثم أعيد إلى قضاء دمشق بعد عزّ الدين بن الصائغ، و سرّ الناس بعوده.

و مدحته الشعراء بعدّة قصائد؛ من ذلک ما أنشده الشيخ رشيد الدين عمر بن إسماعيل [بن مسعود بن سعد بن سعيد] الفارقىّ فقال:

أنت فى الشام مثل يوسف فى مص ر و عندى أنّ الكرام جناس

و لكلّ سبع شداد و بعد السّب ع عام فيه يغاث الناس

و قال فيه أيضا نور الدين علىّ بن مصعب.

رأيت أهل الشآم طرّا ما فيهم قطّ غير راض

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۵۵

أتاهم الخير بعد شرّ فالوقت بسط بلا انقباض

و عوّضوا فرحة بحزن قد أنصف الدهر فى التقاضى

و سرّهم بعد طول غمّ قدوم قاض و عزل قاض

فكلّهم شاكر و شاک لحال مستقبل و ماض

و من شعر ابن خلّكان المذكور قوله:

تمثّلتم لى و البلاد بعيدة فخيّل لى أنّ الفؤاد لكم مغنى

و ناجا كم قلبى على البعد و النّوى فآنستمو لفظا و أوحشتمو معنى

و له دو بيت:

قاسوک ببدر التّمّ قوم ظلموا لا ذنب لهم لأنّهم ما علموا

من أين لبدر التّمّ يا ويحهم جيد و عيون و قوام و فم

و له:

يا رب إنّ العبد يخفى عيبه فاستر بحلمک ما بدا من عيبه

و لقد أتاک و ما له من شافع لذنوبه فاقبل شفاعة شيبه

قلت و يعجبنى فى هذا المعنى قول القائل:

إن كانت الأعضاء خالفت الّذى أمرت به فى سالف الأزمان

فسلوا الفؤاد عن الذى أودعتم فيه من التوحيد و الإيمان

تجدوه قد أدّى الأمانة فيهما فهبوا له ما خلّ فى الأركان

و فيها توفّى ملک التّتار منكوتمر بن هولاكو خان بن تولى خان بن چنكز خان، هو أخو أبغا ملک التّتار؛ و منكوتمر هذا هو الذى ضرب المصافّ مع السلطان الملک المنصور قلاوون على حمص حسب ما تقدّم ذكره و انكسرت عساكره، فلمّا وقع

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۵۶

ذلک عظم عليه و حصل عنده غمّ شديد و كمد زائد، و حدّثته نفسه بجمع العساكر من سائر ممالک بيت هولاكو، و استنجد بأخيه أبغا على غزو الشام، فقدّر اللّه سبحانه و تعالى موت أبغا، ثم مات هو بعده فى محرّم هذه السنة، و أراح اللّه المسلمين من شرّهما. و كان منكوتمر شجاعا مقداما و عنده بطش و جبروت و سفک للدّماء، و كان نصرانيّا، و كان جرح يوم مصافّ حمص، و الذى جرحه الأمير علم الدين سنجر الدّويداريّ.

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى الإمام زين الدين عبد السلام بن علىّ الزّواويّ المالكىّ شيخ القرّاء فى رجب، عن اثنتين و تسعين سنة.

و قاضى القضاة شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان الإربلىّ فى رجب، و له ثلاث و سبعون سنة. و نجيب الدين المقداد بن هبة اللّه القيسىّ العدل فى شعبان.

و أبو الطاهر إسماعيل بن هبة اللّه المليجىّ آخر من قرأ القرآن على أبى الجود فى رمضان بالقرافة. و البرهان إبراهيم بن إسماعيل [بن إبراهيم بن يحيى بن علوىّ المعروف ب] ابن الدّرجىّ إمام المدرسة المعزّيّة فى صفر، و له اثنتان و ثمانون سنة.

و العماد إسماعيل بن إسماعيل بن جوسلين البعلبكّىّ. و العلّامة برهان الدين محمود ابن عبد اللّه المراغى فى شهر ربيع الآخر، و له ستّ و سبعون سنة. و الإمام أمين الدين

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۵۷

أحمد بن عبد اللّه [بن محمد بن عبد الجبّار] بن الأشترىّ الشافعى فى شهر ربيع الأوّل.

و الشيخ الزاهد عبد اللّه [بن أبى بكر بن أبى البدر البغدادىّ و يعرف] بكتيلة ببغداد.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و ثمانى عشرة إصبعا.

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۸۲]

السنة الخامسة من ولاية الملک المنصور قلاوون على مصر، و هى سنة اثنتين و ثمانين و ستمائة.

فيها توفّى الأمير شهاب الدين أحمد بن حجّىّ بن بريد البرمكىّ أمير آل مرى، كان من فرسان العرب المشهورين، كانت سراياه تغير إلى أقصى نجد و بلاد الحجاز و يؤدّون له الخفر، و كذلک صاحب المدينة الشريفة، و كانت له المنزلة العالية عند الظاهر و المنصور قلاوون و غيرهما من الملوک، كانوا يدارونه و يتّقون شرّه، و كان يزعم أنّه من نسل الوزير جعفر بن يحيى بن خالد بن برمک البرمكىّ من أخت الخليفة هارون الرشيد الذى امتحن جعفر بسببها و قتل. و كان بين شهاب الدين هذا و بين عيسى بن مهنّا أمير آل فضل منافسة، فكتب إليه شهاب الدين هذا مرّة كتابا و أغلظ فيه، و كان عند عيسى الشيخ شهاب الدين أحمد بن غانم فسأله عيسى بن مهنّا المجاوبة، فكتب عنه يقول:

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۵۸

زعموا أنّا هجونا جمعهم بالافتراء

کذبوا فيما ادّعوه و افتروا بالادّعاء

إنّما قلنا مقالا لا کقول السّفهاء

آل فضل آل فضل و انتم آل مراء

و فيها توفّى شرف بن مرى بن حسن بن حسين بن محمد النّواوى والد الشيخ محيى الدين النّواوىّ، كان مقتنعا بالحلال يزرع أرضا يقتات منها هو و أهله، و كان يموّن ولده الشيخ محيى الدين منها، و مات فى صفر.

و فيها توفّى الشيخ الإمام شمس الدين أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن أحمد ابن محمد بن قدامة الحنبلىّ المقدسىّ، كان إماما فقيها ورعا زاهدا كبير القدر جمّ الفضائل، انتهت إليه رياسة مذهب الإمام أحمد بن حنبل، رضى اللّه عنه، فى زمانه، و شرح كتاب «المقنع» فى الفقه تأليف عمّه شيخ الإسلام موفّق الدين، رحمه اللّه:

و فيها توفّى الأمير علاء الدين كشتغدى بن عبد اللّه الشرفىّ الظاهرىّ المعروف بأمير مجلس، كان من أعيان الأمراء و أكابرهم بالديار المصريّة و كان بطلا شجاعا و له مواقف مشهورة و نكايات فى العدوّ المخذول. و مات بقلعة الجبل و قد نيّف على خمسين سنة، و حضر الملك المنصور قلاوون جنازته.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۵۹

و فيها توفّى الكاتب المجوّد عماد الدين أبو عبد اللّه، و قيل أبو الفضل، محمد ابن محمد بن هبة اللّه بن محمد بن هبة اللّه الشّيرازىّ الدمشقىّ صاحب الخطّ المنسوب. انتهت إليه الرياسة فى براعة الخط لا سيّما فى [القلم] المحقّق و [قلم] النّسخ.

سمع الكثير و روى عنه الحافظ جمال الدين المزّىّ و غيره، و تصدّى للكتابة و انتفع به الناس. و قدم القاهرة و اتّفق أنّه ركب النيل مرّة مع الصاحب بهاء الدين بن حنّا، و كان معه جماعة من أصحابه و فيهم شخص معروف بابن الفقّاعى ممّن له عناية بالكتابة، فسأل الصاحب بهاء الدين، و قال: عندى لمولانا الصاحب و هؤلاء الجماعة يوم كامل الدّعوة، و مولانا يدعو المولى عماد الدين يفيدنى قطّة القلم، فقال الصاحب:

و اللّه ما فى هذا شىء، مولانا يتفضّل عليه بذلك، فأطرق عماد الدين مغضبا، ثم رفع رأسه و قال: أو خير لك من ذلك؟ قال: و ما هو؟ قال: أحمل إليك ربعة بخطّى، و يعفينى من هذا، فقال الصاحب: لا و اللّه، الرّبعة بخطّ مولانا تساوى ألفى درهم، و أنا ما آكل من هذه الضيافة شيئا يساوى عشرة دراهم.

و فيها توفّى الشيخ أبو محمد، و قيل أبو المحاسن، عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيميّة الحرّانىّ أحد علماء الحنابلة و والد الشيخ تقىّ الدين بن تيميّة. مولده بحرّان فى ثانى عشر شوّال سنة سبع و عشرين و ستمائة، و سمع الكثير و تفقه و برع فى الفقه و تميّز فى عدّة فنون، و درّس ببلده و أفتى و خطب و وعظ و فسّر، ولى هذه الوظائف

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۶۰

عقيب موت والده مجد الدين، و عمره خمس و عشرون سنة، و كان أبوه أيضا من العلماء. و مات فى سلخ ذى الحجّة و دفن بمقابر الصوفيّة بدمشق.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى الإمام عماد الدين علىّ بن يعقوب [بن شجاع بن علىّ بن إبراهيم بن محمد] بن أبى زهران الموصلىّ الشافعىّ شيخ القرّاء بدمشق فى صفر، و قد قارب الستين. و شيخ الإسلام الشيخ شمس الدين عبد الرحمن بن أبى عمر المقدسى [محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة] فى شهر ربيع الآخر، و له خمس و ثمانون سنة. و الإمام شهاب الدين عبد الحليم بن عبد السلام بن تيميّة الحرّانىّ والد شيخنا فى سلخ السنة، و له ستّ و خمسون سنة. و الشيخ محيى الدين عمر بن محمد بن أبى سعد [عبد اللّه بن محمد بن هبة اللّه بن على بن المطهر] بن أبى عصرون التّميمىّ فى ذى القعدة عن ثلاث و ثمانين سنة. و الإمام شمس الدين محمد ابن أحمد بن نعمة المقدسىّ مدرّس الشاميّة فى ذى القعدة. و خطيب دمشق محيى الدين محمد بن

الخطیب عماد الدین عبد الکریم [ابن القاضی أبی القاسم عبد الصمد] ابن الحرستانیّ فی جمادی الآخرة، و له ثمان و ستون سنة. و الحافظ شمس الدین محمد بن محمد بن عبّاس [بن أبی بکر] بن جعوان الأدیب فی جمادی الأولی.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۶۱

و الرئیس محیی الدین یحیی بن علی بن القلانسیّ فی شوّال. و الرئیس عماد الدین أبو الفضل محمد [بن محمد] ابن القاضی شمس الدین هبة اللّه بن الشّیرازی فی صفر.

و شرف الدین محمد بن عبد المنعم بن القوّاس فی شهر ربیع الآخر. و المحدّث جمال الدین عبد اللّه بن یحیی الجزائری فی شوّال. و الرشید محمد بن أبی بکر بن محمد العامریّ فی ذی الحجّة.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم أربع أذرع و خمس أصابع.

مبلغ الزیادة سبع عشرة ذراعا و ثمانی أصابع.

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۸۳]

السنة السادسة من ولایة الملک المنصور قلاوون علی مصر، و هی سنة ثلاث و ثمانین و ستمائة.

فیها توفّی قاضی القضاة ناصر الدین أبو العبّاس أحمد بن محمد بن منصور الجذامیّ المالکیّ المعروف بابن المنیّر قاضی الإسکندریة، مولده فی ذی القعدة سنة عشرین و ستمائة، و مات بالإسکندریة لیلة الخمیس مستهلّ شهر ربیع الأوّل، و دفن عند تربة والده عند الجامع المغربیّ، و کان إماما فاضلا متبحّرا فی العلوم و له الید الطّولی فی علم الأدب و النظم و النثر. و من شعره ما کتبه لقاضی القضاة شمس الدین ابن خلّکان فی صدر کتاب:

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۶۲

لیس شمس الضّحا کأوصاف شمس الد ین قاضی القضاة حاشا و کلّا

تلک مهما علت محلّا ثنت ظلّا و هذا مهما علا مدّ ظلّا

و له یهجو القاضی زین الدین بن أبی الفرج لمّا نازعه فی الحکم:

قل لمن یدّعی المناصب بالجه ل تنحّ عنها لمن هو أعلم

إن تکن فی ربیع ولّیت یوما فعلیک القضاء أمسی محرّم

و له فی صدر کتاب کتبه إلی الفائزی یسأله رفع التصقیع عن ثغر الإسکندریّة:

إذا اعتلّ الزمان فمنک یرجو بنو الأیام عاقبة الشّفاء

و إن ینزل بساحتهم قضاء فأنت اللّطف فی ذاک القضاء

و فیها توفّی ملک التتار أحمد بن هولاکو قان بن تولی قان بن چنکز قان، کان ملکا شهما خبیرا بأمور الرعیّة سالکا أحسن المسالک، أسلم و حسن إسلامه و بنی بممالکه الجوامع و المساجد، و کان متّبعا دین الإسلام لا یصدر عنه إلّا ما یوافق الشریعة، و کان لمّا حسن إسلامه صالح السلطان الملک المنصور قلاوون، و فرح السلطان بذلک، فمات أحمد بعد مدّة یسیرة، و ملک بعده أرغون بن أبغا.

و فیها توفّی القاضی نجم الدین أبو محمد عبد الرحیم بن إبراهیم بن هبة اللّه بن المسلم ابن هبة اللّه بن حسّان بن محمد بن منصور بن أحمد الجهنیّ الشافعیّ المعروف بابن البارزیّ، ولد بحماة سنة ثمان و ستمائة، و روی الحدیث و برع فی الفقه و الحدیث و النحو و الأدب و الکلام و الحکمة، و صنّف فی کثیر من العلوم، و تولّی القضاء بحماة نیابة عن والده، ثم استقلّ بعده و لم یأخذ علی القضاء رزقا، و صرف قبل موته بسنین.

و من شعره تضمینا لأوّل قصیدة البهاء زهیر البائیة:

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۶۳

و کان الرّضا منى إليه و لم يكن رسول فأخشى أن ينم و يكذبا

و ناديت أهلا بالحبيب و لم أقل رسول الرّضا أهلا و سهلا و مرحبا

و فيها توفّى الأمير شرف الدين عيسى بن مهنّا أمير آل فضل و ملك العرب فى وقته؛ و كان له منزلة عظيمة عند الملوك لا سيّما عند الملك الظاهر بيبرس البندقدارىّ، ثم تضاعفت عند الملك المنصور قلاوون، و كان كريم الأخلاق حسن الجوار مكفوف الشر مبذول الخير، لم يكن فى العرب و ملوكها من يضاهيه، و كان عنده ديانة و صدق. و لمّا مات ولّى الملك المنصور قلاوون ولده مهنّا عوضه، و كان بين وفاته و وفاة عدوّه الأمير أحمد بن حجّىّ أمير آل مرى دون السنة.

و فيها توفّى الشيخ الإمام شمس الدين أبو عبد اللّه محمد بن موسى بن النّعمان التّلمسانىّ، سمع الكثير بعدّة بلاد و حدّث، و مولده بتلمسان فى سنة ستّ أو سبع و ستمائة، و مات بمصر و دفن بالقرافة الكبرى، و هو غير شمس الدين محمد بن العفيف التّلمسانىّ.

و فيها توفّى الملك المنصور ناصر الدين أبو المعالى محمد ابن الملك المظفّر محمود ابن الملك المنصور محمد بن تقىّ الدين عمر بن شاهنشاه بن أيّوب صاحب حماة و المعرّة و ابن صاحبهما، ملكهما بعد وفاة أبيه سنة اثنتين و أربعين و ستمائة، و والدته الصاحبة غازية خاتون بنت الملك الكامل محمد صاحب مصر ابن الملك العادل أبى بكر ابن أيوب. و كان مولده سنة اثنتين و ثلاثين و ستمائة، و ولّى الملك المنصور قلاوون ابنه بعد وفاته.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى القاضى ناصر الدين أبو العبّاس أحمد بن محمد بن منصور الجذامىّ ابن المنيّر بالإسكندريّة فى شهر

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۶۴

ربيع الأوّل، و له ثلاث و ستون سنة. و الملك أحمد بن هولاكو ملك التّتار.

و قاضى حماة نجم الدين عبد الرحيم بن إبراهيم بن البارزىّ الشافعىّ فى ذى القعدة، و حمل و دفن بالبقيع، و له خمس و سبعون سنة.

و قاضى دمشق عز الدين أبو المفاخر محمد بن عبد القادر بن عبد الخالق الأنصارى بن الصائغ فى شهر ربيع الآخر فى آخر الكهولية.

و صاحب حماة الملك المنصور ناصر الدين محمد ابن المظفّر محمود عن إحدى و خمسين سنة. و الشيخ العارف أبو عبد اللّه محمد بن موسى بن النّعمان التّلمسانىّ بمصر فى رمضان، و له سبع و سبعون سنة. و ملك العرب عيسى بن مهنّا فى شهر ربيع الأوّل.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و عدّة أصابع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و ثلاث أصابع.

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۸۴]

السنة السابعة من ولاية الملك المنصور قلاوون على مصر، و هى سنة أربع و ثمانين و ستمائة.

فيها كان فتوح المرقب و غيره من القلاع بالساحل حسب ما ذكرناه فى أوّل الترجمة.

و فيها ولد الملك الناصر محمد بن قلاوون، و والده على حصار المرقب؛ و قد تقدّم ذكر ذلک أيضا.

و فيها توفّى الشيخ زين الدين أبو العبّاس أحمد بن محمد بن أحمد الأندلسىّ الإشبيلىّ الأصل المعروف بكتاكت المصرى الواعظ المقرئ الأديب الشاعر، مولده سنة خمس و ستمائة، و قيل غير ذلک، و مات بالقاهرة فى شهر ربيع الأوّل. و كان إماما فى الوعظ ولد به فضيلة و مشاركة. و له شعر جيّد. من ذلک قوله.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۶۵

من أنت محبوبه ما ذا يغيّره و من صفوت له ما ذا يكدّره

هيهات عنك ملاح الكون تشغلنى و الكلّ أعراض حسن أنت جوهره

و له القصيدة المشهورة عند الفقراء التى أوّلها:

حضروا فمذ نظروا جمالك غابوا و الكلّ مذ سمعوا خطابك طابوا

و فيها توفّى الأمير علاء الدين أيدكين بن عبد اللّه البندقدارىّ الصالحىّ النجمىّ أستاذ الملك الظاهر بيبرس البندقدارى، كان أصل أيدكين هذا من مماليك الأمير جمال الدين موسى بن يغمور، ثم انتقل عنه للملك الصالح نجم الدين أيّوب و جعله بندقداره و أمّره ثم نكبه، و أخذ منه الملك الظاهر بيبرس ثم أعاده. ثم ترقّى بعد موت أستاذه و ولى نيابة الشام من قبل مملوكه الملك الظاهر بيبرس، و كان الملك الظاهر بيبرس يعظّمه و يقول له: أنت أستاذى و يعرف له حقّ التربية! و كان هو أيضا يبالغ فى خدمة الملك الظاهر و النّصح له؛ و هو الذى انتزع له دمشق من يد الأمير سنجر الحلبىّ كما تقدّم ذكره. و عاش أيدكين إلى دولة الملك المنصور قلاوون، و هو من أكابر الأمراء و أعيانهم إلى أن مات فى القاهرة فى شهر ربيع الاخر، و دفن بتربته قريب بركة الفيل و قد ناهر السبعين.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۶۶

قلت: و ما العجب أنّ أيدكين هذا كان من جملة أمراء مملوكه الملك الظاهر بيبرس، و العجب أن أستاذ أيدكين هذا الأمير جمال الدين بن يغمور كان أيضا من جملة أمراء الظاهر بيبرس فكان الظاهر أستاذ أستاذه فى خدمته و من جملة أمرائه فانظر إلى تقلبات الدهر بالملوك و غيرها!

و فيها توفّى الشيخ الإمام رشيد الدين أبو محمد سعيد بن علىّ بن سعيد البصراوىّ الحنفىّ مدرّس الشّبليّة؛ كان إماما عالما فاضلا مدرّسا كثير الدّيانة و الورع، عرض عليه القضاء غير مرّة فامتنع، و كانت له اليد الطّولى فى العربيّة و النظم، و كانت وفاته فى شعبان و دفن بقاسيون. و من شعره:

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۶۷

أرى عناصر طيب العيش أربعة ما زال منها فطيب العيش قد زالا

أمنّا و صحّة جسم لا يخالطها مغاير و الشّباب الغضّ و المالا

و له مواليا:

كيف اعتمدت على الدنيا و تجريبك أراك فلك تراها كيف تجرى بك

ما زالت الخادعه تدنو فتغرى بك حتى رمتك بإبعادك و تغريبك

و فيها توفّى الأديب البارع مجير الدين أبو عبد اللّه محمد بن يعقوب بن علىّ المعروف بابن تميم الشاعر المشهور، و هو سبط ابن تميم، كان أصله دمشقيا و انتقل إلى حماة و خدم صاحبها الملك المنصور جنديّا، و كان له به اختصاص، و كان فاضلا شجاعا عاقلا، و كان من الشعراء المعدودين. و من شعره فى الشجاعة و الإقدام قوله:

دعنى أخاطر فى الحروب بمهجتى إمّا أموت بها و إمّا أرزق

فسواد عيشى لا أراه أبيضا إلّا إذا احمرّ السّنان الأزرق

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۶۸

و له:

لم لا أهيم إلى الرّياض و زهرها و أقيم منها تحت ظل ضافى

و الغصن يلقانى بثغر باسم و الماء يلقانى بقلب صافى

و له:

عاينت ورد الرّوض يلطم خدّه و يقول و هو على البنفسج محنق

لا تقربوه و إن تضوّع نشره ما بينكم فهوا العدوّ الأزرق

قلت: و قريب من هذا قول القائل:

بنفسج الروض تاه عجبا و قال طيبى للجوّ ضمّخ

فأقبل الزهر فى احتفال و البان من غيظه تنفّخ

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة؛ ج۷؛ ص۳۶۸

ذين ذكر الذهبى وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّيت أمّ الخير ستّ العرب بنت يحيى بن قيماز الكنديّة فى المحرّم. و المحدّث أبو القاسم علىّ بن بلبان الناصرىّ فى رمضان. و أبو بكر محمد بن إسماعيل بن عبد اللّه الأنماطىّ فى ذى الحجّة. و القدوة الشيخ محمد بن الحسن الإخميمىّ بقاسيون فى جمادى الأولى. و الشيخ الزاهد شرف الدين محمد ابن الشيخ عثمان [بن علىّ] الرّومىّ. و الإمام الرشيد سعيد بن علىّ [ابن سعيد] الحنفىّ فى رمضان. و العلّامة رضىّ الدين محمد بن على بن يوسف الشاطبىّ اللغوى بمصر، و له نيّف و ثمانون سنة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم لم يحرّر. مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و عشرون إصبعا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۶۹

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۸۵]

السنة الثامنة من ولاية الملك المنصور قلاوون على مصر، و هى سنة خمس و ثمانين و ستمائة.

فيها استولى الملك المنصور قلاوون على الكرك و انتزعها من يد الملك المسعود خضر ابن الملك الظاهر بيبرس.

و فيها توفّى الشيخ معين الدين أبو عمرو عثمان بن سعيد بن عبد الرحمن بن أحمد ابن تولوا الفهرىّ، مولده بتنّيس سنة خمس و ستمائة، و مات بمصر فى شهر ربيع الأوّل، و دفن بالقرافة الصغرى، و سمع الحديث و تفقّه و كان له معرفة بالأدب و له يد طولى فى النظم، و شعره فى غاية الجودة. و من شعره و قد أمر قاضى مصر بقطع أرزاق الشعراء من الصدقات سوى أبى الحسين الجزّار. فقال:

تقدّم القاضى لنوّابه بقطع رزق البرّ و الفاجر

و وفّر الجزّار من بينهم فاعجب للطف التّيس بالجازر

و فيها توفّى الشيخ شهاب الدين أبو عبد اللّه محمد بن عبد المنعم بن محمد الأنصارىّ الصوفى الفقيه الشافعى، الشاعر المشهور المعروف بابن الخيمىّ، كان إمام عصره فى الأدب و نظم الشعر مع مشاركة فى كثير من العلوم. و مولده سنة اثنتين و ستمائة، و توفى بمشهد الحسين بالقاهرة فى شهر رجب، و قد أوضحنا أمره مع نجم الدين ابن إسرائيل لمّا تداعيا القصيدة التى أوّلها:

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۷۰

يا مطلبا ليس لى فى غيره أرب إليك آل التّقصّى و انتهى الطّلب

فى تاريخنا «المنهل الصافى و المستوفى بعد الوافى» و ذكرنا أمرهما لمّا أمرهما ابن الفارض بنظم قصيدتين فى الرّوىّ و القافية و ذكرنا القصيدتين أيضا بكمالهما، ثم حكم ابن الفارض بالقصيدة لشهاب الدين هذا. و القصيدة التى نظمها شهاب الدين ابن الخيمىّ هذا لمّا أمره ابن الفارض بالنظم أوّلها:

للّه قوم بجرعاء الحمى غيب جنوا علىّ و لمّا أن جنوا عتبوا

و التى نظمها ابن إسرائيل.

لم يقض من حبّكم بعض الذى يجب قلب متى ما جرى تذكاركم يجب

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى المسند أبو العبّاس أحمد بن شيبان الصالحىّ فى صفر، و قد قارب التسعين. و العلّامة جمال الدين محمد ابن أحمد بن محمد البكرىّ. و الشهاب محمد بن عبد المنعم بن محمد الأنصارىّ ابن الخيمىّ الشاعر فى

رجب، و له ثلاث و ثمانون سنة. و الشيخ عبد الرحيم بن محمد ابن أحمد بن فارس العلثىّ بن الزّجّاج فى المحرّم. و أمة الحقّ شاميّة ابنة صدر الدين الحسن بن محمد بن محمد البكرىّ فى رمضان. و الإمام صفىّ الدين خليل بن أبى بكر ابن محمد المراغىّ فى ذى القعدة. و قاضى القضاة بهاء الدين يوسف ابن القاضى محيى الدين [يحيى] بن الزكى فى ذى الحجّة، و له ستّ و أربعون سنة. و المقرئ برهان الدين إبراهيم بن إسحاق بن المظفّر الوريرىّ فى ذى الحجّة قافلا من الحجّ. و خطيب كفر بطنا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۷۱

جمال الدين محمد بن عمر الدّينورىّ فى رجب، و له اثنتان و سبعون سنة.

و المقرئ الشيخ حسن بن عبد اللّه بن ويحيان الرّاشدىّ فى صفر.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع، و قيل خمس، و ست أصابع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و أربع أصابع.

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۸۶]

السنة التاسعة من ولاية الملك المنصور قلاوون على مصر، و هى سنة ست و ثمانين و ستمائة.

فيها توفّى الشيخ الإمام العارف بالله تعالى قطب زمانه شهاب الدين أبو العبّاس أحمد بن عمر المرسىّ الأنصارىّ الإسكندرىّ المالكىّ الصالح المشهور، كان علّامة زمانه فى العلوم الإسلاميّة، و له القدم الراسخة فى علم التحقيق، و له الكرامات الباهرة، و كان يقول: شاركنا الفقهاء فيما هم فيه، و لم يشاركونا فيما نحن فيه. و قال الشيخ أبو الحسن الشاذلىّ: أبو العبّاس بطرق السماء أعلم منه بطرق الأرض. انتهى.

قلت: و كان لديه فضيلة و مشاركة، و له كرامات و أحوال مشهورة عنه، و للناس فيه اعتقاد كبير لا سيّما أهل الإسكندرية، و قد شاع ذكره و بعد صيته بالصلاح و الزّهد، و كان من جملة الشهود بالثّغر، و بها توفّى و دفن و قبره يقصد للزيارة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۷۲

و فيها توفّى الشيخ شرف الدين أبو الربيع سليمان بن بليمان بن أبى الجيش ابن عبد الجبّار بن بليمان الهمذانىّ الأصل الرّعبانىّ المولد، الإربلىّ المنشأ، الشاعر المشهور صاحب النوادر، كان من شعراء الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن محمد صاحب الشام، و كان أبوه صائغا و تعانى هو أيضا الصّياغة، قيل إنّه جاء إليه مملوك مليح من مماليك الملك الأشرف موسى، و قال له: عندك خاتم لإصبعى؟ فقال له: لا، إلا عندى إصبع مليح لخاتمك. و مات بدمشق فى ليلة عاشر صفر. و من شعره:

و ما زالت الرّكبان تخبر عنكم أحاديث كالمسك الذّكىّ بلامين

إلى أن تلاقينا فكان الذى وعت من القول أذنى دون ما أبصرت عينى

و لمّا قامر التّلعفرىّ بثيابه و أخفافه قال فيه شرف الدين هذا قصيدة و أنشدها للملك الناصر بحضرة التّلعفرىّ. فلمّا فرغ من إنشادها قال له التّلعفرىّ: ما أنا جندىّ

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۷۳

حتى أقامر بأخفافى. فقال له شرف الدين: بخفاف امرأتك. فقال: مالى امرأة، فقال له: لك مقامرة من بين الحجرين إمّا بالخفاف أو بالنّعال. انتهى.

قلت: و أنا مسامح التّلعفرىّ على القمار، لحسن ما قاله من رائق الأشعار:

فمن كان ذا عذر قبلت اعتذاره و من لاله عذر فعندى له عذر

و فيها توفّى الشيخ الإمام المحدّث قطب الدين أبو بكر محمد بن أحمد بن علىّ بن محمد بن الحسن بن أحمد بن عبد اللّه بن ميمون القيسىّ الشّاطبىّ المحدّث الإمام العلّامة، كان شيخ الكامليّة بالقاهرة المعروف بابن القسطلانىّ التّوزرىّ الأصل المصرى المولد المكّىّ

المنشأ الشافعيّ المذهب، مولده سنة أربع عشرة و ستمائة، و مات يوم السبت ثامن عشر المحرّم، و دفن بالقرافة الصغرى، و كان مجموع الفضائل، رحمه اللّه.

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى الإمام النّحويّ بدر الدين محمد ابن الشيخ جمال الدين بن مالك فى المحرّم. و الإمام قطب الدين أبو بكر محمد بن أحمد بن علىّ القسطلانىّ بالقاهرة فى المحرّم. و قاضى القضاة برهان الدين الخضر بن الحسن بن علىّ السّنجاريّ بمصر فى صفر. و الحكيم عماد الدين محمد بن عبّاس الرّبغىّ الدّنيسرىّ، و له إحدى و ثمانون سنة. و شرف الدين سليمان ابن بليمان الإربلىّ الشاعر. و المحدث وجيه الدين عبد الرحمن بن حسن السّبتىّ فى جمادى الأولى. و المسند عزّ الدين أبو العزّ عبد العزيز بن عبد المنعم [بن علىّ] ابن الصّيقل الحرّانىّ فى شهر رجب.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۷۴

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و أصابع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و عشر أصابع.

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۸۷]

السنة العاشرة من ولاية الملك المنصور قلاوون على مصر، و هى سنة سبع و ثمانين و ستمائة.

فيها توفّى الشيخ المعتقد الصالح برهان الدين أبو إسحاق إبراهيم بن معضاد بن شدّاد الجعبرىّ الأصل و المولد المصرىّ الدار و الوفاة، الصالح المشهور، نشأ بجعبر ثم انتقل إلى الديار المصريّة و استوطنها و لزم مسجده، و كان يعظ به و يجتمع عنده خلق كثير، و لأصحابه فيه عقيدة حسنة، و له مقالات كثيرة، و كان زاهدا عابدا، سمع الحديث و روى عن السّخاوىّ و غيره، و كان غزير الفضيلة حلو العبارة.

قال الصلاح الصّفدىّ: أخبرنى الشيخ الإمام العلّامة أثير الدين أبو حيّان من لفظه قال: رأيت المذكور بالقاهرة، و حضرت مجلسه أنا و الشيخ نجم الدين بن مكّىّ، و جرت لنا معه حكاية، و كان يجلس للعوامّ يذكّرهم و لهم فيه اعتقاد، و كان يدرى شيئا من الحديث، و له مشاركة فى أشياء من العلوم و فى الطب، و له شعر جيّد.

و أنشد له قصيدة أذكر منها القليل:

عشقوا الجمال مجرّدا بمجرّد الر وح الزكيّة عشق من زكّاها

متجرّدين عن الطّباع و لؤمها متلبّسين عفافها و تقاها

انتهى كلام الصّفدىّ.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۷۵

و قال القطب اليونينىّ: و أظنّه نيّف على الثمانين من العمر، و لمّا مرض مرض الموت أمر أن يخرج به إلى مكان مدفنه، فلما رآه قال له: «قبير جاك دبير». و مات بعد ذلك بيوم فى يوم السبت رابع عشرين المحرّم بالقاهرة و دفن من يومه بالحسينيّة خارج باب النّصر، و قبره معروف هناك يقصد للزيارة.

قلت: و يعجبنى فى هذا المعنى المقالة السابعة الزّهديّة من مقالات الشيخ العارف الرّبانىّ شرف الدين عبد المؤمن بن هبة اللّه الأصفهانىّ المعروف بشوروة من كتابه «أطباق الذهب» و هى:

طوبى للتّقىّ الخامل، الذى سلم عن إشارة الأنامل؛ و تعسا لمن قعد فى الصوامع، ليعرف بالأصابع؛ خزائن الأمناء مكتومة، و كنوز الأولياء مختومة؛ و الكامل كامن بتضاءل، و الناقص قصير يتطاول؛ و العاقل قبعة، و الجاهل طلعة؛ فاقبع قبوع الحيّات، و اكمن فى الظّلمات، كمون ماء الحياة؛ و صن كنزك فى التّراب، و سيفك فى القراب؛ و عفّ آثارك بالذّيل المسحوب، و استر رواءك بسفعة الشّحوب؛ فالنباهة فتنة، و الوجاهة محنة؛ فكن كنزا مستورا، و لا تكن سيفا مشهورا؛ إنّ الظالم جدير أن يقبر و لا يحشر، و البالى خليق

أن يطوى و لا ينشر؛ و لو عرف

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۷۶

الجذل صولة النّجار، و عضّة المنشار؛ لما تطاول شبرا، و لا تخايل كبرا، و سيقول البلبل المعتقل: يا ليتنى كنت غرابا، و يقول الكافر يا ليتنى كنت ترابا». انتهى.

و فيها توفّى الشيخ ناصر الدين أبو محمد حسن بن شاور بن طرخان الكنانىّ و يعرف بابن الفقيسىّ و بابن النّقيب الشاعر المشهور، كان من الفضلاء الأدباء، و مات ليلة الأحد منتصف شهر ربيع الأوّل و دفن بسفح المقطّم، و له تسع و سبعون سنة؛ و كان بينه و بين العلّامة شهاب الدين محمود صحبة و مجالسة و مذاكرة فى القريض.

و من شعره:

نهيناه عن فعل القبيح فما انتهى و لا ردّه ردع و عاد و عادى

و قلنا له دن بالصّلاح فقلّما رأينا فتى عانى الفساد فسادا

و له:

و جرّدت مع فقرى و شيخوختى التى تراها فنومى عن جفونى مشرّد

فلا يدّعى غيرى مقامى فإنّنى أنا ذلك الشيخ الفقير المجرّد

و له:

حدّثت عن ثغره المحلّى فمل إلى خدّه المورّد

خدّ و ثغر فجلّ ربّ بمبدع الحسن قد تفرّد

و له:

يا من أدار سلافة من ريقه و حبابها الثّغر الشّنيب الأشنب

تفّاح خدّك بالعذار ممسّك لكنّه بدم القلوب مخضّب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۷۷

و له:

أنا العذرىّ فاعذرنى و سامح و جرّ علىّ بالإحسان ذيلا

و لمّا صرت كالمجنون عشقا كتمت زيارتى و أتيت ليلا

و فيها توفّى الملك الصالح على ابن السلطان الملك المنصور قلاوون، كان والده المنصور قلاوون قد جعله ولىّ عهده و سلطنه فى حياته حسب ما تقدم ذكره فى سنة تسع و سبعين و ستمائة، فدام فى ولاية العهد إلى هذه السنة مرض و مات بعد أيّام فى رابع شعبان بقلعة الجبل، و وجد عليه أبوه الملك المنصور قلاوون كثيرا، فإنّه كان نجيبا عاقلا خليقا للملك.

و فيها توفّى الشيخ الطبيب علاء الدين علىّ بن أبى الحرم القرشى الدّمشقىّ المعروف بابن النّفيس الحكيم الفاضل العلّامة فى فنّه، لم يكن فى عصره من يضاهيه فى الطّبّ و العلاج و العلم، اشتغل على المهذّب الدّخوار حتى برع، و انتهت إليه رياسة فنّه فى زمانه، و هو صاحب التصانيف المفيدة، منها: «الشامل فى الطب»، و «المهذّب فى الكحل»، و «الموجز»، و «شرح القانون لابن سينا». و مات فى ذى القعدة بعد أن أوقف داره و أملاكه و جميع ما يتعلّق به على البيمارستان المنصورىّ بالقاهرة.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى الشيخ إبراهيم بن معضاد الجعبرىّ بالقاهرة فى المحرّم عن نيّف و ثمانين سنة. و الإمام أبو العبّاس أحمد بن أحمد بن عبد اللّه [بن أحمد بن محمد بن قدامة] المقدسىّ الفرضىّ. و خطيب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۷۸

القدس قطب الدين أبو الزّكاء عبد المنعم بن يحيى الزّهرىّ فى رمضان. و الجمال أحمد بن أبى بكر بن سليمان بن الحموىّ. و الشيخ الإمام أبو إسحاق إبراهيم بن عبد العزيز اللّورى شيخ المالكية فى صفر.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و أربع أصابع.

مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا و أربع أصابع.

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۸۸]

السنة الحادية عشرة من ولاية الملك المنصور قلاوون على مصر، و هى سنة ثمان و ثمانين و ستمائة.

فيها فتحت طرابلس و ما أضيف إليها بعد أمور و وقائع حسب ما ذكرناه فى أصل هذه الترجمة مفصّلا.

و فيها توفّى الشيخ علم الدين أحمد ابن الصاحب صفىّ الدين يوسف بن عبد اللّه ابن شكر المعروف بابن الصاحب، كان نادرة زمانه فى المجون و الهزل و إنشاد الأشعار و البلّيقات و كان بقى فى آخر عمره فقيرا مجرّدا، و كان اشتغل فى صباه و حصّل و درس، و كان لديه فضيلة و ذكاء و حسن تصور، إلّا أنه تمفقر فى آخر عمره و أطلق طباعه على التّكدى و صار يجارد الرؤساء، و يركب فى قفص [على رأس] حمّال و يتضارب الحمّالون على حمله، لأنّه كان مهما فتح له من الرؤساء كان للّذى يحمله،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۷۹

فكان يستمرّ راكبا فى القفص و الحمّال يدور به فى أماكن الفرج و النّزه، و كان يتعمّم بشرطوط طويل جدّا رقيق العرض و يعاشر الحرافيش، و كان له أولاد رؤساء، و يقال: إنّ الصاحب بهاء الدين بن حنّا هو الذى أحوجه إلى أن ظهر بذلك المظهر، و أخمله و جنّنه لكونه كان من بيت وزارة، فكان ابن الصاحب هذا إذا رأى الصاحب بهاء الدين بن حنّا ينشد:

اشرب و كل و تهنّا لابدّ أن تتعنّى

محمد و علىّ من أين لك يا بن حنا

قال الشيخ صلاح الدين الصّفدىّ: «أخبرنى من لفظه الحافظ نجم الدين أبو محمد الحسن خطيب صفد، قال: رأيته (يعنى ابن الصاحب) أشقر أزرق العينين عليه قميص أزرق، و بيده عكّاز حديد. قال: و أخبرنى من لفظه الحافظ فتح الدين ابن سيّد الناس، قال: كان ابن الصاحب يعاشر الفارس أقطاى فاتّفق أنّهم كانوا يوما على ظهر النّيل فى شختور، و كان الملك الظاهر بيبرس مع الفارس أقطاى و جرى بينهم أمر، ثم ضرب الدهر ضربانه حتّى تسلطن الملك الظاهر بيبرس و ركب يوما إلى الميدان، و لم يكن عمّر قنطرة السّباع، و كان التوجه إلى الميدان من على باب زويلة على باب الخرق، و كان ابن الصاحب هذا نائما على قفص صيرفىّ

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۸۰

من تلك الصّيارف برّا باب زويلة، و لم يكن أحد يتعرّض لابن الصاحب، فمرّ به الملك الظاهر فلم يشعر إلا و ابن الصاحب يضرب بمفتاح فى يده على خشب الصيرفى قويّا، فالتفت الظاهر فرآه فقال: هاه! علم الدين؟ فقال: إيش علم الدين أنا جيعان! فقال: أعطوه ثلاثة آلاف درهم. و كان ابن الصاحب أشار بتلك الدّقّة إلى دقّة مثلها يوم المركب». انتهى [كلام الصّفدى].

قلت: و من نوادره اللّطيفة أنّه كان بالقاهرة إنسان [كثيرا ما] يجرّد الناس فسمّوه زحل، فلمّا كان فى بعض الأيام وقف ابن الصاحب على دكّان حلوى يزن دراهم يشترى بها حلوى، و إذا بزحل قد أقبل من بعيد، فقال ابن الصاحب للحلاوى: أعطنى الدراهم، ما بقى لى حاجة بالحلوى، فقال: لم؟ قال: أما ترى زحل قارن المشترى فى الميزان! و له من هذا أشياء كثيرة ذكرنا منها نبذة فى ترجمته فى تاريخنا «المنهل الصافى». و من شعره:

يا نفس ميلى إلى التّصابى فاللّهو منه الفتى يعيش

و لا تملّى من سكر يوم إن أعوز الخمر فالحشيش

و له فی المعنی:

فی خمار الحشیش معنی مرامی یا أهیل العقول و الأفهام

حرّموها من غیر عقل و نقل و حرام تحریم غیر الحرام

قلت: و أحسن ما قیل فی هذا المعنی قول القائل و لم أدر لمن هو:

و خضراء ما الحمراء تفعل فعلها لها و ثبات فی الحشی و ثبات

تؤجّج نارا فی الحشی و هی جنّة و تروی مریر الطّعم و هی نبات

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۸۱

و فیها توفّی الشیخ الأدیب البارع المفتّن شمس الدین محمد بن عفیف الدین سلیمان ابن علی التّلمسانیّ الشاعر المشهور، کان شابّا فاضلا ظریفا، و شعره فی غایة الحسن و الجودة. و دیوان شعره مشهور بأیدی الناس، و من شعره:

یاسا کنّا قلبی المعنّی و لیس فیه سواک ثانی

لأیّ معنی کسرت قلبی و ما التقی فیه ساکنان

و له فی ذمّ الحشیش:

ما للحشیشة فضل عند آکلها لکنه غیر مصروف إلی رشده

صفراء فی وجهه خضراء فی فمه حمراء فی عینه سوداء فی کبده

و له أیضا:

لی من هواک بعیده و قریبه و لک الجمال بدیعه و غریبه

یا من أعید جماله بجلاله حذرا علیه من العیون تصیبه

إن لم تکن عینی فإنّک نورها أو لم تکن قلبی فإنت حبیبه

هل رحمة أو حرمة لمتیّم قد قلّ منک نصیره و نصیبه

ألف القصائد فی هواک تغزّلا حتّی کأنّ بک النسیب نسیبه

لم تبق لی سرّا أقول تذیعه عنّی و لا قلب أقول تنیبه

کم لیلة قضّیتها متسهّدا و الدمع یجرح مقلتی مسکوبه

و النجم أقرب من لقاک مناله عندی و أبعد من رضاک مغیبه

و الجوّ قد رقّت علیّ شماله و جفونه و شماله و جنوبه

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۸۲

هی مقّلة سهم الفراق یصیبها و یسحّ وابل دمعها فیصوبه

و جوّی تضرّم جمره لو لا ندی قاضی القضاة قضی علیّ لهیبه

و له:

أخجلت بالثّغر ثنایا الأقاح یا طرّة اللیل و وجه الصّباح

و أعجمت أعینک السّحر مذ أعربت منهن صفاحا فصاح

فیالها سودا مراضا غدت تسلّ للعاشق بیضا صحاح

یا للهوی من مسعد مغرما رأی حمام الأیک غنّی فناح

یا بانة مالت بأعطافه علّمتنی کیف تهزّ الرّماح

و أنت يا أسهم ألحاظه أثخنت و اللّه فؤادى جراح

الذين ذكر الذهبى وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى كمال الدين أحمد ابن يوسف بن نصر الفاضلىّ. و المفتى فخر الدين عبد الرحمن بن يوسف البعلبكّىّ الحنبلى فى رجب. و رئيس الشهود زين الدين المهذب ابن أبى الغنائم التّنوخىّ.

و العلّامة شمس الدين الأصيهانىّ الأصولى محمد بن محمود بالقاهرة فى رجب. و المقرئ تقىّ الدين يعقوب بن بدران الجرائدىّ بالقاهرة فى شعبان. و المسندة العابدة زينب بنت مكّىّ فى شوّال، و لها أربع و تسعون سنة. و العماد أحمد ابن الشيخ العماد إبراهيم ابن عبد الواحد المقدسىّ. و الإمام شمس الدين أبو عبد اللّه محمد بن الكمال عبد الرحيم ابن عبد الواحد المقدسىّ فى جمادى الأولى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۸۳

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و عشر أصابع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و عشر أصابع.

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۸۹]

السنة الثانية عشرة من ولاية السلطان الملك المنصور قلاوون على مصر، و هى سنة تسع و ثمانين و ستمائة.

فيها كانت وفاة صاحب الترجمة الملك المنصور قلاوون فى ذى القعدة حسب ما تقدّم ذكره، و تسلطن بعده ابنه الملك الأشرف خليل.

و فيها توفّى الشيخ الإمام أبو المعالى برهان الدين أحمد بن ناصر بن طاهر الحسينىّ الحنفىّ إمام المقصورة الحنفية الشمالية بجامع دمشق، كان إماما عالما فاضلا زاهدا صالحا متعبّدا مفتّنا مشتغلا بما هو فيه من الاشتغال بالعلم و الأوراد و القراءة إلى أن مات فى يوم السبت ثانى عشرين شوّال، و تولّى بعده الإمامة الشيخ نجم الدين يعقوب البروكارىّ الحنفىّ، و سلك مسلكه.

و فيها توفّى الأمير حسام الدين أبو سعيد طرنطاى بن عبد اللّه المنصورىّ الأمير الكبير، كان أوحد أهل عصره، كان عظيم دولة أستاذه الملك المنصور قلاوون؛ و كان المنصور قد جعله نائبه بسائر الممالك، و كان هو المتصرّف فى مملكته.

فلمّا مات الملك المنصور قلاوون و تسلطن ولده الملك الأشرف خليل استنابه أيّاما إلى أن رتّب أموره و دبّره و دبّر أحواله، و كان عظيم التنفيذ سديد الرأى، مفرط الذكاء غزير العقل؛ فلمّا رسخت قدم الأشرف فى السلطنة أمسكه، و كان فى نفسه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۸۴

منه أيّام والده، و بسط عليه العذاب إلى أن مات شهيدا و صبر على العذاب صبرا لم يعهد مثله عصر إلى أن هلك، و لمّا غسّلوه و جدوه قد تهرّأ لحمه و تزايلت أعضاؤه، و أنّ جوفه كان مشقوقا، كلّ ذلك و لم يسمع منه كلمة. و كان بينه و بين الأمير علم الدين سنجر الشّجاعىّ عداوة على الرّتبة، فسلّمه الأشرف إلى الشّجاعىّ و أمره بتعذيبه، فبسط الشجاعىّ عليه العذاب أنواعا إلى أن مات، فحمل إلى زاوية الشيخ عمر السّعودىّ، فغسّلوه و كفّنوه و دفنوه بظاهر الزاوية. و كان له مواقف مع العدوّ، و غزوات مشهورة و فتوحات. و بنى مدرسة حسنة بقرب داره بخط البندقانيّين بالقاهرة، و قبّة برسم الدفن، و له أوقاف على الأسرى و غيرها. و كان فيه محاسن لو لا شحّه و بذاءة لسانه لكان أوحد أهل زمانه، و خلّف أموالا جمّة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۸۵

قال الشيخ قطب الدين اليونينىّ قال الشيخ تاج الدين الفزارى: حدّثنى تاج الدين بن الشّيرازى المحتسب: أنّهم وجدوا فى خزانة طرنطاى من الذهب العين ألفى ألف دينار و أربعمائة ألف دينار و ألفى حياصة ذهب و ألف و سبعمائة كلّوته مزركشة، و من الدراهم ما لا يحصى؛ فاستولى الأشرف خليل على ذلك كلّه، و فرّقه على الأمراء و المماليك فى أيسر مدّة؛ و احتاج أولاد طرنطاى هذا و عياله من بعده إلى الطلب من الناس من الفقر.

و قال غيره: وجد لطرنطاى ألف ألف دينار و ستمائة ألف دينار. ثم ذكر أنواع الأقمشة و الخيول و الجمال و البغال و المتاجر ما يستحى من ذكره كثرة. و مات طرنطاى المذكور و لم يبلغ خمسين سنة من العمر.

و فيها توفّى الأمير علاء الدين طيبرس بن عبد اللّه الصالحىّ المعروف بالوزيرىّ، كان أحد الأمراء المشهورين بالشجاعة و الإقدام، و كان من المبرّزين و له التقدّم فى الدول و الوجاهة، و لم يزل على ذلك إلى أن مات، رحمه اللّه تعالى.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى العلّامة رشيد الدين عمر بن إسماعيل الفارقى خنق فى المحرّم و قد كمّل التسعين. و الإمام نور الدين على ابن ظهير بن شهاب بن الكفتى المقرئ الزاهد فى شهر ربيع الآخر. و قاضى الحنابلة نجم الدين أحمد ابن الشيخ شمس الدين عبد الرحمن بن أبى عمر فى جمادى الأولى،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۸۶

و له ثمان و ثلاثون سنة. و خطيب دمشق جمال الدين عبد الكافى بن عبد الملك ابن عبد الكافى الربعى فى سلخ جمادى الأولى. و الزاهد فخر الدين أبو طاهر إسماعيل عزّ القضاة بن علىّ بن محمد الصوفىّ فى رمضان. و الشيخ شمس الدين عبد الرحمن ابن الزّين أحمد بن عبد الملك المقدسى فى ذى القعدة. و السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفىّ الصالحىّ فى ذى القعدة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثلاث أذرع و إصبعان. مبلغ الزيادة خمس عشرة ذراعا و سبع عشرة إصبعا، و لم يوفّ فى هذه السنة.

انتهى الجزء السابع من النجوم الزاهرة و يليه الجزء الثامن، و أوّله: ذكر ولاية الملك الأشرف خليل على مصر

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۸۷

استدراكات على بعض تعليقات وردت فى الجزءين الرابع و الخامس من هذا الكتاب، لحضرة الأستاذ محمد رمزى بک

قنطرة عبد العزيز بن مروان

بما أن الشرح الخاص بتعيين موقع هذه القنطرة المدرج فى صفحة ۴۴ بالجزء الرابع من هذه الطبعة جاء غير واف فيستبدل به الشرح الآتى:

لما تكلم المقريزى على ظواهر القاهرة المعزية (ص ۱۰۸ ج ۲) قال: كان أوّل الخليج الكبير عند وضع القاهرة بجانب خط السبع سقايات و كان ما بين هذا الخط و بين المعاريج بمدينة مصر (مصر القديمة) غامرا بماء النيل.

و لما تكلم على قناطر الخليج الكبير (ص ۱۴۶ ج ۲) قال: ان قنطرة ابن مروان كانت فى طرف الفسطاط بالحمراء القصوى بناها عبد العزيز بن مروان والى مصر فى سنة ۶۹ ه. و موضعها خلف السبع سقايات على فم الخليج الكبير و كان المرور على هذه القنطرة بين الحمراء القصوى و جنان الزهرى.

و لما تكلم على حكر أقبغا (ص ۱۱۶ ج ۲) قال: و فى هذا الحكر تقع قنطرة عبد العزيز بن مروان.

و قد تبيّن لى من البحث: (أوّلا) أن خط السبع سقايات هو الذى عرف فيما بعد بحكر أقبغا أى أن مكانهما واحد، و فقط اختلفت التسمية باختلاف الزمن و المناسبات. (ثانيا) أن حكر أقبغا مكانه اليوم المنطقة التى فيها حارة السيدة زينب و فروعها و جنينة لاظ و شوارعها. (ثالثا) أن النيل كان يجرى وقت فتح العرب لمصر فى الجهة الغربية من جنينة لاظ حيث الطريق المسماة شارع بنى الأزرق و ما فى امتداده جنوبا و شمالا. (رابعا) أن فم الخليج المصرى كان فى ذاك الوقت واقعا حذاء مدخل الشارع المذكور من جهة شارع الخليج.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۸۸

و مما ذكر يتضح أن قنطرة عبد العزيز بن مروان التى كانت على فم الخليج الكبير مكانها اليوم النقطة الواقعة بشارع الخليج المصرى تجاه مدخل حارة حكر أقبقا بأرض جنينة لاظ التى هى جزء من حكر أقبقا، و هذا الخط هو الجزء الشمالى من الحمراء القصوى و يقابله على الشاطئ الأيسر للخليج أرض جنان الزهرى حيث خط الناصرية الآن و ما فى امتداده إلى شارع غيط العدة.

بستان الخشاب

بما أن الشرح الخاص بتحديد هذا البستان المدرج فى صفحة ۴۴ بالجزء الرابع من هذه الطبعة جاء غير واف فيستبدل به الشرح الآتى:
تكلم المقريزى على هذا البستان فى جملة مواضع بالجزء الثانى من خططه فذكره عند الكلام على ظواهر القاهرة المعزية (ص ۱۰۸) و على بر الخليج الغربى (ص ۱۱۳) و على الخليج الناصرى (ص ۱۴۵) و على قنطرة السد (ص ۱۴۶) و على قنطرة الفخر (ص ۱۴۸) و على الميدان الناصرى (ص ۲۰۰) و على حكر الست حدق (ص ۱۱۶) و يستفاد مما ذكر فى المواضع المذكورة البيان الآتى:
(أوّلا) أن بستان الخشاب كان واقعا فى المنطقة التى تحدّ اليوم من الشمال بشوارع المبتديان و مضرب النشاب و البرجاس و الجزء الغربى من شارع إسماعيل باشا إلى النيل. و من الغرب نهر النيل. و من الجنوب مستشفى قصر العينى و شارع بستان الفاضل و ما فى امتداده من الجهة الشرقية إلى شارع الخليج المصرى. و من الشرق شارع الخليج المصرى و شارع سعد الدين إلى أن يتقابل مع الحد البحرى.
(ثانيا) أن هذا البستان كان منقسما إلى قسمين الشرقى منهما و هو الواقع بين شارع المنيرة و شارع الخليج المصرى و كان يعرف بالمريس حيث كان يسكنه طائفة من السودان و به يتخذون المزر و هو نوع من البوظة يسميه أهل السودان المريسة، و القسم الغربى و هو الواقع بين شارع المنيرة و شاطئ النيل كان يعرف

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۸۹

بالميدان الناصرى، و مكانه اليوم خط القصر العالى المسمى «جاردن ستى» و كان بالجهة الجنوبية من هذا الميدان على شاطئ سيالة جزيرة الروضة عند كوبرى محمد على يوجد مواقع فم الخليج الناصرى و قنطرة الفخر و موردة الجبس و موردة البلاط.

أرض الطبّالة

بما أن الشرح الخاص بتحديد هذه الأرض المدرج فى صفحة ۱۲ بالجزء الخامس من هذه الطبعة جاء غير واف بالنسبة للحد الغربى للأرض المذكورة فيستبدل به الشرح الآتى:
يستفاد مما ذكره المقريزى فى خططه عند الكلام على جزيرة الفيل (ص ۱۸۵ ج ۲) أن أرض الطبالة كانت ممتدّة إلى شاطئ النيل القديم تجاه جزيرة الفيل التى كانت وسط النيل. و مكانها اليوم منطقة شبرا بالقاهرة. و من هذا يتضح أن أرض الطبالة كانت واقعة فى المنطقة التى تحدّ اليوم من الشرق بشارع الخليج المصرى. و من الشمال بشارع الظاهر فشارع وقف الخربوطلى و ما فى امتداده حتى يتقابل بشارع مهمشة. و من الغرب بشارع غمرة إلى محطة كوبرى الليمون فميدان محطة مصر إلى ميدان باب الحديد حيث كان النيل يجرى قديما. و من الجنوب بشارع الفجالة و سكة الفجالة و يدخل فيها الآن محطة كوبرى الليمون و الفجالة و بركة الرطلى. و باقى الشرح الوارد بالجزء الخامس صحيح.
تنبيه: التعليقات الخاصة بالأماكن الأثرية على اختلاف أنواعها، و المدن و القرى القديمة و غيرها مع تعيين و تحديد مواضعها هى من وضع حضرة الأستاذ محمد رمزى بك المفتش بوزارة المالية سابقا. فنسدى إليه جزيل الشكر و نسأل اللّه جلّت قدرته أن يجزيه خير الجزاء عن خدمته للعلم و أهله.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۷، ص: ۳۹۰

استدراكات على الجزء السادس من النجوم الزاهرة

نبّهنا إليها الأستاذ الشيخ محمد أحمد دهمان من علماء دمشق فنسدى إليه جزيل الشكر (۱) ورد فى ص ۳۵ س ۱۵: «تسلّم أصحابه مدينة غزة و بيت جبريل و الماطرون» و ذكرنا فى الحاشية رقم ۳ أن تصويبه الماطرون عن شرح القاموس و معجم البلدان لياقوت. و الصواب أنه النطرون بالنون، لأن الماطرون اسم موضعين بالقرب من دمشق، و فتوحات صلاح الدين كانت فى فلسطين، كما فى سيرة صلاح الدين و الروضتين و تاريخ أبى الفدا و تاريخ ابن الوردى فى حوادث سنة ۵۸۳ ه.

(۲) ورد فى ص ۹۹ س ۱۱ و ۱۲: «و بنت تربة بقاسيون على نهر بردى».

و علقنا عليه فى الحاشية رقم ۵ أن «بردى نهر بدمشق». و صوابه: «و بنت تربة بقاسيون على نهر يزيد»، لأنّ نهر بردى لا يمرّ بقاسيون، و إنما يمرّ به نهر يزيد.

و لا تزال هذه التربة حتى اليوم على حافة نهر يزيد (راجع شذرات الذهب فى حوادث سنة ۵۸۱ ه).

(۳) ورد فى ص ۱۲۱ س ۹: «بمرج عدواء». و علقنا عليها فى الحاشية رقم ۹ نقلا عن ابن الأثير رواية أخرى: «أنه بمرج الريحان». و صوابه:

«بمرج عذراء» و هو مرج مشهور خارج دمشق قرب قرية يقال لها عذراء، كما فى شرح القاموس مادّة «مرج».

(۴) ورد فى ص ۱۵۰ س ۵: «و أما الأفضل فإنه سار إلى مصر فأرسل العادل وراءه أبا محمد نجيب الدين إليه بالزبدائى». و علقنا عليه فى الحاشية رقم ۲ بأن الزبدانى: نهر بدمشق. و صوابه: الزبدانى: كورة مشهورة معروفة بين دمشق و بعلبك (راجع تقويم البلدان لأبى الفدا إسماعيل و معجم البلدان لياقوت).

(۵) ورد فى ص ۲۱۸ س ۱۱: «و دفن بقاسيون». و علقنا عليه فى الحاشية رقم ۳ بأن زواية الأصلين: «مات بقاسيون» و ما أثبتناه عن شذرات الذهب و عقد الجمان. و تعتبر قاسيون مقبرة دمشق. و الصواب فى ذلك أن قاسيون:

جبل شمالى دمشق يطل عليها. و فى عصر نور الدين الأتابكى هاجرت طائفة من المقادسة هربا من إرهاق الصليبين لهم فسكنوا هذا الجبل و بنوا فيه دورا و مساجد فأصبح إحدى ضواحى دمشق التى لها مقبرة لا أنه مقبرة فقط فعليه تكون عبارة الأصلين صحيحة.

(۶) ورد فى ص ۲۴۰ س ۱۶: «فلما كان الغد أقبلت الأطلاب» و ذكرنا فى الحاشية رقم ۶ أن الأطلاب: العساكر. و نزيد عليه أن الأطلاب لفظة استعملت فى كتب التاريخ من عصر نور الدين الأتابكى إلى آخر أيام دولة المماليك الشراكسة، و يراد بها فرق الجيش و كتائبه، و الظاهر أنه مشتق من طلب الشيء إذا حاول أخذه فهو طالب و جمعه طلب و جمع الطلب أطلاب، و يدلّ على ذلك ما جاء فى ص ۲۹۳ من هذا الجزء: «قطع التتار دجلة فى مائة طلب، كل طلب فى خمسمائة فارس».

(۷) ورد فى ص ۲۶۶ ص ۴: «و دفن بقرب الصليحية». و ذكرنا فى الحاشية رقم ۱ رواية أخرى نقلا عن شذرات الذهب: «بقرب القليجية».

و صوابه ما ورد فى شذرات الذهب. و القليجية: مدرسة بدمشق معروفة، تنسب إلى قليج أرسلان.

(۸) ورد فى ص ۲۶۸ س ۴ فى الكلام على ترجمة الملك المعظم عيسى:

«و دفن مع والدته فى القبة عند الباب» و علقنا على ذلك فى الحاشية رقم ۱ نقلا عن ابن خلكان بأنه: نقل إلى تربته فى مدرسته التى أنشأها بظاهر دمشق على الشرف الأعلى مطلة على الميدان الأخضر الكبير». و علقنا أيضا فى الحاشية رقم ۲ نقلا عن ابن خلكان و شذرات الذهب أنه: «دفن خارج باب النصر أحد

أبواب دمشق فى مدرسة شمس الدولة». و كلا التعليقين خطأ. و صوابه أن الملك المعظم عيسى دفن فى مدرسته التى أنشأها بصالحية دمشق. و بالرجوع إلى تاريخ ابن خلكان وجدناه بعد أن انتهى من ترجمة الملك المعظم عيسى يقول: «و توفى عز الدين أيبك صاحب صرخد، إلى أن قال: و دفن خارج باب النصر فى مدرسة شمس الدولة و حضرت الصلاة عليه و دفنه ثم نقل إلى تربته فى مدرسته التى أنشأها بظاهر دمشق على الشرف الأعلى مطلة على الميدان الأخضر الكبير». و لا يخفى أن هذا الكلام الذى أدمجه ابن خلكان فى ترجمة الملك المعظم عيسى على عز الدين أيبك (راجع ابن خلكان فى ترجمة الملك المعظم عيسى و شذرات الذهب فى حوادث سنة ۶۲۴ ه).

(۹) ورد فى ص ۳۱۷ س ۳ «و إمام الربوة» و علقنا على ذلك فى الحاشية رقم ۳: «يريد ربوة دمشق و هى مغارة لطيفة الخ». و صوابه: «و بالربوة مغارة لطيفة ... الخ» راجع نزهة الأنام فى محاسن الشام، نسخة مخطوطة محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ۱۶۴۲ تاريخ).

(۱۰) ورد فى ص ۳۲۹ س ۷: «و دام الحصار إلى أن قدم البادرانى للصلح» و ذكرنا فى الحاشية رقم ۱ أن البادرانى، نسبه إلى بادران: قرية بأصبهان.

و هو عز الدين رسول الخليفة، قدم للصلح بين الملك الصالح نجم الدين و الحلبيين.

و صوابه: «البادرائىّ» بالهمزة. و هو نجم الدين أبو محمد عبد اللّه بن أبى الوفا الشافعى الفرضى الذى قدم من عند المستنصر للصلح. و قال السيوطى فى لب اللباب فى تحرير الأنساب: «البادرائى»: نسبة إلى بادرايا: قرية من عمل واسط». و راجع شذرات الذهب ج ۵ ص ۲۶۹ فى حوادث سنة ۶۵۵ ه و تنبيه الطالب للعليمىّ.

[الجزء الثامن]

اشارة

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم و صلّى اللّه على سيّدنا محمد و آله و صحابته و المسلمين الجزء الثامن من كتاب النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۹۰]

ذكر ولاية الملك الأشرف خليل على مصر

هو السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل ابن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفىّ الصالحىّ النّجمىّ، جلس على تخت الملك يوم وفاة أبيه فى يوم الأحد سابع ذى القعدة سنة تسع و ثمانين و ستمائة. و كان والده قلاوون قد سلطنه فى حياته بعد موت أخيه الملك الصالح علىّ بن قلاوون فى سنة سبع و ثمانين و ستمائة، و المعتدّ به جلوسه الآن على تخت الملك بعد موت أبيه. و جدّد له الأمراء و الجند الحلف فى يوم الاثنين ثامن ذى القعدة المذكور. و طلب من القاضى فتح الدين بن عبد الظاهر تقليده، فأخرجه إليه مكتوبا بغير علامة الملك المنصور، و كان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۴

ابن عبد الظاهر قد قدّمه إليه ليعلّم عليه فلم يرض، و تقدّم طلب الأشرف و تكرّر؛ و ابن عبد الظاهر يقدّمه إلى الملك المنصور، و المنصور يمتنع إلى أن قال له:

يا فتح الدين، أنا ما أولّى خليلا على المسلمين! و معنى ذلك أنّ الملك المنصور قلاوون كان قد ندم على توليته السلطنة من بعده.

فلمّا رأى الأشرف التقليد بلا علامة، قال: يا فتح الدين، السلطان امتنع أن يعطينى و قد أعطانى اللّه! و رمى التقليد من يده و تمّ أمره، و رتّب أمور الديار المصريّة، و كتب بسلطنته إلى الأقطار، و أرسل الخلع إلى النوّاب بالبلاد الشامية.

و هو السلطان الثامن من ملوک الترک و أولادهم. ثم خلع على أرباب وظائفه بمصر، و الذين خلع عليهم من الأعيان: الأمير بدر الدين بيدرا المنصورىّ نائب السلطنة بالديار المصريّة، و وزيره و مدبّر مملكته شمس الدين محمد بن السّلعوس الدّمشقىّ، و هو فى الحجاز الشريف. و على بقيّة أرباب وظائفه على العادة و النوّاب بالبلاد الشاميّة يوم ذاک. فكان نائبه بدمشق و ما أضيف إليها من الشام الأمير حسام الدين لاچين المنصورىّ. و نائب السلطنة بالممالک الحلبيّة و ما أضيف إليها الأمير شمس الدين قرا سنقر المنصورىّ. و نائب الفتوحات الساحليّة و الأعمال الطرابلسيّة و القلاع الإسماعيليّة الأمير سيف الدين بلبان السّلحدار المعروف بالطبّاخى.

و نائبه بالكرک و الشوبک و ما أضيف إلى ذلک الأمير ركن الدين بيبرس الدّوادار المنصورىّ، صاحب التاريخ المعروف «بتاريخ بيبرس الدوادار». و صاحب حماة

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۵

و المعرّة الملک المظفّر تقىّ الدين محمود ابن الملک المنصور محمد الأيّوبىّ. و الذين هم تحت طاعته من الملوک صاحب مكّة المشرّفة الشريف نجم الدين أبو نمىّ محمد بن إدريس بن علىّ بن قتادة الحسنىّ، و صاحب اليمن الملک المظفّر شمس الدين يوسف ابن عمر، فهؤلاء الذين أرسل إليهم بالخلع و التقاليد. انتهى.

و لمّا رسخت قدم الملک الأشرف هذا فى الملک أخذ و أعطى و أمر و نهى؛ و فرّق الأموال و قبض على جماعة من حواشى والده، و صادرهم على ما يأتى ذكره.

و لمّا استهلّت سنة تسعين و ستّمائة أخذ الملک الأشرف فى تجهيزه إلى السّفر للبلاد الشاميّة، و إتمام ما كان قصده والده من حصار عكّا، و أرسل إلى البلاد الشاميّة و جمع العساكر و عمل آلات الحصار، و جمع الصّنّاع إلى أن تمّ أمره، خرج بعساكره من الديار المصريّة فى ثالث شهر ربيع الأوّل من سنة تسعين المذكورة، و سار حتّى نازل عكّا فى يوم الخميس رابع شهر ربيع الآخر، و يوافقه خامس نيسان، فاجتمع عنده على عكّا من الأمم ما لا يحصى كثرة. و كان المطّوّعة أكثر من الجند و من فى الخدمة. و نصب عليها المجانيق الكبار الفرنجيّة خمسة عشر منجنيقا، منها ما يرمى بقنطار دمشقىّ و أكبر، و منها دونه. و أمّا المجانيق الشيطانيّة

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۶

و غيرها فكثيرة، و نقب عدّة نقوب. و أنجد أهل عكّا صاحب قبرس بنفسه و فى ليلة قدومه عليهم أشعلوا نيرانا عظيمة لم ير مثلها فرحا به، و أقام عندهم قريب ثلاثة أيام، ثم عاد عند ما شاهد انحلال أمرهم و عظم ما دهمهم. و لم يزل الحصار عليها و الجدّ فى أمر قتالها إلى أن انحلّت عزائم من بها و ضعف أمرهم و اختلفت كلمتهم.

هذا و الحصار عمّال فى كلّ يوم، و استشهد عليها جماعة من المسلمين.

فلمّا كان سحر يوم الجمعة سابع عشر جمادى الأولى ركب السلطان و العساكر و زحفوا عليها قبل طلوع الشمس، و ضربوا الكوسات فكان لها أصوات مهولة و حسّ عظيم مزعج، فحال ملاصقة العسكر لها و للأسوار هرب الفرنج و ملكت المدينة بالسيف، و لم تمض ثلاث ساعات من النهار المذكور إلّا و قد استولى المسلمون عليها و دخلوها؛ و طلب الفرنج البحر فتبعتهم العساكر الإسلاميّة تقتل و تأسر فلم ينج منهم إلّا القليل؛ و نهب ما وجد من الأموال و الذخائر و السلاح و عمل الأسر و القتل فى جميع أهلها، و عصى الدّيويّة و الإسبتار و استتر الأرمن فى أربعة أبراج شواهق فى وسط البلد فحصروا فيها.

فلمّا كان يوم السبت ثامن عشر الشهر، و هو ثانى يوم فتح المدينة، قصد جماعة من الجند و غيرهم الدار و البرج الذى فيه الدّيويّة فطلبوا الأمان فأمّنهم السلطان و سيّر لهم صنجقا، فأخذوه و رفعوه على برجهم و فتحوا الباب، فطلع إليهم جماعة

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۷

كثيرة من الجند و غيرهم، فلمّا صاروا عندهم تعرّض بعض الجند و العوامّ للنهيب، و مدّوا أيديهم إلى من عندهم من النساء و الأصاغر، فغلّق الفرنج الأبواب و وضعوا فيهم السيف، فقتلوا جماعة من المسلمين، و رموا الصّنجق و تمسّكوا بالعصيان و عاد الحصار عليهم. و فى اليوم المذكور نزل من كان ببرج الإسبتار الأرمن بالأمان فأمّنهم السلطان على أنفسهم و حريمهم على يد الأمير زين الدين كتبغا المنصورىّ، و تمّ القتال على برج الدّيويّة و من عنده إلى يوم الأحد التاسع عشر من جمادى الأولى طلب الدّيويّة و من بقى فى الأبراج الأمان، فأمّنهم السلطان على أنفسهم و حريمهم على أن يتوجّهوا حيث شاءوا. فلما خرجوا قتلوا منهم فوق الألفين و أسروا مثلهم، و ساقوا إلى باب الدّهليز النساء و الصّبيان، و كان من جملة حنق السلطان عليهم مع ما صدر منهم أن الأمير آقبغا المنصورىّ أحد أمراء الشام كان طلع إليهم فى جملة من طلع فأمسكوه و قتلوه، و عرقبوا ما عندهم من الخيول، و أذهبوا ما أمكنهم إذهابه؛ فتزايد الحنق عليهم. و أخذ الجند و غيرهم من السّبى و المكاسب ما لا يحصى.

و لمّا علم من بقى منهم ما جرى على إخوانهم تمسّكوا بالعصيان، و امتنعوا من قبول الأمان و قاتلوا أشدّ قتال، و اختطفوا خمسة نفر من المسلمين و رموهم من أعلى البرج فسلم منهم نفر واحد و مات الأربعة. ثم فى يوم الثلاثاء ثامن عشرين جمادى المذكورة أخذ البرج الذى تأخّر بعكا، و أنزل من فيه بالأمان، و كان قد غلّق من سائر جهاته. فلمّا نزلوا منه و حوّلوا معظم ما فيه سقط على جماعة من المسلمين المتفرّجين و ممّن قصد النّهب فهلكوا عن آخرهم. ثمّ بعد ذلک عزل السلطان النساء و الصّبيان

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۸

ناحية و ضرب رقاب الرجال أجمعين و كانوا خلائق كثيرة. و العجب أن اللّه سبحانه و تعالى قدّر فتح عكّا فى مثل اليوم الذى أخذها الفرنج فيه، و مثل الساعة التى أخذوها فيها، فإنّ الفرنج كانوا استولوا على عكّا فى يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة [سنة سبع و ثمانين و خمسمائة] فى الساعة الثالثة من النهار، و أمّنوا من كان بها من المسلمين ثم قتلوهم غدرا، و قدّر اللّه تعالى أنّ المسلمين استرجعوها منهم فى هذه المرّة يوم الجمعة فى الساعة الثالثة من النهار، و وافق السابع عشر من جمادى الأولى، و أمّنهم السلطان ثمّ قتلهم كما فعل الفرنج بالمسلمين، فانتقم اللّه تعالى من عاقبتهم.

و كان السلطان عند منازلته عكّا قد جهّز جماعة من الجند مقدّمهم الأمير علم الدين سنجر الصّوابى الجاشنكير إلى صور لحفظ الطّرق و تعرّف الأخبار، و أمره بمضايقة صور. فبينما هو فى ذلک لم يشعر إلّا بمراكب المنهزمين من عكّا قد وافت الميناء التى لصور، فحال بينها و بين الميناء؛ فطلب أهل صور الأمان فأمّنهم على أنفسهم و أموالهم و يسلّموا صور فأجيبوا إلى ذلک، فتسلّمها. و صور من أجلّ الأماكن و من الحصون المنيعة، و لم يفتحها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب فيما فتح من الساحل، بل كان صلاح الدين كلّما فتح مكانا و أمّنهم أوصلهم إلى صور هذه لحصانتها و منعتها، فألقى اللّه تعالى فى قلوب أهلها الرّعب حتّى سلّموها من غير قتال و لا منازلة، و لا كان الملک الأشرف فى نفسه شيء من أمرها البتّة.

و عند ما تسلّمها جهّز إليها من أخربها و هدم أسوارها و أبنيتها، و نقل من رخامها و أنقاضها شيء كثير. و لمّا تيسر أخذ صور على هذه الصورة قوى عزم الملک

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۹

الأشرف على أخذ غيرها. و لمّا كان الملک الأشرف محاصرا لعكّا استدعى الأمير حسام الدين لا چين المنصورىّ نائب الشام، و هو الذى تسلطن بعد ذلک حسب ما يأتى ذكره، و الأمير ركن الدين بيبرس المعروف بطقصو فى ليلة الاثنين ثالث عشر جمادى الأولى إلى المخيّم و أمسكهما و قيّدهما، و جهّزهما فى بكرة نهار الاثنين إلى قلعة صفد، و منها إلى قلعة الجبل. و كان تقدّم قبل ذلک بستّة أيام مسک الأمير سنجر المعروف بأبى خرص و جهّزه إلى الديار المصريّة محتاطا عليه. ثم استقرّ الملک الأشرف بالأمير علم الدين سنجر الشّجاعى المنصورىّ فى نيابة الشام عوضا عن الأمير لاچين المذكور.

و عند ما أمسک الأشرف هذين الأميرين الكبيرين حصل للناس قلق شديد و خشوا من حدوث أمر يكون سببا لتنفيس الخناق عن

أهل عكّا، فكفى اللّه تعالى ذلك.

ثم أمسك الأشرف الأمير علم الدين أيدغدى الإلدكزىّ نائب صفد و ما معها لأمر نقمه عليه و صادره، و جعل مكانه الأمير علاء الدين أيدكين الصالحىّ العمادىّ، و أضاف إليه مع ولاية صفد عكّا و ما استجد من الفتوحات الأشرفيّة. ثم لما فرغ الأشرف من مصادرة أيدكين المذكور ولّاه برّصفد عوضا عن علم الدين سنجر الصّوابىّ. ثم استدعى الملك الأشرف الأمير بيبرس الدّوادار المنصورى الخطائى المؤرّخ نائب الكرك و عزله، و ولّى عوضه الأمير آقوش الأشرفىّ. ثم رحل الملك الأشرف عن عكّا فى بكرة نهار الاثنين خامس جمادى الآخرة، و دخل دمشق يوم الاثنين ثانى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۰

عشره بعد أن زيّنت له دمشق غاية الزينة، و عملت القباب بالشوارع من قريب المصلّى إلى الباب الجديد، و حصل من الاحتفال لقدومه ما لا يوصف، و دخل و بين يديه الأسرى من الفرنج تحتهم الخيول و فى أرجلهم القيود، و منهم الحامل من سناجق الفرنج المنكّسة، و فيهم من حمل رمحا عليه من رءوس قتلى الفرنج؛ فكان لقدومه يوم عظيم. و أقام الأشرف بدمشق إلى فجر نهار الأربعاء تاسع عشر شهر رجب. و عاد إلى الديار المصريّة فدخلها يوم الاثنين تاسع شعبان؛ فاحتفل أيضا أهل مصر لملاقاته احتفالا عظيما أضعاف احتفال أهل دمشق، و عند دخوله إلى مصر أطلق رسل صاحب عكّا الذين كانوا معوّقين بالقاهرة. ثم إنّ الأمير علم الدين سنجر الشجاعىّ نائب الشام فتح صيدا بعد حصار كبير بالأمان فى يوم السبت خامس عشر شهر رجب. و لمّا أخذت هذه البلاد فى هذه السنة أمر السلطان أن تخرّب قلعة جبيل و أسوارها بحيث يلحقها بالأرض فخرّبت أصلا؛ ثم أخذت عثليث بعد شهر.

و أمّا أهل أنطرطوس لمّا بلغهم أخذ هذه القلاع عزموا على الهرب، فجرّد الأمير سيف الدين بلبان الطّباخى عسكرا، فلمّا أحاطوا بها ليلة الخميس خامس شعبان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۱

ركبوا البحر و هربوا إلى جزيرة أرواد، و هى بالقرب منها، فندب إليها السّعدىّ بما كان أحضره من المراكب و الشوانى فأخلوها. و كان فتح هذه المدن الستّ فى ستة شهور.

ثم رسم الملك الأشرف بالقبض على الأمير علم الدين سنجر الدوادار؛ فقبض عليه فى شهر رمضان، و جهّز الى الديار المصريّة بعد أن أحيط على جميع موجوده، ثم أفرج الملك الأشرف على جماعة من الأمراء ممّن كان قبض عليهم و حبسهم.

و هم: الأمير لا چين المنصورىّ الذى تسلطن بعد ذلك، و بيبرس طقصو الناصرىّ، و سنقر الأشقر الصالحىّ، و بدر الدين بيسرى الشمسىّ، و سنقر الطويل المنصورىّ، و بدر الدين خضر بن جودى القيمرىّ. و فى شهر رمضان سنة تسعين و ستمائة المذكورة أنعم السلطان الملك الأشرف على علم الدين سنجر المنصورىّ المعروف بأرجواش خبزا و خلع عليه و أعيد إلى ولاية قلعة دمشق. ثم طلب الملك الأشرف قاضى القدس بدر الدين محمد بن إبراهيم بن جماعة إلى الديار المصرية و ولّاه قضاءها بعد عزل قاضى القضاة تقى الدين ابن بنت الأعز. و استمرّ الملك الأشرف بالديار المصريّة إلى أن تجهّز و خرج منها قاصدا البلاد الشامية فى يوم السبت ثامن شهر ربيع الآخر من سنة إحدى و تسعين و ستمائة، و سار حتّى دخل دمشق فى يوم السبت سادس جمادى الأولى. و فى ثامن جمادى الأولى أحضر السلطان الأموال و أنفق فى جميع العساكر المصريّة و الشامية. و وصل الملك المظفر تقىّ الدين صاحب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۲

حماة لتلقّى الملك الأشرف فالتقاه فزاد السلطان فى إكرامه، و استعرض الجيوش عليه و أمر بتسفيرهم قدّام الملك المظفّر المذكور. ثم توجّه الملك الأشرف من دمشق بجميع العساكر قاصدا حلب، فوصلها فى ثامن عشرين جمادى الأولى، ثم خرج منها و نزل على قلعة الروم بعساكره و حاصرها إلى أن افتتحها بالسيف عنوة فى يوم السبت حادى عشر شهر رجب، و كتب البشائر إلى الأقطار بأخذها. ثم عاد السلطان إلى دمشق و ترك بقلعة الروم الشّجاعىّ و عساكر الشام ليعمّروا ما انهدم منها فى الحصار.

و كان دخول السلطان إلى دمشق فى يوم الثلاثاء تاسع عشر شعبان بعد أن عزل الأمير قرا سنقر المنصورىّ عن نيابة حلب بالأمير بلبان الطّبّاخى، و ولّى عوضا عن الطّباخى فى الفتوحات طغريل الإيغانى. و لمّا كان السلطان بدمشق عمل عسكره النّوروز كعادتهم بالديار المصريّة، و عظم ذلك على أهل دمشق لعدم عادتهم بذلك.

و فى يوم الجمعة ثامن عشرين شهر رمضان قبض السلطان على الأمير شمس الدين سنقر الأشقر، و على الأمير ركن الدين طقصو، و هرب الأمير حسام الدين لاچين المنصورىّ و نادوا عليه بدمشق: من أحضره فله ألف دينار، و من أخفاه شنق.

ثمّ ركب الملك الأشرف و مماليكه فى طلب لاچين المذكور، و أصبح يوم العيد و السلطان فى البرية مهجّج، و كانوا عملوا السّماط كجارى العادة فى الأعياد، و أطلعوا المنبر إلى الميدان الأخضر و طلع الخطيب موفّق الدين فصلّى فى الميدان بالعوامّ، و عاد السلطان بعد صلاة العصر إلى دمشق، و لم يقع للاچين على خبر. ثم سيّر الملك الأشرف طقصو و سنقر الأشقر تحت الحوطة إلى الديار المصريّة. و أمّا لاچين فإنّ العرب أمسكوه و أحضروه إلى الملك الأشرف فأرسله الملك الأشرف مقيّدا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۳

إلى مصر. و فى سادس شوّال ولّى السلطان الأمير عزّ الدين أيبك الحموىّ نيابة دمشق عوضا عن الشّجاعىّ.

ثم خرج الأشرف من دمشق قاصدا الديار المصريّة فى ليلة الثلاثاء عاشر شوّال، و كان قد رسم الأشرف لأهل الأسواق بدمشق و ظاهرها أنّ كلّ صاحب حانوت يأخذ بيده شمعة و يخرج إلى ظاهر البلد، و عند ركوب السلطان يشعلها؛ فبات أكثر أهل البلد بظاهر دمشق لأجل [الوقدو] الفرجة! فلمّا كان الثّلث الأخير من الليل ركب السلطان و أشعلت الناس الشموع، فكان أوّل الشمع من باب النصر و آخر الوقيد عند مسجد القدم، لأنّ والى دمشق كان قد رتّبهم من أوّل الليل، فكانت ليلة عظيمة لم ير مثلها. و سافر السلطان حتّى دخل الديار المصريّة يوم الأربعاء ثانى ذى القعدة من باب النصر و خرج من باب زويلة، و احتفل أهل مصر لدخوله احتفالا عظيما، و كان يوم دخوله يوما مشهودا. و لمّا أن طلع السلطان إلى قلعة الجبل أنعم على الأمير قرا سنقر المنصورىّ المعزول عن نيابة حلب بإمرة مائة فارس بديار مصر. ثم أفرج عن الأمير حسام الدين لاچين المنصورىّ و أعطاه أيضا خبز مائة فارس بديار مصر، و سببه أنّ السلطان عاقب سنقر الأشقر و ركن الدين طقصو فاعترفوا أنّهم كانوا يريدون قتله، و أنّ لا چين لم يكن معهم و لا كان له اطّلاع على الباطن فخنقهم و أفرج عن لاچين بعد ما كان وضع الوتر فى حلقه لخنقه، فضمنه خشداشه الأمير بدر الدين بيدرا المنصورىّ نائب السلطان، و علم الدين سنجر الشجاعىّ و غيرهما.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۴

قلت و سنقر الأشقر هو الذى كان تسلطن بدمشق فى أوائل سلطنة الملك المنصور قلاوون، و وقع له معه تلك الأمور المذكورة فى عدّة أماكن. و أمّا لاچين هذا فهو الذى تسلطن بعد ذلك و تلقّب بالملك المنصور حسب ما يأتى ذكره.

و كلّما ذكرنا من حينئذ لاچين فهو المنصور و لا حاجة للتعريف به بعد ذلك.

ثم إنهم أخرجوا الأمراء المخنّقين و سلّموهم إلى أهاليهم، و كان السلطان خنق معهما ثلاثة أمراء أخر فأخرجوا الجميع و دفنوا؛ ثم غرّق السلطان جماعة أخرى، و قيل إنّ ذلك كان فى مستهلّ سنة اثنتين و تسعين و ستّمائة. و استمرّ السلطان بمصر إلى أن تجهّز و خرج منها إلى الشام فى جمادى الأولى من سنة اثنتين و تسعين و ستمائة المذكورة، و سار حتّى دخل دمشق فى يوم الأحد تاسع جمادى الآخرة؛ و نزل بالقصر الأبلق من الميدان الأخضر.

و لمّا استقر ركابه بدمشق شرع فى تجهيز العساكر إلى بلاد سيس و الغارة عليها، فوصل رسل صاحب سيس بطلب الصلح و رضا السلطان عليه، و مهما طلب منه من القلاع و المال أعطاه و شفع الأمراء فى صاحب سيس، و اتّفق الحال على أن يتسلّم نوّاب السلطان من صاحب سيس ثلاث قلاع، و هى:

بهسنا و مرعش و تلّ حمدون ففرح الناس بذلك، لأنه كان على المسلمين من بهسنا

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۵

أذّى عظيم. و أقام السلطان بدمشق إلى مستهلّ شهر رجب توجّه منها، و صحبته عسكر الشام و الأمراء و بعض عساكر مصر. و أمّا الضعفاء من عسكر مصر فأعطاهم السلطان دستورا بعودتهم إلى الديار المصريّة. و سار السلطان حتّى وصل إلى حمص، ثم توجّه منها إلى سلمية مظهرا أنّه متوجّه إلى ضيافة الأمير حسام الدين مهنّا بن عيسى بن مهنّا أمير آل فضل، و كان خروج السلطان من دمشق فى ثانى شهر رجب، فلمّا كان بكرة يوم الأحد سابع شهر رجب وصل الأمير لاچين و صحبته مهنّا إلى دمشق و هو مقبوض عليه، أمسكه السلطان لمّا انقضت الضيافة و ولّى غوضه شخصا من أولاد عمّه، و هو الأمير محمد بن علىّ بن حذيفة. و فى بقيّة النهار وصل السلطان إلى دمشق، و رسم للأمير بيدرا أن يأخذ بقيّة العساكر و يتوجّه إلى مصر، و أن يركب تحت الصناجق عوض السلطان و بقى السلطان مع خواصّه بدمشق بعدهم ثلاثة أيام؛ ثم خرج من دمشق [فى يوم السبت ثالث عشر رجب] و عاد إلى جهة الديار المصريّة فى العشر الأخير من شهر رجب من سنة اثنتين و تسعين و ستمائة؛ ثم إن السلطان أمر الأمير عزّ الدين أيبک الحمویّ الأفرم أمير جاندار نائب الشام أن يسافر إلى الشوبک و يخرّب قلعتها، فكلّمه الأفرم فى بقائها فانتهره، و سافر من يومه، و توجّه الأفرم إلى الشّوبک و أخربها غير القلعة. و كان ذلک غاية ما يكون من الخطأ و سوء التدبير، و كان أخرب قبل ذلک أيضا عدّة أماكن بقلعة الجبل،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۶

و بقلعة دمشق أيضا أخرب عدّة قاعات و مبانى هائلة. و أمّا قلاع السواحل فأخرب غالبها، و كان يقصد ذلک لمعنى يخطر بباله.

ثم فى العشرين من ذى الحجّة نصب السلطان ظاهر القاهرة خارج باب النصر القبق، و صفة ذلک أن ينصب صار طويل و يعمل على رأسه قرعة من ذهب أو فضّة و يجعل فى القرعة طير حمام، ثمّ يأتى الرامى بالنّشاب و هو سائق فرسه و يرمى عليه، فمن أصاب القرعة و طيّر الحمام خلع عليه خلعة تليق به، ثم يأخذ القرعة. و كان ذلک بسبب طهور أخى الملک الأشرف؛ و هو الملک الناصر محمد بن قلاوون، و طهور ابن أخيه الأمير مظفّر الدين موسى ابن الملک الصالح علاء الدين علىّ بن قلاوون، فآحتفل السلطان لطهورهما و عمل مهمّا عظيما. و كان الطهور فى يوم الاثنين ثانى عشرين ذى الحجّة. و عند ما طهّروهم رموا الأمراء الذهب لأجل النّقوط؛ فإن كان الأمير أمير مائة فارس رمى مائة دينار، و إن كان أمير خمسين فارسا رمى خمسين دينارا، و قس على ذلک سائر الأمراء؛ و رمى حتى مقدّمو الحلقة و الأجناد، فجمع من ذلک شىء كثير؛ و هو آخر فرح عمله الأشرف هذا.

ثم بعد فراغ المهمّ بمدّة يسيرة، نزل السلطان الملک الأشرف المذكور من قلعة الجبل متوجّها إلى الصّيد فى ثانى المحرّم سنة ثلاث و تسعين و ستمائة و صحبته وزيره الصاحب شمس الدين بن السّلعوس، و نائب سلطنته الأمير بدر الدين بيدرا و جميع الأمراء، فلمّا وصل إلى الطّرّانة فارقه وزيره ابن السّلعوس المذكور و توجّه إلى الإسكندريّة.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۷

و أمّا السلطان فإنّه نزل بالحمّامات لأجل الصّيد، و أقام إلى يوم السبت ثانى عشر المحرّم. فلمّا كان قرب العصر و هو بأرض تروجة حضر إليه الأمير بدر الدين بيدرا نائب السلطنة و معه جماعة كثيرة من الأمراء؛ و كان السلطان بكرة النهار قد أمره أن يأخذ العسكر و الدّهليز و يمشى عوضه تحت الصناجق و أن يتقدّمه، و يبقى السلطان يتصيّد وحده بقيّة يومه و يعود العشيّة إلى الدّهليز، فتوجّه بيدرا على ذلک؛ و أخذ السلطان الملک الأشرف يتصيّد و معه شخص واحد يقال له شهاب الدين [أحمد بن] الأشلّ أمير شكار، و بينما السلطان فى ذلک أتاه هؤلاء: بيدرا و رفقته، فأنكر السلطان مجيئهم، و كان فى وسط السلطان بند حرير و ليس معه بمجة لأجل الصيد، و كان أوّل من ابتدره الأمير بيدرا فضربه بالسيف ضربة قطع بها يده مع كتفه، فجاء الأمير حسام الدين لاچين، و هو الذى تسلطن بعد ذلک بمدّة، و قال لبيدرا: يا نحس! من يريد ملک مصر و الشام تكون هذه ضربته! ثمّ ضربه على كتفه فحلّها، و وقع السلطان على الأرض، فجاء بعدهما الأمير بهادر رأس نوبة، و أخذ السيف و دسّه فى دبره و أطلعه من حلقه، و بقى يجىء واحد من الأمراء بعد

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۸

واحد و يظهرون ما فى أنفسهم منه، ثم تركوه فى مكانه و انضموا على الأمير بيدرا و حلفوا له، و أخذوه تحت الصناجق و ركبوا سائرين بين يديه طالبين القاهرة.

و قيل فى قتله وجه آخر.

قال القطب اليونينىّ: «و مما حكى لى الأمير سيف الدين بن المحفّدار:

كيف كان قتل السلطان الملك الأشرف خليل؟ قال: سألت الأمير شهاب الدين أحمد بن الأشلّ أمير شكار السلطان، كيف كان قتل السلطان الأشرف؟ فقال [ابن] الأشلّ: بعد رحيل الدّهليز (يعنى مدورة السلطان و العساكر) جاء إليه الخبر أنّ بتروجة طيرا كثيرا، فقال السلطان: امش بنا حتى نسبق الخاصّكيّة، فركبنا و سرنا، فرأينا طيرا كثيرا فرماه السلطان بالبندق، فأصرع شيئا كثيرا، ثم إنّه التفت إلىّ و قال: أنا جيعان، فهل معك شىء تطعمنى؟ فقلت: و اللّه ما معى سوى فرّوجة و رغيف خبز، قد ادّخرته لنفسى فى صولقى، فقال لى: ناولنى إيّاه، فأخذه و أكله جميعه، ثم قال لى: أمسك لى فرسى حتّى أنزل و أريق الماء، فقلت له:

ما فيها حيلة! أنت راكب حصانا و أنا راكب حجرة و ما يتفقوا، فقال لى: انزل أنت و اركب خلفى و أركب أنا الحجرة التى لك، و الحجرة مع الحصان تقف، قال:

فنزلت و ناولته لجام الحجرة، ثم إنّى ركبت خلفه، ثمّ إنّ السلطان نزل و قعد يريق الماء، و شرع يولغ بذكره و يمازحنى، ثم قام و ركب حصانه و مسك لى الحجرة، ثم إنّى ركبت. فبينما أنا و إيّاه نتحدّث و إذا بغبار عظيم قد ثار و هو قاصد نحونا، فقال لى السلطان: سق و اكشف لى خبر هذا الغبار، قال: فسقت، و إذا الأمير

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۹

بدر الدين بيدرا و الأمراء معه، فسألتهم عن سبب مجيئهم فلم يردّوا علىّ جوابا و لا التفتوا إلى كلامى، و ساقوا على حالهم حتّى قربوا من السلطان، فكان أوّل من ابتدره بيدرا بالضّربة قطع بها يده و تمّم الباقى قتله». انتهى.

و أمّا أمر بيدرا فإنّه لمّا قتل السلطان بايع الأمراء بيدرا بالسلطنة و لقّبوه بالملك الأوحد و بات تلك الليلة، فإنّ قتل الأشرف كان بين الظّهر و العصر.

و أصبح ثانى يومه سار بيدرا بالعساكر إلى نحو الديار المصريّة؛ و بينما بيدرا سائر بعساكره و إذا بغبار عظيم قد علا و ملأ الجوّ و قرب منه، و إذا بطلب عظيم فيه نحو ألف و خمسمائة فارس من الخاصّكيّة الأشرفيّة، و معهم الأمير زين الدين كتبغا، و هو الذى تسلطن بعد ذلك بمدّة على ما يأتى ذكره. و الأمير حسام الدين الأستادار طالبين بيدرا بدم أستاذهم السلطان الملك الأشرف خليل المذكور و أخذ الثّأر منه و من أصحابه. و كان ذلك بالطّرّانة فى يوم الأحد أوّل النهار، فما كان غير ساعة إلا و التقوا، و كان بيدرا لمّا رآهم صفّ من معه من أصحابه للقتال، فصدموه الأشرفيّة صدمة صادقة و حملوا عليه حملة واحدة فرّقوا شمله، و هرب أكثر من كان معه؛ فحينئذ أحاطوا ببيدرا و قبضوا عليه و حزّوا رأسه، و قيل: إنهم قطعوا يده قبل أن يحزّوا رأسه؛ كما قطعت يد أستاذهم الملك الأشرف بضربة السيف، و لمّا حزّوا رأسه حملوه على رمح و سيّروه إلى القاهرة، فطافوا به ثم عادوا نحو القاهرة حتى وصلوا برّ الجيزة، فلم يمكّنهم الأمير علم الدين سنجر الشّجاعىّ من التعدية إلى برّ مصر، لأنّ السلطان الملك الأشرف كان قد تركه فى القلعة عند سفره نائب السلطنة بها، فلم يلتفتوا إليه و أرادوا التعدية؛ فأمر الشجاعىّ المراكب و الشوانى فعدّت إلى برّ القاهرة، و بقى العسكر و الأمراء على جانب البحر مقيمين حتى مشت بينهم الرّسل على أن يمكّنهم الشجاعىّ من العبور حتّى يقيموا عوض السلطان أخاه الملك

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۰

الناصر محمد بن قلاوون و هو صغير، تسكينا لما وقع و إخمادا للفتنة، فأجلسوه على تخت الملك بقلعة الجبل فى رابع عشر المحرّم من سنة ثلاث و تسعين و ستمائة المذكورة، و أن يكون نائب السلطنة الأمير زين الدين كتبغا، و الوزير الأمير علم الدين سنجر الشجاعىّ، و حسام الدين أستاذ الدار أتابك العساكر.

قلت: و ساق الشيخ قطب الدين اليونينيّ واقعة الملك الأشرف هذا و قتله و قتل بيدرا بأطول من هذا؛ قال الشيخ قطب الدين:

«و حكى لى الأمير سيف الدين بن المحفّدار أمير جاندار قال: كان السلطان الملك الأشرف قد أنفذنى فى أوّل النهار إلى الأمير بدر الدين بيدرا يأمره أن يأخذ العساكر و يسير بهم، فلمّا جئت إليه و قلت له: السلطان يأمرك أن تسير الساعة تحت الصناجق بالأمراء و العسكر، قال: فنفر فيّ بيدرا، ثم قال: السمع و الطاعة؛ قال: و رأيت فى وجهه أثر الغيظ و الحنق و قال: و كم يستعجلنى! فظهر فى وجهه شيء ما كنت أعهده منه؛ ثم إنّى تركته و مشيت حملت الزّردخاناه و الثّقل الذى لى و سرت، فبينما أنا سائر أنا و رفيقى الأمير صارم الدين الفخريّ و ركن الدين أمير جاندار عند المساء، و إذا بنجّاب سائر، فسألت عن السلطان أين تركته؟ فقال:

طوّل اللّه أعماركم فيه؛ فبينما نحن متحيّرون فى أمره، و إذا بالسناجق التى للسلطان قد لاحت و قربت و الأمراء تحتها، و الأمير بدر الدين بيدرا بينهم و هم محدقون به؛ قال: فجئنا و سلّمنا عليه، فقال له الأمير ركن الدين بيبرس أمير جاندار: يا خوند، هذا الذى فعلته كان بمشورة الأمراء؟ قال: نعم، إنّما قتلته بمشورتهم و حضورهم،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۱

وها هم كلّهم حاضرون، و كان من جملة من هو حاضر الأمير حسام الدين لاچين المنصوريّ، و الأمير شمس الدين قراسنقر المنصوريّ، و الأمير بدر الدين بيسريّ، و أكثر الأمراء سائقون معه؛ قال: ثم إنّ بيدرا شرع يعدّد سيّئات السلطان و مخازيه و مناحسه و إهماله أمور المسلمين و استهزاءه بالأمراء و مماليك أبيه و وزارته لأبن السّلعوس، قال: ثم إنّه سألنا هل رأيتم الأمير زين الدين كتبغا؟ فقلنا له:

لا، فقال بعض الأمراء: يا خوند، هل كان عنده علم بالقضيّة؟ فقال: نعم، و هو أوّل من أشار بهذا الأمر.

فلمّا كان ثانى يوم و إذا بالأميرين: زين الدين كتبغا و حسام الدين أستاذ الدار قد جاءوا فى طلب كبير فيه مماليك السلطان الملك الأشرف نحو من ألفى فارس و فيهم جماعة من العسكر و الحلقة، فالتقوه بالطّرّانة يوم الأحد أوّل النهار. ثم ساق قطب الدين فى أمر الواقعة نحوا ممّا ذكرناه من أمر بيدرا و غيره، إلى أن قال:

و تفرّق جمع الأمير بيدرا. قال ابن المحفّدار: فلمّا رأينا مالنا بهم طاقة التجأنا إلى جبل هناك شماليّ، و اختلطنا بذلك الطّلب الذى فيه كتبغا، و رأينا بعض أصحابنا، فقال [لنا]: شدّوا بالعجلة مناديلكم فى رقابكم إلى تحت آباطكم، فهى الإشارة بيننا و إلّا قتلوكم أو شلحوكم، فعملنا مناديلنا فى رقابنا إلى تحت آباطنا، و كان ذلك سبب سلامتنا، فحصل لنا به نفع كثير من جهة الأمير زين الدين كتبغا و من السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، و سلمت بذلك أنفسنا و أثقالنا [و أهلونا] و أموالنا؛ ثم ظهر لهم أنّنا لم يكن لنا فى باطن القضيّة علم. قال: و سرنا إلى قلعة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۲

الجبل. و ذكر سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون حسب ما نذكره فى ترجمته إن شاء اللّه تعالى فيما يأتى.

قال: و لمّا كان يوم خامس عشرين المحرّم أحضر إلى قلعة الجبل أميران و هما سيف الدين بهادر رأس نوبة و جمال الدين آقوش الموصليّ الحاجب، فحين حضروا اجتمعوا الأشرفيّة عليهم فضربوا رقابهم و علّقوا رأس بهادر على باب داره الملاصقة لمشهد الحسين بالقاهرة. و بهارد هذا هو الذى حطّ السيف فى دبر الملك الأشرف بعد قتله و أخرجه من حلقه. ثم أخذوا جثّته و جثة آقوش و أحرقوهما فى قمين جير.

و أمّا الأمير حسام الدين لاچين المنصوريّ، و الأمير شمس الدين قرا سنقر فإنّهما اختفيا و لم يظهر لهما خبر، و لا وقع لهما على أثر. ثم أحضر المماليك الأشرفيّة سبعة أمراء، و هم: سيف الدين نوغيه، و سيف الدين ألناق، و علاء الدين ألطنبغا الجمدار، و شمس الدين سنقر مملوك لاچين، و حسام الدين طرنطاى السّاقى، و محمد خواجا، و سيف الدين أروس فى يوم الاثنين خامس صفر إلى قلعة الجبل، فلمّا رآهم السلطان الملك الناصر محمد أمر بقطع أيديهم أوّلا، و بعد ذلك يسمّرون على الجمال و أن تعلّق أيديهم فى

حلوقهم ففعل ذلک، و رأس بیدرا أیضا علی رمح یطاف به معهم بمصر

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۳

و القاهرة، و بقوا علی هذه الحالة إلی أن ماتوا، و کلّ من مات منهم سلّم إلی أهله و الجمیع دفنوهم بالقرافة.

قلت: و قریب ممّا وقع لبیدرا هذا و أصحابه أوائل ألفاظ المقالة الخامسة عشرة من «کتاب أطباق الذهب» للشیخ الإمام الربّانی شرف الدین عبد المؤمن الأصفهانیّ المعروف بشوروة، و هی قوله:

«من الناس من یستطیب رکوب الأخطار، و ورود التّیار، و لحوق العار و الشّنار، و یستحبّ و قد النار، و عقد الزّنّار، لأجل الدینار؛ و یستلذّ سفّ الرّماد، و نقل السّماد، و طیّ البلاد، لأجل الأولاد؛ و یصبر علی نسف الجبال، و نتف السّبال، لشهوة المبال؛ و یبدّل الإیمان بالکفر، و یحفر الجبال بالظّفر، للدنانیر الصّفر؛ و یلج ما ضغی الأسود، للدراهم السّود؛ لا یکره صداعا، [إذا نال کراعا]؛ و یلقی النوائب بقلب صابر، فی هوی الشیخ أبی جابر؛ و یأبی العزّ طبیعة، و یری الذّلّ شریعة؛ و إن رزق لعیعة، یراها صنیعة، یؤمّ راسه و ترضّ أضراسه؛ و إن أعطی درهما، یراه مرهما.

و من الناس من یختار العفاف، و یعاف الإسفاف؛ یدع الطعام طاویا، و یذر الشراب صادیا، و یری المال رائحا غادیا؛ یترک الدنیا لطلّابها، و یطرح الجیفة لکلابها؛ لا یسترزق لئام الناس، و یقنع بالخبز الناس؛ یکره المنّ و الأذی، و یعاف

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۴

الماء علی القذی؛ إن أثری جعل موجوده معدوما، و إن أقوی حسب قفاره مأدوما؛ جوف خال، و ثوب بال، و مجد عال؛ و وجه مصفرّ، علیه قرّ؛ و ثوب أسمال، وراء عزّ [و] جمال؛ و عقب مشقوق، و ذیل مفتوق، یجرّه فتی مغبوق. شعر:

للّه تحت قباب العزّ طائفة أخفاهم فی رداء الفقر إجلالا

هم السلاطین فی أطمار مسکنة استعبدوا من ملوک الأرض أقیالا

غبر ملابسهم شمّ معاطسهم جرّوا علی فلک الخضراء أذیالا

هذی المناقب لا ثوبان من عدن خیطا قمیصا فصارا بعد أسمالا

هذی المکارم لا قعبان من لبن شیبا بماء فعادا بعد أبوالا

هم الذین جبلوا برآء من التّکلّف، «یحسبهم الجاهل أغنیاء من التّعفّف». انتهی ما ذکرناه من المقالة الخامسة عشرة و إن کنّا خرجنا عن المقصود من کون غالبها من غیر ما نحن فیه، غیر أنّنی لم أذکرها بتمامها هنا إلّا لغرابتها. انتهی.

و لمّا مات الملک الأشرف خلیل هذا، و تمّ أمر أخیه الملک الناصر محمد فی السلطنة، استقرّ الأمیر زین الدین کتبغا المنصوریّ نائب السلطنة، و سنجر الشّجاعیّ مدبّر المملکة و أتابک العساکر، و بقیّة الأمور تأتی فی أوّل سلطنة الملک الناصر محمد بن قلاوون بأوضح من هذا

و لمّا قتل الملک الأشرف خلیل المذکور بقی ملقی إلی أن خرج والی تروجة من بعد قتله بیومین، و معه أهل تروجة، و أخذوه و غسّلوه و کفّنوه و جعلوه فی تابوت

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۵

فی دار الوالی إلی أن سیّروا من القاهرة الأمیر سعد الدین کوجبا الناصریّ إلی مصرعه، فأخذه فی تابوت و وصل به إلی القاهرة سحر یوم الخمیس ثانی عشرین صفر، فدفن فی تربة والدته بجوار أخیه الملک الصالح علیّ بن قلاوون- رحمهما اللّه تعالی- و رثاه ابن حبیب بقصیدة، أوّلها:

تبّا لأقوام تمالک رقّهم فتکوا و ما رقّوا لحالة مثرف

وافوه غدرا ثم صالوا جملة بالمشرفیّ علی الملیک الأشرف

وافى شهيدا نحو روضات الرّضا يختال بين مزهّر و مزخرف

و مضى يقول لقاتليه تربّصوا بينى و بينكم عراض الموقف

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۶

و قـال النّويرىّ فى تاريخه: كان ملكا مهيبا شـجاعا مقـداما جسورا جوادا كريما بالمال، أنفق على الجيش فى هـذه الثلاث سـنين ثلاث نفقات: الأولى فى أوّل جلوسه فى السـلطنة من مال طرنطاى، و الثانيـة عنـد توجّهه الى عكّا، و الثالثـة عند توجّهه الى قلعة الروم. انتهى كلام النّويرىّ باختصار.

و قال الشـيخ صـلاح الدين خليل بن أيبك الصّفدىّ فى تاريخه: «و كان قبل ولاية الملك الأشرف يؤخذ عند باب الجابية بدمشق عن كلّ حمل خمسـة دراهم مكسا، فأوّل ما تسلطن وردت إلى دمشق مسامحـة بإسـقاط هـذا، و بين سـطور المرسوم بقلم العلامـة بخطه: لتسقط عن رعايانا هذه الظّلامة، و يستجلب لنا الدعاء من الخاصّة و العامّة». انتهى كلام الصفدىّ.

و قال الحافظ أبو عبـد اللّه الـذّهبىّ فى تاريخه، بعـد أن ساق من أحواله قطعـة جيّـدة، فقال: «و لو طالت أيّامه أو حياته لأخـذ العراق و غيرها، فإنّه كان بطلا شـجاعا مقـداما مهيبا عالى الهمّة يملأ العين و يرجف القلب، رأيته مرّات، و كان ضـخما سـمينا كبير الوجه بديع الجمال مسـتدير اللّحيـة، على وجهه رونق الحسن و هيبة السـلطنة، و كان إلى جوده و بذله الأموال فى أغراضه المنتهى. و كان مخوف السـطوة، شديـد الوطأة، قوىّ البطش؛ تخافه الملوك فى أمصارها، و الوحوش العاديـة فى آجامها. أباد جماعة من كبار الدولة. و كان منهمكا فى اللذات، لا يعبأ بالتحرّز لنفسه لفرط شجاعته، و لم أحسبه بلغ ثلاثين سنة، و لعلّ اللّه عزّ و جلّ قد

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۷

عفا عنه و أوجب له الجنّة لكثرة جهاده، و إنكائه فى الكفّار». انتهى كلام الذهبى باختصار.

قلت: و كان الأشـرف مفرط الشـجاعة و الإقدام، و جمهور الناس على أنه أشجع ملوك الترك قديما و حديثا بلا مدافعة، ثم من بعده الملك الناصر فرج ابن الملك الظاهر برقوق، و شهرتهما فى ذلک تغنى عن الإطناب فى ذكرهما.

و كانت مـدّة مملكـة الأشـرف هـذا على مصـر ثلاث سـنين و شـهرين و خمسة أيام، لأنّ وفاة والده كانت فى يوم السـبت سادس ذى القعدة سنة تسع و ثمانين و ستمائة.

و جلس الأشـرف المذكور على تخت الملك فى صبيحة دفن والده فى يوم الاثنين ثامن ذى القعدة. و قتل فى يوم السـبت ثانى عشـر المحرّم سنة ثلاث و تسعين و ستمائة.

انتهى.

و قال الشيخ قطب الدين البونينىّ: و مات (يعنى الملك الأشرف) شهيدا مظلوما فإنّ جميع من وافق على قتله كان قد أحسن إليه و منّاه و أعطـاه و خوّله، و أعطـاهم ضـياعا بالشـام، و لم تتجـدد فى زمـانه مظلمـة، و لا ـ اسـتجدّ ضـمان مكس، و كان يحبّ الشأم و أهله، و كذلک أهل الشأم كانوا يحبونه- رحمه اللّه تعالى و عفا عنه-.

السـنة الأولى من سـلطنة الملک الأشرف صلاح الدين خليل على مصر و هى سنة تسعين و ستمائة. على أنه حكم من الماضية من يوم الاثنين ثامن ذى القعدة إلى آخرها. انتهى.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۸

فيها (أعنى سنة تسعين و ستمائة) توفّى الشيخ عزّ الدين أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن طرخان الأنصارىّ السّويدىّ الطبيب المشهور، و هو من ولد سـعد بن معاذ الأوسـىّ- رضـى اللّه عنه- كان قد تفرّد فى آخر عمره بمعرفة الطبّ، و كان له مشاركة جيّدة فى العربيّة و التاريـخ، و اجتمع بأكابر الأطبّاء و أفاضل الحكماء، مثل المهـذّب عبـد الرحيم بن علىّ الـدّخوار و غيره، و قرأ علم الأدب على جماعة من العلماء، و كان له نظم جيّد. من ذلک قوله فى خضاب اللّحية:

لو أنّ تغيير لون شيبى يعيد ما فات من شبابى

لما وفى لى بما تلاقى روحى من كلفة الخضاب

قلت: و يعجبنى قول الشيخ صفىّ الدين عبد العزيز الحلّى فى هذا المعنى:

قالوا اخضب الشيب فقلت اقصروا فإنّ قصد الصدق من شيمتى

فكيف أرضى بعد ذا أنّنى أوّل ما أكذب فى لحيتى

غيره فى المعنى:

يا خاضب اللّحية ما تستحى تعاند الرحمن فى خلقته

أقبح شئ قيل بين الورى أن يكذب الإنسان فى لحيته

و من شعر عزّ الدين صاحب الترجمة [مواليا]:

البدر و السعد ذا شبهك و ذا نجمك و القدّ و اللّحظ ذا رمحك و ذا سهمك

و البغض و الحبّ ذا قسمى و ذا قسمك و المسك و الحسن ذا خالك و ذا عمّك

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۹

و فيها توفّى ملك التّتار أرغون بن أبغا بن هولاكو عظيم التّتار و ملكهم، قيل:

إنه اغتيل بالسمّ، و قيل: إنّه مات حتف أنفه، و اتّهم الترك اليهود بقتله فمالوا عليهم بالسيوف فقتلوهم و نهبوا أموالهم، و اختلفت كلمة التّتار فيمن يقيمونه بعده فى الملك، فمالت طائفة إلى بيدو و لم يوافقوا [على] كيختو، فرحل كيختو إلى الروم.

و كان أرغون هذا قد عظم أمره عند التّتار بعد قتل عمّه أحمد، و رسخت قدمه فى الملك، و كان شهما شجاعا مقداما، حسن الصورة، سفّا كالدماء، شديد الوطأة.

و فيها توفّى الشيخ عفيف الدين أبو الربيع سليمان بن علىّ بن عبد اللّه بن علىّ ابن يس العابدى ثم الكوفىّ ثم التّلمسانىّ المعروف بالعفيف التّلمسانىّ، الصوفىّ الشاعر المشهور، كان فاضلا و يدّعى العرفان، و يتكلّم فى ذلك على اصطلاح القوم.

قال الشيخ قطب الدين: «و رأيت جماعة ينسبونه إلى رقّة الدّين، و توفّى و قد جاوز الثمانين سنة من العمر، و كان حسن العشرة كريم الأخلاق له حرمة و وجاهة، و خدم فى عدّة جهات.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۳۰

قلت: و قد تقدّم ذكر ولده الأديب الظريف شمس الدين محمد أنّه مات فى حياة والده العفيف هذا. انتهى.

و كان العفيف المذكور من الشعراء المجيدين و له ديوان شعر كبير. و من شعره:

يشكو إلى أردافه خصره لو تسمع الأمواج شكوى الغريق

يا ردفه رقّ على خصره فإنّه حمّل ما لا يطيق

و له:

إن كان قتلى فى الهوى يتعيّن يا قاتلى فبسيف جفنك أهون

حسبى و حسبك أن تكون مدامعى غسلى و فى ثوب السّقام أكفّن

عجبا لخدّك وردة فى بانة و البان فوق الغصن ما لا يمكن

أدنته لى سنة الكرى فلثمته حتى تبدّل بالشّقيق السّوسن

و وردت كوثر ثغره فحسبتنى فى جنّة من وجنتيه أسكن

ما راعنى إلا بلال الخال فو ق الخدّ فى صبح الجبين يؤذّن

قلت: و هذا مأخوذ من قول الحاجری من قصیدة:

أقام بلال الخال فی صحن خدّه یراقب من لآلاء غرّته الفجرا

و منه أیضا أخذ الشیخ جمال الدین محمد بن نباتة المصریّ قوله:

و انظر إلی الخال فوق الثغر دون لمی تجد بلالا یراعی الصبح فی السّحر

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۳۱

قلت: و قد سبق إلی هذا المعنی أمیر المؤمنین عبد اللّه بن المعتزّ بقوله:

أسفر ضوء الصبح من وجهه فقام خال الخدّ فیه بلال

کأنّما الخال علی خدّه ساعة هجر فی زمان الوصال

قلت و قد استوعبنا من ذکر العفیف هذا فی ترجمته فی تاریخنا «المنهل الصافی و المستوفیّ بعد الوافی» نبذة کبیرة فلینظر هناک.

و فیها توفّی الشیخ الإمام العلّامة فقیه الشام تاج الدین أبو محمد عبد الرحمن بن إبراهیم بن سباع بن ضیاء الفزاریّ البدریّ المصریّ الأصل الدمشقی الشافعیّ المعروف بالفرکاح. ولد فی شهر ربیع الأوّل سنة أربع و عشرین و ستّمائة.

قال الصّفدیّ: تفقّه فی صغره علی الشیخ عزّ الدین بن عبد السلام، و الشیخ تقیّ الدین بن الصّلاح، و برع فی المذهب و هو شابّ، و جلس للاشتغال و له بضع و عشرون سنة، و درّس فی سنة ثمان و أربعین، و کتب فی الفتاوی و قد أکمل الثلاثین.

و لمّا قدم النوویّ من بلده أحضروه لیشتغل علیه، فحمل همّه و بعث به إلی مدرّس الرّواحیّة لیصحّ له بها بیت و یرتفق بمعلومها. و کانت الفتاوی تأتیه من الأقطار.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۳۲

و إذا سافر لزیارة القدس یترامی أهل البرّ علی ضیافته، و کان أکبر من الشیخ محیی الدین النّوویّ بسبع سنین، و هو أفقه نفسا و أذکی و أقوی مناظرة من الشیخ محیی الدین بکثیر، و قیل إنه کان یقول: إیش قال النّوویّ فی مزبلته! (یعنی عن الروضة)، قال: و کان الشیخ عزّ الدین بن عبد السلام یسمّیه «الدّویک» لحسن بحثه. انتهی کلام الصّفدیّ باختصار.

و من شعره ما کتبه لزین الدین عبد الملک بن العجمی ملغزا فی اسم بیدرا.

یا سیّدا ملأ الآفاق قاطبة بکلّ فنّ من الألغاز مبتکر

ما اسم مسمّاه بدر و هو مشتمل علیه فی اللفظ إن حقّقت فی النظر

و إن تکن مسقطا ثانیه مقتصرا علیه فی الحذف أضحی واحد البدر

و له [أیضا دو بیت]

ما أطیب ما کنت من الوجد لقیت إذ أصبح بالحبیب صبّا و أبیت

و الیوم صحا قلبی من سکرته ما أعرف فی الغرام من أین أتیت

الذین ذکر الذهبیّ وفاتهم فی هذه السنة، قال: و فیها توفّی مسند العالم فخر الدین علیّ بن البخاریّ المقدسیّ فی ربیع الآخر، و له خمس و تسعون سنة. و المعمّر شهاب الدین غازی بن أبی الفضل [بن عبد الوهاب أبو محمد] الحلاویّ فی صفر.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۳۳

و فخر الدین عمر بن یحیی الکرخیّ فی شهر ربیع الآخر، و له إحدی و تسعون سنة. و العلّامة تاج الدین عبد الرحمن بن إبراهیم بن سباع الفزاریّ الشافعیّ فی جمادی الآخرة، و له ست و ستون سنة. و الشیخ العفیف التّلمسانیّ الشاعر سلیمان بن علیّ فی رجب، و له ثمانون سنة. و المقرئ شهاب الدین محمد بن عبد الخالق بن مزهر فی رجب. و القاضی شمس الدین عبد الواسع بن عبد الکافی الأبهریّ فی شوّال.

و المسند نجم الدين يوسف بن يعقوب بن محمد [بن عليّ] بن المجاور فى ذى القعدة و المسند شمس الدين محمد بن [عبد] المؤمن بن أبى الفتح الصالحىّ فى ذى الحجّة، و هو آخر من سمع من الكندىّ. و الإمام شمس الدين أحمد بن عبد اللّه بن الزّبير الخابورىّ خطيب حلب فى المحرّم.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و ثلاث أصابع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و سبع أصابع.

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۹۱]

السنة الثانية من ولاية الملك الأشرف خليل على مصر، و هى سنة إحدى و تسعين و ستمائة.

فيها فى يوم الجمعة رابع عشرين صفر ظهر بقلعة الجبل حريق عظيم فى بعض خزائن الخاصّ، و أتلف شيئا عظيما من الذخائر و النفائس و الكتب و غيرها.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۳۴

و فيها توفّى الصاحب تاج الدين أحمد بن [المولى] شرف الدين سعيد ابن شمس الدين محمد بن الأثير الحلبى الكاتب المنشئ. و أولاد ابن الأثير هؤلاء غير بنى الأثير الموصليّين. و كان تاج الدين هذا بارعا فاضلا معظّما فى الدّول باشر الإنشاء بدمشق ثم بمصر للملك الظاهر بيبرس، ثم للملك المنصور قلاوون، و كان له نظم و نثر و لكلامه رونق و طلاوة. و من عجيب ما اتّفق أنّ الأمير عز الدين أيدمر السّنانىّ النّجيبىّ الدّوادار أنشد تاج الدين المذكور عند قدومه إلى القاهرة فى الأيام الظاهريّة أوّل اجتماعه به، و لم يكن يعلم اسمه و لا اسم أبيه، قول الشاعر:

كانت مساءلة الرّكبان تخبرنى عن أحمد بن سعيد أحسن الخبر

حتّى التقينا فلا و اللّه ما سمعت أذنى بأحسن ممّا قد رأى بصرى

فقال له تاج الدين: يا مولانا، أتعرف أحمد بن سعيد؟ فقال: لا، فقال: المملوك أحمد بن سعيد. و لم يزل تاج الدين هذا يترقّى الى أن ولى كتابة السرّ بمصر بعد موت فتح الدين محمد بن عبد الظاهر الآتى ذكره. و لمّا ولى كتابة السرّ سافر مع السلطان الى الديار المصريّة فأدركه أجله فمات بغزّة و دفن هناك؛ و ولى بعده كتابة السرّ ابنه عماد الدين إسماعيل مدّة إلى أن عزل بشرف الدين عبد الوهاب بن فضل اللّه العمرىّ.

و كان تاج الدين فاضلا نبيلا، و له يد فى النظم و النثر. و من شعره القصيدة التى أوّلها:

أتتنى أياديك التى لو تصوّرت محاسنها كانت من الأنجم الزّهر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۳۵

و فيها توفى القاضى فتح الدين محمد ابن القاضى محيى الدين عبد اللّه بن عبد الظاهر ابن نشوان بن عبد الظاهر الجذامىّ الرّوحىّ المصرىّ المعروف بابن عبد الظاهر صاحب ديوان الإنشاء و مؤتمن المملكة بالديار المصريّة. مولده بالقاهرة فى سنة ثمان و ثلاثين و ستمائة و سمع الحديث و تفقّه و مهر فى الإنشاء، و ساد فى الدولة المنصوريّة قلاوون برأيه و عقله و حسن سياسته، و تقدّم على والده فكان والده من جملة الجماعة الذين يصرفهم أمره و نهيه. و قد تقدّم ذكره فى ترجمة الملك المنصور قلاوون و التعريف بحاله. و من شعر فتح الدين المذكور لمّا توجّه إلى دمشق صحبة السلطان و حصل له توعّك فكتب إلى والده يقول:

إن شئت تبصرنى و تبصر حالتى قابل إذا هبّ النسيم قبولا

تلقاه مثلى رقّة و نحافة و لأجل قلبك لا أقول عليلا

فهو الرسول اليك منى ليتنى كنت اتّخذت مع الرسول سبيلا

و له:

ذو قوام يحور منه اعتدال كم طعين به من العشّاق

سلب القضب لينها فهى غيظا واقفات تشكوه بالأوراق

قلت: و أجاد شمس الدين محمد بن العفيف فى هذا المعنى حيث قال:

قدّه حاز اعتدالا فله فتكى و نسكى

سلب الأغصان لينا فهى بالأوراق تشكو

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۳۶

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى سيف الدين عبد الرحمن بن محفوظ الرّسعنىّ فى المحرّم. و خطيب دمشق زين الدين عمر بن مكّى الوكيل فى ربيع الأوّل. و المقرئ رضىّ الدين جعفر بن القاسم [المعروف با] بن دبوقا الرّبعىّ فى رجب. و العدل علاء الدين علىّ بن أبى بكر بن أبى الفتح بن محفوظ [بن الحسن] بن صصرّى الضرير فى شعبان. و الموقّعان: سعد الدين [سعد اللّه] ابن مروان الفارقىّ، و فتح الدين محمد بن محيى الدين عبد اللّه بن عبد الظاهر.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم سبع أذرع و ستّ عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا سواء.

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۹۲]

السنة الثالثة من ولاية الملك الأشرف خليل على مصر، و هى سنة اثنتين و تسعين و ستمائة.

فيها حصل ببلاد غزّة و الرّملة و قاقون و الكرك زلزلة عظيمة، و كان معظم تأثيرها بالكرك بحيث انهدم ثلاثة أبراج من قلعتها، و بنيان كثير من دورها و أماكنها.

و كانت الزّلزلة المذكورة فى صفر.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۳۷

و فيها كانت وفاة الأمير الكبير شمس الدين سنقر بن عبد اللّه العلائىّ، ثم الصالحىّ النّجمىّ المعروف بالأشقر، كان من كبار الأمراء ممّن تملّك الشام فى أوائل سلطنة الملك المنصور قلاوون و دعا لنفسه و تلقّب «بالملك الكامل» و خطب له على منابر الشام، و ضرب الدرهم و الدينار باسمه. و قد أوضحنا من أمره نبذة كبيرة فى عدّة مواضع من ترجمة الملك المنصور قلاوون و غيره. و وقع له مع الملك المنصور أمور أسفرت بعد سنين على أنّه دخل تحت طاعته، و صار من جملة أكابر أمرائه. و استمرّ سنقر على ذلك إلى أن مات الملك المنصور قلاوون و ملك بعده ابنه الملك الأشرف خليل صاحب الترجمة؛ قبض عليه فى هذه السنة و خنقه و خنق معه جماعة من الأمراء لأمر اقتضاه رأيه. و الأمراء الذين قتلوا معه مثل: الأمير ركن الدين طقصو الناصرىّ، و جرمك الناصرىّ و بلبان الهارونىّ؛ و كان معهم الأمير حسام الدين لاچين المنصورىّ الذى تسلطن بعد ذلك، فوضع السلطان الوتر فى رقبته لخنقه فانقطع الوتر؛ فقال لاچين: يا خوند، إيش ذنبى! مالى ذنب إلّا أنّ طقصو حموى و أنا أطلّق بنته، فرقّوا له خشداشيته لأمر سبق فى علم اللّه و قبّلوا الأرض و سألوا السلطان فيه، و ضمنه خشداشه الأمير بدر الدين بيدرا نائب السلطنة، فأطلقه السلطان و أعاده إلى رتبته، و أخذ سنقر الأشقر هذا و دفن بالقرافة. و كان سنقر المذكور أميرا شجاعا مقداما كريما حسن السياسة مهابا جليلا معظّما فى الدّول، و خوطب بالسلطنة سنين عديدة إلى أن ضعف أمره و نزل من قلعة صهيون بالأمان، و قدم على الملك المنصور قلاوون فأكرمه قلاوون، و دام على ذلك إلى أن مات. و كان سنقر شجاعا أشقر عبل البدن جهورىّ الصوت مليح الشكل. رحمه اللّه تعالى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۳۸

و فيها توفّى الشيخ الصالح القدوة المعتقد شيخ الشام أبو إسحاق إبراهيم ابن الشيخ السيد العارف أبى محمد عبد اللّه الأرموىّ بزاويته

بجبل قاسیون بعد الظهر و کانت جنازته مشهودة، رحمه اللّه.

و فیها توفّی الصاحب محیی الدین عبد اللّه بن رشید الدین عبد الظاهر بن نشوان ابن عبد الظاهر السّعدیّ الموقّع کاتب الإنشاء بالدیار المصریّة. و قد تقدّم ذکر ولده القاضی فتح الدین فی السنة الماضیة. کان محیی الدین هذا من سادات الکتاب و رؤسائهم و فضلائهم. و مولده فی سنة عشرین و ستمائة بالقاهرة، و مات یوم الأربعاء ثالث شهر رجب و دفن بالقرافة بتربته التی أنشأها. و هو صاحب النظم الرائق و النثر الفائق. و من شعره قوله:

یا قاتلی بجفون قتیلها لیس یقبر

إن صبّروا عنک قلبی فهو القتیل المصبّر

و له و أجاد إلی الغایة:

نسب الناس للحمامة حزنا و أراها فی الشّجو لیست هنالک

خضبت کفّها و طوّقت الجی د و غنّت و ما الحزین کذلک

و له مضمّنا:

لقد قال کعب فی النّبیّ قصیدة و قلنا عسی فی مدحه نتشارک

فإن شملتنا بالجوائز رحمة کرحمة کعب فهو کعب مبارک

.النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۳۹

و له:

سلّفتنا علی العقول السّلافه فتقاضت دیونها بلطافه

ضیّفتنا بالنّشر و البشر و الیس ر ألا هکذا تکون الضّیافه

و قد سقنا من ترجمته فی تاریخنا «المنهل الصافی» عدّة أخر غیر هؤلاء المقطّعات.

و فیها توفّی الأمیر علم الدین سنجر بن عبد اللّه الحلبی، الأمیر الکبیر أحد الموصوفین بالشجاعة و الإقدام، و قد شهد عدّة حروب، و له مواقف مشهورة مع العدوّ.

و کان أبیض الرأس و اللّحیة من أبناء الثمانین، و کان ولی نیابة دمشق فی آخر سنة ثمان و خمسین و ستمائة. و لمّا تسلطن الملک الظاهر رکن الدین بیبرس لم یبایعه سنجر هذا و دعا لنفسه و حلّف الأمراء و تسلطن بدمشق و لقّب «بالملک المجاهد»، فلم یتمّ له ذلک حسب ما تقدّم ذکره فی أوّل ترجمة الملک الظاهر بیبرس، و قبض الظاهر علیه و حبسه مدّة سنین إلی أن مات. و تسلطن بعده ولده الملک السعید أفرج عنه و أمّره، فدام علی ذلک إلی أن تسلطن الملک المنصور قلاوون، و خرج علیه الأمیر سنقر الأشقر المقدّم ذکره و تسلطن بدمشق، ندب المنصور لحربه علم الدین سنجر هذا، و أضاف إلیه العساکر المصریّة، فخرج إلیه و قاتله و کسره و أخرجه من دمشق، ثمّ عاد إلی الدیار المصریّة، فأنعم علیه المنصور قلاوون بأشیاء کثیرة، ثم خانه و قبض علیه و حبسه إلی أن مات. فلمّا تسلطن ولده الملک الأشرف خلیل أفرج عنه و أکرمه و رفع منزلته. و کان سبب مسک قلاوون له أنّه لمّا کسر سنقر الأشقر عظم فی أعین الناس و لهج بعض الناس بتسمیته «بالملک المجاهد» کما کان تلقّب أوّلا لمّا ادّعی السلطنة، فبادره قلاوون و قبض علیه. و کان سنجر هذا من بقایا الأمراء الصالحیّة النّجمیّة، رحمه اللّه تعالی.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۴۰

الذین ذکر الذهبیّ وفاتهم فی هذه السنة، قال: و فیها توفّی الشیخ الزاهد إبراهیم ابن العارف الشیخ عبد اللّه الأرمویّ فی المحرّم. و کمال الدین أحمد بن محمد النّصیبیّ الحلبیّ فی المحرّم. و المقرئ جمال الدین إبراهیم بن داود الفاضلیّ فی أوّل جمادی الأولی. و الإمام القدوة تقیّ الدین إبراهیم بن علیّ بن الواسطی الحنبلیّ فی جمادی الآخرة، و له تسعون سنة. و السیف علیّ بن الرّضی عبد

الرحمن المقدسىّ فى شوّال.

و المحدّث التقى عبيد [بن محمد بن عبّاس] الإسعردىّ. و أبو عبد اللّه محمد بن إبراهيم ابن ترجم المصرىّ راوى التّرمذىّ.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ستّ أذرع و عشر أصابع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و اثنتا عشرة إصبعا. انتهت ترجمة الملك الأشرف خليل.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۴۱

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۹۳]

ذكر سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون الأولى على مصر

هو السلطان الملك الناصر أبو الفتوح ناصر الدين محمد ابن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحىّ النّجمىّ الألفىّ سلطان الديار المصريّة و ابن سلطانها، مولده بالقاهرة فى سنة أربع و ثمانين و ستمائة بقلعة الجبل، و والده الملك المنصور قلاوون يحاصر حصن المرقب، و جلس على تخت الملك بعد قتل أخيه الملك الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون فى يوم الاثنين رابع عشر المحرّم، و قيل يوم الثلاثاء خامس عشر المحرّم، من سنة ثلاث و تسعين و ستمائة، لأنّ الملك الأشرف قتل بتروجة فى يوم السبت ثانى عشر المحرّم و قتل قاتله الأمير بدر الدين بيدرا فى يوم الأحد ثالث عشر المحرّم، ثم اتّفقوا على سلطنة الملك الناصر محمد هذا عوضا عن أخيه، فتمّ له ذلك.

فتكون سلطنته فى أحد اليومين المذكورين تخمينا لما وقع فى ذلك من الاختلاف بين المؤرّخين. انتهى.

و الملك الناصر هذا هو السلطان التاسع من ملوك التّرك بالديار المصريّة، و لما استقر فى السلطنة رتّبوا الأمير زين الدين كتبغا المنصورىّ نائب السلطنة بالديار المصريّة عوضا عن بيدرا، و الأمير علم الدين سنجر الشجاعى وزيرا و مدبّرا للمملكه و أتابك العساكر؛ ثم قبضوا على جماعة من قتلة الملك الأشرف خليل حسب ما تقدّم ذكره، و تمّ ذلك و دام إلى العشرين من صفر. فبلغ الأمير زين الدين كتبغا أنّ الأمير علم الدين

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۴۲

سنجر الشجاعىّ يريد الوثوب عليه و قبضه و قتله. و كان الذى أخبره بذلك سيف الدين قنقغ التّتارى، و أعلمه بما فى باطن الشجاعىّ؛ و السبب فى اطّلاعه على ما فى باطن الشجاعىّ أنّ هذا قنقغ هاجر من بلاد التّتار فى زمن الملك الظاهر بيبرس، و أقام بمصر و أقطع فى الحلقة فرزقه اللّه تعالى اثنى عشر ولدا كلّهم ذكور، منهم: ستة أولاد فى خدمة الملك الأشرف، و خمسة فى خدمة الشجاعىّ، و واحد منهم صغير؛ و جميع أولاده شباب ملاح من أجمل الناس صورة. و كان لقنقغ هذا منزلة عظيمة عند الشجاعىّ و كلمته مسموعة، و شفاعته مقبولة؛ و له اطّلاع على أمور الدولة بسبب أولاده، فعلم بما دبّره الشجاعىّ، فحملته الجنسيّة حتّى أعلم الأمير كتبغا على ما فى باطن الشجاعىّ؛ فاحترز كتبغا على نفسه و أعلم الأمراء بالخبر، و كان الأمراء كارهين الشجاعىّ. فلمّا كان يوم الخميس ثانى عشرين صفر ركب الأمير كتبغا إلى سوق الخيل فنزل إليه من القلعة أمير يقال له البندقدارىّ و قال له من قبل الشجاعىّ:

أين حسام الدين لاچين المنصورى؟ أحضره الساعة؛ فقال له كتبغا: ما هو عندى، و كان لاچين من يوم قتل الأشرف قد اختفى، و المماليك الأشرفيّة قد أعياهم أمره

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۴۳

من كثرة التفتيش عليه، فقال له البندقدارىّ: بلى، لاچين عندك، ثم مدّ يده إلى سيفه ليضربه به، فجدب سيف الدين بلبان الأزرق مملوك كتبغا سيفه و علا به البندقدارىّ من ورائه و ضربه ضربة حلّ بها كتفه و يده، ثم إنّهم تكاثروا عليه و أنزلوه عن فرسه و

ذبحوه، و همّ ممالیک کتبغـا. و ذلـک فی وسـط سوق الخیل، و مال غالب العسـکر من الأمراء و المقـدّمین و أجناد الحلقـة و التتار و الأکراد إلی کتبغا و انضـمّوا علیه، و مالت البرجیّة و بعض الخاصّکیّة إلی سنجر الشجاعیّ، لأنّ الشجاعیّ کان أنفق فیهم فی الباطن فی یوم واحـد ثمـانین ألف دینار، و اتّفق معهم أیضا أنّ کلّ من جاء برأس أمیر کان له إقطاعه؛ و کان الاتّفاق معهم أنّه فی یوم الخمیس وقت الموکب لمّا یطلع الأمیر کتبغا إلی القلعة و یمدّوا السّماط یمسک هو

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۴۴

و من اتّفق معه من الأمراء یقبضون علیهم. فاستعجل البندقداریّ و نزل إلی سوق الخیل و فعل ما ذکرناه.

و لمّـا وقع ذلـک تحقّق الأـمراء صـحّة ما نقل إلیهم الأمیر زین الـدین کتبغا عن الشـجاعیّ، فاجتمع فی الحال الأمراء عنـد کتبغا بسوق الخیل و رکبت التّتار جمیعهم و جماعـة من الشّهرزوریّة و الأکراد و جماعة من الحلقة کراهیة منهم فی الشـجاعیّ، و خرج الشـجاعیّ بمن معه إلی بـاب القلعـة، فـإنّ إقـامته کـانت بالقلعـة و أمر بضـرب الکوسـات فضـربت، و بقی یطلب أن یطلع إلیه أحـد من الأمراء و المقدّمین فلم یجبه أحد؛ و کان قد أخرج صـحبته الذهب فی الصّرر و بقی کلّ من جاء إلیه یعطیه صرّة؛ فلم یجئ إلیه إلّا أناس قلیلون ما لهم مرتبة. و شرع کتبغا و من معه فی حصار القلعة و قطعوا عنها الماء و بقوا ذلک الیوم محاصرین. فلمّا کان ثانی یوم نزلت البرجیّة من القلعـة علی حمیّـة و تلاقوا مع کتبغا و عساکره و صدموه صدمة کسروه فیها کسرة شـنیعة و هزموه إلی بئر البیضاء، و توجّه کتبغا إلی جهة بلبیس؛ فلمّا سمعوا باقی الأمراء بذلک

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۴۵

رکب الأمیر بدر الدین بیسریّ المنصوریّ و الأمیر بدر الدین بکتاش الفخریّ أمیر سـلاح و بقیّة العساکر المصـریّة، و توجهت الجمیع إلی نصـرة الأمیر کتبغا و أصـحابه، و قاتلوا الممالیک البرجیة حتّی کسـروهم و ردّوهم إلی أن أدخلوهم إلی قلعة الجبل؛ ثم جدّوا فی حصار القلعة و من فیها، و عاد الأمیر کتبغا و قد قوی عضده بخشداشیته و الأمراء؛ و دام الحصار علی القلعة إلی أن طلعت الستّ خوند والـدة السـلطان الملـک الناصـر محمـد بن قلاـوون إلی أعلی السّور و کلّمتهم بـأن قالت لهم: إیش هو غرضـکم حتی إننا نفعله لکم؟ فقـالوا: مالنـا غرض إلّـا مسـک الشـجاعیّ و إخمـاد الفتنـة، و نحن لو بقیت بنت عمیـاء من بنـات أسـتاذنا الملک المنصور قلاوون کنّا ممالیکها لا سیما ولده الملک الناصر محمد حاضر و فیه کفایة. فلمّا علمت ذلک رجعت و اتّفقت مع الأمیر حسام الدین لاچین أستاذ الـدار، و غلقوا باب القلّة من القلعة و هی التی علیها المعتمد، و بقی الشـجاعی بداره بالقلعة محصورا. فلمّا رآه أصـحابه أنّه فی أنحس حال شـرعوا فی النزول إلی عنـد الأمیر کتبغا، فبقی جمع الشـجاعیّ یقلّ و جمع کتبغا یکثر إلی یوم السـبت رابع عشـرین صـفر ضـجر الشـجاعیّ و طلب الأمان فلم یوافقوه الأمراء؛ و طلع وقت صـلاة الظهر بعض الأمراء و جماعـة من الخاصّـکّیة و فیهم آقوش المنصوریّ إلی عند الشجاعی

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۴۶

یطلبونه إلی عند السلطان و إلی والدته [فی] صورة أنهم یریدون یستشیرونه فیما یعملون، فمشی معهم قلیلا و تکاثروا علیه الممالیک و جاء آقوش من ورائه و ضـربه بالسـیف ضـربة قطع بها یده، ثم بادره بضربة ثانیة أبری بها رأسه عن جسده، و أخذوا رأسه فی الحال و رفعوه علی سور القلعة، ثم عادوا و نزلوا [به] إلی کتبغا و دقّوا البشائر و فتحوا باب القلّة، و أخذوا رأس الشـجاعیّ و جعلوه علی رمح و أعطوه للمشاعلیّـة فجبوا علیه مصـر و القاهرة، فحصّل المشاعلیّـة مالا کثیرا لبغض الناس قاطبة فی الشـجاعیّ؛ فقیل: إنهم کانوا یأخذون الرأس من المشاعلیّـة و یـدخلونه بیتهم فتضـربه النسوة بالمداسات لما فی نفوسـهم منه. و سـبب ذلک ما کان اشـتمل علیه من الظلم و مصادراته للعالم و تنوّعه فی الظلم و العسف حسب ما یأتی ذکره فی الوفیات بأوسع من هذا. و أغلقت القاهرة خمسة أیام إلی أن طلع کتبغا إلی القلعـة فی یوم الثلاثاء سابع عشـرین صـفر و دقّت البشائر و فتحت الأبواب و جدّدت الأیمان و العهود للملک الناصـر محمد بن قلاوون و أن یکون الأمیر کتبغا نائب السلطنة.

و لمّا تمّ ذلک قبض کتبغا علی جماعة من الخاصّکیّة و البرجیّة المتّفقین مع الشجاعیّ، ثم أفرج عن جماعة من الأمراء کان قبض علیهم فی المخیم، و هم: الأمیر رکن الدین بیبرس الجاشنکیر الذی تسلطن بعد ذلک علی ما یأتی ذکره، و الأمیر سیف الدین برلغی، و الأمیر القمامیّ و سیف الدین قبجق المنصوریّ، و الأمیر بدر الدین

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۴۷

عبد اللّه، و الأمیر سیف الدین بوری [السلاح دار] و الأمیر زین الدین عمر، و الأمیر سیف الدین قرمشی، و الأمیر علاء الدین مغلطای المسعودیّ و غیرهم. و أخذ الأمیر زین الدین کتبغا و أعطی فی الملک و انفرد بتدبیر الأمر و مشی مع الملک الناصر محمد مشی المملوک مع أستاذه.

ثمّ بعث بتقلید نائب الشام علی عادته، و هو الأمیر أیبک الحمویّ. ثم بعد ذلک نزل السلطان الملک الناصر محمد بن قلعة الجبل فی موکب هائل بأبّهة السلطنة، و توجّه إلی ظاهر القاهرة ثمّ عاد و شقّ القاهرة، و دخل من باب النصر و خرج من باب زویلة عائدا إلی القلعة، و الأمراء مشاة بین یدیه حتّی الأمیر کتبغا، و کان ذلک فی یوم الأحد رابع عشرین شهر رجب. و لمّا کان سابع عشرین شهر رمضان ظهر الأمیر حسام الدین لاچین المنصوریّ من اختفائه و اجتمع بالأمیر کتبغا خفیة،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۴۸

فتکلّم کتبغا فی أمره مع الأمراء، فاتّفقوا علی إظهار أمره لما رأوا فی ذلک من إصلاح الحال، فطیّب کتبغا خاطر الأمیر حسام الدین لاچین و وعده أن یتکلّم فی أمره مع السلطان و الممالیک الأشرفیّة. و لا زال کتبغا بالسلطان و الحاشیة حتی رضّاهم علیه و طیّب قلوبهم إلی أن کان یوم عید الفطر، ظهر حسام الدین لاچین من دار کتبغا، و حضر السّماط و قبّل الأرض بین یدی السلطان الملک الناصر محمد، فخلع علیه السلطان و طیب قلبه، و لم یعاتبه بما فعل مع أخیه الملک الأشرف خلیل مراعاة لخاطر کتبغا. ثم خلع علیه الأمیر کتبغا أیضا، و حملت إلیه الهدایا و التّحف من الأمراء و غیرهم؛ کلّ ذلک لأجل خاطر کتبغا. و اصطلحت أیضا معه الممالیک الأشرفیّة علی ما فی نفوسهم منه من قتل أستاذهم بأمر کتبغا لهم و إلحاحه علیهم فی ذلک حتی قبلوا کلامه. و کانت مکافأة لاچین لکتبغا بعد هذا الإحسان کله بأن دبّر علیه حتّی أخذ الملک منه و تسلطن عوضه علی ما یأتی ذکره و بیانه إن شاء اللّه تعالی.

ثمّ خلع السلطان علی الصاحب تاج الدین محمد ابن الصاحب فخر الدین محمد ابن الصاحب بهاء الدین علیّ بن حنّا باستقراره فی الوزارة بالدیار المصریّة.

ثمّ استهلت سنة أربع و تسعین و ستمائة و الخلیفة الحاکم بأمر اللّه أبو العبّاس أحمد. و سلطان مصر و الشام الملک الناصر محمد بن قلاوون، و مدبّر مملکته الأمیر کتبغا المنصوریّ. و لمّا کان عاشر المحرّم ثار جماعة من الممالیک الأشرفیّة خلیل فی اللیل بمصر و القاهرة و عملوا عملا قبیحا و فتحوا أسواق السلاح بالقاهرة بعد حریق باب السعادة، و أخذوا خیل السلطان و خرقوا ناموس الملک، و ذلک کلّه بسبب

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۴۹

ظهور الأمیر حسام الدین لاچین و عدم قتله؛ فإنّه کان ممّن باشر قتل أستاذهم الملک الأشرف خلیل، فحماه الأمیر کتبغا و رعاه، و أیضا قد بلغهم خلع أخی أستاذهم الملک الناصر محمد بن قلاوون من السلطنة و سلطنة کتبغا فتزایدت وحشتهم و ترادفت علیهم الأمور، فاتّفقوا و وثبوا فلم ینتج أمرهم. فلمّا أصبح الصباح قبض علیهم الأمیر کتبغا و قطع أیدی بعضهم و أرجلهم و کحّل البعض و قطع ألسنة آخرین و صلب جماعة منهم علی باب زویلة؛ ثم فرّق بقیّة الممالیک علی الأمراء و المقدّمین، و کانوا فوق الثلاثمائة نفر و هرب الباقون؛ فطلب الأمیر زین الدین کتبغا الخلیفة و القضاة و الأمراء و تکلّم معهم فی عدم أهلیّة الملک الناصر محمد للسلطنة لصغر سنّه، و أنّ الأمور لابدّ لها من رجل کامل تخافه الجند و الرعیّة و تقف عند أوامره و نواهیه.

کلّ ذلک کان بتدبیر لاچین فإنّه لمّا خرج من إخفائه علم أنّ الممالیک الأشرفیّة لا بدّ لهم من أخذ ثار أستاذهم منه. و أیضا أنّه علم

أنّ الملک الناصر محمـد متى ترعرع و کبر لا يبقيه لکونه کان ممّن قتل أخاه الملک الأشـرف خليلا، فلمّا تحقق ذلک أخـذ يحسّـن للأمير کتبغا السلطنة و خلع ابن استاذه الملک الناصر محمد بن قلاوون و سلطنته، و کتبغا يمتنع من ذلک فلا زال به لاچين حتّى حذّره و أخافه عاقبة ذلک، و قال له:

متى کبر الملک الناصر لا يبقيک البتّة، و لا يبقى أحدا ممّن تعامل على قتل أخيه الملک الأشرف، و أنّ هؤلاء الأشرفيّة ما دام الملک الناصر محمد فى الملک شوکتهم قائمة، و المصلحة خلعه و سلطنتک. فمال کتبغا إلى کلامه، غير أنّه أهمل الأمر و أخذ فى تدبير ذلک على مهل. فلمّا وقع من الأشرفيّة ما وقع وثب و طلب الخليفة و القضاة حسب ما ذکرناه. و لمّا حضر الخليفة و القضاة و اتّفق رأى الأمراء و الجند على خلع السلطان الملک الناصر محمد بن قلاوون من الملک و سلطنة کتبغا هذا عوضه؛ فوقع ذلک و خلع الملک الناصر محمد من السلطنة و تسلطن کتبغا و جلس على تخت الملک

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۵۰

فى يوم خلع الملک الناصر، و هو يوم الخميس ثانى عشر المحرّم سنة أربع و تسعين و ستمائة بعد واقعة المماليک الأشرفيّة بيومين، و أدخل الملک الناصر محمد بن قلاوون إلى الدور بالقلعة، و أمره کتبغا بألّا يرکب و لا يظهر. و کان عمره يوم خلع نحو العشر سنين.

و کانت مدّة سلطنته فى هذه المرّة الأولى سنة واحدة إلا ثلاثة أيام أو أقلّ. و يأتى بقية ترجمته فى سلطنته الثانية و الثالثة إن شاء اللّه تعالى.

السنة الأولى من سلطنة الملک الناصر محمد الأولى على مصر على أنّه لم يکن له من السلطنة فيها إلّا مجرّد الاسم فقط، و إنّما کان الأمر أوّلا للأمير علم الدين سنجر الشجاعى ثم للأمير کتبغا المنصورىّ، و هى سنة ثلاث و تسعين و ستمائة، على أنّ الأشرف قتل فى أوائلها فى المحرّم حسب ما تقدّم ذکره.

فيها توفّى الصاحب فخر الدين أبو العبّاس إبراهيم بن لقمان بن أحمد بن محمد الشّيبانىّ الإسعردىّ ثم المصرىّ، رئيس الموقّعين بالديار المصريّة، ثم الوزير بها ولى الوزارة مرّتين، و کان مشکور السّيرة قليل الظّلم کثير العدل و الإحسان للرعيّة.

و فى أيام وزارته سعى فى إبطال مظالم کثيرة، و کان يتولّى الوزارة بجامکيّة الإنشاء، و عند ما يعزلونه من الوزارة يصبح يأخذ غلامه الحرمدان خلفه، و يروح يقعد فى ديوان الإنشاء و کأنّه ما تغيّر عليه شىء، و کان أصله من العدن من بلاد إسعرد و تدرّب فى الإنشاء بالصاحب بهاء الدين زهير حتى برع فى الإنشاء و غيره.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۵۱

قال الذهبىّ: رأيته شيخا بعمامة صغيرة و قد حدّث عن ابن رواح و کتب عنه البرزالىّ و الطّلبة. انتهى. و کان ابن لقمان المذکور فاضلا ناظما ناثرا مترسّلا، و مات بالقاهرة فى جمادى الآخرة و دفن بالقرافة. و من شعره:

کن کيف شئت فإنّنى بک مغرم راض بما فعل الهوى المتحکّم

و لئن کتمت عن الوشاة صبابتى بک فالجوانح بالهوى تتکلّم

أشتاق من أهوى و أعجب أنّنى أشتاق من هو فى الفؤاد مخيّم

يا من يصدّ عن المحبّ تدلّلا و إذا بکى وجدا غدا يتبسّم

أسکنتک القلب الذى أحرقته فحذار من نار به تتضرّم

و فيها قتل الأمير علم الدين سنجر بن عبد اللّه الشّجاعىّ المنصورىّ، کان من مماليک الملک المنصور قلاوون، و ترقّى حتّى ولى شدّ الدواوين، ثم الوزارة بالديار المصريّة فى أوائل دولة الناصر، و ساءت سيرته و کثر ظلمه، ثم ولى نيابة دمشق فتلطّف بأهلها و قلّ شرّه، و دام بها سنين إلى أن عزل بالأمير عزّ الدين أيبک الحموىّ، و قدم إلى القاهرة. و کان موکبه يضاهى موکب السلطان من التجمّل، و مع ظلمه کان له ميل لأهل العلم و تعظيم الإسلام، و هو الذى کان مشدّ عمارة البيمارستان المنصورىّ ببين القصرين فتمّمه فى مدّة

يسيرة، و نهض بهذا العمل العظيم و فرغ منه فى أيّام قليلة، و كان يستعمل فيه الصنّاع و الفعول بالبندق حتّى لا يفوته من هو بعيد عنه فى أعلى سقالة كان. و يقال إنّه يوما وقع بعض الفعول من أعلى السقالة بجنبه فمات، فما اكترث سنجر هذا و لا تغيّر من مكانه و أمر بدفنه. ثم عمل الوزارة أيضا

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج٨، ص: ۵۲

فى أوائل دولة الناصر محمد بن قلاوون أكثر من شهر حسب ما تقدّم ذكره، و حدّثته نفسه بما فوق الوزارة، فكان فى ذلک حتفه و قتله حسب ما ذكرناه فى أوّل ترجمة الملک الناصر هذا، و فرح أهل مصر بقتله فرحا زائدا حتّى إنّه لمّا طافت المشاعليّة برأسه على بيوت الكتّاب القبط بلغت اللّطمة على وجهه بالمداس نصفا، و البولة عليه درهما، و حصّلوا المشاعليّة جملا من ذلک.

قلت: و هذا غلط فاحش من المشاعليّة، قاتلهم اللّه! لو كان من الظلم ما كان هو خير من الأقباط النصارى. و لمّا كان على نيابة دمشق وسّع ميدانها أيّام الملک الأشرف، فقال الأديب علاء الدين الوداعىّ فى ذلک:

علم الأمير بأنّ سلطان الورى يأتى دمشق و يطلق الأموالا

فلأجل ذا قد زاد فى ميدانها لتكون أوسع للجواد مجالا

قال الصلاح الصّفدىّ: أخبرنى من لفظه شهاب الدين بن فضل اللّه قال أخبرنى والدى عن قاضى القضاة نجم الدين ابن الشيخ شمس الدين شيخ الجبل قال: كنت ليلة نائما فاستيقظت و كأن من أنبهنى و أنا أحفظ كأنّما قد أنشدت ذلک:

عند الشجاعىّ أنواع منوّعة من العذاب فلا ترحمه بالله

لم تغن عنه ذنوب قد تحمّلها من العباد و لا مال و لا جاه

قال: ثم جاءنا الخبر بقتله بعد أيام قلائل فكانت قتلته فى تلک الليلة التى أنشدت فيها الشعر. انتهى.

قلت: و هذا من الغرائب. و قد ذكرنا من أحوال سنجر هذا فى تاريخنا المنهل الصافى نبذة كبيرة كونه كتاب تراجم و ليس للإطناب لهؤلاء هنا محلّ. انتهى.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج٨، ص: ۵۳

و فيها توفّى قتيلا الملک كيختو ملک التّتار قتله ابن أخيه بيدو.

قلت: و هنا نكتة غريبة لم يفطن إليها أحد من مؤرّخى تلک الأيام، و هى أنّ سلطان الديار المصرية الملک الأشرف خليل بن قلاوون قتله نائبه الأمير بيدرا، و ملک التتار كيختو هذا أيضا قتله ابن أخيه بيدرا، و كلاهما فى سنة واحدة، و ذاک فى الشرق و هذا فى الغرب. انتهى.

و ملک بعد كيختو بيدو المذكور الذى قتله.

قلت: و كذلک وقع للأشرف خليل؛ فإن بيدرا ملک بعده يوما واحدا و تلقّب بالملک الأوحد. و على كلّ حال فإنّهما تشابها أيضا. انتهى. و كان بيدو الذى ولى أمر التّتار يميل إلى دين النّصرانيّة، و قيل إنه تنصّر، لعنه اللّه، و وقع له مع الملک غازان أمور يطول شرحها.

و فيها قتل الوزير الصاحب شمس الدين محمد بن عثمان بن أبى الرجاء التّنوخىّ الدمشقىّ التاجر المعروف بابن السّلعوس. قال الشيخ صلاح الدين الصّفدى: كان فى شبيبته يسافر بالتجارة، و كان أشقر سمينا أبيض معتدل القامة فصيح العبارة حلو المنطق وافر الهيبة كامل الأدوات خليقا للوزارة تامّ الخبرة زائد الإعجاب عظيم التّيه، و كان جارا للصاحب تقىّ الدين البيّع، فصاحبه و رأى فيه الكفاءة فاخذ له حسبة دمشق، ثم توجّه إلى مصر و توكّل للملک الأشرف خليل فى دولة أبيه، فجرى عليه نكبة من السلطان فشفع فيه مخدومه الأشرف خليل، و أطلقه من الاعتقال، و حج فتملّک الأشرف فى غيبته. و كان محبّا له فكتب إليه بين الأسطر: يا شقير، يا وجه الخير، قدّم السّير. فلمّا قدم وزره. و كان إذا ركب تمشى الأمراء الكبار فى خدمته. انتهى.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۵۴

قلت: و كان فی أيام وزارته يقف الشجاعیّ المقدّم ذكره فی خدمته، فلمّا قتل مخدومه الملك الأشرف و هو بالإسكندريّة قدم القاهرة فطلب إلى القلعة فأنزله الشجاعیّ من القلعة ماشيا، ثم سلّمه من الغد إلی عدوّه الأمير بهاء الدين قراقوش [الظاهریّ] مشدّ الصّحبة، قيل: إنّه ضربه ألفا و مائة مقرعة، ثم تداوله المسعودیّ و غيره و أخذ منه أموالا كثيرة، و لا زال تحت العقوبة حتی مات فی صفر. و لما تولّی الوزارة كتب إليه بعض أحبّائه من الشام يحذّره من الشجاعیّ:

تنبّه يا وزير الأرض و اعلم بأنّك قد وطئت علی الأفاعی

و كن بالله معتصما فإنّی أخاف عليك من نهش الشجاعی

فبلغ الشجاعیّ، فلما جری ما جری طلب أقاربه و أصحابه و صادرهم، فقيل له:

عن الناظم، فقال: لا أوذيه فإنّه نصحه فیّ و ما انتصح. و قد أوضحنا أمره فی المنهل الصافی و المستوفی بعد الوافی بأطول من هذا. انتهی.

الذين ذكر الذهبیّ وفاتهم فی هذه السنة، قال: و فيها توفّی المقرئ شمس الدين محمد بن عبد العزيز الدّمياطیّ بدمشق فی صفر. و قاضی القضاة شهاب الدين أبو عبد اللّه محمد بن أحمد بن خليل الخويّیّ. و السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل ابن قلاوون، فتكوا به فی المحرّم. و نائبه بيدرا قتل من الغد. و وزيره الصاحب شمس الدين محمد بن عثمان بن السّلعوس هلك تحت العذاب.

أمر النيل فی هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع. مبلغ الزيادة خمس عشرة ذراعا و سبع أصابع. و ثبت إلی سادس عشر توت.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۵۵

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۹۴]

ذكر سلطنة الملك العادل زين الدّين كتبغا علی مصر

هو السلطان الملك العادل زين الدين كتبغا بن عبد اللّه المنصوریّ التركیّ المغلیّ سلطان الديار المصريّة؛ جلس علی تخت الملك بعد أن خلع ابن أستاذه الملك الناصر محمد بن قلاوون فی يوم الخميس ثانی عشر المحرّم سنة أربع و تسعين و ستّمائة باتّفاق الأمراء علی سلطنته. و هو السلطان العاشر من ملوک التّرك بالديار المصريّة، و أصله من التّتار من سبی وقعة حمص الأولی التی كانت فی سنة تسع و خمسين و ستمائة؛ فأخذه الملك المنصور قلاوون و أدّبه ثم أعتقه؛ و جعله من جملة مماليكه، و رقّاه حتّی صار من أكابر أمرائه، و استمرّ علی ذلك فی الدولة الأشرفيّة خليل بن قلاوون إلی أن قتل، و تسلطن أخوه الملك الناصر محمد بن قلاوون فی سنة ثلاث و تسعين و أقام الناصر فی الملك إلی سنة أربع و تسعين و وقع الاتفاق علی خلعه و سلطنة كتبغا هذا، فتسلطن و تلقّب بالملك العادل، و سنّه يوم ذاك نحو الأربعين سنة، و قيل خمسين سنة. و قد تقدّم سبب خلع الملك الناصر محمد و سلطنة كتبغا هذا فی آخر ترجمة الملك الناصر محمد فلا حاجة فی الإعادة.

و قال الشيخ شمس الدين بن الجزریّ قال: حكی لی الشيخ أبو الكرم النّصرانیّ الكاتب، قال: لمّا فتح هولاكو حلب بالسيف و دمشق بالأمان طلب هولاكو نصير الدين الطّوسیّ و كان فی صحبته، و قال له: اكتب أسماء مقدّمی عسكری، و أبصر أيّهم يملك مصر، و يقعد علی تخت الملك بها حتّی أقدّمه؟ قال: فحسب

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۵۶

نصير الدّين [أسماء] المقدّمين؛ فما ظهر له من الأسماء اسم من يملك الديار المصريّة غير اسم كتبغا. و كان كتبغا صهر هولاكو، فقدّمه علی العساكر فتوجّه بهم كتبغا فآنكسر علی عين جالوت، فتعجّب هولاكو من هذه الواقعة و ظنّ أنّ نصير الدين قد غلط فی

حسابه. و كان كتبغا هـذا من جملـة من كان فى عسـكر هولاكو من التّتار ممّن لا يؤبه إليه من الأصاغر، و كسبه قلاوون فى الواقعـة؛ فكان بين المدّة نحو من خمس و ثلاثين سنة، حتّى قدّر اللّه تعالى بما قدّر من سلطنة كتبغا هذا. انتهى.

و لمّا تمّ أمر كتبغا فى الملك و تسلطن مدّ سماطا عظيما و أحضر جميع الأمراء و المقدّمين و العسكر و أكلوا السّماط، ثم تقدّموا و قبّلوا الأرض ثم قبّلوا يده و هنّئوه بالسلطنة، و خلع على الأمير حسام الدين لا چين و ولّاه نيابة السلطنة بالديار المصريّة، و ولّى عز الدين الأفرم أمير جاندار، و الأمير سيف الدين بهادر حاجب الحجّاب؛ ثم خلع على جميع الأمراء و المقدّمين و من له عادة بلبس الخلع [عند تولية الملك كما جرت العادة]. و فى يوم الخميس تاسع عشر المحرّم ركب جميع الأمراء و المقدّمين

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۵۷

و جميع من خلع عليه و أتوا إلى سوق الخيل و ترجّلوا و قبّلوا الأرض، ثم كتب بسلطنة الملك العادل إلى البلاد الشاميّة و غيرها. و زيّنت مصر و القاهرة لسلطنته.

و لمّا كان يوم الأربعاء مستهلّ شهر ربيع الأوّل ركب السلطان الملك العادل كتبغا بأبّهة السلطنة و شعار الملك من قلعة الجبل و نزل و سار إلى ظاهر القاهرة نحو قبّة النصر، و عاد من باب النصر و شقّ القاهرة حتّى خرج من باب زويلة عائدا إلى قلعة الجبل، كما جرت العادة بركوب الملوك. و لم تطل مدّة سلطنته حتى وقع الغلاء و الفناء بالديار المصرية و أعمالها؛ ثمّ انتشر ذلك بالبلاد الشاميّة جميعها فى شوّال من هذه السنة، و ارتفع سعر القمح حتّى بيع كلّ اردبّ بمائة و عشرين درهما بعد أن كان بخمسة و عشرين درهما الإردبّ، و هذا فى هذه السنة، و أما فى السنة الآتية التى هى سنة خمس و تسعين و ستمائة فوصل سعر القمح إلى مائة و ستين درهما الإردبّ.

و أمّا الموت فإنّه فشا بالقاهرة و كثر، فأحصى من مات بها و ثبت اسمه فى ديوان [المواريث] فى ذى الحجّة فبلغوا سبعة عشر ألفا و خمسمائة. و هذا سوى من لم يرد اسمه فى ديوان المواريث من الغرباء و الفقراء و من لم يطلق من الديوان. و رحل جماعة كثيرة من أهل مصر عنها إلى الأقطار من عظم الغلاء و تخلخل أمر الديار المصريّة. و فى هذه السنة حجّ الأمير أنس بن الملك العادل كتبغا صاحب الترجمة، و حجّت معه والدته و أكثر حرم السلطان، و حجّ بسببهم خلق كثير من نساء الأمراء

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۵۸

بتجمّل زائد، و حصل بهم رفق كبير لأهل مكّة و المدينة و المجاورين، و شكرت سيرة ولد السلطان أنس المذكور و بذل شيئا كثيرا لصاحب مكّة.

ثم استهلّت سنة خمس و تسعين و ستمائة و خليفة المسلمين الحاكم بأمر اللّه أبو العبّاس أحمد الهاشمىّ البغدادىّ العباسىّ. و سلطان الديار المصريّة و البلاد الشاميّة و الشماليّة و الفراتيّة و الساحليّة الملك العادل زين الدين كتبغا المنصورىّ. و وزيره الصاحب فخر الدين عمر ابن الشيخ مجد الدين بن الخليلىّ. و نائب السلطنة بالديار المصريّة الأمير حسام الدين لاچين المنصورىّ. و صاحب مكّة، شرّفها اللّه تعالى، الشريف نجم الدين أبو نمىّ محمد الحسنىّ المكّى. و صاحب المدينة النبويّة، على ساكنها أفضل الصلاة و السلام، عزّ الدين جمّاز بن شيحة الحسينىّ.

و صاحب اليمن ممهّد الدين عمر ابن الملك المظفّر شمس الدين يوسف ابن الملك المنصور عمر [بن علىّ] بن رسول. و صاحب حماة بالبلاد الشاميّة الملك المظفّر تقىّ الدين محمود ابن الملك المنصور ناصر الدين محمد ابن الملك المظفّر تقىّ الدين محمود [ابن الملك المنصور محمد بن تقى الدين عمر] بن شاهنشاه بن أيّوب. و صاحب ماردين [الملك السعيد شمس الدين داود ابن] الملك المظفّر فخر الدين ألبى أرسلان ابن الملك السعيد شمس الدين قرا أرسلان بن أرتق الأرتقىّ. و صاحب الروم السلطان غياث الدين مسعود ابن السلطان عز الدين [كيكاوس] ابن السلطان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۵۹

غياث الدين كيخسرو بن سلجوق السّلجوقى. و ملك التّتار غازان و يقال قازان، و كلاهما يصحّ معناه، و اسمه الحقيقىّ محمود بن أرغون بن أبغا بن هولاكو، و هو مظهر الإسلام و شعائر الإيمان. و نائب دمشق الأمير عزّ الدين أيبك الحموىّ المنصورىّ.

و كان الموافق لأوّل هذه السنة عاشر بابه أحد شهور القبط المسمّى بالرومىّ تشرين الأوّل.

و قال الشيخ قطب الدين اليونينىّ: و فى العشر الأوّل من المحرّم حكى جماعة كثيرة من أهل دمشق و استفاض ذلك فى دمشق و كثر الحديث فيه عن قاضى جبّة أعسال، و هى قرية من قرى دمشق، أنّه تكلّم ثور بقرية من قرى جبّة أعسال، و ملخّصها: أنّ الثور خرج مع صبىّ يشرب ماء من هناك فلمّا فرغ حمد اللّه تعالى فتعجّب الصبى! و حكى لسيّده مالك الثور فشكّ فى قوله، و حضر فى اليوم الثانى بنفسه، فلمّا شرب الثور حمد اللّه تعالى؛ ثم فى اليوم الثالث حضر جماعة و سمعوه يحمد اللّه تعالى؛ فكلّمه بعضهم فقال الثور: «إنّ اللّه كان كتب على الأمّة سبع سنين جدبا، و لكن بشفاعة النّبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم أبدلها بالخصب، و ذكر أنّ النّبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم أمره بتبليغ ذلك، و قال الثور: يا رسول اللّه ما علامة صدقى عندهم؟ قال: أن يموت عقب الإخبار. قال الحاكى لذلك: ثم تقدّم الثور على مكان عال فسقط ميتا، فأخذ الناس من شعره للتّبرّك، و كفّن و دفن. انتهى.

قلت: و هذه الحكاية غريبة الوقوع و الحاكى لها ثقة حجّة، و قد قال: إنّه استفاض ذلك بدمشق. انتهى.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۶۰

و أمّا أمر الديار المصريّة فإنه عظم أمر الغلاء بها حتّى أكل بعضهم الميتات و الكلاب، و مات خلق كثير بالجوع. و الحكايات فى ذلك كثيرة، و انتشر الغلاء شرقا و غربا. و بينما السلطان الملك العادل كتبغا فيما هو فيه من أمر الغلاء ورد عليه الخبر فى صفر بأنّه قد وصل إلى الرّحبة عسكر كثير نحو عشرة آلاف بيت من عسكر بيدو ملك التّتار طالبين الدخول فى الإسلام خوفا من السلطان غازان، و مقدّمهم أمير اسمه طرغاى، و هو زوج بنت هولاكو؛ فرسم الملك العادل إلى الأمير علم الدين سنجر [الدوادارى] بأن يسافر من دمشق إلى الرّحبة حتّى يتلقاهم، فخرج إليهم، ثم خرج بعده الأمير سنقر الأعسر شادّ دواوين دمشق، ثم ندب الملك العادل أيضا الأمير قرا سنقر المنصورىّ بالخروج من القاهرة، فخرج حتّى وصل إلى دمشق لتلقى المذكورين، و رسم له أن يحضر معه فى عوده إلى مصر جماعة من أعيانهم، فوصل قرا سنقر إلى دمشق و خرج لتلقّيهم، ثم عاد إلى دمشق فى يوم الاثنين ثالث عشرين شهر ربيع الأوّل، و معه من أعيانهم مائة فارس و ثلاثة عشر فارسا؛ و فرح الناس بهم و بإسلامهم و أنزلوهم بالقصر الأبلق من الميدان.

و أمّا الأمير علم الدين سنجر الدّوادارى فبقى مع الباقين، و هم فوق عشرة آلاف ما بين رجل كبير و كهل و صغير و امرأة و معهم ماشية كثيرة و رخت عظيم، و أقام قرا سنقر بهم أيّاما، ثم سافر بهم إلى جهة الديار المصرية، و قدموا القاهرة فى آخر شهر ربيع الآخر، فأكرمهم السلطان الملك العادل كتبغا و رتّب لهم الرواتب.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة؛ ج۸؛ ص۶۰

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۶۱

ثمّ بدا للملك العادل كتبغا السفر إلى البلاد الشاميّة لأمر مقدّر اقتضاه رأيه، و أخذ فى تجهيز عساكره و تهيّأ للسفر، و خرج بجميع عساكره و أمرائه و خاصّكيته فى يوم السبت سابع عشر شوّال و سار حتّى دخل دمشق، فى يوم السبت خامس عشر ذى القعدة و خامس ساعة من النهار المذكور و دخل دمشق و الأمير بدر الدين بيسرى حامل الجتر على رأسه، و نائب سلطنته الأمير حسام الدين لاچين المنصورى ماشيا بين يديه، و وزيره الصاحب فخر الدين بن الخليلىّ، و احتفل أهل دمشق لقدومه و زيّنت المدينة و فرح الناس به.

و لمّا دخل الملك العادل إلى دمشق و أقام بها أيّاما عزل عنها نائبها الأمير عزّ الدين أيبك الحموىّ، و ولّى عوضه فى نيابة دمشق مملوكه الأمير سيف الدين أغزلوا العادلى و عمره نحو من اثنتين و ثلاثين سنة، و أنعم على الأمير عزّ الدين أيبك الحموىّ بخبز أغزلو بمصر، و خرجا من عند السلطان و عليهما الخلع، هذا متولّ و هذا منفصل. ثم سافر السلطان الملك العادل من دمشق فى ثانى عشر ذى

الحجّة بأكثر العسكر المصرىّ و بقيّة جيش الشام إلى جهة قرية جوسية، و هى ضيعة اشتراها له الصاحب شهاب الدين الحنفىّ فتوجّه إليها، ثم سافر منها فى تاسع عشر ذى الحجّة إلى حمص و نزل عند البحرة بالمرج بعد ما أقام فى البريّة أيّاما لأجل الصيد، و حضر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۶۲

إليه نوّاب البلاد الحلبيّة جميعها؛ ثم عاد إلى دمشق و دخلها بمن معه من العساكر ضحا نهار الأربعاء ثانى المحرّم من سنة ست و تسعين و ستمائة. و أقام بدمشق إلى يوم الجمعة رابع المحرّم ركب السلطان الملك العادل المذكور بخواصّه و أمرائه إلى الجامع لصلاة الجمعة فحضر و صلّى بالمقصورة؛ و أخذ من الناس قصصهم حتى إنّه رأى شخصا بيده قصّة فتقدّم إليه بنفسه خطوات و أخذها منه؛ و لمّا جلس الملك العادل للصلاة بالمقصورة جلس عن يمينه الملك المظفّر تقىّ الدين محمود صاحب حماة، و تحته بدر الدّين أمير سلاح، ثم من تحته نائب دمشق أغزلو العادلىّ؛ و عن يسار السلطان الشيخ حسن بن الحريرى و أخواه، ثم نائب السلطنة لاچين المنصورىّ، ثم تحته نائب دمشق الأمير عزّ الدين أيبك الحموىّ (أعنى الذى عزل عن نيابة دمشق)، ثم من تحته الأمير بدر الدين بيسرى، ثم قرا سنقر المنصورى، ثم الحاج بهادر حاجب الحجّاب؛ ثم الأمراء على مراتبهم ميمنة و ميسرة.

فلمّا انقضت الصلاة خرج من الجامع و الأمراء بين يديه و الناس يبتهلون بالدعاء له، و أحبّه أهل دمشق و شكرت سيرته، و حمدت طريقته. ثم فى يوم الخميس سابع عشر المحرّم أمسك السلطان الأمير أسندمر و قيّده و حبسه بالقلعة. و فى يوم الاثنين حادى عشرين المحرّم عزل السلطان الأمير شمس الدين سنقر الأعسر عن شدّ دواوين دمشق و رسم له بالسفر صحبة السلطان إلى مصر، و ولّى عوضه فتح الدين ابن صبرة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۶۳

و لمّا كان بكرة يوم الاثنين المذكور خرج السلطان الملك العادل من دمشق بعساكره و جيوشه نحو الديار المصريّة، و سار حتى نزل باللّجّون بالقرب من وادى فحمة فى بكرة يوم الاثنين ثامن عشرين المحرّم من سنة ست و تسعين، و كان الأمير حسام الدين لاچين المنصورىّ نائب السلطنة قد اتّفق مع الأمراء على الوثوب على السلطان الملك العادل كتبغا هذا و الفتك به، فلم يقدر عليه لعظم شوكته؛ فدبّر أمرا آخر و هو أنّه ابتدأ أوّلا بالقبض على الأميرين: بتخاص و بكتوت الأزرق العادليين، و كانا شهمين شجاعين عزيزين عند أستاذهما الملك العادل المذكور، فركب لاچين بمن وافقه من الأمراء على حين غفلة و قبض على الأميرين المذكورين و قتلهما فى الحال، و قصد مخيّم السلطان فمنعه بعض مماليك السلطان قليلا و عوّقوه عن الوصول إلى الملك العادل. و كان العادل لمّا بلغه هذا الأمر علم أنّه لا قبل له على قتال لاچين لعلمه بمن وافقه من الأمراء و غيرهم و خاف على نفسه، و ركب من خيل النّوبة فرسا تسمّى حمامة و ساق لقلّة سعده و لزوال ملكه راجعا إلى الشام، و لو أقام بمخيّمه لم يقدر لاچين على قتاله و أخذه، فما شاء اللّه كان! و ساق حتى وصل إلى دمشق يوم الأربعاء آخر المحرّم قرب العصر، و معه أربعة أو خمسة من

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۶۴

خواصّه. و كان وصل إلى دمشق يوم الأربعاء آخر المحرّم أوّل النهار أمير شكار السلطان، و أخبر نائب الشام بصورة الحال و هو مجروح، فتهيأ نائب الشام الأمير أغزلو العادلىّ و استعدّ و أحضر أمراء الشام عند السلطان و رسم بالاحتياط على نوّاب الأمير حسام الدين لاچين و على حواصله بدمشق، و ندم الملك العادل على ما فعله مع لاچين هذا من الخير و المدافعة عنه، من كونه كان أحد من أعانه على قتل الأشرف، و على أنّه ولّاه نيابة السلطنة، و فى الجملة أنّه ندم حيث لا ينفعه الندم! و على رأى من قال ": أشبعتهم سبّا و فازوا بالإبل "و مثله أيضا قول القائل:

من راقب الناس مات غمّا و فاز باللّذة الجسور

ثم إنّ الملك العادل طلب قاضى قضاة دمشق بدر الدين بن جماعة فحضر بين يدى السلطان هو و قاضى القضاة حسام الدين الحنفىّ، و حضرا عند الملك العادل تحليف الأمراء و المقدّمين و تجديد المواثيق منهم، و وعدهم و طيّب قلوبهم.

و أمّا الأمير حسام الدين لاچين فإنّه استولى على دهليز السلطان و الخزائن و الحرّاس و العساكر من غير ممانع، و تسلطن فى الطريق و لقّب بالملك المنصور حسام الدين لاچين، و توجّه إلى نحو الديار المصريّة و ملكها و تمّ أمره، و خطب له بمصر و أعمالها و القدس و الساحل جميعه.

و أمّا الملك العادل فإنّه أقام بقلعة دمشق هذه الأيّام كلّها لا يخرج منها، و أمّر جماعة بدمشق، و أطلق بعض المكوس بها، و قرئ بذلك توقيع يوم الجمعة سادس عشر صفر بعد صلاة الجمعة بالجامع. و بينما هو فى ذلك ورد الخبر على أهل دمشق بأنّ

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۶۵

مدينة صفد زيّنت لسلطنة لاچين و دقّ بها البشائر، و كذلك نابلس و الكرك.

فلمّا بلغ الملك العادل ذلك جهّز جماعة من عسكر دمشق مقدّمهم الأمير طقصبا الناصرىّ بكشف هذا الأمر و تحقيق الخبر، فتوجّهوا يوم الخميس ثانى عشرين صفر فعلموا بعد خروجهم فى النهار المذكور بدخول الملك المنصور لاچين إلى مصر و سلطنته، فرجعوا و علموا عدم الفائدة فى توجّههم. ثم فى الغد من يوم الجمعة ثالث عشرين صفر ظهر الأمر بدمشق و انكشف الحال و جوهر الملك العادل كتبغا بذلك، و بلغه أنّه لمّا وصل العسكر إلى غزّة ركب الأمير حسام الدين لاچين فى دست السلطنة، و حمل البيسرى على رأسه الجتر و حلفوا له، و نعت بالملك المنصور.

ثم فى يوم السبت رابع عشرين صفر وصل إلى دمشق الأمير كجكن و معه جماعة من الأمراء كانوا مجرّدين إلى الرّحبة، فلم يدخلوا دمشق بل توجّهوا إلى جهة ميدان الحصا، و أعلن الأمير كجكن أمر الملك المنصور لاچين، و علم جيش دمشق بذلك، فخرج إليه طائفة بعد طائفة، و كان قبل ذلك قد توجّه أميران من أكابر أمراء دمشق إلى جهة الديار المصريّة. فلمّا تحقّق الملك العادل كتبغا بذلك و علم انحلال أمره و زوال دولته بالكليّة أذعن بالطاعة لأمراء دمشق، و قال لهم: الملك المنصور لاچين خشداشى و أنا فى خدمته و طاعته، و حضر الأمير سيف الدين جاغان الحسامىّ إلى قلعة دمشق إلى عند الملك العادل كتبغا، فقال له كتبغا: أنا أجلس فى مكان بالقلعة حتّى نكاتب السلطان و نعتمد على ما يرسم به. فلمّا رأى الأمراء منه ذلك تفرّقوا و توجّهوا إلى باب الميدان و حلفوا للملك المنصور لاچين و أرسلوا البريد إلى القاهرة بذلك، ثم احتفظوا بالقلعة و بالملك العادل كتبغا، و لبس عسكر دمشق آلة الحرب و سيّروا عامّة نهار السبت بظاهر دمشق و حول القلعة؛ و الناس فى هرج

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۶۶

و اختباط و أقوال مختلفة، و أبواب دمشق مغلّقة سوى باب النصر، و باب القلعة مغلّق فتح منه خوخته، و اجتمع العامّة و الناس من باب القلعة إلى باب النصر و ظاهر البلد حتّى سقط منهم جماعة كثيرة فى الخندق فسلم جماعة و هلك دون العشرة، و أمسى الناس يوم السبت و قد أعلن باسم الملك المنصور لاچين لا يخفى أحد ذلك، و شرع [وقت العصر فى] دقّ البشائر بالقلعة. ثم فى سحر يوم الأحد ذكره المؤذّنون بجامع دمشق، و تلوا قوله تعالى: قُلِ اللَّهُمَّ مالِكَ الْمُلْكِ ... إلى آخرها.

و أظهروا اسم المنصور و الدعاء له، ثم ذكره قارئ المصحف بعد صلاة الصبح بمقصورة جامع دمشق، و دقّت البشائر على أبواب جميع أمراء دمشق دقّا مزعجا، و أظهروا الفرح و السرور و أمر بتزين أسواق البلد جميعها فزيّنت مدينة دمشق، و فتحت دكاكين دمشق و أسواقها و اشتغلوا بمعايشهم، و تعجّب الناس من تسليم الملك العادل كتبغا الأمر إلى الملك المنصور لاچين على هذا الوجه الهيّن من غير قتال و لا حرب مع ما كان معه من الأمراء و الجند، و لو لم يكن معه إلّا مملوكه الأمير أغزلو العادلىّ نائب الشام لكفاه ذلك. على أنّ الملك المنصور لاچين كان أرسل فى الباطن عدّة مطالعات لأمراء دمشق و أهلها و استمال غالب أهل دمشق، فما أحوجه الملك العادل كتبغا لشىء من ذلك بل سلّم له الأمر على هذا الوجه الذى ذكرناه. خذلان من اللّه تعالى.

و أمّا الأمير سيف الدين أغزلو العادلىّ مملوك الملك العادل كتبغا نائب الشام لمّا رأى ما وقع من أستاذه لم يسعه إلا الإذعان للملك المنصور و أظهر الفرح به

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۶۷

و خلف له. و قال: الملک المنصور لاچین- نصره اللّه- هو الـذی کان عیّننی لنیابة دمشق، و أسـتاذی الملک العادل کتبغا استصـغرنی فأنا نائبه. ثم سافر هو و الأمیر جاغان الحسامی إلی نحو الدیار المصریّة.

و أمّا لاچین فإنّه تسـلطن یوم الجمعة عاشـر صفر و رکب یوم الخمیس سادس عشر صفر و شقّ القاهرة و تمّ أمره. و أمّا الملک العادل کتبغا هـذا فـإنّه اسـتمرّ بقلعـة دمشق إلی أن عـاد الأـمیر جاغان المنصوریّ الحسامیّ إلی دمشق فی یوم الاثنین حادی عشـر شـهر ربیع الأوّل، و طلع من الغـد إلی قلعة دمشق و معه الأمیر الکبیر حسام الدین الظاهریّ أسـتاذ الدار فی الدولة المنصوریّة و الأشـرفیّة، و الأمیر سیف الدین کحکن، و حضـر قاضی القضاة بدر الدین بن جماعة قاضی دمشق و دخلوا الجمیع إلی الملک العادل کتبغا، فتکلّم معهم کلامـا کثیرا بحیث إنّه طـال المجلس کالعـاتب علیهم، ثم إنّه حلف یمینـا طویلـة یقول فی أوّلها: أقول و أنا کتبغا المنصوریّ، و یکرّر اسم اللّه تعالی فی الحلف مرّة بعد مرّة، أنّه یرضی بالمکان الذی عیّنه له السلطان الملک المنصور حسام الدین لاچین و لا یکاتب و لا یسارر، و أنّه تحت الطاعـة، و أنه خلع نفسه من الملک و أشیاء کثیرة من هذا النّموذج، ثم خرجوا من عنده. و کان المکان الذی عیّنه له الملـک المنصور لاـچین قلعـة صـرخد، و لم یعیّن المکـان المـذکور فی الیمین. ثم ولّی الملـک المنصور نیابـة الشـام للأـمیر قبجق المنصوریّ و عزل أغزلوا العادلیّ، فدخل قبجق إلی دمشق فی یوم السبت سادس عشر شهر ربیع الأوّل، و تجهّز الملک العادل کتبغا و خرج من قلعة دمشق بأولاده و عیاله و ممالیکه

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۶۸

و توجّه إلی صـرخد فی لیلـة الثلاثاء تاسع عشـر شـهر ربیع الأوّل المـذکور، و جرّدوا معه جماعـة من الجیش نحو مائتی فارس إلی أن أوصـلوه إلی صـرخد. فکانت مدّة سـلطنة الملک العادل کتبغا هذا علی مصـر سـنتین و ثمانیة و عشرین یوما، و قیل سبعة عشر یوما، و تسلطن من بعده الملک المنصور حسام الدین لاچین حسب ما تقدّم ذکره.

ثم کتب له الملک المنصور حسام الدین لاچین تقلیدا بنیابة صـرخد، فقبل الملک العادل ذلک و باشـر نیابة صرخد سنین إلی أن نقله السـلطان الملک الناصـر محمد بن قلاوون فی سلطنته الثانیة من نیابة صرخد إلی نیابة حماة. و صار من جملة نوّاب السلطنة، و کتب له عن السـلطان کما یکتب لأمثاله من النوّاب، و سافر فی التجارید فی خدمة نوّاب دمشق و حضـر الجهاد؛ و لم یزل علی نیابة حماة حتی مـات بهـا فی لیلـة الجمعـة یوم عیـد الأضـحی و هو فی سنّ الکهولیّـة. و دفن بحماة، ثم نقل منها و دفن بتربته التی أنشأها بسـفح جبل قاسـیون دمشق غربیّ الرّباط الناصـری، و له علیها أوقاف. و کان ملکا خیّرا دیّنا عاقلا عادلا سـلیم الباطن شجاعا متواضعا، و کان یحبّ الفقهـاء و العلماء و الصـلحاء و یکرمهم إکراما زائـدا، و کان أسـمر اللون قصـیرا دقیق الصّـدر قصـیر العنق، و کان له لحیـة صـغیرة فی حنکه، أسـر صـغیرا من عسـکر هولاکو. و کان لمّا ولی سـلطنة مصر و الشام تشاءم الناس به، و هو أنّ النیل قد بلغ فی تلک السنة ست عشـرة ذراعا ثم هبط من لیلته فشرقت البلاد و أعقبه غلاء عظیم حتی أکل الناس المیتة. و قد تقدّم ذکر ذلک فی أوّل ترجمته. و مات الملک العادل

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۶۹

کتبغا المذکور بعد أن طال مرضه و استرخی حتی لم یبق له حرکة. و ترک عدّة أولاد.

و تولّی نیابـة حماة بعده الأمیر بتخاص المنصوریّ نقل إلیها من نیابة الشّوبک. و قد تقدّم التعریف بأحوال کتبغا هذا فی أوائل ترجمته و فی غیرها فیما مرّ ذکره. و أمر کتبغا هذا هو خرق العادة من کونه کان ولی سلطنة مصر أکثر من سنتین و صار له شوکة و ممالیک و حاشیـة، ثم یخلع و یصیر من جملـة نوّاب السـلطان بالبلاد الشامیّة؛ فهذا شـیء لم یقع لغیره من الملوک. و أعجب من هذا أنّه لما قتل الملک المنصور لاچین و تحیّر أمراء مصـر فیمن یولّونه السـلطنة من بعـده لم یتعرّض أحـد لـذکره و لا رشّـح للعود البتّة حتی احتاجوا الأمراء و بعثوا خلف الملک الناصر محمد بن قلاوون من الکرک، و أتوا به و سلطنوه.

قلت: و ما أظنّ أنّ القلوب نفرت منه إلا لما رأوه من دنیء همّته عند ما خلع من السلطنة و تسلیمه للامر من غیر قتال و لا ممانعة، و کان یمکنه أن یدافع بکلّ ما تصل القدرة إلیه و لو ذهبت روحه عزیزة غیر ذلیلة، و ما أحسن قول عبد المطّلب جدّ نبیّنا محمد صلّی اللّه علیه و سلّم و اسمه شیبة الحمد:

لنا نفوس لنیل المجد عاشقة و إن تسلّت أسلناها علی الأسل

لا ینزل المجد إلّا فی منازلنا کالنّوم لیس له مأوی سوی المقل

و قول عنترة أیضا:

أروم من المعالی منتهاها و لا أرضی بمنزلة دنیّه

فإمّا أن أشال علی العوالی و إمّا أن توسّدنی المنیّه

و یعجبنی المقالة الثامنة من تألیف العلّامة شرف الدین عبد المؤمن بن هبة اللّه الأصفهانی المعروف بشوروة فإنّ أوائلها تقارب ما نحن فیه، و هی:

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۷۰

رتبة الشرف، لا تنال بالتّرف؛ و السعادة أمر لا یدرک، إلا بعیش یفرک، و طیب یترک؛ و نوم یطرد، و صوم یسرد؛ و سرور عازب، و همّ لازب؛ و من عشق المعالی ألف الغمّ، و من طلب اللآلئ رکب الیمّ؛ و من قنص الحیتان ورد النهر، و من خطب الحصان نقد المهر؛ کلّا أین أنت من المعالی! إنّ السّحوق جبّار و أنت قاعد، و الفیلق جرّار و أنت واحد؛ العقل ینادیک و أنت أصلخ، و یدنیک و یحول بینکما البرزخ؛ لقد أزف الرحیل فاستنفد جهدک، و أکثب الصید فضمّر فهدک؛ فالحذر یترصّد الانتهاز، و الحازم یهیّئ أسباب الجهاز؛ تجرّع مرارة النوائب فی أیّام معدوده، لحلاوة معهودة غیر محدوده؛ و إنما هی محنة بائده، تتلوها فائده؛ و کربة نافده، بعدها نعمة خالده، [و غنیمة بارده]؛ فلا تکرهنّ صبرا أو صابا، یغسل عنک أو صابا؛ و لا تشربنّ وردا یعقبک سقاما، و لا تشمّن وردا یورثک زکاما؛ [ما ألین الرّیحان لو لا وخز البهمی، و ما أطیب الماذیّ لو لا حمة الحمی]! فلا تهولنّک مرارات ذاقها عصبه، إنما یرید اللّه لیهدیهم بها؛ و لا تروقنّک حلاوات نالها فرقه، إنما یرید اللّه لیعذّبهم بها. انتهی.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۷۱

السنة الأولی من سلطنة الملک العادل کتبغا المنصوریّ علی مصر، و هی سنة أربع و تسعین و ستمائة.

کان فیها الغلاء العظیم بسائر البلاد و لا سیّما مصر و الشام، و کان بمصر مع الغلاء و باء عظیم أیضا و قاسی الناس شدائد فی هذه السنة و استسقی الناس بمصر من عظم الغلاء و الفناء.

و فیها أسلم ملک التّتار غازان و أسلم غالب جنده و عساکره، علی ما حکی الشیخ علم الدین البرزالیّ.

و فیها توفّی السلطان الملک المظفّر شمس الدین أبو المحاسن یوسف ابن السلطان الملک المنصور نور الدین عمر بن علیّ بن رسول التّرکمانیّ الأصل الغسّانیّ صاحب بلاد الیمن، مات فی شهر رجب بقلعة تعزّ من بلاد الیمن، و قیل: اسم رسول محمد ابن هارون بن أبی الفتح بن نوحی بن رستم من ذرّیّة جبلة بن الأیهم، قیل: إنّ رسولا جدّ هؤلاء ملوک الیمن کان انضم لبعض الخلفاء العباسیّة، فاختصه بالرسالة إلی الشام و غیرها فعرف برسول، و غلب علیه ذلک. ثم انتقل من العراق إلی الشام ثم إلی مصر، و خدم هو و أولاده بعض بنی أیّوب، و هو مع ذلک له حاشیة و خدم.

و لمّا أرسل السلطان صلاح الدین یوسف بن أیوب أخاه الملک المعظّم توران شاه

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۷۲

إلی الیمن أرسل الملک المنصور عمر والد صاحب الترجمة معه کالوزیر له و استحلفه علی المناصحة، فسار معه إلی الیمن. فلمّا ملک الملک المسعود أقسیس ابن الملک الکامل محمد بن أبی بکر بن أیّوب الیمن بعد توران شاه قرّب عمر المذکور و زاد فی تعظیمه و

ولّاه الحصون، ثمّ ولّاه مكة المشرفة و رتّب معه ثلثمائة فارس، و حصل بينه و بين صاحب مكة حسن بن قتادة وقعة انكسر فيها حسن و دخل المنصور مكـة و استولى عليها، و عمّر بها المسجد الـذى اعتمرت منه عائشة أمّ المؤمنين رضـى اللّه عنها فى سـنة تسع عشـرة و ستمائـة، ثم عمّر فى ولايـته لمكـة أيضا دار أبى بكر الصـدّيق، رضـى اللّه عنه فى زقاق الحجر فى سـنة ثلاث و عشـرين و سـتمائة، ثم استنابه الملك المسعود على اليمن لمّا توجّه إلى الديار المصرية، و استناب على صنعاء أخاه بدر الدين حسن بن علىّ

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۷۳

ابن رسول. و لمّا عاد الملك المسعود إلى اليمن قبض على نور الـدين هـذا و على أخيه بـدر الـدين حسن المذكور و على أخيه فخر الدين و على شرف الدين موسى تخوّفا منهم لما ظهر من نجابتهم فى غيبته، و أرسلهم إلى الديار المصريّة محتفظا بهم خلا نور الدين عمر (أعنى الملك المنصور) فإنّه أطلقه من يومه لأنه كان يأنس إليه، ثم استحلفه و جعله أتابك عسكره؛ ثم استنابه الملك المسعود ثانيا لمّا توجّه إلى مصر، و قال له:

إن متّ فأنت أولى بالملك من إخوتى لخـدمتك لى، و إن عشت فأنت على حالك، و إياك أن تترك أحدا من أهلى يدخل اليمن، و لو جاءك الملك الكامل. ثم سار الملك المسعود إلى مكـة فمات بها. فلما بلغ الملك المنصور ذلك اسـتولى على ممالك اليمن بعد أمور و خطوب، و اسـتوسق له الأمر، فكانت مدّة مملكته باليمن نيّفا على عشـرين سـنة. و مات بها فى ليلة السـبت تاسع ذى القعدة سنـة سـبع و أربعين و سـتمائة، و ملـك بعـده ابنه الملك المظفّر يوسف هـذا، و هو ثانى سـلطان من بنى رسول باليمن؛ و أقام الملك المظفّر هذا فى الملك نحوا من ستّ و أربعين سـنة. و كان ملكا عادلا عفيفا عن أموال الرعيّة، حسن السّـيرة كثير العدل، و ملك بعده ولـده الأكبر الملك الأشـرف ممهّد الدّين عمر فلم يمكث الأشـرف بعد أبيه إلا سـنة و مات، و ملك أخوه الملك المؤيّد هزبر الدّين داود. و مات الملك المظفّر هـذا مسـموما سـمّته بعض جواريه. و مات و قد جاوز الثمانين. و خلّف من الأولاد الملك الأشـرف الذى ولى بعده، و المؤيّد داود و الواثق [إبراهيم] و المسعود [تاج الدين حسن] و المنصور [أيوب]. انتهى.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۷۴

و فيها توفّى العلّامـة جمال الـدين أبو غانم محمـد ابن الصاحب كمال الـدين أبى القاسم عمر بن أحمـد بن هبـة اللّه بن أحمد بن أبى جرادة الحلبىّ الحنفىّ المعروف بابن العديم.

مات بمدينة حماة، و كان إماما فاضلا بارعا من بيت غلم و رياسة.

و فيها قتل الأمير عساف ابن الأمير أحمـد بن حجّىّ أمير العرب من آل مرى، و كان أبوه أكبر عربان آل برمك، و كان يـدّعى أنه من نسل البرامكة من العبّاسة أخت هارون الرشيد. و قد ذكرنا ذلك فى وفاة أبيه الأمير شهاب الدين أحمد.

و فيها توفّى الأمير بدر الدين بكتوت بن عبد اللّه الفارسىّ الأتابكىّ، كان من خيار الأمراء و أكابرهم و أحسنهم سيرة.

و فيها توفّى شـيخ الحجاز و عالمه الشـيخ محبّ الـدين أحمـد بن عبـد اللّه بن محمد بن أبى بكر بن محمد بن إبراهيم الطّبرىّ المكىّ الشافعىّ فقيه الحرم بمكة- شـرفها اللّه تعالى- و مفتيه، و مولده فى سنة أربع عشرة و ستّمائة بمكّة. و كانت وفاته فى ذى القعدة. و قال البرزالىّ: ولد بمكّة فى يوم الخميس السابع و العشرين من جمادى الآخرة سنة خمس عشرة و ستمائة.

قلت: و نشأ بمكّة و طلب العلم و سمع الكثير و رحل البلاد.

و قال جمال الدين الإسنائىّ: إنّه تفقّه بقوص على الشيخ مجد الدين القشيرىّ. انتهى.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۷۵

و ذكر نحو ذلك القطب الحلبىّ فى تاريخ مصر، و حدّث و خرّج لنفسه أحاديث عوالى.

قال أبو حيّان: إنّه وقع له وهم فاحش فى القسم الأول و هو التّساعىّ، و هو إسـقاط رجل من الإسـناد حتى صار له الحـديث تساعيّا فى ظنّه. انتهى.

قلت: و قد استوعبنا سماعاته و مصنّفاته و مشایخه فی ترجمته من تاریخنا المنهل الصافی، و المستوفی بعد الوافی مستوفاة فی الکتاب المذکور. و کان له ید فی النظم، فمن ذلک قصیدته الحائیّة:

ما لطرفی عن الجمال براح و لقلبی به غذا و رواح

کلّ معنی یلوح فی کلّ حسن لی إلیه تقلّب و ارتیاح

و منها:

فیهم یعشق الجمال و یهوی و یشوق الحمی و تهوی الملاح

و بهم یعذّب الغرام و یحلو و یطیب الثناء و الامتداح

لا تلم یا خلیّ قلبی فیهم ما علی من هوی الملاح جناح

ویح قلبی و ویح طرفی إلی کم یکتم الحبّ و الهوی فضّاح

صاح عرّج علی العقیق و بلّغ و قباب فیها الوجوه الصباح

و القصیدة طویلة کلّها علی هذا المنوال.

و فیها توفّی سلطان إفریقیّة و ابن سلطانها و أخو سلطانها عمر بن أبی زکریّا یحیی ابن عبد الواحد بن عمر الهنتاتیّ الملقّب بالمستنصر بالله و المؤیّد به، و ولی سلطنة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۷۶

تونس بعد وفاة أخیه إبراهیم فیما أظنّ، و قتل الدعیّ الذی کان غلب علیها، و ملک البلاد و دام فی الملک إلی أن مات فی ذی الحجّة. و کان عهد لولده عبد اللّه بالملک، فلمّا احتضر أشار علیه الشیخ أبو محمد المرجانی بأن یخلعه لصغر سنّه فخلعه، و ولّی ولد الواثق محمد بن یحیی بن محمد الملقّب بأبی عصیدة الآتی ذکر وفاته فی سنة تسع و سبعمائة. و کان المستنصر هذا ملکا عادلا حسن السیرة و فیه خبرة و نهضة و کفایة و دین و شجاعة و إقدام. رحمه اللّه تعالی.

الذین ذکر الذهبیّ وفاتهم فی هذه السنة، قال: و فیها توفّی الزاهد القدوة أبو الرجال بن مری بمنین فی المحرّم. و عزّ الدین أبو بکر محفوظ بن معتوق التاجر ابن البزوریّ فی صفر. و الإمام عزّ الدین أحمد بن إبراهیم بن الفاروثیّ فی ذی الحجة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۷۷

و صاحب الیمن الملک المظفّر یوسف بن عمر فی رجب؛ و کانت دولته بضعا و أربعین سنة. و شیخ الحجاز محبّ الدین الطّبریّ. و أبو الفهم أحمد بن أحمد بن محمد بن عبد الرحمن الحسینیّ النقیب فی المحرّم. و العلّامة تاج الدین أبو عبد اللّه محمد بن عبد السلام بن المطهّر بن أبی عصرون التمیمی مدرّس الشامیّة الصغری فی ربیع الأوّل. و محیی الدین عبد الرحیم بن عبد المنعم [بن خلف بن عبد المنعم] بن الدّمیری فی المحرّم، و له تسعون سنة. و الزاهد القدوة شرف الدین محمد بن عبد الملک الیونینیّ المعروف بالأرزونی. و الزاهد المقرئ شرف الدین محمود بن محمد التّادفیّ بقاسیون فی رجب. و العلّامة زین الدین [أبو البرکات] المنجّا بن عثمان بن أسعد

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۷۸

ابن المنجا الحنبلیّ فی شعبان، و له خمس و ستون سنة. و قاضی القضاة شرف الدین الحسن بن عبد اللّه ابن الشیخ أبی عمر المقدسیّ الحنبلیّ. و ناصر الدین نصر اللّه بن محمد بن عیّاش الحدّاد فی شوّال. و العدل کمال الدین عبد اللّه بن محمد [بن نصر] ابن قوام فی ذی القعدة. و أبو الغنائم بن محاسن الکفرابی. و المقرئ موفّق الدین محمد بن أبی العلاء [محمد بن علیّ] ببعلبکّ فی ذی الحجة. و المقرئ أبو القاسم عبد الرحمن ابن عبد الحلیم سحنون المالکیّ فی شوّال بالإسکندریّة. و العلّامة الصاحب محیی الدین محمد بن یعقوب [بن إبراهیم بن هبة اللّه بن طارق بن سالم] بن النحّاس الحلبیّ الحنفی فی آخر السنة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ذراع و أصابع. مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و سبع عشرة إصبعا. و كان الوفاء فى سادس أيام النّسيء.

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۹۵]

السنة الثانية من ولاية الملك العادل كتبغا المنصورىّ على مصر، و هى سنة خمس و تسعين و ستمائة.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۷۹

فيها كان الغلاء العظيم بسائر البلاد، و لا سيّما مصر و الشام؛ و كان بمصر مع الغلاء و باء عظيم أيضا، و قاسى الناس شدائد فى هذه السنة و الماضية.

و فيها ولى قضاء الديار المصريّة الشيخ تقىّ الدين أبو الفتح محمد بن علىّ بن وهب ابن دقيق العيد بعد وفاة قاضى القضاة تقىّ الدين عبد الرحمن بن بنت الأعزّ.

و فيها توفّى الملك السعيد شمس الدين إيلغازى ابن الملك المظفّر [فخر الدين قرا أرسلان] ابن الملك السعيد صاحب ماردين الأرتقىّ، و دفن بتربة جدّه أرتق، و تولّى بعده سلطنة ماردين أخوه الملك المنصور نجم الدين غازى. و كان مدّة مملكة الملك السعيد هذا على ماردين دون الثلاث سنين. و كان جوادا عادلا حسن السّيرة، رحمه اللّه تعالى.

و فيها توفّى الأمير بدر الدين بيليك بن عبد اللّه المحسنىّ المعروف بأبى شامة بالقاهرة، و كان من أعيان الأمراء و أكابرهم، رحمه اللّه.

و فيها توفى الأسعد بن السّديد القبطىّ الأسلمىّ الكاتب مستوفى الديار المصريّة و البلاد الشامية و الجيوش جميعها المعروف بالماعز الديوانى المشهور، و كان معروفا بالأمانة و الخير، و كان نصرانيّا ثم أسلم فى دولة السلطان الملك الأشرف خليل ابن قلاوون.

قال الشيخ صلاح الدين الصفدى- رحمه اللّه-: حكى لى القاضى شهاب الدين محمود رحمه اللّه قال: لمّا مرض المذكور توجّهنا إليه نعوده فوجدناه ضعيفا إلى الغاية، و قد وضعوا عنده أنواعا من الحلىّ و المصاغ المجوهر و العقود

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۸۰

و فيها العنبر الفائق و أنواع من الطّيب. ثم إنّه قال: ارفعوا هذا عنّى، و أسرّ إلى خادم كلاما؛ فمضى و أتى بحقّ ففتحه و أقبل يشمّه و قمنا من عنده ثم إنه مات، فسألنا ذلک الخادم فيما بعد: ما كان فى ذلک الحقّ؟ قال: شعرة من است الراهب الفلانىّ الذى كان له كذا كذا سنة ما لمس الماء و لا قربه. قال فأنشدت:

ما يقبض الموت نفسا من نفوسهم إلّا و فى يده من نتنها عود

و فيها توفّى الأمير عزّ الدين أيبک بن عبد اللّه الأفرم الكبير أمير جاندار الملک الظاهر و الملک السعيد و الملک المنصور قلاوون. فلمّا تسلطن الملک الأشرف خليل ابن قلاوون حبسه، و بعد قتل الأشرف خليل أخرجه أخوه الملک الناصر محمد ابن قلاوون و أعاده إلى مكانته؛ ثم استقرّ فى أيام الملک العادل كتبغا على حاله إلى أن مات بالقاهرة فى يوم السبت سابع شهر ربيع الأوّل.

قال القطب اليونينىّ: حكى لى الأمير سيف الدين بن المحفّدار قال: أوصى الأفرم عند موته أنه إذا توفّى يأخذون خيله يلبسونها أفخر مالها من العدّة، و كذلک جميع مماليكه و غلمانه يلبسونهم عدّة الحرب، و أن تضرب نوبة الطبلخاناه خلف جنازته، كما كان يطلع إلى الغزاة، و ألّا يقلب له سنجق و لا يكسر له رمح، ففعلوا أولاده ما أمر به ما خلا الطبلخاناه، فإنّ نائب السلطنة حسام الدين لاچين منعهم من ذلک، و كانت جنازته حفلة حضرها السلطان و من دونه. و كان ديّنا من وسائط الأخيار و أرباب المعروف. و كان يقال: إنه يدخل عليه من أملاكه و ضماناته و إقطاعاته كلّ يوم ألف دينار خارج عن الغلال.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۸۱

قلت: و هذا مستفاض بين الناس. و قصّة أولاده لمّا احتاجوا مع كثرة هذا المال إلى السؤال مشهورة. يقال إنه كان له ثمن الديار المصرية، و هو صاحب الرّباط و الجسر على بركة الحبش خارج القاهرة.

قال الشيخ صلاح الدين الصّفدىّ: «كنت بالقاهرة و قد وقف أولاده و شكا عليهم أرباب الديون إلى السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، فقال السلطان:

يا بشتك، هؤلاء أولاد الأفرم الكبير صاحب الأملاک و الأموال، أبصر كيف حالهم! و ما سببه إلا أنّ أباهم و كلهم على أملاكهم فما بقيت، و أنا لأجل ذلک لا أدّخر لأولادى ملكا و لا مالا». انتهى كلام الصّفدى.

قلت: و العجيب أنه كان قليل الظلم كثير الخير، و غالب ما حصله من نوع المتاجر و المزروعات و المستأجرات، و مع هذا احتاج أولاده و ذريته إلى السؤال.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۸۲

و فيها توفّى قاضى القضاة بالديار المصريّة و رئيسها تقىّ الدين أبو القاسم عبد الرحمن ابن قاضى القضاه تاج الدين أبى محمد عبد الوهاب ابن القاضى الأعز أبى القاسم خلف [ابن محمود] بن بدر العلامىّ الشافعى المصرىّ المعروف بابن بنت الأعز. مات يوم الخميس سادس عشر جمادى الأولى و دفن عند والده بالقرافة فى تربتهم و هو فى الكهولية. و كان فقيها بارعا شاعرا خيّرا ديّنا متواضعا كريما، تفقّه على والده و على ابن عبد السلام، و تولّى الوزارة و القضاء و مشيخة الشيوخ، و أضيف اليه تدريس الصلاحيّة و الشريفية بالقاهرة و المشهد الحسينى و خطابة الجامع الأزهر، و امتحن محنة شديدة فى أوّل الدولة الأشرفية و عمل على إتلافه بالكلّية، و ذلک بسعاية الوزير ابن السّلعوس الدّمشقىّ. و قد استوعبنا أمره فى المنهل الصافى، ثم أعيد إلى القضاء بعد وفاة الأشرف، فلم تطل أيامه و مات.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۸۳

و لمّا حج القاضى تقىّ الدين هذا و زار قبر النّبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم أنشد عند الحجرة [النبويّة] قصيدته التى مطلعها:

الناس بين مرجّز و مقصّد و مطوّل فى مدحه و مجوّد

و مخبّر عمّن روى و معبّر عمّا رآه من العلا و السّودد

و فيها توفّى الشيخ الإمام الأديب البارع المفتنّ سراج الدين أبو حفص عمر بن محمد ابن الحسين المصرىّ المعروف بالسّراج الورّاق الشاعر المشهور. مولده فى العشر الأخير من شوّال سنة خمس عشرة و ستمائة، و مات فى جمادى الأولى من هذه السنة و دفن بالقرافة.

و كان إماما فاضلا أديبا مكثرا متصرّفا فى فنون البلاغة، و هو شاعر مصر فى زمانه بلا مدافعة. و من شعره:

فى خدّه ضلّ علم الناس و اختلفوا أ للشقائق أم للورد نسبته

فذاک بالخال يقضى للشقيق و ذا دليله أنّ ماء الورد ريقته

و له:

كم قطع الجود من لسان قلّد من نظمه النّحورا

فهأنا شاعر سراج فاقطع لسانى أزدک نورا

و له:

لا تحجب الطّيف إنّى عنه محجوب لم يبق منى لفرط السّقم مطلوب

و لا تثق بأنينى إنّ موعده بأن أعيش للقيا الطّيف مكذوب

هذا و خدّک مخضوب يشاكله دمع يفيض على خدىّ مخضوب

و ليس للورد فى التشبيه رتبته و إنّما ذاک من معناه تقريب

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۸۴

و ما عذارک ریحانا کما زعموا فات الریاحین ذاک الحسن و الطّیب

تأوّد الغصن مهتزّا فأنبأنا أنّ الذی فیک خلق فیه مکسوب

یا قاسی القلب لو أعداه رقّته جسم من الماء بالألحاظ مشروب

أرحت سمعی و فی حبّیک من عذلی إذ أنت حب إلی العذّال محبوب

و کان السّراج أشقر أزرق العین. و فی ذلک یقول عن نفسه:

و من رآنی و الحمار مرکبی و زرقتی للروم عرق قد ضرب

قال و قد أبصر وجهی مقبلا لا فارس الخیل و لا وجه العرب

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم خمس أذرع و أربع أصابع.

مبلغ الزیادة ثمانی عشرة ذراعا و إصبع. و کان الوفاء فی رابع عشرین توت.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۸۵

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۹۶]

ذکر سلطنة الملک المنصور لا چین علی مصر

هو السلطان الملک المنصور حسام الدین لاچین بن عبد اللّه المنصوریّ سلطان الدیار المصریة، تسلطن بعد خلع الملک العادل کتبغا المنصوریّ کما تقدّم ذکره فی یوم الجمعة عاشر صفر من سنة ست و تسعین و ستمائة. و أصل لا چین هذا مملوک للملک المنصور قلاوون اشتراه و ربّاه و أعتقه و رقّاه إلی أن جعله من جملة ممالیکه، فلمّا تسلطن أمّره و جعله نائبا بقلعة دمشق. فلما خرج الأمیر سیف الدین سنقر الأشقر عن طاعة الملک المنصور قلاوون و تسلطن بدمشق و تلقّب بالملک الکامل و ملک قلعة دمشق قبض علی لا چین هذا و حبسه مدّة إلی أن انکسر سنقر الأشقر و ملک الأمیر علم الدین سنجر الحلبیّ دمشق أخرجه من محبسه، و دام لا چین بدمشق إلی أن ورد مرسوم الملک المنصور قلاوون باستقرار لاچین هذا فی نیابة دمشق دفعة واحدة؛ فولیها و دام بها إحدی عشرة سنة إلی أن عزله الملک الأشرف خلیل بن قلاوون بالشّجاعیّ. ثم قبض علیه ثم أطلقه بعد أشهر، ثم قبض علیه ثانیا مع جماعة أمراء، و هم: الأمیر سنقر الأشقر المقدّم ذکره الذی کان تسلطن بدمشق و تلقّب بالملک الکامل. و الأمیر رکن الدین طقصو الناصریّ حمو لاچین هذا. و الأمیر سیف الدین جرمک الناصریّ. و الأمیر بلبان الهارونیّ و غیرهم، فحنقوا الجمیع و ما بقی غیر لاچین هذا، فقدّموه و وضعوا الوتر فی حلقه و جذب الوتر فانقطع، و کان الملک الأشرف حاضرا؛ فقال لاچین: یاخوند، إیش لی ذنب! ما لی ذنب إلا أنّ صهری طقصوها هو قد هلک، و أنا أطلّق ابنته، فرقّ له خشداشیته و قبّلوا الأرض و سألوا السلطان فیه، و ضمنوه فأطلقه و خلع علیه و أعطاه إمرة مائة فارس بالدیار المصریة و جعله سلاح دار.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۸۶

قلت: (یعنی جعله أمیر سلاح) فإنّ أمیر سلاح هو الذی یناول السلطان السلاح و غیره. قلت: للّه درّ المتنبّی حیث یقول:

لا تخدعنّک من عدوّک دمعة و ارحم شبابک من عدوّ ترحم

لا یسلم الشرف الرفیع من الأذی حتی یراق علی جوانبه الدم

و ذلک أنّ لاچین لمّا خرج من الحبس و صار من جملة الأمراء خاف علی نفسه، و اتّفق مع الأمیر بیدرا نائب السلطنة و غیره علی قتل الأشرف حتی تمّ لهم ذلک حسب ما تقدّم ذکره فی ترجمة الملک الأشرف. ثمّ اختفی لاچین أشهرا إلی أن أصلح أمره الأمیر کتبغا

و أخرجه و خلع عليه الملك الناصر محمد بن قلاوون كما تقدّم و جعله على عادته. كلّ ذلك بسفارة الأمير كتبغا. ثم لمّا تسلطن كتبغا جعله نائب سلطنته بل قسيم مملكته، و استمرّ لاچين على ذلك حتى سافر الملك العادل كتبغا إلى البلاد الشاميّة و أصلح أمورها و عاد إلى نحو الديار المصريّة، و سار حتى نزل بمنزلة اللّجون، اتّفق لاچين هذا مع جماعة من أكابر الأمراء على قتل الملك العادل كتبغا و وثبوا عليه بالمنزلة المذكورة، و قتلوا الأميرين: [سيف الدين] بتخاص و بكتوت الأزرق العادليين، و كانا من أكابر مماليك الملك العادل كتبغا و أمرائه، و اختبط العسكر و بلع الملك العادل كتبغا ذلك ففاز بنفسه، و ركب فى خمسة من خواصّه و توجّه إلى دمشق.

و قد حكينا ذلك كلّه فى ترجمة كتبغا. فاستولى عند ذلك لاچين على الخزائن

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ٨٧

و الدهليز و بركك السلطنة، و ساق الجميع أمامه إلى مدينة غزّة. و بايعوه الأمراء بالسلطنة بعد شروط اشترطوها الأمراء عليه حسب ما يأتى ذكرها فى محلّه. و سار الجميع إلى نحو الديار المصريّة حتى دخلوها و ملكوا القلعة بغير مدافع، و جلس لاچين هذا على كرسىّ المملكة فى يوم الجمعة المقدّم ذكره. و تم أمره و خلع على الأمراء بعدّة وظائف، و هم: الأمير شمس الدين قرا سنقر المنصورىّ بنيابة السلطنة بالديار المصريّة عوضا عن نفسه. و خلع على الأمير قبجق المنصورىّ بنيابة الشام عوضا عن الأمير أغزلوا العادلى. و على عدّة أمراء أخر. ثم ركب الملك المنصور لاچين بعد ذلك من قلعة الجبل فى يوم الاثنين العشرين من صفر بأبّهة السلطنة و عليه الخلعة الخليفتيّة، و خرج إلى ظاهر القاهرة إلى جهة قبّة النصر، ثم عاد من باب النصر و شقّ القاهرة إلى أن خرج من باب زويلة، و الأمراء و العساكر بين يديه؛ و حمل الأمير بدر الدين بيسرى الجتر على رأسه و طلع إلى القلعة. و خلع أيضا على الأمراء و أرباب الوظائف على العادة. و استمرّ فى السلطنة و حسنت سيرته، و باشر الأمور بنفسه و أحبّه الناس لو لا مملوكه منكوتمر، فإنّه كان صبيا مذموم السيرة. و لمّا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ٨٨

كان يوم الثلاثاء منتصف ذى القعدة من سنة ست و تسعين و ستمائة قبض السلطان الملك المنصور لاچين على الأمير شمس الدين قرا سنقر المنصورىّ نائب السلطنة و حبسه، و ولّى مملوكه منكوتمر المذكور نيابة السلطنة عوضه، فعظم ذلك على أكابر الأمراء فى الباطن. ثم بعد أيام ركب السلطان الملك المنصور لاچين و لعب الكرة بالميدان فتقنطر به الفرس فوقع من عليه و تهشّم جميع بدنه و انكسرت يده و بعض أضلاعه و وهن عظمه و ضعفت حركته، و بقى يعلّم عنه مملوكه و نائبه سيف الدين منكوتمر و أيس من نفسه. كلّ ذلك و الأمراء راضون بما يفعله منكوتمر لأجل خاطره إلى أن منّ اللّه تعالى عليه بالعافية و ركب، و لمّا ركب زيّنت له القاهرة و مصر و البلاد الشاميّة لعافيته، و فرح الناس بعافيته فرحا شديدا خصوصا الحرافيش.

فإنه لمّا ركب بعد عافيته قال له واحد من الحرافشة: يا قضيب الذهب، بالله أرنى يدك، فرفع إليه يده و هو ماسك المقرعة و ضرب بها رقبة الحصان الذى تحته. و كان ركوبه فى حادى عشرين صفر من سنة سبع و تسعين و ستمائة. و لمّا كان لعب الكرة و كبا به فرسه و وقع و انكسرت يده قال فيه الأديب شمس الدين محمد [المعروف بابن البيّاعة]:

حويت بطشا و إحسانا و معرفة و ليس يحمل هذا كلّه الفرس

و لمّا تعافى الملك المنصور لاچين قال فيه شمس الدين المذكور نثرا و هو: أسفر ثغر صباحه عن محيّا القمر الزاهر، و بطش الأسد الكاسر، وجود البحر الزاخر؛ فياله يوما

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ٨٩

نال به الإسلام على شرفه شرفا، و أخذ كلّ مسلم من السرور العامّ طرفا؛ فملئت كلّ النفوس سرورا، و زيدت قلوب المؤمنين و أبصارهم ثباتا و نورا. ثم أنشد أبياتا منها:

فمصر و الشام کلّ الخیر عمّهما و کلّ قطر علت فیه التّباشیر

فالکون مبتهج و الخلق مبتسم و الخیر متّصل و الدّین مجبور

و منها:

و کیف لا و عدوّ الدّین منکسر بالله و الملک المنصور منصور

و الشرک قد مات رعبا حیث صاح به التو حید هذا حسام الدین مشهور

ثم بعد ذلک بمدّة قبض السلطان علی الأمیر بدر الدین بیسری، و احتاط علی جمیع موجوده فی سادس شهر ربیع الآخر. ثم جهّز السلطان الملک المنصور العساکر إلی البلاد الشامیّة لغزو سیس و غیرها، و علیهم الأمیر علم الدین سنجر الدّواداری و غیره من الأمراء، و سارت العساکر من الدیار المصریة إلی البلاد الشامیة، و فتحت تلّ حمدون و تلّ باشر و قلعة مرعش؛ و جاء الأمیر علم الدین سنجر الدّواداری حجر فی رجله عطّله عن الرکوب فی أیّام الحصار. و استشهد الأمیر علم الدین سنجر المعروف بطقصبا، و جرح جماعة کثیرة من العسکر و الأمراء. ثم إنّ الملک المنصور قبض علی الأمیر عزّ الدین أیبک الحمویّ المعزول عن نیابة دمشق قبل تاریخه بمدّة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۹۰

سنین و علی الأمیر سنقر شاه الظاهری لأمر بلغه عنهما. ثم فی أواخر صفر أخرج السلطان الملک المنصور لاچین الملک الناصر محمد بن قلاون من الدیار المصریّة إلی الکرک لیقیم بها، و فی خدمته الأمیر جمال الدین آقوش أستاذ دار الملک المنصور، فنزل الملک الناصر محمد بحواشیه من قلعة الجبل، و سافر حتی وصل إلی الکرک.

ثم بدا للسلطان الملک المنصور هذا أن یعمل الرّوک بالدیار المصریّة و هو الروک الحسامیّ. فلمّا کان یوم سادس جمادی الأولی من سنة سبع و تسعین و ستمائة ابتدأ عمل الروک و الشروع فیه فی إقطاعات الأمراء و أخباز الحلقة و الأجناد و جمیع

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۹۱

عساکر الدیار المصریّة، و استمرّوا فی عمله إلی یوم الاثنین ثامن شهر رجب من سنة سبع و تسعین و ستمائة، و فرّقت المثالات علی الأمراء و المقدّمین. و فی الیوم العاشر شرع نائب السلطنة الأمیر سیف الدین منکوتمر فی تفرقة المثالات علی الحلقة و البحریّة و ممالیک السلطان و غیر ذلک، فکان کلّ من وقع له مثال لا سبیل له إلی المراجعة فیه، فمن الجند من سعد و منهم من شقی، و أفرد للخاصّ أعمال الجیزیّة بتمامها و کمالها، و نواحی الصّیفقة الإتفیحیّة و ثغر دمیاط و الإسکندریّة و نواحی معیّنة من البلاد القبلیّة و البحریّة، و عیّن لمنکوتمر من النّواحی ما اختاره لنفسه و أصحابه؛ و کان الحکم فی التعیین لدواوین منکوتمر، و الاختیار لهم فی التفرقة. و کان الذی باشر هذا الرّوک و عمله من الأمراء الأمیر بدر الدین بیلیک الفارسیّ الحاجب و الأمیر بهاء الدین قراقوش الطّواشیّ الظّاهریّ.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۹۲

و قال الشیخ صلاح الدین الصفدیّ: و کان مدّة عمل الرّوک ثمانیة أشهر إلا أیّاما قلائل. ثم تقنطر السلطان الملک المنصور لاچین عن فرسه فی لعب الکرة.

انتهی کلام الصّفدیّ.

و قال القطب الیونینیّ: حکی بعض کتّاب الجیش بالدیار المصریّة فی سنة سبعمائة قال لی: أخدم فی دیوان الجیش بالدیار المصریّة أربعین سنة، قال: و الدیار المصریّة أربعة و عشرون قیراطا، منها: أربعة قراریط للسلطان و لما یطلقه و للکلف و الرواتب و غیر ذلک، و منها عشرة للأمراء و الإطلاقات و الزیادات، و منها عشرة قراریط للحلقة. قال: و ذکروا للسلطان و لمنکوتمر أنّهم یکفون الأمراء و الجند بأحد عشر قیراطا، یستخدم علیها حلقة بمقدار الجیش، فشرعوا فی ذلک و طلبونا و طلبوا الکتّاب الجیاد فی هذه الصّناعة، فکفینا

الأمراء و الجند بعشرة قراريط، و زدنا الذين تضرّروا قيراطا فبقى تسعة، فاتّفق قتل السلطان و منكوتمر.

و كان فى قلوب الأمراء من ذلك همّ عظيم، فأنعم على كلّ أمير ببلد و بلدين من تلك التسعة قراريط، و بقى الجيش ضعيفا ليس له قوّة. و كانت التسعة قراريط التى بقيت خيرا من الأحد عشر قيراطا المقطعة.

قلت: يعنى أنّ هذا خارج عن الأربعة قراريط التى هى برسم السلطان خاصّة. انتهى.

و قيل فى الرّوك وجه آخر؛ قال: لمّا كان فى ذى الحجّة سنة سبع و تسعين و ستّمائة قصد السلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين المنصورىّ أن يروك البلاد المصريّة و ينظر فى أمور عساكر مصر، فتقدّم التاج الطويل مستوفى الدولة

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۹۳

بجمع الدواوين لعمل أوراق بعبرة إقطاع الأمراء و الجند و قانون البلاد، و ندب الأمير بهاء الدين قراقوش الظّاهرىّ و الأمير بدر الدين بيليك الفارسىّ الحاجب، فجمع سائر الكتّاب لذلك؛ و أخذوا فى عمله فلم يحكموا العمل، و ذلك أنّهم عمدوا إلى الإقطاعات الثقيلة المتحصّلة من إقطاعات الأمراء و الجند، و أبدلوها بإقطاعات دونها فى العبرة و المتحصّل، و أصلحوا ما كان من الإقطاعات ضعيفا، و أفرد للعسكر بأجمعه أربعة عشر قيراطا، و للسلطان أربعة قراريط، و أرصد لمن عساه يتضرّر من الأمراء و الجند و يشكو قلّة المتحصّل قيراطان، فتمّ بذلك عشرون قيراطا. و قتل الملك المنصور لاجين و لم يستخدم أحدا و أوقف برسم عسكر أخر يستجدّ أربعة قراريط.

و أفرد لخاصّ السلطان الجيزيّة و الإتفيحيّة و منفلوط و هو و الكوم الأحمر و مرج

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۹۴

بنى هميم و حرجة سمطا، و اتفو (أدفو) بأعمال قوص و إسكندريّة و دمياط، و أفرد لمنكوتمر مملوكه نائب السلطنة من الجهات ما لم يكن لنائب قبله، و هو عبرة تيف عن مائة ألف دينار. فلمّا فرغت الأوراق على ما ذكرنا جلس السلطان الملك المنصور لاجين لتفرقة المثالات على الأمراء و المقدّمين فأخذوها و هم غير راضين بذلك، و تبيّن للسلطان من وجوه الأمراء الكراهة، فأراد زيادة العبرة فى الإقطاعات فمنعه نائبه منكوتمر من ذلك و حذّره فتح هذا الباب، فإنّه يخشى أن يعجز السلطان عن سدّه، و تكفّل له منكوتمر بإتمام العرض فيما قد عمل برسم السلطان. [و]] لمن كان له تعلّق فى هذا العمل من الأمراء و غيرهم أن يرفعوا شكايتهم إلى النائب؛ و تصدّى منكوتمر لتفرقة إقطاعات أجناد الحلقة، فجلس فى شبّاك النيابة بالقلعة و وقف الحجّاب بين يديه، و أعطى لكلّ تقدمة مثالاتها فتناولوها على كره منهم، و خافوا أن يكلّموا منكوتمر لسوء خلقه و سرعة بطشه؛ و تمادى الحال على ذلك عدّة أيام. و كانت أجناد الحلقة قد تناقصت أحوالهم عن أيّام الملك المنصور قلاوون، فإنّهم كانوا على أنّ أقل عبرة الإقطاعات و أضعف متحصّلاتها عشرة آلاف درهم و ما فوق ذلك إلى ثلاثين ألف درهم و هى أعلاها، فرجع الأمر فى هذا الرّوك إلى أن استقرّ أكثر الإقطاعات عشرين ألفا إلى ما دونها؛ فقلّ لذلك رزق الأجناد؛ فإنّه صار من كان متحصّله

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۹۵

عشرين ألفا رجع إلى عشرة آلاف، و من كان عبرة إقطاعه عشرة آلاف بقيت خمسة آلاف، فشقّ ذلك على الجند و لم يرضوه إلّا أنهم خشوا التنكيل من منكوتمر؛ و كانت فيهم بقيّة من أهل القوّة و الشجاعة، فتقدّموا إلى النائب منكوتمر و ألقوا مثالاتهم، و قالوا: إنّا لا نعتد قطّ بمثل هذه الإقطاعات، و نحن إمّا أن نخدم الأمراء و إلّا بطّلنا، فعظم قولهم على النائب و أغضبه، و أمر الحجّاب بضربهم و ساقهم الى السجن؛ فشفع فيهم الأمراء فلم يقبل شفاعتهم، و أقبل منكوتمر على من حضر من الأمراء و المقدّمين و غيرهم فأوسعهم سبّا و ملأهم تقريعا و تعنيفا حتّى وغّر صدورهم و غيّر نيّاتهم فانصرفوا، و قد عوّلوا على عمل الفتنة؛ و بلغ السلطان ذلك فعنّف منكوتمر و لامه و أخرج الأجناد من السجن بعد أيام. و كان عمل هذا الرّوك و تفرقته من أكبر الأسباب و أعظمهما فى فتك الأمراء بالسلطان الملك المنصور لاجين و قتله و قتل نائبه منكوتمر المذكور. على ما سيأتى ذكره.

و كان هذا الرّوك أيضا سببا كبيرا فى إضعاف الجند بديار مصر و إتلافهم، فإنه لم يعمل فيه عمل طائل و لا حصل لأحد منهم زيادة يرضاها، و إنما توفّر من البلاد جزء كبير. فلمّا قتل الملك المنصور لاچين تقسّمها الأمراء زيادة على ما كان بيدهم. انتهى.

ثم إنّ السلطان الملك المنصور لاچين جهّز الأمير جمال الدين آقوش الأفرم الصغير و الأمير سيف الدين حمدان [بن سلغيه] إلى البلاد الشاميّة، و على أيديهم مراسيم شريفة بخروج العساكر الشامية، و خروج نائب الشام الأمير قبجق المنصوريّ بجميع أمراء دمشق حتى حواشى الأمير أرجواش نائب قلعة دمشق،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۹۶

فوصلوا إلى دمشق و ألحّوا فى خروج العسكر و نوّهوا بأنّ التّتار قاصدون البلاد، فخرج نائب الشام بعساكر دمشق فى ليلة الخميس رابع عشر المحرّم من سنة ثمان و تسعين و ستمائة. و وقع لقبجق نائب الشام المذكور فى هذه السّفرة أمور أوجبت عصيانه و خروجه من البلاد الحلبيّة بمن معه من الأمراء و مماليكه إلى غازان ملك التّتار.

و كان الذى توجّه معه من أكابر الأمراء: بكتمر السّلاح دار و ألبكى و بيغار و غيرهم فى جمع كثير، و كان خروجهم فى ليلة الثلاثاء ثامن شهر ربيع الآخر. و سبب خروج قبجق عن الطاعة و توجّهه أنه كان ورد عليه مرسوم السلطان بالقبض على هؤلاء الأمراء المذكورين و غيرهم، ففطن الأمراء بذلك فهرب منهم من هرب و بقى هؤلاء، فجاءوا إلى قبجق و هو نازل على حمص، فطلبوا منه أمانا فأمّنهم و حلف لهم، و بعث قبجق إلى السلطان يطلب منه أمانا لهم فأبطأ عليه الأمان، ثم خشّن عليه بعض أكابر أمراء دمشق فى القول بسببهم فعلم قبجق أنّ ذلك الكلام من قبل السلطان فغضب، و خرج على حميّة و تبعه الأمير عز الدين بن صبرا، و الملك الأوحد [ابن الزاهر] و جماعة من مشايخ الأمراء يسترضونه فلم يرجع؛ و ركب هو و من معه من حواشيه و من الأمراء

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۹۷

المذكورين و سار حتى وصل ماردين، و التقى مع مقدم التّتار فخدمهم مقدّم التتار، و أخذهم و توجّه بأطلاب التتار و عساكره إلى أن وصلوا إلى غازان ملك التتار و هو نازل بأرض السّيب من أعمال واسط. فلمّا قدم قبجق و من معه على غازان سرّ بهم و أكرمهم و وعدهم و منّاهم و أعطى لكلّ أمير عشرة آلاف دينار، و لكل مملوك مائة دينار، و للمماليك الصّغار مع الرّكبدارية خمسين دينارا، و كلّ دينار من هذه الدنانير

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۹۸

صرفه باثنى عشر درهما؛ ثم أقطع الأمير قبجق المذكور مدينة همذان و أعمالها، فلم يقبل قبجق و اعتذر أن ليس له قصد إلّا أن يكون فى صحبة السلطان الملك غازان ليرى وجهه فى كلّ وقت! فأجابه غازان إلى ما سأله و أعجبه ذلك منه.

و كان لمّا خرج قبجق من حمص إلى جهة التتار، و بلغ أمراء دمشق ذلك خرج فى طلبه الأمير كجكن و الأمير أيدغدى شقير بمماليكهم و معهم أيضا جماعة من عسكر الشام، فوجدوه قد قطع الفرات و لحقوا بعض ثقله. و عند وصول قبجق و من معه إلى غازان بلغه قتل السلطان الملك المنصور لاچين بالديار المصرية و كان خبر قتل السلطان أيضا بلغ الأمير كجكن و الأمير أيدغدى لمّا خرجوا فى أثر قبجق فآنحلّت عزائمهم عن اللّحوق بقبجق و رجعوا عنه و إلا كانوا لحقوه و قاتلوه.

و أمّا أمر السلطان الملك المنصور حسام الدين لاچين صاحب الترجمة فإنه لمّا أخذ فى قبض من استوحش منهم من الأمراء و غيرهم، و زاد فى ذلك بإشارة مملوكه منكوتمر، استوحش الناس منه و نفرت قلوبهم و أجمعوا على عمل فتنة.

ثم فوّض لمملوكه منكوتمر جميع أمور المملكة فاستبدّ منكوتمر بوظائف الملك و مهمّاته.

و انتهى حال أستاذه الملك المنصور معه إلى أن صار إذا رسم الملك المنصور لاچين مرسوما أو كتب لأحد توقيعا و ليس هو بإشارة منكوتمر يأخذه منكوتمر من يد المعطى له و يمزّقه فى الملأ، و يردّه و يمنع أستاذه منه؛ فعند ذلك استثقل الأمراء وطأة منكوتمر و علموا أن أستاذه الملك المنصور لا يسمع فيه كلام متكلّم، فعملوا على قتل أستاذه الملك المنصور لاچين.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۹۹

قلت: الولد الخبيث يكون سببا لاستجلاب اللّعنة لوالده! انتهى:

و قال الأمير بيبرس الدّوادار فى تاريخه: و كان سبب قتل لاچين أمور، منها: أنّه لمّا أراد أن يتسلطن جاءه جماعة من الأمراء و اشترطوا عليه شروطا فالتزمها لاچين، منها أنه يكون كأحدهم و لا ينفرد برأى عنهم، و لا يسلّط يد أحد من مماليكه فيهم. و كان الأعيان الحاضرون فى هذه المشورة، و المتفقون على هذه الصورة: الأمير بدر الدين بيسرى الشمسىّ. و الأمير قرا سنقر المنصورىّ. و الأمير سيف الدين قبجق. و الأمير الحاج بهادر أمير حاجب الحجّاب. و الأمير كرت.

و الأمير حسام الدين لاچين السّلاح دار الرومى الأستادار. و الأمير بدر الدين بكتاش الفخرىّ أمير سلاح. و الأمير عز الدين أيبك الخازندار. و الأمير جمال الدين آقوش الموصلى. و الأمير مبارز الدين أمير شكار. و الأمير بكتمر السّلاح دار. و الأمير سيف الدين سلّار. و الأمير طغجى. و الأمير كرجى. و الأمير طقطاى. و الأمير برلطاى و غيرهم. و لمّا حلف لهم الملك المنصور لاچين على ما شرطوا قال الأمير سيف الدين قبجق: نخشى أنّك إذا جلست فى المنصب تنسى هذا التقرير و تقدّم الصغير من مماليكك على الكبير، و تفوّض لمملوك منكوتمر فى التحكم و التدبير، فتنصّل لاچين من ذلك، و كرّر لاچين الحلف أنّه لا يفعل، فعند ذلك حلفوا له. و رحلوا نحو الديار المصريّة (يعنى أنّ ذلك كان بعد هروب الملك العادل كتبغا و عند دخول لاچين إلى غزّة) فوقّع هذه الشروط كلّها بمدينة غزّة. انتهى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۰۰

قال بيبرس: فلمّا تسلطن رتّب الأمير شمس الدين قرا سنقر المنصورىّ نائبا.

و الأمير الحاجّ بهادر حاجبا على عادته. و الأمير سلّار أستادارا. و الأمير بكتمر السّلاح دار أمير آخور. و استقرّ بالصاحب فخر الدين بن الخليلى فى الوزارة؛ و رتّب الأمير قبجق نائب الشام، ثم بعد مدّة أفرج عن الأمير برلغى فأعطاه إقطاعا بدمشق. ثم أفرج عن الأمير بيبرس الجاشنكير و جماعة من الأمراء، و أعطى بيبرس الجاشنكير إمرة بالقاهرة.

قلت: و بيبرس هذا هو الذى تسلطن فيما بعد حسب ما يأتى ذكره.

ثم برز مرسومه باستقرار الملك العادل كتبغا فى نيابة صرخد، و كتب له بها منشورا. انتهى كلام بيبرس باختصار، لأنه خرج فى سياق الكلام إلى غير ما نحن بصدده.

و قال غيره: و لمّا تسلطن لاچين و ثبتت قدمه و رسخت نسى الشروط و قبض على أكابر خشداشيته من أعيان أمراء مصر و أماثلهم، مثل: الأمير قرا سنقر و البيسرى و بكتمر السّلاح دار و غيرهم، و ولّى مملوكه منكوتمر نيابة السلطنة بل صار منكوتمر هو المتصرّف فى الممالك. فعند ذلك نفرت قلوب الأمراء و الجند من الملك المنصور لاچين و دبرّوا عليه، و استوحش هو أيضا منهم و احترز على نفسه، و قلّل من الركوب و لزم القعاد بقلعة الجبل متخوّفا؛ و كان كرجى خصيصا به و هو أحد من كان أعانه على السلطنة، فقدّمه لاچين لمّا تسلطن على المماليك السلطانية، فكان يتحدّث فى أشغالهم و يدخل للسلطان من أراد، لا يحجبه عنه حاجب؛ فحسده منكوتمر مع ما هو فيه من الحلّ و العقد فى المملكة؛ و سعى فى إبعاد كرجى عن السلطان الملك المنصور لاچين. فلمّا ورد البريد يخبر بأمر القلاع التى فتحها عسكر السلطان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۰۱

ببلاد الأرمن حسن منكوتمر إلى السلطان أن يرسل كرجى المذكور إليها نائبا ليقيم فيها، فوافقه السلطان على ذلك، و كلّم كرجى فاستعفى كرجى من ذلك فأعفاه السلطان بعد أمور فكمن كرجى فى نفسه. ثم أخذ مع هذا منكوتمر يغلظ على المماليك السلطانية و على الأمراء الكبار فى الكلام، فعظم ذلك عليهم و تشاكوا فيما بينهم من منكوتمر، و قالوا: هذا متى طالت مدّته أخذنا واحدا بعد واحد، و أستاذه مرتبط به، و لا يمكن الوثوب عليه أيّام أستاذه، فلم يجدوا بدّا من قتل أستاذه الملك المنصور لاچين قبله، ثم يقتلونه

بعده، و اتفقوا على ذلک.

قال الشيخ مجد الدين الحرمیّ وكيل بيت المال: كان الملك المنصور لاچين متزوّجا ببنت الملك الظاهر بيبرس، و كانت ديّنة عفيفة، فحكت أنها رأت فی المنام، ليلة الخميس قبل قتل السلطان بليلة واحدة، كأنّ السلطان جالس فی المكان الذی قتل فيه، و كأنّ عدّة غربان سود على أعلى المكان، و قد نزل منهم غراب فضرب عمامة السلطان فرماها عن رأسه، و هو يقول: كرج كرج؛ فلمّا ذكرت ذلك للسلطان، قالت له: أقم الليلة عندنا؛ فقال السلطان: ما ثمّ إلّا ما قدّره اللّه! و خرج من عندها إلى القصر بعد أن ركب فی أوّل النهار على العادة، و كان صائما و هو يوم الخميس عاشر شهر ربيع الآخر سنة ثمان و تسعين و ستمائة، فأفطر بالقصر.

ثم دخل إلى القصر الجوّانی بعد العشاء الآخرة و أخذ فی لعب الشّطرنج و عنده خواصّه و هم: قاضی القضاة حسام الدين الحنفی، و الأمير عبد اللّه، و بريد البدوی، و إمامه محب الدين بن العسال؛ فأوّل من دخل عليه كرجی، و كان نوعيه السّلاح دار من

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۰۲

جملة المتّفقين، و هو فی نوبته عند السلطان. و كان كرجی مقدّم البرجيّة و السلطان مكبّ على لعب الشّطرنج، فأوهم كرجی أنّه يصلح الشمعة فرمى الفوطة على النّيمجاه ثم قال السلطان لكرجی: رحت بيّت البرجيّة و غلّقت عليهم؟ و البرجيّة هم الآن مماليك الأطباق، فقال كرجی: نعم يا خوند. و قد كان أوقف كرجی أكثرهم فی دهليز القصر، فشكره السلطان و أثنى عليه من حضر، فقال السلطان: لو لا الأمير سيف الدين كرجی ما وصلت أنا إلى السلطنة. فقبّل كرجی الأرض، و قال:

يا خوند، ما تصلّی العشاء؟ فقال السلطان: نعم و قام حتّى يصلّی فضربه كرجی بالسيف على كتفه، فطلب السلطان النّيمجاة فلم يجدها، فقام من هول الضربة و مسک كرجی و رماه تحته؛ و أخذ نوغيه السّلاح دار النّيمجاة و ضرب بها رجل السلطان فقطعها، فانقلب السلطان على قفاه يخور فی دمه. انتهى ما ذكره وكيل بيت المال.

و قال القاضی حسام الدين الحنفیّ: كنت عند السلطان فما شعرت إلّا و ستة أو سبعة أسياف نازلة على السلطان، و هو مكبّ على لعب الشّطرنج، فقتلوه ثم تركوه و أنا عنده، و غلّقوا علينا الباب، و كان سيف الدين طغجی قد قصد بقيّة البرجيّة المتّفقين معه و مع كرجی فی الدّركاه، فقال لهم: قضيتم الشغل؟ فقالوا: نعم. ثم إنهم توجّهوا جميعا إلى دار سيف الدين منكوتمر و هو بدار النّيابة من قلعة الجبل، فدقّوا عليه الباب و قالوا له: السلطان يطلبک، فأنكر حالهم و قال لهم: قتلتم السلطان؟

فقال له كرجی: نعم يا مأبون و قد جئناک نقتلک، فقال: أنا ما أسلم نفسی إليكم إنما أنا فی جيرة الأمير سيف الدين طغجی، فأجاره طغجی و حلف له أنه لا يؤذيه و لا يمكّن أحدا من أذيّته؛ ففتح داره فتسلّموه و راحوا به إلى الجبّ فأنزلوه إلى

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۰۳

عند الأمراء المحبوسين. فلمّا دخل إلى الجبّ قام إليه الأمير شمس الدين سنقر الأعسر و تلقاه متهكّما عليه، ثم قام إليه الأمير عز الدين أيبک الحموی و شتمه، و أراد قتله، لأنّ منكوتمر هذا كان هو السبب فی مسک هؤلاء الأمراء، و إقلاب الدولة من حرصه على أنّ الأمر يفضی إليه و يتسلطن بعد أستاذه. فأقام منكوتمر نحو ساعة فی الجبّ و راح الأمير طغجی إلى داره حتى يقضی شغلا له، فآغتنم كرجی غيبته و أخذ معه جماعة و توجّه إلى باب الحبس و أطلع منكوتمر صورة أنهم يريدون تقييده كما جرت العادة فی أمر المحتبسين، فامتنع من الطلوع فألحوا عليه و أطلعوه و ذبحوه على باب الجبّ، و نهبوا داره و أمواله. ثم اتّفقوا كما هم فی الليل على سلطنة الملک الناصر محمد بن قلاوون و عوده إلى ملكه كونه ابن استاذهم، و أن يكون سيف الدين طغجی نائب السلطنة، و مهما عملوه يكون باتّفاق الأمراء، و حلفوا على هذا الأمر.

كلّ ذلک فی تلک الليلة قبل أن يطلع الفجر و أصبح نهار الجمعة حلّفوا الأمراء و المقدّمين و العسكر جميعه للملک الناصر محمد بن قلاوون و نائب السلطنة طغجی. و سيّروا فی الحال خلف الملک الناصر محمد يطلبونه من الكرک، و ركب الأمير طغجی يوم السبت فی الموكب و التفّ عليه العسكر و طلع إلى قلعة الجبل، و حضر الأمراء الموكب و مدّ السّماط كما جرت العادة به من غير هرج و لا

غوغاء و كأنّه لم يجر شيء، و سكنت الفتنة، و فرح غالب الناس بزوال الدولة لأجل منكوتمر. و دام ذلك إلى أن كان يوم الاثنين رابع عشر شهر ربيع الآخر من سنة ثمان و تسعين المذكورة، وصل الأمير بدر الدين بكتاش أمير سلاح عائدا من الشام من فتوح سيس، و صحبته العساكر المتوجّهة معه، و كان قد راح إليه جماعة من أمراء مصر لتلقيه إلى بلبيس

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۰۴

و أعلموه بصورة الحال، و قالوا له: الذى وقع من قتل الملك المنصور ليس هو عن رضاهم و لا علموا به، و أغروه على قتل طغجى و اتّفقوا معه على ذلك، و كانوا الأمراء المذكورون قد أشاروا قبل خروجهم على طغجى أن يخرج يلتقى الأمير بكتاش أمير سلاح، فركب طغجى بكرة يوم الاثنين و توجّه نحوه حتى التقاه و تعانقا و تكارشا.

ثم قال أمير سلاح لطغجى: كان لنا عادة من السلطان إذا قدمنا من السفر يتلقانا، و ما أعلم ذنبى الآن ما هو، كونه ما يلقانى اليوم! فقال له طغجى: و ما علمت بما جرى على السلطان؟ السلطان قتل. فقال أمير سلاح: و من قتله؟ قال له: بعض الأمراء [و هو الأمير سيف الدين كرت أمير حاجب: قتله] سيف الدين طغجى و كرجى، فأنكر عليه و قال: كلّما قام للمسلمين ملك تقتلونه! تقدّم عنى لا تلتصق بى، و ساق عنه أمير سلاح؛ فتيقّن طغجى أنّه مقتول، فحرّك فرسه و ساق فانقضّ عليه بعض الأمراء و قبض عليه بشعر دبوقته، ثم علاه بالسيف و ساعده على قتله جماعة من الأمراء، فقتل و قتل معه ثلاثة نفر، و مرّوا سائقين إلى تحت القلعة. و كان كرجى قد قعد فى القلعة لأجل حفظها، فبلغه قتل رفيقه طغجى، فألبس البرجيّة السلاح و ركب فى مقدار ألفى فارس حتى يدفع عن نفسه، فركبت جميع أجناد الحلقة و الأمراء و المقدّمين فى خدمة أمير سلاح إلى الرابعة من النهار؛ ثم حملوا العساكر على جماعة كرجى فهزموهم، و ساق كرجى وحده، و اعتقد أنّ أصحابه يتوجّهون حيث توجّه، فلم يتبعه غير تبعه و نوغيه الكرمونىّ أمير سلاح دار الذى كان أعانه على قتل الملك المنصور لاچين. فلمّا أبعدوا و القوم فى أثرهم لحقه بعض خشداشيته و ضربه بالسيف حلّ كتفه، ثم ساعده بعض الأمراء حتى قتل، و قتل

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۰۵

معه نوغيه الكرمونىّ السّلاح دار الذى كان أعانه على قتل لاچين المقدّم ذكره، و اثنا عشر نفرا من مماليكهما و أصحابهما، و بطلت الغوغاء و سكنت الفتنة فى الحال؛ و استقرّ الأمر أيضا على تولية السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون كما كان دبّره طغجى و كرجى. و سيّروا بطلبه و حثّوا الطلب فى قدومه من الكرك إلى الديار المصريّة، و بقى يدبّر الأمور و يعلّم على الكتب المسيّرة إلى البلاد ثمان أمراء إلى أن حضر السلطان، و هم: الأمير سيف الدين سلّار، و الأمير سيف الدين كرت، و الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير، و الأمير عزّ الدين أيبك الخازندار، و الأمير جمال الدين آقوش الأفرم الصغير؛ و الأمير حسام الدين لاچين أستاذ الدار، و الأمير سيف الدين بكتمر أمير جاندار، و الأمير جمال الدين عبد اللّه [السّلاح دار] و جميعهم منصوريّة قلاوونيّة، و غالبهم قد أخرج من السجن بعد قتل لاچين. يأتى ذلك كلّه فى ترجمة الملك الناصر محمد بن قلاوون الثانية عند عوده إلى السلطنة إن شاء اللّه تعالى.

و أمّا السلطان الملك المنصور حسام الدين لاچين فإنّه أخذ بعد قتله و غسّل و كفّن و دفن بتربته بالقرافة الصغرى بالقرب من سفح المقطّم، و دفن مملوكه منكوتمر تحت رجليه. و قتل الملك المنصور لاچين و هو فى عشر الخمسين أو جاوزها بقليل. و قد تقدّم التعريف به فى عدّة تراجم ممّا تقدّم؛ و نذكر هنا أيضا من أحواله ما يتّضح التعريف به ثانيا:

كان لاچين ملكا شجاعا مقداما عارفا عاقلا حشيما وقورا معظّما فى الدّول، طالت أيّامه فى نيابة دمشق أيّام أستاذه فى السعادة، و هو الذى أبطل الثّلج الذى كان

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۰۶

ينقل فى البحر من الشام إلى مصر؛ و قال: أنا كنت نائب الشام و أعلم ما يقاسى الناس فى وسقه من المشقّة. و كان- رحمه اللّه- تامّ

القامة أشقر فى لحيته طول يسير و خفّة، و وجه رقيق معرّق، و عليه هيبة و وقار، و فى قدّه رشاقة. و كان ذكيا نبيها شجاعا حذورا. و لمّا قتل الملك الأشرف خليل بن قلاوون هرب هو و قرا سنقر، فإنهما كانا أعانا الأمير بيدرا على قتله حسب ما ذكرناه فى ترجمة الملك الأشرف المذكور، بل كان لاچين هذا هو الذى تمّم قتله، و لمّا هرب جاء هو و قرا سنقر إلى جامع أحمد بن طولون و طلعا إلى المئذنة و استترا فيها. و قال لاچين: لئن نجّانا اللّه من هذه الشدّة و صرت شيئا عمّرت هذا الجامع.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج٨، ص: ١٠٧

قلت: و كذا فعل رحمه اللّه تعالى، فإنه لمّا تسلطن أمر بتجديد جامع أحمد ابن طولون المذكور و رتب فى شدّ عمارته و عمارة أوقافه الأمير علم الدين أبا موسى سنجر بن عبد اللّه الصالحىّ النّجمىّ الدّوادارى المعروف بالبرنلى، و كان من أكابر أمراء الألوف بالديار المصريّة، و فوّض السلطان الملك المنصور لاچين أمر الجامع المذكور و أوقافه إليه فعمّره و عمّر وقفه و أوقف عليه عدّة قرى، و قرّر فيه دروس الفقه و الحديث و التفسير و الطّبّ و غير ذلك، و جعل من جملة ذلك وقفا يختص بالدّيكة التى تكون فى سطح الجامع المذكور فى مكان مخصوص بها، و زعم أن الدّيكة تعين الموقّتين و توقظ المؤذّنين فى السّحر، و ضمّن ذلك كتاب الوقف؛ فلمّا قرئ كتاب الوقف على السلطان و ما شرطه أعجبه جميعه. فلما انتهى إلى ذكر الدّيكة أنكر السلطان ذلك، و قال: أبطلوا هذا لئلّا يضحك اناس علينا، و أمضى ما عدا ذلك من الشروط. و الجامع المذكور عامر بالأوقاف المذكورة إلى يومنا هذا، و لولاه لكان دثر و خرب، فإنّ غالب ما كان أوقفه صاحبه أحمد بن طولون خرب و ذهب أثره، فجدّده لاچين هذا و أوقف عليه هذه الأوقاف الجمّة، فعمّر و بقى إلى الآن. انتهى.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج٨، ص: ١٠٨

و كان المنصور لاچين فهما كريم الأخلاق متواضعا. يحكى أن القاضى شهاب الدين محمود كان يكتب بين يديه فوقع من الحبر على ثيابه، فأعلمه السلطان بذلك؛ فنظم فى الحال بيتين و هما:

ثياب مملوكك يا سيّدى قد بيّضت حالى بتسويدها

ما وقع الحبر عليها بلى وقّع لى منك بتجديدها

فأمر له المنصور بتفصيلتين و خمسمائة درهم. فقال الشهاب محمود: يا خوند، مماليك الجماعة رفاقى يبقى ذلك فى قلوبهم، فأمر لكلّ منهم بمثل ذلك، و صارت راتبا لهم فى كلّ سنة.

و قال الشيخ صلاح الدين خليل بن أيبك الصّفدىّ فى تاريخه: حكى لى الشيخ فتح الدين بن سيّد الناس: لمّا دخل عليه لم يدعه يبوس الأرض، و قال: أهل العلم منزّهون عن هذا و أجلسه عنده، و أظنّه قال: على المقعد، و رتّبه موقّعا فباشر ذلك أيّاما، و استعفى فأعفاه و جعل المعلوم له راتبا فتناوله إلى أن مات. و لمّا تسلطن مدحه القاضى شهاب الدين محمود بقصيدة أوّلها:

أطاعك الدهر فأمر فهو ممتثل و احكم فأنت الذى تزهى بك الدّول

و لمّا تسلطن الملك المنصور لاچين تفاءل الناس و استبشروا بسلطنته، و جاء فى تلك السنة غيث عظيم بعد ما كان تأخّر؛ فقال فى ذلك الشيخ علاء الدين الوداعىّ:

يأيّها العالم بشراكم بدولة المنصور ربّ الفخار

فاللّه قد بارک فيها [لكم] فأمطر الليل و أضحى النهار

و كانت مدّة سلطنة المنصور لاچين على الديار المصرية سنتين و ثلاثة شهور.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج٨، ص: ١٠٩

قال الأديب صلاح الدين الصّفدىّ: و كان ديّنا متقشّفا كثير الصوم قليل الأذى، قطع أكثر المكوس، و قال: إن عشت ما تركت مكسا واحدا.

قلت: كان فيه كلّ الخصال الحسنة، لو لا توليته مملوكه منكوتمر الأمور و محبته له، و هو السبب فى هلاكه حسب ما تقدّم. و تسلطن من بعده ابن أستاذه الملك الناصر محمد بن قلاوون طلب من الكرك و أعيد إلى السلطنة. انتهت ترجمة الملك المنصور لاچين. رحمه اللّه تعالى.

السنة الأولى من سلطنة الملك المنصور لاچين على مصر، و هى سنة ستّ و تسعين و ستمائة. على أنّ الملك العادل كتبغا حكم منها المحرّم و أياما من صفر.

فيها كان خلع الملك العادل كتبغا المنصورىّ من السلطنة و توليته نيابة صرخد، و سلطنة الملك المنصور لاچين هذا من بعده حسب ما تقدّم ذكره.

و فيها فى ذى القعدة مسك الملك المنصور لاچين الأمير شمس الدين قرا سنقر المنصورىّ نائب السلطنة بديار مصر و حبسه، و ولّى عوضه مملوكه منكوتمر.

و فيها ولى قضاء دمشق قاضى القضاة إمام الدين القزوينىّ عوضا عن القاضى بدر الدين بن جماعة، و استمرّ ابن جماعة المذكور على خطابة جامع دمشق.

و فيها تولّى سلطنة اليمن الملك المؤيد هزبر الدين داود ابن الملك المظفّر شمس الدين يوسف ابن الملك المنصور نور الدين عمر بن علىّ بن رسول، بعد موت أخيه الأشرف.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۱۰

و فيها توفّى الشيخ الإمام العلّامة مفتى المسلمين محيى الدين أبو عبد اللّه محمد بن يعقوب ابن إبراهيم بن هبة اللّه بن طارق بن سالم بن النّحاس الحلبى الأسدىّ الحنفىّ فى ليلة سلخ المحرّم ببستانه بالمرّة و دفن بتربته بالمزّة، و حضر جنازته نائب الشام و من دونه، و كان إماما مفتنا فى عاوم، و تولّى عدة تداريس و وظائف دينيّة، و وزر بالشام للملك المنصور قلاوون، و حسنت سيرته ثم عزل و لازم الاشتغال و الإقراء و انتفع به عامّة أهل دمشق. و مات و لم يخلّف بعده مثله.

و فيها توفّى الملك لأشرف ممهّد الدين عمر ابن الملك المظفر يوسف ابن الملك المنصور نور الدين عمر بن علىّ بن رسول ملك اليمن، و تولّى بعده أخوه هزبر الدين داود المقدّم ذكره، و كانت مدّة ملكه دون السنتين.

و فيها توفّى القاضى تاج الدين عبد القادر ابن القاضى عزّ الدين محمد السّنجارىّ الحنفى قاضى قضاة الحنفيّة بحلب فى يوم الخميس ثامن عشرين شعبان، كان إماما فقيها عالما مفتيا ولى القضاء بعدّة بلاد و حمدت سيرته.

و فيها توفّى الأمير عزّ الدين أزدمر بن عبد اللّه العلائىّ فى ذى القعدة بدمشق، و كان أميرا كبيرا معظّما الا أنّه شرس الأخلاق قليل الفهم رسم له الملك الظاهر بيبرس أنّه لا يركب بسيف [فبقى أكثر من عشرين سنة لا يركب بسيف]، و هو أخو الأمير علاء الدين طيبرس الوزيرىّ.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۱۱

و فيها توفّى شيخ الحرم و فقيه الحجاز رضىّ الدين محمد بن أبى بكر عبد اللّه بن خليل بن إبراهيم القسطلانىّ المكىّ المعروف بابن خليل. مولده سنة ثلاث و ثلاثين و ستمائة، و كان فقيها عالما مفتّنا مفتيا، و له عبادة و صلاح و حسن أخلاق. مات بمكّة بعد خروج الحاج بشهر، و دفن بالمعلاة بالقرب من سفيان الثّورىّ. و من شعره رحمه اللّه:

أيّها النازح المقيم بقلبى فى أمان أنّى حللت و رحب

جمع اللّه بيننا عن قريب فهو أقصى مناى منك و حسبى

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى القاضى تاج الدين عبد الخالق بن عبد السلام بن سعيد ببعلبكّ فى المحرّم، و له ثلاث و تسعون سنة.

و قاضى القضاة عزّ الدين عمر بن عبد اللّه بن عمر بن عوض الحنبلىّ بالقاهرة.
و الحافظ الزاهد جمال الدين أحمد بن محمد بن عبد اللّه الظاهرىّ بمصر. و المحدث ضياء الدين عيسى بن يحيى السّبتىّ بالقاهرة فى رجب. و الزاهد شمس الدين محمد [بن حازم] بن حامد المقدسىّ فى ذى الحجّة. و أبو العباس أحمد بن عبد الكريم فى صفر.
أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم كان قليلا جدّا. مبلغ الزيادة خمس عشرة ذراعا و ثمانى عشرة إصبعا. ثم نقص و لم يوفّ فى تلك السنة.

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۹۷]

السنة الثانية من ولاية الملك المنصور لاچين على مصر، و هى سنة سبع و تسعين و ستمائة.
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۱۲
فيها مسك الملك المنصور لاچين الأمير بدر الدين بيسرى الشمسىّ و حبسه و احتاط على موجوده.
و فيها أخذت العساكر المصريّة تلّ حمدون و قلعتها بعد حصار، و مرعش و غيرهما، و دقّت البشائر بمصر أياما بسبب ذلك.
و فيها قدم الملك المسعود نجم الدين خضر ابن السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارىّ من بلاد الأشكرى إلى مصر، فتلقّاه السلطان الملك المنصور لاچين فى الموكب أكرمه. و طلب الملك المسعود الحج فأذن له بذلك. و كان الملك الأشرف خليل بن قلاوون أرسله إلى هناك. و سكن الملك المسعود بالقاهرة إلى أن مات بها حسب ما يأتى ذكره. و كان خضر هذا من أحسن الناس شكلا، و لما ختنه أبوه قال فيه القاضى محيى الدين عبد اللّه بن عبد الظاهر يهنّئ والده الملك الظاهر ركن الدين بيبرس:

منأت بالعيد و ما على الهناء أقتصر
بل إنّها بشارة لها الوجود مفتقر
بلوحة قد جمعت ما بين موسى و الخضر
قد هيأت لوردكم ماء الحياة المنهمر

قلت: و أحسن من هذا قول من قال فى مليح حليق:

مرت الموسى على عارضه فكأنّ الماء بالاس غمر
مجمع البحرين أضحى خدّه إذ تلاقى فيه موسى و الخضر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۱۳
و فيها توفّى الشيخ الصالح الزاهد بقيّة المشايخ بدر الدين حسن ابن الشيخ الكبير القدوة العارف نور الدين أبى الحسن على بن منصور الحريرى فى يوم السبت عاشر شهر ربيع الآخر بزاويته بقرية بسر من أعمال زرع، و كان هو المتعيّن بعد أبيه فى الزاوية و على الطائفة الحريرية المنسوبين الى والده؛ و مات و قد جاوز الثمانين.
و فيها توفّى قاضى القضاة صدر الدين إبراهيم بن أحمد بن عقبة البصراوىّ الفقيه الحنفى المدرّس، أحد أعيان فقهاء الحنفية، ولى قضاء حلب ثم عزل ثم أعيد فمات قبل دخوله حلب، و كان عالما مفتّنا و له اليد الطّولى فى الجبر و المقابلة و الفرائض و غير ذلك.
الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى الإمام شمس الدين محمد بن أبى بكر الفارسىّ الأبجىّ فى رمضان. و عائشة ابنة المجد عيسى بن [الإمام] الموفّق [عبد اللّه بن أحمد بن محمد بن قدامة] المقدسىّ فى [تاسع عشر] شعبان و لها ست و ثمانون سنة. و قاضى حماة جمال الدين محمد بن سالم [بن نصر اللّه بن سالم] ابن واصل فى شوّال. و شهاب الدين أحمد بن عبد الرحمن [بن عبد المنعم بن نعمة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۱۴

ابن سلطان بن سرور] النابلسىّ الحنبلىّ العابر. و الشيخ كمال الدين عبد الرحمن بن عبد اللطيف البغدادىّ بن المكبّر فى ذى الحجة، و له ثمان و تسعون سنة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و أربع أصابع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و عشر أصابع. و كان الوفاء آخر أيام النسىء.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۱۵

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۹۸]

ذكر سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون الثانية على مصر

السلطان الملك الناصر ناصر الدين أبو المعالى محمد ابن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون، تقدّم ذكر مولده فى ترجمته الأولى من هذا الكتاب. أعيد إلى السلطنة بعد قتل الملك المنصور لاچين، فإنه كان لمّا خلع من الملك بالملك العادل كتبغا المنصورىّ أقام عند والدته بالدّور من قلعة الجبل إلى أن أخرجه الملك المنصور لاچين لمّا تسلطن إلى الكرك، فأقام الملك الناصر بالكرك إلى أن قتل الملك المنصور لاچين حسب ما ذكرناه. أجمع رأى الأمراء على سلطنته ثانيا، و خرج إليه الطلب من الديار المصرية صبيحة يوم الجمعة الحادى عشر من شهر ربيع الاخر سنة ثمان و تسعين و ستمائة، و هو ثانى يوم قتل لاچين و سار الطلب إليه؛ فلمّا قتل طغجى و كرجى فى يوم الاثنين رابع عشره استحثوا الأمراء فى طلبه، و تكرّر سفر القصّاد له من الديار المصرية إلى الكرك، حتى إذا حضر إلى الديار المصرية فى ليلة السبت رابع جمادى الأولى من السنة، و بات تلك الليلة بالإسطبل السلطانىّ، و دام به إلى أن طلع إلى القلعة فى بكرة يوم الاثنين سادس جمادى الأولى المذكور.

و حضر الخليفة الحاكم بأمر اللّه أبو العباس أحمد و القضاة، و أعيد إلى السلطنة و جلس على تخت الملك. و كان الذى توجّه من القاهرة بطلبه الأمير الحاجّ آل ملك، و الأمير سنجر الجاولى. فلمّا قدما إلى الكرك كان لملك الناصر بالغور يتصيّد

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۱۶

فتوجّها إليه و دخل آقوش نائب الكرك إلى أمّ السلطان و بشّرها، فخافت أن تكون مكيدة من لاچين فتوقّفت فى المسير، فما زال بها حتى أجابت.

و وصل الأميران إلى الملك الناصر بالغور و قبّلا الأرض بين يديه و أعلماه بالخبر، فرحّب بهما و عاد إلى البلد و تهيّأ، و أخذ فى تجهيز أمره، و البريد يترادف باستحثاثه إلى أن قدم القاهرة، فخرج الأمراء و جميع الناس قاطبة للقائه، و كادت القاهرة و مصر ألّا يتأخر بهما أحد فرحا بقدومه. و كان خروجهم فى يوم السبت، و أظهر الناس لعوده إلى الملك من السرور ما لا يوصف و لا يحدّ، و زيّنت القاهرة و مصر بأفخر زينة، و أبطل الناس معايشهم و ضجّوا له بالدعاء و الشكر للّه على عوده إلى الملك، و أسمعوا حواشى الملك العادل كتبغا و الملك المنصور لاچين من المكروه و الاستهزاء ما لا مزيد عليه، و استمروا فى الفرح و السرور إلى يوم الاثنين، و هو يوم جلوسه على تخت الملك. و جلس على تخت الملك فى هذه المرّة الثانية و عمره يومئذ نحو أربع عشرة سنة. ثم جدّد للملك الناصر العهد، و خلع على الأمير سيف الدين سلار بنيابة السلطنة، و على الأمير حسام الدين لاچين بالأستادارية على عادته، و استمرّ الأمير آقوش الأفرم الصغير بنيابة دمشق على عادته، و خلع عليه و سفر بعد أيام.

و فى معنى سلطنة الملك الناصر محمد يقول الشيخ علاء الدين الوداعىّ الدّمشقىّ.

الملك الناصر قد أقبلت دولته مشرقة الشمس

عاد إلى كرسيّه مثلما عاد سليمان إلى الكرسى

و فى تاسع جمادى الأولى فرّقت الخلع على جميع من له عادة بالخلع من أعيان الدولة. و فى ثانى عشرة لبس الناس الخلع و ركب السلطان الملك الناصر بالخلعة

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۱۷

الخليفتيّة و أبّهة السلطنة و شعار الملك، و نزل من قلعة الجبل إلى سوق الخيل ثم عاد إلى القلعة؛ و ترجّل فى خدمته جميع الأمراء و الأكابر و قبّلوا الأرض بين يديه.

و استقرّت سلطنته و تمّ أمره، و كتبت البشا و بذلك إلى الأقطار، و سرّ الناس بعوده إلى الملك سرورا زائدا بسائر الممالك.

و بعد أيام ورد الخبر عن غازان ملك التتار أنه قد عزم على قصد البلاد الشامية لمّا قدم عليه الأمير قبجق المنصوريّ نائب الشام و رفقته. ثم رأى غازان أن يجهّز سلامش بن أباجو فى خمسة و عشرين ألفا من الفرسان إلى بلاد الروم، على أنه يأخذ بلاد الروم، و يتوجّه بعد ذلك بسائر عساكره إلى الشام من جهة بلاد سيس و يجىء غازان من ديار بكر، و ينزلون على الفرات و يغيرون على البيرة و الرّحبة و قلعة الروم، و يكون اجتماعهم على مدينة حلب، فإن التقاهم أحد من العساكر المصرية و الشامية

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۱۸

التقوه و إلّا دخلوا بلاد الشام؛ فاتّفق أنّ سلامش لما توجّه من عند قازان و دخل إلى الرّوم أطمعته نفسه بالملك؛ و ملك الروم و خلع طاعة غازان؛ و استخدم الجند، و أنفق عليهم و خلع على أكابر الأمراء ببلاد الروم، و كانوا أولاد قرمان قد أطاعوه، و نزلوا إلى خدمته، و هم فوق عشرة آلاف فارس. و هذا الخبر أرسله سلامش المذكور إلى مصر، و أرسل فى ضمن ذلك يطلب من المصريين النّجدة و المساعدة على غازان.

قلت: غازان و قازان كلاهما اسم لملك التتار. انتهى. و كان وصول رسول سلامش بهذا الخبر إلى مصر فى شعبان من السنة.

و أما قازان فإنه وصل إلى بغداد، و كانوا متولّين بغداد من قبله شكوا إليه من أهل السّيب و العربان أنّهم ينهبون التّجار القادمين من البحر، و أنّهم قد قطعوا السابلة فسار قازان بنفسه إليهم و نهبهم، و أقام بأرض دقوقا مشتيا. و لمّا بلغه خبر سلامش انثنى عزمه عن قصد الشام و شرع فى تجهيز العساكر مع ثلاثة مقدّمين، و معهم خمسة و ثلاثون ألف فارس: منها خمسة عشر مع الأمير سوتاى و عشرة مع هندوجاغان و عشرة مع بولاى و هو المشار إليه من المقدّمين مع العساكر و سفّرهم

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۱۹

إلى الروم لقتال سلامش. ثم رحل قازان إلى جهة تبريز و معه الأمير قبجق المنصوريّ نائب الشام و بكتمر السلاح دار و الألبكى، و هؤلاء هم الّذين خرجوا من دمشق مغاضبين للملك المنصور لاچين، و سار التتار الذين أرسلهم غازان حتى وصلوا إلى الروم فى أواخر شهر رجب و التقوا مع سلامش، و كان سلامش قد عصى عليه أهل سيواس و هو يحاصرهم، فتركهم سلامش و تجهز، و جهز عساكره لملتقى التتار؛ و كان قد جمع فوق ستين ألف فارس. فلمّا قارب التتار فرّ من عسكر سلامش التتار و الروم و لحقوا بولاى مقدّم عساكر غازان.

و أمّا التّركمان فإنهم تركوه و صعدوا إلى الجبال على عادتهم و بقى سلامش فى جمع قليل دون خمسمائة فارس، فتوجه بهم من سيواس إلى جهة سيس، و سار منها فوصل إلى بهسنا فى أواخر شهر رجب. و كان السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون قد برز مرسومه إلى نائب الشام بأن يجرّد خمسة أمراء من حمص و خمسة من حماة و خمسة من حلب لتكملة خمسة عشر أميرا و يبعثهم نجدة إلى سلامش.

فلمّا وصل الخبر بقدوم سلامش إلى بهسنا منهزما توقّف العسكر عن المسير، ثم وصل سلامش إلى دمشق. و سلامش هذا هو من أولاد عمّ غازان، و هو سلامش بن أباجو بن هولاكو. و كان وصوله إلى دمشق فى يوم الخميس ثانى عشر شعبان، فتلقّاه نائب الشام و

احتفل لملاقاته احتفالا عظيما و أكرمه، و قدّم

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج٨، ص: ١٢٠

فی خدمته نائب بهسنا الأمير بدر الدين بكتاش الزّردكاش، ثم سار سلامش من دمشق إلى جهة الديار المصرية إلى أن وصلها، فأكرمه السلطان غاية الإكرام، و أقام بمصر أياما قليلة ثم عاد إلى حلب، بعد أن اتفق معه أكابر دولة الملك الناصر محمد على أمر يفعلونه إذا قدم غازان إلى البلاد الشامية، ثم بعد خروجه جهز السلطان خلفه أربعة آلاف فارس من العسكر المصرى نجدة له لقتال التتار، و أيضا كالمقدّمة السلطان، و على كلّ ألف فارس أمير مائة و مقدّم ألف فارس، و هم: الأمير جمال الدين آقوش قتّال السّبع. و المبارز أمير شكار. و الأمير جمال الدين عبد اللّه.

و الأمير سيف الدين [بلبان] الحبشىّ، و هو المقدّم على الجميع؛ و ساروا الجميع إلى بلاد حلب، و تهيّأ السلطان للسفر، و تجهّزت أمراؤه و عساكره. و خرج من الديار المصرية بأمرائه و عساكره فی يوم الخميس سادس عشرين ذی الحجّة الموافق لسادس عشرين توت أحد شهور القبط.

هذا و العساكر الشامية فی التهيّؤ لقتال التتار، و قد دخلهم من الرعب و الخوف أمر لا مزيد عليه، و سار السلطان بعساكره إلى البلاد الشامية بعد أن تقدّمه أيضا جماعة من أكابر أمراء الديار المصرية غير أولئك، كالجاليش على العادة، و هم:

الأمير قطلوبك و الأمير سيف الدين نكيه و هو من كبار الأمراء، كان حما الملكين الصالح و الأشرف أولاد قلاوون، و جماعة أمراء أخر، و دخلوا هؤلاء الأمراء قبل السلطان إلى الشام بأيام، فاطمأنّ خواطر أهل دمشق بهم، و سافر السلطان

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج٨، ص: ١٢١

بالعساكر على مهل، و أقام بغزّة و عسقلان أياما كثيرة؛ ثم دخل إلى دمشق يوم الجمعة ثامن شهر ربيع الأوّل سنة تسع و تسعين و سبعمائة، و احتفل أهل دمشق لدخوله احتفالا عظيما، و دخل السلطان بتجمّل عظيم زائد عن الوصف حتى لعلّه زاد على الملوک الذين كانوا قبله، و نزل بقلعة دمشق بعد أن أقام بغزّة و غيرها نحو الشهرين فی الطريق إلى أن ترادفت عليه الأخبار بقرب التتار إلى البلاد الشامية، قدم دمشق و تعين حضوره إليها ليجتمع بعساكره السابقة له، و أقام السلطان بدمشق و جهّز عساكرها إلى جهة البلاد الحلبيّة أمامه، ثم خرج هو بأمرائه و عساكره بعدهم فی يوم الأحد السابع عشر من شهر ربيع الأوّل من سنة تسع و تسعين المذكورة فی وسط النهار، و سار من دمشق إلى حمص، و ابتهل الناس له بالدعاء، و عظم خوف الناس و صياحهم و بكاؤهم على الإسلام و أهله. و وصل السلطان إلى حمص و أقام لابس السلاح ثلاثة أيام بلياليها إلى أن حصل الملل و الضّجر، و غلت الأسعار بالعسكر و قلّت العلوفات. و بلغ السلطان أنّ التتار قد نزلوا بالقرب من سلمية و أنّهم يريدون الرجوع إلى بلادهم لما بلغهم من كثرة الجيوش و اجتماعهم على قتالهم. و كان هذا الخبر مكيدة من التتار، فركب السلطان بعساكره من حمص بكرة يوم الأربعاء وقت الصبح السابع و العشرين من شهر ربيع الأول، و ساقوا الخيل إلى أن وصلوا إليهم، و هم بالقرب من سلمية بمكان يسمى وادى الخازندار؛ فركب التتار للقائهم و كانوا تهيّئوا لذلک، و كان الملتقى فی ذلک المكان فی الساعة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة؛ ج٨؛ ص١٢١

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج٨، ص: ١٢٢

الخامسة من نهار الأربعاء المذكور و تصادما، و قد كلّت خيول السلطان و عساكره من السّوق، و التحم القتال بين الفريقين، و حملت ميسرة المسلمين عليهم فكسرتهم أقبح كسرة، و قتلوا منهم جماعة كثيرة نحو خمسة آلاف أو أكثر؛ و لم يقتل من المسلمين إلّا اليسير. ثم حملت القلب أيضا حملة هائلة و صدمت العدوّ أعظم صدمة، و ثبت كل من الفريقين ثباتا عظيما، ثم حصل تخاذل فی عسكر الإسلام بعضهم فی بعض.

بلاء من اللّه تعالى. فانهزمت ميمنة السلطان بعد أن كان لاح لهم النصر! فلا قوّة إلا باللّه. و لمّا انهزمت الميمنة انهزم أيضا من كان وراء

السناجق السلطانيّة من غير قتال، و ألقى اللّه تعالى الهزيمة عليهم فانهزم جميع عساكر الإسلام بعد النصر، و ساق السلطان فى طائفة يسيرة من أمرائه و مدبّرى مملكته إلى نحو بعلبك و تركوا جميع الأثقال، ملقاة، فبقيت العدد و السلاح و الغنائم و الأثقال ملات تلك الأراضى حتى بقيت الرماح فى الطرق كأنها القصب لا ينظر اليها أحد، و رمى الجند خوذهم عن رءوسهم و جواشنهم و سلاحهم تخفيفا عن الخيل لتنجيهم بأنفسهم، و قصدوا الجميع دمشق. و كان أكثر من وصل إلى دمشق من المنهزمين من طريق بعلبك.

و لمّا بلغ أهل دمشق و غيرها كسرة السلطان عظم الضجيج و البكاء، و خرجت المخدّرات حاسرات لا يعرفن أين يذهبن و الأطفال بأيديهنّ، و صار كلّ واحد فى شغل عن صاحبه إلى أن ورد عليهم الخبر أنّ ملك التتار قازان مسلم و أن غالب جيشه على ملّة الإسلام، و أنّهم لم يتبعوا المنهزمين، و بعد انفصال الوقعة لم يقتلوا أحدا ممّن وجدوه؛ و إنما يأخذون سلاحه و مركوبه و يطلقونه، فسكن بذلك روع أهل دمشق قليلا،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۲۳

ثم صار من وصل إلى دمشق أخذ أهله و حواصله بحيث الإمكان و توجّه إلى جهة مصر، و بقى من بقى بدمشق فى خمدة و حيرة لا يدرون ما عاقبة أمرهم؛ فطائفة تغلّب عليهم الخوف و طائفة يترجون حقن الدماء و طائفة يترجّون أكثر من ذلك من عدل و حسن سيرة، و اجتمعوا فى يوم الأحد بمشهد علىّ، و اشتوروا فى أمر الخروج إلى ملك التتار غازان و أخذهم أمانا لأهل البلد فحضر من الفقهاء قاضى القضاة بدر الدين [محمد بن إبراهيم] بن جماعة، و هو يومئذ خطيب جامع أهل دمشق. و الشيخ زين الدين الفارقىّ. و الشيخ تقىّ الدين بن تيميّة و قاضى قضاة دمشق نجم الدين [ابن] صصرّى. و الصاحب فخر الدين بن الشيرجى. و القاضى عزّ الدين بن الزكىّ.

و الشيخ وجيه الدين بن المنجّا. و الشيخ [الصدر الرئيس] عز الدين [عمر] بن القلانسىّ. و ابن عمّه بشرف الدين. و أمين الدين بن شقير الحرّانىّ. و الشريف زين الدين بن عدنان و الصاحب شهاب الدين الحنفىّ. و القاضى شمس الدين بن الحريرىّ. و الشيخ محمد بن قوام النابلسىّ. و جلال الدين أخو القاضى إمام الدين القزوينىّ. و قد خرج أخوه إمام الدين قبل ذلك مع جماعة جافلا إلى مصر. و جلال الدين ابن القاضى حسام الدين الحنفىّ. و جماعة كثيرة من العدول و الفقهاء و القراء.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۲۴

و أمّا السلطان الملك الناصر و عساكره فإنه سار هو بخواصّه بعد الوقعة إلى جهة الكسوة. و أمّا العساكر المصرية و الشامية فلا يمكن أن يعبّر عن حالهم، فإنه كان أكبر الأمراء يرى و هو وحده و قد عجز عن الهرب ليس معه من يقوم بخدمته و هو مسرع فى السّير خائف متوجّه إلى جهة الكسوة لا يلوى على أحد، قد دخل قلوبهم الرّعب و الخوف، تشتمهم العامة و توبّخهم بسبب الهزيمة من التتار، و كونهم كانوا قبل ذلك يحكمون فى الناس و يتعاظمون عليهم، و قد صار أحدهم الآن أضعف من الهزيل، و أمعنوا العامّة فى ذلك و هم لا يلتفتون إلى قولهم، و لا ينتقمون من أحد منهم.

قلت: و كذا وقع فى زماننا هذا فى وقعة تيمور لنك و أعظم، فإنّ هؤلاء قاتلوا و كسروا ميمنة التّتار، إلّا أصحابنا فإنّهم سلّموا البلاد و العباد من غير قتال! حسب ما يأتى ذكره فى محلّه من ترجمة السلطان الملك الناصر فرج بن برقوق. انتهى.

قال: و عجز أكثر الأمراء و الجند عن التوجّه إلى جهة مصر خلف السلطان بسبب ضعف فرسه، فصار الجندىّ يغير زيّه حتى يقيم بدمشق خيفة من توبيخ العامّة له، حتى بعضهم حلق شعره و صار بغير دبوقة.

قال الشيخ قطب الدين اليونينىّ: مع أنّ اللّه تعالى لطف بهم لطفا عظيما إذ لم يسق عدوّهم خلفهم و لا تبعهم إلا حول المعركة و ما قاربها، و كان ذلك لطفا من اللّه تعالى بهم، و بقى الأمر على ذلك إلى آخر يوم الخميس سادس شهر ربيع الاخر، فوصل أربعة من التتار و معهم الشريف القمّىّ و تكلّموا مع أهل دمشق، فلم ينبرم

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۲۵

أمر. ثم قدم من الغد آخر و معه فرمان (يعنى مرسوما من غازان بالأمان) و قرئ بالمدرسة البادرائية، ثم وقع بعد ذلك أمور يطول شرحها من أن قازان أرسل إلى أهل دمشق و عرّفهم أنه يحب العدل و الإحسان للرّعية و إنصاف المظلوم من الظالم، و أشياء من هذا النمط، فحصل للناس بذلك سكون و طمأنينة. ثم دخل الأمير قبجق المنصوريّ الذى كان نائب دمشق قبل تاريخه، و هرب من الملك المنصور لاچين إلى غازان، و معه رفقته الأمير بكتمر السّلاح دار و غيره إلى دمشق، و كلّموا الأمير أرجواش المنصوريّ خشداشهم نائب قلعة دمشق فى تسليمها إلى غازان؛ و قالوا له: دم المسلمين فى عنقك إن لم تسلّمها؛ فأجابهم: دم المسلمين فى أعناقكم أنتم الذين خرجتم من دمشق و توجّهتم إلى غازان و حسّنتم له المجىء إلى دمشق و غيرها، ثم وبّخهم و لم يسلّم قلعة دمشق، و تهيّأ للقتال و الحصار؛ و استمرّ على حفظ القلعة. ثم ترادفت قصّاد غازان إلى أرجواش هذا، و طال الكلام بينهم فى تسليم القلعة؛ فثّبته اللّه تعالى و منع ذلك بالكلّية. و ملك قازان دمشق و خطب له بها فى يوم الجمعة رابع عشر شهر ربيع الآخر. و صورة الدعاء لغازان أن قال الخطيب: «مولانا السلطان الأعظم سلطان الإسلام و المسلمين مظفّر الدنيا و الدين محمود غازان». و صلّى الأمير قبجق المنصوريّ و جماعة من المغل بالمقصورة من جامع دمشق، ثم أخذ التّتار فى نهب قرى دمشق و الفساد بها، ثم بجبل الصالحية و غيرها،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج٨، ص: ١٢۶

و فعلوا تلك الأفعال القبيحة، ثم قرّروا على البلد تقارير تضاعفت غير مرّة، و حصل على أهل دمشق الذّلّ و الهوان و طال ذلك عليهم، و كان متولّى الطلب من أهل دمشق الصفىّ السّنجارىّ، و علاء الدين أستادار قبجق، و ابنا الشيخ الحريرىّ الحنّ و البن؛ و عمل الشيخ كمال الدين الزّملكانىّ فى ذلك قوله:

لهفى على جلّق يا شرّ ما لقيت من كلّ علج له فى كفره فنّ

بالطّمّ و الرّمّ جاءوا لا عديد لهم فالجنّ بعضهم و الحنّ و البنّ

و للشيخ عز الدين عبد الغنى الجوزىّ فى المعنى:

بلينا يقوم كالكلاب أخسّة علينا بغارات المخاوف قد شنّوا

هم الجنّ حقّا ليس فى ذاك ريبة و مع ذا فقد والاهم الحنّ و البنّ

و لابن قاضى شهبة:

رمتنا صروف الدهر حقّا بسبعة فما أحد منا من السبع سالم

غلاء و غازان و غزو و غارة و غدر و إغبان و غمّ ملازم

و فى المعنى يقول أيضا الشيخ علاء الدين الوداعىّ و أجاد:

أتى الشام مع غازان شيخ مسلّك على يده تاب الورى و تزهّدوا

فخلّوا عن الأموال و الأهل جملة فما منهم إلا فقير مجرّد

و دامت هذه الشدّة على أهل دمشق و الحصار عمّال فى كلّ يوم على قلعة دمشق حتى عجزوا عن أخذها من يد أرجواش المذكور.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج٨، ص: ١٢٧

قلت: على أنّ أرجواش كان عنده سلامة باطن إلى الغاية. يأتى ذكر بعض أحواله فى الوفيات من سنين الملك الناصر محمد بن قلاوون. انتهى.

قال: و تمّ جبى المال، و أخذه غازان و سافر من دمشق فى يوم الجمعة ثانى عشر جمادى الأولى بعد أن ولّى الأمير قبجق المنصورىّ نيابة الشام على عادته أوّلا، و قرّر بدمشق جماعة أخر يطول الشرح فى ذكرهم. و أقام الأمير قطلو شاه مقدّم عساكر التتار بعد غازان بدمشق بجماعة كثيرة من التتار لأخذ ما بقى من الأموال و لحصار قلعة دمشق، و دام على ذلك حتى سافر من دمشق ببقيّة التتار فى

يوم الثلاثاء ثالث عشرين جمادى الأولى، و خرج الأمير قبجق نائب الشام لتوديعه، ثم عاد يوم الخميس خامس عشرينه، و انقطع أمر المغل من دمشق بعد أن قاسى أهلها شدائد و ذهبت أموالهم.

قال ابن المنجّا: إنّ الذى حمل إلى خزانة قازان خاصة نفسه ثلاثة آلاف ألف و ستمائة ألف سوى ما محق عليهم من التّراسيم و البراطيل، و الاستخراج لغيره من الأمراء و الوزراء و غير ذلك، بحيث إن الصّيفىّ السّنجارىّ استخرج لنفسه أكثر من ثمانين ألف درهم، و للأمير إسماعيل مائتى ألف درهم، و للوزير نحو أربعمائة ألف و قس على هذا. و استمرّ بدمشق و رسم أن ينادى فى دمشق: بأنّ أهل القرى و الحواضر يخرجون إلى أماكنهم، رسم بذلك سلطان الشام حاجّ الحرمين سيف الدين قبجق، و صار قبجق يركب بالعصابة، و الشاويشية بين يديه، و اجتمع الناس عليه. كلّ

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ١٢٨

ذلك و القتال و المباينة واقعة بين الأمير أرجواش نائب قلعة دمشق و بين قبجق المذكور و نوّاب قازان، و الرسل تمشى بينهم فى الصلح، و أرجواش يأبى تسليم القلعة له، فللّه درّ هذا الرجل! ما كان أثبت جنانه مع تغفّل كان فيه حسب ما يأتى ذكره.

هذا و قبجق غير مستبدّ بأمر الشام بل غالب الأمر بها لنوّاب قازان مثل بولاى و غيره. ثم سافر بولاى من دمشق بمن كان بقى معه من التتار فى عشية يوم السبت الرابع من شهر رجب، و معه قبجق و قد أشيع أن قبجق يريد الانفصال عن التتار. و بعد خروجهما استبد أرجواش نائب قلعة دمشق بتدبير أمور البلد.

و فى يوم الجمعة سابع عشر شهر رجب أعيدت الخطبة بدمشق إلى الملك الناصر محمد بن قلاوون، و للخليفة الحاكم بأمر اللّه على العادة، ففرح الناس بذلك. و كان أسقط اسم الملك الناصر محمد بن الخطبة بدمشق من سابع شهر ربيع الآخر، فالمدة مائة يوم. ثم نادى أرجواش بكرة يوم السبت بالزينة فى البلد فزيّنت.

و أما الملك الناصر محمد بن قلاوون فإنّ عوده إلى الديار المصرية كان يوم الأربعاء ثانى عشر شهر ربيع الآخر و تبعته العساكر المصرية و الشامية متفرّقين، و أكثرهم عراة مشاة ضعفاء، و ذاك الذى أوجب تأخّرهم عن الدخول مع السلطان إلى مصر، و أقاموا بعد ذلك أشهرا حتى استقام أمرهم، و لو لا حصول البركة بالديار المصرية و عظمها ما وسعت مثل هذه الخلائق و الجيوش التى دخلوها فى جفلة التتار و بعدها، فمنّ اللّه تعالى بالخيل و العدد و الرزق، إلا أنّ جميع الأسعار غلت لا سمّا السّلاح و آلات الجنديّة من القماش و البرك و حوائج الخيل و غير ذلك حتى زادت

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ١٢٩

عن الحدّ. و ممّا زاد سعر العمائم، فإنّ الجند كان على رءوسهم فى المصافّ الخوذ، فلمّا انكسروا رموا الخوذ تخفيفا و وضعوا على رءوسهم المناديل، فاحتاجوا لمّا حضروا إلى مصر إلى شراء العمائم، مع أن الملك الناصر أنفق فى الجيش بعد عوده، و استخدم جمعا كثيرا من الجند خوفا من قدوم غازان إلى الديار المصرية، و تهيّأ السلطان إلى لقاء غازان ثانيا. و جهّز العساكر و قام بكلفهم أتمّ قيام على صغر سنّه.

فلمّا ورد عليه الخبر بعدم مجىء قازان إلى الديار المصرية تجهّز و خرج بعساكره و أمرائه من الديار المصرية إلى جهة البلاد الشامية إلى ملتقى غازان ثانيا، بعد أن خلع على الأمير آقوش الأفرم الصغير بنيابة الشام على عادته، و على الأمير قرا سنقر المنصورىّ بنيابة حماة و حلب؛ و كان خروج السلطان من مصر بعساكره فى تاسع شهر رجب من سنة تسع و تسعين و ستمائة، و سار حتى نزل بمنزلة الصالحية بلغه عود قازان بعساكره إلى بلاده، فكلّم الأمراء السلطان فى عدم سفره و رجوعه إلى مصر فأبى عن رجوع العسكر، و سمع لهم فى عدم سفره، و أقام بمنزلة الصالحية.

و سافر الأمير سلّار المنصورىّ نائب السلطنة بالديار المصرية، و الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير بالعساكر إلى الشام. و لما سار سلار و بيبرس الجاشنكير إلى جهة الشام تلاقوا فى الطريق مع الأمير سيف الدين قبجق و الأمير بكتمر السلاح دار و الألبكى و هم

قاصـدون السـلطان، فعتب الأمراء قبجق و رفقته عتبا هيّنا على عبور قازان إلى البلاد الشاميـة، فاعتـذروا أن ذلك كان خوفا من الملك المنصور لاچين و حنقا من مملوكه مكوتمر، و أنّهم لمّا بلغهم قتل الملك المنصور لاچين كانوا قـد تكلّموا مع قازان فى دخول الشام، و لا بقى يمكنهم الرجوع عمّا قالوه، و لا سبيل إلى الهروب من عنده، فقبلوا عذرهم و بعثوهم إلى الملك الناصر، فقدموا عليه

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۳۰

بالصالحيـة و قبّلوا الأـرض بين يـديه، فعتبهم أيضـا على مـا وقع منهم، فـذكروا له العـذر السـابق ذكره، فقبله منهم و خلع عليهم؛ و عاد السـلطان إلى القاهرة و صحبته خواصّه و الأمير قبجق و رفقته، فطلع القلعة فى يوم الخميس رابع عشر شعبان. و دخل الأمراء إلى دمشق و معهم الأمير آقوش الأفرم الصـغير نائب الشام و غالب أمراء دمشق، و فى العسـكر أيضا الأمير قرا سنقر المنصورىّ متولّى نيابة حماة و حلب، و دخل الجميع دمشق بتجمّل زائـد، و دخلوها على دفعات كلّ أمير بطلبه على حدة، و سرّ الناس بهم غاية السـرور، و علموا أن فى عسكر الإسلام القوّة و المنعة و للّه الحمد.

و كان آخر من دخل إلى الشام الأمير سلّار نائب السلطنة، و غالب الأمراء فى خدمته، حتى الملك العادل زين الدين كتبغا المنصورىّ نائب صـرخد، و نزل جميع الجيش بالمرج و خلع على الأمير أرجواش المنصورىّ نائب قلعة دمشق باسـتمراره على عادته، و شكروا له الأـمراء مـا فعله من حفظ القلعـة، و دخلوا الأمراء إلى دمشق و قلعـة دمشق مغلقـة و عليها السـتائر و الطّوارف، فكلّموه الأمراء فى ترک ذلک.

فلما كان يوم السـبت مسـتهلّ شـهر رمضان أزال أرجواش الطوارف و السـتائر من على القلعة؛ فأقام العسكر بدمشق أياما حتى أصلحوا أمرها، ثم عاد الأمير سلّار إلى نحو الديار المصرية بجميع أمراء مصر و عساكره فى يوم السبت ثامن شهر رمضان، و تفرّق باقى الجيش كلّ واحـد إلى محلّ ولايته؛ و دخل سـلّار إلى مصـر بمن معه فى ثالث شوّال بعـد أن احتفل الناس لملاقاتهم، و خرج أمراء مصـر إلى بلبيس، و خلع السلطان على جميع من قدم من الأمراء رفقة سلّار، و كانت خلعة سلّار أعظم من الجميع. و دام السلطان بقيّة سنته بالديار المصرية.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۳۱

فلمّـا استهلّت سـنة سـبعمائة كثرت الأـراجيف بالشام و مصـر بحركـة قازان و كان قازان قـد تسـمى محمودا، و صار يقال له السـلطان محمود غازان. ثم وصـلت فى أول المحرّم من سنة سبعمائة الأخبار و القصّاد من الشرق و أخبروا أنّ قازان قد جمع جموعا كثيرة و قد نادى فى جميع بلاده الغزاة إلى مصـر، و أنه قاصد الشام؛ فجفل أهل الشام من دمشق و تفرّقوا فى السواحل و قصدوا الحصون و تشتّت غـالب أهـل الشـام إلى البلاـد من الفرات إلى غزّة؛ فعنـد ذلـک تجهز الملـک الناصـر و جهّز عساكره و تهيّأ و خرج بجميع عساكره و أمرائه من القاهرة إلى مسـجد التّبن فى يوم السـبت ثالث عشر صفر، و سافر حتى قارب دمشق أقام بمنزلته إلى سلخ شهر ربيع الآخر، و توجّه هو و عساكره عائـدين إلى جهـة الديار المصـرية، بعد أن لاقوا شدّة و مشـقّة عظيمة من كثرة الأمطار و الثلوج و الأوحال و عدم المـأكول، بحيث إنه انقطعت الطريق من البرد و المطر و عـدم جلب المـأكول لهم و لـدوابّهم، حتى إنهم لم يقـدروا على الوصول إلى دمشق؛ و كـان طلوع السـلطان الملـک الناصـر محمـد بن قلاـوون إلى قلعـة الجبل يوم الاثنين حادى عشـر جمادى الأولى. و قبل عود السـلطان إلى مصـر كان جهّز السـلطان الأمير بكتمر السـلاح دار و الأمير بهاء الـدين يعقوبا إلى دمشق أمامه، فـدخلوا دمشق. ثم أشـيع بدمشق عود السلطان إلى القاهرة، فجفل غالب

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۳۲

أهل دمشق منها، و نائب الشام لم يمنعهم بل يحسّن لهم ذلک. و قيل: إنّ والى دمشق بقى يجفّل الناس بنفسه، و صار يمرّ بالأسواق، و يقول: فى أىّ شـىء أنتم قعود! و لما كان يوم السبت تاسع جمادى الأولى نادت المناداة بدمشق من قعد فدمه فى رقبته، و من لم يقدر على السفر فليطلع إلى القلعة، فسافر فى ذلک اليوم معظم الناس.

و أمّا قـازان فإنه وصل إلى حلب و وصل عساكره إلى قرون حماة و إلى بلاد سـرمين، و سيّر معظم جيشه إلى بلاد أنطاكيـة و غيرها، فنهبوا من الدوابّ و الأغنام و الأبقار ما جاوز حدّ الكثرة، و سبوا عالما كثيرا من الرجال و النساء و الصبيان.

ثم أرسل اللّه تعالى على غازان و عساكره الأمطار و الثلوج بحيث إنه أمطر عليهم واحـدا و أربعين يوما، وقت مطر و وقت ثلج، فهلك منهم عالم كثير؛ و رجع غازان بعساكره إلى بلادهم أقبح من المكسورين، و قد تلفت خيولهم و هلك أكثرها، و عجّزهم اللّه تعالى و خـذلهم، و ردّهم خائبين عما كانوا عزموا عليه. وَ رَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنالُوا خَيْراً وَ كَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتالَ. و وصل الخبر برجوعهم فی جمادى الآخرة، و قد خلت دمشق و جميع بلاد الشام من سكانها.

ثم فی شـهر رجب من السنة وصل إلى القاهرة وزير ملك الغرب بسبب الحج، و اجتمع بالسلطان و بالأمير سلار نائب السلطنة و بالأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير فقابلوه بالإكرام و أنعموا عليه و احترموه، فلمّا كان فی بعض الأيام جلس

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۳۳

الوزير المغربىّ المذكور بباب القلعة عند بيبرس الجاشنكير و سلّار. فحضر بعض كتّاب النصارى، فقام إليه المغربىّ يتوهّم أنه مسلم ثم ظهر له أنه نصـرانىّ فقامت قيامته، و قام من وقته و دخل إلى السـلطان بحضـرة الأمير سـلّار و بيبرس مـدبّرى مملكـة الناصـر محمـد، و تحدّث معهم فی أمر النصارى و اليهود، و أنهم عندهم فی بلادهم فی غاية الذّل و الهوان، و أنهم لا يمكنونهم من ركوب الخيل، و لا من استخدامهم فی الجهات السلطانية و الديوانية، و أنكر على نصارى ديار مصر و يهودها كونهم يلبسون أفخر الثياب و يركبون البغال و الخيل، و أنهم يسـتخدمونهم فی أجلّ الجهات و يحكّمونهم فی رقاب المسلمين؛ ثم إنه ذكر عهد ذمّتهم قد انقضت من سنة ستمائة من الهجرة النبويّـة، و ذكر كلامـا كثيرا من هـذا النوع، فـأثّر كلامـه عنـد القلوب النّيّرة من أهل الدولـة، و حصل له قبول من الخاصّ و العام بسـبب هذا الكلام، و قام بنصرته الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير و جماعة كثيرة من الأمراء وافقوه على ذلك، و رأوا أنّ فی هذا الأمر مصلحة كبيرة لاظهار شعائر الاسلام. فلمّا كان [يوم الخميس العشرون من] شهر رجب جمعوا النصارى و اليهود و رسموا لهم ألّا يسـتخدموا فی الجهـات السـلطانيّة و لا ـ عنـد الأـمراء، و أن يغيّروا عمـائمهم فيلبس النصـارى عمـائم زرقـا و زنانيرهم مشـدودة فی أوساطهم؛ و أنّ اليهود يلبسون عمائم صـفرا، فسـعوا الملّتان عنـد جميع أمراء الدولـة و أعيانها، و ساعدهم أعيان القبط و بذلوا الأموال الكثيرة الخارجة عن الحدّ للسلطان و الأمراء على أن يعفوا من ذلك، فلم يقبل منهم شيئا.

و شدّد عليهم الأمير بيبرس الجاشـنكير الأسـتادار- رحمه اللّه- غاية التشديد، فإنه هو الذى كان القائم فی هذا الأمر، عفا اللّه تعالى عنه و أسكنه الجنة بما فعله، فإنه رفع الاسلام بهذه الفعلة و خفض أهل الملّتين بعد أن وعد بأموال جمّة فلم يفعل.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۳۴

قلت: رحم اللّه ذلك الزمان و أهله ما كان أعلى هممهم، و أشبع نفوسهم! و ما أحسن قول المتنبىّ:

أتى الزمان بنوه فی شبيبته فسرّهم و أتيناه على الهرم

ثم رسم السـلطان الملك الناصر محمد بغلق الكنائس بمصر و القاهرة، فضرب على كل باب منها دفوف و مسامير، و أصبح يوم الثانى و العشـرين من شـهر رجب المبارك من سـنة سـبعمائة، و قد لبسوا اليهود عمائم صفرا، و النصارى عمائم زرقا، و إذا ركب أحد منهم بهيمـة يكفّ إحـدى رجليه، و بطلوا من الخـدم السـلطانية و كذلك من عند الأمراء؛ و أسـلم لذلك جماعة كثيرة من النصارى، منهم: أمين الملك مستوفى الصّحبة و غيره. ثم رسم السلطان أن يكتب بذلك فی جميع بلاده من دنقلة إلى الفرات.

فأمّـا أهل الإسـكندرية لما وصل إليهم المرسوم سارعوا إلى خراب كنيستين عنـدهم، و ذكروا أنهما مسـتجدّتان فی عهـد الإسـلام، ثم داروا إلى دورهم فما وجدوه أعلى على من جاورها من دور المسـلمين هدموه، و كلّ من كان جاور مسـلما فی حانوت أنزلوا مصـطبة حانوته بحيث يكون المسلم أرفع منه، و فعلوا أشياء كثيرة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۳۵

من هـذا، و أقاموا شـعار الإسـلام كما ينبغى على العادة القديمـة؛ و وقع ذلك بسائر الأقطار لا سيّما أهل دمشق، فإنهم أيضا أمعنوا فى ذلك. و عملت الشعراء فى هذا المعنى عدّة مقاطيع شعر، و مما قاله الشيخ شمس الدين الطيبىّ:

تعجّبوا للنصارى و اليهود معا و السامريّين لمّا عمّموا الخرقا

كأنّما بات بالأصباغ منسهلا نسر السماء فأضحى فوقهم ذرقا

و مما قاله الشيخ علاء الدين كاتب ابن وداعة المعروف بالوداعىّ فى المعنى و أجاد:

لقد الزموا الكفّار شاشات ذلّة تزيدهم من لعنة اللّه تشويشا

فقلت لهم ما ألبسوكم عمائما و لكنّهم قد ألبسوكم براطيشا

و فيها فى تاسع ذى القعدة وصل إلى القاهرة من حلب الأمير أنس يخبر بحركة التتار، و أنّ التتار قد أرسلوا أمامهم رسلا، و أنّ رسلهم قـد قاربت الفرات، ثم وصـلت الرسل المذكورة بعد ذلك بمدة إلى الديار المصـرية فى ليلة الاثنين خامس عشـر ذى الحجّة، و أعيان القصّاد ثلاثـة نفر: قاضـى الموصـل و خطيبهـا كمال الـدين بن بهاء الـدين بن كمال الـدين بن يونس الشافعى، و آخر عجمىّ و آخر تركىّ. و لما كان عصـر يوم الثلاثاء جمعوا الأمراء و المقـدّمين إلى القلعة و عملت الخدمة و لبسوا المماليك أفخر الثياب و الملابس، و بعـد العشـاء الأـخيرة أوقـدوا الشـموع نحوا من ألف شـمعة، ثم أظهروا زينـة عظيمـة بالقصـر، ثم أحضـروا الرسل، و حضـر القاضـى بجملتهم و على رأسه طرحـة، فقام و خطب خطبـة بليغة وجيزة و ذكر آيات كثيرة فى معنى الصـلح و اتّفاق الكلمة و رغّب فيه، ثم إنه دعا للسلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ١٣۶

و من بعده للسلطان محمود غازان، و دعا للمسلمين و الأمراء و أدّى الرسالة.

و مضـمونها: إنّما قصـدهم الصـلح و دفعوا إليهم كتابا مختوما من السـلطان غازان، فأخذ منهم الكتاب و لم يقرءوه تلك الليلة، و أعيد الرسل إلى مكانهم. فلمّا كان ليلة الخميس فتح الكتاب و قرئ على السلطان و هو مكتوب بالمغلى و كتم الأمر. فلما كان يوم الخميس ثامن عشـر ذى الحجّـة حضـر جميع الأمراء و المقدّمين و أكثر العسـكر و أخرج إليهم الكتاب و قرئ عليهم، و هو مكتوب بخطّ غليظ فى نصف قطع البغدادىّ، و مضمونه:

«بسم اللّه الرحمن الرحيم، و ننهى بعـد السـلام إليه أنّ اللّه عزّ و جلّ جعلنا و إياكم أهل ملّة واحدة، و شـرفنا بدين الإسـلام و أيّدنا، و نـدبنا لإقامـة منـاره و سـدّدنا؛ و كـان بيننـا و بينكم ما كان بقضاء اللّه و قـدره، و ما كان ذلك إلّا بما كسـبت أيـديكم، و ما اللّه بظلّام للعبيد! و سـبب ذلك أنّ بعض عساكركم أغاروا على ماردين و بلادها فى شهر رمضان المعظّم قدره، الذى لم تزل الأمم يعظّمونه فى سائر الأقطار، و فيه تغلّ الشـياطين و تغلق أبواب النيران، فطرقوا البلاد على حين غفلة من أهلها، و قتلوا و سـبوا و فسقوا و هتكوا محارم اللّه بسـرعة من غير مهلـة؛ و أكلوا الحرام و ارتكبوا الآثـام، و فعلوا مـا لـم تفعله عبّـاد الأصـنام؛ فأتونـا أهـل مـاردين صارخين مسارعين ملهوفين مسـتغيثين بالأطفال و الحريم، و قد اسـتولى عليهم الشّـقاء بعد النعيم؛ فلاذوا بجنابنا و تعلّقوا بأسبابنا، و وقفوا موقف المستجير الخائف ببابنا؛ فهزّتنا نخوة الكرام، و حركتنا حميّة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ١٣٧

الإسلام، فركبنا على الفور بمن كان معنا و لم يسعنا بعد هذا المقام؛ و دخلنا البلاد و قدّمنا النّية، و عاهدنا اللّه تعالى على ما يرضيه عند بلوغ الأمنيـة؛ و علمنـا أنّ اللّه تعـالى لاـ يرضـى لعبـاده الكفر بأن يسعوا فى الأرض فسادا [و اللّه لا يحبّ الفساد]، و أنه يغضب لهتك الحريم و سبى الأولاد؛ فما كان إلا أن لقيناكم بنيّـة صادقـة، و قلوب على الحميّـة للـدين موافقـة؛ فمزّقنا كم كلّ ممزّق، و الـذى ساقنا إليكم، هو الذى نصـرنا عليكم؛ و ما كان مثلكم إلا كمثل قرية كانت آمنة مطمئنة الآية. فولّيتم الأدبار، و اعتصـمتم من سيوفنا بالفرار، فعفونا عنكم بعـد اقتدار، و رفعنا عنكم حكم السـيف البتّار؛ و تقدمنا إلى جيوشـنا ألّا يسـعوا فى الأرض كما سـعيتم، و أن ينشـروا من

العفو و العفاف ما طويتم، و لو قدرتم ما عفوتم و لا عففتم؛ و لم نقلّدكم منّة بذلك، بل حكم الإسلام فى قتال البغاة كذلك؛ و كان جميع ما جرى فى سالف القدم، و من قبل كونه جرى به فى اللّوح القلم؛ ثم لمّا رأينا الرعيّة تضرّروا بمقامنا فى الشام، لمشاركتنا لهم فى الشراب و الطعام؛ و ما حصل فى قلوب الرعيّة من الرّعب، عند معاينة جيوشنا التى هى كمطبّقات السّحب؛ فأردنا أن نسكّن تخوّفهم بعودتنا من أرضهم بالنصر و التأييد، و العلوّ و المزيد؛ فتركنا عندهم بعض جيوشنا بحيث تنوّنس بهم، و تعود فى أمرها إليهم؛ و يحرسونهم من تعدّى بعضهم على بعض، بحيث إنّكم ضاقت بكم الأرض؛ إلى أن يستقرّ جأشكم، و تبصروا رشدكم؛ و تسيّروا إلى الشام من يحفظه من أعدائكم المتقدمين، و أكرادكم

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸ ص: ۱۳۸

المتمرّدين؛ و تقدّمنا إلى مقدّمى طوامين جيوشنا أنّهم متى سمعوا بقدوم أحد منكم إلى الشام، أن يعودوا إلينا بسلام؛ فعادوا الينا بالنصر المبين، و الحمد للّه رب العالمين.

و الآن فإنّا و إيّاكم لم نزل على كلمة الإسلام مجتمعين، و ما بيننا ما يفرّق كلمتنا إلا ما كان من فعلكم بأهل ماردين؛ و قد أخذنا منكم القصاص، و هو جزاء كلّ عاص؛ فنرجع الآن فى إصلاح الرعايا، و نجتهد نحن و إيّاكم على العدل فى سائر القضايا فقد انضرّت بيننا و بينكم حال البلاد و سكانها، و منعها الخوف من القرار فى أوطانها؛ و تعذّر سفر التجار، و توقّف حال المعايش لانقطاع البضائع و الأسفار؛ و نحن نعلم أنّنا نسأل عن ذلك و نحاسب عليه، و أنّ اللّه عزّ و جلّ لا يخفى عليه شىء فى الأرض و لا فى السماء، و أنّ جميع ما كان و ما يكون فى كتاب لا يغادر صغيرة و لا كبيرة إلّا أحصاها. و أنت تعلم أيّها الملك الجليل، أنّنى و أنت مطالبون بالحقير و الجليل؛ و أننا مسئولون عمّا جناه، أقل من وليناه، و أنّ مصيرنا إلى اللّه؛ و أنا معتقدون الإسلام قولا و عملا [و نيّة، عاملون بفروضه فى كلّ وصيّة]. و قد حمّلنا قاضى القضاة علامة الوقت حجّة الإسلام بقيّة السلف كمال الدين موسى بن محمد أبا عبد اللّه، أعزّه اللّه تعالى، مشافهة يعيدها على سمع الملك و العمدة عليها، فإذا عاد من الملك الجواب فليسيّر لنا هديّة الديار المصرية، لنعلم بإرسالها أن قد حصل

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸ ص: ۱۳۹

منكم فى إجابتنا للصلح صدق النيّة؛ و نهدى إليكم من بلادنا ما يليق أن نهديه إليكم، و السلام الطيّب منا عليكم. إن شاء اللّه تعالى».

فلمّا سمع الملك الناصر الكتاب استشار الأمراء فى ذلك، و بعد أيام طلبوا قاضى الموصل (أعنى الرسول) المقدّم ذكره من عند قازان، و قالوا له: أنت من أكابر العلماء و خيار المسلمين، و تعلم ما يجب عليك من حقوق الإسلام و النصيحة للدّين؛ فنحن ما نتقاتل إلا لقيام الدّين؛ فإن كان هذا الأمر قد فعلوه حيلة و دهاء فنحن نحلف لك أنّ ما يطّلع على هذا القول أحد من خلق اللّه تعالى، و رغّبوه غاية الرغبة؛ فحلف لهم بما يعتقده أنّه ما يعلم من قازان و خواصّه غير الصلح و حقن الدماء و رواج التجّار و مجيئهم و إصلاح الرعية. ثم إنّه قال لهم: و المصلحة أنّكم تتفقون و تبقون على ما أنتم عليه من الاهتمام بعدوّكم، و أنتم فلكم عادة فى كلّ سنة تخرجون إلى أطراف بلادكم لأجل حفظها فتخرجون على عادتكم؛ فإن كان هذا الأمر خديعة فيظهر لكم فتكونون مستيقظين؛ و إن كان الأمر صحيحا فتكونون قريبين منهم فينتظم الصلح و تحقن الدماء فيما بينكم. فلمّا سمعوا كلامه رأوه ما فيه غرض و هو مصلحة، فشرعوا لعيّنوا من يروح فى الرسالة، فعيّنوا جماعة، منهم الأمير شمس الدين [محمد] بن التّيتىّ، و الخطيب شمس الدين الجوزىّ خطيب جامع ابن طولون، فتشفّع ابن الجوزىّ حتى تركوه، و عيّنوا القاضى عماد الدين بن السّكّرىّ

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸ ص: ۱۴۰

خطيب جامع الحاكم، و هو ناظر دار العدل بالديار المصرية، و شخصا أمير آخور من البرجيّة. ثم إنّ السلطان أخذ فى تجهيز أمرهم إلى ما يأتى ذكره.

ثم استقرّ السلطان فى سنة إحدى و سبعمائة بالأمير عزّ الدين أيبک البغدادىّ المنصورىّ، أحد الأمراء البرجية فى الوزارة عوضا عن

شمس الدين سنقر الأعسر، و جلس فى قلعة الجبل بخلعة الوزارة، و طلع إليه جميع أرباب الدولة و أعيان الناس.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۴۱

و أيبک هذا هو الرابع من الوزراء الأمراء الأتراك بالديار المصرية، الذين كان تضرب على أبوابهم الطبلخاناه على قاعدة الوزراء بالعراق زمن الخلفاء؛ فأوّلهم الأمير علم الدين سنجر الشّجاعىّ المنصورىّ. ثم ولى بعده الأمير بدر الدين بيدرا، و لمّا ولى بيدرا نيابة السلطنة أعيد الشجاعىّ، و بعده ابن السّلعوس و ليس هما من العدد، ثم الخليلىّ و ليس هو من العدد. ثم بعد الخليلى، ولى الأمير سنقر الأعسر الوزر، و هو الثالث. ثم بعده أيبک هذا و هو الرابع. و كان الوزير يوم ذاک فى رتبة النيابة بالديار المصرية، و نيابة السلطنة كانت يوم ذاک دون السلطنة. انتهى.

و فى يوم الأحد تاسع عشر المحرّم من سنة إحدى و سبعمائة، رسم السلطان لجميع الأمراء و المقدّمين بمصر و القاهرة أن يخرجوا صحبة السلطان إلى الصيد نحو العبّاسة، و أن يستصحبوا معهم عليق عشرة أيام، و سافر السلطان بأكثر العسكر و الجميع بعدّتهم فى بكرة يوم الاثنين فى العشرين من المحرّم. و نزل إلى بركة الحجّاج و تبعه جميع الأمراء

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۴۲

و المقدّمين و العساكر، و بعد سفره سيّروا طلبوا القضاة الأربعة فتوجّهوا إليه، و اجتمعوا بالسلطان فى بركة الحجاج و عادوا إلى القاهرة، ثم شرعوا فى تجهيز رسل قازان، و تقدّم دهليز السلطان إلى الصالحية، و دخل السلطان و الأمراء إلى البريّة بسبب الصيد. فلمّا كان يوم الاثنين عشيّة النهار وصل السلطان و الأمراء إلى الصالحية، فخلع على جميع الأمراء و المقدّمين، و كان عدّة ما خلع أربعمائة و عشرين خلعة، و كان الرسل قد سفّروهم من القاهرة و أنزلوهم بالصالحية، حتى إنهم يجتمعون بالسلطان عند حضوره من الصيد. فلما حضر الأمراء قدّام السلطان بالخلع السنيه و تلک الهيئة الجميلة الحسنة أذهل عقول الرسل مما رأوا من حسن زىّ عسكر الديار المصرية بخلاف زىّ التتار، و أحضروا الرسل فى الليل إلى الدهليز إلى بين يدى السلطان، و قد أوقدوا شموعا كثيرة و مشاعل عديدة و فوانيس و أشياء كثيرة من ذلک تتجاوز عن الحد بحيث إنّ البريّة بقيت حمراء تتلهّب نورا و نارا، فتحدّثوا معهم ساعة، ثم أعطوهم جواب الكتاب، و خلعوا عليهم خلع السفر و أعطوا لكلّ واحد من الرسل عشرة آلاف درهم و قماشا و غير ذلک. و نسخة الكتاب المسيّر إليهم صورته:

«بسم اللّه الرحمن الرحيم: علمنا ما أشار الملک إليه، و عوّل فى قوله [و فعله] عليه؛ فأمّا قول الملک: قد جمعتنا و إياكم كلمة الإسلام! و إنه لم يطرف بلادنا و لا قصدها إلا لما سبق به القضاء المحتوم، فهذا الأمر غير مجهول [بل] هو عندنا

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۴۳

معلوم؛ و إنّ السبب فى ذلک غارة بعض جيوشنا على ماردين، و إنهم قتلوا و سبوا و هتكوا الحريم و فعلوا فعل من لاله دين؛ فالملک يعلم أن غارتنا ما برحت فى بلادكم، مستمرّة من عهد آبائكم و أجدادكم؛ و أنّ من فعل ما فعل من الفساد، لم يكن برأينا و لا من أمرائنا و لا الأجناد؛ بل من الأطراف الطامعة ممّن لا يؤبه إليه، و لا يعوّل فى فعل و لا قول عليه؛ و أنّ معظم جيشنا كان فى تلک الغارة إذا لم يجدوا ما يشترونه للقوت صاموا لئلّا يأكلوا ما فيه شبهة أو حرام، و أنهم أكثر ليلهم سجّد و نهارهم صيام.

و أمّا قول الملک ابن الملک الذى هو من أعظم القان فيقول قولا يقع عليه الردّ من قريب، و يزعم أنّ جميع ما هو عليه من علمنا ساعة واحدة يغيب؛ و لو يعلم أنّه لو تقلّب فى مضجعه من جانب إلى جانب، أو خرج من منزله راجلا أو راكبا؛ كان عندنا علم من ذلک فى الوقت القريب؛ [و يتحقق أنّ أقرب بطائنه إليه، هو العين لنا عليه، و إن كثر ذلک لديه،]. و نحن تحقّقنا أنّ الملک بقى عامين يجمع الجموع، و ينتصر بالتابع و المتبوع؛ و حشد و جمع من كلّ بلد و اعتضد بالنصارى و الكرج و الأرمن، و استنجد بكلّ من ركب فرسا من فصيح و ألكن؛ و طلب من المسوّمات خيولا- و ركاب، و كثر سوادا و عدّد أطلاب؛ ثم إنّه لمّا رأى أنه ليس له بجيشنا قبل فى المجال، عاد إلى قول الزّور و المحال، و الخديعة و الاحتيال؛ و تظاهر بدين الإسلام، و اشتهر به فى الخاص و العام؛ و الباطن بخلاف

ذلک، حتّی ظنّ جیوشنا

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۴۴

و أبطالنا أنّ الأمر کذلک؛ فلمّا [التقینا معه] کان معظم جیشنا یمتنع من قتاله، و یبعد عن نزاله؛ و یقول: لا یجوز لنا قتال المسلمین، و لا یحلّ قتل من یتظاهر بهذا الدین!؛ فلهذا حصل منهم الفشل، و بتأخّرهم عن قتالکم حصل ما حصل؛ و أنت تعلم أنّ الدائرة کانت علیک. و لیس یری من أصحابک الّا من هو نادم أو باکی، أو فاقد عزیز عنده أو شاکی؛ و الحرب سجال یوم لک، و یوم علیک؛ و لیس ذلک ممّا تعاب به الجیوش و لا تقهر، و هذا بقضاء اللّه و قدره المقدّر.

و أمّا قول الملک إنّه لما التقی بجیشنا مزّقهم کلّ ممزّق، فمثل هذا القول ما کان یلیق بالملک أن یقوله أو یتکلّم به، و هو یعلم و إن کان ما رأی بل یسأل کبراء دولته و أمراء عساکره عن وقائع جیوشنا و مراتع سیوفنا من رقاب آبائه و أجداده، و هی إلی الآن تقطر من دمائهم؛ و إن کنت نصرت مرّة فقد کسرت آباؤک مرار، و إن کان جیشک قد داس أرضنا مرّة فبلادکم لغارتنا مقام و لجیوشنا قرار؛ و کما تدین تدان.

و أمّا قول الملک: إنّه و من معه اعتقدوا الإسلام قولا و فعلا و عملا و نیّة، فهذا الذی فعلته ما فعله من هو متوجّه الی هذه البنیّة، أعنی الکعبة المضّیة فإنّ الذی جری بظاهر دمشق و جبل الصالحیة لیس بخفیّ عنک و لا مکتوم، و لیس هذا هو فعل المسلمین، و لا من هو متمسّک بهذا الدین؛ فأین و کیف و ما الحجّة! و حرم البیت المقدس تشرب فیه الخمور، و تهتک الستور، و تفتضّ البکور؛ و یقتل فیه المجاورون،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۴۵

و یستأسر خطباؤه [و المؤذّنون]، ثم علی رأس خلیل الرحمن، تعلّق الصّیلبان، و تهتک النسوان، و یدخل فیه الکافر سکران؛ فإن کان هذا عن علمک و رضاک، فواخیبتک فی دنیاک و أخراک؛ و یا ویلک فی مبدئک و معادک، و عن قلیل یؤذن بخراب عمرک و بلادک، و هلاک جیشک و أجنادک؛ و إن کنت لم تعلم بذلک فقد أعلمناک، فاستدرک ما فات فلیس مطلوبا به سواک؛ و إن کنت کما زعمت أنّک علی دین الإسلام، و أنت فی قولک صادق فی الکلام، و فی عقدک صحیح النظام؛ فاقتل الطّوامین الذین فعلوا هذه الفعال، و أوقع بهم أعظم النّکال؛ لنعلم أنک علی بیضاء المحجّة، و کان فعلک و قولک أبلغ حجّة؛ و لمّا وصلت جیوشنا إلی القاهرة المحروسة و تحقّقوا أنّکم تظاهرتم بکلمة الإخلاص و خدعتم بالیمین و الإیمان، و انتصرتم علی قتالهم بعبدة الصّیلبان؛ اجتمعوا و تأهّبوا و خرجوا بعزمات محمدیّة، و قلوب بدریّة، و همم علیّة، عند اللّه مرضیّة؛ و حدّوا السیر فی البلاد، لیتشفّوا منکم غلیل الصدور و الأکباد؛ فما وسع جیشکم إلا الفرار، و ما کان لهم علی اللّقاء صبر و لا قرار؛ فاندفعت عساکرنا المنصورة مثل أمواج البحر الزّخار إلی الشام، یقصدون دخول بلادکم لیظفروا بنیل المرام؛ فخشینا علی رعیتکم تهلک، و أنتم تهربون و لا تجدون إلی النجاة مسلک؛ فأمرناهم بالمقام، و لزوم الأهبة و الاهتمام؛ لیقضی اللّه أمرا کان مفعولا.

و أمّا ما تحمّله قاضی القضاة من المشافهة، فإنّا سمعناه و وعیناه و تحقّقنا تضمنته مشافهة؛ و نحن نعلم علمه و نسکه و دینه و فضله المشهور، و زهده فی دار الغرور؛ و لکن قاضی القضاة غریب عنکم بعید منکم، لم یطّلع علی بواطن قضایاکم و أمورکم، و لا یکاد یظهر له خفیّ مستورکم؛ فإن کنتم تریدون الصلح و الإصلاح، و بواطنکم کظواهرکم متتابعة فی الصلاح؛ و أنت أیها الملک طالب الصلح علی التحقیق، و لیس

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۴۶

فی قولک مین و لا یشوبه تنمیق؛ فنحن نقلّدک [سیف] البغی، و من سلّ سیف البغی قتل به، و لا یحیق المکر السیئ إلا بأهله؛ فیرسل إلینا من خواص دولتک رجل یکون منکم ممّن إذا قطع بأمر وقفتم عنده، أو فصل حکما انتهیتم إلیه، أو جزم أمرا عوّلتم علیه؛ یکون له فی أوّل دولتکم حکم و تمکین، و هو فیما یعوّل علیه ثقة أمین؛ لنتکلّم معه فیما فیه الصلاح لذات البین، و إن لم یکن کذلک عاد

بخفّى حنين.

و أمّا ما طلبه الملك من الهديّة من الديار المصريّة فليس نبخل عليه، و مقداره عندنا أجلّ مقدار و جميع ما يهدى إليه دون قدره، و إنّما الواجب أن يهدى أوّلا من استهدى؛ لتقابل هديته بأضعافها، و نتحقّق صدق نيّته، و إخلاص سريرته؛ و نفعل ما يكون فيه رضا اللّه عزّ و جلّ و رضا رسوله فى الدنيا و الآخرة، لعلّ صفقتنا رابحة فى معادنا غير خاسرة. و اللّه تعالى الموفّق للصواب». انتهى.

ثم سافر القصّاد المذكورون، و عاد السلطان من الصّيد فى ثالث صفر إلى بركة الحجّاج و التقى أمير الحاج و هو الأمير سيف الدين بكتمر الجوكندار أمير جاندار، و صحبته ركب الحاجّ و المحمل السلطانىّ، فنزل عنده السلطان و خلع عليه؛ ثم ركب و توجّه حتى صعد قلعة الجبل عصر النهار، و دخل عقيب دخوله المحمل و الحجاج، و شكر الحاجّ من حسن سيرة بكتمر المذكور مع سرعة مجيئه بخلاف العادة؛ فإن العادة كانت يوم ذاك دخول المحمل فى سابع صفر، و قبل ذلك و بعد ذلك. و عمل بكتمر فى هذه السّفرة من الخيرات و البرّ و الخلع على أمراء الحجاز و غيرهم شيئا كثيرا؛ قيل: إنّ جملة ما أنفقه فى هذه السفرة خمسة و ثمانون ألف دينار مصرية، تقبل اللّه تعالى منه. ثمّ فى صفر هذا وصل الخبر إلى السلطان بأنّ قازان على عزم الركوب و قصد الشام، و أنّ مقدّم عساكره الأمير بولاى قد قارب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۴۷

الفرات، و أنّ الذى أرسله من الرسل خديعة. فعند ذلك شرع السلطان فى تجهيز العساكر، و تهيّأ للخروج إلى البلاد الشامية، ثم فى أثناء ذلك ورد على السلطان قاصد الأمير كتبغا المنصورىّ نائب صرخد، و كتبغا هذا هو الملك العادل المخلوع بالملك المنصور لاچين المقدّم ذكرهما، و أخبر أنه وقع بين حماة و حمص و حصن الأكراد برد و فيه شىء على صورة بنى آدم من الذكور و الإناث، و صور قرود و غير ذلك، فتعجب السلطان و غيره من ذلك. ثمّ فى ليلة الجمعة ثامن عشر جمادى الأولى فى وقت السحر توفّى الخليفة أمير المؤمنين الحاكم بأمر اللّه أبو العباس أحمد بن علىّ الهاشمىّ العباسىّ بمسكنه بالكبش ظاهر القاهرة و مصر المطلّ على بركة الفيل، و خطب له فى ذلك اليوم بجوامع القاهرة و مصر، فإنهم أخفوا موته إلى بعد صلاة الجمعة، فلمّا انقضت الصلاة سيّر الأمير سلّار نائب السلطنة خلف جماعة الصوفية و مشايخ الزوايا و الرّبط و القضاة و العلماء و الأعيان من الأمراء و غيرهم للصلاة عليه، و تولّى غسله و تكفينه الشيخ كريم الدين شيخ الشيوخ بخانقاه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۴۸

سعيد السعداء، و رئيس المغسّلين بين يديه، و هو عمر بن عبد العزيز الطوخىّ، و حمل من الكبش إلى جامع أحمد بن طولون، و نزل نائب السلطنة الأمير سلّار، و الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير الأستادار، و جميع الأمراء من القلعة إلى الكبش، و حضروا تغسيله و مشوا أمام جنازته إلى الجامع المذكور، و تقدّم للصلاة عليه الشيخ كريم الدين المذكور، و حمل إلى تربته بجوار السيدة نفيسة و دفن بها، بعد أن أوصى بولاية العهد إلى ولده أبى الربيع سليمان، و تقدير عمره فوق العشرين سنة. و كان السلطان طلبه فى أوّل نهار الجمعة قبل الإشاعة بموت والده، و أشهد عليه أنه ولّى الملك الناصر محمد بن قلاوون جميع ما ولّاه والده و فوّضه إليه، ثم عاد إلى الكبش. فلمّا فرغت الصلاة على الخليفة ردّ ولده المذكور و أولاد أخيه من جامع ابن طولون إلى دورهم، و نزل من القلعة خمسة خدّام من خدّام السلطان، و قعدوا على باب الكبش صفة الترسيم عليهم، و سيّر السلطان يستشير قاضى القضاة تقىّ الدين ابن دقيق العيد الشافعىّ فى أمر سليمان المذكور، هل يصلح للخلافة أم لا؟ فقال: نعم يصلح و أثنى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۴۹

عليه، و بقى الأمر موقوفا إلى يوم الخميس رابع عشرين جمادى الأولى المذكور.

فلمّا كان بكرة النهار المذكور طلب سليمان إلى القلعة فطلع هو و أولاد أخيه بسبب المبايعة فأمضى السلطان ما عهد اليه والده المذكور بعد فصول و أمور يطول شرحها بينه و بين أولاد أخيه، و جلس السلطان و خلع على أبى الربيع سليمان هذا خلعة الخلافة، و

نعت بالمستكفى، و هى جبّة سوداء و طرحة سوداء، و خلع على أولاد أخيه خلع الأمراء الأكابر خلعا ملوّنة. و بعد ذلك بايعه السلطان و الأمراء و القضاة و المقدّمون و أعيان الدولة، و مدّوا السّماط على العادة؛ ثم رسم له السلطان بنزوله إلى الكبش و أجرى راتبه الذى كان مقرّرا لوالده و زيادة، و نزلوا إلى الكبش و أقاموا به إلى يوم الخميس مستهل جمادى الآخرة حضر من عند السلطان المهمندار و معه جماعة و صحبتهم جمال كثيرة، فنقلوا الخليفة و أولاد أخيه و نساءهم و جميع من يلوذ بهم إلى قلعة الجبل، و أنزلوهم بالقلعة فى دارين: الواحدة تسمّى بالصالحية، و الأخرى بالظاهريّة، و أجروا عليهم الرواتب المقرّرة لهم، و كان فى يوم الجمعة ثانى يوم المبايعة خطب بمصر و القاهرة للمستكفى هذا، و رسم بضرب اسمه على سكّة الدينار و الدرهم. انتهى.

و كان السلطان قبل ذلك أمر بخروج تجريدة إلى الوجه القبلى لكثرة فساد العربان و تعدّى شرّهم فى قطع الطريق إلى أن فرضوا على التجّار و أرباب المعايش بأسيوط و منفلوط فرائض جبوها شبه الجالية، و استخفّوا بالولاة و منعوا الخراج

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۵۰

و تسمّوا بأسماء الأمراء، و جعلوا لهم كبيرين: أحدهما سمّوه سلّار، و الآخر بيبرس، و لبسوا الأسلحة و أخرجوا أهل السجون بأيديهم؛ فأحضر السلطان الأمراء و القضاة [و الفقهاء] و استفتوهم فى قتالهم، فأفتوهم بجواز ذلك؛ فاتّفق الأمراء على الخروج لقتالهم، و أخذت الطّرق عليهم لئلا يمتنعوا بالجبال و المنافذ، فيفوت الغرض فيهم، و استدعوا الأمير ناصر الدين محمد بن الشيخى متولّى الجيزة و ندبوه لمنع الناس بأسرهم من السفر إلى الصعيد فى البر و البحر، و من ظهر أنه سافر كانت أرواح الولاة قباله و ما ملك، و أشاع الأمراء أنهم يريدون السفر إلى الشام و تجهّزوا، و كتبت أوراق الأمراء المسافرين و هم عشرون مقدّما بمضاقيهم، و عينوا أربعة أقسام: قسم يتوجّه فى البرّ الغربىّ. و قسم يتوجه فى البر الشرقىّ. و قسم يركب النيل. و قسم يمضى فى الطريق السالكة. و توجه الأمير شمس الدين سنقر الأعسر، و كان قد قدم من الشام، إلى الواح فى خمسة أمراء، و قرّروا أن يتأخّر مع السلطان أربعة أمراء من المقدّمين، و رسم

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۵۱

إلى كلّ من تعيّن من الأمراء لجهة أن يضع السيف فى الكبير و الصغير و الجليل و الحقير، و لا يبقوا شيخا و لا صبيّا و يحتاطوا على سائر الأموال، و سار الأمير سلّار نائب السلطنة فى رابع جمادى الآخرة و معه جماعة من الأمراء فى البر الغربىّ، و سار الأمير بيبرس الجاشنكير بمن معه من الحاجر فى البرّ الغربىّ أيضا من طريق الواحات و سار الأمير بكتاش أمير سلاح بمن معه فى البرّ الشرقىّ و سار الأمير قتّال السبع و بيبرس الدوادار و بلبان الغلمشى و غيره من الشرقية إلى السّويس

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۵۲

و الطور، و سار الأمير قبجق المنصورىّ نائب الشام بمن كان معه إلى عقبة السيل، و سار طقصبا والى قوص بعرب الطاعة، و أخذ عليهم المفازات؛ و قد عمّيت أخبار الديار المصرية على أهل الصعيد لمنع المسافرين إليها فطرقوا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۵۳

الأمراء البلاد على حين غفلة من أهلها، و وضعوا السيف من الجيزة بالبرّ الغربىّ و الإطفيحية من الشرقىّ، فلم يتركوا أحد إلّا قتلوه، و وسّطوا نحو عشرة آلاف رجل، و ما منهم إلا من أخذوا ماله و سبوا حريمه، فكان إذا ادّعى أحد منهم أنه حضرىّ، قيل له: قل دقيق، فإن قال: دقيق بالكاف لغات العرب قتل، و إن قال: بالقاف المعهودة أطلق، و وقع الرعب فى قلوب العربان حتى طبّق عليهم الأمراء و أخذوهم من كلّ جهة فرّوا إليها، و أخرجوهم من مخابئهم حتى قتلوا من جانبى النيل إلى قوص، و جافت الأرض بالقتلى، و اختفى كثير منهم بمغاور الجبال فأوقدت عليهم النّيران حتى هلكوا بأجمعهم، و أسر منهم نحو ألف و ستمائة لهم فلاحات و زروع، و حصّل من أموالهم شىء عظيم جدّا تفرّقته الأيدى، و أحضر منه إلى الديوان السلطانىّ ستة عشرة ألف رأس من الغنم، و ذلك من جملة ثمانين ألف رأس ما بين ضأن و ما عز، و من السلاح نحو مائتين و ستين جملا من السيوف و السلاح و الرماح، و من الأموال على بغال محملة مائتين و ثمانين بغلا، و نحو أربعة آلاف فرس، و اثنين و ثلاثين ألف جمل، و ثمانية آلاف رأس من البقر، غير ما أرصد

فی المعاصر، و صار لکثرة ما حصّل للاجناد و الغلمان و الفقراء الذین اتّبعوا العسکر فباعوا الکبش الکبیر السمین من ثلاثة دراهم إلی درهم، و المعز بدرهم الرأس، و الجزّة الصوف بنصف درهم، و الکساء بخمسة دراهم، و الرّطل السمن بربع درهم، و لم یوجد من یشتری الغلال لکثرتها؛ فإنّ البلاد طرقت و أهلها آمنون، و قد کسروا الخراج سنتین. ثم عاد العسکر فی سادس عشر شهر رجب من سنة إحدی و سبعمائة،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۵۴

و قد خلت بلاد الصعید من أهلها بحیث صار الرجل یمشی فلا یجد فی طریقه أحدا و ینزل القریة فلا یری إلا النساء و الصبیان؛ ثم أفرج السلطان عن المأسورین و أعادهم إلی بلادهم لحفظ البلاد.

و عند عود الأمراء المذکورین من بلاد الصعید ورد الخبر من حلب أن تکفور متملّک سیس منع الحمل و خرج عن الطاعة و انتمی لغازان، فرسم بخروج العساکر لمحاربته، و خرج الأمیر بدر الدین بکتاش الفخریّ أمیر سلاح، و الأمیر عزّ الدین أیبک الخازندار بمضافیهما من الأمراء و غیرهم فی شهر رمضان، فساروا إلی حماة فتوجه معهم نائبها الملک العادل زین الدین کتبغا المنصوریّ فی خامس عشرین شوّال.

و توجّهوا إلی بلاد سیس و أحرقوا الزروع و انتهبوا ما قدر علیه، و حاصروا مدینة سیس و غنموا من سفح قلعتها شیئا کثیرا من جفّال الأرمن؛ و عادوا من الدّربند إلی مرج أنطاکیة. ثمّ قدموا حلب فی تاسع عشر ذی القعدة. ثم ورد الخبر علی السلطان من طرابلس بأنّ الفرنج أنشئوا جزیرة تجاه طرابلس تعرف بجزیرة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۵۵

أرواد، و عمّروها بالعدد و الآلات، و کثر فیها جمعهم، و صاروا یرکبون البحر و یأخذون المراکب. فرسم السلطان للوزیر بعمارة أربعة شوان حربیّة فی محرّم سنة اثنتین و سبعمائة ففعل ذلک، و نجّزت عمارة الشوانی و جهّزت بالمقاتلة و آلات الحرب مع الأمیر جمال الدین آقوش القارئ العلائیّ والی البهنسا، و اجتمع الناس لمشاهدة لعب الشوانی فی یوم السبت ثانی عشر المحرّم، و نزل السلطان و الأمراء لمشاهدة ذلک، و اجتمع من العالم ما لا یحصیه إلّا اللّه تعالی حتّی بلغ کراء المرکب الّتی تحمل عشرة أنفس إلی مائة درهم؛ و امتلأ البرّ من بولاق

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۵۶

إلی الصّناعة حتّی لم یوجد موضع قدم، و وقف العسکر علی برّ بستان الخشّاب و رکب الأمراء الحراریق إلی الروضة، و برزت الشوانی تجاه المقیاس تلعب کأنّها فی الحرب، فلعب الشینیّ الأوّل و الثانی و الثالث، و أعجب الناس إعجابا زائدا لکثرة ما کان فیها من المقاتلة و النفوط و آلات الحرب، و تقدّم الرابع و فیه الأمیر آقوش فما هو إلّا أنّه خرج من الصناعة بمصر و توسّط فی النیل إذا بالریح حرکّته فمال به میلة واحدة انقلب و صار أعلاه أسفله، فصرخ الناس صرخة واحدة کادت تسقط منها الحبالی، و تکدّر ما کانوا فیه من الصّفو فتلاحق الناس بالشّینیّ و أخرجوا ما سقط منه فی الماء، فلم یعدم منه سوی الأمیر آقوش و سلم الجمیع، فتکدّر السلطان و الأمراء بسببه، و عاد السلطان بأمرائه إلی القلعة و انفضّ الجمع. و بعد ثلاثة أیام أخرج الشّینیّ فإذا امرأة الرّیّس و ابنها و هی ترضعه فی قید الحیاة، فاشتدّ عجب الناس من سلامتها طول هذه الأیام! قاله المقریزی و غیره، و العهدة علیهم فی هذا النقل. ثم شرع العمل فی إعادة الشّینی الذی غرق حتی نجز، و ندب السلطان الأمیر سیف الدین کهرداش الزرّاق المنصوریّ إلی السفر فیه عوضا عن آقوش الذی غرق، رحمه اللّه تعالی، و توجّه الجمیع إلی طرابلس ثم إلی جزیرة أرواد المذکورة، و هی بالقرب

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۵۷

من أنطرطوس، فأخربوها و سبوا و غنموا، و کان الأسری منها مائتین و ثمانین نفرا، و قدم الخبر بذلک إلی السلطان فسّر و سرّ الناس قاطبة و دقّت البشائر لذلک أیاما؛ و اتّفق فی ذلک الیوم أیضا حضور الأمیر بکتاش الفخریّ أمیر سلاح من غزو سیس.

ثم بعد ذلک بأيام ورد الخبر من حلب بأنّ قازان على عزم الحركة إلى الشام، فوقع الاتّفاق على خروج العساكر من الديار المصرية إلى الشام، و عيّن من الأمراء الأمير بيبرس الجاشنكير، و طغريل الإيغانيّ، و كراى المنصوريّ، و حسام الدين لاچين أستادار بمضافيهم و ثلاثة آلاف من الأجناد، و ساروا من مصر فى ثامن عشر شهر رجب، و تواترت الأخبار بنزول قازان على الفرات، و وصل عسكره إلى الرحبة، و بعث أمامه قطلوشاه من أصحابه على عساكر عظيمة إلى الشام تبلغ ثمانين ألفا، و كتب إلى الأمير عزّ الدين [أيبك] الأفرم نائب الشام يرغّبه فى طاعته، و دخل الأمير بيبرس الجاشنكير بمن معه إلى دمشق فى نصف شعبان، و لبث يستحثّ السلطان على الخروج. و أقبل الناس من حلب و حماة إلى دمشق جافلين من التّتار، فاستعدّ أهل دمشق للفرار و لم يبق إلّا خروجهم، فنودى بدمشق من خرج منها حلّ ماله و دمه، و خرج الأمير بهادر آص و الأمير قطلوبك المنصوريّ، و أنس الجمدار فى عسكر إلى حماة، و لحق بهم عساكر طرابلس و حمص. فاجتمعوا على حماة عند نائبها الملك العادل كتبغا المنصوريّ، و بلّغ التتار ذلک فبعثوا طائفة كثيرة إلى القريتين فأوقعوا بالتّركمان، فتوجّه إليهم أسندمر كرجى نائب طرابلس و بهادر آص

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۵۸

و كجكن و إغزلو العادلى و تمر الساقى و أنص الجمدار و محمد بن قرا سنقر فى ألف و خمسمائة فارس، فطرقوهم بمنزلة عرض فى حادى عشر شعبان على غفلة، فافترقوا عليهم أربع فرق، و قاتلوهم قتالا شديدا من نصف النهار إلى العصر حتّى كسروهم و أفنوهم، و كانوا التّتار، فيما يقال، أربعة آلاف، و استنقذوا التّركمان و حريمهم و أولادهم من أيدى التتار، و هم نحو ستة آلاف أسير، و لم يفقد من العسكر الإسلامى إلا الأمير أنص الجمدار المنصورى و محمد بن باشقرد الناصريّ و ستة و خمسون من الأجناد، و عاد من انهزم من التتار إلى قطلوشاه، و أسر العسكر المصريّ مائة و ثمانين من التتار، و كتب إلى السلطان بذلک و دقّت البشائر [بدمشق]. و كان السلطان الملك الناصر محمد قد خرج بعساكره و أمرائه من الديار المصريّة إلى جهة البلاد الشاميّة فى ثالث شعبان، و خرج بعده الخليفة المستكفى بالله، و استناب السلطان بديار مصر الأمير عزّ الدين أيبک البغداديّ.

و جدّ قطلوشاه مقدّم التتار بالعساكر فى المسير حتّى نزل قرون حماة فى ثالث عشر شعبان، فاندفعت العساكر المصريّة التى كانت بحماة بين يديه إلى دمشق، و ركب نائب حماة الأمير كتبغا الذى كان تسلطن و تلقّب بالملک العادل فى محفّة لضعفه، و اجتمع الجميع بدمشق و اختلف رأيهم فى الخروج إلى لقاء العدوّ أو انتظار قدوم السلطان، ثم خشوا من مفاجأة العدوّ فنادوا بالرحيل، و ركبوا فى أوّل شهر رمضان من دمشق، فاضطربت دمشق بأهلها و أخذوا فى الرحيل منها على وجوههم، و اشتروا الحمار بستمائة درهم و الجمل بألف درهم، و ترک كثير منهم حريمه و أولاده و نجا بنفسه إلى القلعة، فلم يأت اللّيل إلا و بوادر التتار فى سائر

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۵۹

نواحى المدينة، و سار العسكر مخفّا، و بات الناس بدمشق فى الجامع يضجّون بالدعاء إلى اللّه تعالى، فلمّا أصبحوا رحل التتار عن دمشق بعد أن نزلوا بالغوطة.

و بلغ الأمراء قدوم السلطان فتوجّهوا إليه من مرج راهط فلقوه على عقبة الشّحورا فى يوم السبت ثانى شهر رمضان و قبّلوا الأرض، ثم ورد عند لقائهم به الخبر بوصول التتار فى خمسين ألفا مع قطلوشاه نائب غازان، فلبس العسكر بأجمعه السلاح، و اتّفقوا على قتال التتار بشقحب تحت جبل غباغب؛ و كان قطلوشاه قد وقف على أعلى النهر، فصفّت العساكر الإسلامية، فوقف السلطان فى القلب و بجانبه الخليفة، و الأمير سلّار النائب، و الأمير بيبرس الجاشنكير، و عزّ الدين أيبک الخازندار، و بكتمر الجوكندار، و آقوش الأفرم نائب الشام، و الأمير برلغى، و الأمير أيبک الحمويّ، و بكتمر الأبوبكريّ، و قطلوبک، و نوغاى السلاح دار، و مبارز الدين أمير شكار، و يعقوبا الشّهرزوريّ، و مبارز الدين أوليا بن قرمان؛ و وقف فى الجناح الأيمن الأمير قبجق بعساكر حماة و العربان و جماعة كثيرة من الأمراء؛ و وقف فى الميسرة الأمير بدر الدين بكتاش الفخريّ أمير سلاح، و الأمير قرا سنقر نائب حلب بعساكرها، و الأمير بتخاص نائب صفد بعساكرها؛ و الأمير طغريل الإيغانى، و بكتمر السلاح دار

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۶۰

و بیبرس الدّوادار بمضافیهم. و مشی السلطان علی التتار و الخلیفة بجانبه و معهما القرّاء یتلون القرآن و یحثّون علی الجهاد و یشوّقون إلی الجنة، و صار الخلیفة یقول:

یا مجاهدون لا- تنظروا لسلطانکم، قاتلوا عن دین نبیّکم صلّی اللّه علیه و سلّم و عن حریمکم! و الناس فی بکاء شدید، و منهم من سقط عن فرسه إلی الأرض! و وصّی بیبرس و سلّار علی الثبات فی الجهاد. و کلّ ذلک و السلطان و الخلیفة یکرّ فی العساکر یمینا و شمالا- ثم عاد السلطان و الخلیفة إلی مواقفهما، و وقف خلفه الغلمان و الأحمال و العساکر صفّا واحدا، و قال لهم: من خرج من الأجناد عن المصاف فاقتلوه و لکم سلبه. فلمّا تمّ الترتیب زحفت کرادیس التتار کقطع اللیل، و کان ذلک وقت الظهر من یوم السبت ثانی رمضان المذکور. و أقبل قطلوشاه بمن معه من الطّوامین، و حملوا علی المیمنة فثبت لهم المیمنة و قاتلوهم أشدّ قتال حتی قتل من أعیان المیمنة الأمیر حسام الدین لاچین الأستادار، و أولیا بن قرمان، و الأمیر سنقر الکافوری، و الأمیر أیدمر الشّمسیّ القشّاش، و الأمیر آقوش الشمسیّ الحاجب، و حسام الدین علی بن باخل و نحو الألف فارس، کلّ ذلک و هم فی مقابلة العدوّ و القتال عمّال بینهم. فلما وقع ذلک أدرکتهم الأمراء من القلب و من المیسرة، و صاح سلّار: هلک و اللّه أهل الإسلام! و صرخ فی بیبرس الجاشنکیر و فی البرجیّة فأتوه دفعة واحدة، فأخذهم و صدم بهم العدوّ و قصد مقدّم التتار قطلوشاه، و تقدّم عن المیمنة حتّی أخذت المیمنة راحة، و أبلی سلّار فی ذلک الیوم هو و بیبرس الجاشنکیر بلاء حسنا، و سلّموا نفوسهم إلی الموت. فلمّا رأی باقی الأمراء منهم ذلک ألقوا نفوسهم إلی الموت، و اقتحموا القتال، و کانت لسلّار و الجاشنکیر فی ذلک

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۶۱

الیوم الید البیضاء علی المسلمین- رحمهما اللّه تعالی- و استمرّوا فی القتال إلی أن کشفوا التّتار عن المسلمین، و کان جوبان و قرمجی من طوامین التتار قد ساقا تقویة لبولای و هو خلف المسلمین؛ فلمّا عاینوا الکسرة علی قطلوشاه أتوه نجدة و وقفوا فی وجه سلّار و بیبرس، فخرج من عسکر السلطان [أسندمر] و الأمیر قطلوبک و الأمیر قبجق و الممالیک السلطانیة و أردفوا سلّار و بیبرس، و قاتلوا أشدّ قتال حتی أزاحوهم عن مواقفهم، فمالت التتار علی الأمیر برلغی فی موقفه، فتوجّهوا الجماعة المذکورون إلی برلغی، و استمرّ القتال بینهم.

و أمّا سلّار فإنّه قصد قطلوشاه مقدّم التتار و صدمه بمن معه، و تقاتلا و ثبت کلّ منهما، و کانت المیمنة لمّا قتل الأمراء منها انهزم من کان معهم، و مرّت التتار حلفهم فجفل الناس و ظنّوا أنّها کسرة، و أقبل السواد الأعظم علی الخزائن السلطانیة فکسروها و نهبوا ما فیها من الأموال، و جفل النساء و الأطفال. و کانوا قد خرجوا من دمشق عند خروج الأمراء منها، و کشف النساء عن وجوههنّ و أسبلن الشعور و ضجّ ذلک الجمع العظیم بالدعاء، و قد کادت العقول أن تطیش و تذهب عند مشاهدة الهزیمة! و استمرّ القتال بین التتار و المسلمین إلی أن وقف کلّ من الطائفتین عن القتال.

و مال قطلوشاه بمن معه إلی جبل قریب منه، و صعد علیه و فی نفسه أنّه انتصر، و أنّ بولای فی أثر المنهزمین من المسلمین، فلمّا صعد الجبل رأی السهل و الوعر کلّه عساکر و المیسرة السلطانیة ثابتة، و أعلامها تخفق، فبهت قطلوشاه و تحیّر و استمرّ بموضعه حتّی کمل معه جمعه و أتاه من کان خلف المنهزمین من السلطانیة و معهم عدّة من المسلمین قد أسروهم، منهم: الأمیر عزّ الدین أیدمر نقیب الممالیک السلطانیّة،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۶۲

فأحضره قطلوشاه و سأله من أین أنت؟ فقال: من أمراء مصر، و أخبره بقدوم السلطان، و کان قطلوشاه لیس له علم بقدوم السلطان بعساکر مصر إلا ذلک الوقت، فعند ذلک جمع قطلوشاه أصحابه و شاورهم فیما یفعل، و إذا بکوسات السلطان و البوقات قد زحفت و أزعجت الأرض و أرجفت القلوب بحسها، فلم یثبت بولای و خرج من تجاه قطلوشاه فی نحو العشرین ألفا من التتار، و نزل من الجبل

بعد المغرب و مرّ هاربا.

و بات السلطان و سائر عساكره على ظهور الخيل و الطّبول تضرب، و تلاحق بهم من كان انهزم شيئا بعد شيء، و هم يقصدون ضرب الطبول السلطانية و الكوسات، و احتاط عسكر السلطان بالجبل الذى بات عليه التتار، و صار بيبرس و سلّار و قبجق و الأمراء و الأكابر فى طول الليل دائرين على الأمراء و الأجناد يوصونهم و يرتّبونهم و يؤكّدون عليهم فى التيقّظ، و وقف كلّ أمير فى مصافّه مع أصحابه، و الحمل و الأثقال قد وقف على بعد، و ثبتوا على ذلک حتى ارتفعت الشمس، و شرع قطلو شاه فى ترتيب من معه و نزلوا مشاة و فرسانا و قاتلوا العساكر، فبرزت المماليک السلطانيّة بمقدّميها إلى قطلو شاه و جوبان، و عملوا فى قتالهم عملا عظيما، فصاروا تارة يرمونهم بالسهام و تارة يواجهونهم بالرماح، و اشتغل الأمراء أيضا بقتل من فى جهتهم يتناوبون القتال أميرا بعد أمير، و ألحّت المماليک السلطانية فى القتال و أظهروا فى ذلک اليوم من الشجاعة و الفروسية ما لا يوصف حتّى إنّ بعضهم قتل تحته الثلاثة من الخيل، و ما زال الأمراء على ذلک حتّى انتصف نهار الأحد، صعد قطلو شاه الجبل و قد قتل من عسكره نحو ثمانين رجلا، و جرح الكثير و اشتدّ عطشهم، و اتّفق أنّ بعض من كان أسره التتار هرب و نزل إلى السلطان، و عرّفه أنّ التتار قد أجمعوا على النزول فى السّحر لمصادمة العساكر السلطانية، و أنّهم فى شدّة من العطش،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۶۳

فاقتضى الرأى أن يفرج لهم عند نزولهم و يركب الجيش أقفيتهم. فلمّا باتوا على ذلک و أصبحوا نهار الاثنين ركب التتار فى الرابعة من النهار و نزلوا من الجبل فلم يتعرّض لهم أحد و ساروا إلى النهر فاقتحموه، فعند ذلک ركبهم بلاء اللّه من المسلمين و أيّدهم اللّه تعالى بنصره حتى حصدوا رءوس التتار عن أبدانهم و وضعوا فيهم السيف و مرّوا فى أثرهم قتلا و أسرا إلى وقت العصر. و عادوا إلى السلطان و عرّفوه بهذا النصر العظيم، فكتبت البشائر فى البطائق، و سرّحت الطيور بهذا النصر العظيم إلى غزة.

و كتب إلى غزّة بمنع المنهزمين من عساكر السلطان من الدخول إلى مصر، و تتبع من نهب الخزائن السلطانية و الاحتفاظ بمن يمسک منهم، و عيّن السلطان الأمير بدر الدين بكتوت الفتّاح للمسير بالبشارة إلى مصر.

ثم كتب بهذا الفتح العظيم إلى سائر الأقطار، و بات السلطان ليلته و أصبح يوم الثلاثاء و قد خرج إليه أهل دمشق، فسار إليها فى عالم عظيم من الفرسان و الأعيان و العامّة و النساء و الصبيان لا يحصيهم إلّا اللّه تعالى، و هم يضجّون بالدعاء و الهناء و الشكر للّه سبحانه و تعالى على هذه المنّة! و تساقطت عبرات الناس فرحا و دقت البشائر بسائر الممالک، و كان هذا اليوم يوما لم يشاهد مثله. و سار السلطان حتى نزل بالقصر الأبلق، و قد زيّنت المدينة، و استمرّت الأمراء و بقيت العساكر فى طلب التتار إلى القريتين، و قد كلّت خيول التتار و ضعفت نفوسهم و ألقوا أسلحتهم و استسلموا للقتل، و العساكر تقتلهم بغير مدافعة، حتى إن أراذل العامة و الغلمان قتلوا منهم خلقا كثيرا و غنموا عدّة غنائم، و قتل الواحد من العسكر العشرين من التتار فما فوقها؛ ثم أدركت عربان البلاد التتار و أخذوا فى كيدهم كأنّهم يهدونهم إلى طريق قريبة مفازة، فيوصّلونهم إلى البريّة

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۶۴

و تركوهم بها فماتوا عطشا، و منهم من دار بهم و أوصلوهم إلى غوطة دمشق، فخرجت إليهم عامّة دمشق فقتلوا منهم خلقا كثيرا. ثم تتبعت الحكّام النّهبة و عاقبوا منهم جماعة كثيرة حتّى تحصل أكثر ما نهب من الخزائن و لم يفقد منه إلّا القليل. ثم خلع السلطان على الأمراء جميعهم، ثم حضر الأمير برلغى و قد كان انهزم فيمن انهزم، فلم يأذن له السلطان فى الدخول عليه، و قال: بأىّ وجه تدخل علىّ أو تنظر فى وجهى! فما زال به الأمراء حتى رضى عنه. ثم قبض على رجل من أمراء حلب كان قد انتمى إلى التتار و صار يدلّهم على الطّرقات، فسمّر على جمل و شهّر بدمشق و ضواحيها، و استمرّ الناس فى شهر رمضان كلّه فى مسرّات تتجدد، ثم صلّى السلطان صلاة عيد الفطر و خرج فى ثالث شوّال من دمشق يريد الديار المصريّة.

و أمّا التتار فإنّه لمّا قتل أكثرهم و دخل قطلو شاه الفرات فى قليل من أصحابه و وصل خبر كسرته إلى همذان، و وقعت الصّرخات فى

بلادهم، و خرج أهل تبريز و غيرها إلى لقائهم و استعلام خبر من فقد منهم حتّى علموا ذلک، فقامت النّياحة فى مدينة تبريز شهرين على القتلى.

ثم بلغ الخبر غازان فاغتمّ غمّا عظيما و خرج من منخريه دم كثير حتّى أشفى على الموت و احتجب عن حواشيه، فإنه لم يصل إليه من عساكره من كلّ عشرة واحد! ممن كان انتخبهم من خيار جيشه. ثم بعد ذلک بمدّة جلس قازان و أوقف قطلو شاه مقدّم عساكره و جوبان و سوتاى و من كان معهم من الأمراء، و أنكر على قطلو شاه و أمر بقتله، فما زالوا به حتى عفا عنه و أبعده من قدّامه حتى صار على

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۶۵

مسافة بعيدة بحيث يراه، و قام إليه، [و قد مسكه الحجاب] و سائر من حضروهم خلق كثير جدّا، و صار كلّ منهم يبصق فى وجهه حتى بصق الجميع! ثم أبعده عنه إلى كيلان ثم ضرب بولاى عدّة عصيّ و أهانه. و فى الجملة فإنّه حصل على غازان بهذه الكسرة من القهر و الهمّ ما لا مزيد عليه، و للّه الحمد.

و سار السلطان الملک الناصر بعساكره و أمرائه حتى وصل إلى القاهرة، و دخلها فى يوم ثالث عشرين شوّال حسب ما يأتى ذكره. و كان نائب الغيبة رسم بزينة القاهرة من باب النصر إلى باب السلسلة من القلعة؛ و كتب بإحضار سائر مغانى العرب بأعمال الديار المصرية كلّها، و تفاخر الناس فى الزينة و نصبوا القلاع، و اقتسمت أستادارية الأمراء شوارع القاهرة إلى القلعة، و زيّنوا ما يخصّ كلّ واحد منهم و عملوا به قلعة بحيث نودى من استعمل صانعا فى غير صنعة القلاع كانت عليه جناية السلطان، و تحسّن سعر الخشب و القصب و آلات النّجارة، و تفاخروا

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۶۶

فى تزيين القلاع المذكورة، و أقبل أهل الرّيف إلى القاهرة للفرجة على قدوم السلطان و على الزينة، فإنّ الناس كانوا أخرجوا الحلىّ و الجواهر و اللآلئ و أنواع الحرير فزيّنوا بها، و لم ينسلخ شهر رمضان حتّى تهيّأ أمر القلاع؛ و عمل ناصر الدين محمد ابن الشّيخىّ والى القاهرة قلعة بباب النصر فيها سائر أنواع الجدّ و الهزل و نصب عدّة أحواض ملأها بالسّكّر و اللّيمون و أوقف مماليكه بشربات حتّى يسقوا العسكر.

قلت: لو فعل هذا فى زماننا والى القاهرة لكان حصل عليه الإنكار بسبب إضاعة المال، و قيل له: لم لا حملت إلينا ما صرفته؟ فإنّه كان أنفع و خيرا من هذا الفشار، و إنما كانت نفوس أولئک غنيّة و هممهم عليّة، و ما كان جلّ قصدهم إلا إظهار النّعمة و التفاخر فى الحشم و الأسمطة و الإنعامات حتى يشاع عنهم ذلک و يذكر إلى الأبد، فرحم اللّه تلک الأيام و أهلها!.

و قدم السلطان إلى القاهرة فى يوم الثلاثاء ثالث عشرين شوّال، و قد خرج الناس إلى لقائه و للفرجة عليه، و بلغ كراء البيت الذى يمرّ عليه السلطان من خمسين درهما إلى مائة درهم، فلمّا وصل السلطان إلى باب النصر ترجّل الأمراء كلّهم، و أوّل من ترجّل منهم الأمير بدر الدين بكتاش الفخرىّ أمير سلاح و أخذ يحمل سلاح السلطان، فأمره السلطان أن يركب لكبر سنّه و يحمل السلاح خلفه فامتنع و مشى، و حمل الأمير مبارز الدين سوار الرومى أمير شكار القبة، و الطير على رأس السلطان، و حمل الأمير بكتمر أمير جاندار العصا، و الأمير سنجر [الجمقدار] الدّبّوس؛ و مشى كلّ أمير فى منزلته و فرش كلّ منهم الشّقق من قلعته إلى قلعة غيره

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۶۷

التى أنشئوها بالشوارع. و كان السلطان إذا تجاوز قلعة فرشت القلعة المجاورة لها الشّقق، حتّى يمشى عليها بفرسه مشيا هيّنا من غير هرج بسكون و وقار لأجل مشى الأمراء بين يديه. و كان السلطان كلّما رأى قلعة أمير أمسک عن المشى و وقف حتّى يعاينها و يعرف ما اشتملت عليه هو و الأمراء حتى يجبر خاطر فاعلها بذلک.

هذا و الأمراء من التتار بين يديه مقيّدون و رءوس من قتل منهم معلّقة فى رقابهم، و ألف رأس على ألف رمح، و عدّة الأسرى ألف و

ستمائـة، و فى أعناقهم أيضا ألف و سـتمائة رأس، و طبولهم قـدّامهم مخرّقة. و كانت القلاع التى نصـبت أوّلها قلعة الأمير ناصـر الدين ابن الشّيخى والى القاهرة بباب النصـر، و يليها قلعـة الأمير علاء الـدين مغلطاى أمير مجلس، و يليها قلعة ابن أيتمش السّـعدىّ، ثم يليها قلعة الأمير سنجر الجاولى، و بعده قلعة الأمير طغريل الإيغانىّ ثم قلعة بهادر اليوسفىّ، ثم قلعة سودى، ثم قلعة بيليك الخطيرى، ثم قلعة برلغى، ثم قلعة مبارز الدين أمير شكار، ثم قلعة أيبك الخازندار، ثم قلعة سنقر الأعسر، ثم قلعة بيبرس الدّوادار، ثم قلعة سنقر الكاملىّ، ثم قلعـة موسـى ابن الملك الصالـح، ثم قلعـة الأمير آل ملك، ثم قلعـة علم الدين الصوابى، ثم قلعة الأمير جمال الدين الطّشـلاقىّ، ثم قلعـة الأمير [سـيف الـدين] آدم، ثم قلعـة الأمير سـلّار [النائب]، ثم قلعـة الأمير بيبرس الجاشـنكير، ثم قلعـة بكتاش أمير سـلاح، ثم قلعة الطّواشى مرشد الخازندار، و كانت قلعته على باب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۶۸

المدرسـة المنصوريّـة،، ثم بعـده قلعة بكتمر أمير جاندار، ثم قلعة أيبك البغدادىّ نائب الغيبة، ثم قلعة ابن أمير سـلاح، ثم قلعة بكتوت الفتّاح، ثم قلعة تاكز الطغريلىّ، ثم قلعة قلّى السـلاح دار، ثم قلعة لاچين زيرباج الجاشنكير، ثم قلعة طيبرس الخازندارى نقيب الجيش، ثم قلعـة بلبان طرنا، ثم قلعـة سـنقر العلانى، ثم قلعـة بهاء الدين يعقوبا، ثم قلعة الأبوبكرى، ثم قلعة بهادر المعزى، ثم قلعة كوكاى، ثم قلعة قرا لاچين، ثم قلعة كراى المنصورىّ، ثم قلعة جمال الدين آقوش قتال السبع، و قلعته كانت على باب زويلة؛ و كان عدّتها سبعين قلعة. و عند ما وصل السلطان إلى باب البيمارستان المنصورى ببين القصرين نزل و دخل و زار قبر والده الملك المنصور قلاوون و قرأ القرّاء أمامه، ثم ركـب إلى باب زويلـة و وقف حتّى أركـب الأمير بـدر الدين بكتاش الفخرىّ أمير سـلاح، ثم سار السـلطان على شـقق الحرير إلى داخـل قلعـة الجبل. هـذا و التهانى فى دور السـلطان و الأمراء و غيرهم قـد امتلأت منهم البيوت و الشوارع بحيث إنّ الرجل كان لا يسمع كلام من هو بجانبه إلا بعد جهد، و كان يوما عظيما عظم فيه سرور الناس قاطبة لا سيّما أهل مصر، فإنّهم فرحوا بالنصر و أيضا بسلامة سلطانهم الملك الناصر محمد.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۶۹

و أقام الملك الناصـر بالديار المصـريّة إلى سـنة ثلاث و سبعمائة ورد عليه الخبر بموت غازان بمدينة الرّىّ و قام بعده أخوه خربندا بن أرغون بن أبغـا بن هولاـكو فى ثـالث عشـر شوال و جلس خربنـدا على تخت الملك فى ثالث عشـر ذى الحجّـة و تلقّب غياث الـدين محمدا، و كتب إلى السلطان بجلوسه و طلب الصلح و إخماد الفتنة.

ثم فى السـنة اسـتأذن الأمير سلّار نائب السلطنة فى الحجّ فأذن له، فحجّ كما حجّ الأمير بيبرس الجاشنكير فى السنة الماضية سنة اثنتين و سبعمائـة إلّا أنّ سـلّار صـنع من المعروف فى هـذه السـنة و الإحسان إلى أهل مكّـة و المجاورين و غيرهم و عاد، ثم حجّ الأمير بيبرس الجاشـنكير ثانيا فى سـنة أربع و سبعمائة. و ورد الخبر على السلطان الملك الناصر بقدوم رجل من بلاد التتار إلى دمشق يقال له الشيخ براق فى تاسع جمادى الأولى و معه جماعـة من الفقراء نحو المائة لهم هيئة عجيبة، على رأسـهم كلاوت لباد مقصّـص بعمائم فوقها، و فيهـا قرون من لبـاد يشبه قرون الجواميس، و فيها أجراس، و لحاهم محلّقـة دون شواربهم، و لبسـهم لبابيـد بيض، و قـد تقلّـدوا بحبال منظومـة بكعاب البقر، و كلّ منهم مكسور الثّنيّـة العليا، و شـيخهم من أبناء الأربعين سـنة، و فيه إقدام و جرأة و قوّة نفس و له صولة، و معه طبلخاناه تدقّ له نوبة، و له محتسب على جماعته، يؤدّب كلّ من يترك شيئا من سنّته، يضرب عشرين عصاة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۷۰

تحت رجليه، و هو و من معه ملازمون التعبّد و الصلاة، و إنه قيل له عن زيّه، فقال:

أردت أن أكون مسخرة الفقراء. و ذكر أنّ غازان لما بلغه خبره استدعاه و ألقى عليه سبعا ضاريا فركب على ظهر السّبع و مشى به فجلّ فى عين قازان و نثر عليه عشـرة آلاف دينار، و أنّه عند ما قدم دمشق كان النائب بالميدان الأخضـر فدخل عليه، و كان هناك نعامة قد تفـاقم ضـررها و شـرّها و لم يقـدر أحـد على الـدنوّ منها، فأمر النائب بإرسالها عليه فتوجّهت نحوه، فوثب عليها و ركبها فطارت به فى

الميدان قدر خمسين ذراعا فى الهواء حتّى دنا من النائب، و قال له: أطير بها إلى فوق شيئا آخر؟ فقال له النائب: لا، و أنعم عليه و هاداه الناس، فكتب السلطان بمنعه من القدوم إلى الديار المصريّة، فسار إلى القدس ثم رجع إلى بلاده. و فى فقرائه يقول سراج الدين عمر الورّاق من موشّحة طويلة أوّلها:

[جتنا عجم من جوّ الروم] صور تحير فيها الأفكار

لها قرون مثل التّيران إبليس يصيح منهم زنهار

و قد ترجمنا براق هذا فى تاريخنا المنهل الصافى بأوسع من هذا. انتهى.

ثم إنّ السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون فى سنة سبع و سبعمائة ضجر من الحجر عليه من تحكّم الأميرين سلّار و بيبرس الجاشنكير و منعه من التصرّف و ضيق يده، و شكا ذلك لخاصّته، و استدعى الأمير بكتمر الجوكندار و هو أمير جاندار يوم ذاك فى خفية و أعلمه بما عزم عليه من القيام على الأميرين سلّار و بيبرس، فقرّر معه بكتمر أنّ القلعة إذا أغلقت فى اللّيل و حملت مفاتيحها إلى السلطان على العادة لبست مماليك السلطان السلاح و ركبت الخيول من الإسطبل و سارت إلى إسطبلات الأمراء، و دقّت كوسات السلطان بالقلعة حربيّا ليجتمع المماليك تحت القلعة بمن هو فى طاعة السلطان، قال بكتمر: و أنا أهجم على بيتى سلّار و بيبرس بالقلعة أيضا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۷۱

قلت: أعنى أنّ بكتمر كان سكنه بالقلعة، فيهجم هو أيضا على بيتى سلّار و بيبرس بالقلعة أيضا، و يأخذهما قبضا باليد.

و كان لكلّ من بيبرس و سلّار أعين عند السلطان، فبلّغوهما ذلك فاحترزا على أنفسهما، و أمرا الأمير [سيف الدين] بلبان الدّمشقىّ والى القلعة، و كان خصيصا بهما، أن يوهم أنّه أغلق باب القلعة و يطرّف أقفالها و يعبر بالمفاتيح إلى السلطان على العادة ففعل ذلك. و ظنّ السلطان و مماليكه أنّهم قد حصلوا على عرضهم، و انتظروا بكتمر الجوكندار أن يحضر إليهم فلم يحضر، فبعثوا إليه فإذا هو مع بيبرس و سلّار و قد حلف لهما على القيام معهما. فلمّا طلع النهار ظنّ السلطان أنّ بكتمر قد غدر به و ترقّب المكروه من الأمراء و ليس الأمر كذلك، و ما هو إلّا أنّ سلّار و بيبرس لمّا بلغهما الخبر خرجوا إلى دار النيابة بالقلعة، و عزم بيبرس أن يهجم على بكتمر و يقتله فمنعه سلّار لما كان عنده من التثبت و التّؤدة، و أشار بالإرسال إليه و يحضره حتّى تبطل حركة السلطان؛ فلمّا أتى بكتمر الرسول تحيّر فى أمره و قصد الامتناع، و ألبس مماليكه السلاح و منعهم و خرج إليهم، فعنّفه سلّار و لامه على ما قصد فأنكر و حلف لهم على أنّه معهم، و أقام عندهم إلى الصباح و دخل مع الأمراء إلى الخدمة عند الأمير سلّار النائب، و وقف ألزام سلّار و بيبرس على خيولهم بباب الإسطبل مترقّبين خروج المماليك السلطانية، و لم يدخل أحد من الأمراء إلى خدمة السلطان و تشاوروا، و قد أشيع فى القاهرة أنّ الأمراء يريدون قتل السلطان الملك الناصر أو إخراجه إلى الكرك، فعزّ عليهم ذلك لمحبّتهم له، فلم تفتح الأسواق، و خرج العامّة و الأجناد إلى تحت القلعة، و بقى الأمراء نهارهم مجتمعين و بعثوا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۷۲

بالاحتراس على السلطان خوفا من نزوله من باب السّرّ، و ألبسوا عدّة مماليك و أوقفوهم مع الأمير سيف الدين سمك أخى سلّار على باب الإسطبل. فلمّا كان نصف الليل وقع بداخل الإسطبل حسّ و حركة من قيام المماليك السلطانية و لبسهم السلاح لينزلوا بالسلطان على حميّة من الإسطبل و توقّعوا الحرب، فمنعهم السلطان من ذلك، و أراد الأمير سمك إقامة الحرمة فرمى بالنّشّاب و دقّ الطّبل فوقع سهم من النّشّاب بالرّفرف السّلطانىّ، و استمرّ الحال على ذلك إلى أذان العصر من الغد، فبعث السلطان إلى الأمراء يقول: ما سبب هذا الركوب على باب إسطبلى؟ إن كان غرضكم فى الملك فما أنا متطلّع إليه، فخذوه و ابعثونى أىّ. وضع أردتم! فردّوا إليه الجواب مع الأمير بيبرس الدّوادار و الأمير عزّ الدين أيبك الخازندار و الأمير برلغى الأشرفى بأنّ السبب هو من عند السلطان و من المماليك الذين يحرّضونه على الأمراء، فأنكر أن يكون أحد من مماليكه ذكر له شيئا عن الأمراء؛ و فى عود الجواب من عند السلطان وقعت

صیحة بالقلعة سببها أنّ العامة کان جمعهم قد کثر، و کان عادتهم أنّهم لا یریدون أن یلی الملک أحد من الممالیک، بل إن کان و لا بدّ یکون الذی یلی الملک من بنی قلاوون. و کانوا مع ذلک شدیدی المحبّة للملک الناصر محمد بن قلاوون.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۷۳

فلمّا رأوا العامة أنّ الملک الناصر قد وقف بالرّفرف من القلعة، و حواشی بیبرس و سلّار قد وقفوا علی باب الإسطبل محاصرینه، حنقوا من ذلک و حملوا و صرخوا یدا واحدة علی الأمراء بباب الإسطبل، و هم یقولون: یا ناصر یا منصور! فأراد سمک قتالهم، فمنعه من کان معه من الأمراء و خوّفه الکسرة من العوامّ، فتقهقروا عن باب الإسطبل السلطانیّ وسطا علیهم العامّة و أفحشوا فی حقّهم. و بلغ ذلک بیبرس و سلّار فأرکبا الأمیر بتخاص المنصوریّ فی عدّة ممالیک فنزلوا إلی العامة ینحّونهم و یضربونهم بالدبابیس لیتفرّقوا فاشتدّ صیاحهم: یا ناصر یا منصور! و تکاثر جمعهم و صاروا یدعون للسلطان، و یقولون: اللّه یخون الخائن، اللّه یخون من یخون ابن قلاوون! ثم حمل طائفة منهم علی بتخاص و رجمه طائفة أخری، فجرّد السیف لیضعه فیهم فخشی تکاثرهم علیه، فأخذ یلاطفهم، و قال لهم: طیّبوا خاطرکم، فإنّ السلطان قد طاب خاطره علی أمرائه، و ما زال یحلف لهم حتّی تفرّقوا؛ و عاد بتخاص إلی سلّار و بیبرس و عرّفهم شدّة تعصّب العامّة للسلطان؛ فبعث الأمراء عند ذلک ثانیا إلی السلطان بأنّهم ممالیکه و فی طاعته، و لا بدّ من إخراج الشباب الذین یرمون الفتنة بین السلطان و الأمراء، فامتنع السلطان من ذلک و اشتدّ، فما زال به بیبرس الدّوادار و برلغی حتّی أخرج منهم جماعة و هم: یلبغا التّرکمانیّ، و أیدمر المرقبی، و خاصّ ترک؛ فهدّدهم بیبرس و سلّار و وبّخاهم و قصد سلّار أن یقیّدهم، فلم توافق الأمراء علی ذلک رعایة لخاطر السلطان؛ فأخرجوا إلی القدس من وقتهم علی البرید. و دخل جمیع الأمراء علی السلطان و قبّلوا الأرض ثم قبّلوا یده فخلع علی الأمیر بیبرس و سلّار، ثم سأل الأمراء السلطان أن یرکب فی أمرائه

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۷۴

إلی الجبل الأحمر حتّی تطمئنّ قلوب العامّة علیه و یعلموا أنّ الفتنة قد خمدت، فأجاب لذلک. و بات لیلته فی قلق زائد و کرب عظیم لإخراج ممالیکه المذکورین إلی القدس.

ثم رکب بالأمراء من الغد إلی قبّة النّصر تحت الجبل الأحمر، و عاد بعد ما قال لبیبرس و سلار: إنّ سبب الفتنة إنما کان من بکتمر الجوکندار، و ذلک أنه رآه قد رکب بجانب الأمیر بیبرس الجاشنکیر و حادثه فتذکّر غدره به فشقّ علیه ذلک فتلطّفوا به فی أمره؛ فقال و اللّه ما بقیت لی عین تنظر إلیه، و متی أقام فی مصر لا جلست علی کرسی الملک أبدا فأخرج من وقته إلی قلعة الصّبیبة، و استقرّ عوضه أمیر جاندار الأمیر بدر الدین بکتوت الفتاح. فلمّا مات سنقر شاه بعد ذلک استقرّ بکتمر الجوکندار فی نیابة صفد عوضه فنقل إلیها من الصّبیبة. و اجتاز السلطان بخانقاه

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۷۵

الأمیر بیبرس الجاشنکیر داخل باب النصر فرآها فی ممرّه، و کان قد نجز العمل منها فی هذه الأیام، و طلع السلطان إلی القلعة و سکن الحال، و الأمراء فی حصر من جهة العامّة من تعصّبهم للسلطان، و السلطان فی حصر بسبب حجر الأمراء علیه و إخراج ممالیکه من عنده. و استمرّ ذلک إلی أن کان العاشر من جمادی الآخرة من سنة ثمان و سبعمائة عدّی السلطان الجیزة و أقام حول الأهرام یتصیّد عشرین یوما، و عاد و قد ضاق صدره و صار فی غایة الحصر من تحکّم بیبرس الجاشنکیر و سلّار علیه، و عدم تصرّفه فی الدولة من کلّ ما یرید، حتّی إنّه لا یصل إلی ما تشتهی نفسه من المأکل لقلة المرتّب له! فلو لا ما کان یتحصّل له من أملاکه و أوقاف أبیه لما وجد سبیلا لبلوغ بعض أغراضه، و طال الأمر علیه سنین، فأخذ فی عمل مصلحة نفسه

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۷۶

و أظهر أنّه یرید الحجّ بعیاله، و حدّث بیبرس و سلّار فی ذلک یوم النصف من شهر رمضان فوافقاه علیه، و أعجب البرجیّة خشداشیة بیبرس سفره لینالوا أغراضهم و شرعوا فی تجهیزه، و کتب إلی دمشق و الکرک و غزّة برمی الإقامات، و ألزم عرب الشرقیة بحمل

الشّعير، فتهيّأ ذلك، و أحضر الأمراء تقادمهم له من الخيل و الجمال فى العشرين من شهر رمضان فقبلها منهم و شكرهم على ذلك. و ركب فى خامس عشرين شهر رمضان من القلعة يريد السفر إلى الحجّ، و نزل من القلعة و معه جميع الأمراء، و خرج العامّة حوله و حاذوا بينه و بين الأمراء، و هم يتباكون حوله و يتأسّفون على فراقه و يدعون له إلى أن نزل بركة الحجّاج. و تعيّن للسفر مع السلطان من الأمراء:

عزّ الدين أيدمر الخطيرىّ الأستادار، و سيف الدين آل ملك الجوكندار، و حسام الدين قرا لاچين أمير مجلس، و سيف الدين بلبان [المحمدىّ] أمير جاندار، و عزّ الدين أيبك الرومى السّلاح دار، و ركن الدين بيبرس الأحمدىّ، و علم الدين سنجر الجمقدار، و سيف الدين تقطاى الساقى، و شمس الدين سنقر السّعدىّ النقيب؛ و من المماليك خمسة و سبعون نفرا. و ودّعه سلّار و بيبرس بمن معهم من الأمراء، و هم على خيولهم من غير أن يترجّلوا له و عاد الأمراء، فرحل السلطان من ليلته و خرج إلى جهة الصالحيّة و تصيّد بها، ثم سار إلى الكرك و معه من الخيل مائة و خمسون فرسا، فوصل إلى الكرك فى يوم الأحد عاشر شوّال بمن معه من الأمراء و مماليكه. و احتفل الأمير جمال الدين آقوش الأشرفى نائب الكرك بقدومه و قام له بما يليق به، و زيّن له القلعة و المدينة، و فتح له باب السّرّ من قلعة الكرك و مدّ الجسر على الخندق، و كان له مدّة سنين لم يمدّ و قد ساس خشبه لطول مكثه.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۷۷

فلمّا عبرت الدوابّ عليه و أتى السلطان فى آخرهم انكسر الجسر تحت رجلى فرس السلطان بعد ما تعدّى يدا الفرس الجسر، فكاد فرس السلطان أن يسقط لو لا أنهم جبدوا عنان الفرس حتّى خرج من الجسر و هو سالم، و سقط الأمير بلبان طرنا أمير جاندار و جماعة كثيرة، و لم يمت منهم سوى رجل واحد و سقط أكثر خاصّكيّة السلطان فى الخندق و سلموا كلّهم إلا اثنين، و هم: الحاج عزّ الدين أزدمر رأس نوبة الجمداريّة انقطع نخاعه و بطل نصفه و عاش كذلك لسنة ستّ عشرة و سبعمائة، و الآخر مات لوقته.

قال ابن كثير فى تاريخه: و لما توسط السلطان الجسر انكسر فسلم من كان قدّامه و قفز به فرسه فسلم، و سقط من كان وراءه و كانوا خمسين فمات أربعة و تهشّم أكثرهم فى الوادى تحته. انتهى.

و قال غيره: لمّا انقطعت سلسلة الجسر و تمزق الخشب صرخ السلطان على فرسه و كان قد نزلت رجله فى الخشب فوثب الفرس إلى داخل الباب، و وقع كلّ من كان على الجسر و كانوا أكثر من مائة مملوك، فوقعوا فى الخندق فمات منهم سبعة و انهشم منهم خلق كثير و ضاق صدر السلطان، فقيل له: هذه شدّة يأتى من بعدها فرج!.

و لمّا جلس السلطان بقلعة الكرك و وقف نائبها الأمير آقوش خجلا و جلا خائفا أن يتوهّم السلطان أن يكون ذلك مكيدة منه فى حقّه، و كان النائب المذكور قد عمل ضيافة عظيمة للسلطان غرم عليها جملة مستكثرة، فلم تقع الموقع لاشتغال

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۷۸

السلطان بهمّه و بما جرى على مماليكه و خاصّكيّته. ثم إنّ السلطان سأل الأمير آقوش عن الجسر المذكور فقال: ما سبب انقطاعه؟ فقال آقوش بعد أن قبّل الأرض: أيّد اللّه مولانا السلطان، هذا الجسر عتيق و ثقل بالرجال فما حمل، فقال السلطان: صدقت، ثم خلع عليه و أمره بالانصراف. و عند ما استقرّ السلطان بقلعة الكرك عرّف الأمراء أنّه قد انثنى عزمه عن الحجّ، و اختار الإقامة بالكرك و ترك السلطنة، و خلع نفسه ليستريح خاطره.

و قال ابن كثير: لمّا جرى على السلطان ما جرى و استقرّ فى قلعة الكرك خلع على النائب، و أذن له فى التوجّه إلى مصر فسافر.

و قال صاحب النّزهة: لمّا بات السلطان تلك اللّيلة فى القلعة و أصبح طلب نائب الكرك و قال له: يا جمال الدّين، سافر إلى مصر و اجتمع بخشداشيتك فباس الأرض، و قال: السمع و الطاعة، ثم إنّه خرج فى تلك الساعة بمماليكه و كلّ من يلوذ به. ثم بعد ثلاثة أيام نادى السلطان بالقلعة و الكرك لا يبقى هنا أحد لا كبير و لا صغير حتّى يخرج فيجيب ثلاثة أحجار من خارج البلد، فخرج كلّ من بالقلعة و البلد.

ثم إنّ السلطان أغلق باب الكرك و رجعت الناس و معهم الأحجار فرأوا الباب مغلقا فقيل لهم: كلّ من له أولاد أو حريم يخرج إليه و لا يبقى أحد بالكرك، فخرج الناس بمتاعهم و أولادهم و أموالهم، و ما أمسى المساء و فقى فى الكرك أحد من أهلها غيره و مماليكه. ثم طلب مملوكه أرغون الدّوادار و قال له: سر إلى عقبة أيّلة و أحضر بيتى و أولادى، فسار إليهم أرغون و أقدمهم عليه. و وجد الملك الناصر من الأموال

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۷۹

بالكرك سبعة و عشرين ألف دينار عينا، و ألف ألف درهم و سبعمائة ألف درهم.

ثم إنّ السلطان طلب الأمراء الذين قدموا معه و عرفهم أنّه اختار الإقامة بالكرك كما كان أوّلا، و أنه ترك السلطنة فشقّ عليهم ذلك و بكوا و قبّلوا الأرض يتضرّعون إليه فى ترك هذا الخاطر و كشفوا رءوسهم فلم يقبل و لا رجع إلى قولهم. ثم استدعى القاضى علاء الدين على بن أحمد بن سعيد بن الأثير كاتب السرّ، و كان قد توجّه معه، و أمره أن يكتب للأمراء بالسلام عليهم، و يعرّفهم أنّه قد رجع عن الحجّ و أقام بالكرك و نزل عن السلطنة، و سألهم الإنعام عليه بالكرك و الشّوبك؛ و أعطى الكتب للأمراء و أمرهم بالعودة إلى الديار المصريّة، و أعطاهم الهجن التى كانت معه برسم الحجّ، و عدّتها خمسمائة هجين و الجمال و المال الذى قدّمه له الأمراء برسم التّقدمة قبل خروجه من القاهرة، فساروا الجميع إلى القاهرة.

و أمّا إخراج السلطان أهل قلعة الكرك منها لأنّه قال: أنا أعلم كيف باعوا الملك السعيد بركة خان ابن الملك الظاهر بيبرس بالمال لطرنطاى! فلا يجاوروننى، فخرج كلّ من كان فيها بأموالهم و حريمهم من غير أن يتعرّض إليهم أحد البتّة.

و أمّا النائب آقوش فإنّه أخذ حريمه و سافر إلى مصر بعد أن قدّم ما كان له من الغلال إلى السلطان، و هو شىء كثير، فقبله السلطان منه. فلمّا قدم آقوش إلى مصر قال له سلّار و بيبرس: من أمرك بتمكين السلطان من الطلوع إلى القلعة؟

(يعنى قلعة الكرك) فقال: كتابكم وصل إلىّ يأمرنى بأن أنزل إليه و أطلعه إلى القلعة، فقال: و أين الكتاب؟ فأخرجه، فقالا: هذا غير الكتاب الذى كتبناه فاطلبوا ألطنبغا، فطلبوه فوجدوه قد هرب إلى الكرك عند السلطان فسكتوا عنه. انتهى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۸۰

و أمّا الكتاب الذى كتبه الملك الناصر محمد بن قلاوون من الكرك إلى بيبرس و سلّار مضمونه، بسم اللّه الرحمن الرحيم:

حرس اللّه تعالى نعمة الجنابين العاليين الكبيرين الغازيين المجاهدين، وفّقهما اللّه تعالى توفيق العارفين! أمّا بعد فقد طلعت إلى قلعة الكرك و هى من بعض قلاعى و ملكى، و قد عوّلت على الإقامة فيها، فإن كنتم مماليكى و مماليك أبى فأطيعوا نائبى (يعنى نائبه سلّار) و لا تخالفوه فى أمر من الأمور، و لا تعملوا شيئا حتّى تشاورونى فأنا ما أريد لكم إلّا الخير، و ما طلعت إلى هذا المكان إلّا لأنّه أروح لى و أقلّ كلفة، و إن كنتم ما تسمعون منى فأنا متوكّل على اللّه و السلام.

فلمّا وصل الكتاب إلى الأمراء قرءوه و تشاوروا ساعة، ثم قاموا من باب القلعة و ذهبوا إلى دار بيبرس و اتفقوا على أن يرسلوا إلى الملك الناصر كتابا، فكتبوه و أرسلوه مع البروانىّ على البريد، فسار البروانىّ إلى أن وصل إلى الكرك و اجتمع بالملك الناصر و قبّل الأرض بين يديه و ناوله الكتاب، فأعطاه الملك الناصر لأرغون الدّوادار، فقرأه فتبسّم السلطان و قال: لا إله إلّا اللّه! و كان فى الكتاب: ما علمنا ما عوّلت عليه، و طلوعك إلى قلعة الكرك و إخراج أهلها و تشييعك نائبها، [و هذا أمل بعيد] فخلّ عنك شغل الصّبىّ، و قم و احضر إلينا و إلّا بعد ذلك تطلب الحضور و لا يصحّ لك، و تندم و لا ينفعك النّدم، فياليت لو علمنا ما كان وقع فى خاطرك و ما عوّلت عليه، غير أنّ لكلّ ملك انصرام، و لانقضاء الدولة أحكام، و لحلول الأقدار سهام؛ و لأجل هذا أمرك غيّك بالتطويل، و حسّن لك زخرف الأقاويل؛ فاللّه اللّه حال وقوفك على هذا الكتاب، يكون الجواب حضورك بنفسك و معك مماليكك، و إلا تعلم أنّا ما نخلّيك فى الكرك، [و لو كثر شاكروك] و يخرج الملك من يدك؛ و السلام.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۸۱

فقال الملك الناصر: لا إله إلا اللّه، كيف أظهروا ما فى صدورهم! ثم أمر بإحضار آلة الملك مثل العصائب و السناجق و الكوسات [و الهجن] و كلّ ما كان معه من آلة الملك و سلّمها إلى البروانىّ، و قال له: قل لسلّار ما أخذت لكم شيئا من بيت المال، و هذا الذى أخذته قد سيرته لكم، و انظروا فى حالكم فأنا ما بقيت أعمل سلطانا، و أنتم على هذه الصورة! فدعونى أنا فى هذه القلعة منعزلا عنكم إلى أن يفرج اللّه تعالى إمّا بالموت و إمّا بغيره. فأخذ البروانىّ الكتاب و جميع ما أعطاه السلطان و سار إلى أن وصل إلى الديار المصريّة؛ و دفع الكتاب لسلّار و بيبرس، فلما قرأا الكتاب قالا: و لو كان هذا الصبىّ يجىء ما بقى يفلح و لا يصلح للسلطنة، و أىّ وقت عاد إلى السلطنة لا ـ نأمن غدره. فلمّا سمعت الأمراء ذلك اجتمعت على سلطنة الأمير سلّار، فخاف سلّار من ذلك و خشى العاقبة فامتنع، فاختار الأمراء ركن الدين بيبرس الجاشنكير و أكثرهم البرجية فإنّهم خشداشيته. و بويع له بعد أن أثبت كتاب الملك الناصر محمد بن قلاوون على القضاة بالديار المصريّة بأنّه خلع نفسه، و كانت البيعة لبيبرس فى الثالث و العشرين من شوّال من سنة ثمان و سبعمائة فى يوم السبت بعد العصر فى دار سلّار. يأتى ذكر ذلك كلّه فى أوّل ترجمة بيبرس، إن شاء اللّه تعالى. و كانت مدّة سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون فى هذه المرّة الثانية عشر سنين و خمسة أشهر و تسعة عشر يوما.

و تأتى بقيّة ترجمته فى سلطنته الثالثة، بعد أن نذكر سلطنة بيبرس و أيّامه، كما نذكر أيّام الملك الناصر هذا قبل ترجمة بيبرس المذكور على عادة هذا الكتاب إن شاء اللّه تعالى. و الحمد للّه وحده.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۸۲

السنة الأولى من سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون الثانية على مصر، و هى سنة ثمان و تسعين و ستمائة، على أن الملك المنصور لاچين كان حكم منها مائة يوم.

فيها كان قتل الملك المنصور حسام الدين لاچين المذكور و مملوكه منكوتمر حسب ما تقدّم.

و فيها فى العشر الأوسط من المحرّم ظهر كوكب ذو ذؤابة فى السماء ما بين أواخر برج الثّور إلى أوّل برج الجوزاء، و كانت ذؤابته إلى ناحية الشمال، و كان فى العشر الأخير من كانون الثانى و هو شهر طوبة.

و فيها توفّى القاضى نظام الدين أحمد ابن الشيخ الإمام العلّامة جمال الدين محمود ابن أحمد بن عبد السلام الحصيرىّ الحنفىّ فى يوم الخميس ثامن المحرّم و دفن يوم الجمعة بمقابر الصوفيّة عند والده، و كان إماما عالما بارعا ذكيّا و له ذهن جيّد و عبارة طلقة مفيدة، و درّس بالنّورية و غيرها و أفتى سنين و أقرأ، و ناب فى الحكم بدمشق عن قاضى القضاة حسام الدين الحنفىّ و حسنت سيرته رحمه اللّه.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۸۳

و فيها توفّى الأمير عزّ الدين أيبك الموصلىّ [المنصورىّ] نائب طرابلس و الفتوحات الطرابلسيّة فى أوّل صفر مسموما. و كان من أجلّ الأمراء و له مواقف مشهورة.

و فيها توفّى قتيلا الأمير سيف الدين طغجى بن عبد اللّه الأشرفىّ. أصله من مماليك الملك الأشرف خليل بن قلاوون. و قتل أيضا الأمير سيف الدين كرجى.

و الأمير نوغاى الكرمونى السلاح دار، و هؤلاء الذين قتلوا السلطان الملك المنصور حسام الدين لاچين و مملوكه منكوتمر، ثم قتلوا بعده بثلاثة أيام حسب ما تقدّم ذكر ذلك كلّه فى آخر ترجمة الملك المنصور لاچين مفصّلا، و قتل معهم تمام اثنى عشر نفرا من الأمراء و الخاصّكيّة ممّن تألّبوا على قتل لاچين.

و فيها توفّى الأمير بدر الدين بدر [الحبشىّ] الصّوابىّ [الخادم] فى ليلة الخميس تاسع جمادى الأولى بقرية الخيارة، كان خرج إليها فمرض بها و مات، و قيل بل مات فجأة و هو الأصحّ فحمل منها إلى جبل قاسيون، و دفن بتربته التى أعدّها لنفسه.

و كان أميرا مباركا صالحا ديّنا خيّرا. قال عزّ الدين بن عبد الدائم: أقام أمير مائة و مقدّم ألف أكثر من أربعين سنة، و ولى إمرة الحاجّ

بدمشق غير مرّة. رحمه اللّه.

و فيها توفّى العلّامة حجّة العرب الإمام الأستاذ بهاء الدين أبو عبد اللّه محمد ابن إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الحلبىّ النحوىّ المعروف بابن النحّاس، مات بالقاهرة فى يوم الثلاثاء سابع جمادى الأولى و أخرج من الغد، و دفن بالقرافة بالقرب من تربة الملك المنصور لاچين، و مولده فى سنة سبع و عشرين و ستمائة بحلب، و كان إماما عالما علّامة بارعا فى العربيّة، نادرة عصره فى فنون كثيرة. و له نظم و نثر.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۸۴

قال العلّامة أثير الدين أبو حيّان: قال حدّثنا الشيخ بهاء الدين ابن النحاس قال: اجتمعت أنا و الشّهاب مسعود السنبلىّ و الضياء المناوىّ فأنشد كلّ منا له بيتين، فكان الذى أنشده السّنبلى فى مليح مكارى:

علقته مكاريا شرّد عن عينى الكرى

قد أشبه البدر فلا يملّ من طول السّرى

و أنشد المناوىّ فى مليح اسمه جمرىّ:

أفدى الذى يكبت بدر الدّجى لحسنه الباهر من عبده

سمّوه جمريّا و ما أنصفوا ما فيه جمرىّ سوى خدّه

و أنشد الشيخ بهاء الدين هذا فى مليح مشروط:

قلت لما شرطوه و جرى دمه القانى على الوجه اليقين

غير بدع ما أتوا فى فعلهم هو بدر ستروه بالشّفق

قلت: و نظم الثلاثة نظم متوسّط ليس بالطبقة العليا. و أحسن من الأوّل قول من قال:

أفدى مكاريّا تراه إذا سعى كالبرق ينتهب العيون و يخطف

أخذ الكرا منّى و أحرمنى الكرى بينى و بينك يا مكارى الموقف

و أحسن من الأخير قول من قال، و هو نجم الدين عبد المجيد بن محمد التّنوخىّ:

أنظر إليه و سلّ قل بک عن محبته لعلّک

ملک الفؤاد بغير شر ط حسنه و الشّرط أملک

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۸۵

غيره فى المعنى:

شرّطوه فبكى من ألم فغدا ما بين دمع و دم

ناثرا من ذا و من ذا لؤلؤا و عقيقا ليس بالمنتظم

و فيها توفّى الصاحب تقىّ الدين أبو البقاء [الربعىّ] توبة بن علىّ بن مهاجر بن شجاع بن توبة التّكريتىّ [المعروف بالبيع] فى ليلة الخميس ثامن جمادى الآخرة و دفن بقاسيون. و كان رئيسا فاضلا ولى الوزر بدمشق لخمسة سلاطين: أوّلهم المنصور قلاوون، ثانيهم ابنه الأشرف خليل، ثم لأخيه الناصر محمد، ثم للعادل كتبغا، ثم للمنصور لاچين. انتهى. و كان مولده سنة عشرين و ستمائة.

و فيها فى أوّل ذى القعدة و قيل فى شوّال توفّى بالقاهرة الأمير الكبير بدر الدين بيسرى بن عبد اللّه الشّمسىّ الصالحىّ النّجمىّ بالسّجن بقلعة الجبل، و دفن بتربته بالقاهرة. كان أميرا جليلا معظّما فى الدّول؛ كان الظاهر بيبرس يقول: هذا ابن سلطاننا فى بلادنا! و عرضت عليه السلطنة لما قتل الملك الأشرف خليل ابن قلاوون فامتنع، و كانت قد عرضت عليه قبل ذلک بعد الملک السّعيد بن الظاهر فلم يقبل، و هو آخر من بقى من أكابر مماليک الملک الصالح نجم الدين أيّوب، و ترقّى حتى صار أمير مائة و مقدّم ألف، و عظم فى

الدّول حتّى قبض عليه خشداشه المنصور قلاوون و حبسه تسع سنين إلى أن أطلقه ابنه الأشرف خليل و أعاده إلى رتبته، فاستمر إلى أن قبض عليه المنصور لاچين و حبسه إلى أن قتل لاچين، و أعيد الناصر محمد بن قلاوون فكلّموه فى إطلاقه فأبى إلا حبسه إلى أن مات فى الحبّ. و كانت له

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج٨، ص: ١٨۶

دار عظيمة ببين القصرين و قد تغيّرت رسومها الآن. و كان عالى الهمّة كثير الصدقات و المعروف، كان عليه فى أيام إمرته رواتب لجماعة من مماليكه و حواشيه و خدمه، فكان يرتّب لبعضهم فى اليوم من اللّحم سبعين رطلا و ما تحتاج إليه من التّوابل و سبعين عليقة، و لأقلّهم خمسة أرطال و خمس علائق و ما بين ذلک، و كان ما يحتاج إليه فى كلّ يوم لسماطه و لدوره و المرتّب عليه ثلاثة آلاف رطل لحم و ثلاثة آلاف عليقة فى كلّ يوم؛ و كانت صدقته على الفقير ما فوق الخمسمائة و لا يعطى أقلّ من ذلک، و كان إنعامه ألف اردبّ غلّة و ألف قنطار عسل و ألف دينار و أشياء يطول شرحها.

و فى الجملة أنّه كان من أعظم أمراء مصر بلا مدافعة. (و بيسرى: اسم مركب من لفظتين: تركية و عجمية) و صوابه فى الكتابة (باى سرى) فباى فى اللغة التركية بالتفخيم هو السعيد، و سرى بالعجمى الرأس، فمعنى الاسم سعيد الرأس.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج٨، ص: ١٨٧

قلت: و كان سعيد الرأس كما قيل. و هذا بخلاف مذهب النّجاة فإنّ هذا الاسم عين المسمّى. انتهى.

و فيها توفّى الأستاذ جمال الدين أبو المجد ياقوت بن عبد اللّه المستعصمىّ الرّومىّ الطّواشىّ صاحب الخطّ البديع الذى شاع ذكره شرقا و غربا، كان خصيصا عند أستاذه الخليفة المستعصم بالله العبّاسىّ آخر خلفاء بنى العبّاس ببغداد، ربّاه و أدّبه و تعهّده حتّى برع فى الأدب، و نظم و نثر و انتهت إليه الرياسة فى الخط المنسوب.

و قد سمّى بهذا الاسم جماعة كثيرة قد ذكر غالبهم فى هذا التاريخ، منهم كتّاب و غير كتّاب، و هم: ياقوت أبو الدرّ [الكاتب مولى أبى المعالى أحمد بن على بن النجار] التاجر الرومى، وفاته بدمشق سنة ثلاث و أربعين و خمسمائة. و ياقوت الصّيقلىّ الجمالى أبو الحسن مولى الخليفة المسترشد العباسىّ، وفاته سنة ثلاث و ستين و خمسمائة.

و ياقوت أبو سعيد مولى أبى عبد اللّه عيسى بن هبة اللّه بن النّقّاش، وفاته سنة أربع و سبعين و خمسمائة. و ياقوت [بن عبد اللّه] الموصلى الكاتب أمين الدين المعروف بالملكى نسبة إلى أستاذه السلطان ملكشاه السّلجوقىّ، و ياقوت هذا أيضا ممن انتشر خطّه فى الآفاق، و وفاته بالموصل سنة ثمانى عشرة و ستمائة. و ياقوت [بن عبد اللّه] الحموىّ الرومى شهاب الدين أبو الدرّ كان من خدّام بعض التّجّار ببغداد يعرف بعسكر الحموىّ، و ياقوت هذا هو صاحب التصانيف و الخط أيضا، و وفاته سنة ستّ و عشرين و ستمائة. و ياقوت [بن عبد اللّه] مهذّب الدّين الرّومى مولى أبى منصور التاجر الجيلىّ، و ياقوت هذا كان شاعرا ماهرا و هو صاحب القصيدة التى أوّلها:

إن غاض دمعک و الأحباب قد بانوا فكلّ ما تدّعى زور و بهتان

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج٨، ص: ١٨٨

و وفاته سنة اثنتين و عشرين و ستمائة. فهؤلاء الذين تقدّموا ياقوت المستعصمىّ صاحب الترجمة بالوفاة، و كلّ منهم له ترجمة و فضيلة و خطّ و شعر. و قد تقدّم ذكر غالبهم فى هذا الكتاب، و إنما ذكرناهم هنا جملة لكون جماعات كثيرة من الناس مهما رأوه من الخطوط و التصانيف يقرءوه لياقوت المستعصمىّ، و ليس الأمر كذلک بل فيهم من رجّح خطّه ابن خلّكان على ياقوت هذا.

قلت: و قد خرجنا عن المقصود لكثرة الفائدة و لنعد إلى بقية ترجمة ياقوت المستعصمىّ. فمن شعره قوله:

تجدّد الشمس شوقى كلّما طلعت إلى محيّاک يا سمعى و يا بصرى

و أسهر اللّيل ذا أنس بوحشته إذ طيب ذكرک فى ظلمائه سمرى

و کلّ یوم مضی [لی] لا أراک به فلست محتسبا ماضیه من عمری

لیلی نهاری إذا ما درت فی خلدی لأنّ ذکرک نور القلب و البصر

و له أیضا:

صدّقتم فیّ الوشاة و قد مضی فی حبّکم عمری و فی تکذیبها

و زعمتم أنّی مللت حدیثکم من ذا یملّ من الحیاة و طیبها

الذین ذکر الذهبیّ وفاتهم فی هذه السنة، قال: و فیها توفّی السلطان الملک المنصور حسام الدین لاچین المنصوریّ. و من الغد قتل نائبه منکوتمر. ثم قتلوا الأمیرین کرجی و طغجی الأشرفیّین. و أحضر السلطان الملک الناصر و عاد إلی السلطنة.

و فیها توفی الإمام جمال الدین محمد بن سلیمان بن النقیب الحنفیّ صاحب التفسیر بالقدس فی المحرّم. و العلّامة بهاء الدین محمد [بن إبراهیم بن محمد بن إبراهیم] أبو عبد اللّه الحلبیّ ابن النحاس فی جمادی الأولی. و الصاحب تقیّ الدّین توبة بن علیّ

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۸۹

[ابن مهاجر] التّکریتیّ فی جمادی الآخرة. و الزاهد الملقّن علیّ بن محمد [بن علیّ] ابن بقاء الصالحیّ فی شوّال. و المسند ناصر الدین عمر بن عبد المنعم بن عمر [ابن عبد اللّه بن غدیر] بن القوّاس فی ذی القعدة. و صاحب حماة الملک المظفر تقی الدین محمود ابن المنصور محمد [بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه]. و الملک الأوحد یوسف ابن الملک الناصر داود بن المعظّم عیسی. و العماد عبد الحافظ بن بدران بن شبل النابلسیّ فی ذی الحجّة، و قد قارب التسعین.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم خمس أذرع و أصابع. مبلغ الزیادة سبع عشرة ذراعا و ست عشرة إصبعا.

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۹۹]

اشارة

السنة الثانیة من ولایة الملک الناصر محمد بن قلاوون الثانیة علی مصر، و هی سنة تسع و تسعین و ستمائة.

فیها کانت وقعة السلطان الملک الناصر محمد المذکور مع قازان علی حمص.

و قد تقدّم ذکرها.

و فیها توفی القاضی علاء الدین أحمد بن عبد الوهّاب بن خلف بن محمود [بن علیّ] ابن بدر العلامیّ المعروف بابن بنت الأعزّ. کان لطیف العبارة جمیل الصورة لطیف المزاج، تولّی حسبة القاهرة و نظر الأجباس، و درّس بعدّة مدارس و حجّ

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة؛ ج۸؛ ص۱۸۹

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۹۰

و دخل الیمن ثم عاد إلی القاهرة و مات بها فی شهر ربیع الآخر، و کان له نظم و نثر.

و من شعره قصیدة أوّلها:

إن أومض البرق فی لیل بذی سلم فإنّه ثغر سلمی لاح فی الظّلم

و فیها توفّی الشیخ المسند المعمّر شرف الدین أحمد بن هبة اللّه ابن تاج الأمناء أحمد بن محمد [بن الحسن بن هبة اللّه بن عبد اللّه بن الحسین] بن عساکر بدمشق، و بها دفن بمقابر الصوفیّة بتربة الشیخ فخر الدین بن عساکر، و کان من بقایا المسندین تفرّد سماعا و إجازة.

ذکر من عدم فی هذه السنة فی وقعة حمص مع التّتار

قاضـی القضاة حسام الـدّین الحنفیّ. و الشـیخ عماد الدین إسـماعیل ابن تاج الدین [أحمد بن سـعید] بن الأثیر الکاتب. و الأمیر جمال الـدین المطروحی. و الأـمیر سیف الـدین کرت. و الأـمیر رکن الـدین الجمالی نائب غزّة، و لم یظهر للجمیع خبر، غیر أنّهم ذکروا أن قاضـی القضاة حسام الدین المذکور أسـروه التتار و باعوه للفرنج، و وصل قبرص و صار بها حکیما، و داوی صاحب قبرص من مرض مخیف فشفی فأوعده أن بطلقه، فمرض القاضی حسام الدین المذکور و مات. کذا حکی بعض أجناد الإسکندریة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۹۱

و فیهـا توفی الشـیخ الصالـح الحافظ شـهاب الـدین أبو العبـاس أحمـد بن فرج بن أحمـد بن اللّخمیّ الإـشبیلی بـدمشق، و دفن بمقابر الصوفیـة، و کان حافظا دیّنا خیّرا زاهـدا متورّعا، عرض علیه جهات کثیرة فأعرض عنها، و هو صاحب القصـیدة المشـتملة علی صـفات الحدیث:

غرامی صحیح و الرّجا فیک معضل و حزنی و دمعی مرسل و مسلسل

و صبری عنکم یشهد العقل أنّه ضعیف و متروک و ذلّی أجمل

فلا حسن إلا سماع حدیثکم مشافهة تملی علیّ فأنقل

و أمری موقوف علیک و لیس لی علی أحد إلّا علیک المعوّل

و لو کان مرفوعا إلیک لکنت لی علی رغم عذّالی ترقّ و تعدل

و عذل عذول منکر لا أسیغه و زور و تدلیس یردّ و یهمل

أقضّی زمانی فیک متّصل الأسی و منقطعا عمّا به أتوصّل

و هأنا فی أکفان هجرک مدرج تکلّفنی ما لا أطیق فأحمل

و هی أطول من ذلک.

و فیهـا توفّی قاضـی القضـاة عز الـدین عبـد العزیز ابن قاضـی القضـاة محیی الـدین یحیی ابن محمـد بن علیّ بن الزکیّ فی یوم الأحد حادی عشر ذی الحجّة. و کان من أعیان الدمشقیین، و درّس بعدّة مدارس و انتفع به الناس. رحمه اللّه.

و فیها توفی الشیخ الإمام العالم مفتی المسلمین القاضی شمس الدین محمد ابن الشیخ الإمام العلّامة شیخ المواهب قاضی القضاة صدر الدین أبی الربیع سلیمان

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۹۲

ابن أبی العزّ وهیب الحنفی الدّمشـقی فی یوم الجمعة سادس عشـر ذی الحجة بالمدرسة النوریة بدمشق، و دفن بتربة والده بقاسیون، و کان فقیها عالما مفتیا بصـیرا بالأحکام متصـدّیا للفتوی و التدریس، أفتی مدّة أربع و ثلاثین سـنة و قرأ علیه جماعة کثیرة و انتفع الناس به، و کان نائبا فی القضاء عن والده و سئل بالمناصب الجلیلة فامتنع من قبولها. رحمه اللّه.

قلت: و بنو العز بیت کبیر بدمشق مشهورون بالعلم و الریاسة.

و فیها توفّی صاحب الأندلس أمیر المسـلمین أبو عبد اللّه محمد بن محمد بن یوسف المعروف بابن الأحمر ملک الأندلس و ما ولاها بعد موت والده سنة إحدی و سبعین و ستمائة، و امتدت أیامه و قوی سلطانه، و مات فی عشر الثمانین رحمه اللّه تعالی.

الـذین ذکر الذهبیّ وفاتهم فی هذه السـنة، قال: فیها توفّی الإمام شـمس الدین محمد بن عبد القویّ المقدسـیّ النحویّ. و عماد الدین یوسف بن أبی نصر الشقاریّ، و قاضی القضاة إمام الدین عمر بن عبد الرحمن القزوینیّ بمصرفی ربیع الآخر.

و عبـد الـدائم بن أحمـد المحجّی [القبّانی] الـوزّان. و علی بن أحمـد بن عبـد الـدائم و أخوه عمر. و أحمـد بن زیـد [بن أبی الفضـل الصالحی الفقیر المعروف] بالجمّال:

و شرف الدین أبو الفضل أحمد بن هبة اللّه بن أحمد بن عساکر فی جمادی الأولی.

و عيسى بن بركة بن والى. و محمد بن أحمد بن نوال الرصافى. و على بن مطر المحجّى

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۹۳

البقّال. و صفيّة بنت عبد الرحمن بن عمرو الفرّاء، و ابن عمها إبراهيم بن أبى الحسن [بن عمرو بن موسى أبو إسحاق الفرّاء]. و أحمد بن محمد الحدّاد. و خديجة بنت [التّقىّ محمد بن محمود بن عبد المنعم] المراتبىّ. و الحافظ شهاب الدين أحمد بن فرج اللّخمىّ الإشبيلىّ فى جمادى الآخرة. و أبو العبّاس أحمد بن سليمان بن أحمد المقدسىّ الحرّانى.

و الشيخ عزّ الدين عبد العزيز بن محمد بن عبد الحقّ. و الخطيب موفّق الدين محمد بن محمد [المعروف ب] ابن حبيش فى جمادى الآخرة بدمشق. و المعمّرة زينب بنت عمر ابن كندى ببعلبكّ. و الأمير علم الدين [سنجر البرنلى] الدّوادارى فى رجب بحصن الأكراد. و المؤيّد علىّ بن إبراهيم بن يحيى ابن خطيب عقرباء. و شمس الدين محمد ابن على بن أحمد بن فضل الواسطىّ فى رجب، و له أربع و ثمانون سنة. و العلّامة نجم الدين أحمد بن مكّى فى جمادى الآخرة. و الإمام شمس الدين محمد بن سلمان بن حمائل سبط غانم. و الشيخ بدر الدين حسن بن على بن يوسف بن هود المرسىّ فى رجب.

و الإمام شمس الدين محمد ابن الفخر عبد الرحمن بن يوسف البعلبكّىّ فى رمضان.

و الشريف شمس الدين محمد بن هاشم بن عبد القاهر العباسىّ العدل فى رمضان،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۹۴

و له أربع و تسعون سنة. و الشيخ بهاء الدين أيّوب بن أبى بكر [بن إبراهيم بن هبة اللّه أبو صابر] بن النحاس مدرس القليجيّة فى شوّال. و المفتى جمال الدين عبد الرحيم بن عمر الباجربقى. و العدل بهاء الدين محمد بن يوسف البرزالىّ عن اثنتين و ستين سنة. و الأديب جمال الدين عمر بن إبراهيم بن العقيمىّ الرّسعنىّ، و له أربع و تسعون سنة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثلاث أذرع وعدة أصابع. مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و ستّ أصابع، و كان الوفاء ثالث عشر توت.

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۰۰]

السنة الثالثة من ولاية الملك الناصر محمد بن قلاوون الثانية على مصر، و هى سنة سبعمائة من الهجرة.

فيها توفّى الأمير سيف الدّين بلبان الطّبّاخىّ بالعسكر المنصور على الساحل، و كان من أعيان الأمراء و أحشمهم و أشجعهم و أكثرهم عدّة و مماليك و حاشية.

و ولى نيابة حلب قبل ذلك بمدّة، ثم ولى الفتوحات بالساحل و دام عليها سنين.

و كان جميل السّيرة و الطريقة و له المواقف المشهورة و النّكاية فى العدوّ. رحمه اللّه تعالى.

و فيها توفّى الأديب البارع شهاب الدين أبو جلنك الحلبىّ الشاعر المشهور صاحب النوادر الطّريفة، كان بارعا ماهرا و فيه همّة و شجاعة. و لما كانت وقعة التّتار فى هذه السنة نزل أبو جلنك المذكور من قلعة حلب لقتال التّتار، و كان ضخما

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۹۵

سمينا فوقع عن فرسه من سهم أصاب الفرس فبقى راجلا، فأسروه و أحضروه بين يدى مقدّم التتار، فسأله عن عسكر المسلمين، فرفع شأنهم فغضب مقدّم التتار، عليه اللعنة، من ذلک فضرب عنقه. رحمه اللّه تعالى. و من شعر أبى جلنك المذكور قوله:

و شادن يصفع مغرى به براحة أندى من الوابل

فصحت فى الناس ألا فاعجبوا بحر غدا يلطم فى الساحل

قال الشيخ صلاح الدين الصفدىّ رحمه اللّه: و كان أبو جلنك قد مدح قاضى القضاة شمس الدين أحمد بن خلّكان فوقّع له برطلى

خبز، فكتب أبو جلنك على بستانه:

للّه بستان حللنا دوحه كجّنة قد فتّحت أبوابها

و البان تحسبه سنانيرا رأت قاضى القضاة فنفّشت أذنابها

قلت: لعل الصلاح الصّفدىّ و هم فى ابن خلّكان، و الصواب أنّ القصّة كانت مع قاضى القضاة كمال الدين بن الزّملكانىّ. انتهى.

و من شعر أبى جلنك فى أقطع.

و بى أقطع ما زال يسخو بماله و من جوده ما ردّ فى الناس سائل

تناهت يداه فاستطال عطاؤها و عند التّناهى يقصر المتطاول

قلت: و وقع فى هذا المعنى عدّة مقاطيع جيّدة فى كتابى المسمى ب «حلية الصفات فى الأسماء و الصناعات» فمن ذلك:

أفديه أقطع يشدو ساروا و لا ودّعونى

ما أنصفوا أهل ودى واصلتهم قطعونى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۹۶

و لشمس الدين بن الصائغ الحنفىّ:

و أقطع قلت له هل أنت لصّ أوحد

فقال هذى صنعة لم يبق لى فيها يد

و فى المعنى هجو:

تجنّب كلّ أقطع فهو لصّ يريد لك الخيانة كلّ ساعه

و ما قطعوه بعد الوصل لكن أرادوا كفّه عن ذى الصّناعه

غيره فى المعنى:

من يكن فى الأصل لصّا لم يكن قطّ أمينا

فثقوا منه برهن أو خذوا منه يمينا

و فيها توفّى الشيخ الصالح المسند عزّ الدين أبو الفدى إسماعيل بن عبد الرحمن ابن عمر بن موسى بن عميرة المعروف بابن الفرّاء المرداوىّ ثم الصالحىّ الحنبلىّ، مولده سنة عشر و ستّمائة و سمع الكثير و حدّث، و خرّج له الحافظ شمس الدين الذّهبىّ مشيخة، و كان ديّنا خيّرا و له نظم. من ذلك قوله:

أين من عهد آدم و إلى الآ ن ملوك و سادة و صدور

مزّقتهم أيدى الحوادث و استو لت عليهم رحى المنون تدور

و له فى المعنى و قيل هما لغيره:

ثم انقضت تلك السّنون و أهلها فكأنّها و كأنّهم أحلام

و كذاك من يأتى و حقّك بعدهم أمضاه ربّ قادر علّام

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۹۷

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى عزّ الدين أحمد ابن العماد عبد الحميد بن عبد الهادى فى المحرّم، و له ثمان و ثمانون سنة. و عماد الدين أحمد [بن محمد] بن سعد المقدسىّ و له ثلاث و ثمانون سنة. و عز الدين إسماعيل ابن عبد الرحمن بن عمر الفرّاء فى جمادى الآخرة، و له تسعون سنة. و أبو على يوسف ابن أحمد بن أبى بكر الغسولىّ فى الشهر، و له نحو من تسعين سنة. و الحافظ شمس الدين أبو العلاء محمود بن أبى بكر البخارىّ الفرضىّ بماردين فى ربيع الأوّل، و له ستّ و خمسون سنة.

و شمس الدین أبو القاسم الخضر بن عبد الرحمن [بن الخضر بن الحسین ابن الخضر بن الحسین] بن عبد اللّه بن عبدان الأزدیّ فی ذی الحجة. و المقرئ شمس الدین محمد بن منصور الحاضریّ فی صفر.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم و الحدیث (أعنی مجموع النیل) فی هذه السنة ستّ عشرة ذراعا و ثمانی عشرة إصبعا.

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۰۱]

السنة الرابعة من ولایة الملک الناصر محمد بن قلاوون الثانیة علی مصر، و هی سنة إحدی و سبعمائة.

فیها فی ثالث عشر من شهر ربیع الأوّل سافر الأمیر رکن الدین بیبرس الجاشنکیر إلی الإسکندریّة و صحبته جماعة کثیرة من الأمراء بسبب الصّید، و رسم

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۹۸

له السلطان أنّ مدّة مقامه بالإسکندریّة یکون دخلها له، ثم أعطی السلطان لجمیع الأمراء دستورا لمن أراد السفر لإقطاعه لعمل مصالح بلاده، و کان إذ ذاک یربّعون خیولهم شهرا واحدا لأجل العدوّ المخذول.

و فیها توفّی مسند العصر شهاب الدین أحمد بن رفیع الدّین إسحاق بن محمد بن المؤیّد الأبرقوهیّ بمکّة فی العشرین من ذی الحجّة. و مولده سنة خمس عشرة و ستمائة بابرقوه من أعمال شیراز، و کان سمع الکثیر و حدّث و طال عمره و تفرّد بأشیاء.

و فیها توفّی الحافظ شرف الدین أبو الحسین علی ابن الإمام أبی عبد اللّه محمد بن أبی الحسین أحمد بن عبد اللّه بن عیسی بن أحمد بن محمد الیونینیّ فی یوم الخمیس حادی عشر شهر رمضان ببعلبکّ. و مولده فی حادی عشر شهر رجب سنة إحدی و عشرین و ستمائة ببعلبک.

و فیها توفّی الأمیر علم الدین سنجر بن عبد اللّه المعروف بأرجواش المنصوریّ نائب قلعة دمشق فی لیلة السبت ثانی عشرین ذی الحجّة و کان شجاعا. و هو الذی حفظ قلعة دمشق فی نوبة غازان و أظهر من الشجاعة ما لا یوصف علی تغفّل کان فیه؛ حسب ما قدّمنا من ذکره فی أصل ترجمة الملک الناصر محمد بن قلاوون ما فعله و کیف کان حفظه لقلعة دمشق. و أمّا أمر التّغفّل الذی کان به:

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۹۹

قال الشیخ صلاح الدین خلیل بن أیبک فی تاریخه: حکی لی عنه عبد الغنی الفقیر المعروف قال: لمّا مات الملک المنصور قلاوون (أعنی أستاذه) قال لی:

أحضر لی مقرئین یقرءون ختمة للسلطان، فأحضرت إلیه جماعة فجعلوا یقرءون علی العادة، فأحضر دبوسا و قال: کیف تقرءون للسلطان هذه القراءة! تقرءون عالیا، فضجّوا بالقراءة جهدهم، فلمّا فرغوا منها، قلت: یا خوند فرغت الختمة، فقال: یقرءون أخری فقرءوها و قفزوا ما أرادوا، فلمّا فرغوا أعلمته، قال ویلک! السماء ثلاثة، و الأرض ثلاثة، و الأیام ثلاثة، و المعادن ثلاثة، و کل ما فی الدنیا ثلاثة، یقرءون أخری! فقلت: اقرءوها و احمدوا اللّه تعالی علی أنّه ما علم أن هذه الأشیاء سبعة سبعة، فلمّا فرغوا [من] الثلاثة و قد هلکوا من صراخهم، قال:

دعهم عندک فی التّرسیم إلی بکرة، و رح اکتب علیهم حجّة بالقسامة الشریفة بالله تعالی، و بنعمة السلطان أنّ ثواب هذه الختمات لمولانا السلطان الملک المنصور قلاوون؛ ففعلت ذلک و جئت إلیه بالحجّة، فقال: هذا جیّد، أصلح اللّه أبدانکم و صرف لهم أجرتهم. و حکی عنه عدّة حکایات من هذا تدلّ علی تغفّل کبیر.

قلت: و یلحق أرجواش هذا بعقلاء المجانین فإنّ تدبیره فی أمر قلعة دمشق و قیامه فی قتال غازان له المنتهی فی الشجاعة و حسن التدبیر. انتهی.

و فیها توفّی شمس الدین سعید بن محمد بن سعید بن الأثیر فی سابع عشر ذی القعدة بدمشق، و کان رئیسا فاضلا کاتبا، کتب الإنشاء بدمشق سنین.

و فیها توفّی الشریف نجم الدین أبو نمیّ محمد بن أبی سعد حسن بن علی بن قتادة بن إدریس بن مطاعن بن عبد الکریم بن عیسی بن حسین بن سلیمان بن علیّ بن عبد اللّه

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۰۰

ابن محمد بن موسی بن عبد اللّه المحض بن موسی [بن عبد اللّه] بن الحسن بن الحسن بن علیّ ابن أبی طالب الحسنیّ المکیّ صاحب مکّة المشرّفة فی یوم الأحد رابع صفر بعد أن أقام فی إمرة مکّة أربعین سنة، و قدم القاهرة مرارا، و کان یقال لو لا أنّه زیدیّ لصلح للخلافة لحسن صفاته.

أمر النیل فی هذه السنة الماء القدیم ثلاث أذرع و أصابع. مبلغ الزیادة ست عشرة ذراعا و ثلاث عشرة إصبعا.

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۰۲]

السنة الخامسة من ولایة الملک الناصر محمد بن قلاوون الثانیة علی مصر، و هی سنة اثنتین و سبعمائة.

فیها فی أوّل المحرّم قدم الأمیر بیبرس الجاشنکیر من الحجاز و معه الشریفان حمیضة و رمیثة فی الحدید فسجنا بقلعة الجبل.

و فیها فی رابع جمادی الآخرة ظهر بالنیل دابّة کلون الجاموس بغیر شعر، و أذناها کأذن الجمل، و عیناها و فرجها مثل الناقة، و یغطّی فرجها ذنب طوله شبر و نصف،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۰۱

طرفه کذنب السّمک، و رقبتها مثل ثخن التّلّیس المحشوّ تبنا، و فمها و شفتاها مثل الکربال، و لها أربع أنیاب [اثنتان فوق اثنتین] فی طول نحو شبر و عرض إصبعین، و فی فمها ثمانیة و أربعون ضرسا و سنّا مثل بیادق الشّطرنج، و طول یدها من باطنها شبران و نصف، و من رکبتها إلی حافرها مثل أظافیر الجمل، و عرض ظهرها قدر ذراعین و نصف، و من فمها إلی ذنبها خمس عشرة قدما، و فی بطنها ثلاث کروش، و لحمها أحمر له ذفرة السّمک، و طعمه مثل لحم الجمل، و ثخانة جلدها أربع أصابع، لا تعمل فیه السّیوف؛ و حمل جلدها علی خمسة جمال فی مقدار ساعة من ثقله، و کان ینقل من جمل إلی جمل و قد حشی تبنا حتّی وصل إلی قلعة الجبل.

و فیها کان بمصر و القاهرة زلزلة عظیمة أخربت عدّة منائر و مبان کثیرة من الجوامع و البیوت حتّی أقامت الأمراء و مباشرو الأوقاف مدّة طویلة ترمّ و تجدّد ما تشعّث فیها من المدارس و الجوامع حتّی منارة الإسکندریّة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۰۲

و فیها أبطل الأمیر رکن الدین بیبرس الجاشنکیر عید الشهید بمصر، و هو أنّ النصاری کان عندهم تابوت فیه اصبع یزعمون أنّها من أصابع بعض شهدائهم، و أنّ النیل لا یزید ما لم یرم فیه هذا التابوت، فکان یجتمع النصاری من سائر النواحی إلی شبرا، و یقع هناک أمور یطول الشرح فی ذکرها، حتی إنّ بعض النصاری باع

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۰۳

فی أیّام هذا العید باثنی عشر ألف درهم خمرا من کثرة الناس التی تتوجّه إلیه للفرجة، و کان تثور فی هذا العید فتن و تقتل خلائق. فأمر الأمیر بیبرس رحمه اللّه بإبطال ذلک، و قام فی ذلک قومة عظیمة، فشقّ ذلک علی النصاری، و اجتمعوا بالأقباط الذین أظهروا الإسلام، فتوجّه الجمیع إلی التاج بن سعید الدولة کاتب بیبرس، و کان خصیصا به و أوعدوا بیبرس بأموال عظیمة، و خوّفه من عدم طلوع النیل و من کسر الخراج، فلم یلتفت إلی ذلک و أبطله إلی یومنا هذا.

و فیها توفّی الشیخ کمال الدین أحمد بن أبی الفتح محمود بن أبی الوحش أسد ابن سلامة بن سلیمان بن فتیان المعروف بابن العطّار،

أحد كتّاب الدّرج بدمشق فى رابع عشر ذى القعدة. و مولده سنة ستّ و عشرين و ستمائة، و كان كثير التلاوة محبّا لسماع الحديث و سمع و حدّث، و كان صدرا كبيرا فاضلا و له نظم و نثر، و أقام يكتب الدّرج أربعين سنة.

و فيها توفّى الشيخ شهاب الدين أحمد ابن الشيخ القدوة برهان الدين إبراهيم ابن معضاد الجعبرىّ بالقاهرة؛ و قد تقدم ذكر وفاة والده، و دفن بزاويته خارج باب النصر من القاهرة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۰۴

و فيها توفّى الأمير فارس الدين ألبكى الساقى أحد مماليك الملك الظاهر بيبرس، كان من أكابر أمراء الديار المصريّة، ثم اعتقل إلى أن أفرج عنه الملك المنصور قلاوون و أنعم عليه بإمرة؛ ثم نقله إلى نيابة صفد فأقام بها عشر سنين، و فرّ مع الأمير قبجق إلى غازان و تزوّج بأخته، ثم قدم مع غازان و لحق بالسلطان، فولّاه نيابة حمص حتى مات بها فى يوم الثلاثاء ثامن ذى القعدة. و كان مليح الشكل كثير الأدب ما جلس قطّ بلا خفّ، و إذا ركب و نزل حمل جمداره شاشه، فإذا أراد الركوب لفّه مرّة واحدة بيده كيف كانت.

و فيها استشهد بوقعة شقحب الأمير عزّ الدين أيدمر العزّى نقيب المماليك السلطانيّة [فى أيّام لاچين]، و أصله من مماليك الأمير عزّ الدين أيدمر [الظاهرى] نائب الشام و كان كثير الهزل، و إليه تنسب سويقة العزّى خارج القاهرة بالقرب من جامع ألجاى اليوسفىّ.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۰۵

و فيها استشهد الأمير سيف الدين أيدمر الشمسى القشّاش، و كان قد ولى كشف الغربية و الشرقية جميعا و اشتدّت مهابته، و كان يعذّب أهل الفساد بأنواع قبيحة من العذاب، منها: أنّه كان يغرس خازوقا بالأرض و يجعل عوده قائما و يرفع الرّجل و يسقطه عليه! و أشياء كثيرة ذكرناها فى ترجمته فى تاريخنا المنهل الصافى، و لم يجسر أحد من الفلّاحين فى أيّامه أن يلبس مئزرا أسود و لا يركب فرسا و لا يتقلّد بسيف و لا يحمل عصا مجلّبة حتى و لا أرباب الإدراك، ثم استعفى من الولاية و لزم داره، و خرج لغزوة شقحب فى محفّة إلى وقت القتال لبس سلاحه و ركب فرسه و هو فى غاية الألم، فقيل له: أنت لا تقدر تقاتل، فقال: و اللّه لمثل هذا اليوم أنتظر، و إلّا بأىّ شىء يتخلّص القشّاش من ربّه بغير هذا! و حمل على العدوّ و قاتل حتّى قتل و رئى فيه- بعد أن مات- ستّة جراحات.

و فيها أيضا استشهد الأمير أوليا بن قرمان أحد أمراء الظاهريّة و هو ابن أخت قرمان، و كان شجاعا مقداما.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۰۶

و فيها استشهد أيضا الأمير عزّ الدين أيبك الأستادار، و كان من كبار الأمراء المنصوريّة.

و استشهد الأمير جمال الدين آقوش الشمسى الحاجب. و الأمير سيف الدين بهادر أحد الأمراء بحماة. و الأمير صلاح الدين بن الكامل. و الأمير علاء الدين [على] ابن الجاكى. و الشيخ نجم الدين [أيّوب] الكردىّ. و الأمير شمس الدين سنقر الشمسى [الحاجب]. و الأمير شمس الدين سنقر الكافرى. و الأمير سنقر شاه أستادار بيبرس الجالق. و الأمير حسام الدين علىّ بن باخل. و الأمير لاچين الرومىّ [المنصورى] أستادار الملك المنصور قلاوون و يعرف بالحسام.

قلت: و رأيت أنا من ذريّته الصارمى إبراهيم بن الحسام. و كلّ هؤلاء استشهدوا فى نوبة غازان بشقحب بيد التتار.

و فيها توفّى الملك العادل كتبغا المنصورىّ نائب حماة بها و هو فى الكهولیّة فى ليلة الجمعة يوم عيد الأضحى. و قد تقدّم ذكره فى ترجمته من هذا الكتاب عند ذكر سلطنته بالديار المصريّة، و ما وقع له حتى خلع و توجّه لنيابة صرخد، ثم نقل إلى نيابة حماة فمات بها.

و فيها توفّى قاضى القضاة تقىّ الدين محمد ابن الشيخ مجد الدين علىّ بن وهب ابن مطيع بن أبى الطاعة القشيرىّ المنفلوطىّ الفقيه المالكىّ ثم الشافعىّ المعروف بابن دقيق العيد قاضى قضاة الشافعيّة بالديار المصريّة. كان إماما عالما، كان مالكيّا ثم انتقل إلى مذهب الشافعىّ. و مولده فى عشرين شعبان سنة خمس و عشرين

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۰۷

و ستمائة، و مات فى يوم الجمعة حادى عشر صفر، و كان تفقّه بأبيه ثم بالشيخ عزّ الدين ابن عبد السلام و غيره، و سمع من ابن المقيّر و ابن رواح و ابن عبد الدائم و غيرهم، و خرّج لنفسه تساعيات، و صار من أئمة العلماء فى مذهبى مالك و الشافعىّ مع جودة المعرفة بالأصول و النحو و الأدب، إلّا أنّه كان قهره الوسواس فى أمر المياه و النّجاسات، و له فى ذلك حكايات و وقائع عجيبة. و روى عنه الحافظ فتح الدين بن سيد الناس، و قاضى القضاة علاء الدين القونوىّ، و قاضى القضاة علم الدين الإخنائى و غيرهم و كان أبو حيّان النحوىّ يطلق لسانه فى حقّ قاضى القضاة المذكور، و قد أوضحنا ذلك فى ترجمته فى المنهل الصافى باستيعاب. و من نظمه قصيدته المشهورة فى مدح النّبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم التى أوّلها:

يا سائرا نحو الحجاز مشمّرا اجهد فديتك فى المسير و فى السّرى

و إذا سهرت اللّيل فى طلب العلا فحذار ثم حذار من خدع الكرى

و له أيضا:

سحاب فكرى لا يزال هاميا و ليل همّى لا أراه راحلا

قد أتعبتنى همّتى و فطنتى فليتنى كنت مهينا جاهلا

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۰۸

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم لم يحرّر. مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا سواء، و كان الوفاء فى سابع عشرين مسرى.

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۰۳]

السنة السادسة من ولاية الملك الناصر محمد بن قلاون الثانية على مصر، و هى سنة ثلاث و سبعمائة.

فيها انتدب الأمراء لعمارة ما خرب من الجوامع بالزّلزلة فى السنة الماضية، و أنفقوا فيها مالا جزيلا.

و فيها كملت عمارة المدرسة الناصريّة ببين القصرين، و نقل الملك الناصر محمد ابن قلاوون أمّه من التّربة المجاورة للمشهد النّفيسىّ إليها. و موضع هذه المدرسة

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۰۹

الناصريّة كان دارا تعرف بدار سيف الدين بلبان الرشيدىّ فاشتراها الملك العادل زين الدين كتبغا و شرع فى بنائها مدرسة، و عمل بوّابتها من أنقاض مدينة عكّا و هى بوّابة كنيسة بها ثم خلع كتبغا، فاشتراها الملك الناصر محمد هذا على يد قاضى القضاة زين الدين علىّ بن مخلوف و أتمّها و عمل لها أوقافا جليلة، من جملتها:

قيساريّة أمير علىّ بالشرابشيين.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۱۰

و الرّبع المعروف بالدهيشة قريبا من باب زويلة، و حوانيت باب الزّهومة

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۱۱

و الحمّام المعروفة بالفخرية بجوار المدرسة الفخرية، و عدّة أوقاف أخرى فى مصر و الشام.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۱۲

و فيها توفّى الأمير عزّ الدين أيبک الحموىّ كان أصله من مماليک الملک المنصور صاحب حماة، فطلبه منه الملک الظاهر بيبرس هو و أبو خرص [علم الدين سنجر] من الملک المنصور، فسيّرهما إليه فرقّاهما ثم أمّرهما، ثم ولّى الملک الأشرف خليل أيبک هذا نيابة دمشق بعد سنجر الشجاعىّ حتّى عزله الملک العادل كتبغا بمملوكه إغزلوا العادلىّ، و ولى بعد ذلک نيابة صرخد ثم حمص و بها مات فى تاسع عشر ربيع الآخر.

و فيها توفى الأمير ركن الدين بيبرس التّلاوىّ و كان يلى شدّ دمشق، و كان فيه ظلم و عسف، و تولّى عوضه شدّ دمشق الأمير قيران [المنصورى] الدوادارى.

و فيها توفّى القاضى شمس الدين سليمان بن إبراهيم بن إسماعيل الملطىّ ثم الدّمشقىّ الحنفىّ أحد نوّاب الحكم بدمشق و مصر، كان فقيها عالما ديّنا مباركا حسن السّيرة.

و فيها توفّى القان إيل خان معزّ الدين قازان، و قيل غازان، و كلاهما يصح معناه ابن أرغون بن أبغا بن هولاكو بن تولى خان بن چنكز خان ببلاد قزوين فى ثانى عشر شوال و حمل إلى تربته و قبّته التى أنشأها خارج تبريز. و كان جلوسه على تخت

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۱۳

الملك فى سنة ثلاث و تسعين و ستمائة، و أسلم فى سنة أربع و تسعين؛ و نثر الذهب و الفضّة و اللؤلؤ على رءوس الناس، و فشا الإسلام بإسلامه فى ممالك التتار، و أظهر العدل و تسمّى محمودا، و كان أجلّ ملوك المغل من بيت هولاكو، و هو صاحب الوقعات مع الملك الناصر محمد بن قلاوون و الذى ملك الشام. و قد تقدّم ذكر ذلك كلّه فى أصل هذه الترجمة.

و فيها توفّى القاضى فتح الدين أبو محمد عبد اللّه ابن الصاحب عزّ الدين محمد بن أحمد بن خالد بن محمد القيسرانىّ فى يوم الجمعة خامس عشرين شهر ربيع الآخر بالقاهرة، و قد وزر جدّه موفّق الدين خالد للملك العادل نور الدين محمود بن زنكى المعروف بالشهيد، و كانت لديه فضيلة و عنى بالحديث و جمع و ألّف كتابا فى معرفة الصحابة، و كان له نظم و نثر، و خرّج لنفسه أربعين حديثا، و روى عنه الدّمياطىّ من شعره، و أخذ عنه الحافظ فتح الدين ابن سيّد الناس، و البرزالىّ و الذهبىّ.

و من شعره:

بوجه معذّبى آيات حسن فقل ما شئت فيه و لا تحاشى

و نسخة حسنه قرئت فصحّت وها خطّ الكمال على الحواشى

و فيها توفّى القاضى كمال الدين أبو الفتح موسى ابن قاضى القضاة شمس الدين أحمد بن شهاب الدين محمد بن خلّكان، كان فاضلا اشتغل فى حياة والده و درس، و كانت سيرته غير مشكورة، و هو كان أكبر الأسباب فى عزل والده، و مات فى شهر ربيع الأوّل.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۱۴

و فيها توفّى الشريف أبو فارس عبد العزيز بن عبد الغنى بن سرور بن سلامة المنوفىّ أحد أصحاب أبى الحجّاج الأقصرىّ. مات فى ليلة الاثنين خامس عشر ذى الحجة بمصر عن مائة و عشرين سنة.

و فيها توفّى الشريف جمّاز بن شيحة [بن هاشم بن قاسم بن مهنّا] أمير المدينة النبويّة مصروفا عن ولايتها، و الأصح وفاته فى القابلة.

و فيها توفّى الإمام المحدّث تاج الدين علىّ بن أحمد بن عبد المحسن الحسينىّ الغرّافى الإسكندرانىّ فى سابع ذى الحجّة.

و فيها توفّى الأمير الوزير ناصر الدين محمد، و يقال ذبيان، الشيخىّ، تحت العقوبة فى سابع ذى القعدة.

و فيها توفّى الشريف شمس الدين أبو عبد اللّه محمد بن الحسين بن محمد الأرموىّ نقيب الأشراف فى تاسع عشر شوّال، و كان فاضلا رئيسا. و قيل وفاته فى الآتية، و هو الأقوى.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثلاث أذرع و عدّة أصابع.

مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و ستّ عشرة إصبعا. و كان الوفاء أوّل أيام النّسىء.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۱۵

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۰۴]

السنة السابعة من ولاية الملك الناصر محمد بن قلاوون الثانية على مصر، و هى سنة أربع و سبعمائة.

فيها توجّه الأمير بيبرس الجاشنكير إلى الحجاز مرّة ثانية و معه علاء الدين أيدغدى الشّهرزورىّ رسول ملك الغرب، و الأمير بيبرس المنصورىّ الدّوادار، و الأمير بهاء الدين يعقوبا و جماعة كثيرة من الأمراء، و خرج ركب الحاجّ فى عالم كثير من الناس مع الأمير عزّ الدين أيبك الخازندار زوج بنت الملك الظاهر بيبرس.

و فيها ظهر فى معدن الزّمرّد قطعة زنتها مائة و خمسة و سبعون مثقالا فأخفاها الضامن ثم حملها إلى بعض الملوك، فدفع فيها مائة ألف و عشرين ألف درهم فأبى يبيعها، فأخذها الملك منه غصبا و بعث بها إلى السلطان فمات الضامن غمّا.

و فيها توفّى القاضى فتح الدين أحمد بن محمد بن سلطان القوصىّ الشافعىّ وكيل بيت المال بقوص و أحد أعيانها، كان من الرؤساء و مات بها فى حادى عشر المحرّم.

و فيها توفّى القاضى زين الدين أحمد ابن الصاحب فخر الدين محمد ابن الصاحب بهاء الدين علىّ بن محمد بن سليم بن حنّا فى ليلة الخميس ثامن صفر، و كان فقيها فاضلا متديّنا وافر الحرمة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۱۶

و فيها توفّى شمس الدين أحمد بن علىّ بن هبة اللّه بن السّديد الإسنائىّ خطيب إسنا و نائب الحكم بها و بأدفو و قوص فى شهر رجب، و كانت قد انتهت إليه رياسة الصعيد، و بنى بقوص مدرسة، و كان قوىّ النفس كثير العطاء مهابا ممدوحا يبذل فى بقاء رياسته الآلاف الكثيرة، يقال إنه بذل فى نيابة الحكم بالصعيد مائتى ألف، و صادره الأمير كراى المنصورىّ و أخذ منه مائة و ستين ألف درهم، فقدم القاهرة و مات بها.

و فيها توفّى الأمير بيبرس الموفّقى المنصورىّ أحد الأمراء بدمشق بها فى يوم الأربعاء ثالث عشر جمادى الآخرة مخنوقا و هو سكران. نسأل اللّه حسن الخاتمة بمنّه و كرمه.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۱۷

و فيها توفّى الأمير الشريف عزّ الدين جمّاز بن شيحة أمير المدينة، و قد تقدّم فى الماضية. و الأصح أنّه فى هذه السنة.

و فيها توفّى الأمير شمس الدين محمد ابن الصاحب شرف الدين إسماعيل بن أبى سعيد بن التّيتىّ الآمدىّ أحد الأمراء و نائب دار العدل بقلعة الجبل، كان رئيسا فاضلا.

و فيها توفّى الأمير مبارز الدين سوار الرومىّ المنصورىّ أمير شكار، و كان من أعيان الأمراء و فيه شجاعة و حشمة و رياسة، و كان معظّما فى الدول.

و فيها توفّى الأمير سيف الدين بهادر بن عبد اللّه المنصورىّ المعروف بسمز (أعنى سمينا) مقتولا بأيدى عرب الشام بعد أن قتل منهم مقتلة كبيرة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و أصابع. مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعا و اثنتا عشرة إصبعا، و كان الوفاء رابع توت.

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۰۵]

السنة الثامنة من ولاية الملك الناصر محمد بن قلاوون الثانية على مصر، و هى سنة خمس و سبعمائة.

فيها قدمت هدية الملك المؤيّد هزبر الدين داود صاحب اليمن فوجدت قيمتها أقلّ من العادة؛ فكتب بالإنكار عليه و التهديد.

و فيها استسقى أهل دمشق لقلّة الغيث فسقوا بعد ذلك، و للّه الحمد.

و فيها توفّى خطيب دمشق شرف الدين أحمد بن إبراهيم بن سباع الفزارىّ الفقيه المقرئ النحوى المحدّث الشافعى فى شوّال عن خمس و سبعين سنة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۱۸

و فيها توفّى الحافظ شرف الدين أبو محمد عبد المؤمن بن خلف بن أبى الحسن ابن شرف بن الخضر بن موسى الدّمياطىّ الشافعىّ أحد الأئمة الأعلام و الحفّاظ و الثقات. مولده فى سنة ثلاث عشرة و ستمائة بتونة و هى بلدة فى بحيرة تنّيس من عمل دمياط، و قيل فى سنة عشر و ستمائة، و اشتغل بدمياط و حفظ التنبيه فى الفقه، و سمع بها و بالقاهرة من الحافظ عبد العظيم المنذرىّ و أخذ عنه علم الحديث، و قرأ القرآن بالروايات، و برع فى عدّة فنون و سمع من خلائق؛ استوعبنا أسماء غالبهم فى ترجمته فى المنهل الصافى. و رحل إلى الحجاز و دمشق و حلب و حماة و بغداد، و حدّث و سمع منه خلائق مثل اليونينىّ و القونوىّ و المزّىّ

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۱۹

و أبى حيّان و البرزالىّ و الذهبىّ و ابن سيّد الناس و خلق سواهم، و صنّف مصنّفات كثيرة ذكرنا غالبها فى المنهل الصافى، [و له كتاب فضل الخيل، و قد سمعت أنا هذا الكتاب بقراءة الحافظ قطب الدين الخيضرىّ فى أربعة مجالس آخرها فى سلخ شعبان سنة خمس و أربعين و ثمانمائة بالقاهرة فى منزل المسمع بحارة برجوان] على الشيخ الإمام العلّامة مؤرّخ الديار المصريّة تقىّ الدين أحمد [بن علىّ بن عبد القادر] المقريزىّ بسماعه جميعه على الشيخ ناصر الدين محمد بن علىّ بن الطّبردار الحرّاوى بسماعه جميعه على الشيخ مؤلّفه الحافظ شرف الدين الدّمياطىّ صاحب الترجمة- رحمه اللّه- و كانت وفاته فجأة بالقاهرة بعد أن صلّى العصر غشى عليه فى موضعه، فحمل إلى منزله فمات من ساعته فى يوم الأحد خامس عشر ذى القعدة.

و من شعره:

روينا بإسناد عن ابن مغفّل حديثا شهيرا صحّ من علّة القدح

بأنّ رسول اللّه حين مسيره لثامنة وافته من ليلة الفتح

و فيها توفّى الملك الأوحد، و قيل الزاهر، تقى الدين شادى ابن الملك الزاهر مجير الدين داود ابن الملك المجاهد أسد الدين شير كوه الصغير ابن الأمير ناصر الدين

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۲۰

محمد ابن الملك المنصور اسد الدين شير كوه الكبير ابن شادى بن مروان الأيّوبى فى ثالث صفر و هو يوم ذاك أحد أمراء دمشق.

و فيها توفى المسند أبو عبد اللّه محمد بن أحمد بن محمد بن أبى بكر الحرّانى الحنبلىّ.

مولده بحرّان سنة ثمانى عشرة و ستمائة، و سمع من ابن روزبة و المؤتمن بن قميرة، و سمع بمصر من ابن الجميزىّ و غيره و تفرّد بأشياء، و كان فيه دعابة و دين، و تلا بمكّة ألف ختمة.

و فيها توفّى قاضى قضاة الشافعيّة بحلب شمس الدين محمد بن محمد بن بهرام بها فى أوّل جمادى الأولى، و كان فقيها فاضلا.

و فيها توفّى الشيخ الإمام شرف الدين أبو زكريّا يحيى بن أحمد بن عبد العزيز الجذامىّ الإسكندرانى المالكىّ شيخ القراءات بها فى هذه السنة، و كان إماما عالما بالقراءات، و له مشاركة فى فنون. رحمه اللّه.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم لم يحرّر، و زاد البحر حتى بلغ ثمانى أذرع و نصفا ثم توقّف إلى ثامن مسرى، ثم زاد حتّى أوفى فى رابع توت. و بلغ ست عشرة ذراعا و خمس عشرة إصبعا.

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۰۶]

السنة التاسعة من ولاية الملك الناصر محمد بن قلاوون الثانية على مصر، و هى سنة ست و سبعمائة.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۲۱

فيها وقع بين الأميرين: علم الدين سنجر البروانىّ و سيف الدين الطشلاقىّ على باب قلعة الجبل مخاصمة بحضرة الأمراء لأجل استحقاقهما فى الإقطاعات، لأنّ الطشلاقىّ نزل على إقطاع البروانىّ، و كان كل منهما فى ظلم و عسف. و البروانىّ من خواصّ بيبرس

الجاشنكير، و الطشلاقىّ من ألزام سلّار لأنه خشداشه، كلاهما مملوك الملك الصالح على ابن الملك المنصور قلاوون. و مات فى حياة والده قلاوون. فسطا الطشلاقىّ على البروانىّ و سفه عليه، فقام البروانىّ إلى بيبرس و اشتكى منه فطلبه بيبرس و عنّفه، فأساء الطشلاقىّ فى ردّ الجواب و أفحش فى حقّ البروانىّ، و قال:

أنت واحد منفىّ تجعل نفسك مثل مماليك السلطان! فاستشاط بيبرس غضبا و قام ليضرب، فجرّد الطشلاقىّ سيفه يريد ضرب بيبرس، فقامت قيامة بيبرس و أخذ سيفه ليضربه، فترامى عليه من حضر من الأمراء و أمسكوه عنه، و أخرجوا الطشلاقىّ من وجهه بعد ما كادت مماليك بيبرس و حواشيه تقتله بالسيوف، و فى الوقت طلب بيبرس الأمير سنقر الكمالىّ الحاجب و أمر بنفى الطشلاقىّ إلى دمشق، فخشى سنقر من النائب سلّار و دخل عليه و أخبره، فأرسل سلّار جماعة من أعيان الأمراء إلى بيبرس، و أمرهم بملاطفته حتى يرضى عن الطشلاقىّ و أنّ الطشلاقىّ يلزم داره، فلمّا سمع بيبرس ذلك من الذين حضروا صرخ فيهم و حلف إن بات الطشلاقىّ الليلة بالقاهرة عملت فتنة كبيرة، فعاد الحاجب و بلّغ سلّار ذلك فلم يسعه إلّا السكوت لأنهما (أعنى بيبرس و سلّار) كانا غضبا على الملك الناصر محمد و تحقّق كلّ منهما متى وقع بينهما الخلف وجد الملك الناصر طريقا لأخذهما واحدا بعد واحد، فكان كلّ من بيبرس و سلّار يراعى الآخر و قد اقتسما مملكة مصر، و ليس للناصر معهما إلّا مجرّد الاسم فى السلطنة فقط. انتهى. و أحرج الطشلاقىّ من وقته و أمر سلّار الحاجب بتأخيره فى بلبيس حتّى يراجع بيبرس فى أمره، فعند

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ٢٢٢

ما اجتمع سلّار مع بيبرس فى الخدمة السلطانية من الغد بدأ بيبرس سلّار بما كان من الطشلاقىّ فى حقّه من الإساءة، و سلّار يسكّنه و لا يسكن بل يشتدّ فأمسك سلار عن الكلام على حقد فى الباطن، و صار السلطان يريد إثارة الفتنة بينهما فلم يتمّ له ذلك. و توجّه الطشلاقى إلى الشام منفيّا.

و فيها قدم البريد على الملك الناصر من حماة بمحضر ثابت على القاضى بأن ضيعة تعرف بارين بين جبلين فسمع للجبلين فى اللّيل قعقعة عظيمة فتسارع الناس فى الصباح إليهما، و إذا أحد الجبلين قد قطع الوادى و انتقل منه قدر نصفه إلى الجبل الآخر، و المياه فيما بين الجبلين تجرى فى الوادى فلم يسقط من الجبل المنتقل شىء من الحجارة، و مقدار النصف المنتقل من الجبل مائة ذراع و عشر أذرع، و مسافة الوادى الذى قطعه هذا الجبل مائة ذراع، و أن قاضى حماة خرج بالشهود حتى عاين ذلك و كتب به محضرا. فكان هذا من الغرائب.

و فيها وقعت الوحشة بين بيبرس الجاشنكير و سلّار بسبب كاتب بيبرس التاج ابن سعيد الدولة، فإنّه كان أساء السيرة، و وقع بين هذا الكاتب المذكور و بين الأمير سنجر الجاولى، و كان الجاولى صديقا لسلّار إلى الغاية؛ فقام بيبرس فى نصرة كاتبه، و قام سلّار فى نصرة صاحبه الجاولى، و وقع بينهما بسبب ذلك أمور؛ و كان بيبرس من عادته أنّه يركب لسلّار عند ركوبه و ينزل عند نزوله، فمن يومئذ لم يركب معه و كادت الفتنة أن تقع بينهما، ثم استدركا أمرها خوفا من الملك الناصر و اصطلحا بعد أمور يطول شرحها؛ و تكلّما فى أمر الوزر و من يصلح لها، فعيّن سلار

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ٢٢٣

كاتب بيبرس التاج بن سعيد الدولة المقدّم ذكره تقرّبا لخاطر بيبرس بذلك، فقال بيبرس: ما يرضى، فقال سلّار: دعنى و إيّاه، فقال بيبرس: دونك، و تفرّقا.

فبعث سلّار للتاج المذكور و أحضره فلمّا دخل عليه عبّس وجهه و صاح بإزعاج هاتوا خلعة الوزارة فأحضروها، و أشار إلى تاج الدولة المذكور بلبسها فتمنّع فصرخ فيه و حلف لئن لم يلبسها ضرب عنقه فخاف الإخراق به لما يعلمه من بغض سلار له فلبس التشريف، و كان ذلك يوم الخميس خامس عشر المحرّم من السنة و قبّل يد سلّار فشّ فى وجهه و وصاه؛ و خرج تاج الدولة بخلعة الوزارة من دار النيابة بقلعة الجبل إلى قاعة الصاحب بها، و بين يديه النّقباء و الحجّاب، و أخرجت له دواة الوزارة و البغلة فعلّم على الأوراق و صرّف

الأمور إلى بعد العصر ثم نزل الى داره.

و هذا كلّه بعد أن أمسک بيبرس سنجر الجاولى و صادره ثم نفاه إلى دمشق على إمرة طبلخاناه، و ولّى مكانه أستادارا الأمير أيدمر الخطيرىّ صاحب الجامع ببولاق.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۲۴

و فيها توفّى الصاحب شهاب الدين أحمد بن أحمد بن عطاء اللّه الأذرعىّ الدمشقىّ الحنفى محتسب دمشق و وزيرها، و كان رئيسا فاضلا حسن السّيرة.

و فيها توفّى الأمير عزّ الدين أيبک بن عبد اللّه الطويل الخازندار المنصورىّ فى حادى عشر شهر ربيع الأوّل بدمشق، و كان ديّنا كثير البرّ و الصدقات و المعروف.

و فيها توفّى الأمير بدر الدين بكتاش بن عبد اللّه الفخرىّ الصالحىّ النجمىّ أمير سلاح. أصله من مماليک الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ، ثم نقل إلى ملک الملک الصالح نجم الدين أيّوب، فترقّى فى الخدم حتّى صار من أكابر الأمراء، و غزا غير مرّة و عرف بالخير و علوّ الهمّة و سداد الرأى و كثرة المعروف.

و لمّا قتل الملک المنصور لاچين أجمعوا على سلطنته فامتنع و أشار بعود السلطان الملک الناصر محمد بن قلاوون، و بعدها ترک الإمرة فى حال مرضه الذى مات فيه.

رحمه اللّه تعالى.

و فيها توفّى الأمير سيف الدين كاوركا المنصورىّ أحد أعيان الأمراء بالديار المصريّة.

و فيها توفّى الأمير سيف الدين بلبان الجوكندار المنصورىّ، و كان ولى نيابة قلعة صفد و شدّ دواوين دمشق ثم نيابة قلعتها، ثم نقل إلى نيابة حمص فمات بها، و كان مشكور السيرة.

و فيها توفّى القاضى بدر الدين محمد بن فضل اللّه بن مجلّى العمرىّ الدمشقى أخو كاتب السرّ القاضى شرف الدين عبد الوهاب و محيى الدين يحيى و قد جاوز سبعين سنة. و هذا أوّل بدر الدين من بنى فضل اللّه، و يأتى ذكر ثان و ثالث، و الثالث هو كاتب السر بمصر.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۲۵

و فيها توفّى الأمير فارس الدين أصلم الرّدادىّ فى نصف ذى القعدة، و كان رئيسا حشيما من أعيان الدولة الناصرية.

و فيها توفّى الأمير بهاء الدين يعقوبا الشّهرزورىّ بالقاهرة فى سابع عشر ذى الحجّة، و كان أميرا حشيما شجاعا و هو من حواشى بيبرس الجاشنكير.

و فيها توفّى الطواشى عزّ الدين دينار العزيزى الخازندار الظاهرىّ فى يوم الثلاثاء سابع شهر ربيع الأوّل، و كان ديّنا خيّرا كثير الصدقات و المعروف.

و فيها توفّى ملک الغرب أبو يعقوب يوسف [بن يعقوب] بن عبد الحقّ، وثب عليه سعادة الخصىّ أحد مواليه فى بعض حجره و قد خضّب رجليه بالحنّاء و هو مستلق على قفاه فطعنه طعنات قطع بها أمعاءه، و خرج فأدرک و قتل، و مات السلطان من جراحه فى آخر يوم الأربعاء سابع ذى القعدة، و أقيم بعده فى الملک أبو ثابت عامر ابن الأمير أبى عامر [عبد اللّه] ابن السلطان أبى يعقوب هذا أعنى حفيده. و كان مدّة ملكه إحدى و عشرين سنة.

و فيها توفّى الطّواشى شمس الدين صواب السّهيلى بالكرک عن مائة سنة، و كان مشكور السيرة.

و فيها توفّى الشيخ ضياء الدين عبد العزيز بن محمد بن على الطوسىّ الفقيه الشافعىّ بدمشق فى تاسع عشرين جمادى الأولى، و كان فقيها نحويّا مصنّفا شرح «الحاوى» فى الفقه و «مختصر ابن الحاجب» و غير ذلک.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۲۶
أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و عدّة أصابع.
مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و سبع أصابع، و كان الوفاء فى رابع عشر مسرى.

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۰۷]

السنة العاشرة من ولاية الملك الناصر محمد بن قلاوون الثانية على مصر، و هى سنة سبع و سبعمائة.
فيها ورد الخبر عن ملك اليمن هزبر الدين داود بأمور تدلّ على عصيانه، فكتب السلطان و الخليفة بالإنذار، ثم رسم السلطان للأمراء أن يعمل كلّ أمير مركبا يقال لها: جلبة، و عمارة قيّاسة يقال لها: فلوة برسم حمل الأزواد و غيرها لغزو بلاد اليمن.
و فيها عمّر الأمير بيبرس الجاشنكير الخانقاه الرّكنيّة داخل باب النصر موضع دار الوزارة برحبة باب العيد من القاهرة، و وقف عليها أوقافا جليلة و مات قبل فتحها، فأغلقها الملك الناصر فى سلطنته الثالثة مدّة، ثم أمر بفتحها ففتحت.
و فيها عمّر الأمير عزّ الدين أيبك الأفرم الصغير نائب دمشق جامعا بالصالحية، و بعث يسأل فى أرض يوقفها عليه فأجيب إلى ذلك.
و فيها وقع الاهتمام على سفر اليمن و عوّل الأمير سلّار أن يتوجّه إليها بنفسه خشية من السلطان الملك الناصر، و ذلك بعد أن أراد السلطان القبض عليه و على بيبرس الجاشنكير عند ما اتّفق السلطان مع بكتمر الجوكندار، و قد تقدّم ذكر ذلك كلّه
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۲۷
فى أصل هذه الترجمة، و أيضا أنه شقّ عليه ما صار إليه بيبرس الجاشنكير من القوّة و الاستظهار عليه بكثرة خشداشيته البرجيّة، و البرجية كانت يوم ذاك مثل مماليك الأطباق الآن، و صار غالب البرجية أمراء، فاشتد شوكة بيبرس بهم بحيث إنّه أخرج الأمير سنجر الجاولى و صادره بغير اختيار سلّار، و عظمت مهابته و انبسطت يده بالتحكّم و انفرد بالركوب فى جمع عظيم، و قصد البرجية فى نوبة بكتمر الجوكندار إخراج الملك الناصر محمد إلى الكرك و سلطنة بيبرس، لو لا ما كان من منع سلّار لسياسة و تدبير كانا فيه.
فلمّا وقع ذلك كلّه خاف سلّار عواقب الأمور من السلطان و من بيبرس و تحيّل فى الخلاص من ذلك بأنه يحجّ فى جماعته، ثم يسير إلى اليمن فيملكها و يمتنع بها، ففطن بيبرس لهذا فدسّ عليه جماعة من الأمراء من أثنى عزمه عن ذلك، ثم اقتضى الرأى تأخير السفر حتى يعود جواب صاحب اليمن.
و فيها حبس الشيخ تقىّ الدين بن تيميّة بعد أمور وقعت له.
و فيها توفّى الأمير عزّ الدين أيدمر السنانىّ بدمشق، و كان فاضلا و له شعر و خبرة بتفسير المنامات. و من شعره:
تجد النّسيم إلى الحبيب رسولا دنف حكاه رقّة و نحولا
تجرى العيون من العيون صبابة فتسيل فى إثر الغريق سيولا
و تقول من حسد له يا ليتنى: كنت اتّخذت مع الرّسول سبيلا
و فيها توفّى الأمير ركن الدين بيبرس العجمىّ الصالحى المعروف بالجالق، و (الجالق باللّغة التركيّة: اسم للفرس الحادّ المزاج الكثير اللّعب)، و كان أحد البحريّة
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۲۸
و كبير الأمراء بدمشق، و مات فى نصف جمادى الأولى بمدينة الرملة عن نحو الثمانين سنة، و كان ديّنا فيه مروءة و خير. (و جالق بفتح الجيم و بعد الألف لام مكسورة و قاف ساكنة).
و فيها توفّى الأمير الطّواشى شهاب الدين فاخر المنصورىّ مقدّم المماليك السلطانية، و كانت له سطوة و مهابة على المماليك السلطانية بحيث إنّه كان لا يستجرئ أحد منهم أن يمرّ من بين يديه كائنا من كان بحاجة أو بغير حاجة، و حيثما وقع بصره عليه أمر

بضربه.

قلت: للّه درّ ذلك الزمان و أهله! ما كان أحسن تدبيرهم و أصوب حدسهم من جودة تربية صغيرهم و تعظيم كبيرهم! حتى ملكوا البلاد، و دانت لهم العباد، و استجلبوا خواطر الرعيّة، فنالوا الرتب السنية. و أما زماننا هذا فهو بخلاف ذلك كلّه، فالمقدّم مؤخّر و الصغير متنمّر، و القلوب متنافرة، و الشرور متظاهرة، و إن شئت تعلم صدق مقالتى حرّك تر. انتهى.

و فيها توفّى الشيخ المعتقد عمر بن يعقوب بن أحمد [السعودى فى جمادى الآخرة].

[و فيها توفّى الشيخ فخر الدين عثمان] بن جوشن السّعودىّ فى يوم الأربعاء من شهر رجب، و كان رجلا صالحا معتقدا.

و فيها توفّى الصاحب تاج الدين محمد ابن الصاحب فخر الدين محمد ابن الصاحب بهاء الدين علىّ بن محمد بن سليم بن حنّا، و مولده فى تاسع شعبان سنة أربعين و ستمائة،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۲۹

و جدّه لأمّه الوزير شرف الدين صاعد الفائزىّ. و كانت له رياسة ضخمة و فضيلة، و مات بالقاهرة فى يوم السبت خامس جمادى الآخرة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و ستّ أصابع.

مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا و إصبع واحدة.

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۰۸]

السنة الحادية عشرة من ولاية السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون الثانية على مصر، و هى سنة ثمان و سبعمائة، و هى التى خلع فيها الملك الناصر المذكور من ملك مصر و أقام بالكرك و تسلطن من بعده بيبرس الجاشنكير حسب ما تقدّم ذكره.

فيها أفرج عن الملك المسعود خضر ابن الملك الظاهر بيبرس البندقدارىّ من البرج بقلعة الجبل، و أسكن بدار الأمير عزّ الدين الأفرم الكبير بمصر، و ذلك فى شهر ربيع الأوّل.

و فيها كان خروج الملك الناصر محمد بن قلاوون صاحب الترجمة من القاهرة قاصدا الحجّ و سار إلى الكرك و خلع نفسه.

و فيها توفّى الشيخ علم الدين إبراهيم بن الرشيد بن أبى الوحش رئيس الأطباء بالديار المصريّة و البلاد الشاميّة، و كان بارعا فى الطبّ محظوظا عند الملوك، و نالته السعادة من ذلك، حتّى إنّه لمّا مات خلّف ثلثمائة ألف دينار غير القماش و الأثاث.

و فيها توفّى الأمير عز الدين أيبك الشجاعىّ الأشقر شادّ الدواوين بالقاهرة فى المحرّم.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۳۰

و فيها توفّى الأمير علاء الدين ألطبرس المنصورىّ والى باب القلعة و الملقّب بالمجنون المنسوب إليه العمارة فوق قنطرة المجنونة على الخليج الكبير خارج القاهرة، عمّرها للشيخ شهاب الدين العابر و لفقرائه و عقدها قبوا. و فى ذلك يقول علم الدين ابن الصاحب:

و لقد عجبت من الطبرس و صحبه و عقولهم بعقوده مفتونه

عقدوه عقدا لا يصح لأنهم عقدوا لمجنون على مجنونه

و كان ألطبرس المذكور عفيفا ديّنا غير أنه كان له أحكام قراقوشية من تسلطه على النساء و منعهنّ من الخروج إلى الأسواق و غيرها، و كان يخرج أيام الموسم إلى القرافة و ينكّل بهن فامتنعن من الخروج فى زمانه إلا لأمر مهم مثل الحمّام و غيره.

و فيها توفّى الأمير عزّ الدين أيدمر الرشيدىّ أستادار الأمير سلّار نائب السلطنة بالديار المصرية فى تاسع عشر شوال، و كان عاقلا رئيسا و له ثروة واسعة و جاه عريض.

و فيها توفّى الشيخ المعتقد عبد الغفّار [بن أحمد بن عبد المجيد بن نوح] القوصىّ القائم بخراب الكنائس بقوص و غيرها فى ليلة

الجمعة سابع ذى القعدة، و كان له أتباع و مريدون و للناس فيه اعتقاد.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۳۱

و فيها توفّى ظهير الدين أبو نصر بن الرشيد بن أبى النصر السّامرىّ الدمشقى الكاتب فى حادى عشرين شهر رمضان بدمشق، و مولده سنة اثنتين و عشرين و ستمائة، كان أوّلا سامريّا ثم أسلم فى أيام الملك المنصور قلاوون، و تنقّل فى الخدم حتّى ولى نظر جيش دمشق إلى أن مات.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع. مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا و إصبع واحدة مثل السنة الماضية.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۳۲

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۰۹]

ذكر سلطنة الملك المظفّر بيبرس الجاشنكير على مصر

السلطان الملك المظفّر ركن الدين بيبرس بن عبد اللّه المنصورىّ الجاشنكير، أصله من مماليك الملك المنصور قلاوون البرجيّة، و كان جركسىّ الجنس، و لم نعلم أحدا ملك مصر من الجراكسة قبله إن صحّ أنه كان جركسيّا. و تأمّر فى أيّام أستاذه المنصور قلاوون، و بقى على ذلك إلى أن صار من أكابر الأمراء فى دولة الملك الأشرف خليل بن قلاوون. و لما تسلطن الملك الناصر محمد بن قلاوون بعد قتل أخيه الأشرف خليل صار بيبرس هذا أستادارا إلى أن تسلطن الملك العادل زين الدين كتبغا عزله عن الأستادارية بالأمير بتخاص، و قيل: إنّه قبض على بيبرس هذا و حبسه مدّة، ثم أفرج عنه و أنعم عليه بإمرة مائة و تقدمة ألف بالديار المصريّة.

و استمرّ على ذلك حتّى قتل الملك المنصور حسام الدين لاچين فكان بيبرس هذا أحد من أشار بعود الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى الملك. فلمّا عاد الناصر إلى ملكه تقرّر بيبرس هذا أستادارا على عادته و سلّار نائبا، فأقاما على ذلك سنين إلى أن صار هو و سلّار كفيلى الممالك الشريفة الناصرية، و الملك الناصر محمد معهما آلة فى السلطنة إلى أن ضجر الملك الناصر منهما و خرج إلى الحجّ فسار إلى الكرك و خلع نفسه من الملك. و قد ذكرنا ذلك كلّه فى ترجمة الملك الناصر محمد. فعند ذلك وقع الاتّفاق على سلطنة بيبرس هذا بعد أمور نذكرها؛ فتسلطن و جلس على تخت الملك فى يوم السبت الثالث و العشرين من شوّال من سنة ثمان و سبعمائة. و هو السلطان الحادى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۳۳

عشر من ملوك الترك و السابع ممن مسّهم الرّقّ، و الأوّل من الجراكسة إن صحّ أنه جركسىّ الجنس، و دقّت البشائر و حضر الخليفة أبو الربيع سليمان و فوّض إليه تقليد السلطنة، و كتب له عهدا و شمله بخطّه، و كان من جملة عنوان التقليد: إنّه من سليمان و إنّه بسم اللّه الرحمن الرحيم. ثم جلس الأمير بتخاص و الأمير قلّى و الأمير لاچين الجاشنكير لاستحلاف الأمراء و العساكر، فحلفوا الجميع و كتب بذلك إلى الأقطار.

و الآن نذكر ما وعدنا بذكره من سبب سلطنة بيبرس هذا مع وجود سلار و آقوش قتّال السّبع و هما أكبر منه و أقدم و أرفع منزلة، فنقول:

لمّا خرج الملك الناصر محمد بن قلاوون من الديار المصريّة إلى الحجّ ثم ثنى عزمه عن الحج و توجّه إلى الكرك خلع نفسه، فلمّا حضر كتابه الثانى بتركه السلطنة، و قد تقدّم ذكر ذلك فى أواخر ترجمة الناصر بأوسع من هذا، أثبت الكتاب على القضاة.

فلمّا أصبح نهار السبت الثالث و العشرين من شوّال جلس الأمير سلّار النائب بشبّاك دار النيابة بالقلعة و حضر إلى عنده الأمير بيبرس

الجاشنكير هذا و سائر الأمراء و اشتوروا فيمن يلى السلطنة، فقال الأمير آقوش قتّال السّبع، و الأمير بيبرس الدّوادار، و الأمير أيبك الخازندار و هم أكابر الأمراء المنصوريّة:

ينبغى استدعاء الخليفة و القضاة و إعلامهم بما وقع، فخرج الطّلب لهم و حضروا و قرئ عليهم كتاب السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، و شهد عند قاضى القضاة زين الدين بن مخلوف الأميران: عز الدين أيدمر الخطيرىّ و الأمير الحاج آل ملك و من كان توجّه معهم إلى الكرك فى الرسليّة بنزول الملك الناصر عن الملك

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۳۴

و تركه مملكة مصر و الشام فأثبت ذلك، و أعيد الكلام فيمن يصلح للسلطنة من الأمراء، فأشار الأمراء الأكابر بالأمير سلّار، فقال سلّار: نعم على شرط، كلّ ما أشير به لا تخالفوه، و أحضر المصحف و حلّفهم على موافقته و ألّا يخالفوه فى شيء، فقلق البرجيّة من ذلك و لم يبق إلّا إقامتهم الفتنة، فكفّهم اللّه عن ذلك و انقضى الحلف، فعند ذلك قال الأمير سلّار: و اللّه يا أمراء، أنا ما أصلح للملك و لا يصلح له إلّا أخى هذا، و أشار إلى بيبرس الجاشنكير و نهض قائما إليه، فتسارع البرجيّة بأجمعهم: صدق الأمير سلّار و أخذوا بيد الأمير بيبرس، و أقاموه كرها و صاحوا بالجاويشية فصرخوا باسمه، و كان فرس النوبة عند الشباك فألبسوه تشريف السلطنة الخليفتى، و هى فرجيّة أطلس سوداء و طرحة سوداء و تقلّد بسيفين، و مشى سلّار و الأمراء بين يديه من عند سلّار من دار النيابة بالقلعة و هو راكب، و عبر من باب القلعة إلى الإيوان بالقلعة، و جلس على تخت الملك و هو يبكى بحيث يراه الناس. و ذلك فى يوم السبت المذكور، و لقّب بالملك المظفر. و قبّل الأمراء الأرض بين يديه طوعا و كرها، ثم قام إلى القصر و تفرّق الناس بعد ما ظنّوا كلّ الظنّ من وقوع الفتنة بين السّلّاريّة و البيبرسيّة. و قيل فى سلطنته وجه آخر و هو أنّه لما اشتوروا الأمراء فيمن يقوم بالملك، فاختار الأمراء سلّار لعقله و تؤدته، و اختار البرجيّة

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۳۵

بيبرس؛ فلم يجب سلّار إلى ذلك و انفضّ المجلس، و خلا كلّ من أصحاب بيبرس و سلّار بصاحبه، و حسّن له القيام بالسلطنة و خوّفه عاقبة تركها، و أنه متى ولى غيره لا يوافقوه بل يقاتلونه. و بات البرجية فى قلق خوفا من ولاية سلّار، و سعى بعضهم إلى بعض، و كانوا أكثر جمعا من أصحاب سلّار، و أعدّوا السلاح و تأهّبوا للحرب. فبلغ ذلك سلّار فخشى سوء العاقبة، و استدعى الأمراء إخوته و حفدته و من ينتمى إليه، و قرّر معهم سرا موافقته على ما يشير به، و كان مطاعا فيهم فأجابوه؛ ثم خرج فى شباك النيابة و وقع نحو ممّا حكيناه من عدم قبوله السلطنة و قبول بيبرس الجاشنكير هذا، و تسلطن حسب ما ذكرناه و تمّ أمره و اجتمع الأمراء على طاعته و دخلوا إلى الخدمة على العادة فى يوم الاثنين خامس عشرين شوّال، فأظهر بيبرس التغمّم بما صار إليه. و خلع على الأمير سلار خلعة النيابة على عادته بعد ما استعفى و طلب أن يكون من جملة الأمراء، و ألحّ فى ذلك حتى قال له الملك المظفّر بيبرس:

إن لم تكن أنت نائبا فلا أعمل أنا السلطنة أبدا، فقامت الأمراء على سلّار إلى أن قبل و لبس خلعة النيابة، ثم عيّنت الأمراء للتوجّه إلى النوّاب بالبلاد الشامية و غيرها، فتوجّه إلى نائب دمشق، و هو الأمير جمال الدين آقوش الأفرم الصغير المنصورىّ، الأمير أيبك البغدادىّ و معه آخر يسمّى شادى و معهما كتاب، و أمرهما أن يذهبا إلى دمشق و يخلّفا نائبه المذكور و سائر الأمراء بدمشق، و توجّه إلى حلب الأمير ركن الدين بيبرس الأحمدىّ و طيبرس الجمدار و على يليهما كتاب مثل ذلك، و توجه إلى حماة الأمير سيف الدين بلاط الجوكندار و طيدمر الجمدار، و توجّه إلى صفد عزّ الدين أزدمر الإسماعيلىّ و بيبرس بن عبد اللّه، و توجّه إلى طرابلس

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۳۶

عزّ الدين أيدمر اليونسى و أقطاى الجمدار. و خطب له بالقاهرة و مصر فى يوم الجمعة التاسع و العشرين من شوّال المذكور، و توجه الأمراء المذكورون إلى البلاد الشامية.

فلما قرب من سار إلى دمشق خرج النائب آقوش الأفرم و لاقاهما خارج دمشق و عاد بهما، فلما قرأ الكتاب بسلطنة بيبرس كاد أن يطير

فرحا لأنه كان خشداش بيبرس، و كان أيضا جاركسىّ الجنس، و كانا يوم ذاك بين الأتراك كالغرباء، و زيّنت دمشق زينة هائلة كما زيّنت القاهرة لسلطنته. ثم أخرج كتاب السلطان بالحلف و فيه أن يحلفوا و يبعثوا لنا نسخة الأيمان، فأجاب جميع الأمراء بالسمع و الطاعة و سكت منهم أربعة أنفس و لم يتحدّثوا بشىء، و هم: بيبرس العلائىّ و بهادر آص و آقجبا الظاهرى و بكتمر الحاجب بدمشق، فقال لهم الأفرم: يا أمراء، كلّ الناس ينتظرون كلامكم فتكلّموا، فقال بهادر آص: نريد الخطّ الذى كتبه الملك الناصر بيده و فيه عزل نفسه، فأخرج النائب خطّ الملك الناصر فرآه بهادر ثم قال:

يا مولانا ملك الأمراء، لا تستعجل فممالك الشام فيها أمراء غيرنا، مثل الأمير قراسنقر نائب حلب، و قبجق نائب حماة، و أسندمر نائب طرابلس و غيرهم، فنرسل إليهم و نتّفق معهم على المصلحة، فإذا شاورناهم تطيب خواطرهم، و ربّما يرون من المصلحة ما لا نرى نحن، ثم قام بهادر المذكور و خرج فخرجت الأمراء كلّهم فى أثره، فقال الأمير أيبك البغدادىّ القادم من مصر للأفرم: لو مسكت بهادر آص لانصلح الأمر على ما نريد! فقال له الأفرم: و اللّه العظيم لو قبضت عليه لقامت فتنة عظيمة تروح فيها روحك، و تغيير الدول يا أيبك ما هو هين! و أنا ما أخاف من أمراء الشام من أحد إلّا من قبجق المنصورىّ، فإنّه ربّما يقيم فتنة من خوفه على روحه.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۳۷

قلت: و قبجق هذا هو الذى كان نائب دمشق فى أيّام المنصور لاچين، و توجّه إلى غازان و أقدمه إلى الشام. و قد تقدّم ذكر ذلك كلّه.

و لمّا كان اليوم الثانى طلب الأفرم هؤلاء الأمراء الأربعة و اختلى بهم، و قال لهم: اعلموا أنّ هذا أمر انقضى، و لم يبق لنا و لا لغيرنا فيه مجال، و أنتم تعلمون أنّ كلّ من يجلس على كرسىّ مصر كان هو السلطان و لو كان عبدا حبشيّا، فما أنتم بأعظم من أمراء مصر، و ربّما يبلّغ هذا اليه فيتغيّر قلبه عليكم، و لم يزل يتلاطف بهم حتّى حلفوا له، فلمّا حلفوا حلف باقى الأمراء، و خلع الأفرم على جميع الأمراء و القضاة خلعا سنيّة، و كذلك خلع على الأمير أيبك البغدادىّ و على رفيقه شادى و أعطاهما ألفى دينار و زوّدهما و ردّهما فى أسرع وقت. و كتب معهما كتابا يهنّئ بيبرس بالملك، و يقول: عن قريب تأتيك نسخة الأيمان. و قدما القاهرة و أخبرا الملك المظفّر بيبرس بذلك، فسرّ و انشرح صدره بذلك: ثمّ إنّ الأفرم نائب الشام أرسل إلى قراسنقر و إلى قبجق شخصا من مماليكه بصورة الحال، فأمّا قرا سنقر نائب حلب فإنّه لمّا سمع الواقعة و قرأ كتاب الأفرم، قال: إيش الحاجة إلى مشاورتنا! أستاذك بعثك بعد أن حلف، و كان ينبغى أن يتأنّى فى ذلك، و أمّا قبجق نائب حماة فإنه لمّا قرأ كتاب الأفرم، قال: لا حول و لا قوّة إلّا بالله العلى العظيم، إيش جرى على ابن أستاذنا حتّى عزل نفسه! و اللّه لقد دبرتم أنحس تدبير، هذه و اللّه نوبة لاچين. ثم قال لمملوك الأفرم: اذهب إلى أستاذك و قل له: الآن بلغت مرادك، و سوف تبصر من يصبح ندمان، و فى أمره حيران! و كذلك لمّا بعث الأفرم لأسندمر نائب طرابلس، فلما قرأ كتابه أطرق رأسه إلى الأرض؛ ثم قال:

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۳۸

اذهب لأستاذك و قل له: يا بعيد الذّهن و قليل العلم بعد أن دبرت أمرا، فما الحاجة إلى مشاورتنا! فو اللّه ليكوننّ عليك أشأم التدبير و سيعود وباله عليك، و لم يكتب له جوابا.

و أمّا قراسنقر نائب حلب فإنه أرسل إلى قبجق و إلى أسندمر يعلمهما أنّ الأفرم حلّف عساكر دمشق على طاعة بيبرس، و لا نأمن أن يعمل الأفرم علينا، فهلمّوا نجتمع فى موضع واحد فنتشاور و نرى أمرا يكون فيه المصلحة، فاتّفقوا الجميع على أن يجتمعوا فى حلب عند قراسنقر، و عيّنوا ليلة يكون اجتماعهم فيها.

فأمّا قبجق فإنه ركب إلى الصيد بمماليكه خاصّة، و تصيّد إلى الليل فسار إلى حلب. و أمّا أسندمر أظهر أنّه ضعيف و أمر ألّا يخلّى أحدا يدخل عليه، و فى الليل ركب بمماليكه الذين يعتمد عليهم و قد غيّروا ملابسهم، و سار يطلب حلب. و اجتمع الجميع عند قرا سنقر، فقال لهم قراسنقر: ما تقولون فى هذه القضيّة التى جرت؟ فقال قبجق: و اللّه لقد جرى أمر عظيم، و إن لم نحسن التدبير نقع فى

أمورا! يعزل ابن أستاذنا و يأخذها بيبرس! و يكون الأفرم هو مدبّر الدولة! و هو على كلّ حال عدوّنا و لا نأمن شرّه، فقالوا: فما نفعل؟ قال: الرأى أن نكتب إلى ابن أستاذنا فى الكرك و نطلبه إلى حلب و نركب معه، فإما نأخذ له الملك، و إما أن نموت على خيولنا! فقال أسندمر: هذا هو الكلام، فحلف كلّ من الثلاثة على هذا الاتّفاق، و لا يقطع واحد منهم أمرا إلّا بمشورة أصحابه، و أنّهم يموت بعضهم على بعض، ثم إنّهم تفرّقوا فى اللّيل كلّ واحد إلى بلده.

و أمّا الأمراء الذين خرجوا من مصر إلى النوّاب بالبلاد الشاميّة بالخلع و بسلطنة بيبرس، فإنهم لمّا وصلوا إلى دمشق قال لهم الأفرم: أنا أرسلت إليهم مملوكى، فردّوا علىّ جوابا لا يرضى به مولانا السلطان. و كان الأفرم أرسل إلى الملك المظفّر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج‌٨، ص: ٢٣٩

بيبرس نسخة اليمين التى حلّف بها أمراء دمشق مع مملوكه مغلطاى، فأعطاه الملك المظفّر إمرة طبلخاناه و خلع عليه، و أرسل معه خلعة لأستاذه الأفرم بألف دينار، و أطلق له شيئا كثيرا كان لبيبرس فى الشام قبل سلطنته من الحواصل و الغلال، فسّر الأفرم بذلك غاية السرور، ثم قال الأميران اللذان وصلا إلى دمشق للافرم:

ما تشير به علينا؟ فقال لهما: ارجعا إلى مصر و لا تذهبا إلى هؤلاء، فإنّ رءوسهم قويّة، و ربّما يثيرون فتنة، فقالا: لاغنى لنا [من] أن نسمع كلامهم، ثم إنّهما ركبا من دمشق و سارا إلى حماة، و دخلا على قبجق و دفعا له كتاب الملك المظفّر، فقرأه ثم قال: و أين كتاب الملك الناصر؟ فأخرجا له الكتاب، فلمّا وقف عليه بكى، ثم قال: من قال إنّ هذا خطّ الملك الناصر؟ و اللّه واحد يكون وكيلا فى قرية ما يعزل نفسه منها بطيبة من خاطره! و لا بدّ لهذا الأمر من سبب، اذهبا إلى الأمير قراسنقر فهو أكبر الأمراء و أخبرهم بالأحوال، فركبا و سارا إلى حلب و اجتمعا بقراسنقر؛ فلمّا قرأ كتاب المظفّر قال: يا إخوتى إنّا على أيمان ابن أستاذنا لا نخونه و لا نحلف لغيره و لا نواطئ عليه و لا نفسد ملكه، فكيف نحلف لغيره! و اللّه لا يكون هذا أبدا و دعوا يجرى ما يجرى، و كلّ شيء ينزل من السماء تحمله الأرض.

و لا حول و لا قوّة إلّا بالله العلىّ العظيم! فخرجا من عنده و سارا إلى طرابلس و دخلا على أسندمر فقال لهما: مثل مقالة قبجق و قرا سنقر، فخرجا و ركبا و سارا نحو الديار المصريّة، و دخلا على الملك المظفر بيبرس و أعلماه بما كان، فضاق صدر المظفّر و أرسل خلف الأمير سلّار النائب و قصّ عليه القصّة، فقال له سلّار: هذا أمر هيّن و نقدر (أن) نصلح هؤلاء، فقال: و كيف السبيل إلى ذلك؟ قال: تكتب إلى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج‌٨، ص: ٢٤٠

قرا سنقر كتابا و ترقّق له فى الكلام، و أرسل إليه تقليدا بنيابة حلب و بلادها، و أنّه لا يحمل منه الدّرهم الفرد، و كذا لقبجق بحماة، و لأسندمر بطرابلس و السواحل، فقال بيبرس: إذا فرّقت البلاد عليهم ما يساوى ملكى شيئا! فقال له سلّار: و كم [من] يد تقبّل عن ضرورة و هى تستحقّ القطع! فاسمع منّى و أرضهم فى هذا الوقت، فإذا قدرت عليهم بعد ذلك افعل بهم ما شئت؛ فمال المظفّر إلى كلامه و أمر أن يكتب بما قاله سلّار لكلّ واحد على حدته، فكتب ذلك و أرسله مع بعض خواصّه.

و أمّا أمر الملك الناصر محمد بن قلاوون فإنّ الملك المظفّر لمّا تسلطن و تمّ أمره كتب له تقليدا بالكرك، و سيّره له على يد الأمير آل ملك، و منشورا بما عيّن له من الإقطاعات. و أمّا أمر قرا سنقر فإنّه جهّز ولده محمدا إلى الملك الناصر محمد بالكرك، و على يده كتابه و كتاب قبجق نائب حماة و كتاب أسندمر نائب طرابلس. و مضمون كتاب قرا سنقر: أنّه يلوم الملك الناصر عن نزوله عن الملك، و كيف وقع له ذلك و لم يشاوره فى أوّل الأمر، ثمّ وعده برجوع ملكه إليه عن قريب، و أنّه هو و قبجق و أسندمر ما حلفوا للمظفر، و أنّهم مقيمون على أيمانهم له. و كذلك كتاب قبجق و كتاب أسندمر، فأخذ الأمير ناصر الدين محمد بن قرا سنقر كتب الثلاثة و سار مسرعا و معه نجّاب خبير بتلك الأرض، فلم يزالا سائرين فى البريّة و المفاوز إلى أن وصلا إلى الكرك.

و ابن قرا سنقر عليه زىّ العرب، فلمّا وقفا على باب الكرك سألوهما من أين أنتما؟

فقالا: من مصـر، فدخلوا و أعلموا الملك الناصر محمدا بهما و استأذنوه فی إحضارهما، فأذن لهما بالدخول؛ فلمّا مثلا بین یدیه کشف ابن قراسنقر لثامه عن وجهه فعرفه السلطان، و قال له: محمد؟ فقال: لبیّک یا مولانا السلطان، و قبّل الأرض و قال:

لا بدّ من خلوة، فأمر السلطان لمن حوله بالانصراف، فعند ذلک حدّث

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۴۱

ابن قرا سـنقر السلطان بما جری من أبیه و قبجق و أسندمر، و أنهم اجتمعوا فی حلب و تحالفوا بأنّهم مقیمون علی الأیمان التی حلفوها للملک الناصـر، ثم دفع له الکتب الثلاثـة فقرأها، ثم قال: یا محمـد، ما لهم قـدرة علی ما اتّفقوا علیه، فإنّ کلّ من فی مصـر و الشام قد اتّفقوا علی سـلطنة بیبرس، فلمـا سـمع ابن قراسـنقر ذلـک حلف بـأنّ کـلّ واحـد من هؤلاء الثلاثـة کفء لأهل مصـر و الشام، و مولانا السلطان أخبر بذلک منّی، فتبسّم السلطان و قال صدقت یا محمد، و لکن القائل یقول:

کن جریا إذا رأیت جبانا و جبانا إذا رأیت جریّا

لا تقاتل بواحد أهل بیت فضعیفان یغلبان قویّا

و هذه البلاد کلّها دارت مع بیبرس و لا یتمّ لنا الحال إلّا بحسن التدبیر و المداراة و الصبر علی الأمور. ثم إنّه أنزله فی موضع و أحسـن إلیه، و قال له: استرح الیوم و غدا ثم سافر، فأقام یومین ثم طلبه الملک الناصر فی صبیحة الیوم الثالث و أعطاه جواب الکتب، و قال له: سلّم علی أبی (یعنی علی قرا سـنقر) و قل له: اصبر، ثم خلع علیه خلعة سـنیّة و أعطاه ألف دینار مصریّة، و خلع علی معن النّجاب الذی أتی به أیضا و أعطاه ألف درهم؛ فخرج ابن قرا سـنقر و النّجاب معه، و أسرعا فی السـیر إلی أن وصلا إلی حلب، فدخل ابن قرا سنقر إلی أبیه و دفع له کتاب الملک الناصر ففتحه فإذا فیه:

بسم اللّه الرحمن الرحیم: حرس اللّه تعالی نعمة المقرّ العالی الأبویّ الشمسـیّ و متّعنا بطول حیاته، فقد علمنا ما أشار به و ما عوّل علیه، و قـد علمنا قـدیما و حـدیثا أنّه لم یزل علی هـذه الصورة، و أرید منک أنّک تطوّل روحک علیّ، فهذا الأمر ما ینال بالعجلة لأنّک قد علمت انتظـام أمراء مصـر و الشام فی سـلک واحـد و لا سـیّما الأفرم و من معه من اللئام، فهـذه عقـدة لا تنحلّ إلّا بالصبر، و إن حضـر إلیک أحد

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۴۲

من جهة المظفّر و طلب منک الیمین له، فقدّم النیّة أنّک مجبور و مغصوب و احلف.

و لا تقطع کتبک عنی فی کلّ وقت، و عرّفنی بجمیع ما یجری من الأمور قلیلها و کثیرها.

و کذلک کتب فی کتاب قبجق و أسندمر، فعرف قرا سنقر مضمون کتابه و سکت.

ثم بعـد قلیـل وصـل إلی قرا سـنقر من الملـک المظفّر بیبرس تقلیـد بنیابـة حلب و بلادهـا دربست علی یـد أمیر من أمراء مصـر. و من مضـمون الکتاب الذی من المظفّر إلی قرا سـنقر: أنت خشداشـی، و لو علمت أنّ هذا الأمر یصـعب علیک ما عملت شیئا حتّی أرسلت إلیـک و أعلمتـک به، لأنّ ما فی المنصوریّـة أحـد أکبر منک، غیر أنّه لما نزل ابن أسـتاذنا عن الملک اجتمع الأمراء و القضاة و کافّة الناس، و قالوا:

ما لنا سـلطان إلّا أنت، و أنت تعلم أنّ البلاد لا تکون بلا سـلطان، فلو لم أتقـدّم أنا کان غیری یتقدّم [و قد وقع ذلک]! فاجعلنی واحدا منکم و دبّرنی برأیک. و هذه حلب و بلادها دربست لک، و کذا لخشداشیتک: الأمیر قبجق و الأمیر أسندمر.

و سیّر الملک المظفّر لکلّ من هؤلاء الثلاثة خلعة بألف دینار، و فرشا قماشه بألف دینار، و عشـرة رءوس من الخیل. فعند ذلک حلف قراسنقر و قبجق و أسندمر، و رجع الأمیر المذکور إلی مصر بنسخة الیمین. فلمّا وقف علیها الملک المظفّر فرح غایة الفرح، و قال: الآن تمّ لی الملک. ثم شرع من یومئذ فی کشف أمور البلاد و إزالة المظالم و النظر فی أحوال الرعیّة.

ثـم اسـتهلّت سـنة تسع و سبعمائة، و سـلطان الـدیار المصـریّة الملـک المظفّر رکـن الـدین بیـبرس الجاشـنکیر المنصـوریّ، و الخلیفة

المستكفى بالله أبو الربيع سليمان، و نائب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ٢٤٣

السلطنة بديار مصر الأمير سلّار، و نائب الشام الأمير آقوش الأفرم الصغير، و نائب حلب الأمير شمس الدين قراسنقر المنصوريّ، و نائب حماة الأمير سيف الدين قبجق المنصوريّ، و نائب طرابلس الأمير سيف الدين أسندمر المنصوريّ. ثم فشا فى الناس فى السنة المذكورة أمراض حادّة، و عمّ [الوباء] الخلائق و عزّ سائر ما يحتاج إليه المرضى. ثم توقفت زيادة النيل إلى أن دخل شهر مسرى، و ارتفع سعر القمح و سائر الغلال، و منع الأمراء البيع من شونهم إلّا الأمير عزّ الدين أيدمر الخطيريّ الأستادار، فإنّه تقدّم إلى مباشريه ألّا يتركوا عنده سوى مئونة سنة واحدة، و باع ما عداه قليلا قليلا. و الخطيريّ هذا هو صاحب الجامع الذى بخطّ بولاق. انتهى.

و خاف الناس أن يقع نظير غلاء كتبغا، و تشاءم الناس بسلطنة الملك المظفّر بيبرس المذكور. ثمّ إنّ الخطيب نور الدّين علىّ بن محمد بن الحسن بن علىّ القسطلانىّ خرج بالناس و استسقى، و كان يوما مشهودا، فنودى من الغد بثلاث أصابع، ثم توقّفت الزيادة مدّة، ثم زاد و انتهت زيادة النيل فيه إلى خمس عشرة ذراعا و سبع عشرة إصبعا فى سابع عشرين توت، ثم نقص فى أيّام النسىء و جاء النّوروز و لم يوفّ النيل ستّ عشرة ذراعا ففتح خليج السدّ فى يوم الجمعة ثامن توت و هو ثامن عشرين شهر ربيع الأوّل. و ذكر بعضهم أنّه لم يوفّ إلى تاسع عشر بابه، و هو يوم الخميس

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ٢٤٤

حادى عشر جمادى الأولى، و ذلك بعد اليأس منه، و هذا القول هو الأشهر.

قال: و انحطّ مع ذلك بعد الوفاء السّعر و تشاءم الناس بطلعة الملك المظفّر بيبرس.

و غنّت العامّة فى المعنى:

سلطاننا ركين و نائبنا دقين

يجينا الماء من أين

يجيبوا لنا الأعرج يجى الماء و يدحّرج

و من يومئذ وقعت الوحشة بين المظفّر و بين عامّة مصر، و أخذت دولة الملك المظفّر بيبرس فى اضطراب، و ذلك أنّه كثر توهّمه من الملك الناصر محمد بن قلاوون، و قصد فى أيّامه كل واحد من خشداشيته أن يترقّى إلى أعلى منزلة، و اتّهموا الأمير سلار بمباطنة الملك الناصر محمد و حذّروا الملك المظفّر منه، و حسّنوا له القبض على سلّار المذكور، فجبن بيبرس عن ذلك. ثم ما زالوا حتّى بعث الأمير مغلطاى إلى الملك الناصر محمد بن قلاوون بالكرك ليأخذ منه الخيل و المماليك التى عنده، و تغلّظ فى القول، فغضب الملك الناصر من ذلك غضبا شديدا و قال له: أنا خلّيت، ملك مصر و الشام لبيبرس، ما يكفيه حتّى ضاقت عينه على فرس عندى و مملوك لى و يكرّر الطلب! ارجع إليه و قل له: و اللّه لئن لم يتركنى، و إلّا دخلت بلاد التّتار و أعلمهم أنّى تركت ملك أبى و أخى و ملكى لمملوكى، و هو يتابعنى و يطلب منّى ما أخذته، فجافاه مغلطاى و خشّن له فى القول بحيث اشتدّ غضب الملك الناصر، و صاح به:

ويلك وصلت إلى هنا! و أمر أن يجرّ و يرمى من سور القلعة، فثار به المماليك، يسبّونه و يلعنونه و أخرجوه إلى السّور، فلم يزل به أرغون الدّوادار و الأمير طغاى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ٢٤٥

إلى أن عفا عنه و حبسه ثمّ أخرجه ماشيا، و عظم ذلك على الملك الناصر و كتب ملطّفات إلى نوّاب البلاد الشامية بحلب و حماة و طرابلس و صفد، ثمّ إلى مصر ممّن يثق به، و ذكر ما كان به من ضيق اليد و قلّة الحرمة، و أنّه لأجل هذا ترك ملك مصر و قنع بالإقامة بالكرك، و أنّ السلطان الملك المظفّر فى كلّ وقت يرسل يطالبه بالمماليك و الخيل التى عنده. ثم ذكر لهم فى ضمن

الكتاب: أنتم مماليك أبى و ربيّتمونى فإمّا أن تردّوه عنى و إلّا سرت إلى بلاد التّتار، و تلطّف فى مخاطبتهم غاية التلطّف؛ و سيّر لهم بالكتب على يد العربان فأوصلوها إلى أربابها. و كان قد أرسل الملك المظفّر قبل ذلك يطلب منه المال الذى كان بالكرك و الخيل و المماليك التى عنده.

حسب ما يأتى ذكره فى ترجمة الملك الناصر محمد. فبعث إليه الملك الناصر بالمبلغ الذى أخذه من الكرك فلم يقنع المظفّر بذلك و أرسل ثانيا، و كان الملك الناصر لمّا أقام بالكرك صار يخطب بها للملك المظفّر بيبرس بحضرة الملك الناصر و الملك الناصر يتأدّب معه، و يسكت بحضرة مماليكه و حواشيه. و صار الملك الناصر إذا كاتب الملك المظفّر يكتب إليه: «الملكىّ المظفّرىّ» و قصد بذلك سكون الأحوال و إخماد الفتن، و المظفّر يلحّ عليه لأمر يريده اللّه تعالى حتى كان من أمره ما سنذكره إن شاء اللّه تعالى.

و أما النّوّاب بالبلاد الشاميّة فإنّ قرا سنقر نائب حلب كتب إلى الملك الناصر الجواب: بأنّى مملوك السلطان فى كلّ ما يرسم به، و سأل أن يبعث إليه بعض المماليك السلطانية، و كذلك نائب حماة و نائب طرابلس و غيرهما ما خلا بكتمر الجوكندار، فإنّه طرد قاصد الملك الناصر و لم يجتمع به. ثم أرسل الملك الناصر مملوكه أيتمش المحمّدىّ إلى الشام و كتب معه ملطّفات إلى الأمير قطلوبك المنصورىّ و بكتمر الحسامىّ الحاجب بدمشق و لغيرهما، و وصل أيتمش إلى دمشق خفية

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۴۶

و نزل عند بعض مماليك قطلوبك المذكور، و دفع إليه الملطّف؛ فلمّا أوصله إلى قطلوبك أنكر عليه و أمره بالاحتفاظ على أيتمش المذكور ليوصّله إلى الأفرم نائب الشام و يتقرّب إليه بذلك؛ فبلغ أيتمش الخبر فترك راحلته التى قدم عليها و مضى إلى دار الأمير بهادر آص فى اللّيل، فاستأذن عليه فأذن له فدخل إليه أيتمش و عرّفه ما كان من قطلوبك فى حقّه، فطيّب بهادر آص خاطره و أنزله عنده و أركبه من الغد معه إلى الموكب، و قد سبق قطلوبك إلى الأفرم نائب الشام و عرّفه قدوم مملوك الملك الناصر اليه و هروبه من عنده ليلا، فقلق الأفرم من ذلك و ألزم والى المدينة بتحصيل المملوك المذكور، فقال بهادر آص: هذا المملوك عندى و أشار إليه، فنزل عن فرسه و سلّم على الأفرم و سار معه فى الموكب إلى دار السعادة، و قال له بحضرة الأمراء:

السلطان الملك الناصر يسلّم عليك و يقول: ما منكم أحد إلّا و أكل خبز الملك الشهيد قلاوون، و ما منكم إلا من إلعامه عليه، و أنتم تربية الشهيد والده، و أنه قاصد الدخول إلى دمشق و الإقامة بها، فإن كان فيكم من يقاتله و يمنعه العبور فعرّفوه، فلم يتمّ هذا القول حتى صاح الكوكندى الزرّاق أحد أكابر أمراء دمشق وا ابن أستاذاه! و بكى، فغضب الأفرم نائب الشام عليه و أخرجه، ثم قال الأفرم: لأيتمش قل له (يعنى الملك الناصر): كيف يجىء إلى الشام أو إلى غير الشام! كأنّ الشام و مصر الآن تحت حكمك. أنا لمّا أرسل إلىّ السلطان الملك المظفر أن أحلف له ما حلفت حتى سيّرت أقول له: كيف يكون ذلك و ابن أستاذنا باق! فأرسل يقول: أنا ما تقدّمت عليه حتى خلع ابن أستاذنا نفسه، و كتب خطّه و أشهد عليه بنزوله عن الملك فعند ذلك حلفت له، ثم فى هذا الوقت تقول: من يردّنى عن الشام! ثم أمر به الأفرم فسلّم إلى أستاداره. فلمّا كان اللّيل استدعاه و دفع له

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۴۷

خمسين دينارا و قال له: لا تذكر الخروج من الكرك، و انا أكتب إلى المظفّر و أرجعه عن الطلب، ثم أطلقه فعاد أيتمش إلى الكرك و أعلم الملك الناصر بما وقع.

فأعاده الملك الناصر على البريد و معه أركتمر و عثمان الهجّان ليجتمع بالأمير قرا سنقر نائب حلب و يواعده على المسير إلى دمشق، ثم خرج الملك الناصر من الكرك و سار إلى بركة زيزاء فنزل بها.

و أمّا الملك المظفّر بيبرس صاحب الترجمة فإنّه لمّا بلغه أنّ الملك الناصر حبس قاصده مغلطاى المقدّم ذكره قلق من ذلك و استدعى الأمير سلّار و عرّفه ذلك، و كانت البرجيّة قد أغروا المظفّر بيبرس بسلّار و اتّهموه أنّه باطن الملك الناصر و حسّنوا له القبض عليه، حسب ما ذكرناه، فجبن الملك المظفّر من القبض عليه. و بلغ ذلك سلّار فخاف من البرجيّة لكثرتهم و قوّتهم و أخذ فى

مداراتهم؛ و كان أشدّهم عليه الأمير بيكور و قد شرق إقطاعه، فبعث إليه سلّار بستة آلاف إردب غلّة و ألف دينار فكفّ عنه، ثم هادى خواصّ المظفّر و أنعم عليهم. فلمّا حضر سلّار عند المظفّر و تكلّما فيما هم فيه فاقتضى الرأى إرسال قاصد إلى الملك الناصر بتهديده ليفرج عن مغلطاى. و بينما هم فى ذلك قدم البريد من دمشق بأنّ الملك الناصر سار من الكرك إلى البرج الأبيض و لم يعرف أحد مقصده، فكتب الجواب فى الحال بحفظ

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۴۸

الطّرقات عليه. و اشتهر بالديار المصريّة حركة الملك الناصر محمد و خروجه من الكرك فماجت الناس؛ و تحرّك الأمير نوغاى القبجاقىّ، و كان شجاعا مقداما حادّ المزاج قوىّ النفس، و كان من ألزام الأمير سلّار النائب، و تواعد مع جماعة من المماليك السلطانية أن يهجم بهم على السلطان الملك المظفّر إذا ركب و يقتله. فلمّا ركب المظفّر و نزل إلى بركة الجبّ استجمع نوغاى بمن وافقه يريدون الفتك بالمظفّر فى عوده من البركة، و تقرّب نوغاى من السلطان قليلا قليلا و قد تغيّر وجهه و ظهر فيه أمارات الشرّ، ففطن به خواصّ المظفر و تحلّقوا حول المظفّر، فلم يجد نوغاى سبيلا إلى ما عزم عليه، و عاد الملك المظفّر إلى القلعة فعرّفه ألزامه ما فهموه من نوغاى و حسّنوا له القبض عليه و تقريره على من معه، فاستدعى السلطان الأمير سلّار و عرّفه الخبر، و كان نوغاى قد باطن سلّار بذلك، فحذّر سلّار الملك المظفّر و خوّفه عاقبة القبض على نوغاى و أنّ فيه فساد قلوب جميع الأمراء، و ليس الرأى إلّا الإغضاء فقط. و قام سلار عنه فأخذ البرجيّة بالإغراء بسلّار و أنّه باطن نوغاى، و متى لم يقبض عليه فسد الحال. و بلغ نوغاى الحديث فواعد أصحابه على اللحاق بالملك الناصر، و خرج هو و الأمير مغلطاى القازانى و تقطاى الساقى و نحو ستين مملوكا وقت المغرب عند غلق باب القلعة فى ليلة الخميس خامس عشر جمادى الآخرة من سنة تسع و سبعمائة المذكورة. و قيل فى أمر نوغاى و هروبه وجه آخر: قال الأمير بيبرس الدّوادار فى تاريخه: تسحّب من الديار المصريّة إلى الكرك المحروس سيف الدين نوغاى القفجاقىّ أحد المماليك السلطانيّة و سيف الدين تقطاى الساقى و علاء الدين مغلطاى القازانىّ، و توجّه معهم من المماليك السلطانية بالقلعة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۴۹

مائة و ستة و ثلاثون نفرا، و خرجوا طلبا واحدا بخيلهم و هجنهم و غلمانهم و تركوا بيوتهم و أولادهم. انتهى.

و قال غيره: لمّا ولى الملك المظفر بيبرس السلطنة بقى سلّار هو الملك الظاهر بين الناس و الملك المظفّر بيبرس من وراء حجاب، فلمّا كان فى بعض الأيام دخل على الملك المظفّر أميران: أحدهما يسمّى نوغاى و الآخر مغلطاى فباسا الأرض بين يديه و شكوا له ضعف أخبازهما، فقال لهما المظفّر: اشكوا إلى سلّار فهو أعلم بحالكما منى، فقالا: خلّد اللّه ملك مولانا السلطان، أهو مالك البلاد أم مولانا السلطان! فقال: اذهبا إلى سلّار، و لم يزدهما على ذلك، فخرجا من عنده و جاءا إلى سلّار و أعلماه بقول الملك المظفّر، فقال سلّار: و اللّه يا أصحابى أبعدكما بهذا الكلام، و أنتما تعلمان أنّ النائب ما له كلام مثل السلطان. و كان نوغاى شجاعا و عنده قوّة بأس، فأقسم بالله لئن لم يغيّروا خبزه ليقيمنّ شرّا تهرق فيه الدماء، ثم خرجا من عند سلّار. و فى الحال ركب سلّار و طلع إلى عند الملك المظفّر و حدّثه بما جرى من أمر نوغاى و مغلطاى، و قال: هذا نوغاى يصدق فيما يقول، لأنّه قادر على إثارة الفتنة، فالمصلحة قبضه و حبسه فى الحبس، فاتّفقوا على قبضه. و كان فى ذلك الوقت أمير يقال له أنس فسمع الحديث، فلمّا خرج أعلم نوغاى بذلك، فلمّا سمع نوغاى الكلام طلب مغلطاى و جماعة من مماليك الملك الناصر، و قال لهم: يا جماعة، هذا الرجل قد عوّل على قبضنا، و أمّا أنا فلا أسلّم نفسى إلّا بعد حرب تضرب فيه الرّقاب، فقالوا له:

على ما ذا عوّلت؟ فقال: عوّلت على أنّى أسير إلى الكرك إلى الملك الناصر أستاذنا، فقالوا له: و نحن معك فحلف كلّ منهم على ذلك، فقال نوغاى، و كان بيته خارج

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۵۰

باب النصر: كونوا عندى وقت الفجر الأوّل راكبين و أنتم لابسون و تفرّقا، فجهّز نوغاى حاله فى تلك الليلة و ركب بعد الثّلث الأخير

مع ممالیکه و حاشیته، ثم جاءه مغلطای القازانی بممالیکه و معه جماعة من ممالیک السلطان الملک الناصر و الکلّ ملبسون [علی ظهر الخیل]. ثم إنّ نوغای حرّک الطبلخاناه حربیّا و شقّ من الحسیتیّة فماجت الناس و رکبوا من الحسینیة و أعلموا الأمیر سلّار، فرکب سلار و طلع إلی القلعة و أعلم السلطان بذلک.

قال ابن کثیر: و کان ذلک بمباطنة سلّار مع نوغای. فلمّا بلغ المظّفر ذلک قال علی إیش توجّها! فقال سلّار: علی نباح الجراء فی بطون الکلاب، و اللّه ما ینظر فی عواقب الأمور و لا یخاف آثار المقدور؛ فقال المظفر: إیش المصلحة؟ فاتفقوا علی تجرید عسکر خلف المتسحّبین فجرّد فی أثرهم جماعة من الأمراء صحبة الأمیر علاء الدین مغلطای المسعودیّ، و الأمیر سیف الدین قلّی فی جماعة من الممالیک، فساروا سیرا خفیفا قصدا فی عدم إدراکهم و حفظا لسلطانهم و ابن سلطانهم الملک الناصر محمد ابن قلاوون فلم یدرکوهم، و أقاموا علی غزّة أیاما و عادوا إلی القاهرة.

و قال صاحب نزهة الألباب: و جرّد السلطان الملک المظفّر وراءهم خمسة آلاف فارس صحبة الأمیر أخی سلّار، و قال له المظفّر: لا ترجع إلّا بهم و لو غاصوا

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۵۱

فی البحر! و کان فیهم الأمیر شمس الدین دباکوز و سیف الدین بجاس و جنکلی ابن البابا و کهرداش و أیبک البغدادیّ و بلاط و صاروجا و القرمانی و أمیر آخر، و هؤلاء الأمراء هم خیار عسکر مصر فساروا. و کان نوغیه قد وصل إلی بلبیس و طلب والیها و قال له: إن لم تحضر لی فی هذه الساعة خمسة آلاف دینار من مال السلطان و إلّا سلخت جلدک من کعبک [إلی أذنک]، ففی الساعة أحضر الذهب، و کان نوغیه قد أرصد أناسا یکشفون له الأخبار، فجاءوا له و ذکروا أنّ عسکرا عظیما قد وصل من القاهرة و هم سائقون؛ فلمّا سمع نوغیه ذلک رکب هو و أصحابه و قالوا لوالی بلبیس قل للامراء الجائین خلفی أنا رائح علی مهل حتی تلحقونی، و أنا أقسم باللّه العظیم لئن وقعت عینی علیهم لأجعلنّ علیهم یوما یذکر إلی یوم القیامة! و لم یبعد نوغیه حتی وصل أخو سلّار و هو الأمیر سمک و معه العساکر، فلاقاهم والی بلبیس و أخبرهم بما جری له مع نوغیه و قال لهم: ما رکب إلا من ساعة، فلما سمعوا بذلک ساقوا إلی أن وصلوا إلی مکان بین الخطّارة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۵۲

و السعیدیة، فإذا بنوغای واقف و قد صفّ رجاله میمنة و میسرة و هو واقف فی القلب قدّام الکلّ، فلما رآهم سمک أرسل إلیه فارسا من کبار الحلقة، و سار إلیه الفارس و اجتمع بنوغیه و قال له: أرسلنی سمک إلیک و هو یقول: السلطان الملک المظفّر یسلّم علیک و یقول لک: سبحان اللّه! أنت کنت أکبر أصحابه، فما الذی غیّرک علیه؟

فإن کان لأجل الخبز فما یأکل الخبز أحد أحقّ منک، فإن عدت إلیه فکلّ ما تشتهی یفعله لک. فلمّا سمع نوغیه هذا الکلام ضحک و قال: إیش هذا الکلام الکذب! لمّا أمس سألته أن یصلح خبزی بقریة واحدة ما أعطانی، و أنا تحت أمره، فکیف یسمح لی الیوم بما أشتهی و أنا صرت عدوّه! فخلّ عنک هذا الهذیان، و مالکم عندی إلا السیف، فرجع الرسول و أعلم سمک بمقالته، ثم إنّ نوغیه دکس فرسه و تقدّم إلی سمک و أصحابه و قال له: إن هؤلاء الذین معی أنا الذی أخرجتهم من بیوتهم و أنا المطلوب، فمن کان یریدنی یبرز لی و هذا المیدان! فنظرت الأمراء بعضهم إلی بعض، ثم قال: یا أمراء، ما أنا عاص علی أحد، و ما خرجت من بیتی إلا غبنا، و أنتم أغبن منی، و لکن ما تظهرون ذلک، و هأنتم سمعتم منی الکلام فمن أراد الخروج إلیّ فلیخرج و إلا احملوا علیّ بأجمعکم، و کان آخر النهار، فلم یخرج الیه أحد فرجع إلی أصحابه و نزل سمک فی ذلک المکان. فلما أمسی اللیل

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۵۳

رحل نوغیه بأصحابه و سار مجدّا لیله و نهاره حتی وصل قطیا، فوجد والیها قد جمع العربان لقتاله، لأنّ البطاقة وردت علیه من مصر بذلک، و العربان الذین جمعهم الوالی نحو ثلاثة آلاف فارس؛ فلما رآهم نوغای قال لأصحابه: احملوا علیهم و بادروهم حتی لا

يأخذهم الطّمع فيكم (يعنى لقلّتهم) و تأتى الخيل التى وراءكم، فحملوا عليهم و كان مقدّم العرب نوفل [ابن حابس] البياضى، و فيهم نحو الخمسمائة نفر بلبوس، فحملت الأتراك أصحاب نوغاى عليهم و تقاتلا قتالا عظيما حتى ولّت العرب، و انتصر نوغيه عليهم هو و أصحابه، و ولّت العرب الأدبار طالبين البرّيّة، و لحق نوغيه والى قطيا فطعنه و ألقاه عن فرسه و أخذه أسيرا. ثم رجعت الترك من خلف العرب و قد كسبوا منهم شيئا كثيرا.

و أمّا سمك فإنه لم يزل يتبعهم بعساكر مصر منزلة بعد منزلة حتى وصلوا إلى قطيا فوجدوها خرابا، و سمعوا ما جرى من نوغيه على العرب، فقال الأمراء: الرأى أننا نسير إلى غزّة و نشاور نائب غزّة فى عمل المصلحة، فساروا إلى غزّة فلاقاهم نائب غزّة و أنزلهم على ظاهر غزّة و خدمهم، فقال له سمك: نحن ما جئنا إلّا لأجل نوغاى، و أنّه من العريش سار يطلب الكرك، فما رأيك؟ نسير إلى الكرك أو نرجع إلى مصر؟

فقال لهم نائب غزة: رواحكم إلى الكرك ما هو مصلحة، و أنتم من حين خرجتم من مصر سائرون وراءهم و رأيتموهم فى الطريق فما قدرتم عليهم، و قد وصلوا إلى الكرك و انضمّوا إلى الملك الناصر، و الرأى عندى أنكم ترجعون إلى مصر و تقولون للسلطان ما وقع و تعتذرون له، فرجعوا و أخبروا الملك المظفّر بالحال فكاد يموت غيظا، و كتب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۵۴

من وقته كتابا للملك الناصر فيه: إنّ ساعة وقوفك على هذا الكتاب و قبل وضعه من يدك ترسل لنا نوغاى و مغلطاى و مماليكهما، و تبعث المماليك الذين عندك و لا تخلّ منهم عندك سوى خمسين مملوكا، فإنك اشتريت الكلّ من بيت المال، و إن لم تسيرهم سرت إليك و أخذتك و أنفك راغم! و سيّر الكتاب مع بدوىّ إلى الملك الناصر.

و أمّا نوغاى فإنه لما وصل إلى الكرك وجد الملك الناصر فى الصيد، فقال نوغيه لمغلطاى: انزل أنتها هنا و أسير أنا للسلطان، و ركب هجينا و أخذ معه ثلاثة مماليك و سار إلى ناحية عقبة أيلة، و إذا بالسلطان نازل فى موضع و عنده خلق كثير من العرب و الترك، فلما رأوا نوغيه و قد أقبل من صدر البرّيّة، أرسلوا إليه خيلا فكشفوا خبره، فلما قربوا منه عرفه مماليك السلطان فرجعوا و أعلموا السلطان أنه نوغاى، فقال السلطان: اللّه أكبر! ما جاء هذا إلّا عن أمر عظيم، فلّما حضر نزل و باس الأرض بين يدى الملك الناصر و دعا له، فقال له الملك الناصر: أراك ما جئت لى فى مثل هذا الوقت إلى هذا المكان إلا لأمر؟ فحدثنى حقيقة أمرك، فأنشأ نوغيه يقول:

أنت المليك و هذه أعناقنا خضعت لعزّ علاك يا سلطانى

أنت المرجّى يا مليك فمن لنا أسد سواك و ما لك البلدان

فى أبيات أخر، ثم حكى له ما وقع له منذ خرج الملك الناصر من مصر إلى يوم تاريخه، فركب الملك الناصر و ركب معه نوغيه و عادا إلى الكرك، و خلع عليه و على رفقته و أنزلهم عنده و وعدهم بكلّ خير.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۵۵

ثم إنّ الملك الناصر جمع أمراءه و مماليكه و شاورهم فى أمره، فقال نوغيه:

من ذا الذى يعاندك أو يقف قدّامك و الجميع مماليكك! و الذى خلق الخلق إذا كنت أنت معى وحدى ألتقى بك كلّ من خرج من مصر و الشام! فقال السلطان:

صدقت فيما قلت، و لكن من لم ينظر فى العواقب، ما الدهر له بصاحب. انتهى.

و قال ابن كثير فى تاريخه: وصل المتوجّهون إلى الكرك إلى الملك الناصر فى الحادى و العشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة فقبلهم الناصر أحسن قبول، و كان حين وصلوا إلى قطيا أخذوا ما بها من المال، و وجدوا أيضا فى طريقهم تقدمة لسيف الدين طوغان نائب البيرة فأخذوها بكمالها و أحضروا الجميع بين يدى الملك الناصر محمد، و لمّا وصلت إليه الأمراء المذكورون أمر الملك

الناصر بالخطبة لنفسه، ثم كاتب النوّاب فاجتمعوا و أجابوه بالسمع و الطاعة. و لما عاد الأمراء من غزّة إلى مصر اشتدّ خوف السلطان الملك المظفّر و كثر خياله من أكثر عسكر مصر، فقبض على جماعة تزيد على ثلثمائة مملوك، و أخرج أخبازهم و أخباز المتوجّهين مع نوغيه إلى الكرك لمماليكه، و تحلّقوا عليه البرجيّة و شوّشوا فكره بكثرة تخيّله بمخامرة العسكر المصرىّ عليه، و ما زالوا به حتّى أخرج الأمير بينجار و الأمير صارم الدين الجرمكىّ فى عدّة من الأمراء مجرّدين، و أخرج الأمير آقوش الرومىّ بجماعته إلى طريق السّويس ليمنع من عساه يتوّجه من الأمراء و المماليك إلى الملك الناصر. ثم قبض الملك المظفّر على أحد عشر مملوكا و قصد أن يقبض على آخرين فاستوحش الأمير بطرا فهرب، فأدركه الأمير جركتمر بن بهادر رأس نوبة فأحضره فحبس؛ و عند إحضاره

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۵۶

طلع الأمير ألديكز السّلاح دار بملطّف من عند الملك الناصر محمد، و هو جواب الكتاب الذى كان أرسله الملك المظفر للملك الناصر يطلب نوغيه و أصحابه. و قد ذكرنا معناه و ما أغلظ فيه و أفحش فى الخطاب للملك الناصر، و كان فى وقت وصول كتاب المظفّر حضر إلى الملك الناصر الأمير أسندمر نائب طرابلس كأنّهما كان على ميعاد، فأخذ الناصر الكتاب و أسندمر إلى جانبه، و عليه لبس العربان، و قد ضرب اللّثام فقرأ الناصر الكتاب، ثم ناوله إلى أسندمر فقرأه و فهم معناه، ثم أمر الملك الناصر الناس بالانصراف و بقى هو و أسندمر، و قال لأسندمر: ما يكون الجواب؟

فقال له أسندمر: المصلحة أن تخادعه فى الكلام و تترقّق له فى الخطاب حتى نجهّز أمرنا و نستظهر، فقال له السلطان: اكتب له الجواب مثل ما تختاره، فكتب أسندمر:

«المملوك محمد بن قلاوون يقبّل اليد العالية المولوية السلطانيّة المظفّريّة أسبغ اللّه ظلّها، و رفع قدرها و محلّها، و ينهى بعد رفع دعائه، و خالص عبوديته و ولائه أنه وصل إلىّ المملوك نوغيه و مغلطاى و جماعة من المماليك، فلمّا علم المملوك بوصولهم أغلق باب القلعة و لم يمكّن أحدا منهم يعبر إليه، و سيّرت إليهم ألومهم على ما فعلوه، و قد دخلوا على المملوك بأن يبعث و يشفع فيهم، فأخذ المملوك فى تجهيز تقدمة لمولانا السلطان و يشفع فيهم، و الذى يحيط به علم مولانا السلطان أنّ هؤلاء من مماليك السلطان، خلّد اللّه ملكه، و أنّ الذى قيل فيهم غير صحيح، و إنما هربوا خوفا على أنفسهم، و قد استجاروا بالمملوك، و المملوك يستجير بظلّ الدولة المظفّريّة، و المأمول ألّا يخيّب سؤاله و لا يكسر قلبه، و لا يردّه فيما قصده. و فى هذه الأيام يجهّز المملوك

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۵۷

تقدمة مع المماليك الذين طلبهم مولانا السلطان، و أنا ما لى حاجة بالمماليك فى هذا المكان، و إن رسم مولانا ما لك الرّقّ أن يسيّر نائبا له ينزل المملوك بمصر و يلتجئ بالدولة المظفريّة و يحلق رأسه و يقعد فى تربة الملك المنصور.

و المملوك قد وطّن نفسه على مثل هذا؛ و قد قال أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب كرم اللّه وجهه: «ما أقرب الراحة من التعب و البؤس من النّعم و الموت من الحياة». و قال بعضهم: إيّاك و ما يسخط سلطانك، و يوحش إخوانك؛ فمن أسخط سلطانه فقد تعرّض للمنيّة، و من أوحش إخوانه فقد تبرّأ عن الحرية.

و المملوك يسأل كريم العفو و الصفح الجميل! و اللّه تعالى قال فى كتابه الكريم و هو أصدق القائلين: وَ الْكاظِمِينَ الْغَيْظَ وَ الْعافِينَ عَنِ النَّاسِ وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ.

و المملوك ينتظر الأمان و الجواب. أنهى المملوك ذلك».

فلمّا قرأ الملك المظفّر الكتاب خفّ ما كان عنده، و كان سلّار حاضرا فقال له سلّار: ما قلت لك إنّ الملك الناصر ما بقيت له قدرة على المعاندة! و قد أصبح ملك الشام و مصر طوع يدك، و لكن عندى رأى: و هو أن تسيّر إلى الأفرم بأن يجعل بآله من الأمراء، فإنّهم ربّما يهربون إلى بلاد التّتار فاستصوب المظفّر ذلك، و كتب إلى الأفرم فى الحال بالغرض، فلمّا وصل الكتاب إلى الأفرم اجتهد فى ذلك غاية الاجتهاد.

و أخـذ الملـک الناصـر فی تـدبیر أمره، و بینمـا المظفّر فی ذلـک ورد علیه الخبر من الأفـرم بخروج الملک الناصـر من الکرک، فقلق المظفّر من ذلک و زاد توهّمه و نفرت قلوب جماعة من الأمراء و الممالیک منه و خشوا علی أنفسهم و اجتمع کثیر

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۵۸

من المنصوریّـة و الأشـرفیة و الأویراتیّـة و تواعـدوا علی الحرب، و خرج منهم مائـة و عشـرون فارسا بالسـلاح، و ساروا علی حمیّة إلی الملـک الناصـر، فخرج فی أثرهم الأـمیر بینجـار و الصارم الجرمکیّ بمن معهم، و قاتلوا الممالیک و جرح الجرمکیّ بسـیف فی خـدّه سقـط منـه إلی الأـرض، و مضـی الممالیـک إلی الکرک و لـم یسـتجرئ أحـد أن یتعرّض إلیهـم؛ فعظـم بـذلک الخطب علی الملک المظفّر، و اجتمع عنـده البرجیّـة و قـالوا: هـذا الفسـاد کلّه من الأمیر سـلّار، و متی لم تقبض علیه خرج الأمر من یـدک، فلم یوافق علی ذلک و جبن من القبض علی سـلّار لشوکته و لاضـطراب دولته، ثم طلب الملک المظفّر الأمیر سلّار و غیره من الأمراء و استشارهم فی أمر الملک الناصر، فاتّفق الرأی علی خروج تجریدة لقتال الملک الناصر.

و أمّا الملک الناصـر فإنّه أرسل الأمیر أیتمش المحمّـدیّ الناصـریّ إلی الأمیر قبجق نائب حماة، فأحال الأمیر قبجق الأمر علی الأمیر قرا سنقر نائب حلب، فاجتمع أیتمش بقرا سـنقر فأکرمه و وافق علی القیام مع الملک الناصـر، و دخل فی طاعته و أعلن بذلک، و هو أکبر الممالیک المنصوریّـة، و واعـد الملک الناصـر علی المسـیر إلی دمشق فی أوّل شـعبان. ثم کتب قرا سـنقر إلی الأفرم نائب الشام یحثّه علی طاعة الملک الناصـر و یرغّبه فی ذلک و یحذّره مخالفته؛ و أشار قراسـنقر علی الملک الناصر أنه یکاتب الأمیر بکتمر الجوکندار نائب صفد، و الأمیر کرای المنصوریّ نائب القدس. ثم عاد أیتمش إلی أستاذه الملک الناصر و أخبره بکلّ ما وقع، فسرّ الملک الناصر بذلک هو و کلّ من عنده

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۵۹

غایـة السـرور، و تحقّق کلّ أحـد من حواشـی الملک الناصـر بإتمام أمره. و کان نوغیه منـذ قدم علی الملک الناصـر بالکرک لا یبرح یحرّضه علی المسیر إلی دمشق حتّی إنّه ثقل علی الملک الناصـر من مخاشـنته فی المخاطبة بسـبب توجّهه إلی دمشق، و غضب منه و قال له: لیس لی بک حاجـة، ارجع حیث جئت، فترک نوغای الخدمة و انقطع و حقد له الملک الناصـر ذلک حتّی قتله بعد عوده إلی الملک بمدّة حسب ما یأتی ذکره من کثرة ما وبّخه نوغیه المذکور، و أسمعه من الکلام الخشن.

و لمّـا قـدم أیتمش بالأجوبـة علی الملک الناصـر قوی عزم الملـک الناصـر علی الحرکـة؛ ثم إنّ الملـک الناصـر أیضا أرسل مملوکه أیتمش المحمـدی المـذکور إلی الأـمیر بکتمر الجوکنـدار نـائب صـفد حسب مـا أشار به قرا سـنقر، فسار أیتمش إلیه و اجتمع بالأمیر محمـد بن بکتمر الجوکنـدار، فجمع محمـد المـذکور بین أیتمش و بین أبیه لیلاـ فی مقـابر صـفد، فعتبه أیتمش علی ردّه أوّلاـ قاصـد السـلطان الملک الناصـر فاعتذر له بکتمر بالخوف من بیبرس و سـلّار کما کان وقع له مع الناصـر أوّلا بالدیار المصـریّة حین اتّفقا علی قبض بیبرس و سـلّار و لم یتمّ لهم ذلک، و أخرج بکتمر بسبب ذلک من الدیار المصریّة، و قد تقدّم ذکر ذلک کلّه. انتهی. ثم قال له بکتمر: و لو لاـ ثقتی بـک ما اجتمعت علیک، فلمّا عرّفه أیتمش طاعـة الأمیر قراسـنقر و الأمیر قبجق و الأمیر أسـندمر أجاب بالسـمع و الطاعة، و أنّه علی میعاد النوّاب إلی المضی إلی الشام، و عاد أیتمش إلی الملک الناصر بجواب بکتمر فسرّ به غایة السرور.

و أمّـا السـلطان الملـک المظفّر بیبرس هـذا فإنّه أخـذ فی تجهیز العساکر إلی قتال الملک الناصـر محمـد حتّی تمّ أمرهم و خرجوا من الدیار المصـریّة فی یوم السبت تاسع شهر رجب و علیهم خمسة أمراء من مقدّمی الألوف، و هم: الأمیر برلغی الأشرفیّ، و الأمیر جمال الدین آقوش الأشرفی نائب الکرک کان، و الأمیر عزّ الدین أیبک

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۶۰

البغدادیّ، و الأمیر سـیف الدین طغریل الإیغانیّ، و الأمیر سـیف الدین الدکز السلاح دار، و معهم نحو ثلاثین أمیرا من أمراء الطبلخاناه بعد ما أنفق فیهم الملک المظفّر، فأعطی برلغی عشرة آلاف دینار، و أعطی لکل مقدّم ألفی دینار، و لکلّ من الطبلخاناه ألف دینار، و

لکلّ واحد من مقدّمى الحلقة ألف درهم، و لکل واحد من أجناد الحلقة خمسمائة درهم، و نزلوا بمسجد التّبن خارج القاهرة و لم يتقدّموا، ثم عادوا بعد أربعة أيّام إلى القاهرة. و کان الباعث على عودهم أن کتب آقوش الأفرم نائب الشام وردت على الملک المظفّر: تتضمّن وصول الملک الناصر إلى البرج الأبيض، ثم عاد إلى الکرک فاطمأنّ الملک المظفر و أرسل إلى برلغى و من معه من المجرّدين بالعود فعادوا بعد أربعة أيام. فلم يکن إلا أيّام و ورد الخبر ثانيا بمسير الملک الناصر محمد من الکرک إلى نحو دمشق، فتجهّز العسکر المذکور فى أربعة آلاف فارس و خرجوا من القاهرة فى العشرين من شعبان إلى العبّاسة. فورد البريد من دمشق بقد أيتمش المحمّدى من قبل الملک الناصر بمشافهة إلى الأفرم ذکرها للمظفّر. ثم إنّ الأفرم بعد قدوم أيتمش بعث الأمير علاء الدين أيدغدى شقير الحسامىّ، و الأمير جوبان لکشف خبر الملک الناصر، و أنهما توجّها من الشام إلى جهة الکرک، فوجدا الملک الناصر يتصيّد و أنّه عوّق أيتمش عنده، فسرّ المظفّر بذلک، و کان الأمر بخلاف ذلک، و هو أن أمرهما: أنّه لمّا سيّرهما الأفرم لکشف خبر الملک الناصر قدما على الملک الناصر، و دخلا تحت طاعته، و عرّفاه أنهما جاءا لکشف خبره و حلفا له على القيام بنصرته سرّا، و عادا إلى الأفرم بالجواب المذکور. و کان الناصر هو الذى أمرهما بهذا القول، فظنّ

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۶۱

الأفرم أنّ أخبارهما على الصدق، فکتب به إلى المظفّر. ثم إنّ الأفرم خاف أن يطرق الملک الناصر دمشق على غفلة فجرّد إليه ثمانية أمراء من أمراء دمشق، و هم:

الأمير سيف الدين قطلوبک المنصورىّ، و الأمير سيف الدين الحاج بهادر الحلبىّ الحاجب، و الأمير جوبان، و الأمير کجکن، و الأمير علم الدين سنجر الجاولى و غيرهم ليقيموا على الطّرقات لحفظها على من يخرج من الشام و غيره إلى الملک الناصر. و کتب إلى الملک المظفّر يستحثّه على إخراج عساکر مصر لتجتمع عنده مع عساکر دمشق على قتال الملک الناصر، و أنّه قد جدّد اليمين للمظفّر و حلّف أمراء دمشق ألّا يخونوه و لا ينصروا الملک الناصر. فلمّا قرأ المظفّر کتاب الأفرم اضطرب و زاد قلقه.

ثم ورد عليه کتاب الأمير برلغى من العبّاسة بأنّ مماليک الأمير آقوش الرومىّ تجمّعوا عليه و قتلوه و ساروا و معهم خزائنه إلى الملک الناصر، و أنّه لحق بهم بعض أمراء الطبلخاناه فى جماعة من مماليک الأمراء و قد فسد الحال، و الرأى أن يخرج السلطان بنفسه.

فلمّا سمع الملک المظفّر ذلک أخرج تجريدة أخرى فيها عدّة أمراء أکابر، و هم:

الأمير بجاس و بکتوت و کثير من البرجيّة، ثم بعث إلى برلغى بألفى دينار و وعده بأنه عازم على التوجّه إليه بنفسه.

فلمّا ورد کتاب الملک المظفر بذلک و بقدوم التجريدة إليه عزم على الرحيل إلى جهة الکرک، فلمّا کان الليل رحل کثير ممّن کان معه يريدون الملک الناصر، فثنى عزمه عن الرحيل ثانيا، و کتب إلى المظفّر يقول: بأنّ نصف العسکر سار إلى الملک الناصر و خرج عن طاعة الملک المظفّر، ثم حرّض الملک المظفّر على الخروج

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۶۲

بنفسه. و قبل أن يطلع الفجر من اليوم المذکور وصل إلى القاهرة الأمير بهادر جک بکتاب الأمير برلغى المذکور و طلع إلى السلطان، فلمّا قضى الملک المظفّر صلاة الصبح تقدّم إليه بهادرجک و عرّفه بوصول أکثر العسکر إلى الملک الناصر و ناوله الکتاب، فلمّا قرأه بيبرس تبسّم و قال: سلّم على الأمير برلغى، و قل له لا تخش من شىء، فإنّ الخليفة أمير المؤمنين قد عقد لنا بيعة ثانية و جدّد لنا عهدا، و قد قرئ على المنابر، و جدّدنا اليمين على الأمراء، و ما بقى أحد يجسر أن يخالف ما کتب به أمير المؤمنين! ثم دفع إليه العهد الخليفتى و قال: امض به إليه حتى يقرأه على الأمراء و الجند ثم يرسله إلىّ، فإذا فرغ من قراءته يرحل بالعساکر إلى الشام و جهّز له بألفى دينار أخرى، و کتب جوابه بنظير المشافهة، فعاد بهادر جک إلى برلغى.

فلمّا قرأ عليه الکتاب و انتهى إلى قوله: و أنّ أمير المؤمنين ولّانى تولية جديدة و کتب لى عهدا و جدد لى بيعة ثانية، و فتح العهد فإذا أوّله: إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمانَ وَ إِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ فقال برلغى: و لسليمان الريح! ثم التفت إلى بهادر جک و قال له، قل له: يا بارد

الذقن، و اللّه ما بقی أحد یلتفت إلی الخلیفة، ثم قام و هو مغضب. و کان سبب تجدید العهد للملک المظفّر هذا أنّ الأفرم نائب الشام لمّا ورد کتابه علی المظفّر أنه حلّف الأمراء بدمشق ثانیا، و بعث بالشیخ صدر الدین محمد ابن عمر [ابن مکّی بن عبد الصمد الشهیر بابن] المرحّل إلی الملک المظفّر فی الرسلیّة، صار صدر الدین یجتمع به هو و ابن عدلان و صار الملک المظفّر یشغل وقته بهما، فأشارا علیه بتجدید العهد و البیعة و تحلیف الأمراء، و أنّ ذلک یثبت به قواعد ملکه

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۶۳

ففعل الملک المظفّر ذلک، و حلف الأمراء بحضور الخلیفة، و کتب له عهدا جدیدا عن الخلیفة أبی الربیع سلیمان العباسیّ. و نسخة العهد:

«إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمانَ وَ إِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ من عبد اللّه و خلیفة رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم أبی الربیع سلیمان بن أحمد العبّاسیّ لأمراء المسلمین و جیوشها، یا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ و إنّی رضیت لکم بعبد اللّه تعالی الملک المظفّر رکن الدین نائبا عنی لملک الدیار المصریة و البلاد الشامیّة، و أقمته مقام نفسی لدینه و کفاءته و أهلیّته و رضیته للمؤمنین، و عزلت من کان قبله بعد علمی بنزوله عن الملک، و رأیت ذلک متعیّنا علیّ، و حکمت بذلک الحکّام الأربعة؛ و اعلموا، رحمکم اللّه، أنّ الملک عقیم لیس بالوراثة لأحد خالف عن سالف و لا کابر عن کابر؛ و قد استخرت اللّه تعالی و ولّیت علیکم الملک المظفّر، فمن أطاعه فقد أطاعنی، و من عصاه فقد عصانی، و من عصانی فقد عصی أبا القاسم ابن عمّی صلّی اللّه علیه و سلّم. و بلغنی أنّ الملک الناصر ابن السلطان الملک المنصور شقّ العصاة علی المسلمین و فرّق کلمتهم و شتّت شملهم و أطمع عدوّهم فیهم، و عرّض البلاد الشامیّة و المصریّة إلی سبی الحریم و الأولاد و سفک الدماء، فتلک دماء قد صانها اللّه تعالی من ذلک. و أنا خارج إلیه و محاربه إن استمرّ علی ذلک، و أدافع عن حریم المسلمین و أنفسهم و أولادهم لهذا الأمر العظیم، و أقاتله حتّی یفیء إلی أمر اللّه تعالی، و قد أوجبت علیکم یا معاشر المسلمین کافّة الخروج تحت لوائی اللّواء الشریف، فقد أجمعت الحکّام علی وجوب دفعه و قتاله إن استمرّ علی ذلک، و أنا مستصحب معی الملک المظفّر فجهّزوا أرواحکم و السلام».

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۶۴

و قرئ هذا العهد علی منابر الجوامع بالقاهرة، فلمّا بلغ القارئ إلی ذکر الملک الناصر صاحت العوامّ: نصره اللّه نصره اللّه! و کررت ذلک. و قرأ، فلمّا وصل إلی ذکر الملک المظفّر صاحوا: لا، ما نریده! و وقع فی القاهرة ضجّة و حرکة بسبب ذلک.

انتهی.

ثم قدم علی الملک المظفّر من الشام علی البرید الأمیر بهادر آص یحثّ الملک المظفر علی الخروج إلی الشام بنفسه، فإن النوّاب قد مالوا کلّهم إلی الملک الناصر، فأجاب أن لا یخرج، و احتجّ بکراهیته للفتنة و سفک الدماء، و أنّ الخلیفة قد کتب بولایته و عزل الملک الناصر فإن قبلوا و إلّا ترک الملک. ثم قدم أیضا الأمیر بلاط بکتاب الأمیر برلغی، و فیه أن جمیع من خرج معه من أمراء الطبلخاناه لحقوا بالملک الناصر و تبعهم خلق کثیر، و لم یتأخر غیر برلغی و آقوش نائب الکرک و أیبک البغدادیّ، و ألدکز و الفتّاح، و ذلک لأنّهم خواصّ الملک المظفّر.

و أمّا الملک الناصر فإنّه سار من الکرک بمن معه فی أوّل شعبان یرید دمشق بعد أمور وقعت له؛ نذکرها فی أوائل ترجمته الثالثة. فلمّا سار دخل فی طاعته الأمیر قطلوبک المنصوریّ و الحاج بهادر و بکتمر الحسامیّ حاجب حجّاب دمشق و علم الدین سنجر الجاولی. و صار الملک الناصر یتأنّی فی مسیره من غیر سرعة حتّی یتبیّن ما عند أمراء دمشق الذین أخرجهم الأفرم لحفظ الطرقات قبل ذلک، فکتبوا أمراء دمشق المذکورون إلی الأفرم أنّه لا سبیل لهم إلی محاربة الملک الناصر، و أرادوا بذلک إمّا أن یخرج بنفسه فیقبضوه أو یسیر عن دمشق إلی جهة أخری فیأتیهم بقیّة الجیش و کان کذلک. فإنّه لما قدم کتابهم علیه بدمشق شارع بین الناس مجیء الملک

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۶۵

الناصـر من الکرک فثارت العوامّ و صاحوا. نصـر اللّه الملک الناصـر! و تسلّل عسکره من دمشق طائفة بعد طائفة إلی الملک الناصر، و انفرط الأـمر من الأـفرم و اتّفق الأـمیر بیبرس العلاـئی و الأـمیر بیبرس المجنون بمن معهمـا علی الوثوب علی الأفرم و القبض علیه، فلم یثبت عنـد ما بلغه ذلک، و اسـتدعی علاء الـدین [علیّ] بن صبیـح، و کان من خواصّه و خرج لیلا و توجّه إلی جهـة الشّـقیف، فرکب قطلو بک و الحاجّ بهادر عند ما سمعا خبر الأفرم، و توجّها إلی الملک الناصر، و کانا کاتباه بالدخول فی طاعته قبل ذلک، فسّر بهما و أنعم علی کـل واحـد منهمـا بعشـرة آلاـف درهم؛ و قـدم علی الناصـر أیضا الجاولی و جوبان و سائر من کان معهم، فسار بهم الملک الناصـر حتی نزل الکسوة، و خرج إلیه بقیّة الأـمراء و الأجناد. و قـد عمل له سائر شـعار السـلطنة من السـناجق الخلیفتیـة و السـلطانیّة و العصائب و الجتر و الغاشـیة، و حلف العساکر و سار یوم الثلاثاء ثانی عشـر شـعبان یریـد مدینـة دمشق، فـدخلها من غیر مـدافع بعـد ما زیّنت له زینـة عظیمـة، و خرج جمیع النـاس إلی لقـائه علی اختلاـف طبقـاتهم حتی صـغار الکتّـاب، و بلغ کراء البیت من البیوت التی بمیـدان الحصـی إلی قلعة دمشق للتفرّج علی السـلطان من خمسـمائة درهم إلی مائة درهم، و فرشت الأرض بشـقاق الحریر الملوّنة، و حمل الأمیر قطلوبک المنصوریّ الغاشـیة، و حمل الأمیر الحاج بهادر الجتر، و ترجّل الأمراء و العساکر بأجمعهم و مشوا بین یدیه حتّی نزل بالقصر [الأبلق]؛ و فی وقت نزوله قدم مملوک الأمیر قرا سنقر نائب حلب لکشف الخبر

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۶۶

و أنّ قراسنقر خرج من حلب و قبجق خرج من حمـاة فخلع علیه و کتب لهما بسرعة الحضور إلیه. ثم کتب إلی الأفرم أمانا و توجّه به علم الدین سـنجر الجاولی، فلم یثق بذلک لما کان وقع منه فی حقّ الناصر لمّا قدم علیه تنکز، و طلب یمین السلطان فحلف السلطان له و بعث إلیه نسـخة الحلف. و کـان قبـل ذلـک بعث الملـک الناصـر خازنـداره و تنکز مملوکه إلی الأـفرم هـذا صـحبة عثمـان الرکاب یسـتدعیه إلی طاعته بکلّ ما یمکن، ثم أمره الملک الناصـر إن لم یطع یخشّن له فی القول، و کـذلک کتب فی المطالعـة التی علی ید تنکز: أوّلها وعـد و آخرها وعیـد، فلمّا قرأ الأفرم الکتاب المـذکور اسودّ وجهه من الغضب، ثم التفت إلی تنکز و قال: أنت و أمثالک الذین حمّقوا هذا الصبیّ حتی کتب لی هذا الکتاب، ویلک! من هو الذی وافقه من أمراء دمشق علی ذلک! و کان الناصـر قد کتب له فی جملة الکلام أنّ غالب أمراء البلاد الشامیّة أطاعونی، و کان الأفرم لما حضر إلیه تنکز قبل أن یقرأ الکتاب جمع أمراء دمشق ثم قرا الکتاب، فلمّا وصل إلی ذلک، قال الأفرم، قل لی: من هو الذی أطاعه حتی أقبض علیه و أرسله إلی مصـر؟ فنظر أمراء دمشق بعضـهم إلی بعض و أمعن الأفرم فی الکلام؛ فقام الأمیر بیبرس المجنون و قال: ما هـذا الکلام مصـلحة، تجاوب ابن اسـتاذک بهـذا الجواب! و لکن لاطفه و قل له: أنت تعلم أنّنا متّبعون مصر و ما یبرز منها، فإن أردت الملک فاطلبه من مصر، و لا تبتلش بنا و ارجع عنّا، و ذکر له أشیاء من هذا النّمط؛ فقال الأفرم: أنا ما أقول هذا الکلام، و لیس له عندی إلّا السیف إن جاءنا! ثم طلب الأفرم تنکز فی خلوة و قال له: سر إلی أستاذک و قل له: یرجع، و إلّا یسمع الملک المظفّر فیمسکک و یحبسک، فتبقی تمنّی أن تشبع

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۶۷

الخبز! و لاـ ینفعـک حینئـذ أحـد، فـإن کـان لک رأی فاقبض علی نوغیه و من معه و سـیّرهم للملک المظفّر، فإن فعلت ذلک یصـلح حالـک، و لاـ تفعـل غیر هـذا تهلـک. و کتب له کتابـا بمعنی هـذا و دفعه إلی تنکز، فلم یخرج تنکز من دمشق إلی أثناء الطریق حتی خرج فی أثره جماعة من أمراء دمشق إلی طاعة الناصر. و کان کلام الأفرم لتنکز أکبر الأسباب لخروج الملک الناصر من الکرک إلی دمشق، فلمـا قـدم الناصـر دمشق و کتب الأمـان للاـفرم فتخوف الأـفرم ممـا کان وقع منه من القول لمّا قـدم علیه تنکز و طلب الحلف. انتهی.

و قال بیبرس فی تاریخه: و أرسل السلطان إلی الأفرم رسلا بالأمان و الأیمان، و هما الأمیران عزّ الدین أیدمر الزّردکاش و الأمیر سیف الدین جوبان. و قال غیره: بعث إلیه السلطان نسخة الحلف مع الأمیر الحاج أرقطای الجمدار، فما زال به حتی قدم معه هو و ابن صبیح،

فركب السلطان إلى لقائه حتى قرب منه نزل كلّ منهما عن فرسه، فاعظم الأفرم نزول السلطان له و قبل الأرض، و كان الأفرم قد لبس كامليّة و شدّ وسطه و توشّح بنصفيه (يعنى أنه حضر بهيئة البطالين من الأمراء) و كفنه تحت إبطه، و عند ما شاهدته الناس على هذه الحالة صرخوا بصوت واحد: يا مولانا السلطان، بتربة والدك الملك الشهيد قلاوون لا تؤذه و لا تغيّر عليه! فبكى سائر من حضر، و بالغ السلطان فى إكرامه و خلع عليه و أركبه و أقرّه على نيابة دمشق، فكثر الدعاء له و سار إلى القصر. فلما كان من الغد أحضر الأفرم خيلا و جمالا و ثيابا بمائتى ألف درهم تقدمة إلى السلطان الملك الناصر. و فى يوم الجمعة ثانى عشرين

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۶۸

شعبان خطب للملك الناصر بدمشق و انقطع منها اسم المظفّر، و صليت الجمعة بالميدان فكان يوما مشهودا؛ و فى ذلك اليوم قدم الأمير قراسنقر نائب حلب، و الأمير قبجق نائب حماة، و الأمير أسندمر كرجى نائب طرابلس، و تمر السّاقى نائب حمص، فركب السلطان إلى لقائهم و ترجّل إلى قراسنقر و عانقه و شكر الأمراء و أثنى عليهم؛ ثم قدم الأمير كراى المنصورىّ نائب القدس و الأمير بكتمر الجو كندار نائب صفد، ثم قدّم كلّ من الأمراء و النوّاب تقدمته بقدر حاله ما بين ثياب أطلس و حوائص ذهب و كلفتاة زركش و خيول مسرجة، فى عنق كل فرس كيس فيه ألف دينار و عليه مملوك، و عدّة بغال و جمال بخاتىّ و غير ذلك. و شرع الملك الناصر فى النفقة على الأمراء و العساكر الواردة عليه مع النوّاب. فلما انتهت النفقة قدم بين يديه الأمير كراى المنصورىّ على عسكره إلى غزّة فسار إليها، و صار كراى يمدّ فى كلّ يوم سماطا عظيما للمقيمين و الواردين عليه، فأنفق فى ذلك أموالا جزيلة من حاصله، و اجتمع عليه بغزّة عالم كثير و هو يقوم بكلفهم و يعدهم عن السلطان بما يرضيهم.

و أما الملك المظفّر فإنه قدم عليه الخبر فى خامس عشرين شعبان باستيلاء الملك الناصر على دمشق بغير قتال، فعظم ذلك على الملك المظفّر و أظهر الذلّة، و خرجت عساكر مصر شيئا بعد شيء تريد الملك الناصر حتى لم يبق عنده بالديار المصرية سوى خواصّه من الأمراء و الأجناد.

و أمّا الأمير برلغى و من معه من الأمراء صار عساكرهم تتسلّل واحدا بعد واحد حتى بقى برلغى فى مماليكه و جماعة من خواصّ الملك المظفّر بيبرس، فتشاور برلغى مع جماعته حتى اقتضى رأيه و رأى آقوش نائب الكرك اللّحاق بالملك الناصر أيضا،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۶۹

فلم يوافق على ذلك البرجية، و عاد أيبك البغدادىّ و بكتوت الفتّاح و قجقار ببقية البرجية إلى القاهرة، و صاروا مع الملك المظفّر بيبرس، و سار برلغى و آقوش إلى الملك الناصر فيمن بقى من الأمراء و العساكر، فاضطربت القاهرة لذلك.

و كان الملك المظفّر قد أمّر فى مستهلّ شهر رمضان سبعة و عشرين أميرا ما بين طبلخاناه و عشرات، منهم من مماليكه: صديق و صنقيجى و طوغان و قرمان و إغزلو و بهادر؛ و من المماليك السلطانية سبعة و هم: قراجا الحسامىّ و طرنطاى المحمّدى و بكتمر الساقى و بهادر قبجاق و انكبار و طشتمر أخو بتخاص و لاچين؛ و ممن عداهم جركتمر بن بهادر و حسن بن الردادى، و نزلوا الجميع إلى المدرسة المنصورية ليلبسوا الخلع على جارى العادة، و اجتمع لهم النقباء و الحجّاب و العامّة بالأسواق ينتظرون طلوعهم القلعة، و كلّ منهم بقى لابس الخلعة، فاتّفق أن شخصا من المنجّمين كان بين يدى النائب سلّار، فرأى الطالع غير موافق، فقال: هذا الوقت ركوبهم غير لائق، فلم يلتفت بعضهم و لبس و ركب فى طلبه، فاستبردوهم العوامّ و قالوا:

ليس له حلاوة، و لا عليه طلاوة؛ و صار بعضهم يصيح و يقول: يا فرحة لا تمّت.

ثم أخرج الملك المظفّر عدّة من المماليك السلطانية إلى بلاد الصعيد و أخذ أخبازهم، و ظنّ الملك المظفّر أنه ينشئ له دولة، فلما بلغه مسير برلغى و آقوش نائب الكرك إلى الملك الناصر سقط فى يده و علم زوال ملكه، فإن برلغى كان زوج ابنته و أحد خواصّه و أعيان دولته، بحيث إنّه أنعم عليه فى هذه الحركة بتيف و أربعين

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۷۰

ألف دينار مصريّة، و قيل: سبعين ألف دينار. و ظهر عليه اختلال الحال، و أخذ خواصّه فى تعنيفه على إبقاء سلّار النائب و أنّ جميع هذا الفساد منه، و كان كذلك.

فإنّه لما فاتته السلطنة و قام بيبرس فيها حسده على ذلك و دبّر عليه، و بيبرس فى غفلة عنه، فإنّه كان سليم الباطن لا يظنّ أنّ سلّار يخونه. ثم قبض الملك المظفّر ليلة الجمعة على جماعة من العوامّ، و ضربوا و شهّروا لإعلانهم بسبّ الملك المظفّر بيبرس؛ فما زادهم ذلك إلّا طغيانا! و فى كلّ ذلك تنسب البرجية فساد الأمور لسلّار، فلمّا أكثر البرجية الإغراء بسلّار قال لهم الملك المظفّر: إن كان فى خاطركم شيء فدونكم و إياه إذا جاء سلّار للخدمة؛ و أما أنا فلا أتعرّض له بسوء قطّ، فاجتمعت البرجيّة على قبض سلار إذا حضر الخدمة فى يوم الاثنين خامس عشره، فبلغ سلّار ذلك، فتأخّر عن حضور الخدمة و احترس على نفسه، و أظهر أنّه قد توعّك، فبعث الملك المظفّر يسلّم عليه و يستدعيه ليأخذ رأيه، فاعتذر بأنه لا يطيق الحركة لعجزه عنها.

فلمّا كان يوم الثلاثاء سادس عشر رمضان استدعى الملك المظفّر الأمراء كلّهم و استشارهم فيما يفعل، فأشار الأمير بيبرس الدّوادار المؤرّخ و الأمير بهادر آص بنزوله عن الملك و الإشهاد عليه بذلك كما فعله الملك الناصر، و تسيّر إلى الملك الناصر بذلك و تستعطفه و تخرج إلى إطفيح بمن تثق به و تقيم هناك حتى يرد جواب الملك الناصر عليك، فأعجبه ذلك و قام ليجهّز أمره، و بعث بالأمير ركن الدين بيبرس الدّوادار المذكور إلى الملك الناصر محمد يعرّفه بما وقع. و قيل: إنّه كتب إلى الملك الناصر يقول مع غير بيبرس الدوادار: و الذى أعرّفك به أنّى قد رجعت أقلّدك بغيك، فإن حبستنى عددت ذلك خلوة، و إن نفيتنى عددت ذلك سياحة، و إن قتلتنى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۷۱

كان ذلك لى شهادة؛ فلمّا سمع الملك الناصر ذلك، عيّن له صهيون على ما نذكره.

و أمّا ما كتبه المظفّر على يد بيبرس الدوادار يسأله فى إحدى ثلاث: إمّا الكرك و أعمالها، أو حماة و بلادها، أو صهيون و مضافاتها. ثم اضطربت أحوال المظفّر و تحيّر و قام و دخل الخزائن و أخذ من المال و الخيل ما أحبّ، و خرج من يومه من باب الإسطبل فى مماليكه و عدّتهم سبعمائة مملوك، و معه من الأمراء: الأمير عزّ الدين أيدمر الخطيريّ الأستادار، و الأمير بكتوت الفتّاح و الأمير سيف الدين قجماس و الأمير سيف الدين تاكز فى بقية ألزامه من البرجيّة، فكأنّما نودى فى الناس بأنّه خرج هاربا، فاجتمع العوامّ، و عند ما برز من باب الإسطبل صاحوا به و تبعوه و هم يصيحون عليه بأنواع الكلام، و زادوا فى الصياح حتّى خرجوا عن الحدّ، و رماه بعضهم بالحجارة. فشقّ ذلك على مماليكه و همّوا بالرجوع إليهم و وضع السيف فيهم فمنعهم الملك المظفّر من ذلك، و أمر بنثر المال عليهم ليشتغلوا بجمعه عنه، فأخرج كلّ من المماليك حفنة من الذهب و نثرها، فلم يلتفت العامّة لذلك و تركوه و أخذوا فى العدو خلفه و هم يسبّون و يصيحون، فشهر المماليك حينئذ سيوفهم و رجعوا إلى العوامّ فانهزموا منهم. و أصبح الحرّاس بقلعة الجبل فى يوم الأربعاء سابع عشر شهر رمضان يصيحون باسم الملك الناصر، و أسقط اسم الملك المظفّر بإشارة الأمير سلّار بذلك، فإنّه أقام بالقلعة و مهّد أمورها بعد خروج المظفّر إلى إطفيح. و فى يوم الجمعة تاسع عشره خطب على منابر القاهرة و مصر باسم الملك الناصر، و أسقط اسم الملك المظفّر بيبرس هذا و زال ملكه.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۷۲

و أمّا الملك المظفّر فإنّه لما فارق القلعة أقام بإطفيح يومين ثم اتّفق رأيه و رأى أيدمر الخطيرى و بكتوت الفتّاح إلى المسير إلى برقة و قيل بل إلى أسوان، فأصبح حاله كقول القائل:

موكّل ببقاع الأرض يذرعها من خفّة الرّوع لا من خفّة الطّرب

و لمّا بلغ مماليك الملك المظفّر هذا الرأى عزموا على مفارقته. فلمّا رحل من إطفيح رجع المماليك عنه شيئا بعد شيء إلى القاهرة، فما وصل المظفّر إلى إخميم حتّى فارقه أكثر من كان معه، فعند ذلك انثنى عزمه عن التوجّه إلى برقة، و تركه الخطيريّ و الفتّاح و

عادا نحو القاهرة. و بينما هو سائر قـدم عليه الأميران: بيبرس الدّوادار و بهادر آص من عند الملك الناصـر ليتوجّه إلى صـهيون بعد أن يدفع ما أخذه من الخزائن، فدفع المظفّر المال بأجمعه إلى بيبرس الدّوادار، فأخذ بيبرس المال و سار به فى النيل إلى الملك الناصـر و هو بقلعة الجبل، و قدم بهادر آص فى البرّ بالملك المظفّر و معه كاتبه كريم الدين أكرم، و سأل المظفّر فى يمين السـلطان مع من يثق به، فحلف له الملك الناصـر بحضـرة الأمراء و بعث إليه بـذلك مع أيتمش المحمّـدى؛ فلمّا قدم عليه أيتمش بالغ المظفّر فى إكرامه و كتب الجواب بالطاعة و أنّه يتوجّه إلى ناحية

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۷۳

السّويس، و أنّ كريم الـدين يحضـر بالخزانـة و الحواصل التى أخذها، فلم يعجب السـلطان ذلك، و عزم على إخراج تجريدة إلى غزّة ليردّوه، و أطلع على ذلك بكتمر الجوكندار النائب و قراسنقر نائب دمشق و الحاج بهادر و أسندمر نائب طرابلس.

فلمّا كان يوم الخميس الذى قبض فيه الملك الناصر على الأمراء- على ما سيأتى ذكره مفصّلا فى أوّل ترجمة الملك الناصر الثالثة إن شاء اللّه تعالى- جلس بعض المماليك الأشـرفيّة خارج القلعة، فلمّا خرج الأمراء من الخدمة قال: و أىّ ذنب لهؤلاء الأمراء الذين قبض عليهم! و هذا الذى قتل أسـتاذنا الملك الأشـرف، و دمه الآن على سـيفه، قد صار اليوم حاكم المملكة (يعنى عن قراسـنقر)، فقيل هذا لقراسـنقر، فخاف على نفسه و أخذ فى عمل الخلاص من مصر، فالتزم للسلطان أنّه يتوجّه و يحصّل الملك المظفّر بيبرس هو و الحاج بهادر نائب طرابلس من غير إخراج تجريـدة فإن فى بعث الأمراء لذلك شـناعة، فمشـى ذلك على السـلطان و رسم بسـفرهما، فخرج قراسـنقر و معه سائر النوّاب إلى ممالكهم، و عوّق السـلطان عنـده أسـندمر كرجى و قـد اسـتقرّ به فى نيابة حماة، و سار البقية. ثم جهّز السلطان أسندمر كرجى لإحضار المظفّر مقيّدا. و اتّفق دخول قراسنقر و الأمراء إلى غزّة قبل وصول المظفّر إليها؛ فلمّا بلغهم قربه ركب قراسنقر و سائر النوّاب و الأمراء و لقوه شرقىّ غزّة و قد بقى معه عدّة من مماليكه و قد تأهّبوا للحرب، فلبس الأمراء السلاح ليقاتلوهم،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۷۴

فـأنكر المظفّر على ممـاليكه تأهّبهم للقتال و قال: أنا كنت ملكا، و حولى أضـعافكم ولى عصـبة كبيرة من الأمراء، و ما اخترت سـفك الـدماء! و مـا زال بهم حـتّى كفّوا عن القتـال، و سـاق هو بنفسه حتّى بقى مع الأـمراء و سـلّم نفسه إليهم؛ فسـلّموا عليه و سـاروا به إلى معسـكرهم و أنزلـوه بخيمـة، و أخـذوا سـلاح ممـاليكه و وكّلـوا بهم من يحفظهم؛ و أصـبحوا من الغـد عائـدين بهم معهم إلى مصـر، فأدركهم أسندمر كرجى بالخطّارة فأنزل فى الحال المظفّر عن فرسه و قيّده بقيد أحضره معه، فبكى و تحدّرت دموعه على شيبته، فشقّ ذلـك على قراسـنقر و ألقى الكلفتـاة عن رأسه إلى الأـرض و قـال: لعن اللّه الـدنيا، فيا ليتنا متنا و لا رأينا هـذا اليوم! فترجّلت الأمراء و أخذوا كلفتاته و وضـعوها على رأسه. هذا مع أنّ قراسـنقر كان أكبر الأسباب فى زوال دولة المظفّر المذكور! و هو الذى جسّر الملك الناصر حتّى كان من أمره ما كان.

ثم عاد قراسـنقر و الحاج بهادر إلى محلّ كفالتهما، و أخذ بهادر يلوم قراسـنقر كيف خالف رأيه! فإنّه كان أشار على قراسنقر فى اللّيل بعد القبض على المظفّر بأن يخلّى عن المظفّر حتّى يصل إلى صهيون، و يتوجّه كلّ منهما إلى محلّ ولايته، و يخيفا الملك الناصر بأنّه متى تغيّر عمّا كان وافق الأمراء عليه بـدمشق قاموا بنصـرة المظفّر و إعادته إلى الملك، فلم يوافق قراسـنقر، و ظنّ أنّ الملك الناصـر لا يسـتحيل عليه و لاـ على المظفّر. فلمّـا رأى مـا حـلّ بـالمظفر نـدم على مخالفـة بهـادر. و بينمـا هما فى ذلك بعث أسـندمر كرجى إلى قراسـنقر مرسوم السـلطان بأن يحضـر صـحبة المظفّر إلى القلعـة، و كان عزم الناصـر أن يقبض عليه: ففطن قراسـنقر بـذلك و امتنع من التوجّه إلى مصـر، و اعتذر بأنّ العشير قد تجمّعوا و يخاف على دمشق منهم، و جدّ فى السير و عرف أنّه ترك الرأى فى مخالفة بهادر! فقدم أسندمر بالمظفّر إلى القلعة فى ليلة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۷۵

الأربعاء الرابع عشر من ذى القعدة، فلمّا مثل المظفّر بين يدى السلطان قبّل الأرض، فأجلسه و عنّفه بما فعل به و ذكّره بما كان منه إليه،

و عدّد ذنوبه، و قال له: تذكر و قد صحت علىّ يوم كذا بسبب فلان! و رددت شفاعتى فى حقّ فلان! و استدعيت بنفقة فى يوم كذا من الخزانة فمنعتها! و طلبت فى وقت حلوى بلوز و سكّر فمنعتنى، ويلك! و زدت فى أمرى حتّى منعتنى شهوة نفسى، و المظفّر ساكت. فلما فرغ كلام السلطان قال له المظفّر: يا مولانا السلطان، كلّ ما قلت فعلته، و لم يبق إلّا مراحم السلطان، و إيش يقول المملوك لأستاذه! فقال له:

يا ركن، أنا اليوم أستاذك! و أمس تقول لما طلبت إوزّا مشويّا: إيش يعمل بالإوزّ! الأكل هو عشرون مرّة فى النهار! ثم أمر به إلى مكان و كان ليلة الخميس، فاستدعى المظفّر بوضوء و قد صلّى العشاء. ثم جاء السلطان الملك الناصر فخنق بين يديه بوتر حتى كاد يتلف، تم سيّبه حتى أفاق و عنّفه و زاد فى شتمه، ثم خنقه ثانيا حتى مات و أنزل على جنوية إلى الإسطبل السلطانىّ فغسل و دفن خلف قلعة الجبل، و ذلك فى ليلة الجمعة خامس عشر ذى القعدة سنة تسع و سبعمائة. و كانت أيام المظفّر هذا فى سلطنة مصر عشرة أشهر و أربعة و عشرين يوما لم يتهنّ فيها من الفتن و الحركة.

و كان المظفّر لمّا خرج من مصر هاربا قبل دخول الملك الناصر. قال بعض الأدباء:

تثنّى عطف مصر حين وافى قدوم الناصر الملك الخبير

فذلّ الجشنكير بلا لقاء و أمسى و هو ذو جأش نكير

إذا لم تعضد الأقدار شخصا فأوّل ما يراع من النّصير

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۷۶

و قال النّويرىّ فى تاريخه: و لمّا وصلوا بالمظفّر بيبرمن إلى السلطان الناصر أوقفه بين يديه و أمر بدخوله الحمّام، و خنق فى بقية من يومه و دفن بالقرافة و عفّى أثر قبره مدّة، ثم أمر بانتقاله إلى تربته بالخانقاه التى أنشأها فنقل إليها. و كان بيبرس هذا ابتدأ بعمارة الخانقاه و التربة داخل باب النصر موضع دار الوزارة فى سنة ست و سبعمائة، و أوقف عليها أوقافا جليلة، و لكنّه مات قبل تمامها، فأغلقها الملك الناصر مدّة ثم فتحها. انتهى كلام النّويرىّ.

و كان الملك المظفّر ملكا ثابتا كثير السكون و الوقار، جميل الصفات، ندب إلى المهمّات مرارا عديدة، و تكلّم فى أمر الدولة مدّة سنين، و حسنت سيرته، و كان يرجع إلى دين و خير و معروف، تولّى السلطنة على كره منه، و له أوقاف على وجوه البرّ و الصدقة، و عمّر ما هدم من الجامع الحاكمى داخل باب النصر، بعد ما شعّثته الزلازل. و كان من أعيان الأمراء فى الدولة المنصوريّة قلاوون أستاذه، ثم فى الدولة الأشرفية خليل، و الدولة الناصرية محمد بن قلاوون.

و كان أبيض اللون أشقر مستدير اللّحية، و هو جاركسىّ الجنس على ما قيل.

و لم يتسلطن أحد من الجراكسة قبله و لا بعده إلى الملك الظاهر برقوق؛ و قيل إنه كان تركيا، و الأقوى عندى أنه كان جاركسيّا، لأنه كان بينه و بين آقوش الأفرم نائب الشام مودّة و محبّة زائدة، و قيل قرابة، و كان الأفرم جاركسىّ الجنس. انتهى.

و استولى السلطان الملك الناصر على جميع تعلّقاته، و استقدم كاتبه كريم الدين أكرم بن المعلّم بن السديد، فقدم على الملك الناصر بأموال المظفّر بيبرس و حواصله،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۷۷

فقرّبه السلطان و أثنى عليه و وعده بكلّ جميل إن أظهره على ذخائر المظفّر بيبرس.

فنزل كريم الدين إلى داره و تتبع أموال بيبرس و بذل جهده فى ذلك، ثم انتمى كريم الدين إلى طغاى و كستاى و أرغون الدّوادار الناصرية، و بذل لهم مالا كثيرا حتى صاروا أكبر أعوانه، و حموه من أستاذهم الملك الناصر، ثم قدم من كان مع المظفّر بيبرس من المماليك و معهم الهجن و الخيل و السلاح، و مبلغ مائتى ألف درهم و عشرين ألف دينار، و ستون بقجة من أنواع الثياب، فأخذ السلطان جميع ذلك، و فرّق المماليك على الأمراء ما خلا بكتمر الساقى لجمال صورته و طوغان الساقى و قراتمر.

ثم استدعى الملك الناصر القضاة و أقام عندهم البيّنة بأن جميع مماليك المظفّر بيبرس و سلّار، و جميع ما وقفاه من الضّياع و الأملاك اشترى من بيت المال. فلمّا ثبت ذلك ندب السلطان جمال الدين آقوش الأشرقىّ نائب الكرك، و كريم الدين أكرم لبيع تركة المظفّر بيبرس و إحضار نصف ما يتحصّل، و دفع النصف الآخر لابنة المظفّر زوجة الأمير برلغى الأشرفىّ، فإنّ المظفّر لم يترك من الأولاد سواها، فشدّد كريم الدين الطلب على زوجة المظفّر و ابنته حتى أخذ منهما جواهر عظيمة القدر، و ذخائر نفيسة؛ ثم تابع موجود المظفّر فوجد له شيئا كثيرا.

السنة التى حكم فى أوّلها الملك المظفّر بيبرس الجاشنكير على مصر إلى شهر رمضان، ثم حكم فى باقيها الملك الناصر محمد بن قلاوون، و هى سنة تسع و سبعمائة، على أن الملك المظفّر بيبرس حكم من السنة الماضية أياما.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۷۸

فيها (أعنى سنة تسع و سبعمائة) كانت الفتنة بين السلطان الملك الناصر محمد ابن قلاوون و بين الملك المظفّر بيبرس. حسب ما تقدّم ذكره مفصّلا حتى خلع المظفّر و أعيد الناصر.

و فيها كانت الفتنة أيضا بالمدينة النبوية بين الشريف مقبل بن جمّاز بن شيحة و بين [كبيش ابن] أخيه منصور بن جمّاز، و كان مقبل قدم القاهرة فولّاه المظفّر نصف إمرة المدينة شريكا لأخيه منصور، فتوجّه إليها فوجد منصورا بنجد و قد ترك ابنه كبيشة بالمدينة، فأخرجه مقبل فحشد كبيشة و قاتل مقبلا حتى قتله، و انفرد منصور بإمرة المدينة.

و فيها كتب السلطان الملك الناصر لقرا سنقر نائب الشام بقتال العشير.

و فيها أظهر خربندا ملك التّتار الرّفض فى بلاده و أمر الخطباء ألّا يذكروا فى خطبهم إلّا علىّ بن أبى طالب و ولديه و أهل البيت.

و فيها حجّ بالناس من القاهرة الأمير شمس الدين إلدكز السلاح دار و لم يحجّ أحد من الشام لاضطراب الدولة.

و فيها توفّى الأمير الوزير شمس الدين سنقر الأعسر المنصورىّ بالقاهرة فى شهر ربيع الأوّل و دفن خارج باب النصر بعد ما استعفى و لزم داره مدّة.

و فيها توفى قاضى القضاة شرف الدين أبو محمد عبد الغنى بن يحيى [بن محمد بن أبى بكر] بن عبد اللّه بن نصر [بن محمد] بن أبى بكر الحرّانىّ الحنبلىّ فى ليلة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۷۹

الجمعة الرابع و العشرين من شهر ربيع الأوّل و دفن بالقرافة. و مولده بحرّان فى سنة خمس و أربعين و ستمائة، و سمع الحديث و تفقّه و قدم مصر فباشر نظر الخزانة و تدريس الصالحيّة ثم أضيف إليه قضاء الحنابلة، فباشره و حمدت سيرته.

و فيها توفّى الشيخ نجم الدين محمد بن إدريس بن محمد القمولىّ الشافعىّ بقوص فى جمادى الأولى، و كان صالحا عالما بالتفسير و الفقه و الحديث.

و فيها توفّى الأمير سيف الدين طغريل بن عبد اللّه الإيغانىّ بالقاهرة فى عاشر شهر رمضان، و كان من كبار الأمراء و أعيان الديار المصريّة.

و فيها توفّى الأمير عزّ الدين أيبك الخازندار فى سابع شهر رمضان بالقاهرة، و كان من أعيان أمراء مصر.

و فيها توفّى متملّك تونس من بلاد الغرب الأمير أبو عبد اللّه محمد المعروف بأبى عصيدة بن يحيى الواثق ابن محمد المستنصر ابن يحيى بن عبد الواحد بن أبى حفص فى عاشر شهر ربيع الآخر. و كانت مدّة ملكه أربع عشرة سنة و أربعة أشهر، و تولّى بعده الأمير أبو بكر بن أبى يزيد عبد الرحمن بن أبى بكر بن يحيى بن عبد الواحد المدعوّ بالشهيد، لأنّه قتل ظلما بعد ستة عشر يوما من ملكه، و بويع بعده أيضا أبو البقاء خالد بن يحيى بن إبراهيم.

و فيها توفّى الوزير التاج أبو الفرج بن سعيد الدولة فى يوم السبت ثانى شهر رجب، و كان عند الملك المظفّر بيبرس بمكانة عظيمة، و

لمّا تسلطن بيبرس قرّره

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۸۰

مشيرا، فكانت تحمل إليه فوطة العلامة فيمضى منها ما يختاره، و يكتب عليه «عرض» فإذا رأى المظفّر خطّه علّم و إلّا فلا، و لم يزل على ذلك حتى بعث إليه الأمير آقوش الأفرم نائب الشام يهدّده بقطع رأسه فامتنع. و كان الأفرم صار يدبّر غالب أمور الديار المصريّة و هو بدمشق، لأنه كان خشداش المظفّر بيبرس و خصيصا به و القائم بدولته، و المعاند للناصر و غيره من نوّاب البلاد الشاميّة، و قد تقدّم ذكر ذلك كلّه فى ترجمة الملك المظفّر بيبرس.

و فيها توفّى الشيخ القدوة العارف بالله تعالى تاج الدين أبو الفضل أحمد بن محمد ابن عبد الكريم بن عطاء اللّه السّكندرىّ المالكىّ الصوفى الواعظ المذكّر المسلّك بالقاهرة فى جمادى الآخرة و دفن بالقرافة، و قبره معروف بها، يقصد للزيارة. و كان رجلا صالحا عالما يتكلّم على كرسىّ و يحضر ميعاده خلق كثير، و كان لوعظه تأثير فى القلوب، و كان له معرفة تامّة بكلام أهل الحقائق و أرباب الطريق، و كان له نظم حسن على طريق القوم، و كانت جنازته مشهودة حفلة إلى الغاية. و من شعره قصيدة أوّلها:

يا صاح إنّ الركب قد سار مسرعا و نحن فعود ما الذى أنت صانع

أ ترضى بأن تبقى المخلّف بعدهم صريع الأمانى و الغرام ينازع

و هذا لسان الكون ينطق جهرة بأنّ جميع الكائنات قواطع

و فيها توفّى القاضى عزّ الدين عبد العزيز ابن القاضى شرف الدين محمد [بن فتح الدين عبد اللّه بن محمد بن أحمد بن خالد] بن القيسرانىّ أحد كتّاب الدّرج

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۸۱

و مدرس الفخرية فى ثامن صفر بالقاهرة، و دفن عند والده بالقرافة، و كان من أعيان الموقّعين هو و والده و جدّه، و مات و له دون الأربعين سنة، و كان له فضيلة و نظم و نثر. و من شعره فى ردّ جواب:

جاء الكتاب و من سواد مداده مسک و من قرطاسه الأنوار

فتشرّف الوادى به و تعطّرت أرجاؤه و أنارت الأقطار

قلت و أين هذا من قول البارع جمال الدين محمد بن نباتة المصرىّ، حيث يقول فى هذا المعنى:

أفديه من ملک يكاتب عبده بأحرفه اللّاتى حكتها الكواكب

ملكت بها رقّى و أنحلنى الأسى فهأنذا عبد رقيق مكاتب

و الشيخ علاء الدين علىّ بن محمد [بن عبد الرحمن] العبىّ رحمه اللّه:

أهلتنى لجواب ما كان ظنّى أجاوب

لكنّنى عبد رقّ مدبّر و مكاتب

و فيها توفّى القاضى بهاء الدين عبد اللّه ابن نجم الدين أحمد بن على ابن المظفّر المعروف بابن الحلّى ناظر ديوان الجيش المنصور، و استقرّ عوضه القاضى فخر الدين صاحب ديوان الجيش.

و فيها توفّى الأديب إبراهيم بن علىّ بن خليل الحرّانى المعروف بعين بصل. كان شيخا حائكا أناف على الثمانين، و كان عامّيا مطبوعا، و قصده ابن خلّكان و استنشده من شعره فقال: أمّا القديم فلا يليق إنشاده، و أمّا نظم الوقت الحاضر فنعم، و أنشده بديها:

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۸۲

و ما كلّ وقت فيه يسمح خاطرى بنظم قريض رائق اللفظ و المعنى

و هل يقتضى الشرع الشريف تيمّما بترب و هذا البحر يا صاحبى معنا

فقال له ابن خلّكان. أنت عين بصر، لا عين بصل. انتهى.

أمر النيل فى هـذه السـنة- الماء القديم تأخّر و تأخّرت الزيادة إلى أن دخل شـهر مسرى و وقع الغلاء و استسـقى الناس، فنودى بزيادة ثلاث أصابع، ثم توقّفت الزيـادة و نقص فى أيـام النّسـىء، ثم زاد حتى بلغ فى سابع عشـرين توت خمس عشـرة ذراعا و ست عشـرة إصـبعا، و فتـح خليـج السدّ، بعد ما كان الوفاء فى تاسع عشـر بابه، بعد النّوروز بتسـعة و أربعين يوما. و كان مبلغ الزيادة فى هذه السـنة ستّ عشرة ذراعا و إصبعين. و كان ذلك فى أوائل سلطنة المظفّر بيبرس الجاشنكير. فتشاءم الناس بكعبه و أبغضته العامّة.

انتهى الجزء الثامن من النجوم الزاهرة، و يليه الجزء التاسع، و أوّله:

ذكر عود الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى ملك مصر ثالث مرّة

تنبيه: التعليقات الخاصة بالأماكن الأثريّة على اختلاف أنواعها، و المدن و القرى القديمة و غيرها مع تعيين و تحديد مواضـعها هى من وضع حضـرة الأسـتاذ محمـد رمزى بـك المفتش بوزارة الماليـة سابقا و عضو المجلس الأعلى لإدارة حفظ الآثار العربيـة. كالتعليقات السابقة فى الأجزاء الماضية. فنسدى إليه جزيل الشكر و نسأل اللّه جلّت قدرته أن يجزيه خير الجزاء عن خدمته للعلم و أهله.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۸۳

استدراكات على بعض تعليقات وردت فى الجزء السابع من هذا الكتاب لحضرة الأستاذ محمد رمزى بك

زاوية الشيخ أبى السعود بن أبى العشائر

بما أن الشرح الخاصّ بوصف هذه الزاوية الوارد فى صفحة ۳۸۴ من الجزء السابع من هذه الطبعة جاء غير واف فأضيف إليه ما يأتى: ذكرت فى التعليق السابق لهـذه الزاويـة أنها انـدثرت، و الصواب أنها خربت لأنه لا يزال يوجد من مبانيها بقايا بابها و الحائط الشـمالى الشـرقى و الحائـط الـذى فيه المحراب. و مكانهـا اليوم أرض مشـغولة بالمقابر. و علاوة على ما سـبق ذكره فى التعليق السابق فإن هـذه الزاويـة واقعة فى الشـمال الغربى لجامع السادات الوفائية على بعد مائتى متر منه و يجاورها قاعة بها ضـريح الشـيخ أبى السـعود بن أبى العشائر رحمه اللّه.

الحد الذى كان ينتهى عنده النيل على شاطئه الشرقى تجاه مدينتى مصر القديمة و القاهرة وقت فتح العرب لمصر

بيّنت فى الاسـتدراك الخـاصّ بقنطرة عبـد العزيز بن مروان الوارد فى صـفحة ۳۸۷ من الجزء السـابع من هـذه الطبعـة موقع فم الخليج المصرى، و النقطة التى كان يأخذ منها مياهه من النيل وقت فتح العرب لمصر. و قد فاتنى أن أبيّن لقرّاء النجوم الزاهرة الحد الذى كان ينتهى عنـده النيل على شاطئه الشرقى تجاه مـدينتى مصـر القديمة و القاهرة فى ذاك الوقت، و لهذا أسـتدرك ما فاتنى إتماما للفائدة المطلوبة من التعليقات فأقول:

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۸۴

يستفاد مما ذكره المقريزى فى خططه عند الكلام على ساحل النيل بمدينة مصر (ص ۳۴۳ ج ۱) و على المنشأة (ص ۳۴۵ ج ۱) و على أبواب مدينة مصـر (ص ۳۴۷ ج ۱) و على منظرة المقس (ص ۳۸۰ ج ۱) و على ظواهر القـاهرة المعزيّـة (ص ۱۰۸ ج ۲) و على برّ الخليج الغربى (ص ۱۱۳ ج ۲) و على اللوق (ص ۱۱۷ ج ۲) و على المقس (ص ۱۲۱ ج ۲) و على بولاق (ص ۱۳۰ ج ۲) و على قنطرة السد (ص ۱۴۶ ج ۲) و على قنطرة باب البحر (ص ۱۵۱ ج ۲) و على جزيرة الفيل (ص ۱۸۵ ج ۲)، و على صناعة مصر (ص ۱۹۷ ج ۲) و على الميدان الناصـرى (ص ۲۰۰ ج ۲)، و يسـتفاد أيضـا مما ورد فى حوادث سـنة ۶۸۰ ه المـذكورة فى كتـاب النجوم الزاهرة لابن تغرى بريـد (ص ۳۰۷ ج ۷) و مما هو مبيّن على خريطـة الحملـة الفرنسـية الموضوعة سـنة ۱۸۰۰؛ يسـتفاد من كلّ ما سـبق ذكره، و من

المباحث التی أجریتها أن شاطیء النیل الشرقی الأصلی القدیم تجاه مدینة مصر و القاهرة کان وقت فتح العرب لمصر واقعا فی الأمکنة التی تعرف الیوم بالأسماء الآتیة:

کان النیل بعد أن یمرّ علی سکن ناحیة أثر النّبیّ جنوبی مصر القدیمة یسیر إلی الشمال بجوار شارع أثر النبی إلی أن یتلاقی بسکة حدید حلوان عند محطة المدابغ، فیسیر النیل بجواز هذه السکة إلی أن یتقابل بشارع ماری جرجس فیسیر محاذیا له من الجهة الغربیة مارّا تحت قصر الشمع (الکنیسة المعلقة بمصر القدیمة) و جامع عمرو، ثم یسیر محاذیا لشارع سیدی حسن الأنور إلی نهایته ثم یسیر شمالا إلی النقطة التی یتقابل فیها شارع السد البرانی بسکة المذبح، ثم یسیر بعد ذلک متّجها فی طریقه إلی الشمال فیمر فی حارة المغربی بجنینة قامیش فشارع بنی الأزرق بجنینة لاظ فشارع جنان الزهری فشارع الشیخ عبد اللّه فحارة البیر قدار فشارع البلاقسة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۸۵

فشارع عماد الدین إلی نهایته البحریة، ثم ینعطف النیل مائلا إلی الشرق و یسیر بجوار شارع الملکة نازلی حتی یصل إلی میدان باب الحدید، و من هناک ینعطف إلی الشمال الشرقی مارا بمیدان محطة مصر، ثم یمر بجوار محطة کوبری اللیمون من الجهة البحریة الغربیة، ثم یسیر فی شارع غمرة بطول مائتی متر، ثم یسیر إلی الشمال محادیا لمخازن بضائع محطة مصر من الجهة الشرقیة، ثم یسیر محاذیا لشارع مهمشة من الجهة الغربیة، ثم یسیر بعد ذلک محاذیا لجسر السکة الحدیدیة الذاهبة إلی الإسکندریة من الجهة الشرقیة. و عند وصول النیل إلی نقطة واقعة علی هذه السکة تجاه عزبة الخمایسة یمیل إلی الغرب حتی یصل إلی سکن ناحیة منیة السیرج، و هناک یسیر غربی سکن هذه الناحیة، ثم یسیر إلی الشمال بدوران خفیف إلی الغرب حتی یتقابل مع مجراه الحالی عند فم الترعة الإسماعیلیة.

هذا هو خط سیر الشاطئ الأصلیّ القدیم للنیل تجاه مدینتی مصر و القاهرة فی سنة ۲۰ ه ۶۴۱ م أی وقت فتح العرب لمصر. و بعد ذلک طرح البحر عدة مرّات و لذلک انتقل الشاطئ الأصلی المذکور من مکانه القدیم السابق ذکره إلی مکانه الحالی من مصر القدیمة إلی روض الفرج.

[الجزء التاسع]

اشارة

بسم اللّه الرّحمن الرّحیم و صلّی اللّه علی سیّدنا محمد و آله و صحابته و المسلمین الجزء التاسع من کتاب النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۱۰]

ذکر عود الملک الناصر محمد بن قلاوون إلی ملک مصر ثالث مرّة

و قد تقدّم ذکر نزوله عن الملک و توجّهه إلی الکرک و خلع نفسه و ما وقع له بالکرک من مجیء نوغای و رفقته، و مکاتباته إلی نوّاب الشام و خروجه من الکرک إلی الشام، طالبا ملک مصر إلی أن دخل إلی دمشق؛ کلّ ذلک ذکرناه مفصّلا فی ترجمة الملک المظفر بیبرس الجاشنکیر. و نسوق الآن ذکر دخوله إلی مصر فنقول:

لمّا کانت الثانیة من نهار الثلاثاء السادس عشر من شهر رمضان سنة تسع و سبعمائة، و هی الساعة التی خلع الملک المظفر بیبرس نفسه فیها من ملک مصر بدیار مصر، خرج الملک الناصر محمد بن قلاوون من دمشق یرید الدیار المصریة، فانظر إلی هذا الاتّفاق العجیب، و إقبال سعد الناصر و إدبار سعد المظفّر! و سار الملک الناصر یرید الدیار المصریّة و صحبته نوّاب البلاد الشامیّة بتمامهم و

كمالهم و العساكر الشامية و خواصّه و مماليكه.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۴

و أمّا أمر الـديار المصـرية فإنّ الملك المظفّر بيبرس لمّا خلع نفسه و خرج من مصـر إلى الإطفيحيّة جلس الأمير سـلّار بقاعة النيابة من قلعـة الجبل و جمع من بقى من الأمراء و اهتم بحفظ القلعـة، و أخرج المحابيس الذين كانوا فيها من حواشـى الملك الناصـر محمد و غيرهم، و ركب و نادى فى الناس: ادعوا لسـلطانكم الملك الناصـر، و كتب إلى الملك الناصـر بنزول المظفّر عن الملك و فراره إلى إطفيـح، و سيّر بذلك أصـلم الدّوادار و معه النّمجاه، و كان قد توجّه قبل ذلك من القاهرة الأمير بيبرس المنصوريّ الدّوادار، و الأمير بهادر آص فى رسالـة المظفّر بيبرس أنّه قد ترك السـلطنة و أنّه سأل: إمّا الكرك و إمّا حماة و إما صـهيون، و اتّفق يوم وصولهما إلى غزّة قدوم الملك الناصر أيضا إليها، و قدوم الأمير سيف الدين شاطى السّلاح دار فى طائفة من الأمراء المصريّين إليها أيضا. ثم قدمت العربان و قـدم الأمير مهنّا بجماعـة كثيرة من آل فضل، فركب السـلطان إلى لقائه. ثم قـدم الأمير برلغى الأشـرفى مقـدّم عساكر المظفّر بيبرس و زوج ابنته، و الأمير آقوش الأشرفيّ نائب الكرك، فسرّ الملك الناصر بقدومهما، فإنّهما كانا عضدى المظفّر. قال الأمير بيبرس الدّوادار المقدّم ذكره فى تاريخه- رحمه اللّه-:

«و أمّـا نحن فإنّا تقـدّمنا على البريـد فوصـلنا إلى السـلطان يوم نزوله على غزّة فمثلنا بين يـديه و أعـدنا المشافهـة عليه، و طالعناه بنزول الرّكن عن السلطنة و التماسه مكانا من بعض الأمكنة، فاستبشر لحقن دماء المسلمين و خمود الفتنة، و اتّفق فى ذلك النهار ورود الأمير سيف الدين برلغى و الأمير عزّ الدين البغداديّ و من معهما من الأمراء

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۵

و المقـدّمين، و اجتمعنـا جميعـا بالـدّهليز المنصور، و قـد شـملنا الابتهـاج، و زال عنّا الازعاج، و أفاض السـلطان على الأمراء التشاريف الجليلة على طبقاتهم، و الحوائص الذهب الثمينة لصـلاتهم، فلم يترک أميرا إلّا وصـله، و لا مقدّما حتى شـرّفه بالخلع و جمّله، و جدّدنا اسـتعطاف السـلطان، فيمـا سـأله الركن من الأمـان، و كلّ من الأمراء لحاضـرين بين يـديه يتلطّف فى سؤاله، و يتضـرّع فى مقاله؛ حتّى أجاب، و عـدنا بالجواب. و رحل السـلطان على الأثر قاصدا الديار المصـرية؛ فوصـلنا إلى القلعة يوم الخميس الخامس و العشـرين من شهر رمضان، و اجتمعنا بالأمير سـيف الدين سـلّار و وجدنا الجاشـنكير قد تجاوز موضع الميعاد، و أخذ فى الإصـعاد، و حمله الإجفال على الإبعاد، و لم يدعه الرّعب يسـتقرّ به قرار، و لا تلقّته معه أرض و لا دار؛ فاقتضـى الحال أن أرسلنا إليه الكتب الشريفة الواردة على أيدينا، وعدت أنا و سـيف الدين بهادر آص إلى الخدمة السـلطانية، فوجدنا الدّهليز على منزلة السـعيدية». انتهى كلام بيبرس الدوادار باختصار.

قلت: و لمّـا تكـاملت العسـاكر بغزّة سـار الملك الناصـر يريـد الـديار المصـريّة، فوافاه أصـلم دوادار سـلّار بالنّمجاه، ثم وصل رسـلان الدّوادار فسّر السلطان بنزوله.

و سار حتى نزل بركة الحجّاج فى سلخ شهر رمضان، و قد جهّز إليه الأمير سلّار الطلب

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۶

السلطانى و الأمراء و العساكر، ثم خرج الأمير سلّار إلى لقائه، و صلّى السلطان صلاة العيد بالدّهليز ببركة الحاج فى يوم الأربعاء مستهلّ شوّال، و خرج الناس إلى لقاء السـلطان الملك الناصـر. و أنشد الشـعراء مدائحهم بين يديه؛ فمن ذلك ما أنشده الشـيخ شـمس الدين محمد بن على بن موسى الداعى أبياتا منها:

الملک عاد إلى حماه كما بدا و محمد بالنصر سرّ محمدا

و إيابه كالسيف عاد لغمده و معاده كالورد عاوده النّدى

الحقّ مرتجع إلى أربابه من كفّ غاصبه و إن طال المدى

و منها:

يا وارث الملک العقيم تهنّه و اعلم بأنک لم تسد فيه سدى

عن خير أسلاف ورثت سريره فوجدت منصبه السّرىّ ممهّدا

يا ناصرا من خير منصور أتى كمهنّد خلف الغداة مهنّدا

آنست ملكا كان قبلک موحشا و جمعت شملا كان منه مبدّدا

و منها:

فالناس أجمع قد رضوک مليكهم و تضرّعوا ألا تزال مخلّدا

و تباركوا بسناء غرّتک التى وجدوا على أنوار بهجتها هدى

اللّه أعطاک الذى لم يعطه ملكا سواک برغم آناف العدا

لا زلت منصور اللّواء مؤيّد ال عزمات ما هتف الحمام و غرّدا

ثم قدّم الأمير سلّار سماطا جليلا- بلغت النفقة عليه اثنى عشر ألف درهم؛ و جلس عليه السلطان و الأمراء و الأكابر و العساكر، فلما انقضى عزم السلطان على المبيت هناک و الركوب بكرة النهار يوم الخميس، فبلغه أن الأمير برلغى و الأمير آقوش نائب الكرک قد اتّفقا مع البرجية على الهجوم عليه و قتله، فبعث السلطان إلى الأمراء

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۷

عرّفهم بما بلغه و أمرهم بالركوب، فركبوا و ركبت المماليک و دقت الكوسات و سار وقت الظهر من يوم الأربعاء، و قد احتفّت به مماليكه كى لا- يصل إليه أحد من الأمراء حتى وصل إلى القلعة، و خرج الناس بأجمعهم إلى مشاهدته. فلما وصل بين العروستين ترجّل سلّار عن فرسه، و ترجّل سائر الأمراء و مشوا بين يديه إلى باب السّرّ من القلعة، و قد وقف جماعة من الأمراء بمماليكهم و عليهم السّلاح، حتى عبر السلطان إلى القلعة، ثم أمر السلطان الأمراء بالانصراف إلى منازلهم، و عيّن جماعة من الأمراء الذين يثق بهم أن يستمرّوا على ظهور خيولهم حول القلعة

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۸

طول الليل فباتوا على ذلک، و أصبحوا من الغد وفد جلس السلطان الملک الناصر على كرسىّ الملک و هو يوم الخميس ثانى شوّال. و حضر الخليفة أبو الربيع سلمان و القضاة و الأمراء و سائر أهل الدولة للهناء، فقرأ الشيخ شمس الدين محمد بن علىّ ابن موسى الداعى: «قل اللّهمّ مالک الملک تؤتى الملک من تشاء» الآية. و أنشد بعض الشعراء هذه الأبيات:

تهنّأت الدنيا بمقدمه الذى أضاءت له الآفاق شرقا و مغربا

و أمّا سرير الملک فاهتز رفعة ليبلغ فى التشريف قصدا و مطلبا

و تاق إلى أن يعلو الملک فوقه كما قد حوى من قبله الأخ و الأبا

و كان ذلک بحضرة الأمراء و النوّاب و العساكر، ثم حلّف السلطان الجميع على طبقاتهم و مراتبهم الكبير منهم و الصغير.

و لمّا تقدّم الخليفة ليسلّم على السلطان نظر إليه و قال له: كيف تحضر و تسلّم على خارجىّ؟ هل كنت أنا خارجيّا؟ و بيبرس من سلالة بنى العباس؟ فتغيّر وجه الخليفة و لم ينطق.

قلت: و الخليفة هذا، كان الملک الناصر هو الذى ولّاه الخلافة بعد موت أبيه الحاكم بأمر اللّه.

ثم التفت السلطان إلى القاضى علاء الدين علىّ بن عبد الظاهر الموقّع و كان هو الذى كتب عهد المظفّر بيبرس عن الخليفة، و قال له: يا أسود الوجه، فقال ابن عبد الظاهر من غير توقّف: يا خوند، أبلق خير من أسود. فقال السلطان:

ويلک! حتّى لا تترک رنكه أيضا، يعنى أنّ ابن عبد الظاهر كان ممّن ينتمى

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۹

إلی سلّار، و کان رنک سلّار أبیض و أسود. ثم التفت السلطان إلی قاضی القضاة بدر الدین [محمد] بن جماعة و قال له: یا قاضی، کنت تفتی المسلمین بقتالی؟ فقال: معاذ اللّه! أن تکون الفتوی کذلک، و إنّما الفتوی علی مقتضی کلام المستفتی. ثم حضر الشیخ صدر الدین محمد بن عمر [بن مکّی بن عبد الصمد الشهیربا] ن المرحّل و قبّل ید السلطان، فقال له السلطان: کنت تقول فی قصیدتک:

ما للصبیّ و ما للملک یکفله

فخلف ابن المرحّل بالله ما قال هذا، و إنّما الأعداء أرادوا إتلافی فزادوا فی قصیدتی هذا البیت، و العفو من شیم الملوک فعفا عنه. و کان ابن المرحّل قد مدح المظفّر بیبرس بقصیدة عرّض فیها بذکر الملک الناصر محمد، من جملتها:

ما للصّبیّ و ما للملک یکفله شأن الصبیّ بغیر الملک مألوف

ثم استأذن شمس الدین محمد بن عدلان للدخول علی السلطان، فقال السلطان للدّوادار، قل له: أنت أفتیت أنّه خارجیّ و قتاله جائز، مالک عنده دخول، و لکن عرّفه هو و أبن المرحّل یکفیهما ما قال الشّارمساحیّ فی حقّهما، و کان من خبر ذلک أن الأدیب شهاب الدین أحمد بن عبد الدائم الشّارمساحیّ الماجن مدح السلطان الملک الناصر بقصیدة یهجو فیها المظفّر بیبرس و یعرّض لصحبته ابن المرحّل و ابن عدلان، منها:

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۰

ولّی المظفّر لمّا فاته الظّفر و ناصر الحقّ وافی و هو منتصر

و قد طوی اللّه من بین الوری فتنا کادت علی عصبة الإسلام تنتشر

فقل لبیبرس إنّ الدهر ألبسه أثواب عاریة فی طولها قصر

لمّا تولّی تولّی الخیر عن أمم لم یحمدوا أمرهم فیها و لا شکروا

و کیف تمشی به الأحوال فی زمن لا النّیل وافی و لا وافاهم مطر

و من یقوم ابن عدلان بنصرته و ابن المرحّل قل لی کیف ینتصر

و کان المطر لم یقع فی تلک السنة بأرض مصر و قصّر النیل، و شرقت البلاد و ارتفع السعر. و اتّفق أیضا یوم جلوس السلطان الملک الناصر أنّ الأمراء لمّا اجتمعوا قبل خروج السلطان إلیهم بالإیوان، أشار الأفرم نائب الشام لمنشد یقال له مسعود أحضره معه من دمشق، فقام مسعود و أنشد أبیاتا لبعض عوام القاهرة، قالها عند توجّه الملک الناصر من الدیار المصریة إلی الکرک: منها:

أحبّة قلبی إنّنی لوحید أرید لقاکم و المزار بعید

کفی حزنا أنّی مقیم ببلدة و من شفّ قلبی بالفراق فرید

أجول بطرفی فی الدیار فلا أری وجوه أحبّائی الذین أرید

فتواجد الأفرم و بکی و حسر عن رأسه [و وضع] الکلفتاة علی الأرض، فأنکر الأمراء ذلک، و تناول الأمیر قراسنقر الکلفتاة و وضعها بیده علی رأس الأفرم، ثم خرج السلطان فقام الجمیع، و صرخ الجاویشیة فقبّل الأمراء الأرض و جری ما ذکرناه، و انقضت الخدمة، و دخل السلطان إلی الحریم.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۱

ثم بعد الخدمة قدّم الأمیر سلّار النائب عدّة من الممالیک و الخیول و الجمال و تعابی القماش ما قیمته مائتا ألف درهم، فقبل السلطان شیئا و ردّ الباقی. و سأل سلّار الإعفاء من الإمرة و النیابة و أن ینعم علیه بالشّوبک فأجیب إلی ذلک، بعد أن حلف أنّه متی طلب حضر، و خلع السلطان علیه، و خرج سلّار من مصر عصر یوم الجمعة ثالث شوّال مسافرا إلی الشّوبک، فکانت مدّة نیابة سلّار علی مصر

إحدى عشرة سنة، و كانت الخلعة التى خلعها السلطان عليه بالعزل عن النيابة أعظم من خلعة الولاية؛ و أعطاه حياصة من الذهب مرصّعة، و توجّه معه الأمير نظام الدين آدم مسفّرا له، و استمرّ أمير علىّ بن سلّار بالقاهرة، و أعطاه السلطان إمرة عشرة بمصر. ثم فى خامس شوّال قدم رسول المظفّر بيبرس يطلب الأمان فأمّنه السلطان.

و فيه خلع السلطان على الأمير شمس الدين قراسنقر المنصورىّ باستقراره فى نيابة دمشق، عوضا عن الأمير آقوش الأفرم بحكم عزله. و خلع على الأمير سيف الدين قبجق المنصورىّ بنيابة حلب عوضا عن قراسنقر. و خلع على أسندمر كرجى بنيابة حماة عوضا عن قبجق، و خلع على الحاج بهادر الحلبىّ بنيابة طرابلس عوضا عن أسندمر كرجى. و خلع على قطلوبك المنصورىّ بنيابة صفد عوضا عن بكتمر الجوكندار. و استقرّ [سنقر] الكمالىّ حاجب الحجّاب بديار مصر على عادته، و قرالاچين أمير مجلس على عادته. و بيبرس الدوادار على عادته، و أضيف إليه نيابة دار العدل و نظر الأحباس. و خلع على الأمير جمال الدين آقوش الأفرم نائب الشام كان بنيابة صرخد على خبز مائة فارس. و أنعم السلطان على نوغاى القبچاقىّ بإقطاع الأمير قطلوبك المنصورىّ، و هو إمرة مائة و تقدمة ألف بدمشق. و نوغاى هذا هو صاحب الواقعة مع المظفّر و الخارج من مصر إلى الكرك. انتهى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۲

ثم رسم السلطان لشهاب الدين بن عبادة بتجهيز الخلع و التشاريف لسائر أمراء الشام و مصر فجهّزت، و خلع عليهم كلّهم فى يوم الاثنين سادس شوّال، و ركبوا بالخلع و التشاريف فكان لركوبهم يوم عظيم. و فى يوم الأحد ثانى عشر شوّال استقرّ فخر الدين عمر بن الخليلىّ فى الوزارة عوضا عن ضياء الدين النشائىّ. ثم رسم السلطان للنوّاب بالسفر، فأوّل من سافر منهم الأمير قبجق نائب حلب، و خرجت معه تجريدة من العساكر المصريّة خوفا من طارق يطرق البلاد. و الذى تجرّد مع قبجق من أمراء مصرهم: الأمير جبا أخو سلّار، و طرنطاى البغدادىّ، و علاء الدين أيدغدى، و [سيف الدين] بهادر الحموىّ، و [سيف الدين] بلبان الدّمشقىّ، و سابق الدين بوزنا الساقى، و ركن الدين بيبرس الشجاعىّ، و [سيف الدين] كورى السلاح دار، و [علاء الدين] آقطوان الأشرفىّ، و [سيف الدين] بهادر الجوكندار، و [سيف الدين] بلبان الشمسىّ، و [علاء الدين] أيدغدى الزّرّاق، و [سيف الدين] كهرداش الزّرّاق، و [سيف الدين] بكتمر أستادار، و [عز الدين] أيدمر الإسماعيلىّ، و [فارس الدين] أقطاى الجمدار، و جماعة من أمراء العشرات. فلمّا وصلوا إلى حلب رسم بإقامة جماعة منهم بالبلاد الشاميّة، عدّتهم ستة من أمراء الطبلخاناه، و عادت البقيّة.

و فى يوم الخميس سادس عشر شوّال حضر الأمراء للخدمة على العادة، و قد قرّر السلطان مع مماليكه القبض على عدّة من الأمراء، و أنّ كل عشرة يقبضون أميرا ممّن عينهم، بحيث يكون العشرة عند دخول الأمير محتفّة به، فإذا رفع السّماط و استدعى السلطان أمير جاندار قبض كلّ جماعة على من عيّن لهم، فلمّا حضر الأمراء

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۳

فى الخدمة أحاط بهم المماليك ففهموا القصد و جلسوا على السّماط، فلم يتناول أحد منهم لقمة، و عند ما نهضوا أشار السلطان إلى أمير جاندار فتقدّم إليه و قبض المماليك على الأمراء المعيّنين، و عدّتهم اثنان و عشرون أميرا فلم يتحرّك أحد منهم، فبهت الجميع و لم يفلت منهم سوى جركتمر بن بهادر رأس نوبة، فإنّه لما فهم القصد وضع يده على أنفه كأنّه رعف و خرج من غير أن يشعر به أحد؛ و اختفى عند الأمير قراسنقر، و كان زوج أخته فشفع قرا سنقر فقبل السلطان شفاعته.

و كان الأمراء المقبوض عليهم: الأمير باكير و أيبك البغدادىّ و قينغار التّقوىّ و قجماس و صاروجا و بيبرس، و بيدمر و تينوا، و منكوبرس، و إشقتمر، و السّيواسىّ و [سنقر] الكمالىّ الحاجب، و الحاجّ بيليك [المظّفرىّ]، و الغتمى، و إكبار، و حسن الرّدادىّ، و بلاط و تمربغا، و قيران، و نوغاى الحموىّ و هو غير نوغاى القبجاقىّ صاحب الواقعة، و جماعة أخر تتمّة الاثنين و عشرين أميرا. و فى ثالث عشرين شوّال استقرّ الأمير [سيف الدين] بكتمر الجوكندار المنصورىّ فى نيابة السلطنة بديار مصر عوضا عن سلّار. و فيه أمّر السلطان اثنين و ثلاثين أميرا من مماليكه، منهم: تنكز الحسامىّ الذى ولى نيابة الشام بعد ذلك، و طغاى، و كستاى، و قجليس، و

خاصّ ترك،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۴

و طط قرا، و أقتمر، و أيدمر الشّيخىّ، و أيدمر الساقى، و بيبرس أمير آخور، و طاجار [الماردينى الناصرى] و خضر بن نوكاى، و بهادر قبجق، و الحاج أرقطاى، و أخوه [سيف الدين] أيتمش المحمّدى، و أرغون الدّوادار الذى صار بعد ذلك نائب السلطنة بمصر، و سنقر المرزوقى، و بلبان الجاشنكير، و أسنبغا [بن عبد اللّه المحمودىّ الأمير سيف الدين]، و بيبغا المكىّ، و أمير علىّ بن قطلوبك، و نوروز أخو جنكلى، و ألجاى الحسامى، و طيبغا حاجّى، و مغلطاى العزىّ صهر نوغاى، و قرمشى الزينى، و بكتمر قبجق، و تينوا الصالحىّ، و مغلطاى البهائى، و سنقر السّلاح دار، و منكلى بغا، و ركبوا الجميع بالخلع و الشرابيش من المنصوريّة ببين القصرين و شقّوا القاهرة، و قد أوقدت الحوانيت كلّها إلى الرّميلة و صفّت المغانى و أرباب الملاهى فى عدّة أماكن، و نثرت عليهم الدراهم فكان يوما مشهودا. و كان المذكورون منهم أمراء طبلخاناه و عشراوات. و فيه قبض السلطان على برلغى الأشرفى و جماعة أخر. ثمّ بعد أيام أيضا قبض السلطان على الأمير عزّ الدين أيدمر الخطيرىّ الأستادار، و الأمير [بدر الدين] بكتوت الفتاح أمير جاندار بعد ما حضرا من عند الملك المظفّر بيبرس؛ و خلع عليهما، و ذلك بعد الفتك بالمظفّر بيبرس حسب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۵

ما ذكرناه فى ترجمة المظفّر بيبرس، و سكتنا عنه هنا لطول قصّته، و لقصر مدّة حكايته، فإنّه بالأمس ذكر فليس لتكراره محلّ، و من أراد ذلك فلينظر فى ترجمة المظفّر بيبرس. انتهى. و فيه سفّر الأمراء المقبوض عليهم إلى حبس الإسكندريّة، و كتب بالإفراج عن المعتقلين بها، و هم: آقوش المنصورىّ قاتل الشجاعىّ، و الشيخ على التّتارىّ، و منكلى التّتارى، و شاورشى [قنقر] و هو الذى كان أثار فتنة الشجاعىّ، و كتبغا، و غازى و موسى أخوا حمدان بن صلغاى، فلمّا حضروا خلع عليهم و أنعم عليهم بإمريات فى الشام. ثم أحضر شيخ الإسلام تقىّ الدين أحمد ابن تيميّة من سجن الإسكندرية و بالغ فى إكرامه، و كان حبسه المظفّر لأمر وقع بينه و بين علماء دمشق ذكرناه فى غير هذا الكتاب، و هو بسبب الاعتقاد و ما يرمى به أو باش الحنابلة. و فى يوم الثلاثاء تاسع عشرين صفر سنة عشر و سبعمائة عزل السلطان قاضى القضاة بدر الدين محمد بن جماعة الشافعى عن قضاء الديار المصرية بقاضى القضاة جمال الدين أبى داود سليمان ابن مجد الدين أبى حفص عمر الزرعىّ، و عزل قاضى القضاة شمس الدين أحمد بن إبراهيم السّروجىّ الحنفىّ، فأقام بعد عزله ستة أيام و مات.

ثم كتب السلطان الملك الناصر بالقبض على الأمراء الذين كان أطلقهم من حبس الإسكندرية و أنعم عليهم بإمريات بالبلاد الشاميّة خوفا من شرّهم.

ثم استقر السلطان بالأمير بكتمر الحسامى حاجب دمشق فى نيابة غزّة عوضا عن بلبان البدرىّ. ثم قبض السلطان على قطقطو، و الشيخ علىّ و ضروط، مماليك سلّار،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۶

و أمّر عوضهم جماعة من مماليكه و حواشيه، منهم: بيبغا الأشرفىّ، و [سيف الدين] جفتاى، و طيبغا الشمسىّ، و أيدمر الدوادار، و بهادر النقيب.

و فيها حضر ملك العرب حسام الدين مهنّا أمير آل فضل فأكرمه السلطان و خلع عليه، و سأل مهنّا السلطان فى أشياء و أجابه، منها: ولاية حماة للملك المؤيّد إسماعيلى ابن الملك الأفضل [علىّ ابن المظفّر محمود ابن المنصور محمد تقى الدين] الأيّوبىّ، فأجابه إلى ذلك و وعده بها بعد أسندمر كرجى، و منها الشفاعة فى أيدمر الشّيخىّ فعفا عنه و أخرجه إلى قوص، و منها الشفاعة فى الأمير برلغى الأشرفىّ، و كان فى الأصل مملوكه قد كسبه مهنّا هذا من التتار ثم أهداه إلى الملك المنصور قلاوون، فورثه منه ابنه الملك الأشرف خليل بن قلاوون، فعدّد السلطان الملك الناصر ذنوبه فما زال به مهنّا حتى خفّف عنه، و أذن للناس فى الدخول عليه، و وعده بالإفراج

عنه بعد شهر، فرضى بذلك و عاد إلى بلاده و هو كثير الشكر و الثناء على الملك الناصر.

و لما فرغ السلطان الملك الناصر من أمر المظفّر بيبرس و أصحابه و لم يبق عنده ممّن يخشاه إلّا سلّار، ندب إليه السلطان الأمير ناصر الدين محمد ابن أمير سلاح بكتاش الفخرىّ و كتب على يده كتابا بحضوره إلى مصر، فاعتذر سلّار عن الحضور إلى الديار المصرية بوجع فى فؤاده، و أنّه يحضر إذا زال عنه، فتخيّل السلطان من تأخّره و خاف أن يتوجّه إلى التتار؛ فكتب إلى قراسنقر نائب الشام و إلى أسندمر نائب حماة بأخذ الطّرق على سلّار لئلّا يتوجّه إلى التتار. ثم بعث الملك الناصر بالأميرين: بيبرس الدوادار و سنجر الجاولى إلى الأمير سلّار، و أكّد عليهما إحضاره

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۷

و أن يضمنا له عن السلطان أنه يريد إقامته عنده يستشيره فى أمور المملكة، فقدما على سلّار و بلّغاه عن السلطان ما قال، فوعدهما أنه يحضر، و كتب الجواب بذلك، فلما رجعا اشتد قلق السلطان و كثر خياله منه.

و أمّا سلّار فإنه تحيّر فى أمره و استشار أصحابه فاختلفوا عليه، فمنهم: من أشار بتوجّهه إلى السلطان، و منهم من أشار بتوجّهه إلى قطر من الأقطار: إمّا إلى التتار أو إلى اليمن أو إلى برقة، فعوّل على المسير إلى اليمن، ثم رجع عن ذلك و أجمع على الحضور إلى السلطان، و خرج من الشّوبك و عنده ممّن سافر معه [من مصر] أربعمائة و ستون فارسا، فسار إلى القاهرة، فعند ما قدم على الملك الناصر قبض عليه و حبسه بالبرج من قلعة الجبل، و ذلك فى سلخ شهر ربيع الأوّل سنة عشر و سبعمائة. ثم ضيّق السلطان على الأمير برلغى بعد رواح الأمير مهنّا، و أخرج حريمه من عنده؛ و منع ألّا يدخل إليه أحد بأكل و لا شرب حتى أشفى على الموت و يبست أعضاؤه و خرس لسانه من شدّة الجوع، و مات ليلة الأربعاء ثانى شهر رجب.

و أمّا أمر سلّار فإنه لما حضر بين يدى الملك الناصر عاتبه عتابا كثيرا و طلب منه الأموال، و أمر الأمير سنجر الجاولى أن ينزل معه و يتسلّم منه ما يعطيه من الأموال، فنزل معه إلى داره ففتح سلّار سربا تحت الأرض، فأخرج منه سبائك ذهب و فضّة و جرب من [الأديم] الطائفىّ، فى كل جراب عشرة آلاف دينار، فحملوا من ذلك السّرب أكثر من [حمل] خمسين بغلا من الذهب و الفضة، ثم طلع سلّار إلى الطارمة التى كان يحكم عليها فخفروا تحتها، فأخرجوا سبعا و عشرين خابية مملوءة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۸

ذهبا، ثم أخرج من الجواهر شيئا كثيرا، منها: حجر بهرمان زنته أربعون مثقالا، و أخرج ألفى حياصة ذهب مجوهرة بالفصوص، و ألفى قلادة من الذهب، كلّ قلادة تساوى مائة دينار، و ألفى كلفتاة زركش و شيئا كثيرا؛ يأتى ذكره أيضا بعد أن نذكر وفاته. منها: أنهم وجدوا له لجما مفضّضة فنكتوا الفضّة عن السيور و وزنوها، فجاء وزنها عشرة قناطير بالشامى. ثم إنّ السلطان طلبه و أمر أن يبنى عليه أربع حيطان فى مجلسه، و أمر ألّا يطعم و لا يسقى؛ و قيل: إنه لما قبض عليه و حبسه بقلعة الجبل أحضر إليه طعاما فأبى سلّار أن يأكل و أظهر الغضب، فطولع السلطان بذلك، فأمر بألّا يرسل إليه طعام بعد هذا، فبقى سبعة أيام لا يطعم و لا يسقى و هو يستغيث الجوع، فأرسل إليه السلطان ثلاثة أطباق مغطّاة بسفر الطعام، فلما أحضروها بين يديه فرح فرحا عظيما و ظنّ أنّ فيها أطعمة يأكل منها، فكشفوها فإذا فى طبق ذهب، و فى الآخر فضّة، و فى الآخر لؤلؤ و جواهر، فعلم سلّار أنه ما أرسل إليه هذه الأطباق إلا ليقابله على ما كان فعله معه، فقال سلّار: الحمد للّه الذى جعلنى من أهل المقابلة فى الدنيا! و بقى على هذه الحالة اثنى عشر يوما و مات، فأعلموا الملك الناصر بموته فجاءوا إليه، فوجدوه قد أكل ساق خفّه، و قد أخذ السّرموجة و حطّها فى فيه و قد عضّ عليها بأسنانه و هو ميّت؛ و قيل: إنهم دخلوا عليه قبل موته و قالوا: السلطان قد عفا عنك، فقام من الفرح و مشى خطوات ثم خرّ ميّتا، و ذلك فى يوم الأربعاء الرابع و العشرين من شهر ربيع الآخر سنة عشر و سبعمائة؛ و قيل: فى العشرين من جمادى الأولى من السنة المذكورة.

فأخذه الأمير علم الدين سنجر الجاولى بإذن السلطان و تولّى غسله و تجهيزه، و دفنه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۹

بتربته التى أنشأها بجانب مدرسته على الكبش خارج القاهرة بالقرب من جامع ابن طولون، لصداقة كانت بين الجاولى و سلّار قديما و حديثا. و كان سلّار أسمر اللون أسيل الخدّ لطيف القدّ صغير اللّحية تركيّ الجنس، و كان أصله من مماليك الملك الصالح علىّ بن قلاوون الذى مات فى حياة والده قلاوون؛ و كان سلّار أميرا جليلا شجاعا مقداما عاقلا سيوسا، و فيه كرم و حشمة و رياسة، و كانت داره ببين القصرين بالقاهرة. و قيل: إنّ سلار لما حج المرّة الثانية فرّق فى أهل الحرمين أموالا كثيرة و غلالا و ثيابا، تخرج عن حدّ الوصف حتى إنه لم يدع بالحرمين فقيرا، و بعد هذا مات، و أكبر شهواته رغيف خبز، و كان فى شونته يوم مات من الغلال ما يزيد على أربعمائة ألف إردب. و كان سلّار ظريفا لبّيسا كبير الأمراء فى عصره،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۰

اقترح أشياء من الملابس كثيرة مثل السّلّارى و غيره، و لم يعرف لبس السّلّاريّ قبله، و كان شهد وقعة شقحب مع الملك الناصر و أبلى فى ذلک اليوم بلاء حسنا و ثخنت جراحاته، و له اليد البيضاء فى قتال التتار. و تولّى نيابة السلطنة بديار مصر، فاستقلّ فيها بتدبير الدولة الناصرية نحو عشر سنين. و من جملة صدقاته أنه بعث إلى مكة فى سنة اثنتين و سبعمائة فى البحر المالح عشرة آلاف إردب قمح ففرّقت فى أهل مكة، و كذا فعل بالمدينة. و كان فارسا، كان إذا لعب بالكرة لا يرى فى ثيابه عرق، و كذا فى لعب الرمح مع الإتقان فيهما.

و أمّا ما خلّفه من الأموال فقد ذكرنا منه شيئا و نذكر منه أيضا ما نقله بعض المؤرّخين. قال الجزريّ: وجد لسلّار بعد موته ثمانمائة ألف ألف دينار، و ذلک غير الجوهر و الحلىّ و الخيل و السلاح. قال الحافظ أبو عبد اللّه الذّهبيّ: هذا كالمستحيل، و حسب زنة الدينار و جمله بالقنطار فقال: يكون ذلک حمل خمسة آلاف بغل، و ما سمعنا عن أحد من كبار السلاطين أنه ملک هذا القدر، و لا سيما ذلک خارج عن الجوهر و غيره. انتهى كلام الذهبىّ.

قلت: و هو معذور فى الجزرىّ، فإنه جازف و أمعن.

و قال ابن دقماق فى تاريخه: و كان يدخل إلى سلّار فى كل يوم من أجرة أملاكه ألف دينار. و حكى الشيخ محمد بن شاكر الكتبىّ فيما رآه بخط الإمام العالم

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۱

العلّامة علم الدين البرزالىّ، قال: رفع إلىّ المولى جمال الدين ابن الفويرة ورقة فيها قبض أموال سلّار وقت الحوطة عليه فى أيام متفرّقة، أولها يوم الأحد: ياقوت أحمر و بهرمان رطلان. بلخش رطلان و نصف. زمرّد ريحانىّ و ذبابىّ تسعة عشر رطلا. صناديق ضمنها فصوص [و جواهر] ستة. ما بين زمرّد و عين الهرّ ثلثمائة قطعة كبار. لؤلؤ مدوّر من مثقال إلى درهم ألف و مائة و خمسون حبّة. ذهب عين مائتا ألف دينار و أربعة و أربعون ألف دينار. و دراهم أربعمائة ألف و أحد و سبعون ألف درهم. يوم الاثنين: فصوص مختلفة رطلان. ذهب عين خمسة و خمسون ألف دينار، دراهم ألف ألف درهم. مصاغ و عقود ذهب

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۲

مصرىّ أربع قناطير. فضّيّات طاسات و أطباق و طشوت ستّ قناطير. يوم الثلاثاء: ذهب عين خمسة و أربعون ألف دينار، دراهم ثلثمائة ألف درهم و ثلاثون ألف درهم. قطزيّات و أهلّه و طلعات صناجق فضّة ثلاثة قناطير.

يوم الأربعاء: ذهب عين ألف ألف دينار، دراهم ثلثمائة ألف درهم. أقبية بفرو قاقم ثلثمائة قباء. أقبية حرير عمل الدار ملوّنة [بفرو] سنجاب أربعمائة قباء، سروج ذهب مائة سرج. و وجد له عند صهره أمير موسى ثمانية صناديق لم يعلم ما فيها، حملت إلى الدور السلطانية. و حمل أيضا من عند سلّار إلى الخزانة تفاصيل طردوحش، و عمل الدار ألف تفصيلة. و وجد له خيام السّفر ستّ عشرة نوبة كاملة.

و وصل معه من الشّوبک ذهب مصرىّ خمسون ألف دينار، و دراهم أربعمائة الف درهم و سبعون ألف درهم، و خلع ملوّنة ثلثمائة

خلعة و خركاه كسوتها أطلس أحمر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۳

معدنىّ مبطّن بأزرق مرو زىّ [و ستر] بابها زركش. و وجد له خيل ثلثمائة فرس، و مائة و عشرون قطار بغال، و مائة و عشرون قطار جمال. هذا خارج عمّا وجد له من الأغنام و الأبقار و الجواميس و الأملاك و المماليك و الجوارى و العبيد. و دلّ مملوكه على مكان مبنىّ فى داره فوجدوا حائطين مبنيين بينهما أكياس ما علم عدّتها، و فتح مكان آخر فيه فسقيّة ملانة ذهبا منسبكا بغير أكياس.

قلت: و ممّا زاد سلّار من العظمة أنّه لمّا ولى النيابة فى الدولة الناصرية محمد بن قلاوون، و صار إليه و إلى بيبرس الجاشنكير تدبير المملكة حضر إلى الديار المصرية الملك العادل زين الدين كتبغا الذى كان سلطان الديار المصرية و عزل بحسام الدين لاچين، ثم استقرّ نائب صرخد ثم نائب حماة، فقدم كتبغا إلى القاهرة و قبّل الأرض بين يدى الملك الناصر محمد بن قلاوون، ثمّ خرج من عنده و أتى سلّار هذا ليسلّم عليه، فوجد سلّار راكبا و هو يسير فى حوش داره، فنزل كتبغا عن فرسه و سلّم على سلّار، و سلّار على فرسه لم ينزل عنه، و تحادثا حتى انتهى كلام كتبغا، و عاد إلى حيث نزل بالقاهرة؛ فهذا شيء لم يسمع بمثله! انتهى.

و بعد موت سلّار قدم على السلطان البريد بموت الأمير قبجق المنصورىّ نائب حلب، و كان الملك الناصر عزل أسندمر كرجى عن نيابة حماة و ولّى نيابة حماة للملك المؤيّد عماد الدين إسماعيل، فسار إليه المؤيّد من دمشق فمنعه أسندمر، فأقام المؤيّد بين حماة و مصر ينتظر مرسوم السلطان، فاتّفق موت قبجق نائب حلب، فسار أسندمر من حماة إلى حلب و كتب يسأل السلطان فى نيابة حلب، فأعطاها له، و أسرّ ذلك فى نفسه، لكونه أخذ نيابتها باليد، ثم عزل السلطان بكتمر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۴

الحسامى الحاجب عن نيابة غزّة و أحضره إلى القاهرة، و ولّى عوضه على نيابة غزّة الأمير قطلقتمر، و خلع على بكتمر الحاجب بالوزارة بالديار المصرية عوضا عن فخر الدين [عمر] بن الخليلىّ. ثم قدم البريد بعد مدة- لكن فى السنة- بموت الأمير الحاج بهادر الحلبىّ نائب طرابلس، فكتب السلطان بنقل الأمير جمال الدين آقوش الأفرم من نيابة صرخد إلى نيابة طرابلس عوضا عن الحاج بهادر المذكور فسار إليها، و فرح السلطان بموت الحاج بهادر فرحا عظيما، فإنّه كان يخافه و يخشى شرّه.

ثم التفت السلطان بعد موت قبجق و الحاج بهادر المذكور إلى أسندمر كرجى، و أخرج تجريدة من الديار المصرية، و فيها من الأمراء كراى المنصورىّ و هو مقدّم العسكر، و سنقر الكمالىّ حاجب الحجّاب، و أيبك الرّومىّ و بينجار و كجكن و بهادر آص فى عدّة من مضافيهم من أمراء الطبلخاناه و العشرات و مقدّمى الحلقة، و أظهر أنّهم توجهوا لغزو سيس، و كتب لأسندمر كرجى بتجهيز آلات الحصار على العادة، و الاهتمام فى هذا الأمر حتى يصل إليه العسكر من مصر. و كتب الملك الناصر إلى المؤيّد عماد الدين إسماعيل صاحب حماة بالمسير مع العسكر المصرىّ. ثم خرج الأمير كراى من القاهرة بالعساكر فى مستهلّ ذى القعدة سنة عشر و سبعمائة.

و بعد خروج هذا العسكر من مصر توحّش خاطر الأمير بكتمر الجو كندار نائب السلطنة من الملك الناصر و خاف على نفسه، و اتّفق مع الأمير بتخاص المنصورىّ على إقامة الأمير مظفّر الدين موسى ابن الملك الصالح علىّ بن قلاوون فى السلطنة، و الاستعانة بالمماليك المظفّريّة، و بعث إليهم فى ذلك فوافقوه. ثم شرع النائب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۵

بكتمر الجوكندار فى استمالة الأمراء و مواعدة المماليك المظفّريّة الذين بخدمة الأمراء، على أنّ كل طائفة تقبض على الأمير الذى هى فى خدمته فى يوم عيّنه لهم، ثم يسوق الجميع إلى قبّة النّصر خارج القاهرة، و يكون الأمير موسى المذكور قد سبقهم هناك، فدبّروا ذلك حتّى انتظم الأمر و لم يبق إلّا وقوعه، فنمّ عليهم إلى الملك الناصر بيبرس الجمدار أحد المماليك المظفّريّة، و هو ممّن اتّفق معهم بكتمر الجوكندار، أراد بذلك أن يتخذ يدا عند السلطان الملك الناصر بهذا الخبر، فعرّف خشداشه قراتمر الخاصّكى بما عزم عليه فوافقه. و كان بكتمر الجوكندار قد سيّر يعرّف الأمير كراى المنصورىّ بذلك، لأنّه كان خشداشه، و أرسل كذلك إلى

قطلوبک المنصوریّ نائب صفد ثم إلی قطلقتمر نائب غزّة؛ فأمّا قطلوبک و قطلقتمر فوافقاه، و أمّا کرای فأرسل نهاه و حذّره من ذلک، فلم یلتفت بکتمر، و تمّ علی ما هو علیه. فلمّا بلغ السلطان هذا الخبر و کان فی اللّیل لم یتمهّل، و طلب الأمیر موسی إلی عنده و کان یسکن بالقاهرة، فلما نزل إلیه الطلب هرب، ثم استدعی الأمیر بکتمر الجوکندار النائب، و بعث أیضا فی طلب بتخاص، و کانوا إذ ذاک یسکنون بالقلعة، فلما دخل إلیه بکتمر أجلسه و أخذ یحادثه حتی أتاه الممالیک بالأمیر بتخاص، فلما رآه بکتمر علم أنه قد هلک، فقیّد بتخاص و سجن و أقام السلطان ینتظر الأمیر موسی، فعاد إلیه الجاولی و نائب الکرک و أخبراه بفراره فاشتدّ غضبه علیهما، و ما طلع النهار حتّی أحضر السلطان الأمراء و عرّفهم بما قد وقع، و لم یذکر اسم بکتمر النائب، و ألزم السلطان الأمیر کشدغدی البهادریّ و الی القاهرة بالنداء علی الأمیر موسی، و من أحضره من الجند فله إمرته، و إن کان من العامّة فله ألف دینار، فنزل و معه

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۶

الأمیر فخر الدین إیاز شادّ الدواوین و أیدغدی شقیر، و ألزم السلطان سائر الأمراء بالإقامة بالقاعة الأشرفیّة من القلعة حتی یظهر خبر الأمیر موسی. ثم قبض السلطان علی حواشی الأمیر موسی و جماعته و عاقب کثیرا منهم، فلم یزل الأمر علی ذلک من لیلة الأربعاء إلی یوم الجمعة. قبض علی الأمیر موسی المذکور من بیت أستادار الفارقانیّ من حارة الوزیریّة بالقاهرة، و حمل إلی القلعة فسجن بها، و نزل الأمراء إلی دورهم، و خلّی عن الأمیر بکتمر النائب أیضا و نزل إلی داره، و رسم السلطان بتسمیر أستادار الفارقانیّ، ثم عفا عنه و سار إلی داره، و تتبّع السلطان الممالیک المظفّریّة، و فیهم: بیبرس [الجمدار] الذی نمّ علیهم و عملوا فی الحدید، و أنزلوا لیسمّروا تحت القلعة، و قد حضر نساؤهم و أولادهم، و جاء الناس من کلّ موضع و کثر البکاء و الصّیراخ علیهم- رحمة لهم- و السلطان ینظر فأخذته الرحمة علیهم فعفا عنهم، فترکوا و لم یقتل أحد منهم، فکثر الدعاء للسلطان و الثناء علیه.

و أمّا أمر أسندمر کرجی فإنّ الأمیر کرای لما وصل بالعساکر المصریة إلی حمص و أقام بها علی ما قرّره السلطان معه حتی وصل إلیه الأمیر منکوتمر الطبّاخی، و کان السلطان کتب معه ملطّفات إلی أمراء حلب بقبض نائبها أسندمر کرجی

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۷

فی الباطن، و کتب فی الظاهر لکرای و أسندمر کرجی بما أراده من عمل المصالح، فقضی کرای شغله من حمص و رکب و تهیّأ من حمص، و جدّ فی السیر جریدة حتی وصل إلی حلب فی یوم و نصف، فوقف بمن معه تحت قلعة حلب عند ثلث اللیل الآخر، و صاح: «یا لعلی»، و هی الإشارة التی رتّبها بینه و بین نائب قلعة حلب، فنزل نائب القلعة عند ذلک بجمیع رجالها و قد استعدّوا للحرب، و زحف الأمیر کرای علی دار النیابة و لحق به أمراء حلب و عسکرها، فسلّم الأمیر أسندمر کرجی نفسه بغیر قتال، فأخذ و قیّد و سجن بقلعتها و أحیط علی موجوده، و سار منکوتمر الطبّاخی علی البرید بذلک إلی السلطان، ثم حمل أسندمر کرجی إلی السلطان صحبة الأمیر بینجار و أیبک الرّومیّ. فخاف عند ذلک الأمیر قرا سنقر نائب الشام علی نفسه، و سأل أن ینتقل من نیابة دمشق إلی نیابة حلب لیبعد عن الشرّ، فأجیب إلی ذلک، و کتب بتقلیده و جهّز إلیه فی آخر ذی الحجة من سنة عشر و سبعمائة علی ید الأمیر أرغون الدّوادار الناصریّ، و أسرّ له السلطان بالقبض علیه إن أمکنه ذلک. و قدم أسندمر کرجی إلی القاهرة و اعتقل بالقلعة، و بعث یسأل السلطان عن ذنبه فأعاد جوابه؛ مالک ذنب، إلا أنک قلت لی لما ودّعتک عند سفرک: أوصیک یا خوند:

لا تبق فی دولتک کبشا کبیرا و أنشئ ممالیکک! و لم یبق عندی کبش کبیر غیرک.

ثمّ قبض السلطان علی طوغان نائب البیرة، و حمل إلی السلطان فحبس أیاما ثم أطلقه و ولّاه شدّ الدواوین [بدمشق].

و فی مستهلّ سنة إحدی عشرة و سبعمائة وصل الأمیر أرغون الدّوادار إلی الشام [لتسفیر قراسنقر المنصوری منها إلی نیابة حلب] فاحترس منه الأمیر قراسنقر علی نفسه، و بعث إلیه عدّة من ممالیکه یتلقونه و یمنعون

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۸

أحدا ممن جاء معه أن ینفرد مخافة أن یکون معه ملطّفات إلی أمراء دمشق.

ثم رکب قراسنقر إلیه و لقیه بمیدان الحصی خارج دمشق، و أنزله عنده بدار السعادة و کلّ بخدمته من ثقاته جماعة. فلما کان من الغد أخرج له أرغون تقلیده فقبّله و قبّل الأرض علی العادة، و أخذ فی التجهیز و لم یدع قراسنقر أرغون أن ینفرد عنه، بحیث إنه أراد زیارة أماکن بدمشق فرکب معه قراسنقر بنفسه، حتی قضی أرغون أربه و عاد، و تمّ کذلک إلی أن سافر. فلما أراد قراسنقر السفر بعث إلی الأمراء ألا یرکب أحد منهم لوداعه، و ألا یخرج من بیته، و استعدّ و قدّم أثقاله أوّلا فی اللیل، فلما أصبح رکب یوم الرابع من المحرّم بممالیکه، و عدّتهم ستمائة فارس، و رکب أرغون الدوادار بجانبه و بهادر آص فی جماعة قلیلة، و سار معه أرغون حتی أوصله إلی حلب ثم عاد. و قلّد الأمیر کرای المنصوریّ نیابة الشام عوضا عن قراسنقر، و أنعم کرای علی أرغون الدّوادار بألف دینار سوی الخیل و الخلع و غیر ذلک.

ثم إنّ الملک الناصر عزل الأمیر بکتمر الحسامی عن الوزارة و ولاه حجوبیّة الحجّاب بالدیار المصریة عوضا عن سنقر الکمالیّ. و لا زال السلطان یتربّص فی أمر بکتمر الجوکندار النائب حتی قبض علیه بحیلة دبّرها علیه فی یوم الجمعة سابع عشر جمادی الأولی من سنة إحدی عشرة و سبعمائة، و قبض معه علی عدّة من الأمراء، منهم:

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۹

صهر الجوکندار ألکتمر الجمدار و أیدغدی العثمانی، و منکوتمر الطبّاخیّ و بدر الدین بکمش الساقی و أیدمر الشّمسی و أیدمر الشیخی، و سجنوا الجمیع إلّا الطباخی فإنه قتل من وقته.

و الحیلة التی دبّرها السلطان علی قبض بکتمر الجوکندار أنه نزل السلطان إلی المطعم و بکتمر بإزائه، فخرج السلطان من البرج و مال إلی بکتمر و قال یا عمی:

ما بقی فی قلبی من أحد إلّا فلان و فلان و ذکر له أمیرین، فقال له بکتمر: یا خوند، ما تطلع من المطعم إلا و تجدنی قد أمسکتهما، و کان ذلک یوم الثلاثاء، فقال له السلطان: لا، یا عمی إلا دعهما إلی یوم الجمعة؛ تمسکهما فی الصلاة، فقال له:

السمع و الطاعة. ثم إنّ السلطان جهّز لبکتمر تشریفا هائلا و مرکوبا معظّما، فلما کان یوم الجمعة قال له فی الصلاة: و اللّه یا عمی مالی وجه أراهما! و أستحی منهما، و لکن أمسکهما إذا دخلت أنا إلی الدار، و توجّه بهما إلی المکان الفلانی تجد هناک منکلی بغا و قجماس فسلّمهما إلیهما، و رح أنت، فأمسکهما بکتمر الجوکندار و توجّه بهما إلی المکان المذکور له، فوجد الأمیرین: قجماس و منکلی بغا هناک، فقاما إلیه و قالا له: علیک السمع و الطاعة لمولانا السلطان و أخذا سیفه، فقال لهما:

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۳۰

یا خشداشیتی ما هو هکذا الساعة کما فارقت السلطان، و قال لی: أمسک هؤلاء، فقالا: ما القصد إلا أنت، فأمسکاه و أطلقا الأمیرین، و کان ذلک آخر العهد ببکتمر الجوکندار کما یأتی ذکره. انتهی.

ثم أرسل السلطان استدعی الأمیر بیبرس الدّوادار المنصوریّ المؤرّخ و ولّاه نیابة السلطنة بدیار مصر عوضا عن بکتمر الجوکندار، ثم أرسل السلطان قبض أیضا علی الأمیر کرای المنصوریّ نائب الشام بدار السعادة فی یوم الخمیس ثانی عشرین جمادی الأولی، و حمل مقیّدا إلی الکرک فحبس بها. و سبب القبض علیه کونه کان خشداش بکتمر الجوکندار و رفیقه، ثم قبض السلطان علی الأمیر قطلوبک نائب صفد بها، و کان أیضا ممن وافق بکتمر علی الوثوب مع الأمیر موسی حسب ما تقدّم ذکره. ثم خلع السلطان علی الأمیر آقوش الأشرفی نائب الکرک باستقراره فی نیابة دمشق عوضا عن کرای المنصوریّ، و استقر بالأمیر بهادرآص فی نیابة صفد عوضا عن قطلوبک، ثم نقل السلطان بکتمر الجوکندار النائب و أسندمر کرجی من سجن الإسکندریة إلی سجن الکرک، فبقی بسجن الکرک جماعة من أکابر الأمراء مثل: بکتمر الجوکندار و کرای المنصوریّ و أسندمر کرجی و قطلوبک المنصوریّ نائب صفد و بیبرس العلائی فی آخرین. ثم عزل السلطان مملوکه أیتمش المحمّدی عن نیابة الکرک، و استقرّ فی نیابتها بیبغا الأشرفیّ، و کان السلطان قد استناب أیتمش هذا علی الکرک لما خرج منها [إلی دمشق].

و أما قراسنقر فإنه أخذ فى التدبير لنفسه خوفا من القبض عليه كما قبض على غيره، و اصطنع العربان و هاداهم، و صحب سليمان بن مهنّا و آخاه، و أنعم عليه و على أخيه موسى حتى صار الجميع من أنصاره، و قدم عليه الأمير مهنّا إلى حلب و أقام

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۳۱

عنده أياما و أفضى إليه قراسنقر بسرّه، و أوقفه على كتاب السلطان بالقبض على مهنّا، و أنه لم يوافق على ذلك، ثم بعث قراسنقر يسأل السلطان فى الإذن له فى الحجّ فجهّز قراسنقر حاله، و خرج من حلب فى نصف شوّال و معه أربعمائة مملوك، و استناب بحلب الأمير قرطاى و ترك عنده عدّة من مماليكه لحفظ حواصله، فكتب السلطان لقرطاى بالاحتراس، و ألّا يمكّن قراسنقر من حلب إذا عاد، و يحتج عليه بإخضار مرسوم السلطان بتمكينه من ذلك. ثم كتب إلى نائب غزّة و نائب الشام و نائب الكرك و إلى بنى عقبة بأخذ الطريق على قراسنقر، فقدم البريد أنّه سلك البرّيّة إلى صرخد و إلى زيزاء، ثم كثر خوفه من السلطان فعاد من غير الطريق التى سلكها، ففات أهل الكرك القبض عليه فكتبوا بالخبر إلى السلطان فشقّ عليه؛ ثم وصل قراسنقر إلى ظاهر حلب فبلغه ما كتب السلطان إلى قرطاى فعظم خوفه و كتب إلى مهنّا، فكتب مهنّا إلى قرطاى أن يخرج حواصل قراسنقر و إلّا هجم مدينة حلب و أخذ ماله قهرا، فخاف قرطاى من ذلك، و جهّز كتابه إلى السلطان فى طىّ كتابه، و بعث بشىء من حواصل قراسنقر إلى السلطان مع ابن قراسنقر الأمير عز الدين فرج، فأنعم عليه الملك الناصر بإمرة عشرة، و أقام بالقاهرة مع أخيه أمير على بن قراسنقر. ثم إن سليمان بن مهنّا قدم على قراسنقر، فأخذه و مضى و أنزله فى بيت أمّه فاستجار قراسنقر بها فأجارته، ثم أتاه مهنّا و قام له بما يليق به. ثم بعث مهنّا يعرّف السلطان بما وقع لقراسنقر و أنه استجار بأمّ سليمان فأجارته، و طلب من

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۳۲

السلطان العفو عنه؛ فأجاب السلطان سؤاله، و بعث إليه أن يخيّر قراسنقر فى بلد من البلاد حتى يولّيه إياها، فلما سافر قاصد مهنّا و هو ابن مهنا لكنه غير سليمان جهّز السلطان تجريدة هائلة فيها عدّة كثيرة من الأمراء و غيرهم إلى جهة مهنّا، فاستعدّ مهنّا و كتب قراسنقر إلى الأفرم نائب طرابلس يستدعيه اليه، فأجابه و وعده بالحضور إليه. ثم بعث قراسنقر و مهنّا إلى السلطان و خدعاه و طلب قراسنقر صرخد، فانخدع السلطان و كتب له تقليدا بصرخد، و توجّه إليه بالتقليد أيتمش المحمّدى، فقبّل قراسنقر الأرض، و احتج حتّى يصل إليه ماله بحلب ثم يتوجّه إلى صرخد، فقدمت أموال قراسنقر من حلب، فما هو إلا أن وصل إليه ماله، و إذا بالأفرم قد قدم عليه من الغد و معه خمسة أمراء من أمراء طبلخاناه و ستّ عشراوات فى جماعة من التّركمان فسّر قراسنقر بهم، ثم استدعوا أيتمش و عدّدوا عليه من قتله السلطان من الأمراء، و أنهم خافوا على أنفسهم و عزموا على الدخول فى بلاد التتار، و ركبوا بأجمعهم، و عاد أيتمش إلى الأمراء المجرّدين بحمص و عرّفهم الخبر، فرجعوا عائدين إلى مصر بغير طائل. و قدم الخبر على السلطان بخروج قراسنقر و الأفرم إلى بلاد التّتار فى أوّل سنة اثنتى عشرة و سبعمائة؛ و قيل إنّ الأفرم لما خرج هو و قراسنقر إلى بلاد التتار بكى الأفرم، و أنشد:

سيذكرنى قومى إذا جدّ جدّهم و فى الليلة الظلماء يفتقد البدر

فقال له قراسنقر: امش بلا فشار، تبكى عليهم و لا يبكون عليك! فقال الأفرم:

و اللّه ما بى إلا فراق ابنى موسى، فقال قراسنقر: أىّ بغاية بصقت فى رحمها جاء

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۳۳

منه موسى و إبراهيم و عدّد أسماء كثيرة، و توجّها. انتهى. ثم إن السلطان أفرج عن الأمير أيدمر الخطيرى و أنعم عليه بخبز الأمير علم الدين سنجر الجاولى.

و فى أوّل سنة اثنتى عشرة و سبعمائة كملت عمارة الجامع الجديد الناصرىّ بمصر القديمة على النيل و وقف عليه عدّة أوقاف كثيرة. و أما قراسنقر و الأفرم فإنهما سارا بمن معهما إلى بلاد التّتار، فخرج خربندا ملك التّتار و تلقّاهم و ترجّل لهم و ترجّلوا له و بالغ فى إكرامهم و سار بهم إلى مخيّمه و أجلسهم معه على التّخت، و ضرب لكلّ منهم خركاه و رتّب لهم الرواتب السّنيّة، ثم استدعاهم بعد

یومین و اختلی بقراسنقر فحسّن له قراسنقر عبور الشام و ضمن له تسلیم البلاد بغیر قتال. ثم اختلی بالأفرم فحسّن له أیضا أخذ الشام الّا أنه خیّله من قوّة السلطان و کثرة عساکره. ثم إن خربندا أقطع قواسنقر مراغة و أقطع الأفرم همذان، و استمرّوا هناک إلی ما یأتی ذکره إن شاء اللّه تعالی.

و لمّا حضر من تجرّد من الأمراء إلی الدیار المصریة حضر معهم الأمیر جمال الدین آقوش نائب الکرک الذی ولی نیابة الشام بعد کرای المنصوریّ، فقبض السلطان علیه و علی الأمیر بیبرس الدّوادار نائب السلطان صاحب التاریخ،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۳۴

و علی سنقر الکمالیّ، و لاچین الجاشنکیر و بینجار و ألدکز الأشرفیّ، و مغلطای المسعودیّ و سجنوا بالقلعة فی شهر ربیع الأوّل سنة اثنتی عشرة و سبعمائة، و ذلک لمیلهم إلی قراسنقر و الأفرم. ثم خلع السلطان علی تنکز الحسامی الناصری بنیابة دمشق دفعة واحدة عوضا عن آقوش نائب الکرک؛ و تنکز هذا هو أوّل من رقّاه من ممالیکه إلی الرّتب السنیّة. ثم استقرّ بسودی الجمدار فی نیابة حلب، و استقرّ تمر الساقی المنصوریّ فی نیابة طرابلس.

ثم إنّ السلطان عزل مهنّا بأخیه فضل و رسم بأنّ مهنّا لا یقیم بالبلاد.

ثم قبض السلطان علی الأمیر بیبرس المجنون و بیبرس العلمیّ و سنجر البروانی و طوغان المنصوریّ و بیبرس التاجی، و قیّدوا و حملوا من دمشق إلی الکرک فی سادس ربیع الآخر من السنة. ثم أمّر السلطان فی یوم واحد ستة و أربعین أمیرا، منهم طبلخاناه تسعة و عشرون و عشروات سبعة عشر و شقّوا القاهرة بالشرابیش و الخلع. ثم فی یوم الاثنین أوّل جمادی الأولی خلع السلطان علی مملوکة أرغون الدّوادار بنیابة السلطنة بالدیار المصریّة عوضا عن بیبرس الدّوادار بحکم القبض علیه. ثم خلع السلطان علی بلبان طرنا أمیر باندار بنیابة صفد عوضا عن بهادر آص، و أن یرجع بهادر آص إلی دمشق أمیرا علی عادته أوّلا. ثم رکب السلطان إلی الصید ببر الجیزة و أمّر جماعة من ممالیکه، و هم: طقتمر الدّمشقی، و قطلوبغا الفخریّ المعروف بالفول المقشّر، و طشتمر البدریّ المعروف بحمّص أخضر. ثم ورد علی السلطان الخبر بحرکة خربندا ملک التتار، فکتب السلطان إلی الشام بتجهیز الإقامات، و عرض السلطان العساکر

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۳۵

و أنفق فیهم الأموال، و ابتدأ بالعرض فی خامس عشر شهر ربیع الآخر، و کمل فی أوّل جمادی الأولی، فکان یعرض فی کلّ یوم أمیرین من مقدّمی الألوف، و کان یتولّی العرض هو بنفسه و یخرجان الأمیران بمن أضیف إلیهما من الأمراء و مقدّمی الحلقة و الأجناد، و یرحّلون شیئا بعد شئ من أوّل شهر رمضان إلی ثامن عشرینه حتی لم یبق بمصر أحد من العسکر. ثم خرج السلطان فی ثانی شوّال و نزل مسجد التّبن خارج القاهرة و رحل منه فی یوم الثلاثاء ثالث من شوّال، و رتّب بالقلعة نائب الغیبة الأمیر [سیف الدین] أیتمش المحمّدی الناصری. فلمّا کان ثامن شوّال قدم البرید برحیل التتار لیلة سادس عشرین رمضان من الرّحبة و عودهم إلی بلادهم بعد ما أقاموا علیها من أوّل شهر رمضان. فلمّا بلغ السلطان ذلک فرّق العساکر فی قاقون و عسقلان؛ و عزم علی الحجّ و دخل دمشق فی تاسع عشر شوّال، و خرج منها فی ثانی ذی القعدة إلی الکرک، و أقام بدمشق أرغون النائب و الوزیر أمین الملک ابن الغنّام یجمع المال. و توجّه السلطان من الکرک إلی الحجاز فی أربعین أمیرا فحجّ و عاد إلی دمشق فی یوم الثلاثاء حادی عشر المحرّم سنة ثلاث عشرة و سبعمائة، و کان لدخوله دمشق یوم مشهود، و عبر دمشق علی ناقة و علیه بشت من ملابس العرب بلثام و بیده حربة، فأقام بدمشق خمسة عشر یوما و عاد إلی مصر، فدخلها یوم ثانی عشر صفر.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۳۶

ثم عمل السلطان فی هذه السنة (أعنی سنة ثلاث عشرة و سبعمائة) الرّوک بدمشق، و ندب إلیه الأمیر علم الدین سنجر الجاولی نائب غزّة. ثم إنّ السلطان تجهّز إلی بلاد الصعید و نزل من قلعة الجبل فی ثانی عشرین شهر رجب من السنة و نزل تحت الأهرام بالجیزة، و

أظهر أنّه يريد الصيد، و القصد السفر للصعيد و أخذ العربان لكثرة فسادهم، و بعث عدّة من الأمراء حتّى أمسكوا طريق السّويس و طريق الواحات فضبط البرّين على العربان، ثم رحل من منزلة الأهرام إلى جهة الصعيد و فعل بالعربان أفعالا عظيمة من القتل و الأسر، ثم عاد إلى الديار المصريّة فدخلها فى يوم السبت عاشر شهر رمضان. و كان ممّن قبض عليه السلطان مقداد بن شمّاس، و كان قد عظم ماله، حتّى كان عدّة جواريه أربعمائة جارية، و عدّة أولاده ثمانين. و كان السلطان قد ابتدأ فى أوّل هذه السنة بعمارة القصر الأبلق على الإسطبل السلطانى ففرغ فى سابع عشر شهر رجب، و قصد السلطان أن يحاكى

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۳۷

به قصر الملك الظاهر بيبرس البندقدارى الذى بظاهر دمشق، و استدعى له صنّاع دمشق و صنّاع مصر حتى كمل و أنشأ بجانبه جنينة، و قد ذهبت تلك الجنينة كما ذهب غيرها من المحاسن. ثمّ إنّ السلطان رسم بهدم مناظر اللّوق بالميدان الظاهرى، و عمله بستانا و أحضر إليه سائر أصناف الزراعات، و استدعى خولة الشام و المطعّمين فباشروه حتّى صار من أعظم البساتين، و عرف أهل جزيرة الفيل من ذلك اليوم التطعيم للشجر.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۳۸

ثم فى سنة أربع عشرة و سبعمائة كتب السلطان لنائب [حلب و] حماة و حمص و طرابلس و صفد بأن أحدا منهم لا يكاتب السلطان، و إنّما يكاتب الأمير تنكز نائب الشام، و يكون تنكز هو المكاتب للسلطان فى أمرهم، فشقّ ذلك على النوّاب، و أخذ الأمير [سيف الدين] بلبان طرنا نائب صفد ينكر ذلك؛ فكاتب فيه تنكز حتّى عزل، و استقرّ عوضه الأمير بلبان البدرى، و حمل بلبان طرنا مقيّدا إلى مصر. ثمّ إن السلطان اهتم بعمارة الجسور بأرض مصر و ترعها، و ندب الأمير عزّ الدين أيدمر الخطيرىّ إلى الشرقية، و الأمير علاء الدين أيدغدى شقير

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۳۹

إلى البهنساويّة و الأمير حسين ابن جندر إلى أسيوط و منفلوط، و الأمير سيف الدين آقول الحاجب إلى الغربية، و الأمير سيف الدين قلّى أمير سلاح

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۴۰

إلى الطّحاويّة و بلاد الأشمونين، و الأمير جنكلى بن البابا إلى القليوبية، و الأمير بهادر المعزّى إلى إخميم، و الأمير بهاء الدين أصلم إلى قوص.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۴۱

ثم إنّ السلطان قبض على الأمير [علاء الدين] أيدغدى شقير و على الأمير بكتمر الحسامى الحاجب صاحب الدار خارج باب النصر فى أوّل شهر ربيع الأوّل سنة خمس عشرة و سبعمائة فقتل أيدغدى شقير من يومه، لأنه اتّهم أنه يريد الفتك بالسلطان، و أخذ من بكتمر الحاجب مائة ألف دينار و سجن. ثم قبض السلطان على الأمير طغاى، و على الأمير تمر الساقى نائب طرابلس و حمل إلى قلعة الجبل، و قبض على الأمير [سيف الدين] بهادر آص و حمل إلى الكرك من دمشق، و استقرّ الأمير كستاى الناصرىّ نائب طرابلس عوضا عن تمر الساقى. ثم أفرج السلطان عن الأمير قجماس المنصورىّ أحد البرجية من الحبس، و أخرج الأمير بدر الدين محمد بن الوزيرىّ إلى دمشق منفيّا. ثم فى ثامن عشر شهر رجب أفرج السلطان عن الأمير آقوش الأشرفىّ نائب الكرك، و خلع عليه و أنعم عليه بإقطاع الأمير حسام الدين لاچين الأستادار بعد موته.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۴۲

و فى العشر الأخير من شعبان من سنة خمس عشرة و سبعمائة وقع الشروع فى عمل الرّوك بأرض مصر، و سبب ذلك أنّ أصحاب بيبرس الجاشنكير و سلّار و جماعة من البرجية، كان خبز الواحد منهم ما بين ألف مثقال فى السنة إلى ثلثمائة مثقال، فأخذ السلطان

أخبارهم و خشى الفتنة، و قرّر مع فخر الدين [محمد بن فضل اللّه] ناظر الجيش روك البلاد، و أخرج الأمراء إلى الأعمال، فتعيّن الأمير بدر الدين جنكلى بن البابا إلى الغربية و معه آقول الحاجب و الكاتب مكين الدين إبراهيم بن قروينة. و تعيّن للشرقية الأمير أيدمر الخطيرى و معه أيتمش المحمدى و الكاتب أمين الدين قرموط، و تعيّن للمنوفية

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۴۳

و البحيرة الأمير بلبان الصّرخدى و [طرنطاى] القلنجقىّ و [محمد] بن طرنطاى و بيبرس الجمدار. و تعيّن جماعة أخر للصعيد، و توجّه كلّ أمير إلى عمله. فلمّا نزلوا بالبلاد استدعى كلّ أمير مشايخ البلاد و دلاتها و قيّاسيها و عدو لها و سجلّات كلّ بلد، و عرف متحصّلها و مقدار فدنها و مبلغ عبرتها، و ما يتحصّل منه للجندىّ من العين و الغلّة و الدّجاج و الإوزّ و الخراف و الكشك و العدس و الكعك. ثم قاس الأمير تلك الناحية و كتب بذلك عدّة نسخ، و لا زال يعمل ذلك فى كلّ بلد حتّى انتهى أمر عمله. و عادوا بعد خمسة و سبعين يوما بالأوراق، فتسلّمها فخر الدين ناظر الجيش، و طلب التّقىّ كاتب برلغى و سائر مستوفى الدولة، ليفردوا الخاصّ السلطان بلادا و يضيفوا الجوالى إلى البلاد، و كانت الجوالى قبل ذلك إلى وقت الرّوك لها ديوان مفرد

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۴۴

يختصّ بالسلطان، فأضيف جوالى كلّ بلد إلى متحصل خراجها، و أبطلت جهات المكوس التى كانت أرزاق الجند عليها، منها ساحل الغلّة، و كانت هذه الجهة مقطعة لأربعمائة جندىّ من أجناد المحلقه سوى الأمراء، و كان متحصّلها فى السنة أربعة آلاف ألف و ستمائة ألف درهم.

قلت: و هذا القدر يكون الآن شيئا كثيرا من الذهب من سعر يومنا هذا. و كان إقطاع الجندىّ من عشرة آلاف درهم إلى ثلاثة آلاف درهم، و للأمراء من أربعين ألفا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۴۵

إلى عشرة آلاف درهم، فآقتنى المباشرون منها أموالا عظيمة، فإنّها كانت أعظم الجهات الديوانيّة و أجلّ معاملات مصر. و كان الناس منها فى أنواع من الشدائد لكثرة المغارم و العسف و الظّلم، فإنّ أمرها كان يدور على نواتية المراكب و الكيّالين و المشدّين و الكتّاب؛ و كان المقرّر على كل إردب درهمين و يلحقه نصف درهم آخر سوى ما كان ينهب. و كان له ديوان فى بولاق خارج المقس، و قبله كان له خصّ يعرف بخصّ الكيّالة. و كان فى هذه الجهة نحو ستين رجلا ما بين نظّار و مستوفين و كتّاب و ثلاثين جنديّا للشدّ، و كانت غلال الأقاليم لا تباع إلّا فيه، فأزال الملك الناصر هذا الظلم جميعه عن الرعيّة، و رخص سعر القمح من ذلك اليوم، و انتعش الفقير و زالت هذه الظّلامة عن أهل مصر، بعد أن راجعته أقباط مصر فى ذلك غير مرّة، فلم يلتفت إلى قول قائل- رحمه اللّه تعالى- ما كان أعلى همّته، و أحسن تدبيره.

و أبطل الملك الناصر أيضا نصف السّمسرة الذى كان أحدثه ابن الشّيخىّ فى وزارته- عامله اللّه تعالى بعدله- و هو أنه من باع شيئا فإنّ دلالة كل مائة درهم درهمان، يؤخذ منها درهم للسلطان، فصار الدلّال يحسب حسابه و يخلّص درهمه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۴۶

قبل درهم السلطان؛ فأبطل الملك الناصر ذلك أيضا، و كان يتحصل منه جملة كثيرة و عليها جند مستقطعة.

و أبطل السلطان الملك الناصر أيضا رسوم الولايات و المقدّمين و النّوّاب و الشّرطية، و هى أنها كانت تجبى من عرفاء الأسواق و بيوت الفواحش، و كان عليها أيضا جند مستقطعة و أمراء، و كان فيها من الظلم و العسف و هتك الحرم و هجم البيوت و إظهار الفواحش ما لا يوصف، فأبطل ذلك كلّه- سامحه اللّه تعالى و عفا عنه-.

و أبطل ما كان مقرّرا للحوائص و البغال، و كان يجبى من المدينة و من الوجهين:

القبلىّ و البحرىّ، و يحمل فى كلّ قسط من أقساط السنة إلى بيت المال عن ثمن الحياصة ثلثمائة درهم، و عن ثمن البغل خمسمائة

درهم، و کـان علی هـذه الجهـة أیضـا عـدّة مقطعین، سوی مـا کان یحمل إلی الخزانـة، فکان فیها من الظلم بلاء عظیم؛ فأبطل الملک الناصر ذلک کلّه، رحمه اللّه.

و أبطل أیضا ما کان مقرّرا علی السجون، و هو علی کلّ من سجن و لو لحظة واحدة مائة درهم سوی ما یغرمه. و کان أیضا علی هذه الجهة عدّة مقطعین، و لها ضامن یجبی ذلک من سائر السجون؛ فأبطل ذلک کلّه، رحمه اللّه.

و أبطل ما کان مقرّرا من طرح الفراریح، و کان لها ضـمّان فی سائر الأقالیم، کانت تطرح علی الناس بالنواحی الفراریح؛ و کان فیها أیضا من الظّلم و العسف و أخذ

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۴۷

لأموال من الأرامل و الفقراء و الأیتام ما لا یمکن شرحه، و کان علیها عدّة مقطعین و مرتّبات، و لکل إقلیم ضامن مقرّر، و لا یقدر أحد أن یشتری فروّجا إلّا من الضامن، فأبطل الناصر ذلک، و للّه الحمد.

و أبطل مـا کـان مقرّرا للفرسـان، و هو شـیء تسـتهدیه الولاة و المقـدمون من سـائر الأقالیم، فیجی من ذلک مال عظیم، و یؤخـذ فیه الدرهم ثلاثة دراهم من کثرة الظلم، فأبطل الملک الناصر ذلک، رحمه اللّه تعالی.

و أبطل مـا کـان مقررا علی الأقصاب و المعاصـر، کان یجبی من مزارعی الأقصاب و أرباب المعاصـر و رجال المعصـرة، فیحصل من ذلک شیء کثیر.

و أبطل ما کان یؤخذ من رسوم الأفراح، کانت تجبی من سائر البلاد، و هی جهة لا یعرف لها أصل فبطل ذلک و نسی، و للّه الحمد.

و أبطل جبایـة المراکب، کـانت تجبی من سائر المراکب التی فی بحر النیل بتقریر معیّن علی کلّ مرکب، یقال له مقرّر الحمایـة، کان یجبی ذلک من مسافری المراکب سواء أکانوا أغنیاء أم فقراء، فبطل ذلک أیضا.

و أبطل ما کان یأخذه مهتار طشتخاناه السلطان من البغایا و المنکرات و الفواحش، و کانت جملة مستکثرة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۴۸

و أبطل ضـمان تجیب بمصر و شدّ الزعماء و حقوق السودان و کشف مراکب النوبة، فکان یؤخذ عن کلّ عبد و جاریة مبلغ مقرّر عند نزولهم فی الخانات، و کانت جهة قبیحة شنیعة إلی الغایة، فأراح اللّه المسلمین منها علی ید الملک الناصر، رحمه اللّه.

و أبطل أیضا متوفّر الجراریف بالأقالیم، و کان علیها عدّة کثیرة من المقطعین.

و أبطل ما کان مقرّرا علی المشاعلیة من تنظیف أسـربة البیوت و الحمّامات و المسامط و غیرها، فکان إذا امتلأ سـراب بیت أو مدرسـة لا یمکن شیله حتی یحضر الضامن و یقرّر أجرته بما یختار، و متی لم یوافقه صاحب البیت ترکه و مضی حتی یحتاج إلیه و یبذل له ما یطلب.

و أبطل ما کان مقرّرا من الجبی برسم ثمن العبی و ثمن رکوة السّوّاس.

و أبطـل أیضا وظیفتی النظر و الاستیفاء من سائر الأعمال، و کان فی کل بلـد ناظر و مسـتوف و مباشـرون، فرسم السـلطان ألّا یسـتخدم أحـد فی إقلیم لاـ یکون للسـلطان فیه مـال، و ما کان للسـلطان فیه مال یکون ناظرا و أمین حکم لا غیر، و رفع یـد سائر المباشـرین من البلاد.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۴۹

قلت: و کلّ ما فعله الملک الناصـر من إبطال هـذه المظالم و المکوس دلیل علی حسن اعتقاده و غزیر عقله و جودة تـدبیره و تصـرّفه، حیث أبطل هذه الجهات القبیحة التی کانت من أقبح الأمور و أشنعها و عوّضها من جهات لا یظلم فیها الرجل الواحد. و مثله فی ذلک کمثـل الرجـل الشـجاع الـذی لاـ یبالی بالقوم، کثروا أو قلّوا، فهو یکرّ فیهم فإن أوغل فیهم خلص، و إن کرّ راجعا لا یبالی بمن هو فی أثره، لمـا یعلم ما فی یـده من نفسه، فأبطل لـذلک ما قبـح و أحـدث ما صـلح من غیر تکلّف، و عـدم تخوّف، فللّه درّه من ملک عمّر

البلاد، و عمّر بالإحسان العباد. و هـذا بخلاف من ولى بعـده من السـلاطين فإنهم لقصـر باعهم عن إدراك المصـلحه، مهما رأوه، و لو كان فيه هلاك الرعيـة، و عـذاب البريـة؛ يقولون: بهـذا جرت العادة من قبلنا، فلا سبيل إلى تغيير ذلك و لو هلك العالم، فلعمرى هل تلك العادة حدثت من الكتاب و السّـنة، أم أحدثها ملك مثلهم! و ما أرى هذا و أمثاله إلّا من جميل صـنع اللّه تعالى، كى يتميّز العالم من الجاهل. انتهى.

ثم رسم السـلطان الملك الناصر [بالمسامحة] بالبواقى الديوانية و الإقطاعية من سائر النواحى إلى آخر سنة أربع عشرة و سبعمائة. وجل الرّوك الهلالىّ لاستقبال صفر سنة ستّ عشرة و سبعمائة، و الرّوك الخراجىّ لاستقبال ثلث مغلّ سنة خمس عشرة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۵۰

و سـبعمائة. و أفرد السلطان لخاصته الجيزية و أعمالها، و أخرجت الجوالى من الخاص و فرّقت فى البلاد، و أفردت الجهات التى بقيت من المكس كلهـا، و أضـيفت إلى الوزير، و أفردت للحاشـية بلاـد، و لجوامك المباشـرين بلاد، و لأرباب الرواتب جهات. و ارتجعت عدّة بلاد كانت اشتريت من بيت المال و حبست، فأدخلت فى الإقطاعات.

قلت: و شراء الإقطاعات من بيت المال شراء لا يعبأ اللّه به قديما و حديثا، فإنه متى احتاج بيت مال المسلمين إلى بيع قرية من القرى، و إنفاق ثمنها فى مصالح المسـلمين! فهذا شـيء لم يقع فى عصـر من الأعصار، و إنما تشترى القرية من بيت المال؛ ثم إن السلطان يهب للشـارى ثمن تلك القريـة، فهـذا البيع و إن جاز فى الظاهر لا يسـتحلّه الورع، و لا فعله السّـلف، حتى إنّ الملك لا تجوز له النفقـة من بيت المـال إلّـا بـالمعروف، فمتى جـاز له أن يهب الأـلوف المؤلّفـة من أثمان القرى لمن لا يسـتحقّ أن يكون له النّزر اليسـير من بيت المـال، و هـذا أمر ظـاهر معروف يطول الشـرح فى ذكره. و فى قصّـة سـيّدنا عمر بن الخطاب، رضـى اللّه عنه، ما فرضه لنفسه من بيت المال كفاية عن الإكثار فى هذا المعنى. انتهى.

ثم إن السـلطان رسم بأن يعتدّ فى سائر البلاد بما كان يهديه الفلّاحين و حسب من جملة المبلغ. فلمّا فرغ من العمل فى ذلك نودى فى النـاس بالقـاهرة و مصـر و سـائر الأعمال بإبطال ما أبطل من جهات المكس و غيره، و كتبت المراسـيم بـذلك إلى سائر النواحى بهـذا الإحسان العظيم، فسّر الناس بذلك قاطبة سرورا عظيما، و ضجّ العالم بالدعاء للسلطان بسائر الأقطار، حتى شكر ذلك ملوك الفرنج، و هابته من حسن تدبيره. و وقع ذلك لملوك التتار و أرسلوا فى طلب الصّلح حسب ما يأتى ذكره.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۵۱

ثم جلس السـلطان الملـك الناصـر بالإـيوان الـذى أنشأه بقلعـة الجبل فى يوم الخميس ثانى عشـرين ذى الحجّـة سـنة خمس عشـرة و سبعمائة لتفرقة المثالات. و هذا الرّوك يعرف بالرّوك الناصـرى المعمول به إلى يومنا هذا، و حضـروا الناس و رسم السلطان أن يفرّق فى كلّ يوم على أميرين من المقدّمين بمضافيهما، فكان المقدّم يقف بمضافيه، و يسـتدعى كلّ واحد باسمه، فإذا تقدّم المطلوب سأله السلطان، من أنت؟

و مملوك من أنت؟ حتّى لا يخفى عليه شـيء من أمره، ثم يعطيه مثالا يلائمه؛ فأظهر السـلطان فى هـذا العرض عن معرفـة تامّة بأحوال رعيّته، و أمور جيوشه و عساكره؛ و كان كبار الأمراء تحضـر التّفرقة فكانوا إذا أخذوا فى شـكر جندىّ عاكسهم السلطان، و أعطاه دون ما كان فى أملهم له، و أراد بذلك ألّا يتكلّم أحدهم فى المجلس، فلمّا علموا بذلك أمسـكوا عن الكلام و الشكر، بحيث إنّه لا يتكلّم أحـد منهم بعـد ذلك إلا ردّ جواب له عما يسأل عنه فمشـى الحال بـذلك على أحسن وجه من غير غرض و لا عصبيّـة، و أعطى لكلّ واحد ما يستحقّه.

قلت: و أين هـذه الفعلـة من فعل الملك الظاهر برقوق، رحمه اللّه؛ و قـد أظهر من قلّـة المعرفـة، و إظهار الغرض التامّ، حيث أنعم على قريبه الأمير قجماس بإمرة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۵۲

مائة و تقدمة ألف بالديار المصرية، و هو إذ ذاك لا يحسن يتلفّظ بالشهادتين، فكان مباشر و إقطاعه يدخلون إليه مع أرباب و ظائفه فيجدون الفقيه يعلّمه الشهادة و قراءة الفاتحة و هو كالتّيس بين يدى الفقيه! فكان ذلك من جملة ذنوب الملك الظاهر برقوق التى عدّدوها له عند خروج الناصرىّ و منطاش عليه، و نفرت القلوب منه حتى خلع و حبس حسب ما يأتى ذكره. و لم أرد بذلك الحطّ على الملك الظاهر المذكور غير أنّ الشيء بالشيء يذكر. انتهى.

ثم فعل السلطان الملك الناصر ذلك مع مماليكه و عساكره، فكان يسأل المملوك عن اسمه و اسم تاجره و عن أصله و عن قدومه إلى الديار المصرية، و كم حضر مصافّ، و كم لعب بالرمح [و عن] سنّه، و من كان خصمه فى لعب الرّمح، و كم أقام سنة بالطبقة؟ فإن أجابه بصدق أنصفه و إلّا تركه، و رسم له بجامكيّة هيّنة حتى يصل إلى رتبة من يقطع بباب السلطان، فأعجب الناس هذا غاية العجب. و كان الملك الناصر أيضا يخيّر الشيخ المسنّ بين الإقطاع و الراتب، فيعطيه ما يختاره، و لم يقطع فى هذا العرض إلا العاجز عن الحركة، فيرتّب له ما يقوم به عوضا عن إقطاعه.

و اتّفق للسلطان أشياء فى هذا العرض، منها: أنّه تقدّم إليه شاب تامّ الخلقة فى وجهه أثر يشبه ضربة السيف، فأعجبه و ناوله مثالا بإقطاع جيّد، و قال له: فى أىّ مصاف وقع فى وجهك هذا السيف؟ فقال يا خوند: هذا ما هو أثر سيف، و إنّما وقعت من سلّم فصار فى وجهى هذا الأثر، فتبسّم السلطان و تركه،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۵۳

فقال له الفخر ناظر الجيش: ما بقى يصلح له هذا الخبز، فقال الملك الناصر:

قد صدقنى و قال الحق، و قد أخذ رزقه، فلو قال: أصبت فى المصافّ الفلانى، من كان يكذّبه! فدعت الأمراء له و انصرف الشابّ بالإقطاع. و منها: أنّه تقدّم إليه رجل دميم الخلق و له إقطاع ثقيل، عبرته ثمانمائة دينار، فأعطاه مثالا و انصرف به، عبرته نصف ما كان فى يده، فعاد و قبّل الأرض، فسأله السلطان عن حاجته؟

فقال: اللّه يحفظ السلطان، فإنّه غلط فى حقّى، فإنّ إقطاعى كانت عبرته ثمانمائة دينار، و هذا عبرته أربعمائة دينار؛ فقال السلطان: بل الغلط كان فى إقطاعك الأول، فامض بما قسم اللّه لك؛ و أشياء من هذا النوع إلى أن انتهت تفرقة المثالات فى آخر المحرّم سنة ستّ عشرة و سبعمائة، فوقر منها نحو مائتى مثال.

ثم أخذ السلطان فى عرض مماليك الطّباق و وفّر جوامك عدّة منهم، ثم أفرد جهة قطيا للعاجزين من الأجناد، و قرّر لكلّ منهم ثلاثة آلاف [درهم] فى السنة.

ثم إن السلطان ارتجع ما كانت المماليك البرجيّة اشترته من أراضى الجيزة و غيرها.

و ارتجع السلطان أيضا ما كان لبيبرس و سلّار و برلغى و الجوكندار و غيرهم من الرّزق

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۵۴

و غيرها، و أضاف ذلك كلّه لخاصّ السلطان، و بالغ السلطان فى إقامة الحرمة فى أيّام العرض، و عرّف الأمير أرغون النائب و أكابر الأمراء أنّه من ردّ مثالا أو تضرّر أو شكا ضرب و حبس و قطع خبزه، و أنّ أحدا من الأمراء لا يتكلّم مع السلطان فى أمر جندىّ و لا مملوك، فلم يتجاسر أحد يخالف ما رسم به؛ و غبن فى هذا الرّوك أكثر الأجناد، فإنّهم أخذوا إقطاعا دون الإقطاع الذى كان معهم، و قصد الأمراء التحدث فى ذلك مع السلطان، فنهاهم أرغون النائب عن ذلك، فقدّر اللّه تعالى أنّ الملك الناصر نزل إلى بركة الحجيج لصيد الكركى على العادة، و جلس فى البستان المنصورىّ الذى كان هناك ليستريح، فدخل بعض المرقداريّة يقال له عزيز و كان من عادته يهزل قدّام السلطان ليضحكه، فأخذ المرقدار يهزل و يمزح و يتمسخر قدّام السلطان و الأمراء جلوس، و هناك ساقية فتمادى فى الهزل لشؤم بخته إلى أن قال:

وجدت جنديّا من جند الرّوك الناصرىّ و هو راكب إكديشا، و خرجه و مخلاته و رمحه على كتفه، و أراد أن يتم الكلام، فاشتدّ

غضب السلطان، فصاح فى المماليک: عرّوه ثيابه، ففى الحال خلعت عنه الثّياب، و ربط مع قواديس الساقية، و ضربت الأبقار حتى أسرعت فى الدوران، فصار عزيز المذكور تارة ينغمس فى الماء و تارة يظهر و هو يستغيث و قد عاين الموت، و السلطان يزداد غضبا و لم يجسر أحد من الأمراء أن يشفع فيه حتّى مضى نحو ساعتين و انقطع حسّه، فتقدّم الأمير طغاى الناصرىّ و الأمير قطلوبغا الفخرىّ الناصرىّ و قالا: ياخوند، هذا المسكين لم يرد إلّا أن يضحک

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج٩، ص: ۵۵

السلطان و يطيّب خاطره، و لم يرد غير ذلک، فما زالا به حتّى أخرج الرجل و قد أشفى على الموت، و رسم بنفيه من الديار المصريّة، فعند ذلک حمد اللّه تعالى الأمراء على سكوتهم و تركهم الشفاعة فى تغيير مثالات الأجناد. انتهى أمر الرّوک و ما يتعلّق به.

و فى محرّم سنة ستّ عشرة و سبعمائة ورد الخبر على السلطان بموت خربندا ملک التّتار و جلوس ولده بو سعيد فى الملک بعده. ثم أفرج الملک الناصر عن الأمير بكتمر الحسامىّ الحاجب و خلع عليه يوم الخميس ثالث عشر شوّال من السنة المذكورة بنيابة صفد، و أنعم عليه بمائتى ألف درهم. ثم نقل السلطان فى السنة أيضا الأمير كراى المنصورىّ و سنقر الكمالىّ الحاجب من سجن الكرک إلى البرج بقلعة الجبل فسجنا بها.

ثمّ بدا له زيارة القدس الشريف، و نزل السلطان بعد أيام فى يوم الخميس رابع جمادى الأولى من سنة سبع عشرة و سبعمائة، [و سار] و معه خمسون أميرا، و كريم الدين الكبير ناظر الخواصّ و فخر الدين ناظر الجيش، و علاء الدين [علىّ بن أحمد بن سعيد] بن الأثير كاتب السّرّ، بعد ما فرّق فى كلّ واحد فرسا مسرجا و هجينا، و بعضهم ثلاث هجن، و كتب إلى الأمير تنكز نائب الشام أن يلقاه بالإقامات لزيارة القدس، فتوجّه إلى القدس و زاره، ثم توجّه إلى الكرک و دخله و أفرج عن جماعة، ثم عاد إلى الديار المصريّة فدخلها فى رابع عشر جمادى الآخرة، فكانت غيبته عن مصر أربعين يوما.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج٩، ص: ۵۶

ثمّ بعد مجىء السلطان وصل إلى القاهرة الأمير علاء الدين مغلطاى الجمالى، و الأمير بهادر آص، و الأمير بيبرس الدّوادار، و هؤلاء الذين أفرج عنهم من حبس الكرک، و خلع السلطان عليهم و أنعم على بهادر بإمرة فى دمشق، و لزم بيبرس داره، ثم أنعم عليه بإمرة و تقدمة ألف على عادته أوّلا.

ثم عزل السلطان الأمير بكتمر الحسامىّ الحاجب عن نيابة صفد فى أوّل سنة ثمانى عشرة و سبعمائة و قدم القاهرة و أنعم عليه بإمرة مائة و تقدمة ألف بديار مصر.

و فى هذه السنة تجهّز السلطان لركوب الميدان، و فرّق الخيل على جميع الأمراء، و استجدّ ركوب الأوجاقية بكوافى زركش على صفة الطاسات و هم الجفتاوات. و فيها ابتدأ السلطان بهدم المطبخ و هدم الحوائج خاناه و الطشتخاناه و جامع القلعة القديم، و أخلط الجميع و بناه الجامع الناصرى الذى هو بالقلعة الآن فجاء من أحسن المبانى. و تجدّد

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج٩، ص: ۵۷

أيضا فى هذه السنة بدمشق ثلاثة جوامع: جامع الأمير تنكز المشهور به، و جامع كريم الدين، و جامع شمس الدين غبريال. ثم حجّ فى هذه السنة أمير الحاج الأمير مغلطاى الجمالىّ، و قبض بمكة على الشريف رميثة، و فرّ حميضة و قدم مغلطاى المذكور برميثة مقيّدا إلى القاهرة.

و فى سنة تسع عشرة و سبعمائة استجدّ السلطان القيام فوق الكرسىّ للأمير جمال الدين آقوش الأشرفىّ نائب الكرک الذى أفرج عنه السلطان فى السنة الماضية، و كذلک للأمير بكتمر البوبكرىّ السّلاح دار، فكانا إذا دخلا عليه قام لهما، و كان آقوش نائب الكرک يتقدّم على البوبكرى عند تقبيل يد السلطان، فعتب الأمراء على البوبكرى فى ذلک، فسأل البوبكرىّ السلطان عن تقديم نائب الكرک عليه، فقال:

لأنه أكبر منك فى المنزلة، فاستغرب الأمراء ذلك و كشفوا عنه، فوجدوا نائب الكرك تأمّر فى أيام الملك المنصور قلاوون [إمرة] عشرة، و جعله أستادار ابنه الأشرف خليل فى سنة خمس و ثمانين و ستمائة، و وجدوا البوبكرىّ تأمّر فى سنة تسعين و ستمائة فسكتوا الأمراء عند ذلك، و علموا أنّ السلطان يسير على القواعد القديمة و أنه أعرف منهم بمنازل الأمراء و غيرها.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۵۸

و فيها اهتمّ السلطان لحركة السفر إلى الحجاز الشريف، و تقدّم كريم الدين الكبير ناظر الخواصّ إلى الإسكندرية لعمل الثّياب الحرير برسم كسوة الكعبة، و بينا السلطان فى ذلك وصلت تقدمة الأمير تنكز نائب الشام، و فيها الخيل و الهجن بأكوار ذهب و سلاسل ذهب و فضّة و مقاود حرير، و كانت عدّة كثيرة يطول الشرح فى ذكرها. ثم أيضا وصلت تقدمة الملك المؤيّد عماد الدين إسماعيل صاحب حماة، و هى أيضا تشتمل على أشياء كثيرة، و تولّى كريم الدين تجهيز ما يحتاج إليه السلطان من كلّ شيء حتى إنه عمل له عدّة قدور من ذهب و فضّة [و نحاس] تحمل على البخاتىّ و يطبخ فيها للسلطان، و أحضر الخولة لعمل مباقل و رياحين فى أحواض خشب تحمل على الجمال فتسير مزروعة فيها و تسقى بالماء، و يحصد منها ما تدعو الحاجة إليه أوّلا بأوّل، فتهيأ من البقل و الكرّاث و الكسبرة و النعناع و أنواع المشمومات و الرّيحان شيء كثير، و رتّب لها الخولة لتعاهدها بالسقية و غيرها، و جهّزت الأفران و صنّاع الكماج و الجبن المقلى و غيره. و كتبت أوراق عليق السلطان و الأمراء الذين معه و عدّتهم اثنان و خمسون أميرا، لكل أمير ما بين مائة عليقة، [فى كل يوم] إلى خمسين عليقة إلى عشرين عليقة، و كانت جملة العليق فى مدّة سفر السلطان ذهابا و إيابا مائة ألف اردبّ و ثلاثين ألف إردب [من الشعير] و حمل تنكز من دمشق خمسمائة حمل على الجمال ما بين حلوى و سكر و فواكه و مائة و ثمانين حمل حبّ رمّان و لوز، و ما يحتاج إليه من أصناف الطبخ، و جهّز كريم الدين الكبير من الإوزّ ألف طائر، و من الدّجاج ثلاثة آلاف طائر، و أشياء كثيرة من ذلك.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۵۹

و عيّن السلطان للإقامة بديار مصر الأمير أرغون الناصرىّ النائب و معه الأمير أيتمش المحمّدىّ و غيره. ثم قدم الملك المؤيّد صاحب حماة إلى القاهرة ليتوجّه فى ركاب السلطان إلى الحجاز، و سافر المحمل على العادة فى ثامن عشر شوّال مع الأمير سيف الدين طرجى أمير مجلس، و ركب السلطان من قلعة الجبل فى أوّل ذى القعدة، و سار من بركة الحجّاج فى سادس ذى القعدة و صحبته المؤيد صاحب حماة و الأمراء و قاضى القضاة بدر الدين بن جماعة الشافعىّ و غالب أرباب الدولة، و سار حتى وصل مكة المشرّفة بتواضع زائد بحيث إنّ السلطان قال للأمير جنكلى بن البابا: لا زلت أعظّم نفسى إلى أن رأيت الكعبة المشرّفة و ذكرت بوس الناس الأرض لى، فدخلت فى قلبى مهابة عظيمة ما زالت عنى حتى سجدت للّه تعالى. و كان السلطان لما دخل مكة حسّن له قاضى القضاة بدر الدين بن جماعة أن يطوف بالبيت راكبا كما فعل النّبىّ صلى اللّه عليه و سلم، فقال له الملك الناصر: و من أنا! حتى أتشبّه بالنبىّ صلى اللّه عليه و سلم، و اللّه لا طفت إلا كما يطوف الناس! و منع الحجّاب من منع الناس أن يطوفوا معه، و صاروا يزاحمونه و هو يزاحمهم كواحد منهم فى مدّة طوافه، و فى تقبيله الحجر الأسود.

قلت: و هذه حجّة الملك الناصر الثانية. و لما كان الملك الناصر بمكّة بلغه أن جماعة من المغل ممّن حجّ فى هذه السنة قد اختفى خوفا منه فأحضرهم السلطان و أنعم عليهم و بالغ فى إكرامهم. و غسل السلطان الكعبة بيده و صار يأخذ أزر إحرام الحجّاج و يغسلها لهم فى داخل البيت بنفسه، ثم يدفعها لهم، و كثر الدعاء له. و أبطل سائر المكوس من الحرمين الشريفين، و عوّض أميرى مكة و المدينة عنها إقطاعات بمصر و الشام، و أحسن إلى أهل الحرمين، و أكثر من الصدقات.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۶۰

و فى هذه السنة مهّد السلطان ما كان فى عقبة أيلة من الصخور، و وسّع طريقها، حتى أمكن سلوكها بغير مشقّة، و أنفق على ذلك جملا مستكثرة، و اتفق لكريم الدين الكبير ناظر الخاصة أمر غريب بمكة فيه موعظة، و هو أنّ السلطان بالغ فى تواضعه فى هذه الحجّة

للغاية، فلما أخرجت الكسوة لتعمل على البيت صعد كريم الدين المذكور إلى أعلى الكعبة بعد ما صلّى بجوفها، ثم جلس على العتبة ينظر فى الخيّاطين، فأنكر الناس استعلاءه على الطائفين، فبعث اللّه عليه و هو جالس نعاسا سقط منه على رأسه من علو البيت فلو لم يتداركوه من تحته لهلك، و صرخ الناس فى الطواف صرخة عظيمة تعجّبا من ظهور قدرة اللّه تعالى فى إذلال المتكبرين! و انقطع ظفر كريم الدين و علم بذنبه فتصدّق بمال جزيل.

و فى هذه السّفرة أيضا أجرى السلطان الماء لخليص و كان انقطع من مدّة سنين، و لقى السلطان فى هذه السّفرة جميع العربان و ملوكها من بنى مهدىّ و أمرائها و شطى و أخاه عسّافا و أولاده و أشراف مكة من الأمراء و غيرهم، و أشراف المدينة و ينبع و غيرهم، و عرب خليص و بنى لأم و عربان حوران و أولاد مهنّا: موسى و سليمان و فيّاضا و أحمد و غيرهم، و لم يتفق اجتماعهم عند ملك غيره، و أنعم عليهم بإقطاعات و صلات و تدلّلوا على السلطان، حتى إنّ موسى بن مهنّا كان له ولد صغير فقام فى بعض

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۶۱

الأيام و مدّ يده إلى لحية السلطان و قال له: يا أبا علىّ بحياة هذه اللّحية و مسك منها شعرات إلّا ما أعطيتنى الضّيعة الفلانية إنعاما علىّ، فصرخ فيه فخر الدين ناظر الجيش و قال له:

شل يدك، قطع اللّه يدك! تمدّ يدك إلى السلطان، فتبسّم له السلطان و قال: هذه عادة العرب، إذا قصدوا كبيرا فى شىء فيكون عظمته عندهم مسك لحيته، يريد أنه استجار بذلك المسّ، فهو سنّة عندهم؛ فغضب الفخر ناظر الجيش و قام و هو يقول: إنّ هؤلاء مناحيس و سنّتهم أنحس. ثم عاد السلطان بعد أن قضى مناسكه إلى جهة الديار المصرية فى يوم السبت ثانى عشر المحرّم سنة عشرين و سبعمائة بعد أن خرج الأمراء إلى لقائه ببركة الحجّاج، و ركب السلطان بعد انقضاء السّماط فى موكب عظيم، و قد خرج الناس لرؤيته و سار حتى طلع القلعة، فكان يوما مشهودا، و زيّنت القاهرة و مصر زينة عظيمة لقدومه، و كثرت التهانى و أرباب الملاهى من الطبول و الزمور، و جلس السلطان على تخت الملك و خلع على الأمراء و ألبس كريم الدين الكبير أطلسين، و لم يتّفق ذلك لمتعمّم قبله. ثم خلع السلطان على الملك المؤيد إسماعيل صاحب حماة و أركبه بشعار السلطنة من المدرسة المنصورية ببين القصرين، و حمل وراءه الأمير قجليس السّلاح دار السّلاح، و حمل الأمير ألجاى الدّوادار الدواة، و ركب معه الأمير بيبرس الأحمدى أمير جاندار و الأمير طيبرس، و سار بالغاشية و العصائب و سائر دست السلطنة و هم بالخلع معه إلى أن طلع إلى القلعة، فكان عدّة تشاريف من سار معه مائة و ثلاثين تشريفا فيها ثلاثة عشر أطلس و البقية كنجى و عمل الدار و طرد وحش، و قبّل الأرض و جلس على ميمنة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۶۲

السلطان و لقّبه السلطان بالملك المؤيّد و سافر من يومه بعد ما جهّزه السلطان بسائر ما يحتاج إليه. ثم أفرج السلطان عن جماعة من الأمراء المحبوسين، و عدّتهم ازيد من عشرة نفر. ثم ندب السلطان الأمير بيبرس الأحمدى الحاجب و طائفة من الأجناد إلى مكة ليقيم بها بدل الأمير آق سنقر شادّ العمائر خوفا من هجوم الشريف حميضة على مكّة.

و فى هذه السنة أبطل السلطان مكس الملح بالقاهرة و أعمالها فأبيع الإردبّ الملح بثلاثة دراهم بعد ما كان بعشرة دراهم. ثمّ أذن السلطان للأمير أرغون النائب فى الحجّ فحجّ، و عاد فى سنة إحدى و عشرين بعد أن مشى من مكّة إلى عرفات على قدميه تواضعا. ثم أخرج السلطان الأمير شرف الدين حسين بن جندر إلى الشام على إقطاع الأمير جوبان، و نقل جوبان على إمرة بديار مصر. و سبب نفى الأمير حسين أنّه لمّا أنشأ جامعه المعروف بجامع أمير حسين بجوار داره على الخليج

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة؛ ج۹؛ ص۶۳

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۶۳

فى البرّ الغربىّ بحكر جوهر النّوبى. ثم عمّر القنطرة و أراد أن يفتح فى سور القاهرة خوخة تنتهى إلى حارة الوزيريّة، فأذن له السلطان فى فتحها، فخرق بابا كبيرا و عمل عليه رنكه، فسعى به علم الدين سنجر الخيّاط متولّى القاهرة، و عظم الأمر على السلطان فى فتح هذا

الباب المذكور، فرسم بنفيه فى سنة إحدى و عشرين و سبعمائة المذكورة.

و فيها وقع الحريق بالقاهرة [و مصر] فابتدأ من يوم السبت خامس عشر جمادى الأولى و تواتر إلى سلخه، و كان ممّا احترق فيه الرّبع الذى بالشّوّايين من أوقاف

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۶۴

البيمارستان المنصورىّ و اجتهد الأمراء فى طفيه، فوقع الحريق فى حارة الدّيلم قريبا من دار كريم الدين الكبير، و دخل اللّيل و اشتدّ هبوب الرياح فسرت النار فى عدّة أماكن، و بعث كريم الدين ابنه عبد اللّه للسلطان فعرّفه، فبعث السلطان لإطفائه عدّة كثيرة من الأمراء و المماليك خوفا على الحواصل السلطانية، فتعاظم الأمر و عجز آق سنقر شاد العمائر، و النار تعمل طول نهار الأحد، و خرج النساء مسبّيات و بات الناس على ذلك، و أصبحوا يوم الاثنين و النار تلفّ ما تمرّ به، و الهدم واقع فى الدور المجاورة للحريق. و خرج أمر الحريق عن القدرة البشريّة، و خرجت ريح عاصفة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۶۵

ألقت النخيل و غرّقت المراكب و نشرت النار، فما شكّ الناس [فى] أنّ القيامة قد قامت، و عظم شرر النّيران و صارت تسقط الأماكن البعيدة، فخرج الناس و تعلّقوا بالموادن و اجتمعوا فى الجوامع و الزوايا و ضجّوا بالدعاء و التضرّع إلى اللّه تعالى، و صعد السلطان إلى أعلى القصر فهاله ما شاهده، و أصبح الناس فى يوم الثلاثاء، فى أسوإ حال، فنزل أرغون النائب بسائر الأمراء و جميع من فى القلعة، و جمع أهل القاهرة و نقل الماء على جمال الأمراء، ثم لحقه الأمير بكتمر الساقى بالجمال السلطانية، و منعت أبواب القاهرة ألّا يخرج منها سقّاء، و نقلت المياه من المدارس و الحمّامات و الآبار، و جمعت سائر البنّائين و النجّارين فهدمت الدور من أسفلها، و النار تحرق فى سقوفها و عمل الأمراء الألوف، و عدّتهم أربعة و عشرون أميرا بأنفسهم فى طفى الحريق و معهم مضافوهم من أمراء الطبلخاناه و العشرات، و تناولوا الماء بالقرب من السّقائين بحيث صار من باب زويلة إلى حارة الروم بحرا، فكان يوما لم ير أشنع منه، بحيث إنه لم يبق أحد إلا و هو فى شغل، و وقف الأمير أرغون النائب و بكتمر الساقى حتى نقلت الحواصل السلطانية من بيت كريم الدين ناظر الخاص إلى بيت

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۶۶

ولده علم الدين عبد اللّه بدرب الرصاصى، و هدم لأجل نقل الحواصل سبع عشرة دارا، و خمدت النار و عاد الأمراء؛ فوقع الصّياح فى ليلة الأربعاء بحريق آخر وقع بربع الملك الظاهر بيبرس خارج باب زويلة و بقيساريّة الفقراء، و هبّت الرياح مع ذلك فركبت الحجّاب و الوالى فعملوا فى طفيها عملا إلى بعد ظهر يوم الأربعاء، و هدموا دورا كثيرة، فما كاد أن تفرغ الأمراء من إطفاء ربع الملك الظاهر، حتى وقعت النار فى بيت الأمير سلّار بخطّ بين القصرين، و إذا بالنار ابتدأت من

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۶۷

أصل البادهنج و كان ارتفاعه من الأرض زيادة على مائة ذراع بذراع العمل، و رأوا فيه نفطا قد عمل فيه فتيلة كبيرة، فما زالوا بالنار حتى أطفئت من غير أن يكون لها أثر كبير. فنودى أن يعمل بجانب كلّ حانوت بالقاهرة و مصر زير أودنّ كبير ملآن ماء.

ثم فى ليلة الخميس وقع الحريق بحارة الروم و بموضع آخر خارج القاهرة، و تمادّى الحال على ذلك لا يخلو وقوع الحريق بالقاهرة و مصر، فشاع بين الناس أنّ الحريق من جهة النصارى لمّا أبكاهم هدم الكنائس. ثم وقع الحريق فى عدّة مساجد و جوامع و دور، إلى أن كان ليلة الجمعة حادى عشرينه قبض على راهبين خرجا من المدرسة الكهاريّة بالقاهرة و قد أرميا النار بها، فأحضرا إلى الأمير علم الدين سنجر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۶۸

والى القاهرة و شمّ منهما رائحة الكبريت و الزّيت، فأحضرهما من الغد إلى السلطان فأمر بعقوبتهما حتى يعترفا، فلما نزل بهما وجد

العامـة قـد قبضت على نصـرانىّ، و هو خارج و الأثر فى يديه من جامع الظاهر بالحسـينيّة و معه كعكة خروق و بها نفط و قطران، و قد وضـعها بجانب المنبر، فلما فاح الدّخان أنكروا و وجدوا النّصـرانىّ و هو خارج و الأثر فى يديه كما ذكر فعوقب قبل صاحبيه، فاعترف أنّ جماعـة من النصارى قـد اجتمعوا و عملوا النّفط و فرّقوه على جماعـة ليدوروا به على المواضع، ثم عاقب الراهبين فاعترفا بأنهما من دير البغل و أنهما اللذان أحرقا سائر الأماكن نكاية للمسلمين بسبب هدم الكنائس، و كان أمرهم أنهم عملوا النّفط و حشوه فى فتائل و عملوها فى سـهام و رموا بها، فكانت الفتيلة إذا خرجت من السـهم تقع على مسافة مائة ذراع أو أكثر، فأمر السـلطان كريم الدين الكبير يطلب البترك فطلبه و بالغ فى إكرامه على عادة القبطيـة، و أعلمه كريم الـدين بما وقع فبكى، و قال: هؤلاء سـفهاء، قد عملوا كما فعل سفهاؤكم بالكنـائس من غير إذن السـلطان، و الحكم للسـلطان، ثم ركب بغلـة و توجّه إلى حـال سبيله، فكـادت الناس أن تقتله، لو لا حمايـة المماليك له، ثم ركب كريم الـدين من الغـد إلى القلعـة، فصاحت عليه العوامّ و أسـمعته ما يكره، فلما طلع كريم الدين عرّف السـلطان بمقالة البترك و اعتنى به، و كان النصارى أقرّوا على أربعة عشـر راهبا بدير البغل، فقبض عليهم و عملت حفيرة كبيرة بشارع الصـليبة و أحرق فيها أربعة منهم فى يوم الجمعة، و اشـتدّت العامّة عند ذلك على النصارى، و أهانوهم و سلبوهم ثيابهم و ألقوهم عن الـدوابّ إلى الأرض. و ركب السـلطان إلى الميـدان فى يوم السـبت و قـد اجتمع عالم عظيم، و صاحوا: نصـر اللّه الإسـلام، انصـر دين محمد بن عبد اللّه،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۶۹

فلما اسـتقرّ السـلطان بالميدان أحضـر والى القاهرة نصـرانيين قد قبض عليهما فأحرقا خارج الميدان، و خرج كريم الدين من الميدان و عليه التشريف، فصاحت به العامّة:

كم تحامى للنصارى! و سبّوه و رموه بالحجارة، فعاد إلى الميدان، فشقّ ذلك على السـلطان، و اسـتشار السـلطان الأمراء فى أمر العامّة، فأشـار عليه الأـمير جمـال الـدين آقوش نـائب الكرك بعزل الكتّاب النصارى، فإنّ الناس قـد أبغضوهم، فلم يرضه ذلك، و تقـدّم إلى ألماس الحاجب أن يخرج فى أربعة أمراء و يضع السيف فى العامّة حتى ينتهى إلى باب زويلة، و يمرّ كذلك إلى باب النصر و لا يرفع السـيف عن أحـد، و أمر والى القاهرة أن يتوجه إلى باب اللّوق و باب البحر و يقبض على من وجـده من العامّـة و يحمله إلى القلعة، و عيّن لذلك أيضا عدّة مماليك فخرجوا من الميدان، فبادر كريم الدين و سأل السـلطان العفو فقبل شفاعته، و رسم بالقبض على العامّة من غير قتلهم، و كان الخبر بلغ العامّة ففرّت العامّة حتى الغلمان و صار الأمير لا يجد من يركّبه، و انتشر ذلك فغلقّت الأسواق بالقاهرة فكـانت ساعـة لم يمرّ بالنـاس أبشع منهـا، و هى من هفوات الملـك الناصـر. و مرّ الوالى بباب اللّوق و بولاق و باب البحر و قبض على كثير من الكلابزيّة و أراذل العامّـة بحيث إنه صـار كـلّ من رآه أخـذه، و جفل الناس من الخوف و عـدّوا فى المراكب إلى برّ الجيزة. فلمّا عاد السـلطان إلى القلعـة لم يجـد أحـدا فى طريقه، و أحضـر إليه الوالى من قبض عليه، و هم نحو المائتين فرسم السـلطان بجماعة منهم للصّلب، و أفرد جماعة للشّنق، و جماعة للتوسيط، و جماعة لقطع الأيدى، فصاحوا:

ياخونـد، مـا يحلّ لـك، مـا نحن الغرمـاء فرقّ لهم بكتمر الساقى و قام و معه الأمراء، و ما زالوا به حتى أمر بصـلب جماعـة منهم على الخشب من باب زويلة إلى قلعة الجبل، و أن يعلّقوا بأيديهم، ففعل بهم ذلك و أصبحوا يوم الأحد صفّا واحدا من باب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۷۰

زريلـة إلى تحت القلعـة، فتوجّع لهم الناس و كان منهم كثير من بياض الناس و لم تفتـح القاهرة، و خاف كريم الـدين على نفسه و لم يسـلك من باب زويلـة و طلع القلعـة من خارج السّور، و إذا بالسـلطان قـد قدّم الكلابزية و أخذ فى قطع أيديهم، فكشف كريم الدين رأسه و قبّل الأرض و باس رجل السـلطان و سأل السـلطان العفو عن هؤلاء، فأجابه بمساعـدة الأمير بكتمر، و أمر بهم فقيّدوا و أخرجوا للعمل فى الحفر بالجيزة، و مات ممن قطع [يده] رجلان و أمر بحفظ من علّق على الخشب.

و فى الحال وقع الصوت بحريق أماكن بجوار جامع أحـد ابن طولون و بوقوع الحريق فى القلعـة و فى بيت بيبرس الأحمدىّ بحارة بهاء

الـدين قراقوش و بفندق طرنطاى خارج باب البحر فدهش السـلطان، و كان هذا الفندق برسم تجّار الزّيت فعمّت النار كلّ ما فيه، حتى العمـد الرّخـام و كانت سـتة عشـر عمودا، طول كلّ عمود ست أذرع بالعمل، و دوره نحو ذراعين فصارت كلّها جيرا، و تلف فيه لتاجر واحـد مـا قيمته تسـعون ألف درهم، و قبض فيه على ثلاثـة نصارى و معهم فتائل النّفط اعترفوا أنهم فعلوا ذلك. فلمّا كان يوم السـبت تـاسع عشـرين جمادى الأولى المـذكور ركب السـلطان إلى الميـدان فوجـد نحو العشـرين ألفا من العامّـة فى طريقه قـد صـبغوا خروقا بالأزرق و الأصفر و عملوا فى الأزرق صلبانا بيضاء و رفعوها

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۷۱

على الجريد و صاحوا عليه صـيحة واحدة: لا دين إلّا دين الإسلام، نصر اللّه دين محمد بن عبد اللّه، يا ملك الناصر يا سلطان الإسلام، انصـرنا على أهل الكفر و لا تنصـر النصارى، فخشع السـلطان و الأمراء و توجه إلى الميـدان و قـد اشـتغل سـرّه، و ركبت العامـة أسوار الميـدان و رفعوا الخروق الزّرق و هم يصـيحون لاـ دين إلاـ دين الإسـلام، فخـاف السـلطان الفتنـة و رجع إلى مـداراتهم و تقـدّم إلى الحاجب أن يخرج فينادى من وجد نصـرانيا فدمه و ماله حلال، فلما سـمعوا النّداء صرخوا صوتا واحدا: نصرك اللّه، فارتجّت الأرض. ثم نودى عقيب ذلك [بالقاهرة و مصـر] من وجـد نصـرانيا بعمامـة بيضاء حلّ دمه، و كتب مرسوم بلبس النصارى العمائم الزّرق، و ألّا يركبوا فرسا و لا بغلا و لا يـدخلوا الحمّام إلا بجرس فى أعناقهم، و لا يتزيّوا بزىّ المسـلمين، هم و نساؤهم و أولادهم، و رسم للأمراء بإخراج النصارى من دواوينهم و دواوين السلطان، و كتب بذلك إلى سائر الأعمال.

و غلّقت الكنائس و الأديرة و تجرّأت العامّة على النصارى حيث وجدوهم ضـربوهم و عرّوهم، فلم يتجاسـر نصرانىّ أن يخرج من بيته، فكـان النصـرانىّ إذا عنّ له أمر يتزيّا بزىّ اليهود فيلبس عمامـة صـفراء يكتريهـا من يهودىّ ليخرج فى حـاجته. و اتفق أنّ بعض كتّاب النصارى حضـر إلى يهودىّ له عليه مبلغ كبير ليأخذ منه شيئا، فأمسكه اليهودىّ و صاح: أنا بالله و بالمسلمين، فخاف النصرانى و قال له: أبرأت ذمّتك و كتب له خطه بالبراءة و فرّ. و احتاج عدّة من النصارى إلى إظهارهم الإسـلام، فأسـلم السّنّى [ابن ست بهجة] الكاتب و غيره، و اعترف بعضهم على راهب دير

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۷۲

الخندق أنه كان ينفق المال فى عمل النّفط للحريق و معه أربعة، فأخذوا و سـمّروا و انبسـطت عند ذلك ألسـنة الأمراء فى كريم الدين أكرم الصـغير، و حصـلت مفاوضة بين الأمير قطلوبغا الفخرىّ و بين بكتمر الساقى بسبب كريم الدين [الكبير]، لأن بكتمر كان يعتنى به و بالدواوين، و كان الفخرىّ يضع منه.

قلت: و لأجل هذا راح كريم الدين من الدنيا على أقبح وجه! و أخرب اللّه دياره بعد ذلك بقليل.

و اسـتمرّ الفخرىّ على رتبته بعد سـنين عديدة. قال: و صار مع كلّ من الأميرين جماعة و بلغ السـلطان ذلك، و أنّ الأمراء تترقّب وقوع فتنة، و صار السلطان إذا ركب إلى الميدان لا يرى فى طريقه أحدا من العامّة لكثرة خوفهم أن يبطش السلطان بهم فلم يعجبه ذلك، و نادى بحروج الناس للفرجـة على الميـدان و لهم الأمان و الاطمئنان فخرجوا على عادتهم. ثم وقع الحريق بالقاهرة و اشـتدّ أمره إلى أن طفئ، و سافر كريم الذين الكبير إلى الإسكندرية و شدّد على النصارى فى لبسهم

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۷۳

و ركوبهم حتى يتقرّب بـذلك إلى خواطر العامّة. ثم تنكّرت المماليك السـلطانية على كريم الدين الكبير لتأخّر جوامكهم شـهرين، و تجمّعوا يوم الخميس ثـامن عشـرين صـفر قبل الظهر و وقفوا بباب القصـر، و كان السـلطان فى الحريم، فلمّا بلغه ذلك خشـى منهم، و بعث إليهم بكتمر السـاقى فلم يلفتوا إليه، فخرج السـلطان إليهم و قـد صـاروا نحو ألف و خمسـمائة، فعنـد مـا رآهم السـلطان سبّهم و أهانهم و أخذ العصاة من مقدّم المماليك و ضـرب بها رءوسهم و أكتافهم، و صاح فيهم: اطلعوا مكانكم فعادوا بأجمعهم إلى الطّباق، و عدّت سلامة السلطان فى هذه الواقعة من العجائب، فإنّه خرج إليهم فى جماعة يسيرة من الخدّام، و هم غوغاء لا رأس لهم و لا عقل

و معهم السّلاح. انتهى.

ثمّ أمر السلطان للنائب بعرضهم (أعنى المماليك) فعرضهم فى يوم السبت آخر صفر و أخرج منهم مائة و ثمانين إلى البلاد الشاميّة فرّقهم على الأمراء، و أخرج بعد ذلك جماعة منهم من الطّباق إلى خرائب التتار بقلعة الجبل، و ضرب بعضهم بالمقارع هو و غلامه لكونه شرب الخمر ضربا مبرّحا مات منه المملوك بعد يومين.

قلت: لا شلّت يداه، هذا و أبيك العمل! ثم أنقص السلطان جوامك من بقى من مماليك الطّباق، ثم أخرج جماعة من خدّام الطّباق الطواشيّة (أعنى مقدّمى الطّباق) و قطع جوامكهم و أنزلهم من القلعة لكونهم فرّطوا فى تربية المماليك.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۷۴

ثم غيّر السلطان موضع دار العدل التى أنشأها الملك الظاهر بيبرس و هدمها و جعلها موضع الطبلخاناه الآن، و ذلك فى شهر رمضان سنة اثنتين و عشرين و سبعمائة، و لمّا هدم الموضع المذكور وجد فى أساسه أربعة قبور، فنبشت فوجد بها رمم أناس طوال عراض و أحدها مغطّاة بملاءة ديبقىّ ملوّنة، إذا مسّ منها شىء تطاير لطول مكثه، و عليهم عدّة القتال و بهم جراحات، و فى وجه أحدهم ضربة سيف بين عينيه عليها قطن، فعندما رفع القطن نبع الدّم من تحته و شوهد الجرح كأنّه جديد، فنقلوا إلى بين العروستين و جعل عليهم مسجد.

و فى شعبان زوّج الملك الناصر ابنته للأمير أبى بكر بن أرغون النائب الناصرىّ، و تولّى العقد قاضى القضاة شمس الدين محمد بن الحريرىّ الحنفىّ على أربعة آلاف دينار. ثم قدم الملك المؤيّد صاحب حماة على السلطان بالديار المصريّة و توجّه فى خدمة الملك الناصر إلى قوص بالوجه القبلىّ للصيد، و عاد السلطان من قوص إلى جهة القاهرة فى أوّل محرّم سنة ثلاث و عشرين و سبعمائة الموافق لرابع عشر طوبة، و نزل بالجيزة، و خلع على الملك المؤيّد خلعة السفر. ثم استدعى السلطان الحريم السلطانىّ إلى برّ الجيزة، فطرد سائر الناس من الطّرقات، و غلّقت الحوانيت، و نزلت خوند طغاى زوجة السلطان و أمّ ولده آنوك، و الأمير أيدعمش الأمير آخور كبير

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۷۵

ماش يقود عنان فرسها بيده و حولها سائر الخدّام مشاة منذ ركبت من القلعة إلى أن وصلت إلى النيل فعدّت فى الحرّاقة. ثم استدعى السلطان الأمير بكتمر الساقى و غيره من الأمراء الخاصّكيّة و حريمهم و أقام السلطان بالجيزة أيّاما إلى أن عاد إلى القلعة فى خامس عشره، و قد توعك كريم الدين الكبير. ثم قدم الحاجّ فى سادس عشرين المحرّم. ثم عوفى كريم الدين فخلع السلطان عليه خلعة أطلس بطرز زركش و كلفتاة زركش و حياصة ذهب فاستعظم الناس ذلك، و بالغ السلطان فى الإنعام على الحكماء. ثم بعد أيام قبض السلطان على كريم الدين المذكور فى يوم الخميس رابع عشر شهر ربيع الآخر. و هو كريم الدين عبد الكريم ابن المعلّم هبة اللّه بن السّديد ناظر الخواصّ و وكيل السلطان و عظيم دولته، و أحيط بداره و صودر فوجد له شىء كثير جدّا، و لا زال فى المصادرة إلى أن أفرج عنه فى يوم الأربعاء رابع عشرين جمادى الآخرة، و ألزمه السلطان بإقامته بتربته بالقرافة. ثم إنّ السلطان أخرجه إلى الشّوبك ثم نقله إلى القدس ثم طلب إلى مصر و جهّز إلى أسوان، و بعد قليل أصبح مشنوقا بعمامته (يعنى أنه شنق نفسه)، و ليس الأمر كذلك؛ و قيل إنه لما أحسّ بقتله صلّى ركعتين و قال: هاتوا عشنا سعداء و متنا شهداء، و كان الناس يقولون: ما عمل أحد مع أحد ما عمله الملك الناصر مع كريم الدين أعطاه الدنيا و الآخرة، و معنى هذا أنّه كان حكّمه فى الدولة، ثم قتله، و المقتول ظلما فى الجنة. و أصل كريم الدين هذا كان من كتبة النصارى ثم أسلم كهلا فى أيّام بيبرس الجاشنكير، و كان كاتبه، و كان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۷۶

الجاشنكير لا يصرف على الملك الناصر إلّا بقلم كريم الدين، و كان الناصر إذ ذاك تحت حجر الجاشنكير؛ و لمّا قتل بيبرس الجاشنكير اختفى كريم الدين هذا مدّة ثم طلع مع الأمير طغاى [الكبير] فأوقفه طغاى ثم دخل إلى السلطان و هو يضحك، و قال له:

إن حضر كريم الدين إيش تعطينى؟ ففرح السلطان و قال: أعندك هو؟

أحضره، فخرج و أحضره و قال له: مهما قال لك قل له: السمع و الطاعة، و دعنى أدبّر أمرك، فلمّا مثل بين يدى السلطان قال له بعد أن استشاط غضبا: اخرج و احمل ألف ألف دينار، فقال: نعم، و أراد الخروج، فقال له السلطان: لا، كثير، احمل خمسمائة ألف دينار فقال له: كما قال أوّلا، و لا زال السلطان ينقصه من نفسه إلى أن ألزمه بمائة ألف دينار، فلمّا خرج على أن يحمل ذلك، قال له طغاى المذكور: لا تصقع ذقنك و تحضر الجميع الآن، و لكن هات منها عشرة آلاف دينار ففعل ذلك، و دخل بها إلى السلطان و صار يأتيه بالنقدة من ثلاثة آلاف دينار إلى ما دونها، و لما بقى عليه بعضها أخذ طغاى و القاضى فخر الدين ناظر الجيش فى إصلاح أمره، و لا زالا بالسلطان حتّى أنعم عليه بما بقى، و استخدمه ناظر الخاص، و هو أوّل من باشر هذه الوظيفة بتجمّل و لم تكن تعرف أولا، ثم تقدّم عند السلطان حتى صار أعزّ الناس عليه، و حجّ مع خوند طغاى زوجة السلطان بتجمّل زائد، ذكرناه فى ترجمته فى المنهل الصافى، و كان يخدم كلّ أحد من الأمراء الكبار المشايخ و الخاصّكيّة و أرباب الوظائف و الجمدارية الصّغار و كلّ أحد حتى الأوجاقيّة، و كان يركب فى خدمته سبعون مملوكا بكنابيش عمل الدار و طرز ذهب و الأمراء تركب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۷۷

فى خدمته. و من جملة ما ناله من السعادة و الوجاهة عند الملك الناصر أنّه مرّة طلبه السلطان إلى الدور، فدخل عليه و بقيت خازندارة خوند طغاى تروح إليه و تجىء مرّات فيما تطلبه خوند طغاى من كريم الدين هذا و طال الأمر، فقال السلطان [له]:

يا قاضى إيش حاجة لهذا التطويل، بنتك ما تختبئ منك! ادخل إليها أبصر ما تريده افعله لها، فقام كريم الدين دخل إليها، و قال لها السلطان: أبوك هنا أبصرى له ما يأكل؛ فأخرجت له طعاما و قام السلطان إلى كرمة فى الدار و قطع منها عنبا و أحضره بيده و هو ينفخه من الغبار، و قال: يا قاضى كل من عنب دارنا. و هذا شىء لم يقع لأحد غيره مثله مع الملك الناصر و أشياء كثيرة من ذلك. و كان حسن الإسلام كريم النّفس؛ قيل إنه كان فى كلّ قليل يحاسب صيرفيه فيجد فى الوصولات و صولات زور. ثم بعد حين وقع بالمزوّر فقال له: ما حملك على هذا؟ فقال:

الحاجة، فأطلقه، و قال [له]: كلما احتجت إلى شىء اكتب به خطّك على عادتك على هذا الصّيرفى و لكن ارفق، فإنّ علينا كلفا كثيرة. و كان إذا قال: نعم، كانت نعم، و إذا قال: لا، فهى لا. و لما قبض السلطان عليه خلع على الأمير آقوش نائب الكرك باستقراره فى نظر البيمارستان المنصورىّ عوضا عن كريم الدين المذكور. فوجد آقوش حاصله أربعمائة ألف درهم.

ثم أمر السلطان فنودى فى يوم الأربعاء سادس المحرّم سنة أربع و عشرين و سبعمائة على الفلوس أن يتعامل الناس بها بالرّطل، على أنّ كل رطل منها بدرهمين، و رسم بضرب فلوس زنة الفلس منها درهم [و ثمن]، فضرب منها نحو مائتى ألف درهم فرقت على الناس. ثم رسم السلطان بأن يكتب له كل يوم أوراق بالحاصل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۷۸

من تعلّقات السلطنة و المصروف منها فى كل يوم، فصارت تعرض عليه كل يوم و يباشر ذلك بنفسه فتوفّر مال كثير و شقّ ذلك على الدواوين.

ثم سافر السلطان إلى الوجه القبلى للصيد و عاد فى ثالث عشر المحرّم سنة خمس و عشرين و سبعمائة. و فى هذه السنة قدم على الملك الناصر رسل صاحب اليمن، و رسل صاحب اسطنبول، و رسل الأشكرى، و رسل متملّك سيس، و رسل إلقان بو سعيد، و رسل صاحب ماردين، و رسل ابن قرمان، و رسل متملّك النوبة، و كلهم يبذلون الطاعة. و سأل رسل صاحب اليمن الملك المجاهد إنجاده بعسكر من مصر و أكثر من ترغيب السلطان فى المال الذى باليمن، فرسم السلطان بتجهيز العسكر إلى اليمن صحبة الأمير بيبرس الحاجب و معه من أمراء الطبلخاناه خمسة، و هم: آقول الجاجب، و قجماس الجوكندار، و بلبان الصّيرخدىّ، و بكتمر العلائى الأستادار، و ألجاى الناصرىّ الساقىّ، و من العشرات: عزّ الدين أيدمر الكوندكىّ و شمس الدين إبراهيم التّركمانىّ، و أربعه من

مقدّمی الحلقة، و هؤلاء العسکر لهم مقدّمة أخری کالجالیش علیها الأمیر سیف الدین طینال الحاجب، و معه خمسة من أمراء الطبلخاناه و هم: الأمیر ططقرا الناصری و علاء الدین علیّ بن طغریل الإیغانیّ و جرباش أمیر علم، و أیبک الکوندکی و کوکای طاز، و أربعة من مقدّمی الحلقة، و من العشرات بلبان الدّواداری و طرنطای الإسماعیلیّ والی باب القلعة، و من ممالیک السلطان ثلثمائة فارس، و من أجناد الحلقة تتمّة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۷۹

الألف فارس؛ و فرّقت فیهم أوراق السّفر، و کتب بحضور العربان من الشرقیّة و الغربیة لأجل الجمال.

ثم خرج السلطان إلی سریاقوس علی العادة فی کل سنة و قبض علی الأمیر بکتمر الحاجب بها، و علی أمیر آخر فی یوم الخمیس ثامن شهر ربیع الأوّل. ثم قدم علی السلطان الأمیر تنکز الناصریّ نائب الشام و أقام إلی عاشره و عاد إلی الشام، ثم أنفق السلطان علی الأمراء المتوجّهین إلی الیمن فقط، فحمل إلی بیبرس ألف دینار و إلی طینال ثمانمائة دینار، و لکل أمیر طبلخاناه عشرة آلاف درهم، و لکل من العشرات مبلغ ألفی درهم، و لمقدّمی الحلقة ألف درهم، و حضر العربان. و باعوا الأجناد موجودهم و اکتروا الجمال، فانحطّ سعر الدینار من خمسة و عشرین درهما إلی عشرین درهما من کثرة ما باعوا من الحلل و المصاغ. ثم برزوا من القاهرة إلی برکة الحاج فی یوم الثلاثاء عاشر شهر ربیع الآخر سنة خمس و عشرین، و سافروا من البرکة فی یوم الخمیس ثانی عشره. ثم خرج السلطان إلی سریاقوس و معه عدّة من المهندسین، و عیّن موضعا علی نحو فرسخ من ناحیة سریاقوس لیبنی فیه خانقاه، فیها مائة خلوة لمائة صوفیّ و بجانبها جامع تقام فیه الخطبة، و مکان برسم ضیافة الواردین و حمّام و مطبخ، و ندب آق سنقر شادّ العمائر لجمع الصّنّاع، و رتّب أیضا قصور سریاقوس برسم الأمراء و الخاصّکیّة، و عاد فوقع الاهتمام

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۸۰

فی العمل حتی کملت فی أربعین یوما. ثم اقتضی رأی السلطان حفر خلیج خارج القاهرة ینتهی إلی سریاقوس، و یرتّب علیه السواقی و الزراعات و تسیر فیه المراکب فی أیّام النیل بالغلال و غیرها إلی القصور بسریاقوس.

قلت: و قد أدرکت أنا بواقی هذه القصور التی کانت بسریاقوس، و خرّبت فی دولة الملک الأشرف برسبای فی حدود سنة ثلاثین و ثمانمائة، و أخذ الأمیر سودون

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۸۱

ابن عبد الرحمن أنقاضها و بنی بها جامعه الذی بخانقاه سریاقوس، فکان ذلک سببا لمحو آثارها، و کانت من محاسن الدنیا. انتهی.

ثمّ إن الملک الناصر فوّض عمل الخلیج إلی الأمیر أرغون النائب، فنزل أرغون بالمهندسین إلی النیل إلی أن وقع الاختیار علی موضع بموردة البلاط من أراضی بستان الخشّاب، و یقع الحفر فی المیدان الظاهریّ الذی جعله الملک الناصر هذا بستانا من ستّیات و غرم علیه أموالا جمّة، ثم یمرّ الخلیج المذکور علی برکة قرموط

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۸۲

إلی باب البحر ثم إلی أرض الطبّالة و یرمی فی الخلیج الکبیر، و کتب إلی ولاة الأعمال بإحضار الرجال للحفر، و عیّن لکلّ واحد من الأمراء أقصابا یحفرها، و ابتدئ بالحفر من أوّل جمادی الأولی من سنة خمس و عشرین إلی أن تمّ فی سلخ جمادی الآخرة من السنة، و أخرب فیه أملاک کثیرة، و أخذت قطعة من بستان الأمیر أرغون النائب، و أعطی السلطان ثمن ما خرّب من الأملاک لأربابها، و التزم فخر الدین ناظر الجیش بعمارة قنطرة برأس الخلیج عند فمه.

قلت: و هی القنطرة المعروفة بقنطرة الفخر. و التزم قدیدار و الی القاهرة بعمارة قنطرة تجاه البستان الذی کان میدانا للظاهر بیبرس البندقداریّ، و أنّ قدیدار

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۸۳

أيضـا يتمّ قنـاطر الإوزّ و قناطر الأميريّـة فعمل ذلک كلّه. فلمّا كان أيّام النيل جرت السـفن فيه و عمّرت عليه السواقى و أنشـئت بجانبه البساتين و الأملاک. ثم توجه السـلطان فى يوم الاثنين سادس جمادى الآخرة إلى خانقاته التى أنشأها بسـرياقوس، و خرجت القضاة و المشايخ و الصوفيّة إليها و عمل لهم سماط عظيم فى يوم الخميس تاسعه

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۸۴

بالخانقاه المذكورة. و استقرّ الشـيخ مجد الدين أبو حامد موسـى بن أحمد بن محمود الأقصـرائى الّذى كان شيخ خانقاه كريم الدين الكبير بالقرافة فى مشيخة هذه الخانقاه.

و رتّب عنده مائة صوفىّ، و رسم للشيخ مجد الدين المذكور بخلعة و أن يلقّب بشيخ الشيوخ.

و أمّا العسـكر الذى توجّه إلى اليمن فإنّ السلطان كتب إلى أمراء الحجاز بالقيام فى خدمة العسكر، و تقدّم كافور الشّبلى خادم الملک المجاهد الذى كان قدم فى الرّسلية إلى زبيد ليعلم أستاذه الملک المجاهد بقدوم العسكر، و كتب لأهل حلى بنى يعقوب الأمان و أن يجلبوا البضـائع للعسكر، و رحـل العسـكر فى خـامس جمـادى الآـخرة من مكّـة، فوصل إلى حلى بنى يعقوب فى اثنى عشـر يوما بعد عشرين مرحلة، فتلقّاهم أهلها و دهشوا لرؤية العساكر و قد طلّبت و لبست السّلاح، و همّوا بالفرار. فنودى

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۸۵

فيهم بالأمان و ألّا يتعرّض أحد من العسكر لشىء إلّا بثمنه، فأطمأنّوا و حملوا إلى كلّ من بيبرس و طينال من مقدّمى العسكر مائة رأس من الغنم و خمسـمائة اردبّ ذرة، فردّاها و لم يقبلا لأحد شـيئا، و رحلوا بعد ثلاثة أيام فى العشـرين منه. فقدمت الأخبار على العسـكر باجتمـاع رأى أهل زبيـد على الـدخول فى طاعـة الملک المجاهـد خوفا من العسـكر، و أنّهم ثاروا بالمتملّک عليهم و نهبوا أمواله ففرّ عنهم، فكتبوا للمجاهـد بـذلک فقوى و نزل من قلعـة تعز يريد زبيد، فكتب الأمراء إليه أن يكون على أهبة اللّقاء فنزل العسـكر زبيد، و وافاهم المجاهد بجنده فسـخر منهم العسكر المصرىّ، من كونهم غزاة و سلاحهم الجريد و الخشب، و سيوفهم مشدودة على أذرعهم؟ و يقـاد للأمير فرس واحـد مجلّل، و على رأس المجاهـد عصابـة ملوّنـة فوق العمامـة، فعنـدما عاين المجاهـد العساكر و هى لابسـة آلة الحرب رعب، و همّ أن يترجّل فمنعه الأمير بيبرس و اقول من ذلک. و مشـى العسـكر صـفّين و الأمراء فى الوسط حتّى قربوا منه فألقى المجاهد نفسه هو و من معه إلى الأرض. فترجّل له الامراء أيضا و أركبوه و أكرموه و أركبوه فى الوسط، و ساروا إلى المخيّم و ألبسوه تشريفا سلطانيّا بكلفتاة زركش و حياصة ذهب، و ركب و الأمراء فى خدمته و العساكر إلى داخل زبيد، ففرح أهلها فرحا شديدا، و مد المجاهـد لهم سـماطا جليلا فامتنع الأمراء و العساكر من أكله خوفا من أن يكون فيه ما يخاف عاقبته، و اعتـذروا إليه بأنّ هذا لا يكفى العساكر، و لكن فى غد يعمل السّـماط، فأحضـر لهم المجاهد ما يحتاجون إليه، و أصبح حضر المجاهد و أمراؤه و قد مدّ السّماط بين يديهم، و أحضـر كرسىّ جلس عليه المجاهد، فوقف السّقاة و النّقباء و الحجّاب و الجاشنكيريّة على العادة، و وقف الأمير بيبرس رأس الميمنة و الأمير طينال رأس الميسرة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۸۶

فلمّا فرغ السّماط صاحت الجاوشيّة على أمراء المجاهد و أهل دولته و أحضروهم و قرئ عليهم كتاب السلطان فباسوا بأجمعهم الأرض و قـالوا: سـمعا و طاعـة، و كتب الأمير بيبرس لممالک اليمن بالحضور فحضـروا. ثم كتب لهم المجاهـد بغنم و ذرة و اعتـذر للأمراء و العسـاكر المصـرية بعـدم عمـل الإقامـة لهم بخراب البلاـد؛ فتوجّه قصّاد العسـكر لأخـذ الغنم و الـذرة و أقامت العساكر بزبيـد، فعادت قصّادهم بغير غنم و لا ذرة، فرحلوا من زبيـد فى نصف رجب يريدون تعزّ، فتلقّاهم المجاهد و نزلوا خارج البلد و شـكوا ما هم فيه من قلّـة الإقامـات فوعـدهم بالإنجـاز. ثم إنّ الأمراء كتبوا للملک الظاهر المقيم بـدملوه، و بعثوا له الشـريف عطيفـة أمير مكّـة و عزّ الـدين الكونـدكى و كتب إليه المجاهـد أيضا يحثّه على الطاعة، و أقام العسـكر فى جهد فأغاروا على الضّـياع و أخذوا ما قدروا عليه، فارتفع الـذّرة من ثلاثين درهما الإردب إلى تسـعين، و فقـد الأكل من الفاكهـة فقط لقلّة الجالب؛ و اتّهم أن ذلک بمواطأة المجاهد خوفا من

العسكر أن تملك منه البلاد، ثم إنّ أهل جبل صبر قطعوا الماء عن العسكر و تخطّفوا الجمال و الغلمان و زاد أمرهم إلى أن ركب العسكر فى أثرهم، فامتنعوا بالجبل و رموا بالمقاليع على العسكر فرموهم بالنّشّاب، و أتاهم المجاهد فخذلهم عن الصعود

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۸۷

إلى الجبل، فلم يلتفتوا إلى كلامه و نازلوا الجبل يومهم و قتل من العسكر أربعة [و ثمانية] من الغلمان، و بات العسكر تحت الجبل. فبلغ بيبرس أنّ المجاهد قرّر مع أصحابه أنّ العسكر إذا صعدوا الجبل يضرمون النار فى الوطاق و ينهبون ما فيه، فبادر بيبرس، و قبض [على] بهاء الدين بهادر الصّيقرى و أخذ موجوده و وسّطه قطعتين و علّقه على الطريق؛ ففرح أهل تعزّ بقتله و كان قد تغلّب على زبيد، حتى طرده أهلها عند قدوم العسكر، و عاد الشريف عطيفة و الكوندكى من دملوه بأنّ الظاهر فى طاعة السلطان ثم طلب العسكر من المجاهد ما وعد به السلطان الملك الناصر فأجاب بأنه لا قدرة له إلّا بما فى دملوه، فأشهد عليه بيبرس قضاة تعزّ بذلك، و ارتحل العسكر إلى حلى بنى يعقوب، فقدمها فى تاسع شعبان و رحلوا منها أوّل شهر رمضان إلى مكة فدخلوها فى حادى عشره فى مشقّة زائدة، و ساروا من مكّة يوم عيد الفطر إلى جهة مصر، فقدموا بركة الحجّاج أوّل يوم من ذى القعدة، و طلع الأمراء إلى القلعة فخلع السلطان عليهم فى يوم السبت ثالثه، و قدّم الأمير بيبرس هديّة فأغرى الأمير طينال السلطان على الأمير بيبرس بأنّه أخذ مالا من المجاهد و غيره و قصّر فى أخذ مملكة اليمن. فلما كان يوم الاثنين تاسع عشره رسم السلطان بخروج بيبرس إلى نيابة غزّة فامتنع لأنّه كان بلغه ما قيل عنه، و أنّ السلطان قد تغيّر عليه، فقبض عليه السلطان و سجنه بالبرج من القلعة و قبض على حواشيه و صادرهم و عوقبوا على المال فلم يظهر شىء، و سكت السلطان عن أحوال اليمن.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۸۸

ثم فى سنة ستّ و عشرين و سبعمائة استأذن الأمير أرغون النائب السلطان فى الحجّ فأذن له فحج هو و ولده ناصر الدين محمد، و عادا من الحجاز إلى سرياقوس فى يوم الأحد حادى عشر المحرّم سنة سبع و عشرين و سبعمائة، فقبض السلطان عليهما و على الأمير طيبغا المجدى، فأخذهم الأمير بكتمر الساقى عنده و سعى فى أمرهم حتّى أخرج فى يوم الاثنين ثانى عشره (يعنى من الغد) الأمير أرغون إلى نيابة حلب عوضا عن الأمير ألطنبغا، و أخرج معه الأمير أيتمش [المحمّدى] مسفّره، و توجّه الأمير ألجاى الدوّادار إلى حلب لإحضار الأمير ألطنبغا نائبها، و قرّر السلطان مع كلّ من أيتمش و ألجاى أن يكونا بمن معهما فى دمشق يوم الجمعة ثالث عشرينه، و لم يعلم أحد بما توجّه فيه الآخر حتى توافيا بدمشق فى يوم الجمعة المذكور. و قد خرج الأمير تنكز نائب الشام إلى ميدان الحصى لتلقّى الأمير أرغون، فترجّل كلّ منهما لصاحبه و سارا إلى جامع بنى أميّة، فلمّا توسّطاه إذا بألجاى و معه الأمير ألطنبغا نائب حلب فسلّم أرغون عليه بالإيماء، فلما انقضت صلاة الجمعة عمل لهما الأمير تنكز سماطا جليلا فحضرا السّماط. ثم سار أرغون إلى حلب فوصلها فى سلخ الشهر، و سار ألطنبغا حتى دخل مصر فى مستهلّ صفر، فأكرمه السلطان و خلع عليه و أسكنه بقلعة الجبل، و أنعم عليه بإمرة مائة و تقدمة ألف من جملة إقطاع أرغون النائب، و كمل السلطان من إقطاع أرغون أيضا لطايربغا على إقطاعه إمرة مائة و تقدمة ألف، فزادت التقادم تقدمة، فصارت أمراء الألوف خمسة و عشرين مقدم ألف بالديار المصرية.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۸۹

و فى مستهل جمادى الأولى قبض السلطان على الأمير بهاء الدين أصلم [القبجاقىّ] و على أخيه قرمجى و جماعة من القبجاقية، و سبب ذلك أنّ أصلم عرض سلاح خاناته و جلس بإسطبله و ألبس خيله و رتّبها للركوب، فوشى به بعض أعدائه و كتب بواقعة أمره ورقة و ألقاها إلى السلطان؛ فلمّا وقف عليها السلطان تغيّر تغيّرا زائدا و كانت عادته ألا يكذّب خبرا، و بعث من فوره فسأل أصلم مع ألماس الحاجب عمّا كان يفعله أمس فى إسطبله، فذكر أنه اشترى عدّة أسلحة فعرضها على خيله لينظر ما يناسب كلّ فرس منها فصدّق السلطان ما نقل عنه، و قبض السلطان عليه و على أخيه و على أهل جنسه و على الأمير قيران صهر قرمجى و على الأمير إتكان أخى آقول الحاجب، و سفّروا إلى الإسكندرية مع الأمير صلاح الدين طرخان بن بيسرى، و برلغى قريب السلطان و أفرد أصلم ببرج فى

القلعة.

ثم قدم الأمير حسين بن جندر من الشام الذى كان نفاه السلطان لمّا عمّر جامعه و فتح بابا من سور القاهرة، فلما مثل بين يدى السلطان خلع عليه خلعة أطلس بطرز زركش و كلفتاة زركش و حياصه مكوبجة، و أنعم عليه بإقطاع أصلم فى يوم الاثنين ثالث جمادى الآخرة.

و فيها عقد على الأمير قوصون الناصرىّ عقد ابنة السلطان الملك الناصر بقلعة الجبل، و تولّى عقد النكاح قاضى القضاة شمس الدين محمد بن الحريرىّ الحنفىّ. ثم بعد مدّة فى سنة ثمان و عشرين عقد نكاح ابنة السلطان الأخرى على الأمير طغاى تمر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۹۰

العمرى الناصرىّ، و أعفى السلطان فى هذه المرّة الأمراء من حمل الشموع و غيرها إلى طغاى تمر كما كان فعلوه مع قوصون، و أنعم السلطان على طغاى تمر من خزانته عوضا عن ذلك بأربعة آلاف دينار.

ثم أفرج السلطان عن الأمير علم الدين سنجر الجاولى بعد أن اعتقل ثمانى سنين و ثلاثة أشهر و أحد عشر يوما، فكان فيها ينسخ القرآن و كتب الحديث.

و فى سنة ثمان و عشرين أيضا عزم السلطان على أن يجرى النيل تحت قلعة الجبل و يشقّ له من ناحية حلوان، فبعث الصّنّاع صحبة شادّ العمائر إلى حلوان، و قاسوا منها إلى الجبل الأحمر المطلّ على القاهرة، و قدّروا العمل فى بناء الواطى حتى يرتفع و حفر العالى ليجرى الماء إلى تحت قلعة الجبل من غير نقل و لا كلفة.

ثم عادوا و عرّفوا السلطان ذلك فركب و قاسوا الأرض بين يديه، فكان قياس ما يحفر اثنتين و أربعين ألف قصبة حاكمية لتبقى خليجا يجرى فيه ماء النيل شتاء و صيفا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۹۱

بسفح الجبل، فعاد السّلطان و قد أعجبه ذلك و شاور الأمراء فيه فلم يعارضه فيه أحد إلّا الفخر ناظر الجيش، فإنه قال: بمن يحفر السلطان هذا الخليج؟ قال: بالعسكر، قال: و اللّه لو اجتمع عسكر آخر فوق العسكر السلطانى و أقام سنين ما قدروا على حفر هذا العمل، فإنه يحتاج إلى ثلاث خزائن من المال، ثم هل يصح أولا! فالسلطان لا يسمع كلام كل أحد و يتعب الناس و يستجلب دعاءهم و نحو ذلك من القول، فرجع السلطان عن عمله.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۹۲

و فيها أفرج السلطان عن الشيخ تقىّ الدين أحمد بن تيميّة بشفاعة الأمير جنكلى بن البابا. و فى يوم الاثنين سابع [عشر] جمادى الأولى سنة تسع و عشرين و سبعمائة رسم السلطان بردم الجبّ الذى كان بقلعة الجبل لما بلغ السلطان أنه شنيع المنظر شديد الظلمة كره الرائحة و أنه يمرّ بالمحابيس فيه شدائد عظيمة، فردم و عمّر فوقه طباق للمماليك السلطانية. و كان هذا الجبّ عمل فى سنة إحدى و ثمانين و ستمائة فى أيام الملك المنصور قلاوون. ثم فى السنة المذكورة رسم السلطان للحاجب أن ينادى بألّا يباع مملوك تركى لكاتب و لا عامى، و من كان عنده مملوك فليبعه، و من عثر عليه بعد ذلك [أنّ عنده مملوكا] فلا يلوم إلّا نفسه.

و فيها عرض السلطان مماليك الطّباق و قطع منهم مائة و خمسين، و أخرجهم من يومهم ففرّقوا بقلاع الشام.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۹۳

و فيها قتل الأمير تنكز نائب الشام الكلاب ببلاد الشام فتجاوز عدّتها خمسة آلاف كلب. ثمّ خرج السلطان إلى سرياقوس فى سابع عشرين من ذى الحجّة على العادة فى كلّ سنة، و قدم عليه الأمير تنكز نائب الشام فى أوّل المحرّم سنة ثلاثين و سبعمائة و بالغ السلطان فى إكرامه و رفع منزلته، و قد تكرّر قدوم تنكز هذا إلى القاهرة قبل تاريخه غير مرة، ثم عاد إلى نيابته بدمشق فى رابع عشر المحرّم. ثم فى عشرين المحرّم المذكور وصل إلى القاهرة الملك المؤيّد إسماعيل صاحب حماة، فبالغ السلطان أيضا فى إكرمه و

رفع منزلته و خلع عليه. ثم سافر السلطان فى تاسع صفر إلى بلاد الصعيد للصيد على عادته، و معه المؤيّد صاحب حماة، ثم عاد بعد أيام قليلة لتوعك بدنه من رمد طلع فيه، و أقام بالأهرام بالجيزة أياما، ثم عاد و سافر إلى الصعيد حتى وصل الى هو، ثم عاد إلى مصر فى خامس شهر ربيع الآخر، و سافر فى ثامنه المؤيد صاحب حماة إلى محلّ ولايته بعد أن غاب مع السلطان هذه الأيام الكثيرة.

ثم نزل السلطان من القلعة فى خامس عشرين شهر ربيع الاخر المذكور، و توجّه إلى نواحى قليوب يريد الصيد، فبينما هو فى الصّيد تقنطر عن فرسه فانكسرت يده و غشى عليه ساعة و هو ملقى على الأرض، ثم أفاق و قد نزل إليه الأميران: أيدغمش أمير آخور و قمارى أمير شكار و أركباه، فأقبل الأمراء بأجمعهم إلى خدمته و عاد إلى قلعة الجبل فى عشيّة الأحد ثامن عشرينه، فجمع الأطبّاء و المجبّرين لمداواته فتقدم رجل من المجبّرين يعرف بابن بوسقة و تكلّم بجفاء و عاميّة طباع، و قال: له تريد تفيق

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۹۴

سريعا؟ اسمع منى، فقال له السلطان: قل ما عندك، فقال: لا تخلّ يداويك غيرى بمفردى و إلّا فسدت حال يدك مثلما سلّمت رجلك لابن السّيسى فأفسدها، و أنا ما أخلّى شهرا يمضى حتى تركب و تلعب بيدك الأكرة، فسكت السلطان عن جوابه و سلّم إليه يده فتولّى علاجه بمفرده، و بطلت الخدمة مدّة سبعة و ثلاثين يوما و عوفى، فزيّنت له القاهرة فى يوم الأحد رابع جمادى الآخرة من السنة المذكورة، و تفاخر الناس فى الزينة بحيث إنه لم يعهد زينة مثلها، و أقامت سبعة أيام، هذا و الأفراح عمّالة بالقلعة و سائر بيوت الأمراء مدّة الأسبوع، فإنّ كلّ أمير متزوّج إمّا بإحدى جوارى السلطان أو بناته و أكثرهم أيضا مماليكه، و كذلك البشائر و الكوسات تضرب، و أنعم السلطان على الأمراء و خلع عليهم، ثم خرج السلطان إلى القصر و فرّق عدّة مثالات على الأيتام و عمل سماطا جليلا و خلع على جميع أرباب الوظائف، و أنعم على المجبّر بعشرة آلاف درهم، و رسم له أن يدور على جميع الأمراء فلم يتأخّر أحد من الأمراء عن إفاضة الخلع عليه، و إعطائه المال فحصل له ما يجلّ وصفه.

و توجّه الأمير آقبغا عبد الواحد إلى البلاد الشامية مبشّرا بعافية السلطان.

و فيها اشترى الأمير قوصون الناصرىّ دار الأمير آقوش الموصلىّ الحاجب المعروف بآقوش نميلة، ثم عرفت ثانيا بدار الأمير آقوش قتّال السبع - من

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۹۵

أربابها، و اشترى أيضا ما حولها و هدم ذلك كلّه، و شرع فى بناء جامع، فبعث السلطان إليه بشادّ العمائر و الأسرى لنقل الحجارة و نحوها، فنجزت عمارته فى مدّة يسيرة، و جاء الجامع المذكور من أحسن المبانى، و هو خارج بابى زويلة على الشارع

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۹۶

الأعظم بالقرب من بركة الفيل، و تولّى عمارة منارته رجل من أهل تبريز أحضره الأمير أيتمش المحمّدى معه فعملها على منوال موادن تبريز، و لمّا كمل بناء الجامع أقيمت الجمعة فيه فى يوم الجمعة حادى عشر شهر رمضان سنة ثلاثين و سبعمائة، و خطب به يومئذ قاضى القضاة جلال الدين محمد القزوينىّ و خلع عليه الأمير قوصون بعد فراغه و أركبه بغلة هائلة.

و فى هذه السنة أيضا ابتدأ علاء الدين مغلطاى [الجمالىّ] أحد المماليك السلطانيّة فى عمارة جامع بين السّورين من القاهرة، و سمّى جامع التّوبة لكثرة ما كان هناك

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۹۷

من الفساد و أقام به الخطبة، ثمّ عاد السلطان الملك الناصر على ما كان عليه من أوّل سنة إحدى و ثلاثين و سبعمائة من التوجّه إلى الصّيد على عادته، و قدم عليه موت الأمير أرغون الدّوادار نائب حلب كان و هو بالصيد، فخلع على الأمير ألطنبغا الصالحىّ بنيابة حلب عوضه.

ثمّ فى يوم السبت [سابع عشر ذى لحجّة] ركب السلطان من القلعة إلى الميدان الذى استجدّه، و قد كملت عمارته، و كان السلطان قد

رسم فی أوّل هذه السنة بهدم مناظر المیدان الظاهریّ الذی کان بباب اللّوق و تجدید عمارة هذا المیدان

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۹۸

الذی استجدّه، و فوض ذلک للأمیر ناصر الدین [محمد] بن المحسنی، فهدم تلک المناظر و باع أخشابها بمائة ألف درهم و ألفی درهم، و اهتم فی عمارة جدیدة فکمل فی مدّة شهرین، و جاء من أحسن ما یکون، فخلع السلطان علیه و فرّق علی الأمراء الخیول المسرجة الملجمه.

و فی أوّل محرّم سنة اثنتین و ثلاثین و سبعمائة قدم مبشّر الحاجّ، و أخبر بسلامه الحاجّ و أن الأمیر مغلطای الجمالی الأستادار علی خطه فعیّن السلطان عوضه فی الأستاداریة الأمیر اقبغا عبد الواحد. و مات مغلطای فی العقبة و صبّر و حمل إلی أن دفن بمدرسته قریبا من درب ملوخیا بالقاهرة بالقرب من رحبة باب العید.

و لبس آقبغا عبد الواحد الأستاداریة فی یوم الثلاثاء سادس عشرین المحرّم. ثم بعد أیام خلع علیه السلطان بتقدمة الممالیک السلطانیة مضافا علی الأستاداریة، من أجل أنّ السلطان وجد بعض الممالیک قد نزل من القلعة إلی القاهرة و سکر، فضرب

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۹۹

السلطان کثیرا من الطّواشیّة و طرد کثیرا منهم، و أنکر علی الطواشی مقدّم الممالیک و صرّفه عن التقدمة بآقبغا هذا، فضبط آقبغا المذکور طباق الممالیک بالقلعة و ضرب عدّة منهم ضربا مبرّحا أشرف منهم جماعة علی الموت، فلم یجسر بعد ذلک أحد أن یتجاوز طبقته إلی غیرها.

و فی یوم الاثنین ثالث عشرین صفر جمع السلطان الأمراء و القضاة و الخلیفة لیعهد بالسلطنة لابنه آنوک و یرکب ولده آنوک بشعار السلطنة، ثم انثنی عزمه عن ذلک فی المجلس، و أمر أن یلبس آنوک شعار الأمراء و لا یطلق علیه اسم السلطنة، فرکب و علیه خلعة أطلس أحمر بطرز زرکش و شربوش مکلّل مزرکش، و خرج من باب القرافة و الأمراء فی خدمته حتّی مرّ من سوق الخیل تحت القلعة و نزل عن فرسه و باس الأرض، و طلع من باب الإسطبل إلی باب السّرّ و صعد منه إلی القلعة، و نثرت علیه الدنانیر و الدراهم، و خلع السلطان علی الأمیر ألماس الحاجب و الأمیر بیبرس الأحمدی، و کان السلطان أفرج عن بیبرس المذکور قبل ذلک بمدّة من السجن،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۰۰

و خلع علی الأمیر أیدغمش أمیر آخور الجمیع خلع أطلس، و خلع السلطان علی جمیع أرباب الوظائف و مدّ لهم سماط عظیم و عملت الأفراح الجلیلة، و عظم المهمّ لعقد آنوک المذکور علی بنت بکتمر الساقی، فعقد العقد بالقصر علی صداق مبلغه من الذهب اثنا عشر ألف دینار، المقبوض منه عشرة آلاف دینار، و أنعم السلطان علی ولده آنوک المذکور بإقطاع الأمیر مغلطای المتوفّی بالعقبة.

ثم فی عاشر شهر ربیع الآخر من سنة اثنتین و ثلاثین و سبعمائة المذکورة قدم الملک الأفضل ناصر الدین محمد ابن الملک المؤیّد إسماعیل الأیّوبیّ صاحب حماة بعد وفاة أبیه الملک المؤیّد بها، و له من العمر نحو من عشرین سنة، فأکرمه السلطان و أقبل علیه، و کان والده لما توفّی بحماة أخفی أهله موته، و سارت زوجته أمّ الأفضل هذا إلی دمشق و ترامت علی الأمیر تنکز نائب الشام، و قدّمت له جوهرا باهرا و سألته فی إقامة ولدها الأفضل فی سلطنة أبیه المؤیّد بحماة فقبل تنکز هدیّتها، و کتب فی الحال إلی الملک الناصر بوفاة الملک المؤیّد، و تضرّع إلیه فی إقامة ولده الأفضل مکانه، فلمّا قدم البرید بذلک تأسّف السلطان علی الملک المؤیّد و کتب للأمیر تنکز بولایته و بتجهیز الأفضل المذکور إلی مصر، فأمره تنکز فی الحال بالتوجّه إلی مصر، فرکب و سار حتی دخلها و مثل بین یدی السلطان، و خلع علیه الملک الناصر فی یوم الخمیس خامس عشرین شهر ربیع الآخر بسلطنة حماة، و رکب الأفضل من المدرسة المنصوریّة ببین القصرین و هو بشعار السلطنة و بین یدیه الغاشیة، و قد نشرت علی رأسه العصائب الثلاث، منها واحد خلیفتی أسود و

اثنان سلطانيّان أصفران، و عليه خلعة أطلسين بطراز ذهب، و على رأسه شربوش ذهب،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۰۱

و فى وسطه حياصة ذهب بثلاث بيكاريّات و سار فى موكب جليل و طلع إلى القلعة و قبّل الأرض بين يدى السلطان بالقصر، ثم جلس و خلع السلطان على الأمراء الذين مشوا بخدمته، و هم: الأمير ألماس الحاجب و بيبرس الأحمدىّ و أيدغمش أمير آخور و طغجى أمير سلاح و تمر رأس نوبة، ألبس كلّا منهم أطلسين بطراز ذهب. ثم خلع على جماعة أخر و كان يوما مشهودا، و لقّبه السلطان بالملك الأفضل، ثم جهّزه إلى بلاده.

ثم حضر بعد ذلك تنكز نائب الشام إلى القاهرة ليحضر عرس ابن السلطان الأمير آنوك، و شرع السلطان فى عمل المهمّ من أوائل شعبان من سنة اثنتين و ثلاثين و جمع السلطان من بالقاهرة و مصر من أرباب الملاهى و استمرّ المهمّ سبعة أيام بلياليها. و استدعى حريم الأمراء للمهمّ، فلمّا كانت ليلة السابع منه حضر السلطان على باب القصر، و تقدّم الأمراء على قدر مراتبهم واحدا بعد واحد و معهم الشموع، فكان إذا قدّم الواحد ما أحضره من الشمع قبّل الأرض و تأخّر حتى انقضت تقادمهم، فكان عدّتها ثلاثة آلاف و ثلاثين شمعة، زنتها ثلاثة آلاف و ستون قنطارا، فيها ما عنى به و نقش نقشا بديعا تنوّع فى تحسينه؛ و أحسنها شمع الأمير سنجر الجاولى، فإنّه اعتنى بأمره و بعث إلى عملها إلى دمشق فجاءت من أبدع شيء.

و جلس الأمير آنوك تجاه السلطان فأقبل الأمراء جميعا و كلّ أمير يحمل بنفسه شمعة و خلفه مماليكه تحمل الشمع، فيتقدمون على قدر رتبهم و يقبّلون الأرض واحدا بعد واحد طول ليلهم، حتى كان آخر الليل نهض السلطان و عبر حيث مجتمع النساء، فقامت نساء الأمراء بأسرهنّ و قبّلن الأرض واحدة بعد أخرى و هى تقدّم

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۰۲

ما أحضرت من التّحف الفاخرة، حتى انقضت تقادمهنّ جميعا؛ رسم السلطان برقصهنّ فرقصن عن آخرهن واحدة بعد واحدة، و المغانى تضرب بالدّفوف، و الأموال من الذهب و الفضة و الشّقق الحرير تلقى على المغنيّات، فحصل لهنّ ما يجلّ وصفه. ثم زفّت العروس، و جلس السلطان من بكرة الغد و خلع على جميع الأمراء و أرباب الوظائف بأسرها، و رسم لكلّ امرأة أمير بتعبية قماش على قدر منزلة وجها، و خلع على الأمير تنكز نائب الشام و جهّز صحبته الخلع لأمراء دمشق. فكان هذا العرس من الأعراس المذكورة، ذبح فيه من الغنم و البقر و الخيل و الإوزّ و الدّجاج ما يزيد على عشرين ألفا، و عمل فيه من السكر برسم الحلوى و المشروب ثمانية عشر ألف قنطار، و بلغت قيمة ما حمله الأمير بكتمر الساقى مع ابنته من الشورة ألف ألف دينار؛ قاله جماعة من المؤرّخين.

ثمّ استهمّ السلطان إلى سفر الحجاز الشريف و سافر الأمير ايدمر الخطيرىّ أمير حاج المحمل فى عشرين شوّال من السنة، و نزل السلطان من القلعة فى ثانى عشر شوّال و أقام بسرياقوس، حتّى سار منه إلى الحجاز فى خامس عشرينه، بعد ما قدّم حرمه صحبة الأمير طغيتمر فى عدّة من الأمراء. و استناب السلطان على ديار مصر الأمير سيف الدين ألماس الحاجب و رسم أن يقيم بداره، و جعل الأمير آقبغا عبد الواحد داخل باب القلعة من قلعة اجل لحفظ القلعة، و جعل الأمير جمال الدين آقوش نائب الكرك بالقلعة و أمره ألّا ينزل منها حتّى يحضر، و أخرج كلّ أمير من الأمراء المقيمين إلى إقضاعه، و رسم لهم ألّا يعودوا منها حتى يرجع السلطان من الحجاز.

و توجّه مع السلطان إلى الحجاز الملك الأفضل صاحب حماة، و من الأمراء چنكلى ابن البابا و الحاج آل ملك و بيبرس الاحمدى و بهادر المعزّى و أيدغمش أمير آخور

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۰۳

و بكتمر الساقى و طقزدمر و سنجر الجاولى و قوصون و طايربغا و طغاى تمر و بشتاك و أرنبغا و طغجى و أحمد بن بكتمر الساقى و جركتمر بن بهادر و طيدمر الساقى و آقبغا آص الجاشنكير و طوغان الساقى و طقتمر الخازن و سوسون السّلاح دار و تلك و بيبغا الشمسى و بيغرا و قمارى و تمر الموسوىّ و أيدمر أمير جاندار و بيدمر البدرى و طقبغا الناصرىّ و أيتمش الساقى، و إياز الساقى، و

ألطنقش، و أنس، و أيـدمر دقماق، و طيبغا المجـدى، و خير بك، و قطز أمير آخور، و بيـدمر، و أينبك، و أيدمر العمرى، و يحيى بن طايربغا، و مسعود الحاجب، و نوروز و كجلى، و برلغى، و بكجا، و يوسف الـدّوادار، و قطلقتمر السلاح دار، و آناق، و ساطلمش، و بغاتمر، و محمد بن چنكلى، و على بن أيدغمش، و ألاجا، و آق سنقر، و قرا، و علاء الدين علىّ بن هلال الدولة، و تمربغا العقيلى، و قمارى الحسنى، و علىّ بن أيـدمر الخطيرىّ، و طقتمر اليوسفى، و هؤلاء مقـدّمون و طلبخاناه. و من العشرات على بن السعيدى، و صاروجا النقيب، و آق سنقر الرومى، و إياجى الساقى، و سنقر الخازن، و أحمد بن كجكن، و أرغون العلائى، و أرغون الإسماعيلى، و تكا، و قبجق، و محمد بن الخطيرىّ، و أحمد بن أيدغمش،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۰۴

و طشبغا، و قلنجى. و حجّ مع السلطان أيضا قاضى القضاة جلال الدين القزوينىّ الشافعىّ، و ابن الفرات الحنفىّ و فخر الدين النّويرىّ المالكى، و موفّق الـدين الحنبلىّ، و كانوا أربعتهم ينزلون فى خيمة واحـدة، فإذا قـدّمت لهم فتوى كتبوا عليها الأربعة؛ و قدّم السلطان الأمير أيتمش إلى عقبة أيلة و معه مائة رجل من اجازيّين حتى وسّعوا طريق العقبة و أزالوا وعرها، و من يومئذ سهل صعودها.

و لما قرب السلطان من عقبة أيلة بلغه اتفاق الأمير بكتمر الساقى على الفتك به مع عدّة من المماليك السلطانية، فتمارض السلطان و عزم على الرجوع إلى مصر و وافقه الأمراء على ذلك إلّا بكتمر الساقى، فإنّه أشار بإتمام السفر و شنّع عوده قبل الحجّ. فعند ذلك عزم السلطان على السّفر، و سيّر ابنه آنوك و أمّه خوند طغاى إلى الكرك صحبة الأمير ملكتمر السّرجوانىّ نائب الكرك، فإنّه كان قدم إلى العقبة و معه ابنا السلطان الملك الناصر: أبو بكر و أحمد اللّذان كان والدهما الناصر أرسلهما إلى الكرك قبل تاريخه بسنين ليسكنا بها. ثم مضى السلطان إلى سفره و هو محترز غاية التحرّز، بحيث إنّه ينتقل فى اللّيل عدّة مرار من مكان إلى مكان؛ و يحفى موضع مبيته من غير أن يظهر أحدا على ما فى نفسه ممّا بلغه عن بكتمر الساقى إلى أن وصل إلى ينبع، فتلقّاه الأشراف من أهل المدينة، و قدم عليه الشريف أسد الدين رميثة من مكة و معه قوّاده و حريمه فأكرمهم السلطان و أنعم عليهم، و ساروا معه إلى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۰۵

أن نزل على خليص فرّ منه نحو ثلاثين مملوكا إلى جهة العراق فلم يتكلّم السلطان، و سار حتّى قدم مكّة و دخلها فأنعم على الأمراء، و أنفق فى جميع من معه من الأجناد و المماليك ذهبا كثيرا، و أفاض على أهل مكة بالصدقات و الإنعام.

فلمّا قضى النّسك عاد يريد مصر، و عرّج إلى زيارة النّبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم، بالمدينة فسار حتّى وصلها فلمّا دخلها هبّت بها ريح شديدة فى اللّيل ألقت الخيم كلّها و تزايد اضطراب الناس و اشتدّت ظلمة الجوّ فكان أمرا مهولا؛ فلمّا كان النهار سكن الريح فظفر أمير المدينة بمن فرّ من المماليك السلطانية فخلع السلطان عليه، و أنعم عليه بجميع ما كان مع المماليك من مال و غيره، و بعث بالمماليك إلى الكرك، فكان ذلك آخر العهد بهم.

ثم مرض الأمير بكتمر الساقى و ولده أحمد، فمات أحمد فى ليلة الثلاثاء سابع المحرّم سنة ثلاث و ثلاثين و سبعمائة، و مات أبوه الأمير بكتمر الساقى فى ليلة الجمعة عاشر المحرّم بعد ابنه أحمد بيومين و حمل بكتمر إلى عيون القصب فدفن بها، و اتّهم السلطان أنّه سمّهما. و [ذلك أنه] كان قد عظم أمر بكتمر، بحيث إنّ السلطان كان معه فى هذه السّفرة ثلاثة آلاف و مائة عليقة، و مع بكتمر الساقى ثلاثة آلاف عليقة، و بلغت عدّة خيوله الخاصّة مائة طوالة [بمائة سايس بمائة سطل]، و كان عليق خيول إسطبله دائما ألفا و مائة عليقة كلّ يوم، و مع هذا لم يقنعه ذلك.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۰۶

و أخذ يدبّر فى قتل السلطان، و بلغ السلطان ذلك بعد أن خرج من القاهرة فتحرّز على نفسه بدربة و عقل و معرفة و دهاء و مكر، حتّى صار فى أعظم حجاب من بكتمر و غيره. ثم أخذ هو أيضا يدبّر على بكتمر، و أخذ يلازمه فى الليل و النهار، بحيث إنّ بكتمر عجز فى الطريق أن ينظر إلى زوجته، فإنّه كان إذا ركب أخذ يسايره بجانبه و يكالمه من غير جفاء، و إذا نزل جلس معه، فإن مضى

إلى خيامه أرسل السلطان فى الحال خلفه، بحيث إنّه استدعاه- مرّة و هو يتوضّأ- بواحد بعد آخر حتّى كمل عنده اثنا عشر جمدار. فلمّا ثارت الريح بالمدينة قصد السلطان قتل بكتمر و ولده أحمد تلك الليلة و هجموا على ولده أحمد فلم يتمكّنوا منه، و اعتذروا بأنّهم رأوا حرامية و قد أخذوا لهم متاعا فمرّوا فى طلبهم، فداخل الصبىّ منهم الفزع، ثم زاد احتراز السلطان على نفسه، و رسم للأمراء أن يناموا بمماليكهم على بابه، و لمّا سار من المدينة عظم عنده أمر بكتمر، فلمّا كان فى أثناء الطريق سقى أحمد بن بكتمر ماء باردا فى مسيره، كانت فيه منيّته، ثم سقى بكتمر بعد موت ولده مشروبا فلحق بابنه، و اشتهر ذلك، حتّى إنّ زوجة بكتمر لمّا مات صاحت و قالت للسلطان بصوت سمعها كلّ أحد:

يا ظالم، أين تروح من اللّه! ولدى و زوجى، فأمّا زوجى كان مملوك، و ولدى، إيش كان بينك و بينه! و كرّرت ذلك مرارا فلم يجبها.

قلت: و لو لا أنّ الملك الناصر سقى ولده أحمد قبله، و إلّا كانت حيلة الناصر لا تتمّ، فإنّ بكتمر أيضا كان احترز على نفسه و أعلم أصحابه بذلك. فلما اشتغل بمصاب ابنه أحمد انتهز الملك الناصر الفرصة و سقاه فى الحال. و أيضا لو بقى ولده ربما وثب حواشى بكتمر به على السلطان، و هذا الذى قلته على الظنّ منّى. و اللّه أعلم. و يأتى أيضا بعض ذكر بكتمر الساقى فى الوفيات. انتهى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۰۷

ثم وصل إلى القاهرة مبشّر الحاج فى ثامن المحرّم سنة ثلاث و ثلاثين تلك المظفّرى الجمدار و أخبر بسلامة السلطان، فدقّت البشائر و خلع عليه خلع كثيرة و اطمأنّ الناس بعد ما كان بينهم أراجيف. ثم وصل السلطان إلى الديار المصريّة فى يوم السبت ثامن عشر المحرّم بعد ما خرج معظم الناس إلى لقائه، و مدّ شرف الدين النّشو شقاق الحرير و الزّربفت من بين العروستين إلى باب الإسطبل، فلمّا توسّط بين الناس صاحت العوامّ: هو إيّاه ما هو إيّاه! بالله اكشف لنا لثامك، و أرنا وجهك! و كان قد تلثّم، فعند ذلك حسر اللثام عن وجهه فصاحوا بأجمعهم:

الحمد للّه على السلامة، ثمّ بالغوا فى إظهار الفرح به و الدعاء له و أمعنوا فى ذلك، فسّر السلطان بهذا الأمر؛ و دخل القلعة و دقّت البشائر و عملت الأفراح ثلاثة أيام.

و هذه حجّة السلطان الملك الناصر الثالثة، و هى التى يضرب بها المثل. و جلس السلطان على كرسىّ الملك و خلع على الأمراء قاطبة. و كان بلغ السلطان أنّ ألماس الحاجب كان اتّفق مع بكتمر الساقى على الفتك بالسلطان.

قلت: و بكتمر و ألماس كلاهما مملوكه و مشتراه. انتهى.

ثم أخذ السلطان يدبّر على ألماس حتّى قبض عليه و على أخيه قرا فى العشرين من ذى الحجّة سنة ثلاث و ثلاثين، و حمل قرا من يومه إلى الإسكندرية. و سبب معرفة السلطان اتّفاق ألماس مع بكتمر أنّ الملك الناصر لمّا مات بكتمر الساقى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۰۸

صحبته بطريق الحجاز احتاط على موجوده، فكان من جملة الموجود جمدان ففتحه السلطان فوجد فيه جوابا من الأمير ألماس إلى بكتمر الساقى يقول فيه: إنّنى حافظ القاهرة و القلعة إلى أن يرد علىّ منك ما أعتمده، فتحقّق السلطان أمره و قبض عليه، و لمّا قبض السلطان على ألماس أخذ جميع أمواله و كان مالا جزيلا إلى الغاية، فإنّه كان ولى الحجوبيّة و باشرها و ليس بالديار المصرية نائب سلطنة، فإن الملك الناصر لم يولّ أحدا معه بعد الأمير أرغون، فعظم أمر ألماس فى الحجوبيّة لذلك فصار هو فى محلّ النيابة، و يركبون الأمراء و ينزلون فى خدمته و يجلس فى باب القلعة فى منزلة النائب، و الحجّاب و الأمراء وقوف بين يديه. و كان ألماس رجلا طوالا غتميّا لا يفهم بالعربية، يفعل ذلك عامدا لإقامة الحرمة و يظهر البخل و لم يكن كذلك، بل كان يفعل ذلك خوفا من الملك الناصر، فإنّه كان يطلق لمماليكه الأرباع و الأملاك المثمّنة و ليس البخيل كذلك. و يأتى أيضا من ذكره شىء فى الوفيات.

ثم فى سنة أربع و ثلاثين و سبعمائة قدم تنكز إلى القاهرة و أقام بها أيّاما ثم عاد إلى محلّ ولايته فى يوم الخميس ثالث شهر رجب

من سنة أربع و ثلاثين و سبعمائة.

و فى هذه السنة أفرج السلطان عن الأمير بهاء الدين أصلم و عن أخيه قرمجى و عن بكتوت القرمانى، فكانت مدّة اعتقال أصلم و قرمجى ست سنين و ثمانية أشهر.

ثم خلع السلطان على الأمير آقوش الأشرفى المعروف بنائب الكرك بنيابة طرابلس بعد موت قرطاى.

قلت: و إخراج آقوش نائب الكرك المذكور من مصر لأمور، منها: صحبته مع ألماس، و منها ثقله على السلطان، فإنّ السلطان كان يجلّه و يحترمه و يقوم له

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۰۹

كلّما دخل عليه لكبر سنه. و منها معارضته للسلطان فيما يرومه، فأخرجه و بعث له بألف دينار و خرج معه برسبغا مسفّرا له، فلمّا أوصله إلى طرابلس و عاد خلع عليه السلطان، و استقرّ به حاجبا صغيرا. و خلع على الأمير مسعود [بن أوحد] بن الخطير [بدر الدين] و استقرّ حاجبا كبيرا عوضا عن ألماس. و ورد الخبر على السلطان من بغداد بأنّ صاحبها أمر النصارى بلبس العمائم الزّرق و اليهود الصّفر اقتداء بالسلطان الملك الناصر بهذه السّنّة الحسنة.

و فى يوم الأحد رابع المحرّم سنة خمس و ثلاثين و سبعمائة قبض السلطان على الطواشى شجاع الدين عنبر السّحرتى مقدّم المماليك بسعاية النّشو ناظر الخاصّ، و أنعم بإقطاعه و هى إمرة طبلخاناه على الطواشى سنبل، و استقرّ نائب مقدّم المماليك و خلع على الأمير آقبغا عبد الواحد و استقرّ مقدّم المماليك السلطانية مضافا للأستاداريّة عوضا عن عنبر السّحرتى كما كان أوّلا. فلمّا تولّى آقبغا تقدمة المماليك عرض الطباق و وضع فيهم و ضرب جماعة من السّلاح داريّة و الجمدارية لامتناعهم عنه و نفاهم إلى صفد فأعجب السلطان ذلك. و فى شهر رجب من سنة خمس و ثلاثين أفرج السلطان عن الأمير بيبرس الحاجب، و كان له فى السجن من سنة خمس و عشرين، و أفرج أيضا عن الأمير طغلق التّتارى، و هو أحد الأمراء الأشرفيّة و كان له فى السجن ثلاث و عشرون سنة فمات بعد أسبوع من قدومه.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۱۰

قلت: لعلّه مات من شدّة الفرح.

ثم أفرج السلطان عن الأمير غانم بن أطلس خان، و كان له فى السجن خمس و عشرون سنة، و أفرج عن الأمير برلغى الصغير و له فى السجن ثلاث و عشرون سنة، و أفرج عن جماعة أخر، و هم: أيدمر اليونسىّ أحد أمراء البرجيّة المظفّريّة و الأمير لاچين العمرى و الأمير طشتمر أخو بتخاص و الأمير بيبرس العلمى، و كان من أكابر الأمراء البرجيّة من حواشى المظفّر بيبرس، و الأمير قطلوبک الأوجاقىّ و الشيخ على مملوک سلّار و الأمير تمر السّاقى نائب طرابلس أحد المنصوريّة، و كان قبض عليه سنة أربع عشرة، و الجميع كان حبسهم فى ابتداء سلطنة الملك الناصر الثالثة بعد سنة عشر و سبعمائة، و أنعم السلطان على تمر الساقى بطبلخانات بالشام، و أنعم على بيبرس الحاجب بإمرة فى حلب، و أنعم على طشتمر بإمرة بدمشق و على أيدمر اليونسىّ و بلاط بإمرة فى طرابلس.

ثم فى يوم الخميس رابع شهر ربيع الأوّل أنعم السلطان على ولده أبى بكر بإمرة، و ركب بشربوش من إسطبل الأمير قوصون، و سار من

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۱۱

الرّميلة الى باب القرافة، فطلع إلى القلعة، و الأمراء و الخاصّكيّة فى خدمته، و عمل لهم الأمير قوصون مهمّا عظيما فى إسطبله. ثم إنّ السلطان قبض على الأمير جمال الدين

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۱۲

آقوش الأشرفىّ المعروف بنائب الكرك، و هو يوم ذاک نائب طرابلس فى نصف جمادى الآخرة و حبس بقلعة صرخد، ثم نقل منها

فی مستهلّ شوّال إلی الإسکندریة، و نزل النّشو إلی بیته [بالقاهرة] و أخذ موجوده و موجود حریمه و عاقب أستاداره، و استقرّ عوضه فی نیابة طرابلس الأمیر طینال. ثم اشتغل الملک الناصر بضعف مملوکه و محبوبه ألطنبغا الماردانیّ، و تولّی تمریضه بنفسه إلی أن عوفی فأحبّ ألطنبغا أن ینشئ له جامعا تجاه ربع الأمیر طغجی خارج باب زویلة، و اشتری عدّة دور من أربابها بغیر رضاهم، فندب السلطان النّشو لعمارة الجامع المذکور، فطلب النشو أرباب الأملاک و قال لهم: الأرض للسلطان و لکم قیمة البناء، و لا زال بهم حتّی ابتاعها منهم بنصف ما فی مکاتیبهم من الثمن، و کانوا قد أنفقوا فی عمارتها بعد مشتراها جملة، فلم یعتدّ لهم النّشو منها بشیء، و أقام النشو فی عمارته حتّی تمّ فی أحسن هندام، فجاء مصروفه ثلثمائة ألف درهم و نیّف، سوی ما أنعم به علیه السلطان من الخشب و الرّخام

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۱۳

و غیره. و خطب به الشیخ رکن الدین [عمر بن إبراهیم] الجعبریّ من غیر أن یتناول له معلوما.

ثمّ جلس السلطان بدار العدل فوجد به رقعة تتضمّن الوقیعة فی النّشو و کثرة ظلمه و تسلّط أقاربه علی الناس و کثرة أموالهم و تعشّق صهره ولیّ الدولة لشابّ ترکیّ، فکان قبل ذلک قد ذکر الأمیر قوصون للسلطان أن عمیرا الذی کان شغف به الأمیر ألماس قد ولع به أقارب النّشو و أنفقوا علیه الأموال الکثیرة، فلم یقبل السلطان فیه قول الأمراء لمعرفته لکراهتهم له، فلمّا قرئت علیه القصة قال: أنا أعرف من کتبها، و استدعی النّشو و دفعها [إلیه] و أعاد له ما رماه به الأمیر قوصون، فحلف النّشو علی براءتهم من هذا الشاب، و إنّما هذا و مثله ممّا یفعله حواشی الأمیر قوصون، و قصد قوصون تغیّر خاطر السلطان علیّ و بکی و انصرف.

فطلب السلطان قوصون و أنکر علیه إصغاءه لحواشیه فی حقّ النشو و أخبره بحلف النّشو، فحلف قوصون أنّ النّشو یکذب فی حلفه و لئن قبض السلطان علی الشاب و عوقب لیصدقنّ السلطان فیمن یعاشره من أقارب النّشو، فغضب السلطان و طلب أمیر مسعود الحاجب و أمره بطلب الشابّ و ضربه بالمقارع حتّی یعترف بجمیع من یصحبه و کتابة أسمائهم و ألزمه ألّا یکتم عنه شیئا، فطلبه و أحضر المعاصیر فأملی علیه الشابّ عدّة کثیرة من الأعیان، منهم: ولیّ الدولة فخشی مسعود علی الناس من الفضیحة، و قال للسلطان: هذا الکذّاب ما ترک أحدا فی المدینة حتّی اعترف علیه، و أنا أعتقد أنّه یکذب علیهم، و کان السلطان حشیم النفس یکره الفحش، فقال لمسعود: یا بدر الدین، من ذکر من الدواوین؟ فقال: و اللّه یا خوند ما خلّی أحدا من خوفه حتّی ذکره، فرسم السلطان بإخراج عمیر المذکور و والده إلی غزّة،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۱۴

و رسم لنائبها أن یقطعهما خبزا بها. و کان ذلک أوّل انحطاط قدر النّشو عند السلطان.

ثم اتّفق بعد ذلک أن طیبغا القاسمی الناصریّ، و کان یسکن بجوار النّشو و له مملوک جمیل الصورة فآعتشر به ولیّ الدولة و غیره من إخوة النّشو، فترصد أستاذه طیبغا حتّی هجم یوما علیهم و هو معهم فأخذه منهم و خرج و بلغ النّشو ذلک، فبادره بالشّکوی إلی السلطان بأنّ طیبغا القاسمیّ یتعشّق مملوکه و یتلف علیه ماله، و أنّه هجم و هو سکران علی بیتی و حریمی و قد شهر سیفه و بالغ فی السبّ، و کان السلطان یمقت علی السکر فأمر فی الحال بإخراج طیبغا و مملوکه إلی الشام. و کان السلطان مشغولا فی هذه الأیام بعمارة قناطر شبین القصر علی بحر أبی المنجّا فأنشئت تسع قناطر.

ثم توجّه السلطان فی شهر ربیع الآخر من سنة ستّ و ثلاثین و سبعمائة إلی الوجه القبلی للصّید، ثم عاد إلی القاهرة بعد أن غاب خمسة و أربعین یوما. کلّ ذلک و أمر النّشو فی إدبار بالنسبة لما کان علیه. ثم جلس السلطان یوما بالمیدان فسقط علیه طائر حمام و علی جناحه ورقة تتضمن الوقیعة فی النّشو و أقاربه و القدح فی السلطان بأنه قد أخرب دولته، فغضب السلطان غضبا شدیدا و طلب النّشو

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۱۵

و أوقفه على الورقة و تنّمر عليه لكثرة ما شكى منه، فقال النّشو: يا خوند، الناس معذورون و حقّ رأسك! لقد جاءنى خبر هذه الورقة ليلة كتبت، و هى فعل المعلم أبى شاكر بن سعيد الدولة ناظر البيوت، كتبها فى بيت الصّيفىّ كاتب الأمير قوصون، و قد اجتمع هذا و أقاربه فى التدبير علىّ، ثم أخذ النّشو يعرّف السلطان ما كان من أمر سعيد الدولة فى أيّام المظفّر بيبرس الجاشنكير و أغراه به حتّى طلبه و سلّمه إلى الوالى علاء الدين علىّ بن المروانىّ، فعاقبه الوالى عقوبة مؤلمة. ثم طلب السلطان الأمير قوصون و عنّفه بفعل الصّفىّ كاتبه، ثم تتّبع النّشو حواشى أبى شاكر و قبض عليهم و سلّمهم إلى الوالى و خرّب بيوتهم و حرثها بالمحراث، و اشتدّت و طأة النّشو على الناس و استوحش الناس منه قاطبة، و صار النّشو يدافع عن نفسه بكلّ ما يمكن و المقادير تمهله.

ثم بدا للسلطان أن ينقل الخليفة من مناظر الكبش إلى قلعة الجبل فنقل فى ثالث عشرين ذى القعدة من سنة ستّ و ثلاثين. و الخليفة المستكفى بالله أبو الربيع سليمان، و سكن الخليفة بالقلعة حيث كان أبوه الحاكم نازلا ببرج السّباع بعياله، و رسم على الباب جاندار بالنّوبة، و سكن ابن عمّه إبراهيم فى برج بجواره بعياله، و رسم عليه جاندار آخر و منعا عن الاجتماع بالناس، كلّ ذلك لأمر قيل.

ثمّ إن السلطان فى سابع عشر محرّم سنة سبع و ثلاثين و سبعمائة عقد عقد ابنه أبى بكر على ابنة الأمير سيف الدين طقزدمر الحموىّ الناصرى أمير مجلس بدار الأمير قوصون. ثم قدم الأمير تنكز نائب الشام ثانى شهر رجب من سبع و ثلاثين المذكورة

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۱۶

على السلطان و هو بسرياقوس فخلع عليه و سافر فى ثانى عشرينه إلى محلّ ولايته.

ثم فى هذه السنة زاد ظلم النّشو على التّجّار، و رمى على التّجّار الخشب بأضعاف ثمنه، فكثرت الشّكوى منه إلى أن توصّل بعض التجار لزوجة السلطان خوند طغاى أمّ آنوک، و قال لها: رمى علىّ النّشو خشبا يساوى ألفى درهم بألفى دينار، فعرّفت أمّ آنوک السلطان بذلک، فأمر السلطان بطلب التاجر و قد اشتدّ غضبه على النّشو و بلغ النّشو الخبر، ففى الحال أرسل النّشو رجلا إلى التاجر و سأله فى قرض مبلغ من المال، فعرّفه التاجر أمر الخشب و ما هو فيه من الغرامة، فقال له الرجل: أرنى الخشب فإنى محتاج إليه، فلما رآه قال: هذا غرضى و اشتراه منه بفائدة ألف درهم إلى شهر، و فرح التاجر بخلاصه من الخشب و أشهد عليه بذلک، و أخذ الخشب و أتى بالمعاقدة إلى النّشو، فأخذها النّشو و طلع إلى السلطان من فوره، و قال للسلطان: يا مولانا السلطان، نزلت آخذ الخشب من التاجر وجدته قد باعه بفائدة ألف درهم، قلم يصدّقه السلطان و عوّق النّشو و قد امتلأ عليه غضبا، فطلب التاجر و سأله عمّا رماه عليه النّشو من الخشب فاغترّ التاجر بأمّ آنوک و أخذ يقول: ظلمنى النّشو و أعطانى خشبا بألفى دينار يساوى ألفى درهم، فقال له السلطان: و أين الخشب: فقال: بعته بالدّين، فقال النّشو: قل الصحيح، فهذه معاقدتک معه، فلم يجد التاجر بدّا من الاعتراف، فحنق عليه السلطان و قال له: ويلک! تقيم علينا القالة، و أنت تبيع بضاعتنا بفائدة؛ و سلّمه إلى النشو و أمره بضربه، و أخذ الألفى دينار منه مع مثلها، و عظم عنده النّشو و تحقّق صدق ما يقوله، و أن الذى يحمل الناس على التكلّم فيه الحسد. ثم عبر السلطان إلى الحريم وسّبهنّ و عرّفهنّ بما جرى من كذب التاجر و صدق النّشو، و قال: مسكين النشو، ما وجدت أحدا يحبّه.

ثم أفرج السلطان عن الأمير طرنطاى المحمّدى بعد ما أقام فى السجن سبعا و عشرين

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۱۷

سنة و أخرج إلى الشام. ثم فى يوم الاثنين ثانى عشر رمضان ركب النّشو على عادته فى السّحر إلى الخدمة فاعترضه فى طريقه عبد المؤمن بن عبد الوهاب السلامى المعزول عن ولاية قوص، فضربه بالسيف فأخطأ رأس النشو و سقطت عمامته عن رأسه، و قد جرح كتفه و سقط على الأرض و بحا الفارس بنفسه، و فى ظنّه أن رأس النّشو قد طاح عن بدنه لعظم ضربه، و بلغ السلطان ذلک فغضب و لم يحضر السّماط، و بعث إلى النّشو بعدّة من الجمدارية و الجرايحية فقطّبت ذراعه بستّ إبر و جبينه باثنتى عشرة إبرة، و ألزم والى القاهرة و مصر بإحضار غريم النشو. و أغلظ السلطان على الأمراء بالكلام، و ما زال يشتدّ و يحتدّ حتّى عادت القصّاد بسلامة النّشو فسكن ما به؛ ثم بعث النّشو مع أخيه رزق اللّه إلى السلطان يعلمه بأنّ هذا من فعل الكتّاب بموافقة لؤلؤ، فطلب السلطان الوالى و أمره

بمعاقبـة الكتّاب الـذين هم فى المصـادرة مع لؤلؤ حتى يعترفوا بغريم النّشو. و كـان السـلطان قـد قبض على لؤلؤ و كتّابه و صادره قبل تـاريخه بموافقـة النّشو، فنزل الوالى و عـاقب لؤلؤا و ضـربه ضـربا مبرّحـا، و عـاقب المعلّم أبا شاكر و قرموطا عقابا شديـدا، فلم يعترفوا بشى ء.

و عوفى النّشو و طلع إلى القلعة و خلع السلطان عليه، و نزل من القلعة بعد أن رتّب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۱۸

السلطان المقدّم إبراهيم بن أبى بكر بن شدّاد بن صابر أن يمشى فى ركابه و معه عشرة من رجاله فى ذهابه و إيابه، ثم قبض النّشو بعد ذلك على [تاج الدين] ابن الأزرق و صادره حتّى باع أملاكه، و كان من جملة أملاكه ملك بشاطئ النيل، فاشتراه منه الأمير عزّ الدين أيدمر الخطيرىّ، و كان بجانبه ساقية فهدم الخطيرى الدار و الساقية و عمرهما جامعا بخطّ بولاق على شاطئ النيل.

قلت: و كان أصل موضع هـذا الجامع المذكور أنّه لمّا أنشئت العمائر ببولاق عمّر الحاج محمد بن عزّ الفراش بجوار الساقية المذكورة دارا على النيل، ثم انتقلت بعد موته إلى ابن الأزرق هذا فكانت تعرف بدار الفاسـقين، من كثرة اجتماع النصارى بها على ما لا يرضـى اللّه تعالى، فلمّا صادره النّشو باعها فيما باعه فاشتراها الخطيرى بثمانيـة آلاف درهم، و هـدمها و بنى مكانها و مكان الساقية جامعا أنفق فيه أموالا جزيلة فى أساساته مخافة من زيادة النيل، و أخذ أراضـى حوله من بيت المال، و أنشأ عليها الحوانيت و الرّباع و الفنادق. فلمّا تمّ بنـاؤه قوى عليه مـاء النيـل فهـدم جانبـا منه فأنشأ تجـاهه زريبـة رمى فيهـا ألف مركـب موسوقـة بالحجـارة، قاله الشـيخ تقىّ الـدين المقريزى رحمه اللّه و هـو حجـة فيمـا ينقله. لكن أقول لعله وهم فى هـذا و أراد أن يقول: وسق ألف مركـب بالحجـارة فسـبق قلمه بما ذكرناه، قال:

و سـمّى هـذا الجامع بجامع التوبـة، و جاء فى غايـة الحسن، فلما أفرج عن ابن الأزرق من المصادرة ادّعى أنّه كان مكرها فى بيع داره، فأعطاه الأمير أيدمر الخطيرىّ

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۱۹

ثمانيـة آلاـف درهم أخرى حتى استرضاه، و لا يكون جامعه بنى فى أرض مكرهـة انتهى. و قـد خرجنا عن المقصود و لنرجع إلى أمر الملك الناصر.

و أمّا النشو فإنّه لا زال على ابن الأزرق هذا حتّى قبض عليه ثانيا و عاقبه حتى مات، و ذلك فى سنة سبع و ثلاثين و سبعمائة.

ثمّ فى سـنة ثمان و ثلاثين و سـبعمائة أنعم السـلطان الملك الناصـر فى يوم واحد على أربعة من مماليكه بمائتى ألف دينار مصـريّة، و هم: قوصون و ألطنبغـا المـاردانىّ و ملكتمر الحجـازىّ و بشـتك. و فى هـذه السـنة ولـد للسـلطان ابنه صالـح من بنت الأمير تنكز نائب الشام، فعمل لها السـلطان بشـخاناه و دائر بيت زركش، و تكملة البذلة من المخدّات و المقاعد بمائتى ألف دينار و أربعين ألف دينار، و عمل لها الفرخ سـبعة أيام. و فى هذه السـنة وقع للملك الناصـر غريبة، و هو أنّه اسـتدعى من بلاد الصـعيد بألفى رأس من الضّأن، و اسـتدعى من الوجه البحرىّ بمثلها لتتمّة أربعة آلاف رأس. و شـرع السـلطان فى عمل حوش برسمها و برسم الأبقار البلق، فوقع اختياره على موضع بقلعة الجبل مساحته أربعة أفدنة، قد قطعت منه الحجارة لعمارة القاعات

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۲۰

التى بالقلعـة حتّى صار غورا عظيما، فطلب كاتب الجيش و رتّب على كلّ من الأمراء المقـدّمين مائـة رجل و مائـة دابّة لنقل التّراب، و على كـلّ من أمراء الطبلخانـاه بحسب حـاله. و أقام الأمير آقبغا عبـد الواحـد شادا و أن يقيم معه من جهـة كلّ أمير أسـتاداره بعـدّة من جنده. و ألزم الأسـرى بالعمل. و رسم لوالى القاهرة بتسخير العامّة، فنصب الأمير آقبغا خيمته على جانب الموضع، و استدعى استاداريّة الأـمراء و اشـتدّ عليهم، فلم يمض ثلاثـة أيـام حتّى حضـرت إليه رجـال الأمراء من نواحيهم، و نزل كلّ أسـتادار بخيمته، و معه دوابّه و رجاله فقسـمت عليهم الأرض قطعا معيّنـة لكلّ واحـد منهم، فجدّوا فى العمل ليلا و نهارا و اسـتحثهم آقبغا المذكور بالضـرب، و كان

ظالما غشوما، فعسف بالرجال و کلّفهم السّرعة فی أعمالهم من غیر رخصة و لا مکّنهم [من] الاستراحة، و کان الوقت صیفا حارّا فهلک جماعة کثیرة منهم فی العمل لعجز قدرتهم عمّا کلّفوه. و مع ذلک کلّه و الولاة تسخّر من تظفر به من العامّة و تسوقه إلی العمل، فکان أحدهم إذا عجز ألقی بنفسه إلی الأرض، رمی أصحابه علیه التّراب فیموت لوقته. هذا و السلطان یحضر کلّ یوم حتّی ینظر العمل، و کان الأمیر ألطنبغا الماردانی قد مرض و أقام أیاما بالمیدان علی النیل حتّی عوفی و طلع إلی القلعة من باب القرافة، فاستغاث به الناس و سألوه أن یخلّصهم من هذا العمل، فتوسّط لهم عند السلطان، حتی أعفی الناس من السّخر و أفرج عمّن قبض علیه منهم، فأقام العمل ستة و ثلاثین یوما إلی أن فرغ منه، و أجریت إلیه المیاه، و أقیمت به الأغنام المذکورة و الأبقار البلق و بنیت به بیوت للإوز و غیرها.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۲۱

قلت: لعلّ هذا الموضع یکون هو الحوش الذی یلعب فیه السلطان بالکرة تحت قاعة الدهیشة. و اللّه أعلم. و عند فراغ هذا الحوش استدعی السلطان الأمراء و عمل لهم سماطا جلیلا، و خلع علی جماعة ممّن باشر العمل و غیرهم.

ثمّ أنشأ السلطان لمملوکیه: الأمیر یلبغا الیحیاویّ و لأمیر ألطنبغا الماردانیّ لکلّ منهما قصرا تجاه حمّام الملک السعید قریبا من الرّمیلة تجاه القلعة، و أخذ من إسطبل الأمیر أیدغمش أمیر آخور قطعة، و من إصطبل الأمیر قوصون قطعة، و من إصطبل طشتمر الساقی قطعة، و نزل السلطان بنفسه حتّی قرّر أمره، و رسم السلطان للأمیر قوصون أن یشتری الأملاک الّتی حول إصطبله و یضیفها فیه. ثمّ أمر السلطان أن یکون بابا الإصطبلین اللذین أمر بإنشائهما لیلبغا و ألطنبغا تجاه حمّام الملک السعید، و أقام الأمیر آقبغا عبد الواحد شادّ عمارة القصرین و الإصطبلین المذکورین.

قلت: أمّا إصطبل قوصون فهو البیت المعدّ لسکن کلّ من صار أتابک العساکر فی زماننا هذا، الذی بابه الواحد تجاه باب السلسلة. و أمّا

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۲۲

بیت طشتمر الساقی حمّص أخضر، هو البیت الذی الآن علی ملک الأمیر جرباش المحمّدی الأتابک، الذی بابه الواحد من حدرة البقر، و بیت أیدغمش أمیر آخور لعلّه یکون بیت منجک الیوسفیّ الذی هو الآن علی ملک تمربغا الظاهریّ رأس نوبة النّوب.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۲۳

و أمّا القصران و الإسطبلان اللّذان عمّرهما السلطان لیلبغا الیحیاویّ و ألطنبغا الماردانّی أخذهما السلطان حسن، و جعل مکانهما مدرسته المعروفة بمدرسة السلطان حسن تجاه قلعة الجبل. و اللّه أعلم.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۲۴

و فی هذه السنة (أعنی سنة ثمان و ثلاثین و سبعمائة) عمل السلطان جسرا بالنیل علی جسر ابن الأثیر، و حفر الخلیج الکبیر المعروف بخلیج الخور. و سببه أنّ

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۲۵

النیل قوی علی ناحیة بولاق و هدم جامع الخطیریّ حتّی احتاج أیدمر الخطیریّ لتجدیده، فرسم السلطان للسکّان علی شاطئ النیل بعمل زرابیّ لجمیع ملّاک الدور بالقرب من فم الخور، و ألّا یؤخذ منهم علیها حکر، فبنی صاحب کلّ دار زریبة تجاه داره فلم یفد ذلک شیئا، فکتب السلطان بإحضار مهندسی البلاد القبلیّة و البحریّة، فلمّا تکاملوا رکب السلطان إلی النیل و هم معه و کشف البحر فاتّفق

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۲۶

الرأی علی أن یحفر الرمل الذی بالجزیرة المعروفة بجزیرة أروی (أعنی الجزیرة الوسطی) حتّی یصیر خلیجا یجری فیه الماء، و یعمل

جسر وسط النيل يكون سدا يتصل

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۲۷

بالجزيرة (يعنى من الروضة) إلى الجزيرة الوسطانية، فإذا كانت زيادة النيل جرى الماء فى الخليج الذى حفر و كان قدّامه سدّ عال يرد الماء إليه، حتّى يتراجع النيل عن برّ بولاق و القاهرة إلى برّ ناحية منبابه. و عاد السلطان إلى القلعة و خرجت البرد من الغد إلى الأعمال بإحضار الرجال [للعمل] صحبة المشدّين و طلبت الحجارون بأجمعهم لقطع الحجارة من الجبل، ثم تحمل إلى الساحل و تملأ بها المراكب و تغرّق و هى ملأنة بالحجارة حيث يعمل [الجسر]، فلم يمض عشرة أيام حتى قدمت الرجال من النواحى و تسلّمهم آقبغا عبد الواحد و الأمير برسبغا الحاجب. و رسم السلطان لوالى القاهرة و لوالى مصر بتسخير العامّة للعمل فركبا و قبضا على عدّة كثيرة منهم، و زادوا فى ذلک حتى صارت الناس تؤخذ من المساجد و الجوامع و الأسواق، فتستّر الناس ببيوتهم خوفا من السخرة، و وقع الاجتهاد فى العمل و اشتدّ الاستحثاث حتّى إنّ الرجل كان يخرّ الى الأرض و هو يعمل لعجزه عن الحركة فتردم رفقته عليه الرمل فيموت من ساعته. و اتّفق هذا لخلائق كثيرة؛ و آقبغا عبد الواحد راكب فى حرّاقة يستعجل المراكب المشحونة بالحجارة، و السلطان ينزل إليهم فى كلّ قليل و يباشرهم و يغلظ على آقبغا و يحرّضه على السّرعة و استنهاض

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۲۸

العمال حتّى كمل فى مدّة شهر بعد أن غرق فيه اثنتا عشرة مركبا بالحجارة، وسق كلّ مركب ألف إردب. و كانت عدّة المراكب التى أشحنت بالحجارة المقطوعة من الجبل و رميت فى البحر حتّى صار جسرا يمشى عليه، ثلاثا و عشرين ألف مركب حجر سوى ما عمل فيه من آلات الخشب و السّرياقات و الحلفاء و نحو ذلک. و حفر الخليج بالجزيرة؛ فلمّا زاد النيل جرى فى الخليج المذكور و تراجع الماء حتّى قوى على برّ منبابة و برّ بولاق التّكرورىّ، فسرّ السلطان و الناس قاطبة بذلک، فإنّ الناس كانوا على تخوّف كبير من النيل على القاهرة. و أنفق السلطان على هذا العمل من خزانته أموالا كثيرة. كلّ ذلک فى سنة ثمان و ثلاثين و سبعمائة المذكورة.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۲۹

فلمّا استهلّت سنة تسع و ثلاثين و سبعمائة حضر فيها الأمير تنكز نائب الشام و رسم بسكناه فى داره بالكافورى على عادته، و خلع عليه خلعة الاستمرار على نيابة دمشق. و بعد أيّام تكلّم تنكز فى يلبغا نائب حلب فعزله السلطان عن نيابة حلب و أنعم عليه بنيابة غزّة. و قدّم تنكز فى هذه المرّة للسلطان تقدمة عظيمة تجلّ عن الوصف، فيها من صنف الجوهر فقط ما قيمته ثلاثون ألف دينار، و من الزّركش عشرون ألف دينار، و من أوانى البلّور و تعابى القماش و الخيل و السّروج و الجمال البخاتى ما قيمته مائتان و عشرون ألف دينار مصريّة، فلمّا انقضت التّقدمة أخذ السلطان تنكز و أدخله إلى الدور السلطانية حتى رأى ابنته زوجة السلطان، فقامت اليه و قبّلت يده، ثم أخرج السلطان إليه جميع بناته و أمرهنّ بتقبيل يد تنكز المذكور و هو يقول لهنّ واحدة بعد واحدة: بوسى يد عمّک، ثم عيّن منهنّ بنتين لولدى الأمير تنكز فقبّل تنكز الأرض و خرج من الدور، و السلطان يحادثه.

و أمر السلطان بالاهتمام إلى سفر الصعيد للصّيد على عادته و تنكز صحبته؛ و كان من إكرامه له فى هذه السّفرة ما لا عهد من ملک مثله، فلمّا عاد السلطان من الصعيد أمر النّشو بتجهيز كلفة عقد ابنى تنكز على ابنتيه، و كلفة سفر تنكز إلى الشام،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۳۰

فجهّز النّشو ذلک كلّه، و عقد لابنى تنكز على ابنتى السلطان فى بيت الامير قوصون، لكون قوصون أيضا متزوّجا بإحدى بنات السلطان، بحضرة القضاة و الأمراء.

ثمّ ولدت بنت الأمير تنكز من السلطان بنتا فسجد شكرا للّه بحضرة السلطان، و قال:

ياخوند، كنت أتمنى أن يكون المولود بنتا فإنها لو وضعت ذكرا كنت أخشى من تمام السعادة، فإنّ السلطان قد تصدّق علىّ بما غمرنى به من السعادة فخشيت من كمالها.

ثم جهّز السلطان الأمير تنكز و أنعم عليه من الخيل و التعابى القماش ما قيمته مائة و عشرون ألف دينار. و أقام تنكز فى هذه المرّة بالقاهرة مدّة شهرين، فلما وادع السلطان سأله إعفاء الأمير كجكن من الخدمة و أشياء غير ذلك فأجابه إلى جميع ما سأله. و كتب له تقليدا بتفويض الحكم فى جميع الممالك الشامية بأسرها، و أن جميع نوّابها تكاتبه بأحوالها، و أن تكون مكاتبته: «أعزّ اللّه أنصار المقرّ الشريف»، بعد ما كانت. «أعزّ اللّه أنصار الجناب» و أن يزاد فى ألقابه:

«الزاهدىّ العابدىّ العالمىّ كافل الإسلام أتابك الجيوش». و أنعم السلطان على مغنّية قدمت معه من دمشق من جملة مغانيه بعشرة آلاف درهم، و وصل لها من الدّور ثلاث بذلات زركش و ثلاثون تعبية قماش و أربع بذلات مقانع و خمسمائة دينار. ثم آخر ما قال السلطان لتنكز: إيش بقى لك حاجة؟ بقى فى نفسك شىء، أقضيه لك قبل سفرك؟ فقبّل الأرض و قال: و اللّه ياخوند، ما بقى فى نفسى شىء أطلبه إلّا أن أموت فى أيّامك، فقال السلطان: لا، إن شاء اللّه تعيش أنت و أكون أنا فداءك، أو أكون بعدك بقليل، فقبّل الأرض و انصرف، و قد حسده سائر الأمراء، [و كثر حديثهم] فيما حصل له من الإكرام الزائد، فاتّفق ما قال السلطان، فإنّه لم يقم بعد موت تنكز إلّا مدّة قليلة.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۳۱

و أمّا أمر النّشو فإنّه لم يزل على الظلم و العسف فى الرّعية و الأقدار تساعده إلى أن قبض عليه السلطان الملك الناصر فى يوم الاثنين ثانى صفر سنة أربعين و سبعمائة، و على أخيه مجد الدين رزق اللّه، و على [أخيه] المخلص و على مقدّم الخاصّ و رفيقه.

و سبب ذلك أنّه زاد فى الظلم حتى قلّ الجالب إلى مصر و ذهب أكثر أموال التجّار لطرح الأصناف عليهم بأغلى الأثمان، و طلب السلطان الزيادة فخاف العجز، فرجع عن ظلم العامّ إلى الخاصّ، و رتّب مع أصحابه ذلك، و كانت عادته فى كلّ ليلة أن يجمع إخوته و صهره و من يثق به فى النظر فيما يحدثه من المظالم، يقترح كلّ منهم ما يقترحه من لمظالم ثم يتفرقون، فرتّبوا فى ليلة من الليالى أو راقا تشتمل على فصول يتحصّل منها ألف ألف دينار عينا و قرأها على السلطان: منها التقاوى السلطانية المخلّدة بالنواحى من الدولة الظاهريّة بيبرس و المنصوريّة قلاوون فى إقطاعات الأمراء و الأجناد، و جملتها مائة ألف إردب و ستون ألف إردب سوى ما فى بلاد السلطان من التقاوى، و منها الرّزق الأحباسية الموقوفة على المساجد و الجوامع و الزوايا و غير ذلك، و هى مائة ألف فدان و ثلاثون ألف فدان. و قرّر مع السلطان أن يأخذ التقاوى المذكورة، و أن يلزم كلّ متولى إقليم باستخراجها و حملها، و أن يقيم شادّا يختاره لكشف الرّزق الأحباسية، فما كان منها على موضع عامر [بذكر اللّه] يعطيه نصف ما يحصل و يأخذ من مزارعيه فى النصف الآخر عن كلّ فدان مائة درهم.

قلت: و لم يصحّ ذلك للنّشو و صحّ مع أستادار زماننا هذا زين الدين يحيى الأشقر قريب ابن أبى الفرج لمّا كان ناظر المفرد فى أستادارية قرطوغان فإنّه أحدث

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۳۲

هذه المظلمة فى دولة الملك الظاهر، و دامت فى صحيفته إلى يوم القيامة، فأقول:

كم ترك الأول للآخر. انتهى.

قال: و يلزم المزارع بخراج ثلاث سنين، و ما كان من الرّزق على موضع خراب، أو على أهل الأرياف من الفقهاء و الخطباء و نحوهم أخذوا، و استخرج من مزارعيه خراج ثلاث سنين. و ممّا أحدثه أيضا أرض [جزيرة] الرّوضة تجاه مدينة مصر، فإنها بيد أولاد الملوک، فيستأجرها منهم الدواوين و ينشوا بها سواقى الأقصاب و غيرها. و منها ما باعه أولاد الملوک بأبخس الأثمان، و قرّر مع السلطان أخذ أراضى الرّوضة للخاصّ. و منها أرباب الرواتب السلطانية فإنّ أكثرهم عبيد الدواوين، و نساؤهم و غلمانهم يكتبونها باسم زيد و عمرو؛ و ذكر أشياء كثيرة من هذه المقولة إلى أن تعرض للأمير آقبغا عبد الواحد و لأمواله و حواصله، و حسّن للسلطان القبض عليه و شرع فى عمل ما قاله، فعظم ذلك على الناس و تراموا على خواصّ السلطان من الأمراء و غيرهم، فكلّموا السلطان فى ذلك و عرّفوه قبح

سيرة النّشو، و ما قصده إلّا خراب مملكة السلطان. ثم رميت للسلطان عدّة أوراق فى حقّ النّشو، فيها مكتوب:

أمعنت فى الظلم و أكثرته و زدت يا نشو على العالم

ترى من الظالم فيكم لنا فلعنة اللّه على الظالم

و أبيات أخر. و كان السلطان أرسل قرمجى إلى تنكز لكشف أخبار النّشو بالبلاد الشامية، فعاد بمكاتبات تنكز بالحطّ عليه، و ذكر قبح سيرته و ظلمه و عسفه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۳۳

و كان النّشو قد حصل له قولنج انقطع منه أياما، ثم طلع إلى القلعة و أثر المرض فى وجهه، و قرّر مع السلطان إيقاع الحوطه على آقبغا عبد الواحد من الغد، و كان ذلك فى أوّل يوم من صفر. و تقرّر الحال على أنه يجلس النّشو على باب الخزانة، فإذا خرج الأمير بشتك من الخدمة جلس معه، ثم يتوجّهان إلى بيت آقبغا و يقبضان عليه. فلما عاد النّشو إلى داره عبر الحمّام ليلة الاثنين و معه [شمس الدين محمد] بن الأكفانىّ، و قد قال له ابن الأكفانىّ: بأنّ على النشو فى هذا الشهر قطعا عظيما فأمر النّشو بعض عبيده السودان أن يحلق رأسه و يجرحه بحيث يسيل الدّم على جسده ليكون ذلك حظّه من القطع، ففعل به ذلك، و تباشروا بما دفع اللّه عنه من السوء. ثمّ خرج النّشو من الحمّام، و كان الأمير يلبغا اليحياوىّ أحد خواصّ السلطان و مماليكه قد توعّك جسده توعّكا صعبا فقلق السلطان عليه و أقام عنده لكثرة شغفه به، فقال له يلبغا فيما قال: ياخوند، قد عظم إحسانك لى و وجب نصحك علىّ و المصلحة القبض على النّشو، و إلّا دخل عليك الدخيل، فإنّه ما عندك أحد من مماليكك إلّا و هو يترقّب غفلة منك، و قد عرّفتك و نصحتك قبل أن أموت، و بكى و بكى السلطان لبكائه، و قام السلطان و هو لا يعقل لكثرة ما داخله من الوهم لثقته بمحبّة يلبغا له، و طلب بشتك فى الحال و عرّفه أنّ الناس قد كرهوا هذا النشو، و أنه عزم على الإيقاع به، فخاف بشتك أن يكون ذلك امتحانا من السلطان، ثم وجد عزمه قويّا فى القبض عليه، فاقتضى الحال إحضار الأمير قوصون أيضا فحضر و قوّى عزم السلطان على ذلك، و ما زالا به حتى قرّر معهما أخذه و القبض عليه. و أصبح النشو و فى ذهنه أنّ القطع

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة؛ ج۹؛ ص۱۳۳

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۳۴

الذى تخوّف منه قد زال عنه بما دبّره ابن الأكفانى من إسالة دمه. ثم علّق عليه عدّة من العقود و الطّلّسمات و الحروز و ركب إلى القلعة و جلس بين يدى السلطان على عادته، و أخذ معه فى الكلام على القبض على آقبغا عبد الواحد. ثم نهض النّشو و توجّه إلى باب الخزانة، و جلس عليها ينتظر مواعدة بشتك، فعند ما قام النّشو طلب السلطان المقدّم ابن صابر، و أسرّ إليه أن يقف بجماعته على باب القلعة و على باب القرافة، و لا يدع أحدا به من حواشى النّشو و جماعته و أقار به و إخوته أن ينزلوا و يقبضوا عليهم الجميع. و أمر السلطان بشتك و برسبغا الحاجب أن يمضيا إلى النّشو و يقبضا عليه و على أقاربه، فخرج بشتك و جلس بباب الخزانة فطلب النّشو من داخلها فظنّ النشو أنه جاء لميعاده مع السلطان حتّى يحتاطا على موجود آقبغا، فساعة ما وقع بصره عليه أمر مماليكه بأخذه فأخذوه إلى بيته بالقلعة، و بعث إلى بيت الأمير ملكتمر الحجازىّ فقبض على أخيه رزق اللّه، ثم أخذ أخاه المخلص و سائر أقار به. و طار الخبر فى القاهرة و مصر، فخرج الناس كلّهم كأنّهم جراد منشر، و ركب الأمير آقبغا عبد الواحد و الأمير طيبغا المجدى و الأمير بيغرا و الأمير برسبغا لإيقاع الحوطة على بيوت النّشو و أقاربه و حواشيه، و معهم عدوّه [القاضى جمال الدين إبراهيم المعروف ب] جمال الكفاة كاتب الأمير بشتك و شهود الخزانة، و أخذ السلطان يقول للأمراء: كم تقولون، النّشو ينهب مال الناس! الساعة ننظر المال الذى عنده! و كان السلطان يظنّ أنّه يؤدّيه الأمانة، و أنّه لا مال له، فندم الأمراء على تحسينهم مسك النّشو خوفا من ألّا يظهر له مال، لا سيما

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۳۵

قوصون و بشتك من اجل أنّهما كانا بالغا فى الحطّ عليه، فكثر قلقهما و لم يأكلا طعاما نهارهما و بعثا فى الكشف على الخبر. فلما

أوقع الأمراء الحوطة على دور الممسوكين بلغهم أنّ حريم النّشو فى بستان فى جزيرة الفيل، فساروا إليه و هجموا عليه فوجدوا ستين جارية و أمّ النّشو و امرأته و إخوته و ولديه و سائر أهله، و عندهم مائتا قنطار عنب و قند كثير و معصار و هم فى عصر العنب، فختموا على الدّور و الحواصل، و لم يتهيّأ لهم نقل شيء [منها]. هذا و قد غلّقت الأسواق بمصر و القاهرة، و اجتمع الناس بالرّميلة تحت القلعة و معهم النساء و الأطفال و قد أشعلوا الشموع و رفعوا على رءوسهم المصاحف و نشروا الأعلام و هم يصيحون استبشارا و فرحا بقبض النّشو، و الأمراء تشير إليهم أن يكثروا ممّا هم فيه، و استمرّوا ليلة الثلاثاء على ذلك، فلمّا أصبحوا وقع الصوت من داخل القلعة بأنّ رزق اللّه أخا النّشو قد قتل نفسه، و هو أنّه لما قبض عليه قوصون وكّل به أمير شكاره، فسجنه ببعض الخزائن، فلمّا طلع الفجر قام الأمير شكار إلى صلاة الصبح فقام رزق اللّه و أخذ من حياصته سكينا و وضعها فى نحره حتّى نفذت منه و قطعت و رائده، فلم يشعر أمير شكار إلّا و هو يشخّر و قد تلف، فصاح حتّى بلغ قوصون فانزعج لذلك و ضرب أمير شكاره ضربا مبرّحا إلى أن علم السلطان الخبر، فلم يكترث به.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۳۶

و فى يوم الاثنين المذكور أفرج السلطان عن الصاحب شمس الدين موسى ابن التاج إسحاق و أخيه و نزلا من القلعة إلى الجامع الجديد بمصر. و كان شمس الدين هذا قد وشى به النّشو حتّى قبض عليه السلطان، و أجرى عليه العقوبة أشهر إلى أن أشيع موته غير مرّة، وقد ذكرنا أمر عقوبة شمس الدين هذا و ما وقع له فى ترجمته فى تاريخنا «المنهل الصافى و المستوفى بعد الوافى»، فإنّ فى سيرته عجائب فلينظر هناك. قال الشيخ كمال الدين جعفر [بن ثعلب] الأدفوىّ فى يوم الاثنين هذا، و فى معنى مسك النّشو و غيره هذه الأبيات:

إنّ يوم الاثنين يوم سعيد فيه لا شكّ للبرية عيد

أخذ اللّه فيه فرعون مصر و غدا النّيل فى رباه يزيد

و قال الشيخ شمس الدين محمد [بن عبد الرحمن بن على الشهيربا] بن الصائغ الحنفى فى معنى مسك النّشو و الإفراج عن شمس الدين موسى و زيادة النيل هذه الأبيات:

لقد ظهرت فى يوم الاثنين آية أزالت بنعماها عن العالم البوسا

تزايد بحمر النيل فيه و أغرقت به آل فرعون و فيه نجا موسى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۳۷

و فى المعنى يقول أيضا القاضى علاء الدين على [بن يحيى] بن فضل اللّه كاتب السّرّ:

فى يوم الاثنين ثانى الشهر من صفر نادى البشير إلى أن أسمع الفلكا

يا أهل مصر نجا موسى و نيلكمو طغى و فرعون و هو النّشو قد هلكا

ثم فى يوم الثلاثاء نودى بالقاهرة و مصر: بيعوا و اشتروا و احمدوا اللّه تعالى على خلاصكم من النّشو. ثم أخرج رزق اللّه أخو النّشو ميّتا فى تابوت امرأة حتى دفن فى مقابر النصارى خوفا عليه من العامة أن تحرقه. ثم دخل الأمير بشتك على السلطان و استعفى من تسليم النشو خشية ممّا جرى من أخيه، فأمر السلطان أن يهدّده على إخراج المال، ثم يسلّمه لابن صابر فأوقفه بشتك و أهانه فالتزم إن أفرج عنه جمع للسلطان من أقاربه خزانة مال ثم تسلّمه ابن صابر فأخذه ليمضى به إلى قاعة الصاحب، فتكاثرت العامة لرجمه حتى طردهم نقيب الجيش و أخرجه و الجنزير فى عنقه حتى أدخله قاعة الصاحب، و العامة تحمل عليه حملة بعد حملة و النقباء تطردهم. ثم طلب السلطان فى اليوم المذكور جمال الكفاة إبراهيم كاتب الأمير بشتك و خلع عليه و استقرّ فى وظيفة نظر الخاصّ عوضا عن شرف الدين عبد الوهاب بن فضل اللّه المعروف بالنّشو بعد تمنّعه، و رسم له أن ينزل للحوطة على النشو و أقاربه، و معه الأمير آقبغا عبد الواحد و برسبغا الحاجب و شهود الخزانة، فنزل بتشريفه و ركب بغلة النّشو حتى أخرج حواصله، و قد أغلق الناس الأسواق و

تجمّعوا و معهم الطبول و الشموع و أنواع الملاهى و أرباب الخيال، بحيث لم يبق

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۳۸

خانوت بالقاهرة مفتوح نهارهم كلّه، ثم ساروا مع الأمراء على حالهم إلى تحت القلعة و صاحوا صيحة واحدة، حتى انزعج السلطان و أمر الأمير أيدغمش بطردهم، و دخلوا الأمراء على السلطان بما وجدوه للنشو، و هو من العين خمسة عشر ألف دينار مصرية. و ألفان و خمسمائة حبة لؤلؤ، قيمة كلّ حبّة ما بين ألفى درهم إلى ألف درهم. و سبعون فص بلخش قيمة كل فص [ما بين] خمسة آلاف درهم إلى ألف درهم. و قطعة زمرّد فاخر زنتها رطل. و نيّف و ستون حبلا من لؤلؤ كبار، زنة ذلک أربعمائة مثقال. و مائة و سبعون خاتم ذهب و فضّة بفصوص مثمنة.

و كفّ مريم مرصّع بجوهر. و صليب ذهب مرصّع. و عدّة قطع زركش؛ سوى حواصل لم تفتح. فخجل السلطان لمّا رأى ذلک، و قال للأمراء: لعن اللّه الأقباط و من يأمنهم أو يصدّقهم! و ذلک أنّ النّشو كان يظهر له الفاقة بحيث إنّه كان يقترض الخمسين درهما و الثلاثين درهما حتى ينفقها. و بعث فى بعض اللّيالى إلى جمال الدين إبراهيم [بن أحمد] بن المغربى رئيس الأطباء يطلب منه مائة درهم، و يذكر له أنه طرقه ضيف و لم يجد له ما يعشّيه به، و قصد بذلک أن يكون له شاهد عند السلطان بما يدّعيه من الفقر. فلما كان فى بعض الأيام شكا النّشو الفاقة للسلطان و ابن المغربىّ حاضر، فذكر للسلطان أنه اقترض منه فى ليلة كذا مائة درهم، فمشى ذلک على السلطان و تقرر فى ذهنه أنّه فقير لا مال له. انتهى.

و استمر الأمراء تنزل كلّ يوم لإخراج حواصل النّشو فوجدوا فى بعض الأيام من الصّينىّ و البلّور و التّحف السنيّة شيئا كثيرا. و فى يوم الخميس [خامسه] زيّنت القاهرة و مصر بسبب قبض النشو. زينة هائلة دامت سبعة أيام، و عملت أفراح

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۳۹

كثيرة. و عملت العامّية فيه عدّة أزجال و بلاليق، و أظهروا من الفرح و اللّهو و الخيال ما يجلّ وصفه، و وجدت مآكل كثيرة فى حواصل النّشو، منها: نحو مائتى مطر ملوحة و ثمانين مطر جبن و أحمال كثيرة من سوّاقة الشام. و وجد له أربعمائة بذلة قماش جديدة و ثمانون بذلة قماش مستعمل، و وجد له ستّون بغلطاق نشاوىّ مزركش و مناديل زركش عدّة كثيرة. و وجد له صناديق كثيرة فيها قماش سكندرىّ ممّا عمل برسم الحرّة جهة ملک المغرب قد اختلسه النّشو، و كثير من قماش الأمراء الذين ماتوا و الذين قبض عليهم. و وجد له مملوک تركىّ قد خصاه هو و اثنين معه ماتا، و خصى أيضا أربعة عبيد فماتوا، فطلب السلطان الذى خصاهم و ضربه بالمقارع، و جرّس و تتبعت أصحابه و ضرب منهم جماعة. ثم وجد بعد ذلک بمدّة لإخوة النشو ذخائر نفيسة، منها لصهره ولىّ الدولة صندوق فيه مائة و سبعون فصّ بلخش. و ستّ و ثلاثون مرسلة مكللة بالجوهر. و إحدى عشرة عنبرينة مكلّلة بلؤلؤ كبار. و عشرون طراز زركش، و غير ذلک ما بين لؤلؤ منظوم و زمرّد و كوافى زركش، قوّموا بأربعة و عشرين ألف دينار. و ضرب المخلص أخو النّشو و مفلح عبده بالمقارع، فأظهر المخلص الإسلام. ثم فى يوم الثلاثاء ثانى عشرين

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۴۰

شهر ربيع الأوّل وجدت ورقة بين فرش السلطان فيها: المملوک بيرم ناصح السلطان يقبّل الأرض و ينهى: إنّنى أكلت رزقک و أنت قوام المسلمين، و يجب على كلّ أحد نصحک، و إنّ بشتک و آقبغا عبد الواحد اتّفقا على قتلک مع جماعة من المماليک فآحترس على نفسک، و كان بشتک فى ذلک اليوم قد توجّه بكرة النهار إلى جهة الصعيد، فطلب السلطان الأمير قوصون و الأمير آقبغا عبد الواحد و أوقفهما على الورقة، فكاد عقل آقبغا أن يختلط من شدّة الرّعب، و أخذ الأمير قوصون يعرّف السلطان أن هذا فعل من يريد التشويش على السلطان و تغيير خاطره على مماليكه.

فأخرج السلطان البريد فى الحال لردّ الأمير بشتک فأدركه بإطفيح و قد مدّ سماطه، فلمّا بلغه الخبر قام و لم يمدّ يده إلى شىء منه. و جدّ فى سيره حتى دخل على السلطان، فأوقفه السلطان على الورقة فتنصّل ممّا رمى به كما تنصّل آقبغا و استسلم، و قال:

هذه نفسى و مالى بين يدى السلطان. و إنما حمل من رمانى بذلك الحسد على قربى من السلطان، و عظم إحسانه إلىّ و نحو هذا، حتى رقّ له السلطان و أمره أن يعود إلى الصيد إلى جهة قصده.

ثم طلب السلطان [ناظر] ديوان الجيش، و رسم له أن يكتب كلّ من اسمه بيرم و يحضره إلى آقبغا عبد الواحد، فارتجّت القلعة و المدينة، فطلب ناظر الجيش المذكورين و عرضهم و أخذ خطوطهم ليقابل بها كتابة الورقة فلم يجده. فلمّا أعيا آقبغا الظّفر بالغريم اتّهم النّشو أنّها من مكايده، و اشتدّ قلق السلطان و كثر انزعاجه بحيث إنه لم يستطع أن يقرّ بمكان واحد، و طلب والى القاهرة و أمره بهدم ما بالقاهرة من حوانيت صنّاع النّشّاب و بناى من عمل نشّابا شنق، فامتثل ذلك. و خرّب جميع مرامى النّشّاب، و غلّقت حوانيت القوّاسين، و نزل الأمير برسبغا إلى الأمراء جميعهم، و عرّفهم عن السلطان أنّ من رمى من مماليكم بالنّشاب أو حمل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۴۱

قوسا كان أستاذه عوضا عنه فى التلاف، و ألّا يركب أحد من الأمراء بسلاح و لا تركاش، و بينما الناس فى هذا الهول الشديد إذ دخل رجل يعرف بابن الأزرق- كان أبوه ممن مات فى عقوبة النّشو لما صادره، و قد تقدّم ذكر ابن الأزرق فى أمر بناء جامع الخطيرى- على جمال الكفاة و طلب الورقة ليعرّفهم من كتبها، فقام جمال الكفاة إلى السلطان و معه الرجل، فلما وقف عليها قال: يا خوند، هذه خطّ أحمد الخطائى، و هو رجل عند ولىّ الدولة صهر النّشو يلعب معه النّرد و يعاقره الخمر، فطلب المذكور و حاققه الرجل محاققة طويلة فلم يعترف، فعوقب عقوبات مؤلمة إلى أن أقرّ بأنّ ولىّ الدولة أمره بكتابتها، فجمع بينه و بين ولىّ الدولة فأنكر ولىّ الدولة ذلك، فطلب أن يرى الورقة فلما رآها حلف جهد أيمانه أنها خطّ ابن الأزرق الشاكى، لينال منه غرضه، من أجل أنّ النّشو قتل أباه، و حاققه على ذلك، فاقتضى الحال عقوبة ابن الأزرق فاعترف أنّها كتابته و أنه أراد أن يأخذ بثأر أبيه من النّشو و أهله، فعفا السلطان عن ابن الأزرق و رسم بحبس ابن الخطائى. و رسم لبرسبغا الخاجب و ابن صابر المقدم أن يعاقبا النّشو و أهله حتى يموتوا. و أذن السلطان للأجناد فى حمل النّشّاب فى السّفر دون الحضر، فصارت هذه عادة إلى اليوم.

و يقال إنّ سبب عقوبة النّشو أنّ أمراء المشورة تحدّثوا مع السلطان، و كان الذى ابتدأ بالكلام سنجر الجاولى و قبّل الأرض، و قال: حاشى مولانا السلطان من شغل الخاطر و ضيق الصدر، فقال السلطان: يا أمراء، هؤلاء مماليكى أنشأتهم و أعطيتهم العطاء الجزيل، و قد بلغنى عنهم ما لا يليق، فقال الجاولى:

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۴۲

حاشى للّه أنّ يبدو من مماليك السلطان شىء من هذا، غير أنّ علم مولانا السلطان محيط بأنّ ملك الخلفاء ما زال إلّا بسبب الكتّاب، و غالب السلاطين ما دخل عليهم الدّخيل إلّا من جهة الوزراء، و مولانا السلطان ما يحتاج فى هذا إلى أن يعرّفه أحد بما جرى لهم، و من المصلحة قتل هذا الكلب و إراحة الناس منه، فوافقه الجميع على ذلك، فضرب المخلص أخو النّشو فى هذا اليوم بالمقارع، و كان ذلك فى يوم الخميس رابع عشرين شهر ربيع الأوّل حتّى هلك يوم الجمعة العصر، و دفن بمقابر اليهود. ثمّ ماتت أمّه عقيبه. ثم مات ولىّ الدولة عامل المتجر تحت العقوبة و رمى للكلاب؛ هذا و العقوبة تتنوّع على النّشو حتّى هلك يوم الأربعاء ثانى شهر ربيع الآخر من سنة أربعين و سبعمائة فوجد النّشو بغير ختان، و كتب به محضر و دفن بمقابر اليهود بكفن قيمته أربعة دراهم و وكّل بقبره من يحرسه مدّة أسبوع خوفا من العامّة أن تنبشه و تحرقه. و كان مدّة ولايته و جوره سبع سنين و سبعة أشهر، ثم أحضر ولىّ الدولة صهر النّشو، و هذا بخلاف ولىّ الدولة عامل المتجر الذى تقدّم، و أمر السلطان بعقوبته، فدلّ على ذخائر النّشو ما بين ذهب و أوان، فطلبت جماعة بسبب ودائع النّشو، و شمل الضرر غير واحد. و كان موجود النّشو سوى الصندوق الذى أخذه السلطان شيئا كثيرا جدّا، عمل لبيعه تسع و عشرون حلقة، بلغت قيمته خمسة و سبعين ألف درهم. و كان جملة ما أخذ منه سوى الصندوق نحو مائتى ألف دينار. و وجد لولىّ الدولة عامل المتجر ما قيمته خمسون ألف دينار. و وجد لولىّ الدولة صهر النّشو زيادة على مائتى ألف دينار. و بيعت للنشو دور بمائتى ألف درهم. و ركب الأمير آقبغا عبد الواحد إلى دور آل النّشو فخرّبها كلّها، حتى ساوى بها الأرض و حرثها بالمحاريث

فى طلب الخبايا، فلم يجد بها من الخبايا إلا القليل. انتهى.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۴۳

و أمّا أصل النشو هـذا أنه كان هو و والـده و إخوته يخدمون الأمير بكتمر الحاجب، فلمّا انفصـلوا من عنده أقاموا بطّالين مدّة، ثم خدم النّشو هذا عند الأمير أيدغمش أمير آخور فأقام بخدمته إلى أن جمع السلطان فى بعض الأيام كتّاب الأمراء لأمر ما، فرآه السلطان و هو واقف من وراء الجماعة و هو شاب طويل نصـرانىّ حلو الوجه، فآسـتدعاه و قال له: إيش اسمک؟ قال: النّشو، فقال: أنا أجعلک نشوى و رتّبه مسـتوفيا فى الجيزة، و أقبلت سـعادته فيما ندبه إليه و ملا عينه، ثم نقله إلى استيفاء الدولة فباشـر ذلک مدّة حتى استسـلمه الأمير بكتمر السـاقى و سـلّم إليه ديوان سـيدى آنوک، ثم نقله بعـد ذلک إلى نظر الخاصّ بعـد موت القاضـى فخر الـدين ناظر الجيش، فإنّ شمس الدين موسى ابن التاج ولى الجيش، و النّشو هذا ولى عوضه الخاص. انتهى.

و فى آخر شـهر ربيع الآخر نودى على الـذهب أن يكون صـرف الـدينار بخمسـة و عشـرين درهما، و كان بعشـرين درهما. و فى هذه السنة فرغت مدرسة الأمير آقبغا عبد الواحد بجوار الجامع الأزهر، و أبلى الناس فى عمارتها ببلايا كثيرة، منها:

أنّ الصّنّاع كان قرّر عليهم آقبغا أن يعملوا بهذه المدرسة يوما فى الأسبوع بغير

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۴۴

أجرة، ثم حمل إليها الأصناف من الناس و من العمائر السلطانية، فكانت عمارتها ما بين نهب و سرقة، و مع هذا فإنّه ما نزل إليها قطّ إلا و ضـرب بها أحـدا زيادة على شدّة عسف مملوكه الذى أقامه شادّا بها، فلمّا تمّت جمع بها القضاة و الفقهاء و لم يولّ بها أحد، و كان الشريف المحتسب قدّم بها سماطا بنحو ستة آلاف درهم على أن يلى تدريسها فلم يتمّ له ذلک.

ثم إنّ السـلطان نزل إلى خانقاه سـرياقوس التى أنشأها فى يوم الثلاثاء ثامن عشـرين شـهر ربيع الآخر من سـنة أربعين و سـبعمائة، و قد تقدّمه إليها الشيخ شمس الدين محمد [بن] الأصفهانى و قوام الدين الكرمانىّ و جماعة من صوفية سعيد السعداء، فوقف السلطان على باب خانقاه سـعيد السـعداء بفرسه، و خرج إليه جميع صوفيّتها و وقفوا بين يديه، فسألهم من يختارونه شـيخا لهم بعد وفاة الشـيخ مجد الدين موسى

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۴۵

ابن أحمد بن محمد الأقصرائىّ فلم يعيّنوا أحدا، فولّى السلطان بها الركن الملطىّ خادم المجد الأقصرائى المتوفّى. و انقطع السلطان فى هذه الأيام عن الخروج إلى دار العدل نحو عشـرين يوما بسبب شغل خاطره لمرض مملوکه يلبغا اليحياوىّ و ملازمته له إلى أن تعافى، و عمل السـلطان لعافيته سماطا عظيما هائلا بالميدان و أحضر الأمراء، ثم استدعى بعدهم جميع صوفية الخوانق و الزوايا و أهل الخير و سائر الطوائف، و مدّ لهم الأسمطة الهائلة، و أخرج من الخزائن السلطانية نحو ثلاثين ألف درهم، أفرج بها عن المسجونين على دين، و أخرج للأمير يلبغا المذكور ثلاث حجورة بمائتى ألف درهم، و حياصة ذهب مرصّعة بالجوهر، كلّ ذلک لعافية يلبغا المذكور.

ثمّ فى هـذه السـنة تغيّر خـاطر السـلطان على مملوكه الأمير تنكز نائب الشام، و بلغ تنكز تغيّر خاطر السـلطان عليه، فجهّز أمواله ليحملها إلى قلعـة جعبر و يحرج هو إليها بعـد ذلک بحجّة أنّه يتصـيّد، فقدم إليه الأمير طاجار الدّوادار قبل ذلک فى يوم الأحد رابع عشـر ذى الحجة و عتبه و بلّغه عن السلطان ما حمله من الرسالة، فتغيّر الأمير

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۴۶

تنكز و بدأت الوحشة بينه و بين السـلطان، و عاد طاجار إلى السلطان فى يوم الجمعة تاسع عشر ذى الحجة فأغرى السلطان على تنكز و قـال: إنه عزم على الخروج من دمشق، فطلب السلطان بعـد الصـلاة الأمير بشـتک و الأمير بيبرس الأحمـدى و الأمير چنكلى بن البابا و الأمير أرقطاى و الأمير طقز دمر فى آخرين، و عرّفهم أنّ تنكز قـد خرج عن الطاعـة، و أنه يبعث إليه تجريدة مع الأمير چنكلى و الأمير بشـتک و الأـمير أرقطـاى و الأـمير أرنبغـا أمير جانـدار و الأـمير قمـارى أمير شـكار و الأمير قمارى أخو بكتمر الساقى و الأمير برسـبغا

الحاجب، و مع هذه الأمراء السبعة ثلاثون أمير طبلخاناه و عشرون أمير عشرة و خمسون نفرا من مقدّمى الخلقة و أربعمائة من المماليک السلطانية و جلس و عرضهم. ثم جمع السلطان فى يوم السبت عشرين ذى الحجّة الأمراء جميعهم و حلّف المجرّدين و المقيمين له و لولده الأمير أبى بكر من بعده، و طلبت الأجناد من النواحى للحلف، فكانت بالقاهرة حركات عظيمة، و حمل السلطان لكلّ مقدّم ألف مبلغ ألف دينار، و لكلّ طبلخاناه أربعمائة دينار، و لكل مقدم حلقة ألف درهم، و لكل مملوک خمسمائة درهم و فرسا، و قرقلا و خوذة، فاتّفق قدوم الأمير موسى بن مهنّا فقرّر مع السلطان القبض على الأمير تنكز، و كتب إلى العربان بأخذ الطرقات من كلّ جهة على تنكز. ثم بعث السلطان بهادر حلاوة من طائفة الأوجاقيّة على البريد إلى غزّة و صفد و إلى أمراء دمشق بملطّفات كثيرة.

ثم أخرج موسى بن مهنّا لتجهيز العربان و إقامته على حمص، و اهتمّ السلطان بأمر تنكز اهتماما زائدا جدّا.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۴۷

قلت: على قدر الصعود يكون الهبوط، ما لتلك الإحسان؟ و العظمة و المحبة الزائدة لتنكز قبل تاريخه إلا هذه الهمّة العظيمة فى أخذه و القبض عليه، و لكن هذا شأن الدنيا مع المغرمين بها!.

ثم إنّ الملک الناصر كثر قلقه من أمر تنكز و تنغّص عيشه و خرج العسكر المعيّن من القاهرة لقتال تنكز فى يوم الثلاثاء ثالث عشرين ذى الحجّة من سنة أربعين و سبعمائة. و كان حلاوة الأوجاقى قدم على الأمير ألطنبغا الصالحىّ نائب غزّة بملطّف. و فيه أنّه استقرّ فى نيابة الشام عوضا عن تنكز، و أنّ العسكر واصل إليه ليسيروا به إلى دمشق.

قلت: و ألطنبغا نائب غزّة هو عدوّ تنكز الذى كان تنكز سعى فى أمره حتى عزله السلطان من نيابة حلب و ولاه نيابة غزّة قبل تاريخه.

ثمّ سار حلاوة الأوجاقى إلى صفد و إلى الشام و أوصل الملطّفات إلى أمراء دمشق. ثم وصلت كتب ألطنبغا الصالحىّ إلى أمراء دمشق بولايته نيابة الشام.

ثم ركب الأمير طشتمر الساقى المعروف بحمّص أخضر نائب صفد إلى دمشق فى ثمانين فارسا، و اجتمع بالأمير قطلوبغا الفخرىّ و سنجر البشمقدار و بيبرس السّلاح دار و اتّفق ركوب الأمير تنكز فى ذلک اليوم إلى قصره فوق ميدان الحصى فى خواصه للنزهة، و بينما هو فى ذلک إذ بلغه قدوم الخيل من صفد، فعاد إلى دار السعادة و ألبس مماليكه السلاح، فأحاط به فى الوقت أمراء دمشق،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۴۸

و وقع الصوت بوصول نائب صفد، فخرج عسكر دمشق إلى لقائه و قد نزل بمسجد القدم، فأمر نائب صفد جماعة من المماليک الأمراء أن يعودوا إلى تنكز و يخرجوه إليه، فدخل عليه جماعة منهم تمر الساقى و الأمير طرنطاى البشمقدار و بيبرس السلاح دار و عرّفوه مرسوم السلطان فأذعن لقلّة أهبته للركوب، فإنّ نائب صفد طرقه على حين غفلة باتّفاق أمراء دمشق، و لم يجتمع على تنكز إلا عدّة يسيرة من مماليكه، فلذلک سلّم نفسه فأخذوه و أركبوه إكديشا و ساروا به إلى نائب صفد، و هو واقف بالعسكر على ميدان الحصى فقبض عليه و على مملوكيه: جنغاى و طغاى و سجنا بقلعة دمشق، و أنزل تنكز عن فرسه على ثوب سرج و قيّده و أخذه الأمير بيبرس السلاح دار و توجّه به إلى الكسوة، فحصل لتنكز إسهال و رعدة خيف عليه الموت، فأقام بالكسوة يوما و ليلة ثم مضى به بيبرس، و نزل طشتمر حمّص أخضر نائب صفد بالمدرسة النّجيبيّة، فتقدّم بهادر حلاوة عند ما قبض على تنكز ليبشّر السلطان بمسک تنكز، فوصل إلى بلبيس ليلا و العسكر نازل بها و عرّف الأمير بشتک. ثم سار حتى دخل القاهرة، و أعلم السلطان الخبر فسرّ سرورا زائدا، و كتب بعود العسكر من بلبيس إلى القاهرة ما خلا بشتک و أرقطاى و برسبغا الحاجب، فإنهم يتوجّهون إلى دمشق للحوطة

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۴۹

على مال تنكز و أن يقيم الأمير بيغرا أمير جاندار و الأمير قمارى أمير شكار بالصالحية إلى أن يقدم عليهما الأمير تنكز. و عاد جميع العسكر إلى الديار المصرية، و سار بشتک و رفيقاه إلى غزة فركب معهم الأمير ألطنبغا الصالحىّ إلى نحو دمشق فلقوا الأمير تنكز على

حسبان فسلّموا عليه و أكرموه، و كان بشتك لما سافر من القاهرة صحبة العسكر كان فى ذلك اليوم فراغ بناء قصره الذى بناه ببين القصرين فلم يدخله برجله، و اشتغل بما هو فيه من أمر السفر، فشرع السلطان فى غيبته فى تحسين القصر المذكور. و كان سبب عمارة بشتك لهذا القصر أنّ الأمير قوصون لمّا أخذ قصر بيسرى و جدّده أحبّ الأمير بشتك أن يعمل له قصرا تجاه قصر بيسرى ببين القصرين، فدلّ على دار الأمير بكتاش الفخرى أمير سلاح. و كانت أحد قصور الخلفاء

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۵۰

الفاطميين التى اشتراها من ذريتهم و أنشأ بها الفخرى دورا و إسطبلات، و أبقى ما كان بها من المساجد، فشاور بشتك السلطان على أخذها فرسم له بذلك، فأخذها من أولاد بكتاش و أرضاهم و أنعم عليهم، و أنعم السلطان عليه بأرض كانت داخلها برسم الفراشخاناه السلطانية. ثم أخذ بشتك دار أقطوان الساقى بجوارها، و هدم الجميع و أنشأه قصرا مطلّا على الطريق و ارتفاعه أربعون ذراعا، و أجرى إليه الماء ينزل إلى شاذروان إلى بركة به. و أخرب فى عمله أحد عشر مسجدا و أربعة معابد أدخلها فيه، فلم يجدّد منها سوى مسجد رفعه و عمله معلّقا على الشارع.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۵۱

و فى هذه الأيام ورد الخبر على السلطان من بلاد الصعيد بموت الخليفة المستكفى بالله أبى الربيع سليمان بقوص فى مستهلّ شعبان، و أنّه قد عهد إلى ولده أحمد بشهادة أربعين عدلا، و أثبت قاضى قوص ذلك، فلم يمض السلطان عهده، و طلب إبراهيم بن محمد المستمسك ابن أحمد الحاكم بأمر اللّه فى يوم الاثنين ثالث [عشر] شهر رمضان، و اجتمع القضاة بدار العدل على العادة، فعرّفهم السلطان بما أراد من إقامة إبراهيم فى الخلافة و أمرهم بمبايعته، فأجابوا بعدم أهليّته، و أنّ المستكفى عهد إلى ولده، و احتجّوا بما حكم به قاضى قوص، فكتب السلطان بقدوم أحمد المذكور. و أقام الخطباء بالقاهرة و مصر نحو أربعة أشهر لا يذكرون فى خطبتهم الخليفة. فلمّا قدم أحمد المذكور من قوص لم يمض السلطان عهده و طلب إبراهيم و عرّفه قبح سيرته فأظهر التّوبة منها، و التزم سلوك طريق الخير، فاستدعى السلطان القضاة و عرّفهم أنه قد أقام إبراهيم فى الخلافة، فأخذ قاضى القضاة عز الدين [عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم بن سعد اللّه] بن جماعة يعرّف السلطان عدم أهليّته، فلم يلتفت السلطان اليه، و قال: إنّه قد ثاب، و التائب من الذنب كمن لا ذنب له؛ فبايعوه و لقّب بالواثق، و كانت العامة تسمّيه المستعطى، فإنه كان يستغطى من الناس ما ينفقه.

ثمّ وصل الأمير تنكز إلى الديار المصرية فى يوم الثلاثاء ثامن المحرّم سنة إحدى و أربعين و سبعمائة، و هو متضعّف صحبة الأمير بيبرس السّلاح دار، و أنزل بالقلعة فى مكان ضيّق، و قصد السلطان ضربه بالمقارع، فقام الأمير قوصون فى شفاعته حتّى أجيب إلى ذلك. ثم بعث السلطان إليه يهدّده حتّى يعترف بما له

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۵۲

من المال و يذكر له من كان موافقا له من الأمراء على العصيان، فأجاب بأنّه لا مال له سوى ثلاثين ألف دينار وديعة عنده لأيتام بكتمر الساقى، و أنكر أن يكون خرج عن الطاعة، فأمر به السلطان فى اللّيل فأخرج مع المقدّم ابن صابر و أمير جاندار فى حرّاقة إلى الإسكندرية، فقتله بها المقدّم ابن صابر فى يوم الثلاثاء نصف المحرّم من سنة إحدى و أربعين و سبعمائة، و تأتى بقيّة أحواله. ثم لمّا وصل الأمير بشتك إلى دمشق قبض على الأمير صاروجا و الجيبغا [بن عبد اللّه] العادلى و سلّما إلى الأمير برسبغا فعاقبهما أشدّ عقوبة على المال، و أوقع الحوطة على موجودهما. ثم وسّط بشتك جنغاى و طغاى مملوكى تنكز و خواصّه بسوق خيل دمشق، و كان جنغاى المذكور يضاهى أستاذه تنكز فى موكبه و بركه، ثمّ أكحل صاروجا و تتبع أموال تنكز فوجد له ما يجلّ وصفه، و عملت لبيع حواصله عدّة حلق، و تولّى البيع فيها الأمير ألطنبغا الصالحىّ نائب دمشق و الأمير أرقطاى و هما أعدى عدوّ لتنكز. و كان تنكز أميرا جليلا محترما مهابا عفيفا عن أموال الرعيّة حسن المباشرة و الطريقة، إلّا أنّه كان صعب المراس ذا سطوة عظيمة و حرمة وافرة على الأعيان من أرباب الدولة، متواضعا للفقراء و أهل الخير، و أوقف عدّة أوقاف على وجوه البرّ و الصدقة.

و قال الشيخ صلاح الدين الصّفدىّ: جلب تنكز إلى مصر و هو حدث فنشأ بها، و كان أبيض إلى السّمرة أقرب، رشيق القدّ مليح الشعر خفيف اللّحية قليل الشيب حسن الشكل ظريفه. جلبه الخواجا علاء الدين السّيواسىّ فاشتراه الأمير

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۵۳

لاچين، فلمّا قتل لاچين فى سلطنته صار من خاصّكيّة الملك الناصر و شهد معه وقعة وادى الخازندار ثم وقعة شقحب.

قلت: و لهذا كان يعرف تنكز بالحسامىّ.

قال: و سمع تنكز صحيح البخارى غير مرّة من ابن الشّحنة و سمع كتاب [معانى] الآثار للطّحاوىّ، و صحيح مسلم، و سمع من عيسى المطعّم و أبى بكر بن عبد الدائم، و حدّث و قرأ عليه بعض المحدّثين ثلاثّيات البخارى بالمدينة النبويّة. قال: و كان الملك الناصر أمّره إمرة عشرة قبل توجّهه إلى الكرك، ثم ساق توجّهه مع الملك الناصر إلى الكرك و خروجه من الكرك إلى مصر و غيرهما إلى أن قال: و ولاه السلطان نيابة دمشق فى سنة اثنتى عشرة و سبعمائة فأقام بدمشق نائبا ثمانيا و عشرين سنة، و هو الذى عمّر بلاد دمشق و مهّد نواحيها، و أقام شعائر المساجد بها بعد التتار.

قلت: و أمّا ما ظهر له من الأموال وجد له من التّحف السنيّة و من الأقمشة مائتا منديل زركش. و أربعمائة حياصة ذهب. و ستمائة كلفتاه زركش. و مائة حياصة ذهب مرصّعة بالجوهر. و ثمان و ستون بقجة بدلات ثياب زركش. و ألفا ثوب

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۵۴

أطلس. و مائتا تخفيفة زركش. و ذهب مختوم أربعمائة ألف دينار مصرية. و وجد له من الخيل و الهجن و الجمال البخاتىّ و غيرها نحو أربعة آلاف و مائتى رأس؛ و ذلك غير ما أخذه الأمراء و مماليكهم، فإنهم كانوا ينهبون ما يخرج به نهبا. و وجد له من الثياب الصوف و من النّصافى ما لا ينحصر. و ظفر الأمير بشتك بجوهر له ثمين اختصّ به. و حملت حرمه و أولاده إلى مصر صحبة الأمير بيغرا، بعد ما أخذ لهم من الجوهر و اللؤلؤ و الزّركش شىء كثير.

و أمّا أملاكه التى أنشأها فشىء كثير. و قال الشيخ صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدىّ فى تاريخه- و هو معاصره- قال: ورد مرسوم شريف إلى دمشق بتقويم أملاك تنكز فعمل ذلك بالعدول و أرباب الخبرة و شهود القيمة، و حضرت بذلك محاضر إلى ديوان الإنشاء لتجهّز إلى السلطان، فنقلت منها ما صورته:

«دار الذهب بمجموعها و إسطبلاتها ستمائة ألف درهم. دار الزّمرّد مائتا ألف و سبعون ألف درهم. دار الزّردكاش [و ما معها] مائتا ألف و عشرون ألف درهم.

الدار التى بجوار جامعه بدمشق مائة ألف درهم. الحمّام التى بجوار جامعه مائة ألف درهم.

خان العرصة مائة ألف درهم و خمسون ألف درهم. إسطبل حكر السماق عشرون ألف درهم. الطبقة التى بجوار حمّام ابن يمن أربعة آلاف و خمسمائة درهم. قيسارية المرحّلين مائتا ألف و خمسون ألف درهم. الفرن و الحوض بالقنوات من غير أرض عشرة آلاف درهم. حوانيت التعديل ثمانية آلاف درهم. الأهراء من

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۵۵

إسطبل بهادر ص عشرون ألف درهم. خان البيض و حوانيته مائة ألف و عشرة آلاف درهم. حوانيت باب الفرج خمسة و أربعون ألف درهم. حمّام القابون عشرة آلاف درهم. حمّام العمرىّ ستة آلاف درهم. الدهشة و الحمّام مائتا ألف و خمسون ألف درهم. بستان العادل مائة ألف و ثلاثون ألف درهم. بستان النّجيبىّ و الحمّام و الفرن مائة ألف درهم و ثلاثون ألف درهم. [بستان الحلبى بحرستا أربعون ألف درهم]. الحدائق بها مائة ألف و خمسة و ستون ألف درهم. بستان القوصىّ بها ستون ألف درهم. بستان الدردوزية خمسون ألف درهم. الجنينة المعروفة بالحمّام سبعة آلاف درهم. بستان الرزاز خمسة و ثمانون ألف درهم. الجنينة و بستان غيث ثمانية آلاف درهم. المزرعة المعروفة بتهامة بها (يعنى دمشق) ستون ألف درهم. مزرعة الركن النوبىّ و العبرى مائة ألف درهم.

الحصّة بالدفوف القبلية بكفر بطنا، ثلثاها ثلاثون ألف درهم. بستان السفلاطونى خمسة و سبعون ألف درهم. الفاتكيات و الرشيدى و الكروم بزملكا مائة ألف درهم و ثمانون ألف

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۵۶

درهم. مزرعة المربع بقابون مائة ألف و عشرة آلاف درهم. الحصّة من غراس غيضة الأعجام عشرون ألف درهم. نصف الضيعة المعروفة بزرنية خمسة آلاف درهم. غراس قائم فى جوار دار الجالق ألفا درهم. النصف من خراج الهامة ثلاثون ألف درهم. الحوانيت التى قبالة الحمّام مائة ألف درهم. بيدر تبدين ثلاثة و أربعون ألف درهم. الإصطبلات التى عند الجامع ثلاثون ألف درهم. أرض خارج باب الفرج ستة عشر ألف درهم. القصر و ما معه خمسمائة ألف درهم و خمسون ألف درهم. ربع ضيعة القصرين ثمانية و عشرون ألف درهم. نصف بوّابة مائة و ثمانون ألف درهم. العلانية بعيون الفارسنا ثمانون ألف درهم. حصّة دير ابن عصرون خمسة و سبعون ألف درهم. حصّة دويرة الكسوة ألف و خمسمائة درهم. الدّير الأبيض خمسون ألف درهم. العديل مائة ألف و ثلاثون ألف درهم.

حوانيت أيضا داخل باب الفرج أربعون ألف درهم. التنورية اثنان و عشرون ألف درهم.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۵۷

الأملاك التى له بحمص: الحمّام خمسة و عشرون ألف درهم. الحوانيت سبعة آلاف درهم. السريع ستون ألف درهم. الطاحون الراكبة على العاصى ثلاثون ألف درهم. دور قبحق خمسة و عشرون ألف درهم. الخان مائة ألف درهم.

الحمّام الملاصقة للخان ستون ألف درهم. الحوش الملاصق له ألف و خمسمائة درهم.

المناح ثلاثة آلاف درهم. الحوش الملاصق للخندق ثلاثة آلاف درهم. حوانيت العريضة ثلاثة آلاف درهم. الأراضى المحتكرة سبعة آلاف درهم.

و التى فى بيروت: الخان مائة و خمسة و ثلاثون ألف درهم. الحوانيت و الفرن مائة و عشرون ألف درهم. المصبنة بآلاتها عشرة آلاف درهم. الحمّام عشرون ألف درهم. المسلخ عشرة آلاف درهم. الطاحون خمسة آلاف درهم. قرية زلايا خمسة و أربعون ألف درهم.

القرى التى بالبقاع: مرج الصفا سبعون ألف درهم. التلّ الأخضر مائة ألف و ثمانون ألف درهم. المباركة خمسة و سبعون ألف درهم. المسعودية مائة ألف درهم.

الضّياع [الثلاث] المعروفة بالجوهرى أربعمائة ألف و سبعون ألف درهم.

السعادة أربعمائة ألف درهم. أبروطيا ستون ألف درهم. نصف بيرود و الصالحية

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۵۸

و الحوانيت أربعمائة ألف درهم. المباركة و الناصرية مائة ألف درهم. رأس الماء سبعة و خمسون ألف درهم. حصّة من خربة روق اثنان و عشرون ألف درهم.

رأس الماء و الدلى بمزارعها خمسمائة ألف درهم. حمام صرخد خمسة و سبعون ألف درهم. طاحون الغور ثلاثون ألف درهم. السالمية ثلاثة آلاف درهم.

الأملاك بقارا: الحمام خمسة و عشرون ألف درهم. الهرى ستمائة ألف درهم.

الصالحية و الطاحون و الأراضى مائتا ألف درهم و خمسة و عشرون ألف درهم.

راسليها و مزارعها مائة و خمسة و عشرون ألف درهم. القضيبة أربعون ألف درهم.

القريتان المعروفة إحداهما بالمزرعة، و الأخرى بالبينسية تسعون ألف درهم؛ هذا جميعه خارج عما له من الأملاك على وجوه البر و الأوقاف فى صفد و عجلون و القدس و نابلس و الرملة و الديار المصرية. و عمّر بصفد بيمارستانا مليحا. و عمّر بالقدس رباطا و

حمامين و قياسر. و له بجلجولية خان مليح، و له بالقاهرة دار عظيمة بالكافورى».

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۵۹

قلت: هى دار عبد الباسط بن خليل الآن. و حمّام و غير ذلك من الأملاك.

انتهى كلام الشيخ صلاح الدين باختصار.

قلت: و كان لتغيّر السلطان الملك الناصر على تنكز هذا أسباب، منها: أنه كتب يستأذنه فى سفره إلى ناحية جعبر فمنعه السلطان من ذلك لما بتلك البلاد من الغلاء، فألحّ فى الطلب، و الجواب يرد عليه [بمنعه] حتى حنق تنكز و قال: و اللّه لقد تغيّر عقل أستاذنا و صار يسمع من الصبيان الذين حوله، و اللّه لو سمع منى لكنت أشرت عليه بأن يقيم أحدا من أولاده فى السلطنة و أقوم أنا بتدبير ملكه، و يبقى هو مستريحا، فكتب بذلك جركتمر إلى السلطان، و كان السلطان يتخيّل بدون هذا فأثّر هذا فى نفسه، ثم اتفق أن أرتنا نائب بلاد الروم بعث رسولا إلى السلطان بكتابه، و لم يكتب معه كتابا لتنكز، فحنق تنكز لعدم مكاتبته و ردّ رسوله من دمشق، فكتب أرتنا يعرّف السلطان بذلك، و سأل ألّا يطّلع تنكز على ما بينه و بين السلطان. و رماه بأمور أوجبت شدّة تغيّر السلطان على تنكز، ثم اتفق أيضا غضب تنكز على جماعة من مماليكه، فضربهم و سجنهم بالكرك [و الشّوبك] فكتب منهم جوبان و كان أكبر مماليكه إلى الأمير قوصون يتشفع به فى الإفراج عنهم من سجن الكرك، فكلّم قوصون السلطان فى ذلك فكتب السلطان إلى تنكز يشفع فى جوبان فلم يجب عن أمره بشىء، فكتب إليه ثانيا و ثالثا فلم يجبه، فاشتدّ غضب السلطان حتّى قال للأمراء: ما تقولون فى هذا الرجل؟ هو يشفع عندى فى قاتل أخى فقبلت شفاعته،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۶۰

و أخرجته من السجن و سيّرته إليه يعنى (طشتمر أخا بتخاص)، و أنا أشفع فى مملوكه ما يقبل شفاعتى! و كتب السلطان لنائب الشّوبك بالإفراج عن جوبان المذكور فأفرج عنه فكان هذا و ما أشبهه الذى غيّر خاطر السلطان الملك الناصر على مملوكه تنكز. انتهى.

ثم اشتغل السلطان بموت أعزّ أولاده الأمير آنوك فى يوم الجمعة العشرين من شهر ربيع الآخر بعد مرض طويل، و دفن بتربة الناصرية ببين القصرين، و كان لموته يوم مهول، نزل فى جنازته جميع الأمراء، و فعلت والدته خوند طغاى خيرات كثيرة و باعت ثيابه و تصدّقت بجميع ما تحصّل منها.

ثم إنّ السلطان ركب فى هذه السنة، و هى سنة إحدى و أربعين إلى بركة الحبش خارج القاهرة، و صحبته عدّة من المهندسين و أمر أن يحفر خليج من البحر إلى حائط الرّصد، و يحفر فى وسط الشرف المعروف بالرصد عشر آبار،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۶۱

كلّ بئر نحو أربعين ذراعا تركّب عليها السواقى، حتى يجرى الماء من النيل إلى القناطر التى تحمل الماء إلى القلعة ليكثر بها الماء، و أقام الأمير آقبغا عبد الواحد على هذا العمل، فشقّ الخليج من بحرى رباط الآثار و مرّوا به فى وسط بستان الصاحب تاج الدين ابن حنّا المعروف بالمعشوق، و هدمت عدّة بيوت كانت هناك، و جعل عمق الخليج أربع قصبات، و جمعت عدّة من الحجّارين للعمل، و كان مهمّا عظيما. ثم أمر السلطان بتجديد جامع راشدة فجدّد و كان قد تهدّم غالب جدره.

ثم ابتدأ توعّك السلطان و مرص مرض موته، فلمّا كان يوم الأربعاء سادس ذى الحجة سنة إحدى و أربعين و سبعمائة قوى عليه الإسهال، و منع الأمراء من الدخول عليه فكانوا إذا طلعوا إلى الخدمة خرج إليهم السلام مع أمير چاندار عن

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۶۲

السلطان فانصرفوا. و قد كثر الكلام، ثم فى يوم الجمعة ثامنه خفّ عن السلطان الإسهال، فجلس للخدمة و طلع الأمراء إلى الخدمة و وجه السلطان متغيّر، فلما انقضت الخدمة نودى بزينة القاهرة و مصر، و جمعت أصحاب الملاهى بالقلعة و جمع الخبز الذى بالأسواق و

عمل ألف قميص و تصدّق بـذلك كلّه مع جملة من المال، و قام الأمراء بعمل الولائم و الأفراح سرورا بعافية السلطان، و عمل الأمير ملكتمر الحجازىّ الناصرىّ نفطا كثيرا بسوق الخيل تحت القلعة و السلطان ينظره، و اجتمع [الناس] لرؤيته من كلّ جهة و قدمت عربان الشرقية بخيولها و قبابها المحمولة على الجمال و لعبوا بالرماح تحت القلعة، و خرجت الركابة و الكلابزيّة و طائفة الحجارين و العتّالين إلى سوق الخيل للعب و اللهو، و داروا [على] بيوت الأمراء و أخذوا الخلع منهم، و كذلك الطبلكية فحصل لهم شيء كثير جدّا، بحيث جاء نصيب مهتار الطبلخاناه ثمانين ألف درهم. و لما كان ليلة العيد و هى ليلة الأحد عاشر ذى الحجة، و أصبح نهار الأحد اجتمع الأمراء بالقلعة و جلسوا ينتظرون السلطان حتى يخرج لصلاة العيد، و قد أجمع رأى السلطان على عدم صلاة العيد لعود الإسهال عليه، فإنه كان انتكس فى الليلة المذكورة، فما زال به الأمير قوصون و الأمير بشتك حتى ركب و نزل إلى الميدان، و أمر قاضى القضاة عز الدين [عبد العزيز] ابن جماعة أن يوجز فى خطبته، فعند ما صلّى السلطان و جلس لسماع الخطبة محرّك باطنه، فقام و ركب و طلع إلى القصر و أقام يومه به، و بينا هو فى ذلك قدم الخبر من حلب بصحّة صلح الشيخ حسن صاحب العراق مع أولاد صاحب الروم، فانزعج السلطان لذلك انزعاجا شديدا و اضطرب مزاجه فحصل له إسهال دموىّ،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۶۳

و أصبح يوم الاثنين و قد امتنع الناس من الاجتماع به، فأشاع الأمير قوصون و الأمير بشتك أنّ السلطان قد أعفى أجناد الحلقة من التجريد إلى تبريز و نودى بذلك، و فرح الناس بذلك فرحا زائدا، إلا أنه انتشر بين الناس أنّ السلطان قد انتكس فساءهم ذلك.

ثم أخذ الأمراء فى إنزال حرمهم و أموالهم من القلعة [حيث سكنهم] إلى القاهرة، فارتجّت القاهرة و مادت بأهلها و استعدّ الأمراء لا سيما قوصون و بشتك، فإن كلّا منهما احترز من الآخر و جمع عليه أصحابه. و أكثروا من شراء الأزيار و الدّنان و ملئوها ماء، و أخرجوا القرب و الرّوايا و الأحواض و حملوا إليهم البقسماط و الرقاق و الدقيق و القمح و الشعير خوفا من وقوع الفتنة، و محاصرة القلعة، فكان يوما مهولا، ركب فيه الأوجاقية و هجموا الطواحين لأخذ الدقيق و نهبوا الحوانيت التى تحت الفلعة و التى بالصليبة.

هذا و قد تنكّر ما بين قوصون و بشتك و اختلفا حتى كادت الفتنة تقوم بينهما، و بلغ ذلك السلطان فازداد مرضا على مرضه، و كثر تأوّهه و تقلّبه من جنب إلى جنب، و تهوّس بذكر قوصون و بشتك نهاره. ثم استدعى بهما فتناقشا بين يديه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۶۴

فى الكلام فأغمى عليه و قاما من عنده على ما هما عليه، فاجتمع يوم الاثنين ثامن عشره الأمير چنكلى و الأمير آل ملك و الأمير سنجر الجاولى و بيبرس الأحمدى، و هم أكابر أمراء المشورة فيما يدبرونه، حتى اجتمعوا على أن يبعث كلّ منهم مملوكه إلى قوصون و بشتك ليأخذا لهم الإذن فى الدخول على السلطان، فأخذا لهم الإذن فدخلوا و جلسوا عند السلطان، فقال الجاولى و آل ملك للسلطان كلاما، حاصله أن يعهد بالملك إلى أحد أولاده فأجاب إلى ذلك، و طلب ولده أبا بكر و طلب قوصون و بشتك و أصلح بينهما، ثم جعل ابنه أبا بكر سلطانا بعده و أوصاه بالأمراء و أوصى الأمراء به، و عهد إليهم ألا يخرجوا ابنه أحمد من الكرك، و حذّرهم من إقامته سلطانا. و جعل قوصون و بشتك وصييه، و إليهما تدبير أمر ابنه أبى بكر و حلّفهما، ثم حلّف الأمراء و الخاصّكيّة و أكّد على ولده فى الوصية بالأمراء، و أفرج عن الأمراء المسجونين بالشام، و هم: طيبغا حاجى و الجيبغا العادلى و صاروجا، ثم قام الأمراء عن السلطان فبات السلطان ليلة الثلاثاء و قد نحلت قوته، و أخذ فى النزع يوم الأربعاء فاشتدّ عليه كرب الموت، حتى فارق الدنيا فى أوّل ليلة الخميس حادى عشرين ذى الحجة سنة إحدى و أربعين و سبعمائة، و له من العمر سبع و خمسون سنة و أحد عشر شهرا و خمسة أيام، فإنّ مولده كان فى الساعة السابعة من يوم السبت سادس عشر المحرّم سنة أربع و ثمانين و ستمائة.

و أمه بنت سكتاى بن قرا لاچين بن جفتاى التّتارىّ. و كان قدوم سكتاى مع أخيه قرمچى من بلاد التتار إلى مصر فى سنة خمس و سبعين و ستمائة. ثم حمل السلطان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۶۵

الملك الناصر ميّتا فى محفّة من القلعة بعد أن رسم بغلق الأسواق، و نزلوا به من و راء السور إلى باب النصر، و معه من أكابر الأمراء بشتك و ملكتمر الحجازىّ و أيدغمش أمير آخور، و دخلوا به من باب النصر إلى المدرسة المنصوريّة ببين القصرين، فغسّل و حنّط و كفّن من البيمارستان المنصورىّ، و قد اجتمع الفقهاء و القرّاء و الأعيان و دام القرّاء على قبره أيّاما.

و أمّا مدّة سلطنته على مصر فقد تقدّم أنّه تسلطن ثلاث مرار، فأوّل سلطنته كانت بعد قتل أخيه الأشرف خليل بن قلاوون فى سنة ثلاث و تسعين و ستمائة فى المحرّم، و عمره تسع سنين و خلع بالملك العادل كتبغا المنصورىّ فى المحرّم سنة أربع و تسعين، فكانت سلطنته هذه المرّة دون السنة، ثم توجّه إلى الكرك إلى أن أعيد إلى السلطنة بعد قتل المنصور حسام الدّين لاچين فى سنة ثمان و تسعين و ستمائة، فأقام فى الملك، و الأمر إلى سلّار و بيبرس الجاشنكير إلى سنة ثمان و سبعمائة، و خلع نفسه و توجّه إلى الكرك و تسلطن بيبرس الجاشنكير، و كانت مدته فى هذه المرّة الثانية نحو التسع سنين، ثم خلع بيبرس و عاد الملك الناصر إلى السلطنة ثالث مرّة فى شوّال سنة تسع و سبعمائة، و استبدّ من يوم ذاک بالأمر من غير معارض إلى أن مات فى التاريخ المذكور. و قد ذكرنا ذلك كلّه فى أصل ترجمته من هذا الكتاب مفصّلا.

فكانت مدّة تحكّمه فى هذه المرّة الثالثة اثنتين و ثلاثين سنة و شهرين و خمسة و عشرين يوما، و هو أطول ملوك الترک مدّة فى السلطنة، فإنّ أوّل سلطنته من سنة ثلاث

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۶۶

و تسعين و ستمائة إلى أن مات نحوا من ثمان و أربعين سنة، بما فيها من أيام خلعه، و لم يقع ذلك لأحد من ملوك الترک بالديار المصريّة، فهو أطول الملوک زمانا و أعظمهم مهابة و أغزرهم عقلا و أحسنهم سياسة و أكثرهم دهاء و أجودهم تدبيرا و أقواهم بطشا و شجاعة و أحذقهم تنفيذا؛ مرّت به التجارب، و قاسى الخطوب، و باشر الحروب، و تقلّب مع الدهر ألوانا؛ نشأ فى الملك و السعادة، و له فى ذلک الفخر و السّيادة خليقا للملک و السلطنة، فهو سلطان و ابن سلطان و أخو سلطان و والد ثمانى سلاطين من صلبه، و الملک فى ذرّيته و أحفاده و عقبه و مماليكه و مماليک مماليكه إلى يومنا هذا، بل إلى أن تنقرض الدولة التركيّة، فهو أجلّ ملوک الترک و أعظمها بلا مدافعة، و من ولى السلطنة من بعده بالنسبة إليه كآحاد أعيان أمرائه.

و كان متجمّلا- يقتنى من كلّ شيء أحسنه. أكثر فى سلطنته من شراء المماليک و الجوارى، و طلب التجّار و بذل لهم الأموال، و وصف لهم حلى المماليک و الجوارى.

و سيّرهم إلى بلاد أزبک خان و بلاد الجاركس و الروم، و كان التاجر إذا أتاه بالجلبة من المماليک بذل له أغلى القيم فيهم، فكان يأخذهم و يحسن تربيتهم و ينعم عليهم بالملابس، الفاخرة و الحوائص الذهب و الخيول و العطايا حتى يدهشهم، فأكثر التجار من جلب المماليک، و شاع فى الأقطار إحسان السلطان إليهم. فأعطى المغل أولادهم و أقاربهم للتجّار رغبة فى السعادة، فبلغ ثمن المملوک على التاجر أربعين ألف درهم، و هذا المبلغ جملة كثيرة بحساب يومنا هذا. و كان الملک الناصر يدفع للتاجر فى المملوک الواحد مائة ألف درهم و ما دونها.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۶۷

و كان مشغوفا أيضا بالخيل فجلبت له من البلاد، لا سيّما خيول العرب آل مهنّا و آل فضل، فإنه كان يقدّمها على غيرها، و لهذا كان يكرم العرب و يبذل لهم الرغائب فى خيولهم، فكان إذا سمع العربان بفرس عند بدوىّ أخذوها منه بأغلى القيمة، و أخذوا من السلطان مثلى ما دفعوا فيها. و كان له فى كلّ طائفة من طوائف العرب عين يدلّه على ما عندهم من الخيل من الفرس السابق أو الأصيل، بل ربّما ذكروا له أصل بعضها لعدّة جدود، حتّى يأخذها بأكثر مما كان فى نفس صاحبها من الثمن، فتمكّنت منه بذلک العربان، و نالوا المنزلة العظيمة و السعادات الكثيرة. و كان يكره خيول برقة فلا يأخذ منها إلا ما بلغ الغاية فى الجودة، و ما عدا ذلک إذا جلبت إليه فرّقها. و كان له معرفة تامّة بالخيل و أنسابها، و يذكر من أحضرها له فى وقتها، و كان إذا استدعى بفرس يقول لأمير آخور: الفرس

الفلانية التى أحضرها فلان و اشتريتها منه بكذا و كذا. و كان إذا جاءه شيء منها عرضها و قلّبها بنفسه، فإن أعجبته دفع فيها من العشرة آلاف إلى أن اشترى بنت الكرماء بمائتى ألف درهم، و هذا شيء لم يقع لأحد من قبله و لا من بعده، فإنّ المائتى ألف درهم كانت يوم ذاك بعشرة آلاف دينار. و أمّا ما اشتراه بمائة ألف و سبعين ألفا و ستين ألفا و ما دونها فكثير. و أقطع آل مهنّا و آل فضل بسبب ذلك عدّة إقطاعات، فكان أحدهم إذا أراد من السلطان شيئا قدم عليه فى معنى أنه يدلّه على فرس عند فلان و يعظّم أمره، فيكتب من فوره بطلب تلك الفرس فيشتدّ صاحبها و يمتنع [من قودها] ثم يقترح ما شاء، و لا يزال حتى يبلغ غرضه من السلطان فى ثمن فرسه.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۶۸

و هو أوّل من اتّخذ من ملوك مصر ديوانا للإسطبل السلطانىّ و عمل له ناظرا و شهودا و كتّابا لضبط أسماء الخيل، و أوقات ورودها و أسماء أربابها، و مبلغ أثمانها و معرفة سوّاسها و غير ذلك من أحوالها، و كان لا يزال يتفقّد الخيول، فإذا أصيب منها فرس أو كبر سنّه بعث به مع أحد الأوجاقية الى الجشّار بعد ما يحمل عليها حصانا يختاره، و يأمر بضبط تاريخه، فتوالدت عنده خيول كثيرة، حتى أعنته عن جلب ما سواها. و مع هذا كان يرغب فى الفرس المجلوب إليه أكثر ممّا توالد عنده، فعظم العرب فى أيامه لجلب الخيل و شمل الغنى عامّتهم، و كانوا إذا دخلوا إلى مشاتيهم أو إلى مصايفهم يخرجون بالحلى و الحلل و الأموال الكثيرة، و لبسوا فى أيامه الحرير الأطلس المعدنىّ بالطّرز الزّركش و الشاشات المرقومة، و لبسوا الخلع البابلىّ و الإسكندرىّ المطرّز بالذهب، و صاغ السلطان لنسائهم الأطواق الذهب المرصّع و عمل لهم العناتر بالأكر الذهب و الأساور المرصّعة بالجوهر و اللؤلؤ، و بعث لهنّ بالقماش السكندرى و عمل لهنّ البراقع الزّركش، و لم يكن لبسهم قبل ذلك إلا الخشن من الثياب على عادة العرب. و أجلّ ما لبس مهنّا أميرهم أيام الملك المنصور لاچين طرد وحش، لمودّة كانت بين لاچين و بين مهنّا بن عيسى، فأنكر الأمراء ذلك على الملك المنصور لاچين فاعتذر لهم بتقدّم صحبته له و أياديه عنده، و أنه أراد أن يكافئه على ذلك.

و كان الملك الناصر فى جشاره ثلاثة آلاف فرس، يعرض فى كلّ سنة نتاجها عليه فيسلّمها للرّكّابين من العربان [لرياضتها] ثم يفرّق أكثرها على الأمراء

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۶۹

الخاصّكيّة، و يفرح بذلك و يقول: هذه فلانة بنت فلانة أو فلان بن فلان، عمرها كذا، و شراء أمّها بكذا و شراء أبيها بكذا.

و كان يرسم للأمراء فى كلّ سنة أن يضمّروا الخيول، و يرتّب على كل أمير من أمراء الألوف أربعة أرؤس يضمّرها. ثم يرسم لأمير آخور أن يضمّر خيلا من غير أن يفهم الأمراء أنّها للسلطان، بل يشيع أنّها له، و يرسلها للسّباق مع خيل الأمراء فى كلّ سنة. و كان للأمير قطلوبغا الفخرىّ حصان أدهم، سبق خيل مصر كلّها ثلاث سنين متوالية، فأرسل السلطان إلى مهنّا و أولاده أن يحضروا له الخيل للسّباق، فأحضروا له عدّة و ضمّروا، فسبقهم حصان الفخرىّ الأدهم.

ثم بعد ذلك ركب السلطان إلى ميدان القبق ظاهر القاهرة فيما بين قلعة الجبل و قبّة النصر، و هو أماكن الترب الآن، و أرسل الخيل للسّبق، و عدّتها دائما فى كلّ سنة ما ينيف على مائة و خمسين فرسا. و كان مهنّا بعث للسلطان حجرة شهباء للسّباق على أنها إن سبقت كانت للسلطان و إن سبقت ردّت إليه بشرط ألّا يركبها للسّباق إلا بدويّها الذى قادها إلى مصر. فلمّا ركب السلطان و الأمراء على العادة و وقفوا و معهم أولاد مهنا [بالميدان] و أرسلت الخيول من بركة الحاج كما جرت به العادة، و ركب البدوىّ حجرة مهنّا الشهباء عريا بغير سرج، و لبس قميصا و لاطئة فوق رأسه.

و أقبلت الخيول يتبع بعضها بعضا و الشهباء قدّام الجميع، و بعدها على القرب منها حصان الأمير أيدغمشى أمير آخور يعرف بهلال، فلمّا وقف البدوىّ بالشهباء بين يدى السلطان، صاح بصوت ملأ الخافقين: السعادة لك اليوم يا مهنّا، لاشقيت! و ألقى بنفسه إلى الأرض من شدّة التعب فقدّمها مهنّا للسلطان، فكان هذا دأب الملك الناصر فى كلّ سنة من هذا الشأن و غيره.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۷۰

قلت: و ترك الملك الناصر فى جشاره ثلاثة آلاف فرس، و ترك بالإسطبلات السلطانية أربعة آلاف فرس و ثمانمائة فرس، ما بين حجورة و مهارة و كحولة و أكاديش، و ترك من الهجن الأصائل و النّياق نيّفا على خمسة آلاف سوى أتباعها.

و أما الجمال النّفر و البغال فكثير.

و كان الملك الناصر أيضا شغوفا بالصيد، فلم يدع أرضا تعرف بالصيد إلّا و أقام بها صيّادين مقيمين بالبريّة أوان الصيد، و جلب طيور الجوارح من الصّقورة و الشواهين و السّناقر و البزاة، حتى كثرت السناقر فى أيامه. و صار كلّ أمير عنده منها عشرة سناقر و أقلّ و أكثر. و جعل [له] البازداريّة و الحونداريّة و حرّاس الطير، و ما هو موجود بعضه الآن، و أقطعهم الإقطاعات الجليلة، و أجرى لهم الرواتب من اللّحم و العليق و الكساوى و غير ذلك، و لم يكن ذلك قبله لملك، فترك بعد موته مائة و عشرين سنقرا، و لم يعهد بمثل هذا لملك قبله، بل كان لوالده الملك المنصور قلاوون سنقر واحد، و كان المنصور إذا ركب فى المركب للصيد كان بازداره أيضا راكبا و السنقر على يده. و ترك الملك الناصر من الصّقورة و الشواهين و نحوها مالا ينحصر كثرة. و ترك ثمانين جوقة كلاب بكلا بزيّتها، و كان أخلى لها موضعا بالجبل.

و عنى أيضا بجمع الأغنام و أقام لها خولة، و كان يبعث فى كلّ سنة الأمير آقبغا عبد الواحد فى عدّة من المماليك لكشفها، فيكشف المراحات من قوص إلى الجيزة،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۷۱

و يأخذ منها ما يختاره من الأغنام، و جرّده مرّة إلى عيذاب و النّوبة لجلب الأغنام.

ثم عمل لها حوشا بقلعة الجبل؛ و قد ذكرنا ذلك فى وقته، و أقام لها خولة نصارى من الأسرى.

و عنى أيضا بالإوزّ و أقام لها عدّة من الخدّام و جعل لها جانبا بحوش الغنم.

و لما مات ترك ثلاثين ألف رأس من الغنم سوى أتباعها، فاقتدى به الأمراء و صارت لهم الأغنام العظيمة فى غالب أرض مصر. و كان كثير العناية بأرباب وظائفه و حواشيه من أمراء آخوريّة و الأوجاقية و غلمان الإسطبل و البازدارية و الفرّاشين و الخولة و الطبّاخين. فكان إذا جاء أوان تفرقة الخيول على الأمراء بعث إلى الأمير بما جرت به عادته مما رتبه له فى كلّ سنة مع أمير اخور و أوجاقى و سايس و ركبدار، و يترقّب عودهم حتى يعرف ما أنعم به ذلك الأمير عليهم، فإن شحّ الأمير فى عطاياتهم تنكّر عليه و بكّته بين الأمراء و وبّخه، و كان قرّر أن يكون الأمير آخور بينهم بقسمين و من عداه بقسم واحد. و كان أيضا إذا بعث لأمير بطير مع أمير شكار أو واحد من البازداريّة يحتاج الأمير أن يلبسه خلعة كاملة بحياصة ذهب و كلفتاه زركش، فيعود بها و يقبّل الأرض بين يديه فيستدنيه و يفتّش خلعته.

و كانت عادته أن يبعث فى يوم النحر أغنام الضحايا مع الأبقار و النّوق إلى الأمراء، فبعث مرّة مع بعض خولة النصارى إلى الأمير يلبغا حارس طيره ثلاثة كباش فأعطاه عشرة دراهم فلوسا و عاد إلى السلطان، فقال له: و أين خلعتك؟ فطرح الفلوس بين يديه و عرّفه بقدرها، فغضب و أمر بعض الخدّام أن يسير بالخولىّ إلى عنده و يوبّخه و يأمره أن يلبسه خلعة طرد وحش. و كانت حرمته و مهابته وافرة قد

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۷۲

تجاوزت الحدّ، حتّى إنّ الأمراء كانوا إذا وقفوا بالخدمة لا يجسر أحد منهم أن يتحدّث مع رفيقه، و لا يلتفت نحوه خوفا من مراقبة السلطان لهم، و كان لا يجسر أحد أن يجتمع مع خشداشه فى نزهة و لا غيرها. و كان له المواقف المشهودة، منها:

لمّا لقى غازان على فرسخ من حمص، و قد تقدّم ذكر ذلك. ثم كانت له الوقعة العظيمة مع التتار أيضا بشقحب، و أعزّ اللّه تعالى فيها الإسلام و أهله؛ و دخلت عساكره بلاد سيس، و قرّر على أهلها الخراج أربعمائة ألف درهم فى السنة بعد ما غزاها ثلاث مرار. و غزا ملطية و أخذها و جعل عليها الخراج، و منعوه مرّة فبعث العساكر إليها حتى أطاعوه. و أخذ مدينة آياس و خرّب البرج الأطلس و سبعة

حصون و أقطع أراضيها للأمراء و الأجناد. و أخذ جزيرة أرواد من الفرنج. و غزا بلاد اليمن و بلاد عانة و حديثة فى طلب مهنّا. و جرّد إلى مكّة و المدينة العساكر لتمهيدها غير مرّة، و منع أهلها من حمل السلاح بها. و عمّر قلعة جعبر بعد خرابها، و أجرى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۷۳

نهر حلب إلى المدينة. و خطب له بماردين و جبال الأكراد و حصن كيفا و بغداد و غيرها من بلاد الشرق، و هو بكرسىّ مصر. و أتته هدية ملوك الغرب و الهند و الصين و الحبشة و التّكرور و الروم و الفرنج و التّرك.

و كان، رحمه اللّه، على غاية من الحشمة و الرياسة و سياسة الأمور، فلم يضبط عليه أحد أنّه أطلق لسانه بكلام فاحش فى شدّة غضبه و لا ـ فى انبساطه، مع عظيم ملكه و طول مدّته فى السلطنة و كثرة حواشيه و خدمه. و كان يدعو الأمراء و الأعيان و أرباب الوظائف بأحسن أسمائهم و أجلّ ألقابهم، و كان إذا غضب على أحد لا يظهر له ذلك، و كان مع هذه الشهامة و حبّ التجمّل مقتصدا فى ملبسه، يلبس كثيرا البعلبكىّ و النّصافى المتوسط، و يعمل حياصته فضة نحو مائة درهم بغير ذهب و لا جوهر. و يركب بسرج مسقّط بفضة التى زنتها دون المائة درهم، و عباءة فرسه إمّا تدمرىّ أو شامىّ، ليس فيها حرير.

و كان مفرط الذكاء، يعرف جميع مماليك أبيه و أولادهم بأسمائهم، و يعرّف بهم الأمراء خشداشيتهم فيتعجبون الأمراء من ذلك، و كذلك مماليكه لا ـ يغيب عنه اسم واحد منهم و لا ـ وظيفته عنده، و لا ـ مبلغ جامكيّته، هذا مع كثرتهم. و كان أيضا يعرف غلمانه و حاشيته على كثرة عددهم، و لا يفوته معرفة أحد من الكتّاب، فكان إذا أراد أن يولّى أحدا مكانا أو يرتّبه فى وظيفة استدعى جميع الكتّاب بين يديه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۷۴

و اختار منهم واحدا أو أكثر من واحد من غير أن يراجع فيهم، ثم يقيمه فيما يريد من الوظائف. و كان إذا تغيّر على أحد من أمرائه أو كتّابه أسرّ ذلك فى نفسه، و تروّى فى ذلك مدة طويلة و هو ينتظر له ذنبا يأخذه به، كما وقع له فى أمر كريم الدين الكبير و أرغون النائب و غيرهم، و هو يتأنّى و لا يعجّل، حتى لا ينسب إلى ظلم، فإنه كان يعظم عليه أن يذكر عنه أنه ظالم أو جائر، أو وقع فى أيامه خراب أو خلل، و يحرص على حسن القالة فيه.

و كان يستبدّ بأمور مملكته و ينفرد بالأحكام، حتى إنه أبطل نيابة السلطنة من ديار مصر ليستقلّ هو بأعباء الدولة وحده، و كان يكره أن يقتدى بمن تقدّمه من الملوك، فمن أنشأه من الملوك كائنا من كان، و لا يدخلهم المشورة حتى و لا بكتمر الساقى و لا قوصون و لا بشتك و غيرهم، بل كان لا يقتدى إلّا بالقدماء من الأمراء.

و كان يكره شرب الخمر و يعاقب عليه و يبعد من يشربه من الأمراء عنه.

و كان فى الجود و الكرم و الإفضال غاية لا تدرك خارجة عن الحدّ، وهب فى يوم واحد ما يزيد على مائة ألف دينار ذهبا، و أعطى فى يوم واحد لأربعة من مماليكه و هم الأمير ألطنبغا الماردانىّ و يلبغا اليحياوىّ و ملكتمر الحجازىّ و قوصون مائتى ألف دينار، و لم يزل مستمرّ العطاء لخاصّكيّته و مماليكه ما بين عشرة آلاف دينار و أكثر منها و أقلّ، و نحوها من الجوهر و اللآلئ. و بذل فى أثمان الخيل و المماليك ما لم يسمع بمثله. و جمع من المال و الجوهر و الأحجار ما لم يجمعه ملك من ملوك الدولة التركيّة قبله مع فرط كرمه.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۷۵

قلت: كلّ ذلك لحسن تدبيره و عظم معرفته، فإنّه كان يدرى مواطن استجناء المال فيستجنيه منها، و يعرف كيف يصرفه فى محلّه و أغراضه فيصرفه. و لم يشهر عنه أنه ولى قاض فى أيامه برشوة، و لا محتسب و لا وال، بل كان هو يبذل لهم الأموال و يحرّضهم على عمل الحق، و تعظيم الشرع الشريف، و هذا بخلاف من جاء بعده، فإن غالب ملوك مصر ممن ملك مصر بعده يقتدى بشخص من أرباب وظائفه، فيصير ذلك الرجل هو السلطان حقيقة و السلطان من بعض من يتصرّف بأوامره، و كلّ ذلك لقصر الإدراك و عدم

المعرفة، فلذلك يتركون الأموال الجليلة و الأسباب التى يحصل منها الألوف المؤلّفة، و يلتفتون إلى هذا النّزر اليسير القبيح الشنيع الذى لا يرتضيه من له أدنى همّة و مروءة، و هو الأخذ من قضاة الشرع عند ولايتهم المناصب و ولاة الحسبة و الشّرطة، و ذلك كلّه و إن تكرر فى السنة فهو شىء قليل جدّا، يتعوّض من أدنى الجهات التى لا يؤبه إليها من أعمال مصر، فلو وقع ذلك لكان أحسن فى حقّ الرعيّة و أبرأ لذمّة السلطان و المسلمين من ولاية قضاة الشرع بالرشوة، و ما يقع بسبب ذلك فى الأنكحة و العقود و الأحكام و ما أشبه ذلك. انتهى.

و كان الملك الناصر يرغب فى أصناف الجوهر، فجلبتها إليه التّجار من الأقطار.

و شغف بالجوارى السّرارى، فحاز منهن كلّ بديعة الجمال، و جهّز له إحدى عشرة ابنة بالجهاز العظيم، فكان أولهنّ جهازا بثمانمائة ألف دينار، [منها] قيمة بشخاناه و داير بيت و ما يتعلّق به مائة ألف دينار، و بقيّة ذلك ما بين جواهر و لآلئ و أوانى و نحو ذلك، و زوّجهنّ لمماليكه مثل الأمير قوصون و بشتك و ألطنبغا الماردانىّ

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۷۶

و طغاى تمر و عمر بن أرغون النائب و غيرهم. و جهز جماعة من سراريه و جواريه و من تحسن بخاطره، كلّ واحدة بقريب ذلك و بمثله و أكثر منه. و استجدّ النساء فى زمانه الطّرحة، كلّ طرحة بعشرة آلاف دينار و ما دون ذلك إلى خمسة آلاف دينار، و الفرجيّات بمثل ذلك. و استجدّ النساء فى زمانه الخلاخيل الذهب و الأطواق المرصعة بالجواهر الثمينة و القباقيب الذهب المرصّعة و الأزر الحرير و غير ذلك.

و كان الملك الناصر كثير الدهاء مع ملوك الأطراف يهاديهم و يستجلبهم إلى طاعته بالهدايا و التّحف، حتى يذعنوا له فيستعملهم فى حوائجه و يأخذ بعضهم ببعض، و كان يصل إلى قتل من يريد قتله بالفداويّة لكثرة بذله لهم الأموال. و كان يحبّ العمارة فلم يزل من حين قدم من الكرك إلى أن مات مستمرّ العمارة، فحسب تقدير مصروفه فجاء فى كلّ يوم مدّة هذه السنين ثمانية آلاف درهم، قوّم ذلك بطالة على عمل و السفر و الحضر و العيد و الجمعة. و كان ينفق على العمارة المائة ألف درهم،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۷۷

فإذا رأى منها ما لا يعجبه هدمها كلّها و جدّدها على ما يختاره. و لم يكن من قبله من الملوك فى الإنفاق على العمائر كذلك. و قد حكى عن والده الملك المنصور قلاوون أنه أراد أن يبنى مصطبة عليها رفرف تقيه حرّ الشمس إذا جلس عليها، فكتب له الشجاعىّ تقدير مصروفها أربعة آلاف درهم، فتناول المنصور الورقة من يد الشجاعىّ و مزّقها و قال: أقعد فى مقعد بأربعة آلاف درهم، انصبوا لى صيوانا إذا نزلت على المصطبة. و مع هذا كلّه خلّف الملك الناصر فى بيت المال من الذهب و القماش أضعاف ما خلّفه المنصور قلاوون. و كانت المظالم أيام الملك المنصور قلاوون أكثر مما كانت فى أيام الناصر هذا.

قلت: عود و انعطاف إلى ما كنّا فيه من أنّ الأصل فى تدبير الملك و تحصيل الأموال المعرفة و الذكاء و جودة التنفيذ. انتهى.

قلت: و الملك المنصور قلاوون كان أسمح من الملك الظاهر بيبرس البندقدارىّ و أقلّ ظلما. و الحقّ يقال ليس الظاهر و المنصور من خيل هذا الميدان، و لا بينهما و بين الملك الناصر هذا نسبة فى أمر من الأمور. انتهى.

هذا على أن الملك الناصر لمّا عمل الرّوك الناصرىّ أبطل مظالم كثيرة من الضمانات و المكوس و غيرها حسب ما ذكرناه فى وقته، و مع هذا لم يحسن عليه محسن. و كان الملك الناصر واسع النفس على الطعام يعمل فى سماطه فى كلّ يوم الحلاوات و المآكل المفتخرة و أنواع الطير، و بلغ راتب سماطه فى كلّ يوم و راتب مماليكه من اللحم ستة و ثلاثين ألف رطل لحم فى اليوم، سوى الدجاج و الإوزّ و الرّمسان و الجدى المشوى و المهارة و أنواع الوحوش كالغزلان و الأرانب و غيره.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۷۸

و استجدّ فى أيامه عمائر كثيرة منها: حفر خليج الإسكندرية، حفروه فى مدّة أربعين يوما، عمل فيه نحو المائة ألف رجل من النواحى.

و استجدّ علیه عدّة سواقى و بساتین فى أراض کانت سباخا فصارت مزارع قصب سکر و سمسم و غیره. و عمّرت هناک الناصریة،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۷۹

و نقل إلیها المقداد بن شمّاس و أولاده، و عدّة أولاده مائة ولد ذکر.

و استمرّ الماء فى خلیج الإسکندریة طول السنة، و فرح الناس بهذا الخلیج فرحا زائدا، و عظمت المنافع به. و أنشأ المیدان تحت قلعة الجبل و أجرى له المیاه و غرس فیه النخل و الأشجار، و لعب فیه بالکرة فى کلّ یوم ثلاثاء مع الأمراء و الخاصّکیّة و أولاد الملوک. و کان الملک الناصر یجید لعب الکرة إلى الغایة بحیث إنه کان لا یدانیه فیها أحد فى زمانه إلّا إن کان ابن أرغون النائب. ثم عمّر فوق المیدان هذا القصر الأبلق و أخرب البرج الذى کان عمّره أخوه الأشرف خلیل على

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۸۰

الإسطبل و جعل مکانه القصر المذکور. و عمّر فوقه رفرفا و عمّر بجانبه برجا نقل إلیه الممالیک، و غیّر باب النحاس من قلعة الجبل و وسّع دهلیزه، و عمّر فى الساحة تجاه الإیوان طباقا للأمراء الخاصّکیّة، و غیّر عمارة الإیوان مرّتین، ثم فى الثالثة أقرّه على ما هو علیه الآن، و حمل إلیه العمد الکبار من بلاد الصعید، فجاء من أعظم المبانى الملوکیّة، و رتّب خدمته بالإیوان بأنواع مهولة عجیبة مزعجة لمن یقدم من رسل الملوک، یطول الشرح فى ذکر ترتیب ذلک. ثم رتّب خدم القصر و مشدّیه، و ما کان یفرش فیه من أنواع البسط و الستائر، و کیفیة حرکة أرباب الوظائف فیه.

ثم عمّر بالقلعة أیضا دورا للأمراء الذین زوّجهم لبناته، و أجرى إلیها المیاه و عمل بها الحمّامات و زاد فى باب القلّة من القلعة بابا ثانیا. و عمّر جامع القلعة

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۸۱

و القاعات السبع التى تشرف على المیدان لأجل سراریه. و عمّر باب القرافة. و کان غالب عمائره بالحجارة خوفا من الحریق. و عزم على أن یغیّر باب المدرّج و یعمل له

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۸۲

درکاه فمات قبل ذلک. و عمّر بالقلعة حوش الغنم و حوش البقر و حوش المعزى فأوسع فیها نحو خمسین فدانا. و عمّر الخانقاة بناحیة سریاقوس و رتّب فیها مائة صوفیّ لکل منهم الخبز و اللحم و الطعام و الحلوى و سائر ما یحتاج إلیه.

قلت: و قد صارت الخانقاة الآن مدینة عظیمة. انتهى.

قال: و عمّر القصور بسریاقوس، و عمل لها بستانا حمل إلیه الأشجار من دمشق و غیرها، فصار بها عامّة فواکه الشام. و حفر الخلیج الناصریّ خارج القاهرة حتى أوصله بسریاقوس، و عمّر على هذا الخلیج أیضا عدّة قناطر، و صار

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۸۳

بجانبى هذا الخلیج عدّة بساتین و أملاک. و عمّرت به أرض الطبّالة بعد خرابها من أیام العادل کتبغا. و عمّرت جزیرة الفیل، و ناحیة بولاق بعد ما کانت رمالا یرمى بها الممالیک النّشّاب، و تلعب الأمراء بها الکرة، فصارت کلّها دورا و قصورا و جوامع و أسواقا و بساتین، و بلغت البساتین بجزیرة الفیل فى أیامه مائة و خمسین بستانا بعد ما کانت نحو العشرین بستانا. و اتّصنت العمائر من ناحیة منیة الشّیرج على النیل

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۸۴

إلى جامع الخطیریّ إلى حکر ابن الأثیر و زریبة قوصون و إلى منشأة المهرانى إلى برکة

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۸۵

الحبش، حتّى کان الإنسان یتعجّب لذلک، فإنه کان قبل ذلک بمدّة یسیرة تلالا و رمالا و حلفاء، فصار لا یرى قدر ذراع إلّا و فیه بناء.

کلّ ذلک من محبّة السلطان للتعمیر. فصار کلّ أحد فی أیامه یفعل ذلک و یتقرّب إلی خاطره بهذا الشأن.

و صار لهم أیضا غیّة فی ذلک، کما قیل: الناس علی دین ملیکهم، بل قیل إنه کان إذا سمع بأحد قد أنشأ عمارة بمکان شکره فی الملأ و أمدّه فی الباطن بالمال و الآلات، و غیرها، فعمّرت مصر فی أیامه و صارت أضعاف ما کانت، کما سیأتی ذکره من الحارات و الحکورة و الأماکن. فممّا عمّر فی أیامه أیضا القطعة التی فیما بین قبّة الإمام الشافعیّ، رضی اللّه عنه، إلی باب القرافة طولا و عرضا بعد ما کانت فضاء لسباق خیل الأمراء و الأجناد و الخدّام، فکان یحصل هناک أیّام السّباق اجتماعات جلیلة للتفرّج علی السّباق إلی أن أنشأ الأمیر بیبغا الترکمانیّ تربته بها، و شکره السلطان. فأنشأ الناس فیه تربا حتی صارت کما تری.

قلت: و کذا وقع أیضا فی زماننا هذا بالساحة التی کانت تجاه تربة الملک الظاهر برقوق (أعنی المدرسة الناصریة بالصحراء) فإنها کانت فی أوائل الدولة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۸۶

الأشرفیة برسبای ساحة کبیرة یلعب فیها الممالیک السلطانیة بالرّمح، و هی الآن کما تری من العمائر. و کذا وقع أیضا بالساحة التی کانت من جامع أیدمر الخطیریّ علی ساحل بولاق إلی بیت المقرّ الکمال ابن البارزیّ، فإنّ الملک المؤیّد شیخ جلس فی حدود سنة عشرین و ثمانمائة ببیت القاضی ناصر الدین ابن البارزی والد کمال الدین المذکور بساحة بولاق، و ساقت الرّمّاحة المحمل قدّامه بالساحة المذکورة، و هی الآن کما هی من الأملاک. و کذلک وقع أیضا بخانقاه سریاقوس و أنّها کانت ساحة عظیمة من قدّام خانقاه الملک الناصر محمد بن قلاوون صاحب الترجمة إلی الفضاء، حتی عمّر بها الأمیر سودون بن عبد الرحمن مدرسته فی حدود سنة ست و عشرین

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۸۷

و ثمانمائة، فکان ما بین المدرسة العبد الرحمانیة المذکورة و بین باب الخانقاه الناصریة میدان کبیر. انتهی. و قد خرجنا عن المقصود و لنرجع إلی ما کنا فیه من ذکر الملک الناصر محمد فنقول أیضا:

و عمّر أیضا فی أیامه الصحراء التی ما بین قلعة الجبل و خارج باب المحروق إلی تربة الظاهر برقوق المقدّم ذکرها. و أوّل من عمّر فیها الأمیر قراسنقر تربته، و عمّر بها حوض السبیل یعلوه مسجد. ثم اقتدی به جماعة من الأمراء و الخوندات و الأعیان مثل خوند طغای، عمّرت بها تربتها العظیمة، و مثل طشتمر حمّص أخضر

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۸۸

الناصریّ، و مثل طشتمر طللیه الناصریّ و غیرهم. و کان هذا الموضع ساحة عظیمة، و به میدان القبق من عهد الملک الظاهر بیبرس برسم رکوب السلطان و عمل الموکب به برسم سباق الخیل، فلما عمّر قراسنقر تربته عمّر الناس بعده حتی صارت الصحراء مدینة عظیمة. و عمر الملک الناصر أیضا لممالیکه عدّة قصور خارج القاهرة، و بها منها قصر الأمیر طقتمر الدّمشقی بحدرة البقر، و بلغ مصروفه ثمانمائة ألف درهم.

فلمّا مات طقتمر أنعم به علی الأمیر طشتمر حمّص أخضر فزاد فی عمارته. و منها قصر الأمیر بکتمر الساقی علی برکة الفیل بالقرب من الکبش، فعمل أساسه أربعین ذراعا و ارتفاعه أربعین ذراعا فزاد مصروفه علی ألف ألف درهم. و منها

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۸۹

الکبش، حیث کان عمارة الملک الصالح نجم الدین أیّوب فعمله الملک الناصر سبع قاعات برسم بناته ینزلون فیه للفرجة علی رکوب السلطان للمیدان الکبیر. لم ینحصر ما أنفقه فیها لکثرته. و منها إسطبل الأمیر قوصون بسوق الخیل تحت القلعة تجاه باب السلسلة، و کان أصله إصطبل الأمیر سنجر البشمقدار و سنقر الطویل. و منها قصر بهادر الجوبانیّ بجوار زاویة البرهان الصائغ بالجسر الأعظم تجاه الکبش. و منها

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۹۰

قصر قطلوبغا الفخریّ و قصر ألطنبغا الماردانیّ و قصر یلبغا الیحیاویّ، و هؤلاء أجلّ ما عمّر من القصور و هم موضع المدرسة الناصریّة الحسنیّة، أخذهم الملک الناصر حسن و هدمهم و عمّر مکان ذلک مدرسته المشهورة به. و عمّر فی أیامه الأمراء عدّة دور و قصور، منها: دار الأمیر أیدغمش أمیر آخور و قصر بشتک و غیره.

و کان الملک الناصر له عنایة کبیرة ببلاد الجیزة، حتی إنه عمل علی کلّ بلد جسرا و قنطرة، و کانت قبل ذلک أکثر بلادها تشرق لعلوّها، فعمل جسر أمّ دینار، فی ارتفاع اثنتی عشرة قصبة. أقام العمل فیه مدّة شهرین، و هو الذی اقترحه فحبس الماء حتی ردّه علی تلک الأراضی، و عمّ النفع بها جمیع أهل الجیزة. و من یومئذ قوی بسبب هذا الجسر الماء حتی حفر بحرا یتّصل بالجیزة. و خرج فی أراضی الجیزة عدّة مواضع و زرعت بعد ما کانت شاسعة، و أخذ من هذه

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة؛ ج۹؛ ص۱۹۰

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۹۱

الأراضی قوصون و بشتک و غیرهما عدّة أراض عمّروها و وقفوها. و استجدّ السلطان علی بقیة الأراضی ثلثمائة جندیّ.

قلت: هذا و أبیک العمل! و أین هذا من فعل غیره! ینظر إلی أحسن البلاد فیأخذها و یوقفها فیخربها النّظار بعد سنین؛ فالفرق واضح لا یحتاج إلی بیان.

و هذا الذی أشرنا إلیه من أن الملک إذا کان له معرفة حصل له أغراضه من جمع المال من هذا الوجه و غیره، و لا یحتاج لأخذ الرشوة من الحکّام و الإفحاش فی أخذ المکوس و غیرها و مثل ذلک فکثیر.

و استجدّت فی ایام الملک الناصر عدّة أراضی أیضا بالشرقیة و نواحی فوّة و غیرها أقطعت للأجناد، و کانت قبل ذلک لسنین کثیرة خرابا لا ینتفع بها. و عمل أیضا سدّ

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۹۲

شبین القصر فزاد بسببه خراج الشرقیة زیادة کثیرة. و عمل جسرا خارج القاهرة حتی ردّ النیل عن منیة الشّیرج و غیرها، فعمّر بذلک عدّة بساتین بجزیره الفیل، و أحکم عامّة أراضی مصر قبلیّها و بحریّها بالتراع و الجسور حتی أتقن أمرها، و کان یرکب إلیها برسم الصّید کلّ قلیل، و یتفقّد أحوالها بنفسه، و ینظر فی جسورها و تراعها و قناطرها، بحیث إنه لم یدع فی أیّامه موضعا منها حتی عمل فیه ما یحتاج إلیه. و کان له سعد فی جمیع أعماله، فکان یقترح المنافع من قبله، بعد أن کان یزهّده فیما یأمر به حذّاق المهندسین، و یقول بعضهم: یاخوند، الذین جاءوا من قبلنا لو علموا أن هذا یصحّ فعلوه، فلا یلتفت إلی قولهم، و یفعل ما بدا له من مصالح البلاد، فتأتیه أغراضه علی ما یحبّ و زیادة، فزاد فی أیّامه خراج مصر زیادة هائلة فی سائر الأقالیم. و کان إذا سمع بشراقی بلد أو قریة من القری أهمّه ذلک و سأل المقطع بها عن أحوال القریة المذکورة غیر مرّة، بل کلّما وقع بصره علیه، و لا یزال یفحص عن ذلک حتّی یتوصّل إلی ریّها بکل ما تصل قدرته إلیه.

کلّ ذلک و صاحبها لا یسأله فی شیء من أمرها فیکلّمه بعض الأمراء فی ذلک فیقول: هذه قریتی، و أنا الملزوم بها و المسئول عنها، فکان هذا دأبه. و کان یفرح إذا سأله بعض الأجناد فی عمل مصلحة بلده بسبب عمل جسر أو تقاوی أو غیر ذلک، و ینبل ذلک الرجل فی عینه، و یفعل له ما طلبه من غیر توقّف و لا ملل فی إخراج المال، فإن کلّمه أحد فی ذلک فیقول: فلم نجمع المال فی بیت مال

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۹۳

المسلمین إلّا لهذا المعنی و غیره! فهذه کانت عوائده، و کذلک فعل بالبلاد الشامیّة، حتی إنّ مدینة غزّة هو الذی مصّرها و جعلها علی هذه الهیئة، و کانت قبل کآحاد قری البلاد الشامیّة، و جعل لها نائبا، و سمّی بملک الأمراء، و لم تکن قبل ذلک إلّا ضیعة من ضیاع

الرملة، و مثلها فكثير من قرى الشام و حلب و الساحل يطول الشرح فى ذكر ذلك.

و أنشأ الملك الناصر بالديار المصريّة الميدان الكبير على النيل، و خرّب ميدان اللّوق الذى كان عمّره الظاهر بيبرس و عمله بستانا، و قد تقدّم ذكره. ثم أنعم السلطان بالبستان المذكور على الأمير قوصون، فبنى قوصون تجاهه زريبته المعروفة بزريبة قوصون بنيانا و وقفه، و اقتدى الأمراء بقوصون فى العمارة. ثم أخذ

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۹۴

قوصون بستان الأمير بهادر رأس نوبة، و حكره للناس، و مساحته خمسة عشر فدّانا، فبنوه دورا على الخليج، فعرف بحكر قوصون، و حكر السلطان حول البركة الناصريّة أراضى البستان فعمّروها الناس و سكنوا فيه، ثم حكر الأمير طقز دمر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۹۵

الحمويّ الناصرى بستانا بجوار الخليج، مساحته ثلاثون فدانا، و بنى له قنطرة عرفت به، و عمل هناك حمّاما و حوانيت أيضا، فصار حكرا عظيم المساكن.

قلت: و طقز دمر هذا هو الذى جدّد الخطبة بالمدرسة المعزّيّة الأيبكيّة على النيل بمصر القديمة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۹۶

ثم حكر الأمير آقبغا عبد الواحد بستانا بجوار بركة قارون ظاهر القاهرة، فعمره عمارة كبيرة، و أخذ بقيّة الأمراء جميع ما كان من البساتين و الجنينات ظاهر القاهرة و حكروها، و حكرت دادة السلطان الملك الناصر الستّ حدق و الستّ

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۹۷

مسكة القهرمانة حكرين عرفا بهما. و أنشأت كلّ واحدة منهما فى حكرها جامعا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۹۸

تقام به الجمعة، فزادت الأحكار فى أيام الملك الناصر على ستين حكرا، و بهذا اتّصلت العمائر من باب زويلة إلى سدّ مصر، بعد ما كانت ساحة مخيفة. كلّ ذلك لما علم الناس من حبّ السلطان للعمر.

قلت: و على هذا زادت الديار المصرية فى أيامه مقدار النصف. قال: و عمرت فى أيامه بالديار المصرية عدّة جوامع تقام فيها الخطب زيادة على ثلاثين جامعا، منها: الجامع الناصرىّ بقلعة الجبل، جدّده و أوسعه. و منها الجامع الجديد الناصرىّ أيضا على نيل مصر. و منها جامع الأمير طيبرس الناصرىّ نقيب الجيش على النيل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۱۹۹

بجوار خانقاته، و قد ذهب أثر هذا الجامع المذكور من سنين. ثم عمّر طيبرس المذكور مدرسته المشهورة به بجوار الجامع الأزهر، و لمّا خرب جامعه المذكور الذى كان على النيل نقل الصوفيّة الذين كانوا به إلى المدرسة المذكورة. انتهى. و منها جامع المشهد النفيسىّ لا أعلم من بناه، و منها جامع الأمير بدر الدين محمد التّركمانىّ بالقرب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۰۰

من باب البحر. ثم جامع الأمير كراى المنصورى بآخر الحسينية. و جامع كريم الدين خلف الميدان. و جامع شرف الدين الجاكى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۰۱

بسويقة الرّيش. و جامع الفخر ناظر الجيش على النيل فيما بين بولاق و جزيرة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۰۲

الفيل. و جامعا آخر خلف خصّ الكيّالة ببولاق. و جامعا ثالثا بالروضة.

و جامع أمير حسين بالحكر، و بنى له قنطرة على الخليج بالقرب منه.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۰۳

و جـامع الأـمير قيـدان الرومیّ بقنـاطر الإوزّ. و جـامع دولـة شاه مملوک العلائی بکوم الرّيش. و جامع الأمير ناصـر الـدين الشّرابيشـیّ الحرّانیّ بالقرافة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۰۴

و جامع الأمير آقوش نائب الکرک بطرف الحسـينية بالقرب من الخليج. و جامع الأمير آق سـنقر شادّ العمائر قريبا من الميدان. و جامعا خارج باب القرافة، عمّره

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۰۵

جماعة من العجم. و جامع التّوبة بباب البرقيّة، عمّره مغلطای أخو

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۰۶

الأمير ألماس. و جامع بنت الملک الظاهر بالجزيرة المسـتجدّة المعروفة بالوسطانية. و جامع الأمير ألماس الناصریّ الحاجب بالقرب من حوض

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۰۷

ابن هنس بالشارع الأعظم خارج القاهرة. و جامع الأمير قوصون الناصـریّ بالقرب منه أيضا علی الشارع خارج القاهرة، و له أيضا جامع و خانقاه خارج باب القرافة.

و جامع الأمير عزّ الدين أيدمر الخطيریّ بساحل بولاق، و جامع أخی صاروجا بشون

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۰۸

القصب. و جامع الأمير بشتک الناصریّ علی برکة الفيل تجاه خانقاته. و جامع الأمير

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۰۹

آل ملک بالحسـينية. و جامع الست حدق الدّادة فيما بين السّدّ و قناطر السّـباع. و جامع السّتّ مسـکة قريبا من قنطرة آق سنقر. و جامع الأمير ألطنبغا الماردانیّ خارج باب زويلة. و جامع المظفّر بسويقة الجمّيزة من الحسينية. و جامع جوهر السّحرتی قريبا

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۱۰

من باب الشعرية، و جامع فتح الدين محمد بن عبد الظاهر بالقرافة. و غير ذلک من المدارس و المساجد، و هذا کله بديار مصر.

و أمـا مـا بنی بالبلاـد الشاميـة فی أيامه فکثير جـدّا. و آخر ما بناه الملک الناصـر السواقی التی بالرّصـد، و مات قبل أن يکملها. و کان الملک الناصر فی آخر أيامه شغف بحبّ الجواری المولّدات و حملن إليه، فزادت عدّتهنّ عنده علی ألف و مائتی وصيفة.

و خلّف من الأولاد الـذکور أبا بکر و محمـدا و إبراهيم و عليّا و أحمد و کجک و يوسف و شـعبان و إسـماعيل و رمضان و حاجی و حسـينا و حسنا و صالحا. و تسلطن من ولده لصلبه ثمانية: أبو بکر و کجک و أحمد و إسماعيل و شعبان و حاجی و حسن و صالح ثم حسن ثانيا حسب ما يأتی ذکر ذلک کله فی محلّه إن شاء اللّه تعالی. و خلّف من البنات سبعا.

قال الشيـخ صـلاح الدين الصـفدیّ فی تاريخه: و کان الملک الناصر ملکا عظيما محظوظا مطاعا مهيبا ذا بطش و دهاء و حزم شديد و کيد مديد، قلّما حاول أمرا فانخرم عليه فيه شیء يحاوله، إلّا أنه کان يأخذ نفسه فيه بالحزم البعيد و الاحتياط.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۱۱

أمسک إلی أن مات مائـة و خمسين أميرا. و کان يصبر الـدهر الطويل علی الإنسان و هو يکرهه. تحدّث مع الأمير أرغون الدّوادار فی إمسـاک کريم الـدين الکبير قبل القبض عليه بأربع سـنين، و همّ بإمساک تنکز لمّا ورد من الحجاز فی سـنة ثلاث و ثلاثين بعـد موت بکتمر السـاقی. ثم إنه أمهله ثمـانی سـنين بعـد ذلـک. و کـان ملوک البلاد الکبار يهابونه و يراسـلونه. و کان يتردّد إليه رسل صاحب

الهند و بلاد أزبك خان و ملوك الحبشة و ملوك الغرب و ملوك الفرنج و بلاد الأشكرى و صاحب اليمن. و أمّا بو سعيد ملك التّتار فكانت الرسل لا تنقطع بينهما، و يسمّى كلّ منهما الآخر أخا. و كانت الكلمتان واحدة، و مراسيم الملك الناصر تنفذ فى بلاد بو سعيد، و رسله يتوجهون إليه بأطلابهم و طبلخاناتهم بأعلامهم المنشورة. و كان كلما بعد الإنسان من بلاده وجد مهابته و مكانته فى القلوب أعظم. و كان سمحا جوادا على من يقرّبه، لا يبخل عليه بشيء كائنا من كان. سألت القاضى شرف الدين النّشو أطلق يوما ألف ألف درهم؟ قال: نعم [كثير. و فى يوم واحد أنعم على الأمير بشتك بألف ألف درهم] فى ثمن قرية يبنى التى بها قبر أبى هريرة على ساحل الرملة. و أنعم على موسى بن مهنّا بألف ألف درهم، و قال لى (يعنى عن النّشو): هذه ورقة فيها ما ابتاعه من الرقيق فى أيام مباشرتى، و كان ذلك من شعبان سنة اثنتين و ثلاثين إلى سنة سبع و ثلاثين و سبعمائة، فكان جملته أربعمائة ألف و سبعين ألف دينار مصرية. و كان ينعم على الأمير تنكز فى كل سنة يتوجّه إليه إلى مصر، و هو بالباب ما يزيد على ألف ألف درهم. و لمّا تزوّج الأمير سيف الدين

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۱۲

قوصون بابنة السلطان و عمل عرسه حمل الأمراء إليه شيئا كثيرا، فلمّا تزوّج الأمير سيف الدين طغاى تمر بابنته الأخرى. قال السلطان: ما نعمل [له] عرسا، لأن الأمراء يقولون: هذه مصادرة. و نظر إلى طغاى تمر و قد تغيّر وجهه، فقال للقاضى تاج الدين إسحاق يا قاضى: اعمل ورقة بمكارمة الأمراء لقوصون، فعمل ورقة و أحضرها، فقال السلطان: كم الجملة؟ قال: خمسون ألف دينار، فقال:

أعطها لطغاى تمر من الخزانة. و ذلك خارج عما دخل مع الزوجة من الجهاز.

و أمّا عطاؤه للعرب فأمر مشهور زائد عن الحدّ. انتهى كلام الشيخ صلاح الدين الصفدىّ باختصار. و هو أجدر بأحوال الملك الناصر، لأنه يعاصره و فى أيامه، غير أننا ذكرنا من أحوال الملك الناصر ما خفى عن صلاح الدين المذكور نبذة كبيرة من أقوال جماعة كثيرة من المؤرّخين. و اللّه تعالى أعلم.

*** السنة الأولى من ولاية الملك الناصر محمد بن قلاوون الثالثة على مصر، و هى سنة عشر و سبعمائة على أنّه حكم فى السنة الماضية من شهر شوّال إلى آخرها.

فيها (أعنى سنة عشر و سبعمائة) قبض الملك الناصر على الأمير سلّار و قتله فى السجن حسب ما تقدّم ذكره فى أصل الترجمة، و يأتى أيضا ذكر وفاته فى هذه السنة.

و فيها توفّى العلّامة قاضى القضاة شمس الدين أبو العبّاس أحمد بن إبراهيم بن عبد الغنى السّروجىّ الحنفىّ قاضى قضاة الديار المصرية فى يوم الخميس الثانى و العشرين

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۱۳

من شهر ربيع الآخر بالمدرسة السيوفيّة بالقاهرة. و كان بارعا فى علوم شتّى، و له اعتراضات على ابن تيميّة فى علم الكلام، و صنّف شرحا على الهداية و سمّاه «الغاية» و لم يكمله.

و توفّى الشيخ الإمام العلّامة نجم الدين أحمد بن محمد [بن علىّ بن مرتفع بن حازم بن إبراهيم بن العبّاس] بن الرّفعة الشافعى المصرى. كان فقيها مفتّنا مفتيا، و كان يلى حسبة مصر القديمة. و شرح التنبيه و الوسيط فى الفقه فى أربعين مجلدا.

و مات فى ثامن عشر رجب و دفن بالقرافة. رحمه اللّه.

و توفّى الشيخ رضىّ الدين أبو بكر بن محمود بن أبى بكر الرّقّىّ الحنفىّ المعروف بالمقصوص. مات بدمشق و دفن بالباب الصغير. و كان فقيها فاضلا عالما بعدّة فنون، و درّس و أفتى سنين كثيرة.

و توفى الشيخ الإمام العلّامة قطب الدّين محمود بن مسعود [بن مصلح] الشّيرازىّ، كان عالما بالفلسفة و المنطق و الأصول و الحكمة، و له فيهم مصنّفات تدلّ على فضله. و تولّى قضاء بلاد الروم، و لم يباشر القضاء، و لكن كانت نوّابه تحكم فى البلاد. و كان معظّما عند

ملوك التّتار [و كان] من تلامذة النّصير الطّوسىّ، و به تخرّج فى علم الأوائل. و بنى له تربة بتبريز، و بها دفن.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۱۴

و توفّى الشيخ الأديب الشاعر شهاب الدين أحمد بن عبد الملك بن عبد المنعم ابن عبد العزيز العزازىّ التاجر بقيساريّة جهاركس بالقاهرة. مات فى هذه السنه و دفن [بسفح] المقطّم. و كان له النظم الرائق، و له ديوان شعر مشهور. و من شعره فى مليح بدوىّ:

بدوىّ كم حدّثت مقلتاه عاشقا عن مقاتل الفرسان

بمحيّا يقول يا لهلال و لحاظ تقول يا لسنان

قلت: و يعجبنى فى هذا المعنى قول الشيخ علاء الدين الوداعىّ، و هو:

أقبل من حيّه و حيّا فأشرقت سائر النّواحى

فقلت يا وجه من بنى من فقال لى من بنى صباح

قلت: و العزازىّ هذا هو صاحب الموشّحات الظريفة المشهورة، ذكرنا منها عدّة فى ترجمته فى تاريخنا «المنهل الصافى» إذ هو كتاب تراجم.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۱۵

و توفّى الحكيم الأديب البارع شمس الدين محمد بن دانيال [بن يوسف] الموصلى، صاحب النّكت الغريبة، و النوادر العجيبة، و هو مصنّف «كتاب طيف الخيال» و كان كثير المجون و الدّعابة، و كانت دكّانه داخل باب الفتوح من القاهرة. و مولده بالموصل سنة ستّ و أربعين و ستمائة. و مات فى الثامن و العشرين من جمادى الآخرة.

و من شعره فى صنعته:

ما عاينت عيناى فى عطلتى أقلّ من حظّى و لا بختى

قد بعت عبدى و حصانى و قد أصبحت لا فوقى و لا تحتى

و له فى المعنى أيضا:

يا سائلى عن حرفتى فى الورى و ضيعتى فيهم و إفلاسى

ما حال من درهم إنفاقه يأخذه من أعين الناس

و من نوادره الظريفة أنّه كان يلازم خدمة الملك الأشرف خليل بن قلاوون قبل سلطنته فأعطاه الأشرف فرسا ليركبه، فلمّا كان بعد أيّام رآه الأشرف و هو على حمار زمن، فقال له: يا حكيم، ما أعطيناك فرسا لتركبه؟ فقال: نعم يا خوند، بعته و زدت عليه و اشتريت هذا الحمار، فضحك الأشرف و أعطاه غيره. و له فى أقطع.

و أقطع قلت له هل أنت لصّ أوحد

فقال هذى صنعة لم يبق لى فيها يد

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۱۶

و توفّى الأمير سيف الدين الحاجّ بهادر المنصورىّ نائب طرابلس بها، و فرح الملك الناصر بموته، فإنّه كان من كبار المنصورية.

و توفّى الأمير جمال الدين آقوش [المنصورىّ] الموصلىّ المعروف بقتّال السّبع أمير علم. مات بالديار المصريّة، و كان من أكابر أمرائها فى شهر رجب، و دفن بالقرافة.

و توفّى الأمير سيف الدين برلغى الأشرفىّ فى ليلة الأربعاء ثانى شهر رجب قتيلا بقلعة الجبل. قيل: إنه منع الطعام و الشراب حتّى مات، و دفن بالحسينية خارج باب النصر بجوار تربة علاء الدين الساقى الأستادار. و كان برلغى صهر المظفّر بيبرس الجاشنكير زوج ابنته و من ألزامه. و قد تقدّم ذكره فيما مضى فى أوّل ترجمة الملك الناصر، و فى ترجمة بيبرس أيضا ما فيه كفاية عن ذكره هنا ثانيا.

و توفّى الأمير سيف الـدين قبجق المنصورىّ نائب حلب بها فى جمادى الأولى و حمل إلى حماة، و دفن بتربته التى أنشأها بعد مرض طويل. و قـد تقـدّم ذكر قبجق فى عـدّة مواطن، فإنّه كان ولى نيابة دمشق، و خرج منها فى سـلطنة لاچين إلى بلاد التّتار، و أقدم غازان إلى دمشق، ثم عاد إلى طاعة الملك الناصـر فى سـلطنته الثانية، ثم كان هو القائم فى أمر الملك الناصر لمّا خلع بالجاشنكير حتى ردّه إلى ملكه.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۱۷

و توفّى الأمير الكبير سلّار المنصورىّ نائب السلطنة بديار مصر فى يوم الأربعاء الرابع و العشرين من شهر ربيع الآخر. و قد تقدّم ذكره فى أوّل ترجمة الناصر هذه الثالثة، و ما وجد له من الأموال و غير ذلك، فلينظر هناك.

و توفّى الأـمير نوغـاى بن عبـد اللّه المنصورىّ القبجاقىّ المقـدّم ذكره فى ترجمـة الملك المظفّر بيبرس لمّا فارقه و توجّه إلى الكرك إلى عند الملك الناصـر محمد. مات بقلعة دمشق محبوسا، و دفن بمقابر الباب الصغير، و كان من الشّجعان، غير أنه كان يحبّ الفتن و الحروب.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم لم يحرّر. مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا و ثلاث أصابع. و كان الوفاء يوم النّوروز. و اللّه أعلم.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۱۱]

السنة الثانية من ولاية الملك الناصر الثالثة على مصر، و هى سنة إحدى عشرة و سبعمائة.

فيها توفّى الأمير بكتوت الخازنـدار، ثم أمير شـكار، ثم نائب السـلطنة بثغر الإسـكندريّة؛ و مات بعـد عزله عنها فى ثامن شـهر رجب. و أصـله من مماليـك بيليـك الخازنـدار نـائب السـلطنة بمصـر فى الدولـة الظاهريّـة بيبرس. ثم صـار أمير شـكار فى أيـام كتبغا، ثم ولى الإسـكندريّة، و كثر ماله و اختصّ عنـد بيبرس الجاشـنكير و سـلّار. فلمّا عاد الملك الناصـر إلى ملكه حسّن له بكتوت هـذا حفر خليج الإسكندرية ليستمرّ

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۱۸

الماء فيها صـيفا و شـتاء، فنـدب السـلطان معه محمد بن كندغدى المعروف بابن الوزيرىّ، و فرض العمل على سائر الأمراء فأخرج كلّ منهم أسـتاداره و رجاله، و ركب ولاة الأقاليم، و وقع العمل فيه من شهر رجب سنة عشر و سبعمائة، و كان فيه نحو الأربعين ألف رجل تعمل. و كان قياس العمل من فم البحر إلى شـنبار ثمانى آلاف قصـبة، و مثلها إلى الإسـكندرية. و كان الخليج الأصـلىّ من حدّ شنبار يدخل الماء إليه فجعل فم هذا البحر يرمى إليه، و عمل عمقه ستّ قصـبات فى عرض ثمانى قصبات. فلمّا وصل الحفر إلى حدّ الخليج الأوّل حفر بمقدار الخليج المسـتجدّ و جعلا بحرا واحدا، و ركّب عليه القناطر، و وجد فى الخليج من الرّصاص المبنىّ تحت الصهاريج شىء كثير، فـأنعم به على الأـمير بكتوت. فلما فرغ ابتنى الناس عليه سواقى و اسـتجدّت عليه قريـة عرفت بالناصـريّة؛ فبلغ ما أنشـئ عليه زيادة على مائـة ألف فـدّان و نحو سـتمائة ساقيـة و أربعين قرية، و سارت فيه المراكب الكبار، و اسـتغنى أهل الثغر عن جرى الماء فى الصهاريج. و عمّر عليه نحو الألف غيط، و عمّرت به عدّة بلاد.

و تحوّلت النـاس إلى الأراضـى التى عمّرت و سـكنوها بعـد ما كانت سـباخا. فلمّا فرغ ذلك ائتنى بكتوت هـذا من ماله جسـرا أقام فيه ثلاثة أشهر حتّى بناه رصيفا، و أحدث عليه نحو ثلاثين قنطرة بناها بالحجارة و الكلس، و عمل أساسه رصاصا، و أنشأ بجانبه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۱۹

خانا و حانوتا، و عمل فيه خفرا و أجرى لهم الماء؛ فبلغت النفقـة على هـذا الجسـر ستين ألف دينار. و أعانه على ذلك أنّه هدم قصـرا قديما خارج الإسـكندريّة و أخذ حجره، و وجد فى أساسه سـربا من رصاص مشوا فيه إلى قرب البحر المالح، فحصّل منه جملة عظيمة

من الرصّاص. ثم إنه شجر ما بينه و بين صهره، فسعى به إلى السلطان و أغراه بأمواله و كتب مستوفى الدولة أمين الملك عبد اللّه بن الغنّام عليه أوراقا بمبلغ أربعمائة ألف دينار فعزل و طلب إلى القاهرة، فلمّا قرئت عليه الأوراق قال: قبّلوا الأرض بين يدى مولانا السلطان، و عرّفوه عن مملوكه إن كان راضيا عنه فكلّ ما كتب كذب، و إن كان غير راض فكلّ ما كتب صحيح.

و كان قد وعك فى سفره من الإسكندرية فمات بعد ليال فى ثانى عشر شهر رجب فأخذ له مال عظيم جدّا. و كان من أعيان الأمراء و أجلّهم و كرمائهم و شجعانهم مع الذكاء و العقل و المروءة، و له مسجد خارج باب زويلة و له أيضا عدة أوقاف على جهات البرّ.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۲۰

و توفّى الشيخ المجوّد المنشئ الفاضل شرف الدين محمد بن شريف بن يوسف الزرعىّ المعروف بابن الوحيد. كان حسن الخطّ فاضلا مقداما شجاعا يعرف عدّة علوم و ألسن و خدم عند جماعة من أعيان الأمراء، و كتب فى الإنشاء بالقاهرة، ثم تعطّل بعد ذلك، و نزل صوفيّا بخانقاه سعيد السعداء. فلمّا كانت سنة إحدى و سبعمائة قدم رسل التّتار إلى مصر و معهم كتاب غازان، فلم يكن فى الموقّعين من يحلّه فطلب فحلّه؛ فرتّبه السلطان فى ديوان الإنشاء إلى أن مات بالبيمارستان المنصورىّ يوم الثلاثاء سادس عشرين شعبان، و له ثلاث و ستون سنة. و من شعره فى تفضيل الحشيش على الخمر:

و خضراء لا الحمراء تفعل فعلها لها و ثبات فى الحشى و ثبات

تأجّج نارا فى الحشى و هى جنّة و تبدى مرير الطّعم و هى نبات

و توفّى الصاحب الوزير فخر الدين عمر ابن الشيخ مجد الدين عبد العزيز بن الحسن بن الحسين الخليلىّ التّميمىّ الدّارىّ بالقاهرة فى يوم عيد الفطر، و دفن بالقرافة الصغرى. و كان مولده سنة أربعين و ستمائة. و تولّى الوزارة فى دولة الملك السعيد ابن الظاهر بيبرس تمّ بعدها غير مرّة إلى أن عزله الملك الناصر، و مات معزولا. و كان فاضلا خيّرا ديّنا كثير الصدقات، عفيفا عن أموال الرعيّة. رحمه اللّه.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۲۱

و توفّى القاضى العلّامة الحافظ سعد الدين مسعود بن أحمد بن مسعود بن زيد الحارثىّ الحنبلىّ. مات بالمدرسة الصالحيّة بالقاهرة و دفن بالقرافة. و كان من أعيان العلماء المحدّثين. رحمه اللّه.

و توفّى الشيخ فخر الدين إسماعيل بن نصر [اللّه] بن أحمد بن محمد بن الحسن بن عساكر الدّمشقىّ. مات بدمشق و دفن بالباب الصغير. روى عن جماعة من المشايخ، و كانت نفسه قويّة.

و توفّى الشيخ الإمام العالم الخطيب بجامع أحمد بن طولون شمس الدين محمد بن يوسف بن عبد اللّه بن الجزرىّ الشافعىّ. مات بالمدرسة المعزّيّة بمصر فى أوائل ذى الحجّة و دفن بالقرافة. و مولده سنة سبع و ثلاثين و ستمائة بالجزيرة، و قدم دمشق و برع فى عدّة علوم، و عرض عليه قضاء دمشق فامتنع.

و توفّى الشيخ الاديب سراج الدين عمر بن مسعود الحلبى المعروف بالمحّار. و كان أوّلا صانعا يمحر الكتّان، ثم اشتغل بالأدب و مهر فيه، و اتّصل بخدمة الملك المنصور صاحب حماة إلى أن مات بدمشق فى هذه السنة. و هو صاحب الموشّحات المشهورة. و من شعره:

لمّا تألّق بارق من ثغره جادت جفونى بالسّحاب الممطر

فكأنّ عقد الدّمع حلّ قلائد ال عقيان منه على صحاح الجوهرى

و له فى مليح نجّار:

قالوا المعرّة قد غدت من فضلها يسعى إلى أبوابها و يزار

وجبت زيارتها علينا عند ما شغف القلوب بحبّها النّجّار

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۲۲

و من موشّحاته:

ما ناحت الورق فى الغصون، إلّا هاجت على، تغريدها لوعة الحزين

هل ما مضى لى مع الحبايب آئب، بعد الصدود

أو هل لأيّامنا الذّواهب واهب، بأن تعود

بكلّ مصقولة الترائب كاعب، هيفاء رود

تفترّ عن جوهر ثمين، جلّا أن يجتلى، يحمى بقضب من الجفون

أحببته ناعم الشمائل مائل، فى برده

فى أنفس العاشقين عامل عامل، من قدّه

يرنو بطرف إلى المقاتل قاتل، فى غمده

أسطى من الأسد فى العرين، فعلا و أقتلا، لعاشقيه من المنون

علقته كامل المعانى عانى، قلبى به

مبلبل البال مذ جفانى فانى، فى حبّه

كم بتّ من حيث لا يرانى رانى، لقربه

و بات من صدغه يربنى، نملا يسعى إلى، رضابه العاطر المصون

قاسوه بالبدر و هو أحلى شكلا، من القمر

و راش هدب الجفون نبلا أبلى، بها البشر

و قال لى و قد تجلّى جلّا، بارئ الصّور

ينتصف البدر من جبينى، أصلا فقلت لا، قال و لا السّحر من عيونى

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۲۳

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ذراعان و ثلاث أصابع. مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعا و إحدى و عشرون إصبعا. و اللّه أعلم.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۱۲]

السنة الثالثة من ولاية الملك الناصر محمد الثالثة على مصر، و هى سنة اثنتى عشرة و سبعمائة.

فيها توفّى قاضى القضاة شمس الدين أبو عبد اللّه محمد بن إبراهيم [بن إبراهيم] ابن داود بن حازم الأذرعىّ الحنفىّ بالقاهرة فى شهر رجب: و مولده بأذرعات فى سنة اربعين و ستمائة. و كان إماما بارعا مفتّنا عارفا بالفقه و اللغة و العربية و الأصول، و أفتى و درّس بالشّبلية التى على جسر تورا بدمشق، و ولى القضاء بها فباشر سنة. و قدم القاهرة فمات بها فى التاريخ المذكور.

و توفى الشيخ شرف الدين محمد بن موسى بن محمد بن خليل المقدسىّ الكاتب المنشئ فى خامس عشر شعبان بالقاهرة. و كان فاضلا أديبا شاعرا، إلّا أنّه كان كثير الهجاء. و كان يعرف بكاتب أمير سلاح. و من شعره:

اليوم يوم سرور لا شرور به فزوج ابن سحاب بابنة العنب

ما أنصف الكأس من أبدى القطوب لها و ثغرها باسم عن لؤلؤ الحبب

و توفّى الشيخ مجد الدين أحمد بن ديلم بن محمد الشّيبىّ المكىّ شيخ الحجبة و فاتح الكعبة بمكّة و دفن بالمعلاة. و روى عن ابن

مسدی و المرسی و غیرهما.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۲۴

و توفّی الملک المظفّر شهاب الدین غازی ابن الملک الناصر صلاح الدین داود ابن الملک المعظّم شرف الدین عیسی ابن الملک العادل أبی بکر [محمد] بن أیوب.

مات بالقاهرة فی یوم الاثنین ثانی عشر شهر رجب. و مولده بالکرک فی سنة سبع و ثلاثین و ستمائة.

و توفّی الملک المنصور نجم الدین أبو الفتح غازی ابن الملک المظفّر فخر الدین قرا أرسلان ابن الملک السعید نجم الدین غازی الأرتقیّ صاحب ماردین و ابن صاحبها و بها کانت وفاته فی تاسع شهر ربیع الآخر، و دفن بمدرسته تحت قلعة ماردین، و عمره فوق السبعین، و کانت مدّته علی ماردین نحو العشرین سنة. و کان ملکا مهیبا کامل الخلقة سمینا بدینا عارفا مدبّرا. و تولّی سلطنة ماردین من بعده ولده الملک العادل علیّ سبعة عشر یوما ثم خلع و ولّی أخوه صالح.

و توفّی الأمیر سیف الدین قطلوبک الشّیخیّ، کان من أعیان أمراء دمشق، و بها کانت وفاته.

و توفّی الأمیر سیف الدین مغلطای البهائیّ بطرابلس، کان قد رسم السلطان بالقبض علیه فوصل البریدیّ بذلک بعد موته بیوم.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم ثلاث أذرع و أصابع. مبلغ الزیادة ست عشرة ذراعا و اثنتان و عشرون إصبعا. و کان الوفاء ثالث أیام النسیء.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۲۵

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۱۳]

السنة الرابعة من ولایة الملک الناصر محمد الثالثة علی مصر، و هی سنة ثلاث عشرة و سبعمائة.

فیها توفّی القاضی عماد الدین أبو الحسن علی ابن القاضی فخر الدین عبد العزیز ابن القاضی عماد الدین عبد الرحمن بن السّکّریّ فی یوم الجمعة السادس و العشرین من صفر، و کان فاضلا فقیها، توجّه رسولا من قبل الملک الناصر إلی غازان، و ولی تدریس مشهد الحسین بالقاهرة و عدّة وظائف دینیة، و ولی خطابة جامع الحاکم.

و توفی الأمیر المسند علاء الدین أبو سعید بیبرس التّرکیّ العدیمیّ الحنفیّ بحلب، و دفن بتربة ابن العدیم، و قد قارب التسعین سنة. و انفرد بالروایة قبل موته، و قصد من الأقطار و رحل إلیه من حدّث بالکثیر.

و توفی صاحب مرّاکش من بلاد الغرب الأمیر سلیمان بن عبد اللّه [بن یوسف] بن یعقوب المرینیّ، و ولی بعده عمّه أبو سعید عثمان بن یعقوب و استوسق أمره.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۲۶

و توفّی الخان طقطای بن منکوتمر بن طغای بن باطو بن چنکزخان ملک التتار بالبلاد الشمالیة بمکان یسمّی کرنا علی مسافة من مدینة صرای عشرة أیام. و ذکره ابن کثیر فی السنة الخالیة، و الصحیح ما قلناه. و کانت مملکته ثلاثا و عشرین سنة، و مات و له ثلاثون سنة. و کان شهما شجاعا مقداما، و کان علی دین التتار فی عبادة الأصنام و الکواکب، یعظّم الحکماء و الأطباء و الفلاسفة، و یعظّم المسلمین أکثر من الجمیع، غیر أنه لم یسلم؛ و کانت عساکره کثیرة جدّا؛ یقال إنه جرّد مرة من کلّ عشرة واحدا، فبلغت التجریدة مائة ألف و خمسین ألفا.

و کانت وفاته فی شهر رمضان، و مات و لم یخلّف ولدا، فجلس علی تخت الملک من بعده أزبک خان بن طغرلجا بن منکوتمر بن طغای [بن باطو] بن چنکزخان.

و کان الذی أعان أزبک خان علی السلطنة شخص من أمرائهم من المسلمین یقال له قطلقتمر کان علی تدبیر ممالکهم.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم ذراعان و سبع أصابع. مبلغ الزیادة ست عشرة ذراعا و سبع أصابع. و کان الوفاء قبل النّوروز بیوم واحد.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۲۷

*** [ما وقع من الحوادث سنة ۷۱۴]

السنة الخامسة من ولایة الملک الناصر محمد الثالثة علی مصر، و هی سنة أربع عشرة و سبعمائة.

فیها توفّی الشیخ المعمّر بقیّة السّلف محمد بن محمود بن الحسین بن الحسن الموصلیّ المعروف بحیّاک اللّه. مات بزاویته بسویقة الرّیش خارج القاهرة فی یوم الخمیس تاسع شهر ربیع الأوّل و دفن بالقرافة. و کان شیخا صالحا بلغ عمره نحوا من مائة سنة و ستین سنة، و کان حاضر الحسّ جیّد القوة، و کان یقصد للزیارة للتبرّک به، و کان کثیر الذّکر و العبادة و له محاضرة حسنة و شعر. و من شعره من أوّل قصیدة:

إذا الحبّ لم یشغلک عن کلّ شاغل فما ظفرت کفاک منه بطائل

و توفّی القاضی شرف الدین یعقوب بن مجد الدین مظفّر بن شرف الدین أحمد ابن مزهر بحلب و هو ناظرها. کان یخدم عند الأکابر و تنقّل فی خدم کثیرة، حتی إنّه لم تبق مملکة بالشام إلّا باشرها.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۲۸

و توفّی القاضی بهاء الدین علیّ بن أبی سوادة الحلبیّ صاحب دیوان الإنشاء بحلب، و بها کانت وفاته فی نصف شهر رجب. و کان من الصّدور الأماثل و عنده فضیلة. و له نظم و نثر. و من شعره:

جد لی بأیسر وصل منک یا أملی فالصبر قد عاد عنکم غیر محتمل

مالی رمیت بأمر لا أطیق له حملا و بدّلت بعد الأمن بالوجل

و توفّی القاضی فخر الدین سلیمان بن عثمان ابن الشیخ الإمام صفیّ الدّین أبی القاسم محمد بن عثمان البصرویّ الحنفیّ محتسب دمشق بها فی ذی القعدة. و کان فاضلا طیّب العشرة.

و توفّی الأمیر سیف الدین ملکتمر النّاصریّ المعروف بالدّم الأسود. کان أمیر ستین فارسا بدمشق. و کان من الظّلمة المسرفین علی أنفسهم.

قلت: و لا بأس بهذا اللّقب الذی لقب به علی هذه الصفات التی غیر محمودة.

و توفّی الأمیر فخر الدین آقجبا الظّاهریّ أحد أمراء دمشق؛ و بها کانت وفاته.

و کان خیّرا دیّنا. رحمه اللّه تعالی.

و توفّی الأمیر سیف الدین کهرداش بن عبد اللّه الزّرّاق، مات أیضا بدمشق.

و کان بها أمیر خمسین فارسا. و کان سافر مع السلطان إلی الحجاز، فلمّا زار النبی صلّی اللّه علیه و سلّم تاب عن شرب الخمر، فلمّا عاد إلی دمشق شربه فضربه الفالج لوقته، و بطل نصفه و تعطّل إلی أن مات.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۲۹

و توفّی الأمیر سیف الدین سودی بن عبد اللّه النّاصریّ نائب حلب. و بها کانت وفاته فی نصف شهر رجب. و کان مشکور السّیرة فی ولایته محمود الطریقة.

و هو ممّن أنشأه الملک الناصر محمد من ممالیکه، و تولّی حلب بعده الأمیر علاء الدین ألطنبغا الحاجب.

و توفّی التاجر عزّ الدین عبد العزیز بن منصور الکولمی أحد تجّار الإسکندریة فی شهر رمضان. و کان أبوه یهودیّا من أهل حلب

يعرف بالحموى، فأسلم و تعلّق ابنه هذا على المتجر و فتح اللّه عليه إلى أن قدم إلى مصر و معه بضاعة بأربعمائة ألف دينار.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و إحدى و عشرون إصبعا. مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و سبع عشرة إصبعا. و كان الوفاء قبل النّوروز بأربعة أيام. و اللّه أعلم.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۱۵]

السنة السادسة من ولاية الملك الناصر محمد بن قلاوون الثالثة على مصر، و هى سنة خمس عشرة و سبعمائة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۳۰

فيها توفّى الشيخ الإمام شهاب الدين أحمد بن الحسين بن عبد الرحمن الأرمنتىّ المعروف بابن الأسعد فى يوم الجمعة رابع عشرين شهر رمضان. و كان فقيها شافعيا و تولّى القضاء و حسنت سيرته.

و توفّى الشيخ الإمام العالم العلّامة جلال الدين إسماعيل بن أحمد بن إسماعيل ابن برتق بن برغش بن هارون أبو طاهر القوصىّ الفقيه الحنفىّ، كان فقيها إماما بارعا، تصدّر بجامع أحمد بن طولون، و أقرأ الفقه و القراءات و العربية سنين، و انتفع به الناس و صنّف و حدّث و نظم و نثر. و من شعره و هو فى غاية الحسن:

أقول له و دمعى ليس يرقا ولى من عبرتى إحدى الوسائل

حرمت الطّيف منك بفيض دمعى فطرفى فيك محروم و سائل

و له أيضا:

أقول و مدمعى قد حال بينى و بين أحبّتى يوم العتاب

رددتم سائل الأجفان نهرا تعثّر و هو يجرى فى الثّياب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۳۱

و توفى قاضى القضاة تقىّ الدين أبو الفضل سليمان بن حمزة بن أحمد بن عمر بن قدامة المقدسىّ الحنبلىّ بقاسيون فى عشر ذى القعدة و دفن بتربة جدّه شيخ الإسلام أبى عمر. و كان إماما عالما عاملا جمع بين العلم و العبادة، و سمع الحديث بنفسه و حدّث بمسموعاته.

و توفّى الشيخ الإمام العلّامة السيد ركن الدين حسن بن محمد بن شرف شاه الحسينىّ الأسترآبادىّ، كان إماما مصنفا عالما بالمعقول، اشتغل على النّصير الطّوسىّ و حصّل منه علوما كثيرة، و صار معيدا فى درس أصحابه، و قدم الموصل و ولى تدريس المدرسة النّورية، و بها صنّف غالب مصنّفاته، مثل: شرح مختصر ابن الحاجب.

و شرح مقدّمة ابن الحاجب فى النحو و هى التى تسمّى بالكافية، و عمل عليها ثلاثة شروح: كبير و متوسط و صغير. و شرح الحاوى فى الفقه. و شرح التصريف لابن الحاجب أيضا، و هو الذى يسمّى بالشافية، و شرح المطالع فى المنطق، و شرح كتاب قواعد العقائد؛ و عدّة تصانيف أخر، ذكرناها فى غير هذا الكتاب. و كانت وفاته بالموصل فى صفر.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۳۲

و توفّى الشيخ أصيل الدين الحسن ابن الإمام العلّامة نصير الدين محمد بن محمد ابن الحسن الطّوسى البغدادىّ. كان عالى الهمّة كبير القدر فى دولة قازان، و قدم إلى الشام و رجع معه إلى بلاده. و لما تولّى خربندا الملك و وزر تاج الدين على شاه قرّب أصيل الدين هذا إلى خربندا؛ حتى ولّاه نيابة السلطنة ببغداد. ثم عزل و صودر. و كان كريما رئيسا عارفا بعلم النجوم، لكنه لم يبلغ فيه رتبة أبيه نصير الدين الطّوسىّ، على أنه كان له نظر فى الأدبيات و الأشعار، و صنّف كتبا كثيرة.

و كان فيه خير و شرّ و عدل و جور. و مات ببغداد.

و توفّى الشيخ الصالح القدوة أبو الحسن علىّ ابن الشيخ الكبير علىّ الحريرىّ شيخ الفقراء الحريريّة. كان للناس فيه اعتقاد و له حرمة عند أرباب الدولة، و كان فيه تواضع و كرم، و كانت وفاته ببصرى من عمل دمشق فى السابع و العشرين من جمادى الأولى، و له اثنتان و سبعون سنة.

و توفّى الأمير بدر الدين موسى ابن الأمير سيف الدين أبى بكر محمد الأزكشىّ، كان من أكابر الأمراء و شجعانهم. مات بدمشق فى ثامن شعبان و دفن عند القبيبات، و كان شهما شجاعا. ظهر فى نوبة غزو مرج الصّفّر مع التّتار عن شجاعة عظيمة.

و توفّى الأمير حسام الدين قرالاچين بن عبد اللّه المنصورىّ الأستادار فى الثامن و العشرين من شعبان، و أنعم الملك الناصر بإقطاعه على الأمير آقوش الأشرفىّ نائب الكرك لمّا أفرج عنه، و الإقطاع إمرة مائة و عشرين فارسا.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و سبع عشرة إصبعا. و الوفاء تاسع عشرين مسرى. و اللّه أعلم.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۳۳

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۱۶]

السنة السابعة من ولاية الملك الناصر الثالثة على مصر، و هى سنة ست عشرة و سبعمائة.

فيها حجّ بالناس من مصر الأمير بهادر الإبراهيمىّ، و أمير الرّكب الشامىّ أرغون السّلاحدار. و حجّ فى هذه السنة من أعيان أمراء مصر الأمير أرغون الناصرىّ نائب السلطنة بديار مصر، و عزّ الدين أيدمر الخطيرىّ، و عز الدين أيدمر أمير جاندار. و سيف الدين أركتمر السّلاحدار. و ناصر الدين محمد بن طرنطاى.

و فيها توفّى الشيخ الكاتب المجوّد نجم الدين موسى بن علىّ بن محمد الحلبىّ ثم الدّمشقىّ المعروف بابن بصيص (بضمّ الباء ثانية الحروف) شيخ الكتّاب بدمشق فى زمانه. و ابتدع صنائع بديعة، و كتب فى آخر عمره ختمة بالذهب عوضا عن الحبر. و كان مولده سنة إحدى و خمسين و ستمائة، و مات ليلة الثلاثاء عاشر ذى القعدة. و له شعر على طريق الصوفيّة، من ذلك:

و حقّك لو خيّرت فيما أريده من الخير فى الدنيا أو الحظّ فى الأخرى

لما اخترت إلّا حسن نظم يروقنى معانيه أبدى فيه أوصافك الكبرى

و توفّى الشيخ الإمام العلّامة صدر الدين أبو عبد اللّه محمد بن زين الدين عمر بن مكّى بن عبد الصمد العثمانى الشهير بابن المرحّل و بابن الوكيل، المصرىّ الأصل الشافعىّ الفقيه الأديب، كان فريد عصره و وحيد دهره، كان أعجوبة فى الذّكاء و الحفظ.

و مولده فى شوّال سنة خمس و ستين و ستمائة بدمياط و كان بارعا مدرسا مفتنّا، درّس بدمشق و القاهرة و أفتى، و عمره اثنتان و عشرون سنة، و كان يشتغل فى الفقه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۳۴

و التفسير و الأصلين و النحو، و اشتغل فى آخر عمره فى الطبّ، و سمع الحديث الكتب الستة و مسند الإمام أحمد، و صنّف «الأشباه و النظائر» قبل أن يسبقه إليها أحد، و كان حسن الشكل حلو المجالسة و عنده كرم مفرط، و له الشّعر الرائق الفائق فى كلّ فنّ من ضروب الشّعر. و كانت وفاته فى رابع عشرين ذى الحجّة و دفن بالقرافة فى تربة الفخر ناظر الجيش. و هو أحد من قام على الملك الناصر و انضمّ على المظفّر بيبرس الجاشنكير. و قد تقدّم ذكر ذلك كلّه فى أوائل ترجمة الملك الناصر. و من شعره:

أقصى منای أن أمرّ على الحمى و يلوح نور رياضه فيفوح

حتّى أرى سحب الحمى كيف البكا و أعلّم الورقاء كيف تنوح

و له [دو بيت]:

كم قال: معاطفى حكتها الأسل و البيض سرقن ما حوته المقل

الآن أوامرى عليهم حكمت البيض تحدّ و القنا تعتقل

و له:

عيّرتنى بالسّقم طرفك مشبهى و كذاك خصرك مثل جسمى ناحلا

و أراك تشمت إذ أتيتك سائلا لا بدّ أن يأتى عذارك سائلا

قلت: و له ديوان موشّحات و أحسنهم موشحته التى عارض بها السّراج المجّار التى أوّلها:

ما أخجل قدّه غصون البان، بين الورق إلّا سلب المها مع الغزلان، سود الحدق

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۳۵

و قد ذكرناها بتمامها فى ترجمته فى تاريخنا «المنهل الصافى» و قطعة جيّدة من شعره.

و توفّى الشيخ الأديب البارع المفتنّ أعجوبة زمانه علاء الدين علىّ بن المظفّر بن إبراهيم [بن عمر] الكندى الوداعىّ المعروف بكاتب ابن وداعة الشاعر المشهور، أحد من اقتدى به الشيخ جمال الدين ابن نباتة فى ملح أشعاره. مولده سنة أربعين و ستمائة، و مات ببستانه فى سابع عشر شهر رجب بدمشق و دفن بالمزّة، و كان فاضلا أديبا شاعرا عالى الهمة فى تحصيل العلوم. سمع الحديث و كتب الخطّ المنسوب و نظم و نثر و تولى عدّة ولايات، و كتب بديوان الإنشاء بدمشق و تولّى مشيخة دار الحديث [النّفيسية] و جمع التذكرة الكنديّة تزيد على خمسين مجلّدا. و له ديوان شعر فى ثلاثة مجلّدات. و من شعره:

قال لى العاذل المفنّد فيها يوم زارت فسلّمت مختاله

قم بنا ندّع النبوّة فى العش ق فقد سلّمت علينا الغزاله

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة؛ ج۹؛ ص۲۳۵

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۳۶

و له أيضا:

أثخنت عينها الجراح و لا إث م عليها لأنّها نعساء

زاد فى عشقها جنونى فقالوا ما بهذا فقلت بى سوداء

و له و هو أحسن ما قيل فى نوع التوجيه:

من زار بابك لم تبرح جوارحه تروى أحاديث ما أوليت من منن

فالعين عن قرّة و الكفّ عن صلة و القلب عن جابر و السمع عن حسن

و له أيضا:

قيل إن شئت أن تكون غنيّا فتزوّج و كن من المحصنينا

قلت ما يقطع الإله بحرّ لم يضع بين أظهر المسلمينا

و قد ذكرنا من مقطّعاته عدّة كثيرة فى «المنهل الصافى»، و لو لا خشية الملل لذكرناها هنا.

و توفّى الأمير جمال الدين آقوش بن عبد اللّه المنصورىّ المعروف بالأفرم الصغير نائب الشام ببلاد مراغة عند ملك التّتار. و قد تقدّم خروجه مع الأمير قراسنقر المنصورىّ من البلاد الشاميّة إلى غازان ملك التتار فى أوائل دولة الملك الناصر الثالثة فلا حاجة فى ذكرها هنا ثانيا. و كان ملك التتار أقطعه مراغة و قيل همذان

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۳۷

فأقام بها سنتين، و مات بالفالج فى ثالث عشر المحرّم. و كان أميرا جليلا عارفا مدبّرا عالى الهمّة شجاعا مقداما. تقدّم من ذكره نبذة كبيرة فى ترجمة المظفّر بيبرس الجاشنكير. و كانت ولايته على دمشق إحدى عشرة سنة متوالية إلى أن عزله الملك الناصر لمّا خرج من الكرک.

و توفّى الأمير سيف الدين كستاى بن عبد اللّه نائب طرابلس بها. و تولّى نيابة طرابلس من بعده الأمير قرطاى نائب حمص. و ولى حمص بعد قرطاى المذكور أرقطاى الجمدار.

و توفّى الأمير سيف الدين طقتمر الدمشقىّ بالقاهرة بمرض السلّ. و كان من خواصّ الملك الناصر و أحد من أنشأه من مماليكه.

و توفّى الطواشى ظهير الدين مختار المنصورىّ المعروف بالبلبيسىّ الخازندار فى عاشر شعبان بدمشق. و كان شهما شجاعا ديّنا، فرّق جميع أمواله قبل موته على عتقائه و وقف أملاكه على تربته.

و توفّيت السيّدة المعمّرة أمّ محمد ستّ الوزراء المعروفة بالوزيرة ابنة الشيخ عمر ابن أسعد بن المنجّا التّنوخيّة فى ثامن عشر شعبان بدمشق، و مولدها سنة أربع و عشرين و ستمائة، روت صحيح البخارىّ عن [أبى عبد اللّه] بن الزّبيدىّ و صارت رحلة زمانها، و رحل إليها من الأقطار.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۳۸

و توفّى ملك التتار خربندا (بفتح الخاء المعجمة و سكون الراء و فتح الباء الموحدة و سكون النون) بن أرغون بن أبغا بن هولاكو بن تولو بن چنكزخان السلطان غياث الدين، و من الناس من يسمّيه خدابندا (بضم الخاء المعجمة و الدال المهملة) و الأصح ما قلناه. و خدابندا: معناه عبد اللّه بالفارسىّ، غير أن أباه لم يسمّه إلّا خربندا، و هو اسم مهمل معناه: عبد الحمار. و سبب تسميته بذلك أنّ أباه كان مهما ولد له ولد يموت صغيرا، فقال له بعض الأتراك: إذا جاءک ولد سمّه اسما قبيحا يعيش، فلما ولد له هذا سمّاه خربندا فى الظاهر و اسمه الأصلى أبجيتو؛ فلما كبر خربندا و ملك البلاد كره هذا الاسم و استقبحه فجعله خدابندا و مشى ذلك بمماليكه و هدّد من قال غيره و لم يفده ذلك إلا من حواشيه خاصّة. و لما ملك خربندا أسلم و تسمّى بمحمد، و اقتدى بالكتاب و السّنة و صار يحب أهل الدين و الصلاح، و ضرب على الدرهم و الدينار اسم الصحابة الأربعة الخلفاء، حتى اجتمع بالسيد تاج الدين الآوى الرافضىّ، و كان خبيث المذهب، فما زال بخربندا، حتى جعله رافضيّا و كتب إلى سائر ممالكه يأمرهم بالسبّ و الرّفض، و وقع له بسبب ذلك أمور. قال النّويرىّ:

كان خربندا قبل موته بسبعة أيام قد أمر بإشهار النداء ألّا يذكر أبو بكر و عمر رضى اللّه عنهما و عزم على تجريد ثلاثة آلاف فارس إلى المدينة النبوية لينقل

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۳۹

أبا بكر و عمر رضى اللّه عنهما من مدفنهما، فعجّل اللّه بهلاكه إلى جهنّم و بئس المصير هو و من يعتقد معتقده كائنا من كان. و كان موته فى السابع و العشرين من شهر رمضان بمدينته التى أنشأها و سمّاها السلطانيّة فى أرض قنغرلان بالقرب من قزوين، و تسلطن بعده ولده بو سعيد فى الثالث عشر من شهر ربيع الأوّل من سنة سبع عشرة و سبعمائة، لأنه كان فى مدينة أخرى و أحضر منها و تسلطن.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثلاث أذرع و ست أصابع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و اثنتان و عشرون إصبعا. و اللّه تعالى أعلم.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۱۷]

السنة الثامنة من ولایة الملک الناصر محمد بن قلاوون الثالثة علی مصر، و هی سنة سبع عشرة و سبعمائة.

فیها توفّی قاضی القضاة جمال الدین أبو عبد اللّه محمد ابن الشیخ أبی الربیع سلیمان بن سوید الزّواویّ المالکی قاضی دمشق بها، فی التاسع من جمادی الأولی.

و کان فقیها عالما عالی الهمّة محدّثا بارعا مشکور السّیرة فی أحکامه.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۴۰

و توفّی القاضی الرئیس شرف الدین أبو محمد عبد الوهاب بن جمال الدین فضل اللّه ابن المجلّی القرشیّ العدوی العمریّ، کاتب السر الشریف بدمشق فی ثالث رمضان و دفن بسفح قاسیون. و مولده سنة ثلاث و عشرین و ستمائة، و کان إماما فی کتابة الإنشاء عارفا بتدبیر الممالک ملیح الخطّ غزیر العقل و خدم عدة سلاطین، و کان کاملا فی فنّه لم یکن فی عصره من یدانیه و لا یقاربه. و من شعره ما کتبه للشهاب محمود فی صدر کتاب:

کتبت و القلب یدنینی إلی أمل من اللّقاء و یقصینی عن الدار

و الوجد یضرم فیما بین ذاک و ذا من الجوانح أجزاء من النار

و توفّی الأدیب الفاضل شمس الدین أبو العبّاس أحمد بن أبی المحاسن یعقوب ابن إبراهیم بن أبی نصر الطّیبی الأسدیّ بطرابلس فی سادس رمضان. و مولده فی سنة تسع و أربعین و ستمائة. و کان کاتب الدّرج بطرابلس و کان فاضلا ناظما ناثرا.

و من شعره:

ما مسّنی الضّیم إلّا من أحبّائی فلیتنی کنت قد صاحبت أعدائی

ظننتهم لی دواء الهمّ فانقلبوا داء یزید بهم همّی و أدوائی

من کان یشکو من الأعداء جفوتهم فإنّنی أنا شاک من أودّائی

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۴۱

و توفّی الأمیر أرسلان الناصریّ الدّوادار فی الثالث و العشرین من شهر رمضان، و کان هو و علاء الدین ابن عبد الظاهر صدیقین فمرضا فی وقت واحد بعلّة واحدة و ماتا فی شهر واحد. و خلّف أرسلان جملة کثیرة من المال استکثرها الملک الناصر علی مثله. و کان من جملة أمراء الطبلخاناه و استقرّ عوضه دوادارا الأمیر ألجای الدوادار الناصریّ. و فی أرسلان هذا عمل علاء الدین ابن عبد الظاهر کتابه المسمّی «بمراتع الغزلان».

و توفّی الأمیر سیف الدین قلّی السّلاح دار بالقاهرة. و کان من أعیان أمراء الدیار المصریة، و أنعم السلطان بإقطاعه و منزلته [فی المجلس] علی الأمیر چنکلی ابن البابا.

و توفّی الأمیر سیف الدین ألدکز بن عبد اللّه السّلاحدار صهر الأمیر علم الدین سنجر الشّجاعیّ و مات فی الحبس.

و توفّی الأمیر سیف الدین ألکتمر بن عبد اللّه صهر الأمیر بکتمر الجوکندار أیضا فی الحبس حتف أنفه.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم خمس أذرع و إصبعان. مبلغ الزیادة ثمانی عشرة ذراعا سواء. و کان نیلا عظیما غرقت منه عدّة أماکن. و اللّه أعلم.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۱۸]

السنة التاسعة من ولایة الملک الناصر محمد بن قلاوون الثالثة علی مصر، و هی سنة ثمانی عشرة و سبعمائة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۴۲

فيها توفّى قاضى القضاه زين الدين أبو الحسن علىّ ابن الشيخ رضىّ الدين أبى القاسم مخلوف ابن تاج الدين ناهض المالكى النّويرىّ فى يوم الأربعاء ثامن عشر جمادى الآخرة بمصر، و دفن بسفح المقطّم. و مولده فى سنة عشرين و ستمائة. و كان فقيها ديّنا خيّرا حسن الأخلاق. و ولى القضاء بديار مصر فى سنة خمس و ثمانين و ستمائة، فكانت مدّة ولايته ثلاثا و ثلاثين سنة تقريبا، و عرضت عليه الوزارة فى الدولة المنصورية لاچين فأباها خوفا من علم الدين [سنجر] الشّجاعىّ، و تولّى بعده القضاء نائبه تقىّ الدين محمد بن أبى بكر بن عيسى [ابن بدران بن رحمة الإخنائى المالكىّ].

و توفّى الشيخ الإمام الزاهد بقيّة السّلف. أبو بكر ابن الشيخ المسند المعمّر زين الدين أبى العباس أحمد بن عبد الدائم بن نعمة بن أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أحمد ابن أبى بكر المقدسىّ الحنبلىّ. سمع الكثير و حدّث. و كان شيخا كثير التّلاوة و الصلاة على النّبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم، و حدّث فى حياة والده. و مولده سنة ست و عشرين و ستمائة؛ و قيل سنة خمس و عشرين. و مات ليلة الجمعة التاسع و العشرين من رمضان.

و توفّى الأمير علاء الدين أقطوان الساقى الظاهرى فى عاشر شهر رمضان بدمشق، و قد جاوز الثمانين سنة. و كان رجلا صالحا مواظب الجماعات، و يقوم اللّيل.

و توفّى الامير عز الدين طقطاى الناصرىّ، كان نائب الكرك فتمرّض فعزل عن الكرك، و توجّه إلى دمشق ليتداوى بها فمات فى رابع عشر شعبان.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۴۳

و توفّى الأمير سيف الدين منكبرس نائب عجلون. كان من قدماء المماليك المنصوريّة، و كان معظّما فى الدول و له حرمة وافرة.

و توفى الشيخ كمال الدين [أبو العبّاس] أحمد ابن [الشيخ جمال الدين] أبى بكر محمد بن أحمد بن محمد بن عبد اللّه بن سجمان البكرىّ الوائلىّ الشّريشىّ الفقيه الشافعى، مات بطريق الحجاز، و كان فقيها عالما فاضلا.

و توفّى الشيخ جمال الدين أبو بكر إبراهيم [ابن حيدرة بن علىّ بن عقيل] الفقيه الشافعى المعروف بابن القمّاح فى سابع عشر ذى الحجّة. و كان معدودا من فضلاء الشافعيّة.

و توفى الشيخ المقرئ مجد الدين أبو بكر ابن الشيخ شمس الدين محمد بن قاسم التّونسىّ المقرئ النحوىّ المالكىّ فى ذى القعدة بدمشق. و كان من فضلاء المالكية.

و توفى الأمير سيف الدين و قيل شمس الدين سنقر بن عبد اللّه الكمالى الحاجب فى حبس الملك الناصر بقلعة الجبل فى شهر ربيع الآخر. و كان أوّلا معتقلا بالكرك فأحضر هو و الأمير كراى إلى القاهرة فحبسا بقلعة الجبل إلى أن مات بها. و كان من عظماء الدولة و من أكابر الأمراء، و تولّى الحجوبيّة بالديار المصرية فى عدّة دول.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۴۴

و كان أحد الأعيان بالديار المصريّة إلى أن قبض عليه الملك الناصر و حبسه فى سلطنته الثالثة.

و توفّى الأمير سيف الدين بهادر الشّمسىّ بقلعة دمشق، و كان أحد من قبض عليه الملك الناصر و حبسه. و كان مشهورا بالشجاعة و الإقدام.

و توفّى الأمير سيف الدين منكوتمر الطّبّاخى، و الأمير سيف الدين أركتمر كلاهما بالجبّ من قلعة الجبل.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ذراعان و نصف. مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعا و سبع عشرة إصبعا. و كان الوفاء بعد النّوروز بأيّام.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۱۹]

السنة العاشرة من ولاية الملك الناصر محمد بن قلاوون الثالثة على مصر، و هى سنة تسع عشرة و سبعمائة.

فيها توفّى الشيخ الصالح المعتقد أبو الفتح نصر بن سليمان بن عمر المنبجىّ لحنفىّ بزاويته بالقاهرة فى جمادى الآخرة، و دفن بجوار الزاوية. و مولده سنة ثمان و ثلاثين و ستمائة، و كان عالما زاهدا متقشفا، سمع الحديث و برع فى الفقه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۴۵

و التصوّف، و أقبل عليه ملوك عصره. ذكر ابن أخيه الشيخ قطب الدين قال:

سألنى الشيخ يوما هل قرب وقت العصر؟ فقلت: لا، و بقى يسألنى عن ذلك ساعة فساعة و هو مسرور مستبشر بوقت العصر، فلما دخل وقت العصر مات.

رحمه اللّه.

و توفّى الشيخ الإمام العالم شهاب الدين أبو عبد اللّه الحسين بن سليمان بن فزارة الكفرى (بفتح الكاف) البصروىّ الحنفى فى ثالث عشر جمادى الأولى و دفن بقاسيون، و كان فقيها محدّثا ناب فى الحكم، و حمدت سيرته، و سمع الكثير و برع فى الفقه و غيره.

و توفّى الأمير سيف الدين كراى المنصورىّ معتقلا بقلعة الجبل، و كان من أكابر مماليك المنصور قلاوون، و ولى نيابة القدس، ثمّ ولّاه الملك الناصر محمد فى سلطنته هذه الثالثة نيابة الشام بعد قراسنقر، ثم قبض عليه و حبسه بالكرك مدّة، ثمّ نقله إلى القاهرة و حبسه بقلعة الجبل إلى أن مات فى هذا التاريخ.

و توفّى الأمير سيف الدين إغزلو العادلى بدمشق، و كان من أكابر أمرائها، و كان ولى نيابة دمشق فى أواخر دولة أستاذه الملك العادل زين الدين كتبغا فعزله الملك المنصور حسام الدين لاچين عن نيابة دمشق، ثم صار بعد ذلك من أمراء دمشق إلى أن مات. و كانت ولايته على نيابة دمشق نحوا من ثلاثة أشهر، و كان موصوفا بالشجاعة و الإقدام.

و توفّى الأمير سيف الدين قيران الشمسىّ بدمشق و دفن بقاسيون بتربة ابن مصعب، و كان من جملة أمراء دمشق، و كان ديّنا خيّرا عفيفا مع كرم و شجاعة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۴۶

و توفّى الأمير علاء الدين طيبرس بن عبد اللّه الخازندارىّ نقيب الجيوش المنصورة و أحد أمراء الطبلخاناه فى العشرين من شهر ربيع الآخر، و دفن بقبّته التى أنشأها بمدرسته على باب جامع الأزهر. و استقرّ عوضه فى نقابة الجيش الأمير شهاب الدين أحمد بن آقوش العزيزى المهمندار. و طيبرس هذا هو الذى كان أنشأ الجامع و الخانقاه على النيل، و عرف ذلك المكان بالطّيبرسىّ، و قد تهدّم الجامع و الخانقاه، و نقل صوفيّتها إلى مدرسته التى أنشأها على باب الجامع الأزهر على يمنة الداخل إلى الجامع. و كان من أجلّ الأمراء و أقدمهم، و طالت أيامه فى وظيفته، أقام فيها أربعا و عشرين سنة، لم يقبل لأحد هديّة، و إنما كان شأنه عمارة إقطاعه و الزراعة، و من ذلك نالته السعادة و عمّر الأملاك. و كان ديّنا خيّرا بخلاف آقبغا عبد الواحد الذى عمّر مدرسته أيضا على باب الجامع الأزهر فى مقابلة طيبرس هذا.

و توفّى الشيخ بدر الدين أبو عبد اللّه محمد بن منصور بن إبراهيم بن منصور بن رشيد الربعى الحلبىّ الشافعىّ المعروف بابن الجوهرىّ. ولد بحلب فى ثالث عشر صفر سنة اثنتين و خمسين و ستمائة، و كان فاضلا ديّنا أثنى عليه الحافظ البرزالىّ فى معجمه.

و كانت وفاته فى يوم السبت سابع عشر جمادى الآخرة من السنة. رحمه اللّه.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۴۷

و توفّى الأمير سيف الدين أركتمر بن عبد اللّه السّليمانى الجمدار فجأة. و كان من أعيان الأمراء و أماثلهم.

و توفّى القاضى فخر الدين أبو عمرو عثمان بن علىّ [ابن يحيى بن هبة اللّه بن إبراهيم ابن المسلم] الأنصارىّ الشافعىّ المعروف بابن

بنت أبى سعد فى جمادى الآخرة من السنة.

و توفّى بدمشق الأمير شهاب الدين أحمد بن محمد ابن الملك الأمجد [مجد الدين] حسن ابن الملك الناصر داود ابن الملك المعظّم عيسى ابن الملك العادل أبى بكر بن أيّوب أحد أمراء دمشق فى شهر رجب.

و توفى الملك المعظّم شرف الدين عيسى ابن الملك الزاهر مجير الدين داود ابن الملك المجاهد أسد الدين شير كوه ابن الملك القاهر ناصر الدين محمد ابن الملك المنصور أسد الدين شير كوه الكبير ابن شادى أحد أمراء دمشق بالقاهرة فى ثانى ذى القعدة. كان قدمها فى طلب الإمرة فأنعم عليه بإمرة طبلخاناه بدمشق، فأدركته المنيّة قبل عوده إلى وطنه.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم لم يحرّر. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و إحدى عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۲۰]

السنة الحادية عشرة من ولاية الملك الناصر محمد بن قلاوون الثالثة على مصر، و هى سنة عشرين و سبعمائة.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۴۸

فيها توفّى قاضى القضاة كمال الدين أبو حفص عمر ابن قاضى القضاة عزّ الدين أبى البركات عبد العزيز ابن الصاحب محيى الدين أبى عبد اللّه محمد ابن قاضى القضاة نجم الدين أبى الحسن أحمد ابن قاضى القضاة جمال الدين أبى الفضل هبة اللّه ابن قاضى القضاة مجد الدين أبى غانم محمد بن هبة اللّه بن أحمد بن يحيى بن أبى جرادة العقيلى الحلبيّ الحنفيّ الشهير بابن العديم قاضى قضاة حلب و غيرها. كان فقيها عالما مشكور السّيرة. و كمال الدين هذا غير ابن العديم المتقدّم صاحب «تاريخ حلب» و غيرها من التصانيف و قد مرّ ذكره.

و توفّى الشيخ الإمام العلّامة النحويّ اللغويّ شمس الدين محمد بن حسن بن سباع ابن أبى بكر الجذاميّ المصرىّ الأصل الدّمشقيّ المولد المعروف بابن الصائغ. مات بدمشق فى ثالث شعبان. و مولده سنة خمس و أربعين و ستمائة بدمشق. كان أديبا فاضلا فى فنّ الأدب، و له النظم و النثر و معرفة بالعروض و القوافى و البديع و اللّغة و النحو و شرح «مقصورة ابن دريد» فى مجلدين. و اختصر «صحاح الجوهرى» و جرّده من الشواهد، و صنّف قصيدة عدّتها ألفا بيت، فيها العلوم و الصنائع، و له «مقامات» و أشياء كثيرة. و من شعره من قصيدة أوّلها:

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۴۹

لى نحو ربعك دائما يا جلّق شوق أكاد به جوى أتمزّق

و همول دمع من جوى بأضالعى ذا مغرق طرفى و هذا محرق

أشتاق منك منازلا لم أنسها إنّى و قلبى فى ربوعك موثق

و منها:

و الريح يكتب فى الجداول أسطرا خطّ له نسج النّسيم محقّق

و الطير يقرأ و النسيم مردّد و الغصن يرقص و الغدير يصفق

و توفّى الأديب شهاب الدين أبو العباس أحمد بن عبد الدائم بن يوسف بن قاسم الكنانىّ الشّارمساحىّ الشاعر المطبوع صاحب النوادر الظّريفة المضحكة. و العامّة يسمونه الشّارمساحىّ. و كان شاعرا مطبوعا، غير أنه كان مغرى بالهجاء و ثلب الأعراض، و كان يحضره الملك الناصر مجلسه فى بعض الأحيان. و مات بالقاهرة.

و من شعره من آخر قصيدة:

لا آخذ اللّه عینیه فقد نشطت إلی تلافی و فیها غایة الکسل

و قد مرّ من هجوه فی ابن المرحّل و ابن عدلان فی أوّل ترجمة الناصر فی سلطنته الثالثة.

و کان عارفا بعلوم.

و توفّی الشیخ إسماعیل [بن سعید] الکردیّ قتیلا علی الزّندقة فی یوم الاثنین ثانی عشرین صفر. و کان عارفا بعلوم کثیرة، حتّی إنّه کان یحفظ من التوراة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۵۰

و الإنجیل، غیر أنّه حفظت عنه عظائم فی حقّ الأنبیاء علیهم السلام، و مع ذلک کان یتجاهر بالمعاصی فاجتمع القضاة بسببه غیر مرّة، حتی أفتی بعضهم بضرب عنقه، فضربت عنقه ببین القصرین.

و توفّی الشیخ المعمّر الفقیه زین الدین أبو القاسم محمد بن علم الدین محمد بن الحسین ابن عتیق بن رشیق الإسکندری المالکیّ بمصر فی المحرّم. و کان ولی قضاء الإسکندریة مدّة طویلة. و کان له نظم.

و توفّی قتیلا سیف الدین آقجبا مملوک الأمیر رکن الدین بیبرس التّاجی بدمشق فی خامس عشرین شهر ربیع الأوّل. و کان عنده فضیلة، إلّا أنّه لم یقنع بذلک، حتی ادّعی النبوّة و شاع عنه ذلک حتّی قتل.

و توفّی السلطان الغالب بالله أبو الولید إسماعیل بن الفرج بن إسماعیل بن یوسف بن نصر صاحب غرناطة و الأندلس من بلاد المغرب فی ذی القعدة و أقیم بعده ابنه أبو عبد اللّه محمد. و کان من أجلّ ملوک المغرب. و کان مولده سنة ثمانین و ستمائة. و استولی علی الأندلس ثلاث عشرة سنة، و ملک البلاد فی حیاة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۵۱

أبیه الفرج، و کان أبوه متولّیا إذ ذاک لمالقة، فلمّا أراد إسماعیل هذا الخروج لامه أبوه، فقبض إسماعیل علی أبیه، و عاش أبوه فی سلطنته بعد ذلک عزیزا مبجّلا إلی أن مات فی ربیع الأوّل سنة عشرین و سبعمائة. و قد شاخ، ثم قتل ابنه صاحب الترجمة و قتل قاتله. رحمه اللّه.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم ثلاث أذرع و أصابع. مبلغ الزیادة ست عشرة ذراعا و اثنتان و عشرون إصبعا. و هبط النیل بسرعة فشرقت الأراضی.

و اللّه تعالی أعلم.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۲۱]

السنة الثانیة عشرة من ولایة الملک الناصر محمد بن قلاوون الثالثة علی مصر، و هی سنة إحدی و عشرین و سبعمائة.

فیها توفّی الشیخ الإمام المقرئ عفیف الدین عبد اللّه بن عبد الحقّ بن عبد اللّه ابن عبد الأحد القرشیّ المخزومیّ الدّلاصیّ المصریّ. مات بمکة المشرّفة فی رابع عشر

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۵۲

المحرّم، و مولده فی شهر رجب سنة ثلاثین و ستمائة، و کان إماما مقرئا زاهدا أقام أکثر من ستین سنة یقرئ القرآن تجاه الکعبة.

و توفی الشیخ شمس الدین محمد بن علیّ بن عمر المازنیّ الأدیب المعروف بالدهّان بدمشق. و کان شاعرا مجیدا یعرف الأنغام و الموسیقی و صناعة الدّهان، و کان یعمل الشعر و یلحّنه موسیقی و یغنّی به فیکون من شعره و صناعته. و من شعره موشّحة أوّلها:

بأبی غصن بانة حملا بدر دجی بالجمال قد کملا، أهیف

فريد حسن ما ماس أو سفرا

إلا أغار القضيب و القمرا

يبدى لنا بابتسامه دررا

فى شهد لذّ طعمه و حلا كأنّ أنفاسه نسيم طلا، قرقف

و توفّى الطواشى صفىّ الدين جوهر مقدّم المماليك السلطانية. كان رجلا صالحا ديّنا خيّرا و له حرمة و صولة عظيمة على المماليك و غيرهم. ولى التّقدمة فى أيام المظفر بيبرس الجاشنكير، فلمّا عاد الملك الناصر إلى ملكه عزله بصواب الرّكنى، و استمر بطّالا إلى أن مات.

و توفى الشيخ حميد الدين أبو الثناء محمود بن محمد بن محمود بن نصر النّيسابورىّ شيخ الخانقاه الرّكنية بيبرس فى تاسع عشر جمادى الآخرة. و مولده سنة خمس و أربعين و ستمائة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۵۳

و توفّى الملك المؤيّد هزبر الدّين داود ابن الملك المظفّر يوسف بن عمر بن رسول التّركمانىّ الأصل اليمنىّ المولد و المنشأ و الوفاة صاحب ممالك اليمن، تسلطن بعد أخيه فى المحرّم سنة ست و تسعين و ستمائة فملك نيّفا و عشرين سنة، و كان قبل سلطنته تفقّه و حفظ كفاية المتحفّظ [و نهاية المتلفّظ فى اللغة] و مقدّمة ابن بابشاذ.

و بحث التنبيه و طالع و فضل و سمع الحديث، و جمع الكتب النفيسة فى سلطنته، حتى قيل إنّ خزانة كتبه اشتملت على مائة ألف مجلّد. و كان مشكور السّيرة محبّا لأهل الخير. و لمّا أنشأ قصره بظاهر زبيد قال فيه الأديب تاج الدين عبد الباقى اليمنى أبياتا، منها:

أنسى بإيوانه كسرى فلا خبر من بعد ذلك عن كسرى لإيوان

و فى الملك المؤيد يقول أيضا عبد الباقى المذكور و قد ركب المؤيّد فيلا:

اللّه ولّاك يا داود مكرمة و رتبة ما أتاها قبل سلطان

ركبت فيلا و ظل الفيل ذا رهج مستبشرا و هو بالسلطان فرحان

لك الإله أذلّ الوحش أجمعه هل أنت داود فيه أم سليمان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۵۴

و كانت وفاته فى ذى الحجّة، و تولى بعده ابنه الملك المجاهد علىّ، و اضطربت ممالك اليمن بعد موته. و تولّى عدّة سلاطين يأتى ذكر كلّ واحد منهم فى محلّه إن شاء اللّه تعالى.

و توفّى مجد الدين أحمد بن معين الدين أبى بكر الهمدانىّ المالكى خطيب الفيّوم، و كان يضرب به المثل فى المكارم و السؤدد و كان فصيحا خطيبا بليغا.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثلاث أذرع و ستّ أصابع.

مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و خمس أصابع. و كان الوفاء ثانى أيام النسىء.

و اللّه أعلم.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۲۲]

السنة الثالثة عشرة من ولاية الناصر محمد بن قلاوون الثالثة على مصر، و هى سنة اثنتين و عشرين و سبعمائة.

فيها توفّى قاضى القضاة شمس الدين محمد ابن الشيخ أبى البركات محمد ابن الشيخ أبى العزّ بن صالح بن أبى العزّ بن وهيب بن

عطاء الأذرعىّ الحنفىّ بدمشق فى سابع المحرّم عقيب قدومه من الحجاز. و مولده سنة ثلاث و ستين و ستمائة. و كان إماما فاضلا فقيها بصيرا بالأحكام، حكم بدمشق نحو عشرين سنة، و خطب بجامع

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۵۵

الأفرم مدّة، و درّس بالظاهرية و النّجيبيّة و المعظّميّة، و أفتى و انتفع به غالب طلبة دمشق.

و توفّى الشيخ الإمام العالم الزاهد الفقيه المفتى الحافظ المسند المعمّر بقيّة السّلف رضىّ الدين أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن أبى بكر بن محمد بن إبراهيم ابن الطّبرىّ الكىّ الشافعىّ إمام المقام بالحرم الشريف، أمّ به أكثر من خمسين سنة. و كان فقيها صالحا عابدا. و مولده بمكّة فى سنة ست و ثلاثين و ستمائة.

و مات فى شهر ربيع الأوّل.

و توفّى الشيخ الإمام الفقيه الصوفىّ علاء الدين أبو الحسن علىّ [بن الحسن] ابن محمد الهروىّ الحنفىّ. كان فقيها فاضلا و سلك طريق التصوّف، و طاف البلاد و أقام بحلب مدّة و تصدّى للإفتاء و التدريس سنين. و من إنشاده رحمه اللّه:

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۵۶

كم حسرات فى الحشى من ولد قد انتشا

كنّا نشاء رشده فما نشا كما نشا

و توفّى الأديب الشاعر جمال الدين أبو الفتح محمد بن يحيى بن محمد الأموىّ المصرىّ الشاعر المشهور. و كانت لديه فضيلة، و كان رحّالا طاف البلاد، ثم رجع إلى العراق فمات به. و من شعره:

وافى الربيع ولى سبع ألازمها لزوم مرء له فى الدهر تجريب

ملك و مال و مملوك و مطربة مع المدام و محبوب و مركوب

و توفّى الأديب الشاعر أبو على الحسن بن محمود بن عبد الكبير اليمانى العدنىّ.

كان فاضلا ناظما ناثرا، و له ديوان شعر مشهور باليمن و غيره. و من شعره:

برق تألّق من تلقاء كاظمة ما باله خطف الأبصار فى إضم

قد خطّ منه على آفاقها خطط كأنهنّ ولوع البيض فى اللّمم

و توفّى الشيخ حسن العجمى الجواليقى القلندرى بدمشق، و كان أوّلا يسكن بالقاهرة، و عمّر له بها زاوية خارج باب النصر، و هى إلى الآن تعرف بزاوية القلندرية، ثم سافر إلى دمشق فمات بها. قال الشيخ عماد الدين إسماعيل بن كثير فى تاريخه: و كان قريبا من خواطر الملوك، لا سيما أهل بيت الملك المنصور قلاوون. و كان كثيرا ما ينشد أبياتا أوّلها:

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۵۷

سلام على ربع به نعم البال و عيش مضى ما فيه قيل و لا قال

لقد كان طيب العيش فيه مجرّدا من الهم و القوم اللوائم غفّال

و توفّى الأمير عزّ الدين أيدمر بن عبد اللّه الساقى المعروف بوجه الخشب بدمشق. و كان من أعيان الأمراء، و فيه شجاعة و إقدام، و هو أحد من أخرجه الملك الناصر من مصر.

و توفّى القاضى قطب الدين محمد بن عبد الصمد [بن عبد القادر] السّنباطىّ الشافعى، خليفة الحكم و وكيل بيت المال فى ذى الحجّة. و كان معدودا من الفقهاء و له وجاهة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۵۸

و توفّيت المسندة المعمّرة أمّ محمد زينب بنت أحمد بن عمر بن أبى بكر بن شكر فى ذى الحجّة بالقدس عن أربع و تسعين سنة. و

كانت رحلة زمانها، رحل إليها من الأقطار و صارت مسندة عصرها.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و إصبعان. مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعا و إحدى و عشرون إصبعا. و كان الوفاء أوّل أيام النسيء.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۲۳]

السنة الرابعة عشرة من ولاية الملك الناصر محمد بن قلاوون الثالثة على مصر، و هى سنة ثلاث و عشرين و سبعمائة.

فيها توفّى قاضى القضاة نجم الدين أبو العبّاس أحمد ابن عماد الدين محمد ابن أمين الدين سالم ابن الحافظ المحدّث بهاء الدين الحسن بن هبة اللّه بن محفوظ بن صصرى الثّعلبى الدّمشقىّ الشافعىّ فى سادس عشر شهر ربيع الأوّل بدمشق، و دفن بتربتهم بالقرب من الرّكنيّة: و مولده سنة خمس و خمسين و ستمائة. و كان إماما عالما بارعا مدرّسا مفتيا كاتبا مجوّدا، ولى عدّة تداريس، و باشر قضاء الشام استقلالا فى سنة اثنتين و سبعمائة مع عدّة تداريس. و كان له نظم و نثر و خطب.

و من شعره رحمه اللّه:

و مهفف بالوصل جاد تكرّما فأعاد ليل الهجر صبحا أبلجا

ما زلت ألثم ما حواه لثامه حتى أعدت الورد فيه بنفسجا

و توفّى الشيخ الأديب الفاضل صلاح الدين صالح بن أحمد بن عثمان البعلبكىّ الشاعر المشهور بالقوّاس. كان رجلا خيّرا صحب الفقراء و سافر البلاد، و كان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۵۹

أصله من مدينة خلاط، و كان يدخل الزوايا و يتواجد فى سماعات الفقراء، و له شعر كثير، من ذلك ما قاله فى ناعورة حماة:

و ناعورة رقّت لعظم خطيئتى و قد لمحت شخصى من المنزل القاضى

بكت رحمة لى ثم ناحت لشجوها و يكفيك أن الخشب تبكى على العاصى

و هو صاحب القصيدة ذات الأوزان التى أوّلها:

داء ثوى بفؤاد شفّه سقم لمحنتى من دواعى الهمّ و الكمد

و توفّى الشيخ الأديب الفاضل العدل شهاب الدين محمد بن محمد بن محمود ابن مكّى المعروف بابن دمرداش الدّمشقىّ، و بها مات و دفن بقاسيون. و مولده سنة ثمان و ثلاثين و ستمائة، و كان شاعرا مجيدا، و كان فى شبابه جنديّا، فلمّا شاخ ترك ذلك و صار شاهدا. و شعره سلك فيه مسلك مجير الدين بن تميم، لأنّه صحبه و أقام معه بحماة مدّة عشرين سنة. و من شعره:

أقول لمسواك الحبيب لك الهنا بلثم فم ما ناله ثغر عاشق

فقال و فى أحشائه حرق الجوى مقالة صبّ للديار مفارق

تذكّرت أوطانى فقلبى كما ترى أعلّله بين العذيب و بارق

قلت: و مثل هذا قول القائل:

هنّئت يا عود الأراك بثغره إذ أنت فى الأوطان غير مفارق

إن كنت فارقت العذيب و بارقا هأنت ما بين العذيب و بارق

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۶۰

و مثله لابن قرناص:

سألتك يا عود الأراكة أن تعد إلى ثغر من أهوى فقبّله مشفقا

ورد من ثنيّات العذيب منيهلا يسلسل ما بين الأبيرق و النّقا

و قد ذكرنا مثل هذا عدّة كثيرة فی كتابنا «حلية الصفات فی الأسماء و الصناعات».

و توفی الشيخ الإمام العالم العلّامة الحافظ المؤرّخ الأخباری الأديب كمال الدين عبد الرزّاق بن أحمد بن محمد بن أحمد المعروف بابن الفوطیّ صاحب التصانيف المفيدة، من جملتها: تاريخ كبير جدّا، و آخر دونه و سمّاه بمجمع الآداب فی معجم الأسماء على معجم الألقاب فی خمسين مجلّدا. و التاريخ الكبير على الحوادث من آدم إلى خراب بغداد و غير ذلك. و له شعر كثير و مجموع أدبيات سمّاه الدّرر الناصعة فی شعر المائة السابعة و صنف كتاب درر الاصداف فی غرر الأوصاف مرتّب على وضع الوجود من المبدأ إلى المعاد، يكوّن عشرين مجلّدا. و كتاب «تلقيح الأفهام فی المختلف و المؤتلف» مجدولا. و كان له يد طولى فی ترصيع التراجم، و ذهن سيّال و قلم سريع و خطّ بديع إلى الغاية. قيل: إنّه كتب من ذلك الخطّ الفائق الرائق أربع كراريس فی يوم، و كتب و هو نائم على ظهره. و كان له نظر فی فنون الحكمة كالمنطق و غيره.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۶۱

و توفّی الملك المجاهد سيف الدين أنص ابن السلطان الملك العادل زين الدين كتبغا المنصوریّ؛ بعد ما كفّ بصره من سهم أصابه، و كانت وفاته فی المحرّم.

و توفّی الأمير طيدمر سيف الدين الجمدار أحد أعيان الأمراء.

أمر النيل فی هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و ست عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة ثمانی عشرة ذراعا و ست أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۲۴]

السنة الخامسة عشرة من ولاية الملك الناصر محمد بن وون الثالثة على مصر، و هی سنة أربع و عشرين و سبعمائة.

فيها توفّی الشيخ الصالح المعتقد أيوب المسعودیّ بزاوية الشيخ أبی السعود بالقرافة، و قد قارب المائة سنة، و ضعف فی آخر عمره، فكان يحمل إلى حضور الجمعة، و كان يذكر أنّه رأى الشيخ أبا السعود.

و توفّی الشيخ الإمام العالم الزاهد الحافظ المحدث علاء الدين أبو الحسن علیّ بن إبراهيم بن داود بن سليمان الدّمشقیّ الشافعیّ الشهير بابن العطّار. كان فقيها محدّثا، و كانوا يسمونه مختصر النووی، و درّس و أفتى سنين و انتفع به الناس.

و توفّی الأمير شمس الدين محمد بن عيسى بن مهنّا أمير العرب و ملك آل فضل، و كان حسن الهيئة عاقلا حازما عارفا بالأمور. مات بسلمية.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۶۲

و توفّی الشيخ برهان الدين أبو إسحاق إبراهيم بن ظافر فی جمادى الآخرة. و كان فقيها شافعيّا معدودا من أعيان الشافعيّة.

و توفّی الشيخ تقیّ الدين محمد بن عبد الرحيم بن [عمر] الباجربقیّ النحویّ الشافعیّ فی شهر ربيع الآخر و اتّهم بالزندقة فی تصانيفه و وقع له بسبب ذلك أمور، و هو صاحب «الملحمة الباجربقيّة»، و له غيرها عدّة تصانيف أخر.

و توفّی الأمير ناصر الدين محمد ابن الأمير بدر الدين بكتاش الفخریّ أمير سلاح فی جمادى الآخرة، و كان ناصر الدين هذا من جملة مقدّمی الألوف بالديار المصريّة، و كان معظّما فی الدولة موصوفا من الشّجعان.

و توفّی الأمير الطّواشی زين الدين عنبر الأكبر زمام الدور السلطانيّة فی جمادى الأولی و كان من أعيان الخدّام و أماثلهم.

و توفّى الشيخ المعتقد الصالح محمود الحيدرى العجمىّ خارج القاهرة، و كان من محاسن أبناء جنسه.

و توفّى خطيب جامع عمرو بن العاص الشيخ نور الدين أبو الحسن علىّ بن محمد ابن حسن بن علىّ القسطلانىّ فى شهر ربيع الآخر، و كان ديّنا خيّرا.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع. مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا و تسع عشرة إصبعا. و اللّه تعالى أعلم.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۶۳

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۲۵]

السنة السادسة عشرة من ولاية الملك الناصر محمد بن قلاوون الثالثة على مصر، و هى سنة خمس و عشرين و سبعمائة.

فيها توفّى الأمير ركن الدين بيبرس بن عبد اللّه المنصورىّ الدّوادار صاحب التاريخ فى ليلة الخميس خامس عشرين شهر رمضان. كان أصله من مماليك الملك المنصور قلاوون، أنشأه و رقّاه إلى أن ولّاه نيابة الكرك إلى أن عزله الملك الأشرف خليل بالأمير آقوش الأشرفىّ نائب الكرك، ثم صار بعد ذلك دوادارا و ناظر الأحباس مدّة طويلة، ثم ولى نيابة السلطنة فى أيام الملك الناصر محمد الثالثة فدام مدّة، ثم قبض عليه الملك الناصر و حبسه إلى أن مات. و قيل أطلقه بعد حبسه بمدّة. و كان أميرا عاقلا فاضلا معظّما فى الدول، و كان إذا دخل على الملك الناصر يقوم له إجلالا.

و كان له أوقاف على وجوه البرّ، و هو صاحب المدرسة الدّوادارية بخط سويقة العزّى خارج القاهرة. و له تاريخ «زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة» فى أحد عشر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۶۴

مجلدا، أعانه على تأليفه كاتبه ابن كبر النصرانى. و كان يجلس عند السلطان رأس الميمنة عوضه.

قلت: كانت قاعدة قديم، أنه من كان قديم هجرة من الأمراء يجلس فوق الجميع، و لم يكن يوم ذاك أمير كبير أتابك العساكر كما هى عادة أيامنا هذه، و إنما استجدّت هذه الوظيفة فى أيام السلطان حسن، و أوّل من وليها بخلعة الأمير شيخون، و صارت من يومئذ وظيفة إلى يومنا هذا.

و توفّى أمير المدينة النبوية الشريف منصور بن جمّاز بن شيحة الحسينىّ فى حرب كان بينه و بين حديثة ابن أخيه فقتله حديثة المذكور فى رابع عشرين شهر رمضان، فكانت مدّة ولايته على المدينة ثلاثا و عشرين سنة و أيّاما، و استقرّ عوضه فى إمرة المدينة ابنه كبيش بن منصور.

و توفّى الإمام العلّامة البليغ الكاتب المنشئ الأديب شهاب الدين أبو الثّناء محمود بن سليمان بن فهد الحلبىّ ثم الدّمشقىّ الحنبلىّ صاحب ديوان الإنشاء بدمشق فى ليلة السبت ثانى عشرين شعبان سنة خمس و عشرين و سبعمائة. و مولده سنة أربع و أربعين و ستمائة، و نشأ بدمشق و سمع الحديث و كتب المنسوب، و نسخ الكثير و تفقّه على أبى المنجا و غيره، و تأدّب بابن مالك و لازم مجد الدين بن الظّهير و حذا حذوه و سلك طريقه فى النظم و الكتابة. و ولى كتابة سرّ دمشق بعد موت

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۶۵

القاضى شرف الدين عبد الوهاب بن فضل اللّه العمرىّ إلى أن مات. و فيه يقول الأديب البليغ ألطنبغا الجاولى:

قال النّحاة بأنّ الاسم عندهم غير المسمّى و هذا القول مردود

الاسم عين المسمّى و الدليل على ما قلت أنّ شهاب الدين محمود

و من شعر شهاب الدين المذكور:

رأتنى و قد نال منى النّحول و فاضت دموعى على الخدّ فيضا

فقالت بعينى هذا السّقام فقلت صدقت و بالخصر أيضا

قلت: و قد مرّ من ذكر الشهاب محمود هذا و شعره قطعة كبيرة فى فتوحات الملك المنصور قلاوون و غيره.

و توفّى الخطيب جمال الدين محمد بن تقىّ الدين محمد بن الحسن بن علىّ بن أحمد بن علىّ ابن محمد القسطلانىّ فى ليلة السبت مستهلّ شهر ربيع الأول. كان يخطب بجامع القلعة و يصلّى بالسلطان الجمعة، و استمرّ على ذلك سنين. و بعض الناس يحسب أنّ العادة لا يخطب و يصلّى بالسلطان إلّا القاضى الشافعىّ، و ليس الأمر كذلك.

و ما استجدّ هذا إلا الملك الظاهر برقوق فى سلطنته الثانية، و إنما كانت العادة قبل ذلك من ندبه السلطان أن يخطب و يصلّى به فعل ذلك كائنا من كان.

و توفّى الشيخ شرف الدين يونس بن أحمد بن صلاح القلقشندىّ الفقيه الشافعىّ فى خامس عشرين شهر ربيع الآخر. و كان عالما فاضلا.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۶۶

و توفّى الشيخ المقرئ تقىّ الدين محمد بن أحمد ابن الصّفىّ [عبد الخالق] الشهير بالتّقىّ الصائغ فى صفر؛ كان فاضلا مقرئا مجوّدا.

و توفّى الأمير سيف الدين بلبان بن عبد اللّه التّتارىّ المنصورىّ فى ذى القعدة.

و كان من أعيان مماليك المنصور قلاوون، و صار من أعيان أمراء الديار المصريّة.

و توفّيت الشّيخة حجّاب شيخة رباط البغداديّة فى المحرّم. و كانت خيّرة ديّنة، و لها قدم فى الفقر و التصوّف.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ذراعان و ستّ أصابع. مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعا و إحدى و عشرون إصبعا. و كان الوفاء أوّل أيام النسىء.

و اللّه تعالى أعلم.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۲۶]

السنة السابعة عشرة من ولاية الملك الناصر محمد بن قلاوون الثالثة على مصر، و هى سنة ستّ و عشرين و سبعمائة.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۶۷

فيها توفّى شيخ الرافضة جمال الدين الحسين بن يوسف [بن] المطهّر الحلّى المعتزلىّ شارح «مختصر ابن الحاجب» فى المحرّم. كان عالما بالمعقولات، و كان رضىّ الخلق حليما، و له و جاهة عند خربندا ملك التّتار. و له عدّة مصنّفات، غير أنّه كان رافضيّا خبيثا على مذهب القوم، و لابن تيميّة عليه ردّ فى أربعة مجلّدات، و كان يسمّيه ابن المنجّس يعنى عكس شهرته كونه كان يعرف بابن المطهّر.

و توفّى الشيخ شرف الدين أبو الفتح أحمد ابن عزّ الدين أبى البركات عيسى ابن مظفّر بن محمد بن الياس المعروف بابن الشّيرجىّ الأنصارىّ الدّمشقىّ محتسب دمشق. و مولده سنة سبع و أربعين و ستمائة.

و توفّى الشيخ الإمام سراج الدين عمر بن أحمد بن خضر بن ظافر بن طرّاد الخزرجىّ المصرىّ الأنصارىّ الشافعىّ خطيب المدينة النبويّة، كان خطيبا فصيحا مفوّها ديّنا.

و توفّى الأمير بدر الدين حسن ابن الملك الأفضل [علىّ بن محمود] صاحب حماة. كان من أهل العلم، و كان أحد أمراء دمشق، و هو من بيت سلطنة و رياسة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثمانى أذرع و عشر أصابع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و تسع عشرة إصبعا.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۶۸

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۲۷]

السنة الثامنة عشرة من ولایة الملک الناصر محمد بن قلاوون الثالثة علی مصر، و هی سنة سبع و عشرین و سبعمائة.

فیها توفّی السلطان أبو یحیی زکریّا بن أحمد بن محمد بن یحیی بن عبد الواحد ابن أحمد بن محمد اللّحیانیّ المغربیّ ملک تونس بالإسکندریة بعد أن خرج من بلاده لأمر أوجب ذلک، و ترک ملکه و نزل بالإسکندریة و سکنها بعد أن قدم القاهرة، ثم عاد إلی الإسکندریة، فمات بها.

و توفی الشیخ الإمام شمس الدین محمد ابن العلّامة الشهاب محمود المقدّم ذکره فی عاشر شوّال. و کان شمس الدین أیضا کأبیه فاضلا کاتبا بارعا، و تولّی کتابة سرّ دمشق و هو من بیت ریاسة و فضل و کتابة.

و توفّی قاضی القضاة صدر الدین أبو الحسن علیّ بن صفیّ الدین أبی القاسم بن محمد بن عثمان البصراویّ الحنفیّ قاضی قضاة دمشق فی شعبان، بعد ما حکم بدمشق عشرین سنة و حمدت سیرته، و کان إماما عالما دیّنا عفیفا مشکور السّیرة.

و توفی الطّواشی ناصر الدین نصر الشّمسیّ شیخ الخدّام بالحرم النبویّ. و کان خیّرا دیّنا یحفظ القرآن و یکثر من التلاوة بصوت حسن.

و توفّی الأمیر سیف الدین کوجری بن عبد اللّه أمیر شکار بالقاهرة فی تاسع عشرین ذی الحجّة. و کان أصله من ممالیک عزّ الدین أیدمر نائب الشام فی الأیام الظاهریة، و کان هو من أعیان الأمراء بمصر.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۶۹

و توفّی الأمیر شمس الدین إبراهیم ابن الأمیر بدر الدین محمد بن عیسی بن التّرکمانیّ فی ثالث جمادی الآخرة بداره بجوار باب البحر، و کان فیه مکارم و له مروءة و عصبیّة مع حشمة و ریاسة، و هو ابن صاحب جامع التّرکمانیّ المقدّم ذکره الذی بالقرب من باب البحر.

و توفّی الملک الکامل ناصر الدین محمد ابن الملک السعید فتح الدین عبد الملک ابن الملک الصالح عماد الدین إسماعیل ابن السلطان الملک العادل سیف الدین أبی بکر [محمد بن نجم الدین أیّوب] بن شادی بدمشق فی حادی عشرین جمادی الآخرة عن أربع و سبعین سنة، و کان من جملة أمراء دمشق معظّما فی الدّول من بیت سلطنة و ریاسة.

و توفّی الأمیر سیف الدین بلبان بن عبد اللّه البدریّ نائب حمص فی لیلة عید الفطر. کان من أکابر الأمراء، و فیه شجاعة و إقدام مع کرم و حشمة.

و توفی لأمیر ناصر الدین محمد ابن الأمیر الکبیر أرغون بن عبد اللّه الدّوادار الناصریّ نائب السلطنة بالدیار المصریة، ثم نائب حلب فی ثالث عشر شعبان.

و کان ناصر الدین هذا من جملة أمراء الدیار المصریة معظّما فی الدولة.

و توفّی الأمیر سیف الدین قطلوبغا بن عبد اللّه المغربی الحاجب بالدیار المصریة فی ثامن شهر رمضان و کان مقرّبا عند الملک الناصر، و من أعیان أمرائه.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۷۰

و توفّی العلّامة قاضی القضاة ذو الفنون جمال الإسلام کمال الدین أبو المعالی محمد بن علیّ بن عبد الواحد [بن عبد الکریم] الزّملکانیّ الأنصاریّ السّماکیّ الدّمشقیّ الشافعیّ قاضی قضاة دمشق بمدینة بلبیس فی سادس عشر رمضان. و مولده سنة سبع و ستین

و ستمائة فى شوّال. و كان إماما علّامة بصيرا بمذهبه و أصوله، قوىّ العربية صحيح الذهن فصيحا أديبا ناظما ناثرا، أفتى و له نيّف و عشرون سنة، و صنّف و كتب؛ و من مصنّفاته رسالة فى الردّ على الشيخ تقى الدين فى مسألة الطلاق، و رسالة فى الردّ عليه فى مسألة الزيارة، و شرح قطعة من المنهاج، و نظم و نثر و تولّى قضاء دمشق بعد القاضى جلال الدين القزوينىّ لمّا نقل إلى قضاء الديار المصريّة، فتوجّه إلى مصر فمات ببلبيس. و من شعره قصيدته التى مدح بها النّبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم التى أوّلها:

أهواك يا ربّة الأستار أهواك و إن تباعد عن مغناى مغناك

و أعمل العيس و الأشواق ترشدنى عسى يشاهد معناك معنّاك

تهوى بها البيد لا تخشى الضلال و قد هدت ببرق الثنايا الغرّ مضناك

تشوقها نسمات الصبح سارية تسوقها نحو رؤياك بريّاك

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۷۱

و منها:

إنّى قصدتك لا ألوى على بشر ترمى النوى بى سراعا نحو مسراك

و قد حططت رحالى فى حماك عسى تحطّ أثقال أو زارى بلقياك

كما حططت بباب المصطفى أملى و قلت للنفس بالمأمول بشراك

محمد خير خلق اللّه كلّهم و فاتح الخير ماحى كلّ إشراك

قلت: و هى أطول من ذلك و كلها على هذا المنوال، و هو نظم فقيه لا بأس به.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ستّ أذرع و عشرون إصبعا.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و خمس أصابع. و اللّه أعلم.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۲۸]

السنة التاسعة عشرة من ولاية الملك الناصر محمد بن قلاوون الثالثة على مصر، و هى سنة ثمان و عشرين و سبعمائة.

فيها توفّى شيخ الإسلام تقىّ الدين أبو العبّاس أحمد بن عبد الحليم ابن عبد السلام بن عبد اللّه بن أبى القاسم [الخضر] بن محمد بن تيميّة الحرّانىّ الدّمشقىّ الحنبلىّ بدمشق فى ليلة الاثنين العشرين من ذى القعدة فى سجنه بقلعة دمشق. و مولده فى يوم الاثنين عاشر ربيع الأوّل سنة إحدى و ستين و ستمائة.

و كان سجن بقلعة دمشق لأمور حكيناها فى غير هذا المكان. و كان إمام عصره بلا

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۷۲

مدافعة فى الفقه و الحديث و الأصول و النحو و اللّغة و غير ذلك. و له عدّة مصنّفات مفيدة يضيق هذا المحلّ عن ذكر شيء منها. أثنى عليه جماعة من العلماء مثل الشيخ تقىّ الدين بن دقيق العيد و القاضى شهاب الدين الجوينى و القاضى شهاب الدّين ابن النّحاس. و قال القاضى كمال الدين بن الزّملكانىّ المقدّم ذكره: اجتمعت فيه شروط الاجتهاد على وجهها، ثمّ جرت له محن فى مسألة الطلاق الثلاث، و شدّ الرّحال إلى قبور الأنبياء و الصالحين، و حبّب للناس القيام عليه. و حبس مرات بالقاهرة و الإسكندرية و دمشق، و عقد له مجالس بالقاهرة و دمشق مع أنّه حصل له فى بعضها تعظيم من الملك الناصر محمد بن قلاوون، و أطلق و توجّه إلى دمشق و أقام بها إلى أن ورد مرسوم شريف فى سنة ستّ و عشرين و سبعمائة بأن يجعل فى قلعة دمشق فى قاعة، فجعل فى قاعة حسنة و أقام بها مشغولا بالتصنيف و الكتابة.

ثم بعد مدّة منع من الکتابة و المطالعة و أخرجوا ما عنده من الکتب، و لم یترکوا عنده دواة و لا قلما و لا ورقة، ثم ساق ابن الزّملکانی کلاما طویلا الألیق الإضراب عنه.

و توفّی الأمیر سیف الدین جوبان بن تلک بن ندوان نائب القان بو سعید ملک التّتار، و کان جوبان هذا قد ثقل علی بو سعید فأسرّ إلی خاله ایرنجی قتله

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۷۳

فلم یمکنه ذلک، فأخذ ابنه دمشق خجا و قتله، ففرّ جوبان إلی هراة فلم یسلم و قتل بها. و کان شجاعا عالی الهمّة حسن الإسلام. أجری العین إلی مکّة فی جمادی الأولی سنة ستّ و عشرین و سبعمائة، و أنشأ مدرسة بالمدینة النبویّة، و لمّا مات حمل إلی مکّة مع الرّکب العراقیّ و طیف به الکعبة و وقف به عرفة و هو میّت، ثم مضی به إلی المدینة علی ساکنها أفضل الصلاة و السلام، فدفن بالبقیع.

و توفّی أمیر المدینة النبویّة الشریف کبیش بن منصور بن جمّاز الحسینیّ المدنیّ فی أوّل شعبان قتیلا. و کانت ولایته علی المدینة بعد قتل أبیه منصور فی رابع عشر رمضان سنة خمس و عشرین و سبعمائة، قتله أولاد ودّی، و کان ودّی قد حبس بقلعة الجبل، فولی بعده إمرة المدینة أخوه طفیل.

و توفّی الأمیر الکبیر شمس الدین قراسنقر بن عبد اللّه المنصوریّ بمدینة مراغة من عمل أذربیجان فی یوم السبت سابع عشرین شوّال، و کان من کبار الممالیک المنصوریّة و أجلّ أمرائهم، و قد ولی نیابة حلب و الشام ثم حلب، و هو أحد من کان سببا فی قتل الملک الأشرف خلیل بن قلاوون، و أحد من کان السبب لعود الملک الناصر محمد بن قلاوون إلی ملکه فی هذه المرّة الثالثة، و قد مرّ من ذکره فی ترجمة المظفّر بیبرس الجاشنکیر، و فی أوّل سلطنة الملک الناصر الثالثة، و حکینا

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۷۴

کیفیة خروجه من البلاد الحلبیة إلی التتار، فلا حاجة إلی ذکر ذلک ثانیا، و ما ذکرناه هنا إلّا بسبب وفاته و التعریف به. انتهی.

و توفّی ببغداد مفتی العراق و عالمه الشیخ جمال الدین عبد اللّه بن محمد بن علیّ ابن حمّاد بن ثابت الواسطی مدرّس المستنصریّة فی ذی القعدة. و مولده فی سنة ثمان و ثلاثین و ستمائة.

و توفّی الأمیر سیف الدین جوبان بن عبد اللّه المنصوریّ أحد أکابر أمراء دمشق بها فی العشرین من صفر سنة ثمان و عشرین، و کان شجاعا مقداما.

و توفّی الأمیر سیف الدین بکتمر البوبکریّ فی سجنه بقلعة الجبل یوم الخمیس النصف من شعبان. و کان من أکابر الأمراء من أصحاب بیبرس الجاشنکیر و سلّار، فلمّا تسلطن الملک الناصر ثالث مرّة قبض علیه فی جملة من قبض علیهم و حبسه بقلعة الجبل إلی أن مات.

و توفّی الشیخ عفیف الدین أبو عبد اللّه محمد بن عبد المحسن الواعظ الشهیر بابن الخرّاط البغدادی الدّوالینیّ الحنبلیّ فی هذه السنة. و مولده فی سنة بضع و ثلاثین و ستمائة. و کان إماما واعظا بلیغا، و لوعظه موقع فی القلوب و علیه قابلیّة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۷۵

و توفّی الأمیر جمال الدین خضر بن نوکای التتاری أخو خوند أردوکین الأشرفیة المتوفیة فی سنه أربع و عشرین. و کان خضر هذا من أعیان أمراء الدیار المصریة، و له حرمة و ثروة و حشم.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم خمس أذرع و عشر أصابع. مبلغ الزیادة ثمانی عشرة ذراعا و تسع أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۲۹]

سنة عشرين من ولاية الملك الناصر محمد بن قلاوون الثالثة على مصر، و هى سنة تسع و عشرين و سبعمائة.

فيها توفّى الأمير غرس الدين خليل بن الإربلىّ أحد أمراء العشرات بديار مصر فى سادس صفر، و أنعم السلطان بإمرته على إياجى الساقى. و كان خليل المذكور شجاه اصلا وجيها فى الدولة.

و توفى الأمير سعد الدين سعيد ابن الأمير الكبير حسام الدين حسين فى ثامن عشر المحرم و أنعم بإمرته على تكا الناصرىّ.

و توفّى الشيخ الإمام الفقيه جمال الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد الواسطىّ الأشمومىّ الشافعىّ المعروف بالوجيزى لكثرة قراءته «كتاب الوجيز»

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة؛ ج۹؛ ص۲۷۵

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۷۶

فى الفقه فى ثامن عشر المحرّم. و كان فقيها عالما معدودا من فقهاء الشافعية، و تولّى قضاء قليوب و الجيزة.

و توفّى الأمير الكبير شرف الدين حسين بن أبى بكر بن أسعد بن جندرباك الرومىّ فى سادس المحرّم. و كان قدم صحبة أبيه إلى الديار المصرية فى سنة خمس و سبعين و ستمائة فى أيام الملك الظاهر بيبرس البندقدارىّ فى جملة من قدم من أهل الروم.

و كان أبوه أمير جاندار متملّك بلاد الروم معظّما فى بلاده. و كان أمير حسين هذا رأس مدرج لحسام الدين لاچين لما كان نائب الشام، لأنه كان رأسا فى الصيد و لعب الطين، فلمّا تسلطن لاچين أمّره عشرة بمصر، ثم وقع له أمور و صار من جملة أمراء الطبلخاناه بدمشق، و نادم الأفرم نائب الشام إلى أن فرّ [الأفرم إلى بلاد التّتار]. توجّه الأمير حسين هذا إلى الملك الناصر محمد إلى الكرك، ثم توجه معه إلى الديار المصرية و صار مقرّبا عنده. و كان يجيد لعب الصيد و الرّمى بالنّشّاب، فأنعم عليه الملك الناصر بتقدمة ألف بالديار المصرية، و أفرد له زاوية من الطيور الخاص، و جعله أمير شكار رفيقا للأمير الكوجرى، و صار له حرمة وافرة بالقاهرة.

و وقع له أمور ذكرناها فى ترجمته فى «المنهل الصافى» مستوفاة. و طالت أيام الأمير حسين هذا فى السعادة. و عمر جامعه قريبا من بستان العدّة و القنطرة التى على الخليج بحكر جوهر النّوبىّ و لمّا فرغ من عمارة الجامع المذكور أحضر إليه المشدّ و الكاتب حساب المصروف فرمى به إلى الخليج، و قال: أنا خرجت عن هذا للّه تعالى، فإن

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۷۷

ختنما فعليكما، و إن وفّيتما فلكما. و كان خفيف الرّوح دائم البشر لطيف العبارة، و كانت فى عبارته عجمة لكنة، كان إذا قال الحكاية أو النادرة يظهر لكلامه حلاوة فى القلب و السمع.

و توفّى الأمير سيف الدين بكتمر بن عبد اللّه الحسامىّ الحاجب فى يوم الأربعاء حادى عشرين شهر ربيع الآخر بداره خارج باب النصر. و أنعم السلطان على ولده ناصر الدين محمد بإمرة عشرة و سنّه يومئذ ثلاث عشرة سنة. و فرّق الملك الناصر إقطاعه على جماعة، فكمل للأمير طرغاى الجاشنكير تقدمة ألف، و أنعم على الأمير قوصون الناصرىّ بمنية زفتة. و كان أصل بكتمر هذا من جملة مماليك الأمير حسام الدين طرنطاى نائب السلطنة للملك المنصور قلاوون، و كان أخذ من بلاد الروم سنة خمس و سبعين و ستمائة فيما أخذ من مماليك السلطان غياث الدين كيخسرو

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۷۸

متملّك بلاد الروم عندما دخل الملك الظاهر بيبرس إلى مدينة قيسريّة، و قد تقدّم ذكر ذلك فى ترجمة الظاهر. فصار بكتمر هذا إلى طرنطاى، و طرنطاى يوم ذاك مملوك الأمير سيف الدين قلاوون الألفىّ قبل سلطنته فربّاه و أعتقه. فلمّا قتل طرنطاى صار بكتمر هذا للأشرف خليل، فرتّبه فى جملة الأوجاقيّة فى الإسطبل السلطانىّ.

ثم نقله [المنصور لاچين] و جعله أمير آخور صغيرا، ثم أنعم عليه بإمرة عشرة بعد وفاة الفاخرىّ. و ما زال يترقّى حتّى ولى الوزارة، ثم

الحجوبيّة بدمشق ثم نيابة غزّة ثم نيابة صفد ثم حجوبيّة الحجّاب بديار مصر إلى أن مات. و هو صاحب المدرسة و الدار خارج باب النصر من القاهرة. و خلّف أموالا كثيرة، و كان معروفا بالشّح و جمع المال.

قلت: و على هذا كان غالب أولاده و ذريّته ممّن أدركنا. قال الشيخ صلاح الدين الصّفدىّ فى تاريخه: «و كان له حرص عظيم على جمع المال إلى الغاية، و كان له الأملاک الكثيرة فى كلّ مدينة، و كان له قدور يطبخ فيها الحمّص و الفول و غير ذلک من الأوانى تكرى، و كان بخيلا جدّا. حكى لى الشيخ فتح الدين ابن سيد الناس قال: كنت عنده يوما و بين يديه صغير من أولاده و هو يبكى و يتعلّق فى رقبته و يبوس صدره، فلمّا طال ذلک من الصغير قلت له: ياخوند، ماله؟

قال: شيطان يريد قصب مصّ. فقلت: يا خوند اقض شهوته. فقال: يا بخشى

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۷۹

سيّر إلى السّوق أربع فلوس هات له عودّا. فلمّا حضر العود القصب وجدوا الصغير قد نام ممّا تعنّى و تعب فى طلب القصب. فقال الأمير بكتمر: هذا قد نام، ردّوا العود و هاتوا الفلوس!». انتهى كلام الصّفدىّ.

قلت: و لأجل هذا كانت له تلک الأملاک الكثيرة و الأموال الجمّة. و إلّا من هو بكتمر بالنسبة إلى غيره من الأتابكيّة و نوّاب البلاد الشاميّة و غيرهم من عظماء الأمراء! و لكن هذا من ذاک. انتهى.

و توفّى الشيخ الإمام جلال الدين أبو بكر عبد اللّه بن يوسف بن إسحاق بن يوسف الأنصارىّ الدّلاصىّ إمام الجامع الأزهر بالقاهرة عن بضع و ثمانين سنة.

و كان يعتقد فيه الخير، و له شهرة بالدّين و الصلاح.

و توفّى قاضى قضاة دمشق علاء الدين أبو الحسن علىّ بن إسماعيل بن يوسف القونوىّ الشافعىّ فى يوم السبت رابع عشر ذى القعدة.

و كان عالما مصنّفا بارعا فى فنون من العلوم.

و توفّى الأمير عزّ الدين أيبک الخطيرىّ أمير آخور فى العشرين من ذى القعدة.

و توفّى الأمير سيف الدين ساطلمش بن عبد اللّه الفاخرىّ فى ثالث ذى الحجّة، و أنعم بإقطاعه على الأمير كوجبا الساقىّ. و كان قديم هجرة فى الأمراء، و له و جاهة عند السلطان و غيره.

و توفى الأمير ناصر الدين نصر الطّواشى شيخ الخدّام بالحرم النبوىّ، و مقدّم المماليک السلطانية معا فى يوم الخميس عاشر شهر رجب. و استقرّ عوضه فى مشيخة الخدّام و تقدمة المماليک السلطانية الطّواشىّ عنبر السّحرتى. [و مات عزّ الدين] القيمرىّ.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۸۰

و توفّى الأمير علاء الدين علىّ بن الكافرى والى قوص. كان ولى عدّة أعمال، و كان من الظّلمة.

و توفّى الأمير علم الدين سنجر بن عبد اللّه الأيدمرىّ فى شهر ربيع الأول.

و توفّى الشيخ عزّ الدين أبو يعلى حمزة ابن المؤيّد أبى المعالى [أسعد] بن المظفّر بن أسعد بن حمزة القلانسىّ الشافعىّ بدمشق.

و توفّى الشيخ الإمام نجم الدين أبو عبد اللّه محمد بن عقيل بن أبى الحسن بن عقيل البالسىّ الشافعىّ بمصر. كان إماما فقيها مدرّسا مصنّفا، شرح التنبيه فى الفقه.

و توفّى القاضى معين الدين هبة اللّه ابن علم الدين مسعود بن عبد اللّه بن حشيش، صاحب ديوان الجيش بمصر، ثم ناظر جيش دمشق فى جمادى الآخرة. كان إماما فاضلا أديبا نحويّا كاتبا، و له فضائل، و تنقّل فى عدّة خدم.

و توفّى الأمير حسام الدين لاچين بن عبد اللّه الصغير بقلعة البيرة.

و توفّى شرف الدين يعقوب بن عبد الكريم بن أبى المعالى الحلبىّ بحماة. كان فاضلا كاتبا تنقّل فى عدّة خدم بالبلاد الشاميّة و غيرها، و تولّى كتابة السّرّ بحلب غير مرّة، و كان فيه رياسة و حشمة. و فيه يقول الشيخ جمال الدين بن نباته:

قالت العليا لمن حاولها سبق الصاحب و احتلّ ذارها

فدعوا كسب المعالى إنّها حاجة فى نفس يعقوب قضاها

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۸۱

و توفّى الامير سيف الدين أغزلو بن عبد اللّه الرّكنى منفيّا بقوص فى ربيع الآخر، و كان من أعيان الأمراء أصحاب بيبرس و سلّار.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و أصابع. مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و خمس أصابع. و اللّه أعلم.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۳۰]

سنة إحدى و عشرين من ولاية الملك الناصر محمد بن قلاوون الثالثة على مصر، و هى سنة ثلاثين و سبعمائة.

فيها توفّى المسند المعمّر الرّحلة أحمد بن أبى طالب بن أبى النّعم بن نعمة بن الحسن بن علىّ المعروف بابن الشّحنة و بالحجّار الصالحىّ الدمشقىّ فى خامس عشرين صفر. و مولده سنة ثلاث و عشرين و ستمائة. و مات و هو مسند الدنيا و تفرّد بالرواية عن ابن الزّبيدىّ و ابن اللّتّى مدّة سنين لا يشاركه فيها أحد، و سمع الناس عليه صحيح البخارىّ أكثر من سبعين مرّة لعلوّ سنده. و قدم القاهرة مرتين، و حدّث بها و رحل إليه من الأقطار.

و توفّى الأمير سيف الدين بهادر آص المنصورىّ أحد أمراء الألوف بدمشق فى تاسع عشر صفر الخير، و أنعم بإقطاعه على الأمير سنجر البشمقدار. و كان بهادر شجاعا مقداما فى الحرب، و تولّى نيابة صفد. و كان له أربعة أولاد منهم اثنان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۸۲

أمراء، فكان يضرب على بابه ثلاث طبلخانات. و قد تقدّم ذكره فى أواخر ترجمة المظفّر بيبرس الجاشنكير لمّا قدم مملوك الملك الناصر على الأفرم نائب الشام و نحوه.

و توفّى الأمير سيف الدين بلبان بن عبد اللّه الدّواداری المهمندار بدمشق فى نصف جمادى الأولى، و كان من جملة أكابر أمراء دمشق.

و توفّى الأمير سيف الدين قلبرس بن الأمير سيف الدين طيبرس الوزيرىّ بدمشق فى ليلة الجمعة ثامن ذى القعدة. و كان من جملة أمراء دمشق، و كان فيه مكارم و حشمة.

و توفّى الأمير عزّ الدين ألدمر بن عبد اللّه أمير جاندار مقتولا بمكّة المشرّفة فى يوم الجمعة رابع عشر ذى الحجة. و سبب قتله أنه توجّه إلى الحج فى هذه السنة، فقتله بعض عبيد أمير مكّة محمد بن عقبة بن إدريس بن قتادة الحسنىّ. و سببه أن بعض عبيد مكّة عبثوا على بعض حجّاج العراق و تخطّفوا أموالهم، فاستصرخ الناس به، و كان قد تأخّر عن الحاج مع أمير الركب لصلاة الجمعة بمكة، فنهض و الخطيب على المنبر، فمنعهم من الفساد و معه ولده، فتقدّم الولد فضرب بعض عبيد مكّة فضربه العبد بحربة فقتله. فلمّا رأى أبوه ذلك اشتدّ حنقه و حمل ليأخذ بثأر ابنه، فرمى الآخر بحربة فمات. و تفرّق الناس و ركب بعضهم بعضا و نهبت الأسواق، و قتل خلق من الحجّاج و غيرهم. و صلّى بعض الناس و السيوف تعمل، و قتل مع ألدمر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۸۳

مملوكه و أمير عشرة يعرف بابن التّاجى. و تراجع الأمراء المصريون إلى مكّة لطلب بعض الثأر فلم ينتج أمرهم و عادوا فارّين. ثم أمر أمير المصريين بالرحيل، و عادوا إلى القاهرة و أخبروا الملك الناصر محمد بن قلاوون، فجهّز إلى مكة عسكرا كثيفا و عليه عدّة من الأمراء، فتوجّهوا و أخذوا بثأر ألدمر و ابنه، و قتلوا جماعة كثيرة من العبيد و غيرهم و أسرفوا فى ذلك و خرجوا عن الحدّ إلى الغاية، و تشتّت أشراف مكة و العبيد عن أوطانهم و أخذت أموالهم، و حكمت الترك مكّة من تلك السنة إلى يومنا هذا، و زال منها سطوة

أشراف مكّة الرافضة و العبيد إلى يومنا هذا. و انقمع أهلها و ارتدعوا، و كرههم الملك الناصر و مقتهم و أقصاهم، حتى إنه لمّا حجّ بعد ذلك كان إذا أتاه صاحب مكّة لا- يقوم له مع تواضع الملك الناصر للفقهاء و الأشراف و الصلحاء و غيرهم. و كان ألدمر المذكور معظّما عند الناصر وجيها فى دولته، و له الأملاك الكثيرة و الأموال الجزيلة، و كان خيّرا ديّنا صالحا.

و توفّى القاضى الرئيس علاء الدين أبو الحسن علىّ ابن القاضى تاج الدين أحمد ابن سعيد بن محمد بن سعيد المعروف بابن الأثير كاتب سرّ مصر، فى يوم الأربعاء خامس عشر المحرم بعد ما تعطّل و أصابه مرض الفالج مدّة سنين. و كان ذا سعادات جليلة و حرمة وافرة و جاه عريض، يضرب به المثل فى الحشمة و الرياسة.

و توفّى الأمير سيف الدين قدادار بن عبد اللّه والى القاهرة و صاحب القنطرة على خليج الناصرىّ خارج القاهرة فى سادس عشر صفر. و أنعم بإمرته على الأمير ما جار القبجاقىّ. و أصل قدادار هذا من مماليك الأمير برلغى الأشرفىّ المقدّم ذكره،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۸۴

و ترقّى إلى أن ولى كشف الغربيّة و ولاية البحيرة من أعمال الديار المصريّة، ثم ولاية القاهرة و تمكّن منها تمكّنا زائدا، و كان جريئا على الدنيا، ثم صرف عن ولاية القاهرة بناصر الدين محمد [بن] المحسنى، و أقام فى داره إلى أن خرج للحجّ ثم عاد و هو مريض، فلزم الفراش إلى أن مات فى التاريخ المذكور.

و توفّى الشيخ شمس الدين محمد [بن محمد] الرّومىّ شيخ خانقاه بكتمر الساقى فى يوم الأحد ثالث عشرين ذى الحجة، و ولّى عوضه الشيخ زاده الدّوقاتى. رحمه اللّه.

و توفى الوزير شمس الدين أبو القاسم محمد بن محمد بن سهل بن أحمد بن سهل [الأزدىّ] الغرناطىّ الأندلسىّ بالقاهرة قافلا من الحجّ.

و توفّى الأمير سيف الدين كجكن بن عبد اللّه الساقى الناصرىّ فى سادس صفر.

و كان من خواصّ الملك الناصر محمد و أكبر مماليكه.

و توفّى الشيخ الإمام الأديب ناصر الدين شافع بن علىّ بن عباس بن إسماعيل بن عساكر الكنانىّ العسقلانىّ ثم المصرىّ سبط الشيخ محيى الدين بن عبد الظاهر.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۸۵

و مولده فى سنة تسع و أربعين و ستمائة. و كان يباشر الإنشاء بمصر و دام على ذلك سنين إلى أن أصابه سهم فى نوبة حمص الكبرى سنة ثمانين و ستمائة فى صدغه فعمى منه، و بقى ملازم بيته إلى أن مات. و كان إماما أديبا فاضلا ناظما ناثرا جمّاعا للكتب، خلّف ثمانى عشرة خزانة كتب نفائس أدبيّة و غيرها. و من شعره بعد عماه:

أضحى وجودى برغمى فى الورى عدما و ليس لى فيهم ورد و لا صدر

عدمت عينى و مالى فيهم أثر فهل وجود و لا عين و لا أثر

و له أيضا:

قال لى من رأى صباح مشيبى عن شمالى و لمّتى و يمينى

أىّ شىء هذا فقلت مجيبا ليل شكّ محاه صبح يقين

و له فى شبّابة:

سلبتنا شبّابة بهواها كلّ ما ينسب اللبيب إليه

كيف لا و المحسّن القول فيها آخذ أمرها بكلتا يديه

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و إصبعان. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و عشر أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۳۱]

سنة اثنتين و عشرين من ولاية الملك الناصر محمد بن قلاوون الثالثة على مصر، و هى سنة إحدى و ثلاثين و سبعمائة.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۸۶

فيها توفّى الأمير شهاب الدين صمغار ابن الأمير شمس الدين سنقر الأشقر فى ثالث عشر المحرّم. و كان من جملة أمراء الطبلخانات بالديار المصرية، و أنعم الملك الناصر بإقطاعه على بهادر [بن أوليا] بن قرمان. و كان صمغار المذكور بطلا شجاعا يخافه الملك الناصر، و فرح بموته.

و توفّى الأمير علاء الدين علىّ ابن الأمير قطلوبک الفخرىّ أحد أمراء العشرات فى سابع عشرين المحرّم، و أنعم بإقطاعه على الزّينى أمير حاجّ ابن الأمير طقزدمر الحموىّ.

و توفّى الأمير سيف الدين منكلى بغا السلاحدار فى يوم الأحد سادس صفر و دفن خارج باب النصر من القاهرة. و كان أحد أمراء الألوف بالديار المصرية، و أنعم السلطان بإمرته على الأمير تمربغا السّعدىّ. و كان منكلى بغا المذكور كثير الأكل كثير النكاح، و له فيهما حكايات عجيبة مضحكة.

و توفّى قاضى القضاة بدمشق عزّ الدين أبو عبد اللّه محمد ابن تقىّ الدين سليمان ابن حمزة بن أحمد بن عمر ابن الشيخ أبى عمر محمد بن أحمد بن قدامة الحنبلىّ الدّمشقىّ بها فى يوم الأربعاء تاسع صفر. و كان ولى قضاء الحنابلة بدمشق بعد القاضى شرف الدين أبى محمد عبد اللّه بن الحسن بن عبد اللّه بن عبد الغنىّ المقدسىّ إلى أن مات فى هذا التاريخ. و كان عالما فاضلا مشكور السّيرة.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۸۷

و توفّى الأمير قجليس بن عبد اللّه أمير سلاح فى يوم الثلاثاء خامس عشر صفر، و أنعم السلطان بإقطاعه و هو إمرة مائة على الأمير ساطلمش الجلالى. و كان قجليس المذكور من أعيان أمراء الديار المصرية و أماثلهم.

قلت: و لم يكن» أمير سلاح» تلك الأيام فى رتبة أيّامنا هذه. و إنّما كان أمره أنه يحمل سلاح السلطان و يناوله إيّاه فى يوم الحرب و فى عيد النّحر، و كان يجلس حيث كانت منزلته، و استمرّ ذلک إلى أوائل سلطنة الملك الظاهر برقوق حسب ما يأتى ذكره إن شاء اللّه تعالى فى محلّه.

و توفّى الأمير سيف الدين طرجى بن عبد اللّه الساقى أمير مجلس فى يوم الأربعاء سادس شهر ربيع الآخر. و كانت وظيفة أمير مجلس يوم ذاک أكبر من وظيفة أمير سلاح، و كان هو الذى يحكم على الجرايحية و الحكماء و غيرهم.

و توفّى الشيخ المسند المعمّر بدر الدين أبو المحاسن يوسف بن عمر بن حسّان ابن أبى بكر بن علىّ الحنفى فى يوم الثلاثاء خامس عشر صفر بالقاهرة، و هو آخر من حدّث عن سبط السّلفىّ، و كان صار رحلة الناس فى ذلک.

و توفّى الأمير سيف الدين بيغجار بن عبد اللّه الساقى أحد أمراء الطبلخاناه بديار مصر، و أنعم الملك الناصر بإقطاعه على الأمير عمر بن أرغون النائب.

و توفّى الأمير ناصر الدين محمد ابن الأمير حسام الدين طرنطاى المنصورىّ فى يوم الأربعاء ثامن شهر رجب، و هو أحد أمراء الألوف بالديار المصرية. و كان أميرا شجاعا كريما وجيها فى الدّول.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۸۸

و توفّى الأمير الكبير أرغون بن عبد اللّه الناصرىّ نائب السلطنة الشريفة ثم نائب حلب، و بها مات فى ليلة السبت ثامن عشر شهر ربيع الأوّل و قيل ربيع الآخر.

و أصله من مماليك الملك الناصر محمد بن قلاوون صاحب الترجمة. اشتراه و ربّاه و أدّبه و تبنّى به و أمره بملازمة الاشتغال، فاشتغل و دأب و برع و كتب الخطّ المنسوب، و سمع صحيح البخارىّ بقراءة الشيخ أثير الدّين أبى حيّان، و كتب بخطّه صحيح البخارىّ، و برع فى الفقه و أصوله، و أذن له فى الإفتاء و التدريس. قال الشيخ صلاح الدين الصّفدىّ قال لى الشيخ فتح الدين بن سيد الناس، كان أرغون يعرف مذهب أبى حنيفة و دقائقه و يقصر فهمه فى الحساب إلى الغاية.

قلت: كان قصور فهمه فى الحساب إذ ليس هو بصدده، و لو صرف همّته إلى ذلك لفهمه و علمه على أحسن وجه. انتهى. و رقّاه أستاذه الملك الناصر لمّا رأى فيه مخايل النّجابة، و جعله دوادارا بعد الأمير بيبرس الدّوادار، ثمّ ولّاه نيابة السلطنة بديار مصر و جعل أمورها كلّها إليه. فدام فى نيابة السلطنة نحو ست عشرة سنة، ثم أخرجه لنيابة حلب. و قد ذكرنا سبب إخراجه لحلب فى أصل هذه الترجمة. و تولى نيابة حلب بعد عزل الأمير ألطنبغا الصالحىّ، فباشر نيابتها نحو أربع سنين. و هو الذى أمر بحفر نهر الساجور، و أجراه إلى حلب فى سنة إحدى و ثلاثين. و كان ليوم وصوله يوم مشهود. و فى هذا المعنى يقول الرئيس شرف الدين أبو عبد اللّه الحسين [بن سليمان] بن ريّان رحمه اللّه:

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۸۹

لمّا أتى نهر الساجور قلت له ما ذا التأخّر من حين إلى حين

فقال أخّرنى ربّى ليجعلنى من بعض معروف سيف الدّين أرغون

و قال الشيخ بدر الدين الحسن [بن عمر بن الحسن] بن حبيب فى المعنى أيضا:

قد أصبحت الشّهباء تثنى على أرغون فى صبح و ديجور

من نهر الساجور أجرى بها للناس بحرا غير مسجور

و قد استوعبنا أمر أرغون هذا فى المنهل الصانى أكثر من هذا، إذ هو محلّ الإطناب فى التراجم.

و توفّى تاج الدين إسحاق [بن عبد الكريم]، و كان أوّلا يدعى عبد الوهاب، ناظر الخاصّ الشريف فى يوم الاثنين مستهلّ جمادى الآخرة. و كان أصله من أقباط مصر يخدم فى الدواوين، ثم صار ناظر الدولة، ثم باشر نظر الخاصّ بعد كريم الدين الكبير، فباشر بسكون و حشمة و انجماع عن الناس مع حسن سياسة إلى أن مات. و تولّى الخاصّ بعده ابنه شمس الدين موسى الذى وقع له مع النّشو ما وقع من العقوبات و المصادرات، و مدّ اللّه فى عمره إلى أن رأى نكبة النّشو و قتله، على ما سيأتى ذكره إن شاء اللّه تعالى فى محله من هذا الكتاب على سبيل الاختصار. و قد استوعبنا أمر موسى المذكور فى المنهل الصافى بما فيه عجائب و غرائب، فلينظر هناك.

و توفّى التاجر تاج الدين أبو بكر بن معين الدين محمد بن الدّمامينىّ رئيس تجار الكارم فى ثالث عشرين جمادى الآخرة، و قد قارب ثمانين سنة، و ترك مائة ألف دينار عينا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۹۰

قلت: و لعله يكون والد الدماميتة الشاعر و القاضى و غيرهما الآتى ذكرهما.

و توفّى ملك الغرب صاحب فاس [و مرّاكش] أبو سعيد عثمان بن يعقوب ابن عبد الحق فى ذى الحجة، و قام من بعده ابنه السلطان أبو الحسن علىّ. و كانت مدّة عثمان هذا على فاس و غيرها من بلاد الغرب إحدى و عشرين سنة.

و توفّى الشيخ المسند شرف الدين أبو الحسين أحمد بن فخر الدين عبد المحسن ابن الرّفعة بن أبى المجد العدوىّ. و أبوه عبد المحسن إليه ينسب جامع ابن الرّفعة بين مصر و القاهرة.

و توفّى الشيخ الإمام العلّامة فخر الدين أبو عمرو عثمان بن إبراهيم بن مصطفى بن سليمان المارديتىّ الحنفى الشهير بالتّركمانىّ فى ليلة السبت حادى عشر رجب. و كان إماما عالما بارعا مفتّنا، تصدّر للإفتاء و التدريس سنين عديدة. و كان معظّما عند الملوك، درّس

بالمنصورية من القاهرة، و شرح الجامع الكبير، و سمع الكثير، و كان مقدّما على أقرانه فصيح العبارة عالما باللغة و العربية، و المعانى و البيان، شيخ

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۹۱

السادة الحنفية فى زمانه. و هو والد قاضى القضاة علاء الدين، و العلّامة تاج الدين أحمد، و جدّ جمال الدين عبد اللّه بن علىّ، و عبد العزيز بن علىّ. و تخرّج عليه حلائق كثيرة و انتفع به الناس.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثلاث أذرع و أصابع. مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعا و اثنتان و عشرون إصبعا. و اللّه أعلم.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۳۲]

السنة الثالثة و العشرون من ولاية الناصر محمد بن قلاوون الثالثة على مصر، و هى سنة اثنتين و ثلاثين و سبعمائة.

فيها توفّى الأمير الوزير علاء الدين مغلطاى بن عبد اللّه الجمالىّ. كان يلقّب بخرز، عند نزوله من العقبة عائدا إلى الديار المصرية فى يوم الأحد سابع عشر المحرّم، فحمل ميّتا إلى القاهرة؛ و دفن بخانقاته فى يوم الخميس حادى عشرين المحرّم.

و كان أصله من مماليك الناصر محمد بن قلاوون صاحب الترجمة، و كان من خواصه و خاصّكيته، ثم أنعم عليه بإمرة، ثم نقله على إمرة بهادر الإبراهيمى دفعة واحدة و ندبه لمهمّاته، ثم ولّاه أستادارا فعظم أمره، ثم نقله إلى الوزارة و حكّمه فى جميع

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۹۲

المملكة، فحسنت سيرته و ساس الناس و أبطل مظالم. و كان جوادا عاقلا عارفا حشما يميل لفعل الخير، انتفع به جماعة كثيرة فى ولايته؛ لأنه كان يأخذ على ولاية المباشرات المال على أيديهم، فقصدهم الناس لذلك. و كان شأنه إذا ولّى أحدا و جاء من يزيد عليه عزله و ولّى من زاد بعد أن يعلم أن المعزول قد استوفى ما قام به، و من لم يستوف ذلك لم يعزله. و لم يصادر أحدا فى مدّة ولايته، و هذا من العجب! و لا ظلم أحدا، بل كانت أيامه مشكورة. و كان المستولى عليه مجد الدين إبراهيم بن لفيتة. و خلّف الأمير مغلطاى المذكور عدّة أولاد من زوجته بنت الأمير أسندمر كرجى نائب طرابلس. و إليه تنسب المدرسة الجماليّة بالقرب من درب ملوخيّا داخل القاهرة بالقرب من داره.

و توفى الملك المؤيّد عماد الدين أبو الفداء إسماعيل صاحب حماة ابن الملك الأفضل علىّ ابن الملك المظفّر محمود ابن الملك المنصور محمد ابن الملك المنصور عمر ابن شاهنشاه بن أيّوب الأيّوبى فى ثالث عشرين المحرّم. و تولّى حماة بعده ابنه الملك الأفضل، و قد تقدّم ذكر قدومه على الملك الناصر و ولايته لحماة بعد وفاة أبيه المؤيّد هذا. انتهى. و كان مولد الملك المؤيّد فى جمادى الأولى سنة اثنتين و سبعين و ستمائة، و حفظ القرآن العزيز و عدّة كتب، و برع فى الفقه و الأصول و العربية

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۹۳

و التاريخ و الأدب و الطّبّ و التفسير و الميقات و المنطق و الفلسفة مع الاعتقاد الصحيح.

و كان جامعا للفضائل، و صار من جملة أمراء دمشق، إلى أن خدم الملك الناصر محمدا عند خروجه من الكرک فى سلطنته الثالثة. فلما تمّ أمره أنعم عليه بسلطنة حماة بعد الأمير أسندمر كرجى- و قد تقدّم ذلک كله فى صدر ترجمة الملك الناصر- و جعله صاحب حماة و سلطانها. و قدم على الناصر القاهرة غير مرّة و حجّ معه و حظى عنده إلى الغاية، حتى إنّ الملك الناصر رسم إلى نوّاب البلاد الشامية بأن يكتبوا له:» يقبّل الأرض». فصار تنكز مع جلالة قدره يكتب له:» يقبّل الأرض»، و» بالمقام الشريف العالى المولوىّ السلطانىّ العمادىّ الملكىّ المؤيّدىّ». و فى العنوان:» صاحب حماة».

و يكتب السلطان الملك الناصر له:» أخوه محمد بن قلاوون، أعزّ اللّه أنصار المقام الشريف العالى السلطانىّ الملكىّ المؤيّدىّ

العمادیّ» بلا مولویّ. و کان الملک المؤیّد مع هذه الفضائل عاقلا متواضعا جوادا. و کان للشعراء به سوق نافق، و هو ممدوح الشیخ جمال الدین بن نباتة، مدحه بغرر القصائد ثم رثاه بعد موته. و من جملة مدائحه له:

أقسمت ما الملک المؤیّد فی الوری إلّا الحقیقة و الکرام مجاز

هو کعبة للفضل ما بین النّدی منها و بین الطالبین حجاز

و لما مات رثاه بالقصیدة المشهورة التی أوّلها:

ما للنّدی ما یلبّی صوت داعیه أظنّ أنّ ابن شاد قام ناعیه

ما للرّجاء قد اشتدّت مذاهبه ما للزمان قد اسودّت نواحیه

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۹۴

مالی أری الملک قد فضّت مواقفه مالی أری الوفد قد فاضت مآقیه

نعی المؤیّد ناعیه فوا أسفا للغیث کیف غدت عنّا غوادیه

وا روعتا لصباح من رزیّته أظنّ أنّ صباح الحشر ثانیه

وا حسرتاه لنظمی فی مدائحه کیف استحال لنظمی فی مراثیه

أبکیه بالدّرّ من دمعی و من کلمی و البحر أحسن ما بالدّرّ أبکیه

أروی بدمعی ثری ملک له شیم قد کان یذکرها الصّادی فترویه

أذیل ماء جفونی بعده أسفا لماء وجهی الذی قد کان یحمیه

جار من الدّمع لا ینفکّ یطلقه من کان یطلق بالإنعام جادیه

و مهجة کلّما فاهت بلوعتها قالت رزیّة مولاها لها إیه

لیت المؤید لا زادت عوارفه فزاد قلبی المعنّی من تلظّیه

[لیت الحمام حبا الأیام موهبة فکان یفنی بنی الدنیا و یبقیه].

لیت الأصاغر یفدی الأکبرون بها فکانت الشّهب فی الآفاق تفدیه

و القصیدة أطول من هذا، تزید علی خمسین بیتا. و له فیه غیر ذلک. و قد تقدّم من ذکره فی المنهل الصافی أشیاء أخر لم نذکرها هنا، فلتنظر هناک. و من شعر الملک المؤیّد فی ملیح اسمه حمزة:

اسم الذی أنا أهواه و أعشقه و من أعوّذ قلبی من تجنّیه

تصحیفه فی فؤادی لم یزل أبدا و فوق وجنته أیضا و فی فیه

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۹۵

و توفّی الشیخ الصالح المعتقد یاقوت بن عبد اللّه الحبشیّ الشاذلیّ تلمیذ الشیخ العارف بالله تعالی أبی العباس المرسی فی لیلة الثامن عشر من جمادی الآخرة بثغر الإسکندریة و بها دفن. و کان شیخا صالحا مبارکا ذا هیبة و وقار و سمت و صلاح، و له أحوال و کرامات. و قبره بالإسکندریة یقصد للزیارة.

و توفّی الشیخ الصالح عبد العال خلیفة الشیخ أحمد البدویّ و خادمه بقریة طنتتا بالغربیة من أعمال القاهرة فی ذی الحجة. فکان له شهرة بالصلاح، و یقصد للزیارة و التبرک به؛ و دفن بالقرب من الشیخ أحمد البدویّ، الجمیع فی موضع واحد، غیر أن کلّ مدفن فی محلّ واحد علی حدته. و خلفاء مقام الشیخ أحمد البدویّ من ذریّة أخیه، لم یبلغنا من کراماته شیء.

و توفّی القاضی الرئیس فخر الدین محمد بن فضل اللّه ناظر الجیوش المنصورة بالدیار المصریة فی یوم الأحد سادس عشر شهر رجب. قال الشیخ صلاح الدین:

کان متأهّلا عمره لما کان نصرانیّا، لما أسلم حکی الشیخ فتح الدین بن سید الناس عن خاله القاضی شرف الدین بن زنبور قال: [هذا] ابن أختی، عمره متعبّدا، لأننا لما کنا نجتمع علی الشّراب فی ذلک الدّین یترکنا و ینصرف، فنتفقّده

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۹۶

إذا طالت غیبته فنجده واقفا یصلّی. و لما ألزموه بالإسلام همّ بقتل نفسه بالسیف و تغیّب أیّاما. ثم أسلم و حسن إسلامه إلی الغایة، و لم یقرب نصرانیّا بعد ذلک و لا آواه و لا اجتمع به، و حجّ غیر مرّة، و زار القدس غیر مرّة. و قیل إنه فی آخر عمره کان یتصدّق فی کلّ شهر بثلاثة آلاف درهم. و بنی مساجد کثیرة بالقاهرة، و عمر أحواضا کثیرة فی الطّرقات، و بنی بنابلس مدرسة و بالرملة بیمارستانا. قال:

و أخبرنی القاضی شهاب الدین بن فضل اللّه أنه کان حنفیّ المذهب، ثم قال:

و کان فیه عصبیّة شدیدة لأصحابه، و انتفع به خلق کثیر فی الدولة الناصریة لوجاهته عند أستاذه و إقدامه علیه. قال الصلاح: أمّا أنا فسمعت السلطان الملک الناصر محمد بن قلاوون یقول یوما فی خانقاة سریاقوس لجندی واقف بین یدیه یطلب إقطاعا:

لا- تطوّل، و اللّه لو أنک ابن قلاوون ما أعطاک القاضی فخر الدین خبزا یعمل أکثر من ثلاثة آلاف درهم. و قد ذکرنا من أحواله أکثر من هذا فی المنهل الصافی.

و توفّی الأمیر سیف الدین سوتای صاحب دیار بکر بالموصل فی هذه السنه.

و کان ملکا جلیلا ذا ریاسة و وقار، و عمّر طویلا، و کان من أجلّ ملوک دیار بکر.

و توفّی شیخ القرّاء فی زمانه برهان الدین إبراهیم بن عمر بن إبراهیم الربعی الجعبریّ فی شهر رمضان. و کان من أعیان القرّاء فی زمانه.

و توفی شیخ القراءات أیضا صدر الدین أحمد بن محمد بن عبد اللّه الدندریّ الشافعیّ فی جمادی الآخرة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۹۷

و توفّی الأمیر سیف الدین ألجای بن عبد اللّه النّاصری الدّوادار. کان من ممالیک الملک الناصر محمد و جعله دوادارا صغیرا جندیّا مع الأمیر أرسلان الدّوادار، فلما توفّی أرسلان استقلّ ألجای المذکور بالدّواداریّة الکبری عوضه علی إمرة عشرة مدّة سنین، ثم أعطاه إمرة طبلخاناه. قال الإمام خلیل بن أیبک فی تاریخه:

و أمّا اسمه فی العلامة فما کتب أحد أحسن منه. و کان خبیرا عارفا عفیفا خیّرا طویل الروح. و کان یحبّ الفضلاء و یمیل إلیهم و یقضی حوائجهم و ینامون عنده و یبحثون و یسمع کلامهم، و یتعاطی معرفة علوم کثیرة. و مع هذا کان لا بدّ فی خطّه أن یؤنّث المذکّر. و عمر له دارا علی الشارع خارج بابی زویلة، غرم علی بوّابها مائة ألف درهم، فلم تستکمل حتّی مرض و نزل إلیها من القلعة مریضا، فأقام بها إلی أن مات. و ولی الدّواداریّة من بعده الأمیر صلاح الدین یوسف.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم خمس أذرع و ست أصابع.

مبلغ الزیادة ثمانی عشرة ذراعا و إحدی عشرة إصبعا. و اللّه أعلم.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۲۹۸

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۳۳]

سنة اربع و عشرین من ولایة الملک الناصر محمد بن قلاوون الثالثة علی مصر، و هی سنة ثلاث و ثلاثین و سبعمائة.

فیها توفی القاضی قطب الدین موسی بن أحمد بن الحسین ناظر جیش دمشق و رئیسها، المعروف بابن شیخ السّلّامیّة عن اثنتین و

سبعين سنة، و كان نبيلا فاضلا و فور الحرمة.

و توفّى القاضى القضاة بدر الدين محمد بن إبراهيم بن سعد اللّه بن جماعة الحموىّ الشافعى فى حادى عشر جمادى الأولى و هو معزول بعد ما عمى. مولده بحماة فى سنة تسع و ثلاثين و ستمائة، و هو والد قاضى قضاة الديار المصريّة عزّ الدين عبد العزيز بن جماعة. و كان إماما عالما مصنّفا، أخذ النحو عن ابن مالک، و أفتى قديما، و عرضت فتواه على الشيخ محيى الدين النّووىّ فاستحسن ما أجاب به.

و تولّى قضاء القدس و الخطابة بها. ثم نقل إلى مصر فولّى قضاءها بعد عزل تقىّ الدين ابن بنت الأعزّ فى أوائل سنة تسعين و ستمائة. ثم وقع له أمور حكيناها فى ترجمته فى تاريخنا «المنهل الصافى». و من شعره:

ارض من اللّه ما يقدّره أراد منک المقام أو نقلک

و حيثما كنت ذا رفاهية فاسكن فخير البلاد ما حملک

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج٩، ص: ٢٩٩

و تمّم هذه الأبيات الحافظ شهاب الدين أحمد بن حجر، فقال رحمه اللّه:

و حسّن الخلق و استقم فمتى أسأت أحسن و لا تطل أملک

من يتّق اللّه يؤته فرجا و من عصاه و لا يتوب هلک

قلت: و البيت الثانى من قول ابن جماعة مأخوذ من قول المتنبى، و لكن فاته الشّنب، و هو:

و كلّ امرئ يبدى الجميل محبّب و كلّ مكان ينبت العزّ طيّب

و توفّى الشيخ الإمام المؤرّخ الفقيه شهاب الدين أبو العبّاس أحمد بن عبد الوهّاب ابن أحمد بن عبد الوهاب بن عبادة البكرىّ النّويرىّ الشافعىّ، صاحب التاريخ المعروف «بتاريخ النّويرى» فى يوم الحادى و العشرين من شهر رمضان. كان فقيها فاضلا مؤرّخا بارعا، و له مشاركة جيّدة فى علوم كثيرة و كتب الخطّ المنسوب. قيل إنه كتب صحيح البخارى ثمانى مرّات، و كان يبيع كلّ نسخة من البخارى بخطّه بألف درهم، و كان يكتب فى كل يوم ثلاث كراريس، و تاريخه سمّاه: «منتهى الأرب، فى علم الأدب» فى ثلاثين مجلدا. رأيته و انتقيته و نقلت منه بعض شيء فى هذا التاريخ و غيره. و مات و هو من أبناء الخمسين. رحمه اللّه.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج٩، ص: ٣٠٠

و توفّى الأمير سيف الدين بكتمر بن عبد اللّه الرّكنىّ الساقى الناصرىّ بعد ابنه أحمد بثلاثة أيام فى عاشر المحرّم و حمل إلى نخل فدفن بها، و اتّهم الملک الناصر أنّه اغتالهما بالسمّ. و قد تقدّم ذكر ذلک كله مفصلا فى ترجمة الملک الناصر، غير أنّنا نذكره هنا تنبيها على ما تقدّم ذكره. كان أصل بكتمر من مماليک الملک المظفر بيبرس الجاشنكير، ثم انتقل إلى الملک الناصر محمد بن قلاوون، لعلّه بالخدم، فإنّ أستاذه المظفر بيبرس كان أمّره عشرة فى أواخر دولته، و لو لا [أنه] أعتقه ما أمّره، فعلى هذا يكون عتيق المظفّر. و اللّه أعلم. و يقوّى ما قلته ما سنذكره، و هو أن بكتمر هذا حظى عند الملک الناصر لجمال صورته و جعله ساقيا. و كان غريبا فى بيت السلطان: لأنه لم يكن له خشداش، فكان هو وحده، و سائر لخاصكيّة حربا عليه.

و عظمت مكانته عند السلطان حتى تجاوزت الحدّ. قال الصلاح الصّفدىّ: كان يقال: إنّ السلطان و بكتمر لا يفترقان، إما أن يكون بكتمر عند السلطان، و إما أن يكون السلطان عند بكتمر. انتهى كلام الصّفدىّ باختصار.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج٩، ص: ٣٠١

قلت: و وقع لبكتمر هذا من العظمة و القرب من السلطان ما لم يقع لغيره من أبناء جنسه. و قد استوعبنا أمره فى «المنهل الصافى» مستوفى، حيث هو كتاب تراجم الأعيان، و ليس لذكره هنا إلا الاختصار؛ إذ هذا الكتاب موضوع للإطناب فى تراجم ملوک مصر لا غير، و مهما كان غير ذلک يكون على سبيل الاستطراد و الضميمة لحوادث الملک المذكور لا غير، فيكون الاختصار فيما عدا ملوک

مصـر أرشق، و إلا یطل الشـرح فی ذلک حتی تزید عدّة هذا الکتاب علی مائة مجلّد و أکثر. و قد سـقنا أیضا من ذکر بکتمر فی أصل ترجمة الملک الناصر قطعة جیّدة فیها کفایة فی هذا الکتاب، فلتنظر هناک.

أمر النیل فی هذه السنة– الماء القدیم ثلاث أذرع و ثمانی أصابع.

مبلغ الزیادة سبع عشرة ذراعا و ست عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۳۴]

سنة خمس و عشرین من ولایة الملک الناصر الثالثة علی مصر، و هی سنة أربع و ثلاثین و سبعمائة.

فیها توفّی الأمیر سـیف الدین ألماس بن عبد اللّه الناصریّ حاجب الحجّاب بالدیار المصریّة فی محبسه خنقا فی لیلة ثانی عشر صفر، و حمل من الغد حتّی دفن بجامعه بالشارع خارج بابی زویلة. و کان من ممالیک الناصـر محمد، اشتراه و رقّاه و أمّره و جعله جاشنکیره، ثم ولّاه الحجوبیّة، فصار فی محلّ النیابة لشغور منصب النیابة فی أیامه، فکان أکابر الأمراء یرکبون فی خدمته و یجلس فی باب القلعة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۳۰۲

و تقف الحجّ‍اب فی خـدمته، و لاـ زال مقرّبا عنـد السـلطان حتّی قبض علیه لأمور بلغته عنه: منها، أنه کان اتّفق مع بکتمر الساقی علی قتل السـلطان، و منها محبّته لصبیّ من أولاد الحسینیّة و تهتّکه بسببه، و غیر ذلک. و لمّا حبسه السلطان منعه الطعام و الشراب ثلاثة أیام ثم خنقه. و قـد تقـدّم من ذکره فی أصـل ترجمـة الملک الناصـر بعـد عوده من الحجاز نبـذة أخری یعرف منها أحواله. و کان ألماس غتمیّا لا یعرف بالعربیّة شیئا. و کان کریما و یتباخل خوفا من الملک الناصر.

و لمّا مات وجد له أشیاء کثیرة.

و توفّی الأمیر علم الـدین سـلیمان بن مهنّا بن عیسـی ملک العرب و أمیر آل فضل فی خامس عشـرین ربیع الأوّل، و تولّی الإمرة بعـده سیف بن فضل [بن عیسی ابن مهنا].

و توفّی السـلطان الملـک الظـاهر أسـد الـدّین عبـد اللّه ابن الملک المنصور نجم الـدین أیّوب ابن الملک المظفّر یوسف بن عمر [بن علیّ] بن رسول متملّک الیمن، بعد ما قبض علیه الملک المجاهد بقلعة دملوه، و صار الظاهر هذا یرکب فی خدمة المجاهد، ثم سجنه المجاهد مدّة شهرین و خنقه بقلعة تعزّ.

و توفّی قاضـی حماة نجم الـدین عمر بن محمـد بن عمر بن أحمـد بن هبـة اللّه بن محمد ابن هبة اللّه بن أحمد المعروف بابن العدیم الحلبی الأصل الحنفیّ عن خمس و أربعین سنة، و هو من بیت علم و ریاسة و فضل.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۳۰۳

و توفّی الأمیر طغای تمر بن عبـد اللّه [العمریّ] الناصـریّ أحـد ممالیک الملک الناصـر و زوج ابنته فی لیلة الثلاثاء ثامن عشـرین شـهر ربیع الأوّل. و کان من أجلّ ممالیک الناصر و أمرائه و أحد خواصه.

و توفّی الأمیر سوسون بن عبـد اللّه الناصـریّ أحـد مقدّمی الألوف بدیار مصـر و أخو الأمیر قوصون فی لیلة الجمعة رابع عشـر جمادی الأولی.

و توفّی الشـیخ الإمام العالم الحافظ ذو الفنون فتـح الـدین أبو الفتـح محمـد بن محمد ابن محمد [بن أحمد] بن عبد اللّه بن محمد بن یحیی بن سـید الناس الیعمریّ الإشبیلیّ فی شـعبان. کان إماما حافظا مصـنّفا، صـنّف السّیرة النبویّة و سمّاه «کتاب عیون الأثر، فی فنون المغازی و الشـمائل و السّیر»، و مختصر ذلک سمّاه «نور العیون»، و کتاب «تحصیل الإصابة، فی تفضیل الصحابة» و «النّفح الشّذی، فی شرح جامع التّرمذی» و کتاب «بشـری اللّبیب، بذکری الحبیب». و کان له نظم و نثر علامة فیهما حافظا متقنا. و من شـعره قصـیدته التی

أوّلها:

عهدی به و البین لیس یروعه صبّا براه نحوله و دموعه

لا تطلبوا فی الحبّ ثأر متیم فالموت من شرع الغرام شروعه

عن ساکن الوادی- سقته مدامعی- حدّث حدیثا طاب لی مسموعه

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۳۰۴

أفدی الذی عنت البدور لوجهه إذ حلّ معنی الحسن فیه جمیعه

البدر من کلف به کلف به و الغصن من عطف علیه خضوعه

للّه حلویّ المراشف و اللّمی حلو الحدیث ظریفه مطبوعه

دارت رحیق لحاظه فلنا بها سکر یحلّ عن المدام صنیعه

یجنی فأضمر عتبه فإذا بدا فجماله ممّا جناه شفیعه

و توفّی الأمیر قرطای بن عبد اللّه الأشرفیّ نائب طرابلس، و قد جاوز ستین سنة فی ثامن عشرین صفر، و کان مطّبا عند الملک، أمّره و ولّاه نیابة طرابلس إلی أن مات بها.

و توفّی الأمیر سیف الدین بلبان بن عبد اللّه المعروف بطرنا نائب صفد فی حادی عشرین ربیع الأوّل. و کان أمیرا شجاعا مقداما.

و توفّی قاضی القضاة جمال الدین أبو الربیع سلیمان ابن الخطیب مجد الدین عمر ابن عثمان الأذرعی الشافعی المعروف بالزّرعیّ، فی سادس صفر بالقاهرة و هو قاضی العسکر بها. و کان فقیها عالما.

و توفّی الأمیر سیف الدین خاص ترک بن عبد اللّه الناصریّ أحد مقدّمی الألوف بالدیار المصریّة فی شهر رجب بدمشق، و کان من خواصّ ممالیک الملک الناصر محمد بن قلاوون.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۳۰۵

و توفّی الشیخ مجد الدین حرمی بن قاسم بن یوسف العامریّ الفاقوسیّ الفقیه الشافعیّ فی ذی الحجّة.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم ذراعان و ثمانی أصابع. مبلغ الزیادة ست عشرة ذراعا و اثنتان و عشرون إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۳۵]

السنة السادسة و العشرون من ولایة الملک الناصر الثالثة علی مصر و هی سنة خمس و ثلاثین و سبعمائة.

فیها توفّی الأمیر علم الدین سنجر بن عبد اللّه الخازن والی القاهرة و هو معزول فی یوم السبت ثامن جمادی الآخرة عن نحو تسعین سنة. و أصله من ممالیک الملک المنصور قلاوون و ترقّی حتی صار خازنا ثم شادّ الدواوین، ثم ولی الکشف بالبهنسا بالوجه القبلی، ثمّ ولی القاهرة و شدّ الجهات و أقام عدّة سنین. و کان حسن السّیرة، و إلیه ینسب حکر الخازن خارج القاهرة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۳۰۶

علی برکة الفیل، و تربته بالقرب من قبة الإمام الشافعیّ بالقرافة.

و توفّی الأمیر صلاح الدین طرخان ابن الأمیر بدر الدین بیسری بسجنه بالإسکندریة فی جمادی الأولی بعد ما أقام بالسجن أربع عشرة سنة.

و توفّی الشیخ الإمام الحافظ المؤرخ قطب الدین أبو علیّ عبد الکریم بن عبد النّور ابن منیر الحلبیّ ثم المصریّ الحنفیّ. و مولده فی سنة أربع و ستین و ستمائة. و کان بارعا فی فنون صاحب مصنفات، منها «شرحه لشطر صحیح البخاری»، و «تاریخ مصر» فی عدّة

مجلدات، بيّض أوائله و لم اقف عليه إلى الآن، و خرّج لنفسه أربعين تساعيّات. و هو ابن أخت الشيخ نصر المنبجىّ، و بخاله كان يعرف و انتفع بصحبته.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۳۰۷

و توفّى الشيخ الإمام المجوّد العلّامة محمد بن بكتوت الظاهرىّ القلندرىّ الحنفىّ بطرابلس فى خامس عشر ربيع الأوّل، و كان كاتبا مجوّدا. ذكر أنّه كتب على ابن الوحيد. و كان يضع المحبرة على يده اليسرى و المجلّدة فى يده من كتاب الكشّاف للزّمخشرىّ و يكتب منه ما شاء و هو يغنّى فلا يغلط. و كان أوّلا خصيصا عند الملك المؤيّد صاحب حمّاة، و أقام عنده مدّة ثم طرده عنه.

و توفّى الشيخ الواعظ شمس الدين الحسين بن أسد بن المبارك بن الأثير بمصر فى جمادى الآخرة. و كان فقيها يعظ الناس و عليه قابليّة.

و توفى القاضى زين الدّين عبد الكافى ابن ضياء الدين علىّ بن تمّام الأنصارىّ الخزرجىّ السّبكىّ بالمحلّة و هو على قضائها. و كان فقيها بارعا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۳۰۸

و توفّى الشّيخ بهاء الدين محمود ابن الخطيب محيى الدين محمد بن عبد الرحيم بن عبد الوهّاب بن علىّ بن أحمد بن عقيل السّلمىّ شيخ الكتّاب فى زمانه، المعروف بابن خطيب بعلبكّ بدمشق فى شهر ربيع الأوّل.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم لم يحرر. مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا و إحدى و عشرون إصبعا. و اللّه تعالى أعلم.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۳۰۹

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۳۶]

السنة السابعة و العشرون من ولاية الملك الناصر محمد الثالثة على مصر، و هى سنة ست و ثلاثين و سبعمائة.

فيها توفّى القان بو سعيد بن القان محمد خربندا بن القان أرغون بن القان أبغا بن القان الطاغية هولاكو ملك التّتار و صاحب العراق و الجزيرة و أذربيجان و خراسان و الروم و أطراف ممالك ما وراء النهر فى شهر ربيع الآخر، و قد أناف على ثلاثين سنة. و كانت دولته عشرين سنة، لأنّ جلوسه على تخت الملك كان فى أوّل جمادى الأولى سنة سبع عشرة و سبعمائة بمدينة السلطانية، و عمره إحدى عشرة سنة. و بو سعيد اسم غير كنية (بضم الباء ثانية الحروف و سكون الواو).

و سعيد معروف لا حاجة لتعريفه، و من الناس من يقول بو صعيد (بالصاد المهملة).

و كان بو سعيد المذكور ملكا جليلا مهابا كريما عاقلا، ولديه فضيلة، و يكتب الخط المنسوب، و يجيد ضرب العود و الموسيقى، و صنّف فى ذلك قطعا جيّدة فى أنغام غريبة من مذاهب النّغم. و كان مشكور السّيرة، أبطل فى سلطنته عدّة مكوس، و أراق الخمور من بلاده و منع الناس من شربها، و هدم الكنائس، و ورّث ذوى الأرحام؛ فإنه كان حنفيّا، و هو آخر ملوك التتار من بنى چنكزخان، و لم يقم للتتار بعد موته قائمة إلى يومنا هذا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۳۱۰

و توفّى الأمير جمال الدين آقوش بن عبد اللّه الأشرفىّ المعروف بنائب الكرك محبوسا بثغر الإسكندرية فى يوم الأحد سابع جمادى الأولى. و أصله من مماليك الملك المنصور قلاوون، و أضافه قلاوون إلى ولده الأشرف خليل و جعله أستاداره فعرف بالأشرفىّ، و استمر بخدمة الملك الأشرف إلى أن تسلطن، أمّره ثم ولّاه نيابة الكرك. و قيل: إنه ما ولّى نيابة الكرك إلا فى سلطنة الملك الناصر الثانية، و هو الأقوى. و قد مرّ من ذكر آقوش هذا أشياء كثيرة فى ترجمة المظفّر بيبرس، و عند قدوم الملك الناصر إلى الكرك لمّا

خلع نفسه و غير ذلک. و كان آقوش أميرا جليلا معظّما، و كان يقوم له الملک الناصر لمّا يدخل عليه و هو جالس على تخت الملک أمام الخدم. و طالت أيامه فى السعادة، و له مآثر كثيرة. و هو صاحب الجامع الذى بآخر الحسينيّة بالقرب من كوم الرّيش، و هو إلى الآن عامر و ما حوله خراب.

و توفّى الأمير أيتمش بن عبد اللّه المحمدىّ نائب صفد فى ليلة الجمعة سادس عشرين ذى الحجة. و كان من مماليک الملک الناصر محمد و من خواصه، و هو أحد من كان يندبه الناصر و هو بالكرک لمهماته؛ و لمّا تسلطن أمّره ثم ولّاه نيابة صفد و غيرها إلى أن مات. و كان أميرا عارفا كاتبا فاضلا عاقلا مدبّرا متواضعا كريما.

و توفّى الأمير سيف الدين إيناق بن عبد اللّه الناصرىّ أحد مقدّمى الألوف فى ثامن عشرين شعبان، و كان أيضا من خواصّ الملک الناصر محمد بن قلاوون و من أكابر مماليكه.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۳۱۱

و توفّى شيخ الكتّاب عماد الدين محمد بن العفيف محمد بن الحسن الأنصارىّ الشافعىّ المعروف بابن العفيف، صاحب الخط المنسوب. كتب عدّة مصاحف بخطه. و كان إماما فى معرفة الخط، و عنده فضائل، و له نظم و نثر و خطب، تصدّى للكتابة مدّة طويلة، و انتفع به عامة الناس. و كان صالحا ديّنا خيّرا فقيها حسن الأخلاق. مات بالقاهرة و دفن بالقرافة و له إحدى و ثمانون سنة.

و توفّى القاضى عماد الدين إسماعيل بن محمد بن الصاحب فتح الدين عبد اللّه ابن محمد القيسرانىّ كاتب حلب فى ذى القعدة.

و توفّى الشيخ تقىّ الدين سليمان بن موسى بن بهرام السّمهودىّ الفقيه الشافعىّ الفرضىّ العروضىّ الأديب.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمسة أذرع و سبع عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا. و الوفاء يوم النوروز.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۳۱۲

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۳۷]

السنة الثامنة و العشرون من ولاية الملک الناصر محمد الثالثة على مصر، و هى سنة سبع و ثلاثين و سبعمائة.

فيها توفّى الأمير عزّ الدين أيدمر الخطيرىّ المنصورىّ أحد أمراء الألوف بالديار المصرية فى يوم الثلاثاء أوّل شهر رجب بالقاهرة. و أصله من مماليک الخطير الرومىّ والد أمير مسعود، ثم انتقل إلى ملک المنصور قلاوون، فرقّاه حتى صار من أجلّ الأمراء البرجيّة. ثم ترقّى فى الدولة الناصريّة و ولى الأستادارية. ثم وقع له أمور، و قبض عليه السلطان الملک الناصر محمد فى سلطنته الثالثة، ثم أطلقه و أنعم عليه بإمرة مائة و تقدمة [ألف] و زيادة إمرة عشرين فارسا، و صار معظّما عند الناصر، و يجلس رأس الميسرة، و بقى أكبر أمراء المشورة. و كان لا يلبس قباء مطرّزا و لا يدع عنده أحدا يلبس ذلک. و كان أحمر الوجه منوّر الشيبة كريما جدّا واسع النّفس على الطعام. حكى أن أستاداره قال له يوما: يا خوند، هذا السّكّر الذى يعمل فى الطعام ما يضرّ أن نعمله غير مكرر؟ فقال: لا، فإنه يبقى فى نفسى أنه غير مكرر فلا تطيب. و لمّا مات خلّف ولدين أميرين: أمير علىّ و أمير محمد. و هو من الأمراء المشهورين بالشجاعة و الدين و الكرم، و هو الذى عمر الجامع برملة بولاق على شاطئ النيل و الرّبع المشهور، و غرم عليه جملة مستكثرة، فلمّا تم أكله البحر و رماه، فأصلحه و أعاده فى حياته. و قد تقدّم ذكر بنائه لهذا الجامع فى أصل ترجمة الملک الناصر، و سبب مشتراه لموضع الجامع المذكور و تاريخ بنائه.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۳۱۳

و توفّى الأمير سيف الدين أزبک بن عبد اللّه الحموىّ فى يوم الأربعاء خامس عشرين شعبان على مدينة آياس، و قد بلغ مائة سنة،

فحمـل إلى حماة و دفن بها. و كان مهابا كثير العطاء، طالت أيّامه فى الإمرة و السعادة. و هو ممن تأمّر فى دولـة الملك الظاهر بيبرس البندقدارىّ. رحمه اللّه.

و توفّى الشيـخ المعتقد الصالح محمد بن عبد اللّه بن المجد إبراهيم المرشدىّ، صاحب الأحوال و الكرامات و المكاشفات بناحية منية مرشد فى ثامن شهر رمضان.

و كان للناس فيه اعتقاد حسن، و يقصد للزيارة.

و توفّى الشيـخ قطب الـدين إبراهيم بن محمد بن علىّ بن مطهّر بن نوفل الثعلبىّ الأدفوىّ فى يوم عرفة بأدفو. و كان فقيها فاضـلا بارعا ناظما ناثرا.

و توفّى الشيـخ المحـدّث تقىّ الـدين أبو عبـد اللّه محمـد بن علىّ بن محمد بن أحمد اليونينىّ البعلبكىّ الحنبلىّ. و مولده سـنة سبع و ستين و ستمائة؛ ذكره الحافظ أبو عبد اللّه الذهبىّ فى معجمه و أثنى عليه.

و توفّى الشيخ ناصر الدين محمد ابن الشيخ المعتقد إبراهيم بن معضاد الجعبرىّ الواعظ بالقاهرة فى يوم الاثنين رابع عشرين المحرّم. و كان يعظ الناس، و جلس مكان والده الشيخ إبراهيم الجعبرىّ، و كان لوعظه رونق، و هو من بيت صلاح و وعظ.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۳۱۴

و توفّى المسـند المعمّر مسـند الـديار المصـرية شـرف الـدين يحيى بن يوسف المقدسـىّ المعروف بابن المصـرىّ بالقاهرة عن نيّف و تسعين سنة.

و توفّى الشيـخ كمال الدين أبو الحسن علىّ [بن الحسن بن علىّ] الحويزانىّ شيخ خانقاه سعيد السّعداء فى صفر بالقاهرة. و كانت لديه فضيلة، و عنده صلاح و خير.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و ثمانى عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و ست عشرة إصبعا. و اللّه تعالى أعلم.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۳۸]

السنة التاسعة و العشرون من ولاية الملك الناصر الثالثة على مصر، و هى سنة ثمان و ثلاثين و سبعمائة.

فيها توفّى قاضـى قضاة دمشق شـهاب الـدين محمـد ابن المجد عبد اللّه بن الحسـين ابن علىّ الإربلىّ الزرزارىّ الشافعىّ، وقع عن بغلته فلزم الفراش أسبوعا و مـات فى جمـادى الأولى بـدمشق. و مولـده سـنة اثـنتين و سـتين و سـتمائة. و كـان بارعـا فى الفقه و الفروع و الشـروط، و أفتى و درّس و كتب الطباق و سـمع الكثير، و ولّى قضاء دمشق بعد القاضى جمال الدين بن جملة، و عزل بالقاضى جلال الدين القزوينىّ. و لمّا تولّى القاضى شهاب الدين ابن القيسرانىّ كتابة سرّ دمشق توجّه القاضى شهاب الدين هذا إليه لتهنئته، فنفرت به البغلة فى الطريق فوقع فشجّ دماغه، فحمل فى محفّة

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۳۱۵

إلى بيته و مات بعد أسبوع. و لمّا وقع عن بغلته قال فيه الشيخ شمس الدين محمد ابن الخيّاط الدمشقىّ رحمه اللّه:

بغلة قاضينا إذا زلزلت كانت له من فوقها الواقعه

تكاثر ألهاه من عجبه حتى غدا ملقّى على القارعه

فأظهرت زوجته عندها تضايقا بالرحمة الواسعه

و توفى الشيخ الإمام العلّامة النحوىّ ركن الدين محمد بن محمد بن عبد الرحمن ابن يوسف بن عبد الرحمن بن عبد الجليل المعروف

بابن القويع القرشىّ التونسىّ المالكىّ النحوىّ، صاحب الفنون الكثيرة بالقاهرة عن أربع و سبعين سنة.

و توفّى شيخ الإسلام شرف الدين هبة اللّه ابن قاضى حماة نجم الدين عبد الرحيم ابن أبى الطاهر إبراهيم بن المسلم بن هبة اللّه بن حسّان بن محمد بن منصور بن أحمد الشافعىّ الجهنى المعروف بابن البارزىّ قاضى حماة فى نصف ذى القعدة. و مولده فى خامس شهر رمضان سنة خمس و أربعين و ستمائة. و كان إماما علّامة فى الفقه و الأصول و النحو و اللغة، و أفتى و درّس سنين و انتفع الطلبة به و تخرّج به خلائق، و حكم بحماة دهرا، ثم ترك الحكم و ذهب بصره. و صنّف كتبا كثيرة، و حجّ مرّات، و حدّث بأماكن. و لمّا مات غلّقت [أبواب] جماة لمشهده. و من مصنّفاته:

تفسيران، و «كتاب بديع القرآن»، و «و شرح الشاطبية»، و «الشرعة فى السبعة» و «كتاب الناسخ و المنسوخ»، و «كتاب مختصر جامع الأصول»، مجلدين و «الوفا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۳۱۶

فى شرح [أحاديث] المصطفى»، و «الأحكام على أبواب التنبيه». و «غريب الحديث»، و «شرح الحاوى فى الفقه» أربع مجلدات، و «مختصر التنبيه فى الفقه»، و «الزبدة فى الفقه»، و المناسك. [و كتاب فى] العروض، و غير ذلك.

و توفى القاضى الرئيس محيى الدين يحيى بن فضل اللّه بن مجلّى العمرىّ القرشىّ كاتب السّر الشريف بالشام أوّلا ثم بمصر آخرا، و هو أخو القاضى شرف الدين عبد الوهاب، و أخو القاضى بدر الدين محمد، و والد القاضى العلّامة شهاب الدين أحمد، و بدر الدين محمد، و علاء الدين علىّ، و جدّ القاضى بدر الدين محمد بن علىّ آخر من ولى من بنى فضل اللّه كتابة السرّ بديار مصر الآتى ذكره فى محله إن شاء اللّه تعالى.

قال الشيخ صلاح الدين خليل بن أيبك: لم أر فى عمرى من كتب النسخ و خرّج التخاريج و الحواشى أحلى و أظرف و لا ألطف منه، بل الشيخ فتح الدين بن سيد الناس معه و القاضى جمال الدين إبراهيم ابن شيخنا شهاب الدين محمود؛ فإن هؤلاء الثلاثة غاية فى حسن الكتابة. لكن القاضى محيى الدين هذا رعشت يده و ارتجّت كتابته أخيرا. قال: و لم أر عمرى من نال سعادته فى مثل أولاده و أملاكه و وظائفه و عمره. و كان السلطان قد بالغ أخيرا فى احترامه و تعظيمه، و كتب له فى أيام الأمير سيف الدين ألجاى الداودار توقيعا بالجناب العالى يقبّل الأرض، و استعفى من

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۳۱۷

ذلك و كشطها و قال: ما يصلح لمتعمم أن يعدّى به «المجلس العالى». انتهى كلام الشيخ صلاح الدين.

و توفّى قاضى القضاة جمال الدين يوسف بن إبراهيم بن جملة الدمشقىّ الشافعىّ قاضى قضاة دمشق بها. و كان فقيها بارعا، ولى قضاء دمشق إلى أن عزل بقاضى القضاة شهاب الدين بن المجد.

و توفى الأمير سيف الدين طغجى بن عبد اللّه المنصورىّ فى الحبس. و كان من أعيان الأمراء البرجية معدودا من الشجعان.

و توفّى الأمير سيف الدين صلديه بن عبد اللّه كاشف الوجه القبلىّ، و كان من الظّلمة، مهّد البلاد فى ولايته.

و توفّى الأمير سيف الدين آقول بن عبد اللّه المنصورىّ ثم الناصرىّ الحاجب بديار مصر. و كان من أعيان الأمراء.

و توفّى الشيخ الأديب شهاب الدين أحمد بن يوسف بن هلال الصّفدىّ الطبيب، و مولده فى سنة إحدى و ستين و ستمائة. كان من جملة أطبّاء السلطان، و كان بارعا فى الطب، و له قدرة على وضع المشجّرات، و يبرز أمداح الناس فى أشكال أطيار و عمائر و أشجار و عقد و أخياط و غير ذلك، و له نظم و نثر. و من شعره ما يكتب على سيف:

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۳۱۸

أنا أبيض كم جئت يوما أسودا فأعدته بالنصر يوما أبيضا

ذكر إذا ما استلّ يوم كريهة جعل الذكور من الأعادى حيّضا

أختال ما بین المنایا و المنی و أجول فی وسط القضایا و القضا

أمر النیل فی هذه السنة– الماء القدیم خمس أذرع و خمس عشرة إصبعا.

مبلغ الزیادة ست عشرة ذراعا و عشرون إصبعا. و کان الوفاء یوم النوروز.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة؛ ج۹؛ ص۳۱۸

اللّه تعالی أعلم.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۳۹]

السنة [المتمّة] الثلاثین من ولایة الملک الناصر محمد بن قلاوون الثالثة علی مصر، و هی سنة تسع و ثلاثین و سبعمائة.

فیها توفّی خطیب القدس زین الدین عبد الرحیم ابن قاضی القضاة بدر الدین محمد بن إبراهیم بن سعد اللّه بن جماعة الشافعیّ الحمویّ الأصل المعروف بابن جماعة

و توفّی الأمیر سیف الدین بهادر بن عبد اللّه المعزّیّ الناصریّ أحد أمراء الألوف بالدیار المصریة فی لیلة الجمعة تاسع شعبان. و کان أمیرا جلیلا معظّما فی دولة أستاذه، بلغت ترکته مائة ألف دینار، أخذها النّشو ناظر الخاصّ.

و توفّی قاضی القضاة العلّامة جلال الدین محمد بن عبد الرحمن بن عمر بن أحمد ابن محمد بن عبد الکریم القزوینیّ الشافعیّ بدمشق فی خامس عشر جمادی الآخرة.

و کان ولی قضاء مصر و الشام، و کان عالما بارعا مفتّنا فی علوم کثیرة، و له مصنّفات فی عدّة فنون. و کان مولده بالموصل فی سنة ست و ستین و ستمائة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۳۱۹

و توفّی الشیخ الإمام الحافظ المؤرخ علم الدین القاسم بن محمد بن یوسف بن محمد [ابن یوسف] البرزالیّ الشافعی بخلیص، و هو محرم فی رابع ذی الحجة عن أربع و سبعین سنة. و برزالة: قبیلة قلیلة جدّا. و کان أبوه شهاب الدین محمد من کبار عدول دمشق. و أما جدّ أبیه محمد بن یوسف فهو الإمام الحافظ زکیّ الدین الرحّال محدّث الشام أحد الحفّاظ المشهورین. و قد تقدّم ذکره. انتهی. و کان الحافظ علم الدین هذا محدّثا حافظا فاضلا، سمع الکثیر و رحل إلی البلاد و حصّل و دأب و سمع خلائق کثیرة، تزید عدّتهم علی ألفی شیخ، و حدّث و خرّج و أفاد و أفتی و صنّف تاریخا علی السنین.

و توفّی الشیخ الأدیب أبو المعالی زین الدین خضر بن إبراهیم بن عمر بن محمد ابن یحیی الرفّاء الخفاجیّ المصریّ عن تسع و سبعین سنة. و من شعره فی ساق:

للّه ساق له ردف فتنت به لمّا تبدّی بساق منه برّاق

فلا تسل فیه عن وجدی و عن ولهی فأصل ما بی من ردف و من ساق

قلت: و أحسن من هذا قول القیراطیّ:

و أغید یسقی الطّلا بدیع حسن قد بهر

فی کفّه شمس فما له لرائیه قمر

و أحسن منهما قول القائل فی هذا المعنی:

قد زمزم الساقی الذی لم یزل یدیر للأحباب کأس المدام

و قد فهمناه و همنا به بأحسن ما زمزم وسط المقام

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۳۲۰

و توفّى الشيخ جمال الدين أحمد بن هبة اللّه بن المكين الإسنائى الفقيه الشافعىّ بإسنا، و قد جاوز السبعين سنة فى شوّال.

و توفّى الأمير علاء الدين على ابن أمير حاجب والى مصر و أحد الأمراء العشرات و هو معزول، و كان عنده فضيلة، و عنى بجمع القصائد النبويّة، حتى كمل عنده منها خمسة و سبعون مجلدا.

و توفّى قاضى القضاة فخر الدين أبو عمرو عثمان بن علىّ بن عثمان بن علىّ بن عثمان ابن إسماعيل بن إبراهيم بن يوسف بن يعقوب بن علىّ بن هبة اللّه بن ناجية الشافعىّ المعروف بابن خطيب جبرين بالقاهرة بالمدرسة المنصورية ليلة السبت السابع و العشرين من المحرّم و دفن بمقابر الصوفيّة. و مولده فى العشر الأخير من شهر ربيع الأوّل سنة اثنتين و ستين و ستمائة بالحسنية ظاهر القاهرة. و كان بارعا فى الفقه و الأصول و النحو و الأدب و الحديث و القراءات، و تولّى قضاء حلب سنة ست و ثلاثين و سبعمائة فتكلّم فيه، فطلبه الملك الناصر و طلب ولده، فروّعهما الحضور قدّامه لكلام أغلظه لهما، فنزلا مرعوبين و مرضا بالبيمارستان المنصورىّ، فمات ولده قبله، و توفّى هو بعده بيوم أو يومين. و كان عالما، و له عدّة مصنّفات، شرح الشامل

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۳۲۱

الصغير، و شرح التعجيز، و [شرح] مختصر ابن الحاجب و [شرح] البديع لابن الساعاتى. و قد استوعبنا ترجمته فى المنهل الصافى بأوسع من هذا.

و توفّى الأمير الفقيه علاء الدين أبو الحسن علىّ بن بلبان بن عبد اللّه الفارسىّ الحنفىّ بمنزله على شاطئ النيل فى تاسع شوّال. و مولده فى سنة خمس و سبعين و ستمائة.

كان إماما فقيها بارعا محدّثا، أفتى و درّس و حصّل من الكتب جملة مستكثرة، و صنّف عدّة مصنّفات، و رتّب التقاسيم و الأنواع لابن حبّان، و رتّب الطبرانى ترتيبا جيّدا إلى الغاية، و ألف سيرة لطيفة للنبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم، و كتابا فى المناسک جامعا لفروع كثيرة فى المذهب.

و توفّى القاضى فخر الدين محمد بن بهاء الدين عبد اللّه بن أحمد [بن علىّ] المعروف بابن الحلّى بالقدس الشريف. و كان رئيسا، ولى نظر جيش دمشق عدّة سنين.

و توفّى علاء الدين علىّ بن هلال الدولة بقلعة شيزر بعد ما ولى بالقاهرة عدّة وظائف.

و توفّى الأمير سيف الدين بيليک بن عبد اللّه المحسنىّ بطرابلس. و كان من جملة أمرائها.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و خمس عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعا و عشر أصابع. و اللّه تعالى أعلم.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۳۲۲

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۴۰]

السنة الحادية و الثلاثون من ولاية الملک الناصر الثالثة على مصر، و هى سنة أربعين و سبعمائة.

فيها توفّى الخليفة أمير المؤمنين المستكفى بالله أبو الربيع سليمان ابن الخليفة الحاكم بأمر اللّه أبى العبّاس أحمد بن الحسن بن أبى بكر الهاشمىّ العباسىّ بمدينة قوص فى خامس شعبان عن ست و خمسين سنة و ستة أشهر و أحد عشر يوما. و كانت خلافته تسعا و ثلاثين سنة و شهرين و ثلاثة عشر يوما. و كان حشما كريما فاضلا.

كان أخرجه الملک الناصر إلى قوص لما كان فى نفسه منه لما كان منه فى القيام بنصرة الملک المظفّر بيبرس الجاشنكير، و تولّى

الخلافة من بعده ولده أبو العباس أحمد و لقّب بالحاكم على لقب جدّه بعهد منه إليه. و كان الناصر منع الحاكم من الخلافة و ولّى غيره، حسب ما ذكرناه فى ترجمة الملك الناصر، فلم يتم له ذلك و ولّى الحاكم هذا.

و توفّى الأمير شمس الدين آق سنقر بن عبد اللّه شادّ العمائر المنسوبة إليه قنطرة سنقر على الخليج خارج القاهرة و الجامع بسويقة السبّاعين على البركة الناصرية فيما بين القاهرة و مصر. و كانت وفاته بدمشق.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۳۲۳

و توفّى الأمير علاء الدين علىّ بن حسن المروانىّ والى القاهرة فى ثانى عشرين رجب بعد ما قاسى أمراضا شنيعة مدّة سنة، و كان ظالما غشوما سفّاكا للدماء، اقترح فى أيام ولايته عقوبات مهولة، منها أنه كان ينعل الرجل فى رجليه بالحديد كما تنعل الخيل. و منها تعليق الرجل بيديه و تعلّق مقايرات العلاج فى رجليه فتنخلع أعضاؤه فيموت، و قتل خلقا كثيرا من الكتّاب و غيرهم فى أيام النّشو. و لمّا حملت جنازته وقف عالم كثير لرجمه، فركب الوالى و ابن صابر المقدّم حتّى طردوهم و منعوهم و دفنوه.

و توفّى شرف الدين عبد الوهاب ابن التاج فضل اللّه المعروف بالنّشو ناظر الخاص الشريف تحت العقوبة فى يوم الأربعاء ثانى شهر ربيع الآخر. و قد تقدم التعريف بأحواله و كيفية قتله و القبض عليه فى ترجمة الملك الناصر هذه مفصّلا مستوفى. كان هو و أبوه و إخوته يخدمون الأمير بكتمر الحاجب، ثم خدم النّشو هذا عند الأمير أيدغمش أمير آخور. فلما جمع السلطان فى بعض الأيام كتّاب الأمراء رأى النّشو و هو واقف وراء الجماعة و هو شابّ نصرانىّ طويل حلو الوجه، فاستدعاه و قال له:

إيش اسمك؟ قال: النّشو. فقال السلطان: أنا أجعلك نشوى، و رتّبه، مستوفيا، و أقبلت سعادته، فأرضاه فيما ندبه إليه و ملأ عينه، و استمر على ذلك حتى استسلمه الأمير بكتمر الساقى و سلّم إليه ديوان سيّدى آنوك ابن الملك الناصر إلى أن توفّى القاضى فخر الدين ناظر الجيش، نقل الملك الناصر شمس الدين موسى ناظر الخاصّ إلى نظر الجيش عوضه، و ولّى النشو هذا نظر الخاصّ على ما بيده من ديوان ابن

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۳۲۴

السلطان. و وقع له ما حكيناه فى ترجمة الملك الناصر كل شيء فى محلّه. قال الصلاح الصّفدىّ: و لمّا كان فى الاستيفاء و هو نصرانىّ كانت أخلاقه حسنة و فيه بشر و طلاقة وجه و تسرّع لقضاء حوائج الناس، و كان الناس يحبّونه. فلمّا تولّى الخاصّ و كثر الطلب عليه و زاد السلطان فى الإنعامات و العمائر و بالغ فى أثمان المماليك و زوّج بناته و احتاج الى الكلف العظيمة، ساءت أخلاق النّشو و أنكر من يعرفه، و فتح أبواب المصادرات. انتهى كلام الصفدىّ باختصار.

و توفّى الشيخ مجد الدين أبو بكر بن إسماعيل بن عبد العزيز السّنكلونىّ الشافعىّ فى شهر ربيع الأول، و كان فقيها فاضلا، شرح التنبيه فى الفقه، و تولّى مشيخة خانقاه الملك المظفّر بيبرس و درّس و أفتى.

و توفّى الأمير ركن الدين بيبرس بن عبد اللّه الأوحدىّ المنصورىّ والى قلعة الجبل فى شهر ربيع الأول.

و توفّى الأمير سيف الدين أيدمر بن عبد اللّه الدّوادار بدمشق. و كان أميرا جليلا خيّرا ديّنا.

و توفّى الأمير سيف الدين بهادر بن عبد اللّه البدرىّ الناصرىّ نائب الكرك، بعد ما عزل عن الكرك و نفى إلى طرابلس فمات بها.

و توفّى شيخ الشيوخ بخانقاه سرياقوس العلّامة مجد الدين أبو حامد موسى بن أحمد بن محمود الأقصرائى الحنفىّ فى شهر ربيع الآخر. و كان إماما فقيها بارعا مفتيا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۳۲۵

و توفّى الشيخ جمال الدين عبد القاهر بن محمد بن عبد الواحد بن محمد بن إبراهيم التبريزى الحرّانىّ الشافعىّ. كان فقيها عالما أديبا شاعرا. و من شعره [قوله دو بيت]:

وجدى و تصبّرى قليل و كثير و القلب و مدمعى طليق و أسير

و الکون و حسنکم جلیل و حقیر و العبد و أنتم غنیّ و فقیر

و توفّی الأمیر رکن الدین بیبرس الرّکنیّ کاشف الوجه البحری و نائب الإسکندریة.

و کان أصله من ممالیک الملک المظفّر بیبرس الجاشنکیر. رحمه اللّه.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم أربع أذرع و خمس أصابع.

مبلغ الزیادة سبع عشرة ذراعا و ثمانی أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۴۱]

سنة اثنتین و ثلاثین و سبعمائة من ولایة الملک الناصر محمد بن قلاوون الثالثة علی مصر، و هی سنة إحدی و أربعین و سبعمائة، و هی التی مات فیها الملک الناصر حسب ما تقدّم ذکره.

فیها (أعنی سنة إحدی و أربعین) توفّی الأمیر ناصر الدین محمد ابن الأمیر بدر الدین چنکلی بن البابا فی یوم الرابع و العشرین من رجب. و کان من أعیان الأمراء، و کان فقیها أدیبا شاعرا.

و توفّی الوزیر الصاحب أمین الدین أمین الملک أبو سعید عبد اللّه بن تاج الرّیاسة ابن الغنّام تحت العقوبة مخنوقا فی یوم الجمعة رابع جمادی الأولی، و وزر ثلاث مرّات بالدیار المصریّة، و باشر نظر الدولة و استیفاء الصحبة، و خدم

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۳۲۶

فی بیت السلطان من الأیام الأشرفیّة، و تنقّل فی عدّة خدم بمصر و دمشق و طرابلس نصرانیّا و مسلما. و لمّا أسلم حسن إسلامه و تجنّب النصاری، و کان رضیّ الخلق.

و توفّی العلّامة افتخار الدین جابر بن محمد بن محمد الخوارزمیّ الحنفیّ شیخ الجاولیة بالکبش خارج القاهرة فی یوم الخمیس سادس عشر المحرم، و کان إماما عالما بارعا فی النحو و اللغة شاعرا أدیبا مفوّها.

و توفّی القاضی عزّ الدین عبد الرحیم بن نور الدین علیّ بن الحسن بن محمد بن عبد العزیز بن محمد بن الفرات أحد نوّاب الحکم الحنفیّة فی لیلة الجمعة ثانی عشرین ذی الحجة، و کان فقیها محدثا.

و توفّی الأمیر الکبیر شمس الدین قراسنقر المنصوریّ ببلاد مراغة، و قد أقطعه إیّاها بو سعید بن خربندا ملک التتار بمرض الإسهال. و قد أعیا الملک الناصر قتله، و بعث إلیه کثیرا من الفداویة بحیث قتل بسببه نحو مائة و أربعة و عشرین فداویّا ممن کان یتوجّه لقتله فیمسک و یقتل. فلما بلغ السلطان موته قال: و اللّه ما کنت أشتهی موته إلّا من تحت سیفی، و أکون قد قدرت علیه.

قلت: و قد مرّ ذکر موت قراسنقر قبل هذا التاریخ. و لکن الظاهر لی أن الأصحّ المذکور هنا الآن من قرائن ظهرت.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۳۲۷

و توفّی الأمیر سیف الدین بن الحاج قطز بن عبد اللّه الظاهریّ أحد أمراء الطّبلخاناه بالدیار المصریة، و هو آخر من بقی من ممالیک الظاهر بیبرس البندقداریّ من الأمراء.

و توفّی الشیخ شمس الدین محمد بن عبد الرحمن بن یوسف المزّیّ الشافعیّ أخو الحافظ جمال الدین المزّی لأبیه فی یوم الثلاثاء ثالث شهر رمضان.

و توفّی الشیخ المعتقد عزّ الدین عبد المؤمن بن قطب الدین أبی طالب عبد الرحمن بن محمد بن الکمال أبی القاسم عمر بن عبد الرحیم بن عبد الرحمن بن الحسن المعروف بابن العجمیّ الحلبیّ الشافعیّ بمصر. کان تزهّد بعد الریاسة، و حج ماشیا من دمشق و جاور بمکة، و کان لا یقبل لأحد شیئا، بل کان یقتات من وقف أبیه بحلب، و کان له مکارم و صدقات و شعر جیّد.

و توفّى الأمير سيف الدين تنكز بن عبد اللّه الحسامىّ الناصرىّ نائب الشام.

كـان أصـله من مماليـك الملـك المنصور حسـام الـدين لاـچين. فلمّا قتل لاچين صار من خاصّـكيّة الناصـر، و شـهد معه وقعـة وادى الخازنـدار ثم وقعة شـقحب، ثم توجّه مع الناصـر إلى الكرك. فلما تسـلطن الملك الناصـر ثالث مرة رقّاه حتى ولّاه نيابة الشام، فطالت مدّته إلى أن قبض عليه السلطان الملك الناصر فى هذه السنة، و قتله بثغر الإسكندرية. و قد مرّ من ذكر تنكز فى ترجمة الملك الناصر الثالثة ما فيه كفايـة عن الإعادة هنا؛ لأنّ غالب ترجمة الملك الناصـر و أفعاله كانت مختلطة مع أفعال تنكز لكثرة قدومه إلى القاهرة و خصوصيّته عند الناصر من أوّل ترجمته إلى آخرها إلى جين قبض عليه و حبسه. كل ذلك ذكرناه مفصّلا فى اليوم و الشهر، و ما وجد له

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۳۲۸

من الأموال و الأملاک. کلّ ذلک فى أواخر ترجمـة الملک الناصـر. و لمّا ولى الأمير ألطنبغا الصالحىّ نيابة الشام بعد تنکز قال الشـيخ صلاح الدين الصفدىّ فى تنکز المذکور أبياتا منها:

ألا هل لييلات تقضّت على الحمى تعود بوعد للسرور منجّز

ليال إذا رام المبالغ وصفها يشبّهها حسنا بأيام تنكز

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع إحدى عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعا و تسع عشرة إصبعا. و اللّه تعالى أعلم.

*** انتهى الجزء التاسع من النجوم الزاهرة، و يليه الجزء العاشر، و أوّله: ذكر ولاية الملك المنصور أبى بكر ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون على مصر

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۳۲۹

*** تنبيه: التعليقات الخاصـة بالأماكن الأثريـة و المدن و القرى القديمة و غيرها مع تحديد مواضـعها من وضع حضـرة الأسـتاذ العالم الجليـل محمـد رمزى بـک المفتش السـابق بوزارة الماليـة و عضو المجلس الأعلى لإدارة حفظ الآثار العربيـة. کالتعليقات السابقـة فى الأجزاء الماضية. فنسدى إليه جزيل الشكر و نسأل اللّه جلّت قدرته أن يجزيه خير الجزاء عن خدمته للعلم و أهله.

*** ملاحظـة: ورد فى ص ۲۸۱ س ۸ من الجزء الثامن من هـذه الطبعة- قول ابن نباتة المصـرى فى الملك المؤيد إسـماعيل صاحب حماة-:

«

أفديه من ملك يكاتب عبده...

الخ» بفتح الهمزة و سكون الفاء من كلمة «أفديه». و بكسر اللام من كلمة «ملك».

و هذا الضبط قد صرف البيت من بحر الطويل إلى بحر الكامل. و صوابه:

«أفدّيه من ملك يكاتب عبده». و رواية ديوان ابن نباتة:

«فديتك من ملك يكاتب عبده»

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۳۳۰

استدراكات

اشارة

لحضرة الأستاذ الجليل محمد رمزى بك، مع ملاحظة أن الاستدراكات الخاصة بالأجزاء الثالث و الرابع و الخامس الواردة فى آخر الجزء السادس فى صفحة ۳۸۰ و ما بعدها من وضع حضرته أيضا.

باب سعادة

سبق أن ذكرت فى تعليقاتى بصفحة ۲۸۰ من الجزء السابع من هذه الطبعة ما يفيد أن باب سعادة أحد أبواب القاهرة القديمة من سورها الغربى كان واقعا فى مكان الباب الغربى للطرقة الفاصلة بين محكمة الاستئناف و بين محافظة مصر بميدان باب الخلق. و الصحيح أن باب سعادة كان واقعا فى نفس الوجهة الغربية لمبنى محكمة الاستئناف على بعد عشرة أمتار من شمال الباب الغربى للمحكمة المذكورة.

و كانت الطريق التى توصل من هذا الباب إلى داخل المدينة تسير إلى الشرق فى القسم البحرى من مبنى محكمة الاستئناف حتى تتلاقى بمدخل شارع المنجلة، و هو امتداد الطريق التى لا تزال توصل إلى داخل مدينة القاهرة القديمة. و باقى الشرح الوارد بالجزء السابع صحيح.

حوض ابن هنس

ذكرت فى الحاشية رقم ۴ ص ۲۰۶ من هذا الجزء أن حوض ابن هنس كان واقعا بشارع الحلمية على رأس شارع الهامى باشا، بناء على ما ورد فى كتاب الخطط التوفيقية. و بعد طبع هذه الحاشية رأيت فى خطط المقريزى عند كلامه على حمام الأمير سيف الدين ألدود الجاشنكيرى (ص ۸۵ ج ۲) أن هذا الحمام فى الشارع

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۳۳۱

المسلوک خارج باب زويلة تجاه زقاق خان حلب بجوار حوض سعد الدين مسعود ابن هنس. و من هذا يتضح أن هذا الحوض كان بجوار الحمام المذكور.

و بالبحث تبين لى: أوّلا- أن حمام الأمير سيف الدين ألدود لا يزال قائما و يعرف اليوم بحمام الدّود بشارع محمد على عند تقابله بشارع السروجية، و كان باب الحمام يفتح قديما على الشارع المسلوک خارج باب زويلة، و كان بجواره حوض ابن هنس يقع على نفس الشارع فيما بين مدخلى شارع السروجية و شارع الحلمية الآن. ثانيا- أنه لما اختطت الحكومة شارع محمد على و فتحته فى سنة ۱۸۷۳ دخل فى طريقه القسم الغربى من الحمام بما فيه الباب الأصلى، و دخلت فيه أيضا الأرض التى كان عليها الحوض، و بذلک زال أثره، ثم فتح للحمام باب جديد هو بابه الحالى الذى فى شارع محمد على.

و من هذا يعلم أن حوض ابن هنس كان واقعا فى محور شارع محمد على غربى المنزل المجاور لحمام ألدود من الجهة البحرية و فى تجاه مدخل شارع على باشا إبراهيم بالقاهرة.

مسجد الأمير بكتوت الخازندار

ذكرت فى الحاشية رقم ۵ ص ۲۱۹ من هذا الجزء أن هذا المسجد هو الذى يعرف اليوم بجامع البلک ببولاق، اعتمادا على الرخامة التى أخرجتها إدارة حفظ الآثار العربية من بين أنقاض هذا الجامع الخرب، و نقش على تلک الرخامة إنشاء الأمير بكتوت لمسجده فى سنة ۷۰۹ه. و بعد طبع هذه الحاشية تصادف أن اطلعت على كتاب وقف رضوان بک الفقارى المحرر فى ۸ ربيع الأوّل سنة ۱۰۵۳ ه فعلمت منه أن وقف البدرى بكتوت و هو الأمير بكتوت المذكور كان واقعا خارج باب زويلة بالخضريين على يسار السالک طالبا سوق سفل الربع الظاهرى.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۳۳۲

و بما أن المؤلف ذکر أن المسجد الـذی أنشأه بکتوت یقع خارج باب رویلة فلا بدّ أن یکون قریبا من وقف رضوان بک المذکور. و بالبحث عن هـذا المسجد خارج باب زویلة تبین لی أنه قد زال و لیس له أثر الیوم، بدلیل أن اللوحة الرخام التی کانت علی بابه نقلت من عهد قدیم إلی جامع البلک ببولاق ثم إلی دار الآثار العربیة بمیدان باب الخلق بالقاهرة.

دار الأمیر آقوش الموصلی

ذکر المؤلف فی صفحة ۹۴ مـن هـذا الجزء کمـا ذکر المقریزی فی (ص ۳۰۷ ج ۲) أن هـذه الـدار هـدمت و دخلت فی جامع الأمیر قوصون الناصری. و قد کتبنا علی تلک الحاشیة رقم ۳ من هذه الصفحة. و هذه الحاشیة ملغاة و لا لزوم لها.

مدارس و جوامع أخری

یلاحظ القارئ أن مؤلف هذا الکتاب قد خص الملک الناصر محمد بن قلاوون بذکر ما أنشئ فی عصره من العمارات و المنافع العامة علی اختلاف أنواعها، سواء أکانت من إنشائه خاصة أم من إنشاء رجال دولته، و مع ذلک فإن المؤلف ترک بعض المساجـد مما لا یقل شأنا عما ذکره. لهـذا رأیت إتماما للفائـدة من هذا الحصـر أن أذکر طائفة مما ترکه المؤلف من الجوامع و المدارس التی هی من منشآت عصر الملک الناصر فی القاهرة. و هی:

(۱) المدرسة القراسـنقریة. أنشأها الأمیر شمس الدین قراسنقر المنصوری نائب السلطنة سنة ۷۰۰ ه (المقریزی ص ۳۸۸ ج ۲). و مکانها الیوم مدرسة الجمالیة الابتدائیة بشارع الجمالیة بقسم الجمالیة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۳۳۳

(۲) المدرسة السعدیة. أنشأها الأمیر شمس الدین سنقر السعدی نقیب الممالیک السلطانیة فی سنة ۷۱۵ ه (المقریزی ص ۳۹۷ ج ۲). و لا تزال قائمة إلی الیوم بشارع السیوفیة، و کانت مستعملة أخیرا تکیة للمولویة بقسم الخلیفة.

(۳) المدرسة المهمنداریة. أنشأها الأمیر شـهاب الدین أحمد بن آقوش العزیزی المهمندار و نقیب الجیوش فی سـنة ۷۲۵ ه (المقریزی ص ۳۹۹ ج ۲).

و لا تزال قائمة إلی الیوم باسم جامع المهمندار بشارع التبانة بقسم الدرب الأحمر.

(۴) المدرسة الملکیة. أنشأها الأمیر الحاج سـیف الدین آل ملک الجوکندار الناصری فی سنة ۷۱۹ ه، کما هو ثابت بالنقش علی بابها، و ذکرهـا المقریزی فی خططه (ص ۳۹۲ ج ۲). و لاـ تزال قائمـة إلی الیوم بـاسم جـامع الجوکنـدار بشـارع أم الغلاـم بقسم الجمالیة بالقاهرة. و تسمیه العامة زاویة حالومة، و هو رجل مغربی طالت خدمته لهذا المسجد فعرف به.

(۵) جـامع ابن غـازی. أنشـأه نجم الـدین بن غازی دلال الممالیک فی سـنة ۷۴۱ ه (المقریزی ص ۳۱۳ ج ۲). و مکـانه الیوم الجامع المعروف بجامع الشیخ نصر بشارع درب نصر ببولاق.

(۶) جامع ابن صارم. أنشأه محمد بن صارم شـیخ بولاق. ذکره المقریزی (ص ۳۲۵ ج ۲)، و لم یذکر تاریخ إنشائه، و لکن إبراهیم بن مغلطـای ذکره فی منشـآت عصـر الملک الناصـر محمـد بن قلاوون. و مکانه الیوم الجامع المعروف بجامع الشـیخ عطیـة بـدرب نصر ببولاق.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۹، ص: ۳۳۴

(۷) جامع الشیخ مسـعود. ذکره المقریزی فی خططه عند الکلام علی سویقة العیاطین (ص ۱۰۷ ج ۲) فقال: إن الذی أنشأه هو الشیخ مسعود بن محمد بن سالم العیاط فی سنة ۷۲۸ ه. و لا یزال هذا المسـجد قائما إلی الیوم باسم جامع الشیخ مسعود بعطفة الشیخ مسعود

بدرب الأقماعية بقسم باب الشعرية.

(٨) جامع فلك الدين فلك شاه. يستفاد مما هو منقوش فى لوح من الرخام مثبت بأعلى محراب هذا المسجد أن الذى أنشأه هو الأمير فلك الدين فلك شاه بن دادا البغدادى فى سنة ٧٢٠ ه. و من هذا التاريخ يتبين أنه من منشآت عصر الملك الناصر محمد بن قلاوون. و لا يزال هذا الجامع موجودا، و يعرف بجامع الجنيد بشارع الدوب الجديد بقسم السيدة زينب، و ينسب إلى الشيخ على الجنيد المدفون فيه.

[الجزء العاشر]

اشارة

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم و صلّى اللّه على سيّدنا محمّد و آله و صحابته و المسلمين الجزء العاشر من كتاب النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۴۲]

ذكر ولاية الملك المنصور أبى بكر ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون على مصر

هو السلطان الملك المنصور سيف الدين أبو بكر ابن السلطان الملك الناصر أبى المعالى محمد ابن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون. جلس على تخت الملك بالإيوان من قلعة الجبل بعهد من أبيه إليه صبيحة توفّى والده، و هو يوم الخميس حادى عشرين ذى الحجّة سنة إحدى و أربعين و سبعمائة، و لقّبه الأمراء الأكابر بالملك المنصور على لقب جدّه. و المنصور هذا هو الثالث عشر من ملوك الترك بديار مصر، و الأوّل من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون، و اتّفق الأمراء على إقامة الأمير سيف الدين طقزدمر الحموىّ، حمو الملك المنصور هذا فى نيابة السلطنة بديار مصر كونه من أكابر الأمراء، و أيضا صهر السلطان، و يكون الأمير قوصون الناصرىّ مدبّر المملكة، و رأس المشورة، و يشاركه فى الرأى الأمير بشتك الناصرىّ، و تمّ ذلك و رسم بتجهيز التشاريف و الخلع إلى نوّاب البلاد الشاميّة على يد الأمير قطلوبغا الفخرىّ، و رسم له بتحليف الأمراء و النوّاب بالبلاد الشاميّة على

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١٠، ص: ۴

العادة. و نودى بالقاهرة و مصر أن يتعامل الناس بالفضّة و الذهب بسعر اللّه تعالى، فسّر الناس بذلك، فإنهم كانوا قد امتنعوا من التعامل بالفضة و ألّا تكون معاملتهم إلّا بالذهب. ثم أفرج عن بركة الحبش، و كان النشو قد أخذها من الأشراف، و صار ينفق فيهم من بيت المال. ثم كتب إلى ولاة الأعمال برفع المظالم و ألّا يرمى على بلاد الأجناد شعير و لا تبن.

ثم فى يوم الخميس ثامن عشرين ذى الحجّة أنعم الملك المنصور على عشرة أمراء بإمرة طبلخاناه. ثم جمع القضاة فى يوم السبت سلخه فى جامع القلعة للنظر فى أمر الخليفة الحاكم بامر اللّه أحمد بن أبى الربيع سليمان و إعادته إلى الخلافة، و حضر معهم الأمير طاجار الدّوادار فاتّفقوا على إعادته لعهد أبيه إليه بالخلافة بمقتضى مكتوب ثابت على قاضى قوص.

ثم فى يوم الاثنين ثانى المحرّم سنة اثنتين و أربعين و سبعمائة خلع السلطان على جميع الأمراء المقدّمين فى الموكب بدار العدل، و طلع القضاة و جلس الخليفة الحاكم بأمر اللّه أبو العباس أحمد على الدرجة الثالثة من تخت السلطان، و عليه خلعة خضراء و فوق عمامته طرحة سوداء مرقومة بالذهب، ثم خرج السلطان من باب السرّ على العادة إلى الإيوان فقام له الخليفة و القضاة و من كان جالسا من الأمراء، و جلس على

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١٠، ص: ۵

الدرجة الأولى دون الخليفة، و قام الخليفة و افتتح الخطبة بقوله عزّ و جلّ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ الْإِحْسانِ وَ إِيتاءِ ذِی الْقُرْبى وَ يَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَ الْمُنْكَرِ وَ الْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ. وَ أَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذا عاهَدْتُمْ وَ لا تَنْقُضُوا الْأَيْمانَ بَعْدَ تَوْكِيدِها وَ قَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ. ثم أوصى الأمراء بالرفق بالرعية و إقامة الحق و تعظيم شعائر الإسلام و نصرة الدين، ثم قال: فوّضت إليک جميع أحكام المسلمين، و قلّدتک ما تقلّدته من أمور الدين.

ثم تلا قوله تعالى: [إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ إِنَّما يُبايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ] (فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّما يَنْكُثُ عَلى نَفْسِهِ وَ مَنْ أَوْفى بِما عاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً.

و جلس فجیء فی الحال بخلعة سوداء فألبسها الخليفة السلطان بيده، ثم قلّده سيفا عربيّا، و أخذ القاضی علاء الدين علیّ بن فضل اللّه كاتب السرّ فی قراءة عهد الخليفة للسلطان حتّى فرغ منه، ثم قدّمه إلى الخليفة فكتب عليه، ثم كتب بعده قضاة القضاة بالشهادة عليه، ثم قدّم السّماط فأكلوا و انقضت الخدمة.

ثم قدم الأمير بيغرا فی يوم الخميس خامس المحرّم من عند الأمير أحمد ابن الملک الناصر محمد بن قلاوون من الكرک و قد حلّفه بمدينة الكرک لأخيه السلطان الملک المنصور هذا، ففرح الناس بذلک.

ثم فی يوم الأحد ثامن المحرّم قبض على الأمير بشتک الناصریّ، و ذلک أنه طلب أن يستقرّ فی نيابة الشام، و دخل على الأمير قوصون و سأله فی ذلک و أعلمه أنّ السلطان كان قبل موته وعده بها و ألحّ فی سؤاله، و قوصون يدافعه و يحتّج عليه بأنه قد كتب إلى الأمير ألطنبغا الصالحیّ نائب دمشق تقليدا باستمراره فی نيابة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۶

دمشق على عادته و لا يليق عزله سريعا، فقام عنه بشتک و هو غير راض، فإنه كان قد توهّم من قوصون و خشی منه على نفسه و طلب الخروج من ديار مصر لما كان بينهما قديما من المنافرة، و لأنّ قوصون صار الآن متحكّما فی الدولة، فلمّا خرج بشتک من عند قوصون و هو غير راض سعى بخاصّكيّة السلطان و حمل إليهم مالا كثيرا فی السرّ، و بعث إلى الأمراء الكبار و طلب منهم المساعدة، فما زالوا بالسلطان حتى أنعم عليه بنيابة الشام و طلب الأمير قوصون و أعلمه بذلک فلم يوافقه، و قرّر مع السلطان أنه يحدّث الأمراء فی ذلک و يعدهم بأنه يولّی بشتک إذا قدم الأمير قطلوبغا الفخریّ من تحليف نائب الشام و بنسخة اليمين، فلمّا دخل الأمراء عرّفهم السلطان طلب بشتک بنيابة الشام فأخذوا فی الثناء عليه و الشكر منه، فاستدعاه و طيّب خاطره و وعده بها عند قدوم الفخریّ، و رسم له بأن يتجهز للسفر، فظن بشتک أن ذلک صحيح، و قام مع الأمراء من الخدمة، و أخذ فی عرض خيوله و بعث لكل من أكابر الأمراء المقدّمين ما بين ثلاثة أرؤس إلى رأسين بالقماش المذهب الفاخر، و بعث معها أيضا الهجن، ثم بعث إلى الأمراء الخاصّكيّة مثل ملكتمر الحجازیّ و ألطنبغا الماردانیّ شيئا كثيرا من الذهب و الجوهر و اللؤلؤ و التحف. و فرّق عدّة من الجواری فی الأمراء بحيث إنه لم يبق أحد من الأمراء إلا و أرسل إليه. ثم فرّق على مماليكه و أجناده و أخرج ثمانين جارية بعد ما شوّرهنّ بالأقمشة و الزراكش و زوجهنّ. و فرّق من شونته على الأمراء اثنی عشر ألف إردب غلة. و زاد بشتک فی العطاء حتى وقع الإنكار عليه و اتّهمه السلطان و الأمير قوصون بأنه يريد الوثوب على السلطان و عملوا هذا من فعله حجّة [للقبض] عليه، و كان ما خصّ الأمير قوصون من تفرقة بشتک فی هذه النّوبة حجرين من حجارة معاصير

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۷

القصب بما فيهما من القنود و السكر و الأعسال و الأبقار و الغلال و الآلات، و خمسمائة فدّان من القصب مزروعة فی أراض ملک له، و غير ذلک، فأدهش الأمراء كثرة عطائه، و استغنى منه جماعة من مماليكه و حواشيه. و لما كثرت القالة فيه بأنّه يريد إفساد الدولة خلا به بعض خواصّه و عرّفه ذلک و أشار عليه بإمساک يده عن العطاء، فقال: هم إذا قبضوا علیّ أخذوا مالی و أنا أحقّ بتفرقته منهم، و إذا سلمت فالمال كثير. هذا و قد قام قوصون فی أمر بشتک المذكور قياما حتّى وافقه السلطان على القبض عليه عند قدوم قطلوبغا

الفخریّ، فأشاع قوصون أنّ بشتک یرید القبض علی الفخریّ إذا حضر فبلغ ذلک بعض خواصّ قطلوبغا، فبعث إلیه من تلقّاه و عرّفه بما وقع من تجهیز بشتک و أنّه علی عزم من أن یلقاک فی طریقک و یقتلک، فکن علی حذر، فأخذ قطلوبغا من الصالحیّة یحترز علی نفسه حتّی نزل سریاقوس و اتّفق من الأمر العجیب أنّ بشتک خرج إلی حوشه بالرّیدانیّة خارج

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۸

القاهرة لیعرض هجنه و جماله فطار الخبر إلی قطلوبغا أنّ بشتک قد خرج إلی الرّیدانیّة فی انتظارک، فاستعدّ قطلوبغا و لبس السلاح من تحت ثیابه و سار حتّی تلقّاه عدّة کثیرة من ممالیکه و حواشیه و هو علی أهبة الخروج للحرب، و خرج عن الطریق و سلک من تحت الجبل لینجو من بشتک و قد قوی عنده صحّة ما بلغه، و کان عند بشتک علم من قدومه، فلمّا قرب من الموضع الذی فیه بشتک لاحت له غبرة خیل فحدس بشتک أنّه قطلوبغا الفخری قد قدم، فبعث إلیه أحد ممالیکه یبلّغه سلامه و أنّه یقف حتّی یأتیه فیجتمع به، فلمّا بلغ الفخریّ ذلک زاد خوفه من بشتک، فقال له: سلّم علی الأمیر و قل له: لا یمکن اجتماعه بی قبل أن أقف قدّام السلطان. ثم بعد ذلک اجتمع به و بغیره، فمضی مملوک بشتک و فی ظن قطلوبغا أنّه إذا بلّغه مملوکه الجواب رکب إلیه، فأمر قطلوبغا ممالیکه بأن یسیروا قلیلا قلیلا، و ساق هو بمفرده مشوارا واحدا إلی القلعة، و دخل إلی السلطان و بلّغه طاعة النوّاب و فرحهم بأیّامه. ثم أخذ یعرّف السلطان و الأمیر قوصون و سائر الأمراء بما اتّفق له مع بشتک، و أنّه کان یرید معارضته فی طریقه و قتله فأعلمه السلطان و قوصون بما اتّفقا علیه من القبض علی بشتک. فلما کان عصر الیوم المذکور، و دخل الأمراء إلی الخدمة علی العادة بالقصر و فیهم الأمیر بشتک، و أکلوا السّماط تقدّم الأمیر قطلوبغا الفخریّ و الأمیر طقزدمر إلی بشتک و أخذا سیفه و کتّفاه و قبض معه علی أخیه إیوان و علی طولوتمر و مملوکین من الممالیک السلطانیّة کانا یلوذان ببشتک، و قیّدوا جمیعا و سفّروا إلی الإسکندریّة فی اللّیل صحبة الأمیر أسندمر العمریّ و قبض علی جمیع ممالیکه و وقعت الحوطة علی موجوده و دوره و تتبعت غلمانه و حواشیه. و أنعم السلطان من إقطاع بشتک

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۹

علی الأمیر قوصون بخصوص الشّرق زیادة علی ما بیده، و أخذ السلطان المطریّة و منیة ابن خصیب و شبرا، و فرّق بقیّة الإقطاع علی ملکتمر الحجازیّ و غیره من الأمراء.

فلمّا أصبحوا یوم الاثنین تاسع المحرّم حملت حواصل بشتک، و هی من الذهب العین مائتا ألف دینار مصریّة. و من اللؤلؤ و الجواهر و الحوائص الذهب و الکلفتاه الزّرکش شیء کثیر جدّا، هذا بعد أن فرّق غالب موجوده حسب ما تقدّم ذکره علی الأمراء و الممالیک. ثم أخرج السلطان الأمیر أحمد شادّ الشّر بخاناه منفیّا إلی طرابلس لمیله مع بشتک.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۰

و فی یوم الخمیس أنعم السلطان علی أخویه: شعبان و رمضان کلّ واحد بإمرة.

و فیه قبض السلطان علی الأمیر ناصر الدین محمد ابن الأمیر بکتمر الحاجب لشیء أوجب ذلک. و فی یوم الاثنین ثالث عشرین المحرّم خلع السلطان الملک المنصور أبو بکر علی الأمیر طقزدمر الحمویّ بنیابة السلطنة بالدیار المصریّة، و کان رشّح لها قبل تاریخه، فلبس الخلعة و جلس فی دست النیابة و حکم و صرّف الأمور. و فی یوم الاثنین سلخه قبض السلطان علی الأمیر آقبغا عبد الواحد و علی أولاده، و خلع علی الأمیر طقتمر الأحمدیّ و استقرّ أستادارا عوضا عن آقبغا المذکور، و رسم للأمیر طیبغا المجدیّ والی القاهرة بإیقاع الحوطة علی موجود آقبغا، و سلّم ولده الکبیر إلی المقدّم إبراهیم بن صابر. و أصبح یوم الثلاثاء أوّل صفر فتحدّث الأمراء أن ینزل فی ترسیم المجدیّ لیتصرّف فی أمره، فنزل فی صحبة المجدیّ و أخذ فی بیع موجوده، و کان السلطان قد حلف قدیما أنّه متی تسلطن قبض علیه و صادره و ضربه بالمقارع لأمور صدرت منه فی حقّه أیام والده الملک الناصر. فکان ممّا أبیع لآقبغا عبد الواحد سراویل لزوجته بمائتی ألف درهم فضّة و قبقاب و خفّ و سرموجة بخمسة و سبعین ألف درهم، و ثار به جماعة کثیرة من الناس

ممن كان ظلمهم فى أيام تحكّمه و طلبوا حقوقهم منه و شكوه، فأقسم السلطان لئن لم يرضهم ليسمرنّه على جمل و يشهّره بالقاهرة ففرّق فيهم مائتى ألف درهم حتى سكتوا، و كادت العامة تقتله لو لا المجدىّ لسوء سيرته و كثرة ظلمه أيّام ولايته. و فى يوم الأربعاء تاسع صفر قبض السلطان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١٠، ص: ١١

على المقدّم إبراهيم بن صابر و سلّمه لمحمد بن شمس [الدين] المقدّم و أحيط بأمواله، فوجد له نحو سبعين حجرة فى الجشار و مائة و عشرين بقرة فى الزرايب و مائتى كبش و جوقتين كلاب سلوقيّة و عدّة طيور جوارح مع البازداريّة. و وجد له من الغلال و غيرها شيء كثير.

ثم قدم الخبر على السلطان من الأمير طشتمر حمّص أخضر الساقى نائب حلب بخروج ابن دلغادر عن الطاعة و موافقته لأرتنا متملّك الروم على المسير لأخذ حلب، و أنّه قد جمع بأبلستين جمعا كثيرا، و سأل طشتمر أن ينجده بعسكر من مصر، فتشوّش السلطان لذلك و عوّق الجواب. و فيه رسم السلطان بضرب آقبغا عبد الواحد بالمقارع فلم يمكّنه الأمير قوصون من ذلك فآشتدّ حنق السلطان و أطلق لسانه بحضرة خاصّكيته فى حقّ قوصون و غيره، و فى ذلك اليوم عقد السلطان نكاحه على جاريتين من المولّدات اللّاتى فى بيت السلطان، و كتب القاضى علاء الدين بن فضل اللّه كاتب السرّ صداقهما، فخلع عليه السلطان و أعطاه عشرة آلاف درهم، و رسم السلطان لجمال الكفاة ناظر الخاصّ أن يجهّزهما بمائة ألف دينار، فشرع جمال الكفاة فى عمل الجهاز، و بينما هو فى ذلك ركب الأمير قوصون على السلطان بجماعة من الأمراء فى يوم السبت تاسع عشر صفر و خلعوه من الملك فى يوم الأحد عشرينه، و أخرج هو و إخوته إلى قوص صحبة الأمير بهادر بن جركتمر.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١٠، ص: ١٢

و كان سبب خلع الملك المنصور هذا أنّ المنصور كان قرّب الأمير يلبغا اليحياوىّ و شغف به شغفا كثيرا، و نادم الأمير ملكتمر الحجازىّ و اختصّ به و بالأمير طاجار الدّوادار و بالأمير قطليجا الحموى و جماعة من الخاصّكيّة، و عكف على اللّهو و شرب الخمر و سماع الملاهى فشقّ ذلك على الأمير قوصون و غيره لأنّه لم يعهد من ملك قبله شرب خمر فيما روى، فحملوا الأمير طقزدمر النائب على محادثته فى ذلك و كفّه عنه فزاده لومه إغراء و أفحش فى التّجاهر باللّهو، حتى تكلّم به كلّ أحد من الأمراء و الأجناد و العامّة، فصار فى الليل يطلب الغلمان لإحضار المغانى، فغلب عليه السّكر فى بعض الليالى فصاح من الشّباك على الأمير أيدغمش أمير آخور: هات لى قطقط، فقال أيدغمش: ياخوند، ما عندى فرس بهذا الاسم، فتكلّم بذلك السّلاخوريّة و الركابيّة و تداولته الألسنة.

قلت: و أظن قطقط كانت امرأة مغنّية. و اللّه أعلم.

فلمّا زاد أمره طلب الأمير قوصون طاجار الدّوادار و الشّهابىّ شادّ العمائر، و عنّفهما و وبّخهما و قال لهما: سلطان مصر يليق به أن يعمل مقامات و يحضر إليه البغايا و المغانى! أهكذا كان يفعل والده؟ و عرّفهم أن الأمراء قد بلغهم ذلك و تشوّش خواطرهم، فدخلوا و عرّفوا السلطان كلامه، و زادوا فى القول، فأخذ جلساء الملك المنصور فى الوقيعة فى قوصون و التحدث فى القبض عليه و على الأمير

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١٠، ص: ١٣

قطلوبغا الفخرىّ و الأمير بيبرس الأحمدىّ و الأمير طقزدمر النائب، فنمّ عليهم الأمير يلبغا اليحياوىّ لقوصون، و كان قد استماله قوصون بكثرة العطاء فيمن استمال من المماليك السلطانيّة. و عرّفه أن الاتّفاق قد تقرّر على القبض عليه فى يوم الجمعة وقت الصلاة، فانقطع قوصون عن الصلاة و أظهر أنّ برجله وجعا، و بعث فى ليلة السبت يعرّف بيبرس الأحمدىّ بالخبر و يحثّه على الركوب معه، و طلب المماليك السلطانيّة و واعدهم على الركوب و ملأهم بكثرة المواعيد، ثمّ بعث إلى الأمير الحاج آل ملك و الأمير چنكلى بن البابا و هؤلاء أكابر الأمراء فلم يطلع الفجر حتّى ركب الأمير قوصون من باب سرّ القلعة بمماليكه و مماليك السلطان و سار نحو الصحراء، و بعث مماليكه فى طلب الأمراء فأتاه جركتمر و بهادر و برسبغا و قطلوبغا الفخرىّ و الأحمدىّ و أخذوا آقبغا عبد الواحد من ترسيم

طيبغا المجدىّ، فسار معه المجدىّ أيضا، و وقفوا بأجمعهم عند قبّة النصر و دقّت طبلخاناتهم، فلم يبق أحد من الأمراء حتّى أتى قوصون، هذا و السلطان و ندماؤه و خاصّكيّته فى غفلة لهوهم و غيبة سكرهم إلى أن دخل عليهم أرباب الوظائف، و أيقظوهم من نومهم و عرّفوهم مادهوا به، فبعث السلطان طاجار الدوادار إلى الأمير طقزدمر النائب يسأله عن الخبر و يستدعيه، فوجد عنده چنكلى بن البابا و الوزير و عدّة من الأمراء المقيمين بالقلعة، فامتنع طقزدمر من الدخول على السلطان، و قال: أنا مع الأمراء حتّى أنظر ما عاقبة هذا الأمر، ثم قال لطاجار: أنت و غيرك سبب هذا، حتى أفسدتم السلطان بفسادكم و لعبكم، قل للسلطان يجمع مماليكه و مماليك أبيه حوله، فرجع طاجار و بلّغ السلطان ذلك، فخرج السلطان إلى الإيوان و طلب المماليك، فصارت

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۴

كلّ طائفة تخرج على أنّها تدخل إليه فتخرج إلى باب القلّة حتى صاروا نحو الأربعمائة مملوك، و ساروا يدا واحدة من باب القلّة إلى باب القلعة، فوجدوه مغلقا فرجعوا إلى النائب طقزدمر بعد ما أخرقوا بوالى باب القلعة و أنكروا عليه و على من عنده من الأمراء (أعنى عن الأمير طقزدمر)، فقال لهم طقزدمر:

السلطان ابن أستاذكم جالس على كرسىّ الملك و أنتم تطلبون غيره. فقالوا: ما لنا ابن أستاذ، و ما لنا أستاذ إلّا قوصون، ابن أستاذنا مشغول عنا لا يعرفنا و مضوا إلى باب القرافة و هدموا منه جانبا و خرجوا فإذا خيول بعضهم واقفة فركب بعضهم و أردف عدّة منهم و مشى باقيهم إلى قبّة النصر ففرح بهم قوصون و الأمراء و أركبوهم الخيول و أعطوهم الأسلحة و أوقفوهم بين أصحابهم، ثم أرسل قوصون الأمير مسعود [بن خطير] الحاجب إلى السلطان يطلب منه ملكتمر الحجازىّ و يلبغا اليحياوىّ، و هما من أمراء الألوف الخاصّكيّة و طاجار الدّوادار و غيرهم، و يعرّفه أنه أستاذه و أستاذ جميع الأمراء و ابن أستاذهم و أنهم على طاعته و إنما يريدون هؤلاء لما صدر منهم من الفساد و رمى الفتن، فطلع الأمير مسعود فوجد السلطان بالإيوان من القلعة، و هم حوله فى طائفة من المماليك فقبّل الأرض و بلّغه الرسالة، فقال السلطان: لا كيد و لا كرامة لهم. و ما أسيّر مماليكى و مماليك أبى لهم، و قد كذبوا فيما نقلوا عنهم و مهما قدروا عليه يفعلوه، فما هو إلّا أن خرج عنه الأمير مسعود حتى اقتضى رأيه بأن يركب بمن معه و ينزل من القلعة و يطلب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۵

النائب طقزدمر و من عنده من الأمراء و المماليك و يدقّ كوساته، فتوجه إلى الشّباك و أمر أيدغمش أمير آخور أن يشدّ الخيل للحرب، فأخبره أنه لم يبق فى الإسطبل غلام و لا سايس و لا سلاخورىّ يشدّ فرسا واحدا، فبعث إلى النائب يستدعيه فامتنع عليه، و بعث الأمير قوصون بلك الجمدار و برسبغا إلى طقزدمر النائب يعلماه بأنه متى لم يحضر الغرماء إليه و إلا زحف على القلعة و أخذهم غصبا، فبعث طقزدمر إلى السلطان يشير عليه بإرسالهم، فعلم السلطان أنّ النائب و أمير آخور قد خذلاه، فقام و دخل على أمّه فلم يجد الغرماء بدّا من الإذعان، و خرجوا إلى النائب، و هم الأمير ملكتمر الحجازىّ و ألطنبغا الماردانىّ و يلبغا اليحياوىّ، و هؤلاء مقدمو الألوف، و أحد خواصّ الملك الناصر محمد بن قلاوون- رحمه اللّه- و طاجار الدّوادار و الشهابىّ شادّ العمائر و بكلمش المارديتىّ و قطليجا الحموىّ، فبعثهم طقزدمر النائب إلى قوصون صحبة بلك الجمدار و برسبغا، فلمّا رآهم قوصون صاح فى الحاجب أن يرجّلهم عن خيولهم من بعيد فأنزلوا إنزالا قبيحا و أخذوا حتى أوقفوا بين يدى قوصون، فعنّفهم و وبّخهم و أمر بهم فقيّدوا و عملت الزناجير فى رقابهم، و الخشب فى أيديهم ثم تركهم فى خيم ضربت لهم عند قبّة النصر. و استدعى طقزدمر النائب و الأمير چنكلى بن البابا و الوزير و الأمراء المقيمين بالقلعة و الأمير أيدغمش أمير آخور فنزلوا اليه و اتّفقوا على خلع الملك المنصور و إخراجه، فتوجّه الأمير برسبغا فى جماعة إلى القلعة و أخرج الملك المنصور و إخوته و هم سبعة نفر، و مع كلّ منهم مملوك صغير و خادم و فرس و بقجة قماش، و أركبهم إلى شاطئ النيل و أنزلهم فى حرّاقة و سار بهم إلى قوص،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۶

و لم يترك بالقلعة من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاون إلّا كچك، ثم سلّم قوصون الأمراء المقيّدين إلى والى القاهرة، فمضى

بهم إلى خزانة شمائل و سجنهم بها إلا يلبغا اليحياوىّ، فإنّه أفرج عنه، و كان يوما عظيما بالديار المصريّة من إخراج أولاد السلطان الملك الناصر على هذه الصورة، و حبس هؤلاء الأمراء الملوك فى خزانة شمائل و تهتّك حرم السلطان على إخراج أولاد الناصر، و كثر البكاء و العويل بالقاهرة، فكان هذا اليوم من أشنع الأيام. و بات قوصون و من معه ليلة الأحد بخيامهم فى قبّة النصر خارج القاهرة، و ركبوا بكرة يوم الأحد العشرين من صفر إلى قلعة الجبل و اتّفقوا على إقامة كچك ابن الملك الناصر محمد فى السلطنة، فاقيم و جلس على كرسىّ الملك حسب ما يأتى ذكره فى أوّل ترجمته. و خلع الملك المنصور فى يوم السبت تاسع عشر صفر من سنة اثنتين و أربعين و سبعمائة، فكانت مدّة ملكه على مصر تسعة و خمسين يوما، و من حين قلّده الخليفة [ثمانية و] أربعين يوما، لأنّه لمّا تسلطن كان الخليفة [الحاكم بأمر اللّه أحمد بن أبى الربيع سليمان] المستكفى لم يتمّ أمره فى الخلافة، ثم انتظم أمره بعد ذلك فبايع الملك المنصور حسب ما ذكرناه، و خلع الملك المنصور أبو بكر من السلطنة و سلم القلعة بغير قتال مع كثرة من كان معه من خواصّ أمراء أبيه و مماليكه، خذلان من اللّه تعالى!

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۷

و فى خلعه من السلطنة و إخراجه إلى قوص مع إخوته عبرة لمن اعتبر، فإن والده الملك الناصر محمد بن قلاوون كان أخرج الخليفة أبا الربيع سليمان المستكفى بأولاده و حواشيه إلى قوص منفيّا مرسّما عليه فقوصص الملك الناصر عن قريب فى ذرّيته بمثل ذلك، و أخرج أولاده أعزّ مماليكه و زوج ابنته، و هو قوصون الناصرىّ، فتوجّه الملك المنصور مع إخوته إلى قوص و صحبته بهادر بن جركتمر مثل الترسيم عليه و على إخوته، و أقام بها نحو الشهرين، و دسّ عليه قوصون عبد المؤمن متولىّ قوص فقتله و حمل رأسه إلى قوصون سرّا فى أواخر شهر ربيع الآخر من سنة اثنتين و أربعين و سبعمائة، و كتموا ذلك عن الناس. فلمّا أمسك قوصون تحقّق الناس ذلك، و جاء من حاقق بهادر أنّه غرّق طاجار الدوادار و استحسّ على قتل المنصور، فطلب عبد المؤمن و قرّر فاعترف فسمّره السلطان الملك الناصر أحمد ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون، و قد تسلطن بعد أخيه كچك آخذا بدم أخيه الملك المنصور هذا.

و كان الملك المنصور سلطانا كريما شابا حمل اليه مال بشتك و مال آقبغا عبد الواحد و مال برسبغا فوهب ذلك جميعه إلى الخاصّكيّة الأمراء من مماليك والده مثل ملكتمر الحجازىّ و ألطنبغا الماردانىّ و يلبغا اليحياوىّ و طاجار الدّوادار، و هؤلاء كانوا عظماء أمراء الألوف من الخاصّكيّة و أعيان مماليك الملك الناصر محمد ابن قلاوون و أصهاره و أحبّهم و أحبّوه، فالتهى بهم عن قوصون و قوى بهم بأسه، فخاف قوصون عاقبة أمره و تقرّب خشداشيته إليه فدبّر عليه و عليهم حتّى تمّ له ذلك، و كانت الناس تباشرت بيمن سلطنته، فإنه لمّا تسلص انفعلت الأمور على أحسن

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۸

ما يكون و لم يقع بين الناس خلاف و لا وقع سيف حتّى خالف قوصون، فرموه بأمور و قبائح و دواهى، و ادّعوا أنّه كان ينزل هو و المذكورون من مماليك أبيه إلى بحر النيل و يركب معهم فى المراكب و أشياء من ذلك، اللّه أعلم بصحّتها. و لم يكن مسك بشتك بخاطره و لا عن أمره إلّا مراعاة لخاطر قوصون لما كان بينهما من أيام أستاذهما الملك الناصر محمد من المنافرة. و كان الملك المنصور شابّا حلو الوجه، فيه سمرة و هيف قوام، و كان تقدير عمره ما حول العشرين سنة، و كان أفحل الإخوة و أشجعهم. زوّجه أبوه بنت الأمير سيف الدين طقزدمر الحموىّ.

قال الشيخ صلاح الدين الصّفدىّ فى تاريخه: و عمل الناس عزاءه و دار جواره فى الليل بالدّرارك فى شوارع القاهرة أيّاما، و أبكين الناس و تأسّفوا عليه لأنّه خذل، و عمل عليه و أخذ بغتة، و قتل غضّا طريّا، و لو استمرّ لجاء منه ملك عظيم، كان فى عزمه ألّا يغيّر قاعدة من قواعد جدّه الملك المنصور قلاوون، و يبطل ما كان أحدثه أبوه من إقطاعات العربان و إنعاماتهم، و غير ذلك. انتهى كلام الصلاح الصّفدىّ باختصار.

و أمّا أمر بشتک و حبسه فإنه کان من أجلّ ممالیک الملک الناصر محمد بن قلاوون، و کان ثقل علیه فی أواخر أمره، فإنه لمّا مات بکتمر الساقی ورثه فی جمیع أمواله، فی داره و إسطبله. و تزوّج بامرأته أمّ أحمد بن بکتمر الساقی و اشتری جاریته

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۹

خوبی بستة آلاف دینار، و کان معها من القماش ما قیمته عشرة آلاف دینار، و أخذ ابن بکتمر عنده. و کانت الشرقیة تحمی لبکتمر الساقی فحماها هو بعده، فعظم ذلک علی قوصون و لم یسعه إلّا السّکات لمیل السلطان إلیه. و کان مع هذه الریاسة الضخمة غیر عفیف الذّیل عن الملیح و القبیح، و بالغ فی ذلک و أفرط حتّی فی نساء الفلّاحین و غیرهم. و کان سبب قربه من أستاذه الملک الناصر أنّ الملک الناصر قال یوما فی مبدأ أمره لمجد الدین السّلّامیّ: أرید أن أشتری لی مملوکا یشبه بو سعید ابن خربندا ملک التّتار، فقال مجد الدین: دع ذلک، فهذا بشتک یشبهه لا فرق بینهما فحظی عنده لذلک. و لمّا ندبه السلطان لمسک تنکز و توجّه إلی الشام للحوطة علی مال تنکز، و رأی أمر مشق طمع فی نیابتها و لم یجسر یفاتح السلطان فی ذلک، و بقی فی نفسه منها حزازة، فلمّا مرض السلطان و أشرف علی الموت ألبس بشتک ممالیکه، فإنّه کان بلغه عن قوصون أنّه ألبس ممالیکه، ثم انتظم الأمر علی أن السلطان جعل ابنه أبا بکر ولیّ عهده، و قد قدّمنا ذکر ذلک کلّه مفصّلا فی أواخر ترجمة الملک الناصر. فلمّا وقع ذلک قال بشتک: لا أوافق علی سلطنة أبی بکر، ما أرید إلّا سیّدی أحمد الذی بالکرک. فلمّا مات السلطان و سجّی قام قوصون إلی الشّباک و طلب بشتک و قال له: یا أمیر تعال، أنا ما یجیء منّی سلطان، لأنّی کنت أبیع

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۰

الطّسما و الکشاتوین فی البلاد و أنت اشتریت منّی، و أهل البلاد یعرفون ذلک منّی، و أنت ما یجیء منک سلطان، لأنّک کنت تبیع البوزا، و أنا اشتریت ذلک منک، و أهل البلاد یعرفون ذلک کلّه، فما یکون سلطانا من عرف ببیع الطسما و البرغالی، و لا من عرف ببیع البوزا، و هذا أستاذنا هو الذی أوصی لمن هو أخبر به من أولاده، و هذا فی ذمّته و ما یسعنا إلّا امتثال أمره حیّا و میّتا، و أنا ما أخالفک إن أردت أحمد أو غیره، و لو أردت أن تعمل کلّ یوم سلطانا ما خالفتک؛ فقال بشتک:

کلّ هذا صحیح، و الأمر أمرک، و أحضرا المصحف و حلف کلّ للآخر و تعانقا، ثم قاما إلی رجلی السلطان فقبّلاهما و بکیا، و وضعا ابن السلطان علی کرسیّ الملک. و قد تقدم ذکر ذلک کلّه، و تمّ الأمر بینهما علی ذلک، حتی بدا لبشتک أن یلی نیابة الشام فعاکسه قوصون فثارت الکمائن و الضغائن القدیمة بینهما حتی وقع ما حکیناه، و أمسک بشتک و اعتقل بالإسکندریّة إلی أن قتل فی محبسه بالإسکندریة بعد أیام فی سلطنة الملک الأشرف کجک ابن الملک النّاصر محمد بن قلاوون فی شهر ربیع الآخر من سنة اثنتین و أربعین المذکورة، حسب ما یأتی ذکره. و بشتک هذا أوّل من أمسک من أمراء الدولة الناصریّة. و کان کریما مهابا، کان یذبح فی سماطه فی کل یوم خمسین رأسا من الغنم و فرهما لا بدّ منه، خارجا عن الدجاج و الإوز و الحلوی. انتهی ترجمة الملک المنصور أبی بکر بن محمد بن قلاوون. رحمه اللّه تعالی.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۱

ذکر ولایة الملک الأشرف علاء الدین کجک علی مصر

هو السلطان الملک الأشرف علاء الدین کجک ابن السلطان الملک الناصر، ناصر الدین أبی المعالی محمد ابن السلطان الملک المنصور سیف الدین قلاوون الألفیّ الصالحیّ النّجمیّ. جلس علی تخت الملک باتّفاق الأمراء بعد خلع أخیه أبی بکر ابن الملک الناصر محمد فی یوم الاثنین حادی عشرین صفر سنة اثنتین و أربعین و سبعمائة، و رکب بشعار السلطنة و لقّب بالملک الأشرف و لم یکمل له من العمر خمس سنین، و قیل کان عمره دون سبع سنین. و أمّه أمّ ولد تسمّی أردو ترکیّة الجنس و هو السلطان الرابع عشر من ملوک الترک بدیار مصر، و الثانی من أولاد الملک الناصر محمد ابن قلاوون. و لمّا تمّ أمره فی السلطنة جلس الأمراء و اشتوروا

فيمن يقيموه فى نيابة السلطنة فرشّح الأمير أيدغمش أمير آخور فامتنع أيدغمش من ذلك فوقع الاتفاق على الأمير قوصون الناصرىّ فأجاب و شرط على الأمراء أن يقيم على حاله فى الأشرفية من القلعة و لا يخرج منها إلى دار النيابة خارج باب القلّة من القلعة، فأجابوه الأمراء

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۲

إلى ذلك، فاستقرّ من يومه فى النيابة، و تصرّف فى أمور المملكة، و السلطان آلة فى السلطنة، فقال فى ذلك بعض شعراء العصر:

سلطاننا اليوم طفل و الأكابر فى خلف و بينهم الشيطان قد نزغا

فكيف يطمع من تغشيه مظلمة أن يبلغ السّؤل و السلطان ما بلغا

ثم اتّفقت الأمراء على إخراج الأمير ألطنبغا الماردانىّ من الحبس فأخرج من يومه. و فى ليلة الأربعاء ثالث عشرين صفر أخرج الأمير قطلوبغا الحموىّ و طاجار الدّوادار و ملكتمر الحجازىّ و الشّهابىّ شادّ العمائر من حبس خزانة شمائل بالقاهرة، و حملوا إلى ثغر الإسكندريّة فسجنوا بها. و توجّه الأمير بلك الجمدار على البريد إلى حلب لتحليف النائب طشتمر الساقى المعروف بحمّص أخضر و الأمراء، و توجّه الأمير بيغر إلى دمشق بمثل ذلك إلى نائبها الأمير ألطنبغا الصالحىّ، و توجّه الأمير جركتمر بن بهادر إلى طرابلس و حماة لتحليف نوّابها و الأمراء، و كتب إلى الأعمال بإعفاء الجند عن المغارم. ثم ركب الأمير قوصون فى يوم الخميس رابع عشرينه فى دست النيابة، و ترجّل له الأمراء و مشوا فى خدمته، و أخذ و أعطى و أنفق على

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۳

الأمراء لكلّ أمير مائة و مقدّم ألف: ألف دينار، و لكلّ أمير طبلخاناه خمسمائة دينار؛ و لكلّ أمير عشرة مائتى دينار، و لكلّ مقدّم حلقة خمسين دينارا، و لكلّ جندى خمسة عشر دينارا.

ثم فى يوم [السبت] سادس عشرينه سمّر قوصون ولىّ الدولة أبا الفرج ابن خطير صهر النّشو، و كان قد توصّل إلى الملك المنصور بسفارة أستاذه ملكتمر الحجازىّ، و وقع منه أمور حقدها عليه قوصون لوقتها، و لمّا سمّر أشهر على جمل بمصر و القاهرة و قد أشعلت الشموع بالحوانيت و الشوارع و دقّت الطبول و فرح الناس بتشهيره فرحا زائدا لأنّه كان ممّن بقى من حواشى النّشو و أصهاره، و فيه يقول الأديب جمال الدين إبراهيم المعمار:

قد أخلف النّشو صهر سوء قبيح فعل كما تروه

أراد للشرّ فتح باب فأغلقوه و سمّروه

و لمّا كان يوم الخميس مستهلّ شهر ربيع الأوّل من سنة اثنتين و أربعين و سبعمائة أنعم قوصون على أحد و عشرين مملوكا من المماليك السلطانية بإمريات: منهم ستة طبلخاناه و البقيّة عشرات. و فى رابع عشر شهر ربيع الأوّل توجّه الأمير طوغان لإحضار الشهابىّ أحمد ابن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون من الكرك محتفظا به لينفى إلى أسوان. و سبب ذلك أنّه ورد كتاب ملكتمر السّرجوانى نائب الكرك يتضمن أنّ أحمد المذكور خرج عن طوعه و كثر شغفه بشباب أهل الكرك و انهماكه فى معاقرة الخمر، و أنّه يخاف على نفسه منه أن يوافق الكركيين على قتله و طلب الإعفاء

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۴

من نيابة الكرك. ثمّ فى يوم السبت سابع عشر شهر ربيع الأوّل المذكور خلع على الأمير طقزدمر الحموىّ نائب السلطنة بديار مصر بنيابة حماة عوضا عن الملك الأفضل ابن الملك المؤيّد الأيّوبى، و أنعم على الملك الأفضل بتقدمة ألف بدمشق، و أنعم على الأمير آقبغا عبد الواحد بإمرة بدمشق، و رسم لسفره [إليها]. و فى يوم الخميس ثانى عشرينه جلس السلطان الملك الأشرف كجك على تخت الملك و خلع على جميع الأمراء و أرباب الدولة بدار العدل. و قبّل الأمراء الأرض بين يديه ثم تقدّموا إليه على قدر مراتبهم و قبّلوا يده فكان عدّة الخلع فى هذا اليوم ألفا و مائتى خلعة.

ثم فی تاسع عشرينه ورد كتاب الشهابىّ أحمد ابن الملك الناصر محمد من الكرك بأنه لا يحضر إلى القاهرة حتى يأتيه أكابر الأمراء إلى الكرك و يحلّفهم، ثم يحضر إخوته من بلاد الصعيد إلى قلعة الكرك، و يحضر بعد ذلك، و ينتصب سلطانا فأجيب بأنه لم يطلب إلّا لشكوى النائب منه، و جهّزت له هدّية سنّية، و أنّه يحضر حتى تعمل المصلحة، فلم يكن بعد أيّام إلّا و حضر الأمير ملكتمر السّرجوانىّ نائب الكرك إلى القاهرة فى يوم الخميس رابع عشر ربيع الآخر، و أخبر الأمير قوصون و غيره بامتناع الشهابىّ أحمد من الحضور، و أنّه أقام على الخلاف، فاجتمع الأمراء بالقصر فى يوم الجمعة خامس عشرة للمشورة فى أمر أحمد المذكور، حتّى تقرّر الأمر على تجريد العساكر لأخذه.

ثم فى يوم السبت سادس عشره ابتدأت الفتنة بين الأمير قوصون و بين المماليك السلطانية، و ذلك أنّ قوصون أرسل يطلب من مقدّم المماليك مملوكا

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ١٠، ص: ٢٥

من طبقة الزّمرّذيّة جميل الصورة، فمنعه خشداشيته أن يخرج من عندهم، فتلطّف بهم المقدّم حتّى أخذه و مضى به إلى قوصون فبات عنده، ثم طلب من الغد نحو أربعة مماليك أخر أو خمسة، منهم شيخون و صرغتمش و أيتمش عبد الغنى، فامتنع خشداشيتهم من ذلك، و قام منهم نحو المائة مملوك، و قالوا: نحن مماليك السلطان، ما نحن مماليك قوصون، و أخرجوا الطواشى المقدّم من عندهم على أقبح وجه، فمضى المقدّم إلى قوصون و عرّفه الحال، فأخرج إليهم قوصون الأمير برسبغا الحاجب و شاورشى دواداره فى عدّة من مماليكه ليأتوه بهم، فإذا بالمماليك قد تعصّبوا مع كبارهم و خرجوا على حميّة يريدون الأمير بيبرس الأحمدىّ، فإذا به راكب، فمضوا إلى بيت الأمير جنكلى بن البابا فلقوه فى طريقهم؛ فقالوا له:

نحن مماليك السلطان مشترى ماله، فكيف نترك ابن أستاذنا و نخدم غيره، من هو مملوك مثلنا فينال غرضه منّا و يفضحنا بين الناس و جهروا له بالكلام الفاحش، فتلطّف بهم جنكلى فلم يرجعوا عما هم عليه فحنق منهم، و قال: أنتم الظالمون بالأمس و لمّا خرجتم قلت لكم: طقزدمر نائب السلطنة: ارجعوا إلى خدمة

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ١٠، ص: ٢٦

[ابن] أستاذكم قلتم: ما لنا ابن أستاذ غير قوصون، و الآن تشكوا منه! فاعتذروا له و مضوا به؛ و قد حضر الأحمدىّ فاجتمعوا به، و توجّهوا إلى منكلى بغا الفخرىّ فإذا قد وافاه برسبغا من عند قوصون، فأرادوا أن يوقعوا به فكفّهم الفخرىّ عنه، هذا و قوصون قد بلغه خبرهم، فأراد أن يخرج و يجمع الأمراء فما زال به من عنده حتّى سكن إلى بكرة النهار، فكانت تلك الليلة ليلة مهولة.

ثمّ طلب الأمير قوصون جنكلى و الأحمدىّ و الفخرىّ و بقيّة الأمراء إليه، و أغراهم بالمماليك السلطانيّة و خوّفهم عاقبة أمرهم من استخفافهم بالأمراء، فبعثوا بالأمير مسعود الحاجب إليهم ليحضرهم فإذا جمعهم قد كثف و كثر، فلم يلتفتوا إليه فعاد فخرج إليهم ألطنبغا المارداني و قطلوبغا الفخرىّ و هما أكبر الأمراء الخاصّكيّة من خشداشيتهم، و ما زالا بهم حتّى أخذا من وقع عليه الطلب، و دخلوا بهم إلى قوصون، فقبّلوا يده فقام لهم و قبّل رأسهم و طيّب خواطرهم و وعدهم بكلّ خير و انصرفوا، و فى ذهن قوصون أنّه قد حصل الصلح، و ذلك فى يوم السبت. فلمّا كان [ليلة] الاثنين وقت الغروب تحالف المماليك الناصريّة على قتل قوصون و بعثوا إلى من بالقاهرة منهم، فبات قوصون- و قد بلغه ذلك- على حذر، و ركب يوم الاثنين ثامن عشر ربيع الآخر الموكب مع الأمراء تحت القلعة، و طلب أيدغمش أمير آخور، و أخذ قوصون يلوم الأمراء فى إقامته فى نيابة السلطنة، و هم يترضّوه و يعدوه بالقيام معه، فأدركه الأمير بيبرس الأحمدىّ و أعلمه بأنّ المماليك السلطانيّة قد اتفقوا على قتله، فمضى بهم (أعنى الأمراء) إلى جهة قبّة النصر فآرتجّت القلعة و قفلت أبوابها، و لبست

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ١٠، ص: ٢٧

المماليك السلطانيّة السلاح بالقلعة و كسروا الزّردخاناه السلطانيّة، هذا و قد امتلأت الرّميلة بالعامّة، و صاحوا يا ناصريّة! نحن معكم،

فأجابوهم من القلعة، فأشاروا لهم بالتوجّه إلى بيت قوصون فتوجّهوا نحوه و كسروا بابه و هجموا عليه، و كسروا من كان يرمى عليهم من أعلى البيت، و بلغ ذلك قوصون، فعاد بمن كان معه، و أوقعوا بالعامّة

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۸

حتّى وصلوا إلى سور القلعة فرماهم المماليک من أعلى القلعة بالنّشّاب و أحموا العامّة، فقتل فى المعركة الأمير محمود صهر الأمير چنكلى بن البابا بسهم نشّاب من القلعة، و قتل معه آخر، و وصلوا حاشية قوصون إلى إسطبل قوصون، فقد بدأ النهب فيه، فقتلوا من العامّة جماعة كثيرة و قبضوا على جماعة، فلم تطق المماليک السلطانيّة مقاومة الأمراء فكفّوا عن القتال و فتحوا باب القلعة لهم، فطلع إليهم الأمير برسبغا الحاجب و أنزل ثمانية من أعيان المماليک السلطانيّة إلى قوصون. و قد وقف قوصون بجانب زاوية تقىّ الدين رجب تحت القلعة، فوسط قوصون منهم واحدا اسمه صربغا، فإنّه الذى فتح خزائن السلاح و ألبس المماليک، و أمر به قوصون فعلّق على باب زويلة، و أراد أن يوسّط البقيّة فشفع فيهم الأمراء، فحبسوا بخزانة شمائل مقيّدين. ثم رسم

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۹

قوصون بتسمير عدّة من العوامّ فسمّر منهم تسعة على باب زويلة، ثم أمر بالركوب على العامّة و قبضهم ففرّوا حتّى إنهم لم يقدروا منهم على حرفوش واحد، ثم طلع قوصون إلى القلعة قريب العصر، و مدّ للأمراء سماطا فأكلوا و بقيت الأطلاب و الأجناد واقفة تحت القلعة إلى آخر النهار، فكان ذلک اليوم من الأيام المشهودة، و كان جملة من قتل فيه من الفئتين ثمانية و خمسين رجلا و انصرف الناس.

ثم فى ليلة الثلاثاء طلع الأمير برسبغا الحاجب إلى طباق المماليک بالقلعة و معه عدّة من المماليک و قبضوا على مائة مملوک منهم و عملوا فى الحديد و حبسوا بخزانة شمائل، فمنهم من قتل و منهم من نفى من مصر. ثم فى يوم الثلاثاء تاسع عشر ربيع الآخر سمّر قوصون تسعة من العوام. ثم فى يوم الأربعاء عشرينه سمّر قوصون أيضا ثلاثة من الطواشيّة فى عدّة من الحرافيش على باب زويلة، و سبب ذلک أنّ قوصون لما نزل من القلعة و مضى إلى قبّة النصر و قابلته المماليک السلطانيّة أخذت الطواشيّة فى الصياح على نسائه و أفحشوا فى سبّهنّ، و استمر الطواشيّة فى التسمير حتى مات أحدهم و شفع فى الاثنين. ثم عرض قوصون مماليک الأطباق، و أنعم على مائتين منهم بإقطاعات كبيرة، و عيّن جماعة منهم بإمريات. ثم أكثر قوصون من الإحسان إليهم و بينما قوصون فى ذلک قدم عليه كتب نائب الشام و أمراء الشام.

و فيها كتب أحمد ابن السلطان الملک الناصر لهم مختومة لم تفکّ ففتحها قوصون فإذا فيها لنائب الشام أنه كاتب لنائب حلب الأمير طشتمر الساقى حمص أخضر و غيره

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۳۰

و أنهم اتفقوا معه و أكثر من الشكوى من قوصون، فأوقف قوصون الأمراء عليها و ما زال بهم حتى وافقوه على تجريد العسكر إلى الكرک.

و فى هذه الأيام ظهرت المماليک التى كانت الفتنة بسببهم عند خشداشيّتهم، فسلّم صرغتمش إلى الأمير ألطنبغا الماردانىّ، و سلّم أيتمش إلى الأمير أيدغمش أمير آخور، و سلّم شيخون إلى الأمير أرنبغا السّلاح دار، و هؤلاء الأمراء الثلاثة ناصريّة.

ثم أشيع بالقاهرة أنّ أحمد ابن الملک الناصر قد تحرّک من الكرک فى طلب المجىء إلى الديار المصريّة، فكثر الاضطراب و وقع الشروع فى تجهيز العساكر صحبة الأمير قطلوبغا الفخرىّ، و استحلفه قوصون، و بعث إليه بعشرة آلاف دينار، و عيّن معه أيضا الأمير قمارى أخا بكتمر الساقى و معهما أربعة و عشرون أميرا، ما بين طبلخانات و عشرات، و أنفق على الجميع. ثم بعث قوصون إلى قطلوبغا الفخرىّ بخمسة آلاف دينار أخرى عند سفره و ركب لوداعه صحبة الأمراء، حتى نزل بالرّيدانيّة فى يوم الثلاثاء خامس عشرين ربيع الآخر، و كلّ ذلک فى سنة اثنتين و أربعين و سبعمائة.

هذا و الأمراء لم يكن منهم أحد راضيا بسفر هذه التجريدة، بل أشار الأمير الحاج آل ملک و الأمير چنكلى بن البابا على قوصون بأنه لا يحرّک ساکنا فلم يقبل قوصون، و کانا أشارا عليه بأنّه يكتب إلى أحمد بن الناصر يعتبه على مكاتبته لنائب الشام و غيره، فكتب إليه بذلک فأجاب بأنّ طوغان أسمعه كلاما فاحشا و أغلظ عليه فى القول فحمله الحنق على مكاتبة نائب الشام، و أنّ قوصون والده بعد والده و نحو ذلک، فلم يقنع قوصون ذلک، و جهّز العساکر لأخذه، و بعد خروج العساكر ركب الأمير قوصون فى يوم الثلاثاء ثالث جمادى الأولى إلى سرياقوس و صحبته الأمراء على عادتهم [توجه

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۳۱

السلطان ثم عاد]. و بعد مدّة يسيره ظهر للأمير قوصون مخالفة الأمير طشتمر الساقىّ نائب حلب المعروف بحمّص أخضر، و سبب مخالفته أنّه شقّ عليه إخراج أولاد استاذه الملک الناصر إلى الصعيد، و أيضا تجهيز العساكر لقتال أحمد ابن الملک الناصر بالكرک، و کان قد بعث إليه أيضا أحمد ابن الملک الناصر يشكو من قوصون، و أنه يريد القبض عليه و يطلب منه النّصرة عليه، فكتب طشتمر إلى أمراء الديار المصريّة و إلى قوصون بالعتب، فقبض على قاصده بقطيا و سجن، و كتب قوصون إلى الأمير ألطنبغا الصالحىّ نائب الشام بأن الأمير طشتمر حمّص أخضر نائب حلب شرع يتكلم فى إقامة الفتنة و أنه لا يصغى إلى قوله، و بعث إليه بأشياء كثيرة من الهدايا و التحف فأجاب ألطنبغا نائب الشام بالسمع و الطاعة و الشكر و الثناء.

و لما تمّ لقوصون ذلک وقع بينه و بين الأمير أيدغمش أمير آخور، و كادت الفتنة تقوم بينهما و أغلظ أيدغمش لقوصون فى الكلام، و سببه أن بعض مماليک أمير على بن أيدغمش وشى إليه بأنّ قوصون قرر مع برسبغا الحاجب أن يبيت بالقاهرة و يركب فى عدّة من مماليک قوصون و يكبس على أيدغمش، فأخذ أيدغمش فى الاحتراز، و امتنع من طلوع القلعة أياما بحجة أنه متوعّک، و كان ذلک بعد أن تصالحا بعد تفاوضهما بمدّة يسيرة، و صار أيدغمش إذا سيّر قوصون النائب بالرّميلة

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۳۲

فى أيام المواكب يغلق أيدغمش باب الإسطبل السلطانى، و يوقف طائفة من الأوجاقية عليه، فاشتهر الخبر بين الناس و كثرت الفالة، و بلغ قوصون تغير خاطر أيدغمش عليه، فخلف للأمراء أنه ما يعرف لتغيره سببا، فما زالت الأمراء بأيدغمش حتى طلع القلعة، و عرّف قوصون بحضرة الأمراء ما بلغه، فخلف قوصون على المصحف أن هذا لم يقع منه، و لا عنده منه خبر و تصالحا. و بعث إليه أيدغمش بعد نزوله إلى الإسطبل الناقل إليه فردّه قوصون إليه و لم يعاقبه.

ثم قدم الخبر بوفاة الأمير بشتک الناصرىّ المقدم ذكره بمحبسه بثغر الإسكندريّة، فاتّهم قوصون بقتله، و كان الأمير قوصون قد أنشأ قاعة لجلوسه مع الأمراء من داخل باب القلّة، و فتح فيها شبّاكا يطلّ على الدّركاه، و جلس فيه مع الأمراء، و مدّ سماطا بالقاعة المذكورة و زاد فى سماطه من الحلوى و الدّجاج و الإوزّ و نحو ذلک، و أكثر من الخلع و الإنعامات، و صار يجلس مع الأمراء بالقاعة المذكورة، فلمّا قدم الخبر بموت بشتک تغيّر خاطر جماعة كثيرة من الأمراء و غيرهم لموته، فما زال بهم قوصون حتّى صالحهم و حلف لهم.

ثم قدم الخبر من عبد المؤمن والى قوص بأن الملک المنصور أبا بكر وجد فى نفسه تغيّرا، و فى جسده توعّكا لزم الفراش منه أياما و مات، و اتّهم قوصون أيضا بأنّه أمر عبد المؤمن بقتله، فتغيّر لذلک خاطر الأمراء و المماليک الناصرية قاطبة و هم يوم ذاک عساكر الإسلام و من سواهم فقليل.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۳۳

ثم قدم الخبر على قوصون بنزول العسكر الذى صحبة الأمير قطلوبغا الفخرىّ على مدينة الكرک و قد امتنعت منه و استعدّ أهلها للقتال، و كان الوقت شتاء فأقام العسكر نحو عشرين يوما فى شدّة من البرد و الأمطار و الثلوج و موت الدواب، و تسلط أهل الكرک عليهم بالسب و اللّعن و التّوبيخ و شنّوا الغارات عليهم و صاروا يقطعون قربهم و روایاهم؛ هذا و قوصون يمد الفخرىّ بالأموال و

يحضّه على لزوم الحصار.

ثم قدم الخبر من دمشق بأن تمر الموسوىّ قدم من حلب و استمال جماعة من الأمراء إلى طشتمر الساقى حمّص أخضر نائب حلب، فكتب قوصون بالقبض عليه. ثم حمل قوصون تشريفا إلى نائب حلب المذكور فلم يرض نائب حلب بالتشريف و ردّه، و كتب إلى قوصون يعتبه على إخراج أولاد أستاذه إلى الصعيد، فأجابه قوصون بأعذار غير مقبولة.

ثم قدم الخبر على قوصون أيضا من شطّى أمير العرب بأنّ قطلوبغا الفخرى قد خامر على قوصون، و حلف لأحمد بن الناصر هو و من معه من الأمراء و أنّهم أقاموا أحمد سلطانا و لقّبوه بالملك الناصر؛ و ذلك بمكاتبة الأمير طشتمر الساقى نائب حلب له يعتبه على موافقة قوصون و قد فعل بأولاد أستاذه ما فعل، و يعزم عليه أنّه يدخل فى طاعة أحمد، و يقوم بنصرته، فصادف ذلك من الفخرى ضجره من الإقامة على حصار الكرك و شدّة البرد و عظم الغلاء، فجمع من معه و كتب إلى أحمد يخاطبه بالسلطنة و قرّر الصلح معه، و كتب لنائب حلب بذلك فأعاد جوابه بالشكر، و أعلمه بأن الأمير طقزدمر نائب حماة و أمراء دمشق قد وافقوه على القيام بنصرة أحمد. و كان الأمير ألطنبغا الصالحىّ نائب الشام قد أحسّ بشىء من هذا فاحترس على الطّرقات، حتّى ظفر بقاصد طشتمر نائب حلب على طريق بعلبك و معه كتب فأخذها منه، و بعث بها إلى قوصون، فقدمت ثانى يوم ورود كتاب شطّى بمخابرة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۳۴

الفخرى، فإذا فيها: «الملكى الناصرىّ» فاضطرب قوصون و جمع الأمراء و عرّفهم ما وقع و أوقفهم على الكتب، و ذكر لهم أنّه وصل منه إلى قطلوبغا الفخرى فى هذه السّفرة مبلغ أربعين ألف دينار سوى الخيل و القماش و التّحف. و رسم بإيقاع الحوطة على دور الأمراء المجرّدين مع الفخرى إلى الكرك، فما زال به الأمراء حتى كفّ عن ذلك.

و ألزم مباشريهم بحمل ما وصل إليهم و بجميع حواصلهم، و صار قوصون فى أمر مريج مما بلغه، و كتب إلى الأمير ألطنبغا الصالحى نائب الشام بخروجه لقتال طشتمر الساقى حمّص أخضر نائب حلب، و معه نائب حمص و نائب صفد و نائب طرابلس، و كتب إليهم قوصون بالسمع و الطاعة إلى طاعة نائب الشام، و حمل إليهم النفقات؛ فلما بلغ ألطنبغا الصالحى نائب الشام ذلك تجهّز و خرج من دمشق بعساكرها فى جمادى الآخرة فتلقّاه الأمير أرقطاى نائب طرابلس على حمص و صار من جملة عساكره، و أخبره بكتاب نائب حلب إليه يدعوه لموافقته و أنه ابى عليه. ثم بعث ألطنبغا نائب الشام إلى الأمير طقزدمر نائب جماة من استماله و حلّفه على طاعة الملك الأشرف كچك. و لما بلغ طشتمر حمص أخضر مجىء ألطنبغا نائب الشام إليه أرسل استدعى ابن دلغادر فقدم عليه فاتّفق معه على المسير إلى أبلستين، و سار به و معه ما خفّ من أمواله و أخذ أولاده و مماليكه فأدركه عسكر حلب، و قد وصل إليهم كتاب نائب الشام بالاحتراس عليه و منعه من الخروج من حلب، فقاتلوه عدّة وجوه فلم ينالوا منه غرضا، و قتل من الفريقين خمسة نفر و عادوا و أكثرهم جرحى. فلما وصل طشتمر إلى أبلستين كتب إلى أرتنا يستأذنه فى العبور إلى الروم فبعث إليه أرتنا بقاضيه و عدّة من ألزامه، و جهّز له الإقامات، فمضى طشتمر إلى قيصريّة، و قد توجّه أرتنا لمحاربة ابن دمرداش بعد أن رتب لطشتمر كلّ يوم ألفى درهم.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۳۵

و أما ألطنبغا الصالحىّ نائب الشام فإنّه قدم إلى حلب و كتب إلى قوصون يعلمه بتسحّب طشتمر نائب حلب إلى جهة الروم، و أنّه استولى على مدينة حلب، فقدم كتابه على قوصون فى يوم الأربعاء ثانى شهر رجب. ثم فى يوم الاثنين سابع رجب فرّق الأمير قوصون إقطاعات الأمراء المجرّدين مع قطلوبغا الفخرى الخارجين عن طاعة قوصون؛ و عدّتهم اثنان و ثلاثون أميرا، منهم أمراء طبلخانات ستة عشر، و أمراء عشرات ستة عشر، و أميران مقدمان: الفخرى و قمارى.

ثم فى يوم الثلاثاء تاسع عشرين رجب قدم الأمير الشيخ على بن دلنجى القازانىّ أحد أمراء العشرات المجردين، و أخبر بمسير قطلوبغا الفخرىّ من الكرك إلى دمشق، و أنّه يريد مواقعته مع ألطنبغا الصالحى نائب الشام، و كان من خبره أنّ الأمير ألطنبغا لما دخل حلب أخذ موجود طشتمر حمص أخضر و باعه، و بينما هو فى ذلك بلغه دخول قطلوبغا الفخرى بمن معه إلى دمشق، و أنّه دعا للناصر

أحمد، و قد وافقه آق سنقر السّلّارى نائب غزة و أصلم نائب صفد و من تأخر من أمراء دمشق بها، مثل سنجر الجمقدار و تمر الساقى و أن آق سنقر نائب غزة وقف لحفظ الطرقات حتى لا يصل أحد من مصر إلى ألطنبغا الصالحى، و أن قطلوبغا أخذ فى تحصيل الأموال من دمشق للنفقة على الأمراء و الجند، و أن الأمير طقزدمر نائب حماة قدم عليه فى غد دخوله، و ركب الفخرى و تلقّاه و قوى بهم و استخدم جندا كثيرة و نادى بدمشق من أراد الإقطاع و النفقة فليحضر، و أخذ مالا كثيرا من التجّار، و أكره قاضى القضاة تقى الدين بن السبكى حتى أخذ مال الأيتام و أخذ أجر الأملاك و الأوقاف لثلاث سنين فجمع مالا عظيما، و أتته جماعات من الأجناد و التّركمان، و كتب أوراقا من ديوان الجيش بأسماء الأجناد البطالين، و أنعم على البطّالين بالخيل و القماش و السلاح، و حلّف الجميع للسلطان الملك الناصر أحمد بن الناصر محمد بن

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۳۶

قلاوون، و عمل برسمه العصائب السلطانيّة و السناجق الخليفتية و الكنابيش و السروج و الغاشية و القبّة و الطّير و سائر أبّهة السلطنة، و كتب إلى الملك الناصر أحمد يعرّفه بذلك فأجابه الناصر بالشكر و الثناء، فلما سمع قوصون ذلك جمع الأمراء للمشورة فاتّفق الرأى على تجريد أمراء إلى غزة فتوجه برسبغا الحاجب و أمير محمود الحاجب و علاء الدين علىّ بن طغريل فى جماعة.

ثم كتب قوصون إلى ألطنبغا نائب الشام على يد أطلمش الكريمىّ بأن يسير من حلب إلى قتال الفخرى بدمشق، فتوجّه أطلمش الكريمى من البريّة لانقطاع الطريق حتّى وصل إلى حلب، و عرّف ألطنبغا الخبر، فخرج ألطنبغا بمن معه من العساكر و سار حتى قدم حمص، و قد خرج الفخرى من دمشق و نزل على خان لاچين و أمسك المضيق، و أقام الجبليّة و العشير على الجبلين و وقف هو بالعسكر فى وسط الطريق.

و أما ألطنبغا فإنّه جلّف من معه من العساكر و سار من حمص يريد الفخرى حتى قرب منه. و عدد الجمعين نحو ثلاثة عشر ألف فارس، فتمهّل ألطنبغا كراهية لسفك الدماء، و أرسل إلى الفخرى رسلا، و دام على ذلك ثلاثة أيام فلم يتمّ بينهما أمر، و بعث قطلوبغا الفخرى إلى جماعة من أصحاب ألطنبغا يعدهم [و يستميلهم] حتى وافقوه. فلمّا تعبت الرسل بينهم و مات العسكر من شدّة البرد بعث ألطنبغا فى الليل جماعة من أصحابه ليهجموا على الفحرى من ورائه، و يلقاهم هو من قدّامه، و ركب من الغد، فمال كلّ أمير بمن معه من أصحابه إلى جهة الفخرى، و صاروا من جملته، فلم يبق معه سوى أرقطاى نائب طرابلس و أسنبغا بن [بكتمر البوبكرى]

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۳۷

و أيدمر المرقبىّ من أمراء دمشق فانهزموا على طريق صفد إلى جهة غزة، و القوم فى أثرهم بعد أن كانت بينهم وقعة هائلة؛ انهزم فيها ألطنبغا نائب الشام.

ثم التفت الفخرى إلى جهة دمشق و ترك السير حلف ألطنبغا حتّى دخل دمشق مؤيّدا منصورا، و كتب فى الحال مع البريد إلى الأمير طشتمر الساقى حمّص أخضر نائب حلب يعرّفه بنصرته و يدعوه إلى الحضور من بلاد الروم، و أنّه فى انتظاره بدمشق. ثم حلف الفخرى و من معه للملك الناصر أحمد و أمر الخطباء فدعوا له على منابر دمشق و ضرب السّكّة باسمه.

و أمّا ألطنبغا الصالحى نائب دمشق فإنّه وصل إلى غزّة بمن معه فتلقّاهم الأمير برسبغا الحاجب و رفقته، و كتب ألطنبغا إلى قوصون بما وقع فلمّا بلغ قوصون الخبر قامت قيامته و قبض على أحمد شادّ الشرابخاناه و على قرطاى أستادار الفخرى.

ثم قدم على قوصون كتاب الفخرى يعتبه على إخراج أولاد أستاذه إلى قوص و قتل الملك المنصور أبى بكر، و أنّ الاتفاق وقع على سلطنة الملك الناصر أحمد، و يشير عليه بأن يختار بلدا يقيم بها حتى يسأل له السلطان الملك الناصر أحمد فى تقليده نيابتها، فقام قوصون و قعد لمّا سمع ذلك، و جمع الأمراء فوقع الاتفاق على تجهيز التّقادم للأمراء بغزة، فجهز قوصون لكل من ألطنبغا نائب الشام و أرقطاى نائب طرابلس ثلاثين بذلة قماش و ثلاثين قباء مسنجبة بطرازات زركش و مائتى خف و مائتى كلفتاه و كسوة لجميع مماليكهما و غلمانهما و حواشيهما، و جهز لكل من الأمراء الذين معهما ثلاث بذلات و أقبية بسنجاب و كسوة لمماليكهم و

حواشيهم، و أخذ قوصون فى الإنعام على المماليك السلطانيّة، و أخرج ثلثمائة ألف دينار من الذخيرة لتجهيز أمره، حتى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۳۸

يخرّج بالعساكر إلى الشام، و أخرج أربعمائة قرقل و عدة زرديّات و خوذ و غيرها.

و أنعم على جماعة من المماليك السلطانية بإمريات، و غير إقطاعات جماعة منهم.

ثم كتب قوصون إلى الأمراء بمسيرهم من غزّة إلى جهة القاهرة، و هيّأ لهم الإقامات و الخيول، و بعث إليهم بالحلاوات و الفواكه و سائر ما يليق بهم.

و بينما قوصون فى ذلك إذ ركب الأمراء عليه فى ليلة الثلاثاء تاسع عشرين رجب وقت العشاء الآخرة، و سبب ركوبهم عليه تنكّر قلوب الأكابر عليه لأمور بدت منه، منها: قتل الأمير بشتك الناصرىّ بغير ذنب، و هو أعزّ خشداشيته، و لم يكفه ذلك حتّى قتل الملك المنصور أبا بكر و هو ابن أستاذه، و كان يكفيه الخلع من الملك.

و منها قوّة الوحشة بينه و بين الأمير أيدغمش الناصرىّ أمير آخور و هو أكبر خشداشيته، فأخذ أيدغمش يدبّر عليه. و غيّر خواطر جماعة كثيرة عليه، إلى أن كان من انتصار قطلوبغا الفخرى على ألطنبغا الصالحى نائب الشام، و كان قوصون قد احتفل لقدوم ألطنبغا نائب الشام و من معه احتفالا زائدا، و فتح ذخيرة السلطان و أكثر من النفقات و الإنعامات حتى بلغت إنعاماته على الأمراء و الخاصّكيّة ستمائة ألف دينار، فشاع بأنه يريد يتسلطن فخاف أيدغمش و غيره من تحكّمه فى السلطنة، و حرّض الأمراء الخاصّكيّة حتى وافقه الأمير علاء الدين ألطنبغا الماردانىّ و الأمير يلبغا اليحياوىّ فى عدّة من المماليك السلطانيّة، و جمع كثير من أكابر الأمراء، منهم: الأمير الحاجّ آل ملك و الأمير بدر الدين چنكلى بن البابا و اتفقوا الجميع أنهم يسيروا جميعا إلى الكرك عند قدوم ألطنبغا نائب الشام و خروجهم إلى لقائه.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۳۹

فلما كان يوم الاثنين ركب الأمير قوصون فى الموكب تحت القلعة على العادة و طلب الأمير تلجك ابن أخته و أخرجه إلى لقاء الأمير ألطنبغا الصالحىّ نائب الشام، و قد ورد الخبر بنزوله على بلبيس ليأتى به سريعا، فوافاه و من معه إلى بلبيس، فسأله فى القدوم إلى القاهرة بسرعة، فلم يوافقه على السرعة و قصد أن يكون حضوره فى يوم الخميس أوّل شعبان، و بات ليلة الثلاثاء على بلبيس و ركب من الغد و نزل سرياقوس، فبلغه ركوب الأمراء على قوصون، و أنه محصور بالقلعة، فركب بمن معه الى بركة الحاج، و إذا بطلب قوصون و سنجقه قد وافوه فى نحو مائة مملوك، و أعلموه أنّ فى نصف الليل ركبت الأمراء و احتاطت بإسطبل قوصون، ثم حصروه فى قلعة الجبل، فخرجوا هم على حميّة حتى وصلوا إليهم؛ هذا ما كان من أمر ألطنبغا نائب الشام.

و أمّا أمر قوصون فإنّه لما بعث تلجك ليأتيه بالأمير ألطنبغا نائب الشام سريعا تحقّق أيدغمش و أصحابه أنّ قوصون فهم عنهم ما دبّروه فتواعد الأمير أيدغمش مع من وافقه على أن يركبوا فى الليل إلى الكرك، فجهّز كلّ منهم حاله، حتى كان ثلث الليل فتح الأمراء باب السور من قلعة الجبل و نزلوا إلى الأمير أيدغمش بالإسطبل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۴۰

السلطانىّ، ثم مضى كلّ واحد إلى إسطبله فلم ينتصف الليل إلا و عامة الأمراء بأطلابهم فى سوق الخيل تحت القلعة، و هم: الأمير ألطنبغا الماردانىّ و يلبغا اليحياوىّ و بهادر الدّمرداشى و الحاج آل ملك و الجاولى و قمارى الحسنىّ أمير شكار و أرنبغا و آق سنقر السّلّارىّ، و بعثوا إلى إسطبلات الأمراء مثل چنكلى بن [محمد بن] البابا و بيبرس الأحمدى و طرغاى و قياتمر و الوزير و لبست مماليكهم و أخرجت أطلابهم، ثم خرج إليهم الأمير أيدغمش بمماليكه و من عنده من الأوجاقيّة، و وقفوا جميعا ينتظرون نزول قوصون إليهم فأحسّ قوصون بهم و قد انتبه فطلب الأمراء المقيمين بالقلعة فأتاه منهم اثنا عشر أميرا، منهم چنكلى بن البابا و قياتمر و الوزير، و لبست مماليك قوصون التى كانت عنده بالقلعة و سألته أن ينزل و يدرك إسطبله و يجتمع بمن فيه من مماليكه، و كانوا

سبعمائة مملوک، و کان قوصون یغترّ بهم و یقول: إیش أبالی بالأمراء و غیرهم، عندی سبعمائة مملوک ألقی بهم کلّ من فی الأرض، فلم یوافقهم قوصون علی النزول لما سبق فی القدم. و أقام قوصون بالقلعة إلی أن طلع النهار، فلمّا لم یظهر له حرکة طمع أیدغمش فیه، و أمر الأوجاقیة أن تطلع إلی الطبلخاناه السلطانیة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۴۱

و أخرج لهم الکوسات، فدقّوا حربیّا. ثم نادی أیدغمش. معاشر أجناد الحلقة و ممالیک السلطان و الأجناد [و] البطّالین یحضروا، و من لیس له فرس و لیس له سلاح یحضر و یأخذ له الفرس و السلاح و یرکب معنا، و یقاتل قوصون، فأتاه جماعة کثیرة من أجناد الحلقة و الممالیک ما بین لابس سلاح و راکب و بین ماش و علی حمار. و أقبلت العامّة کالجراد المنتشر لما فی نفوسهم من قوصون، فنادی لهم أیدغمش یا کسابة:

علیکم بإسطبل قوصون انهبوه فأحاطوا به و ممالیک قوصون من أعلاه ترمیهم بالنشاب حتی أتلفوا منهم عدّة کثیرة، فرکب ممالیک یلبغا الیحیاویّ من أعلی بیت یلبغا.

و البیت المذکور هو الآن موضع مدرسة السلطان حسن. و کان بیت یلبغا یشرف علی بیت قوصون، فلمّا طلعوا ممالیک یلبغا الیحیاوی تسلّطوا علی ممالیک قوصون

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۴۲

و رموا علیهم بالنّشّاب مساعدة للعوام، و خرجوا منهم جماعة کثیرة و حالوا بینهم و بین العامة، فهجمت العامّة عند ذلک إسطبل قوصون و نهبوا زردخاناته و حواصله و أمواله و کسروا باب قصره بالفئوس بعد مکابدة شدیدة و طلعوا إلی القصر و نهبوا ما فیه، و قوصون ینظر ذلک من شباک القلعة و یقول: یا مسلمین! ما تحفظون هذا المال، إما أن یکون لی أو یکون للسلطان، فقال أیدغمش: هذا شکرانه للناس، و الذی عندک فوق من الجوهر و التّحف یکفی السلطان. و صار قوصون کلّما همّ للرکوب بممالیکه کسّروا علیه الخاصکیّة و قالوا له: یاخوند غدا نرکب و نقتل هؤلاء، و صاروا یهوّنوا علیه أمر أیدغمش و أصحابه لباطن کان لهم مع أیدغمش، حتی کان من أمره ما کان.

و لمّا هجمت العامة بیت قوصون خرجوا ممالیکه منه علی حمیّة و شقّوا القاهرة و توجّهوا إلی عند الأمیر ألطنبغا الصالحی نائب السام، فبعث أیدغمش فی أثرهم إلی ألطنبغا نائب الشام و من معه بالسلام علیهم، و أن یمنعوا ممالیک قوصون من الاختلاط بهم، فإنّ الأمیر یلبغا الیحیاوی و الأمیر آق سنقر قادمان فی جمع کبیر لأخذ ممالیک قوصون و حواشیه. فأمر ألطنبغا نائب الشام ممالیک قوصون و تلجک و برسبغا الحاجب أن یکونوا علی حدة، و لبسوا الجمیع و أخذ الأمیر برسبغا ممالیک قوصون و جماعته إلی جهة الجبل، فلقیهم الأمیر یلبغا الیحیاوی بمن معه علی بعد، و کان ذلک بعد ما امسک قوصون، فسار خلفهم إلی قرب إطفیح. و قیل فی أمر ممالیک قوصون غیر ذلک علی ما سنذکره بعد القبض علی قوصون.

و أمّا قوصون فإنه بقی واقفا بشبّاک القلعة و العامّة تنهب فی بیته فلم یمض إلا ساعات من النهار حتی نهب جمیع ما فی إسطبله، و قوصون یضرب یدا علی ید

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۴۳

و یقول: یا أمراء! هذا تصرف جیّد، ینهب هذا المال جمیعه، و کان أیدغمش قصد بذلک أن یقطع قلب قوصون. ثم بعث قوصون إلی أیدغمش یقول. إنّ هذا المال عظیم و ینفع المسلمین و السلطان، فکیف تفعل هذا و تنادی بنهبه؟ فردّ جوابه:

نحن قصدنا أنت و لو راح هذا المال و أضعافه، هذا کلّه و القلعة مغلّقة الأبواب، و جماعة قوصون یرمون من الأشرفیّة بالنّشّاب إلی أن قرب العصر، و العامّة تجمع نشّابهم و تعطیه لمن هو من جهة أیدغمش. فلما رأی قوصون أمره فی إدبار سلّم نفسه، و دخل علیه الأمیر بلک الجمدار و ملکتمر السّرجوانی یأمراه أن یقیم فی موضع حتی یحضر ابن أستاذه من الکرک فیتصرّف فیه کما یختار، فلم یجد بدّا

من الإذعان، و أخذ يوصـى الأمير چنكلى بن البابا و أمير مسعود حاجب الحجّاب على أولاده، فأخذ و قيّد و مضوا به إلى البرج الذى كان بشتك فيه، و رسم عليه جماعهٔ من الأمراء.

و كان الذى تولّى مسكه و حبسه چنكلى بن البابا و أمير مسعود الحاجب و أرنبغا أمير جاندار.

و أمّا الأمير ألطنبغا الصالحىّ نائب الشام و من معه فإن برسبغا و تلجك و القوصونيّـهٔ لمّا فارقوا ألطنبغا المذكور سار ألطنبغا و أرقطاى و الأمراء يريدون

النجوم الزاهرهٔ فى ملوك مصر و القاهرهٔ، ج ۱۰، ص: ۴۴

القاهرهٔ، و أشار ألطنبغا نائب الشام على أرقطاى نائب طرابلس أن يرد برسبغا و تلجك و القوصونيهٔ و يقاتل بهم أيدغمش، فإنّه ينضم إليه جميع حواشـى قوصون و يأخذوا أيدغمش و يحرجوا قوصون و يقيموه كبيرا لهم أو يخرجوه إلى حيث يختار، و يقيموا سلطانا أو ينتظروا أحمد فلم يوافقه أرقطاى على ذلك لعفّته عن سفك الدماء. فلمّا أعيا ألطنبغا أمره سارا نحو القاهرهٔ حتى وافيا أيدغمش و هو واقف تحت القلعهٔ بأصحابه فأقبل أيدغمش عليهما و عانقهما و أمرهما أن يطلعا إلى القلعهٔ فطلعا.

ثم أرسل أيدغمش الأمير قازان و الأمير آق سنقر خلف برسبغا و تلجك و من معهما.

و جلس أيـدغمش مع ثقمـانه من الأـمراء و قرّر معهم تسـفير قوصون فى الليل إلى الإسـكندريّهٔ، و القبض على ألطنبغا الصالحى نائب الشـام و على أرقطـاى نائب طرابلس و من يلوذ بهما من الغـد، فكان كـذلك و قبض عليهم، و تسـفير الأمير بيبرس الأحمـدىّ و الأمير چنكلى بن البابا لإحضار السلطان الملك الناصر أحمد من الكرك.

ثم أخرج بالأمير قوصون من سجنه بقلعهٔ الجبل فى ليلهٔ الخميس مع مائهٔ فارس حتّى أوصلوه إلى النيل و ركب البحر و مضـى به إلى الإسكندريهٔ فسجن بها على ما سيأتى ذكره.

و أمّا ما نهب لقوصون فى هذه الحركهٔ فشـىء كثير، فإنه كان فى حواصله من الذهب النّقد أربعمائهٔ ألف دينار عين فى أكياس، و من الحوائص الـذهب و الكلفتات الزركش و الأوانى فشـىء لا ينحصـر، و ثلاثهٔ أكياس أطلس فيها فصوص و جواهر مثمّنهٔ بما ينيف على مائـهٔ الف دينار، و مائـهٔ و ثمانون زوج بسط، منها ما طوله أربعون ذراعا و ثلاثون ذراعا، كلّها من عمل الروم و آمـد و شـيراز، و سـتهٔ عشر زوجا

النجوم الزاهرهٔ فى ملوك مصر و القاهرهٔ، ج ۱۰، ص: ۴۵

من عمل الشـريف بمصر. و أربعهٔ أزواج بسط حرير لا يقوم عليها لحسنها، فانحطّ سعر الذهب من كثرهٔ ما نهب لقوصون، حتّى صرف بأحد عشـر درهما الدينار ممّا صار و كثر فى أيدى الناس بعد ما كان الدينار بعشرين درهما، و لأنّ أيدغمش نادى بعد ذلك بالقاهرهٔ و مصر أنّ من أحضر من العامهٔ ذهبا لتاجر أو صيرفى أو متعيّش يقبض عليه و يحضر به إلى أيدغمش، فكان من معه منهم ذهب يأخذ فيه ما يـدفع إليه من غير توقّف، فرخص سـعر الذهب لذلك، و كثرت مرافعات الناس بعضـهم لبعض فيما نهب، فجمع أيدغمش شـيئا كثيرا من ذلـك، فـإن العامـهٔ يوم نهب إسـطبل قوصون أخـذوا من قصـره حتّى سـقوفه و أبوابه و رخـامه و تركوه خرابـا ثم مضوا إلى خانقاته بباب القرافهٔ فمنعهم صوفيتها من النهب فما زالت العامّهٔ تقاتلهم حتّى فتحوها، و نهبوا جميع ما فيها حتى سـلبوا الرجال و النساء ثيابهم، فلم يدعوا لأحد شـيئا، و قطعوا بسـطها و كسـروا رخامها و أخربوا بركتها، و أخذوا الشبابيك و خشب السقوف و المصاحف و شعّثوا الجـدر، ثم مضوا إلى بيوت مماليـك قوصون و هم فى حشـد عظيم فنهبوهـا و خرّبوهـا و مـا حولهـا، و تتبعوا حواشـى قوصون بالقاهرهٔ و الحكورهٔ و بولاق و الزّريبهٔ و بركهٔ قرموط و باعت العامهٔ السقوف و الأوانى بأخسّ

النجوم الزاهرهٔ فى ملوك مصر و القاهرهٔ، ج ۱۰، ص: ۴۶

الأثمـان و صـارت العامـهٔ إذا أرادوا نهب أحـد قـالوا: هـذا قوصونىّ!. فيـذهب فى الحـال جميع مـاله، و زادت الأوباش فى ذلك حتى خرجوا عن الحدّ و شـمل الخوف كلّ أحد، فقام الأمراء على أيدغمش و أنكروا عليه تمكين العامّهٔ من النهب، فأمر لسـبعهٔ من الأمراء،

فنزلوا إلى القاهرة، و العامّة مجتمعة على باب الصالحيّة فى نهب بيت القاضى الغورىّ الحنفىّ، فقبضوا على عدّة منهم و ضربوهم بالمقارع و شهّروهم فآنكفّوا عن نهب الناس. انتهى.

و أمّا أصل قوصون و اتصاله بالملك الناصر محمد بن قلاوون حتى صار ساقيه أعظم مماليكه هو و بكتمر الساقى، لأن قوصون كان ممن حضر إلى الديار المصريّة من بلاد التّرك صحبة [خوند] بنت أزبك خان التى تزوجها الملك الناصر محمد بن قلاوون و هو غير مملوک، فلمّا كان فى بعض الأيام طلع قوصون إلى القلعة فى خدمة بعض التّجار فرآه السلطان الملك الناصر فأعجبه، فقال للتاجر: لأىّ شىء ما تبيعنى هذا المملوک؟ فقال التاجر: هذا ما هو مملوک، فقال الملك الناصر: لا بدّ أن أشتريه، و وزن ثمنه مبلغ ثمانية آلاف درهم، و جهّز الثمن إلى أخيه صوصون إلى البلاد.

ثم أنشأه الملك الناصر و جعله ساقيا، ثم رقّاه حتى جعله أمير مائة و مقدّم ألف، و عظم

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ١٠، ص: ۴٧

عند الملك الناصر و حظى عنده و زوّجه بابنته و هى ثانية بنت زوّجها الملك الناصر لمماليكه فى سنة سبع و عشرين و سبعماية، و كان له عرس حفل، احتفل به الملك الناصر، و حمل الأمراء التقادم إليه فكان جملة التقادم خمسين ألف دينار. و لما كان يقع بينه و بين بكتمر الساقى منافسة يقول قوصون: أنا ما تنقّلت من الإسطبلات إلى الطّباق، بل اشترانى السلطان و جعلنى خاصّكيّا مقرّبا عنده دفعة واحدة، فكان الملك الناصر يتنوّع فى الإنعام على قوصون حتى قيل إنه دفع إليه مرة مفتاح ذردخانات الأمير بكتمر الساقى بعد موته، و قيمتها ستمائة ألف دينار، قاله الشيخ صلاح الدين الصفدىّ فى «تاريخه». ثم تزايد أمر قوصون حتى وقع له ما حكيناه. و استمرّ قوصون بسجن الإسكندرية هو و ألطنبغا الصالحى نائب الشام و غيرهما حتى حضر الملك الناصر أحمد من الكرک و جلس على كرسى الملك بقلعة الجبل حسب ما يأتى ذكره، اتّفق آراء الأمراء على قتل قوصون فجهّزوا لقتله شهاب الدين أحمد بن صبح إلى الإسكندريّة فتوجّه إليها و خنق قوصون و ألطنبغا نائب الشام و غيرهما فى شوّال سنة اثنتين و أربعين، و قيل فى ذى القعدة على ما يأتى بيان ذلک فى وقته.

و خلّف قوصون عدّة أولاد من بنت أستاذه الملك الناصر محمد بن قلاوون.

و كان أميرا جليلا- كريما خيّرا شجاعا، و كان يعطى العطايا الهائلة، و كان إذا ركب للصيد فى أيام أستاذه يركب فى خدمته ثلث عسكر مصر، و كان يركب قدّامه بالقاهرة مائة نقيب، و كان أخوه صوصون أمير مائة و مقدّم ألف بالديار المصرية، و قيل أمير طلبخاناه. و كان وقع بين قوصون و بين تنكز نائب الشام، فلمّا قبض على تنكز و حمل إلى القاهرة ما عامله قوصون إلا بكل خير. و لما أمسک قوصون و قتل قال فيه الصلاح الصفدى:

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ١٠، ص: ۴٨

قوصون قد كانت له رتبة تسمو على بدر السما الزاهر

فحطّه فى القيد أيدغمش من شاهق عال على الطائر

و لم يجد من ذلّه حاجبا فأين عين الملك الناصر

صار عجيبا أمره كلّه فى أوّل الأمر و فى الآخر

و قال فى قوصون و فى واقعته عدّة من الشعراء من الشعر و البلاليق و الأزجال، و عملت الحلوانيّة مثاله فى حلاوة العلاليق، فقال فى ذلک جمال الدين إبراهيم الأديب المعمار:

شخص قوصون رأينا فى العلاليق مسمّر

فعجبنا منه لمّا جاء فى التسمير سكر

و لبعض عوامّ مصر قصيدة «كان و كان» أوّلها:

من الكرك جانا الناصر وجب معه أسد الغابه

و وقعتك يأمير قوصون ما كانت الّا كذّابه

و أشياء غير ذلك، و قد خرجنا عن المقصود و لنرجع إلى ذكر أيدغمش و ما فعله بمصر.

و أما أيـدغمش فإنه استمرّ مدبّر الديار المصريّة و قام بأمر السـلطان الملك الناصـر أحمد بن محمد بن قلاوون و جمع الأمراء و خلع الملك الأشرف علاء الدين كجك ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون من الملك فى يوم الخميس أوّل شعبان من سنة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۴۹

اثنتين و أربعين و سبعمائة، فكانت مدّة سلطنته على مصر خمسة أشهر و عشرة أيام، و لم يكن له فيها من السلطنة إلّا مجرّد الاسم، فقط و ليس له من الأمر شىء، و ذلك لصغر سنّه، و كان المتصرّف فى المملكة فى سلطنته الأمير قوصون. و كانت إذا حضرت العلامة أعطى قوصون الأشرف كجك فى يده قلما، و جاء الفقيه الذى يقرئه القرآن فيكتب العلامة و القلم فى يد الأشرف كجك، و استمر الأشرف كجك بعد خلعه من السلطنة فى الدور السلطانية تحت كنف والدته و هو و والدته فى ذلّ و صغار و هوان مع من تسلطن من إخوته، لا سيّما مع أمّ الملك الصالح إسماعيل، فكانت فى كلّ قليل إذا توعّك ولدها الملك الصالح إسماعيل، و كان كثير الضعف تتّهم المذكورة أنها تتعمّد له بالسّحر و تأخذ جواريها و حواشيها و تعاقبهم، و أخذت منها جملة مستكثرة فدامت على هذا مدّة سلطنة الملك الصالح، حتى نزل مرّة إلى سرحة سرياقوس و بعث دسّ عليه أربعة خدّام طواشيّة فقتلوه على فراشه فى سنة ست و أربعين و سبعمائة، و له من العمر اثنتا عشرة سنة، و عظم مصابه على والدته، بل على الناس قاطبة. رحمه اللّه تعالى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۵۰

ذكر ولاية الملك الناصر أحمد على مصر

السلطان الملك الناصر شهاب الدين أحمد ابن السلطان الملك الناصر ناصر الدين محمد ابن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون. تسلطن بعد خلع أخيه الأشرف كجك، و كان بويع بالسلطنة قبل خلع كجك أيضا و هو بقلعة الكرك حسب ما ذكرناه فى واقعة قطلوبغا الفخرى مع ألطنبغا الصالحىّ نائب الشام. و أمّ الملك الناصر هذا كان اسمها بياض، كانت تجيد الغناء و كانت من عتقاء الأمير بهادر آص رأس نوبة، و كانت تعرف بقومة، و كان للناس بها اجتماعات فى مجالس أنسهم، فلمّا بلغ السلطان الملك الناصر خبرها طلبها و اختصّ بها و حظيت عنده فولدت أحمد هذا على فراشه. ثم تزوّجها بعد ذلك الأمير ملكتمر السّرجوانىّ فى حياة الملك الناصر محمد. انتهى.

قلت: و الملك الناصر أحمد هذا هو الخامس عشر من ملوك الترك بالديار المصريّة و الثالث من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون. و الآن نذكر ما وقع بالديار المصريّة بعد خلع الأشرف كجك إلى حين دخول الملك الناصر هذا إليها من الكرك. و لمّا قبض أيدغمش على قوصون و خلع الملك الأشرف كجك من السلطنة حسب ما تقدّم ذكره بعث بالأمير چنكلى بن البابا و الأمير بيبرس الأحمدىّ و الأمير قمارى أمير شكار إلى الملك الناصر أحمد بالكرك و على يدهم كتب الأمراء يخبرونه بما وقع و يستدعونه إلى تخت ملكه. ثم جلس الأمير سيف الدين أيدغمش و الأمير ألطنبغا الماردانى و الأمير بهادر الدمرداشى و الأمير يلبغا اليحياوىّ و استدعوا الأمراء فلما حضروا أمر أيدغمش بالقبض على ألطنبغا الصالحى الناصرى نائب الشام و على الأمير

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۵۱

أرقطاى نائب طرابلس و سجنا بقلعة الجبل و أمسكوا بعدهما سبعة أمراء أخر من أمراء الطبلخاناه و الأمير قياتمر أحد مقدمى الألوف و جركتمر بن بهادر أيضا من مقدّمى الألوف و عدّة أمراء أخر، حتى كانت عدّة من قبض عليه من الأمراء فى هذا اليوم خمسة و عشرين أميرا. ثم كتب الأمير أيدغمش إلى الأمير قطلوبغا الفخرى يعرفه بما وقع و يحرضه على الحضور صحبة السلطان الملك الناصر. ثم

طلب أیـدغمش جمـال الـدین یوسف والی الجیزة و خلع علیه بولایـة القـاهرة، فنزل إلی القـاهرة فـإذا بالعامّـة فی نهب بیوت ممالیک قوصون فقبض علی عشـرین منهم و ضـربهم بالمقارع و سـجنهم بعـد ما شـهّرهم، فاجتمعت الغوغاء و وقفوا لأیدغمش و صاحوا علیه: ولّیت علی الناس واحـد قوصونی ما یخلّی منا واحـدا! و عرفوه ما وقع فبعث الأوجاقیـة فی طلبه فوجـدوه بالصّـلیبة یرید القلعة فصاحت علیه الغوغاء: قوصونی! یا غیریّـة علی الملک الناصـر، و رجموه من کلّ جهة، فقامت الجبلیّة و الأوجاقیة فی ردّهم فلم یطیقوا ذلک، و جرت بینهم الـدماء، فهرب الوالی إلی إسـطبل ألطنبغا الماردانی، و حمته ممالیک ألطنبغا من العامّة، فطلب أیدغمش الغوغاء و خیّرهم فیمن یلی فقالوا: نجم الدین الذی کان ولی قبل ابن المحسنی، فطلبه و خلع علیه فصاحوا بحیاة الملک الصالح الناصر:

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۵۲

اعزل عنـا ابن رخیمـة المقـدّم و حمـامص رفیقه، فـأذن لهم فی نهبهما فتسارع نحو الألف منهم إلی دار ابن رخیمـة بجانب بیت الأمیر کوکای فنهبوه و نهبوا بیت رفیقه ثم انکفّوا عن الناس.

و فی یوم الجمعـة ثانی شـعبان دعی علی منابر مصـر و القاهرة للسـلطان الملک الناصـر أحمد. و فی یوم الاثنین خامسه تجمّعت العامّة بسوق الخیل و معهم رایات صـفر و تصایحوا بالأمیر أیـدغمش: زوّدنا لنروح إلی أسـتاذنا الملک الناصـر و نجیء صـحبته، فکتب لهم مرسوما بالإقامة و الرواتب فی کلّ منزلة. و توجهوا مسافرین من الغد.

و فی یوم الأربعاء سابع شـعبان وصل الأمراء من سجن الإسکندریّة الذین کان سجنهم قوصون حتی أفرج عنهم أیدغمش، و هم الأمیر ملکتمر الحجازیّ و قطلیجا الحمویّ و أربعـة و خمسون نفرا من الممالیک الناصـریّة. و کان قوصون لمّا دخل إلی الإسـکندریة مقیّـدا وافوه هؤلاء بعـد أن أطلقوا فسـلموا علیه سـلام شامت فبکی قوصون و اعتـذر لهم بما صـدر منه فی حقّهم. و عند ما قدموا إلی ساحل مصـر رکـب الأمراء إلی لقائهم، و خرجت الناس لرؤیتهم فکان لقـدومهم یوم مشـهود، حتی طلعوا إلی القلعـة فتلقّت خونـد الحجازیة بنت السلطان الملک الناصر محمد بن قلاوون

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۵۳

زوّجهـا ملکتمر الحجازیّ بخـدّامها و جواریها، و مغانیها تضـرب بالـدفوف و الشّـبّابات فرحابه، و معها أختها زوجـة بشـتک تساعـدها بالفرح و هی شامتـة بقوصون لکونه قتل زوجها بشـتک الناصـریّ قبل تاریخه هذا. و أختها بنت الملک الناصـر الأخری زوجة قوصون بجانبها فی عویل و بکاء و صـیاح و لطم علی قوصون. و قد افترق جواری الملک الناصر و أولاده فرقتین، فرقة مع الحجازیة و فرقة مع القوصونیّـة، و العجب أن هـذا الفرح و العزاء کـان قبـل ذلـک بـالعکس، فکـان العزاء إذ ذاک فی بیـت الحجـازیّ، و الفرح فی بیت قوصون، و الآن العزاء فی بیت قوصون و الفرح فی بیت الحجازی و زوجة بشتک و إن کان فرط فی زوجها الفرط، فهی تساعد أختها الحجازیّة شماتة بقوصون، فحالها کقول من قال:

و ما من حبّه أحنو علیه و لکن بغض قوم آخرین

فانظر إلی هذا الدهر و تقلباته بأسرع وقت من حال إلی حال، فنعوذ بالله من زوال النّعم.

ثم قـدم بعـد ذلـک کتب الأـمراء المتوجّهین إلی الکرک لإحضـار الملک الناصـر، أنهم لمّا قربوا من الکرک بعث کلّ منهم مملوکه یعرّف السـلطان الملـک الناصـر بحضورهم إلی الکرک فبعث إلیهم الملک الناصـر رجلا نصـرانیّا من نصاری الکرک یقول: یا أمراء، السـلطان یقول لکم: إن کان معکم کتب فهاتوها أو مشافهـة فقولوها، فدفعت الکتب إلی النصـرانیّ فمضـی بها ثم عاد من آخر النهار بکتاب مختوم و قال عن السـلطان: سـلّم علی الأمراء و عرّفهم أن یقیموا بغزّة حتّی یرد علیهم ما یعتمدوه. و حضر مملوک من قبله یأمر الأمیر قماری بالإقامة علی ناحیة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۵۴

صافیثا، ثم بعث إلی الأمراء بخاتم و کتاب یتضـمّن إقامتهم علی غزّة و الاعتـذار عن لقائهم، فعاد جنکلی و الأحمدی إلی غزّة و توجّه

قمارى إلى ناحية صافيثا، فلمّا وقف الأمير أيدغمش على ذلك كتب من فوره إلى الأمير قطلوبغا الفخرىّ يسأله أن يصحب السلطان الملك الناصر فى قدومه إلى مصر ليجلس على تخت ملكه. ثم كتب أيدغمش للامراء بغزّة بالإقامة بها فى انتظار السلطان، و عرّفهم بمكاتبة الفخرىّ و أخذ أيدغمش فى تجهيز أمور السلطنة، و أشاع قدوم السلطان خوفا من إشاعة ما عامل الناصر أحمد به الأمراء فيفسد عليه ما دبّره، فلما قدم البريد بكتاب أيدغمش إلى دمشق وافى قدوم كتاب السلطان أيضا من الكرك يتضمّن القبض على طرنطاى البجمقدار و الأمير طينال، و حمل مالهم إلى الكرك. و كان قطلوبغا الفخرى قد ولّى طينال نيابة طرابلس و طرنطاى نيابة حمص فاعتذر الفخرى بأنّ طينال فى شغل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۵۵

بحركة الفرنج، و أشار عليه بألّا يحرّك ساكنا فى هذا الوقت، و سأله سرمة حضور السلطان ليسير بالعساكر فى ركابه إلى مصر، و أكثر الفخرى من مصادرة الناس بدمشق. ثم قدم الأمير طشتمر الساقى المعروف بحمّص أخضر نائب حلب كان من بلاد الروم إلى الشام فتلقاه الفخرى و أنزله فى مكان يليق به، و كان فى كتاب الناصر أنه لا يخرج من الكرك حتّى يحضر الأمير طشتمر من بلاد الروم، فكتب الفخرى بحضوره إلى الناصر و أنّه يسرع فى مجيئه إلى دمشق. و أخذ الفخرى أيضا فى تجهيز ما يحتاج السلطان إليه، و فى ظنه أنّ السلطان يسير إليه بدمشق فيركب فى خدمته بالعساكر إلى مصر، فلم يشعر الفخرى إلّا و كتاب السلطان قد ورد عليه مع بعض الكركيين يتضمّن أنّه يركب من دمشق ليجتمع مع السلطان على غزّة فشقّ ذلك عليه و سار من دمشق بعساكرها و بمن استخدمه حتّى قدم غزة فى عدّة كبيرة فتلقّاه الأمير چنكلى و الأحمدى و قمارى أمير شكار.

و أمّا أمر الديار المصريّة فإنّ الأميرين يلبغا اليحياوى و ملكتمر الحجازىّ تفاوضا فى الكلام حتّى بلغا إلى المخاصمة، و صار لكل منهما طائفة و لبسوا آلة الحرب فتجمّعت الغوغاء تحت القلعة لنهب بيوت من عساه ينكسر من الأمراء، فلم يزل الأمير أيدغمش بالأمراء حتّى انكفوا عن القتال، و بعث إلى العامة عدّة من الأوجاقيّة فقبضوا على جماعة منهم و أودعهم بالسجن.

ثم فى يوم الخميس سابع شهر رمضان قدم أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون من قوص إلى القاهرة، و عدّتهم ستة فركب الأمراء إلى لقائهم و هرعت العامّة إليهم فخرجوا من الحرّاقة و ركبوا الخيول إلى القرافة حتى جاءوا تربة جركتمر صاحت

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۵۶

العامّة هذه تربة الذى قتل أستاذنا الملك المنصور و هجموها و أخذوا ما فيها و أخربوها حتى صارت كوم تراب، فلمّا وصل أولاد السلطان تحت القلعة وافاهم الأمير جمال الدين يوسف والى القاهرة كان، فنزل و قبّل ركبة رمضان ابن الملك الناصر فرفسه برجله و سبّه و قال له: أتنسى و نحن فى الحرّاقة عند توجّهنا إلى قوص و قد طلبنا مأكلا من الجيزة فقلت خذوهم و روحوا إلى لعنة اللّه ما عندنا شىء! فصاحت بهم العامّة: بالله مكّنا من نهبه، هذا قوصونىّ! فأشار بيده أن انهبوا بيته فتسارعوا فى الحال إلى بيته المجاور لجامع الظاهر بالحسينيّة، حتّى صاروا منه إلى باب الفتوح، فقامت إخوته و من يلوذ به فى دفع العامة بالسلاح، و بعث الأمير أيدغمش أيضا لجماعة ليردّوهم عن النهب، و خرج إليهم نجم الدين والى القاهرة، و قد تقاتل القوم حتّى كفّهم عن القتال فكان يوما، مهولا، قتل فيه من العامّة عشرة رجال، و جرح خلق كثير و لم ينتهب شىء.

ثم قدم الخبر من غزّة بقدوم الفخرى و طقزدمر إلى غزّة و اجتماعهم مع چنكلى و الأحمدى و قمارى، و هم فى انتظار السلطان، و أنّ الأمير أيدغمش يحلّف جميع أمراء مصر و عساكرها للملك الناصر على العادة، فجمعوا بالميدان. فأخرجت نسخة اليمين المحضّرة، فإذا هى تتضمّن الحلف للسلطان ثم للأمير قطلوبغا الفخرى فتوقّف

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۵۷

الأمراء عن الحلف لقطلوبغا الفخرى، حتى ابتدأ الأمير أيدغمش فحلف فتبعه الجميع خوفا من وقوع الفتنة.

و أمّا أمر الفخرى و الأمراء فإنّهم لما وصلوا إلى غزّة جمع لهم نائبها آق سنقر الإقامات من الشعير و الغنم. ثم كتب الأمراء جميعا إلى

الملك الناصر بقدومهم إلى غزّة و عرّفوه بذلك و استحثوه على سرعة الحضور صحبة مماليكهم و الأمير قمارى أمير شكار، فساروا إلى الكرك، و كان قد سبقهم إلى الكرك الأمير يحيى بن طايربغا صهر الأمير أيدغمش يستحثّ الملك الناصر أيضا على المسير الى مصر، فأقاموا جميعا ثلاثة أيام لم يؤذن لهم فى دخول المدينة. ثم أتاهم كاتب نصرانىّ و بازدار يقال له أبو بكر و يوسف بن النضّال و هؤلاء الثلاثة هم خاصّة الملك الناصر أحمد من أهل الكرك، فسلّموا عليهم و طلبوا ما معهم من الكتب، فشقّ ذلك على الأمير قمارى و قال لهم: معنا مشافهات من الأمراء للسلطان، لا بدّ من الاجتماع به، فقالوا:

لا يمكن الاجتماع به، و قد رسم إن كان معكم كتاب أو مشافهة فأعلمونا بها، فلم يجدوا بدّا من دفع الكتب إليهم، و أقاموا إلى غد فجاءتهم كتب مختومة و قيل للأمير يحيى بن طايربغا: اذهب إلى عند الأمراء بغزّة فساروا عائدين إلى غزة، فإذا فى الكتب الثناء على الأمراء و أن يتوجهوا إلى مصر، فإن السلطان يقصد مصر بمفرده، فتغيّرت خواطر الأمراء و قالوا و طالوا، و خرج الفخرىّ عن الحدّ و أفرط به الغضب، و عزم على الخلاف، فركب إليه طشتمر حمّص أخضر و الأمير چنكلى ابن البابا و الأمير بيبرس الأحمدى، و ما زالوا به حتّى كفّ عمّا عزم عليه، و وافق على المسير، و كتبوا بما كان من ذلك إلى الأمير أيدغمش، و توجّهوا جميعا من غزّة يريدون مصر. و كان أيدغمش قد بعث ابنه بالخيل الخاصّ إلى السلطان، فلمّا وصل إلى الكرك أرسل السلطان من أخذ منه الخيل، و رسم بعوده إلى أبيه،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١٠، ص: ٥٨

و أخرج رجلا من الكرك يعرف بأبى بكر البازدار و معه رجلان ليبشّروا بقدومه، فوصلوا إلى الأمير أيدغمش فى يوم الاثنين خامس عشرينه، و بلّغوه سلام السلطان و عرّفوه أنّه كان قد ركب الهجن و سار على البريّة صحبة العرب، و أنه يصابح أو يماسى، فخلع عليهم و بعث بهم إلى الأمراء، فأعطاهم كلّ أمير من الأمراء المقدّمين خمسة آلاف درهم، و أعطاهم بقيّة الأمراء على قدر حالهم، و خرج العامّة إلى لقائه.

فلمّا كان يوم الأربعاء سابع عشرين شهر رمضان قدم قاصد السلطان إلى الأمير أيدغمش بأنّ السلطان يأتى ليلا من باب القرافة، و أمر أن يفتح له باب السرّ حتى يعبر منه، ففتحه و جلس أيدغمش و ألطنبغا الماردانىّ حتى مضى جانب من ليلة الخميس ثامن عشرينه أقبل السلطان فى الليل فى نحو العشرة رجال من أهل الكرك، و قد تلثّم و عليه ثياب مفرّجة فتلقوه و سلّموا عليه، فلم يقف معهم، و أخذ جماعته و دخل بهم، و رجع الأمراء و هم يعجبون من أمره، و أصبحوا و قد دقّت البشائر بالقلعة و زيّنت القاهرة و مصر، و استدعى السلطان أيدغمش فى بكرة يوم الجمعة، فدخل عليه و قبّل له الأرض فاستدناه و طيّب خاطره، و قال له: أنا ما كنت أتطلع إلى الملك و كنت قانعا بذلك المكان، فلمّا سيّرتم فى طلبى ما أمكننى إلا أن أحضر كما رسمتم، فقام أيدغمش و قبّل الأرض ثانيا، ثم كتب عن السلطان إلى الأمراء الشاميّين يعرّفهم بقدومه إلى مصر و أنه فى انتظارهم، و كتب علامته بين الأسطر: «المملوك أحمد بن محمد». و كتب إليهم أيدغمش كتابا، و خرج مملوكه بذلك على البريد فلقيهم على الورّادة فلم يعجبهم هيئة عبور السلطان إلى مصر، و كتبوا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١٠، ص: ٥٩

إلى أيدغمش أن يخرج إليهم هو و الأمراء إلى سرياقوس ليتفقوا على ما يفعلوه.

فلمّا كان يوم عيد الفطر منع السلطان الأمراء من طلوع القلعة، و رسم لكلّ أمير أن يعمل سماطه فى داره، و لم ينزل السلطان لصلاة العيد، و أمر الطواشى عنبر السّحرتى مقدّم المماليك و نائبه الطواشى الإسماعيلى أن يجلسا على باب القلعة و يمنعا من يدخل عليه، و خلا بنفسه مع الكركيين. و كان الحاج علىّ «إخوان سلّار» إذا أتى بطعام للسلطان على عادته خرج إليه يوسف و أبو بكر البازدار و أطعماه شئنى الطعام و تسلّما السّماط منه و عبرا به إلى السلطان، و يقف الحاجّ على «إخوان سلّار» بمن معه حتى يخرج إليهم الماعون.

و حکی الرئیس جمال الدین بن المغربی رئیس الأطباء أنّ السلطان استدعاه و قد عرض له وجع فی رأسه فوجده جالسا و بجانبه شابّ من أهل الکرک جالس، و بقیهٔ الکرکیین قیام فوصف له ما یلائمه و تردّد إلیه یومین و هو علی هذه الهیئهٔ. انتهی.

ثم فی یوم الأحد تاسع شوّال قدم الأمیر سیف الدین قطلوبغا الفخری و الأمیر طشتمر الساقی حمّص أخضر و جمیع أمراء الشام و قضاتها و الوزراء و نوّاب القلاع فی عالم کبیر حتی سدّوا الأفق و نزل کثیر منهم تحت القلعهٔ فی الخیم، و کان خرج إلی لقائهم الأمیر أیدغمش و الحاجّ آل ملک و الجاولی و ألطنبغا الماردانی و غیرهم، و أخذ

النجوم الزاهرهٔ فی ملوک مصر و القاهرهٔ، ج ۱۰، ص: ۶۰

الفخری یتحدّث مع أیدغمش فیما عمله السلطان من قدومه فی زیّ العربان و اختصاصه بالکرکیین، و إقامهٔ أبی بکر البازدار حاجبه، و أنکر علیه ذلک غایهٔ الإنکار، و طلب من الأمراء موافقته علی خلعه و ردّه إلی مکانه، فلم یمکّنه طشتمر حمص أخضر من ذلک، و ساعده الأمراء أیضا، و ما زالوا به حتی أعرض عمّا همّ به، و وافق الأمراء علی طاعته. فلما کان یوم الاثنین عاشره لبس السلطان شعار السلطنهٔ و جلس علی تخت الملک، و حضر الخلیفهٔ الحاکم بأمر اللّه أبو العباس أحمد و قضاهٔ مصر الأربعهٔ و قضاهٔ دمشق الأربعهٔ، و جمیع الأمراء و المقدمین و بایعه الخلیفهٔ بالسلطنهٔ و قبّلوا الأرض بین یدیه علی العادهٔ. ثم قام السلطان علی قدمیه فتقدّم الأمراء و باسوا یده واحدا بعد واحد علی قدر مراتبهم، و جاء الخلیفهٔ بعدهم و قضاهٔ القضاهٔ ما عدا القاضی حسام الدین الغوریّ الحنفیّ، فإنه لمّا طلع مع القضاهٔ و جلسوا بجامع القلعهٔ حتّی یؤذن لهم علی العادهٔ جمع علیه [طبّاخ المطبخ السلطانیّ] بعض صبیان المطبخ جمعا من الأوباش لحقد کان فی نفسه منه عند ما تحاکم هو و زوجته عنده قبل ذلک، فأهانه القاضی المذکور، فلمّا وجد الطباخ الفرصهٔ هجم علیه بأوباشه و مدّ یده إلی الغوریّ من بین القضاهٔ و أقاموه و حرقوا عمامته فی حلقه و قطعوا ثیابه و هم یصیحون: یا قوصونیّ! ثم ضربوه بالنعال ضربا مبرّحا، و قالوا له: یا کافر یا فاسق! فارتجّت القلعهٔ، و أقبل علم دار حتی خلّصه منهم و هو یستغیث یا مسلمین! کیف یجری هذا علی قاض من قضاهٔ المسلمین؟ فأخذ الممالیک جماعهٔ من تلک الأوباش و جروهم إلی الأمیر أیدغمش فضربهم و بعث طائفهٔ من

النجوم الزاهرهٔ فی ملوک مصر و القاهرهٔ، ج ۱۰، ص: ۶۱

الأوجاقیهٔ، ساروا بالغوری إلی منزله و لم یحضر الموکب و ثارت العامّهٔ علی بیته بالمدرسهٔ الصالحیهٔ و نهبوه، فکان یوما شنیعا.

ثم فی یوم الخمیس ثالث عشره عمل السلطان موکبا آخر و خلع علی سائر الأمراء قاطبهٔ، و أنعم علی الأمیر طشتمر حمّص أخضر بعشرهٔ آلاف دینار و علی الأمیر قطلوبغا الفخری بما حضر معه من البلاد الشامیهٔ و هو أربعهٔ آلاف دینار و مائهٔ ألف درهم فضّهٔ، و نزل فی موکب عظیم بمن حضر صحبته من أمراء البلاد الشامیهٔ و هم الأمیر سنجر الجمقدار و تمر الساقی و طرنطای البجمقدار و آقبغا عبد الواحد و تمر الموسوی و ابن قراسنقر و أسنبغا بن البوبکری و بکنمر العلائی و أصلم نائب صفد. ثم طلب السلطان الوزیر نجم الدین، و رسم له أن یکون یوسف البازدار و رفیقه مقدمی البازداریّهٔ، و مقدمی الدولهٔ، و خلع السلطان علیهما کلفتاه زرکش و أقبیهٔ طردوحش بحوائص ذهب، فحکما مصر فی الدولهٔ و تکبرا علی الناس و سارا بحمق زائد.

ثم فی یوم السبت خامس عشره خلع علی الأمیر طشتمر الساقی حمّص أخضر باستقراره فی نیابهٔ السلطنهٔ بالدیار المصریّهٔ فتوّجه بخلعته و باشر النیابهٔ، و جلس و الحجاب قیام بین یدیه و الأمراء فی خدمته. و فی یوم الاثنین سابع عشره أخرج

النجوم الزاهرهٔ فی ملوک مصر و القاهرهٔ، ج ۱۰، ص: ۶۲

السلطان عبد المؤمن بن عبد الوهاب السّلامی والی قوص من السجن، و رسم بتسمیره فسمّر علی باب البیمارستان المنصوریّ بمسامیر جافیهٔ شنیعهٔ، و طیف به مدّهٔ ستهٔ أیام و هو یحادث الناس فی اللیل بأخباره، و مما حدّثهم به أنه هو الذی کان وثب علی النشو ناظر الخاصّ و ضربه بالسیف، حسب ما ذکرناه فی ترجمهٔ الملک الناصر محمد بن قلاوون من أمر النشو، و أنّه لما سقطت عمامته عن رأسه ظنّها رأسه.

و كان إذا قيل له: اصبر يا عبد المؤمن، فيقول: أسأل اللّه الصبر، و ينشد كثيرا قوله

يبكى علينا و لا نبكى على أحد لنحن أغلظ أكبادا من الإبل

و كان السبب لقتله و مثلته هذه أنه قتل الملك المنصور أبا بكر بن الناصر محمد بقوص بأمر قوصون، ثم شنق بعد ذلك فى يوم السبت ثانى عشرين شوّال على قنطرة السدّ و أكلته الكلاب. ثم قبض السلطان على أحد و عشرين أميرا و أخرجهم إلى الإسكندريّة صحبة الأمير طشتمر طلليه.

ثم فى يوم الخميس سابع عشرينه خلع على الأمير الحاجّ آل ملك بنيابة حماة عوضا عن طقزدمر الحمويّ و على بيبرس الأحمدى و استقرّ فى نيابة صفد عوضا عن أصلم الناصرى و على آق سنقر، و استقر نائب غزّة على عادته. و فى مستهلّ ذى القعدة خلع على الأمير قطلوبغا الفخرى بنيابة دمشق و على الأمير أيدغمش أمير آخور بنيابة حلب. ثم فى يوم الثلاثاء ثانيه استقرّ قمارى أمير شكار أمير آخور عوضا عن أيدغمش؛ و استقرّ أحمد شادّ الشّربخاناه أمير شكار، و استقرّ آقبغا عبد الواحد فى نيابة حمص. ثم أنعم السلطان على الأمير زين الدين قراجا بن دلغادر بإنعامات

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۶۳

كثيرة و كتب له بالإمرة على التّركمان و نيابة أبلستين. و فى يوم الأحد سابع ذى القعدة خرج الأمير أيدغمش متوجّها إلى نيابة حلب. و فى يوم الاثنين خامس عشره خرج الأمير قطلوبغا الفخرى متوجّها إلى نيابة دمشق و معه من تأخّر من عساكر الشام، و خرج الأمير نائب السلطنة بالقاهرة لوداعه و جميع الأمراء و مدّ له سماطا عظيما.

و لما توجّه الفخرى و أيدغمش و غيرهما من الديار المصرية و بقى الأمير طشتمر الساقى حمص أخضر نائب السلطنة بالقاهرة قبض عليه السلطان بعد خروج الفخرى بخمسة أيام، و ذلك فى يوم السبت العشرين من ذى القعدة.

و سبب القبض على طشتمر أنه بقى يعارض السلطان بحيث إنه كان يردّ مراسيمه و يتعاظم على الأمراء و الأجناد تعاظما زائدا، و كان إذا شفع عنده أحد من الأمراء فى شفاعة لا يقبلها، و كان لا يقف لأمير إذا دخل عليه، و إذا أتته قصّة عليها علامة السلطان بإقطاع أو غيره أخذ ذلك منه و طرد من هى باسمه، و أخرق به، و قرّر مع السلطان أنه لا يمضى من المراسيم إلّا ما يختاره، و رسم للحاجب بألّا يقدّم أحد قصّة للسلطان إلّا أن يكون حاضرا، فلم يتجاسر أحد أن يقدّم قصّة للسلطان فى غيبته. و أخذ إقطاع الأمير بيبرس الأحمدى و تقدمته لولده، فكرهته الناس، و صارت أرباب الدولة و أصحاب الأشغال كلّها فى بابه، و تقرّبوا إليه بالهدايا و التّحف، و انفرد بتدبير الملك، و حطّ على الكركيين و منعهم من الدخول على السلطان، فلم يتهيّأ له ذلك. و كان ناصر الدين المعروف بفار السّقوف قد توصّل إلى الكركيين حتى استقرّ إمام السلطان يصلّى به الخمس و ناظر المشهد النّفيسىّ عوضا عن تقىّ الدّين على بن القسطلانىّ خطيب جامع عمرو و جامع القلعة، و خلع عليه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۶۴

السلطان بغير علم طشتمر النائب، فبعث إليه طشتمر عدّة نقباء و نزع الخلعة من عليه و سلّمه إلى المقدّم إبراهيم بن صابر، و أمر بضربه و إلزامه بحمل مائة ألف درهم، فضربه ابن صابر ضربا مبرّحا و استخرج منه أربعين ألف درهم. ثم أفرج عنه بشفاعة أيدغمش و الفخرى فيه بعد ما أشهد عليه أنه لا يطلع القلعة. ثم أخذ قصير معين من مباشرى قوصون و أحاط بما فيه من القنود و الأعسال و السكّر و غير ذلك، فعظم ما فعله على السلطان و على الأمراء، فإنه خرج عن الحدّ، إلى أن قرر السلطان مع مقدّم المماليك عنبر السّحرتى و الأمير آق سنقر السّلّارى فى القبض على طشتمر و على قطلوبغا الفخرى، و أن ستدعى مماليك بشتك و قوصون و ينزلهم بالأطباق من القلعة و يعطيهم إقطاعات بالحلقة ليصيروا من جملة مماليك السلطان خوفا من حركة طشتمر النائب.

ثم رتّب السلطان عنده مماليك بداخل القصر للقبض على طشتمر أيضا. و كان مما جدّد طشتمر فى نيابته أن منع الأمراء أن تدخل مماليكها إلى القصر، و بسط من باب القصر بساطا إلى داخله كما كان فى الأيام الناصريّة فصار الأمير لا يدخل إلى القصر إلّا بمفرده،

فکان ما دبّره علیه. ثم دخل هو أیضا بمفرده و معه ولداه إلی القصر، و جلس علی السّماط علی العادة، فعند ما رفع السماط قبض کشلی السلاح‌دار أحد الممالیک السلطانیة و کان معروفا بالقوّة علی کتفیه من خلف ظهره قبضا عنیفا.

ثم بدر إلیه جماعة من الممالیک و أخذوا سیفه و قیّدوه و قیدوا ولدیه، و نزل أمیر مسعود الحاجب فی عدّة من الممالیک السلطانیة فأوقع الحوطة علی بیته و أخذ

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۶۵

ممالیکه فسجنهم. ثم خرج فی الحال ساعة القبض علی طشتمر الأمیر ألطنبغا الماردانی و الأمیر أرنبغا أمیر سلاح و معهما من أمراء الطبلخاناه و العشرات نحو خمسة عشر أمیرا و معهم أیضا من الممالیک السلطانیة و غیرهم ألف فارس، و توجّهوا لیقبضوا علی الأمیر قطلوبغا الفخری، و کتب للأمیر آق سنقر الناصری نائب غزّة بالرکوب معهم بعسکره و جمیع من عنده و من هو فی معاملته، و کان الفخری قد رکب من الصالحیة، فبلغه مسک طشتمر و مسیر العسکر إلیه من هجّان بعث به إلیه بعض ثقاته، فساق إلی قطّیا و أکل بها شیئا، ثم رحل مسرعا حتی دخل العریش فإذا آق سنقر بعسکره فی انتظاره علی الزعقة، و کان ذلک وقت الغروب فوقف کلّ منهما تجاه صاحبه. حتی أظلم اللیل سار الفخری بمن معه و هم ستون فارسا علی البریّة، فلمّا أصبح آق سنقر علم أن الفخری فاته، و مال أصحابه علی أثقال الفخری فنهبوها و عادوا إلی غزّة. و استمرّ الفخری سائرا لیلته، و من الغد حتّی انتصف النهار و هو سائق فلم یتأخّر معه إلا سبعة فرسان، و مبلغ أربعة آلاف و خمسمائة دینار، و قد وصل یبنی و علیها الأمیر أیدغمش و هو نازل فترامی علیه، و عرّفه بما جری و أنه قطع خمسة عشر بریدا فی مسیر یوم واحد، فطیّب أیدغمش خاطره و أنزله فی خیمة و قام له بما یلیق به، فلمّا جنّه اللیل أمر به فقیّد و هو نائم و کتب بذلک إلی السلطان مع بکا الخضری، و کان السلطان لمّا بلغه هروب الفخری تنکّر علی الأمراء

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۶۶

و اتّهمهم بالمخامرة علیه، و همّ فی یوم الاثنین أن یمسکهم، فتأخّر عن الخدمة الجاولی فی یوم الاثنین المذکور، و هو تاسع عشرین ذی القعدة و تأخّر معه جماعة کبیرة. فلمّا کان وقت الظهر بعث لکل أمیر طائر إوزّ مشویّ و سأل عنهم؛ ثم بعث إلیهم آخر النهار أن یطلعوا من الغد. فجاء بکا الخضری عشیّة یوم الثلاثاء مستهلّ ذی الحجّة، و معه البشارة بالقبض علی سیف الدین قطلوبغا الفخری، فسرّ السلطان بذلک، و کتب بحمله إلی الکرک. فلمّا طلع الأمراء إلی الخدمة فی یوم الثلاثاء ترضّاهم السلطان و بشّرهم بمسک الفخری، ثم أخبرهم أنه عزم علی التوجّه إلی الکرک، و تجهّز و أخذ الأموال صحبته، و أخرج الأمیر طشتمر حمّص أخضر مقیّدا فی محارة فی لیلة الأربعاء و معه جماعة من الممالیک السلطانیّة موکّلون به.

ثم تقدّم السلطان إلی الخلیفة بعد ما ولّاه نظر المشهد النّفیسیّ عوضا عن ابن القسطلانیّ أن یسافر معه إلی الکرک، و رسم لجمال الکفاة ناظر الجیش و الخاصّ، و للقاضی علاء الدین علیّ بن فضل اللّه کاتب السّر أن یتوجّها معه إلی الکرک. ثم رکب السلطان و معه الأمراء من قلعة الجبل فی یوم الأربعاء ثانیه بعد ما أمّر ثمانیة من الممالیک السلطانیة و خلع علیهم علی باب الخزانة، و خلع علی الأمیر شمس الدین آق سنقر السّلّاری و قرّره نائب الغیبة، و خلع علی شمس الدین محمد بن عدلان باستقراره قاضی العسکر، و خلع علی زین الدین عمر بن کمال الدین عبد الرحمن ابن أبی بکر البسطامیّ و استقرّ به قاضی قضاة الحنفیّة بالدیار المصریة عوضا عن حسام الدین الغوری. فلمّا سار السلطان حتی قرب قبّة النصر خارج القاهرة وقف حتی قبل الأمراء یده علی مراتبهم و رجعوا عنه، فنزل فی الحال عن فرسه، و لبس

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۶۷

ثیاب العربان و هی کاملیّة مفرّجة و عمامة بلثامین، و سائر الکرکیین فی طریقه، و ترک الأمراء الذین معه و هم قماری و ملکتمر الحجازی و أبو بکر و عمر ابنا أرغون النائب مع الممالیک السلطانیة و الطّلب، و توجّه علی البریّة إلی الکرک [و لیس معه إلّا الکرکیون و مملوکان] و هم فی أثره فقاسوا مشقّة عظیمة من العطش و غیره حتی وصلوا ظاهر الکرک و قد سبقهم السلطان إلیها، و

قدمها فى يوم الثلاثاء ثامن ذى الحجّة، و كتب للأمراء بالديار المصرية يعرّفهم بذلك و يسلّم عليهم، فقدم كتابه القاهرة فى يوم الخميس سابع عشر ذى الحجّة.

و لمّا دخل الملك الناصر أحمد إلى الكرك لم يمكّن أحدا من العسكر أن يدخل المدينة سوى كاتب السرّ و جمال الكفاة ناظر الجيش و الخاصّ فقط. و رسم أن يسير الأمير المقدّم عنبر السّحرتى بالمماليك السلطانية إلى قرية الخليل عليه السلام، و أن يسير قمارى و عمر ابن النائب أرغون و الخليفة إلى القدس الشريف. ثم رسم

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۶۸

السلطان لمقدّم المماليك عنبر السّحرتى أن ينتقل بالمماليك السلطانية من الخليل إلى غزّة لغلاء الأسعار بالخليل، و فى أثناء ذلك وصل أمير علىّ بن أيدغمش بالفخرى مقيّدا إلى غزة و بها العساكر، فبعث السلطان إليه من تسلّم منه الفخرى و أعاد ابن أيدغمش إلى أبيه و لم يجتمع به، فسجن السلطان قطلوبغا الفخرى و طشتمر حمص أخضر بقلعة الكرك بعد ما نكّل بالفخرى و أهين من العامّة إهانة زائدة.

ثم كتب السلطان لآق سنقر السّلّارى نائب الغيبة بإرسال حريم الفخرى إلى الكرك، و كانوا قد ساروا من القاهرة بعد مسير الفخرى بيوم، فجهزهنّ إليه، فأخذ أهل الكرك جميع ما معهنّ حتى ثيابهنّ، و بالغوا فى الفحش بهنّ و الإساءة. ثم كتب السلطان لآق سنقر السلارى نائب الغيبة بالديار المصرية أن يوقع الحوطة على موجود طشتمر حمص أخضر و قطلوبغا الفخرى، و يحمل ذلك إليه بالكرك. و كان شأن الملك الناصر أحمد أنه إذا رسم بشيء جاء كاتب كركىّ لكاتب السرّ و عرّفه عن السلطان بما يريد، فيكتب كاتب السرّ ذلك و يناوله للكاتب الكركى حتى يأخذ عليه علامة السلطان، و يبعثه حيث يرسم به، هذا ما كان من أمر الملك الناصر.

أما العسكر المتوجّه من القاهرة إلى غزة فإن ابن أيدغمش لمّا قدم عليهم بمدينة غزة و معه الفخرى أراد الأمير علاء الدين ألطنبغا المارداني أن يؤخّره عنده بغزة حتّى يراجع فيه السلطان فلم يوافقه ابن أيدغمش، و توجّه به إلى الكرك، فرحل ألطنبغا المارداني و بقيّة العساكر عند ذلك إلى جهة الديار المصريّة فقدموها يوم السبت سادس عشرين ذى الحجّة و انعكف السلطان على اللّهو و احتجب عن الناس

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۶۹

إلّا الكركيين. ثم بلغه تغيّر خواطر الأمراء فأخذ فى تحصين قلعة الكرك و مدينتها و أشحنها بالغلال و الأقوات و الأسلحة.

و أمّا أمر الديار المصرية فإنه شقّ عليهم غيبة السلطان منها، و اضطربت أحوال القاهرة و صارت غوغاء، و صار عند أكابر الأمراء تشويش كثير لمّا بلغهم من مصاب حريم الأمير قطلوبغا الفخرى. و بقى الأمير آق سنقر السّلّارى فى تخوّف عظيم فإنه بلغه بأن جماعة من المماليك الذين قبض على أستاذهم قد باطنوا بعض الأمراء على الركوب عليه، فترك آق سنقر الركوب فى أيام المواكب أياما حتى اجتمع الأمراء عنده و حلفوا له. ثم اتّفق رأى الأمراء على أن كتبوا للسلطان الملك الناصر أحمد كتابا فى خامس محرم سنة ثلاث و أربعين و سبعمائة بأنّ الأمور واقفة لغيبة السلطان، و قد نافق غالب عربان الصعيد و غيره و طمع أرباب الفساد، و خيفت السّبل و فسدت الأحوال، و سألوا حضوره إلى الديار المصرية و أرسلوا الكتاب على يد الأمير طقتمر الصلاحىّ فتوجّه طقتمر إليه، ثم عاد إلى الديار المصرية بجوابه فى حادى عشره: بأننى قاعد فى موضع أشتهى، و أىّ وقت أردت حضرت إليكم؛ و ذكر طقتمر أنّ السلطان لم يمكّنه الاجتماع به، و أنه بعث من أخذ منه الكتاب، ثم أرسل إليه الجواب.

و قدم الخبر بأنه قتل الأمير طشتمر الساقى حمّص أخضر، و الأمير قطلوبغا الفحرى، و كان قصد قتلهما بالجوع، فأقاما يومين بلياليهما لا يطعمان طعاما، فكسبرا قيدهما- و كان السلطان قد ركب للصيد- و خلعا باب السجن ليلا و خرجا إلى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۷۰

الحارس فأخذا سيفه و هو نائم فأحسّ بهما، و قام يصيح حتى لحقه أصحابه فأخذوهما و بعثوا إلى السلطان بخبرهما، فقدم فى زىّ

العربان و وقف على الخندق و أحضرهما و قد كثرت بهما الجراحات، فأمر يوسف و رفيقه بضرب أعناقهما، و أخذ يسبّهما فردّا عليه السبّ ردّا قبيحا، و ضربت رقابهما، فلمّا بلغ الأمراء ذلك اشتدّ قلقهم.

ثم قدم كتاب السلطان للأمراء يطيّب خواطرهم و يعرّفهم أن مصر و الشام و الكرك له، و أنه حيثما شاء أقام، و رسم أن تجهّز له الأغنام من بلاد الصعيد، فتنكرت قلوب الأمراء، و نفرت خواطرهم و تكلّموا فيما بينهم فى خلعه، حتى اتّفق الأمراء على خلعه من السلطنة، و إقامة أخيه إسماعيل ابن الملك الناصر محمد، فخلع فى يوم الأربعاء حادى عشرين المحرّم من سنة ثلاث و أربعين و سبعمائة، فكانت مدة ولايته ثلاثة أشهر و ثلاثة عشر يوما، منها مدّة إقامته بمدينة الكرك، و مراسيمه نافذة بمصر أحد و خمسين يوما. و إقامته بمصر شهران إلا أياما.

و كان لمّا خرج من الديار المصرية متوجّها إلى الكرك جمع الأغنام التى كانت لأبيه و أغنام قوصون، و عدّتها أربعة آلاف رأس و أربعمائة رأس من البقر التى كان استحسنها أبوه، و أخذ الطيور التى كانت بالأحواش على اختلاف أنواعها، و حملها على رءوس الحمّالين إلى الكرك، و ساق الأغنام و الأبقار إليها، و معهم عدّة سقّايين، و عرض الخيول و الهجن، و أخذ ما اختاره منها و من البخاتى و حمر الوحش و الزراريف و السّباع، و سيّرها إلى الكرك. ثم فتح الذخيرة و أخذ منها جميع ما فيها من الذهب و الفضة و هو ستمائة ألف دينار و صندوق فيه الجواهر التى جمعها أبوه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۷۱

فى مدة سلطنته. و تتبع جوارى أبيه حتى عرف المتموّلات منهنّ، فصار يبعث إلى الواحدة منهنّ يعرّفها أنه يدخل عليها الليلة فإذا تجمّلت بحليها و جواهرها أرسل من يحضرها إليه، فإذا خرجت من موضعها ندب من يأخذ جميع ما عندها، ثم يأخذ جميع ما عليها، حتى سلب أكثرهنّ. ثم عرض الرّكبخاناه، و أخذ ما فيها من السروج و اللّجم و السلاسل الذهب و الفضة. و أخذ الطائر الذهب الذى كان على القبّة، و أخذ الغاشية الذهب و طلعات السناجق؛ و ما ترك بالقلعة مالا إلّا أخذه، و استمرّ بالكرك.

فلمّا تسلطن أخوه الملك الصالح إسماعيل حسب ما يأتى ذكره أرسل إلى الكرك يطلب من أخيه الناصر أحمد هذا شعائر الملك، و ما كان أخذه من الخزائن و غيرها، فلم يلتفت الناصر إلى كلامه، فندب السلطان الملك الصالح تجريدة لحصاره بالكرك، و استمرّ يبعث إليه تجريدة بعد أخرى سبع تجاريد، حتى إنّه لم يبق بمصر و الشام أمير إلا تجرّد إلى الكرك مرّة و مرّتين إلى أن ظفروا به حسب ما يأتى ذكر ذلك كلّه مفصّلا فى ترجمة الملك الصالح إسماعيل. و لمّا ظفروا بالملك الناصر أحمد قيدوه و حبسوه بالكرك بعد أن حاصروه بها مدّة سنتين و شهر و ثلاثة أيام، حتى قبض عليه، اتلف فيها أموالا كثيرة فى النفقات على المقاتلة، و أخذ أمره يتلاشى و هلك من عنده بالجوع. و ضرب الذهب و خلط به الفضّة و النحاس و نفق ذلك فى الناس، فكان الدينار الذى ضربه يساوى خمسة دراهم.

و كان القبض على الملك الناصر من الكرك فى يوم الاثنين الظهر ثانى عشرين صفر سنة خمس و أربعين و سبعمائة، و كتب بذلك إلى السلطان، فأرسل السلطان الملك الصالح الأمير منجك اليوسفىّ الناصرىّ السلاحدار الى الكرك فقتله و حزّ رأسه و توجه بها إلى القاهرة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۷۲

و كان الملك الناصر أحمد هذا قد أخرجه أبوه الملك الناصر محمد بن قلاوون من الديار المصرية إلى الكرك و هو صغير، لعلّه لم يبلغ العشر سنين، فربّى بالكرك و أحبّ أهلها و صارت له وطنا، و كان نائب الكرك إذ ذاك ملكتمر السّرجوانىّ زوج أمّه.

ثم أرسل إليه أبوه أخويه: إبراهيم و أبا بكر المنصور فأقاموا الجميع بالكرك إلى أن طلبهم والدهم، و أعاد الناصر هذا إلى الكرك ثم طلبه ثانيا و زوّجه ببنت الأمير طايربغا من أقارب الملك الناصر، ثم أعاده إلى الكرك.

و كان الناصر هذا احسن إخوته وجها و شكلا، و كان صاحب لحية كبيرة و شعر غزير، و كان ضخما شجاعا صاحب بأس و قوّة

مفرطة، و عنده شهامة مع ظلم و جبروت، و هو أسوأ أولاد الملک الناصر سيرة مع خفّة و طيش.

*** السنة التى حكم فى أوّلها المنصور أبو بكر إلى حادى عشرين صفر على أنه حكم من السنة الماضية تسعة ايام. ثم حكم فيها من صفر إلى يوم الخميس أوّل شعبان الملك الأشرف كچك. ثم حكم فيما بقى منها الملك الناصر أحمد هذا، و الثلاثة أولا الناصر محمد بن قلاوون حسب ما تقدّم ذكره، و السنة المذكورة سنة اثنتين و أربعين و سبعمائة.

فيها وقعت حادثة غريبة و هى أن رجلا بواردیا يقال له محمد بن خلف بخطّ السّيوفيّين من القاهرة قبض عليه فى يوم السبت سادس عشر رمضان، و احضر

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ١٠، ص: ٧٣

إلى محتسب القاهرة فوجد بمخزنه من فراخ الحمام و الزرازير المملوحة عدّة أربعة و ثلاثين ألف و مائة و ستة و تسعين، من ذلک أفراخ حمام ألف و مائة و ستة و تسعون، فرخا. وزرازير عدّة ثلاثة و ثلاثين ألف زرزور، و جميعها قد نتنت و تغيّرت أحوالها، فأدّب و شهّر.

و فيها توفّى الأمير علاء الدين ألطنبغا الصالحىّ الناصرىّ نائب الشام مقتولا بسجن الإسكندرية. كان أصله من صغار مماليك المنصور قلاوون، و ربّى عند الملک الناصر محمد بن قلاوون، و توجه معه إلى الكرك، فلما عاد الملک الناصر إلى ملكه أنعم عليه بإمره عشرة و جعله جاشنكيره، ثم ولّاه حاجبا. ثم نقله من الحجوبيّة إلى نيابة حلب بعد موت أرغون النائب، فسار فيها سيرة مشكورة و غزا بلاد سيس، حتّى أخذها بالأمان؛ و قال فى ذلک العلّامة زين الدين عمر بن الوردى قصيدة طنّانة أوّلها:

جهادک مقبول و عامک قابل ألا فى سبيل المجد ما أنت فاعل

و عمّر الأمير ألطنبغا المذكور فى نيابته بحلب جامعا فى شرقيّها، و لم يكن إذ ذاک داخل سور حلب جامع تقام فيه الخطبة سوى الجامع الكبير الأموىّ، و أقام بحلب حتى وقع بينه و بين تنكز نائب الشام، فشكاه تنكز إلى الملک الناصر فعزله عن نيابة حلب، و ولّاه نيابة غزّة إلى أن غضب السلطان على تنكز ولّاه عوضه نيابة الشام الى أن مات الملک الناصر و تسلطن أولاده انضمّ ألطنبغا هذا إلى قوصون، فكان

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ١٠، ص: ٧۴

ذلک سببا لهلاكه؛ و قد تقدم ذكر ذلک كلّه مفصلا. و كان أميرا جليلا شجاعا مشكور السيرة و مات و قد جاوز الخمسين سنة من العمر.

و فيها توفّى ملک التتار أزبک خان بن طغرلجا بن منكوتمر بن طغان بن باطو ابن دوشى خان بن چنكز خان. و مات أزبک خان بعد أن ملک نحوا من ثلاثين سنة، و كان أسلم و حسن إسلامه و حرّض رعيته على الإسلام فأسلم بعضهم، و لم يلبس أزبک خان بعد أن أسلم السّراقوجات، و كان يلبس حياصة من فولاذ و يقول: لبس الذهب حرام على الرجال، و كان يميل إلى دين و خير، و يتردّد إلى الفقراء، و كان عنده عدل فى رعيته، و تزوّج الملک الناصر محمد بابنته. و كان أزبک شجاعا كريما مليح الصورة ذا هيبة و حرمة. و مملكته متسعة، و هى من بحر قسطنطينيّة إلى نهر أرتش مسيرة ثمانمائة فرسخ، لكن أكثر ذلک قرى و مراع.

و ولى الملک بعده جانى بک خان.

و توفّى الأمير سيف الدين بشتک بن عبد اللّه الناصرى مقتولا بسجن الإسكندرية فى شهر ربيع الآخر. و كان إقطاعه يعمل بمائتى ألف دينار فى كلّ سنة، و أنعم عليه أستاذه الملک الناصر محمد فى يوم واحد بألف ألف درهم. و كان راتبه لسماطه فى كلّ يوم خمسين رأسا من الغنم و فرسا، لابدّ من ذلک. و كان كثير التّيه لا يحدّث

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ١٠، ص: ٧۵

مباشريه إلا بترجمان. و هو صاحب القصر بين القصرين و الحمام بالقرب من سويقة العزّى و الجامع عند قنطرة طقزدمر خارج القاهرة.

قال الشيخ صلاح الدين الصفدى: «و كان بشتك أهيف القامة، حلو الوجه. قربه السلطان و ادناه، و كان يسمّيه فى غيبته بالأمير، و كان إقطاعه سبعة عشرة [إمرة] طبلخاناه أكبر من إقطاع قوصون، و ما يعلم قوصون بذلك».

و توفّى الأمير سيف الدين طاجار بن عبد اللّه الناصرى الدّوادار قتيلا بثغر الإسكندرية. و كان من خواصّ الملك الناصر محمد بن قلاوون و من أكابر مماليكه، و رقّاه حتى ولّاه الدّواداريّة، و كان ممّن انضم إلى الملك المنصور أبى بكر فقبض عليه عند خلعه و قتل.

و فيها توفّى الأمير سيف الدين جركتمر بن عبد اللّه الناصرىّ قتيلا.

و توفّى الأمير قوصون بن عبد اللّه الناصرىّ الساقى قتيلا بثغر الإسكندرية فى شوّال، و قد مرّ من ذكره ما فيه كفاية عن تكراره ثانيا.

و توفّى الملك الأفضل علاء الدين على ابن الملك المؤيّد عماد الدين إسماعيل [ابن الملك الأفضل على] ابن الملك المظفّر محمود ابن الملك المنصور محمد ابن الملك المظفّر تقىّ الدين عمر بن شاهنشاه ابن الأمير نجم الدين أيّوب بن شادى بن مروان

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۷۶

الأيّوبى صاحب حماة و ابن صاحبها. مات بدمشق، و هو من جملة أمرائها بعد ما باشر سلطنة حماة عشرين سنة إلى أن نقله قوصون إلى إمرة الشام، و ولى نيابة حماة بعده الأمير طقزدمر الحموى. و كانت وفاته فى ليلة الثلاثاء حادى عشر ربيع الآخر عن ثلاثين سنة.

و توفّى الأمير شرف الدين، و قيل مظفّر الدين موسى بن مهنّا بن عيسى بن مهنا ابن مانع بن حديثة بن عصيّة بن فضل بن ربيعة أمير آل فضل بمدينة تدمر.

و كان من أجلّ ملوك العرب، مات فجأة فى العشر الأخير من جمادى الأولى.

و توفّى الحافظ الحجّة جمال الدين أبو الحجّاج يوسف بن الزّكى عبد الرحمن بن يوسف بن علىّ بن عبد الملك بن أبى الزّهر القضاعىّ الكلبى المزّى الحلبى المولد، ولد بظاهر حلب فى عاشر ربيع الآخر سنة أربع و خمسين و ستمائة، و مات بدمشق فى ثانى عشر صفر، و كان إمام عصره أحد الحفّاظ المشهورين. سمع الكثير و رحل و كتب و صنّف. و قد ذكرنا عدّة كبيرة من مشايخه و سماعاته فى ترجمته

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۷۷

فى «المنهل الصافى» و نبذة كبيرة من أخباره. و من مصنفاته «كتاب تهذيب الكمال» و هو فى غاية الحسن فى معناه.

و توفّى الأمير سيف الدين تمر بن عبد اللّه الساقىّ الناصرىّ أحد أمراء الألوف فى يوم الأحد ثامن عشرين ذى الحجة. و كان من أكابر الأمراء و من أعيان خاصكيّة الملك الناصر محمد بن قلاوون و مماليكه.

و توفّى القاضى برهان الدين أبو إسحاق إبراهيم بن فخر الدين خليل بن إبراهيم الرسعنى الشافعى قاضى حلب بها. و كان فقيها فاضلا، ولى القضاء بحلب و غيرها و أفتى و درّس.

و توفى الأمير علاء الدين على ابن الأمير الكبير سيف الدين سلّار فى شهر ربيع الآخر. و كان من أعيان الأمراء بالديار المضرية.

و توفّى خطيب جامع دمشق الأموىّ الشيخ بدر الدين محمد ابن قاضى القضاة جلال الدين محمد القزوينى الشافعىّ. و كان فاضلا خطيبا فصيحا.

و توفّى الأمير ركن الدين بيبرس بن عبد اللّه الناصرىّ السلاح دار نائب الفتوحات بآياس و غيرها. و كان من أجلّ الأمراء الناصريّة. كان شجاعا كريما، و له المواقف المشهودة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ست أذرع و عشر أصابع. مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا و تسع أصابع. و اللّه تعالى أعلم.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۷۸

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۴۳]

ذکر ولایة الملک الصالح إسماعیل علی مصر

السلطان الملک الصالح عماد الدین أبو الفداء إسماعیل ابن السلطان الملک الناصر ناصر الدین محمد ابن السلطان الملک المنصور قلاوون و هو السلطان السادس عشر من ملوک الترک بالدیار المصریة و الرابع من بنی محمد بن قلاوون. جلس علی تحت الملک فی یوم الخمیس ثانی عشرین المحرم سنة ثلاث و أربعین و سبعمائة بعد خلع أخیه الملک الناصر أحمد باتّفاق الأمراء علی ذلک لما بلغهم عن حسن سیرته، فإنّه قیل للأمراء لمّا أخرج قوصون أولاد الملک الناصر إلی قوص کان إسماعیل هذا یصوم یومی الاثنین و الخمیس، و یشغل أوقاته بالصلاة و قراءة القرآن مع العفّة و الصّیانة عمّا یرمی به الشّباب من اللّهو و اللّعب، فلمّا بلغهم ذلک اتّفقوا علی إقامته فی الملک و سلطنوه و حلّفوا له الأمراء و العساکر و حلف لهم أیضا السلطان الملک الصالح إسماعیل المذکور ألّا یؤذی أحدا و ألا یقبض علی أمیر بغیر ذنب، فتمّ أمره، و لقّب بالملک الصالح، و دقّت البشائر، و نودی بزینة القاهرة و مصر، و رسم بالإفراج عن المسجونین بثغر الإسکندریة، و کتب بالإفراج أیضا إلی الوجه القبلی و البحری و ألّا یترک بالسجون إلّا من استحقّ علیه القتل. و استقرّ الأمیر

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۷۹

أرغون العلائی زوج أمّ الملک الصالح رأس نوبة، و یکون رأس المشورة و مدبر السلطنة و کافل السلطان. و استقرّ الأمیر آق سنقر السّلّاری نائب السلطنة بالدیار المصریة. و کتب للأمراء ببلاد الشام و النوّاب باستمرارهم و أرسل إلیهم الخلع علی ید الأمیر طقتمر الصلاحیّ، و کتب بتقلید الأمیر أیدغمش نائب حلب بنیابة الشام، و استقرّ عوضه فی نیابة حلب الأمیر طقزدمر الحموی نائب حماة.

و استقرّ فی نیابة حماة عوضا عن طقزدمر الأمیر علم الدین سنجر الجاولی.

ثم کتب السلطان الملک الصالح إسماعیل إلی أخیه الملک الناصر أحمد بالسلام و إعلامه أنّ الأمراء أقاموه فی السلطنة لمّا علموا أنه لیس له رغبة فی ملک مصر، و أنّه یحب بلاد الکرک و الشّوبک و هی تحکّمک و ملکک، و سأله أن یرسل القبّة و الطّیر و الغاشیة و النّمجاة و توجّه بالکتاب الأمیر قبلای، و خرج الأمیر بیغرا و معه عدّة من الأوجاقیة لجرّ الخیول السلطانیة من الکرک الذی کان الملک الناصر أخذهم من الإسطبل السلطانی، و توجّه الجمیع إلی جهة الکرک. ثم فی یوم الأربعاء ثامن عشرین المحرم قدم الأمراء المسجونون بثغر الإسکندریة إلی القاهرة، و عدّتهم ستة و عشرون أمیرا، منهم الأمیر قیاتمر و طیبغا المجدیّ و ابن طوغان چق و أسنبغا ابن البوبکری و ابن سوسون و ناصر الدین محمد بن المحسنی و الحاجّ أرقطای نائب طرابلس فی آخرین، و طلعوا إلی القلعة و قبّلوا الأرض بین یدی السلطان. ثم رسم السلطان أن یجلس أرقطای مکان الأمیر علم الدین سنجر الجاولی المنتقل إلی نیابة حماة، و أن یتوجّه البقیة علی إمریات ببلاد الشام.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۸۰

و فی یوم السبت أوّل صفر قدم من غزّة الأمیر قماری أمیر شکار و الأمیر أبو بکر بن أرغون النائب و الأمیر ملکتمر الحجازیّ و صحبتهم الخلیفة الحاکم بأمر اللّه أحمد، و مقدّم الممالیک الطّواشی عنبر السّحرتی و الممالیک السلطانیة مفارقین الملک الناصر أحمد. و فیه خرج الأمیر طقردمر الحموی من القاهرة لنیابة حلب.

و فی یوم الاثنین ثالثه خلع علی الأمیر سنجر الجاولی نائب حماة خلعة السفر، و خلع فیه أیضا علی الأمیر مسعود بن خطیر الحاجب خلعة السفر لنیابة غزّة، و خلع علی القاضی بدر الدین محمد بن محیی الدین یحیی بن فضل اللّه، و استقرّ فی کتابة السرّ بدمشق عوضا عن أخیه شهاب الدین أحمد. و رسم بسفر ممالیک قوصون و الأمیر بشتک إلی البلاد الشامیة متفرّقین، و کتب إلی النوّاب بذلک. و فیه استقرّ الأمیر چنکلی بن البابا فی نظر البیمارستان المنصوریّ بین القصرین عوضا عن سنجر الجاولی. و جلس الأمیر آق سقر السّلّاری بدار النیابة بعد ما عمّرها و فتح شباکا.

و رسم له أن یعطی الأجناد الإقطاعات من ثلثمائة دینار إلی أربعمائة دینار و یشاور فیما فوق ذلک. و استقرّ المکین إبراهیم بن قروینة فی نظر الجیش. و عیّن ابن التاج إسحاق لنظر الخاصّ کلاهما عوضا عن جمال الکفاة بحکم غیبته بالکرک عند الملک الناصر أحمد. و فیه أنعم السلطان علی أخیه شعبان بإمرة طبلخاناه.

و فی یوم الاثنین رابع عشرین صفر خلع السلطان علی جمیع الأمراء کبیرهم و صغیرهم الخلع السنیّة. و فی یوم الثلاثاء خامس عشرینه قدم القاضی علاء الدین علی بن فضل اللّه کاتب السرّ و جمال الکفاة ناظر الجیش و الخاصّ من الکرک إلی

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۸۱

الدیار المصریة مفارقین الملک الناصر بحیلة دبرها جمال الکفاة، و قد بلغه عن الناصر أنه یرید قتلهم خوفا من حضورهم الی مصر و نقلهم لما هو علیه من سوء السیرة.

فبذل جمال الکفاة لیوسف البازدار مالا جزیلا حتی مکّنهم من الخروج، فأقبل علیهم الأمراء و السلطان، و خلع علیهم باستمرارهم علی وظائفهم.

ثم فی یوم الثلاثاء ثالث عشرین ربیع الأوّل رسم السلطان للأمیر ألطنبغا الماردانیّ الناصریّ بنیابة حماة عوضا عن الأمیر سنجر الجاولی و کتب بحضور سنجر الجاولی الی نیابة غزّة عوضا عن أمیر مسعود و نقل أمیر مسعود الی إمرة طبلخاناه بدمشق.

و قدم الخبر من شطّی أمیر العرب بأن الملک الناصر أحمد قرّر مع بعض الکرکیین أنه یدخل الی مصر و یقتل السلطان فتشوّش الأمراء لذلک فوقع الاتفاق علی تجرید العساکر لقتال الملک الناصر و أخذه من الکرک. و فی یوم الخمیس ثالث شهر ربیع الآخر توجّهت التجریدة الی الکرک صحبة الأمیر بیغرا، و هذه أوّل التجاریدة الی الکرک لقتال الملک الناصر أحمد، و فی عقیب ذلک حدث للسلطان رعاف مستمرّ فاتهمت أمّه أمّ السلطان الأشرف کچک خوند أردو بأنّها سحرته، و هجمت علیها و أوقعت الحوطة علی موجودها و ضربت عدّة من جواریها لیعترفن علیها، فلم یکن غیر قلیل حتّی عوفی السلطان، و رسم بزینة القاهرة، و حملت أمّ السلطان الی المشهد النفیسیّ قندیل ذهب، زنته رطلان و سبع أواق و نصف أوقیة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۸۲

ثم قدم الخبر علی ید إیاز الساقی بموت الأمیر أیدغمش نائب الشام فجأة، فوقع الاختیار علی استقرار الأمیر طقزدمر الحمویّ نائب حلب مکانه فی نیابة الشام و استقرّ الأمیر ألطنبغا الماردانیّ عوضا عن طقزدمر فی نیابة حلب، و استقرّ الأمیر یلبغا الیحیاویّ فی نیابة حماة عوضا عن الماردانی.

ثم أنعم السلطان علی أرغون العلائیّ بإقطاع الأمیر قماری بعد موته، و کتب السلطان لنائب صفد و غزّة بالنّجدة للأمیر بیغرا لحصار الملک الناصر بالکرک.

ثم قدم الخبر من شطّی أنه رکب مع العسکر علی مدینة الکرک و قاتلوا أهل الکرک و هزموهم إلی القلعة، و أنّ الملک الناصر أذعن و سأل أن یمهل حتّی یکتب إلی السلطان لیرسل من یتسلّم منه قلعة الکرک، فرجعوا عنه فلم یکن غیر قلیل حتی استعدّ الملک الناصر و قاتلهم.

و فی یوم الأربعاء رابع شهر رجب کانت فتنة الأمیر رمضان أخی السلطان، و سبب ذلک أنّ السلطان کان أنعم علیه بتقدمة ألف، فلمّا خرج السلطان إلی سریاقوس تأخّر رمضان عنه بالقلعة و تحدّث مع طائفة من الممالیک فی إقامته سلطانا و اتّفقوا علی ذلک، فلمّا مرض السلطان الملک الصالح هذا و استرخی قوی أمره، و شاع ذلک بین الناس و راسل تکا الخضریّ و من خرج معه من الأمراء، و واعد من وافقه علی الرکوب بقبّة النصر، فبلغ ذلک السلطان و مدبّر دولته الأمیر أرغون العلائی، فلم یعبأ بالخبر إلی أن أهلّ شهر رجب، جهّز الأمیر رمضان خیوله و هجنه بناحیة برکة الحبش، و واعد أصحابه علی یوم الأربعاء، فبلغ الأمیر آق سنقر أمیر

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۸۳

آخور عند الغروب بما هو فيه من الحركة، فندب عدّة من العربان ليأتوه بخبر القوم، فلمّا أتاه خبرهم سار إليهم و أخذ جميع الخيل و الهجن عن آخرهم من خلف القلعة و ساقهم إلى الإسطبل السلطانى و عرّف السلطان و العلائى أرغون من باب السرّ بما فعله فطلباه إليهما فصعد بما ظفر به من أسلحة القوم، فاتّفقوا على طلب إخوة السلطان إلى عنده و الاحتفاظ بهم، فلمّا طلع الفجر خرج أرغون العلائى من بين يدى السلطان و طلب إخوة السلطان و وكّل بهم و وكّل ببيت رمضان جماعة حتى طلعت الشمس، و صعد الأمراء الأكابر إلى القلعة فاستدعى السلطان لهم و أعلموه بما وقع، فطلبوا سيدى رمضان إليهم فآمتنع من الحضور و هم يلحّون فى طلبه إلى أن خرجت أمّه و صاحت عليهم، فعادوا عنه إلى أرغون العلائى، فبعث أرغون بعدة من المماليك و الخدّام لإحضاره فخرج فى عشرين مملوكا إلى باب القلّة و سأل عن النائب، فقيل له عند السلطان مع الأمراء فمضى إلى باب القلعة و سيوف أصحابه مصلتة، و ركب على خيول الأمراء، و مرّ بمن معه إلى سوق الخيل تحت القلعة فلم يجد أحدا من الأمراء، فتوجّه إلى جهة قبّة النصر خارج القاهرة و وقف هناك و معه الأمير تكا الخضرى و قد اجتمع الناس عليهم، و بلغ السلطان و الأمراء خبره فأخرج السلطان محمولا بين أربعة لما به من الاسترخاء، و ركب النائب و آق سنقر أمير آخور و قمارى أخو بكتمر الساقى و جماعة أخر، و أقام أكابر الأمراء عند السلطان و صفّت أطلابهم تحت القلعة، و ضربت الكوسات حربيا، و نزلت النقباء

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۸۴

فى طلب الأجناد، و توجّه النائب إلى قبة النصر، و وقف بمن معه تجاه رمضان، و قد كثر جمع رمضان من أجناد الحسينيّة و من مماليك تكا و العامّة، و بعث النائب يخبر السلطان بذلك، فمن شدّة ما انزعج نهضت قوّته، و قام قائما على قدميه بعد ما كان يئس من نفسه من عظم استرخاء أعضائه، و أراد الركوب فقام الأمراء و هنّوه بالعافية و قبّلوا له الأرض و هوّنوا عليه أمر أخيه رمضان، و لا زالوا به حتّى جلس مكانه، فأقام إلى بعد الظهر و النائب يراسل رمضان و يعده بالجميل و يخوّفه العاقبة، و هو لا يلتفت إلى قوله، فعزم النائب على الحملة عليه هو و من معه و دقّ طبله فلم يثبت العامّة المجتمعة على رمضان و انفلّوا عنه و انهزم هو و تكا الخضرى فى عدّة من المماليك إلى البريّة، و الأمراء فى طلبه فعاد النائب إلى السلطان، فلمّا كان بعد العشاء الآخرة من ليلة الخميس أحضر رمضان و تكا الخضرى و قد أدركوهما بعد المغرب، و رموا تكا بالنّشاب، حتى ألقوه عن فرسه و قد وقف فرس رمضان من شدّة السّوق فوكّل برمضان من يحفظه، و أذن للأمراء بنزولهم إلى بيوتهم، و طلعوا من بكرة يوم الخميس إلى الخدمة على العادة، و جلس السلطان و طلب مماليك رمضان، فأحضروا فأمر بحبسهم فحبسوا أياما، ثم فرّقهم السلطان على الأمراء، ثم خلع السلطان على الأمراء و فرّق عليهم الأموال.

و فى يوم الاثنين سادس عشره وصل قاصد الأمير بيغرا المتوجّه إلى الكرك بمن معه من العساكر بعد ما حاربوا الملك الناصر أحمد بالكرك و قاتلوه قتالا شديدا، و جرح منهم جماعة و قلّت أزوادهم، فكتب السلطان بإحضارهم إلى الديار المصريّة. و فيه خلع السلطان على طرنطاى البشمقدار بنيابة غزّة عوضا عن الأمير علم الدين سنجر الجاولى، و كتب بقدوم الجاولى إلى مصر. و فى يوم الثلاثاء

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۸۵

رابع عشرينه وسّط السلطان تكا الخضرى بسوق الخيل تحت القلعة و وسّط معه مملوكين من المماليك السلطانية. و فى هذا الشهر وقف السلطان الملك الصالح صاحب الترجمة ثلثى ناحية سندبيس من القليوبيّة على ستة عشر خادما لخدمة الضريح الشريف النبوىّ عليه الصلاة و السلام، فتمّت عدّة خدّام الضريح الشريف النبوى بذلك أربعين خادما.

قلت للّه دره فيما فعل! و على هذا تحسد الملوك لا على غيره.

ثم اتّفق الأمراء مع السلطان على إخراج تجريدة ثانية لقتال الملك الناصر بالكرك، فلمّا كان عاشر شعبان خرج الأمير بيبرس الأحمدى و الأمير كوكاى فى ألفى فارس تجريدة للكرك، و كتب السلطان أيضا بخروج تجريدة من الشام مضافا إلى من خرج من

الأمراء و العساكر من الديار المصريّة، و توجّه الجميع و نصبت المناجيق على الكرك و جدّوا فى حصارها.

و أما الملك الصالح فإنّه بعد خروج التجريدة خلع على جمال الكفاة بعد ما عزل و صودر باستقراره مشير الدولة بسؤال وزير بغداد فى ذلك بعد أن أعيد إلى الوزارة و نزلا معا [بتشاريفهما].

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۸۶

و فى ذى القعدة رتّب السلطان دروسا للمذاهب الأربعة بالقبة المنصوريّة و وقف عليهم و على قرّاء و خدّام و غير ذلك ناحية دهمشا بالشرقيّة فاستمرّ ذلك و عرف بوقف الصالح.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة؛ ج ۱۰؛ ص ۸۶

فى يوم الأربعاء عاشر المحرّم سنة أربع و أربعين و سبعمائة قبض السلطان على أربعة أمراء، و هم الأمير آق سنقر السّلّارى نائب السلطنة و الأمير بيغرا أمير جاندار صهر آق سنقر المذكور و الأمير قراجا الحاجب و أخيه أولاجا، و قيّدوا و رسم بحبسهم فى الإسكندرية، و خرج الأمير بلك على البريد إلى المجرّدين إلى الكرك فأدركهم على السّعيدية، و طيّب خواطرهم و أعلمهم بالقبض على الأمراء و عاد سريعا، فقدّم قلعة الجبل طلوع الشمس من يوم الخميس حادى عشره، و بعد وصوله قبض السلطان على طيبغا الدّوادار الصغير، و كان سبب قبض السلطان على هؤلاء الأمراء أن الأمير آق سنقر كان فى نيابته لا يردّ قاصدا و لا قصّة ترفع إليه، فقصده الناس من الأقطار و سألوه الرّزق و الأراضى التى أنهوا أنّها لم تكن بيد أحد، و كذلك نيابة القلاع و الأعمال و الرواتب و إقطاعات الحلقة، فلم يردّ أحدا سأله شيئا من ذلك سواء أكان ما أنهاه صحيحا أم باطلا، فإذا قيل له: هذا الذى سأله يحتاج أن يكشف عنه تغيّر وجهه و قال: ليش تقطع رزق الناس؛ و كان إذا كتب الإقطاع لأحد فيحضر صاحبه من سفره أو تعافى من مرضه و سأله فى إعادة إقطاعه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۸۷

قال له: هذا أخذ إقطاعك و نحن نعوّضك، ففسدت الأحوال لا سيمّا البلاد الشاميّة، فكتب النوّاب بذلك للسلطان، فكلّمه السلطان فلم يرجع و قال: كلّ من طلب منى شيئا أعطيته، و ما أردّ قلمى عن أحد، بحيث إنه كان تقدّم إليه القصّة و هو يأكل فيترك أكله، و يكتب عليها من غير أن يعلم ما فيها، فأغلظ له بسبب ذلك الأمير شمس الدين آق سنقر الناصرىّ أمير آخور؛ و اتّفق مع ذلك أنّه وشى به أنّه مباطن مع الملك الناصر أحمد، و أنّ كتبه تصل إليه فقرّر أرغون العلائىّ مسكه مع السلطان، فأمسك هو و حاشيته، هذا ما كان من أمره.

و فى يوم الجمعة ثانى عشر المحرم من سنة أربع و أربعين المذكورة خلع السلطان على الأمير الحاجّ آل ملك، و استقر فى نيابة السلطنة عوضا عن آق سنقر السّلّارى المذكور. ثم فى ثانى عشر صفر قدم الخبر بوفاة الأمير ألطنبغا الماردانىّ الناصرىّ نائب حلب، فرسم السلطان للأمير يلبغا اليحياوىّ نائب حماة باستقراره فى نيابة حلب عوضه، و استقر فى نيابة حماة الأمير طقتمر الأحمدى نائب صفد و استقر بلك الجمدار فى نيابة صفد. و توجه الأمير أرغون شاه بتقليد يلبغا اليحياوى و توجه الأمير ألطنبغا البرناق بتقليد نائب حماة.

و فى يوم السبت خامس عشرين صفر قدم الأمير بيبرس الأحمدى و الأمير كوكاى بمن معهما من المجرّدين إلى الكرك، فركب الأمراء إلى لقائهم، و استمرّ الأمير أصلم على حصار الكرك و هى التجريدة الثانية للكرك، و عرّفوا الأمراء السلطان أنّه لا بدّ من خروج تجريدة ثالثة سريعا تقوية لأصلم لئلّا يتنفس الناصر و يدوم الحصار عليه، فعيّن السلطان جماعة من أعيان الأمراء و تجهّزوا و خرجوا فى يوم الاثنين رابع شهر ربيع الآخر، و هم الأمير چنكلى بن البابا و الأمير آق سنقر الناصرى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۸۸

الأمير آخور و الأمير ملكتمر السّرجوانىّ و الأمير عمر بن أرغون النائب فى أربعة آلاف فارس تقوية لأصلم، و هذه التجريدة الثالثة إلى

الکرک، و توجّه صحبتهم عدّة حجّارین و نجّارین و نقّابین و نفطیّة، و خرج السلطان أیضا فی یوم سفرهم إلی سریاقوس علی العادة کالمودّع لهم.

و فی هذه الأیام اشتدّ نائب السلطنة الحاجّ آل ملک علی والی القاهرة و مصر فی بیع الخمور و غیره من المحرّمات، و عاقب جماعة کثیرة علی ذلک و کان هذا دأب النائب من یوم أخرب خزانة البنود فی العام الماضی و أراق خمورها و بناها مسجدا، و حکّرها للناس فعمروها دورا. و کان الذی یفعل فی خزانة البنود من المعاصی و الفسق یستحی من ذکره فعفّ الناس فی أیام نیابة آل ملک المذکور عن کثیر من المعاصی خوفا منه، و استمرّ علی ما هو علیه من تتبع الفواحش و الخواطئ و غیر ذلک حتّی إنه نادی: من أحضر سکرانا واحدا معه جرّة خمر خلع علیه فقعد العامّة لشربة الخمر بکلّ طریق، و أتوه مرّة بجندیّ قد سکر فضربه و قطع خبزه و خلع علی من قبض علیه، و وقع له أمور مع بیعة الخمر یطول الشرح فی ذکرها.

و کان یجلس فی شبّاک النیابة طول النهار لا یملّ من الحکم و لا یسأم، و تروح أصحاب الوظائف و لا یبقی عنده إلّا النقباء البطالة حتی لا یفوته أحد، و صار له مهابة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۸۹

عظیمة و حرمة کفّت الناس عن أشیاء کثیرة حتی أعیان الأمراء، حتی قال فیه بعض شعراء عصره:

ال ملک الحجّ غدا سعده یملأ ظهر الأرض مهما سلک

فالأمرا من دونه سوقة و الملک الظاهر هوّ الملک

و فی یوم الثلاثاء سابع عشر جمادی الأولی قدم الأمیر أصلم و [أبو بکر] بن أرغون النائب و أرنبغا من تجریدة الکرک بغیر إذن و اعتذروا بضعف أبدانهم و کثرة الجراحات فی أصحابهم و قلّة الزاد عندهم، فقبل السلطان عذرهم، و رسم بسفر طقتمر الصلاحیّ و تمر الموساویّ فی عشرین مقدّما من الحلقة و ألفی فارس نجدة لمن بقی من الأمراء علی حصار الکرک فساروا فی سلخه، و هذه التجریدة الرابعة بل الخامسة؛ فإنّه تکرر رواح الأمراء فی تلک التجریدة مرّتین.

ثم بعد مدّة رسم السلطان بتجهیز الأمیر علم الدین سنجر الحاولیّ و الأمیر أرقطای و الأمیر قماری الأستادار و عشرین أمیر طبلخاناه و ثلاثین مقدّم حلقة فساروا یوم الثلاثاء خامس عشر شوال فی ألفی فارس إلی الکرک و هی التجریدة السادسة و توجّه معهم أیضا عدّة حجّارین و نقّابین و نفطیة و غیر ذلک.

و فی مستهلّ شهر رمضان فرغت عمارة السلطان الملک الصالح إسماعیل صاحب الترجمة من القاعة التی أنشأها المعروفة الآن بالدهیشة الملاصقة للدور السلطانیة المطلّة علی الحوش و فرشت بأنواع البسط و المقاعد الزّرکش.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۹۰

قلت: هی الآن مجاز لأوباش الرعیّة لمن له حاجة عند السلطان من التّرکمان و الأعراب و الأوغاد و الأتباع. و للّه درّ القائل:

و إذا تأمّلت البقاع وجدتها تشقی کما تشقی الرجال و تسعد

و جلس السلطان الملک الصالح فیها، و بین یدیه جواریه و خدمه و حرمه، و أکثر السلطان فی ذلک الیوم من الخلع و العطاء، و کان السلطان قد اختصّ ببیبغا الصالحیّ و أمّره و خوّله فی النّعم و زوّجه بابنة الأمیر أرغون العلائیّ مدبّر مملکة السلطان و زوج أمّه، و البنت المذکورة أخت السلطان لأمّه. و کثر فی هذه الأیام استیلاء الجواری و الخدّام علی الدولة و عارضوا النائب فی أمور کثیرة حتّی صار النائب یقول لمن یسأله شیئا: روح إلی الطواشی فلان فینقضی شغلک. و استمرّ السلطان یکثر من الجلوس فی الدهیشة بأبّهة عظیمة إلی الغایة.

ثم رسم السلطان بإحضار المجرّدین إلی الکرک و عیّن عوصهم تجریدة أخری إلی الکرک و هی التجریدة السابعة، فیها الأمیر بیبرس الأحمدیّ و الأمیر کوکای و عشرون أمیر طبلخاناه و ستة عشر أمیر عشرة، و کتب بخروج عسکر أیضا من دمشق و معهم المنجنیق و

الزحّافات، و حمل إلى الأحمدى مبلغ ألفى دينار، و كذلك

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۹۱

لكوكاى، و لكلّ أمير طبلخاناه خمسمائه دينار، و لكل أمير عشرة مائتى دينار، و أرسل أيضا مع الأحمدى أربعة آلاف دينار لمن عساه ينزل إليه من قلعة الكرك طائعا، و جهّز معه تشاريف كثيرة، و عيّنت لهم الإقامات، و كان الوقت شتاء فقاسوا من الأمطار مشقّات كثيرة، و أقاموا نحو شهرين و خرّج معهم ستة آلاف رأس من البقر و مائتى رأس جاموس و نحو ألفى راجل فاستعدّ لهم الملك الناصر، و جمع الرجال و أنفق فيهم مالا كثيرا، و فرّق فيهم الأسلحة المرصدة بقلعة الكرك.

و ركّب المنجنيق الذى بها، و وقع بينهم القتال و الحصار إلى ما سيأتى ذكره.

ثم رسم السلطان بالقبض على الأمير آقبغا عبد الواحد فقبض عليه بدمشق فى عدّة من أمرائها و سجنوا بها لميلهم للملك الناصر أحمد، و اشتدّ الحصار على الملك الناصر بالكرك و ضاقت عليه هو و من معه لقلّة القوت، و تخلّى عنه أهل الكرك، و ضجروا من طول الحصار، و وعدوا الأمراء بالمساعدة عليه، فحملت إليهم الخلع و مبلغ ثمانين ألف درهم. هذا و قد استهمّ السلطان فى أوّل سنة خمس و أربعين و سبعمائة بتجريدة ثامنة إلى الكرك، و عيّن فيها الأمير منكلى بغا الفخرىّ و الأمير قمارى و الأمير طشتمر طلليه، و لم يجد السلطان فى بيت المال ما ينفقه عليهم فأخذ مالا من تجّار العجم و من بنت الأمير بكتمر الساقى على سبيل القرض و أنفق فيهم، و خرج المجرّدون فى يوم الثلاثاء حادى عشر المحرم سنة خمس و أربعين و سبعمائة، و هؤلاء نجدة لمن توجّه قبلهم خوفا أن يملّ من كان توجّه من القتال، فيجد الناصر فرجا بعودهم عنه، و قطعت الميرة عن الملك الناصر، و نفدت أمواله من كثرة نفقاته فوقع الطمع فيه و أخذ بالغ، و كان أجلّ ثقاته فى العمل عليه و كاتب الأمراء و وعدهم بأنّه يسلّم إليهم الكرك و سأل الأمان فكتب اليه من السلطان أمان و قدم إلى القاهرة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۹۲

و معه مسعود و ابن أبى الليث و هما أعيان مشايخ الكرك فأكرمهم السلطان و أنعم عليهم، و كتب لهم مناشير بجميع ما طلبوه من الإقطاعات و الأراضى، و كان من جملة ما طلبه بالغ وحده [نحو] أربعمائة و خمسين ألف درهم فى السنة، و كذلك أصحابه.

ثم ركب العسكر للحرب و خرج الكركيّون فلم يكن غير ساعة حتّى انهزموا منهم إلى داخل المدينة، فدخل العسكر أفواجا و استوطنوها، و جدّوا فى قتال أهل القلعة عدّة أيام، و الناس تنزل اليهم منها شيئا بعد شىء حتّى لم يبق عند الملك الناصر أحمد بقلعة الكرك سوى عشرة أنفس فأقام يرمى بهم على العسكر و هو يجدّ فى القتال و يرمى بنفسه و كان قوىّ الرّمى شجاعا إلى أن جرح فى ثلاثة مواضع و تمكّنت النقابة من البرج و علقوه و أضرموا النار تحته، حتّى وقع. و كان الأمير سنجر الجاولى قد بالغ أشدّ مبالغة فى الحصار و بذل فيه مالا كثيرا.

ثم هجم العسكر على القلعة فى يوم الاثنين ثانى عشرين صفر سنة خمس و أربعين و سبعمائة فوجدوا الناصر قد خرج من موضع و عليه زردية و قد تنكّب قوسه و شهر سيفه فوقفوا، و سلّموا عليه فردّ عليهم و هو متجهّم و فى وجهه جرح، و كتفه أيضا يسيل دما، فتقدّم إليه الأمير أرقطاى و الأمير قمارى فى آخرين، و أخذوه و مضوا به إلى دهليز الموضع الذى كان به و أجلسوه، و طيّبوا قلبه و هو ساكت لا يحييهم، فقيّدوه و وكّلوا به جماعة، و رتّبوا له طعاما، فأقام يومه و ليلته، و من باكر الغد يقدّم إليه الطعام فلا يتناول منه شيئا إلى أن سألوه أن يأكل فأبى أن يأكل، حتّى يأتوه بشابّ يقال له: عثمان، كان يهواه فأتوه به فأكل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۹۳

عند ذلك، و خرج الأمير ابن بيبغا حارس طير بالبشارة إلى السلطان الملك الصالح و على يده كتب الأمراء فقدم قلعة الجبل فى يوم السبت سابع من عشرين صفر، فدقّت البشائر سبعة أيام. و أخرج السلطان منجك اليوسفىّ الناصرىّ السلاح دار ليلا من القاهرة على البخت لقتل الملك الناصر أحمد من غير مشاورة الأمراء فى ذلك، فوصل إلى الكرك و أدخل عليه من أخرج الشاب من عنده، ثم

خنفه فى ليلة رابع شهر ربيع الأول، و قطع رأسه و سار من ليلته و لم يعلم الأمراء و لا العسكر بشىء من ذلك، حتى أصبحوا و قد قطع منجك مسافة بعيدة، و قدم بعد ثلاثة أيام قلعة الجبل ليلا، و قدّم الرأس بين يدى السلطان، و كان ضخما مهولا، له شعر طويل، فاقشعر السلطان عند رؤيته و بات مرجوفا، و طلب الأمير قبلاى الحاجب، و رسم له أن يتوجّه لحفظ الكرك إلى أن يأتيه نائب لها، و كتب السلطان بعود الأمراء و العساكر المجرّدين إلى الكرك، فكانت مدّة حصار الملك الناصر بالكرك سنتين و شهرا و ثلاثة أيام. ثم قدم الأمراء المجردون إلى الكرك فخلع السلطان على الجميع و شكرهم و أكثر من الثناء عليهم. ثم خلع على الأمير ملكتمر السّرجوانىّ باستقراره فى نيابة الكرك على ما كان عليه قديما، و جهّز معه عدّة صناع لعمارة ما تهدّم من قلعة الكرك و إعادة البرج على ما كان عليه، و رسم بأن يخرج مائة مملوك معه من مماليك قوصون و بشتك الذين كان الملك الناصر قد أسكنهم بالقلعة، و رتّب لهم الرواتب و يخرج منهم مائتان إلى دمشق و حماة و حمص و طرابلس و صفد و حلب فأخرجوا جميعا فى يوم واحد، و نساؤهم و أولادهم فى بكاء و عويل، و سخّروا لهم خيول الطواحين ليركبوا عليها.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۹۴

ثم وقعت الوحشة بين الأمير أرغون العلائى و الأمير ملكتمر الحجازىّ و بين الحاج آل ملك نائب السلطنة و صار الحجازى و العلائى معا على آل ملك النائب، و وقع بين آل ملك و الحجازى أمور يطول شرحها، و كان الحجازى مولعا بالخمر و آل الملك ينهى عن شربها، فكان كلّما ظفر بأحد من حواشى الحجازى مثّل به فتقوم قيامة الحجازىّ لذلك، و تفاوضا غير مرّة بسبب هذا فى مجلس السلطان، و أرغون العلائى يميل مع الحجازى لما فى نفسه من آل ملك و داما على ذلك مدّة.

و أما السلطان فإنه بعد مدّة نزل إلى سرياقوس بتجمّل زائد على العادة فى كل سنة. ثم عاد إلى القلعة بعد أيام، فورد عليه قصّاد صاحب الروم و قصّاد صاحب الغرب. ثم بدا للسلطان الحجّ فتهيّأ لذلك و أرسل يطلب العربان و أعطاهم الأموال بسبب كراء الجمال، فتغيّر مزاجه فى مستهلّ شهر ربيع الأول و لزم الفراش و لم يخرج إلى الخدمة أياما، و كثرت القالة بسبب ضعفه، و تحسّنت الأسعار. ثم أرجف بموت السلطان فى بعض الأيام، فأغلقت الأسواق حتّى ركب الوالى و المحتسب و ضربوا جماعة و شهّروهم، ثم اجتمعوا الأمراء و دخلوا على السلطان و تلطّفوا به حتّى أبطل حركة الحجّ، و كتب بعود طقتمر من الشام، و استعادة الأموال من العربان، و ما زال السلطان يتعلّل إلى أن تحرك أخوه شعبان و اتفق مع عدّة مماليك و قد انقطع خبر السلطان عن الأمراء، و كتب السلطان بالإفراج عن المسجونين من الأمراء و غيرهم بالأعمال، و فرّقت صدقات كثيرة، و رتّبت جماعة لقراءة «صحيح البخارى» فقوى أمر شعبان، و عزم أن يقبض على النائب فاحترز النائب منه، و أخذ أكابر الأمراء فى توزيع أموالهم و حرمهم فى الأماكن، و دخلوا على السلطان و سألوه أن يعهد لأحد من إخوته، فطلب النائب و بقيّة الأمراء فلم يحضر إليه أحد منهم، و قد اتّفق الأمير أرغون العلائى مع جماعة على إقامة شعبان فى الملك، و فرّق فيهم

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۹۵

مالا كبيرا، فإنه كان أيضا ابن زوجته شقيق الملك الصالح إسماعيل لأبيه و أمه، و أقام مع أرغون غرلو و تمر الموساوى و امتنع النائب من إقامته و صاروا حزبين، فقام النائب آل ملك فى الإنكار على سلطنة شعبان، و قد اجتمع مع الأمراء بباب القلّة و قبض على غرلو و سجنه و تحالف هو و أرغون العلائى و بقيّة الأمراء على عمل مصالح المسلمين.

و مات السلطان الملك الصالح إسماعيل فى ليلة الخميس رابع شهر ربيع الآخر سنة ست و أربعين و سبعمائة، و قد بلغ من العمر نحو عشرين سنة، فكتم موته، و قام شعبان إلى أمّه و منع من إشاعة موت أخيه، و خرج إلى أصحابه و قرّر معهم أمره، فخرج طشتمر و رسلان بصل إلى منكلى بغا ليستعطفوا الأمير أرقطاى و الأمير أصلم، و كان النائب و الأمراء علموا من العصر أن السلطان فى النزع و اتّفقوا على النزول من القلعة إلى بيوتهم بالقاهرة، فدخل الجماعة على أرقطاى ليستميلوه لشعبان فوعدهم بذلك، ثم دخلوا على أصلم فأجابهم و عادوا إلى شعبان، و قد ظنوا أنّ أمرهم تمّ، فلمّا أصبحوا نهار الخميس خرج الأمير أرغون العلائى و الأمير ملكتمر الحجازى

و تمر الموساوی و طشتمر طلليه و منكلی بغا الفخری و أسندمر و جلسوا بباب القلّة فأتاهم الأمير أرقطای و الأمير أصلم و الوزير نجم الدين محمود و الأمير قماری الأستادار و طلبوا النائب فلم يحضر إليهم، فمضوا كلّهم إلى عنده و استدعوا الأمير جنكلی بن البابا و اشتوروا فيمن يولوه السلطنة فأشار جنكلی أن يرسل إلى المماليک السلطانية و يسألهم من يحتاروه فإنّ من اختاروه رضيناه سلطانا، فعاد جوابهم مع الحاجب أنهم رضوا بشعبان سلطانا، فقاموا جميعا و معهم النائب إلى داخل باب القلّة. و كان

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۹۶

شعبان تخيّل من دخولهم عليه و جمع المماليک و قال. من دخل علىّ و جلس على الكرسىّ قتلته بسيفی هذا! و أنا أجلس على الكرسی حتی أبصر من يقيمنی عنه.

فسيّر أرغون العلائی [إليه] و بشّره و طيّب خاطره، و دخل الأمراء إليه و سلطنوه و لقّب بالملک الكامل سيف الدين شعبان حسب ما يأتی ذكره فی أوّل ترجمته.

و لنرجع إلى بقية ترجمة الملک الصالح إسماعيل.

و كان الملک الصالح سلطانا ساكنا عاقلا قليل الشّرّ كثير الخير، هيّنا ليّنا بشوشا، و كان شكلا حسنا حلو الوجه أبيض بصفرة و على خدّه شامة. و لم يكن فی أولاد الملک الناصر خيرا منه. رتّب دروسا بمدرسة جدّه المنصور قلاوون. و جدّد جماعة من الخدّام بالحرم النّبویّ، حسب ما ذكرناه فی وقته. و له مآثر كثيرة بمكّة و اسمه مكتوب على رباط السّدرة بحرم مكّة، و لم يزل مثابرا على فعل الخير حتّى توفّی.

و لما مات رثاه الشيخ صلاح الدين الصفدیّ بقوله

مضى الصالح المرجوّ للبأس و النّدى و من لم يزل يلقى المنى بالمنائح

فيا ملک مصر كيف حالک بعده إذا نحن أثنينا عليک بصالح

و كان الملک الصالح محبّبا للرعية على مشقّة كانت فی أيامه من كثرة التجاريد إلى قتال أخيه الملک الناصر أحمد بالكرک و كانت السّبل مخيفة. و شغف مع ذلک بالجواری السّود، و أفرط فی محبة اتّفاق العوّادة و فی العطاء لها، و قرّب أرباب الملاهی، و أعرض

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۹۷

عن تدبير الملک بإقباله على النساء و المطربين، حتّى كان إذا ركب إلى سرحة سرياقوس أو سرحة الأهرام ركبت أمّه فی مائتی امرأة الأكاديش بثياب الأطلس الملوّن و على رءوسهن الطراطير الجلد البرغالی المرصّعة بالجوهر و اللآلئ و بين أيديهنّ الخدّام الطواشية من القلعة إلى السّرحة. ثم تركب حظاياه الخيول العربية و يتسابقن و يركبن تارة بالكامليّات الحرير و يلعبن بالكرة، و كانت لهنّ فی المواسم و الأعياد و أوقات النّزهة أمور من هذا النّموذج. و استولى الخدّام و الطواشيّة فی أيامه على أحوال الدولة، و عظم أمرهم بتحكّم كبيرهم عنبر السّحرتی لالاة السلطان، و اقتنى عنبر السحرتی البزاة و السناقر، و صار يركب إلى المطعم و يتصيّد بثياب الحرير المزركشة، و اتّخذ له كفّا للصيد مرصّعا بالجوهر. و عمل له خاصكيّة و خدّاما و مماليک تركب فی خدمته، حتى ثقل أمره على أكابر أمراء الدولة، فإنه أكثر من شراء الأملاک و التجارة فی البضائع، كلّ ذلک لكونه لالا السلطان. و أفرد له ميدانا يلعب فيه بالكرة، و تصدّى لقضاء الأشغال و قصده الناس فصارت الإقطاعات و الرّزق و الوظائف لا تقضى إلا بالخدّام و النساء.

و كان متحصّل الدولة فی أيام الملک الصالح قليلا و مصروف العمارة كثيرا.

و كان مغرما بالجلوس بقاعة الدهيشة، لا سيما لمّا ولدت منه اتّفاق العوّادة ولدا ذكرا، عمل لها فيه مهمّا بلغ الغاية التی لا توصف، و مع هذا كانت حياته منغّصة و عيشته منكّدة لم يتمّ سروره بالدهيشة سوى ساعة واحدة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۹۸

ثم قدم عليه منجک السلاح دار برأس أخيه الملک الناصر أحمد من الكرک، فلمّا قدم بين يديه و رآه بعد غسله اهتزّ و تغيّر لونه و

ذعر، حتّی إنه بات تلک اللیلة یراه فی نومه و یفزع فزعا شدیدا، و تعلّل من رؤیته، و ما برح یعتریه الأرق و رؤیة الأحلام المزعجة، و تمادی مرضه و کثر إرجافه، حتی اعتراه القولنج، و قوی علیه حتّی مات منه فی یوم الخمیس المذکور، و دفن عند أبیه و جدّه الملک المنصور قلاوون بالقبّة المنصوریة فی لیلة الجمعة خامس شهر ربیع الآخر، فکانت مدّة ملکه بالدیار المصریة ثلاث سنین و شهرین و أحد عشر یوما. و قال الصفدی:

ثلاث سنین و شهرا و ثمانیة عشر یوما. و تسلطن من بعده أخوه شقیقه شعبان و لقّب بالکامل. و عمل للملک الصالح العزاء بالدیار المصریة أیاما کثیرة، و دارت الجواری بالملاهی یضربن بالدفوف، و المخدّرات حواسر یبکین و یلطمن، و کثر حزن الناس علیه و وجدوا علیه وجدا عظیما.

*** السنة الأولی من سلطنة الملک الصالح إسماعیل علی مصر، و هی سنة ثلاث و أربعین و سبعمائة.

فیها توفّی الشیخ الإمام برهان الدین أبو إسحاق إبراهیم بن محمد السّفاقسیّ المالکیّ فی ذی الحجّة. و کان إماما فقیها بارعا أفتی و درّس سنین، و له مصنّفات مفیدة، منها: «إعراب القرآن» «و شرح ابن الحاجب فی الفقه» و غیر ذلک.

و کان معدودا من علماء المالکیة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۹۹

و توفّی الأمیر سیف الدین أرنبغا بن عبد اللّه الناصری ناظر طرابلس بها.

و کان من أجلّ أمراء الدولة و من أعیان ممالیک الناصر محمد و خاصکیته و تنقّل فی عدّة ولایات. و کان معدودا من الشّجعان.

و توفّی الأمیر الکبیر علاء الدین أیدغمش بن عبد اللّه الناصریّ الأمیر آخور، ثم نائب حلب ثم نائب الشام فجأة فی بکرة یوم الأربعاء رابع جمادی الآخرة، و دفن فی آخر میدان الحصی فی تربة عمّرت له هناک. و کانت مدّة نیابته بحلب و الشام نصف سنة، و کانت موتته غریبة و هو أنه رکب فی بکرة ثالث جمادی الآخرة و خرج ظاهر دمشق و أطعم طیور الصید و عاد إلی دار السعادة و قرئت علیه قصص یسیرة، ثم أکل السّماط. ثم عرض طلبه و المضافین إلیه، و قدّم جماعة و أخّر جماعة ثم دخل إلیه دیوانه و قرأ علیه مخازیم و حساب و مصروف دیوانه. ثم قال أیدغمش: هؤلاء الذین تزوّجوا من ممالیکی اقطعوا مرتّبهم. ثم أکل الطّاری، و قعد هو و ابن جمّاز یتحدّثان فسمع حسّ جماعة من جواریه یتخاصمن، فقام و أخذ عصاه و دخل إلیهن و ضرب واحدة منهن ضربتین و سقط میتا لم یتنفّس، فتحیّر الناس فی أمره فأمهلوه إلی بکرة یوم الأربعاء فلم یتحرک، فغسّلوه و کفّنوه و دفنوه.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۰۰

و کان أصل أیدغمش هذا من ممالیک الأمیر بلبان الطّباخی، ثم اتّصل إلی الملک الناصر محمد بن قلاوون فجعله من جملة خاصکیته. ثم رقّاه حتی جعله أمیر آخور کبیر بعد بیبرس الحاجب فدام فی وظیفة الأمیر آخوریة نحو عشرین سنة. و قد استوعبنا من حاله مع قوصون و غیره قطعة جیدة فی ترجمة الملک الناصر أحمد و غیره.

و کان أمیرا جلیلا عاقلا مهابا شجاعا مدبّرا مقداما کریما، قلّ من دخل إلیه للسلام إلا و أعطاه شیئا. و کان مکینا عند أستاذه الملک الناصر، علی أنه أنعم علی أولاده الثلاثة بإمرة، و هم أمیر حاج ملک و أمیر أحمد و أمیر علی. و کان أیدغمش یمیل إلی فعل الخیر، و له مآثر حمیدة. و هو صاحب الحمّام و الخوخة خارج بابی زویلة. رحمه اللّه.

و توفّی الأمیر رکن الدین بیبرس بن عبد اللّه الناصریّ الحاجب بدمشق فی شهر رجب و هو أیضا من الممالیک الناصریة، رقّاه أستاذه الملک الناصر محمد بن قلاوون حتی صار أمیر مائة و مقدّم ألف. ثم ولّاه أمیر آخور مدّة سنین. ثم عزله بالأمیر أیدغمش المقدّم ذکره، و ولّاه الحجوبیّة ثم جرّده إلی الیمن فبلغه عنه أنه أخذ برطیل

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۰۱

صاحب الیمن و تراخی فی أمر السلطان، فلمّا عاد قبض علیه و حبسه تسع سنین و ثمانیة أشهر إلی أن أفرج عنه فی سنة خمس و

ثلاثين و سبعمائة و أخرجه إلى حلب أميرا بها. ثم نقل إلى إمرة بدمشق، فما زال بها حتّى مات فی التاريخ المذكور.

و كان له ثروة كبيرة و أملاك كثيرة و له دار عند باب الزّهومة.

و توفّى الأمير سيف الدين قمارى بن عبد اللّه الناصرىّ أمير شكار فی يوم الأحد خامس جمادى الأولى. و كان خصيصا عند أستاذه الملك الناصر محمد بن قلاوون، و هو أحد من زوّجه الملك الناصر بإحدى بناته، بعد ما أنعم عليه بإمرة مائة و تقدمة ألف بالديار المصرية و جعله أمير شكار.

و توفّى سيف الدين طشتمر بن عبد اللّه الساقىّ الناصرىّ المعروف بحمص أخضر مقتولا بسيف الملك الناصر أحمد بالكرک، و كان أيضا أحد مماليک الملك الناصر محمد بن قلاوون و خواصّه، رقّاه و أمّره و ولّاه نيابة صفد و هو الذى توجّه من

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ١٠، ص: ١٠٢

صفد و قبض على تنكز نائب الشام حسب ما تقدّم ذكره. ثم نقله إلى نيابة حلب عوضا عن طوغان الناصرى فی سنة إحدى و أربعين و سبعمائة، فدام بحلب حتى خرج منها إلى الروم، و قد مرّ ذكر ذلک كلّه إلى أن قدم الديار المصرية صحبة الأمراء الشاميّين، و ولّاه الملك الناصر أحمد نيابة السلطنة. ثم قبض عليه بعد أن باشر النيابة خمسة و ثلاثين يوما و أخرجه معه إلى الكرک، فقتله هناک و قتل الأمير قطلوبغا الفخرى الآتى ذكره. و لمّا قتل طشتمر قال فيه الصلاح الصفدى:

طوى الرّدى طشتمرا بعد ما بالغ فی دفع الأذى و احترس

عهدى به كان شديد القوى أشجع من يركب ظهر الفرس

أ لم يقولوا حمّصا أخضرا فاعجب له يا صاح كيف اندرس

قلت: و هو صاحب الدار العظيمة و الربع الذى بجانبها بحدرة البقر خارج القاهرة و الجامع بالصحراء و المئذنة الحلزون و الجامعين بالزريبه و الربع الذى بالحريريّين داخل القاهرة. و كان شجاعا كريما كثير الإنعام و الصدقات

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ١٠، ص: ١٠٣

و توفّى الأمير سليمان بن مهنّا بن عيسى بن مهنا ملك العرب و أمير آل فضل بظاهر سلمية، و كان من أجلّ ملوک العرب.

و توفّى الأمير سيف الدين طينال بن عبد اللّه الناصرىّ نائب غزة و نائب صفد ثم نائب طرابلس، و مات و هو على نيابة صفد فی يوم الجمعة رابع شهر ربيع الأول.

و كان من أعيان الأمراء الناصريّة.

و توفّى الأمير سيف الدين قطلوبغا بن عبد اللّه الفخرىّ الساقى الناصرىّ نائب الشام، مقتولا بسيف الملك الناصر أحمد بالكرک، و كان من أكابر مماليک الناصر محمد بن قلاوون من طبقة أرغون الدّوادار. قال الصفدى: لم يكن لأحد من الخاصكيّة و لا غيرهم إدلاله على الملك الناصر محمد و لا من يكلّمه بكلامه، و كان يفحش فی كلامه له و يردّ عليه الأجوبة الحادّة المرّة و هو يحتمله، و لم يزل عند السلطان أثيرا إلى أن أمسكه فی نوبة إخراج أرغون إلى حلب نائبا، فلمّا دخل تنكز عقيب ذلک إلى القاهرة أخرجه السلطان معه إلى الشام. انتهى

قلت: و قد سقنا من ذكره فی ترجمة الملك الناصر أحمد و غيره ما فيه كفاية عن ذكره هنا ثانيا.

و لمّا أمسک و قتل قال الأديب البارع خليل بن أيبک الصفدىّ شعرا:

سمت همّة الفخرىّ حتّى ترفّعت على هامة الجوزاء و النّسر بالنّصر

و كان به للملک فخر فخانه الزّمان فأضحى ملک مصر بلا فخر

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ١٠، ص: ١٠٤

و توفّى الأمير سيف الدين بهادر بن عبد اللّه الجوبانىّ رأس نوبة.

و توفّى الأمير سيف الدين بكا الخضرىّ الناصرى موسّطا بسوق الخيل فى رابع شهر رجب، و قد مرّ من ذكره نبذة فى ترجمة الملك الصالح إسماعيل.

و توفّى الشيخ الإمام تاج الدين أبو المحاسن عبد الباقى بن عبد المجيد اليمانىّ المخزومىّ الشافعى الأديب الكاتب بالقدس الشريف فى هذه السنة عن ثلاث و ستين سنة.

و توفّى الشيخ الإمام الخطيب محيى الدين محمد بن عبد الرحيم بن عبد الوهّاب ابن على بن أحمد أبو المعالى السّلمى الشافعى خطيب بعلبك فى ليلة الأربعاء تاسع شهر رمضان. و مولده فى شهر رمضان سنة ثمان و خمسين و ستمائة. و كان فاضلا عالما خطيبا فصيحا، و كتب الخطّ المنسوب.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و إصبعان. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا سواء. و اللّه تعالى أعلم.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۴۴]

السنة الثانية من ولاية الملك الصالح إسماعيل على مصر، و هى سنة أربع و أربعين و سبعمائة.

فيها توفّى قاضى القضاة برهان الدين أبو إسحاق إبراهيم بن علىّ بن أحمد بن علىّ ابن عبد الحقّ قاضى القضاة الحنفيّة بالديار المصريّة و هو مقيم بدمشق. و كان إماما عالما بارعا أفتى و درّس سنين و ناب فى الحكم، ثم استقلّ بقضاء القضاة بالديار المصرية و حسنت سيرته.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۰۵

و توفّى الأمير سيف الدين و قيل شمس الدين آق سنقر بن عبد اللّه السّلّارى نائب السلطنة بالديار المصريّة قتيلا بثغر الإسكندرية فى السجن. و كان أصله من مماليك الأمير سلّار و اتّصل بعده بخدمة الملك الناصر محمد بن قلاوون فرقّاه إلى أن ولّاه نيابة غزّة ثم صفد. ثم ولى بعد موت الملك الناصر نيابة السلطنة بالديار المصرية. و قد تقدّم ذكره فى ترجمة الملك الصالح هذا و التعريف بأحواله و كرمه إلى أن قبض عليه و سجن، ثم قتل. و كان من الكرماء الشّجعان.

و توفّى الأمير علاء الدين ألطنبغا بن عبد اللّه الماردانى الناصرىّ الساقىّ نائب حلب بها. و كان ألطنبغا أحد مماليك الملك الناصر محمد بن قلاوون و خاصّكيّته و أحد من شغف بمحبته و رقّاه فى مدّة يسيرة، حتّى جعله أمير مائة و مقدّم ألف، و زوّجه بابنته. ثم وقع له أمور بعد موته ذكرناها فى تراجم: المنصور و الأشرف و الناصر و الصالح أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى أن ولى نيابة حماة، ثم حلب بعد الأمير طقزدمر فباشر نيابة حلب نصف سنة، و توفّى و لم يبلغ من العمر خمسا و عشرين سنة. و كان أميرا شابّا لطيف الذات، حسن الشكل، كريم الأخلاق مشهورا بالشجاعة و الكرم. و هو صاحب الجامع المعروف به خارج باب زويلة.

و قد تقدّم ذكر بنائه فى ترجمة أستاذه الملك الناصر محمد.

و توفّى الأمير الأديب الشاعر علاء الدين ألطنبغا بن عبد اللّه الجاولى. أصله من مماليك بن باخل. ثم صار إلى الأمير علم الدين سنجر الجاولى فجعله دواداره لمّا كان نائب غزّة فعرف به، ثم تنقّلت به الأحوال حتى صار من جملة أمراء دمشق إلى أن مات بها فى شهر ربيع الأول.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۰۶

قلت: و هو أحد فحول الشعراء من الأتراك لا أعلم أحدا من أبناء جنسه فى رتبته فى نظم القريض، اللّهم إلا إن كان أيدمر المحيوى فيمكن. و من شعر ألطنبغا المذكور:

ردفه زاد فى الثّقالة حتّى أقعد الخصر و القوام سويّا

نهض الخصر و القوام و قاما و ضعيفان يغلبان قويّا

و له:

و بارد الثغر حلو بمرشف فيه حوّه

و خصره فى انتحال يبدى من الضعف قوّه

و له:

و صالك و الثريّا فى قران و هجرك و الجفا فرسا رهان

فديتك ما حفظت لشؤم بختى من القرآن إلّا لن ترانى

و له:

يقول لى العاذل فى لومه و قوله زور و بهتان

ما وجه من أحببته قبلة قلت و لا قولك قرآن

و قد سقنا من شعره قطعة جيّدة فى تاريخنا «المنهل الصافى و المستوفى بعد الوافى».

و توفّى القاضى شرف الدين أبو بكر بن محمد ابن الشهاب محمود كاتب سرّ مصر ثم دمشق فى شهر ربيع الأوّل. و كان فاضلا بارعا فى صناعته، و هو من بيت علم و فضل و رياسة و إنشاء. و كان فاضلا مترسّلا رئيسا نبيلا، و له نظم رائق و نثر فائق. و من شعره.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۰۷

بعثت رسولا للحبيب لعلّه يبرهن عن وجدى له و يترجم

فلمّا رآه حار من فرط حسنه و ما عاد إلّا و هو فيه متيّم

و توفّى الأمير سيف الدين طرغاى الجاشنكير الناصرىّ نائب حلب و طرابلس فى شهر رمضان. و كان من أعيان مماليك الملك الناصر و أمرائه. و كان شجاعا مقداما سيوسا. ولى الولايات و الأعمال الجليلة.

و توفّى الأمير علاء الدين آقبغا عبد الواحد الناصرىّ بحبسه بثغر الإسكندرية، و قد تكرّر ذكره فى ترجمة أستاذه الملك الناصر فى مواطن كثيرة، و فى أوّل ترجمة الملك المنصور أبى بكر أيضا، و كيف كان القبض عليه، و ما وقع له من المصادرة و غير ذلك إلى أن ولى نيابة حمص ثم عزل و قبض عليه و حبس إلى أن مات.

و كان أصله من مماليك الناصر محمد و أخا زوجته خوند طغاى، و تولّى فى أيام أستاذه عدّة وظائف و ولايات، منها أنه كان من جملة مقدّمى الألوف ثم أستادار.

ثم مقدّم المماليك السلطانية، و شادّ العمائر و كان ينـدبه لكلّ أمر مهمّ فيه العجلة لمعرفته بشدّة بأسه و قساوة قلبه، و كثرة ظلمه. و كان من أقبح المماليك الناصرية سيرة.

و هو صاحب المدرسة على يسار الداخل إلى الجامع الأزهر و الدار بالقرب من الجامع المذكور.

و توفّى الشيخ حسن بن تمرتاش بن جوبان متملّك تبريز و العراق فى شهر رجب.

و كان من أعظم الملوك، و كان داهية صاحب حيل و مكر و خديعة. و كان كثير العساكر من التّرك و غيرها.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۰۸

و توفّى القاضى زين الدين إبراهيم بن عرفات بن صالح بن أبى المنى القنائىّ الشافعى قاضى قنا. كان فقيها رئيسا كثير الأموال. كان يتصدّق فى كلّ سنة بألف دينار فى يوم واحد مع مكارم و إنعام.

و توفّى الشيخ الإمام شمس الدين محمد بن على بن أيبك السّروجىّ. مولده بمصر فى ذى الحجة سنة أربع عشرة و سبعمائة، و مات بحلب فى الثامن من شهر ربيع الأوّل.

و توفّى المحدّث شهاب الدين أحمد بن أبى الفرج الحلبى بمصر بعد أن حدث عن النّجيب و الأبرقوهىّ و الرّشيد بن علّان و غيرهم. و مولده فى شهر رمضان سنة خمسين و ستمائة.

و توفّى القاضى علم الدين سليمان بن إبراهيم بن سليمان المعروف بابن المستوفى المصرى ناظر الخاصّ بدمشق فى جمادى الآخرة. و له فضيلة و شعر جيّد، و كان يعرف بكاتب قراسنقر، فإنه كان بخدمته. و باشر عدّة وظائف بدمشق: نظر البيوت ثم نظر الخاصّ ثم صحابة الديوان. و كان بارعا فى صناعة الحساب و يكتب الخط المليح. و له يد فى النظم و قدرة على الارتجال، و كان يتكلّم فصيحا باللغة التركية.

و من شعره:

غرامى فيك قد أضحى غريمى و هجرك و التّجنّى مستطاب

و بلواى ملالك لا لذنب و قولك ساعة التسليم طابوا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۰۹

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و عشرون إصبعا.

مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا و سبع عشرة إصبعا. و اللّه تعالى أعلم.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۴۵]

السنة الثالثة من سلطنة الملك الصالح إسماعيل على مصر، و هى سنة خمس و أربعين و سبعمائة.

فيها توفّى قاضى القضاة العلّامة جلال الدين [أحمد] ابن القاضى حسام الدين أبى الفضائل حسن بن أحمد بن الحسن بن أنوشروان الأنكورىّ الحنفى قاضى قضاة دمشق و عالمها فى يوم الجمعة تاسع عشر رجب، و مولده بمدينة أنكورية ببلاد الروم فى سنة إحدى و خمسين و ستمائة. و كان إماما عالما ديّنا عارفا بالمذهب و أصوله، محقّقا إماما فى العلوم العقليّة، و أفتى و درّس و تصدّر للإقراء فى حياة والده. و ولى قضاء خرتبرت و عمره سبع عشرة سنة، و حمدت سيرته. ثم انتقل إلى البلاد الشامية حتى كان من أمره ما كان.

و توفّى الأمير علم الدين سنجر الجاولى، أحد أعيان أمراء بالديار المصرية فى يوم الخميس ثامن شهر رمضان، و دفن بمدرسته فوق جبل الكبش. و كان أصله من

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۱۰

مماليك جاول أحد أمراء الملك الظاهر بيبرس. ثم اتّصل بعده إلى بيت السلطان، و أخرج أيام الأشرف خليل بن قلاوون إلى الكرك، و استقرّ فى جملة بحريّتها. ثم قدم فى أيام العادل كتبغا إلى مصر بحال زرىّ، فقدّمه الأمير سلّار و نوّه بذكره إلى أن ولى نيابة غزّة، ثم عدة ولايات بعد ذلك بمصر و البلاد الشامية، و طالت أيامه فى السعادة و عمّر. و قد مرّ من ذكره أشياء فيما تقدّم. و هو صاحب الجامع، بغزّة و الخليل عليه السلام و خان بيسان و خان قاقون. و كان فاضلا فقيها، و له مصنّفات فى الفقه و غيره.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۱۱

و توفّى الأمير سيف الدين طقصبا بن عبد اللّه الظاهرىّ، و قد أناف على مائة [و عشرين] سنة. و كان أصله من مماليك الظاهر بيبرس البندقدارىّ.

و توفّى [إبراهيم القاضى] جمال الكفاة الرئيس جمال الدين ناظر الخاصّ ثم الجيش ثم المشدّ تحت العقوبة فى ليلة الأحد سادس شهر ربيع الأول. و كان ابن خالة النّشو ناظر الخاصّ، و هو الذى استسلمه و استخدمه مستوفيا فى الدولة، ثم عند بشتك ثم وقع بينهما المعاداة الصعبة على سوء ظنّ من النّشو، و لم يزالا على ذلك حتّى مات النشو تحت العقوبة، و ولى جمال الكفاة هذا مكانه، و طالت

أيـامه و نـالته السـعادة. قال الصـفدى: و كان شـكلا حسـنا ظريفا مليحا يكتب خطّا قويّا جيـدا، و يتحـدث بالتّركى، و فيه ذوق للمعانى الأدبية و محبة للفضـلاء و لطف عشرة و كرم أخلاق و مروءة. و كان أوّلا عند الأمير طيبغا القاسمىّ. و مدّة مباشرته الخاصّ ست سنين تقريبـا. انتهى كلاـم الصـفدىّ باختصـار. و قال غيره: و كان أوّلا يباشـر فى بعض البساتين على بيع ثمرته، و تنقّل فى خدمـة ابن هلال الدولة، ثم خدم بيدمر البدرىّ و هو خاصّكىّ خبزه بمحلّة منوف، فكتب على بابه إلى أن تأمّر.

ثم انتقل بعد ذلك حتّى كان من أمره ما ذكرناه. و لمّا صودر أخذ منه أموال كثيرة.

و توفّى الشيـخ الإمـام العلّامـة فريـد عصـره أثير الـدّين أبو حيّان محمـد بن يوسف ابن علىّ [ابن يوسف] بن حيّان الغرنـاطىّ المغربىّ المالكىّ ثم الشافعىّ. مولده

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۱۲

بغرناطـة فى أخريات شوّال سـنة أربع و خمسـين و سـتمائة، و قرأ القرآن بالروايات، و اشـتغل و سـمع الحـديث بالأنـدلس و إفريقية و إسـكندرية و القاهرة و الحجاز، و حصّل الإجازات من الشام و العراق، و اجتهد فى طلب العلم، حتى برع فى النحو و التصريف و صار فيهما إمام عصره، و شارك فى علوم كثيرة. و كان له اليد الطّولى فى التفسير و الحديث و الشروط و الفروع و تراجم الناس و طبقاتهم و تواريخهم خصوصا المغاربـة، و هو الـذى جسّر الناس على مصـنّفات ابن مالك، و رغّبهم فى قراءتها، و شـرح لهم غوامضـها، و قد سقنا من أخباره و سـماعاته و مشايخه و مصـنّفاته و شعره فى ترجمته فى تاريخنا «المنهل الصافى» ما يطول الشرح فى ذكره هنا؛ و من أراد ذلك فلينظره هناك. و لنذكر هنا من شـعره نبذة يسيرة بسـندنا إليه: أنشدنا القاضـى عبد الرحيم بن الفرات إجازة، أنشدنا الشـيخ صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدىّ إجازة، قال: أنشدنى العلّامة أثير الدين أبو حيّان من لفظه لنفسه:

سبق الدمع بالمسير المطايا إذ نوى من أحبّ عنّى نقله

و أجاد السّطور فى صفحة الخد و لم لا يجيد و هو ابن مقله

و له بالسند:

راض حبيبى عارض قد بدا يا حسنه من عارض رائض

فظنّ قوم أنّ قلبى سلا و الأصل لا يعتدّ بالعارض

و له موشّحة، أوّلها:

إن كان ليل داج، و خاننا الإصباح، فنورها الوهّاج، يغنى عن المصباح

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۱۳

سلافة تبدو كالكوكب الأزهر

مزاجها شهد و عرفها عنبر

يا حبّذا الورد منها و إن أسكر

قلبى بها قد هاج، فما ترانى صاح، عن ذلك المنهاج، و عن هوى يا صاح

و بى رشا أهيف قد لجّ فى بعدى

بدر فلا يخسف منه سنا الخدّ

بلحظه المرهف يسطو على الأسد

كسطوة الحجّاج، فى الناس و السّفّاح، فما ترى من ناج، من لحظه السّفّاح

علّل بالمسك قلبى رشا أحور

منعم المسك ذو مبسم أعطر

ريّاه كالمسك و ريقه كوثر

غصن على رجراج، طاعت له الأرواح، فحبّذا الآراج، إن هبّت الأرواح

مهلا أبا القاسم على أبى حيّان

ما إن له عاصم من لحظك الفتّان

و هجرك الدائم قد طال بالهيمان

قدمعه أمواج، و سرّه قد باح، لكنّه ما عاج، و لا أطاع اللّاح

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۱۴

يا ربّ ذى بهتان يعذلنى فى الرّاح

و فى هوى الغزلان دافعت بالرّاح

و قلت لا سلوان عن ذاك يالاحى

سبع الوجوه و التّاج، هى منية الأرواح، فآختر لى يا زجّاج، قمصال و زوج أقداح قلت: و مذهبى فى أبى حيّان أنّه عالم لا شاعر.

و لم أذكر هذه الموشّحة هنا لحسنها؛ بل قصدت التعريف بنظمه بذكر هذه الموشّحة، لأنّه أفحل شعراء المغاربة فى هذا الشأن، و أما الشاعر العالم هو الأرّجانىّ

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۱۵

و أبو العلاء المعرّى و ابن سناء الملك. انتهى. و كانت وفاته بالقاهرة فى ثامن عشرين صفر.

و توفّى الأمير صلاح الدين يوسف بن أسعد الدّوادار الناصرى بطرابلس و كان من أكابر الأمراء، ولى الدواداريّة الكبرى فى أيام الناصر محمد، ثم ولى نيابة الإسكندريّة، ثم أخرج إلى البلاد الشامية إلى أن مات بطرابلس. و كان كاتبا شاعرا.

و توفّى الأمير علم الدين سنجر بن عبد اللّه البشمقدار المنصورىّ، كان من مماليك المنصور قلاوون.

و توفى الأمير سيف الدين طرنطاى المنصورىّ المحمّدىّ بدمشق، و كان من جملة من وافق على قتل الأشرف خليل، فسجنه الملك الناصر سبعا و عشرين سنة، ثم أفرج عنه و أخرجه إلى طرابلس أمير عشرة.

و توفّى الأمير سيف الدين بلبان المنصورىّ الشمسىّ بمدينة حلب. و كان الناصر أيضا حبسه سنين ثم أخرجه إلى حلب.

و توفّى سيف الدين كندغدى بن عبد اللّه المنصورى بحلب أيضا و هو رأس الميسرة و مقدّم العساكر المجرّدة إلى سيس. و كان من كبار الأمراء بالديار المصريّة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۱۶

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم سبع أذرع و ثمانى أصابع. مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا و سبع عشرة إصبعا.

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۴۶]

ذكر سلطنة الملك الكامل شعبان على مصر

السلطان الملك الكامل سيف الدين شعبان ابن السلطان الملك الناصر ناصر الدين محمد ابن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفى الصالحى النّجمى.

و الكامل هذا هو السابع عشر من ملوك الترك بالديار المصرية و الخامس من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون. جلس على تخت الملك بعد موت أخيه و شقيقه الملك الصالح إسماعيل فى يوم الخميس الرابع من شهر ربيع الآخر سنة ست و أربعين و

سبعمائة، و لقّب بالملك الكامل. و فيه يقول الأديب البارع جمال الدين بن نباتة.

رحمه اللّه تعالى. [مخلّع البسيط]

جبين سلطاننا المرجّى مبارك الطالع البديع

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١٠، ص: ١١٧

يا بهجة الدهر إذ تبدّى هلال شعبان فى ربيع

و كان سبب سلطنة الملك الكامل هذا أنه لمّا اشتدّ مرض أخيه الملك الصالح إسماعيل دخل عليه زوج أمّه و مدبّر مملكته الأمير أرغون العلائىّ فى عدّة من الأمراء ليعهد الملك الصالح إسماعيل بالملك لأحد من إخوته. و كان أرغون العلائى المذكور غرضه عند شعبان كونه أيضا ربيبه ابن زوجته، فعارضه فى شعبان الأمير آل ملك نائب السلطنة حسب ما ذكرنا طرفا من ذلك فى مرض الملك الصالح المذكور. ثم وقع ما ذكرناه إلى أن اتّفق المماليك و الأمراء على توليته، و حضروا إلى باب القلّة و استدعوا شعبان المذكور، و ألبسوه أبّهة السلطنة و أركبوه بشعار الملك و مشت الأمراء بخدمته، و الجاوشيّة تصيح بين يديه على العادة، حتى قرب من الإيوان لعب الفرس تحته و جفل من صياح الناس، فنزل عنه و مشى خطوات بسرعة إلى أن طلع إلى الإيوان فتفاءل الناس بنزوله عن فرسه أنّه لا يقيم فى السلطنة إلّا يسيرا. و لمّا طلع الى الإيوان و جلس على الكرسىّ و باسوا الأمراء له الأرض و أحضروا المصحف ليحلفوا له، فحلف هو أوّلا- أنّه لا يؤذيهم، ثم حلفوا له بعد ذلك على العادة. و دقّت البشائر بسلطنته بمصر و القاهرة، و خطب له من الغد على منابر مصر و القاهرة، و كتب بسلطنته إلى الأقطار.

ثم فى يوم الاثنين ثامن شهر ربيع الآخر المذكور جلس الملك الكامل بدار العدل، و جدّد له العهد من الخليفة بحضرة القضاة و الأمراء، و خلع على الخليفة و على القضاة و الأمراء، و كتب بطلب الأمير آق سنقر الناصرى من طرابلس و سأل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١٠، ص: ١١٨

الأمير قمارى الأستادار أن يستقرّ عوضه فى نيابة طرابلس، فتشفّع قمارى المذكور بأرغون العلائى و ملكتمر الحجازىّ فأجيب إلى ذلك؛ ثم تغيّر ذلك و خلع عليه فى يوم الخميس حادى عشرة بنيابة طرابلس فخرج من فوره على البريد. و خلع على الأمير أرقطاى و استقرّ فى نيابة حلب عوضا عن يلبغا اليحياوى، و خرج أيضا على البريد، و كتب يطلب اليحياوى، ثم طلب الأمير آل ملك نائب السلطنة الإعفاء من النيابة و قبل الأرض، و سأل فى نيابة الشام عوضا عن طقزدمر الحموىّ و أن ينتقل طقزدمر إلى مصر فاجيب إلى ذلك، و كتب بعزل طقزدمر عن نيابة الشام و إحضاره الى الديار المصريّة.

و فى يوم السبت ثالث عشرة خلع السلطان الملك الكامل على الأمير الحاج آل ملك نائب السلطنة باستقراره فى نيابة الشام عوضا عن طقزدمر، و أخرج من يومه على البريد، فلم يدخل مدينة غزّة لسرعة توجّهه، و بينما هو سائر إلى دمشق لحقه البريد بتقليده نيابة صفد، و سبب ذلك أنّ أرغون العلائى لمّا قام فى أمر الملك الكامل شعبان هذا و فى سلطنته قال له الحاج آل ملك: بشرط ألّا يلعب بالحمام، فلمّا بلغ ذلك شعبان نقم عليه، فلمّا ولى دمشق استكثرها عليه و حوّله إلى نيابة صفد. و رسم للأمير يلبغا اليحياوى نائب حلب كان، باستقراره فى نيابة الشام.

ثم أخذ السلطان الملك الكامل فى تدبير مملكته و النظر فى أمور الدولة فأنعم بإقطاع أرقطاى على الأمير أرغون شاه، و استقرّ أستادارا عوضا عن قمارى المستقرّ فى نيابة طرابلس. و أخرج السلطان الأمير أحمد شادّ الشرابخاناه هو و إخوته من

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١٠، ص: ١١٩

أجل أنهم كانوا ممّن قام مع الأمير آل ملك هم و قمارى الأستادار فى منع سلطنة الملك الكامل هذا. ثم خلع السلطان على علم الدين عبد اللّه بن أحمد بن إبراهيم بن زنبور باستقراره ناظر الخواصّ عوضا عن الموفّق عبد اللّه بن إبراهيم، و عنى الأمير أرغون العلائى بالموفّق حتّى نزل إلى داره بغير مصادرة.

ثم قدم الأمير آق سنقر الناصرىّ المعزول عن نيابة طرابلس فخلع السلطان عليه، و سأله بنيابة السلطنة بالديار المصرية فامتنع أشدّ امتناع، و حلف أيمانا مغلّظة أنه لا يليها فأعفاه السلطان فى ذلك اليوم.

ثم بدا للسلطان أن يخطب بنت بكتمر الساقى فامتنعت أمّها من إجابته و احتجّت عليه بأنّ ابنتها تحته و لا يجمع بين أختين و أنّه بتقدير أن يفارق أختها، فإنّه أيضا قد شغف باتّفاق العوّادة جارية أخيه الملك الصالح شغفا زائدا، ثم قالت: و مع ذلك فقد ضعف حال المخطوبة من شدّة الحزن، فإنّه أوّل من أعرس عليها آنوك ابن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، و كان لها ذلك المهمّ العظيم، و مات آنوك عنها و هى بكر فتزوّجها من بعده أخوه الملك المنصور أبو بكر، فقتل فتزوّجها بعد الملك المنصور أخوه السلطان الملك الصالح إسماعيل و مات عنها أيضا، فحصل لها حزن شديد من كونه تغيّر عليها عدّة أزواج فى هذه المدّة اليسيرة، فلم يلفت الملك الكامل إلى كلامها و طلّق أختها، و أخرج جميع قماشها من عنده فى ليلته، ثم عقد عليها و دخل بها.

ثم أنعم السلطان على ابن طشتمر حمّص أخضر بإمرة مائة و تقدمة ألف بالديار المصريّة، و على ابن أصلم بإمرة طبلخاناه.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۲۰

ثم فى مستهلّ جمادى الأولى خلع السلطان الملك الكامل على جميع الأمراء المقدّمين و الطبلخانات، و أنعم على ستين مملوكا بستين قباء بطرز زركش و ستين حياصة ذهب، و فرّق الخيول على الأمراء برسم نزول الميدان.

ثم رسم السلطان ان يتوفّر إقطاع النيابة للخاصّ، و خلع على الأمير بيغرا و استقرّ حاجبا كبيرا. ثم نزل السلطان إلى الميدان على العادة، فكان لنزوله يوم مشهود.

و خلع على الشريف عجلان بن رميثة بن أبى نميّ الحسنىّ باستقراره أمير مكّة. ثم عاد السلطان إلى القلعة.

و فى يوم السبت خامس عشرين جمادى الأولى قدم الأمير طقزدمر من الشام إلى القاهرة مريضا فى محفّة بعد أن خرج الأمير أرغون العلائى و صحبته الأمراء إلى لقائه، فوجدوه غير واع، و دخل عليه الأمراء و قد أشفى على الموت، و لمّا دخل طقزدمر إلى القاهرة على تلك الحالة أخذ أولاده فى تجهيز تقدمة جليلة للسلطان تشتمل على خيول، تحف و جواهر فقبلها السلطان منهم و وعدهم بكلّ خير.

و فيه أنعم السلطان على الأمير أرغون الصالحىّ بتقدمة ألف، و رسم أن يقال له: أرغون الكاملى، و وهب له فى أسبوع ثلثمائة ألف درهم و عشرة آلاف اردبّ من الأهراء؛ و رسم له بدار أحمد شادّ الشّربخاناه، و أن يعمّر له

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۲۱

بجواره من مال السلطان قصر على بركة الفيل، و يطل على الشارع فعمل له ذلك.

قلت: و البيت المذكور هو الذى كان يسكنه الملك الظاهر جقمق و تسلطن منه، ثم سكنه الملك الأشرف إينال و تسلطن منه و هو تجاه الكبش. انتهى.

و فى يوم الخميس مستهلّ جمادى الآخرة ركب السلطان الملك الكامل لسرحة سرياقوس و معه عساكره على العادة و أخذ حريمه صحبته، فنصب لهنّ أحسن الخيم فى البساتين.

ثم فى يوم الجمعة قدم أولاد طقزدمر على السلطان بسرياقوس بخبر وفاة أبيهم طقزدمر، فلم يمكّن السلطان الأمراء من العود إلى القاهرة للصلاة عليه، و رسم بإخراجه فأخرج و دفن بخانقاته بالقرافة، و أخذت خيله و جماله و هجنه إلى الإسطبل السلطانىّ.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۲۲

ثم خلع السلطان على الأمير أرسلان بصل، و استقرّ حاجبا ثانيا مع بيغرا، و رسم له أن يحكم بين الناس، و لم تكن العادة جرت بذلك أن يحكم الحجّاب بين الناس غير حاجب الحجّاب.

قلت: كان الحجّاب يوم ذاك كهيئة رءوس النّوب الصّغار الآن. انتهى.

و خلع على الأمير ملكتمر السّرجوانىّ باستقراره فى نيابة الكرك و أنعم بتقدمته على الأمير طشتمر طلليه و أنعم بطبلخانات طشتمر طلليه على الأمير قبلاى.

ثم قدم على السلطان الخبر بموت أخيه الملك الأشرف كجك ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون عن اثنتى عشرة سنة، و اتّهم السلطان أنّه بعث من سرياقوس من قتله فى مضجعه على يد أربعة خدّام طواشيّة، فعظم ذلك على الناس قاطبة.

ثم عاد السلطان من سرياقوس إلى القلعة بعد ما تهتّكت المماليك السلطانية من شرب الخمور و الإعلان بالفواحش و ركبوا فى الليل و قطعوا الطريق على المسافرين و اغتصبوا حريم الناس. ثم أخذ السلطان الملك الكامل فى تجديد المظالم و المصادرات.

ثم قدم البريد على السلطان بأنّ الشيخ حسنا صاحب بغداد واقع سلطان شاه و أولاد تمرداش و انتصر الشيخ حسن و حصر سلطان شاه بماردين و أخذ ضياعها.

ثم إن السلطان الملك الكامل بدا له أن ينشئ مدرسته موضع خان الزكاة، و نزل الأمير أرغون العلابى و الوزير لنظره، و كان أبوه الملك الناصر محمد قد وقفه فلم يوافق القضاة على حلّه.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۲۳

و فى مستهلّ شعبان عمل السلطان مهمّه على بنت الأمير طقزدمر الحموى سبعة أيام. و فى مستهلّ شوّال رسم السلطان للأمير أرغون الكاملىّ بزيارة القدس و أنعم عليه بمائة ألف درهم، و كتب إلى نوّاب الشام بالركوب لخدمته، و حمل التقادم و تجهير الإقامات له فى المنازل إلى حين عوده؛ و رسم له أن ينادى بمدينة بلبيس و أعمالها أنّه من قال عنه: أرغون الصغير شنق، و ألّا يقال له إلّا أرغون الكاملى، فشهر النّداء بذلك فى الأعمال.

و فى هذه الأيام كثر لعب الناس بالحمام و كثر جرى السّعاة، و تزايد شلّاق الزّعر و تسلّط عبيد الطواشيّة على الناس، و صاروا كلّ يوم يقفون للضراب فتسفك بينهم دماء كثيرة. و نهبت الحوانيت بالصّليبة خارج القاهرة، و إذا ركب إليهم الوالى لا يعبئون به، و إن قبض على أحد منهم أخذ من يده سريعا، فاشتد قلق الناس من ذلك.

ثم اخترع السلطان شيئا لم يسبق إليه، و هو أنّه أعرس السلطان بعض الطواشيّة ببعض سراريه بعد عقده عليها، و عمل له السلطان مهمّا حضره جميع جوارى بيت السلطان، و جليت العروس على الطواشى، و نثر السلطان عليها وقت

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۲۴

الجلاء الذهب بيده، فكانت هذه الحادثة من أشنع ما يكون، و عظم ذلك على سائر أعيان الدولة.

و فى ذى الحجّة كثرت الإشاعة باتفاق الأمير آل ملك نائب صفد مع الأمير يلبغا اليحياوى نائب الشام لورود بعض مماليك آل ملك هاربا منه كونه شرب الخمر و أشاع هذا الخبر فرسم السلطان بإخراج منجك اليوسفى السلاح دار على البريد لكشف الخبر فلمّا توجه منجك إلى الشام حلف له نائب الشام أنه برىء ممّا قيل عنه، و أنعم على منجك بألفى دينار سوى الخيل و القماش.

ثم نودى بالقاهرة بألّا يعارض أحد من لعّاب الحمام و أرباب الملاعيب و السعاة، فتزايد الفساد و شنع الأمر، كلّ ذلك لمحبّة السلطان فى هذه الأمور.

ثم ندب السلطان الأمير طقتمر الصالحىّ للتوجّه إلى الشام على البريد ليوقّع الحوطة على جميع أرباب المعاملات، و أصحاب الرّزق و الرواتب بالبلاد الشامية من الفرات إلى غزّة و ألّا يصرف لأحد منهم شيئا و أن يستخرج منهم و من الأوقاف و أرباب الجوامك ألف ألف درهم برسم سفر السلطان إلى الحجاز، و يشترى بذلك الجمال و نحوها، فكثر الدعاء على السلطان من أجل ذلك، و تغيّرت الخواطر.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۲۵

و فى هذه الأيام كتب بإحضار الأمير آل ملك نائب صفد إلى القاهرة ليستقرّ على إقطاع الأمير جنكلى بن البابا بعد موته و توجّه

لإحضاره الأمير منجك السلاحدار.

ثم فى يوم السبت تاسع عشرين ذى الحجة أمسك أينبك أخو قمارى ثم عفى عنه من يومه. ثم كتب باستقرار الأمير أراق الفتّاح نائب غزّة فى نيابة صفد بعد عزل آل ملك. و أمّا الأمير منجك فإنّه وصل إلى صفد فى أوّل المحرم من سنة سبع و أربعين و سبعمائة، و استدعى آل ملك فخرج معه إلى غزّة، فقبض عليه بها فى اليوم المذكور، و قيل بل فى سادس عشرين ذى الحجة من سنة ست و أربعين. انتهى.

ثم فى أول المحرّم المذكور قدم إلى جهة القاهرة الأمير ملكتمر السّرجوانىّ من نيابة الكرك فمات بمسجد التّبن خارج القاهرة و دفن بتربته. ثم قدم إلى القاهرة الأمير أحمد بن آل ملك فقبض عليه و سجن من ساعته. و خلع السلطان على الأمير أسندمر العمرىّ باستقراره فى نيابة طرابلس عوضا عن الأمير قمارى.

و فى يوم الاثنين سادس المحرّم قدم الأمير آل ملك و الأمير قمارى نائب طرابلس مقيّدين إلى قليوب و ركبا النيل إلى الإسكندريّة فاعتقلا بها. و كان الأمير طقتمر الصّلاحىّ قبض على قمارى لمّا توجّه للحوطه على أملاك الشام، و قيّده و بعثه على البريد. ثم ندب السلطان الأمير مغلطاى الأستادار لإيقاع الحوطة على موجود آل ملك، و ندب الطواشى مقبلا التّقوىّ لإيقاع الحوطة على موجود قمارى نائب طرابلس، و ألزم مباشريهما بحمل جميع أموالهما، فوجد لآل ملك قريب ثلاثين

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۲۶

ألف إردب غلّة، و ألزم مولده بمائة ألف درهم، و أخذ لزوجته خبيّة فيها أشياء جليلة، و أخذ أيضا لزوجة قمارى صندوقا فيه مال جليل.

ثم خلع السلطان على الأمير أرسلان بصل الحاجب الثانى فى نيابة حماة عوضا عن أرقّطاى و كتب بقدوم أرقطاى، فقدم أرقطاى إلى القاهرة فأنعم عليه السلطان بإقطاع چنكلى بن البابا بعد وفاته، و استقرّ رأس الميمنة مكان چنكلى. ثم خلع السلطان على زوج أمّه الأمير أرغون العلائى و استقرّ فى نظر البيمارستان المنصورىّ عوضا عن الأمير چنكلى بن البابا فنزل إليه أرغون العلائى و أصلح أموره، و أنشأ بجوار باب البيمارستان المذكور سبيل ماء و مكتب سبيل لقراءة الأيتام، و وقف عليه وقفا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۲۷

ثم خلع السلطان على الأمير نجم الدين محمود [بن علىّ] بن شروين وزير بغداد و أعيد إلى الوزارة بالديار المصريّة، و كان لها مدّة شاغرة، و خلع على علم الدين عبد اللّه ابن زنبور و استقرّ ناظر الدولة عوضا عن ابن مراجل.

و فى هذه الأيام انتهت عمارة قصر الأمير أرغون الكاملىّ بالجسر الأعظم تجاه الكبش، بعد أن صرف عليه مالا عظيما، و أخذ فيه من بركة الفيل نحو العشرين ذراعا، فلمّا عزم أرغون إلى النزول إليه مرض فقلق السلطان لمرضه و بعث إليه بفرس و ثلاثين ألف درهم يصدّق بها عنه. و أفرج عن أهل السجون، و ركب السلطان لعيادته بالميدان.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۲۸

ثم اهتمّ السلطان بسفره إلى الحجاز و أخذ فى تجهيز أحواله. و فى يوم الجمعة رابع عشر صفر ولد للسلطان ولد ذكر من بنت الأمير بكتمر الساقى.

ثم فى يوم السبت ثانى عشرين صفر أفرج السلطان عن الأمير أحمد بن آل ملك و عن أخى قمارى و أمرهما بلزوم بيتهما.

و فى أوّل شهر ربيع الأوّل توجّه السلطان إلى سرياقوس و أحضر الأوباش فلعبوا قدّامه باللّبخة و هى عصىّ كبار، حدث اللعب بها فى هذه الأيام، و لمّا لعبوا بها بين يديه قتل رجل رفيقه، فخلع السلطان على بعضهم و أنعم على كبيرهم بخبز فى الحلقة، و استمرّ السلطان يلعب بالكرة فى كلّ يوم و أعرض عن تدبير الأمور، فتمرّدت المماليك و أخذوا حرم الناس و قطعوا الطريق و فسدت عدّة من الجوارى، و كثرت الفتن حتّى بلغ السلطان فلم يعبأ بما قيل له، بل قال: خلّوا كلّ أحد يعمل ما يريد. فلمّا فحش الأمر قام الأمير أرغون

العلائی فیه مع السلطان حتّی عاد إلی القلعة و قد تظاهر الناس بکلّ قبیح و نصبوا أخصاصا بالجزیرة الوسطانیّة و جزیرة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۲۹

بولاق سمّوها حلیمة، بلغ مصروف کلّ حصّ منها من ألفین إلی ثلاثة آلاف درهم، و کان هذا المبلغ یوم ذاک بحقّ ملک هائل. و عمل فی الأخصاص الرّخام و الدّهان البدیع، و زرع حوله المقاثئ و الریاحین و أقام بالأخصاص المذکورة معظم الناس من الباعة و التّجار و غیرهم، و کشفوا سترا لحیاء، و ما کفّوا فی التهتّک فی حلیمة و الطمیة و تنافسوا فی أرضها، حتّی کان کلّ قصبة قیاس تؤجّر بعشرین درهما،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۳۰

فبلغ أجرة الفدّان الواحد ثمانیة آلاف درهم، فأقاموا علی ذلک ستة أشهر، حتی زاد الماء و غرقت الجزیرة، و قبل مجیء الماء بقلیل قام الأمیر أرغون العلائی فی هدمها قیاما عظیما، و حرق الأخصاص علی حین غفلة و ضرب جماعة و شهّرهم فتلف بها مال عظیم جدا.

و فی هذه الأیام قلّ ماء النیل حتی صار ما بین المقیاس و مصر یخاض، و صار من بولاق إلی منشأة المهرانیّ طریقا یمشی فیه، و من بولاق الی جزیرة الفیل و إلی المنیة طریقا واحدا. و بعد الماء علی السقّایین و صاروا یأخذون الماء من تجاه قریة منبابة، و بلغت راویة الماء إلی درهمین بعد ما کانت بنصف درهم و ربع درهم. فشکا الناس ذلک إلی أرغون العلائی فبلّغ السلطان غلاء الماء بالمدینة و انکشاف ما تحت بیوت البحر، فرکب السلطان و معه الأمراء و کثیر من أرباب الهندسة، حتّی کشف ذلک، فوجدوا الوقت فیه قد فات لزیادة النیل، و اقتضی

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۳۱

الرأی أن ینقل التراب و الشقاف من مطابخ السّکّر بمدینة مصر و ترمی من برّ الجیزة إلی المقیاس حتی یصیر جسرا یعمل علیه العمل، حتی یدفع الماء إلی الجهة التی یحسر عنها، فنقلت الأتربة فی المراکب و ألقیت هناک إلی أن بقی جسرا ظاهرا و تراجع الماء قلیلا إلی برّ مصر، فلما قویت الزیادة علا الماء علی هذا الجسر و أخذه و محا أثره.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۳۲

و فی هذه الأیام لعب السلطان الکرة مع الأمراء فی المیدان من القلعة فاصطدم الأمیر یلبغا الصالحی مع آخر سقطا معا عن فرسیهما إلی الأرض، و وقع فرس یلبغا علی صدره فانقطع نخاعه و مات لوقته فأنعم السلطان بإقطاعه علی قطلوبغا الکرکیّ.

ثم فی هذه الأیام اشتدّت المطالبة علی أهل النواحی بالجمال و الشعیر و الأعدال و الأخراج لسبب سفر السلطان إلی الحجاز و کثرت مغارمهم إلی الولاة و شکا أرباب الإقطاعات ضررهم للسلطان فلم یلتفت لهم، فقام فی ذلک الأمیر أرغون شاه الأستادار مع الأمیر أرغون العلائی فی التحدّث مع السلطان فی إبطال حرکة السفر فلم یصغ لقولهم، و کتب باستعجال العربان بالجمال و استحثاث طقتمر الصّلاحیّ فیما هو فیه بصدد السفر.

ثم أوقع السلطان الحوطة علی أموال الطّواشی عرفات و أخرج عرفات إلی الشام منفیّا. ثم قصد السلطان أخذ أموال الطواشی کافور الهندیّ، فشفعت فیه خوند طغای زوجة الملک الناصر محمد بن قلاوون؛ و کان کافور المذکور من خواصّ خدّام الملک الناصر محمد بن قلاوون فأخرج کافور إلی القدس، و کافور المذکور هو صاحب التّربة بقرافة مصر، ثم نفی السلطان أیضا یاقوتا الکبیر الخادم، و کافورا المحرم و سرورا الدّمامینیّ، ثم نفی دینارا الصوّاف و مختصّا الخطائی.

ثم فی أوّل شهر ربیع الآخر مات ولد السلطان من بنت بکتمر الساقی و ولد له من اتّفاق العوّادة حظیّة أخیه ولد سمّاه شاهنشاه و سرّ به سرورا عظیما زائدا، و عمل

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۳۳

مهمّا عظيما مدة سبعة أيام. ثم مات أخوه يوسف ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون و اتّهم السلطان أيضا بقتله.

ثم قدم طقتمر الصلاحىّ من الشام بالقماش المستعمل برسم الحجاز. ثم قدم كتاب يلبغا اليحياوىّ نائب الشام يتضمّن خراب بلاد الشام مما أنفق بها من أخذ الأموال و انقطاع الجالب إليها، و الرأى تأخير سفر السلطان إلى الحجاز الشريف فى هذه السنة، فقام الأمير أرغون العلائى و ملكتمر الحجازىّ فى تصويب رأى نائب الشام و ذكرا للسلطان أيضا ما حدث ببلاد مصر من نفاق العربان و ضرر الزروع و كثرة مغارم البلاد، و ما زالا به حتى رجع عن سفر الحجاز فى هذه السنة، و كتب إلى نائب الشام بقبول رأيه، و كتب للأعمال باسترجاع ما قبضته العرب من كراء الأحمال و غير ذلك، فلم يوافق هذا غرض نساء السلطان و والدته، و أخذت فى تقوية عزمه على السفر للحجاز حتى مال اليهم، و كتب لنائب الشام و حلب و غيرها أنّه لا بدّ من سفر السلطان إلى الحجاز فى هذه السنة، و أمرهم بحمل ما يحتاج اليه، و وقع الاهتمام، و تجدّد الطّلب على الناس و غلاء الأسعار، و توقّفت الأحوال و قلّ الواصل من كل شىء.

و أخذ الأمراء فى أهبة السفر صحبة السلطان إلى الحجاز، و قلقوا لذلك، و سألوا أرغون العلائى و ملكتمر الحجازىّ فى الكلام مع السلطان فى إبطال السفر و معرفته رقّة حالهم من حين تجاريدهم إلى الكرك فى نوبة الملك الناصر أحمد، فكلّما السلطان فى ذلك فاشتدّ غضبه و أطلق لسانه، فما زالا به حتى سكن غضبه. و رسم من الغد لجميع الأمراء بالسفر، و من عجز عن السفر يقيم

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۳۴

بالقاهرة، فاشتدّ الأمر على الناس بمصر و الشام من كثرة السّخر، و كثر دعاؤهم على السلطان، و تنكّرت قلوب الأمراء، و كثرت الإشاعة بتنكّر السلطان على نائب الشام، و أنّه يريد مسكه حتّى بلغه ذلك، فاحترز على نفسه، و بلغه قتل يوسف ابن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، و قوّة عزم السلطان على سفر الحجاز موافقة لأغراض نسائه، فجمع أمراء دمشق، و حلّفهم على القيام معه، و برز إلى ظاهر دمشق فى نصف جمادى الأولى و أقام هناك و حضر إليه الأمير طرنطاى البشمقدار نائب حمص و الأمير أراق الفتّاح نائب صفد و الأمير أسندمر نائب حماة و الأمير بيدمر البدرى نائب طرابلس، فاجتمعوا جميعا بظاهر دمشق مع عسكر دمشق لخلع الملك الكامل شعبان هذا، و ظاهروا بالخروج عن طاعته، و كتب الأمير يلبغا اليحياوى نائب الشام إلى السلطان: بأنى أحد الأوصياء عليك، و أنّ مما قاله السلطان السعيد الشهيد، رحمه اللّه تعالى، (يعنى عن الملك الناصر) لى و للأمراء فى وصيّته: إذا أقمتم أحدا من أولادى و لم ترضوا بسيرته جرّوا برجله و أخرجوه و أقيموا غيره أحدا، و أنت أفسدت المملكة و أفقرت الأمراء و الأجناد، و قتلت أخاك و قبضت على أكابر أمراء السلطان و اشتغلت عن الملك و التهيت بالنساء و شرب الخمر، و صرت تبيع أخباز الأجناد بالفضّة، و ذكر له أمورا فاحشة عملها، فقدم كتابه إلى القاهرة فى يوم الجمعة العشرين من جمادى الأولى فلما قرأه السلطان تغيّر تغيّرا كبيرا، و أوقف أرغون العلائى عليه بمفرده، فقال له أرغون العلائى: و اللّه لقد كنت أحسب هذا! و قلت لك فلم تسمع قولى، و أشار عليه بكتمان هذا، و كتب الجواب يتضمّن التلطّف فى القول: و أخرج الأمير منجك اليوسفى على البريد

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۳۵

إليه فى ثانى عشرينه، ليرجعه عما عزم عليه، و يكشف أحوال الأمراء. و كتب السلطان إلى أعمال مصر بإبطال السلطان سفر الحجاز فكثرت القالة بين الناس بخروج نائب الشام عن الطاعة، حتى بلغ ذلك الأمراء و المماليك، فأشار أرغون العلائى على السلطان بإعلام الأمراء الخبر، فطلبوا إلى القلعة، و أخذ رأيهم فوقع الاتفاق على خروج العسكر إلى الشام مع الأمير أرقطاى، و معه من الأمراء [منكلى بغا] الفخرى أمير جاندار و آق سنقر الناصرىّ و طيبغا المجدىّ و أرغون الكاملى و أمير علىّ ابن طغريل الطّوغانىّ و ابن طقزدمر و ابن طشتمر و أربعون أمير طبلخاناه، و أربعون أمير عشرة و أربعون مقدّم حلقة، و حملت النفقة إليهم لكلّ مقدّم ألف ألف دينار، ما عدا ثلاثة مقدّمين، لكل مقدّم ثلاثة آلاف دينار. و كتب بإحضار الأجناد من البلاد، فقدم كتاب منجك من الغور بموافقة نوّاب الشام إلى نائب الشام، و أن التجريدة إليه لا تفيد، فإنّه يقول: إن أمراء مصر معه.

ثم قدم كتاب نائب الشام ثانيا، و فيه خطّ الأمير مسعود بن خطير و أمير علىّ بن قراسنقر و قلاوون و حسام الدين البشمقدار يتضمّن

أنّك لا تصلح للملك، و إنما أخذته

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۳۶

بالغلبة من غير رضا الأمراء- ثم عدّد ما فعله- و نحن ما بقينا نصغى لك و أنت ما تصغى لنا، و المصلحة أن تعزل نفسك من الملك ليتولّى غيرک، فلمّا سمع السلطان ذلک استدعى الأمراء و حلفهم على طاعته ثم أمرهم بالسفر فخرجوا من الغد و خرج طلب منكلى بغا و بعده أرغون الكاملىّ، فعند ما وصل طلب أرغون إلى تحت القلعة خرجت ريح شديدة ألقت شاليش أرغون الكاملىّ على الأرض، فصاحت العامّة: راحت عليكم يا كامليّة و تطيّروا بأنّهم غير منصورين. ثم أخذ الأمراء المجرّدون فی الخروج شيئا بعد شیء. و قدم حلاوة الأوجاقى يخبر بأنّ منجك ساعة وصوله إلى دمشق قبض عليه الأمير يلبغا نائب الشام و سجنه بقلعة دمشق، فبعث السلطان بالطواشى سرور الزّبنیّ لإحضار أخوى السلطان، و هما أمير حاجّ و أمير حسين فاعتذرا بوعكهما و بعثت أمهاتهما إلى العلائىّ و الحجازىّ تسألانهما فی التلطّف مع السلطان فی أمرهما، و بلّغت العلائىّ بعض جوارى زوجته أمّ السلطان بأنها سمعت السلطان و قد سكر و كشف رأسه و هو يقول: «يا إلهى أعطيتنى الملک و ملّكتنى آل ملک

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۳۷

و قمارى، و بقى من أعدائى أرغون العلائى و ملكتمر الحجازى فمكّنّى منهما حتى أبلغ غرضى منهما»، فأقلق أرغون العلائى هذا الكلام. ثم دخل على السلطان فی خلوة فإذا هو متغيّر الوجه مفكّر، فبدره بأن قال له: من جاءک من جهة إخوتى، أنت و الحجازى؟ فعرّفه أن النساء دخلن عليهما [و طلبن] أن يكون السلطان طيّب الخاطر عليهما و يؤمّنهما، فإنّهما خائفان، فرد عليه السلطان جوابا جافيا، و وضع يده فی السيف ليضربه به، فقام أرغون عنه لينجو بنفسه، و عرّف الحجازىّ ما جرى له مع السلطان و شكا من فساد السلطنة، فتوحّش خاطرهما، و انقطع أرغون العلائى عن الخدمة و تعلّل، و أخذت المماليک أيضا فی التنكّر على السلطان، و كاتب بعضهم نائب الشام، و اتّفقوا بأجمعهم، حتى اشتهر أمرهم، و تحدّث به العامّة و ألحّ السلطان فی طلب أخويه، و بعث قطلوبغا الكركىّ فی جماعة حتى هجموا عليهما ليلا، فقامت النساء و منعنهم منهما فهمّ أن يقوم بنفسه حتى يأخذهما، فجیء بهما إليه وقت الظهر من يوم السبت تاسع عشرين جمادى الأولى فأدخلهما إلى موضع و وكّل بهما، و قام العزاء فی الدور السلطانى عليهما، و اجتمعت جوارى الملک الناصر محمد بن قلاوون و أولاده، فلما سمع المماليک صياحهنّ هموا بالثورة و الركوب للحرب و تعبّوا.

فلمّا كان يوم الاثنين مستهلّ جمادى الآخرة خرج طلب أرقطاى مقدّم العساكر المجرّدين إلى الشام حتّى وصل إلى باب زويلة و وقف هو مع الأمراء

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۳۸

فی الموكب تحت القلعة، و إذا بالناس قد اضطربوا، و نزل الحجازى سائقا يريد إسطبله، و سبب ذلک أنّ السلطان الملک الكامل جلس بالإيوان على العادة، و قد ثبّت مع ثقاته القبض على الحجازى و أرغون شاه إذا دخلا، و كانا جالسين ينتظران الإذن على العادة، فخرج طغيتمر الدوّادار فی الإذن لهما فأشار لهما بعينه أن اذهبا، و كانا قد بلغهما أنّ السلطان قد تنكّر عليهما، فقاما من فورهما و نزلا إلى إسطبلهما و لبسا بمماليكهما و حواشيهما و ركبا و توجّها إلى قبّة النصر، و بعث لحجازىّ يستدعى آق سنقر من سرياقوس، فما تضحّى النهار حتى اجتمعت أطلاب الأمراء بقبّة النصر، فطلب السلطان عند ذلک أرغون العلائى و استشاره فيما يعمل، فأشار عليه بأن يركب بنفسه إليهم، فركب السلطان بمماليكه و خاصّكيّته و معه زوج أمّه الأمير

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۳۹

أرغون العلانى المذكور و تمر الموساوىّ و عدّة أخر من الأمراء، و القلوب متغيّرة، و دقّت الكوسات حربيا، و دارت النقباء على أجناد الحلقة و المماليک ليركبوا فركب بعضهم و تخاذل بعضهم؛ و سار السلطان فی جمع كبير من العامّة و هو يسألهم الدعاء فأسمعوه مالا يليق، و دعوا عليه، و سار فی نحو ألف فارس لا غير حتى قابل ملكتمر الحجازىّ و أصحابه من الأمراء و المماليک، فعند المواجهة

انسلّ عن السلطان أصحابه، و بقى فى أربعمائة فارس، فبرز له آق سنقر، و ساق حتى قارب السلطان و تحدّث معه و أشار عليه بأن ينخلع من السلطنة فأجابه إلى ذلك و بكى، فتركه آق سنقر و عاد إلى الأمراء و عرّفهم بأنه أجاب أن يخلع نفسه، فلم يرض أرغون شاه، و بدر و معه الأمير قرابغا و الأمير صمغار و الأمير بزلار و الأمير غرلو فى أصحابهم حتى وصلوا إلى السلطان و سيّروا إلى أرغون العلائى ليأتيهم ليأخذوه إلى عند الأمراء فلم يوافق العلائى على ذلك، فهجموا عليه و مزّقوا من كان معه من مماليكه و أصحابه. ثم ضرب واحد منهم أرغون العلائى بدبّوس حتى أرماه عن فرسه إلى الأرض، فضربه الأمير بيبغا أروس بسيف قطع خدّه، فانهزم عند ذلك عسكر السلطان، و فرّ الملك الكامل شعبان إلى القلعة و اختفى عند امه روجة الأمير أرغون العلائى، فسار الأمراء إلى القلعة فى جمع هائل و أخرجوا أمير حاج و أمير حسين من سجنهما، و قبّلوا يد أمير حاجّ و خاطبوه بالسلطنة. ثم طلبوا الملك الكامل شعبان من عند أمّه فلم يجدوه فحرّضوا فى طلبه حتى وجدوه مختفيا بين الأزيار، و قد اتّسخت ثيابه من وسخ الأزيار، فأخرجوه بهيئته إلى الرّحبة ثم أدخلوه إلى الدهيشة فقيّدوه و سجنوه حيث كان أخواه مسجونين و وكّل به قرابغا القاسمىّ و الأمير صمغار.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۴۰

و من غريب الاتفاق أنه كان عمل طعاما لأخويه: أمير حاجّ و حسين حتى يكون غداءهما فى السجن، و عمل سماط السلطان على العادة فوقعت الضّجة، و قد مدّ السّماط، فركب السلطان من غير أكل، فلمّا انهزم و قبض عليه، و أقيم بدله أخوه أمير حاج مدّ السّماط [بعينه له] فأكل منه، و أدخل بطعامه و طعام أخيه أمير حسين إلى الملك الكامل فأكله فى السجن. و استمرّ الملك الكامل المذكور فى السجن إلى يوم الأربعاء ثالث جمادى الآخرة سنة سبع و أربعين و سبعمائة قتل وقت الظهر و دفن عند أخيه يوسف ليلة الخميس، فكانت مدّة سلطنته على مصر سنة واحدة و ثمانية و خمسين يوما؛ و قال الصّفدىّ: سنة و سبعة عشر يوما.

و كان من أشرّ الملوك ظلما و عسفا و فسقا. و فى أيامه- مع قصر مدّته- خربت بلاد كثيرة لشغفه باللّهو و عكوفه على معاقرة الخمور، و سمع الأغانى و بيع الإقطاعات بالبذل، و كذلك الولايات، حتى إنّ الإقطاع كان يخرج عن صاحبه و هو حىّ بمال لآخر، فإذا وقف من خرج إقطاعه قيل له نعوّض عليك قد أخرجناه لفلان الفلانى. و كان مع هذا كله سفّاكا للدماء، و لو طالت يده لأتلف خلائق كثيرة، و كان سيئ التدبير، يمكّن النساء و الطواشيّة من التصرّف فى المملكة و التهتّك

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۴۱

فى النّزه و الصيد و لعب الكرة بالهيئات الجميلة و ركوب الخيول المسوّمة، مع عدم الاحتشام من غير حجاب من الأمير آخورية و الغلمان، و يعجبه ذلك من تهتّكهنّ على الرجال، فشغف لذلك جماعة كثيرة من الجند بحرمه بما يفعلن من ركوب الخيول و غيرها. و كان حريمه إذا نزلن إلى نزهة بلغت الجرّة الخمر إلى ثلاثين درهما، و هذا كلّه مع شرهه و شره حواشيه و نسائه إلى ما فى أيدى الناس من البساتين و الرّزق و الدواليب و نحوها، فأخذت أمّه معصرة وزير بغداد و منظرته على بركة الفيل، و أشياء غير ذلك. و حدث فى أيامه أخذ خراج الرّزق و زيادة القانون و نقص الأجائر، و أعيدت فى أيامه ضمان أرباب الملاعيب و عدّة مكوس، و كان يحب لعب الحمام، فلما تسلطن تغالى فى ذلك و قرّب من يكون من أرباب هذا الشأن، و مع هذا الظلم و الطمع لم يوجد له من المال سوى مبلغ ثمانين ألف دينار و خمسمائة ألف درهم، إلا أنه كان مهابا شجاعا سيوسا متفقّدا لأحوال مملكته، لا يشغله لهوه عن الجلوس فى المواكب و الحكم بين الناس. و لما أمسك و قتل قال فيه الصفدى:

بيت قلاوون سعاداته فى عاجل كانت و فى آجل [السريع]

حلّ على أملاكه للرّدى دين قد استوفاه بالكامل

*** السنة الأولى من سلطنة الملك الكامل شعبان على مصر و هى سنة ستّ و أربعين و سبعمائة، على أن أخاه الملك الصالح إسماعيل حكم منها إلى رابع

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۴۲

شهر ربيع الآخر، ثم حكم الملك الكامل هذا فى باقيها و فى أشهر من سنة سبع كما سيأتى ذكره.

فيها (أعنى سنة ست و أربعين) توفّى السلطان الملك الصالح إسماعيل ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون حسب ما تقدّم ذكره فى ترجمته. و فيها أيضا توفّى السلطان الملك الأشرف كجك ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون بعد خلعه من السلطنة بسنين، و قد تقدّم ذكر سلطنته أيضا و وفاته فى ترجمته.

و توفّى الأمير سيف الدين طقزدمر بن عبد اللّه الحمويّ الناصريّ الساقى بالقاهرة فى مستهل جمادى الآخرة، و كان أصله من مماليك الملك المؤيّد عماد الدين إسماعيل الأيّوبيّ صاحب حماة، ثم انتقل إلى ملك الملك الناصر محمد بن قلاوون و حظى عنده و جعله ساقيا، ثم رقّاه حتى صار أمير مائة و مقدّم ألف بالديار المصرية، ثم جعله أمير مجلس و زوّجه بإحدى بناته، و صار من عظماء أمرائه الى أن مات.

و [لمّا] تسلطن ابنه الملك المنصور أبو بكر استقرّ طقزدمر هذا نائب السلطنة بديار مصر، و وقع له أمور حكيناها فى تراجم السلاطين من بنى الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى أن أخرج إلى نيابة حماة. ثم نقل إلى نيابة حلب، ثم إلى نيابة الشام، ثم طلب إلى القاهرة فى سلطنة الملك الكامل هذا فحضر اليها مريضا فى محفّة و مات بعد أيام حسب ما تقدّم. و كان من أجلّ الأمراء و أحسنهم سيرة. كان عاقلا ديّنا سيوسا، عارفا، و هو صاحب الخانقاه بالقرافة و القنطرة خارج القاهرة على الخليج و غير ذلك مما هو مشهور به.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۴۳

و توفّى القاضى بدر الدين محمد ابن القاضى محيى الدين [يحيى] بن فضل اللّه العمرى الدّمشّقى، كاتب سرّ دمشق فى سادس عشرين شهر رجب بدمشق. و كان كاتبا فاضلا من بيت فضل و رياسة، و قد تقدّم ذكر جماعة من آبائه و أقاربه، و يأتى ذكر جماعة أخر من أقاربه فى محلهم من هذا الكتاب إن شاء اللّه تعالى.

و توفّى الأمير ركن الدين بيبرس بن عبد اللّه الأحمديّ المنصوريّ أمير جاندار فى يوم الثلاثاء ثالث عشر المحرّم، و هو فى عشر الثمانين. و كان أصله من مماليك الملك المنصور قلاوون، و أحد أعيان أمراء الديار المصرية، و هو الذى قوّى عزم قوصون على سلطنة الملك المنصور أبى بكر، و كان جار كسيّ الجنس، تنقّل إلى أن صار من أعيان الأمراء بمصر، ثم ولى نيابة صفد و طرابلس، ثم قدم القاهرة و تولّى أمير جاندار. و كان كريما شجاعا ديّنا قويّ النفس، لم يركب قطّ إلّا فحلا، و لم يركب حجرة و لا إكديشا فى عمره. و كان له ثروة كبيرة، و طالت أيّامه فى السعادة، و خلّف أملاكا كثيرة، أذهب غالبها جماعة من أوباش ذرّيته بالاستبدال و البيع إلى يومنا هذا.

و توفّى الأمير بدر الدين چنكلى [بن محمد بن البابا بن چنكلى] بن خليل ابن عبد اللّه المعروف بابن البابا العجليّ أتابك العساكر بالديار المصريّة فى عصر يوم الاثنين سابع [عشر] ذى الحجّة. و كان أصله من بلاد الروم، طلبه الملك الأشرف خليل بن قلاوون و كتب له منشورا بالإقطاع الذى عيّنه إليه فلم يتّفق حضوره إلّا فى أيّام الملك الناصر محمد بن قلاوون فى سنة أربع و سبعمائة فأمّره و أكرمه،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۴۴

و لا زال يرقّيه حتى صار يجلس ثانى آقوش نائب الكرك. ثم بعد آقوش جلس چنكلى هذا رأس الميمنة.

قال الشيخ صلاح الدين: و هو من الحشمة و الدّين و الوقار و عفّة الفرج فى المحلّ الأقصى، و لم يزل معظّما من حين ورد إلى أن مات. و كان ركنا من أركان المسلمين ينفع العلماء و الصلحاء و الفقراء بماله و جاهه، و كان يتفقّه، و يحفظ ربع العبادات. و يقال: إنّ نسبه يتّصل بإبراهيم بن أدهم رضى اللّه عنه، قال: و قلت فيه و لم أكتب به إليه:

[السريع]

لا تنس لى يا قاتلى فى الهوى حشاشة من حرقى تنسلى

لا ترس لى ألقى به فى الهوى سهام عينيك متى ترسلى

لا تخت لى يشرف قدرى به إلّا إذا ما كنت بى تختلى

لا چنك لى تضرب أوتاره إلّا ثنا يملى على چنكلى

و توفّى رميثة و اسمه منجد بن أبى نمىّ محمد بن أبى سعد حسن بن على بن قتادة ابن أبى غرير إدريس بن مطاعن بن عبد الكريم بن عيسى بن حسين بن سليمان بن علىّ ابن عبد اللّه بن محمد بن موسى بن عبد اللّه المحض بن موسى [بن عبد اللّه] بن الحسن ابن الحسن بن علىّ بن أبى طالب الحسنىّ المكىّ أمير مكة بها فى يوم الجمعة ثامن ذى القعدة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۴۵

و توفّى الشيخ الإمام فخر الدين أحمد بن الحسين الجاربردى شارح «البيضاوىّ».

و توفّى الشيخ الإمام العلّامة تاج الدين أبو الحسن على بن عبد اللّه [ابن أبى الحسن] ابن أبى بكر الأردبيلىّ الشافعى، مدرّس مدرسة الأمير حسام الدّين طرنطاى المنصورى بالقاهرة. كان فقيها عالما بارعا أفتى و درّس سنين.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة؛ ج ۱۰؛ ص۱۴۵

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۴۶

و توفّى الشيخ المقرئ تقىّ الدين محمد [بن محمد بن على] بن همام ابن راجى الشافعى إمام جامع الصالح خارج باب زويلة و مصنّف «كتاب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۴۷

سلاح المؤمن». رحمه اللّه.

- أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و ست عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا و خمس عشرة إصبعا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۴۸

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۴۷]

ذكر سلطنة الملك المظفر حاجّى على مصر

السلطان الملك المظفّر زين الدين حاجّى المعروف بأمير حاج ابن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، و هو السلطان الثامن عشر من ملوك الترك بالديار المصريّة و السادس من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون. جلس على سرير الملك بعد خلع أخيه الملك الكامل شعبان و القبض عليه فى يوم الاثنين مستهلّ جمادى الآخرة سنة سبع و أربعين و سبعمائة. و كان سجنه أخوه الملك الكامل شعبان كما تقدّم ذكره. فلمّا انهزم الملك الكامل من الأمراء بقبّة النصر ساق فى أربعة مماليك إلى باب السرّ من القلعة، فوجده مغلقا و المماليك بأعلاه، فتلطّف بهم حتّى فتحوه له، و دخل إلى القلعة لقتل أخويه حاجّى هذا و معه حسين، لأنهما كانا حبسا معا، فلم يفتح له الخدّام الباب فمضى إلى أمّه فاختفى عندها و صعد الأمراء فى أثره إلى القلعة بعد أن قبضوا على الأمير أرغون العلائىّ و على الطواشى جوهر السّحرتى اللالا و أسندمر الكاملىّ و قطلوبغا الكركىّ و جماعة أخر، و دخل بزلار و صمغار راكبين إلى باب الستارة و طلبا أمير حاج المذكور، فأدخلهما الخدّام إلى الدهيشة حتى أخرجوه و أخاه من سجنهما، و خاطبا أمير حاجّ فى الوقت بالملك المظفّر. ثم دخل إليه الأمير أرغون شاه، و قبّل له الأرض و قال له: بسم اللّه اخرج أنت سلطاننا، و سار به و بأخيه حسين إلى الرحبة و أجلسوه على باب الستارة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۴۹

ثم طلب شعبان حتّی وجد بین الأزیار و حبسوه حیث کان أخواه، و طلبوا الخلیفة و القضاة و فوّض علیه الخلعة الخلیفتی، و رکب من باب الستارة بأبّهة السلطنة و شعار الملک من باب الستارة إلی الإیوان. و جلس علی تخت الملک و حمل الممالیک أخاه أمیر حسین علی أکتافهم إلی الإیوان. و لقّب بالملک المظفّر و قبل الأمراء الأرض بین یدیه و حلف لهم أنه لا یؤذی أحدا منهم، ثم حلفوا له علی طاعته، و رکب الأمیر بیغرا البرید و خرج إلی الشام لیبشّر الأمیر یلبغا الیحیاویّ نائب الشام و یحلّفه و یحلّف أیضا أمراء الشام للملک المظفّر.

ثم کتب إلی ولاة الأعمال بإعفاء النواحی من المغارم و رمایة الشعیر و البرسیم.

ثم حمل الأمیر أرغون العلائی إلی الإسکندریة. و فی یوم الأربعاء ثالثه قتل الملک الکامل شعبان و قبض علی الشیخ علیّ الدوادار، و علی عشرة من الخدّام الکاملیّة، و سلّموا إلی شادّ الدواوین، و سلّم أیضا جوهر السّحرتی و قطلوبغا الکرکیّ، و ألزموا بحمل الأموال التی أخذوها من الناس فعذّبوا بأنواع العذاب، و وقعت الحوطة علی موجودهم. ثم قبض علی الأمیر تمر الموساوی، و أخرج إلی الشام.

و أمر بأمّ الملک الکامل و زوجاته فأنزلن من القلعة إلی القاهرة، و عرضت جواری دار السلطان فبلغت عدّتهن خمسمائة جاریة ففرّقن علی الأمراء، و أحیط بموجود حظیّة الملک الکامل التی کانت أولا حظیّة أخیه الملک الصالح إسماعیل المدعوّة اتفاق و أنزلت من القلعة، و کانت جاریة سوداء حالکة السواد، اشترتها ضامنة المغانی بدون الأربعمائة درهم من ضامنة المغانی بمدینة بلبیس، و علّمتها الضرب بالعود علی الأستاذ عبد علیّ العوّاد، فمهرت فیه و کانت حسنة الصوت جیّدة الغناء فقدّمتها لبیت السلطان، فاشتهرت فیه حتی شغف بها الملک الصالح

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۵۰

إسماعیل، فإنه کان یهوی الجواری السودان و تزوّج بها. ثم لما تسلطن أخوه الملک الکامل شعبان باتت عنده من لیلته، لما کان فی نفسه منها أیام أخیه، و نالت عندهما من الحظّ و السعادة ما لا عرف فی زمانها لامرأة، حتّی إن الکامل عمل لها دائر بیت طوله اثنتان و أربعون ذراعا و عرضه ست أذرع، دخل فیه خمسة و تسعون ألف دینار مصریة، و ذلک خارج عن البشخاناه و المخادّ و المساند، و کان لها أربعون بذلة ثیاب مرصّعة بالجواهر، و ستة عشر مقعد زرکش، و ثمانون مقنعة، فیها ما قیمته عشرون ألف درهم و أشیاء غیر ذلک، استولوا علی الجمیع.

ثم استرجع السلطان جمیع الأملاک التی أخذتها حریم الکامل لأربابها. ثم نودی بالقاهرة و مصر برفع الظلامات، و منع أرباب الملاعیب جمیعهم.

و خلع السلطان علی علم الدین عبد اللّه [بن أحمد بن إبراهیم] بن زنبور بانتقاله من وظیفة نظر الدولة إلی نظر الخاصّ عوضا عن فخر الدین بن السعید، و قبض علی

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۵۱

ابن السعید و خلع علی موفّق الدین عبد اللّه بن إبراهیم باستقراره ناظر الدولة عوضا عن ابن زنبور، و خلع علی سعد الدین حربا، و استقر فی استیفاء الدولة عوضا عن ابن الرّیشة.

ثم قدم الأمیر بیغرا من دمشق بعد أن لقی الأمیر یلبغا الیحیاوی نائب الشام، و قد برز إلی ظاهر دمشق یرید السیر إلی مصر بالعساکر لقتال الملک الکامل شعبان، فلما بلغه ما وقع سرّ سرورا عظیما زائدا بزوال دولة الملک الکامل، و إقامة أخیه المظفّر حاجّی فی الملک، و عاد یلبغا إلی دمشق و حلف للملک المظفر و حلّف الأمراء علی العادة، و أقام له الخطبة بدمشق، و ضرب السّکة باسمه، و سیر إلی السلطان دنانیر و دراهم، و کتب یهنّئ السلطان بجلوسه علی تخت الملک، و شکا من نائب حلب و نائب غزة و نائب قلعة

دمشق مغلطاى و من نائب قلعة صفد قرمجى، من أجل أنهم لم يوافقوه على خروجه عن طاعة الملك الكامل شعبان، فرسم السلطان بعزل الأمير طقتمر الأحمدى نائب حلب و قدومه إلى مصر، و كتب باستقرار الأمير بيدمر البدرى نائب طرابلس عوضه فى نيابة حلب، و استقرّ الأمير أسندمر العمرىّ نائب حماة فى نيابة طرابلس، و هذا أوّل نائب انتقل من حماة إلى طرابلس، و كانت قديما حماة أكبر من طرابلس، فلما اتّسع أعمالها صارت أكبر من حماة.

ثم كتب السلطان بالقبض على الأمير مغلطاى نائب قلعة دمشق و على قرمجى نائب قلعة صفد. ثم كتب بعزل نائب غزّة، و كان الأمير يلبغا اليحياوىّ لما عاد إلى دمشق بغير قتال عمّر- موضع كانت خيمته عند مسجد القدم- قبّة سمّاها قبّة النصر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۵۲

التى تعرف الآن بقبّة يلبغا. ثم خلع السلطان على الطواشى عنبر السّحرتى باستقراره مقدّم المماليك السلطانية، كما كان أولا فى دولة الملك الصالح عوضا عن محسن الشّهابى. و خلع على مختصّ الرسولى باستقراره زمام دار، و أنعم عليه بإمرة طبلخاناه.

ثم أنعم السلطان بإقطاع الأمير أرغون العلائى على الأمير أرغون شاه، و أنعم على كلّ من أصلم و أرقطاى بزيادة على إقطاعه، و أنعم على ابن تنكز بإمرة طبلخاناه، و على أخيه الصغير بإمرة عشرة.

ثم فى يوم الاثنين خامس [عشر] جمادى الآخرة أمّر السلطان ثمانية عشر أميرا و نزلوا إلى قبّة المنصوريّة و لبسوا الخلع، و شقّوا القاهرة حتى طلعوا إلى القلعة فكان لهم بالقاهرة يوم مشهود. ثم فى يوم الخميس ثالث شهر رجب خلع السلطان على الأمير أرقطاى باستقراره نائب السلطنة بديار مصر باتفاق الأمراء على ذلك بعد ما امتنع من ذلك تمنعا زائدا، حتى قام الحجازى بنفسه و أخذ السيف، و أخذ أرغون شاه الخلعة و دارت الأمراء حوله، و ألبسوه الخلعة على كره منه، فخرج فى موكب عظيم، حتى جلس فى شبّاك دار النيابة، و حكم بين الناس، و أنعم السلطان عليه- بزيادة على إقطاعه- ناحيتى المطريّة و الخصوص، لأجل سماط النيابة. ثم ركب السلطان بعد ذلك و نزل إلى سرياقوس على العادة كلّ سنة، و خلع على الأمير تمربغا العقيلى باستقراره فى نيابة الكرك عوضا عن الأمير قبلاى. ثم عاد السلطان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۵۳

إلى القلعة، و بعد عوده فى أوّل شهر رمضان مرض السلطان عدّة أيام. ثم فى يوم الاثنين خامس عشرين شهر رمضان خرج الأمير أرغون شاه الأستادار على البريد إلى نيابة صفد، و سبب ذلك تكبّره على السلطان، و تعاظمه عليه و تحكّمه فى الدولة، و معارضته السلطان فيما يرسم به، و فحشه فى مخاطبة السلطان و الأمراء حتّى كرهته النفوس، و عزم السلطان على مسكه فتلطّف به النائب حتّى تركه، و خلع عليه باستقراره فى نيابة صفد، و أخرجه من وقته خشية من فتنة يثيرها، فإنّه كان قد اتفق مع عدّة من المماليك على المخامرة، و أنعم السلطان بإقطاعه على الأمير ملكتمر الحجازى و أعطى ناحية بوتيج زيادة عليه.

ثم فى يوم الأحد أوّل شوّال تزوّج السلطان ببنت الأمير تنكز زوجة أخيه الكامل. و فى آخر شوّال طلبت اتفاق العوّادة إلى القلعة فطلعت بجواريها مع الخدّام و تزوّجها السلطان خفية، و عقد له عليها شهاب الدين أحمد بن يحيى الجوجرى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۵۴

شاهد الخزانة، و بنى عليها من ليلته، بعد ما جليت عليه، و فرش تحت رجليها ستون شقّة أطلس، و نثر عليها الذهب. ثم ضربت بعودها و غنّت فأنعم السلطان عليها بأربعة فصوص و ستّ لؤلؤات، ثمنها أربعة آلاف دينار.

قلت: و هذا ثالث سلطان من أولاد ابن قلاوون تزوّج بهذه الجارية السوداء، و حظيت عنده، فهذا من الغرائب، على أنها كانت سوداء حالكة لا مولّدة، فإن كان من أجل ضربها بالعود و غنائها فيمكن من تكون أعلى منها رتبة فى ذلك و تكون بارعة الجمال بالنسبة إلى هذه. فسبحان المسخّر.

و فى ثانى شوّال أنعم السلطان على الأمير طنيرق مملوك أخيه يوسف بتقدمة ألف بالديار المصريّة دفعة واحدة، نقله من الجنديّة إلى

التقدمة لجمال صورته، و كثر كلام المماليك بسبب ذلك. ثم رسم السلطان بإعادة ما كان أخرج عن اتّفاق العوّادة من خدّامها و جواريها، و غير ذلك من الرواتب، و طلب السلطان عبد عليّ العوّاد المغنّى معلّم اتفاق إلى القلعة و غنّى السلطان فأنعم عليه بإقطاع فى الحلقة زيادة على ما كان بيده و أعطاه مائتى دينار و كامليّة حرير بفرو سمّور. و انهمك أيضا الملك المظفّر فى اللذات، و شغف باتفاق حتى شغلته عن غيرها و ملكت قلبه، و أفرط فى حبّها، فشقّ ذلك على الأمراء و المماليك و أكثروا من الكلام، حتّى بلغ السلطان، و عزم على مسك جماعة منهم، فما زال به النائب حتى رجع عن ذلك.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۵۵

ثم خلع السلطان على قطليجا الحمويّ و استقرّ فى نيابة حماة عوضا عن طيبغا المجدى و خلع أيضا على أيتمش عبد الغنى و استقرّ فى نيابة غزّة، و خرجا من وقتهما على البريد، و كتب بإحضار المجدى، فقدم بعد ذلك إلى القاهرة، و خلع عليه باستقراره أستادار عوضا عن أرغون شاه المنتقل إلى نيابة صفد.

و فى يوم أوّل محرم سنة ثمان و أربعين و سبعمائة ركب السلطان فى أمرائه الخاصّكيّة و نزل إلى الميدان و لعب بالكرة فغلب الأمير ملكتمر الحجازيّ فى الكرة، فلزم الحجازىّ عمل وليمة فعملها فى سرياقوس، ذبح فيها خمسمائة رأس من الغنم و عشرة أفراس، و عمل أحواضا مملوءة بالسكر المذاب، و جمع سائر أرباب الملاهى و حضرها السلطان و الأمراء، فكان يوما مشهودا. ثم ركب السلطان و عاد، و بعد عوده قدم كتاب الأمير أسندمر نائب طرابلس يسأل الإعفاء فأعفى. و خلع على الأمير منكلى بغا أمير جاندار و استقرّ فى نيابة طرابلس.

و فى هذا الشهر شكا الناس للسلطان من بعد الماء عن برّ مصر و القاهرة، حتى غلت روايا الماء، فرسم السلطان بنزول المهندسين لكشف ذلك، فكتب تقدير ما يصرف على الجسر مبلغ مائة و عشرين ألف درهم، جبيت من أرباب الأملاك المطلّة على النيل، حسابا عن كل ذراع خمسة عشر درهما، فبلغ قياسها سبعة آلاف ذراع و ستمائة ذراع، و قام باستخراج ذلك و قياسه محتسب القاهرة ضياء الدين [يوسف بن أبى بكر محمد الشهيربا] بن خطيب بيت الأبّار.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۵۶

و فى هذه الأيام توقّفت أحوال الدولة من كثرة رواتب الخدّام و العجائز و الجوارى، و أخذهم الرّزق بأرض بهتيم من الضواحى و بأراضى الجيزة و غيرها، بحيث إنه أخذ مقبل الرومى عشرة آلاف فدان.

و فى هذه الأيام رسم السلطان للطواشى مقبل الرومى أن يخرج اتّفاق العوّادة و سلمى و الكركيّة حظايا السلطان من القلعة بما عليهن من الثياب، من غير أن يحملن شيئا من الجوهر و الزّركش، و أن تقلع عصبة اتفاق عن رأسها و يدعها عنده، و كانت هذه العصبة قد اشتهرت عند الأمراء، و شنعت قالتها، فإنه قام بعملها ثلاثة ملوك الإخوة من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون: الملك الصالح إسماعيل و الملك الكامل شعبان و الملك المظفّر حاجّى هذا، و تنافسوا فيها و اعتنوا بجواهرها حتّى بلغت قيمتها زيادة على مائة ألف دينار مصريّة.

و سبب إخراج اتّفاق و هؤلاء من الدور السلطانيّة أن الأمراء الخاصّكيّة:

قرابغا و صمغار و غيرهما بلغهما إنكار الأمراء الكبار و المماليك السلطانية شدّة شغف السلطان بالنسوة الثلاث المذكورات و انهماكه على اللهو بهنّ، و انقطاعه إليهن بقاعة الدهيشة عن الأمراء و إتلافه الأموال العظيمة فى العطاء لهنّ و لأمثالهن، و إعراضه عن تدبير الملك، و خوّفوه عاقبة ذلك، فتلطّف بهم و صوّب ما أشاروا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۵۷

به عليه من الإقلاع عن اللهو بالنساء، و أخرجهنّ السلطان و فى نفسه حزازات لفراقهنّ، تمنعه من الهدوء و الصبر عنهنّ، فأحب أن يتعوض عنهن بما يلهيه و يسليه، فاختار صنف الحمام، و أنشأ حضيرا على الدهيشة ركّبه على صوارى و أخشاب عالية، و ملأه بأنواع

الحمام، فبلغ مصروف الحضير خاصّة سبعة آلاف درهم، و بينا السلطان فى ذلك قدم جماعة من أعيان الحلبيين و شكوا من الأمير بيدمر البدرى نائب حلب فعزله السلطان بأرغون شاه نائب صفد، و رسم ألّا يكون لنائب الشام عليه حكم، و أن تكون مكاتباته للسلطان، حمل إليه التقليد الأمير طنيرق.

ثم ورد الخبر باختلال مراكز البريد بطريق الشام، فأخذ من كل أمير مقدّم ألف أربعة أفراس، و من كل طبلخاناه فرسان، و من كلّ أمير عشرة فرس واحد، و كشف عن البلاد المرصدة للبريد فوجد ثلاث بلاد منها وقف الملك الصالح إسماعيل، وقف بعضها و أخرج باقيها إقطاعات، فأخرج السلطان عن عيسى بن حسن الهجّان بلدا تعمل فى كل سنة عشرين الف درهم، و ثلاثة آلاف إردب غلّة، و جعلها مرصدة لمراكز البريد.

و استمرّ خاطر السلطان موغرا على الجماعة من الأمراء بسبب اتفاق و غيرها، إلى أن كان يوم الأحد تاسع عشر شهر ربيع الأول من سنة ثمان و أربعين و سبعمائة، كانت الفتنة العظيمة التى قتل فيها ملكتمر الحجازىّ و آق سنقر و أمسك بزلار

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۵۸

و صمغار و أيتمش عبد الغنى؛ و سبب ذلك أن السلطان لما أخرج اتّفاق و غيرها، و تشاغل بلعب الحمام صار يحضر إلى الدهيشة الأوباش، و يلعب بالعصا لعب صباح، و يحضر الشيخ على بن الكسيح مع حظاياه يسخر له و ينقل إليه أخبار الناس، فشقّ ذلك على الأمراء و حدّثوا ألجيبغا و طنيرق بأن الحال قد فسد، فعرّفا السلطان ذلك، فاشتدّ حنقه، و أطلق لسانه، و قام إلى السطح و ذبح الحمام بيده بحضرتهما، و قال لهما: و اللّه لأذبحنّكم كما ذبحت هذه الطيور، و أغلق باب الدهيشة، و أقام غضبان يومه و ليلته، و كان الأمير غرلو قد تمكّن من السلطان فأعلمه السلطان بما وقع، فنال غرلو من الأمراء و هوّن أمرهم عليه، و جسّره على الفتك بهم و القبض على آق سنقر، فأخذ السلطان فى تدبير ما يفعله، و قرّر ذلك مع غرلو. ثم بعث طنيرق فى يوم الأربعاء خامس عشر شهر ربيع الآخر إلى النائب يعرّفه أن قرابغا القاسمىّ و صمغار و بزلار و أيتمش عبد الغنى قد اتّفقوا على عمل فتنة، و عزمى أن أقبض عليهم قبل ذلك، فوعده النائب بردّ الجواب غدا على السلطان فى الخدمة، فلمّا اجتمع النائب بالسلطان أشار عليه النائب بالتثبت فى أمرهم حتّى يصحّ له ما قيل عنهم.

ثم أصبح فعرّفه السلطان فى يوم الجمعة بأنه صح عنده ما قيل بإخبار بيبغا أرس أنهم تحالفوا على قتله، فأشار عليه النائب أن يجمع بينهم و بين بيبغا أرس، حتى يحاققهم بحضرة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۵۹

الأمراء يوم الأحد، و كان الأمر على خلاف هذا، فإنّ السلطان كان اتّفق مع غرلو و عنبر السّحرتى مقدّم المماليك على مسك آق سنقر و ملكتمر الحجازى فى يوم الأحد.

فلمّا كان يوم الأحد تاسع عشر ربيع الآخر المذكور حضر الأمراء و النائب إلى الخدمة على العادة بعد العصر و مدّ السماط؛ و إذا بالقصر قد ملئ بالسيوف المسلّلة من خلف آق سنقر و الحجازى، و أحيط بهما و بقرابغا، و أخذوا إلى قاعة هناك، فضرب ملكتمر الحجازىّ بالسيوف و قطّع هو و آق سنقر قطعا، و هرب صمغار و أيتمش عبد الغنى، فركب صمغار فرسه من باب القلعة، و فرّ إلى القاهرة، و اختفى أيتمش عند زوجته، و خرجت الخيل وراء صمغار حتى أدركوه خارج القاهرة؛ و أخذ أيتمش من داره فارتجّت القاهرة، و غلّقت الأسواق و أبواب القلعة، و كثر الإرجاف إلى أن خرج النائب و الوزير قريب المغرب، و طلبا الوالى و نودى بالقاهرة، فاشتهر ما جرى بين الناس، و خاف كلّ أحد من الأمراء على نفسه.

ثمّ أمر السلطان بالقبض على مرزة علىّ و على محمد بن بكتمر الحاجب و أخيه و على أولاد أيدغمش [و أولاد قمارى، و أخرجوا الجميع إلى الإسكندرية هم و بزلار و أيتمش] و صمغار، لأنهم كانوا من ألزام الحجازى و معاشريه، فسجنوا بها، و أخرج آق سنقر و ملكتمر الحجازى فى ليلة الاثنين العشرين من شهر ربيع الآخر على جنويّات فدفنا بالقرافة. و أصبح الأمير شجاع الدين غرلو و جلس

فى دست عظيم، ثم ركب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۶۰

و أوقع الحوطة على بيوت الأمراء المقتولين و الممسوكين و على أموالهم، و طلع بجميع خيولهم إلى الإسطبل السلطانىّ، و ضرب عبد العزيز الجوهرى صاحب آق سنقر و عبد المؤمن أستاداره بالمقارع، و أخذ منهما مالا جزيلا، فخلع السلطان على الأمير غرلو قباء من ملابسه بطرز زركش عريض، و أركبه فرسا من خاصّ خيل الحجازى بسرج ذهب و كنبوش زركش.

ثم خلا به يأخذ رأيه فيما يفعل فأشار عليه بأن يكتب إلى نوّاب الشام بما جرى، و يعدّد لهم ذنوبا كثيرة، حتى قبض عليهم، فكتب إلى الأمير يلبغا اليحياوىّ نائب الشام على يد الأمير آق سنقر المظفّرى أمير جاندار، فلما بلغ يلبغا الخبر كتب الجواب يستصوب ما فعله فى الظاهر، و هو فى الباطن غير ذلك، و عظم عليه قتل الحجازى و آق سنقر إلى الغاية. ثم جمع يلبغا أمراء دمشق بعد يومين بدار السعادة و أعلمهم الخبر، و كتب إلى النّوّاب بذلك، و بعث الأمير ملك آص إلى حمص و حماة و حلب، و بعث الأمير طيبغا القاسمىّ إلى طرابلس.

ثم انتقل فى يوم الجمعة مستهلّ جمادى الأولى إلى القصر بالميدان فنزل به، و نزل ألزامه حوله بالميدان، و شرع فى الاستعداد للخروج عن طاعة الملك المظفّر هذا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۶۱

و أما السلطان الملك المظفّر فإنه أخذ بعد ذلك يستميل المماليك السلطانيّة بتفرقة المال فيهم، و أمّر منهم جماعة، و أنعم على غرلو بإقطاع أيتمش عبد الغنى و أصبح غرلو هو المشار إليه فى المملكة، فعظمت نفسه إلى الغاية.

ثم أخرج السلطان ابن طقزدمر على إمرة طبلخاناه بحلب و أنعم بتقدمته على الأمير طاز، و تولّى غرلو بيع قماش الأمراء و خيولهم، و صار السلطان يتخوّف من النوّاب بالبلاد الشامية إلى أن حضرت أجوبتهم بتصويب ما فعله، فلم يطمئنّ بذلك، و رسم بخروج تجريدة إلى البلاد الشامية، فرسم فى عاشر جمادى الأولى بسفر سبعة أمراء من المقدّمين بالديار المصريّة، و هم الأمير طيبغا المجدىّ و بلك الجمدار و الوزير نجم الدين محمود بن شروين و طنغرا و أيتمش الناصرى الحاجب و كوكاى و الزّرّاق و معهم مضافوهم من الأجناد، و طلب الأجناد من النواحى، و كان وقت إدراك المغلّ، فصعب ذلك على الأمراء، و ارتجّت القاهرة بأسرها لطلب السلاح و آلات السفر.

ثم كتب السلطان إلى أمراء دمشق ملطّفات على أيدى النّجّابة بالتيقّظ بحركات الأمير يلبغا اليحياوىّ نائب الشام. ثم أشار النائب على السلطان بطلب يلبغا ليكون بمصر نائبا أو رأس مشورة فإن أجاب و إلّا أعلم بأنه قد عزل عن نيابة الشام بأرغون شاه نائب حلب، فكتب السلطان فى الحال يطلبه على يد أراى أمير آخور، و عند سفر أراى قدمت كتب نائب طرابلس و نائب حماة و نائب صفد على السلطان بأنّ يلبغا دعاهم للقيام معه على السلطان لقتل الأمراء، و بعثوا بكتبه إليه فكتب السلطان لأرغون شاه نائب حلب أن يتقدّم لعرب آل مهنّا بمنسك الطرقات على يلبغا و أعلمه أنّه ولّاه نيابة الشام عوضه، فقام أرغون شاه فى ذلك أتمّ قيام،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۶۲

و أظهر ليلبغا أنه معه، و لما وصل إلى يلبغا أراى أمير آخور فى يوم الأربعاء سادس جمادى الأولى و دعاه إلى مصر ليكون رأس أمراء المشورة، و أن نيابة الشام أنعم بها السلطان على الأمير أرغون شاه نائب حلب، ظنّ يلبغا أن استدعاءه حقيقة، و قرأ كتاب السلطان فأجاب بالسمع و الطاعة، و أنّه إذا وصل أرغون شاه إلى دمشق توجّه هو إلى مصر، و كتب الجواب بذلك، و أعاده سريعا، فتحلّلت عند ذلك عزائم أمراء دمشق و غيرها عن يلبغا، و تجهّز يلبغا و خرج إلى الكسوة ظاهر دمشق فى خامس عشره، و كانت ملطّفات السلطان قد وردت إلى أمراء دمشق بإمساكه، فركبوا على حين غفلة و قصدوه ففرّ منهم بمماليكه و أهله و هم فى أثره إلى خلف ضمير. ثم سار فى البرّيّة يريد أولاد تمرداش ببلاد الشرق، حتى نزل على حماة بعد أربعة أيام و خمس ليال، فركب الأمير

قطيلجا نائب حماة بعسكره فتلقّاه و دخل به إلى المدينة و قبض عليه و على من كان معه من الأمراء، و هم الأمير قلاوون و الأمير سيفة و الأمير محمد بك بن جمق و أعيان مماليكه و كتب للسلطان بذلك، فقدم الخبر بذلك على السلطان فى جمادى الأولى أيضا، فسرّ سرورا زائدا، و رسم فى الوقت بإبطال التجريدة. ثم كتب بحمل يلبغا اليحياوى المذكور إلى مصر.

ثم بدا للسلطان غير ذلك و هو أنه أخرج الأمير منجك اليوسفىّ السّلاحدار بقتله، فسار منجك حتى لقى آقجبا [الحموى] و معه يلبغا اليحياوى و أبوه بقاقون فنزل منجك بقاقون، و صعد بيلبغا اليحياوى إلى قلعة قاقون و قتله بها فى يوم الجمعة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۶۳

عشرين جمادى الأولى، و حزّ رأسه و حمله إلى السلطان. قال الشيخ صلاح الدين الصفدى: «و كان يلبغا حسن الوجه مليح الثغر أبيض اللّون، طويل القامة من أحسن الأشكال، قلّ أن ترى العيون مثله، كان ساقيا، و كانت الإنعامات التى تصل إليه من السلطان لم يفرح بها أحد قبله. كان يطلق له الخيل بسروجها و عددها و آلاتها الزّركش و الذهب المصوغ خمسة عشر فرسا و الأكاديش ما بين مائتى رأس فينعم بها عليه، و تجهّز إليه الخلع و الحوائص و غير ذلك من التشاريف التى يرسم له بها خارجة عن الحدّ. و بنى له الإسطبل الذى فى سوق الخيل تجاه القلعة».

قلت: و الإسطبل المذكور كان مكان مدرسة السلطان حسن الآن، اشتراه السلطان حسن و هدمه و بنى مكانه مدرسته المعروفة به. و قد سقنا ترجمته أى يلبغا اليحياوىّ بأوسع من هذا فى تاريخنا «المنهل الصافى» إذ هو كتاب تراجم. انتهى.

و فى يوم الأحد خامس عشرين جمادى الأولى المذكور أخرج السلطان الوزير نجم الدين محمودا و الأمير بيدمر البدرى نائب حلب كان، و الأمير طغيتمر النجمى الدوادار إلى الشام؛ و سببه أن الأمير شجاع الدين غرلو لمّا كان شادّ الدواوين قبل تاريخه حقد على الوزير نجم الدين المذكور و على طغيتمر الدوادار، فحسّن للسلطان أخذ أموالهما، فقال السلطان للنائب عنهما و عن بيدمر أنهم كانوا يكاتبون يلبغا فأشار عليه النائب بإبعادهم، و أن يكون الوزير نجم الدين نائب غزّة و بيدمر نائب حمص و طغيتمر نائب طرابلس، فأخرجهم السلطان على البريد، فلم يعجب غرلو ذلك، و أكثر عند السلطان من الوقيعة فى الأمير أرقطاى النائب حتّى غيّر السلطان عليه، و ما زال به حتّى بعث السلطان بأرغون الإسماعيلى إلى نائب غزّة بقتلهم

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۶۴

فدخل أرغون معهم إلى غزّة بعد العصر و عرّف النائب ما جاء بسببه، فقبض عليهم نائب غزّة و قتلهم فى ليلته، و عاد أرغون و عرّف السلطان الخبر، فتغيّر قلب الأمراء و نفر خواطرهم فى الباطن من السلطان و ميله إلى غرلو، و تمكّن غرلو من السلطان و أخذ أموال من قتل، و تزايد أمره و اشتدّت و طأته، و كثر إنعام السلطان عليه حتّى إنه لم يكن يوم إلا و ينعم عليه فيه بشىء. ثم أخذ غرلو فى العمل على علم الدين عبد اللّه بن زنبور ناظر الخاصّ؛ و على القاضى علاء الدين علىّ بن فضل اللّه العمرى كاتب السّر. و صار يحسّن للسلطان القبض عليهما و أخذ أموالهما، فتلطّف النائب بالسلطان فى أمرهما حتى كفّ عنهما، فلم يبق بعد ذلك أحد من أهل الدولة حتّى خاف من غرلو و صار يصانعه بالمال حتى يسترضيه. ثم حسّن غرلو للسلطان قتل الأمراء المحبوسين بالإسكندرية، فتوجّه الطواشى مقبل الرومى بقتلهم فقتل الأمير أرغون العلائى و قرابغا القاسمى و تمر الموساوىّ و صمغار و أيتمش عبد الغنى، و أفرج عن أولاد قمارى و أولاد أيدغمش و أخرجوا إلى الشام. و استمرّ السلطان على الانهماك فى لهوه، فصار يلعب فى الميدان تحت القلعة بالكرة فى يومى الأحد و الثلاثاء، و يركب إلى الميدان الذى على النيل فى يوم السبت.

فلمّا كان آخر ركوبه إلى الميدان رسم السلطان بركوب الأمراء المقدّمين بمضافيهم و وقوفهم صفّين من الصّليبة إلى فوق القلعة ليرى السلطان عسكره، فضاق الموضع، فوقف كلّ مقدّم بخمسة من مضافيه، و جمعت أرباب الملاهى، و رتّبت

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۶۵

فى عدّة أماكن من القلعة إلى الميدان. ثم ركبت أمّ السلطان فى جمعها، و أقبل الناس من كلّ جهة، فبلغ كراء كلّ طبقة مائة درهم، و

كلّ بيت كبير لنساء الأمراء مائتى درهم، و كلّ حانوت خمسين درهما، و كلّ موضع إنسان بدرهمين. فكان يوم لم يعهد فى ركوب الميدان مثله.

ثم فى يوم الخميس خامس عشره قبض السلطان الملك المظفّر هذا على أعظم أمرائه و مدبّر مملكته الأمير شجاع الدين غرلو و قتله، و سبب ذلک أمور: منها شدّة كراهية الأمراء له لسوء سيرته، فإنه كان يخلو بالسلطان، و يشير عليه بما يشتهيه، فما كان السلطان يخالفه فى شىء، و كان عمله أمير سلاح فخرج عن الحدّ فى التعاظم، و جسّر السلطان على قتل الأمراء، و قام فى حقّ النائب أرقطاى يريد القبض عليه و قتله، و استمال المماليک الناصريّة و الصالحيّة و المظفّريّة بكمالهم، و أخذ يقرّر مع السلطان، أن يفوّض إليه أمور المملكة بأسرها ليقوم عنه بتدبيرها، و يتوفّر السلطان على لذاته.

ثم لم يكفه ذلک، حتّى أخذ يغرى السلطان بألجيبغا و طنيرق و كانا أخصّ الناس بالسلطان، و لا زال يمعن فى ذلک حتى تغيّر السلطان عليهما، و بلغ ذلک ألجيبغا، و تناقلته المماليک فتعصّبوا عليه و أرسلوا إلى الأمراء الكبار، حتى حدّثوا السلطان فى أمره، و خوّفوه عاقبته، فلم يعبأ السلطان بقولهم، فتنكّروا بأجمعهم على السلطان بسبب غرلو إلى أن بلغه ذلک عنهم من بعض ثقاته، فاستشار النائب فى أمر غرلو المذكور، فلم يشر عليه فى أمره بشىء، و قال للسلطان: لعلّ الرجل قد كثرت حسّاده على تقريب السلطان له، و المصلحة التثبت فى أمره. و كان أرقطاى النائب عاقلا سيوسا، يخشى من معارضته غرض السلطان فيه، فاجتهد ألجيبغا و عدّة من الخاصّكيّة فى التدبير عليه و تخويف السلطان منه و من سوء عاقبته، حتى أثّر قولهم فى نفس

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ١٠، ص: ١۶۶

السلطان، و أقاموا الأمير أحمد شادّ الشرابخاناه، و كان مزّاحا للوقيعة فيه، فأخذ أحمد شاق الشرابخاناه فى خلوته مع السلطان يذكر كراهية الأمراء لغرلو و موافقة المماليک له، و أنه يريد أن يدبّر المملكة و يكون نائب السلطنة ليتوثّب بذلک على المملكة و يصير سلطانا، و يخرج له قوله هذا فى وجه المسخريه و الضحک، و صار أحمد المذكور يبالغ فى ذلک على عدة فنون من الهزل، إلى أن قال السلطان: أنا الساعة أخرجه و أعمله أمير آخور، فمضى أحمد شادّ الشربخاناه إلى النائب و عرّفه مما وقع فى السّر، و أنه جسّر السلطان على الوقيعة فى غرلو، فبعث السلطان وراء النائب أرقطاى و استشاره فى أمر غرلو ثانيا فأثنى عليه النائب و شكره، فعرف السلطان كثرة وقيعة الخاصّكيّة فيه، و أنه قصد أن يعمله أمير آخور، فقال النائب: غزلو رجل شجاع جسور لا يليق أن يعمل أمير آخور، فكأنّه أيقظ السلطان من رقدته بحسن عبارة و ألطف إشارة، فأخذ السلطان فى الكلام معه بعد ذلک فيما يوليه! فأشار عليه النائب بتوليته نيابة غزّة، فقبل السلطان ذلک، و قام عنه النائب، فأصبح السلطان بكرة يوم الجمعة و بعث الأمير طنيرق إلى النائب أن يخرج غرلو إلى نيابة غزّة، فلم يكن غير قليل حتى طلع غرلو على عادته إلى القلعة و جلس على باب القلّة، فبعث النائب يطلبه، فقال: مالى عند النائب شغل و ما لأحد معى حديث غير أستاذى، فأرسل النائب يعرّف السلطان جواب غرلو فأمر السلطان مغلطاى أمير شكار و جماعة من الأمراء أن يعرّفوا غرلو عن السلطان أن يتوجّه إلى غزّة، و إن امتنع يمسكوه، فلما صار غرلو بداخل القصر لم يحدّثوه بشىء، و قبضوا عليه و قيّدوه و سلّموه لألجيبغا فأدخله إلى بيته

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ١٠، ص: ١۶٧

بالأشرفية، فلمّا خرج السلطان لصلاة الجمعة على العادة قتلوا غرلو و هو فى الصلاة، و أخذ السلطان بعد عوده من الصلاة يسأل عنه، فنقلوا عنه أنه قال: أنا ما أروح مكانا، و أراد سلّ سيفه و ضرب الأمراء به فتكاثروا عليه فما سلّم نفسه حتى قتل، فعزّ قتله على السلطان، و حقد عليهم لأجل قتله، و لم يظهر لهم ذلک، و رسم بإيقاع الحوطة على حواصله. و كان لموته يوم مشهود.

ثم أخرج بغرلو المذكور و دفن بباب القرافة، فأصبح و قد خرجت يده من القبر، فأتاه الناس أفواجا ليروه و نبشوا عليه و جرّوه بحبل فى رجله إلى تحت القلعة، و أتوا بنار ليحرقوه و صار لهم ضجيج عظيم، فبعث السلطان عدّة من الأوجاقية قبضوا على كثير من العامة، فضربهم الوالى بالمقارع و أخذ منهم غرلو المذكور و دفنه. و لم يظهر لغرلو المذكور كثير مال.

قلت: و من الناس من يسمّيه «أغزلو» بألف مهموزة و بعدها غين معجمة مكسورة و زاى ساكنة و لام مضمونة و واو ساكنة. و معنى أغزلو باللغة التركية: «له فم» و قد ذكرناه نحن أيضا فى المنهل الصافى فى حرف الهمزة، غير أن جماعة كثيرة ذكروه «غرلو» فاقتدينا بهم هنا و خالفناهم هناك، و كلاهما اسم باللغة التركية. انتهى.

و كان غرلو هذا أصله من مماليك الحاجّ بهادر العزّى، و خدم بعده عند بكتمر السّاقى و صار أمير آخوره، ثم خدم بعد بكتمر عند بشتك، و صار أمير آخوره أيضا.

ثم ولى بعد ذلك ناحية (أشمون)، ثم ولى نيابة الشّوبك. ثم ولى القاهرة، و أظهر العفّة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۶۸

و الأمانة، و حسنت سيرته، ثم تقرّب عند الملك الكامل شعبان، و فتح له باب الأخذ فى الولايات و الإقطاعات، و عمل لذلك ديوانا قائم الذات، سمّى ديوان البدل، فلما تولّى الصاحب تقىّ الدين بن مراحل الوزر شاححه فى الجلوس و العلامة، فترجّح الصاحب تقى الدين و عزل غرلو هذا عن شدّ الدواوين، و دام على ذلك إلى أن كانت نوبة السلطان الملك المظفّر كان غرلو هذا ممن قام معه، لما كان فى نفسه من الكامل من عزله عن شد الدواوين، و ضرب فى الوقعة أرغون العلائى بالسيف فى وجهه، و تقرّب من يوم ذاك إلى الملك المظفّر، حتى كان من أمره ما حكيناه.

ثم خرج السلطان الملك المظفّر بعد قتله إلى سرياقوس على العادة و أقام بها أياما، ثم عاد و خلع على الأمير منجك اليوسفى السلاحدار باستقراره حاجبا بدمشق عوضا عن أمير على بن طغريل. و أنعم السلطان على اثنى عشر من المماليك السلطانية بإمريات ما بين طبلخاناه و عشرة و أنعم بتقدمة الأمير منجك السّلاح دار على بعض خواصّه.

و فى يوم مستهلّ شعبان خرج الأمير طيبغا المجدى و الأمير أسندمر العمرىّ و الأمير بيغرا و الأمير أرغون الكاملى و الأمير بيبغا أرس و الأمير بيبغا ططر إلى الصيد. ثم خرج الأمير أرقطاى النائب بعدهم إلى الوجه القبلىّ بطيور السلطان، و رسم السلطان لهم ألّا يحضروا إلى العشر الأخير من شهر رمضان، فخلا الجو للسلطان، و أعاد حضير الحمام و أعاد أرباب الملاعيب من الصّراع و الثقاف و الشباك، و جرى السّعاة، و نطاح الكباش، و مناقرة الدّيوك، و القمار، و غير ذلك من أنواع الفساد. و نودى بإطلاق اللعب بذلك بالقاهرة [و مصر] و صار للسلطان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۶۹

اجتماع بالأوباش و أراذل الطوائف من الفراشين و البابية و مطيّرى الحمام، فكان السلطان يقف معهم و يراهن على الطير الفلانى و الطيرة الفلانيّة؛ و بينما هو ذات يوم معهم عند حضير الحمام، و قد سيّبها إذ أذّن العصر بالقلعة و القرافة فجفلت الحمام عن مقاصيرها و تطايرت فغضب و بعث إلى المؤذّنين يأمرهم أنهم إذا رأوا الحمام لا يرفعون أصواتهم. و يلعب مع العوامّ بالعصىّ و كان السلطان إذا لعب مع الأوباش يتعرّى و يلبس تبّان جلد و يصارع معهم و يلعب بالرّمح و الكرة، فيظلّ نهاره مع الغلمان و العبيد فى الدهيشة، و صار يتجاهر بما لا يليق به أن يفعله.

ثم أخذ مع ذلك كلّه فى التدبير على قتل أخيه حسين، و أرصد له عدّة خدّام ليهجموا عليه عند إمكان الفرصة و يغتالوه، فبلغ حسينا ذلك فتمارض و احترس على نفسه فلم يجدوا منه غفلة.

ثم فى سابع عشر شعبان توفّى الخليفة أبو الربيع سليمان، و بويع بالخلافة ابنه أبو بكر و لقّب بالمعتصم بالله أبى الفتح. و فى آخر شعبان قدم الأمراء من الصيد شيئا بعد شيء و قد بلغهم ما فعله السلطان فى غيبتهم، و قدم ابن الحرّانى من دمشق بمال يلبغا اليحياوى فتسلّمه الخدّام، و أنعم السلطان من ليلته على حظيّته «كيدا» من المال بعشرين ألف دينار، سوى الجواهر و اللآلئ و نثر الذهب على الخدّام و الجوارى، فاختطفوه و هو يضحك، و فرّق على لعّاب الحمام و الفراشين و العبيد الذهب و اللؤلؤ، و هو يحذفه عليهم و هم يترامون عليه و يأخذوه بحيث إنه لم يدع من مال يلبغا سوى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۷۰

القماش، فكان جملة التى فرّقها ثلاثين ألف دينار و ثلثمائة ألف درهم، و جواهر و حليّا و لؤلؤا و زركشا و مصاغا، قيمته زيادة على ثمانين ألف دينار، فعظم ذلك على الأمراء، و أخذ ألجيبغا و طنيرق يعرّفان السلطان ما ينكره عليه الأمراء من لعب الحمام و تقريب الأوباش، و خوّفاه فساد الأمر، فغضب و أمر آقجباشاد و العمائر بخراب حضير الحمام، ثم أحضر الحمام و ذبحهم واحدا بعد واحد بيده و قال لألجيبغا و طنيرق:

و اللّه لأذبحنّكم كلّكم كما ذبحت هذا الحمام و تركهم و قام، و فرق جماعة من خشداشيّة ألجيبغا طنيرق فى البلاد الشامية، و استمرّ على إغراضه عن الجميع، ثم قال لحظاياه و عنده معهن الشيخ على بن الكسيح: و اللّه ما بقى يهنأ لى عيش و هذان الكذّابان بالحياة (يعنى بذلك عن ألجيبغا و طنيرق) فقد فسدا علىّ جميع ما كان لى فيه سرور، و اتّفقا علىّ، و لابدّ لى من ذبحهما، فنقل ذلك ابن الكسيح لألجيبغا فإن ألجيبغا هو الذى أوصله إلى السلطان، و قال: مع ذلك خذ لنفسك فو اللّه لا يرجع عنك و عن طنيرق، فطلب ألجيبغا طنيرق و عرّفه ذلك، فأخذا فى التدبير عليه فى الباطن [و أخذ فى التدبير عليهما]، و خرج الأمير بيبغا أرس للصيد بالعبّاسة، فإنه كان صديقا لألجيبغا و تنمّر السلطان على طنيرق و اشتدّ عليه و بالغ فى تهديده، فبعث طنيرق و ألجيبغا إلى الأمير طشتمر طلليه، و ما زالا به حتّى وافقهما و دارا على الأمراء، و ما منهم إلا من نفرت نفسه من السلطان الملك المظفّر، و توقّع به أنه يفتك به، فصاروا معهما يدا واحدة لما فى نفوسهم. ثم كلّموا النائب فى موافقتهم و أعلموه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۷۱

أنه يريد القبض عليه، و كان عنده أيضا حسّ من ذلك، و أكثروا من تشجيعه.

حتى وافقهم و أجابهم، و تواعدوا جميعا فى يوم الخميس تاسع شهر رمضان على الركوب على السلطان فى يوم الأحد ثانى عشر شهر رمضان

فبعث السلطان فى يوم السبت يطلب بيبغا أرس من العبّاسة، و قد قرّر مع الطواشى عنبر مقدّم المماليك أن يعرّف المماليك السلاح داريّة أن يقفوا خلفه فإذا دخل بيبغا أرس، و قبّل الأرض ضربوه بالسيوف و قطعوه قطعا، فعلم بذلك ألجيبغا، و بعث إليه يعلمه مما دبّره السلطان عليه من قتله و يعرّفه بما وقع اتفاق الأمراء عليه، و أنه يوافيهم بكرة يوم الأحد على قبّة النصر، فاستعدوا ليلتهم و نزل ألجيبغا من القلعة، و تلاه بقيّة الأمراء، حتى كان آخرهم ركوبا الأمير أرقطاى نائب السلطنة، و توافوا بأجمعهم عند مطعم الطير، و إذا ببيبغا أرس قد وصل إليهم، فعبّوا أطلابهم و مماليكهم ميمنة و ميسرة، و بعثوا فى طلب بقية الأمراء، فما ارتفع النهار حتى وقفوا بأجمعهم ملبسين عند قبّة النصر، و بلغ السلطان ذلك، فأمر بضرب الكوسات فدقّت، و بعث الأوجاقية فى طلب الأمراء فجاءه طنيرق و شيخون و أرغون الكاملى و طاز و نحوهم من الأمراء الخاصّكيّة. ثم بعث المقدّمين فى طلب أجناد الحلقة فحضروا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۷۲

ثم أرسل السلطان يعتب النائب على ركوبه فردّ جوابه بأن مملوكك الذى ربّيته ركب عليك (يعنى عن ألجيبغا) و أعلمنا فساد نيّتك لنا، و قد قتلت مماليك أبيك و أخذت أموالهم، و هتكت حريمهم بغير موجب، و عزمت على الفتك بمن بقى، و أنت أوّل من حلف أنك لا تخون الأمراء و لا تخرّب بيت أحد، فردّ الرسول إليه يستخبره عمّا يريدوه الأمراء من السلطان حتّى يفعله لهم، فعاد جوابهم أنه لابدّ أن يسلطنوا غيره، فقال: ما أموت إلّا على ظهر فرسى، فقبضوا على رسوله و همّوا بالزّحف عليه، فمنعهم النائب أرقطاى من ذلك حتى يكون القتال أوّلا من السلطان، فبادر السلطان بالركوب إليهم و أقام أرغون الكاملى و شيخون فى الميمنة، ثم أقام عدّة أمراء أخر فى الميسرة، و سار بمماليكه حتّى وصل إلى قريب قبّة النصر، فكان أول من تركه و مضى إلى القوم الأمير طاز ثم الأمير أرغون الكاملى ثم الأمير ملكتمر السعدى ثم الأمير شيخون و انضافوا الجميع إلى النائب أرقطاى و الأمراء، و تلاهم بقيّتهم حتى جاء الأمير طنيرق و الأمير لاچين أمير جاندار صهر السلطان آخرهم، و بقى السلطان فى نحو عشرين فارسا، فبرز له الأمير بيبغا أرس و

الأمير ألجيبغا فولّى السلطان فرسه و انهزم عنهم فتبعوه و أدركوه و أحاطوا به، فتقدّم إليه بيبغا أرس فضربه السلطان بالطّبر، فأخذ بيبغا الضربة بترسه. ثم حمل عليه بالرّمح و تكاثروا عليه حتى قلعوه من سرجه و ضربه طنيرق بالسيف جرح وجهه و أصابعه. ثم ساروا به على فرس غير فرسه محتفظين به إلى تربة آق سنقر الرومى تحت الجبل و ذبحوه من ساعته قبيل عصر يوم الأحد ثانى عشر شهر رمضان سنة ثمان و أربعين و سبعمائة، و دفن بتربة أمّه،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۷۳

و لما أنزلوه و أرادوا ذبحه قال لهم: بالله لا تستعجلوا علىّ، خلونى ساعة، فقالوا:

كيف استعجلت أنت على قتل الناس! لو صبرت عليهم صبرنا عليك فذبحوه.

و قيل: إنّهم لما أنزلوه عن فرسه كتّفوه و أحضروه بين يدى النائب أرقطاى ليقتله، فلما رآه النائب نزل عن فرسه و ترجّل و رمى عليه قباءه و قال: أعوذ بالله، هذا سلطان ابن سلطان ما أقتله! فأخذوه و مضوا إلى الموضع الذى ذبحوه فيه، و فيه يقول الشيخ صلاح الدين الصفدى: [الخفيف]

أيها العاقل اللبيب تفكّر فى المليک المظفّر الضّرغام

كم تمادى فى البغى و الغىّ حتى كان لعب الحمام جدّ الحمام

و فيه يقول: [المجتث]

حان الرّدى للمظفّر و فى التراب تعفّر

كم قد أباد أميرا على المعالى توفّر

و قاتل النفس ظلما ذنوبه ما تكفّر

ثم صعد الأمراء القلعة من يومهم، و نادوا فى القاهرة بالأمان و الاطمئنان و باتوا بالقلعة ليلة الاثنين، و قد اتّفقوا على مكاتبة نائب الشام و الأمير أرغون شاه بما وقع، و أن يأخذوا رأيه فيمن يقيموه سلطانا فأصبحوا و قد اجتمع المماليک على إقامة حسين ابن الملک الناصر محمد عوضا عن أخيه المظفّر فى السلطنة و وقعت بين حسين و بينهم مراسلات فقام المماليک فى أمره فقبضوا الأمراء على عدّة منهم و وكّلوا الأمير طاز بباب حسين، حتّى لا يجتمع به أحد من جهة المماليک، و أغلقوا باب القلعة، و استمرّوا بآلة الحرب يومهم و ليلة الثلاثاء، و قصد المماليک إقامة الفتنة، فخاف الأمراء تأخير السلطنة حتى يستشيروا نائب الشام أن يقع من المماليک مالا يدرک فارطه، فوقع اتّفاقهم عند ذلک على حسن فسلطنوه فتمّ أمره.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۷۴

و كانت مدّة سلطنة الملک المظفّر هذا على مصر سنة واحدة و ثلاثة أشهر و أربعة عشر يوما. و كان المظفّر أهوج سريع الحركة، عديم المداراة، سيّئ التدبير، يؤثر صحبة الأوباش على أرباب الفضائل و الأعيان، و كان فيه ظلم و جبروت و سفک للدماء، قتل فى مدة سلطنته مع قصرها خلائق كثيرة من الأمراء و غيرهم و كان مسرفا على نفسه، يحبّ لعب الحمام و غيره، و يحسن فنونا كثيرة من الملاعيب، كالرمح و الكرة و الصّراع و الثّقاف و ضرب السيف، مع شجاعة و إقدام من غير تثبّت فى أموره.

قلت: و بالجملة هو أسوأ سيرة من جميع إخوته ممن تسلطن قبله من أولاد الملک الناصر محمد بن قلاوون، على أن الجميع غير نجباء و حالهم كقول القائل:

«عجيب نجيب من نجيب»؛ اللهم إن كان السلطان حسن الآتى ذكره، فهو لا بأس به. انتهى.

*** السنة التى حكم فى أوّلها الملک الكامل شعبان إلى سلخ جمادى الأولى، ثم حكم فى باقيها الملک المظفّر حاجى صاحب الترجمة و هى سنة سبع و أربعين و سبعمائة.

فيها توفى الأمير بهاء الدين أصلم بن عبد اللّه الناصرى أحد أمراء الألوف بالديار المصرية فى يوم السبت عاشر شعبان؛ و إليه ينسب

جامع أصلم خارج القاهرة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۷۵

بسوق الغنم. و كان أصله من مماليك الملك المنصور قلاوون و كان من خواصّ الملك الناصر محمد و قبض عليه و حبسه سنين، ثم أطلقه، و كان من أعيان الأمراء، و تولّى عدّة ولايات بالبلاد الشامية و غيرها حسب ما تقدّم ذكره فيما مضى، طالت أيامه فى السعادة و الإمرة حتى صار من أمراء المشورة.

و توفّى الأمير الكبير سيف الدين الحاج آل ملك الجوكندار، ثم نائب السلطنة بالديار المصرية مقتولا بالإسكندرية فى أيام الملك الكامل شعبان، و أحضر ميتا إلى القاهرة فى يوم الجمعة تاسع عشر جمادى الآخرة. و أصله من كسب الأبلستين فى الأيام الظاهريّة بيبرس فى سنة ست و سبعين و ستمائة، و اشتراه قلاوون و هو أمير و معه سلّار النائب، فأنعم بسلار على ولده علىّ، و أنعم بآل ملك هذا على ولده الآخر.

و قيل قدّمه لصهره الملك السعيد بركة خان ابن الملك الظاهر بيبرس، فأعطاه الملك السعيد لكوندك و قيل غير ذلك. و ترقّى آل ملك فى الخدم إلى أن صار من جملة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۷۶

أمراء الديار المصرية. و تردّد للملك الناصر محمد بن قلاوون فى الرسليّة لمّا كان بالكرك من جهة الملك المظفّر بيبرس الجاشنكير، فأعجب الملك الناصر عقله و كلامه.

فلمّا أن عاد الملك الناصر إلى ملكه رقّاه و ولّاه الأعمال الجليلة إلى أن ولى نيابة السلطنة بديار مصر فى دولة الملك الصالح إسماعيل. فلمّا ولى الملك الكامل شعبان أخرجه لنيابة صفد. ثم طلبه و قبض عليه و قتله بالإسكندرية، و قد ذكرنا من أحواله نبذة كبيرة فى عدّة تراجم فلا حاجة لتكرار ذلك، إذ ليس هذا المحلّ محلّ الإطناب إلا فى تراجم ملوك مصر فقط، و من عداهم يكون على سبيل الاختصار.

و آل ملك هذا هو صاحب الدار العظيمة بالقرب من باب مشهد الحسين- رضى اللّه عنه- و له هناك مدرسة أيضا تعرف به، و هو صاحب الجامع بالحسينية. و كان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۷۷

خيرا ديّنا عفيفا مثريا، كان يقول: كلّ أمير لا يقيم رمحه و يسكب الذهب حتى يساوى السّنان ما هو أمير.

و توفّى الأمير سيف الدين قمارى بن عبد اللّه الناصرى أخو بكتمر الساقى مقتولا، و قد ولى نيابة طرابلس و الأستادارية بديار مصر، و كان من أعيان الأمراء الناصرية مشهورا بالشجاعة و الإقدام، و هو غير قمارى أمير شكار، و كلاهما من الأمراء الناصرية.

و توفّى الأمير سيف الدين ملكتمر بن عبد اللّه السّرجوانىّ نائب الكرك فى يوم الاثنين مستهلّ المحرّم خارج القاهرة، و قد قدمها من الكرك مريضا، و كان من أعيان الأمراء، و تولّى عدّة ولايات، لا سيما نيابة الكرك، فإنّه وليها غير مرّة.

قلت: و غالب هؤلاء الأمراء ذكرنا من أحوالهم فى عدّة مواطن من تراجم ملوك مصر ما يستغنى عن ذكره ثانيا هنا.

و توفّى ملك تونس من بلاد الغرب أبو بكر بن يحيى بن إبراهيم بن يحيى ابن عبد الواحد فى ليلة الأربعاء ثامن شهر رجب، بعد ما ملك تونس نحوا من ثلاثين سنة، و تولّى بعده ابنه أبو حفص عمر، و كان أبو بكر هذا من أجلّ ملوك الغرب، و طالت أيامه فى السلطنة، و له مواقف فى العدوّ مشهودة. رحمه اللّه تعالى.

و توفّى القاضى تاج الدين محمد بن الخضر بن عبد الرحمن بن سليمان المصرى كاتب سرّ دمشق فى ليلة الجمعة تاسع شهر ربيع الآخر. و كان كاتبا فاضلا باشر عدّة وظائف.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۷۸

و توفى الأمير سيف الدين طقتمر بن عبد اللّه الصلاحىّ نائب حمص بها. و كان من أعيان أمراء مصر. و قد مرّ ذكره أيضا فى تراجم أولاد الملك الناصر محمد ابن قلاوون.

و توفى الشيخ شمس الدين محمد بن محمد بن محمد [بن نمير] بن السراج بن نمير بن السراج فى شعبان؛ و كان كاتبا فاضلا مقرئا، و عنده مشاركة فى فنون.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع سواء. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و خمس أصابع. و اللّه أعلم.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۴۸]

اشارة

السنة الثانية من ولاية الملك المظفّر حاجّى على مصر، و هى سنة ثمان و أربعين و سبعمائة، على أنه قتل فى شهر رمضان منها، و حكم فى باقيها أخوه السلطان الملك الناصر حسن.

فيها توفى الأمير شمس الدين آق سنقر بن عبد اللّه الناصرى مقتولا بقلعة الجبل، و قد تقدّم ذكر قتله أن الملك المظفّر حاجّيا أمر بالقبض على آق سنقر و على الحجازى بالقصر، ثم قتلا من ساعتهما تهبيرا بالسيوف فى يوم الأحد تاسع عشر شهر ربيع الآخر، و كان آق سنقر هذا اختصّ به أستاذه الملك الناصر محمد بن قلاوون و زوّجه إحدى بناته و جعله أمير شكار، ثم أمير آخور، ثم نائب غزّة، و أعيد بعد موت الناصر فى أيام الملك الصالح إسماعيل ثانيا و استقرّ أمير آخور على عادته، ثم ولى نيابة طرابلس مدّة، ثم أحضر إلى مصر فى أيام الملك الكامل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۷۹

شعبان، و عظم قدره، و دبّر الدولة فى أيام الملك المظفّر حاجىّ. ثم ثقل عليه و على حواشيه فوشوا به و بملكتمر حتى قبض عليهما و قتلهما فى يوم واحد.

و كان آق سنقر أميرا جليلا كريما شجاعا عارفا مدبّرا. و إليه ينسب جامع آق سنقر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۸۰

بخط التّبانة خارج القاهرة بالقرب من باب الوزير.

و توفّى الأمير سيف الدين بيدمر البدرى مقتولا بغزة فى أوّل جمادى الآخرة، و هو أيضا أحد المماليك الناصرية و ترقى إلى أن ولى نيابة حلب. و قد تقدّم ذكر مقتله فى ترجمة الملك المظفر حاجى. و إليه تنسب المدرسة البيدمرية قريبا من مشهد الحسين رضى اللّه عنه.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۸۱

و توفّى قاضى القضاة عماد الدين علىّ بن محيى الدين أحمد بن عبد الواحد بن عبد المنعم بن عبد الصمد الطّرسوسىّ الحنفى الدمشقى قاضى قضاة دمشق بها، عن تسع و سبعين سنة تقريبا، بعد ما ترك القضاء لولده و انقطع بداره للعبادة، إلى أن مات فى يوم الاثنين ثامن عشرين ذى الحجة. و كان منشؤه بدمشق، و قرأ الخلاف على الشيخ بهاء الدين بن النحّاس، و الفرائض على أبى العلاء، و تفقّه على جماعة من علماء عصره، و برع فى عدّة علوم و أفتى و درّس بعدّة مدارس. و كان كثيرة التلاوة سريع القراءة، قيل إنه كان يقرأ القرآن فى التراويح كاملا فى أقلّ من ثلاث ساعات بحضور جماعة من القرّاء. و تولّى قضاء دمشق بعد قاضى القضاة صدر الدين على الحنفىّ فى سنة سبع و عشرين و سبعمائة و حمدت سيرته. و كان أوّلا ينوب عنه فى الحكم. رحمه اللّه تعالى.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۸۲

و توفّی قاضی قضاة المالکیة و شیخ الشیوخ بدمشق شرف الدین محمد بن أبی بکر ابن ظافر بن عبد الوهاب الهمدانیّ فی ثالث المحرّم عن ثلاث و سبعین سنة. و کان فقیها عالما صوفیّا.

و توفّی الشیخ الإمام الحافظ المؤرّخ صاحب التصانیف المفیدة شمس الدین أبو عبد اللّه محمد بن أحمد بن عثمان بن قایماز [بن عبد اللّه التّرکمانیّ الأصل الفارقیّ] الذهبیّ الشافعیّ- رحمه اللّه تعالی- أحد الحفّاظ المشهورة فی ثالث ذی القعدة.

و مولده فی شهر ربیع الآخر سنة ثلاث و سبعین و ستمائه، و سمع الکثیر و رحل البلاد، و کتب و ألّف و صنّف و أرّخ و صحّح و برع فی الحدیث و علومه، و حصّل الأصول و انتقی، و قرأ القراءات السبع علی جماعة من مشایخ القراءات. استوعبنا مشایخه و مصنّفاته فی تاریخنا «المنهل الصافی» مستوفاة. و من مصنفاته: «تاریخ الإسلام» و هو أجل کتاب نقلت عنه فی هذا التاریخ. و قال الشیخ صلاح الدین الصفدیّ- بعد ما أثنی علیه- قال: «و أخذت عنه و قرأت علیه کثیرا من تصانیفه، و لم أجد عنده جمودة المحدّثین، و لا کودنة النّقلة، بل هو فقیه النظر، له دربة بأقوال الناس و مذاهب الأئمة من السلف و أرباب المقالات، و أعجبنی منه ما یعنیه فی تصانیفه، ثم إنه لا یتعدّی حدیثا یورده حتی یبیّن ما فیه من ضعف متن، أو ظلام إسناد، أو طعن فی روایته، و هذا لم أر غیره یراعی هذه الفائدة». و أنشدنی من لفظه لنفسه مضمّنا، و هو تخیّل جیّد إلی الغایة: [وافر]

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۸۳

إذا قرأ الحدیث علیّ شخص و أخلی موضعا لوفاة مثلی

فما جازی بإحسان لأنّی أرید حیاته و یرید قتلی

و توفی الأمیر الوزیر نجم الدین محمود [بن علی] بن شروین المعروف بوزیر بغداد مقتولا بغزّة مع الأمیر بیدمر البدریّ فی جمادی الآخرة. و کان قدم من بغداد إلی القاهرة فی دولة الملک الناصر محمد بن قلاوون، فلمّا سلّم علی السلطان و قبّل الأرض ثم قبّل یده حطّ فی ید السلطان حجر بلخش، زنته أربعون درهما، قوّم بمائتی ألف درهم، فأمّره السلطان و أعطاه تقدمة ألف بدیار مصر. ثم ولی الوزر غیر مرّة إلی أن أخرجه الملک المظفّر حاجّیّ إلی غزّة، و قتله بها هو و بیدمر البدریّ و طغیتمر الدوادار، و کان- رحمه اللّه- عاقلا سیوسا کریما محسنا مدبّرا، محمود الاسم و السیرة فی ولایاته، و هو ممّن ولی الوزر شرقا و غربا، و هو صاحب الخانقاه بالقرافة بجوار تربة کافور الهندیّ.

و توفی الشیخ الإمام البارع المفتّن قوام الدین مسعود بن محمد بن محمد بن سهل الکرمانی الحنفی بدمشق، و قد جاوز الثمانین سنة. و کان إماما بارعا فی الفقه و النحو

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۸۴

و الأصلین و اللغة، و له شعر و تصانیف، و سماه الحافظ عبد القادر فی الطبقات مسعود بن إبراهیم.

و توفّی الأمیر سیف الدین ملکتمر بن عبد اللّه الحجازیّ الناصریّ قتیلا فی تاسع عشر شهر ربیع الآخر مع الأمیر آق سنقر المقدّم ذکره. و کان أصل الحجازی من ممالیک شمس الدین أحمد بن یحیی بن محمد بن عمر الشّهرزوریّ البغدادی، فبذل فیه الملک الناصر محمد زیادة علی مائة ألف درهم، حتی ابتاعه له منه المجد السلامیّ بمکة لمّا حجّ الشهرزوریّ، و قدم به علی الناصر، فلم یر بمصر أحسن منه و لا- أظرف فعرف بالحجازی، و حظی عند الملک الناصر، حتی جعله من أکابر الأمراء و زوّجه بإحدی بناته. و کان فیه کلّ الخصال الحسنة، غیر أنه کان مسرفا علی نفسه منهمکا فی اللذّات، مدمنا علی شرب الخمر، فکان مرتّبه منه فی کل یوم خمسین رطلا.

و لم یسمع منه فی سکره و صحوه کلمة فحش، و لا توسّط بسوء أبدا، هذا مع سماحة النفس و التواضع و الشجاعة و الکرم المفرط، و التجمّل فی ملبسه و مرکبه و حواشیه.

و قد تقدّم كيفية قتله فى ترجمة الملك المظفّر هذا.

و توفى الأمير طغيتمر بن عبد اللّه النجمى الدوادار، صاحب الخانقاة النجمية خارج باب المحروق من القاهرة مقتولا بغزّة مع بيدمر البدرىّ و وزير بغداد المقدّم

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۸۵

ذكرهما. و كان طغتمر من أجل أمراء مصر، و كان عارفا عاقلا كاتبا و عنده فضيلة و مشاركة. و كان مليح الشكل.

و توفى الأمير سيف الدين يلبغا اليحياوىّ الناصرىّ نائب الشام مقتولا بقلعة قاقون، تقدّم ذكر قتله فى ترجمة الملك المظفّر هذا. و كان يلبغا هذا أحد من شغف به أستاذه الملك الناصر محمد بن قلاوون، و عمّر له الدار العظيمة التى موضعها الآن مدرسة السلطان حسن تجاه القلعة. ثم جعله أمير مائة و مقدّم ألف بالديار المصرية. ثم ولى بعد موت الملك الناصر حماة و حلب و الشام. و عمّر بالشام الجامع المعروف بجامع يلبغا بسوق الخيل، و لم يكمّله، فكمّل بعد موته. و كان حسن الشكالة، شجاعا كريما، بلغ إنعامه فى كلّ سنة على مماليكه فقط مائة و عشرين فرسا و ثمانين حياصة ذهب. و عاش أبوه بعده، و كان تركىّ الجنس، و تقلب فى هذه السعادة، و مات و سنه نيّف على عشرين سنة.

و توفى الأمير أرغون بن عبد اللّه العلائىّ قتيلا بالإسكندرية، و كان أرغون أحد المماليك الناصرية، رقّاه الملك الناصر محمد فى خدمته، و زوّجه أمّ ولديه:

الصالح إسماعيل و الكامل شعبان، و عمله لا لا لأولاده، فدبّر الدولة فى أيام ربيبه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۸۶

الملك الصالح إسماعيل أحسن تدبير. ثم قام بتدبير ربيبه أيضا الملك الكامل شعبان، حتى قتل شعبان لسوء سيرته و أرغون ملازمه، فقبض على أرغون المذكور بعد الهزيمة و سجن بالإسكندرية إلى أن قتله الملك المظفّر حاجّىّ فيمن قتل، و قد تقدّم ذكر ذلك كلّه مفصّلا فى وقته. و أرغون هذا هو صاحب الخانقاه بالقرافة.

و كان عاقلا عارفا مدبرا سيوسا كريما، ينعم فى كل سنة بمائتين و ثلاثين فرسا، و مبلغ أربعين ألف دينار. قال الشيخ صلاح الدين الصّفدى: و عظمت حرمته لما دبّر المملكة و كثرت أرزاقه و أملاكه، و صار أكبر من النوّاب بالديار المصرية، و هو باق على وظيفته رأس نوبة الجمدارية، و جنديته إلى آخر وقت.

قلت: و هذا الذى ذكره صلاح الدين من العجب، كونه يكون مدبّر مملكتى الصالح و الكامل، و هو غير أمير. انتهى.

و توفّى جماعة من الأمراء بسيف السلطان الملك المظفّر حاجّىّ، منهم: الأمير أيتمش عبد الغنىّ و الأمير تمر الموساوى الساقى و الأمير قرابغا و الأمير صمغار، الجميع بسجن الإسكندريّة، و هم من المماليك الناصرية محمد بن قلاوون، و قتل أيضا بقلعة الجبل الأمير غرلو فى خامس عشرين جمادى الاخرة، و قد تقدّم التعريف بحاله عند قتله فى ترجمة الملك المظفّر حاجّىّ. و كان جركسىّ الجنس، و لهذا كان جمع الجراكسة على الملك المظفر حاجّىّ، لأنهم من جنسه.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و ست أصابع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و ثمانى أصابع.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۸۷

ذكر سلطنة الملك الناصر حسن الأولى على مصر

السلطان الملك الناصر بدر الدين و قيل ناصر الدين أبو المعالى حسن. و اللّقب الثانى أصحّ، لأنه أخذ كنية أبيه، و لقبه و شهرته، ابن السلطان الملك الناصر محمد ابن السلطان الملك المنصور قلاوون، و أمّه أمّ ولد ماتت عنه و هو صغير، فتولّى تربيته خوند أردو، و كان أوّلا يدعى قمارى و استمرّ بالدور السلطانيّة إلى أن كان من أمر أخيه الملك المظفّر حاجّىّ ما كان. و طلبت المماليك أخاه

حسينا للسلطنة، فقام الأمراء بسلطنة حسن هذا، و أجلسوه على تخت الملك بالإيوان فى يوم الثلاثاء، رابع عشر شهر رمضان سنة ثمان و أربعين و سبعماية، و ركب بشعار السلطنة و أبّهة الملك. و لمّا جلس على تخت الملك لقّبوه بالملك الناصر سيف الدين قمارى، فقال السلطان حسن للنائب أرقطاى: يا أبت ما اسمى قمارى، إنما اسمى حسن، فاستلطفه الناس لصغر سنّه و لذكائه، فقال له:

النائب: يا خوند- و اللّه- إن هذا اسم حسن، حسن على خيرة اللّه تعالى.

فصاحت الجاووشيّة فى الحال باسمه و شهرته و تمّ مره، و حلف له الأمراء على العادة. و عمره يوم سلطنته إحدى عشرة سنة، و هو السلطان التاسع عشر من ملوك الترك بالديار المصريّة، و السابع من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون.

و فى يوم الأربعاء خامس عشره اجتمع الأمراء بالقلعة و أخرج لهم الطواشى دينار الشّبلىّ المال من الخزانة، ثم طلب الأمراء خدّام الملك المظفّر و عبيده، و من كان يعاشره من الفرّاشين و لعاب الحمام، و سلّموا لشادّ الدواوين على حمل ما أخذوه من الملك المظفّر من الأموال، فأظهر بعض الخدّام حاصلا تحت يده من الجوهر و اللؤلؤ، ما قيمته زيادة على مائة ألف دينار، و تفاصيل حرير، و بذلات زركش بمائة ألف دينار أخرى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۸۸

و فى يوم الخميس قبض على الأمير أيدمر الزرّاق و الأمير قطز أمير آخور و الأمير بلك الجمدار، و أخرج قطز لنيابة صفد، و قطعت أخباز عشرين خادما و خبز عبد علىّ العوّاد المغنى و خبز إسكندر بن بدر الدين كتيلة الجنكىّ، ثم قبض ايضا على الطواشى عنبر السّحرتى مقدّم المماليك، و على الأمير آق سنقر أمير جندار، ثم عرضت المماليك أرباب الوظائف و أخرج منهم جماعة، و أحيط بمال «كيدا» حظيّة الملك المظفر التى أخذها بعد اتّفاق السوداء العوّادة و أموال بقية الحظايا و أنزلن من القلعة، و كتبت أوراق بمرتبات الخدّام و العبيد و الجوارى فقطعت كلّها.

و كان أمر المشورة فى الدولة و التدبير لتسعة أمراء: بيبغا أرس القاسمىّ و ألجيبغا المظفّرى و شيخون العمرىّ و طاز الناصرىّ و أحمد شادّ الشراب خاناه و أرغون الاسماعيلىّ و ثلاثة أخر، فاستقر الأمير شيخون رأس نوبة كبيرا و شارك فى تدبير المملكة، و استقر الأمير مغلطاى أمير آخور عوضا عن الأمير قطز، ثم رسم بالإفراج عن الأمير بزلار من سجن الإسكندريّة، ثمّ جهّزت التشاريف لنوّاب البلاد الشامية، و كتب لهم بما وقع من أمر الملك المظفّر و قتله، و سلطنة الملك الناصر حسن و جلوسه على تخت الملك.

ثمّ اتّفقوا الأمراء على تخفيف الكلف السلطانيّة، و تقليل المصروف بسائر الجهات، و كتبت أوراق بما على الدولة من الكلف، و أخذ الأمراء فى بيع طائفة الجراكسة من المماليك السلطانية، و قد كان الملك المظفّر حاجّىّ قرّبهم إليه بواسطة غرلو و جلبهم من كلّ مكان، و أراد أنّ ينشئهم على الأتراك، و أدناهم إليه حتى عرفوا بين الأمراء بكبر عمائمهم، و قوى أمرهم و عملوا كلفتات خارجة عن الحدّ فى الكبر، فطلبوا الجميع و أخرجوهم منفيّين خروجا فاحشا و قالوا: هؤلاء جيعة النفوس كثيرو الفتن.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۸۹

ثم قدم كتاب نائب الشام الأمير أرغون شاه يتضمن موافقته للأمراء و رضاه بما وقع، و غضّ من الأمير فخر الدين إياس نائب حلب، و كان الأمير أرقطاى النائب قد طلب من الأمراء أن يعفوه من النيابة و يولّوه بلدا من البلاد فلم يوافقوه الأمراء على ذلك، فلمّا ورد كتاب نائب الشام يذكر فيه أنّ إياس يصغر عن نيابة حلب، فإنّه لا يصلح لها إلّا رجل شيخ كبير القدر، له ذكر بين الناس و شهرة، فعند ذلك طلب الأمير أرقطاى النائب نيابة حلب، فخلع عليه بنيابة حلب فى يوم الخميس خامس شوّال، و استقرّ عوضه فى نيابة السلطنة بالديار المصرية الأمير بيبغا أرس أمير مجلس و خلع عليهما معا، و جلس بيبغا أرس فى دست النيابة و جلس أرقطاى دونه بعد ما كان قبل ذلك أرقطاى فى دست النيابة و بيبغا دونه.

و فى يوم السبت سابعه قدم الأمير منجك اليوسفىّ السلاح دار حاجب دمشق و أخو بيبغا أرس من الشام، فرسم له بتقدّمه ألف بديار مصر و خلع عليه و استقرّ وزيرا و أستادارا، و خرج فى موكب عظيم و الأمراء بين يديه، فصار حكم مصر للأخوين: بيبغا أرس و

منجک السلاح دار.

ثمّ فی یوم الثلاثاء عاشر شوّال خرج الأمیر أرقطای الی نیابهٔ حلب، و صحبته الأمیر کشلی الإدریسیّ مسفّرا.

ثم إنّ الأمیر منجک اشتدّ علی الدواوین، و تکلّم فیهم حتی خافوه بأسرهم، و قاموا له بتقادم هائلهٔ، فلم یمض شهر حتّی أنس بهم، و اعتمد علیهم فی أموره کلّها، و تحدّث منجک فی جمیع أقالیم مصر و مهدّ أمورها.

ثم قدم سیف الأمیر فخر الدین إیاس نائب حلب بعد القبض علیه فخرج مقیّدا و حبس بالإسکندریهٔ.

النجوم الزاهرهٔ فی ملوک مصر و القاهرهٔ، ج ۱۰، ص: ۱۹۰

ثم تراسل الممالیک الجراکسهٔ مع الأمیر حسین ابن الملک الناصر محمد بن قلاوون علی أن یقیموه سلطانا فقبض علی أربعین منهم، و أخرجوا علی الهجن مفرّقین الی البلاد الشامیّهٔ. ثم قبض علی ستّهٔ منهم و ضربوا تجاه الإیوان من القلعهٔ ضربا مبرّحا، و قیّدوا و حبسوا بخزانهٔ شمائل.

ثم عملت الخدمهٔ بالإیوان، و اتفقوا علی أنّ الأمراء إذا انفضّوا من خدمهٔ الإیوان، دخل أمراء المشورهٔ و التدبیر إلی القصر دون غیرهم من بقیّهٔ الأمراء، و نفذوا الأمور علی اختیارهم من غیر أن یشارکهم أحد من الأمراء فی ذلک، فکانوا إذا حضروا الخدمهٔ بالإیوان خرج الأمیر منکلی بغا الفخریّ و الأمیر بیغرا و الأمیر بیبغا ططر و الأمیر طیبغا المجدیّ و الأمیر أرلان و سائر الأمراء فیمضوا علی حالهم، إلا أمراء المشورهٔ و هم، الأمیر بیبغا أرس النائب و الأمیر شیخون العمریّ رأس نوبهٔ النّوب و الأمیر طاز و الأمیر الوزیر منجک الیوسفیّ السلاح دار و الأمیر ألجیبغا المظفّریّ و الأمیر طنیرق فإنهم یدخلون القصر، و ینفّذون أحوال المملکهٔ بین یدی السلطان بمقتضی علمهم و حسب اختیارهم.

و فی هذه السنهٔ استجدّ بمدینهٔ حلب قاض مالکیّ و قاض حنبلیّ، فولی قضاء المالکیهٔ بها شهاب الدین أحمد بن یاسین الرّباحیّ، و تولی قضاء الحنابلهٔ بها شرف الدین أبو البرکات موسی بن فیّاض، و لم یکن بها قبل ذلک مالکیّ و لا حنبلیّ، و ذلک فی سنهٔ ثمان و أربعین و سبعمائهٔ.

النجوم الزاهرهٔ فی ملوک مصر و القاهرهٔ، ج ۱۰، ص: ۱۹۱

و فی یوم الثلاثاء أوّل المحرّم سنهٔ تسع و أربعین و سبعمائهٔ، قبض علی الشیخ علیّ الکسیح ندیم الملک المظفّر حاجّیّ، و ضرب بالمقارع و الکسّارات ضربا عظیما، و قلعت أسنانه و أضراسه شیئا بعد شیء فی عدّهٔ أیام، و نوّع له العذاب أنواعا حتی هلک، و کان بشع المنظر، له حدبهٔ فی ظهره و حدبهٔ فی صدره، کسیحا لا- یستطیع القیام، و إنما یحمل علی ظهر غلامه، و کان یلوذ بألجیبغا المظفّریّ، فعرّف به ألجیبغا الملک المظفّر حاجّیّا فصار یضحّکه، و أخرج المظفر حرمه علیه، و عاقره الشّراب، فوهبته الحظایا شیئا کثیرا. ثم زوّجه الملک المظفر بإحدی حظایاه، و صار یسأله عن الناس فنقل له أخبارهم علی ما یرید، و داخله فی قضاء الأشغال، فخافه الأمراء و غیرهم خشیهٔ لسانه، و صانعوه بالمال حتی کثرت أمواله، بحیث إنه کان إذا دخل خزانهٔ الخاصّ، لا بدّ أن یعطیه ناظر الخاصّ منها له شیئا له قدر، و یدخل علیه ناظر الخاصّ حتی یقبله منه، و إنه إذا دخل الی النائب أرقطای استعاذ أرقطای من شرّه، ثمّ قام له و ترحّب به و سقاه مشروبا، و قضی شغله الذی جاء بسببه و أعطاه ألف درهم من یده و اعتذر له، فیقول للنائب: هأنا داخل الی ابنی السلطان و أعرّفه إحسانک الیّ، فلما دالت دولهٔ الملک المظفّر عنی به ألجیبغا، الی أن شکاه عبد العزیز العجمیّ أحد أصحاب الأمیر آق سنقر علی مال أخذه منه، لمّا قبض علیه غرلو بعد قتل آق سنقر حتی خلّصه منه، فتذکّره أهل الدولهٔ و سلّموه الی الوالی، فعاقبه و اشتدّ علیه الوزیر منجک حتی أهلکه.

و فی المحرّم هذا وقعت الوحشهٔ ما بین النائب بیبغا أرس و بین شیخون، ثمّ دخل بینهما منجک الوزیر حتی أصلح ما بینهما.

ثمّ فی یوم الاثنین ثالث شهر ربیع الأوّل عزل الأمیر منجک عن الوزارهٔ، و سببه أنّ ابن زنبور قدم من الإسکندریهٔ بالحمل علی العادهٔ، فوقع الاتّفاق علی

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۹۲

تفرقته على الأمراء، فحمل الى النائب منه ثلاثة آلاف دينار، و إلى شيخون ثلاثة آلاف دينار، و للجماعة من الأمراء كلّ واحد ألفا دينار، و هم بقيّة أمراء المشورة، و لجماعة الأمراء المقدّمين كلّ واحد ألف دينار، فامتنع شيخون من الأخذ و قال:

أنا ما يحلّ لى أن آخذ من هذا شيئا. ثم قدم حمل قطيا و هو مبلغ سبعين ألف درهم، و كانت قطيا قد أرصدت لنفقة المماليك، فأخذ الوزير منجك منها أربعين ألف درهم، و زعم أنّها كانت له قرضا فى نفقة المماليك، فوقفت المماليك الى الأمير شيخون و شكوا الوزير بسببها، فحدّث الوزير فى ردّ ما أخذه فلم يفعل، و أخذ فى الحطّ على ابن زنبور ناظر الخواصّ، و أنه يأكل المال جميعه، و طلب إضافة نظر الخاصّ له مع الوزارة و الأستادارية و ألحّ فى ذلك عدّة أيّام، فمنعه شيخون من ذلك، و شدّ من ابن زنبور و قام بالمحاققة عنه، و غضب بحضرة الأمراء فى الخدمة، فمنع النائب منجك من التحدّث فى الخاصّ و انفضّ المجلس، و قد تنكّر كلّ منهما [على الآخر] و كثرت القالة بالركوب على النائب و منجك حتى بلغهما ذلك، فطلب النائب الإعفاء من النيابة و إخراج أخيه منجك من الوزارة، و أبدأ و أعاد حتى كثر الكلام و وقع الاتفاق على عزل منجك من الوزارة، و استقراره أستادارا على حاله و شادّا على عمل الجسور فى النيل. و طلب أسندمر العمرىّ المعروف برسلان بصل من كشف الجسور ليتولّى الوزارة، فحضر و خلع عليه فى يوم الاثنين رابع عشرينه.

[و فيه أخرج] الأمير أحمد شادّ الشراب خاناه الى نيابة صفد؛ و سبب ذلك أنه كان كبر فى نفسه و قام مع المماليك على الملك المظفّر حاجّىّ حتى قتل، ثم أخذ

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۹۳

فى تحريك الفتنة و اتفق مع ألجيبغا و طنيرق على الركوب فبلغ بيبغا أرس النائب الخبر فطلب الإعفاء، و ذكر ما بلغه و قال: إنّ أحمد صاحب فتن و لا بدّ من إخراجه من بيننا فطلب أحمد و خلع عليه و أخرج من يومه.

ثمّ فى يوم الأربعاء سادس عشرين ربيع الأوّل أنعم على الأمير منجك اليوسفى بتقدمة أحمد شادّ الشراب خاناه. ثمّ فى الغد يوم الخميس امتنع النائب من الركوب فى الموكب و أجاب بأنه ترك النيابة، فطلب إلى الخدمة و سئل عن سبب ذلك فذكر أنّ الأمراء المظفّرية تريد إقامة الفتنة و تبيّت خيولهم فى كل ليلة مشدودة، و قد اتفقوا على مسكه، و أشار لألجيبغا و طنيرق فأنكرا ما ذكر النائب عنهما، فحاققهما الأمير أرغون الكاملىّ أنّ ألجيبغا واعده بالأمس على الركوب فى غد وقت الموكب و مسك النائب و منجك، فعتب عليهما الأمراء فاعتذرا بعذر غير مقبول، و ظهر صدق ما نقله النائب، فخلع على ألجيبغا بنيابة طرابلس و على طنيرق بإمرة فى دمشق و أخرجا من يومهما، فقام فى أمر طنيرق صهره الأمير طشتمر طلليه حتى أعفى من السفر و توجّه ألجيبغا إلى طرابلس فى ثامن شهر ربيع الآخر من السنة بعد ما أمهل أياما، و استمرّ منجك معزولا إلى أن أعيد إلى الوزر فى يوم الاثنين خامس عشر شهر ربيع الآخر باستعفاء أسندمر العمرى لتوقّف أحوال الوزارة.

و فيه أيضا أخرج من الأمراء المظفّرية لاچين العلائىّ و طيبغا المظفّرىّ و منكلى بغا المظفّرىّ و فرّقوا ببلاد الشام.

ثم قدمت تقدمة الأمير أرغون شاه نائب الشام زيادة عما جرت به العادة، و هى مائة و أربعون فرسا بعبىّ تدمرية فوقها أجلّة أطلس، و مقاود سلاسلها فضة،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۹۴

و لواوين بحلق فضّة، و أربعة قطر هجن بمقاود حرير، و سلاسل فضّة و ذهب، و أكوارها مغشّاة بذهب، و أربعة كنابيش ذهب عليها ألقاب السلطان، و تعابى قماش مبقّجة من كلّ صنف؛ و لم يدع أحدا من الأمراء المقدّمين و لا من أرباب الوظائف حتى الفرّاش و مقدّم الإسطبل و مقدّم الطبلخاناة و الطبّاخ، حتى بعث إليهم هديّة، فخلع على مملوكه عدّة خلع و كتب إليه بزيادة على إقطاعه، و رسم له بتفويض حكم الشام جميعه إليه، يعزل و يولّى من يختار.

و فيه أنعم على خليل بن قوصون بإمرة طبلخاناه، و أنعم أيضا على ابن المجدى بإمرة طبلخاناه، و أنعم على أحد أولاد منجك الوزير بإمرة مائة و تقدمة ألف

ثم فى ثالث ذى الحجة أخرج طشبغا الدّوادار إلى الشام، و سببه مفاوضة جرت بينه و بين القاضى علاء الدين علىّ بن فضل اللّه كاتب السرّ، أفضت به إلى أن أخذ طشبغا بأطواق كاتب السرّ و دخلا على الأمير شيخون كذلك، فأنكر شيخون على طشبغا، و رسم بإخراجه، و عمل مكانه قطليجا الأرغونىّ دوادارا. ثم رسم للأمير بيغرا أمير جاندار أن يجلس رأس ميسرة، و استقرّ الأمير أيتمش الناصرى حاجب الحجاب أمير جاندار عوضه، و استقرّ الأمير قبلّاى حاجب الحجّاب عوضا عن أيتمش.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١٠، ص: ١٩٥

و كانت هذه السنة (أعنى سنة تسع و أربعين و سبعمائة) كثيرة الوباء و الفساد بمصر و الشام من كثرة قطع الطريق لولاية الأمير منجك جميع أعمال المملكة بالمال، و انفراده و أخيه بيبغا أرس بتدبير المملكة.

و مع هذا كان فيها أيضا الوباء الذى لم يقع مثله فى سالف الأعصار، فإنه كان ابتدأ بأرض مصر آخر أيام التخضير فى فصل الخريف فى أثناء سنة ثمان و أربعين، فما أهلّ المحرّم سنة تسع و أربعين حتى اشتهر و اشتدّ بديار مصر فى شعبان و رمضان و شوّال، و ارتفع فى نصف ذى القعدة، فكان يموت بالقاهرة و مصر ما بين عشرة آلاف إلى خمسة عشر ألف نفس [إلى عشرين ألف نفس] فى كلّ يوم، و عملت الناس التوابيت و الدّكك لتغسيل الموتى للسبيل بغير أجرة، و حمل أكثر الموتى على ألواح الخشب و على السلالم و الأبواب، و حفرت الحفائر و ألقيت فيها الموتى، فكانت الحفيرة يدفن فيها الثلاثون و الأربعون و أكثر، و كان الموت بالطّاعون، يبصق الإنسان دما ثمّ يصيح و يموت؛ و مع هذا عمّ الغلاء الدنيا جميعها، و لم يكن هذا الوباء كما عهد فى إقليم دون إقليم، بل عم أقاليم الأرض شرقا و غربا و شمالا و جنوبا جميع أجناس بنى آدم و غيرهم، حتى حيتان البحر و طير السماء و وحش البرّ.

و كان أوّل ابتدائه من بلاد القان الكبير حيث الإقليم الأوّل، و بعدها من تبريز إلى آخرها ستّة أشهر و هى بلاد الخطا و المغل و أهلها يعبدون النار و الشمس

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١٠، ص: ١٩٦

و القمر، و تزيد عدّتهم على ثلثمائة جنس فهلكوا بأجمعهم من غير علّة، فى مشاتيهم و مصايفهم و على ظهور خيلهم، و ماتت خيولهم و صاروا جيفة مرمية فوق الأرض؛ و كان ذلك فى سنة اثنتين و أربعين و سبعمائة. ثم حملت الريح نتنهم إلى البلاد، فما مرّت على بلد إلّا و ساعة شمّها إنسان أو حيوان مات لوقتة فهلك من أجناد القان خلائق لا يحصيها إلا اللّه تعالى. ثمّ هلك القان و أولاده الستّة و لم يبق بذلك الإقليم من يحكمه.

ثم اتّصل الوباء ببلاد الشرق جميعها: بلاد أزبك و بلاد إسطنبول و قيصرية الروم، ثم دخل أنطاكية حتى أفنى من بها، و خرج جماعة من بلاد أنطاكية فارّين من الموت فماتوا بأجمعهم فى طريقهم، ثم عمّ جبال ابن قرمان و قيصرية، ففنى أهلها و دوابّهم و مواشيهم، فرحلت الأكراد خوفا من الموت فلم يجدوا أرضا إلا و فيها الموت، فعادوا إلى أرضهم و ماتوا جميعا. ثم وقع ذلك ببلاد سيس فمات لصاحبها تكفور فى يوم واحد بموضع مائة و ثمانون نفسا و خلت سيس.

ثمّ وقع فى بلاد الخطا مطر عظيم لم يعهد مثله فى غير أوانه، فماتت دوابّهم و مواشيهم

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١٠، ص: ١٩٧

عقيب ذلك المطر حتى فنيت. ثمّ مات الناس و الوحوش و الطيور حتى خلت بلاد الخطا و هلك ستّة عشر ملكا فى مدّة ثلاث أشهر، و أفنى أهل الصّين حتى لم يبق منهم إلا القليل، و كذلك بالهند.

ثمّ وقع ببغداد أيضا فكان الإنسان يصبح و قد وجد بوجهه طلوعا، فما هو إلا أن يمدّ يده على موضع الطلوع فيموت فى الوقت. و كان أولاد دمرداش قد حصروا الشيخ حسنا صاحب بغداد، ففجأهم الموت فى عسكرهم من وقت المغرب إلى باكر النهار إلى الغد، فمات

منهم عدد كثير نحو الألف و مائتى رجل و ستة أمراء و دوابّ كثيرة، فكتب الشيخ صاحب بغداد بذلك إلى سلطان مصر.

ثمّ فى أوّل جمادى الأولى ابتدأ الوباء بمدينة حلب ثمّ بالبلاد الشاميّة كلّها و بلاد ماردين و جبالها، و جميع ديار بكر، و أفنى بلاد صفد و القدس و الكرك و نابلس و السواحل و عربان البوادى حتى إنه لم يبق ببلد جينين غير عجوز واحدة خرجت منها فارّة، و كذلك وقع بالرّملة و غيرها، و صارت الخانات ملآنة بجيف الموتى، و لم يدخل الوباء معرّة النّعمان من بلاد الشام و لا بلد شيزر و لا حارما.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۹۸

و أول ما بدأ بدمشق، كان يخرّج خلف أذن الإنسان بثرة فيخرّ صريعا، ثمّ صار يخرج للإنسان كبّة فيموت أيضا سريعا، ثمّ خرجت بالناس خيارة فقتلت خلقا كثيرا، ثم صار الآدمىّ يبصق دما و يموت من وقته، فاشتدّ الهول من كثرة الموت، حتّى إنه أكثر من كان يعيش ممن يصيبه ذلک خمسين ساعة. و بلغ عدّة من يموت فى كلّ يوم بمدينة حلب خمسمائة إنسان، و مات بمدينة غزّة فى ثانى المحرم الى رابع صفر- على ما ورد فى كتاب نائبها- زيادة على اثنين و عشرين ألف إنسان، حتى غلقت أسواقها، و شمل الموت أهل الضّياع بها، و كان آخر زمان الحرث، فكان الرجل يوجد ميتا خلف محراثه، و يوجد آخر قد مات و فى يده ما يبذره. ثمّ ماتت أبقارهم؛ و خرج رجل بعشرين رأس بقر، لإصلاح أرضه فماتوا واحدا بعد واحد، و هو يراهم يتساقطون قدّامه، فعاد إلى غزّة.

و دخل ستّة نفر لسرقة دار بغزّة فأخذوا ما فى الدار ليخرجوا به فماتوا بأجمعهم، و فرّ نائبها الى ناحية بدّعرش، و ترک غزّة خالية، و مات أهل قطيا و صارت جثثهم تحت النخل و على الحوانيت، حتى لم يبق بها سوى الوالى و غلامين و جارية عجوز، و بعث يستعفى، فولّى عوضه مبارک، أستادار طغجى.

ثمّ عمّ الوباء بلاد الفرنج، و ابتدأ فى الدوابّ ثمّ فى الأطفال و الشباب، فلمّا شنع الموت فيهم جمع أهل قبرس من فى أيديهم من أسرى المسلمين و قتلوهم جميعا من بعد العصر إلى المغرب، خوفا من أن تفرغ الفرنج فتملک المسلمون قبرس، فلما كان بعد العشاء الأخيرة هبّت ريح شديدة، و حدثت زلزلة عظيمة، و امتدّ البحر

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۱۹۹

فى المينة نحو مائة قصبة، فغرق كثير من مراكبهم و تكسّرت، فظنّ أهل قبرس أنّ الساعة قامت، فخرجوا حيارى لا يدرون ما يصنعون. ثمّ عادوا إلى منازلهم، فإذا أهاليهم قد ماتوا، و هلک لهم فى هذا الوباء ثلاثة ملوک، و استمرّ الوباء فيهم مدّة أسبوع، فركب منهم ملكهم الذى ملّكوه رابعا، فى جماعة فى المراكب يريدون جزيرة بالقرب منهم، فلم يمض عليهم فى البحر إلا يوم و ليلة و مات أكثرهم فى المراكب، و وصل باقيهم الى الجزيرة فماتوا بها عن آخرهم، و وافى هذه الجزيرة بعد موتهم مركب فيها تجّار فماتوا كلّهم و بحّارتهم إلا ثلاثة عشر رجلا، فمرّوا إلى قبرس فوصلوها، و قد بقوا أربعة نفر فلم يجدوا بها أحدا فساروا إلى طرابلس، و حدّثوا بذلک فلم تطل مدّتهم بها و ماتوا

و كانت المراكب إذا مرّت بجزائر الفرنج لا تجد ركّابها بها أحدا، و فى بعضها جماعة يدعونهم أن يأخذوا من أصناف البضائع ما أحبّوا بغير ثمن لكثرة من كان يموت عندهم، و صاروا يلقون الأموات فى البحر، و كان سبب الموت عندهم ريح تمرّ على البحر فساعة يشمّها الإنسان سقط، و لا يزال يضرب برأسه إلى الأرض حتى يموت.

و قدمت مراكب الى الإسكندرية، و كان فيها اثنان و ثلاثون تاجرا و ثلثمائة رجل ما بين بحّار و عبيد، فماتوا كلّهم و لم يصل منهم غير أربعة من التجّار و عبد واحد، و نحو أربعين من البحّارة.

و عمّ الموت جزيرة الأندلس بكمالها إلا جزيرة غرناطة، فإنهم نجوا، و مات من عداهم حتى إنه لم يبق للفرنج من يمنع أموالهم، فأتتهم العرب من إفريقية

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۰۰

تريد أخذ الأموال إلى ان صاروا على نصف يوم منها، فمرّت بهم ريح فمات منهم على ظهور الخيل جماعة كثيرة و دخلها باقيهم، فرأوا من الأموات ما هالهم، و أموالهم ليس لها من يحفظها، فأخذوا ما قدروا عليه، و هم يتساقطون موتى، فنجا من بقى منهم بنفسه، و عادوا إلى بلادهم و قد هلك أكثرهم، و الموت قد فشا بأرضهم أيضا بحيث إنه مات منهم فى ليلة واحدة عدد كثير، و بقيت أموال العربان سائبة لا تجد من يرعاها، ثمّ أصاب الغنم داء، فكانت الشاة إذا ذبحت وجد لحمها منتنا قد اسودّ و تغيّر، و ماتت المواشى بأسرها.

ثم وقع الوباء بأرض برقة إلى الإسكندرية، فصار يموت فى كلّ يوم مائة.

ثمّ صار يموت مائتان، و عظم عندهم حتى إنه صلّى فى اليوم الواحد بالجامع دفعة واحدة على سبعمائة جنازة، و صاروا يحملون الموتى على الجنويّات و الألواح، و غلّقت دار الطّراز لعدم الصّنّاع، و غلّقت دار الوكالة، و غلّقت الأسواق و أريق ما بها من الخمور. و قدمها مركب فيه إفرنج فأخبروا أنهم رأوا بجزيرة طرابلس مركبا عليه طير تحوم فى غاية الكثرة، فقصدوه فإذا جميع من فيها ميّت و الطير يأكلهم، و قد مات من الطير أيضا شىء كثير، فتركوهم و مروا فما وصلوا الى الإسكندرية حتى مات منهم زيادة على ثلثهم. ثمّ وصل إلى مدينة دمهور

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۰۱

و تروجة بالبحيرة كلها حتى عمّ أهلها، و ماتت دوابهم و مواشيهم و بطل من البحيرة سائر الضمانات، و شمل الموت أهل البرلّس و نستراوة و تعطل الصيد من البحيرة بموت الصيادين فكان يخرج فى المركب عدّة صيادين فيموت أكثرهم و يعود من

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۰۲

بقى منهم فيموت بعد عوده من يومه هو و أولاده و أهله. و وجد فى حيتان البطارخ شىء منتن، و فيه على رأس البطارخة كبه منتنة قدر البندقة قد اسودّت.

و وجد فى جميع زراعات البرلّس و بلحها دود، و تلف أكثر تمر النّخل عندهم، و صارت الأموات على الأرض فى جميع الوجه البحرىّ لا يوجد من يدفنها.

ثمّ عظم الوباء بالمحلّة حتى إنّ الوالى كان لا يجد من يشكو إليه؛ و كان القاضى إذا أتاه من يريد الإشهاد على شخص لا يجد من العدول أحدا إلا بعد عناء لقلّتهم.

و صارت الفنادق لا تجد من يحفظها، و ماتت الفلّاحون بأسرهم إلا القليل، فلم يوجد من يضمّ الزرع، و زهد أرباب الأموال فى أموالهم و بذلوها للفقراء، فبعث الوزير منجك إلى الغربية، كريم الدين ابن الشيخ مستوفى الدولة و محمد بن يوسف مقدّم الدولة، فدخلوا على سنباط و سمنّود و بوصير و سنهور و نحوها من البلاد، و أخذوا مالا كثيرا، لم يحضروا منه سوى ستين ألف درهم.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۰۳

و عجز أهل بلبيس و سائر الشرقية عن ضمّ الزرع لكثرة موت الفلّاحين. و كان ابتداء الوباء عندهم من أوّل فصل الصيف الموافق لأثناء شهر ربيع الآخر من سنة تسع و أربعين و سبعمائة، ففاحت الطّرقات بالموتى، و مات سكان بيوت الشّعر و دوابّهم و مواشيهم، و امتلأت مساجد بلبيس و فنادقها و حوانيتها بالموتى، و لم يبق مؤذّن، و طرحت الموتى بجامعها، و صارت الكلاب فيه تأكل الموتى.

ثم قدم الخبر من دمشق أنّ الوباء كان بها آخر ما كان بطرابلس و حماة و حلب، فلمّا دخل شهر رجب و الشمس فى برج الميزان أوائل فصل الخريف، هبّت فى نصف اللّيل ريح شديدة جدّا، و استمرّت حتّى مضى من النهار قدر ساعتين، فاشتدت الظّلمة حتى كان الرجل لا يرى من بجانبه. ثم انجلت و قد علت وجوه الناس صفرة ظاهرة فى وادى دمشق كلّه، و أخذ فيهم الموت مدّة شهر رجب فبلغ فى اليوم ألفا و مائتى إنسان، و بطل إطلاق الموتى من الديوان، و صارت الأموات مطروحة فى البساتين على الطّرقات، فقدم على قاضى القضاة تقىّ الدين السّبكىّ قاضى دمشق رجل من جبال الرّوم، و أخبر أنّه لمّا وقع الوباء ببلاد الروم رأى فى نومه رسول اللّه

صلّى اللّه عليه و سلّم فشكا إليه ما نزل بالناس من الفناء فأمره صلّى اللّه عليه و سلّم أن يقول لهم: «اقرءوا سورة نوح ثلاثة آلاف و ثلثمائة و ستين مرّة، و اسألوا اللّه فى رفع ما أنتم فيه» فعرّفهم ذلك فاجتمع الناس فى المساجد، و فعلوا ما ذكر لهم، و تضرّعوا إلى اللّه تعالى و تابوا إليه من ذنوبهم، و ذبحوا أبقارا و أغناما كثيرة للفقراء مدّة سبعة أيام، و الفناء يتناقص كلّ يوم حتى زال. فلمّا سمع القاضى و النائب ذلك نودى بدمشق باجتماع الناس بالجامع لأموىّ، فصاروا به جمعا كبيرا و قرءوا «صحيح البخارىّ» فى ثلاثة أيام و ثلاث

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۰۴

ليال. ثم خرج الناس كافّة بصبيانهم إلى المصلّى و كشفوا رءوسهم و ضجّوا بالدعاء، و ما زالوا على ذلك ثلاثة أيام فتناقص الوباء حتّى ذهب بالجملة.

و كان ابتداؤه بالقاهرة و مصر فى النساء و الأطفال ثم بالباعة حتى كثر عدد الأموات، فركب السلطان إلى سرياقوس، و أقام بها من أوّل شهر رجب إلى العشرين منه، و قصد العود إلى القلعة فأشير عليه بالإقامة فى سرياقوس و صوم رمضان بها.

ثم قدم كتاب نائب حلب بأنّ بعض أكابر الصلحاء رأى النّبىّ صلى اللّه عليه و سلم فى نومه فشكا إليه ما نزل بالناس من الوباء، فأمره صلى اللّه عليه و سلم بالتّوبة، و الدعاء بهذا الدعاء المبارك و هو: «اللّهمّ سكن هيبة صدمة قهرمان الجبروت بألطافك النازلة الواردة من فيضان الملكوت، حتى نتشبّث بأذيال لطفك، و نعتصم بك عن إنزال قهرك، يا ذا القوّة و العظمة الشاملة، و القدرة الكاملة، ياذا الجلال و الإكرام». و أنه كتب بها عدّة نسخ بعث بها إلى حماة و طرابلس و دمشق.

و فى شعبان تزايد الوباء بديار مصر، و عظم فى شهر رمضان و قد دخل فصل الشتاء فرسم بالاجتماع فى الجوامع للدعاء، فى يوم الجمعة سادس شهر رمضان، فنودى أن يجتمع الناس بالصّناجق الخليفتية و المصاحف، إلى قبّة النصر خارج القاهرة، فاجتمع الناس بعامّة جوامع مصر و القاهرة، و خرج المصريّون إلى مصلّى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۰۵

خولان بالقرافة، و استمرّت قراءة البخارىّ بالجامع الأزهر و غيره عدّة أيام، و الناس يدعون إلى اللّه تعالى و يقنتون فى صلواتهم. ثم خرجوا إلى قبة النصر و فيهم الأمير شيخون و الوزير منجك اليوسفىّ و الأمراء بملابسهم الفاخرة من الذهب و غيره، فى يوم الأحد ثامن شهر رمضان.

و مات فى ذلك اليوم الرجل الصالح سيّدى عبد اللّه المنوفىّ، تغمده اللّه برحمتة، و أعاد علينا من بركاته، فصلّى عليه ذلك الجمع العظيم، و عاد الأمراء إلى سرياقوس و انفضّ الجمع، و اشتد الوباء بعد ذلك حتى عجز الناس عن حصر الموتى.

فلما انقضى شهر رمضان حضر السلطان من سرياقوس، و حدث فى الناس فى شوّال نفث الدّم، فكان الإنسان يحسّ فى نفسه بحرارة و يجد غثيانا فيبصق دما و يموت عقيبه، و يتبعه أهل داره واحدا بعد واحد حتى يفنوا جميعا بعد ليلة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۰۶

أو ليلتين، فلم يبق أحد إلا و غلب على ظنه أنه يموت بهذا الداء، و استعدّ الناس جميعا و أكثروا من الصّدقات، و تحاللوا و أقبلوا على العبادة، و لم يحتج أحد فى هذا الوباء إلى أشربة و لا أدوية و لا أطبّاء لسرعة الموت، فما انتصف شوّال إلا و الطرقات و الأسواق قد امتلأت بالأموات، فانتدب جماعة لمواراتهم و انقطع جماعة للصلاة عليهم، و خرج الأمر عن الحدّ، و وقع العجز عن العدد، و هلك أكثر أجناد الحلقة و خلت الطّباق بالقلعة من المماليك السلطانية لموتهم.

فما أهلّ ذو القعدة إلا و القاهرة خالية مقفرة، لا يوجد بشوارعها مارّ، بحيث إنه يمرّ الإنسان من باب زويلة إلى باب النصر فلا يرى من يزاحمه، لاشتغال الناس بالموتى، و علت الأتربة على الطّرقات، و تنكّرت وجوه الناس، و امتلأت الأماكن بالصّياح، فلا تجد بيتا إلا و فيه صيحة، و لا تمرّ بشارع إلا و ترى فيه عدّة أموات.

و صلّى فى يوم الجمعة بعد الصلاة على الأموات بالجامع الحاكمىّ فصفّت التوابيت اثنين اثنين من باب مقصورة الخطابة إلى باب الجامع، و وقف الإمام على العتبة و الناس خلفه خارج الجامع. و خلت أزقّة كثيرة و حارات عديدة من الناس، و صار بحارة برجوان اثنتان و أربعون دارا خالية، و بقيت الأزّتمة و الدّروب المتعدّدة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۰۷

جالية، و صار أمتعة أهلها لا تجد من يأخذها، و إذا ورث إنسان شيئا انتقل فى يوم واحد [عنه] لرابع و خامس.

و حصرت عدّة من صلّى عليه بالمصلّيات التى خارج باب النصر و باب زويلة و باب المحروق و تحت القلعة، و مصلّى قتّال السبع تجاه باب جامع قوصون فى يومين فبلغت ثلاث عشرة ألفا و ثمانمائة، سوى من مات فى الأسواق و الأحكار، و خارج باب البحر و على الدكاكين و فى الحسينية و جامع ابن طولون، و من يتأخر دفنه فى البيوت.

و يقال: بلغت عدّة الأموات فى يوم واحد عشرين ألفا، و حصرت الجنائز بالقاهرة فقط فى مدّة شعبان و رمضان فكانت تسعمائة ألف، سوى من مات

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۰۸

بالأحكار و الحسينية و الصّليبة و باقى الخطط خارج القاهرة و هم أضعاف ذلك، و عدّت النّعوش و كانت عدّتها ألفا و أربعمائة نعش، فحملت الأموات على الأقفاص و درابيب الحوانيت، و صار يحمل الاثنان و الثلاثة فى نعش واحد و على لوح واحد، و طلبت القرّاء على الأموات فأبطل كثير من الناس صناعاتهم، و انتدبوا للقراءة على الجنائز، و عمل جماعة مدراء و جماعة غسّالا و جماعة تصدّوا لحمل الأموات، فنالوا بذلك جملا مستكثرة، و صار المقرئ يأخذ عشرة دراهم، و إذا وصل إلى المصلّاة تركه و انصرف لآخر، و يأخذ الحمّال ستّة دراهم بعد الدّخلة [عليه]، و صار الحفّار يأخذ أجرة حفر كلّ قبر خمسين درهما، فلم يمتّع اكثرهم بذلك و ماتوا.

و دخلت امرأة غاسلة لتغسّل امرأة فلمّا جرّدتها من ثيابها، و مرّت بيدها على موضع الكبّة صاحت الغاسلة و سقطت ميّتة، فوجدوا فى بعض أصابعها التى لمست بها الكبّة كبّة قدر الفولة، و صار الناس يبيتون بموتاهم فى التّرب لعجزهم عن تواريهم، و كان أهل البيت يموتون جميعا و هم عشرات، فلا يوجد لهم سوى نعش واحد ينقلون فيه شيئا بعد شيء، و أخذ كثير من الناس دورا و أموالا بغير استحقاق لموت مستحقيها فلم يتمّل أكثرهم بما أخذ حتى مات بعدهم بسرعة، و من عاش منهم استغنى [به]، و أخذ كثير من العامة إقطاعات حلقة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۰۹

و قام الأمير شيخون العمرىّ و الأمير مغلطاى أمير آخور بتغسيل الأموات و تكفينهم و دفنهم. و بطل الأذان من عدّة مواضع، و بقى فى المواضع المشهورة يؤذّن مؤذّن واحد، و بطلت أكثر طبلخاناة الأمراء،؟؟؟ ار فى طبلخانة الأمير شيخون ثلاثة نفر بعد خمسة عشر نفرا. و غلّقت أكثر المساجد و الزوايا. و قيل إنه ما ولد لأحد فى هذا الوباء إلا و مات الولد بعد يوم أو يومين و لحقته أمّه.

ثمّ شمل فى آخر السنة الوباء بلاد الصعيد بأسرها و لم يدخل الوباء أرض أسوان، و لم يمت به سوى أحد عشر إنسانا. و وجدت طيور كثيرة ميّتة فى الزروع ما بين غربان و حدأة و غيرها من سائر أصناف الطيور، فكانت إذا أنتفت وجد فيها أثر الكبّة.

و تواترت الأخبار من الغور و بيسان و غير ذلك أنهم كانوا يجدون الأسود و الذئاب و حمر الوحش، و غيرها من الوحوش ميّتة و فيها أثر الكبّة.

و كان ابتداء الوباء أوّل أيام التّخضير، فما جاء أوان الحصاد حتى فنوا الفلّاحون و لم يبق منهم إلا القليل، فخرج الأجناد بغلمانهم للحصاد و نادوا: من يحصد يأخذ نصف ما حصد، فلم يجدوا واحدا، و درسوا غلالهم على خيولهم و ذرّوها بأيديهم، و عجزوا عن غالب الزرع فتركوه، و كان الإقطاع الواحد يصير من واحد إلى واحد حتى إلى السابع و الثامن، فأخذ إقطاعات الأجناد أرباب الصنائع

من الخياطين و الأساكفة، و ركبوا الخيول و لبسوا الكلفتاه و القباء. و كثير من الناس لم يتناول فى هذه السنة من إقطاعه شيئا، فلمّا جاء النيل و وقع أوان التخضير

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۱۰

تعذر وجود الرجال فلم يخضّر إلا نصف الأراضى، و لم يوجد أحد ليشترى القرط الأخضر و لا من يربط عليه خيوله، و ترك ألف و خمسمائة فدان بناحية ناى و طنان، و انكسرت البلاد التى بالضواحى و خربت. و خلت بلاد الصعيد مع اتساع أرضها، بحيث كانت مكلفة مساحة أرض أسيوط تشتمل على ستة آلاف نفر يؤخذ منها الخراج، فصارت فى سنة الوباء هذه تشتمل على مائة و ستة عشر نفرا.

و مع ذلك كان الرّخاء موجودا و انحطّ سعر القماش حتى أبيع بخمس ثمنه و أقلّ، و لم يوجد من يشتريه، و صارت كتب العلم ينادى عليها بالأحمال، فيباع الحمل منها بأرخص ثمن. و انحطّ قدر الذهب و الفضة حتى صار الدينار بخمسة عشر درهما، بعد ما كان بعشرين. و عدمت جميع الصّناع، فلم يوجد سقاء و لا بابا و لا غلام.

و بلغت جامكيّة الغلام ثمانين درهما، عنها خمس دنانير و ثلث دينار، فنودى بالقاهرة: من كانت له صنعة فليرجع إلى صنعته، و ضرب جماعة منهم، و بلغ ثمن راوية الماء ثمانية دراهم لقلّة الرجال و الحمال، و بلغت أجرة طحن الإردب القمح دينارا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۱۱

و يقال: إنّ هذا الوباء أقام يدور على أهل الأرض مدّة خمسة عشرة سنة.

قلت: و رأيت أنا من رأى هذا الوباء، فكان يسمّونه الفصل الكبير، و يسمّونه أيضا بسنة الفناء، و يتحاكون عنه أضعاف ما حكيناه، يطول الشرح فى ذكره.

و قد أكثر الناس من ذكر هذا الوباء فى أشعارهم فممّا قاله شاعر ذلك العصر الشيخ جمال الدين محمد بن نباتة: [الخفيف]

سر بنا عن دمشق يا طالب العى ش فما فى المقام للمرء رغبه

رخصت أنفس الخلائق بالطّا عون فيها فكلّ نفس بحبّه

و قال الشيخ صلاح الدين الصّفدىّ و أكثر فى هذا المعنى على عادة إكثاره، فممّا قاله فى ذلك: [الوافر]

رعى الرحمن دهرا قد تولّى يجازى بالسّلامة كلّ شرط

و كان الناس فى غفلات أمر فجاطاعونهم من تحت إبط

و قال أيضا: [الكامل]

قد قلت للطّاعون و هو بغزّة قد جال من قطيا إلى بيروت

أخليت أرض الشام من سكّانها و أتيت يا طاعون بالطاغوت

و قال الشيخ بدر الدين حسن [بن عمر بن الحسن] بن حبيب فى المعنى من قصيدة أوّلها: [الخفيف]

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۱۲

إنّ هذا الطاعون يفتك فى العا لم فتك امرئ ظلوم حسود

و يطوف البلاد شرقا و غربا و يسوق الخلوق نحو اللّحود

و لابن الوردىّ فى المعنى: [البسيط]

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة؛ ج ۱۰؛ ص ۲۱۲

قالوا فساد الهواء يردى فقلت يردى هوى الفساد

كم سيّئات و كم خطايا نادى عليكم بها المنادى

و قال أيضا: [الرّمل]

حلب- و اللّه يكفى شرّها- أرض مشقّه

أصبحت حيّة سوء تقتل الناس ببزقه

و لابن الوردىّ أيضا: [الرجز]

إنّ الوبا قد غلبا و قد بدا فى حلبا

قالوا له على الورى كاف ورا قلت وبا

و قال أيضا: [الكامل]

سكّان سيس يسرّهم ما ساءنا و كذا العوائد من عدوّ الدّين

اللّه ينفذه إليهم عاجلا ليمزّق الطاغوت بالطاعون

و قال الأديب جمال الدين إبراهيم المعمار فى المعنى: [الرمل]

قبح الطاعون داء فقدت فيه الأحبّه

بيعت الأنفس فيه كلّ إنسان بحبّه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١٠، ص: ٢١٣

و له أيضا فى المعنى: [السريع]

يا طالب الموت أفق و انتبه هذا أوان الموت ما فاتا

قد رخص الموت على أهله و مات من لا عمره ماتا

ثم أخذ الوباء يتناقص فى أوّل المحرّم من سنة خمسين و سبعمائة.

ثم فى يوم الأربعاء تاسع عشر من ربيع الأوّل، ورد الخبر بقتل الأمير سيف الدين أرغون شاه نائب الشام، و أمره غريب، و هو أنه لما كان نصف ليلة الخميس ثالث عشرينه و هو بالقصر الأبلق بالميدان خارج مدينة دمشق و معه عياله، و إذا بصوت قد وقع فى الناس بدخول العسكر، فثاروا بأجمعهم و دارت النّقباء على الأمراء بالركوب ليقفوا على مرسوم السلطان، فركبوا جميعا إلى سوق الخيل تحت القلعة، فوجدوا الأمير ألجيبغا المظفّرى نائب طرابلس و إذا بالأمير أرغون شاه نائب الشام مكتّف بين مماليك الأمير إياس؛ و خبر ذلك أن ألجيبغا لما ركب من طرابلس سار حتى طرق دمشق على حين غفلة، و ركب معه الأمير فخر الدين إياس السّلاحدار، و أحاط إياس بالقصر الأبلق و طرق بابه، و علم الخدّام بأنه قد حدث أمر مهم فأيقظوا الأمير أرغون شاه، فقام من فرشه و خرج إليهم فقبضوا عليه، و قالوا له: حضر مرسوم السلطان بالقبض عليك، و العسكر واقف، فلم يجسر أحد أن يدفع عنه، و أخذه الأمير إياس و أتى به ألجيبغا فسلّم أمراء دمشق على ألجيبغا، و سألوه الخبر، فذكر لهم أن مرسوم السلطان ورد عليه بركوبه إلى دمشق بعسكر طرابلس، و القبض على أرغون شاه المذكور و قتله، و الحوطة على

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١٠، ص: ٢١٤

ماله و موجوده، و أخرج لهم كتاب السلطان بذلك، فأجابوا بالسمع و الطاعة، و عادوا الى منازلهم و نزل ألجيبغا إلى الميدان، و أصبح يوم الخميس فأوقع الحوطة على موجود أرغون شاه و أصبح يوم الجمعة رابع عشرين ربيع الأوّل أرغون شاه المذكور مذبوحا، فكتب ألجيبغا محضرا أنه وجده مذبوحا و السّكين فى يده، (يعنى أنه ذبح نفسه) فأنكر عليه كونه لمّا قبض أموال أرغون شاه، لم يرفعها إلى قلعة دمشق على العادة، و اتّهموه فيما فعل، و ركبوا جميعا لقتاله فى يوم الثلاثاء ثامن عشرينه فقاتلهم ألجيبغا المذكور و جرح الأمير مسعود بن خطير، و قطعت يد الأمير ألجيبغا العادلى أحد أمراء دمشق، و قد جاوز تسعين سنة، فعند ذلك ولّى ألجيبغا المظفّرى نائب طرابلس، و معه خيول أرغون شاه و أمواله، و توجّه إلى نحو المزّة و معه الأمير إياس نائب حلب كان، و مضى إلى طرابلس.

و سبب هـذه الواقعـة أنّ إياسا لما عزل عن نيابـة حلب و أخذت أمواله و سـجن، ثم أفرج عنه و اسـتقرّ فى جملة أمراء دمشق، و عدّوه أرغون شاه الـذى كان سـعى فى عزله عن نيابـة حلب نائبها، فصار أرغون شاه يهينه و يخرق به، و اتفق أيضا إخراج ألجيبغا من الديار المصـرية إلى دمشق أميرا بها، فترفّع عليه أيضا أرغون شاه المذكور و أذلّه، فاتّفق ألجيبغا و إياس على مكيدة، فأخذ ألجيبغا فى السعى على خروجه من دمشق عند أمراء مصـر، و بعث إلى الأمير بيبغا أرس نائب السـلطنة بالديار المصـرية، و إلى أخيه الأمير منجك الوزير هديّة سنيّة فولّاه نيابة طرابلس، و أقام بها الى أن كتب يعرّف السلطان و الأمراء أنّ أكثر عسكر طرابلس مقيم بدمشق.

و طلب أنّ نائب الشام يردّهم إلى طرابلس، فكتب له بذلك فشقّ على أرغون شاه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۱۵

نـائب الشـام كون ألجيبغـا لم يكتب إليه، و أرسـل كـاتب السـلطان فى ذلك فكتب إلى ألجيبغا بالإنكار عليه فيما فعل، و أغلظ له فى القول، و حمل البريـدىّ إليه مشافهـة شـنيعة، فقامت قيامـة ألجيبغا لمّا سـمعها، و فعل ما فعل، بعـد أن أوسع الحيلة فى ذلك، فاتفق مع إياس فوافقه إياس أيضا، لما كان فى نفسه من أرغون شاه حتى وقع ما ذكرناه.

و أما أمراء الديار المصرية فإنهم لما سمعوا بقتل الأمير أرغون شاه ارتاعوا، و اتّهم بعضهم بعضا، فحلف كلّ من شيخون و النائب بيبغا أرس على البراءة من قتله، و كتبوا إلى ألجيبغا بأنّه قتل أرغون شاه بمرسوم من! و إعلامهم بمستنده فى ذلك، و كتب إلى أمراء دمشق بالفحص عن هـذه الواقعـة، و كان ألجيبغا و إياس قد وصـلا إلى طرابلس، و خيّما بظاهرها، فقدم فى غد وصولهما كتب أمراء دمشـق إلى أمراء طرابلس بالاحتراس على ألجيبغا حتى يرد مرسوم السلطان، فإنه فعل فعلته بغير مرسوم السلطان، و مشت حيلته علينا. ثم كتبوا إلى نـائب حمـاة و نـائب حلب و إلى العربـان بمسـك الطّرقـات عليه، فركب عسـكر طرابلس بالسـلاح و أحاطوا به، ثم وافاهم كتاب السـلطان بمسـكه، و قـد سـار عن طرابلس و ساروا خلفه إلى نهر الكلب عنـد بيروت فوقف قـدّامهم نهاره، ثم كر راجعا عليهم، فقاتله عسكر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۱۶

طرابلس، حتى قبضوا عليه، و فرّ إياس، و وقعت الحوطـة على مماليك ألجيبغا و أمواله، و مسك الذى كتب الكتاب بقتل أرغون شاه، فاعتـذر أنه مكره، و أنه غيّر ألقاب أرغون شاه، و كتب أوصال الكتب مقلوبة حتى يعرف أنه زوّر، و حمل ألجيبغا المذكور مقيّدا إلى دمشق. ثم قبض نـائب بعلبكّ على الأمير إياس، و قـد حلق لحيته و رأسه، و اختفى عنـد بعض النصارى، و بعث به إلى دمشق، فحبسـا معا بقلعتها، و كتب بذلك إلى السـلطان و الأمراء، فندب الأمير قجا الساقى على البريد إلى دمشق بقتل ألجيبغا و إياس، فأخرجهما من حبس قلعـة دمشـق و وسّـطهما بسـوق الخيـل بـدمشق، و علّق إيـاس على خشب و قـدّامه ألجيبغـا على خشـبة أخرى، و ذلـك فى يوم الخميس حادى عشرين شهر ربيع الآخر. و كان عمر ألجيبغا المذكور يوم قتل نحو تسع عشرة سنة و هو ما طرّ شاربه.

ثمّ كتب السـلطان باسـتقرار الأمير أرقطاى نائب حلب، فى نيابـة الشام عوضا عن أرغون شاه المـذكور، و اسـتقرّ الأمير قطليجا الحموىّ نـائب حمـاة فى نيابـة حلب عوضـا عن أرقطـاى، و اسـتقرّ أمير مسـعود بن خطير فى نيابـة طرابلس عوضا عن ألجيبغا المظفّرى المقـدّم ذكره. ثمّ قدم إلى مصر طلب أرغون شاه و مماليكه و أمواله و موجود ألجيبغا أيضا، فتصرّف الوزير منجك فى الجميع.

و بعـد مـدّة يسيرة ورد الخبر أيضـا بموت الـأمير أرقطاى نائب دمشق، فكتب باسـتقرار قطليجا الحموىّ نائب حلب فى نيابـة دمشق، و توجّه الأمير ملكتمر المحمـدى بتقليـده بنيابـة الشام، و سار حتى وصل إليه فوجده قد أخرج طلبه إلى جهة دمشق و هو ملازم الفراش، فمـات قطليجـا أيضـا بعـد أسـبوع، و لما وصل الخبر إلى مصـر بموت قطليجا، أراد النائب بيبغا ارس و الوزير منجك إحراج طاز لنيابة الشام،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۱۷

و الأمير مغلطاى أمير آخور إلى نيابـة حلب، فلم يوافقاهما على ذلك، و كادت الفتنة أن تقع، فخلع على الأمير أيتمش الناصـرىّ بنيابة

الشام، و استقرّ بعد مدّة الأمير أرغون الكاملىّ فى نيابة حلب.

و فى محرّم سنة إحدى و خمسين و سبعمائة، ابتدأت الوحشة بين الأمير مغلطاى أمير آخور و بين الوزير منجك اليوسفى، بسبب الفار الضامن، و قد شكا منه، فطلبه مغلطاى من الوزير و قد احتمى به، فلم يمكّنه منه. و كان منجك لما فرغ صهريجه الذى عمّره تجاه القلعة عند باب الوزير، اشترى له من بيت المال ناحية بلقينة بالغربية بخمسة و عشرين ألف دينار، و أنعم عليه بها، فوقفها منجك على صهريجه المذكور، فأخذ مغلطاى يعدّد لمنجك تصرّفه فى المملكة، و سكن الأمر فيما بينهما.

ثم توجه السلطان إلى سرحة سرياقوس على العادة فى كل سنة و أنعم على الأمير قطلوبغا الذهبىّ بإقطاع الأمير لاچين أمير آخور بعد موته، و أنعم بإمرته و تقدمته على الأمير عمر بن أرغون النائب. ثمّ استقرّ بكلمش أمير شكار فى نيابة طرابلس،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۱۸

عوضا عن أمير مسعود بن خطير، و كتب بإحضار أمير مسعود إلى القاهرة. ثم عاد السلطان من سرحة سرياقوس، و كتب بعود أمير مسعود إلى دمشق بطّالا حتى ينحلّ له ما يليق به، و خلع على الأمير فارس الدين ألبكى باستقراره فى نيابة غزّة بعد موت الأمير دلنجى، و دلنجى باللغة التركية هو المكدّى (و هو بكسر الدال المهملة و فتح اللام و سكون النون و كسر الجيم).

و فى هذه الأيام توجّه الأمير طاز إلى سرحة البحيرة، و أنعم السلطان عليه بعشرة آلاف اردبّ شعير و خمسين ألف درهم و ناحية طمّوه زيادة على إقطاعة.

و فى خامس عشر شوّال خرج أمير حاجّ المحمل الأمير بزلار أمير سلاح.

ثم خرج بعده طلب الأمير بيبغا أرس النائب بتجمّل زائد، و فيه مائة و خمسون مملوكا معدّة بالسلاح. ثم خرج طلب الأمير طاز و فيه ستون فارسا، فرحل بيبغا أرس قبل طاز بيومين. ثمّ رحل طاز بعده. ثمّ رحل بزلار بالحاجّ ركبا ثالثا فى عشرين شوّال من بركة الحاجّ.

و فى يوم السبت رابع عشرينه عزل الأمير منجك اليوسفىّ عن الوزر، و قبض عليه، و كان الأمير شيخون خرج إلى العبّاسة؛ و سبب عزله أن السلطان بعد توجّه شيخون طلب القضاة و الأمراء، فلما اجتمعوا بالخدمة، قال لهم: يا أمراء

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۱۹

هل لأحد علىّ ولاية حجر، أو أنا حاكم نفسى! فقال الجميع يا خوند: ما ثمّ أحد يحكم على مولانا السلطان، و هو مالك رقابنا، فقال: إذا قلت لكم شيئا ترجعوا إليه؛ قالوا جميعهم: نحن تحت طاعة السلطان و ممتثلون ما يرسم به، فالتفت إلى الحاجب و قال له: خذ سيف هذا، و أشار إلى منجك الوزير، فأخذ سيفه و أخرج و قيّد، و نزلت الحوطة على أمواله مع الأمير كشلى السلاحدار، فوجد له خمسون حمل زردخاناه، و لم يوجد له كبير مال، فرسم بعقوبته، ثمّ أخرج إلى الإسكندرية فسجن بها، و ساعة القبض عليه رسم بإحضار الأمير شيخون من العباسة و إعلامه بمسك منجك الوزير، فقام الأمير مغلطاى أمير آخور و الأمير منكلى بغا فى منعه من الحضور، و ما زالا يخيّلان السلطان منه حتى كتب له مرسوم بنيابة طرابلس، على يد طينال الجاشنكير، فتوجّه إليه فلقبه قريب بلبيس، و قد عاد صحبة الجمدار الذى توجه بإحضاره من عند السلطان، و أوقفه على المرسوم فأجاب بالسمع و الطاعة، و بعث يسأل فى الإقامة بدمشق، فكتب له بخبز الأمير تلك بدمشق، و حضور تلك إلى مصر فتوجّه شيخون إليها.

ثمّ قبض السلطان على الأمير عمر شاه الحاجب و اخرج إلى الإسكندرية، و استقرّ الأمير طنيرق رأس نوبة كبيرا عوضا عن شيخون. ثمّ قبض على حواشى منجك و على عبده عنبر البابا و صودر، و كان عنبر قد أفحش فى سيرته مع الناس، فى قطع المصانعات، و ترفّع على الناس ترفّعا زائدا، فضرب ضربا مبرحا: ثمّ

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۲۰

ضرب بكتمر شادّ الأهراء فاعترف للوزير منجك باثنى عشر ألف اردبّ غلّة، اشتراها من أرباب الرواتب.

و فى مستهلّ ذى القعدة قبض على ناظر الدولة و المستوفين، و ألزموا بخمسمائة ألف دينار، فترفّق فى أمرهم الأمير طنيرق، حتى

استقرّت خمسمائة ألف درهم، و وزّعها الموفّق ناظر الدولة على جميع الكتّاب، و التزم علم الدين عبد اللّه بن زنبور ناظر الخاصّ و الجيش بتكفية جميع الأمراء المقدّمين بالخلع من ماله، و قيمتها خمسمائة ألف درهم، و فصّلها و عرضها على السلطان، فركبوا الأمراء بها الموكب، و قبّلوا الأرض و كان موكبا جليلا.

و فى يوم السبت ثامن ذى القعدة خلع السلطان على الأمير بيبغا ططر حارس طير، و استقرّ فى السلطنة بالديار المصرية عوضا عن بيبغا أرس المتوجّه إلى الحجاز، بعد أن عرضت النيابة على أكابر الأمراء فلم يقبلها أحد، و تمنّع بيبغا ططر أيضا منها تمنّعا كبيرا، ثم قبلها. و استقرّ الأمير مغلطاى أمير آخور رأس نوبة كبيرا، عوضا عن طنيرق، الذى كان وليها عن شيخون، و أطلق له التحدّث فى أمر الدولة كلّها عوضا عن الأمير شيخون، مضافا لما بيده من الأميرا خورية. و استقرّ الأمير منكلى بغا الفخرى رأس مشورة و أتابك العساكر، و أنعم على ولده بإمرة، و دقّت الكوسات و طبلخانات الأمراء بأجمعها، و زيّنت القاهرة و مصر، فى يوم الأحد تاسع ذى القعدة و استمرّت ثمانية أيام.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۲۱

و أما شيخون فإنه لما وصل إلى دمشق، قدم بعده الأمير أرغون التاجى بإمساكه، فقبض عليه و قيّد و أخرج من دمشق فى البحر و توجه إلى الطّينة، ثم أوصله إلى الإسكندرية فسجن بها.

و خلع على طشبغا الدّوادار على عادته دوادارا، و تصالح هو و القاضى علاء الدين ابن فضل اللّه كاتب السرّ، فإنه كان نفى بسببه حسب ما تقدّم ذكره، و أرسل كلّ منهما إلى صاحبه هديّة.

و كان السلطان لمّا أمسک منجک، کتب إلى الأمير طاز و إلى الأمير بزلار على يد قردم، و أخبرهما بما وقع، و أنهما يحترسان على النائب بيبغا أرس، و قد نزل سطح العقبة، فلمّا قرأ بيبغا الكتاب وجم و قال: كلّنا مماليک السلطان. و خلع عليه، و کتب أنه ماض لقضاء الحج.

ثم إنّ السلطان عزل الأمير صرغتمش و الأمير عليّا من وظيفتى الجمدارية، و كانا من جملة حاشية شيخون، و رسم لصرغتمش أن يدخل الخدمة مع الأمراء، ثم أخرج أمير على إلى الشام، و أخرج صرغتمش لكشف الجسور بالوجه القبلى، و ألزم أستادار بيبغا أرس بكتب حواصل بيبغا، و ندب السلطان الأمير آقجبا الحموى لبيع حواصل منجک، و أخذت جوارى بيبغا أرس و مماليكه و جوارى منجک

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۲۲

و مماليكه، الى القلعة، فطلع لمنجک خمسة و سبعون مملوكا صغارا، و طلع لبيبغا أرس خمس و أربعون جارية، فلما وصلن تجاه دار النيابة، صحن صيحة واحدة و بكين، فأبكين من كان هناک.

ثم قدم الخبر على السلطان بأنّ الأمير أحمد الساقى نائب صفد، خرج عن طاعة السلطان، و سببه أنه لما قبض على منجک، خرج الأمير قمارى الحمویّ و على يده ملطّفات لأمراء صفد بالقبض عليه، فبلغه ذلک من هجّان جهزه له أخوه، فندب طائفة من مماليكه لتلقّى قمارى، و طلب نائب قلعة صفد و ديوانه، و أمره أن يقرأ عليه: كم له بالقلعة من الغلة، فأمر لمماليكه منها بشىء فرّقه عليهم إعانة لهم على ما حصل من المحل فى البلاد، و بعثهم ليأخذوا ذلک، فعند ما طلعوا القلعة شهروا سيوفهم و ملكوها من نائب قلعة صفد، و قبضوا على عدّة من الأمراء، و طلع بحريمه الى القلعة و حصّنها، و أخذ مماليكه قمارى و أتوا به، فأخذ ما معه من الملطّفات و حبسه. فلما بلغ السلطان ذلک کتب إلى نائب غزّة و نائب الشام بتجريد العسكر إليه.

هذا و الأراجيف كثيرة، بأنّ طاز تحالف هو و بيبغا أرس بعقبة أيلة فخرج الأمير فيّاض و الأمير عيسى بن حسن أمير العائذ، فتفرّقا على عقبة أيلة بسبب بيبغا أرس، و کتب لعرب شطّى و بنى عقبة و بنى مهدى، بالقيام مع الأمير فضل، و كتب لنائب غزّة فأرسل السوقة الى العقبة.

ثم خلع السلطان على الأمير شهاب الدين أحمد بن قزمان بنيابة الإسكندرية عوضا عن بكتمر المؤمنى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۲۳

ثم فى يوم الأربعاء سادس عشرين ذى القعدة قدم سيف الأمير بيبغا أرس، و قد قبض عليه، و سبب ذلك، أنه لمّا ورد عليه كتاب السلطان بمسك أخيه منجك، اشتدّ خوفه و طلع الى العقبة و نزل الى المنزلة، فبلغه أنّ الأمير طاز و الأمير بزلار ركبا للقبض عليه، فركب بيبغا أرس بمن معه من الأمراء و المماليك بآلة الحرب، فقام الأمير عز الدين أزدمر الكاشف بملاطفته، و أشار عليه ألا يعجّل و يكشف الخبر،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۲۴

فبعث نجّابا فى الليل لذلك، فعاد و أخبر أنّ الأمير طاز مقيم بركبه، و أنه سار بهم و ليس فيهم أحد ملبس، فقلع بيبغا السلاح هو و من معه، و تلقّى طاز و سأله عما تخوّف منه، فأوقفه على كتاب السلطان إليه، فلم ير فيه ما يكره. ثم رحل كلّ منهما بركبه من العقبة، و أنت الأخبار للأمراء بمصر باتفاق طاز و بيبغا أرس فكتب السلطان للأمير طاز و للأمير بزلار عند ذلك القبض على بيبغا أرس قبل دخوله مكة، و توجه إليهما بذلك طيلان الجاشنكير، و قد رسم [له] أن يتوجه بيبغا الى الكرك، فلما قدم طيلان على طاز و بزلار، ركبا الى أزدمر الكاشف فأعلماه بما رسم به إليهما من مسك بيبغا أرس و وكّدا عليه فى استمالة الأمير فاضل، و الأمير محمد بن بكتمر الحاجب، و بقية من مع بيبغا أرس، فأخذ أزدمر فى ذلك. ثم كتب لبيبغا أرس أن يتأخر حتى يسمع مرسوم السلطان، [و] حتى يكون دخولهم لمكة جميعا، فأحسّ بيبغا بالشرّ، و همّ أن يتوجه إلى الشام، فما زال أزدمر الكاشف به حتى رجّعه عن ذلك. و عند نزول بيبغا أرس إلى منزلة المويلحة، قدم طاز و بزلار فتلقاهما، و أسلم نفسه من غير ممانعة فأخذا سيفه، و أرادا تسليمه لطينال حتى يحمله إلى الكرك، فرغب إلى طاز أن يحج معه، فأخذه طاز محتفظا به، و كتب طاز بذلك إلى السلطان، فتوهّم مغلطاى و السلطان أنّ طاز و بزلار قد مالا إلى بيبغا أرس و تشوّشا تشويشا زائدا، ثم أكّد ذلك ورود الخبر بعصيان أحمد

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۲۵

الساقى نائب صفد، و ظنّوا أنه مباطن لبيبغا أرس، و أخرج طينال ليقيم بالصفراء حتى يرد الحاجّ إليها، فيمضى بيبغا أرس إلى الكرك.

ثم فى يوم الخميس سابع عشرين ذى القعدة خلع على الأمير علم الدين عبد اللّه ابن زنبور خلعة الوزارة، مضافا لما بيده من نظر الخاصّ و نظر الجيش بعد ما امتنع و شرط شروطا كثيرة.

و فيه أيضا خلع السلطان على الأمير طنيرق باستقراره فى نيابة حماة، عوضا عن أسندمر العمرىّ. ثمّ كتب القاضى علاء الدين بن فضل اللّه كاتب السرّ تقليد ابن زنبور الوزير، و نعته فيه بالجناب العالى. و كان جمال الكفاة سعى أن يكتب له ذلك، فلم يرض كاتب السرّ، و شحّ عليه بذلك، فخرج الوزير و تلقّى كاتب السرّ، و بالغ فى إكرامه، و بعث إليه بتقدمة سنية.

ثمّ قدّم الخبر على السلطان بنزول عسكر الشام على محاصرة أحمد نائب صفد، و زحفهم على قلعة صفد عدّة أيام، جرح فيها كثير من الناس و الأجناد، و لم ينالوا من القلعة غرضا، إلى أن بلغهم القبض على بيبغا أرس، و علم أحمد بذلك و انحلّ عزمه، فبعث إليه الأمير بكلمش نائب طرابلس يرغّبه فى الطاعة، و دسّ على من معه بالقلعة، حتى خامروا عليه و همّوا بمسكه، فوافق على الطاعة، و حلف له نائب طرابلس، فنزل إليه بمن معه، فسرّ السلطان بذلك، و كتب بإهانته و حمله إلى السجن.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۲۶

و فى عاشر ذى الحجة كانت الواقعة بمنى، و قبض على الملك المجاهد صاحب اليمن، و اسمه علىّ بن داود ابن المظفر يوسف ابن المنصور عمر بن علىّ بن رسول، و كان من خبره أنّ ثقبة لمّا بلغه استقرار أخيه عجلان عوضه فى إمرة مكة، توجه إلى اليمن، و أغرى صاحب اليمن بأخذ مكة و كسوة الكعبة، فتجهّز الملك المجاهد صاحب اليمن، و سار يريد الحج فى حفل كبير بأولاده و أمّه، حتى قرب من مكة و قد سبقه حاجّ مصر، فلبس عجلان آلة الحرب، و عرّف أمراء مصر ما عزم عليه صاحب اليمن، و حذّرهم غائلته، فبعثوا

إليه بأنّ من يريـد الحـج إنما يدخل مكة بذلّة و مسـكنة، و قد ابتدعت من ركوبك بالسـلاح بدعة، لا تمكّنك أن تدخل بها، و ابعث إلينا ثقبـة ليكون عنـدنا، حتى تنقضـى أيام الحـج فنرسله إليك، فأجاب لذلك، و بعث ثقبة رهينة، فأكرمه الأمراء. و ركبوا الأمراء فى جماعة إلى لقاء الملك المجاهد، فتوجهوا إليه و منعوا سـلاح داريّته بالمشـى معه بالسلاح، و لم يمكّنوه من حمل الغاشية، و دخلوا به مكة فطاف و سعى، و سلّم على الأمراء و اعتذر إليهم، و مضـى إلى منزله، و صار كلّ منهم على حذر حتى وقفوا بعرفة، و عادوا إلى الخيف من منى، و قـد تقرّر الحـال بين الأمير ثقبـة و بين الملك المجاهـد على أنّ الأمير طاز إذا سار من مكـة أوقعا بأمير الحاج و من معه، و قبضا على عجلان، و تسلّم ثقبة مكة.

فـاتفق أن الأمير بزلار رأى و قـد عاد من مكـة إلى منى خادم الملك المجاهـد سائرا، فبعث يسـتدعيه فلم يأته، و ضـرب مملوكه، بعد مفاوضـة جرت بينهما و جرحه فى كتفه، فماج الحاجّ، و ركب الأمير بزلار وقت الظهر إلى الأمير طاز، فلم يصل إليه حتى أقبلت الناس جافلة، تخبر بركوب الملك المجاهد بعسكره للحرب،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۲۷

و ظهرت لوامع أسـلحتهم، فركب طـاز و بزلار و أكثر العسـكر المصـرى بمكـة، فكان أوّل من صـدم أهل اليمن بزلار و هو فى ثلاثين فارسا، فأخـذوه فى صـدرهم إلى أن أرموه قريب خيمته، و مضت فرقة إلى جهة طاز فأوسع لهم طاز، ثمّ عاد عليهم. و ركـب الشـريف عجلان و الناس، فبعث الأمير طاز لعجلان: أن احفظ الحاجّ و لا تـدخل بيننا فى حرب، ودعنا مع غريمنا. و اسـتمرّ القتال بينهم إلى بعد العصـر، فركـب أهل اليمن مع كثرة عـددهم و اسـتعدادهم الذّلّـة، و التجأ الملك المجاهـد إلى دهليزه، و قد أحاط به العسـكر و قطعوا أطنـابه و ألقوه إلى الأـرض، فمرّ الملـك المجاهـد على وجهه منهزمـا، و معه أولاـده، فلم يجـد طريقـا، فسـلّم المجاهـد ولـديه لبعض الأـعراب، و عاد بمن معه من عسـكره، و هم فى أقبـح حال، يصـيحون الأمان يا مسـلمون! فأخـذوا وزيره، و تمزّقت عساكره فى تلك الجبال، و قتل منهم خلق كثير، و نهبت أموالهم و خيولهم عن آخرها، و انفصل الحال عنـد غروب الشـمس، و فرّ ثقبـة بعبيـده و عربه، فأخذ عبيد عجلان جماعة من الحاج فيما بين مكّة و منى، و قتلوا جماعة.

قلت: هـذا شأن عرب مكـة و عبيـدها، و هذه فروسـيّتهم لا فى لقاء العدوّ، و كان حقّهم يوم ذاك خفر الحاجّ، كون التّرك قاموا عنهم بدفع عدوّهم، و إلا كان المجاهد يستولى عليهم، و على أموالهم و ذراريهم فى أسرع وقت. انتهى.

و لمـا أراد طاز الرحيل من منى، سـلّم أمراء المجاهـد و حريمه إلى الشـريف عجلان، و أوصاه بهم، و ركـب الأمير طاز و معه المجاهد محتفظا به، و بالغ فى إكرامه يريد الديار المصرية، و صحب معه أيضا الأمير بيبغا أرس مقيّدا، و بعث

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۲۸

بالأمير طقطاى إلى السـلطان يبشّـره بما وقع، و لمّا قـدم الأمير طاز إلى المدينـة النبوية، على ساكنها أفضل الصـلاة و الرحمة، قبض بها على الشريف طفيل.

و أما الديار المصـرية، فإنه فى يوم الجمعة خامس المحرّم من سـنة اثنتين و خمسـين و سبعمائة، قدم الأمير أرغون الكاملىّ نائب حلب إلى الديار المصـرية بغير إذن، فخلع عليه و أنزل بالقلعة؛ و سـبب حضوره أنه أشيع عنه بحلب القبض عليه، ثمّ أشيع فى مصر أنه خامر، فكره تمكّن موسـى حـاجب حلب منه، لمـا كان بينهما من العـداوة. و رأى وقوع المكروه به فى غير حلب أخفّ عليه، فلما قـدم مصر فرح السلطان به، لما كان عنده من إشاعة عصيانه.

ثم قدم الخبر على السلطان، بأنّ طيلان تسلّم بيبغا أرس من الأمير طاز، و توجّه به إلى الكرك من بدر، فسرّ السلطان أيضا بذلك.

ثمّ فى يوم السـبت عشـرين المحرّم قـدم الأـمير طاز بمن معه من الحجاز، و صـحبته الملك المجاهـد، و الشـريف طفيل أمير المدينـة، فخرج الأمير مغلطاى إلى لقائه إلى البركة، و معه الأمراء، و مدّ له سـماطا جليلا، و قبض على من كان معه من الأمراء من أصحاب بيبغا أرس و قيّدهم و هم: الأمير فاصل أخو بيبغا أرس، و ناصر الدين محمد بن بكتمر الحاجب.

و أما الأمیر أزدمر الکاشف فإنه أخرج السلطان إقطاعه و لزم داره.

ثمّ فی یوم الاثنین ثانی عشرینه طلع الأمیر طاز بالملک المجاهد إلی نحو القلعة، حتی وصل إلی باب القلّة قیّده، و مشی الملک المجاهد بقیده حتی وقف- عند العمود بالدّرکاه تجاه الإیوان، و الأمراء جلوس- وقوفا طویلا. إلی أن خرج أمیر جاندار

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۲۹

یطلب الأمراء علی العادة، فدخل المجاهد علی تلک الهیئة معهم، و خلع السلطان علی الأمیر طاز، ثمّ تقدّم الملک المجاهد و قبّل الأرض ثلاث مرات، و طلب السلطان الأمیر طاز و سأل عنه، فما زال طاز یشفع فی المجاهد، إلی أن أمر السلطان بقیده ففکّ عنه، و أنزل بالأشرفیة من القلعة عند الأمیر مغلطای، و أجری له الرواتب السنیة، و اقیم له من یخدمه، ثم أنعم السلطان علی الأمیر طاز بمائتی ألف درهم.

ثم خلع السلطان أیضا علی الأمیر أرغون الکاملیّ باستمراره علی نیابة حلب، و رسم أن یکون موسی حاجب حلب فی نیابة قلعة الروم.

و فی یوم تاسع عشرین المحرّم حضر الملک المجاهد الخدمة، و أجلس تحت الأمراء، بعد أن ألزم بحمل أربعمائة ألف دینار یقترضه من تجّار الکارم، حتی ینعم له السلطان بالسفر إلی بلاده.

ثم أحضر الأمیر أحمد الساقی نائب صفد مقیّدا إلی بین یدی السلطان، فأرسل إلی سجن الاسکندریة.

ثمّ فی آخر المحرّم خلع السلطان علی الأمراء المقدّمین، و علی الملک المجاهد صاحب الیمن بالإیوان، و قبّل المجاهد الأرض غیر مرة، و کان الأمیر طاز و الأمیر مغلطای تلطّفا فی أمره، حتی أعفی من أجل المال، و قرّبه السلطان، و وعده بالسفر إلی بلاده مکرّما، فقبّل الأرض و سرّ بذلک، و أذن له أن ینزل من القلعة إلی إسطبل الأمیر مغلطای و یتجهز للسّفر، و أفرج عن وزیره و خادمه و حواشیه، و أنعم علیه بمال، و بعث له الأمراء مالا جزیلا، و شرع فی القرض من [تجار] الکارم الیمن و مصر، فبعثوا له عدّة هدایا، و صار یرکب حیث یشاء.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۳۰

ثمّ فی یوم الخمیس ثانی صفر، رکب الملک المجاهد فی الموکب بسوق الخیل تحت القلعة، و طلع مع النائب بیبغا ططر إلی القلعة، و دخل الی الخدمة السلطانیة بالإیوان مع الأمراء و النائب، و کان موکبا عظیما، رکب فیه جماعة من أجناد الحلقة مع مقدّمیهم، و خلع علی المقدّمین و طلعوا إلی القلعة، و استمرّ المجاهد یرکب فی الخدم مع النائب بسوق الخیل، و یطلع إلی القلعة و یحضر الخدمة.

ثمّ خلع السلطان علی الأمیر صرغتمش، و استقرّ رأس نوبة علی ما کان علیه أوّلا، بعنایة الأمیر طاز و الأمیر مغلطای.

و فی یوم السبت ثامن عشر من صفر برز المجاهد صاحب الیمن بثقله من القاهرة إلی الرّیدانیة متوجّها إلی بلاده، و صحبته الأمیر قشتمر شادّ الدواوین، و کتب للشریف عجّلان أمیر مکة بتجهیزه إلی بلاده، و کتب لبنی شعبة و غیرهم من العربان بالقیام فی خدمته، و خلع علیه، و قرّر المجاهد علی نفسه مالا یحمله فی کلّ سنة، و أسرّ السلطان إلی قشتمر، إن رأی منه ما یریبه یمنعه من السفر، و یطالع السلطان فی أمره، فرحل المجاهد من الریدانیة فی یوم الخمیس ثالث عشرینه، و معه عدّة ممالیک اشتراها و کثیر من الخیل و الجمال.

ثمّ فی أوائل جمادی الآخرة توعّک السلطان و لزم الفراش أیاما، فبلغ طاز و منکلی بغا و مغلطای أنه أراد بإظهار توعّکه القبض علیهم إذا دخلوا علیه، و کان قد اتفق مع قشتمر و ألطنبغا الزامر و ملکتمر الماردینی و تنکزبغا علی ذلک، و أنه ینعم علیهم بإقطاعاتهم و إمریاتهم، فواعدوا الأمراء أصحابهم، و اتفقوا مع الأمیر بیبغا ططر النائب و الأمیر طیبغا المجدیّ و الأمیر رسلان بصل، و رکبوا یوم الأحد

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۳۱

سابع عشرین جمادی الآخرة بأطلابهم، و وقفوا عند قبّة النصر خارج القاهرة، فخرج السلطان إلی القصر، و بعث یسألهم عن سبب

رکوبهم، فقالوا: أنت اتّفقت مع ممالیکک علی مسکنا، و لا بدّ من إرسالهم إلینا، فبعث تنکزبغا و قشتمر و ألطنبغا الزامر و ملکتمر، فعندما وصلوا إلیهم قیّدوهم و بعثوهم إلی خزانهٔ شمائل، فسجنوا بها، فشقّ ذلک علی السلطان، و بکی و قال: قد نزلت عن السلطنهٔ، و سیّر إلیهم النّمجاهٔ؛ فسلموها للأمیر طیبغا المجدیّ. و قام السلطان حسن إلی حریمه، فبعثوا الأمراء الأمیر صرغتمش و معه الأمیر قطلوبغا الذّهبیّ، و معهم جماعهٔ لیأخذوه و یحبسوه، فطلعوا إلی القلعهٔ راکبین إلی باب القصر الأبلق، و دخلوا إلی الملک الناصر حسن، و أخذوه من بین حرمه، فصرخ النساء صراخا عظیما، و صاحت الستّ حدق علی صرغتمش صیاحا منکرا، و قالت له: هذا جزاؤه منک. و سبّته سبّا فاحشا، فلم یلتفت صرغتمش إلی کلامها، و أخرجه و قد غطّی وجهه إلی الرّحبهٔ، فلما رآه لخدّام و الممالیک تباکوا علیه بکاء کثیرا، و طلع به إلی رواق فوق الإیوان، و وکّل به من یحفظه، و عاد إلی الأمراء، فاتّفق الأمراء علی خلعه من السلطنهٔ، و سلطنهٔ أخیه الملک الصالح صالح بن محمد بن قلاوون و تسلطن حسب ما یأتی ذکره.

و لمّا تسلطن الملک الصالح صالح، نقل أخاه الملک الناصر حسنا هذا إلی حیث کان هو ساکنا، و رتّب فی خدمته جماعهٔ، و أجری علیه من الرواتب ما یکفیه. ثم طلب الملک الصالح أخاه حسنا، و وعده أیضا بزیادهٔ علی إقطاعه، و زاد راتبه. و زالت دولهٔ الملک الناصر حسن.

النجوم الزاهرهٔ فی ملوک مصر و القاهرهٔ، ج ۱۰، ص: ۲۳۲

فکانت مدّهٔ سلطنته هذه الأولی ثلاث سنین و تسعهٔ أشهر و أربعهٔ عشر یوما، منها مدّهٔ الحجر علیه ثلاث سنین، و مدّهٔ استبداده بالأمر نحو تسعهٔ أشهر و أربعهٔ عشر یوما، و کان القائم بدولته فی أیام الحجر علیه الأمیر شیخون العمریّ رأس نوبهٔ النّوب، و إلیه کان أمر خزانهٔ الخاصّ، و مرجعه لعلم الدین ابن زنبور ناظر الخاصّ. و کان الأمیر منجک الیوسفیّ الوزیر و الأستادار و مقدّم الممالیک، إلیه التصرّف فی [أموال] الدولهٔ. و الأمیر بیبغا أرس نائب السلطنهٔ و إلیه حکم العسکر و تدبیره، و الحکم بین الناس. و کان المتولّی لتربیهٔ السلطان حسن خوند طغای زوجهٔ أبیه، ربّته و تبنّت به. و کانت الستّ حدق الناصریّهٔ دادته.

و کان الأمراء المذکورون رتّبوا له فی أیام سلطنته، فی کلّ یوم مائهٔ درهم، یأخذها خادمه من خزانهٔ الخاصّ، و لیس ینوبه سواها، و ذلک خارج عن سماطه و کلفهٔ حریمه، فکان ما ینعم به السلطان حسن فی أیام سلطنته و یتصدّق به من هذه المائهٔ درهما لا غیر، إلی أن ضجر من الحجر، و سافر النائب بیبغا أرس و الأمیر طاز إلی الحجاز، و خرج شیخون، إلی العبّاسهٔ للصید، و اتفق السلطان حسن مع مغلطای الأمیر آخور و غیره علی ترشیده، فترشّد حسب ما ذکرناه. و استبدّ بالدار المصریهٔ. ثم قبض علی منجک و شیخون و بیبغا أرس، إلی أن کان من أمره ما کان، علی أنه سار فی سلطنته بعد استبداده بالأمور مع الأمراء أحسن سیرهٔ، فإنه اختصّ بالأمیر طاز بعد حضوره من الحجاز، و بالغ فی الإنعام علیه.

و کانت أیّامه شدیدهٔ، کثرت فیها المغارم، بما أحدثه الوزیر منجک بالنواحی، و خربت عدّهٔ أملاک علی النیل، و احترقت مواضع کثیرهٔ بالقاهرهٔ و مصر، و خرجت

النجوم الزاهرهٔ فی ملوک مصر و القاهرهٔ، ج ۱۰، ص: ۲۳۳

عربان العائذ و ثعلبهٔ و عرب الشام و عرب الصعید عن الطاعهٔ، و اشتدّ فسادهم لاختلاف کلمهٔ مدبّری المملکهٔ.

و کان فی أیامه الفناء العظیم المقدّم ذکره، الذی لم یعهد فی الإسلام مثله. و توالی فی أیامه شراقی البلاد و تلاف الجسور، و قیام ابن واصل الأحدب ببلاد الصعید، فاختلّت أرض مصر و بلاد الشام بسبب ذلک خللا فاحشا، کل ذلک من اضطراب المملکهٔ و اختلاف الکلمهٔ، و ظلم الأمیر منجک و عسفه.

و أمّا الملک الناصر حسن المذکور کان فی نفسه مفرط الذکاء عاقلا، و فیه رفق بالرعیّهٔ، ضابطا لما یدخل إلیه و ما یصرّفه کلّ یوم، متدیّنا شهما، لو وجد ناصرا أو معینا، لکان أجلّ الملوک، یأتی بیان ذلک فی سلطنته الثانیهٔ، إن شاء اللّه تعالی.

و أما سلطنته هذه المرّهٔ فلم یکن له من السلطنهٔ إلا مجرّد الاسم فقط، و ذلک لصغر سنه و عدم من یؤیّده. انتهی.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۴۹]

السنة الأولى من سلطنة الملك الناصر حسن ابن الملك الناصر محمد ابن قلاوون الأولى على مصر و هى سنة تسع و أربعين و سبعمائة، على أنه حكم من الخالية من رابع عشر شهر رمضان.

فيها أعنى (سنة تسع و أربعين) كان الوباء العظيم المقدّم ذكره فى هذه الترجمه، و عمّ الدنيا حتى دخل إلى مكّة المشرّفة، ثم عمّ شرق الأرض و غربها، فمات بهذا الطاعون بمصر و الشام و غيرهما خلائق لا تحصى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۳۴

فممّن مات فيه من الأعيان الشيخ المحدّث برهان الدين إبراهيم بن لاچين بن عبد اللّه الرشيدىّ الشافعىّ فى يوم الثلاثاء تاسع عشرين شوّال. و مولده فى سنة ثلاث و سبعين و ستمائة. و كان أخذ القراءات عن التقىّ الصائغ، و سمع من الأبرقوهىّ و أخذ الفقه عن العلم العراقىّ، و برع فى الفقه و الأصول و النحو و غيره، و درّس و أقرأ و خطب بجامع أمير حسين خارج القاهرة سنين.

و توفّى الشيخ الأديب شهاب الدين أبو العباس أحمد بن مسعد بن أحمد بن ممدود السّنهورىّ المادح الضرير. و كانت له قدرة زائدة على النظم؛ و مدح النّبىّ صلى اللّه عليه و سلم بعدّة قصائد. و شعره كثير إلى الغاية، لا سيما قصائده النبوية و هى مشهورة فى حفظ المدّاح.

و توفّى القاضى الإمام البارع الكاتب المؤرّخ المفتنّ شهاب الدين أبو العباس أحمد ابن القاضى محيى الدين يحيى بن فضل اللّه بن المجلّى بن دعجان القرشىّ العدوىّ العمرىّ الدّمشقى الشافعىّ فى تاسع ذى الحجة بدمشق. و مولده فى ثالث شوّال سنة سبعمائة. و كان إماما بارعا و كاتبا فقيها نظم كثيرا من القصائد و الأراجيز

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۳۵

و المقطّعات، و دو بيت. و أنشأ كثيرا من التقاليد و المناشير و التواقيع، و كتب فى الإنشاء لمّا ولى والده كتابة سرّ دمشق، ثمّ لمّا ولى والده كتابة السرّ بمصر أيضا، صار ولده أحمد هذا هو الذى يقرأ البريد على الملك الناصر محمد بن قلاوون، و ينفّذ المهمّات و استمرّ كذلك فى ولاية والده الأولى و الثانية، حتى تغيّر السلطان عليه و صرفه فى سنة ثمان و ثلاثين، و أقام أخاه علاء الدين عليّا، و كلاهما كانا يكتبان بحضرة والدهما و وجوده، نيابة عنه لكبر سنّه؛ و توجه شهاب الدين إلى دمشق، حتى مات بها فى التاريخ المذكور. و كان بارعا فى فنون، و له مصنّفات كثيرة، منها تاريخه:

«مسالك الأبصار، فى ممالك الأمصار» فى أكثر من عشرين مجلدا. و كتاب «فواصل السّمر، فى فضائل آل عمر» فى أربع مجلدات. «و الدعوة المستجابة»، «و صبابة المشتاق» فى مجلّد، فى مدح النّبىّ صلّى اللّه و سلم و [دمعة الباكى] «و يقظة السّاهى» و «نفحة الرّوض».

قال الشيخ صلاح الدين خليل الصّيفدىّ: و أنشدنى القاضى شهاب الدين ابن فضل اللّه لنفسه، و نحن على العاصى هذين البيتين: [البسيط]

لقد نزلنا على العاصى بمنزلة زانت محاسن شطّيه حدائقها

تبكى نواعيرها العبرى بأدمعها لكونه بعد لقياها يفارقها

قال: فأنشدته لنفسى: [الطويل]

و ناعورة فى جانب النّهر قد غدت تعبّر عن شوق الشّجىّ و تعرب

فيرقص عطف الغصن تيها لأنّها تغنّى له طول الزمان و يشرب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۳۶

و توفّى الأمير سيف الدين أطلمش الجمدار؛ كان أوّلا من أمراء مصر، ثم حجوبية دمشق إلى أن مات، و كان مشكور السّيرة.

و توفّى الأمير سيف الدين بلبك بن عبد اللّه المظفّرىّ الجمدار، أحد أمراء الألوف بالديار المصرية فى يوم الخميس رابع عشرين شوّال. و كان من أعيان الأمراء، و قد تقدّم ذكره فيما مرّ.

و توفّى الأمير سيف الدين برلغى بن عبد اللّه الصغير، قريب السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، قدم إلى القاهرة صحبة القازانيّة سنة أربع و سبعمائة، فأنعم عليه الملك الناصر بإمرة بديار مصر، و تزوّج بابنة الأمير بيبرس الجاشنكير قبل سلطنته، و عمل له مهمّا عظيما، أشعل فيه ثلاثة آلاف شمعة، ثم قبض عليه الملك الناصر بعد زوال دولة الملك المظفّر، و امتحن بسبب صهره، و حبسه الملك الناصر عشرين سنة، ثمّ أفرج عنه و أنعم عليه بإمرة مائة و تقدمة الف، فدام على ذلك إلى أن مات. و برلغى هذا يلتبس ببرلغى الأشرفى، كلاهما كان عضدا للملك المظفّر بيبرس الجاشنكير و كانا فى عصر واحد.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۳۷

و توفّى الأمير سيف الدين بلبان بن عبد اللّه الحسينىّ المنصورىّ أمير جاندار، و قد أناف على ثمانين سنة، فإنه كان من مماليك الملك المنصور قلاوون.

و توفى الأمير سيف الدين بكتوت بن عبد اللّه القرمانىّ المنصورىّ، أحد المماليك المنصوريّة قلاوون أيضا، و كان أحد البرجيّة. ثمّ ولى شدّ الدواوين بدمشق و حبسه الملك الناصر محمد بن قلاوون مدّة، لأنه كان من أصحاب المظفّر بيبرس، ثمّ أطلقه و أنعم عليه بإمرة طبلخاناه بمصر. و كانت به حدبة فاحشة و ولع، و يتتبّع المطالب و الكيمياء، و ضاع عمره فى البطّال.

و توفّى الأمير سيف الدين تمربغا بن عبد اللّه العقيلىّ نائب الكرك فى جمادى الآخرة، و كان عاقلا شجاعا مشكور السيرة.

و توفّى الشيخ الإمام كمال الدين جعفر [بن ثعلب بن جعفر] بن علىّ الأدفوىّ الفقيه الأديب الشافعىّ. كان فقيها بارعا أديبا مصنفا؛ و من مصنفاته تاريخ الصعيد المسمّى «بالطالع السعيد فى تاريخ الصعيد» و له مصنّفات أخر و شعر كثير.

و توفى الأمير سيف الدين طشتمر بن عبد اللّه الناصرىّ، أحد أمراء الألوف بالديار المصرية، المعروف بطلليه فى شوّال بالقاهرة، و قيل له: طلليه، لأنه كان إذا تكلّم قال فى آخر كلامه: طلليه. و هو من مماليك الملك الناصر محمد بن قلاوون و خاصّكيته، و صار من بعده من أعيان الأمراء بالديار المصرية، و له تربة بالصحراء معروفة به، و كان شجاعا مقداما.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۳۸

و توفّيت خوند طغاى أمّ آنوك زوجة السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، و تركت مالا كثيرا جدّا، من ذلك ألف جارية، و ثمانون طواشيا أعتقت الجميع و هى صاحبة التّربة بالصحراء معروفة بها. و هى التى تولّت تربية السلطان الملك الناصر حسن بعد موت أمّه من أيام الملك الناصر محمد. و كانت من أعظم نساء وقتها و أحشمهنّ و أسعدهنّ.

و توفّى الشيخ الإمام الأديب البارع صفىّ الدين عبد العزيز بن سرايا بن على بن [أبى] القاسم بن أحمد بن نصر بن أبى العزّ بن سرايا بن باقى بن عبد اللّه السّنبسىّ الحلّىّ الشاعر المشهور فى سلخ ذى الحجة. و مولده فى خامس شهر ربيع الآخر سنة سبع و سبعين و ستمائة، و قدم القاهرة مرتين، و مدح الملك المؤيّد صاحب حماة، و مدح ملوك ماردين بنى أرتق، و له فيهم غرر القصائد، و تقدّم فى نظم الشعر.

و مدح النّبىّ صلى اللّه عليه و سلم بالقصيدة المعروفة. ب «البديعيّة» و له «ديوان شعر كبير»، و شعره سار شرقا و غربا. و هو أحد فحول الشعراء. و فيه يقول الشيخ جمال الدين محمد بن نباتة: [الكامل]

يا سائلى عن رتبة الحلّىّ فى نظم القريض راضيا بى أحكم
للشعر حلّيان ذلك راجح ذهب الزمان به و هذا قيّم

و من شعر الصفىّ الحلّىّ: [السريع]

أستطلع الأخبار من نحوكم و أسأل الأرواح حمل السّلام

و كلّما جاء غلام لكم أقول يا بشراى هذا غلام

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۳۹

و من شعره قصيدته التى أوّلها: [الكامل]

كيف الضلال و صبح وجهك مشرق و شذاك فى الأكوان مسك يعبق

يا من إذا سفرت محاسن وجهه ظلّت به حدق الخلائق تحدق

أوضحت عذرى فى هواك بواضح ماء الحيا بأديمه يترقرق

فإذا العذول رأى جمالك قال لى عجبا لقلبك كيف لا يتمزّق

يا آسرا قلب المحبّ فدمعه و النوم منه مطلق و مطلّق

أغنيتنى بالفكر فيك عن الكرى يا آسرى فأنا الغنىّ المملق

و منها أيضا:

لم أنس ليلة زارنى و رقيبه يبدى الرّضا و هو المغيظ المحنق

حتى إذا عبث الكرى بجفونه كان الوسادة ساعدى و المرفق

عانقته و ضممته فكأنه من ساعدىّ ممنطق و مطوّق

حتى بدا فلق الصباح فراعه إنّ الصّباح هو العدو الأزرق

و قد استوعبنا من شعره و أحواله قطعة جيّدة فى تاريخنا «المنهل الصافى».

رحمه اللّه تعالى إن كان مسيئا.

و توفّى الشيخ الصالح المعتقد عبد اللّه المنوفىّ الفقيه المالكىّ، فى يوم الأحد ثامن شهر رمضان و دفن بالصحراء، و قبره بها معروف يقصد للزيارة و التبرّك.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۴۰

و توفّى الإمام العلّامة شيخ الشيوخ بدمشق علاء الدين علىّ بن محمود بن حميد القونوىّ الحنفىّ فى رابع شهر رمضان، و كان إماما فقيها بارعا صوفيا صالحا.

رحمه اللّه.

و توفّى الشيخ الإمام البارع المفتنّ الأديب الفقيه، زين الدين عمر بن المظفّر بن عمر بن محمد بن أبى الفوارس بن علىّ المعرّىّ الحلبىّ الشافعىّ المعروف بابن الوردىّ ناظم «الحاوى فى الفقه» رحمه اللّه؛ و قد جاوز الستين سنة بحلب، فى سابع عشرين ذى الحجّة. و قد استوعبنا من شعره و مشايخه نبذة كبيرة فى «المنهل الصافى» إذ هو كتاب تراجم، محلّه الإطناب فى مثل هؤلاء. و من شعره ما قاله فى مقرئ. [الكامل]:

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۴۱

و وعدت أمس بأن تزور فلم تزر فغدوت مسلوب الفؤاد مشتتا

لى مهجة فى النازعات و عبرة فى المرسلات و فكرة فى هل اتى

و له عفا اللّه عنه: [الوافر]

تجادلنا: أماء الزّهر أذكى ام الخلّاف أم ورد القطاف

و عقبى ذلك الجدل اصطلحنا و قد حصل الوفاق على الخلاف

و توفّى الأمير الطّواشى عنبر السّحرتىّ لالاة السلطان الملك الكامل شعبان، و مقدّم المماليك السلطانيّة منفيّا فى القدس، بعد أن امتحن و صودر. و كان رأى من العزّ و الجاه و الحرمة، فى أيام الكامل شعبان ما لا مزيد عليه، حسب ما ذكرنا منه نبذة فى ترجمة الملك الكامل المذكور.

و توفّى الأمير سيف الدين كوكاى بن عبد اللّه المنصور السّلاحدار، أحد أعيان الأمراء الألوف بالديار المصريّة، و كان من أجلّ الأمراء و أسعدهم، خلّف أكثر من أربعمائة ألف دينار عينا. و هو صاحب التّربة و المئذنة التى بالصحراء، على رأس الهدفة، تجاه تربة الملك الظاهر برقوق. و كان شجاعا مقداما. طالت ايامه فى السعادة.

و توفى الأمير سيف الدين قطز بن عبد اللّه الأمير آخور، ثم نائب صفد بدمشق، و هو أحد أمرائها، فى يوم الثلاثاء رابع ذى القعدة. و كان من أعيان أمراء مصر، ولى عدّة ولايات جليلة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۴۲

و توفّى الأمير سيف الدّين نكباى بن عبد اللّه البريدىّ المنصورىّ. كان أحد مماليك الملك المنصور قلاوون، ولى قطيا و الاسكندريّة، ثم أنعم عليه بإمرة طبلخاناه، و استقرّ مهمندارا. و إليه تنسب دار نكباى خارج مدينة مصر على النيل، و عنى بعمارتها فلم يتمتع بها.

و توفّى الأمير شرف الدين محمود [بن أوحد] بن خطير أخو الأمير مسعود.

و أظنه صاحب الجامع بالحسينية خارج القاهرة.

و توفّى الشيخ المحدّث الواعظ شهاب الدين أبو العباس أحمد بن ميلق الشاذلىّ.

كان يجلس و يذكّر الناس و يعظ، و كان لوعظه تأثير فى النفوس.

و توفّى الشيخ المعتقد زين الدين أبو بكر بن النّشاشيبى. كان له قدم و للناس فيه محبّة و اعتقاد. رحمه اللّه.

و توفّى الرئيس شمس الدين أبو عبد اللّه محمد بن إبراهيم بن عمر الأسيوطىّ ناظر بيت المال، كان مغدودا من أعيان الديار المصرية، و له ثروة. و إليه ينسب جامع الأسيوطىّ بخطّ جزيرة الفيل.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۴۳

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و عشرون إصبعا.

مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و ثلاث و عشرون إصبعا. و حوّلت هذه السنة إلى سنة خمسين. و اللّه أعلم.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۵۰]

السنة الثانية من ولاية السلطان الملك الناصر حسن الأولى على مصر و هى سنة خمسين و سبعمائة.

فيها توفّى مكين الدين إبراهيم بن قروينة بطالا بعد ما ولى استيفاء الصّحبة، و نظر البيوت، ثم نظر الجيش مرتين ثمّ تعطّل إلى أن مات. و كان من أعيان الكتّاب و رؤسائهم.

و توفّى الأمير سيف الدين أرغون شاه بن عبد اللّه الناصرىّ، نائب الشام مذبوحا فى ليلة الجمعة رابع عشرين شهر ربيع الأوّل، و كان من أعيان مماليك الملك الناصر محمد بن قلاوون و خواصّه، ربّاه و جعله أمير طبلخاناه رأس نوبة الجمدارية.

ثم استقرّ بعد وفاته أستادارا أمير مائة و مقدّم ألف بديار مصر، فتحكّم على الملك الكامل شعبان، حتى أخرجه لنيابة صفد، و ولى بعدها نيابة حلب. ثمّ نيابة الشام.

و كان خفيفا قوىّ النفس شرس الأخلاق، مهابا جبّارا فى أحكامه، سفّاكا للدماء غليظا فاحشا، كثير المال و الحشم.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۴۴

و کان أصله من بلاد الصّين حمل إلى بو سعيد بن خربندا ملك التّتار، فأخذه دمشق خجا بن جوبان. ثم ارتجعه بو سعيد بعد قتل [دمشق خجا بن] جوبان، و بعث به إلى الناصر هديّة و معه ملكتمر السّعيدىّ. و قد تقدّم من ذكر أرغون شاه هذا نبذة كبيرة فى عدّة تراجم من هذا الكتاب، من أوّل ابتداء أمره حتى كيفية قتله، فى ترجمة الملك الناصر حسن هذا، فلينظر هناك.

و توفّى الأمير الكبير سيف الدين أرقطاى بن عبد اللّه المنصورى، نائب السلطنة بالديار المصرية، ثم نائب حلب ثم ولى نيابة دمشق، فلما خرج منها متوجّها إلى دمشق، مات بظاهرها عن نحو ثمانين سنة، فى يوم الأربعاء خامس جمادى الأولى.

و أصله من مماليك الملك المنصور قلاوون، ربّاه الطواشى فاخر أحسن تربية إلى أن توجّه الملك الناصر إلى الكرك توجه معه، فلما عاد الملك الناصر إلى ملكه جعله من جملة الأمراء. ثم سيّره صحبة الأمير تنكز إلى الشام، و أوصى تنكز ألا يخرج عن رأيه، فأقام عنده مدّة، ثم ولّاه نيابة حمص سنتين و نصفا. ثم نقله إلى نيابة صفد، فأقام بها ثمانى عشرة سنة. ثم قدم مصر، فأقام بها خمس سنين و جرّد إلى آياس. ثم ولى نيابة طرابلس، و مات الملك الناصر محمد، فقدم مصر بعد موته

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۴۵

فقبض عليه. ثمّ أفرج عنه، و بعد مدّة ولى نيابة حلب. ثمّ عزل و طلب الى مصر فصار يجلس رأس المبمنة. ثمّ ولى نيابة السلطنة بالديار المصرية نحو سنتين.

ثم أخرج لنيابة حلب ثانيا، بحسب سؤاله فى ذلك، فأقام بها مدّة. ثم نقل إلى نيابة الشام بعد قتل أرغون شاه، فمات خارج حلب قبل أن يباشر دمشق، و دفن بحلب. و كان أميرا جليلا عظيما مهابا عاقلا سيوسا، مشكور السّيرة محبّبا للرعية.

و قد تقدّم من أخباره ما يغنى عن الاعادة هنا.

و توفّى الأمير سيف الدين ألجيبغا بن عبد اللّه المظفّرى نائب طرابلس، موسّطا بسوق خيل دمشق، فى يوم الاثنين ثانى شهر ربيع الآخر، بمقتضى قتله الأمير أرغون شاه نائب الشام، و قد تقدّم كيفيّة قتله أرغون شاه فى ترجمة السلطان حسنى هذا، و أيضا واقعة توسيطه مفصّلا هناك. و كان ألجيبغا من مماليك المظفّر حاجّى ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون و من خواصّه. و قتل ألجيبغا و سنّه دون العشرين سنة، بعد أن صار أمير مائة و مقدّم ألف بمصر و الشام و نائب طرابلس، و وسّط معه إياس الآتى ذكره.

و توفّى الأمير فخر الدين إياس بن عبد اللّه الناصرى، موسّطا أيضا بسوق خيل دمشق لموافقته ألجيبغا المقدّم ذكره على قتل أرغون شاه فى التاريخ المذكور أعلاه.

و كان أصل إياس هذا من الأرمن، و أسلم على يد الملك الناصر محمد بن قلاوون، فرقّاه حتّى عمله شادّ العمائر. ثم أخرجه الى الشام شادّ الدواوين. ثم صار حاجبا بدمشق. ثم نائبا بصفد. ثم نائبا بحلب. ثم عزل بسعى أرغون شاه به، و قدم

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۴۶

دمشق أميرا فى نيابة أرغون شاه لدمشق، فصار أرغون شاه يهينه، و إياس يومئذ تحت حكمه، فحقد عليه، و اتّفق مع ألجيبغا نائب طرابلس حتّى قتلاه ذبحا، حسب ما ذكرناه مفصلا، فى ترجمة السلطان الملك الناصر حسن.

و توفّى الإمام العلّامة قاضى القضاة علاء الدين علىّ ابن القاضى فخر الدين عثمان ابن إبراهيم بن مصطفى الماردينىّ الحنفىّ المعروف بالتّركمانى- رحمه اللّه تعالى- فى يوم الثلاثاء عاشر المحرّم بالقاهرة. و مولده فى سنة ثلاث و ثمانين و ستّمائة، و هو أخو العلّامة تاج الدين أحمد، و والد الإمامين العالمين: عزّ الدين عبد العزيز و جمال الدين عبد اللّه، و عمّ العلّامة محمد بن أحمد، يأتى ذكر كلّ واحد من هؤلاء فى محلّه إن شاء اللّه تعالى. و كان قاضى القضاة علاء الدين إماما فقيها بارعا نحويّا أصوليّا لغويّا، أفتى و درّس و أشغل و ألّف و صنّف، و كان له معرفة تامّة بالأدب و أنواعه، و له نظم و نثر: كان إمام عصره بلا مدافعة، لا سيّما فى العلوم العقلية و الفقه أيضا و الحديث، و تصدّى للإقرار عدّة سنين. و تولّى قضاء الحنفية بالديار المصرية فى شوّال سنة ثمان و أربعين و

سبعمائة، عوضا عن قاضى القضاة زين الدين البسطامىّ، و حسنت سيرته، و دام قاضيا إلى أن مات. و تولّى عوضه ولده جمال الدين عبد اللّه.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۴۷

و من مصنّفاته- رحمه اللّه- كتاب «بهجة الأريب فى بيان ما فى كتاب اللّه العزيز من الغريب» و «المنتخب فى علوم الحديث» و «المؤتلف و المختلف» و «الضعفاء و المتروكون» و «الدرّ النّقىّ فى الردّ على البيهقىّ» و هو جليل فى معناه، يدلّ على علم غزير، و اطّلاع كثير، و «مختصر المحصّل فى الكلام» و «مقدّمة فى أصول الفقه» و «الكفاية فى مختصر الهداية» و «مختصر رسالة القشيرىّ» و غير ذلک.

و توفّى قاضى القضاة تقىّ الدين محمد بن أبى بكر بن عيسى بن بدران السّعدىّ الإخنائىّ المالكىّ، فى ليلة الثالث من صفر. و مولده فى شهر رجب سنة أربع و ستّين و ستّمائة، و كان فقيها فاضلا محدّثا بارعا. ولى شهادة الخزانة. ثم تولّى قضاء الإسكندرية. ثم نقل لقضاء دمشق بعد علاء الدين القونوىّ. و حسنت سيرته.

و تولى بعده جمال الدّين يوسف [بن إبراهيم] بن جملة.

و توفّيت خوند بنت الملک الناصر محمد بن قلاوون زوجة الأمير طاز، و خلّفت أموالا كثيرة، أبيع موجودها بباب القلّة من القلعة بخمسمائة ألف درهم، من جملة ذلک قبقاب مرصّع بأربعين ألف درهم، عنها يوم داک ألفا دينار مصريّة.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۴۸

و توفّى شيخ القرّاء شهاب الدين أحمد بن أحمد بن الحسين المعروف بالهكّارى، بالقاهرة فى جمادى الأولى. و كان إماما فى القراءات، تصدّى للإقرار عدّة سنين و انتفع به الناس.

و توفّى الأمير طقتمر بن عبد اللّه الشّريفىّ، بعد ما عمى و لزم داره و كان من أعيان الأمراء.

و توفّى الشيخ الإمام نجم الدين عبد الرحمن بن يوسف بن إبراهيم بن محمد ابن إبراهيم بن علىّ القرشىّ الأصفونىّ الشافعى، بمنى، فى ثالث عشر ذى الحجّة.

و كان فقيها عالما مصنّفا، و من مصنّفاته: «مختصر الرّوضة فى الفقه».

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و أربع أصابع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و ثلاث و عشرون إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۵۱]

السنة الثالثة من سلطنة الناصر حسن الأولى على مصر و هى سنة إحدى و خمسين و سبعمائة.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۴۹

فيها توفّى الأمير سيف الدين دلنجى بن عبد اللّه (و دلنجى هو المكدى باللّغة التركية). كان أصله من الأتراک و قدم إلى الديار المصريّة سنة ثلاثين و سبعمائة، فأنعم عليه السلطان الملک الناصر محمد بن قلاوون بإمرة عشرة. ثمّ إمرة طبلخاناة.

ثمّ ولى نيابة غزّة بعد الأمير تلجک، فأوقع بالمفسدين ببلاد غزّة و أبادهم، و قويت حرمته. و كان شجاعا مهابا

و توفّى الشيخ الإمام العلّامة شمس الدين محمد بن أبى بكر بن أيوب الزّرعىّ الدّمشقىّ الحنبلى، المعروف بابن قيّم الجوزيّة بدمشق، فى ثالث عشر شهر رجب.

و مولده سنة إحدى و تسعين و ستّمائة. و كان بارعا فى عدّة علوم، ما بين تفسير و فقه و عربيّة و نحو و حديث و أصول و فروع، و لزم شيخ الإسلام تقىّ الدين بن تيميّة بعد عوده من القاهرة فى سنة اثنتى عشرة و سبعمائة، و أخذ منه علما كثيرا، حتّى صار أحد أفراد

زمانه، و تصدّی للإقراء و الإفتاء سنین، و انتفع به الناس قاطبة، و صنّف و ألّف و کتب. و قد استوعبنا أحواله و مصنّفاته و بعض مشایخه فی ترجمته فی «المنهل الصافی» کما ذکرنا أمثاله.

و توفّی الأمیر حسام الدین لاچین بن عبد اللّه العلائیّ الناصریّ. أصله من ممالیک الناصر محمد. ثم صار أمیر جاندار فی ولة الملک المظفّر حاجّیّ، فإنه کان روج أمّه. ثمّ ولی أمیر آخور، فلمّا قتل الملک المظفر فی سنة ثمان و أربعین و سبعمائة، عزل و أخرج إلی حلب، علی إقطاع الأمیر حسام الدین محمود بن داود الشّیبانیّ، فدام بحلب إلی أن مات بها، و قیل بغیرها.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۵۰

و توفّی الشیخ فخر الدین أبو عبد اللّه محمد بن علیّ بن إبراهیم بن عبد الکریم المصری، الفقیه الشافعیّ بدمشق، فی سادس عشرین ذی القعدة، و مولده سنة إحدی و تسعین و ستّمائة. و کان فقیها عالما فاضلا بارعا فی فنون.

و توفّی ابن قرمان صاحب جبال الروم بعد مرض طویل.

قلت: و بنو قرمان هؤلاء هم من ذرّیّة السلطان علاء الدین کیقباد السّلجوقیّ، و هم ملوک تلک البلاد إلی یومنا هذا، و قد تقدّم من ذکرهم جماعة کثیرة فی هذا الکتاب.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم أربع أذرع و نصف، و قیل خمس أذرع و سبع عشرة إصبعا. مبلغ الزیادة سبع عشرة دراعا. و نزل فی خامس توت و شرقت البلاد.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۵۲]

اشارة

السنة الرابعة من سلطنة الملک الناصر حسن الأولی علی مصر و هی سنة اثنتین و خمسین و سبعمائة، و هی التی خلع فیها السلطان حسن المذکور فی سابع و عشرین جمادی الآخرة، و حکم فی باقیها أخوه الملک الصالح صالح ابن الملک الناصر محمد بن قلاوون.

فیها توفّی السیّد الشریف أدّی أمیر المدینة النبویّة، علی ساکنها أفضل الصلاة و السلام، فی السجن.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۵۱

و توفّی الأمیر سیف الدین طشبغا بن عبد اللّه الناصریّ الدّوادار. کان من جملة الأمراء فی الدیار المصریّة، فلمّا أخرج الأمیر جرجی الدوادار من القاهرة، فی أوّل دولة الملک الناصر حسن، استقرّ طشبغا هذا دوادارا عوضه، فی شهر رمضان سنة ثمان و أربعین و سبعمائة، و استمرّ علی ذلک إلی أن توفّی. و کان خیّرا دیّنا فاضلا عاقلا.

و توفّی قاضی القضاة الحنفیّة بحلب ناصر الدین محمد بن عمر بن عبد العزیز ابن محمد بن أبی الحسن بن أحمد بن هبة اللّه بن محمد بن هبة اللّه [بن أحمد] بن یحیی بن أبی جرادة، المعروف بابن العدیم الحلبی بحلب، عن ثلاث و ستّین سنة.

و قد تقدّم ذکر جماعة من آبائه و أقاربه فی هذا الکتاب، و سیأتی ذکر جماعة أخر من أقاربه، کلّ واحد فی محلّه. إن شاء اللّه تعالی.

و توفّی ملک الغرب أبو الحسن علیّ بن ابی سعید عثمان بن یعقوب بن عبد الحقّ ابن محیو بن أبی بکر بن حمامة فی لیلة الثلاثاء السابع و العشرین من شهر ربیع الأوّل، و قام فی الملک من بعده ابنه أبو عنان فارس. و کانت مدّة ملکه إحدی و عشرین سنة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۵۲

و توفّی القاضی شمس الدین محمد بن إبراهیم بن عبد الرحیم بن عبد اللّه بن محمد ابن محمد بن خالد بن محمد بن نصر المعروف بابن القیسرانیّ، موقّع الدّست و صاحب المدرسة بسویقة الصاحب داخل القاهرة و بها دفن، و کان معدودا من الرؤساء الأماثل.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۵۳

و توفّی الأمیر ناصر الدین محمد ابن الأمیر رکن الدین بیبرس الأحمدیّ، أحد أمراء الطبلخاناة بالدیار المصریة، و هو مجرّد ببلاد الصعید، فحمل إلی القاهرة میّتا فی یوم الأحد ثانی عشرین شهر رمضان.

و توفّی الشیخ الإمام تاج الدین أبو الفضل محمد بن إبراهیم بن یوسف المرّاکشیّ الأصل الشافعیّ بدمشق فی جمادی الآخرة. و کان فقیها فاضلا بارعا معدودا من فقهاء الشافعیة.

و توفّی القاضی علاء الدین علیّ بن محمد بن مقاتل الحرّانیّ ثم الدّمشقیّ ناظر دمشق بالقدس الشریف، فی عاشر شهر رمضان.

قلت: لعلّ علاء الدین هذا غیر الأدیب علاء الدین بن مقاتل الزّجّال الحمویّ.

لأنی أحفظ وفاة هاذاک، فی سنة إحدی و ستین و سبعمائة، و هکذا أرّخناه فی «المنهل الصافی و المستوفی بعد الوافی».

أمر النیل فی هذه السنة. الماء القدیم ستّ أذرع و خمس أصابع. مبلغ الزیادة سبع عشرة ذراعا و إصبع واحدة. و اللّه أعلم.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۵۴

ذکر سلطنة الملک الصالح صالح ابن السلطان الملک الناصر محمد ابن السلطان الملک المنصور قلاوون

هو العشرون من ملوک التّرک بدیار مصر، و الثامن من أولاد الملک الناصر محمد بن قلاوون. و أمّه خوند قطلو ملک بنت الأمیر تنکز الناصریّ نائب الشام، تسلطن بعد خلع أخیه الملک الناصر حسن فی یوم الاثنین ثامن عشرین جمادی الآخرة سنة اثنتین و خمسین و سبعمائة، باتفاق الأمراء علی ذلک، و أمره أنّ الأمراء لما حملت لهم نمجاة الملک، و أخبروا بأن الناصر حسنا خلع نفسه، و هم وقوف بقبّة النصر خارج القاهرة، توجّهوا الی بیوتهم، و باتوا تلک اللیلة و هی لیلة الاثنین بإسطبلاتهم، و أصبحوا بکرة یوم الاثنین طلعوا إلی القلعة، و اجتمعوا بالرّحبة داخل باب النحاس، و طلبوا الخلیفة و القضاة و سائر الأمراء و أرباب الدولة، و استدعوا بالصالح هذا من الدور السلطانیة؛ فأخرج لهم فقاموا له و أجلسوه و بایعوه بالسلطنة، و ألبسوه شعار الملک و أبّهة السلطنة، و أرکبوه فرس النّوبة من داخل باب السّتارة، و رفعت الغاشیة بین یدیه و مشت الأمراء و الأعیان بین یدیه و الأمیر طاز و الأمیر منکلی بغا آخذان بشکیمة فرسه، و سار علی ذلک حتی نزل و جلس علی تخت الملک بالقصر، و قبّلت الأمراء الأرض بین یدیه، و حلفوا له [و حلّفوه] علی العادة، و لقّبوه بالملک الصالح، و نودی بسلطنته بمصر

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۵۵

و القاهرة و دقّت الکوسات و زیّنت القاهرة و سائر بیوت الأمراء. و قبل سلطنته کان النیل نقص عند ما کسر علیه، فردّ نقصه و نودی علیه بزیادة ثلاث أصابع من سبع عشرة ذراعا، فتباشر الناس بسلطنته.

ثم توجّه الأمیر بزلار أمیر سلاح إلی الشام، و معه التشاریف و البشارة بولایة السلطان الملک الصالح، و تحلیف العساکر الشامیة له علی العادة. ثم طلب الأمیر طاز و الأمیر مغلطای مفاتیح الذخیرة لیعتبرا ما فیها فوجدا شیئا یسیرا. ثم رسم للصاحب علم الدین عبد اللّه بن زنبور، بتجهیز تشاریف الأمراء و أرباب الوظائف علی العادة، فجهّزها فی أسرع وقت، و وقف الأمیر طاز سأل السلطان و الأمراء الإفراج عن الأمیر شیخون العمری، فرسم بذلک، و کتب کلّ من مغلطای و طاز کتابا، و بعث مغلطای أخاه قطلیجا رأس نوبة، و بعث طاز الأمیر طقطای صهره، و جهزت له الحرّاقة لإحضاره من الإسکندریة فی یوم الثلاثاء تاسع عشرین جمادی الآخرة من سنة اثنتین و خمسین و سبعمائة المذکورة، و کان ذلک بغیر اختیار الأمیر مغلطای، إلّا أنّ الأمیر طاز دخل علیه و ألحّ علیه فی ذلک، حتی وافقه علی مجیئه، بعد أن قال له: أخشی علی نفسی من مجیء شیخون إلی مصر، فحلف له طاز أیمانا مغلّظة أنه معه علی کلّ ما یرید، و لا یصیبه من شیخون ما یکره، و أنّ شیخون إذا حضر لا یعارضه فی شیء من أمر المملکة، و إنی ضامن له فی هذا، و ما زال به حتی أذعن، و کتب له مع أخیه، فشقّ ذلک علی الأمیر منکلی بغا الفخریّ، و عتب مغلطای علی موافقة طاز، و عرّفه أنّ بحضور شیخون إلی

مصر يزول عنهم

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۵۶

ما هم فيه، فتقرّر فى ذهن مغلطاى ذلك، و ندم على ما كان منه، إلى أن كان يوم الخميس أوّل شهر رجب، و ركب الأمراء فى الموكب على العادة، أخذ منكلى بغا يعرّف النائب و الأمراء بإنكار ما دار بينه و بين مغلطاى، و حذّرهم من حضور شيخون إلى أن وافقوه، و طلعوا إلى القلعة و دخلوا إلى الخدمة، فابتدأ النائب بحضور شيخون و قال: إنه رجل كبير و يحتاج إلى إقطاع كبير و كلف كثيرة، فتكلّم مغلطاى و منكلى بغا و الأمراء و طاز ساكت، قد اختبط لتغيّر مغلطاى و رجوعه على ما وافقه عليه، و أخذ طاز يتلطّف بهم، فصمّم مغلطاى على ما هو عليه و قال: مالى وجه أنظر به شيخون، و قد أخذت منصبه و وظيفته و سكنت فى بيته، فوافقه النائب، و قال لناظر الجيش: اكتب له مثالا بنيابة حماة، فكتب ناظر الجيش ذلك فى الوقت، و توجه به أيدمر الدوادار فى الحال فى حرّاقة، و عيّن لسفر شيخون عشرون هجينا ليركبها و يسير عليها إلى حماة.

و انفضّوا و فى نفس طاز ما لا يعبّر عنه من القهر، و نزل و اتّفق هو و الأمير صرغتمش و ملكتمر و جماعة، و اتفقوا جميعا، و بعثوا إلى مغلطاى، بأنّ منكلى بغا رجل فتنىّ، و ما دام بيننا لا نتّفق أبدا، فلم يصغ مغلطاى إلى قولهم، و احتجّ بأنه إن وافقهم لا يأمن على نفسه، فدخل عليه طاز ليلا- بالأشرفية من قلعة الجبل، حيث هى مسكن مغلطاى و خادعه، حتى أجابه إلى إخراج منكلى بغا و تحالفا على ذلك؛ فما هو إلا أن خرج عنه طاز، أخذ دوادار مغلطاى يقبّح على مغلطاى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۵۷

ما صدر منه، و يهوّل عليه الأمر، بأنه متى ابعد منكلى بغا و حضر شيخون أخذ لا محالة، فمال إليه، و بلغ الخبر منكلى بغا بكرة يوم الجمعة ثانيه. فواعد النائب و الأمراء على الاجتماع فى صلاة الجمعة، ليقع الاتفاق على ما يكون، فلم يخف عن طاز و صرغتمش رجوع مغلطاى عما تقرّر بينه و بين طاز ليلا، فاستعدّا للحرب، و واعدا الأمير ملكتمر المحمدىّ، و الأمير قردم الحموىّ، و من يهوى هواهم، و استمالوا مماليك بيبغا أرس و مماليك منجك حتى صاروا معهم رجاء لخلاص أستاذيهم، و شدّ الجميع خيولهم، فلمّا دخل الأمراء لصلاة الجمعة، اجتمع منكلى بغا بالنائب و جماعته، و قرّر معهم أن يطلبوا طاز و صرغتمش الى عندهم فى دار النيابة، و يقبضوا عليهما، فلمّا أتاهما الرسول من النائب يطلبهما، أحسّا بالشرّ و قاما ليتهيأ للحضور، و صرفا الرسول على أنهما يكونان فى أثره، و بادرا الى باب الدوّر و نحوه من الأبواب فأغلقاها، و استدعوا من معهم من المماليك السلطانية و غيرها، و لبسوا السلاح، و نزل صرغتمش بمن معه من باب السرّ، ليمنع من يخرج من اسطبلات الأمراء، و دخل طاز على السلطان الملك الصالح، حتى يركب به للحرب، فلقى الأمير صرغتمش فى نزوله الأمير أيدغدى أمير آخور، فلم يطق منعه، و أخذ بعض الخيول من الاسطبل و خرج منه، فوجد خيله و خيل من معه فى انتظارهم، فركبوا الى الطبلخاناه، فاذا طلب منكلى بغا مع ولده و مماليكه يريدون قبّة النصر، فألقوا ابن منكلى بغا عن فرسه، و جرحوه فى وجهه، و قتلوا حامل الصّنجق و شتّتوا شمل الجميع، فما استتم هذا، حتى ظهر طلب مغلطاى مع مماليكه، و لم يكن لهم علم بما وقع على طلب منكلى بغا، فصدمهم صرغتمش أيضا بمن معه صدمة بدّدتهم،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۵۸

و جرح جماعة منهم و هزم بقيّتهم. ثم عاد صرغتمش ليدرك الأمراء قبل نزولهم من القلعة، و كانت خيولهم واقفة على باب السّلسلة تنتظرهم، فمال عليها صرغتمش ليأخذها، و امتدّت أيدى أصحابه إليها و قتلوا الغلمان، فعظم الصّياح و انعقد الغبار، و اذا بالنائب و منكلى بغا و مغلطاى و بيغرا و من معهم قد نزلوا و ركبوا خيولهم، و كانوا لمّا أبطأ عليهم حضور طاز و صرغتمش بعثوا فى استحثاثهم، فاذا الأبواب مغلقة، و الضجّة داخل باب القلعة، فقاموا من دار النيابة يريدون الركوب فلمّا توسّطوا بالقلعة حتى سمعوا ضجّة الغلمان و صياحهم، فأسرعوا إليهم و ركبوا، فشهر مغلطاى سيفه و هجم بمن معه على صرغتمش، و مرّ النائب و بيغرا و رسلان بصل، يريد كلّ منهم إسطبله، فلم يكن غير ساعة حتى انكسر مغلطاى من صرغتمش كسرة قبيحة، و جرح كثير من أصحابه، و فرّ الى جهة قبّة النصر و

هم فى أثره، و انهزم منكلى بغا أيضا.

و كان طاز لمّا دخل على السلطان عرّفه، أن النائب و الأمراء اتّفقوا على إعادة الملك الناصر حسن الى السلطنة، فمال السلطان الملك الصالح الى كلامه، فقام معه فى مماليكه، و نزل الى الإسطبل و استدعى بالخيول ليركب، فقعد به أيدغدى أمير آخور و احتجّ بقلّة السّروج، فانه كان من حزب مغلطاى، فأخذوا المماليك ما وجدوه من الخيول و ركبوا بالسلطان، و دقت الكوسات فاجتمع إليه الأمراء و المماليك و الأجناد من كلّ جهة، حتى عظم جمعه، فلم تغرب الشمس إلا و المدينة قد أغلقت، و امتلأت الرّميلة بالعامة، و سار طاز بالسلطان يريد قبّة النصر، حتى يعرف خبر صرغتمش، فوافى قبّة النصر بعد المغرب، فوجد صرغتمش

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۵۹

قد تمادى فى طلب مغلطاى و منكلى بغا حتى أظلم الليل، فلم يشعر إلا بمملوك النائب قد أتاه برسالة النائب أن مغلطاى عنده فى بيت آل ملك بالحسينيّة، فبعث صرغتمش جماعة لأخذه، و مرّ فى طلب منكلى بغا، فلقيه الأمير محمد بن بكتمر الحاجب و عرّفه أن منكلى بغا نزل قريبا من قناطر الأميرية، و وقف يصلّى، و أنّ طلب الأمير مجد الدين موسى بن الهذبانيّ، قد جاء من جهة كوم الرّيش، و لحقه الأمير أرغون ألبكى فى جماعة، فقبض عليه و هو قائم يصلّى، و كتّفوه بعمامته، و أركبوه بعد ما نكلّوا به، فلم يكن غير قليل حتى أتوا بهما فقيّدا و حبسا بخزانة شمائل، ثم أخرجا إلى الإسكندرية، و معهما ابنا منكلى بغا فسجنوا بها.

و أمّا صرغتمش فإنه لمّا فرغ من أمر مغلطاى و منكلى بغا و قبض عليهما، أقبل على السلطان بمن معه بقبة النصر، و عرّفه بمسك الأميرين، فسرّ السلطان سرورا كبيرا، و نزل هو و الأمراء و باتوا بقبّة النصر، و ركب السلطان بكرة يوم السبت ثالث شهر رجب إلى قلعة الجبل، و جلس بالإيوان و هنّئوه بالسلامة و الظفر، و فى الحال كتب بإحضار الأمير شيخون، و خرج جماعة من الأمراء بمماليكهم إلى لقائه، و نزلت البشائر إلى بيت شيخون، و بيت بيبغا أرس و بيت منجك اليوسفيّ الوزير، فكان يوما عظيما، و بات الأمراء تلك الليلة على تخوّف.

و أمّا شيخون لمّا ورد عليه الرسول بإطلاقه أوّلاً خرج من الإسكندريّة و هو ضعيف، و ركب الحرّاقة، و فرح أهل الإسكندرية لخلاصه، و سافر فوافاه كتاب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۶۰

الأمير صرغتمش بأنه إذا أتاك أيدمر بنيابة حماة، لا ترجع و أقبل إلى القاهرة فأنا و طاز معك؛ فلمّا قرأ شيخون الكتاب تغير وجهه، و علم أنه قد حدث فى أمره شيء، فلم يكن غير ساعة، حتى لاحت له حرّاقة أيدمر، فمرّ شيخون و هو مقلع و أيدمر منحدر إلى أن تجاوزه، و أيدمر يصيح و يشير بمنديله إليه فلا يلتفتون إليه، فأمر أيدمر بأن تجهّز مركبه بالقلع، و ترجع خلف شيخون، فما تجهّز قلع مركب أيدمر حتى قطع شيخون بلادا كثيرة، و صارت حرّاقته تسير و أيدمر فى أثرهم فلم يدركوه إلا بكرة يوم السبت، فعند ما طلع إليه أيدمر و عرّفه ما رسم به، من عوده إلى حماة، و قرأ المرسوم الذى على يد أيدمر برجوعه إلى نيابة حماة، و إذا بالخيل يتبع بعضها بعضا، و المراكب قد ملأت وجه الماء تبادر لبشارته و إعلامه بما وقع من الركوب و مسك مغلطاى و منكلى بغا، فسرّ شيخون بذلك سرورا عظيما، و سار إلى أن أرسى بساحل بولاق فى يوم الأحد رابع شهر رجب، بعد أن مشت له الناس إلى منية الشيرج، فلما رأوه صاحوا و دعوا له و تلقّته المراكب، و خرج الناس إلى الفرجة عليه، حتى بلغ كراء المركب إلى مائة درهم، و ما وصلت الحرّاقة إلا و حولها فوق ألف مركب، و ركبت الأمراء إلى لقائه و زيّنت الصليبة و أشعلت الشموع، و خرجت مشايخ الصوفية بصوفيّتهم إلى لقائه، فسار فى موكب لم ير مثله لأمير قبله، و سار حتى طلع القلعة و قبّل الأرض بين يدى السلطان الملك الصالح، فأقبل عليه السلطان و خلع عليه تشريفا جليلا، و قلع عنه ثياب السجن، و هى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۶۱

ملّوطة طرح محرّر. ثم نزل إلى منزله و التهانى تتلقاه. و دام الأمر على ذلك إلى يوم الأربعاء سابع شهر رجب رسم، بإخراج الأمير

بيبغا أرس حارس طير نائب السلطنة بالديار المصرية فالأمير بيغرا، فنزل الحاجب إلى بيت آل ملك بالحسينية و به كان سكن بيبغا المذكور، و أخرج منه ليسير من مصر إلى نيابة غزّة، و أخرج

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۶۲

بيغرا من الحمّام إخراجا عنيفا ليتوجّه إلى حلب، فركبا من فورهما و سارا. ثم رسم بإخراج الأمير أيدغدى الأمير آخور إلى طرابلس بطّالا، و كتب بالإفراج عن المسجونين بالإسكندرية و الكرك.

و فى يوم السبت عاشره ركب السلطان و الأمراء إلى الميدان على العادة، و لعب فيه بالكرة، فكان يوما مشهودا.

و وقف الناس للسلطان، فى الفار الضامن، و رفعوا فيه مائة قصّة فقبض عليه، و ضربه الوزير بالمقارع ضربا مبرّحا و صادره، و أخذ منه مالا كثيرا.

و فيه قبض على الأمير بيبغا ططر المعروف بحارس طير نائب السلطنة المتوجّه إلى نيابة غزّة فى طريقه، و سجن بالإسكندرية.

و فى يوم الأحد حادى عشره وصل الأمراء من سجن الإسكندرية و هم سبعة نفر: منجك اليوسفىّ الوزير و فاضل أخو بيبغا أرس و أحمد الساقى نائب صفد و عمر شاه الحاجب و أمير حسين التّترىّ و ولده، و الأمير محمد بن بكتمر الحاجب. فركب الأمراء و مقدّمهم الأمير طاز، و معه الخيول المجهّزة لركوبهم، حتى لقيهم و طلع بهم إلى القلعة، فقبّلوا الأرض و خلع السلطان عليهم، و نزلوا إلى بيوتهم فامتلأت الزاهرة بالأفراح و التهانى، و نزل الأمير شيخون و الأمير طاز و الأمير صرغمتش إلى الطبلاتهم، و بعثوا إلى الأمراء القادمين من السّجن التقادم السّنية من الخيول و التّعابى القماش و البسط و غيرها، فكان الذى بعثه شيخون لمنجك خمسة أفراس و مبلغ ألفى دينار، و قس على هذا.

ثمّ فى يوم الاثنين ثانى عشر شهر رجب خلع على الأمير قبلاى الحاجب و استقرّ فى نيابة السلطنة بالديار المصريّة، عوضا عن بيبغا ططر حارس طير.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۶۳

و فى يوم الخميس خامس عشر شهر رجب قدم الأمير بيبغا أرس من سجن الكرك، فركب الأمراء إلى لقائه، و طلع إلى السلطان و قبّل الأرض و خلع عليه و نزل إلى بيته، فلم يبق أحد من الأمراء حتّى قدّم له تقدمة تليق به.

ثم فى يوم الاثنين تاسع عشره خلع على الأمير بيبغا أرس و استقرّ فى نيابة حلب عوضا عن أرغون الكاملى و استقرّ أرغون الكاملى فى نيابة الشام، عوضا عن أيتمش الناصرىّ، و خلع على أحمد الساقى شادّ الشراب خاناه كان، بنيابة حماة عوضا عن طنيرق، و رسم لطنيرق أن يتوجّه إلى حلب أمير طبلخاناة بها. ثم رسم بأن يكون بطّالا بدمشق، و سافر بيبغا أرس و أحمد الساقى بعد أيام إلى محلّ كفالتهما ثم سأل الأمير منجك الإعفاء عن أخذ الإمرة، و أن يقعد بطّالا بجامعه، فأجيب إلى ذلك

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۶۴

بسفارة الأمير شيخون، و استردّ أملاكه التى كان أنعم بها السلطان على المماليك و الخدّام و الجوارى، و رمّم ما تشعّث من صهريجه و استجدّ به خطبة. ثم خلع السلطان على عمر شاه و استقر حاجب الحجاب عوضا عن قبلاى المنتقل إلى نيابة السلطنة بديار مصر، و أنعم على طشتمر القاسمىّ بتقدمة ألف، و استقر حاجبا ثانيا و هى تقدمة بيغرا.

و فيها أخرج جماعة من الأمراء و فرّقوا بالبلاد الشامية، و هم: الأمير طينال الجاشنكير و آقجبا الحموىّ الحاجب و ملكتمر السعدى و قطلوبغا أخو مغلطاى و طشبغا الدوادار.

و فى يوم السبت تاسع شعبان وصل الملك المجاهد صاحب اليمن من سجن الكرك، فخلع عليه من الغد و رسم له بالعود الى بلاده من جهة عيذاب، و بعث إليه الأمراء بتقادم كثيرة و توجّه الى بلاده. و كانت أمّه قد رجعت من مكة الى اليمن بعد مسكه و أقامت فى مملكة اليمن الصالح و كتبت الى تجّار الكارم توصّيهم بابنها المجاهد و أن يقرضوه ما يحتاج إليه، و ختمت على أموالهم من صنف

المتجر بعدن و تعزّ و زبيد، فقدم قاصدها، بعد أن قبض على المجاهد ثانيا و سجن بالكرك، بعد أن كان رسم له الملك الناصر حسن بالتوجّه إلى بلاده، لأمر بدا منه فى حقّ السلطان فى الطريق، فكتب مسفّره يعرّف السلطان بذلك. انتهى.

ثم فى يوم الاثنين ثانى عشر شعبان، وصل إلى القاهرة الأمير أيتمش الناصرىّ المعزول عن نيابة الشام، فقبض عليه من الغد.

ثم قدم الشريف ثقبة صاحب مكّة فى مستهلّ شهر رمضان بعد ما قدم قوده و قود أخيه عجلان، فخلع السلطان عليه بإمرة مكّة بمفرده، و اقترض من الأمير

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۶۵

طاز ألف دينار، و من الأمير شيخون عشرة آلاف درهم، و اقترض من التجار مالا ـ كثيرا، و اشترى الخيل و المماليك و السلاح و استخدم عدّة أجناد، و رسم بسفر الأمير حسام الدين لاجين العلائىّ مملوك آقبغا الجاشنكير صحبته ليقلّده إمرة مكّة. ثم سافر الأمير طيبغا المجدىّ فى خامس شوّال بالحج و المحمل على العادة، و سار الجميع إلى مكّة، و لم يعلم أحد خبر المجاهد صاحب اليمن حتّى قدم مبشّرا الحاجّ فى مستهلّ المحرّم سنة ثلاث و خمسين و سبعمائة، و أخبر بوصول الملك المجاهد إلى ممالك اليمن فى ثامن عشر ذى الحجة من السنة الماضية، و أنه استولى على ممالكه.

و فى شهر ربيع الأوّل من سنة ثلاث و خمسين، و سبعمائة شرع الأمير طاز فى عمارة قصره

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۶۶

و إصطبله، تجاه حمّام الفارقانىّ بجوار المدرسة البندقدارية على الشارع. و أدخل فيه عدّة أملاك، و تولّى عمارته الأمير منجك، و حمل إليه الأمراء و غيرهم من

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۶۷

الرّخام و آلات العمارة شيئا كثيرا، و شرع الأمير صرغتمش أيضا فى عمارة إسطبل الأمير بدرجك، بجوار بئر الوطاويط قريبا من الجامع

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۶۸

الطّولونى و حمل إليه الناس أيضا شيئا كثيرا من آلات العمارة. ثم خلع السلطان على الأمير صرغتمش المذكور، و استقرّ رأس نوبة كبيرا، فى رتبة الأمير شيخون باختيار شيخون، و جعل إليه التصرّف فى أمور الدولة كلّها من الولاية و العزل و الحكم، ما عدا مال الخاصّ، فإن الأمير شيخون يتحدّث فيه، فقصد الناس صرغتمش لفضاء أشغالهم، و كثرت مهابته، و عارض الأمراء فى جميع أفعالهم، و أراد ألا يعمل شىء إلّا من بابه و بإشارته، فإن تحدّث غيره غضب و أبطل ما تحدّث فيه و أخرق بصاحبه، فأجمع الأمراء باستبداد السلطان بالتصرّف، و أن يكون ما يرسم به على لسان الأمير صرغتمش رأس نوبة، فطال صرغتمش و استطال و عظم ترفّعه على الناس، فتنكّرت له الأمراء و كثرت الأراجيف بوقوع فتنة، و إعادة الملك الناصر حسن و مسك شيخون، و صاروا الأمراء على تحرّز و استعداد، فأخذ صرغتمش فى التبرؤ مما رمى به، و حلف للأمير شيخون و للأمير طاز، فلم يصدّقه طاز و همّ به، فقام شيخون بينهما قياما كبيرا، حتى أصلح بينهما، و أشار على طاز بالركوب إلى عمارة صرغتمش فركب إليه و تصافيا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۶۹

و فى هذه الأيام من سنة ثلاث و خمسين رتّب الأمير شيخون فى الجامع الذى أنشأه العلامة أكمل الدين محمد الرومىّ الحنفىّ مدرّسا، و جعل خطيبه جمال الدين خليل بن عثمان الرومىّ الحنفىّ، و جعل به درسا للمالكيّة أيضا و ولّى تدريسه نور الدين السّخاوىّ المالكىّ، و قرّر له ثلثمائة درهم كلّ شهر و رتّب به قرّاء و مؤذنين و غير ذلك من أرباب الوظائف، و قرّر لهم معاليم بلغت فى الشهر ثلاثة آلاف درهم.

قلت: ذلك قبل أن تبنى الخانقاه تجاه الجامع المذكور.

و فى عاشر جمادى الآخرة خلع السلطان على الأمير شيخون العمرىّ و استقرّ رأس نوبة كبيرا عوضا عن صرغتمش لأمر اقتضى ذلک، و عند لبس شيخون الخلعة قدم عليه الخبر بولادة بعض سراريه ولدا ذكرا، فسرّ به سرورا زائدا، فإنه لم يكن له ولد ذكر.

و فى هذه الأيام ادّعى رجل النبوّة، و أنّ معجزته أن ينكح امرأة فتلد من وقتها ولدا ذكرا يخبر بصحّة نبوّته، فقال بعض من حضر: إنک لبئس النّبىّ، فقال:

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ١٠، ص: ٢٧٠

لكونكم بئس الأمة، فضحک الناس من قوله، فحبس و كشف عن أمره، فوجدوا له نحو اثنى عشر يوما من حين خرج من عند المجانين.

و فى يوم الأربعاء عاشر شهر رجب قدم كتاب الأمير أرغون الكاملىّ نائب الشام يتضمن أنه قبض على قاصد الأمير منجک الوزير بكتابه إلى أخيه بيبغا أرس نائب حلب يحسّن، له الحركة و العصيان، و أرسل الكتاب و إذا فيه أنه اتفق مع سائر الأمراء، و ما بقى إلا أن يركب و يتحرّک، فاقتضى الرأى التأنّى حتى يحضر الأمراء و النائب إلى الخدمة من الغد و يقرأ الكتاب عليهم ليدبّروا الأمر على ما يقع عليه الاتفاق، فلمّا طلع الجماعة من الغد، إلى الخدمة لم يحضر منجک، فطلب فلم يوجد، و ذكر حواشيه أنهم من عشاء الآخرة لم يعرفوا خبره، فركب الأمير صرغتمش فى عدّة من الأمراء و كبس بيوت جماعته فلم يقع له على خبر، و تفقدوا مماليكه ففقد منهم اثنان، فنودى عليه من القاهرة، و هدّد من أخفاه و أخرج عيسى ابن حسن الهجان فى جماعة من عرب العائذ على النّجب لأخذ الطرقات عليه، و كتب إلى العربان و نوّاب الشام و ولاة الأعمال على أجنحة الطيور بتحصيله فلم يقدروا عليه، و كبست بيوت كثيرة.

ثمّ فى يوم الأربعاء رابع عشرين شهر رجب قدم الخبر بعصيان الأمير أحمد الساقى نائب حماة و بعصيان الأمير بكلمش نائب طرابلس.

و فى يوم السبت سابع عشرينه، كتب بإحضار الأمير بيبغا أرس نائب حلب الى الديار المصرية، و كتب ملطّفات لأمراء حلب تتضمّن أنّه: إن امتنع من الحضور فهو معزول، و رسم لحامل الكتاب أن يعلم بيبغا أرس بذلک مشافهة بحضرة أمراء حلب.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ١٠، ص: ٢٧١

فقدم البريد من الشام بموافقة ابن دلغادر الى بيبغا أرس و أنّه تسلطن بحلب، و تلقّب بالملک العادل و أنه يريد مصر لأخذ غرمائه، و هم طاز و شيخون و صرغتمش و بزلار و أرغون الكاملىّ نائب الشام، فلمّا بلغ ذلک السلطان و الأمراء رسم للنائب بعرض أجناد الحلقة، و تعيين مضافيهم من عبرة أربعمائة دينار الإقطاع فما فوقها ليسافروا.

ثم قدم البريد بأنّ قراجا بن دلغادر، قدم حلب فى جمع كبير من التّركمان، فركب بيبغا أرس و تلقّاه، و قد واعد نائب حماة و طرابلس على مسيره أوّل شعبان الى نحو الديار المصرية، و أنهم يلقوه على الرّستن، فأمر السلطان الأمير طقطاى الدّوادار بالخروج الى الشام على البريد و على يده ملطّفات لجميع أمراء حلب و حماة و طرابلس، فسار طقطاى حتّى وصل دمشق و بعث بالملطّفات الى أصحابها، فوجد أمر بيبغا أرس قد قوى، و وافقه النّوّاب و العساكر و ابن دلغارر بتركمانه، و حيّار بن مهنّا بعربانه، فكتب نائب الشام بأن سفر السلطان لا بد منه، و إلا خرج عنكم الشام جميعه، فاتّفق رأى أمراء مصر على ذلک، و طلب الوزير و رسم له بتهيئة بيوت السلطان، و تجهيز الإقامات فى المنازل، فذكر أنّه ما عنده مال لذلک، فرسم له بقرض ما يحتاج إليه من التّجار، فطلب تجّار الكارم و باعهم غلالا من الأهراء بالسعر الحاضر، و عدّة أصناف أخر، و كتب لمغلطاى بالإسكندريّة، و أخذ منه أربعمائة

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ١٠، ص: ٢٧٢

ألف درهم، و أخذ من النائب مائة ألف درهم قرضا، و من الأمير بلبان الأستادار مائة ألف درهم، فلم يمض أسبوع حتّى جهّز الوزير جميع ما يحتاج إليه السلطان.

و خرج الأمير طاز فى يوم الخميس ثالث شعبان، و معه الأمير بزلار و الأمير كلتا و الأمير فارس الدين ألبكى. ثم خرج الأمير طيبغا المجدىّ و ابن أرغون النائب و كلاهما مقدّم ألف فى يوم السبت خامس شعبان و خرج الأمير شيخون العمرى فى يوم الأحد سادسه

بتجمّـل عظيم، فبينمـا النـاس فى التفرّج على طلبه إذ قيل قبض على منجك اليوسـفى، و هو أن الأمير طاز لمّا رحل و وصل الى بلبيس قيل له: إنّ بعض أصحاب منجك صحبة شاورشى مملوك قوصون، فطلبهما الأمير طاز و فحص عن أمرهما فرابه أمرهما، فأمر بالرجل ففتّش فـإذا معه كتـاب منجك لأخيه بيبغا أرس، يتضـمّن أنه قـد فعل كلّ ما يختاره، و جهّز أمره مع الأمراء كلّهم، و أنه أخفى نفسه و أقام عند شاورشـى أيّاما ثم خرج من عنده الى بيت الحسام الصّـقرى أستاداره و هو مقيم حتّى يعرف خبره، و هو يستحثه على الخروج من حلب، فبعث به طـاز الى الأـمير شـيخون، فوافى الاطلاـب خارجـة، فطلب شـيخون الحسـام الصّـقرى و سـأله فـأنكر، فأخـذه الأـمير صرغتمش و عاقبه. ثمّ ركب الى بيته بجوار الجامع الأزهر و هجمه فاذا منجك و مملوكه، فأخـذه صـرغتمش و أركبه مكتوف اليدين الى القلعة، فسيّر من وقته الى الاسكندرية فحبس بها.

ثمّ ركب السلطان الملك الصالـح من قلعـة الجبل فى يوم الاثنين سابع شـعبان فى بقية الأمراء و الخاصـكية و نزل الى الرّيدانية خارج القاهرة و خلع على الأمير قبلاى نائب الغيبة باستقراره نائب الغيبة و رتّب أمير على الماردينى أن يقيم

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١٠، ص: ٢٧٣

بالقلعـة و معه الأمير كشـلى السّـلاح دار ليقيما داخل باب القلّة، و يكون على باب القلعـة الأمير أرنان و الأمير قطلوبغا الـذهبى و رتّب الأمير مجد الدين موسى الهذبانى مع والى مصر لحفظ مصر. ثم استقلّ السلطان بالمسير من الريدانية فى يوم الثلاثاء بعد الظهر.

فقـدم البريـد بأنّ الأمير مغلطاى الـدوادار خرج من دمشق يريد مصـر و أنّ الأمير أرغون الكاملىّ نائب الشام لمّا بلغه خروج بيبغا أرس بمن اجتمع معه من العساكر، عزم على لقائه فبلغه مخامرة أكثر أمراء دمشق فاحترس على نفسه و صار يجلس بالميدان و هو لابس آلة الحرب. ثم اقتضـى رأى الأـمير مسـعود بن خطير أنّ النائب لا يلقى القوم، و أنه ينادى بالعرض للنفقـة بالكسوة فاذا خرج العسـكر إليه بمنزلة الكسوة، منعهم من عبورهم الى دمشق و سار بهم الى الرّملة فى انتظار قدوم السـلطان، و أنه اسـتصوب ذلك و فعله، و أنه مقيم بعسكر دمشق على الرملة، و أن الأمير ألطنبغا برناق نائب صفد سار الى بيبغا أرس و أن بيبغا أرس سار من حلب الى حماة و اجتمع مع نائبها أحمد الساقى و بكلمش نائب طرابلس، و سار بهم الى حمص، و عند نزوله على حمص وصل إليه مملوكا الأمير أرقطاى بكتاب السـلطان ليحضـر فقبض عليهما و قيّدهما و سار يريد دمشق فبلغه مسـير السـلطان و اشـتهر ذلك فى عسـكره و أنه عزل عن نيابة حلب فانحلت عزائم كثير ممن معه من المقاتلـة، و أخـذ بيبغا أرس فى الاحتفاظ بهم و التحرز منهم الى أن قـدم دمشق يوم الخميس خامس عشرين شهر رجب، فاذا أبواب المدينة مغلّقة و القلعة محصّنة، فبعث الى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١٠، ص: ٢٧۴

الأـمير إيـاجى نـائب قلعتها يأمره بالإفراج عن قردم و أن يفتـح أبواب المدينـة، ففتـح أبواب المدينـة و لم يفرج عن قردم فركب الأمير أحمد الساقى نائب حماة و بكلمش نائب طرابلس من الغد ليغيرا على الضّياع فوافى بعض عسكر بيبغا أرس نجّابا يخبر بمسك منجك و مسير السـلطان من خارج القاهرة، و عاد أحمـد و بكلمش فى يوم الاثنين رابع عشـر شـعبان و قـد نزل طاز بمن معه المزيرب فارتجّ عسـكر بيبغـا أرس و تواعـد قراجا بن دلغادر و حيّار بن مهنا على الرحيل، فما غربت الشـمس إلا و قـد خرجا بأثقالهما و أصحابهما و سـارا، فخرج بيبغـا أرس فى أثرهما فلم يـدركهما، و عاد بكرة يوم الثلاثاء فلم يسـتقرّ قراره، حتى دقّت البشائر بقلعـة دمشق، بأن الأمير طـاز و الأـمير أرغون الكاملىّ نائب الشام وافيا دمشق و أن الأمير شـيخون و السـلطان ساقـة؛ فبهت بيبغا أرس و تفرّق عنه من كان معه، فركب عائدا إلى حلب فى تاسع عشـر شعبان، فكانت إقامته بدمشق أربعة و عشرين يوما، أفسد أصحابه بدمشق فيها مفاسد و قبائح من النهب و السّبى و الحريق و الغـارات على الضّـياع من حلب إلى دمشق و فعلوا كمـا فعـل التتـار أصـحاب قازان و غيره، فبعث السـلطان الأمير أسندمر العلائى إلى القاهرة بالبشارة فقدمها يوم الجمعة خامس عشرين شعبان، و دقّت البشائر لذلك و زيّنت القاهرة

و أمّـا السـلطان الملك الصالـح فإنه التقى مع الأمير أرغون شاه الكاملىّ نائب الشام على بـدّعرش من عمل غزّة، و قـد تأخّر معه الأمير طاز بمن معه فـدخلوا غزّة، و خلع السـلطان على أرغون المـذكور باسـتمراره فى نيابـة دمشق، و أنعم عليه بأربعمائة ألف درهم و أنعم

على أمير مسعود بن خطير بألف دينار، و على كل أمراء دمشق كل واحد قدر رتبته، فكان جملة ما أنفق السلطان فيهم ستمائة ألف درهم، و تقدّم الأمير شيخون و الأمير طاز و الأمير أرغون نائب الشام إلى دمشق و تأخر الأمير صرغتمش

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۷۵

صحبة السلطان ليدبّر العسكر، ثم تبعهم السلطان إلى دمشق فدخلها فى يوم الخميس مستهلّ شهر رمضان، و خرج الناس إلى لقائه و زيّنت مدينة دمشق، فكان لدخوله يوم مشهود، و نزل السلطان بقلعة دمشق، ثم ركب منها فى الغد يوم الجمعة ثانية إلى الجامع الأموى فى موكب جليل حتى صلى به الجمعة و كان الأمراء قد مضوا فى طلب بيبغا أرس.

و أما بيبغا أرس فانه قدم إلى حلب فى تاسع عشرين شعبان، و قد حفرت خنادق تجاه أبواب حلب و غلّقت و امتنعت القلعة عليه و رمته بالحجارة و المجانيق، و تبعهم الرجال من فوق الأسوار بالرّمى عليه، و صاحوا عليه فبات تلك الليلة بمن معه و ركب فى يوم الخميس مستهل شهر رمضان للزحف على مدينة حلب، و إذا بصياح عظيم و البشائر تدقّ فى القلعة و هم يصيحون: يا منافقون، العسكر وصل، فالتفت بمن معه فاذا صناجق على جبل جوشن فانهزموا عند ذلك بأجمعهم إلى نحو البرية، و لم يكن ما رأوه على جبل جوشن عسكر السلطان، و لكنه جماعة من جند حلب و عسكر طرابلس كانوا مختفين من عسكر بيبغا أرس عند خروجه من دمشق فساروا فى أعقابه يريدون الكبسة على بيبغا أرس و تعبّوا على جبل جوشن فعند ما رآهم بيبغا لم يشكّ أنهم عسكر السلطان فانهزم. و كان أهل بانقوسا قد وافقوهم

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۷۶

و تقدّموا عنهم فمسكوا المضايق على بيبغا و أدركهم العسكر المذكور من خلفهم فتمزق عسكر بيبغا أرس و قد انعقد عليهم الغبار، حتى لم يمكن أحد أن ينظر رفيقه فأخذهم العرب و أهل حلب قبضا باليد، و نهبوا الخزائن و الأثقال و سلبوهم ما عليهم من آلة الحرب و غيره و نجا بيبغا أرس بنفسه بعد أن امتلأت الأيدى بنهب ما كان معه و هو شيء يجلّ عن الوصف، و تتبع أهل حلب أمراءه و مماليكه و أخرجوهم من عدّة مواضع فظفروا بكثير منهم، فيهم أخوه الأمير فاضل و الأمير ألطنبغا العلائىّ شادّ الشراب خاناه و ألطنبغا برناق نائب صفد و ملكتمر السعيدى و شادى أخو نائب حماة و طيبغا حلاوة الأوجاقىّ و ابن أيدغدى الزرّاق و مهدى شاد الدواوين بحلب و أسنباى قريب ابن دلغادر و بهادر الحاموس و قليج أرسلان أستادار بيبغا أرس و مائة مملوك من مماليك الأمراء، فقيّدو الجميع و سجنوا، و توجّه مع الأمير بيبغا أرس أحمد الساقى نائب حماة و بكلمش نائب طرابلس و طشتمر القاسمىّ نائب الرّحبة و آقبغا البالسىّ و طيدمر و جماعة أخر، تبلغ عدّتهم نحو مائة و ستة عشر نفرا.

ثم دخل الأمراء حلب و أخذوا أموال بيبغا أرس، و كتبوا إلى قراجا بن دلغادر بالعفو عنه و القبض على بيبغا أرس و من معه، فأجاب بأنّه ينتظر فى القبض عليه مرسوم السلطان، و قد نزل بيبغا أرس عنده، و سأل إرسال أمان لبيبغا أرس و أنّه مستمرّ على إمرته، فجهّز له ذلك فامتنع من تسليمه، فطلب الأمراء رمضان من أمراء التّركمان، و خلع عليه بإمرة قراجا بن دلغادر و إقطاعه، و عاد الأمراء من حلب و استقرّ بها الأمير أرغون الكاملىّ نائب الشام، و عاد الجميع إلى دمشق و معهم الأمراء المقبوض عليهم فى يوم الجمعة سلخ شهر رمضان، و صلّوا العيد بدمشق مع السلطان الملك الصالح صالح، و أقاموا إلى يوم الاثنين ثالث شوّال، جلس السلطان بطارمة قلعة دمشق و أخرجوا الأمراء فى الحديد و نودى عليهم: هذا جزاء من يجامر على

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۷۷

السلطان و يخون الأيمان. و وسّطوهم واحدا بعد واحد، و قد تقدّم ذكر أسمائهم عند القبض عليهم فوسّط الجميع، ما خلا ملكتمر السّعيدى فإنه أعيد إلى السجن، و خلع السلطان على أيتمش الناصرىّ و استقرّ فى نيابة طرابلس عوضا عن بكلمش السّلاحدار، و خلع على طنيرق بنيابة حماة عوضا عن أحمد الساقى، و على الأمير شهاب الدين أحمد بن صبيح بنيابة صفد عوضا عن ألطنبغا برناق.

ثم صلّى السلطان صلاة الجمعة بالجامع الأموىّ و هو سابع شوّال و خرج من دمشق يريد الديار المصريّة بأمرائه و عساكره، فكانت مدّة

إقامته بدمشق سبعة و ثلاثين يوما و سار حتّى وصل القاهرة فی يوم الثلاثاء خامس عشرين شوّال من سنة ثلاث و خمسين و سبعمائة، و مشى بفرسه على الشّقق الحرير التی فرشت له بعد أن خرج الناس إلى لقائه و التفرّج عليه، فكان لدخوله القاهرة أمر عظيم لم يتّفق ذلك لأحد من إخوته، و عند ما طلع إلى القلعة تلقّته أمّه و جواريه و نثروا على رأسه الذهب و الفضّة، بعد أن فرشت له طريقه أيضا بالشّقاق الأطلس الملوّنة، و التهانی تزفّه، و لم يبق بيت من بيوت الأمراء إلا و فيه الأفراح و التهانی.

و فی قدوم السلطان الملك الصالح يقول العلّامة شهاب الدين أحمد بن أبی حجلة التّلمسانی الحنفیّ تغمده اللّه برحمته: [الكامل]

الصالح الملك المعظّم قدره تطوى له أرض البعيد النازح

لا تعجبوا من طيّها فی سيره فالأرض تطوى دائما للصالح

ثم عمل السلطان عدّة مهمّات بالقلعة و القصر السلطانیّ، و خلع على جميع الأمراء و أرباب الوظائف.

النجوم الزاهرة فی ملوك مصر و القاهرة، ج ١٠، ص: ٢٧٨

ثم قبض على الوزير علم الدين عبد اللّه بن أحمد بن زنبور و هو بخلعته قريب المغرب، و سبب ذلك أنّه لمّا فرّقت التشاريف على الأمراء، غلط الذی أخذ تشريف الأمير صرغتمش، و دخل إليه بتشريف الأمير بلبان السّنانیّ الأستادار، فلمّا رآه صرغتمش تحرّك ما عنده من الأحقاد على ابن زنبور المذكور، و تنمّر غضبا، و قام من فوره و دخل إلى الأمير شيخون و ألقى البقجة قدّامه و قال: انظر فعل الوزير معی، و حلّ الشاش و كشف التشريف. فقال شيخون: هذا وقع فيه الغلط فقام صرغتمش و قد أخذه من الغضب شبه الجنون و قال: أنا ما أرضى بالهوان، و لا بدّ من القبض عليه، و مهما شئت فأفعل، و خرج فصادف ابن زنبور داخلا إلى شيخون و عليه الخلعة، فصاح فی مماليكه خذوه. ففی الحال نزعوا عنه الخلعة، و جرّوه إلى بيت صرغتمش، فسجنه فی موضع مظلم من داره، و عزل عنه ابنه رزق اللّه فی موضع آخر. و كان قبل دخوله إلى شيخون رتّب عدّة مماليك على باب خزانة الخاص، و باب النجاس و باب القلعة و باب القرافة و غيره من المواضع و أوصاهم بالقبض على حاشية ابن زنبور و جميع الكتّاب، بحيث لا يدعو أحدا منهم يخرج من القلعة، فعند ما قبض على ابن زنبور ارتجّت القلعة و خرجت الكتّاب، فقبضت مماليك صرغتمش عليهم كلّهم، حتى على شهود الخزانة و كتّابها، و كتّاب الأمراء الذين بالقلعة، و اختلطت الطمّاعة بمماليك صرغتمش و صاروا يقبضون على الكاتب، و يمضون به إلى مكان ليعرّوه ثيابه، فإن احترموه أخذوا مهمازه من رجله، و خاتمه

النجوم الزاهرة فی ملوك مصر و القاهرة؛ ج ١٠؛ ص٢٧٨

النجوم الزاهرة فی ملوك مصر و القاهرة، ج ١٠، ص: ٢٧٩

من إصبعه، أو يفتدی نفسه منهم بمال يدفعه لهم، حتى يطلقوه، و فيهم من اختفى عند الغلمان، فقرّروا عليه مالا، و استرهنوا دواته، بحيث إنّ بعض غلمان أمير حسين أخی السلطان، جمع ستّ عشرة دواة من ستة عشر كاتبا، و أصبح يجبيهم و يدفع لهم أدويتهم. و ذهب من الفرجيات و العمائم و المناديل شیء كثير. و ساعة القبض على ابن زنبور، بعث الأمير صرغتمش الأمير جرجی و الأمير قشتمر فی عدّة من المماليك إلى دور ابن زنبور بالصناعة بمدينة مصر. و أوقعوا الحوطة على حريمه، و ختموا بيوته و بيوت أصهاره و كانت حرمهم فی الفرح و عليهنّ الحلیّ و الحلل، و عندهنّ معارفهنّ، فسلب المماليك كثيرا من النساء اللّاتی كنّ فی الفرح، حتّى مكّنوهنّ من الخروج إلى دورهنّ، فخرج عامّة نساء ابن زنبور و بناته و لم تبق إلّا زوجته فوكّل بها؛ و كتب إلى ولاة الأعمال بالوجه القبلیّ و الوجه البحریّ بالحوطة على ماله و زراعته، و ماله من القنود و الدّواليب و غيرها، و خرج لذلك عدّة من مقدّمی الحلقة، و توجّه الحسام العلائیّ إلى بلاد الشام ليوقّع الحوطة على أمواله، و أصبح الأمير صرغتمش يوم السبت ثامن عشرين شوّال، فأخرج ابن الوزير ابن زنبور رزق اللّه بكرة، و هدّده و نزل به من داره من القلعة إلى بيته، و أخذ زوجة ابن زنبور أيضا و هدّدها، و ألقى ابنها رزق اللّه إلى الأرض ليضربه فلم تصبر، و دلته على موضع المال فأخذ منه خمسه عشر ألف دينار و خمسين ألف درهم.

و أخرج من بئر صندوقا فيه ستّة آلاف دينار و مصاغ. و وجد له عند الصارم مشدّ العمائر ستّة آلاف دينار و مائة و خمسين ألف

درهم، سوى التّحف و التفاصيل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۸۰

و ثياب الصوف و غير ذلك. و ألزم محمد [بن] الكورانيّ والى مصر بتحصيل بنات ابن زنبور، فنودى عليهنّ؛ و نقل ما فى دور صهرى ابن زنبور و سلّما لشادّ الدواوين، و عاد صرغتمش إلى القلعة، فطلب السلطان جميع الكتّاب و عرضهم، فعيّن موفّق الدين هبة اللّه [بن إبراهيم] للوزارة و بدر الدين [كاتب يلبغا لنظر الخاصّ] و [تاج الدين أحمد بن الصاحب] أمين الملك عبد اللّه بن الغنّام لنظر الجيش، و أخاه كريم الدين لنظر البيوت [و ابن السعيد لنظر الدولة] و قشتمر مملوك طقزدمر لشدّ الدواوين.

و فى يوم الأحد تاسع عشرين شوّال خلع على الجميع، و أقبل الناس إلى باب صرغتمش للسعى فى الوظائف فولّى الأسعد حربة استيفاء الدولة، و ولّى كريم الدين أكرم ابن شيخ ديوان الجيش. و سلم المقبوض عليهم لشادّ الدواوين و هم: الفخر [ابن] قروينة ناظر البيوت، و الفخر بن مليحة ناظر الجيزة و الفخر مستوفى الصّحبة، و الفخر بن الرضىّ كاتب الإسطبل، و ابن معتوق كاتب الجهات، و طلب التاج بن لفيتة ناظر المتجر و ناظر المطبخ و هو خال ابن زنبور فلم يوجد، و كبست بسببه عدّة بيوت، حتى أخذ و صار الأمير صرغتمش ينزل و معه ناظر الخاصّ و شهود الخزانة و ينقل حواصل ابن زنبور من مصر إلى حارة زويلة فأعياهم كثرة ما وجدوه له، و تتبعت حواشى ابن زنبور، و هجمت دور كثيرة بسببهم.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۸۱

ثم فى مستهلّ ذى القعدة نزل الأمير صرغتمش إلى بيت ابن زنبور بالصناعة، و هدم منه ركنا فوجد فيه خمسة و ستّين ألف دينار، حملها إلى القلعة، و طلب ابن زنبور و ضربه عريانا فلم يعترف بشىء، فنزل إلى بيته و ضرب ابنه الصغير و أمّه تراه فى عدّة أيام حتى أسمعته كلاما جافيا فأمر بها فعصرت، و أخذ ناظر الخاصّ فى كشف حواصل ابن زنبور بمصر، فوجد له من الزيت و الشّيرج و النّحاس و الرّصاص و الكبريت و العكر و البقّم و القند و العسل و سائر أصناف المتجر ما أذهله، فشرع فى بيع ذلك كلّه.

هذا و الأمير صرغتمش ينزل بنفسه و ينقل قماش ابن زنبور و أثاثه إلى حارة زويلة ليكون ذخيرة للسلطان، فبلغت عدة الحمّالين الذين حملوا النّصافى و الأوانى الذهب و الفضّة و البلّور و الصّينىّ و الكتب و الملابس الرجالية و النسائية و الزراكش و اللآلئ و البسط الحرير و المقاعد ثمانمائة حمّال، سوى ما حمل على البغال. و كان ما وجد له من أوانى الذهب و الفضّة ستّين قنطارا، و من الجواهر ستين رطلا، و من اللؤلؤ الكبار إردبين، و من الذهب الهرجة مائتى ألف دينار و أربعة آلاف دينار و قيل ألف ألف

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۸۲

دينار، و من الحوائص الذهب ستة آلاف حياصة، و من الكلفتاة الزّركش ستة آلاف كلفتاه، و من ملابسه عدّة ألفين و ستمائة فرجية، و من البسط ستة آلاف بساط، و من الشاشات ثلثمائة شاش، و وجد له من الخيل و البغال ألف رأس، و دواب حلّابة ستة آلاف رأس، و من معاصر السكر خمس و عشرون معصرة، و من الإقطاعات سبعمائة إقطاع، كلّ إقطاع متحصله خمسة و عشرون ألف درهم فى السنة. و وجد له مائة عبد و ستون طواشيّا و سبعمائة جارية، و سبعمائة مركب فى النيل، و أملاك قوّمت بثلاثمائة ألف دينار، و رخام بمائتى ألف درهم، و نحاس بأربعة آلاف دينار، و سروج و بدلات عدّة خمسمائة، و وجد له اثنان و ثلاثون مخزنا، فيها من أصناف المتجر ما قيمته أربعمائة ألف دينار؛ و وجد له سعة آلاف نطع و خمسمائة حمار و مائتا بستان و ألف و أربعمائة ساقية، و ذلك سوى ما نهب و ما اختلس، على أنّ موجوده أبيع بنصف قيمته. و وجد فى حاصل بيت المال مبلغ مائة ألف و ستون ألف درهم؛ و بالأهراء نحو عشرين ألف إردب: و هذا الذى ذكرناه محرّر عن الثقات.

و أما غيرنا فذكر له أشياء كثيرة حدا، أضربنا عن ذكرها خوف المجازفة.

و كان ابتداء ابن زنبورانه ناشر فى استيفاء الوجه القبلى، فنهض فيه و شكرت سيرته إلى أن عرض الملك الناصر محمد بن قلاوون الكتّاب ليختار منهم من يولّيه كاتب الإسطبل، و كان ابن زنبور هذا من جملتهم و هو شاب فأثنى عليه الفخر ناظر الجيش و ساعده

الأكوز و النّشو، فولّى كاتب الإسطبل عوضا عن ابن الجيعان فنالته فيها السعادة، و أعجب به السلطان لفطنتة فدام على ذلك حتى مات الناصر فاستقرّ مستوفى الصّحبة ثم انتقل عنها إلى نظر الدولة ثم ولى نظر الخاصّ بعناية الأمير أرغون العلائى ثم أضيف إليه نظر الجيش، و جمع بعد مدّة إليهما الوزارة و لم تتفق لأحد قبله هذه الوظائف.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۸۳

قلت: و لا بعده إلى يومنا هذا، (أعنى لواحد فى وقت واحد).

و عظم فى الدولة و نالته السعادة، حتى إنه كان يخلع عليه فى ساعة واحدة ثلاث خلع و يخرج له ثلاث أفراس، و نفذت كلمته و قويت مهابته، و اتّجر فى جميع الأصناف حتى فى الملح و الكبريت، و لمّا صار فى هذه الرتبة كثرت حسّاده و سعوا فيه عند صرغتمش و أغروه به، حتى كان من أمره ما كان. و كان يقوم بكلف شيخون جميعها من ماله و صار صرغتمش يسمع شيخون بسببه الكلام، و يقول: لو مكنتنى منه أخذت منه للسلطان ما هو كيت و كيت، و شيخون يعتذر له و يقول:

لا يوجد من يسدّ مسدّه، و إن كان و لا بدّ يقرّر عليه مال و يستمرّ على وظائفه، و بينما هم فى ذلك قدم الخبر بعصيان بيبغا أرس، فاشتغل صرغتمش عنه حتى سافروا و عادوا إلى القاهرة، و وقع من أمر الخلعة ما حكيناه

ثم انتدب جماعة بعد مسكه للسعى فى هلاكه و أشاعوا أنه باق على دين النّصرانية، أثبتوا فى ذهن صرغتمش ذلك، و أنه لمّا دخل إلى القدس فى سفرته هذه بدأ فى زيارته بالقمامة فقبّل عتبتها و تعبّد فيها ثم خرج إلى المسجد الأقصى فأراق الماء فى بابه و لم يصلّ فيه و تصدّق على النصارى و لم يتصدّق على غيرهم، و رتّبوا فتاوى أنه ارتدّ عن دين الإسلام.

و كان أجلّ من قام عليه الشريف شرف الدين نقيب الأشراف و الشريف أبو العباس الصّفراوىّ و بدر الدين ناظر الخاصّ و الصوّاف تاجر الأمير صرغتمش، و أشهد عليه أنّ جميع ما يملكه للسلطان من مال بيت المال دون ماله. ثم

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۸۴

حسّنوا لصرغتمش ضربه، فأمر به فأخرج و فى عنقه باشة و جنزير و ضرب عريانا قدّام باب قاعة الصاحب من القلعة. ثم أعيد إلى موضعه و عصر و سقى الماء و الملح.

ثم سلّم لشدّ الدواوين و أمر بقتله، فنوّع عليه أنواع العذاب فتكلّم الأمير شيخون فى عدم قتله فأمسك عنه و رتّب له الأكل و الشرب و غيّرت عنه ثيابه و نقل من قاعة الصاحب إلى بيت صرغتمش و استمرّ على ذلك إلى أن أخرج إلى قوص منفيا، و مات بها بعد أن أخذ سائر موجوده و أخذ منه و من حواشيه فوق الألفى ألف دينار. انتهى.

و أما أمر الديار المصرية فإنه لمّا كان يوم الاثنين ثامن عشرين ذى الحجّة قدم البريد من حلب بأخذ أحمد الساقى نائب حماة، و بكلمش نائب طرابلس من عند بن دلغادر و سجنا بقلعة حلب فأمر السلطان إلى نائب حلب بخلعه.

و فى هذه الأيام توفّى الخليفة أمير المؤمنين الحاكم بأمر اللّه أبو العباس أحمد بعد أن عهد لأخيه أبى بكر، فطلب أبو بكر و خلع عليه خلعة الخلافة بحضرة السلطان و الأمير شيخون و لقّب بالمعتضد بالله أبى بكر. يأتى ذكره فى الوفيات على عادة هذا الكتاب. و قد ذكرناه فى المنهل الصافى بأوسع مما يأتى ذكره فيه. و أيضا فى مختصرنا المنعوت: «بمورد اللّطافة فى ذكر من ولى السلطنة و الخلافة».

و أما أمر بيبغا أرس فانه لمّا أرسل قراجا بن دلغادر أحمد الساقى نائب حماة و بكلمش نائب طرابلس إلى حلب فى القيود و اعتقلا بقلعة حلب حسب ما ذكرناه، فكان ذلك آخر العهد بهما. ثم أرسل قراجا المذكور بيبغا أرس بعد أيام فى محرّم سنة أربع و خمسين و سبعمائة فاعتقل بقلعة حلب، و كان ذلك آخر العهد به أيضا. رحمه اللّه. و قيل: إنه ما حضر إلى حلب إلا رءوسهم. و اللّه أعلم.

و فى بيبغا أرس يقول الأديب زين الدين عبد الرحمن بن الخضر السنجارىّ الحلبىّ- رحمه اللّه- أبيانا منها: [الطويل]

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۸۵

بغى بيبغا بغى الممالك عنوة و ما كان فى الأمر المراد موفّقا

أغار على الشقراء فى قيد جهله لكى يركب الشهباء فى الملك مطلقا

فلمّا علا فى ظهرها كان راكبا على أدهم لكنّه كان موثقا

ثم رسم السلطان الملك الصالح صالح أن يقرّ أهل الذمّة على ما أقرهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب- رضى اللّه عنه- عليه من ترك تشبّههم بالمسلمين فى أمر من الأمور، و ترك ركوب الخيل و حمل السلاح، و رفع أصواتهم على أصوات المسلمين و أشباه ذلك.

ثم رسم بنفى الأمير منجك اليوسفى الوزير كان إلى صفد بطّالا. و فى هذه السنة (أعنى سنة أربع و خمسين و سبعمائة) انتهت عمارة الأمير سيف الدين طاز التى تجاه حمّام الفارقانى، فعمل طاز وليمة و عزم على السلطان و الأمراء، و مدّ سماطا عظيما.

و لمّا انتهى السّماط و عزم السلطان على الركوب، قدّم له أربعة أرؤس من الخيل بسروج ذهب و كنابيش زركش، و قدّم للامير سيف الدين شيخون فرسين، و لصرغتمش فرسين و لسائر الأمراء المقدّمين كل واحد فرسا، و لم يعهد قبل ذلك أن سلطانا نزل إلى بيت بعض الأمراء، بعد الملك الناصر محمد بن قلاوون إلا هذا.

و حجّ بالناس فى هذه السنة الأمير ركن الدين عمر شاه الحاجب، صاحب القنطرة خارج القاهرة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١٠، ص: ٢٨٦

ثم استهلّت سنة خمس و خمسين و سبعمائة، فكان فيها الواقعة و الفتنة بين حاشية طاز و بين صرعتمش، و السبب لهذه الحركة أن الأمير صرغتمش كان يخاف من طاز و يغضّ منه و كذلك كان طاز يغضّ من صرغتمش، و كان طاز يدخل على شيخون مرارا عديدة بمسك صرغتمش، و كان شيخون يكره الفتن و الفساد، و قصده الصلاح للأمور بكلّ ما يمكن فكان شيخون يعده و يصبّره، و كان صرغتمش أيضا يخاف شرّ طاز و يقول لشيخون: هذا ما يريد الّا هلاكى، فكان شيخون يطمّنه على نفسه و يعده بكلّ خير، و كان إخوة طاز و حواشيه تحرّضه على صرغتمش و على إثارة الفتنة و قوى أمر طاز و إخوته و خرج عن الحدّ، و هم الأمير جنتمر و كلناى و صهره طقطاى، فهؤلاء الذين كانوا يحرّكون طاز على قيام الفتنة، و مسك صرغتمش ليستبدّ طاز بالأمر وحده، و يكونوا هم عظماء الدولة، و شيخون يعلم بذلك و يسكّنهم و يرجعهم عن قصدهم، و طاز يستحى من شيخون، و طال الأمر إلى أن اتفق طاز مع إخوته المذكورين و غيرهم من مماليكه و أصحابه أنه يخرج هو إلى الصيد، فاذا غاب عن المدينة يركب هؤلاء على صرغتمش و من يلوذ به و يمسكونه فى غيبته، فيكون بغيبة طاز له عذر عند شيخون من حيائه منه، فلمّا خرج طاز الى الصيد بالبحيرة بإذن الأمير شيخون له و ما عند شيخون علم من هذا الاتّفاق، رتّب حاشية طاز و إخوته و من يلوذ به أمرهم و اجتمعوا و لبسوا السلاح و ركبوا على صرغتمش فلمّا سمع شيخون بذلك أمر مماليكه أن يركبوا بالسلاح و كانوا مقدار سبعمائة مملوك فركبوا. و ركب الأمير صرغتمش و من يلوذ به، و وقع الحرب بينهم و بين إخوة طاز، و تقاتلا- فانكسر إخوة طاز و قبض عليهم، و على أكابر مماليك طاز و حواشيه، فهربت البقية، فدخل صرغتمش هو و من بقى من أكابر الأمراء إلى شيخون و قالوا: لا بدّ من خلع الملك الصالح صالح و إعادة الملك الناصر حسن إلى السلطنة،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١٠، ص: ٢٨٧

لكون الصالح كان يميل إلى طاز، فاعتذر شيخون بأعذار غير مقبولة، و أراد إبقاء الصالح. فلم يوافقوه و ما زالوا به حتى أذعن و اتفقوا على خلعه فخلع، و أعيد الملك الناصر حسب ما يأتى ذكره فى ترجمته.

و كان خلع الملك الصالح صالح فى يوم الاثنين ثانى شوّال سنة خمس و خمسين و سبعمائة، فكانت مدّة سلطنته بالديار المصرية ثلاث سنين و ثلاثة أشهر و أربعة عشر يوما، و حبس بالقلعة فى بعض دورها إلى أن توفّى بها فى ذى الحجة سنة إحدى و ستين و سبعمائة، و له نحو سبع و عشرين سنة. و دفن بتربة عمّه الملك الصالح علىّ بن قلاوون [الخاتونية] بالقرب من المشهد النفيسى خارج

القاهرة.

و کان- رحمه اللّه- ملکا جلیلا ملیح الشکل عاقلا لم تشکر سیرته و لم تذم، لأنه لم یکن له فی سلطنته إلا مجرّد الاسم فقط، لغلبة شیخون و طاز و صرغتمش علی الأمر، لأنهم کانوا هم حلّ المملکة و عقدها و الیهم أمورها لا لغیرهم.

و أمّا أمر طاز فانه یأتی- إن شاء اللّه تعالی- فی أوّل سلطنة الملک الناصر حسن، بعد ذکر حوادث سنی الملک الصالح هذا، کما هی عادة هذا الکتاب انتهی و اللّه سبحانه أعلم.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۵۳]

السنة الأولی من سلطنة الملک الصالح صالح ابن الملک الناصر محمد بن قلاوون علی مصر و هی سنة ثلاث و خمسین و سبعمائة، علی أنه حکم من السنة الماضیة من سابع عشر جمادی الآخرة إلی آخرها.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۸۸

و فیها (أعنی سنة ثلاث و خمسین و سبعمائة): توفّی قاضی القضاة نجم الدین محمد الأذرعی الشافعی بدمشق علی قضائها، و تولی بعده قضاء دمشق قاضی القضاة کمال الدین المعرّی قاضی قضاة حلب.

و توفّی الشیخ الإمام العلّامة فرید دهره و وحید عصره، زین الدین المعروف بالعضد العجمی الحنفی رحمه اللّه تعالی، کان إما بارعا مفتّنا فقیها مصنّفا، و له الید الطّولی فی علم المعقول و المنقول، و تولی قضاء القضاة بممالک القان بو سعید ملک التتار بل کان هو المشار الیه بتلک الممالک، و المعوّل علی فتواه و حکمه، و تصدّی للإقراء و الإفتاء و التصنیف عدّة سنین. و من مصنفاته «شرح المختصر لابن الحاجب» و «المواقف» و «الجواهر» و غیر ذلک فی عدّة فنون، و کان رحمه اللّه کریما عفیفا جواد احسن السّیرة مشکور الطریقة.

و توفّی الأدیب الفاضل الشاعر بدر الدین أبو علی الحسن بن علی المغربی المعروف بالزّغاری الشاعر المشهور، مات عن نیف و خمسین سنة. و من شعره قوله: [الرجز]

أعجب ما فی مجلس اللهو جری من أدمع الرّاووق لما انسکبت

لم تزل البطّة فی قهقهة ما بیننا تضحک حتی انقلبت

قال و له أیضا: [البسیط]

قالت و قد أنکرت سقامی لم أر ذا السّقم یوم بینک

لئن أصابتک عین غیری فقلت لا عین بعد عینک

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۸۹

قال و له أیضا: [المتقارب]

فتنت بأسمر جلو اللّمی لسلوانه الصّبّ لم یستطع

تقطّع قلبی و ما رقّ لی و دمعی یرقّ و لا ینقطع

و توفّی النّوین أرتنا، و قیل: أرطنا سلطان بلاد الروم، کان نائبا عن السلطان بو سعید بن خربندا ملک التتار بجمیع ممالک الروم، و دام علی ذلک سنین، فلمّا مات بو سعید کاتب أرتنا هذا السلطان الملک الناصر محمد بن قلاوون و قال له: أرید أن أکون نائبک بممالک الروم، فأجابه الملک الناصر محمد و کتب له بذلک، و أرسل الیه الخلع السنیّة و کتب له: «نائب السلطنة الشریفة بالبلاد الرومیة» و لم تزل رسله تتردّد إلی الدیار المصریة إلی أن مات فی أوائل المحرّم من هذه السنة، رحمه اللّه تعالی.

و كان ملكا عارفا عاقلا سيوسا مدبّرا، طالت أيامه فى السعادة.

و توفّى الأمير سيف الدين تلكك بن عبد اللّه الناصرى الأمير آخور بغزّة فى عوده إلى الديار المصرية، و قد تقدّم ذكره فى عدّة أماكن من هذا الكتاب.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۹۰

و توفّى الشيخ بهاء الدين محمد بن على بن سعيد الفقيه الشافعى بدمشق فى شهر رمضان و كان فقيها فاضلا يعرف بابن إمام المشهد.

و توفّى القاضى شهاب الدين يحيى بن إسماعيل بن محمد بن عبد اللّه بن محمد بن محمد بن خالد بن محمد بن نصر الشافعى الدّمشقى المعروف بابن القيسرانى كاتب سرّ دمشق بطّالا كانت لديه فضيلة و هو من بيت كتابة و فضل.

و توفّى الأمير شهاب الدين أحمد بن بيليك المحسنىّ، كان أميرا فقيها شافعيا أديبا نظم كتاب «التنبيه فى الفقه» و كتب عدّة مصنفات، و كان معدودا من الفضلاء العلماء.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و اثنتا عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا و ست عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۵۴]

السنة الثانية من سلطنة الملك الصالح صالح ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون على مصر و هى سنة أربع و خمسين و سبعمائة.

فيها توفّى الخليفة أمير المؤمنين، الحاكم بأمر اللّه أبو العباس أحمد بن المستكفى بالله أبى الربيع سليمان بن الحاكم بأمر اللّه أبى العباس أحمد الهاشمى العباسى، كان بويع بالخلافة بعد وفاة والده بقوص فى العشرين من شعبان سنة إحدى و أربعين و سبعمائة، فلم يمض له ما عهده أبوه السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون لما كان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۹۱

فى نفسه من والده المستكفى بالله من ميله للملك المظفر بيبرس الجاشنكير، و أراد أن يولّى الخلافة لبعض أقاربه بل أحضره و خلع عليه ثم مات الملك الناصر بعد ذلك بمدّة يسيرة، فتمّت بموته خلافة الحاكم هذا الى أن مات فى هذه السنة. و المتولّى يومئذ لأمور الديار المصرية الأمير شيخون و الأمير طازو و الأمير صرغتمش و نائب السلطنة الأمير قبلاى، و السلطان الملك الصالح صالح و كان الحاكم مات و لم يعهد بالخلافة لأحد، فجمع الأمراء القضاة، و طلب جماعة من بنى العباس، حتى وقع الاختيار على أبى بكر بن المستكفى بالله أبى الربيع سليمان فبايعوه و لقّبوه بالمعتضد.

و توفّى قاضى القضاة علاء الدين أبو الحسن على ابن الشيخ جمال الدين [يحيى] الحنفى المعروف بابن الفويرة فى العشر الأوسط من شوّال. كان فقيها بارعا باشر توقيع الدّست الشريف و كتب و صنّف و ولى القضاء سنين.

و توفّى الشيخ المسند المعمّر صدر الدين محمد بن شرف الدين محمد بن إبراهيم الميدومى المصرى فى شهر رمضان و دفن بالقرافة عن تسعين سنة. و كان مولده سنة أربع و ستين و ستمائة و هو آخر من حدّث عن النّجيب عبد اللطيف و ابن علّان و سمع منه السّراجان: البلقينى و ابن الملقّن.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۹۲

و توفّى القاضى الرئيس زين الدين أبو حفص عمر بن شرف الدين يوسف ابن عبد اللّه بن يوسف بن أبى السفاح الحلبى الشافعى الكاتب، كاتب الإنشاء بحلب، ثم ولى صحابة الإنشاء بها و وكالة بيت المال الى أن مات بحلب عن نيّف و ستين سنة.

و توفّى الأمير سيف الدين ألجيبغا بن عبد اللّه العادلى، كان من أكابر الأمراء أقام أميرا نحو ستين سنة، و كان قد أصابته ضربة سيف

فى وقعة أرغون شاه بدمشق بانت منها يده اليمنى، و استمرّ على إمرته و تقدمته الى أن مات فى السابع من شهر ربيع الآخر، و دفن بتربته بدمشق خارج باب الجابية و قد أناف على تسعين سنة.

و توفّى الأمير الجليل بدر الدين مسعود بن أوحد بن مسعود بن الخطير بدمشق فى سابع شوّال، بعد ما تنقّل فى عدّة ولايات و أعمال: مثل حجوبية الحجّاب بديار مصر و نيابة غزّة و غير ذلك. و كان مولده سنة ثلاث و ثمانين و ستمائة بدمشق و نشأ بها و ولى الحجوبية بها، و أرسله تنكز الى مصر صحبة أسندمر رسول جوبان، فلمّا رآه الملك الناصر أعجبه شكله فرسم له بإمرة طبلخاناه بمصر و جعله من جملة الحجّاب، فأقام على ذلك الى أن قبض السلطان على مملوكه ألماس الحاجب ولّاه عوضه حاجب الحجّاب، و لم يكن بمصر يوم ذلك نائب سلطنة، فعظم أمره إلى أن مسك تنكز رسم له بنيابة غزّة، ثم بعد موت الملك الناصر أعطى إمرة بدمشق، ثم طلب إلى مصر و أعيد إلى حجوبيّة الحجّاب ثانيا، فلم تطل مدّته لاختلاف الكلمة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۹۳

و أخرج إلى نيابة غزّة ثانيا، ثم عزل و نقل إلى إمرة مائة و تقدمة ألف بدمشق، ثم ولى نيابة غزّة ثالث مرّة و أقام بها سنين، ثم عزل و توجّه إلى دمشق أميرا بها.

ثم ولى نيابة طرابلس فلم تطل مدّته بها و عزل، و توجّه أيضا إلى دمشق فأقام بها إلى أن مات. رحمه اللّه.

و توفّى فى هذه السنة جماعة ممن تقدّم ذكرهم من الأمراء قتلوا بقلعة حلب و هم:

الأمير أحمد الساقى نائب حماة و بكلمش نائب طرابلس و بيبغا أرس نائب حلب و غيرهم.

فأما الأمير بيبغا أرس القاسمىّ، فإن أصله من مماليك الملك الناصر محمد ابن قلاوون و من أعيان خاصكيته، ثم ولى بعد موته نيابة السلطنة بالديار المصرية فى أوّل سلطنة الملك الناصر حسن، ثم قبض عليه بطريق الحجاز و حبس ثم أطلق فى أوّل دولة الملك الصالح صالح، و تولّى نيابة حلب بعد أرغون الكاملى، و لمّا ولى نيابة حلب شدّد على من يشرب الخمر بها إلى الغاية، و ظلم و حكم فى ذلك بغير أحكام اللّه تعالى، حتى إنه سمّر من سكر و طيف به بشوارع حلب، و فى هذا المعنى يقول ابن حبيب: [الرجز]

أهل الطّلا توبوا و كلّ منكم يعود عن ساق التّقى مشمّرا

فمن يبت راووقه معلّقا أصبح ما بين الورى مسمّرا

و فيه أيضا يقول القاضى شرف الدين حسين بن ريان: [الخفيف]

تب عن الخمر فى حلب و الزم العقل و الأدب

حدّها عند بيبغا بالمسامير و الخشب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۹۴

ثم خرج بيبغا عن طاعة السلطان، و وقع له ما حكينا فى ترجمة الملك الصالح إلى أن ظفر به و قتل فى قلعة حلب، و فيه يقول بعض الأدباء: [البسيط]

لمّا اعتدى بيبغا العادى و من معه على الورى فارقوا كرها مواطنهم

خوف الهلاك سروا ليلا على عجل فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم

و توفّى الرئيس أمين الدين إبراهيم بن يوسف المعروف بكاتب طشتمر، كان من أعيان الكتّاب و تولّى نظر الجيش بالديار المصرية مدّة، ثم عزل و أخرج الى القدس فأقام به مدّة، ثم أعيد الى القاهرة فأقام بها الى أن مات.

و توفّى الأمير سيف الدين بيغرا بن عبد اللّه الناصرى ثم المنصورى، أحد أمراء الألوف بالديار المصرية و هو بطّال بحلب، و كان شجاعا مقداما من أعيان أمراء مصر و قد تقدّم ذكره فى عدّة أماكن.

و توفّى الأمير زين الدين قراجا بن دلغادر صاحب أبلستين فى رابع عشر ذى القعدة، و قد تقدّم ذكره فى واقعة الأمير بيبغا أرس.

و توفّى مستوفى الصحبة أسعد حربة أحد الكتّاب المسالمة فى ذى القعدة من السنة.

و توفى الشيخ جمال الدين أبو الحجاج يوسف ابن الإمام شمس الدين أبى محمد عبد اللّه بن العفيف محمد بن يوسف بن عبد المنعم المقدسى النابلسى ثم الدمشقى الحنبلى فى شهر رجب و مولده سنة إحدى و تسعين و ستمائة.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۹۵

و توفّى الشيخ إمام الدين محمد بن زين الدين محمد بن محمد بن محمد بن أحمد ابن على بن محمد بن الحسن القيسى القسطلانىّ الشافعى بالقاهرة فى عشرين المحرّم، و مولده بمكّة المشرّفة فى سنة إحدى و سبعين و ستمائة.

و توفّى حاكم الموصل و سنجار الأمير بدر الدين حسن بن هندوا. كان من أعيان الملوك و كان بينه و بين صاحب ماردين عداوة، و وقع بينهما حروب قتل فى بعضها حسن هذا بعد القبض عليه.

و توفّى القاضى شرف الدين أبو محمد عبد الوهاب [ابن الشهاب أحمد بن محيى الدين يحيى] بن فضل اللّه بن المجلّى بن دعجان بن خلف القرشىّ العمرى، نسبته الى عمر بن الخطّاب رضى اللّه عنه. [مات فى شوّال من هذه السنة].

[مولده فى ثالث ذى الحجّة سنة ثلاث و عشرين و ستمائة بدمشق، و مات بها فى شهر رمضان و كان إماما بارعا كاتبا بليغا أديبا مترسّلا، كتب المنسوب الفائق و تنقّل فى الخدم حتى ولى ناظر ديوان الإنشاء بالديار المصرية مدّة طويلة، و هو أوّل كاتب سرّ ولى بمصر من بنى فضل اللّه، ولّاه الأشرف خليل بن قلاوون بعد عزل عماد الدين إسماعيل بن أحمد بن الأثير، فدام فى كتابة السرّ سنين، الى أن نقله الملك الناصر محمد بن قلاوون الى كتابة سرّ دمشق، عوضا عن أخيه محيى الدين

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۹۶

يحيى بن فضل اللّه، و ولى عوضه القاضى علاء الدين بن الأثير، و لمّا مات رثاه الشعراء و العلماء و رثاه العلّامة شهاب الدين محمود بقصيدته التى أوّلها: [الطويل]

لتبك المعالى و النّهى الشرف الأعلى و تبك الورى الإحسان و الحلم و الفضلا

و من شعر القاضى شرف الدين المذكور يمدح الملك المنصور قلاوون الألفى الصالحى: [الكامل]

تهب الألوف و لا تهاب لهم ألفا إذا لاقيت فى الصّفّ

ألف و ألف فى ندى و وغى فلاجل ذا سمّوك بالألفى

و له أيضا لمّا ختن الملك الناصر محمد بن قلاوون. [الخفيف]

لم يروّع له الختان جنانا قد أصاب الحديد منه حديدا

مثلما تنقص المصابيح بالقطّ فتزداد فى الضياء وقودا

أمر النيل فى هذه، السنة- الماء القديم خمس أذرع سواء. مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا و ست عشرة إصبعا. و اللّه سبحانه أعلم.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۵۵]

اشارة

السنة الثالثة من سلطنة الملك الصالح صالح ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون على مصر و هى سنة خمس و خمسين و سبعمائة و فيها خلع الملك الصالح المذكور فى ثانى شوّال.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۹۷

و فيها توفّى العلّامة زين الدين أبو الحسن علىّ بن الحسين بن القاسم بن منصور ابن علىّ الموصلىّ الشافعىّ الشهير بابن شيخ العوينة بالموصل عن أربع و سبعين سنة، و كان إماما فقيها بارعا مصنّفا ناظما ناثرا، نظم كتاب «الحاوى» فى الفقه، و شرح «المختصر» و «المفتاح»، و قدم الى الشام متوجّها الى الحجاز الشريف و هو القائل:

[الطويل]

و ما اخترت بعد الدار عمّن أحبّه صدودا و حاشى أن يقال صدود

و لكنّ أسباب الضرورة لم تزل الى غير ما تهوى النفوس تقود

و توفّى القاضى شهاب الدين أحمد ابن القاضى شمس الدين إبراهيم بن المسلم ابن هبة اللّه بن حسّان بن محمد بن منصور الجهنىّ الشافعى الشهير بابن البارزىّ، ناظر أوقاف دمشق و بها مات عن نيّف و ثمانين سنة.

و توفّى الشيخ الإمام سراج الدين أبو حفص عمر ابن القدوة نجم الدّين عبد الرحمن بن الحسين بن يحيى بن عبد المحسن القبّانى الحنبلى، كان إماما زاهدا عابدا أفتى و درّس و حدّث و باشر مشيخة المالكيّة بالقدس الى مات.

و توفّى الشيخ الإمام العالم العلّامة فخر الدين أبو طالب أحمد بن علىّ بن أحمد الكوفى البغدادىّ الحنفىّ الشهير بابن الفصيح، مات بدمشق و قد قارب الثمانين سنة.

و كان إماما عالما بارعا فى فنون، ناظما ناثرا، نظم «الكنز فى الفقه» و «السراجية

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۹۸

فى الفرائض» و قدم إلى دمشق و تصدّى للافتاء و التدريس و الإقراء الى أن مات بها و من شعره و هو فى غاية الحسن: [الوافر]

أمرّ سواكه من فوق درّ و ناولنيه و هو أحبّ عندى

فذقت رضابه ما بين ندّ و خمر أمزجا منه بشهدى

و له أيضا: [الرجز]

زار الحبيب فحيّا يا حسن ذاك المحيّا

من صدّه كنت ميتا من وصله عدت حيّا

و توفّى الشيخ الامام شهاب الدين أحمد بن عبد الرحمن بن عبد اللّه الظاهرى الدمشقى الشافعى مدرّس الفرّوخشاهيّة، كان فقيها فاضلا. مات بدمشق عن نيّف و ثمانين سنة. و كان له نظم و ينشئ المقامات، و له القصيدة الحجازية التى أولها:

[الطويل]

سرت نسمة الوادى فأذكرت الصّبا ليالى منى فانصبّ مدمعه صبّا

و توفّى الشيخ الإمام جمال الدين محمد بن علاء الدين علىّ بن الحسن الهروى الحلبىّ الحنفىّ المعروف بالشيخ زاده. كان فقيها متصوّفا زاهدا. قال ابن حبيب أنشدنى بيتين بالفارسى و ذكر لى معناهما و اقترح علىّ نظمهما بالعربى فقلت:

[الكامل]

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۲۹۹

ألحاظه شهدت بأنّى مخطئ و أتت بخطّ عذاره تذكارا

يا حاكم الحبّ اتّئد فى قصّتى فالخطّ زور و الشّهود سكارى

و من إنشاء الشيخ زاده المذكور قوله: [الطويل]

و ما العيش إلّا و الشّبيبة غضّة و لا الحبّ إلّا و المحبّون أطفال

و هم زعموا أنّ الجنون أخو الصّبا فليت جنونا دام و الناس غفّال

و کانت وفاته بحلب عن نیّف و خمسین سنة.

و توفّی الشریف علاء الدین أبو الحسن علیّ ابن الشریف عز الدین حمزة بن علیّ ابن حسن بن زهرة بن الحسن بن زهرة بن الحسین الحلبی نقیب الأشراف بحلب، و بها مات عن نیّف و سبعین سنة، و کان رئیسا کاتبا مجیدا عارفا مثریا.

و توفّی الصاحب الوزیر علم الدین عبد اللّه بن تاج الدین أحمد بن إبراهیم الشهیر بابن زنبور المصریّ القبطیّ المقدّم ذکره ولی الوزارة و نظر الجیش و الخاصّ و لم تجتمع لأحد قبله. ثم نکب و صودر و أخذت أمواله و ذخائره التی وصفناها فی ترجمة الملک الصالح و مات بقوص معتقلا.

و توفّی الوزیر الصاحب موفّق الدین أبو الفضل هبة اللّه بن سعید الدّولة القبطیّ المصریّ، ولی نظر الدولة ثم الخاص ثم الوزارة إلی أن مات، و کان مشکور السّیرة حسن الأخلاق، و عنده تواضع و کرم و معرفة و عقل.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۳۰۰

و توفّی الأمیر سیف الدین أیتمش المحمدی الناصری، نائب طرابلس. مات بها و تولّی عوضه منجک الیوسفیّ الوزیر أخو بیبغا أرس، و کان أیتمش وافر الحشمة لیّن الجانب بعید الشرّ قریب الخیر، و عنده عقل و سکون و وقار، ولی الحجوبیّة و الوزارة بالدیار المصریة، ثم ولی نیابة دمشق مدّة سنین، إلی أن قبض علیه و سجن بثغر الإسکندریة، ثم أطلق و ولی نیابة طرابلس بعد بکلمش الناصریّ فدام علی نیابتها إلی أن مات.

و توفّی السلطان أبو الحجاج یوسف بن إسماعیل بن فرج صاحب الأندلس و ما والاها، طعن بخنجر فی جبینه فی یوم عید الفطر، فمات منه و تسلطن بعده ابنه أبو عبد اللّه محمد بن یوسف.

و توفّی الأمیر سیف الدین إیاجی بن عبد اللّه الناصری، نائب قلعة دمشق، کان شجاعا مقداما أظهر فی فتنة الأمیر بیبغا أرس أمرا عظیما من حفظ قلعة دمشق و قاتل بیبغا أرس قتالا عظیما و قام فی ذلک أتمّ قیام.

و توفّی الأمیر سیف الدین مغلطای بن عبد اللّه الناصریّ، بطّالا فی عاشر شهر رمضان، و کان من أعیان ممالک الملک الناصر محمد بن قلاوون و خاصّکیّته و تولّی رأس نوبة ثم صار أمیر شکار ثم ولی الأمیر آخوریة الکبری، ثم أمسک و حبس بعد أمور وقعت له ثم أطلق و أخرج الی الشام بطّالا، فدام به إلی أن مات رحمه اللّه تعالی.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۳۰۱

و توفّی تاج الدین أبو الفضائل أحمد بن الصاحب أمین الملک عبد اللّه بن الغنّام القبطیّ المصریّ فی شوّال تحت العقوبة، و هو أحد الکتّاب المعدودة و تولّی عدّة وظائف و باشر عدّة مباشرات، و کان مشکور السّیرة. رحمه اللّه.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم أربع أذرع و ثلاث عشرة إصبعا.

مبلغ الزیادة تسع عشرة ذراعا و خمس أصابع.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۳۰۲

سلطنة الملک الناصر حسن الثانیة علی مصر

قد تقدّم ذکره فی سلطنته الأولی من هذا الکتاب و ذکرنا أیضا سبب خلعه من السلطنة بأخیه الملک الصالح صالح ثم ذکرنا فی ترجمة أخیه الصالح سبب خلع الصالح و إعادة الناصر هذا فلا حاجة لذکر ذلک ثانیا. و المقصود هنا الآن ذکر عود الملک الناصر حسن الی ملکه فنقول: و لمّا قبض علی أصحاب الأمیر طاز اتّفق صرغتمش مع الأمیر شیخون علی خلع الملک الصالح من السلطنة و سلطنة الملک الناصر حسن ثانیا و أبرموا ذلک حتی تمّ لهم فقاموا و دخلوا الی القلعة و أرسلوا طلبوا الملک الصالح، فلمّا توجّه الیهم أخذ من الطریق و حبس فی بیت من قلعة الجبل و أرسلوا أشهدوا علیه بأنه خلع نفسه من السلطنة، ثم طلبوا الملک الناصر حسنا من

محبسه بالقلعة، و كلّموه فى عوده، و أشرطوا عليه شروطا قبلها. فاخذوه إلى موضع بالقلعة، فيه الخليفة و القضاة، و بايعوه ثانيا بالسلطنة، و لبّسوه تشريف السلطنة و أبّهة الملك، و ركب فرس النّوبة و مشت الأمراء بين يديه الى الإيوان، فنزل و جلس على تخت الملك، و قبّلوا الأمراء الأرض بين يديه على العادة، و كان ذلك فى يوم الاثنين ثانى شوّال سنة خمس و خمسين و سبعمائة، و لم يغيّر لقبه بل نعت بالناصر كما كان أوّلا على لقب أبيه، و نودى باسمه بمصر و القاهرة، و دقّت البشائر و تمّ أمره و حالما قلع الملك الناصر خلعة السلطنة عنه، أمر فى الحال بمسك الأمير طاز، فشفع فيه الأمير شيخون لأنه كان أمّنه و هو نزيله، فرسم له السلطان بالتوجّه إلى نيابة حلب، فخرج من يومه و أخذ فى إصلاح أمره، إلى أن سافر يوم الجمعة سادس شوّال و سار حتى وصل حلب، فى الخامس من ذى القعدة، و كانت ولايته لنيابة حلب عوضا عن الأمير أرغون الكاملىّ، و طلب أرغون إلى مصر، فحضر أرغون الى للقاهرة و أقام بها مدّة يسيرة ثم أمسك، و أقام طاز فى نيابة حلب، و معه أخوه كلتاى و جنتمر و كلاهما مقدّمان بها.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۳۰۳

و دام الملك الناصر حسن فى الملك إلى أن دخلت سنة ست و خمسين و سبعمائة و الخليفة يوم ذاك المعتضد بالله أبو بكر، و نائب السلطنة بمصر الأمير آقتمر عبد الغنى و أتابك العساكر الأمير شيخون العمرىّ، و هو أوّل أتابك سمى بالأمير الكبير، و صارت من بعده الأتابكية وظيفة إلى يومنا هذا، و لبسها بخلعة و إنما كانت العادة فى تلك الأيام من كان قديم هجرة من الأمراء سمّى بالأمير الكبير [من غير خلعة فكان فى عصر واحد جماعة كلّ واحد منهم يسمّى بالأمير الكبير] حتى ولّى شيخون هذا أتابكيّة العساكر- و سمّى بالأمير الكبير- بطلب تلك العادة القديمة و صارت من أجلّ وظائف الأمراء، تمّ ذلك. انتهى.

و كان نائب الشام يوم ذاك أمير علىّ الماردينى، و نائب حلب طاز، و صاحب بغداد و ما والاها الشيخ حسن ابن الشيخ حسين سبط أرغون بن أبغا بن هولاكو.

و فى هذه السنة أيضا كملت خانقاة الأمير الكبير شيخون العمرى بالصّليبة و الربع

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۳۰۴

و الحمّامان و فرغت هذه العمارة و لم يتشوّش أحد بسببها، و رتّب فى مشيختها العلّامة أكمل الدين محمد البابرتى الحنفىّ، و أشركه فى النظر.

و دام السلطان حسن فى السلطنة و لم يحرّك ساكنا إلى أن استهلّت سنة ثمان و خمسين و سبعمائة قبض على أربعة من الأمراء و سجنوا بثغر الإسكندرية، و هم:

الأمير قجا السلاحدار، و طقطاى الدّوادار، و قطلوبغا الذهبى، و خليل بن قوصون و خلع على الأمير علم دار باستقراره فى الدوادارية، و خلع على الأمير قشتمر باستقراره حاجبا و وزيرا، و كان القبض على هؤلاء الأمراء بعد أن ضرب الأمير شيخون بالسيف، و حمل إلى داره جريحا و لزم الفراش الى أن مات، حسب ما يأتى ذكره.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۳۰۵

و أمر ضرب شيخون كان فى يوم الاثنين من شعبان سنة ثمان و خمسين و سبعمائة، و هو أن السلطان الملك الناصر حسنا جلس فى اليوم المذكور على كرسى الملك بدار العدل للخدمة، و الأمراء جلوس فى الخدمة و القضاة و الأعيان و جميع أرباب الدولة، و بينما السلطان جالس على كرسى الملك وثب مملوك من المماليك السلطانية يسمّى قطلو خجا السلاحدار على الأمير الكبير شيخون، و ضربه بالسيف ثلاث ضربات أصابت وجهه و رأسه و ذراعه، فوقع شيخون مغشيّا عليه، و أرجف بموته، و قام السلطان من على الكرسى و دخل الى القصر، و وقعت الهجّة، فلمّا سمعت مماليك شيخون بذلك، طلعوا القلعة راكبين صحبة أمير خليل بن قوصون أحد الأربعة المقبوض عليهم بعد ذلك، فحملوا شيخون على جنويّة و به رمق، و نزلوا به الى داره، و أحضروا الجرائحية فأصلحوا جراحاته، و بات شيخون تلك الليلة، و أصبح السلطان الملك الناصر حسن نزل لعيادته من الغد، فدخل عليه و حلف له أن الذى وقع

لم يكن بخاطره و لا ـ له علم به، و كان الناس ظنوا أن السلطان هو الذى سلّطه على شيخون، فتحقّق الناس براءة السلطان، و طلع السلطان الى القلعة و قد قبض على قطلو خجا المذكور، فرسم السلطان بتسميره فسمّر.

ثم وسّط فى اليوم المذكور، بعد أن سأل السلطان قطلوخجا السلاحدار المذكور عن سبب ضرب شيخون بالسيف، فقال: طلبت منه خبزا فمنعنى منه و أعطاه لغيرى. و لزم شيخون الفراش من جراحه الى أن مات فى ذى القعدة من السنة، و بموته خفّ عن السلطان أشياء كثيرة، فإنه كان ثقيل الوطأة على السلطان الى الغاية، بحيث إن السلطان كان لا يفعل شيئا حتى يشاوره حقيرها و جليلها، فلما مات التفت السلطان حسن الى إنشاء مماليكه، فأمّر منهم جماعة كثيرة على ما سيأتى ذكره.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۳۰۶

ثم أخذ السلطان حسن فى شراء دار ألطنبغا المارداني و يلبغا اليحياوى بالرّميلة و هدمهما و أضاف اليهما عدّة دور و إسطبلات أخر، و شرع فى بناية مدرسته المعروفة به تجاه قلعة الجبل، التى لم يبن فى الإسلام نظيرها، و لا حكاها معمار فى حسن عملها، و ذلك فى سنة ثمان و خمسين المذكورة.

و لما شرع فى عمارتها جعل عليها مشدّين و مهندسين و اجتهد فى عملها. و أما مصروفها و ما اجتمع بها من الصّنّاع و المعلّمين فكثير جدا لا يدخل تحت حصر، و قيل: إن إيوانها يعادل إيوان كسرى فى الطول.

قلت: و فى الجملة إنها أحسن ما بنى فى الدنيا شرقا و غربا فى معناها بلا مدافعة.

و فى هذه السنة وقع أمر عجيب، قال ابن كثير فى تاريخه: «و فى هذه السنة حملت جارية من عتقاء الأمير الهيدبانى قريبا من تسعين يوما، ثم شرعت تطرح ما فى بطنها، فوضعت قريبا من أربعين ولدا، منهم أربع عشرة بنتا. و قد تشكل الجميع، و تميّز الذكر من الأنثى، فسبحان القادر على كل شيء.

قلت: و ابن كثير ثقة حجّة فيما يرويه و ينقله. انتهى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۳۰۷

و لما مات شيخون انفرد صرغتمش بتدبير المملكة، و عظم أمره و استطال فى الدولة، و أخذ و أعطى و زادت حرمته و أثرى و كثرت أمواله، الى أن قبض عليه الملك الناصر حسن حسب ما يأتى ذكره فى محلّه، إن شاء اللّه تعالى.

ثم إنّ السلطان قبض على الأمير طاز نائب حلب، فى أوائل سنة ثمان و خمسين المذكورة بسفارة صرغتمش، و قيّده و حمله إلى الإسكندرية فحبسه بها، و ولّى عوضه فى نيابة حلب الأمير منجك اليوسفىّ الوزير، نقل إليها من نيابة طرابلس.

ثم عزل السلطان عزّ الدين بن جماعة عن قضاء الشافعية بديار مصر، و ولّى عوضه بهاء الدين بن عقيل، فأقام ابن عقيل فى القضاء ثمانين يوما و عزل، و أعيد ابن جماعة ثم نقل السلطان منجك اليوسفىّ المذكور من نيابة حلب إلى الشام عوضا عن أمير على الماردينى، و نقل الماردينى إلى نيابة حلب، كلّ ذلك فى سنة ثمان و خمسين و سبعمائة المقدّم ذكرها، و خلع السلطان على تاج الدين بن ريشة و استقرّ فى الوزارة ثم نفى السلطان جماعة من الأمراء، منها الأمير چرچى الإدريسىّ، و أنعم بإقطاعه و هو إمرة مائة و تقدمة ألف بديار مصر على مملوكه يلبغا العمرى صاحب الكبش و هو الذى قتل أستاذه الملك الناصر حسنا المذكور، حسب ما يأتى ذكره فى وقته من هذا الكتاب فى هذه الترجمة، ثم خلع عليه و جعله أمير مجلس عوضا عن الأمير تنكز بغا الماردينى. ثم فى يوم الخميس العشرين من شهر رمضان سنة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۳۰۸

تسع و خمسين و سبعمائة، أمسك السلطان الأمير صرغتمش الناصرىّ، بعد ما أقعد له قواعد مع الأمير طيبغا الطويل و يلبغا العمرى و غيرهما، و أمسك معه جماعة من الأمراء، و هم طشتمر القاسمى حاجب الحجاب، و طيبغا الماجارى و أزدمر و قمارى و أرغون الطّرخانى و آقجبا الحموىّ، و جماعة أخر من أمراء الطبلخانات و العشرات، و كان سبب مسكه أنّ صرغتمش كان قد عظم أمره بعد

موت شيخون، و استبدّ بأمور الدولة و تدبير الملک، فلما تمّ له ذلک، ندب الملک الناصر حسنا لمسک طاز و وغّر خاطره عليه، حتى كان من أمره ما كان، فلمّا صفا له الوقت بغير منازع، لم يقنع بذلک، حتى رام الوثوب على الملک الناصر حسن و مسکه و استقلاله بالملک، فبلغ الناصر ذلک فاتّفق مع جماعة من الأمراء على مسکه عند دخوله على السلطان فى خلوة، فلمّا كان وقت دخوله وقفوا له فى مكان رتّبهم السلطان فيه، فلما دخل صرغتمش احتاطوا به و قبضوا عليه، ثم خرجوا لمن عيّن لهم من الأمراء المقدّم ذكرهم، فقبضوا عليهم أيضا فى الحال، و حبسوا الجميع بقلعة الجبل، فلما بلغ مماليک صرغتمش و حواشيه من المماليک، ركبوا بالسلاح و طلعوا الى الرميلة، فنزل إليهم المماليک السلطانية من القلعة، و قاتلوهم من بكرة النهار الى العصر عدّة وجوه، إلى أن كانت الكسرة على مماليک صرغتمش. و أخذتهم السيوف السلطانية، و نهبت دار صرغتمش عند بئر الوطاويط، و نهبت دكاكين الصليبة، و مسک من الأعجام صوفية المدرسة الصّرغتمشية جماعة لأنهم ساعدوا الصّرغتمشية و أحموهم عند

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۳۰۹

كسرتهم؛ و ما أذّن المغرب حتى سكن الأمر و زالت الفتنة، و نودى بالأمان و البيع و الشراء.

و أصبح الملک الناصر حسن فى بكرة يوم الثلاثاء و هو سلطان مصر بلا منازع، وصفا له الوقت، و أخذ و أعطى، و قرّب من اختار و أبعد من أبعد، و خلع على الأمير ألجاى اليوسفىّ و استقرّ به حاجب الحجاب عوضا عن طشتمر القاسمىّ، و خلع على جماعة أخر بعدّة وظائف، ثم أخذ فى ترقية مماليكه و الإنعام عليهم. و أعيان مماليكه: يلبغا العمرىّ و طيبغا الطويل و جماعة من أولاد الأمراء.

و كان يميل لإنشاء أولاد الناس و ترقّيهم الى الرتب السنية، لا لحبّه لهم، بل كان يقول: هؤلاء مأمونو العاقبة، و هم فى طىّ علمى، و حيث و جّهتهم إليه توجّهوا، و متى

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۳۱۰

أحببت عزلهم أمكننى ذلک بسهولة، و فيهم أيضا رفق بالرعية و معرفة بالأحكام، حتى إنه كان فى أيامه منهم عدّة كثيرة، منهم أمراء مقدّمون، يأتى ذكر أسمائهم فى آخر ترجمته، إن شاء اللّه تعالى.

ثمّ أخرج السلطان صرغتمش و رفقته فى القيود الى الإسكندرية، فسجن صرغتمش بها إلى أن مات فى ذى الحجة من السنة، على ما سيأتى ذكر صرغتمش فى الوفيات من حوادث سنين الملک الناصر حسن.

ثم إن السلطان عزل الأمير منجک اليوسفى عن نيابة دمشق فى سنة ستين و سبعمائة، و طلبه الى الديار المصرية، فلما وصل منجک الى غزّة بلغه أن السلطان يريد القبض عليه، فتسحّب و لم يوقف له على خبر، و عظم ذلک على السلطان و أكثر من الفحص عليه، و عاقب بسببه خلائق فلم يفده ذلک.

ثم خلع السلطان على الأمير علىّ الماردينىّ نائب حلب، بإعادته إلى نيابة دمشق كما كان أوّلا، و استقرّ بكتمر المؤمنىّ فى نيابة حلب عوضا عن علىّ المارديني، فلم تطل مدّته بحلب و عزل عنها بعد أشهر بالأمير أسندمر الزينى، أخى يلبغا اليحياوىّ نائب الشام كان.

ثم خلع السلطان على فخر الدين بن قروينة باستقراره فى نظر الجيش و الخاص معا، ثم ظهر الأمير منجک اليوسفىّ من اختفائه فى بيت بالشّرف الأعلى بدمشق، فى سنة إحدى و ستين و سبعمائة، بعد أن اختفى به نحو السنة، فأخذ و أحضر الى القاهرة، فلمّا مثل بين يدى السلطان و عليه بشت عسلى و على رأسه مئزر صفح

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۳۱۱

عنه لكونه لم يخرج من بلاده، و رسم له بإمرة طبلخاناة بدمشق، و أن يكون طرخانا يقيم حيث شاء، و كتب له بذلک توقيع شريف.

ثم فى هذه السنة وقع الوباء بالديار المصرية، الى أوائل سنة اثنتين و ستين و سبعمائة، و مات فى هذا الوباء جماعة كثيرة من الأعيان و غيرهم، و أكثرهم كان لاـ يتجاوز مرضه أربعة أيام الى خمسة، و من جاوز ذلک يطول مرضه، و هذا الوباء يقال له: الوباء الوسطىّ (أعنى بين و باءين).

و فى هـذه الأيـام عظم يلبغـا العمرى فى الدولـة حتى صار هو المشار اليه، و ثقلت وطأته على أسـتاذه الملك الناصـر حسن، مع تمكّن الملك الناصر فى ملكه، و كان يلبغا العمرى و طيبغا الطويل و تمان تمرهـم أعظم أمرائه و خاصّكيّته من مماليكه.

فلمّـا أن استهلت سـنة اثنتين و ستين و سـبعمائة بلغ الملـك الناصـر أنّ يلبغا ينكر عليه من كونه يعطى الى النساء الإقطاعات الهائلـة، و كونه يختص بالطواشـية و يحكّمهم فى المملكة و أشياء غير ذلك، و صارت الخاصكيّة ينقلون للسلطان عن يلبغا أمورا قبيحة فى حقّه فى مثـل هـذا المعنى و أشـباهه، فتكلّم الملـك الناصـر حسن مع خواصّه بمـا معنـاه: إنه قبض على أكابر أمرائه من مماليك أبيه، حتى استبدّ بالأمـر من غير منـازع، و أنشـأ ممـاليكه مثل يلبغا المـذكور و غيره، حتى يسـلم من معارض، فصار يلبغا يعترض عليه فيما يفعله، فعظم عليه ذلك و ندم على ترقيه، و أخذ يترقّب وقتا يمسك يلبغا فيه.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۳۱۲

و اتّفق بعد ذلك أن السلطان حسنا خرج الى الصيد ببرّ الجيزة بالقرب من الهرمين، و خرجت معه غالب أمرائه يلبغا و غيره على العادة، فلمّا كان يوم الثلاثاء ثامن جمادى الأولى من سـنة اثنتين و ستين المذكورة، أراد السـلطان القبض على يلبغا لما بلغه عن يلبغا أنه يريد الركوب عليه هنـاك، فصبر السـلطان حسن حتى دخل الليل، فركب ببعض خاصّـكيّته من غير اسـتعداد و لا اكتراث بيلبغا، و سار يريد يكبس على يلبغا بمخيّمه فنمّ بعض خاصّـكيّة السـلطان بذلك الى يلبغا، فاسـتعدّ يلبغا بمماليكه و حاشـيته لقتاله، و طلب خشداشـيته و واعـدهم بالإمريات و الإقطاعات، و خوّفهم عاقبة أسـتاذهم الملك الناصـر حسن المذكور، حتى وافقه كثير منهم، كلّ ذلك و الملك الناصـر فى غفلة اسـتخفافا بمملوكه يلبغا المذكور، حتى قارب السـلطان خيمة يلبغا، خرج اليه يلبغا بمن معه و قاتله، فلم يثبت السلطان لقلّـة من كـان معه من ممـاليكه، و انكسـر و هرب و عـدّى النيـل و طلع الى قلعـة الجبل فى الليل، هى ليلـة الأربعاء التاسع من جمادى الأولى من سـنة اثنتين و ستين المذكورة، و تبعه يلبغا و من معه يريد القلعة، فاعترضه ابن المحسنى أحد أمراء الألوف بمماليكه، و معه الأمير قشتمر المنصورى، و واقعا يلبغا ببولاق وقعة هائلة، انكسر فيها يلبغا مرتين، و ابن المحسنىّ يتقدّم عليه، كلّ ذلك و ابن المحسنىّ ليس له علم من السلطان أين ذهب، بل بلغه أنه توجه إلى جهة القلعة، فأخذ فى قتال يلبغا و تعويقه عن المسير إلى جهة القلعة، و اشتدّ القتال بين يلبغا و ابن المحسـنىّ حتى أردف يلبغا الأمير ألجاى اليوسـفىّ حاجب الحجّاب و غيره، فانكسـر عنـد ذلك ابن المحسـنى و قشتمر،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۳۱۳

و قيـل: إنّ يلبغا لمّا رأى شـدّة ابن المحسـنى فى القتال دسّ عليه من رجّعه عن قتاله و أوعـده بأوعاد كثيرة، منها أنه لا يغير عليه ما هو فيه فى شـىء من الأشـياء خوفا من طلوع النهار قبل أن يدرك القلعة، و أخذ السـلطان الملك الناصـر حسن، لأنّ الناصـر كان طلع إلى قلعة الجبل فى الليل، و لم يشـعر به أحد من أمرائه و مماليكه و خواصّه، و صاروا فى حيرة من عدم معرفتهم أين توجّه السـلطان، حتى يكونوا معه على قتـال يلبغا، و علم يلبغا أنه متى تعوّق فى قتال ابن المحسـنى إلى أن يطلع النهار، أتت العساكر الملك الناصـر من كل فـجّ، و ذهبت روحه، فلما ولّى ابن المحسـنى عنه انتهز يلبغا الفرصـة بمن معه و حرّك فرسه و صـحبته من وافقه إلى جهة القلعة، حتى وصل إليها فى الليل. و اللّه أعلم.

و أمّا أمر السـلطان حسن، فإنه لمّا انكسـر من مملوكه يلبغا و توجّه إلى قلعة الجبل، حتى وصل إليها فى الليل، ألبس مماليكه المقيمين بالقلعـة، فلم يجد لهم خيلا لأنّ الخيول كانت فى الربيع، و بينما هو فى ذلك طرقه يلبغا قبل أن يطلع النهار و تجتمع العساكر عليه، فلم يجـد الملك الناصـر قوّة للقائه، فلبس هو و أيـدمر الـدواداری زى الأعراب ليتوجّها إلى الشام و نزلا من القلعـة وقت التسبيـح، فلقيهما بعض المماليـك فأنكروا عليهما و أمسـكوهما فى الحال، و أحضـروهما إلى بيت الأمير شـرف الـدين [موسـى] بن الأزكشـى أسـتادار العالية، فحملهما فى الوقت إلى يلبغا حال طلوع يلبغا إلى القلعة، فقتلهما يلبغا فى الحال قبل طلوع الشمس.

و كان عمر السـلطان حسن يوم قتل نيّفا على ثلاثين سـنة تخمينا، و كانت مدّة ملكه فى سـلطنته هذه الثانية ستّ سنين و سبعة أشهر [و

سبعة أيام] و كان قتله و ذهاب

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۳۱۴

ملكه على يد أقرب الناس إليه من مماليكه و خواصّه، و هم: يلبغا العمرى و طيبغا الطويل و تمان تمر و غيرهم و هم من مشترواته، اشتراهم و رباهم و خوّلهم فى النعم و رقاهم إلى أعلى المراتب، خوفا من أكابر الأمراء من مماليک أبيه، فكان ذهاب روحه على أيديهم، و كانوا عليه أشدّ من تلک الأمراء، فإنّ أولئک لما خلعوه من السلطنة بأخيه الملک الصالح، حبسوه بالدور من القلعة مكرما مبجّلا، و أجروا عليه الرواتب السنيّة، إلى أن أعادوه إلى ملكه ثانيا، و هم مثل شيخون و صرغتمش و قبلاى النائب و غيرهم، فصار يتذكّر ما قاساه منهم فى خلعه من السلطنة و تحكّمهم عليه، فأخذ فى التدبير عليهم حتى قبض على جماعة كثيرة منهم و أبادهم. ثم رأى أنه ينشئ مماليكه ليكونوا له حزبا و عضدا، فكانوا بعكس ما أمّله منهم، و وثبوا عليه، و كبيرهم يلبغا المقدّم ذكره، و عندما قبضوا عليه لم يمهلوه ساعة واحدة، و عندما وقع نظرهم عليه قتلوه من غير مشاورة بعضهم لبعض، موافاة لحقوق تربيته لهم و إحسانه إليهم، فكان بين فعل مماليک أبيه به و بين فعل مماليكه له فرق كبير، و للّه در القائل:

معاداة العاقل، و لا مصاحبة الجاهل.

قلت: لا جرم أنّ اللّه تعالى عزّ و جلّ عامل يلبغا المذكور من مماليكه بجنس ما فعله مع أستاذه، و وثبوا عليه و قتلوه أشرّ قتلة، على ما سيأتى ذكره إن شاء اللّه تعالى.

و استولى يلبغا العمرى الخاصكىّ على القلعة و الخزائن و السلاح و الخيول و الجمال، و على جميع ما خلفه أستاذه الملک الناصر حسن، و أقام فى المملكة بعده ابن أخيه الملک المنصور محمد ابن الملک المظفّر حاجّى ابن الملک الناصر محمد بن قلاوون كما سيأتى ذكره بعد حوادث سنين الملک الناصر حسن، كما هى عادة هذا الكتاب.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۳۱۵

و كان الملک الناصر حسن سلطانا شجاعا مقداما كريما عاقلا حازما مدبّرا سيوسا، ذا شهامة و صرامة و هيبة و وقار، عالى الهمة كثير الصدقات و البرّ، و مما يدلّ على علوّ همته مدرسته التى أنشأها بالرميلة تجاه قلعة الجبل فى مدّة يسيرة، مع قصر مدّته فى السلطنة و الحجر عليه فى تصرفه فى سنين من سلطنته الثانية أيضا، و كان صفته للطول أقرب، أشقر و بوجهه نمش، مع كيس و حلاوة، و كان متجملا فى ملبسه و مركبه و مماليكه و بركه، اصطنع مرّة خيمة عظيمة، فلمّا نجّزت ضربت له بالحوش السلطانى من قلعة الجبل، فلم ير مثلها فى الكبر و الحسن، و فيها يقول الشيخ شهاب الدين أحمد بن أبى حجلة التّلمسانىّ المغربى. رحمه اللّه تعالى:

[الطويل]

حوت خيمة السلطان كلّ عجيبة فأمسيت منها باهتا أتعجّب

لسانى بالتقصير فيها مقصّر و إن كان فى أطنابها بات يطنب

و كان السلطان الملک الناصر حسن مغرما بالنساء و الخدّام، و اقتنى فى سلطنته من الخدّام ما لم يقتنه غيره من ملوک التّرک قبله، و كان إذا سافر يستصحب النساء معه فى سفره لكونه ما كان له ميل للشّباب كعادة الملوک من قبله، كان يعفّ عن ذلک، و فى محبته إلى النساء و واقعته مع يلبغا يقول بعض أصحاب يلبغا فيه شعرا:

[الكامل]

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۳۱۶

لمّا أتى للعاديات و زلزلت حفظ النساء و ما قرا للواقعه

فلأجل ذاک الملک أضحى لم يكن و أتى القتال و فصّلت بالقارعه

لو عامل الرحمن فاز بكهفه و بنصره فى عصره فى السابعه

من كانت القينات من أحزابه عطعط به الدّخان نار لامعه

تبت يدا من لا يخاف من الدعا فى الليل إذ يغشى يقع فى النازعه

و خلّف السلطان الملك الناصر حسن، تغمّده اللّه برحمته، من الأولاد الذكور عشرة: و هم أحمد و قاسم و علىّ و إسكندر و شعبان و إسماعيل و يحيى و موسى و يوسف و محمد، و ستّا من البنات، و خلّف من الأموال و القماش و الذهب العين و السلاح و الخيول و غيرها شيئا كثيرا. استولى يلبغا على الجميع، و تصرّف فيه حسب ما أراده.

و كان السلطان حسن محبا للرعية، و فيه لين جانب، حمدت سائر خصاله، لم يعب عليه فى ملكه سوى ترقّيه لمماليكه فى أسرع وقت، فإنه كان كريما بارّا بإخوته و أهله، يميل الى فعل الخير و الصدقات، و له مآثر بمكة المشرّفة، و اسمه مكتوب فى الجانب الشرقىّ من الحرم، و عمل فى زمنه باب الكعبة الذى هو بابها الآن، و كسا الكعبة الكسوة التى هى الى الآن فى باطن البيت العتيق، و كان كثير البرّ لأهل مكة و المدينة، الى أن كانت الواقعة لعسكره بمكة فى أواخر سنة إحدى و ستين و سبعمائة التى كان مقدّم عسكرها الأمير قندس و ابن قراسنقر و حصل لهم الكسرة و النهب و القتل من أهل مكة و اخراجهما من مكة على أقبح وجه،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۳۱۷

غضب بعد ذلك على أهل مكة و أمر بتجهيز عسكر كبير الى الحجاز للانتقام من أهل مكة، و عزم على أنه ينزعها من أيدى الأشراف الى الأبد، و كاد يتمّ له ذلك بسهولة و سرعة، و بينما هو فى ذلك وقع بينه و بين مملوكه يلبغا و كان من أمره ما كان.

و كان السلطان حسن يميل الى تقدمة أولاد الناس الى المناصب و الولايات حتى إنه كان غالب نوّاب القلاع بالبلاد الشامية فى زمانه أولاد ناس، و لهذا لم يخرج عليه منذ سلطنته بالبلاد الشامية خارجىّ، و كان فى أيامه من أولاد الناس ثمانية من مقدّمى الألوف بالديار المصرية. ثم أنعم على ولديه بتقدمتى ألف فصارت الجملة عشرة، فأما الثمانية فهم: الأمير عمر بن أرغون النائب و أسنبغا بن الأبى بكرى و محمد ابن طوغاى و محمد بن بهادر رأس نوبة و محمد بن المحسنىّ الذى قاتل يلبغا و موسى بن أرقطاى و أحمد بن آل ملك و شرف الدين موسى بن الأزكشى الأستادار، فهؤلاء من مقدّمى الألوف. و أما الطبلخانات و العشرات فكثير، و كان بالبلاد الشامية جماعة أخر فكان ابن القشتمرى نائب حلب و أمير علىّ الماردينىّ نائب الشام و ابن صبيح نائب صفد و أمّا من كان منهم من المقدّمين. و الطبلخانات نوّاب القلاع فكثير. و قيل:

إن سبب تغيير خاطر يلبغا من أستاذه الملك الناصر حسن- على ما قيل- إنه لما عمل ابن مولاهم البليقة التى أوّلها:

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۳۱۸

من قال أنا: جندى خلق، لقد صدق. عندى قبا، من عهد نوح، على الفتوح لو صادفوا شمس السطوح، كان احترق

و رقصوا بها بين يدى السلطان حسن، أشاروا «بالجندى خلق» إلى يلبغا و هو واقف بين يدى السلطان حسن و السلطان حسن يضحك و يستعيدها منهم فغضب من ذلك يلبغا و حقد على أستاذه السلطان و هذا يبعد وقوعه لكنّه قد قيل.

قلت: و قد أثبتنا هذه البلّيقة- و التى عملها الشيخ زين الدين عبد الرحمن ابن الخرّاط فى الفقيه التى أوّلها:

من قال أنا فقيه بشر

لقد فشر

- فى تاريخنا المنهل الصافى فى ترجمة ابن الخرّاط المذكور بتمامها و كمالها و هما من أظرف البلاليق فى معناهما. و اللّه أعلم. انتهى.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۵۶]

السنة الأولى من سلطنة الملك الناصر حسن الثانية على مصر و هى سنة ست و خمسين و سبعمائة على أنه حكم- فى السنة الخالية بعد خلع أخيه الملك الصالح صالح- من شوّال إلى آخرها.

و فيها (أعنى سنة ست و خمسين) توفّى قاضى القضاة شيخ الإسلام تقىّ الدين أبو الحسن على بن زين الدين عبد الكافى بن علىّ بن تمّام بن يوسف بن موسى ابن تمّام بن حامد بن يحيى بن عمر بن عثمان بن علىّ بن سوار بن سليم الأنصارى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١٠، ص: ٣١٩

السّبكى الشافعى- رحمه اللّه تعالى- بشاطئ النيل فى ليلة الاثنين رابع جمادى الآخرة، و مولده فى [أول يوم من] شهر صفر سنة ثلاث و ثمانين و ستمائة بسبك الثلاث و هى قرية بالمنوفية من أعمال الديار المصرية بالوجه البحرى، و كان- رحمه اللّه- إماما عالما بالفقه و الأصلين و الحديث و التفسير و النحو و الأدب و فى شهرته ما يغنى عن الإطناب فى ذكره. و قد استوعبنا ترجمته فى تاريخنا «المنهل الصافى» بأوسع من هذا فلينظر هناك لمن أراد ذلك. و من شعره: [الكامل]

إنّ الولاية ليس فيها راحة إلّا ثلاث يبّتغها العاقل

حكم بحقّ أو إزالة باطل أو نفع محتاج سواها باطل

و توفّى قاضى القضاة نور الدين أبو الحسن على بن عبد النصير بن على السّخاوىّ

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١٠، ص: ٣٢٠

المصرى المالكى قاضى قضاة الديار المصرية بها و قد قارب الثمانين سنة فى ليلة الاثنين ثانى جمادى الأولى و دفن بالقرافة.

و توفّى الشيخ الأديب شمس الدين محمد بن يوسف بن عبد اللّه الدّمشقى الشاعر المشهور المعروف بالخيّاط بطريق الحجاز. و من شعره قوله. [السريع]

خلّفت بالشام حبيبى و قد يمّمت مصرا لغنى طارق

و الأرض قد طالت فلا تبعدى بالله يا مصر على عاشق

و توفّى القاضى تاج الدين أبو عبد اللّه محمد بن محمد بن عبد المنعم بن عبد الرحمن ابن عبد الحق السّعدىّ البارنبارى المصرىّ كاتب سرّ طرابلس و كان فاضلا كاتبا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١٠، ص: ٣٢١

خدم الملوك و باشر كتابة سر طرابلس. و كان له شعر جيّد و كتابة حسنة. رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الشيخ الإمام العلّامة شهاب الدين أبو العبّاس أحمد بن يوسف [بن عبد الدائم] بن محمد الحلبى النحوى المقرئ الفقيه الشافعى المعروف بابن السّمين- رحمه اللّه- فى جمادى الآخرة، و كان إماما عالما أفتى و درّس و أقرأ عدّة سنين.

و توفّى الأمير سيف الدين قبلاى بن عبد اللّه الناصرى فى يوم الأربعاء ثالث شهر ربيع الأول، و كان أصله من مماليك الناصر محمد بن قلاوون، و ولى نيابة الكرك ثم الحجوبية الثانية بمصر، ثم نقل الى الحجوبية الكبرى بها، ثم ولى نيابة السلطنة بالديار المصرية. و قد تقدّم من ذكره نبذة جيدة فى عدّة تراجم.

و توفّى القاضى زين الدين خضر ابن القاضى تاج الدين محمد بن زين الدين خضر بن جمال الدين عبد الرحمن بن علم الدين سليمان بن نور الدين علىّ كاتب الإنشاء بالديار المصرية. و مولده ليلة الأحد رابع ذى الحجة سنة عشر و سبعمائة.

كان فاضلا قادرا على الكتابة سريعها، يكتب من رأس القلم التواقيع و المناشير و اعتمد القاضى علاء الدين على بن فضل اللّه عليه. و كان له نظم و نثر. رحمه اللّه تعالى. و من شعره فى مقصّ قوله: [الطويل]

يحرّكنى مولاى فى طوع أمره و يسكننى [شانيه] وسط فؤاده

و يقطع بى إن رام قطعا و إن يصل يشقّ بحدّى الوصل عند اعتماده

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۳۲۲

و توفّی الأمیر سیف الدین آص ملک بن عبد اللّه بطالا بدمشق فی شهر رمضان.

و کان من أعیان الأمراء، و تنقّل فی عدّة وظائف و أعمال، و کان مشهورا بالشجاعة.

رحمه اللّه.

و توفّی الأمیر سیف الدین قردم بن عبد اللّه الناصری الأمیر آخور بطّالا بدمشق فی یوم الأحد تاسع عشر شهر رمضان، و قد تقدّم ذکره فی عدّة أماکن.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم خمس أذرع و أربع عشرة إصبعا.

مبلغ الزیادة ثمانی عشرة ذراعا و إحدی و عشرون إصبعا. و اللّه سبحانه و تعالی أعلم.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۵۷]

السنة الثانیة من سلطنة الملک الناصر حسن الثانیة علی مصر و هی سنة سبع و خمسین و سبعمائة.

فیها توفّی السید الشریف شرف الدین أبو الحسن علی بن الحسین بن محمد الحسینی نقیب الأشراف بالدیار المصریة، و فیها توفّی عن سبعین سنة- و کان رحمه اللّه- إماما عالما فاضلا، درّس بالقاهرة بمشهد الحسین و الفخریة، و ولی حسبة القاهرة و وکالة بیت المال، و کان معدودا من الرؤساء العلماء.

و توفّی قاضی القضاة نجم الدین أبو عبد اللّه محمد ابن القاضی فخر الدین عثمان ابن أحمد بن عمرو بن محمد الزّرعیّ الشافعیّ قاضی قضاة حلب فی صفر، و کان- رحمه اللّه- إماما عالما فاضلا و افتی و درّس و ولی الحکم بعدّة بلاد.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۳۲۳

و توفّی صاحب بغداد و ما والاها الشیخ حسن بن الحسین بن آقبغا بن أیلکان ببغداد، و ملک بعده بغداد ابنه الشیخ أویس. و الشیخ حسن هذا هو سبط الملک أرغون بن أبغا بن هولاکو بن طولون بن چنکزخان ملک التتار صاحب «الیسق» و الاحکام الترکیة. و کان فی أیام الشیخ حسن الغلاء العظیم ببغداد حتی أبیع بها الخبز بسنج الدراهم و برح الناس عنها، و کان مشکور السّیرة. رحمه اللّه تعالی.

و توفّی الشیخ الإمام شرف الدین إبراهیم بن إسحاق بن إبراهیم المناوی الشافعی فی یوم الثلاثاء خامس شهر رجب، و کان- رحمه اللّه- فقیها عالما، ناب فی الحکم بالقاهرة، و أفتی و درّس و شرح الفرائض «من الوسیط» و غیره.

و توفّی الشیخ الإمام العالم کمال الدین أحمد بن [عمر بن أحمد بن] مهدی النّشائی الشافعی فی یوم الأحد حادی عشر صفر و مولده فی أوائل ذی القعدة سنة إحدی

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۳۲۴

و تسعین و ستمائة. و کان- رحمه اللّه- إماما عالما خطیبا فصیحا مصنّفا ولی خطابة جامع الأمیر أیدمر الخطیری ببولاق و إمامته و درّس به و هو أوّل من ولی خطابته و إمامته. و من مصنّفاته: کتاب «جامع المختصرات» و کتاب «المنتقی» و علّق علی «التنبیه» استدراکات، و له غیر ذلک. و اللّه أعلم.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم خمس أذرع و أربع أصابع. مبلغ الزیادة سبع عشرة ذراعا و عشرون إصبعا. و اللّه أعلم.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۵۸]

السنة الثالثة من سلطنة الملك الناصر حسن الثانية على مصر و هى سنة ثمان و خمسين و سبعمائة.

فيها توفّى الأمير الكبير أتابك العساكر شيخون بن عبد اللّه العمرى الناصرى اللالا مدبّر الممالك الإسلامية بالديار المصرية فى السابع من ذى الحجة بالقاهرة من جرح أصابه لمّا ضربه قطلوخجا السلاح دار فى موكب السلطان حسن حسب ما تقدّم ذكره فى ترجمة السلطان حسن هذه الثانية. و قيل: كانت وفاته فى أواخر ذى القعدة و سنّه نيّف على خمسين سنة. و كان أصله من كتابية الملك الناصر محمد ابن قلاوون و كان تركىّ الجنس، جلبه خواجا عمر من بلاده و باعه للملك الناصر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۳۲۵

و ترقّى بعد موت الملك الناصر حتى صار أتابك العساكر بالديار المصرية، و هو أوّل من سمّى بالأمير الكبير، وليها بخلعة، و صارت من بعده وظيفة. و هو صاحب الجامع و الخانقاه بخطّ صليبة أحمد بن طولون. و قد تقدّم من ذكره فى ترجمة الملك الناصر حسن و الملك الصالح صالح و غيرهما ما يستغنى عن ذكره هنا ثانيا. و دفن بخانقاته المذكورة. و فى شيخون يقول بعض شعراء عصره مضمّنا: [البسيط]

شيخو الأمير المفدّى كلّه حسن حوى المحاسن و الحسنى و لا عجب

دع الذين يلومونى عليه سدى ليذهبوا فى ملامى أيّة ذهبوا

و توفّى الشيخ الإمام العالم العلّامة قوام الدين أبو حنيفة أمير كاتب بن أمير عمر ابن أمير غازى الفارابى الإتقانى الحنفى بالقاهرة، و دفن بالصحراء خارج القاهرة- و كان رحمه اللّه- إماما عالما مفتّنا بارعا فى الفقه و اللغة العربية و الحديث و أسماء الرجال و غير ذلك من العلوم، و له تصانيف كثيرة منها: «شرح الهداية» فى عشرين مجلّدا «و شرح الأخسيكتى» «و شرح البزدوى» و لم يكمّله، و ولى التدريس بمشهد أبى حنيفة ببغداد. ثم قدم دمشق فأفتى بها و درّس و اشتغل و صنّف بدمشق كتابا فى منع رفع اليدين فى الصلاة فاضلا عن تكبيرة الافتتاح. ثم طلب الى القاهرة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۳۲۶

مكرّما معظّما حتى حضرها و صار بها من أعيان العلماء لا سيّما عند الأمير صرغتمش الناصرى، فإنه لأجله بنى مدرسته بالصليبة حتى ولّاه تدريسها. و لما مات- رحمه اللّه تعالى- ولى تدريس الصّرغتمشية العلّامة أرشد الدين السرائى الحنفى.

و توفّى قاضى القضاة نجم الدين أبو إسحاق إبراهيم ابن القاضى عماد الدين أبى الحسن على بن أحمد بن عبد الواحد بن عبد المنعم بن عبد الصمد الطّرسوسى ثم الدمشقى الحنفى قاضى قضاة الحنفية بدمشق بها عن نحو أربعين سنة و كان- رحمه اللّه- إماما عالما علّامة أفتى و درّس و ناب فى الحكم عن والده بدمشق ثم استقل بالوظيفة من بعده عدّة سنين و حمدت سيرته. و له مصنّفات كثيرة منها: كتاب «رفع الكلفة عن الإخوان فى ذكر ما قدّم القياس على الاستحسان» و كتاب «مناسك الحج» مطوّل و كتاب «الاختلافات الواقعة فى المصنّفات» و كتاب «محظورات الإحرام» و كتاب «الإرشادات فى ضبط المشكلات» عدّة مجلدات و كتاب «الفتاوى فى الفقه» و كتاب «الإعلام فى مصطلح الشهود و الأحكام» و كتاب «الفوائد المنظومة فى الفقه».

و توفّى الأمير سيف الدين أرغون بن عبد اللّه الكاملى المعروف بأرغون الصّغير بالقدس بطّالا قبل أن يبلغ الثلاثين سنة من العمر و كان أرغون خصيصا عند الملك الكامل ثم عند أخيه الملك الصالح إسماعيل و ترقّى حتى صار أمير مائة و مقدّم ألف بديار مصر. ثم ولى نيابة حلب ثم نيابة الشام ثم أعيد الى نيابة حلب ثانيا الى أن طلب الى القاهرة و قبض عليه و اعتقل بالإسكندرية مدّة ثم أخرج الى القدس

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۳۲۷

بطّالا فمات به. و كان أميرا جليلا عارفا شجاعا كريما و فيه بر و معروف و له مآثر، من ذلك بيمارستان بحلب و غيره. رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الشيخ شهاب الدين أبو العبّاس أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم ابن عبد المحسن العسجدىّ الشافعىّ. كان معدودا من فقهاء الشافعية. رحمه اللّه.

و توفّى القاضى علاء الدين أبو الحسن على بن محمد بن الأطروش الحنفىّ محتسب القاهرة و قاضى العسكر بها كان من بياض الناس و له وجاهة. رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الشيخ الإمام العلّامة محبّ الدين أبو عبد اللّه محمود ابن الشيخ الإمام علاء الدين أبى الحسن على بن إسماعيل بن يوسف القونوىّ الشافعىّ فى يوم الأربعاء ثامن عشرين شهر ربيع الآخر و كان فقيها مصنّفا و من مصنّفاته: «شرح ابن الحاجب فى الأصول» و كتاب «اعتراضات على شرح الحاوى» فى الفقه لأبيه.

و له غير ذلك.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم سبع أذرع و إصبع. مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا و ست أصابع. و اللّه أعلم.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۳۲۸

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۵۹]

السنة الرابعة من سلطنة الملك الناصر حسن الثانية على مصر و هى سنة تسع و خمسين و سبعمائة.

فيها توفّى الأمير سيف الدين صرغتمش بن عبد اللّه الناصرىّ فى سجنه بثغر الإسكندرية فى ذى الحجّة. و كان أصله من مماليك الناصر محمد بن قلاوون و ترقّى حتى صار من أكابر الأمراء و مدبّرى الديار المصرية مع الأمير شيخون و بعده و قد تقدّم من ذكره فى ترجمة الملك الصالح و الملك الناصر حسن ما يكتفى بذكره هناك: و لمّا حبسه الملك الناصر حسن بثغر الإسكندرية كتب إليه صرغتمش كتابا يتخضّع إليه فيه و فى أوّله: [الكامل]

قلبى يحدّثنى بأنّك متلفى روحى فداك عرفت أ لم تعرف

فلم يلتفت الملك الناصر لكتابه و فعل به ما قدّر عليه و كان صرغتمش عظيما فى الدولة فاضلا مشاركا فى فنون يذاكر بالفقه و العربيه و يحبّ العلماء و أرباب الفضائل و يكثر من الجلوس معهم و هو صاحب المدرسة بخطّ الصليبة و له برّ و صدقات، إلا أنه كان فيه ظلم و عسف مع جبروت.

و توفّى القاضى شرف الدين أبو البقاء خالد بن عماد الدين إسماعيل بن محمد ابن عبد اللّه بن محمد بن خالد بن محمد بن نصر المخزومى الشافعىّ المعروف بابن القيسرانىّ الحلبى ثم الدّمشقى بدمشق عن نيّف و خمسين سنة و كان كاتبا فاضلا مصنفا باشر كتابة الإنشاء بدمشق و وكالة بيت المال و سمع الكثير.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۳۲۹

و توفّى قاضى الإسكندرية فخر الدين أبو العبّاس محمد بن أحمد بن عبد اللّه الشهير بابن المخلّطة فى يوم الجمعة سابع شهر رجب، ولى قضاء الإسكندرية أشهرا، بعد أن كان درّس بالقاهره بمدرسة الصّرغتمشية: درس الحديث. و كان فاضلا عارفا بالأصول و له سماع و تولى بعده قضاء الإسكندرية ابن التّنسىّ.

و توفّى ملك الغرب أبو عنان فارس ابن السلطان أبى الحسن علىّ ابن السلطان أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق بن محيوبن حمامة المرينىّ المغربى بمدينة فاس بعد أن حكم خمس سنين و كان مشكور السّيرة. رحمه اللّه.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۳۳۰

و توفّى الشريف مانع بن على بن مسعود بن جمّاز بن شيحة الحسينى أمير المدينة بها و تولّى المدينة الشريفة بعده ابن عمّه فضل بن

القاسم فى ذى القعدة.

و توفّى الأمير سيف بن فضل بن مهنّا بن عيسى بن مهنّا بن مانع بن حديثة ابن غضيّة فى ذى القعدة و كان جوادا شجاعا، ولى إمرة آل فضل غير مرة. و قيل إنه قتل سنة ستين و هو الأصحّ

و توفّى الشيخ الإمام شمس الدين محمد بن عيسى بن حسن بن كر الحنبلى إمام أهل الموسيقى، و له فيها تآليف حسنة و يتصل نسبه إلى الخليفة مروان بن محمد الحمار. و كان صوفيّا فقيها و له زاوية عند مشهد الحسين بالقاهرة. و مولده فى شهر

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۳۳۱

ربيع الأوّل سنة إحدى و ثمانين و ستمائة بالقاهرة، و كان فاضلا قرأ القرآن على الشّطنوفى و حفظ الأحكام لعبد الغنى [بن عبد الواحد] «و العمدة فى الفقه» للشيخ موفّق الدين و الملّحة للحريرى و سمع على أشياخ عصره مثل الدّمياطىّ و الأبرقوهىّ و غيرهما و صنف كتابا فى الموسيقى سماه: «غاية المطلوب، فى الأنغام و الضروب» و قد أوضحنا أمره و ما يتعلّق بفنّه الموسيقى فى المنهل الصافى إذ هو محلّ الاستيعاب.

و توفّى الأمير الطّواشى صفى الدين جوهر بن عبد اللّه الجناحى البتخاصى مقدّم المماليك السلطانية، و قد قارب المائة سنة من العمر. و كان من أعيان الخدّام و أماثلهم.

و توفّى الأمير سيف الدين ننكزبغا بن عبد اللّه الماردين أمير مجلس و زوج أخت السلطان حسن، كان من أكابر الأمراء بالديار المصرية، لا سيما فى دولة الناصر حسن. و كان عاقلا مدبّرا سيوسا.

و توفّى الشيخ شمس الدين أبو عبد اللّه محمد بن إبراهيم بن داود بن الهكّارى الكردى الشافعى بدمشق فى ذى القعدة. و مولده سنة خمس و ثمانين و ستمائة و كان فقيها فاضلا.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۳۳۲

و توفّى الأمير سيف الدين ملكتمر بن عبد اللّه السّعدى فى ذى القعدة بحماة بطّالا بعد أن ولى عدّة وظائف و تنقّل فى عدّة ولايات. رحمه اللّه تعالى.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و ثمانى أصابع.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا سواء.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۶۰]

السنة الخامسة من سلطنة الملك الناصر حسن الثانية على مصر و هى سنة ستين و سبعمائة.

فيها توفّى قاضى القضاة تقىّ الدين أبو عبد اللّه محمد بن شهاب الدين أحمد ابن شأس المالكىّ قاضى قضاة الديار المصرية فى يوم الأربعاء رابع شوّال و دفن بالقرافة. و كان إماما بارعا فى مذهبه أفتى و درس و ناب فى الحكم، ثم استقل بالقضاء، و كان مشكور السّيرة، من علم و فضل. رحمه اللّه.

و توفّى قاض قضاة حماة تقىّ الدين أبو المظفّر محمود بن بدر الدين محمد بن عبد السلام بن عثمان القيسى الحنفىّ الحموى الشهير بابن الحكيم، باشر قضاء حماة تسع عشرة سنة، و حمدت سيرته و مات بمنزلة ذات الحج من الحجاز، و قد جاوز ستين سنة و كان عالما زاهدا ورعا.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۳۳۳

و توفّى الشيخ الإمام العالم العلّامة شيخ الإسلام و قطب الوجود أبو البقاء و قيل أبو الوفاء خليل بن عبد الرحمن بن محمد بن عمر

المالکی المالقی ثم المکیّ العالم المشـهور، صاحب التصانیف فی مـذهبه بمکة المشـرفة بعد أن انتهت إلیه ریاسة مذهبه و لم یخلّف بعده مثله.

و توفّی القاضی جمال الدین إبراهیم ابن العلّامة شهاب الدین محمود بن سلیمان ابن فهد الحلبی الحنبلی بحلب عن أربع و ثمانین سنة و کان فاضـلا کاتبا ماهرا فی صناعته، کتب فی دیوان الإنشاء بمصر و ولی کتابة سرّ حلب ثلاث مرات نیّفا و عشرین سنة و حدّث عن جماعة من حفّاظ الدیار المصـریة و الإسـکندریة. و کان عارفا بالاصطلاح و الکتابة، و له نظم و نثر. و من شعره ما کتبه لوالده متشوّقا بقوله: [السریع].

هل زمن ولّی بکم عائد أم هل تری یرجع عیش مضی

فارقتکم بالرغم منی و لم أختره لکنّی أطلعت القضا

قلت: لو کانت وظیفته قضاء حلب کان فی قوله: «أطعت القضا» توریة.

و کان جوادا ممدّحا و فیه یقول البارع جمال الدین محمد بن نباتة المصری قصیدته المشهورة التی أوّلها: [الطویل]

أجیراننا حیّا الربیع دیارکم [و إن لم یکن فیها لطرفی مربع]. انتهی

و تـوفّی القاضـی تـاج الـدین أحمـد بن یحیی بن محمـد بن علی بن أبی القـاسم بن علی ابن أبی الفضـل العـذری الدمشـقی الحنفی المعروف بابن السّکاکری. کان عارفا بعلل

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۳۳۴

المکاتیب الحکیمـة خبیرا بسـلوک طرائقها العلمیة و العملیة و کتب الحکم و الإنشاء بحلب و مات عن خمس و ستین سـنة. رحمه اللّه تعالی.

و توفّی الأمیر عز الدین طقطای بن عبد اللّه الصالحیّ الدّوادار بطرابلس عن بضع و أربعین سـنة معتقلا. و کان أمیرا فاضلا جلیلا رئیسا و فیه یقول الشیخ صلاح الدین خلیل بن أیبک الصّفدیّ تغمّده اللّه برحمته: [الکامل]

هذا الدّوادار الذی أقلامه تذر المهارق مثل روض نافح

تجری بأرزاق الوری فمدادها و بل تحدّر من غمام سافح

أستغفر اللّه العظیم غلطت بل نهر جری من لجّ بحر طافح

و إذا تکون کریهة فیمینه تسطو بحدّ أسنّة و صفائح

یا فخر دهر قد حواه [فإنّه] عزّ لمولانا الملیک الصالح

و توفّی الخان جانبک خان بن أزبک خان صاحب کرسیّ سرای و بلاد

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۳۳۵

الدّشت بها، بعد أن حکم ثمانی عشرة سنة. و نسبه یتّصل لجنکزخان و تولی بعده الملک ابنه بردبک. خان و اللّه أعلم بالصواب.

أمر النیل فی هذه السنة- المیاء القدیم خمس أذرع و ثلاث عشرة إصبعا.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة؛ ج ۱۰؛ ص ۳۳۵

لغ الزیادة تسع عشرة ذراعا و ثلاث أصابع. و قیل أربعة أصابع من غیر زیادة و اللّه سبحانه أعلم بالصواب.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۳۳۶

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۶۱]

السنة السادسة من سلطنة الملك الناصر حسن الثانية على مصر و هى سنة إحدى و ستين و سبعمائة.

فيها توفّى الشيخ الإمام العالم العلّامة جمال الدين أبو محمد عبد اللّه بن يوسف بن أحمد بن هشام الأنصارى الحنبلى النحوى فى ليلة الجمعة الخامس من ذى القعدة و دفن بعد صلاة الجمعة بمقابر الصوفيّة خارج باب النصر من القاهرة. و كان بارعا فى عدّة علوم، لا سيما العربية فإنه كان فارسها و مالك زمامها و هو صاحب الشرح على ألفية ابن مالك فى النحو المسمّى «بالتوضيح» «و شرح أيضا البردة» [و شرح] «بانت سعاد» و كتاب «المغنى» و غير ذلك و مات عن بضع و خمسين سنة و كان أوّلا حنفيّا ثم استقرّ حنبليّا و تنزّل فى دروس الحنابلة.

و توفّى قاضى القضاة صدر الدين أبو الربيع سليمان بن داود بن سليمان [بن داود] ابن محمد بن عبد الحق الدمشقى الحنفى باليمن عن ثلاث و ستين سنة. و كان إماما بارعا مفتنا، أفتى و درّس بدمشق و باشر بها عدّة وظائف، منها: كتابة الإنشاء و النظر فى الأحكام و رحل إلى العراق و خراسان و مصر و الحجاز و اليمن. و كان له شعر جيّد من ذلك قوله: [السريع]

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۳۳۷

لما بدا فى خدّه عارض و شاق قلبى نبته الأخضر

أمطر أجفانى مستمطر فقلت هذا عارض ممطر

و توفّى الشيخ الإمام الحافظ صلاح الدين أبو سعيد خليل بن كيكلدى العلائى الدمشقى الشافعى، كان إماما حافظا رحّالا عارفا بمذهبه، سمع بالشام و مصر و الحجاز و تقدّم فى علم الحديث و جمع و ألّف و صنّف و درّس بالصلاحيّة و التّنكزية بالقدس، [و بها توفى] و كانت وفاته فى المحرّم من هذه السنة. و قال الإسنوىّ: سنة ستين.

و مولده بدمشق فى سنة أربع و تسعين و ستمائة.

و توفّى القاضى ضياء الدين أبو المحاسن يوسف بن أبى بكر بن محمد الشهير بابن خطيب بيت الآبار الدّمشقى. مات بالقاهرة عن نيف و سبعين سنة. و كان مقدّما فى الدولة الناصرية و باشر الحسبة و نظر الأوقاف و غيرهما، [و كان لأهل الشام نعم الذخيرة].

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۳۳۸

و توفّى الشيخ تقىّ الدين إبراهيم ابن الشيخ بدر الدين محمد بن ناهض بن سالم ابن نصر اللّه الحلبى الشهير بابن الضّرير بحلب عن بضع و ستين سنة. و كان فقيها بارعا سمع الحديث و جمع و حصّل و كتب كثيرا من الإنشاء و العلم و الأدب.

و توفّى الشريف زين الدين أبو الحسن على بن محمد بن أحمد بن على محمد بن على الحسينى الحلبى نقيب الأشراف بحلب. كان رئيسا نبيلا من بيت رياسة و شرف. رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الشيخ شرف الدين موسى بن كجك الإسرائيلى الطبيب فى شوّال. و كان بارعا فى الطب مشاركا فى غيره.

و توفّى الشيخ الإمام الخطيب شهاب الدين أبو العباس أحمد [بن] القسطلانى خطيب جامع عمرو- رحمه اللّه- بمصر القديمة فى ذى الحجة، و كان ديّنا خيّرا من بيت فضل و خطابة، و قد تقدّم ذكر جماعة من آبائه و أقاربه.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم اثنتا عشرة ذراعا سواء. مبلغ الزيادة أربع و عشرون ذراعا، قاله غير واحد، و خربت أماكن كثيرة من عظم زيادة النيل. و اللّه أعلم.

*** انتهى الجزء العاشر من النجوم الزاهرة و يليه الجزء الحادى عشر و أوّله: ذكر سلطنة الملك المنصور محمد على مصر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۳۳۹

*** تنبيه: التعليقات الخاصة بالأماكن الأثرية و المدن و القرى المصرية القديمة و غيرها مع تحديد أماكنها من وضع العلامة المحقق المرحوم محمد رمزى بك الذى كان مفتشا بوزارة المالية و عضوا فى المجلس الأعلى لإدارة حفظ الآثار العربية، كالتعليقات السابقة فى الأجزاء الماضية ابتداء من الجزء الرابع. و لا يسعنا إلا أن نسأل اللّه جلت قدرته أن ينزل على قبره شآبيب رحمته، و أن يجزيه

الجزاء الأوفى على خدمته للعلم و أهله. و كانت وفاته- رحمه اللّه- يوم الاثنين ١٣ ربيع الأول سنة ١٣٦۴ ه (٢۶ فبراير سنة ١٩۴۵ م).

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١٠، ص: ٣۴٠

استدراكات

اشارة

كان العلامة المحقق المرحوم محمد رمزى بك قد وصّى أحد أفراد الأسرة قبل وفاته بهذه الاستدراكات ليرسلها إلى دار الكتب المصرية فجاءتنا بطريق البريد بعد وفاته.

باب الصفا

ورد فى الحاشية رقم ٣ صفحة ٩١ من الجزء الرابع من هذه الطبعة أن باب الصفا كان واقعا تقريبا فى النقطة التى يتقابل فيها شارع سوق المواشى بشارع الفسطاط بمصر القديمة.

و بإعادة البحث تبيّن لى أن هذا الوصف خطأ. و الصواب أن هذا الباب كان واقعا فى السور البحرى لمدينة الفسطاط على رأس الطريق التى كانت تمر فى المنطقة التى بها اليوم جبانة السيدة نفيسة الجديدة فيما بين باب الصفا المذكور و امتداد شوارع الأشرف و الخليفة و الركبية حيث كانت تسير الطريق قديما بين الفسطاط و القاهرة. و قد بيّنا هذا الوصف فيما كتبناه عن هذا الباب فى صفحة ۶۵۴ بالعدد الخامس من مجلة العلوم الصادرة فى سنة ١٩۴٢ و على الخريطة المرفقة بالعدد المذكور.

شارع نجم الدين

ورد فى الحاشية رقم ١ ص ۶٧ بالجزء السادس من هذه الطبعة ما يفيد أن شارع نجم الدين الممتدّ من جبانة باب النصر من الجنوب إلى الشمال منسوب إلى الأمير نجم الدين أيوب بن شادى الذى أنشأ مسجدا ظاهر باب النصر سنة ۵۶۶ ه على ما جاء فى المقريزى ص ۴١٢ ج ٢ ثم جدّدت هذه التسمية نسبة إلى الشيخ صالح المحدّث نجم الدين أبى الغنائم محمد بن أبى بكر الشافعى المشهور بغنائم السعودى صاحب الزاوية التى فى نهاية هذا الشارع من الجهة البحرية.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١٠، ص: ٣۴١

العش

ورد بالحاشية رقم ٣ ص ٢۶١ بالجزء السابع من هذه الطبعة أن ناحية العش التى ولد بها الملك السعيد بركة خان ابن الملك الظاهر بيبرس البندقدارى بضواحى القاهرة هى الناحية التى تعرف اليوم باسم منية شبين إحدى قرى مركز شبين القناطر بمديرية القليوبية بمصر.

و بإعادة البحث تبين لى أن هذا الإرجاع خطأ، و الصواب أنه من الاطلاع على كتاب الانتصار لابن دقماق ظهر لى أن ناحية العش هى ناحية أخرى كانت واقعة غربى البركة المعروفة بالعكرشة، و بما أن حوض العكرشة لا يزال موجودا و معروفا تحت رقم ۴٧ بأراضى ناحية أبى زعبل و شرقى سكنها تبين لى من ذلك أن ناحية العش التى ولد بها الملك السعيد بركة خان بضواحى القاهرة هى التى تسمى اليوم كفر الشيخ سعيد بجوار سكن ناحية أبى زعبل بمركز شبين القناطر و من توابعها.

حلوان

ورد فى الحاشية رقم ۲ صفحة ۹۰ بالجزء التاسع من هذه الطبعة ما يفيد أن حلوان البلد أنشأها عبد العزيز بن مروان على النيل فى سنة ۶۷ هجرية و الصواب أنه أنشأها فى سنة ۷۰ هجرية بعد أن اشترى أرضها من أهلها فى تلك السنة.

و ورد فى الحاشية المذكورة أن مدينة حلوان الحمامات أنشأها الخديوى إسماعيل فى سنة ۱۲۸۲ هجرية- ۱۸۷۱ ميلادية. و الصواب أن هذا التاريخ هو تاريخ إنشاء الحمامات لأنها كانت أنشئت هى و الفندق و نقطة البوليس فى السنة المذكورة فى الخلاء، قبل أن تبنى مدينة حلوان الحمامات التى فى الجبل بمدة أربع سنوات.

و أما مدينة حلوان الحمامات ذاتها فقد أنشأها الخديوى إسماعيل فى سنة ۱۲۸۵ هجرية- ۱۸۷۴ ميلادية و قد تكلمنا على ذلك فى الرسالة التى طبعناها عن مدينة حلوان فى مجلة العلوم سنة ۱۹۴۴.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۰، ص: ۳۴۳

فهرس الولاة الذين تولوا مصر من سنة ۶۹۰ ه- إلى سنة ۷۰۹ ه

(ا) الأشرف صلاح الدين خليل ابن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفى الصالحى النجمىّ ۳- ۴۰ من سنة ۶۹۰- ۶۹۲ ه

(خ) خليل- الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون.

(ع) العادل زين الدين كتبغا بن عبد اللّه المنصورى التركى المغلى سلطان الديار المصرية ۵۵- ۸۴ من سنة ۶۹۴- ۶۹۵ ه

(م) المظفر ركن الدين بيبرس بن عبد اللّه المنصورى الجاشنكير ۲۳۲- ۲۸۲ سنة ۷۰۹ ه

المنصور حسام الدين لاچين بن عبد اللّه المنصورى سلطان الديار المصرية ۸۵- ۱۱۴ من سنة ۶۹۶- ۶۹۷ ه

(ن) الناصر أبو الفتوح و أبو المعالى ناصر الدين محمد ابن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحى النجمى الألفى- ولايته الأولى ۴۱- ۵۴ سنة ۶۹۳ ه ولايته الثانية ۱۱۵- ۲۳۱ من سنة ۶۹۸- ۷۰۸ ه

[الجزء الحادى عشر]

اشارة

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم و صلى اللّه على سيدنا محمد و آله و صحابته و المسلمين.

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۶۲]

ذكر سلطنة الملك المنصور محمد على مصر

السلطان الملك المنصور أبو المعالى ناصر الدين محمد ابن السلطان الملك المظفّر حاجىّ ابن السلطان الملك الناصر محمد ابن السلطان الملك المنصور قلاوون المنصورى الحادى و العشرون من ملوک الترک بالديار المصرية. جلس على تخت الملك صبيحة قبض على عمّه الملك الناصر حسن و هو يوم الأربعاء تاسع جمادى الأولى سنة اثنتين و ستين و سبعمائة و كان عمره يومئذ نحوا من أربع عشرة سنة، بعد أن اجتمع الخليفة المعتضد باللّه و القضاة و الأعيان. ثم فوّض عليه خلعة السلطنة و هو التشريف الخليفتى فى يوم الخميس عاشر الشهر المذكور، و لقّبوه الملك المنصور و حلفت له الأمراء على العادة، و ركب من باب الستارة من قلعة الجبل إلى الإيوان و عمره ستّ عشرة سنة. قاله العينى. و الأصحّ ما قلناه.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج١١، ص: ۴

ثم خلع على الأمير يلبغا العمرىّ الناصرىّ الخاصّكى و صار مدبر مملكة، و يشاركه فى ذلك خشداشه الأمير طيبغا الطويل، على أن كلّا منهما لا يخالف الآخر فى أمر من الأمور؛ ثم خلع على الأمير قطلوبغا الأحمدى و استقر رأس نوبة النّوب، و خلع على قشتمر المنصورى بنيابة السلطنة بالديار المصرية و ناظر البيمارستان المنصورىّ عوضا عن الأمير آقتمر عبد الغنى، و خلع على الشريف عز الدين عجلان بإمرة مكة على عادته. ثم كتب بالإفراج عن جماعة من الأمراء من الحبوس و هم الأمير حركتمر المارديني و طشتمر القاسمى و قطلوبغا المنصورى و خلع على طشتمر القاسمى بنيابة الكرک من يومه و على ملكتمرا المحمدى بنيابة صفد، و نفى اطقتمر المؤمنى إلى أسوان و خلع على الأمير ألجاى اليوسفى حاجب الحجّاب و استقرّ أمير جاندار، و أفرج عن الأمير طاز اليوسفى الناصرى من اعتقاله بثغر الإسكندرية بعد أن حبس بها ثلاث سنين و زيادة، و كان السلطان الملک الناصر حسن قد أكحله و أفرج أيضا عن أخوىّ طاز: الأمير جنتمر و كلتاى؛ و قرابغا و حضروا الجمع إلى بين يدى السلطان، و حضر طاز و على عينيه شعرية فأخلع عليه و سأل أن يقيم بالقدس فأجيب و سافر إلى القدس و أقام به إلى أن مات على ما سيأتى ذكره إن شاء اللّه تعالى.

و لمّا بلغ خبر قتل الملک الناصر حسن إلى الشأم عظم ذلک على بيدمر نائب الشأم و خرج عن الطاعة فى شعبان من سنة اثنتين و ستين و سبعمائة و عصى معه أسند مر الزينىّ و منجک اليوسفى و حصّنوا قلعة دمشق، فلمّا بلغ ذلک يلبغا العمرى استشار الأمراء فى أمرهم فاتّفقوا على خروج السلطان إلى البلاد الشامية و تجهّز يلبغا و جهّز

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج١١، ص: ۵

السلطان الملک المنصور إلى السفر و أنفق فى الأمراء و العساكر و خرج السلطان و يلبغا بالعساكر المصرية إلى الرّيدانية فى أواخر شعبان.

ثم رحل الأمير يلبغا جاليش العسكر فى يوم الاثنين مستهلّ شهر رمضان و رحّل السلطان الملک المنصور فى يوم الثلاثاء الثانى منه ببقية العساكر و ساروا حتى وصلوا دمشق فى السابع و العشرين من شهر رمضان المذكور، فتحصّن الأمراء المذكورون بمن معهم فى قلعة دمشق، فلم يقاتلهم يلبغا و سيّر إليهم فى الصلح و تردّدت الرسل إليهم، و كان الرسل قضاة الشام، حتى حلف لهم يلبغا أنه لا يؤذيهم و أمّنهم فنزلوا حينئذ إليه، فحال وقع بصره عليهم أمر بهم فقبضوا و قيّدوا و حملهم إلى الإسكندرية الى الاعتقال بها و خلع يلبغا على أمير علىّ المارديني بنيابة دمشق على عادته أوّلا، و هذه ولاية أمير علىّ الثالثة على دمشق و تولّى الأمير قطلوبغا الأحمدى رأس نوبة نيابة جلب عوضا عن الأمير شهاب الدين أحمد بن القشتمرى.

و أقام السلطان و يلبغا مدّة أيام، و مهّد يلبغا أمور البلاد الشامية حتى استوثق له الأمر. ثم عاد إلى جهة الديار المصرية و صحبته الملک المنصور و العساكر حتى وصل إليها فى ذى القعدة من سنة اثنتين و ستين و سبعمائة. و صار الأمر جميعه ليلبغا و أخذ يلبغا فى عزل من اختار عزله و تولية من اختاره، فأخلع على الطواشى سابق الدين مثقال الآنوكى زمام الدار و استقرّ فى تقدمة المماليک السلطانية عوضا عن الطواشى شرف الدين مخلص الموفّقى.

ثم فى شهر رجب استقرّ الأمير طغيتمر النّظامى حاجب الحجاب بالديار المصرية، و كانت شاغرة منذ ولّى ألجاى اليوسفى الأمير جاندار، ثم فى شعبان استقرّ الأمير قطلقتمر العلائى الجاشنكير أمير مائة و مقدّم ألف بديار مصر.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج١١، ص: ۶

ثم فى شوّال أخلع على الأمير إشقتمر المارديني أمير مجلس بنيابة طرابلس و استقر طغيتمر النظامى عوضه أمير مجلس، و استقر الأمير اسنبغا الأبوبكرىّ حاجب الحجّاب عوضا عن طغيتمر النظامى. ثم أخلع على الأمير عزّ الدين أيدمر الشيخى بنيابة حماة. ثم استقرّ الأمير منكلى بغا الشمسى فى نيابة حلب عوضا عن قطلوبغا الأحمدى بحكم وفاته. ثم أمسک الأمير شرف الدين موسى بن الأزكشى الأستادار و نفى الى حماة و استقرّ عوضه فى الأستادارية أروس المحمودى.

ثم تزوّج الأمير الكبير يلبغا بطولوبيه زوجة أستاذه الملك الناصر حسن.

و فى هـذه السـنة بويع المتوكّل على اللّه أبو عبـد اللّه محمد بالخلافة بعد وفاة أبيه المعتضد بالله أبى بكر بعهد من أبيه فى يوم الأربعاء ثامن عشر جمادى الأولى سنة ثلاث و ستين و سبعمائة.

ثم أشيع فى هذه السنة عن السلطان الملك المنصور محمد أمور شنعة نفّرت قلوب الأمراء منه و اتّفقوا على خلعه من السلطنة، فخلع فى يوم الثلاثاء خامس عشر شعبان سنة أربع و ستين و سبعمائة و تسلطن بعده ابن عمه الملك الأشرف شعبان بن حسين، و حسين المذكور لم يتسلطن غير أنه كان لقّب بالأمجد من غير سلطنة، و أخذوا الملك المنصور محمدا و حبسوه داخل الدور السلطانية بقلعة الجبل. و كانت مدّة سلطنته سنتين و ثلاثة أشهر و ستة أيام، و ليس له فيها من السلطنة إلا مجرّد الاسم فقط.

و الأتابک يلبغا هو المتصرف فى سائر أمور المملكة.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۷

و سبب خلعه- و الذى أشيع عنه- أنه بلغ الأتابک يلبغا أنه كان يدخل بين نساء الأمراء و يمزح معهن، و أنه كان يعمل مكاريّا للجوارى و يركبهنّ و يجرى هو وراء الحمار بالحوش السلطانى و أنه كان يأخذ زنبيلا- فيه كعك و يدخل بين النساء و يبيع ذلک الكعک عليهن على سبيل المماجنة. و أنه يفسق فى حريم الناس و يخلّ بالصلوات و أنه يجلس على كرسى الملک جنبا و أشياء غير ذلک، فاتّفق الأمراء عند ذلک على خلعه فخلعوه و هم يلبغا العمرى الخاصّكى و طيبغا الطويل و أرغون الإسعردى و أرغون الأشرفى و طيبغا العلائى و ألجاى اليوسفى و أروس المحمودى و طيدمر البالسى و قطلوبغا المنصورى و غيرهم من المقدّمين و الطبلخانات و العشروات.

و استمر الملک المنصور محبوسا بالدور السلطانية من القلعه إلى أن مات بها فى ليلة السبت تاسع المحرّم من سنة إحدى و ثمانمائة. و زوّج الملک الظاهر برقوق الوالد بابنته خوند فاطمة فى حياة والدها الملک المنصور المذكور و استولدها الوالد عدّة أولاد و ماتت تحته فى سنة أربع و ثمانمائة، و لما مات الملک المنصور صلّى عليه الملک الظاهر برقوق بالحوش السلطانى من القلعة و دفن بتربة جدّته أمّ أبيه بالروضة خارج

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۸

باب المحروق بالقرب من الصحراء، و كان محبّا للهو و الطرب راضيا بما هو فيه من العيش الطيب، و كان له مغان عدّة، جوقة كاملة زيادة على عشر جوار يعرفن بمغانى المنصور استخدمهنّ الوالد بعد موته، و كانت العادة تلک الأيام، أنّ لكل سلطان أو ملک يكون له جوقة من المغانى عنده فى داره، و لم يخلّف الملک المنصور مالا- له صورة و خلّف عدّة أولاد ذكور و إناث. رأيت أنا جماعة منهم. انتهى و اللّه أعلم.

السنة الأولى و هى سنة اثنتين و ستين و سبعمائة و مدبّر الممالک يلبغا العمرىّ على أن الملک الناصر حسنا حكم منها إلى تاسع جمادى الأولى ثم حكم فى باقيها الملک المنصور هذا.

فيها كان خلع الملک الناصر حسن و قتله حسب ما تقدّم و سلطنة الملک المنصور هذا.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۹

و فيها توفّى الأديب شمس الدين أبو عبد اللّه محمد بن علىّ بن محمد المعروف بابن أبى طرطور الشاعر المشهور و بحماة عن بضع و سبعين سنة. و كان رحمه اللّه شاعرا ماهرا حسن العشرة، مدح الأكابر و الأعيان و رحل إلى الشام ثم استوطن حماة إلى أن مات. رحمه اللّه. و من شعره فى مليح اسمه يعقوب، و هو هذا. [الرمل]

يا مليحا حاز و جها حسنا أورث الصّبّ البكا و الحزنا

غلطوا فى اسمک إذ نادوا به يوسف أنت و يعقوب أنا

و توفّى الحافظ المفتّن علاء الدين أبو عبد اللّه مغلطاى بن قليح بن عبد اللّه البكجرىّ الحنفىّ الحافظ المصنف المحدّث المشهور فى شعبان و مولده سنة تسعين و ستمائة قاله ابن رافع، و غيره فى سنة تسع و ثمانين و سمع من التاج أحمد ابن دقيق العيد و ابن الطبّاخ و الحسن بن عمر الكردىّ و أكثر عن شيوخ عصره و تخرّج بالحافظ فتح الدين ابن سيد الناس و غيره و رحل و كتب و صنّف «و شرح صحيح البخارىّ» و رتب «صحيح ابن حبّان» «و شرح [سنن] أبى داود» و لم يكمّله و ذيّل على «المشتبه لابن نقطة» و ذيّل على «كتاب الضعفاء لابن الجوزىّ» و له عدّة مصنّفات أخر، و كان له اطلاع كبير و باع واسع فى الحديث و علومه و له مشاركة فى فنون عديدة. تغمّده اللّه برحمته.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۱۰

و توفّى الشيخ الإمام البارع المحدّث العلامة جمال الدين عبد اللّه بن يوسف [ابن محمد] الزّيلعىّ الحنفىّ فى الحادى و العشرين من المحرّم. و كان- رحمه اللّه- فاضلا بارعا فى الفقه و الأصول و الحديث و النحو و العربية و غير ذلك، و صنّف و كتب و أفتى و درّس و خرّج أحاديث الكشّاف فى جزء و أحاديث الهداية [فى الفقه على مذهب أبى حنيفة] فى أجزاء و أجاد، أظهر فيه على اطلاع كبير و باع واسع.

رحمه اللّه تعالى.

و توفّى السيّد الشريف شهاب الدين حسين بن محمد بن الحسين بن محمد بن الحسين بن زيد الحسينىّ المصرىّ الشافعىّ الشهير بابن قاضى العسكر نقيب الأشراف بالديار المصرية عن أربع و ستين سنة و كان كاتبا بارعا أديبا بليغا كتب الإنشاء بمصر و باشر كتابة السّر بحلب و له ديوان خطب و تعاليق و نظم و نثر، و من شعره قوله.

[المتقارب]

تلقّ الأمور بصبر جميل و صدر رحيب و خل الجرج

و سلّم إلى اللّه فى حكمه فإمّا الممات و إمّا الفرج

و توفّى القاضى شهاب الدين أبو العباس أحمد بن عبد الوهاب بن خلف [ابن محمود بن على] بن بدر المعروف بابن بنت الأعز العلامىّ الفقيه الشافعى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۱۱

فى يوم الخميس ثامن عشر شهر ربيع الآخر و كان فقيها بارعا فاضلا ولى نظر الأحباس بالقاهرة و وكالة بيت المال و عدّة وظائف دينيّة- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الأمير سيف الدين بلبان بن عبد اللّه السّنانى الناصرى الأستادار و أحد أمراء المقدّمين بالقاهرة، و كان من أعيان أمراء الديار المصرية و فيه شجاعة و مروءة و كرم. تغمّده اللّه برحمته.

و توفّى القاضى شمس الدين أبو عبد اللّه محمد بن عيسى [بن عيسى] بن محمد ابن عبد الوهاب بن ذؤيب الآمدى الدمشقىّ الشافعىّ المعروف بابن قاضى شهبة- رحمه اللّه- كان إماما بارعا أديبا ماهرا باشر الخطابة بمدينة غزّة سنين، ثم كتب الإنشاء بدمشق و كان له نظم و نثر و خطب.

و توفّى الشيخ شمس الدين محمد بن مجد الدين عيسى بن محمود [بن عبد اللطيف البعلبكى] المعروف بابن المجد الموسوى فى سلخ صغر، و كان فقيها فاضلا إلا أنه كان غلب عليه الوسواس، حتى إنه كان فى بعض الأحيان يتوضّأ من فسقية الصالحية بين القصرين فلا يزال به وسواسه حتى يلقى نفسه فى الماء بثيابه.

و توفّى الفقيه الكاتب المنشئ كمال الدين أبو عبد اللّه محمد بن شرف الدين أحمد ابن يعقوب بن فضل بن طرخان الزينبىّ الجعفرىّ العباسىّ الدمشقىّ الشافعىّ بضواحى القاهرة. كان معدودا من الرؤساء الفضلاء الأدباء.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۱۲

و توفّى الشيخ المعمّر المعتقد أبو العباس أحمد بن موسى الزرعىّ الحنبلىّ أحد الآمرين بالمعروف و الناهين عن المنكر فى المحرّم بمدينة حبراص من الشأم و كان قويا فى ذات اللّه جريئا على الملوك و السلاطين. أبطل عدّة مكوس و مظالم كثيرة و قدم إلى القاهرة أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون و له معه أمور يطول شرحها و كان يخاطب الملوك كما يخاطب بعض الحرافيش و له على ذلك قوّة و شدّة بأس. رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الأمير سيف الدين برناق بن عبد اللّه نائب قلعة دمشق بها فى شعبان و كان مشكور السّيرة فى ولايته.

و توفّى قاضى الكرك محيى الدين أبو زكريّا يحيى بن عمر بن الزكىّ الشافعى- رحمه اللّه- فى أوائل ذى القعدة و هو معزول.

و توفّى قتيلا صاحب فاس من بلاد المغرب السلطان أبو سالم إبراهيم ابن السلطان أبى الحسن على بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق المرينىّ فى ليلة الأربعاء ثامن عشر ذى القعدة- رحمه اللّه تعالى- و كان من أجلّ ملوك الغرب.

و توفّى الخواجا عزّ الدين حسين بن داود بن عبد السيّد بن علوان السّلامى التاجر فى شهر رجب بدمشق و قد حدّث و كان مثريا و خلّف مالا كبيرا.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و اثنتا عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا و عشر أصابع. و اللّه أعلم.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۱۳

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۶۳]

السنة الثانية من سلطنة الملك المنصور محمد ابن الملك المظفر حاجّى على مصر و هى سنة ثلاث و ستين و سبعمائة.

فيها توفّى الشيخ الإمام العالم الخطيب شمس الدين أبو أمامة محمد بن على بن عبد الواحد بن يحيى بن عبد الرحيم الدّكّالى المصرى الشافعى الشهير بابن النقاش- رحمه اللّه تعالى- فى يوم الثلاثاء ثالث عشر شهر ربيع الأوّل و دفن آخر النهار بالقرب من باب البرقيّة خارج القاهرة عن ثلاث و أربعين سنة.

و كان إماما بارعا فصيحا مفوّها و له نظم و نثر و مواعيد. و خطب بجامع أصلم و درّس به و بالآنوكيّة و عمل عدّة مواعيد بالقاهرة و القدس و الشأم و اتّصل بالملك الناصر حسن و حظى عنده و هو الذى كان سببا لخراب بيت الهرماس الذى

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۱۴

كان عمّره فى زيادة جامع الحاكم و ساعده فى ذلك العلّامة قاضى القضاة سراج الدين الهندىّ الحنفى و كان له نظم و نثر و خطب و من شعره قصيدته التى أوّلها:

[الكامل]

طرقت و قد نامت عيون الحسّد و توارت الرقباء غير الفرقد

و توفّى قاضى القضاة تاج الدين أبو عبد اللّه محمد ابن القاضى علم الدين محمد بن أبى بكر بن عيسى بن بدران السّعدى الإخنائى المالكىّ- رحمه اللّه- بالقاهرة، و كان فقيها فاضلا رئيسا ولى نظر الخزانة السلطانية ثم باشر الأحكام الشرعية إلى أن مات.

و توفّى الخليفة أمير المؤمنين المعتضد بالله أبو الفتح ثم أبو بكر ابن الخليفة المستكفى بالله أبى الربيع سليمان ابن الخليفة الحاكم بأمر اللّه أبى العباس أحمد بن الحسن بن

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۱۵

أبى بكر بن على بن حسن ابن الخليفة الراشد بالله منصور ابن الخليفة المسترشد بالله الفضل ابن الخليفة المستظهر بالله أحمد ابن

الخليفة المقتدى بالله عبيد اللّه ابن الأمير ذخيرة الدين محمد ابن الخليفة القائم بأمر اللّه عبد اللّه ابن الخليفة القادر بالله أحمد ابن الأمير إسحاق ابن الخليفة المقتدر بالله جعفر ابن الخليفة المعتضد بالله أحمد ابن الأمير الموفّق طلحة ابن الخليفة المتوكّل على اللّه جعفر ابن الخليفة المعتصم بالله محمد ابن الخليفة الرشيد بالله هارون ابن الخليفة المهدى محمد ابن الخليفة أبى جعفر المنصور عبد اللّه بن محمد بن على بن عبد اللّه بن عباس العباسى الهاشمى المصرى- رحمه اللّه- بالقاهرة فى ليلة الأربعاء ثامن عشر شهر جمادى الأولى و عهد بالخلافة لولده من بعده المتوكّل محمد.

و توفّى الأمير سيف الدين طاز بن عبد اللّه الناصرىّ المقدّم ذكره فى عدّة أماكن من تراجم أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون و هو بطّال بالقدس و كان من خواصّ الملك الناصر محمد ثم ترقّى بعد موته إلى أن صار مدبّر الديار المصرية.

ثم ولى نيابة حلب بعد أمور وقعت له ثم قبض عليه و حبس و سمل إلى أن أطلقه يلبغا فى أوائل سلطنة الملك المنصور محمد هذا و أرسله إلى القدس بطّالا فمات به و كان من الشجعان.

و توفّى القاضى أمين الدين محمد بن جمال الدين أحمد بن محمد بن محمد بن نصر اللّه المعروف بابن القلانسىّ التميمى الدّمشقى بها. كان أحد أعيان دمشق معدودا من الرؤساء، باشربها عدّة وظائف ثم ولى كتابة سرّ دمشق أخيرا، و كان فاضلا كاتبا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۱۶

و توفّى القاضى ناصر الدين محمد ابن الصاحب شرف الدين يعقوب بن عبد الكريم الحلبى الشافعى كاتب سرّ حلب ثم دمشق. ولد سنة سبع و سبعمائة بحلب و نشأ بها، و برع فى عدّة علوم و أذن له بالإفتاء و التدريس و ولى كتابة السّرّ و الإنشاء بحلب عوضا عن القاضى شهاب الدين ابن القطب و أضيف إليه قضاء العسكر بها. ثم نقل الى كتابة سرّ دمشق بعد وفاة تاج الدين بن الزين خضر، و كان ساكنا محتملا مداريا كثير الإحسان إلى الفقراء. و كان يكتب خطّا حسنا، و له نظم و نثر جيّد إلى الغاية و كان مستحضرا للفقه و أصوله و قواعد أصول الدين و المعانى و البيان و الهيئة و الطب و من شعره رحمه اللّه: [الرمل]

و كأنّ القطر فى ساجى الدّجى لؤلؤ رصّع ثوبا أسودا

فإذا جادت على الأرض غدا فضّة تشرق مع بعد المدى

و توفّى الأمير سيف الدين أينبك بن عبد اللّه أخو الأمير بكتمر الساقى و كان من جملة أمراء الطبلخانات.

و توفّى الأمير الطواشى صفىّ الدين جوهر الزّمرّدى بقوص فى شعبان و كان من أعيان الخدّام و له رياسة ضخمة.

و توفّى الشيخ الإمام العالم شمس الدين محمد بن مفلح بن محمد بن مفرّج الدمشقى الحنبلى بدمشق فى شهر رجب. و كان فقيها بارعا مصنّفا صنّف «كتاب الفروع» و هو مفيد جدّا و غيره.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۱۷

و توفّى الشيخ المعتقد فتح الدين يحيى بن عبد اللّه بن مروان [بن عبد اللّه بن قمر] الفارقىّ الأصل الدمشقى الشافعى فى شهر ربيع الأوّل بدمشق و مولده بالقاهرة فى سنة اثنتين و سبعين و ستمائة- رحمه اللّه تعالى- و كان صالحا عالما صوفيّا.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ست أذرع سواء. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و إصبعان.

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۶۴]

السنة الثالثة من سلطنة الملك المنصور محمد على مصر و هى سنة أربع و ستين و سبعمائة و هى التى خلع فيها الملك المنصور المذكور بابن عمه الأشرف شعبان بن حسين فى شعبان منها.

فيها كان الطاعون بالديار المصرية و البلاد الشامية و مات فيه خلق كثير، لكنه كان على كلّ حال أخفّ من الطاعون الأوّل الذى كان فى سنة تسع و أربعين و سبعمائة المقدّم ذكره.

و فيها توفّى الشيخ عماد الدين أبو عبد اللّه محمد بن الحسن بن على بن عمر القرشى الإسنائى الشافعى فى ثامن عشرين جمادى الآخرة و دفن خارج باب النصر من القاهرة. كان إماما عالما مفتيا مدرّسا.

و توفّى الشيخ سراج الدين أبو حفص عمر بن شرف الدين عيسى بن عمر البارينىّ الشافعى الحلبى بحلب عن ثلاث و ستين سنة و كان من الفقهاء الأفاضل- رحمه اللّه.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۱۸

و توفّى القاضى كمال الدين أبو العباس أحمد ابن القاضى تاج الدين محمد بن أحمد بن محمد بن عبد القاهر بن هبة اللّه بن عبد القاهر بن عبد الواحد بن هبة اللّه ابن طاهر بن يوسف الحلبى الشهير بابن النصيبى بحلب عن تسع و ستين سنة.

كان كاتبا بارعا سمع الحديث و حدث و علّق بخطه كثيرا، و باشر كتابة الإنشاء بحلب ثم ترك ذلك كلّه و لزم العزلة إلى أن مات.

و توفّى الصاحب تقىّ الدين سليمان بن علاء الدين علىّ بن عبد الرحيم بن أبى سالم بن مراجل الدّمشقى بدمشق و هو من أبناء الثمانين، و كان كاتبا رئيسا، ولى نظر الدولة بمصر، ثم ولى وزارة دمشق و نظر قلعتها و غير ذلك من الوظائف، و نقل فى عدّة خدم؛ و من إنشاده لوالده: [الطويل]

أ أحبابنا شوقى إليكم مضاعف و ذكركم عندى مع البعد وافر

و قلبى لمّا غبتم طار نحوكم و أعجب شىء واقع و هو طائر

و توفّى القاضى شمس الدين عبد اللّه بن شرف الدين يوسف بن عبد اللّه بن يوسف بن أبى السفّاح الحلبى بالقاهرة عن نيّف و خمسين سنة- رحمه اللّه- كان جليلا باشر كتابة الإنشاء بحلب و عدّة من الوظائف الديوانية و تنقّل فى الخدم و قال فى مرض موته: [الخفيف]

إن قضى اللّه موتتى و فراقى أحبّتى

فعليهم تأسّفى و إليهم تلفّتى

أو يكن حان مصرعى و تدانت منيّتى

رحم اللّه مسلّما زار قبرى و حفرتى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۱۹

و توفّى الشيخ الإمام البارع الأديب المفتن صلاح الدين أبو الصفاء خليل ابن الأمير عز الدين أيبك بن عبد اللّه الألبكى الصّفدى الشاعر المشهور بدمشق فى ليلة الأحد عاشر شوّال. و مولده سنة ستّ و تسعين و ستمائة و كان إماما بارعا كاتبا ناظما ناثرا شاعرا. و ديوان شعره مشهور بأيدى الناس و هو من المكثرين.

و له مصنّفات كثيرة فى التاريخ و الأدب و البديع و غير ذلك و تاريخه المسمّى:

«الوافى بالوفيات» فى غاية الحسن وقفت عليه و انتقيته و نقلت منه أشياء كثيرة فى هذا المؤلّف و فى غيره، و له تاريخ آخر أصغر من هذا سمّاه «أعوان النصر فى أعيان العصر» فى عدّة مجلدات.

و قد استوعبنا من أحواله و شعره و مكاتباته نبذة كبيرة فى ترجمته فى تاريخنا «المنهل الصافى و المستوفى بعد الوافى» و تسميتى للتاريخ المذكور «و المستوفى بعد الوافى» إشارة لتاريخ الشيخ صلاح الدين هذا، لأنه سمّى تاريخه: «الوافى بالوفيات» إشارة على تاريخ ابن خلّكان أنه يوفّى بما أخلّ به ابن خلّكان، فلم يحصل له ذلك وسكت هو أيضا: عن خلائق فخشيت أنا أيضا أن أقول: «و المستوفى على الوافى» فيقع لى كما وقع له؛ فقلت: «و المستوفى بعد الوافى» انتهى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۲۰

قلت: و قد خرجنا عن المقصود و لنعود لترجمة الشيخ صلاح الدين و نذكر من مقطّعاته ما تعرف به طبقته بين الشعراء على سبيل

الاختصار، فمن شعره بسندنا إليه: أنشدنا مسند عصره ابن الفرات الحنفىّ إجازة، أنشدنا الشيخ صلاح الدين خليل الصّفدىّ إجازة. [السريع]

المقلة السوداء أجفانها ترشق فى وسط فؤادى نبال

و تقطع الطّرق على سلوتى حتى حسبنا فى السّويدا رجال

قال- و له أيضا- رحمه اللّه تعالى: [الوافر]

محيّاه له حسن بديع غدا روض الخدود به مزهّر

و عارضه رأى تلك الحواشى مذهّبة فزمّكها و شعّر

و له- عفا اللّه عنه-: [البسيط]

بسهم ألحاظه رمانى فذبت من هجره و بينه

إن متّ مالى سواه خصم فإنه قاتلى بعينه

و قال: [المتقارب]

كئوس المدام تحبّ الصّفا فكن لتصاويرها مبطلا

و دعها سواذج من نقشها فأحسن ما ذهّبت بالطّلا

و له: [الطويل]

أقول له ما كان خدّك هكذا و لا الصّدغ حتى سال فى الشّفق الدّجى

فمن أين هذا الحسن و الظّرف قال لى تفتّح وردى و العذار تخرّجا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۲۱

و له: [الكامل]

أنفقت كنز مدائحى فى ثغره و جمعت فيه كلّ معنى شارد

و طلبت منه جزاء ذلك قبلة فأبى وراح تغزّلى فى البارد

و له: [المنسرح]

أفديه ساجى الجفون حين رنا أصاب منّى الحشا بسهمين

أعدمنى الرشد فى هواه و لا أفلح شئ يصاب بالعين

و له: [البسيط]

سألتم عن منام عينى و قد براه جفا و بين

و النوم قد غاب حين غبتم و لم تقع لى عليه عين

و توفّى الأمير بدر الدين حسين المنعوت بالملك الأمجد ابن السلطان الملك الناصر محمد ابن السلطان الملك المنصور قلاوون بالقلعة فى ليلة السبت رابع شهر ربيع الآخر و هو آخر من بقى من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون من الذكور، و هو والد السلطان الملك الأشرف شعبان بن حسين. و موته قبل سلطنة ولده الأشرف بنحو خمسة شهور و أيام و لو عاش لما كان يعدل عنه يلبغا إلى غيره. و كان حسين هذا حريصا على السلطنة فلم ينلها دون إخوته على أنه كان أمثل إخوته.

و توفّى الأمير سيف الدين بزدار الخليلىّ أمير شكار أحد مقدّمى الألوف بالديار المصرية بها، و كان من أعيان الأمراء؛ عرف بالشجاعة و الإقدام.

و توفّى شيخ القراءات مجد الدين أبو الفداء إسماعيل بن محمد بن يوسف بن محمد الكفتى فى نصف شعبان- رحمه اللّه- و كان

إماما فى القراءات، تصدّى للإقراء سنين و انتفع الناس به.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۲۲

و توفّى السيد الشريف غياث الدين أبو إسحاق إبراهيم ابن الشريف صدر الدين حمزة العراقىّ والد الشريف مرتضى- تغمده اللّه تعالى- و كان رئيسا فاضلا نبيلا.

و توفّى الأمير سيف الدين جركس بن عبد اللّه النّوروزىّ أحد أمراء الطبلخانات بالقاهرة و كان من أعيان المماليك الناصرية.

و توفّى الشيخ المعتقد مسلم السلمى المقيم بجامع الفيلة - رحمه اللّه- كان صالحا مجاهدا عابدا قائما فى ذات اللّه تعالى و كان يجاهد بطرابلس الغرب و يقيم حاله و فقراءه من الغنائم. و له كرامات و مناقب، فمن ذلك كان عنده سبع ربّاه حتى صار بين فقرائه كالهرّ يدور البيوت: فلما مات الشيخ- رحمه اللّه- أخذه السّبّاعون فتوحّش عندهم إلى الغاية، حتى أبادهم و عجزوا عنه.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۲۳

و توفّى الأمير سيف الدين قطلوبغا بن عبد اللّه الأحمدى الناصرىّ نائب حلب بها، و كان من خواصّ الملك الناصر محمد بن قلاوون و ترقّى من بعده حتى صار أمير مائة و مقدّم ألف بديار مصر. ثم ولى حجوبية الحجّاب بها ثم أمير مجلس ثم ولى نيابة حلب فى أوائل سلطنة الملك المنصور محمد بن المظفّر حاجىّ صاحب الترجمة، فلم تطل مدّته بحلب و مات بها، و كان من الأماثل. رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الطواشى صفىّ الدين جوهر بن عبد اللّه اللّالا. و كان من أعيان الخدّام، و له عزّ و وجاهة.

و توفّى خطيب دمشق جمال الدين أبو الثناء محمود بن محمد بن إبراهيم بن جملة فى يوم الاثنين العشرين من شهر رمضان، و كان فصيحا، مفوّها ولى خطابة دمشق سنين.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم لم يحرّر. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و أربع أصابع. و اللّه أعلم بالصواب.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۲۴

ذكر سلطنة الملك الأشرف شعبان بن حسين على مصر.

السلطان الملك الأشرف أبو المفاخر زين الدين شعبان ابن الملك الأمجد حسين ابن السلطان الملك الناصر محمد ابن السلطان الملك المنصور قلاوون. تسلطن باتفاق الأمير يلبغا العمرى و طيبغا الطويل مع الأمراء على سلطنته بعد خلع ابن عمه الملك المنصور محمد ابن الملك المظفّر حاجّى و هو السلطان الثانى و العشرون من ملوك الترك بالديار المصرية.

و لمّا اتفق الأمراء على سلطنته أحضر الخليفة المتوكّل على اللّه أبو عبد اللّه محمد و القضاة الأربعة و أفيض عليه الخلعة الخليفتيّة السوداء بالسلطنة و جلس على تخت الملك و عمره عشر سنين فى يوم الثلاثاء خامس عشر شعبان سنة أربع و ستين و سبعمائة من غير هرج فى المملكة و لا اضطراب فى الرعية، بل فى أقلّ من قليل وقع خلع المنصور و سلطنة الأشرف هذا و انتهى أمرهما و نزل الخليفة إلى داره و عليه التشريف و لم يعرف الناس ما وقع إلا بدقّ البشائر و المناداة باسمه و زيّنت القاهرة و تمّ أمره على أحسن الأحوال.

و مولد الأشرف هذا فى سنة أربع و خمسين و سبعمائة بقلعة الجبل. و استقرّ الأتابك يلبغا العمرى الخاصّكى مدبّر الممالك و معه خجداشه الأمير طيبغا الطويل أمير سلاح على عادتهما و عند ما ثبّت قواعد الملك الأشرف أرسل يلبغا بطلب الأمير على المارديني نائب الشام إلى مصر فلمّا حضر أخلع عليه بنيابة السلطنة بديار مصر و تولّى عوضه نيابة دمشق الأمير منكلى بغا الشمسى نائب حلب و تولى نيابة حلب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۲۵

عوضا عن الشمسىّ الأمير اشقتمر الماردينى و تولّى نيابة طرابلس عوضّا عن اشقتمر الأمير أزدمر الخازن نائب صفد و تولّى نيابة صفد عوضا عن أزدمر الخازن الأمير قشتمر المنصورى الذى كان نائبا بالديار المصرية لأمر وقع منه فى حقّ يلبغا العمرى الأتابكى و استقرّ

الأمير أرغون الأحمدى الخازندار لا لا الملك الأشرف شعبان و استقرّ الأمير يعقوب شاه السّيفى [تابع] يلبغا اليحياوى خازندارا عوضا عن أرغون الأحمدى ثم استقرّ الأمير أرنبغا الخاصّكى فى نيابة غزّة عوضا عن تمان تمر العمرى بحكم وفاته. ثم ولى الأمير عمر شاه حاجب الحجاب نيابة حماة عوضا عن أيدمر الشيخى و استقر الشريف بكتمر فى ولاية القاهرة عوضا عن علاء الدين علىّ بن الكورانىّ بحكم استعفائه عنها. ثم استقرّ الأمير أحمد بن القشتمرى فى نيابة الكرك. ثم ورد الخبر بوقوع الوباء بمدينة حلب و أعمالها و أنه مات بها خلق كثير، و الأكثر فى الأطفال و الشبان.

ثم نزل السلطان الملك الأشرف شعبان إلى سرياقوس بعساكره على عادة الملوك.

ثم سمّر الأتابك يلبغا خادمين من خدّام السلطان الملك المنصور لكلام بلغه عنهما فشفع فيهما فخلّيا و نفيا إلى قوص.

ثم فى سنة خمس و سبعين أنعم على الأمير طيدمر البالسىّ بإمرة مائة و تقدمة ألف بالديار المصرية.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ١١، ص: ٢۶

ثم أخلع على الأمير أسن قجا بنيابة ملطية فى ثالث صفر و استقرّ الأمير عمر بن أرغون النائب فى نيابة صفد عوضا عن قشتمر المنصورى و حضر قشتمر المذكور الى مصر على إقطاع عمر بن أرغون المذكور و استقر الأمير طينال الماردينىّ نائب فلعة الجبل عوضا عن ألطنبغا الشمسى بحكم استعفائه. ثم أنعم على جماعة بإمرة طبلخاناه و هم تمربغا العمرىّ و محمد بن قمارى أمير شكار و ألطنبغا الأحمدىّ و آقبغا الصّيفوىّ و أنعم أيضا على جماعة بإمرة عشرات و هم: إبراهيم بن صرغتمش و أرزمک من مصطفى و محمد بن قشتمر و آقبغا الجوهرى و طشتمر العلائىّ خازندار طيبغا الطويل و طاجار من عوض و آروس بغا الخليلىّ و رجب بن كلبک التركمانىّ.

ثم وقع الفناء فى هذه السنة فى البقر حتى هلک منها شئ كثير و أضرّ ذلک بحال الزرّاع.

ثم فى هذه السنة فتح الأمير منكلى بغا الشمسىّ نائب الشام باب كيسان، أحد أبواب دمشق بحضور أمراء الدوله و أعيان أهل دمشق، و ذلک بعد بروز المرسوم الشريف إليه بذلک و عقد عليه قنطرة كبيرة و مدّ له الى الطريق جسرا و عمّر هناک جامعا و كان هذا مغلقا من مدّة تزيد على مائتى سنة، كان سدّه الملک العادل نور الدين محمود الشهيد لأمر اقتضى ذلک، فيه مصلحة للإسلام.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ١١، ص: ٢٧

ثم رسم فى هذه السنة بإبطال الوكلاء المتصرفين فى أبواب القضاة. و فى هذا المعنى يقول الشيخ بدر الدين حسن بن حبيب، رحمه اللّه تعالى: [السريع]

يقول ذو الحقّ الذى عاله خصم ألدّ و لسان كليل

إن صيّروا أمر وكيلى سدّى فحسبى اللّه و نعم الوكيل

ثم استقرّ الأمير يعقوب شاه أمير آخور عوضا عن الأمير جرجى الإدريسىّ بحكم انتقال جرجى إلى نيابة حلب عوضا عن إشقتمر الماردينى.

ثم فى سنة ست و ستين و سبعمائة استقرّ الأمير قطلقتمر العلائىّ أمير جاندار فى نيابة صفد عوضا عن الأمير عمر بن أرغون النائب و حضر عمر بن أرغون إلى مصر على إقطاع قطلقتمر المذكور فى سابع شهر رجب. ثم استقرّ الأمير عبد اللّه ابن بكتمر الحاجب أمير شكار عوضا عن الأمير ناصر الدين محمد بن ألجيبغا، و استقرّ أسندمر العلائى الحرفوش حاجبا عوضا عن عبد اللّه بن بكتمر المذكور. ثم أنعم السلطان على الأمير أسندمر المظفّرى بإمرة مائة و تقدمة ألف بالديار المصرية فى سلخ شهر رمضان. ثم أنعم على الأمير شعبان ابن الأتابک يلبغا العمرى بإمرة مائة و تقدمة ألف.

ثم استقرّ الأمير قشتمر المنصورىّ فى نيابة طرابلس، و استقرّ الأمير أزدمر الخازن فى نيابة صفد عوضا عن الأمير قطلقتمر العلائىّ.

ثم استقرّ الأمير ألطنبغا البشتكى فى نيابة غزة عوضا عن أرنبغا الكاملى بحكم وفاته.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۲۸

ثم أخلع على الأمير منجك اليوسفى باستقراره فى نيابة طرسوس بعد تلك الرتّب العالية من تحكمه لمّا ولى الوزر [بالديار المصرية] و نيابة طرابلس و الشام و قد تقدّم ذكر ذلک كلّه فى عدة أماكن، و إنما أردنا التعريف به هنا لما تقدّم له و لما هو آت. و كانت ولاية منجک اليوسفى لنيابة طرسوس عوضا عن قمارى أمير شكار بحكم وفاته فى سلخ ذى القعدة.

ثم أنعم السلطان على جماعة بإمرة طبلخاناه و هم: قطلوبغا البلبانىّ و كمشبغا الحموى أحد مماليک الأتابک يلبغا العمرىّ و آقبغا الجوهرى أحد اليلبغاويّة أيضا و على جماعة بإمرة عشرات و هم: سلجوق الرومى و أروس السّيفى بشتاک و سنقر السيفى أرقطاى ثم أنعم السلطان على الأمير ألجاى اليوسفى فى حادى عشرين شهر رجب بإمرة جاندار.

و فى هذه السنة و هى سنة ست و ستين و سبعمائة عزل قاضى القضاة عزّ الدّين عبد العزيز بن محمد بن جماعة نفسه من قضاء الديار المصرية فى سادس عشر جمادى الأولى و نزل إليه الأتابک يلبغا بنفسه الى بيته و سأله بعوده إلى المنصب فلم يقبل ذلک و أشار على يلبغا بتولية نائبه بهاء الدين أبى البقاء السّبكىّ فولى بهاء الدين قضاة الشافعية عوضه. ثم استقرّ قاضى القضاة جمال الدين محمود بن أحمد بن مسعود القونوىّ الحنفى قاضى قضاة دمشق بعد موت قاضى القضاة جمال الدين يوسف ابن أحمد الكفرىّ (بفتح الكاف).

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۲۹

و فى هذه السنة أسلم الصاحب شمس الدين المقسى و كان نصرانيا يباشر فى دواوين الأمراء، فلما أسلم استقرّ مستوفى المماليک السلطانية.

و فى سنة سبع و ستين و سبعمائة أخذت الفرنج مدينة إسكندرية فى يوم الجمعة ثالث عشرين المحرّم، و خبر ذلک أنه لمّا كان يوم الجمعة المذكور طرق الفرنج مدينة الاسكندرية على حين غفلة فى سبعين قطعة و معهم صاحب قبرس و عدّة الفرنج تزيد على ثلاثين ألفا و خرجوا من البحر المالح إلى برّ الإسكندرية فخرج أهلها إليهم فتقاتلوا فقتل من المسلمين نحو أربعة آلاف نفس و اقتحمت الفرنج الإسكندرية و أخذوها بالسيف و استمروا بها أربعة أيام و هم يقتلون و ينهبون و يأسرون و جاء الخبر بذلک إلى الأتابک يلبغا و كان السلطان بسرياقوس، فقام من وقته و رجع إلى القلعة و رسم للعساكر بالسفر إلى الإسكندرية، و صلّى السلطان الظّهر و ركب من يومه و معه الأتابک يلبغا و العساكر الإسلامية فى الحال و عدّوا النيل و جدّوا فى السّير من غير ترتيب و لا تعبية حتى وصلوا إلى الطّرّانة و العساكر يتبع بعضها بعضا، فلمّا وصل السلطان إلى الطرّانة أرسل جاليشا من الأمراء أمامه فى خفية و هم قطلوبغا المنصورى و كوندک و خليل بن قوصون و جماعة من الطبلخانات و العشرات و غيرهم و جدّوا فى السير، و بينماهم فى ذلک جاء الخبر بأن العدوّ المخذول لمّا سمعوا بقدوم

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۳۰

السلطان تركوا الإسكندرية و هربوا، ففرح الناس بذلک، و رسم السلطان بعمارة ما تهدّم من الإسكندرية و إصلاح أسوارها و أخلع السلطان على الشريف بكتمر بنيابة الإسكندرية و أعطاه إمرة مائة و تقدمة ألف و بكتمر هذا هو أوّل نائب ولى نيابة الإسكندرية من النوّاب، و ما كانت أوّلا إلا ولاية، فمن يومئذ عظم قدر نوّابها و صار نائبها يسمى ملک الأمراء ثمّ أمر يلبغا فنودى بمصر و القاهرة بأن البحّارة و النّفاطة كلّهم يحضرون إلى بيت الأتابک يلبغا للعرض و النّفقة ليسافروا فى المراكب التى تنشأ، و بدأ يلبغا فى عمارة المراكب و بعث مراسيم إلى سائر البلاد الشامية و الحلبية بإخراج جميع النجّار بن و كلّ من يعرف يمسک منشارا بيده، و لا يترک واحد منهم، و كلّهم يخرجون إلى جبل شغلان و هو جبل عظيم فيه أشجار كثيرة من الصّنوبر و القرو و نحو ذلک، و هذا الجبل بالقرب من مدينة أنطاكية، و أنهم يقطعون الألواح و ينشرون الأخشاب للمراكب و يحملونها إلى الديار المصرية، فامتثل نائب حلب ذلک و فعل ما أمر به و وقع الشروع فى عمل المراكب.

هذا، و قد ثقل على يلبغا وطأة خشداشه طيبغا الطويل فأراد أن يستبدّ بالأمر وحده و أخذ يلبغا يدبّر عليه فى الباطن. و لقد حكى لى

بعض من رآهما قال:

كانـا ينزلان من الخدمة السلطانية معا، فتقول العامّة: يا طويل حسّك من هذا القصير! فكان طيبغا يلتفت إلى يلبغا و يقول له و هو يضحك: ما يقولون هؤلاء! فيقول يلبغا: هذا شأن العامة يثيرون الفتن. انتهى.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۳۱

و استمرّ يلبغا على ذلك إلى أن خرج طيبغا الطويل إلى الصيد بالعبّاسة أرسل إليه يلبغا جماعة من مقدّمى الألوف و هم: أرغون الإسعردى الدّوادار و الأمير آروس المحمودى الأستادار و أرغون الأزقى و طيبغا العلائى حاجب الحجّاب و معهم تشريف له بنيابة دمشق فساروا حتى قدموا على طيبغا الطويل و أخبروه بما وقع فلما سمع طيبغا ذلك غضب و أبى قبول الخلعة. و خامر و اتّفق معه أرغون الإسعردى الدوادار و آروس المحموديّ و هرب طيبغا العلائى و أرغون الأزقى و لحقا بالأتابك يلبغا و أعلماه بالخبر فركب يلبغا فى الحال و معه السلطان الملك الأشرف شعبان بالعساكر فى صبيحة اليوم المذكور و قد ساق طيبغا الطويل من العبّاسة حتى نزل بقبّة النصر خارج القاهرة ليأتيه من له عنده غرض، فوافاه يلبغا فى حال وصوله بالعساكر و قاتله فاقتتلا ساعة و انكسر طيبغا الطويل بمن معه و أمسک هو و أصحابه من الأمراء و هم أرغون الإسعردى و آروس المحمودى و كوندک أخو طيبغا الطويل و جركتمر السّيفى منجک و أرغون من عبد اللّه و جمق الشّيخونى و كليم أخو طيبغا الطويل و تلک أخو بيبغا الصالحى و آقبغا العمرى البالسى و جرجى ابن كوندک و أرزمک من مصطفى و طشتمر العلائى، و أرسلوا الجمع إلى سجن الإسكندرية، و أخذ يلبغا إقطاع ولدى طيبغا الطويل و هما: على و حمزة و كانا أميرى طبلخاناه.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۳۲

ثم فى يوم الاثنين خامس عشرين شعبان من سنة سبع و ستين و سبعمائة، باست الأمراء الأرض للسلطان و يلبغا الأتابک معهم و طلبوا من السلطان الإفراج عن الأمراء المسجونين بثغر الإسكندرية المقدّم ذكرهم، فقبل السلطان شفاعتهم، و رسم بالإفراج عن طيبغا الطويل خاصة فأفرج عنه و رسم بسفره إلى القدس بطّالا، فسافر إلى القدس و أقام به إلى ما يأتى ذكره.

ثم بعد ذلك فى يوم عيد الفطر رسم السلطان بالإفراج عمن بقى فى الإسكندرية من أصحاب طيبغا الطويل، فأفرج عنهم و حضروا فأخرجوا إلى الشام متفرّقين بطّالين وصفا الوقت ليلبغا العمريّ و صار هو المتكلّم فى الأمور من غير مشارک و السلطان الملک الأشرف شعبان معه آلة فى السلطنة، و أنعم يلبغا بإقطاعات أصحاب طيبغا الطويل على جماعة من أصحابه، فأنعم على الأمير أرغون بن بلبک الأزقيّ بتقدمة ألف، عوضا عن قطلوبغا المنصوريّ و أنعم على طيبغا العلائى السيفيّ بزلار بتقدمة ألف، عوضا عن ملكتمر الماردينيّ بحكم وفاته، و أنعم على أينبک البدريّ أمير آخور يلبغا العمريّ بإمرة طبلخاناه و استقرّ أستادار أستاذه يلبغا.

ثم استقرّ الأمير إشقتمر الماردينيّ المعزول عن نيابة حلب قبل تاريخه فى نيابة طرابلس، عوضا عن قشتمر المنصوريّ، و طلب قشتمر المذكور إلى مصر.

ثم استقرّ الأمير طيدمر البالسى أمير سلاح عوضا عن طيبغا الطويل فى سابع جمادى الأولى. ثم استقرّ طيبغا الأبوبكريّ دوادارا كبيرا بإمرة طبلخاناه عوضا عن الإسعردى، فأقام دوادارا إلى حادى عشرين شعبان عزل بأمير بيبغا دوادار أمير على الماردينى بإمرة طبلخاناه أيضا.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۳۳

ثم استقرّ الأمير أرغون ططر رأس نوبة النّوب عوضا عن ملكتمر العمرى الماردينى فى آخر جمادى الآخرة، و استقرّ أرغون الأزقى أستادارا عوضا عن آروس المحمودى و استقرّ يعقوب شاه أمير آخور مقدّم ألف و حاجبا ثانيا عوضا عن قطلوبغا المنصورى و استقرّ طقتمر الحسنى أمير آخور كبيرا عوضا عن يعقوب شاه المنتقل إلى الحجوبية الثانية و استقرّ قطلو شاه الشّعبانى أمير طبلخاناه و شادّ الشراب خاناه عوضا عن أرغون بن عبد الملک و استقرّ تمرقبا العمرى جوكندارا عوضا عن جركتمر السّيفى منجک و أنعم على آقبغا

الأحمدى المعروف بالجلب بتقدمة ألف و على أسندمر الناصرى بتقدمة ألف أيضا، و كلاهما بالديار المصرية و استقرّ حسين [ابن على] بن الكورانى فى ولاية القاهرة و هذه أوّل ولايته.

ثم فرّق على جماعة كبيرة بإمرة طبلخانات و هم: طغيتمر العثمانى و آقبغا الجوهرى و فجماس السيفى طاز و ألطنبغا العزى و أرغون كتك العزى و قراتمر المحمدى، الشهابى هذا قراتمر، رأيته و قد شاخ و كان بطّالا يسكن بالقرب من الكبش بعد سنة عشرين و ثمانمائة. انتهى. و آروس بغا الكاملى و طاجار من عوض و آقبغا اليوسفى و ألطنبغا الماردينى. و هو غير صاحب الجامع، ذاك متقدّم على هذا و رسلان الشيخونى و استقرّ حاجبا بإسكندرية على إمرة

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۳۴

طبلخاناه و علىّ بن قشتمر المنصورى و سودون القطلقتمرى و قطلوبغا الشعبانى و محمّد المهندس التّركمانى و على جماعة بعشرات، و هم: تنبک الأزقى و أرغون الأحمدى و طيبغا السيفى يلبغا و أرغون الأرغونى و سودون الشيخونى، و هو الذى صار نائب السلطنة فى دولة الملک الظاهر برقوق كما سيأتى ذكره.

و أزدمر العزى أبو ذقن و يونس العمرى و درت بغا البالسى و قرابغا الصّرغتمشى و طاز الحسينى و قرقماس الصرغتمشى و طيبغا العلائى و قمارى الجمالى.

ثم فى هذه السنة أبطل يلبغا المكوس من مكة و المدينة و رتّب عوض ذلک من بيت المال مائتى ألف و ستين ألفا.

ثم فى سنة ثمان و ستين طلب السلطان الأمير منكلى بغا الشمسى نائب الشام إلى الديار المصرية فلما حضره أكرمه و أخلع عليه بنيابة حلب عوضا عن جرجى الإدريسى لعجزه عن القيام بمصالح حلب مع التّركمان، فامتنع منكلى بغا من نيابة حلب كونه نائب دمشق، ثم ينتقل منها إلى نيابة حلب، فأضيف اليه أربعة آلاف نفر من عسكر دمشق لتكون منزلته أكبر من منزلة نائب دمشق؛ فأذعن عند ذلک و لبس الخلعة و توجه إلى حلب و تولّى نيابة دمشق عوضه الأمير آقتمر عبد الغنى حاجب الحجّاب بالديار المصرية و تولّى عوضه حجوبيّة الحجّاب طيبغا العلائى. و أما جرجى الإدريسى المعزول عن نيابة حلب فإنه ولى نيابة طرابلس بعد عزل منجک اليوسفى عنها.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۳۵

و فى ثامن عشر شهر ربيع الأوّل من سنة ثمان و ستين المذكورة استقرّ أرغون الأزقى الأستادار فى نيابة غزّة عوضا عن ألطنبغا البشتكى. و فى الشهر أيضا استقرّ آقبغا الأحمدى المعروف بالجلب لالا السلطان الملک الأشرف عوضا عن أرغون الأحمدى بحكم نفيه إلى الشام لأمر اقتضى ذلک و نفى معه تمربغا العمرى.

ثم فى آخر الشهر المذكور أمسک الأتابک يلبغا الأمير الطواشى سابق الدين مثقالا الآنوكى مقدّم المماليک السلطانية و ضربه داخل القصر بقلعة الجبل ستمائة عصاة و نفاه إلى أسوان، و سببه ظهور كذبه له و ولّى مكانه مختار الدّمنهورى المعروف بشاذروان، و كان مقدّم الأوجاقية بباب السّلسلة، كلّ ذلک و العمل فى المراكب مستمرّ إلى أن كملت عمارة المراكب من الغربان و الطّرائد لحمل الغزاة و الخيول و كانوا نحو مائة غراب و طريدة، عمّرت فى أقلّ من سنة مع عدم الأخشاب و الأصناف يوم ذاک.

و بينما الناس فى ذلک قتل يلبغا العمرى بيد مماليكه فى واقعة كانت بينهم؛ و خبر ذلک أنه لمّا كان فى مستهل شهر ربيع الآخر نزل السلطان من قلعة الجبل و عدّى إلى برّ الجيزة ليتوجه إلى الصّيد بالبحيرة بعد أن ألزم الأمراء أن يجعلوا- فى الشّهوانى التى نجز عملها برسم الغزاة- العدد و السلاح و الرجال على هيئة القتال

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۳۶

لينظر السلطان و الناس ذلک، فامتثلوا الأمراء المرسوم الشريف و أشحنوا المراكب بالعدد و السلاح و الرجال الملبسة و ضربوا الطّبلخاناه بها و صارت فى أبهى زىّ و لعبوا بها فى البحر قدّام السلطان و الأتابک يلبغا و خرج الناس للتفرّج من كلّ فجّ، و كان يوم من الأيام المشهودة الذى لم ير مثله فى سالف الأعصار.

ثم سار السلطان و الأتابك و يلبغا بالعساكر من برّ الجيزة يريـدون البحيرة حتى نزلوا فى ليلة الأربعاء سادس شـهر ربيع الآخر من سـنة ثمان و ستين و سبعمائة بالطرّانـة و باتوا بها و كانت مماليك يلبغا قـد نفرت قلوبهم منه لكثرة ظلمه و عسفه و تنوعه فى العـذاب لهم على أدنى جرم، حتى إنه كان إذا غضب على مملوك ربما قطع لسانه فاتّفق جماعـة من مماليك يلبغا تلك الليلة على قتله من غير أن يعلموا الملـك الأشـرف هـذا بشـىء من ذلـك، و ركبوا عليه نصف الليـل، و رءوسـهم من الأمراء: آقبغا الأحمـدى الجلب و أسـندمر الناصـرى و قجماس الطازى و تغرى برمش العلائى و آقبغا جاركس أمير سـلاح و قرابغا الصّرغتمشى فى جماعة من أعيان اليلبغاويّة و لبسوا آلـة الحرب و كبسوا فى الليل على يلبغا بخيمته بغتـة و أرادوا قتله، فأحسّ بهم قبل وصولهم إليه، فركب فرس النّوبة بخواصّه من ممـاليكه و هرب تحت الليـل و عـدّى النيـل إلى القـاهرة و منع سائر المراكب أن يعـدّوا بأحـد و اجتمع عنـده من الأمراء طيبغا حاجب الحجاب و أينبك البدرى أمير آخور و جماعة الأمراء المقيمين بالقاهرة، و أمّا مماليك يلبغا فإنهم لمّا علموا بأن أستاذهم نجا بنفسه و هرب، اشـتدّ تخوّفهم من أنه إذا ظفر بهم بعـد ذلـك لاـ يبقى منهم أحـدا، فـاجتمعوا الجميع بمن انضـاف إليهم من الأمراء و غيرهم و جاءوا إلى الملك الأشرف

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١١، ص: ٣٧

شعبان- تغمّده اللّه برحمته- و هو بمخيّمه أيضا بمنزله بالطّرّانة و كلّموه فى موافقتهم على قتال يلبغا فامتنع قليلا ثم أجاب لما فى نفسه من الحزازة من حجر يلبغا عليه، و عدم تصـرّفه فى المملكة، و ركب بمماليكه و خاصّـكيته، فأخذوه و عادوا به إلى جهة القاهرة، و قد اجتمع عليه خلائق من مماليـك يلبغـا و عسـاكر مصـر و سـاروا حتى وصـلوا إلى ساحل النيل ببولاق التّكرورى تجاه بولاق و الجزيرة الوسطى، فأقام الملك الأشرف ببولاق التّكرورى يوم الأربعاء و يوم الخميس و يوم الجمعة فلم يجدوا مراكب يعدّون فيها.

و أما يلبغا فإنه لمّا علم أنّ الملك الأشـرف طاوع مماليكه و قرّبهم أنزل من قلعة الجبل سـيّدى آنوك ابن الملك الأمجد حسين أخى الملـك الأشـرف شـعبان و سـلطنه و لقّبه بالملـك المنصور و ذلـك بمخيّمه بجزيرة أروى المعروفـة بـالجزيرة الوسـطانية، تجاه بولاق التّكرورى حيث الملك الأشرف نازل بمماليك يلبغا بالبرّ الشرقىّ؛ و الأشرف بالبر الغربى، فسمّته العوامّ سلطان الجزيرة.

ثم فى يوم الجمعـة حضـر عنـد الأتابـك يلبغا الأمير طغيتمر النظامىّ و الأمير أرغون ططر، فإنهما كانا يتصـيّدان بالعباسـة و انضافا بمن معهما إلى يلبغا فقوى أمره بهما و عـدّى إليه أيضا جماعـة من عنـد الملك الأشـرف و هم الأمير قرابغا البـدرى و الأمير يعقوب شاه و الأمير بيبغا العلائى الدّوادار و الأمير خليل بن قوصون و جماعة من

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١١، ص: ٣٨

ممالیـک یلبغـا الـذین أمّرهم: مثل آقبغا الجوهرى و كمشـبغا الحموى و يلبغا شـقير فى آخرين و اسـمرّ الأتابك يلبغا و آنوك بجزيرة الوسطى و الملك الأشرف و مماليك يلبغا ببولاق التّكرورى، إلى أن حضر إلى الأشرف شخص يعرف [بمحمد] ابن بنت لبطة رئيس [شوانى] السلطان و جهّز للسلطان من الغربان التى عمزها برسم الغزاة نحو ثلاثين غرابا برجالها و كسّر بروقها، و جعلها مثل الفلاة لأجل التّعديـة، فنزل فيها جماعة من الأمراء و من مماليك يلبغا ليعدوا فيها إلى الجزيرة فرمى عليهم يلبغا بمكاحل النّفط و صار هؤلاء يرمون على يلبغـا بالسّـهام فيردّونهم على أعقـابهم و أخـذ يلبغـا و من معه يرمون أيضـا النفـط و النّشّاب، و الأشـرفية لا يلتفتون الى ذلك، بل يزيدون فى سبّ يلبغا و لعنه و قتاله، و أقاموا على ذلك الى عصر يوم السبت و قد قوى أمر الملك الأشرف و ضعف أمر يلبغا.

ثم اتّفق رأى عساكر الملك الأشـرف على تعدية الملك الأشـرف من الورّاق، فعدّى وقت العصر من الورّاق الى جزيرة الفيل و تتابعته عساكره، فلما صاروا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١١، ص: ٣٩

الجميع فى برّ القـاهرة و بلغ ذلـك يلبغـا هرب الأـمراء الـذين كانوا مع يلبغا بأجمعهم و جاءوا إلى الملك الأشـرف و قبّلوا الأرض بين يـديه، فلمّا رأى يلبغا ذلك رجع إلى جهة القاهرة، و وقف بسوق الخيل من تحت قلعة الجبل، و لم يبق معه غير طيبغا حاجب الحجاب

الذى كان أوّلا أستاداره فوقف يلبغا ساعة و رأى أمره فى إدبار، فنزل عن فرسه بسوق الخيل تجاه باب الميدان و صلّى العصر و حلّ سيفه و أعطاه للأمير طيبغا الحاجب، ثم نزل و قصد بيته بالكبش فرجمته العوامّ من رأس سويقة منعم الى أن وصل حيث اتّجه و سار الملك الأشرف شعبان بعساكره، حتى طلع إلى قلعة الجبل فى آخر نهار السبت المذكور، و أرسل جماعة من الأمراء إلى يلبغا فأخذوه من بيته و معه طيبغا الحاجب و طلعوا به إلى القلعة، بعد المغرب فسجن بها إلى بعد عشاء الآخرة من اليوم المذكور فلمّا أذّن للعشاء جاء جماعة من مماليك يلبغا مع بعض الأمراء و أخذوا يلبغا من سجنه و أنزلوه من القلعة فلما صار بحدرة القلعة أحضروا له فرسا ليركبه، فلما أراد الركوب ضربه مملوك من مماليكه يسمّى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۴۰

قراتمر فأرمى رأسه ثم نزلوا عليه بالسيوف حتى هبّروه تهبيرا و أخذوا رأسه و جعلوها فى مشعل [النار] إلى أن انقطع الدم فلمّا رآه بعضهم أنكره و قال: أخفيتموه و هذه رأس غيره فرفعوه من المشعل و مسحوه ليعرفوه أنه رأس يلبغا بسلعة كانت خلف أذنه فعند ذلك تحقّق كلّ أحد بقتله، و أخذوا جثته فغيبوها بين العروستين، فجاء الأمير ظشتمر الدوادار فأخذ الرأس منهم فى الليل و استقصى على الجثّة حتى أخذها و حطّ الرأس على الجثّة و غسّلها و كفّنها و صلّى عليه فى الليل و دفنه بتربته التى أنشأها بالصحراء بالقرب من تربة خوند طغاى أمّ آنوك زوجة الناصر محمد ابن قلاوون. و فيه يقول بعض الشعراء [مخلع البسيط]:

بدا شقا يلبغا و عدّت عداه فى سفنه إليه

و الكبش لم يفده و أضحت تنوح غربانه عليه

قلت: لا جرم أنّ اللّه سبحابه و تعالى عامل يلبغا هذا من جنس فعله بأستاذه الملك الناصر حسن فسلّط عليه مماليكه فقتلوه كما قتل هو أستاذه الناصر حسنا، فالقصاص قريب و الجزاء من جنس العمل.

و لما أصبح نهار الأحد عاشر شهر ربيع الآخر و هو صبيحة ليلة قتل فيها يلبغا العمرىّ الخاصّكى المقدّم ذكره طلع جميع الأمراء إلى القلعة و استقرّ الأمير طغيتمر النّظامىّ هو المتحدّث فى حلّ المملكة و عقدها و معه آقبغا جلب الأحمدىّ و أسندمر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۴۱

الناصرىّ و قجماس الطازىّ و قبضوا من الأمراء على تمربغا البدرىّ و يعقوب شاه و بيبغا العلائىّ الدوادار و قيّدوا و أرسلوا عشيّة النهار إلى الإسكندرية و رسم للامير خليل بن قوصون أن يلزم بيته بطالا.

و فى يوم الاثنين حادى عشرة استقرّ قشتمر المنصورىّ حاجب الحجاب عوضا عن طيبغا العلائىّ و استقرّ أيدمر الشامىّ دودارا بإمرة مائة و تقدمة ألف و ناظر الأحباس و لم يعلم قبله دوادار أمير مائة و مقدّم ألف. ثم قبض على جماعة من الأمراء و هم: أزدمر العزّىّ و آقبغا الجوهرىّ و أرغون كتك العزّىّ أيضا و أرغون الأرغونىّ و يونس الرمّاح العمرىّ و كمشبغا الحموىّ و أرسلوا الجميع فى القيود إلى ثغر الإسكندرية فحبسوا بها. ثم استقرّ طيدمر البالسىّ أستادار العالية ثم أخلع على قجماس الطازىّ و استقرّ أمير سلاح عوضا عن طيدمر البالسىّ المنتقل إلى الأستادارية و أنعم على قرابغا الصّرغتمشىّ بتقدمة ألف دفعة واحدة من إمرة عشرة.

ثم فى العشرين من الشهر استقرّ أسنبغا القوصونىّ لالا السلطان، عوضا عن آقبغا جلب و استقرّ قراتمر المحمدىّ خازندارا، عوضا عن تلكتمر المحمدىّ و حضر سابق الدين مثقال [الآنوكى] من قوص بطلب من السلطان و قبل الأرض و نزل إلى داره. و فى [يوم الخميس] ثانى [عشر] جمادى الأولى قبض على فخر الدين ماجد بن قروينة و سلّم لقرابغا [الصّرغتمشى] ليستخلص منه الأموال، و استقرّ عوضه فى الوزارة الصاحب جمال الدين عبد اللّه بن تاج الدين موسى بن أبى شاكر و أضيف إليه نظر الخاصّ أيضا و كان أوّلا صاحب ديوان يلبغا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۴۲

و فى سادس عشر جمادى الأولى أعيد [الطواشى] سابق الدين مثقال إلى تقدمة المماليك السلطانية و صرف الدّمنهورىّ المعروف

بشاذروان.

فی یوم الخمیس سادس عشر شهر رجب قبض علی قرابغا الصرغتمشیّ و عند ما قبض علی قرابغا المذکور رکب الأمیر تغری برمش بالسلاح و معه عدّة من الأمراء و الخاصّکیة فرسم السلطان برکوب الأمراء و الخاصّکیة فرکبوا فی الحال و قبضوا علیه و أمسکوا معه الأمیر أینبک البدریّ و إسحاق الرّجبیّ و قرابغا العزّی، و مقبل الرومیّ و أرسلوا إلی الإسکندریة. ثمّ أنعم السلطان علی کلّ من قطلوبغا جرکس و أقطای بتقدمة ألف.

و من هذا الوقت أخذ أسندمر الناصریّ فی التعاظم و انضمام الناس علیه فاتّفق جماعة من الأمراء العزّیة مع طغیتمر النظامیّ و آقبغا جلب علی قبض أسندمر و دبّروا علیه إلی أن کانت لیلة الأحد سابع شهر شوّال من سنة ثمان و ستین المذکورة رکبوا نصف اللیل و ضربوا الکوسات و أنزلوا الملک الأشرف إلی الإصطبل السلطانیّ و قصدوا مسک أسندمر الناصریّ و بعض ممالیک یلبغا العمریّ الأشرار و بلغ ذلک أسندمر، فمکث فی بیته إلی طلوع الشمس. ثمّ رکب من بیته بالکبش فإنّه کان سکن فیه بعد قتل بلبغا و توجّه بمن معه إلی قبّة النّصر و منها إلی

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۴۳

القرافة إلی باب الدّرفیل من وراء القلعة، فلم یفطن به الأمراء إلّا و هو تحت الطبلخاناه السلطانیة من القلعة و کبس علیهم من الصّوة فهرب أکثر الأمراء و کان غالبهم قد استخدم عنده جماعة من ممالیک یلبغا فلما رأی ممالیک یلبغا أسندمر و من

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۴۴

معه من خشداشیتهم توجّهوا إلیهم و ترکوا أمراءهم. ثمّ خرج إلی أسندمر آقبغا جلب و طردوا الحاجب ابن أخی آل ملک فقوی أسندمر بهم علی الأمراء و صدمهم صدمة هائلة کسرهم فیها کسرة شنیعة و هربوا الجمیع إلّا ألجای الیوسفیّ و أرغون ططر فإنهما ثبتا و قاتلا أسندمر و لیس معهما غیر سبعین فارسا، فقاتلوا أسندمر و جماعته إلی قریب الظهر، فلم یرجع إلیهما أحد من أصحابهما فانکسرا و انتصر أسندمر الناصریّ علیهم و طلع إلی القلعة و قبّل الأرض بین یدی الملک الأشرف شعبان فأخلع علیه الأشرف باستقراره أتابکا و مدبّر الممالیک کما کان یلبغا العمریّ الخاصّکی.

ثم قبض أسندمر علی جماعة من الأمراء و قیّدهم و أرسلوا إلی ثغر الإسکندریة فحبسوا بها و هم: ألجای الیوسفیّ و طغیتمر النظامیّ و أیدمر الشامی و آقبغا جلب و قطلوبغا جرکس و أقطای و أرغون ططر و قجماس الطازیّ و جمیع هؤلاء مقدّمو ألوف.

ثم قبض علی جماعة من الأمراء الطبلخانات و هم: طاجار من عوض و یلبغا شقیر و قرابغا شادّ الأحواش و قرابغا الأحمدیّ و قطلوبغا الشعبانیّ و أیدمر الخطائیّ و تمراز الطازیّ و آسن الناصریّ و قراتمر المحمدیّ.

ثم أصبح أسندمر فی یوم حادی عشر شوّال أنعم علی جماعة من الأمراء و استقرّوا مقدّمی ألوف بالدیار المصریة و أصحاب وظائف، فأخلع علی أزدمر العزّیّ و استقرّ أمیر مائة و مقدم ألف و أمیر سلاح و استقرّ جرکتمر السیفیّ منجک أمیر مائة و مقدّم ألف و أمیر مجلس و استقرّ ألطنبغا الیلبغاویّ رأس نوبة النّوب من امرأة عشرة دفعة واحدة و استقرّ قطلقتمر العلائی أمیر جاندار و استقرّ سلطان شاه أمیر مائة و مقدّم ألف و حاجبا ثانیا و استقرّ بیرم العزّیّ دوادارا بتقدمة ألف و کان جندیّا قبل ذلک، فانعم علیه بإقطاع طغیتمر النظامیّ و وظیفته و جمیع

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۴۵

موجوده و ممالیکه و حواصله و أنعم علی خلیل بن قوصون بتقدمة ألف و علی قبق العزّیّ بتقدمة ألف و علی أرغون القشتمری بتقدمة ألف و علی محمد بن طیطق العلائیّ بتقدمة ألف.

ثم أنعم علی جماعة بإمرة طبلخاناه و هم: بزلار العمریّ و أرغون المحمدیّ الآنوکیّ الخازن و أرغون الأرغونیّ و محمد بن طقبغا الماجاری و باکیش السیفیّ یلبغا و آقبغا آص الشّیخونیّ و سودون الشیخونیّ و جلبان السّعدیّ و کبک الصّرغتمشی و إینال الیوسفیّ

و كمشبغا الطازىّ و بكتمر العلمىّ و قمارى الجمالى و أرسلان خحا و مبارك الطازىّ و تلكتمر الكشلاوىّ و أسنبغا العزىّ و قطلوبغا الحموى و مأمور القلمطاوىّ.

ثم أنعم على جماعة بإمرة عشرات و هم: كزك الأرغونى و ألطنبغا المحمودى و قرأبغا الأحمدى، و هذا غير قرابغا الأحمدى الجلب و حاجىّ ملكك بن شادى و على بن باكيش و رجب بن خضر و طيطق الرمّاح. ثم خلع على جماعة و استقرّت جوكندارية و هم: مبارك الطازى المقدّم ذكره و قرمش الصرغتمشى و إينال اليوسفى و أخلع على ملكتمر المحمدى و استقرّ خازندارا على عادته و بهادر الجمالى شادّ الدواوين، عوضا عن خليل بن عرّام بحكم انتقال ابن عرام إلى نيابة الإسكندرية و استقرّ أسندمر الزين فى نيابة طرابلس، عوضا عن اشقتمر الماردينى و أمسك اشقتمر و حبس

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۴۶

بالإسكندرية و استقر طيبغا الطويل الناصرى رفيق يلبغا العمرى الخاصكى المقدّم ذكره فى نيابة حماة و كان بطّالا بالقدس فى تاسع صفر، فلم تطل مدّته و قبض عليه منها فى ذى القعدة و اعتقل بالإسكندرية ثانيا، و تولّى نيابة حماة عمر شاه على عادته و استقرّ بيبغا القوصونى أمير آخور كبيرا، عوضا عن آقبغا الصّفوى بحكم وفاته، و أرسل الى الأمير منكلى بغا الشمسى نائب حلب خلعة الاستمرار. و قد كمل جامع منكلى بغا الذى أنشاه بحلب فى هذه السنة بقنسرين.

و استهلت سنة تسع و ستين و الملك الأشرف شعبان كالمحجور عليه مع أسندمر، غير أن اسمه السلطان، و خليفة الوقت المتوكّل على اللّه و أسندمر الناصرى أمير كبير أتابك العساكر و مدبّر المملكة و نائب السلطنة مع أمير علىّ الماردينى آلة يتعاطى الأحكام لا غير، و نائب دمشق آقتمر عبد الغنىّ و نائب حلب منكلى بغا الشمسىّ و هو يومئذ يخشى شرّه و نائب طرابلس منجك اليوسفىّ و نائب حماة عمر

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۴۷

شاه صاحب القنطرة على الخليج خارج القاهرة و نائب صفد أرغون الأزقى و استمرّ الأتابك أسندمر على ما هو عليه الى يوم الجمعة سادس صفر اتّفقت عليه مماليك يلبغا الأجلاب و ركبوا معهم الأمراء وقت صلاة الجمعة و دخلوا على أسندمر الناصرىّ و سألوه أن يمسك جماعة من الأمراء، فمسك أزدمر العزّىّ أمير سلاح و حركتمر المنجكىّ أمير مجلس و بيرم العزّىّ الدوادار الكبير و بيبغا القوصونىّ و الأمير آخور كبك الصرغتمشى الجوكندار و استمرّت المماليك لابسين السلاح، و أصبحوا يوم السبت و مسكوا خليل بن قوصون ثم أطلقوه و انكسرت الفتنة الى عشيّة النهار و هى ليلة الأحد و قالوا لأسندمر: نريد عزل الملك الأشرف، و كان أسندمر مفهورا معهم و بلغ الخبر الملك الأشرف، فأرسل فى الحال إلى [خليل] ابن قوصون فحضر و ركب الملك الأشرف و ركب ابن قوصون و مماليك الأشرف الجميع مع أستاذهم، و كانوا نحو المائتين لا غير، و كان الذين اجتمعوا من مماليك يلبغا فوق الألف و خمسمائة و ركب مع الملك الأشرف جماعة من الأمراء الكبار مثل أسنبغا ابن الأبوبكرىّ و قشتمر المنصورى فى آخرين و ضربت الكوسات و اجتمع على السلطان خلق كثير من العوامّ، و لمّا بلغ أسندمر الناصرىّ ركوب الملك الأشرف أخذ جماعة من مماليك يلبغا و طلع من خلف القلعة كما فعل أوّلا فى واقعة آقبغا الجلب و تقدّمت مماليك يلبغا و صدموا المماليك الأشرفية و تقاتلوا، و بينما هم فى ذلك جاء أسندمر بمن معه من تحت الطبلخاناه كما فعل تلك المرة، فعلم به الأشرفية و الأمراء فمالوا عليه فكسروه أقبح كسرة و هرب أسندمر، ثم أمسك و تمزقت المماليك اليلبغاوية، فلما جىء للأشرف بأسندمر و حضر بين يديه شفعت فيه الأمراء

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۴۸

الكبار، فأطلقه السلطان و رسم له أن يكون أتابكا على عادته و رسم له بالنزول الى بيته بالكبش و رسم للأمير خليل بن قوصون أن يكون شريكه فى الأتابكيّة، فنزل أسندمر الى بيته ليلة الاثنين و أرسل السلطان معه الأمير خليل بن قوصون صفة الترسيم و هو شريكه فى وظيفة الأتابكيّة ليحضره فى بكرة نهار الاثنين، فلمّا نزلا الى الكبش تحالفا و خامرا ثانيا على السلطان و اجتمع عند أسندمر و خليل

بن قوصون فى تلك الليلة جماعة كبيرة من مماليك يلبغا و صاروا مع أسندمر كما كانوا أوّلا و أصبحا يوم الاثنين و ركبا الى سوق الخيل، فركب السلطان بمن معه من الأمراء.

و المماليك الأشرفية و غيرهم فالتقوا معهم و قاتلوهم و كسروهم و قتلوا جماعة كبيرة من مماليك يلبغا و هرب أسندمر و ابن قوصون و اشتغل مماليك السلطان و العوامّ بمسك مماليك يلبغا، يمسكونهم و يحضرونهم عرايا مكشّفى الرءوس و توجّه فرقة من السلطانية الى أسندمر و ابن قوصون فقبضوا عليهما و على ألطنبغا اليلبغاوىّ و جماعة أخر من الأمراء اليلبغاوية فقيّدوا و أرسلوا إلى سجن الإسكندرية.

و فى هذه الواقعة يقول الشيخ شهاب الدين أحمد بن العطّار: [البسيط]

هلال شعبان جهرا لاح فى صفر بالنصر حتى أرى عيدا بشعبان

و أهل كبش كأهل الفيل قد أخذوا رغما و ما انتطحت فى الكبش شاتان

ثم جلس الملك الأشرف شعبان فى الإيوان و بين يديه أكابر الأمراء، و رسم بتسمير جماعة من مماليك يلبغا نحو المائة و توسيطهم، و نفى جماعة منهم الى الشام و أخذ مال أسندمر و أنفق على مماليكه لكل واحد مائة دينار، و لكل واحد من غير مماليكه خمسون دينارا، و رسم للامير يلبغا المنصورى باستقراره أتابك العساكر هو

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١١، ص: ۴۹

و الأمير ملكتمر الخازندار، و أنعم على كل منهما بتقدمة ألف و أنعم على تلكتمر بن بركة بتقدمة ألف عوضا عن خليل بن قوصون، و كان ذلك فى سادس عشر صفر.

ثم أصبح السلطان من الغد فى يوم الثلاثاء سابع عشر صفر قبض على يلبغا المنصورىّ المذكور و رفيقه تلكتمر المحمدىّ لأنهما أرادا الإفراج عن مماليك يلبغا و قصد يلبغا المنصورىّ أن يسكن بالكبش فمسكهما الملك الأشرف و أرسلهما إلى الإسكندرية. ثم أرسل السلطان بطلب الأمير منكلى بغا الشمسىّ نائب حلب إلى الديار المصرية، فحضرها بعد مدّة و أخلع عليه السلطان خلعة النيابة بديار مصر، فأبى أن يكون نائبا، فأنعم عليه بتقدمة ألف و جعله أتابك العساكر و تولى نيابة حلب عوضه طيبغا الطويل، و كان أخرجه من سجن الإسكندرية قبل ذلك.

ثم زوّج السلطان أخته للأمير منكلى بغا الشمسى المذكور فتزوجها و أولدها بنتا تزوّجها الملك الظاهر برقوق و عاشت بعد الملك الظاهر الى أن ماتت فى سنة ثلاث و ثلاثين بقاعتها بخطّ الكعكيين من القاهرة، ثم رسم الملك الأشرف أن يفرج عن طغيتمر النظامى و أيدمر الخطائى و ألجاى اليوسفى و كانوا محبوسين بالإسكندرية فحضروا إلى بين يدى السلطان و قبّلوا الأرض بين يديه و خلع على

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١١، ص: ۵٠

بكتمر المؤمنى و استقرّ أمير آخور كبيرا بتقدمة ألف و هو صاحب المصلّاة و السبيل بالرّميلة ثم رسم السلطان بإحضار الأمير آقتمر عبد الغنى. فلما وصل آقتمر إلى مصر أخلع عليه السلطان باستقراره حاجب الحجّاب بالديار المصرية، و كان آقتمر هذا قد ولى نيابة السلطنة بالديار المصرية، قبل نيابة الشام و تولى نيابة دمشق بعده بيدمر الخوارزمىّ قليلا، ثم عزل و استقرّ عوضه فى نيابة دمشق منجك اليوسفى نائب طرابلس و استقرّ فى نيابة طرابلس بعد منجك أيدمر الآنوكى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١١، ص: ۵١

ثم أخلع السلطان على الأمير الأكز الكشلاوىّ باستقراره شادّ الدواوين، عوضا عن بهادر الجمالى. ثم أفرج عن الأمير أرغون ططر و أخلع عليه و استقرّ أمير شكار بتقدمة ألف. ثم رسم باحضار قطلوبغا الشعبانى من الشام فحضر بعد مدّة.

[ثم فى ثامن عشر جمادى الآخرة استقرّ الأمير آقتمر الصاحبى دوادارا عوضا عن آقبغا بن عبد اللّه بإمرة طبلخاناة و استقرّ طغيتمر العثمانى شادّ الشراب خاناه و استقرّ بشتك العمرى رأس نوبة ثانيا].

ثم أخلع الملک الأشرف فى تاسع عشرين شهر رمضان على الأمير أرغون الأزقى باستقراره رأس نوبة كبيرا عوضا عن تلكتمر بن بركة و استقرّ تلكتمر المذكور أمير مجلس عوضا عن طغيتمر النظامى.

ثم استقرّ الأمير ألجاى اليوسفى أمير سلاح برانيّا عوضا عن أزدمر العزّى.

و استقرّ آقبغا بن عبد اللّه دوادارا كبيرا بإمرة طبلخاناه. ثم استقرّ الأكز أستادارا عوضا عن ألطنبغا بحكم وفاته.

و فى سابع شوّال استقرّ الأمير عمر بن أرغون النائب فى نيابة الكرك، عوضا عن ابن القشمرى و استقرّ طيدمر البالسىّ فى نيابة الإسكندرية، عوضا عن صلاح الدين خليل بن عرّام و استقرّ خليل بن عرّام حاجبا بثغر الإسكندرية. ثم استقرّ أيدمر الشيخى فى نيابة حماة عوضا عن عمر شاه، و أخلع على شمس الدين ابن المقسىّ باستقراره ناظر الخواص الشريفة بالقاهرة عوضا عن ابن أبى شاكر

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۵۲

فى ثالث عشر ذى القعدة. و استقرّ العلامة سراج الدين عمر بن إسحاق الغزنوىّ الهندىّ الحنفىّ قاضى قضاة الحنفية بالديار المصرية، بعد موت قاضى القضاة جمال الدين التّركمانى و استقرّ الشيخ سراج عمر بن رسلان بن نصير بن صالح الكنانى البلقينى الشافعى فى قضاء دمشق عوضا عن قاضى القضاة تاج الدين عبد الوهاب السّبكىّ، فلم تطل مدّة البلقينى فى قضاء دمشق و عزل و أعيد تاج الدين السّبكى و استقرّ القاضى بدر الدين محمد ابن القاضى علاء الدين على ابن القاضى محيى الدين يحيى بن فضل اللّه العمرى فى كتابة السر بالديار المصرية بعد وفاة والده و استقرّ فتح الدين محمد بن الشهيد فى كتابة سرّ دمشق عوضا عن جمال الدين بن الأثير.

ثم وقع الوباء بالديار المصرية حتى بلغت عدّة الموتى فى اليوم أكثر من ألف نفس و أقام نحو الأربعة أشهر و ارتفع.

و فى هذه السنة أيضا و هى سنة تسع و ستين و سبعمائة قصدت الفرنج مدينة طرابلس الشام فى مائة و ثلاثين مركبا من الشوانى و القراقير و الغربان و الطرائد و صحبتهم صاحب قبرس و هو المقدّم ذكره عليهم و كان نائبها و أكثر عسكرها غائبين

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۵۳

عنها، فاغتنمت الفرنج الفرصة و خرجوا من مراكبهم إلى الساحل فخرج لهم من طرابلس بقية عسكرها بجماعة من المسلمين فتراموا بالنّبال ثم اقتتلوا أشدّ قتال و تقهقر المسلمون و دخل المدينة طائفة من الفرنج فنهبوا بعض الأسواق. ثم إن المسلمين تلاحقوا و حصل بينهم و بين الفرنج، وقائع عديدة استشهد فيها من المسلمين نحو أربعين نفرا و قتل من الفرنج نحو الألف و ألقى اللّه تعالى الرّعب فى قلوب الفرنج فرجعوا خائبين.

و فى هذه السنة قوى أمر الملک الأشرف فى السلطنة و صار تدبير ملكه إليه يعزل و يولّى من غير مشورة الأمراء و صار فى الملک من غير منازع و لا معاند و حسنت سيرته و حبّته الرعية إلى الغاية و صار يقصد المقاصد الجميلة مما سيأتى ذكره.

ثم فى أوّل جمادى الآخرة عزل الأشرف أسنبغا بن الأبوبكرىّ عن نيابة حلب بالأمير قشتمر المنصورىّ. ثم قبض السلطان على أرغون العجمىّ الساقى أحد المماليک السلطانية بسبب أنه سرق أحجارا مثمّنة من الخزانة السلطانية و باعها على الفرنج، و فيها حجر يعرف بوجه الفرس فجاء به الفرنج الى منجک اليوسفى نائب الشام فعرفه و أرسله الى السلطان و أخبره بخبر أرغون العجمىّ و كيف باعه للفرنج فصفح السلطان عنه و نفاه الى الشام.

ثم فى يوم السبت العشرين من شهر رمضان نفى السلطان الأمير آقتمر الصاحبىّ الدوادار الكبير إلى الشام لأمر وقع بينه و بين الأمير ألجاى اليوسفىّ.

و فى تاسع عشر ذى القعدة أحضر الأمير بيدمر الخوارزمى المعزول عن نيابة الشام قبل تاريخه و أدخل الى قاعة الصاحب بقلعة الجبل و طلب منه ثلاثمائة ألف

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۵۴

دينار و كان متولّى أمره علىّ بن محمد بن كلبک التّركمانى فعصر يوم الثلاثاء حادى عشرين ذى القعدة، ثم أفرج عنه و نفى الى

طرابلس بعد أن اخذ منه مائة ألف دينار.

ثم قدم الخبر على السلطان بقتل الأمير قشتمر المنصورىّ نائب حلب، و خبره أنه لما ولى نيابة حلب فى جمادى الآخرة من هذه السنة و توجّه إلى حلب فلم يقم بها إلا يسيرا و خرج منها و كبس أمير آل فضل بعربه مثل السلطان فركب العرب و قاتلته فقتل فى المعركة هو و ولده محمد بن قشتمر و كان الذى قتله حيّار أمير آل فضل و ولده نعير بن حيّار و كان ذلك يوم الجمعة خامس عشر ذى الحجة و لما بلغ الملك الأشرف عظم عليه و أرسل تقليدا للامير اشقتمر المارديني بنيابة حلب على يد الأمير قطلوبغا الشعبانى و عزل حيّارا عن إمرة العرب و ولّاها لزامل.

ثم أنعم الملك الأشرف فى هذه السنة على ألوف بتقادم و طبلخانات و عشرات، فممن أنعم عليهم بتقدمة ألف الأمير بهادر الجمالى و بشتک العمرى و ممن أنعم عليه بإمرة طبلخاناه صراى الإدريسى و بيبغا القوصونى و أحمد بن آقتمر عبد الغنى و أحمد بن قنغلى و خليل بن قمارى الحموى و طغيتمر الحسينى و حسين بن الكورانى و أرغون شاه الأشرفى.

و كان أمير الحاج فى هذه السنة بهادر الجمالى، و حجّت فى هذه السنة أيضا خوند بركة والدة السلطان الملك الأشرف صاحب الترجمة بتجمّل زائد و رخت عظيم و برک هائل و فى خدمتها من الأمراء الألوف بشتک العمرى و بهادر الجمالى

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۵۵

أمير الحاج و مائة مملوک من المماليک السلطانية الخاصّكية و كان من جملة ما معها بدرب الحجاز كوسات و عصائب سلطانية و عدّة محفّات بأغطية زركش و عدّة محاير كثيرة بأفخر زينة و حمل معها أشياء كثيرة يطول الشرح فى ذكرها من ذلک: قطر جمال عليها مزروع خضر و غير ذلک و حجّت و عادت إلى الديار المصرية، بعد أن احتفل جميع أمراء الدولة إلى ملاقاتها، و لما وصلت إلى الفلعة أثلت على بهادر الجمالى فأخلع السلطان عليه.

ثم بعد مدّة فى يوم حادى عشرين المحرّم من سنة إحدى و سبعين و سبعمائة استقرّ به أمير آخور كبيرا عوضا عن الأمير بكتمر المؤمنى بعد موته و استقرّ الأمير تلكتمر [من بركة] أستادارا عوضا عن بهادر [الجمالى] المذكور و استقرّ أرغون شاه الأشرفى أمير مجلس عوضا عن تلكتمر المنتقل الى الأستادارية ثم نقل أرغون شاه المذكور بعد مدّة يسيرة من وظيفة أمير مجلس إلى وظيفة رأس نوبة النّوب، بعد موت بشتک العمرى و استقرّ أرغون [الأحمدى] اللّالا أمير مجلس عوضا عن أرغون شاه المذكور.

ثم أنعم السلطان على الأمير طينال الماردينى بتقدمة ألف و على علم دار أيضا بتقدمة ألف و استقرّ أستادار العالية عوضا عن تلكتمر.

ثم فى سنة اثنتين و سبعين استقرّ الأمير طشتمر العلائى دوادارا كبيرا بإمرة طبلخاناه، انتقل إليها من الجندية عوضا عن منكوتمر من عبد الغنى و استقرّ يلبغا الناصرى اليلبغاوىّ خازندارا كبيرا، عوضا عن يعقوب شاه.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۵۶

قلت: و الناصرى هذا هو صاحب الوقعة مع الملک الظاهر برقوق الآتى ذكرها فى ترجمة الظاهر المذكور.

ثم فى سنة ثلاث و سبعين عزل السلطان الأمير اشقتمر الماردينى عن نيابة حلب بالأمير عز الدين أيدمر الدوادار.

قلت: و إشقتمر الماردينى هذا و منجک اليوسفى نائب الشام و بيدمر الخوارزمى هؤلاء الثلاثة لا أعلم أحدا فى الدولة التركية ولى ولايتهم من الأعمال و الوظائف و لا طال مكثه فى السعادة مثلهم على ما ذكرناه فيما مضى و ما سنذكره فيما يأتى إن شاء اللّه تعالى على أن اشقتمر هذا طال عمره فى السعادة حتى ولى نيابة الشام عن الملک الظاهر برقوق، و برقوق يومئذ فى خدمة منجک اليوسفى نائب الشام، و إلى الآن لم يتصل بخدمة السلطان و لا صار من جملة المماليک السلطانية و قد تقدّم أنّ اشقتمر ولى الأعمال الجليلة من سلطنة الملک الناصر حسن الأولى و كان يلبغا العمرى أستاذ برقوق يوم ذاک خاصّكيّا، فانظر إلى تقلّبات هذا الدهر و نيل كلّ موعود بما وعد. انتهى.

و فى سنة ثلاث و سبعين المذكورة رسم السلطان الملک الأشرف أنّ الأشراف بالديار المصرية و البلاد الشامية كلّهم يسمون

عمائمهم بعلامة خضراء بارزة للخاصّة و العامّة إجلالا لحقّهم و تعظيما لقدرهم ليقابلوا بالقبول و الإقبال و يمتازوا عن غيرهم من المسلمين، فوقع ذلك و لبسوا الأشراف العلائم الخضر، التى هى الآن مستمرّة على رءوسهم، فقال الأديب شمس الدين محمد بن إبراهيم الشهير بالمزيّن فى هذا المعنى: [الكامل]

أطراف تيجان أتت من سندس خضر كأعلام على الأشراف

و الأشرف السلطان خصّصهم بها شرفا لنعرفهم من الأطراف

و قال أيضا فى المعنى الشيخ شمس الدين محمد بن أحمد بن جابر الأندلسى: [الكامل]

جعلوا لأبناء الرّسول علامة إنّ العلامة شأن من لم يشهر

نور النّبوّة فى كريم وجوههم يغنى الشّريف عن الطّراز الأخضر

و قال أيضا فى المعنى الشيخ بدر الدين حسن بن حبيب الحلبى: [الرجز]

عمائم الأشراف قد تميّزت بخضرة رقّت و راقت منظرا

و هذه إشارة أنّ لهم فى جنّة الخلد لباسا أخضرا

و قال ولده أبو العزّ طاهر بن حسن بن حبيب فى المعنى أيضا: [الطويل]

ألا قل لمن يبغى ظهور سيادة تملّكها الزّهر الكرام بنو الزّهرا

لئن نصبوا للفخر أعلام خضرة فكم رفعوا للمجد ألوية حمرا

و قال الشيخ شهاب الدين بن أبى حجلة التّلمسانىّ الخنفى- تغمده اللّه تعالى- فى المعنى أيضا. [الطويل]

لآل رسول اللّه جاه و رفعة بها رفعت عنّا جميع النّوائب

و قد أصبحوا مثل الملوك برنكهم إذا ما بدوا للناس تحت العصائب

قلت: و بهذه الفعلة يدلّ على حسن اعتقاد الملك الأشرف المذكور فى آل بيت النبوّة و تعظيمه لهم؛ و لقد أحدث شيئا كان الدهر محتاجا إليه و لا ألهم اللّه تعالى الملوك ذلك من قبله؛ و للّه درّ القائل: «كم ترك الأوّل للآخر».

و فى أوّل سنة أربع و سبعين و سبعمائة استقرّ الأمير ألجاى اليوسفى أمير سلاح أتابك العساكر بالديار المصرية عوضا عن منكلى بغا الشمشى بحكم وفاته- إلى رحمة اللّه تعالى- و أخلع عليه أيضا بنظر البيمارستان المنصورىّ فعند ذلك عظم قدر

ألجاى المذكور من كونه زوج أمّ السلطان و صار أتابك العساكر، و بهذا استطال الجاى فى المملكة.

فإنّه قبل زواجه بأمّ السلطان خوند بركة كان من جملة الأمراء المقدّمين لا غير انتهى.

ثم أخلع السلطان على الأمير كجك من أرطق شاه باستقراره أمير سلّاح برانيّا عوضا عن ألجاى اليوسفى المذكور و استقرّ يلبغا الناصرىّ شادّ الشراب خاناه عوضا عن كجك و استقرّ تلكتمر الجمالى خازندارا عوضا عن يلبغا الناصرى.

ثم توجّه السلطان الى سرحة الأهرام بالجيزة و عاد بعد أيام و عند عوده الى قلعة الجبل أخلع على الطّواشى سابق الدين مثقال مقدّم المماليك السلطانية قباء حرير أزرق صاف بطرز زركش عريض أسوة بالأمراء الخاصّكيّة و هذا شىء لم يلبسه مقدّم قبله، و كان السلطان الملك الأشرف قبل ذلك قد استجدّ فى كلّ سنة عند طلوعه من هذه السّرحة و هى توجّه السلطان إلى ربيع الخيل أن يلبس الأمراء الخاصّكيّة مقدّمى الألوف أقبية حرير بفرو سمّور بأطواق سمّور بطرز زركش و الطّبلخانات و العشرات أقبية حرير بطرز زركش منها ما هو بفرو قاقم و منها ما هو بفرو سنجاب.

ثم بعد ذلك نزل السلطان فى يوم الثلاثاء سادس عشر ذى القعدة سنة أربع و سبعين و والدته معه و هى متمرّضة إلى الرّوضة تجاه

مصر القديمة بمنظرة الأمير طشتمر الدّوادار، فاقام فيها يوم الثلاثاء و الأربعاء و صحبته جميع الأمراء و طلع يوم الخميس إلى القلعة و استمرّت أمّ السلطان متمرّضة الى أن ماتت فى ذى الحجّة و هى فى عصمة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۵۹

الجامى اليوسفى و صلّى عليها ابنها السلطان الملك الأشرف و دفنت بمدرستها التى عمّرتها بخطّ التّبانة خارج القاهرة بالقرب من باب الوزير و وجد عليها ولدها الملك الأشرف وجدا عظيما، لأنها كانت من خيار نساء عصرها دينا و خيرّا و صدقة و معروفا.

و من الاتفاق العجيب بعد موتها البيتان اللذان عملهما الأديب شهاب الدين السعديّ الأعرج و تفاعل بهما على ألجاى اليوسفيّ و هما: [الكامل]

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۶۰

فى مستهلّ العشر من ذى الحجة كانت صبيحة موت أمّ الأشرف

فاللّه يرحمها و يعظم أجره و يكون فى عاشور موت اليوسفى

فكان الأمر على ما ذكر، و هذا من الاتفاق الغريب و هو أنه لمّا ماتت خوند بركة المذكورة، و استهلت سنة خمس و سبعين وقع بين الملك الأشرف و بين زوج أمّه ألجاى اليوسفى كلام من أجل التّركة المتعلقة بخوند بركة المذكورة و كان ذلك يوم الثلاثاء سادس المحرّم من السنة المذكورة، و كثر الكلام بين السلطان و بين ألجاى اليوسفى حتى غضب ألجاى و خرج عن طاعة المك الأشرف و لبس هو و مماليكه آلة الحرب و لبست مماليك السلطان أيضا و ركب السلطان بمن معه من أمرائه و خاصّكيّته.

و باتوا الليلة لابسين السّلاح إلى الصّباح، فلما كان نهار الأربعاء سابع المحرّم كان الوقعة بين الملك الأشرف شعبان و بين زوج أمّة الأتابك ألجاى اليوسفى فتواقعوا إحدى عشرة مرة و عظم القتال بينهما حتى كانت الوقعة الحادية عشرة انكسر فيها ألجاى اليوسفى و انهزم إلى بركة الحبش.

ثم تراجع أمره و عاد بمن معه من على الجبل الأحمر إلى قبّة النّصر، فطلبه السلطان الملك الأشرف فأبى فأرسل إليه خلعة بنيابة حماة فقال: أنا أروح بشرط أن يكون كلّ ما أملكه و جميع مماليكى معى، فأبى السلطان ذلك و باتوا تلك الليلة فهرب جماعة من مماليك ألجاى فى الليل و جاءوا إلى الملك الأشرف.

فلما كان صباح يوم الخميس ثامن المحرّم أرسل السلطان الأمراء و الخاصّكيّة و مماليك أولاده و بعض المماليك السلطانية إلى قبّة النصر إلى حيث ألجاى، فلمّا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۶۱

رآهم ألجاى هرب فساقوا خلفه إلى الخرقانية، فلما رأى ألجاى أنه مدرك رمى بنفسه و فرسه إلى البحر؛ ظنّا أنه يعدّى به إلى ذلك البرّ؛ و كان ألجاى عوّاما فثقل عليه لبسه و قماشه فغرق فى البحر و خرج فرسه و بلغ الخبر السلطان الملك الأشرف فشقّ عليه موته و تأسّف عليه. ثم أمر بإخراجه من النيل فنزل الغوّاصون و طلعوا به و أحضروه إلى القلعة فى يوم الجمعة تاسع المحرّم فى تابوت و تحته لبّاد أحمر فغسّل و كفّن و صلّى عليه الشيخ جلال الدين التّبانى و دفن فى القبّة التى أنشأها بمدرسته برأس سويقة العزّى خارج القاهرة و المدرسة معروفة و بها خطبة. و كان الجاى من أجلّ الأمراء و أحسنها سيرة.

ثم قبض السلطان على مماليك ألجاى و نودى بالمدينة أنّ كل من لقى أحدا منهم يحضره إلى السلطان و يأخذ له خلعة. ثم أخذ السلطان أولاد ألجاى و هم إخوته

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۶۲

لأمّه و رتب لهم ما يكفيهم و احتاط على سائر موجود ألجاى و أخذ جميع مماليكه و صفح عنهم و جعلهم فى خدمة ولديه: أمير علىّ و أمير حاج.

ثم قبض السلطان على جماعة من الأمراء ممن كان يلوذ بالأمير ألجاى و هم صراى العلائىّ و سلطان شاه بن قراجا و طقتمر الحسنى و علىّ بن كلبك و صادره.

ثم أمسك بيبغا القوصونى و خليل بن قمارى الحموى فشفع فيهما الأمير طشتمر الدوادار.

ثم فى آخر صفر رسم السلطان بنفى جماعة إلى البلاد الشامية، و هم محمد شاه دوادار ألجاى و خليل بن عرّام المعزول عن نيابة الإسكندرية و علىّ بن كلبك و آقبغا البشمقدار خازندار ألجاى و كان السلطان فى تاسع الحرّم رسم لبورى الحلبى الخازندار أن يتوجّه الى طرابلس لإحضار نائبها الأمير عزّ الدين أيدمر الدوادار الناصرى الى مصر، فتوجّه بورى اليه و أحضره، فلّما مثل بين يدى السلطان أخلع عليه باستقراره بأتابك العساكر بالديار المصرية، عوضا عن ألجاى اليوسفى و تولّى عوضه نائب طرابلس الأمير يعقوب شاه، و بعد موت ألجاى أنعم السلطان على جماعة من الأمراء بإقطاعات و وظائف فأخلع على الأمير صرغتمش الأشرفى باستقراره أمير سلاح خاصّكيا يجلس بالإيوان فى دار العدل و استقرّ ارغون الأحمدى الّلالا أمير كبير برانيّا و أجلس بالإيوان، قاله العينى فى تاريخه و وافقه غيره.

قلت: فيكون على هذا الحكم تلك الأيام أمير كبير خاصّ و أمير كبير برّانى و أمير سلاح خاص و أمير سلاح برّانى و هذا شىء لم يسمع بمثله. انتهى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١١، ص: ٦٣

ثم أنعم السلطان على قطلوبغا الشعبانى بتقدمة ألف و استقرّ رأس نوبة ثانيا.

قلت: و هذه الوظيفة الآن هى وظيفة رأس نوبة النّوب و رأس نوبة نوب تلك الأيام قد بطلت من الدولة الناصرية فرج بن برقوق. و كانت تسمى رأس نوبة الأمراء و آخر من وليها آقباى الطّرنطاوى الحاجب.

ثم أخلع على جماعة و أنعم عليهم بإمرة طبلخانات و هم: أحمد بن يلبغا العمرى الخاصّكى و آقتمر الصاحبى و تمرباى الحسنى و إينال اليوسفى و على بن بهادر الجمالى و بلّوط الصّرغتمشى و مختار الطواشى الحسامى مقدّم الرّفرف.

قلت: و أيضا هذا شىء لم يسمع بمثله من أن يكون بعض خدّام الأطباق أمير طبلخاناه، و أغرب من ذلك أنّ مقدّم المماليك فى زماننا هذا إقطاعه إمرة عشرة ضعيفة. انتهى. و على ألجيبغا المحمدى و حاجى بك بن شادى. و أنعم على اثنين بعشرات و هم ألطنبغا من عبد الملك و طشتمر الصالحىّ.

ثم فى عاشر شهر ربيع الآخر استقرّ أحمد بن آل ملك فى نيابة غزة عوضا عن طشبغا المظفّرى و أنعم على مبارك الطّازى بتقدمة ألف و على سودون جركس المنجكى بتقدمة ألف و ارتجع السلطان من طينال الماردينى تقدمته و أنعم عليه بإمرة طبلخاناة. ثم استقر منكلى بغا البلدى الأحمدى فى نيابة الكرك و استقر ناصر الدين محمّد بن آقبغا آص أستادارا بتقدمة ألف. ثم أنعم السلطان على ألطنبغا ططق العثمانى بتقدمة ألف و استقر أمير سلاح برانيا عوضا عن طيدمر البالسى و أنعم على

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة؛ ج ١١؛ ص ٦٣

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١١، ص: ٦٤

طغيتمر اليلبغاوى الدوادار الثانى بإمرة طبلخاناه و هو أوّل من لبس الدوادارية الثانية. ثم نقل منكلى بغا البلدى من نيابة الكرك الى نيابة صفد و استقرّ آقتمر عبد الغنى النائب بديار مصر فى نيابة طرابلس و قد تقدّم أن آقتمر هذا كان ولى نيابة الشام سنين.

و فى رابع عشرين ذى القعدة استقرّ يلبغا الناصرى اليلبغاوى صاحب الوقعة مع برقوق الآتى ذكرها حاجبا ثانيا بإمرة مائة و تقدمة ألف. ثم عزل السلطان سابق الدين مثقالا الآنوكى مقدّم المماليك و أمره أن يلزم بيته و استقرّ عوضه فى تقدمة المماليك الطواشى مختار الحسامى مقدّم الرّفرف المقدّم ذكره.

ثم ندب السلطان الأمير يلبغا الناصرى للسفر الى دمشق لإحضار نائبها الأمير منجك اليوسفى فسار من وقته الى أن وصل الى دمشق و

أحضـر الأمير منجک المذکور، و وصل منجک الى الديار المصـرية و صـحبته أولاده و مملوکه جرکتمر و صـهره آروس المحمودى بعـد أن احتفل أهل الدولـة لملاقاته و خرجت اليه الأمراء الى بين الحوضـين خارج قبّـة النصـر و طلع الى القلعـة من باب السرّ و سائر الأمراء و الخاصّکيّة مشاة بين يديه فى رکابه، مثل أيدمر الدوادار و من دونه بإشارة السلطان، فلما

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۶۵

دخل منجک على السـلطان و قبّل الأرض أقبل عليه السـلطان إقبالا کليّا و خلع عليه باسـتقراره نائب السـلطنة بالديار المصرية خاصّکيّا عوضا عن آقتمر عبـد الغنى المنتقل الى نيابة طرابلس و فوّض اليه السـلطان النظر فى الأحباس و الأوقاف و النظر فى الوزارة، فإنه کان وليهـا بعـد موت أسـتاذه الملـک الناصـر محمـد بن قلاـوون کمـا تقـدّم ذکره و النظر على نـاظر الخاص و قرئ تقليـده بالإيوان، و أن السلطان أقامه مقام نفسه فى کل شيء و فوّض إليه سائر أمور المملکة، و أنه يخرج الإقطاعات التى عبرتها سبعمائة دينار إلى ما دونها، و أنه يعزل من شاء من أرباب الدولـة، و أنه يخرج الطبلخانات و العشـرات بسائر المماليک الشامية، و رسم للوزير أن يجلس قدّامه فى الدرکاه مع الموقّعين.

ثم بـدأ الغلاء بالـديار المصـرية فى هـذه السـنة و تزايـد سـعر القمح إلى أن أبيع بتسـعين درهما الإردب، و زاد النيل بعد أن نقص فى شهرها تور، و هذا أيضا من الغرائب، و هذه السنة تسمى سنة الشراقىّ کما سنبينه فى حوادث السنين من سلطنة الملک الأشرف هذا.

ثم فى أوّل سـنة ست و سـبعين عزل السـلطان الأمير آقتمر عبد الغنى عن نيابة طرابلس بالأمير منکلى بغا البلدى نائب صفد و ولّاه نيابة صفد.

قلت: درجة إلى أسفل.

ثم مرض الأمير منجک اليوسـفىّ النائب فنزل السلطان لعيادته، ففرش منجک تحت رجلى فرسه الشّقق الحرير و قدّم له عشرة مماليک و عشـرة بقـج و عدّة خيول فقبلها السـلطان ثم أنعم بها عليه، و کان ذلک فى يوم الثلاثاء سابع عشـرين ذى الحجة و مات منجک بعد يومين.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۶۶

ثم ورد الخبر على السـلطان بأن القان حسـين ابن الشـيخ أويس ابن الشـيخ حسن بن حسـين بن آقبغا بن أيلکان، تولى مملکـة تبريز و بغداد بعد وفاة أبيه.

و فى هـذه السـنة فتحت سيس - و هى کرسـى الأرمن- على يـد الأمير اشـقتمر الماردينى نائب حلب، بعد أن نازلها مدّة ثلاثة شـهور حتى فتحها و انقرضت منها دولة الأرمن- و للّه الحمد- فدقّت البشائر لذلک و فرح الملک الأشرف فرحا عظيما بهذا الفتح العظيم.

و فى هذه السـنة- أيضا و هى سـنة ست و سـبعين المذکورة- وقع الفناء بالديار المصرية من نصف جمادى الآخرة و تزايد فى شعبان، ثم فى شـهر رمضان حتّى صار يموت فى کلّ يوم من الحشـريّة نحو خمسمائة نفس و من الطّرحى نحو الألف، فأبيع کلّ فرّوج بخمسة و أربعين درهما، و کل سـفرجلة بخمسين درهما، و کل رمّانة بعشرة دراهم، و العشرة دراهم يوم ذاک کانت أزيد من نصف دينار، و کل رمّانة حلوة بستة عشر درهما، و کلّ بطيخة صيفية بسبعين درهما.

و لما توفّى منجک شغرت نيابة السلطنة بديار مصر الى العشرين من شهر ربيع الأوّل استقرّ فيها الأمير آقتمر الصاحبى الحنبلى.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۶۷

و فى محرّم سنة سبع و سبعين ختن السلطان أولاده و عمل المهمّ سبعة أيام.

و فى العشـر الأوسـط من صـفر هـذه السـنة ابتـدأ الملـک الأشـرف بعمـارة مدرسـته التى أنشأها بالصوه تجاه الطبلخاناة السـلطانية التى موضـعها الآن بيمارسـتان الملک المؤيد شـيخ و هو کلا شيء، فاشترى الملک الأشرف بيت الأمير شمس الدين سنقر الجمالى و شرع فى هدمه.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۶۸

و فی هـذه السـنة تزایـد الغلاء بالبلاد الشامیـة، حتی جاوز الحدّ و جعل الغنی فقیرا، و أبیع فیه الرطل الخبز بدرهمین، و فی هذا المعنی یقول بدر الدین بن حبیب: [الخفیف]

لا تقیمن بی علی حلب الشّه باء و ارحل فأخضر العیش أدهم

کیف لی بالمقام و الخبز فیها کلّ رطل بدرهمین و درهم

و فی سنة ثمان و سبعین عزل السلطان الملک الأشرف آقتمر الصاحبیّ الحنبلیّ عن نیابة السلطنة بالدیار المصریة و استقرّ به أتابک العساکر و عزل الأمیر آقتمر عبد الغنیّ عن نیابة صفد و استقرّ به أمیر مائة و مقدّم ألف بالقاهرة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۶۹

ثم فی العشرین من شـهر ربیع الآخر غرقت الحسـینیة خارج القاهرة و خرب فیها أزید من ألف بیت، و کان سبب هذا الغرق أنّ أحمد بن قایماز أستادار محمد ابن آقبغا آص استأجر مکانا خارج القاهرة بالقرب من آخر الحسینیة و جعله برکة و فتح له مجری من الخلیج فتزایـد الماء و غفلوا عنه فطفـح علی الحسـینیة فغرّقها فقبض السـلطان بعـد ذلک بمـدّة علی محمد بن آقبغا آص و صادره و عزله عن الأستاداریة؛ هذا و السلطان فی تأهّب سفر الحجاز.

فلما کان یوم الأربعاء تاسع عشر شهر رمضان سفّر السلطان إخوته و أولاد أعمامه إلی الکرک صحبة الأمیر سودون الفخری الشیخونی لیقیم عندهم بالکرک مدّة غیبة السـلطان فی الحجاز، کلّ ذلک و السلطان متضعّف و حرکة الحجاز عمّالة و خواصّه و حواشیه و ینهونه عن السفر فی هذه السنة و هو لا یلتفت إلی کلامهم.

ثم توجه السـلطان الی سـریاقوس علی عادته فی کل سـنة و عاد و قـد نصل عن ضـعفه إلی یوم السـبت الثانی عشـر من شوّال خرجت أطلاب الأمراء المتوجّهین صحبة السلطان إلی الحجاز.

و فی الأحـد ثالث عشـر خرج السـلطان بتجمّل زائـد و طلب عظیم إلی الغایة جرّ فیه عشـرون قطارا من الهجن الخاص بقماش ذهب و خمسة عشر قطارا بقماش حریر و قطار واحد بلبس خلیفتیّ و قطار آخر بلبس أبیض برسم الإحرام و مائة فرس ملبسة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۷۰

و کجاوتـان بأغشـیة زرکش و تسع محفّات، غشاء خمس منهن زرکش و سـتة و أربعون زوجا من المحایر و خزانـة عشـرون جملا و قطاران من الجمال محمّلة خضـر مزروعة کالبقل و الشّـمار و النّعناع و السلق و الکسبرة و غیر ذلک. و أما أحمال المطاعم و المشارب و المآکـل فلاـ تـدخل تحت حصـر کثرة: منهـا ثلاثون ألف علبـة حلاوة فی کل علبـة خمسـة أرطال کلّها معمولـة من السـکر المکرر المصـریّ و طیّبت بمائة مثقال مسک، سوی الصّـندل و العود؛ هذا خلاف ما کان للأمراء و الخاصّـکیة و إنما کان هذا للسلطان خاصّة نفسه و أشیاء من هذا النّموذج کثیرة و مع هذا کلّه لم یتغیّر سعر السکّر بمصر.

و سار السـلطان بأمرائه فی أبّهة عظیمة حتی نزل سریاقوس فاقام بها یوما، و فی هذا الیوم أخلع السلطان علی الشیخ ضیاء الدین القرمی الحنفیّ باستقراره شیخ شیوخ المدرسة التی أنشأها بالصّوّة و قد أشرفت علی الفراغ و جاءت من أحسن البناء.

ثم رحل السـلطان من سـریاقوس حتی نزل بالبرکـة علی عادة الحجّاج فأقام بها إلی یوم الثلاثاء ثانی عشـرین شوّال و رحل بعساکره و أمرائه إلی جهـة الحجاز و کان الـذی صـحبه من أمراء الألوف تسـعة و هم: الأمیر صـرغتمش الأشـرفی و أرغون شاه الأشـرفی و یلبغا الشامیّ و هؤلاء الثلاثة أشـرفیّة ممالیکه و الأمیر بهادر الجمالیّ و صـرای تمر المحمدیّ و طشـتمر العلائی الدّوادار و مبارک الطازی و قطلقتمر العلائی الطویل و بشـتک من عبد الکریم الأشرفیّ أیضا. و من أمراء الطبلخانات خمسة و عشرون أمیرا و هم: بوری الأحمدیّ و أیدمر الخطائیّ من صدیق و عبد اللّه بن

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۷۱

بكتمر الحاجب و بلوط الصرغتمشى و آروس المحمودى و يلبغا المحمدى و يلبغا الناصرىّ، على أنه كان أنعم عليه بتقدمة ألف، غير أنه أضيف إلى الطبلخانات كونه كان حاجبا ثانيا و أرغون العزّى الأفرم و طغيتمر الأشرفى و يلبغا المنجكىّ و كزل الأرغونى و قطلوبغا الشعبانىّ و أمير حاج بن مغلطاى و علىّ بن منجك اليوسفى و محمد ابن تنكزبغا و تمرباى الحسنى الأشرفىّ و أسندمر العثمانى و قرابغا الأحمدىّ و إينال اليوسفى و أحمد بن يلبغا العمرى و موسى بن دندار بن قرمان و مغلطاى البدرى و بكتمر العلمى و آخر. و من العشرات خمسة عشر أميرا و هم: آقبغا بوز الشيخونى و أبو بكر بن سنقر الجمالى و أحمد بن محمد بن بيبرس الأحمدى و أسنبغا التّلكىّ و شيخون و محمد بن بكتمر الشمسى و [محمد بن] قطلوبغا المحمدى و خضر بن عمر ابن أحمد بن بكتمر الساقى وجوبان الطّيدمرى و ألطنبغا من عبد الملك و قطلوبغا البزلارى و طوغان العمرى الظهيرى و تلكتمر العيسوىّ و محمد بن سنقر المحمدىّ.

و عيّن الملك الأشرف جماعة من الأمراء ليقيموا بالديار المصرية، عيّن الأمير:

أيدمر الشمسىّ نائب الغيبة بالقلعة و أميرين أخر تسكن بالقلعة أيضا و عيّن الأمير آقتمر عبد الغنى نائب الغيبة و أن يسكن بالقاهرة للحكم بين الناس و عيّن أيضا للاقامة بالديار المصرية من الأكابر: الأمير طشتمر اللّفّاف و قرطاى الطازى و أسندمر الصرغتمشى و أينبك البدرى.

و سافر السلطان و هو متوعّك فى بدنه، بعد أن أشار عليه جماعة من الصّلحاء و الأعيان بتأخير الحج فى هذه السنة فأبى إلا السفر لأمر يريده اللّه تعالى، و أمر السلطان لنائب الغيبة و غيره أن يطلعوا القلعة فى كل يوم موكب و يدخلوا إلى باب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١١، ص: ٧٢

السّتارة و يخرج الأسياد أولاد السلطان الملك الأشرف ساعة ثم يعود كلّ واحد إلى محلّه فامتثلوا ذلك، فكانوا لما يطلعون إلى القلعة و يخرج عليهم الأسياد و أكبرهم أمير علىّ يقوم الأمراء و يبوسون أيديهم و يقعدون ساعة لطيفة فيقوم أمير علىّ و يشير بيده أمرا باسم اللّه فيقوم الأمراء و ينصرفون بعد أن يسقون مشروبا و وقع ذلك فى غيبة السلطان مدّة يسيرة.

فلما كان يوم السبت ثالث ذى القعدة اتفق طشتمر اللفّاف و قرطاى الطازى و أسندمر الصرغتمشى و أينبك البدرى و جماعة من المماليك السلطانية و جماعة من مماليك الأسياد أولاد السلطان الملك الأشرف و جماعة من مماليك الأمراء المسافرين صحبة السلطان الملك الأشرف و لبسوا السلاح و اتفق معهم من بالأطباق من المماليك السلطانية و هجموا الجميع القلعة و قصدوا باب السّتارة فغلق سابق الدين مثقال الزّمام باب الساعات و وقف داخل الباب و معه الأمير جلبان اللّالا، لالا أولاد السلطان و آقبغا جركس اللّالا أيضا، فدقّت المماليك الباب و قالوا: أعطونا سيّدى أمير علىّ، فقال لهم اللّالا: من هو كبيركم حتى نسلم لهم سيّدى عليّا! و أبى أن يسلمهم سيدى عليّا، و كثر الكلام بينهم و متقال الزّمام يصمّم على منع أمير علىّ فقالوا له:

السلطان الملك الأشرف مات: و نريد أن نسلطن ولده أمير علىّ، فلم يلتفت مثقال الى كلامهم، فلما علموا المماليك ذلك، طلعوا جميعا و كسروا شبّاك الزّمام المطلّ على باب الساعات، و دخلوا منه و نهبوا بيت الزمام و قماشه، ثم نزلوا إلى رحبة باب السّتارة و مسكوا مثقالا الزّمام و جلبان اللّالا و فتحوا الباب، فدخلت بقيّتهم و قالوا: أخرجوا أمير علىّ، حتى نسلطنه فانّ أباه توفّى إلى رحمة اللّه تعالى، فدخل الزمام على رغم أنفه و أخرج لهم أمير علىّ فأقعد فى باب الستارة، ثم أحضر الأمير أيدمر الشمسى فبوّسوه الأرض لأمير علىّ، ثم أركبوا أمير علىّ على بعض خيولهم

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١١، ص: ٧٣

و توجّهوا به إلى الإيوان الكبير و أرسلوا خلف الأمراء الذين بالقاهرة، فركبوا إلى سوق الخيل و أبوا أن يطلعوا إلى القلعة فأنزلوا أمير علىّ إلى الإسطبل السلطان، حتى رأوه الأمراء فلما رأوه طلعوا و قبّلوا له الأرض و حلفوا له، غير أنّ الأمير طشتمر الصالحى و بلاط السّيفى ألجاى الكبير و حطط رأس نوبة النّوب لم يوافقوا و لا طلعوا، فنزلوا اليهم المماليك و مسكوهم و حبسوهم بالقصر و عقدوا لأمير علىّ بالسلطنة و لقّبوه با «لملك المنصور» على ما يأتى ذكره فى محله، و نسوق الواقعة على جليّتها.

ثم نادوا بالديار المصرية بالأمان و البيع و الشراء، بعد أن أخذوا خطوط سائر الأمراء المقيمين بمصر فأقاموا ذلك النهار و أصبحوا يوم الأحد رابع ذى القعدة من سنة ثمان و سبعين و سبعمائة و هم لابسون آلة الحرب واقفون بسوق الخيل يتكلمون فى إتمام أمرهم، و بينما هم فى ذلك جاءهم الخبر أنّ شخصا يسمّى قازان اليرقشىّ كان مسافرا صحبة السلطان الملك الأشرف إلى الحجاز الشريف وجدوه متنكّرا فمسكوه و أتوا به إلى الأمراء فسألوه عن خبر قدومه و عن أخبار السلطان، فأبى أن يخبرهم بشىء و أنكر أنه لم يتوجّه إلى الحجاز، فأوهموه بالتوسيط فأقرّ و أعلمهم الخبر بقدوم السلطان الملك الأشرف شعبان و كسرته من مماليكه بالعقبة فقالوا له:

و ما سبب هزيمة السلطان من عقبة أيلا؟ قال: لما نزل السلطان الملك الأشرف بمن معه من أمرائه و عساكره إلى العقبة و أقام بها يوم الثلاثاء و يوم الأربعاء سلخ

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۷۴

شوّال فطلب المماليک السلطانية العليق، فقيل لهم اصبروا إلى منزلة الأزلم: فغضبوا و امتنعوا من أكل السّماط عصر يوم الأربعاء و اتفقوا على الركوب، فلما كانت ليلة الخميس المذكورة ركبوا على السلطان و رءوسهم الأمير طشتمر العلائىّ و مبارک الطازىّ و صراى تمر المحمدىّ و قطلقتمر العلائىّ الطويل و سائر مماليک الأسياد و أكثر المماليک السلطانية، فلما بلغ السلطان أمرهم ركب بأمرائه و خاصّكيته و تواقعوا فانكسر السلطان و هرب هو و من كان معه من الأمراء و هم: صرغتمش الأشرفىّ و أرغون شاه الأشرفىّ و بيبغا الأشرفىّ و بشتک الأشرفىّ و أرغون كتک و يلبغا الناصرىّ و صار السلطان بهؤلاء إلى بركة عجرود، فنزل بها و هو مقيم به،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۷۵

فقالوا له: كذبت قل لنا حقيقة أمره، فامتنع و حلف، فأرادوا توسيطه حقيقة، فقال: أطلقونى أنا أدلّكم عليهم، فأطلقوه فأخذهم و توجّه بهم إلى قبّة النصر خارج القاهرة إلى محل كان الأشرف نزل فيه بجماعته فوجدوا بالمكان أرغون شاه و صرغتمش و بيبغا و بشتک و أرغون كتک و كان الذى توجّه مع قازان اليرقشىّ من القوم أسندمر الصرغتمشىّ و طولو الصرغتمشىّ و معهما جماعة كبيرة من المماليک الذين ثاروا بالقاهرة، فقبضوا على الأمراء المذكورين و سألوهم عن الملک الأشرف، فقالوا: فارقنا و توجّه هو و يلبغا الناصرىّ إلى القاهرة ليختفى بها، فقتلوا الأمراء المذكورين فى الحال و حزوا رءوسهم و أتوا بها إلى سوق الخيل ففرح بذلک بقيّة الأمراء الذين هم أصل الفتنة و علموا أنّ الأشرف قد زال ملكه.

و أمّا الملک الأشرف فإنه لما وصل إلى قبّة النصر توجّه منها نحو القاهرة و معه يلبغا الناصرىّ و اختفى عند أستادار يلبغا الناصرىّ، فلم يأمن على نفسه فتوجّه تلک الليلة من عند أستادار يلبغا الناصرىّ الى بيت آمنة زوجة المشتولىّ فاختفى عندها، فقلق عند ذلک الأمراء الذين أثاروا الفتنة و خافوا عاقبة ظهور الأشرف و هم: قرطاى الطازىّ و طشتمر اللفّاف و أسندمر الصرغتمشىّ و قطلوبغا البدرىّ و ألطنبغا السلطانىّ و بلاط الصغير و دمراش اليوسفىّ و أينبک البدرىّ و يلبغا النظامىّ و طولو الصرغتمشىّ و هؤلاء الأمراء، و أمّا الأجناد فكثير فاشتد قلقهم.

و بينماهم فى ذلک فى آخر نهار الأحد يوم قتلوا الأمراء المذكورين بقبّة النصر، و قبل أن يمضى النهار جاءت امرأة إلى الأمراء و ذكرت لهم أنّ السلطان مختف عند آمنة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۷۶

زوجة المشتولىّ فى الجودرية، فقام ألطنبغا من فوره و معه جماعة و كبسوا بيت آمنة المذكورة فهرب السلطان و اختفى فى بادهنج البيت فطلعوا فوجدوه فى البادهنج و عليه قماش النساء، فمسكوه و ألبسوه عدّة الحرب و أحضروه الى قلعة الجبل فتسلّمه الأمير أينبک البدرىّ و خلا به و أخذ يقرّره على الذخائر فأخبره الملک الأشرف بها و قيل. إنّ أينبک المذكور ضربه تحت رجليه عدّة عصىّ. ثم أصبحوا فى يوم الاثنين خنقوه و تولّى خنقه جاركس شادّ عمائر ألجاى اليوسفىّ فأعطى جاركس المذكور إمرة عشرة و استقرّ شادّ عمائر السلطان.

ثم بعد خنق الملك الأشرف لم يدفنوه، بل أخذوه و وضعوه فى قفّة و خيّطوا عليها و رموه فى بئر، فأقام بها أياما إلى أن ظهرت رائحته، فاطّلع عليه بعض خدّامه من الطواشيّة، ثم أخرجوه و دفنوه عند كيمان السيدة نفيسة و ذلك الخادم يتبعهم من بعد حتى عرف المكان، فلما دخل الليل أخذ جماعة من إخوته و خدمه و نقلوه فى تلك الليلة من موضع دفنوه المماليك و دفنوه بتربة والدته خوند بركة بمدرستها التى بخطّ التّبّانة فى قبّة وحده، بعد أن غسّلوه و كفّنوه و صلّوا عليه و قيل: غير ذلك و هو أنهم لمّا وجدوه فى البيت المذكور و عليه قماش النّسوة أركبوه على هيئة بازار خلف مملوك و مشوا خلفه و طلعوا به من على قنطرة باب الخلق و طلعوا به على

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١١، ص: ٧٧

معديّة فريج و طلعوا به من على الصّليبة وقت الظهر، و كان من رآه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١١، ص: ٧٨

ظنه أميرا من الأمراء و فعلوا ذلك خوفا من العامّة فإنهم لو علموا أنه السلطان خلّصوه منهم و لو ذهبت أرواحهم الجميع لمحبة الرعية فى الأشرف المذكور.

ثم دخلوا بالأشرف إلى إسطبل بالقرب من الصليبة، مخافة من العامّة لا يعرفون به لمّا تكاثروا للفرجة عليه، فأقام بالإسطبل و نزل إليه قرطاى و قرّره على الذخائر، فقرّ له. ثم قتله و دفنه بمصطبة بالإسطبل المذكور، فهذه رواية أخرى غير ما ذكرنا أوّلا و الأوّل أشهر و أظنه الأصحّ و الأقوى.

و أمّا الذين تخلّفوا بالعقبة من الذين وثبوا على الملك الأشرف و كسروه و هرب الأشرف إلى جهة الديار المصرية و لم يدركوه، فإنهم اتّفقوا الجميع الأمراء و غيرهم و توجّهوا إلى الخليفة المتوكّل على اللّه و كان أيضا فى صحبة السلطان الملك الأشرف و قالوا له: يا أمير المؤمنين تسلطن و نحن بين يديك. و كانت العصائب السلطانية حاضرة فامتنع الخليفة من ذلك.

هذا و هم لا يعلمون بما وقع بالديار المصرية من ركوب هؤلاء و سلطنة أمير علىّ فإنّ كلّ طائفة و ثبت على السلطان. و ليس للأخرى بها علم و لا كان بينهم

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١١، ص: ٧٩

اتّفاقيّة على ذلك، و هذا من غريب الاتفاق، كون الواقعة تكون فى العقبة و ينكسر السلطان.

ثم بعد ثلاثة أيام أو أقلّ تكون بمصر أيضا و يخلع الملك الأشرف و يتسلطن ولده و كلاهما من غير مواعدة الأخرى، فنعوذ بالله من زوال النعم.

ثم إنّ الأمراء و المماليك أقاموا بالعقبة بعد هروب السلطان يومين و قد جهزوا للخليفة قماش السلطنة و آلة الموكب و ألحّوا عليه بالسلطنة و هو يمتنع و توجّهت القضاة الى القدس للزيارة و ردّ الحاجّ بأسره إلى أبيار العلائىّ و قد قصدوا العود إلى القاهرة و إبطال الحاج فى تلك السنة، فنهض الأمير بهادر الجمالىّ أمير الحاجّ و ردّهم و حجّ بهم. و لما تحقّقت الأمراء و المماليك أنّ الخليفة امتنع من السلطنة رجعوا نحو الديار المصرية حتى وصلوا إلى عجرود، أتاهم الخبر بما جرى من مسك السلطان الملك الأشرف و قتله فاطمأنوا فإنهم كانوا على وجل و منهم من ندم على ما فعل فإنه كان سببا لزوال دولة الملك الأشرف و لم ينله ما آمل و خرج الأمر لغيره. ثم ساروا الجميع من عجرود إلى أن وصلوا إلى بركة الحاجّ، فسار إليهم جماعة من القائمين بمصر بآلة الحرب فتعبّوا لقتالهم، فأرسل طشتمر العلائىّ الدوادار طليعة عليها قطلقتمر الطويل، فقاتلوه المصريون فكسرهم قطلقتمر و سار خلفهم إلى قلعة الجبل، فلما قرب إلى القلعة تكاثروا عليه و مسكوه، و فى ذلك الوقت حضر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١١، ص: ٨٠

إلى الديار المصرية الأمير آقتمر الصاحبى نائب السلطنة بالديار المصرية و كان قد توجّه إلى بلاد الصعيد قبل توجّه السلطان الملك الأشرف إلى الحجاز، فتلقاه أمراء مصر و عظّموه و قالوا له: أنت نائب السلطنة على عادتك و أنت المتحدّث و كلّنا مماليكك، فلم

یسعه إلا مطاوعتهم علی ما أرادوا و کان کلام الأمراء لآقتمر الصاحبی بهذا القول، خوفا ممّن أتی من الأمراء و الخاصکیّة من العقبة.
ثم اتفق المصریون علی قتال طشتمر الدوادار و من أتی معه من العقبة من الممالیک الأشرفیة و غیرها، فنزلوا الیهم من القلعة بعد المغرب فی جمع کبیر و التقوا معهم علی الصوّة من تحت القلعة، تجاه الطبلخاناة السلطانیة و تقاتلوا، فانکسر طشتمر و من معه من الأمراء و الممالیک الأشرقیة و انهزموا بعد المغرب إلی ناحیة الکیمان، فلما کان اللیل أرسل طشتمر طلب الأمان لنفسه، فأرسلوا له الأمان، فلما حضر مسکوه و قیّدوه هو و جماعته و حبسوهم بالقلعة، و فیه یقول الأدیب شهاب الدین أحمد بن العطار. [الکامل]

إن کان طشتمر طغی و أتی بحرب مسرع

و بغی سیؤخذ عاجلا و لکلّ باغ مصرع

قلت: ما أشقی هؤلاء القوّم العصاة بالعقبة فإنهم کانوا سببا لزوال ملک أستاذهم الملک الأشرف و ذهاب مهجته من غیر أن یحصل أحدهم علی طائل، بل ذهبت عنهم الدنیا و الآخرة، فإنهم عصوا علی أستاذهم و خلعوا طاعته من غیر موجب و شمل ضررهم علی الحجاج و غیرهم و ارتکبوا أمورا قبیحة، فهذا ما حصلوه من الإثم.
و أما أمر الدنیا فإنها زالت عنهم بالکلیة و خرج عنهم إقطاعاتهم و وظائفهم و أرزاقهم و منهم من قتل أشرّ قتلة و لم یقرّبهم ملک من الملوک بعد ذلک، بل

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۸۱

صاروا مبعودین فی الدّول و ماتوا قهرا مما قاسوه من الذل و الهوان، حتی إننی رأیت منهم من کان عمّر و احتاج إلی السؤال، و ما ربک بظلّام للعبید.
و کان السلطان الملک الأشرف- رحمه اللّه تعالی- من أجلّ الملوک سماحة و شهامة و تجملا و سؤددا.
قال قاضی القضاة بدر الدین محمود العینی- رحمه اللّه- فی تاریخه: کان ملکا جلیلا لم یر مثله فی الحلم، کان هینا لیّنا محبّا لأهل الخیر و العلماء و الفقراء مقتدیا بالأمور الشّرعیة واقفا عندها محسنا لإخوته و أقار به و بنی أعمامه، أنعم علیهم و أعطاهم الإمریات و الإقطاعات و هذا لم یعهد من ملک قبله فی ملوک الترک و لا غیرهم و لم یکن فیه ما یعاب، سوی کونه کان محبّا لجمع المال. و کان کریما یفرّق فی کل سنة علی الأمراء أقبیة بطرز زرکش و الخیول المسوّمة بالکنابیش الزرکش و السلاسل الذّهب و السروج الذّهب و کذلک علی جمیع أرباب الوظائف و هذا لم یفعله ملک قبله. انتهی کلام العینی باختصار- رحمه اللّه تعالی-.
و قال غیره- رحمه اللّه- و کان ملکا جلیلا شجاعا مهابا کریما هیّنا لیّنا محبّا للرعیة، قیل إنه لم یل الملک فی الدولة الترکیة أحلم منه و لا أحسن خلقا و خلقا و أبطل عدّه مکوس فی سلطنته. و اللّه أعلم.
قلت: حدّثنی العلامة علاء الدّین علی القلقشندی- تغمده اللّه تعالی- الشافعی، قال حدّثنی العلّامة قاضی القضاة شمس الدین محمد البساطیّ المالکیّ

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۸۲

أنّ الملک الأشرف شعبان هذا کان من فطنته و ذکائه یعرف غالب أحوال القلاع الشامیة و غیرها و یعرف کیف تؤخذ و من أین تحاصر معرفة جیّدة.
قلت: هذا دلیل علی الذّکاء المفرط و التیقّظ فی أحوال مملکته. انتهی.
و رأیت أنا کثیرا من الممالیک الأشرفیّة و بهم رمق و قوّة فی أوائل الدولة الأشرفیة برسبای منهم الأمیر آق سنقر الأشرفیّ الحاجب و غیره و کانت أیام الملک الأشرف شعبان المذکور بهجة و أحوال الناس فی أیامه هادئة مطمئنّة و الخیرات کثیرة، علی غلاء وقع فی أیامه بالدیار المصریة و البلاد الشامیة و مع هذا لم یختلّ من أحوال مصر شیء لحسن تدبیره و مشی سوق أرباب الکمالات فی زمانه من کل علم و فن؛ و نفقت فی أیامه البضائع الکاسدة من الفنون و الملح و قصدته أربابها من الأقطار و هو لا یکلّ من الاحسان إلیهم

فى شىء يريده و شىء لا يريده، حتى كلّمه بعض خواصّه فى ذلك، فقال- رحمه اللّه-. أفعل هذا لئلا تموت الفنون فى دولتى و أيامى.

قلت. لعمرى إنه كان يحشى موت الفنون و الفضائل؛ و لقد جاء من بعده من قتلها صبرا، قبل أوان موتها و دفنها فى القبور و عفّى أثرها، و ما أحسن قول أبى الطيب أحمد بن الحسين حيت يقول:

على قدر أهل العزم تأتى العزائم [و تأتى على قدر الكرام المكارم]

[الطويل] و خلّف الملك الأشرف [رحمه اللّه] من الأولاد ستّة بنين، و هم الملك المنصور علىّ الذى تسلطن من بعده على ما يأتى ذكره و ذكر من قام بسلطنته مفصّلا- و الملك الصالح أمير حاج و قاسم و محمد و إسماعيل و أبو بكر و ولدت بعده خوند سمراء جاريته ولدا سمّوه أحمد فصاروا سبعة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۸۳

و خلّف سبع بنات رأيت إحداهنّ بعد سنة عشرين و ثمانمائة.

و كانت مدّة سلطنة الملك الأشرف أربع عشرة سنة و شهرين و عشرين يوما، و مات و عمره أربع و عشرون سنة. و قد تقدّم مولده فى أوّل ترجمته، و رثاه الشعراء بعد موته بعدّة قصائد و حزن الناس عليه حزنا عظيما و كثر تأسّفهم عليه. و عمل عزاؤه بالقاهرة عدّة أيام.

و فيه يقول الشيخ شهاب الدين أحمد بن العطار: [البسيط]

للملك الأشرف المنصور سيّدنا مناقب بعضها يبدو به العجب

له خلائق بيض لا يغيّرها صرف الزمان كما لا يصدأ الذهب

و قال غيره: [الزجل]

كوكب السعد غاب من القلعه و هلا لو قد انطفا بأمان

و زحل قد قارن المرّيخ لكسوف شمس الضّحى شعبان

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۶۵]

السنة الأولى من سلطنة الملك الأشرف شعبان بن حسين على مصر. و هى سنة خمس و ستين و سبعمائة على أنه حكم فى السنة الماضية من شعبان إلى آخرها.

و فيها (أعنى سنة خمس و ستين) توفّى الشيخ الإمام العالم ناصر الدين محمد بن أحمد بن عبد العزيز القونوىّ الحنفىّ الشهير بابن الرّبوة- رحمه اللّه- كان إماما عالما بارعا خطيبا فصيحا فقيها مناظرا أفتى و درّس و أعاد و شرح «الفرائض السراجيّة» و «كتاب المنار» و له عدّة مصنّفات أخر و مات بدمشق فى هذه السنة و قيل فى الخالية.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۸۴

و توفّى قاضى القضاه نجم الدين عبد الرحيم ابن القاضى شمس الدين إبراهيم بن شرف الدين هبة اللّه بن عبد الرحيم بن إبراهيم بن المسلم بن عبد اللّه بن حسّان المعروف بالبارزىّ الجهنىّ الحموىّ الشافعىّ قاضى قضاة حماة بها، بعد أن ولى قضاءها ستّا و عشرين سنة و كان مشكور السّيرة فى أحكامه- رحمه اللّه-.

و توفّى الأديب عزّ الدين أبو محمد الحسن بن علىّ بن الحسن بن علىّ العبّاسىّ الشهير بابن البنّاء الحلبىّ الشاعر المشهور؛ قدم إلى حلب و بها مات، و سنّه زيادة على سبعين سنة. و من شعره قصيدة أوّلها: [الرجز]

أنفقت عمرى فى رجاء وصلكم و العصر إنّى بكم فى خسر

و توفّى القاضى شهاب الدين أحمد ابن الصاحب جمال الدين محمد ابن الصاحب كمال الدين عمر بن أحمد الحنفىّ الحلبىّ الشهير

بابن العديم بحلب، عن بضع و سبعين سنة. و كان فقيها عارفا بالتاريخ و الأدب.

و توفّى الأمير سيف الدين قطلوبغا الأحمدىّ نائب حلب بها عن نيّف و ثلاثين سنة- رحمه اللّه- و كان أميرا جليلا شجاعا كريما، نشأ فى السعادة و ولى نيابة حلب مرّتين.

و توفّيت خوند طولوبيه الناصريّة التّتريّة، زوجة السلطان الملك الناصر حسن.

ثم من بعده زوجة مملوكه يلبغا العمرىّ فى الرابع و العشرين من شهر ربيع الآخر.

و دفنت بتربتها التى أنشأتها بجوار تربة خوند طغاى الناصريّة أمّ آنوك خارج باب البرقيّة بالصحراء، و كانت من أجمل نساء عصرها.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۸۵

و توفّى القاضى تاج الدين أبو عبد اللّه محمد بن بهاء الدين إسحاق بن إبراهيم السّلمىّ المناوىّ الشافعىّ خليفة الحكم بالديار المصرية و قاضى العسكر، و وكيل بيت المال و الخاصّ بها فى يوم الجمعة سادس شهر ربيع الآخر.

و توفّى القاضى صلاح الدين عبد اللّه بن عبد اللّه بن إبراهيم البرلّسىّ المالكىّ محتسب القاهرة بها فى يوم الخميس خامس عشرين صفر و هذا المحتسب هو الذى أمر المؤذّنين أن يقولوا فى ليلة الجمعة بعد أذان العشاء الآخرة، و قبل الفجر: «الصلاة و السلام عليك يا رسول اللّه» فاستمرّ ذلك إلى سلطنة الملك الظاهر برقوق، أمر محتسب القاهرة نجم الدّين الطّنبذىّ أن يقولوا ذلك عقيب كلّ أذان إلّا المغرب، و استمرّ ذلك أيضا إلى يومنا هذا، على ما سنبيّنه فى وقته- إن شاء اللّه تعالى- و نذكر سببه، و لم يكن قبل ذلك إلّا الأذان فقط.

و توفّى قاضى مكّة تقىّ الدين محمد بن أحمد بن قاسم العمرىّ الحرازىّ الشافعىّ معزولا.

و توفّى بالمدينة النبويّة- على ساكنها أفضل الصلاة و السلام- الحافظ عفيف الدين أبو السيادة عبد اللّه بن محمد بن أحمد بن خلف فى سادس عشرين شهر ربيع الأوّل- رحمه اللّه- و كان إماما حافظا متقنا سمع الكثير و رحل البلاد و كتب و حصّل.

و توفّى السلطان الملك الصالح شمس الدين صالح ابن الملك المنصور نجم الدين غازى ابن الملك المظفر قرا أرسلان ابن الملك السعيد غازى بن أرتق بن أرسلان ابن إيل بن غازى بن ألبى بن تمرداش بن إيل بن غازى بن أرتق الأرتقىّ صاحب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۸۶

ماردين بها، و قد ناهز السبعين سنة من العمر، بعد أن دام فى سلطنة ماردين أربعا و خمسين سنة. و تولّى ماردين بعده ابنه الملك المنصور أحمد. و كان الملك الصالح من أجلّ ملوك بنى أرتق حزما و عزما و رأيا و سؤددا و كرما و دهاء و شجاعة و إقداما، و كان يحبّ الفقهاء و الفضلاء و أهل الخير و كان له فضل و فهم و ذوق للشعر و الأدب، و كان يحبّ المديح و يجيز عليه بالجوائز السنيّة. و لصفىّ الدين عبد العزيز الحلى فيه مدائح و غرر فى مخلص بعض قصائده- رحمه اللّه-.

[الكامل]

لم أشك جور الحادثات و لم أقل حالت بى الأيام عن حالاتها

مالى أعدّ لها مساوئ جمة و الصالح السلطان من حسناتها

ملك تقرّ له الملوك بأنه إنسان عينيها و عين حياتها

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمسة أذرع و ستة أصابع. مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا و اثنا عشر إصبعا. و كان الوفاء ثانى عشرين توت. و اللّه أعلم.

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۶۶]

السنة الثانية من ولاية الملك الأشرف شعبان بن حسين على مصر. و هى سنة ست و ستين و سبعمائة.

فيها توفّى العلّامة قاضى القضاة جمال الدين يوسف بن أحمد بن الحسين بن سليمان بن فزارة الكفرى (بفتح الكاف) الدّمشقىّ الحنفىّ قاضى قضاة دمشق بها.

و كان- رحمه اللّه- إماما بارعا فى مذهبه ماهرا فى علم العربيّة بصيرا بالأحكام، باشر مدّة طويلة نيابة عن والده. ثم استقلّ بها إلى أن مات، و كان مشكور السّيرة و أفتى و درّس سنين.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۸۷

و توفّى قاضى القضاة زين الدين محمد بن سراج الدين عمر بن محمود الحنفى المعروف بابن السّراج بالقاهرة فى ذى القعدة عن تسع و ستين سنة و دفن بتربته خارج باب النصر بالقرب من تربة الصوفية- رحمه اللّه. و كان فقيها بارعا عالما مفتيا يحفظ الهداية فى الفقه و درّس بالجامع الحاكمى و أعاد بجامع أحمد بن طولون و الأشرفية و غيرهما و ناب فى القضاء عن قاضى القضاة جمال الدين التّركمانى الحنفى و كان معدودا من الفقهاء العلماء.

و توفّى الخطيب أبو المعالى تقىّ الدين محمد بن الخطيب محمد بن إسماعيل بن إبراهيم ابن ناصح الحموى ثم الحلبى الشافعى الشهير بابن القوّاس بحلب عن نيّف و خمسين سنة- رحمه اللّه-.

و توفى الشيخ الإمام العالم العلّامة قطب الدين محمد بن محمد الرازى الشافعى الشهير بالقطب التحتانى - رحمه اللّه. بدمشق عن نيف و ستين سنة. كان بحرا فى جميع العلوم لا سيما فى العلوم العقلية و له تصانيف مفيدة، منها: شرح الشمسية و شرح

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۸۸

المطالع و الحواشى على كشاف الزمخشرى، و كانت تصانيفه أحسن من تصانيف شيخه العلّامة شمس الدين الأصفهانى - رحمه اللّه.

و توفّى الأمير سيف الدين أرنبغا بن عبد اللّه الكاملى نائب غزّة و كان، أصله من مماليك الملك الكامل شعبان ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون و كان خصيصا عنده إلى الغاية.

و توفّى الأمير الشريف أبو على الحسن بن محمد بن الحسن بن علىّ بن الحسن ابن زهرة الحسنىّ الحلبىّ، ولى نقابة الأشراف بحلب بعد والده- رحمهما اللّه تعالى- و استقرّ أمير طبلخاناه بحلب مدّة ثم صرف عن الوظيفتين و مات بظاهر حلب عن ثلاث و خمسين سنة.

و توفّى الشيخ شمس الدين محمد بن عبد الهادى الفوّىّ الفقيه الشافعىّ فى يوم الخميس ثانى عشر جمادى الأولى و قد تصدّر للتدريس و الإقراء- رحمه اللّه.

و توفّى الشيخ شرف الدين محمد بن أحمد بن أبى بكر المزّىّ الدمشقىّ الحريرىّ المحدّث بمصر فى شعبان. رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الأمير آسن قجا بن عبد اللّه من على بك الناصرىّ أحد أمراء الطبلخانات، بعد ما تنقّل فى عدّة أعمال مثل البيرة و طرسوس و غيرهما- رحمه اللّه.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۸۹

و توفّى الأمير سيف الدين قمارى بن عبد اللّه الحموىّ الناصرىّ الحاجب و هو على نيابة طرسوس و كان من أعيان الأمراء و من أكابر المماليك الناصريه.

و توفّى الشيخ المعمّر الرّحلة شمس الدين محمد بن إبراهيم بن محمد بن أبى بكر بن ابراهيم بن يعقوب [بن الياس] الأنصارىّ الخزرجىّ المقدسىّ البيانىّ الشاهد، كان أبوه يعرف بابن إمام الصّخرة و اشتهر هو بالبيانى، ولد سنة ستّ و ثمانين و ستمائة فأحضر على زينب بنت مكى فى الثانية من عمره و على الفخر ابن البخارى فى الثالثة و أسمع على أبى الفضل بن عساكر و غيره و أجاز له جماعة و حدّث بالكثير، و عمّر و صار مسند عصره و رحلة زمانه و خرّج له الحافظ تقىّ الدين بن رافع مشيخة و ذيّل عليها الحافظ زين الدين العراقىّ. و كانت وفاته يوم الاثنين تاسع عشرين ذى القعدة، و آخر من تأخّر ممن سمع عليه شيخنا الرّحلة زين الدين عبد

الرحمن الزّركشىّ الخيلىّ.

رحمه اللّه تعالى.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمسة أذرع و أربعة أصابع.

مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا و ستة عشر إصبعا. و اللّه أعلم.

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۶۷]

السنة الثالثة من سلطنة الملك الأشرف شعبان بن حسين على مصر و هى سنة سبع و ستين و سبعمائة.

فيها توفّى الشيخ الإمام العالم العلّامة قاضى القضاة عز الدين عبد العزيز ابن قاضى القضاة بدر الدين محمد بن إبراهيم بن سعد اللّه بن جماعة الكنانىّ الحموى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۹۰

المصرى الشافعىّ بمكة المشرفة فى يوم الاثنين ثامن عشر جمادى الآخرة، و دفن بباب المعلاة بين الفضيل بن عياض و أبى القاسم القشيرىّ و نجم الدين الأصبهانىّ.

و مولده بالعادلية بدمشق فى سنة أربع و تسعين و ستمائة- رحمه اللّه- و كان إماما عالما فاضلا ديّنا صالحا، سمع بمصر و الشام و الحجاز و أخذ عن الأبرقوهىّ و الدّمياطىّ و غيرهما من الحفّاظ و جمع و كتب و خطب و حدّث و أفتى و درّس و تولى القضاء تسعا و عشرين سنة. ثم استعفى و توجّه إلى مكة مجاورا بها إلى أن مات.

و توفّى القاضى شهاب الدين أبو العباس أحمد بن ابراهيم أيوب العينتابىّ الحنفىّ قاضى العسكر بدمشق- رحمه اللّه تعالى- و بها كانت وفاته و قد جاوز ستين سنة، و كان إماما بارعا فى المذهب و أفتى و درّس و شرح مجمع البحرين فى الفقه فى المذاهب الثلاثة فى عشرة مجلدات و سماه: «المنبع».

و توفّى الشيخ الرضىّ شيخ خانقاة بيبرس الجاشنكير فى ليلة الجمعة حادى عشر شهر رجب و دفن بمقابر الصوفية و تولّى مكانه الشيخ ضياء الدين العفيفى المعروف بقاضى قرم. رحمه اللّه.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۹۱

و توفّى السلطان الملك المجاهد سيف الدين أبو يحيى على ابن السلطان الملك المؤيد هزير الدين داود ابن السلطان الملك المظفر يوسف ابن السلطان الملك لمنصور عمر بن نور الدين على رسول التّركمانىّ الأصل اليمنىّ المولد و المنشأ و الوفاة، صاحب اليمن بعدن- رحمه اللّه- فى يوم السبت الخامس و العشرين من شهر جمادى الأولى من هذه السنة و قيل سنة أربع و ستين و ولى بعده ابنه الملك الأفضل عباس. و مولد المجاهد هذا فى سنة إحدى و سبعمائة بتعز و نشأ بها و حفظ التنبيه فى الفقه و بحثه و تخرّج على المشايخ منهم: الشيخ الإمام العلامة الصاغانىّ، و تأدّب على الشيخ تاج الدين عبد الباقى و غيرهما، و شارك فى علوم و كان جيّد الفهم- رحمه اللّه- و له ذوق فى الأدب و له نظم و نثر، و هذا المجاهد الذى ذكرنا فى ترجمة الملك الناصر محمد بن قلاوون أنه أرسل إليه نجدة إلى بلاد اليمن، لما خرج عليه و نازعه الملك الناصر بن الأشرف صاحب زبيد، و سقنا حكايته هناك مفصلا، و طالت مدّة المجاهد فى مملكة اليمن و فعل الخيرات و له مآثر: عمر مدرسة عظيمة بتعز و زيادة أخرى و غير ذلك و عمّر مدرسة بمكة المشرفة بالمسجد الحرام بالجانب اليمانىّ مشرفة على الحرم الشريف. و قد استوعبنا ترجمته فى المنهل الصافى بأطول من هذا إذ هو كتاب تراجم. و اللّه أعلم

و توفّى الشيخ شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن عبد الظاهر المعروف بابن الشرف الحنفىّ الفقيه خطيب جامع شيخون و كان من أعيان الفقهاء و له مشاركة و فضل. رحمه اللّه تعالى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١١، ص: ٩٢

و توفّى الأمير سيف الدين بطا بن عبد اللّه أحد أمراء الطبلخانات و قرئ على قبره بعد موته ألف ختمة شريفة بوصيّته هكذا نقل الشيخ تقىّ الدين المقريزى.

رحمه اللّه.

و توفّى الشيخ المحدّث العالم العلّامة شمس الدين أبو الثناء محمود بن خليفة بن محمد ابن خلف المنبجىّ ثم الدّمشقىّ التاجر. و مولده فى سنة سبع و ثمانين و ستمائة و مات فى ذى الحجة. رحمه اللّه.

و توفّى الشيخ الإمام أحد فقهاء المالكية خليل بن إسحاق المعروف بابن الجندى الفقيه المالكىّ- رحمه اللّه- فى يوم الخميس ثانى عشر شهر ربيع الأوّل.

و كان فقيها مصنّفا صنّف المختصر فى فقه المالكية و غيره.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمسة أذرع و أربعة أصابع.

مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا و ستة عشر إصبعا. و اللّه سبحانه أعلم.

[ما وقع من الحوادث سنة ٧٦٨]

السنة الرابعة من سلطنة الملك الأشرف شعبان بن حسين على مصر. و هى سنة ثمان و ستين و سبعمائه.

و فيها كانت وقعة يلبغا العمرىّ الخاصكى صاحب الكبش و مقتلته و سلطنة آنوك بجزيرة الوسطى و لم يتم أمره و لا ـ عدّ من السّلاطين و قد تقدم ذكر ذلك كله مفصلا فى ترجمة الملك الأشرف هذا فلينظر هناك.

و فيها توفّى قاضى القضاة أمين الدين أبو محمد عبد الوهاب بن أحمد بن وهبان الدمشقىّ الحنفىّ قاضى قضاة حماة و بها توفّى و هو من أبناء الأربعين- رحمه اللّه- و كان فقيها عالما مشكور السيرة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١١، ص: ٩٣

و توفّى الشيخ الإمام العالم المسلّك العارف بالله تعالى عفيف الدين أبو محمد و قيل أبو السيادة عبد اللّه بن أسعد بن على بن سليمان بن فلاح اليمانىّ اليافعىّ، نزيل مكة و شيخ الحرم و إمام المسلّكين و شيخ الصوفية فى ليلة الأحد العشرين من جمادى الآخرة بمكة المشرفة و دفن بالمعلاة بجوار الفضيل بن عياض. و مولده سنة ثمان و ستين و ستمائة تقريبا و سمع الكثير و برع فى الفقه و العربية و الأصلين و اللغة و الفرائض و الحساب و التصوّف و التسليك، و غير ذلك. و كان له نظم جيّد كثير، دوّن منه ديوان و له تصانيف كثيرة منها: «روض الرياحين» [فى حكايات الصالحين] و تاريخ بدأ فيه من أوّل الهجرة و أشياء غير ذلك، ذكرناها مستوفاة فى ترجمته فى تاريخنا «المنهل الصافى» و ما وقع له مع علماء عصره بسبب قصيدته التى أولها حيث قال فى ذلك: [الطويل]

و يا ليلة فيها السعادة و المنى لقد صغرت فى جنبها ليلة القدر

قال: و من شعره أيضا قصيدته التى أوّلها: [الطويل]

قفا حدّثانى فآلفؤاد عليل عسى منه يشفى بالحديث غليل

أحاديث نجد علّلانى بذكرها فقلبى إلى نجد أراه يميل

بتذكار سعدى أسعدانى فليس لى إلى الصّبر عنها و السّلوّ سبيل

و لا تذكر الى العامرية إنها يولّه عقلى ذكرها و يزيل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١١، ص: ٩٤

و منها المخلص:

ألا يا رسول اللّه يا أكرم الورى و من جوده خير النّوال ينبل

و من كفّه سيحون منها و جيحن و دجلة تجرى و الفرات و نيل

مدحتك أرجو منك ما أنت أهله و أنت الذى فى المكرمات أصيل

فياخير ممدوح أثب شرّ مادح عطا مانح منه الجزاء جزيل

و توفّى الشيخ الإمام العالم المسلّك الصوفىّ العارف بالله تعالى المعتقد جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن عبد اللّه بن عمر بن على بن خضر [الكردىّ] الكورانىّ الأصل المصرىّ الدار و الوفاة المعروف بالشيخ يوسف العجمىّ بزاويته بقرافة مصر الصّغرى فى يوم الاثنين ثانى عشر شهر ربيع الأوّل و قيل: جمادى الأولى و قيل:

يوم الأحد النصف من جمادى الأولى و دفن بزاويته المذكورة و قبره يقصد للزيارة و كان- رحمه اللّه- شيخا حقيقة و مقتدى طريقة، كان إمام المسلّكين فى عصره و كان على قدم هائل، كان غالب علماء عصره يقتدون به و كان له أوراد و أذكار هائلة، انتفع بصحبته جماعة من العلماء و الصلحاء و الفقهاء و كان لا يأخذه فى اللّه لومة لائم، مع فضيلة غزيرة و معرفة تامّة بالتصوّف و له رسالة سمّاها «ريحان القلوب و التوصّل إلى المحبوب». و قد شاع ذكر الشيخ يوسف فى الدنيا و أثنى عليه العلماء و الصلحاء.

حكى أنّ الشيخ يوسف هذا دخل مرة الى الشيخ يحيى بن علىّ بن يحيى الصنافيرى، فقام إليه الشيخ يحيى و كان لا يلتفت إلى أحد و تلقّاه و هو ينشد بقوله: [الوافر]

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۹۵

أ لم تعلم بأنّى صيرفىّ بلوت العالمين على محكى

فمنهم زائف لا خير فيه و منهم جائز تجويز شكّ

و أنت الخالص الإبريز منهم بتزكيتى و حسبك من أزكّى!

فحصل للشيخ يوسف بهذا الكلام غاية السرور و الفرح و كان مع الشيخ يوسف ولده محمد فأقبل عليه الشيخ يحيى و أنشده فقال: [الكامل]

إنّ السّرىّ إذا سرى فبنفسه و ابن السّرىّ إذا سرى أسراهما

قال: فازداد الشيخ يوسف سرورا على سروره بهذا القول. رحمهما اللّه تعالى و نفعنا ببركاتهما.

و توفّى الشيخ الإمام الأديب البارع المفتن جمال الدين أبو بكر محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن صالح بن على بن يحيى بن طاهر بن محمد بن الخطيب أبى يحيى عبد الرحيم بن نباته (بضم النون) الفارقىّ: الأصل الجذامى المصرىّ المعروف بابن نباتة بالقاهرة- رحمه اللّه تعالى- بالبيمارستان المنصورىّ فى ثامن شهر صفر من السنة المذكورة. و مولده فى مصر فى شهر ربيع الأوّل سنة ست و ثمانين و ستمائة «بزقاق القناديل» و نشأ بمصر و برع فى عدّة علوم وفاق أهل زمانه فى نظم القريض و له الشّعر الرائق و النّثر الفائق و هو أحد من حذا حذو القاضى الفاضل و سلك طريقه و أجاد فيما سلك و كان خطّه فى غاية الحسن و ديوان شعره مشهور و قد مدح الملوك و الأعيان و رحل إلى البلاد و انقطع إلى السلطان الملك المؤيّد إسماعيل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۹۶

صاحب حماة و له فيه غرر مدائح و كان مع ما اشتمل عليه من المحاسن قليل الحظ و من شعره فى المعنى: [الكامل]

أسفى لشعر بارع نظمته تحتاج بهجته لرفد بارع

درّ يتيم قد تضوّع نشره يا من يرقّ على اليتيم الضّائع

و من شعره أيضا قوله: [السريع]

مقبّل الخدّ أدار الطّلا فقال لى فى حبّها عائبى

عن أحمر المشروب ما تنتهی قلت: و لا عن أخضر الشارب

و له أیضا: [السریع]

و تاجر قلت له إذ رنا رفقا بقلب صبره خاسر

و مقلة تنهب طیب الکری منها علی عینک یا تاجر

و له أیضا: [الکامل]

قبلته عند النّوی فتمرّرت تلک الحلاوة [بالتفرّق و الجوی]

و لثمته عند القدوم فحبّذا رطب الشّفاه السّکّریّ بلا نوی

و له: أیضا- عفا اللّه عنه- [البسیط]

أهلا بطیف علی الجرعاء مختلس و الفجر فی سحر کالثّغر فی لعس

و النّجم فی الأفق الغربیّ منحدر کشعلة سقطت من کفّ مقتبس

یا حبّذا زمن الجرعاء من زمن کلّ اللیالی فیه لیلة العرس

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۹۷

و حبّذا العیش مع هیفاء لو ظهرت للبدر لم یزه أو للغصن لم یمس

خود لها مثل ما فی الظّبی من ملح و لیس للظّبی ما فیها من الأنس

محروسة بشعاع البیض ملتمعا و نور ذاک المحیّا آیة الحرس

یسعی ورا لحظها قلبی و من عجب سعی الطّریدة فی آثار مفترس

لیت العذول عنی مر أی محاسنها لو کان ثنّی عمی عینیه بالخرس

و قد استوعبنا من شعره و أحواله نبذة کبیرة فی المنهل الصافی. انتهی و اللّه أعلم.

و توفّی الوزیر الصّاحب فخر الدین ماجد بن قروینة القبطیّ المصری تحت العقوبة، بعد أن أحرقت أصابعه بالنار، و کان- رحمه اللّه- وزیرا عارفا مکینا عفیفا رزینا ذا حرمة و نهضة، لم یل الوزارة فی الدولة الترکیة من یشابهه؛ عمّر فی أیام وزارته بیوت الأموال بالذهب و الفضة، و ترک بالأهراء مغلّ ثلاث سنین و بعض الرابعة، و ذلک فوق ثلاثمائة ألف اردبّ. و بالبلاد مغلّ سنتین، بعد ما کان یقوم بالکلف السلطانیة و کلفة الأتابک یلبغا العمریّ الخاصّکی و بعد هذا کله کان یحمل إلی الخزانة الشریفة فی کل شهر ستین ألف دینار، و کان فیه محاسن کثیرة، غیر أنه کانت نفسه نفسا شامخة، و فیه تهکّم علی الناس مع تکبر، هذا مع الکرم الزائد و الإحسان للناس و قلّة الظلم بالنسبة إلی غیره، رحمه اللّه تعالی؛ و اللّه أعلم.

و توفّی الأمیر سیف الدین دروط ابن أخی الحاج آل ملک، کان أحد أمراء الألوف بالدیار المصریة و حاجبا ثانیا بها.

و توفّی الأمیر علاء الدین آقبغا بن عبد اللّه الصّیفوی أحد الأمراء الطبلخانات بالدیار المصریة و أمیر آخور و کان- رحمه اللّه- من أعیان الأمراء.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۹۸

و توفّی الأمیر علاء الدین آقبغا بن عبد اللّه الأحمدی الیلبغاوی المعروف بالجلب فی أواخر السنة المذکورة و هو مسجون بثغر الإسکندریة، من جرح أصابه فی شهر ذی القعدة؛ و قد تقدّم ذکره فی عدّة مواطن. و اللّه أعلم.

و توفّی الأمیر علاء الدین ألطنبغا بن عبد اللّه العزّی أحد أمراء الطبلخانات فی یوم الاثنین رابع شهر ربیع الآخر، و کان مثیرا للفتن.

و توفّی القاضی بهاء الدین حسن بن سلیمان بن أبی الحسن بن سلیمان بن ریّان ناظر الجیش بحلب فی دمشق عن ثمان و ستین سنة، و کان رئیسا نبیلا کاتبا بارعا، ولی عدّة وظائف؛ و له نظم و نثر؛ و من شعره- رحمه اللّه تعالی- [الرجز]

نحن الموقّعون فى وظائف قلوبنا من أجلها فى حرق

قسمتنا فى الكتب لا فى غيرها و قطعنا و وصلنا فى الورق

و توفّى القاضى تقىّ الدين محمد بن محمد بن عيسى بن محمود بن عبد اللطيف البعلبكى الشافعى الشهير بابن المجد- رحمه اللّه- كان فقيها فاضلا ولى قضاء طرابلس و غيرها.

و قد تقدم أنّ يلبغا العمرى قتل فى هذه السنة؛ انتهى، و اللّه أعلم.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ستة أذرع و ثلاثة أصابع.

مبلغ الزيادة تسعة عشر ذراعا و ستة أصابع.

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۶۹]

السنة الخامسة من سلطنة الملك الأشرف شعبان بن حسين صاحب الترجمة على مصر؛ و هى سنة تسع و ستين و سبعمائة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۹۹

فيها كانت الوقعة بين الملك الأشرف صاحب الترجمة و بين الأتابك أسندمر الزّينى الناصرى و انتصر الأشرف حسب ما تقدّم ذكره.

و فيها توفّى العلّامة قاضى القضاة جمال الدين عبد اللّه بن قاضى القضاة علاء الدين علىّ ابن العلامة فخر الدين عثمان بن إبراهيم بن مصطفى بن سليمان الحنفىّ الماردينىّ، الشهير بابن التّركمانىّ بالقاهرة، فى ليلة الجمعة حادى عشر شهر شعبان و دفن بتربة والده خارج باب النصر من القاهرة و تولّى بعده القضاء العلّامة سراج الدين عمر الهندى. و مولده فى سنة تسع عشرة و سبعمائة، و قيل سنة خمس عشرة و سبعمائة. و تفقّه على والده و غيره، حتى برع فى الفقه و الأصول و العربية و شارك فى فنون كثيرة، و كان من جملة محفوظاته «الهداية فى الفقه» حتى إنه كان يمليها فى دروسه من صدره، و كمّل شرح أبيه لها، و تولّى القضاء بعد وفاة أبيه و باشر القضاء بعفّة و حشمة و رئاسة و تصدّى للإفتاء و التدريس و الإقراء سنين فى حياة والده الى أن مات. و كان له عبادة و أوراد هائلة و محاسن كثيرة. رحمه اللّه تعالى.

و توفّى قاضى القضاة موفّق الدين أبو محمد عبد اللّه بن محمد بن عبد الملك ابن عبد الباقى الحجّاوى المقدسىّ الحنبلىّ قاضى قضاة الديار المصرية بعد أن حكم بها ثلاثين سنة- رحمه اللّه تعالى- و تولّى بعده القاضى ناصر الدين نصر اللّه العسقلانى الحنبلىّ. و كان موفّق الدين مشكور السّيرة جميل الطريقة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۱۰۰

و توفّى قاضى القضاة جمال الدين يوسف بن محمد بن عبد اللّه بن محمد بن محمود المرداوى المقدسى الحنبلىّ قاضى قضاة دمشق بها عن نيّف و سبعين سنة، مصروفا عن القضاء- رحمه اللّه تعالى-

و توفّى قاضى قضاة طرابلس شمس الدين أبو عبد اللّه محمد ابن الشيخ تقى الدين عبد اللّه الشّبلىّ الدمشقىّ الحنفىّ و هو من أبناء السبعين- رحمه اللّه- و كان عالما ديّنا مجاهدا مرابطا يلبس السّلاح فى سبيل اللّه و يغزو و سمع الكثير و جمع و ألّف و أفتى و درّس و انتفع الناس به و باشر الحكم خمس عشرة سنة. رحمه اللّه.

و توفّى قاضى قضاة حلب صدر الدين أحمد بن عبد الظاهر بن محمد الدّميرى المالكى- رحمه اللّه- عن نيّف و سبعين سنة. و كان فقيها فاضلا مشكور السّيرة.

و توفّى الشيخ العلّامة قاضى القضاة بهاء الدين أبو محمد عبد اللّه بن عبد الرحمن ابن عقيل المصرى الشافعىّ قاضى قضاة الديار المصريّة و فقيه الشافعية- تغمّده اللّه برحمته- بالقاهرة فى ليلة الأربعاء الثالث و العشرين من شهر ربيع الأوّل و دفن بالقرافة بالقرب من قبّة الإمام الشافعىّ- رضى اللّه عنه- و مولده فى المحرّم سنة ثمان و تسعين و ستمائة. و نسبه يتّصل إلى عقيل بن أبى طالب رضى اللّه

عنه.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۱۰۱

و نشأ بالقاهرة. و قرأ على علماء عصره و برع فى علوم كثيرة و صنّف التصانيف المفيدة فى الفقه و العربيّة و التفسير، منها «شرح الألفيّة» لابن مالك و «شرح التسهيل» أيضا و باشر قضاء الديار المصريّة مدّة يسيرة و باشر التداريس الجليلة و المناصب الشريفة، و كتب إليه قاضى القضاة بهاء الدين أبو البقاء السّبكى من دمشق يقول:

[الطويل]

تقضّت شهور بالبعاد و أحوال جرت بعدكم فيها أمور و أحوال

فإن يسر اللّه التّلاقى ذكرتها و إلا فلى فى هذه الأرض أمثال

و توفّى الشيخ عزّ الدين أبو يعلى حمزة بن قطب الدين موسى بن ضياء الدين أحمد بن الحسين الدّمشقى الحنبلى الشهير بابن شيخ السلامية بدمشق و قد جاوز ستين سنة و كان- رحمه اللّه- إماما عالما فاضلا كتب على «المنتقى».

و توفّى الإمام العالم شهاب الدين أحمد بن لؤلؤ الشهير بابن النّقيب المصرى الشافعى فى يوم الأربعاء رابع عشر شهر رمضان و كان- رحمه اللّه- مفتنّا فى علوم و له مصنّفات و نظم حسن.

و توفّى الشيخ الإمام المحدّث صلاح الدين عبد اللّه ابن المحدّث شمس الدين محمد بن إبراهيم بن غنائم بن أحمد بن سعيد الصالحىّ الحنفى الشهير بابن المهندس

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۱۰۲

- رحمه اللّه تعالى- بحلب عن نيفّ و سبعين سنة. و كان محدّثا مسندا سمع الكثير بمصر و الشام و الحجاز و العراق و كتب و حدّث و حجّ غير مرّة و طاف البلاد ثم استوطن حلب إلى أن مات. رحمه اللّه.

و توفّى القاضى علاء الدين علىّ ابن القاضى محيى الدين يحيى بن فضل اللّه القرشى العمرى كاتب السّر الشريف بالديار المصريّة بالقاهرة فى ليلة الجمعة تاسع عشرين شهر رمضان عن سبع و خمسين سنة. و كان قبل موته نزل عن وظيفة كتابة السّر لولده بدر الدين محمد فتمّ أمره من بعده. و كان القاضى علاء الدين- رحمه اللّه تعالى- إماما فى فنّه كاتبا عاقلا طالت أيّامه فى السعادة حتّى إنه باشر وظيفة كتابة السّر نيّفا و ثلاثين سنة لأحد عشر سلطانا من بنى قلاوون. استوعبنا ذلك كلّه فى «المنهل الصافى».

قلت: و لا أعلم أحدا ولى كتابة السّر هذه المدّة الطويلة من قبله و لا من بعده سوى العلّامة القاضى كمال الدين محمد بن البارزى- رحمه اللّه- فإنّه وليها أيضا نحوا من ثلاث و ثلاثين سنة على أنه عزل منها غير مرّة و تعطّل سنين، كما سيأتى ذكره فى ترجمته إذا وصلنا إليه- إن شاء اللّه تعالى- و كان للقاضى علاء الدين- رحمه اللّه- نظم و نثر و ترسّل و إنشاء و من شعره: [البسيط]

بان الحمى لم يمس من بعد بعدكم و لا تغنّت به و رقاؤه طربا

يا جيرة خلّفونى فى ديارهم أجرى الدموع على آثارهم سحبا

قد كان يحزننى واش يراقبنى و اليوم يحزننى أن ليس لى رقبا

و توفى الأمير علاء الدين طيبغا بن عبد اللّه الناصرى المعروف بالطويل نائب حلب بها فى يوم السبت وقت الظهر سلخ شوّال و دفن خارج باب المقام و قيل:

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۱۰۳

إنه سمّ، لأنّه كان أراد الخروج عن الطاعة، فعاجلته المنيّة، و قد تقدّم ذكره مع خشداشه يلبغا العمرى الخاصّكى و ما وقع له معه فى ترجمة الملك الناصر حسن و كيفيّة خروجه من الديار المصرية و القبض عليه فلا حاجة للإعادة هاهنا.

و توفّى الأتابك سيف الدين أسندمر بن عبد اللّه الناصرىّ صاحب الواقعة مع الملك الأشرف شعبان محبوسا بثغر الإسكندريّة فى شهر

رمضان و قد تقدّم أيضا ذكر واقعته مفصّلا فى ترجمة الملك الأشرف.

و توفّى الأمير سيف الدين قنق بن عبد اللّه العزّى أحد مقدّمى الألوف بالديار المصرية على هيئة عجيبة؛ نسأل اللّه تعالى حسن الخاتمة بمحمد و آله. و خبره أنه كان قد عصى مع أسندمر الناصرى المقدّم ذكره، ركب معه من جملة اليلبغاويّة، فلما انكسرت اليلبغاويّة ساق قنق هذا فرسه إلى بركة الحبش و نزل بشاطئ البركة و بقى يشرب الماء و يستفّ الرمل إلى أن مات، فآنظر إلى هذا الجاهل و ما فعل فى نفسه.

و توفّى السلطان الملك المنصور أحمد ابن الملك الصالح صالح ابن الملك المنصور غازى بن قرا أرسلان بن أرتق الأرتقى صاحب ماردين بها و قد جاوز الستين سنة من العمر و كانت مدّة ملكه ثلاث سنن، و كان صاحب همّة عليّة و حرمة سنية.

رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الشاب الفاضل تاج الدين محمد بن السّكّرى- رحمه اللّه- و كان فاضلا عالما و درّس و برع- رحمه اللّه- و فيه يقول ابن نباتة: [السريع]

سألته فى خدّه قبلة فقال قولا ليس بالمنكر

عليك بالصبر و من ذا الذى ينفعه الصبر عن السّكّرى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۱۰۴

و توفّى الأمير علاء الدين ألطنبغا بن عبد اللّه البشتكى نائب غزّة و أستادار السلطان كان فى رابع عشر شعبان.

و توفّى الأمير سيف الدين باكيش بن عبد اللّه اليلبغاوىّ الحاجب فى صفر، و كان من رءوس الفتن و ممن قام على أستاذه يلبغا.

و توفّى الأمير سيف الدين بيليك بن عبد اللّه الفقيه الزرّاق، أحد مقدّمى الألوف بالديار المصرية- رحمه اللّه تعالى- كان فاضلا فقيها و يكتب المنسوب و عنده مشاركة فى فنون.

و توفى الأمير سيف الدين تلكتمر بن عبد اللّه المحمدى الخازندار أحد أمراء الألوف بالديار المصرية مسجونا بثغر الإسكندرية. و كان ممن قام مع أسندمر الناصرى.

و توفّى الأمير سيف الدين جرجى بن عبد اللّه الإدريسىّ الأمير آخور ثم نائب حلب و هو بدمشق. و كان من أجلّ الأمراء و تنقّل فى عدّة وظائف و ولايات- رحمه اللّه تعالى-.

و توفّى الأمير سيف الدين جرقطلو بن عبد اللّه أمير جاندار فى صفر و كان من الأشرار.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربعة أذرع و أربعة عشر إصبعا.

مبلغ الزيادة ثمانية عشر ذراعا سواء. و اللّه أعلم.

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۷۰]

السنة السادسة من سلطنة الملك الأشرف شعبان بن حسين على مصر و هى سنة سبعين و سبعمائة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۱۰۵

و فيها توفّى الشيخ بدر الدين محمد بن جمال الدين محمد بن كمال الدين أحمد بن جمال الدين محمد بن أحمد الشّريشىّ البكرىّ الوائلىّ الدّمشقى الشافعى بدمشق عن ستّ و أربعين سنة- رحمه اللّه- و كان عالما فاضلا فقيّها درّس بالإقبالية بدمشق إلى أن مات.

و فيها توفّى قاضى القضاة جمال الدين محمود بن أحمد بن مسعود القونوىّ الحنفى قاضى قضاة دمشق بها عن ستّ و سبعين سنة و كان- رحمه اللّه- من العلماء الأماثل، كان رأسا فى الفقهاء الحنفية، بارعا فى الأصول و الفروع و درّس بدمشق بعدّة مدارس و أفتى و جمع و ألّف- رحمه اللّه تعالى-.

و توفّى القاضى شمس الدين محمد بن خلف بن كامل الغزّى الشافعىّ بدمشق عن بضع و خمسين سنة. و كان عالما، درّس بدمشق و أفتى و باشر بها نيابة الحكم إلى أن مات- رحمه اللّه تعالى-.

و توفّى الطواشى ناصر الدين شفيع بن عبد اللّه الفوّىّ نائب مقدّم المماليك السلطانيّة فى يوم الأحد ثامن شعبان و كان من أعيان الخدّام و طالت أيامه فى السعادة.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۱۰۶

و توفّى الأمير سيف الدين أرغون بن عبد اللّه بن غلبك الأزقى رأس نوبة النّوب بالديار المصريّة فى العشر الأوّل من جمادى الآخرة. و كان من أعيان الأمراء و هو أحد من ثار على يلبغا.

و توفّى الأمير صلاح الدين خليل بن أمير على ابن الأمير الكبير سلّار المنصورى و كان أحد أمراء الطبلخانات بالديار المصريّة و هو أحد من ركب مع الأتابك أسندمر.

و توفّى الأمير ناصر الدين محمد بن طقبغا الناصرى أحد أمراء الطبلخانات أيضا.

و توفّى الأمير صارم الدين إبراهيم ابن الأمير سيف الدين صرغتمش الناصرى و كان أيضا من أمراء الطبلخانات و له وجاهة فى الدولة، و فيه شجاعة و إقدام و دفن بمدرسة أبيه. رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الأديب الموّال شهاب الدين أحمد بن محمد بن أحمد المعروف بالفار الشّطرنجىّ العالية، و كان بارعا فى المواليا و له شعر جيّد و كان ماهرا فى الشّطرنج.

و توفّى الأمير سيف الدين قشتمر بن عبد اللّه المنصورى نائب حلب بها مقتولا بيد العرب فى وقعة كانت بينه و بينهم على تلّ السلطان و قتل معه ولده، و قد تقدّم

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۱۰۷

أنّ قشتمر هذا ولى نيابة طرابلس و نيابة دمشق و نيابة السلطنة بالديار المصريّة.

ثم أخرج من مصر إلى نيابة حلب فلم تطل مدّته على نيابة حلب و قتل- رحمه اللّه- و كان شجاعا مقداما عارفا عاقلا مدبّرا سيوسا دبّر أمر السلطنة سنين و حمدت سيرته.

و توفّى القاضى عماد الدين محمد بن شرف الدين موسى بن سليمان الشهير بالشيرجى بدمشق. كان ولى حسبة دمشق و نظر خزانتها و كان له ثروة ولديه فضيلة و عنده سياسة.

و توفّى الأمير سيف الدين آقتمر بن عبد اللّه من عبد الغنى الصغير فى شهر رمضان، و آقتمر هذا غير الأمير الكبير آقتمر عبد الغنى و كان آقتمر هذا من جملة أمراء الطبلخانات. و اللّه أعلم.

و توفّى السلطان صاحب تونس و ما والاها من بلاد الغرب أبو إسحاق إبراهيم ابن أبى بكر بن يحيى بن إبراهيم بن يحيى فى العشرين من شهر رجب بعد ما ملك تسع عشرة سنة- رحمه اللّه- و كان من أجلّ ملوك الغرب، كان شجاعا و له مواقف و فتوحات هائلة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمسة اذرع و عشرون إصبعا. مبلغ لزيادة سبعة عشر ذراعا و ستة أصابع. و اللّه أعلم.

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۷۱]

السنة السابعة من سلطنة الملك الأشرف شعبان بن حسين على مصر و هى سنة إحدى و سبعين و سبعمائة.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۱۰۸

و فيها توفّى قاضى القضاة شرف الدين أبو العبّاس أحمد ابن الشيخ شرف الدين حسن بن الخطيب شرف الدين أبى بكر عبد اللّه ابن الشيخ أبى عمر محمد بن أحمد ابن محمد بن قدامة الشهير بابن قاضى الجبل الحنبلىّ المقدسىّ الصالحىّ قاضى قضاة دمشق بها فى

ثالث عشر شهر رجب عن ثمان و سبعین سنة- رحمه اللّه- و کان إماما عظیم القدر انتهت إلیه ریاسة مذهبه، و کان صحب ابن تیمیّة و سمع منه و تفقّه به و بغیره، و فی هذا المعنی یقول: [الوافر]

نبیّی أحمد و کذا إمامی و شیخی أحمد کالبحر طامی

و اسمی أحمد أرجو بهذا شفاعة سیّد الرسل الکرام

و توفی قاضی القضاة تاج الدین عبد الوهاب ابن قاضی القضاة تقیّ الدین علیّ ابن عبد الکافی بن علیّ بن تمّام بن یوسف بن موسی بن تمّام الأنصاریّ السلمیّ السّبکیّ الشافعیّ قاضی قضاة دمشق بها، فی عصر یوم الثلاثاء سابع شهر ذی الحجّة و دفن بسفح قاسیون. تغمّده اللّه برحمته عن أربع و أربعین سنة. و کان إماما بارعا مفتّنا فی سائر العلوم و له تصانیف شتّی: منها «شرح المنهاج» فی الفقه للنّوویّ

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۱۰۹

«و شرح مختصر ابن الحاجب» و منهاج البیضاویّ، و غیر ذلک و درّس «بالعادلیّة» و «و الغزالیّة» و «الأمینیّة» و «الناصریّة» و «دار الحدیث الأشرفیّة» «و الشامیة البرانیّة» و باشر قضاء دمشق أربع مرّات و خطب بالجامع الأمویّ، و قدم القاهرة و تولّی مکانه أخوه أبو حامد بهاء الدین و استقرّ تاج الدین هذا مکان أخیه أبی حامد المذکور فی تدریس «الشّیخونیة» بمصر، و قیل: إنه کان أفقه من أخیه أبی حامد المذکور.

و توفّی قاضی القضاة جمال الدین أبو عبد اللّه محمد ابن الشیخ زین الدین عبد الرحیم بن علی بن عبد الملک المسلّاتی السّلمی قاضی قضاة دمشق بالقاهرة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۱۱۰

و هو من أبناء السبعین سنة و کان- رحمه اللّه- عالما فاضلا سمع بالإسکندریة و مصر و الشام و أخذ عن القونویّ و أبی حیّان و غیرهما و ولی نیابة الحکم بدمشق.

ثم استقلّ بالقضاء أکثر من عشرین سنة.

و توفّی الأدیب شهاب الدین أبو العباس أحمد بن یوسف بن أحمد المارديني الشهیر بابن خطیب الموصل- رحمه اللّه- مات بحماة و هو من أبناء الستین سنة.

و کان أدیبا فاضلا، کان یتنقّل فی البلاد و کان یکتب المنسوب و له مشارکة.

و من شعره: [المتقارب]

لیهنک ما نلت من منصب شریف له کنت مستوجبا

و ما حسن أن تهنّی به و لکن نهنّی بک المنصبا

و توفّی الأمیر ناصر الدین محمد ابن الأمیر تنکز الحسامی الناصریّ نائب الشام، کان أحد أمراء الطبلخانات بالدیار المصریة و له وجاهة فی الدولة.

رحمه اللّه.

و توفّی الوزیر الصاحب شمس الدین موسی بن أبی إسحاق عبد الوهاب بن عبد الکریم القبطی المصریّ، أسلم أبوه و تولّی نظر الجیش و الخاصّ بعد کریم الدین الکبیر و استناب ابنه هذا و کان یوم ذاک ناظر الخزانة الشریفة.

فلمّا مات أبوه فی سنة إحدی و ثلاثین و سبعمائة استقرّ مکانه فی نظر الخاصّ، فباشر فیه مدّة و صرف بالنشو و استقرّ فی نظر الجیش عوضا عن الفخر، فلم تطل مدّته و أمسک بسعی النّشو و سلّم هو و أخوه علم الدین ناظر الدولة إلی النّشو،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۱۱۱

فأوقع الحوطة على موجودهما، فوجد لهما ما لا يوصف: من ذلك أربعمائة سراويل لزوجته و استقرّ عوضه فى نظر الجيش مكين الدين إبراهيم بن قروينة و استمرّ موسى فى المصادرة و أجرى عليه العذاب ألوانا، و أمره أعجب من العجب و هو أنه كان قبل مصادرته نحيف البدن قليل الأكل، لا يزال سقيما بالرّبو و ضيق النّفس، لزمه الحمّى الصّالبة، فلا يبرح محتميا و يلبس الفراء شتاء و صيفا، فبنى له أبوه بيتا فى الروضة و وكّل به الأطباء، يدبّرون له الأغذية الصالحة و يعالجونه و هو على ما هو عليه إلى أن قبض عليه و صودر و سلّم لوالى القاهرة ناصر الدين محمد بن المحسنى.

ثم نقل إلى لؤلؤ شادّ الدواوين و كان النّشو يغريهما على قتله، فضمن لؤلؤ للنشو قتله، فضربه أوّل يوم مائتى شيب و سعطه بالماء و الملح و بالخل و الجير حتى قوى عنده أنه مات فأصبح سويّا، فضربه بعد ذلك حتى أعياه أمره، و عقّد له المقرعة التى يضربه بها، فكانت إذا نزلت على جنبه تثقبه، فكان يضربه بتلك المقرعة حتى يقولوا: مات فيصبح فيعيدون عليه العذاب و التّسعيط، فصار يقيم اليوم و اليومين و الثلاثة لا يمكّن فيها من أكل و لا شرب. و كانوا إذا عاقبوه و فرغوا رموه عريانا فى قوّة الشتاء على البلاط فيتمرّغ عليه بجسده و هو لا يعى من شدّة الضرب و العقوبة، كل ذلك و النّشو يستحثّ على قتله. ثم عصروه فى كعبيه و صدغيه، حتى لهجوا بموته و بشّروا النشر بموته غير مرة. ثم يتحرّك فيجدوه حيّا، و استمرّ على ذلك أشهرا ثم ترك نحو الشهر لمّا أعياهم أمره و أعادوا عليه العقوبة و على زوجته بنت الشمس غبريال و كانت كحاله فى ضعف البدن و النّحافة و كانت حاملا، فولدت و هى تعصر،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١١، ص: ١١٢

فعاش ولدها حتى كبر، و ما زالا فى العقوبة حتى هلك النّشو و هو يقول: أموت و فى قلبى حسرة من موسى بن التاج، فمات النشو و لم ينل فيه غرضه. قيل: إنّ مجموع ما ضرب موسى هذا ستة عشر ألف شيب، حتى إنه ضرب مرة فوقع من ظهره قطعة لحم بقدر الرّغيف، و أعجب من هذا كلّه أنه لمّا أطلق تعافى مما كان به من الأمراض المزمنة القديمة. و صار صحيح البدن. ثم أفرج عنه الملك الناصر محمد و أكرمه و أنعم عليه ببغلة النشو و ردّ عليه أشياء كثيرة و ولّاه نظر جيش دمشق، ثم ولى نظر الخاصّ ثانيا و أضيف إليه نظر الخزانة الشريفة و ساءت سيرته و استعفى و أعيد إلى دمشق وزيرا، و لم يزل يتنقّل فى الوظائف إلى أن مات فى هذا التاريخ.

و قد أطلنا فى ذكره لما أوردناه من الغرائب. انتهى.

و توفّى الأمير علاء الدين طيبغا المحمدىّ فى شهر صفر و كان أحد مقدّمى الألوف بالديار المصرية.

و توفّى الأمير سيف الدين بكتمر بن عبد اللّه المؤمنى الأمير آخور الكبير بالديار المصرية- رحمه اللّه- و كان من أجل الأمراء فضلا و معرفة و دينا و عفّة عن الأموال، و تولّى عدّة وظائف و تنقّل فى الولايات، مثل نيابة حلب و الإسكندرية، ثم استقرّ أمير آخور إلى أن مات، و هو صاحب المصلّاة بالرّميلة، و السبيل المعروف بسبيل المؤمنىّ. رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الأمير سيف الدين، أسندمر بن عبد اللّه الكاملىّ زوج خوند القردمية بنت الملك الناصر محمد بن قلاوون و كان أحد مقدّمى الألوف بالديار المصرية و مات بالقاهرة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١١، ص: ١١٣

و توفّى الأمير سيف الدين آروس بغا بن عبد اللّه الخليلىّ أحد أمراء الطبلخانات بالقاهرة فى شهر رجب و هو أحد من قام على يلبغا.

و توفّى الأمير سيف الدين أسن بن عبد اللّه الصرغتمشىّ أحد أمراء الطبلخانات بالديار المصريّة بدمشق بعد ما نفى إليها و كان من الأشرار.

و توفّى الأمير علاء الدين ألطنبغا بن عبد اللّه العلائىّ المعروف «فرفور» كان أحد أمراء الطبلخانات بمصر و كان خصيصا عند الملك الأشرف. رحمه اللّه.

و توفّى الأمير علاء الدين آقبغا بن عبد اللّه اليوسفىّ الناصرىّ الحاجب فى شعبان بمدينة منفلوط، و قد توجّه إلى لقاء هدية صاحب

اليمن إلى السلطان الملك الأشرف.

و توفّى الأمير سيف الدين أينبك بن عبد اللّه الأزقىّ أحد أمراء الطبلخانات و رأس نوبة ثانى بها و كان من الشجعان.

و توفّى الأمير الأكز بن عبد اللّه الكشلاوىّ و هو منفىّ بحلب فى شهر ربيع الأوّل و كان من أعظم الأمراء و أوجههم، ولى الوزر و الأستدارية بمصر و نالته السعادة و عظم فى الدّول إلى أن تغيّر عليه الملك الأشرف شعبان و عزله ثم نفاه إلى حلب لأمر اقتضى ذلك.

و فيها كان بدمشق طاعون عظيم و انتشر إلى عدّة بلاد و مات فيه خلائق لا تحصى كثرة. و اللّه أعلم.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربعة أذرع و خمسة و عشرون إصبعا- مبلغ الزيادة ستة عشر ذراعا و ثمانية عشر إصبعا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١١، ص: ١١۴

[ما وقع من الحوادث سنة ٧٧٢]

السنة الثامنة من سلطنة الملك الأشرف شعبان بن حسين على مصر، و هى سنة اثنتين و سبعين و سبعمائة.

و فيها توفّى الشيخ العالم المفتّن جمال الدين أبو محمد عبد الرحيم الحسن بن علىّ ابن عمر القرشىّ الأموىّ الإسنائىّ الشافعىّ شيخ الشافعية بالديار المصرية. مات فجأة فى ليلة الأحد ثامن عشرين جمادى الأولى عن سبع و ستين سنة، رحمه اللّه تعالى.

و كان إماما عالما مصنّفا بارعا، درّس بالأقبغاوية و الفاضلية و الفارسية،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١١، ص: ١١۵

و درّس التفسير بجامع أحمد بن طولون و تصدّر بالملكية و أعاد «بالناصرية» و المنصورية و غيرهما. و له مصنّفات كثيرة مفيدة: منها «كتاب المهمّات على الرافعىّ» و «شرح المنهاج فى الفقه» و «شرح منهاج البيضاوىّ فى الأصول» و له «كتاب طبقات الفقهاء الشافعية» و «كتاب تخريج الفروع على الأصول» و سمّاه «التمهيد» و «كتاب تخريج الفروع على العربية» و سماه «الكوكب» و «شرح عروض ابن الحاجب» و «مختصر الإمام الرافعىّ» و «كتاب الجمع و الفرق». و كان له نظم ليس بذاك، من ذلك ما قاله يمدح كتاب الرافعىّ فى الفقه: [الكامل]

يا من سما نفسا إلى نيل العلا و نحا الى العلم الغزير الرافع

قلّد سمىّ المصطفى و نسيبه و الزم مطالعة العزيز الرافعى

و توفّى القاضى شهاب الدين أبو العباس أحمد ابن الشيخ الصالح برهان الدين إبراهيم [بن عمر بن أحمد] العمرىّ الصالحىّ الحنفى، قاضى قضاة الإسكندرية

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١١، ص: ١١۶

و بها توفى- رحمه اللّه- و قد قارب سبعين سنة و كان فاضلا عالما أفتى و درّس و خطب و أفاد و أعاد و أقام بحلب مدّة، يقرئ و يفتى. ثم قدم إلى مصر و أقام بها أيضا إلى أن ولى قضاء الإسكندرية مسئولا فى ذلك.

و توفّى الأمير الكبير علاء الدين علىّ الماردينىّ، ثمّ الناصرى نائب السلطنة بدمشق، ثم بالديار المصرية فى العشر الأوّل من المحرّم عن بضع و ستين سنة و كان أميرا جليلا دينا خيرا عفيفا عاقلا، تنقل فى الأعمال الجليلة سنين عديدة و طالت أيامه فى السعادة، و كان- رحمه اللّه- منقادا إلى الشريعة فى أحكامه و أفعاله، مشتغلا بالفقه على مذهب الإمام الأعظم أبى حنيفة- رضى اللّه عنه- مستحضرا له و كان قريبا من الناس محبّبا للرعية. و أجلّ أعمال وليها نيابة حلب ثمّ دمشق ثلاث مرّات فيما أظنّ. و اللّه أعلم. ثم نيابة السلطنة بالديار المصرية. و أمّا الولايات التى دون هؤلاء فكثير.

و توفّى الأمير سيف الدين جرجى بن عبد اللّه الإدريسىّ الناصرىّ بدمشق عن بضع و خمسين سنة. و كان أصله من مماليك الملك

الناصر محمد بن قلاوون، و ترقّى إلى أن ولى نيابة حلب. ثمّ عزل بعد مدّة و أنعم عليه بإمرة بدمشق، فتوجّه إليها و أقام بها إلى أن مات- رحمه اللّه- و كان عالى الهمّة، غزير النعمة، و له سعادة وافرة، و قد تقدّم وفاته، و الأصحّ أنه توفّى فى هذه السنة.

و توفّى قاضى قضاة المدينة النبوية- على الحالّ بها أفضل الصلاة و السلام- نور الدين أبو الحسن علىّ بن عز الدين أبى المحاسن يوسف بن الحسن [ابن محمد

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۱۱۷

ابن محمود] الزّرندىّ الحنفىّ المدنىّ- رحمه اللّه- كان عالما فاضلا ولى قضاء المدينة سنين.

و توفّى الأمير سيف الدين أرغون بن عبد اللّه من قيران السّلّارىّ أحد أمراء الطبلخانات و نقيب الجيوش المنصورة فى شهر جمادى الأولى، و كان قديم هجرة و له كلمة فى الدولة و حرمة و قرب من الملوک.

و توفّى الأمير سيف الدين أسندمر بن عبد اللّه العلائىّ الحاجب المعروف «حرفوش» بعد ما أنعم عليه بإمرة مائة و تقدمة ألف بدمشق على هيئة النّفى، فإنه كان من أكابر أمراء الألوف بالديار المصرية و كان ممن يخاف شرّه.

و توفّى القاضى بدر الدين أبو علىّ الحسن بن محمد بن صالح [ابن محمد بن محمد] النابلسىّ الفقيه الحنبلىّ- رحمه اللّه- مفتى دار العدل فى شهر جمادى الآخرة.

و توفّى الشيخ علاء الدين أبو الحسن علىّ بن عماد الدين إسماعيل بن برهان الدين إبراهيم [ابن موسى] الفقيه المالكىّ، المعروف بابن الظريف فى أربع عشر شهر جمادى الأولى. رحمه اللّه.

و توفّى الشيخ شمس الدين محمد بن عبد اللّه بن محمد الزّركشى الحنبلىّ فى رابع عشرين جمادى الأولى أيضا- رحمه اللّه تعالى- و كان من أعيان الفقهاء الحنابلة.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۱۱۸

و توفّى الأمير سيف الدين منكوتمر بن عبد اللّه من عبد الغنى الأشرفى الدّوادار فى شهر جمادى الأولى و كان من خواصّ السلطان الأشرف شعبان و من مماليكه.

و توفّى القاضى تاج الدين أبو عبد اللّه محمد بن البها المالكى المعروف بابن شاهد الجمالى- تغمده اللّه تعالى- كان فقيها و تولّى إفتاء دار العدل و شاهد الجيش و ناظر البيمارستان المنصورى و وكيل الخاصّ و توجّه إلى الحجاز فمات فى عوده بمنزلة العقبة.

و توفّى الشيخ المعتقد الصالح صاحب الكرامات الخارقة أبو زكرياء يحيى بن على ابن يحيى المغربى الأصل الصّنافيرى الضرير المجذوب، قدم جدّه يحيى من الغرب و نزل عند الشيخ أبى العباس البصير بزاويته بجوار باب الخرق و ولد له على أبو يحيى هذا و كانت له أيضا كرامات، و قدم فى التجريد و كان الغالب عليه الوله، و ذكر له الموفّق كرامات جمّة. ثم ولد له يحيى هذا صاحب الترجمة مكفوفا مجذوبا، إلا أنه له كلام خارق و أحوال عجيبة، و كان الغالب عليه الوله، كما كان أبوه، و كان لا يفيق من سكرته، لا يزال مغمورا فى نشأته، لا يفرّق بين من هو

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة؛ ج ۱۱؛ ص ۱۱۸

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۱۱۹

فى حضرته من سلطان و لا أمير و لا غنىّ و لا فقير، و الناس كلّهم عنده سواء، و كان يقيم أوّلا بالقرافة عند ضريح أبى العباس البصير، و بنى له هناك قبّة و جعل لها بابين:

بابا ظاهرا و بابا فى الأرض نازلا، و كان إذا أحسّ بالناس هرب من ذلک الباب الذى فى الأرض، فلمّا كثر ترداد الناس إليه للزيارة من كلّ فجّ، صار يرجمهم بالحجارة، فلم يردّهم ذلک عنه رغبة فى التماس بركته، ففرّ منهم و ساح فى الجبال مدّة طويلة. ثم نزل صنافير بالقليوبية من قرى القاهرة، فكان كل يوم فى أيام الشتاء يغطس فى الماء البارد صبيحة نهاره و فى شدّة الحرّ يجلس عريانا

مكشوف الرأس فى الشمس، و ليس عليه سوى ما يستر عورته، فكان يقيم على سقيفة طابونة سوداء، أقام على ذلك ثلاث سنين، لا ينزل عنها و بنى له بعض الأمراء زاوية، فلم يسكنها و لا التفت اليها و كان الناس يتردّدون اليه فوجا فوجا ما بين قاض و عالم و أمير و رئيس و هو لا يلتفت إلى أحد منهم.

و من كراماته- نفعنا اللّه به- أنه أتى مرة بمنسف خشب فيه طعام أرز، فقال لهم: سخّنوه، فلم يسعهم إلا موافقته، و وضعوا المنسف الخشب على النار، حتى اشتدّت سخونة الطعام و لم تؤثّر النار فى الخشب، ثم عاد إلى القرافة فمات بها فى يوم الأحد سابع عشرين شهر شعبان و صلّى عليه بمصلّاة خولان فحرز عدّة من صلّى عليه من الناس، فكانوا زيادة على خمسين ألفا. و اللّه أعلم.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمسة أذرع و خمسة و عشرون إصبعا. مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا و أربعة أصابع.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۱۲۰

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۷۳]

السنة التاسعة من سلطنة الملك الأشرف شعبان بن حسين على مصر و هى سنة ثلاث و سبعين و سبعمائة.

فيها رسم السلطان الملك الأشرف للأشراف بسائر الأقطار أن يسموا عمائمهم بعلائم خضر، و قد تقدّم ذكر ذلك كلّه فى ترجمة الأشرف. و اللّه أعلم.

و فيها توفّى القاضى كمال الدين أبو الغيث محمد ابن القاضى تقىّ الدين عبد اللّه ابن قاضى القضاة نور الدين أبى عبد اللّه محمد بن محمد بن محمد بن [عبد الخالق بن] عبد القادر الأنصارىّ الدمشقىّ الشافعىّ الشهير بابن الصائغ بدمشق عن بضع و أربعين سنة. رحمه اللّه. و كان ولى قضاء حلب مرتين ثم ولى قضاء حمص، ثم عاد إلى دمشق، و بها كانت وفاته.

و توفّى الشيخ العالم العلّامة قاضى القضاة سراج الدين أبو حفص عمر ابن الشيخ نجم الدين إسحاق بن شهاب الدين أحمد الغزنوىّ الهندىّ الحنفىّ قاضى قضاة الديار المصرية بها فى ليلة الخميس سابع شهر رجب، بعد أن ولى القضاء نحو خمس عشرة سنة- رحمه اللّه- و تولّى بعده القضاء صدر الدين محمد بن جمال الدين التّركمانىّ؛ و مولد السراج هذا فى سنة أربع أو خمس و سبعمائة تخمينا، و قدم القاهرة قبل سنة أربعين [و سبعمائة]- رحمه اللّه- و كان إماما عالما بارعا مفتّنا فى الفقه و الأصلين و النحو و علمى المعانى و البيان و غيرهم، و ناب فى الحكم بالقاهرة و تصدّى للإفتاء و التدريس و الإقراء سنين، ثمّ تولّى عدّة وظائف دينيّة، و هو أحد من قام

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۱۲۱

مع ابن النقّاش فى قضية الهرماس حتى وغّرا خاطر السلطان عليه و وقع له معه ما وقع.

و كان السراج- رحمه اللّه تعالى- إماما مصنّفا: منها «شرح المغنى» فى مجلدين و «شرح البديع» لابن السّاعاتىّ و غير ذلك، و قد ذكرنا من علوّ همّته و غزير فضله فى «المنهل الصافى» نبذة كبيرة جيّدة تنظر هناك.

و توفّى الشيخ الأديب أبو زكرياء يحيى بن محمد بن زكرياء بن محمد بن يحيى العامرىّ الحموىّ الشهير بالخبّاز بدمشق و هو من أبناء الثمانين و كان بارعا فى النّظم، نظم سائر فنون الأدب و كان فيه تشيّع كبير و من شعره: [الوافر]

بعيشك هاتها صفراء صرفا صباحا و اطّرح قول النّصوح

فإنّ الشّمس قد بزغت بعين تغامزنا على شرب الصّبوح

و له أيضا: [السريع]

باكر عروس الرّوض و استجلها و طلّق الحزن ثلاثا بتات

بقهوة حلّت لنا كلّما حلّت لآلى القطر جيد النبات

و توفّى العلّامة قاضى القضاة بهاء الدين أبو حامد أحمد ابن قاضى القضاة تقىّ الدين أبى الحسن علىّ ابن الشيخ زين الدين عبد

الكافی بن علیّ بن تمّام بن يوسف ابن موسی بن تمام الأنصاریّ السّبكی الشافعیّ. بمكة المشرفة عن ست و خمسين سنة- رحمه اللّه- و كان إماما عالما بارعا فی عدّة من الفنون و سمع من الحفّاظ، و أخذ من والده و عن أبی حيّان - و هو أسنّ من أخيه تاج الدين المقدّم ذكره-

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۱۲۲

و درّس بقبّة الشافعیّ و الجامع الطولونیّ و المنصورية و الشّيخونية، و باشر قضاء العسكر و إفتاء دار العدل بمصر و خطب و ألّف و صنّف و تولّی قضاء الشام عوضا عن أخيه تاج الدين و تولّی أخوه تاج الدين وظائفه بمصر، و قد تقدّم ذلک.

ثم ترک قضاء دمشق عفّة و رجع إلی مصر يدرّس و يفتی ثم جاور بمكّة و بها مات- رحمه اللّه-.

و توفّی الأمير سيف الدين أيدمر بن عبد اللّه الشّيخی أحد أمراء الألوف بالديار المصريّة. ثم نائب حماة و كان من أعيان الأمراء، و قد تقدّم ذكره فی عدّة أماكن.

و توفّی الشيخ الفقير المعتقد عبد اللّه درويش- رحمه اللّه- فی سابع عشر شهر رجب. و كان فقيرا مباركا و للناس فيه محبة و اعتقاد حسن.

و توفّی الأديب الشاعر شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن عثمان بن شيخان المعروف بابن المجد البكری التّيمیّ القرشیّ البغدادیّ فی عاشر شهر رمضان بمنية ابن خصيب من صعيد مصر و من شعره: [الوافر]

أتی المحبوب فی السّنجاب يسعی و طلعته لناظره تروق

فتبصر طوقه السّنجاب سحبا و فيها من تبسّمه بروق

أمر النيل فی هذه السنة- الماء القديم سبعة أذرع و خمسة و عشرون إصبعا. مبلغ الزيادة ثمانية عشر ذراعا و أربعة أصابع.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۱۲۳

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۷۴]

السنة العاشرة من سلطنة الملک الأشرف شعبان بن حسين علی مصر و هی سنة أربع و سبعين و سبعمائة.

و فيها استقرّ الأمير ألجای اليوسفیّ أتابک العساكر بديار مصر بعد موت منكلی بغا الشّمسی.

و فيها توفّی الشيخ الإمام الحافظ المؤرّخ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل ابن الخطيب شهاب الدين أبی حفص عمر بن كثير القرشیّ الشافعیّ صاحب «التاريخ» و «التفسير» فی يوم الخميس سادس عشرين شعبان بدمشق. و مولده بقرية شرقیّ بصری من أعمال دمشق فی سنة إحدی و سبعمائة- رحمه اللّه تعالی- قال العينیّ رحمه اللّه: كان قدوة العلماء و الحفّاظ، و عمدة أهل المعانی و الألفاظ. و سمع و جمع و صنّف و درّس و حدّث و ألّف. و كان له اطّلاع عظيم فی الحديث و التفسير و التاريخ و اشتهر بالضبط و التحرير، و انتهی إليه علم التاريخ و الحديث و التفسير، و له مصنّفات عديدة مفيدة. انتهی كلام العينی- رحمه اللّه.

قلت: و من مصنّفاته «تفسير القرآن الكريم» فی عشر مجلدات، و كتاب «طبقات الفقهاء» و «مناقب الإمام الشافعی» رضی اللّه عنه و التاريخ المسمّی «بالبداية و النّهاية» حذا فيه حذو ابن الأثير- رحمه اللّه- فی «الكامل» و التاريخ أيضا فی عشرة مجلدات، و خرّج أحاديث «مختصر ابن الحاجب» و كتب

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۱۲۴

علی «البخاری» و لم يكمّله- رحمه اللّه تعالی- و لما مات رثاه بعض طلبته رحمه اللّه بقوله: [الطويل]

لفقدک طلّاب العلوم تأسّفوا و جادوا بدمع لا يبيد غزير

و لو مزجوا ماء المدامع بالدّما لكان قليلا فيک يا ابن كثير

و توفّى الشيخ الحافظ تقىّ الدين محمد بن جمال الدين رافع بن هجرس بن محمد ابن شافع بن السّلّامىّ المصرىّ الشافعىّ بدمشق عن ستين سنة، و كان- رحمه اللّه- إماما فى الحديث، رحل البلاد و سمع بمصر و الشام و حلب و الحجاز و كتب لنفسه مشيخة و «ذيّل على تاريخ البخارى» رحمه اللّه.

و توفّى الأديب زين الدين أبو محمد عبد الرحمن بن الخضر بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن يوسف بن عثمان السّنجارىّ، قدم حلب و باشر بها توقيع الدّرج إلى أن مات بها عن نيّف و خمسين سنة. و من شعره فى مغنّ و رأيته لغيره: [الكامل]

أضحى يخرّ لوجهه قمر السّما و غدا يلين لصوته الجلمود

فإذا بدا فكأنّما هو يوسف و إذا شدا فكأنّه داود

و توفّى الأمير مظفّر الدين موسى ابن الحاج أرقطاى الناصرىّ نائب صفد بها، و تولّى عوضه نيابة صفد الأمير علم دار المحمدىّ، و كان مظفّر الدين من الأماثل، و له و جاهة فى الدّول و ثروة.

و توفّى الأمير الكبير سيف منكلى بغا بن عبد اللّه الشمسىّ أتابك العساكر بالديار المصرية بها فى شهر جمادى الأولى عن بضع و خمسين سنة، كان من أجلّ الأمراء و أعظمهم حرمة و هيبة و وقارا، و كان فيه ديانة، و له معرفة بالأمور، و له اشتغال جيّد

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۱۲۵

فى علوم متعدّدة، ولى نيابة صفد و طرابلس و حلب و دمشق ثم أعيد إلى حلب لإصلاح البلاد الحلبيّة، فعاد إليها و مهّد أمورها، ثم طلبه الملك الأشرف إلى الديار المصرية و سأله أن يلى النيابة بها فامتنع من ذلك، فأخلع عليه باستقراره أتابك العساكر الديار المصرية و زوّجه الأشرف بأخته: «خوند سارة» فاستمرّ على ذلك إلى أن مات فى التاريخ المذكور- رحمه اللّه-.

و توفّيت خوند بركة خاتون والدة السلطان الملك الأشرف هذا و زوجة الأمير ألجاى اليوسفى فى شهر ذى القعدة، و دفنت بمدرستها التى أنشأتها بخط التّبانة، و بسبب ميراثها كانت الوقعة بين ابنها الملك الأشرف و زوجها ألجاى اليوسفى، و قد تقدّم ذكر ذلك كلّه مفصّلا فى أوائل هذه الترجمة، و كانت خيّرة ديّنة عفيفة جميلة الصورة. ماتت فى أوائل الكهولية. رحمها اللّه تعالى.

و توفّى الشيخ الإمام العالم العلّامة ولىّ الدين أبو عبد اللّه محمد بن أحمد بن إبراهيم الملّوىّ الدّيباجىّ الشافعىّ- رحمه اللّه- ذو الفنون بالقاهرة فى ليلة الخميس خامس عشرين شهر ربيع الأوّل عن بضع و ستين سنة. و كان من أعيان فقهاء الديار المصرية.

و توفّى الشيخ العارف بالله تعالى المعتقد المسلّك بهاء الدين محمد بن الكازرونىّ فى ليلة الأحد خامس شهر ذى الحجّة بزاويته بالمشتهى بالرّوضة و كان- رحمه اللّه تعالى رجلا صالحا معتقدا و للناس فيه محبّة زائدة و اعتقاد حسن.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۱۲۶

و توفّى القاضى بدر الدين محمد بن محمد ابن العلامة شهاب الدين محمود بن سليمان ابن فهد الحلبىّ ثمّ الدّمشقى الحنبلىّ ناظر جيش حلب بها- رحمه اللّه- و كان رئيسا كاتبا فاضلا من بيت كتابة و فضل- رحمه اللّه تعالى- و اللّه أعلم.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم لم يحرّر لأجل التحويل، حوّلت هذه السنة إلى سنة خمس و سبعين.

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۷۵]

السنة الحادية عشرة من سلطنة الملك الأشرف شعبان بن حسين على مصر و هى سنة خمس و سبعين و سبعمائة.

فيها كانت وقعة الملك الأشرف المذكور مع زوج أمّه الأتابك ألجاى اليوسفى و غرق ألجاى فى بحر النيل حسب ما تقدّم ذكره.

و فيها توفّى قاضى القضاة بدر الدين أبو إسحاق إبراهيم بن صدر الدين أحمد بن مجد الدين عيسى بن عمر بن خالد بن عبد المحسن المخزومىّ المصرىّ الشافعىّ الشهير بابن الخشّاب و هو فى البحر المالح بالقرب من الأزلم عائدا إلى الديار المصريّة و هو من أبناء الثمانين سنة- رحمه اللّه- و كان عالما مفتيا مدرّسا، شاع ذكره فى الأقطار و انتفع الناس بعلمه و ولى نيابة الحكم بالقاهرة. و باشر

قضاء حلب استقلالا. ثم ولى القضاء بالمدينة النبويّة و أراد التوجّه إلى نحو مصر فأدركته المنيّة فى طريقه- رحمه اللّه-.

و توفّى الشيخ الإمام العالم العلّامة أرشد الدين أبو الثناء محمود بن قطلوشاه السّيرائىّ الحنفىّ بالقاهرة فى جمادى الآخرة عن نيّف و ثمانين سنة- رحمه اللّه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۱۲۷

تعالى- و كان بحرا فى العلوم لا سيّما العلوم العقلية و الأدبية، و أقام بالقاهرة سنين كثيرة يشتغل و يقرئ، و انتفع به عامّة الطلبة من كلّ مذهب، و تولّى مشيخة الصّرغتمشيّة بعد وفاة الشيخ العلّامة قوام الدّين أمير كاتب الإتقانىّ فباشر تدريسها إلى أن مات فى التاريخ المذكور.

و توفّى الأمير سيف الدين طيبغا بن عبد اللّه الفقيه الحنفىّ أحد أمراء العشرات بالديار المصرية بالقاهرة و قد ناهز الستين سنة، و كان فقيها مستحضرا لفروع مذهبه و يشارك فى فنون كثيرة- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الأمير سيف الدين تمرقيا بن عبد اللّه العمرىّ الجوكندار، أحد أمراء الطبلخانات بالديار المصرية و سنّه نحو الخمسين سنة و هو خشداش يلبغا العمرىّ الخاصّكى. و تمرقيا باللغة التركية: جبل حديد، فتمر هو الحديد و قيا بفتح القاف هو الصخر العظيم.

و توفّى الأمير سيف الدين تلكتمر بن عبد اللّه الجمالىّ، أحد أمراء الطبلخانات بالقاهرة، مات بمنزلة قاقون من طريق الشام فى شهر ذى الحجة، كان الملك الأشرف أرسله فى مهمّ.

و توفّى الأمير سيف الدين آل ملك بن عبد اللّه الصرغتمشى أحد أمراء الطبلخانات بالقاهرة و كاشف الوجه البحرى و نقيب الجيوش المنصورة فى شهر شوّال. و كان أصله من مماليك الأمير صرغتمش الناصرىّ صاحب المدرسة بالصليبة المقدّم ذكره. و كلّ من نذكره فى هذه السنين بالصرغتمشى فهو منسوب إليه، و لا حاجة للتعريف به بعد ذلك.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۱۲۸

و توفّى الأمير سيف الدين آقبغا بن عبد اللّه من مصطفى اليلبغاوىّ، أحد أمراء الطبلخانات بالديار المصرية و هو مجرّد بالإسكندرية و هو ممن قام على أستاذه يلبغا.

و توفّى الأمير سيف الدين أرغون بن عبد اللّه الأحمدىّ أحد مقدّمىّ الألوف بالديار المصرية و لالا الملك الأشرف شعبان صاحب الترجمة و كان معظما فى الدول و له همة و معرفة و شجاعة و حرمة وافرة فى الدولة الأشرفية. و قد مرّ ذكره فى عدّة حكايات، و لمّا ثقل على الملك الأشرف أخرجه إلى نيابة الإسكندرية فمات بها فى خامس عشر ذى القعدة.

و توفّى الشيخ نور الدين علىّ بن الحسن بن علىّ الإسنائىّ الشافعىّ أخو الشيخ جمال الدين عبد الرحيم المتقدّم ذكره، مات فى شهر رجب- رحمه اللّه تعالى-.

و توفّى القاضى شمس الدين شاكر القبطىّ المصرىّ المعروف بابن البقرىّ ناظر الذخيرة و صاحب المدرسة البقريّة بالقاهرة فى ثالث عشر شوّال و كان معدودا من رؤساء الأقباط.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۱۲۹

و توفّى الأمير سيف الدين بيبغا بن عبد اللّه المعروف بحارس طير، أحد أمراء الطبلخانات، و هو غير بيبغا ططر حارس طير الذى ولى نيابة السلطنة فى سلطنة الملك حسن.

و توفّى الأمير علاء الدين ألطنبغا بن عبد اللّه الماردينىّ فى ثانى جمادى الآخرة، و هو أيضا غير ألطنبغا الماردينىّ الناصرىّ صاحب الجامع، و قد تقدّم ذكر هذاك فى محلّه.

و توفّى الأمير سيف الدين آروس بن عبد اللّه المحمودىّ أحد أمراء الألوف بالقاهرة، و زوج بنت الأمير منجك اليوسفىّ فى ذى القعدة، و كان أصله من مماليك الناصر محمد، و ترقّى فى الدول إلى أن صار أمير مائة و مقدّم ألف، ثم ولى الحجوبية، ثم أمير

جاندار، ثم ولی الأستدارية العالية مدّة طويلة. و وقع له أمور و حوادث، و أخرج إلى الشام. ثم قدم إلى مصر صحبة حميه منجك اليوسفیّ، فأقام بها إلى أن مات.

و توفّی الأمیر الكبیر سیف الدین ألجای الیوسفیّ أحد ممالیک الملک الناصر حسن غریقا بالنیل بساحل الخرقانیة، بعد وقعة كانت بینه و بین الملک الأشرف شعبان حسب ما ذکرناه أنه انکسر فی الآخر و توجّه إلى الجهة المذکورة و اقتحم البحر بفرسه، فغرق فی یوم الجمعة تاسع المحرّم، و دفن بمدرسته بسویقة العزّیّ خارج القاهرة. و کان من أجلّ الأمراء شجاعة و کرما و همّة و سؤددا، و قد تقدّم ذکره فی عدّة تراجم من هذا الکتاب.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم خمسة أذرع و عشرة أصابع.

مبلغ الزیادة خمسة عشر ذراعا و تسعة عشر إصبعا و هی سنة الشراقی العظیم.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۱۳۰

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۷۶]

السنة الثانیة عشرة من سلطنة الملک الأشرف شعبان بن حسین بن علی مصر و هی سنة ست و سبعین و سبعمائة.

و فیها کان ابتداء الغلاء العظیم بسائر البلاد.

و فیها فتحت سیس علی ید نائب حلب الأمیر إشقتمر الماردینی، و قد تقدّم ذکر ذلک کلّه فی أصل الترجمة.

و فیها توفّی العلّامة قاضی القضاة صدر الدین أبو عبد اللّه محمد ابن العلّامة قاضی القضاة جمال الدین عبد اللّه ابن قاضی القضاة علاء الدین علیّ بن عثمان بن المارديني الحنفیّ الشهیر بابن الترکمانیّ، قاضی قضاة الدیار المصریة بها فی لیلة الجمعة ثالث ذی القعدة عن نحو أربعین سنة، بعد أن باشر ثلاث سنین و أشهرا، و کان سلک فی العدل طریقة أبیه و جدّه، و کان عالما بارعا ذکیا فهما عفیفا. و له نظم و نثر، و من شعره و قد حصل له رمد: [الوافر]

أفرّ إلی الظلام بکلّ جهدی کأنّ النور یطلبنی بدین

و ما للنور من ظلّ و إنّی أراه حقیقة مطلوب عینی

و قد تقدّم ذکر أبیه و جدّه کلّ واحد منهما فی محلّه.

و توفّی قاضی القضاة شرف الدین أبو العباس أحمد بن الحسین بن سلیمان بن فزارة الکفری (بفتح الکاف) الحنفیّ بدمشق، بعد أن کفّ بصره عن خمس و ثمانین سنة. و کان من العلماء الأعلام، ماهرا فی مذهبه، أفتی و درّس و أفاد و أتقن

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۱۳۱

روایات القرّاء السبعة و ناب فی الحکم بدمشق مدّة من الزمان. ثم استقلّ بالوظیفة مدّة طویلة ثم ترکها لولده متنزّها عن ذلک و لزم العبادة إلی أن مات.

و توفّی الشیخ الإمام العالم العلّامة جمال الدین أبو عبد اللّه محمد بن الحسن بن محمد بن عمّار الحارثی الدّمشقیّ الشافعیّ الشهیر بابن قاضی الزّبدانیّ بدمشق عن سبع و ثمانین سنة، و قد انتهت إلیه ریاسة الفتوی بالشام فی زمانه، و درّس بظاهریة دمشق و عادلیتها الصغری و کتب و صنّف.

و توفّی الشیخ أمین الدین أبو عبد اللّه محمد ابن القاضی برهان الدین إبراهیم بن علیّ بن أحمد بن علیّ بن یوسف بن إبراهیم الدمشقیّ الحنفیّ الشهیر بابن عبد الحق درّس بدمشق بعدّة مدارس و باشر بها الوظائف الجلیلة و کان معدودا من أعیان أهل دمشق إلی أن مات بها عن بضع و ستین سنة.

و توفّی الشیخ الإمام العلّامة الأدیب المفتن شهاب الدین أبو العباس أحمد بن یحیی بن أبی بکر بن عبد الواحد التّلمسانیّ المغربیّ

الحنفىّ الشهير بابن أبى حجلة نزيل الديار المصرية بها فى يوم الخميس مستهلّ ذى الحجّة عن إحدى و خمسين سنة.

و مولده بالمغرب بزاوية جدّه أبى حجلة عبد الواحد، ثم رحل إلى الشام ثم استوطن مصر و ولى مشيخة خانقاه منجك اليوسفىّ إلى أن مات. و كان إماما بارعا فاضلا ناظما ناثرا، و له مصنّفات كثيرة تبلغ ستين مصنّفا- رحمه اللّه- و من شعره فى مليح له خال على خدّه: [البسيط]

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۱۳۲

تفرّد الخال عن شعر بوجنته فليس فى الخدّ غير الخال و الخفر

يا حسن ذاك محيّا ليس فيه سوى خال من المسك فى خال من الشّعر

و له: [السريع]

و عاذل بالغ فى عذله و قال لمّا هاج بلبالى

بعارض المحبوب ما تنتهى قلت و لا بالسّيف و الوالى

و له مضمّنا و هو أحسن قوله فى المعنى: [الكامل]

يا صاح قد حضر الشّراب و بغيتى و حظيت بعد الهجر بالإيناس

و كسا العذار الخدّ حسنا فاسقنى و اجعل حديثك كلّه فى الكاس

و توفّى الصاحب الوزير فخر الدين عبد اللّه بن تاج الدين موسى بن أبى شاكر بالقاهرة و دفن بالقرافة بتربته بجوار تربة قاضى القضاة شمس الدين الحريرى. و كان فى مبادئ أمره صاحب ديوان يلبغا العمرىّ ثم تولّى الوزر بعد موته ثلاث مرات و جمع فى بعض الأحيان بين الوزارة و نظر الخاصّ معا كما كان ابن قروينة من قبله. و كان حسن السّيرة مليح الشكل بشوشا متواضعا، ليّن الجانب، قليل الأذى محبّبا للناس.

و توفّى التاجر ناصر الدين محمد بن مسلّم الكارمىّ المصرىّ فى يوم الجمعة ثانى عشر شوّال. و قد خلّف اموالا كثيرة من المتجر و عمل الكيميا بحيث إنه لم يكن أحد من أهل عصره أكثر مالا منه.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۱۳۳

و توفّى القان أويس ابن الشيخ حسن بن حسين بن اقبغا بن أيلكان صاحب تبريز و بغداد و ما والاهما. و فى موتته غريبة و هى أنه رأى فى منامه قبل موته أنه يموت فى يوم كذا و كذا، فخلع نفسه من الملك و ولّى عوضه ولده الكبير الشيخ حسين بن أويس و اعتزل هو عن الملك و صار يتعبّد و يكثر من الصلاة و الصدقة و البرّ إلى الوقت الذى عيّنه لهم أنه يموت فيه فمات فيه. و كان ملكا حازما عادلا ذا شهامة و صرامة، قليل الشرّ كثير الخير محبّبا للفقراء و العلماء، و كان مع هذا فيه شجاعة و كرم و مات فى عنفوان شبيبته و كان تسلطن بعد أبيه فمكث فى الملك تسعة عشر سنة و مات بتبريز عن نيّف و ثلاثين سنة.

و توفّى الأمير الكبير سيف الدين منجك بن عبد اللّه اليوسفى الناصرى أتابك العساكر و نائب السلطنة الشريفة بالديار المصرية بداره من القاهرة بالقرب من سويقة العزّىّ الملاصقة لمدرسة السلطان حسن، بعد عصر يوم الخميس تاسع عشرين شهر ذى الحجة و دفن صبيحة يوم الجمعة بتربته التى أنشأها عند

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۱۳۴

جامعه و خانقاته، خارج باب الوزير بالقرب من قلعة الجبل. و كانت جنازته مشهودة و كان عمره يوم مات بضعا و ستين سنة، و قد مرّ من ذكره ما يستغنى به عن التكرار هنا. و كان ابتداء أمره و ظهور اسمه من سلطنة الملك الناصر أحمد ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون و هلمّ جرّا إلى يومنا هذا، حتى إنه لم يذكر سلطان بعد موت محمد بن قلاوون، إلا و منجك هذا له فيه أمر و ذكر و واقعة. و قد طالت أيامه فى السعادة على أنه قاسى فيها خطوبا و أهوالا و أمسك و حبس ثم أطلق و اختفى مدّة ثم ظهر و قد تكرر ذلك كلّه

مفصلا فى عدّة تراجم من سلاطين مصر.

و أمّا ما عمّره من المساجد و الجوامع و المآثر فقد ذكرنا ذلك كلّه فى ترجمته «فى المنهل الصافى و المستوفى بعد الوافى» فلينظر هناك.

و توفّى الأمير سيف الدين يلبغا بن عبد اللّه الناصرىّ حاجب الحجّاب بالديار المصرية و أحد أمراء الألوف بها، و كان من أماثل الأمراء و أعيان المماليك الناصرية، ترقّى بعد موت أستاذه الملك الناصر محمد و ولى عدّة وظائف أعظمها حجوبيّة الحجّاب.

و توفّى الأمير سيف الدين أيدمر بن عبد اللّه الناصرىّ الدّوادار بالقاهرة عن نيّف و ستين سنة، و كان أميرا عالى القدر ظاهر الحشمة وافر المهابة حسن السياسة و التدبير، يبدأ الناس بالسلام و يكثر من ذلك، حتى إنه لمّا ولى نيابة حلب لقّبه أهلها «بسلام عليكم» و كان أوّلا أمير مائة و مقدّم ألف بديار مصر.

ثم ولى نيابة طرابلس ثم نيابة حلب ثم عزل و طلب إلى ديار مصر و استقرّ بها أمير مائة و مقدّم ألف أيضا إلى أن مات و هو أجل أمراء عصره.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۱۳۵

و توفّى الأمير الطواشى سابق الدين مثقال بن عبد اللّه الحبشى الآنوكىّ مقدّم المماليك السلطانية و أحد أمراء الطبلخانات، و كان أصله من خدّام سيدى آنوك ابن الملك الناصر محمد و ترقّى إلى أن ولى تقدمة المماليك السلطانية و هو الذى ضربه يلبغا العمرى داخل القصر ستمائة عصاة و نفاه إلى أسوان و ولّى مكانه مختار الدمنهورىّ شاذروان، فلما قتل يلبغا أعاده الملك الأشرف هذا إلى رتبته و وظيفته تقدمة المماليك السلطانية إلى أن مات و ولى التّقدمة بعده مختار الدمنهورىّ شاذروان المقدّم ذكره ثانيا، و أظن مثقالا هذا هو صاحب المدرسة السابقيّة داخل بين القصرين من القاهرة. و اللّه أعلم.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربعة أذرع و اثنا عشر إصبعا.

مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا و خمسة أصابع.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۱۳۶

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۷۷]

السنة الثالثة عشرة من سلطنة الملك الأشرف شعبان بن حسين على مصر و هى سنة سبع و سبعين و سبعمائة.

فيها كان الغلاء المفرط بالبلاد الشامية حتى أكل الناس الميتات و الكلاب و القطط.

و فيها توفّى الشيخ الإمام العالم العلّامة قاضى القضاة برهان الدين أبو إسحاق إبراهيم ابن القاضى علم الدين محمد بن أبى بكر بن عيسى بن بدران الهيدبانى السعدى الإخنائى المالكى قاضى قضاة الديار المصرية بها فى يوم الأربعاء ثالث شهر رجب بعد أن مكث فى القضاء خمس عشرة سنة و كان- رحمه اللّه- من أعيان الفقهاء المالكية.

و توفّى الشيخ الإمام العالم العلّامة قاضى القضاة بهاء الدين أبو البقاء محمد ابن قاضى القضاة سديد الدين عبد البر بن صدر الدين يحيى السّبكىّ الأنصارىّ الشافعىّ- رحمه اللّه تعالى- قاضى القضاة بالديار المصرية ثم بدمشق المحروسة فى شهر ربيع الأوّل. و مولده فى سنة سبع و سبعمائة. و كان إمام وقته و عالم زمانه، روى البخارى عن الوزيرة و الحجّار و تولّى القضاء بدمشق ثم بمصر ثم عزل و عاد إلى قضاء دمشق إلى أن مات- رحمه اللّه- بعد أن أفتى و درّس و كتب و ألّف و نظم و نثر. و من شعره- رحمه اللّه تعالى-. [الكامل]

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۱۳۷

ودّعته و لثمت باسم ثغره مع خدّه و ضممت مائس قدّه

ثمّ انتبهت و مقلتى تبكى دما يا ربّ لا تجعله آخر عهده

قلت: و يعجبنى فى هذا المعنى قول الأديب المفتنّ علاء الدين علىّ كاتب ابن وداعة. [مخلّع البسيط]

إذا رأيت الوداع فاصبر و لا يهمّنّك البعاد

و انتظر العود عن قريب فإنّ قلب الوداع عادوا

و توفّى القاضى شهاب الدين أبو العباس أحمد ابن القاضى علاء الدين على ابن القاضى محيى الدين يحيى بن فضل اللّه بن المجلى بن دعجان، ينتهى نسبه الى الإمام عمر بن الخطاب- رضى اللّه عنه- مات بدمشق و دفن بسفح قاسيون عن نيف و ثلاثين سنة بعد أن باشر نيابة كتابة سر مصر عن والده. و كان إماما بليغا كاتبا ناظما ناثرا أخذ العربية عن الشيخ كمال الدين بن قاضى شهبة ثم عن قاضى القضاة شمس الدين محمد بن مسلّم- رحمهم اللّه تعالى- و توجّه القاضى شهاب الدين المذكور إلى دمشق و استوطنها إلى أن مات. و شهاب الدين هذا سمى على اسم عمّه شهاب الدين أحمد صاحب «مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار» و قد مرّ ذكره و ذكر جماعة من آبائه و أقاربه.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۱۳۸

و توفّى الشيخ المعتقد أحمد بن مسعود المجذوب و دفن بالقرافة بالقرب من قبّة الإمام الشافعىّ- رضى اللّه عنه- و كان يجلس فى المريس دائما و للناس فيه اعتقاد.

و توفّى الإمام العالم العلّامة شمس الدين أبو عبد اللّه محمد بن عبد الرحمن بن على الشهير بابن الصائغ الحنفىّ- رحمه اللّه- فى يوم الثلاثاء ثانى عشر شهر شعبان، و كان إماما فى القراءات و سمع الحديث و أخذ النحو عن أبى حيّان و برع فى الفقه و أعاد و درّس و أفاد و أفتى و برع فى النحو و الأدب و درّس بجامع ابن طولون بالقاهرة و تولّى قضاء العسكر بمصر و كان أديبا لطيفا ظريفا بارعا فى النظم و من شعره: [الطويل]

بروحى أفدى خاله فوق خدّه و من أنا فى الدنيا فأفديه بالمال

تبارك من أخلى من الشّعر خدّه و أسكن كلّ الحسن فى ذلك الخال

و له عفا اللّه عنه: [الرجز]

قاس الورّى وجه حبيبى بالقمر لجامع بينهما و هو الخفر

قلت القياس باطل بفرقه و بعد ذا عندى فى الوجه نظر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۱۳۹

و له: [السريع]

و شادن ظلّت عيون الرّبا لمّا رأته مقبلا ساجده

سألته من ريقه شربة فقال ذى مسألة بارده

و توفّى السيّد الشريف عزّ الدّين عجلان بن رميثة بن أبى نمىّ محمد بن أبى سعد حسن بن على بن قتادة بن إدريس المكىّ الحسنىّ أمير مكة. و كان قبل موته نزل لولده السيّد الشريف أحمد بن عجلان عن نصف إمرة مكة التى كانت بيده، فإنه كان قبل ذلك نزل له عن النّصف الأوّل قديما و كان ولى إمرة مكة غير مرة نحو ثلاثين سنة مستقلا بها مدّة و شريكا لأخيه ثقبة مدّة و شريكا لابنه أحمد هذا مدّة. و كانت وفاته فى ليلة الاثنين الحادى عشر من شهر جمادى الأولى و دفن بالمعلاة- رحمه اللّه- و قد قارب السبعين سنة من العمر، و كان ذا عقل و دهاء و معرفة بالأمور و سياسة حسنة. و كان بخلاف آبائه و أقاربه يحبّ أهل السّنّة و ينصرهم على الشّيعة و ربما كان يذكر أنه شافعىّ المذهب، و هذا نادرة فى السادة الأشراف، فإنّ غالبهم زيديّة يتجاهرون بذلك. قيل: إنه ذكر عنده مرة معاوية بن أبى سفيان لينظروا رأيه فيه، فقال عجلان: معاوية شيخ من كبار قريش لاح له الملك فتلقّفه.

قلت: لو لم يكن من محاسنه إلا اتباعه للسّنة النبوية لكفاه ذلك شرفا. و كان ممدوحا، مدحه النّشو أحد شعراء مكة بقصيدة طنّانة أوّلها: [الكامل]

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١١، ص: ١۴٠

لو لا الغرام و وجده و نحو له ما كنت ترحمه و أنت عدو له

إن كنت تنكره فسل عن حاله فالحبّ داء لا يفيق عليله

يا من يلوم على الهوى أهل الهوى دع لومهم فالصبر مات جميله

و توفّى الأمير سيف الدين أسنبغا بن بكتمر الأبوبكرىّ فى يوم الأربعاء خامس المحرّم و كان من عظماء أمراء الديار المصرية، كان خصيصا عند الملك الناصر محمد ابن قلاوون و أنعم عليه بإمرة طبلخاناه. ثم ترقى بعد موته حتى ولى الأمير آخورية الكبرى للسلطان حسن. ثم للاشرف. ثم ولى نيابة الإسكندرية. ثم نيابة حلب.

ثم حجوبيّة الحجّاب بديار مصر و طالت أيامه فى السعادة و أظنّه صاحب الأبوبكريّة داخل القاهرة. و اللّه أعلم.

و توفّى الشيخ الإمام المعتقد العالم العلّامة جمال الدين عبد اللّه بن محمد بن أبى بكر بن خليل بن إبراهيم بن يحيى بن أبى عبد اللّه بن يحيى بن إبراهيم بن سعيد بن طلحة بن موسى بن إسحاق بن عبد اللّه بن محمد بن أبان بن عثمان بن عفّان- رضى اللّه عنه- فى يوم الأحد ثالث شهر جمادى الأولى بخلوته بسطح جامع

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١١، ص: ١۴١

الحاكم. و كانت جنازته مشهودة جدّا، اجتمع فيها خلائق لا تحصى- رحمه اللّه- و مولده فى سنة أربع و تسعين و ستمائة. و كان فقيها شافعيّا صاحب فنون و علوم.

و توفّى الأمير ناصر الدين محمد ابن الأمير قيران الحسامىّ، كان أحد أمراء الطبلخانات بالديار المصريّة- رحمه اللّه تعالى- و كان كريما شجاعا مقداما و له وجاهة فى الدّول و حرمة وافرة.

و توفّى تاج الدين أبو غالب الكلبشاوى الأسلمىّ القبطىّ ناظر الذّخيرة فى نصف شهر شوّال و إليه تنسب المدرسة المعروفة بمدرسة أبى غالب تجاه باب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١١، ص: ١۴٢

الخوخة ظاهر القاهرة. و توفى شيخ الكتّاب غازى بن قطلوبغا التركى فى شهر رجب، و قد انتهت إليه الرياسة فى الخط المنسوب و تصدّر للإفادة سنين عديدة و انتشر خطه فى الآفاق.

و توفّى الشيخ نور الدين علىّ بن محمد بن محمد بن علىّ بن أحمد الكنانىّ العسقلانىّ الشافعىّ الشهير بابن حجر والد الحافظ شهاب الدين أحمد بن حجر فى يوم الأربعاء عاشر شهر رجب، و كان تاجرا بمدينة مصر القديمة، و تفقّه على مذهب الإمام الشافعىّ

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١١، ص: ١۴٣

- رضى اللّه عنه- و حفظ الحاوى و أخذ الفقه عن بهاء الدين محمد بن عقيل- رحمه اللّه- و قال الشعر، و من شعره يشير إلى المتجر: [المجتث]

إسكندريّة كم ذا يسمو قماشك عزّا

فطمت نفسى عنها فلست أطلب بزّا

و له أيضا: [الكامل]

يا ربّ أعضاء السّجود عتقتها من فضلك الوافى و أنت الواقى

و العتق يشرى بالغنى ياذا الغنى فامنن على الفانى بعتق الباقى

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمسة أذرع و أربعة أصابع.

مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا و ثلاثة عشر إصبعا. و اللّه أعلم.

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۷۸]

اشارة

السنة الرابعة عشرة من سلطنة الملك الأشرف شعبان بن حسين على مصر و هى سنة ثمان و سبعين و سبعمائة و هى التى قتل فيها فى ذى القعدة.

فيها توفّى القاضى محبّ الدين أبو عبد اللّه محمد ابن القاضى نجم الدين أبى المحاسن يوسف بن أحمد بن عبد الدائم التّميمىّ المصرىّ ناظر الجيوش المنصورة بالديار المصرية بها فى يوم الثلاثاء ثانى عشر شهر ذى الحجة عن إحدى و ثمانين سنة. و كان فى ابتداء أمره تولّى ديوان چنكلى بن البابا ثم خدم عند الأمير منكلى الفخرىّ فكتب إليه الشيخ صلاح الدين الصّفدىّ يقول: [السريع]

من چنكلى صرت الى منكلى فكلّ خير أرتجى منك لى

و أنت لى كهف و ما مقصدى من هذه الدنيا سوى أنت لى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۱۴۴

و كان القاضى محبّ الدين المذكور رجلا صالحا فاضلا و له سماع عال و له مصنّفات- رحمه اللّه- منها «شرح التسهيل» [فى النحو] فى أربعة مجلدات و «شرح التلخيص فى المعانى و البيان» و غير ذلك.

و توفّى الشيخ الإمام العالم العلّامة تقىّ الدين أبو الفداء إسماعيل بن نور الدين علىّ بن الحسن القلقشندىّ الشافعىّ المصرىّ مفتى المسلمين بالقدس الشريف عن نحو سبعين سنة و كان فقيها برع فى عدّة علوم و أفتى و درّس و استقل. رحمه اللّه.

و توفّى الشيخ المسند المعمّر الرّحلة أبو حفص عمر بن الحسن بن مزيد الشهير بابن أميلة المراغىّ الحلبى ثم الدمشقىّ بها عن ثمان و تسعين سنة، بعد أن صار رحلة زمانه و قصد من الأقطار للسماع عليه فسمع منه خلائق كثيرة.

و توفّى الشيخ الأديب جمال الدين أبو الربيع سليمان بن داود بن يعقوب المصرىّ ثم الحلبىّ بحلب، و قد قارب الخمسين سنة و كان معدودا من الكتّاب الأدباء الفضلاء، و من شعره: [الطويل]

رياض جرت بالظّلم عادات ريحها و سار بغير العدل فى الحكم سيرها

ففرّقت الاغصان عند اعتناقها و سلسلت الانهار إذ جنّ طيرها

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۱۴۵

و توفّى الأمير سيف الدين يعقوب شاه بن عبد اللّه الحاجب الثانى و أحد مقدّمى الألوف بالديار المصرية، و كان ممن قام مع الملك الأشرف فى واقعة أسندمر و أظهر شجاعة عظيمة، فقرّبه السلطان الملك الأشرف من ثمّ و رقّاه و أنعم عليه، حتى جعله من جملة الأمراء الألوف بالديار المصرية إلى أن مات- رحمه اللّه تعالى-.

و توفّى السلطان الملك الأفضل عباس ابن الملك المجاهد علىّ ابن الملك المؤيّد داود ابن الملك المظفّر يوسف بن عمر [بن على] بن رسول التّركمانىّ الأصل اليمنىّ صاحب اليمن و ابن صاحبها- رحمه اللّه تعالى- فى شعبان، و تسلطن بعده ولده السلطان الملك الأشرف إسماعيل، و كان الملك الأفضل ولى السلطنة بعد موت أبيه المجاهد فى شهر جمادى الأولى سنة أربع و ستين و سبعمائة. و لمّا ولى اليمن خرج فى أيامه ابن ميكائيل فوقع له معه وقائع، حتى أباده الأفضل و زالت دولة ابن ميكائيل فى أيامه.

و كان الأفضل- رحمه اللّه- شجاعا مهابا كريما و له إلمام بالعلوم و الفضائل و مشاركة جيّدة فى عدّة علوم و تصانيف منها: «كتاب

العطايا السنية فى ذكر أعيان اليمنية» و «كتاب نزهة العيون فى تاريخ طوائف القرون» و «مختصر تاريخ ابن خلّكان» و «كتاب بغية ذوى الهمم فى أنساب العرب و العجم» و كتاب آخر «فى الألغاز الفقهية» و غير ذلك. و كان فيه برّ و صدقة و له مآثر حسنة- رحمه اللّه تعالى-

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۱۴۶

بنى مدرسة عظيمة بتعزّ و له أيضا بمكة مدرسة معروفة به بالصفا. و قيل: إن هذه التصانيف المذكورة إنما هى لقاضى تعز رضىّ الدين أبى بكر بن محمد بن يوسف الجرائى الصبرىّ [الناشرى]- رحمه اللّه- عمل ذلك على لسان الأفضل- و اللّه أعلم-.

و توفّى الأمير سيف الدين جركتمر بن عبد اللّه الخاصّكى الأشرفىّ أحد مقدّمى الألوف بالقاهرة مقتولا فى هذه السنة و كان من خواصّ الملك الأشرف هذا و من أجلّ مماليكه.

و توفّى السلطان الملك المظفّر فخر الدين داود ابن الملك الصالح صالح ابن الملك المنصور غازى بن ألبى بن تمرتاش بن إيل غازى بن أرتق الأرتقىّ صاحب ماردين و ابن صاحبها بماردين فى هذه السنة، بعد أن حكمها نحو عشرين سنة و تولّى سلطنة ماردين من بعده ابنه الملك الظاهر مجد الدين عيسى الآتى ذكره فى محلّه- إن شاء اللّه تعالى- و كان الملك المظفر هذا ولى ملك ماردين بعد ابن أخيه الملك الصالح محمود الذى أقام فى سلطنة ماردين أربعة أشهر عوضا عن والده الملك المنصور أحمد ابن الملك الصالح صالح و خلع و تسلطن الملك المظفر هذا فأظهر العدل و اقتفى أثر والده الملك الصالح فى الإحسان إلى الرعية و إصلاح الأمور إلى أن مات- رحمه اللّه-.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۱۴۷

و توفّى فى هذه السنة جماعة كبيرة من الأمراء الأشرفية ممن مرّ ذكرهم فى أواخر ترجمة الملك الأشرف، قتلوا بالسيف عند كسرة الأشرف من العقبة، و هم: الأمير سيف الدين أرغون شاه بن عبد اللّه الجمالىّ الأشرفى أحد مقدّمى الألوف بالديار المصرية و أجلّ أمراء الأشرف، بعد أن قدم معه من العقبة و الأمير سيف الدين صرغتمش بن عبد اللّه الأشرفىّ رأس نوبة فى النّوب و أحد مقدّمى الألوف أيضا بالديار المصرية و الأمير سيف الدين يلبغا بن عبد اللّه السابقىّ الأشرفى أحد مقدّمى الألوف أيضا و الأمير سيف الدين بشتك بن عبد اللّه الأشرفىّ أحد مقدّمى الألوف أيضا و هو غير بشتك الناصرى صاحب القصر و الحمّام و الأمير سيف الدين أرغون ابن عبد اللّه العزّى الأشرفىّ الأفرم أحد مقدّمى الألوف أيضا و غيرهم من أمراء الطبلخانات و العشرات.

و هؤلاء الذين ذكروا هم أعيان الأشرفية القادمون صحبة أستاذهم الملك الأشرف من العقبة إلى مصر، قتلوا الجميع فى ساعة واحدة و أتوا برءوسهم من قبة النصر إلى الأمراء الذين ثاروا بالقاهرة و هم يقولون: «صلّوا على محمّد» و وضعوها بين يديهم.

و قد تقدّم ذكر ذلك كلّه فى أواخر ترجمة الملك الأشرف شعبان، و تأتى بقيّة ما وقع فى ترجمة الملك المنصور على ابن الملك الأشرف شعبان هذا.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ستة أذرع و اثنتا عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة تسعة عشر ذراعا و إصبعان. و اللّه أعلم.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۱۴۸

ذكر سلطنة الملك المنصور علىّ على مصر

السلطان الملك المنصور علاء الدين علىّ ابن السلطان الملك الأشرف زين الدّين شعبان ابن الأمير الملك الأمجد حسين ابن السلطان الملك الناصر محمد ابن السلطان الملك المنصور قلاوون الألفىّ الصالحىّ و هو السلطان الثالث و العشرون من ملوك الترك بالديار المصرية، تسلطن فى حياة والده حسب ما تقدّم ذكره أنّ الأمير قرطاى و طشتمر اللّفاف و أينبك البدرىّ لمّا ثاروا بمن معهم بالدّيار

المصـرية، و طلعوا إلى القلعـة و أخذوا أمير علىّ هذا من الدور السـلطانية و سـلطنوه فى حياة والده أرادوا بذلك انضـمام الناس عليهم فإنهم كانوا أشاعوا موت الملك الأشـرف شـعبان فى العقبـة حتى تمّ لهم ما أرادوه و سـلطنوا أمير علىّ هـذا من غير حضور الخليفـة و القضـاة فـإنهم كـانوا صـحبة السـلطان الملك الأشـرف بالعقبـة فلمّا زالت دولـة الملك الأشـرف و قبض عليه و قتل ثم حضـر الخليفة المتوكّل على اللّه أبو عبـد اللّه محمـد من العقبـة و كان القضاة بالقـدس الشـريف توجّهوا إليه من العقبة بعد واقعة الملك الأشـرف و هروبه الى مصر.

فلما كان يوم الخميس ثامن شـهر ذى القعدة سـنة ثمان و سبعين و سبعمائة و ذلك بعد قتل الملك الأشرف شعبان بثلاثة أيام، اجتمع الأمراء القائمون بهـذا الأمر بالقلعـة و اسـتدعوا الخليفـة و من كان بمصـر من القضاة و نوّاب من هو غائب من القضاة بالقدس و حضـر الأمير آقتمر الصاحبىّ نائب السلطنة بالديار المصرية و قعدوا الجميع بباب الآدر الشريفة من قلعة الجبل و جدّدوا البيعة بالسلطنة للملك المنصور علىّ هذا بعد وفاة أبيه الملك الأشرف و قبل له البيعة آقتمر الصاحبىّ المذكور

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۱۴۹

و لبسوه السواد خلعـة السـلطنة و كانت فرجيّـة حرير بنفسـجىّ بطرز ذهب و بدائرها تركيبة زركش بحاشـية حرير أزرق خطائى وشاش أسود خليفتى و قبعا أسود بعذبة خليفتيا زركش. و ركب بأبّهة السلطنة و شعار الملك من باب الستارة و الأمراء مشاة بين يديه إلى أن وصل إلى الإيوان و جلس على تخت الملك فى يوم الخميس المذكور و قبّلت الأمراء الأرض بين يديه و حلفوا له على العادة و أخلع على الخليفـة و على الأمراء و على من له عادة بلبس الخلع و مـدّ السّـماط و كان عمر السـلطان الملك المنصور يوم تسـلطن نحو سـبع سنين تخمينا.

ثم قام الملك المنصور من الإيوان و دخل إلى القصـر و أخلع على الأمير طشتمر اللفّاف [المحمدى] باستقراره أتابك العساكر بالديار المصرية و أنعم عليه بكل مال أرغون شاه الأشرفىّ بعد قتله، و خلع على الأمير قرطاى الطازىّ و استقرّ رأس نوبة كبيرا و أطابكا و أنعم عليه بكل مال صـرغتمش الأشـرفىّ بعد قتله أيضا، و رسم لهما أيضا أن يجلسا بالإيوان فى الميمنة، و خلع على أسندمر الصّرغتمشىّ و اسـتقرّ أمير سـلاح و رسـم له أن يجلس فى الميسـرة، و خلع على قطلوبغـا البـدرىّ و اسـتقرّ أمير مجلس و خلـع على طشـتمر العلائـى الدوادار و اسـتقرّ فى نيابة دمشق و رسم له أن يخرج من يومه و خلع على إياس الصرغتمشـىّ و اسـتقرّ دويدارا كبيرا عوضا عن طشتمر العلائىّ بإمرة طبلخاناه. ثم أنعم على أينبك البدرىّ و استقر أمير آخور كبيرا و بلاط السيفىّ ألجاى الصغير و دمراش اليوسفىّ و استقرّ رأس نوبة ثانيا- و هذه الوظيفة هى الآن

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۱۵۰

وظيفـة رأس نوبـة النّوب فى زماننا هـذا- و يلبغا النظامىّ و ألطنبغا السـلطانىّ، و كان الجميع أجنادا ماعدا أينبك البدرىّ فإنه كان أمير طبلخاناه و طشتمر اللفّاف فإنه كان أمير عشرة فانتقل للأتابكيّة دفعة واحدة و أنعم على جماعة بإمرة طبلخاناه، و هم:

الأمير طغيتمر الناصـرىّ و قطلوبغا البيسرىّ و بيخجا الكاملىّ و صربغا الناصرىّ و طولو الصّرغتمشىّ و أطلمش الأرغونىّ و مقبل الرومىّ و ألجيبغـا السـيفىّ ألجـاى و قطلوبغـا النظامىّ و أحمـد بن يحمر التّركمانىّ و قطلوخجا أخو أينبك البـدرىّ و تمربغا البـدرىّ و ألطنبغا المعلّم و تلكتمر بن عبـد اللّه المنصورىّ و أسـنبغا الصارمىّ و أطلمش الطازىّ و إبراهيم بن قطلقتمر العلائى و أرنبغا السـيفىّ ألجيبغا و علىّ بن آقتمر عبد الغنىّ و أسنبغا النظامىّ و مأمور القلمطاوىّ.

و أنعم على جماعة بإمرة عشـرات و هم: تكا الشمسـىّ و محمد بن قرطاى الطازىّ و خضـر بن ألطنبغا السـلطانى و محمد بن شعبان بن يلبغا العمرىّ و أسـنبغا المحمودىّ و طبـج المحمدىّ و ألطنبغا شادى و سودون العثمانىّ شادّ السـلاح خاناه و تلكتمر المنجكىّ و آقبغا السـيفىّ ألجـاى و جركس السّـيفىّ ألجـاى و طقتمش السـيفىّ يلبغـا و طوغـان العمرىّ الظهيرىّ و بكلمش الإبـراهيمىّ و يلبغـا العلائى دوادار أمير علىّ النائب و يوسف بن شادى أخو حاج ملك و خضـر الرسولىّ و أسـندمر الشرفىّ و مغلطاى الشرفىّ و خليل بن أسندمر

العلائىّ و رمضان بن صرغتمش و حسن أخو قطلوبغا حاجّى أمير علم و منكلى الشمسىّ و ألجيبغا السيفىّ جنقرا.

ثم رسم بالإفراج عن جماعة من السجن بقلعة الجبل فى يوم السبت عاشر شهر ذى القعدة و هم: الأمير آقتمر عبد الغنى نائب السلطنة بديار مصر و نائب الشام كان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١١، ص: ١٥١

و الأمير علم المحمدىّ و أيدمر الشمسىّ و سودون جركس المنجكىّ و طيبغا الصّيفوىّ ألجاى و مغلطاى البدرىّ الجمالىّ و صربغا السيفىّ و طشتمر الصالحىّ و بلاط الكبير السيفىّ ألجاى و حطط اليلبغاوىّ و إياس الماردينىّ و بلّوط الصرّغتمشىّ و يلبغا المنجكىّ و قرابغا أبو جركتمر و حاجىّ خطاى والد غريب. ثم من الغد أمر بمسكهم ثانيا و تقييدهم و إرسالهم إلى سجن الإسكندرية فقبض عليهم و أرسلوا فى تلك الليلة ما خلا آقتمر عبد الغنىّ و سودون المنجكىّ.

ثم فى يوم الأحد ثامن عشر ذى القعدة قبضوا على جماعة من مباشرى الدولة و طلعوا بهم إلى القلعة و هم: الصاحب الوزير شمس الدين المقسى و تاج الدين موسى ناظر الخواصّ الشريفة و أمين الدّين و علاء الدّين بن السائس و شهاب الدين ابن الطّولونى و أدخلوا قاعة الصاحب و صودروا حتى قرّر عليهم ما يقومون به من الأموال ثم أفرج عنهم.

ثم أحضر الأمير صلاح الدين خليل بن عرّام من الإسكندرية و صودر و قرّر عليه ألف ألف درهم ثم خلع عليه باستقراره فى نيابة الإسكندرية على عادته.

ثمّ مسكوا من الطواشية و الخدّام جماعة كبيرة، و هم: مختصّ الأشرفىّ و جوهر الإسكندرىّ و سنبل رأس نوبة الجمدارية و أدخلوا قاعة الصاحب.

ثم أصبحوا من الغد قبضوا على جماعة أخروهم: دينار اللّالا و شاهين دست و سنبل اللّفاف أحد الجمدارية و أدخلوا أيضا إلى قاعة الصاحب. ثم أصبحوا من الغد و رسموا لمثقال الجمالىّ الزّمام بحمل ثلاثمائة ألف درهم، ثم استقرّت مائة ألف درهم.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١١، ص: ١٥٢

ثم فى يوم الاثنين تاسع عشر ذى القعدة خلع على الأمير آقتمر الصاحبىّ و استقرّ على نيابة السلطنة بالدّيار المصرية، كما كان فى أيام الملك الأشرف شعبان، و فوّض إليه أن يخرج الإقطاعات للأمراء و الأجناد و النوّاب و ألّا يكون لأحد معه تحكّم و ذلك بعد أن رضيت الأمراء و الخاصّكية و البرّانيّون بذلك.

ثم أخلع على الأمير أرغون الإسعردىّ بنيابة طرابلس عوضا عن الأمير منكلى بغا الأحمدىّ البلدىّ. ثم أخلع على القاضى بدر الدين بن فضل اللّه كاتب السّر باستمراره على وظيفته.

ثم أخلع على الصاحب تاج الدين المكّىّ بإعادته إلى الوزارة ثانية و هى وزارته الرابعة و أخلع على القاضى كريم الدين بن الرّويهب باستقراره ناظر الدولة و استقرّ القاضى تقىّ الدين عبد الرحمن ابن القاضى محب الدين محمد فى نظر الجيوش المنصورة عوضا عن والده محبّ الدين المذكور بحكم وفاته.

ثم شرع الأمراء فى النفقة على المماليك السلطانية فأعطوا كلّ نفر عشرة آلاف درهم. و فى ثانى عشر شهر ذى الحجة قرئ تقليد السلطان الملك المنصور على بالإيوان من قلعة الجبل و علّم عليه الخليفة المتوكّل على اللّه و شهدت عليه القضاة بتفويض السلطنة للملك المنصور و خلع على الخليفة و أنعم عليه بألف دينار و هى رسم المبايعة.

ثم بعد أيام دخل أسندمر الصرغتمشىّ و دمرداش اليوسفىّ إلى الدّور السلطانيّة و فرّقوا جوارى الملك الأشرف شعبان على الأمراء.

ثم استقرّ فى خامس المحرّم من سنة تسع و سبعين و سبعمائة الأمير قرطاى الطازىّ أتابكا بعد موت طشتمر اللّفّاف و أخلع عليه بعد أيام بنظر البيمارستان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١١، ص: ١٥٣

المنصوریّ و أخلع علی الأمیر مبارک الطازیّ و استقرّ رأس نوبة کبیرا عوضا عن قرطای المذکور. ثم بعد ذلک بمدّة یسیرة استقرّ الأمیر أینبک البدریّ الأمیر آخور الکبیر فی نظر البیمارستان، عوضا عن قرطای برغبة قرطای عنه و استقرّ سودون جرکس أستادارا.

ثم فی العشرین من المحرّم خلع علی الأمیر سودون الفخریّ الشّیخونیّ و بلّوط الصرغتمشیّ و استقرّا حاجبین بالدیار المصریّة.

ثم فی صفر حضر الأمیر یلبغا الناصریّ إلی القاهرة و کان قد نفی إلی بلاد الشام، بعد قتل السلطان الأشرف فأنعم علیه بإمرة طبلخاناه و کانوا أیضا قبل تاریخه قد عزلوا الأمیر منکلی بغا الأحمدیّ عن نیابة طرابلس و تمربای نائب صفد عن نیابة صفد فجاء الخبر بأنّ منکلی بغا حلّ سیفه و أطاع و أنّ تمربای عصی و امتنع بصفد فخلع علی الأمیر أرغون الإسعردیّ ثانیا بنیابة طرابلس عوضا عن منکلی بغا المذکور و تولی نیابة حماة تمراز الطازیّ.

ثم فی هذه الأیام بدت الوحشة بین قرطای الطازیّ الأتابک و بین صهره أینبک البدریّ الأمیر آخور الکبیر فی الباطن، کلّ ذلک فی هذه المدّة الیسیرة و صار کلّ واحد یدبّر علی الآخر مع أصحابه و حواشیه، فلمّا کان یوم الأحد العشرون من صفر عمل الأمیر الأتابک قرطای ولیمة فأهدی له أینبک مشروبا یقال له الشّشش و عمل فیه بنجا، فلمّا شربه قرطای تبنّج، و کان لأینبک عند قرطای عیون فأخبروه أنّه تبنّج فرکب أینبک من وقته بالسلاح و معه جماعة کبیرة ملبسین و أنزل السلطان الملک المنصور علیّا إلی الإسطبل السلطانیّ و دقّت الکوسات فجاءت الأمراء إلی السلطان و أقام أینبک راکبا من عصر یوم الأحد إلی صبیحة یوم الاثنین، و سببه أنه کان

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۱۵۴

عند قرطای فی بیته جماعة من الأمراء من أصحابه: منهم سودون جرکس و أسندمر الصرغتمشیّ و قطلوبغا البدریّ و قطلوبغا جرکس و أمیر سلاح و مبارک الطازیّ رأس نوبة کبیر و جماعة أخر من أمراء الطبلخانات و العشرات فرکبوا الجمیع و منعوا أینبک من الوصول إلی قرطای و حموه إلی أن استفاق قرطای من بنجه و قد ضعف أمر أصحابه و قوی أمر أینبک، فبعث قرطای یسأل أینبک أن ینعم علیه بنیابة حلب و یرسل إلیه مندیل الأمان، فأجابه أینبک إلی ذلک فخرج قرطای من وقته إلی سریاقوس و قبض أینبک علی من کان عند قرطای من الأمراء فإنّهم کانوا قاتلوه و أبادوه من أخذ قرطای و قیّدهم و أرسلهم إلی الإسکندریة فسجنوا بها. و رسم للأمیر آقتمر الصاحبیّ نائب السلطنة بمصر بنیابة دمشق عوضا عن طشتمر العلائیّ الدوادار فلبس آقتمر الخلعة و خرج من وقته و نودی بالقاهرة و مصر فی الوقت بالأمان و من کان له ظلامة، فعلیه بباب المقرّ الأشرف العزیّ الأتابک أینبک البدریّ و سافر قرطای، فلمّا وصل إلی غزّة نفی إلی طرابلس. ثم حمل منها إلی المرقب فحبس به ثم خنق بعد مدّة یسیرة وصفا الوقت لأینبک فأخلع السلطان علیه خلعة ستیّة فی خامس عشرین شهر صفر باستقراره أتابک العساکر و مدبّر الممالک و خلع علی الأمیر آقتمر عبد الغنی و استقرّ نائب السلطنة بالدیار المصریّة عوضا عن الأمیر آقتمر الصاحبیّ المنتقل إلی نیابة دمشق و کلاهما قدیم هجرة من أکابر الأمراء المشایخ.

و استقرّ الأمیر بهادر الجمالیّ أستادارا عوضا عن سودون جرکس و استقرّ بلاط السیفی ألجای أمیر سلاح، عوضا عن قطلوبغا جرکس و استقرّ ألطنبغا السلطانیّ أمیر مجلس و استقرّ دمرداش الیوسفیّ رأس نوبة کبیرا.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۱۵۵

و أنعم علی یلبغا الناصریّ بإمرة مائة و تقدمة ألف و استقرّ رأس نوبة ثانیا و یلبغا الناصریّ هذا هو صاحب الوقعة المشهورة مع السلطان الملک الظاهر برقوق و إلی الآن برقوق لم یتأمّر عشرة.

ثم أنعم علی أطلمش الأرغونیّ بإمرة طبلخاناه و استقرّ دوادار کبیرا عوضا عن إیاس الصرغتمشیّ و أخلع علی قطلوخجا و استقرّ أمیر آخور کبیرا عوضا عن أخیه أینبک البدریّ و صار الأمر فی المملکة لأینبک البدریّ وحده من غیر منازع و أخذ أینبک فی المملکة و أعطی و حکم بما اختاره و أراده، فمن ذلک أنه فی رابع شهر ربیع الأوّل رسم بنفی الخلیفة المتوکّل علی اللّه تعالی إلی مدینة قوص فخرج المتوکل علی اللّه ثم شفع فیه فعاد إلی بیته و من الغد طلب أینبک نجم الدین زکریا بن إبراهیم ابن الخلیفة الحاکم بأمر اللّه و

خلع عليه و استقرّ به فى الخلافة عوضا عن المتوكّل على اللّه من غير مبايعة و لا خلع المتوكل من الخلافة نفسه، و لقّب زكرياء المذكور بالمعتصم بالله. ثم فى العشرين من شهر ربيع الأوّل المذكور تكلّم الأمراء مع أينبك فيما فعله مع الخليفة و رغّبوه فى إعادته فطلبه و أخلع عليه على عادته بالخلافة و عزل زكرياء. و من الناس من لم يثبت خلافة زكريا المذكور، فإنّه لم يخلع المتوكل نفسه من الخلافة حتى يبايع زكريا المذكور.

ثم بدا لأينبك أن يسكن جماعة من مماليكه بمدرسة السلطان حسن و بمدرسة الملك الأشرف شعبان و يجعل فى كل مدرسة مائة مملوك. ثم أعطى أينبك لولديه تقدمتى ألف و هما الأمير أحمد و أبو بكر. ثم نفى أرغون العثمانىّ إلى الشام بطالا و خلع على مقبل الدوادار الطواشىّ الرومىّ و استقرّ زماما بالآدر الشريفة عوضا عن

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۱۵۶

مثقال الجمالىّ. ثم خلع على بهادر الجمالىّ الأستادار و استقرّ فى نظر البيمارستان المنصورىّ.

و بينما أينبك فى أمره و نهيه ورد عليه الخبر بعصيان نوّاب الشام ففى الحال علّق أينبك جاليش السفر فى تاسع عشر شهر ربيع الأوّل المذكور و رسم للعساكر بالتجهيز إلى سفر الشام و أسرع بالنفقة على العساكر و تجهّز فى أسرع وقت و خرج الجاليش من القاهرة إلى الريدانية فى سادس عشرين شهر ربيع الأوّل المذكور و هم خمسة من أمراء الألوف أوّلهم: قطلوخجا الأمير آخور الكبير أخو أينبك الأتابك و أحمد ولده و يلبغا الناصرىّ و الأمير بلاط السيفىّ ألجاى و تمرباى الحسنىّ. و من الطبلخانات بورى الأحمدىّ و آقبغا آص الشيخونىّ فى آخرين و مائة مملوك من المماليك السلطانية و مائة مملوك من مماليك الأتابك أينبك.

و فى تاسع عشرين شهر ربيع الأوّل المذكور من سنة تسع و سبعين و سبعمائة خرج طلب السلطان الملك المنصور و طلب الأتابك أينبك البدرىّ و أطلاب بقيّة العساكر من الأمراء و غيرهم إلى الرّيدانية فأقاموا بالريدانية إلى يوم السبت مستهلّ شهر ربيع الآخر استقلّوا بالمسير قاصدين البلاد الشامية، و ساروا حتى وصلوا بلبيس رجعوا على أعقابهم بالعساكر إلى جهة الديار المصرية.

و خبر ذلك أن قطلوخجا أخا أينبك مقدّم الجاليش بلغه أن الجماعة الذين معه مخامرون و أنهم أرادوا أن يكبسوا عليه فاستقصّ الخبر حتّى تحقّقه فركب من وقته و ساعته و هرب فى الحال و هو فى ثلاثة أنفس عائدا إلى أخيه أينبك فاجتمع به و عرّفه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۱۵۷

الخبر ففى الحال أخذ أينبك السلطان و رجع به إلى نحو القاهرة حتّى وصلها فى يوم الاثنين ثالث شهر ربيع الآخر و طلع به إلى قلعة الجبل و أنزل الأتابك أينبك السلطان الملك المنصور إلى الإسطبل السلطانىّ و جاءه بعض أمراء من أصحابه ثم أخذ أينبك فى إصلاح أمره و بينما هو فى ذلك بلغه أن الأمير قطلقتمر العلائىّ الطويل و الأمير ألطنبغا السلطانىّ و كانا رجعا معه من بلبيس، ركبا بجماعتهما فى نصف الليل و معهما عدّة من الأمراء و سائر المماليك السلطانية و خرج الجميع إلى قبّة النصر موافقة لمن كان من الأمراء بالجاليش المقدّم ذكره، فجهز أينبك الأمير قطلوخجا فى مائتى مملوك لقتال هؤلاء، فخرج بهم قطلوخجا إلى قبّة النصر، فتلقّاه القوم و حملوا عليه فآنكسر و مسك.

فلما بلغ أينبك ذلك جهّز الأمراء الذين كانوا بقلعة الجبل و أرسلهم إلى قبة النصر و هم: آقتمر من عبد الغنىّ نائب السلطنة و أيدمر الشمسىّ و بهادر الجمالىّ الأستادار و مبارك الطازىّ. هذا و قد ضعف أمر أينبك المذكور و خارت قواه، فإنّه بلغه أن جميع العساكر اتّفقت على مخالفته حتى إنه لم يعلم من هو القائم بهذا الأمر لكثرة من خرج عليه، فلمّا رأى أمره فى إدبار ركب فرسه و نزل من الإسطبل السلطانىّ من غير قتال و هرب إلى ناحية كيمان مصر فتبعه أيدمر الخطائىّ و جماعة من العسكر فلم يقف له أحد على أثر، كلّ هذا و إلى الآن لم يجتمع من بالجاليش مع من هو بقبّة النصر من الأمراء، غير أنّ الفتنة قائمة على ساق و الغوغاء ثائرة و السعد قد زال عنه من غير تدبير و لا عمل و اختفى أينبك بتلك الجهة ثم وجدوا فرسه و قباءه و لبسه، و لمّا استولت الأمراء على القلعة على ما سنحكيه- إن شاء اللّه تعالى- بعد أن نذكر قتلة أينبك المذكور ألزموا و الى القاهرة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۱۵۸

و مصر بإحضاره فنودى عليه بالقاهرة و مصر و هدّد من أخفاه بانواع النّكال، فخاف كلّ أحد على نفسه من تقريبه، فلم يجد بدّا من طلب الأمان من الأمير يلبغا الناصرىّ الآتى ذكره، فأمّنه بعد مدّة فطلع أينبك اليه فحال وقع بصر القوم عليه قبضوه و أرسلوه مقيّدا إلى سجن الإسكندرية و كان ذلك آخر العهد به، كما سيأتى ذكره بعد استيلاء الأمراء على القلعة. قلت «و كما تدين تدان». و ما من طالم إلّا سيبلى بظالم.

و فى أينبك هذا يقول الأديب شهاب الدين بن العطّار: [المنسرح]

من بعد عزّ قد ذلّ أينبكا و انحطّ بعد السّموّ من فتكا

و راح يبكى الدماء منفردا و الناس لا يعرفون أين بكى

و أمّا الأمراء فإنهم لمّا بلغهم هروب أينبك من قلعة الجبل ركبوا الجميع من قبّة النصر و طلعوا إلى الإسطبل السلطانىّ من القلعة و صار المتحدّث فيهم قطلقتمر العلائى الطويل و ضرب رنكه على إسطبل شيخون بالرملة تجاه باب السلسلة و أقام ذلك اليوم متحدثا، فأشار عليه من عنده من أصحابه أن يسلطن سلطانا كبيرا يرجع الناس إلى أمره و نهيه، فلم يفعله و قال: حتّى يأتى إخواننا، يعنى الأمراء الذين كانوا بالجاليش مع قطلوبغا و هم الذين ذكرناهم فيما تقدّم عند خروج الجاليش و معهم من الأمراء الطبلخانات و العشرات جماعة: منهم برقوق العثمانىّ اليلبغاوىّ و بركة الجوبانىّ اليلبغاوىّ و كان أينبك قد أنعم على كل واحد منهما بإمرة طبلخاناه، بعد واقعة قرطاى دفعة واحدة من الجندية، قبل خروج السفر بأيام قليلة و هذا أوّل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۱۵۹

ظهور برقوق و بركة فى الدّول ثم حضرت الأمراء الذين كانوا بالجاليش إلى الإسطبل السلطانىّ و هم جمع كبير ممّن أنشأه أينبك و غيرهم و تكلّموا فيمن يكون إليه تدبير الملك و اشتوروا فى ذلك فاختلفوا. فى الكلام و ظهر للقادمين الغدر ممّن كان بالإسطبل السلطانىّ ممّن ذكرناه، فقبضوا على جماعة منهم و هم: قطلقتمر العلائىّ الطويل المذكور الذى كان دبّر الأمر لنفسه و ألطنبغا السلطانىّ و مبارك الطازىّ فى آخرين و قيّدوا الجميع و أرسلوا إلى الإسكندرية صحبة جمال الدين عبد اللّه بن بكتمر الحاجب و اتّفقوا على أن يكون المتكلم فى المملكة الأمير يلبغا الناصرىّ، فصار هو المتحدّث فى أحوال الملك و سكن الإسطبل السلطانىّ و أرسل بإحضار الأمير طشتمر العلائىّ الدوادار نائب الشام.

ثم فى يوم الأحد تاسع شهر ربيع الآخر لمّا تزايد الفحص على أينبك حضر أينبك بنفسه إلى عند الأمير بلاط فطلع به بلاط إلى يلبغا الناصرىّ بعد أن أخذ له منه الأمان حسب ما تقدّم ذكره، فلم تطل أيام يلبغا الناصرىّ فى التحدث و ظهر منه لين جنب، فاتّفق برقوق و بركة و هما حينذاك من أمراء الطبلخانات، لهم فيها دون الشهرين مع جماعة أخر و ركبوا فى سادس عشر شهر ربيع الآخر المذكور و ركبت معهم خشداشيّتهم من المماليك اليلبغاوية و مسكوا دمرداش اليوسفىّ و تمرباى الحسنىّ و آقبغا آص الشيخونىّ و قطلوبغا الشعبانىّ و دمرداش التمان تمرىّ المعلّم و أسندمر العثمانىّ و أسنبغا تلكى و قيّدوا و أرسلوا إلى سجن الإسكندرية فسجنوا بها. و قد أضربنا عن أشياء كثيرة من وقائع هذه الأيام لاختلاف نقول الناس فيها، لأنّ غالب من وثب و أثار الفتنة من واقعة الملك الأشرف شعبان إلى هذه الأيام كان فيما قيل فى العام الماضى إمّا جنديا و إمّا أمير

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۱۶۰

عشرة لا يعرف من أحواله إلا القليل و أيضا لم يكن فى هذه الواقعة رجل عظيم له شأن قام بأمر و تبعته الناس، بل كل واقعة من هؤلاء تكون فيها جماعة كبيرة، كلّ منهم يقول: أنا ذاك و لهذا اختلفت النقول. و قد ذكرنا المقصود من ذلك كلّه و ما فيه كفاية. إن شاء اللّه تعالى.

و لنشرع الآن فى سياق ما وقع فى أيام الملك المنصور- إلى أن يتوفّى إلى رحمة اللّه تعالى- فنقول:

ثم فی النهار المذکور (أعنی الیوم الذی مسک فیه الأمراء) قبض أیضا علی الطواشی مختار الحسامیّ مقدّم الممالیک السلطانیة و حبس بالبرج من القلعة ثم أفرج عنه بعد أیام قلائل و أعید إلی تقدمة الممالیک علی عادته. ثم بعد مدّة یسیرة استقرّ برقوق العثمانیّ الیلبغاویّ أمیر آخور کبیرا دفعة واحدة و سکن بالإسطبل السلطانیّ و أنزل معه الأمیر یلبغا الناصریّ و استقرّ الأمیر زین الدین برکة الجوبانی الیلبغاویّ أمیر مجلس. ثم حضر الأمیر طشتمر الدوادار نائب الشام إلی الدیار المصریة بطلب من یلبغا الناصریّ لما کان متحدّثا فی أمور المملکة، فخرج السلطان الملک المنصور و سائر الأمراء لتلقیه إلی الرّیدانیة خارج القاهرة، فلمّا رأی السلطان نزل عن فرسه و قبّل الأرض بین یدیه و بکی و طلع فی خدمة السلطان إلی القلعة و خلع علیه باستقراره أتابک العساکر بالدیار المصریة و حضر مع طشتمر من الشام الأمیر تمربای التمرتاشیّ و الأمیر تغری برمش و سودون الشیخونیّ و کان أینبک قد نقله إلی الشأم و الأمیر طقطمش و نزل طشتمر إلی بیت شیخون بالرّمیلة و سکن به لیحکم بین الناس.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۱۶۱

فلمّا کان فی ثالث جمادی الأولی أمر طشتمر أن ینادی بالقاهرة و مصر «من کان له ظلامة فعلیه بباب المقرّ الأشرف طشتمر العلائیّ».

ثم فی خامس جمادی الأولی المذکور أخلع السلطان علی تمربای التمرداشیّ باستقراره رأس نوبة کبیرا عوضا عن دمرداش الیوسفیّ و خلع علی برقوق العثمانیّ باستمراره علی وظیفة الأمیر آخوریة و علی برکة الجوبانیّ باستمراره فی إمرة مجلس و أنعم علی الأمیر أطلمش الأرغونیّ بتقدمة ألف و استقرّ دوادارا کبیرا و استقرّ یلبغا المنجکیّ شادا لشراب خاناه و رسم للأمیر بلاط أمیر سلاح أن یجلس بالإیوان ثم استقرّ دینار الطواشی الناصریّ لالا السلطان الملک المنصور عوضا عن مقبل الکلبکیّ بحکم نفیه.

و فی سلخ جمادی الآخرة عزل الأمیر آقتمر عبد الغنیّ من نیابة السلطنة بدیار مصر.

ثم استقرّ الأمیر تغری برمش حاجب الحجّاب بالقاهرة و استقرّ أمیر علیّ ابن قشتمر حاجبا ثانیا بإمرة مائة و تقدمة ألف و یقال له: حاجب میسرة.

ثم فی یوم الأحد ثانی شهر رجب توجّه الأمیر أیتمش البجاسیّ إلی الإسکندریة بالإفراج عن جمیع من بها من الأمراء المسجونین خلا أربعة أنفس: أینبک و أخوه قطلوخجا و أسندمر الصّرغتمشی و قیل جرکس الجاولی الرابع و أنّ أینبک کان قتل.

فلما أحضروا الأمراء من الإسکندریة أخرجوا إلی بلاد الشام. ثم ولی الأمیر بیدمر الخوارزمیّ نیابة الشام بعد موت الأمیر آقتمر الصاحبیّ الحنبلیّ و کان آقتمر أحد من نفی من أکابر الأمراء المشایخ.

و أخلع علی مبارک شاه المشطوب بنیابة غزة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۱۶۲

و فی مستهلّ شعبان استقرّ قطلقتمر العلائیّ نائب ثغر الإسکندریة عوضا عن خلیل بن عرّام ثم نفی بیبغا الطویل العلائیّ أحد أمراء الطبلخانات إلی الشام بطّالا. ثم نقل الأمیر منکلی بغا الأحمدیّ البلدیّ من نیابة حماة إلی نیابة طرابلس عوضا عن أرغون الإسعردیّ و نقل أرغون الإسعردیّ إلی نیابة حماة عوضه لأمر اقتضی ذلک و نقل الأمیر آقبغا الجوهریّ حاجب حجّاب طرابلس إلی نیابة غزّة عوضا عن مبارک العلائیّ و نقل مبارک العلائیّ عوضه فی حجوبیّة طرابلس. ثم أخلع علی الأمیر صلاح الدین خلیل بن عرّام المعزول عن نیابة إسکندریة باستقراره وزیرا بالدیار المصریة عوضا عن القاضی کریم الدین بن الرّویهب. و قبض علی ابن الرّویهب و صودر.

و فی شوّال توجّه بلاط أمیر سلاح إلی خیله بالجیزة فأرسل إلیه خلعة بنیابة طرابلس، فأجاب و خرج من القاهرة فرسم له بأن یتوجّه إلی القدس بطّالا و استقرّ عوضه یلبغا الناصریّ أمیر سلاح و أخلع علی إینال الیوسفیّ الیلبغاویّ و استقرّ رأس نوبة ثانیا بتقدمة ألف، عوضا عن یلبغا الناصریّ المذکور. و أخلع علی القاضی بدر الدین محمد ابن القاضی بهاء الدین أبی البقاء السبکیّ الشافعیّ قاضی قضاة الدیار المصریة عوضا عن قاضی القضاة برهان الدین ابن جماعة بحکم توجّهه إلی القدس بحسب سؤاله علی ذلک.

و لمّا صار الأمر للأتابک طشتمر العلائىّ الدوادار أخذ فى تنفيد الأمور على القواعد فعظم ذلک على برقوق و اتّفق مع برکة الجوبانىّ خجداشه و مع جماعة أخر على الرکوب على طشتمر، فلما کان ليلة تاسع ذى الحجة من سنة تسع و سبعين المذکورة رکب برقوق العثمانىّ و خجداشه برکة الجوبانىّ بمن وافقهما من الأمراء و غيرهم و أنزلوا السلطان الملک المنصور بکرة النهار و هو يوم عرفة و دقت الکوسات،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۱۶۳

و قصد برقوق مسک طشتمر الأتابک، فرکبت مماليک طشتمر و خرجوا إليهم و تقاتلوا معهم قتالا عظيما، حتى تکاثر جمع برقوق و برکة و قوى أمرهم فحينئذ انکسرت مماليک طشتمر و أرسل طشتمر يطلب الأمان فأرسل السلطان إليه منديل الأمان، فطلع إلى القلعة فمسک فى الحال هو و الأمير أطلمش الأرغونىّ الدوادار و أمير حاج بن مغلطاى و دوادار الأمير طشتمر المذکور و أرسل الجميع إلى سجن الإسکندرية فاعتقلوا بها.

ثم فى يوم الاثنين ثالث عشر ذى الحجّة استقرّ برقوق العثمانىّ أتابک العساکر بالديار المصرية عوضا عن طشتمر العلائى المقدّم ذکره و استقرّ برکة الجوبانىّ رأس نوبة کبيرا أطابکا - و هذه الوظيفة الآن مفقودة فى زماننا- و سکن برکة فى بيت قوصون تجاه باب (۳) السلسلة و استقرّ الأمير أيتمش البجاسىّ أمير آخور کبيرا بتقدمة ألف عوضا عن برقوق و استقرّ برقوق بسکنه بالإسطبل السلطانىّ و صار هؤلاء الثلاثة هم: نظام الملک و إليهم العقد و الحلّ و برقوق کبيرهم الذى يرجع إليه و المعوّل على الاثنين: برقوق و برکة، حتى لهجت الناس بقولهم: (برقوق و برکة، نصبا على الدنيا شبکة).

ثم بعد يومين مسک الأمير يلبغا الناصرىّ أمير سلاح و أرسل إلى سجن الإسکندريّة و معه الأمير کشلى أحد أمراء الطبلخانات. ثم أخرج يلبغا الناصرىّ بعد مدّة إلى نيابة طرابلس؛ و يلبغا الناصرىّ هذا هو صاحب الوقعة مع برقوق الآتى ذکرها فى سلطنته إن شاء اللّه تعالى.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۱۶۴

ثم فى العشرين من ذى الحجّة خلع على الأمير إينال اليوسفىّ و استقرّ أمير سلاح عوضا عن يلبغا الناصرىّ.

ثم فى مستهل شهر المحرّم سنة ثمانين و سبعمائة أنعم على آقتمر العثمانىّ بتقدمة ألف و استقرّ دوادارا کبيرا عوضا عن أطلمش الأرغونىّ. ثم بعد أيام قبض على صراى تمر نائب صفد و سجن بالکرک و استقرّ عوضه فى نيابة صفد آقبغا الجوهرى نائب غزّة و استقرّ عوضه فى نيابة غزّة مبارک شاه.

ثم فى سادس صفر تولّى کريم الدين عبد الکريم بن مکانس الوزر و الخاصّ معا و وکالة بيت المال و نظر الدواوين. ثم استقرّ برقوق بالأمير منکلى بغا الأحمدىّ البلدىّ نائب طرابلس فى نيابة حلب عوضا عن إشقتمر الماردينىّ بحکم عزله بالقبض عليه بمدينة بلبيس و سجنه بالإسکندرية. و قد قدّمنا أنّ إشقتمر هذا کان ممن ولى الأعمال الجليلة من سلطنة السلطان حسن و برقوق يوم ذاک من صغار مماليک يلبغا العمرىّ. انتهى.

ثمّ أخرج برقوق يلبغا الناصرىّ و ولّاه نيابة طرابلس عوضا عن منکلى بغا الأحمدىّ البلدىّ المنتقل إلى نيابة حلب. ثمّ بعد مدّة يسيرة قبض على منکلى بغا المذکور و اعتقل بقلعة حلب و تولّى حلب عوضه الأمير تمرباى الأفضلىّ التمرداشى.

ثمّ رسم بالإفراج عن إشقتمر الماردينىّ من سجن الإسکندرية و أن يتوجّه إلى القدس بطّالا.

ثم فى هذه الأيام رسم بعزل الأمير بيدمر الخوارزمىّ عن نيابة الشام بالأمير کمشبغا الحموىّ اليلبغاوىّ.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۱۶۵

قلت: و بيدمر هذا أيضا ممّن ولى نيابة طرابلس فى أيام يلبغا العمرىّ و غيرها من الأعمال و حضر بيدمر إلى القاهرة و قبض عليه و اعتقل بسجن الإسکندرية.

ثمّ استقرّ الأمير قرادمرداش الأحمدىّ اليلبغاوىّ أمير مجلس و استقر ألطنبغا الجوبانىّ اليلبغاوىّ رأس نوبة ثانيا بتقدمة ألف و هذه الوظيفة هى الآن وظيفة رأس نوبة النوب و استقر الأمير بزلار العمرىّ الناصرىّ نائب إسكندرية عوضا عن الأمير قطلقتمر بتقدمة ألف و استقر منكلى بغا الطرخانىّ نائب الكرك، عوضا عن تمراز الطازىّ و استقرّ خليل بن عرّام المعزول عن نيابة إسكندرية و عن الوزر و هو يومئذ من جملة أمراء الألوف أستادار بركة الجوبانىّ و هذا شئ لم يسمع بمثله كون أمير مائة و مقدّم ألف يكون أستادارا عند بعض أعيان الأمراء، فهذا شئ عجيب.

ثم استقرّ الأمير بركة الجوبانىّ ناظر الأوقاف الحكمية جميعها و جعل نائبه فى النظر جمال الدين محمود العجمىّ الحنفى.

ثمّ استعفى الأمير تغرى برمش من الإمرة و الحجوبية الكبرى بديار مصر فأعفى، فاستقر عوضه الأمير مأمور القلمطاوىّ اليلبغاوىّ أمير مائة و مقدّم ألف و حاجب الحجاب.

و فى هذه الأيام اتّفق جماعة على قتل الأتابک برقوق العثمانىّ، ففطن بهم فمسک منهم جماعة منهم طشبغا الخاصّكى و آقبغا بشمقدار ألجاى و آقبغا أمير آخور ألجاى فى آخرين تقدير أربعين نفسا، فنفى برقوق بعضهم و حبس البعض، ثمّ مسک

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۱۶۶

برقوق ألطنبغا شادى و جماعة من مماليک ألجاى اليوسفىّ ثمّ أمسک بعد ذلک بمدّة سبعة عشر أميرا و قيّدهم و أرسلهم إلى الإسكندرية.

ثمّ فى حادى عشرين شهر ربيع الأوّل سمّر برقوق آقبغا البشمقدار و معه أحد عشر مملوكا من المماليک السلطانية، و عشرين من مماليک طشتمر الدوادار لكلام صدر منهم فى حق برقوق.

و فى أوّل هذه السنة (أعنى سنة ثمانين) كان الحريق العظيم بديار مصر بظاهر باب زويلة، احترق فيه الفاكهيون و النقليون و البراذعيون و عمل الحريق إلى سور القاهرة، فركب الأمير بركة و الأمير أيتمش و الأمير قرادمرداش الأحمدىّ و جماعة كبيرة من الأمراء و الحكّام، حتى قدروا على طفيه بعد أيام و استمر مواضع الحريق خرابا من أوّل هذه السنة إلى آخرها.

ثمّ فى سادس عشرين ذى القعدة اجتمع الأمراء و القضاة عند الأتابک برقوق و قالوا: إنّ العساكر قلت فى الإسلام و نريد أن نحلّ الأوقاف المحدثة، بعد الملک الناصر محمد بن قلاوون، فمنعهم الشيخ سراج الدين البلقينىّ من ذلک، فلم يسمعوا له و حلّوا أوقاف الناس و جعلوها إقطاعات و فرّقوها.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۱۶۷

و فى مستهل شهر ربيع الآخر من سنة إحدى و ثمانين و سبعمائة طلب اشقتمر الماردينىّ من القدس الى القاهرة، فحضر فى أوّل جمادى الأولى و تولّى نيابة حلب بعد عزل تمرباى الأفضلىّ التّمرداشىّ، و لمّا حضر اشقتمر إلى القاهرة تلقّاه الأتابک برقوق و الأمير بركة الى الحوض التحتانىّ من الريدانية و ترجّلا له عن خيولهما، و أنزله برقوق عنده و خدمه أتمّ خدمة، ثمّ عزل الأمير كمشبغا الحموىّ اليلبغاوىّ عن نيابة دمشق، و تولّى عوضه بيدمر الخوارزمىّ على عادته، و كان بيدمر معتقلا بالإسكندرية.

ثمّ فى أثناء هذه السنة كانت واقعة الأمير إينال اليوسفىّ اليلبغاوىّ مع الأتابک برقوق.

و خبر هذه الواقعة: أنه لمّا كان فى يوم رابع عشرين شعبان ركب الأتابک برقوق من الإسطبل السلطانىّ فى حواشيه و مماليكه للتسيير على عادته، و كان الأمير بركة الجوبانىّ مسافرا بالبحيرة للصيد، فلما بلغ إينال اليوسفىّ أمير سلاح ركوب برقوق من الإسطبل السلطانىّ انتهز الفرصة لركوب برقوق و غيبة بركة، و ركب بمماليكه و هجم الإسطبل السلطانىّ و ملكه و مسک الأمير جركس الخليلىّ، و كان مع إينال المذكور جماعة من الأمراء: منهم سودون جركس المنجكىّ أمير آخور، و الأمير صصلان الجمالىّ، و سودون النّوروزىّ، و جمق الناصرىّ، و قمارى،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۱۶۸

و جماعة أخر، و لما طلع إينال الى باب السلسلة و ملكها أرسل الأمير قمارى لينزل بالسلطان الملك المنصور إلى الإسطبل، فأبى السلطان من نزوله و منعه، ثمّ كبس إينال زردخاناه برقوق و أخرج منها اللّبوس و آلة الحرب، و أخذ مماليك برقوق الذين كانوا وافقوه و ألبسهم السلاح و أوقفهم معه و أوعدهم بمال كبير و إمريات، و بلغ برقوقا الخبر فعاد مسرعا، و جاء الى بيت الامير أيتمش البجاسىّ بالقرب من باب الوزير و ألبس مماليكه هناك، و جاءه جماعة من أصحابه، فطلع بالجميع الى تحت القلعة و واقعوا إينال اليوسفىّ، و أرسل برقوق الأمير قرط فى جماعة الى باب السلسلة الذى من جهة باب المدرّج، فأحرقه، ثمّ تسلّق قرط المذكور من عند باب سرّ قلعة الجبل، و نزل ففتح لأصحابه الباب المتصل الى الإسطبل السلطانىّ، فدخلت أصحاب برقوق منه و قاتلت إينال، و صار برقوق بمن معه يقاتل من الرّميلة فانكسر إينال و نزل الى بيته جريحا من سهم أصابه فى رقبته من بعض مماليك برقوق، و طلع برقوق الى الإسطبل و ملكه و أرسل الى إينال من أحضره، فلمّا حضر قبض عليه و حبسه بالزّردخاناه و قرّره بالليل فأقرّ: أنه ما كان قصده إلّا مسك بركة لا غير.

ثم إنّ برقوق مسك جماعة من الأمراء و غيرهم من أصحاب يتال اليوسفىّ ما خلا سودون النوروزىّ و جمق الناصرىّ و شخصا جنديّا يسمى أزبك و كان يدّعى أنه من أقارب برقوق. ثمّ حمل إينال فى تلك الليلة إلى سجن الإسكندرية

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۱۶۹

و معه سودون جركس. ثم أخذ برقوق فى القبض على مماليك إينال اليوسفىّ، و نودى عليهم بالقاهرة و مصر؛ و فى هذه الواقعة يقول الأديب شهاب الدين أحمد ابن العطار: [الرجز]

ما بال إينال اتى فى مثل هذى الحركه

مع علمه بأنها خالية من بركه

و له أيضا- عفا اللّه عنه: [السريع]

قد ألبس اللّه برقوق المهابة فى نهار الاثنين من نصر و تمكين

و راح إينال مع سودون و انكسرا و كان يوما عسيرا يوم الاثنين

و له عفا اللّه عنه: [الوافر]

بغى إينال و اعتقد الأمانى تساعده فما نال المؤمّل

و مدّ لأخذ برقوق يديه و لم يعلم بأن الخوخ أسفل

ثمّ فى الثامن و العشرين من شعبان حضر الأمير بركة من السّرحة، فركب الأتابك برقوق و تلقّاه من السّحر و أعلمه بما وقع من إينال اليوسفىّ فى حقّه. ثم اتّفقا على طلب الأمير يلبغا الناصرىّ من نيابة طرابلس فحضر و أنعم عليه باقطاع إينال اليوسفىّ و وظيفته إمرة سلاح و كانت وظيفة يلبغا قبل إينال. و تولّى مكانه فى نيابة طرابلس منكلى بغا الأحمدىّ البلدىّ ثم استقر بلّوط الصّيرغتمش فى نيابة الإسكندريّة، بعد عزل بزلار عنها و نفيه إلى الشام بطّالا.

ثمّ نقل حطط من نيابة أبلستين إلى نيابة حماة عوضا عن أرغون الإسعردىّ ثمّ استقر قرط فى نيابة الوجه القبلىّ مضافا إلى أسوان.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۱۷۰

ثمّ أمسك برقوق مثقال الجمالىّ الزّمام و سأله عن ذخائر الملك الأشرف شعبان فأنكر ففرض عليه العقوبة فأقرّ بصندوق داخل الدار السلطانية فأرسله، و معه خادمان فأتى بالصندوق و فيه ثلاثون ألف دينار. ثمّ قرّره فأخرج من قاعة المجدىّ ذخيرة فيها خمسة عشر ألف دينار و برنيّة فيها فصوص، منها فصّ عين هرّ، زنته ستة عشر درهما.

ثمّ بعثه إلى الأمير بركة فعصره فلم يعترف بشىء ثمّ وجدوا عند دادة الملك الاشرف أوراقا فيها دفتر بخط الملك الأشرف: فيه كلّ شىء ادّخره مفصّلا، فوجدوا الذخائر كلّها قد أخذت و لم يتأخر إلا عند طشتمر الدوادار ذخيرة فيها خمسة عشر ألف دينار و علبة

فصوص و علبة لؤلؤ، و ما وجدوا فی ذلک اسم مثقال المذکور فأفرج عنه.

و فی هـذه السـنة وجّه الأمیر برکـة دواداره سودون باشا إلی الحجاز الشـریف لإجراء الماء الی عرفـة، و کان فی أوائل هـذه السـنة برز المرسوم الشریف بأن یعمل علی قنطرة فم الخور التی عند موردة الجبس سلسلة تمنع المراکب من الدخول إلی الخلیج

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ١١، ص: ١٧١

و إلی برکة الرطلی، فعمل شعراء العصر فی ذلک أبیاتا، منها قول بدر الدین ابن الشامیّة أحد صوفیة الخانقاة الرّکنیة بیبرس: [البسیط]

یا سادة فعلهم جمیل و ما لهم فی الوری و حاشه

سلسلتم البحر لا لذنب و ارسلتموا للحجاز باشه

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ١١، ص: ١٧٢

قلت: لم تصـح التوریـة معه فی قوله: باشه، لعدم معرفته باللغة الترکیة، لأن اسم باشا بالتفخیم و الألف و باشه مرقّقة و فی آخرها هاء و بینهما بون فی اللفظ، و کثیر مثل هـذا یقع للشـعراء من أولاد العرب، فیأخـذون المعانی الصالحـة فیجعلونها هجوا مثل لفظـة نکریش و غیرها، لأن نکریش باللغـة العجمیـة معناه: «جیـد اللحیة»، فاسـتعملوها الشـعراء فی باب الهجو و کثیر مثل هذا. و قد أوضـحنا ذلک فی مصنف بیّنا فیه تحاریف أولاد العرب فی الأسماء الترکیة و غیرها. و قال الأدیب عبد العال البغدادیّ فی المعنی: [مخلّع البسیط]

أطلقت دمعی علی خلیج مذ سلسلوه فصار یقفل

من رام من دهرنا عجیبا فلینظر المطلق المسلسل

[مخلّع البسیط] و قال غیره:

قد أطلقوا البحر من فسوق مذ سلسلوا منه خیر جدول

ورق قلب الهوی علیه فجذا نهره المسلسل

و فی هذه السنة کانت بالدیار المصریة واقعة غریبة من کلام الحائط، و خبره:

أن فی أوائل شـهر رجب من هذه السـنة ظهر کلام شـخص من حائط فی بیت العدل شـهاب الدین [أحمد] الفیشیّ الحنفیّ بالقرب من الجامع الأزهر، فصار کلّ من

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ١١، ص: ١٧٣

یـأتی الی الحائط المـذکور و یسأله عن شـیء یردّ علیه الجواب و یکلّمه بکلاـم فصـیح، فجاءته النـاس أفواجـا و تردّدت الی الحائط المـذکور أکابر الدولـة و تکلّموا معه و افتتن الناس بـذلک المکان و ترکوا معایشـهم و ازدحموا علی الـدار المـذکورة و أکثر أرباب العقول الفحص عن ذلـک، فلم یقفوا له علی خـبر، و تحیّر النـاس فی هـذا الأـمر العجیب، إلی أن حضـر الی البیت المـذکور القاضـی جمال الدین محمود القیصریّ العجمیّ محتسب القاهرة و فحص عن أمره بکلّ ما یمکن القدرة الیه، حتّی إنه أخرب بعض الحائط فلم یؤثّر ذلک شیئا و استمرّ الکلام فی کلّ یوم الی ثالث شـعبان، و قـد کادت العامّة أن تتعبد بالمکان المذکور. و أکثروا من قولهم: «یا سلاـم سـلّم، الحیطـة بتتکلّم» و خـاف أهل الدولـة من إفساد الحال و قـد أعیاهم أمر ذلک، حتّی ظهر أنّ الـذی کان یتکلّم هی زوجة صاحب المنزل، فأعلم بذلک الأتابک برقوق، فاسـتدعی بها مع زوجها فحضـرا فأنکرت المرأة فضـربها فأقرّت، فأمر بتسمیرها و تسمیر شخص آخر معها یسـمی «عمر» و هو الذی کان یجمع الناس إلیها، بعد أن ضـرب برقوق الزوج و عمر المذکور بالمقارع و طیف بهما فی مصر و القاهرة ثم أفرج عنهم، بعد أن حبسوا مدّة، و فی ذلک یقول الشیخ شهاب الدین بن العطار:

[البسیط]

یا ناطقا من جدار و هو لیس یری اظهر و إلّا فهذا الفعل فتّان

فما سمعنا و للحیطان ألسنة و إنّما قیل للحیطان آذان

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۱۷۴

و قال غيره: [البسيط]

قد حار فی منزل الفيشی الوری عجبا بناطق من جدار ظل مبديه

و كلّهم فی حديد بارد ضربوا و صاحب البيت أدری بالذی فيه

و فی هذه السنة أمر الأمير بركة بنقل الكلاب و قرّر علی كلّ أمير شيئا معيّنا و علی أصحاب الدكاكين علی كلّ صاحب دكّان كلبا، فتتّبع الناس الكلاب حتی أبيع كلّ كلب بدرهم فأخذ بركة جميع الكلاب و نفاها إلی برّ الجيزة.

و فی يوم الأربعاء سابع صفر من سنة اثنتين و ثمانين و سبعمائة كان ابتداء الفتنة بين الأتابک برقوق و بين خجداشه بركة الجوبانیّ و هو أن بركة أرسل يقول إلی برقوق فی اليوم المذكور: إن أيتمش البجاسیّ لابس آلة الحرب هو و مماليكه بإسطبله فأرسل برقوق إلی أيتمش فی الحال فلم يجد الأمر صحيحا. ثم طلع أيتمش إلی برقوق و أقام عنده و تردّدت الرسل بين برقوق و بركة، و الذی كان الرسول بينهما العلّامة أكمل الدّين شيخ الشيوخ بالشيخونية، أراد بذلک إخماد الفتنة و الشيخ أمين الدين الحلوانیّ و لا زالا بهما حتی أوقع الصلح بينهما و رضی بركة علی أيتمش البجاسیّ و خلع عليه قباء «نخّ» عند نزوله إليه بأمر برقوق صحبة الشيخين المذكورين.

ثم فسد ما بينهما أيضا بعد اثنی عشر يوما فی ليلة الجمعة تاسع عشر صفر و بات تلک الليلة كلّ أمير من أمراء مصر ملبسا بمماليكه فی إسطبله، و سببه: أن بركة أراد أن يمسک جماعة من الأمراء، ممّن هو من ألزام برقوق فأصبح نهار الجمعة و الأمراء لابسون السلاح و لمّا وقع ذلک، طلب برقوق القضاة إلی القلعة ليرشّد السلطان الملک المنصور و قال لهم: نرشّد السلطان فيتكلم فی أمور مملكته و أنكفّ أنا و غيری من التّكلّم و أنا مملوک من جملة مماليک السلطان، فتكلّم القضاة بينه و بين

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۱۷۵

الأمير بركة و تردّدوا فی الرّسلية غير مرّة إلی أن أذعن كلّ منهما إلی الصلح و تحالفا علی ذلک و اصطلحا و أصبحت الأمراء من الغد ركبوا إلی الميدان و لعبوا بالكرة و خلع بركة علی أيتمش ثانيا. و استقرّ الصلح و خلع برقوق علی القضاة الأربعة و التزم بركة أنه لا يتحدّث فی شیء من أمور المملكة البتة.

و استمرّ الأمراء علی ذلک إلی يوم الاثنين سابع شهر ربيع الأوّل ركبت الأمراء و سيّروا بناحية قبّة النصر و رجعوا و طلع برقوق إلی الإسطبل السلطانیّ، حيث سكنه، و ذهب بركة إلی بيته و كان برقوق قد ولد له ولد ذكر و عمل سماطا للناس و طلع إليه الأمير صرای الرّجبیّ الطويل و كان من إخوة بركة و قال لبرقوق: إن بركة و حاشيته قد اتّفقوا علی قتلک إذا دخلت يوم الجمعة إلی الصلاة هجموا عليک و قتلوک فبقی برقوق متفكّرا فی ذلک متحيّرا لا يشکّ فيما أخبره صرای لصحبته مع بركة و بينما برقوق فی ذلک إذ طلع إليه الأمير قرادمرداش الأحمدیّ اليلبغاویّ أمير مجلس و طبج المحمدیّ و آقتمر العثمانیّ الدّوادار الكبير. و هم من أعيان أصحاب بركة و هنّئوه بالولد و أكلوا السّماط، فلمّا فرغوا طلب برقوق الأمير جركس الخليلیّ و يونس الدّوادار و أمرهما بمسک هؤلاء الثلاثة و من معهم، فمسكوا فی الحال. ثم أمر برقوق حواشيه بلبس السلاح فلبسوا و نزل بزلار الناصریّ من وقته غارة إلی مدرسة السلطان حسن مع مماليكه و طلع إليها و أغلق بابها و صعد إلی سطحها و مآذنها و رمی بالنّشّاب علی بركة فی إسطبله الملاصق للمدرسة المذكورة و هو بيت قوصون تجاه باب السلسلة، فلمّا رأی بركة ذلک أمر مماليكه و أصحابه بلبس السلاح، فلبسوا و نادی برقوق فی الحال للعامّة تنهب بيت بركة، فتجمّعوا فی الحال و أحرقوا بابه و لم يتمكن بركة من قتالهم من عظم الرمی عليه من أعلی سطوح المدرسة، فخرج من بابه الذی

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۱۷۶

بالشارع الأعظم المتّصل إلی صليبة ابن طولون و خرج معه سائر أصحابه و مماليكه و ترک ماله بالبيت و دخل من باب زويلة و أخذ و الی القاهرة معه إلی باب الفتوح، ففتحه له فإنه كان أغلق عند قيام الفتنة مع جملة أبواب القاهرة و سار بركة بمن معه من الأمراء و

المماليك إلى قبّة النصر، خارج القاهرة فأقام بها ذلك اليوم فى مخيّمه ثم أخرج طائفة من عساكره إلى جهة القلعة فتوجّهوا يريدون القلعة فندب برقوق لقتالهم جماعة من أصحابه، فنزلوا إليهم و قاتلوهم قتالا شديدا، قتل فيه من كلّ طائفة جماعة. ثم رجعت كلّ طائفة إلى أميرها و باتوا تلك الليلة.

فلمّا أصبح نهار الثلاثاء ثامن شهر ربيع الأوّل من سنة اثنتين و ثمانين و سبعمائة، ندب برقوق لقتال بركة الأمير علّان الشعبانىّ و أيتمش البجاسىّ و قرط الكاشف فى جماعة كبيرة من الأمراء و المماليك و توجّهوا إلى قبّة النصر فبرز لهم من أصحاب بركة الأمير يلبغا الناصرىّ أمير سلاح بجماعة كبيرة و التقوا و تصادموا صدمة هائلة انكسر فيها يلبغا الناصرىّ بمن معه و انهزم إلى جهة قبة النصر، فلمّا رأى الأمير بركة انهزام عسكره ركب بنفسه و صدمهم صدمة صادقة و كان من الشّجعان كسرهم فيها أقبح كسرة و تتّبعهم إلى داخل التّرب، ثم عاد إلى مخيّمه و طلع أصحاب برقوق إلى باب السلسلة فى حالة غير مرضية و باتوا تلك الليلة، فلمّا أصبح نهار الأربعاء تاسع شهر ربيع الأوّل المذكور، أنزل برقوق السلطان الملك المنصور إلى عنده بالإسطبل السلطانىّ، و نادى للمماليك السلطانية بالحضور، فحضروا فأخرج جماعة كبيرة من الأمراء و معهم المماليك السلطانية و ندبهم لقتال بركة و دقّت الكوسات بقلعة الجبل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۱۷۷

حربية، هذا و قد جهّز بركة أيضا جماعة كبيرة أيضا من أصحابه، لملتقى من ندبه برقوق لقتاله، و سار كلّ من الفريقين إلى الآخر حتّى تواجها على بعد، فلم يتقدّم أحد من العسكرين إلى غريمه، فلما كان بعد الظهر بعث الأمير بركة أمير آخر سيف الدين طغاى يقول لبرقوق: ما هذا العمل! هكذا كان الاتفاق بيننا؟ فقال برقوق: هكذا وقع، قل لأستاذك يتوجه نائبا فى أىّ بلد شاء، فرجع أمير آخوره بركة له بهذا القول، فلم يوافق بركة على خروجه من مصر أصلا، فلما أيس منه أمير آخوره قال له: إن كان و لا بدّ فهذا الوقت وقت القيلولة و الناس مقيّلة، فهذا وقتك، فركب بركة بأصحابه و مماليكه من وقته و ساقوا فرقتين: فرقة من الطريق المعتادة، و فرقة من طريق الجبل. و كان بركة فى الفرقة التى بطريق الجبل؛ و بلغ برقوقا ذلك فأرسل الأمراء و المماليك فى الوقت لملتقاه، فلمّا أقبل بركة هرب أكثر عساكر برقوق و لم يثبت إلّا الأمير علّان الشعبانىّ فى نحو مائة مملوك، و التى مع بركة. و كان يلبغا الناصرىّ بمن معه من أصحاب بركة توجّه من الطريق المعتادة، فآلتقاه أيتمش البجاسىّ بجماعة و كسره و ضربه بالطّبر و أخذ جاليشه و طبلخاناته و رجع مكسورا بعد أن وقع بينهم وقعة هائلة جرح فيها من الطائفتين خلائق.

و أمّا بركة فإنه لما التقى مع علّان صدم علان صدمة تقنطر فيها عن فرسه و ركب غيره، فلمّا تقنطر انهزم عنه أصحابه، فصار فى قلّة فثبت ساعة جيّدة ثم انكسر و انهزم إلى جهة قبّة النصر، و أقام به إلى نصف الليل فلم يجسر أحد من البرقوقية على التوجّه إليه و أخذه.

فلمّا كانت نصف ليلة الخميس المذكورة رأى بركة أصحابه فى قلّة و قد خلّ عنه أكثر مماليكه و حواشيه و هرب من قبّة النصر هو و الأمير آقبغا صيوان إلى جامع

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۱۷۸

المقسىّ خارج القاهرة فغمز عليه فى مكانه فمسك هو و آقبغا المذكور من هناك و طلع بهما إلى برقوق و تتبع برقوق أصحاب بركة و مماليكه فمسك منه جماعة كبيرة حسب ما يأتى ذكره مع من مسك مع بركة من الأمراء و بقيت القاهرة ثلاثة أيام مغلقة و الناس فى وجل بسبب الفتنة فنادى برقوق عند ذلك بالأمان و الاطمئنان.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۱۷۹

و فى واقعة بركة يقول طاهر بن حبيب: [الرجز]

يا لؤمها من حالة و شؤمها من حركه

و قبحها من فتنة فيها زوال بركه

و عظم كسرة بركة و مسكه على الناس، لأنه كان محبّبا للرعيّة و فيه كرم و حشمة و كان أكثر ميل الناس إليه.

و لمّا كان عشيّة ليلة الخميس المذكورة أخذ برقوق خجداشه بركة و قيّده و أرسله إلى سجن الإسكندرية فحبس به صحبة الأمير قردم الحسنىّ و معه جماعة فى القيود من أصحابه الأمراء و هم: الأمير قرادمرداش الأحمدىّ أمير مجلس المقبوض عليه قبل واقعة بركة و آقتمر العثمانىّ الدوادار و أمير آخر.

ثم أخذ برقوق فى القبض على الأمراء من أصحاب بركة، فمسك جماعة كبيرة و هم: أيدمر الخطائىّ و خضر (بضم الخاء المعجمة و فتح الضاد المعجمة وراء ساكنة) و قراكسك و أمير حاج بن مغلطاى و سودون باشا و يلبغا المنجكىّ و قرابلاط و قرابغا الأبوبكرىّ و تمربغا السيفىّ تمرباى و إلياس الماجرىّ و تمربغا الشمسىّ و يوسف ابن شادى و قطلبك النظامىّ و آقبغا صيوان الصالحىّ و كزل القرمىّ و طولو تمر الأحمدىّ و طوجى الحسينىّ و تنكر العثمانى و قطلوبغا السيفىّ و غريب الأشرفىّ و كمجىّ و ألطنبغا الأرغونىّ و يلبغا الناصرىّ رفيق منطاش الآتى ذكرهما و أطلمش الطازىّ و تمرقيا.

فأرسل منهم برقوق فى ليلة الأحد ثانى عشر ربيع الأوّل جماعة إلى الإسكندرية صحبة الأمير سودون الشيخونىّ و هم: يلبغا الناصرىّ و هو أكبر الجماعة

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۱۸۰

و طبج المحمدىّ و يلبغا المنجكىّ و أطلمش الطازىّ و قرابلاط و تمرقيا السيفىّ تمربغا و إلياس و قرابغا.

ثم عرض برقوق مماليك بركة فأخذ أكابرهم فى خدمته، و كذلك فعل بمماليك يلبغا الناصرىّ، ثم أمسك أرسلان الأشرفىّ دوادار بركة. ثم أفرج برقوق عن ستة أمراء ممن أمسكهم.

ثم أنعم برقوق على جماعة من أصحابه بتقادم ألوف فأنعم على ولده محمد بن برقوق بإقطاع بركة بتمامه و كماله، ثم أنعم على أربعة أخر بتقادم ألوف و هم: جركس الخليلىّ و بزلار العمرىّ الناصرىّ و ألطنبغا المعلّم و آلابغا العثمانىّ و أنعم على أطلمش الطازىّ أحد أصحاب بركة بإمرة طبلخاناة بالشام.

ثم فى يوم الخميس ثامن شهر ربيع الأوّل المذكور أنعم على جماعة بإمرة طبلخانات، و هم: آقبغا الناصرىّ و تنكزبغا السيفىّ؟؟ و فارس الصرغتمشىّ و كمشبغا الأشرفىّ الخاصّكى و قطلوبغا السيفىّ كوكاى و تمربغا المنجكىّ و سودون باق السّيفىّ تمرباى و إياس الصرغتمشىّ و على جماعة بإمرة عشرات و هم: قوصون الأشرفىّ و بيبرس التمان تمرىّ و طغا الكريمىّ و بيرم العلائىّ و آقبغا اللّاجينىّ.

ثم فى حادى عشرين شهر ربيع الأوّل المذكور أخلع برقوق على جماعة من الأمراء بوظائف، فاستقرّ أيتمش البجاسىّ رأس نوبة كبيرا أطابكا عوضا عن بركة- و هذه الوظيفة بطلت من أيام الملك الناصر فرج- و استقرّ علّان الشعبانىّ أمير سلاح عوضا عن يلبغا الناصرىّ و استقرّ ألطنبغا الجوبانىّ أمير مجلس عوضا عن قرادمرداش الأحمدىّ و استقرّ آلابغا العثمانىّ دوادارا عوضا عن آقتمر العثمانىّ و استقرّ ألطنبغا المعلّم رأس نوبة ثانى بتقدمة ألف (أعنى رأس نوبة النّوب) و استقرّ جركس الخليلىّ أمير آخور كبيرا و استقرّ قرابغا الأبوبكرى حاجبا و استقرّ

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۱۸۱

بجمان المحمدىّ من جملة رءوس النوب و استقرّ كمشبغا الأشرفىّ الخاصّكى شادّ الشراب خاناه.

و فى ثانى عشرينه استقرّ الأمير صلاح الدين خليل بن عرّام نائب إسكندرية عوضا عن بلّوط الصرغتمشىّ فتوجّه ابن عرّام إلى الإسكندرية ثم عاد إلى القاهرة، بعد مدّة يسيرة و شكا من الأمير بركة، فأوصاه برقوق به فى الظاهر و سيّره إلى الإسكندرية ثانيا.

ثم أمسك برقوق الأمير بيدمر الخوارزمىّ نائب الشام و أمسك معه جماعة من أصحابه من الأمراء و كان بيدمر من حزب بركة و خرج عن طاعة برقوق فولّى برقوق عوضه الأمير اشقتمر المارديني نائب حلب.

و تولّی نیابة حلب بعد اشقتمر منکلی بغا الأحمدیّ البلدیّ نائب طرابلس.

ثم فی آخر جمادی الأولی أفرج برقوق عن جماعة الأمراء المسجونین بثغر الإسکندریة ما خلا أربعة أنفس، و هم: برکة و یلبغا الناصریّ و قرادمرداش الأحمدیّ و بیدمر الخوارزمیّ نائب الشام و حضرت البقیّة إلی القاهرة فأخرج بعضهم إلی الشام و نفی بعضهم إلی قوص.

ثم فی شعبان باست الأمراء الأرض للسلطان الملک المنصور علیّ و سألوه الإفراج عن المسجونین بالإسکندریة و ذلک بتدبیر برقوق فرسم السلطان بالإفراج عنهم و هم: بیدمر الخوارزمیّ و یلبغا الناصریّ و قرادمرداش الأحمدیّ و لم یبق بسجن الإسکندریة ممّن مسک من الأعیان فی واقعة برکة غیر برکة المذکور و مات فی شهر رجب علی ما یأتی ذکره، بعد أن نحکی قدوم آنص والد الأتابک برقوق من

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۱۸۲

بلاد الجرکس و لمّا حضر الأمراء إلی مصر أخرج یلبغا الناصریّ إلی دمشق علی إمرة مائة و تقدمة ألف بها و قرّادمرداش إلی حلب علی تقدمة ألف أیضا بها و توجّه بیدمر الخوارزمیّ إلی ثغر دمیاط بطّالا.

ثم رسم برقوق بالإفراج عن الأمیر إینال الیوسفیّ صاحب الواقعة مع برقوق المقدّم ذکرها من سجن الإسکندریة و استقرّ فی نیابة طرابلس. ثم استقرّ کمشبغا الحمویّ الیلبغاوی فی نیابة صفد عوضا عن تمربای الأفضلیّ التّمرداشیّ مدّة یسیرة و نقل إلی نیابة طرابلس بحکم انتقال إینال الیوسفیّ إلی نیابة حلب بعد وفاة منکلی بغا الأحمدیّ البلدیّ.

ثم فی ذی الحجّة من السنة وصل الخبر بوصول الأمیر آنص الجرکسیّ والد الأمیر الکبیر برقوق العثمانیّ صحبة تاجر برقوق الخواجا عثمان بن مسافر، فخرج برقوق بجمیع الأمراء إلی لقائه فی یوم الثلاثاء ثامن ذی الحجة سنة اثنتین و ثمانین و سبعمائة المذکورة، فسافر برقوق إلی العکرشة. قال قاضی القضاة بدر الدین محمود العینیّ الحنفیّ: و هو المکان الذی التقی به یوسف الصّدّیق أباه یعقوب علیهما السلام علی ما قیل.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۱۸۳

و کان قد هیّأ له ولده الأتابک برقوق الإقامات و الخیم و الأسمطة و التقی برقوق مع والده فحال وقع بصر آنص علی ولده برقوق مدّ له یده فأخذها برقوق و قبلها و وضعها علی رأسه ثم سلّم علیه أکابر أمراء مصر علی مراتبهم و أقعد آنص والد برقوق فی صدر المخیّم و قعد الأمیر آقتمر عبد الغنیّ النائب من جانب و الأمیر أیدمر الشمسیّ من جانب آخر و جلس برقوق تحت أیدمر و هو یوم ذاک مرشّح للسلطنة، فانظر إلی تلک الآداب و القواعد السالفة. و لمّا استقرّ بهم الجلوس أخذ آنص یخاطب برقوقا ولده باسمه من غیر تحشم، کما یخاطب الوالد ولده علی قاعة الجراکسة، و القاعدة عندهم: أنّ الولد و الخدیم عندهم سواء، و کان الملتقی بالعکرشة و النزول بالمخیّم بالخانقاه، فإنهم لمّا تلاقوا ساروا علی ظهر إلی خانقاه سریاقوس و حضر مع الأمیر آنص جماعة کبیرة من أقاربه و أولاده إخوة الأتابک برقوق خوند الکبری و الصّغری أمّ بیبرس الأتابک و غیرهما.

ثم مدّت الأسمطة من المآکل و المشارب و الحلاوات و غیرها و دام برقوق و الأمراء بخانقاة سریاقوس إلی ظهر الیوم المذکور ثم رکبوا الجمیع و عادوا إلی جهة الدیار المصریّة و الموکب لآنص والد برقوق و أکابر الأمراء عن یمینه و شماله و تحته فرس بسرج ذهب و کنبوش زرکش بذهب هائل قد تناهوا فی عملهما و سار الجمیع حتّی دخلوا إلی القاهرة و اجتازوا بها و قد أوقدت لهم الشموع و القنادیل فتحیّر والد برقوق ممّا رأی و کان جرکسیّا جنسه «کسا» لا یعرف باللغة الترکیة شیئا، لأن الکسا بالبعد عن بلاد التّتار و طلع والد برقوق مع ابنه إلی القلعة و صار هو المشار إلیه علی ما سنذکره.

و أمّا أمر برکة فإنه لمّا کان شهر رجب من هذه السنة ورد الخبر من لأمه صلاح الدین خلیل بن عرّام نائب الإسکندریة بموت الأمیر زین الدین برکه

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۱۸۴

الجوبانیّ الیلبغاویّ المقدّم ذکره بسجن الإسکندریة، فلمّا بلغ الأتابک برقوقا ذلک عظم علیه فی الظاهر- و اللّه سبحانه و تعالی متولی السرائر- و بعث بالأمیر یونس النّوروزیّ الدّوادار بالإسکندریة لکشف خبر الأمیر برکة و کیف کانت وفاته فتوجّه یونس إلی الإسکندریة، ثم عاد إلی مصر و معه ابن عرّام المذکور نائب الإسکندریة و أخبر برقوقا بأنّ الأمر صحیح و أنه کشف عن موته و أخرجه من قبره فوجد به ضربات: إحداها فی رأسه و أنه مدفون بثیابه من غیر کفن و أنّ یونس أخرجه و غسّله و کفّنه و دفنه و صلّی علیه خارج باب رشید و بنی علیه تربة و أن الأمیر صلاح الدین خلیل بن عرّام هو الذی قتله، فحبس برقوق ابن عرّام بخزانة شمائل. ثم عصره و سأله عن فصوص خلّاها برکة عنده فأنکرها و أنکر أنه ما رآها.

فلمّا کان یوم الخمیس خامس عشرین شهر رجب المذکور طلع الأمراء الخدمة علی العادة و طلب ابن عرّام من خزانة شمائل فطلعوا به إلی القلعة علی حمار فرسم برقوق بتسمیره، فخرج الأمیر مأمور القلمطاوی حاجب الحجّاب و جلس بباب القلّة هو و أمیر جاندار و طلب ابن عرّام بعد خدمة الإیوان فعرّی و ضرب بالمقارع ستة و ثمانین شیبا ثم سمّر علی جمل بلعبة تسمیر عطب و أنزل من القلعة إلی سوق الخیل بالرّمیلة بعد نزول الأمراء و أوقفوه تجاه الإسطبل السلطانیّ ساعة فنزل إلیه جماعة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۱۸۵

من ممالیک برکة و ضربوه بالسیوف و الدّبابیس حتی هبّروه و قطّعوه قطعا عدیدة ثم إنّ بعضهم قطع أذنه و جعل یعضّها صفة الأکل و أخذ آخر رجله و آخر قطع رأسه و علّقها بباب زویلة و بقیت قطع منه مرمیّة بسوق الخیل، و ذکر أن بعض ممالیک برکة أخذ من لحمه قطعة شواها. و اللّه أعلم بصحة ذلک.

ثم جمع ابن عرّام بعد ذلک و دفن بمدرسته خارج القاهرة عند جامع أمیر حسین بن جندر بحکر جوهر النوبیّ و قد صار أمر ابن عرّام المذکور فی أفواه

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۱۸۶

العامّة مثلا یقولون: خمول ابن عرام و کان ابن عرام المذکور أمیرا جلیلا فاضلا تنقّل فی الولایات و الوظائف و کان له ید طولی فی التاریخ و الأدب و له مصنفات مفیدة و تاریخ کبیر فیه فوائد و ملح و فی هذا المعنی یقول الأدیب شهاب الدین أحمد ابن العطار: [البسیط]

أ یا بن عرّام قد سمّرت مشتهرا و صار ذلک مکتوبا و محسوبا

ما زلت تجهد فی التاریخ تکتبه حتّی رأیناک فی التاریخ مکتوبا

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة؛ ج ۱۱؛ ص۱۸۶

فیه یقول أیضا: [الوافر]

بدت أجزا ابن عرّام خلیل مقطّعة من الضرب الثقیل

و أبدت أبحر الشعر المراثی محرّرة بتقطیع الخلیل

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۱۸۷

حدّثنی الزینی فیروز الطواشیّ الرومیّ العرّامیّ و کان ثقة صاحب فضل و معرفة و دین أن أستاذه صلاح الدین خلیل بن عرّام المذکور کان ملیح الشکل فصیح العبارة بلغات عدیدة مع فضیلة تامّة و معرفة بالأمور و سیاسة حسنة و تولّی نیابة ثغر الإسکندریة غیر مرة سنین طویلة و تولّی الوزر بالدیار المصریة و تنقّل فی عدّة وظائف أخر، قال: و کان من رجال الدهر و کان محبّا فی الفقهاء و الفقراء و أرباب الصلاح. انتهی.

و قال غیره: کان بشّره الشیخ یحیی الصنافیریّ و الشیخ المعتقد نهار أنه یموت مقتولا بالسیف مسمّرا، و فی معنی ما قاله الشیخ نهار

المذكور يقول الشيخ الشهاب ابن العطار المقدّم ذكره: [السريع]

وعد ابن عزّام قديم بما قد نال من شيخ رفيع المنار

يا ليلة بالسّجن أبدت له ما قاله الشيخ نهار جهار

و قال العينىّ- رحمه اللّه-: و ذكر القاضى تاج الدين بن المليجىّ شاهد الخاصّ الشريف أنّه طلع إلى القلعة و هم يسمّرون ابن عزّام فقعد إلى أن تخفّ الناس، فلمّا فرغوا من تسميره، جازوا به عليه فسمعه و هو يقول فى تلك الحالة و ينشد أبيات أبى بكر الشّبلىّ و هى قوله: [الخفيف]

لك قلبى تعلّه فدمى لم؟؟

قال إن كنت قاهرا فلى؟؟ كلّه

انتهى. و قد خرجنا عن المقصود و أطلنا الكلام فى قصّة بركة و ابن عزّام على سبيل الاستطراد و لنرجع لما كنّا فيه.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١١، ص: ١٨٨

و أما برقوق فإنه استمرّ على حاله كما كان قبل مسك بركة و قتله و إليه حلّ المملكة و عقدها و لم يجسر على السلطنة، و بينما هو فى ذلك مرض السلطان الملك المنصور علىّ و لزم الفراش، حتى مات بين الظهر و العصر من يوم الأحد ثالث عشرين صفر سنة ثلاث و ثمانين و سبعمائة و دفن من ليلته بعد عشاء الآخرة فى تربة جدّته لأبيه خوند بركة بالقبّة التى بمدرستها بالتبانة. و كان الذى تولّى تجهيزه و تغسيله و دفنه الأمير قطلوبغا الكوكائىّ. و كانت مدّة سلطنته على ديار مصر خمس سنين و ثلاثة أشهر و عشرين يوما. و مات و عمره اثنتا عشرة سنة و لم يكن له فى سلطنته سوى مجرّد الاسم فقط. و إنما كان أمر المملكة فى أيام سلطنته إلى قرطاى أوّلا ثم إلى برقوق آخرا، و هو كالآلة معهم لصغر سنه و لغلبتهم على الملك. و تسلطن من بعده أخوه أمير حاج ابن الملك الأشرف شعبان بن حسين و لم يقدر برقوق- مع ما كان عليه من العظمة- أن يتسلطن. و كان الملك المنصور علىّ مليح الشكل حسن الوجه، حشيما كثير الأدب واسع النفس كريما. رحمه اللّه تعالى.

[ما وقع من الحوادث سنة ٧٧٩]

السنة الأولى من سلطنة الملك المنصور على ابن الملك الأشرف شعبان على مصر و هى سنة تسع و سبعين و سبعمائة، على أنه تسلطن فى الثامن من ذى القعدة من السنة الخالية.

فيها. (أعنى سنة تسع و سبعين و سبعمائة) كانت واقعة قرطاى الطازىّ مع صهره أينبك البدرىّ و قتل قرطاى. ثم بعد مدّة قتل أينبك أيضا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١١، ص: ١٨٩

و فيها كان ظهور برقوق و بركة، و ابتداء أمرهما حسب ما ذكرنا ذلك كلّه فى أصل ترجمة الملك المنصور هذا.

و فيها توفّى الشيخ الإمام العلّامة شهاب الدين أبو جعفر أحمد بن يوسف بن مالك الرّعينىّ الغرناطىّ المالكىّ بحلب عن سبعين سنة و كان إليه المنتهى فى علم النحو و البديع و التصريف و العروض و له مشاركة فى فنون كثيرة و مصنفات جيدة و كان له نظم و نثر. و من شعره ما كتبه على ألفية الشيخ يحيى: [البسيط]

يا طالب النحو ذا اجتهاد تسمو به فى الورى و تحيا

إن شئت نيل المراد فاقصد أرجوزة للإمام يحيى

و توفّى الشيخ الإمام بدر الدين حسن بن زين الدين عمر بن الحسن بن عمر بن حبيب الحلبىّ الشافعى بحلب عن سبعين سنة و كان باشر كتابة الحكم و كتابة الإنشاء و غير ذلك من الوظائف الدّينية و كان إمام عصره فى صناعتى الإنشاء و الشروط و له تصانيف

مفيدة منها: «تاريخ دولة الترك» أنهاه إلى سنة سبع و سبعين و سبعمائة و ذيّل عليه ولده أبو العزّ طاهر و قال: [البسيط]

ما زلت تولع بالتاريخ تكتبه حتّى رأيناك فى التاريخ مكتوبا

قلت: و أكثر الناس من نظم هذا المعنى الركيك البارد فى حقّ عدّة كثيرة من المؤرّخين، و تزاحموا على هذا المعنى المطروق. انتهى.

قلت: و كان له نظم كثير و نثر و تاريخه مرجّز و هو قليل الفائدة و الضبط و لذلك لم أنقل عنه إلّا نادرا، فإنه كان إذا لم تعجبه القافية سكت عن المراد.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١١، ص: ١٩٠

و ليس هذا مذهبى فى التاريخ. و من شعر الشيخ بدر الدين حسن هذا- رحمه اللّه تعالى-: [السريع]

الورد و النّرجس مذ عاينا نيلوفرا يلزم أنهاره

شمّر ذا للخوض عن ساقه و فكّ ذا للعوم أزراره

و له فى مليح يدعى موسى: [الرجز]

لما بدا كالبدر قال عاذلى من ذا الذى قد فاق عن شمس الضّحا

فقلت موسى و استفق فإنه أهون شىء عنده حلق اللّحى

و له عفا اللّه تعالى عنه: [الرجز]

يا أيها الساهون عن أخراكم إنّ الهدايا فيكم لا تعرف

المال بالميزان يصرف عندكم و العمر بينكم جزابا يصرف

و له قصيدة على رويّ قصيدة كمال الدين علىّ بن النّبيه، قد أثبتناها فى ترجمته فى المنهل الصافى، أوّلها: [البسيط]

جوانجى للقا الأحباب قد جنحت و عاديات غرامى نحوهم جنحت

و توفّى الأمير سيف الدين قطلقتمر بن عبد اللّه العلائىّ صاحب الواقعة مع الأمير أينبك البدرىّ و غيره و هو ممن قام على الملك الأشرف شعبان و أخذ تقدمة ألف بالديار المصرية دفعة فلم يتهنأ بها و عاجلته المنية و مات و لحقه من بقى من أصحابه بالسيف.

و توفّى الأمير طشتمر اللّفاف المحمدىّ مقتولا فى ثالث المحرّم و هو أيضا ممّن قام على الملك الأشرف و صار أميرا كبيرا أتابك العساكر دفعة واحدة من الجندية، و قد تقدّم ذكر هؤلاء الجميع فى أواخر ترجمة الملك الأشرف شعبان و فى أوائل ترجمة ولده الملك المنصور علىّ هذا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١١، ص: ١٩١

و توفّى الأمير الكبير سيف الدين آقتمر الصاحبىّ المعروف بالحنبلىّ نائب السلطنة بديار مصر، ثم بدمشق بها فى ليلة الحادى عشر من شهر رجب و كان من أجلّ الأمراء و أعظمهم، باشر نيابة دمشق مرتين و تولّى قبلها عدّة ولايات. ثم بعد النيابة الأولى لدمشق ولى نيابة السلطنة بالقاهرة و ساس الناس أحسن سياسة و شكرت سيرته و كان وقورا فى الدول مهابا و فيه عقل و حشمة و ديانة و كان سمّى بالحنبلىّ لكثرة مبالغته فى الطهارة و الوضوء.

و توفّى الأمير سيف الدين يلبغا بن عبد اللّه النظامىّ الناصرىّ، و كان أوّلا من خاصكية الملك الناصر حسن ثم ترقى إلى أن صار أمير مائة و مقدّم ألف بمصر، ثم ولى نيابة حلب و بها مات فيما أظنّ و كان شجاعا مقداما.

و توفى الأمير سيف الدين قرطاى أتابك العساكر مخنوقا بطرابلس و قد تقدّم واقعته مع صهره أينبك البدرىّ و هو أحد رءوس الفتن و ممن ولى أتابكية العساكر من إمرة عشرة، و كان قتله فى شهر رمضان. و جميع هؤلاء من أصاغر الأمراء لم تسبق لهم رياسة ليعرف حالهم و إنما و ثب كل واحد منهم على ما أراد فأخذه، فلم تطل مدّتهم و قتل بعضهم بعضا إلى أن تفانوا.

و توفّى القاضى صلاح الدين صالح بن أحمد بن عمر بن السّفّاح الحلبى الشافعىّ و هو عائد من الحج بمدينة بصرى و كنيته أبو

النّسک؛ و مولده فی سنة اثنتی عشرة و سبعمائة بحلب و بها نشأ و ولی بها وکالة بیت المال و نظر الأوقاف و عدّة وظائف أخر. و هو والد شهاب الدین أحمد کاتب سر حلب ثم مصر و کان کاتبا حسن التصرف، ذکره [زین الدین] أبو العزّ طاهر بن حبیب فی تاریخه و أورد له نظما من ذلک: [الدّوبیت]

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۱۹۲

لا نلت من الوصال ما أمّلت إن کان متی ما حلت عنّی حلت

أحببتکم طفلا وها قد شبت أبغی بدلا ضاق علیّ الوقت

و توفّی الأمیر شهاب الدین أحمد ابن الأمیر سیف الدین قوصون فی ثانی عشر ذی الحجّة و کان من جملة أمراء الطبلخانات بمصر و له و جاهة فی الدول.

و توفّی الأمیر علاء الدین ألطنبغا بن عبد اللّه السلاح دار المعروف بأبی درقة و کان أیضا من جملة أمراء مصر.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم خمسة أذرع و أربعة و عشرون إصبعا. مبلغ الزیادة ثمانیة عشر ذراعا و اثنا عشر إصبعا.

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۸۰]

السنة الثانیة من سلطنة الملک المنصور علیّ بن الأشرف شعبان علی مصر و هی سنة ثمانین و سبعمائة فیها کانت وقعة الأمیر تمربای الأفضلیّ التّمرداشی نائب حلب مع الترکمان.

و توفّی العلّامة شمس الدین أبو عبد اللّه محمد ابن الشیخ شهاب الدین أحمد بن أبی الحسن بن علیّ بن جابر الأندلسیّ المالکیّ الهوّاریّ بحلب عن سبعین سنة.

و کان عالما بارعا فی فنون کثیرة، و له نظم و نثر و له مصنّفات کثیرة. و من شعره:

[الخفیف]

وقفت للوداع زینب لمّا رحل الرّکب و المدامع تسکب

فالتقت بالبنان دمعی و حلو سکب دمعی علی أصابع زینب

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۱۹۳

و توفّی الشیخ الإمام العلامة ضیاء الدین أبو محمد عبد اللّه ابن الشیخ سعد الدین سعد العفیفیّ القزوینیّ الشافعیّ الشهیر بابن قاضی القرم بالقاهرة فی ثالث عشر ذی الحجة عن نیّف و ستین سنة. و کان من العلماء عارفا بعدّة علوم، کان یدرّس فی المذهبین: الحنفیة و الشافعیة. و کتب إلیه زین الدین طاهر بن حبیب یقول:

[الخفیف]

قل لربّ النّدی و من طلب العل م مجدّا إلی سبیل السواء

إن أردت الخلاص من ظلمة الجه ل فما تهتدی بغیر الضیاء

فأجابه ضیاء الدین:

قل لمن یطلب الهدایة منّی خلت لمع السّراب برکة ماء

لیس عندی من الضیاء شعاع کیف تبغی الهدی من اسم الضیاء

و توفّی الشیخ الصالح الزاهد العابد الورع المعتقد شهاب الدین أبو العباس أحمد المعروف ببادار بالقدس الشریف عن نیّف و سبعین سنة، بعد أن کف بصره، و کان یعرف علم التصوّف و علم الحرف جیّدا و للناس فیه اعتقاد کبیر. رحمه اللّه تعالی و نفعنا ببرکته.

و توفّی الشیخ صالح المعتقد أبو النّسک صالح بن نجم بن صالح المصریّ المقیم بزاویته بمنیة الشّیرج من ضواحی القاهرة و بها مات

و دفن فی یوم الأربعاء خامس عشرین شهر رمضان عن نیف و ستین سنة، و کان علی قدم هائل من العبادة و الزّهد و الورع. و فیه یقول أبو العزّ طاهر بن حبیب: [الطویل]

إذا رمت وجه الخیر فالشیخ صالح علیک به فالقصد إذ ذاک ناجح

و حیّ هلا و انشده فی الحی منشدا ألا کلّ ما قرّت به العین صالح

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۱۹۴

و توفّی الشیخ المعتقد الصالح المجذوب صاحب الکرامات الخارقة و الأحوال العجیبة نهار المغربیّ الإسکندریّ بها فی یوم الاثنین سادس عشرین جمادی الأولی. و قیل یوم الثلاثاء و دفن بتربة الدیماس داخل الإسکندریة- و من کراماته: ما اتّفق له مع الأمیر صلاح الدین خلیل بن عرّام نائب الإسکندریة.

و کان ابن عرام یخدمه کثیرا، فقال له الشیخ نهار: یا بن عرّام! ما تموت إلّا موسّطا أو مسمّرا، قبل قتل ابن عرّام بسنین، مرارا عدیدة و ابن عرام یقول له: فی الغزاة:

إن شاء اللّه تعالی، فکان کما قال. و قد تقدّم ذلک.

و توفّی الشیخ الصالح المعتقد عبد اللّه الجبرتیّ الزّیلعیّ الحنفیّ فی لیلة الجمعة سادس عشر المحرّم و دفن بالقرافة و قبره معروف بها یقصد للزیارة. و کان من عباد اللّه الصالحین: رحمه اللّه تعالی.

و توفّی الأمیر شرف الدین موسی ابن الأزکشیّ فی سادس عشر ذی القعدة بالمحلّة من أعمال مصر و حمل إلی داره بالحسینیة و هو إذ ذاک من أمراء الطبلخانات و کان دیّنا عفیفا، تولّی ولایات جلیلة منها: الأستاداریة العالیة و الحجوبیة و استقر فی أیام الملک الأشرف شعبان بن حسین مشیر الدولة و کان إذا رکب یحمل مملوکه وراءه دواة و مزمّلة.

و توفّی الأمیر سیف الدین أطلمش بن عبد اللّه الدوادار أحد أمراء الألوف بدیار مصر فی شهر ربیع الآخر بدمشق و قد أخرج إلیها منفیا علی إمرة مائة و تقدمة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۱۹۵

ألف لمّا ملک برقوق و برکة دیار مصر و صار لهما أمرها و نهیها و کان من أعیان الأمراء و هو أیضا أحد من قام علی الملک الأشرف شعبان.

و توفّی القاضی علاء الدین علیّ بن عبد الوهاب بن عثمان بن محمد بن هبة اللّه ابن عرب محتسب القاهرة فی ثالث عشر ذی الحجة بمکة بعد قضاء الحج.

و توفّی الأمیر علاء الدین علیّ بن کلبک شادّ الدواوین فی جمادی الآخرة و کان ولی فی بعض الأحیان ولایة القاهرة.

و توفی الشیخ المعمّر سند الوقت صلاح الدین محمد بن أحمد بن إبراهیم بن عبد اللّه ابن الشیخ أبی عمر المقدسیّ، آخر من بقی من أصحاب ابن البخاریّ فی شوّال بصالحیة دمشق.

و توفّی الأمیر شرف الدین موسی بن محمد بن شهری الکردیّ نائب سیس و کان فقیها شافعیا فاضلا کاتبا.

قلت: و بنو شهری معروفون: منهم جماعة إلی الآن فی قید الحیاة و یلی بعضهم أعمال البلاد الحلبیة فی زماننا هذا.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم ستة أذرع و اثنان و عشرون إصبعا.

مبلغ الزیادة تسعة عشر ذراعا و خمسة أصابع و قیل أربعة عشر.

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۸۱]

السنة الثالثة من سلطنة الملک المنصور علیّ علی مصر و هی سنة إحدی و ثمانین و سبعمائة فیها کان رکوب إینال الیوسفیّ علی

الأتابك برقوق و قد تقدّم ذكر الواقعة فى أصل هذه الترجمة.

و فيها كان الكلام من الحائط كما تقدّم أيضا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۱۹۶

و فيها توفّى الشيخ تقىّ الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن أحمد بن علىّ الواسطىّ الأصل المصرىّ المولد و الوفاة الشافعىّ المقرئ المحدّث الشهير بابن البغدادىّ، بعد ما عمى فى يوم الأربعاء سادس عشرين شعبان بالقاهرة و مولده ببغداد سنة سبع و تسعين و ستمائة و كان ولى قضاء المالكية بدمشق مدّة ثم صرف. كان فقيها نصدّر للإقراء بمدرسة الحاج آل ملك و الجامع الطولونىّ و تولى مشيخة الحديث بالخانقاه الشيخونية.

و توفّى الشيخ الإمام العالم أبو عبد اللّه محمد بن أحمد بن محمد بن أبى بكر بن محمد ابن مرزوق العجيسىّ التّلمسانىّ المغربىّ المالكىّ. كان من ظرفاء عصره، ترقى عند الملك الناصر حسن حتى صار صاحب سرّه و إمام جمعته و منبره. ثم توجّه فى سنة اثنتين و خمسين و سبعمائة إلى الأندلس خوفا من النّكبة، ثم عاد إلى مصر و تولّى عدّة تداريس و كان له سماع كثير و فضل غزير.

و توفّى الشيخ الإمام الأديب البارع المفتنّ الفقيه برهان الدين أبو إسحاق إبراهيم ابن الشيخ الإمام المفتى شرف الدين عبد اللّه بن محمد بن عسكر بن مظفر بن نجم ابن شادى بن هلال الطائىّ الطّريفىّ القيراطىّ الشافعىّ بمكة المشرفة فى ليلة الجمعة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۱۹۷

العشرين من شهر ربيع الأوّل و دفن بالمعلاة بعد صلاة الجمعة و الطّريفىّ فخذ من طيئ و القيراطىّ نسبه إلى قيراط و هى بلدة بالشرقية من أعمال الديار المصرية. و مولده ليلة الأحد حادى عشرين صفر من سنة ست و عشرين و سبعمائة. و نشأ بالقاهرة و طلب العلم و لازم علماء عصره إلى أن برع فى الفقه و الأصول و العربية و درّس بعدّة مدارس و سمع الكثير و برع فى النظم و قال الشعر الفائق الرائق. و عندى أنه أقرب الناس فى شعره لشيخه الشيخ جمال الدين بن نباتة من دون تلامذته و معاصريه على ما سنذكره من شعره هنا و قد استوعبنا نبذة كبيرة فى المنهل الصافى و من شعره: [السريع]

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۱۹۸

تنفّس الصبح فجاءت لنا من نحوه الأنفاس مسكيّه

و أطربت لى العود قمريّة و كيف لا تطرب عوديه

و له فى طبّاخ: [السريع]

هويت طبّاخا له نصبة نيرانها للقلب جنّات

يكسر أجفانا إذا ما رنا لها على الأرواح نصبات

و له أيضا: [السريع]

جفنى و جفن الحبّ قد أحرزا و صفين من نيلك يا مصر

جفنى له يوم الوداع الوفا و جفه السّاحى له الكسر

و له أيضا: [مخلّع البسيط]

لو لم يكن كفّه غماما ما أنبتت فى الطروس زهرا

نعم و لولاه بحر جود ما أبرز اللّفظ منه درّا

و من شعره- رحمه اللّه تعالى و عفا عنه- قصيدته التى أوّلها:

[الكامل]

قسما بروضة خدّه و نباتها و بآسها المخضرّ فى جنباتها

و بسورة الحسن التى فى خدّه كتب العذار بخطّه آياتها

و بقامة كالغصن إلا أننى لم أجن غير الصّد من ثمراتها

لأعزّرنّ غصون بان زوّدت أعطافه بالقطع من عذباتها

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۱۹۹

و أباكرنّ رياض و جنّته التى ما زهرة الدنيا سوى زهراتها

و لأصبحنّ للذّتى متيقّظيا ما دامت الأيام فى غفلاتها

كم ليلة نادمت بدر سمائها و الشمس تشرق فى أكفّ سقاتها

و جرت بنادهم الليالى للصّبا و كؤوسنا غرر على جبهاتها

فصرفت دينارى على دينارها و قضيت أعوامى على ساعاتها

خالفت فى الصّهباء كلّ مقلّد و سعيت مجتهدا إلى حاناتها

فتحيّر الخمّار أين دنانها حتى اهتدى بالطّيب من نفحاتها

فشممتها و رأيتها و لمستها و شربتها و سمعت حسن صفاتها

فتبعت كلّ مطاوع لا يختشى عند ارتكاب ذنوبه تبعاتها

يأتى إلى اللذات من أبوابها و يحجّ للصّهباء من ميقاتها

عرف المدام بحسنها و بنوعها و بفضلها و صفاتها و ذواتها

يا صاح قد نطق الهزار مؤذنا أ يليق بالأوتار طول سكاتها

فخذ ارتفاع الشمس من أقداحنا و أقم صلاة اللّهو فى أوقاتها

إن كان عندك يا شراب بقيّة مما تزيل بها العقول فهاتها

الخمر من أسمائها و الدّرّ من تيجانها و المسك من نسماتها

و إذا العقود من الحباب تنظّمت إيّاك و التفريط فى حبّاتها

أ محرّك الأوتار إن نفوسنا سكناتها وقف على حركاتها

دار العذار بحسن وجهك منشدا لا تخرج الأقمار عن هالاتها

كسرات جفنك كلّمت قلبى فلم يأت الصّحاح لنا بمثل لغاتها

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۲۰۰

و البدر يستر بالغيوم و ينجلى كتنفّس الحسناء فى مرآتها

و تلا نسيم الروض فيها قارئا فأمال من أغصانها ألفاتها

و مليحة أرغمت فيها عاذلى قامت إلى وصلى برغم و شاتها

لا مال وجهى عن مطالع حسنها و حياة طلعة وجهها و حياتها

يا خجلة الأغصان من خطراتها و فضيحة الغزلان من لفتاتها

ما الغصن ميّاسا سوى أعطافها ما الورد محمرا سوى و جناتها

و عدت بأوقات الوصال كأنّها ظنّت سلامتنا إلى أوقاتها

و توفّى الشيخ المسند المعمّر ناصر الدين محمد الكردىّ الحرازىّ المعروف بالطّبردار فى ثامن عشر شهر ربيع الأوّل و كان سمع الكثير و تفرّد بأشياء كثيرة، منها. «كتاب فضل الحيل» سمعه من مصنّفه الحافظ شرف الدين عبد المؤمن الدّمياطىّ و هو آخر من روى

عنه. و وقع لنا سماع فضل الخيل المذكور من طريقه عاليا.

و توفّى الشيخ المعتقد حسن المغربىّ الصبّان الحاجاوىّ فى العشرين من شهر ربيع الأوّل بداره بالحسينية و دفن بباب النصر.

و توفّى الأمير قارا بن مهنّا بن عيسى بن مهنا بن مانع بن حديثة بن غضبة ابن فضل بن ربيعة أمير آل فضل و ملك العرب و كان كريما جليلا شجاعا مشكور السّيرة. و تولّى عوضه إمرة آل فضل زامل بن موسى.

و توفّى الشيخ الصالح المعتقد صالح الجزيرىّ ساكن جزيرة أروى أعنى الجزيرة الوسطى بها فى رابع شهر ربيع الأوّل و دفن بزاويته بالجزيرة الوسطى.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۲۰۱

و توفّى الأمير سيف الدين حطط بن عبد اللّه اليلبغاوىّ نائب حماة بها. و تولّى بعده الأمير طشتمر خازندار يلبغا أيضا. و كان حطط المذكور غير مشكور السّيرة و عنده ظلم و عسف و هو من الذين قاموا على أستاذهم يلبغا العمرىّ الخاصّكى حسب ما تقدّم ذكره.

و توفّى الأمير سيف الدين ماماق بن عبد اللّه المنجكىّ أحد أمراء الطبلخانات بالديار المصريّة فى يوم الخميس ثالث شعبان و دفن بتربته عند دار الضّيافة تجاه قلعة الجبل.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۲۰۲

و توفّى الأمير ناصر الدين محمد ابن الأمير ألجيبغا العادلى نائب غزّة بها، بعد ما استعفى فى سلخ جمادى الآخرة و تولى بعده نيابة غزة آقبغا بن عبد اللّه الدّوادار.

و كان ابن ألجيبغا هذا شجاعا مقداما و له حرمة و وقار فى الدولة.

و توفّى الأمير حاجّى بک بن شادى أحد أمراء الطبلخانات بالديار المصرية بها فى هذه السنة.

و توفّى الطواشى زين الدين ياقوت بن عبد اللّه الرّسولىّ شيخ الخدّام بالمدينة النبويّة على ساكنها أفضل الصلاة و السلام- فى ليلة الجمعة سابع عشرين شهر رمضان- و كان من أعيان الخدّام، له وجاهة فى الدول و ثروة كبيرة.

و توفّى الأمير سيف الدين سطلمش بن عبد اللّه الجلالى بدمشق فى ذى القعدة.

و كان أوّلا من جملة أمراء مصر ثم نفى منها على إمرة فى دمشق.

و توفّى القاضى شمس الدين محمد بن أحمد بن مزهر أحد موقّعى دمشق بها فى شوّال عن نحو الأربعين سنة و هو أخو القاضى بدر الدين محمد بن مزهر كاتب سرّ مصر.

و فيها كان الطاعون بالديار المصرية و ضواحيها و مات فيها عالم كثير جدّا.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ستة أذرع و عشرون إصبعا.

مبلغ الزيادة تسعة عشر ذراعا و إصبعان. و اللّه أعلم.

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۸۲]

السنة الرابعة من سلطنة الملک المنصور علىّ على مصر

و هى سنة اثنتين و ثمانين و سبعمائة.

فيها كانت الوقعة بين الأتابک برقوق العثمانىّ اليلبغاوىّ و بين خشداشه زين الدين بركة الجوبانىّ اليلبغاوىّ و مسک بركة و حبس ثم قتل حسب ما تقدّم ذكره و حسب ما يأتى أيضا فى الوفيات.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۲۰۳

و فيها حضر من بلاد الجركس الأمير آنص والد الأتابک برقوق و أخواته النسوة كما تقدّم ذكره.

و فيها قتل ابن عزّام و قد تقدّم ذكره و كيفية تسميره فى أواخر ترجمة الملك المنصور هذا، فلا حاجة لذكر ذلك ثانيا.

و فيها توفّى ماماى ملك التتار و حاكم بلاد الدّشت و كان ولى الملك بعد كلدى بك خان فى سنة ثلاث و ستين و سبعمائة، و كان من أجلّ ملوك الترك و أعظمهم، و مات قتيلا.

و توفّى الشيخ الإمام العلّامة جلال الدين محمد المعروف بجار اللّه ابن الشيخ قطب الدين محمد بن الشيخ شرف الدين أبى الثناء محمود النّيسابورىّ الحنفىّ قاضى قضاة الديار المصرية عن نيفّ و ثمانين سنة، بعد أن حكم خمس سنين و كانت ولايته بعد ابن منصور، و تولّى القضاء بعده صدر الدين بن منصور ثانيا. و كان عالما بارعا فى فنون من العلوم و تولى مشيخة الصّرغتمشيّة بعد موت العلامة أرشد الدين السّرائىّ، و فيه يقول الأديب أبو العزّ زين الدين بن حبيب- رحمه اللّه تعالى-: [الكامل]

للّه جار اللّه حاكمنا الذى ما مثله يسعى له و يزار

حبّا له و كرامة من ماجد حسنت خلائقه و نعم الجار

و رثاه شهاب الدين بن العطار. [البسيط]

قاضى القضاة جلال الدين مات و قد أعطاه ما كان يرجو بارئ النّسم

حاشاه أن يحرم الراجى مكارمه أو يرجع الجار منه غير محترم

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۲۰۴

و توفّى الأمير الكبير زين الدين بركة بن عبد اللّه الجوبانىّ اليلبغاوىّ رأس نوبة الأمراء و أطابك الديار المصريّة مقتولا- بثغر الإسكندرية بيد صلاح الدين خليل ابن عزّام نائب الثغر المذكور فى شهر رجب. و قد ذكرنا ما وقع لابن عزّام بسببه من الضرب و التّسمير و التّقطيع بالسيوف فى ترجمة الملك المنصور هذا. كان بركة من مماليك يلبغا و صار من بعده فى خدمة أولاد الملك الأشرف شعبان إلى أن كانت قتلة الملك الأشرف شعبان، قام هو و خشداشه برقوق مع أينبك فأنعم أينبك على كلّ منهما بإمرة طبلخاناه دفعة واحدة من الجنديّة و ندبهما بعد شهر للسفر مع الجاليش إلى الشام فاتّفق بركة هذا مع خشداشيته و وثبوا على أخى أينبك حتى كان من أمر أينبك ما ذكرناه، صار بركة هذا أمير مائة و مقدّم ألف هو و برقوق و أقام على ذلك مدّة. ثم اتّفق مع برقوق و خشداشيته على مسك الأمير طشتمر العلائىّ الدّوادار فمسك طشتمر بعد أن قاتلهم، و من يوم ذاك استبدّ برقوق بالأمر و بركة هذا شريكه فيه و صار برقوق أتابك العساكر و بركة أطابك رأس نوبة الأمراء، و حكما مصر إلى أن وقع الخلف بينهما و تقاتلا- فانتصر برقوق على بركة هذا و أمسكه و حبسه بثغر الإسكندرية إلى أن قتله ابن عزّام، حسب ما تقدّم ذكر ذلك كلّه فى ترجمة الملك المنصور. و إنما ذكرناه هنا ثانيا تنبيها لما تقدّم، فكان بركة ملكا جليلا شجاعا مهابا تركىّ الجنس و فيه كرم و حشمة و له المآثر بمكة المشرّفة و بطريق الحجاز الشريف و غيره. رحمه اللّه تعالى.

و توفّى قاضى القضاة جلال الدين أبو المعالى محمد ابن قاضى القضاة نجم الدين محمد ابن قاضى القضاة فخر الدين عثمان بن جلال الدين أبى المعالى علىّ بن

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۲۰۵

شهاب الدين أحمد بن عمر بن محمد الزّرعىّ الشافعىّ سبط الشيخ جمال الدين الشّريشىّ فى هذه السنة و قد قارب الأربعين سنة، و كان قد ولى قضاء حلب و حمدت سيرته.

و توفّى الوزير الصاحب تاج الدّين عبد الوهّاب المكّىّ المعروف بالنّشو فى المصادرة تحت العقوبة عن نيّف و ستين سنة، بعد أن ولى الوزارة أربع مرّات.

و كان مشكورا فى وزارته محسنا لأصحابه. و هذا النّشو غير النشو الذى تقدّم ذكره فى دولة الملك الناصر محمد بن قلاوون.

و توفّى الأمير سيف الدين منكلى بغا بن عبد اللّه الأحمدىّ البلدىّ نائب حلب بها و دفن خلف تربة قطلوبغا الأحمدىّ بين الجوهرىّ و

الجماليـة. و كـان من أجـلّ الأـمراء و ممّن طالت أيامه فى السـعادة، ولى نيابـة طرابلس و حماة و حلب مرّتين، مات فى الثانيـة و عـدّة وظائف بالديار المصـريّة، و كان حازما هيوبا كريما ذا مروءة كاملة و تحشّم. و كان يقول: كلّ أمير لا يكون مصـروف سـماطه نصف إقطاعه ما هو أمير.

و توفّى الأمير الطّواشـى زين الدين مختار السّـحرتىّ الحبشـىّ مقدّم المماليك السلطانية و كان صاحب معروف و صدقة و فيه كرم مع تحشّم.

و توفّى قاضـى القضاة شـرف الدين أبو العباس أحمد بن نور الدين علىّ بن أبى البركات منصور الدّمشـقىّ الحنفىّ قاضى قضاة الديار المصريّة، وليها ثم عزل نفسه و كان من أعيان العلماء. رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الشيخ الإمام نور الدين أبو الحسن علىّ بن ألجاوىّ (بالجيم) أحد فقهاء المالكيّة فى رابع عشر ذى الحجة، بعد ما أفتى و درّس و أشغل.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۲۰۶

و توفّى الشـيخ الإمام المقرئ شـمس الدين أبو عبد اللّه المعروف بالحكرىّ الشافعى فى ذى الحجة بالقاهرة، و كان فقيها فاضـلا بارعا فى القراءات.

و توفّى الشيخ الصالح المعتقد زين الدين محمد بن الموّاز فى شهر ربيع الأوّل، و كان صاحب عبادة و للناس فيه اعتقاد حسن

و توفّى الشـيخ الإمام شمس الدين محمد بن نجم بن عمر بن محمد بن عبد الوهّاب ابن محمد بن ذؤيب الأسدىّ الدّمشقى المعروف بابن قاضى شهبة أحد أعيان الفقهاء الشافعية فى ثامن المحرّم. و مولده ليلة الثلاثاء العشرين من شهر ربيع الأوّل سنة إحدى و تسعين و ستمائة بدمشق. و كان بارعا فقيها مدرّسا مفتنّا.

و توفّى الشـيخ زين الدين أبو محمد حجّىّ بن موسـى بن أحمد بن سـعد السّـعدىّ الحسـبانىّ الشافعىّ الدّمشـقىّ فى ليلة الأربعاء سابع عشر صفر، و كان أحد فقهاء الشافعية بدمشق، و حجّى هذا هو والد بنى حجىّ رؤساء دمشق فى عصرنا.

انتهى.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ستة أذرع و ستة أصابع. مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا و أربعة أصابع- انتهى.

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۸۳]

ذكر سلطنة الملک الصالح حاجىّ الأولى على مصر

السـلطان الملک الصالح صـلاح الدين أمير حاج ابن السـلطان الملک الأشـرف شـعبان ابن الأمير الملک الأمجد حسـين ابن السـلطان الملک الناصر محمد ابن السلطان الملک المنصور قلاوون و هو الرابع و العشرون من ملوک الترک بالديار المصرية.

تسلطن بعد وفاة أخيه الملک المنصور علاء الدين علىّ فى يوم الاثنين رابع عشرين صفر سنة ثلاث و ثمانين و سبعمائة.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۲۰۷

و خبر سـلطنته أنه لمّا مات أخوه الملک المنصور علىّ تكلّم الناس بسـلطنة الأتابک برقوق العثمانىّ و أشيع ذلک فعظمت هذه المقالة على أكابر أمراء الدولـة و قالوا: لا نرضـى أن يتسـلطن علينا مملوک يلبغا و أشـياء من هـذا النّمط، و بلغ برقوقا ذلک، فخاف ألّا يتمّ له ذلـک، فجمع برقوق الأـمراء و القضـاة و الخليفـة فى اليوم المـذكور ببـاب السـتارة بقلعـة الجبـل و تكلم معهم فى سـلطنة بعض أولاد الأشـرف شـعبان، فقالوا له: هذا هو المصـلحة و طلبوهم من الدور السـلطانية و حضـر أمير حاج هذا من جملة الإخوة، فوجدوا بعضـهم ضعيفا بالجدرى و البعض صـغيرا، فوقع الاختيار على سـلطنة أمير حاج هذا، لأنه كان أكبرهم، فبايعه الخليفة و حلف له الأمراء و باسوا

یـده ثم قبّلوا له الأرض، و لقّب بالملک الصالـح و هو الـذی غیّر لقبه فی سـلطنته الثانیة بالملک المنصور، و لا نعرف سـلطانا تغیّر لقبه غیره، و ذلک بعد أن خلع برقوق و حبس بالکرک علی ما سنذکره إن شاء اللّه تعالی مفصّلا فی وقته- انتهی.

و لمّا تمّ أمر الملک الصالـح هذا ألبسوه خلعة السـلطنة و رکب من باب السـتارة بأبّهة الملک و برقوق و الأمراء مشاة بین یدیه إلی أن نزل إلی الإیـوان بقلعـة الجبـل و جلس علی کرسـیّ الملـک و قبّلت الأمراء الأرض بین یـدیه، ثم مـدّ السّـِماط و أکلت الأمراء. ثم قام السـلطان الملک الصالـح و دخل القصـر و خلع علی الخلیفـة المتوکّل علی اللّه خلعـة جمیلة و نودی بالقاهرة و مصـر بالأمان و الدعاء للملـک الصالـح حـاجّی و خلع علی الأتابـک و اسـتقرّ علی عادته أتابک العساکر و مـدبّر الممالک لصـغر سنّ السـلطان، و کان سـنّ السلطان یوم تسلطن نحو تسع سنین تخمینا.

ثم فی سابع عشـرین صـفر المـذکور جلس السـلطان الملک الصالح بالإیوان للخدمة علی العامه. ثم قام و دخل القصـر، بعد أن حضـر الخلیفة و القضاة و الأمراء و العساکر

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۲۰۸

و قرئ تقلید السـلطان الملک الصالح علیهم، و عند فراغ القراءة أخذ بدر الدین محمد ابن فضل اللّه کاتب السر التقلید و قدّمه للخلیفة فعلّم علیه بخطّه و خلع السـلطان علی القضاة و علی کاتب السّـِر المـذکور. و انفضّ الموکب و أخـذ برقوق فی التکلّم فی الدولـة علی عادته من غیر معاند و فی خدمته بقیة الأمراء یرکبون فی خدمته و ینزلون عنده و یأکلون السّماط.

و أمـا القضـاة و النوّاب بالبلاـد الشامیّـة و أربـاب الوظـائف بالـدیار المصـریّة فی هـذه الدولـة، فکـان أتابـک العساکر برقوق العثمانیّ الیلبغاوی و رأس نوبة الأمراء أیتمش البجاسـیّ و أمیر سـلاح علّان الشّـعبانیّ و أمیر مجلس ألطنبغا الجوبانیّ الیلبغاویّ و الدوادار الکبیر آلابغا العثمانیّ و الأمیر آخور جرکس الخلیلیّ و حاجب الحجّاب مأمور القلمطاوی الیلبغاوی و أستادار العالیة بهادر المنجکیّ و رأس نوبـة ثـانی- أعنی رأس نوبـة النّوب فی زماننـا- قردم الحسـنی و هؤلاـء غیر نـائب السـلطنة و هو الأـمیر آقتمر عبـد الغنی و غیر أیـدمر الشمسی و هما من أجل الأمراء و أقدمهم هجرة، یجلس الواحد عن یمین السلطان و الآخر عن یساره.

و القضـاة: الشافعیّ برهان الـدین بن جماعـة و الحنفیّ صـدر الـدین بن منصور و المالکیّ علم الـدین الباسطیّ و الحنبلیّ ناصـر الـدین العسـقلانیّ و کاتب السـر بـدر الـدین ابن فضل اللّه العمری و الوزیر شـمس الـدین المقسـی و ناظر الجیش و المحتسب جمال الـدین محمود القیصـری العجمیّ و ناظر الخاصّ هو ابن المقسـی أیضا، و نائب دمشق إشـقتمر الماردینی و نائب حلب إینال الیوسفیّ و نائب طرابلس کمشـبغا الحموی و نائب حماة طشـتمر القاسـمی و نائب صـفد الأمیر الکبیر طشتمر العلائیّ، نقل إلیها من القدس و نائب غزّة آقبغا بن عبد اللّه و نائب إسکندریّة بلّوط الصّرغتمشیّ.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۲۰۹

و الذین هم معاصـروه من ملوک الأقطار: صاحب بغداد و تبریز و ما والاهما الشـیخ حسین بن أویس و صاحب ماردین الملک الظاهر مجـد الدین عیسـی و صاحب الیمن الملک الأشـرف ابن الملک الأفضل و صاحب مکّة الشـریف أحمد بن عجلان و صاحب المدینة الشریفة عطیة بن منصور و صاحب سیواس القاضی برهان الدین أحمد و صاحب بلاد قرمان الأمیر علاء الدین و صاحب بلاد سمرقند و ما والاها تیمور لنک کورکان و صاحب بلاد الدّشت طقتمش خان من ذریة جنجز خان انتهی.

و لمّـا کـان یوم الخمیس ثالث شـهر ربیع الآخر: أنعم علی الأمیر تغری برمش بتقدمـة ألف بـدیار مصـر بعـد وفاة أمیر علیّ بن قشـتمر المنصوری. ثم أنعم علی سودون الشـیخونی بتقدمـة ألف أیضا و اسـتقرّ حاجبا ثانیا عوضا عن علیّ بن قشـتمر المنصوری. ثم بعد مدّة اسـتقرّ تغری برمش المقـدّم ذکره أمیر سـلاح بعد وفاة علّان الشـعبانیّ. ثم اسـتقرّ مأمور القلمطاوی حاجب الحجّاب فی نیابة حماة بعد وفاة طشتمر خازندار یلبغا العمری.

ثم طلب یلبغا الناصـری من دمشق و کان منفیّا بها علی تقدمة ألف، فحضـر فی آخر شعبان، فتلقاه الأتابک برقوق و الأمراء و ترجّل له

برقوق و أركبه مركوبا من مراكيبه و أنعم عليه بإمرة مائة و تقدمة ألف بالقاهرة و أجلس راس ميسرة فوق أمير سلاح فلم تطل مدّته بديار مصر و أخلع عليه بنيابة حلب فى يوم الخميس ثانى شوّال بعد عزل إينال اليوسفى و طلبه إلى مصر، فلما وصل إينال إلى غزّة قبض عليه و أرسل الى سجن الكرك. ثم أنعم الأتابك برقوق على دواداره الأمير يونس النوروزى بتقدمة ألف بمصر عوضا عن يلبغا الناصرى و خلع على الأمير جركس الخليلى الأمير آخور الكبير و استقرّ مشير الدولة و رسم للوزير ألا يتكلم فى شيء إلا بعد مراجعته.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۲۱۰

و فى العشر الأخير من شوّال أنعم على قطلوبغا الكوكائىّ بتقدمة ألف بعد وفاة الأمير آنص والد الأتابك برقوق العثمانىّ الذى قدم قبل تاريخه من بلاد الجركس، يأتى ذكر وفاته فى الوفيات.

ثم فى يوم الاثنين تاسع ذى الحجّة من سنة ثلاث و ثمانين و سبعمائة تخلّى الأمير تغرى برمش أمير سلاح عن إمرته و وظيفته و توجّه إلى جامع قوصون ليقيم به بطّالا، فأرسل الأتابك إليه الأمير سودون الشيخونى الحاجب الثانى و قردم الحسنى رأس توبة و توجّها إليه و سألاه أن يرجع إلى وظيفته و إمرته فلم يرجع لها، فعادا بالجواب إلى برقوق بذلك.

ثم إنّ تغرى برمش المذكور ندم من ليلته و أرسل يسأل الشيخ أكمل الدين شيخ الشيخونية أن يسأل برقوقا أن يعيده إلى إمرته و وظيفته فأرسل أكمل الدين إلى برقوق بذلك فلم يقبل برقوق و رسم بخروجه إلى القدس ماشيا، فأخرجه النّقباء إلى قبة النصر ماشيا. ثم شفع فيه فركب و سار إلى القدس.

ثم فى العشر الأخير من شعبان أجرى جركس الخليلى الأمير آخور الماء إلى الميدان من تحت القلعة إلى الحوض الذى على بابه.

قلت: و إلى الآن الحوض باق على حاله بلا ماء.

ثم فى التاريخ المذكور أخرج الأمير جركس الخليلى فلوسا جددا من الفلوس العتق، منها فلس زنته أوقيّة بربع درهم و فلس زنته نصف أوقية و فلس بفلسين.

فلما فعل ذلك وقف حال الناس و حصل الغلاء و قلّ الجالب؛ فلمّا بلغ الأتابك برقوقا أمر بإبطالها، و فى المعنى يقول الشيخ شهاب الدين أحمد بن العطار- رحمه اللّه تعالى: [البسيط]

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۲۱۱

تغيير عتق فلوس قد أضرّ فكم حوادث جدد جلّت من العدد

فكيف تمشى علاقات الأنام إذا و الحال واقفة بالعتق و الجدد

و قالت العامّة- لمّا فعل الخليلى ذلك و رسم بنقش اسمه على الفلوس-:

الخليلى من عكسو، نقش اسمو على فلسو. انتهى.

ثم حضر إلى الديار المصرية فى ذى الحجّة الأمير كمشبغا الحموى نائب طرابلس و كان السلطان و الأتابك برقوق فى الصيد بناحية كوم برا؛ فأخلع السلطان عليه باستمراره على نيابة طرابلس.

ثم فى يوم الخميس ثالث المحرّم سنة أربع و ثمانين و سبعمائة استقرّ سودون الفخرى الشيخونى حاجب الحجاب بالديار المصرية، و كانت شاغرة من العام الماضى منذ توجّه مأمور القلمطاوى إلى نيابة حماة.

ثم أرسل الأتابك برقوق بكلمش الطازى العلائى إلى دمياط لإحضار بيدمر الخوارزمى المعزول عن نيابة دمشق قبل تاريخه فحضر فى العشرين من المحرّم و تلقّاه الأتابك برقوق من البحر و خلع عليه باستقراره فى نيابة دمشق على عادته عوضا عن إشقتمر المارديني. و فى سلخ صفر تولّى القاضى بدر الدين بن أبى البقاء قضاء الشافعية بديار مصر عوضا عن قاضى القضاة برهان الدين بن جماعة و رسم بانتقال مأمور القلمطاوى من

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۲۱۲

نيابة حماة إلى نيابة طرابلس عوضا عن كمشبغا الحموى بحكم انتقال كمشبغا إلى دمشق على خبز جنتمر أخى طاز بحكم توجّه جنتمر إلى القدس بطّالا و نقل إلى نيابة حماة الأمير الكبير طشتمر العلائى الدّوادار الذى كان قبل تاريخه حكم مصر، و تولّى نيابة صفد بعد طشتمر الدوادار تلو حاجب حجّاب دمشق.

و فى العشر الأوسط من شعبان نام الأتابك برقوق بمبيته بسكنه بالإسطبل السلطانىّ و قعد شيخ الصّفوىّ الخاصّكى يكبّسه و بينما هو نائم مسكه شيخ المذكور فى جنبه قويّا خارجا عن الحدّ، فقعد برقوق من اضطجاعه و قال له: ما الخبر؟ فقال:

إنّ مملوكك أيتمش اتّفق مع مماليك الأسياد الذين فى خدمتك و معهم بطا الأشرفىّ على أنهم الساعة يقتلونك، فسكت برقوق و جلس على حاله، فإذا أيتمش المذكور دخل عليه فقام برقوق و أخذ بيده قوسا و ضربه به ضربة واحدة صفحا أرماه و أمر بمسكه و قال له: يا متخنّث! الذى يأخذ الملك و يقتل الملوك يقع من ضربة واحدة. ثم مسك بطا الخاصّكى و خرج برقوق و جلس بالإسطبل و طلب سائر الأمراء الكبار و الصغار، فطلع الجميع إليه فى الحال فكلّمهم بما سمع و جرى ثم أمسك من مماليك الأسياد نحو سبعة عشر نفرا؛ منهم: كزل الحططىّ، و يلبغا الخازندار الصغير و جماعة من رءوس نوب الجمداريّة عنده.

ثم فى صبيحة نهاره أمسك جماعة من رءوس نوب الجمدارية و جماعة أخر تتمة خمسة و ستين نفرا من مماليك الأسياد و هرب من بقى منهم. فالذين كان قبض عليهم اوّل يوم حبسهم بالبرج من قلعة الجبل و الذين مسكهم من الغد حبسهم بخزانة شمائل. ثم أنزل بطا الخاصّكى الأشرفىّ و أيتمش إلى خزانة شمائل. ثم أمسك الأتابك

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۲۱۳

برقوق الأمير ألابغا العثمانى الدوادار الكبير و أحد مقدّمى الألوف بالديار المصرية و سجنه. ثم أخرجه على إمرة طبلخاناه بطرابلس. ثم نقله بعد مدّة يسيرة إلى تقدمة ألف بدمشق.

ثم فى يوم السبت مستهل شهر رمضان أخرج برقوق من خزانة شمائل ثلاثة و أربعين مملوكا من الممسوكين قبل تاريخه، و أمر بتخشيبهم و تقييدهم و مشوا و هم مزنجرين بالحديد. و معهم سودون الشّيخونىّ حاجب الحجّاب و نقيب الجيش إلى أن أوصلوهم إلى مصر القديمة و أنزلوهم إلى المراكب، و صحبتهم جماعة من الجبليّة فتوجّهوا بهم إلى قوص.

و كان سبب اتفاق هؤلاء المماليك على برقوق و قتله بسكنه بباب السلسلة لفرصة كانت وقعت لهم باشتغال الأمير جركس الخليلى الأمير آخور بجسر كان عمّره بين الروضة و مصر فى النيل.

و خبره أنه لمّا كان فى أوائل شهر ربيع الأوّل من هذه السنة اهتمّ الأمير جركس الخليلىّ المذكور فى عمل جسر بين الرّوضة و بين جزيرة أروى المعروفة بالجزيرة الوسطى، طوله نحو ثلاثمائة قصبة و عرضه عشر قصبات و أقام هو بنفسه على عمله و مماليكه و جعل فى ظاهر الجسر المذكور خوازيق من سنط و سمّر عليها أفلاق نخل، جعلها على الجسر كالستارة تقيه من الماء عند زيادته، و انتهى العمل منه فى آخر شهر ربيع الآخر. ثم حفر فى وسط البحر خليجا من الجسر المذكور إلى زريبة قوصون ليمرّ الماء فيه عند زيادته. و يصير البحر ممرّه دائما منه صيفا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۲۱۴

و شتاء. و غرّم على هذا العمل أموالا كثيرة فلم يحصل له ما أراد على ما يأتى ذكره.

و فى هذا المعنى يقول الأديب شهاب الدين أحمد بن العطار. [الخفيف]

شكت النّيل أرضه للخليلى فأحضره

و رأى الماء خائفا أن يطأها فجسّره

و قال فى المعنى شرف الدين عيسى بن حجّاج العالية- رحمه اللّه تعالى- [الكامل]

جسر الخليلى المقرّ لقد رسا كالطّود وسط النّيل كيف يريد

فإذا سالتم عنهما قلنا لكم: ذا ثابت دهرا و ذاك يزيد

فهذا هو الذى كان أشغل الخليلى عن الإقامة بالإسطبل السلطانى. و أيضا لما كان خطر فى نفوسهم من الوثوب على الملك فإنه من يوم قتل الملك الأشرف شعبان و صار طشتمر اللّفاف من الجنديّة أتابك العساكر. ثم من بعده قرطاى الطازى. ثم من بعده أينبك البدرى. ثم من بعده قطلقتمر. ثم الأتابك برقوق و بركة، و كلّ من هؤلاء كان إمّا جنديّا أو أمير عشرة و ترقّوا إلى هذه المنزلة بالوثوب و إقامة الفتنة، طمع كلّ أحد أن يكون مثلهم و يفعل ما فعلوه فذهب لهذا المعنى خلائق و لم يصلوا إلى مقصودهم. انتهى.

و استمرّ الأتابك برقوق بعد مسك هؤلاء فى تخوّف عظيم و احترز على نفسه من مماليكه و غيرهم غاية الاحتراز. فأشار عليه بعد ذلك أعيان خشداشيّته و أصحابه مثل:

أيتمش البجاسى و ألطنبغا الجوبانى أمير مجلس و قردم الحسنىّ و جركس الخليلى و يونس النّوروزىّ الدوادار و غيرهم- أن يتسلطن و يحتجب عن الناس و يستريح و يريح من هذا الذى هو فيه من الاحتراز من قيامه و قعوده. فجبن عن الوثوب على السلطنة و خاف عاقبة ذلك فاستحثّه من ذكرناه من الأمراء، فاعتذر بأنّه يهاب قدماء

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۲۱۵

الأمراء بالديار المصريّة و البلاد الشامية. فركب سودون الفخرى الشيخونى حاجب الحجّاب و دار على الأمراء سرّا حتّى استرضاهم، و لا زال بهم حتّى كلّموا برقوقا فى ذلك و هوّنوا عليه الأمر و ضمنوا له أصحابهم من أعيان النّوّاب و الأمراء بالبلاد الشامية، و ساعدهم فى ذلك موت الأمير آقتمر عبد الغنى، فإنّه كان من أكابر الأمراء، و كان برقوق يجلس فى الموكب تحته لقدم هجرته و كذلك بموت الأمير أيدمر الشّمسى، فإنه كان أيضا من أقران آقتمر عبد الغنى، فماتا فى سنة واحدة على ما يأتى ذكرهما فى الوفيات- إن شاء اللّه تعالى.

فعند ذلك طابت نفسه و أجاب، و صار يقدّم رجلا و يؤخر أخرى، حتّى كان يوم الأربعاء تاسع عشر شهر رمضان سنة أربع و ثمانين و سبعمائة طلع الأمير قطلوبغا الكوكائى أمير سلاح و ألطنبغا المعلّم رأس نوبة إلى السلطان الملك الصالح أمير حاجّ صاحب التّرجمة، فأخذاه من قاعة الدّهيشة و أدخلاه إلى أهله بالدور السلطانية، و أخذا منه النّمجاة و أحضراها إلى الأتابك برقوق العثمانى، و قام بقيّة الأمراء من أصحابه على الفور و أحضروا الخليفة و القضاة و سلطنوه؛ على ما سنذكره فى أوّل ترجمته، بعد ذكر حوادث سنين الملك الصالح هذا على عادة هذا الكتاب. إن شاء اللّه تعالى.

و خلع الملك الصالح من السلطنة، فكانت مدّة سلطنته على الديار المصريّة سنة واحدة و سبعة أشهر تنقص أربعة أيام، على أنه لم يكن له فى السلطنة من الأمر و النهى لا كثير و لا قليل. و استمرّ الملك الصالح عند أهله بقلعة الجبل إلى أن أعيد للسلطنة ثانيا، بعد خلع الملك الظاهر برقوق من السلطنة و حبسه بالكرك فى واقعة يلبغا الناصرىّ و منطاش؛ كما سيأتى ذكر ذلك مفصّلا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۲۱۶

السنة الأولى من سلطنة الملك الصالح أمير حاج الأولى على مصر

و هى سنة ثلاث و ثمانين و سبعمائة. على أنّ أخاه الملك المنصور عليا حكم فيها من أوّلها إلى ثالث عشرين صفر؛ حسب ما تقدّم ذكره فى وفاته.

فيها (أعنى سنة ثلاث و ثمانين و سبعمائة) توفّى قاضى القضاة عماد الدين أبو الفداء إسماعيل ابن الشيخ شرف الدين أبى البركات محمد بن أبى العزّ بن صالح الدمشقى الحنفى قاضى قضاة دمشق بها عن نيّف و تسعين سنة. و كان فقيها رئيسا من بيت علم و رياسة بدمشق. و هم يعرفون ببنى أبى العز و بنى الكشك.

و توفّى قاضى القضاة كمال الدين أبو القاسم عمر ابن قاضى القضاة فخر الدين أبى عمر عثمان بن الخطيب هبة اللّه المعرّى الشافعىّ

بدمشق عن إحدى و سبعين سنة بعد أن حكم بها خمس سنين. و كان تنقّل فى البلاد و ولّى قضاء طرابلس و حلب و دمشق غير مرة؛ و كان فقيها عارفا بالأحكام خبيرا بالأمور.

و توفّى الشيخ الإمام العالم شهاب الدين أبو العباس أحمد بن حمدان بن أحمد ابن عبد الواحد الأذرعىّ الشافعىّ بحلب عن نيف و سبعين سنة. و كان عديم النظير، فقيها عالما، شرح «منهاج النّووى». و استوطن حلب و ولى بها التدريس و نيابة الحكم إلى أن توفّى. رحمه اللّه.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۲۱۷

و توفّى الشيخ الإمام العالم الفاضل ركن الدين أحمد القرمىّ الحنفى الشهير بقاضى قرم و مفتى دار العدل بالديار المصرية بها عن ثمانين سنة. و استقر عوضه فى إفتاء دار العدل الشيخ شمس الدين محمد النيسابورىّ ابن أخى جار اللّه الحنفىّ. و كان ركن الدين فاضلا عارفا بمذهبه، ناب فى الحكم عن قاضى القضاة جلال الدين جار اللّه، و كان معدودا من أعيان فقهاء مصر.

و توفّى شيخ الشيوخ نظام الدين إسحاق ابن الشيخ مجد الدين عاصم ابن الشيخ سعد الدين محمد الأصبهانىّ الحنفىّ فى ليلة الأحد ثالث عشر و بيع الآخر؛ قاله المقريزىّ.

و خالفه العينى؛ بأن قال: فى المحرم سنة ثمانين و لم يوافق لا فى الشهر و لا فى السنة.

و الصواب: المقالة الأولى. و كان قدم إلى القاهرة و تولّى مشيخة خانقاه سرياقوس، ثم توجه فى الرّسلية إلى بلاد الهند و عاد و قد كثر ماله، حتى إنه أهدى الذهب فى الأطباق. و مما يدلّ على اتساع ماله عمارته الخانقاه بالقرب من قلعة الجبل تجاه باب الوزير على بعد متر شرقىّ الجبل و هى فى غاية الحسن. و كان له همة و مكارم، حدّثنى حفيده بأشياء كثيرة من مكارمه و فضله و أفضاله.

توفّى الشيخ جمال الدين عبد اللّه بن محمد بن حديدة الأنصارى أحد الصوفية بالخانقاه الصلاحية سعيد السعداء فى سادس عشرين شعبان. و كان يروى الشّفاء و ثلاثيّات «البخارى» و غير ذلك. و صنّف كتاب «المصباح المضى‌ء» فى كتّاب النبى عليه السلام و مكاتباته.

و توفّى الأمير سيف الدين مازى بن عبد اللّه اليلبغاوىّ أحد أمراء الطلبخانات بالديار المصرية بها.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۲۱۸

و توفّى السيد الشريف عطية بن منصور بن جمّاز بن شيحة الحسنىّ أمير المدينة النبويّة بها و تولى بعده ابن أخيه جمّاز بن هبة اللّه و كان كريما عادلا. رحمه اللّه.

و توفّى الأمير آنص العثمانىّ الجركسىّ والد الأتابك برقوق العثمانىّ أحد مقدّمى الألوف بالديار المصرية فى العشر الأوسط من شوّال و قد جاوز ثمانين سنة من العمر، أقام عمره فى بلاد الجزكس، حتى هداه اللّه تعالى للإسلام على يد ولده الأتابك برقوق، و قدم القاهرة كما تقدّم ذكره فى ترجمة الملك المنصور علىّ و أسلم و حسن إسلامه و أقام بعد ذلك دون السنتين و مات. و مع هذه المدة القصيرة من إسلامه أظهر فيها عن دين كبير و خير و صدقات كثيرة و محبّة لأهل العلم و شفقة على الفقراء و أهل الصّلاح. و كان لا يدّخر شيئا من المال، بل كان مهما حصل فى يده فرّقه فى الحال على الفقراء و المساكين. أخبرنى جماعة من خدمه أنّه كان إذا ركب و لقى فى طريقه أحدا من المحابيس المكدّين يأخذه من جنداره و يطلقه فى الحال من زبحيره، و لم يقدر أحد أن يردّه عن ذلك، فمنع برقوق من خروج المحابيس للتّكدّى خوفا من أن يطلقهم، فإنّه كان إذا رأى أحدا منهم يسأل من مماليكه هذا مسلم أم كافر؟ فيقولون له: مسلم؛ فيقول: كيف يفعل بمسلم هكذا فى بلاد الإسلام! أطلقوه فيطلق فى الحال. و مات قبل سلطنة ولده برقوق و دفن بتربة الأمير يونس الدوادار

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۲۱۹

برأس الروضة خارج باب البرقية من القاهرة، ثم نقل بعد فراغ مدرسة ولده البرقوقية ببين القصرين إلى الدفن بها فى القبّة.

و توفّی الأمیر الکبیر سیف آقتمر بن عبد اللّه من عبد الغنی نائب السلطنة بالدیار المصریة بالقاهرة فی هذه السنة، بعد أن باشر عدّة أعمال و وظائف مثل: نیابة صفد، و طرابلس، و دمشق، و حجوبیة الحجّاب بدیار مصر، و إمرة جاندار، و نیابة السلطنة بها مرتین. و بموته خلا الجوّ للأتابک برقوق و تسلطن، مع أنه کان عدیم الشر، غیر أنه کان مطاعا فی الدولة یرجع إلی کلامه، فکان برقوق یراعیه و یجلس تحته إلی أن مات فی تاسع عشرین جمادی الآخرة.

و توفّی الأمیر الکبیر عزّ الدین أیدمر بن عبد اللّه الشمسی أحد أکابر أمراء الألوف بالدیار المصریّة بها فی ثالث عشر صفر و قد جاوز الثمانین سنة. و کان أصله من ممالیک الملک الناصر محمد بن قلاوون، أقام أمیرا نحوا من ستین سنة، و هو أیضا ممّن کان برقوق یخشاه و یعظّمه و یجلس تحته حتّی فی یوم حضور والد برقوق بخانقاة سریاقوس، جلس برقوق تحته فی الملأ من الناس، فبموت هؤلاء صفا الوقت لبرقوق و إن کان بقی من القدماء إشقتمر الماردینیّ بأیدمر الخوارزمیّ، فهما لیس کهؤلاء فإنهما لحبّهما لنیابة دمشق و غیرها یتواضعا لأصحاب الشوکة. انتهی و کان أیدمر الشمسیّ هذا کونه مملوک ابن قلاوون یجلس عن الیمین و آقتمر عبد الغنی عن الیسار.

و توفّی الأمیر سیف الدین طشتمر بن عبد اللّه القاسمیّ المعروف بخازندار یلبغا العمریّ نائب حماة فی هذه السنة فی شهر رجب بعین تاب صحبة العساکر الشامیّة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۲۲۰

و کان من أجلّ ممالیک یلبغا العمریّ و أکابرهم، و تولّی بعده نیابة حماة مأمور القلمطاویّ الیلبغاویّ حاجب الحجّاب.

و توفّی الأمیر علّان بن عبد اللّه الشعبانیّ أمیر سلاح فی ثمانی عشر شهر ربیع الآخر و هو أحد أعیان ممالیک یلبغا، و کان من حزب برقوق و قام معه فی نوبة واقعة برکة أتمّ قیام و کان برقوق لا یخرج عن رأیه.

و توفّی خواجا فخر الدین عثمان بن مسافر جالب الأتابک برقوق من بلاده ثم جالب أبیه و إخوته إلی الدیار المصریّة بالقاهرة فی سادس عشر شهر رجب. و کان رجلا مقداما عاقلا وقورا، نالته السعادة لجلبه الأتابک برقوق و مات و هو من أعیان المملکة. و کان برقوق إذا رآه قام له من بعد و أکرمه و قبل شفاعته و أعطاه ما طلب.

و توفّی الشیخ الفقیر المعتقد علی الشامیّ بالقاهرة فی خامس صفر و کان یعرف بأبی لحاف.

و توفّی الأمیر علاء الدین علی بن قشتمر الحاجب الشهیر بالوزیریّ فی تاسع عشرین شهر ربیع الآخر، کان أمیر مائة و مقدّم ألف بدیار مصر و کان من خواصّ برقوق و أحد من قام معه فی وقائعه و ساعده.

و توفّی الأستاذ شمس الدین محمد بن محمد بن محمد المعروف بابن السّوری العمّاری الموصلی العوّاد المغنّی- نسبته بالعمّاری إلی عمّار بن یاسر الصحابیّ رضی اللّه عنه- فی یوم العشرین من صفر بالقاهرة، و قد انتهت إلیه الرئاسة فی ضرب العود و الموسیقی و نالته السعادة من أجلها، حتّی إنّه کان إذا مرض عاده جمیع أعیان الدولة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۲۲۱

قلت: و هو صاحب التصانیف الهائلة فی الموسیقی.

و توفّیت المسندة المعمّرة جویرة بنت الشّهاب أبی الحسن [أحمد] بن أحمد الهکّاری فی یوم السبت ثانی عشرین صفر و قد انفردت بروایة النّسائی و غیرها.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم خمسة أذرع و ثمانیة أصابع. مبلغ الزیادة تسعة عشر ذراعا و اثنا عشر إصبعا.

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۸۴]

ذکر سلطنة الملک الظاهر برقوق الأولی علی مصر

السلطان الملك الظاهر أبو سعيد سيف الدين برقوق بن آنص العثمانى اليلبغاوى الجاركسىّ القائم بدولة الجراكسة بالديار المصرية. و هو السلطان الخامس و العشرون من ملوك الترك بالديار المصرية و الثانى من الجراكسة، إن كان الملك المظفر بيبرس الجشنكير چاركسيا، و إن كان بيبرس تركى الجنس فبرقوق هذا هو الأوّل من ملوك الچراكسة، و هو الأصحّ و به نقول.

جلس على تخت الملك فى وقت الظّهر من يوم الأربعاء تاسع عشر شهر رمضان سنة أربع و ثمانين و سبعمائة الموافق له آخر يوم هاتور و سادس تشرين الثانى، بعد أن اجتمع الخليفة المتوكّل على اللّه أبو عبد اللّه محمد و القضاة و شيخ الإسلام سراج الدّين عمر البلقينى و خطب الخليفة المتوكّل على اللّه خطبة بليغة. ثم بايعه على السلطنة و قلّده أمور المملكة ثم بايعه من بعده القضاة و الأمراء.

ثم أفيض على برقوق خلعة السلطنة، و هى خلعة سوداء خليفتيّة على العادة، و أشار السّراج البلقينى أن يكون لقبه «الملك الظاهر» فإنه وقت الظّهيرة و الظّهور و قد ظهر هذا الأمر بعد أن كان خافيا، فتلقّب بالملك الظاهر و ركب فرس النّوبة من الحرّافة من المقعد الذى بالإسطبل السلطانىّ من باب السّلسلة. و القبّة و الطّير

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۲۲۲

على رأسه، و طلع من باب السّر إلى القصر الأبلق، و أمطرت السماء عند ركوبه بأبّهة السلطنة، فتفاءل الناس بيمن سلطنته و مشت الأمراء و الأعيان بين يديه إلى أن نزل و دخل القصر المذكور و جلس على تخت الملك. و كان طالع جلوسه على تخت الملك برج الحوت و الشمس فى القوس متصلة بالقمر تثليثا و القمر بالأسد متّصل بالمشترى تثليثا و زحل بالثّور راجعا و المشترى بالحمل متصل بعطارد من تسديس و المرّيخ بالجوزاء فى شرفه و الزّهراء بالعقرب و عطارد بالقوس. و دقّت البشائر بقلعة الجبل عند ركوبه ثم زيّنت القاهرة و مصر و نودى بالقاهرة بالدعاء للسلطان الملك الظاهر برقوق.

و لمّا جلس على تخت الملك قبّلت الأمراء الأرض بين يديه و خلع على الخليفة على العادة.

ثم كتب بذلك إلى الأعمال و خرجت الأمراء لتحليف النّوّاب بالبلاد الشامية ثم أمر الملك الظاهر فى السلطنة و ثبتت قواعد ملكه.

و مدحه جماعة من شعراء عصره منهم الشيخ شهاب الدين أحمد بن العطار فقال:

[السريع]

ظهور يوم الأربعاء ابتدا بالظاهر المعتز بالقاهر

و البشر قد تمّ و كلّ امرئ منشرح الباطن بالظاهر

و قال الشيخ شهاب الدين الأعرج السّعدى من قصيدة: [الوافر]

تولّى الملك برقوق المفدّى بسعد الجدّ و الاقدار حتم

نهار الأربعاء بعيد ظهر و للتربيع فى الاملاك حكم

بتاسع عشر رمضان بعام لأربع مع ثمانين يتمّ

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۲۲۳

قلت: و لنذكر أمر الملك الظاهر هذا من أوّل ابتداء أمره فنقول:

أصله من بلاد الچاركس و جنسه «كسا» ثم أخذ من بلاده و أبيع بمدينة قرم فاشتراه خواجا عثمان بن مسافر المقدّم ذكره و جلبه إلى مصر فاشتراه منه الأتابك يلبغا العمرى الخاصّكى الناصرى فى حدود سنة أربع و ستين و سبعمائة أو قبلها بيسير و أعتقه و جعله من جملة مماليكه، و استمرّ بخدمته إلى أن ثارت مماليك يلبغا عليه و قتل فى سنة ثمان و ستين و سبعمائة، فلم أدر هل كان برقوق ممّن هو مع أستاذه يلبغا أم كان عليه. و لما قتل يلبغا و تمزّقت مماليكه و حبس أكثرهم حبس برقوق هذا مع من حبس مدّة طويلة هو و رفيقه بركة الجوبانىّ و معهم أيضا جاركس الخليلى و هو دونهم فى الرتبة. ثم أفرج عنه و خدم عند الأمير منجك اليوسفىّ نائب الشام سنين إلى أن طلب الملك الأشرف مماليك يلبغا إلى الديار المصرية حضر برقوق هذا من جملتهم و صار بخدمة الأسياد أولاد

الملك الأشرف جنديّا و لم يزل على ذلك حتى ثار مع من ثار من مماليك يلبغا على الملك الأشرف شعبان فى نوبة قرطاى و أينبك و غيرهما فى سنة ثمان و سبعين و سبعمائة و قتل الأشرف.

ثم لمّا وقع بين أينبك و قرطاى و انتصر أينبك على قرطاى أنعم أينبك عليه بإمرة طبلخاناة دفعة واحدة من الجندية، فدام على ذلك نحو الشهر، و خرج أيضا مع من خرج على أينبك من اليلبغارية فأخذ إمرة مائة و تقدمة ألف و كذلك وقع لرفيقه بركة. ثم صار بعد أيام قليلة أمير آخور كبيرا و دام على ذلك دون السنة و اتّفق مع الأمير بركة على مسك طشتمر الدوادار و مسكاه بعد أمور حكيناها فى ترجمة الملك المنصور علىّ و تقاسما المملكة و صار برقوق أتابك العساكر، و بركة رأس نوبة الأمراء أطابكا، فدام على ذلك من سنة تسع و سبعين إلى سنة اثنتين و ثمانين و وقع

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١١، ص: ٢٢٤

بينه و بين خشداشه بركة و قبض عليه بعد أمور و حروب وصفا له الوقت إلى أن تسلطن. و قد تقدّم ذكر ذلك كلّه، غير أننا ذكرناه هنا ثانيا على سبيل الاختصار لينتظم سياق الكلام مع سياقه. انتهى.

قال المقريزى- رحمه اللّه: و كان اسمه ألطنبغا فغيّره أستاذه يلبغا لمّا اشتراه و سمّاه برقوقا. و قال القاضى علاء الدين علىّ ابن خطيب الناصريّة: كان اسمه «سودون» نقلا عن قاضى القضاة ولىّ الدين أبى زرعة العراقىّ عن التاجر برهان الدين المحلّى عن خواجا عثمان بن مسافر. و القولان ليسا بشى‌ء و إن كان النقلة لهذا الخبر ثقات فى أنفسهم فإنهم ضعفاء فى الأتراك و أسمائهم و ما يتعلّق بهم لا يرجع إلى قولهم فيها. و الأصح: أنّه من يوم ولد اسمه برقوق كما سنبيّنه فى هذا المحلّ من وجوه عديدة منها: أن الخواجا عثمان كان لا يعرف بالعربية، و كان البرهان المحلّى لا يعرف باللغة التركية كلمة واحدة، فكيف دار بينهما الكلام، حتى حكى له ما نقل و إن وقع اجتماعهما فى بعض المجالس و تكالما، فالبرهان يفهم عنه بالرمز لا بالتحقيق و ليس بهذا نستدل، بل أشياء أخر منها: أنّ والد الملك الظاهر برقوق لمّا قدم من بلاد الجاركس إلى الديار المصرية و نزل الملك الظاهر برقوق فى وجوه الأمراء إلى ملاقاته بالعكرشة و قد تقدّم ذكر ذلك كلّه، و كان يوم ذلك برقوق مرشّحا للسلطنة،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١١، ص: ٢٢٥

فعندما وقع بصر والده عليه و أخذ برقوق فى تقبيل يده ناداه باسمه برقوق من غير تعظيم و لا تحشّم. و كان والد برقوق لا يعرف الكلمة الواحدة من اللغة التركية، فلمّا جلس فى صدر المخيّم و صار يتكلّم مع ولده برقوق بالجاركس تكرّر منه لفظ «برقوق» غير مرة.

ثم لمّا قدم القاهرة و صار أمير مائة و مقدّم ألف استمرّ على ما ذكرناه من أنه ينادى برقوقا باسمه و لا يقوم له إذا دخل عليه، فكلّمه بعض أمراء الجراكسة أن يخاطبه بالأمير، فلم يفعل و غضب و طلب العود إلى بلاد الجاركس، فلو كان لبرقوق اسم غير برقوق ما ناداه إلّا به و لو قيل له فى ذلك ما قبله. فهذا من أكبر الأدلة على أن اسمه القديم «برقوق». و كذلك وقع لبرقوق مع الخوندات، فإن أخته الكبرى كانت أرضعت برقوقا مع ولد لها، و كانت أيضا لا تعرف باللّغة التركية، فكان أعظم يمين عندها: و حقّ رأس برقوق. و قدم مع الخوندات جماعة كبيرة من أقاربهم و حواشيهم و تداول مجيئهم من بلاد الجاركس إلى القاهرة إلى الدولة الناصرية، و رأيت أنا الخوندات غير مرّة.

و أما جواريّهم و خدمهم فصار غالبهم عندنا بعد موتهم. و استولد الوالد بعض من حضر معهم من بلاد الجاركس من الجوارى و كان غالب من حضر معهم من عجائز الجراكسة يعرف مولد برقوق فلم نسمع من أحد منهم ما نقله من تغيير اسمه و لا من أحد من مماليكه مع كثرة عددهم و اختلاف أجناسهم. و منهم من يدّعى له بقرابة مثل الأمير قجماس والد إينال الأمير الآخور الكبير و غيره، و قد أثبت ذرية قجماس المذكور أنّه ابن عمّ برقوق بسبب ميراث مماليكه بمحضر شهد فيه جماعة من قدماء الجراكسة و سمّى فيه برقوق برقوقا و سمّى قجماس فجماسا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۲۲۶

ثم لمّـا وقفت على هـذه النّقول الغريبـة سألت عن ذلـك من أكـابر مماليـك برقوق، فكلّ من سألت منه يقول: لم يطرق هـذا الكلام سمعى إلّا فى هذا اليوم، هذا مع كثرتهم و تعظيمهم لأستاذهم المذكور و حفظهم لأخياره، و ما وقع له قديما و حديثا حتى إنّ بعضهم قال: هذا اسم جاركسى و يلبغا اسم تترى لا يعرف معناه، ثم ذكر معناه فقال: هذا الاسم أصله «ملى جق» و معناه بالجاركسى غنّام، فإنّ «ملى» بلغتهم اسم للغنم ثم خفّف على «جق» ببرقوق ثم ذكر أسماء كثيرة، كان أصلها غير ما هى عليه الآن مثل «بايزير» فسمى «بايزيد» و منهم من جعله كنيـة أبى يزيد و مثل «آل باى» فسّـمى «على باى» و أشياء من ذلك يطول شـرحها. و قد خرجنا عن المقصود لتأييد قولنا، و قد أوضـحنا هذا و غيره فى مصـنّف على حدته فى تحريف أولاد العرب للاسماء التركيّة و العجميّة و فى شهرتهم إلى بلادهم فى مثل جانبك و تنبك و شيخون، و مثل من نسب إلى فيروزباد و استرآباد من زيادة ألفاظ و ترقيق ألفاظ يتغيّر منها معناها، حتّى إن بعض الأتراك أو الأعاجم إذا سمعها لا يفهمها إلّا بعد جهد كبير. انتهى.

و أمّا الملك الظاهر برقوق فإنه لمّا تسلطن جلس بالقصـر الأبلق ثلاثة أيام، فصارت هذه الإقامة سنّة بعده لمن يتسلطن و لم تكن قبل ذلك. فلمّا كان يوم الاثنين رابع عشـرين شـهر رمضان قرئ عهـد الملك الظاهر برقوق بالسـلطنة بحضـرة الخليفة و القضاة و الأمراء و أعيان الدولـة و خلع السـلطان عليهم الخلع السـنيّة. ثم أخلع على الأمير أيتمش البجاسـىّ باسـتمراره رأس نوبـة الأمراء و أطابكا و على الأمير ألطنبغا الجوبانىّ أمير مجلس على عادته، و على جاركس الخليلى الأمير آخور الكبير على

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۲۲۷

عادته، و على الأمير سودون الفخرىّ الشيخونىّ حاجب الحجّاب باستقراره نائب السّلطنة بالديار المصرية، و كانت شاغرة من يوم مات الأمير آقتمر عبد الغنى. و خلع على الأمير ألطنبغا الكوكائى أمير سـلاح، و استقرّ حاجب الحجّاب عوضا عن سودون الشيخونىّ، و على الأمير ألطنبغا المعلّم باستقراره أمير سلاح عوضا عن الكوكانى المنتقل إلى الحجوبيّة.

قلت: و هذا مما يدل على أن وظيفة إمرة سلاح كانت إذ ذاك دون الحجوبيّة انتهى.

ثم أخلع السـلطان على الأمير يونس النّوروزى دواداره قديما باستقراره دوادارا كبيرا بإمرة مائة و تقدمة ألف عوضا عن ألابغا العثمانى المقبوض عليه قبل تاريخه، و على الأمير قردم الحسـنىّ اليلبغاوىّ باسـتقراره على عادته رأس نوبـة ثانيا بإمرة مائة و تقدمة ألف عوضـا عن ألابغا.

و هذه الوظيفة هى الآن وظيفة رأس نوبة النّوب و قد بينا ذلك فى غير موضع.

ثم خلع السـلطان على القضاة الأربعة؛ و هم: قاضـى القضاة بدر الدين بن أبى البقاء السّـبكى الشافعىّ. و قاضـى القضاة صدر الدين بن منصور الحنفىّ. و قاضـى القضـاة جمـال الـدين بن خير المالكىّ. و قاضـى القضاة ناصـر الـدين العسـقلانى الحنبلىّ. و خلع على قضاة العسـكر مفتى دار العدل، و وكلاء بيت المال، و على مباشـرى الدولة، و على القاضـى بدر الدين بن فضل اللّه كاتب السر، و على علم الدّين سنّ إبرة الوزير، و على تقىّ الدين محمد بن محبّ الدّين ناظر الجيش، و على سعد الدين بن البقرى ناظر الخاصّ.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۲۲۸

ثم خلع الملك الظاهر على القاضـى أوحـد الـدين عبـد الواحـد موقّعه فى أيام إمرته، و على جمال الـدين محمود القيصـرى محتسـب القاهرة، و على سائر أرباب الدولة و أعيان المملكة فكان يوما مشهودا.

ثمّ فى يـوم الخميس سـابع عشـرينه طلب السـلطان سـائر الأـمراء و الأعيـان، و حلّفهم على طـاعته. و فيه أيضـا خلـع على الأـمير بهـادر المنجكىّ، و استقرّ أستدارا بإمرة طبلخاناه، و أضيف إليه أستاداريّة المقام الناصرىّ محمد ابن السلطان الملك الظاهر برقوق.

ثم فى يوم الاثنين تاسع شوّال أخلع السلطان على العلّامة أوحد الدين عبد الواحد ابن إسماعيل بن ياسين الحنفىّ باستقراره كاتب السرّ بالديار المصريّة عوضا عن القاضى بدر الدين بن فضل اللّه بحكم عزله.

ثمّ أخلع السلطان على الأمير جلبان العلائى و استقرّ حاجبا خامسا، و لم يعهد قبل ذلک بديار مصر خمسة حجّاب، و عدّ ذلک من الأشياء التى استجدّها الملک الظاهر برقوق.

و أخلع على رجل من صوفيّة خانقاه شيخون يقال له: خير الدين [العجمىّ] باستقراره قاضى قضاة الحنفيّة بالقدس الشريف.

ثم أخلع أيضا على رجل آخر من صوفيّة خانقاه شيخون يقال له: موفّق الدّين العجمىّ بقضاء غزة، كلّ ذلک بسفارة الشيخ أكمل الدّين شيخ الخانقاه الشّيخونية.

و هذا أيضا ممّا استجدّه الملک الظاهر، فإنه لم يكن قبل ذلک بالقدس و لا بغزة قاض حنفىّ.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۲۲۹

ثم فى يوم الأربعاء تاسع عشرين شوّال ركب السلطان الملک الظاهر من قلعة الجبل و عدّى النيل من بربلاق إلى الجيزة و تصيّد ثم عاد من آخر النهار، و قد ركب الأمير أيتمش عن يمينه و العلّامة أكمل الدين شيخ الشّيخونيّة عن يساره.

ثم رسم السلطان بعد عوده من الصّيد باستقرار بدر الدين محمد بن أحمد [ابن إبراهيم] ابن مرهر فى كتابة سرّ دمشق عوضا عن القاضى فتح الدين [محمد] ابن الشهيد.

ثم ورد الخبر على السلطان من الأمير يلبغا الناصرىّ نائب حلب بأنّ الأمير ألطنبغا السلطانىّ نائب أبلستين عصى و طلع الى قلعة دارندة المضافة اليه و أنه أمسک بعض أمرائها و أطلع إلى دارندة ذخائره، فركب العسكر الذين هم بالمدينة عليه و أمسكوا مماليكه و حاصروه فطلب الأمان منهم، ثم فرّ من القلعة إلى أبلستين ثانيا فكتب إليه الناصرىّ نائب حلب يهدّده فلم يرجع إليه و مرّ هاربا إلى بلاد التّتار و قال: لا أكون فى دولة حاكمها جاركسىّ!

و فى يوم السبت سابع عشر ذى القعدة ركب السلطان أيضا من القلعة إلى

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۲۳۰

جهة المطريّة و مضى إلى قناطر أبى منجّا، ثم عاد و شقّ القاهرة من باب الشعرية، و كان لمروره يوم مشهود و هو أوّل ركوبه و مروره من القاهرة فى سلطنته.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۲۳۱

ثم قدم الخبر على السلطان بفرار الأمير آقبغا من عبد اللّه نائب غزّة منها إلى الأمير نعير.

و فى هذه الأيام أخلع السلطان على الأمير قرقماس الطّشتمرىّ باستقراره خازندارا كبيرا.

و فى سابع عشر ذى الحجّة من سنة أربع و ثمانين و سبعمائة ركب السلطان من القلعة و عدّى النيل إلى برّ الجيزة ثم عاد من بلاق فى سابع عشر ذى الحجّة المذكور.

و فى سابع عشرين ذى الحجّة قدم الأمير ألطنبغا الجوبانىّ امير مجلس من الحجاز و كان حج مع الركب الشامىّ و عاد من طريق الحجّ المصرىّ.

و فى يوم السبت أوّل محرّم سنة خمس و ثمانين و سبعمائة قدم الأمير يلبغا الناصرىّ نائب حلب إلى الديار المصرية فخرج الأمير سودون الشّيخونىّ النائب إلى لقائه و جماعة من الأمراء، و طلع الجميع فى خدمته إلى القلعة، و قبّل الناصرىّ الأرض بين يدى السلطان الملک الظاهر.

و خلع السلطان عليه بالاستمرار على نيابة حلب، فكان مجىء الناصرى إلى مصر أوّل عظمة نالت الملک الظاهر برقوقا؛ لأن يلبغا الناصرى المذكور كان من كبار مماليک الأتابک يلبغا العمرى و ممن تأمّر فى أيام يلبغا، و برقوق كان من صغار مماليكه، و أيضا فإن الناصرى كان فى دولة الملک الأشرف شعبان بن حسين أمير مائة و مقدّم ألف و برقوق من جملة الأجناد ممن يتردّد إليه و يقوم فى مجلسه على قدميه، فلم يمض غير سنيات حتى صار كلّ منهما فى رتبة معروفة. فسبحان مغيّر حال بعد

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۲۳۲

حال. و یلبغا الناصری هو صاحب الوقعة مع الملک الظاهر برقوق الآتی ذکرها- إن شاء اللّه تعالی- فی هذا المحل.

ثم نزل الأمیر یلبغا الناصری و علیه خلعة الاستمرار بنیابة حلب و عن یمینه الأمیر أیتمش و عن یساره الأمیر ألطنبغا الجوبانی و من ورائه سبعة جنائب من خیل السلطان بسروج ذهب و کنابیش زرکش أنعم بها علیه. ثم حمل إلیه السلطان و الأمراء من التّقادم مما یجلّ وصفه.

ثم رکب السلطان فی یوم السبت ثامن المحرّم و معه الأمیر یلبغا الناصری و عدّی النیل من بلاق إلی برّ الجیزة و تصیّد و عاد فی آخر النهار.

و فی عاشره خلع السلطان علی الأمیر یلبغا الناصری نائب حلب خلعة السفر، و خرج من یومه إلی محل کفالته بحلب.

ثم فی یوم الاثنین سابع عشره أخلع السلطان علی شمس الدین إبراهیم کاتب أرنان و استقرّ به وزیرا علی شروط عدیدة، منها: أنه لم یلبس خلعة الوزر، فأجیب و لبس خلعة [من صوف] کخلعة القضاة و غیر ذلک.

و فیه وصل الأمیر أسد الدین الکردی أحد أمراء حلب فی الحدید لشکوی بعض التّجّار علیه أنه غصبه مملوکا فحبس أیاما ثم أفرج عنه و أخرج علی تقدمة ألف بطرابلس.

ثم عزل السلطان الأمیر إینال الیوسفی عن نیابة صفد بالأمیر تمربای التّمرداشی، و أنعم علی إینال بتقدمة ألف بدمشق.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۲۳۳

و فیه استعفی الأمیر یلّو من نیابة حماة فأعفی.

و فی تاسع عشرة قدم سالم الدوکاری من حلب فأکرمه السلطان و أخلع علیه و أنعم علیه بإمرة طبلخاناه بحلب.

و فی ثامن عشرین جمادی الأولی و هو سادس مسری أو فی النیل فنزل الملک الظاهر من القلعة فی موکب عظیم حتی عدّی النیل و خلّق المقیاس و فتح خلیج السّد. و هذا أیضا مما استجدّه الملک الظاهر برقوق، فإنه لم یعهد بعد الملک الظاهر بیبرس البندقداری سلطان نزل من القلعة لتخلیق المقیاس و فتح الخلیج غیر الملک الظاهر هذا، فهو أیضا ممن استجدّه لطول ترک الملوک له.

و فی هذا الشهر أخلع السلطان علی الأمیر صنجق الحسنی الیلبغاوی بنیابة حماة عوضا عن یلّو بحکم استعفائه عن نیابة حماة.

و فیه ورد الخبر بموت الأمیر تمربای التّمرداشیّ نائب صفد بعد أن أقام علی نیابة صفد خمسة أیام، فأخلع السلطان بعد مدّة علی الأمیر کمشبغا الحمویّ بنیابة صفد عوضه، و کمشبغا هذا هو أکبر ممالیک یلبغا العمریّ و ممّن صار فی أیام أستاذه أمیر طبلخاناه و لم یخرج عن طاعة أستاذه یلبغا، و لهذا مقته خشداشیّته الذین خرجوا علی أستاذهم یلبغا، لکونه لم یوافقهم، و قد تقدّم أنّه ولی نیابة دمشق و صفد و طرابلس قبل ذلک.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۲۳۴

و فی أوّل شهر رجب من سنة خمس و ثمانین و سبعمائة طلع الأمیر [صلاح الدین] محمد بن محمد بن تنکز إلی السلطان و نقل له عن الخلیفة المتوکّل علی اللّه أبی عبد اللّه محمد أنه اتفق مع الأمیر قرط بن عمر التّرکمانیّ المعزول عن الکشوفیة و مع إبراهیم ابن قطلوقتمر العلائیّ أمیر جاندار و مع جماعة من الأکراد و التّرکمان، و هم نحو من ثمانمائة فارس أنهم یثبون علی السلطان إذا نزل من القلعة إلی المیدان فی یوم السبت للعب بالکرة یقتلونه و یمکّنون الخلیفة من الأمر و الاستبداد بالملک فحلّف السلطان ابن تنکز علی صحّة ما نقل فحلف له و طلب یحاققهم علی ذلک، فبعث السلطان إلی الخلیفة و إلی قرط و إلی إبراهیم بن قطلقتمر فأحضرهم و طلب سودون النائب و حدّثه بما سمع، فأخذ سودون ینکر ذلک و یستبعد وقوعه منهم، فأمر السلطان بالثلاثة فحضروا بین یدیه و ذکر لهم ما نقل عنهم فأنکروا إلا قرط، فإنّه خاف من تهدید السلطان، فقال: الخلیفة طلبنی و قال: هؤلاء ظلمة و قد استولوا علی هذا الملک بغیر رضائی، و إنی لم أقلّد برقوقا السلطنة إلّا غصبا، و قد أخذ أموال الناس بالباطل و طلب منّی أن أقوم معه و أنصر الحقّ

فأجبته إلى ذلك و وعدته بالمساعدة، و أن أجمع له ثمانمائة واحد من الأكراد و التركمان و أقوم بأمره، فقال السلطان للخليفة: ما قولك فى هذا، فقال: ليس لما قاله صحّة، فسأل إبراهيم ابن قطلقتمر عن ذلك، فقال: ما كنت حاضرا هذا الاتفاق، لكنّ الخليفة طلبنى إلى بيته بجزيرة الفيل و أعلمنى بهذا الكلام و قال لى: إنّ هذا مصلحة، و رغّبنى فى موافقته و القيام للّه تعالى و نصرة الحق، فأنكر الخليفة ما قاله إبراهيم أيضا و صار إبراهيم يذكر له أمارات و الخليفة يحلف أن هذا الكلام ليس له صحة، فاشتدّ

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۲۳۵

حنق الملك الظاهر و سلّ السيف ليضرب عنق الخليفة؛ فقام سودون النائب و حال بينه و بين الخليفة، و ما زال به حتى سكّن بعض غضبه. فأمر الملك الظاهر بقرط و إبراهيم يسمّرا و استدعى القضاة ليفتوه بقتل الخليفة، فلم يفتوه بقتله و قاموا عنه، فأخذ الخليفة و سجنه بموضع فى قلعة الجبل و هو مقيّد و سمرّقرط و إبراهيم و شهّرا فى القاهرة و مصر. ثم أوقفا تحت القلعة بعد العصر فنزل الأمير أيدكار الحاجب و سار بهما ليوسّطا خارج باب المحروق من القاهرة، فابتدأ بقرط فوسّط و أبى أن يأخذوا إبراهيم [إذ] جاءت عدّة من المماليك بأن الأمراء شفعوا فى إبراهيم ففكّت مساميره و سجن بخزانة شمائل.

ثم طلب السلطان زكريّاء و عمر ابنى إبراهيم عمّ المتوكّل، فوقع اختياره على عمر فولّاه الخلافة و تلقّب بالواثق بالله، كلّ ذلك فى يوم الاثنين أوّل شهر رجب.

ثم فى يوم الاثنين ثامن شهر رجب أخلع السلطان على الطواشى بهادر الرومىّ و استقرّ مقدّم المماليك السلطانية عوضا عن جوهر الصّلاحى.

ثم فى يوم السبت ثالث عشره ركب السلطان إلى الميدان ثانى مرة للعب الكرة. ثم ركب فى يوم السبت عشرينه ثالث مرّة. ثم ركب فى يوم السبت سابع عشرينه إلى خارج القاهرة و عاد من باب النصر و نزل بالبيمارستان المنصورى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۲۳۶

ثم ركب منه إلى القلعة، فلم يتحرّك أحد بأمر من الأمور.

ثم خرج السلطان إلى سرحة سرياقوس على العادة فى كلّ سنة و أقام بها أياما و عاد و فى عوده قبض على سعد الدين نصر اللّه بن البقرىّ ناظر الخاصّ بالخدمة.

و خلع السلطان على موفّق الدين أبى الفرج عبد اللّه الأسلمى بنظر الخاصّ عوضا عن ابن البقرى و أجرى على ابن البقرىّ العقوبة ثم ضربه بالمقارع، بعد ما أخذ منه ثلثمائة ألف دينار.

و فيه شفع الأمراء فى الخليفة و تقدّم منهم الأمير أيتمش و الأمير ألطنبغا الجوبانىّ و قبّلا الأرض و سألا السلطان فى العفو عنه و ترفّقا فى سؤاله؛ فعدّد لهما السلطان ما أراد أن يفعله بقتله فما زالا به حتّى أمر بفكّ قيده.

و فى هذه السنة توجه السلطان عدة مرار للصيد ببر الجيزة و غيرها، و فى الأخير اجتاز السلطان بخيمة الأمير قطلقتمر العلائىّ أمير جاندار و وقف عليها فخرج قطلقتمر إليه و قدّم له أربعة أفراس فلم يقبلها فقبّل الأرض ثانيا و سأل السلطان أن يقبلها، فأجاب سؤاله و قبلها و سار حتى نزل بمخيّمه. و فى الحال استدعى بإبراهيم ابن قطلقتمر المذكور من خزانة شمائل و أطلقه و خلع عليه و أركبه فرسا بسرج ذهب و كنبوش زركش، و أعطاه ثلاثة أرؤس أخر و هى التى قدّمها أبوه للسلطان و أذن له أن يمشى فى الخدمة و وعده بإمرة هائلة و أرسله إلى أبيه قطلقتمر المذكور فسر به سرورا زائدا و كان قطلقتمر فى مدّة حبس ابنه لم يحدّث السلطان و لا الأمراء فى أمر ابنه بكلمة واحدة، فأتاه الفرج من اللّه تعالى بغير مأنّة أحد.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۲۳۷

و فى هذه الأيام جمع السلطان القضاة و اشترى الأمير أيتمش البجاسى و هو يوم ذاك رأس نوبة الأمراء و أطابك و أكبر جميع أمراء ديار مصر من ذرّيّة الأمير جرجى الإدريسىّ نائب حلب بحكم أنّ جرجى لمّا مات لم يكن أيتمش ممّن أعتقه، فأخذه بعد موته الأمير

بجاس و أعتقه من غير أن يملكه بطريق شرعى و أثبتوا ذلك على القضاة، فعند ذلك اشتراه الملك الظاهر من ذرّيّة جرجى بمائة ألف درهم و أعتقه و أنعم عليه بأربعة آلاف درهم و بناحية سفط رشيد. ثم خلع السلطان على القضاة و الموقّعين الذين سجّلوا قضيّة البيع و العتق.

و فى يوم الثلاثاء تاسع ذى القعدة أفرج السلطان عن الخليفة المتوكّل على اللّه، و نقل من سجنه بالبرج إلى دار بالقلعة و أحضر إليه عياله.

ثمّ فى يوم السبت ثالث صفر من سنة ست و ثمانين و سبعمائة قبض السلطان على الأمير يلبغا الصغير الخازندار، و على سبعة من المماليك وشى بهم أنهم قصدوا قتل السلطان فضربهم و نفاهم إلى الشام.

و فى يوم الاثنين عاشر شهر ربيع الأوّل قدم الأمير بيدمر الخوارزمىّ نائب الشام؛ فأجلسه السلطان فوق الأمير سودون النائب بدار العدل. ثم فى ثالث عشره خلع عليه السلطان، و قيّد له ثمانية جنائب من الخيل بقماش ذهب، جرّوها الأوجاقيّة خلفه.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۲۳۸

و فى يوم الثلاثاء ثامن عشره نزل السلطان لعيادة الأمير ألطنبغا الجوبانى أمير مجلس و قد توعّك.

و فيه قدّم الأمير بيدمر نائب الشام تقدّمته للسلطان و كانت تشتمل على عشرين مملوكا و ثلاثة و ثلاثين جملا عليها أنواع الثّياب من الحرير و الصوف و الفرو و ثلاثة و عشرين كلبا سلوقيّا، و ثمانية عشر فرسا عليها أجلال حرير، و خمسين فحلا، و اثنتين و ثلاثين حجرة و مائة إكديش لتتمة مائتى فرس و ثمانية قطر هجن بقماش ذهب و خمسة و عشرين قطارا من الهجن أيضا بكيران ساذجة، و أربعة قطر جمال بخاتىّ لكل جمل منها سنامان و ثمانين جملا عرابا. و باسم ولد السلطان سيّدى محمد عشرين فرسا و خمسة عشرة جملا و ثيابا و غيرها. و فى عشرينه خلع عليه السلطان خلعة السفر و توجّه إلى محلّ ولايته بدمشق.

و فى خامس عشرينه نزل السلطان لعيادة ألطنبغا الجوبانىّ ثانيا ففرش له الجوبانىّ شقاق الحرير السّكندرىّ و شقاق نخّ من باب إسطبله إلى حيث هو مضطجع، فمشى عليها السلطان بفرسه، ثم بقدميه فنثرت عليه الدنانير و الدراهم.

و قدّم له الجوبانىّ جميع ما عنده من المماليك و الخيل، فلم يأخذ السلطان شيئا منها، و جلس ساعة عنده ثم عاد إلى القلعة.

و فى ثالث عشر جمادى الأولى غضب السلطان على القاضى تقىّ الدين عبد الرحمن ابن القاضى محب الدين محمد [بن يوسف بن أحمد] ناظر الجيوش المنصورة بسبب إقطاع الأمير زامل أمير عرب آل فضل و ضربه بالدواة، ثم امر به فضرب بين

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۲۳۹

يديه نحو ثلثمائة عصاة و كان ترفا، فحمل فى محفّة إلى داره بالقاهرة، فلزم الفراش إلى أن مات بعد ثلاثة أيام فى ليلة الخميس سادس عشر جمادى الأولى. و أخلع السلطان على موفّق الدّين أبى الفرج [الأسلمى] ناظر الخاصّ و استقرّ به فى نظر الجيش مضافا لنظر الخاصّ و الذّخيرة و لاستيفاء الصحبة.

و فى أثناء شهر رجب المذكور استبدل السلطان خان الزّكاة من ذرّية الملك الناصر محمد بن قلاوون بقطعة أرض و أمر بهدمه و عمارة مدرسة مكانه، و أقام السلطان على عمارتها الأمير جاركس الخليلىّ أمير آخور، فابتدأ بهدمه و شرع فى عمارة المدرسة المعروفة بالبرقوقيّة بين القصرين، فلمّا كان يوم الاثنين ثانى شعبان مات تحت الهدم جماعة من الفعلة. و فى خامسه ركب السلطان إلى رؤية عمارته المذكورة و عاد إلى القلعة، ثم سار إلى سرحة سرياقوس على العادة بحريمه و خواصّه فى ندمائه و سائر الأمراء و الأعيان ثم عاد بعد أيام.

ثمّ نزل فى يوم الثلاثاء سادس عشر شهر رمضان لعيادة الشيخ أكمل الدّين الشيخ بالشّيخونيّة. ثمّ نزل فى يوم الخميس ثامن عشرة ليصلّى عليه فظهر أنه أعمى عليه و لم يمت، فعاد السلطان و نزل فى يوم تاسع عشره حتى صلّى عليه بمصلّاة المؤمنىّ من تحت القلعة و مشى على قدميه أمام النّعش من المصلّى إلى خانقاه شيخون مع الناس فى الجنازة بعد ما أراد أن يحمل النعش غير مرّة فتحمله الأمراء

عنه و ما زال واقفا على قبره حتى دفن و عاد إلى القلعة، كلّ ذلك لاعتقاده فى دينه و غزير علمه و لقدم صحبته معه. و من يوم مات الشيخ أكمل الدين صار الشيخ سراج الدين عمر البلقينى يجلس مكانه عن يمين السلطان.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١١، ص: ٢۴٠

ثم خلع السلطان على الشيخ عزّ الدين يوسف بن محمود الرّازىّ العجمىّ باستقراره فى مشيخة خانقاه شيخون عوضا عن الشيخ أكمل الدين المذكور.

ثم فى حادى عشر شوّال قدم الأمير يلبغا الناصرىّ نائب حلب إلى القاهرة و عدّى إلى السلطان ببرّ الجيزة، و عاد معه من برّ الجيزة، بعد ما غاب [عن] صحبة السلطان أياما فى يوم الخميس أوّل ذى القعدة. و فى خامسه خلع عليه خلعة السّفر و توجّه إلى محلّ كفالته بحلب، و هذا قدوم يلبغا الناصرىّ ثانى مرّة، بعد سلطنة الملك الظاهر برقوق.

و فى يوم الخميس ثانى ذى القعدة أسّست المدرسة الظاهريّة ببين القصرين موضع خان الزكاة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١١، ص: ٢۴١

و فى يوم الاثنين رابع ذى الحجّة خلع السلطان على القاضى بدر الدين محمد بن فضل اللّه باستقراره فى وظيفة كتابة السّرّ على عادته بعد وفاة القاضى أوحد الدين.

و فى ثامن عشرين ذى الحجّة استجدّ السلطان لقرافة مصر واليا أمير عشرة و هو سليمان الكردىّ و أخرجت عن والى مدينة مصر و لم يعهد هذا فيما مضى.

و فيه نقل الأمير كمشبغا الحموىّ اليلبغاوىّ من نيابة صفد إلى نيابة طرابلس عوضا عن مأمور القلمطاوىّ و هذه ولاية كمشبغا لنيابة طرابلس ثانى مرّة.

و فى يوم الاثنين ثانى محرّم سنة سبع و ثمانين و سبعمائة استقرّ الأمير سودون المظفرىّ حاجب حجاب حلب فى نيابة حماة بعد عزل الأمير صنجك و توجّه إلى طرابلس أميرا بها.

و فى يوم الجمعة ثالث شهر رجب توجّه الأمير حسن قجا على البريد لإحضار يلبغا الناصرىّ نائب حلب.

و فى عشرينه خرج من القاهرة الأمير كمشبغا الخاصّكىّ الأشرفىّ على البريد لنقل سودون المظفّرى فى نيابة حماة إلى نيابة حلب؛ عوضا عن الأمير يلبغا الناصرىّ.

و أما الناصرىّ فإنّه لما وصل إلى مدينة بلبيس قبض عليه و قيّد و حمل إلى الإسكندريّة و احتاط محمود شادّ الدواوين على أمواله بحلب و من يومئذ أخذ أمر الملك الظاهر فى إدبار بقبضه على الأمير يلبغا الناصرىّ بغير ذنب.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١١، ص: ٢۴٢

ثمّ فى يوم الاثنين ثانى عشرين ذى الحجّة قبض السلطان على الأمير ألطنبغا الجوبانى أمير مجلس و قيّده و حبسه ثم أفرج عنه بعد أيام و خلع عليه بنيابة الكرك عوضا عن تمرداش القشتمرىّ.

ثم فى محرّم سنة ثمان و ثمانين و سبعمائة قبض الملك الظاهر على جماعة من المماليك السلطانية و ضربهم بالمقارع لكلام بلغه عنهم أنهم اتّفقوا على الفتك به، ثمّ قبض سريعا على الأمير تمربغا الحاجب، و كان اتّفق مع هؤلاء المذكورين و سمّره و معه عشرة من المماليك المذكورين، [أركب] كلّ مملوكين على جمل، ظهر أحدهما إلى ظهر الآخر و أفرد تمربغا المذكور على جمل وحده ثم وسّطوا الجميع، فكان هذا اليوم من أشنع الأيام، و كثر الكلام بسببهم فى حقّ الملك الظاهر إلى الغاية.

و فى خامس عشرينه قبض السلطان على ستة عشر من مماليك الأمير الكبير أيتمش و نفوا إلى الشام. ثمّ تتبع السلطان من بقى من المماليك الأشرفية فقبض على كثير منهم و أخرجوا من القاهرة إلى عدّة جهات.

و فى يوم الخميس ثانى عشر شهر ربيع الأوّل رسم السلطان بالإفراج عن الأمير يلبغا الناصرىّ نائب حلب كان و نقله من سجن

الإسکندريّة إلى ثغر دمياط و أذن له أن يركب و يتنزّه حيث شاء.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ١١، ص: ٢۴٣

و فى شهر ربيع الآخر غضب السلطان على موفّق الدين أبى الفرج ناظر الجيش و ضربه نحو مائة و أربعين عصاة و أمر بحبسه.

و فى يوم الخميس رابع عشر جمادى الآخرة نقلت رمم أولاد السلطان الخمسة من مدافنهم إلى القبّة بالمدرسة الظاهريّة التى أنشأها الملک الظاهر بين القصرين و نقلت أيضا رمّة والد الملک الظاهر الأمير آنص عشاء و الأمراء مشاة أمام نعشه، حتى دفن أيضا بالقبّة المذكورة.

ثمّ فى يوم الأربعاء حادى عشرة نزل الأمير جاركس الخليلىّ الأمير آخور إلى المدرسة الظاهريّة المقدّم ذكرها بعد فراغها و هيّا بها الأطعمة و الحلاوات و الفواكه.

ثمّ ركب السلطان من الغد فى يوم الخميس و نزل من القلعة بأمرائه و خاصّكيّته إلى المدرسة المذكورة، و قد اجتمع القضاة و أعيان الدولة، فمدّ بين يديه سماطا جليلا، أوّله عند المحراب و آخره عند البحرة التى بوسط المدرسة، و أكل السلطان و القضاة و الأمراء و المماليک، ثمّ تناهبت الناس بقيّته، ثم مدّ سماط الحلوات و الفواكه و ملئت البحرة التى بصحن المدرسة من مشروب السّكّر، ثم بعد رفع السماط أخلع السلطان على الشيخ علاء الدين [علىّ] السّيرامىّ الحنفىّ و قد استدعاه السلطان من بلاد الشرق و استقرّ مدرّس الحنفيّة و شيخ الصوفيّة و فرش له الأمير جاركس الخليلىّ السّجّادة بيده حتّى جلس عليها. ثم خلع السلطان على الأمير جاركس الخليلىّ شاد عمارة المدرسة المذكورة و على المعلّم شهاب الدين أحمد بن الطّولونىّ المهندس و ركبا فرسين بقماش ذهب. ثم خلع السلطان على خمسة عشر نفرا من مماليک

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ١١، ص: ٢۴۴

جاركس الخليلىّ ممن باشروا العمل مع أستاذهم و أنعم على كلّ منهم بخمسمائة درهم.

ثم خلع السلطان على مباشرى العمارة.

و لمّا جلس الشيخ علاء الدين السّيرامىّ على السّجّادة تكلّم على قوله تعالى:

قُلِ اللَّهُمَّ مالِکَ الْمُلْکِ الآية. ثم قرأ القارئ عشرا من القرآن و دعا. و قام السلطان و ركب بأمرائه و خاصّكيّته و عاد إلى القلعة، بعد أن خرج من باب زويلة، فكان هذا اليوم من الأيام المشهودة.

ثمّ بدا للسلطان بعد ذلک أن يقبض على الأمير بيدمر الخوارزمىّ نائب الشام، فأرسل طاووسا البريدىّ للقبض عليه و رسم للأمير تمربغا المنجكى أن يتوجّه على البريد لتقليد الأمير إشقتمر الماردينىّ عوضه بنيابة الشام و كان إشقتمر بالقدس بطّالا، و قد تقدم أنّ إشقتمر هذا ولى نيابة حلب فى أيّام السلطان حسن الأولى و يلبغا أستاذ برقوق يوم ذاک خاصّكىّ، فانظر إلى تقلّبات الدهر.

و فى يوم الجمعة عاشر شهر رمضان من سنة ثمان و ثمانين و سبعمائة أقيمت الجمعة بالمدرسة الظاهريّة المذكورة و خطب بها جمال الدين محمود القيصرى العجمىّ المحتسب.

و حجّ فى هذه السنة الأمير جاركس الخليلىّ بتجمّل كبير و حجّ من الأمراء كمشبغا الخاصّكىّ الأشرفىّ و محمد بن تنكز [بن] بغا و جاركس المحمودىّ.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ١١، ص: ٢۴۵

و فى يوم الاثنين [خامس] عشرين شوّال استدعى السلطان زكريّا ابن الخليفة المعتصم بالله أبى إسحاق إبراهيم- و إبراهيم المذكور لم يل الخلافة- ابن المستمسک بالله أبى عبد اللّه محمد- و كذلک المستمسک لم يل الخلافة- ابن الخليفة الحاكم بأمر اللّه أحمد العباسىّ و أعلمه السلطان أنّه يريد أن ينصّبه فى الخلافة، بعد وفاة أخيه الواثق بالله عمر.

ثم استدعى السلطان القضاة و الأمراء و الأعيان، فلمّا اجتمعوا أظهر زكريّاء المذكور عهد عمّه المعتضد له بالخلافة، فخلع السلطان عليه

خلعة غير خلعة الخلافة و نزل إلى داره. فلمّا كان يوم الخميس ثامن عشرينه طلع الخليفة زكرياء المذكور إلى القلعة و أحضر أعيان الأمراء و القضاة و الشيخ سراج الدين عمر البلقينى فبدأ البلقينىّ بالكلام مع السلطان فى مبايعة زكريّاء على الخلافة فبايعه السلطان أوّلا، ثم بايعه من حضر على مراتبهم و نعت بالمستعصم بالله و خلع عليه خلعة الخلافة على العادة و نزل إلى داره و بين يديه القضاة و أعيان الدولة.

ثم طلع زكرياء المذكور فى يوم الاثنين ثانى ذى القعدة و خلع عليه السلطان ثانيا بنظر المشهد النفيسىّ على عادة من كان قبله من الخلفاء، و لم تكن هذه العادة قديما، بل حدثت فى هذه السنين.

و فى خامس عشرين ذى الحجة قدم مبشّر الحاجّ السّيفىّ بطا الخاصّكىّ و أخبر أنّ الأمير آقبغا الماردينىّ أمير الحاجّ لمّا قدم مكّة خرج الشريف محمد بن أحمد ابن عجلان أمير مكّة لتلقّيه على العادة و نزل و قبّل الأرض ثم قبّل خفّ جمل المحمل.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۲۴۶

و عند ما انحنى و ثب عليه فداويّان، ضربه أحدهما بخنجر فى عنقه و هما يقولان:

غريم السلطان فخرّ ميتا و تمّ نهاره ملقى حتى حمله أهله و واروه و كان كبيش على بعد، فقتل الفداويّة رجلا آخر يظنّوه كبيشا و أقام أمير الحاجّ لابس السلاح سبعة أيام خوفا من الفتنة، فلم يتحرّك أحد، ثم خلع أمير الحاجّ على الشريف غنان باستقراره أمير مكّة عوضا عن محمد المذكور و تسلّمها.

ثمّ فى تاسع عشرين ذى الحجة قدمت رسل الحبشة بكتاب ملكهم الحطّى و اسمه داود بن سيف أرعد و معهم هديّة على [أحد و] عشرين جملا، فيها من طرائف بلادهم، من جملتها قدور قد ملئت حمّصا صنع من ذهب إذا رآه الشخص يظنّه حمصا و غير ذلك.

ثم فى يوم السبت سابع عشر صفر من سنة تسع و ثمانين و سبعمائة قدم الأمير ألطنبغا الجوبانىّ نائب الكرك باستدعاء، فأخلع عليه السلطان باستقراره فى نيابة دمشق عوضا عن إشقتمر الماردينىّ و عزل إشقتمر و لم تكمل ولايته على دمشق عشرة أشهر و أقام ألطنبغا الجوبانىّ بالقاهرة ثلاثة أيام و سافر فى يوم تاسع عشره بعد ما أنعم عليه الملك الظاهر بمبلغ ثلاثمائة ألف درهم فضّة و فرس بسرج ذهب و كنبوش زركش و أرسل إليه الأمير أيتمش بمائة ألف درهم و عدّة بقج ثياب و استقرّ مسفّره الأمير قرقماس الظاهرىّ و خرج الجوبانىّ من مصر بتجمّل عظيم.

ثم رسم باستقرار الأمير ناصر الدين محمد بن مبارك المهمندار فى نيابة حماة عوضا عن الأمير سودون العثمانى، و استقرّ سودون العثمانى على إقطاع محمد بن المهمندار المذكور بحلب.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة؛ ج ۱۱؛ ص ۲۴۷

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۲۴۷

و فى آخر جمادى الآخرة من السنة و هى سنة تسع و ثمانين ورد الخبر على السلطان بأن تيمور لنك صاحب بلاد العجم كبس الأمير قرا محمد صاحب مدينة تبريز و كسره ففرّ منه قرا محمد فى نحو مائتى فارس و توجّه بهم إلى جهة ملطية و نزل هناك و نزل تيمور لنك على آمد فاستدعى السلطان القضاة و الفقهاء و الأمراء و تحدّث معهم فى أخذ الأوقاف من البلاد بسبب ضعف عسكر مصر فكثر الكلام فى ذلك و صمّم الملك الظاهر على إخراج الجميع للجند، ثم رجع عن ذلك و رسم بتجهيز أربعة أمراء من أمراء الألوف بالديار المصريّة و هم: الأمير ألطنبغا المعلّم أمير سلاح و الأمير قردم الحسنى رأس نوبة النّوب و الأمير يونس النّوروزىّ الدوادار الكبير و الأمير سودون باق و سبعة أمراء أخر من أمراء الطبلخانات و عيّن معهم من أجناد الحلقة ثلاثمائة فارس فتجهّز الجميع و خرجوا من القاهرة فى أوّل شهر رجب و ساروا إلى حلب و نائبها يوم ذاك سودون المظفّرى و قد وصل إليه الخبر بأن قرا محمدا واقع ابن تيمور لنك و كسره و رجع إلى بلاده.

و بعد خروج العسكر استدعى السلطان فى سادس عشرين شعبان من سنة تسع و ثمانين المذكورة الشيخ ناصر الدين ابن بنت الميلق و

ولّاه قضاء الشافعيّة بالديار المصرية بعد عزل القاضى بدر الدين محمد بن أبى البقاء عنها بعد ما تمنّع

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۲۴۸

ابن الميلق المذكور من قبول القضاء تمنّعا زائدا و صلى ركعتى الاستخارة حتى أذعن، فألبسه السلطان الملك الظاهر تشريف القضاء بيده و أخذ طيلسانه يتبرّك به و نزل و بين يديه عظماء الدولة إلى المدرسة الصالحية، فداخل أرباب الدولة بولايته خوف و وهم و ظنّوا أنه يحمل الناس على محض الحق و أنه يسير على طريق السّلف من القضاة، قال الشيخ تقىّ الدين المقريزىّ- رحمه اللّه- لما ألفوه من تشدّقه فى وعظه و تفخّمه فى منطقه و إعلانه فى التّنكير على الكافة و وقيعته فى القضاة و اشتماله على لبس المتوسّط من الخشن و معيبه على أهل التّرف.

و كان أوّل ما بدأ به أن عزل قضاة مصر كلهم من العريش إلى أسوان و بعد يومين تكلّم معه الحاجّ مفلح مولى القاضى بدر الدين بن فضل اللّه كاتب السرّ فى إعادة بعض من عزله من القضاة، فأعاده، فانحلّ ما كان معقودا بالقلوب من مهابته. ثمّ قلع زيّه الذى كان يلبسه و لبس الشاش الكبير الغالى الثمن و نحوه و ترفّع فى مقاله و فعاله، حتى كاد يصعد الجوّ و شحّ فى العطاء و لاذ به جماعة غير محبّبين إلى الناس فانطلقت ألسنة الكافّة بالوقيعة فى عرضه و اختلقوا عليه ما ليس فيه.

انتهى كلام المقريزىّ باختصار.

قلت: كل ذلك و الملك الظاهر لا يسمع فيه قول قائل، حتى كانت وقعة الناصرىّ و منطاش مع الملك الظاهر برقوق و حبس الملك الظاهر بالكرك و كان هو قاضيا يومئذ فوقع فى حقّ الظاهر و أساء القول فيه، فبلغ الظاهر ذلك قبل

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۲۴۹

ذهابه إلى الكرك و هو بسجن القلعة فأسرّها فى نفسه على ما سنذكره فى محلّه فى سلطنة الملك الظاهر الثانية إن شاء اللّه تعالى.

ثمّ ورد الخبر على السلطان الظاهر بأن العسكر المجرّد من الديار المصرية عاد إلى حلب و كان توجّه نحو ديار بكر صحبة نوّاب البلاد الشامية و عاد و كان الأمير ألطنبغا الجوبانىّ نائب الشام مقدّم العساكر و خرج بثقل عظيم و زدخاناه هائلة، جدّدها بدمشق حتى إنه رسم لفضلاء دمشق أن ينظموا له ما ينقش على أسنّة الرّماح، فنظم له القاضى فتح الدين محمد بن الشهيد كاتب سرّ دمشق:

[البسيط]

إذا الغبار علا فى الجوّ عثيره و أظلم الجوّ ما للشمس أنوار

هذا سنانى نجم يستضاء به كأنّنى علم فى رأسه نار

و السيف إن نام ملء الجفن فى غلف فإننى بارز للحرب خطّار

إنّ الرماح لأغصان و ليس لها سوى النجوم على العيدان أزهار

و نظم القاضى صدر الدين علىّ بن الآدمىّ الدمشقىّ الحنفى فى المعنى فقال:

[الكامل]

النصر مقرون بضرب أسنة لمعانها كو ميض برق يشرق

سبكت لتسبك كلّ خصم مارد و تطرّقت لمعاند يتطرّق

زرق تفوق البيض فى الهيجاء إذ يحمرّ من دمه العدوّ الأزرق

ينسجن يوم الحرب كلّ كتيبة تحت الغبار فنصرهنّ محقّق

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۲۵۰

و نظم الشيخ شمس الدين محمد المزيّن الدّمشقىّ فى المعنى و أجاد إلى الغاية:

[الكامل]

أنا أسمر و الراية البيضاء لى لا للسيوف و سل من الشّجعان

لم يحل لى عيش العداة لأننى نوديت يوم الجمع بالمرّان

و إذا تغاتمت الكماة بجحفل كلّمتهم فيه بكلّ لسان

فتخالهم غنما تساق إلى الرّدى قهرا لمعظم سطوة الجوبانى

ثمّ فى شوّال خرج السلطان من القاهرة إلى سرياقوس على العادة فى كل سنة، و استدعى به بالأمير يلبغا الناصرىّ من ثغر دمياط، فوصل إلى سرياقوس فى ثالث عشر شوّال و قبّل الأرض بين يدى السلطان، فأكرمه السلطان و أنعم عليه بمائة فرس و مائة جمل و سلاح كثير [و مال] و ثياب و أشياء غير ذلك، قيمة ذلك كله خمسمائة ألف درهم فضة، و أهدى إليه سائر الأمراء على العادة، كل واحد على قدر حاله.

ثم عاد السلطان من سرياقوس فى أوّل ذى القعدة، و خلع على الأمير يلبغا الناصرىّ المذكور فى خامس ذى القعدة من سنة تسع و ثمانين المذكورة باستقراره فى نيابة حلب على عادته، عوضا عن سودون المظفرىّ بحكم استقرار سودون المظفرىّ أتابك حلب و أمره بالتجهيز، و هذه ولاية الناصرىّ الثالثة على حلب،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١١، ص: ٢٥١

فأصلح الأمير يلبغا الناصرىّ أمره و تهيأ للسفر، و خرج فى ثامن ذى القعدة إلى الرّيدانيّة، بعد أن أخلع السلطان عليه خلعة السفر، و سافر من الريدانية فى تاسعه بتجمّل عظيم و برك هائل و مسفّره الأمير جمق ابن الأمير أيتمش البجاسىّ، و بعد خروجه بثلاثة أيام قدم البريد من البلاد الشامية بأنّ تمربغا الأفضلى الأشرفىّ المدعوّ منطاش نائب ملطية خرج عن الطاعة و وافقه القاضى برهان الدين أحمد صاحب سيواس و قرا محمد التّركمانى و نائب البيرة و يلبغا المنجكىّ و عدّة كبيرة من خشداشيّة منطاش من المماليك الأشرفية و أنه انضم عليه جماعة كبيرة من التّركمان، فتشوّش السلطان فى الباطن و لم يظهر ذلك، و ندم على توليته يلبغا الناصرىّ على نيابة حلب، غير أنه لم يسعه إلا السّكات.

ثم ركب السلطان الملك الظاهر فى ثانى يوم جاء الخبر بعصيان منطاش و عدّى البحر إلى برّ الجيزة و تصيّد و عاد فى سادس عشرينه، و بعد عوده بأيام وصل قاصد الأمير تمربغا الأفضلى الأشرفىّ المدعوّ منطاش نائب ملطية يخبر أنه ما نافق و أنه باق على طاعة السلطان، فأخذ السلطان فى أخبار القاصد و أعطى، و بينما هو فى ذلك قدم البريد من حلب فى إثره يخبر السلطان بأنّ منطلق المذكور عاص، و أنه ما أرسل يقول: إنه باق على الطاعة إلّا ليدفع عن نفسه حتى يخرج فصل الشتاء و يدخل فصل الربيع و تذوب الثلوج، فسيّر السلطان السيفىّ ملكتمر الدوادار بعشرة آلاف دينار إلى الأمراء المجرّدين قبل تاريخه توسعة لهم، و أمره فى الباطن بالفحص عن أخبار منطاش و حقيقة أمره، و بعد خروج ملكتمر فشا الطاعون بالقاهرة و نواحيها فى شهر ربيع الأوّل من سنة تسعين و سبعمائة، و اشتغل الناس بمرضاهم و أمواتهم عن غيره.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١١، ص: ٢٥٢

ثمّ أخلع السلطان على الأمير أيدكار العمرىّ اليلبغاوىّ الحاجب الثانى و أحد مقدّمى الألوف، باستقراره حاجب الحجاب بالديار المصرية، عوضا عن قطلوبغا الكوكائىّ بعد شغورها عنه أربع سنين، و أضيف إليه نظر خانقاة شيخون، و استقرّ الأمير زين الدين أبو بكر بن سنقر عوضه حاجبا ثانيا حاجب ميسرة بتقدمة ألف.

ثم فى حادى عشرين جمادى الأولى من السنة قدم صراى تمر دوادار الأمير يونس النّوروزىّ الدوادار، و مملوك نائب حلب الأمير يلبغا الناصرىّ يخبران بأنّ العسكر توجّه إلى سيواس و قاتلوا عسكرها، و قد استنجد أهل سيواس بالتتر، فأتاهم من التتر نحو الستين ألفا فحاربهم العسكر المصرىّ و الحلبىّ يوما كاملا حتى هزموهم و حصروا سيواس بعد ما قتل كثير من الفريقين و جرح معظمهم، و أنّ الأقوات عندهم عزيزة، فجهّز السلطان للعسكر المذكور خمسين ألف دينار مصرية و شكرهم و سار بالذهب ملكتمر الدوادار ثانيا بعد

قدومه مصر بأيام قليلة.

و كان خروج ملكتمر فى هذه المرّة الثانية بالذهب فى سابع عشرين جمادى الآخرة، هذا ما أخبره صراى تمر دوادار ثانى يونس الدّوادار.

و أمّا ما وقع من بعده هناك فإنّ العسكر تحرّك إلى الرحيل عن سيواس لطول مكثهم، و عند ما ساروا هجم عليهم التتر من خلفهم، فاحترز الأمير يلبغا الناصرىّ نائب حلب إلى جهة حتى صار خلفهم، ثم طرقهم بمن معه و وضع السيف فيهم،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۲۵۳

فقتل منهم خلائق كثيرة و أسر منهم نحو الألف و أخذ منهم نحو عشرة آلاف فرس و عاد العسكر سالما إلى حلب؛ فقدم هذا الخبر الثانى أيضا على يد بعض مماليك الأمير يونس الدوادار، فسرّ السلطان بذلك و دقّت البشائر بالديار المصرية، و رسم السلطان بعود العسكر المصرىّ إلى نحو الديار المصرية، فعادوا إليها فى ثالث شعبان من سنة تسعين و سبعمائة، فكانت غيبتهم عن القاهرة سنة و عدّة أيام. و لمّا وصلوا و طلعوا إلى القلعة أخلع عليهم السلطان الخلع الهائلة و شكرهم و نزلوا إلى دورهم، و كثرت التهانئ لمجيئهم.

ثمّ فى خامس عشر شعبان المذكور طلب السلطان الأمير الطواشى بهادر مقدّم المماليك السلطانية، فلم يجده بالقلعة ثم أحضر سكرانا من بيت على بحر النيل، فغضب السلطان عليه و نفاه إلى صفد على إمرة عشرة بها، و أخلع على الطواشى شمس الدين صواب السّعدىّ المعروف بشنكل الأسود بتقدمة المماليك السلطانية عوضا عن بهادر المذكور، و استقرّ الطواشى سعد الدين بشير الشّرفىّ فى نيابة المقدّم عوضا عن شنكل المذكور.

و حجّ فى هذه السنة أيضا الأمير جاركس الخليلىّ الأمير آخور الكبير أمير حاجّ الأوّل. و كان أمير حاجّ المحمل الأمير آقبغا المارديني و خرج الحجّ من مصر فى عاشر شوّال، و فى أثناء ذلك قدم الخبر بعصيان الأمير ألطنبغا الجوبانىّ نائب الشام و أنه ضرب الأمير طرنطاى حاجب حجّاب دمشق و استكثر من استخدام المماليك و شاع ذلك بالقاهرة و كثرت القالة بين الناس بهذا الخبر، فلمّا بلغ الأمير ألطنبغا الجوبانىّ ذلك أرسل استأذن السلطان فى الحضور إلى الديار المصرية، فأذن له السلطان فى ذلك و فى ظنّ كلّ أحد أنه لم يحضر، فعندما جاءه الإذن ركب البريد من دمشق

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۲۵۴

فى خواصه و سار حتى نزل سرياقوس خارج القاهرة فى ليلة الخميس سابع عشرين شوّال من سنة تسعين المذكورة، و بلغ السلطان ذلك فأرسل إليه الأمير فارسا الصّرغتمشىّ أمير جاندار، فقبض عليه من سرياقوس و قيّده و سيّره إلى سجن الإسكندرية صحبة الأمير ألجيبغا الجمالىّ الدوادار.

ثمّ رسم السلطان بأنّ طرنطاى حاجب حجاب دمشق يستقرّ فى نيابة دمشق عوضا عن الأمير ألطنبغا الجوبانىّ المذكور، و حمل إليه التشريف و التقليد الأمير سودون الطّرنطائىّ، فعظم مسك الأمير ألطنبغا الجوبانىّ على الناس كونه ظهر للسلطان براءته ممّا نقله عنه أعداؤه و كونه من أكابر اليلبغاويّة، و لم يسعهم إلا السكات لفوات الأمر.

ثم كتب السلطان كتابا لأمراء طرابلس و أرسله على يد بعض خواصّه بالقبض على الأمير كمشبغا الحموىّ اليلبغاوىّ نائب طرابلس، فقدم سيفه فى عاشر ذى القعدة فتأكّد تشويش الناس بمسك كمشبغا أيضا، فإنه أكبر مماليك يلبغا العمرىّ.

و ممّن صار فى أيام أستاذه يلبغا أمير طلبخاناه، و توجّه الأمير شيخ الصّفوىّ بتقليد الأمير أسندمر المحمّدىّ حاجب حجّاب طرابلس بنيابة طرابلس عوضا عن كمشبغا الحموىّ المقدّم ذكره.

ثم نفى السلطان الملك الظاهر الأمير كمشبغا الخاصّكىّ الأشرفىّ، أحد أمراء الطبلخانات و رأس نوبة إلى طرابلس، فسار من دمياط، لأنّه كان فى اليزك بالثّغر المذكور.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۲۵۵

ثمّ قدم البريد بعشرين سيفا من سيوف الأمراء الذين قبض عليهم من أمراء البلاد الشامية، ثم كتب السلطان بالقبض على الأمراء البطّالين ببلاد الشام جميعا، ثم أعيد سودون العثمانىّ إلى نيابة حماة بحكم خروج كشلى منها إلى نيابة ملطية، عوضا عن منطاش، و كان كشلى ولى نيابة حماة قبل تاريخه بمدّة يسيرة عوضا عن ابن المهمندار.

ثم فى ثانى ذى القعدة قدمت رسل قرا محمد و أخبروا أنه أخذ مدينة تبريز، و ضرب بها السّكّة باسم السلطان الملك الظاهر برقوق، و دعا له على منابرها و سيّر دنانير و دراهم، عليها اسم السلطان، و سأل أن يكون نائبا بها عن السلطان فأجيب بالشكر و الثناء، هذا و الخواطر قد نفرت من الملك الظاهر لكثرة قبضه على الأمراء من غير موجب، و تخوّف كلّ أحد منه، على نفسه حتى خواصّه و كثر تخيّل الأمراء منه، و بينما هم فى ذلك أشيع بالديار المصريّة بعصيان الأمير يلبغا الناصرىّ نائب حلب، و كثر هذا الخبر فى محرّم سنة إحدى و تسعين و سبعمائة. و سبب ذلك أنه وقع بين الأمير يلبغا الناصرىّ و بين سودون المظفّرىّ أتابك حلب المعزول عن نيابة حلب قبل تاريخه، و كاتب كلّ منهما فى الآخر، فاحتار السلطان بينهما و قد قوى تخوّفه من الناصرىّ.

قال المقريزىّ- رحمه اللّه-. و كان أجرى اللّه سبحانه و تعالى على ألسنة العامّة: من غلب، صاحب حلب، حتى لا يكاد صغير و لا كبير إلا يقول ذلك، حتى كان من أمر الناصرىّ نائب حلب ما كان. انتهى كلام المقريزى.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ١١، ص: ٢٥۶

و لمّا شاع ذلك جمع السلطان الأمراء و الخاصّكيّة فى يوم الأحد خامس صفر بالميدان من تحت القلعة و شرب معهم القمزّ، و قرّر لشربه معهم يومى الأحد و الأربعاء، يروم بذلك أخذ خواطرهم.

ثمّ فى عاشره بعث السلطان هديّة للأمير يلبغا الناصرىّ نائب حلب فيها عدّة خيول بقماش ذهب [وقباء] و استدعاه ليحضر ليعمل معه مشورة فى أمر منطاش، فلمّا أتاه رسول السلطان بالحضور إلى الديار المصرية، خشى أن يفعل به كما فعل بالأمير ألطنبغا الجوبانىّ نائب الشام من مسكه و حبسه بالإسكندرية، فكتب يعتذر عن الحضور إلى حضرة السلطان بحركة التّركمان و عصيان منطاش، و أنه يتحوّف على البلاد الحلبية منهم، و مهما كان للسلطان من حاجة يرسل يعرّفه ليقوم بقضائها، و عاد رسول السلطان إلى مصر بهذا الجواب، فلم يقبل السلطان ذلك منه فى الباطن و قبله فى الظاهر و قد كثر تخيّله منه، و أخذ فى التدبير على الأمير يلبغا الناصرىّ مع خواصّه، حتى اقتضى رأى الجميع على إرسال تلكتمر الدوادار إلى حلب بحيلة دبّروها، فخرج تلكتمر المحمّدىّ الدوادار المذكور و على يده مثالان ليلبغا الناصرىّ نائب حلب و لسودون المظفرىّ أتابك حلب المقدّم ذكره أن يصطلحا بحضرة الأمراء و القضاة و الأعيان و سير معه خلعتين يلبسانها بعد صلحهما و حمل السلطان فى الباطن مع ملكتمر عدّة مطالعات إلى سودون المظفرىّ و غيره من أمراء حلب و أرباب وظائفها بالقبض على الناصرىّ و قتله إن امتنع من الصلح و كان مملوك الناصرىّ قد تأخر بالقاهرة عن السفر لحلب ليفرّق كتبا

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ١١، ص: ٢٥٧

من أستاذه على أمراء مصر، يدعوهم فيها إلى موافقته على الخروج على السلطان و أخّر السلطان أيضا جواب الناصرىّ الوارد على يد مملوكه المذكور، عامدا حتى يسبقه تلكتمر الدوادار إلى حلب. و كان مملوك الناصرىّ المذكور يقظا حاذقا، فبلغه ما على يد تلكتمر الدوادار من المطالعات بالقبض على أستاذه يلبغا الناصرىّ و علم أنه عوّق حتى سافر تلكتمر. ثم أعطى الجواب، فأخذه و خرج من مصر فى يومه و سار مسرعا و جدّ فى السّوق حتى سبق تلكتمر الدوادار إلى حلب و عرّف أستاذه بخبر تلكتمر كلّه سرّا، فأخذ الناصرىّ فى الحذر. و يقال: إنّ تلكتمر الدّوادار كان بينه و بين الشيخ حسن رأس نوبة الناصرىّ مصاهرة، فلما قرب من حلب بعث يخبر الشيخ حسنا المذكور بما أتى فيه، فعلى كل حال احترز الناصرىّ.

و هذا الخبر الثانى يبعد و الأوّل أقرب و أقوى عندى من كلّ وجه.

ثمّ لمّا تحقّق الناصرىّ ما جاء فيه تلكتمر احترز على نفسه و تعبّأ، فلما قرب تلكتمر من حلب، خرج الأمير يلبغا الناصرىّ من حلب و

لاقاه على العادة مظهرا لطاعة السلطان و قبّل الأرض و أخذ منه مثاله و عاد به إلى دار السعادة بحلب و قد اجتمع الأمراء و القضاة و غيرهم لسماع مرسوم السلطان و تأخّر الأمير سودون المظفّرى أتابك حلب عن الحضور و لم يعجبه ما فعله الملك الظّاهر برقوق من حضوره عند الناصرىّ لمعرفته بقوّة الناصرىّ و كثرة مماليكه، فأرسل له الناصرىّ- غير قاصد- يستعجله للحضور فلم يجد بدّا من الحضور و حضر و هو لابس آلة الحرب من تحت قماشه خوفا على نفسه من الناصرىّ و حواشيه، فعندما دخل سودون المظفّرىّ إلى دهليز دار السّعادة. جسّ قازان اليرقشىّ أمير آخور الناصرىّ كتفه فوجد السلاح،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۲۵۸

فقال: يا أمير! الذى يجىء للصلح يدخل دار السعادة و عليه السلاح و آلة الحرب، فسبّه سودون المظفّرىّ فسلّ قازان سيفه و ضربه به و أخذت سودون المظفّرى السّيوف من كل جانب من مماليك الناصرىّ الذين كان رتّبهم لهذا الأمر، فقتل سودون المظفرىّ بعد أن جرّدت مماليكه أيضا سيوفهم و قاتلوا مماليك الناصرىّ ساعة هيّنة و قتل من الفريقين أربعة أنفس لا غير و ثارت الفتنة.

ففى الحال قبض الناصرىّ على حاجب حجّاب حلب و على أولاد المهمندار و كانا مقدّمى ألوف بحلب و على عدّة أمراء أخر ممن يخشاهم و يخاف عاقبتهم. ثم ركب الناصرىّ إلى القلعة و تسلّمها و استدعى التركمان و العربان و كتب إلى تمربغا الأفضلىّ الأشرفىّ المعروف بمنطاش يدعوه إلى موافقته، فسرّ منطاش بذلك و قدم عليه بعد أيام و دخل تحت طاعته. و كان الناصرىّ قد أباد منطاش و قاتله، منذ خرج عن طاعته و طاعة السلطان غير مرّة، و صار منطاش من جملة أصحابه و تعاضد الأشرفيّة و اليلبغاويّة، و اليلبغاوية هم الأكثر، فإنّ الناصرىّ من كبار اليلبغاويّة و منطاش من كبار الأشرفيّة، هذا مع ما انضم على الناصرىّ من أكابر الأمراء على ما سيأتى ذكره.

و عاد ملكتمر الدّوادار بهذا الخبر فى خامس عشر صفر، فكان عليه خبر غير صالح، فكتب السّلطان فى الحال إلى الأمير إينال اليوسفىّ أتابك دمشق و المعزول قبل تاريخه عن نيابة حلب بنيابة حلب ثانيا. و جهّز إليه التّشريف و التّقليد فى ثامن عشر صفر المذكور من سنة إحدى و تسعين و سبعمائة، و كان إينال اليوسفىّ ممن انحرف على السلطان فى الباطن من أيام ركوبه عليه، قبل أن يتسلطن و قبض عليه و حبسه سنتين، ثم أطلقه على إمرة بدمشق ثم ولّاه بعض البلاد الشامية و هى نيابة طرابلس، ثم نقله إلى نيابة حلب، فدام بها سنين، ثم عزله عنها بالأمير

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۲۵۹

يلبغا الناصرىّ و جعله أتابك دمشق، فصار فى نفسه حزازة من هذا كله على ما سيأتى ذكره.

ثمّ إن السلطان فى ثامن عشر صفر المذكور طلب الأمراء إلى القلعة و كلّهم فى أمر الناصرىّ و عصيانه و استشارهم فى أمره، فوقع الاتفاق على خروج تجريدة لقتاله و حلّف الأمراء على طاعته، ثم خرج إلى القصر الأوّل و حلّف أكابر المماليك السلطانيّة.

ثم فى تاسع عشره ضربت خيمة كبيرة بالميدان من تحت القلعة و ضرب بجانبها عدّة صواوين برسم الأمراء و نزل السلطان إلى الخيمة المذكورة و حلّف بها سائر الأمراء و أعيان المماليك السلطانيّة بل غالبهم. ثم مدّ لهم سماطا جليلا فأكلوا و انفضّوا.

ثم فى رابع عشرينه قدم البريد من دمشق بأنّ الأمير قرابغا فرج اللّه و الأمير بزلار العمرىّ الناصرىّ و الأمير دمرداش اليوسفىّ و الأمير كمشبغا الخاصّكى الأشرفىّ و آقبغا قبجق اجتمع معهم عدّة كثيرة من المماليك المنفيّين بطرابلس و وثبوا على نائبها الأمير أسندمر المحمّدىّ و قبضوا عليه و قتلوا من أمراء طرابلس الأمير صلاح الدين خليل بن سنجر و ابنه و قبضوا على جماعة كبيرة من أمراء طرابلس، ثم دخل الجميع فى طاعة الناصرىّ و كاتبوه بذلك و ملكوا مدينة طرابلس.

و فى يوم وصول هذا الخبر على السلطان عرض السلطان المماليك السلطانيّة، و عيّن منهم أربعمائة و ثلاثين مملوكا من المماليك السلطانيّة للسفر، و عيّن خمسة من أمراء الألوف بديار مصر و هم: الأمير الكبير أيتمش البجاسىّ، و الأمير جاركس

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۲۶۰

الخليليّ الأمير آخور الكبير و الأمير شهاب الدين أحمد بن يلبغا أمير مجلس و الأمير يونس النّوروزىّ الدّوادار الكبير و الأمير أيدكار حاجب الحجاب و عيّن من أمراء الطبلخاناه سبعة و هم: فارس الصّرغتمشىّ و بكلمش العلائىّ رأس نوبة و جاركس المحمّدىّ و شاهين الصّرغتمشىّ و آقبغا الصغير السلطانىّ و إينال الجاركسىّ أمير آخور و قديد القلمطاوىّ من أمراء العشرات جماعة كبيرة.

ثمّ أرسل السلطان للأمير أيتمش برسم النفقة مائتى ألف درهم فضة و عشرة آلاف دينار ذهبا مصريا. ثم أرسل إلى كل من أمراء الألوف ممن عيّن للسفر مائة ألف درهم و خمسة آلاف دينار ماخلا أيدكار حاجب الحجاب فإنه حمل إليه مبلغ ستين ألف درهم و ألفا و أربعمائة دينار.

ثم فى سادس عشرين صفر المذكور قدم الخبر من الشّام بأنّ مماليك الأمير سودون العثمانىّ نائب حماة اتّفقوا على قتله، ففرّ منهم إلى دمشق و أنّ الأمير بيرم العزّىّ حاجب حجاب حماة سلّم حماة إلى الأمير يلبغا الناصرىّ و دخل تحت طاعته، فعظم هذا الخبر أيضا على السلطان حتى كاد يهلك و عرض المماليك ثانيا و عيّن منهم أربعة و سبعين نفرا لتتمّة خمسمائة مملوك.

قلت: و لهذا تعرف هذه الواقعة بوقعة الخمسمائة و بوقعة شقحب و بوقعة الناصرىّ و منطاش. انتهى.

و فى يوم الجمعة سابع عشرين صفر رسم السلطان للأمير بجاس نائب قلعة الجبل أن يتوجّه إلى الخليفة المتوكل على اللّه أبى عبد اللّه محمد بالقلعة و ينقله من داره إلى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۲۶۱

البرج من القلعة و يضيّق عليه و يمنع الناس من الدخول إليه، ففعل بجاس ذلك، فبات الخليفة ليلته بالبرج ثم أعيد من الغد إلى مكانه بالقلعة، بعد أن كلّم السلطان الأمراء فى ذلك.

ثمّ رسم السلطان للطّواشى زين الدين مقبل الزّمام بالتّضييق على الأسياد أولاد السّلاطين بالحوش السّلطانىّ من القلعة و منع من يتردّد إليهم من الناس و الفحص عن أحوالهم، ففعل مقبل ذلك.

ثم فى يوم الاثنين ثانى شهر ربيع الأوّل خرج البريد من مصر بتقليد الأمير طغاى تمر القبلائى أحد أمراء دمشق بنيابة طرابلس.

ثم فرّق السلطان فى المماليك نفقة ثانية، فكانت الأولى لكل واحد: خمسة آلاف درهم فضّة و الثانية ألف درهم، سوى الخيل و الجمال و السلاح، فإنه فرّق فى أرباب الجوامك لكل واحد جملين و لكل اثنين من أرباب الأخباز ثلاثة جمال و رتّب لهم [اللحم] و الجرايات و العليق، فرتّب لكل من رءوس النّوب [فى اليوم] ستة عشرة عليقة و لكلّ من أكابر المماليك عشر علائق و لكل من أرباب الجوامك خمس علائق. و رسم أيضا لكل مملوك من المماليك السلطانية بخمسمائة درهم بدمشق.

ثم فى رابع عشر شهر ربيع الأوّل المذكور جلس السلطان بمسجد الرّدينىّ داخل القلعة بالحريم السلطانىّ و استدعى الخليفة المتوكّل على اللّه من مكانه بالقلعة، فلّما

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۲۶۲

دخل عليه الخليفة قام الملك الظاهر له و تلقّاه و أخذ فى ملاطفته و الاعتذار إليه و اصطلحا و تحالفا و مضى الخليفة إلى موضعه بالقلعة، فبعث السلطان إليه عشرة آلاف درهم و عدّة بقج، فيها أثواب صوف و قماش سكندرىّ.

ثمّ تواترت الأخبار على السلطان بدخول سائر الأمراء بالبلاد الشامية و المماليك الأشرفيّة و اليلبغاويّة فى طاعة الناصرىّ و كذلك الأمير سولى بن دلغادر أمير التركمان، و نعير أمير العربان و غيرهما من التركمان و الأعراب، دخل الجميع فى طاعة الناصرى على محاربة السلطان الملك الظاهر و أنّ الناصرىّ أقام أعلاما خليفتية و أخذ جميع القلاع بالبلاد الشامية، و استولى عليها ما خلا قلعة الشام و بعلبكّ و الكرك، فقلق السلطان لذلك و كثر الاضطراب بالقاهرة و كثر كلام الناس فى هذا الأمر، حتى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۲۶۳

تجاوز الحدّ و اختلفت الأقاويل، كلّ ذلك و إلى الآن لم تخرج التجريدة من مصر، فلما بلغ السلطان هذه الأخبار رسم بخروج

التجریدة، فخرجت الأمراء المذکورون قبل تاریخه فی یوم السبت رابع عشر شهر ربیع الاوّل من سنة إحدی و تسعین و سبعمائة إلی الرّیدانیة بتجمل زائد و احتفال عظیم بالأطلاب من الخیول المزیّنة بسروج الذهب و الکنابیش و السلاح الهائل، لا سیما الأمیر أیتمش و الأمیر أحمد ابن یلبغا فإنهما أمعنا فی ذلک و کان للناس مدّة طویلة لم یتجرّد السلطان إلی البلاد الشامیة و لا عسکره، سوی سفر الأمراء فی السنة الماضیة إلی سیواس و کانوا بالنسبة إلی هذه التجریدة کلا شیء و تتابعتهم الممالیک شیئا بعد شیء، حتی سافر الجمیع من الرّیدانیة فی یوم الاثنین سادس عشر شهر ربیع الأوّل المذکور.

ثمّ أخذ السلطان بعد خروج العسکر فی استجلاب خواطر الناس و أبطل الرّمایات و السّلف علی البرسیم و الشعیر و إبطال قیاس القصب و القلقاس و الإعفاء علی ذلک کله.

ثم فی یوم الثلاثاء [أوّل ربیع الآخر] قدم البرید بأن الأمیر کمشبغا المنجکیّ نائب بعلبکّ دخل تحت طاعة یلبغا الناصریّ و کذلک [فی خامسه قدم البرید بأن] ثلاثة عشر أمیرا من أمراء دمشق خرجوا بممالیکهم من دمشق و ساروا إلی حلب و دخلوا فی طاعة الناصری.

و أما العسکر الذی خرج من مصر فإنه لما وصل إلی غزّة أحسّ الأمیر جارکس الخلیلیّ بمخامرة نائبها الأمیر آقبغا الصفویّ فقبض علیه و بعثه إلی الکرک و أقرّ فی نیابة غزّة الأمیر حسام الدین بن باکیش.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۲۶۴

ثم فی عشرین شهر ربیع الآخر قدم علی السلطان رسول قرا محمد الترکمانی و رسول الملک الظاهر مجد الدین عیسی صاحب ماردین یخبران بقدومهما إلی خابور و یستأذنان فی محاربة الناصری فأجیبا بالشکر و الثناء و أذن لهما فی ذلک.

و أمّا العسکر فإنه سار من غزّة حتّی دخل دمشق فی یوم الاثنین سابع شهر ربیع الآخر المذکور، و دخلوا دمشق بعد أن تلقّاهم نائبها الأمیر [حسام الدین] طرنطای، و دخلوا دمشق قبل وصول الناصریّ بعساکره الیها بمدّة، و أقبل الممالیک السلطانیة علی الفساد بدمشق، و اشتغلوا باللهو و أبادوا أهل دمشق شرّا، حتی سئمتهم أهل الشام و انطلقت الألسنة بالوقیعة فیهم و فی مرسلهم.

قلت: هو مثل سائر: «الولد الخبیث یکون سببا لوالده فی اللّعنة» و کذلک وقع، فإنّ أهل دمشق لمّا نفرت قلوبهم من الممالیک الظاهریة، لم یدخلوا بعد ذلک فی طاعة الملک الظاهر البتّة علی ما سیأتی ذکره.

و بینما هم فی ذلک جاءهم الخبر بنزول یلبغا الناصریّ بعساکره علی خان لاجین خارج دمشق فی یوم السبت تاسع عشر شهر ربیع الآخر، فعند ذلک تهیّأ الأمراء المصریّون و الشامیون إلی قتالهم و خرجوا من دمشق فی یوم الاثنین حادی عشرینه إلی برزة و التقوا بالناصریّ علی خان لاجین، و تصافقوا ثم اقتتلوا قتالا شدیدا ثبت فیه کلّ من الفریقین ثباتا لم یسمع بمثله، ثمّ تکاثر العسکر المصریّ و صدقوا الحملة علی الناصریّ و من معه فهزموهم و غیّروه عن موقفه.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۲۶۵

ثمّ تراجع عسکر الناصریّ و حمل بهم، و التقی العسکر السّلطانی ثانیا و اصطدما صدمة هائلة ثبت فیها أیضا الطائفتان و تقاتلا قتالا شدیدا، قتل فیها جماعة من الطائفتین، حتی انکسر الناصریّ ثانیا. ثم تراجع عسکره و عاد إلیهم و التقاهم ثالث مرّة، فعندما تنازلوا فی المرّة الثالثة و التحم القتال، أقلب الأمیر أحمد بن یلبغا أمیر مجلس رمحه و لحق بعساکر الناصریّ بمن معه من ممالیکه و حواشیه، ثم تبعه الأمیر أیّدکار العمریّ حاجب الحجاب أیضا بطلبه و ممالیکه، ثم الأمیر فارس الصّرغتمشیّ ثم الأمیر شاهین [حسین] أمیر آخور بمن معهم و عادوا قاتلوا العسکر المصریّ، فعند ذلک ضعف أمر العساکر المصریّة و تقهقروا و انهزموا أقبح هزیمة، فلما ولّوا الادبار فی أوائل الهزیمة هجم مملوک من عسکر الناصریّ یقال له یلبغا الزینیّ الأعور و ضرب الأمیر جارکس الخلیل الأمیر آخور بالسیف قتله و أخذ سلبه و ترک رمّته عاریة، إلی أن کفّنته امرأة بعد أیام و دفنته.

ثم مدّت الترکمان و العرب أیدیهم ینهبون من انهزم من العسکر المصریّ و یقتلون و یأسرون من ظفروا به و ساق الأمیر الکبیر أیتمش

البجاسىّ حتى لحق بـدمشق و تحصّن بقلعتهـا و تمزّق العسـكر المصـرىّ و ذهب كأنه لم يكن و دخل الناصـرىّ من يومه إلى دمشـق بعساكره و نزل بالقصـر من الميدان و تسـلّم بالقلعهٔ بغير قتال و أوقع الحوطهٔ على سائر [ما] للعسكر و أنزل بالأمير الكبير أيتمش و قيّده هو و الأـمير طرنطاى نائب الشام و سـجنهما بقلعـهٔ دمشق و تتبّع بقيّـهٔ الأمراء و المماليك حتى قبض من يومه أيضا على الأمير بكلمش العلائى فى عدّهٔ من أعيان المماليك

النجوم الزاهرهٔ فى ملوك مصر و القاهرهٔ، ج ١١، ص: ٢۶۶

الظاهريّهٔ، فاعتقلهم أيضا بقلعهٔ دمشق. ثم مدّت التركمان و الأجناد أيديهم فى النهب، فما عفّوا و لا كفّوا و تمادوا على هذا عدّهٔ أيام.

و قدم هذا الخبر على الملك الظاهر من غزهٔ فى يوم سابع عشـرين شـهر ربيع الآخر المذكور فاضـطربت الناس اضـطرابا عظيما لا سيما لمّا بلغهم قتل الأمير جاركس الخليلىّ و القبض على الأمير الكبير أيتمش البجاسـىّ و غلّقت الأسواق و انتهبت الأخباز و تشـغّبت الزّعر و طغى أهل الفساد، هذا مع ما للناس فيه من الشغل بدفن موتاهم و عظم الطاعون بمصر، كلّ ذلك و إلى الآن لم يعرف السلطان بقتل الأمير يونس النّوروزىّ الدوادار على ما سيأتى ذكره.

و أمـا السـلطان الملـك الظـاهر برقوق فـإنه لمّا بلغه ما وقع لعسـكره و جم و تحيّر فى أمره و عظم عليه قتل جاركس الخليلىّ و القبض على أيتمش أكثر من انهزام عسكره، فإنهما و يونس الدوادار كانوا هم القائمين بتدبير ملكه، و أخذ يفحص عن أخبار يونس الدوادار المـذكور، فلم يقف له على خبر، لسـرعهٔ مجىء خبر الوقعـهٔ له من مدينـهٔ غزّهٔ و إلى الآن لم يأته أحـد ممن باشـر الواقعهٔ غير أنه صـحّ عنده ما بلغه.

ثمّ خرج إلى الإـيوان بالقلعـهٔ و اسـتدعى الأـمراء و المماليـك و تكلّم معهم السـلطان فى أمر الناصـرىّ و منطـاش و اسـتشارهم، فـوقع الاتفاق على خروج تجريـدهٔ ثانيهٔ، فانفضّ الموكب و خرج السـلطان فى ثامن عشـر شـهر ربيع الآخر إلى الإيوان، و عيّن من المماليك السـلطانيّهٔ ممن اختار سـفره خمسـمائهٔ مملوك، و أنفق فيهم ذهبا حسابا عن ألف درهم فضّ هٔ لكل واحد، ليتوجّهوا إلى دمشق صـحبهٔ الأمير سودون الطّرنطائىّ، و قام السـلطان فكلّمه بعض خواصّه فى قلّـهٔ من عيّن من المماليك، و أن العسـكر الذى كان صـحبهٔ أيتمش كان أضعاف ذلك و حصل ما حصل، فعرض العسكر ثانيا و عيّن

النجوم الزاهرهٔ فى ملوك مصر و القاهرهٔ، ج ١١، ص: ٢۶٧

خمسمائهٔ أخرى ثم عيّن أربعمائهٔ أخرى لتتمّهٔ ألف و أربعمائهٔ مملوك، و أنفق فى الجميع ألف درهم فضهٔ، لكل واحد.

ثمّ أنفق السلطان فى المماليك الكتابيّهٔ لكل مملوك مائتى درهم فضّهٔ، فإنه بلغه أنهم فى قلق لعدم النفقهٔ عليهم.

هذا، و قد طمع كلّ أحد من المماليك و غيرهم فى جانب الملك الظاهر لما وقع لعسكره بدمشق.

ثم عمـل السـلطان الموكب فى يوم الأربعـاء أوّل جمـادى الأـولى، و أنعم على كـلّ من قرابغـا البوبكرىّ و بجاس النّوروزىّ نائب قلعهٔ الجبل و شيخ الصّفوىّ و قرقماس الطّشتمرىّ بإمرهٔ مائهٔ و تقدمهٔ ألف بالديار المصريهٔ، عوضا عمّن قتل أو أمسك بالبلاد الشاميهٔ.

ثم أنعم السـلطان أيضـا فى اليوم المـذكور على كـل من الجيبغـا الجمالىّ الخازنـدار و ألطنبغا العثمانىّ رأس نوبـهٔ و يونس الإسـعردىّ الرمّاح و قنق باى الألجاوىّ اللالا و أسنبغا الأرغونىّ شاوىّ و بغداد الأحمدىّ و أرسلان اللّفّاف و أحمد الأرغونىّ و جرباش الشيخىّ و ألطنبغا شادى و أرنبغا المنجكىّ و إبراهيم بن طشتمر العلائىّ الدوادار و قرا كسك السيفىّ بإمرهٔ طبلخاناه.

و أنعم على كل من السـيد الشـريف بكتمر الحسينىّ و الى القاهرهٔ [كان] و قنق باى الأحمـدى بإمرهٔ عشـرين. و أنعم على كل من بطا الطّولوتمرىّ الظاهرىّ و يلبغا السودونىّ و سودون اليحياوىّ و تنّبك اليحياوىّ و أرغون شاه البيدمرىّ و آقبغا

النجوم الزاهرهٔ فى ملوك مصر و القاهرهٔ، ج ١١، ص: ٢۶٨

الجمالىّ الهـذبانىّ و فوزى الشـعبانىّ و تغرى بردى البشـبغاوىّ والـد كاتبه و بكبلاط السـعدىّ و أرنبغا العثمانىّ و شـكرباى العثمانىّ و أسنبغا السيفىّ بإمرهٔ عشرهٔ، و كلّ هؤلاء مماليك الملك الظاهر برقوق و خاصّكيّته أمرّهم فى هذه الحركهٔ و كانوا قبل ذلك من جملهٔ

الخاصكيّة، و منهم من هو إلى الآن لم يحضر من التجريدة.

ثمّ قدم البريد على السلطان من قطيا بأنّ الأمير إينال اليوسفيّ أتابك دمشق المنعم عليه بنيابة حلب بعد عصيان الناصريّ و الأمير إينال أمير آخور و الأمير إياس أمير آخور دخلوا إلى غزّة فى عسكر كثيف من عساكر الناصريّ و قد صاروا قبل تاريخه من حزب الناصريّ و استولوا على مدينة غزة و الرّملة و تمزّقت عساكرها، فعظم لهذا الخبر جزع الملك الظاهر و تحيّر فى أمره.

ثم فى يومه استدعى السلطان القضاة و الأمراء و الأعيان و بعث الأمير سودون الطّرنطائى و الأمير قرقماش الطشتمرىّ إلى الخليفة المتوكّل على اللّه بمسكنه فى قلعة الجبل فأحضراه، فلمّا رآه الملك الظاهر قام له و تلقّاه و أجلسه، و أشار إلى القضاة فحلّفوا كلّا منهما للآخر على الموالاة و المناصحة، و خلع السلطان على الخليفة المتوكل على اللّه المذكور خلعة الرضا، و قيّد إليه حجرة شهباء من خواصّ خيل السلطان بسرج ذهب و كنبوش مزركش و سلسلة ذهب و أذن له فى النزول إلى داره، فركب و نزل من القلعة إلى داره فى موكب جليل، و أعيدت إقطاعاته و رواتبه و أخلى له بيت بقلعة الجبل ليسكن فيه.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۲۶۹

ثمّ طلع الخليفة من يومه و نقل حرمه إلى البيت المذكور بالقلعة، و صار يركب فى بعض الأحيان و ينزل إلى داره بالمدينة ثم يطلع من يومه إلى مسكنه بالقلعة و يبيت فيه مع أهله و حرمه، و استمرّ على ذلك إلى ما سيأتى ذكره.

ثم فى يوم الجمعة ثالث جمادى الأولى المذكورة قدم الأمير شهاب الدين أحمد ابن بقر أمير عرب الشرقيّة، و معه هجّان الأمير جاركس الخليلىّ، فحدّث السلطان بتفصيل واقعة العسكر المصرى مع الناصرى، و أنه فرّمع الأمير يونس الدوادار فى خمسة نفر طالبين الديار المصرية، فعرض لهم الأمير عنقاء بن شطّى أمير آل فضل بالقرب من خربة اللصوص من طريق دمشق، و قبض على الأمير يونس الدّوادار و وبّخه لما كان فى نفسه منه، ثم قتله و حزّ رأسه و بعث به إلى الناصرىّ، فعندما بلغ السلطان قتل يونس الدوادار و تحقّقه كادت نفسه تزهق و كان بلغه هذا الخبر، غير أنه لم يتحقّقه إلا فى هذا اليوم و بقتل يونس الدوادار استشعر كلّ أحد بذهاب ملك الملك الظاهر.

ثم أصبح السلطان أمر بالمناداة بمصر و القاهرة بإبطال سائر المكوس من سائر ديار مصر و أعمالها، فقام جميع كتّاب المكوس من مجالسهم.

ثم فى سادس الشهر ركب الخليفة المتوكّل على اللّه من القلعة بأمر السلطان الملك الظاهر و نزل إلى القاهرة، و معه الأمير سودون الفخرىّ الشيخونىّ نائب السلطنة و قضاة القضاة و شيخ الإسلام سراج الدين عمر البلقينىّ و سائر الحجّاب و داروا فى شوارع القاهرة و رجل أمامهم على فرس يقرأ ورقة فيها: إنّ السلطان قد أزال المكوس و المظالم و هو يأمر الناس بتقوى اللّه و طاعته و إنّا قد سألنا العدق

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۲۷۰

الباغى فى الصلح فأبى و قد قوى أمره فأغلقوا دوركم و أقيموا الدروب على الحارات و قاتلوا عن أنفسكم و حريمكم، فلمّا سمع الناس ذلك تزايد خوفهم و قلقهم و يئس كلّ واحد من الملك الظاهر و أخذ الناس فى العمل للتوصّل إلى الناصرىّ، حتى حواشى برقوق لمّا سمعوا هذه المقالة و قد تحقّقوا بسماعها بأنّ الملك الظاهر لم يبق فيه بقيّة يلقى بها الناصرىّ و عساكره و قول الملك الظاهر: و إنا قد سألنا العدوّ فى الصلح فأبى و قوى، فإنه كان لمّا توجه العسكر من مصر لقتال الناصرى أمرهم أن يرسلوا له فى طلب الصلح مع الناصرىّ ففعلوا، فلم ينتظم صلح و وقع ما حكيناه من القتال و غيره.

ثمّ إن الناس لمّا سمعوا هذه المناداة شرعوا فى عمل الدّروب فجدّد بالقاهرة دروب كثيرة و أخذوا فى جمع الأقوات و الاستعداد للقتال و الحصار و كثر كلام العامّة فيما وقع و هان الملك الظاهر و عساكره فى أعين الناس و قلّت الحرمة و تجمّع الزّعر، ينتظرون قيام الفتنة لينهبوا الناس و تخوّف كلّ أحد على ماله و قماشه، كلّ ذلك و الناصرى إلى الآن بدمشق.

ثم انقطع أخبار الناصریّ عن مصر لدخول الأمیر حسام الدین بن باکیش نائب غزة فی طاعة الناصریّ.

ثم قدم الخبر بدخول الأمیر مأمور القلمطاوی نائب الکرک فی طاعة الناصریّ و أنه سلّم له الکرک بما فیها من الأموال و السلاح، فتیقّن کلّ أحد عند سماع هذا الخبر أیضا بزوال ملک الملک الظاهر. هذا و الأمراء و العساکر المعیّنة للسفر فی اهتمام، غیر أنّ عزائم السلطان فاترة و قد علاه و له و داخله الخوف من غیر أمر

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۲۷۱

یوجب ذلک. و کان السلطان لمّا عیّن هذه التجریدة الثانیة أرسل إلی بلاد الصعید یطلب نجدة فقدم إلی القاهرة فی هذا الیوم طوائف من عرب هوّارة نجدة للسلطان و نزلوا تحت القلعة.

ثمّ أمر السلطان بحفر خندق القلعة و توعیر طریق باب القلعة المعروف بباب القرافة و باب الحرس و باب الدّرفیل.

ثمّ أمر السلطان بسدّ خوخة الأمیر أیدغمش خارج بابی زویلة، فسدّت حتی صار لا یدخل منها راکب ثمّ أمر السلطان فنودی بالقاهرة بإبطال مکس النّشا و الجلود.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۲۷۲

و فی یوم الجمعة عاشر جمادی الأولی من سنة إحدی و تسعین و سبعمائة خطب للخلیفة المتوکّل علی اللّه أبی عبد اللّه محمد، فإنه أعید إلی الخلافة من یوم خلع علیه السلطان خلعة الرّضا، ثمّ قرئ تقلیده فی ثانی عشره بالمشهد النّفیسیّ و حضره القضاة و نائب السلطنة. و لمّا انقضی مجلس قراءة التقلید توجّهوا الجمیع إلی الآثار النّبویة و قرءوا به صحیح البخاریّ و دعوا اللّه تعالی للسلطان الملک الظاهر برقوق بالنصر و إخماد الفتنة بین الفریقین.

ثمّ فی یوم ثالث عشر أخلع السلطان علی الأمیر قرا دمرداش الأحمدیّ الیلبغاوی باستقراره أتابک العساکر بالدیار المصریة عوضا عن الأمیر أیتمش البجاسی بحکم حبسه بقلعة دمشق و علی الأمیر سودون باق باستقراره أمیر سلاح، عوضا عن قرا دمرداش المذکور و علی الأمیر قرقماس الطّشتمریّ باستقراره دوادارا کبیرا عوضا عن یونس النّوروزیّ المقتول بید عنقاء أمیر آل فضل و علی الأمیر تمربغا المنجکیّ أمیر آخور کبیرا عوضا عن الأمیر جارکس الخلیلیّ المقتول فی واقعة الناصریّ

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۲۷۳

بدمشق و علی قرابغا البوبکریّ باستقراره أمیر مجلس عوضا عن أحمد بن یلبغا بحکم عصیانه و دخوله فی طاعة الناصریّ و علی آقبغا الماردینیّ باستقراره حاجب الحجاب عوضا عن أیدکار العمریّ الداخل أیضا فی طاعة الناصری و نزل الجمیع بالخلع و التشاریف.

ثمّ أنعم السلطان علی الأمیر صلاح الدین محمد [بن محمد] بن تنکز الناصریّ نائب الشّام کان بإمرة طبلخاناه و علی جلبان الکمشبغاوی الخاصکی الظاهری بإمرة طبلخاناه.

و کثر فی هذه الأیام تحصین السلطان لقلعة الجبل فعلم بذلک کلّ أحد أنه لم تخرج تجریدة من مصر و لم یثبت الملک الظاهر لقتال الناصریّ بما أفرزوا من أحوال السلطان، خذلان من اللّه تعالی.

ثمّ أخذ السلطان ینقل إلی قلعة الجبل المناجنیق و المکاحل و العدد و أمر السلطان لسکّان قلعة الجبل من الناس بادّخار القوت بها لشهرین.

ثمّ رسم السلطان للمعلم أحمد بن الطّولونی بجمع الحجّارین لسدّ فم وادی السدرة بجوار الجبل الأحمر و أن یبنی حائط من جوار باب الدرفیل إلی الجبل.

ثمّ نودی بالقاهرة بأنّ من له فرس من أجناد الحلقة یرکب للحرب و یخرج مع العسکر، فکثر الهرج و تزاید قلق الناس و خوفهم و صارت الشوارع کلها ملآنة بالخیول الملبّسة، هذا و إلی الآن لم یعرف السلطان ما الناصریّ فیه و طلبت آلات الحرب من الخوذ و القرقلات و السیوف و الأرماح بکل ثمن غال.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۲۷۴

ثمّ رسم السلطان للأمير حسام الدين حسين [بن على] بن الكورانى والى القاهرة بسدّ باب المحروق أحد أبواب القاهرة فكلّمه الوالى فى عدم سدّه، فنهره و أمره بسدّه و سدّ الباب الجديد أيضا أحد أبواب القاهرة، ففعل. ثمّ سدّ باب الدّرفيل المعروف قديما بباب سارية و يعرف فى يومنا هذا بباب المدرّج.

ثمّ أمر السلطان بسدّ جميع الخوخ، فسدّ عدّة خوخ و ركّب عند قناطر السباع ثلاثة دروب: أحدها من جهة مصر و الآخر من جهة قبو الكرانىّ و الآخر بالقرب من الميدان ثمّ بنى بالقاهرة عدّة دروب أخر و حفر خنادق كثيرة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۲۷۵

هذا و الموت بالطاعون عمّال بالديار المصريّة فى كل يوم يموت عدّة كبيرة.

و أما الأمير يلبغا الناصرىّ نائب حلب و صاحبه منطاش نائب ملطية بمن معهما، فإنّ الناصرىّ لمّا استقرّ بدمشق و ملكها بعد الوقعة، نادى فى جميع بلاد الشام و قلاعها بألا يتأخر أحد عن الحضور إلى دمشق من النوّاب و الأمراء و الأجناد و من تأخّر سوى من غبن لحفظ البلاد قطع خبزه و سلبت نعمته، فاجتمع الناس بأسرهم فى دمشق من سائر البلاد و أنفق الناصرى فيهم و تجهّز و تهيأ للخروج من دمشق و برز منها بعساكره و أمرائه من الأمراء و الأكراد و التركمان و العربان و كان اجتمع إليه خلائق كثيرة جدّا فى يوم السبت حادى عشر جمادى الأولى من سنة إحدى و تسعين و سبعمائة المقدّم ذكرها، بعد أن أقرّ فى نيابة دمشق الأمير جنتمر المعروف بأخى طاز و سار الناصرى بمن معه من العساكر يريد الديار المصرية و هو يظنّ أنّه يلقى العساكر المصريّة بالقرب من الشام و استمرّ فى سيره على هيّنة إلى أن وصل إلى غزّة، فتلقّاه نائبها حسام الدين بن باكيش بالتّقادم و الإقامات، فسأله الناصرى عن أخبار عسكر مصر، فقال: لم يرد خبر بخروج عسكر من مصر و قد أرسلت جماعة كبيرة غير مرة لكشف هذا الخبر و لم يكن منى تهاول فى ذلك، فلم يبلغنى عن الديار المصرية إلا أنّ برقوقا فى تخوّف كبير و قد استعدّ للحصار فلم يلتفت الناصرى إلى كلامه، غير أنه صار متعجبا على عدم خروج العساكر المصرية لقتاله.

ثم قال فى نفسه: لعله يريد قتالنا فى فم الرمل بمدينة قطيا، ليكون عسكره فى راحة من جواز الرّمل و أقام الناصرىّ بغزّة يومه. ثم سار من الغد يريد ديار مصر و أرسل أمامه جماعة كبيرة من أمرائه و مماليكه كشّافة و استمرّ فى السّير إلى أن نزل مدينة قطيا و جاء الخبر بنزول الناصرىّ بعساكره على قطيا فلم يتحرّك بحركة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۲۷۶

و فى ليلة وصول الخبر فرّ من أمراء مصر جماعة كبيرة إلى الناصرىّ و هى ليلة الثلاثاء ثامن عشرين جمادى الأولى المذكورة و هم: الأمير طغيتمر الجركتمرى و أرسلان اللّفاف و أرنبغا العثمانىّ فى عدّة كبيرة من المماليك و لحقوا بالناصرىّ و دخلوا تحت طاعته، بعد ما صرفوا فى طريقهم الأمير عز الدين [أيدمر] أبا درقة كاشف الوجه البحرى و قد سار من عند الملك الظاهر لكشف الأخبار، فضربوه و أخذوا جميع ما كان معه و ساقوه معهم إلى الناصرىّ، فلما وصلوا إلى الناصرى حرّضوه على سرعة الحركة و عرّفوه ما الظاهر فيه من الخوف و الجبن عن ملاقاته، فقوى بذلك قلب الناصرى و هو إلى الآن يأخذ فى أمر الملك الظاهر و يعطى.

ثم جلس الملك الظاهر صبيحة هرب الأمراء بالإيوان من قلعة الجبل و هو يوم الثلاثاء ثامن عشرينه و أنفق على المماليك جميعها، لكل مملوك من مماليك السلطان و مماليك الأمراء، لكل واحد خمسمائة درهم فضة و استدعاهم طائفة بعد طائفة و أعطى كل واحد بيده و صار يحرّضهم على القتال معه و بكى بكاء شديدا فى الملأ.

ثمّ فرّق جميع الخيول حتى خيل الخاصّ فى الأمراء و الأجناد و أعطى الأمير اقبغا الماردينى حاجب الحجّاب جملة كبيرة من المال ليفرّقه على الزّعر و عظم أمر الزعر و بطل الحكم من القاهرة و صار الأمر فيها لمن غلب و تعطّلت الأسواق و أكثر الناس من شراء البقسماط و الدقيق و الدهن و نحو ذلك.

ثم وصل الخبر على السلطان بنزول الناصرىّ على الصالحيّة بمن معه و قد وقف لهم عدّة خيول فى الرمل و أنّه لما وجد الصالحية خالية من العسكر سجد للّه تعالى

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۲۷۷

شكرا، فإنه كان يخاف أن يتلقّاه عسكر السلطان بها و لو تلقّاه عسكر السلطان لما وجد لعسكره منعة للقتال، لضعف خيولهم و شدّة تعبهم، فلهذا كان حمده للّه تعالى.

و أخبر السلطان أيضا أنّ الناصرىّ لمّا نزل إلى الصالحيّة تلقّاه عرب العائد مع كبيرهم الأمير شمس الدين محمد بن عيسى و خدموه بالإقامات و الشعير و غيرها فردّ بذلک رمقهم.

فلمّا سمع السلطان ذلک رسم للأتابک الأمير قرادمرداش الأحمدىّ أن يتوجّه لكشف الأخبار من جهة بركة الحبش مخافة أن يأتى أحد من قبل إطفيح، فسار لذلک. ثم رتّب السلطان العسكر نوبتين: نوبة لحفظ النهار و نوبة لحفظ الليل و سيّر ابن عمه الأمير قجماس فى عدّة أمراء إلى المرج و الزيات طليعة للكشف.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۲۷۸

ثمّ فى يوم الأربعاء تاسع عشرين جمادى الأولى المذكور أنفق السلطان فى مماليک أمراء الطبلخانات و العشرات، فأعطى كلّ واحد أربعمائة درهم فضة و أنفق السلطان أيضا فى الطّبرداريّة [و البزداريّة] و الأوجاقية و أعطاهم القسىّ و النّشّاب. ثم رتّب من الأجناد البطّالين جماعة بين شرفات القلعة ليرموا على من لعلّه يحاصر القلعة، و أنفق فيهم أيضا. ثم استدعى السلطان رماة قسىّ الرمل من ثغر الإسكندرية فحضر منهم جماعة كبيرة و أنفق فيهم الأموال.

ثم عاد الأمير قجماس بمن معه من المرج و الزيّات و أخبر السلطان أنه لم يقف للقوم على خبر.

ثم خرج الأمير سودون الطّرنطائىّ فى ليلة الخميس فى عدّة من الأمراء و المماليک إلى قبّة النصر للحرس و سارت طائفة أخرى إلى بركة الحبش و بات السلطان بالإسطبل السلطانى ساهرا لم ينم و معه الأمير سودون الشيخونى النائب و الأتابک قرادمرداش الأحمدىّ، بعد أن عاد من بركة الحبش و عدّة كبيرة من المماليک و الأمراء.

ثم توجّه الأمير قرابغا الأبوبكرىّ أمير مجلس فى يوم الخميس أوّل جمادى الآخرة إلى قبّة النصر، ثم عاد و لم يقف على خبر، كلّ ذلک لضعف خيول عساكر الناصرى و كلّهم من السفر، فلم يجد الناصرىّ لهم منعة، فأقام بهم على الصالحية ليتراجع أمرهم و تعود قواهم، هذا و الأمراء بالديار المصريّة لابسون آلة الحرب و هم على ظهور خيولهم بسوق الخيل تحت القلعة.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۲۷۹

و فى ليلة الخميس المذكورة هرب من المماليک السلطانية اثنان و من مماليک الأمراء جماعة كبيرة بعد أخذهم نفقة السلطان و ساروا الجميع إلى الناصرىّ.

ثمّ طلب السلطان أجناد الحلقة، فدارت النقباء عليهم فأحضروا منهم جماعة كبيرة فرّقوا على أبواب القاهرة و رتّبوا بها لحفظها.

ثمّ ندب السلطان الأمير ناصر الدين محمدا ابن الدوادارى أحد أمراء الطبلخانات و معه جماعة لحفظ قياسر القاهرة و أغلق و الى القاهرة باب البرقيّة. ثمّ رتّب السلطان النّفطيّة على برج الطبلخاناه السلطانية و غيره بقلعة الجبل.

ثمّ قدم الخبر على السلطان بنزول طليعة الناصرىّ بمدينة بلبيس و مقدّمها الطواشى طقطاى الرومىّ الطّشتمرىّ.

ثم فى يوم الجمعة نزلت عساكر الناصرى بالبئر البيضاء، فأخذ عند ذلک عسكر السلطان يتسلّل إلى الناصرى شيئا بعد شىء، و كان أوّل من خرج إليه من القاهرة الأمير جبريل الخوارزمىّ و محمد بن بيدمر نائب الشام و بجمان المحمدى نائب الإسكندرية و غريب الخاصّكيّ و الأمير أحمد بن أرغون الأحمديّ [اللّالا].

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۲۸۰

ثمّ نصب السلطان السناجق السلطانيّة على أبراج القلعة و دقّت الكوسات الحربيّة فاجتمعت العساكر جميعها و عليهم آلة الحرب و السلاح ثم ركب السلطان و الخليفة المتوكل على اللّه معه من قلعة الجبل بعد العصر و سار السلطان بمن معه حتى وقفا خلف دار الضّيافة و قد اجتمع حول السلطان من العامة خلائق لا تحصى كثرة، فوقف هناك ساعة ثم عاد و طلع إلى الإسطبل السلطانى و جلس فيه من غير أن يلقى حربا و صعد الخليفة إلى منزله بقلعة الجبل، و قد نزلت الذّلّة على الدولة الظاهريّة و ظهر من خوف السلطان و بكائه ما أبكى الناس شفقة له و رحمة عليه.

فلمّا غربت الشمس صعد السلطان إلى القلعة و بات بالقصر السلطانى و معه عامّة مماليكه و خاصّكيّته و هم عدّة كبيرة إلى الغاية.

ثمّ فى يوم السبت ثالث جمادى الآخرة نزل الناصرى بعساكره بركة الجبّ ظاهر القاهرة، و معه من أكابر الأمراء الأمير تمربغا الأفضلىّ الأشرفىّ المدعو منطاش و الأمير بزلار العمرى الناصرىّ حسن و الأمير كمشبغا الحموى اليلبغاوى نائب طرابلس كان و الأمير أحمد بن يلبغا العمرى أمير مجلس و الأمير أيدكار حاجب الحجاب و جماعة أخر من أمراء الشام و مصر و غيرها.

ثمّ تقدمت عساكر الناصرىّ إلى المرج و إلى مسجد التّبن، فعند ذلك غلّقت أبواب القاهرة كلّها إلا باب زويلة و أغلقت جميع الدروب و الخوخ و سدّ باب القرافة و انتشرت الزّعر فى أقطار المدينة تأخذ ما ظفرت به ممّن يستضعفونه.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۲۸۱

ثمّ ركب السلطان ثانيا من القلعة و معه الخليفة المتوكل على اللّه و نزل إلى دار الضّيافة فقدم عليه الخبر بأنّ طليعة الناصرىّ وصلت الى الخراب طرف الحسينيّة فلقيتهم كشّافة السلطان فكسرتهم.

ثمّ ندب السلطان الأمراء فتوجهوا بالعساكر إلى جهة قبّة النصر و نزل السلطان ببعض الزوايا عند دار الضيافة إلى آخر النهار.

ثمّ عاد إلى الإسطبل السلطانىّ و صحبته الأمراء الذين توجّهوا لقبّة النصر و الكوسات تدقّ و هم على أهبة اللّقاء و ملقاة العدوّ و خاصّكيّة السلطان حوله و النّفوط لا تفترّ و الرّميلة قد امتلأت بالزّعر و العامة و مماليك الأمراء و لم يزالوا على ذلك حتّى أصبحوا يوم الاثنين و إذا بالأمير آقبغا الماردينىّ حاجب الحجاب و الأمير جمق ابن أيتمش البجاسى و الأمير إبراهيم بن طشتمر العلائى الدوادار قد خرجوا فى الليل و معهم نحو خمسمائة مملوك من المماليك السلطانية و لحقوا بالناصرىّ.

ثمّ أصبح السلطان من الغد و هو يوم خامس جمادى الآخرة، فرّ الأمير قرقماس الطّشتمرى الدوادار الكبير و قرادمرداش الأحمدىّ أتابك العساكر بالديار المصرية و الأمير سودون باق أمير مجلس و لحقوا بالناصرىّ و كانوا فى عدّة وافرة من المماليك و الخدم و الأطلاب الهائلة، و لم يتأخر عند السلطان من أعيان الأمراء إلا ابن عمه الأمير قجماس و سودون الشّيخونى النائب و سودون طرنطاى و تمزبغا المنجكىّ و أبو بكر ابن سنقر و بيبرس التّمان تمرىّ و شيخ الصفوىّ و مقدم المماليك شنكل و طائفة من أمرائه مشترواته و خاصّكيّته و العجب أنّ السلطان كان أنعم فى أمسه على الأمراء

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۲۸۲

الذين توجّهوا للناصرى لكلّ أمير من أمراء الألوف عشرة آلاف دينار و لكل أمير طبلخاناه خمسة آلاف دينار و حلّفهم على طاعته و نصرته و أعطى فى ليلة واحدة للأمير الكبير قرادمرداش الأحمدىّ ثلاثين ألف دينار دفعة واحدة و خاتما مثمّنا، قيمته آلاف عديدة، حتى قال له: قرادمرداش المذكور: يا مولانا السلطان روحى فداؤك لا تخف ما دمت أنا واقف فى خدمتك أنت آمن، فشكره السلطان، فنزل من عنده فى الحال ركب و خرج من باب القرافة و قطع الماء الذى يجرى إلى القلعة و توجّه مع من ذكرنا من الأمراء إلى الناصرىّ، فلم يلتفت الناصرىّ لهم ذاك الالتفات الكلّىّ، بل فعل معهم كما فعل مع غيرهم ممّن توجّه إليه من أمراء مصر. انتهى.

و لمّا بلغ السلطان نفاق هؤلاء الأمراء عليه بعد أن أنعم عليهم بهذه الأشياء، علم أنّ دولته قد زالت، فأغلق فى الحال باب زويلة و جميع الدروب و تعطّلت الأسواق و امتلأت القاهرة بالزّعر و اشتدّ فسادهم و تلاشت الدولة الظاهريّة و انحلّ أمرها و خاف و الى القاهرة حسام الدين بن الكورانىّ على نفسه، فقام من خلف باب زويلة و توجّه إلى بيته و اختفى و بقى الناس غوغاء و قطع المسجونون

قیودهم بخزانة شمائل و کسروا باب الحبس و خرجوا علی حمیّة جملة واحدة، فلم یردّهم أحد بشغل کلّ واحد بنفسه و کذلک فعل أهل حبس الدّیلم و أهل سجن

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ١١، ص: ٢٨٣

الرّحبة، هذا و السلطان إلی الآن بقلعة الجبل و النّفوط عمالة و الکوسات تدقّ حربیا، ثمّ أمر السلطان ممالیکه فنزلوا و منعوا العامة من التوجّه إلی یلبغا الناصریّ،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ١١، ص: ٢٨۴

فرجمهم العامّة بالحجارة، فرماهم الممالیک بالنّشاب، قتلوا منهم جماعة تزید عدّتهم علی عشر أنفس.

ثمّ أقبلت طلیعة الناصریّ مع عدّة من أعیان الأمراء من أصحابه، فبرز لهم لأمیر قجماس ابن عمّ السلطان فی جماعة کبیرة و قاتلهم و أکثر الرّمی علیهم من فوق القلعة بالسّهام و النفوط و الحجارة بالمقالیع و هم یوالون الکرّ و الفرّ غیر مرة و ثبتت السلطانیّة ثباتا جیّدا غیر أنهم فی علم بزوال دولتهم.

هذا و أصحاب السلطان تتفرّق عنه شیئا بعد شیء، فمنهم من یتوجّه إلی الناصریّ و منهم من یختفی خوفا علی نفسه، حتی لم یبق عند السلطان إلّا جماعة یسیرة ممن ذکرنا من الأمراء، فلمّا کان آخر النهار المذکور أراد السلطان أن یسلّم نفسه، فمنعه من بقی عنده من الأمراء و خاصکیته و قالت ممالیکه: نحن نقاتل بین یدیک حتی نموت، ثم سلّم بعد ذلک نفسک فلم یثق بذلک منهم، لکنه شکرهم علی هذا الکلام و السعد مدبر و الدولة زائلة.

ثمّ بعد العصر من الیوم المذکور قدم جماعة من عسکر الناصریّ علیهم الطواشیّ طقطای الرّومی الطّشتمریّ و الأمیر بزلار العمری الناصریّ و کان من الشجعان و الأمیر ألطنبغا الأشرفیّ فی نحو الألف و خمسمائة مقاتل، یریدون القلعة، فبرز لهم الأمیر بطا الطّولوتمری الظاهریّ الخاصّکی و الأمیر شکربای العثمانیّ الظاهریّ و سودون شقراق و الوالد، فی نحو عشرین مملوکا من الخاصکیّة الظاهریّة و بلاقوا مع العسکر المذکور صدموهم صدمة واحدة کسروهم فیها و هزموهم إلی قبّة النصر و لم یقتل منهم غیر سودون شقراق، فإنه أمسک و أتی به إلی الناصریّ فوسّطه فلم یقتل

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ١١، ص: ٢٨۵

الناصری فی هذه الوقعة أحدا غیره لا قبله و لا بعده، أعنی صبرا، غیر أن جماعة کبیرة قتلوا فی المعرکة و رد الخبر بنصرتهم علی الملک الظاهر، فلم یغترّ بذلک و علم أن أمره قد زال، فأخذ فی تدبیر أمره مع خواصّه، فأشار علیه من عنده أن یستأمن من الناصری، فعند ذلک أرسل الملک الظاهر الأمیر أبا بکر بن سنقر الحاجب و الأمیر بیدمر المنجکیّ شادّ القصر بالمنجاة إلی الأمیر یلبغا الناصریّ أن یأخذا له أمانا علی نفسه و یترقّقا له، فسارا من وقتهما إلی قبّة النصر و دخلا علی الناصری و هو بمخیّمه و اجتمعا به فی خلوة فآمنه علی نفسه و أخذ منهما منجاة الملک و قال الملک الظاهر: أخونا و خشداشنا و لکنّه یختفی بمکان إلی أن تخمد الفتنة، فإن الآن کلّ واحد له رأی و کلام، حتی ندبّر له أمرا یکون فیه نجاته، فعادا بهذا الجواب إلی الملک الظاهر برقوق و أقام السلطان بعد ذلک فی مکانه مع خواصه إلی أن صلّی عشاء الآخرة و قام الخلیفة المتوکل علی اللّه إلی منزله بالقلعة علی العادة فی کل لیلة و بقی الملک الظاهر فی قلیل من أصحابه، أذن لسودون النائب فی التوجّه إلی حال سبیله و النظر فی مصلحة نفسه، فوادعه و قام و نزل من وقته. ثمّ فرّق الملک الظاهر بقیة أصحابه، فمضی کلّ واحد إلی حال سبیله.

ثمّ استتر الملک الظاهر و غیّر صفته، حتی نزل من الإسطبل إلی حیث شاء ماشیا علی قدمیه، فلم یعرف له أحد خبرا و انفضّ ذلک الجمع کله فی أسرع ما یکون و سکن فی الحال دقّ الکوسات و رمی مدافع النفط و وقع النهب فی حواصل الإسطبل حتی أخذوا سائر ما کان فیه من السّروج و اللّجم و غیرها و العبیّ و نهبوا أیضا ما کان بالمیدان من الغنم الضأن و کان عدّتها نحو الألفی رأس و نهبت طباق الممالیک بالقلعة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١١، ص: ٢٨۶

و طار الخبر فى الوقت إلى الناصرى فلم يتحرك من مكانه و دام بمخيّمه و أرسل جماعة من الأمراء من أصحابه فسار من عسكره عدّة كبيرة و احتاطوا بالقلعة.

و اصبح الأمير يلبغا الناصرىّ بمكانه و هو يوم الاثنين خامس جمادى الآخرة من سنة إحدى و تسعين و سبعمائة و ندب الأمير منطاش فى جماعة كبيرة إلى القلعة، فسار منطاش إلى قلعة الجبل فى جموعه و طلع إلى الإسطبل السلطانىّ فنزل إليه الخليفة المتوكّل على اللّه أبو عبد اللّه محمد و سار مع منطاش إلى الناصرى بقبّة النصر، حتى نزل بمخيّمه، فقام الناصرى إليه و تلقّاه و أجلسه بجانبه و وانسه بالحديث.

هذا و قد انضمّت العامّة و الزّعر و التّركمان من أصحاب الناصرى و تفرّقوا على بيوت الأمراء و حواصلهم، فنهبوا ما وجدوا حتى أخربوا الدور و أخذوا أبوابها و خشبها و هجموا منازل الناس خارج القاهرة و نهبوها و استمرّوا على ذلك و قد صارت مصر غوغاء و أهلها رعيّة بلا راع، حتى أرسل الناصرى الأمير ناصر الدين محمد بن الحسام و قد ولّاه ولاية القاهرة فسار ابن الحسام إلى القاهرة فوجد باب النصر مغلوقا، فدخل بفرسه راكبا من جامع الحاكم إلى القاهرة و فتح باب النصر و باب الفتوح و عند فتح الأبواب طرق جماعة كبيرة من عسكر الناصرىّ القاهرة و نهبوا منها جانبا كبيرا، فقاتلهم الناس و قتلوا منهم أربعة نفر و مرّ بالناس فى هذه الأيام شدائد و أهوال، و بلغ الناصرى الخبر فبعث أبا بكر بن سنقر الحاجب و تنكز بغا رأس نوبة إلى حفظ القاهرة فدخلاها.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١١، ص: ٢٨٧

ثمّ نودى بها من قبل الناصرى بالأمان و منع النّهب، فنزل تنكز بغا المذكور عند الجملون وسط القاهرة و نزل سيدى أبو بكر بن سنقر عند باب زويلة و سكن الحال و هدأ ما بالناس و أمنوا على أموالهم.

و أمّا الناصرى، فإنّه لمّا نزل إليه الخليفة و أكرمه، كما تقدّم و حضر قضاه القضاة و الأعيان للهناء، أمرهم الناصرىّ بالإقامة عنده و أنزل الخليفة بمخيّم و أنزل القضاة بخيمة أخرى، ثمّ طلب الناصرىّ من عنده من الأمراء و الأعيان و تكلم معهم فيما يكون و سألهم فيمن ينصّب فى السلطنة بعد الملك الظاهر برقوق، فأشار أكابرهم بسلطنة الناصرىّ فامتنع الناصرى من ذلك أشدّ امتناع و هم يلحّون عليه و يقولون له: ما المصلحة إلا ما ذكرنا و هو يأبى و انفضّ المجلس من غير طائل، فعند ذلك تقدّم الناصرى بكتابة مرسوم عن الخليفة، و عن الأمير الكبير يلبغا الناصرىّ بالإفراج عن الأمراء المعتقلين بثغر الإسكندرية و هم: ألطنبغا الجوبانىّ نائب الشام و قردم الحسنى و ألطنبغا المعلّم أمير سلاح و إحضارهم إلى قلعة الجبل و الجميع يلبغاويّه، فسار البريد بذلك ثم أمر الناصرى بالرحيل من قبّة النصر إلى نحو الديار المصرية و ركب فى عالم كبير من العساكر نحو الستين ألفا، حتى إنه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١١، ص: ٢٨٨

كان عليق جمالهم فى كل ليلة ألفا [و ثلثمائة] إردب فول و سار الناصرى بخيوله و بجيوشه حتى طلع إلى القلعة و نزل بالإسطبل السلطانى و طلع الخليفة إلى منزله بقلعة الجبل و نزل كلّ أمير فى بيت من بيوت الأمراء بديار مصر و جلس الناصرىّ فى مجلس عظيم و حضر إلى خدمته الوزير كريم الدين عبد الكريم بن الغنّام و موفّق الدين أبو الفرج ناظر الخاص و القاضى جمال الدين محمود ناظر الجيش و القاضى بدر الدين محمد بن فضل اللّه كاتب السر الشريف و غيرهم من أرباب الوظائف، فأمرهم الأمير الكبير بتحصيل الأغنام إلى مطابخ الأمراء و نودى فى القاهرة ثانيا بالأمان.

ثمّ رسم للأمير تنكزبغا رأس نوبة بتحصيل [مماليك] الملك الظاهر برقوق، فأخذ تنكزبغا يتتبع أثره و أصبح الناس فى يوم الثلاثاء سادس جمادى الآخرة فى هرج كبير و مقالات كثيرة مختلفة فى أمر الملك الظاهر برقوق.

ثمّ استدعى الأمير الكبير يلبغا الناصرىّ الأمراء و استشارهم فيمن ينصّبه فى سلطنة مصر، فكثر الكلام بينهم و كان غرض غالب الأمراء سلطنة الناصرىّ ماخلا منطاش و جماعة من الأشرفيّة، حتى استقرّ الرأى على إقامة الملك الصالح أمير حاج ابن الملك الأشرف شعبان

فى السلطنة ثانيا، بعد أن أعيا الأمراء أمر الناصرىّ فى عدم قبوله السّلطنة و هو يقول: المصلحة سلطنة الملك الصالح أمير حاج، فإن الملك الظاهر برقوقا خلعه من غير موجب، فطلعوا فى الحال من الإسطبل إلى القلعة و استدعوا الملك الصالح و سلطنوه و غيّروا لقبه بالملك المنصور

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۲۸۹

على ما سنذكره فى أوّل ترجمته الثانية- إن شاء اللّه تعالى- بعد أن نذكر حوادث سنين الملك الظاهر برقوق كما هى عادة كتابنا هذا من أوّله إلى آخره.

و أمّا الملك الظاهر برقوق فإنّه دام فى اختفائه إلى أن قبض عليه بعد أيام على ما سنحكيه فى سلطنة الملك الصالح مفصّلا إلى أن يسجن بالكرك و يعود إلى ملكه ثانيا.

قلت: و زالت دولة الملك الظّاهر برقوق كأن لم تكن- فسبحان من لا يزول ملكه- بعد أن حكم مصر أميرا كبيرا و سلطانا إحدى عشرة سنة و خمسة أشهر و سبعة و عشرين يوما، تفصيله مدّة تحكّمه أميرا منذ قبض على الأمير طشتمر العلائىّ الدوادار فى تاسع ذى الحجّة سنة تسع و سبعين و سبعمائة إلى أن جلس على تخت الملك و تلقّب بالملك الظاهر فى يوم الأربعاء تاسع عشر شهر رمضان سنة أربع و ثمانين و سبعمائة أربع سنين و تسعة أشهر و عشرة أيّام. و كان يقال له فى هذه المدة:

الأمير الكبير أتابك العساكر و من حين تسلطن فى سنة أربع و ثمانين المذكورة إلى يوم ترك الملك و اختفى فى ليلة الاثنين خامس جمادى الآخرة من سنة إحدى و تسعين و سبعمائة ست سنين و ثمانية أشهر و سبعة عشر يوما، فهذا تفصيل تحكّمه على مصر أميرا أو سلطانا إحدى عشرة سنة و خمسة أشهر و سبعة و عشرين يوما.

و ذهب ملكه من الديار المصريّة على أسرع وجه مع عظمة فى النفوس و كثرة مماليكه و حواشيه، فإنه خلع من السلطنة و له نحو الألفى مملوك مشترى، غير من أنشأه من أكابر الأمراء و الخاصكيّة من خشداشيّته و غيرهم، هذا مع ما كان فيه من القوّة و الشّجاعة و الإقدام، فإنّه قام فى هذا الأمر بالقوّة فى ابتداء أمره و توثّب على الرئاسة و الإمرة بيده دفعة واحدة حسب ما تقدّم ذكره، و لم يكن له يوم ذاك عشرة مماليك مشتراة، و أعجب من هذا ما سيكون من أمره فى سلطنته الثانية عند

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۲۹۰

خروجه من حبس الكرك و هو فى غاية ما يكون من الفقر و قلّة الحاشية و مع هذا يملك مصر ثانيا، كما سيأتى ذكر ذلك مفصلا. و ما أرى هذا الذى وقع للملك الظاهر فى خلعه من الملك مع ما ذكرنا إلّا خذلانا من اللّه تعالى و للّه الأمر.

و قال المقريزى- رحمه اللّه-: و كان فى سلطنته مخلّطا يخلّط الصالح بالطالح.

و مما حكاه المقريزىّ قال: و كان له فى مدته أشياء مليحة، منها: إبطاله ما كان يؤخذ من أهل البرلّس و شورى و بلطيم من أعمال مصر شبه الجالية فى كلّ سنة.

قلت: و قد تجدّد ذلك فى دولة الملك الظاهر جقمق ثانيا فى سنة سبع و أربعين و ثمانمائة: قال و هو مبلغ ستّين ألف درهم فضّة يعنى عن الذى كان يؤخذ من هذه الجهات المذكورة، قال: و أبطل ما كان يؤخذ على القمح بثغر دمياط من المكوس و ما كان يؤخذ من معمل الفراريج بالجيزيّة و أعمالها و الغربية و غيرها، و ما كان يؤخذ على الملح من المكس بعينتاب و ما كان يؤخذ على الدقيق بالبيرة من المكس. و أبطل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۲۹۱

أيضا ما كان يؤخذ فى طرابلس عند قدوم النائب إليها- من قضاة البرّ و ولاة الأعمال عن كل واحد خمسمائة درهم و أبطل أيضا ما كان يؤخذ فى كلّ سنة من الخيل و الجمال و البقر و الغنم من أهل الشرقيّة من أعمال مصر. و أبطل ما كان يؤخذ من المكس بديار مصر على الدريس و الحلفاء خارج باب النصر. و أبطل ضمان المغانى بالكرك و الشوبك و من منية ابن خصيب و زفتة من أعمال

مصر و أبطل رمی الأبقار بعد فراغ عمل الجسور علی أهل النّواحی و أنشأ من العمائر فی هذه السلطنة الأولی المدرسة بخطّ بین القصرین من القاهرة و لم یعمّر داخل القاهرة مثلها و لا أکثر معلوما منها و له أیضا الصهریج و السبیل بقلعة الجبل تجاه الإیوان و عمّر الطاحون أیضا بالقلعة و أنشأ جسر الشریعة علی نهر الأردن بطریق الشام و طوله مائة و عشرون ذراعا فی عرض عشرین ذراعا و جدّد خزائن السلاح بثغر الاسکندریّة و عمّر سور دمنهور بالبحیرة و عمّر الجبال الشرقیّة بالفیوم و زاویة البرزخ بدمیاط و بنی قناطر بالقدس و بنی بحیرة برأس وادی بنی سالم قریبا من المدینة النبویة علی ساکنها أفضل الصلاة و السلام قال: و کان حازما مهابا محبّا لأهل الخیر و العلم إذا أتاه أحد منهم قام إلیه و لم یعرف أحد قبله من الملوک [الترک] یقوم لفقیه و قلّما کان یمکّن أحدا منهم من تقبیل یده، إلا أنه کان محبّا لجمع المال و حدث فی أیامه تجاهر الناس بالبراطیل، فکان لا یکاد یولّی أحدا وظیفة و لا عملا إلا بمال و فسد بذلک کثیر من الأحوال و کان مولعا بتقدیم الأسافل و حطّ ذوی البیوتات.

قلت: و هذا البلاء قد تضاعف الآن حتّی خرج عن الحدّ و صار ذوو البیوت معیرة فی زماننا هذا. انتهی.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۲۹۲

قال: و غیّر ما کان للناس من الترتیب. و اشتهر فی أیامه ثلاثة أشیاء قبیحة:

إتیان الذکران من اشتهاره بتقریب الممالیک الحسان و تظاهر البراطیل و کان لا یکاد یولّی أحدا وظیفة إلا بمال و اقتدی بهذا الملوک من بعده و کساد الأسواق لشحه و قلة عطائه، فمساوئه أضعاف حسناته. انتهی کلام المقریزیّ من هذا المعنی.

قلت: و نحن نشاحح الشیخ تقیّ الدین المقریزیّ فی کلامه حیث یقول:

و حدث فی أیامه ثلاثة أشیاء قبیحة، فأمّا إتیان الذکران، فأقول: البلاء قدیم و قد نسب اشتهار ذلک من یوم دخول الخراسانیّة إلی العراق فی نوبة أبی مسلم الخراسانیّ فی سنة اثنتین و ثلاثین و مائة من الهجرة.

و أما اقتناؤه الممالیک الحسان، فأین الشیخ تقیّ الدین من مشتری الملک الناصر محمد بن قلاوون إلی حسان الممالیک بأغلی الأثمان الذی لم یقع للملک الظاهر فی مثلها، حتی إن الملک الناصر محمد قدّم جماعة من ممالیکه ممن شغف بمحبّتهم و أنعم علیهم بتقادم ألوف بمصر و لم یطرّ شارب واحد منهم، مثل بکتمر الساقی و یلبغا الیحیاوی و ألطنبغا الماردینی و قوصون و ملکتمر الحجازی و طقزدمر الحموی و بشتک و طغای الکبیر و زوّجهم بأولاده، فحینئذ الفرق بینهما فی هذا الشأن ظاهر. و أما قوله: أخذ البراطیل، فهذا أیضا قدیم جدّا من القرن الثالث و إلی الآن، حتی إنه کان فی دولة الملک الصالح إسماعیل ابن الملک الناصر محمد بن قلاوون دیوان یعرف بدیوان البذل (أعنی بدیوان البرطیل) و شاع ذلک فی الأقطار و صار من له حاجة یأتی إلی صاحب الدیوان المذکور و یبذل فیما یرومه من الوظائف و هذا شیء لم یصل الملک الظاهر برقوق الیه.

و أما شحّه فهو بالنسبة لمن تقدّمه من الملوک شحیح و إلی من جاء بعده کریم و الشیخ تقی الدین- رحمه اللّه- کان له انحرافات معروفة تارة و تارة و لو لا ذاک

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۲۹۳

ما کان یحکی عنه فی تاریخه السلوک قوله: و لقد سمعت العبد الصالح جمال الدین عبد اللّه السکسریّ المغربی یخبرنی - رحمه اللّه- أنه رأی قردا فی منامه صعد المنبر بجامع الحاکم فخطب ثم نزل و دخل المحراب لیصلّی بالناس الجمعة، فثار الناس علیه فی أثناء صلاته بهم، فأخرجوه من المحراب و کانت هذه الرؤیا فی أواخر سلطنة الملک الأشرف شعبان بن حسین فی سنة ثمان و سبعین و سبعمائة، فکان ذلک تقدّم الملک الظاهر برقوق علی الناس و سلطنته تأویل هذه الرؤیا، فإنه کان متخلّقا بکثیر من أخلاق القردة شحا [و طمعا] و فسادا و لکن اللّه یفعل ما یرید و للّه الأمر من قبل و من بعد. انتهی کلام المقریزی.

قلت: و تعبیر الشیخ تقی الدین لهذه الرؤیا أن القرد هو الملک الظاهر فلیس بشیء من وجوه عدیدة، منها: أن برقوقا لم یتسلطن بعد قتل الملک الأشرف إلا بعد أن تسلطن ولد الملک الأشرف الملک المنصور علیّ و ولده الملک الصالح أمیر حاجّ.

ثم تسلطن برقوق بعد ستّ سنين من وفاة الأشرف و منها: أن الناس لمّا أخرجوا القرد فى أثناء الصلاة كان ينبغى أن يعود و يصلّى بالناس بعد إخراجه ثانيا صلاة أطول من الصلاة الأولى، فإن برقوقا لما خلع عاد إلى السلطنة ثانيا و مكث فيها أكثر من سلطنته الأولى حتى كانت تطابق ما وقع لبرقوق و قولنا: إن الشيخ تقى الدين كان له تارات يشكر فيها و تارات يذم فيها، فإنه لما صحب الملك الظاهر المذكور فى سلطنته الثانية و أحسن إليه الظاهر أمعن فى الثناء عليه فى عدّة أماكن من مصنفاته و نسى مقالته هذه و غيرها وفاته أن يغيّر مقالته هذه، فإنه أمعن، و يقال

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۲۹۴

فى المثل من شكر و ذمّ، فكأنما كذّب نفسه مرّتين. و بإجماع الناس أن الملك الظاهر برقوقا كان فى سلطنته الأولى أحسن حالا من سلطنته الثانية، فإنه ارتكب فى الثانية أمورا شنيعة مثل قتل العلماء و إبعادهم و الغضّ منهم، لمّا أفتوا بقتاله عند خروجه من الكرك و نحن أعرف بأحوال الملك الظاهر و ابنه الناصر من الشيخ تقى الدين و غيره و إن كان هو الأسنّ، و لم أرد بذلك الحطّ على الشيخ تقىّ الدين و لا التعصّب للملك الظاهر، غير أن الحق يقال و الحق المحض فيه أنّه كان له محاسن و مساوئ و ليس للإمعان محلّ، كما هى عادة الملوك و الحكّام. و بالجملة فهو أحسن حالا ممن جاء بعده من الملوك بلا مدافعة. و اللّه تعالى أعلم.

السنة الأولى من سلطنة الملك الظاهر برقوق الأولى على مصر

و هى سنة أربع و ثمانين و سبعمائة، على أن الملك الصالح حاجيّا حكم منها إلى تاسع عشر شهر رمضان ثم حكم الملك الظاهر فى باقيها.

و فيها توفّى قاضى قضاة الحنفيّة بدمشق همام الدين أمير غالب ابن العلّامة قاضى القضاة قوام الدين أمير كاتب الإتقانى الفارابى الانزارى الحنفى، ولى أوّلا حسبة دمشق ثم القضاء بها، و كان قليل العلم بالنسبة إلى أبيه، إلّا أنه كان رئيسا حسن الأخلاق كريم النفس، عادلا فى أحكامه و كان فى ولايته يعتمد على العلماء من نوّابه، فمشى حاله و شكرت سيرته إلى أن مات فى جمادى الأولى.

و توفّى قاضى القضاة بدر الدين عبد الوهاب ابن الشيخ كمال الدين أحمد ابن قاضى القضاة علم الدين محمود بن أبى بكر بن عيسى [بن بدران] السعدىّ

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۲۹۵

الإخنائى المالكىّ. ولد فى حدود العشرين و سبعمائة و تولّى القضاء بعد موت القاضى برهان الدين إبراهيم الإخنائى و كان ضعيفا، فجاءه التشريف من الملك الأشرف شعبان و ألقى عليه على لحافه، فلما عوفى لبسه و باشر القضاء و حسنت سيرته إلى أن صرف بعلم الدين سليمان بن خالد بن نعيم البساطى فى ذى القعدة سنة ثمان و سبعين و سبعمائة، ثم أعيد فى صفر سنة تسع و سبعين و عزل فى السنة بالبساطىّ ثانيا و لزم داره إلى أن مات. و كان خيّرا ديّنا مشكور السيرة.

و توفّى الوزير الصاحب كريم الدين عبد الكريم ابن الرّويهب فى سابع عشر شهر رمضان، و قد اتّضع حاله و افتقر و كان من أعيان الأقباط و باشر عدّة مباشرات، منها الوزر و نظر الدولة و الاستيفاء و غير ذلك.

و توفّى الشيخ علاء الدين أبو الحسن علىّ بن عمر بن محمد ابن قاضى القضاة تقى الدين محمد ابن دقيق العيد موقّع الحكم فى خامس عشر صفر.

و توفّى الشيخ جمال الدين محمد بن علىّ [بن يوسف] الأسوانىّ فى يوم الأحد عاشر شهر ربيع الأوّل و كان معدودا من الفضلاء.

و توفّى الأمير فخر الدين إياس بن عبد اللّه الصّرغتمشىّ الحاجب أحد أمراء الطبلخانات فى ثالث شهر ربيع الآخر و كان فيه شجاعة و عنده كرم و تعصّب لمن يلوذ به.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۲۹۶

و توفّى الشيخ الإمام عزّ الدين عبد العزيز بن عبد الحق الأسيوطى الشافعى فى يوم الأحد عاشر ذى القعدة بعد ما تصدّر للاشتغال و الإفتاء عدّة ستين و درّس بعدّة مدارس و كان من أعيان الشافعية.

و توفى الأمير زين الدين زبالة الفارقانىّ نائب قلعة دمشق بها فى شعبان.

و توفى السلطان الملك المعزّ حسين بن أويس ابن الشيخ حسن بن حسين ابن آقبغا بن أيلكان المنعوت بالشيخ حسين سلطان بغداد و تبريز و ما والاهما و كان سبط ألقان أرغون بن بو سعيد ملك التتار. ولى سلطنة بغداد فى حياة أبيه، لأن والده أويسا، كان رأى مناما يدلّ على موته فى يوم معين، فاعتزل الملك و سلطن ولده هذا و قد تقدّم ذكره فى ترجمة والده المذكور فى سنة ست و سبعين و سبعمائة. و دام الشيخ حسين هذا فى الملك إلى أن قتله أخوه السلطان أحمد ابن أويس و ملك بغداد بعده بإشارة خجاشيخ الكججانىّ فى هذه السنة. و كان الشيخ حسين هذا ملكا شابا جميلا جليلا شجاعا مقداما كريما محبّبا للرعية كثير البر قليل الطمع؛ و لقد كانت العراق فى أيامه مطمئنة معمورة إلى أن ملكها أخوه أحمد بعده فاضطربت أحوالها إلى أن قتل، ثم ملكها قرا يوسف و أولاده، فكان خراب العراق على أيديهم. و بالجملة فكان الشيخ حسين هذا هو آخر ملوك بغداد و العراق.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ستة أذرع و نصف. مبلغ الزيادة عشرون ذراعا و ثلاثة أصابع. و هى سنة الغرقى لعظم زيادة النيل.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١١، ص: ٢٩٧

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۸۵]

السنة الثانية من سلطنة الملك الظاهر برقوق الأولى على مصر و هى سنة خمس و ثمانين و سبعمائة.

و فيها توفّى الأديب المقرئ الفاضل شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيى ابن مخلوف بن مرّ بن فضل اللّه بن سعد بن ساعد السعدىّ الأعرج الشاعر المشهور. كان لديه فضيلة و علا قدره على نظم الشّعر، و كان عارفا بالقراءات، و قال الشعر و سنّه دون العشرين سنة. و من شعره رحمه اللّه: [الكامل]

إنّ الكريم إذا تنجّس عرضه لو طهّروه بزمزم لم يطهر

ممّا اعتراه من القذاوة و القذى لم ينق من نجس بسبعة أبحر

و توفى الأمير عز الدين أيدمر بن عبد اللّه من صديق المعروف بالخطائى و هو مجرّد بالإسكندرية، كان أحد أمراء الطبلخانات بالديار المصرية و رأس نوبة، و كان ممن انضمّ على الأمير بركة الجوبانىّ، فقبض عليه برقوق و حبسه مدّة ثم أفرج عنه و أعاده على إمرته إلى أن مات. و خلّف موجودا كبيرا استولى عليه ناظر الخاص.

و توفّى الأمير سيف الدين بلاط بن عبد اللّه السّيفى المعروف بالصغير أمير سلاح و هو بطرابلس فى جمادى الأولى، و كان حيثما و قورا مشكور السيرة.

و توفى الأمير سيف الدين تمرباى بن عبد اللّه الأفضلىّ الأشرفىّ نائب صفد بها فى جمادى الأولى، و كان من أعيان المماليك الأشرفية و قد تقدّم أنّه ولى نيابة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١١، ص: ٢٩٨

حلب و غيرها، ثم عزله الملك الظاهر فنقله فى عدة بلاد إلى أن ولّاه نيابة صفد، فمات بها.

و توفّى الشيخ الإمام علم الدين سليمان بن شهاب الدين أحمد بن سليمان بن عبد الرحمن [بن أبى الفتح بن هاشم] العسقلانىّ الحنبلىّ، أحد فقهاء الحنابلة فى ثالث [عشرين] جمادى الآخرة.

و توفى قاضى قضاه الشافعية بدمشق ولىّ الدين عبد اللّه ابن قاضى القضاة بهاء الدين أبى البقاء محمد بن عبد البر بن يحيى بن على

بن تمّام السبكى الشافعى بها فى هذه السنة.

و توفى الأمير سيف الدين قطلوبغا بن عبد اللّه الكوكانىّ حاجب حجّاب دمشق فى سادس المحرّم. و كان أصله من مماليك الأمير كوكاى، و ترقى إلى أن صار من جملة أمراء الألوف بالديار المصرية، ثم ولى إمرة سلاح، ثم نقل إلى حجوبية الحجّاب فى أوّل سلطنة الملك الظاهر برقوق عوضا عن سودون الفخرىّ الشيخونىّ بحكم انتقال سودون إلى نيابة السلطنة بالديار المصرية، فدام قطلوبغا هذا فى وظيفة الحجوبيّة إلى أن مات و شغرت الوظيفة و هى الحجوبية من بعده أربع سنين إلى أن وليها أيدكار العمرىّ.

و توفّى الأمير سيف الدين أرغون بن عبد اللّه دوادار الأمير الكبير طشتمر العلائىّ فى هذه السنة. و كان من جملة أمراء الطبلخانات بديار مصر، و كان عارفا عاقلا مدبّرا و له وجاهة فى الدول.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۲۹۹

و توفّى الأمير شرف الدين موسى بن دندار بن قرمان أحد أمراء الطبلخانات فى ليلة الأربعاء العشرين من جمادى الأولى.

و توفى مستوفى ديوان المرتجع أمين الدين عبد اللّه المعروف بجعيص الأسلمىّ فى [ثالث عشر] المحرّم. كان من أعيان الكتّاب القبطيّة.

و توفى القاضى شرف الدين موسى ابن القاضى بدر الدين محمد بن محمد ابن العلّامة شهاب الدين محمود الحلبى الحنبلى، أحد موقّعى الدّست بمدينة الرّملة عائدا من القاهرة إلى دمشق فى رابع عشرين صفر، و كان من بيت كتابة و فضل.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثمانية أذرع سواء. مبلغ الزيادة تسعة عشر ذراعا و أربعة عشر إصبعا. و اللّه تعالى أعلم.

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۸۶]

السنة الثالثة من سلطنة الملك الظاهر برقوق الأولى على مصر و هى سنة ست و ثمانين و سبعمائة.

فيها توفّى الأمير سيف الدين بهادر بن عبد اللّه الجمالىّ المعروف بالمشرف، أحد أمراء الألوف بالديار المصرية و أمير حاج المحمل فى ذى القعدة بعيون القصب من طريق الحجاز و بها دفن و قبره معروف هناك. و كان مشكور السيرة، ولى إمرة الحاج غير مرّة. رحمه اللّه تعالى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۳۰۰

و توفّى قاضى القضاة علم الدين أبو الربيع سليمان بن خالد بن نعيم بن مقدم ابن محمد بن حسن بن غانم بن محمد الطائى البساطىّ المالكى قاضى قضاة المالكية بالديار المصرية و هو معزول فى يوم الجمعة سادس عشر صفر و قد أناف على الستين سنة، و أصل آبائه من قرية شبرا بسيون بالغربية من أعمال القاهرة و ولد هو ببساط و كان فقيها فاضلا بارعا ولى قضاء مصر فى الدولة الأشرفيّة شعبان عوضا عن بدر الدين الإخنائىّ، بعد عزله و باشر بعفّة و تقشّف و اطّراح التكلّف، حتى عزل فى سنة ثلاث و ثمانين و لزم داره حتى مات.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۳۰۱

و توفى الأمير سيف الدين طنج المحمّدى أحد أمراء الألوف بالديار المصرية، بعد أن أخرج منفيّا إلى دمشق، فمات بها و كان من أعيان الأمراء.

و توفى العلّامة أوحد الدين عبد الواحد بن إسماعيل بن ياسين الحنفى المصرى المولد و الدار و الوفاة، كاتب السر الشريف بالديار المصرية فى يوم السبت ثانى ذى الحجّة. و كان فقيها فاضلا عالما مفتّنا مشاركا فى عدّة علوم مع رياسة و حشمة، خدم عند الملك الظاهر برقوق موقّعا، فلمّا تسلطن ولّاه كتابة السر بالديار المصرية، فى شوّال سنة أربع و ثمانين و سبعمائة، بعد عزل القاضى بدر الدين محمد بن فضل اللّه فباشر الوظيفة بحرمة وافرة و حسنت سيرته و عظم فى الدولة، فعاجلته المنيّة و عمره سبع و ثلاثون سنة فى عنفوان

شبيبته و أعيد بدر الدين بن فضل اللّه من بعده إلى كتابة السر.

و توفّى القاضى تقىّ الدين عبد الرحمن ابن القاضى محب الدين محمد بن يوسف ابن أحمد بن عبد الدائم [التّيمىّ] الحلبى الأصل المصرى الشافعى ناظر الجيوش المنصورة فى ليلة الخميس سادس عشر جمادى الأولى. و سبب موته أن الملك الظاهر برقوقا غضب عليه بسبب إقطاع زامل أمير العرب و ضربه بالدواة ثم مدّه و ضربه نحو ثلاثمائة عصاة، فحمل إلى داره فى محفّة و مات بعد ثلاثة أيام أو أكثر.

و توفّى الأمير جمال الدين عبد اللّه ابن الأمير بكتمر الحسامىّ الحاجب أحد أمراء الطبلخاناه فى يوم الأربعاء خامس عشر جمادى الأولى بداره خارج باب النصر.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۳۰۲

و توفى الأمير علاء الدين على بن أحمد بن السائس الطّيبرسىّ أستادار خوند بركة أمّ الملك الأشرف شعبان فى سادس شوّال و كان من أعيان رؤساء الديار المصرية و له ثروة.

و توفى العلّامة قاضى القضاة صدر الدين محمد ابن قاضى القضاة علاء الدين على ابن منصور الحنفى قاضى قضاة الديار المصرية، و هو قاض فى يوم الاثنين عاشر شهر ربيع الأوّل و قد أناف على ثمانين سنة فى ولايته الثانية و تولّى القضاء عوصه قاضى القضاة شمس الدين الطرابلسىّ و تولى مشيخة الصرغتمشيّة من بعده العلّامة جلال الدين التبانىّ. قال العينى- رحمه اللّه- كان إماما عالما فاضلا كاملا بحرا فى فروع أبى حنيفة مستحضرا قويّا، و كان ريّض الخلق كثير التواضع و الحلم ليّن الجانب جميل المعاشرة حسن المحاضرة و المذاكرة معتمدا على جانب الصدق فى أقواله و أفعاله سعيدا فى حركاته و سكناته. رحمه اللّه تعالى.

و توفّى العلّامة إمام عصره و وحيد دهره و أعجوبة زمانه أكمل الدين محمد بن محمد بن محمود الرومى البابرتىّ الحنفىّ شيخ خانقاة شيخون فى يوم الجمعة تاسع عشر شهر رمضان و حضر السلطان الملك الظاهر الصلاة عليه و مشى أمام نعشه من مصلّاة المؤمنىّ إلى أن وقف على دفنه بقبّة الشيخونيّة، بعد أن همّ على أن يحمل نعشه غير مرة فتحمّله أكابر الأمراء عنه. كان واحد زمانه فى المنقول و المعقول و نالته السعادة و الجاه العريض حتى إن الملك الظاهر برقوقا مع عظمته كان ينزل فى موكبه و يقف على باب خانقاه شيخون، حتى يتهيّأ الشيخ أكمل الدين للركوب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۳۰۳

و يركب و يسير مع الملك الظاهر، وقع له ذلك معه غير مرّة و هو الذى كان سببا لقيام الملك الظاهر برقوق للقضاة، فإنه كان يقوم له إذا دخل عليه و لا يقوم للقضاة، لما كانت عادة الملوك من قبله فكلّمة الشيخ أكمل الدين هذا فى القيام للقضاة، حتى قام لهم و صارت عادة إلى يومنا هذا. و بعد موته جلس الشيخ سراج الدين البلقينىّ عن يمين السلطان، و قد استوعبنا أحواله فى المنهل الصافى بأطول من هذا.

و توفّى قاضى مكّة و خطيبها كمال الدين أبو الفضل محمد بن أحمد بن على العقيلىّ النّويرى الشافعى بمكة فى يوم الأربعاء ثالث عشر شهر رجب.

و توفّى عالم بغداد شمس الدين محمد بن يوسف بن على [بن] الكرمانىّ البغدادى الشافعىّ شارح البخارى فى المحرّم بطريق الحجاز و حمل إلى بغداد و دفن بها. و مولده فى جمادى الآخرة سنة سبع عشرة و سبعمائة و كان قدم مصر و الشام. رحمه اللّه.

و توفّى صائم الدهر الشيخ محمد بن صديق التّبريزىّ الصوفىّ فى ليلة الاثنين خامس عشر شهر رمضان بالقاهرة، أقام [نيّفا و] أربعين سنة يصوم (الدهر ۵) و يفطر على حمّص بفلس لا يخلطه إلا بالملح فقط. و كان على قدم هائل من العبادة.

و توفّى الأمير الطواشى شبل الدولة كافور بن عبد اللّه الهندى الزّمرّدى الناصرى حسن فى ثامن شهر ربيع الأول و قد عمّر طويلا و هو صاحب التربة بالقرافة.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۳۰۴

و توفّى الأمير الكبير سيف الدين طشتمر بن عبد اللّه العلائىّ الدوادار. كان من أجلّ الأمراء و هو أوّل دوادار وليها بتقدمة ألف، ثم ولى نيابة الشام ثم أتابك العساكر بالديار المصرية إلى أن ركب عليه الملك الظاهر برقوق قبل سلطنته و قبض عليه و حبسه مدّة و ولى الأتابكية من بعده ثم أخرجه إلى القدس بطّالا، ثم ولاه نيابة صفد ثم حماة إلى أن مات. و كان ديّنا خيّرا و له مشاركة فى فنون و فيه محبة لأهل العلم و الفضل و كان يكتب الخطّ المنسوب و يحب الأدب و الشعر.

و توفّى تاج الدين موسى بن سعد اللّه بن أبى الفرج ناظر الخاصّ و هو معزول و كان يعرف بابن كاتب السعدىّ و كان من أعيان الأقباط.

و توفّى تاج الدين بن وزير بيته الأسلمىّ ناظر الإسكندرية بها فى شهر ربيع الآخر.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثمانية أذرع و ثمانية أصابع.

مبلغ الزيادة تسعة عشر ذراعا و ثمانية أصابع.

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۸۷]

السنة الرابعة من سلطنة الملك الظاهر برقوق الأولى على مصر و هى سنة سبع و ثمانين و سبعمائة.

و فيها توفّى قاضى قضاة الحنفية بحلب تاج الدين أحمد بن شمس الدين محمد ابن محمد بدمشق فى هذه السنة، و كان فقيها فاضلا محدثا أديبا شاعرا و مات عن سنّ عالية.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۳۰۵

و توفّى القاضى جمال الدين إبراهيم ابن قاضى قضاة حلب ناصر الدين محمد ابن قاضى قضاة حلب كمال الدين عمر ابن قاضى قضاة حلب عز الدين [أبى البركات] عبد العزيز ابن الصاحب فخر الدين محمد ابن قاضى القضاة نجم الدين [أبى الحسن] أحمد ابن قاضى القضاة جمال الدين [أبى الفضل] هبة اللّه ابن قاضى قضاة حلب محب الدين محمد ابن قاضى قضاة حلب جمال الدين هبة اللّه ابن قاضى قضاة حلب محب الدين أبى غانم محمد ابن قاضى قضاة حلب جمال الدين هبة اللّه ابن القاضى نجم الدين أحمد بن يحيى بن زهير بن هارون بن موسى بن عيسى بن عبد اللّه بن محمد ابن عامر بن أبى جرادة بن ربيعة الحنفى المعروف بآبن العديم. مات عن نيّف و سبعين سنة.

قلت: هو من بيت علم و رياسة و قد تقدّم ذكر جماعة من أقارب به و يأتى أيضا ذكر جماعة منهم، كلّ واحد فى محلّه، إن شاء اللّه تعالى.

و توفّى رئيس التّجّار زكىّ الدين أبو بكر بن علىّ الخرّوبىّ المصرىّ بمصر القديمة فى يوم الخميس تاسع عشر المحرّم و خلّف مالا كبيرا.

و توفّى الأمير فخر الدين عثمان بن قارا بن [حيّار] بن مهنّا بن عيسى بن مهنّا أمير آل فضل بالبلاد الشامية فى شهر ربيع الأوّل و كان من أجلّ ملوک العرب.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۳۰۶

و توفّى الأمير سيف الدين قرا بلاط بن عبد اللّه الأحمدى اليلبغاوىّ نائب الإسكندرية بها فى [نصف] شهر ربيع الآخر. و كان من أكابر مماليک الأتابک يلبغا العمرى الخاصّكى.

و توفّى الشيخ الإمام العالم نجم الدين أحمد بن عثمان بن عيسى بن حسن بن حسين ابن عبد المحسن الراسوفىّ الدمشقى الشافعىّ المعروف بابن الحبّال فى جمادى الآخرة،- بعد عوده من مصر- بدمشق. و كان فقيها عالما متبحّرا فى مذهبه، انتهت إليه رياسة مذهب

الشافعىّ بدمشق فى زمانه و تصدّى للإفتاء و التدريس و الإشغال سنين عديدة.

و توفّى السيد الشريف شمس الدين أبو المجد محمد بن النقيب جمال الدين أحمد ابن النقيب شمس الدين محمد بن أحمد الحرّانى الحلبى الحنفى عن سبع و أربعين سنة و لم يل نقابة الأشراف.

و توفّى الشيخ الأديب شهاب الدين أحمد بن عبد الهادى بن أحمد المعروف بالشاطر الدمنهورىّ الشاعر المشهور بعقبة أيلا متوجّها إلى الحجاز الشريف، فى العشر الأول من ذى القعدة. و مولده فى سنة ثلاث و أربعين و سبعمائة. و كان أديبا بارعا فاضلا، بارعا فى فنون لا سيّما: فى المترجم و نظم القريض. و من شعره فى مروحة: [الطويل]

و مخطوبة فى الحرّ من كل هاجر و مهجورة فى البرد من كلّ خاطب

إذا ما الهوى المقصور هيّج عاشقا أتت بالهوى الممدود من كل جانب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۳۰۷

و توفّى الأمير سيف الدين [أحمد] آقبغا بن عبد اللّه الدّوادار فى شهر ربيع الآخر، و كان من المماليك اليلبغاويّة من حزب خشداشية الملك الظاهر برقوق.

و توفى الرئيس شمس الدين محمد بن شهاب الدين أحمد بن سبع العبسىّ مستوفى ديوان الأحباس فى ثامن [عشر] شعبان و كان معدودا من أعيان الديار المصرية.

و توفّى قاضى القضاة زين الدين عبد الرحمن بن رشد المالكىّ، قاضى قضاة حلب بها. و كان معدودا من فقهاء المالكية.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ستة أذرع و أربعة أصابع. مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا و خمسة عشر إصبعا.

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۸۸]

السنة الخامسة من سلطنة الملك الظاهر برقوق الأولى على مصر و هى سنة ثمان و ثمانين و سبعمائة.

فيها توفّى القاضى بدر الدين أحمد بن شرف الدين محمد ابن الوزير الصاحب فخر الدين محمد ابن الوزير الصاحب بهاء الدين على بن محمد بن سليم المعروف بابن حنّاء فى يوم الجمعة تاسع عشرين جمادى الآخرة بمدينة مصر عن نيّف و سبعين سنة.

و كان فقيها عالما مفتنّا أديبا معدودا من فقهاء الشافعية. و من شعره: [الكامل]

هنئت يا عود الأراك بثغره إذ أنت للأوطان غير مفارق

إن كنت فارقت العقيق و بارقاها أنت ما بين العذيب و بارق

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۳۰۸

قلت: و أحسن من هذا قول ابن دمرداش الدّمشقىّ فى المعنى: [الطويل]

أقول لمسواك الحبيب لك الهنا بلثم فم ما ناله ثغر عاشق

فقال و فى أحشائه حرق الجوى مقالة صبّ للديار مفارق

تذكّرت أوطانى فقلبى كما ترى أعلّله بين العذيب و بارق

و لابن قرناص فى هذا المعنى و هو أيضا فى غاية الحسن: [الطويل]

سألتك يا عود الأراك بأن تعد إلى ثغر من أهوى فقبّله مشفقا

ورد من ثنّيات العذيب منيهلا تسلسل ما بين الأبيرق و النّقا

و توفّى السيد الشريف شهاب الدين أحمد بن عجلان بن رميثة، و اسم رميثة منجد [ابن أبى نمىّ سعد] الحسنىّ المكىّ أمير مكّة فى حادى عشرين شعبان عن نيف و ستين سنة بمكة و دفن بالمعلاة. و كان حسن السّيرة مشكور الطريقة.

و ولى إمرة مكة بعده ابنه محمد بن أحمد بأمر عمّه كبيش بن عجلان.

و توفّى الشيخ عماد الدين إسماعيل أحد الأفراد فى الخطّ المنسوب المعروف بابن الزّمكحل، كان رئيسا فى كتابة المنسوب، كان يكتب سورة الإخلاص على حبة أرز كتابة بيّنة تقرأ بتمامها و كمالها لا ينطمس منها حرف واحد- و كان له بدائع فى فنّ الكتابة و كتب عدّة مصاحف إلى أن مات (و الزّمكحل بزاى مضمومة و ميم مضمومة أيضا و كاف ساكنة و حاء مضمومة مهملة و بعدها لام ساكنة).

و توفّى الأمير سيف الدين جلبان بن عبد اللّه الحاجب أحد أمراء الطبلخانات فى شهر رمضان. و كان عاقلا ساكنا مشكور السيرة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۳۰۹

و توفى الأمير غرس الدين خليل بن قراجا بن دلغادر أمير التّركمان اليروقية و صاحب أبلستين قتيلا فى الحرب مع الأمير صارم الدين إبراهيم بن همر التّركمانىّ، قريبا من مدينة مرعش عن نيّف و ستين سنة.

و توفّى الأمير سودن العلائىّ نائب حماة قتيلا فى محاربة التّركمان أيضا. و كان ممن أنشأه الملك الظاهر برقوق و أظنّه من خشداشيّته.

و توفّى الشريف بدر الدين محمد بن عطيفة بن منصور بن جمّاز بن شيحة أمير المدينة النبويّة- على ساكنها أفضل الصلاة و السلام-

و توفى الشيخ الزاهد العابد الصالح شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان القرمىّ الحنفىّ بالقدس الشريف فى صفر. و مولده فى ذى الحجّة سنة ستة و عشرين و سبعمائة. و كان كثير العبادة و التّلاوة للقرآن حتى قيل: إنه قرأ فى اليوم و الليلة ثمانى ختمات.

قلت: هذا شيء من وراء العقل فسبحان المانح.

و توفّى الشيخ الإمام العابد الصالح الورع شمس الدين أبو عبد اللّه محمد بن يوسف بن إلياس القونوىّ الحنفىّ بدمشق عن نيّف و سبعين سنة. و كان إماما عالما زاهدا شديدا فى اللّه. و قدم القاهرة غير مرّة و تصدّى للإقراء و التصنيف سنين عديدة و انتفع الناس به. و من مصنّفاته المفيدة «شرح تلخيص المفتاح» و «كتاب درر البحار» و نظم فيه فقه الأربعة و «شرح مجمع البحرين» فى الفقه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۳۱۰

فى عشر مجلّدات، و شرح آخر فى ستة أجزاء، و له: «رسالة فى الحديث» و غير ذلك. رحمه اللّه تعالى.

و توفّى شيخ أهل الميقات ناصر الدين محمد بن الخطائى فى يوم الأربعاء ثالث عشرين شعبان و كان إماما فى وقته.

و توفّى أيضا قرينه فى علم الميقات شمس الدين محمد بن الغزولىّ فى رابع شهر رجب. و كان أيضا من علماء هذا الشأن.

و توفّى ملك الغرب صاحب مدينة فاس و ما والاها السلطان موسى ابن السلطان أبى عنان فارس بن أبى الحسن المرينىّ فى جمادى الآخرة. و أقيم بعده المستنصر محمد بن أبى العباس أحمد المخلوع بن أبى سالم فلم يتم أمره و خلع بعد قليل. و أقيم الواثق محمد بن أبى الفضل ابن السلطان أبى الحسن، كلّ ذلك بتدبير الوزير ابن مسعود و هو يوم ذاك صاحب أمر فاس.

و توفّى القاضى شهاب الدين أحمد بن محمد بن الزّركشى أمين الحكم فجاة بالقاهرة فى ليلة الجمعة تاسع عشر شهر ربيع الأوّل و اتّهم أنّه سمّ نفسه، حتى مات لمال بقى عليه، فنسأل اللّه تعالى حسن الخاتمة.

و توفّى الأمير أحمد ابن السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون فى جمادى الآخرة بمجلسه فى قلعة الجبل بالحوش السلطانىّ.

و توفّى قاضى القضاة شمس الدين أبو عبد اللّه محمد بن التّقىّ الحنبلىّ قاضى قضاة الحنابلة بدمشق بها فى هذه السنة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۳۱۱

و توفّى الأمير شرف الدين موسى المعروف بابن الفافا أستدار الأمير أيتمش البجاسىّ فى تاسع شوال. و كانت لديه فضيلة و له ثروة عظيمة و حشم. و كان من رءوس الظاهرية مذهبا و أثنى عليه الشيخ تقىّ الدين المقريزى. رحمه اللّه.

و توفّى السيد الشريف هيازع بن هبة اللّه الحسنيّ المدنيّ أمير المدينة النبويّة مات و هو فى السجن بثغر الإسكندرية فى شهر ربيع الأوّل.

و توفّى الشيخ شرف الدين صدقة و يدعى محمد بن عمر بن محمد بن محمد العادليّ شيخ الفقراء القادريّة بالفيوم فى جمادى الآخرة. و كان ديّنا صالحا أحرم مرّة من القاهرة.

و توفّى علم الدين يحيى القبطى الأسلمى ناظر الدولة المعروف بكاتب ابن الدينارى فى شهر ربيع الآخر.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ستة أذرع سواء. مبلغ الزيادة عشرون ذراعا، و قيل: تسعة عشرة ذراعا و سبعة عشرة إصبعا.

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۸۹]

السنة السادسة من سلطنة الملك الظاهر برقوق الأولى على مصر و هى سنة تسع و ثمانين و سبعمائة.

و فيها توفّى الأمير سيف الدين طينال بن عبد اللّه الماردينيّ الناصريّ. كان أصله من مماليك الملك الناصر محمد بن قلاوون و صار فى أيام الملك الناصر حسن أمير مائة و مقدّم ألف بالديار المصرية. ثم نفاه الناصر حسن إلى الشام، فأقام بها إلى أن طلبه الملك الأشرف شعبان و أعاده إلى تقدمة ألف بديار مصر مدّة. ثمّ انتزعه منه و أنعم عليه بإمرة طبلخاناه و جعله نائب قلعة الجبل فدام على ذلك مدّة سنين.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۳۱۲

ثم عزله و أخذ الطبلخاناه منه و أنعم عليه بإمرة عشرة و ترك طرخانا إلى أن مات فى شهر رمضان و قد عمّر.

و توفّى الأمير تاج الدين إسماعيل بن مازن الهوّاريّ أمير عرب هوارة ببلاد الصعيد فى هذه السنة و ترك أموالا جمّة.

و توفى الوزير الصاحب شمس الدين إبراهيم المعروف بكاتب أرنان. كان أصله من نصارى مصر و أسلم و خدم فى ديوان الملك الظاهر برقوق فى أيام إمرته، بعد أن باشر عند جماعة كبيرة من الأمراء. و لمّا تسلطن ولّاه الوزارة على كره منه و أحوال الدولة غير مستقيمة، فلما وزّر نفّذ الأمور و مشّى الأحوال مع وفور الحريّة و نفوذ الكلمة و التقلّل فى الملبس بحيث إنه كان مثل أوساط الكتاب و دخل الوزارة و ليس للدولة حاصل من عين و لا غلّة و قد استأجر الأمراء النواحى بأجرة قليلة، و كفّ أيدى الأمراء عن النواحى و ضبط المتحصّل و جدّد مطابخ السكّر و مات و الحاصل فيه ألف ألف درهم فضة و ثلاثمائة و ستون ألف اردبّ غلّة و ستة و ثلاثون ألف رأس من الغنم و مائة ألف طائر من الإوز و الدّجاج و ألف قنطار من الزيت و أربعمائة قنطار ماء ورد، قيمة ذلك كلّه يوم ذاك خمسمائة ألف دينار، هذا بعد قيامه بكلف الديوان تلك الأيام أحسن قيام.

و توفّى الحافظ صدر الدين سليمان بن يوسف بن مفلح الياسوفيّ الطوسيّ الحنفيّ الشافعيّ بقلعة دمشق قتيلا بها، بعد أن اعتقل بها مدّة فى محنة رمى بها. و كان من الفضلاء العلماء عارفا بالفقه إماما فى الحديث و التفسير عفيفا عن أمور الدنيا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۳۱۳

و توفى الأمير سيف الدين طقتمش بن عبد اللّه الحسنيّ اليلبغاويّ أحد أمراء الطبلخاناه فى سابع شهر رجب. كان من أعيان مماليك الأتابك يلبغا العمريّ و ممن قام مع الملك الظاهر برقوق.

و توفّى الشيخ الزاهد الورع أمين الدين محمد بن محمد بن محمد الخوارزميّ النسفى اليلبغاوى الحنفيّ المعروف بالخلواتيّ فى سابع عشرين شعبان، خارج القاهرة.

و كان ممن جمع بين العلم و العمل.

و توفّى الشيخ الإمام العلامة شمس الدين محمد القرميّ الحنفيّ قاضى العسكر بالديار المصريّة فى سابع عشرين شهر ربيع الآخر. و كان فاضلا بارعا فى فنون من العلوم و كان خصيصا عند السلطان الملك الأشرف شعبان بن حسين.

و توفى قاضـى قضاة المالكيّـة بحلب زين الـدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن الجعيد الشـهير بابن رشد المالكىّ المغربىّ السّجلماسىّ، كان من فضلاء السادة المالكية و له مشاركة فى سائر العلوم و أفتى و درّس و تولّى قضاء حلب و حسنت سيرته.

و توفى التاجر نور الدين على بن عنان فى شوّال و كان من أعيان تجّار الكارم بمصر و خلّف مالا كبيرا.

و توفىّ القاضى شمس الدين محمد بن على بن الخشاب الشافعىّ فى شعبان و كان فاضلا عالما محدّثا، حدّث عن وزيرة و الحجّار.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۳۱۴

و توفى الخطيب البليغ ناصـر الـدين محمـد بن على بن محمد [بن محمد] بن هاشم ابن عبد الواحد بن عشائر الحلبى الشافعىّ بالقاهرة فى ليلة الأربعاء سادس عشرين شهر ربيع الآخر. و كان فقيها عالما عارفا بالفقه و الحديث و النحو و الشعر و غيره.

و ولى هو و أبوه خطابة جامع حلب و قدم إلى القاهرة فلم تطل مدّته حتى مات.

و توفى القاضـى فتـح الـدين محمـد ابن قاضـى القضاة بهاء الـدين [عبـد اللّه بن] عبـد الرحمن بن عقيل الشافعىّ موقّع الـدّرج بالـديار المصرية فى حادى عشرين صفر و كان معدودا من فضلاء الشافعية.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ستة أذرع و أربعة أصابع. مبلغ الزيادة ثمانية عشر ذراعا و خمسة عشرا إصبعا.

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۹۰]

السنة السابعة من سلطنة الملك الظاهر برقوق الأولى على مصر و هى سنة تسعين و سبعمائة.

و فيهـا توفى قاضـى القضاة برهان الـدين أبو إسـحاق إبراهيم بن عبـد الرحمن بن محمـد ابن إبراهيم بن سـعد اللّه بن جماعـة الكنانى الشـافعى قاضـى قضاة مصـر ثم دمشق بها و هو على قضائها فى ليلـة الجمعـة ثامن عشر شـعبان. و مولـده فى سـنة خمس و عشـرين و سبعمائة. و سمع الكثير بمصر و الشام و برع فى الفقه و العربية و ولى خطابة المسجد الأقصى. ثم ولى القضاء بديار مصر ثم بالشام.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۳۱۵

قلت: و هو خلاف قاضى القضاة برهان الدين إبراهيم بن سعد اللّه بن جماعة و هو جدّ عبد الرحمن والد صاحب الترجمة.

و توفّى الشـيخ جمال الـدين إبراهيم بن محمـد بن عبـد الرحمن الأميوطى الشافعى بمكـة المشـرفة فى ثانى شـهر رجب بعد أن عمّر و أسمع صحيح مسلم و غيره. و كان فقيها بارعا أفتى و درّس و أشغل سنين.

و توفّى الشيخ المعتقد إسماعيل بن يوسف الإنبابى بزاويته بناحية منبابة فى سلخ شعبان. و كان شيخا معتقدا و له كرامات. و للناس فيه اعتقاد و ظنون حسنة.

ترجمه الشـيخ تقىّ الـدين المقريزى و قـد رآه و حضـر عنـده و ذكر عن الوقت الـذى كان يعمله بزاويته (- أعنى المولـد- قبائح كان الإضـراب عن ذكرهـا أليق) و إن كـان هو كمـا قـال: مما يقع به من الفساد من المتفرّجين و المترددين، غير أن السـكات فى مثل هـذا أحسن، كونه رجلا منسوبا إلى الصلاح و من ذريّة الصالحين، على أننى أيضا أنكر هذا الوقت الذى يعمل بالزاوية المذكورة إلى الآن و إبطاله من أعظم معروف يعمل، لما ترتكب العامّـة فيه من الفسق و صار عنـدهم هـذا الوقت من جملة النّزه و يتواعدون عليه من قبل عمله بأيام و يتوجّهون إليه أفواجا. و منهم من له سـنين على ذلک و هو لا يعرف باب الزاويـة، غير أنه صار ذلک عنـده عادة، يتّزه بها هو و من يريد هو و أمثاله ممّن لا خلاق لهم، فلا قوّة إلا بالله ما شاء اللّه كان.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۳۱۶

و توفّى الأمير سـيف الدين بهادر بن عبد اللّه المنجكىّ الأستادار و أحد أمراء الألوف بالديار المصرية فى أوّل جمادى الآخرة. و أصله من مماليک الأمير منجک اليوسفىّ الناصرىّ. و كان الملک الظاهر برقوق لمّا صار بخدمة منجک المذكور بقى بينهما أنسة و صحبة، فلمّـا تسلطن برقوق عرف له ذلک و رقّاه حتى ولاه الأسـتدارية العاليـة إلى أن مات و تولّى محمود بن على الاسـتدارية بعـده. و كان

بهادر عنده معرفة و عقل و سياسة و تدبير، و مات و لم يتكب كونه كان فيه إحسان للفقراء و الصلحاء و الغرباء و كان له صدقات كثيرة و برّ وافر. و كان أصله روميّا و قيل إفرنجيا و أخذه الأمير منجك.

قلت: و هو أعظم أستدار ولى الأستدارية فى دولة الملك الظاهر برقوق إلى يومنا هذا و أوفرهم حرمة و أوقرهم فى الدول.- رحمه اللّه-.

و توفّى الوزير الصاحب علم الدين بن القسّيس الأسلمى القبطىّ المعروف بكاتب سيدى فى آخر ذى الحجة، بعد أن باشر عدّة وظائف أعظمهم الوزر.

و توفّى الرئيس أمين الدين عبد اللّه بن المجد فضل اللّه بن أمين الدين عبد اللّه أبن ريشة القبطى الأسلمىّ ناظر الدولة فى ليلة الأربعاء سادس جمادى الأولى. و كان معدودا من أعيان الأقباط بالديار المصرية.

و توفّى الأمير سيف الدين سيرج بن عبد اللّه الكمشبغاوىّ نائب قلعة الجبل، فى تاسع عشرين شهر ربيع الآخر و كان من جملة أمراء الطبلخانات و كان وقورا و له وجاهة.

و توفّى الشيخ الإمام العالم العلّامة علاء الدين أحمد بن محمد المعروف بالعلاء السّيرامىّ العجمىّ الحنفىّ شيخ الشيوخ بالمدرسة الظاهرية البرقوقية فى ثالث جمادى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١١، ص: ٣١٧

الأولى و كان إماما عالما مقدّما مفتنّا أعجوبة زمانه فى الفقه و فروعه و علمى المعانى و البيان و الأصول. و كان أدرك المشايخ و أخذ عنهم العلوم العقلية و النقلية و برع و درّس و أفتى فى بلاد العجم بمدينة هراة و خوارزم و سراى و قرم و تبريز، حتى شاع ذكره و بعد صيته و لمّا بنى الملك الظاهر مدرسته بين القصرين أرسل يطلبه على البريد حتى قدم فولّاه شيخ شيوخ مدرسته فدام بها إلى أن أدركته المنية و دفن بتربة الملك الظاهر برقوق بالصحراء. و هو أحد من أوصى الملك الظاهر أن يدفن تحت رجليه و يبنى عليه مدرسة ففعل ذلك و كان ديّنا خيّرا عابدا صالحا.

و لمّا مات طلب السلطان الشيخ سيف الدين السّيرامى من حلب و ولّاه عوضه شيخ الظاهرية و هو والد الشيخ نظام الدين يحيى و جدّ الشيخ عضد الدين عبد الرحمن شيخ الظاهرية المذكورة الآن.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة؛ ج ١١؛ ص ٣١٧

توفّى القاضى تقىّ الدين محمد بن محمد بن أحمد بن شاس الماكى أحد أعيان موقّعى الدست بالديار المصرية فى سابع عشر شعبان. و كان كاتبا فاضلا عيّن لكتابة السرّ بديار مصر غير مرّة.

و توفّى الأمير شهاب الدين أحمد بن عمر بن قليج و الى الفيّوم فى هذه السنة.

كان أبوه من أمراء الألوف بالديار المصرية و كذلك جدّه و كان هو من جملة أمراء الطبلخانات. رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الأمير ناصر الدين محمد بن الأمير قطلوبغا المحمدى المعروف بقشقلندق أحد أمراء العشرات فى ثانى جمادى الآخرة و كان له وجاهة و عنده فروسية.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١١، ص: ٣١٨

و توفّى القاضى عز الدين أبو اليمن محمد بن عبد اللطيف بن الكويك الرّبعى الشافعى فى ثالث عشر جمادى الأولى عن خمس و ستين سنة و كان له سماع و رواية ولديه فضيلة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم سنة أذرع و ثمانية أصابع. مبلغ الزيادة تسعة عشر ذرعا و أربعة أصابع. و كان الوفاء سابع عشر مسرى أحد شهور القبط.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١١، ص: ٣١٩

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۹۱]

ذکر سلطنة الملک المنصور حاجی الثانیة علی مصر

السلطان الملک الصالح ثم المنصور حاجّی ابن السلطان الملک الأشرف شعبان ابن الأمیر الملک الأمجد حسین ابن السلطان الملک الناصر محمد ابن السلطان الملک المنصور قلاوون.

و قد تقدّم ذکر نسبه أیضا فی سلطنتهٔ الأولی.

و کان سبب عوده للملک أنه لمّا وقع ما حکیناه من خروج الأمیر یلبغا الناصری و تمربغا الأفضلی المدعو منطاش بمن معهما علی الملک الظاهر برقوق و وقع ما حکیناه من الحروب بینهم إلی أن ضعف أمر الملک الظاهر و اختفی و ترک ملک مصر و استولی الأمیر الکبیر یلبغا الناصری علی قلعهٔ الجبل و کلّمه أصحابه علی أنه یتسلطن فلم یفعل و أشار بعود الملک الصالح هذا و قال: إن الملک الظاهر برقوقا خلعه بغیر سبب و طلب أکابر الأمراء من أصحابه مثل الأمیر منطاش المقدم ذکره و الأمیر بزلا العمری الناصری و الأمیر قرادمرداش الأحمدی و غیرهم، و کلّمهم فی عود الملک الصالح الی السلطنهٔ ثانیا فأجاب الجمیع و طلعوا من الإسطبل السلطانی إلی الحوش من قلعهٔ الجبل و جلس الأتابک یلبغا الناصری به و طلب الملک الصالح هذا من عند أهله و قد حضر الخلیفهٔ و القضاهٔ و بایعوه بالسلطنهٔ و ألبسوه خلعتها و رکب من الحوش بأبّههٔ الملک و شعار السلطنهٔ إلی الإیوان بقلعهٔ الجبل و الأمراء المذکورون مشاهٔ بین یدیه و أجلسوه علی تخت الملک و غیّروا لقبه بالملک المنصور و لم نعلم بسلطان تغیّر لقبه قبله و لا بعده، فإنّه کان لقبه أولا الصالح و صار الآن فی سلطنته

النجوم الزاهرهٔ فی ملوک مصر و القاهرهٔ، ج ۱۱، ص: ۳۲۰

الثانیهٔ المنصور و قلده الخلیفهٔ أمور الرعیهٔ علی العادهٔ و قبّل الأمراء الأرض بین یدیه و دقّت النواقیس و الکوسات و نودی باسمه بالقاهرهٔ و مصر و بالأمان و الدعاء للملک المنصور ثم للأتابک یلبغا و تهدید من نهب فاطمأنت الناس.

ثم قام الملک المنصور إلی القصر و سائر أرباب الدولهٔ بین یدیه و استقرّ الأمیر الکبیر یلبغا الناصری أتابک العساکر بالدیار المصریهٔ و مدبّر المملکهٔ و صاحب حلّها و عقدها، ففی الحال أمر الناصری للامیر ألطنبغا الأشرفی و الأمیر أرسلان اللفاف و قراکسک و الأمیر أردبغا العثمانی أن یکونوا عند السلطان الملک المنصور بالقصر، و أن یمنعوا من یدخل علیه من الترکمان و غیرهم. و نزل الأتابک یلبغا الناصریّ إلی الإسطبل السلطانی حیث هو سکنه و خلع علی الأمیر حسام الدین حسین بن علی ابن الکورانی بولایهٔ القاهرهٔ علی عادته أولا فسّر الناس بولایته. و تعیّن الصاحب کریم الدین بن عبد الکریم بن عبد الرزّاق بن إبراهیم بن مکانس مشیر الدولهٔ و أخوه فخر الدین عبد الرحمن لنظر الدولهٔ علی عادته و أخوهما زین الدین لنظر الجهات، و أعاد جمیع المکوس التی أبطلها الملک الظاهر برقوق.

ثم نودی بالأمان للممالیک الجراکسهٔ و أن جمیع الممالیک و الأجناد علی حالهم و أنّ الأمیر الکبیر لا یغیّر علی أحد منهم شیئا مما کان فیه و لا یخرج عنه إقطاعه.

ثم فی یوم الأربعاء سادس الشهر قدم الأمیر ألطنبغا الجوبانی نائب الشام کان و الأمیر الطنبغا المعلم أمیر سلاح کان و الأمیر قردم الحسنی رأس نوبهٔ النّوب کان من سجن الإسکندریهٔ و طلعوا إلی السلطان و ترحّب بهم الأمیر الکبیر یلبغا الناصری.

ثم نودی ثانیا بالقاهرهٔ بأن من ظهر من الممالیک الظاهریهٔ فهو علی حاله باق علی إقطاعه و من اختفی منهم بعد النداء حل ماله و دمه للسلطان.

النجوم الزاهرهٔ فی ملوک مصر و القاهرهٔ، ج ۱۱، ص: ۳۲۱

ثم رسم الأمیر الکبیر للامیر سودون الفخری الشیخونی نائب السلطان للدیار المصریهٔ بلزوم بیته، و أما محمود الأستادار فإنه توجه إلی

کريم الدين بن مکانس و ترامى عليه فتکلم ابن مکانس فى أمره مع الأمير الکبير و أصلح شأنه معه على مال يحمله للامير الکبير يلبغا الناصرى و جمع بينهما فآمنه الناصرى و نزل الى داره.

ثم فى ثامن جمادى الآخرة المذکورة اجتمع الأمراء فى الخدمة السلطانية على العادة، فأغلق باب القلعة و قبض على تسعة من الأمراء المقدّمين و هم: الأمير سودون الفخرى الشيخونى النائب المقدم ذکره و سودون باق و سودون طرنطاى و شيخ الصفوى و قجماس الصالحى ابن عم الملک الظاهر برقوق و أبو بکر بن سنقر و آقبغا المارديني حاجب الحجاب و بجاس النّوروزى و محمود بن على الأستدار المقدم ذکره أيضا و قبض أيضا على جماعة من أمراء الطبلخانات و هم: عبد الرحمن بن منکلى بغا الشمسى و بورى الأحمدى و تمربغا المنجکى و منکلى الشمسى الطرخانى و محمد بن جمق بن أيتمش البجاسى و جرجى و قرمان المنجکى و حسن خجا و بيبرس التمان تمرى و أحمد الأرغونى و أسنبغا الأرغونى و شادى و قنق باى اللّالا السيفى ألجاى و جرباش الشيخى الظاهرى و بغداد الأحمدى و يونس الرمّاح و برسبغا الخليلى و بطا الطّولوتمرى الظاهرى و نوص المحمدى و تنکز العثمانى و أرسلان اللّفّاف و تنکزبغا السيفى و ألطنبغا شادى و آقبغا اللاجينى و بلاط المنجکى و بجمان المحمدى و ألطنبغا العثمانى و علىّ بن آقتمر من عبد الغنى و إبراهيم بن طشتمر الدوادار و خليل بن تنکزبغا و محمد بن الدواداری و حسام الدين حسين بن على الکورانى و الى القاهرة و بلبل الرومى الطويل و الطواشى صواب السعدى المعروف بشنکل مقدّم المماليک و الطواشى مقبل الزمام الرومى الدوادارى.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج١١، ص: ٣٢٢

ثم قبض على نيّف و ثلاثين أمير عشرة و هم: أزدمر الجرکانى و قمارى الجمالى و جلبان أخو مامق و قرطاى السيفى ألجاى اليوسفى و آقبغا بورى الشيخونى و صلاح الدين محمد بن تنکزبغا و عبدوق العلائى و طولوبغا الأحمدى و محمد بن أرغون شاه الأحمدى و إبراهيم ابن الشيخ على بن قرا و غريب بن حاجى و أسنبغا السيفى و أحمد بن حاجّبک بن شادى و آقبغا الجمالى الهيدبانى الظاهرى و أميرزه بن ملک الکرج و جلبان الکمشبغاوى الظاهرى قراسقل و موسى بن أبى بکر بن رسلان أمير طبر و قنق باى الأحمدى و أمير حاج بن أيتمش و کمشبغا اليوسفى و محمد بن آقتمر الصاحبى الحنبلى النائب و آقبغا الناصرى حطب و محمد بن سنقر المحمدى و بهادر الفخرى و محمد بن طغاى تمر النظامى و يونس العثمانى و عمر بن يعقوب شاه و على بن بلاط الکبير و محمد بن أحمد بن أرغون النائب و محمد بن بکتمر الشمسى و ألجيبغا الدوادر و محمد بن يونس الدوادار و خليل بن قرطاى شاد العمائر و محمد بن قرطاى نقيب الجيش و قطلوبک أمير جاندار و على جماعة کبيرة من المماليک الظاهرية.

ثم شفع فيه جماعة من الأمراء فأفرج عنهم: منهم صواب مقدّم المماليک المعروف بشنکل، و الطواشى مقبل الدوادارى الزّمام، و حسين بن الکورانى الوالى و جماعة أخر، و أخرج قجماس ابن عم الملک الظاهر برقوق على البريد إلى طرابلس.

و فيه نودى بالقاهرة و مصر: من أحضر السلطان الملک الظاهر برقوق إلى الأمير الکبير يلبغا الناصرى، إن کان عامّيّا خلع عليه و أعطى ألف دينار، و إن کان جنديّا أعطى إمرة عشرة بالديار المصرية، و إن کان أمير عشرة أعطى طبلخاناه، و إن کان طبلخاناه أعطى تقدمة ألف. و من أخفاه بعد ذلک شنق و حلّ ماله و دمه للسلطان.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج١١، ص: ٣٢٣

ثم فى ليلة الجمعة حملوا الأمراء المسجونون بقلعة الجبل إلى ثغر الإسکندريه ما خلا الأمير محمود الأستدار و بقيت المماليک الظاهرية فى الأبراج متفرقة بقلعة الجبل، ثم أطلق الأمير آقبغا المارديني حاجب الحجّاب، و أخرج من الحرّاقة لشفاعة صهره الأمير أحمد بن يلبغا العمرى أمير مجلس فيه فردّ معه أرسلان اللّفّاف و محمد بن تنکر شفع فيهما أيضا بعض الأمراء.

و فيه أيضا نودى على الملک الظاهر برقوق و هدّد من أخفاه فکثر الدعاء من العامة للملک الظاهر برقوق و کثر الأسف على فقده، و ثقلت أصحاب الناصرى على الناس و نفروا منهم، فصارت العامّة تقول:

راح برقوق و غزلانه، و جاء الناصرى و تيرانه.

ثم قبض الناصری علی الطواشی بهادر الشهابی مقدّم الممالیک، کان الذی کان الملک الظاهر عزله من التقدمة و نفاه إلی طرابلس، فحضر مع الناصری من جملة أصحابه، فاتّهم أنه أخفی الملک الظاهر برقوقا، فنفی إلی المرقب و ختم علی حواصله و نفی معه أسنبغا المجنون.

و فی ثانی عشره سجن محمود الأستدار و هو مقیّد بالزردخاناه.

و فیه ألزم الأمیر الکبیر یلبغا الناصری حسین بن الکورانی الوالی بطلب الملک الظاهر برقوق و خشّن علیه فی الکلام بسببه، فنزل ابن الکورانی من وقته و کرر النداء علیه بالقاهرة و مصر و هدّد من أخفاه بأنواع العذاب و النّکال.

هذا و قد کثر فساد الترکمان أصحاب الناصری بالقاهرة، و أخذوا النساء من الطرقات و من الحمامات، و لم یتجاسر أحد علی منعهم.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۳۲۴

و فیه قلع العسکر السلاح من علیهم و من علی خیولهم، و کانوا منذ دخولهم و هم بالسلاح إلی هذا الیوم.

و فی یوم الثلاثاء ثالث عشر جمادی الآخرة غمر علی الملک الظاهر برقوق من بیت أبی یزید، و أمره: أنه لمّا نزل بالإسطبل باللیل سار علی قدمیه حتی وصل إلی بیت أبی یزید أحد أمراء العشرات و اختفی بداره و لم یعرف له خبر، و کثر الفحص علیه من قبل الناصری و غیره و هجم فی مدّة اختفائه علی بیوت کثیرة فلم یقف له أحد علی خبر و تکرّر النداء علیه و التهدید علی من أخفاه، فخاف الملک الظاهر من أن یدلّ علیه فیؤخذ غصبا بالید فلا یبقی علیه، فأرسل أعلم الأمیر ألطنبغا الجوبانی بمکانه فتوجّه إلیه الجوبانی و اجتمع به و أخذه و طلع به إلی الناصری علی ما سنذکره.

و قیل غیر ذلک؛ و هو أنه لما نزل الملک من الإسطبل السلطانی و معه أبو یزید المذکور لا غیر، تبعه نعمان مهتار الطشتخاناه إلی الرّمیلة، فردّه الملک الظاهر، و مضی هو و أبو یزید حتی قربا من دار أبی یزید، فتوجّه أبو یزید قبله، و أخلی له دارا، ثم عاد إلیه و أخفاه فیها.

ثم أخذ الناصریّ یتتبع أثر الملک الظاهر برقوق حتی سأل المهتار نعمان عنه، فأخبره أنه نزل و معه أبو یزید، و أنه لمّا تبعه ردّه الملک الظاهر، فعند ذلک أمر الناصری حسین بن الکورانیّ بإحضار أبی یزید المذکور، فشدّد فی طلبه، و هجم بیوتا کثیرة، فلم یقف له علی خبر، فقبض علی جماعة من أصحاب أبی یزید و غلمانه و قرّرهم فلم یجد عندهم علما به، و ما زال یفحص علی ذلک حتی دلّه بعض الناس علی مملوک أبی یزید، فقبض علیه، و قبض ابن الکورانی علی امرأة المملوک و عاقبها

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۳۲۵

فدلّته علی موضع أبی یزید و علی الملک الظاهر، و أنهما فی بیت رجل خیّاط بجوار بیت أبی یزید، فمضی ابن الکورانیّ إلی البیت، و بعث إلی الناصریّ یعلمه، فأرسل إلیه الأمراء.

و قیل غیر ذلک وجه آخر، و هو أن السلطان الملک الظاهر لمّا نزل من الإسطبل کان ذلک وقت نصف اللیل من لیلة الاثنین المقدّم ذکرها، فسار إلی بحر النیل، و عدّی إلی بحر النیل، و عدّی إلی برّ الجیزة و نزل عند الأهرام، و أقام هناک ثلاثة أیام، ثمّ عاد إلی بیت أبی یزید المذکور، فأقام عنده إلی یوم الثلاثاء ثالث عشر جمادی الآخرة، فحضر مملوک أبی یزید إلی الناصری و أعلمه أن الملک الظاهر فی بیت أستاذه، فأحضر الناصریّ فی الحال أبا یزید، و سأله عن الملک الظاهر فاعترف أنه عنده، فأخذه ألطنبغا الجوبانی و سار به إلی البیت الذی فیه الملک الظاهر برقوق، فأوقف أبو یزید الجوبانی بمن معه، و طلع هو وحده إلی الملک الظاهر و حدّثه الخبر، ثم أذن أبو یزید للجوبانی، فطلع فلما رآه الملک الظاهر برقوق قام له و همّ بتقبیل یدیه فاستعاذ بالله الجوبانی من ذلک، و قال له: یاخوند، أنت أستاذنا و نحن ممالیک، و أخذ یسکّن روعه، حتی سکن ما به.

ثم ألبسه عمامة و طیلسانا و أنزله من الدار المذکورة، و أرکبه، و أخذه و سار من صلیبة ابن طولون نهارا، و شقّ به بین الملأ من الناس إلی أن طلع به إلی الإسطبل السلطانی بباب السلسلة حیث هو سکن الأمیر [الکبیر] یلبغا الناصری، فأجلس بقاعة الفضة من القلعة و ألزم

أبو يزيد بمال الملك الظاهر الذى كان معه، فأحضر كيسا و فيه ألف دينار، فأنعم به الناصرى عليه، و أخلع عليه، و رتّب الناصرى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۳۲۶

فى خدمة الملك الظاهر مملوكين و غلامه المهتار نعمان، و قيّد بقيد ثقيل، و أجرى عليه من سماطه طعاما بكرة و عشيا، ثم خلع الناصرىّ على الأمير حسام الدين حسن الكجكنىّ باستقراره فى نيابة الكرك عوضا عن مأمور القلمطاوىّ.

و رسم بعزل مأمور، و قدومه إلى مصر أمير مائة و مقدّم ألف بها.

هذا بعد أن جمع الناصرى الأمراء من أصحابه و شاورهم فى أمر الملك الظاهر برقوق بعد القبض عليه، فاختلفت آراء الأمراء فيه، فمنهم من صوّب قتله، و هم الأكثر، و كبيرهم منطاش، و منهم من أشار بحبسه و هم الأقل، و أكبرهم الجوبانىّ فيما قيل، فمال الناصرىّ إلى حبسه لأمر يريده اللّه تعالى، و أوصى حسام الدّين الكجكنى به وصايا كثيرة حسب ما يأتى ذكره فى محلّه، فأقام الكجكنى بالقاهرة فى عمل مصالحه إلى يوم تاسع عشر جمادى الآخرة، و سافر إلى محل كفالته بمدينة الكرك.

و عند خروجه قدم الخبر على الناصرى بأن الأمير آقبغا الصغير و آقبغا أستدار آقتمر، اجتمع عليهما نحو أربعمائة مملوك من المماليك الظاهرية ليركبوا على جنتمر نائب الشام و يملكوا منه البلد، فلمّا بلغ جنتمر ذلك ركب بمماليكه و كبسهم على حين غفلة، فلم يفلت منهم إلا اليسير و فيهم آقبغا الصغير المذكور، فسرّ الناصرى بذلك، و خلع على القاصد.

و لمّا وصل هذا الخبر إلى مصر ركب منطاش و جماعة من أصحابه إلى الناصرى و كلّموه بسبب إبقاء الملك الظاهر، و خوّفوه عاقبة ذلك، و لا زالوا به حتى وافقهم على قتله، بعد أن يصل إلى الكرك و يحبس بها، و اعتذر إليهم بأنه إلى الآن لم يفرّق الاقطاعات و الوظائف لاضطراب المملكة، و أنّه ثمّ من له ميل للظاهر فى الباطن

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۳۲۷

و ربّما يثور بعضهم عند قتله، و هذا شىء يدرك فى أىّ وقت كان، حتى قاموا عنه و نزلوا إلى دورهم.

ثم أخذ الناصرى فى اليوم المذكور يخلع على الأمراء باستقرارهم فى الإمريات و الإقطاعيات، فاستقرّ بالأمير بزلار العمرى الناصرى حسن فى نيابة دمشق، و الأمير كمشبغا الحموى اليلبغاوى فى نيابة حلب، و بالأمير صنجق الحسنىّ فى نيابة طرابلس، و بالأمير شهاب الدين أحمد بن محمد الهيدبانىّ فى حجوبية طرابلس الكبرى.

ثم فى حادى عشرينه عرض الأمير الكبير يلبغا الناصرى المماليك الظاهريّة و أفرد من المستجدّين مائتين و ثلاثين مملوكا لخدمة السلطان الملك المنصور حاجىّ صاحب الترجمة و سبعين من المشتروات أنزلهم بالأطباق و فرّق من بقى على الأمراء، و كان العرض بالإسطبل، و أنعم على كلّ من آقبغا الجمالى الهيدبانىّ أمير آخور و يلبغا السّودونىّ و تنبك اليحياوى و سودون اليحياوى بإمرة عشرة فى حلب، و هؤلاء الأربعة ظاهريّة من خواصّ مماليك الملك الظاهر برقوق، و رسم بسفرهم مع الأمير كمشبغا الحموىّ نائب حلب.

ثم فى ليلة الخميس ثانى عشرين جمادى الاخرة رسم الناصرى بسفر الملك الظاهر برقوق إلى الكرك، فأخرج من قاعة الفضّة فى ثلث الليل من باب القرافة أحد أبواب القلعة و معه الأمير ألطنبغا الجوبانى، فأركبوه هجينا و معه من مماليكه أربعة مماليك صغار على هجن، و هم قطلوبغا الكركى و بيغان الكركى و آقباى الكركى و سودون الكركى، و الجميع صاروا فى سلطنة الملك الظاهر الثانية بعد خروجه من الكرك أمراء، و سافر معه أيضا مهتاره نعمان، و سار به الجوبانى إلى قبة النصر خارج

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۳۲۸

القاهرة، و أسلمه إلى الأمير سيف الدين محمد بن عيسى العائدى؛ فتوجه به إلى الكرك من على عجرود حتى وصل به إلى الكرك، و سلّمه إلى نائبها الأمير حسام الدين الكجكنى و عاد بالجواب، فأنزل الكجكنى الملك الظاهر بقاعة النحاس من قلعة الكرك، و كانت ابنة الأتابك يلبغا العمرى الخاصّكى أستاذ الملك الظاهر برقوق زوجة مأمور المعزول عن نيابة الكرك هناك، فقامت للملك الظاهر برقوق بكلّ ما يحتاج، كونه مملوك أبيها يلبغا، مع أن الناصرى أيضا مملوك أبيها، غير أنها حبّب إليها خدمة الملك الظاهر،

و مدّت له سماطا يليق به، و استمرّت على ذلك أياما كثيرة، و فعلت معه أفعالا، كان اعتادها أيام سلطنته.

ثم إن الكجكنىّ أيضا اعتنى بخدمته لمّا كان أوصاه الناصرىّ به قبل خروجه من مصر، و من جملة ما كان أوصاه الناصرىّ و قرّره معه أنّه متى حصل له أمر من منطاش أو غيره فليفرج عن الملك الظاهر برقوق من حبس الكرك، فاعتمد الكجكنى على ذلك، و صار يدخل إليه فى كل يوم و يتلطّف به و يعده أنه يتوجّه معه إلى التّركمان، فإنّه له فيهم معارف، و حصّن قلعة الكرك و صار لا يبرح من عنده نهاره كلّه، و يأكل معه طرفى النهار سماطه، و لا زال على ذلك حتى أنس به الملك الظاهر و ركن له حسب ما يأتى ذكره.

و أما الناصرىّ فإنه بعد ذلك خلع على جماعة من الأمراء، فاستقرّ بالأمير قطلوبغا الصّيفوىّ فى نيابة صفد، و بالأمير بغاجق فى نيابة ملطية، ثم رسم فنودى بالقاهرة بأن المماليك الظاهريّة يخدمون مع نوّاب البلاد الشامية، و لا يقيم أحد منهم بالقاهرة، و من تأخّر بعد النداء حلّ ماله و دمه للسلطان، ثم نودى بذلك من الغد ثانيا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۳۲۹

و فى رابع عشرينه برز النوّاب إلى الرّيدانيّة للسفر بعد أن أخلع الناصرى على الجميع خلع السفر.

ثم فى سادس عشرينه خلع السلطان الملك المنصور على الأمير يلبغا الناصرى باستقراره أتابك العساكر بالديار المصرية و أن يكون مدبّر المملكة، و على الأمير ألطنبغا الجوبانى باستقراره رأس نوبة الأمراء وظيفة بركة الجوبانى و على الأمير قرادمرداش الأحمدى و استقرّ أمير سلاح، و على الأمير أحمد بن يلبغا و استقرّ أمير مجلس على عادته أوّلا، و على الأمير تمرباى الحسنى، و استقرّ حاجب الحجاب، و خلع على القضاة الثلاثة باستمرارهم، و هم: القاضى شمس الدين محمد الطّرابلسىّ و القاضى جمال الدين عبد الرحمن بن خير المالكى و القاضى ناصر الدين نصر اللّه الحنبلى، و لم يخلع على قاضى القضاة ناصر الدين ابن بنت ميلق الشافعى، لتوعّكه، ثم خلع على القاضى صدر الدين المناوى مفتى دار العدل، و على القاضى بدر الدين محمد بن فضل اللّه كاتب السر الجميع باستمرارهم.

و فى هذا اليوم سافر نوّاب البلاد الشامية، و سافر معهم كثير من التّركمان و اجناد الشام و أمرائها، و فيه نودى أيضا بألّا يتأخر أحد من مماليك الملك الظاهر برقوق إلّا من يكون بخدمة السلطان ممّن عيّن، و من تأخر بعد ذلك شنق، ثم نودى على التركمان و الشاميين و الغرباء بخروجهم من الديار المصرية إلى بلادهم.

و فى يوم الخميس خلع الناصرى على الأمير آقبغا الجوهرى باستقراره أستادارا، و على الأمير آلابغا العثمانى دوادارا كبيرا، و على الأمير ألطنبغا الأشرفىّ رأس نوبة ثانيا، و هى الآن وظيفة رأس نوبة النّوب، و على الأمير جلبان العلائى حاجبا، و على الأمير بلاط العلائى أمير جاندار، و على شهرى نائب دوركى باستمراره.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۳۳۰

ثمّ فى سلخ جمادى الآخرة فرّق الناصرى المثالات على الأمراء، و جعلهم أربعة و عشرين تقدمة على العادة القديمة، أراد بذلك أن يظهر للناس ما أفسده الملك الظاهر برقوق فى أيام سلطنته من قوانين مصر، فشكره الناس على ذلك.

ثم نودى بالقاهرة بالأمان: و من ظلم من مدّة عشرين سنة فعليه بباب الأمير الكبير يلبغا الناصرىّ، ليأخذ حقّه.

ثم فى يوم السبت أوّل شهر رجب وقف أوّل النهار زامر على باب السلسلة تحت الإسطبل السلطانى، حيث هو سكن الناصرىّ، و زعق فى زمره؛ فلما سمعه الناس اجتمع الأمراء و المماليك فى الحال، و طلعوا إلى خدمة الناصرىّ، و لم يعهد هذا الزّمر بمصر قبل ذلك على هذه الصورة، و ذكروا أنها عادة ملوك التتار إذا ركبوا يزعق هذا الزامر بين يديه، و هو عادة أيضا فى بلاد حلب، فاستغرب أهل مصر ذلك و استمرّ فى كلّ يوم موكب.

و فيه أيضا رسم الناصرىّ أن يكون رءوس نوب السّلاحداريّة و السّقاة و الجمداريّة ستّة لكل طائفة على ما كانوا أوّلا قبل سلطنة الملك الأشرف شعبان بن حسين، فإن الأشرف هو الذى استقرّ بهم ثمانية، و خلع الناصرى على قطلوبغا الفخرى باستقراره نائب قلعة الجبل عوضا عن الأمير بجاس.

و فی خامسه قدم الأمیر نعیر بن حیّار بن مهنّأ ملک العرب إلی الدیار المصریة، و لم یحضر قطّ فی أیام الملک الظاهر برقوق، و قصد بحضوره رؤیة الملک المنصور

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۳۳۱

و تقبیل الأرض بین یدیه، فخلع السلطان علیه، و نزل بالمیدان الکبیر من تحت القلعة، و أجری علیه الرّواتب.

و فیه خلع علی الأمیر آلابغا العثمانی الدوادار الکبیر باستقراره فی نظر الأحباس مضافا لوظیفته، و قرقماس الطّشتمری و استمرّ خازندارا.

و فی ثامنه خلع علی الأمیر نعیر خلعة السفر و أنعم علی الطواشی صواب السعدی شنکل بإمرة عشرة، و استرجعت منه إمرة طبلخاناه، و لم یقع مثل ذلک أن یکون مقدّم الممالیک أمیر عشرة.

و فیه خلع السلطان الملک المنصور علی شخص و عمله خیّاط السلطان، فطلبه الناصری و أخذ منه الخلعة، و ضربه ضربا مبرّحا، و أسلمه لشادّ الدواوین، ثم أفرج عنه بشفاعة الأمیر أحمد بن یلبغا أمیر مجلس، فشقّ ذلک علی الملک المنصور، فقال:

إذا لم ینفّذ مرسومی فی خیّاط فما هذه السلطنة؟ ثمّ سکت علی مضض.

و فی أوّل شعبان أمر المؤذّنون بالقاهرة و مصر أن یزیدوا فی الآذان، إلّا آذان المغرب: الصلاة و السلام علیک یا رسول اللّه عدّة مرّات، و سبب ذلک أن رجلا من الفقراء المعتقدین سمع فی لیلة الجمعة بعد أذان العشاء: الصلاة علی النّبیّ صلی اللّه علیه و سلم، و کان العادة فی لیلة الجمعة بعد أذان العشاء یصلّی المؤذنون علی النّبیّ صلی اللّه علیه و سلم مرارا علی المئذنة، فلمّا سمع الفقیر ذلک قال لأصحابه الفقراء:

أ تحبون أن تسمعوا هذا فی کل أذان؟ قالوا: نعم، فبات تلک اللیلة، و أصبح و قد زعم أنّه رأی رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلّم فی منامه یأمره أن یقول لمحتسب القاهرة نجم الدین الطّنبدی أن یأمر المؤذنین أن یصلّوا علی النّبیّ صلّی اللّه علیه و سلّم عقیب کلّ أذان، فمشی الشیخ إلی المحتسب المذکور و قصّ علیه ما رآه، فسّره ذلک، و أمر به فبقی إلی یومنا هذا.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۳۳۲

ثم إن الناصریّ أنزل السبعین الذین قرّرهم بالأطباق من ممالیک برقوق و فرّقهم علی الأمراء، و رسم أیضا بإبطال المقدّمین و السوّاقین من الطّواشیّة، و نحوهم، و أنزلهم من عند الملک المنصور، فاتّضح أمر السلطان الملک المنصور، و عرف کلّ أحد أنه لیس له أمر و لا نهی فی المملکة.

ذکر ابتداء الفتنة بین الأمیر الکبیر یلبغا الناصری و بین الأمیر تمربغا الأفضلیّ المدعو منطاش:

و لمّا کان سادس عشر شعبان أشیع فی القاهرة بتنکّر منطاش علی الناصریّ، و انقطع منطاش عن الخدمة، و أظهر أنه مریض، ففطن الناصریّ بأنه یرید یعمل مکیدة، فلم ینزل لعیادته، و بعث إلیه الأمیر ألطنبغا الجوبانی رأس نوبة کبیرا فی یوم الاثنین سادس عشر شعبان المذکور لیعوده فی مرضه، فدخل علیه، و سلّم علیه، و قضی حقّ العیادة، و همّ بالقیام، فقبض علیه منطاش و علی عشرین من ممالیکه، و ضرب قرقماس دوادار الجوبانی ضربا مبرّحا، مات منه بعد أیام.

ثم رکب منطاش حال مسکه للجوبانیّ فی أصحابه إلی باب السلسلة و أخذ جمیع الخیول التی کانت واقفة علی باب السلسلة و أراد اقتحام الباب لیأخذ الناصریّ علی حین غفلة، فلم یتمکّن من ذلک، و أغلق الباب، و رمی علیه ممالیک الناصریّ من أعلی السور بالنّشّاب و الحجارة، فعاد إلی بیته و معه الخیول، و کانت داره دار منجک الیوسفیّ التی اشتراها تمربغا الظاهریّ الدوادار و جدّدها بالقرب من مدرسة السلطان حسن، و نهب منطاش فی عوده بیت الأمیر آقبغا الجوهریّ الأستدار و أخذ خیوله و قماشه.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۳۳۳

ثمّ رسم منطاش فی الوقت لممالیکه و أصحابه بالطلوع إلی مدرسة السلطان حسن، فطلعوا إلیها و ملکوها، و کان الذی طلع إلیها

الأمير تنكزبغا رأس نوبة و الأمير أزدمر الجوكندار دوادار الملك الظاهر برقوق فى عدّة من المماليك، و حمل إليها منطاش النّشّاب و الحجارة، و رموا على من كان بالرّميلة من أصحاب الناصرىّ من أعلى المئذنتين و من حول القبّة، فعند ذلك أمر الناصرىّ مماليكه و أصحابه بلبس السلاح و هو يتعجّب من أمر منطاش كيف يقع منه ذلك و هو فى غاية من قلّة المماليك و أصحابه، و بلغ الأمراء ذلك، فطلع كلّ واحد بمماليكه و طلبه إلى الناصرىّ.

و أمّا منطاش فإنّه أيضا تلاحقت به المماليك الأشرفيّة خشداشيته و المماليك الظاهرية، فعظم بهم أمره، و قوى جأشه، فأمّا مجىء الظاهريّة إليه فرجاء لخلاص أستاذهم الملك الظاهر برقوق و الأشرفية، فهم خشداشيّته، لأن منطاش كان أشرفيّا و يلبغا الناصرىّ يلبغاويّا خشداشا لبرقوق، و انضمت اليلبغاويّة على الناصرى و هم يوم ذاك أكابر الأمراء و غالب العسكر المصرى، و تجمّعت المماليك على منطاش حتى صار فى نحو خمسمائة فارس معه، بعد ما كان سبعون فارسا فى أوّل ركوبه، ثم أتاه من العامّة عالم كبير، فترامى الفريقان و اقتتلا.

و نزل الأمير حسام الدّين حسين بن الكورانى والى القاهرة و الأمير مأمور حاجب الحجاب من عند الناصرىّ، و نودى فى الناس بنهب مماليك منطاش، و القبض على من قدروا عليه منهم، و إحضاره إلى الناصرىّ فخرج عليهما طائفة من المنطاشيّة فضربوهما و هزموهما، فعادوا إلى الناصرى، و سار الوالى إلى القاهرة، و أغلق أبوابها: و اشتدّ الحرب، و خرج منطاش فى أصحابه، و تقرّب من العامّة، و لا طفهم

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۳۳۴

و أعطاهم الذهب، فتعصّبوا له و تزاحموا على التفاط النّشّاب الذى يرمى به من أصحاب الناصرىّ على منطاش و أتوه به، و بالغوا فى الخدمة لمنطاش، حتى خرجوا عن الحدّ، فكان الواحد منهم يثب فى الهواء حتى يخطف السهم قبل أن يأخذه غيره، و يأتى به منطاش و طائفة منهم تنقل الحجارة إلى أعلى المدرسة الحسنيّة، و استمرّوا على ذلك إلى الليل، فبات منطاش ليلة الثلاثاء سابع عشر شعبان على باب مدرسة السلطان حسن المذكورة و الرمى يأتيه من القلعة من أعوان الناصرى.

هذا و المماليك الظاهريّة تأتيه من كلّ فجّ، و هو يعدهم و يمنّيهم حتى أصبح يوم الثلاثاء و قد زادت أصحابه على ألف فارس، كلّ ذلك و الناصرى لا يكترث بأمر منطاش، و يصلح أمره على التراخى استخفافا بمنطاش و حواشيه، يحرّضه على سرعة قتال منطاش و يحذّرونه التهاون فى أمره.

ثمّ أتى منطاش طوائف من مماليك الأمراء و البطّالة و غيرهم شيئا بعد شىء، فحسن حاله بهم، و اشتدّ بأسه، و عظمت شوكته بالنسبة لما كان فيه أوّلا، لا بالنسبة لحواشى الناصرىّ و مماليكه، فعند ذلك ندب الناصرىّ الأمير بجمان و الأمير قرابغا الأبوبكرى فى طائفة كبيرة و معهم المعلّم شهاب الدين أحمد بن الطّولونى المهندس و جماعة كبيرة من الحجّارين و النقّابين لينقبوا بيت منطاش من ظهره حتى يدخلوا منه إلى منطاش و يقاتلوه من خلفه و الناصرى من أمامه، ففطن منطاش بهم، فأرسل إليهم فى الحال عدّة من جماعته قاتلوهم حتى هزموهم، و أخذوا قرابغا و أتوا به إلى منطاش، فرتّب عدّة رماة على الطبلخاناه السلطانية، و على المدرسة الأشرفيّة التى هدمها الملك الناصر فرج، و جعل الملك المؤيّد مكانها

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۳۳۵

بيمارستانا فى الصوّة، فرموا على منطاش بالمدافع و النّشّاب، فقتل عدّة من العوامّ، و جرح كثير من المنطاشية، هذا و قد انزعج الناصرى و قام بنفسه و هيّأ أصحابه لقتال منطاش، و ندب من أصحابه من أكابر الأمراء جماعة لقتاله، و هم الأمير أحمد بن يلبغا أمير مجلس، و الأمير جمق ابن الأتابك أيتمش البجاسىّ فى جمع كبير من المماليك، فنزلوا و طردوا العامّة من الرّميلة، فحملت العامّة من أصحاب منطاش عليهم حملة واحدة هزموهم فيها أقبح هزيمة.

ثم عاد أحمد بن يلبغا المذكور غير مرّة، و استمرّ القتال بينهما إلى آخر النهار و الرّمى و القتال عمّال من القلعة على المدرسة الحسنيّة

و من المدرسة على القلعة و بينماهم فى ذلك خرج من عسكر الناصرىّ الأمير آقبغا الماردينىّ بطلبة و صار إلى منطاش فتسلّل الأمراء عند ذلك واحدا بعد واحد، و كلّ من يأتى منطاش من الأمراء يوكّل به واحد يحفظه و يبعث به إلى داره، و يأخذ مماليكه فيقاتل الناصرى بهم.

فلمّا رأى حسين بن الكورانى الوالى جانب الناصرىّ قد اتضع خاف على نفسه من منطاش و اختفى، فطلب منطاش ناصر الدين محمد بن ليلى نائب حسين ابن الكورانى و ولّاه ولاية القاهرة، و ألزمه بتحصيل النّشّاب، فنزل فى الحال إلى القاهرة، و حمل إليه كثيرا من النشاب.

ثم أمره منطاش فنادى بالقاهرة بالأمان و الاطمئنان و إبطال المكس و الدعاء للأمير الكبير منطاش بالنصر.

هذا و قد أخذ أمر الناصرىّ فى إدبار، و توجّه جماعة كبيرة من أصحابه الى منطاش، فلمّا رأى الناصرىّ عسكره فى قلّة و قد نفر عنه غالب أصحابه، بعث الخليفة المتوكّل على اللّه إلى منطاش يسأله فى الصلح و إخماد الفتنة، فنزل الخليفة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١١، ص: ٣٣۶

إليه و كلّمه فى ذلك، فقال له منطاش: أنا فى طاعة السلطان، و هو أستاذى و ابن أستاذى، و الأمراء إخوتى و ما غريمى إلا الناصرىّ، لأنّه حلف لى و أنا بسيواس ثم بحلب و دمشق أيضا بأننا نكون شيئا واحدا، و أن السلطان يحكم فى مملكته بما شاء، فلمّا حصل لنا النصر و صار هو أتابك العساكر، استبد بالأمر، و منع السلطان من التّحكّم، و حجر عليه، و قرّب خشداشيته اليلبغاوية و أبعدنى أنا و خشداشيّتى الأشرفية، ثم ما كفاه ذلك حتى بعثنى لقتال الفلّاحين، و كان الناصرى أرسله من جملة الأمراء إلى جهة الشرقية لقتال العربان، لمّا عظم فساد فلّاحيها.

ثم قال منطاش: و لم يعطنى الناصرى شيئا من المال سوى مائة ألف درهم، و أخذ لنفسه أحسن الإقطاعات و أعطانى أضعفها، و الإقطاع الذى قرّره لى يعمل فى السنة ستمائة ألف درهم، و اللّه ما أرجع عنه حتى أقتله أو يقتلنى، و يتسلطن و يستبدّ بالأمر وحده من غير شريك، فأخذ الخليفة يلاطفه فلم يرجع له، و قام الخليفة من عنده و هو مصمّم على مقالته، و طلع إلى الناصرى و أعاد عليه الجواب.

فعند ذلك ركب الناصرىّ بسائر مماليكه و أصحابه، و نزل بجمع كبير لقتال منطاش و صفّ عساكره تجاه باب السلسلة، و برز إليه منطاش أيضا بأصحابه و تصادما و أقتتلا قتالا شديدا، و ثبت كلّ من الطائفتين ثباتا عظيما، فخرج من عسكر الناصرى الأمير عبد الرحمن ابن الأتابك منكلى بغا الشمسى صهر الملك الظاهر برقوق بمماليكه، و الأمير صلاح الدين محمد بن تنكر نائب الشام، و كان أيضا من خواصّ الملك الظاهر برقوق، و سار صلاح الدين المذكور إلى منطاش و معه خمسة أحمال نشّاب و ثمانون حمل مأكل و عشرة آلاف درهم و انكسر الناصرى و أصحابه و طلع إلى باب السلسلة،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١١، ص: ٣٣٧

فتراجع أمره، و انضمّ عليه من بقى من خشداشيته اليلبغاوية، و ندب لقتال منطاش الأمير أحمد بن يلبغا أمير مجلس ثانيا، و الأمير قرادمرداش الأحمدى أمير سلاح، و الأمير ألطنبغا المعلّم، و الأمير مأمور القلمطاوى حاجب الحجّاب، و الجميع يلبغاوية، و نزلوا فى جمع موفور من العسكر و صدموا منطاش صدمة هائلة، و أحمى أظهرهم من فى القلعة بالرمى على منطاش و أصحابه، فأخذ أصحاب منطاش عند ذلك فى الرمى من أعلى المدرسة بالنّشّاب و النفط، و التحم القتال، من فوق و من أسفل، فانكسر عسكر الناصرى ثانيا، و انهزموا إلى باب السلسلة.

هذا و العامّة تأخذ النّشّاب من على الأرض و تأتى به منطاش و هو يتقرّب منهم و يترفّق لهم، و يقول لهم: أنا واحد منكم و أنتم إخواننا و أصحابنا، و أشياء كثيرة من هذه المقولة، هذا و هم يبذلون نفوسهم فى خدمته و يتلاقطون النّشّاب من الرّميلة مع شدة رمى الناصرى عليهم من القلعة.

ثم ظفر منطاش بحاصل للأمير جركس الخليلى الأمير آخور و فيه سلاح كثير و مال، و بحاصل آخر لبكلمش العلائى، فأخذ منطاش منهما شيئا كثيرا، فقوى به، فإنّه كان أمره قد ضعف من قلّة السلاح لا من قلّة المقاتلة، لأن غالب من أتاه بغير سلاح.

ثم ندب الناصرىّ لقتاله الأمير مأمورا حاجب الحجّاب و الأمير جمق بن أيتمش و الأمير قراكسك فى عدة كبيرة من اليلبغاويّة و قد لاح لهم زوال دولة اليلبغاوية بحبس الملك الظاهر برقوق، ثم بكسرة الناصرىّ من منطاش إن ثم ذلك؛ فنزلوا إلى منطاش و قد بذلوا أرواحهم، فبرز لهم العامة أمام المنطاشية، و أكثروا من رميهم بالحجارة فى وجوههم و وجوه خيولهم حتى كسروهم، و عادوا إلى باب السلسلة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۳۳۸

كلّ ذلك و الرمى من القلعة بالنّشّاب و النفوط و المدافع متواصل على المنطاشية، و على من بأعلى المدرسة الحسنية، حتى أصاب حجر من حجارة المدفع القبة الحسنية فخرقها، و قتل مملوكا من المنطاشية، فلمّا رأى منطاش شدّة الرمى عليه من القلعة أرسل أحضر المعلّم ناصر الدين محمد بن الطّرابلسى و كان أستاذا فى الرمى بمدافع النّفط، فلمّا حضر عنده جرّده من ثيابه ليوسّطه من تأخّره عنه فآعتذر إليه بأعذار مقبولة، و مضى ناصر الدين فى طائفة من الفرسان و أحضر آلات النفط و طلع على المدرسة و رمى على الإسطبل السلطانى، حيث هو سكن الناصرى حتى أحرق جانبا من خيمة الناصرى و فرّق جمعهم، و قام الناصرىّ و السلطان الملك المنصور من مجلسهما و مضيا إلى موضع آخر امتنعا فيه، و لم يمض النهار حتى بلغت عدّة فرسان منطاش نحو الألفى مقاتل.

و بات الفريقان فى تلك الليلة لا يبطلان الرّمى حتى أصبحا يوم الأربعاء و قد جاء كثير من مماليك الأمراء إلى منطاش، ثم خرج من عسكر الناصرى الأمير تمرباى الحسنىّ حاجب الحجّاب، و الأمير قردم الحسنى رأس نوبة النّوب فى جماعة كبيرة من الأمراء، و صاروا إلى منطاش من جملة عسكره، و غالب هؤلاء الأمراء من اليلبغاوية.

ثم ندب الناصرىّ لقتال منطاش الأمير أحمد بن يلبغا أمير مجلس، و الأمير قرا دمرداش الأحمدى أمير سلاح، و عيّن منهم جماعة كبيرة، فنزلوا و صدموا المنطاشية صدمة هائلة انكسروا فيها غير مرّة، و ابن يلبغا يعود بهم إلى أن ضعف أمره، و انهزم و طلع إلى باب السلسلة، هذا و القوم يتسللون من الناصرى إلى منطاش و العامه تمسك من وجدوه من التّرك و يقولون له: ناصرىّ، أم منطاشىّ فإن قال:

ناصرى أنزلوه من على فرسه و أخذوا جميع ما عليه و أتوا به إلى منطاش.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۳۳۹

ثم تكاثرت العامة على بيت الأمير أيدكار حتى أخذوه بعد قتال كبير و أتوا به إلى منطاش، فأكرمه منطاش، و بينما هو فى ذلك جاءه الأمير ألطنبغا المعلّم بطلبه و مماليكه، و كان من أجل خشداشية الناصرى و أصحابه، و صار من جملة المنطاشية، فسرّ به منطاش.

ثم عيّن له و لأيدكار موضعا يقفان فيه و يقاتلان الناصرى منه، و بينما منطاش فى ذلك أرسل إليه الأمير قرادمرداش الأحمدى أمير سلاح يسأله فى الحضور إليه طائعا فلم يأذن له، ثم أتاه الأمير بلّوط الصرغتمشى بعد ما قاتله عدّة مرار و كان من أعظم أصحاب الناصرى.

ثم حضر إلى منطاش جمق بن أيتمش و اعتذر إليه، فقبل عذره، و عظم أمر منطاش، و ضعف أمر الناصرىّ، و اختل أمره و صار فى باب السلسلة بعدد يسير من مماليكه و أصحابه، و ندم الناصرىّ على خلع الملك الظاهر برقوق، و حبسه لمّا علم أن الأمر خرج من اليلبغاوية و صار فى الأشرفية حيث لا ينفعه الندم.

فلمّا أذّن العصر قام الناصرىّ هو و قرادمرداش الأحمدى أمير سلاح و أحمد ابن يلبغا أمير مجلس و آقبغا الجوهرى الأستادار و الابغا العثمانى الدوادار و الأمير قراكسك فى عدّة من المماليك و صعد إلى قلعة الجبل و نزل من باب القرافة، و عند ما قام الناصرىّ من باب السلسلة و طلع القلعة و نزل من باب القرافة أعلم أهل القلعة منطاش فركب فى الحال بمن معه و طلع إلى الإسطبل السلطانىّ و

ملکه و وقع النهب فیه فأخذ من الخیل و القماش شیئا کثیرا و تفرّق الذّعر و العامّة إلی بیوت المنهزمین، فنهبوا و أخذوا ما قدروا علیه و منعهم الناس من عدّة مواضع و بات منطاش بالإسطبل.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۳۴۰

و أصبح من الغد و هو یوم الخمیس تاسع عشر شعبان، و طلع إلی القلعة إلی السلطان الملک المنصور حاجی و أعلمه بأنه فی طاعته و أنه هو أحقّ بخدمته لکونه من جملة الممالیک الذین لأبیه الأشرف شعبان، و أنه یمتثل مرسومه فیما یأمره به و أنه یرید بما فعله عمارة بیت الملک الأشرف- رحمه اللّه- فسرّ المنصور بذلک هو و جماعة الأشرفیة، فإنهم کانوا فی غایة ما یکون من الضّیق مع الیلبغاویة من مدّة سنین.

ثم تقدّم الأمیر منطاش إلی رءوس النّوب بجمع من الممالیک و إنزالهم بالأطباق من قلعة الجبل علی العادة، ثم قام من عند السلطان و نزل إلی الإسطبل بباب السلسلة، و کان ندب جماعة للفحص علی الناصری و رفقته، ففی حال نزوله أحضر إلیه الأمیر أحمد بن یلبغا أمیر مجلس، و الأمیر مأمور القلمطاوی، فأمر بحبسهما بقاعة الفضّة من القلعة و حبس معهما أیضا الأمیر بجمان المحمّدیّ، و کتب منطاش بإحضار الأمیر سودون الفخریّ الشیخونیّ النائب من ثغر الإسکندریة، ثم قدم علیه الخبر بأنّ الأمراء الذین توجّهوا فی أثر الناصریّ أدرکوه بسریاقوس و قبضوا علیه، و بعد ساعة أحضر الأمیر یلبغا الناصریّ بین یدیه فأمر به فقیّد و حبس أیضا بقاعة الفضّة، ثم حمل هو و الجوبانیّ فی آخرین إلی سجن الإسکندریة فحبسوهما، و أخذ الأمیر منطاش یتتبّع أصحاب الناصریّ و حواشیه من الأمراء و الممالیک.

فلمّا کان یوم عشرین شعبان قبض علی الأمیر قرادمرداش الأحمدی أمیر سلاح فأمر به منطاش فقیّد و حبس ثم قبض منطاش علی جماعة کبیرة من الأمراء، و هم: الأمیر ألطنبغا المعلّم، و الأمیر کشلی القلمطاوی، و اقبغا الجوهریّ، و ألطنبغا

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۳۴۱

الأشرفیّ، و آقبغا العثمانی، و فارس الصرغتمشی، و کمشبغا، و شیخ الیوسفیّ، و عبدوق العلائی، و قیّد الجمیع و بعث بهم إلی ثغر الإسکندریة، فحبسوا بها.

ثم فی حادی عشرینه أنعم منطاش علی الأمیر إبراهیم بن قطلقتمر الخازندار بإمرة مائة و تقدمة ألف، و استقرّ أمیر مجلس عوضا عن أحمد بن یلبغا دفعة واحدة من إمرة عشرة، ثم أخلع السلطان الملک المنصور علی الأمیر منطاش باستقراره أتابک العسکر و مدبّر الممالک عوضا عن یلبغا الناصری المقبوض علیه، ثم کتب منطاش أیضا بإحضار قطلوبغا الصّفویّ نائب صفد، و الأمیر أسندمر الشرفیّ، و یعقوب شاه و تمان تمر الأشرفیّ، و عیّن لکل منهم إمرة مائة و تقدمة ألف بالدیار المصریة.

ثم فی ثانی عشرینه قبض علی الأمیر تمربای الحسنی حاجب الحجّاب بدیار مصر، و علی الأمیر یلبغا المنجکیّ، و علی إبراهیم بن قطلقتمر أمیر مجلس الذی ولّاه فی أمسه، ثم أطلقه و أخرجه علی إمرة مائة و تقدمة ألف بحلب لأمر اقتضی ذلک.

ثم فی ثالث عشرین شعبان المذکور قبض منطاش علی أرسلان اللّفّاف، و علی قراکسک السیفیّ، و أیدکار العمریّ حاجب الحجّاب، و قردم الحسنیّ، و آقبغا الماردینیّ و عدّة من أعیان الممالیک الیلبغاویة و غیرهم.

ثم قبض علی الطواشی مقبل الرّومیّ الدّواداری الزّمام، و جوهر الیلبغاوی لالا السلطان الملک المنصور، ثم قبض منطاش علی الطواشی صندل الرومیّ المنجکی خازندار الملک الظاهر برقوق و عذّبه علی ذخائر برقوق و عصره مرارا حتّی دلّ علی شیء کثیر، فأخذها منطاش و تقوّی بها.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۳۴۲

و فی ثامن عشرینه وصل سودون الشیخونی النائب من سجن الإسکندریّة فأمره منطاش بلزوم بیته.

ثم أنفق منطاش علی من قاتل معه من الأمراء و الممالیک بالتدریج، فأعطی لمائة واحد منهم لکل واحد ألف دینار، و أعطی لجماعة

أخر لكلّ واحد عشرة آلاف درهم، و دونهم لكل واحد خمسة آلاف درهم، و دونهم لكل واحد ألف درهم، و دونهم لكلّ واحد خمسمائة درهم. و ظهر على منطاش الملل من المماليک الظاهرية و التخوّف منهم، فإنه كان قد وعدهم بأنه يخرج أستاذهم الملک الظاهر برقوق من سجن الكرک إذا انتصر على الناصرىّ، فلم يفعل ذلک، و لا أنعم على واحد منهم بإمرة و لا إقطاع، و إنما أخذ يقرّب خشداشيته و مماليكه و أولاد الناس، فعزّ عليهم ذلک فى الباطن، و فطن منطاش بذلک، فعاجلهم بأن عمل عليهم مكيدة، و هى:

أنه لمّا كان يوم الثلاثاء ثانى شهر رمضان من سنة إحدى و تسعين و سبعمائة المذكورة طلب سائر المماليک الظاهريّة على أنّه ينظر فى أمرهم و ينفق عليهم و يترضّاهم، فلمّا طلعوا إلى القلعة أمر منطاش فأغلق عليهم باب القلعة، و قبض على نحو المائتين منهم.

حدّثنى السّيفى إينال المحمودى الظاهرى قال: كنت من جملتهم، فلمّا وقفنا بين يدى منطاش و نحن فى طمعة النّفقة و الإقطاعات، ظهر لى من وجه منطاش الغدر، فتأخّرت خلف خشداشيتى، فلمّا وقع القبض عليهم رميت بنفسى إلى الميدان، ثم منه إلى جهة باب القرافة، و اختفيت بالقاهرة. انتهى.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۳۴۳

ثم بعث منطاش بالأمير جلبان الحاجب، و بلاط الحاجب، فقبض على كثير من المماليک الظاهريّة، و سجنوا بالأبراج من قلعة الجبل.

قلت: لا جرم، فإنه من أعان ظالما سلّط عليه، و فى الجملة أن الناصرىّ كان لحواشى برقوق خيرا من منطاش، غير أنّه لكل شىء سبب، و كانت حركة منطاش سببا لخلاص الملک الظاهر برقوق، و عوده إلى ملكه على ما سيأتى ذكره، ثم أمر منطاش فنودى بالقاهرة أن من أحضر مملوكا من مماليک برقوق فله كذا و كذا، و هدّد من أخفى واحدا منهم.

قلت: و ما فعله منطاش هو الحزم، فإنّه أزال من يخشاه، و قرّب مماليكه و أصحابه، و كاد أمره أن يتمّ بذلک لو ساعدته المقادير، و كيف تساعده المقادير و قد قدّر بعود برقوق إلى ملكه بحركة منطاش و ركوبه على الناصرىّ.

ثم فى ثالث شهر رمضان قبض منطاش على سودون النائب و ألزمه بمال يحمله إلى خزانته. و فيه شدّد الطلب على المماليک الظاهريّة، و ألزم سودون النائب المتقدّم ذكره بحمل ستمائة ألف درهم كان أنعم عليه بها الملک الظاهر برقوق فى أيام سلطنته.

ثم خلع على حسين ابن الكورانى بعوده إلى ولاية القاهرة، و حرّضه منطاش على المماليک الظاهريّة.

ثم قدمت الأمراء المطلوبون من البلاد الشاميّة، و خلع منطاش عليهم، و أنعم على كلّ منهم بإمرة مائة و تقدمة ألف بالديار المصرية دفعة، و لم يسبق لهم قبل ذلک أخذ إمرة عشرة بديار [مصر].

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۳۴۴

و فيه ظفر منطاش بذخيرة كانت للملک الظاهر برقوق بجوار جامع الأزهر.

و فيه أفرج منطاش عن الأمير محمود بن على الأستادار بعد ما أخذ منه جملة كبيرة من المال، ثم أمسک منطاش جماعة من أعيان المماليک الظاهريّة ممّن كانوا ركبوا معه فى أوائل أمره، و بهم كان استفحل أمره، و أضافهم إلى من تقدّم من خشداشيّتهم، و حبس الجميع بأبراج قلعة الجبل، و لم يرقّ لأحد منهم.

قلت: لعله تمثّل بأبيات المتنبى: (الكامل)

لا يخدعنّک من عدوّک دمعه و ارحم شبابک من عدو ترحم

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

و بينما منطاش فى ذلک ورد عليه البريد بخروج الأمير نعير عن الطاعة غضبا للناصرىّ، و أنه اتفق هو وسولى بن دلغادر و نهبا بلادا كثيرة من الأعمال الحلبيّة، فلم يلتفت منطاش إلى ذلک و كتب لهما يستعطفهما على دخولهما تحت الطاعة.

ثم بعد أيام ورد البريد أيضا بخروج الأمير بزلار العمرى الناصرى حسن نائب الشام عن طاعة منطاش غضبا للأمير يلبغا الناصرى،

فكتب إليه أيضا مكاتبة خشّن له فيها.

ثم أخذ منطاش فيما يفعله فى أمر دمشق و غيرها- على ما سيأتى ذكره- بعد أن يقعّد له قواعد بمصر، فبدأ منطاش فى اليوم المذكور بالقبض على الطواشى صواب السّعدى المعروف بشنكل مقدّم المماليك السلطانية.

و خلع على الطواشى جوهر و أعاده لتقدمة المماليك، ثم أنعم على جماعة من حواشيه و مماليكه بإقطاعات كثيرة، و أنعم على جماعة منهم بتقدمة ألف، و هم: ولده الأمير ناصر الدين محمد بن منطاش، و هى أحسن التقادم، و الأمير قطلوبغا الصّفوى،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۳۴۵

و أسندمر بن يعقوب شاه و تمان تمر الأشرفى و أيدكار العمرى و أسندمر الشرفى رأس نوبة منطاش و جنتمر الأشرفى، و منكلى باى الأشرفى، و تكا الأشرفى، و منكلى بغا خازندار منطاش و صراى تمر دوادار منطاش و تمربغا الكريمى، و ألطنبغا الحلبىّ و مبارك شاه.

ثم أنعم على جماعة كبيرة بإمرة طبلخاناه، و عشرينات و عشرات، فممن أنعم عليه بإمرة طبلخاناه: الشريف بكتمر الحسنى، و أبو بكر بن سنقر الجمالى، و دمرداش القشتمرى و عبد الرحمن بن منكلى بغا الشمسى على عادته أوّلا، و جلبان السعدى، و آروس بغا صلغيه و إبراهيم بن طشتمر الدوادار و سربغا الناصرى، و تنكز الأعور الأشرفى، و صراى تمر الأشرفى، و آقبغا المنجكى، و ملكتمر المحمدى، و قرابغا السيفى، و قطلوبغا الزينى، و تمربغا المنجكى و أرغون شاه السيفى و مقبل السيفى منطاش أمير سلاح و طيبرس السيفى رأس نوبة، و بيرم خجا الأشرفى، و ألطنبغا الجربغاوى، و منجك الزينى، و بزلار الخليلىّ، و محمد بن أسندمر العلائى؛ و طشبغا السيفى منطاش، و إلياس الأشرفى، و قطلوبغا السيفى، و شيخون الصرغتمشى، و جلبان السيفى، و ألطنبغا الطازى، و إسماعيل السيفى، و حسين بن الكورانى.

و أنعم على كل ممّن يذكر بإمرة عشرين، و هم: غريب الخطائى و بايجى الأشرفى، و منكلى بغا الجوبانى، و قرابغا الأحمدى، و آق كبك السيفى، و فرج شادّ الدواوين، و رمضان السيفى، و محمد بن مغلطاى المسعودى والى مصر.

و أنعم على كل ممن يذكر بإمرة عشرة: صلاح الدين محمد بن تنكز، زيادة على ما بيده، و خضر بن عمر بن بكتمر الساقى، و محمد بن يونس الدوادار، و علىّ

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۳۴۶

الجركتمرى، و محمد بن رجب بن محمد التركمانى، و محمد بن رجب بن جنتمر من عبد الغنى و جوهر الصلاحى، و إبراهيم بن يوسف بن برلغى و لؤلؤ العلائى الطواشى، و تنكز العثمانى و صراى تمر الشرفى الصغير، و منكلى بغا المنجكى، و آق سنقر الأشرفى، رأيت أنا المذكور فى دولة الملك الأشرف برسباى فى حدود سنة ثلاثين و ثمانمائة و قد شاخ و جاركس القرابغاوى، و أسنبغا التاجى، و سنقر السيفى، و كزل الجوبانى، و قرابغا الشهابى، و بك‌بلاط الأشرفى، و يلبغا التركمانى، و أرنبغا الأشرفى، و حاجى اليلبغاوى، و أرغون الزينى، و يلبغا الزينىّ و تمر الأشرفى و جنبغا الشرفى، و جقمق السيفى، و أرغون شاه البكلمشى، و ألطنبغا الأشقر، و صراى السيفى، و ألطنبغا الإبراهيمى، و آقبغا الأشرفى و ألجيبغا السيفى. انتهى.

ثم فى خامس عشر شهر رمضان نودى على الزّعر بالقاهرة و مصر من حمل منهم سيفا أو سكّينا أو شالق بحجر وسّط و حرّض الموالى عليهم، فقطع أيدى ستة منهم فى يوم واحد.

و فى يوم عشرين شهر رمضان ورد البريد بأن بزلار نائب الشام مسكه الأمير جنتمر أخو طاز فكاد منطاش أن يطير من الفرح بذلك، لأن بزلار كان من عظماء الملوك ممن كان الملك الظاهر برقوق يخافه، و نفاه إلى الشام، فوافق الناصرىّ، فولاه الناصرى نيابة الشام دفعة واحدة مخافة من شرّه، و كان من الشجعان حسب ما يأتى ذكره فى الوفيات.

و لمّا أن بلغ منطاش هذا الخبر قلع السلاح عنه و أمر أمراءه و مماليكه بقلع السلاح، فإنهم كانوا فى هذه المدّة الطويلة لابسين السلاح فى كلّ يوم.

ثمّ فی الحال قبض منطاش علی جمق بن أیتمش البجاسیّ و علی بیرم العلابی رأس نوبة أیتمش.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۳۴۷

و فیه قدم سیف الأمیر بزلار المقدّم ذکره، و کان من خبره أن منطاش لمّا انتصر علی الناصریّ و ملک مصر أرسل إلی الأمیر بزلار المذکور بحضوره إلی مصر فی ثلاثة سروج لا غیر علی البرید، فأجابه بزلار: لا أحضر الیه إلا فی ثلاثین ألف مقاتل، و خاشنه فی ردّ الجواب، و خرج عن طاعته، فخادعه منطاش حسب ما تقدّم ذکره، و کتب فی الباطن للأمیر جنتمر أخی طاز أتابک دمشق بنیابة دمشق إن قبض علی بزلار المذکور ثم سیّر، إلیه التشریف بذلک، و کتب إلیه أن محمد ابن بیدمر یکون أتابک دمشق عوضه، و جبریل حاجب حجّاب دمشق، فلمّا بلغ جنتمر ذلک عرّف الأمراء المذکورین الخبر، و اتّفق مع جماعة أخر من أکابر أمراء دمشق و رکبوا علی بزلار المذکور علی حین غفلة و واقعوه، فلم یثبت لهم، و انکسر و مسک و حبس بقلعة دمشق، و أرسل جنتمر سیفه إلی منطاش، و استقرّ عوضه فی نیابة دمشق، فسرّ منطاش بذلک غایة السرور.

فلم یتّم سروره، و قدم علیه الخبر بما هو أدهی و أمرّ، و هو خروج الملک الظاهر برقوق من سجن الکرک، و أنه استولی علی مدینتها و وافقه نائبها الأمیر حسام الدین حسن الکجکنی، و قام بخدمته و قد حضر إلی الملک الظاهر برقوق ابن خاطر أمیر بنی عقبة من عرب الکرک و دخل فی طاعته، و قدم هذا الحبر من ابن باکیش نائب غزة، فلمّا سمع منطاش ذلک کاد یهلک و اضطربت الدیار المصریة، و کثرت القالة بین الناس، و اختلفت الأقاویل، و تشغّب الذعر و کان من خبر الملک الظاهر برقوق أن منطاش لمّا وثب علی الأمیر و أقهر الأتابک یلبغا الناصری و حبسه و حبس عدّة من أکابر الأمراء، عاجل فی أمر الملک الظاهر برقوق بأن بعث إلیه شخصا یعرف بالشهاب البریدی و معه کتب للأمیر حسام الدین الکجکنی نائب الکرک و غیره بقتل الملک الظاهر برقوق من غیر مراجعة، و وعده بأشیاء غیر نیابة الکرک،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۳۴۸

و کان الشهاب البریدیّ أصله من الکرک، و تزوج ببنت قاضی الکرک القاضی عماد الدین أحمد بن عیسی المقیّریّ الکرکی، ثم وقع بین الشهاب المذکور و بین زوجته، فقام أبوها علیه حتی طلّقها منه، و زوجها بغیره، و کان الشهاب مغرما بها، فشقّ ذلک علیه، و خرج من الکرک و قدم مصر و صار بریدیّا و ضرب الدهر ضرباته حتی کان من أمر منطاش ما کان، فاتصل به الشهاب المذکور و وعده أنه یتوجّه لقتل الملک الظاهر برقوق، فجهزه منطاش لذلک سرّا و کتب علی یده إلی الأمیر حسام الدین الکجکنی نائب الکرک کتبا بذلک و حثّه علی القیام مع الشهاب المذکور علی قتل برقوق و أنه ینزله بقلعة الکرک و یسکنه بها حتی یتوصّل لقتل الملک الظاهر برقوق.

و خرج الشهاب من مصر و مضی إلی نحو الکرک علی البرید حتی وصل قریة المقیّر بلد صهره القاضی عماد الدین قاضی الکرک الذی أصله منها، فنزل بها الشهاب و لم یکتم ما فی نفسه من الحقد علی القاضی عماد الدین، و قال: و اللّه لأخربن دیاره و أزید فی أحکار أملاکه و أملاک أقاربه بهذه القریة و غیرها، فاشتوحش قلوب الناس و أقارب عماد الدین من هذه الکلام و أرسلوا عرّفوه بقصد الشهاب و ما جاء بسببه قبل أن یصل الشهاب إلی الکرک، ثم رکب الشهاب من المقیّر و سار إلی الکرک حتی وصلها فی اللیل، و بعث للنائب من یصیح به من تحت السور، فمنعوه من ذلک، و أحسّ الکجکنی بالأمر، فلمّا أصبح أحضره إلی دار السعادة، و قرأ کتاب السلطان الذی علی یده، و کتاب منطاش و مضمونهما أمور أخر غیر قتل الظاهر برقوق؛ فامتثل النائب ذلک بالسمع و الطاعة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۳۴۹

فلمّا انفضّ الناس أخرج الشهاب إلیه کتاب منطاش الذی بقتل برقوق، فأخذه الکجکنی منه لیکون له حجّة عند قتله السلطان برقوق، و وعده بقضاء الشغل، و أنزل الشهاب بمکان قلعة الکرک قریبا من الموضع الذی فیه الملک الظاهر برقوق، بعد أن استأنس به، ثم قام

الكجكنى من فوره و دخل إلى الملك الظاهر برقوق و معه كتاب منطاش الـذى بقتله، فأوقفه على الكتاب، فلمّا سمعه الملك الظاهر كاد أن يهلك من الجزع، فخلف له الكجكنى بكل يمين أنه لا يسلّمه لأحد و لو مات، و أنه يطلقه و يقوم معه، و ما زال به حتى هدأ ما به، و طابت نفسه، و اطمأنّ خاطره.

هذا و قد اشتهر فى مدينة الكرك بمجىء الشهاب بقتل الملك الظاهر برقوق لخفّة كانت فى الشهاب المذكور، و أخذ القاضى عماد الدين يخوّف أهل الكرك عاقبة قتل الملك الظاهر برقوق و ينفّرهم عن الشهاب حتى خافوه و أبغضوه، و كان عماد الدين مطاعا فى أهل بلده، مسموع الكلمة عندهم لما كانوا يعهدون من عقله و حسن رأيه، و ثقل الشهاب على أهل الكرك إلى الغاية، و أخذ الشهاب يلحّ على الأمير حسام الدين نائب الكرك فى قتل الملك الظاهر برقوق، و بقى النائب يسوّف به من وقت إلى وقت، و يدافعه عن ذلك بكلّ حجّة و عذر فزاد الشهاب فى القول حتى خاشنه فى اللفظ، فعند ذلك قال له الكجكنى: هذا شىء لا أفعله بوجه من الوجوه حتى أكتب إلى مصر بما أعرفه و أسأل عن ذلك ممّن أثق به من أصحابى من الأمراء.

ثمّ أرسل البريد إلى مصر أنه لا يدخل فى هذا الأمر، و لكن يحضر إليه من يتسلّمه منه و يفعل فيه ما يرسم له به، و كان فى خدمة الملك الظاهر غلام من أهل الكرك يقال له: عبد الرحمن، فنزل إلى جماعة فى المدينة و أعلمهم أن الشهاب قد حضر،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۳۵۰

لقتل أستاذه الملك الظاهر، فلمّا سمعوا ذلك اجتمعوا فى الحال؛ و قصدوا القلعة و هجموها حتى دخلوا إلى الشهاب المذكور و هو بسكنه من قلعة الكرك، و وثبوا عليه و قتلوه، ثم جرّوه برجله إلى الباب الـذى فيه الملك الظاهر برقوق، و كان نائب الكرك الكجكنى عند الملك الظاهر، و قد ابتدءوا فى الإفطار بعد أذان المغرب، و هى ليلة الأربعاء عاشر شهر رمضان من سنة إحدى و تسعين و سبعمائة المقدّم ذكرها، فلم يشعر الملك الظاهر و الكجكنى إلا و جماعة قد هجموا عليهم و هم يدعون للملك الظاهر بالنصر؛ و أخذوا الملك الظاهر بيده حتى أخرجوه من البرج الذى هو فيه، و قالوا له: دس بقدمك عند رأس عدوّك، و أروه الشهاب مقتولا، ثم نزلوا به إلى المدينة فدهش النائب ممّا رأى، و لم يجد بدا من القيام فى خدمة الملك الظاهر و تجهيزه، و انضمّ على الملك الظاهر أقوام الكرك و أجنادها، و تسامع به أهل البلاد، فأتوه من كلّ فجّ بالتقادم و الخيول، كلّ واحد بحسب حاله، و أخذ أمر الملك الظاهر برقوق من يوم ذلك فى استظهار على ما سيأتى ذكره.

و أمّا أمر منطاش فإنه لمّا سمع هذا الخبر و تحقّقه علم أنه وقع فى أمر عظيم، فأخذ فى تدبير أحواله، فأوّل ما ابتدأ بمسك الأمير قرقماس الطشتمرى الخازندار، و أحد أمراء الألوف بديار مصر، و بمسك الأمير شاهين الصرغتمشى أمير آخور، و بمسك قطلوبك أستادار الأتابك أيتمش البجاسىّ، و على جماعة كبيرة من المماليك الظاهريّة، و تداول ذلك منه أياما.

ثم أنعم منطاش على جماعة من الأمراء بأموال كثيرة، و رسم بسفر أربعة آلاف فارس إلى مدينة غزّة صحبة أربعة أمراء من مقدّمى الألوف بالديار المصرية، و هم: أسندمر اليوسفى، و قطلوبغا الصفوى، و منكلى باى الأشرفىّ، و تمربغا الكريمى، و أنفق فى كلّ أمير منهم مائة ألف درهم فضّة، ثم عيّن منطاش مائة مملوك

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۳۵۱

للسفر صحبة أمير الركب إلى الحجاز، و استمرّ منطاش فى عمل مصالحه إلى أن كان يوم سابع شوّال خلع السلطان الملك المنصور على الأمير منطاش المذكور، و فوّض إليه تدبير الأمور، و صار أتابك العساكر كما كان يلبغا، أراد منطاش بذلك إعلام الناس أنه ليس له غرض فى السلطنة، و أنه فى طاعة الملك المنصور ابن أستاذه.

ثمّ خلع الملك المنصور أيضا على الأمير قطلوبغا الصّفوى المقدّم ذكره فى الأربعة أمراء المعينين للسفر باستقراره أمير سلاح، و على تمان تمر الأشرفىّ باستقراره رأس نوبة النوب، و على أسندمر بن يعقوب شاه أمير مجلس، و على ألطنبغا الحلبى دوادارا كبيرا، و على تكا الأشرفىّ رأس نوبة ثانيا بتقدمة ألف و على إلياس الأشرفىّ أمير آخور بإمرة طبلخاناه، و على أرغون شاه السيفى رأس نوبة ثالثا

بإمرة طبلخاناه، و على تمربغا المنجكى رأس نوبـة، رابعا بإمرة طبلخاناه، و على قطلوبغا الأرغونى أسـتدارا، و على جقمق شادّ الشـراب خاناه، ثم خلع على تمان تمر رأس نوبة بنظر البيمارسـتان المنصورى، و على ألطنبغا الحلبى الدوادار الكبير بنظر الأحباس، ثم بطل أمر التجريدة المعيّنة إلى غزة خوفا من المماليك لئلا يذهبوا للملك الظاهر برقوق.

ثم فى تاسع شوّال خلع على الأمير أيدكار باستقراره حاجب الحجاب و على أمير حاج بن مغلطاى حاجبا ثانيا بتقدمة ألف.

و فيه سـمّر منطاش أربعـة من الأمراء، و هم: سودون الرمّاح أمير عشـرة، و رأس نوبة، و الطنبغا أمير عشـرة أيضا، و أميران من الشام، و وسّطوا بسوق الخليل فى عاشره لميلهم إلى الملك الظاهر برقوق.

ثم أخلع منطـاش على تنكز الأـعور باسـتقراره فى نيابـة حمـاة عوضـا عن طغـاى تمر القبلاـوى، و فيه حمـل جهـاز خونـد بنت الملك الأشرف شعبان أخت الملك المنصور،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١١، ص: ٣٥٢

هذا لترفّ على الأمير الكبير منطاش، و كان على خمسمائة جمل و عشرة قطر بغال، و مشى الحجاب و غالب الأمراء أمام الجهاز، فخلع عليهم منطاش الخلع السّنيّة، و بنى بها من ليلته، بعد أن اهتمّ بالعرس اهتماما زائدا، و عند ما زفّت إليه علّق منطاش على شربوشها دينارا زنته مائتا مثقال، ثم ثانى مرّة دينارا زنته مائة مثقال و فتح للقصـر بابا من الإسطبل بسبب ذلك بجوار باب السرّ، هذا مع ما كان منطاش فيه من شغل السرّ من اضطراب المملكة بعد مسكه الناصرىّ و غيره.

و فيه أخرج عـدّة من المماليـك الظاهريّـة إلى قوص، و بينما منطاش فى ذلك قـدم عليه الخبر بأن الأمراء المقيمين بمدينـة قوص من المنفيّين قبل تاريخه خرجوا عن الطاعـة، و قبضوا على و الى قوص، و حبسوه و اسـتولوا على مدينة قوص، و انضم عليهم جماعة كبيرة من عصاة العربان، فندب منطاش لقتالهم تمربغا الناصرى و بيرم خجا، و آروس‌بغا من أمراء الطبلخاناة فى عدّة مماليك.

ثم قـدم عليه الخبر بأن الأمير كمشـبغا الحموى اليلبغاوى نائب حلب خرج عن الطاعـة، و أنه قبض على جماعـة من أمراء حلب بعد أن حارب إبراهيم بن قطلقتمر الخازندار، و قبض عليه و وسّـطه هو و شهاب الدين أحمد بن أبى الرضا قاضى قضاة حلب الشافعى بعد أن قاتلوه و معهم أهل بانقوسا، فلمّا ظفر بهم كمشبغا المذكور قتل منهم عدّة كبيرة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١١، ص: ٣٥٣

قلت: و إبراهيم بن قطلقتمر هـذا هو صاحب الواقعـة مع الملك الظاهر برقوق لمّا اتفق مع الخليفة هو و قرط الكاشف على قتل الملك الظاهر، و قبض عليهما الظاهر، و عزل الخليفـة و حبسه سـنين، و قـد تقدّم ذكر ذلك كله، و هو الذى أنعم عليه منطاش فى أوائل أمره بإمرة مائة، و تقدمة ألف بمصـر، و جعله أمير مجلس عوضا عن أحمد بن يلبغا، ثم أخرجه بعد أيام من مصـر خوفا من شـرّه إلى حلب على إمرة مائة و تقدمة ألف، فدام بها إلى أن كانت منيّته على يد كمشبغا هذا.

ثم قدم الخبر على منطاش بأن الأمير حسام الدين حسن بن باكيش نائب غزّة جمع العشـران و سار لمحاربة الملك الظاهر برقوق، فسـرّ منطاش بذلك، و فى اليوم ورد عليه الخبر أيضا بقوّة شوكة الأمراء الخارجين عن طاعته ببلاد الصـعيد، فأخرج منطاش فى الحال الأمير أسـندمر بن يعقوب شاه أمير مجلس فى نحو خمسـمائة فارس نجدة لمن تقدّمه من الأمراء إلى بلاد الصعيد، فسار أسندمر بمن معه فى ثالث عشرينه، و فى يوم مسيره ورد البريد من بلاد الصعيد باتفاق ولاة الصعيد مع الأمراء المذكورين.

و كان من خبرهم أنه لمّا اسـتقر أبو درقـة فى ولاية أسوان سار إلى ابن قرط، و اتّفق معه على المخامرة، و سار معه إلى قوص، و أفرج عمن بهـا من الأمراء المقـدّم ذكرهم. و كان عـدّة الأمراء الـذين بقوص زيادة على ثلاثين أميرا، و عـدّة كبيرة من المماليك السـلطانية الظاهريـة، فلمـا بلغ خـبرهم الأـمير مبـارك شـاه نـائب الوجه القبلى اجتمع معه أيضـا نحو ثلثمائـة مملوك من الظاهريـة و اتفقوا على المخامرة أيضا، و اسـتمال مبارك شاه عرب هوّارة و عرب ابن الأحـدب، فوافقوه، و اسـتولوا على البلاد، فلمّا خرجت تجريـدة منطاش الأولى لهم انتهت إلى أسيوط، فقبض عليهم مبارك شاه المذكور، و أفرج عمّن كان معهم من المماليك الظاهرية؛ فلما بلغ

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۳۵۴

منطاش ذلک أخرج أسندمر بن يعقوب شاه كما تقدّم ذكره، و سار اليهم من الشرق، و توجّه إلى جهة الصعيد بمن معه، فلقيه الخارجون عن الطاعة، فواقعهم أسندمر بمن معه، فكسروه، فرسم منطاش بخروج نجدة لهم من الأمراء و المماليك و أجناد الحلقة، و بينما هو فى تجهيز أمرهم جاء الخبر أن أسندمر واقع مبارك شاه ثانيا و كسره، و قبض عليه، و أرسله إلى منطاش. فقدم مقيدا، فرسم منطاش بحبسه فى خزانة شمائل.

ثمّ فى يوم سابع عشرينه عيّن منطاش تجريدة إلى جهة الكرك فيها أربعة و قيل خمسة أمراء من مقدّمى الألوف، و ثلاثمائة مملوك، ثم أخرج منطاش الأمير بلّوط الصرغتمشى، و الأمير غريب لكشف أخبار الملك الظاهر برقوق بالكرك.

و أما الملك الظاهر برقوق فإنه لما أنزله عوامّ الكرك من قلعتها إلى المدينة و قاموا فى خدمته، و أتته العربان، و صار فى طائفة كبيرة، و وافقه أيضا أكابر أهل الكرك، فقوى شوكته بهم، و عزم على الخروج من الكرك، و برّز أثقاله إلى ظاهر الكرك، فاجتمع عند ذلك أعيان الكرك عند القاضى عماد الدين أحمد بن عيسى المقيّرى قاضى الكرك و كلموه فى القيام على الملك الظاهر برقوق مراعاة للملك المنصور حاجّى، و للأمير منطاش، و اتفقوا على قبضه و إعلام أهل مصر بذلك، و أنهم يعتذرون لمنطاش أنه لم يخرج من حبسه بالكرك إلا باجتماع السفهاء من أهل الكرك، ليكون ذلك عذرا لهم عند السلطان، و بعثوا ناصر الدين محمدا أخا القاضى عماد الدين المذكور، فأغلق باب المدينة، و بقى الملك الظاهر برقوق داخل المدينة و حيل بينه و بين أثقاله و معظم أصحابه.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۳۵۵

فلمّا قام الملك الظاهر برقوق ليركب فرسه بلغه ذلك، و كان القاضى علاء الدين علىّ كاتب سر الكرك، و هو أخو القاضى عماد الدين يكتب للملك الظاهر فى مدة خروجه من حبس الكرك، و بالغ فى خدمته، و انضمّ عليه، فلما رأى ما نزل بالملك الظاهر و بلغه اتفاق أهل المدينة مع أخيه القاضى عماد الدين على القبض على الملك الظاهر برقوق أعلم الملك الظاهر بذلك، و قوى قلبه، و حرّضه على السير إلى باب المدينة، فركب معه برقوق، و سار حتى وصل إلى الباب وجده مغلقا و أخوه ناصر الدين قائم عند الباب، كما أمره أخوه عماد الدين قاضى الكرك، فما زال علاء الدين بأخيه ناصر الدين المذكور حتى فتح له الباب، و خرج بالملك الظاهر منه و لحق ببقية أصحابه و مماليكه الذين كانوا حضروا إليه من البلاد الشامية، فأقام الملك الظاهر بالثّنية خارج الكرك يوما واحدا، و سأر من الغد فى يوم ثانى عشرين شوال الى نحو دمشق، و نائبها يوم ذاك جنتمر أخو طاز، و قد وصل إليه الأمير الطنبغا الحلبى من مصر نائبا بحلب عوضا عن الأمير كمشبغا الحموى، فاستعدّوا لقتال الملك الظاهر، و معهما أيضا حسام الدين حسن بن باكيش نائب غزة مساكرها.

ثم أقبل الملك الظاهر برقوق بمن معه، فالتقوا على شقحب قريبا من دمشق، و اقتتلوا قتالا شديدا، كسروا فيه الملك الظاهر غير مرّة، و هو يعود إليهم و يقاتلهم إلى أن كسرهم، و انهزموا إلى دمشق و قتل منهم ما يزيد على الألف، قاله المقريزى،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۳۵۶

فيهم خمسة عشر أميرا، و قتل من أصحاب الملك الظاهر ستون نفسا، و من أمرائه سبعة نفر، فهى أعظم وقعة كانت للملك الظاهر برقوق فى عمره.

و ركب الملك الظاهر أقفية الشاميين إلى دمشق، فامتنع جنتمر بقلعة دمشق، و توجّه من أمراء دمشق ستة و ثلاثون أميرا، و نحو ثلاثمائة و خمسين فارسا و قد أثخنوا بالجراحات و معهم نائب صفد و قصدوا الديار المصرية.

فلم يمض غير يوم واحد حتى عاد ابن باكيش نائب غزّة بجماعة كبيرة من العربان و العشير لقتال الملك الظاهر، و بلغ الملك الظاهر ذلك فأرسل الوالد و قلمطاى لكشف الخبر، فعادا إليه بسرعة بحضور ابن باكيش، فركب الملك الظاهر فى الحال و خرج إليه و

التقى معه و قاتله حتى كسره، و أخذ جميع ما كان معه من الأثقال و الخيول و السلاح، تقوّى الملك الظاهر بذلك، و أتاه عدة كبيرة من مماليكه الذين كانوا بالبلاد الشامية فى خدمة أمراء الشام، ثم دخل فى طاعته الأمير جبريل حاجب حجاب دمشق، و أمير على بن أسندمر الزّينى، و جقمق الصفوىّ، و مقبل الرومى، و صاروا من جملة عسكره، فعند ذلك ركب الملك الظاهر إلى دمشق، و حصرها و أحرق القبيبات و أخربها، فهلك فى الحريق خلق كبير و أخذ أهل دمشق فى قتال الملك الظاهر برقوق، و أفحشوا فى أمره بالسب و التوبيخ، و هو لا يفترّ عن قتالهم؛ و بينما هو فى ذلك أتاه المدد من الأمير كمشبغا الحموىّ نائب حلب و من جملة المدد ثمانون مملوكا من المماليك الظاهريّة البرقوقية، فلما بلغ جنتمر مجيئهم أخرج إليهم من دمشق خمسمائة فارس ليحيلوا بينهم و بين الملك الظاهر، فقاتلتهم المماليك الظاهريّة و كسرتهم، و أخذوا جميع ما كان معهم، و أتوا بهم إلى أستاذهم الملك الظاهر، ففرح بهم غاية الفرح.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١١، ص: ٣٥٧

قال الوالد: فعند ذلك قوى أمرنا، و استفحل و استمرّوا على حصار دمشق و بينما هم فى ذلك و إذا بنعير قد أقبل فى عربانه يريد قتال الملك الظاهر برقوق، فخرج الملك الظاهر و قاتله فكسره، و استولى على جميع ما كان معه فقوى الملك الظاهر بما صار إليه من هذه الوقائع من الخيل و السلاح و صار له برك كبير بعد ما كان معه خيمة صغيرة لا غير، و كانت مماليكه فى أخصاص، و كلّ منهم هو الذى يخدم فرسه بنفسه. و الآن فقد صاروا بالخيم و السلاح و الغلمان، هذا و مماليك الملك الظاهر يتداول مجيئهم إليه شيئا بعد شيء ممن كان نفاهم الناصرى و منطاش إلى البلاد الشامية.

و وصل الخبر بهذه الوقائع كلّها إلى منطاش فى خامس عشر ذى القعدة، فقامت قيامة منطاش لما سمع هذه الأخبار و أخذ فى تجهيز الملك المنصور حاجىّ للسفر لبلاد الشام لقتال الملك الظاهر برقوق، و أمر الوزير موفّق الدين بتجهيز ما يحتاج إليه السلطان، فلم يجد فى الخزانة ما يجهّز به السلطان، و اعتذر بأنّ المال انتهب و تفرّق فى هذه الوقائع فقبل عدره و سأل منطاش قاضى القضاة صدر الدين المناوى الشافعى. و كان ولّاه قضاء القضاة قبل تاريخه بمدة يسيرة بعد عزل ناصر الدين ابن بنت الميلق. و قال له: أقرضنى مال الأيتام، و كانت إذ ذاك أموالا كثيرة، فامتنع المناوى من ذلك، و وعظه فلم يؤثر فيه الوعظ، و ختم على جميع مال الأيتام، ثم رسم منطاش لحاجب الحجّاب و لناصر الدين محمد بن قرطاى نقيب الجيش بتفرقة النقباء على أجناد الحلقة، و حثّهم على التجهيز للسفر، و بينما هم فى ذلك قدم عليه الخبر بكسرة ابن باكيش نائب غزة ثانيا من الملك الظاهر برقوق، و أخذ الملك الظاهر ما كان معه، فاشتدّ عند ذلك الاضطراب و كثر الإرجاف و وقع الاهتمام بالسفر، و أزعج أجناد الحلقة، و استدعى منطاش الخليفة المتوكّل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ١١، ص: ٣٥٨

على اللّه و القضاة، و الشيخ سراج الدين عمر البلقينى، و أعيان الفقهاء، و رتبو صورة فتيا فى أمر الملك الظاهر برقوق، و انفضوا من غير شيء و فى اليوم ورد على منطاش واقعة صفد، و كان من خبرها أن مملوكا من مماليك الملك الظاهر برقوق يقال له يلبغا السالمىّ كان أسلمه الظاهر إلى الطواشى بهادر الشهابى مقدّم المماليك، فرباه بهادر و رتّبه خازنداره و استمرّ على ذلك إلى أن نفى الملك الظاهر بهادر إلى البلاد الشامية، فصار يلبغا السالمى المذكور عند صواب السعدى شنكل لمّا استقر مقدم المماليك بعد بهادر المذكور، و صار دواداره الصغير، فلما قبض الناصرىّ على شنكل المذكور، خدم يلبغا السالمىّ هذا عند الأمير قطلوبك النظامى نائب صفد، و صار دواداره، و سار مع أهل صفد سيرة حميدة إلى أن قدم إلى صفد خبر الملك الظاهر برقوق، و خروجه من حبس الكرك، جمع النظامى عسكر صفد ليتوجّه بهم إلى نائب دمشق نجدة على الظاهر، و أبقى يلبغا السالمى بالمدينة، فقام يلبغا السالمى فى طائفة من المماليك الذين استمالهم، و أفرج عن الأمير إينال اليوسفى نائب حلب كان، و عن الأمير قجماس ابن عم السلطان الملك الظاهر برقوق، و نحو المائتين من المماليك الظاهرية من سجن صفد و نادى بشعار الملك الظاهر برقوق و أراد القبض على الأمير قطلوبك النّظامى، فلم يثبت النظامى، و فرّ فى مملوكين فاستولى السالمىّ و من معه على مدينة صفد و قلعتها، و صار الأمير

إينال اليوسفى هو القائم بمدينة صفد، و السالمى فى خدمته، و أرسلوا إلى الملك الظاهر بذلك، و كان هذا الخبر من أعظم الأمور على منطاش، و زاد قلقه.

و كثرت مقالة الناس فى أمر الملك الظاهر، ثم تواترت الأخبار بأمر الملك الظاهر و فى حادى عشرينه ورد الخبر على منطاش بوصول نائب غزة حسام الدين بن باكيش و صحبته الأمير قطلوبك النّظامى نائب صفد المقدّم ذكره. و الأمير محمد

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١١، ص: ٣٥٩

ابن بيدمرى أتابك دمشق، و خمسة و ثلاثون أميرا من أمراء دمشق، و جمع كبير من الأجناد قد هزموا الجميع من الملك الظاهر برقوق، و قدموا إلى القاهرة و هم الذين قاتلوا برقوقا مع جنتمر نائب الشام، و قد تقدّم ذكر الواقعة، فرسم منطاش بدخولهم القاهرة.

و فى هذا اليوم استدعى منطاش الخليفة المتوكل على اللّه و القضاة و العلماء بسبب الفتيا فى الملك الظاهر برقوق و فى قتاله، فكتب ناصر الدين الصالحى موقّع الحكم فتيا فى الملك الظاهر برقوق تتضمّن: عن رجل خلع الخليفة و السلطان و قتل شريفا فى الشهر الحرام و البلد الحرام و هو محرم، يعنى عن أحمد بن عجلان صاحب مكة، و استحل أخذ أموال الناس و قتل الأنفس و أشياء غير ذلك، ثم جعل الفتيا عشر نسخ، فكتب جماعة من الأعيان و القضاة.

ثم رسم منطاش بفتح سجن قديم بقلعة الجبل كان قد ارتدم و سجن فيه عدّة من المماليك الظاهرية المقبوض عليهم قبل تاريخه ثم وجد منطاش ذخيرة بالقاهرة للأمير جركس الخليلى فى بيت جمال الدين أستاداره: فيها خمسمائة ألف درهم، و نحو خمسين ألف دينار، فأخذها منطاش، ثم أخذ أيضا من مال ابن جركس الخليلى نحو ثلثمائة ألف دينار مصرية.

و دخل الأمراء المنهزمون من الشام إلى القاهرة، و هم قطلوبك النّظامى نائب صفد، و تنكز الأعور نائب حماة، و محمد بن أيدمر أتابك، دمشق، و يلبغا العلائى أحد مقدّمى دمشق، و آقباى الأشرفى نائب قلعة الروم، و من الطبلخانات دمرداش الأطروش و الى الولاة، و أحمد بن تنكز، وجوبك الخاصكى الأشرفى، و قطلوبك جنجق و خير بك. و من العشرنيات آقبغا الوزيرى و أزدمر القشتمرى و قنق الزّينى، و منكلى بغا الناصرى، و آقبغا الإينالى و أحمد بن ياقوت، و من

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١١، ص: ٣٦٠

العشرات أسنبغا العلائى، و طغاى تمر الأشرفى و مصطفى البيدمرى، و قرابغا السيفى من أمراء صفد، و تغرى برمش الأشرفى، و منجك الخاصّكى و قجقار السيفى.

و من أمراء حماة جنتمر الإسعردىّ، و ألطنبغا المارديني، و بكلمش الأرغونى القرمى، و أسنبغا الأشرفى، و حسين الأيتمشى، و من المماليك عدّة مائتين و عشرين نفرا. و فى يوم قدم هؤلاء أفرج منطاش عن الأمير قرقماس الطشتمرى، و استقر خازندارا على عادته، و عن شيخ الصفوى الخاصكى، و عن أرغون السلامىّ، و يلبغا اليوسفى، و نزلوا إلى دورهم.

ثم نودى بأمر منطاش أن الفقهاء و الكتّاب لا يركب أحد منهم فرسا، و أن الكتّاب الكبار يركبون البغال.

ثم رسم بأخذ أكاديش الحمّالين و خيل الطواحين الجياد، و رسم بتتبع المماليك الجراكسة، فطلبهم حسين بن الكورانى و أخذهم من كل موضع.

ثم رسم منطاش بتخشيب المماليك الظاهرية المسجونين بقلعة الجبل فى أيديهم و أرجلهم.

ثم فى حادى عشرينه. اجتمع الأمراء و أهل الدولة مع الأمير منطاش و اتّفقوا على استبداد السلطان الملك المنصور حاجّى بالأمر، و أثبتوا رشده بحضرة القضاة و الخليفة فرسم السلطان بتعليق الجاليش على الطبلخاناه ليعلم الناس بسفر السلطان إلى الشام لقتال الملك الظاهر برقوق. ثم أحضر منطاش نسخ الفتوى فى الملك الظاهر برقوق و قد أزيد فيها و استعان على قتال المسلمين بالكفّار و حضر الخليفة المتوكّل على اللّه و القضاة الأربعة و الشيخ سراج الدين عمر البلقينىّ و ولده جلال الدين عبد الرحمن قاضى العسكر و ابن خلدون المالكى و ابن الملقّن و قاضى القضاة بدر الدين محمد بن أبى البقاء

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۳۶۱

و جماعة أخر، فحضر الجمیع بحضرة السلطان الملک المنصور بالقصر الأبلق و قدّمت إلیهم الفتوی فکتبوا علیها بأجمعهم کتابة شنیعة علی قدر النهی و انصرفوا إلی منازلهم.

ثم نودی علی أجناد الحلقة للعرض و هدّد من تأخر منهم و کتب لعرب البحیره بالحضور للسفر مع السلطان إلی الشام.

ثم خلع منطاش علی أمیر حاج بن مغلطای الحاجب باستقراره أستادارا.

ثم أنعم السلطان علی الأمراء القادمین من الشام لکل أمیر مائة و مقدم ألف بفرس بقماش ذهب و لمن عداهم بأقبیة و رتّب لهم اللحم و الجامکیات و العلیق و أخذ منطاش یستعطفهم بکل ما تصل إلیه القدرة.

و فی سابع عشرینه أخلیت خرانة الخاص بالقلعة و سدّت شبابیکها و بابها و فتح من سقفها طاقة و عملت سجنا للممالیک الظاهریة.

ثم فی یوم السبت أوّل ذی الحجة من سنة إحدی و تسعین و سبعمائة قدم الخبر علی منطاش من الصعید بأن العسکر الذی مع أسندمر بن یعقوب شاه واقع الأمراء الظاهریة بمدینة قوص و کسرهم و قبض علیهم فسر منطاش بذلک و خفّ عنه بعض الأمر و دقّت البشائر لذلک ثلاثة أیام.

و فیه أنفق منطاش علی الأمراء نفقة السفر فأعطی لکل أمیر من أمراء الألوف مائة ألف درهم فضة و أعطی لکل أمیر من أمراء الطبلخانات خمسین ألف درهم فضة، ثم أمر منطاش بسدّ باب الفرج أحد أبواب القاهرة و خوخة أیدغمش.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۳۶۲

ثم قبض منطاش علی متّی بطرک النصاری و ألزمه بمال و علی رئیس الیهود و ألزمه أیضا بمال فقرّر علی البطرک مائة ألف درهم و علی رئیس الیهود خمسین ألف درهم.

ثم طلب منطاش الشیخ شمس الدین محمد الرّکراکی المالکی و ألزمه بالکتابة علی الفتوی فی أمر الملک الظاهر برقوق فامتنع من الکتابة غایة الامتناع فضربه منطاش مائة عصاه و سجنه بالإسطبل.

ثم فی خامس عشر ذی الحجة برز الأمراء الشامیون من القاهرة الی ظاهرها للتوجه إلی الشام أمام العسکر السلطانی. و فیه قبض منطاش علی الخلیفة المخلوع من الخلافة زکریا: و أخذ منه العهد الذی عهده إلیه أبوه بالخلافة و أشهد علیه أنه لا حقّ له فی الخلافة.

ثم قدمت الأمراء ماخلا أسندمر بن یعقوب شاه من تجریدة الصعید و معهم الممالیک الظاهریة الذین کانوا خرجوا عن الطاعة بقوص مقیدین فخلع منطاش علی الأمراء و أخذ الممالیک غرّق منهم جماعة فی النیل لیلا و أخرج بستة من الجب بالقلعة موتی خنقا.

ثم قدم الأمیر أسندمر بن یعقوب شاه من بلاد الصعید و معه الأمراء الخارجون عن الطاعة: و هم الأمیر تمربای الحسنی و قرابغا الأبوبکری، و بجمان المحمدیّ و منکلی الشمسیّ و فارس الصرغتمشیّ و تمربغا المنجکیّ و طوجی الحسنی و قرمان المنجکی، و بیبرس التمان تمری و قرا کسک السیفیّ و أرسلان اللّفاف و مقبل الرومی و طغای تمر الجرکتمری و جرباش التمان تمری الشیخی و بغداد الأحمدی و یونس الإسعردی و أردبغا العثمانی و تنکز العثمانی و بلاط المنجکی و قرابغا المحمدی و عیسی الترکمانی و قراجا السیفی و کمشبغا الیوسفی و آقبغا حطب

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۳۶۳

و بکک بلاط فأوقفوا الجمیع بین یدی السلطان و منطاش زمانا ثم أمر بهم فحبسوا و أفرج عن جماعة: منهم الأمیر قنق بای الألجائی اللالا و آقبغا السیفی و تمربای الأشرفی و فارس الصرغتمشی و خلع علیهم ثم سجن منطاش بخزانة شمائل و خزانة الخاص التی سدّ بابها قبل تاریخه الأمیر محمود بن علی الاستادار و آقبغا الماردینی و آیدمر أبو زلطة و شاهین الصرغتمشی أمیر آخور و جمق بن أیتمش البجاسی و بطا الطولوتمری الظاهری و بهادر الأعسر و عدّة کبیرة من الأمراء و الممالیک الظاهریة.

و فیه ألزم منطاش سائر مباشری الدیوان السلطانی و جمیع الدواوین بأن یحمل کل واحد خمسمائة درهم و فرسا و قرّر ذلک علی

الوظائف لا على الأشخاص، حتى من كان له عشرة وظائف فى عدّة دواوين يحمل عن كل وظيفة خمسمائة درهم و فرسا فنزل بالناس ما لم يعهدوه فتوزّعوا ذلک فجاء جملة الخيل التى أخذت من المباشرين خيلا و عينا ألف فرس:

ثم أحضر منطاش من ألزم من أجناد الحلقة للسفر فأعفاهم على أن يحضر كلّ منهم فرسا جيّدا فأحضروا خيولهم فأخذ جيادها و ردّ ما عداها.

ثم ألزم منطاش رءوس نوّاب الحجاب و غيرها بحمل كل واحد منهم خمسة آلاف درهم وعدتهم أربعة.

و فى يوم الاثنين سابع عشر ذى الحجة من سنة إحدى و تسعين و سبعمائة نزل السلطان الملک المنصور حاجى من قلعة الجبل و معه الأمير الكبير منطاش و توجّها بالعساكر المصرية إلى الرّيدانية خارج القاهرة بتجمّل عظيم إلى الغاية.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۳۶۴

فلمّا نزلا بالمخيّم استدعى منطاش قاضى القضاة صدر الدين محمد المناوى الشافعى إلى الريدانية و ألزمه بالسفر معه إلى الشام فآمتنع من ذلک و سأل الأعفاء فأعفى و خلع على قاضى القضاة بدر الدين محمد ابن أبى البقاء باستقراره عوضه فى قضاء ديار مصر على أن يعطى مال الأيتام و يعطى من ماله مائة ألف درهم أخرى فضة، و خلع عليه و دخل القاهرة من باب النصر بالتشريف.

قلت: هذا هو الكريم الذى تكرّم بماله و دينه.

ثم رسم منطاش بحبس الخليفة زكرياء و الأمير سودون الشيخونى النائب بقاعة الفضة من القلعة.

ثم نزل الوزير موفّق الدين أبو الفرج و ناصر الدين أبى الحسام إلى خان مسرور بالقاهرة حيث هو مودع مال الأيتام، و أخذ منه بأمر منطاش ثلاثمائة ألف

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۳۶۵

درهم، و ألزم أمين الحكم بالقاهرة أن يحصل تتمّة خمسمائة ألف درهم، و ألزم أمين الحكم بمصر أن يحمل مائة ألف درهم، و ألزم أمين الحكم بالحسينيّة أن يحمل مائة ألف درهم قرضا، كلّ ذلک حسب إذن قاضى القضاة بدر الدين محمد بن أبى البقاء.

و فيه استدعى منطاش القضاة إلى الرّيدانية بكرة فأجلسوا بغير أكل إلى قريب العصر، ثم طلبوا إلى عند السلطان، فعقدوا عقده على بنت الأمير أحمد ابن السلطان حسن بصداق مبلغه ألف دينار و عشرون ألف درهم.

و عقدوا أيضا عقد الأمير قطلوبغا الصفوى على ابنة الأمير أيدمر الدوادار.

و فى ثانى عشرينه رحل الأمير الكبير منطاش فى عدّة من الأمراء جاليشا للسلطان، ثم رحل السلطان الملک المنصور و الخليفة و القضاة و بقية العساكر بعد أن أقيم نائب الغيبة بالقلعة الأمير تكا الأشرفى و معه الأمير دمرداش القشتمرىّ، و أقيم بالإسطبل السلطانى الأمير صراى تمر، و بالقاهرة الأمير قطلوبغا الحاجب، و جعل منطاش أمر الولاية و العزل إلى صراى تمر.

ثم رحل السلطان من العكرشة إلى جهة بلبيس، فتقنطر عن فرسه، فتطيّر الناس من ذلک بأنه يرجع مقهورا، و كذلک كان. ثم سار السلطان و سائر العساكر إلى غزة فى ثامن المحرم من سنة اثنتين و تسعين و سبعمائة و عليهم آلة الحرب و السلاح.

و أما أمراء الديار المصرية فإن منطاش أمر قبل خروجه حسين بن الكورانى بالاحتفاظ على حواشى الملک الظاهر برقوق فأخذ ابن الكورانى يتقرّب إلى

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۳۶۶

منطاش بكل ما تصل قدرته إليه من ذلک أنه توجّه إلى قاعة البيسريّة بين القصرين حيث هو سكن الخوندات إخوة الملک الظاهر برقوق الكبرى و الصغرى أم الأتابک بيبرس و هجم عليهن بالقاعة المذكورة، و أخذ بيبرس من أمّه أخذا عنيفا، بعد أن أفحش فى سبّهنّ، و بالغ فى ذم الملک الظاهر و الحطّ منه، و أخذ الخوندات حاسرات هن و جواريهنّ مسبّيات يسحبهنّ بشوارع القاهرة و هنّ فى بكاء و عويل حتى أبكين كلّ أحد، و حصل بذلک عبرة لمن اعتبر، و لا زال يسحبهنّ على هذه الصورة إلى باب زويلة فصادف

مرورهنّ بباب زویلة دخول مقبل نائب الغیبة من باب زویلة، فلما رأی مقبل ذلک أنکره غایة الإنکار، و نهر حسین ابن الکورانی علی فعله ذلک، و ردهن من باب زویلة، بعد أن أرکب الخوندات و سترهن إلی أن عدن إلی قاعة البیسریة، فکان هذا من أعظم الأسباب فی هلاک حسین بن الکورانی علی ما یأتی ذکره فی سلطنة الملک الظاهر برقوق الثانیة إن شاء اللّه تعالی.

ثم نادی حسین بن الکورانی علی الممالیک الظاهریة أنّ من أحضر مملوکا منهم کان له ألفا درهم.

و أما السلطان الملک المنصور و منطاش فإن الأخبار أتتهما بأن الأمیر کمشبغا الحموی نائب حلب لم یزل یبعث یمدّ الملک الظاهر من حلب بالعساکر و الأزواد و الآلات و الخیول و غیر ذلک، حتی صار لبرقوق برک عظیم، ثم خرج من بعد ذلک من حلب بعساکرها و قدم علی الملک الظاهر لنصرته، فعظم أمر الملک الظاهر به إلی الغایة، و کثرت عساکره، و جاءته الترکمان و العربان و العشیر من کلّ فجّ، فلما

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۳۶۷

بلغ ذلک منطاش جدّ فی السیر هو و السلطان و العساکر إلی نحو الملک الظاهر برقوق.

و بلغ الملک الظاهر مجیء الملک المنصور و منطاش لقتاله فترک حصار دمشق و أقبل نحوهم بعساکره و ممالیکه حتی نزل علی شقحب، و نزل العسکر المصری علی قریة الملیحة و هی عن شقحب بنحو البرید، و أقاموا بها یومهم، و بعثوا کشافتهم، فوجدوا الملک الظاهر برقوقا علی شقحب، فتقدم منطاش بالسلطان و العساکر إلی نحوه بعد أن صف منطاش عساکر السلطان میمنة و میسرة، و قلبا و جناحین، و جعل للمیمنة ردیفا، و کذلک للمیسرة، هذا بعد أن رتّب الملک الظاهر برقوق أیضا عساکره، غیر أنه لم یتصرف فی التعبیة کتصرف منطاش لقلة جنده.

و وقف منطاش فی المیمنة علی میسرة الظاهر برقوق، و التقی الفریقان فی یوم الأحد رابع عشر للمحرم فی سنة اثنتین و تسعین و تصادما، و اقتتل الفریقان قتالا عظیما لم یقع مثله فی سالف الأعصار و حمل منطاش من المیمنة علی میسرة الظاهر، و حمل أصحاب میمنة الظاهر علی میسرة الملک المنصور، و بذل کلّ من الفریقین جهده، و ثبتت کلّ طائفة للأخری، فکانت بینهما حروب شدیدة انهزم فیها میمنة الملک الظاهر و میسرته، و تبعهم منطاش بمن معه، و ثبت الملک الظاهر فی القلب، و قد انقطع عنه خبر أصحابه، و أیقن بالهلاک، و بینما هو فی ذلک لاح له طلائع السلطان الملک المنصور، و قد انکشف الغبار عنه، فحمل الملک الظاهر بمن بقی معه علی الملک المنصور، فأخذه و أخذ الخلیفة المتوکل علی اللّه و القضاة و الخزائن، و مالت

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۳۶۸

الطائفة التی ثبتت معه علی أثقال المصریین، فأخذوها علی آخرها، و کانت شیئا یخرج عن الحد فی الکثرة.

و وقع الأمیر قجماس ابن عم الملک الظاهر فی قبضة، منطاش، فلم یتعوّق، و مرّ فی أثر المنهزمین و هو یظن أن الملک الظاهر أمامه إلی أن وصل إلی دمشق و بها نائبها الأمیر جنتمر أخو طاز فقال له منطاش قد کسرنا الظاهر برقوقا، و فی الغد یقدم السلطان الملک المنصور، فاخرج إلی لقائه، فمشی ذلک علی جنتمر و احتار منطاش فیما یفعل فی الباطن، و لم یعرف ما حصل بعده للملک المنصور، و مع هذا کله فی نفسه أن الملک الظاهر برقوق قد انکسر.

و أما أمر السلطان الملک الظاهر برقوق و أصحابه فإن الأمیر کمشبغا نائب حلب کان علی میمنة الملک الظاهر برقوق فلما انهزم من منطاش تمّ فی هزیمته إلی حلب و تبعه خلائق من عساکر حلب و غیرها، و فی ظن کمشبغا أن الملک الظاهر قد انکسر، و تبعه فی الهزیمة الأمیر حسام الدین حسن الکجکنی، نائب الکرک، و معه أیضا عدة کبیرة من عساکر حلب و الکرک فسار بهم إلی الکرک کما سار کمشبغا إلی حلب فلم یصل کل واحد من کمشبغا و الکجکنی حتی قاسی شدائد و محنا.

هذا مع أنهم قطعوا رجاءهم من نصرة الملک الظاهر برقوق، غیر أن کل واحد ینظر فی مصلحة نفسه فیما یأتی.

و أما الملک الظاهر فإنه لم یتأخر عنده إلا نحو من ثلاثین نفرا، أعنی من الممالیک الظاهریة الذین کانوا معه عند أخذه الملک

المنصور. و أما من بقى من التركمان و الغوغاء فأزيد من مائتى نفر.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۳۶۹

و لما قصد الملك الظاهر السلطان الملك المنصور حاجّيا و الخليفة و القضاة و أخذهم و ملك العصائب السلطانية وقف تحت العصائب، فلما رآه المنصور ارتاع، فسكّن الملك الظاهر روعه، و آنسه بالكلام، و سلّم على الخليفة و القضاة، و بشّ فى وجوههم و تلطّف بهم، فإنه لمّا رآه الخليفة كاد يهلك من هيبته، و كذلك القضاة؛ فما زال بهم حتى اطمأن خواطرهم.

هذا بعد أن سلبت النّهابة القضاة الثلاثة جميع ما عليهم، قبل أن يقع بصر الملك الظاهر عليهم، ما خلا القاضى الحنبلى ناصر الدين نصر اللّه، فإنه سلم من النهب، لعدم ركوبه وقت الحرب، و لم يركب حتى تحقق نصرة الملك الظاهر برقوق، فعند ذلك ركب و جاء إليه مع جملة رفقته، و أما مباشر و الدولة فإنهم كانوا توجهوا الجميع إلى دمشق، هذا بعد أن قتل من الطائفتين خلائق كثيرة جدّا بطول الشرح فى ذكرها.

و استمر الملك الظاهر واقفا تحت العصائب السلطانية و الملك المنصور و الخليفة بجانبه، و تلاحق به أصحابه شيئا بعد شيء، و تداول مجيئهم إليه، و جاءه جمع كبير من العساكر المصرية طوعا و كرها، فإنه صار الرجل منهم، بعد فراغ المعركة يقصد العصائب السلطانية، فيجد الملك الظاهر تحتها، فلم يجد بدّا من النزول إليه و تقبيل الأرض له، فإن خافه الملك الظاهر قبض عليه، و إلّا تركه من جملة عسكره.

و استمر الملك الظاهر برقوق يومه و ليلته على ظهر فرسه بسلاحه، و حوله مماليكه و خواصّه.

قال الوالد فيما حكاه بعد ذلك لمماليكه و حواشيه: و بات كلّ منا على فرسه، على أن غالبنا به الجراح الفاشية المنكية، و هو مع ذلك بسلاحه على فرسه،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۳۷۰

لم يغف أحد منا تلك الليلة، من السرور الذى طرقنا، و أيضا من الفكر فيما يصير أمرنا بعد ذلك إليه، غير أننا حصل لنا و لخيولنا راحة عظيمة، ببياتنا تلك الليلة فى مكان واحد و تشاورنا فيما نفعل من الغد، و كذلك السلطان الملك الظاهر، فإنه أخذ يتكلّم معنا فيما يرتّبه من الغد، فى قتال منطاش و نائب الشام، فما أصبح باكر نهار الاثنين إلا و قد رتبنا جميع أحوالنا و صار الملك الظاهر فى عسكر كثيف و تهيّأنا لقتال منطاش و غيره و بعد ساعة و إذا بمنطاش قد أقبل من الشام فى عالم كبير، من عسكر دمشق و عوامّها و ممن تراجع إليه من عسكره، بعد الهزيمة، فتواقعنا، فحصل بيننا وقعة من شروق الشمس إلى غروبها و وقع بيننا و بينهم قتال لم يعهد مثله فى هذا العصر. و بذل كلّ منا و منهم نفسه، فقاتلنا عن أرواحنا لا عن أستاذنا، لأننا تحقّق كل منا أنه إن انهزم بعد ذلك لا بقاء له فى الدنيا و المنطاشية أيضا قالوا كذلك و انكسر كل منا و منهم غير مرة و نتراجع. هذا و الملك الظاهر يكرّ فينا بفرسه كالأسد و يشجّع القوم و يعدهم و يمنيهم، ثم قصدنى شخص من الأمراء يقال له آقبغا الفيل و حمل علىّ فحملت عليه و طعنته برمحى ألقيته عن فرسه، فرآه الملك الظاهر، فسأل عنى، فقيل له: تغرى بردى فتفاءل باسمى. و قال ما معناه:

اللّه لا ينزّلنى ما فى خاطرى إن كنت ما أرقّيك إلى الرتب العالية. انتهى.

قلت: و معنى اسم تغرى بردى باللغة التركية: اللّه أعطى، فلهذا تفاءل الملك الظاهر به، لمّا قيل له، تغرى بردى و استمر كلّ من الطائفتين تبذل نفسها لنصرة سلطانها إلى أن أرسل اللّه سبحانه و تعالى فى آخر النهار ريحا و مطرا فى وجه منطاش و من معه، فكانت من أكبر الأسباب فى هزيمته و خذلانه و لم تغرب الشمس حتى قتل من الفريقين خلائق لا يحصيها إلا اللّه تعالى: من الجند و التّركمان و العربان و العامّة و ولّى منطاش هو و أصحابه منهزما إلى دمشق، على أقبح وجه.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۳۷۱

و عاد الملك الظاهر برقوق بمماليكه إلى مخيّمه بالمنزلة المذكورة و لم يكن فى أحد من عسكره منعة أن يتبع منطاش و لا عسكره و

استمرّ الملك الظاهر بمزلة شقحب سبعة أيام، حتى عزّت عنده الأقوات و أبيعت البقّسماطة بخمسة دراهم فضة و أبيع الفرس بعشرين درهما و الجمل بعشرة دراهم، و ذلك لكثرة الدواب و قلّة العلف.

و غنم أصحاب الملك الظاهر أموالا جزيلة.

و فى مدة إقامة الملك الظاهر بشقحب، قدم عليه جماعة كبيرة من الأمراء و التركمان و العربان و المماليك.

ثم جمع الملك الظاهر من معه من الأمراء و الأعيان بحضرة الخليفة و القضاة، و أشهد على الملك المنصور حاجى يخلع نفسه من السلطنة و حكم بذلك القضاة.

ثم بويع الملك الظاهر برقوق بالسلطنة و أثبت القضاة بيعته و خلع على الخليفة و القضاة.

ثم ولّى الأمير إياس الجرجاوى نيابة صفد و الأمير قديد القلمطاوى نيابة الكرك و الأمير آقبغا الصغير نيابة غزّة.

ثم تهيّأ الملك الظاهر للعود إلى الديار المصرية و رحل من شقحب فأتاه عند رحيله منطاش بعسكر الشام و وقف على بعد، فاستعدّ الملك الظاهر للقائه فلم يتقدّم منطاش.

ثم ولّى إلى ناحية دمشق فأراد الملك الظاهر أن يتبعه فمنعه من ذلك أعيان دولته و قالوا له: أنت سلطان مصر أم سلطان الشام امض إلى مصر و اجلس على تخت الملك، فتصير الشام و غيرها فى قبضتك، فصوّب الملك الظاهر هذا الرأى و سار من وقته بمن معه من الملك المنصور و الخليفة و القضاة إلى جهة الديار المصرية.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۳۷۲

ثم أرسل الملك الظاهر يأمر منصور حاجب غزة بالقبض على حسام الدين حسن بن باكيش نائب غزة، فقبض عليه و استولى على مدينة غزة و قيّد ابن باكيش المذكور و بعث به إلى الملك الظاهر، فوافاه بمدينة الرملة فأوقفه بين يديه و وبّخه، ثم ضربه بالمقارع، ثم حمله معه إلى غزّة فضربه بها أيضا ضربا مبرّحا. و كان يوم دخول السلطان الملك الظاهر إلى غزة يوم مستهلّ صفر من سنة اثنتين و تسعين و سبعمائة.

و أمّا أمر الديار المصرية، فإنه أشيع بكسرة الملك الظاهر لمنطاش، يوم رابع عشر المحرم، و هو يوم الوقعة، قاله الشيخ تقى الدين المقريزى- رحمه اللّه- و هذا شيء من العجائب.

و فى هذه الأيام ورد من الفيّوم محضر على نائب الغيبة مفتعل بأن حائطا سقط على الأمراء المسجونين بالفيّوم، ماتوا تحته، و هم: الأمير تمرباى الحسنى حاجب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۳۷۳

الحجّاب و قرابغا الأبوبكرى أحد مقدّمى الألوف و طوغاى تمر الجركتمرى أحد أمراء الألوف أيضا و يونس الإسعردى الرماح الظاهرىّ و قازان السيفىّ و تنكز العثمانى و أردبغا العثمانىّ و عيسى التركمانىّ.

قال المقريزى: هذا و الكتب المزوّرة ترد على أهل مصر فى كل قليل، بأنّ السلطان الملك المنصور انتصر على الملك الظاهر برقوق، و ملك الشام، و أنّ الظاهر هرب، فدقّ البشائر لذلك أياما، و لم يمش ذلك على أعيان الناس، مع أن الفتنة لم تزل قائمة فى هذه المدة بين الأمير صراى تمر نائب الغيبة و بين الأمير تكا الأشرفىّ المقيم بقلعة الجبل و كل منهما يحترز من الآخر.

و اتّفق مع ذلك أن الأمراء و المماليك الظاهريّة الذين سجنوا بخزانة الخاصّ من القلعة زرعوا بصلا فى قصريّتين فخّار و سقوهما فنجب بصل إحدى القصريّتين و لم ينجب الآخر، فرفعوا القصريّة التى لم ينجب بصلها، فإذا هى مثقوبة من أسفلها و تحتها خلوّ، فما زالوا به حتى اتّسع و أفضى بهم إلى سرداب مشوا فيه حتى صعد بهم إلى طبقة الأشرفية من قصور القلعة القديمة و كان منطاش سدّ بابها الذى ينزل منه إلى الإسطبل السلطانى، فعاد الذين مشوا و أعلموا أصحابهم، فقاموا بأجمعهم و هم نحو الخمسمائة رجل و مشوا فيه ليلة الخميس ثانى صفر و قد عملوا عليهم الأمير بطا الطولوتمرى الظاهرى رأسا و حاربوا باب الأشرفية: حتى فتحوه فثار بهم

الخرّاس الموكّلون بحفظ الباب و ضربوا مملوكا يقال له تمربغا، قتلوه و كان ابتدأ بالخروج، فبادر بطا بعده ليخرج فضربه الحارس ضربهٔ كما ضرب تمربغا قبله، سقط منها بطا إلى الأرض، ثم قام و ضرب بقيده الرجل الحارس ضربهٔ كما ضربه

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۳۷۴

صرعه و خرج البقيّهٔ و صرخوا المماليک: ياتكا يا منصور و جعلوا قيودهم سلاحهم، يقاتلون بها و قصدوا الإسطبل السلطانى، فانتبه صراى تمر، فسمع صياحهم تكا يا منصور، فلم يشكّ أنّ تكا ركب عليه ليأخذه بغتهٔ لما كان بينهما من التخاصم و قوى خوفه، فنهض فى الحال و نزل من الإسطبل من باب السلسلهٔ، و توجّه إلى بيت الأمير قطلوبغا الحاجب و كان قريبا من الإسطبل بالرّميلهٔ، فملک بطا و رفقته الإسطبل و احتوى على جميع ما كان فيه من قماش صراى تمر و خيله و سلاحه و قبض على المنطاشيّهٔ و أفرج عن المحبوسين من الظاهريّهٔ و أخذ الخيول التى كانت هناک و أمر فى الوقت بدقّ الكوسات، فدقّت فى الوقت نحو ثلث الليل الأوّل فاستمروا على ذلک إلى أن أصبحوا يوم الخميس و ندم صراى تمر على نزوله من الإسطبل و لبس هو و قطلوبغا الحاجب آلهٔ الحرب و أرسلوا إلى تكا بأن يقاتل المماليک الظاهريهٔ من أعلى القلعهٔ و هم يقاتلونهم من تحت، فرمى تكا عليهم من الرفرف و القصر و ساعده الأمير مقبل أمير سلاح و دمرداش القشتمرى بمن معه من مماليكهم و المماليک المقيمين بالقلعهٔ، فقاتلهم المماليک الظاهريّهٔ و تسامعت المماليک الظاهريهٔ البطّالهٔ و من كان مختفيا منهم، فجاءوهم من كل مكان، و كذلک المماليک اليلبغاويهٔ و غيرهم من حواشى الملک الظاهر برقوق، و من حواشى يلبغا الناصرىّ و غيره من الأمراء الممسوكين و كبسوا سجن الدّيلم، و أخرجوا من كان به محبوسا من المماليک و غيرهم. ثم بعثوا إلى خزانهٔ شمائل فكسروا بابها و أخرجوا من كان بها أيضا من المماليک اليلبغاويّهٔ و الظاهريّهٔ و غيرهم، ثم فعلوا ذلک بحبس الرحبهٔ فقوى أمر بطا و رفقته و كثر جمعهم فخاف حسين بن الكورانى و هرب و اختفى.

ثم ركب الأمير صراى تمر و الأمير قطلوبغا حاجب الحجّاب فى جمع كبير من مماليكهم و غيرها و خرجا لقتال بطا و أصحابه، فنزل بطا بمن معه و قد تهيّأ للقتال،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۳۷۵

و قد صار فى جمع كبير و اجتمعت عليه العوام لمعاونته، فلما تصافقا خامر جماعهٔ من المنطاشيّهٔ و جاءوا إلى بطا، و صدم بطا المنطاشيهٔ فكسرهم، فانحازوا إلى مدرسهٔ السلطان حسن، فلما رأى تكا ذلک خرج إلى الطبلخاناه و رمى على بطا و أصحابه بالنّشاب و مدافع النفط، فنزل طائفهٔ من الظاهريهٔ إلى بيت قطلوبغا و ملكوه، و نقبوا منه نقبا طلعوا منه إلى المدرسهٔ الأشرفيهٔ بالصّوّه، و صعدوا إلى سطحها تجاه الطبلخاناه السلطانيهٔ و رموا على من بالطبلخاناه، من أعوان تكا فانهزموا فملک الظاهريهٔ الطبلخاناه فحاصروا من هو بمدرسهٔ السلطان حسن و كان بها طائفهٔ من التركمان قد أعدّهم منطاش لحفظها، فصاحوا و سألوا الأمان لشدهٔ الرمى عليهم بمكاحل النفط، فانهزم عند ذلک أيضا من كان من الرماهٔ على باب المدرج أحد أبواب القلعهٔ و سارت الظاهريهٔ و اليلبغاويهٔ إلى بيوت الأمراء فنهبوها.

كلّ ذلک و القاهرهٔ فى أمن مع عدم من يحفظها و لم يمض النهار حتى وصل عدد الظاهريهٔ إلى ألف، و أمدّهم ناصر الدين أستادار منطاش بمائهٔ ألف درهم، ثم طلب بطا ناصر الدين محمد بن العادلىّ، و أمره أن يتحدّث فى ولايهٔ القاهرهٔ عوضا عن ابن الكورانى، فدخلها ابن العادلى و نادى فيها بالأمان و الدعاء للملک الظاهر برقوق، فسرّ الناس بذلک سرورا زائدا.

ثم فى يوم الجمعهٔ ثالث صفر سلّم الأمير تكا قلعهٔ الجبل إلى الأمير سودون الشيخونى النائب، ثم أقام بطا فى ولايهٔ القاهرهٔ منجک المنجكى، عوضا عن ابن العادلى، فركب و دخل القاهرهٔ و نادى أيضا بالأمان و الدعاء للسلطان الملک الظاهر برقوق.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۳۷۶

و فيه نزل الأمير سودون النائب من القلعهٔ و معه تكا الأشرفىّ و دمرداش القشتمرى و مقبل السيفى أمير سلاح، إلى عند الأمير بطا فقبض بطا عليهم و قيّدهم و بالغ فى إكرام الأمير سودون النائب و بعثه إلى الأمير صراى تمر، فنزل سودون إلى صراى تمر و ما زال به

حتى كفّه عن الرمى و أخذه هو و قطلوبغا و سار فتكاثر العامّة عليهما يريدون قتلهما و الأمير سودون النائب يمنعهم من ذلك أشدّ المنع، فلم يلتفتوا إليه و رجموهما رجما متتابعا كاد يهلك الجميع، فاحتاجوا إلى الرمى بالنشّاب عليهم و ضربهم بالسيوف فقتل منهم جماعة كبيرة، فطلع سودون النائب بهما و بمن كان معهما إلى الإسطبل، فقيّدهم بطا أيضا و سجنهم و أمر بمن فى المدرسة من المقاتلة فنزلوا كلّهم.

و أذهب اللّه تعالى الدولة المنطاشية من مصر فى نحو ثلاثة أيام كأنها لم تكن، و ركب الأمير سودون الشيخونى النائب و عبر إلى القاهرة و المنادى ينادى بين يديه بالأمان و الدعاء للملك الظاهر برقوق و أرسل إلى خطباء الجوامع فدعوا له فى خطبة الجمعة و أطلق بطا زكرياء المخلوع عن الخلافة و الشيخ شمس الدين محمد الركراكىّ المالكى و سائر من كان بالقلعة من المسجونين و صار بطا يتتبع المنطاشية و يقبض عليهم كما كان منطاش يتتبع الظاهريّة و يقبض عليهم.

و فى أثناء ذلك قدم أحمد بن شكر الدليل و أشاع الخبر بالقاهرة بأنّ الملك الظاهر برقوقا قادم إلى الديار المصرية، ثم قدم جلبان العيسوى الخاصّكى و أخبر برحيل الملك الظاهر برقوق من مدينة غزّة فى يوم الخميس ثانى صفر، فدقّت البشائر و تخلّق الظاهرية بالزعفران و كتب بطا للسلطان يخبره بما اتّفق و أنهم ملكوا ديار مصر و أقاموا الخطبة باسمه و بجميع ما وقع لهم مفصّلا و بعثوا بهذا الخبر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۳۷۷

الشريف عنان بن مغامس، و معه آقبغا الطولوتمرى المعروف باللّكّاش أحد المماليك الظاهريّة، فى يوم السبت رابع صفر، ثم كتب بطا إلى سائر الأعمال بالقبض على المنطاشيّة و الإفراج عن الظاهريّة و إرسالهم إلى الديار المصرية.

ثم طلب بطا حسين بن الكورانى فى الإسطبل، فلما طلع أراد المماليك الظاهرية قتله لقبح ما فعل فيهم، فشفع فيه سودون النائب.

ثم خلع عليه بطا و أعاده إلى ولاية القاهرة و أمره بتحصيل المنطاشية فنزل فى الحال و نادى من قبض على مملوك منطاشى أو أشرفىّ فله كذا و كذا، ثم قبض بطا على الأمير قطلوبغا و الأمير بورى صهر منطاش، و الأمير بيد مرشادّ القصر و الأمير صلاح الدين محمد بن تنكز و حبسهم بالقلعة، ثم حصّن بطا القلعة تحصينا زائدا و رتّب الرماة و النفطية و الرجال حتى ظنّ كلّ أحد أنه يمنع الملك الظاهر من طلوع القلعة.

قلت: و كان الأمر كما ظنّه الناس حسب ما حكاه الوالد بعد ذلك كما سنذكره الآن فى محلّه.

قال: و كثر الكلام فى أمر بطا، ثم أمر بطا الفخرى بن مكانس بعمل سماط فى الإسطبل السلطانىّ فصار الأمراء و المماليك بأجمعهم يأكلون منه فى كل يوم عند الأمير بطا.

ثم قدم كتاب الملك الظاهر إلى بطا على يد سيف الدين محمد بن عيسى العائدىّ يأمره بتجهيز الإقامات إليه.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۳۷۸

ثم قدم كتاب الملك الظاهر بتفصيل الوقعة بينه و بين منطاش، ثم قدم كتاب آخر عقيبه، كلّ ذلك و لم تطمئن النفوس بعود الملك الظاهر إلى ملكه و لا ارتفع الشكّ، بل كان بطا يخشى أن يكون ذلك مكيدة من مكايد منطاش، و هو ينتظر جواب كتابه للملك الظاهر، حتى قدم آقبغا الطولوتمرى اللّكّاش، و قد ألبسه الملك الظاهر خلعة سنيّة شقّ بها القاهرة، فعند ذلك تحقّق كل أحد بنصرة الملك الظاهر برقوق و نودى بالأمان و الاطمئنان، و من ظلم أو قهر فعليه بباب الأمير بطا.

ثم قبض بطا على حسين بن الكورانى و قيّده بقيد ثقيل جدّا و نهبت داره و صار الصارم يأخذ ابن الكورانى فى الحديد، كما يؤخذ اللصوص و يضربه و يعصره ثم نقل من عند الصارم الوالى إلى الأمير ناصر الدين محمد بن آقبغا آص شادّ الدواوين، فعاقبه أشدّ عقوبة.

و فى تاسعه قدم تغرى بردى البشبغاوىّ الظاهرىّ و هو والد كاتبه إلى القاهرة بكتاب السلطان يتضمّن السلام على الأمراء و غيرهم و

بأمور أخر.

و أمّا ما وعدنا بذكره من أمر بطا و أنه كان حدّثته نفسه بملك مصر فى الباطن، حكى لى الوالد- رحمه اللّه-. قال: لما قدمت إلى مصر و تلقّانى بطا و سلّم علىّ و عانقنى و أخذ يسألنى عن أستاذنا الملك الظاهر برقوق و كيف كانت الوقعة بينه و بين منطاش و صار يفحص عن أمره حتى رابنى أمره، فكان من جملة ما سألنى عنه بأن قال: يا أخى تغرى بردى مع أستاذنا صبيان ملاح شجعان أم مماليك ملفّقة، فقلت: مع أستاذنا جماعة إذا أجروا خيولهم هدموا باب السلسلة إنقابها و أقلّهم أنت و أنا إيش هذا السؤال. أما تعرف أغواتك و خشداشيّتك،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۳۷۹

فقال: صدقت، و كم مثلنا فى خجداشيّتنا عند أستاذنا و أخذ ينتقل بى إلى كلام آخر بما هو فى مصالح السلطان الملك الظاهر. انتهى.

و عند قدوم الوالد إلى الديار المصريّة تزايد سرور الناس و فرحهم و تحقّقوا عود الملك الظاهر إلى ملكه.

ثم قدم تنبك الحسنىّ الظاهرىّ المعروف بتنم من الإسكندرية و كان أرسله بطا لنائب الإسكندرية و قد امتنع من الإفراج عن الأمراء المسجونين إلّا بكتاب السلطان.

ثم ألزم بطا الفخر بن مكانس بتجهيز الإقامات و الشّقق الحرير للفرش فى طريق الملك الظاهر حتى يمشى عليها بفرسه عند قدومه إلى القاهرة.

ثم قدم من ثغردمياط الأمير شيخ الصفوىّ و قبق باى السيفىّ و مقبل الرومىّ الطويل و ألطنبغا العثمانىّ و عبدوق العلائى و جرجى الحسنىّ و أربعة أمراء أخر.

و فى عاشره شدّد العذاب على ابن الكورانىّ و ألزم بحمل مائة ألف درهم فضة و مائة فرس و مائة لبس حربىّ.

و فى حادى عشر صفر قدم البريد بنزول السلطان الملك الظاهر إلى منزلة الصالحية فخرج الناس أفواجا إلى لقائه و نودى بزينة القاهرة و مصر فتفاخر الناس فى الزينة و نزل السلطان بعساكره إلى العكرشة فى ثالث عشر صفر.

و أمّا أمر منطاش و ما وقع له بعد ذلك و بقيّة سياق أمر الملك الظاهر برقوق و دخوله إلى القاهرة و طلوعه إلى قلعة الجبل و جلوسه على تخت الملك يأتى ذكر ذلك كلّه مفصّلا فى ذكر سلطنته الثانية من هذا الكتاب، بعد أن نذكر من توفّى من سنة إحدى و تسعين و سبعمائة التى حكم فى غالبها على مصر الملك المنصور حاجىّ، ثم نعود إلى ذكر الملك الظاهر و سلطنته الثانية- إن شاء اللّه تعالى-.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۳۸۰

و أما الملك المنصور حاجىّ فإنه عاد إلى ديار مصر صحبة الملك الظاهر برقوق محتفظا به و هو فى غاية ما يكون من الإكرام و طلع إلى القلعة و سكن بها بالحوش السلطانىّ على عادة أولاد الأسياد و دام عند أهله و عياله إلى أن مات بها فى ليلة الأربعاء تاسع عشر شوّال سنة أربع عشرة و ثمانمائة و دفن بتربة جدّته لأبيه خوند بركة بخطّ التّبانة بالقرب من باب الوزير خارج القاهرة، بعد أن تسلطن مرّتين و كان لقّب فى أوّل سلطنته بالملك الصالح و فى الثانية بالملك المنصور، و لا نعلم سلطانا غيّر لقبه غيره و مات الملك المنصور هذا عن بضع و أربعين سنة و قد تعطّلت حركته و بطلت يداه و رجلاه مدّة سنين قبل موته و كان ما حصل له من الاسترخاء من جهة جواريه على ما قيل: إنّهم أطعموه شيئا بطلت حركته منه و ذلك لسوء خلقه و ظلمه.

حدّثنى غير واحد من حواشى الملك الظاهر برقوق ممّن كان يباشر أمر الملك المنصور المذكور قال: كان إذا ضرب أحدا من جواريه يتجاوز ضربه لهنّ الخمسمائة عصاة، فكان الملك الظاهر لمّا يسمع صياحهنّ يرسل يشفع فيهنّ فلا يمكنه المخالفة فيطلق المضروبة، و عنده فى نفسه منها كمين، كونه ما اشتفى فيها و كان له جوقة مغان كاملة من الجوارى، كما كانت عادت الملوك و الأمراء تلك الأيام نحو خمس عشرة واحدة، يعرفن من بعده بمغانى المنصور، و كنّ خدمن عند الوالد بعد موته، فلمّا صار الملك

الظاهر برقوق يشفع فى الجوارى لمّا يسمع صياحهنّ، بقى المنصور إذا ضرب واحدة من جواريه يأمر مغانيه أن يزفّوا بالدّفوف و تزعق

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۳۸۱

المواصيل فتصيح الجارية المضروبة فلا يسمعها الملك الظاهر و لا غيره، ففطن بذلك حريم الملك الظاهر و أعلموه الخبر، و قلن له إذا سمع السلطان زفّ المغانى فى غير وقت المغنى فيعلم السلطان أنّه يضرب جواريه و خدمه، فعلم الظاهر ذلك، فصار كلّما سمع المغانى تزفّ أرسل إليه فى الحال بالشفاعة، و له من ذلك أشياء كثيرة. و كان الملك الظاهر قبل أن يتكسّح يرسل خلفه فى مجلس أنسه و ينادمه فى غالب الأوقات و تكرر ذلك منه سنين و كان إذا غلب عليه السّكر تسفّه على الملك الظاهر و يخاطبه باسمه من غير تحشّم فيبتسم الملك الظاهر و يقول لحواشى الملك المنصور: خذوا سيّدى أمير حاج و ردّوه إلى بيته، فيقوم على حاله و هو مستمرّ فى السّبّ و اللّعن، فيعظم ذلك على حواشى الملك الظاهر و يكلّمون الملك الظاهر فى عدم الاجتماع به، فلا يلتفت إلى كلامهم فيصبح المنصور يعتذر للسلطان فيما وقع منه فى أمسه، فلمّا تكرر منه ذلك غير مرّة تركه و صار لا يجتمع به إلّا فى الأعياد و المواسم، فلما بطلت حركته انقطع عنه بالكليّة.

السنة التى حكم فى أولها الملك الظاهر برقوق إلى ليلة الاثنين خامس جمادى الآخرة و حكم فى باقيها الملك المنصور حاجّى.

و لم يكن له فى سلطنته إلا مجرّد الاسم فقط و المتحدّث فى المملكة الأتابك يلبغا الناصرىّ ثم تمربغا الأفضلى الأشرفىّ المدعو منطاش و هى سنة إحدى و تسعين و سبعمائة.

و فيها كان خلع الملك الظاهر برقوق من السلطنة و سلطنة الملك المنصور هذا كما تقدم ذكره.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۳۸۲

و فيها فى ذى الحجّة كانت وقائع بين الملك الظاهر برقوق و بين جنتمر نائب الشام بعد خروجه من سجن الكرك.

و فيها توفّى خلائق كثيرة بالطاعون و السيف و كان الطاعون وقع بالديار المصرية فى أيام الفتنة، فكان من أجل ذلك أشد الطواعين و أعظمها خطبا لما دها الناس من شدّة الطاعون و أهوال الوقائع، فممّن قتل من الأعيان: القاضى شهاب الدين أبو العباس أحمد بن عمر بن أبى الرضا قاضى قضاة الشافعيّة بحلب. و خبره أن الملك الظاهر برقوقا لما خرج من سجن الكرك و وافقه الأمير كمشبغا الحموى نائب حلب ثار عليه شهاب الدين هذا محاماة لمنطاش و جمع أهل بانقوسا و حرّضهم على قتال كمشبغا المذكور و أفتى بجواز قتال برقوق، فركب كمشبغا و قاتلهم فكسرهم و قتل كثيرا من البانقوسيّة ممّن ظفر به، ففرّ شهاب الدين هذا إلى ظاهر حلب، فأخذ قريبا من حلب و أتى به إلى كمشبغا فقتله صبرا، و عمره زيادة على أربعين سنة، أثنى على علمه القاضى علاء الدين بن خطيب الناصريّة و الشيخ تقىّ الدين المقريزىّ رحمهما اللّه- و ذكر عنه قاضى القضاة بدر الدين محمود العينىّ- رحمه اللّه- مساوى و قبائح، نسأل اللّه تعالى السلامة فى الدّين، ذكرناها فى ترجمته فى تاريخنا المنهل الصافى.

قلت: و الجمع بين هذه الأقوال هو أنه كان عالما غير أنه كان خبيث اللسان، يرتكب أمورا شنيعة مشهورة عنه عند الحلبيين.

و توفّى قتيلا الأمير صارم الدين إبراهيم ابن الأمير قطلقتمر الخازندار بحلب قتله أيضا الأمير كمشبغا الحموى بحلب، و قد قام بنصرة منطاش و قاتل كمشبغا فلمّا ظفر به كمشبغا وسّطه فى شوال و إبراهيم هذا هو الذى كان وقع له مع الملك الظاهر برقوق ما وقع، لمّا اتفق مع الخليفة المتوكّل على اللّه و وافقهما الأمير قرط

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۳۸۳

الكاشف على قتل الملك الظاهر برقوق و تمّ عليهم و ظفر بهم برقوق و خلع الخليفة و حبسه و وسّط قرط الكاشف و حبس إبراهيم هذا مدّة ثم أطلقه لأجل أبيه قطلقتمر، ثم أنعم عليه بإمرة فلمّا خلع الملك الظاهر و حبس، قام عليه إبراهيم هذا و انضم مع الناصرىّ و منطاش و صار من جملة أمراء الطبلخاناة، ثم كان مع منطاش على الناصرى، فلمّا ملك منطاش الديار المصرية أنعم عليه بإمرة مائة و

تقدمة ألف بديار مصر و استقرّ أمير مجلس عوضا عن الأمير أحمد بن يلبغا فلم يقنع بذلك و بدا منه أمور فأخرجه منطاش بعد أخذه الإمرة بدون السبعة أيام إلى حلب أمير مائة و مقدّم ألف بها، فدام بها حتى ثار أهل بانقوسا على كمشبغا نائب حلب وافقهم إبراهيم هذا فظفر به كمشبغا و وسطه.

قلت: ما كان جزاؤه إلا ما فعله به كمشبغا و كان شجاعا غير أنه كان يحب الفتن و يثير الشرور- عفا اللّه تعالى عنه-.

و توفّى الشيخ الإمام العلّامة شهاب الدين أحمد بن أبى يزيد بن محمد المعروف بمولانا زادة السّيراميّ العجميّ الحنفى والد العلّامة محبّ الدين محمد ابن مولانا زادة فى يوم الأربعاء حادى عشر المحرّم بالقاهرة و كان إماما مفتّنا فى علوم كثيرة؛ و هو أوّل من ولى درس الحديث بالمدرسة الظاهريّة البرقوقية و دام على ذلك إلى أن مات فى التاريخ المقدّم ذكره.

و توفّى الأمير سيف الدين تلكتمر بن عبد اللّه أحد أمراء الطبلخانات بالطاعون فى جمادى الأول و كان من خواصّ الملك الظاهر برقوق.

و توفّى قتيلا الأمير سيف الدين جاركس بن عبد اللّه الخليلى اليلبغاوى الأمير آخور الكبير و عظيم دولة الملك الظاهر برقوق، قتل فى محاربة الناصرىّ خارج

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۳۸۴

دمشق، فى يوم الاثنين حادى عشر شهر ربيع الأول و بقتله تخلخلت أركان دولة الملك الظاهر برقوق و كان أميرا مهابا عاقلا عارفا خبيرا سيوسا و له بالقاهرة خان يعرف بخان الخليلى و مآثر بمكة و غيرها و خلّف أموالا كثيرة أخذها منطاش و فرّقها فى أصحابه.

و توفّى الأمير يونس بن عبد اللّه النّوروزى اليلبغاوى الدوادار الكبير، قتله الأمير عنقاء بن شطّى أمير آل مرا بخربة اللصوص و هو عائد إلى الديار المصرية، بعد انهزامه من الناصرى و كان أيضا أحد أركان الملك الظاهر برقوق و إليه كان تدبير المملكة و كان خدمه و باشر دواداريّته من أيام إمرته و كان عاقلا مدبّرا حازما و هو صاحب الخان خارج مدينة غزّة و غيره معروفة عمائره باسمه و لا يحتاج ذلك إلى التعريف به، فإننا لا نعلم أحدا فى الدولة التركية سمّى بيونس الدوادار غيره ثم دوادار زماننا هذا الأمير يونس الدوادار السيفىّ آقباى، انتهى.

و توفّى الأمير سيف الدين بزلار بن عبد اللّه العمرىّ ثم الناصرى نائب الشام قتيلا بها و كان أصله من مماليك الملك الناصر حسن اشتراه و ربّاه مع أولاده و قرأ

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۳۸۵

القرآن و تأدّب و مهر فى الخط المنسوب و برع فى عدة علوم لا سيما علم الفلك و النجوم مع تقدّمه فى أنواع الفروسية و الشجاعة المفرطة و أنواع الملاعيب، مع ذكاء و فطنة و ذوق و عقل و محاضرة حسنة و حسن شكاله، ولاه الملك الظاهر برقوق نيابة الإسكندرية، ثم عزله و جعله من جملة أمراء الألوف بالديار المصرية، ثم خافه، فقبض عليه و نفاه إلى طرابلس فلمّا كانت نوبة الناصرية اتفق مع جماعة قليلة من أصحابه و ملك طرابلس من نائبها أسندمر و وافق الناصرىّ على قتال الملك الظاهر برقوق، فلمّا ملك الناصرىّ مصر خلع عليه بنيابة دمشق، فولى دمشق و دام به إلى أن قبض منطاش على الناصرىّ، فغضب بزلار المذكور للناصرى و خرج عن الطاعة، فخادعه منطاش و أرسل ملطّفات إلى جنتمر بنيابة دمشق فاتّفق أمراء دمشق مع جنتمر و وثبوا عليه على حين غفلة، فركب و قاتلهم، و كاد يهزمهم لولا تكاثروا عليه و مسكوه و حبسوه بقلعة دمشق، حتى أرسل منطاش بقتله فقتل، و سنّه نيّف على خمسين سنة، و كان من محاسن الدنيا، حدّثنى الشيخ موسى الطرابلسىّ قال: لمّا نفاه الملك الظاهر برقوق إلى طرابلس صحبته فكنت أقعد لتكبيسه فأجد أضلاعه صفيحة واحدة، انتهى.

و توفّى الشيخ المعتقد حسن الخبّاز الواعظ، كان صاحب الشيخ ياقوت الشاذلىّ و تلقّن منه و تزوّج بآبنته و ترك بيع الخبز و انقطع بزاويته خارج القاهرة و جلس للوعظ حتى مات فى حادى عشرين شهر ربيع الآخر و دفن بالقرافة و كان للناس فيه اعتقاد حسن و

لوعظه تأثير فى القلوب.

و توفّى الأمير سيف الـدين سودون المظفرىّ أتابک حلب قتيلا بها بيد مماليک الأمير يلبغا الناصـرى حسب ما تقدم ذكره فى ترجمهٔ الملك الظاهر برقوق و كان أصله من مماليک قطلوبغا المظفّرى أحد أمراء حلب و بها نشأ و خدم الأمير جرجى

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۳۸۶

الإدريسىّ نـائب حلب و صـار خازنـداره ثم صار من جملـهٔ أمراء حلب، ثم ولّاه برقوق حجوبيـهٔ حلب ثم أتا بكابها، ثم نقله إلى نيابهٔ حماهٔ، ثم إلى نيابهٔ حلب بعد القبض على يلبغا الناصرىّ، ثم عزله الظاهر عن نيابهٔ حلب بالأمير يلبغا الناصـرىّ المذكور و جعله أتابک حلب، فكـان بينهمـا مباينـهٔ كبيرهٔ و كان الناصرى يزدريه و دام على ذلک حتى بلغ الظاهر خروج الناصـرىّ عن الطاعـهٔ و كتب ملطّفا لسودون المظفرى هـذا بنيابـهٔ حلب على عـادته و أرسل الملک الظاهر بصـلحهم، فلمّا دخل سودون المـذكور إلى دهليز دار السعادهٔ أخذته سيوف مماليک الناصرى حتى قتل.

و توفّى الأـمير سيف الـدين صراى الطويـل أحـد أعيـان المماليـک اليلبغاويـهٔ خـارج القـاهرهٔ فى شـهر ربيع الأوّل و كان أحـد أمراء الطبلخاناهٔ بالديار المصريهٔ.

و توفّى قاضـى القضاهٔ جمال الدين عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن سليمان بن خير السكندرىّ المالكى فى يوم الأربعاء رابع عشر شهر رمضان و كنيته أبو القاسم، مولده بالإسـكندريهٔ فى يوم الأحد سابع جمادى الأولى سـنهٔ إحدى و عشـرين و سـبعمائهٔ و بها نشأ و طلب العلم و سـمع الحديث و تفقّه بأبيه و غيره و برع فى الفقه و الأصول و شارک فى غيره و جلس مع الشهود بالثغر، ثم ولى به نيابهٔ الحكم، ثم نقل إلى قضاء الـديار المصـريهٔ، عوضا عن قاضـى القضاهٔ علم الـدين سـليمان بن خالد البساطىّ بعد عزله فى سـنهٔ ثلاث و ثمانين و سـبعمائهٔ و حمدت سـيرته إلى الغايهٔ و دام مدهٔ سـنين إلى أن عزل بالقاصى ولى الدين عبد الرحمن بن خلدون، ثم أعيد بعد ذلک إلى أن مات قاضيا، و تولّى بعده تاج الدين بهرام بن عبد اللّه بن عبد العزيز الدّميرىّ.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۳۸۷

و توفّى إمـام السـلطان الملـک الظاهر برقوق الشيخ شـرف الـدين عثمان بن سـليمان ابن رسول بن يوسف بن خليل بن نوح الكرادىّ (بتخفيف الراء المهملـهٔ) الحنفىّ المعروف بالأشـقر، فى يوم الخميس رابع عشـرين شـهر ربيع الآـخر، كان أصـله من البلاد الشـماليهٔ و اشـتغل بها ثم قدم القاهرهٔ فى عنفوان شـبابه فى الدولهٔ الأشـرفيّهٔ شعبان بن حسين و اشتغل بها على علماء عصره، حتى شارک فى عدّهٔ فنون و يجب الملک الظاهر فى أيام إمرته، فلما تسـلطن الملک الظاهر قرّره إمامه و تقدم فى دولته ثم ولى قضاء العسـكر، ثم مشـيخهٔ الخانقاه البيبرسـيّهٔ إلى أن مات و كان حسن الهيئـهٔ جميل الطريقـهٔ و هو والد القاضـى محبّ الدين محمد بن الأشـقر كاتب سـرّ الديار المصريهٔ الآن و قد سألت من ولده المذكور عن أصل آبائه فقال: أصلنا من بلاد القرم و كان جدّى عالما مفتّنا و كان والد جدّى ملكا بتلک البلاد، انتهى.

و توفى الأمير سـيف الدين إشـقتمر بن عبد اللّه الماردينىّ الناصـرى نائب حلب و الشام، غير مرّهٔ بطّالا بحلب فى شوّال، كان أصله من مماليک صاحب ماردين و بعثه إلى الملک الناصـر حسن بن الملک الناصر محمد بن قلاوون فربّاه الناصر و أدّبه و كان يعرف ضرب العود و يحسن الموسـيقى و كان ماهرا فى عدّهٔ فنون، فقرّبه أسـتاذه الملک الناصر حسن، و جعله من أعيان خاصّكيته،؟؟ أمّره ثم تنقّل بعد موت أستاذه فى عدهٔ وظائف إلى أن ولّاه الملک الأشرف شعبان نيابهٔ حلب بعد وفاهٔ قطلوبغا الأحمدىّ، فباشرها نحو سنهٔ و نصف و عزل بالأمير جرجى الناصـرى الإدريسـىّ، ثم ولى نيابهٔ طرابلس عوضا عن قشتمر المنصورىّ، ثم أعيد بعد مدهٔ إلى نيابهٔ حلب عوضا عن قشـتمر المنصورىّ المـذكور، فى سـنهٔ إحـدى و سـبعين بعد قتل يلبغا أسـتاذ الملک الظاهر برقوق و كان إشـقتمر خجداش يلبغا و صاحبه و من أقرانه، فباشر نيابهٔ حلب مدّهٔ ثم عزل و أعيد إلى نيابهٔ طرابلس و السواحل

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۳۸۸

عوضا عن أيدمر الدوادار، ثم أعيد إلى نيابة حلب مرّة ثالثة فى سنة أربع و سبعين فباشر نيابة حلب إلى أن عزل فى سنة خمس و سبعين بالأمير بيدمر الخوارزمىّ و تولى نيابة دمشق، فباشر نيابة دمشق أربعة أشهر و عزل و أعيد إلى نيابة حلب رابع مرّة، فطالت مدّته فى هذه الولاية، و غزاسيس و فتحها فى سنة ست و سبعين و كان فتحا عظيما و سرّ الملك الأشرف شعبان بفتحه، و فيه يقول الشيخ بدر الدين حسن بن حبيب: [السريع]

الملك الأشرف إقباله يهدى له كلّ عزيز نفيس

لمّا رأى الخضراء فى شامة تختال و الشقراء عجبا تميس

و عاين الشّهباء فى ملكه تجرى و تبدى ما يسرّا الجليس

ساق إلى سوق العدى أدهما و ساعدا الجيش على أخذ سيس

و استمرّ على نيابتها إلى أن عزل بالأمير منكلى بغا الأحمدىّ البلدىّ و قبض عليه و حبس بالإسكندرية ثم أطلق و توجه إلى القدس بطالا، كل ذلك و إلى الآن لم يكن برقوق من جملة المماليك السلطانية، بل كان فى خدمة منجك، ثم من بعده فى خدمة الأسياد أولاد الملك الأشرف شعبان، ثم أعيد إلى نيابة حلب خامس مرة عوضا عن تمرباى الأفضلىّ الأشرفىّ فى سنة إحدى و ثمانين، ثم نقل بعد عشرة أشهر إلى نيابة دمشق، عوضا عن بيدمر الخوارزمىّ فى سنة اثنتين و ثمانين، فدام بدمشق إلى أن عزل فى محرم سنة أربع و ثمانين و توجّه إلى القدس بطّالا، فدام بالقدس إلى أن أعيد إلى نيابة دمشق ثالث مرة، من قبل الملك الظاهر برقوق

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۳۸۹

فى سنة ثمان و ثمانين، ثم عزل بعد أربعة أشهر و رسم له أن يتوجّه إلى حلب بطّالا، فدام بحلب إلى أن مات و كان فيه كل الخصال الحسنة لو لا حبّه لجمع المال.

و توفّى الشيخ الإمام العلّامة بدر الدين محمد ابن شيخ الإسلام سراج الدين عمر البلقينىّ الشافعىّ قاضى العساكر فى يوم الجمعة سابع عشر شعبان و دفن بمدرسة أبيه بحارة بهاء الدين قراقوش و كان أعجوبة فى الذكاء و الحفظ مفتنّا فى عدّة علوم و هو أسنّ من أخيه قاضى القضاة جلال الدين عبد الرحمن البلقينىّ و كان له نظم و نثر و مما ينسب إليه من الشعر: [الرمل]

كسروا الجرّة عمدا سقوا الأرض شرابا

قلت و الإسلام دينى ليتنى كنت ترابا

و توفّى العلامة شمس الدين محمود بن عبد اللّه النّيسابورىّ الحنفىّ المعروف بابن أخى جار اللّه، فى سابع جمادى الأولى و كان عالما مفتنّا فى علوم كثيرة.

و توفّى تاج الدين عبد اللّه و قيل: أمين الدين بن مجد الدين فضل اللّه بن أمين الدين عبد اللّه بن ريشة القبطىّ المصرىّ ناظر الدولة، فى سادس جمادى الأولى.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۱، ص: ۳۹۰

و توفّى الأمير قرا محمد التّركمانىّ صاحب الموصل، قتيلا فى هذه السنة و هو والد قرا يوسف صاحب تبريز، و جدّ بنى قرا يوسف ملوک العراق، الذين خربت بغداد و غيرها فى دولتهم و أيامهم.

و توفّى الأمير الطواشى سابق الدين مثقال بن عبد اللّه الجمالىّ الحبشىّ الزّمام و أصله من خدّام الملك الأمجد والد الأشرف شعبان، تنقّل فى عدة وظائف إلى أن صار زماما للدور السلطانية، فلمّا أن قتل الملك الأشرف عزله أينبك البدرىّ و ولّى عوضه مقبلا الرومىّ الطواشى اليلبغاوىّ و دام مثقال بطّالا سنين و صادره برقوق و حصل له محن، ثم أفرج عنه فصار يتردّد إلى مكة و المدينة إلى أن مات ببدر من طريق الحجاز فى ذى القعدة و دفن عند الشهداء فى ليلة الجمعة تاسع عشرينه.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمسة أذرع و عشرون إصبعا.

مبلغ الزيادة تسعة عشر ذراعا و أربعة أصابع، و اللّه تعالى أعلم.

انتهى الجزء الحادى عشر من النجوم الزاهرة و يليه الجزء الثانى عشر و أوله: ذكر سلطنة الملك الظاهر برقوق الثانية على مصر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۱، ص: ۳۹۱

فهرس الملوك و السلاطين الذين تولوا مصر

[الجزء الثانى عشر]

اشارة

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم و صلى اللّه على سيدنا محمد و آله و صحبه و سلّم

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۹۲]

ذكر سلطنة الملك الظاهر برقوق الثانية على مصر

تقدّم ذكر الملك الظاهر برقوق و أصله و خبر قدومه من بلاد الجاركس إلى الديار المصريّة و ما وقع له بها إلى أن ملكها و تسلطن، كلّ ذلك فى ترجمته الأولى من هذا الكتاب. و ذكرنا أيضا ما وقع له من يوم خلع نفسه و سجن بالكرك إلى أن خرج من الحبس و قاتل منطاشا و انتصر عليه و عاد إلى الديار المصرية بعد أن أعيد إلى السلطنة بمنزلة شقحب، و أشهد على الملك المنصور بخلع نفسه، ثم

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۲

سار حتى نزل بالصالحية، كلّ ذلك فى ترجمة السلطان الملك المنصور حاجى مفصّلا، فمن أراد شيئا من ذلك فلينظره فى محلّه، و من يومئذ نذكر رحيله من منزلة الصالحية إلى نحو الديار المصرية فنقول:

و لمّا نزل الملك الظاهر برقوق على منزلة الصالحيّة فى يوم عاشر صفر سنة اثنتين و تسعين و سبعمائة أقام بها نهاره، و أعيان الدولة تأتيه فوجا بعد فوج، مثل أكابر الأمراء الذين كانوا بالحبوس و أعيان العلماء و مباشرى الدولة و غيرهم.

ثمّ رحل من الغد بعساكره و صحبته الخليفة و الملك المنصور حاجى و القضاة و سار بهم يريد الديار المصرية إلى أن نزل بالرّيدانيّة خارج القاهرة فى بكرة يوم الثلاثاء رابع عشر صفر، فخرج الأعيان من العلماء و الأمراء و الفقراء إلى لقائه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۳

فخرجت الأشراف مع السيد الشريف علىّ نقيب الأشراف، و خرجت طوائف الفقراء بأعلامها و أذكارها، و مشايخ الخوانق بصوفيّتها، و خرجت العساكر المصريّة بلبوسها الحربيّة، لأن العسكر المصرىّ كان من يوم خروج بطا و أصحابه من السجن و ملكوا الديار

المصريّة؛ عليهم آلة الحرب، و خرجت اليهود بالتوراة و النصارى بالإنجيل، و معهم الشموع المشعولة. و خرج من الناس ما لا يحصيه إلا اللّه تعالى و عندهم من الفرح و السرور ما لا يوصف، و هم يصيحون بالدعاء له حتّى لقوه و خاطبوه.

فشرع الملك الظاهر يكلّم الناس و يدنيهم و يرجع رءوس النّوب عن منعهم من السلام عليه. و كلّما دعا له شخص منهم رحّب به. هذا و قد فرشت له الشّقق الحرير خارج التّرب إلى باب السلسلة، فلمّا وصل الملك الظاهر إلى الشقق المفروشة له، تنحّى بفرسه عنها و قدم الملك المنصور حاجّى، حتى مشى بفرسه عليها، و مشى الملك الظاهر برقوق بجانبه خارجا عن الشقق، فصار الموكب كأنه للملك المنصور لا للظاهر، فوقع هذا من الناس موقعا عظيما، و رفعوا أصواتهم له بالدعاء و الابتهال لتواضعه فى حال غلبته و قهره له و كون المنصور معه كالأسير، و صارت القبّة و الطير على رأس الملك المنصور أيضا، و الخليفة أمامها و قضاة القضاة بين يدى الخليفة، و تناهبت العامّة الشّقق الحرير بعد دوس فرس السلطان عليها، من غير أن يمنعهم أحد، و كذلك لمّا نثر عليه الذهب و الفضّة تناهبتّه العامّة. و كانت عادة ذلك كلّه للجمداريّة، فقصد الظاهر بذلك زيادة التحبّب للعامّة، كونهم أظهروا المحبّة له فى غيبته، و قاموا مع المماليك، و صاروا مع مماليكه، و صار الملك الظاهر يعظّم الملك المنصور فى مشيه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١٢، ص: ۴

و خطابه، و يعامله كما يعامل الأمير سلطانه، إلى أن أدخله داره بالقلعة؛ ثم عاد الملك الظاهر إلى حيث نزل من القلعة، و تفرّغ عند ذلك لشأنه، و استدعى الخليفة و قضاة القضاة و الشيخ سراج الدين عمر البلقينىّ و الأمراء و أعيان الدولة، فجدّد عقد السلطنة له و تجديد التفويض الخليفتىّ، فشهد بذلك القضاة على الخليفة ثانيا و أفيضت التشاريف الخليفتيّة على السلطان بسلطنته، ثم أفيضت التشاريف السلطانية على الخليفة، و ركب السلطان الملك الظاهر من الإسطبل السلطانىّ من باب السلسلة بأبّهة السلطنة و شعار الملك، و طلع إلى القلعة و نزل إلى القصر، و جلس على تخت الملك، و دقت البشائر و عملت التهانى و الأفراح بالقلعة و فى دور الأمراء و أهل الدولة، و كان هذا اليوم من الأيام التى لم يقع مثلها إلا نادرا.

ثم قام السلطان و دخل إلى حرمه و إخوته، ففرشت له أيضا الشّقق الحرير و الشقق المذهّبة تحت رجليه، و نثر عليه الذهب و الفضة و لاقته التهانى من خارج باب السّتارة، ثم أصبح السلطان فى يوم الأربعاء؛ فأمر أن يكتب إلى ثغر الإسكندرية بالإفراج عن الأمراء المسجونين بها، و إحضارهم إلى الديار المصريّة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١٢، ص: ۵

ثم خلع السلطان على فخر الدين بن مكانس صاحب ديوان الجيش باستقراره فى وظيفته نظر الجيش عوضا عن القاضى جمال الدين محمود القيصرىّ العجمىّ بحكم توجّهه مع منطاش إلى دمشق، و خلع على الوزير موفّق الدين أبى الفرج و استقرّ به فى الوزارة، و نظر الخاصّ، و على ناصر الدين محمد بن آقبغا آص شادّ الدواوين باستمراره. و أنعم على الأمير بطا الطّولوتمرىّ الظاهرىّ بإمرة مائة و تقدمة ألف بالديار المصرية، و عيّن للدواداريّة الكبرى و أخلع على الأمير قرقماش الطشتمرىّ أستادارا.

ثم فى سابع عشر صفر قدم الأمراء من الإسكندرية إلى بر الجيزة، فباتوا به و عدّوا فى ثامن عشره و طلعوا إلى القلعة و هم سبعة عشر أميرا، أعظمهم الأتابك يلبغا الناصرىّ، الذى كان خرج على الملك الظاهر، و قبض عليه و حبسه بالكرك ثم الأمير ألطنبغا الجوبانىّ نائب الشام الذى كان قبض على الملك الظاهر برقوق من بيت أبى يزيد، و طلع به إلى القلعة نهارا، ثم الأمير الكبير قرادمرداش الأحمدىّ الذى كان الظاهر جعله أتابك العساكر بديار مصر، و أنعم عليه بثلاثين ألف دينار فتركه و توجّه إلى يلبغا الناصرى المقدّم ذكره، و الأمير ألطنبغا المعلّم أمير سلاح و هؤلاء الأربعة من أعيان اليلبغاويّة خشداشيّة الملك الظاهر برقوق، ثم الأمير أحمد بن يلبغا أمير مجلس الذى كان سببا لكسرة عسكر الملك الظاهر بدمشق بهرو به إلى الناصرىّ، و الأمير قردم الحسنىّ اليلبغاوىّ رأس نوبة النّوب و الأمير سودون باق أحد أمراء الألوف اليلبغاوية و الأمير سودون طرنطاى أحد الألوف أيضا و الأمير آقبغا الماردينىّ الأستادار أحد الألوف، و كشلى اليلبغاوىّ و بجاس النّوروزى

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۲، ص: ۶

کلاهما أیضا مقدّم ألف و مأمور القلمطاوی نائب حماة و الکرک و ألطنبغا الأشرفیّ أحد الألوف أیضا و یلبغا المنجکیّ و یونس العثمانیّ، فوقف الجمیع بین یدی الملک الظاهر برقوق و قبّلوا الأرض له، و هم فی غایة ما یکون من الخجل و الحیاء منه، بما تقدّم منهم فی حقّه، فرحّب بهم الملک الظاهر و طیّب خواطرهم و لم یذکر لهم ما فعلوه به و لا عتبهم عن شیء مما وقع منهم فی حقّه، بل أکرمهم غایة الإکرام بکلّ ما یمکن القدرة إلیه، ثم أمرهم بالنزول إلی بیوتهم، فنزل الجمیع و هم فی غایة السرور.

ثم فی یوم الاثنین العشرین من صفر جلس السلطان بالإیوان من القلعة المعروفة بدار العدل، و أخلع علی الأمیر سودون الفخریّ الشیخونیّ بنیابة السلطنة بالدیار المصریة علی عادته أوّلا، و علی الأمیر إینال الیوسفیّ الیلبغاوی باستقراره أتابک العساکر بالدیار المصریة، و علی الأمیر الکبیر یلبغا الناصری صاحب الوقعة باستقراره أمیر سلاح، و علی الأمیر ألطنبغا الجوبانیّ باستقراره رأس نوبة الأمراء و أطابکا و علی الأمیر کمشبغا الأشرفیّ الخاصکیّ باستقراره أمیر مجلس و علی الأمیر بطاالطّولوتمریّ الظاهریّ باستقراره دوادارا کبیرا، و هو الذی کان خرج من حبس القلعة و ملک باب السلسلة فی فتنة الملک الظاهر و علی الأمیر طوغان العمریّ باستقراره أمیر

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۲، ص: ۷

جاندار، و علی سودون النظامیّ باستقراره نائب قلعة الجبل، و نزل الجمیع بالخلع و تحتهم الخیول بالسروج الذهب و الکنابیش الزّرکش إلی دورهم، بعد أن خرجت الناس للفرجة علیهم، فکان یوما من الأیام المشهودة.

ثم فی یوم حادی عشرین صفر أخلع السلطان علی الأمیر بکلمش العلائیّ باستقراره أمیر آخور کبیرا، و سکن بالإصطبل السلطانیّ.

ثم فی یوم الخمیس ثالث عشرین صفر قرئ عهد السلطان الملک الظاهر برقوق بدار العدل، و خلع السلطان علی الخلیفة المتوکّل علی اللّه و أخلع علی القاضی علاء الدین علیّ بن عیسی المقیّریّ الکرکی کاتب سرّ الکرک فی کتابة سرّ مصر، لما تقدم له من الإیادی علی الظاهر فی القیام معه بالکرک، عوضا عن القاضی بدر الدین محمد ابن فضل اللّه بحکم توجّهه أیضا مع منطاش إلی دمشق.

ثم أخلع السلطان علی بیجاس السّودونیّ باستقراره فی نیابة صفد.

و فی سادس عشرینه قبض السلطان علی حسین بن الکورانیّ و أمر به فعذّب بأنواع العذاب.

و فیه قدم البرید علی السلطان من صفد بفرار الأمیر طغای تمر القبلاویّ من دمشق إلی حلب فی مائتین و واحد من المنطاشیة.

و فی سابع عشرین صفر استقرّ الأمیر محمود بن علی الأستادار کان باستقراره مشیر الدولة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۲، ص: ۸

و فی یوم الأربعاء تاسع عشرینه جلس السلطان الملک الظاهر بالمیدان من تحت القلعة للنظر فی أحوال الرعیة و الحکم بین الناس علی العادة، و استمرّ علی ذلک فی کلّ یوم أحد و أربعاء.

و فی ثامن عشر شهر ربیع الأوّل أخلع السلطان علی الشیخ محمد الرّکراکیّ المالکیّ باستقراره فی قضاء المالکیة بالدیار المصریة عوضا عن تاج الدین بهرام الدّمیریّ. و الرّکراکیّ هذا هو الذی کان امتنع من الکتابة علی الفتیا فی أمر الملک الظاهر برقوق لمّا کتب علیها البلقینیّ و غیره من القضاة و العلماء، و ضربه منطاش بسبب عدم کتابته. و حبسه إلی أن أطلقه بطا فیمن أطلق من سجن منطاش، فعرف له الظاهر ذلک و ولّاه قضاء المالکیة.

و فیه استقرّ سعد الدین أبو الفرج بن تاج الدین مرسی المعروف بابن کاتب السعدیّ باستقراره فی نظر الخاصّ عوضا عن الصاحب موفّق الدّین، و انفرد موفّق الدین بالوزر.

و فی خامس عشرین شهر ربیع الأوّل استقرّ الأمیر ألطنبغا الجوبانیّ رأس نوبة الأمراء فی نیابة الشام عوضا عن جنتمر أخی طاز بحکم انضمامه مع منطاش.

و استقرّ الأمير قرا دمرداش الأحمدىّ فى نيابة طرابلس و رسم لهما الملك الظاهر فى محاربة الأمير منطاش.

و فى يوم السبت أوّل شهر ربيع الآخر استقرّ الأمير مأمور القلمطاوىّ فى نيابة حماة و استقرّ أرغون العثمانىّ فى نيابة الإسكندرية، و آلابغا العثمانىّ حاجب حجّاب دمشق، و أسندمر السيفى حاجب حجّاب طرابلس

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١٢، ص: ٩

و فيه أيضا أنعم السلطان على كل من ألطنبغا الأشرفىّ و سودون باق و بجمان المحمّدىّ بإمرة مائة بدمشق و رسم لهم أن يخرجوا نوّاب البلاد الشامية.

و فى سابع عشر شهر ربيع الآخر المذكور استقرّ سعد الدين نصر اللّه بن البقرىّ فى الوزارة عوضا عن موفّق الدين أبى الفرج، و استقرّ الصاحب علم الدين سنّ إبرة فى نظر الدولة.

و فى رابع عشرينه قبض السلطان على الأمير سربغا الظاهرىّ و على الأمير أيدكار العمرىّ و على بكتمر الدوادار و على طشبغا الحسنىّ و قرابغا و أرغون الزّينىّ.

و فيه أيضا خلع السلطان على الأمير جلبان الكمشبغاوىّ الظاهرىّ المعروف بقراسقل باستقراره رأس نوبة النّوب بعد وفاة الأمير حسين قجا. كلّ ذلك و الأخبار ترد على السلطان بأن المنطاشيّة تدخل فى الطاعة شيئا بعد شىء و أن منطاشا فى إدبار.

و فيه أخلع السلطان على الأمير يلبغا الناصرىّ و استقرّ به مقدّم العساكر المتوجّهة لقتال منطاش، و ندبه للتوجّه صحبة النوّاب، و قال له: هو غريمك، اعرف كيف تقاتله. و جعل إليه مرجع العسكر جميعه.

و فيه أيضا خلع على نوّاب الشام خلع السّفر. و أنعم السلطان على جماعة كبيرة من مماليكه و غيرهم بإمريات بالبلاد الشامية، و رسم أيضا لجماعة من أمراء مصر بالسفر صحبة الأمير يلبغا الناصرىّ لقتال منطاش.

و فى عاشر جمادى الأولى برزت أطلاب النّوّاب و الأمراء إلى الرّيدانية خارج القاهرة، هذا بعد دخول الأمير قطلوبغا الصّفوى فى طاعة السلطان و حضوره إلى الديار المصرية بمن معه، كما سيأتى ذكره.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١٢، ص: ١٠

و كان من خبر قطلوبغا الصّفوىّ أن منطاشا جهّزه على تجريدة من دمشق لمحاصرة مدينة صفد، فلما قارب قطلوبغا صفد، دخل هو و جميع من معه فى طاعة السلطان.

ثم قدم قطلوبغا المذكور بمن معه فى ثالث عشر جمادى المذكورة، و كان لقدومه يوم مشهود. و عند دخوله إلى القاهرة قدم البريد فى إثره بأن منطاشا لمّا بلغه مخامرة الصفوىّ بمن معه، قبض على الأمير جنتمر أخى طاز نائب الشام و هو أعظم أصحابه و على ولده و على أستاداره ألطنبغا و على الأمير أحمد بن خوجى و على الأمير أحمد بن قجق و على كمشبغا المنجكىّ نائب بعلبك و على القاضى شهاب الدين أحمد بن عمر القرشىّ الشافعىّ قاضى دمشق و على عدّة من الأمراء و الأعيان؛ هذا و مجىء المنطاشية يتداول إلى مصر شيئا بعد شئ.

و فى تاسع عشرينه استقرّ الأمير محمود بن علىّ الأستادار أستادارا على عادته عوضا عن الأمير قرقماس الطشتمرىّ بعد وفاته.

هذا و القتال عمّال بالبلاد الشامية فى كلّ قليل بين عسكر منطاش و عساكر السلطان.

ثم قدم البريد بأن منطاشا أخذ بعلبك بعد ما حاصرها محمد بن بيدمر نحو أربعة أشهر و أنه وسّط ابن الحنش و أربعة نفر معه.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١٢، ص: ١١

و فى سابع عشر جمادى الآخرة قدم البريد بأن منطاشا لمّا بلغه قدوم العساكر لقتاله برز من دمشق و أقام بقبة يلبغا أياما، ثم رحل نصف ليلة الأحد ثالث عشر جمادى الآخرة بخواصّه، و هم نحو ستمائة فارس و معه نحو سبعين حملا ما بين ذهب و فضة، و توجّه نحو قارا و النّبك، بعد أن قتل جماعة من المماليك الظاهرية و قتل الأمير ناصر الدين محمد بن المهمندار نائب؟؟؟ اة كان و أنّ

الأمير الكبير أيتمش خرج من سجنه بقلعة دمشق، و أفرج عمن كان محبوسا بها، و ملك القلعة و أرسل إلى النوّاب يعلمهم بذلك. فلمّا سمع النوّاب ذلك ساروا إلى دمشق و ملكوها من غير قتال، فسرّ السلطان بذلك سرورا عظيما و دقت البشائر و نودى بالقاهرة و مصر بالزينة.

و فى سابع عشر جمادى الآخرة المذكور، قدم البريد من دمشق بثلاثة عشر سيفا من سيوف الأمراء المنطاشية الذين قبض عليهم بدمشق.

ثم فى حادى عشرينه قدم البريد أيضا بثمانية سيوف أيضا من المنطاشية، ثم قدم البريد بسبعة سيوف أخر، منهم سيف الأمير ألطنبغا الحلبيّ و سيف دمرداش اليوسفيّ.

و فى ثالث عشرينه قدم البريد بأن الأمير نعير بن حيّار قبض على الأمير منطاش فدقّت البشائر لذلك، ثم تبيّن كذب الخبر.

و فى سابع عشرينه حضر الأمراء المقبوض عليهم من المنطاشية بدمشق.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج١٢، ص: ١٢

و فى يوم الخميس ثانى شهر رجب قدم القاضى عماد الدين أحمد بن عيسى المقيّرىّ قاضى الكرك إلى القاهرة، بعد أن خرج الأعيان إلى لقائه و طلع إلى القلعة فلمّا وقع بصر السلطان عليه قام له، و مشى لتلقّيه خطوات، و عانقه و أجلسه بجانبه و حادثه ساعة، ثم قام و نزل إلى داره؛ كلّ ذلك لما كان له على السلطان أيام حبسه بالكرك من الخدم.

و فى ثانى عشر شهر رجب حضر من دمشق القاضى بدر الدين محمد بن فضل اللّه كاتب السر و القاضى جمال الدين محمود العجمىّ ناظر الجيش و نزلا فى بيوتهما من غير أن يجتمعا بالسلطان لتوغّر خاطر السلطان عليهما لكونهما توجّها إلى دمشق صحبة منطاش.

و فى ثالث عشره أخلع السلطان على القاضى عماد الدين الكركىّ المقدّم ذكره باستقراره قاضى قضاة الديار المصرية عوضا عن القاضى بدر الدين محمد بن أبى البقاء، فصار عماد الدين هذا قاضى قضاة مصر و أخوه علاء الدين المقدّم ذكره كاتب سرّ مصر.

ثم قدم الخبر على السلطان من حلب بأن الأمير كمشبغا الحموى نائب حلب لمّا انهزم و توجّه إلى حلب جهّز إليه منطاش من دمشق بعد عود الملك الظاهر إلى مصر عسكرا عليه الأمير تمان تمر الأشرفى، فوصل تمان تمر المذكور إلى حلب و اجتمع به أهل بانقوسا، و قاتلوا كمشبغا المذكور و حصروه بقلعة حلب نحو أربعة أشهر و نصف، و أحرقوا الباب و الجسر، و نقبوا القلعة من ثلاثة مواضع، فنقب كمشبغا على أحد النّقوب من أعلاه، و رمى على من به من فوق بالمكاحل و اختطفهم

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج١٢، ص: ١٣

بكلاليب الحديد، و صار يقاتلهم من النقب فوق السبعين يوما و هو فى ضوء الشموع بحيث إنه لا ينظر شمسا و لا قمرا و لا يعرف الليل من النهار، و قاسى شدائد و محنّا، و دام ذلك عليه إلى أن بلغ تمان تمر المذكور فرار منطاش من دمشق فضعف أمره، فثار عليه أهل بانقوسا و نهبوه، فحضر حاجب حجّاب حلب إلى الأمير كمشبغا و أعلمه بذلك، فعمّر كمشبغا الجسر فى يوم واحد، و نزل و قاتل أهل بانقوسا يومين، و قد أقاموا عليهم رجلا يعرف بأحمد بن الحرامىّ؟ فلمّا كان اليوم الثالث وقت العصر انكسر أحمد بن الحرامىّ المذكور و قبض كمشبغا عليه و على أخيه و على نحو الثمانمائة من الأتراك و الأمراء و البانقوسية، فوسّطهم كمشبغا بأجمعهم و ضرب بانقوسا حتى صارت دكّا، و نهب جميع ما فيها. ثمّ إن الكتاب يتضمّن أيضا أن كمشبغا بالغ فى تحصين قلعة حلب و عمارتها و أعدّ بها مؤونة عشر سنين، و أنه جمع من أهل حلب مبلغ ألف ألف درهم، و عمّر سور مدينة حلب و كان منذ خرّبه هولاكو خرابا، فجاء فى غاية الحسن، و عمل له بابين و فرغه فى نحو الشهرين و نصف، و كان أكثر أهل حلب يعمل فيه و أن الأمير شهاب الدين أحمد بن المهمندار و الأمير طغجى نائب دوركى كان لهما قيام تام مع الأمير كمشبغا فى هذه الوقعة. انتهى.

قلت: يقال: إنه قتل فى واقعة كمشبغا مع الحلبيين بحلب نحو العشرين ألفا من الفريقين. ثم أشبع بالقاهرة أن الأمير بطا الطولوتمرى الدوادار يريد إثارة فتنة، فتحرّز الأمراء و اعتدّوا للحرب إلى أن كان يوم الاثنين عشرينه جلس السلطان بدار العدل على العادة، ثم

توجّه إلی القصر و معه الأمراء فتقدّم الأمیر

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۱۴

بطا إلی السلطان و قال للسلطان: قد سمعت ما قیل عنی و هأنا. و حلّ سیفه و عمل فی عنقه مندیلا، فسأل السلطان الأمراء عما ذکره الأمیر بطا و أظهر أنه لم یسمع شیئا من ذلک، فذکر الأمراء أن الأمیر کمشبغا رأس نوبة تنافس مع الأمیر بکلمش العلائی أمیر آخور.

ثم وقع بین الأمیر بطا و محمود الأستادار مخاشنة فی اللفظ، فأشاع الناس ما أشاعوه فجمعهم السلطان و أصلح بینهم.

ثم حلّفهم علی طاعته و حلّف الممالیک أیضا، و طیّب خواطر الجمیع بلین کلامه و دهائه؛ و فی النفس من ذلک شیء.

ثم أحضر السلطان مملوکا اتّهم أنه هو الذی أشاع الفتنة، فضرب ضربا مبرّحا و سمّر علی جمل و شهّر، ثم سجن بخزانة شمائل، فلم یعرف له خبر بعد ذلک، و هو من الممالیک الظاهریة.

ثم قبض السلطان علی الأمیر یلبغا أحد أمراء العشرات، و سمّر و نودی علیه: هذا جزاء من یرمی الفتن بین الأمراء. و سکنت الفتنة بعد أن کادت أن تثور. و بینما السلطان فی ذلک وصل إلیه الخبر من الشام بأن منطاشا و نعیر بن حیّاز جمعوا جمعا کبیرا من الممالیک الأشرفیة و الترکمان و العربان و قصدوا النوّاب، و الأمیر یلبغا الناصریّ مقدّم العساکر، فلمّا بلغ الناصریّ ذلک خرج بالعساکر هو و الأمیر ألطنبغا الجوبانیّ نائب

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۱۵

الشام و غیره من دمشق و نزل بسلمیة، و خلّفوا الأمیر الکبیر أیتمش البجاسی بدمشق لحفظها، فثار علی أیتمش المذکور بدمشق بعد خروج العسکر منها جماعة من الممالیک البیدمریّة و الطازیّة و الجنتمریّة فی طوائف من العامّة یریدون أخذ مدینة دمشق من أیتمش، فأرسل أیتمش بطاقة من قلعة دمشق إلی سلمیة، یعلم الأمراء و النوّاب بذلک، فحالما سمع الناصریّ الخبر رکب لیلا فی طائفة من عسکره و قدم دمشق و معه الأمیر آلابغا العثمانیّ حاجب حجّاب دمشق، و قاتل المذکورین قتالا شدیدا، قتل بینهما خلائق کثیرة من العامّة و الأتراک، حتی انتصر الناصریّ و قبض علی جماعة منهم و وسّطهم تحت قلعة دمشق، و قبض أیضا علی جماعة کثیرة فقطع أیدیهم و هم: نحو سبعمائة رجل، قاله الشیخ تقیّ الدین المقریزیّ- سامحه اللّه- و حبس جماعة أخر. ثم عاد الناصری إلی سلمیة بعد أن مهّد أمر الشام و اجتمع مع أصحابه النوّاب، فذکروا له أنّ منطاشا فرّق أصحابه ثلاث فرق، فأشار علیهم الناصریّ بأنه أیضا یفرّق أصحابه و عساکره، فتفرّقوا هم أیضا ثلاث فرق: الناصریّ فرقة، و الجوبانیّ فرقة، و قرادمرداش نائب طرابلس فرقة.

فأما الناصریّ، فإنه تولّی قتال نعیر بن حیّار، فحاربه و کسره أقبح کسرة، و قتل جمعا کبیرا من عربانه؛ علی أن نعیرا کان من أصحاب الناصریّ قبل ذلک، و ممن خرج علی منطاش غضبا للناصریّ، و رکب الناصریّ قفا نعیر إلی منازله.

و أما الأمیر قرا دمرداش الأحمدیّ نائب طرابلس فانتدب لقتال منطاش، فإنه کان بینهما عداوة قدیمة، فتواقعا و تقاتلا قتالا شدیدا، برز فیه کلّ من منطاش و قرا دمرداش لصاحبه، و ضرب کلّ مهما الآخر بسیفه، فجاءت ضربة منطاش

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۱۶

فی ید قرا دمرداش، فقلعت عدّة أصابع من أصابعه، و جاءت ضربة قرا دمرداش فی کتف منطاش فحلّته، هذا و الحوبانیّ فی القلب واقف بعساکره، فخامرت جماعة من الأشرفیة من خجداشیة منطاش و جاءت إلیه، و صارت من عسکره، و کان حضر إلی الجوبانیّ قبل ذلک جماعة أخر من الممالیک الأشرفیة، فأحسن إلیهم ألطنبغا الجوبانیّ و قرّبهم و جعلهم من خواصّ عسکره، فاتفقوا مع بعض ممالیک الجوبانیّ علی قتل الجوبانیّ، فلما کان وقت الوقعة، و قد التحم القتال بین الناصریّ و نعیر و بین قرا دمرداش و منطاش وثبوا علیه من خلفه و قتلوه بالسیوف، ثم قبضوا علی الأمیر مأمور القلمطاویّ نائب حماة و وسّطوه، ثم قتلوا الأمیر آقبغا الجوهریّ و الثلاثة من عظماء الممالیک الیلبغاویة خجداشیة الملک الظاهر برقوق و أکابر أمرائه، ثم قتلوا عدّة أمراء أخر من الیلبغاویة و کانت هذه الوقعة من أعظم الملاحم، قتل فیها من الفریقین عالم لا یحصی کثرة و انتهبت العربان و الترکمان و العشیر ما کان مع العسکرین، و

قدم البريد بذلك على السلطان، فشقّ عليه قتل الأمراء إلى الغاية، و أخبر البريد أيضا أنّ منطاش لمّا انكسر من قرا دمرداش و هو مجروح أشيع موته، فأقام الأشرفية عوضه عليهم خجداشهم الأمير ألطنبغا الأشرفىّ، فلما حضر منطاش من الغد غضب من ذلك و أراد قتل ألطنبغا الأشرفىّ فلم تمكّنه الأشرفية من ذلك.

و أما يلبغا الناصرىّ فإنه لما رجع من محاربة نعير و وجد الأمير ألطنبغا الجوبانى قد قتل، جمع العساكر و عاد إلى دمشق و أقام به يومين حتى أصلح أمره، ثم خرج من دمشق بجميع العساكر و أغار على آل علىّ، فوسّط منهم جماعة كبيرة نحو مائتى نفس و نهب بيوتهم و كثيرا من جمالهم، و عاد إلى دمشق و كتب للسلطان أيضا بذلك،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١٢، ص: ١٧

فكتب السلطان للناصرىّ الجواب بالشكر و الثناء و التأسف على الأمير ألطنبغا الجوبانىّ و غيره و أرسل إليه الأمير أبا يزيد بن مراد بالتقليد و التشريف بنيابة الشام عوصا عن ألطنبغا الجوبانىّ و مبلغ عشرين ألف دينار برسم النفقة فى العساكر.

قلت: و أبو يزيد هذا هو الذى كان اختفى عنده الملك الظاهر برقوق لمّا خلع نفسه عند حضور الناصرىّ و منطاش إلى الديار المصرية.

ثم فى يوم الخميس أوّل ذى الحجة من سنة اثنتين و تسعين المذكورة، رسم السلطان للأمير قرا دمرداش الأحمدىّ نائب طرابلس باستقراره فى نيابة حلب عوضا عن الأمير كمشبغا الحموىّ بحكم عزله و قدومه إلى القاهرة و جهّز إليه التقليد و التشريف على يد الأمير تنبك المعروف بتنم الحسنىّ الظاهرىّ.

ثم فى خامس ذى الحجّة استقرّ السلطان بالأمير إينال من خجا أتابك حلب باستقراره فى نيابة طرابلس عوضا عن الأمير قرا دمرداش المنتقل لنيابة حلب، و استقرّ الأمير آقبغا الجمالىّ الظاهرىّ أتابك حلب عوضا عن إينال المذكور و استقر الأمير محمد بن سلّار حاجب حجّاب حلب و كتب لسولى بن دلغادر بنيابة أبلستين.

ثم فى يوم عيد النحر خرج الأمير بيليك المحمدىّ لإحضار الأمير كمشبغا الحموىّ اليلبغاوىّ نائب حلب، ثم أرسل السلطان الملك الظاهر الأمير تمربغا المنجكىّ بمال كبير ينفقه فى العساكر الشاميّة و يجهّزهم إلى عينتاب لقتال منطاش.

ثم فى سادس محرّم سنة ثلاث و تسعين و سبعمائة ورد الخبر من دمشق بأن الأمير يلبغا الناصرىّ تنافس هو و الأمير الكبير أيتمش البجاسىّ فأضمر الناصرىّ الخروج

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١٢، ص: ١٨

عن الطاعة و لبس السلاح و ألبس حاشيته و نادى بدمشق من كان من جهة منطاش فليحضر، فصار إليه نحو ألف و مائتى فارس من المنطاشيّة، فقبض على الجميع و سجنهم، ثم قلع السلاح و كتب بذلك إلى السلطان يعرّفه، فأجابه السلطان بالشكر و الثناء.

ثم فى ثانى صفر رسم السلطان بهدم سلالم مدرسة السلطان حسن فهدمت و فتح بابها من شباك بالرّميلة تجاه باب السلسلة.

ثم قدم الأمير كمشبغا الحموىّ نائب حلب إلى القاهرة فى سابع صفر، بعد أن خرج الأمير سودون النائب مع أعيان الأمراء و الحجّاب إلى لقائه و طلع إلى القلعة و قبّل الأرض، فقام له السلطان و اعتنقه و أجلسه فى الميمنة فوق الأمير الكبير إينال اليوسفىّ و نزل إلى دار أعدّت له، و بعث له السلطان ثلاثة أرؤس من الخيل بقماش ذهب و حضر مع كمشبغا أيضا الأمير حسام الدين حسن الكجكنىّ نائب الكرك و كان قد انهزم مع كمشبغا نائب حلب من يوم وقعة شقحب، فرحّب السلطان به أيضا و أكرمه و أرسل إليه فرسا بقماش ذهب و قدم معهما أيضا عدّة أمراء أخر.

ثم قدم البريد فى أثناء ذلك بأن العساكر الشامية وصلت إلى مدينة عينتاب ففرّ منطاش إلى جهة مرعش و فرّ من عنده جماعة كبيرة و دخلوا تحت طاعة السلطان.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١٢، ص: ١٩

ثم أحضر السلطان الأمير حسام الدين حسن بن باكيش نائب غزّة من السجن و ضربه بالمقارع و أحضر أيضا آقبغا الماردينىّ نائب الوجه القبلى و ضربه على أكتافه و أمر والى القاهرة بتخليص حقوق الناس منه و استقرّ عوضه فى كشف الوجه القبلىّ الأمير يلبغا الأحمدىّ المجنون أحد المماليك الظاهرية.

ثم فى تاسع عشرينه أحضر السلطان القاضى شهاب الدين أحمد بن الجبّال الحنبلىّ قاضى طرابلس فضرب بين يديه عدّة عصىّ بسبب قيامه مع منطاش.

ثم أنعم السلطان على الأمير حسام الدين الكجكنى نائب الكرك كان بإقطاع أرغون العثمانىّ البجمقدار نائب الإسكندرية و الإقطاع تقدمة ألف بالقاهرة.

ثم خرج البريد من مصر بإحضار الأمير أيتمش البجاسىّ من دمشق و كان بها من يوم قبض عليه الناصرىّ فى واقعة الناصرىّ و منطاش مع الملك الظّاهر برقوق و حبس بقلعة دمشق إلى أن أطلق بعد خروج منطاش من دمشق و استمرّ بدمشق لمصالح الملك الظاهر حتى طلب فى هذا التاريخ و خرج بطلبه الأمير قنق باى الأحمدىّ رأس نوبة، فقدم فى يوم الاثنين رابع جمادى الأولى على البريد، فتلقّاه الأمير سودون النائب و الحجّاب و قدم مع أيتمش المذكور عدّة أمراء، منهم:

آلابغا العثمانىّ حاجب حجّاب دمشق و الأمير أيتمش المذكور و الأمير جنتمر أخو طاز نائب دمشق كان و أمير ملك ابن أخت جنتمر و دمرداش اليوسفىّ و ألطنبغا الحلبىّ و كثير من المماليك السلطانية و جماعة أخر و الجميع فى الحديد على ما يأتى ذكرهم، ما خلا المماليك الظاهريّة و طلع الأمير أيتمش إلى السلطان و قبّل الأرض فأكرمه السلطان و أجلسه فى الميسرة تحت الأمير سودون النائب و كانت منزلته فى الميمنة، فإنّه كان أتابك العساكر بالديار المصرية قبل توجّهه إلى قتال الناصرىّ، لكنه لمّا حضر الآن كان بطّالا و كان الأتابك يومئذ الأمير إينال

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۲۰

اليوسفىّ اليلبغاوىّ، على أنه يجلس تحت الأمير الكبير كمشبغا الحموىّ نائب حلب كان، فلو جلس الأمير أيتمش الآن فى الميمنة لجلس ثالثا، فإنّه لا يمكنه الجلوس، فوقف إينال كونه متولّيا أتابك العساكر و أيتمش الآن منفصل، فرسم له السلطان أن يجلس فى الميسرة و لم يجسر أن يأمره بالجلوس فوقه لكبر سنّه و قدمته، فجلس تحته.

قلت: و هذا شأن الدنيا، الرفع و الخفض، ثم أحضر السلطان الأمراء القادمين صحبة الأمير الكبير أيتمش و عدّتهم ستة و ثلاثون أميرا و معهم أيضا قاضى القضاة شهاب الدين أحمد بن عمر القرشىّ الشافعىّ قاضى قضاة دمشق و القاضى فتح الدين محمد بن محمد بن أبى بكر بن إبراهيم بن الشهيد كاتب سرّ دمشق و ابن شكر ناظر جيش دمشق و الجميع فى القيود، فونّج السلطان ألطنبغا الحلبىّ و جنتمر نائب الشام و ابن القرشىّ و أطال الحديث معهم و كانوا قابلوه فى محاربته لدمشق بأشياء قبيحة إلى الغاية و أفحشوا فى أمره إفحاشا زائدا، بحيث إنّ القاضى شهاب الدين القرشىّ المذكور كان يقف على سور دمشق و ينادى: إن قتال برقوق أوجب من صلاة الجمعة و كان يجمع عوامّ دمشق و يحرّضهم على قتاله و يرمى الملك الظاهر بعظائم فى دينه و يختلق عليه ما ليس هو فيه.

ثم أمر بهم الملك الظاهر فسجنوا و أسلم ابن شكر لشادّ الدواوين، فعصره و الزمه بحمل ستة آلاف دينار ثم أفرج عنه. و لما نزل الأمير أيتمش إلى داره بعث إليه السلطان بأشياء كثيرة من الخيل و الجمال و القماش و المماليك، ثم قبض السلطان على أسندمر و إسماعيل التّركمانىّ و كزل القرمىّ و آقبغا البجاسىّ و سربغا و سلّمهم إلى والى القاهرة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۲۱

ثم قبض السلطان أيضا على أحد عشر أميرا و هم: قطلوبغا الطّشتمرىّ الحاجب و طقطاى الطّشتمرىّ الطواشى الرومىّ و آلابغا الطشتمرىّ و قرابغا السيفىّ و آقبغا السيفىّ و بيبغا السيفىّ و طيبغا السيفىّ و محمد بن بيدمر أتابك دمشق و خير بك الخوارزمىّ و منجك الزّينىّ و أرغون شاه السيفىّ و حبسهم و رسم بتسمير أسندمر الشّرفىّ رأس نوبة و آقبغا الظّريف البجاسىّ و إسماعيل

التّركمانیّ و كزل القرمیّ و سربغا، فسمّروا و شهّروا بالقاهرة. ثم وسّطوا بالكوم و هذا شیء لم یفعله ملك قبله بأمیر، ففعل ذلك لما كان فی نفسه منهم.

ثم أحضر السلطان الأمیر ألطنبغا الحلبیّ و ألطنبغا أستادار جنتمر إلی مجلس قاضی القضاة شمس الدین الرّكراكیّ المالكیّ و ادّعی علیهما بما یقتضی القتل فسجنهما القاضی بخزانة شمائل مقیّدین.

ثم قبض السلطان علی الأمیر سنجق الحسنیّ نائب طرابلس كان، ثم شكا رجل القاضی شهاب الدین القرشیّ إلی السلطان فأحضره السلطان من السجن و ادّعی علیه غریمه بمال له فی قبله و بدعاوی شنیعة، فأمر به السلطان فضرب بالمقارع و سلّم إلی والی القاهرة لیخلّص منه مال المدّعی علیه، فضربه الوالی و أهانه و عصره مرارا ثم سجنه بخزانة شمائل.

ثم وقف شخص و ادّعی أن أمیر ملك ابن أخت جنتمر أخذ له ستمائة ألف درهم و أغری به منطاش، حتّی ضربه بالمقارع، فأحضره السلطان حتّی سمع

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۲۲

الدّعوی. ثم أمر به فضرب بالمقارع ضربا مبرّحا و سلّمه إلی والی القاهرة، فمات بعد ثلاثة أیام تحت العقوبة.

ثم قبض السلطان علی ممالیك الأمیر بركة الجوبانیّ و الممالیك الذین خدموا عند منطاش و تتبعوا من الأماكن، ثم ضرب والی القاهرة القاضی شهاب الدین أحمد القرشی نحو مائتی شیب.

ثم قدم البرید من الشام بأن منطاشا فی أوّل شهر رجب قدم دمشق و كان من خبر منطاش أنّ الناصریّ لمّا كان بدمشق ورد علیه الخبر بمجیء منطاش إلیه فخرج من وقته بعساكره یرید لقاءه علی حین غفلة و مرّ من طریق الزّبدانیّ، فبادر أحمد بن شكر بجماعة البیدمریة و دخل دمشق من باب كیسان و نهب إسطبل الناصریّ و إسطبلات أمراء دمشق و خرج یوم الأحد تاسع عشرین جمادی الآخرة من دمشق لیلحق منطاش، فدخل منطاش من صبیحة الیوم و هو یوم الاثنین أوّل رجب إلی دمشق من طریق آخر و نزل بالقصر الأبلق و نزل جماعته حوله، فعاد ابن شكر فی إثره إلی دمشق و أحضر إلیه الخیول التی أخذها و هی نحو ثمانمائة فرس

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۲۳

و كان منطاش لمّا خرج من عند نعیر یرید دمشق، سار إلی مرعش علی العمق حتی قدم علی حماة فطرق نائبها بغتة فانهزم نائب حماة إلی نحو طرابلس من غیر قتال، فدخل منطاش حماة و لم تحدث بها مظلمة.

ثم توجّه منها إلی حمص ففرّ منها أیضا نائبها إلی دمشق و معه نائب بعلبك و اجتمعا بالناصریّ و عرّفاه الخبر، فخرج الناصریّ علی الفور- كما قدمنا ذكره- من طریق و جاء منطاش من طریق آخر. انتهی.

ثم إن منطاشا لما أقام بالقصر الأبلق ندب أحمد بن شكر المذكور لیدخل إلی مدینة دمشق و یأخذ من أسواقها المال، فبینما هو فی ذلك إذ قدم الناصری بعساكره فاقتتلا- قتالا عظیما دام بینهم أیاما إلی أواخر الشهر، و قتل كثیر من الفریقین و الأكثر ممن كان مع منطاش و فرّ عن منطاش معظم التركمان الذین قدموا معه شیئا بعد شیء، و صار منطاش محصورا بالقصر الأبلق و القتال عمّال بینهم فی كل یوم، حتی وجد منطاش له فرصة، ففرّ إلی جهة التركمان و تبعه عساكر دمشق فلم یدركه أحد، فعظم هذا الخبر علی الملك الظاهر برقوق إلی الغایة و اتّهم الناس الناصریّ بالتراخی فی قتال منطاش.

ثم إن الملك الظاهر خلع علی الأمیر قطلوبغا الصوىّ باستقراره حاجب الحجّاب بدیار مصر و علی الأمیر بتخاص باستقراره حاجب میسرة و علی الأمیر قدید

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۲۴

باستقراره حاجبا ثالثا بإمرة طبلخاناه و علی الأمیر علی باشاه باستقراره حاجبا رابعا و خلع علی الأمیر یلبغا الأشقر الأمیر آخور باستقراره فی نیابة غزة عوضا عن آقبغا الصغیر بحكم طلبه إلی القاهرة و علی ناصر الدین محمد بن شهری فی نیابة ملطیة ثم خلع السلطان علی

الأمير أرغون شاه الإبراهيمیّ الظاهریّ الخازندار، باستقراره حاجب حجاب دمشق عوضا عن آلابغا العثمانیّ و استقر آلابغا العثمانی المذكور فی نيابة حماة.

قلت: و كلّ من نذكره من هذا الوقت و ننعته بالظاهریّ فهو منسوب إلی الملک الظاهر برقوق و لا حاجة للتعريف بعد ذلک. ثم أنعم السلطان علی كلّ من قاسم ابن الأمير الكبير كمشبغا الحموی و لاجين الناصریّ و سودون العثمانیّ النظامیّ و أرغون شاه الآقبغاویّ و سودون من باشاه الطغای تمریّ و شكربای العثمانی الظاهریّ و قجق القرمشیّ الظاهریّ بإمرة طبلخاناه و علی كل من قطلوبغا الطّقتمشیّ و عبد اللّه أمير زاه ابن ملک الكرج و كزل الناصریّ

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۲۵

و علّان اليحياویّ الظاهریّ و كمشبغا الإسماعيلیّ الظاهریّ و قلمطای العثمانیّ الظاهریّ بإمرة عشرة.

ثم فی تاسع شهر رجب ضرب القاضی شهاب الدين القرشیّ قاضی قضاة دمشق بخزانة شمائل، حتی مات تحت العقوبة من ليلته و أخرج علی وقف الطّرحی.

ثم فی خامس عشر رجب اجتمع القضاة و الأمير بتخاص الحاجب بالمدرسة الصالحية بين القصرين و أحضر الأمير ألطنبغا دوادار جنتمر و أوقف تحت الشّباک عند خيمة الغلمان علی الطريق و ادّعی عليه بما اقتضی إراقة دمه و شهد عليه و ضربت رقبته، ثم فعل بالأمير ألطنبغا الحلبیّ مثله و حملت رءوسهما علی رمحين و نودی عليهما بشوارع القاهرة.

ثم رسم السلطان فی أوّل شعبان بخروج تجريدة من الأمراء إلی الشام لتكون معاونة للناصریّ علی قتال منطاش، فأخذ من عيّن للسفر فی التجهيز، ثم أشيع سفر السلطان بنفسه و أخذ أرباب الدولة فی إصلاح أمر السفر.

ثم فی خامس شعبان قتل السلطان الأمير حسام الدين حسن بن باكيش نائب غزّة كان، و سببه أنّه لمّا عوقب و استمرّ محبوسا بخزانة شمائل جمع ولده كثيرا من العشير و نهب الرملة و قتل كثيرا من الناس، فلما بلغ السلطان ذلک أمر بقتله فقتل

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۲۶

ثم ضرب السلطان الأمير حسام الدين حسين بن علیّ الكورانیّ فی سجنه بخزانة شمائل بالمقارع ضربا مبرّحا.

ثم فی عاشر شعبان علّق السلطان جاليش السفر إلی بلاد الشام فتحقّق كلّ أحد عند ذلک بسفر السلطان و أصبح من الغد و هو يوم حادی عشر شعبان تسلّم الأمير علاء الدين علیّ بن الطّبلاویّ والی القاهرة الأمير صرای تمر دوادار منطاش الذی كان والی الغيبة بديار مصر و كان سكن بباب السلسلة و الأمير تكا الأشرفیّ و دمرداش القشتمریّ و دمرداش اليوسفی و عليّا الجركتمریّ، فقتلوا جميعا إلّا عليّا الجركتمریّ فإنّه عصر و عوقب، ثم قتل بعد ذلک مع الأمير قطلوبغا النظامیّ نائب صفد.

ثم فی ثانی عشره عرض السلطان المحابيس من المنطاشية فأفرد [منهم] جماعة كبيرة للقتل فقتلوا فی ليلة الأحد ثالث عشره، منهم الأمير جنتمر أخو طاز نائب الشام و الأمير ألطنبغا الجربغاویّ و الطواشی طقطای الطّشتمریّ الرومیّ و القاضی فتح الدين محمد بن الشهيد كاتب سر دمشق، ضربت أعناقهم بالصحراء.

ثم خلع السلطان فی يوم خامس عشر شعبان علی القاضی جمال الدين محمود القيصریّ العجمیّ و أعيد إلی قضاء القضاة الحنفية بالديار المصرية و صرف قاضی القضاة مجد الدين إسماعيل و نزل فی موكب جليل و كتب له فی توقيعه الجناب العالی،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۲۷

كما كتب للقاضی عماد الدين أحمد الكركیّ و كان سبب كتابة ذلک لعماد الدين إيادی سلفت له علی الملک الظاهر برقوق فی أيام حبسه فی الكرک و أيضا اعتنی به أخوه القاضی علاء الدين علی الكركیّ كاتب السر الشريف و هو أوّل من كتب له: الجناب العالی من المتعمّمين و ما كان يكتب ذلک إلا للوزير بديار مصر فقط و كان يكتب للقضاة بالمجلس العالی.

ثم فی ثامن عشر شعبان المذكور قبض السلطان علی عدّة من الأمراء فسجنوا بالقلعة، فكان ذلک آخر العهد بهم.

و فيه عيّن السلطان لنيابة الغيبة الأمير كمشبغا الحموىّ اليلبغاوىّ و رسم للأمير سودون الفخرىّ الشيخونىّ النائب أن يتحوّل إلى قلعة الجبل، فتحوّل إليها هو و الأمير بجاس النّوروزىّ و رسم السلطان بأن يقيم بالقلعة أيضا ستمائة مملوك و أميرهم تغرى بردى اليشبغاوى الظاهرىّ رأس نوبة، أعنى: (الوالد) و الأمير الطواشى صواب السعدىّ شنكل مقدّم المماليك السلطانية و تعيّن للإقامة بالقاهرة من الأمراء الأمير قطلوبغا الصّفوى حاجب الحجّاب و الأمير بتخاص السّودونىّ الحاجب الثانى و الأمير قديد القلمطاوىّ الحاجب الثالث و أحد أمراء الطبلخاناه و الأمير طغاى تمر باشاه الحاجب و قرابغا الحاجب فى عدة من الأمراء العشرات.

و رسم للشيخ سراج الدين عمر البلقينىّ و قاضى القضاة بدر الدين بن أبى البقاء و هو غير قاض و القاضى بدر الدين محمد بن فضل اللّه [العمرى] المعزول عن كتابة السرّ و قضاة العسكر و مفتى دار العدل بالسفر صحبة السلطان من جملة القضاة الأربعة فتجهّزوا لذلك.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۲۸

و نزل السلطان بعد صلاة الظهر فى يوم الثلاثاء ثانى عشرين شعبان المذكور من قلعة الجبل و توجّه حتى نزل بالرّيدانية خارج القاهرة و أقام به، ثم طلب من الغد سائر المسجونين بخزانة شمائل إلى الريدانية، فحضروا و عرضوا على السلطان، فأفرد منهم سبعة و ثلاثين رجلا، فأمر بثلاثة منهم فغرّقوا فى النيل: و هم محمد بن الحسام أستادار أرغون أسكى و أحمد بن النقوعىّ و مقبل الصّفوى و سمّر منهم سبعة و هم: شيخ الكريمى و أسندمر نائب قلعة الجبل و ثلاثة من أمراء الشام و اثنان من التّركمان، ثمّ وسّطوا، ثمّ قتل من بقى منهم فى السجن.

ثمّ فى رابع عشر منه استقر ناصر الدين محمد بن كلبك شاد الدواوين، و أنعم على الأمير أبى بكر بن سنقر الجمالى بإمرة طبلخاناه و رسم له بإمرة الحاج.

ثم رحل السلطان الملك الظاهر بعساكره من الريدانية فى سادس عشرين شعبان سنة ثلاث و تسعين و سبعمائة و بعد سفر السلطان من الرّيدانيّة قتل والى القاهرة اثنى عشر أميرا من الأمراء المسجونين بالقاهرة فى ليلة الثلاثاء، و هم:

أرغون شاه السّيفى و آلابغا الطشتمرىّ و آقبغا السيفى و بزلار الخليلىّ و آخرون.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۲۹

ثمّ فى ليلة الأربعاء سلخه قتل الأمير صنجق الحسنى نائب حماة، ثمّ طرابلس و قرابغا السيفىّ و منصور حاجب غزّة و أظنّ هؤلاء هم تمام السبعة و الثلاثين نفرا الذين عرضهم السلطان بالريدانية. و اللّه أعلم.

ثمّ استقل السلطان بالمسير إلى نحو البلاد الشامية حتى دخل دمشق فى يوم الخميس ثانى عشرين شهر رمضان و قد زيّنت له دمشق و خرج الأمير يلبغا الناصرى نائب الشام إلى لقائه بمنزلة اللّجون، فكان لدخوله إلى دمشق يوم مشهود و حمل الناصرىّ على رأسه القبّة و الطير و عند دخول السلطان إلى دمشق نادى فيها بالأمان لأهل دمشق، فإنهم كانوا قاموا مع منطاش قياما عظيما و أفحشوا فى أمر الملك الظاهر و قتاله.

ثم فى يوم ثالث عشرين شهر رمضان صلّى السلطان صلاة الجمعة بجامع دمشق و عند ما فرغ السلطان من الصلاة نادى الجاويش فى الناس بالأمان، و الماضى

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۳۰

لا يعاد، و نحن من اليوم تعارفنا، فضجّ الناس بالدعاء للسلطان و خرجوا من بيوتهم إلى معايشهم و حوانيتهم و أمنوا بعد أن كانوا فى وجل و خوف و هم مترقّبون ما يحلّ بهم منه، لما وقع منهم فى حقّه فى السنة الماضية لمّا حضر منطاش و مبالغتهم فى سبّه و لعنه و استمرارهم على قتاله.

و أمّا الأمير كمشبغا نائب الغيبة فإنه عمل النيابة على أعظم حرمة، حتى إنّه نادى فى تاسع عشرين شهر رمضان بمنع النساء فى يوم

العید إلی التّرب، و من خرجت وسّطت هی و المکاری و ألّا یرکب أحد فی مرکب للتفرّج و أشیاء کثیرة من هذا النّموذج، فلم یجسر أحد علی مخالفته.

ثم نادی ألّا تلبس امرأة قمیصا واسع الأکمام و لا یزید تفصیل القمیص علی أکثر من أربعة عشر ذراعا، و کان النساء بالغن فی سعة القمصان حتی کان یفصّل القمیص الواحد من اثنین و سبعین ذراعا من القماش، فمشی ذلک و فصّلوا قمصانا سمّوها کمشبغاویّة. و رأیت أنا القمصان الکمشبغاویّة المذکورة، و کان أکمامها مثل أکمام قمصان العربان.

و أمّا السلطان الملک الظاهر برقوق فإنّه أقام بدمشق إلی ثانی شوّال و خرج منه یرید مدینة حلب، فسار بعساکره حتی وصلها فی ثانی عشرین شوّال، بعد أن أقام بمدینة حمص و حماة أیّاما کثیرة و أعاد السلطان القاضی بدر الدین محمد بن فضل اللّه إلی کتابة السّرّ لضعف القاضی علاء الدین الکرکیّ و عندما دخل السلطان إلی حلب ورد علیه الخبر أن سالما الدّوکاریّ قبض علی الأمیر منطاش و أنّ صاحب ماردین

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۳۱

قبض أیضا علی جماعة من المنطاشیة، فسّر السلطان بذلک و بعث بالأمیر قرا الأحمدیّ نائب حلب فی عساکر حلب لإحضار منطاش من عند سالم الدّوکاریّ، فسار قرا دمرداش حتی وصل إلی سالم الدوکاریّ و أقام عنده أربعة أیام یطالبه بتسلیم منطاش و هو یماطله، فحنق منه قرا دمرداش و رکب بمن معه من العساکر و نهب بیوته و قتل عدّة من أصحابه و فرّ سالم بمنطاش إلی سنجار، و امتنع بها و فی عقب ذلک وصل الأمیر یلبغا الناصریّ نائب الشام إلی بیوت سالم الدّوکاریّ قرا دمرداش ما وقع منه فی حقّ سالم و أغلظ له فی القول و هم أن یضربه بالسیف، فدخل بعض الأمراء بینهما حتی سکّن ما به و کادت الفتنة أن تقوم بینهما و یعود الأمر علی ما کان علیه أوّلا.

و أما الأمیر الکبیر إینال الیوسفیّ فإنّه وجّه السلطان إلی صاحب ماردین، فسار إلی رأس عین و تسلّم منه الجماعة المقبوض علیهم من المنطاشیة و عاد بهم إلی السلطان و کبیرهم الأمیر قشتمر الأشرفیّ و بکتاب صاحب ماردین و هو یعتذر فیه و یعد بتحصیل غریم السلطان، فکتب له الجواب بالشکر و الثناء.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۳۲

و أما السلطان لمّا بلغه ما جری بین یلبغا الناصریّ نائب الشام و بین قرا دمرداش الأحمدیّ نائب حلب و عودهما من غیر طائل، غلب علی ظنه صحة ما نقل عن یلبغا الناصریّ قبل تاریخه أنّ قصده مطاولة الأمر بین الملک الظاهر و بین منطاش و أن منطاش لم یحضر إلی دمشق فیما مضی إلّا بمکاتبته له بقدومه و أنه طاوله فی القتال، (أعنی: لمّا کان نزل منطاش بالقصر الأبلق بمیدان دمشق) و لو شاء الناصریّ لکان أخذه فی أقلّ من ذلک و أنّ رسل الناصریّ کانت ترد علی منطاش فی کلّ لیلة بما یأمره به و أنّ سالما الدوکاریّ لم یدخل بمنطاش إلی سنجار إلّا بمکاتبته و قوی عند الملک الظاهر برقوق و تحرّکت عنده تلک الکمائن القدیمة من خروجه علیه و خلعه من الملک و حبسه بالکرک و کلّ ما هو فیه إلی الآن من الشرور و الفتن، فالناصریّ هو السبب فیها و سکت حتی قدم الناصریّ إلی حلب، فقبض علیه و علی الأمیر شهاب الدین أحمد بن المهمندار نائب حماة و علی الأمیر کشلی أمیر آخور الناصریّ

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۳۳

و الشیخ حسن رأس نوبته و سجن الجمیع بقلعة حلب، ثم قتلهم من لیلته بقلعة حلب.

و کان الناصریّ من أجلّ الأمراء و من أکابر ممالیک الأتابک یلبغا العمریّ، و قد تقدّم من أمره فی ترجمة الملک الظاهر برقوق الأولی و فی ترجمة الملک المنصور حاجیّ و ما وقع له مع منطاش و غیره ما یغنی عن التعریف به هنا ثانیا.

قال قاضی القضاة بدر الدین محمود العینیّ الحنفیّ فی تاریخه فی حق یلبغا الناصریّ المذکور: و کان من ابتداء إنشائه من أیام الملک الناصر حسن إلی آخر عمره علی فتنة و سوء رأی و تدبیر و شؤم؛ حتی قیل: إنه ما کان مع قوم فی أمر من الأمور إلّا و قد حصل لهم

العکس و شوهد ذلک منه، کان مع أستاذه یلبغا الخاصّکیّ العمریّ فانکسر، ثم أسندمر الناصریّ فغلب و انقهر، ثم مع الأشرف شعبان بن حسین فقتل، ثم مع الأمیر برکة فخذل، انتهی کلام العینیّ.

قلت: نصرته علی الملک الظاهر برقوق و أحده مملکة الدیار المصریّة و حبسه للملک الظاهر برقوق بالکرک بکلّ ما قاله العینیّ، و قد فات العینیّ أیضا کسرة الناصریّ من منطاش بباب السلسلة و حبس منطاش له، لأنّ قضیته مع منطاش کانت أعظم شاهد للعینیّ فیما رماه به من الشؤم. انتهی.

ثم عزل الملک الظاهر الأمیر قرا دمرداش عن نیابة حلب، و أنعم علیه بتقدمة ألف بالدیار المصریّة، عوضا عن الأمیر بطا الطّولوتمریّ الظاهریّ الدوادار الکبیر بحکم انتقال بطا إلی نیابة الشام عوضا عن الأمیر الکبیر یلبغا الناصریّ المقدّم

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۳۴

ذکره، و خلع السلطان علی بطا المذکور، و علی جلبان الکمشبغاوی الظاهریّ رأس نوبة النّوب المعروف بقرا سقل باستقراره فی نیابة حلب عوضا عن قرا دمرداش الأحمدیّ فی یوم واحد، و هما أوّل من ترقّی من ممالیک الملک الظاهر إلی الرّتب و ولی الأعمال الجلیلة.

ثم خلع الملک الظاهر علی الأمیر فخر الدین إیاس الجرجاوی باستقراره فی نیابة طرابلس، و أخلع علی الأمیر دمرداش المحمدیّ الظاهری بنیابة حماة، و خلع علی الأمیر أبی یزید بن مراد الخازن باستقراره دوادارا کبیرا عوضا عن بطا المنتقل إلی نیابة الشام، و أنعم علیه بإمرة طبلخاناه، لما لأبی یزید المذکور علی السلطان من الإیادی عند ما اختفی عنده فی محنة الناصریّ و منطاش.

ثم أنعم السلطان علی الأمیر تنبک الیحیاویّ الظاهریّ بإقطاع جلبان قرا سقل المنتقل إلی نیابة حلب.

ثم خرج السلطان من حلب فی یوم الاثنین أوّل ذی الحجّة عائدا إلی دمشق فدخلها فی ثالث عشرین ذی الحجّة، و قتل بها یوم دخوله الأمیر آلابغا العثمانی الدوادار الکبیر کان، و الأمیر سودون باق أحد مقدّمی الألوف أیضا، و سمّر ثلاثة عشر أمیرا منهم الأمیر أحمد بن بیدمر أتابک دمشق، و أحمد بن أمیر علیّ الماردینیّ أحد مقدّمی الألوف بدمشق، و یلبغا العلائیّ، و قنق بای السّیفیّ، نائب ملطیة، و کمشبغا السیفی نائب بعلبکّ، و غریب الخاصّکی أحد أمراء الطبلخاناه بمصر، و قرا بغا العمری و جماعة أخر و وسّطوا الجمیع، و أقام السلطان بدمشق، و أهلها علی تخوّف عظیم منه إلی أن خرج منها فی العشر الأخیر من ذی الحجّة سنة ثلاث و تسعین و سبعمائة عائدا إلی الدیار المصریة، فسار بعساکره حتی دخل مدینة غزّة فی یوم الجمعة ثالث محرّم

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۳۵

سنة أربع و تسعین و سبعمائة، فعند ذلک نودی بالقاهرة بالزّینة لقدومه، فزیّنت أعظم زینة إلی یوم ثالث عشر المحرّم، فقدم البرید من السلطان إلی مصر بالخروج إلی ملاقاته إلی بلبیس، فخرج الأمیر کمشبغا الحمویّ نائب الغیبة، و معه الأمیر سودون الشیخونیّ النائب، و بقیة الأمراء، و ساروا حتی وافوا السلطان بمدینة بلبیس، فقبّلوا الأرض بین یدیه و عادوا فی رکابه حتی نزل السلطان بالعکرشة، و أقام بها إلی لیلة الجمعة، ثم رحل فی صبیحة الجمعة سابع عشر المحرّم، فخرج من القاهرة سائر الطوائف إلی لقائه و مشوا فی خدمته، و قد اصطفّت الناس لرؤیته إلی أن طلع إلی القلعة یوم الجمعة المذکور فی موکب جلیل إلی الغایة، و کان لطلوعه یوم مشهود.

و لمّا طلع إلی القلعة جلس بالقصر و خلع علی الأمراء و أرباب الوظائف.

ثم قام و دخل إلی الدور السلطانیة، فاستقبله المغانی و التهانی و فرشت الشّقق الحریر تحت أقدامه، و نثر علی رأسه الذهب و الفضّة، هذا! و قد تخلّق غالب أهل القلعة بالزّعفران.

فلم یمض بعد ذلک إلا أیام یسیرة، و قدم البرید من دمشق فی یوم خامس عشرینه بسیف الأمیر بطا الطّولوتمریّ الظاهریّ نائب الشام، و بطا هذا! هو الذی خرج من سجن القلعة و ملک باب السلسلة فی غیبة الملک الظاهر برقوق حسب ما ذکرناه فی وقته من هذا الکتاب، و اتّهم الملک الظاهر فی موته، فخلع السلطان

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۳۶

فی یوم سابع عشرینه علی الأمیر سودون طرنطای بنیابة دمشق، عوضا عن بطا المذکور.

ثمّ فی یوم الاثنین ثانی عشر صفر قبض السلطان علی الأمیر قرا دمرداش الأحمدیّ الیلبغاویّ المعزول قبل تاریخه عن نیابة حلب و علی الأمیر ألطنبغا، المعلم نائب الإسکندریة و هو أیضا یلبغاویّ، و سجنا بالبرج من القلعة، و قرا دمرداش هذا! هو الذی کان الملک الظاهر خلع علیه باستقراره أتابک العساکر بالدیار المصریة، و أنعم علیه بثلاثین ألف دینار، فأخذها قرا دمرداش و خامر علیه و توجّه إلی الناصریّ و منطاش فأسرّ له السلطان ذلک إلی یوم قبض علیه، فذکرها للأمراء و قد ذکرنا ذلک کلّه مفصّلا فی ترجمة الملک الظاهر الأولی.

ثمّ فی خامس عشرین صفر أیضا مسک السلطان الأمیر قردم الحسنیّ الیلبغاویّ رأس نوبة النوب کان و أخرج بعد أیام علی إمرة عشرة بغزّة، ثم خلع السلطان علی الأمیر قلمطای العثمانیّ الظّاهریّ باستقراره أمیر جاندار بعد موت قطلوبغا القشتمریّ و خلع علی ناصر الدین محمد ابن الأمیر محمود الأستادار بنیابة الإسکندریة عوضا عن ألطنبغا المعلّم المقبوض علیه.

ثمّ قدم البرید من دمشق بأنّ خمسة من الممالیک أتوا إلی نائب قلعة دمشق مشاة، و شهروا سیوفهم و هجموا القلعة و ملکوها و أغلقوا بابها و أخرجوا من بها من المنطاشیّة و الناصریّة و هم نحو مائة رجل و قتلوا نائب القلعة و من معه و أنّ حاجب حجّاب دمشق رکب بعسکر دمشق و قاتلهم ثلاثة أیام حتی أخذ القلعة منهم و قبض علی الجمیع إلا خمسة، فإنهم فرّوا فوسّط الحاجب الجمیع.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۳۷

ثمّ فی ثالث عشرین شهر ربیع الآخر رسم السلطان بقتل الأمیر أیدکار العمریّ حاجب الحجّاب کان و الأمیر قراکسک و الأمیر أرسلان اللّفّاف و الأمیر أرغون شاه.

ثمّ فی أوّل جمادی الأولی أحضرت إلی القاهرة من الإسکندریّة عدّة رءوس من الأمراء المسجونین بها و غیرهم.

و فی تاسع عشر شهر جمادی الأولی المذکور خلع السلطان علی الأمیر کمشبغا الحمویّ باستقراره أتابک العساکر بالدیار المصریة بعد موت الأمیر إینال الیوسفیّ الیلبغاویّ، علی أن کمشبغا کان یجلس فوق إینال المذکور.

ثمّ خلع السلطان علی الأمیر أیتمش البجاسیّ باستقراره رأس نوبة الأمراء و أطابکا و أنعم علیه بزیادة علی إقطاعه حتی صار إقطاعه یضاهی إقطاع الأمیر الکبیر، لأن أیتمش المذکور کان ولی الأتابکیّة بدیار مصر فی سلطنة الملک الظاهر الأولی إلی أن مسکه الناصریّ و حبسه بقلعة دمشق و قد تقدّم ذلک.

و فی یوم الاثنین أوّل شهر رمضان خلع السلطان علی الأمیر کمشبغا الأشرفیّ الخاصکیّ أمیر مجلس باستقراره فی نیابة دمشق بعد موت سودون طرنطای.

قلت: هذا رابع نائب ولی دمشق فی أقل من سنة: الأوّل الناصری، و الثانی بطا، و الثالث سودون طرنطای، و الرابع کمشبغا هذا، فلعمری! هل هذه آجال متقاربة لدیهم، أم کؤوس منایا تدور علیهم.

ثم قدم البرید علی السلطان بقتال عسکر حلب لمنطاش و فرار منطاش و انهزامه أمامهم حتی عدّی الفرات.

ثم أنعم السلطان فی الیوم المذکور علی الوالد بإمرة مائة و تقدمة ألف بالدیار المصریة و أنعم بطبلخانات الوالد علی الأمیر قلمطای العثمانیّ الظاهریّ، و کان

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۳۸

الإقطاع المنعم به علی الوالد عوضا عن کمشبغا الخاصّکی المنتقل إلی نیابة الشام و أنعم السلطان بإقطاع قلمطای علی الأمیر شادی خجا الظاهریّ و الإقطاع إمرة عشرة.

ثمّ أمسک السلطان شیخ الشیوخ المعروف بالشیخ أصلم بن نظام الدین الأصبهانیّ صاحب الزاویة علی الجبل تجاه باب الوزیر و سلّمه

لشادّ الدواوين على حمل مائتى ألف درهم، و سببه أنّ السلطان لما اختلّ أمره فى حركة الناصرىّ و منطاش و همّ بالهرب طلب أصلم المذكور، و أعطاه خمسة آلاف دينار، و واعده أنه ينزل إليه و يحتفى عنده، فلم يف له أصلم بذلك، و أخذ الذهب و غيّب، فاختفى السلطان فى بيت أبى يزيد من غير ميعاد واعده.

و فى سابع عشرين شوّال استقرّ الأمير بكلمش العلائىّ الأمير آخور أمير سلاح، و استقر الأمير تنبك اليحياوىّ الظاهرىّ أمير آخور كبيرا عوضه.

و فى ثانى عشر ذى القعدة قتل الأمير قرا دمرداش الأحمدىّ اليلبغاوىّ نائب حلب كان، و الأمير تغاى تمر نائب سيس فى عدة أمراء أخر.

و فى ثالث محرّم سنة خمس و تسعين و سبعمائة قدم البريد على السلطان من الشام بموت الأمير كمشبغا الخاصّكى الأشرفى نائب دمشق، فاستقر السلطان بالأمير تنبك الحسنىّ الظاهرىّ المعروف بتنم أتابك دمشق فى نيابتها عوضا عن كمشبغا المذكور.

قلت: الآن طاب خاطر السلطان الملك الظاهر برقوق بنيابة تنم المذكور فإنّ الشام صار الآن بيد مملوكه، كما نيابة حلب و حماة مع جلبان و دمرداش و لمّا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۳۹

استقرّ تنم فى نيابة دمشق، رسم السلطان بنقل الأمير إياس الجرجاوىّ نائب طرابلس إلى أتابكيّة دمشق، عوضا عن تنم المذكور، و نقل الأمير دمرداش المحمدى الظاهرى من نيابة حماة إلى نيابة طرابلس عوضه، و استقر الأمير آقبغا الصغير فى نيابة حماة عوضا عن دمرداش المذكور.

و فى أثناء ذلك قدم البريد على السلطان. يخبر بأنّ منطاشا و نعيرا أمير العرب و ابن بزدغان التّركمانىّ و ابن إينال التركمانىّ صاروا فى عسكر كثيف و حضروا به إلى سلمية فلقيهم محمد بن قارا أمير العرب على شيزر بتراكمين الطاعة، فقاتلهم و قتل ابن بزدغان و ابن إينال، و جرح منطاش و سقط عن فرسه، فلم يعرف لأنه كان حلق شاربه و رمى شعره حتى أدركه ابن نعير و أردفه خلفه و انهزم به، بعد أن قتل من الفريقين عالم كبير، و حملت رأس ابن بزدغان و ابن إينال إلى دمشق، فعلّقتا على قلعتها، ففرح السلطان بذلك، و كتب لمحمد بن قارا بالشكر و الثناء و أرسل إليه خلعة هائلة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۴۰

ثمّ بعد أيام يسيرة ورد الخبر بأن نعيرا و الأمير منطاشا كبسا حماة فى عسكر كبير، فقاتلهم الأمير آقبغا الصغير نائب حماة فيما بين حماة و طرابلس و كسرهما، فلمّا بلغ الأمير جلبان الكمشبغاوى قراسقل نائب حلب ذلك ركب بعسكره و سار إلى أبيات نعير و نهبها و أخذ ما قدر عليه من المال و الخيل و الجمال و الأغنام و النساء و الأطفال، و أضرم النيران فيما بقى عندهم.

ثمّ أكمن كميا. فلما سمع نعير بما وقع عليه رجع إلى نحو بيوته بجماعته، فخرج الكمين عليه و قتل من عربانه جماعة كبيرة و أسر مثلها، و قتل فى هذه الوقعة من عسكر حلب نحو المائة فارس، و عدّة من الأمراء، فأعجب السلطان ما فعله نائب حلب، و كتب إليه بالشكر و الثناء، و أرسل إليه خلعة عظيمة و فرسا بسرج ذهب و كنبوش زركش.

ثم أخرج السلطان الأمير ألطنبغا المعلّم أمير سلاح كان، من السجن و أرسله إلى ثغر دمياط بطالا، و أفرج السلطان أيضا عن الأمير قطلوبغا السيفى حاجب الحجاب كان فى أيام منطاش و أرسله إلى الثغر المذكور.

ثم فى رابع عشر جمادى الآخرة من سنة خمس و تسعين و سبعمائة قدم البريد بموت الأمير يلبغا الإشقتمرى نائب غزة، و فى تاسع عشرين جمادى المذكورة خلع

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۴۱

السلطان على الأمير قلمطاى العثمانىّ الظاهرىّ باستقراره دوادارا كبيرا بعد موت الأمير أبى يزيد بن مراد الخازن، و خلع السلطان على

الأمير ألطنبغا العثمانى الظاهرى باستقراره فى نيابة غزة عوضا عن يلبغا الأقشتمرىّ.

قلت: أدركت أنا ألطنبغا العثمانى الظاهرىّ هذا فى نيابته على دمشق فى دولة الملك المؤيّد شيخ. انتهى.

و أنعم السلطان بإقطاع ألطنبغا العثمانىّ على الأمير تمراز الناصرىّ الظاهرىّ رأس نوبة، و الإقطاع: إمرة طبلخاناه، و أنعم السلطان بإمرة تمراز المذكور على الأمير شرف الدين موسى بن قمارى أمير شكار، و الإقطاع إمرة عشرة.

و فى يوم الاثنين ثالث شهر رمضان من سنة خمس و تسعين المذكورة قدم البريد من حلب بالقبض على الأمير منطاش، و كان من خبره، أن الأمير جلبان نائب حلب لم يزل فى مدّة ولايته على حلب يبذل جهده فى أمر منطاش، حتى وافقه الأمير نعير على ذلك بعد أمور صدرت بينهما، و كان منطاش فى طول هذه المدّة مقيما عند نعير، فبعث جلبان شادّ شراب خاناته السيفى كمشبغا فى خمسة عشر مملوكا إلى نعير، بعد أن التزم الأمير جلبان لنعير بإعادة إمرة العرب عليه، فسار كمشبغا المذكور حتى قارب أبيات نعير، فنزل فى موضع، و بعث يأمر نعيرا بالقبض على منطاش و يعلمه بحضوره، فندب نعير أحد عبيده إليه يستدعيه، فأحس منطاش بالشر و فطن بالقصد فهمّ بالفرار، فركب فرسه و أراد التوجه إلى حال سبيله، فقبض العبد على عنان فرسه فهم منطاش بضربه، فأدركه عبد آخر و أنزلاه عن فرسه و أخذا سيفه، فتكاثروا عليه، فلما تحقّق منطاش أنه أخذ و مسك أخذ سكينا كانت معه و ضرب نفسه بها أربع ضربات أغشى عليه، و حمل و أتى به إلى عند كمشبغا المذكور و معه فرسه و أربعة جمال، فتسلمه كمشبغا و سار به

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۴۲

إلى حلب، فدخلها فى أربعمائة فارس من عرب نعير، فكان لدخوله حلب يوم عظيم مشهود و حمل منطاش إلى قلعة حلب و سجن بها.

ثمّ كتب إلى السلطان بمسكه، فلما بلغ السلطان ذلك سرّ سرورا عظيما و أنعم على كمشبغا المذكور بخمسة آلاف درهم و خلع عليه فوقانيا بطرز ذهب مزركش و رسم السلطان إلى سائر الأمراء أن يوافوه بالخلع و دقّت البشائر لهذا الخبر بالديار المصرية و زيّنت القاهرة من الغد زينة عظيمة.

ثمّ خلع السلطان على الأمير طولو من علىّ باشاه الظاهرىّ أحد أمراء العشرات و ندبه للتوجّه إلى حلب على البريد لإحضار رأس منطاش، بعد أن يعذّبه بأنواع العذاب ليقرّ على أمواله، فسار طولو فى خامسه إلى حلب و أحضر منطاشا و عصره و أجرى عليه أنواع العذاب ليقرّ بالمال، فلم يعترف بشىء، فذبحه بعد عذاب شديد، قيل: إنه عذّب بأنواع العذاب و الكسّارات و النار فى أطرافه، حتى لم يبق فيه عضو إلا و تكسّر و هو مصمم على أنه لا يملك شيئا، ثم قطع رأسه و حملت على رمح و طيف بها بمدينة حلب، ثمّ أخذها طولو و عاد يريد الديار المصرية، فصار كلما دخل إلى مدينة طاف بها على رمح و عمل بها كذلك فى سائر مدن الشام، حتى وصلت إلى الديار المصرية صحبة طولو المذكور فى يوم الجمعة حادى عشرين رمضان، فعلّقت على باب قلعة الجبل، ثمّ طيف بها القاهرة على رمح، ثمّ علقت على باب زويلة أياما، ثم سلمت إلى زوجته أم ولده، فدفنتها فى سادس عشرينه.

ثمّ ندب السلطان يلبغا السالمىّ الظاهرىّ إلى نعير بالخلع.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۴۳

ثمّ فى سادس عشرينه قدم رسل الملك الظاهر مجد الدين عيسى صاحب ماردين على السلطان تخبر بأن تيمورلنك أخذ مدينة تبريز و أرسل يستدعيه إلى عنده فاعتذر لمشاورة سلطان مصر، فلم يقبل منه تيمور ذلك و قال له: ليس لصاحب مصر بملكك حكم و أرسل إليه خلعة و سكة ينقش بها الذهب و الدنانير و قدم مع القاصد أيضا رسول صاحب بسطام، يذكر بأن تيمور قتل شاه منصور متملّك شيراز و بعث برأسه إلى بغداد و بعث بالخلع و السكة إلى السلطان أحمد بن أويس صاحب العراق، فلبس السلطان أحمد الخلعة و طاف بها فى شوارع بغداد و ضرب باسمه السكة، و كان ذلك خديعة من تيمور، حتى ملك منه بغداد فى يوم السبت حادى عشرين شوّال من سنة خمس و تسعين المذكورة.

و کان سبب أخذ تیمور بغداد أن ابن أویس المذکور کان أسرف فی قتل أمرائه و بالغ فی ظلم رعیته و انهمک فی الفجور و الفساد.

قلت فائـدة: حکی بعض الحکماء أن الرجل إذا کان فیه خصـلة من سبع خصال تمنعه السیادة علی قومه و نظم السـبعة بعضـهم فقال: [الخفیف]

منع الناس أن یسود علیهم سبعة قاله ذوو التبیان

أحمق کاذب صغیر فقیر ظالم النفس ممسک الکفّ زان

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۴۴

و لما وقع من السـلطان أحمـد ذلک کاتب أهل بغـداد تیمور بعد استیلائه علی مدینة تبریز یحثونه علی المسیر إلی بغداد، فتوجّه إلیها بعساکرها حتی بلغ الدّربند و هو من بغداد مسیرة یومین، فبعث إلیه أحمد بن أویس بالشیخ نور الدین الخراسانیّ فأکرمه تیمور و قال له: أنا أترک بغداد لأجلک و رحل یرید السلطانیة، فبعث نور الدین کتبة بالبشارة إلی بغداد.

ثم قـدم فی إثرها فاطمأن أهلها و کان تیمور قـد سار یریـد بغداد من طریق أخری، فلم یشـعر أحمد بن أویس و قد اطمأن إلا و تیمور نزل غربی بغـداد قبل أن یصل الشیخ نور الـدین فـدهش عنـد ذلک ابن أویس و أمر بقطع الجسـر و رحل من بغـداد بأمواله و أولاده وقت السـحر من لیلته و هی لیلـة السبت المـذکورة و ترک بغـداد فدخلها تیمور لنک و أرسل ابنه فی إثر ابن أویس فأدرکه بالحلّة و نهب مـاله و سبی حریمه و أسـر و قتل کثیرا من أصـحابه، فنجا السـلطان أحمـد بن أویس بنفسه فی طائفـة و هم عراة، فقصـد حلب و تلاحق به من بقی من أصحابه.

ثم بعـد ذلک قدم البرید علی السـلطان الملک الظاهر برقوق بأنّ ابن أویس المذکور نزل بالرحبة فی نحو ثلاثمائة فارس و قدم کتاب ابن أویس و کتاب نعیر،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۴۵

فأجیب أحسن جواب و کتب بإکرامه و القیام بما یلیق به، فلما وصل کتاب السـلطان إلی نعیر توجه إلیه، و عندما عاین ابن أویس نزل عن فرسه و قبّل الأرض بین یدیه و سار به إلی بیوته و أضافه.

ثم سیّره إلی حلب فقدمها و معه أحمد بن شکر و نحو الألفی فارس فأنزله الأمیر جلبان قرا سقل نائب حلب بالمیدان و قام له بما یلیق به و کتب مع البریـد إلی السـلطان بذلک و علی ید القادم أیضا کتاب السـلطان أحمد بن أویس یسـتأذن فی القدوم إلی مصـر، فجمع السـلطان الأـمراء للمشورة فی أمر ابن أویس، فـاتفقوا علی إحضـاره و أن یخرج إلی مجیئه الأمیر عز الـدین أزدمر و معه نحو ثلاثمائة ألف درهم فضة و ألف دینار برسم النفقة علی ابن أویس فی طریقه إلی مصر و توجه أزدمر المذکور فی سادس عشرینه و سار أزدمر إلی حلب و أحضـر السـلطان أحمد ابن أویس المذکور إلی نحو الدیار المصـریة، فلما قرب ابن أویس من دیار مصـر أخرج السـلطان عدّة من الأمراء إلی لقائه.

فلمّا کان یوم الثلاثاء سابع عشرین شهر ربیع الأوّل من سنة ست و تسعین و سبعمائة، نزل السلطان الملک الظاهر من قلعة الجبل بأمرائه و عساکره إلی لقاء أحمد بن أویس و جلس بمسطبة مطعم الطیر من الرّیدانیة خارج القاهرة إلی أن

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۴۶

قرب السـلطان أحمد بن أویس و وقع بصـره علی المسـطبة التی جلس علیها السـلطان، فنزل عن فرسه و مشی عدّة خطوات، فتوجه إلیه الأمیر بتخاص حاجب الحجّاب بالدیار المصریة و من بعده الأمراء للسلام علی ابن أویس، فتقدّم بتخاص المذکور و سلم علیه و وقف بإزائه و صار کلما تقدّم إلیه أمیر لیسـلّم علیه یعرّفه بتخاص باسـمه و وظیفته و هم یقبّلون یده واحدا بعد واحد، حتی أقبل الأمیر أحمد بن یلبغا أمیر مجلس فقال له: الأمیر بتخاص هذا أمیر مجلس و ابن أستاذ السلطان، فعانقه ابن أویس و لم یدعه یقبّل یده.

ثمّ جاء بعده الأمیر بکلمش العلائیّ أمیر سـلاح فعانقه أیضا، ثمّ من بعده الأمیر أیتمش البجاسیّ رأس نوبة الأمراء و أطابک فعانقه ثمّ

من بعده الأمير سودون الفخرىّ الشيخونىّ نائب السلطنة فعانقه، ثمّ الأمير الكبير كمشبغا الحموىّ أتابك العساكر فعانقه و انقضى سلام الأمراء، فقام عند ذلك السلطان و نزل من على المسطبة و مشى نحو العشرين خطوة، فلمّا رأى ابن أويس مشى السلطان له هرول حتى التقيا، فأومأ أحمد بن أويس ليقبّل يد السلطان فمنعه السلطان من ذلك و عانقه.

ثمّ بكيا ساعة ثم مشيا إلى نحو المسطبة و السلطان يطيّب خاطره و يعده بكل جميل و بالعود إلى ملكه و يده فى يده حتى طلعا على المسطبة و جلسا معا على البساط من غير أن يقعد السلطان على مرتبته و تحادثا طويلا، ثمّ طلب السلطان له خلعة فقدّم قبا حرير بنفسجىّ بفرو و قاقم بطرز زركش هائلة، فألبسه الخلعة المذكورة و قدّم له فرسا من خاصّ مراكيب السلطان بسرج ذهب و كنبوش زركش و سلسلة ذهب فركبه ابن أويس من حيث يركب السلطان، ثمّ ركب السلطان بعده و سارا

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ١٢، ص: ۴٧

يتحادثان و الأمراء و العساكر سائرة على منازلهم ميمنة و ميسرة، حتى قربا من القلعة، هذا و الناس قد خرجت إلى قريب الرّيدانية و امتلأت الصحراء منهم للفرجة على موكب السلطان، حتى أدهش كثرتهم السلطان أحمد بن أويس، فكان هذا اليوم من الأيام المشهودة، و لما وصلا إلى قريب القلعة و أخذت العساكر تترجّل عن خيولهم على العادة، صار ابن أويس مواكبا للسلطان حتى بلغا تحت الطبلخاناه من قلعة الجبل، فأومأ إليه السلطان بالتوجه إلى المنزل الذى أعدّ له على بركة الفيل، و قد جدّدت عمارته و زخرفت بالفرش و الآلات و الأوانى، فسلّم ابن أويس على السلطان، و سار إليه و جميع الأمراء فى خدمته، و طلع السلطان إلى القلعة.

فلما دخل ابن أويس إلى المنزل المذكور و معه الأمراء، مدّ الأمير جمال الدين محمود الأستادار بين يديه سماطا جليلا إلى الغاية فى الحسن و الكثرة، فأكل السلطان أحمد و أكل الأمراء معه، ثم انصرفوا إلى منازلهم، و فى اليوم جهّز السلطان إليه مائتى ألف درهم فضة، و مائتى قطعة قماش سكندرىّ، و ثلاثة أفراس بقماش ذهب و عشرين مملوكا و عشرين جارية، فلما كان الليل قدم حريم ابن أويس و ثقله.

ثمّ فى يوم الخميس عمل السلطان الخدمة بدار العدل المعروفة بالإيوان، و طلع القان أحمد بن أويس المذكور، و عبر من باب الجسر الذى يقال له باب السرّ و جلس

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ١٢، ص: ۴٨

تجاه الإيوان حتى خرج إليه رأس نوبة و مضى به إلى القصر، فأخذه السلطان، و خرج به إلى الإيوان، و أقعده رأس الميمنة فوق الأمير كمشبغا الحموىّ أتابك العساكر، فلما قام القضاة و مدّ السماط، قام الأمراء على العادة، فقام ابن أويس أيضا معهم و وقف، فأشار إليه السلطان بالجلوس فجلس، حتى فرغ الموكب، و لما انقضت خدمة الإيوان دخل مع السلطان إلى القصر و حضر خدمة القصر أيضا، ثمّ خرج الأمراء بين يديه، حتى ركب و قدّامه جاويشه و نقيب جيشه، فسار الأمراء فى خدمته إلى منزله.

ثمّ علّق السلطان جاليش السفر إلى البلاد الشامية على الطبلخاناه، فشرع الأمراء و المماليك و غيرهما فى تجهيز أحوالهم إلى السفر صحبة السلطان.

ثمّ فى حادى عشرين شهر ربيع الأوّل المذكور، ركب السلطان من القلعة و معه السلطان أحمد بن أويس إلى مدينة مصر و عدّى النيل إلى برّ الجيزة، و نزل بالخيام ليتصيّد، فأقام هناك ثلاثة أيام و عاد، و قد أذهل ابن أويس ما رأى من تجمّل المملكة و عظمتها من ندماء السلطان و مغانيه و ترتيبه فى مجلس موكبه و أنسه ثم فى سلخه قدم البريد من حلب بتوجّه الأمير ألطنبغا الأشرفىّ نائب الرّها كان، و هو يوم ذلك أتابك حلب، و الأمير دقماق المحمدىّ نائب ملطية بعسكريهما

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ١٢، ص: ۴٩

و موافقتهما لطلائع تيمور لنك و هزيمتهما له، بعد أن قتلا من اللّنكية خلقا كثيرا، و أسرا أيضا جماعة كبيرة، و عاد إلى حلب بمائة رأس من التّمريّة.

و فی یوم الخمیس ثالث شهر ربیع الآخر ابتدأ السلطان بنفقة الممالیک، لکل مملوک مبلغ ألفی درهم و عدّتهم خمسة آلاف مملوک، فبلغت النفقة فی الممالیک خاصة عشرة آلاف درهم فضة، سوی نفقة الأمراء و سوی ما حمل فی الخزائن و سوی ما تکلفه للقان أحمد بن أویس فیما مضی، و فیما یأتی ذکره.

و بینما السلطان فی ذلک قدم علیه کتاب تیمور یتضمن الإرداع و التخویف، و نصّه:

قل اللهم مالک الملک، فاطر السماوات و الأرض، عالم الغیب و الشهادة، أنت تحکم بین عبادک فیما کانوا فیه یختلفون. اعلموا أنا جند اللّه مخلوقون من سخطه، و مسلّطون علی من حلّ علیه غضبه، لا نرقّ لشاکٍ، و لا نرحم عبرة باک، قد نزع اللّه الرحمة من قلوبنا، فالویل ثم الویل لمن لم یکن من حزبنا و من جهتنا! قد خرّبنا البلاد، و أیتمنا الأولاد، و أظهرنا فی الأرض الفساد، و ذلّت لنا أعزّتها، و ملکنا بالشوکة أزمّتها، فإن خیّل ذلک علی السامع و أشکل، و قال: إن فیه علیه مشکلا، فقل: (إن الملوک إذا دخلوا قریة أفسدوها و جعلوا أعزّة أهلها أذلّة)، و ذلک لکثرة عددنا، و شدّة بأسنا، فخیولنا سوابق، و رماحنا خوارق، و أسنّتها بوارق، و سیوفنا صواعق، و قلوبنا کالجبال، و جیوشنا کعدد الرمال، و نحن أبطال و أقیال، و ملکنا لا یرام، و جارنا لا یضام، و عزّنا أبدا لسؤدد منقام، فمن سالمنا سلم، و من

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۵۰

حاربنا ندم، و من تکلّم فینا بما لا یعلم جهّل. و أنتم فإن أطعتم أمرنا و قبلتم شرطنا، فلکم مالنا و علیکم ما علینا، و إن خالفتم و علی بغیکم تمادیتم، فلا تلوموا إلا أنفسکم، فالحصون منّا مع تشییدها لا تمنع، و المدائن بشدّتها لقتالنا لا تردّ و لا تنفع، و دعاؤکم علینا لا یستجاب فینا فلا یسمع، فکیف یسمع اللّه دعاءکم و قد أکلتم الحرام، و ظلمتم جمیع الأنام، و أخذتم أموال الأیتام، و قبلتم الرشوة من الحکّام، و أعددتم لکم النار و بئس المصیر: (إنّ الذین یأکلون أموال الیتامی ظلما إنما یأکلون فی بطونهم نارا و سیصلون سعیرا) فبما فعلتم ذلک أوردتم أنفسکم موارد المهالک، و قد قتلتم العلماء، و عصیتم رب الأرض و السماء، و أرقتم دم الأشراف، و هذا و اللّه هو البغی و الإسراف، فأنتم بذلک فی النار خالدون، و فی غد ینادی علیکم:

فَالْیَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الْهُونِ بِما کُنْتُمْ تَسْتَکْبِرُونَ فِی الْأَرْضِ بِغَیْرِ الْحَقِّ وَ بِما کُنْتُمْ تَفْسُقُونَ، فأبشروا بالمذلّة و الهوان، یا أهل البغی و العدوان، و قد غلب عندکم أننا کفرة، و ثبت عندنا و اللّه أنکم الکفرة الفجرة، و قد سلطنا علیکم الإله، له أمور مقدّرة، و أحکام محرّرة، فعزیزکم عندنا ذلیل، و کثیرکم لدینا قلیل، لأننا ملکنا الأرض شرقا و غربا، و أخذنا منکم کلّ سفینة غصبا، و قد أوضحنا لکم الخطاب، فأسرعوا بردّ الجواب، قبل أن ینکشف الغطاء، و تضرم الحرب نارها، و تضع أو زارها، و تصیر کلّ عین علیکم باکیة، و ینادی منادی الفراق:

هل تری لهم من باقیة، و یسمعکم صارخ الفناء بعد أن یهزّکم هزا، هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِکْزاً، و قد أنصفناکم إذ راسلناکم، فلا تقتلوا المرسلین، کما فعلتم بالأوّلین، فتخالفوا کعادتکم سنن الماضین، و تعصوا رب العالمین، وَ ما عَلَی الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِینُ، و قد أوضحنا لکم الکلام، فأرسلوا بردّ الجواب و السلام

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۵۱

فکتب جوابه بعد البسملة الشریفة: قُلِ اللَّهُمَّ مالِکَ الْمُلْکِ تُؤْتِی الْمُلْکَ مَنْ تَشاءُ وَ تَنْزِعُ الْمُلْکَ مِمَّنْ تَشاءُ وَ تُعِزُّ مَنْ تَشاءُ وَ تُذِلُّ مَنْ تَشاءُ، و حصل الوقوف علی ألفاظکم الکفریّة، و نزغاتکم الشیطانیة، و کتابکم یخبرنا عن الحضرة الخانیّة، و سیرة الکفرة الملائکیة، و أنکم مخلوقون من سخط اللّه و مسلطون علی من حلّ علیه غضب اللّه، و أنکم لا ترقّون لشاک، و لا ترحمون عبرة باک، و قد نزع اللّه الرحمة من قلوبکم، فذاک أکبر عیوبکم، و هذه من صفات الشیاطین، لا من شیم السلاطین، و تکفیکم هذه الشهادة الکافیة، و بما وصفتم به أنفسکم ناهیة، قُلْ یا أَیُّهَا الْکافِرُونَ. لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ. وَ لا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ. وَ لا أَنا عابِدٌ ما عَبَدْتُّمْ. وَ لا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ. لَکُمْ دِینُکُمْ وَ لِیَ دِینِ ففی کل کتاب لعنتم، و علی لسان کلّ مرسل نعتم، و بکل قبیح وصفتم، و عندنا خبرکم من حین

خرجتم، أنكم كفرة، ألا لعنة اللّه على الكافرين، من تمسّک بالأصول فلا يبالى بالفروع، نحن المؤمنون حقّا، لا يدخل علينا عيب، و لا يضرنا ريب، القرآن علينا نزل، و هو سبحانه رحيم لم يزل، فتحققنا نزوله، و علمنا ببركته تأويله، فالنار لكم خلقت، و لجلودكم أضرمت، إِذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ، و من أعجب العجب تهديد الرتوت بالتوت و السباع بالضباع و الكماة بالكراع، نحن خيولنا برقيّة، و سهامنا عربية، و سيوفنا يمانية، و لبوسنا مصرية، و أكفّنا شديدة المضارب، وصفتنا مذكورة فى المشارق و المغارب، إن قتلنا كم فنعم البضاعة، و إن قتل منا أحد فبينه و بين الجنة ساعة، وَ لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتاً بَلْ أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ يَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَ فَضْلٍ وَ أَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج١٢، ص: ٥٢

الْمُؤْمِنِينَ. و أمّا قولكم: قلوبنا كالجبال، و عددنا كالرمال، فالقصّاب لا يبالى بكثرة الغنم، و كثير الحطب يغنيه الضرم كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَ اللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ الفارّ الفارّ من الزوايا، و طول البلايا، و اعلموا أنّ هجوم المنيّة، عندنا غاية الأمنية، إن عشنا عشنا سعداء، و إن قتلنا قتلنا شهداء ألا إن حزب اللّه هم الغالبون أبعد أمير المؤمنين، و خليفة رب العالمين، تطلبون منا طاعة، لا سمع لكم و لا طاعة، و طلبتم أن نوضّح لكم أمرنا، قبل أن ينكشف الغطاء، ففى نظمه تركيک، و فى سلكه تلبيک، لو كشف الغطاء لبان القصد بعد بيان، أكفرتم بعد إيمان، أم اتخذتم إلها ثان، و طلبتم من معلوم رأيكم، أن نتبع دينكم، لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَ تَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَ تَخِرُّ الْجِبالُ هَدًّا قل: لكاتبک الذى وضع رسالته، و وصف مقالته، وصل كتابک كضرب رباب، أو كطنين ذباب، كَلَّا سَنَكْتُبُ ما يَقُولُ وَ نَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذابِ مَدًّا، وَ نَرِثُهُ ما يَقُولُ إن شاء اللّه تعالى لقد لبكتم، فى الذى أرسلتم، و السلام. انتهى.

فعرض هذا الجواب على السلطان ثمّ ختم و أرسل إليه.

ثم فى سادس شهر ربيع الآخر المذكور عرض السلطان أجناد الحلقة الذين عيّنوا للسفر و عيّن منهم أربعمائة فارس للسفر صحبة السلطان و ترک الباقى بالديار المصرية.

ثمّ فى سابعه خرجت مدوّرة السلطان من القاهرة و نصبت بالريدانية خارج القاهرة.

ثمّ فى يوم الأربعاء تاسعه عقد السلطان عقده على الخاتون تندى بنت حسين ابن أويس و كانت قدمت مع عمها السلطان أحمد بن أويس، و مبلغ الصداق ثلاثة

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج١٢، ص: ٥٣

آلاف دينار و كان صرف الدينار إذ ذاک ستة و عشرين درهما و نصف درهم، و بنى عليها ليلة الخميس عاشره و هو يوم سفره إلى الشام.

و أصبح من الغد فى يوم الخميس المذكور نزل السلطان من قلعة الجبل إلى الإسطبل السلطانىّ، ثمّ خرج من باب السلسلة إلى الرميلة و قد وقف القان أحمد ابن أويس و جميع الأمراء و سائر العسكر ملبسين آلة الحرب و معهم أطلابهم، فسار السلطان و عليه قرقل بلا أكمام و على رأسه كلفتة و تحته فرس بعرقيّة من صوف سميک إلى باب القرافة و العساكر قد ملأت الرّميلة فرتّب هو بنفسه أطلاب الأمراء و مرّ فى صفوفها ذهابا و إيابا غير مرّة، حتى رتّبها أحسن ترتيب و صاحبها ينظر و أخذ يخالف فى تعبئة الأطلاب، كلّ تعبئة بخلاف الذى يتقدّمها، حفظت أنا غالبها عن الأستاذ الأتابک آقبغا التمرازىّ عن أستاذه تمراز الناصرىّ النائب و لو لا الإطالة و الخروج عن المقصود لرسمتها هنا بالنقط. انتهى.

فلمّا فرغ السلطان الملک الظاهر برقوق من تعبئة أطلاب أمرائه أخذ فى ترتيب طلب نفسه و جعله أمام أطلاب الأمراء كالجاليش لكثرة من كان به

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۵۴

و عبّأه قلبا و جناح يمين و جناح شمال و رديفا و كمينا و أمر الكوسات و الطبول فدقّت حربيّا.

ثمّ ترک جميع الأطلاب و مضى فى خواصّه إلى قبة الإمام الشافعىّ [رضى اللّه عنه] و زاره و تصدّق على الفقراء بمال كثير خارج عن الحدّ، ثم سار إلى المشهد النفيسىّ وزاره و تصدّق به أيضا، و فى طول طريقه بجملة مستكثرة، ثمّ عاد إلى الرّميلة و أشار إلى طلب السلطان فسار إلى نحو الرّيدانيّة فى أعظم قوّة و أبهج زىّ و أفخر هيئة و أحسن ملبس، جرّ فيه من خواصّ الخيل مائتا جنيب ملبسة آلة الحرب التى عظمت من الآلات المذهبة و المفضّضة و المزركشة على اختلاف أنواعها و صفاتها التى تحيّر العقول عند رؤيتها.

ثمّ أشار لأطلاب الأمراء فسارت أيضا بأعظم هيئة و قد تفاخر الأمراء أيضا فى أطلابهم و خرج كل طلب أحسن من الآخر حتى حاذوا القلعة

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۵۵

فوقفوا يمينا و يسارا حتى سار السلطان فى موكبه فى غاية العظمة و الأبّهة و إلى جانبه القان أحمد بن أويس على فرس بقماش ذهب و بجانب ابن أويس الأمير الكبير كمشبغا الحموىّ ثم الأمراء ميمنة و ميسرة، كلّ واحد فى رتبته حتى انقضى ممرّ السلطان و أمامه العساكر و خلفه، ثمّ سارت أطلاب الأمراء تريد الريدانية شيئا بعد شىء و سار السلطان حتى نزل بمخيّمه بالريدانيّة و أقام بها أياما.

ثم فى رابع عشره خلع على القاضى بدر الدين محمد بن أبى البقاء باستقراره قاضى قضاة الشافعية بديار مصر، بعد عزل القاضى صدر الدين المناوىّ و دخل من الرّيدانية إلى القاهرة و معه تغرى بردى من يشبغا رأس نوبة النّوب (أعنى الوالد) و الأمير قلمطاى من عثمان الدوادار الكبير و آقبغا اللكّاش رأس نوبة ثان و جماعة أخر.

ثم قدم على السلطان بالريدانية ولد الأمير نعير و معه محضر أنّ أباه أخذ مدينة بغداد و خطب بها للسلطان الملک الظاهر برقوق، فخلع السلطان عليه و وعده بكل خير.

ثمّ كتب السلطان بإحضار الأمير ألطنبغا المعلّم من ثغر دمياط.

ثمّ خلع السلطان على الأمير سودون النائب ليقيم بالقاهرة فى مدّة غيبة السلطان، و على الأمير بجاس ليقيم بالقلعة، و على الأمير محمود الأستادار، و على ولده و خلع على التاجر برهان الدين المحلّىّ، و على التاجر شهاب الدين أحمد بن مسلم، و على التاجر نور الدين على الخرّوبىّ لكون السلطان اقترض منهم مبلغ ألف ألف درهم.

ثمّ فى ثالث عشرينه رحل السلطان بعساكره و أمرائه من الريدانية، بعد أن أقام بها نحو ثلاثة عشر يوما، و فرّق من الجمال فى المماليک نحو أربعة آلاف جمل،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۵۶

و من الخيل ألفى فرس و خمسمائة فرس، و حمل معه أشياء كثيرة مما يحتاج السلطان إليه، منها خمسة قناطير من العاج و الآبنوس برسم الشّطرنج الذى يلعب به السلطان، و سببه انه كان إذا لعب بشطرنج و فرغ من لعبه أخذه صاحب النّوبة و جدّد غيره، و أشياء كثيرة أخر من هذه المقولة.

ثمّ فى ثامن عشرينه أرسل السلطان يطلب بدر الدين محمود الكلستانىّ، فأخذ محمود المذكور من خانقاة شيخون فإنه كان من بعض صوفيتها و سار و هو خائف وجل، لأنه كان من ألزام ألطنبغا الجوبانىّ إلى أن وصل إلى السلطان.

و خبره أنّ السلطان كان ورد عليه كتاب من بعض الملوک بالعجمىّ، فلم يعرف القاضى بدر الدين محمد بن فضل اللّه كاتب السر يقرؤه، فطلب السلطان من يقرؤه، فنوّه بعض من حضر من الأمراء بذكر الكلستانىّ هذا، فطلب لذلک و حضر و قرأه فأعجب السلطان قراءته، فأمره بالسفر معه، فسافر صحبة السلطان و صار ينزل مع الأمير قلمطاى الدوادار كأنّه من بعض حواشيه فإنه كان فى غاية من الفقر إلى أن وصل إلى دمشق كما سنذكره.

و أما السلطان فإنه دخل دمشق فى عشرين جمادى الأولى و قام به إلى أن أخرج عسكرا إلى البلاد الحلبية فى سابع عشر شهر رجب، و عليهم الأمير الكبير كمشبغا الحموىّ و الأمير بكلمش أمير سلاح و الأمير أحمد بن يلبغا أمير مجلس و بيبرس ابن أخت السلطان الملک الظاهر برقوق، و نائب صفد و نائب غزّة، کل ذلک و السلطان مقيم بدمشق فى انتظار قدوم تيمور لنک.

ثم أمر السلطان للقان غياث الدين أحمد بن أويس بالتوجه إلى محل مملکته ببغداد، فخرج من دمشق فى يوم الاثنين أوّل شعبان من سنة ست و تسعين

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج١٢، ص: ٥٧

المذکورة، بعد ما قام له السلطان بجميع ما يحتاج إليه، و عند وداعه خلع عليه الملک الظاهر خلعة أطلسين متمّرا و قلّده بسيف مسقّط بذهب، و کتب له تقليدا بسلطنة بغداد، و ناوله إيّاه، فأراد أحمد بن أويس أن يقبّل الأرض فلم يمکّنه السلطان من ذلک، إجلالا له و تعظيما فى حقه، و قام له و عانقه و وادعه، ثمّ افترقا، و کان ما أنعم به السلطان الملک الظاهر على القان غياث الدين أحمد بن أويس عند سفره خاصّة من النقد خمسمائة ألف درهم، سوى الخيل و الجمال و السلاح و المماليک و القماش السکندرىّ و غير ذلک، و استمرّ ابن أويس بمخيّمه خارج دمشق إلى يوم ثالث عشر شعبان، فسافر إلى جهة بغداد بعد أن أظهر الملک الظاهر من علوّ همته و مکارمه و إنعامه لابن أويس المذکور ما أدهشه.

قلت: هکذا تکون الشّيم الملوکية، و إظهار الناموس، و بذل الأموال فى إقامة الحرمة، مع أن الملک الظاهر لم يخرج من الديار المصرية، حتّى تحمّل جملة کبيرة من الديون، فإنه من يوم حبس بالکرک و ملک الناصرىّ و منطاش ديار مصر فرّقا جميع ما کان فى الخزائن السلطانية، و حضر الملک الظاهر من الکرک فلم يجد فى الخزائن ما قلّ و لا کثر و صار مهما حصّل له أنفقه فى التجاريد و الکلف، فللّه درّه من ملک! على أنه کان غير مشکور فى قومه.

حدّثنى غير واحد من حواشى الأسياد أولاد السلاطين، قالوا: کنّا نقول من يوم تسلطن هذا المملوک: هذا الکعب الشؤم نشّفت القلعة من الرّزق و خربت الدنيا هذا، و کان الذى يصرف يوم ذلک على نزول السلطان إلى سرحة سرياقوس بکلفة

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج١٢، ص: ٥٨

ملوک زماننا هذا! من أوّل السنة إلى آخرها، فلعمرى! هل الأرزاق قلّت أم الهمة اضمحلّت! و ما الشىء إلا کما کان و زيادة، غير أنّ قلّة العرفان تمنع السيادة. انتهى.

و فى يوم ثانى شعبان خلع السلطان على الشيخ بدر الدين محمود الکلستانى المقدّم ذکره باستقراره فى کتابة سرّ مصر، بعد موت القاضى بدر الدين محمد بن فضل اللّه، و کانت تولية الکلستانى هذه الوظيفة کتابة السرّ من غريب الاتفاق، کونه کان فقيرا مملقا خائفا من السلطان، و عند طلب السلطان له من خانقاه شيخون لقراءة الکتاب الوارد عليه من العجم لم يخرج من الخانقاه حتى أوصى.

ثم إنّه بعد قراءة الکتاب سافر صحبة السلطان إلى دمشق و اشتغل السلطان بما هو فيه عنه، فضاق عيشه إلى الغاية و بقى فى أعوز حال و بات ليلته يتفکّر فى عمل أبيات يمدح بها قاضى دمشق، لعلّه ينعم عليه بشىء يردّ به رمقه. فنظم قصيدة هائلة و کان بارعا فى فنون عديدة، و أصبح من الغد ليتوجه بالقصيدة إلى القاضى، فجاءه قاصد السلطان بولاية کتابة سرّ مصر فجاءته السعادة فجاءة.

و کان من أمر السلطان أنه لمّا مات کاتب السرّ طلب من يوليه کتابة السرّ فذکر له جماعة و بذلوا له مالا، له صورة، فلم يلتفت السلطان إلى ذلک و أراد من يکون کفئا لهذه الوظيفة التى يکون متولّيها صاحب لسان و قلم فلم يجد غير الکلستانى المذکور، و کان أهلا لها، فطلبه و ولّاه کتابة السرّ، فباشرها على أحمل وجه. انتهى.

ثمّ قدم على السلطان رسل طقتمش خان صاحب کرسى بلاد القفجاق بأنه يکون عونا مع السلطان على تيمور لنک، فأجابه السلطان لذلک.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج١٢، ص: ٥٩

ثم قـدمت رسل خونـدكار يلـدرم با يزيد بن عثمان متملّک بلاد الروم بأنّه جهز لنصـرة السـلطان مائتى ألف درهم، و أنّه ينتظر ما يرد عليه من جواب السلطان ليعتمده.

ثمّ قـدم رسول القاضـى برهان الـدين أحمـد صاحب سـيواس بأنّه فى طاعة السـلطان و يترقّب ورود المراسـيم السـلطانية الشـريفة عليه بالمسير إلى جهة يعيّنه السلطان إليها، عند قدوم تيمور، فكتب جواب الجميع بالشكر و الثناء و بما اختاره السلطان.

ثمّ فى أوّل ذى القعدة خرج السلطان من دمشق يريد البلاد الحلبية و سار حتى دخلها فى العشر الأوسط من ذى القعدة.

و بعد دخوله حلب بأيام قليلة، عزل نائبها الأمير جلبان من كمشـبغا الظاهرىّ المعروف بقراسقل، و خلع على الوالد باستقراره عوضه فى نيابة حلب، و أنعم على الأمير جلبان المذكور بإقطاع الوالد و إمرته، و هى إمرة مائة و تقدمة ألف بالديار المصـرية، و لم يستقرّ به فى وظيفته، و كانت وظيفة الوالد قبل نيابة حلب رأس نوبة النّوب.

ثم أمسـک السـلطان الأـمير دمرداش المحمـدىّ نـائب طرابلس و حبسه و خلع على الأمير أرغون شاه الإبراهيمى الظاهرىّ نائب صـفد باسـتقراره عوضه فى نيابة طرابلس، و خلع على الأمير آقبغا الجمالى الظاهرى أتابک حلب باسـتقراره فى نيابة صفد، عوضا عن أرغون شـاه الإـبراهيمى، و خلع على الأمير دقماق المحمّـدىّ الظاهرىّ باسـتقراره فى نيابـة ملطيـة، و على الأمير كور مقبل باسـتقراره فى نيابة طرسوس.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج١٢، ص: ٦٠

ثم قبض السلطان على عدّة أمراء من أمراء حلب: منهم الأمير ألطنبغا الأشرفى، و الأمير تمرباى الأشرفى، و قطلوشاه المارديني، و حبس الجميع بقلعة حلب و انفضّ الموكب، و الوالد واقف لم يتوجه، فقال له السلطان: لم لا تتوجه! فقال:

يا مولانا السـلطان! أستحى أنزل من الناس يمسک أخى دمرداش نائب طرابلس و أتولّى أنا نيابة حلب! و ما يقبل السلطان شفاعتى فيه، فقال له السلطان: قبلت شفاعتک فيه، غير أنه يمکث فى السجن أيّاما، ثم أفرج عنه لأجلک، لئلا يقال:

يمسـک السـلطان نـائب طرابلس و يطلقه من يومه! فيصـير ذلک وهنا فى المملکـة، فقال: - الوالـد رحمه اللّه-: السـلطان يتصـرّف فى مماليكه كيف يشاء، ما علينا من قول القائل! ثم قبّل الأرض و يد السـلطان، فتبسّم السـلطان، و أمر بإطلاق دمرداش و حضوره، فحضـر من وقته، فخلع عليه بأتابكية حلب عوضا عن آقبغا الجمالى المستقرّ فى نيابة صفد، ثم قال له السلطان: خذ أخاک و انزل، فكانت

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج١٢، ص: ٦١

هذه الواقعة أول عظمة نالت الوالد من أستاذه الملک الظاهر برقوق انتهى هذا الخبر.

و الأخبار ترد على السـلطان شـيئا بعد شـىء من بلاد الشمال بعود تيمور لنک إلى بلاده و السلطان لا يصدّق ذلک. و يتقحّم على لقاء تيمور لنک، فلم يجسـر تيمور على القـدوم إلى البلاد الشاميـة مخافة من الملک الظاهر برقوق، و توجّه إلى بلاده، فلما تحقّق السـلطان عوده تأسّف على عدم لقائه، و خرج من حلب بعساكره فى سابع محرّم سـنة سبع و تسعين و سبعمائة يريد دمشق، فوصلها و لم يقم بها إلا أياما قليلة لطول إقامته بها فى ذهابه، و خرج منها بعساكره فى سابع عشـر المحرّم المذكور، يريد الديار المصـرية، بعد أن خلع على الأمير بتخاص السودونىّ حاجب حجّاب الديار المصـرية باسـتقراره فى نيابة الكرک، عوضا عن الأمير شـهاب الدين أحمد ابن الشـيخ علىّ، و نقل الشـهابىّ المـذكور إلى حجوبية دمشق الكبرى، عوضا عن الأمير تمربغا المنجكى بحكم قدوم تمربغا المنجكىّ إلى مصـر صحبة السلطان، و سار السلطان إلى أن وصل مدينة قطيا، فأمسک مملوكه الأمير جلبان الكمشبغاوىّ قراسقل المعزول عن نيابة حلب و بعثه من قطيـا فى البحر إلى ثغر دمياط، و سار السـلطان من قطيا حتى وصل إلى ديار مصـر فى ثامن عشـر صـفر، و طلع إلى القلعـة من يومه، بعد أن احتفل

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج١٢، ص: ٦٢

الناس لطلوعه، و زيّنت القاهرة أياما، غير أن الغلاء كان حصل قبل قدوم السلطان، فتزايد بعد حضوره لكثرة العساكر.

و من يومئذ صفا الوقت للملك الظاهر، و صارت مماليكه نوّاب البلاد الشامية من أبواب الروم إلى مصر، و أخذ السلطان يكثر من الركوب و التوجّه إلى الصيد، و عمل له الأمير تمربغا المنچكى شرابا من زبيب، يسمى التمر بغاوى، و أقبل السلطان على الشرب منه مع الأمراء، و لم يكن يعرف منه السّكر قبل ذلك.

ثمّ أنعم السلطان على الأمير فارس من قطلوجا الظاهرى الأعرج بإمرة مائة و تقدمة ألف و ولّاه حجوبية الحجاب عوضا عن بتخاص السودونى المستقر فى نيابة الكرك. و أنعم على الأمير نوروز الحافظى الظاهرى بإمرة مائة و تقدمة ألف بالديار المصرية، عوضا عن الوالد، و هو الإقطاع الذى كان أنعم به السلطان على جلبان نائب حلب.

ثم أنعم السلطان على الأمير أرغون شاه البيدمرى بإمرة مائة و تقدمة ألف، و أنعم السلطان أيضا على كل من تمربغا المنجكى، و صلاح الدين محمد بن محمد تنكز و صرغتمش المحمدى الظاهرى بإمرة طبلخاناه، و أنعم أيضا على كل من مقبل الرومى، و آقباى من حسين شاه الظاهرىّ، و آق بلاط الأحمدى، و منكلى بغا الناصرى بإمرة عشرة.

ثم بعد أشهر خلع السلطان على الأمير نوروز الحافظى الظاهرى باستقراره رأس نوبة النوب، عوضا عن الوالد بحكم انتقاله إلى نيابة حلب، و كانت شاغرة من تلك الأيام.

ثم قبض السلطان على الأمير محمود بن على الأستادار المعروف بابن أصفر، عيّنه فى صفر سنة ثمان و تسعين، و على ولده و على كاتبه، سعد الدين إبراهيم بن غراب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١٢، ص: ٦٣

و خلع السلطان على قطلوبك العلائى أستادار الأمير أيتمش باستقراره فى الأستادارية، عوضا عن محمود المذكور، و أنعم السلطان عليه بإمرة عشرين، و استمرّ محمود على إمرته و هو مريض محتفظ به، و خلع السلطان أيضا على سعد الدين إبراهيم بن غراب كاتب محمود باستقراره ناظر ديوان المفرد و هذا أول ظهور ابن غراب فى الدولة الظاهرية، و استمال السلطان ابن غراب، فأخذ يدلّ على ذخائر أستاذه محمود، و محمود فى المصادرة إلى أن أظهر شيئا كثيرا من المال.

ثم أنعم السلطان على جماعة من مماليكه بإمرة طبلخاناه و هم: طولو من على باشاه الظاهرى، و يلبغا الناصرىّ الظاهرىّ، و شاذى خجا الظاهرى العثمانى، و قينار العلائى، و أنعم أيضا على جماعة بإمرة عشرة و هم: طيبغا الحلبى الظاهرى، و سودون من علىّ باشاه الظاهرى المعروف بسودون طاز، و يعقوب شاه الخازندار الظاهرى و يشبك الشعبانى الخازندار و تمان تمر الإشقتمرىّ رأس نوبة الجمدارية.

ثم خلع السلطان على الأمير فارس الحاجب باستقراره فى نظر الشيخونية و خلع على الأمير تمربغا المنجكىّ حاجبا ثانيا بتقدمة ألف.

و فى هذه الأيام عظم الغلاء و فقد الخبز من الدكاكين.

و فى آخر ذى العقدة استقرّ سعد الدين إبراهيم بن غراب كاتب محمود فى وظيفة نظر الخاصّ بعد القبض على سعد الدين بن أبى الفرج بن تاج الدين موسى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١٢، ص: ٦٤

ثم رسم السلطان بإحضار الأمير محمود فحمل إلى بين يدى السلطان، و هو فى ألم عظيم من العصر و الضرب و العقوبة، فانتصب إليه كاتبه سعد الدين إبراهيم بن غراب فى محاققته و الفحش له فى الكلام، حتى امتلأ السلطان غضبا على محمود و أمر بعقوبته حتى يموت من عظم ما أغراه سعد الدين المذكور به.

ثم ورد الخبر بقدوم الأمير تنم الحسنىّ نائب الشام، و كان خرج بطلبه الأمير سودون طاز، و قدم من الغد فى يوم الاثنين ثالث صفر سنة تسع و تسعين و سبعمائة، بعد أن خرج السلطان إلى لقائه بالرّيدانيّة، و جلس له على مطعم الطير، و بعث الأمراء و القضاة إليه فسلّموا عليه، ثم أتوا به، فقبّل الأرض، فخلع عليه خلعة باستمراره على نيابة دمشق.

ثم قدّم من الغد تقدمته، و كانت تقدمة جليلة، و هى عشرة كواهى و عشرة مماليك صغار فى غاية الحسن، و عشرة آلاف دينار، و ثلاثمائة ألف درهم فضة، و مصحف عليه قراءات و سيف مسقّط ذهب مرصّع، و عصابته منسبكة من ذهب مرصّع، بجوهر نفيس و بدلة فرس من ذهب، فيها أربعمائة مثقال ذهب، و كان أجرة صائغها ثلاثة آلاف درهم فضّة، و مائة و خمسين بقجة فيها أنواع الفرو، و مائة و خمسين

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١٢، ص: ۶۵

فرسا، و خمسين جملا، و خمسة و عشرين حملا من نصافى و نحوه، و ثلاثين حملا فاكهة و حلوى، فخلع السلطان على أرباب الوظائف.

ثم نزل السلطان بعد أيام إلى برّ الجيزة، و معه الأمير تنم و غيره، و تصيّد ببرّ الجيزة.

ثم عاد. و عمل السلطان الموكب بدار العدل فى يوم سابع عشر صفر من سنة تسع و تسعين المذكورة، و خلع على الأمير تنم خلعة الاستمرار ثانيا، و جرّت له من الإسطبل ثمانى جنائب بكنابيش و سروج ذهب، فتقدّم تنم، و شفع فى الأمير جلبان الكمشبغاوى المعزول عن نيابة حلب، فقبل السلطان شفاعته، و خرج البريد بطلبه من ثغردمياط، فقدم بعد أيام، و قبّل الأرض بين يدى السلطان، فأنعم عليه السلطان بإقطاع الأمير إياس الجرجاوى و خلع عليه بأتابكية دمشق عوضا عن

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١٢، ص: ۶۶

إياس المذكور بحكم القبض عليه و حضوره إلى الديار المصرية، و بعث إليه ثمانية أفراس بقماش ذهب (أعنى عن جلبان).

ثم أمر السلطان أن يسلّم الأمير إياس الجرجاوى إلى ابن الطبلاوى ليخلّص منه الأموال، فأحده ابن الطبلاوىّ فالتزم بحمل خمسمائة ألف درهم و بعث مملوكه لإحضار ماله و هو مريض، فمات إياس بعد يومين، و اختلف الناس فى موته، فمنهم من قال: إنه كان معه خاتم فيه سمّ فشربه فمات منه قهرا مما فعله معه الملك الظاهر، و منهم من قال: إنه مات من مرضه. و اللّه أعلم بحاله.

ثم فى يوم الخميس رابع شهر ربيع الأول أمسك السلطان الوزير سعد الدين نصر اللّه بن البقرىّ و ولده تاج الدين و سائر حواشيه، و خلع على بدر الدين محمد بن محمد بن الطّو؟؟؟ و استقر عوضه فى الوزارة و استقر فى نظر الدولة سعد الدين ابن الهيصم.

ثم خلع السلطان على شرف الدين محمد بن الدّمامينى باستقراره فى وظيفة نظر الجيش بديار مصر بعد موت القاضى جمال الدين محمود القيصرى العجمىّ، نقل إليها من حسبة القاهرة.

ثم من الغد فى يوم الثلاثاء تاسع شهر ربيع الأول المذكور استقر القاضى شمس الدين محمد بن أبى بكر الطرابلسى قاضى قضاة الحنفية بالديار المصرية عوضا عن جمال الدين محمود القيصرى المقدّم ذكره.

ثم فى خامس عشرينه قدمت هدية ممهّد الدين إسماعيل ابن الملك الأفضل عباس بن المجاهد على بن داود بن يوسف بن عمر بن رسول ملك اليمن صحبة التاجر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١٢، ص: ۶۷

برهان الدين إبراهيم المحلّى و الطواشى افتخار الدين فاخر، و هى عشرة خدّام طواشية و بعض عبيد حبوش و ست جوار و سيف بحلية ذهب مرصّع بعقيق و حياصة بعواميد عقيق مكلّلة بلؤلؤ كبار و وجه فرس عقيق و مرآة هندية محلّاة بفضّة قد رصعت بعقيق و براشم برسم الخيول عشرة و رماح عدّة مائتين و شطرنج عقيق أبيض و أحمر و أربع مراوح مصفّحة بذهب و مسك ألف مثقال و سبعون أوقية زباد و مائة مضرّب غالية و مائتان و ستة عشر رطلا من العود و ثلاثمائة و أربعون رطلا من اللّبان و ثلاثمائة و أربعة و ستون رطلا من الصّيندل و أربعة برانى من الشّند و سبعمائة رطل من الحرير الخام و من البهار و الاقطاع و الصينى و غير ذلك من تحف اليمن؟؟؟ كثير.

ثم فى يوم الخميس ثانى جمادى الأولى نقل الأمير جمال الدين محمود الأستادار إلى خزانة شمائل و هو مريض.

و فى سادس عشر جمادى الآخرة أنعم على الأمير بيسق الشّيخىّ بإمرة طبلخاناه.

ثم خلع السلطان على الأمير صرغتمش القزوينى باستقراره فى نيابة الإسكندرية بعد عزل الأمير قديد عنها و نفيه إلى القدس بطّالا، و أنعم السلطان على الأمير شيخ

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۶۸

المحمودى الساقى الظاهرى (أعنى عن الملك المؤيّد) بإمرة طبلخاناه، عوضا عن صرغتمش القزوينى المتولى نيابة الإسكندرية و أنعم بإقطاع شيخ المحمودى و هو إمرة عشرة على الأمير طغنجى نائب البيرة، و أنعم السلطان أيضا على يشبك العثمانى الظاهرى بإقطاع الأمير صلاح الدين محمد بن محمد بن تنكز.

ثم فى سادس عشرينه استقرّ الأمير يلبغا الأحمدى الظاهرى المعروف بالمجنون أستادار السلطان، عوضا عن قطلوبك العلائى و استقرّ قطلوبك على إمرة عشرين.

ثم فى يوم الاثنين ثامن محرم سنة ثمانمائة توجّه السلطان إلى سرحة سرياقوس بعساكره و حريمه على العادة فى كل سنة، فأقام به أياما على ما يأتى ذكره.

و فى ثانى عشر المحرم المذكور خرج الأمير بكتمر جلّق الظاهرى على البريد إلى حلب لإحضار الوالد- رحمه اللّه و عفا عنه- بعد عزله عن نيابة حلب و كتب بانتقال الأمير أرغون شاه الإبراهيمى الظاهرى نائب طرابلس إلى نيابة حلب عوضا عن الوالد، و خرج الأمير يشبك العثمانى بتقليد أرغون شاه المذكور، و رسم بانتقال الأمير آقبغا الجمالى الظاهرىّ من نيابة صفد إلى نيابة طرابلس عوضا عن أرغون شاه المذكور، و توجّه بتقليده الأمير أزدمر أخو إينال و معه أيضا خلعة للأمير تنم الحسنى باستمراره فى نيابة الشام، و رسم بانتقال الأمير شهاب الدين أحمد ابن الشيخ على حاجب حجّاب دمشق إلى نيابة صفد عوضا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۶۹

عن آقبغا الجمالى المذكور، و حمل إليه التقليد و التشريف الأمير يلبغا الناصرى الظاهرى رأس نوبة.

ثم قدم فى هذه الأيام جماعة من سوابق الحاجّ و أخبروا أنه هلك بالسبع و عرات من شدّة الحر نحو ستمائة إنسان.

ثم عاد السلطان من سرحة سرياقوس فى خامس عشرينه و لم يخرج إليها بعد ذلك، و لا أحد من السلاطين و بطلت عوائدها و خرّبت تلك القصور، و كانت من أجمل عوائد الملوك و أحسنها، و كان النزول إلى سرياقوس يضاهى نزول السلطان إلى الميدان فالميادين أبطلها الملك الظاهر و سرياقوس أبطله الملك الناصر، ثم صار كل ملك يأتى بعد ذلك يبطل نوعا من نراتيب مصر، حتى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۷۰

ذهب الآن جميع شعار الملوك السالفة و صار الفرق بين سلطنة مصر و نيابة الأبلستين اسم السلطنة و لبس الكلفتاة فى المواكب لا غير.

قلت: و الفرق بين براعة الاستهلال و بين براعة المقطع واضح.

ثم فى يوم الاثنين تاسع عشرين المحرّم من سنة ثمانمائة المذكورة قبض السلطان فى وقت الخدمة بالقصر على الأمير الكبير كمشبغا الحموىّ أتابك العساكر بالديار المصرية و على الأمير بكلمش العلائىّ أمير سلاح، و قيّدا و حبسا بقلعة الجبل، يأتى ذكر السبب على قبضهما فى الوفيات، و فى هذه الترجمة- إن شاء اللّه تعالى-.

ثم نزل فى الحال الأمير قلمطاى الدوادار، و الأمير نوروز الحافظىّ رأس نوبة النّوب، و الأمير فارس حاجب الحجّاب إلى الأمير شيخ الصّفوى أمير مجلس و معهم خلعة له بنيابة غزّة، فلبسها شيخ المذكور و خرج من وقته و نزل بخانقاه سرياقوس.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۷۱

ثم فى ليلة الثلاثاء سلخه توجّه الأمير سودون الطيّار الظاهرى بالأتابك كمشبغا و بكلمش فى الحديد إلى سجن الإسكندرية فسجنا

بها، و فى الغد استعفى الأمير شيخ الصّفوىّ من نيابة غزّة و سأل الإقامة بالقدس فرسم له بذلك.

و فى يوم الخميس ثانى صفر استقرّ الأمير أيتمش البجاسىّ أتابك العساكر بالديار المصرية عوضا عن كمشبغا الحموى و أنعم السلطان على أيتمش المذكور و على قلمطاى الدوادار، و على الأمير تنبك اليحياوى الأمير آخور بعدّة بلاد من إقطاع كمشبغا المذكور زيادة على ما بأيديهم و أنعم ببقيّة إقطاع كمشبغا على الأمير سودون المعروف بسيّدى سودون ابن أخت الملك الظاهر و جعله من جملة أمراء الألوف بالديار المصرية و أنعم بإقطاع سيّدى سودون المذكور على ولد السلطان الأمير عبد العزيز ابن الملك الظاهر برقوق.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١٢، ص: ٧٢

ثمّ أنعم السلطان بإقطاع بكلمش العلائى على الأمير نوروز الحافظىّ رأس نوبة النّوب.

و أنعم بإقطاع نوروز المذكور على الأمير أرغون شاه البيدمرىّ الظاهرى و أنعم بإقطاع أرغون شاه على الأمير يلبغا المجنون الأستادار و الجميع تقادم ألوف لكنّ التفاوت بينهم فى زيادة المغلّ و الخراج.

ثم عيّن السلطان الأمير شيخ الصفوىّ أمير مجلس للوالد قبل قدومه إلى القاهرة من نيابة حلب.

ثم فى رابعه استقر الأمير باى خجا الشّرفى الأمير آخور المعروف بطيفور فى نيابة غزة.

ثم فى تاسع صفر استقر الأمير بيبرس ابن أخت السلطان أمير مجلس عوضا عن شيخ الصفوى المقدّم ذكره.

ثم فى سابع عشرين صفر أنعم السلطان على الأمير بهادر فطيس بإمرة طبلخاناه، عوضا عن طيفور بحكم انتقاله إلى نيابة غزّة، و استقر عوضه أيضا فى الأمير آخورية الثانية و أنعم بإقطاع بهادر فطيس المذكور، و هو إمرة عشرة على يلبغا السالمىّ الظاهرى.

و فى ليلة الجمعة ثانى شهر ربيع الأول عمل السلطان المولد النبوىّ على العادة فى كلّ سنة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١٢، ص: ٧٣

قلت: نذكر صفة ما كان يعمل بالمولد قديما ليقتدى به من أراد تجديده فلمّا كان يوم الخميس المذكور، جلس السلطان بمخيّمه بالحوش السلطانى، و حضر القضاة و الأمراء و مشايخ العلم و الفقراء، فجلس الشيخ سراج الدين عمر البلقينى عن يمين السلطان، و تحته الشيخ برهان الدين إبراهيم بن زقّاعة، و جلس على يسار السلطان الشيخ المعتقد أبو عبد اللّه المغربى، ثم جلس القضاة يمينا و شمالا على مراتبهم، ثم حضر الأمراء فجلسوا على بعد من السلطان، و العساكر ميمنة و ميسرة فقرأت الفقهاء، فلمّا فرغ القرّاء و كانوا عدّة جوق كثيرة، قام الوعاظ واحدا بعد واحد، و هو يدفع لكل منهم صرّة فيها أربعمائة درهم فضة، و من كلّ أمير شقّة حرير خاصّ و عدّتهم عشرون واحدا.

و أنعم أيضا على القرّاء لكل جوقة بخمسمائة درهم فضة و كانوا أكثر من الوعّاظ، ثم مدّ سماط جليل يكون مقداره قدر عشرة أسمطة من الأسمطة الهائلة، فيه من الأطعمة الفاخرة ما يستحى من ذكره كثرة، بحيث إن بعض الفقراء أخذ صحنا فيه من خاصّ الأطعمة الفاخرة فوزن الصحن المذكور فزاد على ربع قنطار.

و لمّا انتهى السّماط مدّت أسمطة الحلوى من صدر المخيّم إلى آخره.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١٢، ص: ٧۴

و عند فراغ ذلك مضى القضاة و الأعيان و بقى السلطان فى خواصّه و عنده فقراء الزوايا و الصوفية، فعند ذلك أقيم السّماع من بعد ثلث الليل إلى قريب الفجر و هو جالس عندهم و يده تملأ من الذهب، و تفرّغ لمن له رزق فيه و الخازندار يأتيه بكيس بعد كيس، حتى قيل: إنّه فرّق فى الفقراء و مشايخ الزوايا و الصوفية فى تلك الليلة أكثر من أربعة آلاف دينار.

هذا، و السّماط من الحلوى و الفاكهة يتداول مدّة بين يديه، فتأكله المماليك و الفقراء و تكرّر ذلك أكثر من عشرين مرّة.

ثم أصبح السلطان ففرّق فى مشايخ الزوايا القمح من الأهراء لكل واحد بحسب حاله و قدر فقرائه، كلّ ذلك خارج عمّا كان لهم من

الرواتب علیه فی کلّ سنة حسب ما یأتی ذکر ذلک فی آخر ترجمة الملک الظاهر بعد وفاته.

ثم فی خامس عشر شهر ربیع الأوّل المذکور قدم الوالد إلی القاهرة معزولا عن نیابة حلب.

فنزل السلطان الملک الظاهر إلی لقائه، قال الشیخ تقیّ الدین المقریزیّ- رحمه اللّه-: «و فی خامس عشر شهر ربیع الأوّل قدم الأمیر تغری بردی الیشبغاوی من حلب بتجمّل زائد عظیم إلی الغایة، فخرج السلطان و تلقّاه بالمطعم من الریدانیة خارج القاهرة، و سار معه من غیر خلعة، فلمّا قارب القلعة أمره

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۷۵

بالتوجّه إلی حیث أنزله و بعث إلیه بخمسة أفراس بقماش ذهب و خمس بقج فیها قماش مفصّل له مفرّی؟ انتهی کلام المقریزی.

قلت: و قوله: و عاد معه بغیر خلعة هی العادة، فإنّه منفصل عن نیابة حلب و لم یعط إلی الآن وظیفة حتی یلبس خلعتها.

و فی سابع عشره قدّم الوالد تقدمته إلی السلطان، و کانت نیّفا و عشرین مملوکا و خمسة طواشیة بیض من أجمل الناس، من جملتهم: خشقدم الیشبکی مقدّم الممالیک السلطانیة فی دولة الملک الأشرف برسبای، أنعم به الملک الظاهر علی فارس الحاجب، ثم ملکه یتسبک الشعبانی بعده و أعتقه، و ثلاثین ألف دینار مصریة، و مائة و خمسة و عشرین فرسا، و عدّة جمال بخاتی تزید علی الثمانین، و أحمالا من البقج، فیها من أنواع الفرو و الشقق الحریر و أثواب الصوف و المخمّل زیادة علی مائة بقجة، فآبتهج السلطان بذلک و قبله، و خلع علی أصحاب وظائف الوالد، و نزلوا فی غایة الجبر.

حکی لی بعض أعیان الظاهریة، قال: لما رأی الملک الظاهر تقدمة والدک تعجّب غایة العجب من حسن سیرته و قلّة ظلمه بحلب، و مع هذا کیف قام بهذه التقدمة الهائلة مع کثرة ممالیکه و خدمه.

و کان سبب عزل الوالد- رحمه اللّه- عن نیابة حلب، شکوی الأمیر تنم الحسنی نائب الشام منه للملک الظاهر، و رماه بالعصیان و الخروج عن الطاعة،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۷۶

و خبر ذلک: أن الوالد و تنم لمّا توجّها فی السنة الماضیة إلی سیواس و غیرها بأمر الملک الظاهر و تلاقی الوالد مع تنم بظاهر حلب و عادا جمیعا إلی حلب و کلّ منهما سنجقه منتصب علی رأسه، فعظم ذلک علی تنم، کون العادة إذا حضر نائب الشام یصیر هو رأس العساکر و ینزل نائب حلب سنجقه، فلمّا سارا و کلّ منهما سنجقه علی رأسه، تکلّم سلحداریة تنم مع سلحداریّة الوالد فی نزول السّنجق، فلم یفعل حامل السنجق، فخرجا من القول إلی الفعل، و تقاتل الفریقان بالدبابیس بسبب ذلک، و کادت الفتنة تقع بینهما، و الوالد یتجاهل عمّا هم فیه، حتی التفت تنم و نهی ممالیکه عن القتال، و سار کلّ واحد و سنجقه علی رأسه، حتی نزلا بمخیّمهما، فاستشهد تنم أمراء دمشق بما وقع من الوالد و ممالیکه، و کتب للسلطان بذلک فلم یشکّ السلطان فی عصیانه، و کتب بعزله و طلبه إلی القاهرة.

و أما الوالد لمّا نزل بمخیّمه کلّمه بعض أعیان ممالیکه فیما وقع، فقال الوالد:

أنا خرجت من مصر جندیّا حتی أنزل سنجقی، أشار بذلک أنه ولی نیابة حلب و هو رأس نوبة النوب، و أن تنم ولی أتابکیة دمشق، و هو أمیر عشرة بمصر قبل ولایته نیابة دمشق، ثم نقل من أتابکیة دمشق إلی نیابتها، یعنی بذلک أن تنم لم تسبق له ریاسة بمصر قبل ولایته نیابة دمشق، فلمّا بلغ تنم ذلک قامت قیامته. انتهی.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۷۷

ثم أنعم السلطان علی سودون بن زادة بإمرة عشرة، بعد موت الأمیر طوغان الشاطر.

ثم نزل السلطان و عاد الأمیر قلمطای الدّوادار، ففرش قلمطای تحت حوافر فرسه الشّقق الحریر، مشی علیها السلطان من باب داره حتی نزل بالقصر، فمشی من باب القصر علی الشقق النخ المذهب حتی جلس، فقدّم إلیه طبقا فیه عشرة آلاف دینار و خمسا و عشرین بقجة

قماش، و تسعة و عشرين فرسا و مملوكا تركيا بديع الحسن، فقبل الملك الظاهر ذلك كله، و رجع إلى القلعة، و فى حال رجوعه قدم عليه الخبر بأن تيمور لنك سار من سمرقند إلى بلاد الهند و أنه ملك مدينة دلّى.

ثم فى يوم الخميس العشرين من شهر جمادى الأولى خلع السلطان على قاضى القضاة جمال الدين يوسف بن موسى بن محمد الملطى باستقراره قاضى قضاة الحنفية بالديار المصرية، بعد موت شمس الدين محمد الطرابلسى، بعد ما شغر قضاء الحنفية بمصر مائة يوم و أحد عشر يوما، حتى طلب جمال الدين المذكور لها من حلب و قدم على البريد.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١٢، ص: ٧٨

قلت: هكذا تكون ولاية القضاء.

ثم أنعم السلطان على الأمير علىّ باى بإمرة مائة و تقدمة ألف عوضا عن الأمير تنبك الأمير آخور بعد موته.

ثم بعد أيام أنعم على الأمير يشبك العثمانى بإمرة مائة و تقدمة ألف بعد موت الأمير قلمطاى العثمانى الدوادار، و أنعم على الأمير أسنبغا العلائى الدوادار الثانى بطبلخانات الأمير بكتمر الركنى، و كان بكتمر المذكور أخذ طبلخاناه الأمير علىّ باى المنتقل إلى تقدمة تنبك الأمير آخور.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة؛ ج١٢؛ ص٧٨

ّ أنعم السلطان على آقباى الطّرنطائى بإمرة طبلخاناه، و على تنكزبغا الحططى بإمرة عشرين.

و فى يوم تاسع عشرين جمادى الأولى خلع السلطان على جماعة من الأمراء بعدة وظائف، فخلع على الوالد باستقراره أمير سلاح عوضا عن بكلمش العلائى، بعد ما شغرت أشهرا و على الأمير آقبغا الطولوتمرى الظاهرى المعروف باللّكّاش باستقراره أمير مجلس عوضا عن بيبرس ابن أخت السلطان، و على نوروز الحافظى رأس نوبة النوب باستقراره أمير آخور كبيرا، بعد موت الأمير تنبك و على الأمير بيبرس ابن أخت السلطان باستقراره دوادارا كبيرا، عوضا عن الأمير قلمطاى، بعد موته و على الأمير علىّ باى الخازندار باستقراره رأس نوبة النوب عوضا عن نوروز الحافظى و على يشبك الشعبانى باستقراره خازندارا عوضا عن علىّ باى المذكور.

ثمّ فى ليلة الجمعة ثامن شعبان أمسك السلطان الأمير علاء الدين علىّ بن الطبلاوى و أمسك أخاه ناصر الدين محمدا والى القاهرة و جماعة من ألزامه و أوقع الحوطة على دورهم و تسلمه الأمير يلبغا الأحمدى المجنون الأستادار ليخلّص منه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١٢، ص: ٧٩

الأموال، فأخذه يلبغا و توجّه به إلى دار ابن الطبلاوى و أخذ منها مالا و قماشا بنحو مائة و ستين ألف دينار.

ثم أخذ منها أيضا بعد أيام ألفا و مائة قفّة فلوسا و صرفها ستمائة ألف درهم، و من الدراهم الفضّة خمسة و ثمانين ألف درهم فضة، و استمر علاء الدين فى المصادرة و خلع السلطان على الأمير الكبير أيتمش البجاسى باستقراره فى نظر البيمارستان المنصورى عوضا عن ابن الطّبلاوى المذكور و من يومئذ استمر نظر البيمارستان مع كلّ من يلى الأتابكية بمصر.

ثم بعد أيام طلب ابن الطّبلاوى الحضور بين يدى السلطان، فأذن له السلطان فى ذلك، فحضر فى الحديد، بعد أن عوقب أياما كثيرة، و طلب من السلطان أن يدنيه منه، فاستدناه، حتى بقى من السلطان على قدر ثلاثة ادرع، فقال له:

تكلّم، قال: أريد أن أسارّ السلطان فى أذنه، فلم يمكّنه من ذلك، فألّح عليه ابن الطبلاوى فى مسارّة السلطان فى أذنه، حتى استراب منه و أمر بإبعاده و استخلاص المال منه، فأخذه يلبغا و أخرجه من مجلس السلطان إلى باب النحاس من القلعة، فجلس ابن الطبلاوى هناك ليستريح فضرب نفسه بسكّين كانت معه ليقتل نفسه و جرح فى موضعين من بدنه، فمسكوه و منعوه من قتل نفسه و أخذوا السكين منه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١٢، ص: ٨٠

و بلغ السلطان ذلك، فلم يشكّ أنه أراد الدنوّ من السلطان حتى يقتله بتلك السكين التى كانت معه.

فلمّا فاته السلطان ضرب نفسه، فعند ذلک أمر السلطان بتشدید عقوبته فعاقبه یلبغا المجنون، فدلّ علی خبیئة فیها ثلاثون ألف دینار، ثم أخری فیها تسعون ألف دینار، ثم أخری فیها عشرون ألف دینار و دام فی العقوبة، ثم نقله یلبغا المجنون إلی خزانة شمائل.

ثمّ فی خامس عشر شوال ختن السلطان الملک الظاهر ولدیه. الأمیر فرجا و الأمیر عبد العزیز و ختن معهما عدّة من أولاد الأمراء المقتولین، منهم: ابن الأمیر منطاش و غیره و أنعم علیهم بقماش و ذهب و عمل السلطان مهمّا عظیما بالقلعة للنساء فقط و لم یعمل للرجال، مخافة علی الأمراء من الکلف.

و فی یوم السبت ثانی عشر ذی القعدة عمل السلطان مهمّا عظیما بالمیدان تحت القلعة، سببه: أنه لعب بالکرة مع الأمراء علی العادة، فغلب السلطان الأمیر

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۸۱

الکبیر أیتمش البجاسی، فلزم أیتمش عمل مهمّ بمائتی ألف درهم فضة، کونه غلب، فقام عنه السلطان بذلک و ألزم السلطان الوزیر بدر الدین محمد بن الطوخی و الأمیر یلبغا الأستادار و نصبت الخیم بالمیدان و عمل المهم، و کان فیه من اللحم عشرون ألف رطل و مائتا زوج إوز و ألف طائر من الدّجاج و عشرون فرسا و ثلاثون قنطارا من السکر و ثلاثون قنطارا من الزبیب عملت أقسما و ستون إردبا دقیقا لعمل البوزا و عملت المسکرات فی دنان من الفخّار.

و نزل السلطان سحر یوم السبت المذکور، و فی عزمه أن یقیم نهاره مع الأمراء و الممالیک، یعاقر الشراب، فأشار علیه بعض ثقاته بترک ذلک و خوّفه العاقبة، فمدّ السّماط و عاد إلی القصر، قبل طلوع الشمس، و أنعم علی کلّ من الأمراء المقدّمین بفرس بقماش ذهب، و أذن السلطان للعامّة فی انتهاب ما بقی من الأکل و الشراب، قال المقریزی: «فکان یوما فی غایة القبح و الشّناعة أبیحت فیه المسکرات و تجاهر الناس فیه بالفواحش، بما لم یعهد مثله، و فطن أهل المعرفة بزوال الأمر، فکان کذلک، و من یومئذ انتهکت الحرمات بدیار مصر و قلّ الاحتشام». انتهی کلام المقریزی.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۸۲

ذکر وقعة علیّ بای مع السلطان الملک الظاهر برقوق

لمّا کان یوم السبت تاسع عشر ذی القعدة من سنة ثمانمائة أو فی النیل و قدم أیضا البرید بقتل سولی بن دلغادر أمیر الترکمان، فرکب السلطان بعد صلاة الظهر یرید المقیاس لیخلّقه و یفتح خلیج السّدّ علی العادة، و معه جمیع الأمراء إلّا الأمیر علیّا بای الخازندار، فإنه کان انقطع بداره أیاما و تمارض و فی باطن أمره أنه قصد الفتک بالسلطان، فإنّه علم أنه إذا نزل لفتح الخلیج یدخل إلیه و یعوده کما جرت به عادته مع الأمراء فدبّر علّی بای علی السلطان و أخلی إسطبله من الخیل و داره من حریمه، و أعدّ قوما اختارهم من ممالیکه، فتهیئوا لذلک فرآهم شخص کان یسکن بأعلی الکبش من الممالیک الیلبغاویّة یسمی سودون الأعور، فرکب إلی

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۸۳

الملک الظاهر فی أثناء طریقه بعد تخلیق المقیاس و فتح خلیج السدّ و أسرّ إلیه أنه شاهد من سکنه ممالیک علیّ بای و قد لبسوا آلة الحرب و وقفوا عند بوائک الخیل من إسطبله و ستروا البوائک بالأنخاخ لیخفی أمرهم، فقال له: السلطان اکتم ما معک، فلم یبد السلطان ذلک إلا لأکابر أمرائه.

ثم أمر السلطان الأمیر أرسطای رأس نوبة أن یتوجّه إلی دار علیّ بای و یعلمه أن السلطان یدخل إلیه لعیادته، فتوجّه أرسطای عادة و أعلم علیّا بای بذلک، فلمّا بلغ علیّا بای أن السلطان یعوده اطمأن و ظنّ أن حیلته تمّت و وقف أرسطای علی باب علیّ بای ینتظر قدوم السلطان، و عند ما بعث السلطان أرسطای إلی علیّ بای أمر الجاویشیة بالسکوت فسکتوا عن الصّیاح أمام السلطان.

ثم أبعد السلطان العصائب السلطانیة عنه و أیضا السّنجق الذی یحمل علی رأس السلطان و تقدّم عنهم حتی صار بینه و بین العصائب

مدى بعيدا من خلفه و سار السلطان كآحاد الأمراء و سار حتى وافى الكبش، و هو تجاه دار علىّ باى و الناس قد اجتمعوا للفرجة على موكب السلطان، فصاحت امرأة من أعلى الكبش على السلطان لا تدخل، فإنّهم قد لبسوا لقتالك، فحرّك السلطان فرسه و أسرع

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١٢، ص: ٨۴

فى المشى و معه الأمراء و من ورائه المماليك الخاصّكيّة يريد القلعة، و كان باب علىّ باى مردود الدّرفتين، و ضبّته مطرقة ليمنع الناس من الدخول إليه، حتى يأتى السلطان، فلمّا مرّ السلطان و لم يعلم به من ندبه علىّ باى لرؤية السلطان و إعلامه به، حتى جاوزهم السلطان بما دبّره السلطان من المكيدة بتأخير العصائب السلطانية و السّنجق و الجاويشيّة و تقدّمه عنهم.

ثم بلغ عليّا باى أن السلطان فاته، فركب و بادر أحد أصحابه يريد فتح الضّبّة فأغلقها، و إلى أن يحضر مفتاح الضّبّة و يفتحونها، فاتهم السلطان و صار بينه و بينهم سدّ عظيم من الجمداريّة و الغلمان و غيرهم، فخرج علىّ باى و من معه من أصحابه لابسين السلاح، و عدّتهم نحو الأربعين فارسا يريدون السلطان، و قد ساق السلطان و معه الأمراء، حتى دخل باب السلسلة و امتنع به، فوقف على باى من معه تجاه باب السلسلة، فنزل إليه فى الحال طائفة من المماليك السلطانية لقتاله، فقاتلهم، و ثبت لهم ساعة حتى جرح من الفريقين جماعة و قتل من المماليك السلطانية بيسق المصارع.

ثم انهزم علىّ باى و تفرّق عنه أصحابه، و قد ارتجت مصر و القاهرة، و ركب يلبغا المجنون الأستادار و معه مماليك لابسين يريد القلعة، و أرجف الناس بقتل السلطان و اشتدّ خوف الرعيّة و تشعّب الذّعر.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١٢، ص: ٨۵

ثم لبست المماليك السلطانية السلاح، و أتى السلطان من كان غائبا عنه من الأمراء و الخاصكيّة و تحلّقوه.

فعندما طلع يلبغا الأحمدىّ المجنون الأستادار إلى السلطان و ثب عليه الخاصكيّة، و اتّهموه بموافقة علىّ باى لكونه جاء هو و مماليكه فى أسرع وقت بآلة الحرب، فأخذه اللّكم من الخاصكيّة من كل جهة، و نزعوا ما عليه من السلاح، و ألقوه إلى الأرض ليذبحوه، لولا أن السلطان منعهم من ذلك، فلمّا كفّوا عن ذبحه سجنوه بالزّردخاناه السلطانية مقيّدا.

ثم قبض على نكباى شادّ شرابخاناه علىّ باى، و قطّع قطعا بالسيوف، فإنّه أصل هذه الفتنة.

و سبب ركوب علىّ باى على السلطان و خبره أن نكباى هذا كان تعرّض لجارية من جوارى الأمير آقباى الطّرنطائى، و صار بينهما مشاكلة، فبلغ ذلك آقباى، فمسك نكباى المذكور و ضربه ضربا مبرّحا ثم أطلقه، فحنق علىّ باى من ذلك، و شكا آقباى للسلطان، فلم يلتفت السلطان إليه، و أعرض عنه، و كان فى زعمه أن السلطان يغضب على أقباى بسبب مملوكه، فغضب علىّ باى من ذلك، و دبّر هذه الحيلة الباردة، فكان فى تدبيره تدميره.

و بات السلطان تلك الليلة بالإسطبل السلطانى، و نهبت العامّة بيت علىّ باى حتى إنهم لم يبقوا به شيئا.

و أما علىّ باى فإنه لما رأى أمره تلاشى ذهب و اختفى فى مستوقد حمّام فقبض عليه و حمل إلى السلطان، فقيّده و سجنه بقاعة الفضّة من القلعة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١٢، ص: ٨۶

فلما أصبح النهار و هو نهار الأحد و العشرين من ذى القعدة نزع العسكر السلاح و تفرّقوا، و طلع السلطان إلى القلعة من الإسطبل و أخذ علىّ باى و عصره، فلم يقر على أحد، و أحضر يلبغا المجنون فخلف علىّ باى أنه لم يوافقه و لا علم بشىء من خبره، و حلف يلبغا أنه لم يعلم بما وقع، و أنه كان مع الوزير بمصر.

فلمّا أشيع بركوب علىّ باى لحق بداره، و لبس السلاح ليقاتل عليّا باى، فأفرج عنه السلطان و خلع عليه باستمراره على الأستاداريّة و نزل إلى داره، فلم يجد بها شيئا، و جميع ما كان فيها نهبته العامّة حتى سلبت جواريه و فرّت امرأته خوند بنت الملك الأشرف شعبان بن حسين، و أخذوا حتى رخام بيته و أبوابه، و تشعّثت داره و صارت خرابا، و الدار هى التى على بركة الناصرى بيت سونجبغا

الناصری الآن.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۸۷

ثم قدم البرید علی السلطان من حلب بأن أولاد ابن بزدغان من التّرکمان و الأمیر عثمان بن طر علی المدعو قرایلک تقاتلوا مع القاضی برهان الدین أحمد صاحب سیواس، فقتل برهان الدین فی المعرکة و قام من بعده ابنه.

ثم فی یوم الاثنین حادی عشرین ذی القعدة جلس السلطان بدار العدل و عصر علیّا بای المذکور فلم یقر علی أحد.

و بینما السلطان فی ذلک إذا بهجّة عظیمة قامت فی الناس، فلبس العسکر و وقفوا تحت القلعة؛ و قد غلقت أبواب القلعة، و أشیع أن یلبغا المجنون، و الأمیر آقبغا الطّولوتمری المعروف باللّکاش أمیر مجلس خامرا علی السلطان، و لم یکن الأمر کذلک و بلغ اللکاش ذلک، فرکب من وقته فطلع إلی القلعة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۸۸

و أمّا یلبغا المجنون فإنه کان فی بیت الأمیر فرج، فرکب فرج المذکور لیعلم السلطان بأنه کان فی داره بالقاهرة حتی یبرأ ممّا رمی به، و طلع فی الحال جمیع الأمراء، فأمر السلطان بقلع السلاح و نزول کلّ أحد إلی داره، و سکن الأمر و نودی بالأمان و الاطمئنان.

ثم فی لیلة الثلاثاء عذّب علی بای أیضا بین یدی السلطان عذابا شدیدا، کسرت فیه رجلاه و رکبتاه و خسف صدره، فلم یقرّ علی أحد، ثم أخذ إلی خارج و خنق، فتنکّرت الأمراء و کثر خوفهم من السلطان، خشیة أن یکون علیّ بای ذکر أحدا منهم من حرارة العقوبة، و من یومئذ فسد أمر السلطان مع ممالیکه الجراکسة، و دخل السلطان إلی زوجته خوند الکبری أرد و کانت ترکیة الجنس، و کانت تحذره عن اقتناء الممالیک الجراکسة و تقول له: اجعل عسکرک أبلق من أربعة أجناس:

تتر و جارکس و روم و ترکمان، تستریح أنت و ذریّتک، فقال لها: الذی کنت أشرت به علیّ هو الصواب، و لکن هذا کان مقدّرا و نرجو اللّه تعالی إصلاح الأمر من الیوم.

ثمّ فی یوم الثلاثاء أمر السلطان الأمیر یلبغا المجنون أن ینفق علی الممالیک السلطانیة، فأعطی الأعیان منهم خمسمائة درهم، فلم یرضهم ذلک و کثرت الإشاعات الردیة و الإرجاف بوقوع فتنة و باتوا لیلة الخمیس علی تخوّف، و لم تفتح الأسواق فی یوم الخمیس، فنودی بالأمان و البیع و الشراء، و لا یتحدّث أحد فیما لا یعنیه.

ثمّ أنعم السلطان علی الأمیر أرسطای بتقدمة علیّ بای، و وظیفته رأس نوبة النّوب، و أنعم علی الأمیر تمان تمر الناصری بإقطاع أرسطای، و الإقطاع: إمرة طبلخاناه.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۸۹

ثم فی سادس عشرینه نزل الأمیر فارس حاجب الحجاب، و الأمیر تمربغا المنجکی أحد أمراء الألوف، و حاجب ثانی، و قبضا علی الأمیر یلبغا الأحمدی الظاهریّ المعروف بالمجنون الأستادار من داره، و بعثاه فی النّیل إلی ثغردمیاط و استقرّ عوضه أستادارا الأمیر ناصر الدین محمد بن سنقر بإمرة خمسین فارسا و أنعم السلطان علی الأمیر بکتمر جلّق الظاهری رأس نوبة بتقدمة ألف عوضا عن یلبغا المجنون.

و فی یوم السبت ثالث ذی الحجة خلع السلطان علی أمیرین باستقرارهما رءوس نوب صغارا و هما: طولو بن علی باشا الظاهری و سودون الظریف الظاهریّ.

و فی یوم الأحد رابع ذی الحجة سمّر السلطان أربعة نفر من ممالیک علیّ بای ثم وسّطوا.

ثم رسم السلطان بإحضار الأمیر بکلمش العلائیّ أمیر سلاح کان من سجنه بالإسکندریة و توجّه إلی القدس بطّالا علی ما کان للأمیر شیخ الصّفوی من المرتّب.

ثمّ استهلّ القرن التاسع: أعنی- سنة إحدی و ثمانمائة- و الخلیفة المتوکّل علی اللّه أبو عبد اللّه محمد العباسی و السلطان الملک

الظاهر أبو سعید برقوق

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۹۰

ابن أنص الجارکسی الیلبغاویّ و القاضی الشافعیّ تقی الدین عبد الرحمن الزّبیری و القاضی الحنفی جمال الدین یوسف الملطیّ و القاضی المالکی ناصر الدین أحمد التّنسی و الحنبلیّ برهان الدین إبراهیم بن نصر اللّه، و الأمیر الکبیر أیتمش البجاسیّ، و أمیر سلاح تغری بردی بن یشبغا الظاهری (أعنی عن الوالد) و أمیر مجلس آقبغا اللکّاش الظاهری، و الأمیر آخور نوروز الحافظی الظاهری، و حاجب الحجاب فارس الظاهری و الدوادار بیبرس ابن أخت الملک الظاهر برقوق و رأس نوبة النّوب أرسطای.

و نوّاب البلاد صاحب مکة المشرفة الشریف حسن بن عجلان الحسنیّ المکّی و أمیر المدینة النبویة- علی ساکنها أفضل الصلاة و السلام- الشریف ثابت بن نعیر الحسینیّ،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۹۱

و نائب الشام الأمیر تنبک الحسنی المعروف بتنم الظاهری، و نائب حلب أرغون شاه الإبراهیمی الظاهری، و نائب طرابلس یونس الظاهری المعروف بیونس بلطا، و نائب حماة آقبغا الجمالی، و نائب صفد شهاب الدین أحمد ابن الشیخ علی و نائب غزّة بیخجا المعروف بطیفور الظاهری، و نائب الإسکندریة صرغتمش القزوینی و جمیع من ذکرنا من النوّاب بالبلاد الشامیة و أصحاب الوظائف بالدیار المصریه هم ممالیک الظاهر برقوق و مشترواته، ما خلا نائب صفد و هو أیضا نشؤه، و الأتابک أیتمش و قد اشتراه بعد سلطنته، حسبما تقدم ذکره أنه اشتراه من أولاد معتق أستاذه.

ثم فی یوم سابع عشر المحرم المذکور سمّر السلطان سبعة نفر من الممالیک یقال لأحدهم: آقبغا الفیل الظاهری و آخر من إخوة علیّ بای ظاهری أیضا و الباقی من ممالیک علیّ بای و شهّروا بالقاهرة، ثم وسّطوا.

و فیه أیضا تنکّر السلطان علی سودون الحمزاوی الخاصّکی الظاهری و ضربه ضربا مبرّحا و سجنه بخزانة شمائل مدّة، ثم أخرجه منفیّا إلی بلاد الشام لأمر اقتضی ذلک.

و فی هذا الشهر توعّک السلطان و حدث له إسهال مفرط لزم منه الفراش مدّة تزید علی عشرین یوما.

و رسم السلطان بتفرقة مال علی الفقراء، ففرّق فیهم، فاجتمع تحت القلعة منهم عالم کثیر و ازدحموا لأخذ الذهب، فمات فی الزّحام منهم سبعة و خمسون شخصا، ما بین رجل و امرأة و صغیر، قاله المقریزی.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۹۲

و فی یوم ثانی عشره رسم السلطان بجمع أهل الإسطبل السلطانی من الأمیر آخوریة و السلاخوریة و نحوهم، فاجتمعوا و نزل السلطان من القصر إلی مقعده بالإصطبل السلطانی، و هو متوعّک البدن لعرضهم، و عرضهم حتی انقضی العرض، فأمسک جرباش الظاهری أحد الأمیر آخوریة الأجناد و قال له بعد ذلک علی ما ذا ترید قتلی و أنا أستاذک! فلم ینزعج جرباش المذکور و قال: بعد أن أشار بیده الی حیاصته: أکون أنا لابس حیاصة و هؤلاء أمراء، و أشار لمن حول السلطان من الأمراء من ممالیکه، و هم الجمیع أقلّ منی و بعدی شریتهم، فأشار السلطان بأخذه، فأخذ و سجن، فکان ذلک آخر العهد به.

ثم عرض السلطان الخیل و فرّق خیل السّباق علی الأمراء، کما کانت العادة یوم ذلک.

ثم عرض الجمال البخاتی، کلّ ذلک تشاغل، و المقصود القبض علی الأمیر نوروز الحافظی الظاهری الأمیر آخور الکبیر، ثم أظهر السلطان أنه تعب و اتّکأ علی الأمیر نوروز و مشی من الإسطبل متکئا علیه، حتی وصل إلی الباب الذی یطلع منه إلی القصر، فأدار السلطان یده علی عنق نوروز المذکور، فبادر الخاصّکیة إلیه باللّکم حتی سقط إلی الأرض، ثم قبضوا علیه و حملوه مقیّدا إلی السجن، و دخل السلطان من الباب و طلع إلی القلعة، و کان للأمیر نوروز ذنوب کثیرة: منها الممالأة لعلیّ بای، و معه أیضا الأمیر آقبغا اللّکّاش، ثم تخاذل نوروز فی فتح باب السلسلة للسلطان یوم وقعة علیّ بای.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۹۳

ثمّ بعد ذلک بلغ السلطان أن نوروز المذکور قصد الرکوب علیه، فمنعته أصحابه، و أشاروا علیه أن یصبر حتی ینتظر ما یصیر من أمر السلطان فی مرضه، فإن مات فقد حصل له القصد من غیر تعب و لا شنعة، و إن تعافی من مرضه فلیفعل عند ذلک ما شاء.

و کان ممن حضر هذه المشورة مملوک من خاصّکیة الملک الظاهر، فلم یعجب نوروز ذلک، و قرّر مع أصحابه من الخاصّکیة الذین وافقوه أنه إذا کان لیلة نوبتهم فی خدمة القصر و دخلوا مع السلطان فی القصر الصغیر المعروف بالخرجة المطلّ علی الإسطبل السلطانی یثبون علیه بمن اتفق معهم و یقتلون السلطان علی فراشه، ثم یکسرون الثّریّة المعلقة بقنادیلها الموقدة یکون ذلک إشارة بینهم و بین نوروز، بعد قتل السلطان، فیرکب نوروز عند ذلک و یملک القلعة من غیر قتال، فأخذ الخاصّکیة یستمیلون جماعة أخر من الخاصکیة لیکثر جمعهم، و کان من جملة من استمالوه قانی بای الصغیر الخاصکیّ و أظنه الذی ولی نیابة الشام فی دولة الملک المؤیّد شیخ، و اللّه أعلم. فأجابهما قانی بای بالسمع و الطاعة و حلف لهم علی الموافاة، ثم فارقهم و دخل إلی السلطان من فوره و قعد لتکبیسه، فحکی له القصة بتمامها و کمالها، فاحترز الملک الظاهر علی نفسه و دبّر علی نوروز حتی قبض علیه.

ثم بعد مدة فی یوم السبت رابع صفر خلع السلطان علی الأمیر آقبغا اللّکّاش الظاهریّ بنیابة الکرک و أخرج من ساعته و أذن له بالإقامة بخانقاه سریاقوس حتی یجهّز أمره، و وکّل به الأمیر تنبک الکرکی الخاصّکی و هو مسفّره.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۹۴

ثم فی لیلة الأحد أنزل الأمیر نوروز الحافظی من القلعة مقیّدا إلی سجن الإسکندریة و مسفّره الأمیر أردبغا الظاهری أحد أمراء العشرات.

ثم قبض السلطان علی قوزی الخاصّکی أحد من کان اتفق مع نوروز و سلّم إلی والی القاهرة.

ثم أنعم السلطان بإقطاع الأمیر نوروز الحافظی علی تمراز الناصری، و صار من جملة مقدّمی الألوف بالدیار المصریة، و أنعم علی سودون الماردینیّ بإقطاع آقبغا اللّکّاش، و هو تقدمة ألف أیضا، و خلع علی الأمیر أرغون شاه البیدمری الظاهری باستقراره أمیر مجلس، عوضا عن آقبغا اللکاش المذکور، و خلع علی سودون المعروف بسیّدی سودون قریب الملک الظاهر برقوق باستقراره أمیر آخور عوضا عن نوروز الحافظیّ.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۹۵

و فی ثالث عشرین صفر أیضا أملی بعض الممالیک السلطانیة إلیه بالأطباق علی بعض فقهاء الأطباق أسماء جماعة من الأمراء و الممالیک، أنهم اتفقوا علی إقامة فتنة و القیام علی السلطان و کتبها و دخل بها المملوک علی السلطان، فلما قرئت الورقة علی السلطان، استدعی المذکورین و أخبرهم بما قیل عنهم، فخلفوا أن هذا شیء لم یسمعوه إلا الآن، و حلّوا أوساطهم و رموا سیوفهم، و قالوا یوسّطنا السلطان أو یخبرنا بمن قال هذا عنا، فأحضر السلطان المملوک و سلّمه إلیهم و ضربوه نحو الألف عصا، حتی أقرّ أنه اختلق هذا الکلام علیهم حنقا من واحد منهم، و سمّی شخصا کان خاصمه قبل ذلک.

ثم أحضر السلطان الفقیه الذی کتب الورقة و ضربه بالمقارع و سمر، ثم شفع فیه من القتل و حبس بخزانة شمائل.

و لما وصل الأمیر آقبغا اللکاش إلی غزة متوجّها إلی محل کفالته بمدینة الکرک، قبض علیه بها و أحیط علی سائر ما کان معه، و حمل إلی قلعة الصّبیبة فسجن بها.

ثم ورد الخبر علی السلطان فی صفر المذکور أن السکّة ضربت باسمه بمدینة ماردین، و خطب له بها و حملت له الدنانیر و الدراهم و علیها اسم السلطان.

ثم فی شهر ربیع الأول فی رابعه، ورد الخبر علی السلطان بموت الأمیر أرغون الإبراهیمی الظاهری نائب حلب، فرسم السلطان أن ینقل الأمیر آقبغا الجمالی

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۹۶

الظاهری المعروف بالأطروش من نیابة طرابلس إلی نیابة حلب، و حمل إلیه التقلید و التشریف إینال بای بن قجماس، و رسم أیضا باستقرار یونس بلطا نائب حماة فی نیابة طرابلس عوضا عن آقبغا المذکور، و توجّه بتقلیده و تشریفه الأمیر یلبغا الناصری الظاهری، و رسم أن یستقر دمرداش المحمدی أتابک حلب فی نیابة حماة، و توجه بتقلیده الأمیر شیخ المحمودی الساقی رأس نوبة و هو الذی تسلطن

ثم خلع السلطان علی الأمیر سودون الظاهری المعروف بالظریف فی نیابة الکرک.

و فی خامس عشر شهر ربیع الأول أنعم السلطان علی الوالد بجمیع سرحة البحیرة و داخلها مدینة الإسکندریة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۹۷

ثم فی سلخ ربیع الأول المذکور أمسک السلطان الأمیر عزّ الدین أزدمر أخا إینال الیوسفی و أمسک معه ناصر الدین محمد بن إینال الیوسفیّ و نفیا إلی الشام.

ثم فی یوم الأربعاء أوّل شهر ربیع الآخر خلع السلطان علی الأمیر سرای تمرشلّق الناصری أحد أمراء الطبلخانات و رأس نوبة بدیار مصر باستقراره أتابک العساکر بحلب عوضا عن دمرداش المحمّدی المنتقل إلی نیابة حماة.

ثم فی عشرینه أنعم السلطان علی الأمیر علی بن إینال الیوسفی بخبز أخیه محمد، و أمیر علیّ هذا هو أستاذ الملک الظاهر جقمق الآتی ذکره، و به عرف بالعلائیّ.

و فیه أنعم السلطان علی کلّ من سودون من زادة الظاهری، و تغری بردی الجلبانی، و منکلی بغا الناصری، و بکتمر الظاهری، و أحمد بن عمر الحسنی بإمرة طبلخاناة بالدیار المصریة.

و أنعم أیضا علی کلّ من بشبای الظاهری، و تمربغا من باشاه، و شاهین من إسلام الأفرم الظاهریّ، و جوبان العثمانی الظاهری، و جکم من عوض الظاهری بإمرة عشرة.

ثم فی خامس عشرینه طلع إلی السلطان رجل عجمیّ، و هو جالس للحکم بین الناس و هیئته کهیئة الصوفیة، و جلس بجانب السلطان، و مدّ یده إلی لحیته لیقبض علیها و سبّه سبّا قبیحا، فبادر إلیه رءوس النّوب و أقاموه، و مرّوا به، و هو مستمرّ فی السبّ، فأمر به السلطان، فسلّم لوالی القاهرة، فأخذه الوالی و نزل به و عاقبه حتی مات تحت العقوبة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۹۸

ثم فی یوم الخمیس سلخه خلع السلطان علی تاج الدین عبد الرزاق بن أبی الفرج ابن نقولا الأرمنیّ الأسلمیّ والی قطیا باستقراره وزیرا عوضا عن الوزیر بدر الدین محمد بن الطوخی.

و فی رابع جمادی الأولی رسم السلطان بإحضار الأمیر یلبغا الأحمدی المجنون من ثغردمیاط.

ثم فی یوم الاثنین حادی عشر جمادی الأولی المذکور رسم السلطان باستدعاء رئیس الأطبّاء فتح الدین فتح اللّه بن معتصم بن نفیس الداودیّ التّبریزی و خلع علیه باستقراره فی کتابة السّر، بعد موت القاضی بدر الدین محمود الکلستانی، و کان نفیس جدّ فتح اللّه هذا یهودیّا من أولاد نبیّ اللّه داود علیه السلام.

و فی رابع عشرینه خلع السلطان علی الأمیر فرج الحلبی أستدار الذخیرة و الأملاک باستقراره فی نیابة الإسکندریة.

ثمّ فی یوم الاثنین ثامن شهر رجب رسم السلطان بانتقال الأمیر جقمق الصّیفوی حاجب حجّاب حلب إلی نیابة ملطیة بعد عزل دقماق المحمّدیّ الظاهریّ و جهّز تقلیده علی ید مقبل الخازندار الظاهری.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۹۹

ثمّ فی حادی عشرین شهر رجب المذکور خلع السلطان علی الشیخ تقی الدین المقریزی المؤرّخ باستقراره فی الحسبة بالقاهرة، عوضا

عن شمس الدين البجاسىّ.

ثم فى خامس عشرينه أعيد قاضى القضاة صدر الدين محمد بن إبراهيم المناوى إلى قضاء الشافعيّة بالديار المصرية، بعد عزل قاضى القضاة تقى الدين عبد الرحمن الزبيرىّ.

و فى هذه الأيام أعيد أيضا يلبغا المجنون إلى وظيفة الأستدارية، بعد عزل ناصر الدين محمد بن سنقر، و استقر ابن سنقر أستادار الذخيرة و الأملاك عوضا عن فرج المنتقل إلى نيابة الإسكندريّة.

ثم كتب السلطان للأمير تنم الحسنىّ نائب الشام بالقبض على الأمير شهاب الدين أحمد ابن الشيخ على نائب صفد و على الأمير جلبان الكمشبغاوى الظاهرى المعروف بقراسقل أتابك دمشق، فورد مرسوم السلطان على تنم و هو بالغور فاستدعى نائب صفد المذكور و قبض عليه، ثم قبض على الأمير جلبان المذكور و بعث بهما إلى قلعة دمشق فسجنا بها.

و رسم السلطان بنقل الأمير ألطنبغا العثمانى الظاهرى من حجوبيّة دمشق إلى نيابة صفد، و نقل الأمير بيخجا الشرفى المعروف بطيفور نائب غزة منها إلى حجوبية دمشق، و نقل ألطنبغا الظاهرىّ نائب الكرك كان إلى نيابة غزة.

ثم فى تاسع شعبان خلع السلطان على كمال الدين عمر بن العديم باستقراره قاضى قضاة حلب بسفارة الوالد.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۱۰۰

ثم فى رابع عشرين شهر رمضان كتب السلطان بالإفراج عن الأمير شهاب الدين أحمد ابن الشيخ علىّ من محبسه بقلعة دمشق و استقراره أتابك العساكر بها، عوضا عن الأمير جلبان قراسقل.

ثم فى سابع عشرينه أخرج الأمير علاء الدين علىّ بن الطبلاوى من خزانة شمائل و سلّم للأمير يلبغا المجنون الأستادار.

ثم قدم الخبر على السلطان بموت الأمير الكبير كمشبغا الحموىّ بسجن الإسكندرية، فابتهج السلطان بموته، و رأى أنه قد تمّ له أمره، فإنه آخر من بقى من اليلبغاويّة الأمراء.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۱۰۱

و أصبح من الغد فى يوم الجمعة و هو أوّل شوّال، صلّى صلاة العيد بالميدان على العادة، ثم صلّى الجمعة بجامع القلعة فتفاءل الناس بزوال السلطان، كونه خطب بمصر فى يوم واحد مرّتين.

قلت: و هذه القاعدة غير صحيحة، فإنّ ذلك وقع للملك الظاهر جقمق فى أوّل سنين سلطنته، ثم وقع ذلك فى سلطنة الملك الأشرف إينال.

ثم فى سادس شوّال أخرج ابن الطبلاوىّ علاء الدين منفيّا إلى الكرك و معه نقيب واحد.

و فى يوم الثلاثاء خامس شوّال من سنة إحدى و ثمانمائة، فيه كان ابتداء مرض السلطان الملك الظاهر برقوق و سببه أنّه ركب للعب الكرة بالميدان،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۱۰۲

فلما فرغ منه قدم عليه عسل نخل ورد من كختا، فأكل منه و من لحم بلشون مشوىّ.

ثم دخل إلى مجلس أنسه و شرب مع ندمائه، فاستحال ذلك خلطا رديئا لزم منه الفراش من ليلته.

ثم أصبح و عليه حمّى شديدة الحرارة، ثم تنوّع مرضه، و أخذ فى الزيادة من اليوم الثالث و ليلة الرابع، و هو البحران الأوّل، فأنذر عن السابع إنذارا رديئا لشدّة الحمى و ضعف القوّة، حتى أيس منه، و أرجف بموته فى يوم السبت تاسعه، و استمرّ أمره فى الزيادة إلى يوم الأربعاء ثالث عشره، فقوى الإرجاف بموته، و غلّقت الأسواق، فركب الوالى و نادى بالأمان.

فلما أصبح يوم الخميس استدعى السلطان الخليفة المتوكل على اللّه و قضاة القضاة و سائر الأمراء و جميع أرباب الدولة، فحضر الجميع فى مجلس السلطان، فحدّثهم السلطان فى العهد لأولاده، و ابتدأ الخليفة بالحلف للأمير فرج ابن السلطان، و أنه هو السلطان

بعد وفاة أبيه.

ثم حلف القضاة و الأمراء و جميع أرباب الدولة، و تولى تحليفهم كاتب السرّ فتح اللّه، فلما تمّ الحلف للأمير فرج، حلفوا أن يكون القائم بعد فرج أخوه عبد العزيز، و بعد عبد العزيز أخوهما إبراهيم.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۱۰۳

ثم كتبت وصيّة السلطان، فأوصى لزوجاته و سراريه و خدّامه بمائتى ألف دينار و عشرين ألف دينار، و أن يعمّر له تربة بالصحراء خارج باب النصر تجاه تربة

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۱۰۴

الأمير يونس الدّوادار بثمانين ألف دينار، و يشترى بما فضل عن عمارة التربة المذكورة عقار ليوقف عليها، و أن يدفن السلطان الملك الظاهر برقوق بها فى لحد تحت أرجل الفقراء: و هم الشيخ علاء الدين السيرامىّ الحنفىّ، و الشيخ أمين الدين الخلواتى الحنفىّ، و المعتقد عبد اللّه الجبرتىّ، و المعتقد طلحة، و الشيخ المعتقد أبو بكر البجائىّ، و المجذوب أحمد الزهورىّ، و قرّر أن يكون الأمير الكبير أيتمش هو القائم بعده بتدبير ابنه فرج، و أن يكون وصيّا على تركته و معه تغرى بردى بن بشبغا أمير السلاح، أعنى عن الوالد، و الأمير بيبرس الدوادار ابن أخت السلطان بعدهما، ثم الأمير قطلوبغا الكركىّ أحد أمراء العشرات، ثم الأمير يلبغا السالمىّ أحد أمراء العشرات أيضا، ثم سعد الدين إبراهيم بن غراب، و جعل الخليفة ناظرا على الجميع.

ثم انفضّ المجلس و نظر الأمراء بأسرهم فى خدمة الأمير الكبير أيتمش البجاسىّ إلى منزله، فوعد الناس أنه يبطل المظالم و أخذ البراطيل على المناصب و الولايات.

و أكثر السلطان فى مرضه من الصدقات، فبلغ ما تصدّق به فى هذا المرض أربعة عشرة ألف دينار و تسعمائة دينار و تسعة و تسعين دينارا، و أخذ فى النزع من بعد الظهر إلى أن مات السلطان الملك الظاهر برقوق من ليلته بعد نصف الليل.

و هى ليلة الجمعة خامس عشر شوّال، و قد تجاوز ستّين سنة من العمر، بعد أن حكم على الديار المصرية و الممالك الشامية أميرا كبيرا مدبرا و سلطانا إحدى و عشرين سنة و سبعة و خمسين يوما، منها تحكّمه بديار مصر، بعد مسك الأمير الكبير طشتمر العلائىّ الدوادار أربع سنين و تسعة أشهر و عشرة أيام، و كان يسمّى إذ ذاك بالأمير

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۱۰۵

الكبير نظام الملك، و منذ تسلطن سلطنته الأولى فى يوم الأربعاء تاسع عشر شهر رمضان سنة أربع و ثمانين و سبعمائة إلى أن خلع و اختفى فى واقعة الناصرى و منطاش فى سنة إحدى و تسعين و سبعمائة، ست سنين و ثمانية أشهر و سبعة عشر يوما، و تسلطن عوضه الملك المنصور حاجّى ابن الملك الأشرف شعبان بن حسين، و دام مخلوعا محبوسا، ثم خارجا بالبلاد الشامية ثمانية أشهر و ستة عشر يوما، و أعيد إلى السلطنة ثانيا، فمن يوم أعيد إلى سلطنته ثانية إلى أن مات فى ليلة الجمعة المذكورة تسع سنين و ثمانية أشهر، و تسلطن من بعده ابنه الملك الناصر فرج و جلس على تخت الملك حسبما يأتى ذكره فى سلطنته.

ثم أخذ الأمراء فى تجهيز السلطان الظاهر برقوق- رحمه اللّه- و غسّل و كفّن، و صلّى عليه بالقلعة قاضى القضاة صدر الدين المناوى، و حمل نعشه سائر الأمراء على أعناقهم إلى تربته، فدفن بها- حيث أوصى- على قارعة الطريق، و لم يكن بذلك المكان يوم ذاك حائط، و دفن قبل صلاة الجمعة، و نزل أمام نعشه سائر الأمراء و أرباب الدولة مشاة يصيحون و يصرخون بالبكاء و العويل، و قد امتلأت طرق الصحراء بالجوارىّ و النساء السّبيات الحاسرات منشّرات الشعور من حرم مماليكه و حواشيه، فكان يوما فيه عبرة لمن اعتبر، و لم يعهد قبله أحد من ملوك مصر دفن نهارا غيره، و ضربت الخيام على قبره، و قرئ القرآن أياما، و مدّت لهم الأسمطة العامة الهائلة، و تردّدت أكابر الدول فى كل ليلة إلى قبره عدّة أيام و كثر أسف الناس عليه.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۱۰۶

قلت: و هو أوّل من ولى السلطنة من الجراكسة بالديار المصرية بعد الملك المظفّر بيبرس الجاشنكير، على خلاف فى بيبرس، و هو القائم بدولة الجراكسة، و قد تقدّم ذكر ذلك كلّه فى أوّل ترجمته.

و خلّف من الأولاد ثلاثة ذكور: الملك الناصر فرجا، و أمه أمّ ولد رومية تسمّى: «شيرين» و هى بنت عمّ الوالد، و قيل: أخته، و ماتت فى سلطنة ابنها الملك الناصر فرج. و عبد العزيز، و أمّه أمّ ولد أيضا تركيّة الجنس، تسمّى قنق باى، ماتت فى سنة خمس و ثلاثين و ثمانمائة، و إبراهيم، و أمّه خوند بركة، ماتت فى أواخر دولة الملك الأشرف برسباى.

و خلّف أيضا ثلاث بنات: خوند سارة و أمّها أمّ ولد، تزوّجها الأمير نوروز الحافظىّ، ثم مقبل الرومىّ، و ماتت فى سنة ست عشر و ثمانمائة بطريق دمشق، رخوند بيرم و أمّها خوند هاجر بنت منكلى بغا الشمسىّ، تزوجها إينال باى بن قجماس، و ماتت بالطاعون فى سنة تسع عشرة و ثمانمائة و خوند زينب، و أمّها أمّ ولد، تزوجها الملك المؤيّد شيخ، ثم من بعده الأتابك قجق، و ماتت فى حدود سنة ثلاثين و ثمانمائة.

و خلّف فى الخزانة و غيرها من الذّهب العين ألف ألف دينار و أربعمائة ألف دينار، و من الغلال و القنود و الأعسال و السكّر و الثياب و أنواع الفرو ما قيمته أيضا ألف ألف دينار و أربعمائة ألف دينار.

و خلّف من الخيل نحو ستّة آلاف فرس، و من الجمال نحو خمسة آلاف جمل، و من البغال و حمير التراب عدّة كبيرة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۱۰۷

و بلغت عدّة مماليكه المشتروات خمسة آلاف مملوك، و بلغت جوامك مماليكه فى كل شهر نحو أربعمائة ألف درهم فضة، و عليق خيولهم فى الشهر ثلاثة عشر ألف إردب شعير، و عليق خيوله بالإسطبل السلطانى و غيره، و جمال النّفر و أبقار السواقى و حمير التراب فى كل شهر أحد عشر ألف إردب من الشعير و الفول.

و كان ملكا جليلا حازما شهما شجاعا مقداما صارما فطنا عارفا بالأمور و الوقائع و الحروب، و مما يدل على فرط شجاعته وثوبه على الملك و هو من جملة أمراء الطبلخانات، و تملّكه الديار المصرية من تلك الشجعان، و ما وقع له مع الناصرىّ و منطاش عند خلعة من السلطنة كان خذلانا من اللّه تعالى (ليقضى اللّه أمرا كان مفعولا)، و ما وقع له بعد خروجه من حبس الكرك، فهو من أكبر الأدلة على شجاعته و إقدامه.

و كان- رحمه اللّه- سيوسا عاقلا ثبتا، و عنده شهامة عظيمة و رأى جيّد و مكر شديد و حدس صائب، و كان يتروّى فى الشىء المدّة الطويلة حتى يفعله، و يتأنّى فى أموره، مع طمع كان فيه و شره فى جمع المال، و كان يحب الاستكثار

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۱۰۸

من المماليك، و يقدّم جنس المماليك الجراكسة على غيره، ثم ندم على ذلك فى أواخر عمره، بعد فتنة علىّ باى.

و كان يحب اقتناء الخيول و الجمال، و كان يتصدّى للأحكام بنفسه و يباشر أحكام المملكة برأيه و تدبيره، فيصيب فى غالب أموره، على أنه كان كثير المشورة لأرباب التجارب، يأخذ رأيهم فيما يفعله، ثم يقيس رأيهم على حدسه، فيظهر له ما يفعله.

و كان يحب أهل الخير و الصلاح، و له اعتقاد جيّد فى الفقراء و الصّلحاء، و كان يقوم للفقهاء و الصلحاء إذا دخل عليه أحد منهم، و لم يكن يعهد هذا من ملك كان قبله من ملوك مصر، على أنه صار يعض من الفقهاء فى سلطنته الثانية، من أجل أنهم أفتوا فى قتاله و قتله، لاسيما القاضى ناصر الدين ابن بنت ميلق، فإنه كان كثير الاعتقاد فيه، و مع شدّة حنقه عليهم كان لا يترك إكرامهم.

و كان كثير الصّدقات و المعروف، أوقف ناحية بهتيت على سحابة تسير مع الحج إلى مكة فى كلّ سنة، و معها جمال تحمل المشاة من الحاج و تصرف لهم ما يحتاجون

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۱۰۹

إليه من الماء و الزاد ذهابا و إيابا، و وقف أيضا أرضا على قبور إخوة يوسف عليه السلام بالقرافة، و كان يذبح دائما فى طول أيام

إمارته و سلطنته فی کلّ یوم من أیام شهر رمضان خمسا و عشرین بقرة، یتصدّق بها بعد ما أن تطبخ، و معها آلاف من أرغفة الخبز النّقی، تفرّق علی أهل الجوامع و المساجد و الرّبط و أهل السجون، لکل إنسان رطل لحم مطبوخ، و ثلاثة أرغفة، و هذا، غیر ما کان یفرّق فی الزوایا من اللحم أیضا، فإنه کان یعطی لکل زاویة خمسین رطلا من اللحم الضأن، و عدّة أرغفة فی کل یوم، و فیهم من یعطی أکثر من ذلک بحسب حالهم و کان یفرق فی کل سنة فی أهل العلم و الصلاح مائتی ألف درهم، الواحد إلی مائة دینار، و کان یفرّق فی فقراء القرافتین لکل فقیر من دینار إلی أکثر و أقلّ، و یفرّق فی کل سنة ثمانیة آلاف إردب قمحا علی أهل الخیر و أرباب الصلاح.

و یبعث فی کل سنة إلی بلاد الحجاز ثلاثة آلاف إردب قمحا، تفرّق فی الحرمین و فرّق فی مدة الغلاء کلّ یوم أربعین إردبا؛ عنها ثمانیة آلاف رغیف، فلم یمت فیه أحد من الجوع.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۱۱۰

و کان غیر هذا کلّه یبعث فی کل قلیل بجملة من الذهب تفرّق فی الفقهاء و الفقراء، حتی إنه تصدّق مرة بخمسین ألف دینار مصریة علی ید خازنداره العبد الصالح الطواشی صندل المنجکی الرومیّ.

و أبطل عدّة مکوس: منها ما کان یؤخذ من أهل شوری و بلطیم من البرلّس، و کانت شبه الجالیة فی کل سنة. قلت: أعید ذلک فی سلطنة الملک الظاهر جقمق.

و أبطل ما کان یؤخذ علی القمح بثغردمیاط عما تبتاعه الفقراء و غیرهم.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۱۱۱

و أبطل مکس معمل الفراریج بال؟؟؟ ریریة و ما معها من بلاد الغربیة، و أبطل مکس الملح بعینتاب، و مکس الدقیق بالبیرة، و أبطل من طرابلس ما کان مقرّرا علی قضاة البرّ و ولاة الأعمال عند قدوم النائب إلیها، و هو مبلغ خمسمائة درهم علی کلّ منهم، أو بغلة بدل ذلک.

و أبطل ما کان یؤخذ علی الدّریس و الحلفاء بباب النصر خارج القاهرة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۱۱۲

و أبطل ضمان المغانی بمدینة الکرک و الشّوبک، و بمنیة ابن خصیب، و أعمال الأشمونین و زفتة و منیة غمر.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۱۱۳

و أبطل رمی الأبقار بعد الفراغ من عمل الجسور بأراضی مصر علی البطّالین بالوجه البحریّ.

و أنشأ بالقاهرة مدرسته التی لم یعمر مثلها ببین القصرین، و رتّب لها صوفیة بعد العصر کلّ یوم، و جعل بها سبعة دروس لأهل العلم علی المذاهب الأربعة أعظمهم بالإیوان القبلیّ الحنفی، ثم درسا للتفسیر، و درسا للحدیث، و درسا للقراءات. و أجری علی الجمیع فی کلّ یوم الخبز و لحم الضّأن المطبوخ، و فی الشهر الحلوی و الزیت و الصابون و الدراهم، و وقف علی ذلک الأوقاف الجلیلة من الأراضی و الدّور و نحوها.

و عمّر جسرا علی نهر الأردن بالغور فی طریق دمشق، طوله مائة و عشرون ذراعا فی عرض عشرین ذراعا، و جدّد خزائن السلاح بثغر الإسکندریة، و سور

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۱۱۴

دمنهور، و عمّر جبال الشرقیة بالفیوم، و زاویة البرزخ بدمیاط، و قناة العرّوب بالقدس، و بنی أیضا برکة بطریق الحجاز، و برکة أخری برأس وادی بنی سالم

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۱۱۵

و جدّد عمارة القناة التی تحمل ماء النیل إلی قلعة الجبل، و جدّد عمارة المیدان من تحت القلعة، بعد ما کان خرب، و سقاه و زرع به الفرط، و غرس فیه النخل، و عمر صهریجا و مکتبا یقرأ فیه أیتام المسلمین القرآن الکریم بقلعة الجبل، و جعل علیه وقفا، و عمّر أیضا بالقلعة طاحونا، و عمر أیضا سبیلا تجاه باب دار الضیافة تجاه القلعة.

و خطب له علی منابر تبریز، عند ما أخذها قرا محمد الترکمانی، و ضربت الدنانیر و الدراهم فیها باسمه و خطب له علی منابر الموصل من العراق، و علی منابر ماردین بدیار بکر، و منابر سنجار، و خرب عساکره مدینة دورکی و أرزن کان من أرض الروم.

و کان نائبه بالدیار المصریة الأمیر سودون الفخریّ الشیخونیّ إلی أن مات سودون المذکور، فلم یستنب الملک الظاهر أحدا بعده.

و کانت نوّابه بدمشق (أعنی الذین تولوا فی أیام سلطنته): الأمیر بیدمر الخوارزمی، و إشقتمر الماردینیّ، و ألطنبغا الجوبانیّ غیر مرة، و طرنطای السیفیّ،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۱۱۶

و یلبغا الناصری صاحب الوقعة معه، و بطا الطّولوتمریّ الظاهریّ المعروف بتنم، و مات الملک الظاهر و هو علی نیابتها.

و نوّابه بحلب: یلبغا الناصریّ غیر مرّة، و سودون المظفّریّ و کمشبغا الحمویّ و قرادمرداش الأحمدیّ و جلبان الکمشبغاویّ الظاهریّ قراسقل و تغری بردی من بشبغا الظاهریّ (أعنی الوالد) و أرغون شاه الإبراهیمی الظاهریّ و آقبغا الجمالی الظاهریّ الأطروش، و مات السلطان و هو علی نیابتها.

و نوّابه بطرابلس مأمور القلمطاویّ الیلبغاویّ و کمشبغا الحمویّ الیلبغاویّ و أسندمر السیفیّ، و قرا دمرداش الأحمدیّ الیلبغاویّ، و إینال بن خجا علی، و إیاس الجرجاوی، و دمرداش المحمدیّ الظاهریّ، و أرغون شاه الإبراهیمیّ الظاهریّ، و آقبغا الجمالیّ الظاهریّ الأطروش، و یونس بلطا الظاهریّ، و مات الملک الظاهر و هو علی نیابتها.

و نوّابه بحماة: صنجق الحسنیّ، و سودون المظفّریّ و سودون العلائیّ، و سودون العثمانیّ، و ناصر الدین محمد بن المهمندار، و مأمور القلمطاویّ الیلبغاویّ، و دمرداش المحمدیّ الظاهریّ ولیها مرّتین، و آقبغا السلطانیّ، و یونس بلطا الظاهری، ثم دمرداش المحمدی، و مات برقوق و هو علی نیابتها.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۱۱۷

و نوّابه بصفد: أرکماس السیفیّ، و بتخاص السّودونیّ، و ارغون شاه الإبراهیمی الظاهریّ و آقبغا الجمالیّ الأطروش الظاهریّ، و أحمد ابن الشیخ علیّ، و ألطنبغا العثمانیّ الظاهریّ، و مات الملک الظاهر و هو علی نیابتها.

و نوّابه بالکرک: طغای تمر القبلائی، و مأمور القلمطاویّ، الیلبغاوی، و قدید القلمطاویّ الیلبغاویّ، و یونس القشتمری، و أحمد ابن الشیخ علی، و بتخّاص السّودونیّ، و محمد بن مبارک شاه المهندار، و ألطنبغا الحاجب، و سودون الظریف الظاهریّ الشمسیّ، و مات السلطان و هو علی نیابتها.

و نوّابه بغزّة: قطلوبغا الصّیفویّ و آقبغا الصغیر، و یلبغا القشتمری، و ألطنبغا العثمانی الظاهریّ، و بیخجا الشرفیّ المدعو طیفور، و ألطنبغا الحاجب، و مات الملک الظاهر و هو علی نیابتها.

ذکر قضاته بالدیار المصریة

فالشافعیة: برهان الدین إبراهیم بن جماعة، و بدر الدین محمد بن أبی البقاء، و ناصر الدین محمد بن بنت میلق، و عماد الدین أحمد المقیّری الکرکیّ. و صدر الدین محمد المناوی، و تقیّ الدین عبد الرحمن الزّبیری، ثم المناوی ثالث مرة، و مات السلطان و هو قاض.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۱۱۸

و الحنفیّة: صدر الدین محمد بن منصور الدّمشقی، و شمس الدین محمد الطرابلسی و مجد الدین إسماعیل بن إبراهیم، و جمال

الدين محمود القيصرىّ العجمىّ، و جمال الدين يوسف الملطىّ و مات الملك الظاهر و هو قاض.

و المالكيـة: جمال الـدين عبـد الرحمن بن خير السّكندرىّ، ثمّ ولىّ الدّين عبد الرحمن بن خلدون، و شـمس الدين محمد الرّكراكىّ المغربى، و شهاب الدين أحمد النحريرىّ، و ناصر الدين أحمد بن التّنسىّ، ثم ابن خلدون، و مات الملك الظاهر و هو قاض.

و الحنابلة: نصر الدين نصر اللّه العسقلانىّ، ثم ابنه برهان الدين إبراهيم، و مات السلطان و هو قاض.

و أما أصحاب وظائفه من أكابر أمراء مصر فلم يضبطهم أحد من مؤرّخى ملك العصر، و اكتفوا بذكرهم عند ولاية أحدهم أو عزله أو موته، إن كانوا فعلوا ذلك.

ذكر مباشرى دولته، أستاداريّته: بهادر المنجكىّ، ثم محمود بن على بن أصفر عينه. ثم قرقماس الطّشتمرىّ، ثم عمر بن محمد بن قايماز، ثم قطلوبك العلائى، ثم يلبغا الأحمدى المجنون، ثم محمد بن سنقر، ثم يلبغا المجنون، و مات السلطان و هو على وظيفته.

و وزراؤه بديار مصر: علم الدين عبد الوهاب المعروف بسنّ إبرة، و شمس الدين إبراهيم بن كاتب أرنان، و علم الدين عبد الوهاب بن كاتب سيّدى، و كريم الدين عبد الكريم بن الغنّام، و موفّق الدين أبو الفرج، و سعد الدين نصر اللّه بن البقرىّ، و ناصر الدين محمد بن الحسام، و ركن الدين عمر بن قايماز، و تاج الدين عبد الرحيم ابن أبى شاكر، و ناصر الدين محمد بن رجب بن كلبك، و مبارك شاه، و بدر الدين

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۱۱۹

محمد بن الطّوخىّ، و تاج الدين عبد الرزاق بن أبى الفرج، و مات السلطان و هو وزير.

و كتّاب سره: القاضى بدر الدين محمد بن فضل اللّه، و أوحد الدّين عبد الواحد، و علاء الدين على المقيّرى الكركىّ، ثم ابن فضل اللّه ثانيا، ثم بدر الدين محمود الكلستانىّ، و فتح الدّين فتح اللّه، و مات السلطان و هو كاتب سرّه.

و نظار جيشه: تقىّ الدين عبد الرحمن بن محبّ الدين، و موفّق الدين أبو الفرج و جمال الدين محمود القيصرىّ العجمىّ، و كريم الدين عبد الكريم بن عبد العزيز، و شرف الدين محمد الدّمامينى، و سعد الدين إبراهيم بن غراب، و مات السلطان هو ناظر الجيش.

و نظّار خاصّه: سعد الدين نصر اللّه بن البقرىّ، و موفّق الدين أبو الفرج، و سعد الدين أبو الفرج بن تاج الدين موسى كاتب السعدى، و سعد الدين بن غراب، و مات السلطان و هو ناظر الجيش و الخاص معا، و اللّه تعالى أعلم.

السنة الأولى من سلطنة الملك الظاهر برقوق الثانية على مصر، و هى سنة اثنتين و تسعين و سبعمائة، على أن الملك المنصور حاجّى بن الملك الأشرف شعبان حكم منها ثمانية أشهر و سبعة أيام من يوم سلطنته إلى يوم طلوع الملك الظاهر برقوق إلى قلعة الجبل.

فيها توفّى الأمير سيف الدين آقبغا بن عبد اللّه الجوهرىّ اليلبغاوىّ، كان من أكابر اليلبغاويّة و تولّى الأستادارية و حجوبيّة الحجّاب كليهما بديار مصر، و وقع له

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۱۲۰

أمور، و هو أحد من أخرجه الملك الظاهر من حبس منطاش بالإسكندرية، و ندبه فيمن ندب من الأمراء لقتال منطاش، فقتل فى وقعة حمص عن بضع و خمسين سنة. و كان أميرا جليلا عارفا يذاكر بمسائل جيّدة فقهيّة و غيرها فى عدّة فنون مع حدّة مزاج.

و توفّى الأمير سيف الدين أردبغا بن عبد اللّه العثمانىّ اليلبغاوى أحد أمراء الطبلخانات قتيلا أيضا فى وقعة منطاش، و كان من كبار اليلبغاويّة.

و توفّى الأمير علاء الدين ألطنبغا بن عبد اللّه الجوبانىّ اليلبغاوى نائب الشام قتيلا فى واقعة منطاش، و قد تقدّم ذكر موته و كيفيّة قتله فى أوائل سلطنة الملك الظاهر برقوق الثانية، و كان من عظماء المماليك اليلبغاوية، ولّاه الملك الظاهر فى سلطنته الأولى أمير مجلس، ثم ولّاه نيابة الكرك، ثم نقله إلى نيابة الشام، ثم قبض عليه و حبسه إلى أن أخرجه الناصرىّ بعد خلع الملك الظاهر برقوق و حبسه، فولّاه الناصرىّ رأس نوبة الأمراء إلى أن أمسكه منطاش و حبسه بالإسكندرية ثانيا، حتى أخرجه الملك الظاهر برقوق فيمن

أخرجه بعد عوده إلى سلطنة مصر، و ولّاه نيابة الشام، و ندبه لقتال منطاش فتوجّه و قاتله، و قتل فى الواقعة، و تولّى الناصرىّ نيابة الشام بعده، و مات الجوبانى و قد قارب الخمسين سنة من العمر، و كان حشما فخورا معظّما فى الدول متجمّلا فى مركبه و مماليكه و لبسه، و عنده سياسة و أدب و معرفة، رحمه اللّه تعالى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١٢، ص: ١٢١

و توفّى الأمير سيف الدين قازان اليرقشى أحد أمراء الطبلخانات بالديار المصرية، و كان من حواشى الناصرى، قتل فى واقعة منطاش على حمص، و قبل أن يخرج منطاش بالملك المنصور من مصر لقتال الملك الظاهر برقوق لمّا خرج من سجن الكرك، أمر والى الفيّوم فى الباطن بقتل جماعة كبيرة من الأمراء ممن كان بحبس الفيوم، ثم سافر منطاش، و بعد سفره بأيّام قدم محضر مفتعل من كاشف الفيوم:

أنه لمّا كان يوم الجمعة حادى عشرين جمادى الآخرة سقط على الأمراء المسجونين حائط سجنهم فماتوا جميعا، فعظم ذلك على الناس إلى الغاية، كونهم من أكابر الأمراء و أعيان الدولة، و هم: الأمير تنكز العثمانى اليلبغاوى أحد أمراء الطبلخانات بالديار المصرية، و كان من الشجعان، و تمان تمر الأشرفىّ نائب بهنسا و كان من أكابر المماليك الأشرفيّة، و هو من خشداشيّة منطاش، لكنه كان من حزب الناصرىّ، و تمرباى الحسنى الأشرفى حاجب الحجاب بالديار المصرية و من أجلّ المماليك الأشرفية، و هو حمو الوالد و كان من الشجعان، و جمق الكمشبغاوى أحد أعيان أمراء مصر و الشام، و كان من حزب الناصرى، و تمر الجركتمرىّ أحد أمراء الطبلخانات بالديار المصرية، و كان من حزب الملك الظاهر برقوق، و قطلوبغا الأحمدىّ اليلبغاوىّ أحد أمراء العشرات بالقاهرة، و عيسى التّركمانى أحد أمراء الطبلخانات بمصر، و قد ولى عدّة أعمال، و قرابغا البو بكرى أمير مجلس و أحد مقدّمى الألوف بالديار المصرية، و قرقماش الطّشتمرىّ أستادار العالية و الخازندار، و الدوادار الكبير بالديار المصرية، تنقّل فى جميع هذه الوظائف و غيرها، و كان أوّلا من حزب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١٢، ص: ١٢٢

الظاهر، ثم صار من بعد خلعه من حزب يلبغا الناصرىّ، و يونس الإسعردى الرمّاح الظاهرى أحد أمراء الطبلخانات لم يكن فى المماليك الظاهريّة من يضاهيه فى حسن الشّكالة و لا فى لعب الرّمح، قتل الجميع فى يوم واحد حسب ما ذكرناه.

و توفّى الأمير سيف الدين مأمور بن عبد اللّه القلمطاوى اليلبغاوى فى واقعة حمص أيضا و كان ولى نيابة الكرك، و تقدمة ألف بديار مصر، و حجوبية الحجاب بها، ثم ولّاه الملك الظاهر فى سلطنته الثانية نيابة حماة، فقتل و هو على نيابة حماة، و كان من أجلّ المماليك اليلبغاوية و أعيان أمراء مصر، و هو زوج بنت أستاذه الأتابك يلبغا التى خدمت الملك الظاهر برقوقا لمّا حبس بالكرك.

و توفّى الشيخ المعتقد الصالح علىّ المغربل فى خامس جمادى الأولى، و دفن بزاويته خارج القاهرة بحكر الزرّاق و كان للناس فيه اعتقاد حسن و يقصد للزيارة.

و توفّى الشيخ المعتقد الصالح محمد الفاوىّ فى ثامن جمادى الأولى و دفن خارج باب النصر، و كان خيّرا معتقدا.

و توفّى الشيخ المقرئ شمس الدين محمد المعروف بالرفاء فى سابع جمادى الأولى.

و توفّى الأديب الشاعر شمس الدين محمد بن إسماعيل الإفلاتىّ فى سادس جمادى الأولى.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمسة أذرع و نصف، مبلغ الزيادة ثمانية عشر ذراعا و إصبعان. و الوفاء حادى عشر مسرى. و اللّه تعالى أعلم.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١٢، ص: ١٢٣

[ما وقع من الحوادث سنة ٧٩٣]

السنة الثانية من سلطنة الملك الظاهر برقوق الثانية على مصر و هى سنة ثلاث و تسعين و سبعمائة.

فيها توفّى الأمير شهاب الدين أحمد ابن الأمير الكبير الحاج آل ملك الجوكندار فى يوم الأحد ثانى عشرين جمادى الآخرة.

و توفّى قاضى القضاة شهاب الدين أبو العباس أحمد بن عمر بن مسلم بن سعيد ابن بدر القرشىّ الدمشقى الشافعى قاضى قضاة دمشق بخزانة شمائل، بعد عقوبات شديدة فى ليلة الأحد تاسع شهر رجب، و كان غير مشكور السّيرة، مسرفا على نفسه، و هو ممن قام على الملك الظاهر برقوق بدمشق، و حرّض العامّة على قتاله و قد مرّ من ذكره ما فيه غنية عن ذكره ثانيا.

و توفّى الأمير حسام الدين حسين بن علىّ بن الكورانىّ أحد أمراء الطبلخانات و والى القاهرة مخنوقا بخزانة شمائل بعد عقوبات كثيرة، فى عاشر شعبان، و كان غير مشكور السيرة و فيه ظلم و جبروت، قتل من الزّعر فى أيام ولايته خلائق لا تدخل تحت حصر.

و توفّى الشيخ الإمام العالم العلّامة جلال الدين جلال بن رسول بن أحمد بن يوسف العجمىّ الثّيرىّ التّبانىّ الحنفىّ خارج القاهرة فى يوم الجمعة ثالث [عشر]

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۱۲۴

شهر رجب، و التّبانىّ نسبة إلى سكنه، موضع خارج القاهرة بالقرب من باب الوزير، يقال له: التبانة، و كان إماما عالما بفنون كثيرة، أفتى و أقرأ و درّس عدّة سنين، و عرض عليه قضاء مصر فامتنع عفّة منه. و له مصنفات كثيرة: منها «شرح المنار» فى أصول الفقه، و «شرح مختصر ابن الحاجب» و خرّج أيضا «مختصر التلويح فى شرح الجامع الصحيح» للحافظ مغلطاى، و له «منظومة فى الفقه»، و شرحها فى أربع مجلدات، و له «مختصر فى ترجيح الإمام أبى حنيفة»، و له تعليق على البزدوى و لم يكمله، و شرح كتبا كثيرة غير ذلك، و أصله من بلدة بالروم يقال لها: ثيرة بكسر (الثاء المثلثة) و سكون الياء آخر الحروف.

و توفّى الشيخ المعتقد الصالح على الروبىّ فى رابع ذى الحجة، و كان للناس فيه اعتقاد و يقصد للزيارة للتبرك به.

و توفّى قاضى القضاة شمس الدين محمد بن يوسف الرّكراكىّ المالكىّ قاضى قضاة الديار المصرية و هو قاض بحمص، فى رابع عشر شوّال، و قد تجرّد صحبة السلطان، و كان عالما ديّنا مشكور السّيرة.

و توفّى شيخ الخانقاه الصلاحيّة سعيد السعداء شهاب الدين أحمد بن الأنصارى الشافعى فى عاشر ذى القعدة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۱۲۵

و توفّى قاضى قضاة الحنابلة بدمشق الشيخ شرف الدين عبد القادر بن شمس الدين محمد بن عبد القادر الحنبلى النابلسى الدمشقى فى عيد الأضحى بدمشق، و كان فقيها فاضلا، أفتى و درّس.

و توفّى القاضى فتح الدين أبو بكر محمد ابن القاضى عماد الدين أبى إسحاق إبراهيم ابن محمد بن إسحاق بن إبراهيم بن أبى الكرم محمد الدّمشقى الشافعى المعروف بابن الشّهيد كاتب سرّ دمشق قتيلا بخزانة شمائل، فى ليلة الثلاثاء تاسع عشرين شعبان، و كان ممن خرج على الملك الظاهر برقوق و وافق منطاشا، و حرّض على قتال برقوق، و قد مرّ من ذكره نبذة كبيرة عند حضوره إلى القاهرة مع جنتمر نائب دمشق و ابن القرشى قاضى دمشق و غيرهما، و كان فتح الدين رئيسا فاضلا بارعا فى الأدب و الترسّل، مشاركا فى فنون كثيرة، ماهرا فى التفسير، مليح الخطّ، و له مصنفات، منها: أنه نظم السّيرة النبوية لابن هشام، فى مسطور مرجّز، و جملتها خمسون ألف بيت، و لمّا ولى كتابة سرّ دمشق، قال فيه بدر الدين ابن حبيب: (السريع)

كتابة السرّ علا قدرها بابن الشهيد الألمعىّ الأديب

و كيف لا تعلو و قد جاءها (نصر من اللّه و فتح قريب)

و من شعر القاضى فتح الدين هذا- رحمه اللّه- قوله: (الوافر)

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۱۲۶

مدير الكأس حدّثنا و دعنا بعيشك عن كؤوسك و الحثيث

حديثك عن قديم الراح يغنى فلا تسق الأنام سوى الحديث

و له: (الكامل)

قاسوا حماة بجلّق فأجبتهم هذا قياس باطل و حياتكم

فعروس جامع جلّق ما مثلها شتان بين عروسنا و حماتكم

و له فى عين بعلبك - رحمه اللّه- (الكامل)

و لقد أتيت لبعلبكّ فشاقنى عين بها روض النعيم منعّم

فلأهلها من أجلها أنا مكرم و لأجل عين ألف عين تكرم

و توفى الأمير الكبير يلبغا بن عبد اللّه الناصرىّ اليلبغاوىّ قتيلا ـ بقلعة حلب، و هو صاحب الوقعة مع الملك الظاهر برقوق التى خلع الملك الظاهر فيها من الملك و حبس بالكرك، و كان أصله من أكابر مماليك يلبغا العمرى أستاذ برقوق، و تولّى فى أيام أستاذه يلبغا إمرة طبلخاناه، ثم صار أمير مائة و مقدّم ألف بالقاهرة فى دوله الملك الأشرف شعبان، و كان معه فى العقبة، ثم ملك باب السلسلة من الإسطبل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۱۲۷

السلطانىّ، كلّ ذلك و برقوق لم يتأمّر إلّا من نحو شهر واحد، ثم وقع له أمور و حبس و نفى إلى البلاد الشامية على إمرة مائة و تقدمة ألف بدمشق حتى ولى نيابة حلب عن المنصور علىّ، ثم عن أخيه، ثم عن الملك الظاهر برقوق، ثم أطلقه و ولّاه نيابة حلب ثانيا، فعصى بعد مدّة و وافق منطاش، و قهر الظاهر برقوقا و خلعه من السلطنة و حبسه بالكرك و رشّح إلى سلطنة مصر، فامتنع غاية الامتناع و سلطن الملك الصالح حاجيّا ثانيا و لقبّه بالمنصور، و صار هو مدبّر مملكته، و حكم مصر إلى أن خرج عليه منطاش و كسره و قبض عليه و حبسه بسجن الإسكندرية، إلى أن أفرج عنه الملك الظاهر برقوق لما خرج من حبس الكرك و كسر منطاش و تسلطن ثانيا، فأخرجه و لم يؤاخذه، و ندبه لقتال منطاش ثم ولّاه نيابة الشام بعد قتل الجوبانى ثم قبض عليه فى هذه السنة، و قتله بقلعة حلب ليلته هو و كشلى أمير آخوره و الأمير محمد بن المهمندار نائب حماة، و قد تقدّم ذلك كله مفصلا فى ترجمة الملك الظاهر برقوق الأولى و الثانية، و ترجمة المنصور حاجّى، فإنه كان فى الحقيقة هو السلطان، و حاجى له الاسم لا غير، فيكتفى بما وقع من ذكره هناك، و لا حاجة للإعادة هنا.

و كان يلبغا الناصرىّ من أجلّ الملوك عفّة و صيانة، ولى مصر و خلع الملك الظّاهر، و ولى الملك المنصور، و لم يقتل أحدا صبرا غير واحد يسمّى سودون من مماليك الظاهر، و يكفيه من عفته عن سفك الدماء عدم قتله للملك الظاهر برقوق بعد أن أشار عليه جميع أصحابه بقتله و كان مذهبى فيه أنّ الملك الظاهر برقوقا لا يقتله

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۱۲۸

أبدا، بل إذا ظهر منه ما يخيفه يحبسه إلى أن يموت مراعاة لما سبق له من المنّ عليه لمّا خلعه من الملك و السلطنة و حبسه و لم يقتله. انتهى.

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۹۴]

السنة الثالثة من سلطنة الملك الظاهر برقوق «الثانية على مصر»، و هى سنة أربع و تسعين و سبعمائة. و فيها توفّى الشيخ الأديب شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن على الدّنيسرىّ المعروف بابن العطار الشاعر المشهور فى سادس عشر شهر ربيع الآخر، و قد مرّ من شعره نبذة كثيرة فى عدّة مواطن، و من نظمه المشهور فى الأقباط قوله: (السريع)

قالوا ترى الأقباط قد رزقوا حظا واضحوا كالسلاطين

و تملّكوا الأتراك قلت لهم: رزق الكلاب على المجانين

و توفّى الأمير الكبير إينال بن عبد اللّه اليوسفيّ اليلبغاويّ أتابك العساكر بالديار المصرية بها فى رابع عشرين جمادى الآخرة، و تولّى الأتابكية من بعده الأمير كمشبغا الحموى اليلبغاوى، على أن كمشبغا كان يجلس فى الخدمة تحت إينال المذكور، و كان إينال شجاعا مقداما، و قد تقدم ركوبه على الملك الظاهر برقوق قبل سلطنته و القبض عليه و حبسه مدّة إلى أن أخرجه برقوق إلى بلاد الشام و صار بها أميرا، ثم نقله إلى عدّة ولايات إلى أن ولّاه نيابة حلب، ثم عزله فى سلطنته الأولى عن نيابة حلب، و جعله أتابك دمشق، ثم ولّاه نيابة حلب بعد عصيان الناصريّ، فلم يتم له ذلك، و خرج إينال أيضا على الظاهر، و وافق الناصريّ، فلمّا ملك الناصريّ مصر ولّاه نيابة صفد، و وقع له أمور حتى ولّاه الملك الظاهر برقوق

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۱۲۹

أتابكية العساكر بالديار المصرية فى سلطنته الثانية، فدام على ذلك إلى أن مات فى التاريخ المذكور، و قد تقدّم ذكر إينال هذا فى عدّة تراجم من هذا الكتاب، فيها كفاية عن التعريف بحاله.

و توفّى الأمير سيف الدين بطا بن عبد اللّه الطولوتمريّ الظاهريّ نائب الشام بها، بعد أن ولى نيابة الشام أياما قليلة، فى حادى عشرين المحرم؛ و قد ذكرنا أمر بطا هذا فى أواخر ترجمة الملك المنصور، و كيفية خروجه من سجن القلعة؛ و كيف ملك باب السلسلة من صراى تمر نائب غيبة منطاش، و إقامته بباب السلسلة إلى أن قدم أستاذه الملك الظاهر برقوق إلى الديار المصرية، و ولّاه الدوادارية الكبرى، ثم ولاه نيابة دمشق بعد القبض على الأتابك يلبغا الناصرى، فلم تطل أيامه، و مات، و كان من أعيان المماليك الظاهرية، و اتّهم الملك الظاهر فى أمره أنه اغتاله بالسم، و اللّه أعلم.

و توفّى الأمير سيف الدين ملكتمر بن عبد اللّه الناصريّ بطّالا ملازما لبيته فى حادى عشرين شهر ربيع الأوّل، و كان قديم هجرة فى الأمراء، تأمّر فى دولة الناصر حسن، ثم أنعم عليه الملك الأشرف شعبان بإمرة مائة، و تقدمة ألف بالديار المصرية، ثم جعله رأس نوبة النّوب، بعد واقعة أسندمر الناصرى، ثم نقل إلى إمرة مجلس، ثم صار أستادارا كبيرا فى سنة إحدى و سبعين و سبعمائة عوضا عن علم دار المحمدى، ثم أخرج إلى نيابة صفد فى السنة المذكورة، ثم عزل و أحضر إلى القاهرة و أنعم عليه بإمرة مائة و تقدمة ألف بها، ثم ولى حجوبية الحجّاب بالدّيار المصرية مدّة سنين، ثم تعطّل و لزم داره حتى مات.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۱۳۰

و توفى الأمير سيف الدين سودون بن عبد اللّه الطولوتمرى نائب دمشق بها فى شعبان، و كان ولى نيابة دمشق بعد موت الأمير بطا المقدّم ذكره، فحكم بدمشق و مات، و تولى بعده نيابة دمشق الأمير كمشبغا الأشرفى الخاصّكيّ أمير مجلس.

متوفّى الشيخ المعتقد المجذوب طلحة المغربيّ فى رابع عشر شوال بمدينة مصر، و كانت جنازته مشهودة، و دفن خارج باب النصر من القاهرة، و هو أحد من أوصى الملك الظاهر برقوق أن يدفن تحت أرجلهم من الصالحين و العلماء، فدفن هناك، ثم عمّرت التربة الناصرية الموجودة الآن، و كان للناس فيه اعتقاد كبير، لاسيما الملك الظاهر برقوق.

و توفى الشيخ الإمام العالم العلامة عز الدين يوسف بن محمود بن محمد الرازى الحنفى العجمى، المعروف بالأصم، شيخ خانقاه الملك المظفر ركن الدين بيبرس

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۱۳۱

الجاشنكير، ثم شيخ الخانقاه الشيخونية فى ثالث عشرين المحرم، و قد أناف على السبعين سنة، و كان من العلماء.

و توفى الأديب الوزير فخر الدين أبو الفرج عبد الرحمن، و قيل عبد الوهاب ابن عبد الرزاق بن إبراهيم القبطى الحنفى الشهير بابن مكانس وزير دمشق، و ناظر الدولة بالديار المصرية، و الشاعر المشهور بالقاهرة فى خامس ذى الحجة، و كان أديبا فاضلا شاعرا فصيحا بليغا لا يعرف فى أبناء جنسه الأقباط من يقاربه و لا يدانيه، و هو أحد فحول الشعراء بالديار المصرية فى عصره، و شعره فى

غاية الحسن و الرّقة و الانسجام، و ديوان شعره مشهور كثير الوقوع بأيدى الناس، و قد استوعبنا من شعره أشياء كثيرة فى كتابنا (المنهل الصافى)، إذ هو كتاب تراجم، نذكر هنا بعضها، و من شعره و قد صادره الملك الظاهر برقوق، فقال: [الرمل]

ربّ خذ بالعدل قوما أهل ظلم متوالى

كلّفونى بيع خيلى برخيص و بغالى

و لما علّقه الملك الظاهر برقوق فى مصادرته منكسا على رأسه قال: [البسيط]

و ما تعلقت بالسّرياق منتكسا لجرمة أوجبت تعذيب ناسوتى

لكننى مذ نفثت السّحر من أدبى علّقت تعليق هاروت و ماروت

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج١٢، ص: ١٣٢

و له- عفا اللّه عنه-: [الكامل]

زارت معطرة الشذا ملفوفة كى تختفى فأبى شذا العطر

يا معشر الأدباء هذا وقتكم فتناظموا فى اللّفّ و النّشر

و له- سامحه اللّه تعالى-: [الوافر]

يقول معذّبى إذ همت وجدا بخدّ خلت فيه الشّعر نملا

أتعرف خدّه للعشق أهلا فقلت لهم نعم أهلا و سهلا

و توفّى القاضى علاء الدين علىّ بن عيسى بن موسى بن عيسى بن سليم بن حميد الأزرقى المقيّرى الكركىّ الشافعى كاتب سرّ الكرک ثم الديار المصرية فى أوّل شهر ربيع الاوّل، و دفن خارج باب النصر، و هو أحد من قام بنصرة الملک الظاهر عند خروجه من حبس الكرک، و قد تقدّم ذكر ذلک فى ترجمة الملک الظاهر برقوق، فعرف له برقوق ذلک، و ولّاه كتابة سرّ مصر، و ولى أخاه القاضى عماد الدين قضاء الديار المصرية، و استمرّ علاء الدين هذا فى وظيفته كتابة السر إلى أن مرض و مات، و أعيد بدر الدين بن فضل اللّه من بعده فى وظيفة كتابة السرّ.

و توفّى القاضى علاء الدين علىّ بن عبد اللّه بن يوسف البيرىّ الحلبىّ الشاعر الكاتب المنشئ فى رابع عشر شهر ربيع الأوّل مخنوقا بأمر الملک برقوق، و كان

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج١٢، ص: ١٣٣

بارعا فى الإنشاء و الأدب، و خدم جماعة من الملوک إلى أن اتصل بخدمة الأتابک يلبغا الناصرى، و سار صحبته إلى الديار المصرية لقتال الملک الظاهر برقوق.

و لمّا ملک الناصرىّ ديار مصر صار علاء الدين هذا من عظماء مصر، و لا زال على ذلک حتى قبض على الناصرىّ و حبس بالإسكندرية، فاستمر علاء الدين بمصر، فلمّا عاد الظاهر إلى ملكه و أخرج الناصرىّ، عاد علاء الدين هذا إلى خدمته، إلى أن قبض عليه الملک الظاهر و قتله، و أمسک علاء الدين هذا و حمل إلى القاهرة فى الحديد، ثم قتل، و كان بارعا أديبا شاعرا، و من شعره: [الطويل]

أرى البدر لمّا أن دنا لغروبه و ألبس منه أزرق الماء أبيضا

توهّم أن البحر رام التقامه فسلّ له سيفا عليه مفضّضا

و توفّى الأمير عنقاء بن شطّى ملک العرب و أمير آل مرا، كان قد خرج عن طاعة الملک الظاهر، و قتل الأمير يونس الدّوادار، و وافق الناصرىّ و منطاشا، فلمّا عاد الملک الظاهر إلى ملكه لم يزل يرسل إليه الفداويّة و يعد الناس فى قتله حتى قتلته الفداويّة فى هذه السنة فى رابع المحرم.

و توفی الأمیر سیف الدین قطلوبغا بن عبد اللّه الصّفوی، کان أحد أمراء الألوف بالدیار المصریة، و حاجب الحجّاب بها فی أوّل شهر ربیع الآخرة.

و توفّی الأمیر سیف الدین قطلوبک بن عبد اللّه السیفی طشتمر الدوادار، کان أحد أمراء العشرات مات فی عاشر صفر.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۱۳۴

و توفّی الشیخ بدر الدین محمد بن عبد اللّه المنهاجیّ الفقیه الشافعی المعروف بالزّرکشیّ المصنّف المشهور فی ثالث رجب و کان فقیها مصنّفا.

و توفّی الشیخ الصالح المعتقد أبو عبد اللّه محمد الرّکراکیّ المغربیّ المالکیّ فی ثالث جمادی الأولی، و قد قارب مائة سنة.

و توفّی الأمیر الوزیر ناصر الدین محمد بن الأمیر حسام الدین لاچین الصقریّ المنجکیّ المعروف بابن الحسام فی ثانی عشر صفر، بعد مرض طویل، بعد أن ولی الوظائف الجلیلة مثل وزر مصر و الأستاداریة و غیرهما.

و توفی القاضی جمال الدین محمود ابن القاضی حافظ الدین محمد بن تاج الدین إبراهیم القیصریّ الحنفیّ قاضی قضاة الحنفیة بحلب.

و توفی الأمیر سیف الدین قرا دمرداش بن عبد اللّه الأحمدی الیلبغاویّ مقتولا فی محبسه بقلعة الجبل فی ذی الحجة، و هو أیضا من أعیان الممالیک الیلبغاویّة، و کان من جملة أمراء الألوف بالدیار المصریة، و أمیر سلاح فی سلطنة الظاهر الأولی، فلمّا انتصر الناصریّ علی عسکر الملک الظاهر برقوق بدمشق، و قبض الناصریّ علی الأتابک أیتمش البجاسیّ، خلع الملک الظاهر علی قرا دمرداش هذا باستقراره عوضه أتابک العساکر بالدیار المصریة، و أنعم علیه بثلاثین ألف دینار، فأخذها و عصی من لیلته، و توجّه إلی الناصریّ، و صار من جملة عساکره، فلمّا ملک الناصریّ الدیار المصریة استقرّ به أمیر مجلس إلی أن أمسک منطاشا مع من

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۱۳۵

أمسک من حواشی الناصریّ، و حبسه إلی أن أطلقه الملک الظاهر برقوق، و ولّاه نیابة طرابلس، ثم نقله إلی نیابة حلب و ندبه لقتال منطاش فدأم علی نیابة حلب إلی أن عزله عنها الملک الظاهر، بعد أن أمسک الناصریّ و أنعم علیه بتقدمة ألف بدیار مصر، ثم قبض علیه بمصر و حبسه ثم قتله.

و توفّی الشیخ المحدّث المسند بدر الدین محمد بن محمد بن مجیر المعروف بابن الصائغ و ابن المشارف فی ثالث شهر ربیع الآخر.

- أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم سبعة أذرع و عشرون إصبعا، مبلغ الزیادة تسعة عشر ذراعا و اثنتا عشرة إصبعا.

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۹۵]

السنة الرابعة من ولایة الملک الظاهر برقوق الثانیة علی مصر و هی سنة خمس و تسعین و سبعمائة.

و فیها توفی الأدیب الشاعر زین الدین أبو بکر بن عثمان بن العجمیّ فی سادس عشر ذی الحجّة، و کان عنده فضیلة، و له شعر جیّد من ذلک قوله: [البسیط]

قد عاود الحبّ قلبی بعد سلوته و استعذب الضّیم و التعذیب و النّصبا

و کان أقسم لا یصبو لظبی نقا فما رأی فی هوی غزلانه وصبا

و توفّی الأمیر زین الدین أبو یزید بن مراد الخازن، دوادار السلطان الملک الظاهر برقوق، و أحد أمراء الطبلخاناه فی رابع جمادی الآخرة، و حضر السلطان الصلاة علیه، و أبو یزید هذا هو الذی کان أخفی الملک الظاهر برقوقا عنده

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۱۳۶

فی نوبة الناصری و منطاش، و أخذ من داره، و کان الظاهر توجّه إلیه و اختفی عنده من غیر مواعدة، فعرف له الملک الظاهر ذلک،

فلما عاد الملك الظاهر إلى ملكه ثانيا أنعم عليه بإمرة طبلخاناه ثم استقرّ به دوادارا كبيرا بعد توجّه بطا لنيابة الشام، فدام على ذلك حتى مات فى التاريخ المذكور، و دفن بتربته التى أنشأها عند دار الضيافة بالقرب من قلعة الجبل، و كان أميرا فاضلا عارفا ذكيّا له يد فى فنون، و كان يعرف بالتّركى و العجمىّ و الأرمنىّ، على أنه كان فصيحا باللغة العربية.

قلت: هكذا يكون الدوادار، لا كمن لا يعرف اسمه من اسم الحمار، و كان يميل إلى مذهب الصوفية، و كان الملك الظاهر يثق إليه، و يشاوره فى أموره.

و توفّى الوزير الصاحب شمس الدين أبو الفرج عبد اللّه المقسىّ، فى رابع شعبان و دفن بجامعه الذى جدّده على الخليج الناصرىّ بالقرب من باب البحر، و كان معدودا من رؤساء الأقباط.

و توفّى الأمير ناصر الدين محمد بن الأمير علاء الدين آقبغا آص، قال المقريزى رحمه اللّه: كان أولا من جملة أمراء الملك الأشرف شعبان الطبلخانات، ثم نزعها منه لمّا سخط على والده، و تعطّل مدّة و عقّ أباه، و حكى عنه

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج١٢، ص: ١٣٧

أمور شنيعة فى عقوقه لوالده، و سافر إلى اليمن و عاد إلى القاهرة و تنقّلت به الأيام إلى أن ولى شد الدواوين بإمرة عشرة مدّة، ثم أمسك و صودر و عوقب عقوبة شديدة، و كان سيّئ السيرة، من أشرّ خلق اللّه المتجاهرين بالمعاصى، إلى أن توفى فى يوم الأربعاء ثامن عشرين شوّال». انتهى كلام المقريزى.

و توفّى الأمير الطواشى مقبل بن عبد اللّه الشهابى شيخ الخدّام بالحرم النبوىّ، و كان أصله من خدّام الملك الصالح إسماعيل ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون و تنقّل فى الخدم إلى أن اختص بالأمير شيخون العمرى، ثم خدم السلطان حسنا [ابن قلاوون]، ثم ولى مشيخة الخدّام بالحرم النبوى بعد وفاة الطواشى افتخار الدين ياقوت الرسولى الخازندار الناصرى، و كان مقبل ينوب عنه فى الحرم، فلمّا مات ولى مكانه.

و توفى قاضى القضاة ناصر الدين أبو الفتح نصر اللّه بن أحمد بن محمد بن أبى الفتح بن هاشم بن إسماعيل بن إبراهيم الكنانى العسقلانىّ الحنبلى، قاضى قضاة الديار المصرية بها فى ليلة الأربعاء حادى عشرين شعبان، و كان مشكور السيرة محبّا للناس.

و توفى الشيخ نجم الدين محمد بن جماعة الشافعى خطيب القدس فى يوم الأربعاء تاسع ذى القعدة [بالقاهرة و دفن خارج باب النصر].

و توفى الأمير صارم الدين إبراهيم ابن الأمير الكبير طشتمر الدوادار فى شهر رمضان بثغر الإسكندرية، و كان من جملة أمراء الطبلخاناه بالديار المصرية.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج١٢، ص: ١٣٨

و توفى الشيخ علاء الدين أبو الحسن على بن محمد الأقفهسى الفقيه الشافعىّ فى ثامن عشرين شوّال، و كان معدودا من فقهاء الشافعية.

و توفى علاء الدين قطلوبغا بن عبد اللّه الأسنقجاوى، و المعروف بأبى درقة الكاشف، ولى الكشف بجهات كثيرة، و وقع له أمور مع العربان، و قتل منهم جماعة كبيرة حتى مهّد البلاد القبلية.

و توفى الشيخ صلاح الدين محمد بن الأعمى الحنبلى، مدرس مدرسة الملك الظاهر برقوق فى شهر ربيع الآخر.

و توفى القاضى شهاب الدين أبو العباس أحمد بن الضياء المناوى الشافعى، شيخ المدرسة الجاولية بالكبش، و أحد نواب الحكم بالقاهرة فى شهر ربيع الآخر.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ستة أذرع و أربعة عشر إصبعا.

مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا و عشرون إصبعا. و اللّه تعالى أعلم.

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۹۶]

السنة الخامسة من سلطنة الملک الظاهر برقوق الثانیة علی مصر و هی سنة ست و تسعین و سبعمائة. و فیها توفی الأمیر سیف الدین أبرک بن عبد اللّه المحمودی الظاهری شادّ الشراب خاناه السلطانیة، و هو مجرّد بدمشق، و بها دفن و کان خصیصا عند أستاذه الملک الظاهر برقوق.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۱۳۹

و فیها توفّی الصاحب الوزیر موفّق الدین أبو الفرج الأسلمی تحت العقوبة فی یوم الاثنین [حادی] عشرین شهر ربیع الآخر، و کان أسوأ الوزراء سیرة، لأنه کان أکره علی الإسلام حتی قال: کلمة الإیمان غصبا و لبس العمامة البیضاء و هو باق علی دین النّصرانیة، فکان علی الناس بذنوبهم، و لما کان علی دین النصرانیة و هو یباشر الحوائج خاناه کان مشکور السیرة، حتی أکره علی الإسلام، فبلغ من المسلمین مبلغا عظیما من الظلم و الجور، و ولی فی بعض الأحیان نظر الجیش بدیار مصر أیضا.

قلت: لا ألومه علی ما فعله و ما الذنب إلا لمولّیه: لم لا أقتدی بمن کان قبله من الملوک السالفة و وزرائهم! مثل القاضی الفاضل عبد الرحیم، و ابن بنت الأعز و بنی حنّاء و غیرهم- رحمهم اللّه تعالی.

و توفی الشیخ المعتقد الصالح رشید التّکروری الأسود فی البیمارستان المنصوری فی یوم السبت ثالث عشرین جمادی الآخرة، و کان یقیم بجامع راشدة خارج مدینة مصر القدیمة، و هو آخر من سکنه و هو یقصد للزیارة و للناس فیه اعتقاد حسن.

و توفی الأمیر سلّام (بتشدید اللام) ابن محمد سلیمان بن فاید، المعروف بابن الترکیة أمیر خفاجة من الصعید فی سابع شهر ربیع الآخر، و کان من أجلّ أمراء العرب.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۱۴۰

و توفّی الرئیس علاء الدین علی بن عبد الواحد بن صغیر رئیس الأطباء، و هو بمدینة حلب فی التجریدة صحبة السلطان فی یوم الجمعة عاشر ذی الحجة و دفن بها، ثم نقل بعد مدّة إلی القاهرة، و کان من الأفراد فی علم الطب و الملاطفة ماهرا فی صناعته، کان من عظم اطلاعه فی علم الطب یصف للموسر بأربعین ألفا و یصف الدواء فی ذلک الداء بعینه للمعسر بفلس واحد.

قال المقریزی: «و کنت عنده فدخل علیه شیخ و شکا شدة السّعال، فقال له: إیاک تنام بغیر سراویل، فقال الشیخ: إی و اللّه، فقال له: فلا تفعل، ثم بسراویلک! قال: فصدفت ذلک الشیخ بعد أیام فسألته، فقال لی: عملت ما قال فبرئت، قال: و کان لنا جار حدث لابنه رعاف حتی أفرط فانحلت قوی الصغیر، فجاء به إلی ابن صغیر هذا و شکا من کثرة الرّعاف، فقال له: شرّط أذنه، فتعجّب و توقف فقال له ثانیا: توکّل علی اللّه و افعل، ففعل ذلک فبرئ الصغیر و ذکر له أشیاء کثیرة من هذا النموذج یطول شرحها.

و توفی القاضی بدر الدین محمد ابن القاضی علاء الدین علی ابن القاضی محیی الدین یحیی بن فضل اللّه بن مجلّی بن دعجان بن خلف بن تصر بن منصور بن عبد اللّه بن علی ابن محمد بن أبی بکر عبد اللّه بن [عبد اللّه بن] عمر بن الخطاب العدوی القرشی العمری المصری الشافعی کاتب سر الدیار المصریة و رئیسها بدمشق فی یوم الثلاثاء العشرین من شوّال مجردا صحبة السلطان الملک الظاهر برقوق و دفن بتربتهم بدمشق، و ولی کتابة السر من بعده القاضی بدر الدین محمود [السّیرامیّ] الکلستانی.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۱۴۱

و توفی أخوه حمزة بن علی بن فضل اللّه بعده بشهر، فقال فی موتهما بعض شعراء العصر: [الوافر].

قضی البدر بن فضل اللّه نحبا و مات أخوه حمزة بعد شهر

فلا تعجب لذی الأجلین یوما فحمزة مات حقا بعد بدر

و کان القاضی بدر الدین المذکور إماما رئیسا فاضلا فی الإنشاء و الأدب و له مشارکة جیدة فی الفقه و غیره، و کان محمود السیرة

مشکور الطریقة، باشر کتابة سرّ مصر نحو سبع و عشرین سنة، على أنه انفصل فیها أولى و ثانیة، فالأولى بأوحد الدین عبد الواحد، و الثانیة بعلاء الدین الکرکی و هو ثالث واحد سمّی بدر الدین من بنی فضل اللّه کتّاب سر دمشق، و آخر من ولی کتابة سر مصر و غیرها من بنی فضل اللّه، و بموته خرجت کتابه السر عن بنی فضل اللّه- رحمه اللّه تعالى- و توفی القاضی تاج الدین محمد بن محمد بن محمد الملیجی المعروف بصائم الدهر محتسب القاهرة، و ناظر الأحباس و خطیب مدرسة السلطان حسن فی تاسع عشر صفر عن سبعین سنة و کان خیّرا دینا مشکور السیرة- رحمه اللّه-

و توفی الأمیر منکلی بغا بن عبد اللّه الشمسی الطرخانی، أحد الأمراء بدیار مصر ثم نائب الکرک فی لیلة عاشوراء، و کان من أکابر أمراء مصر ولدیه حشمة و ریاسة.

و توفی الأمیر زین الدین عبد الرحمن بن الأتابک منکلی بغا الشمسی و ابن أخت الملک الأشرف شعبان بن حسین، و صهر الملک الظاهر برقوق و أحد أمراء الطبلخانات بدیار مصر بها فی عاشر شعبان.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۱۴۲

و توفی الشیخ ناصر الدین محمد بن مقبل الجندی الفقیه الظاهریّ المذهب فی یوم الأربعاء ثالث عشر جمادى الآخرة، و کان فاضلا و له مشارکة جیّدة فی فنون، و کان لا یتکتّم الاقتداء بمذهب أهل الظاهر و یحفّ شاربه و یرفع یدیه فی کلّ خفض و رفع فی الصلاة.

و توفّی الأمیر ناصر الدین محمد بن الأمیر شرف الدین موسى بن [سیف الدین أرقطای بن] الأمیر جمال الدین یوسف أحد أمراء العشرات بالدیار المصریة فی لیلة الأربعاء سادس عشرین ذی القعدة، و کان أبوه و جدّه من أمراء الألوف بالقاهرة، و کان یحبّ علم الحدیث، و یواظب سماعه، و له مشارکة فی المذهب.

و توفّیت الشیخة الصالحة المعتقدة المعروفة بالبغدادیة، صاحبة الرّباط بالقاهرة فی یوم السبت ثانی عشرین جمادى الآخرة، و کانت على قدم هائل من الصلاة و العبادة، و للناس فیها اعتقاد، و تقصد للزیارة.

و توفّی السلطان أبو العباس أحمد بن محمد بن أبی بکر بن یحیى بن إبراهیم؛ فی لیلة الخمیس رابع شعبان بمحلّ ملکه مدینة تونس من بلاد المغرب، بعد أن حکمها أربعا و عشرین سنة و ثلاثة أشهر و نصفا، و قام من بعده على ملک تونس ابنه السلطان أبو فارس عبد العزیز و کان من أجلّ ملوک الغرب، و طالت أیام ولده عبد العزیز فی الملک حسب ما یأتی ذکره فی محلّه، إن شاء اللّه تعالى.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۱۴۳

و توفّی أیضا صاحب مملکة فاس من بلاد الغرب- السلطان أبو العباس أحمد بن أبی سالم بن إبراهیم بن أبی الحسن المرینی ملک الغرب فی المحرّم، و أقیم بعده ابنه أبو فارس عبد العزیز.

قلت: و هو یشارک المقدّم ذکره فی الاسم و الکنیة و اسم الأب و الجدّ.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم ستة أذرع سواء. مبلغ الزیادة سبعة عشر ذراعا و أحد عشر إصبعا. و اللّه تعالى أعلم.

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۹۷]

السنة السادسة من سلطنة الملک الظاهر برقوق الثانیة على مصر و هی سنة سبع و تسعین و سبعمائة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة؛ ج۱۲؛ ص۱۴۳

ها توفّی الشیخ برهان الدین أبو إسحاق إبراهیم الآمدی الدّمشقی الفقیه الحنبلی أحد أصحاب ابن تیمیّة.

و توفی الأمیر علاء الدین ألطنبغا بن عبد اللّه الحلبی الأشرفی، و هو مسجون بقلعة حلب، و کان من أعیان الممالیک الأشرفیة؛ و أحد أکابر الأمراء بدیار مصر.

و توفّی الشیخ المعتقد المجذوب أبو بکر البجائی المغربی، أحد من أوصى السلطان الملک الظاهر برقوقا أن یدفن تحت رجلیه فی

یوم السبت خامس جمادی

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۲، ص: ۱۴۴

الآخرة، و دفن خارج باب النصر حیث هی التربة الظاهریة الآن، و کانت جنازته مشهودة، و أخرجه السلطان و جهّزه علی ید الأمیر یلبغا السالمی؛ و کان للناس فیه اعتقاد لا سیّما الظاهر برقوق فإنه کان له فیه اعتقاد.

و توفّی العلّامة صدر الدین بدیع بن نفیس التّبریزی رئیس الأطباء بالدیار المصریة فی سادس عشر شهر ربیع الأول، و هو عمّ القاضی فتح الدین فتح اللّه کاتب السّر الآتی ذکره، و هو الذی کفله بعد موت جدّه نفیس؛ و کان مات والد فتح الدین معتصم بن نفیس، و فتح اللّه طفل صغیر؛ و کان بدیعا ماهرا فی علم الطبّ کثیر الحفظ لمتونه، و هو صاحب التصانیف المشهورة.

و توفّی الشریف أبو الحسن علی بن عجلان بن رمیثة، و اسم رمیثة منجد بن أبی نمیّ بن أبی سعد حسن بن علی بن قتادة بن إدریس بن مطاعن بن عبد الکریم ابن عیسی بن عیسی بن حسین بن سلیمان بن علی بن عبد اللّه بن محمد بن موسی ابن عبد اللّه المحض بن موسی بن الحسن السّبط بن الحسن بن علی بن أبی طالب المکی الحسنی، أمیر مکة المشرفة، ولیها ثمانی سنین و نحو ثلاثة أشهر مستقلّا بالإمارة؛ غیر سنتین أو نحوهما؛ فإنه کان فیهما شریکا لعنان بن مغامس بن رمیثة؛ و وقع له أمور بمکة مع الأشراف و وقائع؛ و آخر الأمر توجّه أخوه الشریف حسن بن عجلان إلی القاهرة یرید إمرة مکة؛ فقبض علیه السلطان

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۲، ص: ۱۴۵

و حبسه؛ و بعث إلی علیّ هذا باستمراره علی إمرة مکة، فاستمرّ علی إمرتها إلی ان وقع بینه و بین بعض القواد، و خرج إلیهم علیّ هذا، فبدره بعضهم و سایره، و هو راکب علی راحلته، و الشریف علیّ هذا علی فرس فرمی القائد بنفسه علی الشریف علیّ المذکور و ضربه بجنبیّة کانت معه، فوقعا جمیعا علی الأرض، فوثب علیه علیّ و ضربه بالسیف ضربة کاد منها یهلک، و ولّی علیّ راجعا إلی الحلّة، فأغری به شخص یقال له أبو نمیّ غلام لصهره حازم بن عبد الکریم جندیا، و عتبة و حمزة و قاسما، فوثبوا علیه و قتلوه و قطّعوه و بعثوا به إلی مکة، فدفن بالمعلاة علی أبیه عجلان، و کان قتله فی یوم الأربعاء سابع شوّال، و ولی إمرة مکة بعده أخوه حسن بن عجلان.

و توفّی الأمیر ناصر الدین محمد بن السلطان الملک الظاهر برقوق فی یوم السبت ثالث عشرین ذی الحجة، و مولده فی مستهل شهر ربیع الأوّل سنة اثنتین و ثمانین و سبعمائة، و أمّه خوند الکبری أرد، صاحبة قاعة العوامید، و مات بعد أن أعیا الأطباء داؤه الذی کان برجلیه من أریاح الشّوکة. و به مات، و کان إقطاعه الدیوان المفرد الآن، فإنه لما مات جعله السلطان إقطاعه لممالیکه المشتروات

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۲، ص: ۱۴۶

و أفرده فسمی المفرد من یومئذ، و جعل کاتبه الهیصم، و کان محمد هذا أکبر أولاد السلطان و أعظمهم، و وجد السلطان علیه وجدا عظیما.

و توفّی قاضی القضاة ناصر الدین محمد بن عبد الرحمن بن عبد الدائم بن محمد المعروف بابن بنت میلق الشاذلی الصوفی، قاضی قضاة الدیار المصریة، و هو معزول فی لیلة الاثنین تاسع عشرین شهر ربیع الأوّل. و کان أصله من أشموم الرمان، ولد قبل سنة ثلاثین و سبعمائة، و سمع الحدیث و طلب العلم و تفقّه و وعظ دهرا، و قال الشعر، و أنشأ عدّة خطب بلیغة، و جمع عدّة أجزاء فی عدّة فنون، و کان یتزیّا بزیّ الفقراء و یتصدی لعمل المواعید، و اعتقده الناس و تبرّکوا به، و خطب بعدّة جوامع و صار له أتباع و شهرة کبیرة، إلی أن طلبه الملک الظاهر برقوق للقضاء بعد عزل القاضی بدر الدین محمد بن أبی البقاء، فامتنع ثم أجاب فألبسه الملک الظاهر تشریف القضاء بیده، و أخذ طیلسانه یتبرّک به.

قال المقریزی: فداخل الناس بولایته خوف و وهم، و ظنوا أنه یحمل الناس علی محض الحق، و أنه یسیر علی طریق السلف من القضاة، لما ألفوه من تشدّقه فی وعظه، و تفخّمه فی منطقه، و إعلانه بالتبکیر علی الکافّة، و وقیعته فی القضاة، و اشتماله علی لبس

الخشن المتوسط من الثياب، و معيبه على أهل الترف، فكان أوّل

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ١٢، ص: ١۴٧

ما بدأ به أن عزل قضاة مصر جميعهم من العريش إلى أسوان، و بعد يومين تكلم معه الحاجّ مفلح مولى القاضى بدر الدين بن فضل اللّه كاتم السرّ فى إعادة بعض من عزله من القضاة فأعاده، فانحل ما كان معقودا بالقلوب من مهابته، ثم قلع زيّه الذى كان يلبسه، و لبس الشاش الكبير الغالى الثمن و نحوه من الثياب، و ترفّع فى مقاله و فعاله، حتى كاد يصعد الجو، و شح فى العطاء و لاذبه جماعة غير محبّبين إلى الناس. فانطلقت ألسنة الكافّة بالوقيعة فى عرضه، و اختلقوا عليه ما ليس فيه، فلما قدم الأمير يلبغا الناصرىّ إلى الديار المصرية، و غلب برقوقا على المملكة و بعثه إلى سجن الكرک كان هو قاضيا يومئذ فوقّع فى حقّ الظاهر، و أساء القول فيه، فبلغه ذلک قبل ذهابه إلى الكرک فأسرّها فى نفسه، فلمّا ثار منطاش على الناصرى صرف ابن ميلق هذا عن القضاء بالصدر المساوى، بعد ما كان أخذ خطّه فى الفتاوى المكتتبة فى حقّ برقوق، فلمّا عاد برقوق إلى الملک لهج بدمه فتنبّهت أعين العدا لابن ميلق هذا و حسنوا للبيد فى أحمد أمين الحكم أن يقف للسلطان و يشكو ابن ميلق المذكور بسبب ما أخذه من أموال الأيتام، و كان نحو الثلاثين ألف درهم فضة، عنها قريب من ألف و خمسمائة مثقال من الذهب، فرفع فيه قصة إلى السلطان فطلبه فجاءوا به و قد حضر القضاة فأوقف مع النقباء تحت مقعد السلطان فى الميدان فحالما مثل قائما سقط مغشيا عليه، و صار على التّراب بحضرة

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ١٢، ص: ١۴٨

ذلک الجمع العظيم، فتقدّم بعض من كان يلوذ به ليصلح من شأنه، فصرخ فيه السلطان و ترک طويلا حتى أفاق، و ادّعى عليه البيد فى فلم يلحن بحجة، و ألزمه القضاة بغرامة ذلک، و القيام به للأيتام من ماله، و لم يكن المال المذكور فى ذمته، و إنما كان اقترضه و صرّه للحرمين، فلزمه غصبا و رسم عليه و سجن بالمدرسة الشريفية، ليدفع المال و ما زال يورده حتى أتى ذلک على غالب موجوده، ثم لزم داره و ذهبت عينه، و تخلّى عنه أحبابه إلى أن مات، و دفن حارج باب النصر بتربة الصوفية، فلقد كان قبل ولايته حسنة من حسنات الدهر، ما رأيت قبله أحسن صلاة منه و لا أكثر خشوعا مع حسن منطق، و فصاحة ألفاظ، و عذوبة كلام، و بهجة زىّ، و صدع فى وعظه إذا قصّ أو خطب، إلّا أنه امتحن بالقضاء، و ابتلى بما أرجو أن يكون كفارة له. انتهى كلام المقريزى باختصار.

و توفّى الشيخ شمس الدين محمد بن على بن صلاح الحريرى أحد نوّاب القضاة الحنفية، و مشايخ القرّاء بالديار المصرية، فى يوم الجمعة رابع عشرين شهر رجب.

و كان فقيها مقرئا، أقرأ و درّس و ناب فى الحكم سنين.

و توفّى القاضى شمس الدين محمد بن عمر القليجى الحنفى مفتى دار العدل، و أحد نواب القضاة بالديار المصرية، فى ليلة الثلاثاء العشرين من شهر رجب و قد بلغ من الرياسة مبلغا عظيما، و كانت لديه فضيلة تامّة.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ١٢، ص: ١۴٩

و توفّى العلّامة شمس الدين محمد الأقصرائى الحنفى شيخ المدرسة الأيتمشية بباب الوزير، فى سابع عشر جمادى الأولى، و كان إماما عالما مدرسا فقيها ذكيا حافظا، كان يلقى الدرس عند الملک الظاهر أيام إمرته، و صدرا من سلطنته، و كان خصيصا عند السلطان و له وجاهة فى الدولة، و تولّى بعد موته مشيخة الأيتمشية الشيخ سراج الدين عمر القرمى.

و توفّى القاضى برهان الدين إبراهيم القلقشندىّ الشافعىّ موقّع الحكم، و أحد الفقهاء الشافعية فى ثالث عشرين شعبان.

و توفّى الأمير سيف الدين طوغان بن عبد اللّه الظاهرىّ أمير جاندار، فى سادس عشر صفر، و كان أحد أعيان المماليک الظاهرية برقوق خصيصا عند أستاذه.

و توفّى الشيخ نور الدين أبو الحسن على الهورينىّ الفقيه الشافعى شيخ القوصونية فى شهر رجب و كان فقيها فاضلا بارعا.

و توفّى الشيخ شمس الدين محمد بن محمد بن أحمد السفرى الحلبى الحنفى فى يوم الجمعة خامس شهر ربيع الأوّل، و أصله من

قرية خربتا من عمل عزاز، و كان فقيها بارعا، و له مشاركة فى فنون.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۱۵۰

و توفّى القاضى جمال الدين أبو محمد عبد اللّه بن فرج النّويرى المالكى، أحد نواب الحكم المالكية بالديار المصرية، و كان معدودا من فضلاء المالكية.

و توفّى الأمير سيف الدين قرابغا بن عبد اللّه، والد الأمير جركتمر الخاصكى الأشرفىّ، فى ثانى شهر ربيع الأوّل و كان أحد أمراء العشرينات بالقاهرة، و كان مشكور السيرة خيّرا ديّنا.

و توفّى الشيخ المعتقد شمس الدين محمد المقسى فى يوم الأحد أول شهر رمضان، و كان يسكن بجامع المقسى على الخليج، و كان يقصد للزيارة.

و توفى الشيخ المعتقد محمد السّملوطى الصعيدى المالكى، فى ثانى عشر شهر رمضان، و كان فقيها خيّرا ديّنا، و للناس فيه اعتقاد و محبة.

و توفّى الشيخ شمس الدين محمد بن أحمد بن على بن عبد العزيز المعروف بابن المطرّز فى يوم الأحد سادس جمادى الآخرة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربعة أذرع و أربعة أصابع- مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا و ثمانية أصابع.

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۹۸]

السنة السابعة من سلطنة الملك الظاهر برقوق «الثانية على مصر» و هى سنة ثمان و تسعين و سبعمائة.

فيها توفّى الشيخ المقرئ الفقيه شهاب الدين أحمد بن محمد بن بيبرس الجندىّ، المعروف بابن الركن البيبرسى الحنفى، و كان إماما فاضلا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۱۵۱

و توفّى الأمير سيف الدين بهادر بن عبد اللّه الأعسر فى يوم عيد الفطر، و كان من أعيان الأمراء، و تنقّل فى عدّة ولايات.

و توفّى الأمير تمر بن عبد اللّه الشّهابى الحاجب أحد أمراء الطبلخانات بالديار المصرية، و كان فقيها فاضلا، و إماما بارعا فى الفقه و فروعه، معدودا من فقهاء الحنفيّة، و كان شجاعا مقداما خرج عليه العرب العصاة فقاتلهم فجرح فى المعركة، و مات من جراحه، رحمه اللّه.

و توفّى الأمير الجليل سودون بن عبد اللّه الفخرى الشيخونى، نائب السلطنة بالديار المصرية بها؛ فى يوم الثلاثاء خامس جمادى الآخرة، بعد ما شاخ، و كان أصله من مماليك الأمير الكبير شيخون العمرى الناصرىّ، ثم ترقّى فى الدول إلى أن ولى حجوبية الحجاب بالديار المصرية، فى دولة الملك الصالح حاجى، ثم نقله الملك الظاهر برقوق إلى نيابة السلطنة فى أوائل سلطنته، و طالت أيامه فى السعادة، و كان وقورا فى الدّول، معظّما عند الملوك، و لما كبر و شاخ أخذ يتبرّم من الإمرة و الوظيفة و يستعفى، إلى أن أعفاه الملك الظاهر بعد قدومه من سفرته إلى البلاد الشامية، و كان سودون مقيما بالقاهرة، فلزم داره من صفر سنة سبع و تسعين و سبعمائة إلى أن مات فى التاريخ المقدّم ذكره، و كان أميرا خيّرا ديّنا وافر الحرمة، آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر، و منذ مات تجاهر الملك الظاهر برقوق بالمنكرات التى لم تكن قبل تعرف منه، و كان محبا للعلماء و الفقراء، كان يدور و ينزل إلى بيوت الفقراء، و يتبرّك بهم و يبذل إليهم الأموال.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۱۵۲

قال قاضى القضاة العينى- رحمه اللّه-: و كان حصل له شىء من التّغفّل و التساهى.

قلت: كان فيه سلامة باطن مع دين و شفقة و لين جانب، حتى صار يحكى عنه أشياء فى حكوماته مختلقة عليه، كما يذكر الناس

ذلک عن الخادم بهاء الدين قراقوش الصّلاحى الخصىّ و ليس لذلک صحة. انتهى.

و توفّى الأمير سيف الدين قطلوبک بن عبد اللّه الطّشتمرى، أحد أمراء الألوف بالديار المصرية، و كان جليل القدر وقورا من الأمراء المشايخ.

و توفّى الأمير الوزير ناصر الدين محمد بن رجب بن كلبک التّركمانى الأصل المصرى، فى يوم الجمعة سادس عشرين صفر، كان شابا جميلا- حسن الهيئة، و هو ممن توفّى بغير نكبة، ولّاه الملک الظاهر برقوق أوّلا شادّ الدواوين بعد ابن آقبغا آص، ثم عزل بابن آقبغا آص، و عوّض عن شدّ الدواوين بشد الدواليب الخاصّ، عوضا عن خاله محمد بن الحسام، بحكم انتقال خاله إلى الوزارة، ثم بعد مدّة صودر، و حمّل مائة و سبعين ألف درهم، و قبل أن يغلقها أفرج عنه، ثم ولاه الملک الظاهر الوزارة عوضا عن الوزير موفّق الدين، فى يوم الاثنين رابع عشر شهر ربيع الآخر سنة ست و تسعين و سبعمائة، و أنعم السلطان عليه فى يوم ولايته للوزارة بإمرة مائة و تقدمة ألف بديار مصر، ثم خلع السلطان على جماعة من الوزراء البطّالين بوظائف تحت يده تعظيما له، و صار الجميع فى خدمته، فاستقرّ الوزير سعد الدين نصر اللّه ابن البقرىّ ناظر الدولة، و استقرّ الوزير كريم الدين بن الغنّام فى نظر البيوت، و استقرّ الوزير علم الدين سنّ إبرة فى استيفاء الدولة، شريكا للوزير تاج الدين عبد الرحيم

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۲، ص: ۱۵۳

ابن أبى شاكر، و نزل الجميع فى خدمته، و باشروا بين يديه، كما كانوا بين يدى خاله الأمير الوزير ناصر الدين محمد بن الحسام الصّفوى، فسمّى بوزير الوزراء و باشر بحرمة وافرة إلى أن مات.

و توفّى السيد الشريف صدر الدين مرتضى بن الشريف غياث الدين إبراهيم ابن حمزة الحسنىّ العراقىّ، نقيب الأشراف فى ليلة [السبت] ثالث شهر ربيع الآخر، و دفن على أبيه بتربة الأتابک يلبغا العمرى بالصحراء خارج القاهرة، و كان ولى نظر وقف الأشراف مع نقابة الأشراف، و نظر القدس و الخليل، و كان شكلا جميلا مهيبا فصيحا بالألسن الثلاثة: العربية و العجمية و التركية، و كان ديّنا خيّرا، صاحب عبادة و نسک، و كان له نظم على طريق البغاددة- رحمه اللّه تعالى- و هو قوله:

بحقّى عليكم بشوقى إليكم إذا اشتقت ليكم تعالوا ابصرونى

و توفّى ملک الغرب و صاحب فاس السلطان أبو فارس عبد العزيز بن السلطان أبى العباس أحمد بن أبى سالم بن إبراهيم بن أبى الحسن المرينى، و أقيم بعده على سلطنة فاس أخوه أبو عامر عبد اللّه.

و توفّى الشيخ صلاح الدين محمد الشّطنوفى موقّع الحكم فى شهر رمضان، و كان إماما فى صناعته.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۲، ص: ۱۵۴

و توفّى الشيخ نور الدين على بن عبد اللّه بن عبد العزيز [بن عمر بن عوض] الدّميرى المالكى شيخ القرّاء بخانقاه شيخون، و أخو القاضى تاج الدين بهرام، فى ثانى عشرين شهر رمضان، و كان إماما فى القراءات مشاركا فى عدّة فنون.

و توفّى الأمير ناصر الدين محمد بن جمق بن الأمير الكبير أيتمش البجاسى فى يوم الجمعة خامس صفر، و حضر السلطان الصلاة عليه و كان أحد أمراء الطبلخانات.

و توفّى الأمير ناصر الدين محمد بن الأمير جاركس الخليلى فى يوم الثلاثاء تاسع صفر، و كان محمد المذكور أيضا من أمراء الطبلخانات بالديار المصرية.

و توفّى القاضى شمس الدين محمد بن محمد بن موسى الشنشى الحنفى المعروف بالرّخ، أحد نوّاب القضاة الحنفية بمصر فى [يوم الخميس سادس] جمادى الأولى.

و توفّى الشيخ زين الدين مقبل بن عبد اللّه الصّرغتمشى الفقيه الحنفى فى أول شهر رمضان بالقاهرة، و كان فقيها فاضلا مستحضرا لفروع مذهبه، و له مشاركة فى عدّة فنون.

و توفی الأمیر سیف الدین تغری بردی بن عبد اللّه القردمیّ قتیلا- فی محبسه، و کان من أعیان الأمراء، و وقع له أمور فی واقعة الناصری و منطاش مع الملک الظاهر برقوق أوّلا، ثم کان من حزب الملک الظاهر علی منطاش آخرا، و دام علی

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۱۵۵

ذلک إلی أن قبض علیه و حبس، ثم قتل فی التاریخ المذکور- رحمه اللّه- و کان شجاعا مقداما.

و توفّی الشیخ الخطیب برهان الدین أبو إسحاق إبراهیم بن الشیخ المعتقد الصالح عبد اللّه المنوفی الفقیه المالکی فی شهر رجب، و کان أحد الفقهاء المالکیة، أقرأ و درّس و خطب بجامع الأمیر شرف الدین أمیر حسین بن جندر سنین، و هو ابن العبد الصالح المشهور عبد اللّه المنوفی.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم ستة أذرع و اثنا عشر إصبعا.

مبلغ الزیادة تسعة عشر ذراعا و إصبعان.

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۹۹]

السنة الثامنة من سلطنة الملک الظاهر برقوق «الثانیة علی مصر» و هی سنة تسع و تسعین و سبعمائة.

فیها توفّی الأمیر سیف الدین إیاس بن عبد اللّه الجرجاوی نائب طرابلس بالقاهرة بعد أن قبض علیه و ألزم بحمل مال کبیر، فأرسل خازنداره إلی حضور المال، فمات بعد یومین، فی یوم الجمعة ثامن عشرین صفر، و کان أولا من أمراء الألوف بالدیار المصریة، ثم تنقل فی عدّة أعمال بالبلاد الشامیة، حتی إنه ولی نیابة طرابلس ثلاث مرات آخرها فی سلطنة الملک الظاهر برقوق الثانیة إلی أن عزله بالأمیر دمرداش المحمدی الظاهری، نائب حماة، و توجّه إیاس أتابکا بدمشق، فأقام بها یسیرا و طلب إلی القاهرة و صودر و أهین إلی أن مات بعد یومین حسب

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۱۵۶

ما تقدّم ذکره، و قیل: إنه لما أهین کان فی یده خاتم سمّ فمصّه فمات من وقته، و قیل غیر ذلک، و کان بشع المنظر ظالما غشوما حدّ المزاج کریة المعاشرة، یرمی بعظائم، قیل: إنه قال له رجل مرة: یا وجه القمر؛ بعد أن دعا له کما هی عادة العوامّ، فضرب الرجل ضربا مؤلما، و قال: أنا أعرف بنفسی منک، و کانت بعض حظایاه ملکها الوالد من بعده و استولدها، فکانت تحکی عنه عظائم من سوء خلقه و خلقه.

و توفّی الأمیر أبو بکر بن [محمد بن واصل] المعروف بابن الأحدب أمیر العربان ببلاد الصعید قتیلا.

و توفّی الأمیر رکن الدین بیبرس بن عبد اللّه التمان تمری الأمیر آخور الثانی، و أحد أمراء الطبلخانات بالدیار المصریة، فی رابع عشر جمادی الآخرة، و کان من قدماء الأمراء، و هو من أوّل الأمر إلی آخره کان من حزب الملک الظاهر برقوق، و کان الملک الظاهر ینادمه و یمازحه و یعجبه کلامه، و أنا أتعجّب غایة العجب من الملک الظاهر برقوق فی عدم ترقّیه، و لعلّه کان راضیا بما هو فیه- و اللّه أعلم- و هو والد صاحبنا الناصری محمد بن بیبرس- رحمهما اللّه تعالی-.

و توفّی الأمیر عمر بن عبد العزیز أمیر عرب هوّارة ببلاد الصعید.

قلت: و عمر هذا هو والد بنی عمر أمراء العربان ببلاد الصعید فی زماننا هذا، و لعله یکون أوّل من ولی منهم الإمرة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۱۵۷

و توفّی الشیخ المسند المعمّر المعتقد زین الدین أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد ابن المبارک بن حماد المغربی المعروف بابن الشیخة، و مولده فی سنة خمس و عشرین و سبعمائة، و مات فی تاسع عشرین شهر ربیع الآخر، و دفن خارج القاهرة بعد أن حدّث سنین و صار رحلة فی زمانه.

و توفّى الشيخ نور الدين أبو الحسن على بن أحمد بن عبد العزيز العقيلىّ (بفتح العين المهملة) المالكى إمام المالكية بالمسجد الحرام بمكـة المشـرفة، و أخو القاضـى أبى الفضل، و كان يعرف بالفقيه علىّ النّويرىّ، فى ثانى جمادى الأولى بمكـة المشـرفة، و كان سـمع الكثير و حدّث سنين.

و توفى الشيخ الإمام محبّ الدين محمد بن الشيخ الإمام العلّامة جمال الدين عبد اللّه بن يوسف بن هشام النحوىّ، فى ليلة الاثنين رابع عشـرين شـهر رجب بعد أن تصدّى لإقراء النحو سـنين، و انتفع به جماعة الطلبة، و كان له مشاركة جيّدة فى الفقه و غيره، و كان خيّرا ديّنا.

و توفّى قاضـى القضاة شـمس الدين أبو عبد اللّه محمد بن أحمد بن أبى بكر الطرابلسى الحنفىّ، قاضى قضاة الديار المصرية، فى يوم السـبت ثـامن عشـرين ذى الحجـة، و كان عفيفا دينا مشـكور السّـيرة، و تولى القضاء من بعـده قاضـى القضاة جمال الـدين يوسف بن موسى بن محمد الملطىّ، بعد أن خرج البريد بطلبه، و شغر منصب القضاء بالقاهرة، مائة يوم و أحد عشر يوما، حتى حضر و ولى قضاء الحنفية بديار مصر.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۱۵۸

قلت: هكـذا تكون ولاية قضاة الشرع الشـريف بعزّة و طلب و احترام، لا كمن يسـعى فيها من بيت المال و الأمير الكبير إلى بيت والى القـاهرة، حتى يلى بالمـال و البـذل من غير تستّر فى ذلـك حتى إنه يعرف ولاـيته بالبرّطيـل، كلّ أحـد من المسـلمين حتى النصارى و اليهود، فلا حول و لا قوة إلا باللّه العلىّ العظيم.

و توفّى الشـيخ الإمام العالم زين الدين ميكائيل بن حسن بن إسـرائيل التّركمانى، الفقيه الحنفىّ فى ذى الحجة عن نيّف و سـبعين سنة، كان فقيها فاضلا بارعا مشاركا فى فنون كثيرة من العلوم، و كان مستحضرا لمذهبه مناظرا طلق اللسان فصيحا و أقرأ و درّس سنين.

و توفّى القاضـى جمال الـدين محمود بن أحمـد، و سـماه بعضـهم محمودا بن محمد بن على ابن عبد اللّه القيصـرى العجمىّ الحنفى، قاضى قضاة الحنفية بالديار المصرية، و ناظر الجيوش المنصورة بها، و شيخ شيوخ خانقاه شيخون، فى ليلة الأحد سابع شهر ربيع الأول، بعـد أن جمع بين هذه الوظائف الثلاث التى لم تجمع لغيره، و كان من رجال الدهر حزما و عزما، و معرفة و عقلا و فضـلا، و كان قدم إلى القاهرة فى عنفوان شبيبته فقيرا مملقا، و ترك بالمدرسة الصّرغتمشية مدّة يخدم الفقهاء، فرأى فى منامه أن عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه يقول له: أنت شاهنشاه، ففسّر المنام على الشّنشى، و كان من جملة الصوفية بالصرغتمشية، و تنقّلت به الأحوال إلى أن

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۱۵۹

صار يقرئ المماليك بالأطباق من القلعة، و قتل الملك الأشـرف شـعبان و صار مخدومه طشتمر اللّفاف أتابك العساكر، فتكلّم له فى حسـبة القاهرة دفعة واحدة فوليها، و نزل عند شـخص فى داره حتى تعيّن له دار يسـكنها، و بعث له قاضى القضاة صدر الدين المناوى بثوب حتى لبسه، لعجزه عن شـراء ثوب، و هذا كان أوّل مبدأ أمره، ثم تنقّل فى الوظائف حتى كان من أمره ما كان، و لما مات خلّف موجودا كبيرا و كتبا حسـنة، و خلّف ثمانيـة أولاد من الـذكور و الإناث، منهم العلّامـة صـدر الـدين أحمد بن العجمى الآتى ذكره فى وفيات ثلاث و ثلاثين و ثمانمائـة، و تولّى قضاء الحنفيّة من بعده القاضـى شـمس الدين محمد الطرابلسـى، و مات فى السـنة حسب ما تقدّم، و ولى الجيش بعده شرف الدين بن الدّمامينى.

و توفّى الأمير جمال الـدين محمود بن على بن أصـفر عينه الأسـتادار، فى يوم الأحـد تاسع شـهر رجب بخزانـة شـمائل، بعد ما نكب و عوقب و صودر و دفن بمدرسـته خارج بابى زويلـة المعروفـة به، و جملـة ما أخـذه الملك الظاهر منه من المال فى ايام مصادرته ألف ألف دينـار، و أربعمائـة ألف دينـار، و ألف ألف درهم فضـة، و بضـائع و غلال، و غير ذلك بما ينيف على ألف ألف درهم فضـة، و تلف له بأيـدى من عـاقبه و حواشـيه جملـة كبيرة، و اخفى هو أيضـا أشـياء كثيرة يترجّى البقـاء، و من عظم ما ظهر له من المال، قالت العامـة: ألان اللّه الحديـد لـداود، و الـذهب لمحمود، و كان أصل محمود هـذا أنه كان فى مبـدأ أمره فقيرا يتعانى الشـدّ فى إقطاعات

الجند،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۱۶۰

ثم حدم عند بعض الأمراء، فصلحت حاله، و حصّل و سعی، حتی ولی شدّ الدواوین بالقاهرة، فظهر منه نجابة و يقظة، و ترقّی حتی ولی الأستادارية فی دولة الملک الظاهر برقوق الأولی، و أنعم عليه بإمرة مائة و تقدمة ألف، و نکبه الناصری لمّا ملک مصر، و حبسه إلی أن خرج من السجن فی توبة بطا و أصحابه من الجبّ، و أعاده الملک الظاهر إلی وظيفة الأستادارية، بعد مدة فإنه کان أولا لما قدم إلی مصر ولّاه مشيرا، ثم أعاده إلی الأستادارية، و دام بها إلی أن قبض عليه الظاهر، بسعی کاتبه سعد الدين إبراهيم بن غراب، و أجری عليه العقوبة إلی أن مات.

و توفّی الوزير الصاحب سعد الدين نصر اللّه القبطی الأسلمی، المعروف بابن البقری، فی ليلة الاثنين رابع جمادی الآخرة مخنوقا بعد عقوبة شديدة و مصادرة.

و توفّی قاضی القضاة سریّ الدين [أبو الخطاب محمد] بن محمد قاضی قضاة الشافعية بدمشق، المعروف بابن المسلّاتی الشافعی، بالقاهرة فی يوم الخميس سابع عشرين شهر رجب، و کان فقيها عالما أفتی و درّس و ولی قضاء دمشق، و کان معدودا من علماء الشافعية.

و توفی قاضی القضاة نجم الدين أبو العباس أحمد بن قاضی القضاه عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عبد العزيز بن صالح بن أبی العزّ وهيب بن عطاء بن جبير ابن جابر بن وهيب الحنفی الدمشقی، المعروف بابن أبی العز، و بابن الکشک قتيلا

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۱۶۱

بدمشق، فی مستهل ذی الحجة بعد أن لزم داره مدة، و کان إماما فقيها بارعا عالما مفتّنا، ولی قضاء دمشق استقلالا غير مرة، و حسنت سيرته، و أشخص فی سنة سبع و سبعين و سبعمائة إلی الديار المصرية، و ولی بها قضاء الحنفية بعد قاضی القضاة صدر الدين محمد بن عبد اللّه الترکمانی بعد موته، فلم تطل مدته و استعفی، و ألحّ فی ذلک حتی أعفاه السلطان، و ولّاه قضاء الحنفية بدمشق علی عادته، فدام بها سنين، ثم صرف عنها، و لزم داره حتی مات قتيلا بدمشق- رحمه اللّه تعالی-

أمر النيل فی هذه السنة- الماء القديم خمسة أذرع و عشرون إصبعا.

مبلغ الزيادة تسعة عشر ذراعا و اثنا عشر إصبعا و اللّه أعلم.

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۰۰]

السنة التاسعة من سلطنة الملک الظاهر برقوق «الثانية علی مصر» و هی سنة ثمانمائة.

و فيها توفّی الأمير سيف الدين تنبک بن عبد اللّه اليحياویّ الظاهریّ، الأمير آخور الکبير فی ليلة الخميس رابع عشر شهر ربيع الآخر، و نزل السلطان إلی الإسطبل و مشی فی جنازته حتی حضر الصلاة عليه بمصلّاة المؤمنی، ثم رکب و توجّه أمام جنازته حتی شاهد دفنه، و أقام القرّاء علی قبره أسبوعا، و وجد السلطان عليه کثيرا و بکی عند دفنه، و کان من عظماء المماليک الظاهرية، أنعم عليه السلطان بإمرة عشرة فی أوائل واقعة الناصریّ و منطاش، ثم رقّاه حتی ولّاه الأمير آخورية بعد الأمير

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۱۶۲

بکلمش العلائی، لمّا نقل إلی إمرة سلاح، فدام فی وظيفة الأمير آخورية إلی أن توفی، و تولّی الأمير آخورية بعد موته الأمير نوروز الحافظی الظاهریّ رأس نوبة النوب.

و توفّی السيد الشريف جمال الدين عبد اللّه بن عبد الکافی بن علی بن عبد اللّه الطّباطبی نقيب الأشراف فی ليلة رابع عشرين ذی القعدة.

و توفّی القاضـی العلّامة تاج الدین أبو محمد عبد اللّه بن علی بن عمر السّنجاری الحنفی المعروف بقاضی صور (بفتح الصاد المهملة) و صور: بلیـدة بین حصن کیفـا، و بین مـاردین من دیـار بکر بن وائـل، و کان إماما عالما مفتّنا بارعا فی الفقه و الأصـلین، و العربیـة و اللغة، و أفتی و درّس سـنین بدمشق و مصر، و کان فی ابتداء أمره لما قدم القاهرة اجتاز بدمشق و استوطنها مدّة، و أخذ بها عن العلّامة علاء الـدین القونوی الحنفیّ، ثم قـدم إلی القاهرة فأخذ عن العلّامة شـمس الدین محمد الأصـبهانی و غیره، حتی برع فی عدّة فنون، و أفتی و درّس و صـنّف و أشـغل، و من تـآلیفه کتاب «البحر الحاوی فی الفتاوی» و نظم کتاب «المختار فی الفقه» و نظم «السـراجیة فی الفرائض»

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۱۶۳

و نظم کتـاب «سـلوان المطـاع لابن ظفر» و ناب فی الحکم بالقاهرة، و ولی وکالـة بیت المال بـدمشق، و کان من محاسن الـدنیا دینا و علما و خیرا و کرما.

و توفّی الأمیر سیف الـدین قلمطای بن عبد اللّه العثمانی الظاهری الدوادار الکبیر بالدیار المصـریة فی لیلة السبت ثالث عشـر جمادی الأولی، و حضـر السـلطان الملک الظاهر الصلاة علیه بمصلّاة المؤمنی، و حضر دفنه أیضا بتربته التی أنشأها عند الصّوّة بالقرب من باب الوزیر، و بکی السـلطان علیه بکاء کثیرا، و أقام القرّاء علی قبره أسـبوعا، و تولّی الدواداریة من بعده الأمیر بیبرس ابن أخت السلطان، و کـان قلمطای من أجلّ الممالیک الظاهریـة، باشـر الدواداریـة بحرمـة وافرة، و نالته السـعادة و عظم فی الدولـة، و هو صاحب الحاصـل بـالقرب من البنـدقیین بالقـاهرة، و خلّف مالاـ کثیرا، و هو أیضـا ممن نشّأه أسـتاذه الملک الظاهر برقوق فی سـلطنته الثانیـة، رحمه اللّه تعالی.

و توفّی أمین الدین أبو عبد اللّه محمد بن محمد بن علی الأنصاری الحمصـی الحنفی کاتب سرّ دمشق بها فی ثانی عشر ذی الحجة، و مولده فی یوم الاثنین ثانی عشـر شـهر ربیع الأوّل سنة إحدی و خمسین و سبعمائة، و تفقه بدمشق، و برع فی الفقه و العربیة، و شارک فی عـدّة فنون مشارکـة جیّـدة، و مهر فی الأدب و الترسّل و النظم، و تولی کتابة سـرّ دمشق و باشـرها بحرمة وافرة، و نالته السـعادة فی مباشـرته، و کان ذا شـکالة حسـنة، و عبارة فصیحة، و فضل و إفضال، و کان له ید فی علم الموسیقی و تأدیته، و عنده میل إلی اللهو و الطرب مع حشمة و دین و کرم، و من شعره لمّا عاد

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۱۶۴

من تجریـدة أرزنکان صـحبة الأمیر تنم الحسـنی نائب الشام، و قد ضلّ غالب العسـکر فی بعض اللیالی عن الماء، فنزل هو علی ماء فی بعض الطریق، و قال فی ذلک:

(البسیط).

ضلّوا عن الماء لمّا أن سروا سحرا قومی فظلوا حیاری یلهثون ظما

و اللّه أکرمنی بالورد دونهم فقلت «یا لیت قومی یعلمون بما»

و له أیضا- سامحه اللّه تعالی- (الوافر).

جفون من تأرّقها دوامی مدامعها تفیض علی الدوام

فدیت عیون من حرمت عیونی مناها من لقا طیب المنام

و راشت من لواحظها نبالا مراشقها شفین من السقام

إذا لاحظننی فتصیب قلبی علی اللّحظات موفور السهام

لها شفتان قد شفتا فؤادی و لا شفتاه إلّا للغرام

و ثغر من یعیش به ارتواء یموت من الصّبابة و هو ظام

أدامت لی مدامته ارتشافا فوا سکراه من ذاک المدام

و لمّا رام بدر الأفق فخرا و تشبیها بما تحت اللّثام

بدت تختال عجبا عن عقود و تبسم عن جمان بانتظام

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۱۶۵

فأزری ثغرها بالدر نقصا و أخجل وجهها بدر التمام

بعیشک یا کریم الخیم کن لی معینا إن مررت علی الخیام

و قل صبّ توصّل فی أوان له قلب تقطّع بالأوام

و لبّ هام بالذکری و دمع کوبل عطاء فخر الدین هامی

و توفّی القاضی نجم الدین محمد بن عمر الطّمبدی وکیل بیت المال و محتسب القاهرة فی رابع عشرین شهر ربیع الأوّل. قال المقریزی: «و کان غایة فی الجهل»

و توفّی الشیخ الصالح المعتقد أبو عبد اللّه محمد بن سلامة النّویریّ المغربیّ المعروف بالکرکی لطول إقامته بمدینة الکرک فی خامس عشرین شهر ربیع الأوّل، و کان عند الملک الظاهر برقوق بمنزلة مکینة جدّا، کان یجلسه فوق قضاة القضاة، و لم یغیّر لبس العباءة، و لا أخذ من الملک الظاهر شیئا من المال، و کان الناس فیه علی قسمین ما بین مفرط فی مدحه، و ما بین مفرط فی الحطّ علیه. و تولّی الأمیر یلبغا السالمی تجهیزه، و بعث السلطان مائتی دینار للقراءة علی قبره مدّة أسبوع.

و توفّی الأمیر سیف الدین آق بلاط بن عبد اللّه الأحمدی الظاهری أحد أمراء العشرات و رأس نوبة فی شهر ربیع الآخر، و کان ترکیّ الجنس شجاعا.

و توفّی الأمیر سیف الدین طوغای بن عبد اللّه العمری أحد أمراء العشرات بالدیار المصریة، و نقیب الفقراء السّطوحیّة فی أوّل شهر ربیع الأوّل، و کان دیّنا خیّرا یحب الفقراء، و یتردّد لزیارة الصالحین.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۱۶۶

و توفّی الشیخ برهان الدین أبو إسحاق إبراهیم بن أحمد بن عبد الواحد البعلبکّی الدمشقی الضریر المعروف بالبرهان الشامی فی ثامن جمادی الأولی، و کان فاضلا أدیبا فقیها.

و توفّی الأمیر سولی بن قراجا بن دلغادر الترکمانی، صاحب أبلستین، قتل غیلة علی فراشه، و کان غیر مشکور السیرة، کثیر الشرور و الفتن.

و توفّی الأمیر شرف الدین موسی بن قماری أمیر شکار فی ثانی عشر شهر رجب و کان من جملة أمراء العشرات.

و توفّی الشیخ الأدیب المادح أبو الفتح محمد بن الشیخ العارف علی البدیویّ فی ثامن عشر جمادی الآخرة بالنّحریریة، و کان أکثر شعره مدائح.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۱۶۷

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم خمسة أذرع و اثنا عشر إصبعا- مبلغ الزیادة. تسعة عشر ذراعا و سبعة أصابع و اللّه تعالی أعلم.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۱۶۸

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۰۱]

ذکر سلطنة الملک الناصر فرج بن برقوق الأولی علی مصر

السلطان الملك الناصر زين الدين أبو السعادات فرج بن السلطان الملك الظاهر أبى سعيد برقوق بن الأمير آنص، الجاركسى الأصل، المصرىّ المولد و المنشأ، سلطان الديار المصرية، و البلاد الشامية، و الأقطار الحجازية، و هو السلطان السادس و العشرون من ملوك الترك بالديار المصرية، و الثانى من الجراكسة، و أمّه أم ولد رومية تسمّى شيرين، ماتت فى سلطنته. مولده فى سنة إحدى و تسعين و سبعمائة، قبل خلع أبيه الملك الظاهر برقوق من السلطنة، و حبسه بالكرك، فأراد أن يسمّيه «بلغاك» يعنى «تخبيط» باللغة التركية، فسمّى «فرجا».

جلس على تخت الملك بقلعة الجبل صبيحة موت أبيه يوم الجمعة النصف من شوّال سنة إحدى و ثمانمائة بعهد من أبيه إليه حسب ما تقدّم ذكره، فى أواخر ترجمة أبيه، و حسب ما نذكره أيضا.

و فى سلطنته يقول الأديب المقرئ شهاب الدين أحمد بن عبد اللّه بن حسن الأوحدى: [الطويل]

مضى الظاهر السلطان أكرم مالك إلى ربّه يرقى إلى الخلد فى الدرج

و قالوا ستأتى شدّة بعد موته فأكرمهم ربّى و ما جا سوى (فرج)

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۱۶۹

ذكر جلوسه على تخت الملك

قال الشيخ تقىّ الدين المقريزى- رحمه اللّه تعالى-: و لمّا كان صبيحة يوم الجمعة اجتمع بالقلعة الأمير الكبير أيتمش، و الأمير تغرى بردى أمير سلاح، و سائر أمراء الدولة، و استدعى الخليفة و قضاة القضاة، و شيخ الإسلام البلقينى، فلما تكاملوا بالإسطبل السلطانى، أحضر فرج بن السلطان الملك الظاهر برقوق، و خطب الخليفة و بايعه بالسلطنة و قلّده أمور المسلمين، و أحضرت خلعة سوداء فأفيضت على فرج المذكور، و نعت بالملك الناصر، و ركب بشعار السلطنة، و طلع حتى جلس على تخت الملك بالقصر السلطانى، و قبّل الأمراء كلّهم الأرض بين يديه على العادة، و لبس الخليفة تشريفا جليلا، ثم أخذ الأمراء فى تجهيز السلطان الملك الظاهر برقوق. انتهى كلام المقريزى.

قلت: و نذكر الآن فى ابتداء دولة الملك الناصر فرج اسم خليفة الوقت و لقبه، و قضاة القضاة، و أرباب الوظائف من الأمراء و غيرهم من النوّاب، بالبلاد الشامية، ليكون ذلك مقدّمة لما يأتى من تغيير الوظائف و تقلّبات الدّول. انتهى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۱۷۰

فخليفة الوقت: أمير المؤمنين المتوكّل على اللّه أبو عبد اللّه محمد العباسىّ، و القاضى الشافعى صدر الدين محمد المناوى، و القاضى الحنفى جمال الدين يوسف الملطى، و القاضى المالكىّ ولىّ الدين عبد الرحمن بن خلدون، و القاضى الحنبلى برهان الدين إبراهيم بن نصر اللّه العسقلانى، و الأمير الكبير أتابك العساكر أيتمش البجاسىّ، و أمير سلاح تغرى بردى من يشبغا الظاهرىّ (أعنى الوالد)، و أمير مجلس أرغون شاه البيدمرى الظاهرى، و الأمير آخور الكبير سيّدى سودون قريب الملك الظاهر برقوق، و حاجب الحجاب فارس الأعرج الظاهرى، و رأس نوبة النّوب أرسطاى، و الدوادار الكبير بيبرس ابن أخت السلطان الملك الظاهر، و الخازندار يشبك الشعبانى الظاهرىّ، و هو أمير مائة و مقدّم ألف، و شادّ الشراب خاناه سودون الماردانىّ، و الأستادار الأمير يلبغا الأحمدى الظاهرى المجنون، و كاتب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۱۷۱

السرّ فتح الدين فتح اللّه التّبريزىّ، و الوزير تاج الدين عبد الرزّاق بن أبى الفرج، و ناظر الجيش و الخاصّ معا سعد الدين إبراهيم بن غراب، و محتسب القاهرة الشيخ تقىّ الدين أحمد المقريزىّ، و والى القاهرة شهاب الدين أحمد بن الزين، بالبلاد الحجازية و الشامية، و أمير مكة الشريف حسن بن عجلان الحسنىّ، و أمير المدينة النبوية الشريف ثابت بن نعير الحسينىّ، و نائب الشام الأمير تنبك

الحسنى المعروف بتنم الظاهرى، و نائب حلب آقبغا الجمالى الظاهرى، المعروف بالأطروش و نائب طرابلس يونس بلطا الظاهرى، و نائب حماة دمرداش المحمدى الظاهرى، و نائب صفد ألطنبغا العثمانى الظاهرى، و نائب غزّة ألطنبغا الحاجب الظاهرى، و نائب الكرك سودون الشمسىّ الظاهرى المعروف بالظريف، و عدّة نوّاب أخر بقلاع الساحل و غيرها يطول الشرح فى ذكرهم.

و لمّا تم أمر الملك الناصر فرج فى الملك، بعد أن دفن والده، و صار الأتابك أيتمش مدبّر ملكه، أراد أيتمش أن يطلع إلى باب السلسلة و يسكن بالإسطبل السلطانىّ، فمنعه من ذلك الأمير سودون الأمير آخور الكبير، قريب الملك الظاهر، و ردّ ما بعته الأمير الكبير أيتمش من القماش، فاستدعى سودون إلى حضرة السلطان فامتنع، فأمسك أيتمش عن الكلام فى ذلك، و تكلّم فيما يعود نفعه، فأمر فكتب إلى سائر الأقطار بالعزاء فى الملك الظاهر برقوق، و الهناء بسلطنة ولده الملك الناصر فرج، و كتب تقليد الشريف حسن بن عجلان بإمرة مكّة، و كان بالقاهرة، و كتب إلى مكّة و بها الأمير بيسق الشيخى والى المدينة النبوية، و توجّه بذلك بعض الخاصكية، و كتب إلى الأمير نعير بن حيّار بإمرة آل فضل على عادته،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١٢، ص: ١٧٢

و عزل الأمير شمس الدين محمد بن عنقاء بن مهنّا، و عرف بموت الملك الظاهر، و بسلطنة الملك الناصر فرج؛ و حمل إليه التشريف و التقليد على يد الأمير أسنبغا الدوادار، و عيّن الأمير سودون الطّيار الأمير آخور بالكتب و الخلع إلى نائب الشام الأمير تنم الحسنى، و عيّن يلبغا الناصرى رأس نوبة إلى الأمير آقبغا الجمالى نائب حلب، و عيّن الأمير تغرى بردى قرا إلى الأمير يونس بلطا نائب طرابلس، و عيّن الأمير يشبك إلى الأمير ألطنبغا العثمانى نائب صفد، و عيّن الأمير شاهين كنك إلى الأمير سودون الظريف نائب الكرك، و على يد كل من هؤلاء كتاب يتضمّن العزاء و الهناء، و أن يحلّف كلّ نائب أمراء بلده للملك الناصر فرج على العادة، و قرر الأمير الكبير أيتمش مع أرباب الدولة إبقاء الأمور على ما هى عليه.

ثم كلّم الوزير و الأستادار فى الكفّ عن الظلم و تجهيز الجامكيّة و العليق برسم لمماليك السلطانية.

و فى يوم الاثنين ثامن عشر شوّال خرج ركب المحمل إلى البركة صحبة أمير الحج الأمير شيخ المحمودىّ الظاهرىّ، «أعنى الملك المؤيد»، و أمير الركب الأوّل الأمير الطواشى بهادر مقدّم المماليك السلطانية.

و فى اليوم المذكور اجتمع الأمراء بالقلعة فى الخدمة السلطانية على عادتهم، و طلبوا الأمير سودون أمير آخور، فامتنع عن الحضور، فبعث الأمراء إليه ثانيا فامتنع، فكرروا الإرسال إليه ثلاث مرات إلى أن حضر فكلّموه فى النزول من

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١٢، ص: ١٧٣

الإسطبل فلم يجبهم إلى ذلك، فتخيّلوا منه و اتّهموه بأنه يريد إثارة فتنة، فقبضوا عليه و على الأمير علىّ بن إينال اليوسفى، و أخرجوا ما كان له بالإسطبل من خيول و قماش و نحو ذلك، و سكن الأتابك أيتمش مكانه بالإسطبل من باب السلسلة، و أنزل سودون و على بن إينال فى الحديد إلى الحرّاقة و جهزا إلى سجن الاسكندرية ثم نودى بالقاهرة و مصر بخروج طائفة العجم من الديار المصرية، و هدّد من تأخّر بعد ثلاثة أيام بالقتل.

ثم خلع على الأمير يشبك الشعبانى الخازندار باستقراره (لا لا) السلطان الملك الناصر فرج، و معه الأمير قطلوبغا الكركى (لا لا) أيضا.

و لمّا كان يوم حادى عشرين شوّال جلس السلطان الملك الناصر فرج بدار العدل، «أعنى بالإيوان من قلعة الجبل» على عادة الملوك، و خلع على الأمير الكبير أيتمش، و على الوالد الأمير تغرى بردى و هو أمير سلاح، و على أرغون شاه البيدمرى أمير مجلس؛ و على بيبرس الدوادار، و أرسطاى رأس نوبة النّوب، و فارس حاجب الحجّاب، و تمربغا المنجكى الحاجب الثانى، و أحد مقدّمى الألوف، و على يلبغا المجنون الأستادار، و على جميع أرباب الدولة.

ثم قام السلطان من دار العدل و دخل إلى القصر، و جلس القضاة بجامع القلعة حتى يخلع عليهم، فعند ما تكامل الأمراء و أرباب الدولة بالقصر، أغلق الأمراء الخاصكية باب القصر، و كان رئيسهم يوم ذاك سودون طاز، و سودون من زادة،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۲، ص: ۱۷۴

و آقبای رأس نوبة، و جارکس القاسمی المصارع، ثم سلّوا سیوفهم بمن معهم، و هجموا علی الأمراء و قبضوا علی أرسطای رأس نوبة النّوب، و تمراز و تمربغا المنجکی، و طغنجی و بلاط السعدی، و طولو رأس نوبة، و فارس الحاجب، و فرّ مبارک شاه و طبج، فأدرکا، و قبض علیهما أیضا، و بلغ ذلک یلبغا المجنون الأستادار و کان خارج القصر، فخلع خلعته و سلّ سیفه، و نزل من القلعة إلی داره.

ثم أحضر الخاصکیّة الأمراء المقبوض علیهم إلی عند الأمیر الکبیر أیتمش و قد بهت و أسکت، و قیّدوا أرسطای رأس نوبة النّوب، و تمراز و تمربغا المنجکی؛ و طغنجی أحد أمراء الطبلخانات، و أطلقوا من عداهم، و استدعوا یلبغا المجنون الأستادار، فلمّا حضر قبض علیه أیضا و قیّد و أضیف إلی الأمراء المقبوض علیهم و أنزل الجمیع من یومهم إلی الحرّاقة، و توجّهوا إلی سجن الإسکندریة، ما خلا یلبغا المجنون فإنه فی یوم السبت ثالث عشرینه عصر یلبغا المجنون لیحضر المال، ثم أسلموه لسعد الدین إبراهیم بن غراب ناظر الجیش و الخاصّ لیحاسبه، فنزل به إلی داره، و سألوا یلبغا السالمیّ بوظیفته الأستاداریة فامتنع، فعرضوها علی ناصر الدین محمد بن سقر و ابن قطینة فلم یوافقا، فخلع علی الأمیر مبارک شاه باستقراره أستادارا عوضا عن یلبغا المجنون.

و فیه أنفق علی الممالیک السلطانیة نفقة سلطنة الملک الناصر، و تولّی الإنفاق علیهم یلبغا السالمی، و فرّقت بحضرة السلطان و الأمراء، فأعطی کلّ مملوک من

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۲، ص: ۱۷۵

من أرباب الخدم الجوانیة و المشتروات ستین دینارا؛ صرف کل دینار ثلاثون درهما.

و فی یوم الاثنین خامس عشرینه، تأخّر سائر أمراء الألوف عن طلوع الخدمة السلطانیة خوفا من الخاصکیّة، فإن الأمور صارت معذوقة بهم، فبعث الخاصکیة إلی الأمراء بالحضور فأبوا ذلک، فنزل الخاصکیّة إلی الإسطبل فی خدمة الأمیر الکبیر أیتمش، و استدعوا الأمراء من منازلهم فحضروا، و کثر الکلام بینهم حتی اتفقوا جمیعا، و تحالفوا علی طاعة الأمیر الکبیر أیتمش، و الملک الناصر، و حلف لهم أیضا أیتمش، ثم حلف سائر الممالیک و الخاصکیّة، و تولّی تحلیفهم یلبغا السالمیّ، و خلع علی سودون الماردانی باستقراره رأس نوبة النّوب عوضا عن أرسطای المقبوض علیه قبل تاریخه، و علی قطلوبغا الحسنیّ الکرکی باستقراره شادّ الشراب خاناه، عوضا عن سودون الماردانی، و أنعم علی الأمیر قراکسک بإمرة مائة، و تقدمة ألف کانت مؤخّرة.

ثم فی یوم الثلاثاء سادس عشرین شوّال خلع علی الوزیر تاج الدین عبد الرزاق ابن أبی الفرج باستقراره فی وظیفة الأستاداریة مضافا للوزر عوضا عن مبارک شاه بحکم استعفاء مبارک شاه.

و فیه کتب مرسوم سلطانیّ باستقرار قرا یوسف بن قرا محمد صاحب تبریز فی نیابة الرّهاء علی عادته، و باستقرار دمشق خجا فی نیابة جعبر.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۲، ص: ۱۷۶

و فیه ورد الخبر بأن أبا یزید بن عثمان ملک الروم تحرّک للمشی علی البلاد الشامیة، و فی ثامن عشرین شوّال، ورد الخبر بأن الأمیر تنم الحسنی نائب الشام أخذ قلعة دمشق، و کان خبر أخذه لقلعة دمشق أنّ تنم کان بالمرج من غوطة دمشق، فقدم علیه الخبر بموت الملک الظاهر برقوق، فرکب و قصد دمشق و لم یشعر به الناس، فی لیلة الأربعاء العشرین من شوّال، حتی حضر إلی دار السعادة ثلث اللیل، فلما أصبح استدعی الأمیر جمال الدین یوسف الهیدبانیّ نائب قلعة دمشق، بحجة أن الملک الظاهر برقوقا طلبه إلی الدیار المصریة، فعندما نزل إلیه أمسکه و بعث من تسلّم قلعة دمشق، فلم یعلم أحد ما قصده تم المذکور إلی أذان الظهر، فوصل فارس دوادار تنم من مصر، و أخبر بموت الملک الظاهر، و سلطنة ولده الملک الناصر فرج، و أخبر أیضا بأن سودون الطیّار قادم بالخلعه إلی الأمیر تنم، فخرج الأمیر تنم إلی لقائه، و لبس الخلعة، و باس الأرض خارج مدینة دمشق، ثم عاد إلی دار السعادة و قد اجتمع بها القضاة و الأعیان، و قرئ علیهم کتاب السلطان الملک الناصر فرج، فأجابوا بالسمع و الطاعة، و نودی بدمشق بالأمان و الزینة، فزیّنت

البلد، و دقّت البشائر، و سرّ الناس بذلك، و أخذ الأمير تنم يقول بأنّ السلطان صغير، و كلّ ما يصدر ليس هو عنه، و إنما هو عن الأمراء، و أنا وصىّ السلطان لا يعمل أحد شيئا إلا بمراجعتى و نحو هذا، فاضطرب الناس بدمشق، و بلغ ذلك نائب حمص، فأخذ قلعتها، و أخذ أيضا نائب حماة قلعة حماة، كلّ ذلك قبل تكملة خمسة عشر يوما من سلطنة الملك الناصر فرج.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۱۷۷

ثم فى أوّل ذى القعدة ركب الأمير طغاى تمر مقدّم البريدية من مصر على البريد إلى البلاد الشامية، و معه ملطّفات لأمراء الورسق و الأمراء الأوجقيّة، و مطلق لنواب الممالك و القلاع، و مثال لأحمد بن رمضان نائب أذنة و لأمراء التّركمان، و لنائب حلب، و لنائب سيس و صحبته أقبية مطرّزة بفرو؛ خمس عشرة قطعة، و فوقانيات حرير بطرز زركش؛ أربع و عشرون قطعة، و تشاريف عدّة كبيرة.

و فى ثالث ذى القعدة فرغ تحليف المماليك السلطانية للملك الناصر فرج.

و فيه أنعم على الأمير إينال باى من قجماس بإمرة مائة و تقدمة ألف، و هو خبز أرسطاى رأس نوبة النّوب، و على سودون من على بك المعروف بطاز، بتقدمة الأمير سودون أمير آخور المقبوض عليه، و على آقباى من حسين شاه، بتقدمة ألف أيضا عوضا عن تمربغا المنجكىّ، و أنعم على الأمير يعقوب شاه الخازندار بإمرة طبلخاناه زيادة على طبلخاناته، فصارت تقدمته بثمانين فارسا «أعنى إمرة ثمانين»، و أنعم على كل من قرابغا الأسنبغاوى و ينتمر المحمدى و آقباى الإينالى بإمرة طبلخاناه، و على جرباش الشيخى بإقطاع يلبغا المجنون، إمرة خمسين فارسا و على آقبغا المحمودى بإمرة طبلخاناه أيضا و على كلّ من تمر الساقى و جركس القاسمىّ المصارع، و إينال حطب، و كمشبغا الجمالى، و ألطنبغا الخليلىّ، و كزل العجمىّ البجمقدار، و قانى باى العلائى، و جكم من عوض، و صوماى الحسنى بإمرة عشرة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۱۷۸

و فى سابعه خلع على سودون الماردانى باستقراره رأس نوبة النّوب، و كانت عيّنت له قبل ذلك، غير أنه كان متوعّكا، و على يعقوب شاه الظاهرى باستقراره حاجبا ثانيا، عوضا عن تمربغا المنجكى بإمرة ثمانين، و على كلّ من سودون من زاده، و تنكزبغا الحططىّ، و بشباى و جكم من عوض، و آقبغا المحمودى الأشقر و استقروا رءوس نوب صغارا.

و فى تاسعه خلع على قرابغا الأسنبغاوى و مقبل الظاهرى، و استقروا حجّابا، فصارت الحجّاب ستة بالديار المصرية، و رءوس نوب نحو العشرة، و هذا شىء لم يكن قبل ذلك.

ثم حضر الأمير دقماق المحمّدى معزولا عن نيابة ملطية بتقادم كثيرة.

و فى ثانى عشره خلع على الأمير جرباش الشيخى و تمان تمر، باستقرارهما رءوس نوب أيضا، فزادت عدّة رءوس النّوب على العشرة، و خلع على كزل المحمدى العجمى البجمقدار باستقراره أستادار الصحبة، عوضا عن قرابغا الأسنبغاوى، المنتقل إلى الحجوبية، و خلع على كل من الطواشيين: شاهين الحسنى الأشرفى، و عبد اللطيف الأشرفى باستقرارهما (لالا) السلطان.

و فى سابع عشره استدعى الأمير الكبير الشيخ سراج الدين عمر البلقينىّ و القضاة و أعيان الفقهاء من كل مذهب، فحضر الجميع عند الأمير الكبير بالإسطبل، و قد حضر الأمراء و الخاصكيّة بسبب الأموال التى خلّفها السلطان الملك الظاهر برقوق، هل تقسّم فى ورثته؟ أو يكون ذلك فى بيت مال المسلمين؟ فوقع كلام كثير آخره أن تفرّق فى ورثته من السدس، و ما بقى فلبيت المال.

و فيه استقرّ الأمير أرغون شاه البيدمرى أمير مجلس فى نظر خانقاه شيخون عوضا عن يلبغا السالمى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۱۷۹

و فى حادى عشرين ذى القعدة، استقر الأمير سودون الطيّار أمير آخورا كبيرا، عوضا عن سودون قريب السلطان، بعد أن شغرت عدّة أيام.

و فى ثالث عشرينه خلع على أستادار الوالد؛ شهاب الدين أحمد بن عمر المعروف بابن قطينة باستقراره وزيرا، عوضا عن تاج الدين

بن أبى الفرج.

[و خلع أيضا على يلبغا السالمى الظاهرى باستقراره أستادارا عوضا عن ابن أبى الفرج] المذكور، و قبض على تاج الدين بن أبى الفرج و صودر، فلم تطل مـدة ابن قطينـة فى الوزر، و عزل بفخر الـدين ماجـد بن غراب فى رابع ذى الحجة و عاد إلى أسـتادارية الوالد على عادته.

ثم قـدم الخبر فى ثـامن عشـر ذى الحجـة بأن ابن عثمان أخـذ الأبلستين و ملطيـة، و عزم على المسـير إلى البلاد الشاميـة، فعمل الأمراء مشورة فى أمره، و اتفق الحال على المسـير إلى قتاله، و تفرّقوا فأنكر المماليك السـلطانية ذلك، و قالوا هذه حيلة علينا حتى نخرج من القـاهرة، و عيّنوا سودون الطيّار الأـمير آخور لكشف هـذا الخبر، و حضـر البريـد من دمشق بـأن علاء الـدين بن الطبلاوى ترك لبس الأـمراء، و تزيّا بزىّ الفقراء، و امتنع من الحضور إلى مصـر، و كان طلب إليها، و أن تنم نائب الشام قال: هـذا رجل فقير قـد قنع بالفقر، اتركوه.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١٢، ص: ١٨٠

و فى يوم ثامن عشـر المذكور خرج سودون الطيّار لكشف الأخبار، فدخل دمشق فى العشـرين منه، و هذا شـىء من وراء العقل، كونه يصل من مصر إلى الشام فى يومين.

و فى أواخر ذى الحجـة قـدم الخبر بأن تنم نائب الشام خرج عن الطاعـة، و قبض جانبك اليحياوى الظاهرى، الذى كان ولى نيابة قلعة دمشق، و لم تسلّم له قلعـة دمشق، و أنه أرسـل إلى نـائب الصّبيبـة. فـأفرج عن آقبغا اللكّاش، و ألجيبغا الحاجب، و خضـر الكريمى، و استدعاهم إلى دمشق، فقدموا عليه، فلم يتحرّك بسبب ذلك ساكن بمصر لاختلاف الكلمة.

[ما وقع من الحوادث سنة ٨٠٢]

اشارة

ثم فى يوم الثلاثـاء حـادى عشـرين المحرم سـنة اثنتين و ثمانمائـة، ركـب السـلطان الملـك الناصـر من قلعـة الجبل، و معه الأمير الكبير أيتمش البجاسـى، و الوالـد أمير سـلاح، و سـائر الأمراء، و نزل إلى تربـة أبيه بالصـحراء وزاره، ثم عاد بعـد أن شقّ القاهرة، و طلع إلى القلعة، و هذا أوّل ركوب الملك الناصر.

ثم فى هـذه الأيام تزايـد الاختلاف بين أكابر الأمراء، و بين الأمراء الخاصّـكية و اشـتدّت الوحشة بين الطائفتين، و اتّفق سودون طاز، و سودون من زاده، و جركس القاسـمى المصـارع، و آقباى من حسـين شاه، و بشـباى و غيرهم، و انضـموا على الأمير يشـبك الشـعبانى الخازندار، و صاروا فى عصبة قوية و شوكة شديدة، و استمالوا جماعة كبيرة من خجداشيّتهم الظاهرية، الذين بالأطباق من القلعة،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١٢، ص: ١٨١

و تأكّدت الفتنة، و شرعت كلّ من الطائفتين تدبّر على الأخرى، فأخذ الأمراء الخاصكيّة يتخوّفون من تنم نائب الشام، فأرسلوا بتفويض أمور البلاـد الشاميـة إليه، فلما وصل ذلك إلى تنم على يـد مملوكه سونجبغا، فى ثالث عشـر المحرم، و قرئ المرسوم الشـريف الـذى على يـده بـدار السـعادة، و فيـه أنـه يعزل مـن شـاء، و يـولّى مـن شـاء، و يطلـق من شـاء من المسـجونين، فأرسـل أطلـق الأـمير جلبـان الكمشـبغاوى الظاهرى المعروف بقراسـقل المعزول عن نيابـة حلب، ثم عن أتابكيّـة دمشق، من سـجن قلعة دمشق فى ليلة الجمعة رابع عشـرين المحرم، و أطلق أيضا الأمير أزدمر أخا إينال اليوسفى، و محمد بن إينال اليوسفى، من سجن طرابلس و أحضرهما إلى دمشق، ثم بعث إلى نوّاب البلاـد الشاميـة يـدعوهم إلى طـاعته، و إلى القيـام معه فأجـابه الأـمير آقبغـا الجمـالى الأطروش نائب حلب، و الأمير يونس بلطبا نائب طرابلس، و الأمير ألطنبغا العثمانى الظاهرى نائب صـفد، و امتنع من إجابته الأمير دمرداش المحمـدى الظاهرى، نائب

حماة، ثم بعث تنم إلى طرابلس بتجهيز شينى فى البحر إلى ثغردمياط، ليحمل فيه الأمير نوروز الحافظى، و غيره من الأمراء الذين بثغردمياط، فبادر ناصر الدين محمد بن بهادر المؤمنى، فتسلم برج الأمير أيتمش بطرابلس، و ركب البحر إلى دمياط، و قدم إلى القاهرة، و أعلم القوم بما قصده تنم، فكتب على يده عدّة ملطّفات إلى الأمير قرمش حاجب حجّاب طرابلس، و إلى القضاة و الأعيان بأن قرمش يركب على يونس بلطا نائب طرابلس و يقتله، و يلى نيابة طرابلس عوضه، فاتفق أنّ يونس المذكور قبض على قرمش الحاجب و قتله قبل وصول ابن بهادر إلى طرابلس، ثم إن تنم استدعى الأمير علاء الدين علىّ بن الطبلاوى المقدّم ذكره فى ترجمة الملك الظاهر برقوق لمّا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١٢، ص: ١٨٢

صودر و حبس بخزانة شمائل، ثم نفى و خلع عليه، و أقامه متحدّثا فى أمور الدولة:

كما كان فى ديار مصر، فأخذ ابن الطبلاوى هذا فى الإفحاش فى أمر الشاميّين، و طرح عليهم السّكّر الواصل من الغور، بحيث إنه طرح ذلك على الناس، حتى على الفقهاء و نقباء القضاة، فتنكّرت القلوب عليه، و قدم الخبر بهذا كلّه إلى الديار المصرية، فتحقّق عند ذلك أعيان الدولة عصيان تنم و صرّح الأمراء الخاصكية بأن الأمير الكبير أيتمش، و الوالد و جماعة من أكابر الأمراء بالديار المصرية، قد وافقوا تنم على ذلك، و كاتبوه بالخروج، و لم يكن لذلك صحّة، فأخذ الأمراء الخاصّكية و كبيرهم يشبك الشعبانىّ الخازندار، فى التدبير على أيتمش و رفقته، و اتفقوا على أمر يكون فيه زوال أيتمش و أصحابه، و علّموا السلطان الملك الناصر فرجا يقول يقوله إلى أيتمش.

فلمّا كان يوم الخميس سادس شهر ربيع الأول من سنة اثنتين و ثمانمائة و جميع الأمراء بالخدمة السلطانية، ابتدأ السلطان الملك الناصر بالكلام مع الأمير الكبير أيتمش، و قال له: يا عمّ أنا قد أدركت و بلغت الحلم، و أريد أن أرشد فقال له أيتمش: السمع و الطاعة، و اتّفق مع الأمراء الخاصكيّة على ترشيد السلطان و صوّب ذلك جميع الأمراء؛ إلّا الوالد و فارس الحاجب، و خالفا الجميع، فأخذ الأتابك أيتمش يحسّن ذلك للوالد و لفارس، حتى أذعنا على رغمها لترشيد السلطان و أنهم يمتثلون بعد ترشيده سائر ما يرسم به، و طلب فى الحال الخليفة و القضاة و السراج البلقينىّ و مفتى دار العدل فحضروا، و قام سعد الدين إبراهيم بن غراب ناظر الجيش و الخاصّ، و ادّعى على الأمير الكبير أيتمش، بأن السلطان قد بلغ رشده

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١٢، ص: ١٨٣

و شهد عدّة من الأمراء الخاصكيّة بذلك، و لم يكن لذلك صحّة فحكم القضاة بعد البيّنة برشد السلطان، و خلع على الخليفة و قضاة القضاة و على الأمير الكبير أيتمش و انفضّ الموكب، و نزل الأمير الكبير إلى داره التى كان يسكن بها بالقرب من باب الوزير و معه جميع الأمراء، فلما سار أيتمش حتى صار تحت الطبلخاناه السلطانية، و طلب أن يسلّم على الأمراء، و التفت برأس فرسه، و قد وقف له جميع الأمراء لردّ سلامه، و قبل أن يسلّم عليهم، قال له الوالد: إلى أين يتوجّه الأمير الكبير من هنا؟ قال الأمير أيتمش: إلى بيتى! أو ما علمت بما وقع عليه الاتفاق من ترشيد السلطان، و أنه يستبدّ بالأمور، و أنزل أنا من باب السّلسلة إلى دارى! فقال الوالد: نعم، وقع ذلك، غير أنه بنزولك تسكن الفتنة، اطلع إلى باب السلسلة، و امكث به اليوم، و خذ فى نقل قماشك شيئا بعد شىء إلى الليل حتى نبرم أمرا نفعله فى هذه الليلة، فإذا أصبحت فانزل إلى دارك، فقال أيتمش: يا ولدى! ليس ذلك مصلحة و يقيم- من له غرض فى إثارة الفتنة- الحجّة علينا، فألح عليه الوالد حتى سمع كلامه كلّ أحد، و أيتمش لا يذعن إليه، و أبى إلّا النزول إلى داره، ثم سلّم عليهم، و التفت برأس فرسه، فقال الوالد: أخربت بيتك و بيوتنا بسوء تدبيرك، و عاد الوالد إلى جهة داره، بخط الصليبة عند حمام الفارقانى، و معه سائر الأمراء،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١٢، ص: ١٨۴

فكلّمهم فى الطريق و قال: هؤلاء الأجلاب لابدّ لهم معنا من رأس، فإن كان و لابد يكون ذلك فى الإسطبل السلطانى معنا، و ندب

الأمراء إلى أن يتوجّهوا إلى أيتمش فى ذلك، فقالوا: قد فات الأمر، و نزل إلى داره، ثم توجّه كلّ واحد إلى منزله، و فى الحال دقّت البشائر لترشيد السلطان، و زيّنت القاهرة، و افترق العسكر فرقتين: فرقة مع الأمير الكبير أيتمش البجاسى، و هم جميع أكابر الأمراء و المماليك القرانيص، و فرقة مع الأمير يشبك الشعبانى الخازندار، و هم الأمراء الخاصّكية و مماليك الأطباق، و قويت شوكة الأمير يشبك بعجز أيتمش و عدم أهليته فى القيام بتدبير الأمور من يوم مات الملك الظاهر برقوق، و استمر ذلك إلى ليلة عاشر شهر ربيع الأول المذكور، و قد ندم الأمير الكبير أيتمش على نزوله من باب السلسلة، حيث لا ينفعه الندم، و لم يجد بدّا من الركوب، و اتّفق مع الأمراء على الركوب

ذكر الواقعة بين الأتابك أيتمش و بين يشبك و غيره

و لما كان ليلة الاثنين عاشر شهر و بيع الأول، اتفق الأمراء الأكابر مع الأمير الكبير أيتمش، و لبسوا الجميع آلة الحرب، و اجتمعوا على الأتابك أيتمش بداره بخط باب الوزير، بعد نزول أيتمش من باب السلسلة بثلاثة أيام، و أخذ بعض رفقته من أكابر الأمراء يلومه على نزوله من الإسطبل السلطانى، و على عدم ميله لكلام الأمير تغرى بردى (أعنى الوالد) فى النزول، فقال: هكذا قدّر، و كان سبب ركوب أيتمش بعد نزوله من الإسطبل أنه لمّا وقع ترشيد السلطان، و اتفقوا معه على أن ينزل إلى داره ظنّ أيتمش أن بنزوله تسكن الفتنة، و تطمئن الخواطر، و يصير هو على عادته رأس مشورة، و لا يعمل شيء إلّا بعد مشاورته،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۱۸۵

فتمشى الأحوال بذلك على أحسن وجه؛ و لم يدر أن القصد كان بنزوله من باب السلسلة حتى يضعف أمره؛ و تصير القلعة بأسرها فى أيدى الجماعة؛ و يستبدّوا بالأمر من غير مشارك؛ ثم يقبضوا على واحد واحد، حتى يصفو لهم الوقت؛ و فطن الوالد لذلك فعرّف أيتمش بالمقصود و قال له: إنّه لا بدّ لهؤلاء الجماعة من إثارة فتنة فإن كان و لا بدّ فيكون ذلك و نحن ملّاك باب السلسلة؛ و هى شطر القلعة، فأبى إلّا ما أراد اللّه تعالى، و نزل إلى داره و أقام يومه، ثم أصبح و قد تحقّق ما قاله الوالد و غيره، و علم أنه متى ظفروا به و بالأمراء رفقته قبضوا عليهم، فلم يجد بدّا من الركوب و ركب إلى الوالد فى ظهر نهاره و ترضاه، حتى وافقه، فعند ذلك وافقه الجميع، و اتّفق رأيهم على الركوب فى ليلة الاثنين المذكورة، فركبوا بعد صلاة العشاء الأخيرة، و هم جماعة كثيرة من أمراء الألوف و الطبلخانات و العشرات و المماليك السلطانية القرانيص، فالذى كان معه من مقدمى الألوف: الأمير تغرى بردى من يشبغا أمير سلاح (أغنى عن الوالد)، و الأمير أرغون شاه البيدمرى أمير مجلس، و فارس حاجب الحجاب، و يعقوب شاه الحاجب الثانى، و من أمراء الطبلخانات ألطنبغا شادى، و شادى خجا العثمانى، و تغرى بردى الجلبانى، و بكتمر الناصرىّ المعروف بجلّق، و تنكزبغا الحططى، و آقبغا المحمودى الأشقر، و عيسى فلان والى القاهرة، و من العشرينات أسندمر الإسعردىّ، و منكلى العثمانى، و يلبغا من خجا الظريف، و من العشرات خضر بن عمر بن بكتمر الساقى، و خليل بن قرطاى شادّ العمائر، و على بلاط الفخرى، و بيرم العلائى، و أسنبغا المحمودى، و محمد بن يونس النّوروزى، و ألجيبغا السلطانى و تمان تمر الإشقتمرى، و تغرى بردى البيدمرى، و أرغون السّيفىّ، و يلبغا المحمودى، و باى خجا الحسنىّ، و أحمد بن أرغون شاه الأشرفى، و مقبل الحاجب، و محمد بن على بن كلبك نقيب الجيش و خير بك من

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۱۸۶

حسن شاه: و جليّان العثمانى، و كزل العلائى و يدى شاه العثمانى، و كمشبغا الجمالى، و ألطنبغا الخليلى، و ألطنبغا الحسنى، و نحو الألف مملوك من أعيان المماليك السلطانية، و خرج أيتمش إلى داره ملبسا هو و مماليكه، و كانوا نحو الألف مملوك، و صحبته الأمراء المذكورون، و عبّى عساكره، و أوقف طلبه و مماليكه بمن انضاف إليهم من أمراء الطبلخانات و العشرات، و المماليك السلطانية بالصّوّة، تجاه باب المدرّج أحد أبواب قلعة الجبل، و أصعد جماعة أخر من حواشيه إلى سطح المدرسة الأشرفية التى مكانها

الآن بیمارستان الملک المؤید شیخ، لیرموا علی من بالطبلخاناة السلطانیة و یحموا ظهور ممالیکه، و لم یخرج هو من بیته و کان الذی رتب العساکر الوالد، و وقف الأمیر فارس حاجب الحجّاب و معه جماعة من أمراء الطبلخانات و العشرات، فی رأس الشارع الملاصق لمدرسة السلطان حسن، المتوصّل منه إلی سوق القبو، لیقاتل من یخرج من باب السلسلة من السلطانیة، و وقف الوالد و معه الأمیر أرغون شاه أمیر مجلس، برأس سویقة منعم من خط الصلیبة، تجاه القصر السلطانی و تفرقت الأمراء و الممالیک ثلاث فرق: کل فرقة إلی جهة من الأمراء المذکورین مع من انضاف إلیهم من الممالیک البطالة و الزّعر و غیرهم، و أخذ کلّ واحد من هؤلاء الأمراء یعبّئ طلبه و عساکره، علی حسب ما یختار، کلّ ذلک فی اللیل.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۱۸۷

و أمّا أهل القلعة فإن الأمیر یشبک الشعبانیّ الخازندار لمّا سمع بذلک رکب إلی القلعة هو و بیبرس الدّوادار و طلعا إلی السلطان، و قد اجتمع غالب الأمراء و الخاصکیّة من الظاهریة عند السلطان، و طلب یشبک فی الحال ممالیک الأطباق، و أمرهم یلبس السلاح و لبس هو و جمیع الأمراء، و حرّضهم علی قتال أیتمش و رفقته، و خوّفهم عاقبة الأمر، و قال لهم: هؤلاء و إن کانوا خشداشیّتنا، فقد صاروا الآن أجانب، و ترکوا خبز الملک الظاهر برقوق، و خرجوا علی ولده، و أرادوا یسلطنون أیتمش و نحن نقاتل مع ابن أستاذنا حتی نموت، فأجابه جمیع الممالیک الجلبان و ظنوا أن مقالته حقیقیة، و فی الحال دقّت الکوسات الحربیة بالقلعة و لبس سائر الأمراء الذین بالقلعة، و هم: بیبرس الدوادار ابن أخت الملک الظاهر برقوق، و یشبک الشعبانی الخازندار المقدّم ذکره، و سودون الماردانی رأس نوبة النّوب، و سودون من علی بک طاز، و إینال بای بن قجماس، و یلبغا الناصری. و بکتمر الرّکنی و دقماق المحمدی المعزول عن نیابة ملطیة، و شیخ المحمودی (أعنی المؤیّد) و آقبغا الطرنطائی و الجمیع ألوف، و جماعة أخر من الطبلخانات و العشرات، و أما الممالیک السلطانیة فمعظمهم، و نزل السلطان الملک الناصر فرج من القصر إلی الإسطبل السلطانی، و وقع القتال بین الطائفتین من وقت عشاء الأخیرة إلی باکر النهار و معظم قتال أهل القلعة مع الذین کانوا برأس سویقة منعم، و تصادموا غیر مرّة، و بینما القتال یشتدّ أمر الأتابک أیتمش البجاسی فنودی من قبض علی مملوک جرکسیّ و أحضره إلی الأمیر الکبیر أیتمش فله کیت و کیت، فلمّا سمعت الجراکسة الذین کانوا من حزب أیتمش ذلک حنقوا منه و توجّه أکثرهم إلی السلطان، مع أن أیتمش کان من أعظم الجراکسة؛ غیر أن زوال النعم شئ آخر، فعند ذلک کثر جمع السلطانیة و قوی أمرهم، و حملوا علی الوالد، و بمن معه و هو برأس سویقة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۱۸۸

منعم، فکسروه، فمرّ بمن معه من الأمراء و ممالیکه حتی اجتاز بداره، و هی دار طاز بالشارع الأعظم تجاه حمّام الفارقانی، و القوم فی أثره، فحمی ظهره ممالیکه الجلبان الذین بالأطباق بالرمی علی السلطانیة، حتی ترکوه و عادوا، و مرّ الوالد حتی لحق بالأمیر أیتمش بالصّوّة.

و أما السلطانیة فإنهم لمّا کسروا الوالد، و کان الأهم عادوا لقتال فارس الحاجب، و کان فارس من الفرسان المعدودة الأقشیة، فثبت لهم فارس المذکور ثباتا عظیما، لولا ما کادوه من أخذ مدرسة السلطان حسن، و الرمی علیه من أعلاها إلی أن هزموه أیضا، و انحاز بطائفته إلی أیتمش بالصوّة، فکرر أیتمش المناداة علی الممالیک الجراکسة- خذلان من اللّه-، فذهب من کان بقی عنده منهم، و عند ذلک صدمته السلطانیة صدمة هائلة کسروه فیها، و انهزم من بقی معه من الأمراء المذکورین و الممالیک وقت الظهر من یوم الاثنین عاشر شهر ربیع الأوّل من سنة اثنتین و ثمانمائة، و مرّوا قاصدین إلی جهة الشأم حتی نزلوا بسریاقوس، فأخذوا من الخیول السلطانیة التی کانت بها من جیادها نحو المائة فرس، ثم ساروا إلی نحو البلاد الشامیة، و ندب السلطان خلف أیتمش و رفقته من المنهزمین جماعة من أمراء الألوف و غیرهم، فالذی کان منهم من أمراء الألوف بکتمر الرّکنی المعروف

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۱۸۹

بكتمر باطيا، و يلبغا الناصرى، و آقبغا الطرنطائى، و من أمراء الطبلخانات أسنبغا الدوادار و بشباى من باكى، و صوماى الحسنى فى جماعة كثيرة من أمراء العشرات، و المماليك السلطانية، و هم نحو خمسمائة مملوك فلم يقفوا لهم على خبر، و عادوا من قريب.

و امتدّت الأيدى إلى بيوت الأمراء المنهزمين بالنهب، فنهبوا جميع ما كان فيها حتى نهبت الزّعر مدرسة أيتمش و أخذوا جميع ما كان فيها حتى حفروا قبر ولده الذى كان بها، و أحرقوا الرّبع المجاور لها من خارج باب الوزير، و نهبوا جامع آق سنقر المجاور لدار أيتمش، و استهانوا حرمة المصاحف بها، ثم نهبوا مدرسة السلطان حسن، و انتهبوا بيوتا كثيرة من بيوت المنهزمين، فكان الذى أخذ من بيت الوالد فقط من الخيل و القماش و السلاح و غير ذلك ما تزيد قيمته على عشرين ألف دينار.

ثم كسرت الزّعر حبس الديلم و حبس الرحبة، و أخرجوا من كان بهما من أرباب الجرائم، و صارت القاهرة فى ذلك اليوم غوغاء، من غلب على شىء صار له، و قتل فى هذه الواقعة من الطائفتين جماعة كبيرة من المماليك و غيرهم، فكان الذى قتل من الأمراء قجماس المحمدى شادّ السلاح خاناه، و قرابغا الأسنبغاوى، و ينتمر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۱۹۰

المحمدى، و اختفى بالقاهرة ممن كان مع الأتابك أيتمش، مقبل الرومى الطويل أمير جاندار، و كمشبغا الخضرى و جماعة أخر يأتى ذكرهم، و توجّه بقية أصحابه الجميع صحبته إلى دمشق، و قصد أيتمش الأمير تنم الحسنى نائب الشام.

و أما تنم نائب الشام فإنه لما عظم أمره بدمشق و تمّ له ما قصده، وجّه الأمير آقبغا الطولوتمرى اللّكّاش فى عدّة من الأمراء و العساكر إلى غزّة فساروا من دمشق فى أوّل شهر ربيع الأوّل المذكور. ثم ندب جماعة أخر من كبار الأمراء إلى البلاد الحلبية، و خرجوا من دمشق فى ثالث شهر ربيع الأوّل، و عليهم الأمير جلبان الكمشبغاوى الظاهرى، المعروف بقراسقل المعزول عن نيابة حلب قديما، و معه الأمير أحمد بن الشيخ على نائب صفد كان، و الأمير بيخجا المعروف بطيفور نائب غزّة كان، و هو يومئذ حاجب دمشق و الأمير يلبغا الإشقتمرى، و الأمير صرق الظاهرى، و ساروا إلى حلب لتمهيد أمورها. ثم قبض الأمير تنم على الأمير بتخاص و عيسى التركمانى و حبسهما بالبرج من قلعة دمشق، ثم خرج تنم فيمن بقى معه من عساكره فى سادسه يريد حلب، و جعل الأمير أزدمر أخا إينال اليوسفى نائب الغيبة بدمشق، و سار حتى قدم حمّص و الستولى عليها، و ولّى عليها من يثق به من أصحابه، ثم توجّه إلى حماة، فوافاه الأمير يونس بلطا نائب طرابلس و معه عسكر طرابلس، و نزلوا على مدينة حماة، فامتنع نائبها الأمير دمرداش المحمدى بها، و قاتل تنم قتالا شديدا، و قتل من أصحاب تنم نحو الأربعة أنفس و لم يقدر عليه تنم، و بينما تنم فى ذلك ورد عليه الخبر بقيام أهل طرابلس على من بها من أصحابه.

و خبر ذلك أنه لما قرب محمد بن بهادر المؤمنى من طرابلس، بعث ما كان معه من الملطّفات من الديار المصرية لأهل طرابلس، فوصلت إليهم قبل قدومه،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۱۹۱

ثم وصل هو بمن معه فى البحر، فظنه نائب غيبة يونس بلطا من الفرنج، فخرج إليه فى نحو ثلاثمائة فارس من أجناد طرابلس، فتبيّن له أنه من المسلمين، فطلبه نائب الغيبة بمن معه فلم يأته، و قاتلهم على ساحل البحر فانهزم إلى برج أيتمش، و كان تحت حكم ابن المؤمنى المذكور، فأصبح الذين أتتهم الملطّفات من مصر، و نادوا فى العامّة بجهاد نائب الغيبة، و خطب خطيب البلد بذلك، فشرعت العامّة فى قتال نائب الغيبة حتى هزموه و نهبوا ما كان معه توجه إلى حماة، فأرسل تنم الأمير الأمير صرق على عسكر كبير لقتال أهل طرابلس، فتوجه صرق إليهم، و قاتلهم قتالا- شديدا مدّة تسعة أيام، و بينما تنم فى ذلك ورد عليه الخبر بواقعة الأمير أيتمش مع المصريين، و أنه نزل بمن معه فى دار النيابة بغزّة، و أنه سار بمن معه يريد دمشق، فسرّ تنم بذلك و أذن لنائب غيبته بدمشق و هو الأمير أزدمر بدخول أيتمش، و من معه إلى دمشق و بالقيام فى خدمتهم حتى يحضر إليهم، ثم لما بلغه عجز صرق عن أهل طرابلس، جهّز إليها نائبها الأمير يونس بلطا فى طائفة كبيرة من العساكر، فسار إليها يونس و دخلها بعد أن هزم ابن المؤمنى، و ركب البحر و

معه القاضی شرف الدین مسعود قاضی القضاة الشافعیة بطرابلس، یریدان القاهرة بمن معهما، و نهب یونس أموال الناس کافّة بطرابلس، و فعل فی طرابلس و أهلها ما لا تفعله الکفرة، و قتل نحو العشرین رجلا من أعیان طرابلس و قضاتها و علمائها منهم: الشیخ العالم المفتی جمال الدین بن النابلسی الشافعی. و الخطیب شرف الدین محمود، و القاضی المحدّث شهاب الدین أحمد الأذرعی المالکیّ، و قاضی القضاة شهاب الدین الحنفیّ، و القاضی موفّق الدین الحنبلی، و قتل من عامة طرابلس ما یقارب الألف، و صادر الناس مصادرات کثیرة، و أخذ أموالهم وسی حریمهم،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۱۹۲

فکانت هذه الکائنة من أقبح الحوادث، و کانت فی الخامس عشر من شهر ربیع الأوّل المذکور.

و أمّا أمر الدیار المصریة فإنه لمّا کان بعد الواقعة من الغد خلع السلطان علی الأمیر قرابغا مغرق الظاهری باستقراره فی ولایة القاهرة عوضا عن عیسی فلان بحکم عصیانه مع أیتمش، فمات من الغد من جرح کان أصابه فی الواقعة، و استقرّ فی ولایة القاهرة عوضه بلبان أحد الممالیک الظاهریّة، فنزل بلبان المذکور بالخلعة إلی القاهرة فمرّ من باب زویلة یرید باب الفتوح، و عبر راکبا من باب الجامع الحاکی و هو ینادی بالأمان، و إذا بالأمیر شهاب الدین أحمد بن عمر بن الزین قد جاء من جهة باب النصر، و هو أیضا ینادی بین یدیه باستقراره فی ولایة القاهرة، فتحیّرت المقدّمون و الجبلیة بینهما، و بینما هم فی ذلک و قد التقی بلبان مع ابن الزین فقال بلبان أنا ولّانی فلان، و قال ابن الزّین أنا ولّانی فلان، و إذا بالطواشی شاهین الحسنی قدم و معه خلعة ابن الزین بولایته القاهرة، فبطل أمر بلبان، و تصرّف ابن الزین فی أمور الولایة و نادی بالکف عن النهب، و هدّد من ظفر به من النّهابة.

ثم فی سادس عشره عرض السلطان الممالیک السلطانیة، ففقد منهم مائة و ثلاثون نفر قد انهزموا مع الأتابک أیتمش.

ثم قبض السلطان علی الأمیر بکتمر جلّق أحد أمراء الطبلخانات، و تنکزبغا الحططیّ أحد أمراء الطبلخانات أیضا و رأس نوبة، و قرمان المنجکی و کمشبغا الخضری، و خضر بن عمر بن بکتمر الساقی، و علی بن بلاط الفخری، و محمد بن

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۱۹۳

یونس النوروزی و ألجیبغا السلطانی و أرغون السیفی و أحمد بن أرغون شاه، و الجمیع من أصحاب أیتمش.

ثم رسم السلطان فکتب بإحضار الأمیر سودون أمیر أخور المعروف بسیدی سودون، و الأمیر تمراز الناصری من سجن الإسکندریة، و الأمیر نوروز الحافظی الأمیر أخور الکبیر کان، من ثغردمیاط و سارت القصّاد لإحضارهم، فوصلوا فی العشرین منه و قبّلوا الأرض بین یدی السلطان و نزلوا إلی دورهم.

و فی أوّل شهر ربیع الآخر استقرّ الأمیر آقبای من حسین شاه الطّرنطائیّ حاجب الحجّاب عوضا عن الأمیر فارس الأعرج، و استقرّ الأمیر دقماق المحمدی المعزول عن نیابة ملطیة باستقراره حاجبا ثانیا عوضا عن یعقوب شاه بحکم عصیانهما مع أیتمش.

ثم فی ثالثه خلع السلطان علی کلّ من الأمیر أسنبغا العلائی الدوادار و الأمیر قماری الأسنبغاوی والی باب القلعة و منکلی بغا الصلاحی الدوادار و سودون المأموری باستقرارهم حجّابا، و استقر تمربغا المحمدی نائب القلعة.

و أما الأمیر تنم فإنه لما جاءه خبر أیتمش ترک حصار حماة و عاد إلی دمشق ثم خرج إلی لقاء أیتمش و أصحابه فی خامس شهر ربیع الآخر إلی ظاهر دمشق.

فلمّا عاینهم ترجّل عن فرسه و سلّم علیهم و بالغ فی إکرامهم، و عاد بهم إلی دمشق و قدّم إلیهم تقام جلیلة، لاسیّما الوالد فإن تنم قام بخدمته زیادة عن الجمیع، حتی یزول ما کان عنده حسب ما تقدّم ذکره و سببه أنه کان وغّر خاطر أستاذه الملک الظاهر برقوق علیه حتی عزله عن نیابة حلب، فأخذ تنم یعتذر إلیه، و یتلطّف

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۱۹۴

به حتی زال ما کان عنده من الکمائن القدیمة، و صار من أعظم أصحابه، و حلّفه علی موافقته و حلف له، و وعده بأمور کثیرة یستحیا

من ذكرها.

ثم كتب الوالد إلى الأمير دمرداش المحمدى نائب حماة بالدخول فى طاعة تنم حسب ما يأتى ذكره.

ثم قدم على الأمير تنم كتاب الملك الناصر فرج يأمره بمسك الأتابك أيتمش و بمسك الوالد و من قدم معهما، فأخذ تنم الكتاب و أتى به إلى أيتمش و رفقته، و قرأه عليهم بالقصر الأبلق من الميدان، فضحك الوالد و قال له: امتثل مرسوم السلطان و افعل ما أمرك به فتبسّم تنم و قال له: بالله عليك زوّل ما عندك و طيّب قلبك، و قام و عانقه، ثم تكلّم تنم مع الأمراء فيما يفعله فى أمر دمرداش نائب حماة، فأشار الوالد بأنه يتوجّه إليه صحبة الأمير الكبير أيتمش، ثم يتوجّهان أيضا إلى نائب حلب يدعوانه إلى طاعة تنم و موافقته، فقال: هذا الذى كان خاطرى، فإن دمرداش لا يسمع لأحد غيرك، و خرجا بعد أيام إلى جهة حماة، فأجاب دمرداش بالسمع و الطاعة، و دخل تحت طاعة تنم و وعد بالقيام بنصرته، ثم عاد الوالد و أيتمش إلى دمشق فسرّ تنم بذلك غاية السرور.

ثم قدم دمرداش بعد ذلك بأيام إلى دمشق، فخلع عليه تنم باستمراره على نيابة حماة، و أنعم عليه بأشياء كثيرة و توجّه إلى حماة ثم أخذ الجميع فى التأهّب إلى قتال المصريين.

و أمّا ما وقع بالديار المصرية من الولايات و العزل، فإنه لمّا كان العشر الأخير من شهر ربيع الاخر، خلع السلطان على الأمير بيبرس الدوادار باستقراره أتابك

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج١٢، ص: ١٩٥

العساكر بالديار المصرية عوضا عن الأمير أيتمش البجاسىّ، و أنعم عليه بإقطاعه إلا النّحريرية و منية بدران و طوخ الجبل، فغضب بيبرس بسبب ذلك فلم يلتفت إلى غضبه، و أنعم بإقطاع الوالد و وظيفته على نوروز الحافظى، و أنعم على تمراز الناصرىّ بإقطاع أرغون شاه أمير مجلس، و أنعم على سودون أمير آخور بإقطاع يعقوب شاه الحاجب، و أنعم بإقطاع بيبرس على بكتمر الرّكنى، و بإقطاع بكتمر على دقماق المحمدى نائب ملطية كان، و بإقطاع دقماق على جركس القاسمىّ المصارع، و استقرّ أمير طبلخاناه، و أنعم على كلّ من كزل الناصرى، و قمارى الأسنبغاوى، و شاهين من شيخ الإسلام، و شيخ السليمانىّ، و بشباى من باكى، و تمربغا الظاهرى، و جكم من عوض، و صوماى، و تمر الساقى، و إينال حطب، و قانى باى العلائىّ، و سودون المأمورىّ، و ألطنبغا الخليلىّ و مجترك القاسمىّ، و كزل المحمدى، و بيغان الإينالى بإمرة عشرين، و أنعم على كلّ من أزبك الرمضانىّ و أسندمر العمرىّ و قرقماس السيفىّ و منكلى بغا الصلاحى و آقبغا الجوجرى و طيبغا الطولوتمرى وقانى باى من باشاه و دمرداش الأحمدى و آقباى السلطانى و أرغون شاه الصلاحىّ و يونس العلائى و جمق و نكباى الأزدمرى و قانى بك الحسامى و با يزيد من بابا و آقبغا المحمدى و سودون الشمسىّ و سودون البجاسىّ و تمراز من باكى و سودون النوروزىّ و أسنبغا المسافرى و قطلوبغا الحسنى و قطلقتمر المحمدىّ و سودون الحمصىّ و سودون القاسمىّ و أرزمك و أسنباى بإمرة عشرة، و حلفوا الجميع على طاعة السلطان، و السفر معه لقتال تنم.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج١٢، ص: ١٩٦

و لمّا بلغ المماليك السلطانية سفر السلطان إلى الشام امتنعوا و هدّدوا الامراء و أكثروا لهم من الوعيد، فخاف سودون طاز و تأخّر عن الخدمة السلطانية، ثم اتفقت المماليك المذكورة، و توجّهوا إلى الأمير يشبك و هو متوعّك و حدّثوه فى أمر السفر، فاعتذر لهم بما هو فيه من الضعف، ثم وقع الخلف بين الأمير سودون قريب الملك الظاهر المعروف بسيّدى سودون و بين الأمير سودون طاز، و تسابا بسبب سكنى الإسطبل السلطانى بالحرّاقة، و على وظيفة الأمير أخورية و كادا يقتتلان، لو لا فرق بينهما الأمير نوروز الحافظى.

ثم وقع أيضا بين الأمير سودون طاز المذكور و بين الأمير جركس القاسمى المصارع تنافس، و تقابضا بالأطواق، و لم يبق إلّا أن تثور الفتنة، حتى فرّق الأمراء بينهما، و صارت المملكة بأيدى هؤلاء الأمراء، و كلّ من أراد شيئا فعله، فصار الرجل يلى الوظيفة من سعى فلان، و ينزل إلى داره فيعزل فى الحال بأمر غيره، و كلّ أحد يتعصّب لواحد، و كل منهم يروم الرتب العلية.

هـذا و مثل تنم و أيتمش و رفقتهما فى طلبهم و فى القصـد إلى الـديار المصـرية، ثم أخـذ نوروز يسـكّنهم عن إثارة الفتنة، و يخوّفهم عاقبـة تنم، حتى عملوا مشورة بين يـدى السـلطان بسبب قتـال تنم و غيره، فحضـر جميع الأمراء و رتّبوا أمورا: منها إقامـة نائب بالـديار المصرية، و عيّنوا عدّة تشاريف.

فلمّا كان يوم الخميس ثانى عشر شـهر ربيع الآخر خلع السلطان على الأمير سودون طاز باستقراره أمير أخورا كبيرا، عوضا عن سودون الطّيار، لتأخّره بـدمشق عنـد تنم، و خلع على الأمير مبارك شاه باسـتقراره حاجبا ثالثا بإمرة مائـة و تقدمة ألف بالديار المصـرية، و هذا بخلاف العادة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۱۹۷

ثم خلع على بعض الأمراء و استقرّ حاجبا ثامنا، و هذا أيضا بخلاف العادة، لأن فى القديم كان بمصـر ثلاثة حجّاب (أعنى بالقديم فى دولة الملك الناصر محمد ابن قلاوون) ثم لا زال الملك الظاهر برقوق يزيد الحجّاب حتى صار عدّتهم ستة، و ذلك فى أواخر دولته، و الآن صاروا ثمانية، و كان هذا أيضا مما عابه الأمير تنم على أمراء مصر فيما فعلوه.

قلت: و السّـكات أجمل، فإنّ تلك الحجّاب الثمانية كان فيهم ثلاثة أمراء ألوف و ثلاثة طبلخاناه، و أمّا يومنا هذا ففيه بمصـر أزيد من عشـرين حاجبا، ما فيهم أمير خمسـة، بل الجميع أجناد، و فيهم من جنـديّته غير كاملـة، و الحاجب الثانى أمير عشـرة، فسبحان الحكيم الستّار.

ثم بعـد أيـام خلع السـلطان على الأمير نوروز الحافظى باسـتقراره رأس نوبـة الأمراء، و على الأمير تمراز باسـتقراره أمير مجلس، و على الأمير سيدى سودون باستقراره دوادارا كبيرا عوضا عن بيبرس، و كانت شاغرة منذ انتقل بيبرس عنها إلى الأتابكية.

و هذا كله بعد أن ورد الخبر على الملك الناصـر بخروج الأمير تنم من دمشق يريد القاهرة، فعندئذ أمر السلطان بأن يخرج ثمانية أمراء من مقـدّمى الألـوف بـألف و خمسـمائة مملـوك من المشـتروات، و خمسـمائة مملـوك من مماليـك الخدمـة، و أن يخرجوا فى أول جمادى الآخرة، فمنهم من أجاب، و منهم من قال: لا بدّ من سـفر السـلطان و اختلف الرأى و انفضوا على غير شـىء، و نفوسهم متغيّرة من بعضهم على بعض، كلّ ذلك و الأمراء تكذّب خروج تنم من دمشق حتى علّق جاليش السفر على

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۱۹۸

الطبلخاناه السـلطانية، و وقع الشروع فى النفقة للأمراء، فحمل إلى كل من الأمراء الأكابر مائة ألف درهم، و لمن دونهم كل واحد على قدر رتبته، و أنفق على ثلاثة آلاف مملوك و ستمائة مملوك لكل واحد مائة دينار، فبلغت جميع النفقة نحو خمسمائة ألف دينار.

ثم خرجت مدوّرة السلطان و خيامه، و نصبوا خارج القاهرة تجاه مسجد التبن.

ثم خلع السـلطان على الأمير بكتمر الركنى باسـتقراره أمير سلاح عوضا عن الوالد، و كانت شاغرة عنه منذ توجه مع أيتمش إلى الشام، و بينما السـلطان فى ذلك قـدم علاء الـدين على بن المكلّلـة والى منفلوط، و أخبر أن ألطنبغا نائب الوجه القبلى خرج هو و محمد بن عمر بن عبـد العزيز الهوّارى عن الطاعـة، و كبسا عثمان بن الأحدب، ففرّ ابن الأحدب إلى جهة منفلوط و تبعاه إليها و أخرباها، فرسـم السـلطان لكـل من الأـمير الكبير بيبرس و الأـمير إينـال بـاى من قجماس و آقباى بن حسـين شاه حاجب الحجّاب و سودون من زادة و إينـال حطب رأس نوبـة، و بيسق الشـيخىّ الأـمير أخور الثـانى، و بهـادر فطيس الأمير أخور الثالث أن يتوجّهوا إلى بلاد الصـعيد لقتال ألطنبغا و ابن عمر الهوّارى فلم يوافقوا على ذلك و لا سار أحد.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۱۹۹

ثم قـدم الخبر على السـلطان بـأنّ الأـمير دمرداش المحمـدى نـائب حمـاة قـدم على الأـمير تنم بـدمشق بعساكر حماة، و أن لأمير آقبغا الجمالى الأطروش نائب حلب لمّا برز هو أيضا من حلب يريـد المسـير إلى دمشق ثار عليه جماعة من أمراء حلب و قاتلوه فكسّـرهم، و قبض على جماعـة منهم، ثم سار إلى دمشق فسرّ بقـدومه تنم و أكرمه غايـة الإكرام، و أنه قد خرج من دمشق من أصـحاب تنم الأمير

أرغون شاه البيدمرى أمير مجلس، و الأمير يعقوب شاه، و فارس حاجب الحجّاب، و صرق و فرج بن منجك إلى غزّة، فعند ذلك خلع السلطان على الأمير عمر بن الطحّان حاجب غزّة باستقراره فى نيابة غزّة، و على سودون حاجبها الصغير باستقراره حاجب حجّاب غزّة عوضا عن ابن الطحان المذكور.

ثم قدم الخبر على السلطان بأن عساكر تنم خرجوا من دمشق فى يوم خامس عشرين جمادى الآخرة، فأمر السلطان الأمير سودون المأمورىّ الحاجب بالتوجّه إلى دمياط لينقل منها الأمير يلبغا الأحمدى المجنون الأستادار كان، و الأمير تمربغا المنجكى، و طغنجى و بلاط السعدىّ، و قراكسك إلى سجن الإسكندرية.

هذا و قد تجهّزت العساكر المصرية للسفر صحبة السلطان لقتال تنم و تهيأ الجميع.

فلمّا كان يوم الاثنين رابع شهر رجب نزل السلطان الملك الناصر من القلعة إلى الرّيدانية خارج القاهرة، و أصبح من الغد خلع على الأمير الكبير بيبرس باستقراره فى نظر البيمارستان المنصورى، و بنيابة الغيبة بالديار المصرية، و خلع على الأمير نوروز الحافظىّ رأس نوبة الأمراء باستقراره فى نظر الخانقاه الشيخونية، ثم أصبح من الغد سادس الشهر خلع السلطان على الأمير نوروز المذكور بتقدمة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۲۰۰

العساكر، ثم أنفق السلطان على جماعة من المماليك السلطانية بنحو خمسة و عشرين ألف دينار إنعاما.

و فى اليوم المذكور رحل جاليش السلطان من الرّيدانيّة، و فيه من الأمراء نوروز الحافظىّ مقدّم العساكر و بكتمر الركنى المعروف بباطيا أمير سلاح، و تمراز الناصرى أمير مجلس، و يلبغا الناصرى، و سودون الدوادار المعروف بسيدى سودون، و شيخ المحمودى هو المؤيّد، و دقماق المحمدى الحاجب الثانى، و الجميع مقدّمو ألوف.

ثم رحل السلطان بعدهم فى يوم الجمعة ثامنه ببقيّة العساكر، و عدّة ما سافر أوّلا و ثانيا سبعة آلاف فارس، و هذا سوى من أقام بالقاهرة، و هم أيضا عدّة كبيرة من الأمراء و المماليك، فأمّا الأمراء فكان بالقاهرة بيبرس، و آقباى حاجب الحجّاب، و أقام بقلعة الجبل الأمير إينال باى من قجماس أحد مقدّمى الألوف، و إينال حطب رأس نوبة، و أقام بالإسطبل السلطانى سودون من زادة، و بهادر؟؟؟ طيس و بيسق الشيخى أمير أخور ثانى، و أقام عند هؤلاء جماعة كبيرة من المماليك السلطانية.

و أما تنم فكان من خبره أنه قدم جماعة من أمرائه و عساكره إلى مدينة غزّة حسب ما ذكرناه، و هم: الأمير أرغون شاه البيدمرى أمير مجلس، و فارس حاجب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۲۰۱

الحجاب، و يعقوب شاه و صرق، و الأمير فرج من منجك فتوجّهوا أمامه بعساكر كثيرة.

ثم قدم على تنم الأمير يونس بلطا نائب طرابلس بعساكرها و غيرهم، و معه الأمير حمد بن يلبغا أمير مجلس كان، و كان قدم على تنم قبله نائب حلب الأمير آقبغا الجمالى الأطروش، و نائب حماة الأمير دمرداش المحمدى، فخرج هؤلاء النوّاب أيضا أمام تم إلى جهة غزة، ثم تبعهم الأمير تنم و معه الأتابك أيتمش و الوالد و بقية عساكره، بعد أن جعل الأمير جركس المعروف بأبى تنم نائب الغيبة بدمشق، و عنده جماعة أخر من أعيان الأمراء، ثم خرج بعد الأمير تنم الأمير يونس بلطا نائب طرابلس، و سار تنم فى عساكر عظيمة إلى الغاية، و كان قبل سفره بدمشق منذ قدم عليه أمراء مصر يعمل كلّ يوم موكبا أعظم من الآخر، حتى قيل: إن موكبه كان يضاهى موكب أستاذه الملك الظاهر برقوق بل أعظم، و كان يركب بالدّفّ و الشبّابة و الشعراء و الجاويشية، و يركب فى خدمته من الأتابك أيتمش إلى من دونه من أمراء الألوف، و هم نحو خمسة و عشرين أميرا من أمراء الألوف، سوى أمراء الطبلخانات و العشرات، و ذلك خارج عن التركمان و الأعراب و العشير، و كانوا أيضا جمعا كبيرا إلى الغاية، و آخر موكب عمله بدمشق كان فيه عساكر دمشق بتمامها و كمالها، و عساكر حلب و طرابلس و حماة، و جماعة كبيرة من عظماء أمراء الديار المصرية (أعنى أيتمش و رفقته)، و كان الجميع قد أذعنوا لتنم بالطاعة، حتى إنه لم يشكّ أحد فى سلطنته، حتى و لا أمراء مصر أخصامه، فإنهم كتبوا له فى الصلح غير مرة، و

فى المستقبل أيضا حسب ما يأتى ذكره، و أنفق تنم فى العساكر من الأموال ما لا يحصى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١٢، ص: ٢٠٢

و أمّا أمراء الديار المصرية فإنه لما سافر السلطان إلى جهة تنم بعساكره فى ثامن الشهر، قدم الخبر فى صبيحته على الأمير بيبرس و هو يوم السبت من البحيرة، بأن الأمير سودون المأمورىّ الحاجب أخذ الأمراء من ثغردمياط، و سار بهم نحو الإسكندرية، فلمّا وصل بهم إلى ديروط لقيه الشيخ المعتقد عبد الرحمن ابن نفيس الدّيروطىّ و أضافه، فعندما قعد الأمير سودون المأمورىّ هو و الأمراء للأكل قام يلبغا المجنون و وثب هو و رفقته من الأمراء على سودون المأمورىّ، و قبضوا عليه و على مماليكه و قيّدوهم بقيودهم، و بينما هم فى ذلك قدمت حرّاقة من القاهرة فيها الأمير كمشبغا المحضرى و إياس الكمشبغاوى و جقمق البجمقدار، و أمير آخر، و الأربعة فى القيود، فدخلت الحرّاقة بهم إلى شاطئ ديروط ليقضوا حاجة لهم، فأحاط بهم يلبغا المجنون، و خلّص منهم الأربعة المقيّدين، و أخذهم إلى أصحابه.

ثم كتب يلبغا إلى نائب البحيرة بالحضور إليه، و أخذ خيول الطواحين، و ركب هو و رفقته من الأمراء و سار بهم إلى مدينة دمنهور و طرقها بغتة، و قبض على متولّيها، و أتته العربان من كل فجّ حتى صار فى عدد كبير.

ثم نادى بإقليم البحيرة بحطّ الخراج عن أهلها عدّة سنين، و أخذ مال السلطان الذى استخرج من تروجة و غيرها، و بعث يستدعى بالمال من النواحى، فراعاه الناس، فإنه كان ولى وظيفة الأستادارية سنين كثيرة، فكتب بيبرس بذلك يعرّف السلطان و الأمراء، فوردت كتبهم إلى نائب الإسكندرية بالاحتراز على مدينة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١٢، ص: ٢٠٣

إسكندرية و على من عنده من الأمراء المسجونين، و كتب السلطان أيضا إلى أكابر العربان بالبحيرة بالإنكار عليهم، و بإمساك يلبغا المجنون و رفقته، و كتب السلطان أيضا للأمير بيبرس أن يتجرد هو و آقباى الحاجب و إينال باى بن قجماس و يسق أمير أخور، و إينال حطب رأس نوبة، و أربعمائة مملوك من المماليك السلطانية لقتال يلبغا المجنون، و كتب السلطان مثالا إلى عربان البحيرة بحطّ الخراج عنهم مدّة ثلاث سنين.

و أما يلبغا المجنون فإنه عدّى من البحيرة إلى الغربيّة خوفا من عرب البحيرة، و دخل المحلّة، و نهب دار الكاشف، و دار إبراهيم بن بدوى كبيرها، و قبض عليه و أخذ منه ثلاثمائة ففّة فلوس، ثم عدّى بعد أيّام سمنّود إلى برّ أشموم طناح، و سار إلى الشرقيّة، و نزل على مشتول الطواحين، و سار منها إلى العبّاسة، فارتجّت القاهرة، و بعث الأمير بيبرس إلى برّ الجيزة حيث الخيول مربوطة به على الربيع، فأحضروها إلى القاهرة خوفا من يلبغا، لئلّا يطرقهم على حين غفلة، و بينما بيبرس فى ذلك ورد عليه الخبر بمخامرة كاشف الوجه القبلى مع العرب، فاضطرب بيبرس و خاف على القاهرة، و كان فيه لين جانب و انعكاف على اللهو و الطرب، فشرع بيبرس فى استخدام الأجناد، و أراد بيبرس الخروج إلى يلبغا المجنون، فمنع، و خرج إليه الأمير آقباى الحاجب و يلبغا السالمى، و بيسق أمير أخور، و محمد بن سنقر فى ثلاثمائة مملوك من المماليك السلطانية كما سنذكره.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١٢، ص: ٢٠٤

و أما السلطان الملك الناصر فإنه لما سار بعساكره من الريدانية، و استقل بالمسير من يومه حتى نزل على منزلة تل العجول خارج مدينة غزة فى ثامن عشر رجب، و أقام به يومه، فلم يلبث إلا و جاليش الأمير تنم طرقه، و مقدّم العسكر المذكور الولد، و صحبته من أكابر الأمراء و النوّاب: آقبغا الجمالى نائب حلب و دمرداش المحمدى نائب حماة، و ألطنبغا العثمانى نائب صفد و جقمق الصفوى نائب ملطية، و جماعة أخرى من أكابر الأمراء و هم: أرغون شاه أمير مجلس و فارس الحاجب، و آقبغا الطولوتمرى اللّكّاش، و يعقوب شاه، و جماعة كبيرة من الأمراء و العساكر، فركبت العساكر المصرية فى الحال، و قاتلوهم من بكرة النهار إلى قريب الظهر، و كل من الفريقين يبذل جهده فى القتال، و الحرب تشتدّ بينهم إلى أن خرج من جاليش عسكر تنم دمرداش المحمدى نائب حماة بمماليكه و

طلبه، ثم تبعه ألطنبغا العثمانى نائب صفد بطلبه و عساكره، ثم صراى تمر الناصرى أتابك حلب بمماليكه، ثم جقمق الصّيفوى نائب ملطية بطلبه و مماليكه، ثم فرج بن منجك أحد أمراء الألوف بطلبه و مماليكه، ثم تبعهم عدّة أمراء أخر، فعند ذلك انهزم الوالد بمن بقى معه إلى نحو الأمير تنم، و ملك السلطان الملك الناصر مدينة غزّة، و نزل على مصطبة السلطان.

و أما تنم فإنه نزل بعساكره على مدينة الرّملة و اجتمع عليه الوالد بها بمن بقى معه من العساكر الشامية، و قصّ عليه ما وقع من أمر القتال و هروب الأمراء من عسكره، فتأثّر تنم قليلا ثم أراد القبض على الأمير بتحاص، فمنعه بعض أصحابه من ذلك، ثم أخذ يتهيّأ لقتال المصريين، و لم يكترث بما وقع لجاليشه لكثرة عساكره، و قوّته بمن بقى معه من أكابر الأمراء و غيرهم.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج١٢، ص: ٢٠٥

و أمّا العسكر السلطانىّ المصرىّ فإنهم لمّا دخلوا إلى غزّة بلغهم أنّ تنم إلى الآن لم يصل إلى الرّملة بعساكره، و إنما الذى قاتلهم هو جاليش عسكره، فكثر عند ذلك تخوّفهم منه، و داخلهم الرّعب، و عملوا بسبب ذلك مشورة، فاتفق الرأى أن يتكلّموا معه فى الصلح، و أرسلوا إليه من غزّة قاضى القضاة صدر الدين المناوى الشافعىّ، و معه المعلّم نصر الدين محمد الرّماح أمير أخور، و طغاى تمر مقدّم البريديّة، فخرجوا الجميع من غزّة فى يوم الثلاثاء تاسع عشر شهر رجب، و كتب لتنم صحبتهم أمان من السلطان، و أنه باق على كفالته بدمشق إن أراد ذلك، و إلّا فيكون أتابك العساكر بمصر، و إليه تدبير ملك ابن أستاذه الملك الناصر فرج لا يشاركه فى ذلك أحد.

ثم كتب إليه أعيان الأمراء يقولون: أنت أبونا و أخونا و أستاذنا، فإن أردت الشام فهى لك، و إن أردت مصر كنّا مماليكك، و فى خدمتك، فصن دماء المسلمين ودع عساكر مصر فى قوّتها، فإنّ خلفنا مثل تيمورلنك، و أشياء كثيرة من أنواع التضرّع إليه، فسار إليه قاضى القضاة المذكور برفيقيه حتى وافاه بمدينة الرملة و هو بمخيّمه على هيئة السلطان، و الأتابك أيتمش عن يمينه و الوالد عن يساره، و بقيّة الأمراء على منازلهم ميمنة و ميسرة، فلمّا عاين تنم قاضى القضاة المذكور قام له و اعتنقه، و أجلسه بجانبه فحدّثه قاضى القضاة المذكور فى الصلح، و أدّى له الأمان و وعظه، و حذّره الشّقاق و الخروج عن الطاعة، ثم كلّمه ناصر الدين الرّماح و طغاى تمر بمثل ذلك، و ترّفقا له عن لسان الأمراء، و أن السلطان هو ابن الملك الظاهر برقوق، ليس له من يقوم بنصرته غيرك، فقال تنم: أنا مالى مع السلطان كلام، و لكن يرسل إلى يشبك و سودون طاز و جركس المصارع، و عدّد جماعة أخر كثيرة،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج١٢، ص: ٢٠٦

و يعود الأمير الكبير أيتمش و جميع رفقته على ما كانوا عليه أوّلا، فإن فعلوا ذلك و إلّا فما بينى و بينهم إلا السيف، و صمّم على ذلك، فراجعه قاضى القضاة غير مرّة فيما يريده غير ذلك، فأبى إلّا ما قاله، فعند ذلك قام القاضى من عنده، فخرج معه تنم إلى ظاهر مخيّمه يوادعه، فلمّا قدم صدر الدين المناوى على الملك الناصر و أعاد عليه الجواب قال: السلطان: أنا ما أسلّم لالاتى لأحد (يعنى عن يشبك الشعبانى)، و انفضّ الأمراء، و قد أجمعوا على قتاله، و ركب تنم بعساكره من مدينة الرملة يريد جهة غزّة، و ركب السلطان بعساكره من غزّة يريد الرملة. إلى أن أشرف على الجيتين قريب الظهر، فعاين تنم و قد عبّأ عساكره، و هم نحو الخمسة آلاف فارس، و نحو ستة آلاف راجل، و صفّ الأطلاب فعبّأ أيضا الأمراء عسكر السلطان ميمنة و ميسرة، و قلبا فى قلب فى قلب، و لكل جماعة رديف، و كان ذلك تعبئة ناصر الدين المعلّم أخذت أنا هذه التعبئة عن الأتابك آقبغا التمرازى عنه، انتهى.

ثم تقدّم العسكران و تصادما فلم يكن إلا أسرع وقت، و كانت الكسرة على تنم، و انهام غالب عسكره من غير قتال، خذلان من اللّه تعالى، لأنه تقنطر عن فرسه فى أوائل الحرب، فانكسرت عساكره لتقنطره فى الحال و لوقوعه فى الأسر، و قبض عليه و على جماعة كبيرة من أعيان أصحابه من أكابر الأمراء و النوّاب، و لقد سألت جماعة من أعيان مماليك تنم ممن كان معه فى الوقعة المذكورة عن سبب تقنطره، فإنه لم يطعنه أحد من العسكر السلطانىّ، فقالوا: كان فى فرسه الذى ركبه شؤم. إما شعر رسل أو تحجيل، منتهى الوهم متى، قالوا: فكلّمناه فى ذلك و نهيناه عن ركوبه فأبى

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۲۰۷

إلا رکوبه، و قال: ما خبأته إلا لهـذا اليوم، فحالما علا ظهره و حرّکه لينظر حال عسکره و وغل فى القوم تقنطر به، و قد کرّت عساکره إلى نحوه، و لم يلحقه أحـد من ممـاليکه، فظفر به، و لما قبض على تنم قبض معه بعـد هزيمـة عسکره على الأمير آقبغا الجمالى نائب حلب، و يونس بلطـا نـائب طرابلس، و أحمـد بن الشـيخ على نـائب صـفد کـان، و جلبـان قراسـقل نـائب حلب کان، و فارس حاجب الحجـاب، و بيغوت و بيرم رأس نوبـة أيتمش، و شـادى خجـا، و من الطبلخانات و العشـرات من أمراء مصـر و الشام ما ينيف على مائة أمير، و فرّ الأتابـک أيتمش و الوالـد، و أحمـد بن يلبغـا أمير مجلس کان، و أرغون شاه أمير مجلس، و يعقوب شاه و آقبغا اللّکّاش، و بيخجا المدعو طيغور نائب غزّة کان، و جماعة أخر فى نحو ثلاثة آلاف مملوک، و توجّهوا إلى دمشق.

و لمّـا قبض على تنم أنزل فى خيمـة و قيّـد، ثم شـکا العطش و طلب ماء ليشـربه، فقام الأمير قطلوبغا الحسـنى الکرکى و هو يوم ذلک أحد أمراء الطبلخانات و شادّ الشراب خاناه السلطانية، و تناول الکوز و أخذ ششنة على عادة الملوک، ثم سقاه لتنم، و کان لما أمسک تنم ادّعى مملوک من الظاهريـة أنه قنطر تنم عن فرسه، و طلب إمرة عشـرة، فلمّا بلغ ذلک تنم قال: اطلبوه إلى عندى، فأحضـروه، فنظر إليه طويلا ثم قال له: أنت تسـتأهل إمرة عشـرة و غيرها بـدون ذلک، إلا أنّ الکذب قبيح، هذا قرقلى إلى الآن علىّ، أين المکان الذى طعنتنى فيه برمحک، أنا ما رمانى إلا اللّه تعالى، ثم فرسى الأشقر.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۲۰۸

و عنـدما أمسک تنم کتبت البشائر إلى الديار المصـرية و البلاد الشاميّة بذلک، و دقّت البشائر، و سار أيتمش و رفقته إلى نحو دمشـق حتى و صـلوها، فـأراد الوالـد و يعقوب شـاه و جماعـة أن يتوجّهوا إلى بلاـد التّرکمـان، حتى يـأتيهم أمان من السـلطان، و أشاروا على أيتمش بـذلک، فـامتنع أيتمش من ذلک، و أبى إلّا دخول دمشق، فحال دخولهم إليها و هم فى أشـدّ ما يکون من النعب، و قـد کلّت خيولهم، ثار عليهم أمراء دمشق، و قبضوا على أيتمش و الوالد، و آقبغا اللّکّاش و أحمد بن يلبغا النابلسـى، و حبسوا بدار السعادة، و فرّ من بقى، ثم أمسک بعد يومين أرغون شاه و يعقوب شاه، و تتبع أمراء دمشق بقيّة أصـحاب تنم من کلّ مکان حتى قبضوا على جماعة کبيرة منهم.

و أمّا يلبغا المحنون فإنه لمّا خرج إليه العسـکر من مصـر مع آقباى الحاجب، سار آقباى إلى العبّاسة فلم يقف ليلبغا المجنون على خبر، فقيـل له إنه سـار إلى قطيـا، فنزل آقبـاى بالعساکر على الصالحيـة فلم يروا له أثرا، فعادوا إلى القاهرة من غير حرب، و سار ابن سـنقر و بيسق نحو بلاـد السـباخ فلم يجـدا أحـدا، فعـادا إلى عيتا فى يوم الجمعـة و أقاما بها، فلم يشـعرا إلّا و يلبغا المجنون قـد طرقهما و قبض عليهما، و أخذ خطّهما بجملة من المال، فارتجّت القاهرة لذلک، ثم سار يلبغا بعد

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۲۰۹

أيام، حتى نزل البئر البيضاء، فبعث له بيبرس أمانا، فقبض على من حضـر من عند بيبرس و طوّقه من الحديد، فاسـتعدّ الناس تلک الليلة بالقاهرة لقتاله، و باتوا على أهبة اللقاء، و رکب الأمراء بأسرهم من الغد إلى قبّة النصر خارج القاهرة، و صفّوا عسکرهم من الغد، و بعد ساعـة أقبل يلبغا المجنون بجموعه فواقعهم عنـد بساتين المطرية و معه نحو ثلاثمائة فارس، فيهم واحد من مماليک الوالد يسـمى کزل بغا، و صـدمهم بمن معه، و قصد القلب، و کان فيه سودون من زادة، و إينال حطب، و نحو ثلاثمائة مملوک من المماليک السـلطانية، فـأطبق عليه الأـمير بيبرس من الميمنـة، و معه يلبغا السّالمىّ الأسـتادار، و ساعـدهما إينال باى من قجماس بمن معه من الميسـرة، فنقنطر سودون من زادة، و خرق يلبغـا المجنون القلب فى عشـرين فارسـا، و سـار إلى الجبل الأحمر، و انکسـر سائر من کان معه من الأمراء و غيرهم، فتبعهم العسـکر و فى ظنّهم أن يلبغـا المجنون فيهم، فـأدرکوا الأمير تمربغا المنجکى بالزيّات، و قبضوا عليه، و أخـذ طلب يلبغا المجنـون من عنـد خليـج الزّعفران فوجـدوا فيه ابن سـنقر و بيسق الشـيخى أمير آخور اللـذين کـان قبض عليهمـا يلبغـا المجنون بـالبئر البيضاء، فأطلقوهما، و عاد العسـکر إلى تحت قلعة الجبل، و سار يلبغا المجنون فى عشـرين فارسا مع ذيل الجبل إلى تجاه دار الضيافة،

فلمّا رأى كثرة من اجتمع من العامّة خاف منهم أن

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١٢، ص: ٢١٠

يرجموه، فقال لهم: أنتم ترجمونى بالحجارة و أنا أرجمكم بالذهب، فدعوا له و تركوه فسار من خلف القلعة و مضى إلى جهة الصعيد من غير أن يعرّف الأمراء، و توجّه فى نحو المائة فارس، و أخذ خيل والى الفيّوم، و انضمّ عليه جماعة من العربان.

و أمّا السلطان الملك الناصر فإنه لمّا كسر تنم و قبض عليه و على جماعة من أصحابه و قيّدهم، أرسل فى الحال سعد الدين إبراهيم بن غراب إلى الشام لتحصيل الإقامات، ثم ندب السلطان الأمير جكم من عوض رأس نوبة للتوجه إلى دمشق لتقييد الأمير أيتمش و رفقته و إيداعهم بسجن قلعة دمشق، ثم خلع السلطان على الأمير سودون الدوادار المعروف بسيّدى سودون، باستقراره فى نيابة دمشق عوضا عن الأمير تنم الحسنىّ، فسار جكم و فعل ما أمر به، ثم دخل بعده سودون نائب الشام إليها فى ليلة الاثنين ثانى شعبان و معه الأمير تنم نائب الشام و عشرة أمراء فى القيود، فحبس الجميع بقلعة دمشق، ثم دخل السلطان الملك الناصر بعساكره و أمرائه إلى دمشق من الغد فى يوم الاثنين ثانى شعبان المذكور، فكان لدخوله يوم مشهود، و أوقع ابن غراب الحوطة على حواشى تنم، و على الأمير علاء الدين بن الطبلاوى.

ثم أصبح السلطان من الغد و خلع على سيّدى سودون بنيابة الشام ثانيا، و على الأمير دمرداش المحمّدى نائب حماة باستقراره فى نيابة حلب عوضا عن آقبغا الجمالى الأطروش، و على الأمير شيخ المحمودى المؤيّد باستقراره فى نيابة طرابلس عوضا عن يونس بلطا، و على الأمير دقماق المحمدى باستقراره

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١٢، ص: ٢١١

فى نيابة حماة عوضا عن دمرداش المحمدى، و على الأمير ألطنبغا العثمانى باستمراره على نيابة صفد، و على الأمير جنتمر التركمانى نائب حمص بنيابة بعلبك، و على الأمير بشباى من باكى باستقراره حاجب حجّاب دمشق عوضا عن بيخجا المدعوّ طيفور.

و استمرّ السلطان بعساكره فى دمشق إلى ليلة الأحد رابع عشر شعبان، فاتّفقت الأمراء المصريون على قتل جماعة من المقبوض عليهم، فذبح فى الليلة المذكورة الأمير الكبير أيتمش البجاسىّ، و جلبان الكمشبغاوى المعروف بقراسقل نائب حلب كان، فى دولة أستاذه الملك الظاهر برقوق، و أرغون شاه البيدمرى الظاهرىّ أمير مجلس كان، و أحمد بن يلبغا العمرى أمير مجلس كان، و ابن أستاذ الملك الظاهر برقوق، و آقبغا الطّولوتمرى الظاهرى اللّكّاش أحد أمراء الألوف بالديار المصرية و أمير مجلس، و فارس الأعرج حاجب الحجّاب بالديار المصرية، و كان من الشجعان، و فيه يقول الشيخ المقرئ الأديب شهاب الدين أحمد الأوحدى: [الرجز]

يا دهر كم تفنى الكرام عامدا هل أنت سبع للورى ممارس

أيتمش ربّ العلا صرعته و رحت للندب الهمام فارس

و الأمير يعقوب شاه الظاهرى الحاجب الثانى، و أحد مقدّمى الألوف بالديار المصرية، و بيخجا المدعو طيفور نائب غزّة كان، ثم حاجب حجّاب دمشق، و الأمير بيغوت اليحياوى الظاهرى أحد أمراء الطبلخانات، و الأمير مبارك المجنون و الأمير بهادر العثمانى الظاهرى نائب البيرة، و جميع من قتل من هؤلاء المذكورين من عظماء مماليك الملك الظاهر برقوق، قتلتهم خجداشيّتهم بذنب واحد لأجل الرياسة، و لم يكن فيهم غير ظاهرىّ إلّا الأتابك أيتمش، و هو أيضا ممن أقامه الملك الظاهر برقوق و أنشأه، بل كان اشتراه أيضا فى سلطنته الأولى حسب ما ذكرناه، و كان عند الظاهر بمنزلة عظيمة لسلامة باطنه، و لين جانبه و شيخوخته، فإنه كان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١٢، ص: ٢١٢

بمعزل عن إثارة الفتن، و يكفيك أن منطاشا لمّا ملك الديار المصريّة بعد خلع الظاهر برقوق، و القبض على الناصرىّ قتل غالب حواشى الملك الظاهر برقوق، و كان أيتمش فى حبسه بقلعة دمشق و هو أتابك العساكر و عظيم دولة برقوق، فلم يتعرّض إليه بسوء، لكونه كان مكفوفا عن الشرور و الفتن، إلا هؤلاء القوم، فإنهم لمّا ظفروا بتنم و أصحابه لم يرحموا كبيرا لكبره و لا صغيرا لصغره، و

لهذا سلّط اللّه تعالى بعضهم على بعض، إلى أن تفانوا جميعا.

ثم جهّزوا رأس الأتابك أيتمش المذكور، و رأس فارس الحاجب لا غير إلى الديار المصرية، فعلّقتا بباب قلعة الجبل، ثم بباب زويلة أيّاما ثم سلّمتا إلى أهلهما.

ثم خلع السلطان الملك الناصر على الأمير يشبك الشعبانى الخازندار باستقراره دوادارا كبيرا عوضا عن سيّدى سودون المنتقل إلى نيابة الشام، و استمر السلطان بدمشق إلى ليلة الخميس رابع شهر رمضان، فقتل فى الليلة المذكورة الأمير تنم الحسنى نائب الشام بمحبسه بقلعة دمشق، و قتل معه الأمير يونس بلطا نائب طرابلس أيضا، خنقا بعد أن استصفيت أموالهما بالعقوبة، ثم سلّما إلى أهلهما، فدفن تنم بتربته التى أنشأها عند ميدان الحصى خارج دمشق، و كان تنم المذكور- رحمه اللّه- من محاسن الدنيا، و كانت مدة ولايته على دمشق سبع سنين و ستة أشهر و نصفا. و لقد أخبرنى بعض مماليك الوالد- رحمه اللّه- قال: لما حصر تيمورلنك العساكر المصرية بدمشق، كان الوالد يوم ذلك متولّى ثيابة دمشق، و كان مقيما على بعض أبواب دمشق لحفظها، و كان نوروز الحافظىّ على باب آخر، فركب نوروز الحافظى فى بعض الأيام، و أتى الوالد و وقف يحادثه، فكان من جملة كلامه للوالد، يا فلان، انظر عساكر هذا اللعين ما أكثرها، و اللّه لو عاش أستاذنا لما قدر عليه لكثرة عساكره، فتبسّم الوالد و خاشنه فى اللفظ يمازحه، و قال له:

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۲۱۳

و اللّه لو كان تنم حيّا للقيه من الفرات و هزمه أقبح هزيمة، و إنما عساكرنا الآن مفلولة، و آراؤهم مختلفة، و ليس فيهم من يرجع إلى كلامه، فلهذا كان ما ترى. انتهى.

ثم دفن يونس بلطا بصالحية دمشق، و كان أيضا ولى نيابة طرابلس نحو ست سنين، ثم قتل جميع من كان من أصحاب أيتمش و تنم، و لم يبق منهم إلا آقبغا الجمالى الأطروش نائب حلب، و الوالد أبقى لشفاعة أخته خوند شيرين أم السلطان الملك الناصر فرج فيه، فإنها كانت ألزمت الأمير نوروز الحافظى و الأمير يشبك الشعبانىّ بالوالد و حرّضتهما على بقائه، و كان لها يوم ذلك جاه كبير لسلطنة ولدها الملك الناصر، ثم أوصت ولدها الملك الناصر أيضا به، فزاد ذلك فسحة الأجل فأبقى، و أما آقبقا الأطروش فإنه بذل فى إبقائه مالا كبيرا للأمراء فأبقى.

ثم خلع السلطان على الأمير بتخاص السّودونى باستقراره فى نيابة الكرك عوضا عن سودون الظريف.

ثم خرج السلطان بعساكره و أمرائه من مدينة دمشق فى يوم رابع شهر رمضان صبيحة قتل تنم و يونس يريد الديار المصريّة، و سار حتى نزل غزّة فى ثانى عشر شهر رمضان المذكور، و قتل بغزّة علاء الدين على بن الطبلاوى أحد أصحاب تنم، ثم خرج من غزّة و سار يريد القاهرة حتى وصلها فى سادس عشرين رمضان من سنة اثنتين و ثمانمائة، بعد أن زيّنت القاهرة، و فرشت له الشّقاق الحرير من تربة الأمير يونس الدوادار بالصحراء إلى قلعة الجبل، و كان يوم دخوله إلى مصر من الأيام المشهودة، و طلع إلى القلعة و كثرت التهانى بها لمجيئه.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۲۱۴

ثم فى ثامن عشرينه أنعم السلطان على الأمير قصلوبغا الكركى الحسنى الظاهرى بإقطاع سيّدى سودون نائب الشام و أنعم على الأمير آقباى الكركى الخازندار بإقطاع شيخ المحمودى المنتقل إلى نيابة طرابلس، و أنعم على الأمير جركس القاسمى المصارع بإقطاع مبارك شاه، و أنعم على الأمير جكم من عوض بإقطاع دقماق المحمدى نائب حماة، و الجميع تقادم ألوف، و أنعم السلطان على الأمير الطواشى مقبل الزمّام بإقطاع الطواشى بهادر الشّهابى مقدّم المماليك بعد موته، و أنعم بإقطاع مقبل على الطواشى صواب السعدى المعروف بشنكل، و قد استقرّ مقدّم المماليك بعد موت بهادر المذكور، و أنعم بإقطاع صواب المذكور على الطواشى شاهين الألجائى نائب مقدّم المماليك.

ثم قدم على السلطان مملوك الأمير يلبغا المجنون من بلاد الصعيد بكتاب يلبغا المجنون يسأل فى نيابة الوجه القبلى، فرسم السلطان

أن يخرج إليه تجريدة من الأمراء و هم: الأمير نوروز الحافظىّ و هو مقدم العسكر المذكور، و بكتمر أمير سلاح، و آقباى الحاجب، و تمراز أمير مجلس، و يلبغا الناصرى، و إينال باى بن قجماس، و أسنبغا الدوادار، و تتمّة ثمانية عشر أميرا، و خرجوا من القاهرة فى ثالث عشر شوّال و معهم نحو خمسمائة مملوك من المماليك السلطانية.

و فى صبيحة يوم خروج العسكر، ورد الخبر على السلطان بأن الأمير محمد بن عمر ابن عبد العزيز الهوّارى حارب يلبغا المجنون، و أنه قبض على أمير على دواداره، و على نائب الوجه البحرى، و على الأمير إياس الكمشبغاوى الخاصكى، و على جماعة من أصحابه، و أن يلبغا المجنون فرّ بعد أن انهزم و نزل إلى البحر بفرسه فغرق، و أنه أخرج من النيل ميتا، فوجدوه قد أكل السمك لحم وجهه، فسر السلطان و الأمراء بذلك، و خرج البريد فى الوقت بعود الأمراء المجرّدين إلى القاهرة.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۲۱۵

ثم فى ثامن عشره خرج أمير حاج المحمل بيسق الشّيخى أمير آخور الثانى بالمحمل، و كان تكلم الناس بعدم سفر الحاج فى هذه السنة و لم يكن لذلك أصل.

ثم ابتدأت الفتنة بين الأمير يشبك الشعبانى الدوادار و بين الأمير سودون من على بك المعروف بطاز الأمير آخور الكبير؛ و وقع بينهما أمور.

فلما كان يوم ثامن عشرين شوّال المذكور منع جميع مباشرى الدولة بديار مصر من النزول إلى بيت الأمير يشبك الدوادار، و ذلك أن المباشرين بأجمعهم الكبير منهم و الصغير كانوا ينزلون فى خدمة يشبك منذ قدم السلطان من دمشق، فعظم ذلك على سودون طاز، و تفاوض معه فى مجلس السلطان فى كفّه عن ذلك، حتى أذعن يشبك فمنعوا، ثم نزلوا إليه على عادتهم، و صاروا جميعا يجلسون عنده من غير أن يقفوا، و كانوا من قبل يقفون على أقدامهم.

ثم فى ثانى ذى القعدة و رد الخبر على السلطان من حلب بواقعة الامير دمرداش المحمدى نائب حلب مع السلطان أحمد بن أويس صاحب بغداد و العراق.

و خبره أن القان غياث الدين أحمد بن أويس المذكور لما ملك بغداد بعد حضوره إلى الديار المصرية حسب ما تقدّم ذكره فى ترجمة الملك الظاهر برقوق الثانية، فأخذ السلطان أحمد المذكور يسير مع أمرائه و رعيته سيرة سيئة، فركبوا عليه و قاتلوه، و كاتبوا صاحب شيراز فى القدوم عليهم لأخذ بغداد، و خرج ابن أويس منهزما إلى الأمير قرا يوسف يستنجده، فركب معه قرا يوسف و سار إلى بغداد، فخرج إليهما أهل بغداد، و قاتلوهما و كسروهما بعد حروب طويلة، فانهزما إلى شاطئ الفرات، و بعثا يسألان الأمير دمرداش نائب حلب فى نزولهما ببلاد الشام،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۲۱۶

ففى الحال استدعى دمرداش دقماق نائب حماة بعساكره إلى حلب فقدم عليه، و خرجا معا فى عسكر كبير و كبسا ابن أويس و قرا يوسف، و هما فى نحو سبعة آلاف فارس، فاقتتلا قتالا شديدا فى يوم الجمعة رابع عشرين شوّال، قتل فيه الأمير جانبيك اليحياوى أتابك حلب، و أسر دقماق المحمدى نائب حماة، و انهزم دمرداش المحمدى نائب حلب، و فرّ فيمن بقى من عسكره إلى حلب، ثم لحقه دقماق بعد أن فدى نفسه بمائة ألف درهم، و حضر الوقعة الأمير سودون من زاده المتوجه بالبشارة إلى البلاد الشامية بسلامة السلطان، و قدم مع ذلك كتب ابن أويس و قرا يوسف على السلطان تتضمن: إنا لم نجئ محاربين، و إنما جئنا مستجيرين مستنجدين بسلطان مصر، على عوائد فضل أبيه الملك الظاهر- رحمه اللّه- فحاربنا هؤلاء بغتة، فدافعنا عن أنفسنا و إلا كنا هلكنا، فلم يلتفت أهل الدولة إلى كتبهما، و كتبوا إلى نائب الشام بمسيره بعساكر الشام و قتال ابن أويس و قرا يوسف و القبض عليهما و إرسالهما إلى مصر.

هذا و خوند شيرين والدة الملك الناصر فرج مستمرّة السعى فى الإفراج عن الوالد من سجنه بقلعة دمشق، إلى أن أجاب الأمراء إلى ذلك و كتب بالإفراج عنه و عن الأمير آقبغا الجمالى الأطروش نائب حلب فى يوم عرفة من محبسهما بقلعة دمشق، و حملا إلى

القدس بطالين بها.

و بينما القوم فى انتظار ما يرد عليهم من أمر السلطان أحمد بن أويس و قرا يوسف، قدم عليهم الخبر من حلب بنزول تيمور لنك على مدينة سيواس، و أنه حارب سليمان بن أبى يزيد بن عثمان، فانهزم سليمان المذكور إلى أبيه بمدينة برصا، و معه قرا يوسف، و أخذ تيمور سيواس و قتل من أهلها مقتلة عظيمة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۲۱۷

ثم وصلت بعد قليل رسل ابن عثمان إلى الديار المصرية و كتابه يتضمّن اجتماع الكلمة و أن يكون مع السلطان عونا على قتال هذه الطاغية تيمورلنك، ليستريح الإسلام و المسلمون منه، و أخذ يتخضّع و يلحّ فى كتابه على اجتماع الكلمة، فلم يلتفت أحد إلى كلامه، و قالت أمراء مصر يوم ذاك الآن صار صاحبنا، و عندما مات أستاذنا الملك الظاهر برقوق مشى على بلادنا، و أخذ ملطية من عملنا، فليس هو لنا بصاحب، يقاتل هو عن بلاده، و نحن نقاتل عن بلادنا و رعيتنا، و كتب له عن السلطان بمعنى هذا اللفظ، و كان ما قاله أبو يزيد بن عثمان من أكبر المصالح، فانه حدّثنى فيما بعد الأمير أسنباى الظاهرى الزردكاش، و كان أسره تيمور و حظى عنده و جعله زردكاشه، قال: قال لى تيمورلنك ما معناه: إنه لقى فى عمره عساكر كثيرة و حاربها، لم ينظر فيها مثل عسكرين: عسكر مصر و عسكر ابن عثمان المذكور، غير أن عسكر مصر كان عسكرا عظيما ليس له من يقوم بتدبيره لصغر سن الملك الناصر فرج، و عدم معرفة من كان حوله من الأمراء بالحروب، و عسكر ابن عثمان المذكور، غير أنه كان أبو يزيد صاحب رأى و تدبير و إقدام، لكنه لم يكن له من العساكر من يقوم بنصرته.

قلت: و لهذا قلت إن المصلحة كانت تقتضى الصلح مع أبى يزيد بن عثمان المذكور، فإنه كان يصيّر للعساكر المصرية من يدبّرها، و يصيّر لابن عثمان المذكور عساكر مصر مع عساكره عونا، فكان تيمور لا يقوى [على] مدافعتهم، فإن كلا من العسكرين كان يقوى دفعه لولا ما ذكرناه، فما شاء اللّه كان.

و بعد أن كتب لابن عثمان بذلك لم يتأهب أحد من المصريين لقتال تيمور، و لا التفت إلى ذلك، بل كان جل قصد كل أحد منهم ما يوصله إلى سلطنة مصر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۲۱۸

و إبعاد غيره عنها، و يدع الدنيا تنقلب ظهرا لبطن، فإنه مع ورود هذا الخبر المزعج بلغ السلطان و الأمراء أن الأمير قانى باى العلائى الظاهرى أحد أمراء الطبلخانات و رأس نوبة يريد إثارة فتنه، فطلبه السلطان و أمره بلبس التشريف بنيابة غزة، فامتنع من لبسه، فأمر السلطان به فقبض عليه و سلم للأمير آقباى الحاجب، فأخذه و نزل إلى داره و أقام عنده إلى آخر النهار، فاجتمع عليه طائفة من المماليك السلطانية يريدون أخذه من آقباى الحاجب غصبا، فخاف آقباى و طلع به إلى القلعة، فطلب السلطان الأمراء و تشاوروا على قتله، فاتفقوا على إبقائه فى إمرته و وظيفته.

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۰۳]

ثم فى خامس عشرين المحرّم من سنة ثلاث و ثمانمائة و رد البريد على السلطان من حلب بأخذ تيمور ملطية، ثم وصل من الغد البريد أيضا بوصول أوائل عسكر تيمور لنك إلى مدينة عينتاب، و فى الكتاب: أدركوا المسلمين و إلا هلكوا، فاستدعى السلطان بعد يومين الخليفة و القضاة و الأمراء و أعيان الدولة، و علموا أن تيمور لنك وصلت مقدّمته إلى مرعش و عينتاب، و كان القصد بهذا الجمع أخذ مال التجار إعانة على النفقة فى العساكر، فقال القضاة: أنتم أصحاب الأمر و النهى و ليس لكم فيه معارض، و إن كان القصد الفتوى فى ذلك فلا يجوز أخذ مال أحد يخاف على العساكر من الدعاء، فقيل لهم نأخذ نصف الأوقاف من البلاد، نقطعها للأجناد البطّالين، فإن الأجناد قلّت لكثرة الأوقاف، فقال القضاة: و ما قدر ذلك؟

و متى عمدتم على البطّالين فى الحرب، خيف أن يؤخذ الإسلام، و طال الكلام فى ذلك حتى استقر الرأى على إرسال الأمير أسنبغا الدوادار لكشف الأخبار، و تجهيز عساكر الشام إلى جهة تيمور لنک، و سار أسنبغا فى خامس صفر من سنة ثلاث المذكورة على البريد، و وقع التخذيل و التقاعد لاختلاف الكلمة و كثرة الآراء.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج١٢، ص: ٢١٩

هذا و أهل البلاد الشامية فى أمر لا يعلمه إلا اللّه تعالى، مما داخلهم من الرعب و الخوف، و قصد كل واحد أن يرحل من بلده، فمنعه من ذلك حاكم بلده، و وعده بحضور العساكر المصرية و الدفع عنهم.

ثم بعد أيام قدم البريد بكتاب نائب حلب الأمير دمرداش المحمدى، و صحبته أيضا كتاب أسنبغا الدوادار بأن تيمور نزل على قلعة بهسنا، بعد ما ملك مدينتها، و أنه مستمر على حصارها، و قد وصلت عساكره إلى عينتاب، و وصل هذا الخبر إلى مصر رابع عشرين صفر المذكور، فوقع الشروع عند ذلك فى حركة سفر السلطان، ثم علق جاليش السفر فى يوم ثالث شهر ربيع الأوّل، و كان من خبر أسنبغا الدوادار أنه وصل إلى دمشق فى سابع صفر، فقرأ كتاب السلطان فى الجامع الأموى، و هو يتضمن تجهيز العساكر الشامية و خروجهم لقتال تيمور، و قدم فى تاسعه رسول تيمور إلى الشام و على يده مطالعات تيمور للمشايخ و القضاة و الأمراء، بأنه قدم فى عام أول إلى العراق، يريد أخذ القصاص ممن قتل رسله بالرحبة، ثم عاد إلى الهند، فبلغه موت الملك الظاهر، فعاد و أوقع بالكرج

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج١٢، ص: ٢٢٠

ثم قصد الروم لمّا بلغه قلّة أدب هذا الصبىّ سليمان بن أبى يزيد بن عثمان أن يعرك أذنه، فتوجه إليه و فعل بسيواس و غيرها من بلاد الروم ما بلغكم، ثم قصد بلاد مصر ليضرب بها السكة، و يذكر اسمه فى الخطبة، ثم يرجع، و طلب فى الكتاب أن يرسل إليه أطلمش المقبوض عليه من أمرائه قبل تاريخه، فى دولة الملك الظاهر برقوق، و إن لم ترسلوه يصير دماء المسلمين فى ذمتكم، فلم يلتفت سودون نائب الشام إلى كلامه، و أمر بالرسول فوسّط.

و توجه أسنبغا إلى حلب فوجد الأخبار صحيحة؛ فكتب بما رآه و علمه إلى الديار المصرية صحبة كتاب نائب حلب، فوصلت الكتب المذكورة إلى مصر فى ثالث شهر ربيع الأول؛ و كان ما تضمنته الكتب أن تيمور نزل على بزاعة ظاهر حلب، و قد اجتمع بحلب سائر نوّاب البلاد الشامية، و استحثّ فى خروج السلطان بالعساكر من مصر إلى البلاد الشامية، و أن تيمور لما نزل على بزاعة خرج الأمير شيخ المحمودى نائب طرابلس هو الملک المؤيد و برز إلى جاليش تيمور لنک فى سبعمائة فارس، و التتار فى نحو ثلاثة آلاف فارس، و ترامى الجمعان بالنشاب ثم اقتتلوا ساعة، و أخذ شيخ من التتار أربعة، و عاد كل من الفريقين إلى موضعه، فوسّط الأربعة على أبواب مدينة حلب بحضرة من اجتمع بحلب من النواب، و كان الذى اجتمع بها الأمير سودون نائب الشام بعساكر دمشق و أجنادها و عشيرها،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج١٢، ص: ٢٢١

و نائب طرابلس شيخ المحمودى المذكور بعساكر طرابلس و أجنادها و رجّالتها، و نائب حماة دقماق المحمدى بعساكر حماة و عربانها، و نائب صفد ألطنبغا العثمانى بعساكر صفد و عشيرها، و نائب غزة عمر بن الطحان بعساكرها، فاجتمع منهم بحلب عساكر عظيمة، غير أن الكلمة متفرّقة، و العزائم محلولة لعدم وجود السلطان. انتهى.

و كان تيمور لما نزل على عينتاب أرسل رسوله إلى الأمير دمرداش المحمدى نائب حلب يعده باستمراره على نيابة حلب، و يأمره بمسک سودون نائب الشام، فإنه كان قتل رسوله الذى وجهه إلى دمشق قبل تاريخه، فأخذ دمرداش الرسول و أحضره إلى النواب، فأنكر الرسول مسک سودون نائب الشام، و قال لدمرداش:

إن الأمير (يعنى تيمور) لم يأت البلاد إلا بمكاتباتک إليه، و أنت تستدعيه أن ينزل على حلب، و أعلمته أن البلاد ليس بها أحد يدفع عنها، فحنق منه دمرداش لمّا سمع منه هذا الكلام، و قام إليه و ضربه، ثم أمر به، فضربت رقبته، و يقال: إن كلام هذا الرسول كان من

تنميق تيمور لنك و دهائه و مكره ليفرّق بذلك بين العساكر، فعلم الأمراء ذلك، و لم يقع ما قصده، و من الحلبيين جماعة يقولون إلى الآن:

إنه كاتب تيمور و تقاعد عن القتال. و اللّه أعلم بصحّة ذلك.

ثم اجتمع الأمراء و النواب على قتال تيمور، و تهيّأ كل منهم للقائه بعد أن يئسوا من مجيء السلطان و عساكره، لعلمهم بعدم رأى مدبّرى مملكة مصر من الأمراء، و لصغر سن السلطان، و قد فات الأمر و هم فى قلة إلى الغاية بالنسبة إلى عساكر تيمور و جنوده و جموعه، و كان اللائق خروج السلطان من مصر بعساكره و وصوله إلى حلب قبل رحيل تيمور من سيواس، كما فعل الملك الظاهر برقوق- رحمه اللّه- فيما تقدّم ذكره.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١٢، ص: ٢٢٢

و بينما النواب فى إصلاح شأنهم للقتال، نزل تيمور بعساكره على قرية جيلان، خارج حلب فى يوم الخميس تاسع شهر ربيع الأوّل و أحاط بمدينة حلب، و أصبح من الغد فى يوم الجمعة، زحف على مدينة حلب و أحاط بسورها، فكانت بين أهل حلب و بينه فى هذين اليومين حروب كثيرة، و مناوشات بالنشّاب و النّفوط و المكاحل، و ركب اهل حلب أسوار المدينة و قاتلوه أشدّ قتال، فلما اشرقت الشمس يوم السبت حادى عشره خرج نوّاب الشام بجميع عساكرها، و عامة أهل حلب إلى ظاهر مدينة حلب، و عبأوا الأطلاب و العساكر لقتال تيمور، و وقف سيّدى سودون نائب دمشق بمماليكه، و عساكر دمشق فى الميمنة، و وقف دمرداش نائب حلب بمماليكه، و عساكر حلب فى الميسرة، و وقف بقية النواب فى القلب، و قدّموا أمامهم أهل حلب المشاة، فكانت هذه التعبئة من أيشم التعابئ، هذا مع ادعاء دمرداش بالمعرفة لتعبئة العساكر، و حال وقوف الجميع فى منازلهم زحف تيمور بجيوش قد سدّت الفضاء، و صدم عساكر حلب صدمة هائلة فالتقاه النوّاب و ثبتوا لصدمته أوّلا، ثم انكسرت الميسرة، و ثبت سودون نائب الشام فى الميمنة، و أردفه شيخ نائب طرابلس و قاتلاه قتالا عظيما، و برز الأمير عزّ الدين أزدمر أخو الأتابك إينال اليوسفى و ولده يشبك بن أزدمر فى عدّة من الفرسان و قد بذلوا نفوسهم فى سبيل اللّه، و قاتلوا قتالا شديدا و أبلوا بلاء عظيما و ظهر عن

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١٢، ص: ٢٢٣

أزدمر و ولده يشبك من الشجاعة و الإقدام ما لعلّه يذكر إلى يوم القيامة، و لم يزل أزدمر يقتحم القوم و يكرّ فيهم إلى أن قتل و فقد خبره فإنه لم يقتل إلّا و هو فى قلب العدوّ، و سقط ولده يشبك بين القتلى و قد أثخنت جراحاته، و صار فى رأسه فقط زيادة على ثلاثين ضربة بالسيف و غيره، سوى ما فى بدنه.

ثم أخذ و حمل إلى بين يدى تيمور، فلمّا رأى تيمور ما به من الجراح تعجّب من إقدامه و ثباته غاية العجب، و أمر بمداواته، فيما قيل؛ و لم تمض غير ساعة حتى ولّت العساكر الشامية منهزمة يريدون مدينة حلب، و ركب أصحاب تيمور أقفيتهم، فهلك تحت حوافر الخيل من البشر و من أهل حلب و غيرها من المشاة ما لا يدخل تحت حصر، فإن أهل حلب خرجوا منها لقتال تيمور، حتى النساء و الصبيان، و ازدحم الناس مع ذلك فى دخولهم إلى أبواب المدينة، و داس بعضهم بعضا، حتى صارت الرّمم طول قامة، و الناس تمشى من فوقها، و قصد نوّاب المماليك الشامية قلعة حلب و طلعوا إليها، فدخلها معهم خلائق من الحلبيين و كانوا قبل ذلك قد نقلوا إليها سائر أموال الناس بحلب.

هذا و قد اقتحم عساكر تيمور مدينة حلب فى الحال، و أشعلوا فيها النّيران و أخذوا فى الأسر و النهب و القتل، فهرب سائر نساء البلد و الأطفال إلى جامع حلب و بقية المساجد، فمال أصحاب تيمور عليهن، و ربطوهن بالحبال أسرى، ثم وضعوا السيف فى الأطفال، فقتلوهم بأسرهم، و شرعوا فى تلك الأفعال القبيحة على عادتهم، و صار الأبكار تفتضّ من غير تستّر، و المخدّرات يفسق فيهنّ من غير احتشام، بل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١٢، ص: ٢٢٤

يأخذ التّترى الواحدة و يعلوها فى المسجد و الجامع بحضرة الجمّ الغفير من أصحابه و من أهل حلب، فيراها أبوها و أخوها و زوجها و ولدها و لا يقدر أن يدفع عنها لقلّة مقدرته، و لشغله بنفسه بما هو فيه من العقوبة و العذاب، ثم ينزل عنها الواحد فيقوم لها آخر و هى مكشوفة العورة.

ثم بذلوا السيف فى عامة حلب و أجنادها حتى امتلأت الجوامع و الطرقات بالقتلى، و جافت حلب، و استمر هذا من ضحوة نهار السبت إلى أثناء يوم الثلاثاء رابع عشر ربيع الأوّل، هذا و القلعة فى أشدّ ما يكون من الحصار و القتال، و قد نقبها عسكر تيمور من عدّة أماكن، وردم خندقها و لم يبق إلا أن تؤخذ.

فتشاور النوّاب و الأعيان الذين بالقلعة، فأجمعوا على طلب الأمان، فأرسلوا لتيمور بذلك، فطلب تيمور نزول بعض النوّاب إليه، فنزل إليه دمرداش نائب حلب، فخلع عليه، و دفع إليه أمانا و خلعا إلى النوّاب، و أرسل معه عدّة وافرة من أصحابه إلى قلعة حلب، فطلعوا إليها و أخرجوا النوّاب منها بمن معهم من الأمراء و الأعيان، و جعلوا كلّ اثنين فى قيد، و أحضروا الجميع إلى تيمور و أوقفوا بين يديه، فنظر إليهم طويلا و هم وقوف بين يديه و رئيسهم سودون نائب الشام.

ثم أخذ يقرّعهم و يوبّخهم و يلوم سودون نائب الشام فى قتله لرسوله، و يكثر له من الوعيد. ثم دفع كلّ واحد منهم إلى من يحتفظ به. ثم سيقت إليه نساء حلب سبايا، و أحضرت إليه الأموال و الجواهر و الآلات الفاخرة، ففرّقها على أمرائه و أخصّائه، و استمرّ النهب و السبى و القتل بحلب فى كل يوم

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۲۲۵

مع قطع الأشجار و هدم البيوت و إحراق المساجد، و جافت حلب و ظواهرها من القتلى، بحيث صارت الأرض منهم فراشا، لا يجد الشخص مكانا يمشى عليه إلّا و تحت رجليه رمّة قتيل. و عمل تيمور من رءوس المسلمين منائر عدّة مرتفعة من الأرض نحو عشرة أذرع فى دور عشرين ذراعا، حسب ما فيها من رءوس بنى آدم فكان زيادة على عشرين ألف رأس، و لمّا بنيت جعلت الوجوه بارزة يراها من يمرّ بها.

ثم رحل تيمور من حلب بعد أن أقام بها شهرا، و تركها خاوية على عروشها، خالية من سكّانها و أنيسها، قد خربت و تعطّلت من الأذان و الصلوات، و أصبحت خرابا يبابا مظلمة بالحريق موحشة قفرا، لا يأويها إلّا البوم و الرّخم. و سار تيمور قاصدا جهة دمشق، فمرّ بمدينة حماة، و كان أخذها ابنه ميران شاه.

و كان من خبرها أن ميران شاه بن تيمور نزل عليها بكرة يوم الثلاثاء رابع عشر شهر ربيع الأوّل المذكور، و أحاط بها بعساكره، بعد أن نهب خارج مدينة حماة، و سبى النساء و الأطفال، و أسر الرجال، و استمرّت أيدى أصحابه يفعلون فى النساء

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۲۲۶

و الأبكار تلك الأفعال القبيحة، و خرّبوا جميع ما خرج عن سور المدينة. هذا و قد استعدّ أهل حماة للقتال، و ركب الناس سور المدينة، و امتنعوا من تسليم المدينة، و باتوا على ذلک، فلما أصبحوا خادعهم ابن تيمور، ففتحوا له بابا من أبواب المدينة، و دخل ابن تيمور المذكور مدينة حماة و نادى بالأمان؛ فقدم الناس عليه، و قدّموا له أنواع المطاعم، فقبلها منهم، و عزم أن يقيم رجلا من أصحابه عليها، فقيل له:

إن الأعيان قد خرجوا منها، فخرج إلى مخيّمه و بات به.

ثم رحل يوم الخميس عنها و وعد الناس بخير؛ و مع ذلک فإن قلعة حماة لم يتسلّمها، بل كانت امتنعت عليه.

فلما كان ليلة الجمعة نزل أهل القلعة و قتلوا من أصحاب ابن تيمور رجلين كان أقرّهما بالمدينة، فلما بلغ ذلک ابن تيمور رجع إليها و اقتحم البلد، و أشعل النار بها، و أخذ أصحابه يقتلون و يأسرون و ينهبون حتى صارت كمدينة حلب، غير أنّه كان رفق بأهل حلب، فإنه كان سأل قضاة حلب لمّا صاروا فى أسره عن قتاله، و من الشهيد [من العسكرين]؟ فأجاب محبّ الدين محمد بن محمد بن

الشّحنة الحنفىّ بأن قال: سئل رسول اللّه- صلّى اللّه عليه و سلّم- عن هذا، فقال: «من قاتل لتكون كلمة اللّه هى العليا فهو الشهيد»، فأعجبه ذلك و حادثهم، فطلبوا منه أن يعفو عن

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۲۲۷

أهل حلب، و لا يقتل أحدا؛ فأمّنهم جميعا و حلف لهم، فحصل بذلك بعض رفق بالنسبة إلى غيرهم.

و أمّا أهل دمشق، فإنه لمّا قدم عليهم الخبر بأخذ حلب، نودى فى الناس بالرحيل من ظاهرها إلى داخل المدينة، و الاستعداد لقتال العدوّ المخذول فأخذوا فى ذلك، فقدم عليهم المنهزمون من حماة، فعظم خوف أهلها و همّوا بالجلاء، فمنعوا من ذلك، و نودى «من سافر نهب»، فعاد إليها من كان خرج منها، و حصّنت دمشق، و نصبت المجانيق على قلعة دمشق، و نصبت المكاحل على أسوار المدينة، و استعدّوا للقتال استعدادا جيّدا إلى الغاية.

ثم وصلت رسل تيمور إلى نائب الغيبة بدمشق ليتسلّموا منه دمشق، فهمّ نائب الغيبة بالفرار، فردّه العامّة ردّا قبيحا، و صاح الناس و أجمعوا على الرحيل عنها، و استغاث النساء و الصّبيان، و خرجت النساء حاسرات لا يعرفن أين يذهبن، حتى نادى نائب الغيبة بالاستعداد.

و قدم الخبر فى أثناء ذلك بمجىء السلطان إلى البلاد الشاميّة، ففتر عزم الناس عن الخروج من دمشق ما لم يحضر السلطان.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۲۲۸

و أمّا أمراء الديار المصريّة فإنه لمّا كان ثامن عشر شهر ربيع الأوّل و هو بعد أخذ تيمور لمدينة حلب بسبعة أيّام، فرقّت الجماكى على المماليك السلطانيّة بسبب السفر.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة؛ ج۱۲؛ ص۲۲۸

فى عشرينه نودى على أجناد الحلقة بالقاهرة أن يكونوا فى يوم الأربعاء ثانى عشرينه فى بيت الأمير يسك الشّعبانى الدّوادار للعرض عليه.

ثم فى خامس عشرينه ورد عليهم الخبر بأخذ تيمور مدينة حلب، و أنه يحاصر قلعتها، فكذّبوا ذلك، و أمسك المخبر و حبس حتى يعاقب بعد ذلك على افترائه، و وقع الشروع فى النفقة، فأخذ كلّ مملوك ثلاثة آلاف و أربعمائة درهم.

ثم خرج الأمير سودون من زادة و الأمير إينال حطب على الهجن فى ليلة الأربعاء تاسع عشرينه لكشف هذا الخبر.

ثم ركب الشيخ سراج الدين عمر البلقينى و قضاة القضاة و الأمير آقباى الحاجب، و نودى بين أيديهم: «الجهاد فى سبيل اللّه تعالى لعدوّكم الأكبر تيمورلنك، فإنه أخذ البلاد و وصل إلى حلب و قتل الأطفال على صدور الأمّهات، و أخرب الدّور و الجوامع و المساجد، و جعلها إسطبلات للدوابّ، و أنّه قاصدكم، يخرّب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۲۲۹

بلادكم، و يقتّل رجالكم؛ فاضطربت القاهرة لذلك، و اشتدّ جزع الناس، و كثر بكاؤهم و صراخهم، و انطلقت الألسنة بالوقيعة فى أعيان الدولة.

و استهلّ شهر ربيع الآخر، فلما كان ثالثه قدم الأمير أسنبغا الحاجب و أخبر بأخذ تيمور مدينة حلب و قلعتها باتفاق دمرداش، و حكى ما نزل بأهل حلب من البلاء، و أنه قال لنائب الغيبة بدمشق يخلّى بين الناس و بين الخروج من دمشق، فإن الأمر صعب، [و إن النائب لم يمكّن أحدا من السير] فخرج السلطان الملك الناصر من يومه من القاهرة و نزل بالرّيدانيّة بأمرائه و عساكره [و الخليفة] و القضاة، و تعيّن الأمير تمراز الناصرىّ أمير مجلس لنيابة الغيبة بالديار المصريّة، و أقام بمصر من الأمراء الأمير جكم من عوض فى عدّة أخر، و أقام الأمير تمراز يعرض أجناد الحلقة، و فى تحصيل ألف فرس و ألف جمل، و إرسال ذلك مع من يقع عليه الاختيار من أجناد الحلقة للسّفر.

ثم رسم باستقرار الأمير أرسطاى من خجا على رأس نوبة النّوب كان فى نيابة الإسكندريّة بعد موت نائبها فرج الحلبى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۲۳۰

و كان أرسطاى منذ أفرج عنه بطّالا بالإسكندريّة، فوردت عليه الولاية و هو بها، و أخذ الأمير تمراز فى عرض أجناد الحلقة، و تحصيل الخيول و الجمال و طلب العربان من الوجه القبلىّ و البحرىّ لقتال تيمور، كلّ ذلك و السلطان بالرّيدانيّة.

ثم خرج الجاليش فى بكرة يوم الجمعة ثامن شهر ربيع الآخر، و فيه من أكابر الأمراء مقدّمى الألوف: الأتابك بيبرس، و الأمير نوروز الحافظى رأس نوبة الأمراء، و الامير بكتمر الركنى أمير سلاح، و آقباى حاجب الحجّاب، و يلبغا الناصرى، و إينال باى بن قجماس، و عدّة أخر من أمراء الطبلخانات و العشرات.

ثم رحل السلطان ببقيّة الأمراء و العساكر من الرّيدانيّة يريد جهة الشام لقتال تيمور لنك، و سار حتى نزل بغزّة فى يوم عشرين من الشهر، و استدعى بالوالد و آقبغا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۲۳۱

الجمالىّ الأطروش نائب حلب كان من القدس، و أخلع على الوالد باستقراره فى نيابة دمشق عوضا عن سودون قريب الملك الظاهر برقوق بحكم أسره مع تيمور، و هذه ولاية الوالد على دمشق الأولى.

و خلع على الأمير آقبغا الجمالى الأطروش باستقراره فى نيابة طرابلس عوضا عن شيخ المحمودىّ بحكم أسره مع تيمور أيضا، و على الأمير تمربغا المنجكى باستقراره فى نيابة صفد عوضا عن ألطنبغا العثمانى بحكم أسره، و على طولو من على باشاه باستقراره فى نيابة غزّة عوضا عن عمر بن الطحّان، و على صدقة بن الطويل باستقراره فى نيابة القدس، و بعث الجميع إلى ممالكهم.

و أما الوالد فإنه قال للسلطان و للأمراء: عندى رأى أقوله، و فيه مصلحة للمسلمين و للسلطان، فقيل له: و ما هو؟ فقال: الرأى أن السلطان لا يتحرّك هو و لا عساكره من مدينة غزّة، و أنا أتوجّه إلى دمشق و أحرّض أهلها على القتال، و أحصّنها- و هى بلدة عظيمة لم تنكب من قديم الزمان، و بها ما يكفى أهلها من الميرة سنين، و قد داخل أهلها أيضا من الخوف ما لا مزيد عليه، فهم يقاتلون قتال الموت- و تيمور لا يقدر على أخذها منّى بسرعة، و هو فى عسكر كبير إلى الغاية لا يطيق لمكث بهم بمكان واحد مدّة طويلة، فإما أنه يدع دمشق و يتوجّه نحو السلطان إلى غزّة، فيتوغّل فى البلاد و يصير بين عسكرين، و أظنه لا يفعل ذلك، و إمّا أنه يعود إلى جهة بلاده كالمنهزم من عدم معرفة عساكره

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۲۳۲

بالبلاد الشامية، و قلّة ما فى طريقه من الميرة لخراب البلاد، و يركب السلطان بعساكره المصرية و الشامية أقفية التّمرية إلى الفرات، فيظفر منهم بالغرض و زيادة، فاستصوب ذلك جميع الناس، حتى تيمور عند ما بلغه ذلك بعد أخذه دمشق، و ما بقى إلا أن يرسم بذلك، تكلّم بعض جهّال الأمراء مع بعض فى السرّ ممّن عنده كمين من الوالد من واقعة أيتمش و تنم، و قال: تقتلوا رفقته و تسلّموه الشام، و اللّه ما قصده إلّا أن يتوجّه إلى دمشق، و يتّفق مع تيمور و يعود يقاتلنا، حتى ياخذ منّا ثأر رفقته، و كان نوروز الحافظى بإزاء الوالد، فلمّا سمع ذلك استحيا أن يبديه للوالد، فأشار إليه بالسّكات و الكفّ عن ذلك، و انفضّ المجلس، و خرج الوالد من الخدمة و أصلح شأنه، و توجّه إلى دمشق، فوجد الأمير دمرداش نائب حلب قد هرب من تيمور و قدم إلى دمشق، و قد جفل أهل دمشق لمّا بلغهم قرب تيمور إلى دمشق فأخذ الوالد فى إصلاح أمر دمشق، فوجد أهلها فى غاية الاستعداد، و عزمهم قتال تيمور إلى أن يفنوا جميعا، فتأسّف عند ذلك على عدم قبول السلطان لرأيه و لم يسعه إلّا السّكات.

ثم رحل جاليش السلطان من غزّة فى رابع عشرين شهر ربيع الآخر، ثم رحل السلطان ببقيّة عسكره من غزّة فى سادس عشرينه، و سار الجميع حتى وافوا دمشق.

و كان دخول السلطان دمشق فى يوم الخميس سادس جمادى الأولى، و كان لدخوله يوم مهول من كثرة صراخ الناس و بكائهم و

الابتهال إلى اللّه بنصرته، و طلع السلطان إلى قلعة دمشق و أقام بها إلى يوم السبت ثامنه، فنزل من قلعة دمشق

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۲۳۳

و خرج بعساكره إلى مخيّمه عند قبة يلبغا ظاهر دمشق، و تهيّأ للقاء تيمور هو بعساكره و قد قصّرت المماليك الظاهريّة أرماحهم حتى يتمكّنوا من طعن التّمرية أولا بأوّل لازدرائهم عساكر تيمور.

فلما كان وقت الظهر من اليوم المذكور وصل جاليش تيمور من جهة جبل الثّلج فى نحو الألف فارس، فبرز إليهم مائة فارس من عسكر السلطان و صدموهم صدمة واحدة، بدّدوا شملهم و كسروهم أقبح كسرة، و قتلوا منهم جماعة كبيرة و عادوا.

ثم حضر إلى طاعة السلطان جماعة من التمريّة و أخبروا بنزول تيمور على البقاع العزيزى فلتكونوا على حذر، فإن تيمور كثير الحيل و المكر، فاحترز القوم منه غاية الاحتراز.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۲۳۴

ثم قدم على السلطان خمسة أمراء من أمراء طرابلس بكتاب أسندمر نائب الغيبة بطرابلس يتضمّن أن الأمير أحمد بن رمضان أمير التركمان هو و ابن صاحب الباز و أولاد شهرى اتّفقوا و ساروا إلى حلب و أخذوها من التمريّة، و قتلوا من أصحاب تيمور زيادة على ثلاثة آلاف فارس، و أن تيمور بعث عسكرا إلى طرابلس، فثار بهم أهل القرى و قتلوهم عن آخرهم بالحجارة لدخولهم بين جبلين، و أنه قد حضر من عسكر تيمور خمسة نفر، و أخبروا بأن نصف عسكر تيمور على نيّة المسير إلى طاعة السلطان.

و كان ذلک من مكايد تيمور، ثم قال: و إن صاحب قبرص و صاحب الماغوصة و غيرهم وردت كتبهم بانتظار الإذن لهم فى تجهيز المراكب فى البحر لقتال تيمور معاونة للسلطان، فلم يلتفت أحد لهذا الكتاب، و داموا على ما هم فيه من اختلاف الكلمة.

ثم فى يوم السبت نزّل تيمور بعساكره على قطنا، فملأت عساكره الأرض كثرة، و ركب طائفة منهم لكشف الخبر، فوجدوا السلطان و الأمراء قد تهيّئوا للقتال و صفّت العساكر السلطانيّة، فبرز إليهم التمريّة و صدموهم صدمة هائلة، و ثبت كلّ من العسكرين ساعة، فكانت بينهم وقعة انكسر فيها ميسرة السلطان، و انهزم

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۲۳۵

العسكر الغزّاوىّ و غيرهم إلى ناحية حوران، و جرح جماعة، و حمل تيمور بنفسه حملة شديدة ليأخذ فيها دمشق، فدفعته ميمنة السلطان بأسنان الرماح حتى أعادوه إلى موقفه.

و نزل كلّ من العسكر بن بمعسكره، و بعث تيمور إلى السلطان فى طلب الصلح و إرسال أطلمش أحد أصحابه إليه، و أنه هو أيضا يبعث من عنده من الأمراء المقبوض عليهم فى وقعة حلب، فأشار الوالد و دمرداش و قطلوبغا الكركى فى قبول ذلک لما يعرفوا من اختلاف كلمتهم، لا لضعف عسكرهم، فلم يقبلوا و أبوا إلّا القتال.

ثم أرسل تيمور رسولا آخر فى طلب الصّلح، و كرّر القول ثانيا، و ظهر للأمراء و لجميع العساكر صدق مقالته، و أن ذلک على حقيقته، فأبى الأمراء ذلک، هذا و القتال مستمرّ بين الفريقين فى كلّ يوم.

فلما كان ثانى عشر جمادى الآخرة اختفى من أمراء مصر و المماليک السلطانيّة جماعة، منهم الأمير سودون الطيّار، و قانى باى العلائى رأس نوبة، و جمق، و من الخاصكيّة يشبک العثمانى و قمش الحافظى و برسبغا الدوادار و طرباى فى جماعة أخر، فوقع الاختلاف عند ذلک بين الأمراء، و عادوا إلى ما كانوا عليه من التشاحن فى الوظائف و الإقطاعات و التحكّم فى الدولة، و تركوا أمر تيمور كأنه لم يكن، و أخذوا فى الكلام فيما بينهم بسبب من اختفى من الأمراء و غيرهم.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۲۳۶

هذا و تيمور فى غاية الاجتهاد فى أخذ دمشق و فى عمل الحيلة فى ذلک.

ثم أعلم بما الأمراء فيه، فقوى أمره و اجتهاده، بعد أن كان عزم على الرحيل، و استعدّ لذلک.

ثم أشيع بدمشق أن الأمراء الذين اختفوا توجهوا جميعا إلى مصر ليسلطنوا الشيخ لاچين الچركسى أحد الأجناد البرّانيّة؛ فعظم ذلك على مدبّرى المملكة لعدم رأيهم، و كان ذلك عندهم أهمّ من أمر تيمور، و اتّفقوا فيما بينهم على أخذ السلطان الملك الناصر جريدة، و عوده إلى الديار المصرية فى الليل، و لم يعلموا بذلك إلّا جماعة يسيرة، و لم يكن أمر لاچين يستحقّ ذلك، بل كان تمراز نائب الغيبة بمصر يكفى السلطان أمرهم، وَ لكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كانَ مَفْعُولًا.

فلما كان آخر ليلة الجمعة حادى عشرين جمادى الأولى ركب الأمراء و أخذوا السلطان الملك الناصر فرج على حين غفلة، و ساروا به من غير أن يعلم العسكر به من على عقبة دمّر يريدون الديار المصرية، و تركوا العساكر و الرعيّة من المسلمين غنما بلا راع، و جدّوا فى السير ليلا و نهارا حتى وصلوا إلى مدينة صفد، فاستدعوا نائبها الأمير تمربغا المنجكى و أخذوه معهم، و تلاحق بهم كثير من أرباب الدولة و أمرائها، و سار الجميع حتى أدركوا الأمراء الذين ساروا إلى مصر- عليهم

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۲۳۷

من اللّه ما يستحقّوه- بمدينة غزّة، فكلّموهم فيما فعلوه، فاعتذروا بعذر غير مقبول فى الدنيا و الآخرة؛ فندم عند ذلك الأمراء على الخروج من دمشق حيث لا ينفع الندم، و قد تركوا دمشق أكلة لتيمور، و كانت يوم ذاك أحسن مدن الدنيا و أعمرها.

و أما بقيّة أمراء مصر و أعيانها من القضاة و غيرهم لمّا علموا بخروج السلطان من دمشق خرجوا فى الحال فى إثره طوائف يريدون اللّحاق بالسلطان، فأخذ غالبهم العشير، و سلبوهم، و قتلوا منهم خلقا كثيرا.

أخبرنى غير واحد من أعيان المماليك الظاهرية قالوا: لما بلغنا خروج السلطان ركبنا فى الحال، غير أنه لم يعقنا عن اللّحاق به إلا كثرة السلاح الملقى على الأرض بالطريق ممارمتها المماليك السلطانيّة ليخفّ ذلك عن خيولهم، فمن كان فرسه ناهضا خرج، و إلّا لحقه أصحاب تيمور و أسروه، فممّن أسروه قاضى القضاة صدر الدين المناوىّ و مات فى الأسر حسبما يأتى ذكره فى الوفيات و تتابع دخول المنقطعين من المماليك السلطانيّة و غيرهم إلى القاهرة فى أسوإ حال من المشى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۲۳۸

و العرى و الجوع، فرسم السلطان لكلّ من المماليك السلطانية المذكورين بألف درهم و جامكيّة شهرين.

و أمّا الأمراء فإنهم دخلوا إلى مصر و ليس مع كلّ أمير سوى مملوك أو مملوكين، و قد تركوا أموالهم و خيولهم و أطلابهم و سائر ما معهم بدمشق؛ فإنهم خرجوا من دمشق بغتة بغير مواعدة لمّا بلغهم توجّه السلطان من دمشق، و أخذ كلّ واحد ينجو بنفسه.

و أما العساكر الّذين خلّفوا بدمشق من أهل دمشق و غيرها، فإنه كان اجتمع بها خلائق كثيرة من الحلبيّين و الحمويّين و الحمصيّين و أهل القرى ممّن خرج جافلا من تيمور.

و لمّا أصبحوا يوم الجمعة و قد فقدوا السلطان و الأمراء و النائب غلّقوا أبواب دمشق، و ركبوا أسوار البلد، و نادوا بالجهاد، فتهيّأ أهل دمشق للقتال، و زحف عليهم تيمور بعساكره، فقاتله الدمشقيون من أعلى السور أشدّ قتال، و ردّوهم عن السور و الخندق، و أسروا منهم جماعة ممن كان اقتحم باب دمشق، و أخذوا من خيولهم عدّة كبيرة، و قتلوا منهم نحو الألف، و أدخلوا رءوسهم إلى المدينة، و صار أمرهم فى زيادة فأعيا تيمور أمرهم، و علم أن الأمر يطول عليه، فأخذ فى مخادعتهم، و عمل الحيلة فى أخذ دمشق منهم.

و بينما أهل دمشق فى أشدّ ما يكون من القتال و الاجتهاد فى تحصين بلدهم، قدم عليهم رجلان من أصحاب تيمور من تحت السور و صاحا من بعد: «الأمير يريد الصلح، فابعثوا رجلا عاقلا حتى يحدّثه الأمير فى ذلك».

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۲۳۹

قلت: هذا الذى كان أشار إليه الوالد عند استقراره بغزّة فى نيابة دمشق، و قوله: إن أهل دمشق عندهم قوّة لدفع تيمور عن دمشق، و أن دمشق بلد كثيرة الميرة و الرّزق، و هى فى الغاية من التحصين، و أنه يتوجّه إليها و يقاتل بها تيمور، فلم يسمع له أحد فى ذلك، فلعمرى لو رأى من لا أعجبه كلام الوالد قتال أهل دمشق الآن و شدّة بأسهم و هم بغير نائب و لا مدبّر لأمرهم، فكيف ذاك لو كان

عندهم متولّى أمرهم بمماليكه و أمراء دمشق و عساكرها بمن انضاف إليهم لكان يحق له الندم و الاعتراف بالتقصير. انتهى.
و لما سمع أهل دمشق كلام أصحاب تيمور فى الصلح وقع اختيارهم فى إرسال قاضى القضاة تقى الدّين إبراهيم بن [محمد بن] مفلح الحنبلى، فأرخى من سور دمشق إلى الأرض، و توجّه إلى تيمور و اجتمع به و عاد إلى دمشق، و قد خدعه تيمور بتنميق كلامه، و تلطّف معه فى القول، و ترفق له فى الكلام، و قال له: هذه بلدة الأنبياء و الصحابة، و قد أعتقتها لرسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم صدقة عنّى و عن أولادى، و لولا حنقى من سودون نائب دمشق عند قتله لرسولى ما أتيتها، و قد صار سودون المذكور فى قبضتى و فى أسرى، و قد كان الغرض فى مجيئى إلى هنا، و لم يبق لى الآن غرض إلا العود، و لكن لا بدّ من أخذ عادتى من التّقدمة من الطّقزات.
و كانت هذه عادته إذا أخذ مدينة صلحا يخرج إليه [أهلها] من كل نوع من أنواع المأكول و المشروب و الدوابّ و الملابس و التّحف تسعة؛ يسمّون ذلك طقزات، و الطّقز باللّغة التركيّة: تسعة، و هذه عادة ملوك التتار إلى يومنا هذا.
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۲۴۰
فلما صار ابن مفلح بدمشق شرع يخذّل الناس عن القتال و يثنى على تيمور و دينه و حسن اعتقاده ثناء عظيما، و يكفّ أهل دمشق عن قتاله، فمال معه طائفة من الناس، و خالفه طائفة أخرى و أبوا إلّا قتاله، و باتوا ليلة السبت على ذلك، و أصبحوا نهار السّبت و قد غلب رأى ابن مفلح على من خالفه، و عزم على إتمام الصلح، و نادى فى الناس: إنه من خالف ذلك قتل و هدر دمه؛ فكفّ الناس عن القتال.
و فى الحال قدم رسول تيمور إلى مدينة دمشق فى طلب الطقزات المذكورة، فبادر ابن مفلح، و استدعى من القضاة و الفقهاء و الأعيان و التجار، حمل ذلك كلّ أحد بحسب حاله، فشرعوا فى ذلك حتى كمل، و ساروا به إلى باب النصر ليخرجوا به إلى تيمور، فمنعهم نائب قلعة دمشق من ذلك، و هدّدهم بحريق المدينة عليهم إن فعلوا ذلك، فلم يلتفتوا إلى قوله، و قالوا له: [أنت] احكم على قلعتك، و نحن نحكم على بلدنا، و تركوا باب النصر و توجهوا، و أخرجوا الطقزات المذكورة من السور، و تدلّى ابن مفلح من السور أيضا و معه كثير من أعيان دمشق و غيرهم و ساروا إلى مخيّم تيمور، و باتوا به ليلة الأحد، و عادوا بكرة الأحد، و قد استقرّ تيمور بجماعة منهم فى عدّة وظائف: ما بين قضاة القضاة، و الوزير، و مستخرج الأموال، و نحو ذلك، معهم فرمان من تيمور لهم، و هو ورقة فيها تسعة أسطر يتضمّن أمان أهل دمشق على أنفسهم
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۲۴۱
و أهليهم خاصّة؛ فقرئ الفرمان المذكور على منبر جامع بنى أمية بدمشق، و فتح من أبواب دمشق باب الصغير فقط، و قدم أمير من أمراء تيمور، جلس فيه ليحفظ البلد ممّن يعبر إليها من عساكر تيمور، فمشى ذلك على الشاميّين و فرحوا به، و أكثر ابن مفلح و من كان توجّه معه من أعيان دمشق الثّناء على تيمور و بثّ محاسنه و فضائله، و دعا العامّة لطاعته و موالاته، و حثّهم بأسرهم على جمع المال الّذى تقرّر لتيمور عليهم، و هو ألف ألف دينار، و فرض ذلك على الناس كلّهم، فقاموا به من غير مشقّة لكثرة أموالهم، فلمّا كمل المال حمله ابن مفلح إلى تيمور و وضعه بين يديه، فلمّا عاينه غضب غضبا شديدا، و لم يرض به، و أمر ابن مفلح و من معه أن يخرجوا عنه، فأخرجوا من وجهه، و وكّل بهم جماعة حتى التزموا بحمل ألف تومان، و التومان عبارة عن عشرة آلاف دينار [من الذّهب]، إلّا أنّ سعر الذهب عندهم يختلف، و على كلّ حال فيكون جملة ذلك عشرة آلاف ألف دينار، فالتزموا بها، و عادوا إلى البلد، و فرضوها ثانيا على الناس [كلّها] عن أجرة أملاكهم ثلاثة أشهر، و ألزموا كلّ إنسان من ذكر و أنثى حرّ و عبد بعشرة دراهم، و ألزم
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۲۴۲
مباشر كلّ وقف بحمل مال له جرم، فنزل بالناس باستخراج هذا منهم ثانيا بلاء عظيم، و عوقب كثير منهم بالضّرب، فغلت الأسعار، و عزّ وجود الأقوات، و بلغ المدّ القمح- و هو أربعة أقداح- إلى أربعين درهما فضّة، و تعطّلت صلاة الجمعة من دمشق فلم تقم بها

جمعة إلّا مرتين حتى دعى بها على منابر دمشق للسلطان محمود و لولىّ عهده ابن الأمير تيمور لنک، و كان السلطان محمود مع تيمور آلة، كون عادتهم لا يتسلطن عليهم إلّا من يكون من ذرّية الملوک. انتهى.

ثم قدم شاه ملک أحد أمراء تيمور إلى مدينة دمشق على أنه نائبها من قبل تيمور.

ثمّ بعد جمعتين منعوا من إقامة الجمعة بدمشق لكثرة غلبة أصحاب تيمور بدمشق، كلّ ذلک و نائب القلعة ممتنع بقلعة دمشق، و أعوان تيمور تحاصره أشدّ حصار، حتى سلّمها بعد تسعة و عشرين يوما، و قد رمى عليها بمدافع و مكاحل لا تدخل تحت حصر، يكفيک أن التمريّة من عظم ما أعياهم أمر قلعة دمشق بنوا تجاه القلعة قلعة من خشب، فعند فراغهم من بنائها و أرادوا طلوعها

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۲۴۳

ليقاتلوا من أعلاها من هو بالقلعة، رمى أهل قلعة دمشق نفطا فأحرقوها عن آخرها، فأنشئوا قلعة ثانية أعظم من الأولى و طلعوا عليها و قاتلوا أهل القلعة.

هذا و ليس بالقلعة المذكورة من المقاتلة إلّا نفر يسير دون الأربعين نفرا، و طال عليهم الأمر، و يئسوا من النّجدة، و طلبوا الأمان، و سلّموها بالأمان.

قلت: لا شلّت يداهم! هؤلاء هم الرجال الشجعان. رحمهم اللّه تعالى.

و لما تكامل حصول المال الذى هو ألف تومان، أخذه ابن مفلح و حمله إلى تيمور؛ فقال تيمور لابن مفلح و أصحابه: هذا المال بحسابنا إنما هو يسوى ثلاثة آلاف ألف دينار، و قد بقى عليكم سبعة آلاف ألف دينار، و ظهر لى أنكم عجزتم.

و كان تيمور لما اتفق أوّلا مع ابن مفلح على ألف ألف دينار يكون ذلک على أهل دمشق خاصة، و الذى تركته العساكر المصرية من السلاح و الأموال يكون لتيمور، فخرج إليه ابن مفلح بأموال اهل مصر جميعها، فلما صارت كلها إليه و علم أنه استولى على أموال المصريين ألزمهم بإخراج أموال الذين فرّوا من دمشق، فسارعوا أيضا إلى حمل ذلک كله، و تدافعوا عنده حتى خلص المال جميعه، فلما

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۲۴۴

كمل ذلک ألزمهم أن يخرجوا إليه جميع ما فى البلد من السلاح جليلها و حقيرها، فتتبعوا ذلک و أخرجوه له حتى لم يبق بها من السلاح شىء، فلمّا فرغ ذلک كلّه قبض على ابن مفلح و رفقته، و ألزمهم أن يكتبوا له جميع خطط دمشق و حاراتها و سككها، فكتبوا ذلک و دفعوه إليه، ففرّقه على أمرائه، و قسم البلد بينهم، فساروا إليها بمماليكهم و حواشيهم، و نزل كلّ أمير فى قسمه و طلب من فيه، و طالبهم بالأموال، فحينئذ حلّ بأهل دمشق من البلاء ما لا يوصف، و أجرى عليهم أنواع العذاب من الضّرب و العصر و الإحراق بالنار، و التعليق منكوسا، و غمّ الأنف بخرقة فيها تراب ناعم كلّما تنفّس دخل فى أنفه حتى تكاد نفسه تزهق، فكان الرجل إذا أشرف على الهلاک يخلّى عنه حتى يستريح، ثم تعاد عليه العقوبة أنواعا، فكان المعاقب يحسد رفيقه الّذى هلک تحت العقوبة على الموت، و يقول: ليتنى أموت و أستريح مما أنا فيه، و مع هذا كلّه تؤخذ نساؤه و بناته و أولاده الذكور، و تقسم جميعهم على أصحاب ذلک الأمير، فيشاهد الرجل المعذّب امرأته أو بنته و هى توطأ، و ولده و هو يلاط به، يصرخ هو من ألم العذاب، و البنت و الولد يصرخان من إزالة البكارة و اللّواط، و كل ذلک من غير تستّر فى النهار بحضرة الملأ من الناس. و رأى أهل دمشق أنواعا من العذاب لم يسمع بمثلها؛ منها أنهم كانوا يأخذون الرجل فتشدّ رأسه بحبل و يلويه حتى يغوص فى رأسه، و منهم من كان يضع الحبل بكتفى الرجل و يلويه بعصاه حتى تنخلع الكتفان، و منهم من كان يربط إبهام يدى المعذّب من وراء ظهره ثم يلقيه على ظهره و يذرّ فى منخريه

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۲۴۵

الرّماد مسحوقا، فيقرّ على ما عنده شيئا بعد شىء، حتى إذا فرغ ما عنده لا يصدّقه صاحبه على ذلک، فلا يزال يكرّر عليه العذاب حتى يموت، و يعاقب ميّتا مخافة أن يتماوت. و منهم من كان يعلّق المعذّب بإبهام يديه فى سقف الدار و يشعل النار تحته، و يطول تعليقه،

فربّما يسقط فيها، فيسحب من النار و يلقوه على الأرض حتى يفيق، ثم يعلّقه ثانيا.

و استمرّ هذا البلاء و العذاب بأهل دمشق تسعة عشر يوما، آخرها يوم الثلاثاء ثامن عشرين شهر رجب من سنة ثلاث و ثمانمائة، فهلك فى هذه المدّة بدمشق بالعقوبة و الجوع خلق لا يعلم عددهم إلّا اللّه تعالى.

فلما علمت أمراء تيمور أنه لم يبق بالمدينة شيء خرجوا إلى تيمور، فسألهم: هل بقى لكم تعلّق فى دمشق؟ فقالوا: لا؛ فأنعم عند ذلك بمدينة دمشق على أتباع الأمراء فدخلوها يوم الأربعاء آخر رجب، و معهم سيوف مسلولة مشهورة و هم مشاة، فنهبوا ما قدروا عليه من آلات الدّور و غيرها، و سبوا نساء دمشق بأجمعهنّ، و ساقوا الأولاد و الرجال، و تركوا من الصغار من عمره خمس سنين فما دونها، و ساقوا الجميع مربوطين فى الحبال.

ثم طرحوا النار فى المنازل و الدّور و المساجد، و كان يوم عاصف الريح، فعمّ الحريق جميع البلد حتى صار لهيب النار يكاد أن يرتفع إلى السحاب، و عملت النار فى البلد ثلاثة أيّام بلياليها آخرها يوم الجمعة.

و كان تيمور- لعنه اللّه- سار من دمشق فى يوم السبت ثالث شهر شعبان بعد ما أقام على دمشق ثمانين يوما، و قد احترقت كلّها و سقطت سقوف جامع بنى أميّة

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج١٢، ص: ٢۴۶

من الحريق، و زالت أبوابه و تفطّر رخامه، و لم يبق غير جدره قائمة. و ذهبت مساجد دمشق و دورها و قياسرها و حمّاماتها و صارت أطلالا بالية و رسوما خالية، و لم يبق بها [دابة تدبّ] إلّا أطفال يتجاوز عددهم [آلاف] فيهم من مات، و فيهم من سيموت من الجوع.

و أمّا السلطان [الملک الناصر فرج] فإنّه أقام بغزّة ثلاثة أيام، و توجّه إلى الدّيار المصريّة بعد ما قدم بين يديه آقبغا الفقيه أحد الدوادارية، فقدم إلى القاهرة فى يوم الاثنين ثانى جمادى الآخرة، و أعلم الأمير تمراز نائب الغيبة بوصول السلطان إلى غزّة، فارتجّت القاهرة، و كادت عقول الناس تزهق، و ظنّ كلّ أحد أن السلطان قد انكسر من تيمور، و أنّ تيمور فى أثره، و أخذ كلّ أحد يبيع ما عنده و يستعدّ للهروب من مصر، و غلا أثمان ذوات الأربع حتى جاوز المثل أمثالا.

فلما كان يوم الخميس خامس جمادى الآخرة المذكور قدم السلطان إلى قلعة الجبل و معه الخليفة و أمراء الدولة و نوّاب البلاد الشامية، و نحو ألف مملوک من المماليک السلطانية، و قيل نحو الخمسمائة.

ثم فى يوم السبت سابع جمادى الآخرة المذكور أنعم السلطان على الوالد بإمرة مائة، و تقدمة ألف بالدّيار المصريّة كانت موفّرة فى الديوان السلطانىّ، بعد استعفائه

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج١٢، ص: ٢۴٧

من نيابة دمشق، و عيّن السلطان لنيابة دمشق آقبغا الجمالى الأطروش، و رسم للوالد أن يجلس رأس ميسرة.

ثم أذن السلطان للأمير يلبغا السالمىّ الأستادار أن يتحدّث فى جميع ما يتعلّق بالمملكة، و أن يجهّز العسكر إلى دمشق لقتال تيمور، فشرع يلبغا السالمى المذكور فى تحصيل الأموال، و فرض على سائر أراضى مصر فرائض من إقطاعات الأمراء، و بلاد السلطان، و أخباز الأجناد، و بلاد الأوقاف عن عبرة كلّ ألف دينار خمسمائة درهم فضّة و فرس.

ثم جبى من سائر أملاک القاهرة و مصر و ظواهر هما أجرة شهر، حتى إنه كان يقوّم على الإنسان داره التى يسكنها، و يؤخذ منه أجرتها، و أخذ من الرزق، و هى الأراضى التى يأخذ مغلّها قوم على سبيل البرّ و الصدقة عن كل فدّان عشرة دراهم، و كان يوم ذاک أجرة الفدّان من ثلاثين درهما إلى ما دونها.

قلت: أخذ نصف خراجها بدورة دارها، و أخذ من الفدّان القصب أو القلقاس أو النّيلة من القنطار مائة درهم، و هى نحو أربعة دنانير، وجبى من البساتين عن كلّ فدان مائة درهم.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج١٢، ص: ٢۴٨

ثم استدعى أمناء الحكم و التجّار و طلب منهم المال على سبيل القرض، و صار يكبس الفنادق و الحواصل فى الليل، فمن وجده حاضرا فتح مخزنه و أخذ نصف ما يجده فيه من النقد، و هى الذهب و الفضّة و الفلوس، و إذا لم يجد صاحب المال أخذ جميع ما يجده من النقود و هى الذهب و الفضة و الفلوس، و أخذ جميع ما وجد من حواصل الأوقاف، و مع ذلك فإن الصّيرفىّ يأخذ عن كل مائة درهم ثلاثة دراهم، و يأخذ الرسول الذى يحضر المطلوب ستة دراهم، و إن كان نقيبا أخذ عشرة دراهم؛ قاله الشيخ تقىّ الدين المقريزى رحمه اللّه، قال: فاشتدّ ما بالناس، و كثر دعاء الناس على السالمىّ.

قلت: و بالجملة فهم أحسن حالا من أهل دمشق، و إن أخذ منهم نصف مالهم، و أيش يعمل السالمىّ! مسكين، و قد ندبه السلطان لإخراج عسكر ثان من الديار المصرية لقتال تيمور. انتهى.

ثمّ خلع السلطان على الأمير نوروز الحافظى و على الأمير يشبك الشعبانى، و استقرّا مشيرى الدّولة و مدبّرى أمورها.

ثمّ فى ثالث عشره خلع على القاضى أمين الدين عبد الوهاب بن قاضى القضاة شمس الدين محمد الطرابلسى [قاضى العسكر باستقراره] قاضى قضاة الحنفية بالديار المصرية بعد موت قاضى القضاة جمال الدين يوسف الملطى، و على القاضى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۲۴۹

جمال الدين عبد اللّه الأقفهسى باستقراره قاضى قضاة المالكيّة بالديار المصرية عوضا عن القاضى نور الدين علىّ بن الجلال بحكم وفاته.

و فيه قدم من الشام من المماليك المنقطعين ثلثمائة مملوك بأسوإ حال: من المشى و العرى و الجوع.

ثم فى حادى عشرينه حضر إلى القاهرة قاضى القضاة موفّق الدين أحمد بن نصر اللّه الحنبلىّ من دمشق بأسوإ حال، و قدم أيضا قاضى قضاة دمشق علاء الدين على بن أبى البقاء الشافعىّ، و حضر كتاب تيمور لنك للسلطان على يد بعض المماليك السلطانيّة يتضمّن طلب أطلمش، و أنه إذا قدم عليه أرسل من عنده من الأمراء و النوّاب و غيرهم، و قاضى القضاة صدر الدين المناوى الشافعى، و يرحل عن دمشق، فطلب أطلمش من البرج بالقلعة، و أطلق و أنعم عليه بخمسة آلاف درهم، و أنزل عند الأمير سودون طاز الأمير آخور الكبير، و عيّن للسفر معه قطلوبغا العلائى، و الأمير محمد بن سنقر.

ثم خرج إلى تيمور الأمير بيسق الشيخى الأمير آخور رسولا من السلطان بالإفراج عن أطلمش و أشياء أخر، هذا و يلبغا السالمى يجدّ فى تحصيل الأموال، و أخذ فى عرض أجناد الحلقة، و ألزم من كان منهم قادرا على السفر بالخروج إلى الشام لقتال تيمور، و ألزم العاجز عن السفر بحضور بديل، أو تحصيل نصف مغلّه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۲۵۰

فى السّنة، و ألزم أرباب الغلال المحضّرة للبيع فى المراكب بسواحل القاهرة أن يؤخذ منهم عن كلّ إردب درهم [و أن يؤخذ من كلّ مركب من المراكب التى تسير فيها الناس مائة درهم].

ثم فى يوم الثلاثاء أوّل شهر رجب أمر السالمىّ أن تضرب دنانير مازنة الدينار مائة مثقال و مثقال، و منها ما زنته تسعون مثقالا و مثقال، ثم ما دون ذلك، إلى أن وصل منها دينار زنته عشرة مثاقيل، فضرب من ذلك جملة دنانير.

ثم فى ثالثه خلع السلطان على علم الدين يحيى بن أسعد المعروف بأبى كمّ باستقراره وزيرا بديار مصر عوضا عن فخر الدين ماجد بن غراب.

ثم ورد الخبر أن دمرداش المحمّدى نائب حلب تخلّص من تيمور، و جمع جموعا من التركمان، و أخذ حلب و قلعتها من التمريّة، و قتل منهم جماعة كبيرة.

ثم خلع السلطان على شاهين الحلبى نائب مقدّم المماليك باستقراره فى تقدمة المماليك السلطانية عوضا عن صواب المعروف بچنكل، و استقرّ الطواشى فيروز من جرجى مقدّم الرّفرف نائب المقدّم.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۲۵۱

ثم حضر فی سابع شهر رجب من عربان البحیرة إلی خارج القاهرة ستّة آلاف فارس، و حضر من عربان الشرقیّة من عرب ابن بقر ألفان و خمسمائة فارس، و من العیساویّة و بنی وائل ألف و خمسمائة فارس، فأنفق فیهم یلبغا السالمی الأموال لیتجهّزوا لحرب تیمور.

ثم حضر فی ثامنه قاصد الأمیر نعیر، و ذکر أنه جمع عربانا کثیرة و نزل بهم علی تدمر، و أنّ تمرلنک رحل من ظاهر دمشق إلی القطیّفة.

هذا و قد التفت أهل الدولة إلی یلبغا السالمی و العمل فی زواله حتی تمّ لهم ذلک.

فلما کان رابع عشر شهر رجب المذکور قبض علی یلبغا السالمی و علی شهاب الدین أحمد بن عمر بن قطینة أستادار الوالد الذی کان ولی الوزر قبل تاریخه، و سلّما لسعد الدین إبراهیم بن غراب لیحاسبهما علی الأموال المأخوذة من الناس فی الجبایات.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۲۵۲

قلت: فصار حاله کالمثل السائر «أفقرنی فیمن أحبّ و لا استغنی».

ثم فی ثامن عشره استقرّ سعد الدین إبراهیم بن غراب المذکور أستادارا عوضا عن السالمی مضافا لما بیده من وظیفتی نظر الجیش و الخاصّ.

ثم فی خامس شعبان برز الأمراء المعیّنون للسفر لقتال تیمور بمن عیّن معهم من الممالیک السلطانیّة و أجناد الحلقة إلی ظاهر القاهرة، و هم الّذین کانوا بالقاهرة فی غیبة السلطان بدمشق، و تقدّم الجمیع الأمیر تمراز الناصریّ الظاهریّ أمیر مجلس، و الأمیر آقبای من حسن شاه الظاهری حاجب الحجّاب، و من أمراء الطبلخانات: الأمیر جرباش الشیخی، و الأمیر تمان تمر و الأمیر صومای الحسنی، و امتنع الأمیر جکم من السّفر.

و فی الیوم قدم الأمیر شیخ المحمودیّ نائب طرابلس فارّا من أسر تیمور إلی الدیار المصریة، و أخبر برحیل تیمور إلی بلاده، فرسم السلطان بإبطال السفر، و رجع کل أمیر إلی داره من خارج القاهرة.

ثم فی الغد قدم دقماق المحمّدی نائب حماة فارّا أیضا من تیمور.

و فیه طلب الوالد و خلع علیه باستقراره فی نیابة دمشق ثانیا علی کره منه، و کانت شاغرة من یوم قدوم تیمور دمشق.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۲۵۳

ثم أخلع علی الأمیر شیخ المحمودی باستقراره فی نیابة طرابلس علی عادته، و علی الأمیر دقماق المحمّدی باستقراره فی نیابة حماة علی عادته.

ثم أخلع السلطان علی الأمیر تمربغا المنجکی باستقراره فی نیابة صفد و علی الأمیر تنکزبغا الحططی بنیابة بعلبکّ.

ثم نودی بالقاهرة ألّا یقیم بها أحد من الأعاجم، و أمهلوا ثلاثة أیّام، و هدّد من تخلّف منهم بالقاهرة، فلم یخرج أحد، و أکثر الناس من الکتابة فی الحیطان:

«من نصرة الإسلام، قتل الأعجام»، کل ذلک و أحوال مصر غیر مستقیمة.

و أما البلاد الشامیّة فحصل بها جراد عظیم بعد خروج اللّنک منها، فزادت خرابا علی خراب.

قلت: و لنذکر هنا نبذة یسیرة من أخبار تیمور لنک و نسبه و کثرة عساکره و عظم دهائه و مکره؛ لیکون الناظر فی هذا الکتاب علی علم من أخباره و أحواله، و إن کان فی ذلک نوع تطویل و خروج عن المقصود، فهو لا یخلو من فائدة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۲۵۴

فنقول: هو تمرلنک و قیل تیمور؛ کلاهما بمعنی واحد، و الثانی أفصح. [و هو] باللغة الترکیة الحدید بن أیتمش قنلغ بن زلکی بن سنبا بن طارم طربن طغریل بن قلیج ابن سنقور بن کنجک بن طغر سبوقا بن التاخان المغولیّ الأصل الترکیّ من طائفة جغتای الطاغیة

تیمور، کورکان، أعنی باللغة العجمیة صهر الملوک.

مولده سنة ثمان و عشرین و سبعمائة بقریة تسمّی خواجا أیلغار من عمل کشّ أحد مدائن ما وراء النهر، و بعد هذه البلدة عن مدینة سمرقند یوم واحد، و یقال:

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۲۵۵

إنه رؤی یوم ولد کأن شیئا یشبه الخوذة تراءی طائرا فی جوّ السماء، ثم وقع إلی الأرض فی فضاء کبیر، فتطایر منه جمر و شرر حتی ملأ الأرض. و قیل: إنه لما خرج من بطن أمّه وجدت کفّاه مملوءتین دما، فوجدوا أنه تسفک علی یدیه الدماء.

قلت: و کذا وقع.

و قیل: إن والده کان إسکافا. و قیل: بل کان أمیرا عند السلطان حسین صاحب مدینة بلخ، و کان أحد أرکان دولته، و إن أمه من ذرّیّة جنکزخان.

و قیل: کان للسلطان حسین المذکور أربعة وزراء، فکان أبو تیمور أحدهم، و ولی تیمور بعد موته مکانه عند السلطان حسین. و أصل تیمور من قبیلة برلاص.

و قیل: إن أوّل ما عرف من حال تیمور أنه کان یتجرّم، فسرق فی بعض اللیالی غنمة و حملها لیهرب بها، فانتبه الراعی و ضربه بسهم فأصاب کتفه، ثم ردفه بآخر فلم یصبه، ثم بآخر فأصاب فخذه و عمل فیه الجرح الثانی الذی فی فخذه حتی عرج منه؛ و لهذا سمی تمرلنک، لأن «لنک» باللغة العجمیّة أعرج، و أما اسمه الحقیقیّ ف (تمر) بلا «لنک»، فلما أعرج [تمر] أضیف إلیه «لنک».

و لما تعافی أخذ فی التجرّم علی عادته و قطع الطریق، و صحبه فی تجرّمه جماعة عدّتهم أربعون رجلا.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۲۵۶

و کان تیمور لنک یقول لهم فی تلک الأیام: لا بد أن أملک الأرض و أقتل ملوک الدنیا؛ فیسخر منه بعضهم، و یصدّقه البعض، لما یرونه من شدّة حزمه و شجاعته.

و قیل: إنه تاه فی بعض تجرّماته مدّة أیام إلی أن وقع علی خیل السلطان حسین المقدّم ذکره، فأنزله الجشاریّ صاحب مرج الخیل عنده، و عطف علیه و آواه و أتی إلیه بما یحتاجه من طعام و شراب. و کان لتیمور معرفة تامّة فی جیاد الخیل فأعجب الجشاریّ منه ذلک، فاستمرّ به عنده إلی أن أرسل معه بخیول إلی السلطان حسین و عرّفه به، فأنعم علیه و أعاده إلی الجشاری، فلم یزل عنده حتّی مات، فولّاه السلطان حسین عوضه علی جشاره، و لا زال یترقّی بعد ذلک من وظیفة إلی أخری حتی عظم و صار من جملة الأمراء. و تزوّج بأخت السلطان حسین، و أقام معها مدّة إلی أن وقع بینهما فی بعض الأیّام کلام، فعایرته بما کان علیه من سوء الحال، فقتلها و خرج هاربا، و أظهر العصیان علی السلطان حسین، و استفحل أمره، و استولی علی ما وراء النهر، و تزوّج ببنات ملوکها، فعند ذلک لقّب ب «بکورکان»، و قد تقدم الکلام علی اسم کورکان. و لا زال أمره ینمو و أعماله تتّسع إلی أن خافه السلطان حسین، و عزم علی قتاله، و بلغه ذلک فخرج هاربا.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۲۵۷

ثم قوی أمره بعد سنة ستّین و سبعمائة، فلمّا کثر عسکره بعث إلی ولاة بلخشان و کانا أخوین قد ملکا بعد موت أبیهما یدعوهما إلی طاعته؛ فأجاباه، و کانت المغل قد نهضت من جهة الشرق علی السلطان حسین، و کان کبیرهم الخان قمر الدین فتوجّه السلطان حسین إلیهم و قاتلهم، فأرسل تیمور یدعوهم إلیه، فأجابوه و دخلوا تحت طاعته، فقویت بهم شوکته.

ثم قصده السلطان حسین ثانیا فی عسکر عظیم حتی وصل إلی ضاغلغا، و هو موضع ضیّق یسیر الراکب فیه ساعة، و فی وسطه باب إذا أغلق و أحمی لا یقدر علیه أحد، و حوله جبال عالیة، فملک العسکر فم هذا الدّربند من جهة سمرقند، و وقف تیمور بمن معه علی الطریق الآخر، و فی ظن العسکر أنهم حصروه و ضیقوا علیه، فترکهم و مضی فی طریق مجهولة، فسار لیلة فی أو عار مشقة حتی

أدركهم فى السحر و قد شرعوا فى تحميل أثقالهم، على أن تيمور قد انهزم و هرب خوفا منهم، فأخذ تيمور يكيدهم بأن نزل هو و من معه عن خيولهم [و تركوها ترعى فى تلك المروج و ناموا كأنهم من جملة العسكر فمرت بهم خيولهم] و هم يظنون أنهم منهم قد قصدوا الراحة، فلما تكامل مرور العسكر ركب تيمور بمن معه أقفيتهم، و هم يصيحون و أيديهم تدقهم دقا بالسيوف، فاختبط الناس و انهزم السلطان حسين بمن معه لا يلوى أحد على أحد، حتى وصل إلى بلخ فاحتاط تمر [لنك] على ما كان معه، و لمّ

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۲۵۸

من بقى من العسكر عليه، فعظم جمعه، و كثر ماله، و استولى على الممالك، و لا زال حتى قبض على السلطان حسين بعد أن أمّنه و قتله، فهذا أوّل عظمته.

و الثانية واقعته مع تقتمش خان ملك التتار، فإنه لما واقعه بأطراف تركستان قريبا من نهر خجند، و اشتد الحرب بينهما و كثرت القتلى فى عسكر تيمور حتى كادت تفنى، و عزم تيمور على الهزيمة، فإذا هو بالمعتقد السيد الشريف بركة قد أقبل على تيمور، فقال له تيمور و قد جهده البلاء: يا سيّدى جيشى انكسر، فقال له السيد الشريف بركة المذكور: لا تخف، ثم نزل عن فرسه و تناول كفّا من الحصى ثم ركب فرسه و رمى بها فى وجوه جيش تقتمش و صرخ قائلا بأعلى صوته «ياغى قجتى». يعنى باللّغة التركية العدوّ هرب، فصرخ بها أيضا تيمور كمقالة الشريف بركة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۲۵۹

فامتلأت آذان التمرية بصرختهما و أتوه بأجمعهم بعد ما كانوا ولّوا هاربين، فكّر بهم تيمور ثانيا فى عسكر تفتمش و ما منهم أحد إلا و هو يصرخ «ياغى قجتى»، فانهزم عند ذلك عسكر تقتمش خان و ركبت التمرية أقفيتهم و غنموا منهم من الأموال ما لا يدخل تحت حصر، فاستولى على غالب بلاد تقتمش خان.

و الثالثة واقعته مع شيره على صاحب مازندران و كيلان و بلاد الرىّ و العراق و كسره و قبض عليه و قتله و ملك جميع بلاده، ثم قصته مع شاه شجاع صاحب شيراز و تزوّج بنت شاه شجاع لابن تيمور، و مهادنة شاه شجاع له إلى أن مات شاه شجاع، و اختلفت أولاده و قوى شاه منصور على اخوته فمشى عليه تيمور هذا، فلقيه شاه منصور فى ألفى فارس لا غير.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۲۶۰

و شاه منصور هذا هو أفرس من قاتل تيمور من الملوك بلا مدافعة، فإنه برز إليه فى ألفى فارس و عساكر تيمور نحو المائة ألف.

و عند ما برز له شاه منصور فر من عسكره أمير يقال له محمد بن أمين الدين إلى تيمور بأكثر العساكر، فبقى شاه منصور فى أقل من ألف فارس، فقاتل بهم تيمور يومه إلى الليل.

ثم مضى كل من الفريقين إلى معسكره، فركب شاه منصور فى الليل و بيّت التمرية، فقتل منهم نحو العشرة آلاف فارس.

ثم انتخب شاه منصور من فرسانه خمسمائة فارس، فأصبح و قاتل بهم من الغد و قصد بهم تيمور حتى أزاله عن موقفه، و هرب تيمور و اختفى بين حرمه، فأحاط بهم التمرية مع كثرة عددهم و هو يقاتلهم حتى كلّت يداه و قتلت أبطاله، فانفرد عن أصحابه و ألقى نفسه بين القتلى، فعرفه بعض التمرية فقتله، و أتى برأسه إلى تيمور، فقتل تيمور قاتله أسفا عليه. و استولى تيمور أيضا على جميع ممالك العجم بأسرها بعد شاه منصور.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۲۶۱

هذا و قد استوعبنا واقعة شاه منصور بأوسع من ذلك فى تاريخنا (المنهل الصافى).

إذ هو كتاب تراجم.

ثم أخذ تيمور فى الاستيلاء على مملكة بعد مملكة حتى ملك العراقين، و هرب منه السلطان أحمد بن أويس، و أخرب غالب العراق: مثل بغداد و البصرة و الكوفة و أعمالهم، ثم ملك غالب أقاليم ديار بكر، و أخرب بها أيضا عدّة بلاد.

ثم قصد البلاد الشاميّة فى سنة ثمان و تسعين و سبعمائة، ثم رجع خائفا من الملك الظاهر برقوق إلى بلاده، فبلغه موت فيروز شاه ملك الهند عن غير ولد، و أن أمر الناس بمدينة دلّى فى اختلاف، و أنه جلس على تخت الملك بدلّى وزير يقال له ملّو

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۲۶۲

فخالف عليه أخو فيروز شاه، و اسمه سارنك خان متولّى مدينة مولتان، فلمّا سمع تيمور هذا الخبر اغتنم الفرصة و سار من سمرقند فى ذى الحجّة سنة ثمانمائة إلى مولتان و حاصر ملكها سارنك خان ستّة أشهر، و كان فى عسكر سارنك خان ثمانمائة فيل حتى ملكها.

ثم سار تيمور إلى مدينة دلّى و هى تخت الملك، فخرج لقتاله صاحبها ملّو المذكور و بين يديه عساكره و معهم الفيلة، و قد جعل على كلّ فيل برجا فيه عدّة من المقاتلة، و قد ألبست تلك الفيلة العدد و البركستوانات، و علّق عليها من الأجراس و القلاقل ما يهول صوته ليجفل بذلك خيول الجغتاى، و شدّوا فى خراطيمها عدّة من السيوف المرهفة، و سارت عساكر الهند من وراء الفيلة لتنفّر هذه الفيلة خيول التمرية بما عليها، فكادهم تيمور و حسب حسابهم بأن عمل آلافا من الشوكات الحديد مثلّثة الأطراف، و نثرها فى مجالات الفيلة، و جعل على خمسمائة جمل أحمال قصب محشوّة بالفتائل المغموسة بالدّهن، و قدّمها أمام عسكره، فلمّا تراءى الجمعان و زحف الفريقان للحرب، أضرم تيمور فى تلك الأحمال النار و ساقها على الفيلة.

فركضت تلك الأباعر من شدّة حرارة النار، ثم نخسها سوّاقوها من خلف. هذا و قد كمن تيمور كمينا من عسكره.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۲۶۳

ثم زحف بعساكره قليلا [قليلا] وقت السحر. فعندما تناوش القوم للقتال لوى تيمور رأس فرسه راجعا يوهم القوم أنه قد انهزم منهم و يكفّ عن طريق الفيلة كأنّ خيوله قد جفلت منها، و قصد المواضع التى نثر فيها تلك الشوكات الحديد التى صنعها، فمشت حيلته على الهنود، و مشوا بالفيلة و هم يسوقونها خلفه أشدّ السّوق حتى داست على تلك الشوكات الحديد، فلما وطئتها نكصت على أعقابها.

ثم التف تيمور بعساكره عليها بتلك الجمال، و قد عظم لهيبها على ظهورها، و تطاير شررها فى تلك الآفاق، و شنع زعاقها من شدّة النخس فى أدبارها.

فلما رأت الفيلة ذلك جفلت و كرّت راجعة على العسكر الهندى، فأحست بخشونة الشوكات التى طرحها تيمور فى طريقها، فبركت و صارت فى الطريق كالجبال مطروحة على الأرض لا تستطيع الحركة، و سالت أنهار من دمائها؛ فخرج عند ذلك الكمين [من عسكر تيمور] من جنبى عسكر الهنود، ثم حطم تيمور بمن معه فتراجعت الهنود و تراموا بالسهام.

ثم إنهم تضايقوا و تقاتلوا بالرماح ثم بالسيوف و الأطبار، و صبر كلّ من الفريقين زمانا طويلا، إلى أن كانت الكسرة على الهنود بعد ما قتل أعيانهم و أبطالهم، و انهزم باقيهم بعد أن ملّوا من القتال، فركب تيمور أقفيتهم حتى نزل [على] مدينة دلّى و حصرها [مدّة حتى] أخذها [من جوانبها] بعد مدّة عنوة، و استولى على

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۲۶۴

تخت ملكها و استصفى ذخائرها، و فعلت عساكره فيها على عادتهم القبيحة من الأسر و السّبى و القتل و النّهب و التخريب.

و بينما هم فى ذلك بلغ تيمور موت الملك الظاهر برقوق صاحب مصر، و موت القاضى برهان الدين أحمد صاحب سيواس من بلاد الروم، فرأى تيمور أنه بعد موتهما ظفر بمملكتيهما، و كان أن يطير بموتهما فرحا، فنجز أمره و ولّى مسرعا بعد أن استناب بالهند من يثق به من أمرائه، و سار حتى وصل سمرقند، ثم خرج منها عجلا فى أوائل سنة اثنتين و ثمانمائة، فنزل خراسان.

ثم مضى منها إلى تبريز فاستخلف بها ابنه ميران شاه، ثم سار حتى نزل قرا باغ [فى سابع عشر] شهر ربيع الأوّل، فقتل و سبى، ثم رحل منها و نزل تفليس [فى يوم الخميس ثانى] جمادى الآخرة و عبر بلاد الكرج، و أسرف فيها أيضا فى القتل و السبى، ثم قصد بغداد ففرّ منه [صاحبها] السلطان أحمد بن أويس [فى ثامن عشر شهر رجب] إلى قرا يوسف فعاد تيمور من بغداد و صيّف ببلاد التركمان ثم سار إلى [ماردين فعصى صاحبها عليه الملك الظاهر مجد الدين عيسى، فتركه تيمور و مضى إلى]

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۲، ص: ۲۶۵

سواس و قد أخذها الأمير سليمان بن أبى يزيد بن عثمان، فحصرها تيمور ثمانية عشر يوما حتى أخذها فى خامس المحرّم من سنة ثلاث و ثمانمائة، و قبض على مقاتلتها و هم ثلاثة آلاف نفر، فحفر لهم سردابا و ألقاهم فيه و طمّهم بالتراب بعد ما كان حلف لهم ألّا يريق لهم دما و قال: أنا على يمينى ما أرقت لهم دما، ثم وضع السيف فى أهل البلد و أخربها حتى محا رسومها.

ثم سار إلى بهسنا فنهب ضواحيها و حصر قلعتها ثلاثة و عشرين يوما حتى أخذها، و مضى إلى ملطية فدكّها دكّا، و سار حتى نزل قلعة الروم فلم يقدر عليها، فتركها و قصد عين تاب، ففرّ منه نائبها الأمير أركماس الظاهرى، و هو غير أركماس الدّوادار فى الدولة الأشرفية.

ثم قصد حلب و وقع له بها و بدمشق ما تقدّم ذكره إلى أن خرج من البلاد الشاميّة.

و كان رحيله عن دمشق فى يوم السبت ثالث شعبان من سنة ثلاث و ثمانمائة المذكورة، و اجتاز على حلب و فعل بها ما قدر عليه ثانيا، ثم سار منها حتى نزل على ماردين يوم الاثنين عاشر شهر رمضان من السنة، و وقع له بها أمور، ثم رحل عنها.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۲، ص: ۲۶۶

و أوهم أنه يريد سمرقند يورّى بذلك عن بغداد، و كان السلطان أحمد بن أويس قد استناب ببغداد أميرا يقال له فرج، و توجّه هو و قرا يوسف نحو بلاد الروم، فندب تيمور على حين غفلة أمير زاده رستم و معه عشرون ألفا لأخذ بغداد.

ثم تبعه بمن بقى معه و نزل على بغداد، و حصرها حتى أخذها عنوة فى يوم عيد النحر من السنة، و وضع السيف فى أهل بغداد.

حدّثنى الأمير أسنباى الزّردكاش الظاهرى برقوق- و كان أسر عند تيمور و حظى عنده، و جعله زرد كاشه عند أخذ بغداد و حصارها- بأشياء مهولة، منها أنه لمّا استولى على بغداد ألزم جميع من معه أن يأتيه كلّ واحد منهم برأسين من رءوس أهل بغداد، فوقع القتل فى أهل بغداد و أعمالها، حتى سالت الدماء أنهارا، حتى أتوه بما أراد، فبنى من هذه الرءوس مائة و عشرين مئذنة، فكانت عدّة من قتل فى هذا اليوم من أهل بغداد تقريبا مائة ألف إنسان. و قال المقريزى: تسعين ألف إنسان، و هذا سوى من قتل فى أيّام الحصار، و سوى من قتل فى يوم دخول تيمور إلى بغداد، و سوى من ألقى نفسه فى الدّجلة فغرق، و هو أكثر من ذلك.

قال: و كان الرجل المرسوم له بإحضار رأسين إذا عجز عن رأس رجل قطع رأس امرأة من النساء و أزال شعرها و أحضرها، قال: و كان بعضهم يقف بالطرقات و يصطاد من مرّ به و يقطع رأسه.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۲، ص: ۲۶۷

ثم رحل تيمور من بغداد و سار حتى نزل قراباغ بعد أن جعلها دكّا خرابا، ثم كتب إلى أبى يزيد بن عثمان صاحب الروم أن يخرج السلطان أحمد بن أويس و قرا يوسف من ممالك الروم و إلّا قصده و أنزل به ما نزل بغيره، فردّ أبو يزيد جوابه بلفظ خشن إلى الغاية، فسار تيمور إلى نحوه، فجمع أبو يزيد بن عثمان عساكره من المسلمين و النصارى و طوائف التّتر.

فلمّا تكامل جيشه سار لحربه، فأرسل تيمور قبل وصوله إلى التتار الذين مع أبى يزيد بن عثمان يقول لهم: نحن جنس واحد، و هؤلاء تركمان ندفعهم من بيننا، و يكون لكم الروم عوضهم، فانخدعوا له و واعدوه أنهم عند اللقاء يكونون معه.

و سار أبو يزيد بن عثمان بعساكره على أنه يلقى تيمور خارج سيواس، و يردّه عن عبور أرض الروم، فسلك تيمور غير الطريق، و مشى فى أرض غير مسلوكة، و دخل بلاد ابن عثمان، و نزل بأرض مخصبة وسيعة، فلم يشعر ابن عثمان إلّا و قد نهبت بلاده. فقامت قيامته و كرّ راجعا، و قد بلغ منه و من عسكره التعب مبلغا أوهن قواهم، و كلّت خيولهم، و نزل على غير ماء، فكادت عساكره أن تهلك، فلمّا تدانوا للحرب كان أوّل بلاء نزل بابن عثمان مخامرة التتار بأسرها عليه، فضعف بذلك عسكره، لأنّهم كانوا معظم عسكره، ثم تلاهم ولده سليمان و رجع عن أبيه عائدا إلى مدينة برصا بباقى عسكره، فلم يبق مع أبى يزيد إلا

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج ۱۲، ص: ۲۶۸

نحو خمسة آلاف فارس، فثبت بهم حتى أحاطت به عساكر تيمور، و صدمهم صدمة هائلة بالسيوف و الأطبار حتى أفنوا من التمرية أضعافهم، و استمرّ القتال بينهم من ضحى يوم الأربعاء إلى العصر، فكلّت عساكر ابن عثمان، و تكاثروا التمرية عليهم يضربونهم بالسيوف لقلّتهم و كثرة التّمرية، فكان الواحد من العثمانية يقاتله العشرة من التمرية، إلى أن صرع منهم أكثر أبطالهم، و أخذ أبو يزيد بن عثمان أسيرا قبضا باليد على نحو ميل من مدينة أنقرة، في يوم الأربعاء سابع عشرين ذى الحجّة سنة أربع و ثمانمائة بعد أن قتل غالب عسكره بالعطش، فإن الوقت كان ثامن عشرين أبيب بالقبطىّ و هو تموز بالرومىّ، و صار تيمور يوقف بين يديه فى كل يوم ابن عثمان و يسخر منه و ينكيه بالكلام، و جلس تيمور مرّة لمعاقرة الخمر مع أصحابه و طلب ابن عثمان طلبا مزعجا، فحضر و هو يرسف فى قيوده و هو يرجف، فأجلسه بين يديه و أخذ يحادثه، ثم [وقف تيمور] و سقاه من يد جواريه اللّائى أسرهنّ تيمور، ثم أعاده إلى محبسه.

ثم قدم على تيمور إسفنديار أحد ملوك الروم بتقادم جليلة، فقبلها و أكرمه و ردّه إلى مملكته [بقسطمونية]، هذا و عساكر تيمور تفعل فى بلاد الروم و أهلها تلك الأفعال المقدّم ذكرها.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۲۶۹

و أما أمر سليمان بن أبى يزيد بن عثمان، فإنه جمع المال الذى كان بمدينة برصا، و جميع ما كان فيها و رحل إلى أدرنة و تلاحق به الناس، و صالح أهل إستانبول، فبعث تيمور فرقة كبيرة من عساكره صحبة الأمير شيخ نور الدين إلى برصا فأخذوا ما وجدوا بها، ثم تبعهم هو أيضا بعساكره.

ثم أفرج تيمور عن محمد و عن أولاد ابن قرمان من حبس أبى يزيد بن عثمان، و خلع عليهما و ولّاهما بلادهما، و ألزم كلّ واحد منهما بإقامة الخطبة، و ضرب السّكّة باسمه و اسم السلطان محمود خان المدعو صرغتمش.

ثم شتا فى معاملة منتشا و عمل الحيلة فى قتل التتار الّذين أتوه من عسكر ابن عثمان حتى أفناهم عن آخرهم.

و أما أبو يزيد بن عثمان، فإنه استمر فى أسر تيمور من ذى الحجّة سنة أربع، إلى أن مات بكربته و قيوده، فى أيام من ذى القعدة سنة خمس و ثمانمائة، بعد أن حكم ممالك الروم نحو تسع سنين.

و كان من أجلّ الملوك حزما و عزما و شجاعة، رحمه اللّه تعالى. و هو المعروف بيلدرم بايزيد.

ثم توجّه تيمور من بلاد الروم و قد تعلّقت آماله بأخذ بلاد الصين، فأخذه اللّه قبل أن يصل، و لولا خشية الإطالة لذكرنا أمره و ما وقع له بطريق الصين إلى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۲۷۰

أن توفّى [لعنه اللّه] و لكن أضربنا عن ذلك خشية الإطالة، و أيضا قد ذكرناه فى ترجمته فى (المنهل الصافى) مستوفاة، فلتنظر هناك.

و كانت وفاة تيمور فى يوم الأربعاء سابع عشر شعبان سنة سبع و ثمانمائة و هو نازل بالقرب من أترار، و أترار بالقرب من آهنگران، و معنى آهنگران باللغة العربية الحدّادون.

و لما مات لبسوا عليه المسوح، و لم يكن معه أحد من أولاده سوى حفيده سلطان خليل بن ميران شاه بن تيمور، فتسلطن موضع جدّه تيمور فى حياة والده ميران شاه المذكور، فاستولى خليل المذكور على خزائن جدّه و بذل الأموال، و تم أمره. انتهى ما أوردناه من قصة تيمور لنك على سبيل الاختصار.

و لنعد إلى ما نحن بصدده من ترجمة السلطان الملك الناصر فرج بن برقوق [رحمه اللّه].

و لما كان يوم الأحد أوّل شوّال أفرج السلطان عن الأمير يلبغا السالمى و هو متضعّف بعد ما عصر و أهين إهانة بالغة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۲۷۱

و فى هذه الأيّام كثر احتراز الأمراء بعضهم من بعض، و تحدّث الناس بإثارة فتنة.

ثم فى سابع شوّال المذكور استقرّ الأمير طولو من على باشاه الظاهرى فى نيابة إسكندرية عوضا عن الأمير أرسطاى، و استقر الأمير بشباى من باكى الظاهرى حاجبا ثانيا على خبز سودون الطيّار، إمرة طبلخاناه، و استقر كلّ من سودون الطيار و ألطنبغا من سيدى حجّابا بحلب لأمر اقتضى ذلك.

ثم استدعى السلطان الأمراء بقلعة الجبل، و قال لهم: قد كتبنا مناشير جماعة من الخاصكية بأمريّات ببلاد الشام من أوّل شهر رمضان، فلم لا يسافروا؟ و كلّ ذلك بتعليم يشبك الدوادار، فقال الأمير نوروز الحافظى ما فى هذا مصلحة، إذا أرسل السلطان هؤلاء من يبقى عنده من مماليك أبيه الأعيان؟ و وافق نوروز سودون الماردانى. فقال السلطان: من ردّ مرسومى فهو عدوّى، فسكت الأمراء و أمر السلطان بالمناشير أن تبعث إلى أربابها.

فلما نزلت إليهم امتنعوا من السفر، و منهم من ردّ منشوره، فغضب السلطان و أصبح الجماعة يوم الأحد، و قد اتفقوا مع الأمراء و ساروا للأمير نوروز الحافظى

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج١٢، ص: ٢٧٢

و تحدّثوا معه فى عدم سفرهم، فاعتذر إليهم، و بعثهم لسودون الماردانى رأس نوبة النوب فحدّثوه فى ذلك، و ما زالوا به حتى ركب للأمير يشبك الشعبانى الدوادار و حدّثه فى ألّا يسافروا، فأغلظ يشبك فى ردّ الجواب عليه، و هدّدهم بالتوسيط إن امتنعوا من السفر.

ثم أمره أن يطلع إلى السلطان و يسأله فى [ذلك فطلع سودون الماردانىّ إلى السلطان]، و سأله فى إعفائهم من السفر، و أعلمه أنه قد اتفق منهم نحو الألف تحت القلعة، و هم مجتمعون، فبعث السلطان إليهم بعض الخاصكيّة يقول لهم: نحن ما خلّيناكم بلا رزق بل عملناكم أمراء، فما هو إلّا أن نزل إليهم و كلّمهم فى ذلك، ثاروا عليه و سبّوه ثم ضربوه حتى كاد يهلك، فبينما هم فى ضربه، و إذا بالأمير قطلوبغا الحسنى الكركى و الأمير آقباى الكركى الخازندار نزلا من القلعة، فمال عليهم المماليك يضربونهم بالدّبابيس إلى أن سقط قطلوبغا الكركى، و تكاثر عليه مماليكه و حملوه إلى بيته، و نجا آقباى الكركى الخازندار و التجأ إلى بيت الأمير يشبك الدوادار، و ماجت البلد و غلّقت الأسواق، فنودى بعد العصر من اليوم المذكور بطلوع الأمراء و المماليك السلطانيّة فى الغد إلى القلعة، و من لم يطلع حلّ ماله و دمه للسلطان.

ثم طلع الأمير يشبك، و نوروز الحافظى، و آقباى الكركى الخازندار، و قطلوبغا الكركى إلى القلعة بعد عشاء الآخرة، و باتوا بالقلعة إلّا نوروزا فإنّه أقام معهم ساعة عند السلطان.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج١٢، ص: ٢٧٣

ثم نزل إلى داره و طلع أيضا فى الليل غالب المماليك السلطانية.

و أصبحوا يوم الاثنين تاسع شوال، فطلع جميع الأمراء و المماليك إلا الأمير جكم من عوض، و سودون الطيّار، و قانّى باى العلائى، و قرقماس الأينالى، و جمق و تمربغا المشطوب، فى عدّة من المماليك السلطانية الأعيان، منهم يشبك العثمانى، و قمج و برسبغا و طرباى و بقية خمسمائة مملوك، و الجميع لبسوا السلاح و آلة الحرب و وقفوا تحت القلعة حتى تضحّى النهار. ثم مضوا إلى بركة الحبش و نزلوا عليها.

و أما أهل القلعة، فإن يشبك بعث فى الحال نقيب الجيش إلى الشيخ لاچين الجركسى أحد الأجناد، فقبض عليه و حمله إلى بيت آقباى حاجب الحجّاب، فوكّل به آقباى من أخرجه من القاهرة إلى بلبيس ليسافر إلى الشام.

ثم قبض على سودون الفقيه، أحد دعاة الشيخ لاچين، و أخرج إلى الإسكندرية فسجن بها.

و استمرّ الأمير جكم و رفقته ببركة الحبش إلى ليلة الأربعاء، فاستدعى الأمير يشبك سائر الأمراء، فلما صاروا بالقلعة وكّل بهم من يحفظهم، فاستمرّوا على ذلك حتى مضى جانب من الليل.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج١٢، ص: ٢٧۴

ثم نزل الطلب إلی الأمیر سودون طاز الأمیر آخور الکبیر من السلطان لیطلع إلی عند الأمراء، و فی عزمهم أنه إذا طلع قبضوا علیه، فمّ لسودون طاز بعض الخاصکیة یسمّی قانی بای، و قال له: فز بنفسک؛ فلم یکذّب سودون طاز الخبر، و أخذ الخیول السلطانیة التی بالإسطبل السلطانی، و رکب بممالیکه، و سار حتی لحق بالأمیر جکم ببرکة الحبش، و بلغ السلطان ذلک، فارتجّ القصر السلطانیّ، و قام کلّ أمیر و نزل إلی داره و لبس آلة الحرب بممالیکه، و دقّت الکوسات و طلعوا إلی القلعة.

فلما أصبح نهار الأربعاء نزل السلطان من القصر إلی الإسطبل، و بعث إلی الأمیر جکم من عوض بأن یتوجّه إلی صفد نائبا بها، فردّ جکم الجواب «نحن ممالیک السلطان، و هو أستاذنا و ابن أستاذنا، و لو أراد قتلنا ما خالفناه، غیر أننا لنا غرماء یدعنا نحن و إیّاهم، ثم بعد ذلک مهما أراد السلطان یفعل فینا، فنحن بین یدیه». فلمّا عاد الرسول بذلک بکی الأمیر یشبک الدوادار، و تکلم هو و الأمیر آقبای الکرکی الخازندار و قطلوبغا الکرکی مع السلطان، و دار بینهم کلام کثیر، حتی بعث السلطان بالأمیر نوروز الحافظی و القاضی الشافعی و ناصر الدین المعلّم الرمّاح أمیر آخور إلی الأمیر جکم فی طلب الصلح، فنزلوا إلیه و کلّموه فی ذلک، فامتنع جکم من الصلح هو و من معه و قالوا: لابدّ لنا من غرمائنا، و أخذوا عندهم الأمیر نوروز الحافظی، و عاد القاضی الشافعی و ناصر الدین الرمّاح بالجواب، فعند ذلک قال السلطان لیشبک: دونک و غرماءک؛ فطلب یشبک المساعدة من السلطان علیهم، فلم یفعل، فنزل یشبک إلی داره و قد اختلّ أمره.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۲۷۵

ثم عاد إلی القلعة لیطلع إلی السلطان فلم یمکّن منها، و تخلّی عنه الممالیک السلطانیة؛ فلم تکن غیر ساعة حتی أقبل جکم و سودون طاز و نوروز فی عددهم و أصحابهم.

و صاحب الموکب نوروز و جکم عن یساره، و سودون طاز عن یمینه، و ساروا نحو یشبک، فنادی یشبک: «من قاتل معی من الممالیک السلطانیة فله عشرة آلاف درهم» فأتاه طائفة، و خرج من بیته و صفّ عساکره، فحمل علیه نوروز بمن معه، و صدمه صدمة واحدة کسره فیها؛ فانهزم إلی داره و قاتل بها ساعة، ثم هرب منها، فنهبت داره و دار قطلوبغا الکرکیّ.

و کان بیت یشبک دار منجک الیوسفی الملاصقة لمدرسة [السلطان] حسن و هی الآن علی ملک تمربغا الظاهری الدوادار، و دار قطلوبغا [الکرکی] البیت الذی تجاهه، و قبض علی آقبای الکرکی الخازندار، فشفع فیه السلطان، فترک فی داره إلی یوم الخمیس ثانی عشره، فرکب الأمیر جکم إلیه، و أخذه و طلع به إلی الإسطبل السلطانیّ و قیّده.

ثم قبض علی الأمیر قطلوبغا الکرکی الحسنی من بیت الأمیر یلبغا الناصری و قیّده.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۲۷۶

ثم قبض علی جرکس القاسمی المصارع من عند سودون الجلب، و قیّده و بعث الثلاثة إلی الإسکندریة، و الثلاثة أمراء ألوف من أصحاب یشبک، و سافروا إلی الإسکندریة فی لیلة السبت رابع عشر شوّال المذکور من سنة ثلاث و ثمانمائة، و کتب جکم بإحضار سودون الفقیه من الإسکندریة.

و سودون الفقیه هذا هو حمو الملک الظاهر ططر، و جدّ الملک الصالح محمد ابن ططر الآتی ذکرهما. و طلب جکم الأمیر یشبک الشعبانی الدوادار فلم یقدر علیه إلی لیلة الاثنین سادس عشره دلّ علیه أنه فی تربة بالقرافة، فنزل إلیه جکم فلمّا أحیط بیشبک [و هو] فی التربة المذکورة ألقی نفسه من مکان مرتفع، فشجّ جبینه، و قبض علیه الأمیر جکم، و أحضره إلی بیت الأمیر نوروز الحافظی، فقیّد و سیّر من لیلته إلی الإسکندریة فسجن بها.

و فی یوم الاثنین خلع علی سعد الدین إبراهیم بن غراب باستمراره [فی وظائفه] و هو أحد أصحاب یشبک بعد أن اجتهد غایة الاجتهاد فی رضا جکم علیه فلم یقدر.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۲۷۷

ثم فی ثامن عشره أخلع السلطان علی الأمیر شیخ المحمودی نائب طرابلس باستمراره علی نیابته، و هی خلعهٔ السفر، و کان له من یوم قدم من أسر تیمور بالقاهرهٔ فی عمل مصالحه، و کذلک الأمیر دقماق نائب صفد خلع علیه خلعهٔ السفر.

و کان دقماق أولا نائب حماهٔ، ثم صار الآن فی نیابهٔ صفد، و أذن لهما بالسفر إلی محلّ کفالتهما.

و فی تاسع عشره خلع السلطان الملک الناصر علی الأمیر جکم باستقراره دوادارا کبیرا عوضا عن یشبک الشعبانی، بحکم حبسه بالإسکندریهٔ، و علی سودون من زاده باستقراره خازندارا، عوضا عن آقبای الکرکی، و علی أرغون من یشبغا باستقراره شادّ الشراب خاناه، عوضا عن قطلوبغا الکرکی، و أخلع علی بیسق الشیخی خلعهٔ إمرهٔ الحاج علی العادهٔ، و رسم له أن یقیم بعد انقضاء الحجّ بمکّهٔ لعمارهٔ ما بقی من المسجد الحرام.

ثم فی سادس عشرین شوّال أخلع السلطان علی الأمیر یونس الحافظی باستقراره فی نیابهٔ حماهٔ بعد عزل الأمیر عمر بن الهیدبانی، و فی هذا الیوم أنعم علی

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۲۷۸

الأمیر جکم من عوض الدوادار بإقطاع یشبک الشعبانی الدوادار، و علی سودون الطیّار بإقطاع الأمیر جکم، و أنعم بإقطاع آقبای الکرکیّ علی قانی بای العلائی، و بإقطاع قطلوبغا الکرکی علی تمربغا من باشاه المعروف بالمشطوب، و بإقطاع جرکس القاسمی المصارع علی سودون من زاده بستّین فارسا.

ثم فی أوّل ذی القعدهٔ ألزم سعد الدین بن غراب بتجهیز نفقهٔ الممالیک السلطانیهٔ، فالتزم أن یحمل منها مائهٔ ألف دینار، و ألزم الوزیر ناصر الدین محمد بن سنقر، و تاج الدین عبد الرزاق بن أبی الفرج، و یلبغا السالمی بمائهٔ ألف دینار، فشرع الجمیع فی تجهیزها.

ثم قبض علی السالمی و صودر، و عذّب بأنواع العذاب، ثم أفرج عنه بعد مدّهٔ، و استمرّ الحال علی أن جکم صار متحدّثا فی المملکهٔ.

ثم فی رابع ذی الحجهٔ اختفی سعد الدین بن غراب، و أخوه فخر الدین ماجد، و لم یعرف خبرهما. فاستقرّ ناصر الدین محمد بن سنقر فی الأستداریّهٔ، عوضا عن سعد الدین بن غراب، مضافا لما معه من الذخیرهٔ و الأملاک.

ثم استعفی سودون من زاده من وظیفهٔ الخازنداریهٔ، و أخلع علی الوزیر علم الدین أبی کمّ باستقراره فی نظر الخاصّ مضافا علی الوزر عوضا عن

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۲۷۹

؟؟؟ الدین بن غراب، و أخلع علی سعد الدین بن أبی الفرج بن بنت الملکی، صاحب دیوان الجیش، و استقرّ فی نظر الجیش عوضا عن ابن غراب.

ثم فی تاسع ذی الحجهٔ ورد کتاب مشایخ تروجهٔ یتضمن قدوم سعد بن غراب إلیهم، و معه مثال سلطانیّ باستخراج الأموال، و مسیرهم معه إلی الإسکندریّهٔ لإخراج یشبک و الأمراء من سجن الإسکندریهٔ، و إحضارهم إلی القاهرهٔ. فأخلع السلطان علی رسولهم، و کتب علی یده مثالا سلطانیّا بالقبض علی ابن غراب و من معه، و إرسالهم إلی القاهرهٔ. ثم قدم کتاب نائب الإسکندریهٔ بأن سعد الدین ابن غراب طلب زعران الإسکندریهٔ، فخرج إلیه أبو بکر المعروف بعلام الخدّام بالزّعر إلی تروجهٔ، فأعطی لکل واحد منهم مبلغ خمسمائهٔ درهم، و قرّر معهم قتل النائب، فبلغ ذلک النائب، فلما قدموا إلی الإسکندریهٔ قبض علی جماعهٔ منهم و قتل بعضهم و قطع أیدی بعضهم، و ضرب علّام الخدّام بالمقارع، و أنه أیضا ظفر بکتاب ابن غراب لبعض تجار الإسکندریهٔ، و فیه أن یجتمع بالنائب و یؤکّد

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۲۸۰

علیه ألّا یقبل ما یرد علیه من أمراء مصر فی أمر یشبک الدوادار و من معه من الأمراء، و أن یجعل باله لا یجری علیه مثل ما جری علی ابن عزّام فی قتله الأمیر برکهٔ.

ثم وردت کتب مشایخ تروجهٔ بسؤال الأمان لابن غراب، فکتب له السلطان أمانا، و کتب الأمراء ما خلا الأمیر جکم، فإنه کتب إلیه

کتابا و لم یکتب إلیه أمانا، فقدم إلی القاهرة فی حادی عشرینه فی اللیل، و نزل عند صدیقه جمال الدین یوسف أستادار بجاس، و هو یومئذ أستادار الأمیر سودون طاز أمیر آخور، فتحدّث له مع سودون طاز و أوصله إلیه، فأکرمه و أنزله عنده یومی الثلاثاء و الأربعاء، حتی استرضی له الأمراء، و أحضره فی یوم الخمیس ثالث عشرینه إلی مجلس السلطان، و خلع علیه باستقراره فی وظائفه القدیمة: الأستاداریة، و نظر الجیش، و الخاص.

و نزل إلی بیت الأمیر جکم الدوادار، فمنعه جکم من الدخول إلیه و ردّه و ما زال یسعی ابن غراب حتی دخل إلیه مع الأمیر سودون من زادة، و قبّل یده فلم یکلّمه کلمة، و أعرض عنه، فلم یزل حتی أرضاه بعد ذلک، ثم فی یوم الخمیس سلخ ذی الحجة أنفق ابن غراب تتمّة النفقة علی الممالیک السلطانیة.

فأعطی کل واحد ألف درهم، و عند ما نزل من القلعة أدرکه عدّة من الممالیک السلطانیة و رجموه بالحجارة یریدون قتله، فبادر إلی بیت الأمیر نوروز و استجار به حتی أجاره.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۲۸۱

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۰۴]

ثم فی محرم سنة أربع و ثمانمائة، کتب الأمراء بمصر لأمراء دمشق بالقبض علی الوالد، فکتب للوالد بذلک بعض أعیان أمراء مصر، فسبق ذلک المثال السلطانی، فرکب الوالد من دار السعادة بدمشق فی نفر من ممالیکه فی لیلة الجمعة ثانی عشرین المحرم و خرج إلی حلب، فتعین لنیابة دمشق عوضا عن الوالد، الأمیر آقبغا الجمالی الأطروش أتابک دمشق و کتب بانتقال دقماق نائب صفد إلی نیابة حلب، عوضا عن دمرداش المحمّدی بحکم عصیانه و انضمامه علی الوالد لمّا قدم علیه من دمشق، و استقر الأمیر تمربغا المنجکی فی نیابة صفد عوضا عن دقماق.

و أما الوالد رحمه اللّه فإنه لمّا سار إلی حلب وجد الأمیر دمرداش نائب حلب قد قبض علی الأمیر خلیل بن قراجا بن دلغادر أمیر الترکمان، فأمره الوالد

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۲۸۲

بإطلاقه، فاطلقه، و اتفق الجمیع علی الخروج عن طاعة السلطان بسبب من حوله من الأمراء، و اجتمع علیهم خلائق من الترکمان و غیرهم علی ما سیأتی ذکره.

ثم وقع بین أمراء مصر، و هو أن سودون الحمزاوی وقع بینه و بین أکابر الأمراء، مثل نوروز، وجکم، و سودون طاز، و تمربغا المشطوب، و قانی بای العلائی، فانقطعوا الجمیع عن الخدمة السلطانیة من أول صفر، و عزموا علی إثارة فتنة، فلبس سودون الحمزاوی آلة الحرب فی داره، و اجتمع علیه من یلوذ به.

و کان الأمراء المذکورون، قد عیّنوا قبل ذلک للخروج من دیار مصر ثمانیة انفس، و هم سودون الحمزاوی المذکور، و سودون بقجة و هما من أمراء الطبلخانات و رءوس نوب، و أزبک الدوادار، و سودون بشتو و هما من أمراء العشرات، و قانی بای الخازندار، و بردبک و هما من الخاصکیة، و آخرین، و لما لبس الحمزاوی مشت الرسل بینهم فی الصلح إلی أن وقع الاتفاق علی خروج سودون الحمزاوی إلی نیابة صفد، و إقامة الباقین بمصر من غیر حضورهم إلی الخدمة السلطانیة.

ثم فی سابع عشرین صفر المذکور، أخلع علی سودون الحمزاوی بنیابة صفد و بطل ولایة تمربغا المنجکی من صفد.

و فی هذا الشهر، حضر الأمیر ألطنبغا العثمانی نائب صفد کان، و الأمیر عمر ابن الطحّان نائب غزّة کان، من أسر تیمور لنک، و ذکرا أنّهما فارقاه من أطراف بغداد.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۲۸۳

ثم فى يوم الاثنين نصف شهر ربيع الأوّل من سنة أربع و ثمانمائة، طلع الأمير نوروز الخدمة السلطانية، بعد ما انقطع عنها زيادة على شهر، فخلع عليه خلعة الرضا.

ثم فى ثامن عشره، طلع الأمير جكم من عوض الدوادار الخدمة بعد ما انقطع عنها مدّة شهرين و خلع عليه أيضا، هذا و دقماق نائب حلب، و أقبغا الأطروش نائب الشأم فى الاستعداد و جمع التركمان و العشير لقتال الوالد و دمرداش.

ثم خرج الوالد و دمرداش من حلب إلى ظاهرها لانتظار دقماق و قتاله.

ثم إن السلطان فى شهر ربيع الآخر أخلع على جمق رأس نوبة باستقراره دوادارا ثانيا عوضا عن چركس المصارع، و كانت شاعرة من يوم مسک چركس المذكور، و استقرّ مباركـ شاه الحاجب وزيرا عوضا عن علم الدين يحيى المعروف بأبى كمّ، و قبض على أبى كم و سلّم لشادّ الدواوين للمصادرة.

و فى العشر الأخير من هذا الشهر استقر جلال الدين عبد الرحمن بن شيخ الإسلام سراج الدين عمر البلقينى قاضى قضاة الديار المصرية بعد عزل القاضى ناصر الدين الصالحى، و هذه أول ولاية جلال الدين البلقينى.

ثم فى ثامن جمادى الأولى استقر الأمير ألطنبغا العثمانى نائب صفد كان، فى نيابة غزّة عوضا عن الأمير صرق بعد عزله.

ثم ابتدأت الفتنة بين الأمراء، و طال الأمر و انقطع جكم و نوروز عن الخدمة السلطانية أياما كثيرة.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۲۸۴

و دخل شهر رمضان و انقضى، و لم يحضروا الهناء بالعيد، و لا صلّوا صلاة العيد مع السلطان.

و استهلّ شوّال فقويت فيه القالة بين الأمراء، و أرجف بوقوع الحرب غير مرّة.

فلما كان يوم الجمعة ثانى شوّال ركب الأمراء للحرب بالسلاح، و نزل الملك الناصر إلى الإسطبل السلطانىّ عند سودون طاز الأمير أخور، و ركب الأمير نوروز وجكم و خصمهما سودون طاز، و وقع الحرب بينهم من بكرة النهار إلى العصر.

فلما كان آخر النّهار بعث السلطان بالخليفة المتوكّل على اللّه و القضاة الأربعة إلى الأمير نوروز فى طلب الصّلح، فلم يجد نوروز بدّا من الصلح و ترک القتال، و خلع عنه آلة الحرب، فكف الأمير جكم أيضا عن الحرب، و كان ذلک مكيدة من سودون طاز، فإنه خاف أن يغلب و يسلمه السلطان إلى أخصامه، فتمّت مكيدته بعد ما كاد أن يؤخذ، لقوّة نوروز و جكم بمن معهما من الأمراء و الخاصكية، و سكنت الفتنة، و بات الناس فى أمن و سكون.

فلما كان يوم السبت ركب الخليفة و القضاة، و حلّفوا الأمراء بالسمع و الطاعة للسلطان، فطلع الأمير نوروز إلى الحدمة فى يوم الاثنين خامس شوّال، و خلع عليه السلطان، و أركبه فرسا بسرج ذهب و كنبوش زركش.

ثم طلع الأمير جكم فى ثامنه و هو خائف و لم يطلع قانى باى و لا قرقماس، و طلبا فلم يوجدا فجهز إليهما خلعتان، على أن يكون قانى باى نائبا بحماه، و قرقماس حاجبا بدمشق، و نزل جكم بغير خلعة فكاد أن يهلک لكونه لم يخلع عليه.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۲۸۵

و عند ما جلس بداره نزل إليه جرباش الشيخى رأس نوبة، و بشباى الحاجب الثانى يطلبان قانى باى منه ظنا أنه اختفى عنده، فأنكر أن يكون عنده و صرفهما بجواب ملفّق.

ثم ركب من ليلته بمن معه من الأمراء و المماليک و أعيانهم قمش الخاصكى الخازندار، و يشبک الساقى، و هو الذى صار أتابكا فى دولة الأشرف برسباى، و يشبک العثمانى، و ألطنبغا جاموس، و جانبياى الطيبى، و برسبغا الدوادار، و طرباى الدوادار، و ساروا الجميع إلى بركة الحبش خارج القاهرة، و لحق بهم فى الحال قانى باى، و قرقماس الرماح، و أرغز، و قبجق، و نحو الخمسمائة مملوک من المماليک السلطانية، و غيرهم و أقاموا جميعا ببركة الحبش إلى ليلة السبت عاشر شوال فأتاهم الأمير نوروز، و سودون من زاده رأس نوبة، و تمربغا المشطوب، فى نحو الألفين من المماليک السلطانية و غيرهم، و أقاموا جميعا ببركة الحبش إلى ليلة الأربعاء رابع عشر

شوال، و أمرهم فى زيادة و قوّة، بمن يأتيهم أوّلا بأوّل من الأمراء و المماليك السلطانية.

و فى الليلة المذكورة، دبّر سودون طاز أمره و طلع إلى السلطان، و أنزله إلى الإسطبل السلطانىّ و بات به.

فلمّا أصبح بكرة يوم الأربعاء المذكور، ركب السلطان فيمن معه من الأمراء و الخاصكية و نزل من القلعة، و سار نحو بركة الحبش من باب القرافة، بعد ما نادى فى أمسه بالعرض، و اجتمع إليه جميع عساكره، و قد صف سودون طاز عساكر

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۲۸۶

السلطان، فلما قارب بركة الحبش، ركب نوروز و جكم بمن معهما أيضا، من الأمراء و المماليك السلطانية، فصدمهم سودون طاز بالعسكر السلطانىّ صدمه كسرهم فيها، و أسر الأمير تمربغا المشطوب، و سودون من زاده، و على بن إينال و أرغز، و هرب نوروز و جكم فى عدّة كثيرة من الأمراء و المماليك إلى بلاد الصعيد، و عاد السلطان و معه الأمراء و سودون طاز مظفّرا منصورا، و قيّد سودون طاز الأمراء الممسوكين، و بعثهم إلى الإسكندرية فى ليلة السبت سابع عشره، و سار نوروز و جكم إلى أن وصلا إلى منية القائد، ثم عادوا إلى طموه و نزلوا على ناحية منبابة، من برّ الجيزة تجاه بولاق، و طلب الأمير يشبك الشعبانى الدوادار من سجن الإسكندرية، فقدم يوم الاثنين تاسع عشره إلى قلعة الجبل، و معه خلائق ممن خرج إلى لقائه، فقبّل الأرض و نزل إلى داره، كل ذلك و الأمراء بالجيزة.

فلما كان ليلة الثلاثاء عشرين شوّال ركب الأمير نوروز نصف الليل و عدّى النيل، و حصر إلى بيت الأمير الكبير بيبرس، و كان قد تحدّث هو و إينال باى من قجماس مع السلطان فى أمر نوروز حتى أمّنه و وعده بنيابة دمشق، و كان ذلك

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۲۸۷

أيضا من مكر سودون طاز، فمشى ذلك على نوروز و حضر، فاختلّ عند ذلك أمر جكم، و تفرّق منه من كان معه، و صار فريدا، فكتب إلى الأمير بيبرس الأتابك يسأله فى الحضور، فبعث إليه الأمير أزبك الأشقر رأس نوبة، و الأمير بشباى الحاجب، و قدما به ليلة الأربعاء حادى عشرين شوّال إلى باب السلسلة من الإسطبل السلطانى؛ فتسلمه عدوّه الأمير سودون طاز، و أصبح و قد حضر الأمير يشبك و سائر الأمراء للسلام عليه، فلما كانت ليلة الخميس ثانى عشرينه، قيّد و حمل إلى الإسكندرية، فسجن بها فى البرج الذى كان سجن يشبك الدوادار فيه، و سكن يشبك مكانه و على إقطاعه بعد ما حبس بالإسكندرية نحوا من سنة، و استقرّ دوادارا على عادته عوضا عن جكم المذكور؛ على ما سيأتى ذكره.

و أما أمر البلاد الشأميّة فإن دقماق جمع جموعه من العساكر و التركمان لقتال الوالد و دمرداش نائب حلب، و سار إلى جهة الوالد، فخرج إليه الوالد و على مقدّمته دمرداش، و صدموه صدمة واحدة انكسر فيها بجموعه و ولّوا الأدبار، و نهب ما معهم. و عاد دقماق منهزما إلى دمشق، و استنجد بنائبها الأمير آقبغا الجمالى الأطروش، و كتب أيضا دقماق لجميع نوّاب البلاد الشامية بالحضور و القيام بنصرة السلطان، و جمع من التركمان و العربان جمعا كبيرا، و خرج معه غالب العساكر

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۲۸۸

الشأمية، و عاد إلى جهة حلب بعساكر عظيمة، و الوالد و دمرداش فى مماليكهم لا غير؛ مع جدب البلاد الحلبية، و خراب قراها، فإنه عقيب توجه تيمور بسنة واحدة و أشهر.

فلما قارب دقماق بعساكره حلب أشار دمرداش على الوالد بالتوجه إلى بلاد التركمان من غير قتال، فقال الوالد لا بدّ من قتالنا معه، فإن انتصرنا و إلا توجهنا إلى بلاد التركمان بحق، فتوجّها لدقماق بمماليكهما، و قد صف دقماق عساكره و اقتتلا قتالا شديدا، و ثبت كل من الفريقين و قد أشرف دقماق على الهزيمة.

و بينما هو فى ذلك خرج من عسكر الوالد و دمرداش جماعة إلى دقماق، فانكسرت عند ذلك الميمنة.

ثم انهزم الجميع إلى نحو بلاد التركمان، فلم يتبعهم أحد من عساكر دقماق، و ملك دقماق حلب، و استمرّ الوالد و دمرداش ببلاد

التركمان؛ على ما سيأتى ذكره.

و أما ما وقع بمصر فإنه لما حبس جكم من عوض بالإسكندرية، أخلع على نوروز الحافظى فى بيت بيبرس فى يوم الأربعاء بنيابة دمشق، و توجه إلى داره.

فلما كان من الغد فى يوم الخميس قبض عليه و حمل إلى باب السلسلة فقيد به و حمل من ليلته، و هى ليلة الجمعة ثالث عشرين شوال إلى الإسكندرية، فسجن بها، و غضب لذلك الأميران بيبرس الأتابك، و إينال باى من قجماس، و تركا طلوع الخدمة السلطانية أياما.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة؛ ج ۱۲؛ ص ۲۸۸

أرضيا و طلعا إلى الخدمة، و راحت على نوروز، و اختفى الأمير قانى باى العلائى و قرقماس الرمّاح، فلم يعرف خبرهما.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۲، ص: ۲۸۹

فلما كان يوم الاثنين ثالث ذى القعدة، أنعم السلطان بإقطاع الأمير نوروز على الأمير إينال العلائى المعروف بحطب رأس نوبة بعد أن أخرجوا منه التحريرية.

و أنعم السلطان بإقطاع قانى باى العلائى على الأمير علّان جلّق، و بإقطاع تمربغا المشطوب على الأمير بشباى الحاجب الثانى، فلم يرض به، فاستقر باسم قطلوبغا الكركى، و كان إقطاعه قبل حبسه بالإسكندرية، و هو إلى الآن لم يحضر من سجن الإسكندرية. و بقى بشباى على طبلخانته.

و أنعم بإقطاع جكم من عوض على الأمير يشبك الشعبانى الدوادار، و هو إقطاعه أيضا قبل حبسه بالإسكندرية.

و أنعم على الأمير بيغوت بإمرة طبلخاناة، و على أسنبغا المصارع بإمرة طبلخاناة و على سودون بشتا بإمرة طبلخاناة.

ثم فى سادس ذى القعدة، قدم الأمراء من سجن الإسكندرية من أصحاب يشبك، و هم الأمير آقباى طاز الكركى الخازندار، و قطلوبغا الحسنى الكركى و جركس القاسمى المصارع، و صعدوا إلى القلعة، و قبّلوا الأرض بين يدى السلطان ثم نزلوا إلى بيوتهم، ثم رسم السلطان بانتقال الأمير شيخ المحمودى الساقى من نيابة طرابلس إلى نيابة دمشق، بعد عزل الأمير آقبغا الجمالى الأطروش، و توجّهه إلى القدس بطّالا.

و لما كان يوم الثلاثاء ثامن عشر ذى القعدة لعب الأمراء الكرة فى بيت الأتابك بيبرس، فاجتمع على باب بيبرس من المماليك السلطانية نحو الألف مملوك يريدون الفتك بسودون طاز.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج ۱۲، ص: ۲۹۰

و عند ما خرج سودون طاز من بيت بيبرس هموا به، فتحاوطته أصحابه و مماليكه، و ساق سودون حتى لحق بباب السلسلة، و امتنع بالإسطبل السلطانى حيث هو سكنه، و وقع كلام كثير. ثم خمدت الفتنة.

فلما كان رابع عشرينه، خلع السلطان على الأمير يشبك الشعبانى باستقراره دوادارا على عادته، عوضا عن الأمير جكم من عوض بحكم حبسه.

ثم فى يوم السبت رابع عشر ذى الحجة خلع السلطان على الأمير آقباى الكركى باستقراره خازندارا على عادته.

ثم فى سلخ ذى الحجة استقر الأمير جمق الدوادار الثانى فى نيابة الكرك، و استقر الأمير علّان جلّق أحد مقدّمى الألوف بديار مصر فى نيابة حماة، بعد عزل يونس الحافظى، فشقّ ذلك على سودون طاز.

ثم كتب للأمير دمرداش أمانا، و أنه يستقر فى نيابة طرابلس عوضا عن الأمير شيخ المحمودى المنتقل إلى نيابة دمشق، و كتب للأمير على بك بن دلغادر بنيابة عين تاب، و للأمير عمر بن الطحان بنيابة ملطية.

و كانت الأخبار وردت بجمع التركمان و نزولهم مع دمرداش إلى حلب، و أن دقماق نائب حلب اجتمع معه نائب حماة و الأمير نعير، و أن تيمور لنك نازل على مدينة سيواس، و لم يحجّ أحد فى هذه السنة من الشام و لا من العراق.

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۰۵]

و فی یوم ثالث المحرم من سنة خمس و ثمانمائة أنعم السلطان بإقطاع علان جلّق المستقر فی نیابة حماة علی الأمیر جرکس القاسمی المصارع، و بإقطاع جمق المستقر فی نیابة الکرک علی آقبای الکرکیّ الخازندار، و زید علیه قریة سمسطا.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۲۹۱

هذا و الکلام یکثر بین الأمراء و الممالیک، و الناس فی تخوّف من وقوع فتنة.

فلما کان سابع المحرم نزل الأمیر سودون طاز الأمیر آخور الکبیر من الإسطبل السلطانی بأهله و ممالیکه إلی داره، و عزل نفسه عن الأمیر آخوریّة، و صار من جملة الأمراء.

ثم فی هذا الشهر قدم الوالد إلی دمشق بأمان کان کتب له من قبل السلطان مع کتب جمیع الأمراء.

فلما وصل إلی دمشق خرج الأمیر شیخ المحمودی إلی تلقّیه، حتی عاد معه إلی دمشق و أنزله بالقرمانیة، و أکرمه غایة الإکرام بحیث إنه جاءه فی یوم واحد ثلاث مرات.

ثم خرج الوالد بعد أیام من دمشق یرید الدیار المصریة، فخرج الأمیر شیخ أیضا لوداعه، و سار حتی وصل [إلی] مصر فی سلخ المحرم. بعد ما خرج الأمراء إلی لقائه، و طلع إلی القلعة، و قبّل الأرض بین یدی السلطان، فأخلع السلطان علیه کاملّیة بمقلب سمّور، و أرکبه فرسا بسرج ذهب و کنبوش زرکش.

ثم نزل إلی داره و معه سائر الأمراء؛ و ظهر الأمیر قرقماس الرّماح، فشفع فیه الوالد، فإنه کان أنّبه، فقبل السلطان شفاعته.

و أما أمر سودون طاز، فإنه أقام بداره إلی لیلة الاثنین ثالث عشر صفر من سنة خمس و ثمانمائة المذکورة، خرج من القاهرة بممالیکه و حواشیه إلی المرج

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۲۹۲

و الزیات بالقرب من خانقاه سریاقوس لیقیم هناک حتی یأتیه من وافقه و یرکب علی أخصامه و یقهرهم و یعود إلی وظیفته.

و کان خبر سودون طاز أنه لما وقع بینه و بین یشبک أولا و صار من حزب نوروز و جکم و قبضوا علی یشبک و أصحابه من الأمراء و سجنوا بثغر الاسکندریة حسبما تقدم ذکره، صار تحکّم مصر له و یشارکه فی ذلک نوروز و جکم فثقلا علیه، و أراد أن یستبدّ بالأمر و النهی وحده، فدبّر فی إخراجهما حتی تم له ذلک، ظنا منه أنه ینفرد بالأمر بعدهما، فانتدب إلیه یشبک الشعبانی الدوادار و أصحابه لما کان فی نفوسهم منه قدیما بعد مجیئهم من حبس الاسکندریة، لأنه کان انحصر لخروجهم من الحبس.

و کان الملک الناصر یمیل إلی یشبک و قطلوبغا الکرکی، لأنّ کل واحد منهما کان لالته.

و کان الأمیر آقبای طاز الکرکی الخازندار یعادی سودون طاز قدیما و یقول «طاز واحد یکفی بمصر، فأنا طاز و هو طاز ما تحملنا مصر» و اتفقوا الجمیع علیه، و ظاهرهم السلطان فی الباطن، فتلاشی أمر سودون طاز لذلک، و ما زالوا فی التدبیر علیه حتی نزل من الإسطبل السلطانی، خوفا علی نفسه من کثرة جموع یشبک الدوادار، و جرأة آقبای الخازندار الکرکی؛ فعندما نزل ظن أن السلطان یقوم بناصره، فلم یلتفت السلطان إلیه، و أقام هذه المدّة من جملة الأمراء،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۲۹۳

فشق علیه عدم تحکمه فی الدولة، و کفه عن الأمر و النهی، و کان اعتاد ذلک، فخرج لتأتیه الممالیک السلطانیة و غیرهم، فإنه کان له علیهم أیاد و إحسان زائد عن الوصف- لیحارب بهم یشبک و طائفته، و یخرجهم من الدیار المصریة، أو یقبض علیهم کما فعل أوّلا و یستبدّ بعدهم بالأمر، فجاء حساب الدهر غیر حسابه، و لم یخرج إلیه أحد غیر أصحابه الذین خرجوا معه، و أخلع السلطان علی الأمیر إینال بای من قجماس باستقراره عوضه أمیر آخورا کبیرا فی یوم الاثنین عشرین صفر، و بعث السلطان إلی سودون طاز بالأمیر قطلوبغا

الكركى يأمره بالعود على إقطاعه و إمرته من غير إقامة فتنة، و إن أراد البلاد الشأمية فله ما يختاره من النيابات بها، فامتنع من ذلك و قال: لا بدّ من إخراج آقباى طاز الكركى الخازندار أوّلا إلى بلاد الشام، فلم يوافق السلطان على إخراج آقباى، و بعث إليه ثانيا بالأمير بشباى الحاجب الثانى فلم يوافق، فبعث إليه مرة ثالثة فلم يرض، و أبى إلا ما قاله أوّلا من إخراج آقباى، فلما يئس السلطان منه ركب بالعساكر من قلعة الجبل، و نزل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١٢، ص: ٢٩۴

جميع عساكره بالسلاح و آلة الحرب فى يوم الأربعاء سادس شهر ربيع الأوّل، فلم يثبت سودون طاز، و رحل بمن معه و هم نحو الخمسمائة من المماليك السلطانية و مماليكه، و قد ظهر الأمير قانى باى العلائى و لحق به من نحو عشرة أيام، و صار من حزبه، فتبعه السلطان بعساكره و هو يظن أنه توجه إلى بلبيس.

و كان سودون عند ما وصل إلى سرياقوس نزل من الخليج و مضى إلى جهة القاهرة و عبر من باب البحر بالمقس، و توجّه إلى الميدان، و هجم قانى باى العلائى فى عدّة كبيرة على الرّميلة تحت القلعة ليأخذ باب السلسلة، فلم يقدر على ذلك، و مر السلطان الملك الناصر و هو سائق على طريق بلبيس، و تفرّقت عنه العساكر و تاهوا فى عدّة طرق.

و بينما السلطان فى ذلك بلغه أن سودون طاز توجه إلى نحو القاهرة و هو يحاصر قلعة الجبل، فرجع بأمرائه مسرعا يريد القلعة حتى وصل إليها بعد العصر، و قد بلغ منه و من عساكره التعب مبلغا عظيما، و نزل السلطان بالمقعد المطلّ على الرّميلة من الإسطبل بباب السلسلة، و ندب الأمراء و المماليك لقتال سودون طاز، فقاتلوه فى الأزقّة طعنا بالرّماح ساعة فلم يثبت، و انهزم بمن معه، و قد جرح من الفريقين جماعة كثيرة، و حال الليل بينهم، و تفرّق أصحاب سودون طاز عنه، و توجّه كلّ واحد إلى داره، و بات السلطان و من معه على تخوّف، و أصبح من الغد فلم يظهر لسودون طاز و لا قانى باى خبر، و دام ذلك إلى الليل، فلم يشعر الأمير يشبك و هو جالس بداره بعد عشاء الآخرة إلا و سودون طاز دخل عليه فى ثلاثة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١٢، ص: ٢٩۵

أنفس، و ترامى عليه، فقبله و زاد فى إكرامه و أنزله عنده، و أصبح يوم الجمعة كتب سودون طاز وصيّته و أقام بدار يشبك إلى ليلة الأحد عاشره، فأنزل فى حرّاقة و توجه إلى [ثغر] دمياط بطّالا بغير قيد، و رتّب له بها ما يكفيه، بعد أن أنعم عليه الأمير يشبك بألف دينار مكافأة له على ما كان سعى فى أمره حتّى أخرجه من حبس الإسكندرية و عوّده إلى وظيفته و إبقائه فى قيد الحياة، فإن جكم الدوادار كان أراد قتله عند ما ظفر به، و حبسه بالإسكندرية لولا سودون طاز هذا.

و أمّا قانى باى هذا فإنه اختفى ثانيا فلم يعرف له خبر، و سكنت الفتنة.

فلمّا كان خامس عشرين شهر ربيع الأوّل قدم الأمير سودون الحمزاوى نائب صفد إلى القاهرة باستدعاء من السلطان صحبة الطواشى عبد اللطيف اللّالا بسعى الأمير آقباى طاز الكركى الخازندار فى ذلك لصداقة كانت بينهما.

و اخلع السلطان على الأمير شيخ السليمانى شاد الشراب خاناه، و استقرّ فى نيابة صفد عوضا عن سودون الحمزاوى، و أنعم السلطان على سودون الحمزاوى بإمرة مائة و تقدمة ألف بالقاهرة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١٢، ص: ٢٩۶

ثم أنعم السلطان على الوالد بإمرة مائة و تقدمة [ألف]، و أزيد مدينة أبيار من الديوان المفرد، و رسم له أن يجلس رأس ميسرة.

ثم أخرج الأمير قرقماس الرمّاح إلى دمشق على إقطاع الأمير صرق. و أخلع السلطان على سودون الحمزاوى المعزول عن نيابة صفد باستقراره شادّ الشراب خاناه عوضا عن شيخ السليمانى المسرطن المنتقل إلى نيابة صفد، فلم يقم سودون الحمزاوى فى المشدية إلا أياما، و مرض صديقه الأمير آقباى الكركى الخازندار و مات، فولّى الخازندارية عوضه فى يوم الاثنين سابع جمادى الآخرة.

ثم فى ليلة الأربعاء ثالث عشرين [جمادى الآخرة] غمز على قانى باى العلائى فى دار فكبس عليها، و أخذ منها، و قيّد و حمل إلى

الإسكندرية.

و فى هذه الأيام ورد الخبر أن سودون طاز خرج من ثغر دمياط يوم الخميس رابع عشرين جمادى الآخرة فى طائفة، و أنه اجتمع عليه جماعة كبيرة من العربان و المماليک، فندب السلطان لقتاله الوالد و الأمير تمراز الناصرى أمير مجلس و سودون الحمزاوى فى عدة أمراء أخر، و خرجوا من القاهرة، فبلغهم أنه عند الأمير [علم الدين سليمان بن] بقر بالشرقية جاءه ليساعده على غرضه، فعند ما أتاه أرسل [ابن] بقر إلى الأمراء يعلمهم بأن سودون طاز عنده، فطرقه الأمراء و قبضوا عليه و أحضروه إلى القلعة فى يوم الأربعاء سلخ جمادى الآخرة.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۲۹۷

ثم أصبح السلطان فى يوم الخميس أول شهر رجب، سمّر خمسة من المماليک السلطانية ممن كان مع [الأمير] سودون طاز، أحدهم سودون الجلب الآتى ذكره فى عدة أماكن، ثم جانبک القرمانى حاجب حجّاب زماننا هذا، فاجتمع المماليک السلطانية لإقامة الفتنة بسببهم: و تكلّم الأمراء مع السلطان فى ذلک، فخلّى عنهم، و قيّدوا و سجنوا بخزانة شمائل، و نفى سودون الجلب إلى قبرس بلاد الفرنج من الإسكندرية.

ثم فى ثالث شهر رجب حمل سودون طاز مقيّدا إلى الإسكندرية، و سجن بها عند غريمه الأمير جكم من عوض الدوادار.

و فى هذا الشهر و رد الخبر من دمشق أنه أقيمت الجمعة بالجامع الأموى و هو خراب، و كان بطّل منه صلاة الجمعة من بعد كائنة تيمور، و أن الأمير شيخا المحمودى نائب دمشق سكن بدار السعادة بعد أن عمرت، و كانت حرقت أيضا فى نوبة تيمور، و أن سعر الذهب زاد عن الحدّ، فأجيب: بأن الذهب [قد] زاد سعره بمصر أيضا، حتى صار سعر المثقال الهرجة بخمسة و ستين درهما، و الدينار المشخّص، بستّين درهما.

ثم عقد السلطان للأمير سودون الحمزاوى على أخته خوند زينب بنت الملک الظاهر برقوق، و عمرها نحو الثمان سنين، فصارت أخوات السلطان الثلاث

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۲۹۸

كل واحدة مع أمير من أمرائه، فخوند سارّة زوجة الأمير نوروز الحافظى، و خوند بيرم زوجة الأمير إينال باى بن قجماس، و خوند زينب و هى أصغر هن مع سودون الحمزاوى هذا.

ثم فى يوم الاثنين سادس عشرين شهر رجب أخلع السلطان على قاضى القضاة كمال الدين عمر بن العديم باستقراره فى قضاء الحنفية بالديار المصرية بعد أن عزل القاضى أمين الدين عبد الوهاب الطرابلسى بسفارة الوالد لصحبة كانت بينهما من حلب.

ثم فى ليلة الثلاثاء سابع عشرين شهر رجب المذكور أرسل السلطان إلى الإسكندرية الأمير أقبردى و الأمير تنبک من الأمراء العشرات فى ثلاثين مملوكا من المماليک السلطانية، فوصلوها فى تاسع شعبان، و أخرجوا الأمير نوروز الحافظى، و جكم من عوض، و سودون طاز، و قانى باى العلائى من سجن الإسكندرية و أنزلوهم فى البحر المالح، و ساروا بهم إلى البلاد الشأمية، فحبس نوروز وقانى باى فى قلعة الصّبيبة من عمل دمشق. و حبس جكم فى حصن الأكراد من عمل طرابلس، و حبس سودون طاز فى قلعة المرقب، و لم يبق بسجن الإسكندرية من الأمراء غير سودون من زاده، و تمربغا المشطوب.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۲۹۹

ثم حوّل جكم بعد مدّة إلى قلعة المرقب عند غريمه سودون طاز.

ثم فى ثامن عشر شوّال خلع السلطان على الأمير بكتمر الرّكنى أمير سلاح باستقراره رأس نوبة الأمراء عوضا عن نوروز الحافظى، و استقرّ الأمير تمراز الناصرىّ أمير مجلس عوضه أمير سلاح، و استقرّ سودون الماردانى رأس نوبة النّوب أمير مجلس عوضا عن تمراز، و استقرّ سودون الحمزاوى رأس نوبة النوب عوضا عن سودون الماردانى، و أخلع السلطان على الأمير طوخ باستقراره خازندارا عوضا

عن سودون الحمزاوى.

ثم فى خامس عشرين ذى القعدة أفرج عن سعد الدين إبراهيم بن غراب و أخيه فخر الدين ماجد، و كان السلطان قبض عليهما من شهر رمضان، و ولّى وظائفهما جماعة، و استمرّا فى المصادرة إلى يومنا هذا، و كان الإفراج عنهما بعد ما التزم سعد الدين بن غراب بحمل ألف ألف درهم [فضة] و فخر الدين بثلاثمائة ألف درهم، و نقلا إلى السالمىّ ليستخرج الأموال منهما ثم يقتلهما.

و كان ابن قايماز أهانهما و ضرب فخر الدين و أهانه، فلم يعاملهما السالمىّ [بمكروه] و لم ينتقم منهما، و خاف سوء العاقبة، فعاملهما من الاحسان و الإكرام بما لم يكن ببال أحد، و ما زال يسعى فى أمرهما حتى نقلا من عنده لبيت شادّ الدّواوين ناصر الدين محمد بن جلبان الحاجب، و هذا بخلاف ما كانا فعلا مع السالمىّ، فكان هو المحسن و هم المسيئون.

ثم أخلع السلطان على يلبغا السالمىّ باستقراره أستادارا، و عزل ابن قايماز، و هذه ولاية يلبغا السالمىّ الثانية.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١٢، ص: ٣٠٠

ثم فى سابع ذى الحجّة من سنة خمس أخرج السلطان الأمير أسنبغا المصارع، و الأمير نكباى الأزدمرى و هما من أمراء الطبلخاناه بمصر إلى دمشق، و إينال المظفّرى و آخر. و هما من الأمراء العشرات، و رسم للاربعة بإقطاعات هناك، لأمر اقتضى ذلك، فساروا إلى القلعة.

فلما كان يوم تاسع عشرين ذى الحجّة أغلق المماليك السلطانيّة باب القصر من قلعة الجبل على من حضر من الأمراء، و عوّقوهم بسبب تأخّر جوامكهم، فنزل الأمراء من باب السرّ، و لم يقع كبير أمر، و أمر السلطان ليلبغا السالمىّ أن ينفق عليهم فنفق عليهم.

[ما وقع من الحوادث سنة ٨٠٦]

ثم فى يوم الثلاثاء رابع المحرّم من سنة ستّ و ثمانمائة عزل يلبغا السالمى عن الأستادارية، و أعيد إليها ركن الدين عمر بن قايماز، و قبض على السالمى و سلّم إليه.

ثم فى ثامنه أخلع السلطان على الصاحب علم الدين يحيى أبى كمّ و استقرّ فى الوزارة و نظر الخاصّ معا عوضا عن تاج الدين بن البقرى و استقر ابن البقرى على ما بيده من وظيفتى نظر الجيش و نظر ديوان المفرد، فلم يباشر أبو كمّ الوزر غير ثمانية أيام و هرب و اختفى، فأعيد تاج الدين بن البقرى إليها، هذا و السالمىّ فى المصادرة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١٢، ص: ٣٠١

و فى هذه السنة كان الشراقى العظيم بمصر، و عقبه الغلاء المفرط ثم الوباء، و هذه السنة هى أوّل سنين الحوادث و المحن التى خرّب فيها معظم الديار المصرية و أعمالها، من الشراقى، و اختلاف الكلمة، و تغيير الولاة بالأعمال و غيرها.

ثم فى شهر ربيع الأول كتب بإحضار دقماق نائب حلب، و فيه اختفى الوزير تاج الدين بن البقرى، فخلع على سعد الدين بن غراب و استقر فى وظيفتى الأستادارية و نظر الجيش، و صرف ابن قايماز، و خلع على تاج الدين رزق اللّه و أعيد إلى الوزارة.

و فى خامس صفر كتب باستقرار الأمير آقبغا الجمالى الأطروش فى نيابة حلب عوضا عن دقماق، فلما بلغ دقماق أنه طلب إلى مصر هرب من حلب.

ثم قدم الخبر على السلطان بأنّ قرا يوسف بن قرا محمد قدم إلى دمشق. فأنزله الأمير شيخ المحمودى بدار السعادة و أكرمه.

و كان من خبر قرا يوسف أنه حارب السلطان غياث الدين أحمد بن أويس و أخذ منه بغداد.

فلما بلغ تيمور ذلك بعث إليه عسكرا، فكسرهم قرا يوسف، فجهّز إليه تيمور جيشا ثانيا فهزموه، ففرّ بأهله و خاصّته إلى الرّحبة، فلم يمكّن منها و نهبته العرب، فسار إلى دمشق، فوافى بها السلطان أحمد بن أويس و قد قدمها أيضا قبل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١٢، ص: ٣٠٢

تاريخه، و أخبر الرسول أيضا أن قانى باى العلائى هرب من سجن الصّبيبة، فتأخر نوروز بالسجن و لم يعرف أين ذهب.

ثم فى يوم الثلاثاء خلع السلطان على بدر الدين حسن بن نصر اللّه الفوّى و استقرّ فى نظر الخاص عوضا عن ابن البقرى، و هذه أوّل ولاية الصاحب بدر الدين ابن نصر اللّه للوظائف الجليلة.

ثم فى عاشره اختفى الوزير تاج الدين، و فى ثالث عشره أعيد ابن البقرى للوزر على عادته و نظر الخاص، و صرف ابن نصر اللّه، هذا و الموت فاش بين الناس و أكثر من كان يموت الفقراء من الجوع.

ثم فى آخر جمادى الآخرة رسم بالقبض على السلطان أحمد بن أويس، و قرا يوسف بدمشق، فقبض عليهما الأمير شيخ و سجنهما.

ثم فى يوم الاثنين ثامن عشر شهر رجب قدم إلى القاهرة سيف الأمير آقبغا الجمالى الأطروش نائب حلب بعد موته، فرسم السلطان بانتقال الأمير دمرداش المحمدى نائب طرابلس إلى نيابة حلب، و حمل إليه التقليد و التشريف الأمير سودون المحمدى المعروف تلى.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج١٢، ص: ٣٠٣

و فى أثناء ذلک ورد الخبر بأن الأمير دقماق نزل على حلب و معه جماعة من التركمان فيهم الأمير على بک بن دلغادر، و فرّ منه أمراء حلب، فملک دقماق حلب، و رسم السلطان بانتقال الأمير شيخ السليمانى المسرطن نائب صفد إلى نيابة طرابلس، و حمل إليه التقليد و التشريف الأمير أقبردى، و رسم باستقرار الأمير بكتمر جلّق أحد أمراء دمشق فى نيابة صفد عوضا عن شيخ السليمانى المسرطن، و خرج الأمير إينال المأمور بقتل الأمراء المسجونين بالبلاد الشامية، و قبل وصول إينال المذكور أفرج الأمير دمرداش نائب طرابلس عن الأمير جكم و عن سودون طاز، و كانا ببعض حصون طرابلس و سار بهما إلى حلب، و هذا أوّل أمر جكم و ظهوره بالبلاد الشامية على ما سنذكره إن شاء اللّه تعالى.

ثم فى يوم الخميس سابع عشر ذى الحجة قبض السلطان على الأمير بيبرس الدوادار الثانى، و على الأمير جانم من حسن شاه، و على الأمير سودون المحمدى تلى، و حملوا إلى سجن الإسكندرية، و استقر الأمير قرقماس أحد أمراء الطبلخانات دوادارا ثانيا عوضا عن بيبرس المذكور.

[ما وقع من الحوادث سنة ٨٠٧]

ثم فى صفر من سنة سبع و ثمانمائة، وقع بين الأمير يشبک الشعبانى و بين الأمير إينال باى بن قجماس الأمير آخور كبير و سبب ذلک: أن الأمير يشبک الشعبانى الدوادار صار هو مدبّر الدولة و بيده جميع أمورها من الولاية و العزل، فصار له بذلک عصبة كبيرة، فأحبوا عصبته عزل إينال باى من الأمير اخورية، لاختصاصه بالسلطان الملک الناصر لقرابته منه ثم لمصاهرته، فإنه كان تزوج بخوند

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج١٢، ص: ٣٠۴

بيرم بنت الملک الظاهر برقوق، و سكن بالإسطبل السلطانى على عادة الأمير اخورية، فصار السلطان ينزل عنده و يقيم ببيت أخته و يعاقره الشراب، فعظم أمر إينال باى لذلک، فخافه حواشى يشبک، و أحبوا أن يكون چركس القاسمى المصارع عوضه أمير اخورا، و اتفقوا مع يشبک على ذلک، فانقطعوا عن حضور الخدمة السلطانية من جمادى الأولى، فاستوحش السلطان منهم. و تمادى الحال إلى يوم الجمعة، فأمر السلطان لإينال باى أن ينزل للأمراء المذكورين و يصالحهم، فمنع جماعة من المماليک السلطانية إينال باى أن ينزل، و اشتد ما بينهم من الشر حتى خاف السلطان عاقبة ذلک، و باتوا مترقبين وقوع الحرب بينهما، و كان السلطان رسم للأمير يشبک أن يتحول من داره قبل تاريخه، فإنها مجاورة لمدرسة السلطان حسن، فامتنع يشبک من ذلک

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج١٢، ص: ٣٠۵

فساء ظن السلطان به، ثم استدعى السلطان القضاة فى يوم السبت ثانى صفر إلى بيت الأمير الكبير بيبرس ليصلحوا بين إينال باى و بين يشبک و رفقته، فلم يقع صلح بين الطائفتين، و تسوّر بعض أصحاب يشبک على مدرسة السلطان حسن، فتحقّق السلطان عند ذلک ما

كان يظنّه بيشبك، و يحذّره منه إينال باى و غيره، و أخذ كلّ أحد من الطائفتين فى أهبة الحرب، و السلطان من جهة إينال باى، و أصبحوا جميعا يوم الأحد لابسين السلاح، و طلع أعيان الأمراء إلى السلطان، و هم الأتابك بيبرس، و الوالد، و بكتمر رأس نوبة الأمراء، و سودون الماردانى أمير مجلس، و آقباى حاجب الحجّاب، و طوخ الخازندار فى آخرين من مقدّمى الألوف و الطبلخانات و العشرات و المماليك السلطانيّة.

و كان مع يشبك من أمراء الألوف سبعة، و هم الأمير تمراز الناصرى أمير سلاح، و يلبغا الناصرى، و إينال حطب العلائى، و قطلوبغا الكركى، و سودون الحمزاوى رأس نوبة النوب، و طولو، و چركس المصارع، و انضم معهم سعد الدين إبراهيم بن غراب الأستادار، و محمد بن سنقر البكجرىّ، و ناصر الدين محمد بن على ابن كلبك، فى جماعة من الأمراء و المماليك السلطانية، و تجهّز يشبك للحرب، و أعدّ بأعلى مدرسة السلطان حسن مدافع النفط و المكاحل و الأسهم للرمى على الإسطبل السلطانىّ و على من يقف تحته من الرميلة، و اجتمع عليه خلائق، و نزل السلطان أيضا من القصر إلى الإسطبل السلطانى، و جلس بالمقعد و اجتمع عليه أكابر أمرائه و خاصّكيته، و وقع القتال بين الطائفتين و الحصار و الرمى بالمدافع من بكرة يوم الأحد إلى ليلة الخميس سابعه، و قد ظهر أصحاب السلطان على البشبكيّة، و حصروهم و القتال مستمرّ بينهم، و أمر يشبك فى إدبار، و حال السلطان فى استظهار، إلى أن

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١٢، ص: ٣٠۶

كانت ليلة الخميس المذكورة، فاتفق الأمير يشبك مع أصحابه، و ركب نصف الليل، و خرج بمن معه من الأمراء من الرميلة على حميّة، و مرّوا من تحت الطبلخاناه إلى جهة الشام، فلم يتبعهم أحد من السلطانيّة، و نودى بالقاهرة فى آخر الليلة المذكورة بالأمان، و منع أهل الفساد و الزّعر من النّهب، و مرّ يشبك بمن معه من الأمراء و المماليك إلى قطيا، فتلقّاه مشايخ عربان العائذ بالتقادم، و سار إلى العريش و قد بلغ خبره إلى غزّة، فتلقّاه نائب غزّة الأمير خير بك بعساكر غزّة، فدخلها يوم الأربعاء ثالث عشر صفر و نزل بها.

ثم بعث الأمير طولو إلى الأمير شيخ المحمودى نائب الشام يعلمه الخبر، و سار طولو يريد دمشق حتى قدم دمشق يوم الأحد ثامن عشره، فخرج الأمير شيخ إليه، و تلقّاه و أعلمه طولو الخبر، فشقّ ذلك عليه، و وعده بالقيام بنصرته ليشبك.

و كان فى ثامن عشر الشهر الخارج قدم الأمير دقماق المحمّدى دمشق فأكرمه الأمير شيخ.

و خبر دقماق و سبب قدومه إلى دمشق، أنه لمّا فرّ من حلب، و جمع التركمان و أخذ حلب، و قدم الأمير دمرداش المحمّدى نائب طرابلس عليه و قد ولى نيابة حلب بعد أن أطلق دمرداش و سودون طاز و جكم، و سار بهما من طرابلس إلى حلب لقتال التركمان، و واقع التركمان بعد أن قتل سودون طاز، فانكسر دمرداش، و ملك جكم حلب منه بعد أمور صدرت يطول شرحها، فكتب السلطان إلى دقماق يخيّره فى أىّ بلد يقيم؟ فاختار الشام، فقدمها.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١٢، ص: ٣٠٧

و لما بلغ الأمير شيخ ما وقع ليشبك بعث بالأمير ألطنبغا حاجب الحجّاب بدمشق و الأمير شهاب الدين أحمد بن اليغمورىّ، و جماعة أخر من الأعيان إلى الأمير يشبك، و معهم أربعة أحمال قماش و مال، و كتب شيخ على أيديهم مطالعات للأمير يشبك يرغّبه فى القدوم عليه، و أنه يقوم بنصرته و يوافقه على غرضه.

فلمّا بلغ يشبك ذلك رحل من غزّة فى ليلة الاثنين خامس عشرينه، بعد ما أقام بها ثلاثة عشر يوما، و أخذ ما كان بها من حواصل الأمراء و عدّة خيول، و بعث إليه أهل الكرك و الشّوبك بعدّة تقادم، بعد ما كان عرض من معه من المقاتلة فكانوا ألفا و ثلاثمائة و خمسة و عشرين فارسا، و تلقّاه بعد مسيره من غزّة بمشايخ بلاد الساحل، و حمل إليه الأمير بكتمر جلق نائب صفد عدّة تقادم- و قدم عليه ابن بشارة فى عدّة من مشايخ العشير.

ثم جهز إليه الأمير شيخ نائب الشام جماعة لملاقاته طائفة بعد أخرى.

ثم خرج إليه شيخ المذكور من دمشق حتى وافاه، فلمّا تقاربا ترجّل الأمير شيخ عن فرسه، فلمّا عاينه يشبك ترجّل هو و أصحابه و سلّم

علیه، ثم سلّم علی الأمراء و جلسا قلیلا.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۳۰۸

ثم رکبا، و سار یشبک المذکور و قد ألبسه شیخ هو و جمیع من معه من الأمراء الخلع بالطّرز العریضة، و عدّتهم أحد و ثلاثون أمیرا من الطبلخانات و العشرات سوی من تقدّم ذکرهم من أمراء الألوف، و دخلوا [دمشق] یوم الثلاثاء رابع شهر رجب.

و لمّا طال جلوسهم بدمشق سألهم الأمیر شیخ عن خبرهم، فأعلموه بما کان و ذکروا له أنهم ممالیک السلطان و فی طاعته، لا یخرجون عنها أبدا، غیر أنّ إینال بای نقل عنهم للسلطان ما لا یقع منهم، فتغیّر خاطر السلطان علیهم حتی وقع ما وقع و أنهم ما لم ینصفوا منه و یعودوا لما کانوا علیه و إلّا فأرض اللّه واسعة، فوعدهم بخیر، و قام لهم بما یلیق بهم، حتی قیل إنه بلغت نفقته علیهم نحو مائتی ألف دینار مصریّة. ثم کتب شیخ إلی السلطان یسأله فی أمرهم.

و أمّا أمر السلطان الملک الناصر، فإنّه لما أصبح و قد انهزم یشبک بمن معه إلی جهة الشام، کتب بالإفراج عن الأمیر سودون من زاده، و تمربغا المشطوب، و صرق و کتب [إلی الأمیر نوروز بالحضور إلی الدیار المصریة لیستقرّ علی عادته] و کتب للأمیر جکم أمانا توجّه به طغای تمر مقدّم البریدیّة.

ثم فی ثامن عشره خلع علی عدّة من الأمراء بعدّة وظائف، فأخلع علی سودون الماردانی أمیر مجلس باستقراره دوادارا عوضا عن یشبک الشعبانی المقدّم ذکره، و علی الأمیر سودون الطّیار الأمیر آخور الثانی، و استقرّ أمیر مجلس عوضا عن سودون الماردانی، و علی آقبای حاجب الحجّاب باستقراره أمیر سلاح عوضا

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۳۰۹

عن تمراز الناصری، و خلع علی أبی کمّ، و استقرّ فی وظیفة نظر الجیش عوضا عن ابن غراب، و علی رکن الدین عمر بن قایماز، باستقراره أستادارا عوضا عن ابن غراب أیضا.

ثم فی تاسع عشره، قدم سودون من زاده و تمربغا المشطوب و صرق من سجن الإسکندریة و قبّلوا الأرض بین یدی السلطان و نزلوا إلی دورهم.

و فی حادی عشرینه خلع السلطان علی الأمیر یشبک بن أزدمر باستقراره رأس نوبة النّوب عوضا عن سودون الحمزاوی.

ثم ألزم السلطان مباشری الأمراء المتوجّهین إلی الشام بمال، فقرّر علی موجود الأمیر یشبک مائة ألف دینار، و علی موجود تمراز مائة ألف دینار، و علی موجود سودون الحمزاوی ثلاثین ألف دینار، و علی موجود قطلوبغا الکرکیّ عشرین ألف دینار، و رسم السلطان أن یکون الدینار بمائة درهم، ثم افتقد السلطان الممالیک السلطانیة ممن توجه مع الأمیر یشبک فکانوا مائتی مملوک.

ثم قدم الخبر علی السلطان أنّ الأمیر نوروز قدم إلی دمشق من قلعة الصّبیبة، فتلقّاه الأمیر شیخ و أکرمه، و ضربت البشائر لقدومه بدمشق، فعظم ذلک علی السلطان.

ثم فی یوم الثلاثاء رابع شهر رجب طلب السلطان جمال الدین یوسف البیری أستادار بجاس و أخلع علیه باستقراره أستادارا عوضا عن ابن قایماز، بعد ما رسم علی جمال الدین المذکور فی بیت شادّ الدواوین محمد بن الطبلاوی یوما و لیلة، و استمرّ یتحدّث فی استاداریة الأتابک بیبرس فإنه کان خدم عنده لیحمیه من الوزر و الأستاداریة، فلم ینهض بیبرس بذلک.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۳۱۰

ثم قدم الخبر بأن الأمیر شیخا أفرج عن قرا یوسف.

و أما خبر جکم مع دمرداش و کیف ملک منه حلب، و قد قدّمنا ذکر ذلک مجملا من غیر تفصیل، فإن جکم لما أطلقه دمرداش و أخذه صحبته إلی حلب، و قاتل معه الترکمان و وقع لهما أمور حاصلها أن جکم تخوّف من دمرداش و فرّ منه إلی جهة الترکمان، و انضم علیه سودون الجلب بعد مجیئه من بلاد الأفرنج، و الأمیر حمق نائب الکرک کان و غیره من المخامرین.

ثم وافقه ابن صاحب الباز أمير التركمان بتركمانه، فعاد جكم و قاتل دمرداش، و وقع بينهما أمور و حروب إلى أن ملك جكم طرابلس، و أرسل إليه الأمير شيخ نائب الشام، و الأمير يشبك و رفقته يستميلونه ليقدم عليهم دمشق و يوافقهم على قتال المصريين، فأجابهم إلى ذلك، و خرج من طرابلس كأنه يريد التوجه إلى دمشق.

فلما وصل حماة أخذ نائبها الأمير علان بمن انضم عليه و توجه بهم إلى دمرداش و قاتله حتى هزمه و أخذ منه مدينة حلب، و فرّ دمرداش بجماعة من أمراء حلب إلى بلاد التركمان.

و لما ملك جكم حلب أنعم بموجود دمرداش على علّان نائب حماة، و أقرّه على نيابة حماة على عادته، فصار مع جكم حلب و طرابلس و حماة، و أخذ يسير مع الرعية أحسن سيرة، فأحبه الناس و جرى على ألسنتهم «جكم حكم، و ما ظلم» و استمرّ جكم بحلب إلى أن أرسل إليه الأمير شيخ نائب الشام الأمير سودون الحمزاوى، و الأمير سودون الظريف، فتوجها إلى جكم على أنه بطرابلس.

ثم أرسل الأمير شيخ الأمير شرف الدين موسى الهيدبانى حاجب دمشق إلى حلب رسولا إلى دمرداش يستدعيه إلى موافقته هو و من عنده من الأمراء.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۳۱۱

و كان قد ورد كتاب دمرداش على شيخ و يشبك أنه معهما، و متى دعواه حضر إليهما؛ فهذا ما كان من أمر جكم، و بقية خبر قدومه يأتى إن شاء اللّه تعالى فيما بعد.

ثم إن الأمير شيخا نائب الشام عين جماعة من الأمراء ليتوجهوا لأخذ صفد، فخرج الأمير تمراز الناصرىّ أمير سلاح، و الأمير چاركس القاسمى المصارع، و الأمير سودون الظريف بعد عوده من طرابلس، و ساروا بعسكرهم لأخذ صفد من بكتمر جلّق، بحيلة أنهم يسيرون إلى جشار الأمير بكتمر جلق كأنهم يأخذوه فإذا أقبل عليهم بكتمر ليدفعهم عن جشاره قاطعوا عليه و أخذوا مدينة صفد منه، فتيقظ بكتمر لذلك و ترك لهم الجشار، فساقوه من غير أن يتحرك بكتمر من المدينة و عادوا إلى دمشق و أخبروا الأمراء بذلك، فاستعد شيخ لأخذ صفد و عمل ثلاثين مدفعا و عدّة مكاحل و منجنيقين، و جمع الحجّارين و النقّابين و آلات الحصار، و خرج من دمشق يوم الثلاثاء سابع عشر شعبان و معه جمع كبير من عسكر مصر و الشام من جملتهم قرا يوسف بجماعته، و جماعة السلطان أحمد بن أويس [متملك بغداد] و جماعة من التركمان الجشارية، و أحمد بن بشارة بعشرانه و عيسى بن الكابولىّ بعشرانه، و نادى شيخ بدمشق قبل خروجه منها: من أراد النهب و الكسب فعليه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۳۱۲

بمصر، فاجتمع عليه خلائق، و سار معه مائة جمل تحمل مكاحل و مدافع و آلات الحصار، و ولى الأمير ألطنبغا العثمانى نيابة صفد كما كان أولا، و سار شيخ بمن معه من العساكر حتى وافى مدينة صفد، فأرسل شيخ بالأمير علّان إلى بكتمر جلّق يكلّمه فى تسليم مدينة صفد، فلم يذعن إليه بكتمر و أبى إلا قتاله، و قال: ماله عندى إلا السيف؛ فحينئذ ركب شيخ و يشبك بمن معهما و أحاطا بقلعة صفد، و حصراها من جميع جهاتها، و قد حصنها بكتمر و شحنها بالرجال، و قام يقاتل شيخا أتم قتال فاستمر الحرب بينهم أياما كثيرة خرح فيها من أصحاب شيخ نحو ثلاثمائة رجل، و قتل أزيد من خمسين نفسا.

و بينما هم فى قتال صفد إذ ورد عليهم الخبر بقدوم جكم إلى دمشق، ففرحوا بذلك، و لم يمكنهم العود إلى دمشق إلا عن فيصل من أمر صفد.

و كان خروج جكم من حلب فى حادى عشر شهر رمضان، و سار حتى قدم دمشق، و قد حضر إليه شاهين دوادار الأمير شيخ يستدعيه، فإن شيخا كان أرسله إليه قبل خروجه إلى صفد بعد عود سودون الحمزاوى و سودون الظريف من طرابلس، و قبل خروج جكم من حلب سلّم قلعتها إلى الأمير شرف الدين موسى ابن يلدق، و عمل حجّابا و أرباب وظائف، و عزم على أنه يتسلطن و يتلقب بالملك العادل.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١٢، ص: ٣١٣

ثم بدا له تأخير ذلك، و قدم دمشق لمرافقة شيخ و يشبك و من معهما، و وصل إلى دمشق و معه الأمير قانى باى و تغرى بردى القجقارى و جماعة كبيرة، فخرج من بدمشق من أمراء مصر و الشام جميعهم إلى لقائه، و أنزل بالميدان، فسلم جكم على الأمراء سلام السلاطين على الأمراء، و أخذ يترفع عليهم ترفعا زائدا أوجب تنكرهم عليه فى الباطن، إلا أن الضرورة قادتهم إلى الانقياد إليه، فأكرموه على رغمهم، و أنزلوه و كلّموه فى القيام معهم، فأجاب، و أمرهم أن يكتبوا ليشبك و شيخ بقدومه إلى دمشق، فكتبوا إلى يشبك و شيخ بذلك، و أخذ جكم فى إظهار شعار السلطنة مع خدمه و أصحابه، فشق على الأمراء ذلك، و ما زالوا به بالملاطفة حتى ترك ذلك إلى وقته، و أقام معهم بدمشق إلى ليلة الأحد سابع عشرين شهر رمضان من سنة سبع و ثمانمائة المذكورة، فخرج من دمشق و توجه مخفّا إلى طرابلس ليجمع عساكر طرابلس، و ترك ثقله بدمشق، و ورد عليه الخبر أن دمرداش لما فر منه ركب البحر و توجه إلى دمياط.

ثم قدم إلى مصر فى رابع عشرين شهر رمضان المذكور فهدأ سرّجكم بذلك عن أمر حلب.

و أما يشبك و شيخ بمن معهما من الأمراء و العساكر لما طال عليهم القتال على مدينة صفد، و عجزوا عن أخذها، تكلموا فى الصلح مع بكتمر حتى تم لهم ذلك، و اصطلحوا و تحالفوا، و نزل إليهم بكتمر جلّق فى يوم الاثنين حادى عشرين شهر رمضان بعد أن كانت مدة القتال بينهم [على صفد] اثنين و عشرين يوما، و عاد شيخ إلى دمشق و هو مجروح، و يشبك الشعبانى و هو مجروح أيضا، و چاركس المصارع و هو مجروح.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١٢، ص: ٣١٤

و أما عساكرهم فغالبهم أثخنته الجراح، فعندما أقاموا بدمشق قدم عليهم الأمير جكم من طرابلس بعد أن أرسلوا يستحثونه على سرعة المجىء إليهم غير مرة فخرجوا لتلقّيه و سلّموا عليه، و عادوا به إلى دمشق و هما فى غاية الحنق من جكم، و هو أنه لما وافاهما جكم ترجّل إليه الأمير يشبك عن فرسه إلى الأرض، و سلّم عليه فلم يعبأ به جكم، و لا التفت إليه، لأنه كان غريمه فيما تقدّم ذكره، فشق ذلك على الأمير شيخ، و لام يشبك على ترجّله.

ثم عتب شيخ جكم على ما وقع منه فى عدم إنصاف يشبك، و نزل جكم بالميدان و جلس فى صدر المجلس، و جلس يشبك عن يمينه، و شيخ عن يساره، فكاد شيخ و يشبك أن يهلكا فى الباطن، و لم يسعهما إلا الإذعان لتمام أمرهما.

ثم أمرهم جكم ألّا يفعلوا شيئا إلا بمشاورته، فاتفقوا على منع الدعاء للسلطان الملك الناصر فرج بمنابر دمشق، فوقع ذلك للخطباء، و ذكروا اسم الخليفة فى الخطبة فقط.

و كان الأمير شيخ قبل قدوم جكم إلى دمشق أفرج عن السلطان أحمد بن أويس صاحب بغداد من سجن دمشق، و أنعم عليه بمائة ألف درهم فضة و ثلاثمائة فرس.

و أنعم أيضا على قرا يوسف بمائة ألف و ثلاثمائة فرس، و أخرج عدة كبيرة من أمراء مصر إلى جهة غزة [بعد أن حمل إلى كل منهم مائة ألف درهم فضة] و هم: الأمير تمراز الناصرىّ، و ابنه الأمير سودون بقجة، و سودون الحمزاوى،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١٢، ص: ٣١٥

و يلبغا الناصرى، و إينال حطب، و چاركس المصارع بعد أن حمل شيخ أيضا إلى كل منهم مائة ألف درهم فضة، و لم يتأخر بدمشق من أعيان الأمراء إلّا الأمير يشبك الدوادار و الأمير شيخ نائب الشام، و أقاما فى انتظار الأمير جكم [حتى قدم عليهما جكم] حسبما تقدّم ذكره، و بعد قدوم جكم أجمعوا على المسير إلى جهة مصر، و برزوا بالخيام إلى قبة يلبغا فى يوم رابع عشر ذى القعدة.

ثم خرج الأمير شيخ و الأمير يشبك و قرا يوسف من دمشق فى يوم عشرينه و ساروا إلى الخربة فافترقوا منها. فتوجه يشبك و قرا يوسف إلى صفد لقتال نائبها بكتمر جلق ثانيا، فإنه بلغهم أنه مستمر على طاعة السلطان. و توجه شيخ إلى قلعة الصّبيبة و بها ذخائره و

حريمه.

فلما بلغ بكتمر جلق مجيء العسكر لقتاله استعد هو أيضا لقتالهم، و قد قوى قلبه، فإنه بلغه أن علّان نائب حماة دخل فى طاعة السلطان و خالف الأمراء، و كذلك شيخ السليمانى المسرطن نائب طرابلس، فإنه دخل فى طاعة السلطان، و استولى على طرابلس و استفحل أمره، و أن الأمير شيخا السليمانى نائب طرابلس بعد أخذ طرابلس قدم عليه البريد بولاية قانى باى على طرابلس، فخرج منها شيخ السليمانى إلى حماة، فأشار عليه علّان نائب حماة أنه لا يسلّم طرابلس لقانى باى حتى يراجع السلطان و يعلمه بما يترتب على عزله من الفساد، فعاد شيخ إلى طرابلس، فبهذه الأخبار ثبت بكتمر جلق على طاعة السلطان و قتال الأمراء.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۳۱۶

و لما قارب يشبك، و قرا يوسف صفد أخرج بكتمر كشّافته بين يديه، و نزل جسر يعقوب، فالتقى كشافته بأصحاب يشبك و قرا يوسف، فاقتتلوا قتالا شديدا ظهر فيه الصفديون، و أخذوا من الشاميين عشرة أفراس، فعاد يشبك و قرا يوسف إلى طبرية، و نزلوا بها حتى قدم عليهم الأمير شيخ نائب الشام.

ثم ساروا جميعا إلى غزة، و قد تقدّمهم الأمير جكم و نزل على الرملة.

و أما أمراء الديار المصرية فإن السلطان الملك الناصر لما تحقق اتفاق الأمير شيخ المحمودى نائب الشام مع يشبك و رفقته، و بلغه أخبارهم مفصّلا، استشار الأمراء فى أمرهم فأجمعوا على خروج السلطان لقتالهم، فتجهّز السلطان، و علّق جاليش السفر فى ثانى ذى القعدة بالطبلخاناة السلطانية على العادة.

ثم أنفق فى رابعه على المماليك السلطانية على كل مملوك خمسة آلاف درهم.

و كان صرف الذهب يوم ذاك مائة درهم المثقال، فصرف لكل واحد منهم تسعة و أربعين مثقالا و احتاج السلطان فى النفقة المذكورة حتى اقترض من مال أيتام الأمير قلمطاى الدوادار عشرة آلاف مثقال، و رهن عندهم جوهرا، و جعل كسب ذلك ألف دينار و مائتى دينار، و أخذ منهم أيضا نحو ستة عشر ألف مثقال و باعهم بها بلدة من أعمال الجيزة تسمى البراجيل، و أخذ من [تركة] التاجر برهان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۳۱۷

الدين المحلّى و غيره مالا كثيرا، و وزّع له قاضى القضاة شمس الدين الأخنائى الشافعى خمسمائة ألف درهم على تركات خارجة عن المودع، و كانت نفقة السلطان على خمسة آلاف مملوك.

ثم عزل السلطان الأخنائى عن قضاء الشافعية بقاضى القضاة جلال الدين عبد الرحمن البلقينى، و عزل ابن خلدون بقاضى القضاة جمال الدين يوسف البساطىّ المالكى.

ثم قدم الخبر على السلطان بنزول الأمراء على مدينة غزة، و أخذهم الإقامات المجهّزة للعساكر السلطانية.

و كانت غزة قد غلابها الأسعار لقلّة الأمطار، و بلغت الويبة القمح مائة و عشرين درهما، فعند ذلك جد السلطان الملك الناصر فى حركة السفر، و الاستعداد للحرب.

و أما أمر الأمراء فإنه خرج جاليشهم من مدينة غزة إلى جهة الديار المصرية فى يوم الأحد ثانى ذى الحجة.

ثم سار من الغد الأمير شيخ و يشبك و جكم ببقية عساكرهم، و استنابوا بغزة الأمير ألطنبغا العثمانى.

ثم قدم الخبر على جناح الطير من بلبيس بنزول الأمراء على قطيا، فكثرت حركات العسكر بالقاهرة، و خرجت مدوّرة السلطان إلى الرّيدانيّة خارج القاهرة، و اختبط العسكر و اضطرب لسرعة السفر.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۳۱۸

ثم ركب السلطان من قلعة الجبل بأمرائه و عساكره فى يوم السبت ثامن ذى الحجة من سنة سبع و ثمانمائة، و سار حتى نزل بالريدانية

خارج القاهرة، و بات بها، و قد أقام من الأمراء بباب السلسلة بكتمر الركنى رأس نوبة الأمراء و جماعة أخر بالقاهرة.

و بينما السلطان بالريدانية ورد عليه الخبر بنزول الأمراء بالصالحية فى يوم التّروية و أخذوا ما كان بها من الإقامات السلطانية، فرحل السلطان من الريدانية فى يوم الأحد تاسعه، و نزل العكرشة، ثم سار منها ليلا، و أصبح ببلبيس و ضحّى بها، و أقام عليها يومى الاثنين و الثلاثاء، و رحل من مدينة بلبيس بكرة نهار الأربعاء، و نزل على منزلة السعيدية، فأتاه كتب الأمراء الثلاثة، و هم: جكم، و شيخ، و يشبك بأن سبب حركتهم ما جرى بين الأمير يشبك و بين إينال باى بن قجماس، و طلبوا منه أن يخرج إينال باى المذكور و دمرداش المحمدى نائب حلب من مصر، و أن يعطى لكلّ من يشبك و جكم و شيخ و من معهم بمصر و الشام ما يليق بهم من النيابات و الإقطاعات لتخمد هذه الفتنة باستمرارهم على الطاعة، و لحقن الدماء و يعمر بذلك ملك السلطان، و إن لم يكن ذلك تلفت أرواح كثيرة، و خرّبت بيوت عديدة.

و كانوا أرادوا هذه المكاتبة من الشام، و لكن خشوا أن يظنّ بهم العجز، فإنه ما منهم إلا من جعل الموت نصب عينيه، فلم يلتفت السلطان إلى ذلك، و لم يأمر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۳۱۹

بكتابة جواب لهم، و كان ذلك مكيدة من الأمراء حتى كبسوا على السلطان فى ليلة الخميس و هم فى نحو ثلاثة آلاف فارس و أربعمائة تركمانى من أصحاب قرا يوسف.

و بينما السلطان على منزلة السعيدية ورد الخبر على الوالد من بعض أصحابه ممن هو صحبة الأمراء، أن الأمراء اتفقوا على تبييت السلطان و الكبس عليه فى هذه الليلة، فأعلم الوالد السلطان و حرّضه على الركوب بعساكره من وقته، فمال إليه السلطان، فأخذ الأمير بيغوت و غيره يستبعد ذلك، و لا زالوا بالسلطان حتى فتر عزمه عن الركوب، فعاد الوالد إلى وطاقه، و أمر جميع مماليكه بالركوب بآلة الحرب.

و بينما هو فى ذلك إذ ثارث غبرة عظيمة و هجّة فى الناس، و قبل أن يسأل السلطان عن الخبر طرقه الأمراء على حين غفلة، فركب السلطان فى الليل بمن معه و اقتتل الفريقان قتالا شديدا من بعد عشاء الآخرة إلى بعد نصف الليل، جرح فيه جماعة كثيرة من الطائفتين، و قتل الأمير صرق الظاهرى صبرا بين يدى الأمير شيخ المحمودى نائب الشام، لأن السلطان كان ولاه عوضه نائب الشام، و انهزم السلطان و ركب و سار عائدا على الهجن إلى جهة الديار المصرية، و معه سودون الطيار و سودون الأشقر، و ساقوا إلى أن وصلوا إلى القلعة، و تفرقت العساكر السلطانية و انهزموا و تركوا أثقالهم و خيامهم، و سائر أموالهم غنمها الشاميون، و وقع فى قبضة الأمراء من المصريين الخليفة و القضاة، و الأمير شاهين الأفرم، و الأمير خير بك نائب غزة، و نحو ثلاثمائة مملوك من المماليك السلطانية و غيرهم، و قدم المنهزمون من السلطانية إلى القاهرة فى يوم الخميس ثالث عشر ذى الحجة، و لم يحضر السلطان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۳۲۰

و لا الأمراء الكبار، فكثر الإرجاف و ماج الناس، و انتهبت عدة حوانيت حتى قدم السلطان قريب العصر و معه الأمراء، و قد قاسى من [مرّ] العطش و التعب مالا يوصف، فسر الناس بقدومه، و طلع إليه الأمراء و العساكر و باتوا تلك الليلة، و أصبح السلطان يتهيأ للقاء الأمراء، و قبض على يلبغا السالمىّ و سلّمه لجمال الدين البيرىّ الأستادار، فعاقبه و صادره، و شرع أمر السلطان كل يوم فى زيادة لعدم قدوم العسكر الشامى إلى القاهرة.

فلما كان آخر نهار الأحد نزلت الأمراء بالريدانية خارج القاهرة.

ثم أصبحوا فى بكرة نهار الاثنين ركبوا و زحفوا على القاهرة، فأغلقت أبواب المدينة و تعطلت الأسواق عن المعايش، و مشوا حتى وصلوا قريبا من دار الضيافة بالقرب من قلعة الجبل، فقاتلهم السلطانية من بكرة نهار الاثنين المذكور إلى بعد الظهر، فلما أذّن الظهر أقبل جماعة كثيرة من الأمراء إلى جهة السلطان طائعين: منهم الأمير يلبغا الناصرى، و آسنباى أمير ميسرة الشام المعروف بالتركمانى، و

سودون اليوسفى، و إينال حطب، و جمق، فلما وقع ذلك اختل أمر الأمراء، و عزم جماعة منهم على العود إلى البلاد الشامية فحمل ما خف من أثقاله و عاد، و فعل ذلك جماعة كبيرة بعد أن أفرج شيخ عن الخليفة و القضاة و غيرهم، فتسلّل عند ذلك الأمير يشبك الشعبانى الدوادار، و الأمير تمراز الناصرى أمير سلاح، و الأمير جاركس القاسمى المصارع، و الأمير قطلوبغا الكركى فى جماعة أخر، و اختفوا بالقاهرة و ظواهرها.

فلما وقع ذلك ولى الأمير جكم و الأمير شيخ و الأمير طولو و قرا يوسف فى طائفة يسيرة، و قصدوا البلاد الشأمية، فلم يتبعهم أحد من عسكر السلطان.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۳۲۱

ثم نادى السلطان بالأمان لكل أحد، فطلع إليه جماعة، فقبض عليهم و قيّدهم و بعث بهم إلى سجن الإسكندرية، و خمدت الفتنة، و انجلت هذه الواقعة عن إتلاف مال كثير من العسكرين، ذهب فيها من الخيل و البغال و الجمال و السلاح و الثياب ما لا يدخل تحت حصر من غير فائدة.

ثم أخذ الملك الناصر فى تمهيد أمور دولته و إصلاح الدولة و المفرد، فقبض على الصاحب تاج الدين بن البقرى، و سلّمه لجمال الدين الأستادار، و استقرّ عوضه فى الوزارة فخر الدين ماجد بن غراب.

و كان أخوه سعد الدين إبراهيم بن غراب مع العسكر الشامى، فلما قدم معهم اختفى بالقاهرة، ثم ترامى على الأمير إينال باى بن قجماس، فجمع بينه و بين السلطان ليلا، و وعده بستين ألف دينار.

و أصبح يوم الأربعاء تاسع عشر ذى الحجة طلع سعد الدين بن غراب إلى القلعة فخلع عليه السلطان و جعله مشيرا.

ثم فى ثالث عشرينه خلع السلطان على الأمير نوروز الحافظى، و كان ممن قدم مع العسكر، باستقراره فى نيابة دمشق عوضا عن الأمير شيخ المحمودى، و على بكتمر جلّق باستقراره على نيابة صفد، و على سلامش حاجب غزّة بنيابة غزّة.

و أما جكم و شيخ فإنهما قدما غزّة فى نحو خمسمائة فارس أكثرهم من التركمان أصحاب قرا يوسف، و قد غنموا شيئا كثيرا، و تفرّقت عساكر شيخ، و تلفت أمواله و خيوله، و مضى إلى دمشق، فخرج إليه الأمير بكتمر جلق و الأمير شيخ السليمانى المسرطن نائب طرابلس، فهرب منهما، فتتبّعاه إلى عقبة فيق، فنجا بنفسه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۳۲۲

فلم يدركاه، و دخل دمشق و هو فى أسوأ حال، فوجد السلطان أحمد بن أويس صاحب بغداد قد فرّ من دمشق إلى جهة بلاده فى ليلة الأحد سادس عشر ذى الحجة، و كان قد تأخر بدمشق و لم يتوجه إلى نحو الديار المصرية صحبة الأمراء.

ثم إن شيخا أوقع الحوطة على بيوت الأمراء الذين خامروا عليه و توجهوا إلى مصر، و أخذ فى إصلاح أمره و لمّ شعثه.

و أما جكم فإنه لما فارق حلب كان بها عدّة من أمرائها، و رفعوا سنجق السلطان بقلعة حلب، فاجتمع إليهم العسكر، فحلف بعضهم لبعض على طاعة السلطان و قدم ابنا شهدى الحاجب و نائب القلعة من عند التركمان البياضية إلى حلب، و قام بتدبير أمور حلب الأمير يونس الحافظى، و امتدت أيدى عرب العجل ابن نعير و تراكمين ابن صاحب الباز إلى معاملة حلب، فقسموها، و لم يدعوا لأحد من الأمراء و الأجناد شيئا، كل ذلك قبل قدوم جكم إليها من مصر.

و أما السلطان فإنه رسم فى أواخر ذى الحجة بانتقال الأمير علّان اليحياوى نائب حماة إلى نيابة حلب عوضا عن جكم، و حمل إليه التقليد و التشريف الأمير إينال الخازندار، و استقرّ الأمير دقماق المحمدى فى نيابة حماة عوضا عن علّان المذكور، و استقرّ الأمير بكتمرجلق نائب صفد فى نيابة طرابلس عوضا عن شيخ السليمانى المسرطن، و توجه بتقليده الأمير جرباش العمرى، و استقر عوضه فى نيابة صفد الأمير بكتمر الركنى رأس نوبة الأمراء درجة إلى أسفل.

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۰۸]

ثم فی ثالث المحرم سنة ثمان و ثمانمائة قدم مبشر الحاج و أخبر بأنه كان أشيع بمكة المشرفة قدوم تيمور لنك إليها، فاستعد صاحب مكة لذلک، فلم يصحّ ما أشيع.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۳۲۳

ثم قدم رسل الأمير شيخ نائب الشام إلى السلطان بديار مصر، و هم شهاب الدين أحمد بن حجّى أحد خلفاء الحكم بدمشق، و الشريف ناصر الدين محمد بن على نقيب الأشراف، و الشيخ المعتقد محمد بن قويدار، و الأمير يلبغا المنجكى، و معهم كتبه تتضمن الترقق و الاعتذار عما وقع منه، و تسأل استقراره على عادته فی نيابة دمشق، فلم يلتفت السلطان إلى قوله، و منع رسله من الاجتماع بأحد.

ثم فی رابع عشرين المحرم سار الأمير نوروز الحافظى إلى نيابة دمشق و خرج الأمراء لوداعه، و نزل بالريدانية و معه متسفرّه الأمير برد بک الخازندار.

ثم وقعت الوحشة بين السلطان و بين الأمير إينال باى بن قجماس الأمير آخور، فقبض السلطان فی يوم الاثنين سادس صفر على الأمير يشبک بن أزدمر رأس نوبة النوب، و على الأمير تمر، و على الأمير سودون، و هما من إخوة سودون طاز، فاختفى الأمير إينال باى أمير آخور و معه الأمير سودون الجلب، و أحاط السلطان بدورهم، ثم قيّد الأمراء و أرسلهم إلى سجن الإسكندرية.

و أما إينال باى فإنه دار على جماعة من الأمراء ليركبوا معه، فلم يؤهّله أحد لذلک، فاختفى إلى يوم الجمعة عاشره، فظهر، و طلع به الأتابک بيبرس إلى القلعة، فكثر الكلام بين الأمراء حتى آل الأمر إلى مسک إينال باى و إرساله إلى ثغر دمياط بطّالا.

ثم فی خامس عشرين صفر فرّق السلطان إقطاعات الأمراء الممسوكين، فأنعم بإقطاع إينال باى على الوالد، و زاده إمرة طلبخاناه، و أنعم بإقطاع الوالد على الأمير دمرداش المحمدى نائب حلب كان، و بإقطاع دمرداش على الأمير أزبک الإبراهيمى.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۳۲۴

و جميع هذه الإقطاعات تقادم ألوف، لكن شيئا أحسن من شیء فی كثرة المغلّ.

و أنعم على الأمير بيبرس الصغير الدوادار بتقدمة ألف قبل أن تكمل لحيته، و على الأمير بشباى الحاجب بتقدمة ألف، و على الأمير علّان بتقدمة ألف، و على الأمير قراجا بإمرة عشرين، و أنعم بطبلخانات سودون الجلب على الأمير أيتمش الشعبانى.

ثم أخلع على الأمير جرباش الشيخى رأس نوبة ثانى باستقراره أمير آخورا كبيرا عوضا عن إينال باى.

و أما الأمير شيخ فإنه توجه صحبة الأمير جكم و قرا يوسف لحرب نعير.

ثم اختلفوا، فمضى جكم إلى طرابلس، و توجه قرا يوسف إلى جهة الشرق عائدا إلى بلاده، و عاد الأمير شيخ من البقاع و نزل سطح المزّة و معه خواصّه فقط.

ثم توجه إلى الصّبيبة هاربا من نوروز الحافظى، فدخل نوروز إلى دمشق فی يوم الثلاثاء ثانى عشرين صفر من غير مدافع لضعف الأمير شيخ عن مقاومته و قتاله.

و أما السلطان، فإنه أخلع على الأمير بشباى الحاجب باستقراره رأس نوبة النوب عوضا عن يشبک بن أزدمر، و أخلع على الأمير أرسطاى باستقراره حاجب الحجّاب بعد بشباى.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۳۲۵

ثم فی يوم الثلاثاء وقع بالديار المصرية فتنة، و كثر الكلام بين الأمراء إلى أن اتفق جماعة من المماليک الجركسية و سألوا السلطان القبض على الوالد و على الأمير دمرداش المحمدى، و على الأمير أرغون من بشبغا و جماعة أخر من كون السلطان اختص بهم، و تزوّج بكريمتى على كره من الوالد، و كونه أيضا أعرض عن الجراكسة و أمسک إينال باى، فخافوا أن تقوى شوكة هؤلاء عليهم، و

اتفقوا و اجتمعوا على الأتابك بيبرس، و تأخروا عن الخدمة السلطانية، و كثر كلام القوم فى ذلك إلى أن طلب السلطان الأمراء و استشارهم فيما يفعل، فقال له دمرداش:

المصلحة [تقتضى] قتالهم، و أنا كفء هؤلاء الچراكسة، و السلطان لا يتحرك من مجلسه فنهره الوالد و قال له ما معناه: نقاتل من؟ نقاتل خشداشيّتك، كلّنا مماليك السلطان و مماليك أبيه مهما شاء السلطان فعل فينا و فيهم.

هذا و قد ظهر الملل على السلطان من كثرة الفتن، و لحظ الوالد منه ذلك، فإنه قال فيما بعد: سمعته يقول فى ذلك اليوم: وددت لو كنت كما كنت و لا أكون سلطانا.

ثم أمر السلطان الوالد أن يختفى حتى ينظر السلطان فى مصلحته، و أمر دمرداش أيضا بذلك، و انفض المجلس من غير إبرام أمر.

ثم أصبح الناس يوم الأربعاء سابع شهر ربيع الأول من سنة ثمان المذكورة، و قد ظهر الأمير يشبك الشعبانى الدوادار، و الأمير تمراز الناصرى أمير سلاح، و الأمير جاركس القاسمى المصارع، و الأمير قانى باى العلائى، و كانوا مختفين بالقاهرة من يوم واقعة السعيدية.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۳۲۶

و خبر ظهورهم أن الأتابك بيبرس ركب إلى السلطان، و أخبره بمواضع الأمراء المذكورين، و وافقه على مصالحة الچراكسة و إحضار الأمراء من اختفائهم، و الإفراج عن إينال باى و غيره، فرضى السلطان بذلك، و تقرر الحال على ذلك، و طلع الأمراء المذكورون من الغد فى يوم الخميس ثامن شهر ربيع الأوّل المذكور، فأخلع السلطان على الأمير سودون المحمّدى باستقراره أمير آخورا كبيرا عوضا عن جرباش الشيخى، و عوده إلى إقطاعه إمرة طبلخاناة و وظيفته رأس نوبة.

ثم فى عاشره طلع الأمير يشبك الدوادار و الأمير تمراز الناصرى أمير سلاح و الأمير جاركس القاسمى المصارع و جماعة أخر إلى القلعة، و قبّلوا الأرض بين يدى السلطان، فأخلع عليهم خلع الرضا، و نزل كل واحد إلى داره.

ثم فى خامس عشرة قدم الأمير قطلوبغا الكركى، و إينال حطب، و سودون الحمزاوى، و يلبغا الناصرى، و أسندمر الناصرى، و تمر من سجن الإسكندرية، و هؤلاء الذين كان السلطان نادى لهم بالأمان بعد وقعة السعيدية، فلما طلعوا له قبض عليهم و سجنهم بالإسكندرية و هم رفقة يشبك و شيخ و چكم.

ثم قدم الأمير إينال باى بن قجماس من ثغر دمياط و معه تمان تمر الناصرى.

ثم قدم الأمير يشبك بن أزدمر أيضا من سجن الإسكندرية.

ثم أمسك السلطان القاضى فتح الدين فتح اللّه كاتب السرّ، و ولّى عوضه سعد الدين إبراهيم بن غراب، و ألزم فتح الدين بحمل ألف ألف درهم.

ثم ظهر الأمير دمرداش [نائب حلب] من اختفائه، فأخلع السلطان عليه نيابة غزّة، فسار فى يوم السبت رابع عشرينه، و خلع السلطان أيضا على يشبك بن

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۳۲۷

أزدمر بنيابة ملطيّة، فامتنع من ذلك، فأكره حتى لبس الخلعة، و وكّل به الأمير أرسطاى الحاجب و الأمير محمد بن جلبان الحاجب حتى أخرجاه من فوره إلى ظاهر القاهرة.

ثم بعث السلطان إلى الأمير أزبك الإبراهيمى الظاهرى المعروف بخاص خرجى،- و كان تأخّر عن طلوع الخدمة- بأن يستقرّ فى نيابة طرسوس، فأبى أن يقبل و التجأ إلى بيت الأمير إينال باى، فاجتمع طائفة من المماليك و مضوا إلى يشبك بن أزدمر، و ردّوه فى ليلة الجمعة ثالث عشرين شهر ربيع الأوّل و قد وصل قريبا من سرياقوس، و ضربوا الحاجب المرسّم عليه، و صار العسكر فرقتين، و أظهر المماليك الچراكسة الخلاف، و وقفوا تحت القلعة يمنعون من يقصد الطلوع إلى السلطان، و جلس الأتابك بيبرس بجماعة من الأمراء فى بيته، و صار السلطان بالقلعة و عنده عدّة أمراء، و تمادى الحال على ذلك يوم الخميس و الجمعة و السبت و السقالة بينهم.

فلما کان یوم السبت نزل السلطان من القلعة إلی باب السلسلة، و اجتمع عنده بعض الأمراء لإصلاح الأمر، فلم یفد ذلک، و باتوا علی ما هم علیه، و أصبحوا یوم الأحد خامس عشرینه و قد کثروا و طلبوا من السلطان الوالد أرغون من بشبغا.

و کان الوالد قد ظهر من یوم أخرج دمرداش إلی نیابة غزة، فلم یستجر أحد یتکلم فی خروجه من القاهرة، و استمر علی إمرته، فأبی الملک الناصر أن یرسله إلیهم،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۳۲۸

فقال الوالد: هذا أمر یطول، و لا بدّ من النزول، فنزل إلیهم و معه أرغون، و کلّم الأمراء فی سبب طلبهم إیاه، و خشّن للأتابک بیبرس فی القول، فإنه کان مسفّر الوالد لما ولی نیابة حلب فی أیام الملک الظاهر برقوق، فلم یتکلّم بیبرس و لا غیره بکلمة واحدة، و سکت الجمیع.

فلما طال المجلس قال الوالد: ما تتکلموا، فعندها تکلّم شخص من الخاصکیة الظاهریة یقال له: قرمش الأعور، و هو الذی قطع رأسه فی دولة الملک الأشرف برسبای من أجل جانی بک الصوفی حسبما یأتی ذکره، و قال قرمش: یاخوند، المقصود أنک تخرج من الدیار المصریة حتی تسکن هذه الفتنة، ثم تعود بعد أیام أو یعطیک السلطان ما تختار من البلاد. فقال الوالد: بسم اللّه حتی أشاور السلطان ثم أسافر، و خرج فلم یجرؤ أحد أن یقبضه و لا یرسّم علیه، و عاد إلی بیته و لم یطلع إلی السلطان.

و کان سکنه بالبیت الذی بباب الرّمیلة تجاه مصلّاة المؤمنیّ، و أقام به یومه و تجهّز و خرج فی اللیل فی نحو مائة مملوک من خواصّه، فلم یقف له أحد علی خبر، و سار من البرّیة إلی القدس الشریف فی دون الخمسة أیام، و لم یجتز بقطیا خوفا من تسلیط العربان علیه.

و کان لما خرج من بیت بیبرس أرسل إلیه السلطان یعلمه أنه أیضا یرید یختفی و یترک السلطنة، فلهذا جدّ الوالد فی السیر لئلا یخرج القوم فی أثره و یقبضون علیه.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۳۲۹

فلما کان وقت الظهر من یوم خروج الوالد من مصر و هو یوم الأحد خامس عشرین شهر ربیع الأوّل فقد السلطان الملک الناصر فرج بن برقوق من قلعة الجبل و لم یعرف له خبر.

و سبب ترکه السلطنة أنه کان فی یوم النوروز جلس السلطان مع جماعة من الأمراء و الخاصکیة من ممالیک أبیه، و شرب معهم حتی سکر، ثم ألقی بنفسه إلی فسقیّة هناک، فألقی الجماعة أنفسهم معه، و قد غلب علی السلطان السکر، و صار یسبح معهم فی الماء و یمازحهم، و ترک الوقار، فجاء من خلفه الأمیر أزبک الإبراهیمی المعروف بخاصّ خرجی، و قیل غیره، و أزبک الأشقر، و أغمّه فی الماء مرارا و هو یمرق من تحته کأنه یمازحه حتی قبض علیه و غرّقه فی الماء حتی کادت نفسه تزهق، ففطن به بعض ممالیک أبیه من الأروام ممن کان معهم أیضا فی الفسقیة، و خلّصه منه، و أفحش فی سبّ أزبک المذکور، و أراد قتله، فمنعه السلطان من ذلک، و قال: کان یلعب معی، و أسرّها فی نفسه.

ثم طلع السلطان من الفسقیّة، و ذهب کل واحد إلی حال سبیله، فذکر السلطان بعد ذلک للوالد ما وقع له مع أزبک المذکور، و أمره أن یکتم ذلک لوقته، فأخذ الوالد یزوّل عنه ذلک و یهوّنه علیه.

ثم عرّف السلطان جماعة من أکابر أمراء الجراکسة بذلک، فلم یلتفتوا لقوله و قالوا: لم یرد بذلک إلّا مباسطة السلطان، فعند ذلک تحقّق السلطان أنهم یریدون قتله، و کان ذلک بعد خروج الأمراء من السجن و ظهور یشبک و رفقته، و قد کثروا و عظم جمعهم، فلم یجد الملک الناصر بدّا من أن یفوز بنفسه و یترک لهم ملک مصر.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۳۳۰

و لما أراد النزول من القلعة لیختفی بالقاهرة قام و معه بکتمر مملوک القاضی سعد الدین بن غراب، و یوسف بن قطلوبک صهر ابن غراب، و نزلوا من باب السرّ الذی یلی القرافة، و ساروا علی برکة الحبش، و نزلوا منها فی مرکب، و ترکوا الخیل و تغیّبوا نهارهم کلّه

فى البحر حتى دخل الليل، فساروا بالمركب إلى بيت سعد الدين ابن غراب و هو فيما بين الخليج و بركة الفيل بالقرب من قنطرة طقزدمر، فلم يجدوه فى داره، فمروا على أقدامهم حتى باتوا فى بيت بالقاهرة لبعض معارف بكتمر.

ثم بعثوا لابن غراب بمجىء السلطان إلى عنده، فهيأ له سعد الدين مكانا من داره، و أنزله فيه من غير أن يعلم أحد به.

و أما الأمراء، فإنه لمّا بلغهم ذهاب السلطان الملك الناصر [خرج المذكور] فى يوم الأحد خامس عشرين شهر ربيع الأوّل من سنة ثمان و ثمانمائة، بادروا بالطلوع إلى القلعة، و هم طائفتان: الطائفة التى كانت خالفت السلطان الملك الناصر، و ركبوا عليه و قاتلوه أياما، ثم توجهوا إلى الشام و عادوا إلى الديار المصرية و صحبتهم جكم و شيخ و قرا يوسف و واقعوه بالسعيدية، و كسروه. ثم اختفوا؛ و رأسهم يشبك الشعبانى الدوادار بمن كان معه من الأمراء و قد مر ذكرهم فى عدّة مواضع، و الطائفة الأخرى كبيرهم بيبرس الأتابك، و سودون الماردانى الدوادار الكبير، و إينال باى و غيرهم.

فلما طلعوا الجميع إلى القلعة، منعهم الأمير سودون تلى المحمدى الأمير آخور الكبير من الطلوع إلى القلعة، فصاروا يتضرّعون إليه من نصف النهار إلى بعد

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۲، ص: ۳۳۱

غروب الشمس، حتى مكّنهم من العبور من باب السلسلة، فطلعوا و معهم الخليفة المتوكل على اللّه و القضاة الأربعة، و تكلموا فيمن ينصّبوه سلطانا، حتى اتّفقوا على سلطنة الأمير عبد العزيز بن الملك الظاهر برقوق، فإنه ولى عهد أخيه فى السلطنة حسبما قرّره والده الملك الظاهر برقوق قبل وفاته، فطلبوه من الدّور السلطانية، فمنعته أمه خوند قنّق باى أوّلا، ثم دفعته لهم فأحضروه، و تم أمره، و تسلطن حسبما نذكره فى محلّه من ترجمته، و خلع الملك الناصر فرج من السلطنة و سنّه نحو سبع عشرة سنة تخمينا، فكانت مدّة تحكم الملك الناصر على مصر من يوم مات أبوه الملك الظاهر برقوق إلى يوم خلع ست سنين و خمسة أشهر و أحد عشر يوما [و اللّه أعلم].

«انتهى الجزء الثانى عشر من النجوم الزاهرة، و يليه إن شاء اللّه تعالى الجزء الثالث عشر، و أوّله: السنة الأولى من سلطنة الملك الناصر فرج بن الظاهر برقوق الأولى على مصر».

[الجزء الثالث عشر]

اشارة

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم

تقديم

كتاب النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة لأبى المحاسن يوسف بن تغرى بردى المتوفى فى أخريات سنة أربع و سبعين و ثمانمائة هجرية من الكتب القلائل التى جعلت الأحداث فى مصر و ما يدور فى فلكها من الأقاليم و الأطراف مدار بحثها، إلا أنه ينفرد من بينها بأنه أجمعها و أسلسها لغة، و أبعدها عن الحشو، و أكثرها تنظيما، و أشدها اهتماما بألوان الحضارة المختلفة و تطورها على مدارج التاريخ فى الدولة العربية.

ثم هو يعدّ فى أجزائه من الأوّل إلى الثانى عشر- و هى التى تعالج الحقبة التاريخية من سنة عشرين من الهجرة إلى سنة إحدى و ثمانمائة- واسطة بين الكتب و الموسوعات التاريخية التى اهتمت بمعالجة الأحداث فى تلك الحقبة، فهو و إن اعتمد عليها فى تأليف مادته فإنه تميز عليها فى كثير من المواطن بأحكامه الصادقة و استنباطاته السليمة. ثم هو فيما بعد ذلك إلى سنة اثنتين و سبعين و

ثمانمائة من الهجرة يعتبر عمدة فى تاريخ مصر و الأطراف إذا ما قورن بغيره من الكتب التى تعرضت لأحداث ما بعد السنة الحادية و الثمانمائة من الهجرة.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، مقدمةج۱۳، ص: ۲

و من هنا لقى هذا الكتاب اهتماما بالغا من العلماء العرب و المستشرقين ابتداء من سنة ۱۸۵۵ م قشروا منه أجزاء تكاد تشمله كله. و من قبل أمر السلطان سليم الأول العثمانى بترجمته إلى اللغة التركية. بل ترجم إلى اللغة اللاتينية و غيرها.

و كان لاهتمام القسم الأدبى بدار الكتب بتحقيق أجزاء منه و نشرها فضل كبير فى تيسير الاستفادة به، و لقد بدأ فى نشره سنة ۱۹۲۹ م ثم توقف عن الاستمرار فى نشره بعد أن أخرج الجزء الثانى عشر سنة ۱۹۵۶ م.

ثم أخذت المؤسسة المصرية العامة للتأليف و الترجمة و الطباعة و النشر على عاتقها مسئولية تحقيق الأجزاء الأربعة الباقية منه و التى لم يسبق نشرها فى مصروفنا للمنهج الذى نهجه القسم الأدبى.

و أسند تحقيق هذا الجزء الثالث عشر إلى العالم الجليل الأستاذ/ حسن عبد الوهاب و لكنه توفى إلى رحمة اللّه قبل أن يبدأ فى التحقيق، و تعثرت بقية الأجزاء أيضا فى مرحلة التحقيق لأسباب مختلفة.

و لما توليت منصب رئيس مجلس إدارة المؤسسة، و أطل علينا عام الاحتفالات بالعيد الألفى لمدينة القاهرة وجهت اهتمامى إلى دفع الأجزاء الباقية فى مراحل التحقيق و النشر.

فأسندت المؤسسة تحقيق هذا الجزء الثالث عشر إلى الأستاذ/ فهيم محمد شلتوت، و طلبت منه أن يفرغ جهده كله لتحقيقه و عمل فهارسه بحيث يكون بداية فى طبع الأجزاء الأربعة الباقية. و قد قام السيد/ المحقق بواجبه فى إخلاص و أمانة و أنجز التحقيق و الفهارس على خير وجه.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، مقدمةج۱۳، ص: ۳

و الجزء الثالث عشر هذا يعالج حقبة من تاريخ العالم العربى و الأطراف الدائرة فى فلكه، و هى حقبة سلطنة الملك الناصر فرج بن برقوق (۸۰۱ ه- ۸۱۵ ه) و ما تخللها من سلطنة أخيه الملك المنصور عبد العزيز. ثم سلطنة الخليفة المستعين بالله العباس، و قد شهدت فيها مصر و ما والاها أحداثا لم تشهد مثلها من قبل.

شهدت فيها غزو تيمورلنک لسوريا (۸۰۲- ۸۰۳ ه) و ما كان من عجز السلطان و ولاته عن دفع هذا الغزو، ثم ما كان من تلک المذابح التى تميز بها الغزو التترى المغولى و التى لم يسجل مثلها التاريخ بشاعة و قسوة.

و شهدت هذه الحقبة أيضا أسوأ صورة للخلاف و الصراع بين سلطان و كبار رجال دولته بحيث فنى كثير منهم تحت عقوبته و بحد سيفه. و مع ذلک استمروا فى صراعه حتى تغلبوا عليه و قتلوه بقلعة دمشق سنة ۸۱۵ ه.

و شهدت فيها قيضاصور فن النيل (۸۰۶- ۸۰۷ ه) مما أدى إلى الجدب العظيم الذى شمل البلاد و أصابها بسنة من السنين العجاف التى حلت بالدولة الإسلامية على مدارج التاريخ.

و شهدت هذه الفترة أيضا انتشار الطاعون (۸۰۸ ه، ۸۱۳ ه) و الموتان المنتشر بين السكان شرقا و غربا و شمالا و جنوبا.

كما شهدت الغلاء الفاحش و الفقر المدقع و الجوع الشامل.

و انعكس أثر ذلک كله فى الحياة السياسية و الاقتصادية و العمرانية ففسدت الأحوال و تولى الأمور من لا يحسن أداءها، و توصل كل طالب وظيفة إليها بالرشوة و البذل، ثم تسلط بعد ذلک على رقاب ذوى الحرف و التجار و الزراع يفرض عليهم أنواع الضرائب و الإتاوات، و لا يكف عن طلبها و لا يعف

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، مقدمةج۱۳، ص: ۴

فى تحصيلها، و ابتلى أهل الريف خاصة بكثرة المغارم و تنوّع المظالم، فاختلت أحوالهم، و جلوا عن أوطانهم.

و کما یقول تقی الدین المقریزی: «فاقتضی الحال من أجل ذلک ثورة أهل الریف، و انتشار الزّعّار و قطاع الطریق ... و تزایدت غباوة أهل الدولـة، و أعرضوا عن مصالح العباد ... ثم إن قوما ترقوا فی خدم الأمراء یتولّفون إلیهم بما جبوا من الأموال ... فأحبوا مزیدا من القربة منهم- و لا وسیلة أقرب إلیهم من المال- فتعدوا إلی الأراضی الجاریة فی إقطاعات الأمراء، و أحضروا مستأجریها من الفلاحین و زادوا فی مقادیر الأجر ... و جعلوا الزیادة دیدنهم فی کل عام حتی بلغ الفدان- لهذا العهد- نحوا من عشرة أمثاله قبل هذه الحوادث».

و لقد کان ذلک الخراب الذی نزل بالدیار المصریة، و قضی علی کثیر من المنشآت العمرانیة نتیجة للإهمال، و لاستحواز السلطان و بطانته علی أوقافها و توجیه أریاعها إلی مصارف أخری، و أصبح الحدیث عن سنة ۸۰۶ ه- فیما تلاها من الأزمان- یعطی صورة لأفدح ما أصیبت به الآثار العمرانیة- التی وصلت إلی قمة الفن المعماری للعصر المملوکی و الأیوبی و الفاطمی- من الهدم و الخراب و الاندثار.

و إنی إذ أقدم هذا الجزء الثالث عشر للقارئ فإننی أرجو أن یجد بقیة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، مقدمةج۱۳، ص: ۵

الأجزاء الأربعة من الکتاب بین یدیه تباعا بإذن اللّه، حیث إنه قد تم تحقیقها و أخذت طریقها إلی المطابع.

و لعل نشر هذه الأجزاء من هذا الکتاب یکون بمثابة تحیة من الهیئة المصریة العامة للتألیف و النشر للقاهرة فی عام أعیادها الألفیة.

و اللّه ولی التوفیق.

شوال سنة ۱۳۸۹ ه. دکتورة دیسمبر سنة ۱۹۶۹ م. سهیر القلماوی

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱

تراثنا النّجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة تألیف جمال الدین أبی المحاسن یوسف بن تغری بردی الاتابکی الجزء الثالث عشر تحقیق فهیم محمّد شلتوت الهیئة للمصریة العامة للتألیف و النشر ۱۳۸۹ ه- ۱۹۷۰ م

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۳

بسم اللّه الرحمن الرحیم و صلی اللّه علی سیدنا محمد و آله و صحبه و سلم

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۰۱]

السنة الأولی من سلطنة الملک الناصر فرج ابن الظاهر برقوق- الأولی علی مصر و هی سنة إحدی و ثمانمائة، علی أنّ والده الملک الظاهر برقوق حکم منها إلی نصف شوّال، ثمّ حکم فی باقیها الملک النّاصر هذا.

فیها توفّی قاضی القضاة عماد الدین أحمد بن عیسی بن سلیم بن جمیل الأزرقیّ العامریّ الکرکیّ الشافعیّ، قاضی قضاة الکرک، ثم الدّیار المصریة بالقدس فی سادس شهر ربیع الأوّل، و کان فاضلا رئیسا نبیلا، و هو أحد من قام مع الملک الظّاهر برقوق عند خروجه من سجن الکرک، و خدمه فی أیّام حبسه بها- و قد تقدّم ذکر ذلک کلّه فی ترجمة الملک الظّاهر برقوق- و لمّا عاد الملک الظّاهر إلی ملکه عرف له ذلک، و طلبه إلی الدّیار المصریّة، و ولّاه قضاء الشّافعیّة بالدّیار المصریّة، و ولّی أخاه علاء الدین کاتب سرّ الکرک کتابة سرّ مصر، ثم صرف القاضی

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۴

عماد الدین هذا عن القضاء برغبة منه، و ولی مشیخة الصلاحیة بالقدس الشّریف إلی أن مات به.

و توفّی الأمیر سیف الدین أرغون شاه بن عبد اللّه الإبراهیمیّ الظّاهریّ- یرقوق- نائب حلب بها، فی لیلة خامس عشرین صفر، و کان من أخصّاء ممالیک الملک الظّاهر برقوق؛ رقّاه إلی أن ولّاه نیابة صفد، ثم طرابلس، ثم تقله إلی نیابة حلب بعد عزل الوالد عنها فی

سنة ثمانمائة، فدام بها إلى أن مات، و كان أميرا عاقلا ساكنا، مشكور السيرة، و تولّى بعده نيابة حلب الأمير آقبغا الجمالى الأطروش.
و توفّى الأمير زين الدين أمير حاج بن مغلطاى، أحد الأمراء بالدّيار المصريّة.
فى شهر ربيع الأول، و كان له رياسة و وجاهة.
و توفّى الشيخ الإمام العلّامة قنبر بن محمد العجميّ السّيراميّ الشافعى، العالم المشهور بالقاهرة، فى شعبان، و كان قدومه إليها من بلاد العجم فى حدود سنة سبع و ثمانين و سبعمائة، و نزل بجامع الأزهر، و كان متفنّنا فى عدّة فنون من العلوم، درّس، و اشتغل، و انتفع به الطلبة، و كان تاركا للدّنيا، متقشّفا فى ملبسه، قد قنع بجبّة من لبد، و طاقيّة من لبد- صيفا و شتاء- و قال العينيّ بعدما أثنى على علمه: و كان يميل إلى سماع المغانى و اللّهو و الرقص، و كان يتّهم بالمسح على رجليه من غير خفّ - انتهى.
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۵
و توفّى الأمير سيف الدين بكلمش بن عبد اللّه العلائىّ. أمير سلاح كان- بطّالا- بالقدس فى صفر، و أصله من مماليك الأمير طيبغا الحسنىّ الناصرىّ، المعروف بالطويل، و ترقّى بعده حتى صار من جملة الأمراء، ثمّ أنعم عليه الملك الظاهر برقوق بإمرة طبلخاناة قبل خلعه من الملك، ثمّ جعله فى سلطنته الثانية أمير آخورا كبيرا مدّة سنين، ثمّ نقله- بعد أن أمسكه و حبسه- إلى إمرة سلاح، فدام على ذلك سنين إلى أن قبض عليه فى تاسع عشرين المحرم من سنة ثمانمائة، و قبض- معه أيضا- على الأمير الكبير كمشبغا الحموىّ، و حملا إلى سجن الإسكندرية، و تولّى الأمير آخورية بعده الأمير تنبك الظاهرى، فدام بكلمش هذا فى السجن إلى أن أفرج عنه، و بعثه إلى القدس بطّالا، فدام به إلى أن مات، و كان أميرا شجاعا مقداما، ذا كلمة نافذة فى الدولة، إلا أنه كان فيه كبر و جبروت، و خلق سيئ مع كرم و إنعام، و كان سبب القبض عليه أنّه ضرب موقّعه القاضى صفىّ الدين الدميرى و صادره، فشكا صفىّ الدين حاله إلى السلطان فى أبيات مدح السلطان فيها، و ذمّ بكلمش المذكور، من جملتها قوله:
يأكلنى ذئب و أنت ليث
فسمع بذلك بكلمش، فطلبه و ضربه ثانيا بالمقارع، و كلما ضربه رشّ عليه الملح، فكان كلّما صاح يقول له بكلمش قل للّيث يخلّصك من الذئب، فأقام بعد
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۶
ذلك مدة، و مات من تلك العقوبة، و بلغ السلطان ذلك فأمهله مدة ثم قبض عليه.
و فيها توفّى الأمير حسام الدين حسن الكجكنّىّ نائب الكرك، ثم أحد مقدمى الألوف بالديار المصرية، و هو الذى أخرج الملك الظاهر برقوق من سجن الكرك، و لما أرسل إليه منطاش الشهاب البريدىّ بقتله فقام حسام الدين هذا بنصرته، فلما عاد الملك الظاهر إلى ملكه كافأه و أنعم عليه بإمرة مائة، و تقدمة ألف بديار مصر، و صار من أعظم أمرائه إلى أن مات- رحمه اللّه- و كان عارفا، عاقلا، سيوسا، و عنده فضيلة، و فهم جيد و مذاكرة.
و توفّى الشيخ المعتقد خلف بن حسن بن حسين الطّوخى، فى ثانى عشرين شهر ربيع الأول، و كان للناس فيه اعتقاد و محبّة.
و توفّى الشيخ المعتقد الصالح خليل بن عثمان بن عبد الرحمن بن عبد الجليل المغربىّ، و يعرف بابن المشيّب، فى سادس عشرين شهر ربيع الأول.
و توفّى الشيخ الإمام العالم العامل شهاب الدين أبو العباس أحمد بن أبى بكر ابن محمد العبّادىّ الحنفىّ الفقيه المشهور، فى ليلة الأحد تاسع عشر شهر ربيع الآخر، و كان من فضلاء الحنفيّة، أفتى و درّس فى عدة فنون.
و توفّى الشيخ الإمام الأديب البليغ علاء الدين أبو الحسن علىّ بن أيبك [التقصباوى الناصرى] الدّمشقىّ الشاعر المشهور، فى ثالث عشر ربيع الأول بدمشق، و كان بارعا فى النّظم، و له شعر رائق، ذكرنا منه قطعة جيدة فى ترجمته فى
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۷

تاريخنا «المنهل الصافى و المستوفى بعد الوافى» و مولده فى سنة ثمان و عشرين و سبعمائة بدمشق، و من شعره- رحمه اللّه- قوله: (الكامل)

قم زفّ بنت الكرم ثمّ استجلها بكرا لها فى الكأس رأس أشمط

فالطّير شاد و النّسيم مشبّب و الغصن يرقص و الغمام ينقّط

و له أيضا: (الوافر)

كأنّ الرّاح لمّا راح يسعى بها فى الرّاح ميّاس القوام

سنا المرّيخ فى كفّ الثّريّا يحيّينا به بدر التّمام

و له الموشح المشهور الذى أوله:

يا من حكى خدّه الشّقائق و ماله فى اليها شقيق

تركتنى بالدموع شارق لمّا بدا خدّك الشّريق

سللت من ناظريک صارم للفتک يا شادن الصّريم

و سرت يوم الفراق سالم و قد تركت الحشا سليم

متى أراک الغداة قادم يا من حديثى به قديم

شيّبت من أجلک المفارق و سرت مع جملة الفريق

ما بين حاد حدا و سائق حملى بمن ساقه و سيق

و هو أطول من ذلک.

و توفّى العارف باللّه شمس الدين محمد بن أحمد بن علىّ، المعروف بابن نجم الصوفىّ بمكة المشرّفة، فى صفر بعد أن جاور بها عدة سنين.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۸

و توفّى الخليفة أمير المؤمنين المعتصم بالله زكريا بن إبراهيم بن محمد بن أحمد- و هو مخلوع من الخلافة- فى رابع عشرين جمادى الأولى، و قد تقدم ذكر ولايته للخلافة فى أيام أينبک البدرى، بعد قتل الملک الأشرف شعبان بن حسين فى سنة ثمان و سبعين و سبعمائة، ثم خلع حتى ولاه الملک الظاهر برقوق ثانيا بعد موت أخيه الواثق، فلم تطل مدته أيضا، و خلعه الملک الظاهر من الخلافة فى أول جمادى الأولى من سنة إحدى و تسعين و سبعمائة، و أعاد المتوكل على اللّه، فاستمرّ المعتصم هذا معزولا طول عمره إلى أن مات فى هذه السنة، و خلافته الأولى و الثانية لم تطل مدته فيهما- انتهى.

و توفّى الأمير سيف الدين شيخ بن عبد اللّه الصّفوىّ الخاصّكىّ، أمير مجلس، و هو مسجون بسجن المرقب، و كان ممن رقاه الملک الظّاهر برقوق إلى أن جعله أمير مائة و مقدّم ألف فى سلطنته الثانية، و جعله أمير مجلس، ثمّ قبض عليه فى سنة ثمانمائة، و أنعم بإقطاعه على الوالد بعد عزله عن نيابة حلب، و أخرجه الملک الظاهر إلى القدس بطّالا، فساءت سيرته بها، و كان مسرفا على نفسه منغمسا فى اللذات، فأمر الملک الظاهر به فنقل من القدس إلى حبس المرقب إلى أن مات به، قلت: و شيخ هذا هو أول أمير عظيم فى دولة الملک الظاهر برقوق ممن سمّى بهذا الاسم، ثم بعده شيخ المحمودىّ الساقىّ، أعنى الملک المؤيد، ثم بعده شيخ السّليمانىّ المسرطن نائب طرابلس، فهؤلاء الثلاثة هم أعظم من سمّى بهذا الاسم، ثم جاء بعدهم فى الدولة الأشرفيّة- برسباى- اثنان: شيخ الأمير آخور الثانى مملوک بيبرس الأتابک، و شيخ الحسنىّ الحسنىّ الظاهرىّ أمير عشرة و رأس نوبة، و هما كلا شىء بالنسبة إلى هؤلاء الثلاثة- انتهى.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۹

و توفّى العبد الصالح الأمير الطواشىّ الرّومىّ صندل بن عبد اللّه المنجكىّ، خازندار الملك الظاهر برقوق، و عظيم دولته، و صاحب الطّبقة- بالقلعة- المعروفة بالصّيندليّة، فى ثالث شهر رمضان، و وجد الملك الظاهر عليه وجدا عظيما، و مات و لم يخلّف من المال إلا النّزر اليسير إلى الغاية، هذا مع تمكّنه فى الدولة، و طول مدته فى وظيفة الخازنداريّة فى تلك الأيام، و أنياته جماعة كبيرة من المماليك الظاهريّة، و منهم جماعة فى قيد الحياة يحكون عن زهده و صلاحه و عبادته أشياء عظيمة إلى الغاية، و كان الشيخ تقىّ الدين المقريزىّ إذا حدّث عنه يقول: حدّثنى من لا أتّهمه العبد الصالح المنجكىّ- انتهى.

و توفّى الأمير الكبير- أتابك العساكر بالدّيار المصريّة، و عظيم المماليك اليلبغاويّة- كمشبغا بن عبد اللّه الحموىّ اليلبغاوىّ، بسجن الإسكندرية، فى العشرين من شهر رمضان، و هو أحد من قام بنصرة الملك الظّاهر برقوق عند خروجه من سجن الكرك، و كان كمشبغا يوم ذلك يلى نيابة حلب، و قد تقدم ذكر كمشبغا هذا فى مواطن كثيرة من أواخر دولة الملك الأشرف شعبان بن حسين إلى أن أمسك و حبس، و مات، و كان من أجلّ الملوك و أعظمها قدرا، قيل للوالد لما ولى الأتابكيّة بالديار المصرية: يا خوند امش على قاعدة الأمير كمشبغا، فقال الوالد:

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۰

أيش أنا حتى أمشى على طريق كمشبغا! كمشبغا فى مقام أستاذى، و كان بخدمة الوالد يومئذ أزيد من ثلاثمائة مملوك، و رأيت سماطه و مرتّباته تسعمائة رطل من اللحم فى كل يوم، و فى هذا كفاية فى التعريف بحال كمشبغا- رحمه اللّه.

و توفّى قاضى القضاة ناصر الدين أحمد بن محمد بن محمد بن محمد بن عطاء اللّه ابن عواض بن نجا بن أبى الثّناء محمود بن نهار بن مؤنس بن حاتم بن نيلى ابن جابر بن هشام بن عروة بن الزّبير بن العوّام- رضى اللّه عنه- المعروف بابن التّنسىّ [السكندرى] المالكىّ، قاضى قضاة الإسكندرية، ثم الديار المصرية- بها- و هو قاض، فى أول شهر رمضان، و كان مشكور السيرة- رحمه اللّه- و هو والد القاضى بدر الدين محمد بن التّنسىّ الآتى ذكره.

و توفّى الأمير سيف الدين قديد بن عبد اللّه القلمطاوىّ، أحد أمراء الطّبلخانات- بطّالا- بالقدس، فى شهر ربيع الأول، و كان من قدماء الأمراء، و ولى نيابة الكرك فى بعض الأحيان.

و توفّى الشيخ المعتقد المجذوب العجمى، المعروف بالزهورىّ فى أول صفر، و كان شيخا عجميّا، و للناس فيه اعتقاد كبير لا سيما الملك الظاهر برقوق؛ فإنه كان له فيه اعتقاد كبير إلى الغاية.

أخبرنى بعض حواشى الملك الظاهر: أن الزهورىّ هذا كان إذا جلس عند الملك الظاهر برقوق و كلّمه يأخذ الملك الظاهر كلامه على سبيل المكاشفة، و كان يقيم عنده غالبا فى الدور السّلطانيّة عند الخوندات، و وقع له مع

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۱

الظاهر خوارق و مكاشفات، منها: أنه قال له يوما- و قد حان أجلهما- يا برقوق أنا آكل فراريج و أنت تأكل بعدى دجاجا ثم تروح، ففطن برقوق أنه يقيم بعد موت الزّهورىّ بمقدار ما يكبر فيه الفرّوج، و مرض الزهورىّ و مات، و ضاق صدر برقوق حتى كلمه جماعة فى عدم ما ظنه، فلم يقم بعده الظاهر إلا ثمانية أشهر و مات.

و توفّى العلامة القاضى بدر الدين محمود بن عبد اللّه الكلستانىّ السّرّائىّ الحنفىّ، كاتب السرّ الشريف بالديار المصرية، و أحد العلماء الأعيان فى عاشر جمادى الأولى بالقاهرة، و ولى بعده كتابة السرّ فتح الدين فتح اللّه رئيس الأطباء- و قد تقدم ذكر ولاية الكلستانىّ هذا لوظيفة كتابة السرّ بعد موت بدر الدين بن فضل اللّه بدمشق فى ترجمة الملك الظاهر برقوق الثانية- و كان إماما بارعا مفتنّا فى علوم كثيرة، عارفا باللغة العربية و العجمية و التركية، و سمّى بالكلستانىّ لكثرة قراءته كتاب السعدىّ العجمىّ الشاعر، و كان الكتاب المذكور يسمى كلستان.

أمر النيل فى هذه السنة: الماء القديم ستة أذرع و أربعة عشر أصبعا، مبلغ الزيادة ثمانية عشر ذراعا و خمسة أصابع- و اللّه أعلم.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۲

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۰۲]

السنة الثانیة من سلطنة الملک الناصر فرج ابن الظاهر برقوق- الأولی علی مصر و هی سنة اثنتین و ثمانمائة:

فیها کانت وقعة أیتمش مع الملک الناصر، ثم وقعة تنم نائب الشام- و قد تقدم ذکرهما فی أول ترجمة الملک الناصر.

و فیها توفّی خلائق من أعیان الأمراء بالسیف فی واقعة تنم: منهم الأمیر الکبیر أیتمش بن عبد اللّه الأسندمری البجاسی الجرجاوی ثم الظاهری، أتابک العساکر بالدیار المصریة، ذبح فی سجنه بقلعة دمشق، فی لیلة رابع عشر شعبان، و کان أصله من ممالیک أسندمر البجاسی الجرجاوی، و ترقّی إلی أن صار من جملة أمراء الألوف بدیار مصر، بسفارة الأتابک برقوق فی دولة الملک الصالح حاجی، و أمیر آخورا، و لما تسلطن الملک الظاهر برقوق جعله رأس نوبة کبیرا، ثم اشتراه من ورثة الأمیر جرجی لما بلغه أنه إلی الآن فی الرّقّ- و قد مر ذلک کله- ثم جعله أتابک العساکر بالدیار المصریة، ثم ندبه فیمن ندب من الأمراء لقتال الناصری و منطاش، فقبض علیه هناک، و حبس بقلعة دمشق مدة طویلة إلی أن أطلق بعد عود الملک الظاهر للملک و قدم القاهرة، و کان الأمیر إینال الیوسفی یوم ذاک أتابک العساکر بالدیار المصریة، فأنعم الملک الظاهر علی أیتمش بإقطاع یضاهی إقطاع الأتابکیة، و ولّاه رأس نوبة الأمراء و جعله أتابکا، فدام علی ذلک سنین إلی أن قبض الملک الظاهر علی الأتابک کمشبغا الحموی، و أعاده إلی الأتابکیّة من بعده علی عادته أولا، ثم جعله فی مرض موته وصیّه المتحدّث فی تدبیر مملکة ولده الملک الناصر فرج، فأخذ أیتمش یدبر ملک الناصر

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۳

بعد موت برقوق أحسن تدبیر، فثار علیه الأمراء الأجلاب من ممالیک برقوق، و قاتلوه و کسروه، و أخرجوه من مصر إلی الشام، فسار إلی دمشق، و وافق تنم نائبها علی قتالهم هو و رفقته، مثل: الوالد، و أرغون شاه أمیر مجلس، و غیرهم، فواقعوا الأمراء المذکورین بغزّة، و انکسروا ثانیا، و قبض علی الجمیع، و حبسوا بقلعة دمشق ثم قتلوا عن آخرهم، و کان کسر تنم و أیتمش هذا و قتلهما و تحکّم الأمراء الأجلاب أول وهن وقع بالدیار المصریة، و کان أیتمش معظّما فی الدول، قلیل الشّرّ کثیر الخیر، متجمّلا فی ملبسه و مرکبه و ممالیکه، هو و کمشبغا الحموی، کانا من عظماء الأتابکیة فی الدولة الترکیة بعد یلبغا العمری الخاصّکی، و شیخون العمری.

و توفّی أیضا- قتیلا بقلعة دمشق فی التاریخ المذکور مع الأتابک أیتمش- الأمیر سیف الدین أرغون شاه البیدمری الظاهری - أمیر مجلس، و کان من خواص ممالیک الملک الظاهر برقوق، و أکابر ممالیکه و خیارهم.

و توفّی قتیلا- أیضا- الأمیر سیف الدین فارس بن عبد اللّه القطلقجاوی، ثم الظاهری، حاجب الحجّاب بالدیار المصریّة- ذبحا- بقلعة دمشق، فی رابع عشر شعبان، و کان أصله من ممالیک الأمیر خلیل بن عرام نائب الإسکندریة، اشتراه من شخص خباز بالإسکندریّة، و کان فارس هذا یبیع الخبز علی حانوت أستاذه، فرآه ابن عرّام فأعجبه و ابتاعه منه، ثم ملکه الملک الظاهر برقوق بعد ابن عرام، و ما أعلم نسبته بالقطلقجاوی لأی قطلقجا، و لعله تاجره الذی جلبه من بلاده أولا- و اللّه أعلم- و کان فارس یعرف أیضا بالأعرج، و کان من الشّجعان الفرسان الأقشیّة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۴

المعدودة، الذین یضرب برمیهم المثل، و قد تقدم من ذکره فی واقعة أیتمش ما یکتفی بذکره.

و توفی- قتیلا أیضا فی رابع عشر شعبان بقلعة دمشق- الأمیر شهاب الدین أحمد- أمیر مجلس- ابن الأتابک یلبغا العمری الخاصکی صاحب الکبش، و أستاذ برقوق و غیره من الیلبغاویة، ولد بالکبش، فی حیاة والده الأتابک یلبغا، ثم نشأ بمصر، و صار من جملة الأمراء، فلما تسلطن الملک الظاهر برقوق ولّاه أمیر مجلس، ثم ندبه لقتال الناصری و منطاش فیمن ندب من الأمراء، فلما وصل إلی دمشق عصی علی برقوق، و انضم علی الناصری، و هو أیضا مملوک أبیه فأقرّه الناصری علی إمرته و وظیفته، إلی أن قبض علیه

منطاش و حبسه مع الناصری إلی أن أخرجهما الملک الظاهر برقوق فی سلطنته الثانیة، و خلع علیه علی عادته أمیر مجلس، فدام علی ذلک سنین عدیدة إلی أن تنکّر علیه برقوق و حبسه، ثم أطلقه- بطّالا- بالبلاد الشامیة إلی أن ثار الأمیر تنم الحسنی نائب الشام، فقدم علیه أحمد هذا و وافقه، فقبض علیه مع من قبض علیه من الأمراء، و قتل، و کان مشهورا بالشّجاعة و الإقدام.

و توفّی- قتیلا أیضا بقلعة دمشق فی رابع عشر شعبان- الأمیر سیف الدین جلبان [بن عبد اللّه] الکمشبغاویّ الظاهریّ، المعروف بقرا سقل نائب حلب، ثم أتابک دمشق، کان من أکابر ممالیک الملک الظاهر برقوق، و أول من نال منهم الرّتب السنیة، صار أمیر مائة، و مقدّم ألف فی أوائل سلطنة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۵

الملک الظاهر برقوق الثانیة، ثم رأس نوبة النّوب، ثم ولی نیابة حلب بعد الأتابک قرا دمرداش الأحمدیّ، و هو الذی قام فی أمر منطاش حتی أخذه و تسلمه من نعیر، ثم أمسکه الظاهر و حبسه، و ولّی الوالد عوضه نیابة حلب، فحبس مدة ثم أطلق، و استقرّ أتابک دمشق، فدام علی ذلک مدة، ثم قبض علیه برقوق ثانیا، و حبسه بقلعة دمشق إلی أن أطلقه الأمیر تسنم بعد موت الظاهر برقوق، فدام من حزبه إلی أن أمسک و قتل مع من قتل، و کان جلیل المقدار، عاقلا شجاعا، معدودا من رؤساء الممالیک الظاهریّة.

و توفّی- قتیلا أیضا بقلعة دمشق فی التاریخ المذکور- سیف الدین یعقوب شاه [بن عبد اللّه] الظاهریّ الخازندار، ثم الحاجب الثانی، و أحد مقدّمی الألوف بالدیار المصریة، و کان أیضا من خواصّ الملک الظّاهر برقوق، و أجلّ ممالیکه، و هو أیضا ممن انضم علی أیتمش و تنم.

و توفّی- قتیلا- أیضا بقلعة دمشق- الأمیر سیف الدین آقبغا [بن عبد اللّه] الطولوتمریّ الظاهری، المعروف باللّکاش، أمیر مجلس، و کان من جملة أمراء الألوف فی دولة أستاذه الملک الظاهر برقوق، ثم صار أمیر مجلس، فلما رکب علی بای علی الملک الظاهر اتّهم آقبغا هذا بممالأة علی بای فی الباطن فأخرج إلی الشّام، و دام به حتی وافق تنم، و قتل مع من قتل من الأمراء، و کان شجاعا مقداما، من وجوه الممالیک الظاهریّة.

و توفّی- قتیلا أیضا بقلعة دمشق- الأمیر بی خجا الشّرفیّ المدعوّ

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۶

طیفور [بن عبد اللّه الظاهری] نائب غزّة، ثم حاجب حجّاب دمشق، و هو أیضا من ممالیک الظاهر برقوق، و ممّن صار فی أیامه أمیر طبلخاناة، و أمیر آخور ثانیا.

فهؤلاء قتلوا جمیعا فی لیلة واحدة، و معهم جماعة أخر مثل الأمیر بیغوت الیحیاویّ الظاهری، و الأمیر مبارک المجنون، و الأمیر بهادر العثمانی نائب ألبیرة، و لم یبق من أعیان من قتل فی هذه الواقعة- صبرا- إلّا تنم [الحسنی] و یونس بلطا، أخّروهما حتی استصفوا أموالهما، ثم قتلوهما حسبما یأتی ذکره الآن.

و توفّی- أیضا قتیلا- الأمیر تنبک الحسنیّ الظاهریّ، المدعو تنم نائب الشام، و قد مر من ذکره فی واقعته مع الملک الناصر فرج ما فیه غنیة عن التکرار، غیر أننا نذکر مبادئ أمره و ترقّیه إلی انتهائه علی سبیل الاختصار، فنقول: هو من أعیان خاصّکیة أستاذه الظاهر برقوق، ثم أمّره إمرة عشرة فی سلطنته الثانیة، ثم أخرجه إلی دمشق، و جعله أتابکا بها بعد إیاس الجرجاوی، ثم نقله بعد مدة یسیرة إلی نیابة دمشق، بعد موت الأمیر کمشبغا الأشرفی الخاصکی، فدام علی نیابة دمشق نحو سبع سنین، إلی أن مات الظاهر، و خرج عن الطاعة، و انضم علیه سائر نواب البلاد الشامیة، ثم جاءه أیتمش و الوالد، و غیرهما من أمراء مصر، و واقع الملک الناصر علی غزة، و انکسر مع کثرة عساکره- خذلانا من اللّه- و أمسک، و حبس بقلعة دمشق، و عوقب علی المال، ثم خنق فی لیلة الخمیس رابع شهر رمضان، و خنق معه الأمیر یونس [بن عبد اللّه] الظاهری المعروف ببلطا [و بالرماح] نائب

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۷

طرابلس. و کان یونس أیضا من کبار الممالیک الظاهریة و أمرائها. و قد ولی نیابة صفد و حماة و طرابلس. إلا أنه کان ظالما جبارا متکبرا، سفا کالدماء، قتل بطرابلس من القضاة و العلماء و الأعیان خلائق لا تدخل تحت حصر، و قد مر ذکر هذه الوقائع کلّها فی أوائل ترجمة الملک الناصر فرج الأولی، فلینظر هناک.

و توفّی قاضی القضاة مجد الدین إسماعیل بن إبراهیم بن محمد بن علیّ [بن موسی] قاضی قضاة الحنفیّة بالدیار المصریّة- و هو معزول- فی خامس جمادی الأولی، و کان فقیها مفتّیا فاضلا، أفتی و درّس سنین بحلب و غیرها، إلی أن طلب إلی مصر، و ولّی القضاء بها، إلی أن عزل لثقل بدنه من السّمن، و قلّة حرکته؛ فإنّه کان إذا طلع للسلام علی السلطان و جلس عنده لا یستطیع القیام إلّا بعد جهد من السّمن.

و توفّی قاضی القضاة برهان الدین إبراهیم ابن قاضی القضاة ناصر الدین نصر اللّه بن أحمد بن محمّد بن أبی الفتح الحنبلیّ، قاضی قضاة الدیار المصریّة بها- و هو قاض- فی ثامن شهر ربیع الأوّل، و تولّی القضاء بعده أخوه موفّق الدین أحمد.

و توفّی المعلّم شهاب الدین أحمد بن محمّد الطولونیّ المهندس، بطریق مکّة فی صفر، و قد توّجه لعمارة المناهل بطریق الحجاز.

و توفّی شیخ شیوخ خانقاة سریاقوس جلال الدین أبو العبّاس أحمد ابن شیخ الشیوخ نظام الدین إسحاق بن عامر الأصبهانیّ الحنفیّ، بخانقاة سریاقوسن، فی خامس عشر شهر ربیع الآخر.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۸

و توفّی الأمیر الطّواشی زین الدین بهادر الشهابیّ، مقدّم الممالیک السلطانیّة، فی سابع عشر شهر رجب، و کان من عظماء الخدّام، و غالب أعیان ممالیک الظاهر برقوق من أنیاته.

و توفّی الشیخ المعتقد المجذوب سلیم السّوّاق القرافیّ بالقرافة، فی تاسع عشر شهر ربیع الأوّل، و کان للناس فیه اعتقاد، و یقصد للزّیارة.

و توفّی الأمیر سیف الدین قجماس بن عبد اللّه المحمّدیّ الظاهریّ، شادّ السّلاح خاناة- قتیلا- [فی ثامن شهر ربیع الأول] فی الواقعة التی کانت بین الأتابک أیتمش و بین الأمراء الذین کانوا بالقلعة.

و توفّی أیضا الأمیر سیف الدین قشتمر بن قجماس أخو إینال بای، الأمیر آخور، فی ثامن شهر ربیع الأوّل- قتیلا- فی الواقعة.

و توفّی الأمیر سیف الدین قطلوبغا بن عبد اللّه الحسامیّ المنجکیّ بالینبع بطریق الحجاز.

و توفّی الأمیر سیف الدین قرابغا بن عبد اللّه الأسنبغاویّ أحد أمراء الطبلخانات، کان من قدماء الأمراء بدیار مصر.

و توفّی الأمیر جمال الدین عبد اللّه ابن الأمیر بکتمر الحاجب، فی خامس عشرین شهر ربیع الآخر، بداره خارج باب النصر من القاهرة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۹

و توفّیت خوند شیرین [بنت عبد اللّه الرومیة] والدة الملک الناصر فرج بن برقوق، بعد مرض طویل، فی لیلة السبت أوّل ذی الحجّة، و دفنت بالمدرسة الظاهریّة البرقوقیة بین القصرین، و حضر ولدها الملک الناصر الصّلاة علیها، بباب القلّة من القلعة، و مشی سائر أمراء الدولة و أعیانها أمام نعشها من القلعة إلی بین القصرین، و کانت أمّ ولد للملک الظّاهر برقوق، رومیّة الجنس، و هی بنت عمّ الوالد، و کانت من خیار نساء عصرها حشمة و ریاسة و عقلا.

أمر النّیل فی هذه السنة: الماء القدیم ثلاثة أذرع سواء، مبلغ الزّیادة ثمانیة عشر ذراعا و أربعة عشر إصبعا.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۲۰

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۰۳]

السنة الثالثة من سلطنة الملک الناصر فرج ابن الظاهر برقوق- الأولی علی مصر و هی سنة ثلاث و ثمانمائة:

فيها كان ورود تيمور لنك إلى البلاد الشّاميّة، و مات بسيفه و لقدومه خلائق لا يعلمها إلا اللّه تعالى كثرة، حسبما ذكرناه مفصّلا.

و فيها تجرّد السّلطان الملك النّاصر فرج إلى البلاد الشّامية بسبب تيمورلنك- و قد مرّ ذلك أيضا- و هى تجريدته الثانية إلى البلاد الشّامية.

و فيها قتل الأمير سيف الدين سودون بن عبد اللّه الظاهرىّ، قريب الملك الظّاهر برقوق، المعروف بسيّدى سودون، نائب الشّام، فى أسر تيمور بظاهر دمشق، و دفن بقيوده من غير أن يتولّاه، و اختلفت الأقوال فى موتته، فمن الناس من قال: ذبحا، و منهم من قال: ألقاه تيمور إلى فيل كان معه فداسه برجله حتى مات، و كان ذلك فى أواخر شهر رجب، و تولّى نيابة دمشق بعده الوالد؛ و هى نيابته الأولى على دمشق، و كان سودون المذكور قدم من بلاد الجركس صغيرا مع جدّته لأمّه أخت الملك الظاهر برقوق، و مع خالة أمّه أمّ الأتابك بيبرس، و الجميع صحبة الأمير أنص والد الملك الظّاهر برقوق، فربّاه الظّاهر و رقّاه إلى أن جعله أمير آخور كبيرا بعد القبض على الأمير نوروز الحافظىّ، ثمّ وقع له

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۲۱

أمور، و قبض عليه بعد موت الملك الظّاهر برقوق، و سجن بالإسكندريّة إلى أن أخرج بعد واقعة الأتابك أيتمش، ثمّ ولى نيابة دمشق بعد مسك الأمير تنم الحسنىّ نائب الشّام، و دام بدمشق إلى أن ورد عليه قاصد تيمورلنك فوسّطه فكان ذلك أكبر الأسباب فى قتله، فإن تيمور لم يقتل أحدا من نوّاب البلاد الشّاميّة سواه.

و توفّى قاضى القضاة موفّق الدين أحمد ابن قاضى القضاة ناصر الدين نصر اللّه بن أحمد ابن محمد بن أبى الفتح العسقلانىّ الحنبلىّ، فى ثامن عشر شهر رمضان، و كان مشكور السيرة، و لم تطل مدّته فى القضاء، فإنه ولى القضاء بعد أخيه برهان الدين إبراهيم فى السنة الماضية.

و توفّى قاضى القضاة تقىّ الدين عبد اللّه بن يوسف [بن الحسين بن سليمان ابن فزارة بن بدر بن محمد بن يوسف] الكفرىّ- بفتح الكاف- الحنفىّ الدمشقىّ، قاضى قضاة دمشق، فى العشرين من ذى القعدة فى أسر تيمور.

و توفّى قاضى القضاة شهاب الدين أحمد [بن عبد اللّه] النّحريرىّ المالكىّ، قاضى قضاة الديار المصريّة، و هو معزول فى ثانى شهر رجب.

و توفّى الأمير شهاب الدين أحمد بن عمر بن الزّين، والى القاهرة فى ثانى عشر شهر ربيع الأوّل، بعد أن ولى شدّ الدّواوين، و ولاية القاهرة غير مرّة، و كان من الظّلمة.

و توفّى الأمير سيف الدين أسنبغا بن عبد اللّه العلائىّ الدّوادار الظاهرىّ، فى سادس عشر جمادى الأولى، و كان من جملة الدّواداريّة الصّغار فى دولة الملك الظّاهر برقوق.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۲۲

و توفّى الأمير زين الدّين فرج الحلبىّ نائب الإسكندريّة بها، فى آخر شهر ربيع الأوّل، و قد ولى شدّ الدّواوين بالقاهرة، ثمّ صار من جملة الحجاب، ثمّ ولى أستاداريّة الذخيرة و الأملاك، ثم ولى نيابة الإسكندريّة، فدام بها إلى أن مات.

و توفّى الأمير زين الدين [و قيل سيف الدّين] أبو بكر بن سنقر ابن أخى بهادر الجمالى، فى ثالث عشر جمادى الآخرة، و كان ولى الحجوبية الثانية بالدّيار المصرية بتقدمة ألف، و توجّه أمير حاجّ المحمل، و تنقّل فى عدّة وظائف، و طالت أيامه فى السعادة، و هو من بيت رئاسة و إمرة.

و توفّى الأمير سيف الدين بجاس بن عبد اللّه النّوروزىّ [العثمانى اليلبغاوىّ] أحد مقدّمى الألوف بالدّيار المصرية بها- بطّالا- بعد ما كبرت سنّه، فى ثانى عشر شهر رجب، و كان لمّا استعفى من الإمرة بعد موت الملك الظاهر برقوق، أنعم بإقطاعه على الأمير شيخ المحمودىّ: أعنى الملك المؤيد، فرعاه أستاداره جمال الدّين يوسف البيرى البجاسىّ، فعرف له ذلك الملك المؤيد شيخ لمّا

تسلطن، و أحسن لذرّيته.

و توفّى الوزير كريم الدّين عبد الكريم بن عبد الرزّاق بن إبراهيم بن مكانس القبطى المصرى، أخو الشّاعر فخر الدين، فى خامس عشر جمادى الآخرة، و هو معزول عن الوزر، و قد ولى الوزر بالديار المصرية، و نكب و صودر غير مرّة، و جمع فى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۲۳

بعض الأحيان بين وظيفتى الوزر و نظر الخاص معا، و كان سيّىء السيرة، كثير الظلم و الرّمايات، و ولّى مشيرا فى سلطنة الملك الظاهر برقوق، ثمّ نكب هو و إخوته، و مات- بعد خطوب قاساها- يوم الثلاثاء رابع عشرين جمادى الآخرة، و كان من أعاجيب الزّمان من الخفّة، و الطيش، و سرعة الحركة، يقال إنه قال لبعض حواشيه- و هو نازل فى موكبه بخلعة الوزارة، لمّا أعيد إليها، و الناس بين يديه: يا فلان ما هذه الركبة غالية بعلقة مقارع.

و توفّى قاضى قضاة الدّيار المصرية نور الدين على بن يوسف بن مكى الدميرى المالكىّ المعروف بابن الجلال، باللجون من طريق دمشق فى جمادى الأولى، و هو مجرّد صحبة السلطان.

و توفّى الشيخ الإمام الفقيه سيف الدين قطلوبغا بن عبد اللّه الحنفى، فى نصف جمادى الأولى، و كان فقيها فاضلا مستحضرا لمذهبه، معدودا من فقهاء الحنفية.

و توفّى قاضى القضاة بدر الدين محمد بن أبى البقاء الشافعى قاضى قضاة الدّيار المصرية، و هو معزول عن القضاء، فى سابع عشرين شهر ربيع الآخر.

و توفّى قاضى القضاة شرف الدّين محمد بن محمد الدّمامينى المالكى الإسكندرى، قاضى الإسكندرية، ثم ناظر الجيش و الخاص بالدّيار المصرية، فى سابع عشرين المحرم، كان رئيسا فاضلا، ولى قضاء الإسكندرية، ثم وكالة بيت المال، و نظر الكسوة،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۲۴

ثم نظر ديوان المفرد، ثم نظر الأسواق، و ولى حسبة القاهرة غير مرة، ثمّ ولى نظر الجيش بالدّيار المصرية بعد موت القاضى جمال الدين محمود العجمى- مضافا إلى وكالة بيت المال فى سنة تسع و تسعين إلى أن صرف بسعد الدين إبراهيم بن غراب و استمر على وكالة بيت المال- ثم أعيد إلى نظر الجيش و الخاصّ معا، فلم تطل مدته فيهما، و عزل و أعيد إليهما ابن غراب، و تولى قضاء الإسكندرية، فدام بها إلى أن مات فى التاريخ المذكور.

و توفّى قاضى القضاة جمال الدين يوسف بن موسى بن محمد الملطىّ الحنفى، قاضى قضاة الدّيار المصرية- و هو قاض- فى تاسع عشر شهر ربيع الآخر، و كان بارعا فى الفقه و الأصول، و العربيّة، و علمى المعانى و البيان، و كان تفقّه فى مبادئ أمره على العلّامة الشيخ قوام الدين الأترارىّ الحنفىّ شارح الهداية، ثم على العلامة أرشد الدين

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۲۵

السرائى، و غيرهما بالدّيار المصرية، ثم انتقل إلى حلب، و اشتغل بها أيضا إلى أن برع و أفتى و درّس، و تفقّه به جماعة كبيرة من العلماء إلى أن طلب إلى قضاء الديار المصرية بعد وفاة القاضى شمس الدين الطرابلسى سنة ثمانمائة، فدام قاضيا إلى أن مات، و قد ناهز الثمانين سنة.

و توفّى قاضى قضاة الحنابلة- بدمشق- تقى الدين إبراهيم ابن العلامة شمس الدين محمد بن مفلح، الحنبلىّ الدّمشقى بها، فى شعبان.

و توفّى قاضى القضاة صدر الدين أبو المعالى محمد بن إبراهيم بن إسحاق بن إبراهيم ابن عبد الرحمن السلمى المناوى الشافعى، قاضى قضاة الديار المصرية، و هو فى أسر تيمور غريقا بنهر الزّاب، بعد ما مرّت به محن و شدائد، بعد أن ولى قضاء الدّيار المصرية غير مرّة.

و توفّى قاضى القضاه الحنفية- بدمشق- بدر الدين محمد بن محمد بن مقلد القدسىّ الحنفىّ، بمدينة غزّة، فى شهر ربيع الأوّل، فارّا

من تيمورلنك إلى الديار المصرية، و كان فاضلا بارعا، أفتى و درّس و ناب فى الحكم، ثمّ استقلّ بالقضاء مدّة.

و توفّى السلطان الملك الأشرف إسماعيل ابن الملك الأفضل عباس ابن الملك المجاهد علىّ ابن الملك المؤيّد داود ابن الملك المظفّر يوسف ابن الملك المنصور عمر بن علىّ ابن رسول، صاحب اليمن، فى ليلة السبت ثامن عشر شهر ربيع الأول، بمدينة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۲۶

تعز من بلاد اليمن، عن سبع و ثلاثين سنة، و كان ولى سلطنة اليمن بعد موت أبيه فى سنة ثمان و سبعين و سبعمائة، فدام فى الملك إلى أن مات فى التاريخ المذكور فى هذه السنة، و كان ملكا جليلا سخيّا، مقبلا على أهل العلم، و صنّف تاريخا حسنا، و جمع كتبا كثيرة، و تولى مملكة اليمن من بعده ابنه الملك الناصر أحمد.

و توفّى السّلطان الأعظم ملك دلّى من بلاد الهند فيروز شاه بن نصرة شاه، و كان من أجلّ الملوك، و مملكته متّسعة جدا، ذكر عنها القاضى شهاب الدين أحمد بن فضل اللّه أشياء عظيمة فى كتابه مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار، من ذلك أن له ألف مغنّ، و ألف نديم، و ذكر عن سماطه أشياء خارجة عن الحد، و أظنّ أن فيروز شاه هو حفيد الملك الذى ترجمه القاضى شهاب الدين أحمد بن فضل اللّه، قلت و لما سمع تيمور لنك بموت فيروز شاه بادر و توجه إلى الهند، و استولى على ممالكه حسبما تقدم ذكره فى ترجمة الملك الناصر فرج هذا، و قام بممالك الهند بعده ابنه محمد شاه، و جميع مملكته حنفيّة، بل غالب ممالك الهند.

أمر النيل فى هذه السنة: الماء القديم ثلاثة أذرع سواء، مبلغ الزيادة تسعة عشر ذراعا و اثنا عشر إصبعا، و هى سنة تحويل.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۲۷

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۰۴]

السنة الرابعة من سلطنة الملك الناصر فرج بن برقوق- الأولى على مصر و هى سنة أربع و ثمانمائة:

فيها توفّى الأمير سيف الدين جنتمر بن عبد اللّه التّركمانىّ الطّرخانىّ، كاشف الوجه القبلى، فى صفر، كان له مع الأعراب أمور و وقائع، و كان شجاعا، أبادهم و أفنى منهم خلائق إلى أن مهد بلاد الصعيد و قراها.

و توفى الشيخ الإمام المقرئ فخر الدين عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان البلبيسىّ الشافعى، الضرير، إمام جامع الأزهر، و شيخ القراءات، فى ثانى ذى القعدة.

و توفّى الشيخ سيف الدين لاجين بن عبد اللّه الجركسىّ، فى شهر ربيع الآخر، عن ثمانين سنة، و كان معظّما عند طائفة الجراكسة، يزعمون أنه يملك الديار المصرية، و يشيعون ذلك، و لأجله هرب جماعة من الأمراء من دمشق فى واقعة تيمور، و عادوا إلى الديار المصرية ليسلطنوه، فكان ما حصل على أهل الشّام من تيمور بسبب هذا المشؤوم الطلعة، و كان لاجين المذكور لا يكتم ذلك، بل كان يعد الناس أنه إذا ملك مصر يبطل الأوقاف التى على المساجد و الجوامع، و يحرّق كتب الفقه، و يعاقب الفقهاء، و يولّى بمصر قاضيا واحدا من الحنفيّة، و هو من الأتراك لا من الفقهاء، فسلبه اللّه ما أمّله قبل أن يتأمّر عشرة، بل مات و هو على جنديّته، و كان يتمعقل و يدعى العرفان، مع جهل مفرط، و خفة عقل، و هو مع ذلك مقبول الكلام عند

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۲۸

الطائفة إلى الغاية، و ببعض كلامه يتمثّل بعضهم إلى يومنا هذا، و ممن أدركناه من أتباعه سودون الفقيه حمو الملك الظاهر ططر، و سودون الأعرج الظاهرىّ، و طرباى الأتابك نائب طرابلس، و كانوا يحكون عنه أمورا يقصدون بذلك تعظيمه؛ لو تأملوها لعلموا أنه رفع عنه و عنهم القلم.

و توفّى الشيخ المعتقد الصالح شهاب الدين أحمد بن محمد بن محمد بن الناصح فى سابع عشر شهر رمضان، و دفن بالقرافة.

أمر النيل فى هذه السنة؛ الماء القديم أربعة أذرع و أربعة عشر إصبعا، مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا و أحد و عشرون إصبعا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۲۹

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۰۵]

السنة الخامسة من سلطنة الملك الناصر فرج بن برقوق- الأولى على مصر و هى سنة خمس و ثمانمائة:

فيها كانت وقعة تيمور لنك مع أبى يزيد بن عثمان متملّك بلاد الروم، و قد مرّ ذكر ذلك، و أسره تيمور و مات فى أسره.

و فيها توفّى قاضى القضاة تاج الدين بهرام بن عبد اللّه بن عبد العزيز الدميرىّ المالكىّ، فى يوم الاثنين سابع جمادى الآخرة، عن سبعين سنة، و قد انتهت إليه رئاسة السّادة المالكية فى زمانه.

و توفّى شيخ الإسلام سراج الدين أبو حفص عمر بن رسلان بن نصير بن صالح - و صالح أول من سكن بلقينة - بن شهاب بن عبد الخالق بن مسافر بن محمد البلقينىّ الكنانىّ الشافعى، فى يوم الجمعة، عاشر ذى القعدة، و صلى عليه بجامع الحاكم، ثم دفن بمدرسته التى أنشأها تجاه داره بحارة بهاء الدين قراقوش من القاهرة، و مولده ببلقينة، فى ليلة الجمعة ثانى عشر شعبان سنة أربع و عشرين و سبعمائة.

و أجاز له من دمشق الحافظ أبو الحجاج المزّى، و الحافظ الذهبى، و المسند أحمد

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۳۰

ابن الجزرىّ - فى آخرين- ثم حفظ المحرّر فى الفقه، و الكافية لابن مالك فى النحو، و مختصر ابن الحاجب فى الأصول و الشّاطبيّة فى القراءات، و أقدمه أبوه إلى القاهرة، و له اثنتا عشرة سنة، و طلب العلم و اشتغل على علماء عصره، مثل: أثير الدين أبى حيّان، و أبى الثّناء محمود الأصبهانىّ، و تفقّه بجماعة كثيرة، و برع فى الفقه و أصوله، و العربية و التفسير، و غير ذلك، و أفتى و درّس سنين، و انفرد فى أواخر عمره برئاسة مذهبه، و ولى إفتاء دار العدل، و درّس بزاوية الشافعى المعروفة بالخشّابيّة من جامع عمرو بن العاص، و ولى قضاء دمشق فى سنة سبع و تسعين و سبعمائة عوضا عن تاج الدين عبد الوهاب السّبكىّ، فباشر مدة يسيرة، ثم تركه و عاد إلى مصر، و استمر بمصر يقرئ و يشتغل و يفتى بقية عمره، و انتفع به عامة الطلبة إلى أن مات، و قد استوعبنا ترجمته فى المنهل الصافى بأوسع من هذا- فلينظر هناك.

و توفّى شيخ الشيوخ بدر الدين حسن بن على بن الآمدى خارج القاهرة، فى أول شعبان و كان يعتقد فيه الخير، و يقصد للزيارة.

و توفّى السيد الشريف عنان بن مغامس بن رميثة المكىّ الحسنىّ بالقاهرة، فى أول شهر ربيع الأول.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۳۱

و توفّى الأمير سيف الدين آقباى بن عبد اللّه الكركىّ الظاهرى، الخازندار، و أحد مقدمى الألوف، المعروف بالطّاز، فى ليلة السبت رابع عشر جمادى الأولى بعد مرض طويل، و دفن بالحوش الظاهرى بالصحراء، و هو أحد المماليك الصغار الأربعة الذين توجهوا صحبة الملك الظاهر برقوق إلى سجن الكرك، و لذلك سمى بالكركىّ، و كان من الأشرار، كثير الفتن، و قد مرّ من ذكره نبذة كبيرة فى ترجمة الملك الناصر فرج، هذا و كان بينه و بين سودون طاز الأمير آخور الكبير عداوة، فكان يقول له: أنت طاز و أناطاز ما تسعنا مصر، فأراح اللّه الناس منهما فى مدة يسيرة.

و توفّى الأمير سيف الدين يلبغا [بن عبد اللّه] السّودونىّ حاجب حجّاب دمشق، و تولى الحجوبيّة من بعده الأمير جركس المعروف بوالد تنم الحسنى، نقل إليها من حجوبيّة طرابلس.

و توفى الأمير سيف الدين قرقماس الإينالى الرّمّاح - قتيلا بدمشق- فى أواخر شهر رمضان، بأمر السلطان، و كان أصله من مماليك الأتابك إينال اليوسفى، و صار من بعده أميرا بديار مصر من جملة الطّبلخانات، و كان رأسا فى لعب الرّمح، و وقع له أمور بديار مصر حتى أخرجه السلطان الملك الناصر منها إلى دمشق، على إقطاع الأمير صرق، فثار بدمشق أيضا و هرب منها، فقبض عليه عند مدينة

بعلبکّ فقتل بها فی عدة ممالیک أخر.

و توفّی خوند کار أبو یزید بن مراد بک بن أورخان بن عثمان ملک الروم.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۳۲

و صاحب برصا، فی أسر تیمور- بعد أن واقعه- و مات فی ذی القعدة، و کان من أجلّ ملوک بنی عثمان حزما و عزما و جلالة و شجاعة و إقداما، و قد تقدم ذکر واقعته مع تیمور فی ضمن ترجمة الملک الناصر، هذا و کان أبو یزید هذا یعرف بیلدرم بایزید، [و یلدرم] هو باللغة الترکیة اسم للبرق، و هو بکسر الیاء آخر الحروف، و سکون اللام، و کسر الدال المهملة، و الراء المهملة، و سکون المیم- انتهی.

و توفّی قاضی قضاة المالکیة- بدمشق- علم الدین محمد القفصی المالکی، فی حادی عشر المحرم، و کان من فضلاء المالکیة.

و توفّی السلطان محمود خان، و کان یعرف بصر غتمش، الذی کان تیمور لنک یدبّر مملکته، و لیس له من الأمر مع تیمور إلا مجرد الاسم فقط، و هو من ذرّیة جنکز خان، و لهذا کان سلطنه تمر و صار مدبّر مملکته؛ لکون القاعدة عند التتار لا یتسلطن إلا من یکون من ذریة الملوک.

و توفّی الأمیر شهاب الدین أحمد ابن الوزیر ناصر الدین محمد بن رجب أحد أمراء العشرات بدیار مصر.

و توفی سیف الدین سودون بن عبد اللّه بن علی بک الظّاهری، الأمیر آخور الکبیر، المعروف بسودون طاز، أحد أعیان الممالیک الذین مر ذکرهم فی عدة مواضع، لا سیما واقعته مع یشبک، ففیها ذکرنا أحواله مفصّلا، قتل فی سجن المرقب

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۳۳

بالبلاد الشامیة بعد ما نقل إلیها من سجن الإسکندریة، و کان سودون طاز رأسا فی لعب الرّمح، یضرب بقوّة طعنه، و شدة ثباته علی فرسه المثل. و أما سرعة حرکته، و حسن تسریحه لفرسه فی میادین اللّعب بالرمح فإلیه المنتهی فی ذلک، و کان أحد الأشرار الذین یثیرون الفتن و الوقائع، و قد مرّ من ذکره ما فیه کفایة عن ذکره هنا ثانیا.

أمر النیل فی هذه السنة: الماء القدیم ذراعان و عشرون إصبعا، مبلغ الزیادة ثمانیة عشر ذراعا سواء.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۳۴

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۰۶]

السنة السادسة من سلطنة الملک الناصر فرج بن برقوق- الأولی علی مصر و هی سنة ست و ثمانمائة:

فیها توفّی قاضی القضاة ناصر الدین محمد بن محمد بن عبد الرحمن الصالحی الشافعیّ، قاضی قضاة الشافعیة بالدیار المصریة- و هو قاض- فی یوم الأربعاء ثانی عشر المحرم بالقاهرة، و کان رئیسا نبیلا کریما کثیر البرّ و الإحسان، إلّا أنه کانت بضاعته مزجاة من العلم.

و توفّی شمس الدین محمد بن البجانسیّ الصعیدی، محتسب القاهرة، فی یوم الثلاثاء رابع جمادی الأولی، بعد أن ولی حسبة القاهرة غیر مرّة بالسعی و البذل.

و توفّی الحافظ زین الدین عبد الرحیم بن الحسین بن أبی بکر العراقیّ الشافعیّ، شیخ الحدیث بالدّیار المصریة، فی یوم الأربعاء ثامن شعبان بها، و مولده فی سنة خمس و عشرین و سبعمائة، و سمع الکثیر و رحل [فی] البلاد، و کتب و ألف و صنّف و أملی سنین کثیرة، و کان ولی قضاء المدینة النبویّة، و عدّة تداریس، و انتهت إلیه رئاسة علم الحدیث فی زمانه، و من شعره فیمن کان یشبه النبی- صلی اللّه علیه و سلّم- أنشدنا حافظ العصر شهاب الدین أحمد بن حجر- إجازة- أنشدنا الحافظ زین الدین عبد الرحیم العراقیّ رحمه اللّه تعالی- إجازة إن لم یکن سماعا. [البسیط]

و سبعة شبّهوا بالمصطفی قسما لهم بذلک قدر قد زکا و نما

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۳۵

سبط النّبیّ، أبو سفیان، سائبهم و جعفر و ابنه ذو الجود و القثما

و له بالسّند فی الصحابة العشرة المشهود لهم بالجنة فقال: [الطویل]

و أفضل أصحاب النّبیّ مکانة و منزلة من بشّروا بجنان

سعید زبیر سعد عثمان عامر علیّ ابن عوف طلحة العمران

و قد استوعبنا مسموعه و مصنفاته فی المنهل الصافی، حیث هو محلّ الإطناب.

و توفّی الأمیر سیف الدین أزبک بن عبد اللّه الرمضانیّ الظاهری، أحد أمراء الطبلخانات بدیار مصر، فی لیلة الثلاثاء رابع عشر شهر ربیع الأول، و کان من أعیان الممالیک الظاهریة.

و توفّی الأمیر سیف الدین قطلوبک بن عبد اللّه، أستادار الأمیر الکبیر أیتمش البجاسیّ، فی یوم الأربعاء سابع شهر ربیع الآخر، کان ولی أستاداریّة السلطان فی بعض الأحیان مدة یسیرة، فلم ینجح أمره، و عزل و عاد إلی حاله أوّلا، و کان له ثروة و مال، غیر أنه لم یعظم إلا بصهارته لسعد الدین بن غراب.

و توفّی التاجر برهان الدین إبراهیم بن عمر بن علی المحلّی المصریّ التاجر المشهور بکثرة المال، فی یوم الأربعاء ثانی عشرین شهر ربیع الأول.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۳۶

و توفّی الأمیر شهاب الدین أحمد ابن الأمیر شیخ علی، فی ذی القعدة بدمشق، بعد ما ولی نیابة صفد و غیرها، ثم صار أمیر مائة، و مقدّم ألف بدمشق حتی مات، و کان من أعیان الأمراء.

و توفّی القاضی علاء الدین علی بن خلیل الحکریّ الحنبلیّ، فی یوم السبت ثامن المحرم.

و توفّی الأمیر سیف الدین آقبغا [بن عبد اللّه] الجمالیّ الظاهریّ، المعروف بالأطروش و الهیدبانیّ نائب حلب بها، فی لیلة الجمعة سابع عشر جمادی الآخرة، و کان من أعیان الممالیک الظاهریّة- برقوق- و ممن صار فی دولة أستاذه حاجب حجّاب حلب، ثم ولی نیابة صفد، ثم ولی نیابة طرابلس بعد الأمیر دمرداش المحمّدی، بحکم توجّه دمرداش أتابکا بحلب، ثم نقله الملک الظاهر إلی نیابة حلب بعد موت أرغون شاه الإبراهیمی، فی سنة إحدی و ثمانمائة، و دام علی نیابة حلب إلی أن خرج تنم نائب الشام عن طاعة الملک الناصر، فوافقه آقبغا هذا، و صار من حزبه، إلی أن قبض علیه مع من قبض علیه من الأمراء، و حبس مدّة ثم أطلق، و ولی نیابة طرابلس ثانیا بعد الأمیر شیخ المحمودی، بحکم أسره مع تیمور، فلم یتم أمره، و أعید شیخ إلی نیابة طرابلس، و استقر آقبغا هذا أتابکا بدمشق مدّة، ثم ولی نیابة دمشق بعد الوالد؛ بحکم خروجه من دمشق إلی حلب، فلم تطل أیامه بدمشق، و عزل بالأمیر شیخ المحمودی، و توجّه- بطّالا- إلی القدس إلی أن أعید إلی نیابة حلب بعد دقماق المحمدی، فتوجّه إلیها، و أقام بها إلی أن مات فی التّاریخ المذکور.

و توفّی الأمیر سیف الدین دمشق خجا بن سالم الدّوکاری الترکمانیّ، نائب

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۳۷

قلعة جعبر - قتیلا بید الأمیر نعیر بن حیّار- فی سابع عشر شهر رمضان.

و توفّی الشّیخ شمس الدّین محمد بن مبارک شیخ الرّباط النبویّ- المعروف بالآثار- فی المحرم.

و توفّی الشیخ محمد المعروف بالحرفیّ فی شوال من السنة، و کان عالما بعلم الحرف، و له مشارکة فی غیره.

أمر النیل فی هذه السنة: الماء القدیم ثلاثة أذرع و عشرة أصابع، مبلغ الزیادة ستة عشر ذراعا و ثلاثة عشر إصبعا، و الوفاء خامس توت.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۳۸

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۰۷]

السنة السابعة من سلطنة الملك الناصر فرج بن برقوق- الأولى على مصر و هى سنة سبع و ثمانمائة:

فيها كان الشراقى العظيم بالديار المصرية.

و فيها كانت واقعة السعيديّة بين الملك الناصر فرج صاحب الترجمة، و بين يشبك، و شيخ، و جكم، و قرا يوسف، حسبما تقدّم ذكره.

و فيها توفّى الشيخ الإمام العالم عبيد اللّه الأردبيليّ الحنفيّ، فى آخر شهر رمضان، و كان من الفضلاء، معدودا من فقهاء الحنفيّة.

و توفّى الوزير الصاحب بدر الدين محمد بن محمد الطوخىّ، وزير الديار المصرية، تنقّل فى الخدم الدّيوانية حتى ولى ناظر الدولة، ثم نقل إلى الوزر سنة تسع و تسعين بعد مسك ابن البقرىّ، و تولّى بعده نظر الدولة سعد الدين الهيصم، ثم باشر الوزر بعد ذلك غير مرّة، و وقع له أمور و محن إلى أن مات- بطّالا- فى هذه السنة.

و توفّى الأمير سيف الدين قانى باى بن عبد اللّه الظاهرى، رأس نوبة، و أحد أمراء العشرات بديار مصر، فى يوم الخميس أول جمادى الآخرة، و كان من خاصكيّة الملك الظاهر برقوق الصّغار.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۳۹

و توفّى الشيخ الإمام العالم الفقيه عبد المنعم بن محمد بن داود البغدادى الحنبلىّ، ثم المصرىّ بها، فى يوم السبت ثامن عشر شوال، و قد انتهت إليه رئاسة مذهب الإمام أحمد بن حنبل، بعد ما كتب على الفتوى، و درّس عدة سنين، و كان لما قدم من بغداد إلى الدّيار المصرية تفقّه بقاضى الفضاة موفق الدين الحنبلى، و هو جدّ صاحبنا قاضى القضاة بدر الدين محمد بن محمد بن عبد المنعم- رحمه اللّه.

و توفّى القاضى ناصر الدين محمد ابن صلاح الدين صالح الحلبىّ، الموقع الشافعى، المعروف بابن السّفّاح، موقّع الأمير يشبك الشّعبانىّ الدّوادار، فى يوم الثلاثاء ثانى عشرين المحرم.

و توفّى الشيخ نور الدين على ابن الشيخ الإمام سراج الدين عمر البلقينىّ، فى يوم الاثنين سلخ شعبان فجاءة بمدينة بلبيس، و حمل منها إلى القاهرة، و دفن بتربة الصوفية، خارج باب النّصر عند أبيه، و كان مولده فى شوال سنة ثمان و ستين و سبعمائة، و كان بارعا فى الفقه و العربية، و درّس بعد موت أبيه بعدّة مدارس.

و توفّى القاضى شمس الدين محمد بن عباس بن محمد بن حسين بن محمود بن عباس الصّلتىّ، فى مستهل جمادى الأولى، بعد ما ولى القضاء بعدّة بلاد من معاملة دمشق و غيرها، ولى قضاء بعلبك، و حمص، و غزّة، و حماة، ثم عمل مالكيّا و ولى قضاء المالكيّة بدمشق، ثم ترك ذلك بعد مدة و ولى قضاء الشافعية بدمشق، و لم تحمد سيرته فى مباشرته القضاء، و كيف تحمد سيرته و هو ينتقل فى كلّ قليل إلى مذهب لأجل المناصب! فلو كان يرجع إلى دين ما فعل ذلك، و من لم يحترز على دينه يفعل ما يشاء.

قلت- و الشيء بالشيء يذكر- و هو أننى اجتمعت مرة بالقاضى كمال الدين بن

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۴۰

البارزى، كاتب السر الشريف بالدّيار المصرية- رحمه اللّه تعالى- فدفع إلىّ كتابا من بعض أهل غزّة، ممن هو فى هذه المقولة، فوجدت الكتاب يتضمّن السعى فى بعض وظائف غزّة، و هو يقول فيه: يا مولانا، المملوك منذ عزل من الوظيفة الفلانية بغزّة خاطره مكسور، و المسؤول من صدقات المخدوم أن يوليه قضاء الشّافعية بغزّة، فإن لم يكن فقضاء الحنفيّة، فإن لم يكن فقضاء المالكية، و إلا فقضاء الحنابلة، فكتبت على حاشية الكتاب بخطى: فإن لم يكن، فمشاعلىّ ملك الأمراء- انتهى.

أمر النيل فى هذه السنة: الماء القديم ذراع واحد و عشرة أصابع، مبلغ الزيادة تسعة عشر ذراعا و ثلاثة أصابع.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۴۱

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۰۸]

ذکر سلطنة الملک المنصور عبد العزیز على مصر السلطان الملک المنصور عز الدین عبد العزیز ابن السلطان الملک الظاهر سیف الدین أبى سعید برقوق ابن الأمیر أنص العثمانىّ، سلطان الدیار المصریة، و هو السلطان السابع و العشرون من ملوک التّرک بالدیار المصریة، و الثالث من الجراکسة، تسلطن بعهد من أبیه له بعد أخیه الملک الناصر فرج، و باتفاق الأمراء من أعیان ممالیک أبیه؛ بعد ما اختفى أخوه الملک الناصر فرج ابن الملک الظّاهر برقوق، بعد عشاء الآخرة من لیلة الاثنین سادس عشرین شهر ربیع الأول سنة ثمان و ثمانمائة، و قد ناهز الاحتلام، بعد أن حضر الخلیفة و القضاة و الأعیان من الأمراء، و طلب عبد العزیز من الدور السلطانیة إلى الإسطبل السلطانى، و بویع بالسلطنة، و فوّض علیه الخلعة الخلیفتیة، و رکب فرس النوبة فى الفوانیس و الشموع، و الأمراء مشاة بین یدیه حتى طلع إلى القصر، و جلس على تخت الملک، و قبلت الأمراء الأرض بین یدیه، و لقّب بالملک المنصور أبى العز عبد العزیز، و دقت البشائر- على العادة- و أصبح نودى من الغد بالأمان و الدعاء للسلطان الملک المنصور عبد العزیز. و أمّ الملک المنصور هذا أم ولد تتریة، تسمّى قنّق باى، صارت خوند بسلطنة ولدها هذا، و عاشت إلى حدود سنة خمس و ثلاثین و ثمانمائة.

و لما تسلطن الملک المنصور هذا فى اللیلة المذکورة، أصبح الناس فى هدوء و أمان، و تحیّرت الناس فى أمر السلطان الملک الناصر فرج، و لم یشکّ أحد فى أن الوالد أخذه و مضى إلى البلاد الشامیة؛ لأنه کان عقد على الأخت قبل تاریخه بمدة یسیرة و لم یدخل بها، فاطمأنّ بذلک قلب من هو من أصحاب الملک الناصر، و کان ممّن اختفى بعد خروج الوالد من مصر من أعیان الأمراء، دمرداش المحمّدىّ نائب حلب، و الأمیر

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۴۲

بیغوت، و همّ کثیر من حواشى الملک الناصر فرج باللحاق بهما إلى البلاد الشامیة، لو لا أن أشاع آخرون قتل الملک الناصر المذکور، ثمّ أشیع بعد ذلک أنه اختفى بالقاهرة، و أعرض أکابر الأمراء عن الفحص فى أخبار الملک الناصر، و التفتیش علیه.

و قام بتدبیر مملکة الملک المنصور، القاضى سعد الدین إبراهیم بن غراب، و هو یوم ذاک کاتب سرّ مصر، و صار الملک المنصور تحت کنف أمه، لیس له من السلطنة سوى مجرد الاسم فقط، و هى کثیرة التخوّف علیه من أخیه الملک الناصر فرج، و کانت امتنعت عن سلطنته، و حجبته عن الأمراء حین طلبوه للسلطنة، حتى أخذ منها بحیلة، دبّروها علیها، و استقرّ الأمیر بیبرس الصغیر لا لا السلطان الملک المنصور.

ثمّ فى یوم الخمیس تاسع عشرین شهر ربیع الأوّل المذکور، عملت الخدمة بالإیوان من قلعة الجبل على العادة، و جلس الملک المنصور على تخت الملک، و حضر الأمراء، و القضاة، و سائر أعیان الدّولة، و خلع الملک المنصور على جماعة کبیرة من الأمراء باستمرارهم على وظائفهم، و بتجدید وظائف أخر، فخلع على بیبرس باستقراره أتابک العساکر على عادته، و على الأمیر آقباى باستقراره أمیر سلاح على عادته، و على سودون الطیّار باستقراره على عادته أمیر مجلس، و على سودون تلى المحمّدىّ الأمیر آخور باستمراره على عادته، و على بشباى رأس نوبة النوب على عادته، و على الأمیر أرسطاى حاجب الحجّاب على عادته، و على سودون الماردانىّ الدّوادار الکبیر على عادته، و على سعد الدّین بن غراب على عادته کاتب السرّ، و على أخیه فخر الدین ماجد وزیرا على عادته، و على فخر الدین ماجد بن المزوّق ناظر الجیش على عادته، و على جمال الدّین یوسف البیرىّ الأستادار على عادته، و أنعم بإقطاعات الأمراء المنهزمین، مثل الوالد و غیره، على الأمیر إینال باى بن قجماس، و من کان قدم من الحبوس.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۴۳

و أخذ من هذا الیوم أمر یشبک الشّعبانىّ الدّوادار- کان- و رفقته یضعف، و أمر الأتابک بیبرس و رفقته یقوى، حتى صار یشبک و

الأمراء يطلعون إلى بيبرس و يأكلون على سماطه، و إذا كان لهم حاجة سألوا بيبرس فيها، و لم يعهدوا قبل ذلك لبيبرس فى الدولة كلاما، فعزّ ذلك على يشبك و حاشيته إلى الغاية، و ندموا على ما وقع منهم فى حقّ الملك الناصر فرج، و تساعوا فى عوده، و لم يعرفوا للناصر خبرا، كلّ ذلك و سعد الدين بن غراب لا يعرّف أحدا بأمر الملك الناصر فرج، لكنه يدبّر فى إخراجه، و عوده إلى ملكه من حيث لا يعلم بذلك أحد، و أخذ يدبّر أيضا على قبض إينال باى بن قجماس فى الباطن، فلم يتمّ له ذلك؛ لكثرة حاشيته و عصبته، و اضطراب الدولة، و عدم اجتماع الكلمة فى واحد بعينه.

ثمّ فى يوم الأربعاء ثامن عشر شهر ربيع الآخر، أفرج عن فتح الدين فتح اللّه كاتب السرّ- كان- على أنه يحمل خمسمائة ألف درهم ثمنها يوم ذاك ثلاثة آلاف و ثلاثة و ثلاثون مثقالا ذهبا و ثلث مثقال، كلّ ذلك و الدولة غير مستقيمة، و أحوال الناس متوقفة؛ لترقّبهم وقوع فتنة، غير أنّ أخبار الناصر لا- تظهر، مع علمهم أنه مختف بالقاهرة، لما يظهر من أمر بيبرس و رفقته من الاحتراز من الناصر، و إصلاح أمر الملك المنصور عبد العزيز فيما يثبّت به ملكه.

ثم فى حادى عشر جمادى الأولى، توجه الطواشى شاهين الحسنىّ، رأس نوبة الجمداريّة، و لالا السلطان الملك المنصور، و معه نحو عشرة أنفس، إلى البلاد الشامية لإحضار الأمير شيخ المحمودىّ الساقى نائب الشام- كان- إلى الديار المصرية، و كان يوم ذاك الأمير نوروز الحافظىّ ولى نيابة الشام عوضا عن شيخ المذكور، و خرج لقتال شيخ و كسره، و حصره بقلعة الصّبيبة، و لإحضار الأمير جكم من عوض نائب حلب، ثمّ ورد كتاب الأمير شيخ المذكور، و كتاب جكم

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١٣، ص: ۴۴

أيضا إلى الديار المصرية بعد ذلك بعشرة أيام، يخبران بأنهما حاربا الأمير نوروزا الحافظىّ و هزماه، و أنه لحق بطرابلس، و أنهما دخلا دمشق و أقاما بها أياما، ثم إن جكم خرج من دمشق لقتال نوروز الحافظى بطرابلس، و تبعه شيخ، فلما بلغ نوروزا ذلك خرج من طرابلس إلى حماة، و نزل جكم و شيخ على حمص، ثم سارا إلى طرابلس، ففرّ منها نائبها الأمير بكتمر جلّق، فوصل جكم و شيخ إلى طرابلس، و بلغ الأمير علّان جلق نائب حلب نزول نوروز و بكتمر جلّق إلى حماة، فخرج بعساكره من حلب، و قدم عليهما و وافقهما على قتال جكم و شيخ.

و لما وصل هذا الخبر إلى الديار المصرية، عظم على الأتابك بيبرس و حاشيته انهزام نوروز من جكم و شيخ إلى الغاية، و سر بذلك يشبك و حاشيته فى الباطن، و كثر قلق يشبك و أصحابه من الأمراء على الملك الناصر فرج، لاسيما لما مرض الملك المنصور عبد العزيز فى يوم الثلاثاء أول جمادى الآخرة، فلما رأى سعد الدين إبراهيم ابن غراب أمر يشبك الشعبانىّ فى إدبار عزّ عليه ذلك، لأن يشبك المذكور كان هو الذى أقامه بعد موت الملك الظاهر برقوق، و قام بمساعدته أعظم قيام، حتى كان من أمر ابن غراب ما كان، فعند ذلك أعلمه ابن غراب بأمر الملك الناصر مفصلا، و أنه عنده مقيم من يوم تسحب من قلعة الجبل، و قال له: أى وقت تشتهى الاجتماع به فعلت لك ذلك، فسرّ يشبك بذلك غاية السرور، و أعلم إخوته و حواشيه بما وقع، و أخذ من يومه فى تدبير أمر الملك الناصر فرج، و ظهوره و عوده إلى ملكه فى الباطن، حتى استحكم أمرهم، و وافق ذلك مرض الملك المنصور عبد العزيز، فقويت حركتهم، و كثرت القالة بين الناس فى أمر الملك الناصر و عوده إلى الملك، و تحقّق كلّ أحد أنه مقيم بالديار المصرية، و صارت أخباره تأتى يشبك و أصحابه مياومة و مساعاة، هذا بعد أن اجتمع عليه يشبك و غيره من الأمراء فى اللّيل غير مرة، و واعدوه، و تردّدوا إليه فى أماكن عديدة، كلّ ذلك و بيبرس و رفقته لا- يعرفون ما الخبر، بل يتحقّقون أنه مقيم بالقاهرة لاغير، و أنّ له عصبية كبيرة من الأمراء، و مع ذلك

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١٣، ص: ۴۵

قلوبهم مطمئنة أنّ القلعة بيدهم و السلطان عندهم، و أن الناصر أمره تلاشى و اضمحل.

فلما كان يوم الجمعة رابع جمادى الآخرة من سنة ثمان و ثمانمائة المذكورة، سعى المماليك بعضهم إلى بعض، و كثر هرجهم، و

عادت خیول کثیرة من الربیع، و صاروا یرکبون جمعا کبیرا و یتسارّون بالکلام، و بلغ ذلک بیبرس و رفقته، فأمرهم بیبرس و إینال بای بن قجماس بالفحص عن أخبارهم، فخرج جماعه کبیرة منهم و داخلوا الممالیک المذکورة فی کلام الناصر، فلم یقفوا له علی خبر، و عمّی علیهم جمیع أحوال الملک الناصر، غیر أنهم علموا أنّ الملک الناصر یرید الظهور و العود إلی الملک فاضطرب أمرهم، و حرّضوا بعضهم بعضا علی قتاله إن خرج، و تهیئوا لذلک، و حصنوا القلعة، و طلبوا جماعة کبیرة من الممالیک السلطانیة، و وعدوهم بالأمریّات و الإقطاعات و الوظائف، و حذروهم من عود الملک الناصر إلی الملک؛ أنه لا یبقی علی أحد منهم، و تواصوا علی القیام مع الملک المنصور عبد العزیز و إتمام أمره، کلّ ذلک و أحوالهم مفلولة، لعدم أهلیة بیبرس بتنفیذ الأمور، و معرفة الحروب، و القیام بأعباء الملک؛ لانهماکه فی اللذات، و لانعکافه علی اللهو و الطرب عمره کلّه، لا یمیل لغیر ذلک، و منذ مات خاله الملک الظاهر برقوق لم یدخل بنفسه فی أمر غیر هذا المعنی المذکور، و لسان حاله ینشد و یقول: [موشح]

خلّی الملوک تسطو بالملک و السلاح إنی قنعت منهم بالراح و الملاح.

قلت: ولیته دام علی ما کان علیه من لهوه و طربه، و لم یدخل بنفسه فی هذه المضایق التی ذهبت فیها روحه، و أما رفیقه إینال بای فإنه کان فیه طیش و خفة مع عدم تدبیر و معرفة، و أیضا لو علم ذلک کله، لم یکن أهلا إلی القیام بمثل هذا الأمر مع وجود من هو أعظم منه فی النفوس، و أکبر منه قدرا، و هم جماعة کبیرة، فلهذا کله لم ینتج أمرهم، و زال ملک الملک المنصور عبد العزیز بعد ما کان تمّ أمره، و قطع الناصر آماله من الملک.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۴۶

و استمرّ الأمر علی ذلک، و باتوا لیلة السبت المذکورة، و الحال علی ما هو علیه، إلی أن کان نصف اللیل، فخرج الملک الناصر فرج بن برقوق من بیت القاضی سعد الدین إبراهیم بن غراب، کاتب السرّ، فی جماعة کبیرة، من غیر تستّر، بل فی موکب عظیم سلطانیّ، و مضی بعساکره إلی بیت الأمیر سودون الحمزاویّ و نزل به، و أرسل استدعی الأمراء و الممالیک السلطانیة، و تسامعت به الناس، فأتوه من کلّ فج بالسلاح و آلة الحرب، ثم لبس الملک الناصر سلاحه و رکب فی أمرائه و عساکره، و قصد قلعة الجبل، و قد استعدّ بیبرس و إینال، و غیرهما من الأمراء الذین بالقلعة لقتاله، و حصّنوا القلعة، فلما حضر إلیها الملک الناصر فرج بعساکره ناوشوه بالقتال، و رموا علیه، و تقاتل الفریقان قتالا لیس بذاک، فلما رأی الملک الناصر أمر أهل القلعة مفلولا، توجّه إلی نحو باب القلعة، و کان به الأمیر صومای الحسنیّ الظاهریّ- رأس نوبة- [و] قد وکّل بباب المدرّج، فعندما رأی صومای الملک الناصر فتح له باب القلعة، فطلع منه الملک الناصر بأمرائه، و ملک القلعة و جلس بالقصر السلطانی، هذا و بیبرس و إینال بای یقاتلان أمراء السلطان من باب السلسلة من الإسطبل السلطانی.

فبینما هم فی ذلک، و إذا بالرمی علیهم من القصر، فالتفتوا و إذا بالناصر جالس بالقصر السلطانی، فلم یثبت بیبرس عند ذلک ساعة واحدة، و انهزم من وقته، و نزل بمن معه فارّا إلی خارج القاهرة، فأرسل السلطان فی أثره الأمیر سودون الطیّار- أمیر مجلس- فی جماعة، فأدرکه خارج القاهرة، فلم

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۴۷

یدفع عن نفسه، فقبض علیه سودون الطیّار، و أتی به إلی الملک الناصر، فقیّد فی الحال، و أرسل إلی الإسکندریة، فسجن بها، و اختفی إینال بای، و سودون الماردانیّ، و طلب السلطان الملک الناصر فرج أخاه السلطان الملک المنصور عبد العزیز، و طیّب خاطره، و أرسله إلی أمه بالدّور السلطانیّة، و تم أمر الملک الناصر، و أعید إلی ملکه بعد أن خلع من الملک هذه المدة، و زال ملک الملک المنصور کأنه لم یکن، فکانت مدّة سلطنة الملک المنصور عبد العزیز المذکور علی مصر شهرین و عشرة أیام، لیس له فیها إلا مجرد الاسم لا غیر، و أقام عند أمه بالدور السلطانیة من قلعة الجبل إلی أن أخرجه أخوه الملک الناصر فرج إلی ثغر الإسکندریة، و معه أخوه إبراهیم بن الملک الظاهر برقوق، صحبة الأمیر قطلوبغا الحسنیّ الکرکیّ، و الأمیر إینال حطب العلائیّ، فی حادی عشرین صفر

من سنة تسع و ثمانمائة المذكورة، فأقام الملك المنصور عبد العزيز المذكور و أخوه إبراهيم بالإسكندرية مدة يسيرة، و مرضا معا، فمات الملك المنصور هذا فى ليلة الاثنين سابع شهر ربيع الآخر من سنة تسع و ثمانمائة المذكورة، بعد أن لزم الفراش واحدا و عشرين يوما، و مات أخوه إبراهيم بعده فى ليلته، فاتهم الملك الناصر أنه أمر باغتيالهما بالسّم قبل سفره إلى الشام- حسبما يأتى ذكره.

قلت: لا يبعد ذلك من وجوه عديدة ليس لإبدائها محل- و اللّه أعلم.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۴۸

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۰۹]

ذكر سلطنة الملك الناصر فرج الثانية على مصر و لما كان صبيحة يوم السبت خامس جمادى الآخرة، طلع الملك الناصر فرج إلى قلعة الجبل و ملكها، و قبض على الأتابك بيبرس، ثم على من يأتى ذكره، ثم طلب الخليفة و القضاة فحضروا، و جدّدت له بيعة السّلطنة ثانيا، و ثبت خلع الملك المنصور عبد العزيز، و تسلطن و عاد إلى ملك مصر، و خلع على الخليفة و القضاة، و تمّ أمره، و انفضّ الموكب، و نزل الجميع إلى دورهم، و سكن أمر الناس.

فلما كان يوم الاثنين سابع جمادى الآخرة المذكورة، خلع السلطان على الأمير يشبك الشّعبانىّ الظاهرىّ الدّوادار- كان- باستقراره أتابك العساكر بالديار المصرية، عوضا عن بيبرس ابن أخت السّلطان الملك الظاهر برقوق، و خلع على الأمير سودون الحمزاوىّ الظاهرىّ باستقراره دوادارا كبيرا، عوضا عن سودون الماردانىّ، و على الأمير جركس القاسمىّ المصارع باستقراره أمير آخور كبيرا، عوضا عن سودون تلى المحمدىّ، ثم أمسك السلطان الأمير جارقطلو- رأس نوبة- وقانى باى- أمير آخور- و آقبغا- رأس نوبة- و الثلاثة أمراء عشروات، و أمسك بردبک و صمغار- رأس نوبة- أحد أمراء الطبلخانات- ثم خلع على القاضى سعد الدين إبراهيم ابن غراب، و استقر رأس مشورة، و أنعم عليه بإمرة مائة، و تقدمة ألف بالدّيار

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۴۹

المصريّة، و صار أميرا بعدما كان مباشرا، و لبس الكلفتاة، و تقلّد بالسيف، و كان فى أمسه قد ركب مع السلطان الملك الناصر بقرقل و عليه آلة الحرب- كاملا- و صار بعد من جملة المقاتلين، و تزيّا بزىّ الأتراك، و طلع إلى الخدمة من جملة الأمراء، ثمّ نزل إلى داره بقماش الموكب- على عادة الأمراء- فلم يركب بعدها، و لزم الفراش حتى مات، حسبما يأتى ذكره فى محله.

و خلع السلطان على فخر الدين ماجد بن المزوّق- ناظر الجيش- باستقراره فى كتابة السرّ، عوضا عن سعد الدين بن غراب المذكور؛ بحكم انتقاله إلى إمرة مائة، و تقدمة ألف بالديار المصريّة، ثم أمر السلطان فكتب بتقليد الأمير شيخ المحمودىّ باستقراره فى نيابة دمشق على عادته، عوضا عن الأمير نوروز الحافظىّ، و أن يتوجّه نوروز المذكور إلى القدس بطّالا، و حمل التقليد و التّشريف إلى الأمير شيخ الأمير إينال المنقار شادّ الشّراب خاناة، و كتب بتقليد الأمير جكم بنيابة حلب، عوضا عن علّان، و حمل إليه التقليد و التّشريف سودون السّاقى، و كتب للأمير دمرداش المحمدىّ نائب حلب- كان- بالحضور إلى مصر، ثم قبض السلطان الملك الناصر على سودون المحمدىّ المعروف بتلى الأمير آخور الكبير، و أخرج إلى دمشق على إقطاع الأمير سودون اليوسفىّ، ثمّ خلع السلطان على الأمير سودون من زادة باستقراره فى نيابة غزّة عوضا عن سلامش.

ثمّ فى حادى عشرين جمادى الآخرة المذكورة، خلع السّلطان على الأمير تمراز الناصرىّ باستقراره نائب السّلطنة الشّريفة بالدّيار المصرية، و كانت شاغرة سنين

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۵۰

عديدة، من يوم تركها سودون الفخرىّ الشيخونىّ، فى دولة الملك الظاهر برقوق، و خلع على الأمير آقباى أمير سلاح، و استقر رأس

نوبة الأمراء، و استقرّ سودون الطّيّار أمير سلاح عوضا عن آقباى المذكور، و استقرّ يلبغا الناصرىّ أمير مجلس عوضا عن سودون الطّيّار.

و أما البلاد الشّاميّة، فإنه لمّا بلغ أعيان الأمراء بها عود الملك الناصر فرج إلى ملكه، و تولية شيخ ثانيا نيابة دمشق عوضا عن نوروز، فرحوا بذلك فرحا عظيما، و دقّت البشار لذلك أياما، و خرج نوروز الحافظىّ، و علّان جلّق من حماة، و توجّها إلى حلب بمن معهما، و كان الأمير دمرداش المحمّدىّ قد فرّ منها، و توجّه إلى بلاد التّركمان، فمضيا إليه، ثم فارقاه و عادا إلى جهة أخرى حسبما يأتى ذكره، و أقام بحلب الأمير دقماق المحمّدىّ، فلما قدم جكم إلى حلب امتنع دقماق بحلب، و قاتله و انكسر، و أخذ دقماق و قتل بين يدى جكم صبرا- على ما يأتى ذكره فى محلّه.

و أما السّلطان الملك الناصر فرج، فإنه لمّا كان يوم الخميس رابع شهر رجب، قبض على الأمير أزبك الرّمضانىّ، و قيّده و بعثه إلى الإسكندرية فسجن بها، ثم ورد عليه الخبر بأنّ الأمير جكم سار إلى حلب و معه الأمير شيخ نائب الشام، و نوروز بحلب، فلمّا وصلا إلى المعرّة كتب إليهما نوروز يعتذر بأنّه لم يعلم بولاية الأمير جكم لحلب، و خرج بمن معه منها إلى البرّيّة، فدخل جكم حلب من غير قتال، و عاد شيخ إلى الشّام، فلما بلغ السلطان ذلك كتب إلى الأمير جكم بنيابة طرابلس مضافا على ما بيده من نيابة حلب بمثال سلطانى من غير تقليد، و توجّه بالمثال الأمير مغلباى، و كتب إلى نوروز بالحضور إلى القدس- بطّالا- كما كتب له أولا، و كتب إلى الأمير بكتمر جلّق نائب طرابلس بأن يكون أميرا كبيرا بدمشق.

و أمّا جكم فإنّه لمّا استقرّ بحلب ما زال يكاتب نوروزا و علّان [جلّق]

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۵۱

حتى قدما عليه، فأكرمهما و صارا من جملة أصحابه، ثمّ وقع له مع شيخ و غيره أمور نذكرها فى محلّها.

و فى يوم الاثنين أول شعبان، استدعى السّلطان الملك الناصر أبا الفضل العبّاس ولد الخليفة المتوكل على اللّه أبى عبد اللّه محمد، و بايعه بالخلافة بعد موت أبيه المذكور، و لبس التّشريف، و لقّب بالمستعين بالله، و نزل إلى داره. و كانت وفاة المتوكل على اللّه فى سابع عشرين شهر رجب، ثمّ كتب السّلطان باستقرار الأمير طولو من علىّ باشاه فى نيابة صفد عوضا عن بكتمر الرّكنىّ، المعروف بكتمر باطيا، و جهّز تشريف طولو على يد الأمير آقبردى رأس نوبة، و كتب باستقرار الأمير دمرداش المحمّدىّ فى نيابة حماة، ثم ورد الخبر بوصول الأمير علّان جلّق إلى دمشق مفارقا لجكم نائب حلب. و مات سعد الدين إبراهيم بن غراب فى يوم الخميس تاسع عشر شهر رمضان- كما سيأتى ذكره فى الوفيات- ثم أمسك السلطان الأمير إينال الأشقر و أرسله إلى سجن الإسكندرية لأمر بلغه عنه، ثمّ فى أواخر شهر رمضان قبض على الأمير سودون الماردانىّ من بيت بالقاهرة، فقيّد و حمل إلى سجن الإسكندرية، ثمّ كتب السلطان أمانا لكلّ من جمق، و أسنباى، و أرغز، و سودون اليوسفىّ، و برسباى الدّقماقىّ، أعنى الملك الأشرف، و جهّزه إليهم بالشام، ثمّ قبض السلطان على الوزير فخر الدين ماجد بن غراب فى سابع ذى القعدة، و سلّمه إلى جمال الدين يوسف البيرىّ الأستادار، ثم كتب السلطان إلى الأمير نوروز لحافظىّ- و هو عند جكم بحلب- أنه قد قدّمت مكاتبة السلطان له أنّه يتوجّه إلى القدس بطّالا، و أنه أيضا ساعة وصول هذا المرسوم إليه يحضر إلى الدّيار المصريّة، فلم يلتفت جكم إلى مرسوم السلطان، و نهر القاصد، و خشّن له فى الكلام.

ثمّ فى سابع من ذى الحجّة، خلع السلطان على القاضى فتح الدين فتح اللّه بإعادته إلى وظيفة كتابة السّر، بعد عزل فخر الدين بن المزوّق عنها، ثم أفرج السّلطان عن فخر الدين بن غراب، و خلع عليه، و استقرّ وزيرا و مشيرا و ناظر الخاص- على عادته أوّلا- بعد أن حمل عشرين ألف دينار.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۵۲

و كان فى هذه السّنة- أعنى سنة ثمان [و ثمانمائة] - الطاعون العظيم بصعيد مصر، حتى شمل الخراب غالب بلاد الصعيد، ثمّ بلغ السّلطان أنّ جكم من عوض نائب حلب قد عظم أمره، و أنه قد بدا منه أمور تدلّ على المخالفة، فكتب السّلطان بعزله عن نيابة حلب و

طرابلس، و ولاية الأمير دمرداش نيابة حلب عوضه، و تولية الأمير علّان اليحياوىّ [جلّق]، نيابة طرابلس عوضه، و تولية الأمير عمر الهيدبانىّ نيابة حماة، و توجّه بتقاليدهم ألطنبغا شقل مملوك الأمير شيخ المحمودىّ نائب الشام، و لم يرسل السلطان إليهم أحدا من أمراء مصر لضعف حالهم و عدم موجودهم، و قبل أن يصل إليهم الخبر بذلك اقتتل الأمير شيخ مع الأمير جكم بأرض الرّستن - فيما بين حماة و حمص- فى خامس من ذى الحجة قتالا عظيما، قتل فيه الأمير علّان اليحياوىّ جلّق، و الأمير طولو من علىّ باشاه نائب صفد، و جماعة كبيرة فى الواقعة، و أما علّان و طولو فإنه قبض عليهما فقدّما بين يدى الأمير جكم؛ فأمر بضرب رقابهما، فضربت أعناقهما بين يديه، و ضرب عنق طواشى كان فى خدمة الأمير شيخ معهما.

قلت: و هذا ثالث أمير قتله الأمير جكم من أعيان الملوك من خشداشيّته فى هذه السنة- أعنى: دقماق المحمّدىّ نائب حلب، و علّان هذا نائب حلب أيضا، و طولو نائب صفد- انتهى. و انهزم الأمير شيخ المحمودىّ نائب الشام و معه الأمير دمرداش نائب حلب إلى دمشق، فلم يقدر شيخ على الإقامة بدمشق خوفا من نوروز الحافظىّ، و خرج من دمشق و مضى إلى الرّملة يريد القدوم إلى القاهرة، و دخل نوروز إلى دمشق، و ملك المدينة من جهة جكم بعساكره فى يوم الاثنين سابع عشرين

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۵۳

ذى الحجة المذكورة، ثمّ دخل جكم دمشق بعده فى يوم الخميس سلخ ذى الحجة، و نادى جكم فى دمشق بالأمان، و أنه لا يشوّش أحد على أحد، و كان جكم قد شنق رجلا من عسكره بحلب؛ كونه رعى فرسه زرعا، و شنق آخر على شيء وقع منه فى حقّ بعض الرعيّة، ثم لما قدم دمشق شنق بها أيضا جنديا بعد المناداة على شيء من ذلك، فخافته عساكره و انكفّوا عن مظالم الناس، و عن شرب الخمر، حتى لهجت النّاس بقولهم: جكم حكم و ما ظلم، و عظم أمر جكم بالبلاد الشامية إلى الغاية.

و لما بلغ خبر هذه الواقعة المصريين خارت قواهم و تخوّفوا من جكم، و خرج البريد من يومه يطلب الأمير تغرى بردى- أعنى الوالد- من برّيّة القدس، فحضر إلى القاهرة، و جلس رأس الميسرة، بعد أن بنى السلطان على ابنته- كريمة مؤلف هذا الكتاب - ثم جهّز السلطان تشريفا للأمير شيخ فى حادى عشر المحرم من سنة تسع و ثمانمائة بنيابة الشام على عادته، و أمدّه بمال و سلاح، و قبل خروج القاصد إليه قدم الخبر بوصول شيخ المذكور إلى مدينة بلبيس، فخرج إليه المطبخ السّلطانىّ و تلقّته الأمراء.

ثم قبض السلطان على الأمير كزل العجمىّ حاجب الحجاب- و كان أمير حاجّ المحمل- لما فعله مع الحجّاج فى هذه السّنة؛ فإنه أخذ من الحاج على كلّ جمل دينارا و باعهم الماء الذى يردونه، فصادره السلطان و أخذ منه نحو المائتى ألف درهم، ففر فى سلخه، فأخذ له حاصل كبير أيضا.

و أما جكم، فإنّه أقام بدمشق مدة و قرّر أمورها، و جعل على نيابتها الأمير نوروزا الحافظى، و كان الأمير سودون تلّى المحمّدى الأمير آخور- كان- فى سجن الأمير شيخ، ففرّ منه و لحق بالأمير نوروز الحافظىّ، ثم ورد الخبر من قضاة حماة أنه سمع طائر يقول:

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۵۴

«اللهمّ انصر جكم» و هذا من غريب الاتّفاق، و هذا و الناس فى جهد و بلاء من غلوّ الأسعار بالديار المصرية، لا سيّما لحم الضأن و البقر و غيره، فإنه عزّ وجوده البتة، ثم خرج الأمير الكبير يشبك الشّعبانىّ و غالب الأمراء إلى ملاقاة شيخ، و دمرداش، و معهما خير بك نائب غزّة، و ألطنبغا العثمانى حاجب حجّاب دمشق، و يونس الحافظىّ نائب حماة- كان- و سودون الظريف نائب الكرك- كان- و تنكزبغا الحططىّ فى آخرين، و طلع الجميع إلى القلعة، و قبّلوا الأرض بين يدى السلطان، فأكرمهم السلطان غاية الإكرام، ثم نزلوا إلى القاهرة، و عقيب ذلك ورد الخبر بأخذ عسكر جكم مدينة صفد، و الكرك، و الصّبيبة و غيرها.

ثمّ فى سادس صفر من سنة تسع و ثمانمائة المذكورة، خلع السّلطان على الأمير شيخ المحمودىّ بنيابة الشام على عادته، و على الأمير دمرداش بنيابة حلب على عادته، و أخذ السّلطان فى تجهيز أمر السّفر إلى البلاد الشّامية.

ثم فى حادى عشرين صفر من سنة تسع المذكورة، حمل السلطان الملك الناصر أخاه الملك المنصور عبد العزيز، و أخاه إبراهيم-

ابنی الملک الظاهر برقوق- إلی سجن الإسکندریة صحبة الأمیر قطلوبغا الکرکیّ، و الأمیر إینال حطب العلائیّ، و رسم لهما أن یقیما باسکندریّة عندهما، و قد تقدّم ذکر ذلک فی أواخر ترجمة الملک المنصور عبد العزیز.

ثمّ أنعم السّلطان علی الأمیر شیخ بأشیاء کثیرة، فتجهّز شیخ المذکور و خرج من الدیار المصریة فی یوم الاثنین أول شهر ربیع الأول، و خلع السلطان علی الأمیر دمرداش المحمّدی نائب حلب أیضا خلعة السّفر، و خرج صحبة الأمیر شیخ، و توجّها بجماعتهما و نزلا بالرّیدانیّة ثم لحق بهما الأمیر سودون الحمزاویّ الدوادار الکبیر،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۵۵

و الأمیر سودون الطّیّار أمیر سلاح بطلبهما و ممالیکهما و هؤلاء کالجالیش. و أقام الجمیع بالرّیدانیّة إلی أن رحلوا منها، و بعد رحیلهم نزل السّلطان بعساکره و أمرائه من قلعة الجبل، و نزل بمخیّمه من الرّیدانیّة خارج القاهرة، فی ثامن شهر ربیع الأول المذکور من سنة تسع و ثمانمائة، و هذه تجریدة الملک النّاصر الثالثة إلی البلاد الشّامیّة، فإنّ الأولی کانت من سنة اثنتین لقتال تنم، و الثانیة فی سنة ثلاث لقتال تمر لنک، و هذه الثالثة.

و أقام السلطان بالرّیدانیّة إلی یوم ثانی عشر شهر ربیع الأول، فرحل منها بعساکره إلی جهة الشّام، بعد أن خلع علی الأمیر تمراز الناصریّ نائب السلطنة الشّریفة بالدیار المصریة باستقراره أیضا فی نیابة الغیبة بالقاهرة، و أنزل السلطان بقلعة الجبل جماعة أخری من الأمراء ممن یثق بهم، و کذلک بالقاهرة.

قال المقریزیّ- رحمه اللّه: و لم یحمد رحیل السّلطان الملک النّاصر من الرّیدانیّة فی یوم الجمعة، فقد نقل عن الإمام أحمد بن حنبل- رحمه اللّه- أنه قال: ما سافر أحد یوم الجمعة إلّا رأی ما یکره. و سار السلطان بعساکره حتی دخل دمشق فی یوم الاثنین سابع شهر ربیع الآخر من السنة بتجمّل عظیم، و نزل بدار السّعادة بعد أن زیّنت له دمشق، فأقام بدمشق إلی یوم سابع عشره، فرحل من دمشق بعساکره یرید حلب، و سار حتی دخل حلب فی یوم سادس عشرینه، و قد فرّ منها جکم و عدّی الفرات خوفا من الملک النّاصر فرج، و معه الأمیر نوروز الحافظیّ و تمربغا المشطوب، فی جماعة أخر، فنزل السلطان

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۵۶

بالقلعة من حلب، و بعث بجماعة فی طلب جکم و رفقته، فتوجّهوا فی أثره، ثمّ عادوا بعد أیام بغیر طائل، و خرج السّلطان من حلب عائدا إلی الدّیار المصریّة یرید الشّام فی أوّل جمادی الآخرة، بعد ما ولّی الأمیر جرکس القاسمیّ المصارع الأمیر آخور الکبیر نیابة حلب عوضا عن جکم من عوض، و ولّی الأمیر سودون بقجة نیابة طرابلس. و جدّ السلطان فی سیره بعد خروجه من حلب حتی قدم دمشق فی خامس جمادی الآخرة، و بعد خروج السلطان من حلب بیوم ثارت طائفة من الممالیک و معهم عامّة حلب علی جرکس المصارع، ثمّ قدم الأمیر نوروز الحافظیّ إلی نحو حلب، ففرّ منها جرکس المصارع یرید دمشق و نوروز فی أثره، فعثر نوروز بحلم الملک النّاصر- و کان تخلّف عن السّلطان لسرعة سیر السّلطان- فقطعه نوروز و وقع النهب فیه، و لحق الأمیر جرکس السلطان و دخل معه دمشق، فنزل السّلطان فی دار السعادة، و نادی بالإقامة فی دمشق شهرین، و کان الأتابک یشبک الشّعبانیّ قدم دمشق، و هو متمرّض فی أمسه، و معه الأمیر دمردش المحمّدیّ، و بشبای رأس نوبة النّوب، و ورد الخبر علی السّلطان بنزول نوروز علی حماة، و بقدوم جکم إلی حلب.

فلمّا بلغ السّلطان ذلک خرج من دمشق فی یوم الأحد سادس عشر جمادی الآخرة، بعد ما أمر العسکر أنّ من کان فرسه عاجزا فلیتوجّه إلی القاهرة، و ألّا یتبع السلطان إلّا من کان قویّا، فتسارع أکثر العسکر إلی العود لجهة الدیار المصریّة، و لم یتبع السّلطان من عسکره إلا القلیل، و سار الملک النّاصر حتی وصل إلی منزلة قارا، ثمّ عاد مجدّا فدخل دمشق و قد تمزّق عسکره، و تأخّر جماعة کبیرة من الأمراء مع شیخ نائب الشّام، ثم قدموا دمشق، ثم خرج الأمیر شیخ فی ثالث عشرینه من دمشق و معه دمرداش المحمّدیّ،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۵۷

و ألطنبغا العثمانىّ فى عدّة من الأمراء إلى جهة صفد، و سار السّلطان و يشبك، و معهما جميع الأمراء إلى جهة مصر، فدخل السلطان إلى القدس، و قد تخلّف عنه الأمير سودون الحمزاوىّ الدّوادار الكبير بدمشق، و معه عدّة من الأمراء مغاضبين للسّلطان لأمر اقتضى ذلك، ثمّ خرج الحمزاوىّ من دمشق يريد صفد، و أخذ كثيرا من الأثقال السّلطانيّة و استولى على صفد.

و أما نوروز فإنه جهّز عسكرا عليهم الأمير سودون تلّى المحمّدىّ، و أزبك الدّوادار فى آخرين، فساروا إلى جهة الرّملة، ثمّ قدم على الأمير نوروز الحافظىّ الأمير إينال باى بن قجماس و الأمير يشبك بن أزدمر، و كانا مختفيين بالقاهرة من يوم خروج الملك النّاصر فرج و عوده إلى ملكه، و اختفيا حتى خرجا صحبة السلطان إلى البلاد الشّامية، فلما عاد السّلطان إلى نحو الدّيار المصريّة توجّها إلى نوروز بدمشق، و توجّه معهما الأمير سودون المحمّدىّ لصعف أصابه، فأكرمهما الأمير نوروز غاية الإكرام، و أنعم عليهما بأشياء كثيرة، و كتب للأمير جكم بقدومهما.

و أمّا السلطان الملك النّاصر، فإنه سار من القدس حتى دخل إلى القاهرة فى حادى عشر شهر رجب بغير طائل، و قد تلف له و لعساكره مال كبير، و زيّنت القاهرة لقدومه، و خرج أعيان المصريّين لتقّيه، ثمّ بعد قدومه بسبعة أيام وصل دمرداش نائب حلب، و سودون من زادة نائب غزّة إلى القاهرة، و استمرّ سودون الحمزاوىّ و شيخ نائب الشّام بصفد، و أخذ [سودون] الحمزاوىّ يسعى فى الصّلح بين شيخ و نوروز، و لا زال فى ذلك حتى أجاب نوروز، و كتب فى هذا المعنى إلى جكم، فبينما هم فى ذلك خرج سودون الحمزاوىّ يوما من صفد ليسير، فقام شيخ و ركب و استولى على قلعة صفد، و أخذ جميع ما للحمزاوىّ، و بلغ ذلك الحمزاوىّ

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۵۸

فهرب و نجا بنفسه فى قليل من أصحابه، و توجّه إلى دمشق فرحّب به نوروز، غير أنّ نوروزا كان مشغولا بعمارة قلعة دمشق، فلم ينهض بالخروج معه لقتال شيخ.

و أمّا الملك النّاصر، فإنّه فى يوم الجمعة رابع شعبان، مسك الوزير فخر الدين ماجد بن غراب و سلّمه لجمال الدين الأستادار، ليصادره و يعاقبه، و استقرّ جمال الدين فى وظيفتى الوزير و ناظر الخاصّ مضافا إلى الأستاداريّة، و هذا أوّل ابتداء تحكّم جمال الدين فى الناس، ثم قبض على الأمير خير بك نائب عزّة، و قدم به إلى القاهرة مقيّدا، ثمّ عيّن السلطان جماعة من الأمراء للتجريدة بالبلاد الشّامية و مقدّمهم الأمير تمراز النّاصرىّ النائب، و آقباى، و غيرهما، و خرجوا من القاهرة فى عاشر شهر رمضان، فورد الخبر بأن عسكرا من الشام أخذ غزّة، و أن يشبك بن أزدمر أخذ قطيا، و أخربها و عاد إلى غزّة، فأقام تمراز بمن معه على مدينة بلبيس أياما، ثم عاد هو و آقباى بمن معهما إلى القاهرة فى سابع شوّال.

ثمّ قدم الخبر على الملك الناصر بأن الأمير جكم من عوض نائب حلب تسلطن بقلعة حلب فى يوم حادى عشر شوال من سنة تسع و ثمانمائة المذكورة، و تلقّب بالملك العادل أبى الفتح عبد اللّه جكم، و خطب باسمه من الفرات إلى غزّة- ما عدا صفد- فإن بها الأمير شيخا المحمودىّ، و قد استولى عليها من سودون الحمزاوىّ حسبما تقدّم ذكره، و أنه لم يخطب باسم جكم، و أنه مستمرّ على طاعة السّلطان، و أن الأمير نوروزا نائب الشّام باس الأرض لجكم، و خلع على بكتمر جلّق بنيابة صفد بأمر الملك العادل جكم، ثمّ قدم بعد ذلك عدّة كتب من أمراء الشّام على السّلطان يرغّبون السّلطان فى الخروج إلى البلاد الشّامية، ثم قدمت عدّة كتب من جكم إلى عربان مصر و فلّاحيها بمنعهم من دفع الخراج إلى السلطان و أمرائه و أجناده، و تحذيرهم من ذلك حتى يقدم جكم إلى مصر، ثم ورد الخبر من البلاد الشّامية أنه فى ثامن عشر شوال وصل إلى دمشق

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۵۹

قاصد الملك العادل جكم، و على يده مرسوم جكم بأنّ الأمير سودون الحمزاوى يكون دوادارا بالدّيار المصرية على عادته، و أن الأمير إينال باى بن قجماس يكون أمير آخور كبيرا على عادته؛ و أن الأمير يشبك بن أزدمر يكون رأس نوبة النّوب على عادته، و أن الأمير نوروزا مستمرّ على نيابة دمشق، و جيء له بالخلعة فلبسها نوروز، و قبّل الأرض، و دقت البشائر لذلك- بدمشق- أياما، و زيّنت

المدينة.

فلما بلغ السّلطان ذلک أراد الخروج إلى البلاد الشّامية فكلمه أمراؤه فى تأخير السفر حتى يخفّ الطاعون من الدّيار المصريّة، فإنه كان فشا بها و كثر، فلم يلتفت السلطان لذلک، و شرع فى أوّل ذى الحجة فى الاهتمام إلى سفر الشّام هو و عساكره، ثم فى خامس عشرين ذى الحجة المذكورة علّق السلطان جاليش السفر، و صرفت النّفقة للمماليک السّلطانية فى تاسع عشرين، لكل مملوک ثلاثون مثقالا و ألف درهم فلوسا، فتجمّع المماليک تحت الطّبلخاناة السلطانيّة و امتنعوا من أخذها، فكلّمهم بعض الأمراء على لسان السّلطان فى ذلک، فرضوا، و بينما السلطان فى ذلک ورد عليه الخبر بقتل الأمير جكم بآمد، من ديار بكر بن وائل، فى سابع عشر ذى القعدة من سنة تسع و ثمانمائة المذكورة.

و سبب قتلة جكم المذكور أنه لما تسلطن بمدينة حلب، و وافقه و أطاعه غالب نوّاب البلاد الشّاميّة، و عظم أمره، و كثرت عساكره، و خافه كلّ أحد حتى أهل مصر، و تهيّأ الملک النّاصر إلى الخروج من مصر لقتاله، ابتدأ جكم بالبلاد الشّاميّة، و استعد لأخذها، على أن الدّيار المصريّة صارت فى قبضته، و أعرض عنها حتى ينتهى من بلاد الشرق، و جعل تلک الناحية هى الأهم، و خرج من مدينة حلب بعساكره إلى نحو الأمير عثمان بن طرعليّ المعروف بقرايلک، صاحب آمد، و غيرها

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج١٣، ص: ٦٠

من ديار بكر، و كان قرايلک المذكور يومئذ نازلا بآمد، فسار جكم حتّى نزل على البيرة، و حصرها و أخذها، و قتل نائبها الأمير كزل، فأتته بها رسل قرايلک يرغب إليه فى الطّاعة، و يسأله الرجوع عنه إلى حلب، و أنه يحمل إليه من الجمال و الأغنام عدّة كبيرة، و يخطب له بديار بكر، فلم يقبل جكم ذلک، و سار حتى نزل قرب ماردين، فأقام هناک أياما حتى قدم عليه الملک الظّاهر مجد الدين عيسى الأرتقيّ صاحب ماردين، و معه حاجبه فيّاض بعساكره، فاستصحبه جكم معه إلى نحو مدينة آمد، و قد تهيأ قرا يلک لقتال جكم المذكور، فعبّأ جكم عساكره، و مشى على آمد، فالتقاه قرايلک بظاهرها، و تقاتلا قتالا شديدا قاتل فيه جكم بنفسه، و قتل بيده إبراهيم بن قرايلک، ثمّ حمل على قرايلک بنفسه، فانهزم قرايلک بمن معه إلى مدينة آمد و امتنعوا بها، و غلّقوا أبوابها، فاقتحم جكم فى طائعة من عسكره القرايلكيّة، و ساق خلفهم حتى صار فى وسط بساتين آمد، و كان قرايلک قد أرسل المياه على أراضى آمد حتى صارت ربوا، يدخل فيها الفارس بفرسه فلا يقدر على الخلاص، فلما وصل جكم إلى ذلک الموضع المذكور أخذه الرّحم هو و من معه من كلّ جهة، و قد انحصروا من الماء الذى فاض على الأرض، و جعلها ربوا، فصاروا لا يمكنهم فيه الكرّ و الفرّ، فصوّب عند ذلک بعض التّراكمين من القرايلكيّة على جكم، و هو لا يعرفه، و رماه بحجر فى مقلاع أصاب جبهته و شجّه، و سال الدّم على ذقنه و وجهه، و جكم يتجلّد و يمسح الدّم عن وجهه، فلم يتمالک نفسه و سقط عن فرسه مغشيّا عليه، و تكاثر التّركمان على رفقته فهزموهم بعد أن قتلوا منهم عدّة كبيرة، فنزل بعض التّراكمين و قطع رأس جكم، و جال العسكر و اضطرب أمر جيش جكم ساعة، ثم انكسروا لفقد جكم، و قد عاينت أنا موضع قتل جكم بظاهر مدينة آمد لما نزل السّلطان

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج١٣، ص: ٦١

الملک الأشرف برسباى عليها فى سنة ستّ و ثلاثين و ثمانمائة، عرّفنى ذلک الأمير السّيفيّ صربغا أمير آخور الوالد، فإنه كان يوم ذاک صحبة جكم فى الواقعة المذكورة- انتهى.

ثم أخذ التّركمان فى الأسر و القتل و النّهب فى عساكر جكم و عساكر ماردين حتى إنه لم ينج منهم إلّا القليل، فلما ذهب القوم نزل قرايلک و تطلّب جكم بين القتلى حتى ظفر به، فقطع رأسه، و بعث به إلى السلطان الملک النّاصر إلى الدّيار المصريّة، و قتل فى هذه الواقعة مع الأمير جكم من الأعيان: الملک الظّاهر عيسى صاحب ماردين، و كان من أجلّ الملوک، و الأمير ناصر الدين محمد بن شهريّ حاجب حجّاب حلب، و الأمير قمول نائب عين تاب، و صارو سيّدى، و فرّ الأمير تمربغا المشطوب. و كمشبغا العيساويّ، حتى لحقا بحلب فى عدّة يسيرة من المماليک، و كانت هذه الواقعة فى سابع عشر ذى القعدة من سنة تسع و ثمانمائة- انتهى أمر جكم و

قتلته.

و أما أمر الأمير شيخ المحموديّ نائب الشّام- كان- فإنه فى ذى القعدة أيضا ركب من صفد يريد الأمراء الذين من جهة نوروز و جكم. و قد وصلوا من دمشق إلى غزّة، و هم إينال باى بن قجماس، و سودون الحمزاوىّ، و يشبك ابن أزدمر، و يونس الحافظىّ نائب حماة- كان- و سودون قرناص فى آخرين، فسار شيخ بمن معه و طرقهم بغزّة على حين غفلة فى يوم الخميس رابع ذى الحجة، فركبوا و قاتلوه قتالا شديدا، قتل فيه إينال باى بن قجماس، و يونس الحافظىّ، و سودون قرناص، و قبض شيخ على سودون الحمزاوىّ، بعد ما قلعت عينه، و هرب يشبك بن أزدمر إلى دمشق، و قبض شيخ على

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۶۲

عدّة مماليك من المماليك السّلطانيّة، فوسّط منهم تسعة، و غرّق أحد عشر، و أفرج عن مماليك الأمراء، و لم يتعرض لهم بسوء، و بعث بطائفة أخرى من المماليك السّلطانيّة إلى الملك النّاصر فرج، ثم عاد شيخ إلى صفد.

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۱۰]

ثمّ ورد الخبر بأن الأمير نوروزا نائب الشام عاد إلى طاعة السّلطان بعد قتل جكم، و أنّ تمربغا المشطوب تغلّب على حلب، و قاتلته التّراكمين حتى ملك قلعة حلب بعد أمور، و أنه أخذ ما كان لجكم بحلب و استخدم مماليك جكم، فعظم أمره لذلك، فأمر السلطان بتجهيز أموره للسفر إلى البلاد الشّاميّة، و تجهزت العساكر، فلمّا كان يوم الاثنين سادس المحرم من سنة عشرة و ثمانمائة فرّق السلطان الجمال على المماليك السّلطانيّة؛ برسم السّفر إلى الشّام صحبة السّلطان.

ثمّ فى يوم الجمعة عاشر المحرم قدم إلى القاهرة حاجب الأمير نعير برأس الأمير جكم، و رأس ابن شهرى، فخلع السلطان عليه، و طيف بالرأسين على رمحين، و نودى عليهما بالقاهرة، ثمّ علّقا على باب زويلة، و دقّت البشائر، و زيّنت القاهرة لذلك.

ثمّ فى تاسع عشر المحرم، خرجت مدوّرة السلطان إلى الرّيدانيّة خارج القاهرة، ثمّ فى يوم حادى عشرينه، برز الجاليش السّلطانى من الأمراء إلى الرّيدانيّة، و هم الأتابك يشبك، و الوالد، و هو تغرى بردى البشبغاوىّ، و الأمير بيغوت فى آخرين من الأمراء، و رحلوا فى خامس عشرينه من الرّيدانيّة، و نزل السّلطان من قلعة الجبل فى يوم الاثنين ثامن عشرينه إلى الرّيدانيّة ببقيّة أمرائه و عساكره. و هذه تجريدة الملك النّاصر الرابعة إلى البلاد الشّاميّة، غير واقعة السّعيدية.

ثمّ رحل السلطان من الرّيدانيّة فى يوم ثانى صفر من سنة عشرة و ثمانمائة، يريد البلاد الشاميّة.

و أما البلاد الشّاميّة- فإنّ نوروزا الحافظىّ خرج من دمشق فى أوّل محرم من

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۶۳

هذه السنة لقتال شيخ، فضعف شيخ عن مقاومته، و لم يخرج من صفد، و أرسل يستحثّ السلطان على سرعة المجىء إلى البلاد الشّاميّة، فعاد نوروز إلى دمشق بعد أن حاصر شيخا أياما، و أرسل إلى السلطان يطلب أمانا، و أنه يمتثل ما يرسم به السّلطان، و أنه يوافق شيخا، و يرضى بما يولّيه السلطان من البلاد.

ثمّ أرسل نوروز إلى شيخ بأن يكاتب السلطان بأن يكون نائب حلب و يكون شيخ نائب الشام على عادته، فلم يلتفت شيخ إلى كلامه، و انتهز الفرصة و قد قوى أمره بعد ما كان خائفا من نوروز؛ لقدوم السّلطان الملك النّاصر إلى البلاد الشّاميّة، و سار بمماليكه و حواشيه حتى نزل بالقرب من دمشق، ففرّ فى تلك الليلة من نوروز إلى شيخ جماعة من الأمراء، منهم: قمش، و جمق، ثمّ تحوّل نوروز من المزّة إلى قبّة يلبغا، فوصل إليه قاصد الأمير شيخ، بأنّ السلطان أرسل إليه تشريفا بنيابة دمشق، و أنه طلب من السلطان لنوروز نيابة حلب، فأبى السّلطان ذلك، و أن عسكر السّلطان وصل إلى مدينة غزّة، فتحول عند ذلك نوروز إلى برزة، و دخلت مماليك الأمير شيخ إلى الشام من غير قتال.

و أمّا السّلطان الملك النّاصر فإنه لمّا رحل من الرّيدانيّة بعد أن عمل الأمير تمراز نائب السّلطنة نائب غيبته بديار مصر، و أنزله بباب السّلسلة، و أنزل الأمير آقباى بقلعة الجبل، و سكّن سودون الطيّار أمير سلاح بالرميلة تجاه باب السّلسلة، و سار السّلطان حتى وصل إلى غزّة فى ثانى عشر صفر، فورد عليه الخبر بفرار نوروز، فلم يلتفت إلى ذلك، و سار حتى دخل إلى دمشق فى يوم ثانى عشرين صفر بعد

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۶۴

ما خرج الأمير شيخ إلى لقائه، و قبّل الأرض بين يديه، و سار معه حتى دخل دمشق فى خدمته من جملة الأمراء، و نزل السّلطان بدار السّعادة من دمشق، و صلّى الجمعة بجامع بنى أمية، ثم قبض على قضاة دمشق و وزيرها، و كاتب سرها، و أهانهم السّلطان و ألزمهم بحمل مال كبير.

ثم فى يوم الأحد خامس عشرين صفر، أمسك السّلطان الأمير شيخا المحمودىّ نائب دمشق، و الأمير الكبير يشبك الشّعبانىّ الأتابكى، و اعتقلهما بقلعة دمشق، و كان الأمير جركس القاسمىّ المصارع الأمير آخور قد تأخّر فى هذا اليوم عن الخدمة السلطانية بداره، فلما بلغه الخبر فرّ من وقته، فلم يدرك، و هرب جماعة كبيرة من الشّيخيّة و اليشبكيّة.

ثمّ فى سادس عشرين صفر خلع السلطان على الأمير بيغوت باستقراره فى نيابة دمشق عوضا عن شيخ المحمودىّ، بحكم حبسه بقلعة دمشق، و خلع على الأمير فارس دوادار تنم باستقراره حاجب حجّاب دمشق، و خلع على الأمير عمر الهيدبانىّ بنيابة حماة، و على صدر الدّين علىّ بن الأدمىّ باستقراره قاضى قصاة الحنفيّة بدمشق، و دام يشبك و شيخ بقلعة دمشق إلى أن استمالا نائب قلعتها الأمير منطوقا، حتى أفرج عنهما فى ليلة الاثنين ثالث شهر ربيع الأوّل من سنة عشرة و ثمانمائة، و هو أن منطوقا تحيّل على من عنده من المماليك بأنّ السّلطان رسم له بأن ينقل الأميرين شيخا و يشبك، من حبس إلى آخر فصدّقوه، فأخرجهما على أنه ينقلهما، و فرّ بهما، و نزل من القلعة، فلم يبلغ السلطان الخبر حتى ذهبوا حيث شاءوا، و أصبح السلطان يوم الاثنين ندب الأمير بيغوت لطلبهم، فركب بيغوت من وقته بمماليكه، و سار فى طلبهم- غارة- و قد اختفى الأمير شيخ بدمشق و لم يخرج منها، و توجّه يشبك فلم يدرك بيغوت سوى منطوق نائب قلعة دمشق الذى أطلقهما؛ لثقل جثّته؛ فإنه كان فى غاية من السّمن، ففرّ يشبك، و قاتل منطوق

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۶۵

بيغوت ساعة ثمّ انهزم، و قبض عليه [بيغوت] و قطع رأسه، و حملها إلى الملك الناصر، و رفعت على رمح و طيف بها دمشق، ثمّ علّقت على سور دمشق، ثمّ قدم الخبر باجتماع الأتابك يشبك و شيخ و جركس، و أنّهم فى دون الألف فارس، و هم على حمص، و أنّهم اشتدّوا على النّاس فى طلب المال، فكتب السّلطان فى الحال للأمير نوروز الحافظىّ و هو بمدينة حلب، عند تمربغا المشطوب يستدعيه لمحاربة يشبك و شيخ، و أنه ولّاه نيابة الشّام و أمره أن يحمل إليه جماعة من الأمراء، و يبعث السلطان إليه التّقليد و التّشريف مع الأمير سلامش، ثم جهّز السلطان سلامش إلى نوروز، و على يده خلعته بنيابة دمشق، فلبس نوروز الخلعة، و قبّل الأرض و امتثل ما أمره السّلطان به من قتال الأمراء و غيره، و كتب يعتذر من عدم الحضور بما عنده من الحياء من السّلطان، و الخوف لما وقع منه قبل تاريخه، و أنّه إذا سار السّلطان من دمشق نحو الدّيار المصرية قدمها و كفاه أمر هؤلاء.

ثمّ أرسل نوروز بعد ذلك بأنّه قبض على جماعة من الأمراء الذين فرّوا من السلطان من دمشق، و هم: الأمير علّان، و الأمير جانم من حسن شاه، و الأمير إينال الجلالىّ المفقار، و الأمير جقمق العلائى أخو جركس المصارع: أعنى الملك الظاهر جقمق، و الأمير أسنباى التّركمانى، أحد أمراء الألوف بدمشق، و الأمير اسنباى أمير آخور، و الأمير جمق، نائب الكرك- كان- و بعث بهم الجميع ما خلا جانم، ثم أرسل إلى الدّيار المصريّة بالقبض على الأمير تمراز النّاصرىّ نائب السّلطنة بالدّيار المصريّة. ثمّ نائب الغيبة، فأذعن تمراز و سلّم نفسه، فمسك و قيّد و حبس بالبرج من

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۶۶

قلعهٔ الجبل، و سكن سودون الطيّار عوضه بباب السّلسلهٔ من الإسطبل السّلطانى.

ثمّ ركب السّلطان الملك الناصر فى يوم الأربعاء رابع شهر ربيع الآخر من دار سعادهٔ دمشق، و توجّه إلى الرّبوهٔ فتنزّه بها ثم عاد إلى دار السّعادهٔ، ثمّ أصبح لعب الكرهٔ بالميدان، و قدم عليه الأمير بكتمر جلّق بالأمراء الذين قبض عليهم الأمير نوروز، و هم المقدّم ذكرهم، فرسم السلطان بحبسهم، ثمّ فى اليوم المذكور خرج حريم السّلطان من دمشق إلى جههٔ الدّيار المصريهٔ.

ثمّ خرج السّلطان من دمشق فى يوم السّبت سابع شهر ربيع الآخر يريد الدّيار المصريهٔ و معه الأمراء المقبوض عليهم، و فيهم: الأمير سودون الحمزاوىّ و قد أحضر من سجن صفد، و الأمير آقبردى رأس نوبهٔ أحد أمراء الطبلخانات، و سودون الشّمسىّ أمير عشرهٔ، و سودون البجاسىّ أمير عشرهٔ، و سار السّلطان إلى مصر، و جعل بكتمر جلّق نائب الغيبهٔ بدمشق حتى يحضر إليها نائبها الأمير نوروز، و كان بكتمر جلّق المذكور قد خلع عليه السّلطان باستقراره فى نيابهٔ طرابلس قبل تاريخه، و أصبح شيخ لمّا بلغه خروج السّلطان من دمشق طرقها و معه يشبك و جركس، و أخذها من بكتمر، و ملكها بعد أن فرّ بكتمر منها، و قبض شيخ على جماعهٔ من أمراء دمشق، و ولّى و عزل، و أخذ خيول الناس، و صادر جماعهٔ.

ثم ورد الخبر على يشبك و شيخ بنزول بكتمر جلّق على بعلبك بأناس قليلهٔ فخرج إليه يشبك الشّعبانىّ و جركس فى عسكر، و مضى بكتمر جلّق إلى حمص، و سار يشبك و جركس حتى وصلا إلى بعلبك، فوافاهما الأمير نوروز بعساكره

النجوم الزاهرهٔ فى ملوك مصر و القاهرهٔ، ج۱۳، ص: ۶۷

على كروم بعلبك، فبرز إليه يشبك و جركس بمن معهما، فقاتلهم نوروز حتى هزمهم، و قتل الأتابك يشبك الشّعبانىّ، و جركس القاسمى المصارع فى ليلهٔ الجمعهٔ ثالث عشر شهر ربيع المذكور، و قتل جماعهٔ أخر، و قبض نوروز على جماعهٔ، و فرّ من بقى، فلما بلغ ذلك شيخا خرج من وقته من دمشق على طريق جرود، و دخل الأمير نوروز فى يوم رابع عشره إلى دمشق و ملكها من غير قتال، و بعث نوروز بهذا الخبر إلى السلطان، فوافاه المخبر بذلك على العريش، فسرّ السلطان بذلك سرورا كبيرا، و هان عليه أمر شيخ بعد ذلك.

ثمّ سار السلطان الملك الناصر مجدّا حتى دخل إلى الديار المصريهٔ ضحى نهار الثلاثاء، رابع عشرين شهر ربيع الآخر، و بين يديه ثمانيهٔ عشر أميرا فى الحديد، و رمّهٔ الأمير إينال باى بن قجماس، و قد حملها الملك الناصر من غزهٔ لأنه كان خصّيصا عند الملك الناصر، و قتل بغزّهٔ فى واقعهٔ شيخ بغير اختيار السلطان، و طلع السلطان إلى قلعهٔ الجبل، و حبس الأمراء المذكورين بالبرج من قلعهٔ الجبل إلى أن كان يوم سادس عشرينه، فاستدعى السلطان القضاهٔ إلى بين يديه، و أثبت عندهم إراقهٔ دم الأمير سودون الحمزاوىّ لقتله إنسانا ظلما، فحكموا بقتله، فقتل، و قتل معهٔ تمربغا دواداره، و الأمير آقبردى، و جمق، و أسنباى التركمانى، و أسنباى أمير آخور، و تأخر الأمير إينال المنقار، و سودون الشّمسىّ، و جقمق العلائى، و جماعهٔ أخر، و سودون البجاسى فى البرج من قلعهٔ الجبل.

ثمّ فى يوم سابع عشرين شهر ربيع الآخر، أنعم السلطان على الوالد بإقطاع الأتابك يشبك الشّعبانىّ، و أنعم بإقطاع الوالد على الأمير قردم الخازندار، و أنعم على الأمير قراجا بإقطاع تمراز الناصرىّ المقبوض عليه فى غيبهٔ السلطان بالقاهرهٔ، و استقرّ قراجا المذكور شادّ الشّراب خاناهٔ، و أنعم بإقطاع قراجا على الأمير أرغون من بشبغا، و أنعم بإقطاع أرغون المذكور على الأمير شاهين قصقا، و أنعم بإقطاع شاهين على الأمير طوغان الحسنىّ.

النجوم الزاهرهٔ فى ملوك مصر و القاهرهٔ، ج۱۳، ص: ۶۸

ثم فى يوم الخميس ثالث جمادى الأولى خلع السلطان على الوالد باستقراره أتابك العساكر بالدّيار المصريهٔ عوضا عن يشبك الشّعبانىّ، و خلع على الأمير كمشبغا المزوّق الفيسىّ باستقراره أمير آخور كبيرا، عوضا عن جركس القاسمىّ المصارع.

و فى اليوم المذكور قدم إلى القاهرهٔ قاصد الأمير نوروز الحافظىّ برأس الأتابك يشبك، و رأس جركس المصارع، و رأس الأمير فارس التّنمىّ حاجب حجّاب دمشق.

و فيه شاور جمال الدين الأستادار السّلطان أنه يعمّر للسلطان مدرسة بخط رحبة باب العيد، فأذن له السلطان فى ذلك، فشقّ جمال الدين أساسها فى هذا اليوم، و بدأ بعمارتها.

ثم أرسل السلطان إينال المنقار، و علّان، و بلبغا الناصرىّ إلى سجن الإسكندرية.

ثم ركب الملك الناصر متخفّفا بثياب جلوسه و نزل إلى عيادة الأمير قراجا، فعاده، ثم سار إلى بيت جمال الدين الأستادار و أخذ تقدمته، ثم ركب و سار حتى نزل بالمدرسة الظاهرية ببين القصرين، و زار أمه و جده لأبيه الأمير أنص، و جعل ناحية منبابة بالجيزة وقفا عليها.

ثم ركب منها إلى دار الأمير بشباى- رأس نوبة النّوب- و نزل عنده، ثم ركب من عنده، و توجّه إلى بيت الأمير كزل العجمىّ حاجب الحجّاب، ثم سار من عنده إلى قلعة الجبل.

قال المقريزى: و لم نعهد ملكا من ملوك مصر ركب من القلعة بقماش جلوسه غيره، قلت: لعل المقريزى أراد بقماش جلوسه عدم لبس السّلطان الكلفتاة، و قماش الخدمة، و هذا كان مقصوده- و اللّه أعلم.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۶۹

ثم فى تاسع عشر جمادى الأولى المذكور، خلع السلطان على الأمير طوخ الخازندار باستقراره أمير مجلس عوضا عن يلبغا النّاصرى بحكم القبض عليه، و العامة تسمّى طوخ هذا طوق الخازندار، و الصواب ما قلناه. و خلع على الأمير قردم باستقراره خازندارا عوضا عن طوخ المذكور.

ثم فى سادس عشر جمادى الآخرة قبض السّلطان على الأمير سودون من زادة، و قيّده و حمله إلى الإسكندريّة، فسجن بها مع من بها من الأمراء.

و أمّا الأمير نوروز الحافظىّ فإنّه منذ دخل دمشق كانت مكاتبات الأمير شيخ ترد عليه بطلب الصّلح، و يترقّق شيخ لنوروز، و يتخضّع إليه إلى أن أجاب نوروز إلى ذلك، و خرج من دمشق فى سادس عشرين شهر رجب، إلى جهة حلب، ليصالح الأمير شيحا، فتقدّم الأمير شيخ إليه و التقاه و اصطلحا، و مسك نوروز بكتمر جلّق، بعد ما كان أعزّ أصحاب نوروز؛ مراعاة لخاطر شيخ.

و حكى لى من أثق به من أعيان المماليك الظّاهريّة ممّن كان فى صحبتهم يوم ذاك قال: لمّا أراد شيخ الصّلح مع نوروز، طلب منه القبض على بكتمر، فبلغ بكتمر ذلك، فلم يصدّق أنّ نوروزا يقع فى مثل هذا لما كان بينهما من تأكّد الصّحبة، فلمّا اجتمع شيخ مع نوروز و أراد نوروز القبض على بكتمر، قال بلسان الجركسىّ: و بط. قال بكتمر: يا جنس النّحس بلغنى ذلك من مدّة، و لكنّنى ما ظننت أنّها تخرج من فمك فى حقّى أبدا، و مسك بكتمر جلّق، و سجن بقلعة دمشق، ثمّ دخل الأمير شيخ و نوروز إلى دمشق، و قد استقرّت طرابلس للأمير شيخ، و دمشق للأمير نوروز، فأقام شيخ بدمشق عشرة أيّام، ثم خرج منها و سار إلى طرابلس، و كثرت المصادرات بدمشق و غيرها فى أيام هذه الفتن، و أخرجت الأوقاف عن أربابها، و خربت

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۷۰

بلاد كثيرة بمصر و الشّام؛ لكثرة التّجاريد، و سرعة انتقال الأمراء من إقطاع إلى إقطاع.

و لمّا بلغ الملك الناصر ذلك، و ما وقع من نوروز فى حقّ شيخ من الإكرام شقّ عليه ذلك؛ لأن شيخا كان قد تلاشى أمره، و نفر عنه مماليكه و أصحابه؛ من كثرة الأسفار و الانتقال من بلد إلى بلد، و افتقر و صار لا يجد بلدا يأوى إليه، حتّى صالحه نوروز، و أعطاه طرابلس، فعاد إليه مماليكه، و دار فيه الرّمق- انتهى.

ثمّ فى حادى عشر شعبان أفرج السّلطان عن الأمير تمراز النّاصرىّ نائب السّلطنة- كان- من حبسه بالبرج من قلعة الجبل، و نزل إلى داره، ثمّ ورد الخبر على الملك النّاصر بأن بكتمر جلّق فرّ من سجن قلعة دمشق فى ليلة الأربعاء عاشر شهر رمضان من سنة عشر و ثمانمائة، و أنّه توجّه إلى صفد، ثمّ نزل غزّة.

ثمّ ورد على السّلطان كتاب الأمير شيخ يسأل السلطان الملك الناصر الرّضى عنه، و عن جماعته، فلم يقبل السّلطان ذلك، فلم تزل مكاتبات شيخ ترد على السّلطان فى ذلك حتّى رضى عنه. و كتب له بنيابة الشّام على عادته، و حمل إليه التّقليد الأمير ألطنبغا بشلاق صحبة مملوك شيخ ألطنبغا شقل، و قاضى القضاة نجم الدين عمر بن حجّىّ، و قاضى القضاة صدر الدين بن الأدمى، و قد تولّى كلّ منهما قاضيا بدمشق على مذهبه، و كانا هما و ألطنبغا شقل قدموا فى إصلاح أمر شيخ مع أستاذه الملك النّاصر فرج.

ثمّ كتب السّلطان باستقرار بكتمر جلّق فى نيابة طرابلس على عادته، و كتب السّلطان أيضا باستقرار يشبك بن أزدمر فى نيابة حماة، و وصلت رسل السّلطان إلى الأمير شيخ و غيره من الأمراء المذكورين من البحر المالح من عكّا، و ساروا حتّى لقوا شيخا على المرقب، و قد تغيّر

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۷۱

عن حاله، و أوصلوه التّقليد بنيابة الشّام، فقال: أنا لا أعادى نوروزا و قد أحسن إلىّ، و أقامنى ثانيا، و أيضا لم يكن لى قدرة على قتاله، و أخذ الخلعة منهم، و بعثها إلى الأمير نوروز، و أعلمه أنه باق على طاعته، فدقّت البشائر لذلك، و زيّنت دمشق.

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۱۱]

ثمّ فى أوّل المحرم من سنة إحدى عشرة و ثمانمائة برز الأمير نوروز من دمشق، يريد قتال الأمير بكتمر جلّق، فتهيّأ بكتمر أيضا لقتاله، و تصافقا، و اقتتلا قتالا شديدا، قتل بينهما أناس، و حرقت الزّروع، و خربت البلاد. ثمّ عاد نوروز إلى جهة الرّملة لحفظ مدينة غزّة.

و كان الملك النّاصر لمّا بلغه أنّ سودون تلّى المحمّدى صار نائب غزّة، من قبل نوروز، ولّى الأمير ألطنبغا العثمانىّ نيابة غزّة و ندبه لقتال سودون المحمّدىّ. و أرسل معه من الأمراء بشباى رأس نوبة النّوب، و سودون بقجة، و طوغان الحسنىّ، و الجميع يتوجّهون لقتال سودون المحمّدى، ثمّ يمضون إلى صفد؛ نجدة لمن بها من السلطانيّة، و خرجوا من القاهرة، و ساروا حتى وصلوا إلى العريش، فبلغهم أنّ الأمير بكستمر جلّق، و الأمير جانم من حسن شاه، خرجا من صفد إلى غزّة، و ملكاها من سودون المحمّدى؛ و فرّ سودون المحمّدى، و لحق بالأمير نوروز، فجهّزه نوروز فى الحال بعدّة مقاتلة لقتالهم، و أنّ نوروزا يكون فى أثره إلى غزّة. فلمّا بلغ بكتمر جلق، و جانم، مجىء سودون المحمّدى، و نوروز إلى غزّة، خرجا من غزّة و عادا إلى صفد، و بلغ هذا الخبر بشباى و هو بالعريش، فعاد هو و أصحابه إلى الدّيار المصرية؛ من كونه لا يقاوم نوروزا؛ لكثرة جموعه، فسكت السّلطان عن نوروز لما يأتى ذكره.

ثمّ أفرج السلطان عن الأمير إينال المنقار، و الأمير علّان، من سجن الإسكندريّة، و قدم الخبر على السلطان فى أثناء ذلك بوقوع الفتنة بين

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۷۲

شيخ و نوروز، و أنّ شيخا نزل القريتين، و نوروزا بالقرب منه، و تراسلا فى الكفّ عن القتال، فامتنع شيخ و قال: السلطان ولّانى نيابة دمشق، و باتا على القتال، فلمّا كان الليل سار شيخ بمن معه يريد دمشق، و أكثر فى منزلته من إشعال النّيران، يخدع بذلك نوروزا، فلم يفطن نوروز برحيله، حتىّ مضى أكثر الليل، فركب فى الحال نوروز فى أثر شيخ حتّى سبقه إلى دمشق، و دخلها، و لم يقدر شيخ على دخول دمشق و كان مع نوروز يشبك بن أزدمر نائب حماة، و وقع أمور إلى أن واقع نوروز شيخا بعساكره، و كان مع شيخ نفر يسير، و قد تعوّق عنه أصحابه، لكنه كان متولى دمشق من قبل السلطان، و معه سنجق الملك النّاصر، و أردفه بكتمر جلّق، و سيدى الكبير [الأمير قرقماس] و غيرهما من الأمراء، فتواقعا بسعسع، فانهزم نوروز بمن معه، و قصد حلب، و ركب شيخ أقفيتهم، فدخل نوروز دمشق، فى عدّة يسيرة من الأمراء من أصحابه، و بات بها ليلة واحدة، ثمّ خرج منها على وجهه إلى حلب، و بعد خروج نوروز من دمشق، دخل إليها الأمير بكتمر جلّق، و الأمير قرقماس ابن أخى دمرداش، المعروف بسيدى الكبير، و نودى فى دمشق بالأمان، و أنّ شيخا نائب دمشق، ثمّ دخل شيخ بعدهم إلى دمشق، و نزل بدار السعادة، ثم خرج شيخ من دار السعادة و نزل بقبة يلبغا، و لبس

التّشريف السلطانىّ المجهز إليه من مصر بنيابة الشام قبل تاريخه، و عاد إلى دار السعادة فى موكب جليل،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة؛ ج۱۳؛ ص۷۲

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۷۳

و قبض على الأمير نكباى حاجب دمشق، و على الأمير أرغز، و هما من أصحاب نوروز، و على جماعة أخر من النوروزية. ثمّ قدم عليه الأمير دمرداش المحمّدى، فأكرمه شيخ و أنزله بدمشق مدّة أيام، ثمّ ندبه هو و الأمير بكتمر جلّق لقتال نوروز و معهما عساكر دمشق، و ورد الخبر على السلطان بذلك، فسرّ سرورا عظيما، و كتب للأمير شيخ بالشكر و الثّناء على ما فعله مع نوروز؛ لأنّ الملك النّاصر كان حصل له من نوروز قهر عظيم، كونه كان ولّاه نيابة دمشق، و لم يلتفت إلى شيخ، فتركه نوروز، و وافق شيخا، فلم يقم شيخ على صلحه مع نوروز إلّا أياما يسيرة، و تركه و عاد إلى طاعة السّلطان، و حارب نوروزا، فعرف له السّلطان ذلك و ولّاه نيابة دمشق عوضا عن نوروز، و سلّط بعضهم على بعض.

ثمّ إنّ الملك النّاصر فى يوم الجمعة سابع جمادى الأولى من سنة إحدى عشرة و ثمانمائة أمسك أعزّ أمرائه الأمير بيغوت، و أمسك معه الأمير سودون بقجة، و الأمير أرنبغا أحد أمراء الطبلخانات، و الأمير قرا يشبك، أحد أمراء العشرات، و قيد الجميع و أرسلهم إلى سجن الإسكندرية، و خلع على إينال المنقار، و علّان، و يشبك الموساوىّ، و جعل كلّا منهم أمير مائة، و مقدّم ألف بالدّيار المصرية، ثمّ خلع السّلطان على الأمير أرغون من بشبغا، و استقرّ به أمير آخور كبيرا، عوضا عن كمشبغا الفيسىّ.

و أمّا أمراء الشام فإنّ الأمير نوروزا الحافظى، لمّا خرج من دمشق لم يأمن على نفسه أن يكون بحلب عند تمربغا المشطوب، و كان أوّل ما قدمها قابله تمر بغا المذكور و وافقه، ثمّ بدا له أن يكون على طاعة السّلطان، ففطن نوروز بذلك؛ فخرج من حلب بعد أمور، و سار إلى ملطية و استقرّ بها، و آواه ابن صاحب الباز التركمانىّ، ثمّ سلم تمربغا المشطوب حلب للامير قرقماس ابن

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۷۴

أخى دمرداش المعروف بسيدى الكبير، و نزل من قلعتها، ثمّ فرّ جماعة من الأمراء أصحاب نوروز إلى شيخ، و هم: الأمير سودون تلى المحمّدىّ، و سودون اليوسفىّ، و أخبروه أن نوروزا عزم على الفرار من أنطاكية، فسار شيخ بجموعه من العمق يريد نوروزا بغتة، فأدرك أعقابه، و قبض على عدّة من أصحابه و عاد إلى العمق، و بعث العسكر فى طلبه، فقدم عليه الخبر أنّه أمسك هو و يشبك بن أزدمر فى جماعة أخر، فكتب شيخ فى الحال يعرّف السّلطان بذلك كلّه، فشكره السّلطان على ذلك و أرسل إليه بالخلع.

ثمّ إنّ السّلطان فى هذه السّنة أضاف إمرة المدينة النّبوية، و إمرة الينبع، و خليص، و الصّفراء، و أعمالهم، إلى الشّريف حسن بن عجلان أمير مكة، و كتب له بذلك توقيعا، و هذا شىء لم ينله أمير مكة قبله فى هذا الزّمان.

ثمّ فى خامس عشرين جمادى الآخرة، أنعم السّلطان بإقطاع بشباى رأس نوبة النّوب- بعد وفاته- على الأمير إينال المحمّدى السّاقىّ المعروف إينال ضضع، و أنعم بإقطاع إينال المذكور على الأمير أرغون من بشبغا الأمير آخور الكبير، و أنعم بإقطاع أرغون المذكور على الأمير مقبل الرّومىّ، و الجميع تقادم ألوف، لكن بينهم التّفاوت فى كثرة المغلّ و الخراج، و أنعم بإقطاع مقبل الرّومىّ- و هو إمرة طبلخاناة- على الأمير بردبك، ثمّ خلع السّلطان على الامير إينال السّاقىّ المذكور باستقراره رأس نوبة النّوب، عوضا عن بشباى المذكور بحكم موته.

ثمّ قدم الخبر على السلطان من شيخ بأن التركمان الذين كانوا قبضوا على نوروز أطلقوه، و أنّ تمربغا المشطوب هرب من الأمير شيخ، و أن نوروزا توجّه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۷۵

بعد خلاصه من يد التركمان إلى قلعة الرّوم، و أنّه خرج من دمشق جماعة كبيرة من عند شيخ إلى نوروز، فركب شيخ فى أثرهم فلم يدركهم، فعاد إلى دمشق و قبض على الأمير يشبك العثمانىّ، ثمّ بعد مدّة يسيرة بلغ الأمير شيخا أنه قيل للسلطان عنه إنّه عاص، فطلب

الأمير شيخ القضاة و أعيان أهل دمشق، و كتب محضرا بأنه باق على طاعة السلطان الملك النّاصر، و بعث به مع القاضى نجم الدين عمر بن حجّىّ، و قدم ابن حجّىّ بالمحضر، و مع المحضر المذكور كتاب الأمير شيخ يستعطف خاطر السّلطان عليه، و يعتذر عن تأخّره بإرسال من طلبه السّلطان من الأمراء النّوروزيّة، و كان السّلطان قد بعث إليه قبل ذلک يشبک الموساوىّ بطلب جماعة من الأمراء، فلم يرسلهم شيخ إليه، فلم يقبل السّلطان عذره، و اشتدّ غضبه، و أظهر الاهتمام بالسّفر إلى الشّام، ثم كتب الجواب بتجهيز أمراء عيّنهم، و واعدهم على مدة ستة و عشرين يوما، و متى مضت هذه المدّة و لم يجهّزهم، سار السّلطان لقتاله، و بعث السلطان بذلک على يد قاصد شيخ نجم الدين بن حجّىّ، فعاد ابن حجى إلى الأمير شيخ و أدّى الرّسالة، فأخذ شيخ فى تجهيز الأمراء الذين طلبهم السّلطان، و امتثل مرسومه بالسّمع و الطّاعة.

و بينما هو فى ذلک، بلغه أنّ تغرى برمش كاشف الرّملة فرّ منها لقدوم كاشف و نائب القدس من قبل السّلطان، و أنّ السلطان قد عزم على المسير إلى الشّام، و أخرج الرّوايا و القرب على الجمال و معهم الطّبول، نحو

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۷۶

مائتى جمل إلى البركة، فعند ذلک رجع شيخ عن إرسال الأمراء، و عوّل على مصالحة نوروز، و بعث إليه الأمير جانم ليصلح بينهما، و جهز له شيخ ستّة آلاف دينار، فمال نوروز لمصالحته، فلما بلغ دمرداش نائب حلب الخبر اهتمّ لقتال نوروز، و جمع طوائف التّركمان و العربان، و سار إليه بكتمر جلّق نائب طرابلس، و حضر إليه أيضا نائب أنطاكيّة و بعث دمرداش ابن أخيه تغرى بردى المعروف بسيّدى الصغير- و هو يومئذ أتابک حلب- إلى مرج دابق و معه جماعة كبيرة من التّركمان، ثم أتاه بكتمر جلّق، فرحلا من حلب بعساكرهما و قصدا نوروزا، و قد نزل نوروز بجموعه على عين تاب، فتقدّم إليه تغرى بردى سيّدى الصغير بالتركمان الكبكيّة، جاليش عمّه دمرداش، فرحل نوروز إلى مرعش، و تحاربت كشّافته مع كشّافة دمرداش محاربة قويّة، أسر فيها عدّة من النّوروزية، و انهزم نوروز، و استولى عسكر دمرداش على عين تاب، و عاد دمرداش إلى حلب، و كتب بذلک إلى السّلطان.

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۱۲]

فسرّ السلطان بذلک، و كتب الجواب: إنّى واصل عقيب ذلک إلى البلاد الشامية، و عظم اهتمام السلطان و عساكره للسّفر، إلى أن خرج جاليشه من الأمراء إلى الرّيدانيّة، فى يوم الأربعاء سابع المحرّم من سنة اثنتى عشرة

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۷۷

و ثمانمائة، و هم: الوالد- و هو يومئذ أتابک العساكر بالدّيار المصرية- و آقباى الطّرنطائىّ رأس نوبة الأمراء، و طوخ أمير مجلس، و طوغان الحسنىّ، و إينال المنقار، و كمشبغا الفيسىّ المعزول عن الأمير آخورية، و يشبک الموساوىّ الأفقم، و عدّة أمراء أخر من الطّبلخانات و العشرات، و نزل الجميع بالريدانية.

ثمّ فى يوم الاثنين حادى عشر المحرّم المذكور، ركب السّلطان الملک النّاصر ببقيّة أمرائه و عساكره من قلعة الجبل، و نزل بمخيّمه بالرّيدانيّة، و فى اليوم المذكور، رحل الوالد بمن معه من الأمراء و هو جاليش السّلطان، و سار بهم يريد دمشق.

ثمّ خلع السّلطان على الأمير أرغون من بشبغا الأمير آخور الكبير باستقراره فى نيابة الغيبة، و أنه يقيم بسكنه بالإسطبل السلطانى، و خلع على مقبل الرومىّ، و رسم له أن يقيم بقلعة الجبل، و خلع على الأمير يلبغا النّاصرىّ باستقراره فى نيابة الغيبة، و يقيم بالقاهرة للحكم بين النّاس، و كذلک الأمير كزل العجمىّ حاجب الحجّاب، ثمّ رحل السلطان فى رابع عشر المحرّم من الرّيدانيّة، يريد البلاد الشّاميّة.

و أما الأمير شيخ نائب الشّام، فإنه لما سمع بخروج السّلطان من مصر، أفرج عن الأمير سودون تلى المحمّدى، و عن سودون اليوسفى، و عن الأمير طوخ، و هم الذين كان السلطان أرسل إلى شيخ بطلبهم، و أظهر شيخ العصيان، و أخذ فى مصادرات أهل دمشق، و أفحش فى ذلک إلى الغاية، ثمّ سار الملک النّاصر إلى أن وصل إلى غزّة، و عزل عنها الأمير ألطنبغا العثمانىّ و ولاه نيابة صفد، و خلع

على الأمير إينال الصّصلانى الأمير آخور الثانى باستقراره عوضه فى نيابة غزّة، و كان الأمير شيخ قد أرسل قبل ذلك الأمير سودون المحمّدى و دواداره شاهين إلى غزّة، فلما وصل جاليش السلطان إليها انهزما من الرّملة إلى شيخ، و أخبراه بنزول السلطان على غزّة، و كان استعدّ

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۷۸

شيخ فى هذه المرة لقتال السّلطان، فلمّا تحقق قدومه، خارت طباعه، و تحوّل فى الوقت إلى داريّا فقدم عليه الأمير قرقماس ابن أخى دمرداش فارّا من صفد، و شجّع الأمير شيخا على ملاقاة السلطان و قتاله، و عرّفه أن غالب عساكره قد تغير خاطرهم على السلطان، فلم يلتفت شيخ لذلك، و أبى إلا الهروب، ثم قدم عليه الأمير جانم نائب حماة بعسكره، و عرّفه قدوم نوروز عليه، و هو مع ذلك فى تجهيز الرّحيل من دمشق.

و سار السّلطان من غزّة حتى نزل اللجون فى يوم السبت أوّل صفر من سنة اثنتى عشرة و ثمانمائة، فكثر الكلام فى وطاق السّلطان بتنكّر قلوب المماليك الظّاهريّة على السّلطان، و تحدّثوا فى بعضهم بإثارة فتنة؛ لتقديمه مماليكه الجلب عليهم، و كثرة عطاياه لهم، فلما أصبح السلطان رحل من اللجون و نزل بيسان و أقام بها نهاره إلى أن غربت الشمس، فماج العسكر، و هدّت الخيم، و اشتد اضطراب الناس، و كثر قلق السّلطان طول ليلته إلى أن أصبح وجد الأمير تمراز النّاصرىّ النائب، و إنيّه و زوج بنته سودون بقجة، و الأمير إينال المنقار، و الأمير قرايشبك، و الأمير سودون الحمصىّ، و عدة كبيرة من المماليك السلطانيّة قد فروا إلى الأمير شيخ، و كان سبب فرارهم فى هذه الليلة أنّ آقبغا الدّوادار اليشبكىّ عرّف السلطان بأنّ هؤلاء الجماعة يريدون إثارة فتنة، فطلب السّلطان كاتب سرّه فتح اللّه، و جمال الدين الأستادار، و عرّفهما ما بلغه عن الجماعة، فدار الأمر بينهم على أنّ السّلطان فى وقت المغرب يرسل خلفهم

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۷۹

و يقبض عليهم، و خرجوا على ذلك من عند السّلطان، فغدر جمال الدين الأستادار و أرسل- بعد خروجه من عند السّلطان- عرّف الأمراء بالأمر، و كان تمراز قدم من مصر فى محفّة، لرمد كان اعتراه، فأعلمهم جمال الدين بالخبر، و بعث إليهم بمال كبير لهم و للأمير شيخ نائب الشّام، فأخذوا حذرهم، و ركبوا قبل أن يرسل السّلطان خلفهم، و لحقوا بالأمير شيخ، و لمّا خرجوا من الوطاق و ساروا لم يكن حينئذ عند السلطان أحد من أكابر الأمراء؛ لتوجّههم فى الجاليش أمام السّلطان، فبعث السّلطان خلف فتح اللّه و جمال الدين الأستادار، و لا علم للسّلطان بما فعله جمال الدين المذكور، و كلّمهما فيما يفعل، و استشارهما، فأشار عليه فتح اللّه بالثّبات، و أشار عليه جمال الدين بالرّكوب ليلا و عوده إلى مصر، يريد بذلك إفساد حاله، فمال السّلطان إلى كلام فتح اللّه، و أقام بوطاقه، فلمّا طلع الفجر ركب و سار بعساكره نحو دمشق، فقدم عليه الخبر برحيل شيخ من دمشق إلى بصرى، فنزل السّلطان على الكسوة، ففرّ فى تلك الليلة الأمير علّان و جماعة من المماليك لشيخ، فركب السّلطان بكرة يوم الخميس سادس صفر، و دخل دمشق، و نزل بدار السّعادة، ثمّ قبض على شهاب الدين أحمد الحسبانىّ و سلّمه إلى الأمير ألطنبغا شقل؛ من أجل أنّه أفتى بقتاله، و طلب ابن التّبانىّ فإذا هو سار مع شيخ، و كتب السلطان بالإفراج عن الأمير أرغز، و سودون الظّريف، و سلمان، من قلعة الصّبيبة، و خلع على الأمير زين الدين عمر الهيدبانىّ باستقراره حاجب حجّاب دمشق، و على ألطنبغا شقل حاجبا ثانيا، و خلع على الأمير بردبك باستقراره

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۸۰

فى نيابة حماة عوضا عن جانم، ثمّ كتب السّلطان للأمير نوروز تقليدا بنيابة حلب عوضا عن الأمير دمرداش المحمّدىّ.

ثمّ قدم الأمير بكتمر جلّق نائب طرابلس إلى دمشق، و أخبر أنّ الطاعون فشا ببلاد حمص و طرابلس، ثمّ فى عشرينه قدم الأمير دمرداش المحمّدىّ نائب حلب فأكرمه السلطان و خلع عليه، ثمّ خلع السّلطان على الأمير بكتمر جلّق باستقراره فى نيابة دمشق عوضا عن شيخ المحمودىّ، و خلع على دمرداش المحمّدىّ باستقراره فى نيابة طرابلس عوضا عن بكتمر حلّق- مضافا لنيابة حلب.

ثمّ وقع من جمال الدين الأستادار نكبة فى حقّ بعض أصحاب الأمير شيخ، و هو أنّه أمسك جمال الدين القاضى ناصر الدين ابن

البارزىّ و ضربه ضربا مبرّحا، لأجل معلوم تناوله لشمس الدين أخى جمال الدّين الأستادار، ثمّ فى ليلة السبت أيضا قتل جمال الدين الأستادار القاضى شرف الدين بن الشّهاب محمود الحلبىّ كاتب سرّ دمشق؛ لحقد كان فى نفس جمال الدين منه أيّام خموله بحلب، و كان شرف الدين أيضا من أصحاب الأمير شيخ، و كان عبد الباسط بن خليل فى خدمة شرف الدّين هذا، و منه تعرّف بالأمير شيخ، و كان عبد الباسط فى أيّام سعادته بمصر ينقل فى غالب أفعاله عن أستاذه شرف الدين هذا.

ثمّ فى يوم الاثنين ثانى شهر ربيع الأوّل، خرج أطلاب السّلطان و الأمراء من دمشق، و تبعهم السّلطان بعساكره و هم بآلة الحرب و السلاح، و نزل بالكوة و أصبح راحلا إلى جهة الأمير شيخ و رفقته، فالتقى كشّافة السلطان مع كشّافة شيخ، و اقتتلوا، و أسر من الشّيخيّة رجل، ثمّ انهزمت الشّيخيّة، ثمّ سار السّلطان بكرة يوم الأربعاء فنزل قرية الحراك نصف النهار، و أقام بها قدر ما أكل السّماط، ثم ركب منها بعساكره و سار سيرا مرعجا، و نزل عند الغروب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۸۱

بكرك البثنيّة من حوران، و بات و أصبح و سار حتّى نزل مدينة بصرى، فتحقّق هناك خبر شيخ بأنّه فى عصر يوم الأربعاء الماضى بلغه أنّ السّلطان خرج من دمشق فى أثره، فرحل من بصرى بعساكره فزعا يريد صرخد بعد ما كلّمه الأمراء فى الثّبات، و قتال الملك الناصر؛ فلم يقبل، و ركب من وقته، و ترك غالب أصحابه بمدينة بصرى، ثم تبعته أصحابه مع كثرة عددهم إلى صرخد.

و لما بلغ الملك الناصر فرار شيخ و أصحابه، تأوّه لذلك و قال لكاتب سرّه فتح اللّه و لجمال الدين الأستادار: أ لم أقل لكما إن شيخا فظيع ليس له قلب و لو كان معه مائة ألف مقاتل لا يقدر أن يقابلنى بهم؛ لرعب سكن فى قلبه منى؟ ثم أقام السّلطان على بصرى إلى بكرة يوم السبت، فقدم عليه و هو ببصرى الأمير برسباى الدّقماقىّ الساقى: أعنى الملك الأشرف، و الأمير سكب اليوسفىّ، فأكرمهما السلطان و وعدهما بكلّ خير، ثمّ ركب و سار- و هو ثمل- حتى نزل بقرية عيون تجاه صرخد، فتناوش العسكران بالقتال، فقتل من جماعة شيخ فارسان، و جرح جماعة من السلطانيّة، ثم فرّ جماعة أخر من السلطان إلى الأمير شيخ، و بات السّلطان و أصبح فى وقت الفجر نادى أن لا يهدّ أحد خيمته، و لا يحمّل جمل، و أن يركب العسكر خيولهم، و يجرّ كل فارس جنيبه مع غلامه من غير أن يأخذوا أثقالهم، فركبوا، و سار بهم على هذه الحالة حتى طرق شيخا و أصحابه على حين غفلة، بعد أن كان سار هو بنفسه أمام عسكره مسرعا، و أمراؤه يخذّلونه من انقطاع عساكره عنه، و يقولون له: بمن تلقى شيخا، و قد عظم جمعه و تخلفت عساكر السلطان منقطعة؟ و الملك الناصر لا يلتفت إلى قولهم و يقول:

لو بقى معى عشرة مماليك لقيت بهم شيخا و من معه، [أنا] أعرفهم حقّ المعرفة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۸۲

و دام على سيره حتى طرق شيخا على حين غفلة، و قد عبأ شيخ عساكره، فأوقف المصريين ناحية: أعنى الذين فرّوا إليه من الملك الناصر، و جعل عليهم الأمير تمراز النائب، و وقف هو فى ثقاته و خواصه، و هم نحو خمسمائة نفر، فتقدّم السلطان و صدم بعساكره الأمير تمراز بمن معه- و كانوا جمعا كبيرا- فانكسروا من أوّل وهلة، ثم مال على الأمير شيخ و أصحابه، و قد تقهقر شيخ و أصحابه إلى جهة القلعة، فكان بينهم معركة صدرا من النهار، و هو يتأخر إلى المدينة، و أصحابه تتسلّل منه، و صار القتال يجدران مدينة صرخد، و لا زال شيخ يتأخر بمن معه، و الملك الناصر يتقدّم بمن معه، حتى ملك و طاق شيخ و انتهب جميع ما كان فيه من خيل و قماش و غيرها، ثمّ هرب شيخ إلى داخل جدران المدينة، و استولى السلطان على جامع صرخد، و أصعد أصحابه فرموا من أعلى المنارة بمكاحل النفط و المدافع و الأسهم الخطائية على شيخ، و شيخ يلوم أصحابه و يوبّخهم على ما أشاروا عليه من قتال الملك النّاصر، ثمّ حمل السلطان عليه حملة منكرة بنفسه، فلم يثبت شيخ و انهزم و التجأ فى نحو العشرين من أصحابه إلى قلعة صرخد، و كانت خلف ظهره و قد أسند عليها، فتسارع إليه عدّة من أصحابه، و تمزّق باقيهم، و طلع شيخ إلى قلعة صرخد فى أسوإ حال، و أحاط السّلطان على المدينة، و نزل حول القلعة، و أتاه الأمراء فقبّلوا الأرض بين يديه، و هنّئوه بالظفر و النّصر، و امتدّت أيدى السلطانية إلى

مدينة صرخد، فما تركوا بها لأهلها جليلا و لا حقيرا، و انطلقت ألسنة أهل صرخد بالوقيعة فى شيخ و أصحابه، و أكثروا له التوبيخ بكلام معناه أنه إذا لم يكن له قوّة ما باله يقاتل من لم يطق دفعه و قتاله، و سار الأمير تمراز، و سودون بقجة، و سودون الجلب،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۸۳

و سودون المحمدیّ، و تمربغا المشطوب، و علّان فى عدة كبيرة إلى دمشق، فقدموها يوم الاثنين تاسعه، فقاتلتهم العامّة و دفعوهم عنها، و أسمعوهم من المكروه أضعاف ما سمعه شيخ بصرخد، فولوا يريدون جهة الكرک و هم فى أحقر ما يكون من الأحوال، و ساروا عن دمشق بعد ما قتل منهم جماعة، و جرح جماعة، و تأخّر كثير منهم بظواهر دمشق، و مضى منهم جماعة إلى حماة، و الجميع فى أنحس حال، و أخذ منهم جماعة كثيرة بدمشق و غيرها.

و لمّا دخلت الأمراء على السّلطان الملک الناصر للتّهنئة حسبما ذكرناه التفت السّلطان للوالد، و كان يسمّيه أطا: أعنى أب، و قال له: يا أطا، أنا ما قلت لک أنا أعرف شيخا، إذا كان معى عشرة مماليک قاتلته بهم، ثم تكلّم فى حقّ شيخ بما لا يليق ذكره، فقال له الوالد: يا مولانا السّلطان، هذا كلّه بسعد مولانا السّلطان، و عظم مهابته، و أمّا شيخ فإنّه إذا كان من حزب السّلطان و شمله نظر مولانا السّلطان من ذا يضاهيه فى الفروسيّة؟ غير أنّ للرّعب الذى فى قلبه من حرمة مولانا السّلطان، و غضبه عليه يقع فى مثل هذا أو أكثر.

قلت: و أظهر الملک النّاصر من الشجاعة و الإقدام ما سيذكر عنه إلى يوم القيامة، على أنّ غالب أمرائه و مماليكه الأكابر كانوا اتفقوا مع جمال الدين الأستادار أنهم يكبسون عليه و يقتلونه فى اللّيل، و بلغ الملک النّاصر ذلک من يوم خروجه من غزّة، فاحترز على نفسه، و أشار عليه كلّ من خواصّه أن يرجع عن قتال شيخ و أصحابه بحيلة يدبّرها، و يرجع إلى نحو الدّيار المصرية؛ مخافة أن تخذله عساكره، فلم يلتفت إلى كلام أحد، و أبى إلّا قتال شيخ، و هذا شىء مهول عظيم إلى الغاية، و إن كان هو يهول فى السّماع، فإذا تحقّقه الشخص يهوله إلى الغاية؛ من كون عسكر الملک يكون مختلفا عليه و هو يريد يقاتل ملوكا عديدة، كل واحد منهم مرشّح للسّلطنة، و ما أظنّ أن بعد الملک الأشرف خليل بن قلاوون ولّى على مصر سلطان أشجع من الملک النّاصر هذا فى ملوک التّرک جميعها. و لقد أخبرنى جماعة كبيرة من أعيان المماليک

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۸۴

الظاهريّة الذين كانوا يوم ذاک مع الأمير شيخ المذكور.

قالوا: لمّا قيل للأمير شيخ: إنّ السّلطان الملک الناصر قدم إلى جهة صرخد، تغيّر لونه و اختلط فى كلامه، و أراد طلوع قلعة صرخد قبل أن يقاتل الملک الناصر، فلامه على ذلک بعض خواصّه، و قالوا له: قد انضمّ عليک فى هذه المرّة من الأمراء و العساكر ما لم يجتمع مثله لأحد قبلک، فإن كنت بهم لا تقاتل الملک الناصر فى هذه النّوبة فمتى تقاتله؟ و بعد هذا فلا ينضمّ عليک أحد، فقال شيخ:

صدقت فيما قلت، غير أنّ جميع من تنظره الآن و هو يتنمّر على فرسه إذا وقع بصره على الملک النّاصر صار لا يستطيع الهروب، فكيف القتال؟! فقال له القائل: فالذى يعلم هذا لا يصلح له أن يعصى و يتطلّب السّلطنة، فقال شيخ: و اللّه ما أريد السّلطنة، و إنّما غالب ما أفعله خوفا من شرّ هذا الرّجل، و قد بذلت له الطاعة غير مرّة، و توجّهت إلى خدمته بمصر و الشّام، و قاتلت أعداءه، و اللّه أنا أهابه أكثر من أستاذى الملک الظاهر برقوق، غير أنّه لا يريد إلّا أخذ روحى، و الرّوح و اللّه لا تهون، فأيش يكون العمل؟

و شرع يتكلم فى هذا المعنى و يكثر حتى أمره تمراز النائب بالكفّ عن هذا الكلام فى مثل هذا الوقت، و العمل فيما يعود نفعه عليه و على رفقته، فكفّ شيخ عن ذلک، و أخذ فى تدبير أمره و تعبية عساكره، حتى وقع ما حكيناه- انتهى.

و لمّا نزل السّلطان الملک الناصر على قلعة صرخد، أصر النّوّاب أن يتوجّه كلّ واحد منهم إلى محلّ كفالته، فسار الجميع إلّا الأمير دمرداش المحمّدیّ، فإنه أرسل ابن أخيه تغرى بردى المدعو سيّدى الصّغير إلى حلب؛ ليكون نائبا عنه بها، و أقام هو عند السّلطان على صرخد، و كذلک الأمير بكتمر جلّق نائب الشّام، فإنّه أيضا أقام عند السّلطان، و أخذ السّلطان فى حصار قلعة صرخد، و عزم على

أنّه لا يبرح عن قتالها حتى يأخذها.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۸۵

ثمّ قدم الخبر على السّلطان أنّ تركمان الطّاعة قاتلوا نوروزا و كسروه كسرة قبيحة، فدقّت البشائر بصرخد لذلك، ثمّ أمر السّلطان دمرداش المحمّدىّ بالتوجّه إلى محل كفالته بحلب، هذا و نوّاب الغيبة بدمشق فى أمر كبير من مصادرات الشّيخيّة، و قبضوا على جماعة كبيرة من حواشيه، منهم: علم الدين داود، و صلاح الدين أخوه أبنا الكويز، قبض عليهما من بيت نصرانىّ بدمشق، فأهينا، و قبض أيضا على شهاب الدين أحمد الصّفدىّ موقّع الأمير شيخ، و توجّه الطّواشى فيروز الخازندار فتسلّمهم من دمشق، هذا و الملك الناصر مستمر على حصار قلعة صرخد، و أحرق جسر القلعة، فامتنع شيخ بمن معه داخلها، فأنزل السّلطان الأمراء حول القلعة، و ألزم كلّ أمير أن يقاتل من جهته، و السّلطان فى لهوه و ظربه لا يركب إلى جهة القلعة إلّا ثملا، ثمّ طلب السّلطان مكاحل النّفط، و المدافع من قلعة الصّبيبة و صفد و دمشق، و نصبها حول القلعة، و كان فيها ما يرمى بحجر زنته ستّون رطلا دمشقيّا، و تمادى الحصار ليلا و نهارا؛ حتى قدم المنجنيق من دمشق على مائتى جمل، فلمّا تكامل نصبه و لم يبق إلّا أن يرمى بحجره، و زنة حجره تسعون رطلا بالدمشقىّ، فلمّا رأى شيخ ذلك خاف خوفا عظيما، و تحقّق أنّه متى ظفر به الملك الناصر على هذه الصّورة لا يبقيه، فترامى على الوالد، و على بقيّة الأمراء، و ألقى إليهم الأوراق فى السّهام، و أخذ شيخ لا يقطع كتبه عن الوالد فى كلّ يوم و ساعة، و هو يقول له فى الكتب: صن دماء المسلمين و اجعلنا عتقاءك، و ما لك فينا جميلة فإنّنا إنيّاتك، و خشداشيّتك، و لم يكن فى القوم من له علىّ أنا خاصّة شفقة و إحسان غيرك، و أنت أتابك العساكر و حمو السّلطان، و أعظم مماليك أبيه، فأنت عنده فى مقام برقوق، و كلمتك لا تردّ عنده، و شفاعتك مقبولة. و أشياء كثيرة من هذا الكلام و أشباهه، و كان الوالد يميل إلى الأمير

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۸۶

شيخ لما كان لشيخ عليه من الخدم بالقصر السّلطانىّ أيّام أستاذهما الملك الظّاهر برقوق من تلبيسه القماش، و القيام فى خدمته، ثمّ كاتب شيخ أيضا الأمير جمال الدين الأستادار، و فتح اللّه كاتب السرّ، و كان جمال الدين قد انحطّ قدره عند الملك النّاصر فى الباطن، و اتّفق السّلطان مع الوالد على مسكه بدمشق، فمنعه الوالد من ذلك، و وعده أنه يكفيه أمره و يمسكه بالقرب من القاهرة، حتى لا يفرّ أحد من أقاربه و حواشيه.

ثمّ أخذ الوالد مع السّلطان فى أمر شيخ و رفقته فى كلّ يوم و ساعة، و لا زال يخذّل الملك الناصر عن قتالهم، و يحسّن له الرّضى عنهم حتى أذعن السّلطان، و شرط عليه شروطا، فعند ذلك ركب الوالد و معه الخليفة المستعين بالله العبّاس، و فتح اللّه كاتب السّرّ، فى يوم السّبت ثانى عشرين شهر ربيع الأوّل من سنة اثنتى عشرة و ثمانمائة المذكورة، و ساروا حتى نزلوا على جانب الخندق، و خرج شيخ و جلس بداخل باب القلعة، فأخذ الوالد يوبخه على أفعاله، و ما وقع للنّاس و البلاد بسببه، و هو ساكت لا يتكلّم، و قيل إنّ شيخا أراد الخروج إليهم فغمزه الوالد ألّا يخرج، ففطن شيخ بها، و جلس بداخل باب القلعة، ثمّ أخذ فتح اللّه أيضا يحذّره مخالفة السّلطان، و يخوّفه عواقب البغى، و فى كل ذلك يعتذر شيخ للوالد بأعذار مقبولة، و يستعفى من مقابلة السّلطان؛ خوفا من سوء ما اجترمه، و الوالد يشتدّ عليه، و يلزمه بالخروج معه إلى السلطان فى الظاهر، و فى الباطن يشير عليه بعدم الخروج- هكذا حكى الملك المؤيد شيخ بعد سلطنته- و طال الكلام حتى قام الوالد، و الخليفة، و فتح اللّه، و أعادوا بالجواب على السّلطان، فأبى السّلطان الرّضى عنه إلّا أن ينزل إليه، فكلّم الوالد السّلطان فى العفو عن ذلك، فلم يقبل، فكرّر عليه السّؤال مرّات، و قبّل يده و الأرض غير مرّة، و اعتذر عن عدم حضوره بأعذار مقبولة.

ثمّ عاد الوالد و فتح اللّه فقط إلى شيخ، فخرج شيخ حينئذ للوالد فعانقه الوالد، فبكى شيخ، فقال له الوالد على سبيل المداعبة و المماجنة: ما متّ يا شيخ حتى مشينا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۸۷

فى خدمتك، فقال شيخ: لم تزل الأكابر تمشى فى مصالح الأصاغر، كلّ ذلك فى حال الوقوف للسلام ثمّ جلسا، و عرّفه الوالد رضى السّلطان عليه، و عرّفه الشّروط فقبلها، و قام قائما و قبّل الأرض غير مرّة، و تقدّم فتح اللّه حلّفه على طاعة السّلطان، و أخذ منه الأمير كمشبغا الجمالىّ، و أسنبغا- و كانا فى حبس الأمير شيخ- بعد ما خلع عليهما شيخ و أدلاهما من سور قلعة صرخد، ثمّ أدلى الأمير شيخ أبنه إبراهيم ليتوجّه مع الوالد و يقبّل يد السّلطان، فلمّا تعلّق الصغير من أعلى السّور بالسّريّاقات، صاح و بكى من خوفه أن يقع، فرحمه الوالد و أمره بردّه إلى القلعة، فنشلوه ثانيا، و قال الوالد: أنا أكفيك هذا الأمر، و لا يحتاج إلى نزول الصّغير، ثمّ تصايح الفريقان من أعلى السّور و من جمع خيم العسكر:

اللّه ينصر السّلطان؛ فرحا بوقوع الصّلح، و فرح أهل القلعة من أصحاب شيخ فرحا عظيما؛ لأنهم كانوا قد أشرفوا على الهلاك، و أمّا فرح العسكر فإن غالب أمراء الملك الناصر كانوا غير نصحاء له، و لم يرد أحد منهم أن يظفر بشيخ، حتى و لا الوالد، خشية أن يتفرّغ السّلطان من شيخ لهم.

ثمّ أصبحوا يوم الأحد، ركب الوالد و كاتب السرّ و جماعة من الأمراء، طلعوا إلى قلعة صرخد، و جلسوا على عادتهم، و خرج شيخ و جلس على باب القلعة، و أحلف فتح اللّه من بقى مع شيخ من الأمراء، و هم جانم من حسن شاه نائب حماة، و قرقماس ابن أخى دمرداش- و قد فارق عمّه دمرداش، و صار من حزب شيخ- و تمراز الأعور، و أفرج شيخ عن تجّار دمشق، الذين كان قبض عليهم لما خرج عن الطّاعة و صادرهم، ثمّ بعث شيخ بتقدمة إلى السلطان فيها عدّة مماليك.

و تقرّر الحال على أنّ شيخا المذكور يكون نائب طرابلس، و أن يلبس التشريف

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۸۸

السلطانىّ إذا رحل السلطان. ثمّ قام الوالد و من معه و سلم على شيخ، و عاد إلى السّلطان.

فرحل السلطان من وقته، و سار حتى نزل زرع و بات بها، ثمّ سار حتى قدم دمشق يوم الثلاثاء أوّل شهر ربيع الآخر، بعد أن جدّ فى السير، فنزل بدار السعادة على عادته.

و أمّا شيخ فإنه نزل من قلعة صرخد بعد رحيل السّلطان، و لبس التّشريف السلطانىّ بنيابة طرابلس، و قبّل الأرض على العادة، ثمّ قبّل يد الوالد غير مرّة، ثمّ جهز شيخ ولده إبراهيم صحبة الوالد إلى السّلطان الملك الناصر، و رحل الوالد، و رحل معه سائر من تخلّف عنده من الأمراء، منهم: بكتمر جلّق نائب الشّام- و هو أعدى عدوّ للأمير شيخ- و ساروا حتى وصلوا الجميع دمشق فى سابع شهر ربيع الآخر المذكور، و أحضر الوالد إبراهيم ابن الأمير شيخ إلى السلطان، فأكرمه السّلطان و خلع عليه، و أعاده إلى أبيه، و معه خيول، و جمال، و ثياب، و مال كبير.

ثمّ خلع السلطان على الشّريف جمّاز بن هبة اللّه بإمرة المدينة النبويّة- على ساكنها أفضل الصّلاة و السلام- و شرط عليه إعادة ما أخذه من الحاصل بالمدينة.

ثمّ فى رابع عشر شهر ربيع الآخر المذكور، خرج قضاة مصر الذين كانوا فى صحبة الملك الناصر من دمشق عائدين إلى الديار المصرية، هم و كثير من الأثقال، و نزلوا بداريّا خارج دمشق، ثمّ طلبت القضاة من يومهم فعادوا إلى مدينة دمشق؛ لعقد [عقد] ابنة السلطان على الأمير بكتمر جلّق نائب الشّام، ثمّ فى يوم الخميس سابع عشره حمل بكتمر جلّق المهر، و زفّته المغانى حتى دخل دار السّعادة إلى السّلطان، ثمّ عقد العقد بحضرة

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۸۹

السلطان و الأمراء و القضاة، فتولى العقد السلطان بنفسه، و قبله عن الأمير بكتمر جلّق الوالد، ثمّ خرجت القضاة من الغد فى يوم الجمعة سائرين إلى مصر، ثمّ صلّى السلطان صلاة الجمعة بالجامع الأمويّ، و خرج منه و سار من دمشق بعساكره يريد القاهرة، و نزل بالكسوة، و خلع على الأمير نكباى باستقراره حاجب حجّاب دمشق، عوضا عن عمر بن الهيدبانىّ.

ثم فى تاسع عشره أخلع السلطان على الأمير سودون الجلب باستقراره فى نيابة الكرك، ثم سار السّلطان فى ليلة الأحد من الكسوة، و استولى بكتمر جلّق على دمشق، و نزل بدار السّعادة، و سار السّلطان حتى نزل الرّملة فى رابع عشرينه، و ركب منها و سار مخفّا يريد زيارة القدس، و بعث الأثقال إلى غزّة، و دخل القدس و زاره، و تصدّق بخمسة آلاف دينار، و عشرين ألف درهم فضّة، و بات ليلته فى القدس، و سار من الغد إلى الخليل عليه السلام فبات به، ثمّ توجه إلى غزة، فدخلها فى سابع عشرينه، و أقام بها إلى ثانى جمادى الأولى، فرحل منها.

و أمّا دمشق، فإنه قدم إليها فى ثالث جمادى الأولى كتاب السّلطان إلى أعيان أهل دمشق بأنّه قد ولّى الأمير شيخا نيابة طرابلس، فإن قصد دمشق فدافعوه عنها و قاتلوه، و سببه أنّ الأمير شيخا كان قصد دخول دمشق، و كتب إلى الأمير بكتمر جلّق يستأذنه فى الحضور إليها ليقضى بها أشغاله ثمّ يرحل إلى طرابلس، و كان الذى قصده الأمير شيخ على حقيقته، و ليس له غرض فى أخذ دمشق، فلم يأذن له بكتمر فى الحضور إليها و خاشنه بالكلام، فقال شيخ أنا أسير إلى جهة دمشق و لا أدخلها، و سار حتى نزل شيخ فى ليلة الجمعة عاشر جمادى الأولى على شقحب، و كان الأمير بكتمر قد خرج بعساكر دمشق إلى لقائه، و نزل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۹۰

بقبّة يلبغا، ثمّ ركب ليلا يريد كبس الأمير شيخ، فصدف كشّافته عند خان ابن ذى النّون فواقعهم، فبلغ ذلك شيخا فركب و أتى بكتمر و صدمه بمن معه صدمة كسره فيها، و انهزم بكتمر بمن معه إلى جهة صفد، و معه قريب من مائة فارس، و عدّة من الأمراء، و تخلّف عنه جميع عساكر دمشق، و سار شيخ حتّى أتى دمشق بكرة يوم الجمعة، و نزل بدار السّعادة من غير ممانع، و قد تلقّاه أعيان الدّماشقة فاعتذر إليهم، و حلف لهم أنّه لم يقصد سوى النّزول بالميدان خارج دمشق ليقضى أشغاله، و أنّه لم يكن له استعداد لقتال، و أنه كتب يستأذن الأمير بكتمر فى ذلك، فأبى ثم خرج و قاتله فانهزم، و سأل جماعة من أعيان دمشق أن يكتبوا للسّلطان بذلك بعد أن كتب بهذا جميعه محضرا، و أراد إرساله إلى السّلطان فلم يجسر أحد من الشاميّين أن يمضى به إلى السّلطان الملك الناصر؛ خوفا من سطوته.

ثمّ فى ثالث عشره ولّى الأمير شيخ شهاب الدّين أحمد بن الشّهيد نظر جيش دمشق، و ولّى شمس الدين محمّد بن التّبانىّ نظر الجامع الأموىّ، و ولّى تغرى برمش أستاداره نيابة بعلبكّ، و ولّى إياسا الكركىّ نيابة القدس، و ولّى منكلى بغا كاشف القبليّة، و ولى الشّريف محمّدا محتسب دمشق.

و أمّا السّلطان فإنّه لمّا خرج من مدينة غزّة سار منها حتّى نزل قرية غيتا خارج مدينة بلبيس فى يوم الخميس تاسع جمادى الأولى، و لمّا استقرّ السّلطان فى المنزلة المذكورة، و قد خرج الناس لتلقى العسكر، و خرج غالب أقارب جمال الدين الأستادار إلى تلقّيه، و فرشت له الدّور بالقاهرة، فركب الوالد بقماش جلوسه من مخيّمه من غير أن يجتمع بالسّلطان؛ لاتّفاق كان بينهما من دمشق فى القبض على جمال الدّين المذكور لأسباب نذكرها، و كان الوالد يكره جمال الدين بالطّبع، على أنّه باشر أيّام عظمته أستاداريّة الوالد، مضافا إلى أستاداريّة السّلطان، و صار

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۹۱

يجلس مع مباشريه و ينفّذ الأمور، و مع ذلك لم يقبل عليه الوالد؛ لقلّة دينه و سفكه الدّماء، و عظم ظلمه، و سار الوالد من مخيّمه و مماليكه مشاة حوله يقصد و طاق جمال الدّين.

حدّثنى القاضى شرف الدين أبو بكر بن العجمىّ، موقّع جمال الدين، و زوج بنت أخيه، قال: كنت جالسا بين يدى الأمير جمال الدين الأستادار فى وطاقه، و قد حضر إلى تلقّيه غالب أقاربه، فقيل له إنّ الأمير الكبير تغرى بردى قادم إلى جهتك، فلمّا سمع جمال الدّين ذلك تغيّر لونه و قال: هذا من دون عسكر السّلطان لا يعودنى فى مرضى، فما مجيئه فى هذا الوقت لخير. و نهض من وقته قبل أن نردّ عليه الجواب، و خرج من خامه ماشيا إلى جهة الوالد خطوات كثيرة غالبها هرولة حتى لقى الوالد- و هو راكب- فقبّل رجله فى

الرّكاب، فمسكه الوالد من رأسه ثمّ أمر به فقيّد فى الحال، و قال لمن تولّى تقييده هذا الأمير جمال الدين عظيم الدّولة، أبصر له قيدا ثقيلا يصلح له، فبكى جمال الدين و دخل تحت ذيله.

ثمّ أمر الوالد بالقبض على جميع أقاربه و حواشيه، فقبض على ابنه أحمد، و على ابنى أخته أحمد و حمزة، و كان الوالد ندب جماعة من مماليكه إلى القاهرة للحوطة على دور جمال الدين و أقاربه، ثمّ أخذهم الوالد، و أركبهم بالقيود، و سار بهم إلى جهة الدّيار المصريّة، كلّ ذلك و السّلطان لا يعلم بما وقع إلّا بعد سير الوالد إلى جهة القاهرة، و أخذ جمال الدين فى طريقه يترقّق للوالد و يعده و يسأله القيام فى أمره، كلّ ذلك و الوالد لا يعتبه إلّا على قتل أستاداره عماد الدين إسماعيل و أخذ ماله.

و كان خبر إسماعيل مع جمال الدين المذكور أن [عماد الدين] إسماعيل كان أستادار الوالد، و كان له عزّ و ثروة و معرفة و رئاسة قبل أن يترأس جمال الدين، فكان يستخفّ بجمال الدين، و يطلق لسانه فى حقّه، و جمال الدين لا يصل إليه من انتمائه للوالد، فأخذ جمال الدين يسعى فى أستاداريّة الوالد مدّة طويلة

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۹۲

حتى ولّاه الوالد أستاداريته، بعد أن بذل جمال الدّين مالا كثيرا للوالد و لحواشيه، و استأذن الوالد أنّه يقبض على [عماد الدين] إسماعيل و يؤدّبه و يظهر للوالد فى جهته جملة كبيرة من الأموال، و فى ظنّ الوالد أنّه يوبّخه بالكلام، أو يهينه ببعض الضرب ثمّ يطلقه، فأذن له الوالد فى ذلك، و كان [عماد الدين] إسماعيل المذكور مسافرا، فلمّا قدم من السّفر ركب و أتى إلى الوالد، و كان الوالد تغيّر عليه قبل ذلك لسبب من الأسباب، فقبّل يد الوالد، و خرج من عنده فصدف جمال الدين عند مدرسة سودون من زادة، فقال له الأمير جمال الدين: بسم اللّه يا أمير عماد الدين، أين الهديّة؟ فعاد معه عماد الدين، و حال وصوله إلى بيته أجرى عليه العقوبة، و أخذ منه أربعين ألف دينار، ثمّ ذبحه من ليلته، فلمّا سمع الوالد بقتلته من الغد كاد عقله أن يذهب، و أراد الرّكوب فى الحال و الطّلوع إلى السّلطان، فقال له حواشيه و خواصّه: يا خوند قد فات الأمر، و ما عسى أن يصنع فيه الملك الناصر مع خصوصيّته عنده، فسكت الوالد على دغل، و أخذ فى توغير خاطر السّلطان عليه، و يعرّف السّلطان بأفعال جمال الدين، و لا زال به حتّى تغيّر عليه مع أمور أخر وقعت من جمال الدين، فكان ذلك أكبر أسباب ذهاب جمال الدين، و أراح اللّه المسلمين منه.

ثمّ ركب السلطان من غيتا و سار حتى نزل بالخانقاه، ثمّ سار حتى طلع إلى قلعة الجبل فى يوم السّبت حادى عشر جمادى الأولى المذكور، بعد أن زيّنت له القاهرة و مصر، و خرج النّاس لتلقّيه، فكان لدخوله يوم عظيم، و حمل الوالد على رأسه القبّة و الطّير، و لمّا استقرّ السّلطان بقلعة الجبل- و قد حبس بها جمال الدين-

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۹۳

ثمّ رسم السّلطان للوالد أن يتسلّم جمال الدين و يعاقبه، فقال الوالد: يا مولانا السلطان جمال الدين كلب لا يتسلّمه إلّا كلب مثله، فقال تاج الدّين عبد الرّزّاق ابن الهيصم: يا خوند، أنا ذلک الكلب، فسلّمه السلطان له.

و أمّا أسباب القبض على جمال الدين فكثيرة، منها: ما فعله ليلة بيان لمّا استشاره السلطان هو و فتح اللّه، و فرّ الأمراء، و كان جمال الدين لمّا خرج من عند السّلطان أرسل إلى الأمراء بذلك، و طلب جمال الدين صيرفيّه عبد الرحمن و أمره فصرّ للأمير شيخ المحموديّ نائب الشّام بخمسة آلاف دينار يرسلها له صحبة الأمراء المتوجّهين فى الليل إليه، و إلى تمراز بثلاثة آلاف دينار، و هو رأس الأمراء الذين عزموا على الفرار، و على رفقته: سودون بقجة، و علّان، و إينال، لكلّ واحد بألفى دينار، و بعث بالمبلغ إليهم، و أعلمهم بما عزم عليه السلطان من القبض عليهم، فكان هذا من أكبر الأسباب فى هلاک جمال الدين، و لم يعلم السلطان ذلک إلّا بعد أيّام.

و منها أنّ السلطان الملک الناصر لم يكن معه فى هذه السّفرة من الذّهب إلّا النزر اليسير، فسأل جمال الدين فى مبلغ فقال جمال الدّين: ما معى إلّا مبلغا هيّنا، فندب السلطان فتح اللّه كاتب السرّ فى الفحص عن ذلک، فقال له فتح اللّه: قد رافق جمال الدين فى هذه

السّفرة تاج الدين عبد الرزّاق بن الهيصم كاتب المماليك، و أخوه مجد الدين عبد الغنىّ مستوفى الديوان المفرد فاسألهما و تلطّف بهما تعلم ما مع جمال الدين من الذّهب، فطلبهما السلطان، و فعل ذلك، فأعلماه بليلة بيسان، و ما فعله جمال الدين من إرسال الذّهب، و إعلام الأمراء بقصد السّلطان حتى فرّوا و لحقوا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۹۴

بالأمير شيخ، فقال السلطان: من أين لكم هذا الخبر؟ فقالا: صيرفيّه عبد الرحمن ينزل عندنا و عند تقىّ الدين عبد الوهّاب بن أبى شاكر ناظر ديوان المفرد، و هو الحاكى، فصدّق السلطان مقالتهما و أسرّها فى نفسه، و استشار الوالد فى القبض على جمال الدين، فقال له الوالد: المصلحة تركه حتى يعود إلى جهة القاهرة، و يقبض عليه و على جميع أقاربه؛ حتى لا يفوت السّلطان منهم أحد، و تكون الحوطة على الجميع معا، فأعجب السّلطان ذلك، و سكت عن قبضه بالديار الشامية.

ثمّ إن [تاج الدين عبد الرزّاق] بن الهيصم لا زال حتى أوصل عبد الرحمن الصّيرفىّ إلى السلطان، و حكى له الواقعة من لفظه فى مجلس شرابه، و شرب معه عبد الرحمن فى تلك الليلة.

و منها: أنّ القاضى محبى الدين أحمد المدنىّ كاتب سرّ دمشق لقى ابن هيازع عند باب الفراديس بدمشق، فأعلمه ابن هيازع أن أصحابه و جدوا عند مدينة زرع ساعيا معه كتب، فقبضوا عليه و أخذوا منه الكتب و جاءوا بها إليه، و كان محيى الدين المذكور معزولا عن كتابة سرّ دمشق من مدّة، فأخذ الكتب و لم يدر ما فيها و سلّمها لفتح اللّه، فأخذ فتح اللّه الكتب و محيى الدين إلى السّلطان و فتحت الكتب، و قرئت بحضرة السّلطان، فاذا هى من جمال الدين إلى الأمير شيخ، فزاد السلطان غضبا على غضبه، و أخفى ذلك كلّه عن جمال الدين لأمر سبق، و أخذ السلطان يغالط جمال الدين و التغيير يظهر من وجهه؛ لشبيبته و شدّة حقده عليه، فتقهقر جمال الدين قليلا، و أخذ يغالط السلطان، و يسأله أن يسلّم له ابن الهيصم و ابن أبى شاكر، و ألحّ فى ذلك و السّلطان لا يوافقه و يعده و يمنّيه، إلى أن نزل السلطان بمدينة غزّة، و أظهر لجمال الدين الجفاء، و أراد القبض عليه، فلم يمكّنه الوالد، فتركه السّلطان إلى أن نزل بلبيس و وقع ما حكيناه.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۹۵

و أما أصل جمال الدين و نسبه فانّه يوسف بن أحمد بن محمّد بن أحمد بن جعفر ابن قاسم البيرىّ الحلبىّ البجاسىّ، كان أبوه يتزيّا بزىّ الفقهاء، و كان يخطب بألبيرة، فتزوّج بأخت شمس الدين عبد اللّه بن سهلول، و قيل سحلول، المعروف بوزير حلب، فولدت له يوسف هذا، و لقّب بجمال الدين، و كنّى بأبى المحاسن هو و أخوته، و نشأ جمال الدين يوسف المذكور بألبيرة، ثمّ قدم البلاد الشّاميّة على فاقة عظيمة، و تزيّا بزىّ الجند، و خدم بلاصيّا عند الشّيخ علىّ كاشف برّ دمشق، ثمّ عند غيره من الكشّاف، و طال خموله، و خالط الفقر ألوانا إلى أن خدم عند الأمير بجاس- و هو أمير طبلخاناة- بعد أمور يطول شرحها، ثمّ جعله بجاس أستاداره و تموّل و عرف عند الناس بجمال الدين أستادار بجاس، و كثر ماله، و سكن بالقصر بين القصرين، و أتّهم أنّه وجد به من خبايا الفاطميّين خبيئة، ثمّ خدم بعد بجاس عند جماعة من الأمراء إلى أن عدّ من الأعيان، و صحب سعد الدين إبراهيم بن غراب، فنوّه ابن غراب بذكره إلى أن طلب أن يلى الوزر فامتنع من ذلك، و طلب الأستاداريّة، فخلع السلطان عليه باستقراره أستادارا عوضا عن سعد الدين بن غراب المذكور، بحكم توجّه ابن غراب مع يشبك الدّوادار إلى البلاد الشّاميّة، و ذلك فى رابع شهر رجب سنة سبع و ثمانمائة، و من يومئذ أخذ أمره يظهر حتّى صار حاكم الدّولة و مدبّرها، بعد أن قتل خلائق من الأعيان لا تدخل تحت حصر من كلّ طائفة، بالعقوبة و الذّبح و الخنق و أنواع ذلك.

قلت: لا جرم أنّ اللّه تعالى قاصصه فى الدنيا ببعض ما فعله؛ فعوقب أيّاما بالكسّارات و أنواع العذاب، ثمّ ذبح فى ليلة الثلاثاء حادى عشر جمادى الآخرة، و أراح اللّه الناس من سوء فعله و قبح منظره- انتهى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۹۶

ثمّ فی یوم الثلاثـاء رابع عشـر جمادی الأولی المـذکور خلع السـلطان علی تاج الـدین عبـد الرزّاق بن الهیصم ناظر الإسـطبل، و کاتب الممالیک السـلطانیّة، باسـتقراره أسـتادارا عوضا عن جمال الدین یوسف البیریّ- بحکم القبض علیه- و ترک لبس المباشـرین و لبس الکلفتاة، و تقلّد بالسیف و تزیّا بزیّ الأمراء، و خلع علی أخیه مجد الدین عبد الغنی بن الهیصم مستوفی دیوان المفرد، و استقر فی نظر الخـاصّ، و خلع علی سـعد الـدین إبراهیم بن البشـریّ ناظر الدّولـة، و اسـتقر فی الوزارة، و کل هـذه الوظائف کانت مع جمال الـدین الأسـتادار، و خلع علی تقیّ الدین عبد الوهّاب بن أبی شاکر و اسـتقرّ ناظر دیوان المفرد، و أضـیف إلیه أستاداریة الأملاک و الأوقاف السـلطانیّة، عوضا عن أحمد ابن أخت جمال الدین، و خلع علی تاج الدین فضل اللّه بن الرّملیّ و استقرّ ناظر الدّولة، و خلع علی حسام الدین حسین الأحول- عدوّ جمال الدین- و استقر أمیر جاندار.

ثمّ قدم الخبر بأخذ شیخ لدمشق، و فرار بکتمر جلّق إلی صفد، و أرسل الأمیر شیخ محضرا یتضمن أنه کان یرید التوجّه إلی طرابلس، فلما وصل شـقحب قصده بکتمر جلّق و قاتله، فرکب و دفع عن نفسه، و شـهد له فی المحضـر جماعة کبیرة من أهل دمشق و غیرها، و کـان الأمر کما قاله شـیخ- حسـبما ذکرناه قبل تاریخه- و سـکت الوالـد، و احتار فی نفسه بین بکتمر و شـیخ، فإنّه کان یمیل إلی کل منهما.

ثمّ قدم فی أثناء ذلک الأمیر بکتمر جلّق إلی القاهرة فی سابع عشـرین جمادی الأولی، بعد دخول السـلطان إلی القاهرة بنحو ستّة عشر یوما، و قدم صـحبة بکتمر المذکور الأمیر بردبک نائب حماة، و الأمیر نکبای حاجب دمشق، و الأمیر ألطنبغا العثمانیّ، و الأمیر یشبک الموساویّ الأفقم نائب غزّة، فخرج السـلطان إلی لقائهم، و دخل بهم من باب النّصـر، و شقّ القاهرة و خرج من باب زویلة، و نزل بدار الأمیر طوخ

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۹۷

- أمیر مجلس- یعوده فی مرضه، ثمّ طلع إلی القلعة، و لم یعتب السّـلطان علی الوالد فی أمر شـیخ، و لا فاتحه الوالد فی أمره حتی قال الوالد لبعض ممالیکه:

کأن السلطان عذر الأمیر شیخا فیما وقع منه- و اللّه أعلم.

و فی هـذه الأیّام، تناولت جمال الدین و حواشـیه العقوبات، و أخذوا له عدّة ذخائر من الأموال، و ما اسـتهلّ جمادی الآخرة حتی کان مجمـوع مـا أخـذ منه من الـذّهب العین المصـریّ تسـعمائة ألـف دینـار و أربعـة و سـتّین ألـف دینـار، و هو إلی الآـن تحت العقوبـة و المصادرة.

ثمّ ورد الخبر علی السـلطان من البلاـد الشامیـة، من دمرداش نائب حلب، بأنّ الأمیر نوروزا الحافظیّ قـدم إلی حلب، و معه یشـبک بن أزدمر و غیره، و أنّ الأمیر دمرداش المحمّـدی نائب حلب تلقّاه و أکرمه و حلّفه للسـلطان، ثمّ کتب یعلم السـلطان بـذلک، و یسأله أن یعیـده إلی نیابـة دمشق، و أن یولّی یشـبک بن أزدمر نیابة طرابلس، و أن یولّی ابن أخیه [تغری بردی] المعروف بسـیّدی الصـغیر نیابة حمـاة، فأجـاب السّـلطان إلی ذلـک، و أرسل الأمیر مقبلا الرّومیّ فی البحر إلی نوروز المـذکور و علی یـده التّقلیـد و التّشـریف بنیابة الشّام، فوصل إلیه مقبل الرومیّ المـذکور فی رابع شـعبان، فلبس نوروز التشـریف، و قبل الأرض، و جدّد الیمین للسّـلطان بالطّاعة علی کلّ حال، و عدم المخالفة، و لما بلغ شـیخا ذلک فرّ منه جماعة من الأمراء و أتوا إلی الأمیر نوروز، منهم: تمربغا العلائیّ المشطوب، و جـانم من حسن شـاه نـائب حمـاة، و سودون الجلب. و جانبک القرمیّ و بردبک حاجب حلب، فلمّا وقع ذلک أرسل الأمیر شـیخ إلی السلطان الملک الناصر إمام الصّخرة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۹۸

و جنـدیّا آخر بکتابه، فقدما إلی القاهرة فی ثانی جمادی الآخرة المذکور و علی یدهما أیضا محضـر مکتوب، فغضب السـلطان غضـبا عظیما، و وسّط الجندیّ، و ضرب إمام الصخرة ضربا مبرّحا و سجنه بخزانة شمائل.

ثمّ من الغد أنزل جمال الدين و ابنه أحمد على قفصى حمّال إلى بيت تاج الدين بن الهيصم، ثمّ قبض السّلطان على الأمير بلاط أحد مقدّمى الألوف، و على الأمير كزل العجمىّ حاجب الحجّاب و قيدهما و أرسلهما إلى سجن الإسكندرية.

ثمّ فى حادى عشر جمادى الآخرة نقل جمال الدين الأستادار- فى قفص حمال أيضا- من بيت ابن الهيصم، بعد ما قاسى محنا و شدائد، إلى بيت حسام الدين الأحول، فتنوّع حسام الدين فى عقوبته أنواعا؛ لما كان فى نفسه منه، و أخذ فى استصفاء أمواله، فاستحثه القوم فى قتله خشية أن يحدث فى أمره حادث، فقتله خنقا، ثمّ حزّ رأسه من الغد و حمله إلى السّلطان حتى رآه، ثمّ أعاده فدفن مع جثته بتربته بالصّحراء، و قد ذكرنا تاريخ موته عند القبض عليه.

ثم أصبح السلطان خلع على الأمير يلبغا الناصرىّ باستقراره حاجب الحجاب- بالدّيار المصرية- بعد مسك كزل العجمىّ.

ثم ورد الخبر بأن الأمير شيخا توجه لقتال نوروز بحماة، فتوجه و حصره بها، و أنّ الأمير يشبك الموساوىّ نائب غزة كان بينه و بين سودون المحمدى و علّان واقعة قتل فيها جماعة، و فرّ يشبك الموساوى إلى جهة الديار المصرية، و أن علّان جرح فى وجهه فحمل إلى الرملة فمات بها.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۹۹

قلت: و علّان هذا هو خلاف علّان جلّق نائب حماة و حلب- الذى قتله جكم مع طولو نائب صفد فى سنة [ثمان و] ثمانمائة- حسبما تقدّم ذكره، و أن سودون المحمدى بعث يسأل شيخا فى نيابة صفد فأجابه إلى ذلك، كل هذا ورد على السلطان فى يوم واحد.

و لما طال حصار شيخ لنوروز على حماة، خرج دمرداش نائب حلب و قدم إلى حماة- نجدة لنوروز- و معه عساكر حلب، فلمّا بلغ شيخا قدوم دمرداش، بادر بأن ركب و ترك و طاقه و أثقاله و توجه إلى ناحية العربان فركب دمرداش بسكرة يوم الأحد، و أخذ و طاق شيخ و استولى عليه، فعاد شيخ و تقاتلا بمن معهما قتالا شديدا قتل فيه جماعة كبيرة، منهم: بايزيد- من إخوة نوروز الحافظىّ- و أسر عدّة كبيرة من أصحاب دمرداش، منهم: الأمير محمد بن قطبكى كبير التركمان الأوشرية، و فارس أمير آخور دمرداش، و استولى الأمير شيخ على طبلخاناة الأمير دمرداش، و كسر أعلامه، ثم ركب شيخ و سار يريد حمص.

ثم إن الأمير شيخا بعد مدّة أرسل يخادع السلطان بكتاب يسترضيه و يقول فيه: إنه باق على طاعة السلطان، و حكى ما وقع له مع الأمير بكتمر جلّق نائب الشام، ثم ما وقع له مع الأمير نوروز، ثم مع الأمير دمرداش و أن كلّ ذلك ليس بإرادته و لا عن قصده، غير أنه يدافع عن نفسه خوفا من الهلاك، و أنّه تاب و أناب و رجع إلى طاعة السّلطان، و أرسل أيضا للوالد بكتاب مثل ذلك، فلم يتكلّم الوالد فى حقّه بكلمة، ثم أخذ شيخ يقول عن نوروز أشياء و يغرى السّلطان به؛ من ذلك أنّه يقول: إنّ نوروزا يريد الملك لنفسه، و هو حريص على ذلك من أيّام السّلطان السّعيد الشهيد الملك الظاهر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۰۰

برقوق، و أنّه لا يطيع أبدا، و أنّه هو لا يريد إلّا الانتماء إلى السّلطان فقط، و رغبته فى عمل مصالح العباد و البلاد، ثمّ كرّر السؤال فى العفو و الصّفح عنه فى هذه المرّة، فلم يمش ذلك على الملك الناصر و لم يلتفت إلى كتابه.

و شرع السّلطان فى التّنزّه، و أكثر من الرّكوب إلى برّ الجيزة للصّيد فى كلّ قليل، و وقع منه ذلك فى الشهر غير مرة، و لمّا عاد فى بعض ركوبه فى يوم الخميس ثالث عشرين شوّال من سنة اثنتى عشرة و ثمانمائة المذكورة، و وصل قريبا من قناطر السّباع عند الميدان الكبير أمر السّلطان بالقبض على الأمير قردم الخازندار، و على الأمير إينال المحمّدى السّاقىّ- المعروف بضضع- أمير سلاح، فقبض فى الحال على قردم، و أما إينال ضضع المذكور فإنّه شهر سيفه و ساق فرسه و مضى، فلم يلحقه غير الأمير قجق الشّعبانىّ، فأدركه و ضربه بالسّيف على يده ضربة جرحته جرحا بالغا، ثم فاته و لم يقدر عليه، و طلع السلطان القلعة، كلّ ذلك و هو لا يملك نفسه على فرسه من شدّة السّكر، و نودى فى الحال بالقاهرة على الأمير إينال المحمّدىّ المذكور، فلم يظهر له خبر، و قيّد قردم و حمل إلى الإسكندريّة من يومه.

و أمّا الأمير شيخ، فإنّه كمّل فى هذا الشهر- و هو ذو الحجّة من سنة اثنتى عشرة و ثمانمائة- سبعة أشهر و هو يقاتل نوروزا و دمرداش، و يحاصرهما بحماة، و وقع بينهم فى هذه المدّة المذكورة حروب و خطوب يطول شرحها، و قتل بينهم خلائق لا تحصى، و اشتدّ الأمر على نوروز و أصحابه بحماة، و قلّت عندهم الأزواد، و قاسوا شدائد حتّى وقع الصلح بينه و بين الأمير شيخ؛ و ذلك عندما سمعوا بخروج الملك الناصر فرج إلى البلاد الشّاميّة، و خاف نوروز إن ظفر به

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۰۱

الملك الناصر لا يبقيه؛ فاحتاج إلى الصّلح، و حلف كلّ من نوروز و شيخ لصاحبه، و اتّفقا على أنّ نوروزا يمسك دمرداش نائب حلب، و أنّ شيخا يمسك ابن أخيه قرقماس- المدعوّ سيّدى الكبير- ففطن دمرداش بذلك، و أرسل أعلم ابن أخيه قرقماس المذكور مع بعض الأعوان، و هرب دمرداش من نوروز إلى العجل ابن نعير، و فرّ ابن أخيه قرقماس من عند شيخ إلى أنطاكية، و العجب أنّ قرقماس المذكور كان قد صار من حزب شيخ، و ترك عمّه دمرداش و خالفه و صار يقاتل نوروزا و عمه هذه المدة الطويلة، و عمه دمرداش يرسل إليه فى الكفّ عن قتالهم، و يدعوه إلى طاعة نوروز و يوبخه بالكلام و هو لا يلتفت، و لا يبرح عن الأمير شيخ، حتى بلغه من عمّه أنّ شيخا يريد القبض عليه، فعند ذلك تركه و هرب، ثمّ إنّ الأمير نوروزا قصد حلب و أخذها و استولى عليها، و هرب مقبل الروميّ، الذى كان حمل للأمير نوروز التّقليد بنيابة الشام، و لحق بالسّلطان على غزّة.

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۱۳]

و أمّا السلطان الملك الناصر، فإنه أخذ فى التّجهيز إلى السفر نحو البلاد الشّامية، و عظم الاهتمام فى أوّل محرم سنة ثلاث عشرة و ثمانمائة، و خلع فى عاشر المحرّم على الأمير قراجا شادّ الشراب خاناة باستقراره دوادارا كبيرا- دفعة واحدة- بعد موت الأمير قجاجق، و خلع على سودون الأشقر باستقراره شادّ الشّراب خاناة عوضا عن قراجا المذكور، ثمّ عمل السلطان فى هذا اليوم عرس الأمير بكتمر جلّق، و زفّت عليه ابنة السلطان الملك الناصر- التى كان عقد عليه عقدها بدمشق- و عمرها يوم ذلك نحو سبع سنين أو أقلّ، و بنى عليها بكتمر فى ليلة الجمعة حادى عشر المحرّم المذكور، و أخذ السّلطان فى أسباب السفر، و تهيأ و أنفق على المماليك السلطانيّة و غيرهم من الأمراء، و من له عادة بالنّفقة، فأعطى لكلّ مملوك من المماليك السلطانية عشرين ألف درهم، و حمل إلى الأمراء مقدّمى الألوف لكلّ واحد ألفى دينار،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۰۲

ما خلا الوالد و بكتمر فإنه حمل لكلّ منهما ثلاثة آلاف دينار، و أعطى لكل أمير من أمراء الطّبلخانات خمسمائة دينار، و لأمراء العشرات ثلاثمائة دينار.

ثم خرج الأمير بكتمر جلّق جاليشا من القاهرة إلى الرّيدانيّة، و صحبته عدّة من أمراء الألوف و غيرهم، فى يوم الخميس ثالث عشرين صفر، فالذى كان معه من أمراء الألوف هم: -

يلبغا الناصرى حاجب الحجّاب، و ألطنبغا العثمانىّ، و طوغان الحسنىّ رأس نوبة النّوب، و سنقر الرّومى، و خيربك، و شاهين الأفرم، و عدة كبيرة من أمراء الطّبلخانات و العشرات، و سار بكتمر بعد أيام قبل خروج السلطان.

ثمّ ركب السلطان من قلعة الجبل ببقيّة أمرائه و عساكره فى يوم الاثنين رابع شهر ربيع الأول من سنة ثلاث عشرة المذكورة، و نزل بالرّيدانية، و هذه تجريدة الملك الناصر السادسة إلى البلاد الشامية، غير سفرة السعيدية، و خلع على أرغون من بشبغا الأمير آخور الكبير بنيابة الغيبة على عادته، و أنه يستمر بسكنه بباب السلسلة، و أنزل الأمير كمشبغا الجمالى بقلعة الجبل، و جعل بظاهر القاهرة الأمير إينال الصصلانى الحاجب الثانى أحد مقدمى الألوف، و معه عدّة أمراء أخر، و الذى كان بقى مع السلطان- من أمراء الألوف و خرجوا صحبته- الوالد رحمه اللّه، و هو أتابك العساكر، و قجق الشعبانى، و سودون الأسندمرى، و سودون من عبد الرحمن، و

سودون الأشقر شاد الشّراب خاناة، و کمشبغا الفیسی المعزول عن الأمیر آخوریة، و بردبک الخازندار.

ثمّ رکب الملک الناصر من الغد فی یوم الثلاثاء خامس شهر ربیع الأوّل من الرّیدانیة إلی التربة التی أنشأها علی قبر أبیه بالصّحراء.

قلت: و جماعة کبیرة من النّاس یظنّون أنّ هذه التربة العظیمة أنشأها الملک الظاهر برقوق قبل موته، و یسمونها الظاهریّة، و لیس هو کذلک، و ما عمرها إلّا الملک

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۰۳

الناصر فرج بعد موت أبیه بسنین، و هی أحسن تربة بنیت بالصّحراء- انتهی.

و سار الملک النّاصر حتی نزل بالتّربة المذکورة، و قرّر فی مشیختها صدر الدین أحمد بن محمود العجمیّ، و رتّب عنده أربعین صوفیّا، و أجری علیهم الخبز و اللحم الضأن للطبوخ فی کلّ یوم، و فرشت السّجادة لصدر الدین المذکور بالمحراب، و جلس علیها.

أخبرنی العلّامة علاء الدین علیّ القلقشندیّ قال: حضرت جلوس صدر الدین المذکور فی ذلک الیوم مع من حضر من الفقهاء، و قد جلس السلطان بجانب صدر الدین فی المحراب، و عن یمینه الأمیر تغری بردی من بشبغا الأتابک- یعنی الوالد- و تحته بقیّة الأمراء، و جلس علی یسار السلطان الشیخ برهان الدین إبراهیم بن زقّاعة، و تحته المعتقد الکرکی، فجاء القضاة فلم یجسر قاضی القضاة جلال الدین البلقینی الشافعیّ أن یجلس عن یمین السّلطان فوق الأمیر الکبیر، و توجّه و جلس عن میسرة السّلطان تحت ابن زقّاعة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۰۴

و الکرکی، فإنهما کان لهما عادة بالجلوس فوق القضاة من أیّام الملک الظاهر برقوق- انتهی.

قلت: و العادة القدیمة من أیّام شیخون العمریّ إلی ذلک الیوم، أنه لا یجلس أحد فوق الأمیر الکبیر من القضاة و لا غیرهم، حتی و لا ابن السّلطان، غیر صاحب مکة المشرّفة؛ مراعاة لسلفه الطاهر- انتهی.

ثمّ رکب السّلطان بأمرائه و خواصه و عاد إلی مخیّمه بالرّیدانیة، و أقام به إلی أن رحل منه فی یوم السبت تاسع شهر ربیع الأوّل المذکور، یرید البلاد الشّامیة.

و أمّا الأمیر شیخ، فإنه لمّا بلغه خروج السّلطان من الدیّار المصریة، لم یثبت و داخله الخوف، و خرج من دمشق فی یوم الثلاثاء سادس عشرین شهر ربیع الأوّل المذکور بعساکره و ممالیکه، و تبعه الأمیر جانم نائب حماة.

فدخل بکتمر جلّق إلی الشّام من الغد فی یوم سابع عشرینه- علی حین غفلة- حتی یطرق شیخا، ففاته شیخ بیوم واحد، لکنّه أدرک أعقابه و أخذ منهم جماعة، و نهب بعض أثقال شیخ، ثمّ دخل السلطان الملک النّاصر إلی دمشق بعد عشاء الآخرة من لیلة الخمیس ثامن عشرینه، و قد رکب من بحیرة طبریّة فی عصر یوم الأربعاء علی جرائد الخیل لیکبس شیخا، ففاته بیسیر، و کان شیخ قد أتاه الخبر و هو جالس بدار السّعادة من دمشق، فرکب من وقته و ترک أصحابه، و نجا بنفسه بقماش جلوسه، فما وصل إلی سطح المزّة إلّا و بکتمر جلّق داخل دمشق، و مرّ شیخ علی وجهه منفردا عن أصحابه، و ممالیکه و حواشیه فی أثره، و الجمیع فی أسوإ ما یکون من الأحوال.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۰۵

و لمّا دخل السّلطان إلی دمشق، أصبح نادی بدمشق بالأمان و الاطمئنان لأهل الشّام، و ألا ینزل أحد من العسکر فی بیت أحد من الشّامیّین، و لا یشوّش أحد منهم علی أحد فی بیع و لا شراء، و نودی أن الأمیر نوروزا الحافظیّ هو نائب الشّام.

ثمّ فی ثانی شهر ربیع الآخرة قدم الأمیر شاهین الزّردکاش نائب صفد علی السّلطان بدمشق، ثمّ فی ثالثه خلع السّلطان علی الأمیر یشبک الموساویّ الأفقم باستقراره فی نیابة طرابلس، و استقرّ أبو بکر بن الیغموریّ فی نیابة بعلبک، و أخوه شعبان فی نیابة القدس، ثمّ فی سادس شهر ربیع الآخر المذکور، خرج أطلاب السّلطان و الأمراء من دمشق إلی برزة، و صلی السلطان الجمعة بجامع بنی أمیّة، ثمّ رکب و توجه بأمرائه و عساکره جمیعا إلی أن نزل بمخّیمه ببرزة، و خلع السلطان علی شاهین الزّردکاش نائب صفد باستقراره نائب

الغيبة بدمشق، و سكن شاهين بدار السعادة، و تأخر بدمشق من أمراء السلطان الأمير قانى باى المحمّدىّ، لضعف كان اعتراه، و تخلّف بـدمشق أيضا القضاة الأربعـة، و الوزير سـعد الـدين بن البشـيرىّ، و ناظر الخاص مجد الدين بن الهيصم، و سار السّـلطان بعساكره إلى جهـة حلب حتى وصـلها، فى قصـد شـيخ و نوروز بمن معهمـا من الأمراء، ثمّ كتب السّـلطان لنوروز و شـيخ يخيّرهما، إما الخروج من مملكته، أو الوقوف لمحاربته، أو الرجوع إلى طاعته، يريد- بذلک- الملک الناصر الشفقة على الرعيّة من أهل البلاد الشّامية؛ لكثرة ما صار يحصل لهم من الغرامـة و المصادرة، و خراب بلادهم من كثرة النّهّابـة من جهـة العصاة، ثمّ أخبرهما الملک الناصـر أنه عزم على الإقامة بالبلاد الشّامية السـنتين و الثلاثة حتى ينال غرضه، فأجابه الأمير شيخ بأنه ليس بخارج عن طاعته، و يعتذر عن حضوره بما خامر قلبه من شدة

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۰۶

الخوف و الهيبة عند ما قبض عليه السّـلطان مع الأتابک يشبک الشعبانىّ فى سنة عشر و ثمانمائة، و أنه قد حلف لا يحارب السلطان ما عاش، من يوم حلّفه الأمير الكبير تغرى بردى- أعنى الوالد- فى نوبة صرخد، و كرّر الاعتذار عن محاربته لبكتمر جلّق، حتى قال: و إن كان السـلطان ما يسـمح له بنيابـة الشّام على عادته، فينعم عليه بنيابة أبلستين، و على الأمير نوروز بنيابة ملطية، و على يشـبک بن أزدمر بنيابـة عين تاب، و على غيرهم من الأمراء ببقيـة القلاع؛ فإنهم أحق من التركمان المفسدين فى الأرض، و كان ما ذكروه على حقيقته، فلم يرض السّـلطان بـذلک، و صـمّم على الإقامـة ببلاـد الشام، و كتب يسـتدعى التركمان و غيرهم، كلّ ذلک و السـلطان بأبلستين، و بيناهم فى ذلک فارق الأمير سودون الجلب شيخا و نوروزا، و توجه إلى الكرک و استولى عليها بحيلة تحيّلها.

ثمّ عاد السّلطان إلى حلب فى أوّل جمادى الآخرة، و لم يلق حربا، فقدم عليه بها قرقماس ابن أخى دمرداش- المدعو سيّدى الكبير- و الأمير جانم من حسن شاه نائب حماة- كان- فأكرمهما السـلطان و أنعم على قرقماس بنيابة صـفد، و على جانم بنيابة طرابلس، و استقرّ الأمير جركس والد تنم حاجب حجّاب دمشق، ثمّ خلع على الأمير بكتمر جلّق باستقراره فى نيابة الشام ثانيا، و أنعم بإقطاعه على الأمير دمرداش المحمّدىّ نائب حلب، ثمّ بعد مدّة غيّر السـلطان قرقماس سيّدى الكبير- من نيابة صفد إلى نيابة حلب، عوضا عن عمّه الأمير دمرداش المحمّدىّ، و أخلع على أخيه تغرى بردى- المدعو سيّدى الصّغير- باستقراره فى نيابة صفد.

و بينمـا السـلطان فى ذلـک بحلب، ورد عليه الخبر بـأنّ شـيخا و نوروزا وصـلا عين تـاب، و سـارا على البريّـة إلى جهـة الشّـام، فركب السلطان مسرعا

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۰۷

من حلب على حين غفلـة فى ثالث عشـرين شـهر رجب ببعض عساكره، و سار حتى دخل دمشق فى أربعة أيّام، ثمّ قدم فى أثره الوالد بغـالب العسـاكر، ثمّ الأـمير بكتمر جلّق نـائب الشّـام، ثمّ بقيّـة الأـمراء و العساكر، ثمّ فى ثالث شـعبان قـدم الأمير تمراز النّاصـرى نائب السّـلطنة- كان- إلى دمشق فى خمسـين فارسا، داخلا فى طاعة السّـلطان بعدما فارق شـيخا و نوروزا، فركب السّلطان و تلقّاه و بالغ فى إكرامه، قلت، و تمراز هـذا هو الـذى كان فرّ من السّـلطان فى ليلة بيسان و معه عدّة أمراء- و قد تقدّم ذكر ذلک فى وقته- ثمّ فى الغد سمّر السّلطان ستة نفر من أصحاب شيخ و وسّطهم.

و أمـا شـيخ و نوروز، فإنّهمـا لمّـا سـار السّـلطان عن أبلستين خرجا من قيساريّـة بمن معهم، و جاءوا إلى أبلستين فمنعهم أبناء دلغادر و قـاتلوهم، فانكسـروا منهم و فرّوا إلى عين تـاب، فلمّا قربوا من تلّ باشـر تمزّقوا و أخـذت كلّ طائفـة جهـة من الجهات، فلحق بحلب و دمشق منهم عدّة وافرة، و اختفى منهم جماعة، و مرّ شـيخ و نوروز بحواشـيهما على البريّة إلى تدمر فامتاروا منها، و مضوا مسرعين إلى صرخد و توجهوا إلى البلقاء و دخلوا بيت المقدس، ثمّ توجّهوا إلى غزّة بعد أن مات من أصحابهم الأمير

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۰۸

تمربغا المشطوب نائب حلب- كان- و الأمير إينال المنقار، كلاهما بالطّاعون بمدينة حسبان.

ثمّ قدم عليهم سودون الجلب من الكرک، فتتبّعوا ما بغزّة من الخيول فأخذوها، و أقاموا بها حتى أخرج السّلطان إليهم بكتمر جلّق على عسكر كبير، فسار إلى زرع، ثمّ كتب للسّلطان يطلب نجدة، فأخرج إليه السّلطان من دمشق بعسكر هائل من الأمراء و المماليک السلطانيّة، و رأس الأمراء الأمير تمراز النّاصريّ- الذى قدم على السّلطان طائعا بدمشق- و يشبک الموساويّ الأفقم، و ألطنبغا العثمانىّ، و أسنبغا الزّرد كاش و سودون الظّريف نائب الكرک- كان- و الأمير طوغان الحسنىّ رأس نوبة النّوب، فخرجوا من دمشق مجدّين فى السّير إلى قاقون – و بها الأمير بكتمر جلّق- فساروا جميعا إلى غزّة، فقدموها فى عصر يوم الثلاثاء من ثالث شهر رمضان، و قد رحل شيخ و نوروز بمن معهما بكرة النهار عند ما قدم عليهم سودون بقجة و شاهين الدّوادار من الرّملة، و أخبراهم بقدوم عسكر السلطان إليهم، فنهبوا غزّة و أخذوا منها خيولا كثيرة و غلالا، فتبعهم الأمير خير بک نائب غزّة إلى الزّعقة، و سارت كشّافته فى أثرهم إلى العريش، ثمّ عادوا إلى غزّة.

فلمّا وصل بكتمر جلّق بمن معه من الأمراء إلى غزّة، و بلغه توجّه شيخ و نوروز إلى جهة مصر، أرسل بكتمر الأمير شاهين الزّردكاش و الأمير أسنبغا الزّردكاش على البرّية إلى مصر ليخبرا من بقلعة الجبل بقدوم شيخ و نوروز إلى مصر، فسارا و سبقا شيخا و نوروزا، و عرّفا الأمير أرغون الأمير آخور

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج١٣، ص: ١٠٩

و غيره ممن هو من الأمراء بمصر، و ردّ جواب أرغون على بكتمر بأنه حصّن قلعة الجبل، و الإسطبل السلطانىّ، و مدرسة السلطان حسن، و مدرسة الملک الأشرف شعبان بن حسين- التى كانت تجاه الطبلخاناة عند الصّوة – و أنه هو و من معه قد استعدّوا للقاء شيخ و نوروز.

و أمّا شيخ و نوروز و من معهم فإنهم ساروا من مدينة غزّة إلى جهة الدّيار المصرية، فمات بالعريش شاهين دوادار الأمير شيخ- و كان عضد الأمير شيخ و أعظم مماليكه- ثمّ ساروا إلى قطيا و نهبوها، ثم ساروا من قطيا إلى أن وصلوا إلى مصر فى يوم الأحد ثامن شهر رمضان من سنة ثلاث عشرة و ثمانمائة المذكورة، و دخل شيخ و نوروز بمن معهما من أمراء الألوف، و هم:

الأمير يشبک بن أزدمر، و الأمير سودون بقجة، و الأمير سودون المحمّدى تلّى، و الأمير يشبک العثمانىّ، و غيرهم من أمراء الطّبلخانات مثل قمش و قوزى و غيرهما، و دخل معهم إلى القاهرة خلائق من الزّعر، و بنى وائل- من عرب الشّرقية- و الأمير سعيد الكاشف- و هو معزول- فبلغهم تحصين القلعة و المدرستين، و أنّ الأمير أرغون و من معه من الأمراء قبضوا على أربعين مملوكا من النّوروزيّة- أعنى ممن كان له ميل إلى نوروز من المماليک السلطانيّة- و سجنوهم بالبرج من قلعة الجبل خوفا من غدرهم، فساروا من جهة المطريّة خارج القاهرة إلى بولاق، و مضوا

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج١٣، ص: ١١٠

إلى الميدان الكبير إلى الصّليبة، و خرجوا إلى الرّميلة تحت قلعة الجبل، فرماهم المماليک السلطانية بالمدافع و النّشّاب، و برز لهم الأمير إينال الصصلانىّ الحاجب الثانى بمن معه، و وقف تجاه باب السّلسلة، و قاتل الشيخية و النّوروزية ساعة، فتقنطر من القوم فارسان، ثمّ انهزم إينال الصّصلانىّ و عاد إلى بيته تجاه سبيل المؤمنىّ – المعروف ببيت نوروز- و بات الأمراء تلک الليلة بالقاهرة، و أصبح الأمير شيخ أقام رجلا فى ولاية القاهرة فنادى بالأمان، و وعد الناس بترخيص الأسعار، و بإزالة المظالم، فمال إليه جمع من العامّة، و أقاموا ذلک اليوم، و ملكوا مدرسة الملک الأشرف شعبان التى كانت بالصوّة تجاه الطّبلخاناة السلطانية، هذا و القتال مستمر بينهم و بين أهل القلعة، ثمّ ملک الأمراء مدرسة السلطان حسن، و هزموا من كان فيها من المقاتلة، بعد قتال شديد، و أقاموا بها جماعة رماة من أصحابهم، و رموا على قلعة الجبل يومهم و ليلتهم، و طلع الأمير أرغون من بشبغا- الأمير آخور- من الإسطبل السّلطانىّ إلى أعلا القلعة عند الأمير جرباش و كمشبغا الجمالى، فأدخلاه القلعة بمفرده من غير أصحابه.

فلمّا كانت ليلة الاثنين، كسرت خوخة أيدغمش، و دخلت طائفة من الشاميّين إلى القاهرة، و معهم طوائف من العامة؛ ففتحوا باب

زويلـة، و كان والى القاهرة حسام الـدين الأحول، و قد اجتهد فى تحصـين المدينة، ثمّ كسـروا باب خزانة شـمائل، و أخرجوا من كان بها، و كسروا سجن

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۱۱

الـدّيلم أيضـا، و سـجن رحبـة بـاب العيـد، و انتشـروا فى حـارات القـاهرة، و نهبوا بيت كمشـبغا الجمالىّ، و تتبّعوا الخيول و البغال من الإسـطبلات و غيرها، و أخـذوا منها شـيئا كثيرا، ثمّ فتحوا حاصل الديوان المفرد ببين القصـرين و أخذوا منه مالا كثيرا، ثمّ ملك شـيخ باب السلسـلة، و جلس بالحرّاقة هو و رفقته، ثمّ طلبوا من الأمراء الذين بالقلعة فتح القلعة لهم فى بكرة يوم الثلاثاء، فاعتذر الأمراء لهم بأنّ المفاتيح عند الزّمام كافور، فاسـتدعوه فأتاهم، و كلّمهم من وراء الباب، فسلموا عليه من عند الأمير شيخ و من عند أنفسهم، و كان الأـمير نوروز من جملـة من كـان واقفـا على الباب، و سألوه الفتـح لهم، فقال: ما يمكن ذلك؛ فإنّ حريم السّـلطان بالقلعـة، فقالوا مالنا غرض فى النهب و إنما نريد أن نأخذ ابن أسـتاذنا، يعنون بابن أسـتاذنا: الامير فرج ابن السّـلطان الملك الناصر فرج، و كان هذا الصبىّ سمى على اسم أبيه- و هو أكبر أولاـد الملك الناصـر- فقال كافور الزّمام: و أيش صاب السّـلطان حتى تأخـذوا ولـده؟ فقالوا: لو كان السّلطان حيّا ما كنّا هاهنا- يعنون أنهم

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۱۲

قتلوا السـلطان، و ساروا إلى الديار المصـرية لبسلطنوا ولده- فلم يمش ذلك على كافور و لا على غيره، و طال الكلام بينهم فى ذلك، فلم يلتفت كافور إلى كلامهم، فهدّدوه بإحراق الباب، فخاف و قال: إن كنتم ما تريدون إلا ابن أسـتاذكم فليحضـر إلى باب السرّ اثنان منكم أو ثلاثـة، و تحضـر القضاة، ثمّ احلفوا أنكم لا تغدرون به و لا تمسّونه بسوء، و كان كافور يقصد بذلك التطويل، فإنه كان بلغه هو و الأمراء الـذين بالقلعـة قرب مجىء العسـكر السـلطانىّ إلى القاهرة، فبعثوا لهم البطاقـة من القلعـة باسـتعجالهم، و أنهم فى أقوى ما يكون من الحصار، و متى لم يـدركوا أخذوا، و أخذ كافور فى مدافعة الجماعة و التمويه عليهم- قلت: و على كل حال فهو أرجل من أرغون الأمير آخور، فإنّ أرغون مع كثرة من كان عنده من المماليك السـلطانية و مماليكه لم يقدر على منع باب السّلسـلة، و تركها و فرّ فى أقلّ من يومين، و كان يمكنه مدافعة القوم أشهرا- انتهى.

و بينما [كافور] الزّمام فى مدافعتهم لاحت طلائع العسكر السلطانىّ لمن كان شيخ أوقفه من أصحابه يرقبهم بالمآذن بقلعة الجبل، و قد ارتفع العجاج، و اقبلوا سائقين سوقا عظيما جهدهم، فلما بلغ شـيخا و أصـحابه ذلك لم يثبتوا ساعة واحدة، و ركبوا من فورهم و وقفوا قريبا من باب السّلسـلة، فدهمهم العسكر السّلطانىّ فولوا هاربين نحو باب القرافة و العسكر فى أثرهم، فكبا بالأمير شيخ فرسه عند سوق الخيم بالقرب من باب

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۱۳

القرافـة، فتقنطر من عليه، فلم يسـتطع النهوض ثانيا؛ لعظم روعه و سـرعة حركته، فـأركبه بعض أمراء آخوريته- يقـال إنه الأـمير جلبّان الأمير آخور، الـذى كان ولى نيابـة الشام فى دولـة الملك الظاهر جقمق إلى أن مات فى دولـة الملك الاشـرف إينال فى سـنة ثمان و خمسـين و ثمانمائة- و ركـب شـيخ و لحق بأصـحابه، فمرّوا على وجوههم على جرائد الخيل، و تركوا ما أخذوه من القاهرة، و أيضا ما كان معهم، و ساروا على أقبح وجه بعد أن قبض عسـكر السّـلطان على جماعة من أصحاب شيخ، مثل الأمير قرايشبك- قريب نوروز- و بردبـك رأس نوبـة نوروز؛ لأـنّ نوروزا ثبت قليلا بالرّميلـة بعـد فرار الأمير شـيخ، و على برسـباى الطّقطائىّ أمير جانـدار، و ثمانيـة و عشـرين فارسا، و جرح جماعة كبيرة، منهم السـيفىّ يشـبك السّاقىّ الظاهرىّ- الذى ولّى فى الدولة الأشرفية [برسباى] الأتابكيـة- و من هذا الجرح صار أعرج بعد أن أشرف على الموت.

و دخـل الأمير بكتمر جلّق بعساكره، و أرسل الامير سودون الحمصـىّ فاعتقل جميع من أمسك من الشّاميين، و أخـذ يتتبّع من بقى من الشّاميـة بالقـاهرة، ثمّ نـادى فى الوقت بالأمـان، ثمّ أخـذت عساكره يقتلون فى الشاميّين، و يأسـرون و ينهبون إلى طمّوه، و ألزم بكتمر

جلّق والى القاهرة بمسك الزّعر الـذين قاموا مع الشّاميين، فأبادهم الوالى، و قطع أيدى جماعة كبيرة، و حبس جماعة أخر بعد ضـربهم بالمقارع، و أخـذ الامير بكتمر جلّق فى تمهيـد أحوال الديار المصـرية، و قدم عليه الخبر فى ليلة الأربعاء حادى عشـر من شـهر رمضان المذكور بأنّ شيخا

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۱۴

نزل إطفيـح، و أنّ شـعبان بن محمـد بن عيسـى العائـذىّ تـوجه بهم إلى نحـو الطور، فنودى بالقـاهرة و مصـر بتحصـيل من اختفى من الشاميين بها، ثمّ قدم الخبر بوصولهم إلى السّويس، و أنهم أخذوا علفا كان هناك للتجّار، و زادا و جمالا، و سار بهم شعبان بن عيسى فى درب الحاج إلى نخل، فأخذوا عدّة جمال للعربان، و أن شـعبان المذكور أمدّهم بالشـعير و الزّاد، و أنهم افترقوا فرقتين، فرقة رأسها الأمير نوروز الحافظىّ و يشـبك بن أزدمر و سودون بقجـة، و فرقـة رأسـها الأمير شـيخ المحموديّ و سودون تلّى المحمدىّ و سودون قراصـقل، و كـلّ فرقـة منهما معها طائفـة كبيرة من الأمراء و المماليك، و أنهم لما وصـلوا إلى الشّوبك دفعهم أهلها عنها، فساروا إلى جهـة الكرک و بها سودون الجلب، فتضـرعوا له حتّى نزل إليهم من قلعـة الكرک، و تلقّاهم و ادخلهم مدينة الكرک، و أنهم اسـتقرّوا بالكرک.

و أما الأمير بكتمر جلّق بمن معه من الأمراء و العساكر السّـلطانية، فإنهم أقاموا بالقاهرة نحو ستّة أيّام حتّى تحقّقوا توجّه القوم إلى جهة البلاـد الشّاميـة، فخرجوا من القاهرة فى يوم سادس عشـر من رمضان يريـدون البلاد الشّاميّة إلى الملك الناصـر و هو بـدمشق، و تأخّر بالقاهرة من الأمراء من

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۱۵

أصـحاب بكتمر جلق: طوغان الحسنىّ رأس نوبة النّوب- و قد استقرّ قبل تاريخه دوادارا كبيرا بعد موت الأمير قراجا بطريق دمشق، فى ذهاب الملك النّاصـر إلى الشّام- و يشـبك الموساوىّ الأفقم، و شاهين الزّرد كاش و أسـنبغا الزّرد كاش، و سار بكتمر جلّق بمن بقى حتى وصل دمشق.

و أما السّـلطان الملك النّاصـر، فإنه كان فى هذه الأيام بدمشق، و بلغه ما وقع بالدّيار المصـرية مفصـلا، لكن نقل إليه أنّ بكتمر جلّق و طوغان الحسـنىّ قصّـرا فى أخـذ شـيخ و نوروز، و لو قصـدا أخذهما لأمكنهم ذلك، فأسـرّها الملك الناصـر فى نفسه، قلت: و لا يبعد ذلك؛ لما حكى لى غير واحـد- ممّن حضـر هذه الواقعة- من ضـعف شـيخ و نوروز، و تقاعد الأمراء عن المسـير فى أثرهم. و لمّا بلغ الملك الناصر ذلك لم يسعه إلّا السكات، و عدم معاتبة الأمراء على ذلك.

ثمّ إنّ السّـلطان أمسك الأمير جانبک القرمىّ بـدمشق فى يوم الاثنين أوّل شوّال، و ضـربه ضـربا مبرّحا، و سـجنه بقلعـة دمشق، ثمّ أمر السّـلطان الأـمير قرقمـاس ابن أخى دمرداش- المعروف بسيّدى الكبير- بالمضـىّ إلى محـلّ كفالته بحلب، فسار من دمشق عائـدا إلى حلب، و اسـتمرّ السّـلطان بـدمشق إلى يوم سـابع عشـر ذى القعـدة، و خرج منها إلى قبّـة يلبغا، و رحل من الغـد بأمرائه و عساكره يريد الكرک بعد ما تحقّق نزول الأمراء بالكرک، و خلع على بكتمر جلّق بنيابة الشام على عادته، و عاد بكتمر إلى دمشق.

و أمـا شـيخ و نوروز و جماعتهمـا، فإنهم أقاموا بالكرک أياما، و اطمأنّوا بها، ثمّ أخـذوا فى تحصـينها، فلما كان بعض الأيام نزل الأمير شيـخ و معه الأـمير سودون بقجـة، و قـانى بـاى المحمّـدىّ فى طائفـة يسيرة من قلعـة الكرک إلى حمّام الكرک، فـدخل جميع هؤلاء الحمام، و بلغ ذلک الأمير شهاب الدين أحمد حاجب الكرک، فبادر بأصحابه و معه جمع كبير من أهل

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۱۶

البلد، و اقتحموا الحمام المذكورة ليقتلوا بها الأمير شـيخا و أصـحابه، فسـبقهم بعض المماليك و أعلم الأمير شيخا، فخرج من وقته من الحمام و لبس ثيابه و وقف فى مسلخ الحمام عند الباب، و معه أصحابه الذين كانوا معه فى الحمام، فطرقهم القوم بالسلاح، فدافع كلّ واحـد منهم عن نفسه، و قـاتلوا قتـال الموت، حتى أدركهم الأـمير نوروز بجمـاعته، فقـاتلوهم حتى هزموهم بعـد ما قتل الأمير سودون

بقجة، و أصاب الأمير شيخا سهم غار فى بدنه، فنزف منه دم كثير حتى أشرف على الموت، و حمل إلى قلعة الكرك فأقام ثلاثة أيام لا يعقل، ثمّ أفاق، و من هذه الرّجفة حصل له مرض المفاصل الذى تكسّح منه بعد سلطنته، هكذا ذكر المؤيد لبعض أصحابه.

و أمّا الأمير نوروز لمّا بلغه قتل سودون بقجة و هو يعارك القوم جدّ فى قتالهم حتى كسرهم، و قتل منهم مقتلة عظيمة، ثمّ عاد إلى الكرك و قد جرح من أصحابه جماعة، و بلغ هذا الخبر السلطان الملك النّاصر فسرّ بقتل سودون بقجة سرورا عظيما؛ لكثرة ما كان أحسن إليه و رقّاه حتى ولّاه نيابة طرابلس، فتركه و توجّه إلى الأمير شيخ و نوروز من غير أمر أوجب تسحبّه، بل لأجل خاطر أغاته و حميّه الأمير تمراز النائب.

ثمّ وقع بين الأمراء و بين سودون الجلب بالكرك، فنزل سودون الجلب من الكرك و تركها لهم، و مضى حتى عدّى الفرات.

و أما السّلطان الملك النّاصر، فإنه سار من مدينة دمشق حتى نزل على مدينة الكرك فى يوم الجمعة رابع عشرين ذى القعدة، و أحاط بها و نصب عليها الآلات، و جدّ فى قتالها، و حصرها و بها شيخ و نوروز و أصحابهما، و اشتدّ الحصار عليهم بالكرك، و أخذ الملك النّاصر يلازم قتالهم حتى أشرفوا على الهلاك و التّسليم، ثمّ أخذ شيخ و نوروز و الأمراء يكاتبون

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۱۷

الوالد و يتضرّعون إليه، و هو يتبرّم من أمرهم و الكلام فى حقهم، و يوبخهم بما فعله الأمير شيخ مع بكتمر جلّق بعد حلفه فى واقعة صرخد، فأخذ شيخ يعتذر و يحلف بالأيمان المغلظة أن بكتمر جلّق كان الباغى عليه و البادئ بالشرّ، و أنه هو دفع عن نفسه لا غير، و أنّه ما قصده فى الدّنيا سوى طاعة السّلطان، و أنت الأمير الكبير، و أكبر خشدا شيتنا، إن لم تتكلم بيننا فى الصلح فمن يتكلم؟ ثمّ كاتبوا أيضا جماعة من الأمراء فى طلب العفو و الصّلح، و لا زالوا حتى تكلم الوالد مع السّلطان فى أمرهم، فأبى السّلطان إلّا قتالهم و أخذهم، و الوالد يمعن فى ذلک حتى ابترم الصّلح غير مرّة و السلطان يرجع عن ذلک.

ثمّ تردّدت الرسل بينهم و بين السّلطان أياما حتى انعقد الصلح، على أن يكون الوالد نائب الشام، و أن يكون الأمير شيخ نائب حلب، و أن يكون الأمير نوروز نائب طرابلس، و كان ذلک بإرادة شيخ و نوروز؛ فإنهما قالا: لا نرضى أن يكون بكتمر جلّق أعلى منا رتبة بأن يكون نائب الشّام- و نحن أقدم منه عند السّلطان- فإن كان و لا بدّ، فيكون الأمير الكبير تغرى بردى فى نيابة الشّام، و نكون نحن تحت أوامره، و نسير فى المهمّات السّلطانية تحت سنجقه، و أمّا بكتمر و دمرداش فلا، و إن فعل السّلطان ذلک لا يقع منّا بعدها مخالفة أبدا.

و لمّا بلغ الأمراء و العساكر هذا القول أعجبهم غاية الإعجاب، و قد ضجر القوم من الحصار، و ملّوا من القتال، فلا زالوا بالسلطان حتى أذعن و مال إلى توليه الوالد نيابة الشّام، و كلّم الوالد فى ذلک، فأبى و امتنع غاية الامتناع، و كان السّلطان قد شرط على الأمراء شروطا كثيرة فقبلوها- على أن يكون الوالد نائب دمشق- و أخذ الملک الناصر يكلم الوالد فى ذلک

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۱۸

و الوالد مصمم على عدم القبول، و أرمى سيفه غير مرّة بحضرة السّلطان، و أراد التوجّه إلى القدس بطّالا.

و صار الوالد كلّما امتنع من الاستقرار و حنق يكفّ عنه السلطان، فإذا رضى كلّمه، ثمّ سلط عليه الأمراء فكلّموه من كلّ جهة [حتى قبل]، ثمّ قام إليه السّلطان و اعتنقه، و طلب الخلعة فجىء بها فى الحال، و ألبسها للوالد باستقراره فى نيابة دمشق عوضا عن بكتمر جلّق، و استقرّ الأمير شيخ فى نيابة حلب عوضا عن قرقماس سيّدى الكبير، و الأمير نوروز فى نيابة طرابلس عوضا عن جانم من حسن شاه، و استقرّ جانم المذكور أمير مجلس بإمرة مائة و تقدمة ألف بالدّيار المصرية، و استقرّ تغرى بردى سيّدى الصّغير فى نيابة حماة على عادته، و رسم للأمير سودون من عبد الرحمن نائب صفد أن ينتقل من نيابة صفد إلى تقدمة ألف بالدّيار المصرية، و أن يكون الأمير يشبك بن أزدمر أتابک دمشق عند الوالد، فإنه كان من ألزامه، و عقد عقده بعد ذلک على إحدى بناته- و لها من العمر نحو ثلاث سنين- و يكون قانى باى المحمّدى أميرا بحلب عند الأمير شيخ، ثمّ شرط السّلطان على شيخ و نوروز ألا يخرجا إقطاعا، و لا

إمرة، و لا وظيفة لأحد من النّاس إلا بمرسوم السّلطان، و أن يسلّما قلعة الكرك إلى السلطان، و يسلّم شيخ قلعد صهيون و صرخد أيضا، فرضوا بذلک جميعه، و حلفوا على طاعة السّلطان، و خلع السلطان عليهم خلعا جليلة، و مدّ لهم سماطا أكلوا منه.

ثمّ رحل السّلطان من الكرک بعساكره يريد القدس، فوصله و أقام به خمسة أيّام، ثمّ خرج منه و سار يريد القاهرة.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۱۹

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۱۴]

و أمّا الوالد فإنه سار من الكرک إلى نحو دمشق حتى دخلها فى يوم سادس المحرّم من سنة أربع عشرة و ثمانمائة، و نزل بدار السّعادة و قد خمدت الفتنة، و سكن هرج النّاس، ثمّ خرج الأمير شيخ و الأمير نوروز من الكرک إلى محلّ كفالتهما، و قدما إلى دمشق بمن معهما من الأمراء و المماليک لعمل مصالحهما بدمشق، فلمّا بلغ الوالد قدومهما خرج لتلقّيهما بقماش جلوسه فى خواصّه لا غير، فلمّا وقع بصرهما على الوالد نزلا عن خيولهما، فأقسم عليهما الوالد فى عدم النزول، فنزلوا قبل أن يسمعوا القسم، فعند ذلک نزل لهم الوالد أيضا عن فرسه و سلّموا عليه، فحلف عليهم الوالد بالنزول فى دار. السّعادة، فامتنعوا من ذلک، فأنزلهم بالمزّة، ثمّ ركب إليهم الوالد و أخذهم من وطاقهم غصبا.

و أنزل الأمير شيخا بالقرمانيّة، و نوروزا بدار الأمير فرج بن منجک، و نزل كلّ واحد من أصحابهما بمكان حتى عملت مصالحهم، و كثر ترددهم إلى الوالد بدار السّعادد فى تلک الأيام؛ فسرّ أهل الشّام بذلک غاية السّرور، و صار الأمير شيخ يتنزّه بدمشق، و يتوجّه إلى الأماكن و معه قليل من مماليكه. حدّثنى بعض مماليک الوالد: أن الأمير شيخا كان يجىء فى تلک المدّة إلى الوالد فى دار السعادة و معه شخص واحد من مماليكه، و ينزل و يقيل بالبحرة، و ينام بها نومة كبيرة إلى أن يطبخ له ما اقترحه من المآكل.

ثمّ خرج الأمير شيخ و الأمير نوروز كلّ منهما إلى محلّ كفالته

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۲۰

بعد أن أنعم الوالد فى يوم سفرهما على كلّ واحد بألف دينار، و قيّد له فرسا بسرج ذهب و كنبوش زركش، و أشياء غير ذلک كثيرة.

و أمّا أمر السّلطان الملک النّاصر، فإنّه سار من القدس حتّى نزل بتربة والده بالصّحراء خارج القاهرة فى يوم الأربعاء ثانى عشر المحرّم من سنة أربع عشرة و ثمانمائة، و خلع على الخليفة المستعين بالله العبّاس، و على القضاة و الأمراء، و سائر أرباب الدّولة، و خلع على الأمير دمرداش المحمدىّ باستقراره أتابک العساكر بالدّيار المصرية، عوضا عن الوالد؛ بحكم انتقاله إلى نيابة دمشق حسبما تقدّم ذكره، ثمّ ركب السّلطان من التربة المذكورة و طلع إلى القلعة بعد ما خرج الناس للفرجة عليه، فكان لطلوعه يوما مشهودا، و زيّنت القاهرة أياما لقدومه، ثمّ بعد قدوم السّلطان باثنى عشر يوما قدم الأمير بكتمر جلّق المعزول عن نيابة دمشق، فركب السّلطان و تلقّاه و ألبسه تشريفا، و خلع على الأمير الكبير دمرداش بنظر البيمارستان المنصورىّ، و دخل السّلطان من باب النصر و شقّ القاهرة، و نزل بمدرسته التى أنشأها جمال الدين الأستادار له برحبة باب العيد المعروفة بالجمالية، و قد أثبت القضاة أنها له و سمّيت بالنّاصرية، ثمّ ركب السّلطان من المدرسة المذكورة، و نزل بمدرسة والده المعروفة بالبرقوقيّة ببين القصرين، ثمّ ركب منها و أمر الأتابک دمرداش بعبور البيمارستان المنصورىّ، و توجّه السّلطان إلى جهة القلعة.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۲۱

ثمّ فى ثانى عشر صفر من سنة أربع عشرة و ثمانمائة عيّن السّلطان اثنين و عشرين أميرا من الأمراء البطّالين ليتوجّهوا إلى الشّام على إقطاعات عيّنها السّلطان لهم، منهم: الأمير حزمان الحسنى، و تمان تمر النّاصرىّ، و سونجبغا، و شادى خجا، و ألطنبغا، و قانى باى الأشقر، و معهم مائتا مملوک؛ ليكونوا أعوانا للوالد بدمشق، و فى خدمته، و كان الوالد شفع فى هؤلاء المذكورين حتى أطلقهم السلطان- على عادتهم- من السجن، ثم أمر السّلطان بقتل جانبک القرمىّ، و أسندمر الحاجب، و سودون البجاسىّ، و قانى باى أخى

بلاط، و الجميع كانوا بسجن الإسكندرية.

ثمّ في حادى عشرين صفر خلع السلطان على تقىّ الدين عبد الوهّاب ابن الوزير فخر الدين ماجد بن أبى شاكر باستقراره فى وظيفة نظر الخاصّ- و كانت شاغرة منذ توفّى مجد الدين عبد الغنى بن الهيصم فى ليلة الأربعاء العشرين من شعبان من سنة ثلاث عشرة و ثمانمائة- ثمّ أمسک السّلطان بثلاثة أمراء من أمراء الألوف، و هم: قانى باى المحمّدى، و يشبک الموساوى الأفقم، و كمشبغا الفيسىّ، و قبض على جماعة أخر من الطبلخانات و العشرات، و هم: الأمير منجک، و الأمير قانى باى الصّغير العمرى ابن بنت أخت الملک الظاهر برقوق- وقانى باى هذا جد خوند بنت جرباش الكريمىّ و زوجة السلطان الملک الظاهر جقمق لأمّها- و كان أمير عشرة، و على الأمير شاهين، و خير بک، و مأمور، و خشكلدى، و حملوا الجميع إلى سجن الإسكندريّة فسجنوا بها.

ثمّ رسم السّلطان للأمير تمراز الناصرىّ أن يكون طرخانا لا يمشى

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۲۲

فى الخدمة، و يقيم بداره أو يتوجّه إلى دمياط، و تمراز هذا هو الذى كان فرّ من السّلطان و صحبته الأمراء من بيسان إلى الأمير شيخ.

ثمّ خلع السّلطان على الأمير سنقر الرّومىّ باستقراره رأس نوبة النوب عوضا عن قانى باى المحمّدىّ المقبوض عليه قبل تاريخه.

ثمّ أرسل الوالد إلى السّلطان يعلمه برفع الطّاعون من دمشق و غيرها، و أنّه أحصى من مات من أهل دمشق فقط فكانوا خمسين ألفا سوى من لم يعرف.

و فى أوّل شهر ربيع الأوّل، قدم الأمير إينال المحمّدىّ السّاقىّ المعروف بضضع من سجن الإسكندريّة- بطلب من السّلطان- و رسم له أن يكون بطّالا بالقاهرة.

ثمّ أخرج السّلطان إقطاع الأمير جرباش كباشة، و رسم له بأن يتوجّه إلى دمياط بطّالا.

ثمّ بعده توجّه تمراز الناصرىّ المقدّم ذكره إلى دمياط أيضا بطّالا.

ثمّ قبض السّلطان على جماعة من كبار المماليک الظاهريّة- برقوق- و حبسهم بالبرج من القلعة.

ثمّ قدم الخبر على السّلطان بأنّ شيخا و نوروزا لم يمضيا حكم المناشير السّلطانيّة، و أنّهما أخرجا إقطاعات حلب و طرابلس لجماعتهما، و أنّ الأمير شيخا سيّر يشبک العثمانىّ لمحاصرة قلعة ألبيرة و قلعة الرّوم، و أنّ عزمهما العود لما كانا عليه من الخروج عن الطّاعة.

فعلم السّلطان عند ذلک أنّ الذى يحرّک هؤلاء على الخروج عن الطّاعة و العصيان إنّما هم المماليک الظّاهريّة الذين هم فى خدمة السّلطان، و وافقه على ذلک أكابر أمرائه، و حسّنوا له القبض عليهم، و كان الوالد ينهاه عن مسكهم، و يحذّره من الوقوع فى ذلک، فلمّا استقرّ الوالد فى نيابة دمشق خلا له الجوّ، و فعل ما حدّثته نفسه ممّا كان فيه ذهاب روحه، فقبض الملک النّاصر على

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۲۳

جماعة كبيرة منهم، و حبسهم بالبرج من القلعة، ثمّ قتلهم بعد شهر، و كانوا جمعا كبيرا.

ثمّ أمسک السّلطان الأمير خير بک نائب غزّة، و هو يومئذ من أمراء الألوف بالدّيار المصريّة.

ثمّ ورد الخبر على السّلطان بحصار عسكر نوروز لحصن الأكراد، فاختبط السّلطان و كتب إلى شيخ و نوروز بالتّهديد و الوعيد.

ثمّ فى أوّل شهر ربيع الآخر خلع السّلطان على الأمير أسنبغا الزّردكاش- أحد أمراء الألوف و زوج أخته خوند بيرم بنت الملک الظّاهر برقوق- باستقراره شاد الشّراب خاناة عوضا عن الأمير سودون الأشقر.

ثمّ فى ثالث عشره خلع السّلطان على فخر الدين عبد الغنىّ بن أبى الفرج كاشف الوجه البحرىّ باستقراره أستادارا عوضا عن تاج الدين عبد الرزّاق بن الهيصم؛ بحكم القبض عليه، و تسليمه و حواشيه إلى فخر الدين المذكور.

ثمّ فى أوّل جمادى الأولى رسم السّلطان بهدم مدرسة الملک الأشرف شعبان ابن حسين، التى كانت بالصّوّة تجاه الطبلخاناة السّلطانيّة،

و مکانها الیوم بیمارستان الملک المؤیّد شیخ، فوقع الهدم فیها، و کانت من محاسن الدّنیا، ضاهی بها الملک الأشرف مدرسة عمّه السّلطان الملک الناصر حسن التی بالرّمیلة تجاه قلعة الجبل.

ثمّ رسم السّلطان بهدم البیوت التی هی ملاصقة للمیدان من مصلّاة المؤمنیّ إلی باب القرافة، فهدمت بأجمعها و صارت خرابا.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۲۴

ثمّ أمر السّلطان بالقبض علی أقارب جمال الدین یوسف الأستادار و عقوبتهم، فأمسکوا و عوقبوا عقوبات کثیرة.

ثمّ خنق أحمد أبنه، و أحمد ابن أخته، و حمزة أخاه فی لیلة الأحد سادس عشر جمادی الأولی.

ثمّ کتب السّلطان ثانیا إلی الأمیر شیخ یخوّفه و یحذّره، و یأمره أن یجهّز إلیه الأمیر یشبک العثمانیّ، و بردبک، وقانی بای الخازندار، و یرسل سودون الجلب إلی دمشق؛ لیکون من جملة أمرائها.

ثمّ بعد إرسال الکتاب تواترت الأخبار باتّفاق شیخ و نوروز علی الخروج عن الطّاعة، و عزما علی أخذ حماة، فوقع الشّروع و الاهتمام لسفر السّلطان إلی البلاد الشّامیة، و کتب إلیها بتجهیز الإقامات.

ثمّ تکلّم الأستادار فخر الدین بن أبی الفرج مع السّلطان و حسّن له القبض علی الوزیر ابن البشیریّ، و علی ناظر الخاصّ ابن أبی شاکر، فلمّا بلغهما ذلک بادرا و اتّفقا مع السّلطان علی مال یقومان به للسّلطان إن قبض علی فخر الدین ابن أبی الفرج المذکور، فمال السّلطان إلی کلامهما و أمسک فخر الدین المذکور فی سلخ جمادی الآخرة، و سلّمه للوزیر ابن البشیریّ، فلم یدع ابن البشیریّ نوعا من العقوبات حتی عاقب ابن أبی الفرج المذکور بها، فلم یعترف بشیء غیر أنّه وجد له ستّة آلاف دینار، و جرار کثیرة قد ملئت خمرا، و استمرّ ابن أبی الفرج فی العقوبة أیّاما کثیرة.

ثمّ فی شهر رجب نزل السّلطان من القلعة إلی الصیّد، فبات لیلة و عزم علی مبیت لیلة أخری بسریاقوس، فبلغه أنّ طائفة من الأمراء و الممالیک اتّفقوا

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۲۵

علی قتله، فعاد إلی القاهرة مسرعا، و أخذ یتتبّع ما قیل حتّی ظفر بمملوکین عندهما الخبر؛ فعاقبهما فی ثامن عشر شهر رجب المذکور، فأظهرا ورقة فیها خطوط جماعة کبیرة، کبیرهم الأمیر جانم من حسن شاه نائب طرابلس- کان- و هو یوم ذاک أمیر مجلس.

و کان جانم المذکور قد سافر قبل تاریخه إلی منیة ابن سلسیل، و هی من جملة إقطاعه، فندب السّلطان الأمیر بکتمر جلّق، و الأمیر طوغان الحسنیّ الدّوادار؛ لإحضار جانم المذکور، و خرجا فی یوم السّبت عشرین شهر رجب، علی أنّ بکتمر جلّق یسیر فی البرّ و یمسک علیه الطّریق، و طوغان یتوجّه إلیه فی البحر، و یمسکه و یحضره إلی السّلطان، فساروا.

و مسک السّلطان بعد خروجهما جماعة کبیرة من الأمراء و الممالیک الظّاهریّة، منهم: الأمیر عاقل، و الأمیر سودون الأبویزیدیّ.

و أمّا طوغان الدّوادار فإنّه سار فی البحر حتی وافی الأمیر جانم، و اقتتلا فی البرّ، ثمّ فی المراکب حتی تعیّن طوغان علی جانم، فألقی جانم نفسه فی الماء لینجو فرماه أصحاب طوغان بالنّشّاب حتی هلک، و أخذ و قطع رأسه فی ثانی عشرینه، و قدم طوغان علی السّلطان فی رابع عشرینه.

و کان السّلطان قد مسک فی یوم ثانی عشرینه فی القاهرة الأمیر إینال الصّصلانیّ الحاجب، و الأمیر أرغز، و الأمیر سودون الظّریف، و جماعة من الممالیک الظّاهریّة.

ثمّ قبض السّلطان فی یوم ثالث عشرینه أیضا علی الأمیر سودون الأسندمریّ أحد أمراء الألوف و أمیر آخور ثانی، و علی الأمیر جرباش العمریّ رأس نوبة، و أحد أمراء الألوف أیضا.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۲۶

ثمّ فی خامس عشرینه قبض السّلطان علی جماعة من أکابر الممالیک الظاهریّة، و وسّط منهم خمسة؛ فنفرت القلوب منه، و وجد شیخ

و نوروز للوثوب عليه سبيلا لكمين كان فى نفسهما منه.

ثمّ خلع السّلطان على منكلى أستادار الخليلىّ باستقراره أستادارا عوضا عن فخر الدين بن أبى الفرج.

ثمّ كتب السّلطان للوالد بالقبض على الأمير يشبك بن أزدمر أتابك دمشق، و على إينال الخازندار، و على بردبک الخازندار، و على بردبک أخى طولو، و على سودون من إخوة الأتابک يشبک، و على تنبک من إخوة يشبک أيضا، و الفحص عن نكباى الحاجب؛ فإن وجده من جملة المنافقين فليقبض عليه، و يعتقلهم، و سار البريد للوالد بذلك، و بعد خروج البريد بذلك، ذبح السلطان فى ليلة الأربعاء- مستهل شعبان- عشرين مملوكا ممّن قبض عليهم.

ثمّ وسّط من الأمراء فى يوم الأربعاء ثامنه عشرة أخر تحت القلعة، منهم:

الأمير حزمان نائب القدس، و الأمير عاقل، و أرغز أحد أمراء الألوف بدمشق، و الأمير سودون الظّريف، و الأمير مغلباى، و الأمير محمّد بن قجماس.

و فى ليلة الأربعاء المذكورة قتل السّلطان أيضا بالقلعة من المماليك الظّاهريّة زيادة على مائة مملوک من الجراكسة من مماليک أبيه.

ثمّ ركب سحر يوم الخميس إلى الصّيد بناحية بهتيت - من ضواحى القاهرة- و أمر والى القاهرة أن يقتل عشرة من المماليك الظّاهريّة لتخلّفهم عن الرّكوب معه، فقتلوا.

و عاد السّلطان من الصّيد بثياب جلوسه، و شقّ القاهرة و هو سكران لا يكاد

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۲۷

يثبت على فرسه من شدّة سكره، و مرّ فى أقلّ من مائة فارس، و سار على ذلک حتى طلع القلعة نصف النّهار.

و فى شعبان هذا، ابتدأ بالوالد مرض موته، و لزم الفراش بدار السّعادة، و قد لهجت الناس أنّ الملک النّاصر قد اغتاله بالسّمّ؛ فإن كان ما قيل حقيقة فقد التقيا بين يدى حاكم لا يحتاج إلى بيّنة، و سبب ذلک- على ما قيل- عدم مسک الوالد للأمير شيخ و نوروز لمّا دخلا عليه بدار السّعادة بدمشق، و أيضا أنّه لمّا أمره بمسک من تقدّم ذكرهم فأمسک منهم جماعة، و أعلم يشبک بن أزدمر بالخبر ففرّ إلى جهة شيخ و نوروز، و أشياء غير ذلک.

و لكن حدّثتى كريمتى خوند فاطمة زوجة الملک الناصر المذكور بخلاف ذلک، و هو أنّه لمّا قدم عليه الخبر بمرضه صار يتأسّف و يقول: إن مات أبوک تخربت مملكتى، و بقى كلّما ورد عليه الخبر بعافيته يظهر السّرور، و كلّما بلغه أنّه انتكس يظهر الكآبة، و أنّه ما أخذها صحبته فى التجريدة إلى الشّام إلّا حتى تعوده فى مرضه، و أشياء من ذلک.

ثمّ إنّ السّلطان نادى فى أوّل شهر رمضان من سنة أربع عشرة و ثمانمائة بالقلعة بالأمان، و أنّهم عتقاء شهر رمضان.

ثمّ تتبعهم بعد الأمان و أمسک منهم جماعة كبيرة؛ حتى إنّه لم يخرج شهر رمضان حتى أمسک منهم أزيد من أربعمائة نفر و سجنهم بالبرج من القلعة.

و فى رابع شهر رمضان المذكور أفاق الوالد من مرضه، و زيّنت دمشق و دقّت البشائر بسائر البلاد الشّاميّة حتى حلب و طرابلس، و أرسل الأمير شيخ و نوروز إليه بالتّهنئة، فعظم ذلک أيضا على الملک الناصر.

و فى هذا الشهر تأكّد عند السّلطان خروج شيخ و نوروز عن طاعته، و بلغه أنّ نوروزا قتل آق سنقر الحاجب، فتحقّق السّلطان عصيان المذكورين.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۲۸

ثمّ ذبح السّلطان فى ليلة ثالث شوّال أزيد من مائة نفس من المماليک السّلطانية الظّاهريّة المحبوسين بالبرج، ثمّ ألقوا من سور القلعة إلى الأرض، و رموا فى جبّ ممّا يلى القرافة، و استمرّ الذبح فيهم.

ثمّ فى يوم الاثنين عاشر شوّال عدّى السلطان النيل إلى ناحية و سيم للرّبيع و بات به، و رحل فى السّحر بعساكره يريد مدينة

إسکندریّة، بعد ما نودی فی القاهرة بألّا یتأخّر أحد من الممالیک السلطانیّة بالقاهرة، و أن یعدّوا إلی برّ الجیزة فعدّوا بأجمعهم، فمنهم من أمره السلطان بالسّفر، و منهم من أمره بالإقامة.

ثمّ بعث السلطان الأمیر طوغان الحسنیّ الدّوادار، و الأمیر جانبک الصّوفیّ، و سودون الأشقر، و یلبغا النّاصریّ، و جماعة من الممالیک إلی عدّة جهات من أراضی مصر؛ لأخذ الأغنام و الخیول و الجمال حیث وجدت لکائن من کان، فسار الأمراء و شنّوا الغارات فما عفّوا و لا کفّوا.

ثمّ سار السلطان ببقیّة أمرائه و عساکره إلی الإسکندریّة، فدخلها فی یوم الثلاثاء ثامن عشر شوّال من سنة أربع عشرة المذکورة، فقدم بها علی السلطان مشایخ البحیرة بتقادمهم، فخلع علیهم ثمّ أمسکهم و ساقهم فی الحدید، و احتاط علی أموالهم، ففرّ باقیهم إلی جهة برقاء، ثم قدم الأمراء و قد ساقوا ألوفا من الأغنام التی انتهبوها من النواحی، و قد مات أکثرها، فسیقت إلی القاهرة مع الأموال و الجاموس و الخیول.

ثمّ رسم السلطان أن یؤخذ من تجار المغاربة العشر، و کان یؤخذ منهم قبل ذلک الثّلث، فشکر النّاس له ذلک.

ثمّ خرج من الإسکندریة عائدا إلی القاهرة، و سار حتی نزل علی وسیم فی یوم السبت تاسع عشرینه.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۲۹

و قد مات بسجن الإسکندریّة الأمیر خیربک نائب غزّة، فاتّهم السلطان أنّه اغتاله بالسّم، و الصحیح أنّه مات حتف أنفه.

ثمّ قدم کتاب الأمیر نوروز الحافظیّ علی السلطان علی ید فقیه یقال له سعد الدّین، و مملوک آخر، و معهما محضر شهد فیه ثلاثة و ثلاثون رجلا من أهل طرابلس- ما بین قاض و فقیه و تاجر- بأنه لم یظهر منه بطرابلس منذ قدم إلیها إلا الإحسان للرعیّة، و التمسک بطاعة السلطان، و امتثال مراسیمه، و أنّ أهل طرابلس کانوا قد خرجوا منها فی أیّام جانم لما نزل بهم من الضرر و الظلم، فعادوا إلیها أیّام نوروز المذکور، و أنّه کلّما ورد علیه مثال سلطانیّ یتکرّر منه تقبیل الأرض، و أنّه حلف- بحضرة من وضع خطّه- بالأیمان المغلّظة الجامعة لمعانی الحلف أنه مقیم علی طاعة السّلطان، متمسّک بالعهد و الیمین، فلم یغترّ السلطان بالمحضر و لا التفت إلیه؛ لما ثبت عنده من عصیانهما.

قلت: و لهذه الأیمان الحانثة ذهب الجمیع علی السیف فی أسرع مدّة، حتی إننی لا أعلم أن أحدا من هؤلاء الأمراء مات علی فراشه، بل غالبهم تفانوا قتلا علی أنواع مختلفة لتجرّئهم علی اللّه تعالی، و کان یمکنهم الخروج علی الملک النّاصر المذکور لسوء سیرته فیهم ثمّ یعودون إلی طاعته من غیر أن یتعرّضوا للأیمان و العهود، و التلاعب بذلک فی کلّ قلیل، و صار ذلک دأبا لهم إلی أن سلط اللّه بعضهم علی بعض، فذهبوا کأنهم لم یکونوا- مع قوّتهم، و شدّة بأسهم، و فرط شجاعتهم- و ملک بعدهم من لم یکن فی رتبتهم و لا یدانیهم فی معنی من المعانی، و دانت له البلاد، و أطاعته العباد، وصفا له الوقت من غیر معاند و لا مدافع.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۳۰

«وَ مَنْ یَتَّقِ اللَّهَ یَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً* وَ یَرْزُقْهُ مِنْ حَیْثُ لا یَحْتَسِبُ».

ثمّ إنّ السّلطان الملک الناصر بعد حضور هذا المحضر أخذ فی الاهتمام للسّفر.

ثمّ نزل من القلعة و عدّی النیل فی یوم الاثنین ثانی ذی القعدة، و توجّه إلی الربیع، و عاد من یومه إلی القلعة و هو فی أناس قلیلة، ثمّ بعد عوده رسم بقتل الأمیر جرباش العمریّ، و الأمیر خشکلدی بثغر الإسکندریّة، فقتلا بها و دفنا بالثّغر المذکور.

ثمّ فی رابع عشر من ذی القعدة، أنفق السّلطان علی الممالیک السّلطانیة نفقة السفر؛ فأعطی لکلّ نفر سبعین دینارا ناصریّا، و بعث للأمیر الکبیر دمرداش المحمّدیّ ثلاثة آلاف دینار، و لکلّ من أمراء الألوف بألفی دینار، و لامراء الطّبلخانات ما بین سبعمائة دینار إلی خمسمائة دینار.

ثم فی لیلة الخمیس رابع عشرین ذی القعدة، طلب السّلطان الأمیر شهاب الدین أحمد بن محمد بن الطّبلاویّ؛ فلما حضر إلی عنده

ضرب عنقه بيده، بعد أن قتل مطلّقته بنت صرق بيده تهبيرا بالسّيف عند كريمتى بقاعة العواميد، فإنها كانت يوم ذاك صاحبة القاعة.

و خبر ذلک: أن السّلطان الملك الناصر كان قد طلّق خوند بنت صرق المذكورة، و نزلت إلى دارها، و كان له إليها ميل، فوشى بها أنّ

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۳۱

ابن الطّبلاوىّ المذكور وقع بينه و بينها اجتماع، و ظهر له قرائن تدلّ على ذلک، منها أنّه وجد لها خاتم عنده.

فأرسل السّلطان خلفها، فلبست أفخر ثيابها ظنّا منها أنّ السّلطان يريد يعيدها لعصمته. قالت أختى خوند فاطمة: و كان السّلطان جالسا عندى بالقاعة، فلمّا قيل له جاءت خوند بنت صرق نهض من وقته و خرج إلى الدّهليز، و جلس به على مسطبة.

قالت: فخرجت خلفه و لا علم لى بقصده، فجاءت بنت صرق و قبّلت يده، فقال لها: يا قحبة، مراكيب الملوک تركبها البلّاصية؟!

و قبل أن تتكلم ضربها بالنّمجاة قطع أصابعها- و كانت مقمعة بالحناء- فصاحت و هربت، فقام خلفها و ضربها ضربة ثانية قطع من كتفها قطعة، و صارت تجرى و هو خلفها- و قد اجتمع جميع الخوندات عندى بالقاعة للسّلام على بنت صرق المذكورة- و لا زال يضربها بالنّمجاة و هى تجرى إلى أن دخلت المستراح، فتمّم قتلها فى صحن المستراح، ثمّ قطع رأسها و أخذها بدبّوقتها - و فى آذانها الحلق البلخش الهائلة- و خرج إلى قاعة الدّهيشة، و وضعها بين يديه و غطّاها بفوطة، ثمّ طلب ابن الطبلاوىّ المقدّم ذكره و أجلسه و كشف له عن الفوطة، و قال له: تعرف هذه الرأس؟ فأطرق.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۳۲

فضربه بالنّمجاة طيّر رقبته. و لفهما معا فى لحاف و أمر بدفنهما فى قبر واحد. قالت أختى [خوند فاطمة]: و صار دم بنت صرق فى حيطان القاعة و دهليزها.

و قالت: فواللّه لمّا دخل الفداويّة بقلعة دمشق على الملک الناصر ليقتلوه- و كان استصحبنى معه لأعود الوالد فى مرضه- فصارت الفداويّة تضربه بالسكاكين، و هو يفرّ من بين أيديهم كما كانت تفرّ بنت صرق أمامه و هو يضربها بالنّمجاة. و بقى دمه بحيطان البرج شبه دم بنت صرق بحيطان القاعة. قلت: فانظروا إلى هذا الجزاء الذى من جنس العمل- انتهى.

ثمّ أصبح السلطان أمر بخروج الجاليش من الأمراء إلى البلاد الشّامية، فخرجوا بتجمّل عظيم- و عليهم آلة الحرب هم و مماليكهم- و عرضوا على السّلطان و هم مارّون من تحت القلعة و السّلطان ينظر إليهم من أعلى القصر السلطانىّ. و ساروا حتى نزلوا بالرّيدانيّة خارج القاهرة فى يوم الخميس رابع عشرين ذى القعدة من سنة أربع عشرة و ثمانمائة.

و هم: الأمير بكتمر جلّق رأس نوبة الأمراء و صهر السلطان زوج ابنته، و شاهين الأفرم أمير سلاح، و طوغان الحسنىّ الدّوادار الكبير، و شاهين الزّردكاش، بمضافيهم.

و كان السّلطان قبل خروج الأمراء المذكورين- من عظم غضبه و حنقه على الأمير نوروز الحافظىّ- جمع القضاة، و طلّق أخته خوند سارة بنت الملک الظاهر

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۳۳

برقوق من زوجها الأمير نوروز، و زوّجها للأمير مقبل الرّومىّ- على كره منها، بعد أن هدّدها بالقتل- بعقد ملفق من قضاة الجاه و الشوكة.

فعظم ذلک على الأمير نوروز إلى الغاية، و لم يحسن ذلک ببال أحد- انتهى.

و دام الأمراء بالرّيدانيّة إلى يوم السّبت خامس ذى الحجّة فرحلوا منها يريدون الشّام.

ثمّ ركب السلطان فى يوم الثلاثاء ثامن ذى الحجّة و نزل من قلعة الجبل ببقيّة أمرائه و عساكره- و الجميع عليهم آلة السّلاح- بزىّ لم ير أحسن منه، بطلب هائل جرّفيه ثلاثمائة جنيب من خواصّ الخيل بالسّروج الذّهب التى بعضها مرصّع بالفصوص المجوهرة المثمّنة، و

میاثرها المخمل المطرّز بالزرکش، و علی أکفالها العبی الحریر المثمنة، و فیها العبی المزرکشة بالذهب، و فیها بالکنابیش الزّرکش، و الکنابیش المثلّثة بالزّرکش و الرّیش و اللؤلؤ، و کلّها باللّجم المسقّطة بالذّهب و الفضّة، و البذلات المینة، و البذلات الذّهب الثّقیلة، و من وراء الجنائب المذکورة ثلاثة آلاف

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۳۴

فرس ساقها جشارا ثمّ عدد کبیر من العجل التی تجرّها الأبقار و علیها آلات الحصار؛ من مکاحل النّفط الکبار و مدافع النّفط المهولة، و المناجیق العظیمة و نحو ذلک، ثمّ خرجت خزانة السّلاح- أعنی الزّردخاناة- علی أکثر من ألف جمل تحمل القرقلات، و الخوذ، و الزّردیّات، و الجواشن، و النّشاب، و الرّماح، و السّیوف و غیر ذلک.

ثمّ خرجت خزانة المال فی الصّناديق المغطّاة بالحریر الملوّن، و فیها زیادة علی أربعمائة ألف دینار، و جمیع الطّبّال و الزّمّار- ممالیکه مشتراواته- بالکلفتات، و علیهم طرطیّات صفر، و غالبهم قد ناهز الحلم، بأشکال بدیعة من الحسن، و قد تعلموا صناعة ضرب الطبل و الزّمر و أتقنوه إلی الغایة، و هذا شیء لم یفعله ملک قبله.

ثمّ خرج حریم السّلطان فی سبع محفّات قد غشّیت بالحریر المخمّل الملوّن، ما خلا محفّة الأخت فإنها غشّیت بالزّرکش؛ کونها کانت خوند الکبری صاحبة القاعة، و من ورائهم نحو الثلاثین حملا من المحایر المغشّاة بالحریر و الجوخ.

ثمّ خرج المطبخ السّلطانیّ، و قد ساق الرّعیان برسمه ثمانیة و عشرین

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۳۵

ألف رأس من الغنم الضّأن، و کثیرا من البقر و الجاموس لحلب ألبانها، فبلغت عدّة الجمال التی صحبة السّلطان إلی ثلاثة و عشرین ألف جمل، و هذا شیء کثیر إلی الغایة.

ثمّ سار السلطان من القاهرة حتی نزل بمخیّمه من الرّیدانیّة تجاه مسجد التّبن و هذه تجریدة السلطان الملک النّاصر السّابعة إلی البلاد الشّامیّة، و هی التی قتل فیها حسبما یأتی ذکره، و هذه التّجارید خلاف تجریدة السّعیدیّة التی انکسر فیها الملک النّاصر من الأمراء و عاد إلی الدّیار المصریة، و لم یصل إلی قطیا، علی أنّه تکلّف فیها إلی جمل مستکثرة، و ذهب له من الأثقال و القماش و السّلاح أضعاف ما تکلّفه فی النّفقة و غیرها. و کانت تجریدته الأولی إلی قتال الأمیر تنم الحسنیّ الظّاهریّ نائب الشّام فی سنة اثنتین و ثمانمائة.

و تجریدته الثانیة لقتال تیمورلنک فی سنة ثلاث و ثمانمائة.

و الثالثة لقتال جکم من عوض فی سنة تسع و ثمانمائة بعد واقعة السّعیدیة.

و الرابعة فی سنة عشر و ثمانمائة، التی مسک فیها الأمیر شیخا المحمودیّ نائب الشّام و الأتابک یشبک الشّعبانیّ، و حبسهما بقلعة دمشق، و أطلقهما منطوق نائب قلعة دمشق.

و الخامسة فی محرّم سنة اثنتی عشرة و ثمانمائة، و هی التی حصر فیها شیخا و نوروزا بصرخد.

و السادسة سنة ثلاث عشرة و ثمانمائة، و هی التی حصر فیها أیضا شیخا و نوروزا بقلعة الکرک.

و التجریدة السابعة هذه.

فجملة تجاریده ثمانی سفرات بواقعة السعیدیة- انتهی.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۳۶

ثمّ خرج الخلیفة المستعین بالله أبو الفضل العبّاس، و القضاة الأربعة، و هم:

قاضی القضاة جلال الدین عبد الرحمن البلقینیّ الشّافعیّ، و قاضی القضاة ناصر الدین محمّد بن العدیم الحنفیّ، و قاضی القضاة المالکیّ، و قاضی القضاة الحنبلیّ، و نزل الجمیع بالرّیدانیّة، و تردّد السّلطان فی مدّة إقامته بالرّیدانیّة إلی التّربة التی أنشأها علی قبر أبیه

بالصّحراء خارج باب النّصر، و بات بها ليالى، و نحر بها ضحاياه، و جعل الأمير يلبغا الناصرىّ نائب الغيبة بالقاهرة، و جعل فى باب السّلسلة الأمير ألطنبغا العثمانىّ، و بقلعة الجبل الأمير أسنبغا الزّردكاش شادّ الشّراب خاناة، و زوج أخته خوند بيرم، و ولّى نيابة القلعة للأمير شاهين الرّومىّ عوضا عن كمشبغا الجمالىّ، و بعث كمشبغا الجمالىّ صحبة حريمه، و قدّمهم بين يديه بمرحلة.

ثمّ رحل السّلطان من تربة أبيه قبيل الغروب من يوم الجمعة ثانى عشر ذى الحجّة من سنة أربع عشرة و ثمانمائة، لطالع اختاره له الشيخ برهان الدين إبراهيم بن زقاعة، و قد حزر ابن زقاعة وقت ركوبه، و عوّق السّلطان عن الركوب- و العساكر واقفة- حتى دخل الوقت الذى اختاره له، فأمره فيه بالرّكوب، فركب السّلطان و سار يريد البلاد الشّاميّة، و نزل بمخيّمه من الرّيدانيّة، و فى ظنّه أنّه منصور على أعدائه؛ لعظم عساكره، و لطالع اختاره له ابن زقاعة، فكانت عليه أيشم السّفرات، فلعمرى هل رجع الشيخ برهان الدين بن زقاعة المذكور بعد ذلك عن معرفة هذا العلم أم استمرّ على دعواه؟!.

و أنا أتعجّب من وقاحة أرباب هذا الشّأن حيث يقع لهم مثل هذا الغلط الفاحش و أمثاله، ثم يعودون إلى الكلام فيه و العمل به- انتهى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۳۷

ثمّ استقلّ السّلطان بالمسير فى سحر يوم السبت ثالث عشر ذى الحجّة.

و فى هذا الشّهر انتكس الوالد ثالث مرّة، و لزم الفراش إلى أن مات حسبما يأتى ذكره.

و أمّا السّلطان الملك الناصر فإنّه قبل المسير حذّر عسكره من الرّحيل قبل النّفير، فبلغه و هو بالرّيدانيّة أنّ طائفة رجلت، فركب بنفسه و قبض على واحد و وسّطه، و نصب مشنقة، فما وصل إلى غزّة حتى قتل عدّة من الغلمان؛ من أجل الرّحيل قبل النّفير، فتشاءم الناس بهذه السّفرة.

ثمّ سار حتى نزل مدينة غزّة، فوسّط بها تسعة عشر نفرا من المماليك الظاهريّة و هو لا يعقل من شدّة السّكر، و عقيب ذلك بلغه أنّ الأمراء الذين بالجاليش توجّهوا بأجمعهم إلى شيخ و نوروز، و كان من خبرهم أنّهم لمّا و صلوا إلى دمشق دخلوا إلى الوالد و قد ثقل فى الضّعف و سلّموا عليه، و أخبره بكتمر جلّق و طوغان أنهما بمن معهما يريدون التّوجّه إلى شيخ و نوروز، فرجّعهم الوالد عن ذلك، فذكروا له أعذارا فسكت عنهم، فقاموا عنه و خرجوا بأجمعهم و توجّهوا إلى شيخ و نوروز- ما خلا شاهين الزّردكاش- فإنّه لم يوافقهم على الذّهاب، فمسكوه و ذهبوا به إلى شيخ و نوروز.

و لمّا بلغ الملك الناصر ذلك، ركب و سار من غزّة مجدّا فى طلبهم، و قد نفرت منه القلوب، حتى نزل بالكسوة فى يوم الثلاثاء سلخ ذى الحجّة، فألبس من معه من العساكر السّلاح و رتبهم بنفسه.

ثمّ سار بهم قاصدا دمشق حتى دخلها من يومه وقت الزّوال، و قد خرج أعيان دمشق و عوامّها لتلقّيه و للفرجة عليه، و زيّنت لقدومه دمشق، و نزل بالقلعة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۳۸

بعد أن نزل عند الوالد بدار السّعادة و سلّم عليه، و أمر زوجته خوند [فاطمة] بالإقامة عند الوالد.

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۱۵]

ثمّ أصبح يوم الأربعاء أوّل محرّم سنة خمس عشرة و ثمانمائة خلع على القاضى شهاب الدين أحمد بن الكشك و أعاده إلى قضاء الحنفيّة بدمشق.

ثمّ شفع الوالد فى القاضى ناصر الدين محمّد بن البارزىّ، فطلبه السّلطان بدار السّعادة و أطلقه من سجنه بقلعة دمشق.

ثمّ أفرج السّلطان أيضا عن الأمير نكباى الحاجب، و كان الوالد قبض عليه و حبسه.

ثمّ دخل السّلطان للوالد و استشاره فى الملأ من النّاس فيما يفعل مع هؤلاء الأمراء العصاة، فقال له الوالد: يا خوند تذبح فى سنتك خمسمائة نفس، و تتجرّد فى سنتك؟! فرسك الذى تحتك عاص عليك، فقال له الملك الناصر: الكلام فى الفائت فائت، أيش تشير علىّ الآن؟ فقال: عندى رأى أقوله، إن فعله السّلطان انصلح به حاله، قال: و ما هو؟ قال: ترجع من هنا إلى مصر، فمن كان له إليك ميل عاد صحبتك، و من كان قد داخله الرّعب منك فهو يفارقك من هنا و يتوجّه إلى القوم، فإذا دخلت إلى مصر ناد بالأمان، و كفّ عن قتل مماليك أبيك و غيرهم، و أغدق عليهم بالإحسان، و أكثر إليهم من الاعتذار فيما وقع منك فى حقّ غيرهم، و اسلك معهم قرائن تدلّ على صفو النّيّة، فبهذا تطمئنّ قلوب رعيّتك، و يعودون لطاعتك، فإذا صار معك منهم ألف مملوك قهرت بهم جميع أعدائك؛ لما شاع من إقدامك و شجاعتك، و لعظم ما فى قلب أعدائك من الرّعب منك، و أيضا فإنّ هؤلاء الأمراء العصاة قد كثروا إلى الغاية، فالبلاد الشّاميّة لا تقوم بأمرهم، فإمّا أن يقع بينهم الخلف على البلاد فيفترقوا، و إمّا أن يتّفقوا و يجتمعوا على قتالك و يأتوك إلى مصر، فاخرج إليهم

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۳۹

و القهم برأس الرّمل، فإن انتصرت عليهم فافعل ما بدالك، و إن كانت الأخرى فاخرج إلى البلاد؛ فمن قرا يوسف صاحب العراق إلى والى قطيا فى طاعتك، فما عندى غير هذا. فاستحسن جميع عسكره هذا الرأى إلّا هو؛ فإنّه لم يعجبه، و سكت طويلا، ثمّ رفع رأسه و قال: يا أطا، أنا قتلت هذه الخلائق لتعظّم حرمتى، فإذا رجعت من هنا أيش يبقى لى حرمة، و أنا أعرف بحال هؤلاء من غيرى، و اللّه ما صفتهم قدّامى إلّا كالصّيد المجروح، و اللّه إذا بقى معى عشرة مماليك قاتلتهم بهم، و لا أطلب إلّا أن يثبتوا و يقفوا، و يقاتلونى حتى أنتصف منهم، فقال له الوالد: اعلم أنّهم الآن يقاتلونك.

ثمّ طلبنا الملك النّاصر [أنا و إخوتى] فأحضرونا بين يديه، و كنّا ستّة ذكور، فقبّلنا يده- و أنا أصغر الجميع- فسأل عن. سمائنا، فقيل له ذلك، ثمّ تكلّم الأتابك دمرداش المحمّديّ عن لسان الوالد بالوصيّة علينا، فقال [السّلطان]: هؤلاء أولادى و أصهارى و إخوتى، ما هذه الوصيّة فى حقّهم؟

كلّ ذلك و الوالد ساكت قد أسنده مماليكه لا يتكلّم، فلمّا قام الملك النّاصر قال الوالد: أودعت أولادى إلى اللّه تعالى، و استعنت به فى أمرهم، فنفعنا ذلك غاية النّفع- و للّه الحمد- مع ما أخذ لنا من الأموال التى لا تدخل تحت حصر عند هزيمة الملك النّاصر من الأمراء، و دخوله إلى دمشق.

ثمّ خرج السّلطان الملك الناصر من دمشق بعساكره فى يوم الاثنين سادس المحرّم، و نزل برزة، ثمّ رحل منها يريد محاربة الأمراء، و نزل حسيا بالقرب من حمص، فبلغه رحيل القوم من قارا إلى جهة بعلبك، فترك أثقاله بحسيا و ساق فى أثرهم إلى بعلبك، فوجدهم قد توجّهوا إلى البقاع فقصدهم، فمضوا نحو الصّبيبة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۴۰

فتبعهم حتى نزلوا باللّجّون، فساق خلفهم و هو سكران لا يعقل، فما وصل إلى اللّجّون حتى تقطّعت عساكره عنه من شدّة السّوق، و لم يبق معه غير من ثبت على سوقه، و هم أقلّ ممّن تأخّر.

و كان قد وصل وقت العصر من يوم الاثنين ثالث عشر المحرّم من سنة خمس عشرة و ثمانمائة، فوجد الأمراء قد نزلوا باللّجّون و أراحوا، و فى ظنّهم أنّه يتمهّل ليلته و يلقاهم من الغد، فإذا جنّهم الليل ساروا بأجمعهم من وادى عارة إلى جهة الرّملة، و سلكوا البرّيّة عائدين إلى حلب، و ليس فى عزمهم أن يقاتلوه أبدا، لا سيّما الأمير شيخ فإنّه لا يريد ملاقاته بوجه من الوجوه، فحال وصول الملك النّاصر إلى اللّجّون أشار عليه الأتابك دمرداش المحمديّ أن يريح خيله و عساكره تلك اللّيلة، و يقاتلهم من الغد، فأجابه السّلطان بأنّهم يفرّون اللّيلة، فقال له دمرداش المذكور: إلى أين «بقوا» يتوجّهوا يا مولانا السّلطان بعد وقوع العين فى العين؟ يا مولانا السّلطان مماليكك فى جهد و تعب من السّوق، و الخيول كلّت، و العساكر منقطعة، فلم يلتفت إلى كلامه، و حرّك فرسه و دقّ بزخمته على

طبله، و سار نحو القوم، و حمل علیهم بنفسه من فوره حال وصوله، فارتضمت طائفة من ممالیکه فی وحل کان هناک.

ثمّ قبل اللّقاء خرج الأمیر قجق أحد أمراء الألوف بطلبه من ممالیکه و عسکره، و ذهب إلی الأمراء، و تداول ذلک من الممالیک الظّاهریة واحدا بعد واحد، و الملک الناصر لا یلتفت إلیهم، و یشجّع من بقی معه حتی التقاهم و صدمهم صدمة هائلة، قتل فیها من عسکره الأمیر مقبل الرّومیّ أحد أمراء الألوف، الذی زوّجه الملک النّاصر بأخته- زوجة الأمیر نوروز-

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۴۱

ثمّ قتل أحد خواصّه من الأمراء [و هو] الأمیر ألطنبغا شقل، و تقهقر عسکره مع قلّتهم، فانهزم السّلطان عند ذلک، بعد أن قاتل بنفسه، و ساق یرید دمشق- و کان الرّأی توجّهه إلی مصر- و تبعه سودون الجلب، و قرقماس ابن أخی دمرداش، ففاتهما الملک النّاصر و مضی إلی دمشق، و أحاط القوم بالخلیفة المستعین بالله، و فتح الدّین فتح اللّه کاتب السّر، و ناظر الجیش بدر الدین حسن بن نصر اللّه، و ناظر الخاصّ ابن أبی شاکر، و استولوا علی جمیع أثقال الملک النّاصر و أمرائه.

و امتدّت أیدی أصحاب الأمراء إلی النهب و الأسر فی أصحاب الملک النّاصر، و ما غربت الشمس حتی انتصر الأمراء و قوی أمرهم، و أذّن المغرب فتقدّم إمام الأمیر شیخ، شهاب الدین أحمد الأذرعیّ، و صلی بهم المغرب، و قرأ فی الرّکعة الأولی بعد الفاتحة:

«وَ اذْکُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِیلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِی الْأَرْضِ تَخافُونَ أَنْ یَتَخَطَّفَکُمُ النَّاسُ فَآواکُمْ وَ أَیَّدَکُمْ بِنَصْرِهِ وَ رَزَقَکُمْ مِنَ الطَّیِّباتِ لَعَلَّکُمْ تَشْکُرُونَ».

فوقعت هذه الآیة الموقع الحسن، کونهم کانوا فی خوف و جزع و صاروا إلی الأمن و التّحکم، و باتوا تلک اللّیلة بمخیّماتهم- و هی لیلة الثلاثاء- و أصبح الأمراء و لیس فیهم من یرجع إلیه، بل کلّ واحد منهم یقول: أنا رئیس القوم و کبیرهم، فنادی شیخ بأنّه الأمیر الکبیر، و رسم بما شاء، و نادی نوروز أیضا بأنه الأمیر الکبیر، و رسم بما أراد، و نادی سودون المحمّدیّ بأنه الأمیر الکبیر، و قد استولی علی الإسطبل السّلطانیّ بما فیه لنفسه، و نادی بکتمر جلّق بأنه الأمیر الکبیر.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۴۲

قال الشیخ تقیّ الدین المقریزیّ- رحمه اللّه: حدّثنی فتح اللّه کاتب السرّ قال: بعث إلیّ الأمیر شیخ و نوروز، قالا لی: أکتب بما جری إلی الدّیار المصریّة، و أعلم الأمراء به، فقال لهما: من السّلطان الذی أکتب عنه ...؟ فأطرق کلّ منهما ساعة ثم قالا: ابن أستاذنا ما هو هنا حتی نسلطنه- یریدان الأمیر فرج ابن الملک النّاصر فرج.

فلمّا رأی انقطاعهما قال: الرأی أن یتقدّم کلّ منکما إلی موقّعه بأن یکتب عنه إلی الأمراء بمصر کتابا بصورة الحال، و یأمرهم بحفظ القلعة و المدینة، و یعدهم بالخیر، ثمّ یکتب الخلیفة کذلک. فوقع هذا منهما الموقع الحسن، و کتب کلّ منهما کتابا، و ندب قجقار القردمیّ لحمل الکتب، و جهّز إلی مصر، فمضی من یومه، و نودی بالرّحیل فی یوم الأربعاء خامس عشره، و لیس عندهم خبر عن الملک النّاصر و لا أین ذهب- انتهی.

قلت: و أما الملک النّاصر، فإنه لمّا انکسر سار نحو دمشق حتی دخلها لیلة الأربعاء فی ثلاثة نفر، و نزل بالقلعد و سأل عن الوالد فقیل له محتضر.

و مات الوالد فی یوم الخمیس سادس عشر المحرّم، و دفن من یومه بتربة الأمیر تنم الحسنیّ نائب الشّام، خارج دمشق بمیدان الحصی.

و أمّا الملک الناصر فإنه أصبح یوم الأربعاء استدعی القضاة و الأعیان و وعدهم بکلّ خیر، و حثّهم علی نصرته و القیام معه، فانقادوا له، فأخذ فی تدبیر أموره، و تلاحقت به عساکره شیئا بعد شیء.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۴۳

ثمّ قدم علیه الأتابک دمرداش، فأصبح خلع علیه فی عصر یوم الخمیس سادس عشر المحرّم بولایته نیابة دمشق- بعد موت الوالد- رحمه اللّه.

و أخذ السلطان فى الاستعداد، و أخرج الأموال، ثمّ استولى على جميع ما للوالد من خيل و جمال و قماش و زردخاناة و مال؛ من كونه وصيّا، و أيضا وكيل زوجته، فكان من جملة ما أخذه نحو الألف فرس ما بين مراكيب و جشار، و استخدم جميع مماليك الوالد المشتروات و مماليك الخدمه، و كانوا أيضا نحو الألف مملوك، و خلع على طوغان دوادار الوالد باستقراره على تقدمة ألف بدمشق على عادته، و على أرغون شاه شادّ شراب خاناته باستقراره على إمرة طبلخاناة و كذلك رأس نوبة، فكلّموه فيما أخذ للوالد من الخيول و القماش، فوعدهم برد ما أخذ و أضعافه.

ثمّ أحضر السّلطان الأموال و صبّها بين يديه، فأشار عليه دمرداش بالخروج إلى حلب فلم يوافقه، و أبى إلا الإقامة فى دمشق، فأشار عليه ثانيا بالعود إلى الدّيار المصرية فلم يرض، و أقام بدمشق، و كان رأى دمرداش فيه غاية الجودة، فإنّ جميع أمراء التركمان كانت مع الملك الناصر مثل قرايلك، و ابن قرمان، و بنى دلغادر و غيرهم، فحبّب إليه الإقامة بدمشق لأمر سبق فى القدم، و لما أخرج السلطان الأموال أتاه الناس من كلّ فجّ من التّركمان و العربان و العشير و غيرهم، فكتب أسماءهم و أنفق عليهم و قوّاهم بالسلاح، و أنزل كلّ طائفة منهم بموضع يحفظه، فكان عدّة من استخدمه من المشاة زيادة على ألف رجل، و حصّن القلعة بالمناجيق

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۴۴

و المدافع الكبار؛ و جعل بين كلّ شرفتين من شرفات سور المدينة جنويّة؛ و من ورائها الرّماة بالسّهام الخلنج، و الأسهم الخطائية، و نصب على كلّ برج من أبراج السور شيطانيا يرمى به الحجارة.

و أتقن تحصين القلعة بحيث إنه لم يبق سبيل للتوصّل إليها بوجه من الوجوه.

ثمّ خلع على نكباى الحاجب بنيابة حماة، ثمّ ركب قاضى القضاة جلال الدين البلقينى، و معه بقيّة قضاة مصر و دمشق؛ و جماعة من أرباب الدّولة، و نودى بين أيديهم عن لسان السلطان أنه قد أبطل المكوس، و أزال المظالم فادعوا له؛ فعظم ميل الشّاميّين إليه و تعصبوا له، و صار غالبهم من حزبه، و غنّوا عن لسانه:

أنا سلطان ابن سلطان و أنت يا شيخ أمير و أكثروا من الدّعاء له و الوقيعة فى شيخ و نوروز، و وعدوه القتال معه حتى الممات.

و استمرّ ذلك إلى بكرة يوم السّبت ثامن عشر المحرّم، فنزل الأمراء على قبة يلبغا خارج دمشق، فندب السّلطان عسكرا فتوجّهوا إلى القبيبات

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۴۵

فبرز لهم سودون المحمّدى، و سودون الجلب، و اقتتلوا حتّى تقهقر السّلطانيّة منهم مرّتين، ثمّ انصرف الفريقان.

و فى يوم الأحد تاسع عشر المحرّم ارتحل الأمراء عن قبّة يلبغا، و نزلوا غربىّ دمشق من جهة الميدان، و وقفوا من جهة القلعة إلى خارج البلد، فتراموا بالنّشّاب نهارهم و بالنّفط، فاحترق ما عند باب الفراديس من الأسواق، فلمّا كان الغد من يوم الاثنين عشرين المحرّم اجتمع الأمراء للحصار، فوقفوا شرقىّ البلد و قبليّة، ثمّ كرّوا راجعين و نزلوا ناحية القنوات إلى يوم الأربعاء ثانى عشرينه، و وقع القتال من شرقىّ البلد، و نزل الأمير نوروز بدار الطعم، و امتدّت أصحابه إلى العقيبة، و نزل طائفة بالصالحيّة و المزّة، و نزل شيخ بدار غرس الدين خليل أستادار الوالد تجاه جامع كريم الدّين الذى بطرف القبيبات و معه الخليفة و كاتب السرّ فتح اللّه، و نزل بكتمر جلّق و قرقماس- سيّدى الكبير- فى جماعة من جهة بساتين معين الدّين و منعوا الميرة عن الملك النّاصر، و قطعوا نهر دمشق؛ فقد الماء من البلد، و تعطّلت الحمّامات و غلّقت الأسواق.

و اشتدّ الأمر على أهل دمشق، و اقتتلوا قتالا شديدا، و تراموا بالسّهام و النّفوط، فاحترق عدّة حوانيت بدمشق. و كثرت الجراحات فى أصحاب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۴۶

الأمراء من الشّاميّين، و أنكاهم السلطانية بالرّمى من أعلى السّور، و عظم الأمر، و كلّوا من القتال.

ثمّ إن الأمير شيخا أرسل إلى شهاب الدّين الحسبانيّ، و الباعونى، و قاضى القضاة ناصر الدين بن العديم الحنفىّ قاضى قضاة الدّيار المصرية- و كان قد انقطع بالشّبلية لمرض به- فأحضر شيخ الثلاثة و أنزلهم عنده، ثم لحق ناصر الدّين بن البارزىّ، و صدر الدّين الأدمىّ الحنفى قاضى قضاة دمشق بالأمير شيخ.

و لمّا بلغ الملك الناصر توجّه ابن العديم إلى شيخ أرسل خلف محبّ الدّين ابن الشّحنة قاضى حلب و ولّاه قضاء الحنفيّة بالدّيار المصرية عوضه.

ثمّ فى يوم الجمعة رابع عشرينه أحضر الأمير شيخ الأمير بلاط الأعرج شادّ الشّراب خاناة- و كان ممّن قبض عليه بعد انهزام الملك النّاصر- و وسّطه، ثمّ أحضر أيضا الأمير بلاط أمير علم- و كان ممّن قبض عليه أيضا يوم الواقعة؛ من أجل أنّه كان يتولّى ذبح خشداشيّته من المماليك الظّاهريّة- فلما حمل للتّوسيط صاح: يا ظاهريّة الجيرة، أنا خشداشكم، قالوا له: الآن أنت خشداشنا، و أيّام الذبح كنت عدوّنا!! فلم يقم إليه أحد.

و فى يوم السّبت خامس عشرين المحرّم، خلع الخليفة المستعين بالله الملك النّاصر فرج من السّلطنة، و اتّفق الأمراء على إقامة الخليفة المستعين بالله المذكور فى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۴۷

السّلطنة لتستقيم بسلطنته الأحوال، و تنفذ الكلمة، و تجتمع النّاس على سلطان، و ثبت خلع الملك النّاصر على القضاة، و أجمعوا على إقامة الخليفة سلطانا، فامتنع الخليفة من ذلك غاية الامتناع، و خاف ألّا يتمّ له ذلك فيهلك، و صمّ على الامتناع، و خاف من الملك النّاصر خوفا شديدا، فلمّا عجز عنه الأمراء دبّروا عليه حيلة، و طلبوا الأمير ناصر الدّين محمّد بن مبارك شاه الطّازىّ- و هو أخو الخليفة المستعين بالله لأمه- و ندبوه بأن يركب و معه ورقة تتضمّن مثالب الملك النّاصر و معايبه، و أن الخليفة قد خلعه من الملك و عزله من السّلطنة، و لا يحلّ لأحد معاونته و لا مساعدته.

فلمّا بلغ الخليفة ذلك لام أخاه ناصر الدين بن مبارك شاه المذكور على ذلك، و أيس الخليفة عند ذلك من الصلاح الملك النّاصر له، فأذعن لهم حينئذ بأن يتسلطن، فبايعوه بأجمعهم، و حلفوا له بالأيمان المغلّظة و العهود على الوفاء له و على القيام بنصرته و لزوم طاعته.

و تمّ أمره على ما يأتى ذكره فى أوائل ترجمته من هذا الكتاب إن شاء اللّه تعالى.

و أمّا الملك النّاصر، فإنّه لمّا تسلطن الخليفة، و خلع هو من الملك، نفر النّاس عنه، و صاروا حزبين: حزبا يرى أنّ مخالفة الخليفة كفر، و النّاصر قد عزل من الملك، فمن قاتل معه فقد عصى اللّه و رسوله، و حزبا يرى أنّ القتال مع الملك الناصر واجب، و أنه باق على سلطنته، و من قاتله إنما هو باغ عليه و خارج عن طاعته.

و من حينئذ أخذ أمر الملك النّاصر فى إدبار، إلى أن قتل فى ليلة السبت سادس عشر صفر من سنة خمس عشرة و ثمانمائة بالبرج من قلعة دمشق بعد ما حوصر أياما، كما سيأتى ذكره مفصلا فى ترجمة المستعين بالله، إلى أن حبس بقلعة دمشق.

و خبره: أنه لمّا حبس بقلعة دمشق- بعد أمور يأتى ذكرها فى سلطنة المستعين

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۴۸

و أقام محبوسا بالبرج إلى ليلة السبت سادس عشر صفر المذكور- دخل عليه ثلاثة نفر [هم] الأمير ناصر الدين محمد بن مبارك شاه الطازىّ أخو الخليفة المستعين بالله لأمّه، و آخر من ثقات شيخ، و آخر من أصحاب نوروز، و معهم رجلان من المشاعلية، فعند ما رآهم الملك النّاصر فرج قام إليهم فزعا، و عرف فيما جاءوا و دافع عن نفسه، و ضرب أحد الرّجلين بالمدوّرة صرعه، ثمّ قام الرجل هو و رفيقه و مشوا عليه و بأيديهم السكاكين، و لا زالوا يضربونه بالسكاكين المذكورة و هو يعاركهم بيديه و ليس عنده ما يدفع عن نفسه به حتى صرعاه بعد ما أثخنا جراحه فى خمس مواضع من بدنه، و تقدّم إليه بعض صبيان المشاعلية فخنقه و قام عنه، فتحرّك

الملک الناصر، فعاد إليه و خنقه ثانيا حتى قوى عنده أنه مات، فتحرّک، فعاد إليه ثالثا و خنقه، و فرى أو داجه بخنجر کان معه، و سلبه ما عليه من الثياب، ثمّ سحب برجليه حتى ألقى على مزبلة مرتفعة من الأرض تحت السّماء، و هو عارى البدن، يستر عورته و بعض فخذيه سراويله، و عيناه مفتوحتان، و النّاس تمرّ به ما بين أمير و فقير و مملوک و حر. قد صرف اللّه قلوبهم عن دفنه و مواراته. و بقيت الغلمان و العبيد و الأوباش تعبث بلحيته و بدنه.

و استمرّ على المزبلة المذكورة طول نهار السبت المذكور، فلما كان الليل من ليلة الأحد حمله بعض أهل دمشق و غسّله و كفّنه. و دفنه بمقبرة باب الفراديس احتسابا للّه تعالى. بموضع يعرف بمرج الدحداح، و لم تكن جنازته مشهودة، و لا عرف من تولّى غسله و مواراته.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۴۹

قلت: و ما وقع للملک النّاصر من قتله و إلقائه على المزبلة ممّا يدلّ على قلة مروءة القوم، و عدم حفظهم و مراعاتهم لسوابق نعمه عليهم، و لحقوق تربية والده الملک الظاهر برقوق عليهم، و نفرض أنّه أساء لهم و أراد قتلهم، و کان مجازاته عن ذلک بالقتل، و هو غاية المجاراة، فکان الأليق بعد قتله إخفاء أمره و مواراته، کما فعل غيرهم بمن تقدّم من الملوک، فإنّه قد حصل مقصودهم بقتله و زيادة. حتىّ إنّ الذى- و العياذ بالله تعالى- يقع فى الکفر تضرب عنقه ثمّ يؤخذ و يدفن، و أيضا فمراعاة السّلطنة و ناموس الملک مطلوب من کلّ واحد، و الملوک لهم غيرة على الملوک و لو کان بينهم العداوة و الخصومة، و قد رأيت فى تاريخ الإسلام فى ترجمة الخليفة محمد المهدىّ بن الرّشيد هارون العبّاسىّ أنه سأل بعض جلسائه عن أحوال الخليفة الوليد بن يزيد بن عبد الملک بن مروان الأموىّ، فقال له بعض من حضر:

و ما السّؤال عنه يا أمير المؤمنين؟! کان رجلا فاسقا زنديقا.

فلمّا سمع الخليفة المهدىّ کلامه نهره و قال له: صه، خلافة اللّه أجلّ أن يجعلها فى زنديق، و أقامه من مجلسه.

و کان الوليد کما قال الرّجل، غير أنّ المهدىّ غار على منصب الخلافة فقال ذلک مع علمه بحال الوليد، فلعمرى أين فعل هؤلاء من قول المهدىّ...؟!

مع أنّ خلفاء بنى العبّاس کانوا أشدّ بغضا لخلفاء بنى أميّة من بغض هؤلاء للملک النّاصر، غير أنّ العقول تتفاوت و تتفاضل، و الأفعال تدلّ على شيم الفاعل- انتهى.

و مات الملک الناصر و له من العمر أربع و عشرون سنة و ثمانية أشهر و أيام،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۵۰

فکانت مدّة ملکه من يوم مات أبوه الملک الظاهر برقوق إلى أن خلع بأخيه الملک المنصور عبد العزيز- حسبما تقدم ذکره- ستّ سنين و خمسة أشهر و أحد عشر يوما، و خلع من السّلطنة بأخيه المذکور سبعين يوما، و من يوم أعيد إلى السّلطنة بعد خلع أخيه المذکور فى يوم السّبت خامس جمادى الآخرة من سنة ثمان و ثمانمائة إلى يوم خلعه المستعين بالله من السلطنة فى يوم السبت خامس عشرين المحرّم من سنة خمس عشرة و ثمانمائة ستّ سنين و عشرة أشهر سواء.

فجميع مدة سلطنته الأولى و الثانية- سوى أيّام خلعه- ثلاث عشرة سنة و ثلاثة أشهر و أحد عشر يوما.

و کان الملک النّاصر من أشجع الملوک و أفرسها و أکرمها، و أکثرها احتمالا و أصبرها على العصاة من أمرائه.

حدّثنى بعض أعيان المماليک الظاهريّة: أنه ما قتل أحدا من الظاهريّة و لا غيرهم حتى رکب عليه و آذاه غير مرّة و هو يعفو عنه، و تصديق ذلک أنّه لمّا قبض على الأمير شيخ، و الأتابک يشبک الشّعبانىّ بدمشق فى سنة عشر [و ثمانمائة] و حبسهما بقلعة دمشق کان يمکنه قتلهما؛ فإنّ ذلک کان بعد ما حارباه فى واقعة السّعيدية و کسراه أقبح کسرة، و أمّا شيخ فإنه کان تکرّر عصيانه عليه قبل ذلک غير مرّة. و قد رأينا من جاء بعده من الملوک إذا رکب عليه أحد مرّة واحدة و ظفر به لم يبقه، و الکلام فى بيان ذلک من وجوه

عديدة يطول الشّرح فيه و ليس تحت ذلك فائدة.

و لم أرد بما قلته التعصّب للملك الناصر المـذكور؛ فإنه أخذ مالنا و جميع موجود الوالد و تركنا فقراء- يعلم ذلك كلّ أحد- غير أن الحقّ يقال على أى وجه كان.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١٣، ص: ١٥١

و كان صفته شابّا معتدل القامة، أشقر، له لثغة فى لسانه بالسّين، غير أنّه كان أفرس ملوك التّرك بعد الملك الأشرف خليل بن قلاون بلا مدافعة.

قلت: و لنذكر هنا من مقالة الشيخ تقىّ الدين المقريزى فى حقّه من المساوى نبذة برمتها، و للنّاظر فيها التّأمل قال:

«و كان النّاصـر أشأم ملوك الإسلام؛ فإنّه خرّب بسوء تدبيره جميع أراضى مصر و بلاد الشّام من حيث يصبّ النّيل إلى مجرى الفرات، و طرق الطاغية تيمور بلاد الشّام فى سنة ثلاث و ثمانمائة، و خرّب حلب و حماة و بعلبكّ و دمشق، حتىّ صارت دمشق كوما ليس بها دار.

و قتـل من أهـل الشـام مالاـ يحصـى عـدده، و طرق ديـار مصـر الغلاء من سـنة ست و ثمانمائـة، فبـذل أمراء دولته جهـدهم فى ارتفاع الأسعار؛ بخزنهم الغلال و بيعهم لها بالسّعر الكثير، ثم زيادة أطيان أراضى مصر حتى عظمت كلفته، و أفسدوا مع ذلك النّقود بإبطال السكّة الإسـلامية من الـذّهب، و المعاملة بالـدّنانير المشـخّصة التى هى ضـرب النّصارى، و رفعوا سـعر الـذّهب حتى بلغ إلى مائتين و أربعين [درهمـا] كلّ مثقال، بعـد ما كان بعشـرين درهما، و مكّسوا كل شـىء، و أهمل عمل الجسور بأراضـى مصـر، و ألزم النّاس أن يقوموا عنهـا بالأـموال التى تجبى منهم، و أكثر وزراؤه من رمى البضـائع على التجّار و نحوهم بـأغلى الأثمـان، و كـلّ ذلك من سـعد الـدين بن غراب، و جمال الـدين يوسف الأسـتادار و غيرهما؛ فكانا يأخـذان الحقّ و الباطل و يأتيان له به لئلا يعزلهم من وظائفهم، ثمّ ماتوا، فتمّ هو على ذلك يطلب المال من المباشرين فيسدون بالظلم، فخربت البلاد لذلك، و فشا أخذ أموال النّاس. هذا مع

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١٣، ص: ١٥٢

تواتر الفتن و استمرارها بالشّام و مصـر، و تكرار سـفره إلى البلاد الشّامية، فما من سـفرة سافر إليها إلا و ينفق فيها أموالا عظيمة؛ زيادة على ألف ألف دينار، يجبيها من دماء أهل مصر و مهجهم، ثمّ يتقدّم إلى الشام فيخرّب الدّيار و يستأصل الأموال و يدمّر القرى.

ثمّ يعود و قد تأكّدت أسباب الفتنة، و عادت أعظم ما كانت، فخربت الإسـكندرية، و بلاد البحيرة، و أكثر الشـرقيّة، و معظم الغربية، و تـدمّرت بلاـد الفيّوم، و عمّ الخراب بلاـد الصـعيد بحيث بطـل منهـا زيـادة على أربعين خطبـة، و دثر ثغر أسوان و كان من أعظم ثغور المسـلمين، و خرب من القاهرة و أملاكها و ظواهرها زيادة عن نصفها، و مات من أهل مصر فى الغلاء و الوباء نحو ثلثى النّاس، و قتل فى الفتن بمصـر مـدّة أيّامه خلائق لا تـدخل تحت حصـر. مع مجاهرته بالفسوق، من شـرب الخمر، و إتيان الفواحش، و التجرّؤ العظيم على اللّه جلت قدرته.

و من العجيب أنّه لمّـا ولـد كـان قـد أقبـل يلبغـا الناصرىّ بعسـاكر الشّـام لينزع أبـاه الملـك الظـاهر برقوق من الملك- و هو فى غاية الاضطراب من ذلك- فعند ما بشر به قيل له: ما تسميه ...؟ قال: بلغاق - يعنى فتنة- و هى كلمة تركيّة، فقبض على أبيه الملك الظّاهر و سجن بالكرك- كما تقدّم ذكره.

فلمّـا عـاد إلى الملك عرض عليه فسـمّاه فرجا، و لم يسـمّه أحـد لـذلك اليوم إلّا بلغاق، و هو فى الحقيقـة ما كان إلّا فتنـة، أقامه اللّه- سبحانه و تعالى- نقمة على النّاس ليذيقهم بعض الذى عملوا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١٣، ص: ١٥٣

و من عجيب الاتّفاق أنّ حروف اسـمه «ف ر ج» عـددها ثلاثة و ثمانون و مائتين و هى عدد جركس، و كان فناء طائفة الجركس على يديه.

فإن حروفها تفنى إذا أسقطت بحروف اسمه».

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة؛ ج۱۳؛ ص۱۵۳

ت: کیف کـان فنـاء الجرکس علی یـدیه، و هم إلی الآـن ملوک زماننا و سـلاطینها؟!. فهـذا هو الخباط بعینه!. و إن کان یعنی الـذین قتلهم، فهو قتل من کلّ طائفة- انتهی.

قال: و کانت وفاته عن أربع و عشـرین سنة و ثمانیة أشهر و أیّام، و کل هذه الأمور من سوء تدبیر ممالیک أبیه معه و الفتنة فی بعضهم البعض، و هم الـذین جسّـروه علی المظالم، و علی قتل بعضـهم، فاسـتمرّ علی الظلم و القتل إلی أن کان من أمره ما کان- انتهی کلام المقریزی بتمامه و کماله.

قلت: و کان یمکننی أن أجیب عن کلّ ما ذکره المقریزیّ- غیر إسـرافه علی نفسه- غیر أنی أضـربت عن ذلک خشیة الإطالة و الملل، علی أنی موافقه علی أنّ الزّمان یصلح و یفسد بسلطانه و أرباب دولته، و لکن البلاء قدیم و حدیث- انتهی.

و خلّف الملـک الناصـر عشرة أولاـد- فیمـا أظنّ- ثلاثـة ذکور و سبع إناث، فالـذکور: فرج، و محمـد، و خلیل، و الإناث: ستیته التی زوّجهـا لبکتمر جلّق، و عائشـة، و آسـیة، و زینب، و شـقراء، و هـاجر، و رحب، و الجمیع أمّهـاتهم أمّ أولاد مولّدات. ما عـدا عائشـة و شقراء- و اللّه أعلم.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۵۴

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۰۸]

السـنة الأولی من سـلطنة الملک الناصـر فرج بن برقوق الثانیة علی مصر و هی سنة ثمان و ثمانمائة، علی أنّ أخاه الملک المنصور عبد العزیز حکم منها سبعین یوما.

فیهـا أمسـک السـلطان الملـک الناصـر الأتابـک بیبرس ابن عمّته، و الأـمیر سودون الماردانیّ الـدّوادار الکبیر بعـد عوده إلی الملک- حسبما تقدّم ذکره.

و فیها توفّی الشـیخ علاء الدین علیّ بن محمد بن علیّ بن عصـفور المالکی، شیخ الکتّاب بالدّیار المصریة فی یوم الاثنین رابع عشرین شهر رجب، کان أحد موقعی الدّست بالقاهرة، و کان یجید الخطّ المنسوب بسائر الأقلام، و کان ابن عصـفور هذا هو الذی کتب عهد الملک المنصور عبد العزیز بالسلطنة، و مات بعد مدّة یسیرة، قال فیه بعض الأدباء. [السّریع]

قد نسخ الکتاب من بعده عصفور لما طار للخلد

مذ کتب العهد قضی نحبه و کان منه آخر العهد

و توفی الخلیفـة أمیر المؤمنین المتوکـل علی اللّه أبو عبـد اللّه محمّـد ابن الخلیفـة المعتصم بـالله أبی بکر ابن الخلیفـة المسـتکفی بـالله سلیمـان ابن الحـاکم بـأمر اللّه أحمـد ابن الحسن بن أبی بکر بن علیّ بن الحسـین ابن الخلیفـة الرّاشـد بـالله منصور ابن المسترشـد بالله الفضل ابن المسـتظهر بالله أحمد ابن المقتدی بالله عبد اللّه ابن الأمیر ذخیرة الدین محمد ابن الخلیفة القائم بأمر اللّه عبد اللّه ابن القادر بالله أحمد ابن المقتفی بالله إبراهیم ابن المقتدر بالله جعفر ابن المعتضد بالله أحمد ابن الأمیر

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۵۵

الموفّق طلحـة ابن الخلیفـة المتوکل علی اللّه جعفر ابن المعتصم بالله محمـد ابن الرشـد بالله هارون ابن المهدی محمد ابن الخلیفة أبی جعفر عبـد اللّه المنصور بن محمّـد ابن علیّ بن عبـد اللّه بن عباس الهاشـمیّ العباسـیّ المصـریّ، یوم الثلاثاء ثامن شـهر رجب، و دفن بالمشهد النّفیسی خارج القاهرة.

بویع المتوکـل بالخلافـة بعـد موت أبیه بعهـد منه إلیه، فی یوم سـابع جمادی الآخرة سـنة ثلاث و ستّین و سـبعمائة، و تمّ أمره، إلی أن

خلعه أينبك البدرى فى ثالث صفر سنة تسع و سبعين و سبعمائة بزكريّا بن إبراهيم.

ثمّ أعيد فى عشرين شهر ربيع الأول منها، فاستمرّ إلى أن خلعه الملك الظاهر برقوق فى أوّل شهر رجب سنة خمس و ثمانين و سبعمائة بعمر ابن إبراهيم، و لقّب بالواثق.

ثم أعاده فى عشرين شهر ربيع الأوّل سنة إحدى و تسعين و سبعمائة.

فاستمرّ فى الخلافة إلى أن مات، و تولىّ الخلافة بعده ابنه المستعين بالله العبّاس.

قلت: و لا نعلم خليفة، تخلّف من أولاده لصلبه خمسة غير المتوكل هذا، و هم:

المستعين العبّاس، ثمّ المعتضد داود، ثمّ المستكفى سليمان- و هما أشقّاء- ثمّ القائم بأمر اللّه حمزة- و هو شقيق المستعين بالله المتقدم ذكره- ثمّ المستنجد بالله يوسف، خليفة زماننا هذا، عامله اللّه باللطف.

و توفّى قاضى القضاة ولىّ الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد ابن الحسن بن محمد بن جابر بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن عبد الرحمن المعروف بابن خلدون الحضرمىّ الإشبيلىّ المالكىّ قاضى قضاة الدّيار المصرية بها،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۵۶

فى يوم الأربعاء خامس عشرين شهر رمضان فجاءة، و قد ولى القضاء غير مرّة، و مولده فى يوم الأربعاء أوّل شهر رمضان سنة اثنتين و ثلاثين و سبعمائة، بمدينة تونس، و كان إماما عالما بارعا فى فنون من العلوم، و له نظم و نثر، و قد استوعبنا ترجمته فى «المنهل الصّافى»، و ذكرنا قدومه إلى القاهرة، و مشايخه و غير ذلک، و من شعره من قصيدة [الكامل].

أسرفن فى هجرى و تعذيبى و أطلن موقف عبرتى و نحيبى

و أبين يوم البين وقفة ساعة لوداع مشغوف الفؤاد كئيب

و توفّى القاضى الأمير سعد الدين إبراهيم بن عبد الرزّاق بن غراب فى ليلة الخميس تاسع عشر شهر رمضان- و لم يبلغ من العمر ثلاثين سنة- بعد مرض طويل، و كان ولى نظر الخاصّ فى دولة الملک الظاهر برقوق، ثمّ الوزر، و نظر الجيش، و كتابة السّر، و الاستاداريّة فى دولة الملک النّاصر فرج الأولى.

ثمّ صار فى سلطنته الثّانية أمير مائة و مقدّم ألف بالدّيار المصريّة، و أمير مجلس، و لبس الكلفتاة و تقلد بالسيف، و حضر الخدمة السّلطانيّة مرّة واحدة، و نزل إلى داره فلزم الفراش إلى أن مات، و كان له مكارم و أفضال و همّة عالية، لم يسمع بمثلها فى عصره، مع عدم ظلمه بالنّسبة إلى غيره من أبناء جنسه.

و أمّا سفک الدّماء فلم يدخل فيه البتّة، و قد اقتدى جمال الدين يوسف البيرىّ طريقه فى المكارم و التّحشّم، غير أنّه أمعن فى سفک الدّماء حتى تجاوز الحدّ

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۵۷

- عليه من اللّه ما يستحقّه- و كان أصل سعد الدين هذا من أولاد الكتبة الأقباط بالإسكندرية، ثمّ اتصل بخدمة الأمير محمود بن علىّ الأستادار، و اختصّ به حتى صار عارفا بجميع أحواله، ثمّ بسفارته ولى نظر الخاص عوضا عن سعد الدّين بن أبى الفرج ابن تاج الدّين موسى، فى يوم الخميس تاسع عشر ذى الحجة سنة ثمان و تسعين و سبعمائة، و عمره إذ ذاک دون العشرين سنة، و لما استفحل أمره أخذ فى المرافعة فى أستاذه محمود المذكور فى الباطن، و لا زال يسعى فى ذلک حتى كان زوال نعمة محمود المذكور على يديه.

ثمّ ترقّى بعد ذلک حتى كان من أمره ما كان، فلم يعدّ له من المساوئ غير مرافعته فى محمود المذكور لا غير.

و توفّى الشيخ الإمام الأديب زين الدين طاهر بن الشيخ بدر الدين حسن بن حبيب الحلبىّ الموقّع الكاتب، فى ليلة سادس عشر ذى القعدة، و كان أديبا شاعرا مكثرا، و من شعره: [دو بيت]

أفدى رشا ما مرّ بى أو خطرا كالغصن رشيق

إلّا لقيت فى هواه خطرا باللّحظ رشيق

و السّالف و الوجه حكى قمرا آس و شقيق

مذ أسفر وجهه يحاكى قمرا للبدر شقيق

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۵۸

و له أيضا فى الملك الظاهر لمّا أمسك منطاشا. [السريع]

الملك الظاهر فى عزّه أذلّ من ضلّ و من طاشا

و ردّ فى قبضته طائعا نعيرا العاصى و منطاشا

و توفّى الوزير الصاحب تاج الدين عبد اللّه ابن الوزير الصاحب سعد الدين ابن البقرىّ القبطى المصرى تحت العقوبة، فى ليلة الاثنين ثامن عشرين ذى القعدة.

و توفّى الأمير سيف الدين قانى باى بن عبد اللّه العلائى الظاهرى، أحد أمراء الألوف بالدّيار المصريّة بها، فى ليلة الأحد حادى عشرين شوّال، بعد مرض طويل، و كان يعرف بالغطاس لكثرة هروبه و اختفائه، و كان من شرار القوم، كثير الفتن.

و هو أحد من كان سببا لأخذ تيمور لنك مدينة دمشق؛ لأنه اتّفق مع جماعة من الأمراء و الخاصّكية، و عاد الجميع إلى مصر ليسلطنوا الشيخ لاجين الجندى الجركسىّ، فخاف من بقى من الأمراء أن يتمّ لهم ذلک، و أخذوا السلطان الملك الناصر فرجا و خرجوا من دمشق على حين غفلة، و ساروا فى أثرهم حتى أدركوهم بمدينة غزة، و تركوا دمشق مأكلة لتيمور.

قلت: الدّالّ على الخير كفاعله، فهو شريک لتيمور فيما اقتحمه من سفک الدّماء و غيره.

و توفّى الأمير سيف الدّين بلاط بن عبد اللّه السعدى، أحد أمراء الطبلخانات بالديار المصرية- بطالا بها- فى رابع عشرين جمادى الأولى، و كان ساكنا عاقلا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۵۹

و توفّى الأمير سيف الدّين جقمق بن عبد اللّه الصفوى، حاجب حجاب دمشق- قتيلا- فى حادى عشر شهر ربيع الآخر، ضرب الأمير شيخ المحمودى عنقه، و كان من قدماء الأمراء، ولى حجوبيّة حلب فى دولة الملك الظاهر برقوق، ثمّ ولى نيابة ملطية، ثمّ تنقل فى عدة ولايات، إلى أن ولى حجوبيّة دمشق، و وقع بينه و بين الأمير شيخ وحشة، حتى كان من أمره ما كان.

و توفّى الأمير سيف الدين شيخ بن عبد اللّه السّليمانىّ الظاهرىّ المعروف بالمسرطن، فى حادى عشر شهر ربيع الآخر حارج دمشق، بعد أن صار أمير مائة و مقدّم ألف بديار مصر، ثمّ نائب صفد، ثمّ نائب طرابلس، و وقع له أمور.

و شيخ هذا، هو ثانى من سمّى بهذا الاسم و اشتهر، و الأوّل شيخ الصّفوىّ الخاصكىّ المقدم ذكره، و الثالث هو شيخ المحمودىّ الملك المؤيد- انتهى.

و توفّى الوزير الصاحب تاج الدين عبد الرّزّاق بن أبى الفرج بن نقولا الأرمنىّ الملكىّ فى رابع شهر ربيع الآخر، بعد ما ولى عدّة وظائف.

كان أوّلا صيرفيّا بقطيا، ثمّ صار كاتبا بها، ثم ولى نظرها، ثمّ استقرّ وزيرا بالدّيار المصرية، ثم أستادارا، ثمّ ولى كشف الوجه البحرى.

قال المقريزى:

كان أولا يسمى بالمعلم، ثمّ سمّى بالقاضى، ثمّ نعت بالصاحب، ثمّ

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۶۰

بالأمير، ثمّ بملک الأمراء، كلّ ذلک فى مدّة يسيرة من السنين- انتهى.

و توفّى الطاغية تيمورلنک كور كان، و قد تقدّم نسبه فى ترجمة الملک الناصر فرج الأولى، على اختلاف كبير فى نسبه.

مات فى ليلة الأربعاء تاسع عشر شعبان فى هذه السنة- و قيل فى الماضية- و هو نازل بضواحى أترار بالقرب من آهنگران، و معنى «آهنگران» باللغة العربية «الحدّادون» و «آهنگر»: الحداد، و «كوركان» معناه صهر الملوك، و «لنك» هو الأعرج باللغة العجميّة- انتهى.

و كان سبب موته أنّه خرج من بلاده لأخذ بلاد الصّين- و قد انقضى فصل الصيف و دخل الخريف، و كتب إلى عساكره أن يأخذوا الأهبة لمدة أربع سنين، فاستعدوا لذلك و أتوه من كلّ جهة، و صنع له خمسمائة عجلة لحمل أثقاله.

ثمّ خرج من سمرقند فى شهر رجب و قد اشتد البرد، و نزل على سيحون و هو جامد، فعبره و مرّ سائرا، فأرسل اللّه عليه من عذابه جبالا من الثلج التى لم يعهد بمثلها مع قوّة البرد الشديد، فلم يبق أحد من عساكره حتى امتلأت آذانهم و عيونهم و خياشيمهم، و آذان دوابهم و أعينها من الثلج، إلى أن كادت أرواحهم تذهب.

ثمّ اشتدت تلك الرّياح، و ملأ الثلج جميع الأرض- مع سعتها- فهلكت بهائمهم. و جمد كثير من النّاس، و تساقطوا عن خيولهم موتا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۶۱

و جاء بعقب هذا الثّلج و الرّيح أمطار كالبحار، و تيمور مع ذلك لا يرقّ لأحد، و لا يبالى بما نزل بالناس، بل يجدّ فى السّير، فما أن وصل تيمور إلى مدينة أترار حتى هلك خلق كثير من قوّة سيره.

ثمّ أمر تيمور أن يستقطر له الخمر حتى يستعمله بأدوية حارّة و أفاويه لدفع البرد و تقوية الحرارة، فعمل له ما أراد من ذلك.

فشرع تيمور يستعمله و لا يسأل عن أخبار عساكره و ما هم فيه، إلى أن أثّرت حرارة ذلك و أخذت فى إحراق كبده و أمعائه، فالتهب مزاجه حتى ضعف بدنه، و هو يتجلد و يسير السّير السّريع، و أطبّاؤه يعالجونه بتدبير مزاجه إلى أن صاروا يضعون الثلج على بطنه؛ لعظم ما به من التلهب و هو مطروح مدة ثلاثة أيام، فتلفت كبده، و صار يضطرب و لونه يحمرّ، و نساؤه و خواصّه فى صراخ، إلى أن هلك إلى لعنة اللّه و سخطه، فلبسوا عليه المسوح، و مات و لم يكن معه أحد من أولاده سوى حفيده سلطان خليل ابن ميران شاه بن تيمور و سلطان حسين ابن أخته، فأرادا كتمان موته فلم يخف ذلك على الناس، فتسلطن خليل المذكور بعد جده تيمور، و بذل الأموال، و عاد إلى سمرقند برمّة جده تيمور.

فخرج النّاس إلى لقائه لابسين المسوح بأسرهم، و هم يبكون و يصرخون، و دخل و رمّة تيمور بين يديه فى تابوت أبنوس، و الملوك و الأمراء و كافة النّاس مشاة بين يديه، و قد كشفوا رءوسهم و عليهم المسوح، إلى أن دفنوه على حفيده محمد سلطان بمدرسته و أقيم عليه العزاء

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۶۲

أيّاما، و قرئت عنده الختمات، و فرّقت الصّدقات، و مدّت الحلاوات و الأسمطة بتلك الهمم العظيمة، و نشرت أقمشته على قبره، و علّقوا سلاحه و أمتعته على الحيطان حوالى قبره، و كلّها ما بين مرصع و مكلل و مزركش، فى تلك القبّة العظيمة، و علّقت بالقبّة المذكورة قناديل الذّهب و الفضّة، من جملتها قنديل من ذهب زنته أربعة آلاف مثقال- و هو رطل بالسّمرقندىّ، و عشرة أرطال بالدّمشقىّ، و أربعون رطلا بالمصرىّ- و فرشت المدرسة بالبسط الحرير و الدّيباج.

ثمّ نقلت رمّته إلى تابوت من فولاذ عمل بشيراز، و هو على قبره إلى الآن، و تحمل إليه النّذورة من الأعمال البعيدة، و يقصد قبره للزّيارة و التّبرّك به، و يأتى قبره من له حاجة و يدعو عنده.

و إذا مرّ على هذه المدرسة أمير أو جليل خضع و نزل عن فرسه إجلالا لقبره، لما له فى صدورهم من الهيبة.

و كان تيمور طويل القامة، كبير الجبهة، عظيم الهامة، شديد القوّة أبيض اللّون مشربا بحمرة، عريض الأكتاف، غليظ الأصابع، مسترسل اللّحية، أشلّ اليد، أعرج اليمنى، تتوقّد عيناه، جهير الصّوت، لا يهاب الموت، قد بلغ الثمانين، و هو متمتّع بحواسه و قوّته.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۶۳

و كان يكره المزّاح و يبغض الكذّاب، قليل الميل إلى اللهو، على أنّه كان يعجبه الصوت الحسن، و كان نقش خاتمه «رستى. رستى» و

معناه:

صـدقت نجوت، و كـان له فراسـات. عجيبـة، و سـعد عظيم، و حـظ زائـد فى رعيته، و كان له عزم ثابت، و فهم دقيق، محجاجا سـريع الإدراك، متيقّظا يفهم الرّمز و يدرك اللّمحة، و لا يخفى عليه تلبيس ملبّس، و كان إذا عزم على شيء لا ينثنى عنه؛ لئلّا ينسب إلى قلة الثبات، و كان يقال له صاحب قران الأقاليم السبعة، و قهرمان الماء و الطين، و قاهر الملوك و السّلاطين، و كان مغرما بسماع التّاريخ و قصـص الأنبيـاء عليهم السّلام ليلاـ و نهـارا، حتى صـار- لكثرة سـماعه للتّاريـخ- يردّ على القـارى إذا غلـطّ فيها، و كان يحبّ العلم و العلماء، و يقرّب السّادة الأشراف، و يدنى أرباب الفنون و الصّنائع.

و كان انبساطه بهيبة و وقار، و كان يباحث أهل العلم و ينصف فى بحثه، و يبغض الشّعراء و المضحكين، و يعتمد على أقوال الأطبّاء و المنجمين، حتى إنّه كان لا يتحرّك بحركة إلا باختيار فلكىّ.

و كان يلازم لعب الشّطرنج- و قد خرجنا عن المقصود فى التّطويل فى ترجمة تيمور المذكور، استطرادا لكثرة الفائدة، و قد استوعبنا أحواله مستوفاة فى «المنهل الصّافى» فلينظر هناك- انتهى.

أمر النّيل فى هذه السّنة: الماء القديم ذراعان سواء، مبلغ الزّيادة ثمانية عشر ذراعا و ثلاثة و عشرون إصبعا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۶۴

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۰۹]

السنة الثانية من ولاية الملك الناصر فرج بن برقوق الثانية على مصر و هى سنة تسع و ثمانمائة.

فيها توفّى الشّريف بدر الدّين حسن بن محمد بن حسن الحسنىّ العلوىّ النّسابة شيخ خانقاة بيبرس، فى ليلة السّبت سادس عشر شوال عن سبع و ثمانين سنة.

و توفّى الشيخ الإمام العالم بدر الدّين أحمد بن محمد الطّنبذىّ الشافعىّ، فى حادى عشرين شهر ربيع الأول، و كان من أعيان الفقهاء الشافعية، معدودا من العلماء الأذكياء، غير أنّه كان مسرفا على نفسه، يميل إلى اللذّات التى تهواها النفوس، و التّهتكات.

قلت: و هو من النوادر على قول الحافظ الذهبىّ؛ فإنه قال:

النوادر ثلاثة:

شريف سنى، و محدّث صوفى، و عالم متهتّك.

و توفّى الشيخ الإمام العالم العلامة زادة الخرزبانىّ العجمىّ الحنفىّ، شيخ الشيوخ بخانقاة شيخون فى يوم الأحد آخر ذى القعدة، و دفن من يومه بخانقاة شيخون، و كان من أعيان السّادة الحنفيّة، و له اليد الطولى فى العلوم العقلية و الأدبيّات، علّامة زمانه فى ذلك، استدعاه الملك الظّاهر برقوق من بغداد إلى الدّيّار المصرية لعظم صيته،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۶۵

و قدم القاهرة و تصدّى للإقراء و التّدريس سنين عديدة، و انتفع به عامّة الطلبة من كلّ مذهب- رحمه اللّه تعالى- و هو غير زادة والد الشيخ محبّ الدين الإمام ابن مولانا زادة، و قد تقدّم ذكر ذلك فى حدود سنة تسعين و سبعمائة، و اسمه أحمد، و شهرته زادة، أمّا زادة هذا فإنّ اسمه زادة لا غير.

و توفّى الأمير ركن الدين عمر بن قايماز الأستادار، فى يوم الاثنين أوّل شهر رجب، و قد تنقّل فى عدّة وظائف [هى]:

شدّ الدّواوين، و الوزر، و الأستاداريّة- غير مرّة- و هو صاحب السّبيل خارج الحسينيّة، الذى جدّده زين الدين يحيى الأستادار فى زماننا هذا.

و توفّى ملك العرب سيف الدّين نعير بن حيّار بن مهنّا، قتله الأمير جكم من عوض نائب حلب بقلعة حلب، بعد أن أمسكه و سجنه، و

کان من أجلّ ملوک العرب، و قد تقدّم ذکره فی عدّة مواضع من هذا التاریخ.

و توفّی الأمیر ناصر الدّین محمد بن سنقر البکجریّ أستادار السّلطان فی جمادی الآخرة بحلب، و بیت ابن سنقر بیت معروف بالریاسة و التّحشم.

و توفّی قاضی القضاة علاء الدّین علی ابن قاضی القضاة بهاء الدّین أبی البقاء محمد بن عبد البر السبکی الشافعیّ، قاضی قضاة دمشق، فی لیلة الأحد ثانی عشر شهر ربیع الآخر بدمشق.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۶۶

و توفّی الشیخ شهاب الدین أبو العبّاس أحمد بن محمد بن الجواشنیّ، الحنفیّ بدمشق، فی لیلة الأحد سادس عشر جمادی الآخرة.

و توفّی الشیخ محمد بن أحمد بن محمد المعروف بابن فهید المغربیّ، فی یوم الاثنین رابع عشرین جمادی الآخرة، و کان للناس فیه اعتقاد، و کان له تنسّک و عبادة، و صحب الشیخ عبد اللّه الیافعیّ و خدمه مدّة بمکة، ثمّ قدم القاهرة، و صحب الأمیر طشتمر العلائیّ الدّوادار فی أیّام الأشرف شعبان، فنوّه طشتمر بذکره حتی صار یعدّ من الأعیان الأغنیاء إلی أن مات.

و توفّی قاضی القضاة زین الدین أبو هریرة عبد الرحمن بن یوسف بن أحمد بن الحسن بن سلیمان بن فزارة بن بدر بن محمد بن یوسف الکفری - بفتح الکاف- الحنفیّ قاضی قضاة دمشق ثمّ الدّیار المصریّة، فی ثالث شهر ربیع الآخر، و مولده فی سنة خمسین و سبعمائة، و أحضر علی محمد بن إسماعیل بن الخباز، و سمع علی بشر بن إبراهیم بن محمود البعلبکیّ، و تفقّه بعلماء عصره حتی برع فی الفقه و الأصلین و العربیة و شارک فی عدّة فنون، و أفتی و درّس، و تولّی قضاء دمشق هو و أبوه و أخوه و جدّه، ثم قدم القاهرة فی سنة ثلاث و ثمانمائة أو بعدها بیسیر، و ولی قضاء الدّیار المصریة، و حمدت سیرته إلی أن مات- رحمه اللّه تعالی.

أمر النّیل فی هذه السّنة: الماء القدیم ذراعان و نصف، مبلغ الزیادة تسعة عشر ذراعا و نصف.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۶۷

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۱۰]

السنة الثالثة من ولایة الملک الناصر فرج بن برقوق الثانیة علی مصر و هی سنة عشر و ثمانمائة.

فیها تجرّد السلطان إلی البلاد الشامیة سفرته الرّابعة التی أمسک فیها الأمیر شیخا المحمودیّ، و الأتابک یشبک الشّعبانیّ، ثم فرّا من سجن قلعة دمشق حسبما تقدم.

و فیها توفّی الأمیر سیف الدین سودون بن عبد اللّه الظاهریّ المعروف بالطّیار، أمیر سلاح، فی لیلة الثلاثاء ثامن عشرین شوّال، و حضر السّلطان الملک النّاصر الصلاة علیه بمصلاة المؤمنی، و کان مشکور السیرة، شجاعا، ینتدب للمهمّات، و له محبة فی أهل العلم و الصلاح، و سمّی بالطیّار لأنه خرج من دیار مصر فی لیلة موکب و وصل إلی دمشق، ثمّ عاد إلی مصر فی لیلة موکب آخر علی خیل البرید، و معه دواداره الأمیر أسنبغا الطّیاری، و هذا السّیر لم یسمع بمثله فیما مضی من الأعصار من أنه یقطع ثمانین بریدا فی نحو أربعة أیّام.

و هذا الخبر مستفاض بین النّاس یعرفه کل أحد، غیر أننی لم أسأل عن ذلک من الأمیر أسنبغا الطّیاریّ المذکور تهاونا حتی مات، غیر أنّ ولده الشهابی أحمد أخبرنی بذلک هو و غیره- انتهی.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۶۸

و توفّی الشیخ الإمام العالم العلّامة فرید عصره سیف الدین یوسف ابن محمد بن عیسی السیرامیّ العجمیّ الحنفیّ شیخ الشیوخ بالمدرسة الظاهریة البرقوقیّة ببین القصرین، فی لیلة السبت حادی عشرین شهر ربیع الأوّل بالقاهرة، و کان منشؤه بتبریز، و أقام بها حتی طرقها تیمورلنک، فخرج منها و سار إلی حلب و أقام بها إلی أن استدعاه الملک الظّاهر برقوق، و قرّره فی مشیخة مدرسة البرقوقیة

ببين القصرين بعد وفاة العلّامة علاء الدين السيرامىّ [فى جمادى الأولى] فى سنة تسعين و سبعمائة، فدام بها إلى أن مات فى هذه السّنة، و تولى المشيخة بعده ولده العلّامة نظام الدين يحيى، الآتى ذكر وفاته فى سنة ثلاث و ثلاثين و ثمانمائة.

و توفّى الأمير سيف الدين شاهين بن عبد اللّه الظاهرىّ، أحد مقدمى الألوف بالديار المصريّة- المعروف بقصقا بن قصير- فى ليلة الجمعة ثامن ذى القعدة، و كان من أشرار القوم القائمين فى الفتن، و فرح السلطان بموته.

و توفّى الأمير الطواشىّ زين الدين مقبل بن عبد اللّه [الظّاهرى المعروف] بالرومىّ، زمام الدّار السلطانىّ، فى يوم السبت أوّل ذى الحجة، و ترک مالا كثيرا، و هو صاحب المدرسة بخط البندقيّين من القاهرة، و يقام بها خطبة و جمعة.

و توفّى شمس الدّين محمد الشّاذلىّ الإسكندرىّ محتسب القاهرة و مصر فى يوم الجمعة ثانى صفر.

قال الشيخ تقى الدين المقريزىّ: و كان عاريا من العلوم، كان

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۶۹

خرد فوشيّا بالإسكندرية فترّقى بالبذل و البرطيل- انتهى.

و توفّى الأمير ناصر الدين محمد ابن الأمير جمال الدين محمود الأستادار- قتيلا- بالقاهرة، و كان من جملة أمراء الطبلخانات فى حياة والده، و ولى نيابة الإسكندريّة، ثمّ نكب مع والده، و صودر، و أطلق بعد مدّة إلى أن اختفى بعد واقعة على باى لأمر أوجب ذلک، و هرب إلى الشّام، و أقام به مدّة، ثمّ قدم إلى القاهرة متنكّرا، فدلّ عليه فأخذ و قتل، و كان غير مشكور السّيرة.

و توفّى الأمير سيف الدين سودون بن عبد اللّه الحمزاوى الظاهرى الدّوادار الكبير بسيف الشّرع بالقاهرة، و كان أصله من مماليک الملک الظّاهر برقوق و خاصكيته، ثمّ ترّقى بعد موته إلى أن ولى نيابة صفد بعد أمور وقعت له بمصر، فدام بصفد مدّة إلى أن طلب إلى مصر. و استقرّ خازندارا، ثمّ شادّ الشراب خاناة، ثمّ صار دوادارا كبيرا بعد خروج الملک النّاصر فرج من بيته و عوده إلى الملک، عوضا عن سودون الماردانى، و دام على ذلک إلى أن خرج الملک الناصر إلى البلاد الشّامية و عاد، فتخلف عنه سودون الحمزاوى هذا مغاضبا له.

و دام بالبلاد الشّاميّة إلى أن قدم غزّة هو و جماعة من الأمراء و طرقهم الأمير شيخ المحمودىّ فواقعوه فقتل إينال باى بن قجماس و غيره

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۷۰

من الأمراء، و قبض على سودون هذا بعد أن قلعت عينه، و سجنه شيخ إلى أن تجرّد الملک النّاصر إلى الشّام أخذه و عاد به إلى مصر، و طلب القضاة و أثبت عندهم إراقة دمه لقتله إنسانا ظلما. فقتل فى شهر ربيع الآخر، و قتل معه دواداره بربغا، و سودون الحمزاوى هذا هو أستاذ الأمير قانى باى الحمزاوى نائب دمشق الآن.

ثمّ قتل السلطان جماعة من الأمراء ممن كان قبض عليهم و هم:

الأمير آقبردى، و الأمير جمق، و الأمير أسنباى التركمانى، و الأمير أسنباى أمير آخور، و قد تقدّم ذكر قتل الجميع فى ترجمة الملک الناصر غير أنّنا نذكرهم هنا ثانيا كون هذا المحل مظنّة الكشف عن ذلک.

و توفّى الأمير سيف الدين منطوق نائب قلعة دمشق- قتيلا- و سبب قتله أنّ الملک الناصر لمّا أمسک شيخا و يشبک و حبسهما عنده بقلعة دمشق أطلقهما و نزل الجميع إلى مدينة دمشق؛ فاختفى شيخ بالمدينة و خرج منطوق هذا و يشبک، فندب إليهم الملک الناصر الأمير بيغوت، فلحق بيغوت منطوقا هذا لثقل بدنه، و فر يشبک، فقطع بيغوت رأسه و حمله إلى الملک الناصر.

و فيها أيضا قتل الأتابک يشبک الشّعبانىّ، و الأمير جركس القاسمىّ المصارع، قتلهما الأمير نوروز الحافظىّ على بعلبکّ فى شهر ربيع الآخر، و قد مرّ كيفيّة قتلهما مفصّلا فى ترجمة الملک النّاصر فلا حاجة للتكرار هنا ثانيا، و كلّ منهما قد مرّ ذكره فى ترجمة الملک النّاصر فى غير موضع، و أيضا ففى شهرتهما ما يغنى عن ذكرهما- انتهى.

أمر النّيل فى هذه السنة: الماء القديم ثلاثة أذرع و نصف، مبلغ الزّيادة تسعة عشر ذراعا و عشرة أصابع.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۷۱

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۱۱]

السنة الرابعة من ولاية الملک الناصر فرج بن برقوق الثانية على مصر و هى سنة إحدى عشرة و ثمانمائة.

فيها توفّى قاضى القضاة كمال الدين أبو حفص عمر بن إبراهيم بن محمد [بن عمر ابن عبد العزيز] الحلبىّ الحنفى ابن أبى جرادة، المعروف بابن العديم، قاضى قضاة حلب ثمّ الدّيار المصريّة بها- و هو قاض- فى ليلة السبت ثانى عشر جمادى الآخرة، و مولده بحلب فى سنة إحدى و سبعين و سبعمائة، و دفن بالحوش المجاور لتربة طشتمر حمّص أخضر بالصّحراء.

و تولّى القضاء من بعده ابنه قاضى القضاة ناصر الدين محمد بسفارة الوالد؛ لكونه كان متزوّجا بإحدى أخواتى، و كان القاضى كمال الدّين المذكور رئيسا عالما فاضلا حشما، وجيها عند الملوک و قورا، و له مكارم و أفضال، و قد ثلبه الشيخ تقىّ الدّين المقريزىّ بأمور هو برىء عنها؛ لأمر كان بينهما- عفى اللّه عنهما.

و توفّى الأمير سيف الدّين يلبغا بن عبد اللّه السّالمىّ الظّاهرىّ الأستادار- خنقا- بعد عصر يوم الجمعة بسجن الإسكندريّة.

قال المقريزىّ: «و كان مخلّطا خلط العمل الصّالح بعمل سيّئ» و ساق حكاياته فى عدّة أسطر، و قد ذكرنا معنى كلامه و أزيد فى حقّ السّالمىّ فى ترجمة الملک الظّاهر برقوق، ثمّ فى ترجمة الملک النّاصر مفصّلا إلى يوم وفاته، و فى ذلک كفاية عن الإعادة.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۷۲

و هو ممّن قتله جمال الدّين الأستادار، و كان يلبغا المذكور له همّة عالية، و معرفة تامّة، و عقل و تدبير مع دين و عبادة هائلة، و عفّة عن المنكرات و الفروج، و قد ولى الأستاداريّة غير مرّة، و نفذ الأمور على أعظم وجه و أتمّ حرمة حسبما تقدّم ذكره.

و توفّى الأمير سيف الدّين بشباى بن عبد اللّه من باكى الظّاهرىّ رأس نوبة النّوب فى ليلة الأربعاء رابع عشرين جمادى الآخرة، و دفن بالقرافة، و هو أحد أعيان المماليک الظّاهريّة الخاصّكيّة، و ترقّى من بعده إلى أن صار حاجبا بدمشق، ثمّ حاجبا ثانيا بمصر، ثمّ ولى حجوبيّة الحجّاب بها، ثمّ نقل إلى رأس نوبة النّوب، و كان من أعيان الأمراء و أكابر المماليک الظّاهرية، غير أنّ المقريزىّ لمّا ذكر وفاته قال: و كان ظالما غشوما غير مشكور السّيرة- انتهى.

و توفّى الأمير سيف الدين أرسطاى بن عبد اللّه [الظاهرى] رأس نوبة النّوب- كان- ثمّ نائب إسكندريّة بها، فى نصف شهر ربيع الآخر، و كان جليل القدر، عاقلا سيوسا، طالت أيّامه فى السعادة إلّا أنه كان يرتفع ثمّ ينحطّ، وقع له ذلک غير مرّة.

و توفّى الأمير الكبير ركن الدين بيبرس بن عبد اللّه، و ابن أخت الملک الظّاهر برقوق- قتيلا- بسجن الإسكندريّة، و قتل معه الأمير سودون الماردانىّ الدّوادار الكبير، و الأمير بيغوت نائب الشّام- كان- و قد مرّ من ذكر هؤلاء الثّلاثة نبذة كبيرة تعرف منها أحوالهم لا سيّما عند خلع الملک النّاصر فرج و سلطنة أخيه المنصور عبد العزيز.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۷۳

و توفّى الشّريف ثابت بن نعير بن منصور بن جمّاز بن شيحة الحسينىّ، أمير المدينة النبويّة- على ساكنها أفضل الصّلاة و السلام- فى صفر، و تولّى إمرة المدينة من بعده أخوه عجلان بن نعير.

و توفّى الوزير الصّاحب فخر الدّين ماجد- و يسمّى أيضا محمد- بن عبد الرّزّاق ابن غراب فى عشر ذى الحجّة- مقتولا- بيد جمال الدين الأستادار.

و كان فخر الدّين هذا أسنّ من سعد الدين أخيه، غير أنّ سعد الدين كان نوعا و هذا نوع آخر، كان فيه حدّة مزاج، و شراسة خلق، بضدّ ما كان فى أخيه سعد الدين، و كان يلثغ بالجيم، يجعلها زايا، فكان إذا طلب أحدا يقول: «جبّوا» إلىّ و يكرّرها، و هو يبدّل الجيم

بالزّاى فتضحك الناس من ذلك أوقاتا، و قد تنقّل فى عدّة وظائف كالوزر، و نظر الجيش، و الخاصّ فيما أظنّ.

و توفّى الأديب شمس الدين محمد بن إبراهيم بن بركة العبدلىّ الدّمشقىّ الشّهير بالمزيّن [صنعته] الشاعر المشهور، فى شعبان، و مولده فى سنة إحدى و ثلاثين و سبعمائة بدمشق.

قال لى غير واحد من أصحابه: كان شيخا ظريفا فاضلا أديبا، معاشرا للأكابر و الأعيان، و رأى الشّيخ جمال الدين محمد بن نباتة، و ابن الوردىّ،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۷۴

و الصّفدىّ و غيرهم، و كان له شعر رائق، من ذلك أنشدنا الشيخ جمال الدين عبد اللّه الدّمشقىّ قال: أنشدنى الأديب شمس الدين المزيّن من لفظه لنفسه [الوافر]

تقول مخدّتى لمّا اضطجعنا و وسدّنى حبيب القلب زنده

قصدتم عند طيب الوصل هجرى خذونى تحت رأسكم مخدّه

و له فى دواة: [السريع]

أنا دواة يضحك الجود من بكا يراعى جلّ من قد براه

دلّوا على جودى من مسّه داء من الفقر فإنّى دواه

قلت: و هذا يشبه قول القائل، و لم أدر من السّابق لهذا المعنى:

هذى دواة للعطا و السّخا و منبع الخير و بحر الحياه

قد فتحت فاها و قالت لنا من مسّه الفقر فإنّى دواه

أمر النّيل فى هذه السنة: الماء القديم أربعة أذرع سواء، مبلغ الزّيادة سبعة عشر ذراعا و إصبع واحد.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۷۵

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۱۲]

السنة الخامسة من ولاية الملك الناصر فرج بن برقوق الثانية على مصر و هى سنة اثنتى عشرة و ثمانمائة.

فيها تجرّد الملك النّاصر إلى البلاد الشامية تجريدته الخامسة التى حصر فيها الأمير شيخا و رفقته بصرخد.

و فيها كانت قتلة جمال الدين يوسف بن أحمد بن محمد بن أحمد بن جعفر بن قاسم البيرىّ البجاسىّ الأستادار، فى ليلة الثلاثاء حادى عشر جمادى الآخرة، بعدما أخذ منه نيّف على ألف ألف دينار فى أيّام مصادرته، و هو تحت العقوبة على نقذات متفرّقة. و قد تقدم ذكر مسكه فى ترجمة الملك الناصر فرج عند قدومه من الشّام بمدينة بلبيس، و كان ظالما جبّارا سفّاكا الدّماء مقداما، و كان أعور قصيرا دميما كره المنظر. و كان أوّلا يتزيّا بزىّ الفقهاء، ثمّ تزيّا بزىّ الجند، و خدم بلاصيّا [عند الشيخ على كاشف، ثمّ عند غيره] و لا زال يترقّى حتى كان من أمره ما كان، و هو أحد من كان سببا لخراب البلاد؛ من كثرة ما قتل من مشايخ العربان و أرباب الأدراك، و استولى على أموالهم، و أمّا من قتله من الكتّاب و الأعيان فلا يحصى ذلك كثرة، و حسابه على اللّه تعالى.

و توفّى الشيخ الإمام العالم العلّامة نصر اللّه بن أحمد بن محمد بن عمر الشّشترى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۷۶

البغدادىّ الحنبلىّ مدرس المدرسة الظاهرية- برقوق- بالقاهرة فى حادى عشرين صفر.

و كان إماما عالما فقيها محدّثا، أفتى و درّس سنين ببغداد، ثمّ بالقاهرة، و هو والد قاضى القضاة عالم زماننا محبّ الدين أحمد بن نصر اللّه الآتى ذكره فى محله إن شاء اللّه تعالى.

و توفّى الأمير سيف الدين آقباى بن عبد اللّه الطّرنطائىّ الظاهرى رأس نوبة الأمراء، المعروف بآقباى الحاجب- لطول مكثه فى الحجوبيّة- فى ليلة الأربعاء سابع عشر جمادى الآخرة.

و نزل السّلطان الملك النّاصر إلى داره، ثمّ تقدّم راكبا إلى مصلّاة المؤمنىّ فصلّى عليه، ثمّ شهد دفنه، و ترك آقباى مالا كثيرا، أخذ الملك النّاصر غالبه، و كان آقباى المذكور عاقلا، سيوسا عفيفا عن المنكرات إلّا أنّه كان بخيلا شرها فى جمع المال.

و توفّى الأمير سيف الدين طوخ بن عبد اللّه [الظاهرى] الخازندار، و هو أمير مجلس، فى آخر جمادى الآخرة بالقاهرة، و العامّة تسمّى طوخ هذا «طوق الخازندار» و كان من أعيان الأمراء، و له الكلمة فى الدّولة.

و توفّى الأمير سيف الدين بلاط بن عبد اللّه، أحد مقدّمى الألوف بالدّيار المصريّة- مقتولا بالإسكندرية- لم أقف له على ترجمة و لم أعرف من حاله شيئا غير ما ذكرت.

و توفّى السّيّد الشّريف جمّاز بن هبة اللّه بن جمّاز بن منصور الحسينىّ أمير المدينة النّبويّة- مقتولا- فى جمادى الآخرة بالفلاة، و هو فى عشر السّتين، و كان ولى إمرة المدينة ثلاث مرار، آخرها فى سنة خمس و ثمانمائة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۷۷

و توفّى الشيخ شمس الدين محمد بن عبد اللّه بن أبى بكر القليوبىّ الشّافعىّ شيخ شيوخ خانقاة سرياقوس- بها- فى يوم الخميس ثانى عشرين جمادى الأولى، و كان فقيها فاضلا، و له مشاركة فى فنون.

و توفّى السيّد الشّريف أحمد بن ثقبة بن رميثة بن أبى نميّ الحسنىّ المكّىّ بمكة فى المحرم.

و كان الشريف عنان بن مغامس فى ولايته الأولى على مكة أشركه معه، ثمّ وقع له أمور حتى مات و هو مكحول، و كان ابن أخته الشريف محمد بن عجلان، و كبيش بن عجلان قد خافا منه فأكحلاه، و قتل ابن أخته المذكور بعد ثلاثة أشهر، و كبيش المذكور بعد ستة أشهر.

و توفّى أمير زة محمد بن أمير زة عمر شيخ ابن الطاغية تيمور لنك فى المحرّم- مقتولا- على يد بعض وزرائه، و كان مشكور السّيرة، و قام من بعده بمملكة جغتاى أخوه أمير زة إسكندر شاه بن عمر شيخ بن تيمور لنك.

و من غريب الاتّفاق أنّ إسكندر شاه المذكور، لمّا ملك بعد قتل أخيه محمد المقدّم ذكره أحضر من كان عمل على قتله، و وبخه فى الملأ، فأجابه الرجل بأن قال: و ما عملت معك إلّا خيرا، لولا قتلته ما نابك الملك، فأسرع إسكندر شاه بقتله خوفا من أن يتّهمه أحد بقتل أخيه المذكور فى الباطن.

أمر النّيل فى هذه السنة: الماء القديم خمسة أذرع سواء، مبلغ الزّيادة عشرون ذراعا سواء.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۷۸

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۱۳]

السنة السادسة من ولاية الملك الناصر فرج بن برقوق الثانية على مصر و هى سنة ثلاث عشرة و ثمانمائة.

فيها كان الطاعون بالديار المصريّة، و مات منه عدة كبيرة من الناس.

و فيها تجرّد السّلطان الملك الناصر إلى البلاد الشّامية تجريدته السادسة، و حاصر شيخا و نوروزا بالكرك بعد أن وصل فيها إلى أبلستين و عاد.

و فيها استقرّ الوالد فى نيابة الشّام ثالث مرّة، و استقرّ شيخ فى نيابة حلب، و نوروز فى نيابة طرابلس.

و فيها توفّى الرئيس مجد الدين عبد الغنى بن الهيصم ناظر الخواصّ الشريفة بالدّيار المصرية فى ليلة الأربعاء العشرين من شعبان بعد قدومه من دمشق بأيّام، و هو والد الصّاحب أمين الدين إبراهيم بن الهيضم، و أخو الصّاحب تاج الدّين عبد الرّزّاق الآتى ذكرهما فى

محلهما.

و توفّى الأمير سيف الدين قجاجق بن عبد اللّه [الظاهرى] الدّوادار الكبير فى سادس المحرم، و دفن بتربته التى أنشأها بالصّحراء، و كان من أصاغر خاصّكيّة الملك الظاهر برقوق و مماليكه، و ترقّى فى الدولة الناصرية حتى ولى الدّواداريّة الكبرى بعد الأمير سودون الحمزاوىّ، و كان مليح الشكل، لم يشهر بشجاعة و لا إقدام، و لهذا المعنى، و لعدم شرّه رقّاه الملك الناصر و اختصّ به.

حضر مرّة عند جمال الدين البيرىّ الأستادار، و كان بينهما صحبة أكيدة، و كان بإحدى عينى جمال الدين خلل، فجلس قجاجق بعد أن سلّم على جمال الدين من

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج١٣، ص: ١٧٩

جهة عينه الذّاهبة، و اشتغل جمال الدين بمباشرته بسرعة لأجل قجاجق المذكور، و أخذ يكتب على القصص و يرميها لينهى أمره، فأخذ قجاجق قصّة منها و رمّل عليها، فعرف أصحاب جمال الدين ما فعله قجاجق المذكور فقام إليه و أهوى على يده ليقبّلها ثمّ قدّم له تقدمة هائلة.

و تكلّم الناس بهذه الحكاية، فصار من هو أجنبى عن الرياسة و مداخلة الملوك، و عديم المعرفة برتب أرباب الوظائف يقول: كان قجاجق يرمّل على جمال الدين، و كيف ذلك و الدّوادار الكبير لا يرمّل على السّلطان و إنما يرمّل على كتابة السلطان رأس نوبة النّوب؟! و فى هذا كفاية.

و بالجملة فإنّ هذه الحكاية تدلّ على أنّ قجاجق كان ساقط المروءة لأنّ قردم الخازندار كان أنزل رتبة من قجاجق و لم يدخل إلى جمال الدين و لم يسأله حاجة فى عمره، و عجز جمال الدين فى ترضّيه فلم يرض و لم يدخل إليه، فأين هذا من ذاك؟!- انتهى.

و توفّى قاضى القضاة تقىّ الدين عبد الرحمن ابن تاج الرّياسة محمد بن عبد الناصر المحلّىّ الدّميرىّ الزّبيرىّ الشافعىّ فى يوم الأحد أوّل شهر رمضان، و مولده فى سنة أربع و ثلاثين و سبعمائة.

ولى قضاء الديار المصرية بعد الصّدر المناوىّ نحو ثلاث سنين، و حسنت سيرته لمعرفته بالشروط و الأحكام، و لعفّته أيضا عن كلّ قبيح.

و كان نشأ ببلده بالزّبيريّات من قرى الغربية من أعمال القاهرة، و سلك النواحى، و طلب العلم، و سمع على أبى الفتح الميدومىّ و غيره، و قرأ على أبيه القراءات و غيره، و تفقّه بجماعة.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج١٣، ص: ١٨٠

ثمّ قدم القاهرة، و تزوّج بابنة قاضى القضاة موفّق الدين عبد اللّه الحنبلىّ، و باشر توقيع الحكم مدّة طويلة.

ثمّ ناب فى الحكم عن القضاة بالقاهرة دهرا، و علا سنّه، و عرف بالديانة و الصّيانة، إلى أن طلبه الملك الظاهر برقوق فى يوم الخميس ثالث عشرين جمادى الأولى سنة تسع و تسعين و سبعمائه على حين غفلة، و فوّض إليه قضاء القضاة الشافعية عوضا عن المناوىّ بحكم عزله.

و دام فى القضاء حتى صرف أيضا بالمناوىّ فى شهر رجب سنة إحدى و ثمانمائة، فلزم المذكور داره، و ترک ركوب البغلة و صار يمشى فى الطّرقات، و طرح الاحتشام إلى أن مات- رحمه اللّه- و دفن بتربة الصّوفيّة خارج القاهرة.

و توفّى ملك الروم سليمان بن أبى يزيد بن عثمان - مقتولا- و ملك بعده أخوه موسى الجزيرة الرّومية و أعمالها؛ و ملك محمد بن عثمان العزبة الخضراء و أعمالها، و يقال لها بالرّومية برصا.

و توفّى الأمير زين الدين قراجا بن عبد اللّه الظاهرىّ الدوادار الكبير بمنزلة الصالحية- متوجّها مع السّلطان الملك الناصر إلى دمشق- فى يوم الأربعاء ثالث عشر شهر ربيع الآخر، و دفن بها، و كان أصله من خاصّكيّة الملك الظاهر برقوق، ثمّ صار بجمقدارا، و عرف بقراجا البجمقدار.

ثمّ تأمّر فى الدولة الناصرية- فرج- و ترقّى حتى صار شاد الشّراب خاناة.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۸۱

ثمّ ولى الدوادارية الكبرى بعد موت قجاجق، فلم تطل مدّته فيها، و لزم الفراش إلى أن خرج صحبة السّلطان فى محفّة و مات بالصالحية، و كان أميرا عاقلا ساكنا مشكور السيرة.

و توفّى شمس الدين محمد بن عبد الخالق المناوىّ، المعروف ببدنة و بالطّويل أيضا فى شهر رجب بعد ما ولى حسبة القاهرة، و وكالة بيت المال، و نظر الكسوة، و نظر الأوقاف؛ الجميع بالسّعى و البذل، و كان عاريا من العلم.

و توفّى الأمير سيف الدين قراتنبک بن عبد اللّه الظاهرىّ الحاجب، أحد أمراء الطّبلخانات بالديار المصرية- بها- فى أوّل شوّال، و كان ممّن ترقّى فى الدولة الناصرية فى أيام الفتن.

و توفّى القان غياث الدين أحمد ابن الشيخ أويس ابن الشيخ حسن ابن الشيخ حسين بن آقبغا بن إيلكان، صاحب بغداد و العراق- مقتولا- فى ليلة الأحد آخر شهر ربيع الآخر.

و كان أول سلطنته بعد وفاة أبيه فى صفر سنة أربع و ثمانين و سبعمائة، و قد نكب فى ملكه غير مرّة، و قدم القاهرة فى دولة الملک الظّاهر برقوق و قد تقدّم ذكر قدومه إلى القاهرة، و تلقى الملک الظّاهر له، و أيضا ذكر خروجه و سفر السّلطان معه إلى البلاد الشّامية، كلّ ذلک فى ترجمة الملک الظّاهر برقوق الثانية، فلينظر هناک فإن فيه ملحا.

ثمّ إنّ السّلطان أحمد هذا قدم إلى دمشق ثانيا فى الدّولة النّاصريّة- فرج- فقبض عليه الأمير شيخ المحمودىّ نائب الشّام و حبسه بقلعة دمشق مدّة إلى أن أطلقه و عاد إلى بلاده.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۸۲

و وقع له أمور حكيناها فى ترجمته فى تاريخنا «المنهل الصّافى و المستوفى بعد الوافى» مفصلا إلى أن مات.

و كان القان أحمد هذا ملكا جليلا شجاعا كريما، فصيحا باللّغات الثلاث:

العربية و العجمية و التركية، و ينظم فيها الشعر الحسن، و كان يحبّ اللهو و الطّرب، و يحسن تأدّى الموسيقى إلى الغاية، و له فيه أيضا التصانيف اللطيفة، غير أنّه كان مسرفا على نفسه جدا، سفّاكا للدّماء، منعكفا على المعاصى- سامحه اللّه تعالى- و مما ينسب إليه من الشّعر باللغة العربية قوله- رحمه اللّه- فى محموم: [الكامل]

حمّک ما قربت حماک لعلّة إلّا تروم و تشتهى ما أشتهى

لو لم تكن مشغوفة بک فى الهوى ما عانقتک و قبّلت فاک الشهى

أمر النيل فى هذه السنة: الماء القديم سبعة أذرع سواء، مبلغ الزّيادة تسعة عشر ذراعا و أحد و عشرون إصبعا.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۸۳

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۱۴]

السنة السابعة من ولاية الملک الناصر فرج بن برقوق الثانية على مصر و هى سنة أربع عشرة و ثمانمائة.

فيها تجرد السّلطان إلى البلاد الشّامية تجريدته السّابعة، و هى التى قتل فيها فى أوائل سنة خمس عشرة و ثمانمائة- حسبما تقدّم ذكره.

و فيها قتل الأمير سيف الدين تمراز بن عبد اللّه النّاصرىّ الظاهرىّ نائب السّلطنة بالدّيار المصرية بسجنه بثغر الإسكندريّة، و كان من أجلّ الأمراء، كان تركى الجنس اشتراه الملک الظاهر برقوق و هو أتابک، و رقّاه بعد سلطنته حتى جعله أمير مائة و مقدّم ألف بالدّيار المصرية.

ثمّ حبس بعد عزله بثغر الإسكندرية مدّة ثمّ أطلق، و صار على عادته أمير مائة و مقدّم ألف، و ولى نيابة الغيبة لما خرج السلطان لقتال

تيمور.

ثمّ استقرّ بعد ذلك أمير مجلس، و انضمّ على الأتابك يشبك الشعبانى، و حبس معه ثانيا.

ثمّ أطلق و استقر أمير سلاح، ثم خرج مع يشبك أيضا إلى البلاد الشاميّة و واقع السّلطان بالسعيدية، ثمّ أعيد إلى رتبته أيضا بمصر مدّة، ثمّ استقرّ فى نيابة السلطنة بالديار المصرية مدّة طويلة، ثمّ فرّ من السّلطان فى ليلة بيسان و توجّه إلى الأمير شيخ و نوروز فدام عندهما مدة.

ثمّ عاد إلى طاعة الملك الناصر بعد أمور حكيناها فى ترجمة الملك الناصر، فأكرمه الملك الناصر و أعاده إلى رتبته مدّة، ثمّ قبض عليه و حبسه بثغر الإسكندريّة إلى أن أراد السلطان السفر إلى البلاد الشامية فأمر بقتله،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۸۴

فقتل بالإسكندريّة، و كان تمراز رأسا فى لعب الرّمح، و نسبته بالنّاصرى لتاجره الذى جلبه الخواجا ناصر الدين، و قيل إنّ الملك المؤيد شيخا قال يوما: إن كان الملك الناصر فرج يدخل الجنة فيدخلها بقتل تمراز، فقيل له: و كيف ذلك؟ قال:

لأن تمراز عصى على الملك النّاصر غير مرّة و هو يقابله بالإحسان و يترضيه بكل ما يمكن حتى خلع عليه باستقراره فى نيابة السّلطنة بالدّيار المصرية؛ كل ذلك حتى يثبت على طاعته، فلم يثبت تمراز بعد ذلك إلا نحو السنة أو أكثر، و فرّ من الملك الناصر فى ليلة بيسان، و قدم علينا و وافقنا على الخروج على السّلطان، فقلت فى نفسى: و ما عسى أن أفعل معه و قد ترك نيابة السّلطنة لأجلى؟ فلم أجد بدّا من أن أجلسه مكانى و أكون فى خدمته، ففعلت ذلك فأبى و أقسم إلا أن يكون من جملة أصحابى، و دام معنا مدّة طويلة، ثمّ تركنا و عاد إلى طاعة الملك النّاصر، فتلقّاه الملك الناصر و أنعم عليه بإمرة مائة و تقدمة ألف، و قد تفكّر فى نفسه أنّه كان ولّاه نيابة السلطنة فما قنع بذلك فبماذا يرضيه الآن؟ فلم يجد بدّا من القبض عليه و قتله، فكان هذا جزاءه- انتهى.

و فيها قتل أيضا الأمير سيف الدّين خيربك بن عبد اللّه الظّاهرى نائب غزّة، ثمّ أحد مقدّمى الألوف بالدّيار المصرية بثغر الإسكندرية فى تاسع شوّال، و قد مرّ من ذكره ما يعرف به أحواله، على أنّه كان من أوساط الأمراء الظّاهريّة.

و فيها أيضا قتل الأمير سيف الدين جانم [بن عبد اللّه] من حسن شاه الظاهرىّ نائب طرابلس، ثمّ أمير مجلس- على سمنود، قتله الأمير طوغان الحسنى الدّوادار

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۸۵

بأمر الملك الناصر حسبما تقدم ذكره مفصلا فى ترجمة الملك الناصر، و كان شجاعا مقداما كريما، معدودا من أعيان الأمراء- رحمه اللّه تعالى.

و فيها قتل الأمير سيف الدين يشبك بن عبد اللّه الموساوىّ الظاهرى، [المعروف ب] الأفقم، أحد مقدّمى الألوف بالديار المصرية، بعد أن ولى عدّة أعمال، و كان كثير الشّرور، محبّا لإثارة الفتن، لا يثبت على حالة مع الظلم و العسف.

و فيها قتل الأمير سيف الدّين قردم بن عبد اللّه الخازندار الظاهرىّ أحد مقدّمى الألوف بالدّيار المصرية، و الخازندار الكبير بثغر الإسكندرية، و هو صاحب النربة بباب القرافة.

و فيها قتل الأمير سيف الدين قانى بك بن عبد اللّه الظاهرىّ، رأس نوبة النّوب بثغر الإسكندرية، و كان من أصاغر المماليك الظّاهرية، رقّاه الملك الناصر، فلم يسلم من شرّه، فقبض عليه و حبسه مدّة ثمّ قتله، و كان من سيّئات الزّمان جهلا و ظلما و فسقا.

و فيها قتل أيضا بسيف الملك الناصر فرج بن برقوق- صاحب الترجمة- من المماليك الظاهرية و غيرهم ستمائة و ثلاثون رجلا- قاله المقريزىّ.

و فيها توفّى الأمير علاء الدين آقبغا بن عبد اللّه القديدىّ دوادار الأتابك يشبك، ثمّ دوادار السّلطان، فى ليلة ثالث عشر شوّال، و كان خصيصا عند السّلطان الملك الناصر، و تزوّج الملك الناصر بابنته، و كان لديه معرفة و عقل بحسب الحال.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۸۶

و توفّی الأمیر الشریف علاء الدین علیّ محمد البغدادیّ، ثمّ الإخمیمیّ، ولی نیابة ثغر دمیاط، ثمّ الوزر بالدّیار المصریّة.

و توفّی الطّواشیّ زین الدّین فیروز بن عبد اللّه الرّومیّ فی یوم الأربعاء تاسع شهر رجب، و کان فیروز المذکور خصیصا عند أستاذه الملک النّاصر.

و کان شرع فیروز قبل موته فی بناء مدرسته بخط الغرابلیین داخل بابی زویلة، و وقف علیها عدّة أوقاف، فمات قبل فراغها، فدفنه السّلطان بحوش التربة الظاهریة، و أخذ الملک النّاصر ما وقفه من المصارف علی الفقهاء و الأیتام و غیرهم، و أقرّه علی التربة الظاهریة المذکورة بالصحراء.

ثمّ أنعم السلطان بالمدرسة المذکورة علی الأمیر الکبیر دمرداش المحمدی فهدمها دمرداش و شرع فی بنائها قیساریّة، و قبل أن تکمل خرج دمرداش فی صحبة السلطان إلی التّجریدة. فقتل الملک الناصر، ثمّ قتل دمرداش المذکور أیضا بعد مدّة، فاستولی عبد الباسط بن خلیل الدّمشقیّ ناظر الخزانة علی القیساریّه المذکورة و کملها و جعل بأعلاها ربعا، و هی سوق الباسطیة الآن.

قلت: و هی إلی الآن مدرسة علی نیّة فیروز و له أجرها، و قیساریّة علی زعم من جعلها قیساریّة و علیه و زرها.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۸۷

و توفّی الأدیب الفاضل البارع المفتن أبو الفضل عبد الرحمن بن أحمد بن أبی الوفاء الشاذلیّ المالکیّ- غریقا ببحر النّیل بین الروضة و مصر- فی یوم تاسوعاء، و غرق معه جمال الدّین [ابن قاضی القضاة ناصر الدّین أحمد] ابن التّنسیّ المالکیّ، و مات أبو الفضل المذکور و هو فی عنفوان شبیبته، و کان شاعرا بارعا بلیغا، و هو أشعر بنی الوفاء بلا مدافعة، و له دیوان شعر، و شعره فی غایة الحسن.

و من شعره، و هو من اختراعاته البدیعة- رحمه اللّه تعالی و عفا عنه:

علی و جنتیه جنّة ذات بهجة تری لعیون النّاس فیها تزاحما

حمی ورد خدّیه حماة عذاره فیا حسن ریحان الخدود حمی حمی

و له مضمّنا: [الوافر]

و خلّ سمته صفعا بمال فقال توازعوه یا صحابی

إذا الحمل الثّقیل توازعته أکفّ القوم هان علی الرّقاب

و له فی مزیّن [المجتثّ]

حبّی المزیّن وافی بعد البعاد بنشطه

و فشّ دمّل قلبی بکاس راح و بطّه

و له، و هو فی غایة الحسن و الظرف [الرمل]

عبدک الصّبّ المعنّی عرف الفقر و ذاقه

فلکم فاخر محتا جاشکی فقرا وفاقه

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۸۸

و له أیضا [الکامل]

فی لیل شعر أو بصبح جبین ما زال حین یضلّنی یهدینی

هو بی خبیر مثل ما أنّی به فسلوه عنّی أو فعنه سلونی

لا تملک العذّال منّی فی الهوی من سلوة عنه و لا تلوینی

یا دولة الأشواق خلّی دینهم لهم و فی حکم الهوی لی دینی

أشكو فيشكو ما شكاه حنينه فيفى حنينهما ببعض حنينى

لمّا جننت عليه سلسلنى الهوى لا تعجبوا لتسلسل المجنون

بحواجب و سوالف و ضفائر كالياء أو كالواو أو كالسين

طالبت مرشفه الملىّ فقال قم و استوف ذا المكتوب فوق جبينى

حاربت يا جيش المحاسن مهجتى و كسرت قلبى عنوة بكمين

و قد ذكرنا من مقطّعاته نبذة غير ذلك فى ترجمته فى «المنهل الصافى» - رحمه اللّه تعالى.

أمر النيل فى هذه السنة: الماء القديم ستّة أذرع و ثمانية أصابع، مبلغ الزّيادة ثمانية عشر ذراعا و اثنان و عشرون إصبعا- و اللّه أعلم.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۸۹

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۱۵]

ذكر سلطنة الخليفة المستعين بالله العباس على مصر السّلطان أمير المؤمنين المستعين بالله أبو الفضل العباس ابن الخليفة المتوكل على اللّه أبى عبد اللّه محمد ابن الخليفة المعتصم بالله أبى بكر ابن الخليفة المستكفى بالله أبى الرّبيع سليمان ابن الخليفة الحاكم بأمر اللّه أبى العبّاس أحمد بن الحسن بن أبى بكر بن على بن الحسين- و هؤلاء غير خلفاء- ابن الخليفة الراشد بالله منصور ابن الخليفة المسترشد بالله الفضل ابن الخليفة المستظهر بالله أحمد ابن الخليفة المقتدى بالله. عبد اللّه ابن الأمير ذخيرة الدين محمد ابن الخليفة القائم بأمر اللّه عبد اللّه ابن الخليفة القادر بالله أحمد ابن الخليفة المقتفى بالله إبراهيم ابن الخليفة المقتدر بالله جعفر ابن الخليفة المعتضد بالله أبى العبّاس أحمد ابن الأمير الموثّق طلحة ابن الخليفة المتوكل على اللّه جعفر ابن الخليفة المعتصم بالله محمد ابن الخليفة الرشيد بالله هارون ابن الخليفة المهدىّ بالله محمد ابن الخليفة أبى جعفر عبد اللّه المنصور ابن الإمام محمد ابن الإمام علىّ بن عبد اللّه بن عباس بن عبد المطلب، العباسىّ الهاشمىّ المصرىّ الخليفة، ثم سّلطان الدّيار المصريّة، ولى الخلافة بعد موت أبيه فى يوم الاثنين مستهلّ شعبان سنة ثمان و ثمانمائة، و ذلك بعد وفاة أبيه المتوكل بأربعة أيّام، و استمرّ فى الخلافة إلى أن تجرّد صحبة الملك الناصر فرج إلى البلاد الشّامية فى أواخر سنة أربع عشرة و ثمانمائة، و وقع المصافّ بين الملك الناصر المذكور و بين الأمراء: الأمير شيخ المحمودىّ، و الأمير نوروز الحافظىّ بمن معهم، و انكسر الناصر و انحاز إلى دمشق، و استولى الأمراء على الخليفة هذا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۹۰

و استفحل أمرهم، و قدموا إلى دمشق و حصروا الناصر بها، بعد أمور ذكرناها مفصّلة فى أواخر ترجمة الملك النّاصر المذكور.

ثمّ اتفق الأمراء على إقامة الخليفة هذا فى السلطنة، عوضا عن الملك الناصر فرج المذكور؛ لتجتمع الكلمة فى رجل واحد، و يجدوا بذلك سبيلا لقتال الملك الناصر و انفلال الناس عنه، و أرسلوا إليه فتح اللّه كاتب السرّ فكلّمه فى ذلك و هو على ظاهر دمشق، و الملك الناصر داخلها، فأبى الخليفة المذكور أن يقبل ذلك، و صمّم على عدم القبول، فألحّ عليه فتح اللّه فى ذلك و تلطّف به، فلم يزدد إلا تمنّعا، كل ذلك خوفا من الملك الناصر، فلما رأى فتح اللّه شدّة تمنّعه، و عدم موافقته، رجع إلى الأمراء و أعلمهم بذلك و قال لهم: لا يمكن قبوله أبدا ممّا رأيت من تمنّعه، فاعملوا عليه حيلة حتى يقبل، فدبّروا عليه حيلة من أنهم أرسلوا خلف أخيه لأمه الأمير ناصر الدين محمد بن مبارك شاه الطازىّ، و أعطوه و رقة تتضمن القدح فى الملك الناصر و فى تعداد أفعاله و ماوئه، و ندبوا ناصر الدين المذكور بعد أن أوعدوه بإمرة طبلخاناة، و دوادارية السّلطان حتى ركب فرسا من غير علم الخليفة، و نودى أمامه:

إن الخليفة قد خلع السلطان الملك الناصر من السلطنة، و لا يحلّ لأحد متابعته و لا القيام بنصرته، و قرئت الورقة على الناس.

و بلغ الخليفة المستعين بالله ذلك، فقامت قيامته، و عظم عليه ذلك إلى الغاية، و تحقّق عند ذلك أنّ الملك الناصر إذا ظفر به لا يبقيه، و دخل عليه فتح اللّه بعد ذلك ثانيا و كلّمه فى السّلطنة، فقبل على شروط عديدة شرطها على الأمراء، فقبلوا جميع الشروط، و

فرح الأمراء بذلک و بایعوه بأجمعهم، و قبّلوا یده، و حلفوا له- علی الطّاعة و الوفاء- بالأیمان المغلّظة التی لا یمکن التّوریة فیها.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۹۱

ثمّ نصبوا له کرسیّا خارج باب الدار تجاه جامع کریم الدین، و جلس فوقه و علیه خلعة سوداء خلیفتیّة، أخذوها من الجامع المذکور من ثیاب الخطیب، و وقفوا بین یدیه علی مراتبهم، الجمیع ما عدا الأمیر نوروز الحافظیّ، فإنّه لم یقدر علی الحضور لاشتغاله بحفظ الجهة التی هو فیها لحصار الملک النّاصر فرج، غیر أنّه یعلم بالخبر، و عنده من السّرور لذلک مالا مزید علیه.

ثمّ قبّلت الأمراء الأرض بین یدیه علی العادة، و کان ذلک فی آخر الساعة الخامسة من نهار السبت الخامس و العشرین من محرّم سنة خمس عشرة و ثمانمائة، و الطّالع برج الأسد.

و فی الحال، عند تمام أمره تقدّم الأمیر بکتمر جلّق فخلع علیه بنیابة دمشق عوضا عن دمرداش المحمّدیّ، فإنه کان الملک الناصر قد ولّاه نیابة دمشق- بعد کسرته- عوضا عن الوالد- رحمه اللّه- بحکم وفاته.

و خلع علی سیّدی الکبیر قرقماس- ابن أخی دمرداش المذکور- باستقراره فی نیابة حلب، عوضا عن الأمیر شیخ المحمودیّ.

و خلع علی سودون الجلب باستقراره فی نیابة طرابلس عوضا عن الأمیر نوروز الحافظیّ.

ثمّ رکب أمیر المؤمنین و هو السّلطان، و بین یدیه جمیع الأمراء، و نادی مناد:

إن الملک الناصر فرج بن برقوق خلع من السّلطنة بالخلیفة أمیر المؤمنین المستعین بالله، و لا یحلّ لأحد بعد ذلک مساعدته و لا القیام بنصرته، و من حضر إلی الخلیفة من جماعته فهو آمن علی نفسه و ماله، و قد أمهلکم أمیر المؤمنین فی المجیء إلیه إلی یوم الخمیس.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۹۲

و سار أمیر المؤمنین بعساکره إلی قریب المصلّی، ثمّ عاد و نزل بمکانه.

ثمّ أمر فنودی بذلک أیضا فی الناحیة الشّرقیة من دمشق، و عند سماع هذه المناداة انحلّت أهل دمشق عن الملک الناصر، و خافوا عاقبة مخالفة أمیر المؤمنین فی الدنیا و الآخرة.

ثمّ کتب أمیر المؤمنین إلی أمراء مصر باجتماع الکلمة علی طاعته، و أنّه خلع الملک الناصر من الملک و تسلطن عوضه، و أنّه أبطل المکوس و المظالم من سائر أعماله، و بعث بذلک علی ید الأمیر کزل العجمیّ.

ثمّ مات الأمیر سکب الدّوادار الثانی من سهم أصابه، و کان ممّن خامر علی الملک الناصر و أتی الأمراء فی واقعة اللجّون.

ثمّ خلع أمیر المؤمنین علی القاضی شهاب الدین أحمد الباعونیّ، و استقرّ به قاضی قضاة الشّافعیة بالدّیار المصریة عوضا عن قاضی القضاة جلال الدین عبد الرحمن البلقینیّ؛ بحکم تخلّفه بمدینة دمشق عند الملک الناصر فرج، هذا کلّه و القتال عمّال فی کل یوم، و الجراحات فاشیة فی عسکر الأمراء من عظم الرّمی علیهم من أسوار المدینة من الناصریّة.

و مات الأمیر یشبک [بن عبد اللّه] العثمانیّ [الظاهری] أیضا خارج دمشق من سهم أصابه فی یوم الجمعة أوّل صفر، و صلّی علیه الأمیر شیخ المحمودی.

و أمّا الملک الناصر، فهو مع هذا کلّه یفرّق الأموال، و یستدعی المقاتلة و یستحثّهم علی نصرته.

و خلع علی فخر الدین ماجد بن المزوّق ناظر الإسطبل باستقراره فی کتابة سرّ مصر عوضا عن فتح اللّه.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۹۳

ثم ولّی الوزیر سعد الدین إبراهیم بن البشیریّ نظر الخاصّ عوضا عن بدر الدین حسن بن نصر اللّه الفوّیّ، و بینما هو فی ذلک وصلت إلی الملک الناصر أمراء التّرکمان:

قرایلک و غیره من نوّاب القلاع بسبب النّجدة، فنودی بعسکر أمیر المؤمنین باستعداد العوام لقتال المذکورین، فإنّهم مقدّمة تمر لنک و جالیشه.

و اجتمع الأمراء و المماليک، و حلفوا بأجمعهم يمينا مغلظا لأمير المؤمنين بأنّهم يلزمون طاعته، و يأتمرون بأمره، و أنّهم رضوا بأنّه الحاكم عليهم، و أنّه يستبدّ بالأمور من غير مراجعة أحد، و أنهم لا يسلطنون أحدا غيره طول حياته.

ثمّ قبّل الجميع الأرض بين يديه، و صار الجميع طوعا لأمير المؤمنين المستعين بالله، فمشى بذلک حالهم على قتال الملک الناصر، و لو لا الخليفة ما انتظم لهم أمر؛ لعظم ميل التّركمان و العامّة للملک الناصر.

ثمّ توجّه فتح اللّه للأمير نوروز بدار الطّعم- حيث هو نازل- فحلفه على ذلک، و قبّل الأرض لأمير المؤمنين، و أظهر من الفرح و السرور مالا مزيد عليه باستبداد الخليفة بالأمر، و قال: حينئذ استقام الأمر، و سأل نوروز فتح اللّه المذكور أن يقبّل الأرض بين يدى أمير المؤمنين نيابة عنه، و سأله فى أن ينفرد بالتّدبير و لا يشاركه فيه الأمير شيخ، و لا هو و لا غيره، يريد بذلک كفّ الأمير شيخ عن التّحكّم.

هذا و القتال عمّال فى كلّ يوم، و قراءة المحضر الذى أثبتوه على الملک النّاصر على الشّاميّين، و فيه قوادح فى الدين توجب إراقة دمه، و شهد فى المحضر نحو خمسمائة نفس، و ثبت ذلک على قاضى القضاة ناصر الدين بن العديم الحنفىّ، و حكم بإراقة دمه.

ثمّ بلغ شيخا أنّ الملک الناصر عزم على إحراق ناحية قصر حجّاج حتى يصير

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۹۴

فضاء، ثمّ يركب بنفسه و يواقع القوم هناک بمن يأتيه من التّركمان و بمن عنده، فبادر شيخ و ركب بعد صلاة الجمعة بأمير المؤمنين و معه العساكر، و سار من طريق القبيبات و نزل بأرض النابتية، و قاتل الملک الناصر فى ذلک اليوم أشدّ قتال إلى أن مضى من الليل جانب، و كثر من الشّاميّين الرّمى بالنّفط عليهم، فاحترق سوق خان السّلطان و ما حوله.

و حملت السّلطانيّة على الشّيخيّة حملة عظيمة هزموهم فيها، و تفرّقوا فرقا، و ثبت شيخ فى جماعة قليلة بعد ما كان انهزم هو أيضا إلى قريب الشّويكة.

ثمّ تكاثر الشّيخيّة و انضمّ عليهم جماعة من الأمراء، فحمل شيخ بنفسه بهم حملة واحدة أخذ فيها القنوات، ففرّ من كان هناک من التّركمان و الرّماة و غيرهم.

و كان الأتابک دمرداش المحمّدىّ نازلا عند باب الميدان تجاه القلعة، فلمّا بلغه ذلک ركب و توجّه إلى الملک الناصر و هو جالس تحت القبّة فوق باب النّصر، و سأله أن يندب معه طائفة كبيرة من المماليک السّلطانيّة؛ ليتوجّه بهم إلى قتال شيخ فإنّه قد وصل إلى طرف القنوات، و سهّل أخذه على السّلطان، فنادى الملک الناصر لمن هناک من المماليک و غيرهم بالتّوجه مع دمرداش، فلم يجبه منهم أحد.

ثمّ كرّر السّلطان عليهم الأمر غير مرّة حتى أجابه بعضهم جوابا فيه جفاء

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۹۵

و خشونة ألفاظ، معناه أنّهم ملّوا من طول القتال، و ضجروا من شدّة الحصار.

و بينما هم فى ذلک، إذ اختبط العسكر السّلطانىّ و كثر الصّراخ فيهم بأنّ الأمير نوروزا قد كبسهم، فسارعوا بأجمعهم و عبروا من باب النّصر إلى داخل مدينة دمشق، و تفرّقوا فى خرائبها بحيث إنّه لم يبق بين يدى السّلطان أحد، فولّى دمرداش عائدا إلى موضعه، و قد ملک شيخ و أصحابه الميدان و الإسطبل.

فبعث دمرداش إلى السّلطان مع بعض ثقاته بأنّ الأمر قد فات، و أنّ أمر العدوّ قوىّ، و أمر السّلطان أخذ فى إدبار، و الرأى أن يلحق السّلطان بحلب ما دام فى الأمر نفس.

فلمّا سمع الملک الناصر ذلک قام من مجلسه و ترک الشّمعة تقد حتى لا يقع الطّمع فيه بأنّه ولّى، و يوهم الناس أنّه ثابت مقيم على القتال.

ثمّ دخل إلی حرمه و جهّز ماله، و أطال فی تعبئة ماله و قماشه، فلم یخرج حتی مضی أکثر اللیل، و الأتابک دمرداش واقف ینتظره، فلمّا رأی دمرداش أنّ الملک الناصر لا یوافقه علی الخروج إلی حلب، خرج هو بخواصّه و نجا بنفسه، و سار إلی حلب و ترک السّلطان.

ثمّ خامر الأمیر سنقر الرّومیّ علی الملک الناصر، و أتی أمیر المؤمنین و بطّل طبول السّلطان و الرّماة.

ثمّ خرج الملک الناصر من حرمه بماله، و أمر غلمانه فحملت الأموال علی البغال لیسیر بهم إلی حلب، فعارضه الأمیر أرغون من بشبغا الأمیر آخور الکبیر و غیره، و رغّبوه فی الإقامة بدمشق، و قالوا له: الجماعة ممالیک أبیک لا یوصّلون إلیک سوءا أبدا، و لا زالوا به حتی طلع الفجر، فعند ذلک رکب الملک الناصر بهم، و دار علی سور المدینة فلم یجد أحدا ممّن کان أعدّه للرّمی، فعاد و وقف علی فرسه

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۹۶

ساعة، ثمّ طلع إلی القلعة و التجأ بها بمن معه- و قد أشحنها- و ترک مدینة دمشق، و بلغ أمیر المؤمنین و الأمراء ذلک، فرکب شیخ بمن معه إلی باب النصر، و رکب نوروز بمن معه إلی نحو باب توما، و نصب شیخ السّلالم حتی طلع بعض أصحابه، و نزل إلی مدینة دمشق و فتح باب النصر، و أحرق باب الجابیة، و دخل شیخ من باب النصر، و أخذ مدینة دمشق، و نزل بدار السّعادة، و ذلک فی یوم السبت تاسع صفر، بعد ما قاتل الملک الناصر نحو العشرین یوما، قتل فیها من الطائفتین خلائق لا تحصی، و وقع النّهب فی أموال السّلطان و عساکره، و امتدّت أیدی الشّیخیّة و غیرهم إلی النّهب، فما عفّوا و لا کفّوا.

و رکب أمیر المؤمنین و نزل بدار فی طرف ظواهر دمشق، و تحوّل شیخ إلی الإسطبل، و أنزل الأمیر بکتمر جلّق بدار السّعادة، کونه قد ولّی نیابة دمشق قبل تاریخه.

هذا و السّلطانیّة ترمی علیهم من أعلی القلعة بالسّهام و النّفوط یومهم کلّه، و باتوا لیلة الأحد علی ذلک، فلمّا کان یوم الأحد عاشر صفر المذکور بعث الملک النّاصر بالأمیر أسندمر أمیر آخور فی الصلح، و تردّد بینهم غیر مرّة حتی انعقد الصلح بینهم، و حلف الأمراء جمیعهم و کتبت نسخة الیمین، و وضعوا خطوطهم فی النّسخة المذکورة، و کتب أمیر المؤمنین أیضا خطه فیها، و صعد بها أسندمر المذکور إلی القلعة و معه الأمیر ناصر الدین محمد بن مبارک شاه

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۹۷

الطّازیّ- أخو الخلیفة المستعین بالله لأمه- و دخلا علی الملک النّاصر و کلّماه فی ذلک، و طال الکلام بینهم فلم یعجب الملک النّاصر ذلک.

و تردّدت الرّسل بینهم غیر مرّة بغیر طائل، و أمر الملک النّاصر أصحابه بالرّمی علیهم، فعاد الرّمی من أعلی القلعة بالمدافع و السّهام، و رکب الأمراء و احتاطوا بالقلعة، فأرسل الملک النّاصر یسأل بالکفّ عنه، فضایقوا القلعة خشیة أن یفرّ السّلطان منها إلی جهة حلب، و مشت الرسل أیضا بینهم ثانیا، و أضرّ الملک النّاصر التّضییق و الغلبة إلی أن أذعن إلی الصلح، و حلفوا له ألّا یوصّلوا إلیه مکروها، و یؤمّنوه علی نفسه، و أن یستمرّ الخلیفة سلطانا، و قیل غیر ذلک: إنّه ینزل إلیهم و یتشاور الأمراء فیمن یکون سلطانا، فإن طلبه الممالیک فهو سلطان علی حاله، و إن لم یطلبوه فیکون الخلیفة، و یکون هو مخلوعا یسکن بعض الثغور محتفظا به.

و محصول الحکایة أنّه نزل إلیهم فی لیلة الاثنین حادی عشر صفر، و معه أولاده یحملهم و یحملون معه، و هو ماش من باب القلعة إلی الإسطبل و النّاس تنظره، و کان الأمیر شیخ نازلا بالإسطبل المذکور، فعند ما عاینه شیخ قام إلیه و تلقّاه و قبل الأرض بین یدیه، و أجلسه بصدر المجلس، و جلس بالبعد عنه و سکّن روعه، ثمّ ترکه بعد ساعة و انصرف عنه، فأقام الملک النّاصر بمکانه إلی یوم الثلاثاء ثانی صفر.

فجمع الأمراء و الفقهاء و العلماء المصریّون و الشّامیّون بدار السعادة بین یدی أمیر المؤمنین- و قد تحوّل إلیها و سکنها- و تکلموا فی

أمر الملک النّاصر

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۹۸

و المحضر المکتّب فی حقه، فأفتوا بإراقة دمه شرعا.

فأخذ فی لیلة الأربعاء من الإسطبل، و طلع به إلی قلعة دمشق، و حبسوه بها فی موضع وحده، و قد ضیّق علیه و أفرد من خدمه، فأقام علی ذلک إلی لیلة السّبت سادس عشر صفر، و قتل حسبما ذکرناه فی أواخر ترجمته مفصلا، بعد اختلاف کبیر وقع فی أمره بین الأمراء.

فکان رأی شیخ إبقاءه محبوسا بثغر الإسکندریة، و إرساله إلیها مع الأمیر طوغان الحسنیّ الدّوادار، و کان رأی نوروز قتله، و قام نوروز و بکتمر جلّق فی قتله قیاما بذلا فیه جهدهما.

و کان الأمیر یشبک بن أزدمر أیضا ممن امتنع من قتله، و شنّع ذلک علی نوروز، و أشار علیه ببقائه، و احتجّ بالأیمان التی حلفت له، و اختلف القوم فی ذلک، فقوی أمر نوروز و بکتمر بالخلیفة المستعین بالله، فإنه کان أیضا اجتهد هو و فتح اللّه کاتب السرّ فی قتله، و حملا القضاة و الفقهاء علی الکتابة بإراقة دمه بعد أن توقّفوا عن ذلک، حتی تجرّد قاضی القضاة ناصر الدین محمد بن العدیم الحنفیّ لذلک، و کافح من خالفه من الفقهاء بعدم قتله بقوّة الخلیفة و نوروز و بکتمر و فتح اللّه، ثمّ أشهد علی نفسه أنه حکم بقتله شرعا، فأمضی قوله و قتل.

و کان قصد شیخ إبقاءه یخوّف به نوروزا إن حصل مخالفة، و أیضا وقف علی یمینه و خاف سوء عاقبة الأیمان و العهود، و أیضا لما سبق لوالده علیه من الحقوق السّالفة، و قال: هو- یعنی الملک النّاصر- قد ظفر بنا و أبقانا غیر مرّة. و نحن ممالیکه، فکیف نحن نظفر به مرّة واحدة نقتله فیها، و یشاع ذلک عند ملوک الأقطار، فیقبّح ذلک علینا إلی الغایة!

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۱۹۹

قلت: و لذلک ملّکه اللّه علی المسلمین. و حکمه فیمن خالفه فی ذلک حتی أفقاهم علی السیف فی أسرع وقت و أقل مدة وَ ما رَبُّکَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِیدِ - انتهی.

و بعد أن قتل الملک الناصر، مشت الأحوال، و أمن الناس، و نودی فیهم بالأمان.

و اتّفق الحال علی أنّ الأمیر شیخا و نوروزا یسیران إلی مصر صحبة أمیر المؤمنین المستعین بالله، و یکونان فی خدمته، و أن یکون الأمیر شیخ أمیرا کبیرا أتابک العساکر بالدیار المصریة، و یکون نوروز أتابک رأس نوبة الأمراء، و یکون إقطاعهم بالسّویّة، و أن یسکن شیخ باب السّلسلة، و یسکن نوروز بیت قوصون تجاه باب السّلسلة بالرّمیلة.

و کتب نوروز إلی القاهرة بتجدید عمارة البیت المذکور، و أن یضرب علیه رنک نوروز.

و صار نوروز یرکب من داره إلی تحت قلعة دمشق، فیرکب شیخ أیضا من الإسطبل حیث هو نازل و یخرج إلیه، و یسیران تحت قلعة دمشق بموکبهما و معهما سائر الأمراء، ثمّ یدخلان إلی دار السّعادة إلی خدمة أمیر المؤمنین، فیجلس شیخ عن یمینه و یجلس نوروز عن یساره، و یقف طوغان الحسنیّ الدّوادار علی عادته، و یقعد الأمراء بمنازلهم یمینا و شمالا علی عادة الموکب السّلطانیّ و یقف [ناظر]

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۲۰۰

الجیش، ثمّ یقرأ کاتب السّرّ القصص و یمدّ السّماط، ثمّ ینفضّ الموکب.

کلّ ذلک و شیخ و نوروز قلوبهما متنافرة بعضها من بعض، و الناس یترقّبون وقوع فتنة بینهما، إلی أن خدع شیخ نوروزا بأن قال له: أنا قصدی أن أکون بدمشق، و یضاف إلیّ من العریش إلی الفرات، و أنت تتوجّه مع الخلیفة أتابکا بالدیار المصریة و معک الأمیر بکتمر جلّق و غیره من الأمراء.

و لم يكن لقوله حقيقة، غير أنّه قصد بذلك حيلة على نوروز، فيقول نوروز أنت تتوجّه إلى مصر، و أنا أكون نائب الشّام، و كان ذلك على ما سنذكره.

فاستشار نوروز أصحابه فى ذلك فقالوا له بأجمعهم: الرأى و المصلحة توجّهك إلى الديار المصرية و لو كنت من جملة مقدّمى الألوف بها، لا سيّما تكون أتابك العساكر و مالك زمام مصر، فقال لهم: إن أقام شيخ بالبلاد الشّامية- مع سعة تحكّمه فى البلاد- يصير له شوكة عظيمة و يتعبنى فيما بعد، و لو كان فى مصر خير ما تركها هو و أراد نيابة الشام، و المصلحة توجّهه إلى مصر و أكون أنا حاكم البلاد الشامية من العريش إلى الفرات، فراجعوه فى ذلك فأبى إلّا ما أراد.

و أصبح لمّا حضر الخدمة بين يدى الخليفة على العادة فى يوم الاثنين خامس عشرين صفر من سنة خمس عشرة و ثمانمائة فاتحه الأمير شيخ فى ذلك، فبادره الأمير نوروز: أنت تتوجّه إلى مصر، و أنا أكون نائبا بدمشق.

فخلع عليه أمير المؤمنين فى الحال باستقراره فى نيابة الشام كلّه، و أن يولّى بجميع البلاد من شاء من أصحابه.

و انفضّ الموكب و قد نال الأمير شيخ غرضه، و انفرد بتدبير المملكة وحده من غير شريك، و كان ظنّ الأمير نوروز أنّ شيخا لا يستقيم له أمر مع

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۲۰۱

بكتمر جلّق، و يلبغا الناصرىّ نائب الغيبة بمصر، و طوغان الحسنىّ الدّوادار، و سيّدى الكبير قرقماس، و أنّ الذى يبقى معه من الأمراء بالبلاد الشامية جميعهم فى طاعته، مثل يشبك بن أزدمر، و طوخ، و قمش و غيرهم، فجاء حساب الدّهر بخلاف ما ظنّ.

ثمّ فوّض أمير المؤمنين إلى الأمير نوروز كفالة الشّام جميعه: دمشق، و حلب، و طرابلس، و حماة، و صفد، و غزّة، و جعل له أن يعيّن الأمريّات و الإقطاعات لمن يريده و يختاره، و أن يولّى نوّاب القلاع الشّاميّة و السّواحل و غيرها لمن أراد من غير مراجعة فى ذلك، غير أنه يطالع الخليفة بمن يستقرّ به فى شىء من ذلك ليجهّز إليه تشريفا.

و عزل بكتمر جلّق عن نيابة دمشق بعد أن حكمها نحو الشّهرين عن الخليفة، و رسم له أن يتوجّه أمير مائة و مقدّم ألف بالديار المصرية على أحسن الإقطاعات.

ثمّ خلع الخليفة على موقّع الأمير نوروز ناصر الدين محمد بن محمد البصروىّ باستقراره كاتب سرّ دمشق، عوضا عن صدر الدين علىّ بن الأدمىّ.

ثمّ خلع الخليفة على قاضى القضاة جلال الدين عبد الرحمن البلقينىّ بإعادته إلى قضاء الشّافعية بالديار المصرية، عوضا عن الباعونىّ الذى كان ولّاه الملك الناصر، فكانت ولاية الباعونىّ نحو الشهرين، و لم يدخل فيها القاهرة.

ثمّ كتب الخليفة إلى البلاد الشامية و غيرها من التركمان و العربان و العشير، و جعل افتتاح الكتب «من عبد اللّه و وليّه، الإمام المستعين باللّه، و خليفة ربّ العالمين، و ابن عمّ سيد المرسلين، المفترض طاعته على الخلق أجمعين، أعزّ اللّه ببقائه الدين».

ثمّ كتب الخليفة إلى الديار المصرية بإطلاق الأمراء المسجونين بالإسكندرية،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۲۰۲

و أنّ الأمير أسنبغا الزّرد كاش يسلّم قلعة الجبل إلى الأمير يلبغا الناصرىّ، ففعل أسنبغا الزّرد كاش ذلك، و قدم الأمراء من سجن الإسكندرية إلى القاهرة و هم: إينال الصّصلانى، و سودون الأسندمرىّ الأمير آخور الثانى، و كمشبغا الفيسىّ، و جانبك الصّوفىّ، و تاج الدين عبد الرزّاق بن الهيصم الأستادار.

ثمّ تهيّأ أمير المؤمنين و خرج معه الأمير شيخ و جميع العساكر من دمشق، فى يوم السبت ثامن شهر ربيع الأوّل، نحو الديار المصرية.

ثمّ خرج بعدهم نوروز فى سادس عشره إلى حلب ليمهّد أمورها.

ثمّ رسم الأمير نوروز أن يضرب بدمشق دراهم نصفها فضّة و نصفها نحاس، فضربت و تعامل الناس بها.

و سار أمير المؤمنين بعساكره حتّى دخل إلى الدّيار المصريّة فى يوم الثلاثاء ثانى شهر ربيع الآخر، و طلع إلى القلعة بعد ما شق القاهرة، و خرج من باب زويلة إلى الصليبة إلى القلعة، و قد زيّنت القاهرة أحسن زينة، فنزل الخليفة بالقصر من قلعة الجبل على عادة السّلاطين، و نزل الأمير شيخ بباب السلسلة من الإسطبل السّلطانىّ، و لم يخلع الخليفة على أحد على جارى العوائد، و كان الأمير شيخ يظنّ أنّ الخليفة يتوجّه إلى داره بالقرب من المشهد النفيسىّ على عادته أوّلا، فلما طلع إلى القلعة، تحقق الأمير شيخ منه أنّه يريد أن يسير على طريق السلاطين و يترك طريق الخلفاء، فأخذ شيخ يكيده بأشياء، منها: أنّه صار يبطّل المواكب السّلطانيّة و يعمل الموكب عنده، و يعتذر عن ذلك بأنّ القوم عقيب سفر و تعب ليس لهم طاقة على لزوم المواكب الآن إلى أن يجدوا فى نفوسهم قوة و نشاطا، و صار ترداد جميع أرباب الدّولة إلى باب الأمير شيخ، فاتّضع أمر الخليفة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۲۰۳

ثمّ أمسك الأمير شيخ الأمير أسنبغا الزّردكاش، و استفتى فى قتله؛ لقتله الأمير قانى باى فى غيبة الملك النّاصر، فأفتوا بقتله و حكموا به، ثمّ أمسك الأمير شيخ حطط البكلمشى، و صرغتمش القلمطاوىّ، و هما من أمراء العشرات من خواصّ الملك الناصر، ثمّ قبض على الأمير أرغون من بشبغا الأمير آخور الكبير، و على الأمير سودون الأسندمرىّ، و على كمشبغا الفيسىّ، و كانا قدما من سجن الإسكندرية بمدّة أيام- حسبما تقدّم ذكره- و نفى كمشبغا الفيسىّ إلى دمياط.

ثمّ خلع الأمير شيخ على الأمير خليل التّبريزىّ الدّشارىّ باستقراره فى نيابة الإسكندرية عوضا عن قطلوبغا الخليلىّ بعد موته.

ثمّ فى ثامن شهر ربيع الآخر، عمل الأمير شيخ الموكب عند الخليفة بالقصر السّلطانىّ على العادة، و حضر شيخ هو و سائر الأمراء الموكب، و خلع الخليفة على الأمير شيخ باستقراره أتابك العساكر بالدّيار المصريّة، و كانت شاغرة منذ قبض على الملك الناصر، و فرّ الأتابك دمرداش المحمّدىّ إلى حلب، ثمّ فوّض الخليفة إلى شيخ جميع الأمور، و أنه يولّى و يعزل من غير مراجعة، و أشهد عليه بذلك بعد أن توقّف الخليفة عن ذلك أياما حتى أذعن على رغمه.

ثمّ خلع الخليفة على الأمير شاهين الأفرم على عادته أمير سلاح، و على يلبغا الناصرىّ باستقراره أمير مجلس، و على الأمير إينال الصصلانى باستقراره حاجب الحجّاب عوضا عن يلبغا الناصرىّ، و على سودون الأشقر باستقراره رأس نوبة النّوب عوضا عن سنقر الرّومىّ، و على الأمير ألطنبغا العثمانىّ بنيابة غزّة عوضا عن سودون من عبد الرحمن، و نزل الجميع فى خدمة الأمير شيخ، ثمّ توجهوا إلى دورهم.

ثم فى تاسعه عرض الأمير شيخ المماليك السّلطانيّة، و فرّق عليهم الإقطاعات الشّاغرة عن الناصرية بحسب ما يختاره، و أنعم على جماعة من مماليكه بإمريّات:

ما بين طبلخانات و عشرات.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۲۰۴

ثمّ خلع الأمير شيخ على دواداره جقمق الأرغون شاوىّ و استقرّ به دوادار الخليفة؛ حتى لا يتمكن الخليفة من شىء يعمله، و كان دواداره قبل ذلك أخوه ناصر الدين محمد بن مبارك شاه الطازىّ بإمرة طبلخاناة، فصار جقمق كالدّوادار الثانى له، و فى الحقيقة ترسيما عليه، فعند ذلك صار للخليفة الاسم فى السّلطنة لا غير، و ما عدا ذلك متعلق بالأمير شيخ، و صار الخليفة مستوحشا بعياله فى تلك القصور الواسعة بقلعة الجبل، و ضاق صدره من عدم ترداد الناس إليه، و ندم على دخوله فى هذا الأمر حيث لا ينفعه النّدم، و صار لا يمكنه الكلام لعدم من يقوم بنصرته من الأمراء و غيرهم، فسكت على مضض.

ثم إنّ الأمير شيخا خلع على الأمير قانى باى المحمّدى، و على الأمير سودون من عبد الرحمن- المعزول عن نيابة غزّة- خلع الرّضى من غير وظيفة، ثمّ خلع على سعد الدين إبراهيم بن البشيرىّ باستقراره وزيرا على عادته، و خلع على بدر الدين حسن بن نصر اللّه الفوّى باستقراره فى نظر الجيش على عادته، و خلع على تقىّ الدين عبد الوهاب بن أبى شاكر باستقراره ناظر الخاصّ على عادته، ثمّ

خلع على التّاج بن سيفا الشّوبكيّ القازانيّ باستقراره والى القاهرة عوضا عن أرسلان، فعدّ ذلك من أوّل سيئات الأمير شيخ، و عظم ذلك على أعيان الدّولة لعدم أهليّة التّاج المذكور لذلك، ثمّ فى ثامن شهر ربيع الآخر المذكور أخرج الأمير شيخ عدة بلاد من أوقاف الملك النّاصر فرج الموقوفة المحبسة، منها قرية منبابة بالجيزة تجاه بولاق، و كان أوتفها الملك الناصر على التربة الظّاهريّة، و ناحية دنديل، و كانت أيضا [موقوفة] على التّربة المذكورة، و أخرج عدة رزق كثيرة، [و هى] التى كان الناصر أخرجها و أوقفها فى سلطنته.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۲۰۵

ثمّ فى تاسع عشره خلع الأتابك شيخ على القضاة الأربعة باستمرارهم، و خلع على بدر الدين حسن بن محبّ الدين الطّرابلسيّ أستادار الأمير شيخ باستقراره أستادار العالية، فنزل ابن محبّ الدين إلى داره و جميع أرباب الدولة فى خدمته.

ثمّ فى ثانى عشرينه استقرّ شهاب الدين أحمد الصّفدىّ موقّع الأمير شيخ فى نظر البيمارستان المنصوريّ عوضا عن كاتب السرّ فتح اللّه، و معها نظر الأحباس عوضا عن تاج الدين عبد الوهاب بن نصر اللّه، و خلع على القاضى ناصر الدين محمّد ابن البارزىّ باستقراره موقّع الأمير الكبير شيخ عوضا عن الشّهاب الصّفدىّ المقدّم ذكره.

و أما الأمير نوروز الحافظىّ، فإنه استولى على حلب، و هرب منها الأمير دمرداش المحمّديّ، و خلع على يشبك بن أردمر بنيابتها، و خلع على الأمير طوخ بنيابة طرابلس، و فرّق الإقطاعات و الإمريّات على أصحابه و مماليكه كيف يختار من غير معاند، غير أنه ندم على قعاده بالبلاد الشامية غاية الندم فى الباطن لا سيما لمّا بلغه من أمر شيخ و عظمته بمصر ما بلغه.

ثم فى يوم الخميس سادس عشر جمادى الأولى، قرىء تقليد الأمير الكبير شيخ نظام الملك بأن الخليفة فوّض إليه ما وراء سرير الخلافة، فعند ذلك جلس الأتابك شيخ بالحرّاقة من الإسطبل السلطانيّ و بين يديه القضاة و أرباب الدولة من أعيان الأمراء و المباشرين و غيرهم، و قرأ كاتب السّرّ عليه القصص كما يقرؤها بين يدى السّلطان، و تلاشى أمر الخليفة حتى صار كعادته أيام خلافته، غير أنه فى التّرسيم محجوب عمّا يريده.

ثمّ فى رابع عشرين جمادى الأولى المذكورة استقرّ القاضى صدر الدين علىّ ابن الأدمىّ قاضى قضاة الحنفيّة بالديار المصرية بعد عزل قاضى القضاة ناصر الدين محمد ابن العديم عنها، ثم أرسل الأتابك شيخ دواداره الأمير جقمق الأرغون شاوىّ إلى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۲۰۶

البلاد الشّاميّة و معه تقاليد النّوّاب الخليفتيّة باستمرارهم على عادتهم بما قرر الأمير نوروز برضاه.

ثم فى يوم الخميس ثامن جمادى الآخرة، مات الأمير بكتمر جلّق من مرض تمادى به نحو الشهرين؛ أصله من عقرب لسعته و هو قادم صحبة الخليفة و العساكر إلى الدّيار المصرية بالرّمل، فاشتد ألمه منها و أخذته الحمّى، ثم خرج من سيّئ إلى سيّئ إلى أن مات، فنزل الأتابك شيخ راكبا و جميع الأمراء الخاصّكيّة مشاة حتى صلّى عليه بمصلّاة المؤمنى من تحت القلعة، و عاد إلى باب السلسلة من غير أن يشهد دفنه، و هو فى غاية السّرور، و قد صفا له الوقت بموت بكتمر المذكور، فإنّه كان عليه أشد من نوروز، و صرّح شيخ بعد موته بما كان يستكتمه من الوثوب على الأمراء، و خلاله الجوّ، و لمّا بلغ نوروزا موته كاد أن يهلك، و علم بما سيكون من أمر شيخ.

ثم استقر القاضى ناصر الدين بن البارزىّ موقّع الأتابك شيخ بقراءة القصص على مخدومه الأتابك شيخ، فانحطّ بذلك قدر فتح الدين فتح اللّه كاتب السر، و صار فى وظيفته كالمعزول عنها، و قلّ ترداد الناس إليه، و كثر ترددهم إلى باب القاضى ناصر الدين بن البارزىّ لقضاء حوائجهم.

و لما عظم أمر الأتابك شيخ بعد موت بكتمر، و رأى أن الجوّ قد خلاله و ما ثمّ مانع من سلطنته طلب الأمراء و كلّمهم فى ذلك، فأجاب الجميع بالسّمع و الطّاعة- طوعا و كرها- و اتفقوا على سلطنته.

فلما كان يوم الاثنين مستهل شعبان، و عمل الموكب عنده على عادته بالإسطبل السلطانيّ، و اجتمع القضاة الأربعة قام فتح اللّه كاتب

السر على قدميه فى الملأ و قال لمن حضر: إن الأحوال ضائقة و لم يعهد أهل نواحى مصر اسم خليفة، و لا تستقيم الأمور إلا بأن يقوم سلطان على العادة، و دعاهم إلى الأتابک شيخ المحمودىّ، فقال شيخ المذكور: هذا لا يتمّ إلا برضاء الجماعة، فقال من حضر بلسان واحد: نحن راضون بالأمير الكبير، فمدّ قاضى القضاة جلال الدين عبد الرحمن البلقينىّ يده

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج١٣، ص: ٢٠٧

و بايعه، فلم يختلف عليه اثنان، و خلع الخليفة المستعين بالله العبّاس من السلطنة بغير رضاه.

و بعد سلطنة الملک المؤيد شيخ و جلوسه على كرسى الملک- حسبما يأتى ذكره بعد أن نذكر بقية ترجمة العباس هذا- بعث إليه القضاة ليسلّموا عليه، و يشهدوا عليه أنه فوّض إلى الأمير شيخ السلطانة على العادة، فدخلوا إليه و كلّموه فى ذلک، فتوقّف فى الإشهاد عليه بتفويض السلطنة توقّفا كبيرا، ثمّ اشترط فى أن يؤذن له فى النّزول من القلعة إلى داره، و أن يحلف له السلطان بأنّه يناصحه سرّا و جهرا، و يكون سلما لمن سالمه و حربا لمن حاربه، فعاد القضاة إلى السلطان و ردّوا الخبر عليه، و حسّنوا له العبارة فى القول، فأجاب: يمهّل علينا أياما فى النزول إلى داره ثم يرسم له بالنزول، فأعادوا عليه الجواب بذلک و شهدوا عليه، و توجهوا إلى حال سبيلهم.

و أقام الخليفة بقلعة الجبل محتفظا به على عادته أوّلا خليفة إلى ما يأتى ذكره.

فكانت مدّة سلطنته من يوم جلس سلطانا خارج دمشق إلى يوم خلعه يوم الاثنين أوّل شعبان، سبعة أشهر و خمسة أيام، و أقام المستعين بقلعة الجبل إلى أن خلع من الخلافة أيضا بأخيه المعتضد داود بغير رضاه، كما وقع فى خلعه من السلطنة، و كان ذلک فى ذى الحجة سنة ست عشرة و ثمانمائة، و دام مخلوعا بقلعة الجبل فى دار بالقلعة مدّة، ثم نقل إلى برج بالقلعة إلى يوم عيد النّحر من سنة تسع عشرة و ثمانمائة، فأنزل من القلعة نهارا إلى ساحل النيل على فرس، و صحبته أولاد الملک الناصر فرج و هم: فرج، و محمد، و خليل، و توّجه معهم الأمير كزل الأرغون شاوىّ، فدام الخليفة المستعين هذا مسجونا بإسكندرية إلى أن نقله الملک الأشرف برسباى إلى قاعة بثغر الإسكندرية، فدام بها إلى أن توفّى بالطّاعون فى يوم الأربعاء لعشرين

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج١٣، ص: ٢٠٨

بقين من جمادى الأولى سنة ثلاث و ثلاثين و ثمانمائة، و لم يبلغ الأربعين سنة من العمر و مات و هو فى زعمه أنه مستمر على الخلافة، و أنه لم يخلع بطريق شرعى، و عهد من بعده بالخلافة لولده يحيى، فلمّا مات المعتضد داود فى يوم الأحد رابع شهر ربيع الأول من سنة خمس و أربعين و ثمانمائة، تكلّم يحيى المذكور فى الخلافة، و سعى سعيا عظيما، فلم يتمّ له ذلک، و اللّه أعلم، و الحمد للّه على كلّ حال.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج١٣، ص: ٢٠٩

فهرس الجزء الثالث عشر من كتاب النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة

اشارة

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج١٣، ص: ٢١١

فهرس الملوک و السلاطين الذين تولوا مصر من سنة ٨٠١- ٨١٥ ه

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۲۱۲

فهرس الأعلام

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة؛ ج۱۳؛ ص۲۱۳

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۲۱۴

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۲۱۸

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۲۱۹

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۲۲۰

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۲۲۱

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١٣، ص: ٢٢۶

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۲۳۳

الملك العادل أبو الفتح جكم من عوض ۵۸: ۱۳، ۱۵، ۱۷، ۱۸، ۲۰، ۲۲- ۵۹:

۱، ۱۳، ۱۵، ۱۷- ۶۰: ۱، ۴، ۷، ۸، ۱۰، ۱۳، ۱۶، ۱۷، ۲۰، ۲۱- ۶۱: ۲، ۴، ۵، ۷، ۱۲، ۱۴، ۲۲- ۶۲: ۵، ۶، ۷

الملك قسطنطين- ملك الروم ۹۷: ۲۳

الملك الكامل ابن العادل أبى بكر بن أيوب ۹۸: ۲۱

الملك المنصور عز الدين عبد العزيز ابن الظاهر برقوق ۴۱: ۱، ۳، ۹، ۱۳، ۱۴، ۱۶- ۴۲: ۴،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۲۳۶

۵، ۹، ۱۱، ۱۲- ۴۳: ۱۵، ۱۷- ۴۴: ۱۱، ۱۸- ۴۵: ۱۲، ۲۲- ۴۷: ۳، ۶، ۱۱، ۱۲- ۴۸: ۶- ۵۴: ۱۳، ۱۶- ۱۵۰: ۲- ۱۵۴: ۳، ۱۰- ۱۷۲: ۱۹

الملك المنصور قلاوون ۱۲۰: ۲۱

الملك المؤيد شيخ ۲۲: ۱۱، ۱۲- ۸۶: ۱۳- ۹۸: ۲۲- ۱۱۶: ۹- ۱۲۳: ۱۵، ۲۲- ۱۲۹: ۱۲- ۱۸۳: ۲- ۱۸۶:

۲۲- ۲۰۷: ۳، ۵

الملك الناصر أحمد- ملك اليمن ۲۶: ۴

الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون ۱۰۹: ۲- ۱۱۰: ۲۰- ۱۲۳: ۱۶

الملك الناصر فرج بن برقوق ۳: ۳، ۴، ۶- ۱۲: ۱، ۴، ۵، ۱۹- ۱۶:

۹، ۱۵- ۱۷: ۴- ۱۹: ۱، ۳- ۲۰: ۱، ۶- ۲۶: ۱۱- ۲۷: ۱- ۲۹: ۱- ۳۱: ۶، ۱۵- ۳۲: ۳- ۳۴: ۲- ۳۶: ۱۲- ۳۸: ۲، ۵- ۴۱:

۶، ۷، ۱۸، ۲۰- ۴۲: ۱، ۲، ۳، ۶- ۴۳:

۵، ۶، ۷، ۱۳، ۱۴- ۴۴: ۱۰، ۱۴، ۱۷، ۱۹- ۴۵: ۱، ۶، ۷، ۱۱، ۲۳- ۴۶: ۲، ۶، ۹، ۱۰، ۱۲، ۱۳، ۱۶- ۴۷: ۱، ۳، ۵، ۸، ۱۵- ۴۸: ۱، ۳، ۱۸-

۴۹: ۲، ۱۳- ۵۰: ۵، ۱۲- ۵۱: ۳- ۵۴: ۱۲- ۵۵:

۴، ۱۱، ۱۷- ۵۶: ۹، ۱۹- ۵۷: ۹، ۱۴- ۵۸: ۴، ۱۳- ۵۹: ۱۷- ۶۱: ۶- ۶۲: ۳، ۱۹- ۶۳: ۷، ۱۴- ۶۵: ۲- ۶۶: ۳- ۶۷: ۸، ۱۰، ۱۱- ۶۸:

۱۰- ۷۰: ۳، ۱۰، ۱۳، ۱۹- ۷۱: ۹- ۷۲: ۹- ۷۳: ۵، ۱۰- ۷۵: ۵- ۷۷:

۵، ۱۹- ۸۱: ۴، ۶، ۲۰- ۸۲: ۲، ۸، ۱۳- ۸۳: ۷، ۱۴، ۱۶، ۲۲- ۸۴: ۲، ۳، ۵، ۸، ۱۷- ۸۵: ۷، ۱۵- ۸۶: ۴، ۸- ۸۷:

۱۲- ۸۸: ۹، ۱۸- ۹۰: ۱۰- ۹۲: ۱۲- ۹۳:

۱۲- ۹۷: ۲۰- ۱۰۰: ۳، ۲۰- ۱۰۱: ۱، ۱۳، ۱۸- ۱۰۲: ۱۱، ۱۹- ۱۰۳: ۱، ۳- ۱۰۴: ۱۴- ۱۰۵: ۱۸، ۲۰- ۱۱۱: ۱۳، ۱۹، ۲۰- ۱۱۴: ۱۵-

۱۱۵: ۳، ۵، ۸، ۱۰- ۱۱۶: ۱۲، ۱۸، ۲۱- ۱۱۷: ۲۲- ۱۲۰:

۳- ۱۲۲: ۲۳- ۱۲۷: ۴، ۹، ۲۰، ۲۳- ۱۲۹:

۱۶- ۱۳۰: ۳، ۱۸- ۱۳۲: ۴- ۱۳۵: ۵، ۷- ۱۳۷: ۴، ۱۶- ۱۳۸: ۱۱- ۱۳۹: ۹، ۱۳، ۱۶، ۱۷- ۱۴۰: ۸، ۱۱، ۱۳، ۱۸، ۲۰- ۱۴۱: ۴، ۷، ۸-

۱۴۲: ۵، ۱۸- ۱۴۳:

۱۵- ۱۴۵: ۱۳- ۱۴۶: ۸، ۱۱، ۱۶- ۱۴۷:

۲، ۴، ۷، ۱۰، ۱۵، ۱۶، ۱۸، ۲۰- ۱۴۸: ۴، ۹- ۱۴۹: ۱، ۱۸، ۲۰- ۱۵۰:

۱۰، ۲۰- ۱۵۱: ۵- ۱۵۳: ۱۶- ۱۵۴: ۱، ۵- ۱۵۶: ۱۱- ۱۵۸: ۱۴- ۱۶۰: ۳- ۱۶۴: ۱- ۱۶۷: ۱، ۹، ۱۳، ۱۴- ۱۷۰: ۲، ۸، ۱۱، ۱۳، ۱۴،

۱۷، ۱۸- ۱۷۱: ۱، ۱۸- ۱۷۲: ۱۸- ۱۷۵: ۱، ۴، ۹- ۱۷۸: ۱، ۵، ۱۷- ۱۸۰: ۱۷- ۱۸۳: ۱، ۳، ۴، ۷، ۱۱، ۱۸، ۱۹- ۱۸۵: ۱، ۱۲، ۱۴-

۱۸۶:

۴، ۷، ۱۱- ۱۸۹: ۱۷، ۱۸، ۲۰- ۱۹۰:

۱، ۲، ۴، ۵، ۶، ۸، ۱۱، ۱۲، ۱۵، ۱۸- ۱۹۱: ۴، ۱۰، ۱۷- ۱۹۲: ۳، ۶، ۹، ۱۲، ۱۷- ۱۹۳: ۲، ۹، ۱۰، ۱۷، ۲۰- ۱۹۴: ۳، ۱۱، ۱۳، ۲۳-

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۲۳۸

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۲۳۹

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۲۴۰

فهرس الأمم و القبائل و البطون و العشائر و الأرهاط و الطوائف و الجماعات

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۲۴۱

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۲۴۲

فهرس البلاد و الأماكن و الأنهار و الجبال و غير ذلک

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۲۴۵

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۲۴۶

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۲۴۸

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١٣، ص: ٢۵۵

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۲۵۸

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۲۶۱

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۲۶۲

فهرس الألفاظ الاصطلاحية و أسماء الوظائف و الرتب و الألقاب التى كانت مستعملة فى عصر المؤلف

۱۲: ۹- ۱۵: ۱۳- ۶۵: ۱۶- ۱۰۲: ۵، ۶، ۱۵- ۱۰۹: ۹- ۱۲۱: ۱۳- ۱۲۳: ۳، ۸- ۱۲۵:

۱۹، ۲۰- ۱۲۶: ۱۳- ۱۳۰: ۱۱- ۱۴۰: ۱۶، ۲۰- ۱۵۸: ۸

الأمراء الأجلاب:

۱۳: ۱، ۵

الأمراء البطالون:

۱۲۱: ۲

الأمراء الخاصكية:

۲۰۶: ۶

أمراء الدولة:

۱۹: ۴

أمراء الشام:

۵۸: ۱۹

أمراء الطبلخانات:

۱۰: ۱۰- ۱۸: ۱۳- ۳۵: ۶- ۴۸: ۱۶- ۶۶:

۱۲- ۷۳: ۱۲- ۱۰۲: ۲، ۸- ۱۰۹: ۱۱- ۱۳۰:

۱۲- ۱۵۸: ۱۸- ۱۶۹: ۳- ۱۸۱: ۷- ۱۹۰: ۱۴

أمراء العشرات:

۳۲: ۱۲، ۲۱، ۲۲- ۳۸: ۱۳- ۴۸: ۱۵- ۷۳: ۱۲- ۱۰۲: ۲، ۸- ۱۴۵: ۲۰- ۲۰۳: ۳

أمراء المشورة:

۴۸: ۲۱

أمراء مصر:

۱۶: ۱۵

الأمراء المقدمون:

۵: ۱۸- ۱۲: ۲۱

إمرة:

۱۱۸: ۱۵

إمرة ألينبع:

۷۴: ۸

إمرة سلاح:

۵: ۶

إمرة طبلخاناة:

۵: ۴- ۷۴: ۱۶- ۱۴۳: ۱۰

إمرة الشام:

۷۳: ۱۷

إمرة عشرة:

۱۶: ۱۱

إمرة مائة:

۶: ۵- ۴۸: ۱۷- ۴۹: ۷

إمرة مائة و مقدمة ألف:

۱۱۸: ۹

إمرة المدينة المنورة:

۷۴: ۸- ۸۸: ۱۴

الأمريات:

۴۵: ۱۰- ۲۰۱: ۶- ۲۰۳: ۲۱- ۲۰۵: ۱۱

أمير آخور:

۱۲: ۱۰- ۱۸: ۹- ۴۲: ۱۵- ۴۸: ۱۵- ۵۳:

۱۹- ۵۶: ۴- ۶۱: ۲- ۶۴: ۷- ۹۹: ۱۱- ۱۰۸:

۲۰- ۱۱۰: ۱۳- ۱۱۳: ۲- ۱۷۰: ۸

أمير آخورثانى:

۱۶: ۲- ۷۷: ۲۰- ۱۲۵: ۱۹

أمير آخور كبير:

۵: ۵- ۲۰: ۱۶- ۳۱: ۶- ۳۲: ۱۴- ۴۸: ۱۳- ۴۹: ۱۴- ۵۹: ۲- ۶۸: ۳- ۷۳: ۱۵- ۷۴:

۱۳- ۷۷: ۹- ۱۰۲: ۱۲

الأمير آخورية:

۵: ۸- ۷۷: ۳- ۱۰۲: ۱۸

أمير جاندار:

۹۶: ۱۱- ۱۱۳: ۹

أمير حاج المحمل:

۲۲: ۶- ۵۳: ۱۴

أمير سلاح:

۵: ۱- ۴۲: ۱۴- ۵۰: ۲، ۳- ۵۵: ۱- ۶۸:

۱۶- ۱۰۰: ۸- ۱۳۲: ۱۶- ۱۶۷: ۸- ۱۸۳: ۱۴

أمير طبلخاناة:

۱۶: ۲- ۹۵: ۸

أمير عشرة:

۸: ۱۹- ۶۶: ۱۲، ۱۳- ۱۲۱: ۱۷

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۲۷۲

۲۴: ۱۲

ق القاصد (من یحمل مراسیم السلطان):

۵۱: ۲۰- ۵۳: ۱۱

قاصد الأمیر شیخ:

۶۳: ۱۰

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۲۷۳

قاصد الملک:

۵۹: ۱

قاضی الإسکندریة:

۲۳: ۱۵

قاضی حلب:

۱۴۶: ۹

قاضی القضاة:

۳: ۷- ۱۰: ۴- ۲۳: ۱۴- ۲۴: ۷- ۲۵: ۷- ۲۹: ۶- ۳۴: ۴- ۳۹: ۴، ۵- ۱۸۰: ۱

قاضی قضاة الإسکندریة:

۱۰: ۷

قاضی قضاة حلب:

۱۷۱: ۵

قاضی قضاة الحنابلة:

۲۵: ۵

قاضی قضاة الحنفیة:

۲۵: ۱۱

قاضی قضاة الحنفیة بدمشق:

۶۴: ۱۳

قاضی قضاة الحنفیة بالدیار المصریة:

۱۷: ۶- ۲۰۵: ۲۱

قاضی قضاة دمشق:

۲۱: ۱۲- ۱۴۶: ۶، ۱۹- ۱۶۵: ۱۸

قاضی قضاة الدیار المصریة:

۱۷: ۱۱- ۲۱: ۱۴- ۲۳: ۷، ۱۲- ۲۴: ۸- ۲۵: ۸- ۱۴۶: ۴- ۱۵۵: ۲۰

قاضی قضاة الشافعیة:

۳۴: ۵- ۱۹۲: ۱۱

قاضی قضاة الکرک:

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۲۷۶

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۲۷۸

۴۹: ۱۸- ۵۵: ۸

نائب الشام:

۱۲: ۴- ۱۳: ۲۱- ۱۴: ۱۲- ۱۶: ۸- ۲۰: ۹- ۲۱: ۳- ۳۶: ۱۲- ۴۳: ۱۸- ۵۰: ۱۴- ۵۲:

۶، ۱۶- ۵۶: ۲۰- ۵۷: ۱۸- ۵۸: ۱۷- ۶۱:

۱۳- ۶۲: ۴- ۶۳: ۶- ۷۷: ۱۵- ۷۹: ۴- ۸۴: ۲۱- ۸۸: ۱۰، ۲۱- ۹۳: ۷- ۹۹: ۱۵- ۱۰۵: ۴- ۱۰۷: ۳- ۱۱۷: ۱۱، ۱۳- ۱۳۵:

۱۱، ۱۵- ۱۴۲: ۱۷- ۱۷۲: ۱۷- ۱۸۱: ۱۹- ۲۰۰: ۷

نائب صفد:

۵۲: ۱۰، ۱۶- ۹۹: ۲- ۱۰۵: ۵، ۱۱- ۱۱۸: ۱۱- ۱۵۹: ۹

نائب طرابلس:

۸: ۱۷- ۱۶: ۸- ۲۸: ۳- ۵۰: ۲۰- ۷۱:

۵- ۸۰: ۳- ۸۷: ۲۱- ۱۱۷: ۱۲- ۱۲۵: ۳- ۱۵۹: ۹- ۱۸۴: ۲۰

نائب غزة:

۱۶: ۱- ۵۴: ۴- ۵۷: ۱۱- ۵۸: ۷- ۷۱:

۹- ۹۶: ۲۱- ۹۸: ۱۸- ۱۰۸: ۱۵- ۱۲۳: ۳- ۱۲۹: ۱- ۱۸۴: ۱۵

نائب الغيبة:

۴۶: ۲۲- ۵۵: ۲۴- ۶۳: ۱۵- ۶۵: ۱۹- ۶۶:

۱۳- ۱۰۵: ۱۲- ۱۳۶: ۶- ۲۰۱: ۱

نائب القدس:

۱۲۶: ۱۳

نائب قلعة جعبر:

۳۶: ۱۹

نائب قلعة دمشق:

۱۳۵: ۱۶- ۱۷۰: ۱۰

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۲۷۹

نائب الكرك:

۶: ۲- ۶۵: ۱۷- ۱۰۸: ۹

النائب الكافل:

۱۲: ۲۱- ۵۵: ۲۴

نديم:

۲۶: ۸

النشاب:

۱۱۰: ۲- ۱۲۵: ۱۴- ۱۳۴: ۵- ۱۴۵: ۵

نظر الأحباس:

نيابة السلطنة بالديار المصرية:

۱۸۳: ۱۶- ۱۸۴: ۵، ۸، ۱۲

نيابة الشام:

۴۳: ۱۹- ۵۴: ۱۰- ۶۵: ۶- ۷۰: ۱۵- ۷۱:

۱- ۷۲: ۱۸- ۹۷: ۱۵- ۱۰۱: ۱۲- ۱۰۶: ۴، ۱۶- ۱۱۳: ۳- ۱۱۵: ۱۷- ۱۱۷: ۱۵، ۲۰- ۱۷۸: ۷- ۲۰۰: ۱۲، ۱۷

نيابة صفد:

۴: ۵- ۱۷: ۱- ۳۶: ۲، ۶- ۵۱: ۷- ۵۸:

۱۸- ۷۷: ۲۰- ۹۹: ۳- ۱۰۶: ۱۴، ۱۸، ۲۰- ۱۱۸: ۱۱- ۱۶۹: ۱۰

نيابة طرابلس:

۳۶: ۹، ۱۳، ۱۵- ۵۲: ۵- ۵۶: ۵- ۶۶:

۱۵- ۷۰: ۲۰- ۸۰: ۷- ۸۸: ۷- ۸۹: ۱۵- ۹۷:

۱۲- ۱۰۵: ۷- ۱۰۶: ۱۵- ۱۱۶: ۱۴- ۱۱۸:

۸- ۱۷۸: ۸- ۱۹۱: ۱۴- ۲۰۵: ۱۱

نيابة عين تاب:

۱۰۶: ۶

نيابة غزة:

۴۹: ۱۶- ۷۱: ۱۰- ۷۷: ۲۱- ۲۰۴: ۱۰

نيابة الغيبة:

۵۵: ۹- ۷۷: ۱۰، ۱۲- ۱۰۲: ۱۲- ۱۸۳: ۱۱

نيابة القدس:

۹۰: ۱۴- ۱۰۵: ۸

نيابة القلعة:

۱۳۶: ۸

نيابة الكرك:

۱۰: ۱۱- ۸۹: ۷

نيابة ملطية:

۱۰۶: ۵- ۱۵۹: ۴

و والى القاهرة:

۹۸: ۲۱- ۱۱۰: ۱۸- ۱۲۶: ۱۸- ۲۰۴: ۱۴

والى الولاة:

۷۵: ۲۳

الوزارة:

۹۶: ۷

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۲۸۱

فهرس وفاء النيل من سنه ۸۰۱- ۸۱۴ ه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۲۸۲

فهرس أسماء الكتب الواردة بالمتن و الهوامش

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۲۸۴

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۳، ص: ۲۸۵

فهرس الموضوعات

[الجزء الرابع عشر]

اشارة

تراثنا النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة تألیف جمال الدین أبی المحاسن یوسف بن تغری بردی الأتابکی الجزء الرابع عشر

تحقیق الدکتور جمال محمد محرز الأستاذ فهیم محمد شلتوت الناشر الهیئة المصریة العامة للتألیف و النشر ۱۳۹۱ ه- ۱۹۷۱ م

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، مقدمةج۱۴، ص: ۲

بسم اللّه الرّحمن الرّحیم

تقدیم

هذا هو الجزء الرابع عشر من کتاب النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة لجمال الدین أبی المحاسن یوسف بن تغری بردی.

و هذا الجزء یؤرخ للحقبة التی حکم فیها السلطان الملک المؤید أبو النصر شیخ المحمودی و ابنه السلطان الملک المظفر أحمد، ثم السلطان الملک الظاهر ططر و ابنه السلطان الملک الصالح محمد بن ططر، ثم السلطان الملک الأشرف برسبای.

و إذا کان الجزء الثالث عشر قد أرخ للعالم العربی و الأطراف الدائرة فی فلکه فی فترة غمرتها أحداث لم تشهد مصر و ما والاها مثلها من قبل، کغزو تیمور لنک لسوریا سنة (۸۰۲- ۸۰۳ ه)، و الصراع المحتدم بین السلطان الملک الناصر فرج بن برقوق و کبار أمراء دولته، ذلک الصراع الذی انتهی بمقتل کثیر من أمراء الدولة ثم مقتل السلطان نفسه، إلی الجدب العظیم الذی أصیبت به البلاد نتیجة لقصور فیضان النیل، إلی انتشار الطاعون فی البلاد، و انعکاس أثر ذلک کله علی الحیاة السیاسیة و الاجتماعیة و الاقتصادیة و العمرانیة.

إذا کان هذا هو موضوع الجزء الثالث عشر فإن الجزء الرابع عشر یؤرخ لفترة من الاستقرار النسبی سادت البلاد العربیة فانتعشت أحوالها و تفرغ بعض السلاطین إلی إقرار الأمور فی الأطراف، فجال المؤید شیخ المحمودی فی بلاد الشام و ما جاورها من بلاد الروم، و أدب عصاة الترکمان، و مهد قلاع الثغور الإسلامیة، و أکد ولاءها للدولة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، مقدمةج۱۴، ص: ۳

کذلک أرسل ابنه المقام الصارمی إبراهیم علی رأس حملة مهدت الأمور فی القلاع الرومیة، و قضی علی العصاة من الترکمان، و نشر هیبة الدولة فی الأقطار المجاورة.

کذلک فعل السلطان ططر- علی قصر فترة حکمه- و أیضا فعل السلطان برسبای.

و خلفت هذه الفترة کثیرا من الآثار الشامخة التی تدل علی استتباب أمور الدولة و تفرغ السلطان و کبار رجاله إلی التعمیر و التشیید؛ من ذلک مسجد و مدرسة السلطان الملک المؤید داخل باب زویلة الذی یقول المؤلف عنه: لم یبن فی الإسلام أکثر زخرفة منه بعد الجامع الأموی بدمشق، و کذلک مدرسة و مسجد الأشرف برسبای، و غیرهما من الآثار الشامخة التی أخنی علیها الدهر. مثل قبة البحرة بقلعة الجبل، و بیمارستان المؤید شیخ، و منظرة «الخمس وجوه» و مسجد جزیرة الروضة.

و لو لا خروج بعض الأمراء من حکام البلاد الشامیة و الحلبیة عن الطاعة، و اضطرار السلطان لقتالهم، و لو لا الطاعون العظیم الذی انتشر فی البلاد العربیة و غیرها من الأقطار الإفریقیة و الأقطار الأوربیة (سنة ۸۳۳ ه) و الذی لم یشهد العالم مثله فی تلک الحقب، و لو لا ما اتسم به عهد برسبای من تذمر الممالیک السلطانیة أو الممالیک الأجلاب کما یطلق علیهم، و خروجهم عن الطاعة فی کل قلیل و کثیر، و اعتدائهم علی کبار رجال الدولة لکانت الفترة التی یؤرخ لها هذا الجزء من کتاب النجوم الزاهرة من أحسن الفترات التی مرت بالدولة الإسلامیة.

و تتمیز هذه الفترة بالانتصارات المتتابعة للدولة علی الفرنج الذین دأبوا علی مهاجمة الثغور الإسلامیة، و الاستیلاء علی مراکب المسلمین و قوافل تجارتهم البحریة مما اضطر الملک الأشرف برسبای أن یعد الحملة تلو الحملة لتأدیب قراصنة الفرنج، ثم یعد حملة کبیرة تشترک فیها الجیوش النظامیة و المطوعة من المجاهدین إلی قبرس سنة ۸۲۹ ه فتنتصر انتصارا ساحقا علی جیوش قبرس و جیوش الفرنج المساندة لها، و تعود بالغنائم و الأسری و من بینهم ملک قبرس نفسه.

و قد أفرد المؤلف فصلا لغزوة قبرس حکی فیه أخبارها، و کیف تم انتصار الجیوش

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، مقدمةج۱۴، ص: ۴

الإسلامیة فیها و کیف أسر الملک، ثم عودة الجیوش و استقبال الشعب العربی فی القاهرة لها، و مراسیم الدولة فی هذا الاستقبال، و حال ملک قبرس فی حضرة السلطان، و ما انتهی إلیه أمر الملک من الإفراج عنه و دخوله فی طاعة الدولة و تقریر خراج سنوی یدفع للسلطان.

و لقد کانت هذه الغزوة بمثابة فرض سلطة الدولة الإسلامیة علی جزر البحر المتوسط، و لذلک نری ملک رودس یسارع فیطلب الأمان من السلطان و یطلب إعفاء بلاده من الغزو، و یتعهد بالقیام بکل ما یطلب منه.

و تترک هذه الانتصارات أثرها المریر بین أعداء الدولة الإسلامیة، لیس لدی الفرنج وحدهم کما تعودنا و لکن لدی الحطی ملک الحبشة أیضا، مما یجعله یمهد لمؤامرة علی الدولة الإسلامیة فیرسل رسوله إلی ملوک الفرنج یستشیرهم و یؤلبهم علی الدولة، و یرسم معهم خطة مهاجمتها من الشمال و من الجنوب برا و بحرا، و لکن یقظة الدولة توقع برأس العمالة الذی یتمتع بنسبته للدولة الإسلامیة، و تقدمه للمحاکمة ثم تعدمه جزاء غدره و خیانته.

و یؤرخ هذا الجزء أیضا للأحداث التی وقعت فی الیمن سنة ۸۳۲ ه، و کذلک للأحداث التی وقعت فی المشرق (شمالی العراقین) و التی انتصرت فیها الحملة المصریة الشامیة و استولت علی الرها و غیرها من البلاد.

کذلک یؤرخ للحروب التی وقعت بین شاه رخ بن تیمور لنک، و بین إسکندر ابن قرایلک و التی انتهت بهزیمة إسکندر و فناء جیوشه و تشتته فی البلاد.

و مؤرخنا فی هذا الجزء یصف عن مشاهدة و یتحدث عن خبرة حدیث القریب من الأحداث اللصیق بها؛ فهو مثلا یتحدث عن موقف طریف له فی طفولته مع السلطان الملک المؤید شیخ فیقول:

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، مقدمةج۱۴، ص: ۵

دخلت إلیه مرة- و أنا فی الخامسة- فعلمنی- قبل دخولی إلیه- بعض من کان معی أن أطلب منه خبزا، فلما جلست عنده و کلمنی سألته فی ذلک، فغمز من کان واقفا بین یدیه- و أنا لا أدری- فأتاه برغیف کبیر من الخبز السلطانی، فأخذه بیده و ناولنیه و قال: خذ هذا خبز کبیر ملیح، فأخذته من یده و ألقیته إلی الأرض، و قلت:

أعط هذا للفقراء، أنا ما أرید إلا خبزا بفلاحین یأتوننی بالغنم و الأوز و الدجاج. فضحک حتی کاد أن یغشی علیه، و أعجبه منی ذلک إلی الغایة، و أمر لی بثلاثمائة دینار و وعدنی بما طلبته و زیادة.

و علاقة مؤرخنا بسلاطین الدولة فی هذه الحقبة و اتصاله بهم و معیشته فی بلاطهم- حتی عد فی بعض الأوقات من ندمائهم- أتاحت له أن یطلع علی کثیر من الأمور و أن یعیش بعضهما و أن یسجلها فی تاریخه هذا و فی غیره، و أن یکون حدیثه عنها وثیقة تاریخیة لها قیمتها فی تحلیل أحداث هذه الحقبة و تقویمها.

و تناوله لبعض آراء مؤرخی عصره، و مناقشته لهم، تبین إلی أی مدی کانت أحکامه صادقة و آراؤه سلیمة.

فهو حین یناقش مؤرخ العصر الشیخ تقی الدین المقریزی حول رأیه فی الملک المؤید شیخ و تقویمه له، یقول: و کان یمکننی الرد علی جمیع ما قاله بحق غیر أننی لست مندوبا إلی ذلک، فلهذا أضربت عن تسوید الورق و تضییع الزمان، و الذی أعرفه أنا من حاله أنه کان سلطانا جلیلا مهابا شجاعا عاقلا نقادا ... الخ.

و حین یناقشه أیضا فی ترجمته للسلطان الملک الظاهر ططر یقول: هذا القول لا یقوله إلا من لیس له خبرة بقواعد السلاطین، و لا یعرف ما الملوک علیه بالکلیة، و لو لا أن المقریزی ذکر هذه المقالة فی عدة کتب من مصنفاته ما کنت أتعرض إلی جواب ذلک؛ فإن هذا شیء لا یشک فیه أحد، و لم یختلف فیه اثنان غیر أنی أعذره

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، مقدمةج۱۴، ص: ۶

فیما نقل، فإنه کان بمعزل عن الدّولة، و ینقل أخبار الأتراک عن الآحاد، فکان یقع له من هذا و أشباهه أوهام کثیرة نبّهته علی کثیر منها فأصلحها معتمدا علی قولی، وها هی مصلوحة بخطه فی مظنات الأتراک و أسمائهم و وقائعهم.

و هو یناقش حافظ العصر شهاب الدین بن حجر فی نسبة السلطان الملک الأشرف برسبای بالدقماقی فیقول: و سبب سیاقنا لهذه الحکایة أن قاضی القضاة شهاب الدین ابن حجر- رحمه اللّه- نسبه أنه عتیق دقماق، و لیس الأمر علی ما نقله، و هو معذور فیما نقله لبعده عن معرفة اللغة الترکیة و مداخلة الأتراک، و قد اشتهر أیضا بالدقماقی فطن أنه عتیق دقماق، و لم یعلم نسبته بالدقماقی کما أن نسبة الوالد- رحمه اللّه بالبشبغاوی و المؤید بالمحمودی و نوروز بالحافظی ... و قد وقفت علی هذه المقالة فی حیاته علی خطه و لم أعلم أن الخط خطه فإنه کان (أی ابن حجر) رحمه اللّه یکتب ألوانا، و کتبت علی حاشیة الکتاب و بیّنت خطأه، و أنا أظن أن الخط خط ابن قاضی شهبة، و عاد الکتاب إلی أن وقع فی ید قاضی القضاة المذکور، فنظر إلی خطّی و عرفه و اعترف بأنه و هم فی ذلک ...قلت: و علی کل حال إن هذا الوهم هو أقرب للعقل من مقالة المقریزی فی الملک الظاهر ططر «إن الملک الناصر فرجا أعتقه بعد سنة ثمان فی سلطنته الثانیة». و أیضا أحسن مما قاله المقریزی فی حق الملک الأشرف برسبای هذا بعد وفاته فی تاریخه «السلوک» فی وفیات سنة إحدی و أربعین و ثمانمائة ... الخ..

و من هنا تجیء أهمیة هذا الجزء و ما یلیه، و یأخذ مکانه الصحیح بین الکتب التی أرخت لهذه الحقبة.

هذا و قد تم تحقیق هذا الجزء علی نسق الأجزاء السابقة منه و التی اضطلع بتحقیقها القسم الأدبی بدار الکتب، و رجع فی تحقیق الأحداث و تراجم الأعلام إلی المصادر

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، مقدمةج۱۴، ص: ۷

المعتمدة و المطروقة فی هذا المیدان، و قوبل الجزء علی مصورة مخطوطة «أیا صوفیا» المحفوظة بدار الکتب المصریة برقم ۱۳۴۳ تاریخ، و کذلک علی طبعة کالیفورنیا التی حققها المستشرق ولیم بوبر، و ترکت لغة المؤلف و ما فیها من تعبیرات عامیة علی حالها لتعطی صورة عن لغة العصر.

و إنا لنرجو أن نکون قد وفقنا، و أن یکون الجهد الذی بذلناه موضع القبول.

و اللّه ولی التوفیق.

۲۰ من شوال سنة ۱۳۹۱ ۷ من دیسمبر سنة ۱۹۷۱ المحققان

د جمال محمد محرز. فهیم محمد شلتوت

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱

بسم اللّه الرحمن الرحیم

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۱۵]

ذکر سلطنة الملک المؤید شیخ المحمودی علی مصر

السلطان الملک المؤیّد أبو النصر سیف الدین شیخ بن عبد اللّه المحمودیّ الظّاهریّ، و هو السلطان الثّامن و العشرون من ملوک التّرک بالدّیار المصریّة، و الرابع من الچراکسة و أولادهم، أصله من ممالیک الملک الظّاهر برقوق، اشتراه من أستاذه الخواجا محمود شاه البرزیّ فی سنة اثنتین و ثمانین و سبعمائة، و برقوق یوم ذاک أتابک العساکر بالدیار المصریّة قبل سلطنته بنحو السنتین، و کان عمر شیخ المذکور یوم اشتراه الملک الظاهر نحو اثنتی عشرة سنة تخمینا، و جعله برقوق من جملة ممالیکه، ثم أعتقه بعد سلطنته، و

رقّاه إلى أن جعله خاصّكيا ثم ساقيا فى سلطنته الثانية، و غضب عليه الملك الظاهر برقوق غير مرّة، و ضربه ضربا مبرّحا؛ لانهما كه فى السّكر و عزّره و هو لا يرجع عمّا هو فيه، كلّ ذلك و هو فى رتبته و خصوصيّته عند أستاذه إلى أن أنعم عليه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲

الملك الظاهر بإمرة عشرة، ثم نقله إلى طبلخاناه، ثم خلع عليه باستقراره أمير حاج المحمل فى سنة إحدى و ثمانمائة، فسار بالحج و عاد و قد مات أستاذه الملك الظاهر برقوق، فأنعم عليه بإمرة مائة و تقدمة ألف بالديار المصريّة عوضا عن الأمير بجاس النّوروزىّ بحكم لزوم بجاس داره لكبر سنّه، ثم استقرّ بعد وقعة تنم الحسنى فى سنة اثنتين و ثمانمائة فى نيابة طرابلس عوضا عن يونس بلطا بحكم القبض عليه، فدام على نيابة طرابلس إلى أن أسر فى واقعة تيمور مع من أسر من النوّاب، ثم أطلق و عاد إلى الدّيار المصريّة، و أقام بها مدّة ثم أعيد إلى نيابة طرابلس ثانيا، ثم نقل بعد مدّة إلى نيابة دمشق، ثم وقعت تلك الفتن و ثارت الحروب بين الأمراء الظاهريّة، ثم بينهم و بين ابن أستاذهم الملك الناصر فرج، و قد مرّ ذكر ذلك كلّه مستوفيا فى ترجمة الملك الناصر و ليس لذكره ههنا ثانيا محلّ، و لا زال شيخ المذكور يدبّر و الأقدار تساعده إلى أن استولى على الملك بعد القبض على الملك الناصر فرج و قتله. و قدم إلى الديار المصرية و سكن الحرّاقة من باب السلسلة، و صار الخليفة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۳

المستعين بالله فى قبضته و تحت أوامره جتى أجمع الناس قاطبة على سلطنته، و أجمعوا على توليته.

فلمّا حان يوم الاثنين مستهلّ شعبان حضر القضاة و أعيان الأمراء و جميع العساكر و طلعوا إلى باب السّلسلة، و تقدّم قاضى القضاة جلال الدين البلقينىّ و بايعه بالسّلطنة، ثم قام الأمير شيخ من مجلسه و دخل مبيت الحرّاقة بباب السّلسلة، و خرج و عليه خلعة السّلطنة السوداء الخليفتى على العادة، و ركب فرس النّوبة بشعار السّلطنة، و الأمراء و أرباب الدّولة مشاة بين يديه، و القبّة و الطير على رأسه حتى طلع إلى القلعة و نزل و دخل إلى القصر السّلطانى، و جلس على تخت الملك، و قبّلت الأمراء الأرض بين يديه، و دقت البشائر، ثم نودى بالقاهرة و مصر باسمه و سلطنته، و خلع على القضاة و الأمراء و من له عادة فى ذلك اليوم، و تمّ أمره إلى يوم الاثنين ثامن شعبان جلس السّلطان الملك المؤيّد بدار العدل و عمل الموكب على العادة، و خلع على الأمير يلبغا النّاصرىّ أمير مجلس باستقراره أتابك العساكر بديار مصر عوضا عن الملك المؤيّد شيخ المذكور، ثم خلع على الأمير شاهين الأفرم باستمراره أمير سلاح على عادته، و على الأمير قانى باى المحمدى باستقراره أمير

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۴

آخور كبيرا، و كانت شاغرة من يوم أمسك الأمير أرغون من بشبغا، و على الأمير طوغان الحسنىّ الدّوادار الكبير باستمراره على عادته، و على الأمير سودون الأشقر رأس نوبة النّوب باستمراره على عادته، و على الأمير إينال الصّصلانى حاجب الحجاب باستمراره على وظيفته، ثم خلع على القضاة و على جميع أرباب الوظائف بأسرها. ثم خلع على الأمير طرباى الظاهرىّ بتوجهه إلى البلاذ الشامية مبشّرا بسلطنته، فتوجّه إلى دمشق، و قبل وصوله إليها كان بلغ الأمير نوروز الحافظىّ الخبر، و أمسك جقمق الأرغون شاوىّ الدّوادار بعد قدومه من طرابلس إلى دمشق، فلما قدم طرباى على نوروز المذكور، و عرّفه بسلطنة الملك المؤيّد أنكر ذلك و لم يقبله و لا تحرّك من مجلسه و لا مسّ المرسوم الشّريف بيده، و أطلق لسانه فى حقّ الملك المؤيّد، و ردّ الأمير طرباى إلى الديار المصرية بجواب خشن إلى الغاية، خاطب فيه الملك المؤيّد كما كان يخاطبه أوّلا قبل سلطنته من غير أن يعترف له بالسلطنة، و كان حضور طرباى إلى القاهرة عائدا إليها من دمشق فى يوم

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۵

الثلاثاء أوّل شهر رمضان من سنة خمس عشرة و ثمانمائة، و كان الذى قدم صحبة طرباى من عند الأمير نوروز إلى القاهرة الأمير بكتمر السّيفىّ تغرى بردى، أعنى أحد مماليك الوالد، و كان من جملة أمراء الطّبلخانات بدمشق، و كان قبل خروجه من دمشق أوصاه

الأمير نوروز أنه لا يقبّل الأرض بين يدى الملك المؤيّد، فلما وصل إلى الديار المصريّة و حضر بين يدى السّلطان أمره أرباب الدّولة بتقبيل الأرض فأبى و قال: مرسلى أمرنى بعدم تقبيل الأرض، فاستشاط الملك المؤيّد غضبا و كاد أن يأمر بضرب رقبته حتى شفع فيه من حضر من الأمراء، ثم قبّل الأرض.

ثمّ فى سابع عشر شهر رمضان المذكور أرسل الملك المؤيّد الشيخ شرف الدين ابن التّبانى الحنفىّ رسولا إلى الأمير نوروز ليترضّاه، و يكلّمه فى الطّاعة له و عدم المخالفة، و سافر ابن التّبانىّ إلى جهة الشام.

ثم فى تاسع شوّال أمسك السلطان الملك المؤيد شيخ الأمير سودون المحمدى المعروف بتلّى أى مجنون، و قيّده و أرسله إلى سجن الإسكندرية، ثم أمسك فتح اللّه كاتب السّرّ، و احتاط على موجوده و صادره، فضرب فتح اللّه المذكور و عوقب أشدّ عقوبة حتى تقرّر عليه خمسون ألف دينار.

ثم فى ثالث عشر شوّال استقرّ القاضى ناصر الدين بن البارزىّ فى كتابه السّرّ الشريف بالديار المصرية عوضا عن فتح اللّه المذكور.

هذا، و الأمير نوروز قد استدعى جميع النّوّاب بالبلاد الشاميّة فحضر إليه الأمير

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۶

يشبك بن أزدمر نائب حلب، و الأمير طوخ نائب طرابلس، و الأمير قمش نائب حماة، و ابن دلغادر، و تغرى بردى ابن أخى دمرداش المدعو سيّدى الصّغير، فخرج الأمير نوروز إلى ملاقاتهم، و التقاهم و أكرمهم، و عاد بهم إلى دمشق، و جمع القضاة و الأعيان، و استفتاهم فى سلطنة الملك المؤيّد و حبسه للخليفة و ما أشبه ذلك، فلم يتكلّم أحد بشىء، و انفضّ المجلس بغير طائل.

و أنعم نوروز على النّوّاب المذكورين فى يوم واحد بأربعين ألف دينار، ثم رسم لهم بالتوجّه إلى محل ولاياتهم إلى أن يبعث يطلبهم.

و قدم عليه ابن التّباتى فمنعه من الاجتماع مع الناس، و احتفظ به بعد أن كلّمه فلم يؤثّر فيه الكلام، و أخذ الأمير نوروز فى تقوية أموره و استعداده لقتال الملك المؤيّد شيخ، و طلب التّركمان، و أكثر من استخدام المماليك و ما أشبه ذلك.

و بلغ الملك المؤيّد شيخا ذلك فخلع فى ثالث ذى الحجة من السنة على الأمير قرقماس ابن أخى دمرداش المدعو سيّدى الكبير باستقراره فى نيابة دمشق عوضا عن الأمير نوروز الحافظىّ، و عند خروجه قدم الخبر بمفارقة أخيه الأمير تغرى بردى سيّدى الصغير لنوروز و قدومه إلى صفد داخلا فى طاعة الملك المؤيّد شيخ، و كانت صفد فى حكم الملك المؤيّد، فدقّت البشائر بالديار المصريّة لذلك.

و بينما الملك المؤيّد فى الاستعداد لقتال نوروز ثار عليه مرض المفاصل حتى لزم الفراش منه عدّة أيام و تعطّل فيها عن المواكب السلطانية.

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۱۶]

و أما قرقماس سيّدى الكبير فإنه وصل إلى غزّة و سار منها فى تاسع صفر و توجّه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۷

إلى صفد و اجتمع بأخيه تغرى بردى سيّدى الصغير، و خرج فى أثرهما الأمير ألطنبغا العثمانى نائب غزّة، و الجميع متوجّهون لقتال الأمير نوروز- و قد خرج نوروز إلى جهة حلب- ليأخذوا دمشق فى غيبة الأمير نوروز، فبلغهم عود نوروز من حلب إلى دمشق، فأقاموا بالرّملة.

ثمّ قدم على السلطان آقبغا بجواب الأمير دمرداش المحمدى و نوّاب القلاع بطاعتهم أجمعين للسلطان الملك المؤيّد، و صحبته أيضا قاصد الأمير عثمان بن طرعلى المعروف بقرايلك، فخلع السلطان عليهما، و كتب جوابهما بالشكر و الثناء.

ثم فى أوّل شهر ربيع الآخر قبض السلطان على الأمير قصروه من تمراز الظاهرىّ، و قيّده و أرسله إلى سجن الإسكندرية، و شرع الأمير نوروز كلما أرسل إلى الملك المؤيّد كتابا يخاطبه فيه بمولانا، و يفتتحه بالإمامى المستعين، فيعظم ذلك على الملك المؤيّد إلى الغاية.

و لما بلغ نوروز قدوم قرقماس بمن معه إلى الرّملة سار لحربه، و خرج من دمشق بعساكره، فلما بلغ قرقماس و أخاه ذلك عادا بمن معهما إلى جهة الدّيار المصرية عجزا عن مقاومته حتى نزلا بالصالحية.

و أما الملك المؤيّد فإنه لما كان رابع جمادى الأولى أوفى النيل ستة عشر ذراعا فركب الملك المؤيّد من قلعة الجبل، و نزل فى موكب عظيم حتى عدّى النيل و خلّق المقياس على العادة، و ركب الحرّاقة لفتح خليج السّد، فأنشده شاعره و أحد ندمائه الشيخ تقى الدين أبو بكر بن حجّة الحموى الحنفى يخاطبه: [الطويل]

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۸

أيا ملكا بالله أضحى مؤيّدا و منتصبا فى ملكه نصب تمييز

كسرت بمسرى سدّ مصر و تنقضى - و حقّك- يوم الكسر أيّام نوروز

فحسن ذلك ببال السلطان الملك المؤيّد إلى الغاية، ثم ركب الملك المؤيّد و عاد إلى القلعة، و أصبح أمسك الوزير ابن البشيرى، و ناظر الخاص ابن أبى شاكر، و خلع على الصاحب تاج الدين عبد الرزاق بن الهيصم باستقراره وزيرا عوضا عن [ابن] البشيرى، فعاد تاج الدين إلى لبس الكتّاب، فإنه كان تزيّا بزىّ الجند لمّا استقرّ أستادارا بعد مسك جمال الدين فى الدولة الناصرية، و تسلّم ابن البشيرىّ، و خلع على الصاحب بدر الدين حسن بن نصر اللّه ناظر الجيش باستقراره فى نظر الخاص عوضا عن ابن أبى شاكر، و خلع على علم الدين داود بن الكويز باستقراره ناظر الجيش عوضا عن ابن نصر اللّه المذكور، ثم خلع السلطان على الأمير سودون الأشقر رأس نوبة النّوب باستقراره أمير مجلس، و كانت شاغرة عن الأمير يلبغا الناصرى، و خلع على الأمير جانى بك الصّوفىّ باستقراره رأس نوبة النّوب عوضا عن سودون الأشقر، و كان جانى بك الصّوفى قدم هو و الأمير ألطنبغا العثمانى نائب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۹

غزّة، و تغرى بردى سيّدى الصغير، و أخوه قرقماس سيدى الكبير المتولّى نيابة دمشق، فأقام الأخوان- أعنى قرقماس و تغرى بردى- على قطيا، و دخل جانى بك الصّوفى و [ألطنبغا] العثمانى إلى القاهرة.

ثم فى سادس عشر جمادى الأولى المذكور أشيع بالقاهرة ركوب الأمير طوغان الحسنى الدوادار على السّلطان و معه عدّة من الأمراء و المماليك السّلطانيّة، و كان طوغان قد اتّفق مع جماعة على ذلك، و لمّا كان اللّيل انتظر طوغان أن أحدا يأتيه ممّن اتّفق معه فلم يأته أحد حتى قرب الفجر و قد لبس السّلاح و ألبس مماليكه، فعند ذلك قام و تسحّب فى مملوكين و اختفى، و أصبح الناس يوم الثلاثاء سابع عشر جمادى الأولى و الأسواق مغلقة و الناس تترقّب وقوع فتنة، فنادى السلطان بالأمان، و أنّ من أحضر طوغان المذكور فله ما عليه مع خبز فى الحلقة، و دام ذلك إلى ليلة الجمعة عشرينه فوجد طوغان بمدينه مصر فأخذ و حمل إلى القلعة، و قيّد و أرسل إلى الإسكندرية صحبة الأمير طوغان أمير آخور الملك المؤيد.

ثم أصبح السلطان من الغد أمسك الأمير سودون الأشقر أمير مجلس و الأمير كمشبغا العيساوىّ أمير شكار، و أحد مقدّمى الألوف، و قيّدا و حملا إلى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۰

الإسكندرية صحبة الأمير برسباى الدّقماقى، أعنى الملك الأشرف الآتى ذكره فى محله إن شاء اللّه تعالى.

ثم بعد يومين وسّط السلطان أربعة، أحدهم الأمير مغلباى نائب القدس من جهة الأمير نوروز، و كان قرقماس سيّدى الكبير قد قبض عليه و أرسله مع اثنين أخر إلى السلطان، فوسّط السلطان الثلاثة و آخر من جهة طوغان الدّوادار.

ثم فى يوم الاثنين ثامن عشرينه أنعم السلطان بإقطاع طوغان على الأمير إينال الصّصلانى، و أنعم بإقطاع سودون الأشقر على الأمير تنبك البجاسىّ نائب الكرك - كان- ثم خلع على الصّصلانى باستقراره أمير مجلس عوضا عن سودون الأشقر أيضا و خلع على الأمير قجق أيضا باستقراره حاجب الحجّاب عوضا عن الصّصلانى، و خلع على شاهين الأفرم أمير سلاح خلعة الرّضى؛ لأنه كان اتّهم بممالأة طوغان، ثم خلع السلطان على مملوكه الأمير جانى بك الدّوادار الثانى و أحد أمراء الطّبلخانات باستقراره دوادارا كبيرا عوضا عن طوغان الحسنى، و خلع على الأمير جرباش كباشة باستقراره أمير جاندار.

ثم فى يوم الاثنين سلخ جمادى الأولى خلع السلطان على فخر الدين عبد الغنى ابن الوزير تاج الدين عبد الرزاق بن أبى الفرج كاشف الشرقية و الغربية باستقراره أستادارا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۱

عوضا عن بدر الدين بن محب الدين، و خلع على بدر الدين المذكور باستقراره مشير الدولة.

ثم فى يوم الأربعاء سادس شهر رجب قدم الأمير جار قطلو أتابك دمشق إلى الديار المصريّة فارّا من نوروز و داخلا فى طاعة الملك المؤيّد، فخلع عليه السلطان و أكرمه.

و فى ثامن شهر رجب كان مهمّ الأمير صارم الدين إبراهيم ابن السلطان الملك المؤيد على بنت السلطان الملك الناصر فرج، و هى التى كان تزوّجها بكتمر جلّق فى حياة والدها.

ثم قدم الأمير ألطنبغا القرمشىّ الظاهرى نائب صفد إلى القاهرة فى ثامن عشر شهر رجب باستدعاء، و قد استقرّ عوضه فى نيابة صفد الأمير قرقماس ابن أخى دمرداش، و عزل عن نيابة الشّام؛ كونه لم يتمكن من دحول دمشق لأجل الأمير نوروز الحافظىّ، و كان قرقماس المذكور من يوم ولى نيابة دمشق، و خرج من القاهرة ليتوجّه إلى الشام، صار يتردّد بين غزّة و الرّملة، فلما طال عليه الأمر ولّاه الملك المؤيّد نيابة صفد، و استقرّ أخوه تغرى بردى سيدى الصغير فى نيابة غزّة عوضا عن ألطنبغا العثمانى، و عند ما دخل قرقماس إلى صفد قصده الأمير نوروز، فأراد قرقماس أن يطلع إلى قلعة صفد مع أخيه تغرى بردى فلم يتمكن منها هو و لا أخوه، فعاد إلى الرّملة، و لا زال قرقماس بالرّملة إلى أن طال عليه الأمر قصد القاهرة حتى دخلها فى يوم ثامن عشر شعبان، فأكرمه السلطان و أنعم عليه، و أقام أخوه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۲

تغرى بردى على قطيا، و هذا كان دأبهم أنهم الثلاثة لا تجتمع عند ملك: أعنى دمرداش و أولاد أخيه قرقماس و تغرى بردى، فدام قرقماس بديار مصر و هو آمن على نفسه كون عمه الأمير دمرداش المحمدى فى البلاد الحلبيّة.

و أما أمر دمرداش المذكور فإنه لما أخذ حلب قصده الأمير نوروز فى أوّل صفر و سار من دمشق بعساكره حتى نزل حماة فى تاسع صفر، فلما بلغ دمرداش ذلك خرج من حلب فى حادى عشر صفر و معه الأمير بردبك أتابك حلب و الأمير شاهين الأيدكارى حاجب حجّاب حلب، و الأمير أردبغا الرشيدى، و الأمير جربغا، و غيرهم من عساكر حلب، و نزل دمرداش بهم على العمق، فحضر إليه الأمير كردى بن كندر و أخوه عمر و أولاد أوزر، و دخل الأمير نوروز إلى حلب فى ثالث عشر صفر بعد ما تلقّاه الأمير آقبغا چركس نائب القلعة بالمفاتيح.

فولّى نوروز الأمير طوخا نيابة حلب عوضا عن يشبك بن أزدمر برغبة يشبك عنها لأمر اقتضى ذلك، و ولّى الأمير يشبك الساقى الأعرج نيابة قلعة حلب، و ولّى عمر بن الهيدبانى حجوبيّة حلب، و ولّى الأمير قمش نيابة طرابلس.

ثم خرج نوروز من حلب فى تاسع عشر صفر عائدا إلى نحو دمشق، و معه الأمير يشبك بن أزدمر، فقدم دمشق فى سادس عشرين صفر المذكور، و بعد خروج نوروز من حلب قصدها الأمير دمرداش المقدم ذكره حتى نزل على بانقوسا فى يوم سادس عشرين صفر أيضا، فخرج إليه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۳

طوخ بمن معه من أصحاب نوروز و قاتلوه قتالا شديدا إلى ليلة ثامن عشرين صفر قدم عليه الخبر بأن الأمير عجل بن نعير قد أقبل لمحاربته نصرة للأمير نوروز فلم يثبت دمرداش لعجزه عن مقاومته، و رحل بمن معه من ليلته إلى العمق، ثم سار إلى أعزاز فأقام بها.

فلما كان عاشر شهر ربيع الأوّل بعث طوخ نائب حلب عسكرا إلى سرمين و بها آقبلاط دوادار دمرداش المذكور فكبسوه، فثار عليهم هو و شاهين الأيد كارى و من معهما من التّراكمين و قاتلوهم و أسروا منهم جماعة كثيرة و بعثوا بهم إلى الأمير دمرداش، فسجن دمرداش أعيانهم فى قلعة بغراس و جدع أنا فى أكثرهم، و أطلقهم عراة، و قتل بعضهم.

فلما بلغ طوخ الخبر ركب من حلب و معه الأمير قمش نائب طرابلس و سار إلى تلّ باشر و قد نزل عليه العجل بن نعير، فسأله طوخ أن يسير معهما لحرب دمرداش، فأنعم بذلك ثم تأخر عنهما قليلا، فبلغهما أنّه اتّفق مع دمرداش على مسكهما، فاستعدّا له و ترقّباه حتى ركب إليهما فى نفر قليل و نزل عندهما و دعاهما إلى ضيافته و ألحّ عليهما فى ذلك، فثارا به و معهم جماعة من أصحابهما فقتلوه بسيوفهم فى رابع عشرين شهر ربيع الأول، و دخلا من فورهما عائدين إلى حلب، و كتبا بالخبر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۴

إلى نوروز و طلبا منه نجدة؛ فإن حسين بن نعير قد جمع العرب و نزل على دمرداش فسار به دمرداش إلى حلب و حصرها، و صعد طوخ و قمش إلى قلعة حلب و اشتدّ القتال بينهم إلى أن انهزم دمرداش و عاد إلى جهة العمق، و شاور أصحابه فيما يفعل و تحيّر فى أمره بين أن ينتمى إلى نوروز و يصير معه على رأيه- و كان قد بعث إليه بألف دينار و دعاه إليه- و بين أن يقدم على السلطان الملك المؤيّد شيخ، فأشار عليه جلّ أصحابه بالانتماء إلى نوروز إلا آق بلاط دواداره فإنه أشار عليه بالقدوم على السلطان، فسأله دمرداش عن ابن أخيه قرقماس و عن تغرى بردى فقال: قرقماس فى صفد و تغرى بردى فى غزّة، و كان ذلك بدسيسة دسّها الملك المؤيد لآق بلاط المذكور، فمال عند ذلك دمرداش إلى كلامه، و ركب البحر حتى خرج من الطينة و قدم إلى القاهرة فى أوّل شهر رمضان، فأكرمه السلطان و خلع عليه.

و لما قدم دمرداش إلى القاهرة وجد قرقماس بها و تغرى بردى بالصّالحية، فندم على قدومه و قال لابن أخيه قرقماس: ما هذه العملة؟ أنت تقول إنك بصفد فألقاك بمصر، فقال قرقماس: و من أيش تتخوف ياعم؟ هذا يمكنه القبض علينا و مثل نوروز يخاصمه؟! إذا أمسكنا بمن يلقى نوروز و يقاتله؟ و اللّه ما أظنك إلّا قد كبرت و لم يبق فيك بقيّة إلّا لتعبئة العساكر لاغير، فقال له دمرداش: سوف ننظر، و استمرّ دمرداش و قرقماس بالقاهرة إلى يوم سابع شهر رمضان المذكور عيّن السلطان جماعة من الأمراء لكبس عربان الشّرقيّة، و هم: سودون القاضى، و قجقار القردمىّ، و آقبردى المنقار المؤيّدى رأس نوبة، و يشبك المؤيّدى شادّ الشّراب خاناه، و أسرّ إليهم

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۵

السلطان فى الباطن بالتوجّه إلى تغرى بردى المدعو سيّدى الصغير ابن أخى دمرداش، و القبض عليه، و حمله مقيّدا إلى القاهرة، و كان تغرى بردى المذكور نازلا بالصّالحية، فساروا فى ليلة السبت ثامنه، و أصبح السلطان فى آخر يوم السبت المذكور استدعى الأمراء للفطر عنده، و مدّ لهم سماطا عظيما، فأكلوا منه و تباسطوا، فلمّا رفع السّماط قام السلطان من مجلسه إلى داخل، و أمر بالقبض على دمرداش المحمدى و على ابن أخيه قرقماس و قيّدهما و بعثهما من ليلته إلى الإسكندرية فسجنا بها، و بعد يوم حضر الأمراء و معهم تغرى بردى سيّدى الصغير مقيّدا، و كان الملك يكرهه؛ فإنه لم يزل فى أيام عصيانه مباينا له، فحبسه بالبرج بقلعة الجبل، ثم سجد المؤيد للّه شكرا الذى ظفّره بهؤلاء الثلاثة الذين كان الملك الناصر [فرج] عجز عنهم، ثم قال: الآن بقيت سلطانا.

و بقى تغرى بردى المذكور مسجونا بالبرج إلى أن قتل ذبحا فى ليلة عيد الفطر، و قطعت رأسه و علّقت على الميدان.

ثم خلع السلطان على الأمير قانى باى المحمدى الأمير آخور باستقراره فى نيابة دمشق عوضا عن نوروز الحافظىّ، و خلع على الأمير ألطنبغا القرمشىّ المعزول عن نيابة صفد باستقراره أمير آخور كبيرا عوضا عن قانى باى المذكور، و خلع على الأمير إينال الصّصلانى

أمير مجلس باستقراره فى نيابة حلب، و خلع على الأمير سودون قراصقل باستقراره فى نيابة غزّة عوضا عن تغرى بردى سيّدى الصغير. ثم خلع السلطان على قاضى القضاة ناصر الدين محمد بن العديم الحنفى بعوده إلى قضاء القضاة بالديار المصريّة بعد موت قاضى القضاة صدر الدين على بن الأدمىّ الدّمشقى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۶

ثم فى ثامن شوال خلع السلطان على بدر الدين بن محب الدين المشير باستقراره فى نيابة الإسكندرية بعد عزل خليل التّبريزىّ الدّشارىّ.

ثم عدّى السلطان- فى يوم الخميس ثالث ذى القعدة- إلى برّ الجيزة إلى و سيم حيث مربط خيوله، و أقام به إلى يوم الاثنين حادى عشرينه، و طلع إلى القلعة و نصب جاليش السفر على الطّبلخاناه السلطانية؛ ليتوجّه السلطان لقتال نوروز، و أخذ السلطان فى الاستعداد هو و أمراؤه و عساكره حتى خرج فى آخر ذى القعدة الأمير إينال الصّصلانى نائب حلب و سودون قراصقل نائب غزّة إلى الرّيدانيّة خارج القاهرة، ثم خرج الأمير قانى باى المحمدى نائب الشام فى يوم الخميس سادس عشر ذى الحجّة و نزل أيضا بالرّيدانيّة.

و فى يوم الخميس المذكور خلع المستعين بالله العباس من الخلافة و استقرّ فيها أخوه المعتضد داود، و قد تقدّم ذكر ذلك فى ترجمة المستعين المذكور.

ثم شرع السلطان فى النّفقة على المماليك السلطانية لكل واحد مائة دينار ناصرية، ثم رحل قانى باى نائب الشام من الرّيدانيّة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۷

و فى ثامن عشرينه غضب السلطان على الوزير تاج الدين عبد الرّزّاق بن الهيصم، و ضربه و بالغ فى إهانته، ثم رضى عنه و خلع عليه خلعة الرّضى. ثم فى سابع عشرينه نصب خام السلطان بالرّيدانية.

قال المقريزى رحمه اللّه: و فى هذا الشهر قدم الأمير فخر الدين بن أبى الفرج من بلاد الصعيد فى ثالث عشرينه، بخيل و جمال و أبقار و أغنام كثيرة جدا، و قد جمع المال من الذّهب و حلىّ النّساء و غير ذلك من العبيد و الإماء و الحرائر اللاتى استرقّهن، ثم وهب منهنّ و باع باقيهنّ؛ و ذلك أنه عمل فى بلاد الصعيد كما يعمل رءوس المناسر إذا هم هجموا ليلا على القرية؛ فإنه كان ينزل ليلا بالبلد فينهب جميع ما فيها من غلال و حيوان، و سلب النساء حليّهن و كسوتهن بحيث لا يسير عنها لغيرها حتى يتركها عريانة، فخربت- بهذا الفعل- بلاد الصّعيد تخريبا يخشى من سوء عاقبته، فلمّا قدم إلى القاهرة شرع فى رمى الأصناف المذكورة على الناس من أهل المدينة و سكّان الرّيف و ذلك بأغلى الأثمان، و يحتاج من ابتلى بشىء من ذلك أن يتكلف لأعوانه من الرّسل و نحوهم شيئا كثيرا- انتهى كلام المقريزى.

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۱۷]

ثم إن السلطان الملك للؤيّد لما كان يوم الاثنين رابع محرم سنة سبع عشرة و ثمانمائة ركب من قلعة الجبل بأمرائه و عساكره بعد طلوع الفجر، و سار حتى نزل بمخيّمه من الرّيدانيّة خارج القاهرة من غير تطليب. ثم خرجت الأطلاب و العساكر فى أثناء النهار بعد أن خلع على الأمير ألطنبغا العثمانى بنيابة الغيبة، و أنزله بباب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۸

السّلسلة، و جعل بقلعة الجبل بردبك قصقا، و جعل بباب السّتارة من قلعة الجبل الأمير صوماى الحسنىّ، و جعل الحكم بين الناس للأمير قجق الشّعبانىّ حاجب الحجّاب. ثم رحل الأمير يلبغا النّاصرىّ أتابك العساكر جاليشا بمن معه من الأمراء فى يوم الجمعة ثامنه، ثم استقلّ السلطان ببقيّة عساكره من الرّيدانيّة فى يوم السبت تاسعه، و سار حتى نزل بغزّة فى يوم الثلاثاء تاسع عشر المحرّم، و أقام بها أيّاما إلى أن رحل منها فى تاسع عشرينه، و سار على هينته حتى نزل على قبّة يلبغا خارج دمشق فى يوم الأحد ثامن صفر من سنة سبع

عشرة المذکورة، و لم یخرج نوروز لقتاله، فحمد اللّه- المؤید- على ذلک، و علم ضعف أمره؛ فإنّه لو کان فیه قوة کان التقاه من أثناء طریقه.

و کان سیر الملک المؤیّد على هینته حتى یبلغ نوروز خبره و یطلع إلیه فیلقاه فى الفلاء فلما تأخر نوروز عن الطلوع اطمأنّ الملک المؤید لذلک و قوى بأسه، غیر أن نوروز حصّن مدینة دمشق و قلعتها و تهیّأ لقتاله، فأقام السلطان بقبّة یلبغا أیّاما، ثم رحل منها و نزل بطرف القبیبات، و کان السلطان فى طول طریقه إلى دمشق یطلب موقّعى أکابر أمرائه خفیة و یأمرهم أن یکتبوا على لسان مخادیمهم إلى نوروز أنّنا بأجمعنا معک، و غرضنا کلّه عندک، و یکثر من الوقیعة فى الملک المؤید ثم یقول فى الکتاب و إنّک لا تخرج من دمشق و أقم مکانک فإننا جمیعا نفرّ من المؤید و نأتیک

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۹

ثم یضع من نفسه و یرفع أمر نوروز و یعد محاسنه و یذکر مساوئ نفسه، فمشى ذلک على نوروز و انخدع له، مع ما کان حسّن له أیضا بعض أصحابه فى عدم الخروج و القتال، أرادوا بذلک ضجر الملک المؤید و عوده إلى الدیار المصریة بغیر طائل حتى یستفحل أمرهم بعوده، فکان مراد اللّه غیر ما أرادوا.

ثم أرسل السلطان الملک المؤید قاضى القضاة مجد الدین سالم الحنبلى إلى الأمیر نوروز فى طلب الصّلح فامتنع نوروز من ذلک و أبى إلّا الحرب و القتال، و کان ذلک أیضا خدیعة من الملک المؤید، و عندما نزل الملک المؤیّد بطرف القبیبات خرج إلیه عساکر نوروز فندب إلیهم السلطان جماعة کبیرة من عسکره فخرجوا إلیهم و قاتلوهم قتالا شدیدا، فانکسر عسکر نوروز و عاد إلى دمشق، فرکب نوروز فى الحال و طلع إلى قلعة دمشق و امتنع بها، فرکب الملک المؤید فى سادس عشرینه و نزّل بالمیدان یحاصر قلعة دمشق. و لما قیل للمؤید إن نوروز طلع إلى قلعة دمشق لم یحمل الناقل له على الصّدق، و أرسل من یثق به فعاد علیه الخبر بطلوعه إلیها، فعند ذلک تعجّب غایة العجب، فسأله بعض خواصّه عن ذلک فقال: ما کنت أظن أن نوروز یطلع القلعة و ینحصر فیها أبدا؛ لما سمعته منه لمّا دخل الملک الناصر إلى قلعة دمشق، و هو أنه لمّا بلغنا أن الناصر دخل إلى قلعة دمشق قال نوروز: ظفرنا به و عزّة اللّه، فقلت: و کیف ذلک؟

فقال: الشخص لا یدخل القلعة و یمتنع بها إلا إذا کان خلفه نجدة، أو أخصامه لا یمکنهم محاصرته إلا مدّة یسیرة ثم یرحلون عنه، و هذا لیس له نجدة، و نحن لو أقمنا على حصاره سنین لا نذهب إلا به فهو مأخوذ لا محالة، فبقى هذا الکلام فى ذهنى، و تحققت أنه متى حصل له خلل توجّه إلى بلاد الترکمان و یتعبنى أمره لعلمى به أنه لا یدخل إلى القلعة- بعد ما سمعت منه ذلک- أبدا، فأتاه ما قاله فى حقّ الناصر، و حسن بباله الامتناع بالقلعة حتى طلعها، فلهذا تعجّبت.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۰

و أخذ المؤید فى محاصرته، و استدام الحرب بینهم أیّاما کثیرة فى کل یوم حتى قتل من الطائفتین خلائق، فلمّا طال الأمر فى القتال أخذ أمر الأمیر نوروز فى إدبار، و صار أمر الملک المؤید فى استظهار.

فلمّا وقع ذلک و طال القتال على النّوروزیّة سئموا من القتال و شرعوا یسمعون نوروز الکلام الخشن، و هدمت المؤیدیّة طارمة دمشق، کلّ ذلک و القتال عمّال فى کل یوم لیلا و نهارا و الرّمى مستدام من القلعة بالمناجیق و مکاحل النّفط، و طال الأمر على الأمیر نوروز حتى أرسل الأمیر قمش إلى الملک المؤید فى طلب الصّلح، و تردّدت الرسل بینهم غیر مرّة حتى أنبرم الصّلح بینهم بعد أن حلف الملک المؤیّد لنوروز بالأیمان المغلّظة، و کان الذى تولى تحلیف الملک المؤید کاتب سرّه القاضى ناصر الدین محمد بن البارزیّ.

حکى لى القاضى کمال الدین ابن القاضى ناصر الدین محمد بن البارزیّ کاتب السّرّ الشّریف من لفظه- رحمه اللّه- قال: قال الوالد لمّا أخذت فى تحلیف الملک المؤید بحضرة رسل الأمیر نوروز و القضاة قد حضروا أیضا، فشرعت ألحن فى الیمین عامدا فى عدّة کلمات حتى خرج معنى الیمین عن مقصود نوروز فالتفت القاضى ناصر الدین محمد بن العدیم الحنفىّ- و کان فیه خفّة- و قال

للقاضى الشافعى: كأنّ القاضى ناصر الدين بن البارزىّ ليس له ممارسة بالعربية و النّحو فإنّه يلحن لحنًا فاحشا، فسكّته البلقينىّ لوقته.

قلت: و كان هذا اليمين بحضرة جماعة من فقهاء الترک من أصحاب نوروز فلم يفطن أحد منهم لذلک لعدم ممارستهم لهذه العلوم، و إنّما جلّ مقصود الواحد منهم [أن] يقرأ مقدمة فى الفقه و يحلّها على شيخ من الفقهاء أهل الفروع، فعند ذلک يقول: أنا

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۱

صرت فقيها، وليته يسكت بعد ذلک، و لكنه يعيب أيضا على ما عدا الفقه من العلوم، فهذا هو الجهل بعينه- انتهى.

ثم عادت رسل نوروز إليه بصورة الحلف، فقرأه عليه بعض من عنده من الفقهاء من تلک المقولة، و عرّفه أن هذا اليمين ما بعده شىء، فاطمأنّ لذلک، و نزل من قلعة دمشق بمن معه من الأمراء و الأعيان فى يوم حادى عشرين ربيع الآخر بعد ما قاتل الملک المؤيّد نحوا من خمسة و عشرين يوما أو أزيد، و مشى حتّى دخل على الملک المؤيد، فلما رآه المؤيد قام له، فعند ذلک قبّل نوروز الأرض و أراد أن يقبّل يده فمنعه الملک المؤيد من ذلک، و قعد الأمير نوروز بإزائه، و تحته أصحابه من الأمراء، و هم: الأمير يشبک بن أزدمر، و طوخ، و قمش، و برسبغا، و إينال الرّجبىّ و غيرهم، و المجلس مشحون بالقضاة و الفقهاء و العساكر السلطانية، فقال القضاة: و اللّه هذا يوم مبارک بالصّلح و بحقن الدّماء بين المسلمين، فقال القاضى ناصر الدين بن البارزىّ كاتب السّرّ:

نهار مبارک لو تمّ ذلک، فقال الملک المؤيّد: و كيف لا يتمّ و قد حلفنا له و حلف لنا؟

فقال القاضى ناصر الدين للقضاة: يا قضاة، هل صحّ يمين السلطان؟ فقال قاضى القضاة جلال الدين البلقينى: لا و اللّه لم يصادف غرض المحلف، فعند ذلک أمر الملک المؤيد بالقبض على الأمير نوروز و رفقته، فقبض فى الحال على الجميع، و قيّدوا و سجنوا بمكان من الإسطبل إلى أن قتل الأمير نوروز من ليلته، و حملت رأسه إلى الديار المصرية على يد الأمير جرباش، فوصلت القاهرة فى يوم الخميس مستهلّ جمادى الأولى، و علّقت على باب زويلة، و دقّت البشائر، و زيّنت القاهرة لذلک.

ثم أخذ الملک المؤيّد فى إصلاح أمر مدينة دمشق، و مهد أحوالها، ثم خرج منها فى ثامن جمادى الأولى يريد حلب حتى قدمها بعساكره، و أقام بها إلى آخر الشهر

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۲

المذكور، ثم سار منها فى أول جمادى الآخرة إلى أبلستين، و دخل إلى ملطية و استناب بها الأمير كزل، ثم عاد إلى حلب، و خلع على نائبها الأمير إينال الصّصلانى باستمراره، ثم خلع على الأمير تنبک البجاسىّ باستقراره فى نيابة حماة، و على الأمير سودون من عبد الرحمن باستقراره فى نيابة طرابلس، و على الأمير جانى بک الحمزاوى بنيابة قلعة الرّوم بعد ما قتل نائبها الأمير طوغان.

ثم خرج السلطان من حلب، و عاد إلى دمشق، فقدمها فى ثالث شهر رجب، و خلع على نائبها الأمير قانى باى المحمدى باستمراره، ثم خرج السلطان من دمشق بأمرائه و عساكره فى أول شعبان بعد ما مهدّ أمور البلاد الشاميّة، و وطّن التّركمان و العربان و خلع عليهم، و سار حتى دخل القدس فى ثانى عشر شعبان فزاره، ثم خرج منه و توجّه إلى غزّة حتى قدمها، و خلع على الأمير طرباى الظّاهرى بنيابة غزّة، ثم خرج منها عائدا إلى الدّيار المصرية حتى نزل على خانقاه سرياقوس يوم الخميس رابع عشرين شعبان، فأقام هناک بقيّة الشهر، و عمل بها أوقاتا طيّبة، و أنعم فيها على الفقهاء و الصّوفية بمال جزيل، و كان يحضر السّماع بنفسه، و تقوم الصّوفيّة تتراقص و تتواجد بين يديه، و القوّال يقول و هو يسمعه و يكرّر منه ما يعجبه من الأشعار الرقيقة، و دخل حمّام الخانقاه المذكورة غير مرّة، و خرج الناس لتلقّيه إلى خانقاه سرياقوس المذكورة حتى صار طريقها فى تلک الأيام كالشّارع الأعظم؛ لممرّ الناس فيه ليلا و نهارا.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۳

و دام السلطان هناک إلى يوم سلخ شعبان ركب من الخانقاه بخواصّه، و سار حتى نزل بالرّيدانية تجاه مسجد التّبن، و بات حتى أصبح فى يوم الخميس أول شهر رمضان ركب و سار إلى القلعة حتى طلع إليها، فكان لقدومه القاهرة يوما مشهودا، و دقت البشائر لوصوله.

و عندما استقرّ به الجلوس انتقض عليه ألم رجليه من ضربان المفاصل، و لزم الفراش و انقطع بداخل الدّور السلطانية من القلعة، ثم

أخرج السلطان فى ثامن شهر رمضان الأمير جرباش كبّشة بطّالا إلى القدس الشريف، و رسم أيضا بإخراج الأمير أرغون من بشبغا أمير آخور- كان- فى الدولة الناصرية إلى القدس بطالا، ثم خلع السلطان على الأمير ألطنبغا العثمانى باستقراره أتابك العساكر بالديار المصرية بعد موت الأمير يلبغا الناصرى.

ثم نصل السلطان من مرضه، و ركب من قلعة الجبل يوم عاشر شهر رمضان، و شقّ القاهرة، ثم عاد إلى القلعة، و رسم بهدم الزّينة- و كان ركوبه لرؤيتها- فهدمت.

ثم فى ثانى عشرة أمسك الأمير قجق الشّعبانى حاجب الحجاب، و الأمير بيبغا المظفّرى، و الأمير تمان تمر أرق، و قيّدوا و حملوا إلى ثغر الإسكندرية فحبسوا بها، و الثلاثة جنسهم تتر، و مسفّرهم الأمير صوماى الحسنىّ، و بعد أن توجّه بهم صوماى المذكور إلى الإسكندرية كتب باستقراره فى نيابتها، و عزل بدر الدين بن محب الدين عنها.

ثم خلع السلطان على سودون القاضى باستقراره حاجب الحجّاب بديار مصر عوضا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۴

عن قجق الشعبانى، و على الأمير قجقار القردمىّ باستقراره أمير مجلس عوضا عن بيبغا المظفّرى، و على الأمير جانى بك الصّوفى رأس نوبة النّوب باستقراره أمير سلاح بعد موت شاهين الأفرم، و خلع على الأمير كزل العجمى حاجب الحجاب- كان- فى دولة الملك الناصر باستقراره أمير جاندار عوضا عن الأمير جرباش كباشة، ثم خلع على الأمير تنبك العلائى الظاهرى المعروف ميق باستقراره رأس نوبة النّوب عوضا عن جانى بك الصوفى، و خلع على الأمير آقباى المؤيدى الخازندار باستقراره دوادارا كبيرا بعد موت الأمير جانى بك المؤيدى.

ثم أعيد ابن محب الدين المعزول عن نيابة الإسكندرية إلى وظيفة الأستادارية فى يوم الاثنين سادس عشرين شهر رمضان بعد فرار فخر الدين عبد الغنى بن أبى الفرج إلى بغداد.

و خبر فخر الدين المذكور أنه لما خرج من الديار المصرية إلى البلاد الشامية صحبة السّلطان، و وصل إلى حماة داخله الخوف من السلطان فهرب فى أوائل شهر رجب إلى جهة بغداد، فسدّ ناظر ديوان المفرد تقىّ الدين عبد الوهاب بن أبى شاكر الأستادارية فى هذه المدّة إلى أن ولى ابن محبّ الدين.

و فى شهر رمضان المذكور أفرج السلطان عن الأمير كمشبغا العيساوىّ من سجن الإسكندرية، و قدم القاهرة، و نقل الأمير سودون الأسندمرىّ و الأمير قصروه من تمزاز، و الأمير شاهين الزّرد كاش و الأمير كمشبغا الفيسىّ إلى ثغر دمياط.

و فى أواخر ذى الحجّة قدم مبشّر الحاج و أخبر بأن الأمير جقمق الأرغون شاوىّ الدّوادار الثانى أمير الحاج وقع بينه و بين أشراف مكّة وقعة فى خامس ذى الحجة، و خبر ذلك أن جقمق المذكور ضرب أحد عبيد مكة و حبسه؛ لكون أنه حمل السلاح

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۵

فى الحرم الشريف، و كان قد منع من ذلك، فثارت بسبب ذلك فتنة انتهك فيها حرمة المسجد الحرام، و دخلت الخيل إليه عليها المقاتلة من قوّاد مكة لحرب الأمير جقمق، و أدخل جقمق أيضا خيله إلى المسجد [الحرام] فباتت به و أوقدت مشاعله بالحرم، و أمر بتسمير أبواب الحرم فسمّرت كلّها إلا ثلاثة أبواب ليمتنع من يأتيه، فمشت الناس بينهم فى الصّلح، و أطلق جقمق المضروب فسكتت الفتنة من الغد بعد ما قتل جماعة، و لم يحج أكثر أهل مكة فى هذه السنة من الخوف.

ثم قدم الخبر أيضا على الملك المؤيد فى هذا الشهر بأن الأمير يغمور بن بهادر الدكرىّ مات هو و ولده فى يوم واحد بالطاعون فى أول ذى القعدة، و أن قرا يوسف ابن قرا محمد صاحب العراق انعقد بينه و بين القان شاه رخّ بن تمرلنك صلح، و تصاهرا، فشقّ ذلك على الملك المؤيد.

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۱۸]

و فی أثناء ذلک قدم علیه الخبر بأن الأمیر محمد بن عثمان صاحب الرّوم کانت بینه و بین محمد بک بن قرمان وقعة عظیمة انهزم فیها ابن قرمان و نجا بنفسه، کل ذلک و السلطان فی سرحة البحیرة بتروجة إلی أن قدم إلی الدیار المصریة فی یوم الخمیس ثانی المحرم من سنة ثمانی عشرة و ثمانمائة بعد ما قرّر علی من قابله من مشایخ البحیرة أربعین ألف دینار، و کانت مدّة غیبة السلطان بالبحیرة ستّین یوما.

ثم فی عاشر المحرم أفرج السلطان عن الأمیر بیبغا المظفری أمیر مجلس، و تمان تمر أرق الیوسفی من سجن الإسکندریة.

ثم قدم کتاب فخر الدین بن أبی الفرج من بغداد أن یقیم بالمدرسة المستنصریة، و سأل

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۶

العفو عنه فأجیب إلی ذلک، و کتب له أمان، ثم أمر السلطان بقتل الأمراء الذین بسجن الإسکندریة، فقتلوا بأجمعهم فی یوم السبت ثامن عشر المحرم، و هم: الأتابک دمرداش المحمدی بعد أن قتل ابن أخیه قرقماس بمدّة، و الأمیر طوغان الحسنی الدّوادار، و الأمیر سودون تلّی المحمدی، و الأمیر أسنبغا الزّردکاش و الجمیع معدودة من الملوک، و أقیم عزاؤهم بالقاهرة فی یوم خامس عشرین، فکان ذلک الیوم من الأیام المهولة من مرور الجواری المسبیّات الحاسرات بشوارع القاهرة، و معهم الملاهی و الدّفوف.

هذا و قد ابتدأ الطاعون بالقاهرة.

ثم فی ثامن صفر رکب السلطان من قلعة الجبل و سار إلی نحو منیة مطر المعروفة الآن بالمطریة خارج القاهرة، و عاد إلی القاهرة من باب النّصر، و نزل بالمدرسة الناصریة المعروفة الآن بالجمالیة برحبة باب العید، ثم رکب منها و عبر إلی بیت الأستادار بدر الدین بن محب الدین فأکل عنده السّماط، و مضی إلی قلعة الجبل.

و فی ثامن عشر صفر خلع علی القاضی علاء الدین علی بن محمود بن أبی بکر بن مغلی الحنبلی الحمویّ باستقراره قاضی قضاة الحنابلة بالدیار المصریة، بعد عزل قاضی القضاة مجد الدین سالم.

و فی یوم السبت عاشر صفر المذکور ابتدأ السلطان بعمل السد بین الجامع الجدید

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۷

الناصری و بین جزیرة الرّوضة، و ندب لحفره الأمیر کزل العجمی الأجرود أمیر جاندار، فنزل کزل المذکور و علّق مائة و خمسین رأسا من البقر لتجرف الرمال و عملت أیّاما، ثم ندب السلطان الأمیر سودون القاضی حاجب الحجاب لهذا العمل، فنزل هو أیضا و اهتم غایة الاهتمام، و دام العمل بقیّة صفر و شهر ربیع الأول.

و فیه أمر السلطان بمسک شاهین الأید کاریّ حاجب حلب، فأمسک و سجن بقلعة حلب، و فیه خلع السلطان علی الأمیر طوغان أمیر آخور الملک المؤید أیّام إمرته باستقراره فی نیابة صفد، و حمل له التشریف بنیابة صفد یشبک الخاصّکیّ.

و فیه قدم کتاب الأمیر إینال الصّصلانی نائب حلب یخبر أن أحمد بن رمضان أخذ مدینة طرسوس عنوة فی ثالث عشر المحرم من هذه السنة بعد أن حاصرها سبعة أشهر، و أنّه سلّمها إلی ابنه إبراهیم بعد ما نهبها و سبی أهلها، و قد کانت طرسوس من نحو اثنتی عشرة سنة یخطب بها لتیمور، فأعاد ابن رمضان الخطبة بها باسم السلطان.

و أما الحفیر فإنّه مستمرّ، و سودون القاضی یستحثّ العمال فیه إلی أن کان أوّل شهر ربیع الآخر فرکب السلطان الملک المؤیّد من قلعة الجبل فی أمرائه و سائر خواصّه، و سار إلی حیث العمل، فنزل هناک فی خیمة نصبت له بین الرّوضة و مصر، و نودی بخروج النّاس للعمل فی الحفیر المذکور، و کتبت حوانیت الأسواق، فخرج الناس طوائف طوائف مع کل طائفة الطبول و الزّمور، و أقبلوا إلی العمل، و نقلوا التّراب و الرّمل من غیر أن یکلّف أحد منهم فوق طاقته، ثم رسم السلطان لجمیع العساکر من الأمراء و الخاصّکیّة و لجمیع أرباب الدولة و أتباعهم [أن] یعملوا، ثم رکب السلطان بعد عصر الیوم المذکور و وقف حتی فرض علی کلّ من الأمراء حفر

قطعة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۸

عيّنها له، ثم عاد إلى القلعة بعد أن مدّ هناك أسمطة جليلة و حلوات و فواكه كثيرة، و استمرّ العمل و النداء فى كل يوم لأهل الأسواق و غيرهم للعمل فى الحفر، ثم ركب الأمير ألطنبغا القرمشى الأمير آخور الكبير و معه جميع مماليكه و عامّة أهل الإسطبل السّلطانىّ و صوفية المدرسة الظاهرية البرقوقيّة و أرباب وظائفها؛ لكونهم تحت نظره، و مضوا بأجمعهم إلى العمل فى الحفر المذكور فعملوا فيه، و قد اجتمع هناك خلائق لا تحصى- للفرجة - من الرجال و النساء و الصبيان، و تولىّ ألطنبغا القرمشىّ القيام بما فرض عليه حفره بنفسه، فدام فى العمل طول نهاره.

ثم فى عاشره جمع الأمير الكبير ألطنبغا العثمانى جميع مماليكه و من يلوذ به و ألزم كلّ من هو ساكن فى البيوت والد كاكين الجارية فى وقف البيمارستان المنصورى بأن يخرجوا معه؛ من أنهم تحت نظره، و أخرج معه أيضا جميع أرباب وظائف البيمارستان المذكور، ثم أخرج سكان جزيرة الفيل؛ فإنها فى وقف البيمارستان، و توجّه بهم الجميع إلى العمل فى الحفير، و عمل نهاره فيما فرض عليه حفره، ثم وقع ذلك لجميع الأمراء واحدا بعد واحد، و تتابعوا فى العمل و كل أمير يأخذ معه جميع جيرانه و من يقرب سكنه من داره، فلم يبق أحد من العوامّ إلّا و خرج لهذا العمل.

ثم خرج علم الدين داود بن الكويز ناظر الجيش، و الصاحب بدر الدين حسن بن

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۹

نصر اللّه ناظر الخاص، و بدر الدين حسن بن محبّ الدين الأستادار، و مع كل منهم طائفة من أهل القاهرة و جميع غلمانه و أتباعه و من يلوذ به و ينتسب إليه، ثم أخرج والى القاهرة جميع اليهود و النصارى، و كثر النداء فى كل يوم بالقاهرة على أصناف الناس بخروجهم للعمل، ثم خرج القاضى ناصر الدين محمد بن البارزىّ كاتب السّرّ الشريف و معه جميع مماليكه و حواشيه و غلمانه، و أخرج معه البريديّة و الموقّعين بأتباعهم، فعملوا نهارهم، هذا و المنادى فى كل يوم [ينادى] على العامة بالعمل، فخرجوا و خلت أسواق القاهرة و ظواهرها من الباعة، و غلّقت القياسر، و المنادى فى كل يوم [ينادى] بالتهديد لمن تأخّر عن الحفر حتى إنه نودى فى بعض الأيام: من فتح دكّانا شنق، فتوقّفت أحوال الناس.

و فى هذه الأيّام خلع السلطان على الأمير بيبغا المظفرى باستقراره أتابك دمشق، و خلع على جرباش كباشة باستقراره حاجب حجّاب حلب، و كلاهما كان قدم من سجن الإسكندرية قبل تاريخه.

و فيه أيضا نقل الأمير طوغان أمير آخور [المؤيد] من نيابة صفد إلى حجوبية دمشق عوضا عن الأمير خليل التّبريزىّ الدّشارى، و نقل خليل المذكور إلى نيابة صفد عوضا عن طوغان المذكور، و حمل له التقليد و التّشريف الأمير إينال الشّيخى الأرغزى.

و استهلّ جمادى الأولى و الناس فى جهد و بلاء من العمل فى الحفر حتى إنّ المقام الصّارمىّ إبراهيم ابن السلطان الملك المؤيّد نزل من القلعة فى يوم سابعه و معه جميع

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۳۰

مماليكه و حواشيه و أتباعه، و توجّه حتى عمل فى الحفر بنفسه، و صنّفت العامة فى هذا الحفير غناء كثيرا و عدّة بلاليق.

و بينما الناس فى العمل أدركتهم زيادة النّيل، و كان هذا الحفير و عمل الجسر ليمنع الماء من المرور تحت الجزيرة الوسطى، و يجرى من تحت المنشية من على موردة الجبس بحرىّ جزيرة الوسطى كما كان قديما فى الزّمان الماضى، فأبى اللّه سبحانه و تعالى إلا ما أراده على ما سنذكره فى محلّه.

ثم فى اليوم المذكور أعنى سابع جمادى الأولى خلع السلطان على الأمير الكبير ألطنبغا العثمانى باستقراره فى نيابة دمشق عوضا عن قانى باى المحمدى، و كان بلغ السلطان عن جميع النّوّاب بالبلاد الشاميّة أنهم فى عزم الخروج عن الطاعة، فلم يظهر ذلك، و أرسل

الأمير جلبّان أمير آخور بطلب قانى باى المذكور من دمشق ليستقرّ أتابكا بالدّيار المصرية عوضا عن ألطنبغا العثمانى، و انتظر السلطان ما يأتى به الجواب.

ثم خلع السلطان على الأمير آقبردى المؤيّدى المنقار باستقراره فى نيابة الإسكندرية عوضا عن صوماى الحسنى.

ثم فى جمادى الآخرة من هذه السنة حفر أساس الجامع المؤيّدى داخل باب زويلة، و كان أصل موضع الجامع المذكور- أعنى موضع باب الجامع و الشبّابيك و موضع

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۳۱

المحراب- قيسارية الأمير سنقر الأشقر المقدم ذكره فى ترجمة الملك المنصور قلاوون، و كانت مقابلة لقيسارية الفاضل و حمّامه، فاستبدلها الملك المؤيّد و أخذها، ثم أخذ خزانة شمائل و دورا و حارات وقاعات كثيرة تخرج عن الحدّ، حتى أضرّ ذلك بحال جماعة كثيرة، و شرع فى هدم الجميع من شهر ربيع الأوّل إلى يوم تاريخه حتى رمى الأساس، و شرعوا فى بنائها.

و تهيّأ الأمير ألطنبغا العثمانى للسّفر حتى خرج من القاهرة قاصدا محلّ كفالته بدمشق فى سادس جمادى الآخرة، و نزل بالرّيدانيّة خارج القاهرة، فقدم الخبر على السلطان بخروج قانى باى نائب الشّام عن الطاعة، و أنه سوّف برسول السلطان من يوم إلى يوم إلى أن تهيّا و ركب و قاتل أمراء دمشق و هزمهم إلى صفد، و ملك دمشق حسبما نذكره بعد ذكر عصيان النّوّاب، فعظم ذلك على الملك المؤيّد.

ثم فى أثناء ذلك ورد الخبر بخروج الأمير طرباى نائب غزّة عن الطّاعة و توجّهه إلى الأمير قانى باى المحمدى نائب دمشق، فعند ذلك ندب السلطان الأمير يشبك المؤيدىّ المشدّ و معه مائة مملوك من المماليك السلطانيّة، و بعثه نجدة للأمير ألطنبغا العثمانى، ثم ورد الخبر ثالثا بعصيان الأمير تنبك البجاسىّ نائب حماة و موافقته لقانى باى المذكور، و كذلك الأمير إينال الصّصلانى نائب حلب و معه جماعة من أعيان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۳۲

أمراء حلب، و الأمير جانى بك الحمزاوىّ نائب قلعة الرّوم، ثم ورد الخبر أيضا بعصيان الأمير سودون من عبد الرحمن نائب طرابلس.

و لما بلغ الملك المؤيّد هذا الخبر استعدّ للخروج إلى قتالهم بنفسه.

و أما أمر الحفر و الجسر الذى عمل [فإنه] لمّا قوى زيادة النيل و تراكمت عليه الأمواج خرق منه جانبا ثم أتى على جميعه و أخذه كأنه لم يكن، و راح تعب النّاس، و ما فعلوه من غير طائل.

و أما ما وعدنا بذكره من أمر قانى باى المحمدى نائب دمشق: فإنه لما توجّه إليه الأمير جلبّان أمير آخور بطلبه أظهر الامتثال و أخذ ينقل حريمه إلى بيت أستاداره غرس الدين خليل، ثم طلع بنفسه إلى البيت المذكور و هو بطرف القبيبات على أنه متوجّه إلى مصر.

فلما كان فى سادس جمادى الآخرة ركب الأمير بيبغا المظفرى أتابك دمشق، و ناصر الدين محمد بن إبراهيم بن منجك، و جلبّان الأمير آخور المقدّم ذكره و أرغون شاه، و يشبك الأيتمشىّ فى جماعة أخر من أمراء دمشق يسيرون بسوق خيل دمشق، فبلغهم أن يلبغا كماج كاشف القبلية حضر فى عسكر إلى قريب داريّا، و أن خلفه من جماعته طائفة كبيرة، و أن قانى باى خرج إليه و تحالفا على العصيان، ثم عاد قانى باى إلى بيت غرس الدين المذكور، فاستعد المذكورون و لبسوا آلة الحرب، و نادوا لأجناد دمشق و أمرائها بالحضور، و زحفوا إلى نحو قانى باى، فخرج إليهم قانى باى بمماليكه و بمن انضمّ معه من أصاغر الأمراء و قاتلهم من بكرة النهار إلى العصر حتى هزمهم، و مرّوا على وجوههم إلى جهة صفد، و دخل قانى باى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۳۳

و ملك مدينة دمشق، و نزل بدار العدل من باب الجابية، و رمى على القلعة بالمدافع، و أحرق جملون دار السعادة، فرماه أيضا من بالقلعة بالمناجيق و المدافع، فانتقل إلى خان السلطان و بات بمخيّمه و هو يحاصر القلعة، ثم أتاه النواب المقدم ذكرهم، فنزل تنبك

البجاسىّ نائب حماة على باب الفرج، و نزل طرباى نائب غزّة على باب آخر، و نزل على باب الجديد تنبک دوادار قانى باى، و داموا على ذلک مدّة، و هو يستعد و قد ترک أمر القلعة إلى أن بلغه وصول العسكر سار هو و الأمراء من دمشق، و كان الأمير ألطنبغا العثمانى بمن معه من أمراء دمشق و العشير و العربان و نائب صفد قد توجّه من بلاد المرج إلى جرود، فجدّ العسكر فى السير حتى وافوا الأمير قانى باى قد رحل من برزة، فنزلوا هم برزة، فتقدّم منهم طائفة فأخذوا من ساقته أغناما و غيرها، و تقاتلوا مع أطراف قانى باى، فجرح الأمير أحمد ابن تنم [صهر الملک المؤيد] فى يده بنشّابة أصابته، و جرح معه جماعة أخر، ثم عادوا إلى ألطنبغا العثمانى، و سار قانى باى حتى نزل بسلمية فى سلخه، ثم رحل إلى حماة، ثم رحل منها و اجتمع بالأمير إينال الصّصلانى نائب حلب، و اتّفقوا جميعا على التوجّه إلى جهة العمق لما بلغهم قدوم السلطان الملک المؤيّد لقتالهم،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج١۴، ص: ٣۴

و سيّروا أثقالهم، فنادى نائب قلعة حلب بالنّفير العام، فأتاه جلّ أهل حلب، و نزل هو بمن عنده من العسكر الحلبى و قاتل إينال و عساكره فلم يثبتوا، و خرج قانى باى و إينال إلى خان طومان، و تخطّف العامّة بعض أثقالهم، و أقاموا هناک إلى أن قاتلوا الملک المؤيّد حسبما يأتى ذكره.

و أما السلطان الملک المؤيّد فإنه لمّا كان ثانى عشرين جمادى الآخرة خلع على الأمير مشترک القاسمىّ الظاهرىّ باستقراره فى نيابة غزّة عوضا عن طرباى، ثم فى سابع عشرين خلع على الأمير ألطنبغا القرمشىّ الأمير آخور باستقراره أتابک العساكر بالديار المصرية عوضا عن ألطنبغا العثمانى نائب دمشق.

ثم فى سلخه خلع على الأمير تنبک العلائىّ الظاهرى المعروف بميق رأس نوبة النّوب باستقراره أمير آخور عوضا عن ألطنبغا القرمشى.

ثم فى رابع شهر رجب خلع السلطان على سودون القاضى حاجب الحجّاب باستقراره رأس نوبة النّوب عوضا عن تنبک ميق، و خلع على سودون قراصقل و استقرّ حاجب الحجاب عوضا عن سودون القاضى.

و فى حادى عشره سار الأمير آقباى المؤيّدى الدّوادار على مائتى مملوک نجدة ثانية لنائب الشّام ألطنبغا العثمانى.

و فى ذلک اليوم دار المحمل على العادة فى كل سنة.

ثم فى يوم ثالث عشر شهر رجب المذكور قدم الأمير ناصر الدين محمد بن إبراهيم ابن منجک من دمشق فارّا من قانى باى نائب الشام، فارتجت القاهرة بسفر السّلطان إلى البلاد الشّاميّة، و عظم الاهتمام للسفر.

ثم فى رابع عشره أمسک السلطان الأمير جانى بک الصّوفى أمير سلاح و قيّده

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج١۴، ص: ٣۵

و سجنه بالبرج بقلعة الجبل، ثم رسم السلطان للأمراء بالتأهّب للسفر، و أخذ فى عرض المماليک السلطانية و تعيين من يختاره للسّفر، فعيّن من المماليک السلطانية مقدار النّصف منهم فإنه أراد السفر مخفّا، لأن الوقت كان فصل الشتاء و الديار المصرية مغلية الأسعار إلى الغاية.

ثم فى ثامن عشره أنفق السلطان نفقات السفر، و أعطى كلّ مملوک ثلاثين دينارا إفرنتيّة، و تسعين نصفا فضة مؤيّدية، و فرّق عليهم الجمال.

ثم فى تاسع عشره أمسک الوزير تاج الدين عبد الرّزّاق بن الهيصم و ضربه بالمقارع، و أحيط بحاشيته و أتباعه و ألزمه بحمل مال كثير.

ثم فى حادى عشرينه خلع السلطان على علم الدين أبى كم باستقراره فى وظيفة نظر الدّولة ليسد مهمّات الدّولة مدّة غيبة السلطان.

ثم فى يوم الجمعة ثانى عشرين شهر رجب المذكور ركب السلطان بعد صلاة الجمعة [من قلعة الجبل] بأمرائه و عساكره المعيّنين صحبته للسفر حتى نزل بمخيّمه بالرّيدانية خارج القاهرة، و خلع على الأمير ططر و استقرّ به نائب الغيبة بديار مصر و أنزله بباب

السّلسلة، و خلع على الأمير سودون قراصقل حاجب الحجاب و جعله مقيما بالقاهرة للحكم بين الناس، و خلع على الأمير قطلو بغا التّنميّ و أنزله بقلعة الجبل، و بات السلطان تلك الليلة بالرّيدانية، و سافر من الغد يريد البلاد الشاميّة، و معه الخليفة و قاضى القضاة ناصر الدين محمد بن العديم الحنفى لاغير.

و سار السلطان حتى وصل إلى غزة فى تاسع عشرين شهر رجب المذكور، و سار منها فى نهاره، و كان قد خرج الأمير قانى باى من دمشق فى سابع عشرينه حسبما ذكرناه، و دخل الأمير ألطنبغا العثمانى إلى دمشق فى ثانى شعبان، و قرىء تقليده،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۳۶

و كان لدخوله دمشق يوما مشهودا، و سار السلطان مجدّا من غزّة حتى دخل دمشق فى يوم الجمعة سادس شعبان، ثم خرج من دمشق بعد يومين فى أثر القوم، و قدّم بين يديه الأمير آقباى الدّوادار فى عسكر من الأمراء و غيرهم كالجاليش، فسار آقباى المذكور أمام السلطان و السلطان خلفه إلى أن وصل آقباى قريبا من تلّ السلطان، و نزل السلطان على سرمين و قد أجهدهم التّعب من قوّة السّير، و شدّة البرد، فلما بلغ قانى باى و إينال الصصلانى و غيرهما من الأمراء مجىء آقباى خرجوا إليه بمن معهم من العساكر و لقوا آقباى بمن معه من الأمراء و العساكر و قاتلوه فثبت لهم ساعة ثم انهزم أقبح هزيمة، و قبضوا عليه و على الأمير برسباى الدّقماقى: أعنى الملك الأشرف الآتى ذكره، و على الأمير طوغان دوادار الوالد، و هو أحد مقدّمى الألوف بدمشق، و على جماعة كبيرة، و تمزقت عساكرهم و انتهبت، و أتى خبر كسرة الأمير آقباى للسلطان فتخوّف و همّ بالرّجوع إلى دمشق و جبن عن ملاقاتهم؛ لقلّة عساكره حتى شجّعه بعض الأمراء و أرباب الدولة، و هوّنوا عليه أمر القوم، فركب بعساكره من سرمين و أدركهم و قد استفحل أمرهم، فعند ما سمعوا بمجىء السلطان أنهزموا و لم يثبتوا و ولّوا الأدبار من غير قتال خذلانا من اللّه تعالى لأمر سبق، فعند ذلك اقتحم السلطانيّة عساكر قانى باى و قبض على الأمير إينال الصّصلانى نائب حلب و على الأمير تمان تمر اليوسفى المعروف بأرق أتابك حلب، و على الأمير جرباش كباشة حاجب حجّاب حلب، و فرّقانى باى و اختفى.

أما سودون من عبد الرحمن نائب طرابلس، و تنبك البجاسىّ نائب حماة، و طرباى نائب غزّة، و جانى بك الحمزاوىّ نائب قلعة الرّوم، و الأمير موسى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۳۷

الكركرىّ أتابك طرابلس و غيرهم [فقد] ساروا على حميّة إلى جهة الشّرق قاصدين قرا يوسف صاحب بغداد و تبريز.

ثم ركب الملك المؤيّد و دخل إلى حلب فى يوم الخميس رابع عشر شهر رجب و ظفر بقانى باى فى اليوم الثالث من الوقعة، فقيّده ثم طلبهم الجميع، فلما مثلوا بين يدى السلطان قال لهم السلطان: قد وقع ما وقع فالآن أصدقونى، من كان اتّفق معكم من الأمراء؟ فشرع قانى باى يعدّ جماعة، قهره إينال الصّصلانى و قال: يكذب يا مولانا السلطان، أنا أكبر أصحابه فلم يذكر لى واحدا من هؤلاء فى مدّة هذه الأيّام، و كان يمكنه أنّه يكذب علىّ و على غيرى بأن معه جماعة من المصريّين ليقوّى بذلك قلوب أصحابه فلم يذكر لنا شيئا من ذلك، فكل ما قاله فى حقّ الأمراء زور و بهتان، ثم التفت إينال إلى قانى باى و قال له: بتنميق كذبك تريد تخلص من السيف، هيهات ليس هذا ممّن يعفو عن الذّنب، ثم تكلّم إينال المذكور بكلام طويل مع السّلطان معناه أننا خرجنا عليك نريد قتلك فافعل الآن ما بدا لك، فعند ذلك أمر بهم الملك المؤيّد فردّوا إلى أماكنهم و قتلوا- من يومهم- الأربعة: قانى باى، و إينال و تمان تمر أرق، و جرباش كباشه، و حملت رءوسهم إلى الديار المصرية على يد الأمير يشبك شاد الشّرابخاناه، فرفعوا على الرّماح و نودى عليهم بالقاهرة: هذا جزاء من خامر على السلطان، و أطاع الشيطان و عصى الرحمن، ثم علّقوا على باب زويلة أيّاما ثم حملوا إلى الإسكندرية فطيف بهم أيضا هناك، ثم أعيدت الرّءوس إلى القاهرة و سلّمت إلى أهاليها.

ثم خلع السلطان على الأمير آقباى المؤيّدى الدّوادار بنيابة حلب عوضا عن

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۳۸

إينال الصّصلانى، و على الأمير يشبك شادّ الشّرابخاناه بنيابة طرابلس عوضا عن سودون من عبد الرحمن، و على الأمير جارقطلو بنيابة حماة عوضا عن إنّيه تنبك البجاسى.

و أخذ السلطان فى تمهيد أمور حلب مدّة، ثم خرج منها عائدا إلى جهة الشام حتى نزل بحماة، و عزم على الإقامة بها حتى ينفصل فصل الشتاء، فأقام بها أيّاما حتى بلغه عن القاهرة غلوّ الأسعار و اضطراب الناس بالديار المصرية لغيبة السلطان، و فتنة العربان، فخرج من حماة و عاد حتى قدم إلى دمشق و أمسك بها سودون القاضى رأس نوبة النّوب، و خلع على الأمير بردبك قصقا و استقرّ به عوضه رأس نوبة النّوب، و سجن سودون القاضى بدمشق.

ثم خرج السلطان منها يريد الديار المصرية إلى أن قاربها فنزل المقام الصارمى إبراهيم ابن السلطان من قلعة الجبل، و سار إلى لقاء والده و معه الأمير كزل العجمى أمير جاندار، و سودون قراصقل حاجب الحجاب فى عدّة من المماليك السلطانية حتى التقاه، و عاد صحبته حتى نزل السلطان على السّماسم شمالى خانقاه سرياقوس فى يوم الخميس رابع عشر ذى الحجة من سنة ثمانى عشرة و ثمانمائة.

و ركب فى الليلة المذكورة إلى أن نزل بخانقاه سرياقوس، و عمل بها مجتمعا بالقراء و الصّوفية، و جمع فيه نحو عشر جوق من أعيان القرّاء، و عدّة من المنشدين أصحاب الأصوات الطيّبة، و مدّ لهم أسمطة جليلة ثم بعد فراغ القرّاء و المنشدين أقيم السماع فى طول الليل، و رقصت أكابر الفقراء الظّرفاء و جماعة من أعيان ندمائه بين يديه الليل كله نوبة، و هو جالس معهم كأحدهم، هذا و أنواع الأطعمة و الحلاوات تمدّ شيئا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۴، ص: ٣٩

بعد شىء بكثرة، و السّقاة تطوف على الحاضرين بالمشروب من السّكّر المذاب، فكانت ليلة تعدّ من الليالى الملوكية لم يعمل بعدها مثلها.

ثم أنعم على القرّاء و المنشدين بمائة ألف درهم، و ركب بكرة يوم السبت سادس عشر ذى الحجة المذكورة من الخانقاه حتى نزل بطرف الرّيدانيّة، فأقام بها ساعة ثم ركب و شقّ القاهرة حتى طلع إلى القلعة من يومه، و قد زيّنت له القاهرة أحسن زينة، فكان لقدومه إلى الديار المصرية يوما من الأيّام المشهودة.

و بعد طلوعه إلى القلعة أصبح من الغد نادى بالقاهرة بالأمان، و أن الأسعار بيد اللّه تعالى، فلا يتزاحم أحد على الأفران، ثم تصدّى السلطان بنفسه للنظر فى الأسعار. و عمل معدّل القمح، و قد بلغ سعر الإردب منه أزيد من ستمائة درهم إن وجد، و الإردب الشعير إلى أربعمائة درهم، فانحطّ السّعر لذلك قليلا، و سكن روع الناس؛ لكون السلطان ينظر فى مصالحهم، فلهذا و أبيك العمل، و لعل اللّه سبحانه و تعالى أن يغفر للمؤيّد ذنوبه بهذه الفعلة؛ فإن ذلك هو المطلوب من الملوك، و هو حسن النظر فى أحوال رعيتهم- انتهى.

ثم فى يوم الاثنين خامس عشرينه خلع السلطان على الأمير جقمق الأرغون شاوىّ الدّوادار الثانى باستقراره دوادارا كبيرا عوضا عن الأمير آقباى المؤيّدى المنقول إلى نيابة حلب، و خلع على الأمير يشبك الجكمىّ باستقرارة دوادارا ثانيا عوضا عن جقمق.

قلت: و كان الدّوادار الثانى يوم ذاك لا يحكم بين الناس، و ليس على بابه نقباء، و كذلك الرّأس نوبة الثانى، و أوّل من حكم ممن ولى هذه الوظيفة قرقماس الشّعبانى، و ممن ولى رأس نوبة ثانى آقبردى المنقار- انتهى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۴، ص: ۴٠

ثم أمر السلطان الملك المؤيد بالنداء بمنع المعاملة بالدنانير الناصرية، و قد تزايد سعر الذّهب حتى بلغ المثقال الذهب إلى مائتين و ستين درهما و الناصرى إلى مائتين و عشرة، فرسم السلطان بأن يكون سعر المثقال الذهب بمائتين و خمسين و الإفرنتى بمائتين و ثلاثين، و أن تنقص الناصرية و يدفع فيها من حساب مائة و ثمانين درهما الدينار.

[ما وقع من الحوادث سنة ٨١٩]

ثم فى أوّل محرم سنة تسع عشرة و ثمانمائة دفع السلطان للطّواشىّ فارس الخازندار مبلغا كبيرا و أمره أن ينزل إلى القاهرة و يفرّقه فى الجوامع و المدارس و الخوانق، فتوسّع الناس بذلك، و كثر الدعاء له، ثم فرّق مبلغا كبيرا أيضا على الفقراء و المساكين فأقلّ ما ناب الواحد من المساكين خمسة مؤيدية فضة عنها خمسة و أربعون درهما، فشمل برّه عدّة طوائف من الفقراء و الضّعفاء و الأرامل و غيرهم، فكان جملة ما فرّقه فى هذه النوبة الأخيرة أربعة آلاف دينار، فوقع تفرقة هذا المال من الفقراء موقعا عظيما.

هذا و الغلاء يتزايد بالقاهرة و ضواحيها، و السلطان مجتهد فى إصلاح الأمر لا يفتر عن ذلك، و أرسل الطواشىّ مرجان الهندىّ الخازندار إلى الوجه القبلى بمال كثير ليشترى منه القمح و يرسله إلى القاهرة توسعة على الناس، ثم أخذ السلطان [فى] النظر فى أحوال الرّعيّة بنفسه و ماله حتى إنه لم يدع لمحتسب القاهرة فى ذلك أمرا، فمشى الحال بذلك، و ردّ رمق الناس- سامحه اللّه تعالى و أسكنه الجنة.

ثم فى أوّل صفر من سنة تسع عشرة المذكورة أمر السلطان بعزل جميع نوّاب القضاة الأربعة، و كان عدتهم يومئذ مائة و ستة و ثمانين قاضيا بالقاهرة سوى من بالنواحى، و صمّم السلطان على أنّ كل قاض يكون له ثلاثة نوّاب لا غير، هؤلاء كفاية للقاهرة و زيادة.

قلت: و ما كان أحسن هذا لو دام أو استمرّ، و قد تضاعف هذا البلاء

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۴۱

فى زماننا حتى خرج عن الحدّ، و صار لكل قاض عدّة كبيرة من النّوّاب- انتهى.

ثم فشا الطاعون فى هذا الشهر بالقاهرة، و وقع الاهتمام فى عمارة الجامع المؤيّدىّ بالقرب من باب زويلة، و كان قبل ذلک عمله على التراخى، ثم تكلّم أرباب الدولة مع السلطان فى عود نوّاب القضاة، و أمعنوا فى ذلک، و قد وعدوا بمال كثير، فرسم السلطان بجمع القضاة الثلاثة، و كان قاضى القضاة علاء الدين بن مغلى الحنبلىّ مسافرا بحماة، و تكلّم معهم فيما رسم به، و صمّم على ذلک- رحمه اللّه.

و أرباب وظائفه الظّلمة البلاصيّة تمعن فى الكلام معه [فى ذلک]، و لا زالوا به بعد أن خوّفوه بوقوف حال الناس من قلّة النوّاب، و أشياء غير ذلک إلى أن استقرّ الحال على أن يكون نوّاب القاضى الشافعى عشرة، و نوّاب القاضى الحنفى خمسة، و نوّاب القاضى المالكى أربعة، و انفضّ المجلس على هذا بعد أن عجز مباشر و الدّولة فى أن يسمح بأكثر من ذلک، و بعد خروج القضاة من المجلس ضمن لهم بعض أعيان الدّولة من المباشرين الظّلمة العواتية- عليه من اللّه ما يستحقّه- بردّ جماعة أخر بعد حين. هذا و الناس فى غاية السّرور [بما حصل]، من منع القضاة للحكم بين الناس.

ثم خلع السلطان على الأمير قطلوبغا باستقراره فى نيابة الإسكندرية عوضا عن آقبردى المنقار بحكم عزله، و كان قطلوبغا هذا ممن أنعم عليه الأمير تمربغا الأفضلى المدعو منطاش بإمرة مائة و تقدمة ألف بالديار المصرية.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۴۲

ثم أخرج الملک الظاهر برقوق إقطاعه و جعله بطّالا سنين طويلة حتى افتقر و طال خموله، و احتاج إلى السؤال، إلى أن طلبه الملک المؤيّد من داره و ولّاه نيابة الإسكندرية من غير سؤال.

قلت: و هذه كانت عادة ملوک السّلف أن يقيموا من حطّه الدهر، و ينتشلوا ذوى البيوتات من الرّؤساء و أرباب الكمالات.

و قد ذهب ذلک كلّه و صار لا يترقىّ فى الدّول إلا من يبذل المال، و لو كان من أوباش السّوقة لشره الملوک فى جمع الأموال- و للّه درّ المتنبى حيث يقول:

[الطويل]

و من ينفق الساعات فى جمع ماله مخافة فقر فالذى فعل الفقر

حدّثنى بعض من حضر قطلوبغا المذكور لمّا طلبه المؤيّد ليستقرّ به فى نيابة الإسكندرية.

فعند حضوره قال له السلطان: أولّيك نيابة الإسكندرية، فمسك قطلوبغا المذكور لحيته البيضاء و قال: يا مولانا السلطان أنا لا أصلح لذلك، و إنما أريد شبع بطنى و بطن عيالى.

يظن أن السلطان يهزأ به، فقال له السلطان: لا ـ و اللّه إنما قولى على حقيقته، ثم طلب له التّشريف و أفاضه عليه، و أمدّه بالخيل و القماش – انتهى.

ثم فى ثانى عشر شهر ربيع الأوّل أمسك السلطان الأستادار بدر الدين حسن بن محب الدين بعد أن أوسعه سبّا، و عوّقه نهاره بقلعة الجبل حتى شفع فيه الأمير جقمق الدّوادار على أن يحمل ثلاثمائة ألف دينار، فأخذه جقمق و نزل به إلى داره

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۴۳

ثم أرسل السلطان تشريفا إلى فخر الدين عبد الغنى بن أبى الفرج و هو كاشف الوجه البحرى باستقراره أستادارا عوضا عن ابن محب الدين المقدّم ذكره، ثم تقرّر الحال على ابن محب الدين أنه يحمل مائة ألف دينار و خمسين ألف دينار بعد ما عوقب و عصر فى بيت الأمير جقمق عصرا شديدا، ثم نقل من بيت جقمق إلى بيت فخر الدين بن أبى الفرج، فتسلمه فخر الدين المذكور عند ما حضر إلى القاهرة.

هذا و قد ارتفع الطاعون بالديار المصرية، و ظهر بالبلاد الشاميّة.

ثم فى سابع جمادى الآخرة من سنة تسع عشرة المقدّم ذكرها أمر السلطان أن الخطباء إذا أرادوا الدّعاء للسلطان على المنبر فى يوم الجمعة [أن] ينزلوا درجة ثم يدعوا للسلطان حتى لا يكون ذكر السلطان فى الموضع الذى يذكر فيه اسم اللّه عزّ و جلّ و اسم نبيّه صلى اللّه عليه و سلم؛ تواضعا للّه تعالى، ففعل الخطباء ذلك، و حسن هذا ببال الناس إلى الغاية، و عدّت هذه الفعلة من حسناته– رحمه اللّه.

تم تكرّرت صدقات السلطان فى هذه السنة مرارا عديدة على نقدات متفرقة.

هذا و قد ألزم السلطان مباشرى الدّوله بالرّخام الجيّد لأجل جامعه، فطلب الرّخام من كل جهة، حتى أخذ من البيوت و القاعات و الأماكن التى بالمفترجات، و من يومئذ عزّ الرخام بالديار المصرية لكثرة ما احتاجه الجامع المذكور من الرّخام؛ لكبره و سعته، و هو أحسن جامع بنى بالقاهرة فى الزّخرفة و الرّخام لا فى خشونة العمل و الإمكان، و قد اشتمل ذلك جميعه فى مدرسة السلطان حسن بالرّميلة، ثم فى مدرسة الملك الظاهر برقوق ببين القصرين، و لم يعب على الملك المؤيد فى شيء من بناء هذا الجامع إلا أخذه باب مدرسة السّلطان حسن و التّنور الذى كان به، و كان اشتراهما السلطان حسن بخمسمائة دينار، و كان يمكن الملك المؤيد أن يصنع أحسن منهما لعلوّ همّته؛ فإن فى ذلك نقص مروءة و قلة أدب من جهات عديدة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۴۴

و كان وعدنى بعض أعيان المماليك المؤيديّة أنه إن طالت يده فى التحكّم أن يصنع بابا و تنورا للجامع المؤيّدى المذكور أحسن منهما، ثم يردهما إلى مكانهما من مدرسة السلطان حسن، فقبضه اللّه قبل ذلك– رحمه اللّه تعالى.

و كان نقل هذا الباب و التّنور من مدرسة السلطان حسن إلى مدرسة الملك المؤيد فى يوم الخميس سابع عشرين شوال من السنة المذكورة.

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۲۰]

ثم بدا للسلطان الملك المؤيد السفر إلى البلاد الشاميّة؛ لما اقتضاه رأيه، و علّق جاليش السّفر فى يوم الاثنين خامس المحرّم من سنة عشرين و ثمانمائة، و هذه سفرة الملك المؤيد شيخ الثالثة إلى البلاد الشامية من يوم تسلطن؛ فالأولى فى سنة سبع عشرة و ثمانمائة

لقتال الأمير نوروز الحافظىّ نائب الشام، و الثانية فى سنة ثمانى عشرة [و ثمانمائة] لقتال الأمير قانى باى المحمدى نائب الشام، و هذه سفرته الثالثة.

و تجهّز السلطان للسفر و أمر أمراءه و عساكره بالتّجهيز، فلما كان خامس عشر المحرم جلس السلطان لتفرقة النّفقات، فحمل إلى كل من أمراء الألوف ألفى دينار، و أعطى لكلّ مملوك من المماليك السلطانية ثمانية و أربعين دينارا صرفها يوم ذاك عشرة آلاف درهم.

و بينما السلطان يتهيّأ للسفر قدم عليه الخبر فى ثالث عشرين المحرّم بوصول الأمير آقباى المؤيدى نائب حلب إلى قطيا فى ثمانى هجن، فكثرت الأقوال فى مجيئه على هذه الهيئة، و رسم السلطان بتلقّيه، فسار إليه الأمراء و أرباب الدولة إلى خانقاه سرياقوس، و جهّز له السلطان فرسا بسرج ذهب و كنبوش زركش،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۴۵

و كامليّة مخمل بفرو سمّور بمقلب سمّور، و قدم آقباى المذكور من الغد فى يوم السبت رابع عشرين المحرم، فلامه السلطان و وبّخه و عنّفه على حضوره إلى القاهرة فى هذه المدّة اليسيرة على هذا الوجه من غير أمر يستحقّ ذلك، فإنه سار من حلب إلى مصر فى أقل من عشرة أيام، فاعتذر آقباى، إنما أحوجه لذلك ما أشيع عنه فى عزم الخروج عن الطاعة، تم استغفر ممّا وقع منه فخلع عليه السلطان باستقراره فى نيابة دمشق عوضا عن الأمير ألطنبغا العثمانى، و رسم السلطان للأمير آقبغا التّمرازىّ أمير آخور ثانى بالتوجّه إلى الشام ليقبض على [ألطنبغا] العثمانى و يودعه بسجن قلعة دمشق، و الحوطة على موجوده ثم خلع السلطان على الأمير قجقار القرداميّ أمير سلاح باستقراره فى نيابة حلب عوضا عن آقباى المذكور، و أنعم السلطان بإقطاع قجقار على الأمير بيبغا المظفرى أمير مجلس.

ثم خرجت مدوّرة السلطان إلى الرّيدانية خارج القاهرة، و دخل المحمل فى ذلك اليوم إلى القاهرة صحبة أمير حاج المحمل الأمير أزدمر من على جان المعروف بأزدمر شايا.

ثم فى خامس عشرين المحرم المذكور ركب السلطان من قلعة الجبل بأمرائه و عساكره و نزل بمخيّمه بالرّيدانية خارج القاهرة تجاه مسجد التّبن، و خلع على الشيخ شمس الدين محمد بن يعقوب التّبانى باستقراره فى حسبه القاهرة، و عزل عنها منكلى بغا العجمى الحاجب ثم فى سابع عشرينه خلع السلطان على الأمير آقباى نائب الشام خلعة السفر و سافر من يومه جريدة على الخيل، ثم خلع السلطان على الأمير طوغان أمير آخور السلطان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۴۶

قديما باستقراره فى نيابة الغيبة، و على الأمير أزدمر من على جان المعروف شايا المقدم ذكره بنيابة قلعة الجبل، و أقرّ عدّة أمراء أخر بالديار المصرية، ثم خلع السلطان على الأمير قجقار القردميّ نائب حلب خلعة السفر، و سار أيضا من يومه، ثم تقدّم جاليش السلطان أمامه فيه جماعة من الأمراء، و مقدّم الجميع ولده المقام الصّارميّ إبراهيم.

ثم سار السلطان ببقية عساكره من الرّيدانيّة فى يوم الثلاثاء رابع صفر يريد البلاد الشّامية، و صحبته الخليفة و القضاة الأربعة، و معه أيضا من ورد عليه من القصّاد فى السنة الخالية، و هم جماعة: قاصد قرا يوسف صاحب بغداد و غيرها من العراق، و قاصد سليمان ابن عثمان صاحب الرّوم، و قاصد بير عمر صاحب أرزنكان، و قاصد بن رمضان.

و تأخر بالقاهرة الأستادار فخر الدين بن أبى الفرج، و الصاحب بدر الدين حسن بن نصر اللّه ناظر الخواص.

و رسم طوغان نائب الغيبة بأمر السلطان بهدم البيوت التى فوق البرج المجاورة لباب الفتوح من القاهرة ليعمل ذلك سجنا لأرباب الجرائم عوضا عن خزانة شمائل التى كانت موضع المدرسة المؤيّدية، و سمى هذا السجن بالمقشرة.

و أما السلطان فإنه سار حتى دخل دمشق فى أوّل شهر ربيع الأول بعد أن مات الأمير آقبردى المؤيدى المنقار أحد مقدّمى الألوف بطريق دمشق، و كان خرج من القاهرة مريضا فى محفّة، و أنعم السلطان بإقطاعه على الأمير سودون القاضى بعد أن أخرجه من

السجن.

ثم كتب الأمير طوغان نائب الغيبة يعرّف السلطان بموت فرج ابن الملك الناصر فرج فى يوم الجمعة سادس عشرين شهر ربيع الأول مسجونا بثغر الإسكندرية، و قد

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۴۷

ناهز الاحتلام، و بموته انكسرت حدّة المماليك الظاهرية و الناصرية، و كان فى كل قليل يكثر الكلام بأن المماليك الظاهرية يثورون و ينصّبونه فى السلطنة، و كانوا لا يزالون يتربّصون الدوائر لأجل ذلك، فبطل عزمهم بموته.

و أقام السلطان بدمشق أيّاما، ثم خرج منها يريد حلب، و سار حتى وصل تلّ السلطان، فتقدّم وصفّ الأطلاب بنفسه- و كان إماما فى هذا الشأن، و معرفة التعبئة للعساكر- فرتّب أطلاب الأمراء أوّلا- كل واحد فى منزلته، و ليس ذلك بمنزلته فى الجلوس بين يدى السلطان، و إنما بحسب وظيفته؛ فإنّ لكل صاحب وظيفة منزلة يمشى طلبه فيها أمام طلب السلطان- أخذت أنا هذا العلم عن آقبغا التّمرازىّ و عن السّيفى طرنطاى الظاهرىّ شادّ القصر السلطانى- انتهى.

ثم سار السلطان أمام طلبه فى يوم السبت حادى عشرين شهر ربيع الأوّل عند انشقاق الفجر، و مرّ بطلبه من ظاهر حلب و معهم جميع الأمراء بأطلابهم حتى نزل بالمسطبة الظاهرية فى المخيّم، و مرّ من داخل مدينة حلب نائب الشام و نائب طرابلس، و نائب حماة، و نائب صفد، و نائب غزّة و عدّة كبيرة من التّركمان و العربان حتى خرجوا من الباب الآخر، فهال الناس هذه الرّؤية الغريبة؛ من كثرة العساكر التى قدمت حلب من ظاهرها و باطنها، و أقام السلطان بمخيّمه بالمسطبة أيّاما ينتظر عود القصّاد الذين وجّههم للأطراف.

ثم فى يوم الاثنين ثالث عشرين شهر ربيع الأوّل جلس السلطان بالميدان و عمل به الموكب السّلطانى، و حضره نوّاب البلاد الشّاميّة و العساكر المصرية، فجلس عن يمين السلطان الأتابك ألطنبغا القرمشىّ، و تحته آقباى المؤيّدى نائب الشام، ثم بيبغا المظفرى أمير مجلس، ثم يشبك المؤيّدى نائب طرابلس، ثم جماعة كلّ واحد فى رتبته، و جلس عن يسار السلطان ولده المقام الصّارمىّ إبراهيم، ثم قجقار القردمىّ نائب حلب، ثم تنبك العلائى ميق الأمير آخور الكبير، ثم جارقطلو

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۴۸

نائب حماة، ثم بردبك قصقا رأس نوبة النّوب، ثم الأمير ططر، ثم جماعة أخر كلّ واحد فى منزلته.

ثم عيّن السلطان الأمير آقباى نائب الشام و الأمير جار قطلو نائب حماة و معهما خمسمائة ماش من التّركمان الأوشرية و الإينالئة و فرقة من عرب آل موسى ليتوجّه الجميع إلى جهة ملطية لإخراج حسين بن كبك منها، ثم إلى كختا و كركر، ثم قدّم السلطان الجاليش بين يديه؛ و فيه الأتابك ألطنبغا القرمشى؛ و يشبك اليوسفىّ المؤيدى نائب طرابلس؛ و خليل الدّشارى التّبريزىّ نائب صفد فى عدة أخر من أمراء مصر، فصاروا إلى جهة العمق، ثم ركب السلطان و دخل مدينة حلب و أقام بها إلى أن ركب منها فى بكرة يوم الاثنين ثانى شهر ربيع الآخر و سار إلى جهة العمق على درب الأتارب، فقدم عليه بالمنزلة المذكورة قاصد الأمير ناصر الدين بك بن قرمان بهديّة و كتاب يتضمن أنه ضرب السّكّة المؤيدية و دعا للسلطان فى الخطبة بجميع معاملته، و بعث من جملة الهدية طبقا فيه جملة دراهم بالسّكّة المؤيدية، فعنّف السلطان رسوله و وبّخه و عدّد له خطأ مرسله من تقصيره فى الخدمة، و ذكر له ذنوبا كثيرة، فاعتذر الرسول عن ذلك كلّه، و سأل السلطان الصفح عنه، فقال السلطان: إنى ما سرت و تكلفت هذه الكلفة العظيمة إلا لأجل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۴۹

طرسوس لا غير، ثم فرّق الدراهم على الحاضرين، و صرف الرسول إلى جهة نزل فيها.

و عمل السلطان الخدمة فى يوم السبت سابع شهر ربيع الآخر بالعمق، و حلف التّركمان على طاعته، و أنفق فيهم الأموال، و خلع عليهم نحو مائتى خلعة، و ألبس إبراهيم بن رمضان الكلفتة، و خلع عليه.

ثم تقرّر الحال على أن قجقار القردمىّ نائب حلب يتوجّه بمن معه إلى مدينة طرسوس، و يسير السلطان على مدينة مرعش إلى أبلستين

و يتوجّه رسول ابن قرمان بجوابه و يعود إلى السلطان فى مستهلّ جمادى الأولى بتسليم طرسوس، فإن لم يحضر مشى السلطان على بلاده، فسار الرسول صحبة نائب حلب إلى طرسوس، و سار السلطان إلى أبلستين فنزل بالنهر الأبيض فى حادى عشره، فقدم عليه كتاب قجقار القردميّ نائب حلب بأنه لما نزل بغراس قدم عليه خليفة الأرمن و أكابر الأرمن و على يدهم مفاتيح قلعة سيس، و أنه جهّزهم إلى السلطان، فلما مثلوا بين يدى السلطان خلع عليهم و أعادهم إلى القلعة بعد أن ولّى نيابة سيس للشيخ أحمد أحد أمراء العشرات بحلب، ثم رحل السلطان حتى نزل بمنزلة كوخيك، فقدم عليه بها كتاب آقباى نائب الشام بأن حسين بن كبك أحرق ملطية، و أخذ أهلها و فرّ منها فى سابع عشر شهر ربيع الأوّل، و أنه نزل بملطية و شاهد ما بها من الحريق، و أنّه لم يتأخّر بها إلا الضعيف العاجز، و أن فلّاحى بلادها نزحوا بأجمعهم عنها، و أن ابن كبك نزل عند مدينة دوركى، فندبه السلطان أن يسير خلفه حيث سار، ثم أمر السلطان ولده المقام

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۵۰

الصّارمى إبراهيم ليتوجّه إلى أبلستين و معه الأمير جقمق الأرغون شاوى الدّوادار، و جماعة من الأمراء لكبس الأمير ناصر الدين محمد بن دلغادر، فساروا مجدّين فصابحوا أبلستين و قد فرّ منها ابن دلغادر، و أجلى البلاد من سكانها، فجدّوا فى السّير خلفه ليلا و نهارا حتى نزلوا بمكان يقال له كل ولى فى يوم خامس عشره و أوقعوا بمن فيه من التّركمان، و أخذوا بيوتهم و أحرقوها، ثم مضوا إلى خان السلطان، فأوقعوا أيضا بمن كان هناك و أحرقوا بيوتهم و أخذوا من مواشيهم شيئا كثيرا، ثم ساروا إلى مكان يقال له صاروس ففعلوا بهم كذلك، و باتوا هناك، ثم توجهوا يوم سادس عشره فأدركوا ناصر الدين بك بن دلغادر و هو سائر بأثقاله و حريمه فتتبعوه و أخذوا أثقاله و جميع ما كان معه، و نجا ابن دلغادر بنفسه على جرائد الخيل، و وقع فى قبضتهم عدة من أصحابه، ثم عادوا إلى السلطان بالغنائم، و من جملتها مائة جمل بختىّ و خمسمائة جمل نفر، و مائة فرس، هذا سوى ما نهب و أخذه العسكر من الأقمشة الحرير، و الأوانى الفضية ما بين بلّور و فضّيّات و بسط و فرش، و أشياء كثيرة لا تدخل تحت حصر، فسرّ السلطان بذلك، و صار السلطان يتنقّل فى مراعى أبلستين حتى قدم عليه آقباى نائب الشام بعد أن سار فى أثر حسين ابن كبك إلى أن بلغه أنه دخل إلى بلاد الروم، و بعد أن قرّر أمر ملطية بعود أهلها إليها، و بعد أن جهّز الأمير جارقطلو نائب حماة، و معه نائب ألبيرة، و نائب قلعة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۵۱

الرّوم، و نائب عينتاب فى عدّة من الأمراء إلى كختا و كركر، فنازلوا القلعتين، و قد أحرق نائب كختا أسواقها و تحصّن بقلعتها، فبعث السلطان إليهم نجدة فيها ألف و مائتا ماش، ثم قدم كتاب ناصر الدين بك بن دلغادر على السلطان يسأل العفو عنه على أن يسلّم قلعة درندة فأجيب إلى ذلك.

و أما قجقار القردميّ نائب حلب فإنه لما توجّه إلى طرسوس قدّم بين يديه إليها الأمير شاهين الأيد كارى متولّيها من قبل السلطان، فوجد ابن قرمان قد بعث نجدة إلى نائبه بها، و هو الأمير مقبل، فلما بلغ مقبلا المذكور مجىء العساكر السلطانية إليه امتنع بقلعتها، فنزل شاهين الأيدكارى و قجقار القردميّ عليها.

و كتب قجقار إلى السلطان بذلك، فأجابهم السلطان بالاهتمام فى حصارها، و حرّضهم على ذلك، فلا زالوا على حصارها حتى أخذوها بالأمان فى يوم الجمعة ثامن عشر شهر ربيع الأوّل، و سجنوا مقبلا و أصحابه.

ثم انتقل السلطان إلى منزلة سلطان قشّى، فقدم عليه بها قاصد الأمير على بك بن دلغادر بهديّة، ثم قدم ناصر الدين بك بن دلغادر مع ولده و صحبته كواهى و مفاتيح قلعة درندة، فأضاف السلطان نيابة أبلستين إلى على بك بن دلغادر مع ما بيده من نيابة مرعش، ثم ركب السلطان ليرى درندة، و سار إليها على جرائد الخيل حتى نزل عليها و بات بظاهرها فامتنعت عليه، صبح فرتّب الأمير آقباى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۵۲

نائب الشام فى إقامته عليها، و أردفه بآلات الحصار و الصّنّاع من الزّردخاناه السلطانية، و عاد السلطان إلى مخيّمه فوصل إليه فى تلك

الليلة مفاتيح قلعة خندروس من مضافات درندة، ثم ركب السلطان من الغد و بات على سطح العقبة المطلّة على درندة، فلما أصبح ركب بعساكره و عليهم السلاح، و نزل بمخيّمه على قلعة درندة و هى فى شدّة من قوة الحصار، فلما رأى من بها أن السلطان نزل عليهم طلبوا الأمان فأمّنهم و نزلوا بكرة يوم الجمعة، و فيهم داود ابن الأمير محمد بن قرمان، فألبسه السلطان تشريفا، و أركبه فرسا بقماش ذهب، و خلع على جماعته، و استولى السلطان على القلعة، و خلع على الأمير ألطنبغا الجكمىّ أحد رءوس النّوب باستقراره فى نيابة درندة، و أنعم عليه بأربعة آلاف دينار غير السلاح، و خلع على الأمير منكلى بغا الأرغون شاوى أحد أمراء الطّبلخانات بالديار المصرية بنيابة ملطية و دوركى، و أنعم عليه بخمسة آلاف دينار، ثم طلع السلطان إلى قلعة درندة و أحاط بها علما، ثم أرتحل عنها بعد أن مهّد البلاد التى استولى عليها، و عمل مصالحها، و سار حتى نزل على النّهر من غربى أبلستين بنحو مرحلة، فأقام هناك أربعة أيام ليمكّن كلّ من ولى نيابة على عمله و رجوع أهل بلده إليه، ثم رحل و نزل على أبلستين يريد التوجّه إلى بهسنا و كختا و كركر، و أعاد من هناك حمزة بن على بك بن دلغادر إلى أبيه، و جهّز له راية حمراء من الكمخا الإسكندرانى، و نفقة و طبلخاناه.

و كان الأمير آقباى سار إلى بهسنا فقدم الخبر على السلطان من الأمير آقباى بأنه كتب إلى الأمير طغرق بن داود بن إبراهيم بن دلغادر المقيم بقلعة بهسنا يرغّبه فى الطاعة، و يدعوه إلى الحضور إلى الحضرة الشريفة، فاعتذر من حضوره بخوفه على نفسه، فما زال به حتى سلّم القلعة و حضر إليه، فلما كان سادس عشر جمادى الآخرة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۵۳

قدم الأمير آقباى و معه الأمير طغرق و من كان معه بالقلعة، و قد قارب السلطان فى مسيره حصن منصور، فخلع السلطان على طغرق و من معه، و أنعم عليهم، و أنزل طغرق بخام ضرب له، و نزل السلطان بحصن منصور فورد عليه الخبر بنزول قجقار القردمى على كركر و كختا، و قدم أيضا قاصد قرايلك صاحب آمد من ديار بكر بهدية فقبلها السلطان، و خلع عليه.

ثم قدم فيه أيضا رسول الملك العادل صاحب حصن كيفا بهدية فقبلها السلطان أيضا، فلما كان الغد رحل السلطان و نزل شمالى حصن منصور قريبا من كختاوكركر، و أردف نائب حلب بالأمير جارقطلو نائب حماة و بجماعة من أمراء مصر و الشام.

و بعث الأمير يشبك اليوسفى نائب طرابلس لمنازلة كختا، و خلع على الأمير منكلى خجا الأرغون شاوى بنيابة قلعة الرّوم عوضا عن الأمير أبى بكر بن بهادر البابيرى الجعبرى، و خلع على الأمير كمشبغا الرّكنى بنيابة بهسنا عوضا عن الأمير طغرق بن دلغادر، ثم قدم جواب الأمير قرا يوسف، و قرا محمد صحبة القاضى حميد الدين قاضى عسكره، و كتاب شاه أحمد بن قرا يوسف صاحب بغداد من قبل أبيه، و كتاب بير عمر صاحب أرزنكان بهدية جليلة من قرا يوسف، فأنزل حميد الدين المذكور بمخيّمه، و أجرى عليه ما يليق به.

ثم رحل السلطان حتى نزل على كختا و حصر قلعتها و قد نزح أهل كختا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۵۴

و معامليها عنها، فنصب المدافع للرّمى على القلعة ورمى عليها، و بينهما هو فى ذلك ورد الخبر على السلطان بقرب قرا يوسف قاصدا قرايلك، فبادر قرايلك و جهّز ابنه حمزة صحبة نائبه شمس الدين أميرزة بهدية من خيل و شعير و سأل الاعتناء به، فأكرم السلطان ولده و نائبه، و قدم أيضا قاصد طرعلى نائب الرّها، و قاصد الأمير محمد بن دولت شاه صاحب آكل من ديار بكر و معه مفاتيح قلعتها، فقبلها السلطان، ثم أعادها إليه و معها تشريف له بنيابتها.

و لما اشتد الحصار على قلعة كختا و فرغ النقّابون من النقب و لم يبق إلا إلقاء النار فيها طلب قرقماس نائبها شمس الدين أميرزة نائب قرايلك فبعثه السلطان إليه، و تردّد المذكور بينه و بين السلطان غير مرّة إلى أن بعث قرقماس ولده رهنا على أنّه بعد رحيل السلطان عنه ينزل و يسلّمها لهم، فأمره السلطان بتسليمها، و رحل السلطان إلى جهة كركر و ترك الأمير جقمق الدوادار على كختا، و سارت أثقال السلطان إلى عينتاب فنازل السلطان كركر. و نصب عليها منجنيقا يرمى بحجر زنته ما بين الستين و السبعين رطلا بالدمشقى، و كان ذلك فى يوم الجمعة تاسع عشرين من جمادى الآخرة.

فلما كان أوّل شهر رجب قدم الخبر على السلطان من الأمير جقمق بنزول قرقماس من قلعة كختا و معه حريمه و تسلّمها نوّاب السلطان، و أنه توجّه و معه قرقماس المذكور إلى حلب، ثم قدم الخبر على السلطان من الأمير منكلى بغا نائب ملطية بأن طائفة من عسكر قرا يوسف نزلوا تحت قلعة منشار، و نهبوا بيوت الأكراد، و عدّى الفرات منهم نحو ثلاثمائة فارس، و أنه ركب عليهم و قاتلهم و قتل منهم نحو العشرين

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۵۵

و غرق فى الفرات نحو ذلك، و أسر اثنى عشر نفرا، فكتب له السلطان بالشكر و الثناء، ثم خلع السلطان على الأمير شاهين حاجب صفد باستقراره فى نيابة كركر، و على الأمير كزل بغا أحد أمراء حماة بنيابة كختا، فمضى كزل بغا المذكور إليها من يومه، و رحل السلطان من الغد و هو يوم الثلاثاء رابع شهر رجب، و قد عاوده ألم رجله الذى يعتريه فى بعض الأحيان، فركب المحفّة عجزا عن ركوب الفرس، و عاد إلى جهة البلاد الحلبيّة، إلى أن وصل إلى بلد يقال له كيلك فنزل فى الفرات فى زوارق و صحبته جماعة و سار إلى أن وصل قلعة الرّوم فى عشيّة يوم الخميس سادسه، و بات بها، و نزل من الغد بعد ما رتّب أحوال القلعة، و أنعم على نائبها بخمسمائة دينار، فقدم عليه فى يوم الجمعة سابعه الخبر بأن الأمير قجقار القردمىّ نائب حلب يخبر بهزيمة قرايلك من قرا يوسف و أن الذين معه من العسكر المقيم على كركر خافوا من قرا يوسف و عزموا على الرّحيل، و بينما كتاب قجقار يقرأ قدم كتاب آقباى نائب الشام بأن الأمير قجقار نائب حلب رحل عن كركر بمن معه من غير أن يعلمه، و أنّه عزم على محاصرتها، فكتب إليه السلطان بأن يستمرّ على حصارها.

ثم فى بكرة يوم السبت ثامن شهر رجب انحدر السلطان من قلعة الرّوم، و نزل على ألبيرة فطلع من المراكب إليها و قرّر أمورها، فقدم عليه الخبر من الغد بقرب قرا يوسف، و أن الأمير آقباى نائب الشام صالح الأمير خليلا- نائب كركر و رحل عنها بمن معه، فحنق السلطان من ذلك و اشتدّ غضبه على الأمير قجقار القردمىّ، ثم رحل من ألبيرة يريد حلب حتى دخلها بكرة يوم الخميس ثالث عشر شهر رجب بأبهة الملك، و قد تلقّاه أهل حلب و فرحوا بقدومه، لكثرة إرجافهم بقدوم قرا يوسف إليها، فاطمأنوا، و طلع السلطان إلى قلعة حلب، و نادى بالأمان، و فرّق على الفقراء و الفقهاء مالا جزيلا، و أمر ببناء القصر الذى كان الأمير جكم شرع فى عمارته.

ثم فى سابع عشره قدم الأمير آقباى و الأمير قجقار القردمىّ و الأمير جارقطلو،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۵۶

فأغلظ السلطان على الأمير قجقار القردمى و وبّخه، فأجابه قجقار بدالّة و لم يراع الأدب معه، فأمر به فقبض عليه، و حبسه بقلعة حلب، ثم أفرج عنه فى يومه بشفاعة الأمراء، و بعثه إلى دمشق بطّالا، و خلع على الأمير يشبك المؤيدى اليوسفى نائب طرابلس باستقراره عوضه بنيابة حلب، و خلع على الأمير بردبك رأس نوبة النّوب باستقراره فى نيابة طرابلس عوضا عن يشبك المذكور.

ثم فى يوم الخميس العشرين من شهر رجب خلع على الأمير ططر باستقراره رأس نوبة كبيرا عوضا عن بردبك المذكور، و خلع على الأمير نكباى باستقراره فى نيابة حماة عوضا عن جارقطلو بحكم عزله، و خلع على جارقطلو المذكور باستقراره نائب صفد عوضا عن خليل التّبريزى الدّشارى، و استقرّ خليل المذكور حاجب الحجّاب بطرابلس فاستعفى خليل من حجوبية طرابلس فأعفى.

و خلع السلطان على الأمير سودون قراسقل حاجب الحجاب بالديار المصرية باستقراره فى حجوبيّة طرابلس. قلت: درجات إلى أسفل.

و خلع على الأمير شاهين الأرغون شاوى باستقراره فى نيابة قلعة دمشق عوضا عن ألطنبغا المؤيدى المرقبى بحكم انتقال المرقبى إلى تقدمة ألف بالديار المصرية.

ثم فى رابع عشرينه رسم السلطان للنوّاب بالتوجه إلى محلّ كفالتهم بعد أن خلع عليهم خلع السفر.

ثم فى سادس عشرينه استدعى السلطان مقبلا القرمانى و رفاقه فضربه ضربا مبرّحا ثم صلبه هو و من معه.

ثم فى يوم الاثنين أول شعبان قدم قاصد كردى بك و معه الأمير سودون اليوسفى أحد الأمراء المتسحّبين من وقعة قانى باى نائب

الشام و قد قبض عليه، فسمّره الملك المؤيد من الغد تحت قلعة حلب، ثم وسّطه، فعيب ذلك على السلطان كون سودون

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۵۷

المذكور كان من جملة أمراء الألوف ثم من أعيان المماليك الظاهرية و وسّط مثل قطّاع الطريق.

ثم خلع السلطان على تمراز باستقراره فى حجوبية حلب عوضا عن آقبلاط الدّمرداشىّ، و كان السلطان خلع على الأمير يشبك الجكمى الدّوادار الثانى باستقراره أمير حاج المحمل، و سيّره إلى القاهرة، فوصلها فى شعبان المذكور فوجد القاهرة مضطربة و الناس فى هرج كونهم أمسكوا بالقاهرة نصرانيا و قد خلا بامرأة مسلمة فاعترفا بالزّنا فرجما خارج باب الشعرية ظاهر القاهرة عند قنطرة الحاجب، و أحرق العامة النّصرانىّ، و دفنت المرأة، فكان يوما عظيما.

ثم عزل السلطان تمراز المذكور عن حجوبيّة الحجاب و استقر عوضه بالأمير عمر سبط ابن شهرى.

ثم خرج السلطان فى ثامن عشر شعبان المذكور من حلب و نزل بعين مباركه و استقلّ بالمسير منها فى عشرينه يريد جهة دمشق، و نزل قنّسرين و أعاد منها الأمير يشبك نائب حلب إليها، و سار عشيّة يوم الجمعة سادس عشرينه حتى قدم دمشق فى بكرة يوم الخميس ثالث شهر رمضان و نزل بقلعتها، فكان لقدومه دمشق يوما مشهودا، و أخذ فى إصلاح أمر البلاد الشاميّة إلى يوم الاثنين سابع شهر رمضان فأمسك الأمير آقباى المؤيدى نائب الشام، و قيّده و سجنه بقلعة دمشق.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة؛ ج۱۴؛ ص۵۷

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۵۸

و سبب القبض على آقباى المذكور أنّ السلطان الملك المؤيّد كان اشتراه فى أيام إمرته صغيرا بألفى درهم من دراهم لعب الكنجفة، و هو أنّ الملك المؤيّد كان قاعدا يلاعب بعض أصحابه بالكنجفة و قد قمر ذلك الرجل بدراهم كبيرة، فأدخل عليه آقباى المذكور مع تاجره فأعجبه و اشتراه، و طلب خازنداره ليقبض التّاجر ثمن آقباى المذكور فلم يجده، فوزن له المؤيد ثمنه من تلك الدّراهم التى قمرها، ثم رباه و أعتقه و جعله خازنداره، ثم رقّاه أيام سلطنته إلى أن جعله من جملة أمراء الألوف، ثم دوادارا كبيرا بعد موت جانى بك المؤيدى، ثم ولّاه نيابة حلب.

و كان آقباى شجاعا مقداما مجبولا على طبيعة الكبر، تحدّثه نفسه كلّما انتهى إلى منزلة عليّة إلى أعلى منها، فلمّا ولى نيابة حلب استخدم جماعة من مماليك قانى باى المحمدى نائب الشّام بعد قتله، و أنعم عليهم بالعطاياهم و غيرهم، و بلغ ذلك المؤيد فلم يحرّك ساكنا حتى أشيع عنه الخروج عن الطاعة، و تواترت على المؤيد الأخبار بذلك لاسيّما الأمير ألطنبغا المرقبىّ نائب قلعة حلب فإنه بالغ إلى الغاية، فلما تحقّق الملك المؤيد أمره بادر إلى السّفر إلى جهة بلاد الشام، و احتج بأمر من الأمور، و بلغ آقباى أنّ السلطان بلغه أمره و عزم على السّفر إلى البلاد الشّاميّة لأجله، و رأى أنّ أمره لم يستقم إلى الآن مع معرفته بصولة أستاذه الملك المؤيد فخاف أن يقع له كما وقع لقانى باى و نوروز و غيرهم، و هم هم، فركب من حلب على حين غفلة فى ثمانى هجن كما تقدّم ذكره، و قدم القاهرة بغتة يخادع بذلك السلطان، فانخدع له الملك المؤيد فى الظاهر، و فى الباطن غير ذلك، و قد تجهّز للسفر فلم يمكنه الرّجوع عن السّفر لما أشيع بسفره فى الأقطار، و يقال فى الأمثال: الشّروع ملزم. فخلغ عليه بنيابة الشّام عوضا عن ألطنبغا العثمانى و فى النفس ما فيها، و وقع ما حكيناه من أمر سفر السّلطان و رجوعه إلى دمشق، فلما قدم إلى دمشق وشى بآقباى إلى السلطان دواداره الأمير شاهين الأرغون شاوىّ فى جماعة من أمراء دمشق أن آقباى المذكور يترقّب مرض

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۵۹

السلطان إذا عاوده ألم رجله، و أنه استخدم جماعة من أعداء السلطان، و أنّ حركاته كلّها تدل على الوثوب، فعند ذلك تحرّك ما عند السلطان من الكوامن و قبض عليه، و ولى مكانه نائب دمشق الأمير تنبك العلائى ميق الأمير آخور الكبير بعد تمنّع كبير من تنبك إلى أن أذعن و لبس التّشريف، فطلب السلطان الأمير قجقار القردمى نائب حلب- كان- و هو بطّال بدمشق، و أنعم عليه بإقطاع الأمير

تنبک میق المذکور، ثم أفرج السلطان عن الأمیر ألطنبغا العثمانی نائب الشّام- کان- و رسم له بالتوجه إلی القدس بطّالا، و أقام السلطان بدمشق إلی یوم الاثنین رابع عشر شهر رمضان من سنهٔ عشرین و ثمانمائهٔ فخرج من دمشق یرید الدّیار المصریهٔ، و نزل بقبّهٔ یلبغا، ثم سار من قبّهٔ یلبغا و أعاد الأمیر تنبک میق إلی محل کفالته بدمشق [و سار] إلی أن قدم القدس فی بکرهٔ یوم الجمعهٔ خامس عشرینه فزاره و فرّق به أموالا جزیلهٔ و صلی الجمعهٔ، و جلس بالمسجد الأقصی و قریء صحیح البخاری من ربعهٔ فرّقت بین یدیه علی الفقهاء القادمین إلی لقائه من القاهرهٔ، و من کان بالقدس من أهله، ثم قام المدّاح بعد فراغهم، و خلع السلطان علیهم، فکان یوما مشهودا.

ثم سار السلطان من الغد إلی الخلیل- علیه السلام- فزاره و تصدق فیه أیضا بجملهٔ، و خرج منه و سار یرید غزّهٔ، فلقیه أستاداره فخر الدین عبد الغنی بن أبی الفرج فی قریهٔ السّکریهٔ، و قبّل الأرض بین یدیه، و ناوله قائمهٔ فیها ما أعده له من الخیول و الأموال و غیرها، فسّر السلطان بذلک علی ما سنذکره فیما بعد.

و سار حتی نزل مدینهٔ غزّهٔ فی یوم الاثنین ثامن عشرین شهر رمضان، و أقام بها

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۶۰

إلی أن خرج منها فی آخر یوم السبت أول شوال بعد ما صلی صلاهٔ العید علی المصطبهٔ المستجدهٔ ظاهر غزّهٔ، و صلی به و خطب شیخ الإسلام قاضی القضاهٔ جلال الدین عبد الرحمن البلقینی.

و سار السلطان حتی نزل بخانقاه سریاقوس فی یوم الجمعهٔ تاسع شوال، فأقام بالخانقاه المذکورهٔ من یوم الجمعهٔ إلی یوم الأربعاء رابع عشره، و رکب منها بعد أن عمل بها أوقاتا طیّبه و دخل حمّامها غیر مرهٔ، و سار حتی نزل خارج القاهرهٔ عند مسجد التّبن، و بات هناک، ثم رکب من الغد فی یوم الخمیس خامس عشر شوال من الریدانیهٔ بأبههٔ السلطنهٔ و شعار الملک، و عساکره و أمراؤه بین یدیه، و دخل القاهرهٔ من باب النصر و ولده المقام الصارمی إبراهیم یحمل القبهٔ و الطیر علی رأسه، و ترجّل الممالیک من داخل باب النّصر و مشوا بین یدیه، و سارت الأمراء علی بعد رکّابا و علیهم و علی القضاهٔ و الخلیفهٔ التشاریف، و کذلک سائر أرباب الدّولهٔ، و مرّ السلطان علی ذلک إلی أن نزل بجامعه الذی أنشأه بالقرب من باب زویله، و قد زیّنت القاهرهٔ لقدومه، و أشعلت حوانیتها الشّموع و القنادیل، و قعدت المغانی صفوفا علی الدکاکین تدق بالدفوف، و لما نزل بالجامع المذکور مدّله الأستادار سماطا عظیما به، فأکل السلطان هو و عساکره، ثم رکب من باب المؤیدیهٔ، و خرج من باب زویلهٔ بتلک الهیئهٔ المذکورهٔ، و سار إلی أن طلع إلی قلعهٔ الجبل من باب السّرّ راکبا بشعار الملک حتی دخل من باب السّتارهٔ و هو علی فرسه إلی قاعهٔ العوامید من الدور السّلطانیهٔ، فنزل عن فرسه بحافهٔ

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۶۱

الإیوان، و قد تلقاه حرمه بالتهانی و الزّعفران، فکان لقدومه یوما مشهودا لم یسمع بمثله إلا نادرا.

ثم فی یوم الاثنین تاسع عشر شوال خلع السلطان علی الأمیر قجقار القردمیّ المعزول عن نیابهٔ حلب باستقراره أمیر سلاح علی عادته قبل نیابهٔ حلب، و خلع علی الأمیر طوغان أمیر آخور باستقراره أمیر آخور کبیرا عوضا عن تنبک میق بحکم تولیته نیابهٔ دمشق، و خلع علی الأمیر ألطنبغا المرقبیّ المعزول عن نیابهٔ قلعهٔ حلب باستقراره حاجب الحجّاب بالدیار المصریهٔ عوضا عن سودون قراسقل بحکم استقرار سودون المذکور فی حجوبیّهٔ طرابلس، و خلع علی فخر الدین بن أبی الفرج خلعهٔ الاستمرار علی وظیفهٔ الأستاداریهٔ.

ثم فی یوم الثلاثاء عشرینه خرج محمل الحاج إلی الرّیدانیهٔ خارج القاهرهٔ و أمیر حاج المحمل الأمیر یشبک الجکمیّ المقدّم ذکره.

ثم فی یوم الخمیس ثانی عشرینه رکب السلطان و نزل من القلعهٔ بأمرائه و خاصّکیّته و سرح إلی برّ الجیزهٔ لصید الکراکی و غیرها، و عاد فی آخره من باب القنطرهٔ و مرّ من بین السّورین، و نزل فی بیت فخر الدین بن أبی الفرج الأستادار فقدّم له فخر الدین المذکور عشرهٔ آلاف دینار، ثم رکب السلطان من بیت فخر الدین و سار حتی شاهد المیضأهٔ التی بنیت للجامع المؤیدی، ثم صعد إلی القلعهٔ،

ثم ركب من الغد و سرح أيضا و عاد فى يوم الأحد خامس عشرينه.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۴، ص: ۶٢

و فى يوم الاثنين سادس عشرينه خلع على أرغون شاه النّوروزىّ الأعور باستقراره وزيرا عوضا عن فخر الدين بن أبى الفرج، و خلع على فخر الدين المذكور خلعة الاستمرار على وظيفة الأستادارية فقط، و أن يكون مشير الدّولة.

و أما هدية فخر الدين بن أبى الفرج المذكور التى وعدنا بذكرها عندما قدم السلطان إلى الديار المصرية بلغت أربعمائة ألف دينار عينا، و ثمانية عشر ألف أردب غلّة و ما وفّره من ديوان المفرد ثمانين ألف دينار، و ما جباه من النواحى- قبليا و بحريا- مائتى ألف دينار، و من إقطاعه ثلاثين ألف دينار، و ذلك سوى مائتى ألف دينار حملها إلى السلطان و هو بالبلاد الشّاميّة.

و لما كان يوم الأربعاء سادس ذى القعدة قدم على السلطان الخبر من الأمير تنبك العلائى ميق نائب الشام بأنه فى ليلة السبت رابع عشرين شوّال خرج الأمير آقباى نائب الشام- كان- من سجنه بقلعة دمشق و أفرج عمن كان بها من المسجونين، و هجم بهم آقباى على نائب قلعة دمشق فهرب نائب القلعة، و نزل إلى المدينة، و خرج آقباى فى أثره إلى باب الجديد بمن معه فسمع الأمير تنبك الضّجّة فركب بمماليكه، و أدرك نائب القلعة، و ركبت عساكر دمشق فى الحال، فأغلق آقباى باب قلعة دمشق، و امتنع بها بمن معه، و أن تنبك مقيم على حصار القلعة، فتشوّش السلطان لذلك، و كتب إلى تنبك المذكور بالجدّ فى أخذه، فقدم من الغد أيضا كتاب الأمير تنبك ميق بأن آقباى استمرّ بالقلعة إلى ليلة الاثنين سادس عشرين شوّال، ثم نزل منها بقرب باب الجديد و مشى فى نهر بردى إلى طاحون بباب الفرج فاختفى به، فقبض عليه هناك و على طائفة معه، و تسحّب طائفة، فكتب جواب تنبك بأن يعاقب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۴، ص: ۶٣

آقباى حتى يقرّ على الأموال ثم يقتل، و رسم بأن يستقرّ الأمير شاهين مقدّم التركمان و الحاجب الثانى بدمشق فى نيابة قلعة دمشق و يستقرّ عوضه حاجبا ثانيا كمشبغا طولو، و فى تقدمة التركمان الأمير شعبان بن اليغمورى أستادار السلطان بدمشق.

ثم فى يوم الجمعة ثامن ذى القعدة خرج المقام الصارمىّ إبراهيم بن السلطان فى عدة من الأمراء إلى الوجه القبلى لأخذ تقادم العربان و ولاة الأعمال.

و فى يوم الاثنين حادى عشر ذى القعدة عدّى السلطان النيل إلى البرّ الغربى، و سرح إلى الطّرّانة بالبحيرة، و عاد فى يوم الاثنين حادى عشر منه بعد أن وصل إلى العطايا و لم يعدّ النيل بل نزل بالقصر الذى أنشأه القاضى ناصر الدين بن البارزى كاتب السرّ ببرّ منبابة تجاه بولاق، و كان قد شرع فى أساسه قبل سرحه السلطان، ففرغ منه بعد أربعة أيام، و استمرّ به السلطان ثلاثة أيام، ثم ركب البحر و تصيّد بناحية سرياقوس و ركب و عاد إلى القلعة.

ثم فى سادس عشر ذى الحجة ركب السلطان من القلعة و نزل بالجامع المؤيدى و معه خواصّه لا غير، ثم توجّه منه إلى بيت ناصر الدين بن البارزى كاتب السرّ بسويقة المسعودى، فقدّم له كاتب السرّ تقدمة فأخذها، ثم ركب إلى القلعة.

ثم فى يوم السبت عشرين ذى الحجة قدم الصارمى إبراهيم من سفره بعد أن وصل إلى جرجا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۴، ص: ۶۴

[ما وقع من الحوادث سنة ٨٢١]

ثم فى سادس عشر المحرم من سنة إحدى و عشرين و ثمانمائة ورد الخبر على السلطان من الحجاز بأن الأمير يشبك الجكمى الدّوادار الثانى أمير حاج المحمل لمّا قدم المدينة النبوية بعد انقضاء الحج أظهر أنه يسير إلى الركب العراقى يبتاع منه جمالا، و مضى فى نفر يسير و تسحّب صحبة الركب العراقى خوفا أن يصيبه من السلطان ما أصاب الأمير آقباى نائب الشام، و كان يشبك المذكور صديقا لآقباى، و أشيع أنه كان اتّفق معه فى الباطن فى الوثوب على السلطان، و سار يشبك المذكور حتى دخل العراق، و قدم على

الأمير قرا يوسف فأكرمه قرا يوسف و أجرى عليه الرّواتب، و دام عنده إلى أن مات قرا يوسف، ثم مات الملك المؤيد، و قدم على الأمير ططر بدمشق فولّاه الأمير آخوريّة الكبرى حسبما يأتى ذكر ذلك كله فى محله.

و فى ليلة الخميس رابع عشرين المحرم كان الوقيد ببرّ منبابة بين يدى السلطان بعد أن عاد السلطان من و سيم حيث مربط خيوله على الربيع، و نزل بالقصر المذكور بحرى منبابة.

و ألزم السلطان الأمراء بحمل الزّيت و النّفط، فجمع من ذلك شيء كثير، و أخذ من قشر البيض و قشر النارنج و من المسارج الفخار و جعل فيها الفتايل و الزّيت، ثم أرسلت فى النيل بعد غروب الشمس بنحو ساعة، و أطلقت النّفوط و قد امتلأ البرّان بالخلائق للفرجة على ذلك، فكان لهذا الوقيد منظر بهج، و انحدر فى النيل إلى أن فرغ زيت بعضها و أطفأ الهوى البعض.

ثم فى يوم السبت سادس عشرين المحرّم أمسك السلطان الأمير بيبغا المظفّرى الظاهرى أمير مجلس، و حمل مقيّدا إلى الإسكندرية، ثم نودى بالقاهرة و ظواهرها أن كل غريب يخرج من القاهرة و يعود إلى وطنه.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۶۵

ثم فى يوم السبت رابع صفر وسّط السلطان قرقماس الذى كان متولى كختا، و وسّط معه أيضا خمسة عشر رجلا من أصحابه خارج باب النصر، و كانوا فيمن أحضرهم السلطان معه من البلاد الشامية- لما قدم من السّفر- فى الحديد.

ثم فى سادس صفر المذكور ركب السلطان متخفّفا و معه ولده الصّارمى إبراهيم فى نفر يسير و نزل بجامعه عند باب زويلة، ثم توجّه منه إلى بيت فخر الدين بن أبى الفرج الأستادار فأكل عنده السّماط، ثم قدّم له فخر الدين خمسة آلاف دينار، ثم ركب من بيت فخر الدين المذكور و توجه إلى بيت الصاحب بدر الدين حسن بن نصر اللّه ناظر الخاص و نزل عنده، فقدّم له ثلاثة آلاف دينار، و عرض عليه خزانة الخاصّ، فأنعم منها السلطان على ولده إبراهيم و على من معه من الأمراء بعدّة ثياب حرير و فرو سمّور، ثم ركب السلطان و عاد إلى القلعة.

ثم فى ثانى عشرينة ركب السلطان و نزل من القلعة لعيادة الأمير الكبير ألطنبغا القرمشيّ من وعك كان حصل له، ثم ركب من عنده و توجّه إلى بيت الأمير جقمق الدّوادار، فنزل عنده و أقام يومه كله، و عاد من آخر النهار إلى القلعة على حالة غير مرضية من شدّة السّكر.

ثم فى ثامن عشرين شهر ربيع الأول قدم الأمير بردبك الخليلى نائب طرابلس إلى القاهرة بطلب لشكوى أهل طرابلس عليه لسوء سيرته.

و عاود السلطان ألم رجله، و انقطع عن الخدمة و لزم الفراش، و قبض على الأمير الوزير أرغون شاه النّوروزيّ الأعور، و على الأمير آقبغا شيطان و الى القاهرة و سلّمها إلى فخر الدين بن أبى الفرج ليصادرهما، ثم خلع السلطان على الأمير بردبك نائب طرابلس باستقراره فى نيابة صفد، و استقر عوضه فى نيابة طرابلس الأمير

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۶۶

برسباى الدّقماقّى أحد أمراء الألوف بالديار المصرية بعد أن طلب من الغربية، و كان توجّه برسباى لعمل جسورها كاشف الوجه الغربى، و برسباى هذا هو الملك الأشرف الآتى ذكره فى محله، ثم خلع السلطان على الوزير أرغون شاه باستقراره أمير التّركمان بثلاثين ألف دينار، و نقل الأمير سنقر نائب المرقب إلى نيابة قلعة دمشق عوضا عن شاهين، و استقر ألطنبغا الجاموس فى نيابة المرقب، و استقر سودون الأسندمرى الأمير آخور الثانى- كان- فى دولة الملك الناصر فرج فى أتابكيّة طرابلس، و كان الملك المؤيد أفرج عنه من سجن الإسكندرية قبل ذلك بمدة يسيرة، و أنعم السلطان بإقطاع الأمير برسباى الدّقماقى المنتقل إلى نيابة طرابلس على [الأمير] فخر الدين [بن أبى الفرج] الأستادار، و بإقطاع فخر الدين على بدر الدين بن محبّ الدين، و قد استقرّ وزيرا عوضا عن أرغون شاه.

ثم فى أول جمادى الأولى تحرك عزم السلطان إلى سفر الحجاز، و كتب إلى أمراء الحجاز بذلك، و عرض السلطان المماليك و عيّن عدة منهم للسّفر معه إلى الحجاز، و أخرج الهجن و جهّز الغلال فى البحر، ثم رسم السلطان باستقرار شاهين الزّردكاش حاجب حجّاب دمشق فى نيابة حماة عوضا عن الأمير نكباى، و أن يستقرّ نكباى فى حجوبيّة دمشق.

ثم فى ثامن جمادى الأولى عزل السلطان جلال الدين البلقينى عن القضاء، و خلع على شمس الدين محمد الهروى باستقراره قاضى قضاة الشافعيّة بالديار المصرية عوضا عن البلقينى.

ثم فى ثامن عشر شهر رجب خلع السلطان على الأمير قرامراد خجا أحد مقدمى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۶۷

الألاف بالديار المصرية باستقراره فى نيابة صفد، و أنعم بإقطاعه على الأمير جلبّان رأس نوبة ابن السلطان.

ثم فى يوم الاثنين خامس عشرين رجب المذكور ركب السلطان من قلعة الجبل إلى ظاهر القاهرة و عبر من باب النّصر و مرّ فى شوارع المدينة إلى القلعة و بين يديه الهجن التى عيّنت للسّفر معه إلى الحجاز و عليها الأكواز الذهب و الفضة و الكنابيش الزّركش، فكان يوما عظيما، فتحقّق كلّ أحد سفر السلطان إلى الحج، و سار السلطان حتى طلع إلى القلعة، فما هو أن استقرّ به الجلوس إلا و وصل الأمير بردبك الحمزاوىّ أحد أمراء الألوف بحلب و معه نائب كختا الأمير منكلى بغا بكتاب نائب حلب و كتاب الأمير عثمان بن طر على المدعو قرايلك بأن قرايلك صاحب العراق قصده ليكبس عليه، و قبل أن يركب قرايلك هجمت عليه فرقة من عسكر قرا يوسف فركب و سار منهزما إلى أن وصل إلى مرج دابق، ثم دخل حلب فى نحو ألف فارس بإذن الأمير يشبك اليوسفىّ نائب حلب له، فجفل من كان خارج مدينة حلب بأجمعهم، و اضطرب من بداخل سور حلب و ألقوا أنفسهم من السّور، و رحل أجناد الحلقة و مماليك النائب المستخدمين بحريمهم و أولادهم حتى ركب نائب حلب و سكّن روع الناس، و عرّفهم أن قرايلك لم يقدم إلى حلب إلا بإذنه، و أنه مستجير بالسلطان.

و بينما هو فى ذلك رحل قرايلك من ليلته و عاد إلى جهة الشرق خوفا من يشبك نائب حلب أن يقبض عليه.

فلما بلغ السلطان قرب قرا يوسف من بلاده انثنى عزمه عن السفر للحجاز فى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۶۸

هذه السنة، و كتب فى الحال إلى العساكر الشاميّة بالمسير إلى حلب و الأخذ فى تهيئة الإقامات السلطانية.

و أصبح السلطان فى يوم الثلاثاء سادس عشرين شعبان جمع القضاة و الخليفة و طلب شيخ الإسلام جلال الدين البلقينى، و قصّ عليهم خبر قرا يوسف و ما حصل لأهل حلب من الخوف و الفزع و جفلتهم هم و أهل حماة، و أن الحمار بلغ ثمنه عندهم خمسمائة درهم فضّة، و الإكديش إلى خمسين دينارا، و أن قرا يوسف فى عصمته أربعون امرأة، و أنه لا يدين بدين الإسلام، و كتبت صورة فتوى فى المجلس فيها كثير من قبائحه، و أنه قد هجم على ثغور المسلمين، و نحو هذا من الكلام، فكتب البلقينى و القضاة بجواز قتاله، و كتب الخليفة خطّه بها أيضا و انصرفوا و معهم الأمير مقبل الدّوادار، فنادوا فى الناس بالقاهرة بين يدى الخليفة و القضاة بأن قرا يوسف يستحلّ الدماء و يسبى الحريم، فعليكم بجهاده كلكم بأموالكم و أنفسكم، فدهى الناس عند سماعهم ذلك و اشتد قلقهم.

ثم كتب إلى ممالك الشام أن ينادى بمثل ذلك فى كل مدينة، و أنّ السلطان و اصل إليهم بنفسه.

ثم فى يوم الأربعاء سابع عشرين شعبان المذكور نودى بالقاهرة فى أجناد الحلقة بتجهيز أمرهم بالسّفر إلى الشام، و من تأخّر منهم حلّ به كذا و كذا من الوعيد.

ثم فى أوّل شهر رمضان قدم الخبر من حلب برحيل قرايلك منها كما تقدّم

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۶۹

ذكره، و أن يشبك نائب حلب مقيم بالميدان و عنده نحو مائة و أربعين فارسا، و قد خلت حلب من أهلها إلا من التجأ لقلعتها، و أن

يشبك بينما هو فى الميدان جاءه الخبر أن عسكر قرا يوسف قد أدركه فركب قبيل الفجر من الميدان و إذا بمقدّمتهم على وطاة بابلّة فواقعهم يشبك بمن معه حتى هزمهم و قتل و أسر جماعة، فأخبروه أنهم جاءوا للكشف لخبر قرايلك، و أن قرا يوسف بعين تاب، فعاد يشبك و توجّه إلى سرمين، فلمّا بلغ قرا يوسف هزيمة عسكره كتب إلى يشبك نائب حلب يعتذر عن نزوله بعين تاب، و أنّه ما قصد إلا ـ قرايلك، فبعث إليه يشبك صاروخان مهمندار حلب، فلقيه على جانب الفرات و قد جازت عساكره الفرات، و هو على نيّة الجواز، فأكرمه قرا يوسف و اعتذر إليه ثانيا عن وصوله إلى عين تاب، و حلف له أنه لم يقصد دخول الشّام، و أعاده بهدية للنائب، فهدأ ما بالناس بحلب، و سرّ السلطان أيضا بهذا الخبر.

و كان سبب حركة قرا يوسف أن قرا يلك المذكور فى أوائل شعبان هذا نزل على مدينة ماردين - و هى داخلة فى حكم قرا يوسف- فأوقع بأهلها و أسرف فى قتلهم و سبى أولادهم و نسائهم، و باع الأولاد كلّ صغير بدرهمين، و حرق المدينة و نهبها، ثم رجع إلى آمد، فلما بلغ قرا يوسف الخبر غضب من ذلك و سار و معه الأمراء الذين تسحّبوا من واقعة قانى باى مثل الأمير سودون من عبد الرحمن، و طرباى، و تنبك البجاسيّ، و يشبك الجكمى و غيرهم، يريدون أخذ الثأر من قرايلك حتى نزل آمد ثم رحل عنها يريد قرايلك، فسار قرايلك إلى جهة البلاد الحلبيّة، فسار خلفه قرا يوسف حتى قطع الفرات و وقع ما حكيناه.

ثم فى خامس شهر رمضان المذكور نودى فى أجناد الحلقة بالعرض على السلطان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۷۰

فعرضوا عليه فى يوم الجمعة سادسه، و ابتدأ بعرض من هو فى خدمة الأمراء، فخيّرهم بين الاستمرار فى جملة أجناد الحلقة و ترك خدمة الأمراء أو الإقامة فى خدمة الأمراء و ترك أخباز الحلقة، فاختار بعضهم خدمة الأمراء و ترك خبزه الذى بالحلقة، و اختار بعضهم ضدّ ذلك، فأخرج السلطان إقطاع من اختار خدمة الأمراء، و صرف من خدمة الأمراء من أراد الإقامة على إقطاعه بالحلقة، و شكا إليه بعضهم قلّة متحصّل إقطاعه فزاده، و عدّ هذا من جودة تدبير الملك المؤيّد و سيره على القاعدة القديمة؛ فإن العادة كانت فى هذه الدّولة التركيّة أن يكون عسكر مصر على ثلاثة أقسام:

قسم يقال لهم أجناد الحلقة، و موضوعهم أن يكونوا فى خدمة السلطان، و لكل منهم إقطاع فى أعمال مصر، و كل ألف منهم مضافة إلى أمير مائة و مقدّم ألف، و لهذا المعنى سمّى الأمير بمصر أمير مائة، أعنى صاحب مائة مملوك فى خدمته و مقدم ألف من هؤلاء أجناد الحلقة، و يضاف أيضا لكل مقدّم ألف أمير طبلخاناه و أمير عشرين و أمير عشرة و مقدّم الحلقة، فإذا عيّن السلطان أميرا إلى جهة من الجهات نزل ذلك الأمير فى الوقت و تهيّأ بعد أن أعلم مضافيه، فيخرج الجميع فى الحال- انتهى.

و كان نظير هؤلاء أيام الخلفاء أهل العطاء و أهل الدّيوان.

و القسم الثانى [يقال لهم] مماليك السلطان، و لهم جوامك و رواتب مقرّرة على ديوان السلطان فى كل شهر و كسوة فى السنة.

و القسم الثالث يقال لهم مماليك الأمراء يخدمون الأمراء، و كل من هؤلاء لا يدخل مع آخر فيما هو فيه، فلذلك كانت عدّة عساكر مصر أضعاف ما هى الآن، و هؤلاء غير

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۷۱

الأمراء، ثم تغيّر ذلك كلّه فى أيام الملك الظاهر برقوق لمّا وثب على الملك، فصارت الأمراء يشترون إقطاعات الحلقة أو يأخذونها من السلطان باسم مماليكهم أو طواشيتهم ثم لا ـ يكفهم ذلك حتى ينزلونهم أيضا فى بيت السلطان بجامكيّة، فيصير الواحد من مماليك الأمراء جندىّ حلقة و مملوك سلطان و فى خدمة أمير، فيصير رزق ثلاثة أنفس إلى رجل واحد، فكثر متحصّل قوم و قلّ متحصّل آخرين، فضعف عسكر مصر لذلك، فعلى هذا الحساب يكون العسكر الآن بثلث ما كان أوّلا ـ هذا غير ما خرج من الإقطاعات فى وجه الرّزق و الأملاك و غير ذلك، و هو شيء كثير جدا يخرج عن الحدّ، فمن تأمّل ما ذكرناه علم ما كان عدّة عسكر مصر أوّلا، و ما عدته الآن.

هذا مع ما خرّب من النواحى من كثرة المغارم و الظّلم المترادف، و قلّة نظر الحكّام فى أحوال البلاد، و لو لا ذلك لكان عسكر مصر لا يقاومه عدوّ و لا يدانيه عسكر- انتهى.

ثم فى سابع شهر رمضان هذا أفرج السلطان عن الأمير كمشبغا الفيسىّ أمير آخور- كان- فى الدولة الناصرية، و عن الأمير قصروه من تمراز و كانا بسجن الإسكندرية، و عن الأمير كزل العجمى الأجرود حاجب الحجاب- كان- فى الدولة الناصرية من حبس صفد، و عن الأمير شاهين نائب الكرك، و كان بقلعة دمشق.

ثم فى تاسعه ورد الخبر من حلب بأن قرا يوسف أحرق أسواق عين تاب و نهبها فصالحه أهلها على مائة ألف درهم و أربعين فرسا، فرحل عنها بعد أربعة أيام إلى جهة ألبيرة، و عدّى معظم جيشه إلى البرّ الشرقى فى يوم الاثنين سابع عشر شعبان، و عدّى قرا يوسف من الغد و نزل ببساتين ألبيرة و حصرها، فقاتله أهلها يومين و قتلوا منه جماعة فدخل البلد و نهبها و أحرق أسواقها، و قد امتنع الناس منها و معهم حريمهم بالقلعة، ثم رحل فى تاسع عشر شعبان إلى بلاده بعد ما أحرق و نهب جميع نواحى ألبيرة و معاملتها.

و لما بلغ السلطان رجوع قرا يوسف إلى بلاده فرح بذلك و سكت عن السّفر إلى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۷۲

البلاد الشاميّة، و بينما السلطان فى ذلك قدم عليه الخبر أن ابن قرمان مشى على طرسوس و حارب أهلها فقتل من الفريقين خلق كثير، و دام القتال بينهم إلى أن رحل عنها فى سابع شعبان من ألم اشتدّ بباطنه، فجلس السلطان فى ثالث عشر شهر رمضان لعرض أجناد الحلقة، فعرض عليه منهم زيادة على أربعمائة نفس ما بين كبير و صغير و سعيد و فقير، فمن كان إقطاعه قليل المتحصّل أشرك معه غيره، و مثال ذلك أن جنديّا يكون متحصل إقطاعه فى السنة سبعة آلاف درهم فلوسا و آخر متحصله ثلاثة آلاف، فألزم الذى إقطاعه يعمل ثلاثة آلاف أن يعطى الذى إقطاعه يعمل سبعة آلاف مبلغ ثلاثة آلاف ليسافر صاحب السبعة آلاف، و يقيم صاحب الثلاثة آلاف، فهذا نوع.

ثم أفرد السلطان جماعة ممّن متحصل إقطاعاتهم قليلة، و جعل كل أربعة منهم مقام رجل واحد يختارون منهم واحدا يسافر و يقوم الثلاثة الأخر بكلفه.

و رسم السلطان أنّ المال المجتمع من أجناد الحلقة يكون تحت يد قاضى القضاة شمس الدين الهروىّ الشافعى، و استمر العرض بعد ذلك فى كل يوم سبت و ثلاثاء إلى ما يأتى ذكره إن شاء اللّه تعالى.

و فى الغد و هو يوم رابع عشر شهر رمضان ورد الخبر على السلطان من طرابلس بنزول التّركمان الإيناليّة و الأوشريّة على صافيتا من عمل طرابلس جافلين من قرا يوسف، و أنهم نهبوا بلادها و أحرقوا منها جانبا، و أن الأمير برسباى الدّقماقى نائب طرابلس رجّعهم عن ذلك فلم يرجعوا و أمرهم بالعود إلى بلادهم بعد رجوع قرا يوسف فأجابوا بالسّمع و الطّاعة، و قبل رحيلهم ركب عليهم الأمير برسباى الدّقماقى المذكور بعسكر طرابلس و قاتلهم فى يوم الثلاثاء سادس عشرين شعبان، فقتل بين

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۷۳

الطائفتين خلق كثير منهم الأمير سودون الأسندمرىّ أتابك طرابلس و ثلاثة عشرة نفسا من عسكر طرابلس، ثم انهزم الأمير برسباى المذكور بمن بقى معه من عسكر طرابلس عراة على أقبح وجه إلى طرابلس و حصل عليهم من الخوف مالا مزيد عليه.

فلما بلغ الملك المؤيد هذا الخبر غضب غضبا شديدا و رسم فى الحال بعزل برسباى المذكور عن نيابة طرابلس و اعتقاله بقلعة المرقب، و كتب بإحضار الأمير سودون القاضى نائب الوجه القبلى من أعمال مصر ليستقرّ فى نيابة طرابلس عوضا عن برسباى هذا، و برسباى المذكور هو الملك الأشرف الآتى ذكره فى محله، و خلع على الملطىّ و استقرّ فى نيابة الوجه القبلى عوضا عن سودون القاضى، و قدم سودون القاضى من الوجه القبلى فى يوم الاثنين ثامن شوال و قبّل الأرض بين يدى السلطان و هو بمخيّمه بسرحة سرياقوس، و بعد عوده من سرحة سرياقوس و غيرها خلع على سودون القاضى بنيابة طرابلس فى خامس عشر شوال، و خلع على الأمير

كمشبغا الفيسى أحد الأمراء البطّالين بالقاهرة باستقراره أتابك طرابلس بعد قتل سودون الأسندمرىّ.

ثم ركب السلطان أيضا إلى الصّيد و عاد و قد عاوده ألم رجله و لزم الفراش.

و خلع فى سادس عشره على سيف الدين أبى بكر بن قطلوبك المعروف بابن المزوّق دوادار ابن أبى الفرج باستقراره أستادارا عوضا عن فخر الدين بن أبى الفرج بعد موته، و رسم السلطان بالحوطة على موجود ابن أبى الفرج و ضبطها، فاشتملت تركته على ثلاثمائة ألف دينار، و ثلاث مساطير بسبعين ألف دينار، و غلال و فرو و قماش بنحو مائة ألف دينار، و أخذ السلطان جميع ذلك.

ثم فى حادى عشرينه خرج محمل الحاج صحبة أمير الحاج الأمير جلبّان أمير آخور

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۷۴

ثان، و قد صار أمير مائة و مقدّم ألف، و رحل من البركة فى يوم رابع عشرينه.

ثم فى يوم الخميس ثالث ذى القعدة أمسك السلطان الوزير بدر الدين بن محبّ الدين الطرابلسى و سلّمه إلى الأمير أبى بكر الأستادار بعد إخراق السلطان به و مبالغته فى سبّه لسوء سيرته، و تتبّعت حواشيه.

و خلع السلطان على بدر الدين حسن بن نصر اللّه الفوّى ناظر الخاص باستقراره وزيرا مضافا إلى نظر الخاص، و أنعم عليه بإمرة مائة و تقدمة ألف. ثم كتب السلطان بالقبض على قرمش الأعور أتابك حلب و حبسه بقلعتها.

و فى خامس ذى القعدة ركب السلطان من قلعة الجبل فى محفّة من ألم رجله و نزل إلى السّرحة و عاد فى يومه. ثم فى عاشره ركب السلطان أيضا و نزل إلى بيت كاتب السرّ ناصر الدين بن البارزىّ ببولاق المطل على النيل، و عدّت العساكر إلى برّ الجيزة، و بات السلطان هناك ليلته، ثم ركب من الغد فى يوم الجمعة إلى سرحة بركة الحاج، و عاد من يومه و غالب عساكره بالجيزة.

ثم ركب من الغد فى النيل يريد سرحة البحيرة، و نزل بالبر الغربى، ثم سار إلى أن انتهى إلى مريوط فأقام بها أربعة أيام، و رسم بعمارة بستان السلطان بها، و كان تهدّم، ثم استأجر السلطان مريوط من مباشرى وقف الملك المظفر بيبرس الجاشنكير على الجامع الحاكمى، و رسم بعمارة سواقيه، و معاهد الملك الظاهر بيبرس البندقدارى به، و عاد و لم يدخل إلى الإسكندرية إلى أن نزل وردان فى يوم عيد الأضحى و صلّى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۷۵

به صلاة العيد، و خطب القاضى ناصر الدين بن البارزىّ كاتب السرّ، ثم ركب من الغد و سار حتى قدم برّ منبابة و عدّى النيل، و نزل فى بيت كاتب السرّ ببولاق، و أقام به إلى الغد و هو يوم الثلاثاء ثالث عشر ذى الحجة، و ركب و طلع إلى القامة، كل ذلك و ألم رجله يلازمه. و بعد طلوعه إلى القلعة رسم للأمراء بالتجهيز إلى سفر الشّام صحبة ولده المقام الصّارمى إبراهيم، كل ذلك و العرض لأجناد الحلقة مستمر، و عيّن منهم للسفر جماعة كبيرة، و ألزم من يقيم منهم بالمال.

ثم قدمت إلى الديار المصرية الخاتون أم إبراهيم بن رمضان التّركمانى من بلاد الشرق، و قبّلت الأرض بين يدى السلطان فرسم بتعويقها فعوّقت.

ثم تكرر من الملك المؤيد التوجّه إلى الصّيد فى هذا الشهر غير مرة.

و فى هذه السنة هدمت المئذنة المؤيدية، و غلق باب زويلة ثلاثين يوما، و عظم ذلك على السلطان إلى الغاية، و كانت المئذنة المذكورة عمّرت على أساس البرج الذى كان على باب زويلة، و عملت الشعراء فى ذلك أبياتا كثيرة، و كان القاضى بهاء الدين [محمد بن] البرجى محتسب القاهرة متولى نظر عمارة الجامع المذكور، فقال بعض الشعراء فى ذلك: - [الطويل]

عتبنا على ميل المنار زويلة و قلنا تركت الناس بالميل فى هرج

فقالت قرينى برج نحس أمالها فلا بارك الرحمن فى ذلك البرج

قلت صح للشاعر ما قصده من التّورية فى البرج الذى عمّرت عليه، و فى بهاء الدين البرجى.

و قال الحافظ شهاب الدين بن حجر و قصد بالتّورية بدر الدين العينى.

[الطويل]

لجامع مولانا المؤيد رونق منارته بالحسن تزهو و الزّين

تقول و قد مالت عن الوضع امهلوا فليس على حسنى أضر من العينى

فأجاب العينى: - [البسيط]

منارة كعروس الحسن قد جليت و هدمها بقضاء اللّه و القدر

قالوا أصيبت بعين قلت ذا خطأ ما أوجب الهدم إلا خسّة الحجر

قلت: ساعده قوله خسّة الحجر ما كان وقع بسبب هدم المنارة المذكورة فإنه كان بنى أساسها بحجر صغير، ثم عمّروا أعلاها بالحجر الكبير فأوجب ذلك ميلها و هدمها بعد فراغها.

و قال الشيخ تقى الدين أبو بكر بن حجة فى المعنى: - [الطويل]

على البرج من بابى زويلة أنشئت منارة بيت اللّه و المنهل المزجى

فأخنى بها البرج اللعين أمالها ألا صرّحوا يا قوم باللعن للبرجى

و قيل إن ذلك كان فى السنة الماضية- انتهى.

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۲۲]

و أخذ السلطان فى تجهيز ولده الصارمى إبراهيم إلى أن تهيّأ أمره، و أنفق على الأمراء المتوجّهين صحبته. فلما كان بكرة يوم الاثنين ثامن عشر المحرم من سنة اثنتين و عشرين و ثمانمائة ركب المقام الصارمى إبراهيم بن السلطان من قلعة الجبل فى أمراء الدولة، و معه عدة من أمراء الألوف المعينة صحبته إلى السفر، و نزل بمخيّمه من الرّيدانية خارج القاهرة. ثم خرجت أطلاب الأمراء المتوجّهة صحبته و هم: الأمير قجقار القردمى أمير سلاح، و الأمير ططر أمير مجلس، و جقمق الأرغون شاوى الدّوادار الكبير،

و إينال الأرغزى، و جلبّان أمير آخور، و أركماس الجلبّانى، و هؤلاء من أمراء الألوف، و ثلاثة من أمراء الطبلخانات، و خمسة عشر أميرا من العشرات، و مائتى مملوك من المماليك السلطانية، و أقام الصارمى إبراهيم بمخيّمه إلى أن ركب السلطان من قلعة الجبل و نزل إليه بالرّيدانية فى عشرينه و بات عنده بالرّيدانية، ثم ودعه من الغد و ركب إلى القلعة.

ثم رحل المقام الصارمى إبراهيم من الرّيدانية بمن معه من العساكر فى يوم الجمعة ثانى عشرينه و سار إلى البلاد الشامية.

ثمّ شرع السلطان فى بناء القبّة بالحوش السّلطانىّ من قلعة الجبل المعروفة الآن بالبحرة المطلّة على القرافة، و جاءت فى غاية الحسن.

و أما الصارمىّ إبراهيم فإنّه سار إلى أن وصل دمشق فى يوم الاثنين سادس عشر صفر بعد أن خرج إلى تلقّيه النواب و العساكر، و أقام بدمشق أيّاما و خرج منها يريد البلاد الحلبيّة إلى أن نزل على تلّ السلطان فى يوم الثلاثاء أوّل شهر ربيع الأوّل، فخرج إليه نائب حلب الأمير يشبك اليوسفى المؤيّدى بعساكر حلب، و تلقّاه و نزل بظاهر حلب.

ثم بدأ الطاعون بالدّيار المصريّة. هذا و العرض لأجناد الحلقة مستمر، فتارة يعرضهم السلطان و تارة الأمير مقبل الحسامى الدّوادار الثانى، و ناظر الجيش علم الدين داود بن الكويز.

ثمّ فى يوم الخميس سابع عشر ربيع الأوّل نزل السلطان من القلعة إلى جامعه بالقرب من باب زويلة و استدعى به قاضى القضاة جلال الدين عبد الرحمن البلقينى و خلع عليه خلعة القضاء بعد عزل القاضى شمس الدين الهروى، و نزل البلقينى بالخلعة من

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۷۸

باب الجامع الذى من تحت الربع، و شقّ القاهرة و كان له مشهد عظيم. هذا و الطّاعون قد فشا بالديار المصرية و تزايد بها و بأعمالها. فلما كان يوم الخميس ثامن شهر ربيع الآخر من سنة اثنتين و عشرين المذكورة نودى فى الناس من قبل المحتسب الشيخ صدر الدين بن العجمى أن يصوموا ثلاثة أيّام آخرها يوم الخميس خامس عشره ليخرجوا فى ذلك اليوم مع السلطان الملك المؤيّد إلى الصحراء فيدعو اللّه فى رفع الطاعون عنهم، ثم أعيد النداء فى ثانى عشره أن يصوموا من الغد، فتناقص عدد الأموات فيه، فأصبح كثير من الناس صياما، فصاموا يوم الثلاثاء و يوم الأربعاء و يوم الخميس. فلمّا كان يوم الخميس المذكور نودى فى الناس بالخروج إلى الصّحراء من الغد، و أن يخرج العلماء و الفقهاء و مشايخ الخوانق و صوفيّتها و عامّة الناس، و نزل الوزير بدر الدين حسن بن نصر اللّه، و التاج الشّوبكى أستادار الصحبة إلى تربة الملك الظاهر برقوق فنصبوا المطابخ بالحوش القبلى منها و أحضروا الأغنام و الأبقار، و باتوا هناك فى تهيئة الأطعمة و الأخباز، ثم ركب السلطان بعد صلاة الصبح و نزل من قلعة الجبل بغير أبّهة الملك بل عليه ملوطة صوف أبيض بغير شدّ فى وسطه، و على كتفيه مئزر صوف مستدل كهيئة الصّوفيّة، و على رأسه عمامة صغيرة و لها عذبة مرخاة من بين لحيته و كتفه الأيسر و هو بتخشّع و انكسار، و يكثر من التلاوة و التسبيح، و هو راكب فرسا بقماش ساذج ليس فيه ذهب و لا فضة و لا حرير.

هذا و قد أقبل الناس إلى الصحراء أفواجا، و سار شيخ الإسلام قاضى القضاة جلال

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۷۹

الدين عبد الرحمن البلقينى الشّافعى من منزله بحارة بهاء الدين ما شيا إلى الصحراء فى عالم كثير.

ثم سار غالب أعيان مصر إلى الصحراء ما بين راكب و ماش حتى وافوا السلطان بالصحراء قريبا من قبة النصر و معهم الأعلام و المصاحف، و لهم بذكر اللّه تعالى أصوات مرتفعة من التهليل و التكبير.

فلما وصل السلطان إلى مكان الجمع بالصحراء و نزل عن فرسه و قام على قدميه و عن يمينه و شماله الخليفة و القضاة و أهل العلم، و من بين يديه و خلفه طوائف من الصّوفيّه و مشايخ الزّوايا و غيرهم لا يحصيهم إلا اللّه تعالى، فبسط السلطان يديه و دعا اللّه سبحانه و تعالى و هو يبكى و ينتحب و الجمّ الغفير يراه و يؤمّن على دعائه، و طال قيامه فى الدّعاء و كلّ أحد يدعو اللّه تعالى و يتضرّع إلى أن أستتمّ الدّعاء، و ركب يريد الحوش الظاهرى حيث مدّ الطعام و الناس فى ركابه و بين يديه من غير أن يمنعهم من ذلك مانع، و سار حتى نزل بالحوش المذكور من التربة الظاهريّة، و قدّم له الأسمطة فأكل منها و أكل الناس معه.

ثم ذبح بيده قربانا- قرّبه إلى اللّه تعالى- نحو مائة و خمسين كبشا سمينا من أثمان خمسة دنانير الواحد.

ثم ذبح عشر بقرات سمان و جاموستين و جملين كل ذلك و هو يبكى و دموعه تنحدر على لحيته بحضرة الملأ من الناس.

ثم ترك القرابين على مضاجعها كما هى للناس و ركب إلى القلعة، فتولّى الوزير التاج تفرقتها صحاحا على أهل الجوامع المشهورة و الخوانق و قبّة الإمام الشافعى و الإمام

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۸۰

الليث بن سعد و المشهد النّفيسى و عدة أخر من الزّوايا حملت إليها صحاحا، و قطع منها عدّة بالحوش فرّقت لحما على الفقراء، و فرّق من الخبز النقى فى اليوم المذكور عدّه ثمانية و عشرين ألف رغيف و عدّة قدور كبار مملوءة بالطعام الكثير، و أخذ الطعام الكثير، و أخذ الطاعون من يومئذ فى النقص بالتدريج.

ثم قدم على السلطان الخبر فى ثانى عشرين شهر ربع الآخر برحيل المقام الصّارمى إبراهيم من مدينة حلب بعساكره و العساكر الشّاميّة، و أنه دخل إلى مدينة قيساريّة فحضر إليه أكابر البلد من القضاة و المشايخ و الصّوفيّة فتلقّوه فألبسهم الخلع، و طلع قلعتها يوم الجمعة، و خطب فى جوامعها للسلطان، و ضربت السّكة باسمه و أنّ شيخ جلبى نائب قيسارية تسحب منها قبل وصول العساكر إليها، و أن ابن

السلطان خلع على محمد بك بن قرمان و أقرّه فى نيابة السلطنة بقيسارية، فدقت البشائر بقلعة الجبل لذلك، و فرح السلطان بأخذ قيسارية فرحا عظيما فإن هذا شيء لم يتّفق لملك من ملوك التّرك بالديار المصرية سوى الملك الظاهر بيبرس، ثم انتقض الصلح بينه و بين أهلها حسبما ذكرناه فى ترجمته من هذا الكتاب- انتهى.

و لمّا استهل جمادى الأولى تناقص فيه الطّاعون حتى كان الذى ورد اسمه فى أوله من الأموات سبعة و سبعين نفرا.

قال الشيخ تقىّ الدين المقريزى: و كان عدّة من مات بالقاهرة و ورد اسمه الديوان- من العشرين من صفر و إلى سلخ شهر ربيع الآخر- سبعة آلاف و ستمائة و اثنين و خمسين نفسا: الرجال [ألف] و خمسة و ستون رجلا، و النساء ستمائة و تسع و ستون امرأة، و الصغار ثلاثة آلاف و تسعمائة و تسعة و ستون، و العبيد خمسمائة و أربعة و أربعون،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۸۱

و الإماء ألف و ثلاثمائة و تسع و ستون، و النصارى تسعة و ستون، و اليهود اثنان و ثلاثون، و ذلك سوى البيمارستان، و سوى ديوان مصر، و سوى من لا يرد اسمه الدّواوين، و لا يقصر ذلك عن تتمّة عشرة آلاف، و مات بقرى الشرقية و الغربية مثل ذلك.

قلت: و قول الشيخ تقى الدين «و لا يقصر ذلك عن تتمّة عشرة آلاف» فقد مات فى طاعون سنة ثلاث و ثلاثين و ثمانمائة فى يوم واحد بالقاهرة و ظواهرها نحو عشرة آلاف إنسان، و استمرّ ذلك أياما ما بين ثمانية آلاف و تسعة آلاف و عشرة آلاف حسبما يأتى ذكره إن شاء اللّه فى محله فى ترجمة الملك الأشرف برسباى الدّقماقى- انتهى.

و فى يوم الأحد ثانى جمادى الأولى المذكور ولد للسلطان الملك المؤيد ولده الملك المظفّر أحمد من زوجته خوند سعادات بنت الأمير صرغتمش.

ثم فى سابع جمادى الأولى استدعى السلطان بطرك النصارى و قد اجتمع القضاة و مشايخ العلم عند السلطان، فأوقف البطرك على قدميه و وبّخ و قرّع، و أنكر عليه السلطان ما بالمسلمين من الذّلّ فى بلاد الحبشة تحت حكم الحطّى متملكها، و هدّد بالقتل، فانتدب له الشيخ صدر الدين أحمد بن العجمى محتسب القاهرة فأسمعه المكروه من أجل تهاون النّصارى فيما أمروا به فى ملبسهم و هيئاتهم، و طال كلام العلماء مع السلطان فى ذلك إلى أن استقرّ الحال بأن لا يباشر أحد منهم فى ديوان السلطان و لا عند أحد من الأمراء، و لا يخرج أحد منهم عما ألزموا به من الصّغار، ثم طلب السلطان الأكرم فضائل النّصرانىّ كاتب الوزير- و كان قد سجن من أيام- فضربه السلطان بالمقارع و شهّره بالقاهرة عريانا بين يدى المحتسب و هو ينادى عليه: هذا جزاء من

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۸۲

يباشر من النصارى فى ديوان السلطان، ثم سجن أيضا بعد إشهاره، و صمّم السلطان فى ذلك حتى انكفّ النصارى عن المباشرة فى سائر دواوين الدّيار المصرية، و لزموا بيوتهم، و صغّروا عمائمهم و ضيّقوا أكمامهم، و التزم اليهود مثل ذلك، و امتنعوا جميعهم من ركوب الحمير، بحيث إنّ العامة صارت إذا رأوا نصرانيا على حمار ضربوه و أخذوا حماره و ما عليه، فصاروا لا يركبون الحمار إلا بخارج القاهرة، و بذل النصارى جهدهم فى السّعى إلى عودهم إلى المباشرة و أوعدوا بمال كبير، و ساعدتهم كتّاب الأقباط، فلم يلتفت السلطان إلى قولهم، و أبى إلا ما رسم به من المنع.

قلت: و لعلّ اللّه أن يسامح الملك المؤيّد بهذه الفعلة عن جميع ذنوبه، فإنها من أعظم الأمور فى نصرة الإسلام، و مباشرة هؤلاء النصارى فى دواوين الديار المصرية من أعظم المساوئ الذى نوّل منه التعظيم إلى دين النصرانية؛ لأن غالب الناس من المسلمين يحتاج إلى التّردّد إلى أبواب أرباب الدّولة لقضاء حوائجهم، فمهما كان لهم من الحوائج المتعلقة بديوان ذلك الرئيس فقد احتاجوا إلى التواضع و الترقق إلى من بيده أمر الديوان المذكور، نصرانيا كان أو يهوديا أو سامريا، و قد قيل فى الأمثال «صاحب الحاجة أعمى لا يريد إلا قضاءها» فمنهم من يقوم بين يدى ذلك النّصرانى على قدميه و النصرانى جالس ساعات كثيرة حتى يقضى حاجته بعد أن يدعو له و يتأدب معه تأدبا لا يفعله مع مشايخ العلم، و منهم من يقبّل كتفه و يمشى فى ركابه إلى بيته إلى أن تقضى حاجته، و أما

فلاحو القری فإنه ربما النّصرانیّ المباشر یضرب الرجل منهم و یهینه و یجعله فی الزّنجیر، و یزعم بذلک خلاص مال أستاذه، و لیس الأمر کذلک و إنما یقصد التحکّم فی المسلمین لا غیر، فهذا هو الذی یقع للأسیر من المسلمین فی بلاد الفرنج بعینه لا زیادة علی ذلک غیر أنه یملک رقّه.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۸۳

و قد حدثنی بعض الثقات من أهل صعید مصر قال: کان غالب مزارعی بلدنا أشرافا علویّة، و العامل بالبلد نصرانیا، فإذا قدم العامل إلی البلد خرجت الفلاحون لتلقیّه، فمنهم من یسلّم علیه السّلام المعتاد، و منهم من یفشی السلام علیه و یمعن فی ذلک، و منهم من یمشی فی رکابه إلی حیث ینزل من البلد، و منهم من یقبّل یده- و هو الفقیر المحتاج أو الخائف من صاحب البلد- و یسأله إصلاح شأنه فیما هو مقرّر علیه من وزن الخراج حتی یسمح له بذلک، فلما منع الملک المؤید هؤلاء النّصاری عن المباشرة بطل ذلک کلّه؛ فیکون الملک المؤید علی هذا الحکم فتح مصر فتحا ثانیا، و أعلی کلمة الإسلام و أخذل کلمة الکفر، و لا شیء عند اللّه أفضل من ذلک.

و لما لم یجب النصاری إلی عودهم إلی ما کانوا علیه من المباشرات بالدیار المصریة و أعیاهم أمر السلطان و ثباته، و انقطع عنهم ما ألفوه من التحکّم فی المسلمین- و یقال:

إنّ العادة طبع خامس- شقّ علیهم ذلک، فتتابع عدّة منهم فی إظهار دین الإسلام و تلفظوا بالشهادتین فی الظاهر و اللّه سبحانه و تعالی متولی السرائر.

قال المقریزی- بعد أن ذکر نوعا مما قلناه بغیر هذه العبارة- قال: فصاروا من رکوب الحمیر إلی رکوب الخیل و التعاظم علی أعیان أهل الإسلام و الانتقام منهم بإذلالهم و تعویق تعاملهم و رواتبهم حتی یخضعوا لهم و یتردّدوا إلی دورهم و یلحّوا فی السّؤال- فلا قوة إلا بالله- انتهی کلام المقریزی باختصار.

قلت: و یمکن إصلاح هذا الشّأن الثانی أیضا- إن صلح الراعی و نظر فی أحوال الرّعیّة و انتصر لدینه- بسهولة، هو أنه یکفّ من کان قریب عهد منهم من دین النصرانیّة عن المباشرة- انتهی.

ثم قدم الخبر علی السّلطان بتوجه ابن السلطان من مدینة قیساریّة إلی مدینة قونیّة فی خامس عشر شهر ربیع الآخر بعد ما مهّد أمور قیساریة و نقش اسم

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۸۴

السلطان علی بابها، و أن الأمیر تنبک میق نائب الشّام لمّا وصل إلی العمق حضر إلیه الأمیر حمزة بن رمضان بجماعة من التّرکمان و توجّه معه هو و ابن أوزر إلی قریب مصیصه و أخذ أدنة و طرسوس فسرّ السلطان بذلک سرورا عظیما.

ثم نادی محتسب القاهرة علی النّصاری و الیهود بتشدید ما أمرهم به من الملبس و العمائم و شدّد علیهم فی ذلک، فلما اشتدّ الأمر علیهم سعوا فی إبطال ذلک سعیا کبیرا فلم ینالوا غرضا.

ثم قدم الخبر علی السلطان بأن ابن السلطان وصل إلی نکدة فی ثامن عشر شهر ربیع الآخر فتلقّاه أهلها و قد عصت علیه قلعتها، فنزل علیها و حاصرها و رکب علیها المنجنیق، و عمل النّقّابون فیها، و أن محمد بن قرمان تسحّب من نکدة فی مائة و عشرین فارسا هو و ولده مصطفی.

کلّ ذلک و السلطان ملازم الفراش من ألم رجله، و الأسعار مرتفعة.

ثم فی ثانی عشر جمادی الآخرة ورد الخبر بأن ابن السلطان حاصر قلعة نکدة سبعة و عشرین یوما إلی أن أخذها عنوة فی رابع عشر جمادی الأولی، و قبض علی من کان فیها و قیّدهم، و هم مائة و ثلاثة عشر رجلا.

ثم توجّه فی سادس عشر جمادی الأولی إلی مدینة لارندة.

ثم فی سابع عشرین جمادی الأولی رکب السلطان من القلعة و أراد النّزول بدار ابن

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۸۵

البارزیّ علی النیل ببولاق فلم یطق رکوب الفرس و حرکته؛ لما به من ألم رجله، فرکب فی محفّة إلی البحر، و حمل منها إلی الدّار المذکورة و صارت الطبلخاناة تدقّ هناک، و تمدّ الأسمطة و تعمل الخدمة علی ما جرت به العادة بقلعة الجبل، و نزل الأمراء فی الدّور التی حول بیت [ابن] البارزیّ و غیرها، و استمرّ السلطان فی بولاق إلی أن استهلّ شهر رجب الفرد فی بیت ابن البارزیّ و هو یتنقّل منه- و هو محمول علی الأعناق- تارة إلی الحمّام التی بالحکر و تارة یوضع فی الحرّاقة و تسیر به علی ظهر النیل، فیسیر فیها إلی رباط الآثار.

ثم یحمل من الحرّاقة إلی [رباط] الآثار المذکور، ثم یعود إلی بیت ابن البارزیّ، و تارة یسیر فیها إلی القصر ببرّ الجیزة بحریّ ممبابة، و تارة یقیم بالحرّاقة و هو بوسط النیل نهاره کلّه.

و قدم علیه الخبر فی ثانی عشر شهر رجب المذکور أن ابن السلطان لما تسلّم نکدة استناب بها علی بک بن قرمان.

ثم توجّه بالعساکر إلی مدینة أرکلی فوصلها ثم رحل منها إلی مدینة لارندة فقدمها فی ثانی عشرین جمادی الآخرة، و بعث بالأمیر یشبک الیوسفیّ نائب حلب فأوقع بطائفة من الترکمان، و أخذ أغنامهم و جمالهم و خیولهم و موجودهم، و عاد فبعث الأمیر ططر و الأمیر سودون القاضی نائب طرابلس، و الأمیر شاهین الزّردکاش نائب حماة، و الأمیر مراد خجا نائب صفد، و الأمیر إینال الأرغزی، و الأمیر جلبّان رأس نوبة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۸۶

سیدی [المقام الصارمی إبراهیم] و جماعته من الترکمان، فکبسوا علی محمد بن قرمان بجبال لارندة فی لیلة الجمعة سادس جمادی الآخرة، ففرّ محمد بن قرمان منهم فأخذ جمیع ما کان فی وطاقه من خیل و جمال و أغنام و أثقال و قماش و أوانی فضة و بلّور، و عاد الأمراء بتلک الغنائم، فاقتضی عند ذلک رأی ابن السلطان و من معه الرجوع إلی حلب، فعادوا فی تاسع شهر رجب، فجّهز السلطان إلی ولده بحلب ستة آلاف دینار لیفرقها علی الأمراء، و رسم له بأن یقیم بحلب لعمارة سورها، و سار البرید بذلک.

ثم رکب السلطان فی رابع عشر شهر رجب من بیت ابن البارزیّ ببولاق بالحرّاقة إلی بیت التاجر نور الدین الخروبی ببرّ الجیزة تجاه المقیاس، و کان فی مدّة إقامته فی بیت ابن البارزیّ قد أحضر الحراریق من ساحل مصر إلی ساحل بولاق و زیّنت بأفخر زینة و أحسنها، و صار السلطان یرکب فی الحرّاقة الذّهبیّة و بقیة الحراریق سائرة معه مقلعة و منحدرة، و تلعب بین یدیه، کما کانت العادة فی تلک الأیام عند وفاء النیل، و دوران المحمل فی نصف شهر رجب.

و لما کان أیّام دوران المحمل علی العادة فی کل سنة رسم السلطان إلی معلّم الرّمّاحة أن یسوقوا المحمل بساحل بولاق، و کان ساحل بولاق یوم ذاک برّا وسیعا ینظر الجالس فی بیت ابن البارزیّ مدد عینه من جهة فم الخور،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۸۷

فتوجّه المعلّم بالرّمّاحة هناک فی یوم المحمل، و ساقوا بین یدیه کما یسوقون فی برکة الحبش أیّام أزمانهم و بالرّمیلة فی یوم المحمل، و تفرّجت الناس علی المحمل فی بولاق، و لم یقع مثل ذلک فی سالف الأعصار، فصار الشخص یجلس بطاقته فیتفرّج علی المحمل و علی البحر معا، فلمّا کان قریب الوفاء رکب فی الحرّاقة الذهبیّة و الحراریق بین یدیه بعد أن أقاموا بالزّینة أیّاما و الناس تتفرّج علیهم، و سار حتی نزل بالخرّوبیّة فأرست الحراریق المزینّة علی ساحل مصر بدار النّحاس، کما هی عادتها فی السنین الماضیة إلی أن کان یوم الوفاء و هو یوم سادس عشر رجب رکب السلطان من الخرّوبیّة فی الحرّاقة، و سار إلی المقیاس و معه الأمراء و أرباب الدّولة حتی خلّق المقیاس علی العادة.

ثم سار فی خلیج السّدّ حتی فتحه، و رکب فرسه فی عساکره و عاد إلی القلعة، فکانت غیبته عن القلعة فی نزهته ثلاثین یوما بعد ما

انقضى للناس بساحل بولاق فى تلك الأيام من الاجتماعات و الفرج أوقات طيّبة إلى الغاية لم يسمع بمثلها، و لم يكن فيها- بحمد اللّه- شيء مما ينكر كالخمور و غيرها، و ذلك لإعراض السلطان عنها من منذ لازمه وجع رجله.

ثم قدم الخبر على السّلطان بوصول ولده المقام الصارمى بعساكره إلى حلب فى ثالث شهر رجب، و أن الأمير تنبك العلائى ميق نائب الشام واقع مصطفى و أباه محمد ابن قرمان و إبراهيم بن رمضان على أدنة فانهزموا منه أقبح هزيمة.

ثم فى عشرين شعبان تزايد ألم السلطان و لم يحمل إلى القصر السلطانى، و لزم

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۸۸

الفراش، و اشتد به المرض، و خلع على التاج ابن سيفه باستقراره أمير حاج المحمل، ثم نصل السلطان من مرضه قليلا فركب فى يوم سابع عشرين شعبان من القلعة و نزل للفرجة على سباق الخيل، فسار بعساكره سحرا و وقف بهم تحت قبّة النّصر و قد أعدّ للسباق أربعين فرسا فأطلق أعنتها من بركة الحاج فأجريت منها حتى أتته ضحى النهار، فحصل له برؤيتها النّشاط، و رجع من موقفه إلى تربة الملك الظّاهر برقوق، و وقف قريبا منها دون الساعة، ثم بعث المماليك و الجنائب و الشطفة إلى القلعة و توجّه إلى خليج الزّعفران، فنزل بخاصته و أقام به إلى آخر النهار، و ركب إلى القلعة.

ثم فى سلخ شعبان ركب السلطان أيضا من قلعة الجبل إلى بركة الحبش و سابق بالهجن، ثم عاد إلى القلعة.

ثم فى يوم الخميس أوّل شهر رمضان قدم الخبر أن ابن السلطان رحل من حلب فى رابع عشرين شعبان، و أنّ محمد بن قرمان و ولده مصطفى و إبراهيم بن رمضان و صلوا إلى قيساريّة فى سادس عشرين شعبان و حصروا بها الأمير ناصر الدين محمد ابن دلغادر نائبها فقاتلهم حتى كسرهم و نهب ما كان معهم، و قتل مصطفى و حملت رأسه، و قبض على أبيه محمد بن قرمان- فسجن بها، ثم قدم رأس مصطفى ابن محمد بن على بك بن قرمان إلى القاهرة فى يوم الجمعة سادس عشر شهر رمضان، فطيف به بشوارع القاهرة على رمح ثم علّق على باب النّصر أحد أبواب القاهرة، و قدم

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۸۹

الخبر أيضا بمسير ابن السلطان من حلب و قدومه إلى دمشق فى خامس شهر رمضان، فأرسل السلطان الإقامات إلى ولده إلى أن كان يوم سابع عشرين شهر رمضان المذكور من سنة اثنتين و عشرين و ثمانمائة فركب السلطان من قلعة الجبل و نزل إلى لقاء ولده المقام الصّارمى إبراهيم و قد وصل إلى قطيا، فسار السلطان إلى بركة الحاج، و اصطاد بها، ثم ركب و مضى إلى جهة بلبيس فقدم عليه الخبر بنزول ابن السلطان الصالحيّة- فتقدّم الأمراء عند ذلك و أرباب الدّولة حتى وافوه بمنزلة الخطّارة، فلما عاينته الأمراء ترجّلوا عن خيولهم و سلّموا عليه واحدا بعد واحد حتى قدم عليه القاضى ناصر الدين بن البارزىّ كاتب السّرّ نزل له المقام الصّارمىّ عن فرسه و لم ينزل لأحد قبله؛ لما يعلمه من تمكّنه و خصوصيته عند أبيه الملك المؤيّد، و ركب الجميع فى خدمته و عادوا بين يديه إلى العكرشة و السلطان واقف بها على فرسه، فنزل الأمراء المسافرون و قبّلوا الأرض بين يدى السلطان، ثم قبّلوا يده واحدا بعد واحد إلى أن انتهى سلامهم نزل المقام الصارمى عن فرسه و قبّل الأرض، ثم قام و مشى حتى قبّل الرّكاب السّلطانى، فبكى السلطان من فرحه بسلامة ولده، و بكى الناس لبكائه، فكانت ساعة عظيمة.

ثم سارا بموكبيهما الشامي و المصرى إلى سرياقوس و باتا بها ليلة الخميس تاسع عشرين شهر رمضان المذكور، و تقدّمت الأثقال و الأطلاب و دخلوا القاهرة، و ركب السلطان آخر الليل و رمى الطّير بالبركة، فقدم عليه الخبر بكرة يوم الخميس بوصول الأمير تنبك ميق نائب الشام، و كان قد طلب، فوافى ضحى، و ركب فى الموكب السلطانى، و دخل السلطان من باب النصر فشقّ القاهرة- و قد زينت لقدوم ولده- و الأمراء عليها

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۹۰

التشاريف، و على المقام الصارمى أيضا تشريف عظيم إلى الغاية و خلفه الأسراء الذين أخذوا من قلعة نكدة و غيرها فى الأغلال و

القيود، و هم نحو المائتين كلهم مشاة إلا أربعة فإنهم على خيول، منهم نائب نكدة و ثلاثة من أمراء ابن قرمان، و كلهم فى الحديد، فسار الموكب إلى أن وصل السلطان و ولده إلى القلعة، فكان يوما مشهودا إلى الغاية لم ينله أحد من ملوك مصر، فلهجت الناس بأن الملك المؤيّد قد تمّ سعده، كل ذلك و السلطان لا يستطيع المشى من ألم رجله.

و أصبح يوم السبت أوّل شوال صلّى صلاة العيد بالقصر لعجزه عن المضىّ إلى الجامع؛ لشدة ألم رجله و امتناعه من النهوض على قدميه.

ثم فى ثالث شوال خلع على الأمير جقمق الأرغون شاوىّ الدّوادار الكبير باستقراره فى نيابة الشام عوضا عن تنبك العلائى ميق [بحكم عزله]، و خلع على الأمير مقبل الحسامىّ الدّوادار الثانى باستقراره دوادارا كبيرا على إمرة طبلخاناه، و أنعم السلطان بإقطاع جقمق الدّوادار على الأمير تنبك ميق.

ثم فى رابع شوال المذكور خلع السلطان أيضا على الأمير قطلوبغا التّنمىّ أحد مقدّمى الألوف بالديار المصرية و استقرّ فى نيابة صفد عوضا عن الأمير قرامراد خجا، و رسم بتوجّه قرامراد خجا إلى القدس بطّالا، و أنعم بإقطاع قطلوبغا التّنمىّ على الأمير جلبّان الأمير آخور الثانى، و أنعم بإقطاع جلبّان و وظيفته على الأمير آقبغا التّمرازىّ، فتجهّز جقمق بسرعة و خرج فى يوم سابع عشره من القاهرة متوجّها إلى محلّ كفالته بدمشق.

ثم فى يوم الجمعة حادى عشرينه نزل السلطان إلى جامعه بالقرب من باب زويلة و قد هيّئت به المطاعم و المشارب فمدّ بين يديه سماط عظيم فأكل السلطان منه و الأمراء

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۹۱

و القضاة و العسكر، و ملئت الفسقيّة التى بصحن الجامع سكّرا مذابا، فشرب الناس منه، ثم أحضرت الحلاوات؛ كل ذلك لفراغ الجامع المذكور و لإجلاس قاضى القضاة شمس الدين محمد بن الدّيرى الحنفى فى مشيخة الصّوفيّة و تدريس الحنفية، و فرشت السّجادة لابن الدّيرى فى المحراب، و قرّر خطابة الجامع المذكور للقاضى ناصر الدين محمد بن البارزىّ كاتب السرّ، ثم عرض السلطان الفقهاء و قرّر منهم من اختاره فى الوظائف و التصوّف، ثم استدعى قاضى القضاة شمس الدين بن الديرى و ألبسه خلعة باستقراره فى المشيخة، و جلس بالمحراب و السّلطان و ولده الصّارمى إبراهيم عن يساره، و القضاة عن يمينه، و يليهم مشايخ العلم و أمراء الدولة، فألقى ابن الديرى درسا عظيما وقع فيه أبحاث و مناظرات [بين الفقهاء] و الملك المؤيد يصغى لهم و يعجبه الصواب من قولهم، و يسأل عما لا يفهمه حتى يفهمه.

قلت: هذا هو المطلوب من الملوك، الفهم و الذّوق لينال كلّ ذى رتبة رتبته، و ينصف أرباب الكمالات- بين يديه- من كلّ فن، فوا أسفاه على ذلك الزمان و أهله.

و استمرّ البحث بين الفقهاء إلى أن قرب وقت الصلاة ثم انفضّوا، و استمر السلطان جالسا بمكانه إلى أن حان وقت الصلاة، و تهيأ السلطان و كلّ أحد للصلاة، فخرج القاضى ناصر الدين بن البارزىّ من بيت الخطابة و صعد المنبر و خطب خطبة بليغة فصيحة من إنشائه، ثم نزل و صلّى بالناس صلاة الجمعة، فلما انقضت الصلاة خلع السلطان عليه باستقراره فى خطابة الجامع المذكور و وظيفة خازن الكتب.

ثم ركب السلطان من الجامع المذكور و عدّى النيل إلى برّ الجيزة فأقام به إلى يوم الأحد ثالث عشرينه، و عاد إلى القلعة، ثم ركب من القلعة فى يوم الأحد أول ذى القعدة للصيد و عاد من يومه.

و فى يوم ثالثه سار الأمير الكبير ألطنبغا القرمشى و الأمير طوغان الأمير آخور الكبير للحج على الرّواحل من غير ثقل.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۹۲

ثم فى يوم الجمعة سادس ذى القعدة خلع السلطان على القاضى زين الدين عبد الرحمن ابن على بن عبد الرحمن التّفهنى الحنفى

باستقراره قاضى قضاة الحنفيّة عوضا عن قاضى القضاة شمس الدين محمد بن الديرى المستقرّ فى مشيخة الجامع المؤيدى برغبة ابن الديرى؛ فإنه كان من حادى عشرين شوال قد انجمع عن الحكم بين الناس و نوّابه تقضى.

و فيه أيضا عدى السلطان النيل يريد سرحة البحيرة، و جعل نائب الغيبة الأمير إينال الأرغزى، و سار السلطان حتى وصل مريوط و عاد فأدركه عيد الأضحى بمنزلة الطّرّانة، فصلى بها العيد، و خطب كاتب سرّه القاضى ناصر الدين بن البارزى.

قلت: هكذا يكون كتّاب سرّ الملوك أصحاب علم و فضل و نظم و نثر و خطب و إنشاء، لا مثل جمال الدين الكركى و شهاب الدين بن السفّاح.

ثم ارتحل السلطان من الغد و سار حتى نزل على برّ منبابة بكرة يوم الأحد ثالث عشر ذى الحجة، و عدّى النيل من الغد و نزل ببيت كاتب السرّ ابن البارزىّ، و بات به، و دخل الحمام التى أنشأها كاتب السرّ بجانب داره، ثم عاد السلطان فى يوم الاثنين رابع عشر ذى الحجة إلى القلعة، و خلع على الأمراء و المباشرين على العادة، ثم نزل السلطان فى يوم الجمعة ثامن عشره إلى الجامع المؤيدى، و صلى به الجمعة، و خطب به كاتب السرّ ابن البارزى، ثم حضر من الغد الأمير محمد بك بن على بك بن قرمان صاحب قيساريّة و قونية و نكدة و لا رندة و غيرها من البلاد و هو مقيد محتفظ به، فأنزل فى دار الأمير مقبل الدّوادار و وكّل به إلى ما سيأتى ذكره.

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۲۳]

ثم فى يوم الجمعة ثالث المحرم وصل الأمير الكبير ألطنبغا القرمشى و الأمير طوغان أمير آخور من الحجاز، فكانت غيبتهما عن مصر تسعه و خمسين يوما، و فيه استقرّ الأمير شاهين الزّرد كاش نائب حماة فى نيابة طرابلس عوضا عن سودون القاضى، و استقرّ فى نيابة حماة عوضا عن شاهين المذكور الأمير إينال الأرغزى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۹۳

النّوروزى نائب غزّة، و استقر عوضه فى نيابة غزّة الأمير أركماس الجلبّانى أحد مقدمى الألوف بالديار المصرية، ثم أفرج السلطان عن الأمير نكباى حاجب دمشق من سجنه بقلعة دمشق و استقر فى نيابة طرسوس، و أحضر نائبها الأمير تنبك أميرا إلى حلب، و استقر الأمير خليل الدّشارى أحد أمراء الألوف بدمشق فى حجوبية الحجاب بدمشق و كانت شاغرة منذ أمسك نكباى، و استقر الأمير سنقر نائب قلعة دمشق، و استقر الأمير آقبغا الأسندمرى الذى كان ولى نيابة سيس ثم حمص حاجبا بحماة عوضا عن الأمير سودون السّيفى علّان بحكم عزله و اعتقاله، و كان بطلا بالقدس.

ثم فى سادس عشر المحرم نقل الشيخ عز الدين عبد العزيز البغدادى من تدريس الحنابلة بالجامع المؤيدى إلى قضاء الحنابلة بدمشق، و استقر عوضه فى التدريس بالجامع المذكور العلامة محب الدين أحمد بن نصر اللّه البغدادى.

ثم فى يوم الاثنين خامس صفر ركب السلطان من القلعة و عدّى النيل و نزل بناحية و سيم على العادة فى كل سنة، و أقام بها إلى عشرين صفر، فركب و عاد من و سيم إلى أن عدى النيل و نزل ببيت كاتب السروبات به، و عمل الوقيد فى ثانى عشرينه، ثم ركب من الغد إلى الغد إلى القلعة.

ثم فى سادس عشرينه نزل السلطان من القلعة إلى بيت الأمير أبى بكر الأستادار و عاده فى مرضه، فقدّم له أبو بكر تقدمة هائلة، و استمرّ أبو بكر مريضا إلى أن مات و تولّى الأستادارية بعده الأمير يشبك المؤيدى المعروف بأنالى- أى له أمّ- فى يوم الخميس ثالث عشر شهر ربيع الأوّل.

ثم فى هذا الشهر تحرّك عزم السلطان على السّفر إلى بلاد الشّرق لقتال قرا يوسف، و أخذ فى الأهبة لذلك و أمر الأمراء بعمل مصالح السّفر، فشرعوا فى ذلك، هذا و هو لا يستطيع الرّكوب و لا النّهوض من شدّة ما به من الألم الذى تمادى برجله و كسّحه، و لا ينتقل من مكان إلى آخر إلا على أعناق المماليك، و هو مع ذلك له حرمة و مهابة فى

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۹۴

القلوب لا یستطیع أخصّاؤه النظر إلی وجهه إلا بعد أن یتلطّف بهم و یباسطهم حتی یسکن روعهم منه.

ثم فی أوّل شهر ربیع الآخر وقع الشروع فی بناء منظرة الخمس وجوه بجوار التّاج الخراب خارج القاهرة بالقرب من کوم الرّیش لینشئ السلطان حوله بستانا جلیلا ودورا، و یجعل ذلک عوضا عن قصور سریاقوس، و یسرح إلیها کما کانت الملوک نسرح إلی سریاقوس منذ أنشأها الملک الناصر محمد بن قلاوون.

ثم فی ثالث عشر شهر ربیع الآخر المذکور ابتدأ بالسّلطان أ لم تجدّد علیه من حبسة الإراقة، مع ما یعتریه من ألم رجله، و اشتدّ به و تزاید ألم رجله.

فلما کان یوم الأربعاء رابع عشرین الشّهر المذکور نادی السلطان بإبطال مکس الفاکهة البلدیة و المجلوبة، و هو فی کل سنة نحو ستة آلاف دینار سوی ما یأخذه الکتبة و الأعوان، فبطل و نقش ذلک علی باب الجامع المؤیدی.

ثم فی یوم الخمیس ثانی جمادی الأولی ابتدأ بالمقام الصارمی إبراهیم ابن السلطان الملک المؤید مرض موته، و لزم الفراش بالقلعة إلی یوم الثلاثاء رابع عشره رکب من القلعة فی محفّة لعجزه عن رکوب الفرس و نزل إلی بیت القاضی زین الدین عبد الباسط ابن خلیل ناظر الخزانة ببولاق، و أقام به، ثم رکب من الغد فی النّیل و عدّی إلی الخرّوبیّة ببرّ الجیزة، و أقام بها و قد تزاید مرضه.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۹۵

و أما السلطان فإنه رکب من القلعة فی یوم ثانی عشر جمادی الأولی المذکور و توجه إلی منظرة الخمس وجوه و شاهد ما عمل هناک، و رتب ما اقتضاه نظره من ترتیب البناء، و عاد إلی بیت صلاح الدین خلیل بن الکویز ناظر الدّیوان المفرد المطلّ علی برکة الرّطلی، فأقام فیه نهاره و عاد من آخره إلی القلعة.

ثم فی یوم السبت خامس عشرینه خلع السلطان علی الشیخ شمس الدین محمد بن أحمد بن عثمان البساطیّ المالکی شیخ الخانقاه الناصریة فرج باستقراره قاضی قضاة المالکیة بعد وفاة القاضی جمال الدین عبد اللّه بن مقداد الأقفهسی.

ثم فی یوم الأربعاء تاسع عشرینه نزل السلطان من القلعة و توجّه إلی المیدان الکبیر الناصری بمردة الجبس، و کان قد خرب و أهمل أمره منذ أبطل الملک الظاهر برقوق الرّکوب إلیه، و لعب الکرة فیه، و تشعثت قصوره و جدرانه، و صار منزلا لرکب الحاج من المغاربة، فرسم السلطان فی أوّل هذا الشهر للصاحب بدر الدین حسن بن نصر اللّه بعمارته، فلما انتهی نزل السلطان إلیه فی هذا الیوم و شاهد ما عمّر به فأعجبه، و مضی منه إلی بیت ابن البارزیّ ببولاق و قد تحوّل المقام الصارمی إبراهیم من الخرّوبیة إلی قاعة الحجازیة فزاره السلطان غیر مرّة بالحجازیة، و أنزل بالحریم السلطانیّ إلی بیت ابن البارزیّ فأقاموا عنده.

فلما کان یوم الجمعة أوّل جمادی الآخرة صلّی السلطان صلاة الجمعة بالجامع الذی جدّده ابن البارزی تجاه بیته، و کان هذا الجامع یعرف قدیما بجامع

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۹۶

الأسیوطی، و خطب به و صلی قاضی القضاة جلال الدین البلقینیّ.

ثم رکب السلطان من الغد فی یوم السبت ثانی جمادی الآخرة إلی المیدان المقدم ذکره و عمل به الخدمة السلطانیة، ثم توجه إلی القلعة و أقام بها إلی یوم الأربعاء سادسه فرکب منها و نزل إلی بیت ابن البارزی و أقام به أیاما، ثم عاد إلی القلعة.

ثم فی یوم الأربعاء ثالث عشره حمل المقام الصارمی إبراهیم من الحجازیة إلی القلعة علی الأکتاف لعجزه عن رکوب المحفّة، فمات لیلة الجمعة خامس عشره فارتجّت القاهرة لموته، فجهّز من الغد و صلّی علیه و دفن بالجامع المؤیّدی، و شهد السلطان الصلاة علیه و دفنه، مع عدم نهضته للقیام من شدّة مرضه و للوجد الذی حصل له علی ولده، و أقام السلطان بالجامع المؤیّدی إلی أن صلی به الجمعة، و خطب القاضی

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۹۷

ناصر الدین بن البارزی علی العادة، و خطب خطبة بلیغة من إنشائه، و سبک فی الخطبة الحدیث الذی ذکره النّبیّ- صلّی اللّه علیه و سلم- عند موت ولده إبراهیم «إنّ العین لتدمع و إنّ القلب لیخشع و إنّا لمحزنون علی فراقک یا إبراهیم ... الخ» فلما ذکر ذلک ابن البارزی علی المنبر بکی السلطان و بکی الناس لبکائه فکانت ساعة عظیمة، ثم رکب السلطان بعد الصلاة من الجامع المؤیّدی و عاد إلی القلعة، و أقام القرّاء یقرءون القرآن علی قبره سبع لیال.

و فی هذه الأیام توقّف النیل عن الزّیادة، و غلا سعر الغلال، و نودی بالقاهرة بالصّیام ثلاثة أیام، ثم بالخروج إلی الصحراء للاستسقاء، فصام أکثر الناس و صام السلطان، فنودی بزیادة إصبع ممّا نقصه، ثم نودی فی یوم الأحد رابع عشرینه بالخروج من الغد للصحراء خارج القاهرة، فلما کان الغد یوم الاثنین خرج شیخ الإسلام قاضی القضاة جلال الدین البلقینی و سار حتی جلس فی فم الوادی قریبا من قبّة النّصر- و قد نصب هناک منبر- فقرأ سورة الأنعام، و أقبل الناس أفواجا من کل جهة حتی کثر الجمع و مضی من شروق الشمس نحو الساعتین أقبل السلطان بمفرده علی فرس و قد تزیّا بزیّ أهل التّصوّف، و اعتمّ علی رأسه بمئزر صوف لطیف، و لبس علی بدنه ثوب صوف أبیض، و علی عنقه مئزر صوف [بعذبة] مرخاة علی بعض ظهره، و لیس فی سرجه و لا شیء من قماش فرسه ذهب و لا حریر، فأنزل عن الفرس و جلس علی الأرض من غیر بساط و لا سجّادة مما یلی یسار المنبر، فصلّی قاضی القضاة رکعتین کهیئة صلاة العید و الناس وراءه یصلّون بصلاته، ثم رقی المنبر فخطب خطبتین حثّ الناس فیهما علی التّوبة و الاستغفار و أعمال البرّ و حذّرهم و نهاهم، و تحوّل فوق المنبر و استقبل القبلة و دعا فأطال الدعاء، و السلطان فی ذلک کلّه یبکی و ینتحب و قد باشر فی سجوده التّراب بجبهته، فلما انقضت الخطبة رکب السلطان فرسه مع عدم قدرته علی القیام،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۹۸

و إنما یحمل علی الأکتاف حتی یرکب، ثم یحمل حتی ینزل، و سار إلی جهة القلعة و العامة محیطة به یدعون له، فکان هذا الیوم من الأیام المشهودة، و من أحسن ما نقل عنه فی هذه الرّکبة أن بعض العامة دعا له حالة الاستسقاء أنّ اللّه ینصره، فقال لهم الملک المؤید: اسألوا اللّه فیما نحن بصدده، و إنما أنا واحد منکم- للّه درّه فیما قال.

ثم فی غده نودی علی النیل بزیادة اثنی عشر إصبعا بعد ما ردّ النقص، و هو قریب سبعة و عشرین إصبعا، فتباشر الناس باستجابة دعائهم.

ثم قدم الخبر علی السلطان بنزول قرا یوسف علی بغداد و قد عصاه ولده شاه محمد بها، فحاصره ثلاثة أیام حتی خرج إلیه، فأمسکه أبوه قرا یوسف و استصفی أمواله و ولّی عوضه علی بغداد ابنه أمیرزة أصبهان، ثم عاد قرا یوسف إلی مدینة تبریز لحرکة شاه رخّ بن تیمور لنک علیه.

ثم فی یوم الاثنین سابع عشر شهر رجب رکب السلطان من قلعة الجبل و نزل إلی بیت کاتب السرّ ابن البارزیّ علی عادته لیقیم به و نزل الأمراء بالدّور من حوله، و صارت الخدمة تعمل هناک، و کان السلطان قد انقطع عن النزول إلیه من یوم مات ابنه.

ثم فی یوم الأربعاء تاسع عشره جمع السلطان خاصّیته و نزل إلی البحر و سبح فیه، و عام من بیت کاتب السرّ إلی منیة الشّیرج ثم عاد فی الحرّاقة، و کثر تعجّب الناس من قوّة سبحه مع زمانة رجله و عجزه عن الحرکة و القیام، و لمّا أراد أن ینزل للسّباحة أقعد فی تخت من خشب کهیئة مقعد المحفّة، و أرخی من أعلی الدار بجبال و بکر إلی الماء، فلمّا عاد فی الحرّاقة رفع فی التخت المذکور من الحرّاقة إلی أعلی الدّار حتی جلس علی مرتبته، فنودی من الغد علی النّیل بزیادة ثلاثین إصبعا، و لم یزد فی هذه السنة مثلها، فتیامن الناس بعوم السلطان فی النیل، و عدّوا ذلک من جملة سعادته، و قالت العامة: الزیادة ببرکته.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۹۹

ثم فی یوم الجمعة حادی عشرین شهر رجب المذکور رکب السلطان من بیت ابن البارزیّ فی الحرّاقة و تنزّه علی ظهر النیل، و توجّه

إلى [رباط] الآثار النبوية فزاره، و برّ من هناك من الفقراء و الخدام و غيرهم، ثم عاد إلى المقياس بجزيرة الرّوضة فصلّى الجمعة بجامع المقياس، و رسم بهدمه و بنائه ثانيا و توسعته، ففعل ذلك، و رسم أيضا بترميم بلاط [رباط] الآثار النبوية، ثم عاد إلى الجزيرة الوسطى و ركب منها إلى الميدان الناصرى و بات به، و ركب من الغد فى يوم السبت إلى القلعة.

ثم فى سابع عشرين شهر رجب المذكور من سنة ثلاث و عشرين قدم الخبر على السلطان من الأمير عثمان بن طرعلى المدعو قرايلك صاحب آمد أنه كبس على بير عمر حاكم أرزنكان من قبل قرا يوسف و أمسكه و قيّده هو و أربعة و عشرين نفسا من أهله و أولاده، و أنه قتل من أعوانه ستين رجلا و غنم شيئا كثيرا، فسرّ السلطان بذلك، ثم إنه قتل بير عمر المذكور، و أرسل برأسه إلى السلطان، فوصل الرأس إلى القاهرة فى يوم الاثنين أول شعبان.

و كان السلطان قد كتب محاضر بكفر قرا يوسف و ولده حاكم بغداد، فأفتى مشايخ العلم بوجوب قتاله، و رسم السلطان للأمراء بالتّجهيز للسفر، و حملت إليهم النّفقات، فوقع التّجهيز فى أمور السفر، و نودى فى رابع شعبان المذكور بالقاهرة بين يدى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۰۰

الخليفة و القضاة الأربعة بجميع نوّابهم و بين يديهم القاضى بدر الدين حسن البردينى أحد نوّاب الحكم الشافعية، و هو راكب على بغلته و بيده ورقة يقرأ منها استنفار الناس لقتال قرا يوسف و تعداد قبائحه و مساوئه.

قلت: هو كما قالوه و زيادة، عليه و على ذرّيته اللعنة، فإنهم كانوا سببا لخراب بغداد و أعمالها، و كانت بغداد منبع العلم و مأوى الصالحين حتى ملكها هؤلاء التّركمان رعاة الأغنام فساءوا السّيرة، و سلبوا الناس أموالهم، و أخربوا البلاد، و أبادوا العباد من الظلم و الجور و العسف- ألا لعنة اللّه على الظالمين.

ثم فى يوم الاثنين ثامن شعبان- و يوافقه خامس عشرين مسرى أحد شهور القبط- أو فى النيل فركب السلطان إلى المقياس حتّى خلّقه على العادة، ثم ركب الحرّاقة حتى فتح خليج السّدّ على العادة.

ثمّ فى يوم الجمعة عقد السلطان عقد الأمير الكبير ألطنبغا القرمشى على ابنته بصداق مبلغه خمسة عشر ألف دينار هرجه بالجامع المؤيّدى بحضرة القضاة و الأمراء و الأعيان، هذا و قد تهيّأ القرمشىّ للسّفر إلى البلاد الشّاميّة مقدّم العساكر، و أصبح من الغد فى يوم السبت ثالث عشر شعبان المذكور برّز الأمير الكبير ألطنبغا القرمشى طلبه من القاهرة إلى الرّيدانيّة خارج القاهرة، و معه من الأمراء مقدّمى الألوف جماعة: الأمير ألطنبغا من عبد الواحد المعروف بالصّغير رأس نوبة النّوب، و الأمير طوغان الأمير آخور الكبير، و الأمير ألطنبغا المرقبىّ حاجب الحجّاب، و الأمير جلبّان أمير آخور- كان- و الأمير جرباش الكريمىّ قاشق، و الأمير آقبلاط السّيفى دمرداش، و الأمير أزدمر الناصرى، و ندبهم السلطان للتوجّه إلى حلب خشية من حركة قرا يوسف.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۰۱

و فيه نزل السلطان من القلعة إلى بيت ابن البارزىّ و أقام به إلى يوم الثلاثاء سادس عشر شعبان، فتوجّه إلى الميدان لعرض المماليك الرّماحة، فتوجّه إليه و جلس و لعبت مماليك السلطان بالرّمح بين يديه مخاصمة، و لعّب حتى المعلمين، جعل لكلّ معلّم خصما مثله و لعّبهما بين يديه، فوقع بين الرّمّاحة أمور و مخاصمات، و أبدوا غرائب فى فنونهم، كل ذلك لمعرفة الملك بهذا الشّأن و محبّته لأرباب الكمالات من كلّ فنّ، فلمّا انتهى لعبهم و الإنعام عليهم- كل واحد بحسب ما يليق به- ركب آخر النهار من الميدان المذكور على ظهر النيل فى الحرّاقة الى بيت [ابن] البارزىّ ببولاق، و أقام به و عمل الخدمة به إلى أن ركب منه إلى الميدان ثانيا فى نهار السبت العشرين من شعبان، و لعبت الرّمّاحة بين يديه، و هم غير من تقدم ذكرهم؛ فإنه رسم أنّ فى كل يوم من يومى السبت و الثلاثاء يلعب معلّمان هما و صبيانهما- لا غير- مخاصمة.

قلت: و هذه عادة الملوك، لمّا تعرض المماليك بين يديهم، لا يخاصم فى كل يوم غير صبيان معلّم مع صبيان معلّم آخر، لكن زاد الملك المؤيّد بأن لعّب المعلمين أيضا، فصار المعلّم يقف يمينا [و يقف] صبيانه صفا واحدا تحته، و يقف تجاهه معلّم آخر آخر و

صبيانه تحته، فيخرج المعلّم للمعلّم و يتخاصمان إلى أن ينجزا أمرهما، ثم يخرج النائب للنائب الذى يقابله من ذلك المعلّم، ثم يخرج كلّ واحد لمن هو مقابله إلى أن يستتم العرض بين الظّهر و العصر أو قبل الظهر أو بعده بحسب قلّة الصّبيان و كثرتهم، و لمّا تمّ العرض فى نهار السّبت المذكور بالميدان لم يتحرّك السلطان من الميدان و بات به، و أصبح يوم الأحد ركب الحرّاقة و توجّه فى النيل إلى [رباط] الآثار النبويّة وزاره و تصدق به، ثم عاد إلى المقياس بالرّوضة، و كشف عمارة جامع المقياس بالرّوضة، ثم عاد فى الحرّاقة الى الميدان، فبات به و عرض فى يوم الاثنين أيضا، أراد بذلك انجاز أمرهم

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۰۲

فى العرض، و لما انتهى العرض فى ذلك اليوم ركب الحرّاقة و توجّه إلى [رباط] الآثار ثانيا وزاره، ثم عاد إلى جزيرة أروى المعروفة بالجزيرة الوسطانية، و نزل بها فى مخيمه، فأقام بها يومه و عاد إلى الميدان و بات به ليلتين، ثم رجع فى النيل إلى بيت كاتب السّرّ ببولاق فى يوم الخميس فبات به و صلّى الجمعة بجامع كاتب السّرّ، و خطب و صلّى به قاضى القضاة جلال الدين البلقينىّ، ثم ركب الحرّاقة بعد الصّلاة و توجّه إلى الميدان و بات به و ركب إلى القلعة بكرة يوم السبت سابع عشرين شعبان، كل ذلك و السلطان صائم فى شهر رجب و شعبان لم يفطر فيهما إلا نحو عشرة أيّام عندما يتناول الأدوية بسبب ألم رجله، هذا مع شدّة الحرّ فإنّ الوقت كان فى فصل الصّيف و زيادة النّيل.

و لما استهلّ شهر رمضان بيوم الثلاثاء انتقض على السلطان ألم رجله و لزم الفراش و صارت الخدمة السلطانية تعمل بالدّور السلطانية من قلعة الجبل لقلّة حركة السلطان مما به من الألم، و هو مع ذلك صائم لا يفطر إلا يوم يتناول فيه الدّواء.

ثم فى رابع عشر شهر رمضان المذكور خلع السلطان على الصاحب تاج الدين عبد الرّزاق بن الهيصم باستقراره ناظر ديوان المفرد بعد موت صلاح الدين خليل بن الكويز.

ثم فى هذا الشهر أيضا ابتدأ مرض القاضى ناصر الدين بن البارزى كاتب السّر الذى مات به، و استمرّ السلطان ضعيفا شهر رمضان كله، فلما كان يوم الأربعاء أوّل شوال صلى السلطان صلاة العيد بالقصر الكبير من قلعة الجبل عجزا عن المضى إلى الجامع.

ثم فى رابعه ركب السلطان المحفّة من قلعة الجبل و نزل إلى جهة «منظرة الخمس وجوه» التى استجدها بالقرب من التّاج و قد كملت، و العامة تسميها «التاج و السبع وجوه» و ليس

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۰۳

هو كذلك، و إنما هى ذات «خمس وجوه»، و أما التاج فإنه خراب، و قد أنشأ به عظيم الدّولة الصاحب جمال الدين بن يوسف ناظر الجيش و الخاص عمائر هائلة و سبيلا و مكتبا و بستانا و غير ذلك- انتهى.

و لمّا توجّه السلطان إلى «الخمس وجوه» أقام به نهاره ثم عاد إلى القلعة، و أقام بها إلى يوم الأربعاء خامس عشر شوال فغضب على الصاحب بدر الدين حسن بن نصر اللّه ناظر الخواص و ضربه بين يديه ضربا مبرّحا، ثم أمر به فنزل إلى داره على وظائفه من غير عزل، كل ذلك و السلطان مريض ملازم للفراش، غير أنه يتنقّل من مكان إلى مكان محمولا على الأكتاف.

فلما كان يوم الاثنين عشرين شوال أشيع بالقاهرة موت السلطان، فاضطرب الناس، ثم أفاق السلطان فسكنوا، فطلع أمير حاج المحمل الأمير تمربای المشدّ و قبّل الأرض و خرج بالمحمل إلى بركة الحاج من يومه، و سافر الحاج و هو على تخوّف من النّهب بسبب الإشاعات بموت السلطان.

ثم فى يوم الاثنين المذكور طلب السلطان الخليفة و القضاة الأربعة و الأمراء و الأعيان و عهد إلى ولده الأمير أحمد بالسلطنة من بعده، و عمره سنة واحدة و نحو خمسة أشهر و خمسة أيام؛ فإن مولده فى جمادى الأولى من السنة الخالية، و جعل الأمير الكبير ألطنبغا القرمشى القائم بتدبير ملكه إلى أن يبلغ الحلم، و أن يقوم بتدبير الدّولة مدّة غيبة الأتابك ألطنبغا القرمشى إلى أن يحضر الأمراء الثلاثة و هم: ققجقار القردمىّ أمير سلاح، و تنبك العلائى ميق المعزول عن نيابة الشام، و الأمير ططر أمير مجلس، و حلّف السلطان

الأمراء على العادة، و أخـذ عليهم الأيمان و العهود بالقيام فى طاعـة ولـده و طاعـة مدبّر مملكته، ثم حلّف المماليك من الغد، ثم أفاق السلطان و حضرت الأمراء الخدمة على العادة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۰۴

و خلع فى يوم السبت خامس عشرينه على القاضى كمال الدين محمد بن البارزى باستقراره كاتب السّر الشريف بالديار المصرية بعد وفاة والده القاضى ناصر الدين محمد ابن البارزى، و نزل إلى بيته فى موكب جليل، و بعد يومين خلع السلطان على القاضى بدر الدين محمـد بن محمـد بن أحمـد الدّمشـقى المعروف بابن مزهر ناظر الإسـطبل باسـتقراره فى نيابـة كتابـة السر عوضا عن كمال الـدين بن البارزى المذكور.

ثم فى تاسع عشـرين شوّال المذكور نصل السـلطان من مرضه، و نقص ما كان به من الألم، و دخل الحمّام، و تخلّق الناس بالزّعفران و تـداولت التهـانى بالقلعـة و غيرهـا، و نودى بزينـة القاهرة و مصـر، و فرّق السـلطان مالا كثيرا فى الفقراء و الفقهاء و الناس، و خلع على الأطبّاء و أصحاب الوظائف.

و كان السلطان لمّا مات القاضى ناصر الدين بن البارزى طلب الذى خلّفه من المال فلم يجد ولده شيئا، فظنّ السلطان أنه أخفى ذلك، فحلّفه ثم خلع عليه، و نزل على أن يقوم للسلطان من ماله بأربعين ألف دينار، فلما كان يوم [الخميس] سلخ شوال حضر إلى [القاضى] كمال الـدين المـذكور شـخص من الموقعين يعرف بشـهاب الـدين أبى درّابة و قال له: أنا أعرف لوالدك ذخيرة فى المكان الفلانى، فلما سـمع القاضـى كمال الدين كلامه أخذه فى الحال و طلع به إلى السلطان و عرّفه مقالة شهاب الدين المذكور، فأرسل السلطان فى الحال الطواشـى مرجان الهنـدى الخازندار و صـحبته جماعة، و معهم شـهاب الدين المذكور إلى بيت القاضـى كمال الدين المذكور، فـدخلوا إلى المكـان و فتحوه فوجـدوا فيه سـبعين ألف دينـار فأخـذوها و طلعوا إلى السـلطان، و قـد سـألت أنـا القاضـى كمال الـدين المـذكور عن هذه الذخيرة، و قلت له: كان لك بها علم؟ فقال: لا و اللّه، و لا أعرف مكانها، فإنى لم أحضـرها حين جعلها الوالد بهذا المكان، و لا عند

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۰۵

أخـذها أيضـا، و لا عرّفنى بها قبل موته، غير أنه أوصـى شـهاب الـدين المـذكور و شـخصا بحماة أنه إذا مات يعرفانى بها، فلما عرّفنى شهاب الدين بها لم أجد بدّا من إعلام السلطان بها للأيمان التى كان حلّفنى أننى مهما وجدته من مال الوالد أعرّفه به.

قلت: للّه درّه من كمال الدين، ما كان أعلى همته و أحشمه و أسمحه.

ثم فى يوم الاـثنين رابع ذى القعـدة ركب السـلطان من قلعـة الجبل و شقّ القاهرة من باب زويلـة و خرج من باب القنطرة، و توجه إلى «الخمس وجوه» و أقام بها إلى يوم الأربعاء سابع ذى القعـدة، فركب منها و شقّ القاهرة من باب القنطرة إلى أن خرج من باب زويلة و طلع إلى القلعـة بعـد مـا انقضـى له ب «الخمس وجوه» أوقـات طيبـة، و عمـل بها الخدمـة، و تردّدت الناس إليه بها لقضاء حوائجهم و للفرجة أيضا.

و لما طلع السـلطان إلى القلعـة أقام بها يوم الأربعاء و الخميس و الجمعـة، ثم نزل إليها ثانيا فى يوم السـبت تاسع ذى القعدة بخواصّه و بات بها.

ثم ركـب من الغد فى يوم الأحد، و تصيّد ببرّ الجيزة و أقام هناك، و أمر بأخذ خزانة الخاص من عند ناظر الخاص الصّاحب بدر الدين بن نصـر اللّه، فنزل إليه زين الدين عبد الباسط بن خليل الدّمشـقى ناظر الخزانة و الطواشى مرجان الهندى الخازندار، و أخذا منه خزانة الخاص و هو ملازم للفراش من يوم ضـرب، و سـلّمت للطواشـى مرجان المذكور، فتحدّث مرجان فى وظيفة نظر الخاص عن السلطان من غير أن يخلـع عليه، و أنفق كسوة المماليـك السـلطانية نحو ثمانيـة آلاـف دينـار، و أقـام السـلطان بمنظرة «الخمس وجوه» إلى يوم الثلاثاء ثانى عشـر ذى القعـدة فعاد إلى القلعـة فى محفّـة، فأقام بالقلعة إلى يوم الجمعة خامس عشـره و ركـب أيضا و توجّه إلى منظرة

«الخمس وجوه» فأقام بها إلى سابع عشر، و عاد إلى القلعة بعد أن ألزم أعيان الدّولة أن يعمّروا لهم بيوتا بالقرب من «الخمس وجوه» المذكورة لينزلوا فيها إذا توجّهوا فى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۰۶

ركاب السلطان، فشرع بعضهم فى رمى الأساس، و اختط بعضهم أرضا، ثم ركب السلطان من القلعة بثياب جلوسه و شقّ القاهرة، و عبر من باب زويلة، و خرج من باب القنطرة، و توجّه إلى منظرة «الخمس وجوه» و أقام بها بخواصّه إلى يوم الجمعة ثانى عشرين ذى القعدة فركب منها و عدى النيل إلى الجيزة، يريد سرحة البحيرة على العادة فى كل سنة، و قد تهيأ الناس لذلك و خرجوا على عادتهم.

و قبل أن يعدّى السلطان النيل نزل بدار على شاطىء نيل مصر، و دخل الحمام التى بجوار الجامع الجديد، و اغتسل طهر الجمعة، ثم خرج إلى الجامع الجديد و صلى به الجمعة، ثم عدّى النيل و هو فى كل ذلك يحمل على الأكتاف، و الذى يتولى حمله من خاصّكيته جماعه منهم: خجا سودون السّيفى بلاط الأعرج، و تنبك من سيدى بك الناصرى البجمقدار المصارع، ثم جانى بك من سيدى بك المؤيّدى.

و أقام السلطان يومه بالجيزة ثم ركب المحفة و سار بأمرائه و عساكره إلى أن وصل إلى الطّرّانة اشتدّ به المرض فتجلّد اليوم الأوّل و الثانى، فأفرط به الإسهال حتى أرجف بموته، و كادت تكون فتنة من كثرة كلام الناس و اختلاف أقوالهم، إلى أن ركب السلطان من الطّرّانة فى النيل عجزا عن ركوب المحفّة، و عاد إلى جهة القاهرة حتى نزل برّ منبابة، فأقام بها حتى نحر قليلا من ضحاياه، ثم ركب النيل فى الحرّاقة و عدّى إلى بولاق فى آخر نهار العيد، و نزل فى بيت كاتب السرّ ابن البارزىّ على عادته، و بات فى تلك الليلة، و أصبح من الغد ركب فى المحفة و طلع إلى قلعة الجبل فى يوم الثلاثاء حادى عشر ذى الحجة، و هو شديد المرض من الإسهال و الزحير و الحصاة و الحمّى و الصداع و المفاصل، و هذه آخر ركبة ركبها الملك المؤيد، ثم لزم الفراش إلى أن مات حسبما نذكره.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۰۷

و لما كان ثامن عشر ذى الحجة قدم كتاب الملك العادل سليمان الأيّوبى صاحب حصن كيفا من ديار بكر على السلطان يتضمّن موت الأمير قرا يوسف بن قرا محمد صاحب تبريز و العراق فى رابع عشر ذى القعدة مسموما فيما بين السّلطانيّة و تبريز، و هو متوجّه لقتال القان معين الدين شاه رخّ بن تيمورلنك، فلم يتمّ سرور السلطان بموته لشغله بنفسه.

ثم فى ثامن عشرين ذى الحجة وصل مبشّر الحاج فطلبه السلطان و سأله عن أمور الحجاز، كل ذلك و السلطان صحيح العقل بل ربما دبّر أمور مملكته فى بعض الأحيان.

ثم فى يوم السبت تاسع عشرينه أرجف فى باكر النهار بموت السلطان، و كان أغمى عليه، فلما أفاق قيل له إن بعض الناس يقول: سيّدى أحمد ولد السلطان صغير صغرا لا تصحّ سلطنته، و شاوروه فى إثبات عهده فرسم لهم بذلك، فأثبت عهده على قاضى القضاة زين الدين عبد الرحمن التّفهنى الحنفى بالسلطنة، ثم نفّذ العهد على بقيّة القضاة، فكثر عند ذلك اضطراب الناس بالقاهرة و اختلفت الأقوال فى ضعف السلطان و أمره، و توقّعوا فتنة، و اشتد خوف خواصّ السلطان، و نقلوا ما فى دورهم من القماش المثمّن و غير ذلك.

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۲۴]

و استهلّ المحرّم من سنة أربع و عشرين و ثمانمائة و السلطان ملازم للفراش، و قد أفرط به الإسهال الدّموىّ مع تنوّع الأسقام و تزايد الآلام، بحيث إنه لم يبق مرض من الأمراض حتى اعتراه فى هذه الضّعفة، غير أنه صحيح العقل و الفهم طلق اللسان.

فلما كان يوم الخميس خامس المحرّم سنة أربع و عشرين المذكورة طلع الأمراء و الأعيان إلى قلعة الجبل و جلسوا على باب السّتارة،

فخرج إليهم بعض الخدّام و اعتذر لهم عن دخولهم بشدة ضعف السلطان، فانصرفوا، و كانوا على هذا مدّة أيام، يطلعون فى كل يوم موكب، و يجلسون بباب الدور، ثم ينزلون من غير أن يجتمعوا بالسلطان.

هذا و قد افترقت الأمراء و العساكر فرقا: فرقة من أعيان المؤيديّة و كبيرهم الأمير

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۰۸

ططر و قد خدعهم بتنميق كلامه و كثرة دهائه من أنه يقوم بنصرة ابن أستاذهم، و يكون مدبّر ملكه، و هو كواحد منهم و الأمر كله إليهم، و هو معهم كيف ما شاءوا، ثم خوّفهم من وثوب قجقار القردمى و ركوبه لما فى نفسه من الملک، فمالوا إليه و انخذعوا له، و صاروا من حزبه لا يخفون عنه أمرا من الأمور، هذا مع ما استمال ططر أيضا جماعة كبيرة من خشداشيّته الظاهريّة فى الباطن.

و فرقة من أعيان الأمراء و المماليک السلطانية من جنس التّتر و السّيفيّة و كبيرهم قجقار القردمى، و هو ظنين بنفسه مع ما اشتمل عليه من سلامة الباطن- كما هى عادة جنس التّتر- و الجهل المفرط، مع انهما که فى اللذات ليلا و نهارا.

و فرقة صارت بمعزل عن الفريقين لا- إلى هؤلاء و لا إلى هؤلاء، و هم الظاهرية مماليک برقوق و كبيرهم الأمير تنبک ميق، على أن ميلهم فى الباطن مع خشداشهم ططر، غير أنهم يخافون عواقب الأمور- لعدم أهلية ططر لذلک- لكونه خلقه مثل الأتابک ألطنبغا القرمشى مع من معه من الأمراء و عظمته فى النفوس، و مثل جقمق الأرغون شاوىّ الدوادار نائب الشام، و مثل يشبک اليوسفى المؤيدى نائب حلب، و أيضا مثل قجقار القردمى أمير سلاح، هذا مع كثرة المماليک المؤيدية و شدّة بأسهم حتى لو أن ططر كفى همّ الجميع من الأمراء لا- يستطيع الوثوب على الأمراء من هؤلاء المؤيدية، فلذلک كفّ عن موافقته كثير من خشداشيّته فى مبادئ الأمر، فلم يلتفت ططر إلى كلام متكلم، و أخذ فيما هو فيه من إبرام أمره، و لسان حاله يقول:

«إما إكديش أو نشّابة للريش» فإنه كان فى بحبوحة من الفقر و الإفلاس و الخوف من الملک المؤيد، فلما وجد المقال قال، و انتهز الفرصة إمّا بها أو عليها، و لما عظم اضطراب الناس بالقاهرة أجمع الأمراء على تولية التّاج بن سيفة الشّوبكى أستادار الصحبة ولاية القاهرة على عادته أولا، فخلع عليه بحضرة الأمراء فى بعض دور القلعة باستقراره فى ولاية القاهرة بعد عزل ابن فرّى، فنزل التاج إلى القاهرة بخلعته، و شق الشوارع و أبرق

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۰۹

و أرعد، و أكثر من الوعيد لأرباب الفساد، فلم يلتفت أحد إلى كلامه، و مضى إلى بيته.

هذا و قد اشتدّ الأمر بالسلطان الملک المؤيّد من الآلام و الأرجاف تتواتر بموته، و الناس فى هرج إلى أن توفّى قبيل الظّهر من يوم الاثنين تاسع المحرّم من سنة أربع المقدم ذكرها، فارتجّ الناس لموته ساعة ثم سكنوا، و طلع الأمراء القلعة و طلبوا الخليفة المعتضد بالله داود و القضاة و الأعيان لإقامة الأمير أحمد بن السلطان فى السلطنة، فخلع عليه و تسلطن، و تمّ أمره حسبما سنذكره فى محلّه من هذا الكتاب فى حينه إن شاء اللّه تعالى.

ثم أخذوا فى تجهيز السّلطان الملک المؤيّد و تغسيله [و تكفينه].

قال الشيخ تقىّ الدين المقريزى: و أخذ فى جهاز المؤيّد و صلّى عليه خارج باب القلعة، و حمل إلى الجامع المؤيّدى فدفن بالقبة قبيل العصر، و لم يشهد دفنه كثير أحد من الأمراء و المماليک لتأخّرهم بالقلعة، و اتفق فى أمر المؤيّد موعظة فيها أعظم عبرة؛ و هو أنه لما غسّل لم توجد له منشفة ينشّف فيها، فنشّف بمنديل بعض من حضر غسله، و لا وجد له مئزر تستر به عورته حتى أخذ له مئزر صوف صعيدىّ من فوق رأس بعض جوار به فستر به، و لا وجد له طاسة يصبّ بها عليه الماء و هو يغسّل مع كثرة ما خلّفه من الأموال، و مات و قد أناف على الخمسين.

و كانت مدّة ملكه ثمانى سنين و خمسة أشهر و ثمانية أيام، و كان شجاعا مقداما يحبّ أهل العلم و يجالسهم، و يجلّ الشّرع النبوىّ و يذعن له، و لا- ينكر على طلب من إذا تحاكم إليه أن يمضى من بين يديه إلى قضاة الشّرع، بل يعجبه ذلک، و ينكر على أمرائه

معارضة القضاة فی أحكامهم، و كان غير مائل إلى شیء من البدع، و له قيام

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۱۰

فی الليل إلى التهجد أحيانا، إلا أنه كان بخيلا مسّيكا يشحّ حتى بالأكل، لحوحا غضوبا نكدا حسودا معيانا، يتظاهر بأنواع المنكرات، فحّاشا سبّابا، شديد المهابة، حافظا لأصحابه غير مفرّط فيهم و لا مطيع لهم.

و هو أكبر أسباب خراب مصر و الشّام؛ لكثرة ما كان يثيره من الشّرور و الفتن أيّام نيابته بطرابلس و دمشق، ثم ما أفسده فی أيّام ملكه من كثرة المظالم و نهب البلاد و تسليط أتباعه على الناس يسومونهم الذّلّة، و يأخذون ما قدروا عليه بغير وازع من عقل و لا ناه من دين- انتهى كلام المقريزی برمته بعد تخبيط كثير.

قلت: و كان يمكننی الرّدّ عليه فی جميع ما قاله بحق غير أننی لست مندوبا إلى ذلک، فلهذا أضربت عن تسويد الورق و تضييع الزمان، و الذی أعرفه أنا من حاله أنه كان سلطانا جليلا مهابا شجاعا مقداما عاقلا نقّادا. حدثنی الأمير أرنبغا اليونسیّ الناصری- رحمه اللّه- قال: كان المؤيد ينظر إلى الرّجل و ينقده بعينيه فيعرف من حاله ما يكتفی به عن السؤال عنه، ثم يعطيه من الرّزق و الإقطاعات ما يليق بشأنه كما يصف الطبيب الحاذق إلى المريض من الدواء، فإن كان الرجل أعجبه رقّاه فی أقلّ مدّة إلى أعلى المراتب، و إن كان غير ذلک شحّ عليه حتى بالإقطاع الذی يعمل عشرة آلاف درهم فی السنة- انتهى كلام أرنبغا.

قلت: هذا هو المطلوب من الملوک و إلّا يضيع الصّالح بالطّالح.

و كان المؤيّد عالی الهمة، كثير الحركات و الأسفار، جيّد التدبير، حسن السياسة، يباشر الأحكام بنفسه، مع معرفة تامة و حذق و فطنة و جودة حدس فی أموره، عظيم السّطوة على مماليكه و أمرائه، هيّنا مع جلسائه و ندمائه، طروبا يميل إلى سماع الشعر و الأصوات الطيّبة، على أنه كان يحسن أيضا أداء الموسيقى و يقوله فی مجالس أنسه، و كان يميل إلى الدّقّة الأدبيّة و يفهمها بسرعة. قيل: أنه نظر مرّة إلى اسمه و هو

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۱۱

مكتوب على بعض الحيطان، و قد كتب الدّهّان الشّين من اسم شيخ بجرّة واحدة، فلما نظره المؤيّد قال: مسكين شيخ بلا سنينات، و له أشياء كثيرة من ذلک.

و كان يشارک الفقهاء فی أبحاثهم و يتصوّر أقوالهم و يطرح عليهم المسائل المشكلة، هذا مع ميله لأرباب الكمالات من كل علم و فنّ، و تعجبه المداعبة اللطيفة.

حدثنی القاضی كمال الدين بن البارزیّ كاتب السرّ الشريف بالديار المصرية- رحمه اللّه- قال: كان المؤيّد جالسا بالبارزيّة على المقعد المطلّ على النيل، و محمود بن الأمير قلمطای الدّوادار واقفا بجانبه، و والدی من جهة أخرى و هو يقرأ القصص على السّلطان، و كان فی جملة القصص قصة الشيخ عاشق محمود العجمی أحد ندماء السلطان، فلما قرأ الوالد قصة عاشق محمود قال: المملوک، و أشار بيده إلى نفسه، ثم قال: عاشق محمود، و أشار بإصبعه إلى محمود بن قلمطای- و كان من أجمل الناس صورة- فلم يفطن لذلک أحد غير السلطان، فضحک و قال: تموت بهذه الحسرة.

و حدّثنی بعض أعيان المؤيدية قال: كان الأمير طوغان الأمير آخور أرسل إلى جانی بک الساقی أحد خواصّ الملک المؤيد ألف دينار ليزوره، فعرّف جانی بک المذكور السلطان بذلک، فاشتدّ غضب السلطان و أرسل فی الحال خلف طوغان المذكور، فلما تمثّل بين يديه سأله السلطان عن ذلک، فقال طوغان: نعم أرسلت إليه ألف دينار، و و اللّه العظيم لو لم يكن مملوكک لكنت ترسل أنت إليه عشرة آلاف دينار، فتلومنی أن أرسلت إليه ألف دينار؟!- يقول ذلک و هو فی غاية الحنق- فزال غضب الملک المؤيّد و ضحک حتى استلقى على قفاه، كل ذلک و هو محتفظ على ناموس الملک و السّير على ترتيب من تقدّمه من الملوک فی سائر أموره و حركاته.

و قد تسلطن و أحوال المملكة غير مستقيمة مما جدّده الملك الناصر فرج من الوظائف و الاستكثار من الخاصّكيّة، حتى إن خاصّكيته زادت عدّتهم على ألف نفر.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۱۲

فلا زال المؤيّد بهم حتى جعلهم ثمانين خاصّكيّا كما كانت أيام أستاذه الملك الظاهر برقوق، و كانت الدّواداريّة نحو ثمانين دوادارا، فلا زال حتى جعلهم ستّة، و كذلك الخازنداريّة و البجمقداريّة و الحجّاب، و كان يتأمّر الشخص فی أيامه و يقيم سنين و لم يسمح له بلبس تخفيفة على رأسه، كل ذلك مراعاة لأفعال السّلف، و كان عارفا بأنواع الملاعيب، رأسا فی لعب الرّمح و سوق البرجاس، قويا فی ضرب السّيف و الرّمى بالنّشّاب، ماهرا فی فنون كثيرة جدّ و هزل، لا يعجبة إلا الكامل فی فنه.

دخلت إليه مرّة و أنا فی الخامسة فعلّمنى- قبل دخولى إليه- بعض من كان معى أن أطلب منه خبزا، فلما جلست عنده و كلّمنى سألته فی ذلك، فغمز من كان واقفا بين يديه و أنا لا أدرى، فأتاه برغيف كبير من الخبز السلطانى، فأخذه بيده و ناولنيه و قال: خذ هذا خبز كبير مليح، فأخذته من يده و ألقيته إلى الأرض، و قلت: أعط هذا للفقراء، أنا ما أريد إلا خبزا بفلّاحين يأتوننى بالغنم و الأوز و الدّجاج، فضحك حتى كاد أن يغشى عليه، و أعجبه منى ذلك إلى الغاية، و أمر لى بثلاثمائة دينار، و وعدنى بما طلبته و زيادة- انتهى.

و كان يحسن تربية مماليكه إلى الغاية، و لا يرقّيهم إلا بعد مدّة طويلة، و لذلك لم يخمل منهم أحد بعد موته- فيما أعلم.

و كان يميل إلى جنس التّرك و يقدّمهم، حتى إن غالب أمرائه كانوا أتراكا، و كان يكثر من استخدام السّيفيّة و يقول: هؤلاء قاسوا خطوب الدّهر، و تأدبوا؛ و ما رسوا الأمور و الوقائع، و كان عارفا بتعبئة العساكر فی القتال ثبّاتا فی الحروب،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۱۳

محجاجا فی الأجوبة، قيل له: إن الناس تقول عنك إنك قتلت من أعيان الملوک نحو ثمانين نفسا، فقال: ما قتلت واحدا منهم إلا و قد استحقّ القتل قبل ذلك، و السلطان له أن يقتل من اختار قتله، و شنّع عنه هذه المقالة من لا يعرف معناها من الأتراک الذين يقصر فهمهم عن إدراک المعانى.

و أما فعله من وجوه البرّ فكثير، و له مآثر مشهورة به، و عمائر كثيرة، أعظمها: الجامع المؤيّدى الذى لم يبن فی الإسلام أكثر زخرفة منه بعد الجامع الأموى بدمشق، ثم تجديده لجامع المقياس، ثم لمدرسة الخرّوبية بالجيزة، و أشياء غير ذلك كثيرة.

و أما ما خلّفه من الأموال و الخيول و الجمال و السلاح فكثير جدا لم أقف على تحرير قدره.

و خلّف من الأولاد ستة- فيما أعلم- ذكرين أحدهما الملك المظفر أحمد، و أربع بنات، الجميع دون البلوغ- انتهى و اللّه سبحانه أعلم.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۱۴

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۱۵]

السنة الأولى من سلطنة الملك المؤيد شيخ على مصر و هى سنة خمس عشرة و ثمانمائة، على أن السلطان الملك الناصر فرجا حكم منها إلى يوم السبت خامس عشرين المحرّم، ثم حكم من يومئذ الخليفة المستعين العباس إلى أن خلع من السّلطنة بالملک المؤيّد هذا فی يوم الاثنين مستهلّ شعبان، فحكم المؤيّد من مستهلّ شعبان إلى آخرها، فهى على هذا التقدير أوّل سنة حكمها من سلطنته.

فيها: أعنى سنة خمس عشرة و ثمانمائة توفّى قاضى قضاة دمشق شهاب الدّين أبو العبّاس أحمد بن إسماعيل بن خليفة الدمشقى الشافعى، المعروف بابن الحسبانى، فی يوم الأربعاء عاشر شهر ربيع الأوّل بها، عن خمس و سبعين سنة و أشهر، و كان معدودا من فقهاء الشّافعيّة، أفتى و درّس سنين و تولى قضاء دمشق و قدم القاهرة غير مرّة.

و توفّى قاضى القضاة محبّ الدين محمد بن محمد بن محمد الحلبى الحنفى، المعروف بابن الشّحنة، فى يوم الجمعة ثانى عشر شهر ربيع الآخر بحلب عن ست و ستين سنة، و كان إماما عالما بارعا، أفتى و درّس بحلب و دمشق و القاهرة، و ولى القضاء بحلب ثم بدمشق، ثم ولّاه الملك الناصر [فرج] قضاء الديار المصرية لمّا حوصر بدمشق، فى يوم الخميس

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۱۵

ثالث عشرين المحرّم من هذه السّنة، عوضا عن ناصر الدّين بن العديم، بحكم توجّهه إلى شيخ و نوروز، فلم تطل مدّته، و عزل من قبل المستعين، و أعيد ابن العديم.

و توفّى الوالد - و هو على نيابة دمشق بها- فى يوم الخميس سادس عشر المحرم، و نذكر التعريف به:

فهو تغرى بردئ بن عبد اللّه من خواجا بشبغا، كان روميّ الجنس، اشتراه الملك الظّاهر برقوق فى أوائل سلطنته، و أعتقه، و جعله فى يوم عتقه خاصّكيا، ثم جعله ساقيا، و أنعم عليه بحصّة من شيبين القصر، ثم جعله رأس نوبة الجمداريّة إلى أن نكب الملك الظاهر [برقوق] و خلع و حبس بسجن الكرک، فحبس الوالد بدمشق؛ فإنه كان قد توجّه مع من توجّه من عسكر السلطان لقتال الناصرىّ و منطاش، فقبض عليه هناک، و سجن، و دام فى سجن دمشق إلى أن أخرجه الأمير بزلار العمرى نائب دمشق، و جعله بخدمته هو و دمرداش المحمدى و دقماق المحمدى.

و استمر الوالد بدمشق إلى أن خرج الملك الظّاهر برقوق من سجن الكرک، فبادر الوالد بالتّوجّه إليه قبل أن يستفحل أمره، و حضر معه الوقعة المشهورة التى كانت بينه و بين منطاش، و حمل الوالد فى الوقعة المذكورة على شخص من أمراء منطاش يسمّى آقبغا اليلبغاوىّ، فقنطره عن فرسه، فسأل برقوق عنه، فقيل له تغرى بردى، فتفاءل برقوق باسمه، لأنّ معناه: اللّه أعطى، و أنعم عليه بإقطاع امرة طبلخاناه. دفعة واحدة، مع أنه كان أنعم عليه قبل خروجه للسفر بإمرة عشرة، غير أنه لم يباشر ذلک.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۱۶

ثم أرسله الملك الظاهر [برقوق] إلى مصر يبشّر من بها بسلطنته و نصرته على منطاش، و دخل الظّاهر فى أثره إلى مصر، و بعد قليل أنعم عليه بإمرة مائة و تقدمة ألف بالدّيار المصرية، ثم جعله رأس نوبة النّوب، ثم ولّاه نيابة حلب بعد جلبّان قراسقل، ثم عزله، و أنعم عليه بتقدمة ألف بمصر على خبز شيخ الصّفوىّ الخاصّكىّ أمير مجلس، و قبل أن يخلع عليه بإمرة مجلس نقله إلى إمرة سلاح عوضا عن بكلمش العلائى بحكم مسكه، و استمر على ذلک إلى أن كانت وقعة الأتابک أيتمش مع الملك الناصر [فرج] فى سنة اثنتين و ثمانمائة.

و كان الوالد قد انضم على أيتمش هو و جماعة من الأمراء- حسبما ذكرناه فى ترجمة الملك الناصر فرج- و انهزم الجميع بعد الوقعة، و خرجوا من مصر إلى الأمير تنم نائب الشّام، و عادوا صحبته، فانكسر تنم أيضا، و قبض على الجميع، و قتلوا بقلعة دمشق إلّا الوالد لشفاعة أم الملك الناصر فيه و آقبغا الأطروش، و قتل من عداهما، و دام الوالد بسجن قلعة دمشق إلى أن أطلق، و توجّه إلى القدس بطّالا بسفارة أم الملك النّاصر أيضا، فدام بالقدس إلى أن طلبه الملك الناصر بغزّة و خلع عليه بنيابة دمشق،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۱۷

عوضا عن سودون قريب الملك الظّاهر برقوق، بحكم أسره مع تيمور.

فحكم الوالد دمشق مدّة، ثم انهزم مع الملك الناصر [فرج] إلى الديار المصرية، و استولى تيمور على دمشق، و أنعم [الملك الناصر فرج] على الوالد بتقدمة ألف بالقاهرة، فدام مدّة يسيرة، و خلع عليه [أيضا] بإعادته لنيابة دمشق، بعد خروج تيمور منها، كل ذلک فى سنة ثلاث و ثمانمائة، فتوجّه [الوالد] إليها، و أقام بها إلى أن بلغه [خبر] القبض عليه، ففرّ منها و توجّه إلى دمرداش نائب حلب، و عصيا معا، و وقع لهما أمور و حروب إلى أن انهزما.

و توجّه الوالد إلى بلاد التّركمان، فأقام بها مدّة إلى أن طلب إلى الدّيار المصريّة، و أنعم عليه بتقدمة ألف، و أجلس رأس الميسرة

أتابكا، و استمرّ على ذلك إلى أن اختفى الملك الناصر [فرج] و خلع بأخيه المنصور عبد العزيز، فخرج الوالد من الديار المصريّة على البريّة بجماعة من مماليكه إلى أن توجّه إلى القدس، فدام فى برّية القدس إلى أن عاد الملك الناصر [فرج] إلى السّلطنة و دخل على الأخت، و كان الناصر عقد عقده عليها قبل خلعه بحضرة الوالد، فلما تسلطن ثانيا دخل بها فى غيبة الوالد. ثم أرسل [الناصر فرج] بطلب الوالد، فخضر الوالد على حاله أوّلا إلى أن خلع عليه الملك الناصر باستقراره أتابك العساكر بالديار المصرية عوضا عن يشبك الشّعبانى فى سنة عشر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۱۸

و ثمانمائة، فدام على ذلك إلى أن نقل إلى نيابة دمشق فى أواخر سنة ثلاث عشرة و ثمانمائة، على كره منه بعد واقعة الكرك.

و قد ذكرنا سبب ولايته فى ترجمة الملك الناصر، لما كان على حصار الكرك، فدام على نيابة دمشق إلى أن مات فى ولايته هذه، و هى الثالثة لنيابة دمشق، و دفن بتربة الأمير تنم معه فى فسقية واحدة، و لا أعلم من أخباره شيئا لصغر سنّى فى حياته؛ فإن كان مشكور السّيرة فاللّه تعالى ينفعه بفعله، و إن كان غير ذلك فاللّه [تعالى] يرحمه بفضله.

و خلّف الوالد عشرة أولاد، ستة ذكور و أربع إناث، أسنّ الجميع خوند فاطمة توفّيت سنة ستّ و أربعين، ثم الزّينى قاسم فى قيد الحياة، و مولده قبل القرن، ثم الشّرفىّ حمزة توفّى سنة تسع و أربعين بالطاعون، ثم بيرم ماتت فى سنة ستّ و عشرين، ثم هاجر توفّيت سنة خمس و أربعين، ثم إبراهيم توفّى سنة ست و عشرين، ثم محمد [مات] سنة تسع عشرة و ثمانمائة، ثم إسماعيل مات سنة ثلاث و ثلاثين بالطاعون، ثم شقراء فى قيد الحياة، ثم كاتبه عفا اللّه [تعالى] عنه، و أنا أصغر الجميع و مولدى بعد سنة إحدى عشرة و ثمانمائة تخمينا.

و خلف الوالد من الأموال و السلاح و الخيول و الجمال شيئا كثيرا إلى الغاية، استولى على ذلك كلّه الملك النّاصر فرج لما عاد إلى دمشق منهزما من الأمير شيخ و نوروز، ثم قتل الملك النّاصر بعد أيّام، و تركنا فقراء من فقراء المسلمين، فلم يضيّعنا اللّه سبحانه و تعالى، و أنشأنا على أجمل وجه من غير مال و لا عقار، و للّه الحمد.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۱۹

و توفّى الأمير سيف الدين بكتمر بن عبد اللّه الظّاهرىّ المعروف بجلّق بالقاهرة فى ثامن جمادى الآخرة من مرض تمادى به نحو الشهرين، و أصل ضعفه أن عقربا لسعته بطريق دمشق فى عوده إلى القاهرة صحبة الخليفة المستعين بالله، و بموته خلا الجو للملك المؤيد [شيخ] حتى تسلطن، فإنه كان أمرّ عليه من نوروز الحافظىّ، و كان بكتمر أميرا جليلا شجاعا مهابا كريما متجمّلا فى مماليكه و مركبه و مأكله، و قد ولى نيابة صفد ثم نيابة طرابلس ثم نيابة دمشق غير مرّة، و وقع له حروب مع الملك المؤيّد شيخ أيّام إمرته حسبما ذكرنا ذلك كله مفصلا فى ترجمة الملك الناصر فرج- رحمه اللّه.

و قتل فى هذه السّنة جماعة كبيرة فى واقعة الملك الناصر مع الأمراء فى اللّجّون و غيره، و ممن قتل فى هذه الوقعة الأمير سيف الدين مقبل بن عبد اللّه الرّومى الظاهرىّ أحد مقدمى الألوف بالدّيار المصرية، و هو الذى كان زوّجه السلطان الملك الناصر بأخته خوند سارة زوجة الأمير نوروز الحافظىّ، و الأمير سيف الدين ألطنبغا بن عبد اللّه المعروف بشقل، و الأمير سيف الدين بلاط بن عبد اللّه الناصرى الأعرج شاد الشراب خاناه، و كان ممّن قبض عليه فى وقعة اللّجّون و وسّطه الأمير شيخ المحمودى بعد أيام، و كان بلاط المذكور من مساوئ الدّهر، فاسقا متهتّكا زنديقا يرمى بعظائم فى دينه، قيل إنّه كان يقول للملك الناصر فرج: أنت أستاذى و أبى و ربّى و نبيّى، أنا لا أعرف أحدا غيرك، و كان يسخر ممّن يصلّى، و يضحك عليه، و عدّ قتله من حسنات الملك المؤيّد [شيخ] انتهى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۲۰

و الأمير بلاط الظاهرىّ أمير علم، و كان أيضا ممن يباشر قتل خشداشيّته المماليك الظاهريّة، فوسّطه أيضا المؤيد، كل ذلك قبل سلطنته و الملك الناصر محصور بدمشق.

و توفّی الأمیر سیف الدین سودون بن عبد اللّه الظاهریّ المعروف بسودون الجلب، بعد أن ولی نیابة طرابلس و لم یدخلها، ثم ولی نیابة حلب، فتوجّه إلیها و هو مریض من جرح أصابه فی حصار الملک الناصر فرج، فمات منه فی شهر ربیع الآخر.

و کان من الشّجعان، یحکی عنه أعاجیب من خفّته و شجاعته و سرعة حرکته، و قد تقدّم ذکره فی عدة مواطن، و هو أستاذ الأمیر الکبیر یشبک السّودونی المشدّ أتابک العساکر بدیار مصرفی دولة الملک الظاهر جقمق.

و توفّی الأمیر سیف الدین یشبک بن عبد اللّه العثمانی الظاهری، أحد مقدّمی الألوف بالدیار المصریة فی یوم الجمعة أول صفر، من جرح أصابه فی أمسه عند حصار دمشق، و کان من أعیان الممالیک الظاهریة، و ممّن انضمّ مع الملک المؤید شیخ أیّام تلک الفتن.

و توفّی السلطان ملک الهند صاحب بنجالة، غیاث الدین أبو المظفر ابن السلطان إسکندر شاه، و کان من أجلّ ملوک الهند، و ممالکه متسعة جدا.

و توفّی الأمیر سیف الدین قطلوبغا بن عبد اللّه الخلیلی، نائب إسکندریة بها فی هذه السنة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۲۱

و توفّی الشیخ جمال الدین عبد اللّه بن محمد بن طیمان، المعروف بالطّیمانی الشافعی، قتل بدمشق فی الفتنة لیلة الجمعة ثامن صفر، و کان من الفضلاء، انتقل من القاهرة إلی دمشق و سکنها.

و توفّی الشیخ شهاب الدین أبو العباس أحمد بن محمد بن عماد بن علی بن الهائم المصریّ الشافعیّ بالقدس، و کان فقیها بارعا فی الحساب و الفرائض، و له مشارکة فی فنون.

أمر النیل فی هذه السنة: الماء القدیم ثلاثة أذرع سواء، مبلغ الزیادة ثمانیة عشر ذراعا و ثمانیة عشر إصبعا.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۲۲

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۱۶]

السنة الثانیة من سلطنة الملک المؤید شیخ علی مصر و هی سنة ست عشرة و ثمانمائة.

فیها توفّی الشیخ الإمام فخر الدین عثمان بن إبراهیم بن أحمد البرماویّ الشافعیّ، شیخ القراء بمدرسة الملک الظاهر برقوق، فی یوم الاثنین تاسع عشر شعبان فجأة بعد خروجه من الحمّام، و کان بارعا فی الفقه و الحدیث و القراءات و العربیة و غیر ذلک، و تصدّی للإقراء سنین.

و توفّی قاضی القضاة صدر الدین علی ابن أمین الدین محمد بن محمد الدمشقی الحنفی المعروف بابن الأدمیّ، قاضی قضاة دمشق، و کاتب سرّها، ثم قاضی [القضاة] بالدیار المصریة، فی یوم السبت ثامن شهر رمضان بالقاهرة و هو قاض، و مولده بدمشق فی سنة سبع و ستین و سبعمائة، و کان إماما بارعا أدیبا فصیحا ذکیا، ولی نظر جیش دمشق، ثم کتابة سرّها، ثم قضاءها، ثم نقله الملک المؤید إلی الدّیار المصریة، و ولّاه قضاءها بعد عزل قاضی القضاة ناصر الدین بن العدیم، ثم جمع له بین القضاء و حسبة القاهرة، إلی أن مات، و لما ولی کتابة السرّ بدمشق بعد عزل الشریف علاء الدین قال فیه العلامة شهاب الدین أحمد بن حجی: [الطویل]

تهن بصدر الدّین یا منصبا سما و قل لعلاء الدّین أن یتأدبا

له شرف عال و بیت و منصب و لکن رأینا السّرّ للصّدر أنسبا

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة؛ ج۱۴؛ ص۱۲۳

ولایة صدر الدّین للسرّ کاتبا لها فی النّفوس المطمئنّة موقع

فإن یضعوا الأشیا إذا فی محلّها فلم یک غیر السّر للصّدر موضع

قلت: و هجاه أیضا بعضهم فقال: [الرجز]

کتابة السّرّ غدت وجودها کالعدم

و أصبحت بین الوری مصفوعة بالأدم

و من شعر قاضی القضاة صدر الدین المذکور أنشدنی الشیخ شمس الدین محمد النّفیسی قال: أنشدنی قاضی القضاة صدر الدین بن الأدمی من لفظه لنفسه، و هو مما یقرأ علی قافیتین: [السریع]

یا متهمی بالسّقم کن مسعفی و لا تطل رفضی فإنّی علی ل

أنت خلیلی فبحقّ الهوی کن لشجونی راحما یا خلی ل

و له: [السریع]

قد نمّق العاذل یا منیتی کلامه بالزّور عند الملام

و ما دری جهلا بأنّی فتی لم یرع سمعی عاذلا فیک لام

و له القصیدة الطنّانة التی أولها: [الطویل]

عدمت غداة البین قلبی و ناظری فیامقلتی حاکی السّحاب و ناظری

- انتهی.

و توفّی الشیخ الإمام العالم شهاب الدین أحمد بن علاء الدین حجّی بن موسی

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۲۴

السّعدی، الحسبانی الأصل، الدّمشقی الشافعی بدمشق، و کان فقیها بارعا، أفتی و درس سنین، و خطب بجامع دمشق، و قدم القاهرة فی دولة الملک الناصر [فرج] فی الرّسلیة عن الأمیر شیخ، أعنی الملک المؤید، و کان معدودا من فقهاء دمشق و أعیانها.

و توفّی قاضی القضاة شهاب الدین أحمد بن ناصر بن خلیفة الباعونی، الشافعی الدمشقی، بدمشق فی رابع المحرم، و مولده بقریة باعونة من قری عجلون فی سنة إحدی و خمسین و سبعمائة تخمینا، و نشأ بدمشق و طلب العلم، و تولی قضاء دمشق و خطابة بیت المقدس، و درّس و أفتی، و قال الشّعر، و لما ولی قضاء دمشق هجاه بعضهم بقوله: [مجزوء الوافر]

قضاء الشّام أنشدنی بدینی لا تبیعونی

صفعت بکلّ مصفعة و بعد الکلّ باعونی

و هجاه آخر عند تولیته خطابة القدس بکلام مزعج، الإضراب عنه ألیق.

و توفّی قاضی القضاة شهاب الدین أحمد الحمصی الشّافعی، المعروف بابن

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۲۵

الشّنبلیّ، فی هذه السنة، و کان فقیها بارعا عالما، إلّا أنه لما ولی قضاء دمشق لم تحمد سیرته.

و توفّی قاضی القضاة شمس الدین محمد بن محمد بن عثمان الدّمشقیّ، الشافعی المعروف بابن الإخنائیّ، بدمشق فی نصف شهر رجب عن نحو ستین سنة، بعد أن أفتی و درّس، و ولی قضاء غزّة و حلب و دمشق و دیار مصر عدّة سنین، و کان معدودا من رؤساء دمشق و أعیانها، و له مکارم و أفضال- رحمه اللّه.

و توفّی الأمیر الوزیر سیف الدین مبارک شاه بن عبد اللّه المظفّریّ الظّاهریّ، فی شهر رمضان، کان یخدم الملک الظاهر [برقوق] أیام جندیته تبعا، فلما تسلطن رقّاه و أمّره، ثم جعله من جملة الحجّاب، ثم ولی الوزارة، ثم الأستاداریة، و أقام بعد عزله سنین إلی أن مات.

و توفّی قاضی المدینة النبویّة زین الدین أبو بکر بن حسین بن عمر بن عبد الرحمن العثمانی المراغی الشافعی المعروف بابن الحسین فی سادس عشر ذی الحجة، و کان من الفقهاء الفضلاء.

و توفّی الشیخ الإمام المفنّن العلّامة، برهان الدین إبراهیم بن محمد بن بهادر بن أحمد القرشیّ الغزی النّوفلیّ الشّافعی، المعروف بابن

زقّاعة، فى ثانى عشر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۲۶

ذى الحجّة بالقاهرة، عن اثنتين و تسعين سنة، و زقّاعه - بضم الزاى المعجمة و فتح القاف و تشديدها و بعد الألف عين مهملة مفتوحة و هاء ساكنة- و كان إماما عارفا بفنون كثيرة، لا سيّما علم النجوم، و الأعشاب، و له نظم كثير، و كانت له وجاهة عند الملوك، بحيث إنه كان يجلس فوق القضاة، و من شعره أنشدنا قاضى القضاة جمال الدين محمد أبو السعادات بن ظهيرة قاضى مكّة من لفظه قال: أنشدنى الإمام العلّامة برهان الدين إبراهيم بن زقّاعة من لفظه لنفسه: [الوافر]

رأى عقلى و لبّى فيه حارا فأضرم فى صميم القلب نارا

و خلّانى أبيت اللّيل ملقى على الأعتاب أحسبه نهارا

إذا لام العواذل فيه جهلا أصفه لهم فينقلبوا حيارى

و إن ذكروا السّلوّ يقول قلبى تصامم عن أباطيل النّصارى

و ما علم العواذل أنّ صبرى و سلوانى قد ارتحلا و سارا

فيا للّه من وجد تولّى على قلبى فأعدمه القرارا

و من حبّ تقادم فيه عهدى فأورثنى عناء و انكسارا

قضيت هواكمو عشرين عاما و عشرينا ترادفها استتارا

فنمّ الدّمع من عينى فأبدى سرائر سرّ ما أخفى جهارا

إذا ما نسمة البانات مرّت على نجد و صافحت العرارا

و صافحت الخزام و عنظوانا و شيحا ثمّ قبّلت الجدارا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۲۷

جدار ديار من أهوى قديما رعى الرّحمن هاتيك الدّيارا

ألا يا لائمى دعنى فإنّى رأيت الموت حجّا و اعتمارا

فأهل الحبّ قد سكروا و لكن صحا كلّ و فرقتنا سكارى

و من شعره أيضا فى فنّ التصوّف: [الوافر]

سألتك بالحواميم العظيمه و بالسّبع المطوّلة القديمه

و باللامين و الفرد المبدّا به قبل الحروف المستقيمه

و بالقطب الكبير و صاحبيه و بالأرض المقدّسة الكريمه

و بالغصن الذى عكفت عليه طيور قلوب أصحاب العزيمه

و بالمسطور فى رقّ المعانى و بالمنشور فى يوم الوليمه

و بالكهف الذى قد حل فيه أبو فتيانها و رأى رقيمه

و بالمعمور من زمن النصارى بأحجار بحجرتها مقيمه

ففجّر فى فؤادى عين حبّ تروّى من مشاربها صميمه

قلت: و بعض تلامذته من الصّوفيه يزعمون أن هذه الأبيات فيها الاسم الأعظم.

أمر النيل فى هذه السنة: الماء القديم خمسة أذرع سواء، مبلغ الزيادة تسعة عشر ذراعا و عشرون إصبعا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۲۸

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۱۷]

السنة الثالثة من سلطنة الملک المؤید شیخ على مصر و هى سنة سبع عشرة و ثمانمائة

فى محرمها تجرد الملک المؤید [شیخ] إلى البلاد الشامیة، لقتال الأمیر نوروز الحافظى و من معه من الأمراء و ظفر به، و قتله حسبما نذکره.

و فیها قتل الأمیر سیف الدین نوروز بن عبد اللّه الحافظى بدمشق، فى لیلة ثامن عشرین شهر ربیع الآخر، و حملت رأسه إلى الدّیار المصریة، و طیف بها ثم علّقت على باب زویلة، و کان أصل نوروز المذکور من ممالیک الملک الظاهر برقوق، و من أعیان خاصّکیته، ثم رقّاه إلى أن جعله أمیر مائة و مقدّم ألف [بالقاهرة]، ثم ولّاه رأس نوبة النّوب بعد الوالد لما ولى نیابة حلب، ثم جعله أمیر آخور کبیرا بعد الأمیر تنبک الیحیاوى فى سنة ثمانمائة، ثم أمسکه بعد فتنة على باى لأمر حکیناه فى وقته فى ترجمة الملک الظاهر برقوق، و حبسه بالإسکندریة، إلى أن أطلقه الملک الناصر [فرج] و ولاه رأس نوبة الأمراء، و صار نوروز هو المشار إلیه فى المملکة و ذلک بعد خروج أیتمش و الأمراء من مصر، ثم وقع له أمور إلى أن ولى نیابة الشام، و من حینئذ ظهر أمر نوروز و انضمّ علیه شیخ، فصار تارة یقاتل شیخا، و تارة یصطلحان، و قد تقدّم ذکر ذلک کله فى ترجمة الملک الناصر [فرج] إلى أن واقعا الملک الناصر بمن معهما فى أوائل المحرّم سنة خمس عشرة، و انکسر الناصر،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۲۹

و حوصر بدمشق إلى أن أخذ و قتل، و تقاسم شیخ و نوروز الممالک و الخلیفة المستعین هو السّلطان، فأخذ شیخ الدیار المصریة و صار أتابکا بها، و أخذ نوروز البلاد الشامیّة، و صار نائب الشام، فلما تسلطن الملک المؤید [شیخ] خرج نوروز عن طاعته، و وقعت أمور حکیت فى أوّل ترجمة الملک المؤید، إلى أن خرج الملک المؤید لقتاله، فظفر به و قتله.

و کان نوروز ملکا جلیلا، کریما شجاعا، مقداما عارفا عاقلا مدبّرا، وجیها فى الدّول، و هو أحد أعیان ممالیک الظّاهر برقوق، معدودا من الملوک، طالت أیّامه فى الریاسة، و عظمت شهرته، و بعد صیته فى الأقطار، و کان متجمّلا فى ممالیکه و حشمه، بلغت عدّة ممالیکه زیادة على ألف مملوک، و کانت جامکیّة ممالیکه بالشّام من مائة دینار إلى عشرة دنانیر، و مات عن ممالیک کثیرة، و ترقّوا بعده إلى المراتب السّنیّة، حتى إنّ کلّ من ذکرناه من بعده، و نسبناه بالنّوروزىّ فهو مملوکه و عتیقه، و فى هذا کفایة.

و قتل معه جماعة من أعیان الأمراء حسبما نذکرهم أوّلا بأوّل.

و فیها قتل من أصحاب نوروز الأمیر سیف الدین یشبک بن أزدمر الظاهرى، رأس نوبة النّوب، ثم نائب حلب، و کان ممّن انضم مع نوروز بعد وفاة الوالد، فإنّ الوالد کان أخذه عنده. بدمشق لمّا ولى نیابتها، و جعله الملک النّاصر أتابکا بها، و عقد الوالد عقده على ابنته، و سنّها نحو أربع سنین لئلا یصل إلیه من الملک النّاصر سوء.

و دام مع نوروز إلى أن قبض علیه و قتل بدمشق حسبما تقدّم ذکره، و کان رأسا فى الشجاعة و الإقدام، شدید القوّة فى الرّمى بالنّشّاب، إلیه المنتهى فیه.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۳۰

و فیها قتل الأمیر سیف الدین طوخ بن عبد اللّه الظّاهرى المعروف بطوخ بطّیخ نائب حلب، و هو أحد أصحاب نوروز، ذبح بدمشق مع نوروز و غیره.

و فیها قتل الأمیر سیف الدین قمش بن عبد اللّه الظّاهرىّ نائب طرابلس، و هو أیضا من أصحاب نوروز. و الجمیع قتلوا فى لیلة ثانى عشرین شهر ربیع الآخر، حسبما تقدم ذکره.

و فیها توفّى الأمیر الکبیر سیف الدین یلبغا النّاصرىّ الظّاهرى أتابک العساکر بالدّیار المصرّیة، فى لیلة الجمعة ثانى شهر رمضان

بالقاهرة، بعد عوده من الشام صحبة السلطان و هو أيضا من أصحاب نوروز، و من أعيان خاصّكيّة الملك الظاهر برقوق، و أحد مماليكه، و ترقّى فى الدولة الناصرية إلى أن صار أمير مائة و مقدّم ألف بالديار المصريّة، و قد مرّ من ذكره نبذة كبيرة فى دولة الناصر، ثم المؤيّد، و هو ثالث من ولى الأتابكيّة بديار مصر، و نعت بيلبغا الناصرى فى الدّولة التركيّة، فالأوّل منهم يلبغا العمرى الناصرى صاحب الكبش، و أستاذ برقوق، و الثانى الأتابك يلبغا النّاصرى اليلبغاوىّ صاحب الوقعة مع الملك الظاهر برقوق، و نسبته بالناصرى إلى تاجره خواجا ناصر الدين، و هو مملوك يلبغا السابق ذكره- انتهى.

و الثالث يلبغا الناصرى هذا، و هو من مماليك برقوق. و نسبته بالناصرى إلى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۳۱

تاجره خواجا ناصر الدين، و قد ذكرنا هؤلاء الثلاثة فى تاريخنا المنهل الصافى، فى محل واحد فى حرف الياء؛ كون الاسم و الشهرة واحدة.

و توفّى الأمير سيف الدين شاهين بن عبد اللّه الظاهرى الأفرم أمير سلاح، برملة لدّ، و هو عائد إلى مصر صحبة السلطان إلى حلب من جرح أصابه، و كان أميرا شهما شجاعا، رأسا فى ركوب الخيل و فنّ الفروسيّة، و قد تقدّم أن الفروسيّة نوع آخر غير الشجاعة و الإقدام، فالشّجاع هو الذى يلقى غريمه بقوّة جنان، و فارس الخيل هو الرجل الذى يحسن تسريح الفرس فى كرّه و فرّه، و يدرى ما يلزمه من أمور فرسه و سلاحه، و تدبير ذلك كلّه، بحيث إنه يسير فى ذلك على القوانين المقررة المعروفة بين أرباب هذا الشأن.

قلت: نادرة أخرى، و شاهين هذا هو أيضا ثالث أفرم من أعيان الملوك فى دولة التركيّة.

فالأول منهم: الأفرم الكبير، صاحب الرّباط فى بركة الحبش و الأملاك الكثيرة، و هو الأمير عز الدين أيبك أمير جاندار الظاهر بيبرس، و المنصور قلاوون.

و الثانى آقوش الدّواداريّ المنصورى الأمير جمال الدين نائب الشام، و الثالث شاهين هذا. فهؤلاء من الملوك، و أما غير الملوك فكثير لا يعتدّ بذكرهم.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۳۲

و توفّى الأمير سيف الدين جانى بك بن عبد اللّه المؤيدى الدّوادار بمدينة حمص، و هو متوجّه صحبة السلطان إلى حلب من جرح أصابه فى محاربة نوروز، و كان من أعيان مماليك المؤيد أيّام إمرته، فلما تسلطن رقّاه و أنعم عليه بإمرة طبلخاناه، و جعله دوادارا ثانيا، ثم ولّاه الدّواداريّة الكبرى بعد مسك طوغان الحسنى، فلم تطل مدّته، و خرج إلى التّجريدة و جرح و مات، و كان عنده شجاعة و إقدام مع تيه و شمم و تكبر، و تولّى خشداشه الأمير آقباى المؤيدى الخازندار عوضه الدّواداريّة الكبرى.

و توفّى قاضى مكّة، و مفتيها، و خطيبها، جمال الدين أبو حامد محمد ابن عفيف الدين عبد اللّه بن ظهيرة القرشىّ المخزومى المكىّ الشافعىّ بمكّة فى ليلة سابع عشرين شهر رمضان عن نحو سبع و ستين سنة، و مات و لم يخلف بعده بالحجاز مثله.

و توفّى قاضى الحنفيّة بالمدينة النّبويّة الشيخ زين الدين عبد الرحمن ابن نور الدين على المدنىّ الحنفى بها، و قد أناف على سبعين سنة، بعد أن ولى قضاء المدينة ثلاثا و ثلاثين سنة مع حسبتها، و شكرت سيرته.

و توفّى بالقاهرة الشريف سليمان بن هبة اللّه بن جمّاز بن منصور الحسينى المدنى، أمير المدينة النبويّة، و هو معزول بسجن قلعة الجبل، و قد ناهز الأربعين سنة من العمر.

و توفّى العلامة فريد عصره قاضى قضاة زبيد، مجد الدين أبو طاهر محمد بن

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۳۳

يعقوب بن محمد بن إبراهيم بن عمر الفيروزابادى الشيرازى الشافعىّ، اللّغوىّ النّحوى، صاحب كتاب «القاموس» فى اللغة، فى ليلة العشرين من شوال عن ثمان و ثمانين سنة و أشهر، و هو متمتّع بحواسّه، و كان إماما بارعا نحويّا لغويّا مصنّفا، طاف البلاد، و رأى

المشايخ، و أخذ عن العلماء، و قدم مصر و أقرأ بها، ثم توجّه إلى اليمن، و ولى قضاء زبيد نحو عشرين سنة حتى مات. أنشدنا الشيخ أبو الخير المكىّ من لفظه قال: أنشدنى الأديب الفاضل على بن محمد بن حسين بن عليّف المكى العكىّ العدنانى من لفظه لنفسه فى كتاب الشيخ مجد الدين [المسمى بالقاموس] [الكامل]

مذ مدّ مجد الدّين فى أيّامه من بعض أبحر علمه القاموسا

ذهبت صحاح الجوهرىّ كأنّها سحر المدائن يوم ألقى موسى

و قد استوعبنا مصنّفاته فى تاريخنا المنهل الصافى و المستوفى بعد الوافى، إذ هو محل الإطناب فى التراجم.

و أمّا ما أثبت له من الشعر: أنشدنا الحافظ شهاب الدين أحمد بن حجر إجازة، قال أنشدنا العلّامة مجد الدين الفيروزابادى لنفسه إجازة إن لم يكن سماعا: [الوافر]

أحبّتنا الأماجد إن رحلتم و لم ترعوا لنا عهدا و إلّا

نودّعكم و نودعكم قلوبا لعلّ اللّه يجمعنا و إلّا

أعترض عليه فى «و إلا» الثانية فإنها من غير توطئة- انتهى.

أخبرنى الشيخ تقىّ الدين المقريزى رحمه اللّه قال: أخبرنى الشيخ الإمام مجد الدين محمد بن يعقوب الشّيرازىّ الفيروزابادىّ من لفظه بمكة فى ذى الحجّة سنة تسعين و سبعمائة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۳۴

أنّه حضر بستانا بدمشق و قد جمع فيه الإمام العلّامة جمال الدين أحمد بن محمد الشّريشىّ الشّافعى و جماعة من أعيان دمشق لمأدبة فى يوم الثلاثاء العشرين من شعبان سنة ثلاث و ستين و سبعمائة، و كان ممن حضر المجلس العلّامة بدر الدين محمد ابن الشيخ جمال الدين الشّريشى المذكور، و معه ما ينيف على أربعين سفرا من كتب اللغة منها صحاح الجوهرى، فأخذ كلّ من الحاضرين- و هم: الشيخ عماد الدين بن كثير، و الشيخ صلاح الدين الصّفدى، و شمس الدين الموصلىّ، و صدر الدين بن العزّ، و جماعة أخر- فى يده سفرا من تلك الأسفار، و امتحن البدر بن الشّريشى فى السؤال عن الأبيات المستشهد بها، فأنشد كلّ ما وقع فى تلك الكتب، و تكلّم على الموادّ اللغوية من غير أن يشذّ عنه شىء منها، و تكلم عليها بكلام مفيد متقن، فجزم الحاضرون أنه يحفظ جميع شواهد اللغة، و كتبوا له أ جائز بذلك، و من جملة من كتب له الشيخ مجد الدين هذا- انتهى.

أمر النيل فى هذه السنة: الماء القديم سبعة أذرع سواء، مبلغ الزيادة تسعة عشر ذراعا و خمسة أصابع.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۳۵

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۱۸]

السنة الرابعة من سلطنة الملك المؤيد شيخ على مصر و هى سنة ثمانى عشرة و ثمانمائة.

فيها فى شهر رجب تجرّد السلطان الملك المؤيد [شيخ] إلى البلاد الشامية لقتال الأمير قانى باى نائب الشام و من معه حسبما تقدّم ذكره من قتاله لهم، و قتله إياهم- يأتى ذكر الجميع فى هذه السنة- و أول من قتله منهم الأمير قانى باى المحمدىّ الظاهرىّ نائب الشام فى العشر الأوسط من شعبان بحلب، و حملت رأسه إلى القاهرة، و طيف بها ثم علّقت أياما، و كان أصل قانى باى هذا من مماليك الملك الظاهر برقوق و أعيان خاصّكيته، ثم تأمّر فى الدّولة الناصرية [فرج] إمرة مائة و تقدمة ألف، ثم صار فى دولة الملك المؤيد شيخ رأس نوبة النّوب، ثمّ أمير آخور كبيرا، و سكن باب السّلسلة على العادة و عمّر مدرسته برأس سويقة منعم من الصّليبة بالشارع الأعظم، ثم ولى نيابة دمشق بعد الأمير نوروز الحافظىّ بعد خروجه عن الطاعة، فباشر نيابة دمشق إلى أن أشيع عنه الخروج عن الطاعة و طلبه الملك المؤيد شيخ إلى القاهرة ليستقرّ أتابكا بها، و ولّى عوضه نيابة دمشق الأتابك ألطنبغا العثمانى، فلما بلغ قانى باى ذلك

خرج عن الطاعة بعد أيام، و قاتل أمراء دمشق، و ملك دمشق، و وافقه الأمير إينال الصّصلانىّ نائب حلب، و الأمير سودون من عبد الرحمن نائب طرابلس، و الأمير تنبک البجاسى نائب حماة، و الأمير طربای نائب غزّة، و خرج إليه الملك المؤيد مخفا، و قاتله بظواهر حلب، حسبما ذكرنا ذلك كلّه فى أصل ترجمة الملك المؤيد من هذا الكتاب، فظفر به بعد أيام و قتله، و كان من

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۳۶

أجلّ خاصّكيّة الملك الظاهر برقوق، و عنده رياسة و حشمة و تجمّل، و مات و سنّه دون الأربعين.

و فيها قتل الأمير سيف الدين إينال بن عبد اللّه الصّصلانى الظاهرىّ نائب حلب أحد أصحاب قانى باى المقدّم ذكره، فى العشر الأوسط من شعبان، و كان أصله أيضا من أعيان خاصّكيّة الملك الظاهر برقوق و مماليكه، و تأمّر أيضا فى دولة الملك الناصر فرج إلى أن صار أمير مائة و مقدّم ألف، و حاجب الحجّاب، ثم صار فى دولة المؤيد أمير مجلس، ثم نقل إلى نيابة حلب بعد قتل نوروز الحافظىّ، إلى أن خرج قانى باى نائب الشّام عن الطاعة، و وافقه إينال هذا إلى أن كان من أمرهم ما كان، و قتل و حملت رأسه أيضا إلى القاهرة مع رأس قانى باى، و كان إينال المذكور أميرا شجاعا، مقداما كريما، عاقلا سيوسا، معدودا من الفرسان- رحمه اللّه تعالى.

و فيها قتل الأمير سيف الدين ثمان تمر اليوسفىّ الظاهرىّ، أتابك حلب- المعروف بأرق- معهما فى التاريخ المقدّم ذكره، و حملت رأسه أيضا إلى مصر، و كان تمان تمر أيضا من أعيان المماليك الظاهرية، و ترقّى بعد موت الملك الظاهر حتى ولى إمرة مائة و تقدمة ألف بديار مصر، ثم صار أمير جاندار، إلى أن قبض عليه الملك المؤيّد شيخ و حبسه مدّة، ثم أطلقه و ولّاه أتابكيّة حلب، فلما خرج قانى باى و إينال نائب حلب وافقهما مع من وافقهما من الأمراء و النوّاب، حتى قبض عليهم، و وقع من أمرهم ما وقع، و كان أيضا من الشجعان، و كان تركىّ الجنس.

و فيها قتل أيضا الأمير سيف الدين جرباش بن عبد اللّه الظاهرىّ المعروف بكبّاشة حاجب حجّاب حلب، و حملت رأسه إلى القاهرة، و كان أيضا من المماليك الظاهرية، [برقوق] و تأمّر فى الدولة الناصرية [فرج]، و المؤيّدية [شيخ] إلى أن أخرجه الملك المؤيد منفيّا إلى القدس، ثم استقرّ به فى حجوبيّة حلب، إلى أن كان

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۳۷

من أمر قانى باى و إينال ما كان، فقتل معهما، و قتل غير هؤلاء أيضا خلائق فى الوقعة و غيرها.

و فيها توفّى قاضى القضاة شمس الدين محمد ابن العلّامة جلال الدين رسولا بن يوسف التّركمانى الحنفى، المعروف بابن التّبانىّ، قاضى قضاة دمشق بها، فى يوم الأحد ثامن عشرين شهر رمضان، و كان إماما عالما فاضلا، معدودا من فقهاء الحنفية.

و توفّى الوزير الصّاحب سعد الدين إبراهيم بن بركة المعروف بابن البشيرىّ بالقاهرة فى يوم الأربعاء رابع عشر صفر، و مولده فى ليلة السبت سابع ذى القعدة سنة ستّ و ستين و سبعمائة بالقاهرة، و كان معدودا من رؤساء الأقباط، تنقّل فى عدّة وظائف إلى أن ولى الوزر غير مرة، و نظر الخاص.

و توفّى الشيخ زين الدين حاجى الرّومى الحنفى شيخ التّربة الناصرية التى أنشأها الملك الناصر [فرج] على قبر أبيه الملك الظّاهر برقوق بالصحراء، فى ليلة الخميس رابع شوال، و استقر عوضه فى مشيختها الشيخ شمس الدين محمد بن أحمد البساطى المالكى، بعناية الأمير ططر نائب الغيبة.

و توفّى الشيخ المعتقد الصالح، محمد الدّيلمىّ فى رابع ذى الحجة، و دفن بالقرافة، و كان للناس فيه اعتقاد، و يقصد للزيارة للتبرك به.

و توفّى الملك أميرزة إسكندر ابن أميرزة عمر شيخ بن تيمور لنک، صاحب بلاد فارس، و كان ملكها بعد قتل أخيه أميرزة محمد، و دام إسكندر على ملك فارس سنين إلى أن بدا له مخالفة عمّه شاه رخّ بن تيمور لنک، فسار إليه شاه رخّ المذكور،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۳۸

و قاتله و أسره و سمل عينيه بعد أمور و حروب، و أقام شاه رخّ عوضه أخاه رستم ابن أميرزة عمر شيخ، فجمع إسكندر المذكور جمعا ليس بذلک، و قدّم عليهم ابنه، و جهّزهم إلی أخيه رستم، فخرج إليهم رستم المذكور و قاتلهم و هزمهم، و أخذ إسكندر هذا أسيرا، ثم قتله بأمر عمّه شاه رخّ، و كان إسكندر المذكور ملكا فاضلا ذكيا فطنا، يكتب المنسوب إلی الغاية فی الحسن، و بخطه ربعة عظيمة بمكة المشرفة، و كان حافظا للشعر و يقوله باللغة العجمية و التركية، و كانت لديه فضيلة و مشاركة فی فنون.

و فيها قتل الأمير الكبير سيف الدين دمرداش بن عبد اللّه المحمّديّ الظاهریّ بسجن الإسكندرية فی يوم السبت ثامن عشر المحرّم.

و كان دمرداش هذا من أعيان مماليک الظاهر برقوق، و ترقّی فی أيّام أستاذه إلی أن ولی أتابكيّة دمشق، ثم نيابة حماة، ثم نيابة طرابلس، ثم أمسكه و حبسه ساعة، و أطلقه بسفارة الوالد لمّا ولی نيابة حلب، فجعله الظاهر أتابک العساكر بحلب، ثم نقله ثانيا إلی نيابة حماة، ثم نقله إلی نيابة حلب بعد واقعة تنم الحسنی نائب الشّام، و قدم تيمور لنک البلاد الشاميّة فی نيابته، ثم خرج عن الطاعة مع الوالد، و وقع له بعد ذلک أمور و حروب و خطوب- تقدّم ذكرها فی ترجمة الملک الناصر فرج، ثم فی ترجمة الملک المؤيد شيخ- و محصول هذا كله، أنه ولی أتابكيّة العساكر بالديار المصرية بعد الوالد، ثم ولی نيابة الشّام بعده أيضا بحكم وفاته، ثم فرّ من الملک الناصر [فرج] لمّا حوصر بدمشق إلی البلاد الحلبيّة، و دام بها، إلی أن كانت فتنة نوروز، و تولّی ابن أخيه قرقماس سيدی الكبير نيابة الشّام عوضا نوروز، و طلبه الملک

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۳۹

المؤيّد فقدم عليه من البحر، و قد عاد قرقماس إلی مصر، فقبض الملک المؤيّد عليهما، و أرسل قبض علی ابن أخيه تغری بردی سيدی الصغير من صالحية بلبيس، و قال: هؤلاء أهمّ من الأمير نوروز، و قتل تغری بردی سيدی الصغير فی يوم عيد الفطر سنة ستّ عشرة، ثمّ قتل أخاه قرقماس سيدی الكبير بسجن الإسكندرية، و أبقی عمّهما دمرداش هذا إلی هذا اليوم فقتله، و قد تقدم من ذكر دمرداش ما فيه غنية عن ذكره هنا ثانيا.

و فيها قتل الأمير سيف الدين سودون بن عبد اللّه المحمدیّ الظاهریّ المعروف بسودون تلّی- أی مجنون- فی يوم السبت ثامن عشر المحرّم بسجن الإسكندرية، مع الأمير دمرداش المقدّم ذكره، و كان سودون أيضا من أعيان المماليک الظاهريّة [برقوق]، و ترقّی فی دولة الملک الناصر فرج إلی أن صار أمير آخور كبيرا، ثم خرج عن طاعة الملک الناصر، و وقع له أمور، و انضم علی الأميرين شيخ و نوروز، و دام معهما سنين إلی أن انكسر الملک الناصر و قتل، فقدم القاهرة- صحبة الأمير الكبير شيخ فی خدمة الخليفة- علی أعظم إقطاعات مصر، و كان يميل إلی نوروز أكثر من شيخ، غير أن نوروز أرسله مع الأمير شيخ هو و الأمير بكتمر جلّق صفة التّرسيم ليمنعاه من الوثوب علی السّلطنة، فمات بكتمر بعد أشهر، فتلاشی أمر سودون المذكور، فأخذ الملک المؤيد يخادعه إلی أن استفحل أمره، فقبض عليه و حبسه بالإسكندرية إلی أن قتله فی التاريخ المذكور.

و فيها أيضا قتل الأمير سيف الدين أسنبغا الزّرد كاش أحد المماليک الظاهريّة [برقوق] أيضا، بسجن الإسكندرية مع دمرداش و سودون المحمدی، و كان ممّن صار أمير مائة و مقدّم ألف بالديار المصرية فی دولة الملک الناصر فرج، و جعله بديار مصر

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۴۰

فی سفرته التی قتل فيها، و دام بمصر إلی أن قبض عليه الملک المؤيد و حبسه بالإسكندرية ثمّ قتله فی التاريخ المقدم ذكره.

أمر النيل فی هذه السنة: الماء القديم ستة أذرع و نصف، مبلغ الزيادة عشرون ذراعا سواء.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۴۱

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۱۹]

السنة الخامسة من سلطنة الملك المؤيد على مصر و هى سنة تسع عشرة و ثمانمائة.

فيها توفّى الأمير سيف الدين تنبك بن عبد اللّه المؤيّدى، شاد الشراب خاناه، و أحد أمراء الطّبلخانات، فى سادس عشرين صفر، و حضر السلطان الصلاة عليه بمصلّاة المؤمنى، و كان من أكابر المماليك المؤيّدية، خصيصا عند السلطان، مشكور السّيرة.

و توفّى أستادار الوالد الأمير الوزير شهاب الدين أحمد ابن الحاج عمر بن قطينة، فى يوم الأحد ثانى عشرين المحرّم، و كان يباشر فى بيوت الأمراء، و اتصل بخدمة الوالد سنين، ثم ولى الوزارة فى الدّولة الناصرية دون الأسبوع فى سنة اثنتين و ثمانمائة، و عزل و عاد إلى أستادارية الوالد، و تصرّف مع ذلك فى عدة أعمال، و كان معدودا من أعيان المصريين.

و توفّى الشيخ الإمام نجم الدين [بن فتح الدين]، أبو الفتح محمد بن محمد بن عبد الدايم الحنبلى، فى هذه السنة، و كان من أعيان فقهاء الحنابلة.

و توفّى الشيخ الإمام العلّامة همام الدين محمد بن محمد الخوارزمىّ، الشّافعى، شيخ المدرسة الناصرية المعروفة بالجمالية، برحبة باب العيد بالقاهرة، و كان عالما فى عدة فنون.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۴۲

و توفّى القاضى شهاب الدين أحمد الصّيفدى ناظر البيمارستان المنصورى بالقاهرة و ناظر الأحباس، فى ثانى عشر شهر ربيع الأوّل، و كان أولا يباشر التّوقيع بخدمة الملك المؤيّد شيخ فى أيام إمرته، فلما رشح للسلطنة خلع عليه بنظر البيمارستان، و استقرّ القاضى ناصر الدين ابن البارزىّ عوضه فى توقيع الأمير شيخ، فوصل بذلك إلى وظيفة كتابة السّرّ.

و توفّى قاضى القضاة أمين الدين عبد الوهاب ابن قاضى القضاة شمس الدين محمد بن أبى بكر الطرابلسىّ الحنفى، قاضى قضاة الدّيار المصرية، فى ليلة السبت سادس عشرين شهر ربيع الأول، و قد تجاوز أربعين سنة، و كان مشكور السّيرة قليل البضاعة.

و توفّى الأمير سيف الدين قمارى بن عبد اللّه، شادّ السلاح خاناه، و أمير الرّكب الأوّل من الحاج، فى رابع عشرين شوّال، فى وادى القباب، و هو متوجّه إلى الحج.

و توفّى الشيخ الإمام المحدّث تقىّ الدين أبو بكر بن عثمان بن محمد الجيتى، الحنفى قاضى العسكر بالدّيار المصرية بها، و كان من الفضلاء، معدودا من فقهاء الحنفية و نحاتهم، و كان وجيها فى الدّولة المؤيدية [شيخ] إلى الغاية.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۴۳

و توفّى الأمير سيف الدين أرغون بن عبد اللّه من بشبغا الظاهرى، الأمير آخور- كان- فى الدولة الناصرية فرج بالقدس بطالا فى يوم الجمعة ثالث ذى القعدة، و كان ديّنا خيرا، عفيفا عن المنكرات و الفروج، و هو أحد أعيان المماليك الظاهريّة و خشداش الوالد، كلاهما جلبه خواجا بشبغا، و قد تقدّم من ذكره نبذة كبيرة فى ترجمة الملك الناصر فرج.

و توفّى الطواشى زين الدين مقبل بن عبد اللّه الأشقتمرىّ رأس نوبة الجمدارية فى ليلة الاثنين رابع عشر شهر ربيع الآخر، و دفن بمدرسته التى بخط التّبانة، و كان رومى الجنس، و لديه فضيلة.

و توفّى قاضى القضاة ناصر الدين محمد ابن قاضى القضاة كمال الدين عمر بن إبراهيم بن محمد المعروف بابن أبى جرادة، و ابن العديم الحلبى الحنفى قاضى قضاة الدّيار المصرية بها، بعد مرض طويل، فى ليلة السبت تاسع شهر ربيع الآخر، عن سبع و عشرين سنة، بعد ما ولى القضاء نحو ثمانى سنين، على أنه صرف منها مدّة، و كان عالما ذكيا فطنا، مع طيش و خفّة، و مهابة و حرمة، و ثروة و حشم، و قد ثلمه الشيخ تقى الدين المقريزى بقوادح ليست فيه، و الإنصاف فى ترجمته ما ذكرناه، و أنا أعرف بحاله من الشيخ تقى الدين و غيره؛ لكونه كان زوج كريمتى، و مات عنها، و تولى القضاء بعده الشيخ شمس الدين محمد الدّيرىّ [الحنفى] القدسى بعد أشهر.

و توفّى الشيخ الإمام العالم العلامة عزّ الدين محمد ابن شرف الدين أبى بكر ابن قاضى القضاة عز الدين عبد العزيز ابن قاضى القضاة

بدر الدين محمد بن إبراهيم بن

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۴۴

جماعة - مطعونا- فى يوم الأربعاء العشرين من شهر ربيع الأول، و مولده بمدينة الينبع بأرض الحجاز سنة تسع و خمسين و سبعمائة، و كان بارعا، مفنّنا، إماما فى العلوم العقليّة، مشاركا فى عدّة فنون، و به تخرج غالب علماء عصرنا، و كان احترز على نفسه من الطاعون، و احتمى عن المغلّظات، و سلك طريق الحكماء، و استعمل الأشياء الدافعة للطاعون و الخمّ، و أكثر من ذلك إلى أن طعن و هو أعظم ما يكون من الاحتراز، فما شاء اللّه كان.

و توفّى الصاحب الوزير تقى الدين عبد الوهاب ابن الوزير الصاحب فخر الدين عبد اللّه ابن الوزير الصاحب تاج الدين موسى ابن علم الدين أبى شاكر ابن تاج الدين أحمد ابن شرف الدولة إبراهيم ابن الشيخ سعيد الدّولة بالقاهرة فى يوم الخميس حادى عشر ذى القعدة، و كان مشكور السيرة، يتنصّل من صحبة الأقباط أبناء جنسه، و يتديّن و يصحب الصّلحاء من المسلمين، و لا يدخل فى بيته أحدا من نسوة النصارى البتّة- رحمه اللّه تعالى.

و توفّيت خوند أخت الملك الظاهر برقوق، بنت الأمير آنص الجاركسية، أم الأتابك بيبرس، فى ليلة الأحد رابع عشر ذى القعدة، بعد سن عال، و هى الصّغرى من أخوة برقوق.

و توفّى الشيخ زين الدين أبو هريرة عبد الرحمن ابن الشيخ شمس الدين أبى أمامة محمد ابن على بن عبد الواحد بن يوسف بن عبد الرحيم الدّكالىّ الشّافعىّ، المعروف بابن النّقاش،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۴۵

خطيب جامع أحمد بن طولون، فى يوم عيد النحر، و كان يعظ، و لكلامه موقع فى القلوب، مع فضيلة تامّة، و دين متين، و قيام فى ذات اللّه [تعالى].

و توفّى قاضى القضاة شمس الدّين محمد بن على بن معبد المقدسىّ، المعروف بالمدنى المالكى، فى يوم الجمعة عاشر شهر ربيع الأوّل عن سبعين سنة، و كان مشكور السّيرة فى ولايته بالعفة، على أن بضاعته من العلم كانت مزجاة.

و توفّيت خوند بنت الملك الناصر فرج، زوجة المقام الصّارمى إبراهيم ابن الملك المؤيدى شيخ، فى شهر ربيع الأوّل، و هى أكبر أولاد الناصر، و هى التى كان تزوّجها بكتمر جلّق فى حياة والدها، و سنها دون عشر سنين.

و فيها كان الطاعون و الغلاء بالديار المصرية حسبما تقدم ذكره:

أمر النيل فى هذه السنه: الماء القديم سبعة أذرع و نصف، مبلغ الزيادة عشرون ذراعا سواء كالعام الماضى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۴۶

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۲۰]

السنة السادسة من سلطنة الملك المؤيد شيخ على مصر و هى سنة عشرين و ثمانمائة.

فيها تجرّد السلطان الملك المؤيد المذكور إلى البلاد الشامية، و فتح عدّة قلاع ببلاد الروم مثل كختا و كركر و بهسنا و غيرها، و هى تجريدته الثالثة، و أيضا آخر سفراته إلى الشام.

و فيها توفّى الأمير زين الدين فرج ابن السلطان الملك الناصر فرج ابن السلطان الملك الظاهر برقوق ابن الأمير آنص الجاركسىّ بسجن الإسكندرية فى ليلة الجمعة سادس عشرين [شهر] ربيع الأوّل، و دفن بالإسكندرية، ثم نقلت جثته إلى القاهرة، و دفنت بتربة والده التى بناها الملك الناصر على قبر أبيه الملك الظاهر [برقوق] بالصحراء خارج القاهرة، و مات و لم يبلغ الحلم، و هو أكبر أولاد الملك الناصر فرج من الذكور، و بموته خمدت نفوس الظاهرية.

و توفّى الأمير سيف الدين آقبردى بن عبد اللّه المؤيدى المنقار، أحد أمراء الألوف بالديار المصرية، فى ليلة الخميس سابع عشرين صفر بدمشق، و كان توجه إليها صحبة أستاذه الملك المؤيد، و هو أحد أعيان مماليك [الملك] المؤيد شيخ، اشتراه أيام إمرته و قاسى معه تلك الحروب و الفتن و التشتت فى البلاد، فلما تسلطن أمّره عشرة، ثم نقله إلى إمرة طبلخاناه، و جعله رأس نوبة ثانيا، و هو أول من حكم ممّن ولى هذه الوظيفة، و قعدت النّقباء على بابه، ثم أنعم عليه بإمرة مائة و تقدمة ألف بديار مصر، ثم ولى نيابة إسكندرية مدّة، ثم عزله و أقرّه على إقطاعه، و أخذه صحبته إلى التجريدة و هو مريض فى محفّة فمات بالبلاد الشاميّة، و كان شجاعا مقداما كريما، مع جهل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۴۷

و ظلم و جبروت، و خلق سيّئ، و بطش و حدّة مزاج، و قبح منظر. قلت: و على كل حال مساوئه أكثر من محاسنه.

و توفّى القاضى تاج الدين عبد الوهاب بن نصر اللّه بن حسن الفوى الحنفى.

أخو الصاحب بدر الدين بن نصر اللّه، كان وكيل بيت المال، و ناظر الكسوة، و أحد نواب الحكم الحنفيّة، و هو والد صاحبنا القاضى تقى الدين بن نصر اللّه، فى ليلة السبت ثالث عشر جمادى الآخرة بالقاهرة، و كان مولده فى سنة ستين و سبعمائة، و مات فى حياة والده، و كان من أعيان الديار المصرية و رؤسائها.

و توفّى الشيخ الإمام العالم الزاهد الورع شرف الدين موسى بن على المناوىّ المالكى الفقيه العابد، بمكة المشرفة فى ثانى شهر رمضان، و كان من الأبدال، جاور بمكة و المدينة سنين، و كان أوّلا بالقاهرة فى طلب العلم، و حفظ الموطّأ حفظا جيّدا، و برع فى الفقه و العربيّة، و شارك فى فنون، ثم تزهد فى الدنيا، و ترك ما كان بيده من الوظائف من غير عوض يعوّضه فى ذلك، و انفرد بالصحراء مدّة، ثم خرج إلى مكّة فى سنة تسع و تسعين و سبعمائة، و أقبل على العبادة متخلّيا من كلّ شيء من أمور الدّنيا، معرضا عن جميع الناس حتى صار أكثر إقامته بمكّة فى الجبال، لا يدخلها إلّا فى يوم الجمعة، أو فى النّادر، و كان يقصد للزّيارة و التّبرّك به، و كان ممّن لا يريد الشّهرة.

و توفّى الأمير سيف الدين آقباى بن عبد اللّه المؤيّدى نائب الشّام بها فى قلعة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۴۸

دمشق [فى ذى القعدة]، و قد مرّ من ذكره ما فيه كفاية عن ذكره ثانيا عند خروجه من قلعة دمشق و القبض عليه، كلّ ذلك فى ترجمة أستاذه الملك المؤيد [شيخ] و هو أحد أعيان مماليك المؤيد، و أحد الأربعة المعدودة بالشّهامة و الشجاعة.

و هم: الأمير جانى بك المؤيدى الدّوادار، و الأمير آقباى الخازندار ثم الدّوادار هذا، و الأمير يشبك اليوسفىّ المؤيدى المشدّ ثم نائب حلب الآتى ذكره، و الأمير آقبردى المؤيّدى المنقار المقدم ذكره فى هذه السنة، فهؤلاء الأربعة كانوا من الشجعان [ضاهوا أعيان مماليك الملك الظاهر برقوق، بل بالغ بعض خشداشيّتهم بأنّهم أعظم و أشهم، و فى ذلك نظر].

و توفّى الشيخ شمس الدين محمد بن على بن جعفر البلالى الشافعى، شيخ خانقاه سعيد السعداء بها، فى يوم الجمعة رابع عشر شهر رمضان، و كان فقيها فاضلا معتقدا، و له شهرة كبيرة، و كان الوالد يحبّه، و يبرّه بالأموال و الغلال، و غير ذلك.

و توفّى الأمير ناصر الدين محمد السّلاخورىّ، نائب دمياط، قتيلا فى رابع عشر ذى الحجّة، بعد ما ولى عدّة وظائف بالبذل و السّعى.

أمر النيل فى هذه السنة: الماء القديم ستة أذرع سواء، مبلغ الزّيادة تسعة عشر ذراعا و ثمانية أصابع.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۴۹

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۲۱]

السنة السابعة من سلطنة الملك المؤيد شيخ على مصر و هى سنة إحدى و عشرين و ثمانمائة.

فيها كان الطاعون بالديار المصرية، و مات جماعة من الأعيان و غيرهم، و وقع الطاعون بها أيضا فى التى تليها حسبما يأتى ذكره.

و فيها توفّى الأمير سيف الدين مشترك بن عبد اللّه القاسمى الظاهرىّ نائب غزّة- كان- ثم أحد مقدّمى الألوف بدمشق بها، فى سادس عشر جمادى الأولى، و هو أحد المماليك لظاهرية برقوق، و تأمّر فى دولة الملك الناصر فرج، ثم ولّاه الملك المؤيد نيابة غزّة، ثم نقله إلى إمرة مائة و تقدمة ألف بدمشق، إلى أن مات.

و توفّى الشريف النقيب شرف الدين أبو الحسن على ابن الشريف النقيب فخر الدين أحمد ابن الشريف النقيب شرف الدين محمد بن على بن الحسين بن محمد ابن الحسين بن محمد بن الحسين بن محمد بن زيد بن الحسين بن مظفّر بن على بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن عبد اللّه بن موسى بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب- رضى اللّه عنه- الأرموىّ الحسينىّ، نقيب الأشراف بالديار المصرية، فى يوم الاثنين تاسع عشر شهر ربيع الأوّل، و كان رئيسا نبيلا، عاريا عن العلوم و الفضائل، منهمكا فى اللّذات، و له مكارم و أفضال- عفا اللّه [تعالى] عنه.

و توفّى الأمير [سيف الدين] حسين بن كبك التّركمانى أحد أمراء التّركمان قتيلا فى ثالث جمادى الأولى.

و توفّى القاضى شهاب الدين أحمد بن عبد اللّه القلقشندى الشّافعى فى ليلة السّبت عاشر جمادى الآخرة عن خمس و ستين سنة، بعد أن كتب فى الإنشاء سنين، و برع

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۵۰

فى العربيّة، و شارك فى الفقه، و ناب فى الحكم بالقاهرة، و عرف الفرائض، و نظم و نثر، و صنّف كتاب صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء، جمع فيه جمعا كبيرا مفيدا، و كتب فى الفقه و غيره.

و توفّى الأمير سيف الدين بيسق بن عبد اللّه الشّيخىّ الظاهرىّ، أحد أمراء الطّبلخانات، و أمير آخور ثانى، فى جمادى الآخرة بالقدس بطّالا بعد أن ولى إمرة الحاجّ فى أيّام أستاذه الملك الظاهر برقوق، و أيّام ابن أستاذه الملك الناصر فرج غير مرّة، و ولى عمارة المسجد الحرام بمكّة لمّا احترق فى سنة ثلاث و ثمانمائة، ثم تنكّر عليه الملك الناصر، و أخرجه منفيّا إلى صهره الأمير إسفنديار ملك الرّوم، فأقام بها حتى تسلطن الملك المؤيد شيخ، فقدم عليه، فلم يقبل عليه الملك المؤيّد شيخ لأنّه كان من حواشى الأمير نوروز الحافظى، و أقام بداره مدّة، ثم أخرجه المؤيد إلى القدس بطّالا، فمات به، و كان أميرا عاقلا، عارفا بالأمور، متعصبا للفقهاء الحنفيّة، و فيه برّ و صدقة، مع شراسة خلق و حدّة مزاج، و قد ترجمه الشيخ تقىّ الدين الفاسى قاضى مكّة و مؤرّخها، و نعته بالأمير الكبير، على أنّ بيسق، لم يعط إمرة مائة و لا تقدمة ألف البتّة، و إنما أعظم ما وصل إليه الأمير آخورية الثانية، و إمرة طبلخاناه لا غير، فبينه و بين المقدّم درجات، و بين المقدم و الأمير الكبير درجات، فترجمه الفاسى بالأمير الكبير دفعة واحدة، و كذا وقع له فى جماعة كبيرة من أعيان المصريين، فكلّ ذلك لعدم ممارسته لهذا الشأن، و إن كان الرجل حافظا ثقة، عارفا بفن الحديث و رجاله، إماما فى معرفة أهل بلده، و أحوال المسجد الحرام، و قد أجاد فيما صنّفه من تاريخ مكّة المشرّفة إلى الغاية بخلاف تأريخه التّراجم، فإنه قصّر فيه إلى الغاية، و أقلب ملوك الأقطار و أعيانها- ما عدا أهل مكة- ظهرا لبطن، و أعظم من رأيناه فى هذا الشأن الشيخ تقى الدين المقريزىّ، و قاضى القضاة بدر الدين العينى، و ما عداهما فمن مقولة الشيخ تقى الدين الفاسى، و لم أرد بذلك الحطّ على أحد،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۵۱

و إنما الحقّ يقال على أى وجه كان، وها [هى] مصنّفات الجميع باقية، فمن لم يرض بحكمى فليتأمّلها، و يقتدى بنفسه- انتهى.

و توفّى الأمير علاء الدين آقبغا بن عبد اللّه المعروف بالشّيطان- مقتولا- فى ليلة الخميس سادس شعبان، و أصله من صغار مماليك الملك الظاهر برقوق، و عظم فى الدّولة المؤيّدية، حتى إنه جمع بين ولاية القاهرة و حسبتها و شدّ الدّواوين بها فى وقت واحد، و كان عارفا حاذقا فطنا، عفيفا عن المنكرات، مع معرفة بالمباشرة، غير أنه كان فيه ظلم و عسف.

و توفّى الأمير سيف الدين بردبك بن عبد اللّه الخليلى الظاهرىّ، المعروف بقصقا، نائب صفد بها، فى ليلة الخميس نصف شهر

رجب، و كان أصله من خاصّكيّة الملك الظاهر برقوق و مماليكه، و ترقّى بعد موته إلى أن صار أمير مائة و مقدّم ألف، ثم رأس نوبة النّوب فى دولة الملك المؤيّد شيخ، ثم نقل إلى نيابة طرابلس، فساءت سيرته بها، فعزل عنها و نقل إلى نيانة صفد فدام بها إلى أن توفى، و كان غير مشكور السّيرة.

و توفّى الأمير [سيف الدين] سودون بن عبد اللّه الأسندمرىّ الظاهرىّ، أتابك طرابلس قتيلا- فى الوقعة التى كانت بين الأمير برسباى الدقماقى نائب طرابلس و بين التّركمان خارج طرابلس- فى يوم الأربعاء سابع عشرين شعبان، و كان ولى الأمير آخوريّة الثانية فى الدولة الناصرية، ثم أمسكه الملك الناصر و حبسه بسجن الإسكندرية، إلى أن أطلقه الملك المؤيد، و أنعم عليه بعد مدّة بأتابكيّة طرابلس، فدام بها إلى أن قتل.

و توفّى الأستاذ إبراهيم بن باباى الرّومى العوّاد، أحد ندماء الملك الناصر فرج،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۵۲

ثم الملك المؤيد شيخ، ببستانه بجزيرة الفيل المعروف ببستان الحلّى فى ليلة الجمعة مستهلّ شهر ربيع الأوّل، و قد انتهت إليه الرياسة فى الضّرب بالعود، و خلّف مالا جزيلا، و كان فيه تكبّر و شمم، و كان حظيّا عند الملوك، نالته السعادة بسبب آلته و غنائه، و مات و هو فى عشر السبعين، و لم يخلف بعده مثله إلى يومنا هذا، و مع قوته فى العود و معرفته بالموسيقى لم يصنّف شيئا فى الموسيقى، كما كانت عادة من قبله من الأستاذين- انتهى.

و توفى الأمير الوزير فخر الدين عبد الغنى ابن الوزير تاج الدين عبد الرزّاق بن أبى الفرج بن نقولا الأرمنىّ الملكى أستادار العالية، فى يوم الاثنين النّصف من شوال، بداره بين السورين من القاهرة، و دفن بجامعه الذى أنشأه تجاه داره المذكورة، و تولى الأستادارية من بعده الزّينى أبو بكر بن قطلوبك، المعروف بابن المزوّق، و كان مولد فخر الدين المذكور فى شوال سنة أربع و ثمانين و سبعمائة، و نشأ فى كنف والده، و لما ولى أبوه الوزارة من ولاية قطيا فى الأيام الظاهرية برقوق، ولّاه موضعه بقطيا، ثم ولى كشف الوجه الشّرقىّ فى سنة ثلاث عشرة و ثمانمائة، و وضع السيف فى العرب الصالح و الطالح، و أسرف فى سفك الدّماء و أخذ الأموال، حتى تجاوز عن الحد فى الظّلم و العسف، ثم طلب الزيادة فى الظلم و الفساد، و بذل للملك الناصر أربعين ألف دينار، و ولى الأستادارية عوضا عن تاج الدين عبد الرزّاق بن الهيصم فى سنة أربع عشرة المذكورة.

قال المقريزى فوضع يده فى الناس يأخذ أموالهم بغير شبهة من شبه الظلمة حتى داخل الرّعب كلّ برىء، و كثرت الشناعة عليه، و ساءت القالة فيه، فصرف فى ذى الحجة من السّنة، و سرّ الناس بعزله سرورا كبيرا، و عوقب عقوبة لم يعهد مثلها فى الكثرة، حتى أيس منه كلّ أحد، و رقّ له أعداؤه، و هو فى ذلك يظهر قوّة النفس،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۵۳

و شدّة الجلد، مالا يوصف، ثم خلّى عنه، و عاد إلى ولاية قطيا، ثم صرف عنها، و خرج مع الناصر إلى دمشق من غير وظيفة.

فلما قتل الناصر تعلّق بحواشى الأمير شيخ، و أعيد إلى كشف الوجه البحرى،- انتهى كلام المقريزى باختصار.

قلت: ثمّ ولى الأستادارية ثانيا بعد ابن محب الدين فى سنة تسع عشرة و ثمانمائة، و سلّم إليه ابن محبّ الدين، فعاقبه و أخذ منه أموالا كثيرة، ثم أضيف إليه الوزر، و تقدّم عند الملك المؤيّد، ثم تغيّر عليه المؤيّد، ففرّ منه فخر الدين المذكور من على حماة إلى بغداد، و غاب هناك إلى أن قدم بأمان من الملك المؤيد و عاد إلى وظيفة الأستادارية، و استمرّ على وظيفته إلى أن مات فى التاريخ المقدم ذكره.

قال المقريزى رحمه اللّه: و كان جبّارا قاسيا شديدا، جلدا عبوسا بعيدا عن الترف، قتل من عباد اللّه ما لا يحصى، و خرّب إقليم مصر بكماله، و أفقر أهله ظلما و عتوّا و فسادا فى الأرض؛ ليرضى سلطانه، فأخذه اللّه أخذا وبيلا- انتهى كلام المقريزى [باختصار].

قلت: لا ينكر عليه ما كان يفعله من الظّلم و الجور، فإنه كان من بيت ظلم و عسف، كان عنده جبروت الأرمن، و دهاء النّصارى، و

شيطنة الأقباط، و ظلم المكسة، فإن أصله من الأرمن، و ربّى مع النصارى، و تدرّب بالأقباط، و نشأ مع المكسة بقطيا، فاجتمع فيه من قلّة الدين، و خصائل السّوء ما لم يجتمع فى غيره، و لعمرى لهو أحقّ بقول القائل: [الوافر]

مساوىء لو قسمن على الغوانى لما أقهرن إلّا بالطّلاق

قيل إنه لما دفن بقبره بالقبّة من مدرسته سمعه جماعة من الصّوفيّة و غيرهم و هو يصيح فى قبره، و تداول هذا الخبر على أفواه الناس، قلت: و ما خفاهم أعظم، غير أنى

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۵۴

أحمد اللّه تعالى على هلاک هذا الظّالم فى عنفوان شبيبته، و لو طال عمره لملأ ظلمه و جوره الأرض، و قد استوعبنا ترجمته فى تاريخنا المنهل الصّافى بأطول من هذا، و ذكرنا من اقتدى به من أقاربه فى الظّلم و الجور و سوء السّيرة، ألا لعنة اللّه على الظّالمين.

قلت: و أعجب من ظلمهم إنشاؤهم المدارس و الرّبط، من هذا المال القبيح، الذى هو من دماء المسلمين [و أموالهم]. و أما مدرسة فخر الدين هذا، و مدرسة جمال الدين البيرىّ الأستادار، و مدرسة أخرى، بالقرب من باب سعادة، فهذه المدارس الثلاث فى غاية ما يكون من الحسن، و العمل المتقن من الزّخرفة، و الرّخام الهائل، و مع هذا أرى أن القلوب ترتاح إلى بلاط دهليز خانقاه سعيد السّعداء، و بياضها الشّعث أكثر من زخرفة هؤلاء و رخامهم، و ليس يخفى هذا على أرباب القلوب النيّرة، و الأفكار الجليلة- انتهى.

و توفّى الأمير الطّواشى بدر الدين لؤلؤ العزّى الرّومىّ، كاشف الوجه القبلى، فى يوم الأربعاء رابع عشرين شوّال، و كان يلى الأعمال، فصودر و عوقب غير مرّة، و كان من الظّلمة الفتّاكين، و كانت أعيان الخدّام تكره منه دخوله فى هذا الباب، و تلومه على ذلک.

و توفّى الأمير الكبير علاء الدين ألطنبغا بن عبد اللّه العثمانى [الظاهرى] أتابک العساكر بالدّيار المصرية، ثمّ نائب الشام بطالا بالقدس، فى يوم الاثنين ثانى عشرين شوّال، و كان أعظم مماليک الملک الظاهر برقوق فى زمانه، و أجلّهم قدرا، و أرفعهم منزلة، فإنه ولى نيابة صفد فى دولة أستاذه الملک الظاهر برقوق، و الملک المؤيد

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۵۵

يوم ذاک من جملة أمراء العشرات، ثم لا زال ينتقل من الأعمال و الوظائف إلى أن ولّاه الملک المؤيد شيخ أتابک العساكر بالديار المصرية، بعد وفاة الأتابک يلبغا الناصرى، ثم نقله إلى نيابة دمشق بعد خروج قانى باى المحمدى، ثمّ أمسكه و سجنه بقلعة دمشق مدّة أيام، ثم أطلقه و رسم له بالتوجّه إلى القدس بطالا، فتوجّه إليه و دام به إلى أن مات، و كان أميرا جليلا عاقلا ساكنا متواضعا وقورا وجيها فى الدّولة، طالت أيامه فى السعادة- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الأمير علاء الدين قطلوبغا نائب الإسكندرية بها فى يوم الخميس خامس عشر ذى الحجة، و كان ولى الحجوبيّة فى دولة الملک المنصور حاجى بتقدمة ألف بالقاهرة، فلمّا عاد الظاهر برقوق إلى الملک أخرج عنه إقطاعه، و طال خموله، و حطّه الدّهر و افتقر، إلى أن طلبه المؤيد و ولّاه نيابة الإسكندرية، و هو لا يملک القوت اليومىّ. و قد تقدّم ذكر ذلک فى أصل ترجمة الملک المؤيد من هذا الكتاب.

و توفّى المسند المعمّر المحدّث شرف الدين محمد ابن عز الدين أبى اليمن محمد بن عبد اللطيف بن أحمد بن محمود بن أبى الفتح الشهير بابن الكويک الرّبعى الإسكندرى الشافعى، فى يوم السبت سادس عشرين ذى القعدة، و مولده فى ذى القعدة سنة سبع و ثلاثين و سبعمائة بالقاهرة، و كان تفرّد بأشياء عالية، و تصدّى للإسماع عدّة سنين، و أخّر قبل موته، و كان خيّرا ساكنا، كافّا عن الشّرّ، من بيت رياسة و فضل، و أول سماعة- حضورا- سنة إحدى و أربعين و سبعمائة، و لم يشتهر بعلم.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۵۶

و توفّى الأمير أبو الفتح موسى ابن السلطان الملک المؤيد شيخ، فى يوم الأحد تاسع عشرين شهر رمضان، و هو فى الشهر الخامس من العمر، و دفن بالجامع المؤيدى، و أمّه أمّ ولد جاركسيّة تسمّى قطلباى، تزوّجها الأمير إينال الجكمىّ بعد موت الملک المؤيد.

أمر النّيل فی هذه السنة: الماء القديم أربعة أذرع و ثمانية أصابع مبلغ الزيادة ثمانية عشر ذراعا و عشرة أصابع.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۵۷

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۲۲]

السنة الثامنة من سلطنة الملك المؤيد شيخ على مصر و هی سنة اثنتين و عشرين و ثمانمائة.

فيها توجّه المقام الصارمی إبراهيم ابن السلطان الملك المؤيد شيخ إلى البلاد الشاميّة، و سار إلى الرّوم و معه عدّة من أعيان الأمراء و العساكر، و سلك بلاد ابن قرمان و أباده، و قد تقدّم ذكر ذلك كلّه فی أصل ترجمة الملك المؤيد من هذا الكتاب.

و فيها كان الطاعون أيضا بالديار المصرية، و لكنه كان أخف من السنة الخالية.

و فيها توفّى الأمير شرف الدين يحيى بن بركة بن محمد بن لاقى، أحد ندماء السلطان الملك المؤيد، فی يوم الأربعاء حادی عشر صفر، قريبا من غزّة، فحمل و دفن بغزّة فی يوم الجمعة، و كان أوّلا من أمراء دمشق، ثم قدم مع المؤيد شيخ إلى مصر، و صار من أعيان الدّولة، و استقرّ مهمندارا و أستادار الجلال، ثم انحطّ قدره، و نفى إلى البلاد الشاميّة، فمات فی الطريق، و كان سبب نفيه تنكّر الأمير جقمق الأرغون شاوىّ الدّوادار عليه، بسبب كلام نقله عنه للسلطان، فتبيّن الأمر بخلاف ما نقله، فرسم السّلطان بنفيه من القاهرة على حمار.

و توفّى الأمير سيف الدين كزل بن عبد اللّه الأرغون شاوىّ، أحد أمراء الطّبلخانات بديار مصر، ثمّ نائب الكرك بعد عزله عن نيابة الكرك، و توجهه إلى الشّام على إمرة طبلخاناه، بحكم طول مرضه، فمات بعد أيّام فی خامس عشرين المحرّم، و كان أصله من مماليك الأمير أرغون شاه، أمير مجلس أيّام الملك الظاهر برقوق، و ترقّى إلى أن كان من أمره ما ذكرناه، و كان عاقلا ساكنا.

و توفّى الأديب الفاضل مجد الدين فضل اللّه ابن الوزير الأديب فخر الدين

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۵۸

عبد الرحمن بن عبد الرزّاق بن إبراهيم بن مكانس المصرى القبطى الحنفى، الشّاعر المشهور، فی يوم الأحد خامس عشرين شهر ربيع الآخر، و مولده فی شعبان سنة تسع و ستين و سبعمائة، و نشأ تحت كنف والده، و عنه أخذ الأدب و تفقّه على مذهب أبی حنيفة- رضى اللّه عنه- و قرأ النحو و اللّغة، و برع فی الأدب، و كتب فی الإنشاء مدّة، و كانت له ترسّلات بديعة و نظم رائق، و فيه يقول أبوه فخر الدين رحمه اللّه تعالى: [الطويل]

أرى ولدى قد زاده اللّه بهجة و كمّله فی الخلق و الخلق مذ نشا

سأشكر ربّى حيث أوتيت مثله و ذلک فضل اللّه يؤتيه من يشا

و من شعر مجد الدين صاحب الترجمة قوله:

[الوافر]

بحقّ اللّه دع ظلم المعنّى و متّعه كما يهوى بأنسک

و كيف الصّدّ يا مولاى عمّن بيومک رحت تهجره و أمسک

و له أيضا:

[الطويل]

جزى اللّه شيبى كلّ خير فإنه دعانى لما يرضى الإله و حرّضا

فأقلعت عن ذنبى و أخلصت تائبا و أمسكت لمّا لاح لى الخيط أبيضا

و له أيضا:

[الوافر]

تساومنا شذا أزهار روض تحيّر ناظرى فيه و فكرى

فقلت نبيعك الأرواح حقا بعرف طيّب منه و نشرى

و توفّى الأمير سيف الدين سودون بن عبد اللّه القاضى الظاهرى، نائب طرابلس بها، فى رابع عشر ذى القعدة، و كان أصله من مماليك الملك الظاهر برقوق، و ترقّى بعد موته إلى أن ولى فى الدّولة المؤيّديّة حجوبيّة الحجّاب، ثم رأس نوبة النّوب، ثم قبض عليه، و حبس مدّة، ثم أطلقه الملك المؤيّد، و ولّاه كشف الوجه القبلى، ثم نقله إلى نيابة طرابلس بعد مسك الأمير برسباى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۵۹

الدّقماقىّ، أعنى الأشرف، فدام على نيابة طرابلس إلى أن مات، و كان سبب تسميته بالقاضى لأنّه كان إنّيا للأمير تنبك القاضى، فسمّى على اسم أغاته، و العجب أنه صار رأس نوبة النّوب و أغاته تنبك المذكور من جملة رءوس النّوب العشرات، يمشى فى خدمة إنيه.

و توفّى القاضى عزّ الدين عبد العزيز بن أبى بكر بن مظفر بن نصير البلقينىّ الشافعى، أحد فقهاء الشافعيّة و خلفاء الحكم بالديار المصريّة، فى يوم الجمعة ثالث عشر جمادى الأولى، و كان فقيها شافعيّا، عارفا بالفقه و الأصول و العربية، رضىّ الخلق، ناب فى الحكم من سنة إحدى و تسعين و سبعمائة.

و توفّى الأمير شهاب الدّين أحمد ابن القاضى ناصر الدين محمد بن البارزىّ الجهنىّ الحموى- فى حياة والده- بداره على النّيل بساحل بولاق، فى يوم الاثنين تاسع عشر شهر ربيع الآخر، و حضر السلطان الملك المؤيد الصلاة، و وجد عليه أبوه كثيرا.

و توفّى الأمير أبو المعالى محمد ابن السلطان الملك المؤيد شيخ فى عاشر ذى الحجّة، و دفن بالجامع المؤيدى و عمره أيضا دون السّنة.

و توفى الشيخ برهان الدين إبراهيم ابن غرس الدين خليل بن علوة الإسكندرى، رئيس الأطباء، و ابن رئيسها، فى يوم الاثنين آخر صفر، و كان حاذقا فى صناعته، عارفا بالطبّ و العلاج.

أمر النّيل فى هذه السّنة: الماء القديم ثلاثة أذرع و ستة و عشرون إصبعا، مبلغ الزيادة ثمانية عشر ذراعا و أربعة عشر إصبعا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۶۰

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۲۳]

السنة التاسعة من سلطنة الملك المؤيد شيخ على مصر و هى سنة ثلاث و عشرين و ثمانمائة.

فيها جرّد السلطان الملك المؤيد الأتابك ألطنبغا القرمشى إلى البلاد الشامية، و صحبته عدة من أمراء الألوف قد ذكرنا أسماءهم فى أصل الترجمة عند خروجهم من القاهرة.

و فيها توفّى قاضى القضاة جمال الدين عبد اللّه بن مقداد بن إسماعيل الأقفهسىّ المالكى، قاضى قضاة الدّيار المصرية فى رابع عشر جمادى الأولى عن نحو ثمانين سنة، و هو قاض فى ولايته الثانية، و كان إماما بارعا مفتنا مدرسا، و مات و المعوّل على فتواه بمصر.

و توفّى القاضى شمس الدين محمد بن محمد بن حسين البرقى الحنفى، أحد نوّاب الحكم الحنفيّة فى سابع جمادى الآخرة.

و توفّى الشيخ على كهنبوش، صاحب الزّاوية التى عمّرها له سودون الفخرى الشّيخونى النّائب، خارج قبة النّصر، بالقرب من الجبل الأحمر، و الزاوية معروفة به إلى يومنا هذا، و كان مشكور السّيرة، محمود الطريقة، يشهر بصلاح و دين، و قيل إنه چاركسى الجنس، هكذا ذكر لى بعض المماليك الچاركسية، و المشهور أنه كان من فقراء الرّوم- انتهى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۶۱

و توفّی الرئیس صلاح الدین خلیل ابن زین الدین عبد الرّحمن بن الکویز ناظر دیوان المفرد فی عاشر شهر رمضان، و کان ممّن قدم إلی مصر صحبة الأمیر شیخ، و تولی نظر دیوان المفرد، و عظم فی الدولة، و أظنه کان أسنّ من أخیه علم الدین داود ناظر الجیش، و اللّه أعلم.

و توفّی العلامة القاضی ناصر الدین أبو المعالی محمد ابن القاضی کمال الدین محمد بن عز الدین بن عثمان ابن کمال الدین محمد بن عبد الرحیم بن هبة اللّه الجهنی الحموی الشافعی، المعروف بابن البارزی، کاتب السّرّ الشریف بالدیار المصریة، و عظیم الدولة المؤیدیة، فی یوم الأربعاء ثامن شوال، و دفن علی ولده الشهابی أحمد المقدم ذکره فی السنة الخالیة، تجاه شباک الإمام الشافعی- رضی اللّه عنه- و مولده بحماة فی یوم الاثنین رابع شوّال سنة تسع و ستین و سبعمائة، و مات أبوه فی سنة ست و سبعین، و نشأ تحت کنف أخواله، و حفظ القرآن الکریم، و کتاب الحاوی فی الفقه، و طلب العلم، و تفقّه بجماعة، و برع فی الفقه و العربیة و الأدب و الإنشاء، و تولی قضاء حماة، ثم ولی کتابة سرّها، ثم صحب الملک المؤیّد فی أیام نیابته بدمشق، و لازم خدمته، و تولّی قضاء حلب فی نیابة المؤید علیها، ثم قبض علیه الملک الناصر، و حبسه ببرج الخیالة بقلعة دمشق، و نظم و هو فی السجن المذکور قصیدته المشهورة التی أولها:

[البسیط]

هو الزمان فلا تلقاه بالرهب سلامة المرء فیه غایة العجب

أنشدنی القصیدة المذکورة ولده العلّامة کمال الدین بن البارزی من لفظه، و قد سمعها من لفظ أبیه غیر مرّة، و أثبت القصیدة بتمامها فی ترجمته فی تاریخنا «المنهل

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۶۲

الصافی» إذ هو محلّ التطویل فی التراجم، و من شعره أیضا- و هو مما أنشدنی ولده القاضی کمال الدین المقدّم ذکره عن أبیه: [الکامل]

طاب افتضاحی فی هواه محاربا فلهوت عن علمی و عن آدابی

و بذکره عند الصّلاة و باسمه أشد و فواطر باه فی المحراب

و لا زال بالحبس بقلعه دمشق إلی أن قدمها الملک الناصر فرج، و أراد قتله، فشفع فیه الوالد و أطلقه و السلطان عنده علی باب دار السعادة بدمشق، و توجّه إلی حماة، ثم عاد إلی الملک المؤید ثانیا، و لا زال معه حتی قتل الملک الناصر، و قدم صحبته إلی مصر و تولی توقیعه عوضا عن شهاب الدین الصفدی و هو أتابک، فلما تسلطن خلع علیه فی شوّال من سنة خمس عشرة و ثمانمائة باستقراره کاتب السّر الشریف بالدیار المصریة، عوضا عن [فتح الدین] فتح اللّه بعد عزله و مصادرته، فباشر الوظیفه بحرمة وافرة، و مهابة زائدة، و عظم و ضخم و نالته السّعادة، و صار هو صاحب الحل و العقد فی المملکة، و کان یبیت عند الملک المؤید فی لیالی البطالة، و ینادمه و یجاریه فی کل فنّ من الجدّ و الهزل، لا- یدانیه أحد من جلساء الملک المؤید فی ذلک، هذا مع الفضل الغزیر، و طلاقة اللسان، و حفظ الشّعر، و حسن المحاضرة، و الإقدام و التجری علی الملوک، و المراجعة لهم فیما لا یعجبه، و هو مع ذلک قریب من خواطرهم لحسن تأدّیه ما یختاره، و بالجملة فهو أعظم من رأیناه ممّن ولی هذه الوظیفة، ثم بعده ابنه القاضی کمال الدّین الآتی ذکره فی محلّه، بل کان ولده المذکور أرجح فی أمور یأتی بیانها فی محلّها.

و توفّی الصاحب کریم الدین عبد الکریم بن أبی شاکر بن عبد اللّه بن الغنام فی سابع عشرین شوال، و قد أناف علی المائة سنة و حواسّه سلیمة، بعد أن وزر

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۶۳

مرّتین، و أنشأ مدرسة بالقرب من الجامع الأزهر معروفة به، و کان من بیت ریاسة و کتابة.

و توفّى ملك الغرب و صاحب فاس- قتيلا- السلطان أبو سعيد عثمان ابن السلطان أبى العبّاس أحمد ابن السلطان أبى سالم إبراهيم ابن السلطان أبى الحسن على ابن عثمان بن يعقوب بن عبد الحقّ المرينى الفاسى، فى ليلة ثالث عشر شوال، قتله وزيره عبد العزيز اللبانى، و أقام عوضه ابنه أبا عبد اللّه محمدا، و كانت مدّته ثلاثا و عشرين سنة و ثلاثة أشهر- رحمه اللّه.

و توفّى متملّك بغداد و تبريز و العراق الأمير قرا يوسف ابن الأمير قرا محمد بن بيرم خجا التّركمانى، فى رابع عشر ذى القعدة، و ملك بعده ابنه شاه محمد ابن قرا يوسف، و أوّل من ظهر من آبائه بيرم خجا بعد سنة ستّين و سبعمائة، و تغلّب بيرم خجا على الموصل حتّى أخذها، ثم أخذها منه أويس ثانيا، و صار بيرم خجاله كالعامل إلى أن مات، فملك بعده ابنه قرا محمد، حتى مات فى سنة إحدى و تسعين و سبعمائة، فملك بعده ابنه قرا يوسف، فحاربه القآن غياث الدين أحمد بن أويس صاحب بغداد على الموصل، و وقع لهما بسبب ذلك حروب إلى أن اصطلحا، و انتمى قرا يوسف إلى السلطان أحمد، و صار ينجده فى حروبه، و قد مرّ دخول قرا يوسف إلى الشّام و قدومه صحبة الأمير شيخ المحمودى إلى جهة القاهرة فى وقعة السّعيديّة مع الملك الناصر و عوده إلى بلاده، و فى عدّة مواضع أخر، و آخر الحال أنه وقع بين قرا يوسف و بين السلطان أحمد و تحاربا، و غلب قرا يوسف

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۶۴

السّلطان [أحمد] و أخذ بغداد منه، و دام بها إلى أن أخرجه منها حفيد تيمور لنك أميرزة أبو بكر بن ميران شاة بن تيمور، و فرّ قرا يوسف إلى دمشق، و قدمها فى شهر ربيع الآخر سنة ستّ و ثمانمائة، فقبض عليه الأمير شيخ المحموديّ نائب دمشق:

أعنى المؤيّد، و أمسك معه أيضا السلطان أحمد، و حبسهما بقلعة دمشق، و هذه أوّل عداوة وقعت بين المؤيّد و قرا يوسف، و داما فى السّجن إلى أن أفرج عنهما فى سابع شهر رجب سنة سبع و ثمانمائة، و خلع على قرا يوسف هذا، و أنعم عليه، و أخذه معه إلى جهة مصر، و حضر وقعة السّعيديّة المقدم ذكرها، و وصل قرا يوسف فى هذه الحركة إلى دار الضّيافة بالقرب من قلعة الجبل، و لم يدخل القاهرة، ثم عاد إلى بلاده، ثمّ وقع بينه و بين السلطان أحمد أيضا حروب إلى أن ظفر قرا يوسف بالسلطان أحمد المذكور و قتله فى سنة ثلاث عشرة و ثمانمائة و استولى من حينئذ على العراقين، و بعث ابنه شاه محمد إلى بغداد فحصل بين شاه محمد [المذكور] و بين أهل بغداد حروب، و وقع لهم معه أمور يطول شرحها.

و من يوم قدمها هذا الكعب الشّؤم نمت الحروب ببغداد إلى أن خربت بغداد و العراق بأجمعه من كثرة الفتن التى كانت فى أيّام قرا يوسف هذا، ثم فى أيّام أولاده من بعده، و استمرّ قرا يوسف بتلك الممالك إلى أن مات فى التاريخ المقدم ذكره، و ملك بعده [بغداد] ابنه شاه محمد، و تنصّر و دعا الناس إلى دين النّصرانيّة، و أباد العلماء و المسلمين، ثم ملك بعده إسكندر و كان على ما كان عليه شاه محمد و زيادة، ثم أخوهما أصبهان، فكان زنديقا لا يتديّن بدين، فقرا يوسف و ذرّيته هم كانوا سببا لخراب بغداد التى كانت كرسيّ الإسلام، و منبع العلوم، و مدفن الأئمّة الأعلام، و قد بقى الآن من أولاده لصلبه جهان شاه متملّك العراقين و أذربيجان، و الى أطراف العجم، و الناس منه على و جل، لعلهم أنه من

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۶۵

هذه السّلالة الخبيثة النجسة، فاللّه تعالى يلحقه بمن سلف من آبائه و إخوته الكفرة الزنادقة- فإنهم شرّ عصابة و أقبح الناس سيرة- قريبا غير بعيد.

و توفّى شرف الدين محمد بن على بن الحيريّ محتسب القاهرة فى ثانى عشر شهر ربيع الأوّل. قال المقريزيّ: و قد ولى حسبة القاهرة و مصر غير مرّة، بعد ما كان من شرار العامّة، و يشهر بقبائح من السّخف و المجون و سوء السّيرة.

و توفّى الأمير ناصر الدين محمد ابن الأمير مبارك شاه الطّازيّ أخو الخليفة المستعين بالله فى هذه السّنة، و قد تقدّم من ذكره نبذة يعرف منها حاله عند خلع الملك الناصر فرج من الملك، و تولية الخليفة المستعين بالله السّلطنة، و لما تولّى أخوه المستعين بالله العباس السّلطنة أنعم على ابن الطّازيّ هذا بإمرة طبلخاناه و صار دوادار المستعين، و دام ذلك إلى أن قدم المستعين إلى القاهرة

استفحل أمر الأمير شيخ و انحطّ أمر المستعين إلى أن خلع من السّلطنة، ثم من الخلافة، فأخرج الملك المؤيد إقطاع ابن الطّازىّ هذا و أبعده و مقته إلى أن مات.

و كان ابن الطازىّ هـذا رأسا فى لعب الرّمـح، أسـتاذا فى فنّ الفروسـيّة، أخـذ عنه فنّ الرمح و غيره الأمير آقبغا التّمرازى، و الأمير كزل السّودونى المعلّم، و به تخرّج كزل المـذكور، و الأـمير قجق المعلّم رأس نوبـة و غيرهم، و كـان من عجائب اللّه [تعالى] فى فنّه، نظرته غير أننى لم آخـذ عنه شـيئا لصـغر سـنّى يوم ذاك، و أنا أتعجّب من أمر ابن الطازىّ هـذا مع الملك المؤيـد؛ فإن المؤيد كان صاحب فنون و يقرّب أرباب الكمالات من كل فنّ و يجلّ مقـدارهم، كيف حطّ قـدر ابن الطازى هذا؟! و لعل ابن الطازى أطلق لسانه فى حقّ الملك المؤيد لمّا أراد خلع الخليفة من السّلطنة، فأثّر ذلك عند المؤيد، و كان ذلك سببا لإبعاده [و اللّه تعالى أعلم].

و توفّى المقام الصارمىّ إبراهيم ابن السلطان الملك المؤيد شيخ فى ليلة الجمعة خامس

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۶۶

عشـر جمادى الآخرة بقلعة الجبل، و حضـر الصـلاة عليه السـلطان، و دفنه بالجامع المؤيدى فى صبيحة يوم الجمعة، و كثر أسف الناس عليه، و كان لموته يوم عظيم بالقاهرة، و مات و سنّة زيادة على عشرين سنة، و أمّه أم ولد، و كان مولده بالبلاد الشاميّة فى أوائل القرن تخمينـا، فـإنه لما تسـلطن والـده كان سـنّة يوم ذاك دون البلوغ، و كان نبيلا حاذقا، فأنعم عليه أبوه بإمرة مائـة و تقدمـة ألف، و تجرّد صحبة والده إلى البلاد الشامية، ثم عاد معه، ثم لمّا كبر و ترعرع سفّره أبوه إلى البلاد الشمالية مقدّم العساكر، فسار إلى بلاد ابن قرمان و غيره، و أظهر فى هـذه السّـفرة من الشـجاعة و الإقدام، و الكرم و الحشـمة ما أذهل الناس، هذا مع حسن الشّـكالة، و طلاقة المحيّا، و الإحسان الزائـد لمن يقصـده و يتردّد إليه؛ و لعمرى إنه كان خليقا للسـلطنة، لائقا للملك- فما شاء اللّه كان [و ما لم يشأ لم يكن، و لا حول و لا قوّة إلا بالله العلى العظيم].

أمر النيل فى هذه السنة: الماء القديم ثلاثة أذرع سواء، مبلغ الزّيادة ثمانية عشر ذراعا و ثلاثة أصابع- انتهى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۶۷

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۲۴]

اشارة

ذكر سـلطنة الملك المظفر أحمد على مصـر السـلطان الملك المظفّر أبو السـعادات أحمد ابن السلطان الملك المؤيد أبى النّصر شيخ المحمودى الظاهرى الچاركسـى الجنس، تسـلطن يوم مات أبوه الملك المؤيـد شـيخ، على مضـىّ خمس درج من نصف نهار الاثنين تاسع المحرم سـنة أربع و عشـرين و ثمانمائة، و عمره يوم بويع بالملك و جلس على سـرير السـلطنة سـنة واحدة و ثمانية أشهر و سبعة أيـام، و هو السّـلطان التّاسع و العشـرون من ملوك الـتّرك و أولاـدهم، و الخـامس من الچراكسـة، و أمّه خونـد سـعادات بنت الأـمير صرغتمش، أحد أمراء دمشق، و هى إلى الآن فى قيد الحياة.

و لمّا مات أبوه السـلطان الملك المؤيد طلب الملك المظفر [أحمد] هذا من الحريم بالدّور السّـلطانيّة، فأخرج إليهم، فبايعوه بالسّـلطنة بعهد من أبيه إليه بالملك قبل تاريخه، و ألبسوه خلعة السلطنة، و ركب فرس النّوبة بأبّهة السلطنة، و شعار الملك من باب السّتارة بقلعة الجبل، و مشت الأمراء بين يـديه و هو يبكى من صـغر سـنّة، مما أذهله من عظم الغوغاء، و قوّة الحركـة، و صار من حوله من الأمراء و غيرهم يشـغله بالكلام، و يتلطّف به، و يسـكّن روعه، و يناوله من التّحف ما يشـغله به عن البكاء، حتى وصل إلى القصـر السّلطانى من القلعـة، فـأنزل من على فرسه، و حمـل حـتى أجلس على سـرير الملـك و هو يبكى، و قبّـل الأـمراء الأـرض بين يـديه بسـرعة، و لقبّوه بالملك المظفّر بحضرة الخليفة المعتضد بالله أبى الفتح داود، و القضاة الأربعة، و نودى فى الحال بالقاهرة و مصر باسمه و سلطنته.

ثم أخذ الأمراء فی تجهیز السّلطان الملک المؤید، و تغسیله و دفنه، حسبما تقدّم ذکره فی ترجمته.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۶۸

و قبل أن یـدفن الملک المؤیـد أبرم الأمیر ططر أمیر مجلس أمره مع الأمراء، و قبض علی الأمیر قجقار القردمیّ أمیر سـلاح، و أمسـکه بمعاونـة أکابر الممالیک المؤیدیة، و أیضا بمعاونة خشداشـیته من الممالیک الظاهریّة برقوق، فارتجّت القاهرة و ماجت الناس ساعة و تخوّفوا من وقوع فتنة، فلم یقع شـیء؛ و ذلک لعدم حاشـیة قجقار القردمی، فإنه أحد ممالیک الأمراء لیس له شوکة و لاخشداشـین، و سکن الأمر، و نبل ططر فی أعین الناس من یومئذ، و تفتّحت العیون إلیه.

ثم لما کان یوم الثلاثاء عاشـر المحرّم- و هو صبیحـة یوم وفاة [الملک] المؤیّد- عملت الخدمة بالقصـر السّـلطانی من القلعة، و أجلس الملک المظفر [أحمـد] علی مرتبـة السّـلطنة، و کانت وظیفـة ططر أمیر مجلس، و منزلـة جلوسه فی المیمنـة تحت الأمیر الکبیر، و کان الأمیر الکبیر ألطنبغا القرمشـی قد توجّه إلی البلاد الشامیّة قبل ذلک بأشـهر، فصار ططر یجلس رأس المیمنة لغیبة الأمیر الکبیر، و منزلة جلوس الأـمیر تنبـک العلاـئی میق المعزول عن نیابـة الشـام رأس المیسـرة فوق أمیر سـلاح- کل ذلک فی حیاة الملک المؤیـد- فلما تسـلطن الملک المظفر هـذا، و عملت الخدمـة بعـد مسک قجقار القردمی، و کان الملک المؤید جعل التّحدّث فی تدبیر مملکة ولده الملک المظفر لهؤلاء الثلاثـة، أعنی تنبک میق، و قجقار القردمی أمیر سـلاح، و ططر أمیر مجلس، فصار التحدّث الآن إلی تنبک میق و إلی ططر فقط.

فلما دخل الأمراء الخدمـة علی العادة، و قبل الجلوس أومأ الأمیر ططر إلی الأمیر تنبک میق أن یتوجّه إلی میمنـة السـلطان و یجلس بها علی أنه یکون مکان الأمیر الکبیر، و یجلس هو [علی] میسـرة السّلطان، فامتنع تنبک من ذلک، فألحّ علیه ططر فی ذلک و احتشم معه، و تأدّب إلی الغایة، فحلف تنبک بالأیمان المغلّظة أنه لا یفعل، و أنه لا یجلس إلا مکانه أوّلا

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۶۹

فی المیسرة، و أن ططر یجلس فی المیمنة، و إن لم یفعل [ططر] ذلک ترک تنبک الإمرة و توجّه إلی الجامع الأزهر بطالا، فجلس عند ذلک ططر علی المیمنة، و عند ما استقر بهم الجلوس، و قریء الجیش علی السلطان [فلم یتکلم أحد من الأمراء فی أمر الذی قرأه ناظر الجیش] فسـکت ناظر الجیش عن قراءة القصـص لعـدم من یجیبه، فعنـد ذلک عرض الأمیر ططر أیضا التکلّم علی الأمیر تنبک میق، و قـال له: أنت أغاتنا، و أکبر منا سـنّا و قـدرا، و الألیق أن تکون أنت مـدبّر المملکـة و نحن فی طاعتک، نمتثل أوامرک، و ما ترسم به، فامتنع الأمیر تنبک أیضا من التکلّم و تـدبیر المملکة أشدّ امتناع، و أشار إلی الأمیر ططر بأن یکون هو مدبّر المملکة، و القائم بأمورها، و أنه یکون هو تحت طـاعته، فاسـتصوب من حضـر من الأـمراء هـذا القول، فامتنع ططر من ذلک قلیلا حتی ألـحّ علیه الأمراء، و کلّمه أکابر الأمراء المؤیدیة فی القبول، فعند ذلک قبل و تکلّم فی المملکة، و قریء الجیش، و حضرت العلامة، ثم مدّ السّماط علی العادة، فعنـد مـا نجز السّـماط أحضـرت خلعـة جلیلـة للأمیر ططر، فلبسـها باسـتقراره لالا السـلطان الملک المظفر [أحمـد] و کافل المملکـة و مدبرها، ثم أحضرت خلعة أخری للأمیر تنبک میق فلبسها، و هی خلعة الرضی و الاستمرار علی حاله، و انفضّت الخدمة بعد أن أوصل الأمراء السلطان إلی الدّور السّلطانیة، و أعید الملک المظفر إلی أمه بالحریم السلطانی.

هذا و قد استقرّ سکن الأمیر ططر بطبقة الأشرفیة من قلعة الجبل، فجلس ططر بطبقة الأشرفیة، بعد أن فرشت له، و وقف الأمراء و مباشر و الدّولة و الأعیان بین یدیه، فأخذ و أعطی، و نفّذ الأمور علی أحسن وجه، و أجمل صورة، فهابته النّاس، و علموا أنه سیکون من أمره ما یکون من أوّل جلوسه فی هذا الیوم، ثم رسم بکتابة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۷۰

الخبر بموت الملـک المؤیـد، و سـلطنة ولـده الملـک المظفر إلی الأقطار، و أوعـد الممالیک السـلطانیة بالنّفقـة فیهم علی العادة، فکثر الدّعاء له، و الفرح بتکلّمه فی السلطنة.

ثم فی یوم الأربعاء حادی عشـر المحرم رسم الأمیر ططر نظام الملک بالقبض علی الأمیر جلبّان رأس نوبة سیدی، و علی الأمیر شاهین الفارسـی، و همـا من مقـدمی الألوف بالـدیار المصـریة، فمسـکا و قیّدا و حبسا، ثم طلب الأمیر ططر القضاة و دخل معهم إلی الخزانة السّلطانیة، و ختم بحضورهم علی خزانة المال بعد أن أخرج منها أربعمائة ألف دینار برسم نفقة الممالیک السّلطانیة، ثم نزل القضاة.

فلما کان اللیل اضـطرب الناس، و وقعت هجّـة بالقاهرة، و لم یدر أحد ما الخبر حتی طلع الفجر، فأسـفرت القضـیّة علی أن الأمیر مقبلا الحسـامیّ الـدّوادار الکـبیر رکـب بممـالیکه و علیهم السـلاح فی اللیـل، و خرج من القـاهرة و معه السّـیفی یلخجـا من مـامش السّـاقی الناصری، و سار إلی جهة الشام خوفا من القبض علیه.

فلما کان الغـد من یوم الخمیس، اجتمع الأمراء عنـد الأمیر ططر بالقلعـة و عرّفوه أمر مقبل المـذکور، و سألوه أن یرسل أحـدا منهم فی أثره فلم یلتفت إلی ذلک، و أخـذ فیما هو فیه من أمر نفقة المالیک السّـلطانیة، و نفق فیهم لکلّ واحد منهم مائة دینار مصـریة، فشـکر الممالیک له ذلک، ثم أمر فنودی بالقاهرة بإبطال المغارم التی أحدثت علی الجراریف فی عمل الجسور بأعمال مصر، فوقع ذلک من الناس الموقع الحسن.

و أمـا أمر مقبـل الـدّوادار، فـإنه لمـا خرج من بیته بمن معه اجتاز بظاهر خانقاه سـرقویاس، و قصـد الطینـة بمن معه، ففطن بهم العربان أرباب الأدراک فاجتمعوا و قصدوه و حاربوه، هو و من معه، فلا زال یقاتلهم و هو سائر إلی أن وصل إلی الطینة،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۷۱

فوجـد بهـا غرابـا مهیئـا للسـفر فرکـب فیه بمن معه، و نهبت الأـعراب جمیع خیولهم و أثقالهم و ما کان معهم، و سافر مقبل فی الغراب المـذکور إلی الشـام، و لحق بالأمیر جقمق الأرغون شاوی الـدوادار نائب الشام، و انضمّ علیه و صار من حزبه، و دام معه إلی أن انهزم جقمق من القرمشی إلی الصّبیبة و قبض علیه، فأمسک مقبل هذا أیضا، و حبس کما سیأتی ذکره فی محله إن شاء اللّه تعالی- انتهی.

ثم أمر الأمیر ططر فنودی بالقاهرة لأجناد الحلقة بالحضور إلیه لیردّ إلیهم ما کان أخذه منهم الملک المؤید فی سـنة اثنتین و عشرین و ثمانمائة من المال برسم السـفر، و کان الذی تحصّل منهم تحت ید السّـیفی أقطوه الموساوی الدوادار، فلما حضروا أمر ططر أقطوه أن یـدفع لکلّ واحـد منهم ما أخذ منه، فضج الناس له بالدعاء، و صاحت الألسن بالشـکر له و الثناء علیه، ثم أخذ الأمیر ططر و هو جالس فی الموکب بـإزاء السـلطان بیـد السـلطان الملک المظفر و فیها قلم العلامـة حتی علمّ علی المناشـیر و نحوها، بحضور الأمراء و أرباب الدولة، و استمر ذلک فی بعض المواکب، و الغالب لا یعلّم إلا الأمیر ططر.

ثم فی یوم الجمعـة ثـالث عشـر المحرم حمـل الأـمیر قجقـار القردمی، و الأـمیر جلبّـان، و الأمیر شاهین الفارسـی فی القیود إلی سـجن الإسکندریة.

ثم فی یوم السّـبت رابع عشـره خلع الأمیر ططر علی الصاحب بـدر الـدین حسن ابن نصـر اللّه و أعید إلی نظر الخاص، و منع الطواشـی مرجان الخازندار من التکلّم فیها.

و فیه أیضا خلع علی القاضـی صـدر الـدین أحمد بن العجمی و أعید إلی حسبه القاهرة عوضا عن صارم الدین إبراهیم بن الحسام، و أنعم علیه الأمیر ططر بثمانین دینارا، و رتّب له علی دیوان الجوالی بالقاهرة فی کل یوم دینارا.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۷۲

و فی هذا الیوم استتمّت نفقة الممالیک السلطانیة.

ثم فی یوم الاـثنین سادس عشـر المحرم خلع السـلطان علی الأمیر ططر باسـتقراره نظام الملک، و خلع علی الأمیر تنبک میق باسـتقراره أمیر مجلس عوضا عن الأمیر ططر، و خلع علی الأمیر جانی بک الصوفی باسـتقراره أمیر سـلاح عوضا عن قجقار القردمی، و أنعم علیه بخبز آق بلاـط الـدمرداش أحـد الأـمراء المجردین صـحبة الأـمیر الکـبیر ألطنبغـا القرمشـی، و خلع علی الأـمیر تغری بردی المؤیّـدی المعروف بأخی قصـروه أحد أمراء الطبلخانات و رأس نوبة باستقراره أمیر مائة و مقدّم ألف و أمیر آخور کبیرا دفعة واحدة عوضا عن

الأمير طوغان الأمير آخور بحكم سفره صحبة الأتابك ألطنبغا القرمشى، و خلع على الأمير إينال الجكمى أحد أمراء الطبلخانات و شادّ الشراب خاناه [و استقر] رأس نوبة النّوب عوضا عن الأمير ألطنبغا من عبد الواحد المعروف بالصغير، بحكم سفره أيضا مع القرمشى، و خلع على الأمير على باى المؤيدى أحد أمراء العشرات و رأس نوبة باستقراره دوادارا كبيرا عوضا عن مقبل الحسامى المتوجّه إلى البلاد الشاميّة، و أنعم على الأمير آق خجا الأحمدى أحد أمراء الطبلخانات و استقرّ أمير مائة و مقدّم ألف و خلع على الأمير قشتم المؤيدى أحد أمراء العشرات باستقراره أمير مائة و مقدّم ألف و نائب الإسكندرية عوضا عن الأمير ناصر الدين محمد بن العطار، و خلع على الأمير يشبك أنالى المؤيدى الأستادار خلعة الاستمرار على وظيفته، و خلع على التاج بن سيفة الشوبكى خلعة الاستمرار بولاية القاهرة، و أن يكون حاجبا، فاستغرب الناس ذلک؛ من أن الحجوبية تضاف إلى ولاية القاهرة.

ثم فى يوم الثلاثاء سابع عشره توجّهت القصّاد بتشاريف نوّاب البلاد الشّاميّة،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۷۳

و تقاليدهم المظفّريّة [أحمد] باستمرارهم على عادتهم فى كفالاتهم، و كتب الأمير ططر نظام الملک العلامة على الأمثلة و نحوها كما يكتب السلطان.

ثم فى يوم الأربعاء ثامن عشر المحرم ابتدأ الأمير أقطوه بردّ مال أجناد الحلقة إليهم، و تولّى ذلک فى أوّل يوم الأمير ططر بنفسه.

ثم فى يوم الخميس تاسع عشره خلع نظام الملک على القضاة الأربعة و بقيّة أرباب الدّولة من المتعمّمين على عادتهم، و خلع على القاضى شرف الدين محمد ابن تاج الدين عبد الوهاب بن نصر اللّه موقّع الأمير ططر باستقراره فى نظر أوقاف الأشراف، و كان يليه الأمير ططر من يوم مات القاضى ناصر الدين محمد بن البارزىّ كاتب السّرّ.

و فيه استعفى القاضى علم الدين داود بن الكويز من وظيفة نظر الجيش، فأعفى و خلع عليه كاملية [بسمّور]، و نزل إلى داره، كل ذلک حيلة لتوصّله لوظيفة كتابة السّر- و هى بيد صهره القاضى كمال الدين بن البارزىّ- حتى وليها حسبما يأتى ذكره.

ثم فى يوم الجمعة نودى بأن الأمير الكبير ططر يجلس للحكم بين الناس، فلما انقضت الصلاة توجّه الأمير الكبير ططر فجلس بالمقعد من الإسطبل السلطانى كما كان الملک المؤيّد يجلس للحكم به، إلا أنه قعد على يسار الكرسىّ و لم يجلس فوقه، و حضر أمراء الدّولة على العادة، و قعد كاتب السّرّ القاضى كمال الدين بن البارزىّ على الدّكة و قرأ عليه القصص، و وقف نقيب الجيش و والى القاهرة و الحجّاب بين يديه، و حكم بين الرّعيّة، و ردّ المظالم، و ساس النّاس أحسن سياسة؛ فإنه كانت لديه فضيلة و عنده يقظة و فطنة و مشاركة جيدة فى الفقه و غيره، و له محبّة فى طلب العلم لا سيّما [مذهب] السادة الحنفية، فإنهم كانوا عنده فى محلّ عظيم من الإكرام.

ثم انفضّ الموكب، و طلع إلى طبقة الأشرفية، و جميع الأمراء بين يديه فى خدمته إلى أن أكل السّماط، و نفّذ الأمور، و نزل كلّ أحد إلى منزله.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۷۴

و أصبح يوم السبت حادى عشرين المحرّم غضب على الصاحب تاج الدين عبد الرزّاق بن الهيصم، و عزله عن نظر ديوان المفرد.

ثم فى يوم الاثنين ثالث عشرينه قدم أمير حاج المحمل بالمحمل.

و فيه طلب الأمير ططر تاج الدين عبد الرّزّاق ابن شمس الدين عبد الوهاب، المعروف بابن كاتب المناخ، مستوفى ديوان المفرد، و خلع عليه باستقراره ناظر ديوان المفرد، عوضا عن الصاحب تاج الدين عبد الرّزّاق بن الهيصم، و خرج من بين يدى الأمير الكبير و عليه الخلعة حتى جاوز دهليز القصر، فطلبه الأمير ططر ثانيا، و نزع الخلعة من عليه، و خلع عليه تشريف الوزارة، فلبسها على كره منه، عوضا عن الصاحب بدر الدين بن نصر اللّه برغبته عنها، و طلب الصاحب تاج الدين عبد الرّزّاق بن الهيصم، و خلع عليه بإعادته إلى نظر الدّيوان المفرد، و خلع على الصاحب بدر الدين بن نصر اللّه باستمراره فى وظيفته نظر الخاصّ، و خلع على الأمير يشبک أنا لى

المؤیّدیّ الأستادار باستقراره کاشف الکشّاف بالوجه القبلی و البحری.

ثم فی یوم الخمیس سادس عشرینه خلع علی القاضی کمال الدین محمد بن البارزیّ کاتب السّرّ باستقراره فی وظیفة نظر الجیش عوضا عن علم الدین بن الکویز.

ثم حکم الأمیر ططر فی یوم الجمعة أیضا بعد الصلاة بالإسطبل السلطانی کما حکم به أوّلا.

ثم فی یوم الاثنین سلخ المحرّم خلع الأمیر الکبیر ططر علی علم الدین بن الکویز باستقراره فی وظیفة کاتب السّرّ، عوضا عن صهره القاضی کمال الدین ابن البارزیّ.

قال المقریزی: فتسلّم القوس غیر باریها، و وسّدت الأمور إلی غیر أهلیها.

قلت: و معنی قول المقریزی لهذا الکلام لم یرد الحطّ علی ابن الکویز، غیر أن وظیفة کتابة السّرّ وظیفة جلیلة، یکون متولّیها له الید الطّولی فی الفقه و النحو،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۷۵

و النّظم و النّثر و التّرسّل و المکاتبات، و الباع الواسع فی التاریخ و أیام الناس و أفعال السلف، کما وقع للملک الظّاهر برقوق لمّا ورد علیه کتاب من بعض ملوک العجم فلم یقدر القاضی بدر الدین بن فضل اللّه علی حلّه- و هو [کاتب سره] - فاحتاج السلطان إلی أن طلب من أثناء طریق دمشق الشیخ بدر الدین محمود الکلستانی، و هو من جملة صوفیة خانقاه شیخون، حتی حلّ له ألفاظه، و صادف ذلک قرب أجل ابن فضل اللّه فسعی فی وظیفة کتابة السر جماعة [کبیرة] من الأعیان بمال له صورة، فلم یلتفت برقوق إلیهم، و أرسل أحضر الکلستانی، و لم یکن علیه ملّوطة یتجمل بها، و خلع علیه باستقراره فی کتابة السر، و قد تقدّم ذکر ذلک کله فی ترجمة الملک الظاهر برقوق الثانیة، فصار الکلستانی علی طریق أذهل فیها الملک الظاهر برقوق و نبّهه علی أشیاء لم یکن سمعها من غیره، ثم لم یل هذه الوظیفة بعد الکلستانی أمثل من القاضی ناصر الدین بن البارزیّ، ثم ولده کمال الدین هذا، فإنهما کانا أهلا لها و زیادة، فعند ما عزل و استقرّ عوضه علم الدین هذا شقّ ذلک علی أهل العلم و الذّوق، و صادف ذلک بأنه لما جلس علم الدین علی الدکّة، و قرأ القصص علی الأمیر الکبیر ططر صحّف اسم ابن جمّاز بابن الحمار، و قال ابن الحمّار، فردّ علیه نقیب الجیش فی الملأ ابن جمّاز ابن جمّاز، و کرّر ذلک حتی ضحک الناس، و طلع الأمیر ططر إلی الأشرفیة، و وعد فی تلک اللیلة الشیخ بدر الدین بن الأقصرائی سرّا بوظیفة کتابة السّر إن تمّ أمره، و أمره أن یکتم ذلک إلی وقته.

ثم قدم الخبر من الشام بأن الأمیر جقمق الأرغون شاوی نائب الشام امتنع من الدخول فی طاعة الأمیر ططر، و أنه أخذ قلعة دمشق و استولی علیها، و علی ما فیها

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۷۶

من الأموال و السّلاح و غیر ذلک، و کان بها نحو المائة ألف دینار، فاضطرب أهل الدّولة إلا الأمیر ططر فإنه لم یتحرّک لذلک و طلع إلیه حموه الأمیر سودون الفقیه الظاهری، و کان له عنده مکانة عظیمة، فجاراه سودون فی أمر جقمق، فقال له ططر:

یا أبی الأهم ألطنبغا القرمشی الظاهری، و أما جقمق فإنه رجل غریب مملوک أمیر لیس له من یقوم بنصرته، و لا من یعینه علی ما یرومه، غیر أنه یلعب فی ذهاب مهجته، فقال له سودون الفقیه: و إن یکن فافعل الأحوط، و أشار علیه بما یفعله.

فلما کان یوم الخمیس عاشر صفر جمع الأمیر الکبیر القضاة عنده بطبقة الأشرفیة من القلعة، و سائر أمراء الدّولة و مباشریها و کثیرا من الممالیک السّلطانیة، و أعلمهم بأن نوّاب الشام و الأمیر الکبیر ألطنبغا القرمشی و من معه من الأمراء المجردین لم یرضوا بما عمله الأمیر ططر بعد موت السّلطان الملک المؤیّد، ثم قال: و لا بد للناس من حاکم یتولی أمر تدبیر أمورهم، و أن یعینوا رجلا یرضونه لیقوم بأعباء المملکة، و یستبدّ بالأمور، فقال جمیع من حضر بلسان واحد قد رضینا بک، و کان الخلیفة حاضرا فیهم، فأشهد الأمیر ططر علیه أنه فوّض جمیع أمور الرّعیّة إلی الأمیر الکبیر ططر، و جعل إلیه عزل من یرید عزله، و ولایة من یرید ولایته من سائر الناس،

و أن يعطى من يختار، و يمنع من شاء من العطايا، ما عدا اللّقب السلطانى، و الدّعاء على المنابر و ضرب الاسم على الدّينار و الدّرهم، فإن هذه الثلاثة باقية على ما هى عليه باسم السلطان الملك المظفّر أحمد، و أثبت قاضى القضاة زين الدين عبد الرحمن التّفهنى الحنفى هذا الإشهاد، و حكم بصحته و نفّذ حكمه قضاة القضاة الثلاثة، ثم حلف الأمراء جميعهم للأمير الكبير ططر يمينهم المعهود [بالطاعة له] فى كل قليل.

و كان سبب هذا أن بعض أعيان الفقهاء الحنفية ذكر للأمير ططر نقلا أخرجه إليه من فروع المذهب أن السلطان إذا كان صغيرا، و أجمع أهل الشوكة على إقامة رجل

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۷۷

للتحدّث عنه فى أمور الرّعيّة حتى يبلغ رشده، نفذت أحكامه، فوضع هذا القول فى محله، و قوى قلوب حواشى الأمير ططر بذلک، و قالوا: نحن على الحق و من خالفنا على الباطل.

و بينما الأمير ططر فى ذلک، ورد عليه الخبر بسيف الأمير يشبک اليوسفىّ نائب حلب، و قد قتل فى وقعة كانت بينه و بين الأمير الكبير ألطنبغا القرمشىّ فى يوم الثلاثاء ثالث عشرين المحرم.

قال المقريزى: و كان يشبک من شرار خلق اللّه تعالى؛ لما هو عليه من الفجور، و الجرأة على الفسوق، و التهوّن فى سفک الدّماء، و أخذ الأموال، و كان الملک المؤيّد قد استوحش منه لما يبلغه من أخذه فى أسباب الخروج عليه، و أسرّ للأمير ألطنبغا القرمشىّ فى إعمال الحيلة فى القبض عليه، فأتاه اللّه من حيث لم يحتسب، و أخذه أخذا و بيلا- و للّه الحمد- انتهى كلام المقريزى.

قلت: و كان من خبر يشبک هذا مع الأمير الكبير ألطنبغا القرمشىّ، أنه لمّا خرج من الديار المصرية إلى البلاد الشاميه و صحبته الأمراء، و هم: الأمير طوغان أمير آخور، و ألطنبغا من عبد الواحد الصغير رأس نوبة النّوب، و أزدمر الناصرى، و آق بلاط الدّمرداش، و سودون اللّكّاش، و جلبّان أمير آخور الذى تولّى نيابة دمشق فى دولة الملک الظاهر جقمق، و قبل خروج القرمشىّ من القاهرة أسرّ إليه الملک المؤيد بالقبض على الأمير الكبير يشبک اليوسفىّ نائب حلب إن أمكنه ذلک، فسار القرمشىّ إلى البلاد الشامية مقدّما للعساكر، ثم توجّه إلى البلاد الحلبية، ثم ساروا من حلب هو و رفقته إلى حيث ندبهم إليه الملک المؤيد، و عادوا إلى حلب فى أوّل سنة أربع و عشرين و أقاموا بها، فاستوحش الأمير يشبک نائب حلب منهم، و لم يجسر القرمشى على مسكه، و بينماهم فى ذلک طرقهم الخبر بموت السلطان الملک المؤيد، فاضطرب الأمراء المجرّدون، و عزم الأمير الكبير ألطنبغا القرمشىّ على العود إلى الدّيار

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۷۸

المصرية، و وافقه على ذلک رفقته من الأمراء، و برز بمن معه إلى ظاهر حلب، و خرجوا من باب المقام، و بلغ ذلک الأمير يشبک نائب حلب و كان لم يخرج لتوديعهم، فعزم على أن يركب و يقاتلهم، و بلغ ذلک القرمشى فى الحال، فأرسل إليه دواداره السّيفى خشكلدى القرمشى.

حدّثنى خشكلدى المذكور من لفظه قال: ندبنى أستاذى الأمير ألطنبغا القرمشى أن أتوجّه إلى الأمير يشبک؛ و أذكر له مقالة القرمشى له، فتوجّهت إليه، فإذا به قد طلع إلى منارة جامع حلب، فطلعت إليه بها، و سلّمت عليه فردّ علىّ السلام، و قال: هات ما معک. فقلت: قد تعبت من طلوع السّلّم، أمهل علىّ ساعة فإنى جئت من ملک إلى ملک، فأمهلنى ساعة فبدأته بأن قلت: الأمير الكبير يسلم عليک، و يقول لک بلغه أنّک تريد قتاله بمن معه من الأمراء، و هو يسألک ما القصد فى قتاله، و قد استولى ططر على الدّيار المصرية، و جقمق على البلاد الشاميّة؟ فاقصدهما فإنهما هما الأهمّ، فإن أجليتهما عمّا ملكاه فنحن فى قبضتک، و إن كانت الأخرى فما بالک بالتشويش علينا لغيرک، و نحن ناس سفّار غرباء البلاد، قال: فلما سمع كلامى سكت ساعة، و قال: يسافروا، من وقف فى طريقهم؟ و من هو الذى يقاتلهم؟

أو معنى هذا الكلام، قال: فبست يده و عدت بالجواب إلى الأمير الكبير، و قبل أن أبلغه الرّسالة إذا يشبک المذكور نزل من المنارة، و

لبس آلة الحرب هو و مماليكه فى الحال، و قصد الأمراء و هم بالسّعدى، فلما رآه الأمراء المصريون ركبوا، و رجعوا إليه و حملوا عليه حملة واحدة انكسر فيها، و تقنطر عن فرسه، و قطعت رأسه فى الوقت، فعاد الأمير الكبير ألطنبغا القرمشى بمن معه من الأمراء إلى حلب، و نزل بدار السعادة، و من غريب ما اتّفق أن الأمير يشبك المذكور كان قد استوى سماطه، فأخّره إلى أن يقبض على الأمراء، و يعود يأكله، فقتل فى الحال و دخل القرمشى بمن معه و مدّ السّماط بين أيديهم فأكلوه، و كانوا فى حاجة إلى الأكل، و استمرّ القرمشى بحلب مدّة إلى أن ولّى نيابة حلب الأمير ألطنبغا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۷۹

من عبد الواحد الصّغير رأس نوبة، و عاد إلى دمشق، و اتفق مع الأمير جقمق نائب الشام على قتال المصريين لمخالفتهم لما أوصى به الملك المؤيد [شيخ] قبل موته، و كانت وصيّة الملك المؤيد أن يكون ابنه سلطانا، و أن يكون ألطنبغا القرمشى هو المتحدث فى تدبير مملكته، فخالف ذلك الأمير ططر، و صار هو المتحدّث، و أخرج إقطاعات الأمراء المجرّدين صحبته.

و بينما هم فى ذلك بلغهم أن الأمير ططر عزم على الخروج من الدّيار المصرية و معه السلطان الملك المظفر [أحمد] إلى البلاد الشامية، فتهيّئوا لقتاله، ثمّ بعد مدّة يسيره وقع بينهما وحشة و تقاتلا، فانهزم جقمق إلى الصبيبة، و ملك القرمشىّ دمشق حسبما يأتى ذكره.

هذا ما كان من أمر القرمشى مع يشبك، و أما الأمير ططر فإنه لما بلغه قتل يشبك سرّ بذلك سرورا عظيما، و قال فى نفسه: قد كفيت أمر بعض أعدائى، بل كان يشبك أشدّ عليه من جميع من خالفه- انتهى.

ثم فى يوم الخميس سابع عشر صفر قدم الأمير قجق العيساوىّ حاجب الحجّاب- كان- فى الدولة الناصرية، و الأمير بيبغا المظفّرىّ أمير مجلس- كان- من سجن الإسكندرية بأمر الأمير ططر، و قبّلا الأرض بين يدى السلطان، ثم يد الأمير ططر، ثم قدم الأمير يشبك الساقى [الظّاهرى] الأعرج، و كان الملك المؤيد قد نفاه من دمشق إلى مكّة، لمّا حضر إليه من قلعة حلب فى حصاره الأمير نوروز الحافظى بدمشق، بحيلة دبّرها الملك المؤيد على يشبك المذكور حتى استنزله من قلعة حلب، فإنه كان نائبها من قبل الأمير نوروز، و لما ظفر به المؤيد [شيخ] أراد قتله فيمن قتله من أصحاب نوروز من الأمراء الظاهرية [برقوق]، فشفع فيه الأمير ططر، فأخرجه الملك المؤيد [شيخ] إلى مكة فأقام بها سنين، ثم نقله إلى القدس، فلم تطل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۸۰

مدّته به حتى مات الملك المؤيد، و تحكّم ططر، فكتب بحضوره إلى القاهرة، و كان له منذ خرج من الدّيار المصرية نحو العشرين سنة، فإنّه جرح فى نوبة بركة الحبش من سنة أربع و ثمانمائة الجرح الذى كان سببا لعرجه، و خرج من القاهرة، و دام بالبلاد الشاميّة إلى يوم تاريخه.

قلت: و يشبك هذا هو الذى صار أتابكا بالديار المصرية فى دولة الملك الأشرف برسباى، و هو الذى حسّن للملك الأشرف [برسباى] الاستيلاء على بندر جدّة حتى وقع ذلك، و كان يشبك من رجال الدهر عقلا و حزما و رأيا و تدبيرا، لم تر عينى مثله فى أبناء جنسه، و يأتى ذكره فى محلّه إن شاء اللّه تعالى- انتهى.

ثم قدم أيضا سودون الأعرج الظاهرىّ من قوص، و كان الملك المؤيّد أيضا قد نفاه إليها من سنين عديدة، و كان سودون أيضا من أعيان المماليك الظاهرية برقوق، و فى ظنّه أنه من مقولة الأمير يشبك الأعرج، و الأمر بخلاف ذلك، و الفرق بينهما ظاهر.

ثم أفرج الأمير ططر نظام الملك عن الأمير ناصر الدين بك بن على بك بن قرمان، و خلع عليه، و رسم بتجهيزه ليعود إلى مملكته، فتجهّز و سار فى النّيل يوم السبت سادس عشرين صفر إلى ناحية رشيد ليركب منها إلى البحر الملح و يتوجّه إلى جهة بلاده.

ثم فى يوم الأربعاء أوّل شهر ربيع الأول قدم الخبر على الأمير ططر على يد بعض الشاميّين و معه كتاب الأمير الكبير ألطنبغا القرمشى من حلب، و هو يتضمّن: أنه لما قتل الأمير يشبك نائب حلب ولّى عوضه الأمير ألطنبغا من عبد الواحد

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۸۱

الصّغیر رأس نوبة النوب فإنه عندما ورد علیه الخبر بموت السلطان [الملک] المؤید [شیخ] بعدما عهد بالسّلطنة من بعده لابنه الملک المظفّر أحمد، و أن یکون القائم بتدبیر الدّولة ألطنبغا القرمشیّ، و أنه قد أقیم فی السلطنة الملک المظفّر کما عهد الملک المؤید، أخذ هو و من معه من الأمراء فی الرّحیل من حلب إلی جهة الدیار المصریة کما رسم له به، و کان من أمر یشبک ما کان فاشتغل بذلک عن المسیر، ثم ورد علیه الخبر باستقرار نوّاب الممالک الشامیّة علی عوائدهم، و تحلیفهم للسلطان الملک المظفر أحمد، و للأمیر الکبیر ططر، فحمل الأمر فی ذلک علی أنه غلط من الکاتب، و سأل أن یفصح له عن ذلک، و أبرق و أرعد. و لم یعلم بأن الأمر انقضی وفاته ما أراد، و قد انتهز الأمیر ططر الفرصة، و تمثل لسان حاله بقول القائل: [الوافر]

إذا هبّت ریاحک فاغتنمها فإنّ لکلّ خافقة سکونا

ثم أمر الأمیر ططر بکتابة جوابه، فأجیب بکلام متحصّله: أنه لما عهد الملک المؤید [شیخ] لابنه بالملک، و أقیم فی السلطنة، طلب الأمراء و الخاصّکیّة و الممالیک السلطانیّة أن یکون المتحدّث فی أمور الدّولة الأمیر ططر، و رغبوا إلیه فی ذلک، ففوّض إلیه الخلیفة جمیع أمور المملکة بأسرها، فلیحضر الأمیر بمن معه إلی الدیار المصریة لیکونوا علی إمریّاتهم و إقطاعاتهم علی عادتهم، ثم أنکر علیه استقرار ألطنبغا الصغیر فی نیابة حلب من غیر استئذانه.

ثم قدم الخبر أیضا علی الأمیر ططر بأن علی بن بشارة قاتل الأمیر قطلوبغا التنمیّ نائب صفد و کسره، فانحصر بمدینة صفد إلی أن فرّ منها إلی دمشق، و انضم علی نائبها الأمیر جقمق، و أن جقمق قد استعدّ بدمشق، و استخدم جماعة کبیرة من الممالیک، و سکن قلعة دمشق، فتحقّق الأمیر ططر عند ذلک خروج جقمق عن طاعته، و کذلک الأمیر الکبیر ألطنبغا القرمشی و أخذ فی إبرام أمره.

فلما کان یوم الخمیس تاسع شهر ربیع الأول [المذکور] خلع علی الأمیر تنبک

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۸۲

میق العلائی باستقراره أتابک العساکر بالدیار المصریّة عوضا عن ألطنبغا القرمشیّ، و أنعم علیه بإقطاعه، و أنعم بإقطاع تنبک میق علی الأمیر إینال السّیفی شیخ الصّفوی المعروف بالأرغزیّ، و أنعم بإقطاع إینال الأرغزی المذکور علی الأمیر قجق العیساویّ القادم من سجن الإسکندریة قبل تاریخه، و أنعم بإقطاع الأمیر طوغان أمیر آخور أحد الأمراء المجرّدین علی الأمیر تغری بردی من آقبغا المؤیدی المعروف بأخی قصروه المقدم ذکره، و أنعم بإقطاع الأمیر ألطنبغا الصغیر رأس نوبة النّوب المستقرّ فی نیابة حلب علی سودون العلائی، و أنعم بإقطاع سودون العلائی علی الأمیر قطج من تمراز الظاهریّ، و أنعم بإقطاع الأمیر أزدمر الناصریّ أحد مقدّمی الألوف المجرّدین علی الأمیر بیبغا المظفری الظاهری الذی قدم قبل تاریخه من سجن الإسکندریة.

و أنعم بإقطاع الأمیر جرباش الکریمیّ المعروف بقاشق أحد المقدّمین المجرّدین علی الأمیر تمربای من قرمش المؤیّدی شادّ الشراب خاناه، و أنعم بإقطاع الأمیر تمربای المذکور و هو إمرة طبلخاناه علی الأمیر أرکماس الیوسفیّ، و بإقطاع الأمیر أرکماس المذکور علی سودون النّوروزیّ الحمویّ، و بإقطاع سودون الحمویّ علی شاهین الحسنیّ و تغری بردی المحمدی- قسّم بینهما- و أنعم بإقطاع الأمیر جلبّان الأمیر آخور- کان- أحد المقدّمین المتجرّدین علی الأمیر علی بای من علم شیخ المؤیّدی الدوادار الکبیر، و أنعم بإقطاع علی بای المذکور علی الدّیوان المفرد.

و أنعم بإقطاع الأمیر مقبل الحسامیّ الدّوادار الکبیر الذی تسحّب قبل تاریخه من القاهرة إلی الشّام علی الأمیر جقمق العلائی الخازندار، و هو الملک الظاهر جقمق، و أنعم بإقطاع الأمیر ألطنبغا المرقبیّ حاجب الحجّاب أحد المجرّدین علی الأمیر قصروه من تمراز الظّاهریّ، و أنعم بإقطاع قصروه علی مغلبای البوبکری المؤیّدی السّاقی،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة؛ ج۱۴؛ ص۱۸۳

ة مائة و تقدمة ألف بالدیار المصریة.

ثم فی یوم الأربعاء ثانی عشرین شهر ربیع الأوّل المذكور فرّق الأمیر ططر علی الأمراء و الممالیک- فی دفعهٔ واحدهٔ- أربعمائهٔ فرس برسم السّفر إلی الشّام، و قد عزم علی المسیر إلی البلاد الشّامیّهٔ صحبهٔ السلطان الملک المظفر أحمد، بعد أن رسم للأمراء و الممالیک بالتجهیز إلی السفر.

ثم قدم قصّاد الأمراء المجردین إلی مصر بطلب جمالهم و أموالهم، فمنعوا من ذلک، و کتب للأمیر ألطنبغا القرمشیّ بأن الجمال فرّقها السلطان، و قد عزم علی السّفر، و أنت مخیّر بین أن تحضر علی ما کنت علیه، و بین أن تستقرّ فی نیابهٔ الشّام عوضا عن جقمق الأرغون شاویّ.

ثم أخذ الأمیر ططر فی التهیؤ و الاهتمام إلی السفر.

ثم فی یوم الاثنین سابع عشرینه خلع الأمیر ططر علی الأمیر صلاح الدین محمد ابن الصّاحب بدر الدین حسن بن نصر اللّه ناظر الخواصّ باستقراره أستادار العالیهٔ عوضا عن الأمیر یشبک المؤیّدی المعروف بأنالی بعد عزله، و أنعم علی صلاح الدین المذكور بإمرهٔ مائهٔ و تقدمهٔ ألف.

و فی هذا الیوم و الذی قبله نودی بالقاهرهٔ و ظواهرها بأن لا یسافر أحد إلی البلاد الشّامیّهٔ، و هدّد من وجد مسافرا إلیها بالقتل، و کان القصد بهذه القضیّهٔ تعمیهٔ أخبار مصر و أحوالها عن الأمراء بالبلاد الشّامیهٔ و المخالفین علیه.

النجوم الزاهرهٔ فی ملوک مصر و القاهرهٔ، ج۱۴، ص: ۱۸۴

قلت: و لهذه الفعلهٔ و أشباهها کان یعجبنی أفعال الأمیر ططر، فإنه کان یسیر علی طریق ملوک السّلف فی غالب حرکاته، لکثرهٔ اطّلاعه لأخبارهم و أمورهم، و من تعمیهٔ الأخبار علی العدو، و التّورّی فی الأسفار من أن یقصد مکانا فیوری بآخر، و من مخادعهٔ أعدائه و الترقّق لهم؛ فإنه بلغه- لمّا استفحل أمره- عن الأمیر علی بای المؤیّدی الدّوادار، أنه یقول لخچداشیته المؤیّدیّهٔ: لا تکترثوا بأمره أنا کفایهٔ له، إن استقام فهو علی حاله، و إن تعوّج أخذته بیدی و ألقیته من أعلی القصر إلی الأرض، و أیش هو ططر؟ فلمّا سمع ذلک أمر القائل له بالکتمان، و أخذ فی الإلمام علی علی بای [المذكور] و إظهاره علی سرّه، و هو مع ذلک فی قلبه منه أمور و حزازات، و أیضا لمّا وصل إلی الشّام حسبما نذکره.

و قدم علیه خچداشیته من عند قرا یوسف علی أقبح حال من الفقر: أعنی عن الأمراء الذین هربوا من الملک المؤیّد فی وقعهٔ قانی بای نائب الشّام، و هم سودون من عبد الرحمن نائب طرابلس، و تنبک البجاسیّ نائب حماهٔ، و طربای نائب غزّهٔ، و جانی بک الحمزاویّ، و یشبک الجکمیّ الدوادار الثانی الذی کان فر من الحجاز إلی العراق، و غیرهم، فلمّا و صلوا إلی دمشق و تمثلوا بین یدی ططر و رءاهم علی بای الدوادار المذكور، و تغری بردی المؤیّدی أمیر آخور کبیر قالا للأمیر ططر- لمّا أتوا-: هؤلاء یریدون العود إلی ما کانوا علیه، و هم أعداء أستاذنا، فقال لهما ططر: أعوذ بالله، هؤلاء ما بقی فیهم بقیّهٔ لطلب ما ذکرتموه ممّا قاسوه من الغربهٔ و التّشتّت، و إنما قصد کلّ واحد منهم ما یقوم بأوده، مثل إقطاع حلقهٔ و یقیم بالقدس، أو مرتّب و یقیم بدمیاط، أو شیء علی الجوالی، و أنتم تعرفون

النجوم الزاهرهٔ فی ملوک مصر و القاهرهٔ، ج۱۴، ص: ۱۸۵

أنهم خشداشیّتنا لا یمکننا إلّا النّظر فی أحوالهم بنحو ما ذکرناه، فلمّا سمع المؤیدیهٔ ذلک قالوا: هذا ما نقول فیه شیئا، و أما غیر ذلک فلا، فقال لهم ططر: و ما تمّ غیر ما قلته، فانخدعوا و سکتوا علی ما سنذکره من أمرهم عند قدومهم علی الأمیر ططر بدمشق- انتهی.

ثم أخذ الأمیر ططر- بعد المناداهٔ- فی تجهیز أمره و أمر السلطان إلی السّفر.

فلمّا کان یوم الاثنین رابع شهر ربیع الآخر رکب الأمیر ططر نظام الملک من قلعهٔ الجبل و معه الأمراء و الخاصّکیّهٔ و الممالیک السلطانیّهٔ، و سار إلی جههٔ قبّهٔ النصر ثم عاد و دخل القاهرهٔ من باب النّصر، و خرج من باب زویلهٔ إلی أن طلع إلی القلعهٔ فی موکب سلطانی لم یفقد فیه إلا الجاویشیّهٔ و العصابهٔ السلطانیّهٔ، و هذا أوّل موکب رکبه الأمیر ططر من یوم تحکّمه فی الدیار المصریّهٔ، و هو

من يوم موت [الملك] المؤيد شيخ.

ثم فى سادسه نودى فى المماليك السلطانيّة بالطلوع إلى القلعة لأخذ نفقة السّفر فى يوم الخميس، فلما كان يوم الخميس المذكور جلس الأمير ططر نظام الملك بقلعة الجبل، و أنفق فى المماليك السلطانية نفقة السّفر، لكل واحد مائة دينار إفرنتيّة، ثم فى تاسعه أنفق على الأمراء و المماليك أيضا، فحمل للأمير الكبير تنبك ميق خمسة آلاف دينار، و لمن عداه أربعة آلاف دينار و ثلاثة آلاف دينار.

و فى عاشره أخرج الأمير ططر ولدى الملك الناصر فرج من قلعة الجبل، و وجّههما إلى سجن الإسكندرية كما كانا أوّلا به، و كان سبب قدومهما من الإسكندرية إلى مصر أن عمتهما خوند زينب بنت السلطان الملك الظاهر برقوق و زوجة الملك المؤيّد

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۴، ص: ١٨۶

شيخ كانت سألت زوجها الملك المؤيّد فى قدومهما بسبب ختانهما، فقدما إلى القلعة و ختنا، و هما محمد و خليل، فأقاما عند عمّتهما إلى أن مات الملك المؤيّد، فلما عزم ططر على التوجّه إلى البلاد الشاميّة أمر بعودتهما إلى الإسكندرية و سجنهما بها كما كانا أوّلا.

ثم فى رابع عشر شهر ربيع الآخر خرجت مدوّرة السلطان إلى الرّيدانيّة خارج القاهرة، فقدم الخبر على الأمير ططر بأن عساكر دمشق برزت منها إلى اللّجّون، فركب الأمير ططر فى يوم الثلاثاء تاسع عشره من قلعة الجبل و معه السلطان الملك المظفر أحمد و الأمراء و سائر أرباب الدولة، و نزل من قلعة الجبل إلى الريدانيّة بمخيّمه، و سافرت أمّ السلطان الملك المظفّر أحمد خوند سعادات فى محفّة صحبة ولدها، و أصبح من الغد فى يوم الأربعاء رحل الأمير الكبير تنبك ميق من الرّيدانيّة و معه عدّة أمراء جاليشا.

ثم استقلّ الأمير ططر بالسّفر و معه السلطان و الخليفة و القضاة الأربعة و بقيّة العساكر فى يوم الجمعة ثانى عشرين شهر ربيع الآخر المذكور، و الموكب جميعه لططر بعد أن جعل الأمير قانى باى الحمزاوىّ نائب الغيبة بالديار المصريّة، و هو يومئذ غائب ببلاد الصّعيد، و أن ينوب عنه فى نيابة الغيبة الأمير جقمق العلائى أخو جاركس المصارع إلى أن يحضر قانى باى، و جعل معهما أيضا فى القاهرة من الأمراء المقدّمين الأمير آقبغا التّمرازىّ، و الأمير قرامراد خجا الشّعبانى.

و سار الأمير ططر من الرّيدانيّة بالسلطان إلى أن وصل مدينة غزّة فى يوم الاثنين ثانى جمادى الأولى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۴، ص: ١٨٧

و فى مدّة إقامته بغزّة قدم عليه جماعة من الأمراء ممن خرج من عسكر دمشق، منهم الأمير جلبّان أمير آخور و كان أحد الأمراء المجرّدين إلى حلب فى أيام الملك المؤيّد، و الأمير إينال النّوروزىّ نائب حماة، و غيرهما، فسرّ الأمير ططر بهما، و فرّ منهم- ممن كان خرج معهم من دمشق- الأمير مقبل الحسامى الدّوادار- كان- فى طائفة يريد دمشق إلى الأمير جقمق.

ثم سار الأمير ططر من غزّة بالسلطان و العساكر يريد دمشق حتى وصل إلى بيسان فى يوم الثلاثاء عاشر جمادى الأولى فورد عليه الخبر من دمشق بأن الأمير مقبلا الدوادار لما وصل إلى دمشق، و أخبر الأمراء بدخول الأمير جلبّان و الأمير إينال النوروزى فى طاعة الأمير ططر شقّ ذلك على الأمير جقمق الأرغون شاوى نائب الشّام، و على الأمير الكبير ألطنبغا القرمشى و من معه من الأمراء المصريين، و اضطرب أمرهم و تكلّموا فى المصلحة، فلم ينتظم لهم أمر و اختلفا: أعنى القرمشى و جقمق نائب الشام، فاقتضى رأى ألطنبغا القرمشى و من معه الدّخول فى طاعة الأمير ططر، و التسليم له فيما يفعل، و امتنع جقمق نائب الشّام من ذلك و أبى إلا قتال ططر، و افترقا من يومئذ، و صارا فى تباين، إلى أن كان يوم الثلاثاء ثالث جمادى الأولى المذكورة بلغ الأمير ألطنبغا القرمشى عن جقمق أنه يريد القبض عليه، و على من معه من الأمراء، فطلب أصحابه و شاورهم فيما يفعل، فاقتضى رأيهم محاربته، فبادر القرمشى إلى محاربة جقمق، و ركب بمماليكه و أصحابه بآلة الحرب و عليهم السّلاح، و وقف بهم تجاه قلعة دمشق، و قد رفع الصّنجق السلطانى، و أعلن بطاعة السلطان، فأتاه جماعة كبيرة من أمراء دمشق و غيرها راغبين فى الطّاعة.

و بلغ جقمق ذلك، فتهيّأ لقتاله، و لبس السلاح، و نزل بمماليكه و أصحابه، و صدم

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۴، ص: ١٨٨

بهم الأمير ألطنبغا القرمشى و من معه، و قاتلهم، فكان بينه و بينهم وقعة هائلة طول النهار، إلى أن انكسر الأمير جقمق، و توجّه هو و الأمير طوغان أمير آخور، و الأمير مقبل الحسامى الدّوادار فى نحو الخمسين فارسا إلى جهة صرخد، و أن الأمير ألطنبغا القرمشى استولى على مدينة دمشق، و تقدّم إلى القضاة و الأعيان أن يتوجّهوا إلى ملاقاة السلطان و الأمير ططر، فسرّ الأمير ططر بذلك غاية السرور، و علم أن الأمر قدهان، و تحقق كل أحد ثبات أمره، و أنه سيصير أمره إلى ما سنذكره.

و كان الذى قدم عليه بهذا الخبر الأمير أزدمر الناصرى، أحد مقدمى الألوف بالديار المصرية، ممن كان صحبة القرمشى بالبلاد الحلبية، ثم قدم على الأمير ططر أيضا الأمير قطلوبغا التنمى نائب صفد، و خلع عليه الأمير ططر باستقراره على نيابة صفد.

ثم ركب الأمير ططر و معه السلطان و العساكر إلى نحو دمشق حتى دخلها من غير ممانع بكرة الأحد خامس عشر جمادى الأولى المذكورة بعد أن تلقاه الأمير الكبير ألطنبغا القرمشى و معه الأمير ألطنبغا المرقبى حاجب الحجّاب بالديار المصرية، و الأمير جرباش الكريمى المعروف بقاشق أحد مقدّمى الألوف بديار مصر و الأمير سودون اللكاشى أحد مقدّمى الألوف أيضا، و الأمير آق بلاط الدمرداش أحد مقدّمى الألوف أيضا.

و لما دخل القرمشى على السلطان الملك المظفر [أحمد] نزل و قبّل الأرض له بمن معه، و سلّم عل الأمير ططر، ثم ركب و سار فى خدمة السّلطان فتأدّب معه الأمير ططر نظام الملك بأن يسير فى ميمنة السلطان الملك المظفر، فامتنع من ذلك، و ألحّ

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۸۹

عليه فأبى إلا سيره فى ميسرة السلطان، كل ذلك بعد أن خلع السلطان على القرمشى، و سار السلطان إلى أن طلع إلى قلعة دمشق و معه الأمير ططر.

فأوّل ما بدأ به الأمير ططر أن قبض على الأمير الكبير ألطنبغا القرمشى، و على الأمير جرباش الكريمى، و على الأمير ألطنبغا المرقبى، و على الأمير أردبغا من أمراء الألوف بدمشق، و على الأمير بدر الدين حسن بن محب الدين الطرابلسى أستادارا المؤيّد [شيخ] و على جماعة أخر.

و أصبح يوم الاثنين سادس عشره جلس للخدمة بقلعة دمشق، و خلع على الأمير تنبك ميق العلائى باستقراره فى نيابة دمشق عوضا عن جقمق الأرغون شاوى الدوادار، و خلع على الأمير إينال الجكمى رأس نوبة النوب و استقر به فى نيابة حلب، عوضا عن الأمير ألطنبغا من عبد الواحد المعروف بالصغير، و على الأمير يونس الرّكنى الأعور أتابك دمشق باستقراره فى نيابة غزة عوضا عن أركماس الجلبّانى.

ثم خلع على الأمير جانى بك الصّوفى أمير سلاح باستقراره أتابك العساكر بالدّيار المصرية عوضا عن تنبك ميق.

ثم أخذ الأمير ططر فى العمل على مسك جقمق الدّوادار، فبعث إليه الأمير بيبغا المظفّرى أمير مجلس، و الأمير إينال الشّيخى الأرغزى، و الأمير يشبك أنالى المعزول عن الأستادارية، و الأمير سودون اللّكّاشىّ، و معهم مائتا مملوك من المماليك السلطانية فساروا إلى صرخد.

و أرسل الأمير ططر المبشّر إلى الديار المصرية بقدوم السلطان إلى دمشق و بالقبض على الأمير ألطنبغا القرمشى، فدقت البشائر بقلعة الجبل لذلك ثلاثة أيام، و زينت القاهرة عشرة أيام.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۹۰

ثم تزوّج الأمير الكبير ططر بأم السلطان الملك المظفّر أحمد، صاحب التّرجمة و هى خوند سعادات بنت الأمير صرغتمش، و بنى بها، فصار عمّ السلطان زوج أمّه و نظام ملكه مع ما تمهد له [من الأمر] من مسك الأمير ألطنبغا القرمشى و رفقته، و من ورود الخبر عليه بمجيء خچداشيّته الأمراء الذين كانوا فرّوا من الملك المؤيّد فى وقعة الأمير قانى باى المحمدى نائب الشام المقدّم ذكرهم.

فلمّا كان يوم الثلاثاء ثامن جمادى الآخرة، قدم الأمراء المقدّم ذكرهم من عند قرا يوسف بعد موته، و كانوا عند قرا يوسف من يوم

فروا من وقعة الأمير قانى باى، و هم الأمير سودون من عبد الرّحمن نائب طرابلس كان، و الأمير تنبك البجاسيّ نائب حماة كان، و الأمير طرباى الظّاهرىّ نائب غزّة كان، و الأمير يشبك الجكمىّ الدّوادار الثانى كان، و هو الذى فرّ من المدينة الشّريفة لما كان أمير الحاجّ [و توجّه] إلى العراق فى سنة إحدى و عشرين و ثمانمائة، و الأمير جانى بك الحمزاوىّ، و الأمير موسى الكركرى بمن كان معهم، فخلع عليهم الأمير ططر و أنعم عليهم بالمال و الخيل و السلاح، غير أنه لم يعط أحدا منهم إقطاعا و لا إمرة خوفا من المماليك المؤيديّة، و كذلك الأمير برسباى الدّقماقى نائب طرابلس كان، أعنى الملك الأشرف لمّا أطلقه من سجن قلعة دمشق لم ينعم عليه بإقطاع، و كان من خبره أنّ الملك المؤيّد جعله بعد إطلاقه من سجن المرقب أمير مائة و مقدّم ألف بدمشق، فقبض عليه الأمير جقمق و حبسه إلى أن أطلقه ططر- انتهى.

ثم أمر الأمير ططر بابن محب الدين الأستادار- كان- فصودر و عوقب أشدّ عقوبة، و أجرى عليه العذاب، و أخذ منه جملا مستكثرة و لا زال فى العقوبة إلى أن مات فى سابع عشرين جمادى الآخرة، كل ذلك بعد قتل الأمير ألطنبغا القرمشىّ.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۹۱

و خبره أن الأمير ططر لمّا طلع إلى قلعة دمشق و قبض عليه فى الحال ارتجّ العسكر لمسكه، و عظم ذلك على جماعة كبيرة من المماليك السلطانية الظاهريّة، و طلبوا من الأمير ططر إبقاءه، فرأى ططر أنّه لا يتمّ له أمر مع بقائه، و أرسل القرمشىّ أيضا يترقّق له، فلم يلتفت ططر إلى هذا كله، و تمثل لسان حاله بقول المتنبى:

[الكامل]

لا يخدعنّك من عدوّك دمعه و ارحم شبابك من عدوّ ترحم

لا يسلم الشّرف الرّفيع من الأذى حتّى يراق على جوانبه الدّم

و جسر عليه و قتله بعد أيّام، فلم ينتطح فى ذلك عنزان.

و كان الأمير ألطنبغا القرمشىّ حسنة من حسنات الدهر عقلا و حشمة و رياسة و سؤددا و كرما، مع اللّين و الأدب و التواضع، كما سيأتى ذكره فى حوادث سنة أربع و عشرين و ثمانمائة إن شاء اللّه تعالى.

و لما أن مهّد الأمير ططر أمور دمشق، و قوى جانبه بخشداشيته و أصحابه، عزم على التوجّه إلى حلب.

فلما كان يوم الجمعة خامس عشرين جمادى الآخرة المذكور ركب الأمير ططر من قلعة دمشق و معه السلطان الملك المظفّر و جميع عساكره، و توجّه إلى جهة البلاد الحلبيّة، و سار حتى وصلها فى العشر الأول من شهر رجب، بعد أن فرّ منها الأمير ألطنبغا الصّغير قبل قدومه بمدّة، و ملكها الأمير إينال الجكمىّ، و سكن بدار السّعادة على عادة النّوّاب، و أقام الأمير ططر بحلب، و أخذ فى إصلاح أمرها، و خلع على أمراء التّركمان و العربان، و بعث رسله إلى البلاد، و بينما هو فى ذلك قدم عليه الأمير مقبل الحسامىّ الدّوادار- كان- أحد أصحاب جقمق طائعا، و قد فارق الأمير جقمق من صرخد بعد أن حوصر جقمق من الأمير بيبغا المظفّرىّ المقدم ذكره و رفقته أيّاما، فخلع الأمير ططر على الأمير مقبل المذكور و عفا عنه- و فى النفس من ذلك شىء- ثم خلع الأمير ططر على الأمير تغرى بردى من آقبغا المؤيّدىّ

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۹۲

الأمير آخور الكبير المعروف بأخى قصروه، باستقراره فى نيابة حلب عوضا عن الأمير إينال الجكمىّ، و خلع على الأمير إينال الجكمىّ باستقراره أمير سلاح عوضا عن جانى بك الصّوفى بحكم انتقاله إلى أتابكيّة العساكر بديار مصر، و خلع على الأمير تمرباى اليوسفىّ المؤيّدى المشد باستقراره أمير حاج المحمل، فخرج من حلب و سار إلى الديار المصريّة ليتجهّز إلى سفر الحجاز.

ثم أبطأ على الأمير ططر أمر جقمق بصرخد، فندب له الأمير برسباى الدّقماقى نائب طرابلس- كان- و معه القاضى بدر الدين محمد بن مزهر ناظر الإسطبل و نائب كاتب السّرّ، و أرسل معه أمانا لجقمق المذكور و لمن معه، و حلف له أنه لا يمسّه بسوء إن سلّم إليه

صرخد و قدم إلى طاعته، فركب برسباى و توجّه إلى صرخد، و ما زال بالأمير جقمق و من عنده حتّى أذعنوا لطاعة الأمير ططر، و نزلوا من قلعة صرخد، و توجّهوا صحبة الأمير برسباى الدّقماقىّ إلى دمشق، و هم: الأمير جقمق نائب الشّام، و الأمير طوغان أمير آخور الملك المؤيّد و غيرهم، فلمّا قدموا إلى دمشق قبض عليهم الأمير تنبك ميق نائب الشّام، و لم يلتفت إلى كلام الأمير برسباى الدّقماقى، و حبس الأمير جقمق و الأمير طوغان أمير آخور بقلعة دمشق، و قال: إذا جاء الأمير الكبير ططر إن شاء يطلقهما و إن شاء يقتلهما، فاحتدّ الأمير برسباى لذلك قليلا ثم سكن ما به لمّا علم المصلحة فى قبضهما، و قيل إن الأمير برسباى لما قدم بهما إلى دمشق قال للأمير تنبك ميق: أنا قد حلفت لهما فاقبض عليهما أنت، ففعل تنبك ذلك، و الصّواب عندى هو القول الثانى.

و أما الأمير ططر فإنه أقام بحلب هو و السلطان و العساكر إلى يوم الاثنين حادى عشر شعبان، فبرز فيه من مدينة حلب يريد مدينة دمشق، بعد أن مهّد أمور البلاد الحلبيّة، و خلع على مملوكه- و رأس نوبة- الأمير باك، باستقراره فى نيابة قلعة حلب، و كان الأمير باك من أخصّاء الأمير ططر و أعيان مماليكه.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۹۳

و سار الأمير ططر إلى أن دخل دمشق هو و السلطان الملك المظفر أحمد فى يوم السبت ثالث عشرين شعبان، فارتجت دمشق لدخوله، و عبر دمشق و جميع الأمراء بين يديه، و السلطان معه كالآلة على عادته، و طلع إلى قلعة دمشق، و شكر الأمير تنبك ميق على قبضه على جقمق، ثم أمر بجقمق فعوقب على المال، ثم قتل بقلعة دمشق.

ثم أخرج الأمير طوغان الأمير آخور من حبس قلعة دمشق، و أرسله إلى القدس بطّالا، فخفّ الأمر كثيرا على الأمير ططر بقتل الأمير الكبير ألطنبغا القرمشىّ، ثم بقتل الأمير جقمق نائب الشّام، و لم يبق عليه إلا الأمراء المؤيديّة- و كانت لهم شوكة و سطوة بخشداشيّتهم المماليك المؤيدية- فأخذ الأمير ططر عند ذلك يدبّر على قبضهم و جبن عن ذلك، و تكلم مع خشداشيّته المماليك الظاهريّة [برقوق] فى ذلك، فاختلفت آراؤهم فى القبض عليهم، فمنهم من رأى أن القبض عليهم بالبلاد الشّامية أصلح، و منهم من قال المصلحة أن الأمير الكبير ططر يعود إلى مصر، ثم يفعل ما بدا له بعد أن يصير بقلعة الجبل، فمال ططر إلى القول الثانى من أنه يعود إلى مصر، ثم يقبض عليهم، ثم يتسلطن، فلم يرض الأمير قصروه من تمراز بذلك، و قام فى القبض عليهم، و بالغ فى ذلك، و هوّن أمر المؤيديّة [شيخ] على الأمير ططر إلى الغاية، حتى قال له: لا تتكلّم أنت فى أمرهم، و أنا و الأمير بيبغا المظفّرى نكفيك أمر هؤلاء الأجلاب، كل ذلك لما كان فى نفس قصروه من أستاذهم الملك المؤيد؛ فإنه حدثنى بعض أعيان المماليك الظاهريّة قال: لمّا أخرج الملك المؤيّد قصروه من السّجن و أنعم عليه بإمرة عشرة صادفته فى بعض الأيام عند باب زويلة، فسلمت عليه و رجعت معه، فقال لى: يا أخى فلان، فقلت له: نعم، قال «تنظر ما يفعل [بنا] هذا الرجل و بخشداشيّتنا؟ قلت: [نعم] نظرت، قال: اللّه لا يميتنى حتى أفعل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۹۴

بمماليكه ما فعل بخشداشيّتنا من الحبس و القتل و التشتت. فقلت له: هل قلت هذا الكلام لأحد غيرى؟ قال: لا. فقلت له عند ذلك: أمسك ما معك، لأن غريمك صعب، و متى ما سمع بعض هذا الكلام عنك لا يبقيك ساعة واحدة. فقال:

أعرف هذا، فاكتم أنت أيضا ما سمعته منى، و تفارقنا، فلم يكن إلا بعد مدّة يسيرة و مات الملك المؤيّد، و وقع ما وقع من أمر الأمير ططر، إلى أن قام قصروه فى مسك المؤيّديّة، و مسكوا عن آخرهم، فلمّا كان بعد أيّام رآنى و قال: أخى فلان، فقلت: نعم، [قال]: هل وفّيت بما قلت أم لا؟ فقلت: نعم وفّيت و زيادة- انتهى.

و قد خرجنا عن المقصود، و لنعد لما كنّا فيه.

و لما سمع الأمير ططر كلام قصروه، هان عليه أمر المؤيديّة، و وافق قصروه الأمير تغرى بردى المحمودى الناصرىّ، و الأمير بيبغا المظفّرى أمير مجلس، و الأمير يشبك الجكمىّ، القادم من عند قرا يوسف، و الأمير أزدمر شايا، و الأمير أيتمش الخضرىّ، و لا زالوا

بالأمير طر حتى وافقهم على القبض عليهم، بعد أن قال لهم: اصبروا حتى نكتب بقتل الأمير قجقار القردمى أمير سلاح، و كتب إلى مصر، ثم إلى نائب إسكندرية الأمير قشتم المؤيدى بقتله، فقتل فى شعبان المذكور.

و صار طر يتردّد فى القبض على المؤيّديّة، إلى أن كان يوم الخميس ثامن عشرين شعبان من سنة أربع و عشرين المذكورة، و حضر الأمراء الخدمة على العادة، و قرىء الجيش، و فرغت العلامة. و قبل أن يحضر السماط، مدّت الأمراء الظاهرية أيديهم فقبضوا على الأمراء المؤيدية فى الحال، الذين حضروا الخدمة و الذين تأخّروا عن

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۹۵

الخدمة، فكان ممن قبض عليه منهم سبعة من مقدّمى الألوف من مشتروات الملك المؤيد، و ممن أنشأه، و هم: -

الأمير إينال الجكمى أمير سلاح- أصله من مماليک جكم من عوض نائب حلب إلّا أن المؤيد هو الذى أنشأه و رقّاه.

و الأمير إينال الشّيخى الأرغزىّ حاجب الحجّاب، و كان أصله من مماليک الأمير شيخ الصّفوىّ، أمير مجلس فى دولة الملک الظاهر برقوق، غير أنه خدم الملک المؤيد قديما، و اختصّ به أيام [تلک] الفتن، فلما تسلطن رقّاه و قرّبه إلى الغاية.

و الأمير سودون اللّكّاش [الظاهرى] أحد الأمراء المجرّدين [إلى حلب] صحبة الأمير ألطنبغا القرمشى، و كان أصله من مماليک الأمير آقبغا اللكّاش الظاهرى، و خدم الملک المؤيد قديما، فلما ملک مصر أنعم عليه و رقاه حتى جعله أمير مائة و مقدّم ألف بديار مصر.

و الأمير جلبّان أمير آخور كان، و هو أيضا من جملة من كان مجرّدا صحبة القرمشىّ، و فى معتقه أقوال كثيرة، و أصله من مماليک الأمير تنبک أمير آخور اليحياوىّ الظاهرى، ثم أخذه بعده إينال حطب، ثم چاركس المصارع، ثم اتصل بخدمة الملک المؤيد [شيخ]، و صار أمير آخور قبل سلطنته، فلما تسلطن رقاه حتى صار من جملة أمراء الألوف بالقاهرة.

ثم على الأمير أزدمر الناصرى، و كان من جملة الأمراء المجرّدين مع ألطنبغا القرمشى، و أصله من مماليک الملک الظاهر برقوق، و نسبته بالناصرى إلى تاجره خواجا ناصر الدين، و هو ممّن أنشأه الملک المؤيد من خشداشيّته و رقاه، و كان رأسا فى لعب الرّمح.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۹۶

و على الأمير يشبک أنالى المؤيدى رأس نوبة النّواب، الذى كان ولى الأستادارية فى دولة أستاذه المؤيد، و هو من أكابر المماليک المؤيدية، و نسبته أنالى أى له أم.

و على الأمير على باى من علم شيخ المؤيدى الدّوادار، و هو أعظم مماليک المؤيد يوم ذاک، و هؤلاء من أمراء الألوف.

و أما الذين قبض عليهم من أمراء الطبلخانات و العشرات فكثير، منهم: الأمير مغلباى الأبوبكرى السّاقى، و على الأمير مبارک شاه الرّماح، و على الأمير مامش المؤيدى رأس نوبة، و على جماعة أخر، ثم قبض على الطّواشى مرجان المسلمى الهندى الخازندار، ثم أطلقه.

و بعد مسک هؤلاء الأمراء خلا الجوّ للأمير طر، و علم أنه لم يبق له منازع فيما يرومه، فإنه كان فى قلق كبير من على باى الدّوادار و خشداشيته، و فى تخوّف عظيم، بحيث إنه كان فى غالب سفره منذ خرج من الديار المصرية لا يفارق لبس الزّردية من تحت ثيابه حتى أورث له ذلک مرضا فى باطنه من شدّة برد الزّردية، و تسلسل فيه ذلک من شىء إلى شىء حتى مات حسبما نذكره.

فلما قبض على هؤلاء عزم على خلع السلطان الملک المظفّر [أحمد] من السّلطنة و وافقه على ذلک جميع الأمراء و الخاصّكيّة، هذا و قد صار طر يأخذ بخاطر من بقى من صغار المماليک المؤيدية و يقرّبهم و يدنيهم، و يسكّن روعهم، على أن كل واحد منهم انتمى لشخص من حواشى طر، كما هى عادة العساكر المفلولة ممّن زالت دولتهم، و ذهبت شوكتهم، و تخلّف منهم جماعة بالبلاد الشاميّة، و انحطّ

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۹۷

قدرهم و خدموا الأمراء سنين إلى أن أعيدوا فى دولة الملک الظاهر جقمق إلى بيت السلطان.

و لمّا کان یوم تاسع عشرین شعبان من سنة أربع و عشرین و ثمانمائة خلع السلطان الملک المظفر أحمد بن المؤید بالسلطان الملک الظاهر ططر، و أدخل المظفر إلی أمّه خوند سعادات، و کان ططر قد تزوّجها حسبما ذکرناه، فمن یوم خلع ابنها المظفر لم یدخل إلیها ططر، ثم طلّقها بعد ذلک.

و کانت مدّه سلطنة الملک المظفر من یوم جلوسه علی تخت الملک- و هو یوم موت أبیه الملک المؤید شیخ- إلی أن خلع فی هذا الیوم، سبعة أشهر و عشرین یوما، و عاد صحبة الملک الظاهر ططر إلی الدّیار المصریة، و أقام بقلعة الجبل مدّة، ثم أخرج هو و أخوه إبراهیم ابن الملک المؤید إلی سجن الإسکندریة، فسجنا بها إلی أن مات الملک المظفر أحمد هذا فی الثّغر المذکور بالطاعون فی لیلة الخمیس آخر جمادی الأولی سنة ثلاث و ثلاثین و ثمانمائة، فی سلطنة الملک الأشرف برسبای، و مات أخوه إبراهیم بعده بمدة یسیرة بالطاعون أیضا، و دفنا بالإسکندریة، ثم نقلا إلی القاهرة و دفنا بالقبة من الجامع المؤیدی داخل باب زویلة، و لم یکن للملک المظفر أمر فی السلطنة لتشکر أفعاله أو تذمّ لعدم تحکّمه فی الدّولة، و أیضا لصغر سنه، فإنه مات بعد خلعه بسنین و هو لم یبلغ الحلم، و أما أخوه إبراهیم فإنه کان أصغر منه، و کانت أمه أم ولد چرکسیّة تسمّی قطلبای، تزوّجها الأمیر إینال الجکمی بعد موت الملک المؤید و ماتت عنده. انتهی و اللّه أعلم.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۹۸

ذکر سلطنة الملک الظاهر ططر علی مصر

السلطان الملک الظّاهر سیف الدین أبو الفتح ططر، تسلطن بعد خلع السلطان الملک المظفّر أحمد ابن الملک المؤید شیخ فی یوم الجمعة تاسع عشرین شعبان سنة أربع و عشرین و ثمانمائة، بقلعة دمشق، و کان الموافق لهذا الیوم یوم نوروز القبط بمصر. و لبس خلعة السّلطنة من قصر قلعة دمشق، و رکب بشعار السّلطنة و أبّهة الملک، و لقّب بالملک الظاهر ططر، و ذلک بعد أن ثبت خلع الملک المظفّر، و حضر الخلیفة المعتضد بالله داود و القضاة بقلعة دمشق، و بایعوه بالسلطنة بحضرة الملأ من الأمراء و الخاصّکیّة، بعد أن سألهم الخلیفة فی قیامه فی السلطنة، فقالوا الجمیع: نحن راضون بالأمیر الکبیر ططر، و تمّ أمره فی السّلطنة، و قبّلت الأمراء الأرض بین یدیه، و حملت القبّة و الطّیر علی رأسه، و خطب له علی منابر دمشق من یومه. و الملک الظاهر هذا هو السلطان الثلاثون من ملوک الترک بالدیار المصریة، و السادس من الچراکسة و أولادهم.

قال المقریزی رحمه اللّه: کان چارکسی الجنس، یعنی عن الملک الظاهر ططر، ربّاه بعض التّجّار، و علّمه شیئا من القرآن وفقه الحنفیّة، و قدم به إلی القاهرة فی سنة إحدی و ثمانمائة و هو صبیّ، فدلّ علیه الأمیر قانی بای- لقرابته به- و سأل السلطان الملک الظاهر فیه، حتی أخذه من تاجره، و مات السلطان قبل أن یصرف ثمنه، فوزن الأمیر الکبیر أیتمش ثمنه اثنی عشر ألف درهم، و نزّله فی جملة ممالیک الملک الظاهر فی الطّباق و نشأ بینهم، و کان الملک الناصر أعتقه، فلم یزل فی جملة ممالیک الطّباق حتی عاد السلطان الملک الناصر فرج إلی الملک بعد أخیه المنصور عبد العزیز، فأخرج له الخیل و أعطاه إقطاعا فی الحلقة، فانضمّ علی الأمیر نوروز الحافظی، و تقلب معه فی تلک الفتن- انتهی کلام المقریزی باختصار.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۱۹۹

قلت: هذا هو الخباط بعینه، و لم أقف علی هذا النقل إلا من خطّه بعد موته، و لم أسمه من لفظه، فإن هذا القول یستحیا من ذکره؛ فأما قوله «اشتراه الملک الظاهر برقوق من تاجره» فمسلّم غیر أنه قبل سنة إحدی و ثمانمائة، و أنه لم یعط ثمنه فیمکن، و أما قوله «و أعتقه الملک الناصر فرج» فهذا القول لم یقله أحد غیره، و بإجماع الممالیک الظاهریة إن الملک الظاهر برقوق أعتقه، و أخرج له الخیل و القماش فی عدّة کبیرة من الممالیک، منهم جماعة [کبیرة] فی قید الحیاة إلی یومنا هذا، ثم أخرج الملک الظاهر خرجا آخر من الممالیک بعد ذلک قبل موته، من جملتهم الملک الأشرف برسبای الدّقماقی، و الملک الظاهر جقمق العلائی و غیره، و کانت عادة

برقوق، أنه لا يخرج لمماليكه الجلبان خيلا، إلا بعد إقامتهم فى الأطباق مدّة سنين، و أنّه لا يخرج فى سنة واحدة خرجين، و إنّما كان يخرج فى كل مدّة طويلة خرجا من مماليكه، ثم يتبعه بعد ذلک بمدّة طويلة بخرج آخر، و هذه كانت عادة ملوک السّلف، فعلى هذا يكون مشترى ططر هذا قبل سنة إحدى و ثمانمائة بسنين.

و لما أراد الملك الظاهر عتق ططر المذكور، عرضه فى جملة من عرض من مماليک الطّباق الكتابيّة، و كان ططر قصير القامة، فاعتقد الظاهر أنه صغير، فردّه إلى الطّبقة فيمن ردّ من صغار المماليک، و كان الأمير جرباش الشّيخىّ الظاهرىّ رأس نوبة واقفا، فمسک ططر من كتفه و قال: يا مولانا السلطان، هذا فقيه طالب علم، قرناص يستأهل الخير، فأمر له الملک الظّاهر بالخيل و كتب عتاقته أمام السلطان الملک الظاهر سويدان المقرى، فكان ططر فى أيّام إمرته، و بعد سلطنته، كلّما رأى الناصر محمد

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۰۰

ابن جرباش الشيخى يترحّم على والده و يقول، لم يعتقنى الملک الظاهر برقوق إلا بسفارة الأمير جرباش الشيخى- رحمه اللّه- و أحسن إلى ولده المذكور.

و أما قوله «و أقام ططر فى الطبقة حتى عاد الملک الناصر إلى ملكه بعد أخيه المنصور عبد العزيز» فهذا يكون فى سنة ثمان و ثمانمائة، فهذه مجازفة لا يدرى معناها، فإنّ ططر كان يوم ذاک من رءوس الفتن، مرشّحا للإمرة و ولاية الأعمال، بل كان قبل ذلک فى واقعة تيمور لنک فى سنة ثلاث و ثمانمائة من أعيان القوم الذين أرادوا سلطنة الشيخ لاجين الچاركسىّ بالقاهرة، و عادوا إلى مصر، و هو يوم ذاک يخشى شرّه، و أيضا إنه فى سنة ثمان المذكورة كان برسباى الدقماقىّ- أعنى الملک الأشرف- صار من جملة الخاصكيّة السّقاة الخاص الأعيان، و كان من جملة أصحاب ططر الصّغار ممّن ينتمى إليه، و بسفارته اتّصل إلى ما ذكرناه من الوظيفة و غيرها، و لا زال على ذلک إلى أن شفع فيه ططر- بعد أن حبسه الملک المؤيد بالمرقب- و أخرجه إلى دمشق، كل ذلک و ططر مقدّم عليه و على غيره من أعيان الظاهرية، و يسمّونه أغاة من تلک الأيام، فلو كان كما قاله المقريزى «إن الملک الناصر فرج أعتقه فى سنة ثمان» كان ططر من أصاغر المماليک الناصرية؛ فإن الذين أعتقهم الملک الناصر ممّن ورثهم من أبيه- و هم أول خرج أخرجه- جماعة كبيرة مثل الملک الأشرف إينال العلائى سلطان زماننا، و الأمير طوخ من تمراز أمير مجلس زماننا، و الأمير يونس العلائى أحد مقدّمى الألوف فى زماننا، فيكون هؤلاء بالنسبة إلى ططر قرانيص و أكابر، و قدماء هجرة، فهذا القول لا يقوله إلّا من ليس له خبرة بقواعد السّلاطين، و لا يعرف ما الملوک عليه بالكلّيّة، و لو لا أن المقريزى ذكر هذه المقالة فى عدّة كتب من مصنّفاته ما كنت أتعرّض إلى جواب ذلک، فإن هذا شيء لا يشکّ فيه أحد، و لم يختلف فيه اثنان غير أنى أعذره فيما نقل؛ فإنه كان بمعزل عن الدولة، و ينقل أخبار الأتراک عن

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۰۱

الآحاد، فكان يقع له من هذا و أشباهه أوهام كثيرة نبّهته على كثير منها فأصلحها معتمدا على قولى، وها هى مصلوحة بخطه فى مظنّات الأتراک و أسمائهم و وقائعهم- انتهى.

و استمرّ الملک الظاهر ططر بقلعة دمشق، و عمل الخدمة السّلطانيّة بها فى يوم الاثنين ثالث شهر رمضان، و خلع على الخليفة و القضاة باستمرارهم، و على أعيان الأمراء على عادتهم، ثم خلع على الأمير طرباى الظّاهرىّ نائب غزّة- كان- فى دولة الملک المؤيّد بعد قدومه من عند قرا يوسف باستقراره حاجب الحجاب بالديار المصريّة عوضا عن إينال الأرغزىّ المقدّم ذكره، و على الأمير برسباى الدّقماقى نائب طرابلس- كان، و كان بطّالا بدمشق- باستقراره دوادارا كبيرا، عوضا عن الأمير على باى المؤيّدى بحكم القبض عليه، و [أنعم] على الأمير يشبک الجكمىّ الدّوادار الثانى- كان، و هو أيضا ممّن قدم من بلاد الشّرق- باستقراره أمير آخور كبيرا، عوضا عن تغرى بردى المؤيّدى المنتقل إلى نيابة حلب، ثم خلع بعد ذلک على الأمير بيبغا المظفرى الظاهرىّ أمير مجلس باستقراره أمير سلاح، عوضا عن الأمير إينال الجكمىّ بحكم القبض عليه، [و أنعم] على الأمير قجق العيساوىّ الظاهرىّ حاجب الحجاب- كان فى

الدولة المؤيديّة- باستقراره أمير مجلس، عوضا عن بيبغا المظفرى، و خلع على الأمير قصروه من تمراز الظاهرى باستقراره رأس نوبة النّوب، عوضا عن يشبك أنالى المؤيّدى بحكم القبض عليه أيضا، ثم أنعم على جماعة كبيرة بتقادم ألوف بالديار المصرية، مثل الأمير أزبك المحمدى الظاهرى إنىّ برسبغا الدوادار، و مثل الأمير تغرى بردى المحمودى الناصرى، و مثل الأمير قرمش الأعور الظاهرى، و غيرهم، و أنعم على جماعة من مماليكه و حواشيه بإمرة طبلخانات و عشرات، منهم: صهره البدرى حسن بن سودون الفقيه، أنعم عليه بإمرة طبلخاناه عوضا عن مغلباى السّاقى المؤيّدى بحكم القبض عليه، و [أنعم]

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۰۲

على الأمير قرقماس الشّعبانى الناصرى بإمرة طبلخاناه، و استقرّ به دوادارا ثانيا، و على الأمير قانصوه النّوروزى أيضا بإمرة طبلخاناه، و جعله من جملة رءوس النّوب، و على رأس نوبته الثانى قانى باى الأبوبكرى الناصرىّ البهلوان بإمرة طبلخاناه، و جعله أيضا من جملة رءوس النّوب، و على فارس دواداره [الثانى] بإمرة طبلخاناه، و أنعم على مشدّه يشبك السّودونى باستقراره شاد الشراب خاناه، و على أمير آخوره بردبك السيفى يشبك بن أزدمر باستقراره أمير آخور ثانيا، و على جماعة أخر من حواشيه و مماليكه، و جعل جميع مماليكه الذين كانوا بخدمته قبل سلطنته خاصّكيّة، و أنعم على بعضهم بعدة وظائف.

ثم أمر السلطان الملك الظاهر فكتب بسلطنته إلى مصر و أعمالها، و إلى البلاد الحلبيّة و السواحل و الثغور، و إلى نواب الأقطار، و حملت إليهم التشاريف و التقاليد بولايتهم على عادتهم، و هم: الأمير تغرى بردى المؤيّدى المعروف بأخى قصروه نائب حلب، و الأمير تنبك البجاسىّ نائب طرابلس، و الأمير جارقطلو الظاهرى نائب حماة، و الأمير قطلوبغا التنمىّ نائب صفد، و الأمير يونس الرّكنى نائب غزة.

ثم خلع على الأمير تنبك ميق نائب الشام باستمراره على كفالته، و على الأمير برسباى الحمزاوىّ الناصرى باستقراره حاجب حجاب دمشق، و على الأمير أركماس الظاهرى باستقراره نائب قلعة دمشق، و على الأمير كمشبغا طولو باستقراره حاجبا ثانيا.

ثم أخذ الملك الظاهر فى تمهيد أمور دمشق و البلاد الشّاميّة إلى أن تمّ له ذلك، فبرز من دمشق بأمرائه و عساكره فى يوم الاثنين سابع عشر شهر رمضان من سنة أربع و عشرين و ثمانمائة يريد الديار المصرية.

هذا ما كان من أمر الملك الظاهر ططر بالبلاد الشّاميّة.

و أما أخبار الديار المصرية فى غيبته فإنه لمّا سافر الأمير ططر بالسّلطان الملك

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۰۳

المظفر و عساكره من الرّيدانيّة استقلّ بالحكم بين الناس الأمير جقمق العلائى إلى أن حضر الأمير قانى باى الحمزاوى من بلاد الصّعيد فى يوم السبت حادى عشرين جمادى الأولى، و حكم فى نيابة الغيبة، و أرسل إلى الأمير جقمق بالكفّ عن الحكم بين الناس و خاشنه فى الكلام، فانكفّت يد الأمير جقمق أخى چاركس المصارع عن الحكم، و كانت سيرته جيّدة فى أحكامه.

ثم قدم الخبر على الأمير قانى باى الحمزاوىّ بدخول السلطان الملك المظفر إلى دمشق و قبضه على القرمشى و غيره، فدقت البشائر لذلك بالقاهرة ثلاثة أيام و زينت عشرة أيام.

ثم فى يوم الأربعاء خامس شهر رمضان خلع الأمير قانى باى الحمزاوىّ على القاضى جمال الدين يوسف البساطى باستقراره فى حسبة القاهرة عوضا عن القاضى صدر الدين بن العجمى، و كان سبب ولايته أنه طالت عطلته سنين، فتذكّر الأمير ططر صحبته، فكتب لقانى باى الحمزاوىّ بولايته.

ثم فى ثامن شهر رمضان قدم الخبر إلى الديار المصرية بخلع الملك المظفّر و سلطنة الملك الظاهر ططر.

و أما السلطان الملك الظاهر ططر فإنه سار بعساكره إلى جهة الدّيار المصرية إلى أن نزل بمنزلة الصّالحيّة فى يوم الاثنين أوّل شوال، فخرج الناس إلى لقائه و قد تزايد سرور الناس بقدومه، ثم ركب من الصالحيّة و سار إلى أن طلع إلى قلعة الجبل فى يوم الخميس

رابع شوال، و حملت القبـة و الطّير على رأسه- حملها الأمير [جانى بك] الصّوفى أتابك العساكر، و لما طلع إلى القلعة أنزل الملك الظاهر [ططر] الملك المظفر [أحمد] و أمّه بالقاعة المعلقة من دور القلعة.

ثم فى يوم خامس شوال خلع السلطان الملك الظاهر [ططر] على الطواشى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۰۴

مرجان الهندى الخازندار باستقراره زمّاما، عوضا عن الطواشى كافور الرّومى الشّبلى الصّرغتمشى بحكم عزله.

ثم فى يوم الاثنين ثامن شوّال ابتدأ السلطان بعرض مماليك الطباق، و أنزل منهم جماعة كثيرة إلى إصطبلاتهم من القاهرة.

ثم فى يوم الاثنين استدعى السلطان الشيخ ولىّ الدين أحمد ابن الحافظ زين الدين عبد الرحيم العراقىّ الشافعى و خلع عليه باستقراره قاضى قضاة الشافعيّة بالديار المصرية، بعد موت قاضى القضاة جلال الدين [عبد الرحمن] البلقينى، فنزل العراقىّ إلى داره فى موكب جليل بعد أن اشترط على السلطان أنه لا يقبل شفاعة أمير فى حكم، فسرّ الناس بولايته.

و فى يوم الاثنين ثانى عشرين شوال ابتدأ بالسلطان الملك الظاهر ططر مرض موته، و أصبح ملازما للفراش و استمرّ فى مرضه و الخدمة تعمل بالدّور السلطانية، و يجلس السلطان و ينفّذ الأمور و يعلّم على المناشير و غيرها.

و أنعم فى هذه الأيام على الأمير كزل العجمى الأجرود، الذى كان ولى حجوبية الحجّاب فى الدّولة الناصرية، و على الأمير سودون الأشقر الذى كان ولى فى دولة المؤيّد رأس نوبة النّوب ثم أمير مجلس، و كانا منفيّين بقرية الميمون من الوجه القبلى؛ بحكم أنه يكون كل واحد منهم أمير عشرين فارسا، فدخلا إلى الخدمة السلطانية بعد ذلك فى كل يوم، و صارا يقفان من جملة أمراء الطبلخانات و العشرات، و مقدمو الألوف جلوس بين يدى السلطان.

و استمر السلطان على فراشه إلى يوم الثلاثاء أوّل ذى القعدة فنصل السلطان من

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۰۵

مرضه و دخل الحمّام، و خلع على الأطباء و أنعم عليهم، و دقّت البشائر لذلك، و تخلّقت الناس بالزّعفران.

ثم فى ثالث ذى القعدة خلع السلطان على دواداره الأمير فارس باستقراره فى نيابة الإسكندرية عوضا عن الأمير قشتم المؤيدى بحكم عزله، و قد حضر قشتم المذكور إلى القاهرة، و طلع إلى الخدمة، ثم أمر السلطان فقبض على الأمير قشتم المذكور، و على الأمير قانى باى الحمزاوى نائب الغيبة و قيّدا فى الحال و حملا إلى ثغر الإسكندرية فسجنا بها.

ثم فى يوم الاثنين سابع ذى القعدة خلع السلطان على عبد الباسط بن خليل بن إبراهيم الدّمشقى ناظر الخزانة باستقراره ناظر الجيوش المنصورة بعد عزل القاضى كمال الدين بن البارزى و لزومه داره، و خلع السلطان أيضا على موقّعه القاضى شرف الدين محمد ابن القاضى تاج الدين عبد الوهاب بن نصر اللّه باستقراره فى نظر أوقاف الأشراف و نظر الكسوة و نظر الخزانة عوضا عن عبد الباسط المذكور، و كان الملك الظاهر أراد تولية شرف الدين المذكور وظيفة نظر الجيش فسعى عبد الباسط فيها سعيا زائدا حتى وليها.

و دخل السلطان فى هذه الأيام إلى القصر السلطانى و عمل الخدمة به، ثم انتكس السلطان فى يوم الخميس عاشر ذى القعدة و لزم الفراش ثانيا، و انقطع بالدّور السلطانية، و عملت الخدمة غير مرّة.

فلما كان يوم الجمعة خامس عشرينه عزل القاضى ولىّ الدين العراقىّ نفسه عن القضاء لمعارضة يعض الأمراء له فى ولاية القضاء بالأعمال.

ثم فى سادس عشرين ذى القعدة رسم السلطان بالإفراج عن أمير المؤمنين المستعين بالله العباس من سجنه بثغر الإسكندرية، و أن يسكن بقاعة فى الثغر المذكور،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۰۶

و يخرج لصلاة الجمعة بالجامع الذى بالثّغر، و يركب حيث يشاء، و أرسل إليه فرسا بسرج ذهب و كنبوش زركش و بقجة قماش، و

رتّب له على الثّغر فى كل يوم ثمانمائة درهم لمصارف نفقته، فوقع ذلك من الناس الموقع الحسن.

و استهل ذو الحجة يوم الخميس و السلطان فى زيادة [ألم] من مرضه و نموّه، و الأقوال مختلفة فى أمره، و الإرجاف بمرضه يقوى.

فلمّا كان يوم الجمعة ثانى ذى الحجة استدعى السلطان الخليفة و القضاة و الأمراء و أعيان الدّولة إلى القلعة- و قد اجتمع بها غالب المماليك السلطانيّة- فلما اجتمعوا عند السلطان كلم الخليفة و الأمراء فى إقامة أبنه فى السلطنة بعده، فأجابوه إلى ذلك، فعهد إلى ابنه محمد بالملك، و أن يكون الأمير جانى بك الصّوفىّ هو القائم بأمره و مدبّر مملكته، و أن يكون الأمير برسباى الدّقماقىّ لالا السلطان و المتكفّل بتربيته، و حلف الأمراء على ذلك كما حلفوا لابن الملك المؤيّد شيخ.

ثم أذن السلطان لقاضى القضاة ولىّ الدين العراقى أن يحكم، و أعيد إلى القضاء، و انفض الموكب و نزل الناس إلى دورهم، و قد كثر الكلام بسبب ضعف السلطان، و أخذ الناس و أعيان الدّولة فى توزيع أمتعتهم و قماشهم من دورهم، خوفا من وقوع فتنة.

و ثقل السلطان فى الضّعف، و أخذ من أواخر يوم السّبت ثالثه فى بوادر النّزع إلى أن توفّى ضحوة نهار الأحد رابع ذى الحجّة من سنة أربع و عشرين و ثمانمائة، فأضطرب الناس ساعة ثم سكنوا عند ما تسلطن ولده الملك الصالح محمد- حسبما يأتى ذكره- ثم أخذ الأمراء فى تجهيز الملك الظّاهر ططر، فغسّل و كفّن و صلّى عليه، و أخرج من باب السّلسلة، و ليس معه إلا نحو عشرين رجلا لشغل الناس بسلطنة ولده، و ساروا به حتى دفن بالقرافة من يومه بجوار الإمام اللّيث بن سعد رضى اللّه عنه،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۰۷

و مات و هو فى مبادئ الكهولية، و كانت مدّة تحكّمه منذ مات الملك المؤيّد شيخ إلى أن مات أحد عشر شهرا تنقص خمسة أيام، منها مدّة سلطنته أربعة و تسعون يوما، و باقى ذلك أيام أتابكيّته.

قال المقريزى فى تاريخه عن الملك الظاهر ططر: و كان يميل إلى تديّن، و فيه لين و إغضاء و كرم مع طيش و خفّة، و كان شديد التعصّب لمذهب الحنفية، يريد أن لا يدع من الفقهاء غير الحنفية، و أتلف فى مدته- مع قلّتها- أموالا عظيمة، و حمّل الدولة كلفا كثيرة، أتعب بها من بعده، و لم تطل أيّامه لتشكر أفعاله أو تذمّ- انتهى كلام المقريزى.

قلت: و لعل الصّواب فى حقّ الملك الظّاهر ططر بخلاف ما قاله المقريزى مما سنذكره مع عدم التعصّب له، فإنه كان يغضّ من الوالد كونه قبض على بعض أقاربه و خشداشيّته بأمر الملك الناصر فرج فى ولايته على دمشق الثالثة، غير أن الحقّ يقال على أى وجه كان.

كان ططر ملكا [عظيما] جليلا كريما، عالى الهمة، جيّد الحدس، حسن التّدبير، سيوسا، توثّب على الأمور مع من كان أكبر منه قدرا و سنا، و مع عظم شوكة المماليك المؤيّدية [شيخ]، و قوة بأسهم، مع فقر كان به و إملاق، فلا زال يحسن سياسته، و يدبّر أموره، و يخادع أعداءه إلى أن استفحل أمره، و ثبت قدمه، و أقلب دولة بدولة غيرها فى أيسر مدّة و أهون طريقة. كان تارة يملق هذا، و تارة يغدق على هذا، و تارة يقرّب هذا و يظهره على أسراره الخفيّة، كل ذلك و هو فى إصلاح شأنه فى الباطن مع من لا يقرّ به فى الظاهر، فكان حاله مع من يخافه كالطبيب الحاذق الذى يلاطف عدّة مرضى قد اختلف داؤهم، فينظر كل واحد ممن يخشى شرّه، فإن كان شهما رقّاه إلى المراتب العلية و أوعده بأضعاف ذلك، و إن كان طماعا أبذل إليه الأموال و أشبعه، حتى إنه دفع لبعض المماليك المؤيديّة الأجناد فى دفعات متفرّقة فى مدّة يسيرة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۰۸

نحو عشرة آلاف دينار، و إن كان شهما رغبته الأمر و النهى ولّاه أعظم الوظائف، كما فعل بالأمير على باى المؤيّدى و الأمير تغرى بردى المؤيّدى المعروف بأخى قصروه؛ ولّى كلّا منهما أجلّ وظيفة بديار مصر، فأقر على باى فى الدّواداريّة الكبرى دفعة واحدة من إمرة عشرة، و أقرّ تغرى بردى فى الأمير آخوريّة الكبرى دفعة واحدة، و مع هذا لم يتجنّ عليهما أبدا بل صار معهما فيما أراداه، يعطى من أحبّا و يمنع من أبغضا حتى إن تغرى بردى المذكور وسّط الأمير راشد بن أحمد ابن بقر خارج باب النصر ظلما لما كان فى نفسه منه، فلم يسأله ططر عن ذنبه.

کل ذلک لکثرة دهائه و عظیم احتماله، و لم یکن فعله هذا مع علی بای و تغری بردی فقط، بل مع غالب أشرار المؤیّدیّة.

هـذا و هو یقرب خشداشـیته الظاهریـة [برقوق] واحـدا بعـد واحد، یقصد بذلک تقویة أمره فی الباطن، فأطلق مثل جانبک الصّوفی، و مثـل بیبغـا المظفّریّ، و مثـل قجق العیسـاوی. کل ذلک و هو مستمرّ فی بـذل الأموال و الإقطاعات لمن تقـدّم ذکرهم، حتی إنه کلّمه بعض أصحابه سرّا بعد عوده من دمشق فیما أتلفه من الأموال، فقال:

«یا فلان أ تظن أن الذی فرقته راح من حاصلی؟ جمیعه فی قبضتی أسترجعه فی أیسر مدّة، إلّا ما أعطیته للفقهاء و الصّلحاء» فمن یکن فیه طیش و خفّة لا یطیق هذا الصّبر و لو تلفت روحه.

و کـان مقـداما جریئـا علی الأـمور بعـد مـا یحسب عواقبهـا، شـهما یحب التجمّـل؛ کـانت ممـالیکه أیام إمرته مع فاقته أجلّ من جمیع ممالیک رفقته من الأمراء، فیهم الناصریة و الجکمیّة و النّوروزیة و غیرهم.

و لما حصل له ما أراه وصـفا له الوقت و وثب علی ملک مصـر أقام له شوکة و حاشـیة من خشداشیته و ممالیکه فی هذه الأیام القلیلة، لم ینهض بمثلها من جاء قبله و لا بعده أن ینشئ مثلها فی طول مملکته؛ و هو أنه أعطی لصهره البدری حسن بن سودون الفقیه

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۰۹

إمرة طبلخاناه، ثم نقله إلی تقدمة ألف بالدیار المصریة، و لم یکن قبلها من جملة ممالیک السلطان و لا من أولاد الملوک، فإن والده سودون الفقیه مات بعد سنة ثلاثین جندیّا، و کذا فعل مع فارس داواداره، أنعم علیه بإمرة مائة و تقدمة ألف و نیابة الإسکندریة، و مع جماعة أخر قد تقدم ذکرهم؛ فهذا مما یدلّ علی قوّة جنانه و إقدامه و شـجاعته، فإنه أنشأ هذا کلّه فی مدّة سلطنته، و هی ثلاثة أشهر و أربعة أیام.

و أنا أقول: إن مدّة سـلطنته کانت ثمانیة عشـر یوما، و هی مدّة إقامته بمصـر، و باقی ذلک مضی فی سفره و مرض موته، و کان یحبّ مجالسـة العلماء و الفقهاء و أرباب الفضائل من کل فن، و له اطلاع جیّـد و نظر فی فروع مـذهبه، و یسأل فی مجالسه الأسـئلة المفحمة المشـکلة، مع الإنصاف و التواضع و لین الجانب مع جلسائه و أعوانه و خدمه، و کان یحب إنشاد الشـعر بین یدیه لا سـیما الشـعر الذی باللغـة الترکیة؛ فإنه کان حافظا له و لنظامه، و یمیل إلی الصوت الحسن، و لسـماع الوتر، مع عفته عن سائر المنکرات- قدیما و حدیثا- من المشارب. و أما الفروج فإنه کان یرمی بمحبة الشبّاب علی ما قیل- و اللّه أعلم بحاله.

و مع قصـر مدّته انتفع بسـلطنته سائر أصـحابه و حواشـیه و ممالیکه، فإن أول ما طالت یده رقّاهم و أنعم علیهم بالأموال و الإقطاعات و الوظائف و الرّواتب؛ قیل إنه أعطی الشـیخ شمس الدین محمدا الحنفیّ فی دفعة واحدة عشرة آلاف دینار، و أوقف علی زاویته إقطاعا هائلا، و تنوّعت عطایاه لأصحابه علی أنواع کثیرة، و أحبه غالب الناس لبشاشته و کرمه.

و أظنّه لو طالت مدّته أظهر فی أیامه محاسن، و دام ملکه سنین کثیرة لکثرة عطائه.

فإنه یقال فی الأمثال و هو من الجناس الملفق [المتقارب]

إذا ملک لم یکن ذاهبة فدعه فدولته ذاهبة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۱۰

قلت: و هو ثـانی سـلطان ملـک الـدیار المصـریة ممن له ذوق فی العلوم و الفنون و الآـداب و معاشـرة الفضـلاء و الأدباء و الظرفاء من الممالیـک الـذین مسّـهم الرّق: الأـول الملـک المؤیـد شـیخ، و الثانی ططر هـذا، غیر أن الملک المؤیـد طالت مـدّته فعلم حاله الناس أجمعون و [الملک الظاهر] هذا قصرت مدته فخفی أمره علی آخرین- انتهت [ترجمة الظاهر رحمه اللّه].

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۱۱

ذکر سلطنة الملک الصالح محمد بن ططر

على مصر السلطان الملك الصالح ناصر الدين محمد ابن السلطان الملك الظاهر سيف الدين أبى الفتح ططر بن عبد اللّه الظاهرىّ، تسلطن بعد موت أبيه- بعهد منه إليه - فى يوم الأحد رابع ذى الحجة سنة أربع و عشرين و ثمانمائة، و هو أنه لما مات أبوه حضر الخليفة المعتضد بالله أبو الفتح داود و القضاة و الأمراء و جلسوا بباب السّتارة من القلعة، و طلبوا محمدا هذا من الدّور السلطانية، فحضر إليهم، فلما رآه الخليفة قام له و أجلسه بجانبه، و بايعه بالسلطنة، ثم ألبسوه خلعة السلطنة الجبّة السّوداء الخليفتيّة من مجلسه بباب السّتارة، و ركب فرس النّوبة بشعار الملك و أبهة السلطنة، و سار إلى القصر السلطانى، و الأمراء و جميع أرباب الدّولة مشاة بين يديه حتى دخل إلى القصر السلطانى بقلعة الجبل، و جلس على تخت الملك، و قبّل الأمراء الأرض بين يديه على العادة، و خلع على الخليفة و على الأمير الكبير جانى بك الصوفى، كونه حمل القبّة و الطير على رأسه، و لقّب بالملك الصالح، و فى الحال دقّت البشائر، و نودى بالقاهرة و مصر بسلطنته، و سنّه يوم تسلطن نحو العشر سنين تخمينا، و أمّه خوند بنت سودون الفقيه الظاهرى، و هى إلى الآن فى قيد الحياة، و هى من الصالحات الخيّرات، لم تتزوّج بعد الملك الظاهر ططر.

و الملك الصالح [محمد] هذا هو السلطان الحادى و الثلاثون من ملوك الترك، و السابع من الجراكسة و أولادهم، و تمّ أمره فى السلطنة، و استقرّ الأتابك جانى بك الصوفى مدبر مملكته، و سكن بالحرّاقة من الإسطبل السلطانى بباب السلسلة، و انضمّ عليه معظم الأمراء و المماليك السلطانية، و أقام الأمير برسباى الدّقماقى الدّوادار و اللّالا

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۱۲

أيضا بطبقة الأشرفية فى عدّة أيضا من الأمراء المقدّمين، أعظمهم الأمير طرباى حاجب الحجّاب، و الأمير قصروه من تمراز رأس نوبة النوب، و الأمير جقمق العلائى نائب قلعة الجبل و أحد مقدّمى الألوف المعروف بأخى چركس المصارع، و الأمير تغرى بردى المحمودى، و أما الأمير بيبغا المظفّرى أمير سلاح، و الأمير قجق أمير مجلس، و الأمير سودون من عبد الرحمن و غيرهم من الأمراء صاروا حزبا و تشاوروا إلى من يذهبون، إلى أن تكلم الأمير سودون من عبد الرحمن مع الأتابك جانى بك الصّوفى، فردّ عليه الجواب بما لا يرضى، فعند ذلك تحوّل سودون من عبد الرحمن و رفقته و صاروا من حزب برسباى و طرباى على ما سنذكر مقالتهما فيما بعد، و باتوا الجميع بالقلعة و باب السّلسلة مستعدّين للقتال، فلم يتحرك ساكن، و أصبحوا يوم الاثنين خامس ذى الحجة و قد تجمّع المماليك بسوق الخيل يطلبون النّفقة عليهم- على العادة- و الأضحية، و أغلظوا فى القول، و أفحشوا فى الكلام حتى كادت الفتنة أن تقوم، فلا زال الأمراء بهم يترضّونهم- و قد اجتمع الجميع عند السلطان الملك الصالح- حتى رضوا، و تفرّق جمعهم.

و لما كانت الخدمة بتّ الأتابك جانى بك الصّوفى بعض الأمور، و قرىء الجيش، و خلع على جماعة، و هو كالخائف الوجل من رفقته الأمير برسباى و الأمير طرباى و غيرهما.

و ظهر فى اليوم المذكور أن الأمر لا يسكن إلا بوقوع فتنة، و بذهاب بعض الطائفتين؛ لاختلاف الآراء و اضطراب الدّولة، و عدم اجتماع الناس على واحد بعينه، يكون الأمر متوقّفا على ما يرسم به، و على ما يفعله، على أن الأمير برسباى جلس فى اليوم المذكور بين يدى جانى بك الصّوفى و امتثل أوامره فى وقت قراءة الجيش.

ثم بعد انتهاء قراءة الجيش و العلامة قام بين يديه على قدميه، و شاوره فى قضاء أشغال النّاس على عادة ما يفعله الدّوادار مع السّلطان، غير أن القلوب متنافرة،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۱۳

و البواطن مشغولة لما سيكون، ثم انفض الموكب و بات كلّ أحد على أهبة القتال.

و أصبحوا يوم الثلاثاء سادسه فى تفرقة الأضاحى، فأخذ كلّ مملوك رأسين من الضأن.

ثم تجمعوا أيضا تحت القلعة لطلب النّفقة، و أفحشوا فى الكلام على عادتهم، و تردّدت الرسل بينهم و بين الأتابك جانى بك الصّوفى، و طال النّزاع بينهم، حتى تراضوا [على] أن ينفق فيهم بعد عشرة أيّام من غير أن يعيّن لهم مقدار ما ينفقه فيهم، فانفضّوا على

ذلك، و سكن الأمر من جهة المماليك السّلطانية، و انفضّ الموكب من عند الأتابك جانى بك الصّوفى، و طلع الأمير برسباى الدّقماقىّ الدّوادار و اللالا إلى طبقة الأشرفيّة هو و الأمير طرباى و الأمير قصروه، و بعد طلوعهم تكلّم [بعض] أصحاب جانى بك الصّوفى معه- لمّا رأوا أمره قد عظم- فى نزول الأمراء من القلعة إلى دورهم حتى يتمّ أمره، و تنفذ كلمته، و حسّنوا له ذلك.

و قالوا له: إن لم يقع ذلك و إلا فأمرك غير منتظم؛ فمال الأتابك جانى بك الصّوفى إلى كلامهم- و كان فيه طيش و خفّة- فبعث فى الحال إلى الأمير برسباى الدقماقى أن ينزل من القلعة هو و الأمير طرباى حاجب الحجّاب و الأمير قصروه رأس نوبة النّوب، و أن يسكنوا بدورهم من القاهرة، و يقيم الأمير جقمق العلائى عند السلطان لا غير، فلما بلغ الأمراء ذلك أراد الأمير برسباى الإفحاش فى الجواب فنهره الأمير طرباى و أسكته، و أجاب بالسّمع و الطاعة، و أنّهم ينزلون بعد ثلاثة أيّام، و عاد الرسول إلى الأتابك جانى بك الصّوفى بذلك، فسكت و لم تسكت حواشيه عن ذلك، و هم الأمير يشبك الجكمىّ الأمير آخور الكبير، و الأمير قرمش الأعور الظاهرىّ و غيرهما، و عرّفوه أنهم يريدون بذلك إبرام أمره، و ألحوا عليه فى أن يرسل إليهم بنزولهم فى اليوم المذكور قبل أن يستفحل أمرهم، فلم يسمع لكون أن الأمير

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۱۴

طرباى نزل فى الحال من القلعة مظهرا أنه فى طاعة الأمير الكبير جانى بك الصّوفى، و أن برسباى و قصروه و غيرهما فى تجهيز أمرهم بعده إلى النزول، فمشى عليه ذلك.

و كان أمر الامير طرباى فى الباطن بخلاف ما ظنه جانى بك الصوفى؛ فإنه أخذ فى تدبير أمره، و إحكام الأمر للأمير برسباى الدّقماقى و لنفسه، و استمال فى ذلك اليوم كثيرا من الأمراء و المماليك السلطانية، و ساعده فى ذلك قلّة سعد جانى بك الصّوفى من نفور الأمراء عنه، و هو ما وعدنا بذكره من أمر سودون من عبد الرحمن مع جانى بك الصّوفى.

و قد تقدّم أن سودون من عبد الرحمن و غيره ممن تقدّم ذكرهم صاروا حزبا يحضر كلّ واحد منهم الخدمة، ثم ينزل إلى داره ليرى ما يكون بعد ذلك، ثم بدا لهم أن يكونوا من حزب جانى بك الصّوفى؛ كونه أتابك العساكر و مرشحا إلى السلطنة، بعد أن يكلّموه فى أمر، فإن قبله كانوا من حزبه، و إن لم يفعل مالوا إلى برسباى و طرباى؛ و الذى يكلّموه بسببه هو الأمير يشبك الجكمىّ الأمير آخور؛ فإنهم لمّا كانوا عند قرا يوسف بالشرق ثم جاءهم أمير يشبك المذكور أيضا فارا من الحجاز خوفا من الملك المؤيّد، أكرمه قرا يوسف زيادة على هؤلاء- تعطفا من اللّه- و الذين كانوا قبله عند قرا يوسف، هم سودون من عبد الرحمن و طرباى و تنبك البجاسىّ و جانى بك الحمزاوى، و موسى الكركى و غيرهم.

و كل منهم ينظر يشبك المذكور فى مقام مملوكه، كونه مملوك خشداشهم جكم، فشقّ عليهم خصوصيته عند قرا يوسف و انفراده عنهم، و وقعت المباينة بينهم، و لم يسعهم يوم ذاك إلا السكات لوقته.

فلمّا مات قرا يوسف- و بعده بقليل توفى الملك المؤيّد- قدموا الجميع على

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۱۵

ططروهم فى أسوا حال، فقرّبهم ططر و أكرمهم، و اختص أيضا بيشبك المذكور اختصاصا عظيما بحيث إنه ولّاه الأمير آخورية الكبرى، و عقد عقده على ابنته خوند فاطمة التى تزوّجها الملك الأشرف برسباى، فلم يسعهم أيضا إلا السكات، لعظم ميل ططر إليه.

فلما مات ططر انضم يشبك المذكور على جانى بك الصّوفى و صار له كالعضد، فعند ذلك وجد الأمراء المقال فقالوا، و ركب الأمير سودون من عبد الرحمن و الأمير قرمش الأعور- و هو من أصحاب جانى بك الصّوفى- و واحد آخر، و أظنّه بيبغا المظفرى، و دخلوا على جانى بك الصّوفى بالحرّاقة من باب السّلسلة، و مرّوا فى دخولهم على يشبك الأمير آخور و هو فى أمره و نهيه بباب السّلسلة، فقام إليهم فلم يسلّم عليه سودون من عبد الرحمن، و سلّم عليه قرمش و الآخر، و عند ما دخلوا على الأتابك جانى بك الصّوفى و سلّموا عليه و جلسوا كان متكلم القوم سودون من عبد الرحمن، فبدأ بأن قال: أنا، و الأمراء نسلم عليك، و نقول لك أنت

كبيرنا [و رأسنا] و أغاتنا، و نحن راضون بك فيما تفعل و تريد، غير أن هذا الصبى يشبك مملوك خشداشنا جكم ليس هو منا، و قد وقع عنه قلة أدب فى حقنا ببلاد الشّرق عند قرا يوسف، ثم هو الآن أمير آخور كبير منزلته أكبر من منازلنا، و نحن لا نرضى بذلك، ثم إننا لا نريد من الأمير الكبير مسكه و لا حبسه لكونه انتمى إليه، غير أننا نريد إبعاده عنّا فيوليه الأمير الكبير بعض الأعمال بالبلاد الشاميّة، ثم نكون بعد ذلك جميعا تحت طاعة الأمير الكبير، و نقول قد عاش الملك الظاهر برقوق و نحن فى خدمته، لأنّنا قد مللنا من الشتات و الغربة و الحروب فيطمئن كل أحد على نفسه و ماله و وطنه.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۱۶

فلما سمع جانى بك الصوفى كلام سودون من عبد الرحمن و فهمه، حنق منه و اشتدّ عضبه، و أغلظ فى الجواب بكلام متحصله: رجل ملك ركن إلىّ و انضم علىّ كيف يمكننى إبعاده لأجل خواطركم؟ ثم أخذ فى الحط على خشداشيته الظاهرية [برقوق] و مجيئهم لإثارة الفتن و الشرور، فسكت عند ذلك سودون، و أخذ قرمش يراجعه فى ذلك و يحذّره المخالفة غير مرّة، مدلّا عليه كونه من حواشيه و هو لا يلتفت إلى كلامه، فلما أعياه أمره سكت، فأراد الآخر [أن] يتكلم فأشار عليه سودون من عبد الرحمن بالسكات، فأمسك عن الكلام.

فتكلم سودون عند ذلك بباطن بأن قال: يا خوند نحن ما قلنا هذا الكلام إلا نظن أن الأمير الكبير ليس له ميل إليه، فلما تحققنا أنه من ألزام الأمير الكبير و أخصّائه فنسكت عن ذلك و نأخذ فى إصلاح الأمر بينه و بين الأمراء لتكون الكلمة واحدة، بحيث إننا نصير فى خدمته كما نكون فى خدمة الأمير الكبير، فانخدع جانى بك لكلامه و ظنه [أنه] على جليّته، و قال: نعم، أما هذا فيكون.

و قاموا عنه و رجع قرمش إلى حال سبيله، و عاد سودون من عبد الرحمن إلى رفقته الأمراء، و ذكر لهم الحكاية برمتها، و عظم عليهم الأمر إلى أن قال لهم: تيقنوا جميعكم بأنكم تكونون فى خدمة يشبك الجكمىّ إن أطعتم جانى بك الصّوفى، فإنّ يشبك عنده مقام روحه، و ربما إن تمّ له الأمر يعهد بالملك إليه من بعده، فلما سمع الأمراء ذلك قامت قيامتهم، و مالوا بأجمعهم إلى الأمير برسباى الدقماقى الدوادار الكبير و الأمير طرباى حاجب الحجّاب، و قالوا: هذا تركنا و نحن خشداشيته لأجل يشبك فما عساه يفعل معنا إن صار الأمر إليه؟ لا و اللّه لا نطيعه و لو ذهبت أرواحنا. و أخذ الجميع فى التدبير عليه فى الباطن، و لقد سمعت هذا القول من الأمير سودون من عبد الرحمن و هو يقول لى فى ضمنه: كان جانى بك الصّوفى مجنونا، أقول له: نحن بأجمعنا فى طاعتك،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۱۷

و قد مات الملك المؤيد بحسرة أن نكون فى طاعته، فيتركنا و يميل إلى يشبك الجكمىّ و هو رجل غريب ليس له شوكة و لا حاشية- انتهى.

و لما خرج سودون من عبد الرحمن من عند جانى بك الصّوفى طلب جانى بك الصّوفى يشبك الأمير آخور المذكور، و عرّفه قول سودون من عبد الرحمن، و استشاره فيما يفعل معهم- و قد بلغه أن الأمراء تغيّروا عليه- فاتفق رأيهما على أنه يتمارض، فإذا نزل الأمراء لعيادته قبض عليهم، و افترقوا على ذلك. و باتوا تلك الليلة و قد عظم جمع طرباى و برسباى من الأمراء و المماليك السلطانية، و لم ينضم على جانى بك الصّوفى غير جماعة من المماليك المؤيدية الصغار أعظمهم دولات باى المحمودى السّاقى.

و لما أصبح يوم الأربعاء ثامن ذى الحجة أشيع أن الأمير الكبير جانى بك الصّوفى متوعك، فتكلم الناس فى الحال أنها مكيدة حتى ينزل إليه الأمير برسباى فيقبض عليه، فلم ينزل إليه برسباى و تمادى الحال إلى يوم الجمعة عاشره و هو يوم عيد النحر.

فلما أصبح نهار الجمعة انتظر الأمير برسباى طلوع الأمير الكبير لصلاة العيد، فلم يحضر و لم يطلع، فتقدم الأمير برسباى و أخرج السلطان من الحريم و توجّه به إلى الجامع و معه سائر الأمراء و المماليك، فصلّى بهم قاضى القضاة الشافعى صلاة العيد، و خطب على العادة، ثم مضى الأميران برسباى و طرباى بالسلطان إلى باب السّتارة فنحر السلطان هناك ضحاياه من الغنم، و ذبح الأمير برسباى ما هناك من البقر نيابة عن السلطان، ثم انفض الموكب، و نزل الأمير طرباى إلى بيته هو و جميع الأمراء و ذبحوا ضحاياهم، و توجه

الأمير برسباى إلى طبقة الأشرفية، و بينما هو ينحر ضحاياه بلغه أن الأمير الكبير جانى بك الصّوفى لبس السلاح و ألبس مماليكه، و لبس معه جماعة كبيرة من المؤيدية، و غيرهم، فاضطرب الناس، و أغلق باب القلعة و دقت الكؤوسات حربيا.

و كان من خبر جانى بك الصّوفى أنه لمّا تمارض لم يأت إليه أحد ممن كان أراد مسكه، فأجمع رأيه حينئذ على الركوب، و جمع له الأمير يشبك جماعة من إنياته من المماليك المؤيدية و من أصحابهم.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۱۸

حدثنى السّيفى جانى بك من سيدى بك البجمقدار المؤيدى، و هو أعظم إنيات يشبك الجكمى المذكور قال: لبسنا و دخلنا على الأتابك جانى بك الصّوفىّ و عنده الأمير يشبك أمير آخور و كلّمناه فى أنّه يقوم يصلّى العيد، ثم يلبس السلاح بعد الصلاة، فقال: صلاة العيد ما هى فرض علينا نتركها و نركب الآن قبل أن يبدءونا بالقتال، قال فقلت فى نفسى: بعيد أن ينجح أمر هذا، قلت و قد وافق رأى جانى بك البجمقدار فى هذا القول قول من قال: «صلّ و اركب ما تنكب» على أنه كان غتميّا لا يعرف ما قلته، فوقع لجانى بك الصّوفى أنه لم يصلّ و ركب فنكب، و لما بلغ الأمير برسباى ركوب جانى بك الصّوفى لبس الأمير برسباى و حاشيته آلة الحرب، و توجّه إلى القصر السّلطانى، و ترامت الطائفتان بالنّشّاب ساعة فلم يكن غير قليل حتى خرج الأمير طرباى من داره فى عسكر كبير من الأمراء، و عليهم السلاح، و وقفوا تجاه باب السّلسلة، فلم يجدوا بباب السّلسلة ما يهولهم من كثرة العساكر، فأوقف الأمير طرباى بقيّة الأمراء، و سار هو و الأمير قجق أمير مجلس، و طلعوا إلى باب السّلسله إلى الأمير الكبير جانى بك الصّوفى- على أنّ طرباى فى طاعته- و دخلا عليه و هو لابس، و عنده الأمير يشبك الأمير آخور، فأخذ طرباى يلومه على تأخّره عن صلاة العيد مع السّلطان، و ما فعله من لبس السّلاح، و أنه يقاتل من؟! [فإنّ الجميع فى طاعة السلطان و] طاعة الأمير الكبير، فشكا الأمير الكبير جانى بك من الأمير برسباى الدّقماقىّ من عدم تأدّبه معه فى أمور المملكة، و أنه لا يمكن اجتماعنا أبدا فى بلد واحد، فقال له طرباى: السمع و الطاعة، كلّم الأمراء فى ذلك فإنّهم فى طاعتك، فقال: و أين الأمراء، فقالها هم وقوف تجاه باب السّلسلة، انزل أنت و الأمير يشبك إلى بيت الأمير بيبغا المظفّرى أمير السلاح، و اجلس به، و اطلب الأمراء إلى عندك و كلمهم فيما تختار، فأخذ يشبك يقول له: كيف تنزل من باب السّلسلة إلى بيت من ليس هو معنا؟ فنهره الأمير طرباى فانقمع، و لا زال يخادع الأمير جانى بك الصّوفى حتى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۱۹

انخدع له و قام معه هو و الأمير يشبك المذكور، و ركبا و نزلا من باب السّلسلة، و سارا إلى بيت الأمير بيبغا المظفّرى- و هو تجاه مصلاة المؤمنىّ- المعرف ببيت الأمير نوروز، و به الآن جكم خال الملك العزيز، فمشى و قد تحاوطه القوم. قلت: ما يفعل الأعداء فى جاهل ما يفعل الجاهل فى نفسه.

فلمّا وصل الأمير جانى بك الصّوفىّ إلى باب الدّار المذكورة و دخله بفرسه صاح الأمير أزبك المحمّدى الظاهرىّ: هذا غريم السّلطان قد دخل إلى عندكم أحترصوا عليه، و قبل أن يتكامل دخولهم أغلق الباب على جانى بك الصّوفى و من معه فعند ذلك زاغ بصر جانى بك الصوفى، و شرع يترقّق لهم، و يقول: المروءة افعلوا معنا ما أنتم أهله، و دخلوا إلى الدّار المذكورة، و إذا بالأمير بيبغا المظفّرى عليه قميص أبيض و رأسه مكشوف، و قد أخرج يده اليمنى من طوق قميصه و هو جالس على دكّة صغيرة عند بوائك الخيل، و بين يديه منقل نار عليه أسياخ من اللّحم تشوى، و بكل فيها بوزا، و على ركبته قوس تترى و عدّة سهام، فعند ما رأى الأمراء قام إليهم على هيئته، و قبل أن يصلوا إلى عنده ركس الأمير أزدمر شايا ثانى رأس نوبة، و أخذ خوذة الأمير يشبك الأمير آخور من على رأسه، فدمعت عينا يشبك، فشقّ ذلك على الأمير بيبغا و أخذ قوسه بيده، و استوفى عليه بفردة نشّاب ليقتله، فهرب أزدمر و دخل إلى بوائك الخيل بعد أن أوسعه بيبغا المذكور من السّب و التوبيخ، و يقول: الملك إذا نكب تروح حرمته و لو مات حرمته باقية، حتى سكن غضبه. و أنزل جانى بك الصّوفىّ و يشبك الأمير آخور، فتقدّم الأمراء و قيّدوهما فى الحال و أخذا أسيرين إلى القلعة و ملك الأمير برسباى باب السلسلة من غير قتال و لا مانع، فإن الأمير الكبير جانى بك

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۲۰

الصّوفیّ ترکه و نزل من غیر [أمر] أوجب نزوله، علی أنه لما رکب و أراد النزول مع طربای قال له بعض ممالیکه أو حواشیه: یا خوند، هـذا بـاب السّلسـلة الـذی تروح علیه الأرواح، أین تنزل و تخلیه؟ فقال له: لمصـلحة نراها، فقال له: فاتتک المصـلحة بنزولک، و اللّه لا تعود إلیه أبدا، فلم یلتفت إلیه جانی بک و تمادی فی غیّه لقلة سعادته، و لأمر سبق، و لمقاساة نالته بعد هروبه من سجن الإسکندریة و نـالت أیضـا خلائق بسبب هروبه [من سـجن الإسـکندریة] علی ما یأتی ذکر ذلک فی ترجمـة الملک الأشـرف برسـبای- إن شاء اللّه تعالی.

و لمّا ملک الأمیر برسـبای و الأمیر طربای باب السّلسـلة [فی الحال] نودی بالقاهرة بنفقة الممالیک السلطانیة، فلما سمع الممالیک هذه المناداة سـکنوا بإذن اللّه، و ذهب کلّ واحد إلی داره، و فتحت الأسواق، و شـرع الناس فی بیعهم و شرائهم، بعد ما کان فی ظنّ الناس أن الفتنـة تطول بین هؤلاء أیّاما کثیرة؛ لأن کل [واحـد] منهم مالک جهـة من جهات القلعـة، و مع کل طائفـة خلائق لا تحصـی، فجاء الأمر بخلاف ما کان فی ظنهم، و یأبی اللّه إلّا ما أراد.

و استبدّ من یومئذ الأمیر برسبای بالأمر، و بتدبیر المملکة مع مشارکة الأمیر طربای له فی ذلک.

فلما کان یوم السـبت حادی عشر ذی الحجة استدعی الأمیر أرغون شاه النّوروزیّ الأعور و خلع علیه باستقراره أستادارا بعد عزل الأمیر صلاح الدین محمد بن نصر اللّه، و کان أرغون شاه المذکور قد قدم إلی القاهرة صحبة الملک الظاهر ططر من دمشق.

و فیه رسم بحمل الأمیرین جانی بک الصّوفیّ و یشبک الجکمیّ الأمیر آخور إلی ثغر الإسکندریة، و سجنا بها.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۲۱

ثم فی یوم الاثنین ثالث عشر ذی الحجة خلع علی الأمیر آق خجا الحاجب الثانی باستقراره فی کشف الوجه القبلی، ثم عملت الخدمه السـلطانیة فی یوم الخمیس سـادس عشـره بالقصـر السـلطانی، و حضـر الخلیفـة و القضاة الموکب، فخلع علی الأمیر برسـبای الـدّقماقیّ الـدّوادار الکبیر و اللالا ـ باسـتقراره نظـام الملـک و مـدبّر المملکـة، کمـا کـان الملک الظاهر ططر فی دولـة الملک المظفر أحمـد بن [المؤیـد] شـیخ عوضـا عن جانی بک الصوفی، و خلع علی الأمیر طربای حاجب الحجاب باسـتقراره أتابک العساکر بالـدیار المصـریة عوضا عن جانی بک الصوفی أیضا، و خلع علی الأمیر سودون من عبد الرحمن باستقراره دوادارا کبیرا عوضا عن برسبای الدّقماقی، و خلع علی الأـمیر قصـروه من تمراز رأس نوبـة النّوب باسـتقراره أمیر آخور کبیرا عوضا عن یشـبک الجکمی، و خلع علی الأمیر جقمق العلائی نائب القلعة باستقراره حاجب الحجاب عوضا عن طربای، و علی الأمیر أزبک المحمدیّ باستقراره رأس نوبة النّوب عوضا عن قصروه.

ثم فوض الخلیفة المعتضد بالله للأمیر برسبای الدّقماقیّ نظام الملک أمور الدولة بأسرها، لیقوم بتدبیر ذلک عن السلطان الصالح محمد إلی أن یبلغ رشـده، و حکم بصـحة ذلک قاضـی القضاة زین الـدین عبـد الرحمن التّفهنی الحنفیّ؛ و مع هـذا کله تقرر الحال علی أن یکون تدبیر الدولة و سائر أمور المملکة بین الأمیر برسـبای و بین الأمیر طربای، و أن یسـکن الأمیر برسبای بطبقة الأشرفیة علی عادته، و یسکن الأمیر طربای الأتابک بداره تجاه باب السّلسلة، و هو بیت قوصون، و أنّ طربای یحضر الخدمة عند الأمیر برسبای بالأشرفیة، و انفض الموکب، و خرج جمیع الأمراء و سائر أرباب الدّولـة من الخدمـة السـلطانیة بالقصـر مشاة فی خدمة الأمیر برسـبای نظام الملک حتی دخل الأشرفیّة التی صارت سکنه من یوم مات الملک الظاهر ططر، و عملت بها الخدمة ثانیا بین یدیه، و صرّف أمور الدولة علی حسب اختیاره و مقتضی رأیه،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۲۲

و استمر علی هذا، فعند ذلک کثر تردد الناس إلی بابه لقضاء حوائجهم، و عظم و ضخم.

و لما کان یوم ثامن عشـر ذی الحجـة [المـذکورة] ورد الخبر بأن الأمیر تغری بردی المؤیّـدیّ نائب حلب خرج عن طاعـة السـلطان، و

قبض على الأمراء الحلبيّين، و استدعى التّركمان و العربان، و أكثر من استخدام المماليك.

و سبب خروجه عن الطاعة أنّه بلغه أن الملك الظّاهر ططر عزله، و أقرّ عوضه فى نيابة حلب الأمير تنبك البجاسىّ نائب طرابلس، فلما تحقّق ذلك خرج عن الطّاعة و فعل ما فعل، فشاور الأمير برسباى الأمراء فى أمره، فوقع الاتفاق على أن يكتب للأمير تنبك البجاسىّ بالتوجّه إليه و صحبته العساكر و قتاله، و أخذ مدينة حلب منه، و باستقراره فى نيابتها كما كان الملك الظّاهر ططر أقرّه، و كتب له بذلك.

ثم فى يوم ثالث عشرين ذى الحجّة: خلع الأمير برسباى على القاضى صدر الدين أحمد بن العجمى باستقراره فى حسبة القاهرة على عادته، بعد عزل قاضى القضاة جمال الدين يوسف البساطى.

ثم فى يوم سابع عشرينه ابتدأ الأمير برسباى نظام الملك فى نفقة المماليك السلطانية، و هو و الأمراء على تخوّف من المماليك السّلطانية أن يمتنعوا من أخذها؛ و ذلك أنّهم و عدوا المماليك فى نوبة الأمير الكبير جانى بك الصّوفى لكل واحد بمائة دينار، فلم يصرّ لكل واحد سوى خمسين دينارا من أجل قلّة المال؛ فإن الملك الظاهر ططر فرّق الأموال التى خلّفها الملك المؤيد [شيخ] جميعها، حتى إنه لم يبق منها بالخزانة السّلطانية غير ستين ألف دينار، و مع ما فرّقه من الأموال زاد فى جوامك المماليك بالدّيوان المفرد فى كل شهر ما ينيف على عشرة آلاف دينار، و لذلك استعفى صلاح الدين بن نصر اللّه من وظيفة الأستاداريّة، بعد أن قام هو و أبوه الصاحب بدر الدين

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۲۳

حسن بن نصر اللّه ناظر الخواصّ الشريفة بعشرة آلاف دينار فى ثمن الأضحية، و بعشرين ألف دينار مساعدة فى نفقة المماليك السلطانية، ثم تقرّر على كلّ من مباشرى الدّولة شىء من الذّهب حتى تجمع من ذلك كلة نفقة المماليك.

و لما جلس السلطان و الأمراء لنفقة المماليك أخذ الأمير برسباى نظام الملك الصّرّة من النفقة بيده، و كلّم المماليك السلطانية بما معناه: إن الملك الظاهر ططر لم يدع فى بيت المال من الذّهب سوى ما هو كيت و كيب، و أنّهم عجزوا فى تحصيل المال لتكملة النفقة، و لم يقدروا إلا على هذا الذى تحصّل معهم، ثم وعدهم بكلّ خير، و أمر كاتب المماليك فاستدعى اسم أوّل من هو بطبقة الزّفرف، و كانت المماليك قبل أن يدخلوا الحوش السّلطانى اتفقوا على أنه إذا استدعى كاتب المماليك اسم أحد فلا يخرج إليه، و لا يأخذ النفقة إلا إن كانت مائة دينار، و توعّدوا من أخذ ذلك بالقتل و الإخراق، فلمّا استدعى كاتب المماليك اسم ذلك الرجل خرج بعد أن سمع كلام الأمير [برسباى] نظام الملك من العذر الذى أبداه، و قال: إن أعطانا السلطان كفّ تراب أخذناه، فشكره نظام الملك على ذلك، و رمى له الصّرّة فأخذها، و قبّل الأرض و خرج، و لم يجسر أحد على أن يكلّمه الكلمة الواحدة بعد ذلك التهديد و الوعيد، ثم صاح كاتب المماليك باسم غيره فخرج و أخذ، و تداول ذلك منه و كل من استدعى اسمه خرج و أخذ إلى آخرهم، فأخذ الجميع النفقة، و انفضّوا بغير شرّ.

قلت: و هذه عادة المماليك يطلعون من ألف و ينزلون إلى درهم، و كان الذى أخذ النفقة فى هذه النّوبة ثلاثة آلاف و مائتى مملوك، و المبلغ مائة و ستّين ألف دينار.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۲۴

ثم فى يوم الخميس تاسع عشرين ذى الحجة قدم مبشّر الحاج، و أخبر بسلامة الحاج، و أن الوقفة كانت يوم الجمعة.

ثم فى يوم الأحد ثالث المحرّم من سنة خمس و عشرين و ثمانمائة ورد الخبر إلى الدّيار المصريّة بفرار الأمير تغرى بردى المؤيّدى المعروف بأخى قصروه نائب حلب منها، بعد وقعة كانت بينه و بين تنبك البجاسىّ المنتقل عوضه إلى نيابة حلب، فدقّت البشائر لذلك.

و كان من خبر تنبك البجاسىّ المذكور أنه لمّا قدم على الملك الظاهر ططر من بلاد الشّرق مع من قدم من الأمراء- و قد تقدّم

ذكرهم فى عدّة مواضع - ولّاه نيابة حماة كما كان أوّلا فى دولة المؤيد [شيخ]، ثم خرج الملك الظاهر ططر من دمشق يريد الديار المصريّة بعد ما رسم بانتقاله من نيابة حماة إلى نيابة طرابلس، فلما بلغ تنبك البجاسيّ ذلك و هو بحماة ركب الهجن من وقته، و ساق خلف الملك الظاهر ططر إلى أن أدركه بالغور، فنزل و قبّل الأرض بين يديه، و لبس التّشريف بنيابة طرابلس عوضا عن الأمير أركماس الجلبّانيّ، ثم خرج و سار إلى جهة ولايته، و قبل أن يسافر الأمير تنبك المذكور أسرّ له الأمير برسباى الدّقماقيّ الدّوادار الكبير بأن الملك الظاهر [ططر] يريد توليته نيابة حلب عوضا عن تغرى بردى المؤيّدى - و كان بينهما صداقة؛ أعنى بين برسباى الدّقماقى و بين تنبك البجاسيّ، ثم أمره برسباى أن يكتم ذلك لوقته، و كان ذلك فى شهر رمضان، فاستمرّ تنبك فى نيابة طرابلس إلى يوم عرفة من السّنة فورد عليه مرسوم شريف من الملك الظّاهر [ططر] بنيابة حلب عوضا عن تغرى بردى المؤيّدى المعروف بأخى قصروه بحكم عصيانه، و بالتوجّه لقتال تغرى بردى المذكور، فخرج تنبك

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۲۵

من طرابلس بالعساكر فى رابع عشر ذى الحجة من سنة أربع و عشرين [و ثمانمائة] إلى ظاهر طرابلس، و أقام يتجهز بالمكان المذكور إلى سادس عشر ذى الحجة، و بينما هو فى ذلك ورد عليه الخبر بموت الملك الظاهر ططر، فأمسك عند ذلك الأمير تنبك [البجاسيّ] عن المسير إلى حلب حتى ورد عليه مرسوم الملك الصالح محمد ابن الملك الظاهر ططر باستمراره على نيابة حلب، و صحبة المرسوم الخلعة و التشريف بنيابة حلب، و بالمسير إلى حلب، فسار إليها لإخراج تغرى بردى منها، و عند مسيره إلى جهة حلب وافاه الأمير إينال النّوروزيّ نائب صفد بعسكرها، و توجّه الجميع إلى حلب، فلما سمع تغرى بردى بقدومهم فرّ من حلب قبل أن يقاتلهم، و توجّه نحو بلاد الرّوم، و قيل قاتلهم و انكسر، و سار الأمير تنبك البجاسيّ خلفه من ظاهر حلب إلى الباب فلم يدركه، و رجع إلى حلب و أقام بها إلى ما يأتى ذكره.

و فى رابع عشرين المحرّم قدم أمير حاج المحمل بالمجمل، و هو الأمير تمرباى اليوسفيّ المؤيدى المشدّ كان، و هو يومئذ من جملة أمراء الألوف بالديار المصرية، و قد كثر ثناء الناس عليه بحسن سيرته فيهم، فخلع عليه و نزل إلى داره، فلما كان يوم الخميس ثامن عشرين المحرم طلع المذكور إلى الخدمة السلطانية، فقبض عليه و على الأمير قرمش الأعور الظاهريّ برقوق أحد مقدمى الألوف، و كان قرمش أحد أعيان أصحاب جانى بك الصوفيّ، و أخرج هو و تمرباى إلى ثغر دمياط، و أنعم على الأمير يشبك الساقى الظاهرى الأعرج بإمرته دفعة واحدة من الجندية.

و كان من خبر قرمش هذا مع الأمير برسباى الدّقماقى أن الأمير الكبير جانى بك الصوفى، لما صار أمر المملكة إليه بعد موت الملك الظاهر ططر أمره بالجلوس بباب السّتارة ليكون عينا على الأمير برسباى الدّقماقى، فأخذ الأمير برسباى [الدّقماقى]

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۲۶

يستميله بكل ما وصلت القدرة إليه، فلم يقدر يحوّله عن جانى بك الصوفى، و اعتذر بأنه ربّاه فى بلاد الچركس، و أنه كان يحمل جانى بك الصوفى على كتفه، فكيف يمكنه مفارقته؟ فلمّا وقع من أمر جانى بك الصوفى ما وقع، و تمّ أمر الأمير برسباى الدقماقى التفت إلى قرمش، و أخرج إقطاعه، و نفاه إلى دمياط لما كان فى نفسه منه.

ثم فى يوم الاثنين ثانى صفر أمسك الأمير الكبير برسباى الأمير أيتمش الخضرى الظاهرى أحد أمراء العشرات، و نفاه إلى القدس بطّالا.

ثم فى يوم الأربعاء ثامن عشر صفر جمع الأمير الكبير برسباى الدقماقى الصّيارف بالإصطبل السلطانى للنظر فى الدّراهم المؤيدية، فإنه كثر هرش الدراهم منها، و معنى الهرش أن يبرد من الدّرهم الذى زنته نصف درهم حتى يخفّ و يصير وزنه ربع درهم، فأضرّ ذلك بحال الناس، فأمر الأمير الكبير بإبطال المعاملة بالعدد، و استقرت المعاملة بها وزنا لا عددا، و رسم بأن يكون وزن الدرهم منها بعشرين درهما فلوسا، و أن يكون الدينار الإفرنتيّ بمائتين و عشرين درهما فلوسا، و بأحد عشر درهما من الفضة الموازنة، فشقّ ذلك على

الناس كونهم كانوا يتعاملون بالفضة معاددة فصارت الآن بالميزان، و احتاج كل بائع أن يأخذ عنده ميزانا و تشكّوا من ذلك، فلم يلتفت الأمير برسباى إلى كلامهم و هدّدهم، فمشى الحال.

و فى هذا الشهر ابتدأت الوحشة بين الأمير برسباى الدقماقى نظام الملك و بين الأمير الكبير طرباى أتابك العساكر، و تنكر الحال بينهما فى الباطن، و سببه أن الأمير طرباى شقّ عليه استبداد الأمير برسباى الدقماقى بأمور المملكة وحدة، و تردّد الناس إلى بابه، و خاف إن دام ذلك ربما يصير من أمر برسباى ما أشاعه الناس، و كان طرباى يقول فى نفسه: إنه هو الذى مهّد الديار المصرية، و دبّر على قبض جانى بك الصوفى حتى كان من أمره ما كان، و لولاه لم يقدر برسباى على جانى بك الصوفى و لا غيره، و كان الاتفاق بينهما أن يكون أمر المملكة بينهما نصفين بالسّويّة لا يختص أحدهما عن الآخر بأمر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۲۷

من الأمور، و كان الأمير طرباى فى الأصل من يوم مات الملك الظاهر برقوق متميّزا على برسباى، و يرى أنه هو الأكبر و الأعظم فى النّفوس، و أنه هو الذى أقام برسباى فى هذه المنزلة من كونه استمال المماليك السلطانيّة إليه، و نفّرهم عن الأمير الكبير جانى بك الصوفى حتى تمّ له ذلك، و أنه هو الذى خدع جانى بك الصوفى حتى أنزله من باب السلسلة، و قام مع الأمير برسباى إلى أن رضيه الناس بأن يكون مدبّر المملكة، كل ذلك ليكون برسباى تحت أوامره، و لا يفعل شيئا إلا بمشاورته؛ فلما رأى طرباى أن الأمر بخلاف ما أمّله ندم على ما كان من أمره فى حقّ جانى بك الصوفى حيث لا ينفعه النّدم، و تكلّم مع حواشيه فيما يفعله مع الأمير برسباى، و كان له شوكة كبيرة من خشداشيته المماليك الظاهرية [برقوق] و غيرهم، فأشاروا عليه أن ينقطع عن طلوع الخدمة أياما لينظروا فيما يفعلونه، و كان طرباى مطاعا فى خشداشيته و لهم فيه محبة زائدة، و تعصّب عظيم له على برسباى، فاغترّ طرباى بكلامهم، و عدى بمماليكه إلى برّ الجيزة حيث هو مربط خيوله على الرّبيع كالمتنزّه، و أقام به بقيّة صفر.

و أما الأمير برسباى لما علم أن الأمير طرباى توغّر خاطره منه، و علم أنه لا يتم له أمر مع وجوده، أخذ يدبر عليه فيما يفعله معه حتى يمكنه القبض عليه، ثم يفعل ما بدا له، هذا و قد انضم عليه جماعة كبيرة من أمراء الألوف، أعظمهم الأمير سودون من عبد الرحمن الدّوادار الكبير، و الأمير قصروه من تمراز رأس نوبة النّوب، و الأمير يشبك الساقى الأعرج- و كان أعظمهم دهاء و معرفة، و له دربة بالأمور- و الأمير تغرى بردى المحمودى الناصرى و غيرهم، و باقى الأمراء هم أيضا فى خدمة الأمير برسباى فى الظاهر، غير أنهم فى الباطن جميعهم مع طرباى، و لكنهم حيثما ما أمكنهم الكلام مع برسباى أو طرباى قالوا له: أنت خشداشنا و أغاتنا؛ لأن كليهما من مماليك برقوق، بهذا المقتضى صار الأمير برسباى لا يعرف من هو معه من خشداشيته الظاهرية،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۲۸

و لا من هو عليه غير من ذكرنا من الأمراء؛ فإنهم باينوا طرباى، و انضموا على برسباى ظاهرا و باطنا.

فلما علم برسباى أن هؤلاء الأمراء معه حقيقة قوى قلبه بهم، و ألقى مقاليد أمر طرباى فى رقبة الأمير يشبك السّاقى الأعرج أن ينزل إليه، و يعمل جهده فى طلوعه إلى الخدمة السلطانية، ثم سلّط أيضا جماعة أخر على الأمير طرباى يحسّنون له الحضور من الربيع، هذا مع ما يقوى جأشه الأمير تغرى بردى المحمودى فى الإقدام على طرباى و يهوّن عليه أمره، و الأمير برسباى يجبن عن ذلك حتى استهل شهر ربيع الأوّل.

فلما كان يوم الثلاثاء ثانية قدم الأمير الكبير طرباى من الربيع، و نزل بداره تجاه باب السلسلة، و تردّد إليه الأمير يشبك الساقى الأعرج، و حسّن له الطلوع بأن قال له: إن كل خشداشيته من الظاهرية [برقوق] معه، و أنهم لا يؤثرون عليه أحدا، و أنه بطلوعه يستفحل أمره، و بعدم طلوعه ربما يجبّن و يضمحلّ أمره؛ فإن الناس مع القائم، و إذا حضرت أنت تلاشى أمر برسباى، و هوّن عليه أمر برسباى، و لا زال به حتى انخدع له و أذعن بالطلوع.

فلما أصبح يوم الأربعاء ثالثه أمسك الأمير برسباى الأمير سودون الحموىّ أحد أمراء الطلبخانات، و الأمير قانصوه النّوروزىّ أحد أمراء

الطبلخانات أيضا، و كانا من [جملة] أصحاب طرباى، فعظم ذلك على طرباى، و قامت قيامة أصحابه و حذّروه عن الطلوع فى غده- فإنه كان قرّر مع الأمير يشبك الأعرج الطلوع إلى الخدمه فى يوم الخميس رابعه- فلما وقع مسك هؤلاء نهاه أصحابه عن الطلوع، فأبى إلّا الطلوع ليتكلّم مع الأمير برسباى بسبب مسكه لهؤلاء و يطلقهما منه، فألحوا عليه فى عدم الطلوع، و أكثروا من ذلك، و هو لا يصغى إلى قولهم، و فى ظنه أن

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۲۹

الأمير برسباى لا ينهض بأمر يفعله فى حقه، و أيضا لا يقابله بسوء لماله عليه من الإيادى قديما و حديثا.

فلما أصبح نهار الخميس رابع شهر ربيع الأوّل ركب الأمير الكبير طرباى من داره و معه جماعة كبيرة من حواشيه، و طلع إلى القلعة، و كان لقلة سعده غالب من هو معه من خشداشيته رءوس نوب، ليس فى أوساطهم سيوف، فما هو إلا أن دخل فى الخدمة، و استقرّ به الجلوس فى منزلته و قرىء الجيش على السّلطان، و انتهت العلامة، و أحضر السّماط و قام الجميع على أقدامهم، أبتدأ الأمير [الكبير] برسباى الدّقماقى نظام الملك بأن قال: الحال ضائع، و الكلمة متفرّقة، و أحوال الناس متوقّفة لعدم اجتماع الناس على كبير يرجع إليه فيما يرسم به، و لابدّ للناس من كبير يرجع إليه فى أمور الرّعية، فأجابه فى الحال- قبل أن يتكلّم طرباى- الأمير قصروه رأس نوبة النّوب، و قال: أنت كبيرنا و مع وجودك من يكون خلافك؟ افعل ما شئت، فقال الأمير برسباى عند ذلك: اقبضوا على هذا و عنى الأمير الكبير طرباى، فلما سمع طرباى ذلك جذب سيفه ليدفع عن نفسه، و أراد القيام فسبقه الأمير برسباى نظام الملك، و ضربه بالسيف ضربة جاءت فى يده كادت تبينها- و هى على ظاهر كفه حيث كان قابضا بها على سيفه- ثم بادره الأمير قصروه و أعاقه عن تمام القيام، و تقدّم إليه الأمير تغرى بردى المحمودىّ و قبض عليه من خلفه كالمعانق له، و حمل من وقته إلى أعلى القصر، و قيّد فى الحال، و قد تضمّخ بدمه، و وقعت الهجّة بالقصر، و تسللت

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۳۰

السيوف من حواشى طرباى بعد أن فات الأمر و قد خطف الأمير برسباى التّرس الفولاذ من يد السلطان الملك الصالح محمد و تترّس به، و أعطى ظهره إلى الشّباك و سيفه مسلول بيده فلم يجسر أحد على التقدّم إليه لكثرة حاشيته، و لقوة شوكته، ثم سكتت الهجّة فى الحال، و ردّ كلّ واحد من أصحاب طرباى سيفه إلى غمده عندما رأوا أن الأمر فاتهم، و قالوا: نحن من أصحاب برسباى، فعرف برسباى الجميع و لم يؤاخذ أحدا منهم بعد ذلك، و تكسّر بعض صينىّ مما كان فيه الطعام للسّماط السلطانى لضيق المكان، فإن الحركة المذكورة كانت بالقصر الصغير السلطانى حيث فيه الشرابخاناه، و طلب الأمير برسباى فى الحال المزيّن و أرسله إلى طرباى فخاط جراحه بعد ما قيّده، ثم أصبح من الغد حمله إلى الإسكندرية فسجن بها، إلى أن أطلقه فى أيّام سلطنته حسبما نذكره فى محلّه فى ترجمة الملك الأشرف برسباى إن شاء اللّه تعالى.

و خلا الجوّ للأمير برسباى بمسك الأمير طرباى هذا.

قلت: و كان فى أمر الأمير طرباى هذا عبرة لمن اعتبر، و هو أن طرباى لا زال بجانى بك الصّوفىّ حتى خدعه و غدر به عند ما أنزله من الحرّاقة بباب السّلسلة و تحيّل عليه حتى قبضه و حمله مقيّدا إلى سجن الإسكندرية و سجن بها، و قد ظنّ أن الأمر صفا له و أنه لا يعدل عنه إلى غيره لاستخفافه بالأمير برسباى فأتاه اللّه من حيث لم يحتسب، و عمل عليه الأمير برسباى حتى خدعه و أطلعه إلى القلعة، و صار فى يده بعد ما امتنع ببرّ الجيزة أيّاما، و الناس تترقّب حركته ليكونوا فى خدمته، و فى قتال عدوّه، إلى أن عدّى من برّ الجيزة و مشى لحتفه بقدميه، فكان حاله فى ذلك كقول الإمام أبى الفتح البستىّ حيث قال [رحمه اللّه تعالى].

أرى قدمى أراق دمى و إن كان طرباى لم يهلك- فى هذه- الموتة المكتوبة فقد مات معنى، و حمل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۳۱

إلى الإسكندرية، فأدخل به عند أخصامه الأمير الكبير جانى بك الصّوفىّ و غيره.

قلت: لتجزى كلّ نفس بما كسبت.

و لما تمّ أمر الأمير برسباى فيما أراد من القبض على الأمير طرباى و الاستبداد بالأمر أخرج الأمير سودون الحموىّ منفيا إلى ثغر دمياط، ثم أخذ فى إبرام أمره ليترقّى إلى أعلى المراتب، فلم يلق فى طريقه من يمنعه من ذلك، و ساعده فى ذلك موت الأمير حسن بن سودون الفقيه خال الملك الصالح محمد هذا فى يوم الجمعة ثالث عشر صفر؛ فإنه كان أحد مقدمى الألوف و خال السلطان الملك الصالح، و سكناه بقلعة الجبل، و كان جميع حواشى الملك الظاهر ططر يميلون إليه فكفى الأمير برسباى همّه أيضا بموته، فلما رأى برسباى أنه ما ثمّ عنده مانع يمنعه من بلوغ غرضه بالديار المصرية، خشى عاقبة الأمير تنبك ميق نائب الشّام، و قال لا بدّ من حضوره و مشورته فيما نريد نفعله، فندب لإحضاره الأمير ناصر الدين محمدا بن الأمير إبراهيم ابن الأمير منجك اليوسفىّ فحضر، فخرج المذكور مسرعا من الديار المصرية إلى دمشق لإحضار [الأمير] تنبك المذكور، و أخذ الأمير برسباى فيما هو فيه من عمل مصالح الناس و تنفيذ الأمور، فرسم بإحضار الأمير أيتمش الخضرى من القدس.

ثم فى يوم الاثنين ثانى عشرين شهر ربيع الأوّل أمسك الأمير الطواشىّ مرجان الهندى الزّمّام المعروف بالخازندار، و سلمه للأمير أرغون شاه النّوروزىّ الأعور الأستادار ليصادره، و يستخلص منه الأموال، و طلب الأمير الطواشىّ كافور الرومىّ الصّرغتمشىّ و خلع عليه باستقراره زمّاما على عادته أوّلا، ثم قدم أيتمش الخضرى إلى القاهرة فرسم له الأمير برسباى بلزوم داره بطّالا، و استمر مرجان عند الأمير أرغون شاه المذكور إلى أن قرّر عليه حمل عشرين ألف دينار فحملها، و ضمنه جماعة أخر فى حمل عشرة آلاف دينار أخرى، و أطلق فى يوم الأربعاء ثامن عشر شهر ربيع الآخر.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۳۲

ثم فى سادس عشر [شهر] ربيع الآخر المذكور قدم الأمير تنبك ميق نائب الشام إلى الديار المصرية، بعد أن تلقّاه جميع أعيان الدولة، و طلع إلى القلعة، فخرج الأمير الكبير برسباى لتلقّيه خارج باب القصر السلطانى، و نثر على رأسه خفايف الذّهب و الفضة، و عاد معه إلى داخل القصر بعد أن اعتذر له عن عدم نزوله إلى تلقّيه مخافة من المماليك الأجلاب، فقبل الأمير تنبك عذره، ثم قدّمت خلعة جليلة فلبسها الأمير تنبك [نائب الشام] المذكور و هى خلعة الاستمرار له على نيابة دمشق على عادته، ثم خلا به الأمير برسباى و تكلّم معه و استشاره فيمن يكون سلطانا؛ لأن الديار المصرية لابد لها من سلطان تجتمع الناس على طاعته، ثم قال له: و إن كان و لابد فيكون أنت، فإنك أغاتنا و كبيرنا و أقدمنا هجرة، فاستعاذ الأمير تنبك من ذلك و قام فى الحال، و قبّل الأرض بين يديه و قال: ليس لها غيرك، فشكر له الأمير برسباى على ذلك، ثم اتّفق جميع الأمراء على سلطنته، و خلع الملك الصالح محمد من السّلطنة، فوقع ذلك فى يوم الأربعاء ثامن شهر ربيع الآخر [من] سنة خمس و عشرين و ثمانمائة حسبما يأتى ذكره فى أوّل ترجمة الملك الأشرف برسباى.

قلت: و كما تدين تدان جوزى الملك الظاهر ططر فى ولده كما فعل [هو] بابن الملك المؤيد [شيخ] الملك المظفر أحمد، غير أن الأمير ططر كانت له مندوحة بصغر ابن الملك المؤيد [شيخ] من أنه كان [بقى] لبلوغه الحلم سنين طويلة، و أما الملك الصالح هذا فكان مراهقا، غير أنهم احتجوا أيضا بأنه كان فى عقله شيء شبه الخلل.

قلت: و إن توقّف الأمر على أنّ كلّ واحد من هؤلاء يخلع بأمر من الأمور، و يكون ذلك حجّة لمن خلعه، فيلزم الخالع من ذلك أمور كثيرة لا يطيق التخلّص منها أبدا، ليس لإبدائها هنا محلّ، و قد دار هذا الدّور على أناس أخر بعدهما، و الكأس ممزوج لمن

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۳۳

يشربه من يد ساقيه، كما جرت به العادة؛ و العادة لها حكم، و هى تثبت عند الشافعية بمرّة واحدة- انتهى.

و لمّا خلع الملك الصالح من السلطنة أدخل إلى أمّه خوند بنت سودون الفقيه ببعض الدّور السلطانية، و دام بها سنين عديدة من غير ترسيم و لا حرج حتى إنه بعد سنين صار يركب و ينزل صحبة الناصرى محمد ابن السلطان الملك الأشرف برسباى إلى القاهرة من

غير أن يحتفظ به أحد، و حضر معه مرّة مأتم والدته خوند زوجة الملك الأشرف بالمدرسة الأشرفية بخط العنبريّين، و جلسا فى الملأ بصدر المدرسة، فتعجّب الناس من ذلك غاية العجب؛ كون الملك الصالح المذكور كان سلطانا ثمّ خلع من الملك و بعد مدّة يسيرة صار يركب و ينزل إلى القاهرة، و دام الملك الصالح [محمد] بقلعة الجبل سنين حتى بلغ الحلم، و زوّجه الملك الاشرف [برسباى] بابنة الأتابك يشبك السّاقى الأعرج، و دامت معه حتى مات عنها فى الطاعون بقلعة الجبل فى ليلة الخميس ثامن عشرين جمادى الآخرة من سنة ثلاث و ثلاثين و ثمانمائة، و هو فى حدود العشرين سنة من العمر تخمينا، و كان أهوج و عنده بعض بله و سذاجة، مع خفّة و سرعة حركة، و سلامة باطن، و عدم تجمّل فى ملبسه، و لم يكن عنده شيء من الكبر و التّرفّع و لم يتأسّف على الملك أبدا، و كان غالب حواشى الملك الأشرف [برسباى] يسمّونه فى وجهه سيدى محمد، و يصيحون له بذلك، و مما ينسب إليه من السّذاجة أنّه ركب مرة فرسا ثم طلبه ثانيا فقال: هاتوا فرسى الأبيض، فنهره بعض حواشيه و قال [له]:

لم لا تقول فرسى البوز، ثم أتى بعد ذلك بمشروب من السّكّر فقال: ما أشرب إلّا فى سلطانيتى البوز، فنهره ذلك الرّجل بعينه و قال [له]: لم لا تقول سلطانيّتى البيضاء،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۳۴

فقال: و اللّه تحيّرت بينكم، تارة تقولون لا- تقل أبيض و قل بوز، و تارة تقولون بالعكس، كيف يكون عملى معكم؟ و له أشياء من ذلك كثيرة، على أنه كان يحفظ القرآن، و يعرف بلسان الچاركسى، و لبلوهيّته حلاوة و طلاوة مع خفّة روح- انتهى و اللّه تعالى أعلم.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۳۵

السنة التى حكم فيها أربعة سلاطين

و هى سنة أربع و عشرين و ثمانمائة.

حكم فى أوّلها إلى يوم الاثنين ثامن المحرّم الملك المؤيّد شيخ، ثم ابنه الملك المظفّر أحمد إلى تاسع عشرين شعبان، ثمّ الملك الظاهر ططر إلى رابع ذى الحجة، ثمّ ابنه الملك الصالح محمد إلى آخرها و إلى [شهر ربيع الآخر] من سنة خمس و عشرين و ثمانمائة.

و فيها- أعنى سنة أربع و عشرين و ثمانمائة- توفّى الأمير زين الدين فرج ابن الأمير شكر باى الظاهرىّ أحد أمراء العشرات و خواصّ الملك المؤيّد شيخ فى رابع صفر بعد مرض طويل، و كان شابّا مليح الشكل، بهىّ المنظر، متجمّلا فى ملبسه و مركبه، و لم يبلغ من العمر خمسا و عشرين سنة- فيما أظنّ- و كان الملك المؤيّد [شيخ] ربّاه و اختصّ به، فلما تسلطن رقّاه و أمّره.

و توفّى القاضى بهاء الدين محمد ابن بدر الدين حسن بن عبد اللّه المعروف بالبرجىّ فى يوم الخميس عاشر صفر عن ثلاث و سبعين سنة، بعد أن ولى حسبة القاهرة غير مرّة، و وكالة بيت المال و نظر الكسوة، و باشر عمارة الجامع المؤيّدىّ، و كان من أصحاب الملك الظاهر ططر.

و توفّى علم الدين سليمان بن جنيبة رئيس الأطبّاء فى سادس عشرين صفر، و قد أناف على ثمانين سنة، و كان أبوه يهوديّا ثم أسلم، و نشأ سليمان هذا مسلما.

و فيها قتل الأمير يشبك بن عبد اللّه اليوسفىّ المؤيّدىّ نائب حلب فى واقعة كانت بينه و بين الأمير ألطنبغا القرمشىّ الأتابك بظاهر حلب فى يوم الثلاثاء ثالث عشرين المحرّم.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۳۶

قال المقريزى: و كان غير مشكور السّيرة ظالما عسوفا مع كبر و جبروت، فأراح اللّه منه.

و فيها قتل الأمير الكبير سيف الدين ألطنبغا بن عبد اللّه القرمشىّ الظاهرىّ أتابك العساكر بالديار المصريّة فى خامس عشر جمادى الأولى بقلعة دمشق بسيف الأمير ططر حسبما تقدّم ذكر القبض عليه، و كان القرمشىّ من محاسن الدنيا لما اشتمل عليه من السؤدد، و كان أصله من مماليک الظاهر برقوق، و ترقى فى الدّولة الناصرية [فرج] إلى أن صار من جملة أمراء البلاد الشاميّة، ثمّ انضم على الأمير شيخ و لم يبرح عنه فى السّرّاء و الضراء إلى أن ملک الديار المصريّة، فولاه نيابة صفد، ثم الأمير آخوريّة الكبرى، ثم نقله إلى الأتابكية بديار مصر بعد انتقال ألطنبغا العثمانى إلى نيابة دمشق بعد خروج قانى باى المحمدى عن الطاعة، فدام على ذلک إلى أن جرّده الملک المؤيّد [شيخ] إلى البلاد الشاميّة و صحبته جماعة من مقدّمى الألوف تقدّم ذكرهم فى عدّة مواضع من ترجمة الملک المظفّر [أحمد] و الملک الظاهر ططر، و لمّا أشرف الملک المؤيّد [شيخ] على الموت عهد لولده أحمد بالملک و جعل القرمشىّ هذا أتابكه لثقته به من أنّه كان يفعل مع ولده كما فعل الأتابک يلبغا العمرىّ مع أولاد السلاطين، و لم يتسلطن أبدا؛ فإنه كان من جنس يلبغا- أعنى أنه كان تركىّ الجنس- فوثب الأمير ططر على الأمر حسبما حكيناه، و خرج بالملک المظفّر أحمد إلى دمشق، فأطاعه القرمشىّ المذكور و قد قنع بأن يكون فى نيابة دمشق فلم يكذّب ططر الخبر و قبض عليه من وقته و حبسه بقلعة دمشق ثم قتله.

قلت: أمّا القبض عليه فيمكن ططر الاعتذار عنه، و أما قتله فلا أقبل له فيه عذرا؛

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۳۷

فإنه كان يمكنه حبسه إلى الأبد كما فعل ذلک بعدّة من الملوک، فإنه كان عاقلا ساكنا عديم الشّر ليّن الجانب متواضعا كريما حشيما، و لم يكن فيه ما يعاب، غير أنه كان من غير جنس القوم لا غير.

و توفّى الأمير الوزير المشير بدر الدين حسن ابن محبّ الدين عبد اللّه الطرابلسىّ تحت العقوبة- فى سابع عشر جماد الآخر بدمشق- بأمر الأمير الكبير ططر، و كان أبو بدر الدين هذا من مسالمة نصارى طرابلس و بها ولد بدر الدين هذا و نشأ، و تعانى قلم الدّيونة، و تولى شدّ الدواوين بها، ثم غير زيّه، و ولى كتابة سرّ طرابلس، ثمّ تعلّق بخدمة الملک المؤيّد شيخ المحمودى لمّا ولى نيابة طرابلس و عمل أستاداره، و غيّر زيّه و لبس زىّ الأمراء، و دام فى خدمته إلى أن تسلطن و ولاه الأستادارية ثم الوزر، ثم نيابة الإسكندرية، ثم الكشف بالوجه القبلى، ثم أعيد إلى الأستادارية، ثم أمسكه و صادره و عاقبه.

قال المقريزى: و كان يكتب الخطّ المنسوب، و يتظاهر بالمعاصى، و ينوّع الظلم فى أخذ الأموال، فعاقبه اللّه بيد ناصره الملک المؤيد شيخ أشدّ عقوبة، ثم قبض عليه ططر و صادره و عاقبه حتى هلک تحت الضّرب، و عاقبه ميّتا، فأراح اللّه منه عباده.

و توفّى قاضى القضاة شيخ الإسلام جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن ابن شيخ الإسلام سراج الدين عمر بن رسلان بن نصير بن صالح البلقينىّ الشافعى قاضى الديار المصريّة و عالمها، فى ليلة الخميس حادى عشر شوّال عن ثلاث و ستين سنة، بعد مرض طويل تمادى به فى دمشق لمّا كان مسافرا صحبة السّلطان إلى مصر، و صلّى عليه بالجامع الحاكمى، و أعيد إلى حارة بهاء الدين، و دفن على أبيه بمدرسته التى أنشأها تجاه داره- و هو صهرى زوج كريمتى و الذى تولّى تربيتى- رحمه اللّه تعالى، و مات و لم يخلف بعده مثله فى كثرة علومه و عفته عما يرمى به قضاة السّوء، و كان مولده بالقاهرة فى جمادى

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۳۸

الأولى سنة اثنتين و ستين و سبعمائة، هكذا سمعته من لفظه غير مرّة؛ و أمّه بنت قاضى القضاة بهاء الدين بن عقيل الشافعى النحوى، و نشأ بالقاهرة، و حفظ القرآن العزيز و عدّة متون، و تفقّه بوالده و بغيره إلى أن برع فى الفقه و الأصول و العربيّة و التفسير و علمى المعانى و البيان، و أفتى و درّس فى حياة والده، و ولى قضاء العسكر بالديار المصرية، ثم ولى قضاء القضاة بها فى إحدى الجمادتين من سنة أربع و ثمانمائة فى حياة والده عوضا عن قاضى القضاة ناصر الدين محمد الصّالحىّ، و ذلک أوّل ولايته، و عزل ثم ولّى غير مرة- حرّرنا ذلک فى تاريخنا المنهل الصافى و المستوفى بعد الوافى- و كانت جنازته مشهورة إلى الغاية، و حمل نعشه على رءوس الأصابع، و كان ذكيّا مستحضرا، عارفا بالفقه و دقائقه، مستقيم الذّهن، جيّد التصور، حافظا فصيحا بليغا جهورىّ الصّوت، مليح الشكل،

للطول أقرب، أبيض مشربا بحمرة، صغير اللحية مدوّرها، منوّر الشّيبة، جميلا و سيما، ديّنا عفيفا مهابا جليلا، معظّما عند الملوك و السلاطين، حلو المحاضرة، رقيق القلب سريع الدّمعة، على أنّه كان فيه بادرة و حدّة مزاج، غير أنها كانت تزول عنه بسرعة، و يأتى يعد ذلك من محاسنه ما ينسى معه كل شىء، و كان محبّبا للرّعية، متجملا فى ملبسه و مركبه، و مدحه خلائق من العلماء و الشعراء، أنشدنى قاضى القضاة جلال الدين أبو السعادات محمد بن ظهيرة قاضى مكة و عالمها، من لفظه لنفسه بمكة المشرفة مديحا فى قاضى القضاة جلال الدين المذكور فى سنة اثنتين و خمسين و ثمانمائة [قال رحمه اللّه] [الطويل]

هنيئا لكم يا أهل مصر جلالكم عزيز فكم من شبهة قدّ جلالكم

و لولا اتّقاء اللّه جلّ جلاله لقلت لفرط الحبّ جلّ جلالكم

و توفّى السلطان غياث الدين محمد المعروف بكر شجى بن بايزيد بن مراد بن أرخان بن عثمان متملّك بلاد الرّوم فى شهر رجب، و ملك بعده ابنه مراد بك صاحب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۳۹

الفتوحات و الغزوات المشهورة الآتى ذكره فى محله، و تفسير كرشجى أى صاحب الوتر؛ لأن كرش باللغة التركية هو الوتر الذى يوتر به القوس و كان قبل سلطنته خنق بوتر ثم أطلق فسمى بذلك، و هو بكسر الكاف و الراء المهملة و سكون الشين المعجمة و كسر الجيم.

و فيها قتل الأمير علاء الدين ألطنبغا من عبد الواحد الظّاهرى المعروف بالصّغير رأس نوبة النّوب، ثم نائب حلب بعد انهزامه من حلب فى واقعة كانت بينه و بين التّركمان فى تاسع عشرين شعبان، و كان أصله من مماليك الظّاهر برقوق، و صار خاصّكيا فى دولة الناصر فرج، ثم ترقى فى الدّولة المؤيّدية [شيخ] إلى أن صار أمير مائة و مقدّم ألف، ثم رأس نوبة النّوب، ثم أخرجه الملك المؤيد [شيخ] إلى البلاد الشاميّة مجرّدا لصحبة الأمير الكبير ألطنبغا القرمشىّ، فلما قتل يشبك نائب حلب المقدّم ذكره ولّاه القرمشىّ نيابة حلب، فدام بها إلى أن قبض الأمير ططر على القرمشىّ فخرج هو عن الطاعة، و وقع له ما حكيناه إلى أن قتل، و كان أميرا جليلا، مليح الشّكل ليّن الجانب، كريما شجاعا محبّبا للناس- رحمه اللّه تعالى.

و فيها قتل الأمير سيف الدين قجقار بن عبد اللّه القردمىّ أمير سلاح بثغر الإسكندرية فى سادس عشرين شعبان بأمر الأمير ططر، و كان أصله من مماليك الأمير قردم الحسنى رأس نوبة النّوب فى دولة الملك الظاهر برقوق، ثم انضمّ على الملك المؤيد [شيخ] و هو من جملة أمراء العشرات، و لا زال معه إلى أن تسلطن، فعند ذلك رقّاه الملك المؤيد إلى أن ولّاه إمرة سلاح، ثم نيابة حلب مدّة يسيرة، ثم عزله و أعاده إلى وظيفته إلى أن مات المؤيّد و جعله من جملة أوصيائه على ولده، فقبض عليه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۴۰

الأمير ططرّ و حبسه بثغر الإسكندرية إلى أن قتله بها، و كان تركىّ الجنس، قصيرا بطينا، له شعرات بحنكه، كبير الوجه، مشهورا بالشّجاعة و الإقدام مع الكرم و التجمّل فى مركبه و مماليكه و سماطه، و كان منهمكا فى اللّذّات مسرفا على نفسه، فكان فى غالب اللّيالى يسكر إلى الصّباح و يغلب عليه النّوم فينام عن الخدمة السلطانية، فلما يقوم من نومه يتأسّف على عدم طلوعه إلى الخدمة، فيجعل نفسه متوعّكا فينزل إليه وجوه الدّولة لعيادته، فيجدونه مخمورا لا يكاد يتكلّم، فلما تكرّر منه ذلك علم السلطان و الناس حاله، فصار أمره مثلا، يقول بعضهم للآخر كيف حال فلان فيقول مريض، فيقول لا يكون مثل مرض قجقار القردمى، و تداول ذلك بين الناس.

و فيها قتل الأمير سيف الدين جقمق بن عبد اللّه الأرغون شاوىّ الدّوادار ثم نائب الشام بعد عقوبة شديدة لأجل المال فى ليلة الأربعاء سادس عشرين شعبان بعد عود الأمير ططر من حلب، و كان أصل جقمق هذا چاركسيّا، أخذ من بلاده مع والدته و هو ابن ثلاث سنين، و جلبا إلى مصر فاشتراهما بعض أمراء مصر، فأقاما عنده مدّة يسيرة و قبض على الأمير المذكور، فاشتراهما أمير آخر، ثمّ انتقلا

من ملكه إلى ملك الأمير ألطنبغا الرّجبىّ، ثم ابتاعهما من ألطنبغا الرّجبىّ [المذكور] الأمير قردم الحسنىّ رأس نوبة النّوب، و أنعم بوالدته على زوجته و أنعم بولدها جقمق هذا على ابنه صاحبنا العلائى على بن قردم، فاستمرّا عندهما إلى أن توفّى الأمير قردم، و بعده بمدّة انتقل جقمق هذا إلى ملك الأمير أرغون شاه الظّاهرىّ أمير مجلس، فأعتقه أرغون شاه و جعله بخدمته إلى أن قتل فى سنة اثنتين و ثمانمائة، فاتصل بعده بخدمة الملك المؤيد شيخ، و هو من جملة الأمراء، و صار عنده رأس نوبة الجمداريّة، ثم جعله دوادارا ثانيا، إلى أن تسلطن الملك المؤيّد شيخ فأنعم عليه بإمرة عشرة، و أرسله إلى الأمير نوروز الحافظىّ فى الرّسليّة، فقبض عليه نوروز و حبسه، إلى أن ظفر المؤيّد بنوروز، و أطلق جقمق هذا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۴۱

من قلعة دمشق و أنعم عليه بإمرة طبلخاناه، و جعله دوادارا ثانيا، ثم نقله إلى الدّواداريّة الكبرى بعد سنين بحكم انتقال آقباى المؤيّدى إلى نيابة حلب فباشر الدّواداريّة بحرمة وافرة، و نالته السعادة، إلى أن ولى نيابة دمشق بعد عزل الأمير تنبك ميق فى سنة اثنتين و عشرين و ثمانمائة، فدام بدمشق إلى أن مات الملك المؤيد [شيخ] فخرج عن طاعة الأمير ططر و اتفق مع الأمير الكبير ألطنبغا القرمشىّ، ثم وقع بينهما [خلاف] و تحاربا فهزم جقمق و توجّه إلى صرخد، و لا زال به حتى استقدمه ططر منها بالأمان، و قبض عليه و قتله، و دفن بمدرسته التى بناها بدمشق، و كان أميرا عارفا بأمور دنياه، عاريا عن العلوم و الفضيلة و فنون الفروسية، و كان فصيحا باللغة العربية، و عنده مكر و شيطنة و خديعة، و انهماك فى اللّذات، و إسراف على نفسه مع بادرة و حدّة و سفه و وقاحة، و رأيته غير مرّة، كان للقصر أقرب، و عنده سمن، مدوّر اللحية أسودها، و عنده فصاحة فى حديثه على طريق عوام مصر لا على طريق الفقهاء- انتهى.

أمر النيل فى هذه السنة: الماء القديم أربعة أذرع و عشرون إصبعا، مبلغ الزيادة تسعة عشر ذراعا و إصبع واحد- و اللّه سبحانه و تعالى أعلم بالصواب.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۴۲

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۲۵]

ذكر سلطنة الملك الأشرف برسباى على مصر السلطان الملك الأشرف سيف الدين أبو النصر برسباى الدّقماقى الظاهرىّ سلطان الديار المصريّة، جلس على تخت الملك يوم خلع الملك الصالح محمد ابن الملك الظاهر ططر فى يوم الأربعاء ثامن شهر ربيع الآخر سنة خمس و عشرين و ثمانمائة، بعد أن حضر الخليفة و القضاة و جميع الأمراء و الأمير تنبك ميق نائب الشام، و بويع بالسلطنة، و لبس الخلعة الخليفتيّة السّوداء، و ركب من طبقة الأشرفية بقلعة الجبل و الأمراء مشاة بين يديه إلى أن نزل على باب القصر، و دخل و جلس على تخت الملك، و قبّلت الأمراء الأرض بين يديه، و خلع على الخليفة المعتضد بالله داود، و على من له عادة بالخلع فى مثل هذا اليوم، و تمّ أمره و نودى باسمه و سلطنته بالقاهرة و مصر، من غير أن يأمر للمماليك السلطانية بنفقة كما هى عادة الملوك، و هذا كان من أوائل سعد ناله [فإننا] لم نعلم أحدا من الملوك التركية تسلطن و لم ينفق إلا برسباى هذا- انتهى.

قلت: و الأشرف هذا هو السلطان الثانى و الثلاثون من ملوك التّرك و أولادهم بالدّيار المصريّة، و الثامن من الجراكسة و أولادهم، و أصل الملك الأشرف هذا چاركسى الجنس، و جلب من البلاد فاشتراه الأمير دقماق المحمدى الظاهرىّ نائب ملطية، و أقام عنده مدّة. ثم قدّمه إلى الملك الظاهر برقوق فى عدّة مماليك أخر، و لتقدمته سبب، و هو أن الأمير تنبك اليحياوىّ الأمير آخور الكبير بلغه أن الأمير دقماق اشترى أخاه من بعض التّجّار، و كان أخوه يسمّى طيبرس، فوقف الأمير تنبك إلى الملك الظّاهر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۴۳

برقوق و طلب منه أن يرسل يطلب أخاه من دقماق، فرسم السلطان بذلك، و كتب لدقماق مرسوما شريفا بإحضار طيبرس المذكور، و

قبل أن يخرج القاصد إلى دقماق وقف الأمير على باى الظاهرىّ الخازندار صاحب الوقعة أيضا، إلى السلطان و ذكر له أن أخته أيضا عند الأمير دقماق، فكتب السلطان بإحضارها أيضا، و سار البريدىّ من مصر إلى دقماق بذلك، فامتثل دقماق المرسوم الشّريف، و أراد إرسال طيبرس المذكور، فقال له دواداره: [ما تريد تفعل؟ فقال: أرسل المملوك الذى طلبه أستاذى إليه، فقال دواداره]: لا يمكن إرساله وحده، جهّز معه عدّة مماليك و تقدمة هائلة، و أبعث بالمطلوب فى ضمنها، فأعجب دقماق ذلك و جهّز نحو ثمانية عشر مملوكا صحبة طيبرس المذكور من جملتهم برسباى هذا و تمراز القرمشىّ أمير سلاح، و أشياء أخر من أنواع الفزو و القماش و الخيل و الجمال، ثمّ اعتذر دقماق عن إرسال الجارية أنها حامل منه، و الجارية هى السّت أردباى أمّ ولد دقماق، و زوجة الأمير تمراز القرمشىّ أمير سلاح فى دولة الملك الظّاهر جقمق المتوفى سنة ثلاث و خمسين و ثمانمائة، و توفّيت هى أيضا بعده بأيّام، و كلاهما بالطّاعون. فسار البريدىّ بالمماليك و التقدمة من ملطية إلى الديار المصرية، فوصلها بعد موت الأمير تنبك اليحياوىّ المذكور، و قد استقرّ عوضه فى الأمير آخوريّة الأمير نوروز الحافظىّ، فقبل الملك الظاهر [برقوق] التقدمة، و فرّق المماليك على الأطباق، فوقع برسباى هذا بطبقة الزّمّاميّة إنيا للأمير چاركس القاسمىّ المصارع، و تمراز القرمشى إنيا ليلبغا النّاصرىّ، فدام برسباى بالطبقة مدّة يسيرة و أعتقه السلطان، و أخرج له خيلا فى عدّة كبيرة من المماليك السلطانية.

و سبب سياقنا لهذه الحكاية أن قاضى القضاة شهاب الدين بن حجر رحمه اللّه نسبه أنه عتيق دقماق، و ليس الأمر على ما نقله، و هو معذور فيما نقله لبعده عن معرفة اللغة

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۴۴

التركية و مداخلة الأتراك، و قد اشتهر أيضا بالدّقماقىّ فظنّ أنه عتيق دقماق، و لم يعلم أن نسبته بالدّقماقىّ كما أن نسبة الوالد [رحمه اللّه] بالبشبغاوىّ، و الملك المؤيد شيخ بالمحمودىّ، و نوروز بالحافظىّ، و جكم نائب حلب بالعوضىّ، و دمرداش بالمحمدىّ و غيرهم، و قد وقفت على هذه المقالة فى حياته على خطّه، و لم أعلم أن الخط خطه فإنه كان رحمه اللّه يكتب ألوانا، و كتبت على حاشية الكتاب و بيّنت خطأه، و أنا أظن أن الخط خطّ ابن قاضى شهبة، و عاد الكتاب إلى أن وقع فى يد قاضى القضاة المذكور فنظر إلى خطى و عرفه، و اعترف بأنه و هم فى ذلك، و كان صاحبنا الحافظ قطب الدين محمد الخيضرى حاضرا، فذكر لى ما وقع، فركبت فى الحال و هو معى و توجّهنا إلى السّيفىّ طوغان الدّقماقى، و هو من أكابر مماليك دقماق، و سألته عن الملك الأشرف سؤال استفهام، فقال: هو عتيق الملك الظاهر برقوق و قدّمه أستاذنا إليه، ثم حكى له ما حكيته من سبب إرساله، ثم عدنا و أرسلت أيضا خلف جماعة من مماليك دقماق، لأن غالبهم كان خدم عند الوالد بعد موت دقماق، فالجميع قالوا مثل قول طوغان الدّقماقى، فتوجّه قطب الدين المذكور، و عرفه هذا كله، فأنصف غاية الإنصاف، و أصلح ما عنده ثم ذاكرت أنا قاضى القضاة المذكور فيما بعد، و عرفته أن دقماق قدّمه فى أوائل أمره، و أن برسباى صار ساقيا فى دولة الملك المنصور عبد العزيز، معدودا من أعيان الدولة، يتقاضى حوائج دقماق بالديار المصرية، ثم خرج برسباى عن طاعة الملك الناصر [فرج] مع الأمير إينال باى بن قجماس إلى البلاد الشامية و بقى من أعيان القوم، كل ذلك و دقماق فى قيد الحياة بعد سنة ثمان و ثمانمائة، و كان لمّا قدم دقماق إلى مصر نزل عند برسباى هذا و برسباى المذكور يخاطبه تارة يا خوند و تارة يا أغاة، ثم عرّفته بأن ولد دقماق الناصرى محمدا من جملة أصحابى، و أن والدته الست أردباى زوجة الأمير تمراز القرمشىّ أمير سلاح.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۴۵

قلت: و على كل حال إن هذا الوهم هو أقرب للعقل من مقالة المقريزىّ فى الملك الظّاهر ططر «إن الملك الناصر فرجا أعتقه بعد سنه ثمان فى سلطنته الثّانية» و أيضا أحسن ممّا قاله المقريزىّ فى حقّ الملك الأشرف [برسباى] هذا بعد وفاته فى تاريخه «السلوك» فى وفيات سنة إحدى و أربعين و ثمانمائة، و قد رأيت أنّ السّكات عن ذكر ما قاله فى حقّه أليق و الإضراب عنه أجمل لما وصفه به من الألفاظ الشّنيعة القبيحة التى يستحى من ذكرها فى حقّ كائن من كان- انتهى.

و قد خرجنا عن المقصود، و لنعد إلى ما نحن بصدده من ذكر الملك الأشرف [برسباى] فنقول: و استمرّ الملك الأشرف من جملة المماليك السلطانيّة إلى أن صار خاصّكيّا ثم صار ساقيا فى سلطنة الملك المنصور عبد العزيز ابن الملك الظاهر برقوق.

ثم خرج مع الأمير إينال باى بن قجماس من الدّيار المصريّة- مباينا للملك الناصر فرج- إلى البلاد الشاميّة، ثم انضمّ مع الأميرين شيخ و نوروز و تقلّب معهما فى أيّام تلك الفتن و لا زال معهما إلى أن قتل الملك الناصر فرج، و قدم إلى القاهرة صحبة الأمير الكبير شيخ المحموديّ، فأنعم عليه الأمير شيخ المذكور بإمرة عشرة، ثم نقله إلى إمرة طبلخاناه بعد سلطنته، فدام على ذلك سنين إلى أن نقله إلى إمرة مائة و تقدمة ألف بالدّيار المصريّة، ثم ولّاه كشف التّراب بالغربيّة من أعمال القاهرة، إلى أن طلبه الملك المؤيّد شيخ و ولّاه نيابة طرابلس بعد عزل الأمير بردبك قصقا الخليليّ عنها، و ذلك فى يوم الاثنين ثالث عشرين شهر ربيع الآخر سنة إحدى و عشرين و ثمانمائة، و لمّا ولى نيابة طرابلس كان فى خدمته جماعة من مماليك الوالد [رحمه اللّه] من جملتهم شخص يسمّى سودون، فطلبه أن يتوجّه معه إلى طرابلس، فقال سودون:

أنا ما أخلّى جامع طولون و أتوجّه إلى طرابلس، فتوجّه معه خشداشاه أزدمر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۴۶

و جرباش، فلما تسلطن الأشرف- بعد أمور نذكرها- جعل أزدمر المذكور ساقيا، و ندم سودون على مفارقته- انتهى.

و توجّه برسباى المذكور إلى نيابة طرابلس، و معه سودون الأسندمرى و قد استقر أتابك طرابلس، و أقام بطرابلس مدّة إلى أن واقع التّركمان الإينالية و البياضية و الأوشرية على صافيتا من عمل طرابلس، و كانوا حضروا إلى النّاحية المذكورة جافلين من قرا يوسف، و أفسدوا بالبلاد، فنهاهم الأمير برسباى المذكور فلم ينتهوا، فركب عليهم و قاتلهم فى يوم الثلاثاء سادس عشرين شعبان من سنة إحدى و عشرين المذكورة، فقتل بينهم خلق كبير، منهم: الأمير سودون الأسندمرى أتابك طرابلس، و انهزم باقيهم عراة، فغضب الملك المؤيد، و رسم بعزله عن نيابة طرابلس و اعتقاله بقلعة المرقب، و ولّى سودون القاضى نيابة طرابلس عوضه، فدام فى سجن المرقب مدّة إلى أن كتب الملك المؤيد بالإفراج عنه فى العشرين من المحرم سنة ثلاث و عشرين و ثمانمائة، و أنعم عليه بإمرة مائة و تقدمة ألف بدمشق، كل ذلك بسعى الأمير ططر فى أمره، فاعتمرّ بدمشق إلى أن مات الملك المؤيّد، و خرج جقمق عن طاعة ططر، و قبض على برسباى المذكور، و سجنه بقلعة دمشق إلى أن أطلقه الأتابك ألطنبغا القرمشىّ، و خرج إلى ملاقاة الأمير ططر لما قدم دمشق، و انضم عليه إلى أن خلع عليه ططر باستقراره دوادارا كبيرا بعد الأمير على باى المؤيديّ، فلم تطل أيّامه فى الدّواداريّة، و مات ططر بعد أن جعله لالا لولده الملك الصالح محمّد، و جعل جانى بك الصّوفيّ الأتابك مدبر مملكة ولده الصالح المذكور، و وقع ما حكيناه فى ترجمة الملك الصالح من واقعته مع جانى بك الصّوفى، ثم مع طرباى، ثم من خلعه الملك الصالح و سلطنته.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۴۷

و لما تمّ أمر الملك الأشرف برسباى هذا فى السّلطنة، و أصبح يوم الخميس تاسع شهر ربيع الآخر خلع على الأمير بيبغا المظفريّ أمير سلاح باستقراره أتابك العساكر بالدّيار المصريّة عوضا عن الأمير طرباى و كانت شاغرة من يوم أمسك طرباى، و خلع على الأمير قجق العيساويّ أمير مجلس باستقراره أمير سلاح عوضا عن بيبغا المظفّريّ، و خلع على الأمير آقبغا التّمرازيّ باستقراره أمير مجلس عوضا عن الأمير قجق.

و أوّل ما بدأ به الأشرف فى سلطنته أنّه منع الناس كافّة من تقبيل الأرض بين يديه، فامتنعوا من ذلك، و كانت هذه العادة- أعنى عن تقبيل الأرض- جرت بالديار المصريّة من أيّام المعزّ معدّ أوّل خلفاء بنى عبيد بمصر المقدّم ذكره فى هذا الكتاب، و بقيت إلى يوم تاريخه، و كان لا يعفى أحدا عن تقبيل الأرض.

و الكلّ يقبل الأرض: الوزير و الأمير و المملوك و صاحب القلم و رسل ملوك الأقطار، إلّا قضاة الشّرع و أهل العلم و أشراف الحجاز، حتى لو ورد مرسوم السلطان على ملك من نوّاب السّلطان قام على قدميه و خرّ إلى الأرض و قبلها قبل أن يقرأ المرسوم،

فأبطل الملك الأشرف ذلك و جعل بدله تقبيل اليد، فمشى ذلك أيّاما ثم بطل، و عاد تقبيل الأرض لكن بطريق أحسن من الأولى؛ فإن الأولى كان الشخص يخر إلى الأرض حتى يقبلها كالسّاجد، و الآن صار الرجل ينحنى كالرّاكع و يضع أطراف أصابع يده على الأرض كالمقبّل لها ثمّ يقوم و لا يقبّل الأرض بفمه أبدا بل و لا يصل بوجهه إلى قريب الأرض، فهذا على كلّ حال أحسن مما كان أوّلا بلا مدافعة، فعدّ ذلك من حسنات الملك الأشرف برسباى.

ثم فى يوم الثلاثاء رابع عشر شهر ربيع الآخر المذكور خلع السلطان الملك الأشرف على الأمير تنبك العلائى ميق نائب الشام خلعة السّفر، و توجّه إلى محلّ كفالته.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۴، ص: ٢۴٨

و من خرق العادات أيضا فى سلطنة الملك الأشرف أنه لما تسلطن لم ينفق على المماليك السّلطانية، و أعجب من ذلك أنه ما طولب بها، و هذا أغرب و أعجب.

ثم رسم السلطان الملك الأشرف- فى يوم الخميس ثامن جمادى الأولى، و نودى بذلك فى القاهرة- بأن لا يستخدم أحد من اليهود و لا من النصارى فى ديوان من دواوين السّلطان و الأمراء، و صمّم الأشرف على ذلك، فلم يسلم من بعض عظماء الأقباط من مباشرى الدّولة فلم يتمّ ذلك.

ثم قدم الخبر على السلطان بكثرة الوباء ببلاد حلب و حماة و حمص فى رابع عشر جمادى الآخرة، و رسم السلطان فنودى بسفر الناس إلى مكّة فى شهر رجب، فكثرت المسرّات، بذلك لبعد العهد بسفر الرجبيّة.

ثم جلس السلطان للحكم بين الناس كما كان الملك المؤيّد و من قبله، و صار يحكم فى يومى السبت و الثلاثاء بالمقعد من الإسطبل السلطانى، ثم كتب السلطان إلى الأمير تنبك البجاسىّ نائب حلب أن يتوجّه إلى بهسنا لحصار تغرى بردى المؤيّدى المعزول عن نيابة حلب.

ثم ورد الخبر على السلطان بخروج الأمير إينال نائب صفد عن الطاعة، و كان سبب خروجه عن الطّاعة أنه كان من جملة مماليك الملك الظّاهر ططر، ربّاه صغيرا ثم ولاه نيابة قلعة صفد بعد سلطنته، فلما قام الملك الأشرف بعد الملك الظاهر ططر بالأمر ولّى إينال المذكور نيابة صفد، و بلغه خلع ابن أستاذه الملك الصالح محمد من السلطنة، فشقّ عليه ذلك، و أخذ فى تدبير أمره، و اتّفق مع جماعة على العصيان، و خرج عن الطّاعة، و أفرج عمّن كان محبوسا بقلعة صفد، و هم: الأمير يشبك أنالى المؤيّدى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۴، ص: ٢۴٩

الأستادار ثم رأس نوبة النّوب، و الأمير إينال الجكمى أمير سلاح ثم نائب حلب، و الأمير جلبّان أمير آخور أحد مقدّمى الألوف، و قبض على من خالفه من أمراء صفد و أعيانها، ففى الحال كتب السلطان الملك الأشرف للأمير مقبل الحسامى الدّوادار حاجب حجّاب دمشق باستقراره فى نيابة صفد، و أن يستمرّ إقطاع الحجوبيّة بيده حتى يتسلّم صفد، ثم كتب إلى الأمير تنبك ميق نائب الشّام أن يخرج بعسكر دمشق لقتال إينال المذكور، و بينما السلطان فى ذلك ورد عليه الخبر بوقعة كانت بين الأمير يونس الرّكنىّ نائب غزّة و بين عرب جرم، و ان يونس المذكور انهزم و قتل عدّة من عسكره، ثم وردت الأخبار بكثرة الفتن فى بلاد الصّعيد، ثم ورد على السلطان كتاب الأمير تنبك ميق نائب الشّام بمجىء الأمير إينال الجكمى، و يشبك أنالى، و جلبّان أمير آخور إليه من صفد طائعين للسلطان، فدقّت البشائر لذلك.

و فى سابع عشرين شهر رجب قدم الأمير فارس نائب الإسكندرية إلى القاهرة بطلب، و خلع عليه باستمراره على إمرته و إقطاعه بمصر، و هى تقدمه ألف بالدّيار المصرية، و خلع على الأمير أسندمر النورىّ الظاهرىّ برقوق أحد أمراء الألوف باستقراره فى نيابة الإسكندرية عوضا عن فارس المذكور.

و لما كان يوم الخميس رابع شعبان- الموافق لتاسع عشرين أبيب - أوفى النيل ستّة عشر ذراعا، و هذا من النّوادر من الوفاء قبل مسرى

بيومين، فتباشر الناس بكعب الملك الأشرف [برسباى].

ثم فى يوم الثلاثاء سادس عشر شعبان المذكور أخرج الملك المظفّر أحمد ابن الملك المؤيّد شيخ و أخوه من قلعة الجبل نهارا و حملا فى النّيل إلى الإسكندرية.

و فى هذا الشهر كثر عبث الإفرنج بسواحل المسلمين، و أخذوا مركبا للتجّار

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۵۰

من ميناء الإسكندرية فيها بضائع بنحو مائة ألف دينار، فشقّ ذلك على الملك الأشرف إلى الغاية مع شغله بنائب صفد.

ثم فى حادى عشرين شهر رمضان خلع السلطان على الأمير أيتمش الخضرى الظّاهرىّ باستقراره أستادارا عوضا عن أرغون شاه النّوروزىّ الأعور، و قدم عليه الخبر بتوجّه عسكر الشام مع الأمير مقبل إلى جهة صفد، و أنه مستمرّ على حصار صفد، فسرّ السلطان بذلك، و كتب إلى نائب الشام بالقبض على الأمير إينال الجكمى و يشبك أنالى و جلبّان و حبسهم بقلعة دمشق.

ثم فى سابع عشرين شوّال قدم الخبر على السلطان بأخذ صفد، و قدم من صفد ثلاثون رجلا فى الحديد ممّن أسر من أصحاب إينال نائب صفد، فرسم السلطان بقطع أيديهم فقطعوا الجميع إلا واحدا منهم فإنه وسط، و أخرج الذين قطعت أيديهم من القاهرة من يومهم إلى البلاد الشامية، فمات عدّة منهم بالرمل، و لم يشكر الملك الأشرف على ما فعله من قطع أيدى هؤلاء.

و كان من خبر هؤلاء و إينال نائب صفد أنه لما قدم عليه الأمير مقبل الدّوادار بعساكر دمشق انهزم منهم إلى قلعة صفد، فلم يزل مقبل على حصار قلعة صفد، إلى يوم الاثنين رابع شوال فنزل إليه إينال بمن معه بعد أن تردّدت الرسل بينهم أيّاما كثيرة، فتسلم أعوان السلطان قلعة صفد فى الحال، و عندما نزل إينال أمر الأمير مقبل أن تفاض عليه خلعة السلطان ليتوجّه أميرا بطرابلس، و كان قد وعد بذلك لما تردّدت الرسل بينهم و بينه مرارا حتى استقرّ الأمر على أن يكون إينال المذكور من جملة أمراء طرابلس، و كتب له السلطان أمانا و نسخة يمين فانخدع الخمول و نزل من القلعة، فما هو إلا أن قام بلبس الخلعة و إذا هم أحاطوا به و قيّدوه و عاقبوه أشدّ عقوبة على إظهار المال، ثم قتلوه و قتلوا معه مائة رجل ممن كان معه بالقلعة، و علّقوهم بأعلاها، ثم أرسلوا بهذه الثلاثين الذين قطعت أيديهم.

ثم بعد ذلك بأيام ورد الخبر بأن الأمير تغرى بردى المؤيدى سلم قلعة بهسنا و نزل

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۵۱

بالأمان فأخذه تنبك البجاسي، و قيده و حمله إلى قلعة حلب فسجنه بها، و زال ما كان بالملك الأشرف من جهة صفد و بهسنا، و هدأ سره و اطمأن خاطره.

ثم فى يوم الاثنين ثانى ذى القعدة ركب السلطان من قلعة الجبل إلى مطعم الطّيور بالريدانية خارج القاهرة و لبس به قماش الصوف برسم الشتاء على عادة الملوك، ثم عاد إلى القاهرة من باب النّصر، و رأى عمارته بالركن المخلق، و خرج من باب زويلة إلى القلعة، و نثر عليه الدنانير و الدراهم، و هذه أوّل ركبة ركبها من يوم تسلطن.

ثم فى يوم الخميس خامس ذى القعدة عزل السلطان أيتمش الخضرى عن الأستادارية و أعيد إليها أرغون شاه النوروزى، و لم تشكر سيرة أيتمش لشدة ظلمه مع عجزه عن القيام بالكف السلطانية.

ثم فى يوم الخميس رابع ذى الحجّة اختفى الوزير تاج الدين عبد الرزّاق بن كاتب المناخ فخلع السلطان على أرغون شاه الأستادار و أضيف إليه الوزر فى يوم الاثنين ثامن ذى الحجّة.

ثم خلع السلطان على القاضى علم الدين صالح ابن الشيخ سراج الدين عمر البلقينى باستقراره قاضى قضاة الشافعية بالديار المصرية عوضا عن ولىّ الدين أبى زرعة العراقى بحكم عزله.

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۲۶]

ثم فى المحرم أنعم السلطان على مملوكه جانبك الخازندار بإمرة طبلخاناه من جملة إقطاع الأمير فارس المعزول عن نيابة الإسكندريّة بعد موته.

ثم رسم السلطان بطلب الأمير إينال النوروزى نائب طرابلس فحضر إلى القاهرة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۵۲

فى يوم الاثنين سادس عشرين صفر من سنة ست و عشرين و ثمانمائة، و طلع إلى القلعة فأكرمه السلطان.

و خلع على الأمير قصروه من تمراز الأمير آخور الكبير باستقراره فى نيابة طرابلس عوضا عن إينال النوروزى المقدّم ذكره، و أنعم على الأمير إينال المذكور بإقطاع الأمير قصروه، و إينال المذكور هو صهرى زوج كريمتى، و أخذ الأمير قصروه فى إصلاح شأنه إلى أن خلع السلطان عليه خلعة السّفر فى يوم ثانى عشر صفر، و خرج من يومه و لم يستقر أحد فى الأمير آخورية الكبرى.

ثم فى يوم الثلاثاء خامس عشرين شهر ربيع الأول سنة ست و عشرين ثارت ريح مريسية طول النهار، فلما كان قبل الغروب بنحو ساعة ظهر فى السماء صفرة من عند غروب الشمس كست الجو و الجدران و الأرض بالصفرة، ثم أظلم الجو حتى صار النهار مثل وقت العتمة، فما بقى أحد إلا و اشتد فزعه، و لهجت العامة بأن القيامة تقوم.

فلمّا كان بعد ساعة و هو وقت الغروب أخذ الظلام ينجلى قليلا قليلا و يعقبه ريح عاصف [حتى] كادت المبانى تتساقط منه، و تمادى ذلك طول ليلة الأربعاء، فرأى الناس أمرا مهولا- مزعجا من شدّة هبوب الرّياح و الظّلمة التى كانت فى النهار، و عمّت هذه الظلمة أرض مصر حتى وصلت دمياط و الإسكندرية و جميع الوجه البحرى و بعض بلاد الصّعيد، و رأى بعض من يظنّ به الخير و الصلاح فى منامه كأن قائلا يقول له: لولا شفاعة رسول اللّه- صلّى اللّه عليه و سلم- لأهل مصر لأهلكت هذه الريح الناس، لكنه شفع فيهم فحصل اللطف. قلت: لم أر قبلها مثلها و لا بعدها [مثلها]، و كان هذا اليوم من الأيام المهولة التى لم يدركها أحد من الطاعنين فى السّن- انتهى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۵۳

ثمّ فى يوم الاثنين ثانى شهر ربيع الآخر ركب السلطان من قلعة الجبل و عدّى النيل إلى برّ الجيزة، و أقام بناحية و سيم- حيث مربط الخيول على الرّبيع- بأمرائه و مماليكه يتنزه، و أقام به سبعة أيّام و الخدمة تعمل هناك إلى أن عاد فى تاسعه، و أقام بالقلعة إلى يوم الخميس سادس عشرين [شهر] ربيع الآخر المذكور فوصل فيه الأمير تنبك البجاسىّ نائب حلب إلى القاهرة و طلع إلى السلطان، و قبّل الأرض بين يديه على ما قرّره الملك الأشرف فى أوّل سلطنته، ثم خلع السلطان عليه خلعة الاستمرار و أنزله بمكان و رتّب له ما يليق به، و أقام تنبك إلى يوم الخميس ثالث جمادى الأولى، و خلع السلطان عليه خلعة السّفر، و خرج من يومه إلى محلّ كفالته بحلب.

ثم فى يوم الاثنين رابع عشر جمادى الأولى المذكورة خلع السلطان على الأمير جقمق العلائى حاجب الحجّاب باستقراره أمير آخور [كبيرا] عوضا عن قصروه المنتقل إلى نيابة طرابلس، و كانت شاغرة من يوم ولى قصروه نيابة طرابلس إلى يومنا هذا.

ثم ورد الخبر فى جمادى الآخرة بعظم الوباء بدمشق، و أنه وصل إلى غزّة، و استمرّ السلطان و لم يكن عنده ما يشوّش عليه فى جميع أشيائه إلى أن كان يوم الجمعة سابع شعبان ورد الخبر على السلطان بأنّ الأمير الكبير جانى بك الصّوفى فرّ من الإسكندرية من البرج الذى كان مسجونا به، و خرج من الثّغر المذكور و لم يفطن به أحد، فلمّا سمع السلطان هذا الخبر كادت نفسه أن تزهق، و قامت قيامته، و من يومئذ حلّ بالناس من البلاء و العقوبات و الهجم على البيوت ما سنذكره فى طول سلطنته،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۵۴

و تنغّص عيش الأشرف من يوم بلغه الخبر، و استوحش من جماعة كبيرة من أمرائه، و أمسكهم و نفى منهم آخرين- حسبما نذكر ذلك كلّه فى وقته.

ثم فى يوم الخميس العشرين من شعبان خلع السلطان على الأمير جرباش الكريميّ المعروف بقاشق باستقراره حاجب الحجّاب بالدّيار المصرية عوضا عن جقمق العلائى بحكم انتقال جقمق أمير آخور كبيرا، و كانت الحجوبيّة شاغرة عن جقمق من يوم ولى الأمير آخورية.

و فيه رسم السلطان بانتقال الأمير تنبک البجاسيّ نائب حلب إلى نيابة دمشق عوضا عن الأمير تنبک ميق بحكم وفاته، و استقر الأمير جار قطلو الظاهرىّ نائب حماة فى نيابة حلب عوضا عن تنبک البجاسيّ، و كان جار قطلو أيضا ولى نيابة حماة عن تنبک البجاسيّ كما تقدّم ذكره؛ و كذا وقع أيضا فى الدّولة المؤيّدية أنه بعد عصيان تنبک البجاسيّ مع قانى باى نائب الشّام و توجّهه إلى بلاد الشّرق ولى جار قطلو نيابة حماة بعده أيضا، و العجب أن جارقطلو كان أغاة تنبک البجاسيّ، فكانا إذا اجتمعا فى مهمّ سلطانى لا يجلس تنبک البجاسى من ناحية جار قطلو لئلا يجلس فوقه حياء منه- انتهى.

و تولى الأمير جلبّان أمير آخور المؤيّد- و هو يوم ذاک أحد مقدّمى الألوف بدمشق- نيابة حماة عوضا عن جارقطلو، و توجّه الأمير جانى بک الخازندار الأشرفيّ فى ثامن عشرين شعبان المذكور بتقاليد المذكورين و تشاريفهم الجميع، و كان هذا الأمر يتوجه فيه ثلاثة من أعيان الأمراء، فأضاف الأشرف جميع ذلک لجانى بک، كونه كان خصّيصا عنده ربّاه من أيام إمرته، فعاد إلى مصر و معه من الأموال جملة مستكثرة.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۵۵

ثم فى يوم الاثنين ثانى شهر رمضان- الموافق لسادس عشر مسرى- أو فى النيل ستة عشر ذراعا فنزل المقام الناصرى محمد بن السلطان فى وجوه الأمراء و أعيان الدولة حتى خلّق المقياس، و فتح خليج السّدّ على العادة، و هو أوّل نزوله إلى ذلک، و كان فى العام الماضى تولّى ذلک الأمير الكبير بيبغا المظفّرى.

و فيه أخرج السلطان الأمير سودون الأشقر الظاهرىّ رأس نوبة النّوب- كان- فى دولة الملک الناصر، ثم أمير مجلس فى دولة الملک المؤيّد، و هو يومئذ أمير عشرين بمصر، منفيّا إلى القدس، ثم شفع فيه فأنعم عليه بإمرة مائة و تقدمة ألف بدمشق، و أنعم بإمرته على شريكه الأمير كزل العجميّ الأجرود الذى كان حاجب الحجّاب فى الدّولة الناصريّة فرج، فصار من جملة الطبلخانات، و الإقطاع المذكور هو ناحية ميمون بالوجه القبلى.

و فيه ندب السلطان عدّة أمراء إلى السّواحل لورود الخبر بحركة الفرنج، فتكامل خروجهم فى ثامن عشرين شهر رمضان المذكور، و كان الذى توجّه منهم من مقدّمى الألوف إلى ثغر الإسكندرية الأمير آقبغا التّمرازىّ أمير مجلس.

ثم فى يوم الخميس عاشر شوّال خلع السلطان على جمال الدين يوسف بن الصّفّىّ الكركىّ، و استقرّ كاتب السّرّ الشّريف بالديار المصرية بعد موت علم الدين داود ابن الكويز.

قال الشيخ تقىّ الدين المقريزى- رحمه اللّه تعالى: فأذكرتنى ولايته بعد ابن الكويز قول أبى القاسم خلف الألبيرى المعروف بالسميسر و قد هلک وزير يهودىّ لباديس بن حبوس الحميرى أمير غرناطة من بلاد الأندلس فاستوزر بعد اليهودى وزيرا نصرانيا فقال: [الخفيف]

كلّ يوم إلى ورا بدّل البول بالخرا

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۵۶

فزمانا تهوّدا و زمانا تنصّرا

و سيصبو إلى المجو س إذا الشّيخ عمرا

قال و قد كان أبو الجمال هذا من نصارى الكرک، و تظاهر بالإسلام فى واقعة كانت للنّصارى هو و أبو علم الدين داود بن الكويز، و خدم كاتبا عند قاضى الكرک عماد الدين أحمد المقيرى، فلما قدم عماد الدين إلى القاهرة وصل أبو جمال الدين هذا فى خدمته، و

أقام ببابه حتى مات و هو بائس فقير، لم يزل دنس الثياب مغتم الشكل، و ابنه جمال الدين هذا معه فى مثل حاله، ثم خدم جمال الدين هذا بعد موت القاضى عماد الدين عند التّاجر برهان الدين إبراهيم المحلى كاتبا لدخله و خرجه، فحسنت حاله و ركب الحمار، ثم سار بعد المحلى إلى بلاد الشّام و خدم بالكتابة هناک، حتى كانت أيّام [الملک] المؤيّد شيخ فولّاه علم الدين بن الكويز نظر الجيش بطرابلس، فكثر ماله بها، ثم قدم فى آخر أيّام ابن الكويز إلى القاهرة، فلما مات ابن الكويز وعد بمال كبير حتى ولى كتابة السّرّ بالديار المصرية، فكانت ولايته من أقبح حادثه رأيناها- انتهى كلام المقريزى برمته.

قلت: و عدّ ولاية هذا الجاهل لمثل هذه الوظيفة العظيمة من غلطات الملک الأشرف و قبح جهله، فإنه لو كان عند الملک الأشرف معرفة و فضيلة [لا نتظر] حتى يرد عليه كتاب من بعض ملوک الأقطار يشتمل على نثر و نظم و فصاحة و بلاغة، و أراد الأشرف من كاتب سرّه أن يجيب عن ذلک بأحسن منه أو بمثله- كما كان يفعله الملک الناصر محمد بن قلاوون و غيره من عظماء الملوک- لعلم تقصير من ولّاه لهذه الوظيفة، و لاحتاج لعزله فى الحال و لولاية غيره ممن يصلح؛ لئلا يظهر فى ملكه بعض تقصير و وهن؛ لأنه يقال فى الأمثال «تعرف شهامة الملک و عظمته من ثلاث:

كتابه، و رسله، و هديته» فهذا شأن من يكون له شهامة و علوّ همّة من الملوک [و أما

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۵۷

الذى بخلاف ذلک فسدّ بمن شئت و ول من كان- بالبذل- و لو كان حارس مقات] و لهذا المقتضى ذهبت الفنون، و اضمحلّت الفضائل، و سعى الناس فى جمع المال حيث علموا أن الرّتب صارت معذوقة بالباذل لا ـ بالفاضل، و هذا على مذهب من قال: - [الكامل]

المال يستر كلّ عيب فى الفتى و المال يرفع كلّ وغد ساقط

فعليک بالأموال فاقصد جمعها و اضرب بكتب الفضل بطن الحائط

- انتهى.

ثم كتب السلطان باستقرار الأمير آقبغا التّمرازى أمير مجلس فى نيابة الإسكندرية عوضا عن الأمير أسندمر النّورىّ الظاهرى برقوق، و قدم أسندمر [المذكور] من الإسكندرية إلى القاهرة فى رابع عشر شوال و قبّل الأرض، و نزل إلى داره، و كان بيده إمرة مائة و تقدمة [ألف] زيادة على نيابة الإسكندرية، و بعد نزوله أرسل السلطان خلف السّيفى يلخجا من مامش السّاقى الناصرىّ و أمره أن يأخذ الأمير أسندمر هذا و يتوجّه به إلى ثغر دمياط بطّالا، و كان ذنب أسندمر المذكور تفريطه فى أمر جانى بک الصّوفى حتى فرّ من سجنه، و لولا أن أسندمر المذكور كان من أغوات الملک الأشرف المذكور و من أكابر إنّيات الأمير چاركس القاسمىّ المصارع لكان له معه شأن آخر.

ثم فى تاسع عشر شوّال خرج محمل الحاج صحبة أمير الحاج الطّواشى افتخار الدين ياقوت الأرغون شاوىّ الحبشى مقدم المماليک السلطانيّة، و هذه ثانى سفرة سافرها

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة؛ ج۱۴؛ ص۲۵۷

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۵۸

بالمحمل، و كان أمير حاج الأوّل الأمير إينال الشّشمانىّ الناصرى أحد أمراء العشرات و رأس نوبة، و حججت أنا أيضا فى هذه السنة.

ثم فى سابع عشرين شوّال أمسک السلطان الأمير أرغون شاه النّوروزى الأستادار و الوزير لعجزه عن القيام بجوامک المماليک السلطانية مع ظلمه و عسفه.

ثم أصبح السلطان فى يوم الاثنين ثامن عشرينه خلع على ناصر الدين محمد ابن شمس الدين محمد بن موسى المعروف بابن المرداوى و المعروف بابن بولى، و العامة تسميه ابن أبى والى باستقراره أستادارا عوضا عن أرغون شاه المذكور، و عوقب أرغون شاه

بين يدى السلطان.

و خبر ابن بولى هذا و أصله أنه كان أبوه من حجة و مردة من أعمال الشّام، و سكن القدس و صار من جملة التّجّار، و ولد له ابنه هذا فتزيّا بزىّ الجند و خدم من جملة الأجناد البلاصيّة عند الأمير أرغون شاه المذكور أيام أستاداريته لنوروز، ثم تنقّل إلى أن صار أستادار الأمير جقمق الدّوادار و صادره جقمق و صرفه بعد أن كثر ماله، ثم خدم بعد ذلك فى عدّة جهات إلى أن طلب إلى مصر، و ألزم بحمل عشرين ألف دينار، فوعد أنه يحمل منها ثلاثة آلاف دينار و يمهل فيما بقى عدّة أيام، فلمّا قبض السلطان على أرغون شاه المذكور سوّلت له نفسه و زيّن له شيطانه أن يكون أستادارا و يسدّ المبلغ الذى ألزم بحمله من وظيفة الأستادارية، فكان خلاف ما أمّل، و نزل بالخلعة إلى بيت أرغون شاه المذكور و عليه قماشه، ثم تسلّم أرغون شاه و أدخله إلى داره المذكورة و هو فى الحديد، فرأى أرغون شاه من كان من جملة غلمانه قد جلس على مقعده و فى بيته و تحكّم فيه و أخذ يعاقبه بحضرة من كان يخدمه بها، فلما رأى ما حلّ به دمعت عيناه و بكى، فكان فى هذا الأمر عبرة لمن اعتبر.

و فى هذا اليوم المذكور خلع السلطان عن الأمير إينال النّوروزىّ المعزول عن نيابة طرابلس قبل تاريخه باستقراره أمير مجلس عوضا عن آقبغا التّمرازى، و كلاهما

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۵۹

صهرى و زوج إحدى أخواتى.

و فيه أيضا خلع السلطان على كريم الدين عبد الكريم ابن الوزير تاج الدين عبد الرزاق بن كاتب المناخ باستقراره وزيرا و ذلك فى حياة والده، حكى الصاحب كريم الدين قال: دخلت بخلعة الوزارة على والدى فقال لى: يا عبد الكريم أنا ولّيت هذه الوظيفة و معى خمسون ألف دينار ذهبت فيها و لم أسد، تسد أنت من أين؟ قال فقلت: من أضلاع المسلمين، فضحك و حوّل وجهه عنى.

ثم فى يوم الخميس أوّل ذى القعدة قدم إلى القاهرة جماعة من إخوة السلطان و أقاربه من بلاد الچاركس بعد أن خرج الأمراء إلى لقائهم، و كبير القوم يشبك أخو السلطان الملك الأشرف.

و فيه خرج من القاهرة الأمير قجق العيساوىّ أمير سلاح، و الأمير أركماس الظاهرى أحد مقدّمى الألوف، و زين الدين عبد الباسط بن خليل ناظر الجيش إلى مكة على الرّواحل حاجّين.

ثم فى سادس عشر ذى القعدة [المذكورة] قدم الأمير جانى بك الأشرفىّ الخازندار من الشّام بعد تقليد نائبها الأمير تنبك البجاسىّ فخلع السلطان عليه باستقراره دوادارا ثانيا عوضا عن الأمير قرقماس الشّعبانى النّاصرى فرج بحكم استقراره أمير مائة و مقدّم ألف و توجّهه أمير مكّة، و من يومئذ عظم أمر جانى بك المذكور فى الدّولة حتى صار هو صاحب عقدها و حلّها، و نال من السعادة و الوجاهة و الحرمة فى الدّولة ما لم ينله دوادار فى عصره و لا من بعده إلى يومنا هذا.

و فى هذه الأيام اشتدّ طلب السلطان على جانى بك الصّوفىّ، و قبض على بعض المماليك بسببه، و عوقب بعضهم حتى هلك، ثم أمسك السلطان أصهار جانى بك الصّوفى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۶۰

أولاد قطلوبك الأستادار، و عاقب بعض حواشيهم، هذا بعد الهجم على بيوت جماعة كبيرة ممن يغمز عليهم بعض أعدائهم، فيحل على صاحب البيت المذكور من البلاء و الرجيف مالا مزيد عليه، و تداول ذلك سنين و هذا أوله حسبما يأتى ذكره.

ثم فى ثامن عشرين ذى الحجة قدم مبشّر الحاج و أخبر بالأمن و الرّخاء و كثرة الأمطار، غير أن الشريف حسن بن عجلان لم يقابل أمير الحاج و نزح عن مكّة لما أشيع أن السلطان يريد القبض عليه، فغضب السلطان لذلك و رسم فنودى على المماليك البطّالين ليجهزوا إلى التجريدة لقتال أشراف مكّة.

ثم اشتغل السلطان عن ذلك بأمر جانى بك الصّوفى، و أخذ فيما هو فيه من كبس البيوت و إرداع الناس، و أيضا لما ورد عليه أن

متملك الحبشة و هو أبرم و يقال إسحاق ابن داود بن سيف أرعد قد غضب بسبب غلق كنيسة قمامة بالقدس، و قتل عامّة من كان فى بلاده من رجال المسلمين، و استرقّ نساءهم و أولادهم، و عـذّبهم عذابا شديدا، و هدم ما فى مملكته من المساجد، و ركب إلى بلاد جبرت، فقاتلهم حتى هزمهم، و قتل عامّة من كان بها، و سبى نساءهم، و هدم مساجدهم، فكانت فى المسلمين ملحمة عظيمة فى هذه السّـنة لا يحصى فيها من قتل من المسلمين، فاشتاط السلطان غضبا، و أراد قتل بطرك النّصارى و جميع ما فى مملكته من النّصارى ثم رجع عن ذلك.

[ما وقع من الحوادث سنة ٨٢٧]

ثم فى يوم الاثنين ثانى المحرم من سنة سبع و عشرين و ثمانمائة قدم الأمير مقبل الحسامى الدّوادار نائب صفد إلى القاهرة، و قبّل الأرض بين يدى السلطان، فخلع عليه باستقراره على عمله.

و فى ثامن المحرم قدم الأمير قجق، و أركماس الظاهرى و عبد الباسط من الحج،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۴، ص: ٢۶١

و تأخّر الأمير قرقماس الشّعبانى بالينبع، و أرسل يطلب عسكرا ليقاتل به الشّريف حسن بن عجلان صاحب مكّة و يستقرّ عوضه فى إمرة مكّة، فنودى على المماليك البطّالة و عيّن منهم جماعة مع حسين الكردى الكاشف ليتوجّه بهم إلى مكة.

هذا و قد اشتغل سر السلطان بما أشيع من عصيان الأمير تنبك البجاسىّ نائب دمشق، و صار خبر الإشاعة عنده هو الأهمّ، و أخذ يدبّر فى القبض عليه قبل أن يستفحل أمره، و كتب عـدّة ملطّفات لأمراء دمشق بالقبض عليه، هـذا و قد قوى عند الملك الأشرف خروجه عن الطاعة، و بادر و خلع على الأمير سودون من عبد الرحمن الدّوادار فى يوم الاثنين ثالث عشرين المحرّم باستقراره فى نيابة دمشق عوضا عن تنبك البجاسىّ، فلبس سودون من عبد الرحمن الخلعة و نزل من القلعة سائرا إلى دمشق على جرائد الخيل، و لم يدخل إلى داره، و سار سودون من عبد الرحمن إلى جهـة دمشق و قد تقدّمته الملطّفات بمسك تنبك المذكور، فلما وقف أمراء دمشق على الملطّفات، اتّفقوا الجميع و ركبوا بمن معهم و أتوادار السّعادة فى ليلة الجمعة رابع صفر، و استدعوا الأمير تنبك البجاسى المذكور ليقرأ كتاب السلطان، فعلم بما هو القصد و خرج من باب السّرّ- و عليه السلاح- فى جميع مماليكه و حواشيه، فأقبلوا عليه الأمراء و قاتلوه حتى مضى صدر من نهار الجمعة المذكور، ثم انهزموا منه أقبح هزيمة و تشتت شملهم، فتحصّن منهم طائفة بقلعة دمشق، و مضى منهم آخرون إلى الأمير سودون من عبد الرحمن، فوافوه و هو نازل على صفد، و استولى تنبك المذكور على دمشق و قوى بأسه، و كان انضمّ عليه من أمراء دمشق الأمير قرمش الأعور المقدّم ذكره من أصحاب جانى بك الصّوفىّ، و الأمير تمراز المؤيّدى الخازندار و غيرهما من أمراء دمشق، ثم تجهّز تنبك البجاسىّ هو و أصحابه لمّا بلغهم قدوم سودون من عبد الرحمن، و خرج من دمشق بجموعه فى أسرع وقت، و سار حتى وافى الأمير

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۴، ص: ٢۶٢

سودون من عبد الرحمن و هو نازل على جسر يعقوب فى يوم الجمعة حادى عشر صفر و قد قطع سودون من عبد الرحمن الجسر لئلا يصل إليه تنبك المذكور، و كان سودون لما خرج من مصر بمماليكه و سار إلى جهة دمشق حتى نزل على صفد وافاه الأمير مقبل الحسامى نائب صفد بعساكر صفد و سارا معا حتى نزلا جسر يعقوب، فلمّا بلغ سودون مجىء تنبك إليه جبن عن قتاله و قطع الجسر، فقدم تنبك فلم يجد سبيلا لقتال سودون فبات كل منهما من جهة، و كلاهما لا يصل إلى الآخر بسوء، فبانوا يتحارسون إلى الصباح.

فلما أصبح يوم السبت ثانى عشر صفر شرعوا يترامون بالنّشّاب نهارهم كله حتى حجز الليل بينهم، فباتوا ليلة الأحد على تعبئتهم و قد قوى أمر تنبك، و أصبح الأمير تنبك فى يوم الأحد ثالث عشره راحلا إلى جهة الصّبيبة فى انتظار ابن بشارة أن يأتيه بجموعه، و قد أرصد جماعة لسودون من عبد الرحمن بوطاقه، فكتب سودون من عبد الرحمن بذلك إلى السلطان.

ثم رکب بمن معه على جرائد الخیل و قصد مدینة دمشق و ترک الأثقال فی مواضعها مع نائب القدس یوهم عسکر تنبک البجاسیّ أنه مقیم بمکانه، و ساق حتى دخل دمشق فی یوم الأربعاء سادس عشر صفر المذکور و ملک المدینة و تمکّن من قلعة دمشق، و بلغ الأمیر تنبک البجاسیّ ذلک فرکب من وقته و ساق حتى وافى سودون من عبد الرحمن بدمشق من یومه، و بلغ سودون قدومه فخرج إلیه و تلقّاه بمن معه من عساکر دمشق بباب الجابیة و قاتلوه فثبت لهم تنبک البجاسیّ مع قلّة عسکره و کثرة عساکرهم، و قاتلهم أشد قتال و الرّمی ینزل علیه من قلعة دمشق، و هو مع ذلک یظهر التجلّد إلى أن حرّک فرسه فی غرض له فأصابه ضربة على کتفه حلّته فتقنطر عند ذلک عن فرسه، فتکاثروا علیه و أخذوه أسیرا إلى قلعة دمشق و معه نحو

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۶۳

عشرین من أصحابه، و فرّ من کان معه من الأمراء إلى حال سبیلهم، و کتب الأمیر سودون من عبد الرحمن فی الحال بجمیع ذلک إلى السلطان.

و أما الملک الأشرف فإنه بعد خروج سودون من عبد الرحمن أخذ ینتظر ما یرد علیه من الأخبار فی أمر تنبک، فقدم علیه کتاب سودون من عبد الرحمن من جسر یعقوب أوّلا فی یوم الأحد عشرین صفر فعظم علیه هذا الخبر، و عزم على سفر الشام، و اضطرب الناس و وقع الشّروع فی حرکة السّفر، و أحضرت خیول کثیرة من مرابطها من الرّبیع، و بینما الناس فی ذلک قدم کتاب سودون من عبد الرحمن الثانی من دمشق یتضمن النّصر على تنبک البجاسیّ و القبض علیه و حبسه بقلعة دمشق فسرّ السلطان بذلک غایة السرور و دقت البشائر، و کتب بقتل تنبک البجاسی و حمل رأسه إلى مصر و بالحوطة على موجوده، و تتبع حواشیه و من کان معه من أمراء دمشق، و هدأ سرّ السلطان من جهة دمشق، و بطلت حرکة السّفر، و التفت إلى ما کان علیه أوّلا من الفحص على جانی بک الصّوفیّ.

فلما کان سابع عشرین صفر المذکور نودی بالقاهرة و مصر على جانی بک الصّوفیّ و وعد من أحضره إلى السلطان بألف دینار، و إن کان جندیا بإمرة عشرة، و هدّد من أخفاه و ظهر عنده بعد ذلک بإحراق الحارة التی هو ساکن بها، و حلف المنادی على کل واحدة مما ذکرنا یمینا عن السلطان، هذا بعد أن قوی عند السلطان الملک الأشرف أن جانی بک الصوفیّ مختف بالقاهرة، و لو کان بالبلاد الشامیة لظهر و انضمّ مع تنبک البجاسی، و هو قیاس صحیح.

ثم التفت السلطان أیضا إلى أمر مکة، فلما کان یوم الجمعة ثانی شهر ربیع الأول نودی بالقاهرة بالخروج إلى حرب مکة المشرفة، فاستشنع الناس هذه العبارة، ثم عیّن جماعة من الممالیک السلطانیة و أنفق على کل واحد منهم أربعین دینارا.

ثم فی حادی عشرین شهر ربیع الأوّل قدم رأس الأمیر تنبک البجاسیّ إلى القاهرة فطیف بها على رمح، ثم علّقت على باب النّصر أیّاما.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۶۴

و فی سابع عشرین شهر ربیع الأول خلع السلطان على الأمیر أزبک المحمدی الظاهری رأس نوبة النّوب باستقراره دوادارا کبیرا عوضا عن سودون من عبد الرحمن المنتقل إلى نیابة الشام.

و خلع على الأمیر تغری بردی المحمودی الناصری باستقراره رأس نوبة النّوب عوضا عن أزبک المذکور.

ثم فی یوم السبت تاسع شهر ربیع الآخر خلع السلطان على القاضی شمس الدین محمد الهرویّ باستقراره کاتب السّرّ الشریف بالدیار المصریة عوضا عن جمال الدین یوسف ابن الصّفیّ الکرکیّ، و نزل فی موکب جلیل و کان الهرویّ علّامة فی فنون کثیرة من العلوم.

ثم فی یوم الجمعة سابع جمادى الأولى أقیمت الخطبة بالمدرسة الأشرفیّة بخط العنبریین من القاهرة و لم یکمل منها سوى الإیوان القبلی.

و فی یوم الاثنین ثانی جمادى الآخرة خلع السلطان على الأمیر صلاح الدین محمد ابن الصاحب بدر الدین حسن بن نصر اللّه باستقراره أستادارا بعد عزل ناصر الدین محمد بن بولی و القبض علیه، و هذه ولایة صلاح الدین الثانیة للأستاداریة.

ثم فی ثانی عشره خلع السلطان علی الصاحب کریم الدین بن کاتب المناخ و استقرّ ناظر دیوان المفرد مضافا علی الوزر عوضا عن القاضی کریم الدین بن کاتب جکم.

و فی یوم الأحد خامس عشر جمادی المذکور توفّیت زوجة السلطان الملک الأشرف و دفنت بالقبّة بالمدرسة الأشرفیّة.

قال المقریزی: و اتّفق فی موتها نادرة، و هی أنها لما ماتت عمل لها ختم عند

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۶۵

قبرها فی الجامع الأشرفی و نزل ابنها الأمیر ناصر الدین محمد من القلعة لحضور الختم، و قد رکب فی خدمته الملک الصالح محمد بن ططر، فشقّ القاهرة من باب زویلة و هو فی خدمة ابن السلطان بعد ما کان بالأمس سلطانا، و صار جالسا بجانبه فی ذلک الجمع و قائما بخدمته إذا قام، فکان فی ذلک موعظة لمن اتّعظ- انتهی.

قلت: حضرت أنا هذه الختم المذکورة و شاهدت ما نقله المقریزی بعینی فهو کما قال غیر أنه لم یکن فی خدمته و إنما جلسا فی الصّدر معا، بل کان الصالح متمیّزا علیه فی الجلوس و کذلک فی مسیره من القلعة إلی الجامع المذکور، و قد ذکرنا طرفا من هذه المقالة فی أواخر ترجمة الملک الصّالح المذکور، غیر أنه کما قاله المقریزی إنه من النوادر، ثم فی یوم السبت حادی عشرین جمادی الآخرة خلع السلطان علی قاضی القضاة نجم الدین عمر بن حجّی باستقراره کاتب السّرّ الشریف بالدیار المصریة بعد عزل قاضی القضاة شمس الدین الهروی، و نزل ابن حجّی علی فرس بسرج ذهب و کنبوش زرکش فی موکب جلیل إلی الغایة.

قال المقریزی: و قد ظهر نقص الهروی و عجزه، فقد باشر بتعاظم زائد مع طمع شدید و جهل بما وسّد إلیه، بحیث کان لا یحسن قراءة القصص و لا الکتب الواردة، فتولّی قراءة ذلک بدر الدین محمد بن مزهر نائب کاتب السرّ، و صار یحضر الخدمة و یقف علی قدمیه و ابن مزهر هو الذی یتولّی القراءة علی السلطان- انتهی کلام المقریزی برمّته.

قلت: لا یسمع قول المقریزی فی الهروی، فأما قوله «باشر بتعاظم [زائد]» فکان أهلا لذلک لغزیر علمه و لما تقدّم له من الولایات الجلیلة بعمالک العجم، ثم بالدیار المصریة.

و قوله «و عجزه بما وسّد إلیه» یعنی عن وظیفة کتابة السرّ، نعم کان لا یدری الاصطلاح

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۶۶

المصری، و لم یکن فیه طلاقة لسان بالکلام العربیّ کما هی عادة الأعاجم، و أمّا علمه و فضله و تبحّره فی العلوم العقلیة فلا یشکّ فیه إلا جاهل، و هو أهل لهذه الرّتبة و زیادة، غیر أنه صرف عن الوظیفة بمن هو أهل لها أیضا و هو القاضی نجم الدین بن حجّی قاضی قضاة دمشق و رئیسهم، و کلاهما أعنی المتولّی و المعزول من أعیان العلماء و قدماء الرؤساء، و التعصّب فی غیر محلّه مردود من کل أحد علی کائن من کان- انتهی.

ثم فی سلخ الشهر المذکور خلع السلطان علی القاضی الشریف شهاب الدین نقیب الأشراف بدمشق باستقراره قاضی قضاة دمشق، عوضا عن القاضی نجم الدین بن حجّی المقدم ذکره.

ثم فی یوم الخمیس رابع شهر رجب خلع السلطان علی العلّامة علاء الدین علی الرّومی الحنفی باستقراره شیخ الصّوفیّة، و مدرّس الحنفیة بالمدرسة الأشرفیة بخط العنبریّین بالقاهرة، و کان له مدّة یسیرة من یوم قدم من بلاد الرّوم.

و فیه قدم الخبر علی السلطان بأخذ الفرنج مرکبین من مراکب المسلمین قریبا من ثغر دمیاط، فیهما بضائع کثیرة و عدّة أناس یزیدون علی مائة رجل، فکتب السلطان بإیقاع الحوطة علی أموال تجّار الفرنج التی ببلاد الشام و الإسکندریة و دمیاط و الختم علیها، و تعویقهم عن السّفر إلی بلادهم حتی تردّ الفرنج ما أخذوه من المسلمین، فکلّمه أهل الدّولة فی إطلاقهم فلم یقبل، و أخذ فی تجهیز غزوهم.

و فیه رکب السلطان من قلعة الجبل و نزل إلی جامعه الذی أنشأه بخط العنبریّین المقدّم ذکره، و جلس به ساعة، ثم عاد إلی القلعة

بغير قماش الموكب.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۶۷

و فى يوم الأربعاء أوّل شعبان ابتدئ بقراءة صحيح البخارى بين يدى السّلطان.

قال المقريزى: و حضر القضاة و مشايخ العلم، و الهروىّ، و الشيخ شمس الدين محمد ابن الجزرى بعد قدومه بأيّام، و كاتب السرّ نجم الدين بن حجّى، و نائبه بدر الدين ابن مزهر، و زين الدين عبد الباسط ناظر الجيش، و الفقهاء الذين رتّبهم المؤيد، فاستجدّ.

فى هذه السنة حضور المباشرين، و كانت العادة من أيّام الأشرف شعبان بن حسين أن تبدأ قراءة البخارى فى أول يوم من شهر رمضان، و يحضر قاضى القضاة الشافعىّ، و الشيخ سراج الدين عمر البلقينىّ و طائفة قليلة العدد لسماع البخارى، و يختم فى سابع عشرينه، و يخلع على قاضى القضاة، و يركب بغلة بزنّاريّ تخرج له من الإسطبل السلطانى، و لم يزل الأمر على هذا حتى تسلطن المؤيد شيخ فابتدأ بالقراءة من أول شعبان إلى سابع عشرين [شهر] رمضان، و طلب قضاة القضاة الأربعة و مشايخ العلم و قرّر عدّة من الطلبة يحضرون أيضا، فكانت تقع بينهم أبحاث يسيء بعضهم على بعض فيها إساءات منكرة، فجرى السلطان [الأشرف] على هذا و استجدّ- كما ذكرنا- حضور المباشرين، و كثر الجمع، و صار المجلس جميعه صياحا- انتهى.

قلت: ليس فى هذا شيء منكر و كما جدّد الأشرف [شعبان] قراءة البخارى فى شهر رمضان جعله غيره من أوّل شعبان، و كل ممّن فعل ذلك سلطان يتصرّف كيف شاء، و لا يشكّ أحد أن التأنى فى القراءة أفضل من الإدراج لا سيما كتب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۶۸

الحديث ليفهمه كلّ أحد من مبتدئ أو منته، و أيضا كلّما كثر الجمع عظم الأجر و الثّواب، و أما الصّياح فلم تبرح مجالس العلم فيها البحوث و المشاحنة، و لو وقع منهم ما عسى أن يقع فهم فى أجر و ثواب، و ليس للاعتراض هنا محلّ بالجملة- انتهى.

ثم فى يوم الأحد رابع شهر رمضان أخرج السلطان الأمير أرغون شاه النّوروزى، و الأمير ناصر الدين محمد بن بولى من القاهرة إلى دمشق بطّالين، و قد تقدّم أن كليهما قد ولى الأستادارية بالديار المصرية.

و فى هذه الأيام ندب السلطان جماعة من المماليك السلطانيّة للغزاة.

و لما كان يوم الجمعة تاسع شهر رمضان سار غرابان من ساحل بولاق ظاهر القاهرة فى بحر النيل بعد أن أشحنا بالمقاتلة و الأسلحة، و كان فيهما من المماليك السلطانيّة ثمانون نفرا غير المطّوّعة، و رسم السلطان لهم أن يسيروا فى البحر إلى طرابلس، و يأخذوا أيضا من سواحل الشام عدّة أغربة أخر فيها المقاتلة، و يسيروا فى البحر المالح لعلّهم يجدون من يتجرّم فى البحر من الفرنج، و هذه أوّل غزاة جهزها السلطان الملك الأشرف برسباى رحمه اللّه.

ثم فى يوم الثلاثاء رابع شوّال أمر السلطان بحفر صهريج بوسط صحن جامع الأزهر، فابتدءوا فيه من هذا اليوم و حفروا بوسط صحن الجامع المذكور فوجدوا فيه آثار فسقيّة قديمة و بها عدّة أموات، ثم شرعوا فى بنائها حتى كملت و عمّر فوقها مقعد لطيف على صفة السبيل، و انتفع أهل الجامع به، و دام سنين إلى أن أمر السلطان الملك الظاهر [جقمق] بهدمه، فهدم و ردم.

ثم فى يوم السبت تاسع عشرين شوال المذكور حضر الأمراء الخدمة السلطانية

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۶۹

على العادة، و نزلوا إلى دورهم، فاستدعى السلطان بعد نزولهم الأمير بيبغا المظفّرى أتابك العساكر إلى القلعة، فلمّا صار إليها قبض عليه و قيّد و حمل إلى الإسكندرية من يومه.

ثم فى يوم الخميس رابع ذى القعدة خلع السلطان على الأمير قجق العيساوىّ أمير سلاح باستقراره أتابك العساكر بالديار المصرية عوضا عن بيبغا المظفّرى بحكم القبض عليه، و خلع على إينال النّوروزىّ أمير مجلس باستقراره أمير سلاح عوضا عن قجق المذكور، و أنعم السلطان بإقطاع بيبغا المذكور على الأمير إينال الجكمىّ أحد الأمراء البطّالين بالقدس و كتب بإحضاره، و على الأمير حسين بن

أحمد المدعو تغرى برمش البهسنيّ التّركمانيّ نائب قلعة الجبل نصفين بالسّوية بعد أن أخرج منه بلدة من القليوبيّة.

ثم فى يوم الاثنين ثامن ذى القعدة خلع السلطان على قاضى القضاة شمس الدين محمد الهرويّ المعزول عن وظيفة كتابة السرّ قبل تاريخه باستقراره قاضى قضاة الشافعية بالديار المصرية، عوضا عن قاضى القضاة شهاب الدين أحمد بن حجر بحكم عزله، و هذه ولاية القاضى الهرويّ الثانية للقضاء.

و قدم الأمير إينال الجكميّ من القدس فى يوم الاثنين خامس عشره، و خلع السلطان عليه باستقراره أمير مجلس عوضا عن إينال النّوروزى.

و فى هذه الأيام أنعم السلطان على الأمير تنبك من بردبك الظّاهريّ أحد أمراء العشرات و رأس نوبة بإمرة طبلخاناه عوضا عن تغرى برمش البهسنى، و استقرّ أيضا عوضه فى نيابة قلعة الجبل، و تنبك المذكور هو أتابك العساكر بديار مصر فى زماننا هذا.

ثم فى يوم السبت العشرين من ذى القعدة وصلت الغزاة المقدّم ذكرهم بالغنائم و الأسرى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۷۰

و كان من خبرهم أنّهم لمّا خرجوا من ثغر دمياط تبعهم خلائق من المطّوّعة فى سلّورة و ساروا إلى طرابلس و سار معهم أيضا غرابان، و توجّهوا الجميع إلى الماغوصة فأضافهم متملّكها و أكرمهم، فلم يتعرضوا لبلاده، و مضوا عنه إلى بلد يقال لها اللّمسون من جزيرة قبرص فوجدوا أهلها قد استعدّوا لقتالهم و أخرجوا أهاليهم و عيالهم، و خرجوا فى سبعين فارسا تقريبا و ثلاثين راجلا، فقاتلهم المسلمون حتى هزموهم، و قتلوا منهم فارسا واحدا و عدّة رجال، و غرّقوا بعض أغربة و أحرقوا بعضها، و نهبوا ما وجدوه من ظروف السمن و العسل و غير ذلك، و أسروا ثلاثة و عشرين رجلا، و أخذوا قطع جوخ كثيرة، فسرّ الناس بعودهم و سلامتهم و تشوّق كلّ أحد للجهاد- انتهى.

ثم فى ثامن عشرين ذى الحجة خلع السلطان على الشيخ سعد الدين سعد ابن قاضى القضاة شيخ الإسلام شمس الدين محمد الدّيرى الحنفى باستقراره فى مشيخة صوفيّة الجامع المؤيدى و مدرّس الحنفية به بعد موت أبيه بالقدس.

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۲۸]

ثم فى تاسع عشرين المحرم من سنة ثمان و عشرين و ثمانمائة ركب السلطان مخفّا من قلعة الجبل، و نزل إلى جامعه بخط العنبريين و كشف عمائره، ثم ركب و سار إلى جامع الأزهر لرؤية الصّهريج الذى عمّره، ثم تقدّم و زار الشيخ خليفة و الشيخ سعيدا و هما من المغاربة لهما بالجامع الأزهر مدّة سنين و شهرا بالخير و الصّلاح، ثم خرج من الجامع إلى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۷۱

دار الشيخ محمد بن سلطان و هو أيضا أحد من يظنّ فيه الخير و الصّلاح فزاره أيضا و عاد إلى القلعة.

ثم فى هذا الشهر أيضا وقع الشروع فى عمل عدّة مراكب لغزو بلاد الفرنج، و استمرّ العمل فيهم كل يوم إلى أن نزل السلطان فى يوم الثلاثاء حادى عشر صفر من سنة ثمان و عشرين المذكورة و كشف عمل المراكب المذكورة، ثم عاد من على جزيرة الفيل إلى جهة مناظر «الخمس وجوه» المعروفة بالتّاج التى كان الملك المؤيد جدّدها فأقام بها ساعة هينة، و عاد من على الخندق من جهة خليج الزّعفران إلى أن طلع إلى القلعة، هذا كله و السلطان لا يفتر عن الفحص على أخبار جانى بك الصّوفى و لا يكذّب فى أمره خبر مخبر.

ثم فى يوم الاثنين رابع عشرين صفر خلع السلطان على الشيخ محب الدين أحمد بن نصر اللّه بن أحمد بن محمد بن عمر الشّشتريّ البغدادى الحنبلى باستقراره قاضى قضاة الحنابلة بالديار المصرية بعد موت قاضى القضاة علاء الدين على بن محمود بن مغلى، و كلّ منهما كان أعجوبة زمانه فى الحفظ و سعة العلم.

ثم فى ليلة الجمعة خامس شهر ربيع الأوّل عمل السلطان المولد النبوى بالحوش السلطانى من قلعة الجبل كعادة عمله فى كل سنة.

ثم فى يوم الأحد سابعه سار الأمير أرنبغا اليونسى الناصرى أحد أمراء العشرات و رأس نوبة تجريدة إلى مكّة و معه مائة مملوك من المماليك السلطانية، و توجه معه سعد الدين إبراهيم المعروف بابن المرة أحد الكتّاب لأخذ مكس المراكب الواردة ببندر جدّة من بلاد الهند، و هذا أول ظهور أمر جدّة، و كان ذلك بتدبير الأمير يشبك الساقى الأعرج، فإنه نفاه الملك المؤيد [شيخ] إلى مكّة، فأقام بها سنين و علم أحوال أشراف

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۴، ص: ٢٧٢

مكة و ما هم عليه، فحسّن للسلطان الاستيلاء على بندر جدّة و لا زال به حتى وقع ذلك و صار أمر جدّة كما هى عليه الآن.

ثم فى يوم الخميس سابع عشر شهر ربيع الآخر قدم الأمير سودون من عبد الرحمن نائب الشّام إلى القاهرة، و طلع إلى القلعة بعد أن تلقّاه أكابر الدّولة و قبّل الأرض، و خلع عليه باستمراره، و أنزل بمكان يليق به إلى أن خلع السلطان عليه خلعة السّفر، و عاد إلى محل ولايته فى سادس عشر شهر ربيع الآخر المذكور.

و فى هذا الشهر كمل عمارة البرج الذى عمّر بالقرب من الطّينة على بحر الملح و جاء مربّع الشكل مساحة كلّ ربع منه ثلاثون ذراعا، و شحن بالأسلحة، و أقيم فيه خمسة و عشرون مقاتلا، فيهم عشرة فرسان، و أنزل حوله جماعة من عرب الطّينة، فانتفع به المسلمون غاية النّفع، و ذلك أن الفرنج كانت تقبل فى مراكبها نهارا إلى برّ الطّينة و تنزل بها و تتخطّف الناس من المسلمين من هناك فى مرورهم من قطيا إلى جهة العريش من غير أن يمنعهم من ذلك أحد؛ لخلوّ هذا المحلّ من الناس، و تولّى عمارة هذا البرج المذكور الزّينى عبد القادر بن فخر الدين بن عبد الغنى بن أبى الفرج، و أخذ الآجرّ و الحجر الذى بنى هذا البرج به من خراب مدينة الفرما و أحرق أيضا الجير من حجارتها، و قد تقدّم ذكر غزو الفرما فى مجىء عمرو بن العاص إلى مصر فى أوّل هذا الكتاب.

ثم فى يوم السبت عاشر جمادى الأولى خلع السلطان على الصاحب بدر الدين حسن بن نصر اللّه ناظر الخواصّ الشريفة باستقراره أستادارا عوضا عن ولده صلاح الدين محمد.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۴، ص: ٢٧٣

ثم فى يوم الاثنين ثانى عشر جمادى الأولى المذكورة خلع السلطان على القاضى كريم الدين عبد الكريم بن سعد الدين بركة المعروف بابن كاتب جكم باستقراره فى وظيفته نظر الخاصّ الشّريف عوضا عن بدر الدين بن نصر اللّه المذكور.

و خلع على أمين الدّين إبراهيم ابن مجد الدين عبد الغنى بن الهيصم باستقراره ناظر الدّولة عوضا عن كريم الدين بن كاتب جكم المذكور.

و فى هذه الأيام كثرت الأخبار بحركة الفرج فخرج عدّة من الأمراء و المماليك لحراسة الثّغور.

ثم فى عاشر جمادى الآخرة أمسك السلطان القاضى نجم الدين عمر بن حجّى كاتب السّرّ، و سلّم إلى الأمير جانى بك الأشرفى الدّوادار الثانى فسجنه بالبرج من قلعة الجبل، و أحيط بداره، و كان سبب مسك ابن حجّى أنه التزم عن ولايته كتابة السّرّ بعشرة آلاف دينار، ثم تسلم ما كان جاريا فى إقطاع ابن السّلطان من حمايات علم الدين داود بن الكويز و مستأجراته، على أن يقوم لديوان ابن السلطان فى كل سنة بألف و خمسمائة دينار، فحمل فى مدّة ولايته لكتابة السّرّ إلى الخزانة الشريفة خمسة آلاف دينار فى دفعات متفرقة، فلما كان هذه الأيام طلب السلطان منه حمل ما تأخّر و هو ستة آلاف دينار، فسأل السلطان مشافهة أن ينعم عليه بألف و خمسمائة دينار المقرّرة من الحمايات و المستأجرات، و تشكّى من قلّة متحصّلها معه، فلم يجب السلطان سؤاله، فنزل إلى داره و كتب ورقة إلى السلطان تتضمّن: أنه غرم من حين ولى كتابة السّرّ إلى يوم تاريخه اثنى عشر ألف دينار، منها الحمل إلى الخزانة خمسة آلاف دينار، و لمن لا يسمّى مبلغ ألفى دينار، و للأمراء أربعة آلاف دينار، و ذكر تفصيل الأربعة آلاف دينار؛ فلما قرئت على السلطان فهم أنه أراد بمن لا يذكر أنه الأمير جانى بك الدّوادار، و أخذ

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۷۴

السلطان یسأل من جانی بک عندما حضر هو و الأمراء عمّا وصل إلیهم و إلیه، فما هو إلا أن طلع ابن حجّی إلی القلعة حصل بینهما مفاحشات و مقابحات آلت إلی غضب السلطان و النصرة لمملوکه جانی بک فقبض علیه.

و له سبب آخر خفیّ؛ و هو أن السلطان استدعی الأمیر سودون من عبد الرحمن نائب الشام بکتاب عبد الباسط، فلمّا وقعت بطاقة سودون من عبد الرحمن سأل ابن حجّی: لم جاء نائب الشام؟ فقیل له بطلب من السلطان، فقال: أنا لم أکتب له عن السلطان بالمجیء، فقال عبد الباسط: أنا کتبت له، فحنق نجم الدین لمّا سمع هذا الکلام و خاشن عبد الباسط باللّفظ، و قال له: اعمل أنت کاتب السّرّ و نظر الجیش معا، ثم أخذ یخاشنه بالکلام استخفافا به لمعرفته به قدیما؛ لأن ابن حجّی کان معدودا من أعیان دمشق و عبد الباسط یوم ذاک بخدمة ابن الشهاب محمود، فأسرّها عبد الباسط فی نفسه، و علم أنه متی طالت یده ربما یقع منه فی حقّه ما یکره، فأخذ یدبّر علیه حتّی غیّر خاطر الأمیر جانی بک علیه و تأکدت العداوة بینهما، و وقع ما حکیناه.

و استمرّ ابن حجّی فی البرج من قلعة الجبل إلی لیلة الثلاثاء ثالث عشر جمادی الآخرة من سنة ثمان و عشرین المذکورة، و أخرج من البرج فی الحدید و حمل إلی دمشق حتی یکشف بها عن سیرته، و یأخذ ابن حجی فی تجهیز ما بقی علیه من المال، و کتب فی حقه لنائب الشام، و لقضاة دمشق بعظائم مستشنعة هو بریء عن غالبها.

ثم فی یوم الاثنین ثامن عشره خلع السلطان علی القاضی بدر الدین محمد ابن مزهر نائب کاتب السّرّ باستقراره فی کتابة السّرّ عوضا عن نجم الدین ابن حجی المذکور.

و خلع السلطان أیضا علی تاج الدین عبد الوهاب الأسلمی المعروف بالخطیر

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۷۵

باستقراره فی نظر الإسطبل السلطانی عوضا عن ابن مزهر، و کان الخطیر المذکور قریب عهد بالإسلام، و له قدم فی دین النصرانیة، و کان یباشر عند الملک الأشرف فی أیام إمرته فرقّاه إلی هذه الوظیفة، و بعد أن کان یخاطب بالشیخ الخطیر صار ینعت بالقاضی، فیشترک هو و قضاة الشرع الشریف فی هذا الاسم، و قد تداول هذا البلاء بالمملکة قدیما و حدیثا، و أنا لا ألوم الملوک فی تقدیم هؤلاء لأنهم محتاجون إلیهم لمعرفتهم لأنواع المباشرة، غیر أننی أقول: کان یمکن الملک أنه إذا رقّی واحدا من هؤلاء إلی رتبة من الرّتب لا ینعته بالقاضی و ینعته بالرئیس أو بالکاتب أو مثل ولی الدّولة و سعد الدّولة و ما أشبه ذلک، و یدع لفظة قاض لقضاة الشرع و لکاتب السّرّ و ناظر الجیش و لفضلاء المسلمین، لیعطی کل واحد حقه فی شهرته و التعریف به، و قد عیب هذا علی مصر قدیما [و حدیثا] فقال بعضهم: قاضیها مسلمانی، و شیخها نصرانی، و حجها غوانی، قلت: فإن کانت ألفاظ هذه الحکایة خالیة من البلاغة فهی قریبة مما نحن فیه.

و الخطیر [هذا] إلی الآن فی قید الحیاة و قد کبر سنّة و هرم بعد ما ولی الوزر بدیار مصر ثم نظر الدولة، و هو مع ذلک علیه من الغلاسة، و عدم النورانیة، و فقد الحشمة، و قلة الطلاوة [ما لا یعبر عنه]، و قد تخومل و لزم داره سنین طویلة من یوم صادره الملک الظاهر جقمق و حطّ قدره، فعد ذلک من حسنات الملک الظاهر- رحمه اللّه تعالی.

و فی هذا الشهر أخذ السلطان فی تجهیز الغزاة، و عین جماعة کبیرة من الممالیک السلطانیة و الأمراء، و ألزم کل أمیر أیضا أن یجهز عشرة ممالیک من ممالیکه، و نجز عمل الطرائد و الأغربة،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۷۶

ثم فی یوم الاثنین ثالث شهر رجب خلع السلطان علی قاضی القضاة شهاب الدین أحمد بن حجر و أعید إلی قضاء الدیار المصریة بعد عزل قاضی القضاة شمس الدین الهرویّ.

ثم فی یوم الثلاثاء رابع شهر رجب المذکور حمل الشریف مقبل أمیر ألینبع، و الشریف رمیثة بن محمد بن عجلان إلی الإسکندریة و

سجنا بها.

ثم فى ثالث عشره أنفق السلطان فى ستمائة رجل من الغزاة مبلغ عشرين دينارا لكل واحد منهم، و جهز الأمراء أيضا ثلاثمائة رجل، ثم نودى: من أراد الجهاد فليحضر لأخذ النّفقة، و قام السلطان فى الجهاد أتمّ قيام و قد شرح اللّه صدره له.

ثم فى عشرينه سارت خيول الأمراء و الأعيان من المجاهدين فى البر إلى طرابلس و عدتها نحو ثلاثمائة فرس لتحمل من طرابلس صحبة غزاتها فى البحر لحيث هو القصد.

ثم ركب السلطان فى يوم الجمعة من القلعة بغير قماش الخدمة بعد صلاة الجمعة، و نزل إلى ساحل بولاق حتى شاهد الأغربة و الطرائد التى عملت برسم الجهاد، و قد أشحنوا بالسلاح و الرجال، ثم عاد إلى القلعة، ثم ركب من الغد المقام الناصرى محمد ابن السلطان الملك الأشرف من القلعة و نزل و معه لالاته الأمير جانى بك الأشرفى الدوادار الثانى، و توجّه إلى بيت زين الدين عبد الباسط المطلّ على النيل ببولاق حتى شاهد الأغربة عند سفرهم، فانحدر أربعة أغربة بكل غراب أمير، و تقدّم الأربعة الأمير جرباش الكريمى الظاهرى حاجب الحجاب المعروف بقاشق، فكان لسفر هذه المراكب ببولاق يوم مشهود، ثم انحدر بعد هذه الأغربة الأربعة أربعة أغربة أخر فى كل واحد منهم مقدّم من أعيان المماليك السلطانية، و كان آخرهم سفرا الغراب الثامن فى يوم الأربعاء ثامن شعبان، و هذه الغزوة الثانية من غزوات الملك الأشرف [برسباى]

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۷۷

ثم فى آخر هذا الشهر أفرج السلطان عن الأمير الكبير طرباى من سجنه بالإسكندرية، و نقل إلى القدس الشريف بطالا ليقيم به غير مضيّق عليه بعد أن أنعم عليه بألف دينار، و كان الإفراج عن طرباى بخلاف ما كان فى ظن الناس، و عدّ ذلك من محاسن الملك الأشرف، كون طرباى المذكور كان عانده فى الملك، و كونه أيضا من عظماء الملوك و أكابر المماليك الظاهريّة [برقوق] ممّن يخاف منه، فلم يلتفت الأشرف إلى هذا كله و أفرج عنه لما كان بينهما من الود القديم و الصّحبة من مبادئ أمرهما.

ثم فى يوم الثلاثاء ثامن شهر رمضان المذكور أمسك السلطان الصاحب بدر الدين حسن بن نصر اللّه الأستادار، و أمسك معه ولده الأمير صلاح الدين محمد المعزول عن الأستادارية بأبيه المذكور، و عوّقا بالقلعة أربعة أيام، ثم نزلا على أنهما يقومان بنفقة الجامكية شهرا و عليقه، و كانت الجامكية يوم ذاك كل شهر ثلاثين ألف دينار.

ثم فى يوم الخميس عاشره خلع السلطان على زين الدين عبد القادر ابن فخر الدين حسن بن نصر اللّه.

ثم فى رابع عشره خلع السلطان على جمال الدين يوسف بن الصّفّى الكركى المعزول عن كتابة سرّ دمشق عوضا عن بدر الدين حسين.

و فى يوم الثلاثاء ثانى عشرين شهر رمضان- الموافق لرابع عشر مسرى- أوفى النيل ستة عشر ذراعا، و نزل المقام الناصرى محمد [بن السلطان] لتخليق المقياس و فتح خليج السد على العادة، و نزل معه الملك الصالح محمد ابن الملك الظاهر ططر، و حضر تخليق المقياس، و فتح الخليج- فتعجب الناس لنزوله مع ابن السلطان بعد خلعه من ملك مصر حسبما تقدّم.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۷۸

قلت: و كان قصد الأشرف برسباى بركوب الملك الصالح [محمد] هذا مع ولده انبساط الصالح- كونه كان كالمحجور عليه بقلعة الجبل- و تنزّهه، لا كما زعم بعض الناس أنّه يريد بذلك مشيه فى خدمة ولده و ازدراءه، كل ذلك و خاطر السلطان مشغول بأمر جانى بك الصوفى، و الفحص عنه مستمر؛ غير أن السلطان يتشاغل بشىء بعد شىء، و هو الآن مشغول الفكرة فى أمر المجاهدين لا يبرح يترقب أخبارهم إلى أن كان يوم الخميس تاسع شوّال ورد عليه الخبر من طرابلس بنصرة المسلمين على الفرنج، فدّقت البشائر [لذلك] بقلعة الجبل و غيرها، و جمع القضاة و أعيان الدّيار المصرية بالجامع الأشرفى بخط العنبريين و قرىء عليهم الكتاب الوارد من طرابلس بنصرة المسلمين، فضجّ الناس و أعلنوا بالتكبير و التهليل، و نودى بزينة القاهرة و مصر، ثم قرىء الكتاب المذكور من الغد

بجامع عمرو بن العاص بمصر، و بينما الناس مستبشرون فى غاية ما يكون من السّرور و الفرح بنصر اللّه قدم الخبر فى يوم الاثنين ثالث عشر شوّال [المذكور] بوصول الغزاة المذكورين إلى الطينة، فقلق السلطان من ذلك و تنغّص فرح الناس و كثر الكلام فى أمر عودهم.

و كان من خبرهم: أنهم لما توجّهوا من ساحل بولاق إلى دمياط ساروا منه فى البحر المالح إلى مدينة طرابلس فطلعوا إليها، فانضمّ عليهم بها خلائق من المماليك و العساكر الشامية و جماعة كبيرة من المطوعة إلى أن رحلوا عن طرابلس فى بضع و أربعين مركبا، و ساروا إلى جهة الماغوصة، فنزلوا عليها بأجمعهم و خيموا فى برها الغربى، و قد أظهر متملك الماغوصة طاعة السلطان و عرفهم تهيؤ صاحب قبرس و استعداده لقتالهم و حربهم، فاستعدوا و أخذوا حذرهم و باتوا بمخيمهم على الماغوصة، و هى ليلة الأحد العشرين من شهر رمضان، و أصبحوا يوم الاثنين شنّوا الغارات على ما بغربى قبرس من الضياع،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۷۹

و نهبوا و أسروا و قتلوا و أحرقوا و عادوا بغنائم كثيرة، و أقاموا على الماغوصة ثلاثة أيّام يفعلون ما تقدم ذكره من النهب و الأسر [و غيره]

ثم ساروا ليلة الأربعاء يريدون الملّاحة، و تركوا فى البرّ أربعمائة من الرّجّالة يسيرون بالقرب منهم إلى أن وصلوا إليها و نهبوها و أسروا و أحرقوا أيضا، ثم ركبوا البحر جميعا و أصبحوا باكر النهار فوافاهم الفرنج فى عشرة أغربة و قرقورة كبيرة فلم يثبتوا للمسلمين و انهزموا من غير حرب، و استمر المسلمون بساحل الملّاحة و قد أرست مراكبهم عليها.

و بينما هم فيما هم فيه كرّت أغربة الفرنج راجعة إليهم، و كان قصد الفرنج بعودهم أن يخرج المسلمون إليهم فيقاتلوهم فى وسط البحر، فلما أرست المسلمون على ساحل الملّاحة كرّت الفرنج عليهم فبرزت إليهم المسلمون و قاتلوهم قتالا شديدا إلى أن هزمهم اللّه تعالى، و عادوا بالخزى، و بات المسلمون ليلة الجمعة خامس عشرين شهر رمضان، فلمّا كان بكرة نهار الجمعة أقبل عسكر قبرس و عليهم أخو الملك، و مشى على المسلمين فقاتله مقدار نصف العسكر الإسلامى أشدّ قتال حتى كسروهم، و انهزم أخو الملك بمن كان معه من العساكر بعد أن كان المسلمون أشرفوا على الهلاك، و للّه الحمد [و المنة]، و قتل المسلمون من الفرنج مقتلة عظيمة، ثم أمر الأمير جرباش بإخراج الخيول إلى البرّ فأخرجوا الخيول من المراكب إلى البرّ فى ليلة السبت و تجهّزوا للمسير ليغيروا على نواحى قبرس [من الغد].

فلما كان بكرة يوم السبت المذكور ركبوا و ساروا إلى المغارات حتى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۸۰

وافوها، فأخذوا يقتلون و يأسرون و يحرقون و ينهبون القرى حتى ضاقت مراكبهم عن حمل الأسرى، و امتلأت أيديهم بالغنائم، و ألقى كثير منهم ما أخذه إلى الأرض، فعند ذلك كتب الأمير جرباش مقدّم العساكر المجاهدة كتابا إلى الأمير قصروه من تمراز [نائب طرابلس] بهذا الفتح [العظيم] و النصر [المبين] صحبة قاصد بعثه الأمير قصروه مع المجاهدين ليأتيه بأخبارهم، فعند ما وصل الخبر للأمير قصروه كتب فى الحال إلى السلطان بذلك، و فى طىّ كتابه كتاب الأمير جرباش المذكور، و هو الكتاب الذى قرىء بالأشرفيّة بالقاهرة، ثم بجامع عمرو بن العاص، ثم إن الأمير جرباش لمّا رأى أن الأمر أخذ حدّه، و أن السلامة غنيمة، ثم ظهر له بعض تخوّف عسكره؛ فإنّه بلغهم أن صاحب قبرس قد جمع عساكر كثيرة و استعدّ لقتال المسلمين، فشاور من كان معه من الأمراء و الأعيان، فأجمع رأى الجميع على العود إلى جهة الدّيار المصريّة مخافة من ضجر العسكر الإسلامى إن طال القتال بينهم و بين أهل قبرس إذا صاروا فى مقابله، فعند ذلك أجمع رأى الأمير جرباش المذكور أن يعود بالعساكر الإسلاميّة على أجمل وجه، فحّل القلاع بعد أن تهيّأ للسّفر و سار عائدا حتى أرسى على الطّينة قريبا من قطيا و ثغر دمياط، ثم توجّهوا إلى الدّيار المصريّة، و لما بلغ الناس ذلك و تحقّق كلّ أحد ما حصل للمسلمين من النّصر و الظّفر عاد سرورهم لأن السلطان كان لما بلغه عودهم نادى فى الناس من أراد الجهاد فليحضر لأخذ النّفقة، فكثر قلق الناس لذلك، و ظنوا كلّ ظن حتى علموا من أمرهم ما حكيناه.

هذا ما كان من أمر الغزاة، و أما السلطان فإنه أفرج فى يوم الاثنين ثالث عشر شوّال عن الأمير الكبير بيبغا المظفّرىّ من سجن الإسكندرية و نقله إلى ثغر دمياط، و أنعم عليه بفرس بقماش ذهب ليركبه بدمياط إلى حيث يشاء.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۸۱

ثم أخذ السلطان ينتظر الغزاة إلى أن قدموا عليه يوم السبت خامس عشرين شوّال المقدم ذكره، و معهم ألف و ستون أسيرا ممن أسروا فى هذه الغزوة، و باتوا تلك الليلة بساحل بولاق، و صعدوا فى بكرة يوم الأحد سادس عشرينه إلى القلعة، و بين أيديهم الأسرى و الغنائم، و هى على مائة و سبعين حمّالا و أربعين بغلا و عشرة جمال، ما بين جوخ، و صوف، و صناديق، و حديد، و آلات حربيّة، و أوان، و سار الجميع من شارع القاهرة، و قد جلس الناس بالحوانيت و البيوت و الأسطحة و الشوارع بحيث إن الشخص كان لا يكاد أن يمرّ إلى طريقه إلا بعد مشقّة كبيرة، و ربما لا يستطيع السير و يرجع إلى حيث أتى، و بالجملة فإنه كان يوما مشهودا لم يعهد مثله فى الدّولة التركيّة، و لما طلع ذلک كلّه إلى القلعة و عرض على السلطان رسم السلطان ببيع الأسرى و تقويم الأصناف، فقوّمت الأصناف.

ثم ابتدئ بالبيع فى يوم الاثنين سابع عشرين شوّال بالحرّاقة من باب السّلسلة بحضرة الأمير جقمق العلائى أمير آخور الكبير، و تولّى البيع عن السلطان الأمير إينال الشّشمانى الناصرىّ أحد أمراء العشرات و رأس نوبة، فاشتراهم النّاس على اختلاف طبقاتهم من أمير و جندى و قاض و فقيه و تاجر و علمىّ، و رسم السلطان أن لا يفرّق بين الآباء و أولادهم، و لا بين قريب و قريبه، فكانوا يشترونهم جميعا، و الذى كان وحده أبيع وحده، و استمرّ البيع فيهم أيّاما، و جمع ما تحصّل من أثمانهم فأنفق السلطان من ذلک على المجاهدين، فأعطى لطائفة سبعة دنانير و نصفا، و لطائفة ثلاثة دنانير و نصفا، و انقضى أمر المجاهدين فى هذه السنة.

قال المقريزى: فى يوم الجمعة سابع ذى الحجّه اتّفقت حادثة شنيعة، و هى أن الخبز قلّ وجوده فى الأسواق فعند ما خرج بدر الدين محمود العينتابى محتسب

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۸۲

القاهرة من داره سائرا إلى القلعة صاحت عليه العامة و استغاثوا بالأمراء و شكوا إليهم المحتسب، فعرّج عن الشارع و طلع إلى القلعة و هو خائف من رجم العامّة له و شكاهم إلى السلطان، و كان يختصّ به و يقرأ له فى اللّيل تواريخ الملوک و يترجمها له بالتّركيّة، فحنق السلطان و بعث طائفة من الأمراء إلى باب زويلة، فأخذوا أفواه السّكك ليقبضوا على الناس، فرجم بعض العبيد بعض الأمراء بحجر أصابه فقبض عليه و ضرب، ثم قبض على جماعة كبيرة من الناس و أحضروا بين يدى السلطان، فرسم بتوسيطهم، ثم أسلمهم إلى الوالى فضربهم و قطع آنافهم و آذانهم و سجنهم ليلة السبت، ثمّ عرضوا من الغد على السلطان فأفرج عنهم، و عدّتهم اثنان و عشرون رجلا من المستورين ما بين شريف و تاجر، فتنكّرت القلوب من أجل ذلک، و انطلقت الألسنة بالدعاء و غيره- انتهى كلام المقريزى برمته.

و هو كما قال، غير أنه سكت عن رجم العامّة للعينتابىّ المذكور يريد بذلک تقوية الشّناعة على العينتابىّ لبغض كان بينهما قديما و حديثا.

ثمّ قدم كتاب الأمير تغرى بردى المحمودىّ رأس نوبة النّوب و أمير حاجّ المحمل من مكّة فى يوم الجمعة حادى عشرين ذى الحجة، يتضمّن أنه لما نزل عقبة أيلة بعث قاصدا إلى الشّريف حسن بن عجلان أمير مكّة يرغّبه فى الطاعة و يحذّره عاقبة المخالفة، فقدم عليه ابنه بركات بن حسن بن عجلان و قد نزل بطن مرّ فى ثامن عشرين ذى القعدة، فسرّ بقدومه و دخل معه مكّة فى أوّل ذى الحجة، و حلف له بين الحجر الأسود و الملتزم أن أباه لا يناله مكروه من قبله و لا من قبل السلطان، فعاد إلى أبيه و قدم به مكّة فى يوم الاثنين ثالث ذى الحجة، و أنه حلف له ثانيا و ألبسه التّشريف السّلطانى و قرّره فى إمرة مكّة على عادته، و أنه عزم على حضوره إلى السلطان صحبة الرّكب و استخلاف ولده بركات على مكّة- انتهى.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۸۳

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۲۹]

اشارة

ثم فی یوم الاثنین خامس عشرین المحرم سنة تسع و عشرین و ثمانمائة خلع السلطان علی الأمیر إینال الشّشمانی أحد أمراء العشرات و رأس نوبة باستقراره فی حسبة القاهرة عوضا عن قاضی القضاة بدر الدین محمود العینی الحنفی.

ثم فی رابع عشرین المحرم قدم الأمیر تغری بردی المحمودی رأس نوبة النوب و أمیر حاج المحمل بالمحمل، و قدم معه [الأمیر] الشریف حسن بن عجلان، فأکرمه السلطان و أنزله بمکان یلیق به، ثم خلع علیه فی یوم سابع عشرینه باستقراره فی إمرة مکّة علی عادته بعد أن التزم بحمل ثلاثین ألف دینار، و أرسل قاصده إلی مکّة لیحضر المبلغ المذکور، و أقام هو بالقاهرة رهینة، و قدم أیضا مع الحاج الأمیر قرقماس الشّعبانی الناصریّ أحد مقدّمی الألوف، بعد أن أقام بمکة نحو السنتین شریکا لأمیر مکّة فی هذه المدّة، و مهّد أمورها و أقمع عبید مکّة و مفسدیها و أبادهم.

ثم فی یوم الأربعاء نصف صفر جمع السلطان الأمراء و القضاة و کثیرا من أکابر التجار و تحدّث معهم فی إبطال المعاملة بالذّهب المشخّص الذی یقال له الإفرنتی، و هو من ضرب الفرنج، و علیه شعار کفرهم الذی لا تجیزه الشریعة المحمدیّة، و أن یضرب عوضه ذهبا علیه السّکّة الإسلامیة، فضوّب من حضر رأی السلطان فی ذلک، و هذا الإفرنتی المذکور قد کثرت المعاملة به فی زماننا من حدود سنة ثمانمائة فی أکثر مدائن الدّنیا مثل: القاهرة و مصر، و البلاد الشّامیّة، و أکثر بلاد الرّوم، و بلاد الشرق، و الحجاز، و الیمن، حتی صار هو النقد الرّائج و المطلوب فی المعاملات، و انفضّ المجلس علی ذلک، و قد کثر ثناء الناس علی السلطان بسبب إبطال ذلک.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۸۴

و لما کان الغد طلب السلطان صنّاع دار الضّرب و شرع فی ضرب الذّهب الأشرفی، و تطلّب من کان عنده من الذهب الإفرنتی.

ثم فی سادس عشرینه نودی بالقاهرة بإبطال المعاملة بالذهب الإفرنتی، و أن یتعامل الناس بالدّنانیر الأشرفیّة زنة الدّینار منها زنة الإفرنتی، ثم ألزم السلطان الناس بحمل ما عندهم من الإفرنتیة إلی دار الضّرب.

ثم فی یوم الخمیس رابع عشر شهر ربیع الأول قدم الأمیر قصروه من تمراز نائب طرابلس، و طلع إلی القلعة و قبّل الأرض و خلع السلطان علیه خلعة الاستمرار بولایته علی عادته، ثمّ فی یوم السبت قدّم هدیّته إلی السلطان، و کانت تشتمل علی شیء کثیر.

و فی یوم الخمیس المذکور وصل إلی القاهرة الأمیر یربغا التّنمیّ أحد أمراء العشرات عائدا من بلاد الیمن بغیر طائل، و سببه أن السلطان کان أطمعه بعض الناس فی أخذ الیمن و هوّن علیه أمرها- و هو کما قیل- غیر أن الملک الأشرف لم یلتفت إلی ذلک بالکلیة تکذیبا للقائل له، فأرسل الأمیر یربغا هذا بهدیّة لصاحب الیمن و صحبته السّیفی ألطنبغا فرنج الدّمرداشیّ و الی دمیاط- کان- و معهما أیضا خمسون مملوکا من الممالیک السلطانیة، فساروا إلی جدّة، ثم رکبوا منها البحر و توجّهوا إلی جهة الیمن، إلی أن وصلوا حلی بنی یعقوب، فسار منه یربغا التّنمی و معه من الممالیک خمسة نفر لا غیر، و معه الهدیة و الکتاب لصاحب الیمن، و هو یتضمن طلب مال للإعانة علی الجهاد، و أقام ألطنبغا فرنج ببقیة الممالیک فی المراکب، فأکرم صاحب الیمن یربغا

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۸۵

المذکور و أخذ فی تجهیز هدیة عظیمة، و بینما هو فی ذلک قدم علیه الخبر بأن ألطنبغا فرنج نهب بعض الضّیاع و قتل أربعة رجال، فأنکر صاحب الیمن أمرهم و تنبّه لهم، و قال للأمیر یربغا: ما هذا خبر خیر؛ فإن العادة لا یحضر إلینا فی الرّسالة إلا واحد، و أنتم

حضـرتم فى خمسـين رجلا، و لم يحضر إلى منكم إلا أنت فى خمسة نفر و تأخر باقيكم و قتلوا من رجالى أربعة، و طرده عنه من غير أن يجهّز هديـة و لا وصـله بشـىء، و لولا خشـية العاقبـة لقتله، فنجا يربغا بمن معه بأنفسـهم، و عادوا إلى مكة، و قدم يربغا إلى القاهرة مخفّا، فلما بلغ السلطان ذلك أراد أن يجهّز إلى اليمن عسكرا فمنعه من ذلك شغله بغزو الفرنج.

ثم فى يوم السبت أوّل شهر ربيع الآخر خلع السلطان على الأمير قصروه خلعة السفر، و خرج من يومه إلى محلّ كفالته بطرابلس.

ثم فى يوم السبت ثامنه خلع السلطان على الأمير يشبك السّاقى الأعرج و استقرّ أمير سلاح عوضا عن إينال النوروزى بحكم موته.

ثم فى خامس عشـرين شهر ربيع الآخر المذكور استقرّ العلامة كمال الدين محمد ابن همام الدين محمد السّيواسى الأصل الحنفى فى مشيخة التصوف بالمدرسة الأشرفية و تدريسها عوضا عن العلامة علاء الدين على الرومى بحكم رغبته و عوده إلى بلاده.

ثم فى يوم الخميس سابع عشرينه خلع السلطان على القاضى بدر الدين محمود العينتابى باستقراره قاضى قضاة الحنفية بالديار المصرية عوضا عن زين الدين عبد الرحمن التفهنى، و استقر التفهنى المذكور فى مشـيخة صوفية خانقاه شيخون بعد موت شيخ الإسلام سراج الدين عمر قارىء الهداية.

و فى يوم الجمعة ثامن عشرين [شهر] ربيع الآخر المذكور نزل من القلعة جماعة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۸۶

كبيرة من الأـمراء و المماليـك و هم متقلـدون بسـيوفهم حتى طرقوا الجودريـة إحـدى حارات القاهرة، فأحاطوا بها مع جميع جهاتها و كبسوا على دورهـا و فتشوهـا تفتيشـا عظيما، و قدوشـى بعض الناس إلى السـلطان بأن جانى بك الصوفى فى داربها، فلم يقعوا له على خبر، و قبضوا على القاضـى فخر الـدين ماجـد بن المزوق الـذى كـان ولى كتابـة السرّ و نظر الجيش فى دولـة الملـك الناصـر فرج و أحضـروه بين يـدى السـلطان، فسأله عن الأـمير جـانى بـك الصوفى و حلف له إن دله على مكـانه لاـ يمسه بسوء، فحلف فخر الـدين المذكور أنه لا يعرف مكانه و لا وقع بصـره عليه من يوم أمسك و حبس، فلم يحمله السـلطان على الصدق لمصاهرة كانت بينه و بين جانى بك الصوفى و صـحبة قديمة، و أمر به فضرب بين يديه بالمقارع و أمر بنفيه، ثم نودى من الغد أن لا يسكن أحد بالجودرية لما ثبت عند السـلطان أن جانى بك الصوفى مختف بها، و الظاهر أن الذى كان ثبت عند الأشرف أن جانى بك الصّوفى كان مختفيا بها كان على حقيقته فيما بلغنا بعـد موت الملك الأشـرف، غير أن السّـتّار ستره و حماه، فلم يعثروا عليه حتى قيل إنه كان بالـدّار المهجوم عليها و لم ينهض للهروب فالتفّ بحصـيرة بها، و كلّ من دخل الدّار رأى الحصـيرة المذكورة فلم يجسّها أحد بيده؛ لتعلم أن اللّه على كل شىء قدير.

و لما نودى أن لا يسـكن أحـد بالجودريّة انتقل منها جماعـة كبيرة و اسـتمرت خالية زمانا طويلا، هذا و السـلطان فى كلّ قليل يقبض على جماعـة من المماليـک السـلطانية و يعـاقبهم ليقرّوا على جانى بک الصّوفى، فلم يقع له على خبر، كلّ ذلك و السـلطان فى شـغل بتجهيز المجاهدين لغزو قبرس:

و ورد عليه- فى يوم السّبت سابع عشرين جمادى الأولى- رسول صاحب إستانبول

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۸۷

و هى القسطنطينيّة بهديّة و شفع فى أهل قبرس أن لا يغزوا، فلم يلتفت السلطان إلى شفاعته، و أخذ فيما هو فيه من تجهيز العساكر.

ثم فى يوم الاثنين ثالث عشـر جمادى الآخرة من سـنة تسع و عشـرين المـذكورة قدم من عساكر البلاد الشّاميّة عدة كبيرة من الأمراء و المماليك و العشير و طائفة كبيرة من المطّوّعة ليسيروا إلى الجهاد، فأنزلوا بالميدان الكبير.

و فيه خلع السـلطان على قاضـى القضاة عزّ الدين عبد العزيز بن على بن العزّ قاضـى قضاة الحنابلة بدمشق زمن المؤيّد شـيخ باسـتقراره قاضـى قضاة الحنابلـة بديار مصـر، عوضا عن قاضـى القضاة محبّ الدين أحمد بن نصـر اللّه البغدادى بحكم صـرفه عنها، و كان عزل قاضى القضاة محب الدين لسوء سيرة أخيه و ابنه.

ثم فى ثالث عشرين جمادى الآخرة جلس السلطان بالحوش من قلعة الجبل لعرض المجاهدين، و أنفق فيهم مالا كبيرا، فكان يوما من أجلّ الأيّام و أحسنها، لما وقع فيه من بذل السلطان الأموال على من تعيّن للجهاد، و على عدم التفات المجاهدين لأخذ المال، بل كان الشخص إذا وقف فى مجلس السلطان ينظر رءوس النّوب تتهارب من المماليك السلطانية الذين يريدون أخذ الدّستور من السّلطان للتوجّه إلى الجهاد، و السلطان يأمرهم بعدم السّفر، و يعتذر أنه لم تبق مراكب تحملهم، و هم يتساعون فى ذلك مرّة بعد أخرى، و ربما تكرّر وقوف بعضهم الأربع مرّات و الخمسة، و أيضا من عظم ازدحام الناس على كتّاب المماليك ليكتبوهم فى جملة المجاهدين فى المراكب المعيّنة، حتى إنه سافر فى هذه الغزوة عدّة من أعيان الفقهاء، و لمّا أن صار السلطان لا ينعم لأحد بالتّوجّه بعد أن استكفت العساكر سافر جماعة من غير دستور، و أعجب من هذا أنه كان الرّجل ينظر فى وجه المسافر للجهاد يعرفه قبل أن يسأله لما بوجهه من السّرور و البشر الظاهر بفرحه للسّفر، و بعكس ذلك فيمن لم يعيّن للجهاد، هذا مع كثرة من تعيّن للسفر من المماليك السلطانية و غيرهم، و ما أرى هذا إلا أنّ اللّه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۸۸

[تعالى] قد شرح صدورهم للجهاد و حببهم فى الغزو و قتال العدوّ، ليقضى اللّه أمرا كان مفعولا، و لم أنظر ذلك فى غزوة من الغزوات قبلها و لا بعدها- انتهى.

ثمّ فى يوم الخميس أوّل شهر رجب أدير المحمل بالقاهرة و مصر على العادة فى كل سنة، و عجّل عن وقته لسفر المجاهدين للغزاة.

ثم فى يوم الجمعة ثانى شهر رجب من سنة تسع و عشرين المذكورة خرجت المجاهدون من القاهرة، و سافروا من ساحل بولاق إلى جهة الإسكندرية و دمياط، و مقدّموا العساكر جماعة كبيرة من أمراء الألوف و أمراء الطبلخانات و أمراء العشرات و أعيان الخاصّكيّة، و جماعة كبيرة من أعيان أمراء دمشق و غيرها، فالذى كان من مقدّمى الألوف: الأمير إينال الجكمىّ أمير مجلس، و هو مقدّم العساكر فى المراكب بالبحر، و معه الأمير قرامراد خجا الشّعبانى أمير جاندار و أحد مقدّمى الألوف، و عدة من الأمراء و المماليك السّلطانية و غيرهم، و الذى كان مقدّم العساكر فى البرّ الأمير تغرى بردى المحمودىّ الناصرىّ رأس نوبة النّوب، و معه الأمير حسين ابن أحمد المدعو تغرى برمش نائب القلعة- كان- و هو يوم ذاك أحد مقدّمى الألوف، فهؤلاء الأربعة من أمراء الألوف، و الذى كان من أمراء الطبلخانات الأمير قانصوه النّوروزىّ، و الأمير يشبك السّودونىّ المشدّ الذى صار أتابك فى دولة الملك الظاهر جقمق، و الأمير إينال العلائىّ ثالث رأس نوبة، أعنى عن السلطان الملك الأشرف إينال سلطان زماننا، و أمير آخر لا يحضرنى الآن اسمه، و الذى توجّه من أمراء العشرات فعدّة كبيرة، و الذى كان من أمراء دمشق: الأمير طوغان السّيفى تغرى بردى أحد مقدّمى الألوف بدمشق، و هو دوادار الوالد [رحمه اللّه] و مملوكه، و جماعة كبيرة أخر دونه فى الرّتبة من أمراء دمشق، و خرجت الأمراء فى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۸۹

هذا اليوم، و تبعهم المجاهدون فى السّفر فى النيل أرسالا حتى كان آخرهم سفرا فى يوم السبت حادى عشر شهر رجب المذكور.

و كان ليوم خروج المجاهدين بساحل بولاق نهار يجلّ عن الوصف، تجمّع الناس فيه للفرجة على المسافرين من الأقطار و البلاد و النّواحى، حتى صار ساحل بولاق لا يستطيع الرّجل أن يمرّ فيه لحاجته إلا بعد تعب و مشقة زائدة، و عدّى الناس إلى البرّ الغربىّ ببرّ منبابة و بولاق التّكرور، و نصبوا بها الخيم و الأخصاص، هذا و قد انتشر البحر بالمراكب التى فيها المتنزّهون، و أمّا بيوت بولاق فلم يقدر على بيت منها إلا من يكون له جاه عريض أو مال كبير، و تقضّى للناس بها أيام سرور و فرح و ابتهال إلى اللّه تعالى بنصر المسلمين و عودهم بالسلامة و الغنيمة.

و سار الجميع إلى ثغر دمياط، و ثغر الإسكندرية، و تهيّئوا للسفر و السلطان متشوّف لما يرد عليه من أخبار سفرهم.

و بينما هو فى ذلك ورد عليه الخبر فى يوم الثلاثاء ثامن عشرين شهر رجب المذكور بأن الغزاة مرّوا فى طريقهم إلى رشيد، و أقلعوا من هناك يوم رابع عشرينه، و ساروا إلى أن كان يوم الاثنين انكسر منهم نحو أربعة مراكب غرق فيها نحو العشرة أنفس، و كانوا

بالقرب من ساحل الإسلام بثغور أعمال مصر، و لما بلغ السلطان ذلک انزعج غایة الانزعاج حتی إنه کاد یهلک، و بکی بکاء کثیرا، و صار فی قلق عظیم، بحیث إن القلعة ضاقت علیه، و عزم علی عدم سفر الغزاة المذکورین، ثم قوی عنده أنه یرسل الأمیر جرباش الکریمیّ قاشق حاجب الحجاب لکشف خبرهم و لعمل مصالحهم و للمشورة مع الأمراء فی أمر السفر، و خرج الأمیر جرباش المذکور مسافرا إلیهم و ترک السلطان فی أمر مریج، و کذلک جمیع الناس إلا أنا تباشرت بالنّصر من یومئذ، و قلت: ما بعد الکسر إلا الجبر، و کذا وقع فیما یأتی ذکره إن شاء اللّه تعالی، و سار الأمیر جرباش إلی العسکر فوجد الذی حصل بالمراکب المذکورة ترمیمه سهل، و قد

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۹۰

شرعت الصنّاع فی إصلاحه، فتشاور مع الأمراء فأجمع الجمیع علی السّفر، فعند ذلک جمع الأمیر جرباش الصّنّاع و أصلح جمیع ما کان بالمراکب من الخلل إلی أن تمّ أمرهم، فرکبوا و ساروا علی برکة اللّه و عونه، و عاد الأمیر جرباش و أخبر السلطان بذلک فسکن ما کان به.

و کان قبل قدوم جرباش أو بعد قدومه فی یوم الثلاثاء خامس شعبان ورد الخبر علی السلطان بأن طائفة من غزاة المسلمین من العسکر السلطانی لمّا ساروا من رشید إلی الإسکندریة صدفوا فی مسیرهم أربع قطع من مراکب الفرنج و هم قاصدون ثغر الإسکندریة فکتب المسلمون لمن فی رشید من بقیّة الغزاة بسرعة إلحاقهم لیکونوا یدا واحدة علی قتال الفرنج المذکورین، و تقاربوا من مراکب الفرنج و تراموا معهم یومهم کلّه [بالنّشّاب] إلی اللیل، و باتوا یتحارسون إلی الصباح، فاقتتلوا أیضا باکر النهار، و بینماهم فی القتال وصل بقیّة الغزاة من رشید، فلما رآهم الفرنج ولّوا الأدبار بعد ما استشهد من المسلمین عشر نفر، و ساروا حتی اجتمعوا بمن تقدّمهم من الغزاة من ثغر الإسکندریة، و سافر الجمیع معا یریدون قبرس فی یوم الأربعاء العشرین من شعبان، إلی أن وصلوا إلی قلعة اللّمسون فی أخریات شعبان المقدم ذکره، فبلغهم أن صاحب جزیرة قبرس قد استعدّ لقتالهم، و جمع جموعا کثیرة، و أنه أقام بمدینة الأفقسیّة -و هی مدینة قبرس- و عزم علی لقاء المسلمین، فأرسلوا بهذا الخبر إلی السلطان، ثم انقطعت أخبارهم عن السلطان إلی ما یأتی ذکره.

و فی یوم السبت رابع عشر شهر رمضان خلع السلطان علی الأمیر یشبک السّاقی الأعرج أمیر سلاح باستقراره أتابک العساکر بالدیار المصریة عوضا عن الأمیر قجق

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۹۱

العیساویّ بحکم وفاته، و أنعم بإقطاع یشبک الأعرج المذکور علی الأمیر قرقماس الشّعبانی الناصری القادم من مکة قبل تاریخه، و أنعم بإقطاع قرقماس المذکور علی الأمیر بردبک السیفی یشبک بن أزدمر الأمیر آخور الثانی، و صار من جملة مقدّمی الألوف، و أنعم بإقطاع بردبک علی الأمیر یشبک أخی السلطان الملک الأشرف برسبای القادم قبل تاریخه بمدّة یسیرة من بلاد الچارکس، و الإقطاع إمرة طبلخاناه، و خلع علی سودون میق رأس نوبة باستقراره أمیر آخور ثانیا عوضا عن بردبک المقدّم ذکره.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۹۲

ذکر غزوة قبرس علی حدتها

و لما کان یوم الاثنین ثالث عشرین شهر رمضان ورد الخبر علی السلطان بأخذ مدینة قبرس و أسر ملکها جینوس بن جاک، فدقّت البشائر بالقلعة لهذا الفتح ثلاثة أیام، و کان من خبر ذلک أن الغزاة لما ساروا من الثّغور المذکورة إلی جهة قبرس و صلوا إلی مدینة اللّمسون مجتمعین و متفرّقین، فبلغهم من أهل اللّمسون أن متملک قبرس جاءه نجدة کبیرة من ملوک الفرنج، و أنه استعدّ لقتالهم کما تقدّم ذکره، و لما و صلوا إلی اللّمسون نازلوا قلعتها و قاتلوا من بها حتی أخذوها عنوة فی یوم الأربعاء سادس عشرین شعبان، و نهبوها و سبوا أهلها، و قتلوا جماعة کبیرة ممن کان بها من الفرنج، ثم هدموها عن آخرها، و ساروا منها فی یوم الأحد أوّل شهر رمضان من

سنة تسع و عشرين المقدم ذكرها بعد أن أقاموا عليها نحو ستة أيام، و ساروا فرقتين فرقة فى البرّ و عليهم الأمير تغرى بردى المحمودى و الأمير حسين بن أحمد المدعو تغرى برمش أحد مقدّمى الألوف و من انضاف إليهم من أمراء الطبلخانات و العشرات و العساكر [المصرية و الشاميّة] من الخيّالة و الرّجّالة، و فرقة فى البحر و مقدّمهم الأمير إينال الجكمىّ أمير مجلس، و الأمير قراماد خجا الشّعبانىّ أحد مقدّمى الألوف بمن انضاف إليهم من العساكر المصرية و الشاميّة، و كان سبب مسير هؤلاء فى البحر مخافة أن يطرق الفرنج المراكب من البحر و يأخذوها و يصير المسلمون ببلادهم يقاتلونهم على هيئتهم، و كان ذلك من أكبر المصالح، ثم سار الذين فى البرّ متفرقين حتى صاروا بين اللّمسون و الملّاحة و هم من غير تعبئة لقتال بل على صفة السّفار غير أنّ على بعضهم السلاح و أكثرهم بلا سلاح لشدّة الحر، و صار كلّ واحد من القوم يطلب قدّاما من غير أن يتربّص أحدهم لآخر، و فى ظنهم أن صاحب قبرس لا يلقاهم إلا خارج قبرس، و تأخّر الأمراء ساقة العسكر كما هى عادة مقدّمى العساكر،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۹۳

و الناس تجدّ فى السّير إلى أن يقاربوا قبرس [ثم] يقفوا هناك يريحون [خيلهم] إلى أن تكتمل العساكر و تتهيّأ الأطلاب للقتال ثم يسيرون جملة واحدة بعد التعبئة و المصافة.

و بينما هم فى السير إذا هم بمتملك قبرس بجيوشه و عساكره و من انضاف إليه من ملوك الفرنج و غيرها و قد ملأت الفضاء، و كان الذين وافاهم صاحب قبرس من المسلمين الذين سبقوا طائفة قليلة جدا و أكثرهم خيّالة من أعيان المماليك السلطانية، فعندما وقع العين على العين لم يتمالك المسلمون أن يصبروا لمن خلفهم حتى يصيروا جملة واحدة بل انتهزوا الفرصة و تعرّضوا للشهادة، و قال بعضهم لبعض: هذه الغنيمة، ثم حرّكوا خيولهم و قصدوا القوم بقلب صادق- و قد احتسبوا نفوسهم فى سبيل اللّه- و حملوا على الفرنج حملة عظيمة [و صاحوا اللّه أكبر] و قاتلوهم أشدّ قتال، و أردفهم بعض جماعة و تخلّف عنهم أخر، منهم رجل من أكابر الخاصّكيّة أقام يستظلّ تحت شجرة [كانت] هناك، و تقاتل المسلمون مع الفرنج قتالا شديدا، قتل فيه السّيفى تغرى بردى المؤيّدى الخازندار، و كان من محاسن الدنيا، لم ترعينى أكمل منه فى أبناء جنسه، و السّيفى قطلوبغا المؤيّدى البهلوان، و كان رأسا فى الصّراع، و من مقولة تغرى بردى المقدّم ذكره فى الشجاعة و الفروسيّة، و السيفى إينال طاز البهلوان، و السّيفى نانق اليشبكىّ و هؤلاء الأربعة من الأعيان و الأبطال المعدودة- عوّض اللّه شبابهم الجنة بمنّه و كرمه- ثم قتل من المسلمين جماعة أخر، و هم مع قلتهم و يسير عددهم فى ثبات إلى أن نصر اللّه الإسلام، و وقع على الكفرة الخذلان و انكسروا، و أسر متملك قبرس مع كثرة جموعه و عظم عساكره التى لا تحصر، و قلة عسكر المسلمين، حتى إن الذى كان حضر أوائل الوقعة أقل من سبعين نفسا قبل أن يصل إليهم الأمير إينال العلائى الناصرى أحد أمراء الطبلخانات [و رأس نوبة ثالث] و هو الملك الأشرف إينال، و الأمير تغرى برمش، ثم تتابع القوم طائفة بعد طائفة؛ كلّ ذلك بعد أن انكسرت الفرنج و أسر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۹۴

صاحب قبرس، و قتل من قتل من المسلمين، و لمّا ترادفت عساكر الإسلام ركبوا أقفية الفرنج و وضعوا فيهم السّيف، و أكثروا من القتل و الأسر، و انهزم من بقى من الفرنج إلى مدينة قبرس الأفقسيّة، ثم وجد المسلمون مع الفرنج طائفة من التركمان المسلمين قد أمدّ الفرنج بهم على بك بن قرمان- عليه من اللّه ما يستحقه- فقتل المسلمون كثيرا منهم.

و اجتمع عساكر البرّ و البحر من المسلمين فى الملّاحة يوم الاثنين ثانى شهر رمضان، و تسلم الأمير تغرى بردى المحمودى صاحب قبرس، كل ذلك و المسلمون يقتلون و يأسرون و ينبهون حتى امتلأت أيديهم و تغلّبوا عن حمل الغنائم.

و أما القتلى من الفرنج فلا تحصر و يستحى من ذكرها كثرة؛ حدثنى بعض مماليك الوالد ممن باشر الواقعة من أوّلها إلى آخرها و جماعة كبيرة من الأصحاب الثقات قالوا: كان موضع الوقعة أزيد من ألفى قتيل من قتلى الفرنج، هذا فى الموضع الذى كان فيه القتال، و أما الذى قتل من الفرنج بالضّياع و الأماكن و بطريق قبرس فلا حدّ له و لا حساب، فإنه استمرّ القتل فيهم أيّاما، و استمروا على

الملّاحة إلى يوم الخميس خامس شهر رمضان فساروا منها يريدون الأفقسيّة مدينة قبرس.

و لما ساروا وافاهم الخبر- بعد أن تقدّم منهم جماعة كبيرة من المطّوّعة و المماليك السلطانية إلى مدينة قبرس- بأن أربعة عشر مركبا من مراكب الفرنج مشحونة بالسلاح و المقاتلة أتت [المراكب] لقتال المسلمين، منها سبعة أغربة، و سبعة مربّعة القلاع، فلاقاهم الأمير إينال الجكميّ أمير مجلس، و الأمير قرامراد خجا الشعبانى، و الأمير طوغان السّيفى تغرى بردى أحد مقدّمى دمشق، و الأمير جانى بك رأس نوبة السّيفى يلبغا النّاصرى المعروف بالثّور بعساكرهم و بمن انضاف إليهم من المطوّعة و غيرهم؛ و هؤلاء الأمراء الذين كانوا مقدّمى العساكر فى البحر بالمراكب، و اقتتلوا مع الفرنج المذكورين أشدّ قتال حتى هزموهم و أخذوا منهم مركبا مربّعا من مراكب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۹۵

الفرنج بعد أن قتلوا منهم عدّة كبيرة تقارب ما ذكرنا ممّن قتل بمكان الوقعة الأولى، و ولت الفرنج الأدبار.

و استمرّ الذى توجّه من الغزاة إلى الأفقسيّة من المماليك السلطانية و غيرهم يقتلون فى طريقهم و يأسرون إلى أن وصلوا إلى المدينة و دخلوا قصر الملك و نهبوه.

ثم عادوا و لم يحرقوا بمدينة قبرس إلا مواضع يسيرة، و لم يدخل المدينة أحد من أعيان العسكر، و غالب الذى دخلها من المماليك السلطانية و المطّوّعة، و كان دخولهم و إقامتهم بها و عودهم منها فى يومين و ليلة واحدة.

ثم أقام جميع الغزاة بالملّاحة و أراحوا بها أبدانهم سبعة أيّام، و هم يقيمون فيها شعائر الإسلام من الأذان و الصلاة و التسبيح- و للّه الحمد على هذه المنة بهذا الفتح العظيم الذى لم يقع مثله فى الإسلام من يوم غزاهم معاوية بن أبى سفيان، رضى اللّه عنه فى سنة نيّف و عشرين من الهجرة.

ثم ركبت الغزاة المراكب عائدين إلى جهة الدّيار المصرية، و معهم الأسرى و الغنائم، و من جملتها متملّك قبرس فى يوم الخميس ثانى عشر رمضان بعد أن بعث أهل الماغوصة يطلبون الأمان- هذا ما كان من أمرهم- [انتهى].

و جزيرة قبرس تسمّى باللغة الرّومية شبرا، و البحر يحيط بها مائتى ميل، و الميل أربعة آلاف ذراع، و الذراع أربعة و عشرون إصبعا، و الإصبع ست شعيرات مضموم بعضها إلى بعض، و الفرسخ بهذا الميل ثلاثة أميال و البريد بهذا الفرسخ أربعة فراسخ، و جزيرة قبرس من الإقليم الرّابع من الأقاليم السبعة، و سلطانها يقال له أرادا شبرا: أى سلطان الجزيرة، و قبرس مدينة بالجزيرة تسمّى الأفقسيّة، و مسيرة جزيرة قبرس سبعة أيام، و بالجزيرة المذكورة اثنا عشر ألف قرية كبارا و صغارا، و بمدنها و قراها من الكنائس و الدّيارات و القلالى و الصوامع كثير، و بها البساتين المشتملة على الفواكه المختلفة، و بها

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۹۶

الرياحين العطرة كالخزام و الياسمين و الورد و السّوسن و النرجس و الريحان و النسرين و الأقحوان و شقائق النعمان و غير ذلك، و بمدن الجزيرة المذكورة الأسواق و الخانات و الحمّامات و المبانى العظيمة [انتهى]

و أما أمر السلطان الملك الأشرف [برسباى] فإنه لما بلغه خبر أخذ قبرس فى يوم الاثنين ثالث عشرين رمضان حسبما تقدّم ذكره كاد أن يطير فرحا، و لقد رأيته و هو يبكى من شدّة الفرح، و بكى الناس لبكائه، و صار يكثر من الحمد و الشكر للّه، و دقّت البشائر بقلعة الجبل و بسائر مدن الإسلام لما بلغهم ذلك، و ارتجّت القاهرة و ماجت الناس من كثرة السرور الذى هجم عليهم، و قرىء الكتاب الوارد بهذا النصر على الناس بالمدرسة الأشرفية بخط العنبريّين بالقاهرة حتى سمعه كلّ من قصد سماعه، و قالت الشعراء فى هذا الفتح عدّة قصائد، من ذلك القصيدة العظيمة التى نظمها الشيخ زين الدين عبد الرحمن بن الخراط أحد أعيان موقعى الدّست بالديار المصرية، و أنشدها بين يدى السلطان بحضرة أرباب الدولة، و القصيدة ثلاثة و سبعون بيتا، أولها. [الكامل]

بشراك يا ملك المليك الأشرفى بفتوح قبرس بالحسام المشرفى

فتح بشهر الصوم تمّ له فيا لک أشرف فى أشرف

فتح تفتحت السماوات العلى ... من أجله بالنصر و اللطف الخفى

و اللّه حف جنوده بملائک عاداتها التأييد و هو بها حفى

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۹۷

و منها:

الأشرف السلطان أشرف مالک لولاه أنفس ملكه لم تشرف

هو مكتف بالله أحلم قادر راض لآثار النبوة مقتفى

حامى حمى الحرمين بيت اللّه و ال قبر الشريف لزائر و مطوف

و كلها على هذا النسق- انتهى.

قلت: و كل ذلک و النّصارى تکـذب هـذا الخبر و تستغربه من أسـر متملّک قبرس و هزيمته على هـذا الوجه، لأن أمر هذا النّصـر فى غاية من العجب من وجوه عديدة.

أوّلها: قلة من قاتل الفرنج من المسلمين، فإنهم كانوا فى غاية من القلّة [بحيث إن العقل لا يقبل ذلک إلا بعد وقوعه فى هذه المرة].

و ثانيهما: أنه لم تتعب عساكر الإسلام و لا وقع مصاف.

و ثالثها: أنه كان يمكن هزيمة صاحب قبرس من المسـلمين بعد أيّام كثيرة من وجوه عديدة يطول الشرح فى ذكرها لا تخفى على من له ذوق.

و رابعها: أنه كان يمكن هزيمة الفرنج و لا يمكن مسک الملک و أسره أيضا من وجوه عديدة.

و خامسـها: أن غالب العسـكر إذا حصل لهم هزيمة يتحايون و يرجعون غير مرة على من هزمهم لا سـيما كثرة عساكر الفرنج و قلة من حضر الوقعة من عساكر المسلمين فى هذه المرّة، فكان على هذا يمكنهم الكرّ على المسلمين بعد هزيمتهم غير مرّة.

و سادسـها: أن الوقعة و القتال و الهزيمة و القبض على الملک و تشـتت شـمل الفرنج و الاستيلاء على ممالكهم كل ذلک فى أقل من نصف يوم؛ فهذا أعجب من العجب.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۹۸

و مـا أرى إلاـ أن اللّه سبحانه و تعالى أعزّ الإسـلام و أهله، و خـذل الكفر و أهله بهـذا النصـر العظيم الـذى لم يسـمع بمثله فى سالف الأعصار، و لا فرح بمثله ملک من ملوک الترک، و لقـد صار للملک الأشـرف برسـباى بهذا الفتح ميزة على جميع ملوک التّرک إلى يوم القيامة- اللّهم لا مانع لما أعطيت.

و لما بلغ الملک الأشـرف عود الغزاة المـذكورين إلى جهـة الـدّيار المصـريّة رسم فنودى بالقاهرة و مصـر بالزّينـة، ثم نـدب السـلطان جماعـة كبيرة [من المماليـک السـلطانية] بـالتوجّه إلى الثّغور لحفـظ مراكب الغزاة بعـد خروجهم منهـا خوفـا من أن يطرقهم طارق من الفرنـج مما يأتى صاحب قبرس من نجـدات الفرنـج- و كان هذا من أكبر المصالح- ثم رسم السـلطان لهم أن يأخذوا جميع المراكب مـن ثغر دميـاط و يـأتوا بهـا إلى ثغر الإسـكندرية لتحفـظ بهـا؛ و سـبب ذلـک أن الغزاة المـذكورين كـان منهـم مـن وصـل إلى ثغر الإسكندرية، و منهم من وصل إلى ثغر دمياط، و منهم من وصل إلى الطّينة؛ لكثرة المراكب و لاختلاف الأرياح.

و بينما السـلطان فى انتظار المجاهـدين قـدم عليه السـيّد الشـريف بركات بن حسن بن عجلان أمير مكّة منها، و قد اسـتدعى بعد موت أبيه، فأكرمه السـلطان و خلع عليه بإمرة مكّـة على أنه يقوم بما تأخّر على أبيه من الـذّهب، و هو مبلغ خمسة و عشـرين ألف دينار، فإن أبـاه الشـريف حسن بن عجلاـن كـان قـد حمل من الثلاثين ألف دينار- التى التزم بها قبل موته- خمسـة آلاف دينار، ثم التزم بركات أيضا بحمل عشرة آلاف دينار فى كلّ سنة، و أن لا يتعرض السلطان لما يؤخذ من بندر جدّة من عشور بضائع التّجار الواصلة من الهند

و غيره، و أن يكون ذلك جميعه لبركات المذكور [انتهى].

و لما كان يوم عيد الفطر ابتدأ دخول الغزاة إلى ساحل بولاق أرسالا كما خرجوا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۲۹۹

منها، و وافق فى هذه الأيام وفاء النيل ستة عشر ذراعا، فتضاعف مسرّات الناس من كل جهة، و استمرّ دخولهم فى كل يوم إلى ساحل بولاق إلى أن تكامل فى يوم الأحد سابع شوّال و نزلوا بالميدان الكبير بالقرب من موردة الجبس، و أصبحوا من الغد فى يوم الاثنين ثامن شوّال- و هو يوم فطر السلطان؛ فإنّه كان يصوم الستة أيّام من شوّال- طلعوا إلى القلعة على كيفيّة ما يذكر، و هم جميع الأمراء و الأعيان من المجاهدين و الأسرى، و الغنائم بين أيديهم، و متملّك قبرس الملك جينوس بن جاك أمامهم و هو منكّس الأعلام، و قد اجتمع لرؤيتهم خلائق لا يعلم عدّتهم إلا اللّه تعالى، حتى أتت أهل القرى و البلدان من الأرياف للفرجة، و ركبت الأمراء من الميدان و معهم غالب الغزاة، و ساروا من أرض اللّوق حتى خرجوا من المقس و دخلوا من باب القنطرة، و شقوا القاهرة إلى باب زويلة، و توجّهوا من الصّليبة من تحت الخانقاه الشيخونية من سويقة منعم إلى الرّميلة، و الخلق فى طول هذه المواضع تزدحم بحيث إن الرجل لا يسمع كلام رفيقه من كثرة زغاريط النّساء، التى صفّت على حوانيت القاهرة بالشوارع من غير أن يندبهم أحد لذلك. و الإعلان بالتكبير و التهليل، و من عظم التهانى.

هذا مع تخليق الزّعفران و الزينة المخترعة بسائر شوارع القاهرة حتى فى الأزقة- و فى الجملة كان هذا اليوم من الأيام التى لم نرها قبلها و لا سمعنا بمثلها- و ساروا على هذه الصّفة إلى أن طلعوا إلى القلعة من باب المدرّج، و هم مع ذلك فى ترتيب فى مشيهم

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۳۰۰

يذهب العقل؛ و هو أنهم قدّموا أوّلا الفرسان من الغزاة أمام الجميع، و من خلف الفرسان طوائف الرّجّالة من المطّوّعة و عشران البلاد الشّاميّة و عربان البلاد و زعر القاهرة، و من خلف هؤلاء الجميع الغنائم محمولة على رءوس الحمّالين، و على ظهور الجمال و الخيول و البغال و الحمير، و التى كانت على الرءوس فيها تاج الملك و أعلامه منكّسة و خيله تقاد من وراء الغنائم، ثم من بعدهم الأسرى من رجال الفرنج، ثم من بعدهم السّبى من النساء و الصّغار و هم أزيد من ألف أسير تقريبا سوى ما ذهب فى البلاد و القرى مع المطّوّعة و غيرهم من غير إذن مقدّم العساكر، و هو أيضا يقارب ما ذكر، و من وراء الأسرى جينوس ملك قبرس و هو راكب على بغل بقيد حديد، و أركب معه اثنان من خواصّه، و عن يمينه الأمير إينال الجكمىّ أمير مجلس، و أمامه قرا مراد خجا الشّعبانىّ أحد مقدّمى الألوف أيضا، و عن يساره الأمير تغرى بردى المحمودىّ رأس نوبة النّوب، و أمامه الأمير حسين المدعو تغرى برمش أحد مقدّمى الألوف أيضا، و أمامهم أمراء الطبلخانات و العشرات على مراتبهم، و أمراء البلاد الشاميّة.

و ساروا على هذه الصّفة حتى طلعوا إلى القلعة فأنزل جينوس عن البغل و كشف رأسه عند باب المدرّج، و قد احتاطه الحجّاب و أمراء جاندار، و قد صفت العساكر الإسلامية من باب المدرّج إلى داخل الحوش السلطانى.

فلما دخل جينوس من باب المدرّج قبّل الأرض، ثم قام و مشى و معه الأمراء من الغزاة و الحجّاب و رءوس النّوب و هو يرسف فى قيوده على مهل لكثرة الزّحام.

هذا و قد جلس الملك الأشرف بالمقعد الذى على باب البحرة المقابل لباب الحوش السّلطانى فى موكب عظيم من الأمراء و الخاصّكيّة، و عنده الشريف بركات بن حسن بن عجلان أمير مكة، و هو جالس فوق الأمراء، و رسل خوند كار مراد بن عثمان متملّك بلاد الرّوم، و رسل صاحب تونس من بلاد المغرب، و رسول الأمير عذرا أمير العرب بالبلاد الشّاميّة، و قد طال جلوس الجميع عند السلطان إلى قريب الظّهر، و السلطان يرسل إلى الغزاة رسولا بعد رسول باستعجالهم حتى اجتازوا بتلك الأماكن المذكورة؛ فإنها

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۳۰۱

مسافة طويلة، و أيضا لا يقدرون على سرعة المشى من كثرة ازدحام الناس بالطرقات، ثم ساروا من باب المدرج إلى أن دخلوا باب

الحوش، فلمّا رأى متملك قبرس السلطان و هو جالس على المقعد المذكور فى موكبه و أمره من معه بتقبيل الأرض غشى عليه و سقط إلى الأرض، ثم أفاق و قبل الأرض و قام على قدميه عند باب الحوش تجاه السلطان على بعد، و سارت الغنائم بين يدى السلطان حتى عرضت عليه بتمامها و كمالها، ثم الأسرى بأجمعهم حتى انتهى ذلك كله، فتقدّمت الأمراء الغزاة و قبلوا الأرض على مراتبهم إلى أن كان آخرهم الأمير إينال الجكمىّ مقدّم العساكر.

ثم أمر السلطان بإحضار متملّك قبرس فتقدّم و مشى و هو بقيوده و رأسه مكشوفة، و بعد أن مشى خطوات أمر فقبّل الأرض، ثم قام، ثم قبّل الأرض ثانيا بعد خطوات، و أخذ يعفّر وجهه فى التّراب، ثم قام فلم يتمالك نفسه- و قد أذهله ما رأى من هيبة الملك و عزّ الإسلام- فسقط ثانيا مغشيا عليه، ثم أفاق من غشوته و قبّل الأرض، و أوقف ساعة بالقرب من السلطان بحيث إنه يتحقّق شكله، هذا و الجاويشيّة تصيح و الشّبابة السلطانية تزعق و الأوزان يضرب على عادته، و رءوس النّوب و الحجّاب تهول الناس بالعصى من كثرة العساكر، و الناس بالحوش المذكور، هذا مع ما الناس فيه من التّهليل و التّكبير بزقاقات القلعة، و أطباق المماليك السلطانية و غيرها.

ثم أمر السلطان بجينوس المذكور أن يتوجّه إلى مكان بالحوش السلطانى، فمروا به فى الحال إلى المكان المذكور.

ثم طلب السلطان مقدّمى عساكر الغزاة من أمراء مصر و الشام و الخاصّكيّة المقدّم كل واحد منهم على مركب، و كانوا كثيرا جدا؛ لأن عدّة مراكب الغزاة المصريين و الشاميين زادت على مائة قطعة، و قيل مائتان، و قيل أكثر أو أقل ما بين أغربة، و قراقير، و زوارق و غير ذلك، فأوّل من بدأ بهم السلطان و خلع عليهم أمراء الألوف

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۳۰۲

بمصر و الشام، و خلع على كل واحد منهم أطلسين متمّرا، و قيّد له فرسا بقماش ذهب، و هم الأمير إينال الجكمى أمير مجلس، و الأمير تغرى بردى المحمودىّ الناصرى رأس نوبة النّوب، و الأمير قرا مرادخجا الشّعبانى الظاهرى برقوق أمير جاندار و الأمير حسين بن أحمد المدعو تغرى برمش البهسنىّ التّركمانىّ أحد مقدّمى الألوف، و الأمير طوغان السّيفى تغرى بردى أحد مقدّمى الألوف بدمشق، ثم أمراء الطبلخانات و العشرات من أمراء مصر و الشام على كل واحد فوقانى حرير كمخا أحمر و أخضر و بنفسجىّ بطرز زركش على قدر مراتبهم، و كذلك كل مقدّم مركب من الخاصّكيّة و الأجناد و غيرهم، فكان هذا اليوم يوما عظيما جليلا لم يقع مثله فى سالف الأعصار، أعزّ اللّه تعالى فيه دين الإسلام و أيّده و خذل فيه الكفر و بدّده.

ثم انفض الموكب و نزل كلّ واحد إلى داره، و قد كثرت التهانى بحارات القاهرة و ظواهرها لقدوم المجاهدين حتى إن الرّجل كان لا يجتاز بدرب و لا حارة إلا وجد فيها التخليق بالزّعفران و التهانى، ثم أمر السلطان بهدم الزينة فهدمت، و كان لها مدّة طويلة.

ثم أصبح السلطان من الغد و هو يوم الثلاثاء تاسع شوّال جمع التّجّار لبيع الغنائم من القماش و الأوانى و الأسرى.

ثم أرسل السلطان يطلب من متملك قبرس المال، فقال: مالى إلا روحى و هى بيدكم، و أنا رجل أسير لا أملك الدرهم الفرد، من أين تصل يدى إلى مال أعطيه لكم؟

و تكرّر الكلام معه بسبب ذلك و هو يجيب بمعنى ما أجاب به أوّلا، حتى طلبه السلطان بالحوش- و كان به أسارى الفرنج- فلما حضر بين يدى السّلطان و قبّل الأرض و أوقف و شاهده الأسرى من الفرنج فى تلك الحالة صرخوا بأجمعهم صرخة واحدة، و حثوا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۳۰۳

التراب على رءوسهم، و السلطان ينظر إليهم من مجلسه بالمقعد الذى كان جلس به من أمسه، و سبب صراخ الأسرى و عظيم بكائهم أنه كان فيهم من لا يصدق أنّ ملكهم قد أسر لكثرتهم و تفرقهم فى المراكب، و الاحتفاظ بهم، و عدم اجتماع بعضهم على بعض، فكان إذا قيل لبعضهم إن ملككم معنا أسيرا يضحك، ثم يقول: أين هو؟ فإذا قيل له بهذه المركب و يشار إلى مركب الأمير تغرى بردى المحمودىّ يهزأ بذلك و يتبسم، فلما عاينوه تحقّقوا أسره فهالهم ذلك، و قيل إنّ بعض سبى الفرنج سألت من رجل من المسلمين- لما كسروا الصليب الكبير الذى يعرف به جبل الصليب ببلادهم، و كان هذا الصليب معظما عندهم إلى الغاية- و قالت:

نحن إذا حلف منا رجل أو امرأة على هـذا الصّـليب باطلا أوذى فى الوقت، و أنتم قـد كسـر تموه و أحرقتموه و لم يصـبكم بأس، ما سبب ذلك؟ فقال لها الرجل: أنتم أطعتم الشيطان فصار يغويكم و يستخفّ بعقولكم، و نحن قد هدانا اللّه للإسلام و أنزل علينا القرآن فلا سبيل له علينا، فعنـد ما كسـرناه بعد أن ذكرنا اسم اللّه تعالى عليه فرّ منه الشـيطان و ذهب إلى لعنة اللّه، فقالت المرأة: هو ما قلته، و أسلمت هى و جماعة معها- انتهى.

و لما أوقف جينوس المذكور بالحوش بين يدى السـلطان، و أوقف معه جماعة من قناصـلة الفرنج ممن كان بمصر و أعمالها، و تكلم الترجمان معه فيما يفدى به نفسه من المال و إلا يقتله السـلطان، صـمم هو على مقالته الأولى، فالتزم القناصلة عنه بالمال لفدائه من غير تعيين قدر بعينه، ... و لكنهم أجابوا السلطان بالسمع و الطاعة فيما طلبه، و عادوا بجينوس إلى مكانه من الحوش و الترسيم عليه، و كان الـذى رسم عليه السّـيفى أركماس المؤيـدى الخاصـكى المعروف بأركماس فرعون، و أقام جينوس بمكانه إلى يوم الأربعاء، فرسم له السـلطان ببدلتين من قماشه، و أمر له بعشرين رطل لحم فى كل يوم، و ستة أطيار دجاج، و خمسمائة درهم فلوسا برسم حوائج الطعام، و فسـح له فى الاجتماع بمن يختاره من الفرنـج و غيرهم، و أدخل إليه جماعة من حواشـيه لخدمته، كلّ ذلك و السـلطان مصـمم على طلب خمسمائة ألف دينار منه يفدى بها نفسه و إلّا يقتله، و الرسل

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۳۰۴

تتردّد بينهم من التراجمين و القناصـلة إلى أن تقرر الصلح بعد أيّام على أنه يحمل مائتى ألف دينار يقوم منها بمائة ألف دينار عاجلة، و إذا عاد إلى بلاده أرسل بالمائة ألف دينار الأخرى، و ضـمنه جماعة فى ذلك، و أنه يقوم فى كل سـنة بعشـرين ألف دينار جزية، و اشترط جينوس مع السـلطان أن يكف عنه طائفـة البنادقـة و طائفـة الكيتلان من الفرنـج، فضـمن له السـلطان ذلك، و انعقد الصـلح ثم أطلقه من السجن بعد أيام كما سنذكره فى يومه.

هذا ما كان من أمر صاحب قبرس و غزوه [انتهى].

و أمـا أمور المملكـة فـإنه لمـا كـان يوم الخميس حـادى عشـر شوّال المـذكور سافر الشـريف بركات [بن حسن] من القاهرة إلى مكّة المشرفة أميرا بها مكان والده [حسن].

ثم فى يوم الاـثنين خـامس عشـر شوّال خلع السـلطان على الأمير إينال الجكمى أمير مجلس باسـتقراره أمير سـلاح عوضا عن الأتابك يشـبك الأعرج، و كانت شاغرة عنه من يوم صار أتابك العساكر لغيبة إينال هذا فى الجهاد، و خلع على الأمير جرباش الكريمى قاشق حـاجب الحجـاب باسـتقراره أمير مجلس عوضـا عن إينـال الجكمىّ، و خلع على الأمير قرقماس الشـعبانى الناصـرى باسـتقراره حاجب الحجاب بالديار المصرية عوضا عن جرباش المذكور.

ثم فى ثامن عشـره خلع السـلطان على الشّـريف خشـرم بن دوغان بن جعفر الحسـينى باستقراره أمير المدينة النبويّة عوضا عن الشريف عجلان بن نعير بن منصور بن جمّاز، على أنه يقوم بخمسة آلاف دينار، و وقع بسبب ولاية خشرم هذا بالمدينة حادثة قبيحة،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۳۰۵

و هى أن خشـرما المذكور لما قدم المدينة و قد رحل عنها المعزول عنها و هو الشريف عجلان بن نعير لما بلغه عزله، فلم يلبث خشرم بالمدينـة غير ليلة واحدة و صبّحه عجلان بجموعه- و قد حشد العربان- و قاتل الشـريف خشـرما و حصـره ثلاثة أيّام حتى كسـروه، و دخـل العرب المدينـة و نهبوا دورهـا، و شـعّثوا أسوارهـا، و أخـذوا مـا كـان للحجّاج الشاميّين من ودائع و غيرها، و قبضوا على خشـرم المذكور ثم أطلقوه بسبب من الأسباب، و استهانوا بحرمة المسجد، و ارتكبوا عظائم. كل ذلك فى أواخر ذى القعدة.

ثم فى يوم الخميس ثـانى عشـرين ذى الحجـة قـدم الأمير جار قطلو الظاهرى برقوق نائب حلب، فطلع إلى القلعـة و قبّل الأرض و خلع السـلطان عليه خلعة الاسـتمرار على نيابته، و اسـتمرّ بالقاهرة إلى يوم السـبت أول محرم سـنة ثلاثين و ثمانمائة خلع السـلطان عليه خلعة السّفر و خرج من يومه إلى محل كفالته،

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۳۰]

ثم فی یوم الخمیس سادس المحرم خلع السلطان علی الأمیر أزدمر من علی خان الظاهری أحد مقدمی الألوف بدیار مصر المعروف بشایا باستقراره فی حجوبیة حلب، قلت: درجة إلی أسفل؛ فإنه یستحق ذلک و زیادة، لما کان یشتمل علیه من المساوئ و القبائح، لا أعرف فی أبناء جنسه أقذر منه؛ کان دمیم الخلق مذموم الخلق، بشع المنظر، کریه المعاشرة، بخیلا متکبرا، ظالما جبّارا، هذا مع الجبن و الجهل المفرط و عدم التفات الملوک إلیه فی کل دولة من الدّول، و عدّ إخراجه من مصر من حسنات الملک الأشرف، و أنا أقول: لو کان الرّجل یرزق علی قدر معرفته، و ما یحسنه من الفضائل و الفنون لکانت رتبة أزدمر هذا أن یکون صبیّا لبعض أوباش السّراباتیّة، و قد استوعبنا مساوئه فی ترجمته فی تاریخنا المنهل الصافی و المستوفی بعد الوافی- انتهی.

ثم أخذ السلطان فی الفحص علی جائی بک الصّوفیّ علی عادته.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۳۰۶

و أهلّ شهر ربیع الأوّل، ففی لیلة الجمعة رابعه عمل السلطان المولد النبویّ بالحوش من قلعة الجبل.

ثم فی یوم السبت حادی عشرینه أفرج السلطان عن جینوس متملّک قبرس من سجنه بقلعة الجبل، و خلع علیه، و أرکبه فرسا بسرج ذهب و کنبوش زرکش، و نزل إلی القاهرة فی موکب، و أقام بدار أعدّت له، و قد استقرّ أرکماس المؤیّدی المعروف بفرعون مسفّره، و صار یرکب من منزله المذکور و یمرّ بشوارع القاهرة و یزور کنائس النّصاری و معابدهم، و یتوجّه إلی حیث اختار من غیر حجر علیه، بعد أن أجری السلطان علیه من الرّواتب ما یقوم به و بمن فی خدمته، هذا و الخدم تأتیه من النصاری و الکتّاب و القناصلة، و حضرت أنا معه فی مجلس فرأیت له ذوقا و معرفة عرفت منه بالحدس کونه لا یعرف باللغة العربیة.

و لما کان یوم الخمیس سابع جمادی الأولی خلع السلطان علی الأمیر جرباش الکریمیّ قاشق أمیر مجلس باستقراره فی نیابة طرابلس عوضا عن الأمیر قصروه من تمراز بحکم انتقال قصروه إلی نیابة حلب، عوضا عن جار قطلو بحکم عزل جار قطلو و قدومه إلی القاهرة.

و فیه قدم رسول صاحب رودس الفرنجیّ فأرکب فرسا و فی صدره صلیب و أطلع إلی القلعة، و قبّل الأرض بین یدی السلطان و سأل عن مرسله صاحب رودس أنه طلب الأمان، و أنه یسأل أن یعفی من تجهیز العساکر [الإسلامیة] إلیه، و أن یقوم للسلطان بما یطلبه منه، و کان السلطان تکلّم قبل تاریخه فی غزوة رودس المذکورة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۳۰۷

ثم فی یوم الخمیس خامس جمادی الآخرة خلع السلطان علی جینوس بن جاک متملّک قبرس خلعة السّفر.

ثم فی یوم الثلاثاء عاشر جمادی الآخرة المذکورة أمسک السلطان الأمیر تغری بردی المحمودیّ رأس نوبة النّوب بعد فراغه من لعب الکرة بالحوش السلطانی، فقبض علی تغری بردی المذکور و هو بقماش لعب الکرة، و قیّد و أخرج من یومه إلی سجن الإسکندریة، و لم یعلم أحد ذنبه عند السلطان حتی و لا تغری بردی المذکور؛ فإنی سألته فیما بعد فقال: لا أعلم علی ما ذا أمسکت، غیر أن المقریزی ذکر أنه له ذنوب و أسباب فی مسکه نذکرها بعد أن نذکر قصّة مباشره.

و اتّفق فی مسکه حادثة غریبة، و هو أن رجلا من مباشریه یقال له ابن الشّامیّة کان بخدمته، فلمّا بلغه القبض علیه شقّ علیه ذلک، و خرج إلی جهة القلعة لیسلّم علیه فوافی نزوله من القلعة مقیّدا إلی الإسکندریة، فصار یصیح و یبکی و یستغیث و هو ماش معه حتی وصل إلی ساحل النّیل، و وقف حتی أحدر أستاذه تغری بردی المحمودی فی الحرّاقة إلی جهة الإسکندریة، فلمّا عاین سفره اشتد صراخه إلی أن سقط میتا، فحمل إلی داره و غسّل و کفّن و دفن.

ثم خلع السلطان علی الأمیر أرکماس الظاهری باستقراره رأس نوبة النّوب عوضا عن تغری بردی المذکور، و أنعم علیه بإقطاعه أیضا،

و أنعم بإقطاع أركماس المذكور و تقدمته على الأمير قانى باى الأبوبكرىّ الناصرىّ المعروف بالبهلوان ثانى رأس نوبة، و أنعم بطبلخانات قانى باى على سودون ميق الأمير آخور الثانى، و خلع على الأمير إينال العلائى الناصرى باستقراره رأس نوبة ثانيا عوضا عن قانى باى البهلوان المذكور، و إينال هذا هو الملك الأشرف إينال سلطان زماننا.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۳۰۸

و أمّا ما وعدنا بذكره من قول المقريزى فى سبب مسك تغرى بردى المذكور قال: و هذا المحمودى من جملة مماليك الملك الناصر فرج، فلما قتل [فرج] خدم عند [الأمير] نوروز الحافظىّ بدمشق، و صار له ميزة عنده، فلما قتل نوروز سجنه الملك المؤيّد شيخ بقلعة المرقب، فما زال محبوسا بها حتى تنكّر المؤيّد على الأمير برسباى الدّقماقى نائب طرابلس و سجنه بالمرقب مع المحمودى، و إينال الشّشمانىّ، فرأى تغرى بردى المحمودى فى ليلة من الليالى مناما يدلّ على أن برسباى يتسلطن، فأعلمه به، فعاهده على أن يقدّمه إذا تسلطن و لا يعترضه بمكروه، فلمّا كان من سلطنة الملك الأشرف برسباى ما كان، و تقدمته للمحمودى فيما مضى، و تمادى الحال إلى أن بات بالقصر على عادته، فقال لبعض من يثق به من المماليک ما تقدّم من منامه بالمرقب و أنه وقع كما رأى [و أنه] أيضا رأى مناما يدلّ على أنه يتسلطن و لا بدّ، فوشى ذلك المملوک به للسلطان فحرّک منه كوامن، منها: أنه صار يقول لما حججنا أحضرت ابن عجلان، و لما مضيت إلى قبرس أسرت ملكها، أين كان الأشرف حتى يقال هذا بسعده؟ و اللّه ما كان هذا إلا بسعدى، و تنقل كل ذلک إلى السلطان- انتهى كلام المقريزى بتمامه.

ثم فى يوم الاثنين أوّل شهر رجب قدم الخبر على السلطان بموت الملک المنصور عبد اللّه ابن الملک الناصر أحمد صاحب اليمن، و أن أخاه ملک بعده و لقّب بالأشرف إسماعيل.

ثم فى يوم الاثنين ثامن شهر رجب قدم الأمير جار قطلو المعزول عن نيابة حلب إلى القاهرة، و طلع إلى القلعة، و قبّل الأرض فخلع عليه السلطان باستقراره أمير مجلس عوضا عن جرباش قاشق بحكم انتقال جرباش إلى نيابة طرابلس حسبما تقدم ذكره.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۳۰۹

ثم فى تاسع عشر رجب المذكور توجّه الزينى عبد الباسط ناظر الجيش على الهجن إلى حلب لعمارة سورها و لغير ذلک من المهمّات السلطانية بعد ما قدّم عدّة خيول قبل ذلک بأيّام.

ثم فى يوم الخميس أوّل شهر رمضان فتح الجامع الذى أنشأه الأمير جانى بک الأشرفى الدّوادار الثانى بالشارع الأعظم خارج باب زويلة بخط القربيّين، و أقيم به الجمعة فى يوم الجمعة ثانيه.

ثم فى سابع عشر شهر رمضان المذكور قدم عبد الباسط إلى القاهرة من حلب و طلع إلى القلعة، و خلع السلطان عليه.

ثم فى ثالث عشرينه طلع زين الدين عبد الباسط بهديّة إلى السلطان فيها مائتا فرس، و حلى كثير ما بين زركش و لؤلؤ و قماش مذهّب برسم السلطان و ثياب صوف و فرو و غيره.

ثم فى عاشر ذى القعدة قدم الخبر على السلطان بأن قاضى قضاة دمشق نجم الدين عمر بن حجّى وجد مذبوحا على فراشه ببستانه بالنّيرب خارج دمشق، و لم يعرف قاتله و اتّهم الناس الشريف كاتب سرّ دمشق ابن الكشک و عبد الباسط بالممالأة على قتله، و راحت على من راحت، و كان ابن حجّىّ المذكور من أعيان أهل دمشق و فضلائهم، و قد تقدّم من ذكره نبذة فى ولايته كتابة سرّ مصر قبل تاريخه.

ثم فى رابع عشر ذى القعدة، خلع السلطان على الأمير قانى باى البهلوان أحد مقدّمى الألوف بمصر باستقراره فى نيابة ملطية زيادة على ما بيده من إقطاع تقدمة ألف بديار

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۳۱۰

مصر عوضا عن أزدمر شايا المقدّم ذكره لعجزه عن القيام بقتال التّركمان، و أعيد أزدمر شايا إلى إقطاعه بحلب كما كان أوّلا.

ثم فى يوم الاثنين سلخ ذى القعدة خلع السلطان على بهاء الدين محمد ابن القاضى نجم الدين عمر بن حجى باستقراره قاضى قضاة دمشق عوضا عن والده بحكم وفاته، و ولى بهاء الدين هذا القضاء قبل أن يستكمل عذاره.

ثم فى سابع عشرين ذى الحجة قدم مبشّر الحاج و أخبر بسلامة الحاجّ و رخاء الأسعار بمكة، و أنه قرىء مرسوم السلطان بمكة المشرّفة فى الملأ بمنع الباعة من بسط البضائع أيام الموسم فى المسجد الحرام، و من ضرب الناس الخيام بالمسجد المذكور، و من تحويل المنبر فى يوم الجمعة و العيدين من مكانه إلى جانب الكعبة حتى يسند إليها، فأمر أن يترك مكانه مسامتا لمقام إبراهيم الخليل عليه السلام، و يخطب الخطيب عليه هناك، و أن تسدّ أبواب المسجد بعد انقضاء الموسم إلا أربعة أبواب من كل جهة باب واحد، و أن تسدّ الأبواب الشارعة من البيوت إلى سطح المسجد، فامتثل جميع ذلك.

قال المقريزى: و أشبه هذا قول عبد اللّه بن عمر رضى اللّه عنه و قد سأله رجل عن دم البراغيث فقال: عجبا لكم يا أهل العراق تقتلون الحسين بن على و تسألون عن دم البراغيث!! و ذلك أن مكة استقرّت دار مكس حتى إنه يوم عرفة قام المشاعليّ- و الناس بذلك الموقف العظيم يسألون اللّه مغفرة ذنوبهم- فنادى معاشر الناس كافة، من اشترى بضاعة و سافر بها إلى غير القاهرة حلّ دمه و ماله للسلطان، فأخذ التجار القادمون من الأقطار حتى صاروا مع الركب المصرى على ما جرت به هذه العادة المستجدة منذ سنين لتؤخذ منهم مكوس بضائعهم، ثم إذا ساروا من القاهرة إلى بلادهم من البصرة و الكوفة و العراق أخذ منهم المكس ببلاد الشّام و غيرها، فهذا لا ينكر و تلك الأمور بعثنا بإنكارها- انتهى كلام المقريزى.

قلت: أنا لا أتابعه على ما أعاب، و أبلق خير من أسود، و كونه رسم بردّ التجار

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۳۱۱

إلى الدّيار المصرية لتؤخذ منهم المكوس لا يلزم أنه لا يفعل معروفا آخر، و أما جميع ما أبطله و رسم بمنعه ففيه غاية الصلاح و التعظيم للبيت العتيق، أما منع الباعة بالحرم فكان من أكبر [المصالح و] المعروف، فإنه كان يقوم الشخص فى طوافه و عبادته و أذنه ملأى من صياح الباعة و الغوغاء من كثرة ازدحام الشّراة، و أما نصب الخيام فكان من أكبر القبائح، و لعل اللّه تعالى يغفر للملك الأشرف جميع ذنوبه بإبطال ذلك من الحرم الشريف، فإنه قيل إن بعض الناس كان إذا نصب خيامه بالمسجد الحرام نصب به أيضا بيت الراحة و حفر له حفرة بالحرم، و فى هذا كفاية، و أما تحويل المنبر فإنه قيل للسلطان إن المنبر فى غاية ما يكون من الثقل، و أنه كلما ألصق بالبيت الشريف انزعج منه و تصدّع، فمنع بسبب ذلك، و قد صار الآن يحول إلى القرب من البيت، غير أنه لا يلصق به، فحصلت المصلحة من الجهتين، و أما غلق أبواب المسجد فى غير أيّام الموسم إلا أربعة فيعرف فائدة ذلك من جاوره بمكة، و يطول الشرح فى ذكر ما يتأتى من ذلك من المفاسد، و إن كان فيه بعض مصلحة لسكان مكة- انتهى.

ثم فى رابع عشرين ذى الحجة قبض بالمدينة على أميرها الشريف خشرم بن دوغان ابن جعفر بن هبة اللّه بن جمّاز بن منصور بن جمّاز، فإنه لم يقم بالمبلغ الذى وعد به، و استقرّ عوضه فى إمرة المدينة الشريفة مانع بن على بن عطية بن منصور بن جمّاز بن شيحة بن هاشم بن قاسم بن مهنّأ بن داود بن قاسم بن عبد اللّه بن طاهر بن يحيى بن الحسين بن جعفر بن الحسين بن على بن أبى طالب [كرم اللّه وجهه].

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۳۱]

ثم فى يوم الجمعة ثالث المحرم سنة إحدى و ثلاثين و ثمانمائة قدم الحمل من جزيرة قبرس و مبلغه خمسون ألف دينار مشخّصة، فرسم السلطان بضربها دنانير أشرفيّة، فضربت بقلعة الجبل و السلطان ينظر إليها إلى أن تمّت.

ثم فى يوم السبت حادى عشر المحرّم المذكور ركب السلطان من قلعة الجبل بغير

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۳۱۲

قماش الخدمة و نزل إلى دار الأمير جانى بک الأشرفى الدّوادار الثانى بحدرة البقر ليعوده فى مرضه.

ثم فى يوم الأربعاء ثانى عشرينه قدم الركب الأوّل من الحاج، و قدم المحمل من الغد ببقية الحاجّ، و معهم الشريف خشرم فى الحديد، و قدم معهم أيضا الأمير بكتمر السّعدى من المدينة، و كان له بها من العام الماضى.

ثم فى يوم الثلاثاء ثانى عشر صفر من سنة إحدى و ثلاثين خلع السلطان على قاضى القضاة محبّ الدين أحمد بن نصر اللّه البغدادى الحنبلى، و أعيد إلى قضاء الحنابلة بالديار المصرية بعد عزل قاضى القضاة عز الدين عبد العزيز الحنبلى و لم يكن عزل عزّ الدين المذكور لسوء سيرته بل إنه سار فى القضاء على طريق غير معتادة، و هو أنه صار يمشى فى الأسواق و يشترى ما يحتاجه بيده من الأسواق، و إذا ركب أردف خلفه على بغلته عبده، و يمر على هذه الهيئة بجميع شوارع القاهرة، و كان كثير التردد إلىّ فى كل وقت، لأنه كان من جمله أصحاب الوالد، فكان يأتى من المدرسة الصالحيّة ماشيا، و يجلس حيث انتهى به المجلس، فلم يحسن ذلک ببال أعيان الدّولة، و حملوه على أنه يفعل ذلک تعمدا ليقال، و قالوا للسلطان- و كان له إليه ميل زائد-: هذا مجنون، و لا زالوا به حتى عزله و أعاد القاضى محب الدين.

ثم فى يوم الثلاثاء تاسع عشر صفر المذكور ركب السلطان من القلعة بغير قماش الخدمة- و قد صار ركوب السلطان بغير قماش الخدمة عادة، و كان يقبح ذلک فى سالف الأعصار، و أول من فعل ذلک الملک الناصر فرج، ثم المؤيد، ثم الأشرف [هذا].

انتهى- و سار حتى شقّ القاهرة و دخل من باب زويلة و خرج من باب النّصر إلى خليج الزعفران، فرأى البستان الذى أنشأه هناک، و عاد من خارج القاهرة على تربته

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۳۱۳

التى عمّرها بجوار تربة الملک الظاهر برقوق بالصحراء ثم سار حتى طلع إلى القلعة، ثم فى ليلة الجمعة سابع شهر ربيع الأوّل قرىء المولد النبوىّ بالحوش السلطانى من قلعة الجبل على العادة.

ثم فى يوم الخميس ثالث عشر شهر ربيع الأوّل المذكور أنعم السلطان بإقطاع الأمير بكتمر السعدى على الأمير قجقار السيفى بكتمر جلّق الزردكاش المعروف بجغتاى،- و الإقطاع إمرة طبلخاناه- بعد موت بكتمر السّعدىّ، و كان بكتمر من محاسن الدّهر معدودا من أرباب الكمالات، كان فقيها جنديا شجاعا عالما، هينا قويا عاقلا، مقداما عفيفا لطيفا، لا أعلم فى أبناء جنسه من يدانيه أو يقاربه فى كثرة محاسنه، صحبته سنين، و انتفعت بفضله و معرفته و أدبه، و قد استوعبنا ترجمته فى [تاريخنا] المنهل الصافى، و يأتى ذكره أيضا فى الحوادث من هذا الكتاب فى محله إن شاء اللّه تعالى، و لهو أحقّ بقول القائل: [الكامل]

عقم النّساء فما يلدن شبيهه إنّ النساء بمثله عقم

ثم فى آخر شهر ربيع الأوّل استقر تمرباى التّمربغاوى الدوادار الثالث دوادارا ثانيا بعد موت الأمير جانى بک [الأشرفى] الدّوادار، و لم ينعم عليه بإمرة إلا بعد مدة طويلة أنعم عليه بإمرة عشرة، و أما جانى بک يأتى ذكره فى الوفيات مطوّلا [إن شاء اللّه تعالى]

ثم فى شهر ربيع الآخر من هذه السنة تشكّى التجار الشاميّون من حملهم البضائع

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۳۱۴

التى يشترونها من بندر جدّة إلى القاهرة، فوقع الاتفاق على أن يؤخذ منهم بمكّة عن كل حمل- قلّ ثمنه أو كثر- ثلاثة دنانير و نصف، و أن يعفوا عن حمل ما يقبضونه من جدّة إلى مصر، فإذا حملوا ذلک إلى دمشق أخذ منهم مكسها هناک على ما جرت به العادة، و تم ذلک.

قال المقريزى: و فى هذا الشهر- يعنى عن جمادى الأولى من سنة إحدى و ثلاثين و ثمانمائة- كانت الفتنة الكبيرة بمدينة تعز من اليمن؛ و ذلک أن الملک الأشرف إسماعيل ابن الملک الأفضل عباس ابن المجاهد على ابن المؤيد داود ابن المظفر يوسف ابن المنصور عمر بن على بن رسول [صاحب اليمن] لما مات قام من بعده ابنه [الملک الناصر أحمد ابن الأشرف إسماعيل، و قام بعد

الناصـر أحمد ابنه] الملک المنصور عبد اللّه فى جمادى الآخرة سنة سبع و عشرين و ثمانمائة، و مات فى جمادى الآخرة سنة ثلاثين و ثمانمائـة، فأقيم بعـده أخوه الملک الأشـرف إسـماعيل بن أحمـد الناصـر فتغيّرت عليه نيّات الجنـد كافـة من أجل وزيره شـرف الدين إسـماعيل بن عبـد اللّه بن عبـد الرحمن بن عمر العلوى، فإنه أخّر صـرف جوامكهم و مرتّبـاتهم، فتغيرت منه القلوب، و كثرت حسّاده لاسـتبداه على السلطان و انفراده بالتصرّف دونهم، و كان يليه فى الرّتبة الأمير شمس الدين على بن الحسام ثم القاضى نور الدين على المحالبى مشـدّ الاستيفاء، فلما اشـتدّ الأمر على العسـكر و كثرت إهانة الوزير لهم. و إطراحه جانبهم ضاقت عليهم الأحوال حتى كادوا أن يموتوا جزعـا، فاتّفق تجهيز خزانـة من عـدن و برز الأمر بتوجّه طائفـة من العبيـد و الأتراک إليها لتلقّيها، فسألوا أن ينفق فيهم أربعة دراهم

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۳۱۵

لكل [واحد] منهم يرتفق بها، فامتنع الوزير ابن العلوىّ من ذلک، و قال:

ليمضوا غضـبا إن كان لهم غرض فى الخدمة، و حين وصول الخزانة يكون خيرا و إلا ففسح اللّه لهم فما للدهر بهم حاجة، و السـلطان غنىّ عنهم، فهيّـج هـذا القول خفـاء بواطنهم، و تحالف العبيـد و الترک على الفتک بالوزير، و إثارة فتنـة، فبلغ الخبر السـلطان فأعلم به الوزير، فقال: ما يسوّوا شيئا، بل نشنق كلّ عشرة فى موضع، و هم أعجز من ذلک.

فلمـا كـان يوم الخميس تاسع جمادى الأولى هـذه قبيل المغرب هجم جماعـة من العبيـد و الترک دار العـدل بتعزّ، و افترقوا أربع فرق: فرقة دخلت من باب الدار، و فرقة دخلت من باب السر، و فرقة وقفت تحت الدار، و فرقة أخذت بجانب آخر، فخرج إليهم الأمير سنقر أمير جاندار فهبروه بالسّيوف حتى هلک و قتلوا معه عليا المحالبى مشدّ الدّواوين و عدّة رجال، ثم طلعوا إلى الأشرف و قد اختفى بين نسائه و تزيّا بزيّهن فأخذوه، و مضوا إلى الوزير العلوى فقال لهم: ما لكم فى قتلى فائدة، أنا أنفق على العسكر نفقة شهرين، فمضوا إلى الأمير شـمس الدين على بن الحسام فقبضوا عليه و قد اختفى، و سـجنوا الأشـرف فى طبقة المماليک و وكلوا به، و سـجنوا ابن العلوى الوزير و ابن الحسام قريبا من الأشـرف و وكلوا بهما، و قد قيدوا الجميع، و صار كبير هذه الفتنة برقوق من جماعة الأتراک، فصـعد هو و جماعـة ليخرج الملک الظاهر يحيى ابن الأشـرف إسـماعيل بن عباس من تعبات، فامتنع أمير البلـد من الفتح ليلا، و بعث الظاهر إلى برقوق أن يمهل إلى الصـبح، فنزل برقوق و نادى فى البلد بالأمان و الاطمئنان و البيع و الشـراء، و أن السـلطان هو الملک الظّاهر يحيى بن الأشـرف، هذا و قد نهب العسـكر عند دخولهم دار العدل جميع ما فى دار السلطنة، و أفحشوا فى نهبهم؛ فسلبوا الحريم ما عليهن، و انتهكوا منهن ما حرّم اللّه، و لم يدع فى الدار ما قيمته الدّرهم الفرد.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۳۱۶

فلمـا أصبح يوم الجمعـة عاشـره اجتمع بـدار العـدل التّرک و العبيـد و طلبوا بنى زيـاد و بنى السـنبلى و الخـدّام و سائر أمراء الدّولـة و الأعيـان، فلما تكامل جمعهم وقع بينهم الكلام فيمن يقيمونه، فقال بنو زياد: و ما ثمّ غير يحيى فاطلعوا له هـذه الساعـة، فقام الأمير زين الـدين جيّاش الكـاملى و الأمير برقوق و طلعا إلى تعبات فى جماعـة من الخـدّام و الأجناد فإذا الأبواب مغلقـة، فصاحوا بصاحب البلد حـتى فتـح لهم، و دخلوا إلى القصـر و سـلّموا على الظـاهر يحيى بالسـلطنة، و سـألوه أن ينزل معهم إلى دار العـدل، فقـال: حتى يصـل العسكر أجمع، ففكّوا القيد من رجليه، و طلبوا العسكر بأسرهم، فطلعوا بأجمعهم و أطلعوا معهم بعشرة جنائب، فتقدّم الترک و العبيد و قالوا للظاهر:

لاـ نبايعـک حتى تحلف لنـا أنّـک لاـ يحـدث علينا منک شـىء بسـبب هـذه الفعلـة و لا ما سـبق قبلها، فحلف لهم و هم يردّدون عليه الأيمان، و ذلک بحضـرة قاضى القضاة موفّق الدين على بن الناشرى، ثم حلفوا له على ما يحبّ و يختار، فلما انقضى الحلف و تكامل العسكر ركب و نزل إلى دار العدل بأبهة السلطنة، و دخلها بعد صلاة الجمعة، فكان يوما مشهودا، و عندما استقرّ بالدار أمر بإرسال ابن أخيه الأشـرف إسـماعيل إلى تعبـات فطلعوا به و قيّـدوه بالقيـد الـذى كـان الظّـاهر يحيى مقيّـدا به و سـجنوه بالـدّار التى كـان [الظاهر

مسجونا] بها، ثم حمل بعد أيّام إلى الدّملوة و معه أمّه و جاريته، و أنعم السلطان على أخيه الملک الأفضل عباس بما كان له، و خلع عليه و جعله نائب السلطنة كما كان أوّل دولة الناصر و خمدت الفتنة.

و كان الذى حرّک هذه الفتنة بنو زياد، فقام أحمد بن محمد بن زياد الكاملى بأعباء هذه الفتنة لحنقه من الوزير ابن العلوى، فإنه كان قد مالأ على قتل أخيه جيّاش و خذّل عن الأخذ بثأره، و صار يمتهن بنى زياد، ثم ألزم الوزير ابن العلوى و ابن الحسام

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۳۱۷

بحمل المال، و عصرا على كعابهما و أصداغهما، و ربطا من تحت إبطيهما و علّقا منكّسين، و ضربا بالشيب و العصىّ و هما يوردان المال، فأخذ من ابن العلوى- ما بين نقد و عروض- ثمانون ألف دينار، و من ابن الحسام مبلغ ثلاثين ألف دينار، و استقرّ الأمير برقوق أمير جاندار، و استقر الأمير بدر الدين محمد الشّمسى أتابک العساكر، و استقرّ ابنه العفيف أمير آخور، ثم استقرّ الأمير بدر الدين المذكور أستادارا، و شرع فى النفقة على العسكر، و ظهر من السلطان نبل و كرم و شهامة بحيث أطاعته العساكر بأجمعهم، فإن له قوة و شجاعة حتى [قيل] إن قوسه يعجز من عندهم من التّرک عن جرّه، و مدحه الفقيه يحيى بن رويک بقصيدة أولها: [الوافر]

بدولة ملكنا يحيى اليمانى بلغنا ما نريد من الأمانى

و عدّة القصيدة واحد و أربعون بيتا، و أجيز عليها بألف دينار. و بهذه الكائنة اختلّ ملک بنى رسول من اليمن- انتهى كلام المقريزى.

قلت: و قد خرجنا عن المقصود بطول هذه الحكاية، غير أن فى ذكرها نوعا من الأخبار و التعريف بالممالک، و لنرجع إلى ما نحن فيه من أحوال الملک الأشرف برسباى صاحب الترجمة.

و لما كان يوم الاثنين خامس جمادى الآخرة خلع السلطان على الأمير جارقطلو أمير مجلس باستقراره أتابک العساكر بالديار المصرية بعد موت الأمير الكبير يشبک السّاقى الأعرج، و كان يشبک الساقى المذكور من أفراد العالم، و هو أحد من أدركناه من الملوک من أهل المعرفة و الذّوق و الفضل و الرأى و التدبير، كما سنبينه فى ترجمة وفاته من هذا الكتاب [إن شاء اللّه].

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۳۱۸

ثم فى يوم السبت عاشر جمادى الآخرة المذكورة كتب [السلطان] بإحضار جرباش الكريمى المعروف بقاشق نائب طرابلس ليستقرّ أمير مجلس على عادته أوّلا- عوضا عن الأمير الكبير جارقطلو، و كتب إلى الأمير الكبير [طرباى] الظاهرى المقيم بالقدس بطّالا باستقراره فى نيابة طرابلس.

ثم فى يوم السبت أوّل شهر رجب عمل السلطان الخدمة بالإيوان بدار العدل من القلعة، و أحضرت رسل مراد بک بن عثمان متملک برصا و أدر نابولى و غيرهما من ممالک الرّوم، فكان موكبا جليلا أركب فيه الأمراء و المماليک السلطانية و أجناد الحلقة و غيرهم على عادة هيئة خدمة الإيوان من تلک الأشياء المهولة، و قد بطل خدم الإيوان من أيّام الملک الظاهر جقمق، و ذهب من كان يعرف ترتيبه، حتى لو أراد أحد من الملوک أن يفعله لا يمكنه ذلک.

ثم فى سابع شهر رجب المذكور خلع السلطان على القاضى كمال الدين بن البارزىّ- المعزول قبل تاريخه عن كتابة السّرّ ثم عن نظر الجيش بالديار المصرية- باستقراره فى كتابة سرّ دمشق عوضا عن بدر الدين حسين بحكم وفاته، من غير سعى فى ذلک، بل طلبه السلطان و ولّاه، و كان القاضى كمال الدين المذكور من يوم عزل من وظيفة نظر الجيش بعد كتابة السّرّ ملازما لداره على أجمل حالة، و أحسن طريقة من الاشتغال بالعلم و الوقار و السكينة، و هو على هيئة عمله من الحشم و الخدم، و بسط يديه بالإحسان لكل أحد، و تراداد الأكابر و الأعيان و الفضلاء إلى بابه، و سافر فى ثانى عشرينه.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۳۱۹

ثم فى حادى عشره أدير محمل الحاج على العادة فى كل سنة.

ثم فى ثالث عشرينه قدم الأمير جرباش الكريمى معزولا عن نيابة طرابلس فخلع السلطان عليه باستقراره أمير مجلس على عادته أوّلا،

كل ذلك و السلطان فى قلق من جهة جانى بك الصّوفىّ.

ثم فى عشرين شعبان خلع السلطان على الأمير قانصوه النّوروزىّ أحد أمراء الطبلخانات باستقراره فى نيابة طرسوس و أضيف إقطاعه إلى الديوان المفرد.

ثم فى يوم الثلاثاء ثامن عشرين شوّال أمسك السلطان الأمير قطج من تمراز أحد مقدّمى الألوف بالديار المصرية، ثم الأمير جرباش الكريمى قاشق أمير مجلس، فحمل قطج فى الحديد إلى الإسكندرية فسجن بها، و أخرج جرباش الكريمى بغير قيد إلى ثغر دمياط بطالا، كل ذلك بسبب جانى بك الصّوفىّ، و لما تحدّث السلطان نفسه بما يفعله من كثرة قلقه منه، و لهذا السبب أيضا أخرج قانصوه و غيره، و يأتى ذكر آخرين.

ثم خلع السلطان على الأمير إينال العلائى الناصرى رأس نوبة ثانى باستقراره فى نيابة غزّة عوضا عن تمراز القرمشى بحكم قدوم تمراز للدّيار المصرية، و أنعم السلطان بإقطاع إينال المذكور على الأمير تمرباى التّمر بغاوىّ الدّوادار الثانى، ثم كتب بإحضار الأمير بيبغا المظفرى من القدس، و كان نقل إلى القدس من دمياط من نحو شهر واحد، فقدم من القدس إلى القاهرة فى يوم الخميس حادى عشرين ذى القعدة و طلع إلى القلعة، و خلع السلطان عليه باستقراره أمير مجلس عوضا عن جرباش الكريمى قاشق، و منزلة أمير مجلس فى الجلوس عند السّلطان يكون ثانى الميمنة تحت الأمير الكبير، فلما ولى بيبغا هذا إمرة مجلس أجلسه السلطان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۳۲۰

على الميسرة فوق الأمير إينال الجكمى أمير سلاح لما سبق له من ولايته أتابكيّة العساكر بالديار المصرية قبل تاريخه، فصار فى الحقيقة رتبته أعظم من رتبة الأمير الكبير جار قطلو بجلوسه فوق أمير سلاح؛ لأن الأمير الكبير لا يمكنه الجلوس فوق أمير سلاح إلا لضرورة، و صار بيبغا هذا دائما جلوسه فوقه، غير أن إقطاع الأمير الكبير أكثر متحصلا من إقطاعه، و أيضا لالتفات السلطان إليه، فإنه كان أكثر كلامه فى الموكب السلطانى معه فى كل تعلقات المملكة، و ليس ذلك لمحبّته فيه غير أنه كان يداريه بذلك اتّقاء فحشه، و كان سبب القبض عليه أوّلا أن السلطان شكاله بعض الأجناد من ظلم كاشف التّراب، فقال الملك الأشرف: الكاشف ماله منفعة، فبادره بيبعا هذا فى الملأ و قال له: أنت ما عملت كاشف ما تعرف، فعظم ذلك على الأشرف و أسرّها فى نفسه، ثم قبض عليه، و كذا كان وقع لبيبغا المذكور مع الملك المؤيّد، حتى قبض عليه أيضا و حبسه، و كان هذا شأنه المغالظة مع الملوك فى الكلام، غير أنه كان مناصحا للملوك ظاهرا و باطنا، و لهذا كانت الملوك لا تبرح تغضب عليه ثم ترضى؛ لعلمهم بسلامة باطنه، و كان الملك الأشرف يمازحه فى بعض الأحيان، و يسلّط عليه بعض الجراكسة بأن يزدرى جنس التّتار و يعظّم الجراكسة، فإذا سمع بيبغا ذلك سبّ القائل و هجر عليه، و أخذ فى تفضيل الأتراك على طائفة الجراكسة فى الشّجاعة و الكرم و العظمة، فيشير عليه بعض أمراء الأتراك بالكف عن ذلك، فلا يلتفت و يمعن، و الملك الأشرف يضحك [من ذلك] و يساعده على غرضه حتى يسكت، و قيل إنه جلس مرّة فى مجلس أنس مع جماعة من الأمراء فأخذ بيبغا فى تعظيم ملك التّتارچنكز خان، و زاد و أمعن و اخترق اختراقات عجيبة، فقال له الأمير طقز الظّاهرىّ الچركسىّ: و أيش هو چنكز خان؟ فلما سمع بيبغا ذلك أخذ الطّبر و أراد قتل طقز حقيقة، و قال له: كفرت، فأعاقه الأمراء عنه حتى قام طقز من المجلس و راح إلى حال سبيله، و قيل إنه لم يجتمع به بعد ذلك، و مع

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۳۲۱

هذا كلّه كان لجنونه طلاوة و لانحرافه حلاوة، على أنه كان من عظماء الملوك و أحسنها طريقة.

ثم فى يوم الخميس سادس ذى الحجة من سنة إحدى و ثلاثين المذكورة أمسك السلطان الأمير أزبك المحمدى الدّوادار الكبير، و أخرجه من ليلته بطّالا إلى القدس بعد أن قبض [السلطان] على عدّة من خاصّكيّته، و لذلك أسباب أعظمها أمر جانى بك الصّوفىّ و أشياء أخر، منها: أن فى أواخر ذى القعدة بلغ السلطان أن جماعة من مماليكه و خاصّكيّته يريدون الفتك به و قتله ليلا، فقبض على جماعة منهم السّيفى سنطباى الأشرفى و غيره فى أيّام متفرقة، و نفى جماعة منهم إلى الشام و قوص بعد أن عاقب جماعة منهم،

فکثرت القالـة فی ذلک، قیل إنه سأل بعضـهم بأن قال: لو قتلتمونی من الـذی تنصّبونه بعدی فی السـلطنة؟ فقالوا: الأمیر أزبک، و قیل غیر ذلک، و أخـذ السـلطان فی الاسـتعداد و الحـذر، و سـقط علیه أیضا مرارا سـهام نشّاب من أطباق الممالیک السـلطانیة، فهـذا کان السـبب لقبض أزبک و غیره، و أنا أقول: إن جمیع ما وقع من مسک الأمراء، و ضـرب جماعة من الخاصّکیّة بالمقارع، و نفی بعضـهم إنما هو لسبب جانی بک الصّوفی لا غیر.

ثم فی یـوم السـبت ثـامنه خلـع السّـلطان علی الأـمیر أرکمـاس الظـاهری رأس نوبـة النّوب باسـتقراره دوادارا کـبیرا عوضـا عن أزبک المذکور، و خلع علی الأمیر تمراز القرمشیّ المعزول عن نیابة غزّة باستقراره رأس نوبة، و أنعم علیه بإقطاع أرکماس المذکور، و أنعم بإقطـاع تمراز الـذی کان السـلطان أنعم علیه به بعـد مجیئه من غزّة و هو تقدمـة ألف أیضا علی الأمیر یشـبک السّودونی شاد الشـراب خاناه، و أنعم بطبلخانات یشبک السّودونی علی الأمیر قراجا الأشرفی الخازندار، و خلع السلطان فی هذه الأیّام علی صفیّ الدین جوهر السّیفی قنقبای اللّالا باستقراره خازندارا عوضا عن الأمیر خشقدم

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۳۲۲

الظاهری الرّومی بحکم انتقاله زمّاما بعـد موت الأمیر کافور الشّـبلی الصّرغتمشـیّ الرّومی بعد وفاته فی السـنة الماضـیة، و کانت وظیفة الخازنداریـة شاغرة من یوم تاریخه، و السـلطان ینظر فیمن یولّیه من الخـدام من قـدماء خدام الملوک فرشّح مرجان خادم الوالد فخافه الخدّام من شدّة بأسه و حوّلوا الأشـرف عنه، و کان الطّواشـی جوهر الجلبّانیّ الحبشـیّ لالا ابن السـلطان له حنوّ و صحبة قدیمة بجوهر هذا فتکلّم السـلطان بسببه و نعته بالدین [و العفّة] و العقل و التّدبیر، و لا زال بالسـلطان حتی طلبه و ولّاه الخازنداریة دفعة واحدة؛ فإنه کان من أصاغر الخـدّام لم تسبق له رئاسة قبل ذلک، و إنما کان یعرف بین الخدام بأخی اللالا، فنال جوهر هذا من الحرمة و الوجاهة و الاختصاص بالملک الأشرف ما لم ینله خادم قبله- انتهی.

ثم فی سابع عشـرین ذی الحجـة من سـنة إحدی و ثلاثین المذکورة قدم مبشّـر الحاج العراقی و أخبر بسـلامة الحاج، و أنه قدم محمل العراق فی أربعمائة جمل جهّزه السـلطان حسین بن علی ابن السلطان أحمد بن أویس من الحلّة، و کان السلطان حسین هذا قد استولی علی شـشتر و الحلّة، و صاهر العرب فقوی بأسه بهم، و قاتل شاه محمد ابن قرا یوسف صاحب بغداد و تمّ أسره بهذه البلاد المذکورة، و جهّز الحاج و کان له سنین قد انقطع لاستیلاء هذا الزّندیق شاه محمد بن قرا یوسف [علی العراق]، فإنه کان محلول العقیدة لا یتدیّن بدین، و قتل العلماء و أباد الناس، و هو أحد أسباب خراب بغداد و العراق هو و أخوته کما سیأتی ذکره، و ذکر أقاربه فی

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۳۲۳

و فیات هذا الکتاب عند وفاتهم، و ذهاب روحهم الخبیثة اللعینة إلی جهنم و بئس المصیر.

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۳۲]

اشارة

ثم فی یوم الاثنین خامس عشر المحرم سنة اثنتین و ثلاثین و ثمانمائة حدث مع غروب الشمس برق و رعد شدید متوال، ثم مطر غزیر خارج عن الحدّ، و کان الوقت فی أثناء فصل الخریف.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۳۲۴

ذکر قتلة الخواجا نور الدین علی التبریزی العجمی المتوجه برسالة الحطی ملک الحبشة إلی ملوک الفرنج

و لمّا کان یوم الثلاثاء رابع عشـرین جمادی الأولی من سـنة اثنتین و ثلاثین و ثمانمائة اسـتدعی السلطان قضاة الشرع الشریف إلی بین

یدیه فاجتمعوا، و ندب السلطان قاضی القضاة شمس الدین محمدا البساطیّ المالکی للکشف عن أمره و إمضاء حکم اللّه فیه، و کان التّبریزی مسجونا فی سجن السلطان، فنقله القاضی من سجن السلطان إلی سجنه، و ادّعی علیه بالکفر و بأمور شنیعة، و قامت علیه بینة معتبرة بذلک، فحکم بإراقة دمه، فشهّر فی یوم الأربعاء خامس عشرین جمادی الأولی المذکورة علی جمل بالقاهرة و مصر و بولاق، و نودی علیه: هذا جزاء من یجلب السلاح إلی بلاد العدوّ، و یلعب بالدّینین، و صار و هو راکب الجمل یتشاهد و یقرأ القرآن و یشهد الناس أنه باق علی دین الإسلام، و الخلق صحبته أفواجا، و من الناس من یبکی لبکائه، و هم العامة الجهلة، و الذی أقوله فی حقه: إنه کان زندیقا ضالّا مستخفّا بدین الإسلام، و لا زالوا به إلی أن وصلوا إلی بین القصرین فأنزل عن الجمل و أقعد تحت شبّاک المدرسة الصالحیة و ضربت عنقه فی الملإ من الخلائق التی لا یعلم عددها إلا اللّه تعالی- فنسأل اللّه السلامة فی الدین، و الموت علی الإسلام.

و کان خبر هذا التّبریزیّ أنه کان أوّلا من جملة تجّار الأعاجم بمصر و غیرها، و کان یجول فی البلاد بسبب المتجر علی عادة التجار، فاتّفق أنه توجّه إلی بلاد الحبشة فحصل له بها الرّبح الهائل المتضاعف، و کان فی نفسه قلیل الدین مع جهل و إسراف فطلب الزیادة فی المال، فلم یرم بوصله إلی مراده إلا أن یتقرّب إلی الحطیّ ملک الحبشة بالتحف، فصار یأتیه بأشیاء نادرة لطیفة؛ من ذلک أنه صار یصنع له الصّلبان من الذّهب المرصّع بالفصوص الثمینة، و یحملها إلیه فی غایة الاحترام و التّعظیم کما هی عادة النّصاری

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۳۲۵

فی تعظیمهم للصلیب، و أشیاء من هذه المقولة، ثم ما کفاه ذلک حتی [إنه] صار یبتاع السلاح المثمّن من الخوذ و السّیوف الهائلة و الزردیات و البکاتر بأغلی الأثمان و یتوجّه بها إلی بلاد الحبشة، و صار یهوّن علیهم أمر المسلمین، و یعرفهم ما المسلمون فیه بکل ما تصل القدرة إلیه، فتقرّب بذلک من الحطّی حتی صار عنده بمنزلة عظیمة، فعند ذلک ندبه الحطّی بکتابه إلی ملوک الفرنج عند ما بلغه أخذ قبرس و أسر ملکها جینوس یحثّهم فیه علی القیام معه لإزالة دین الإسلام و غزو المسلمین و إقامة الملّة العیسویة و نصرتها، و أنه یسیر فی بلاد الحبشة فی البرّ بعساکره، و أن الفرنج تسیر فی البحر بعساکرها فی وقت معیّن إلی سواحل الإسلام، و حمّله مع ذلک مشافهات، فخرج التّبریزی هذا من بلاد الحطّی بکتابه و بما حمله من المشافهات لملوک الفرنج بعزم و اجتهاد و سلک فی مسیره من بلاد الحبشه البرّیّة حتی صار من وراء الواحات [ثم سلک من وراء الواحات] إلی بلاد المغرب، و رکب منها البحر إلی بلاد الفرنج، و أوصل إلیهم کتاب الحطّیّ و ما معه من المشافهات، و دعاهم للقیام مع الحطّیّ فی إزالة الإسلام و أهله، و استحثهم فی ذلک، فأجابه غالبهم، و أنعموا علیه بأشیاء کثیرة، فاستعمل بتلک البلاد عدّة ثیاب مخمّل مذهّبة باسم الحطّیّ، و رقمها بالصلبان؛ فإنه شعارهم.

قلت: لولا أنه داخلهم فی کفرهم، و شارکهم فی مأکلهم و مشربهم ما طابت نفوسهم لإظهار أسرارهم علیه، و کانوا یقولون: هذا رجل مسلم یمکن أنه یتجسّس أخبارنا و ینقلها للمسلمین لیکونوا منا علی حذر، و ربما أمسکوه بل و قتلوه بالکلیة- انتهی.

ثم خرج من بلاد الفرنج و سار فی البحر حتی قدم الإسکندریة و معه الثیاب

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۳۲۶

المذکورة و رهبان من رهبان الحبشة، و کان له عدّة عبید، و فیهم رجل دین فنمّ علیه بما فعله، و دلّهم علی ما معه من القماش و غیره، فأحیط بمرکبه و بجمیع ما فیها فوجدوا بها ما قاله العبد المذکور، فحمل هو و الرّهبان و جمیع ما معه إلی القاهرة، فسعی بمال کبیر فی إبقاء مهجته و ساعده فی ذلک ممّن یتّهم فی دینه، فلم یقبل السلطان ذلک، و أمر به فحبس ثم قتل حسبما ذکرناه [علیه من اللّه ما یستحقه] انتهی.

ثم فی یوم الخمیس تاسع شهر رجب خلع السلطان علی جلال الدین محمد ابن القاضی بدر الدین محمد بن مزهر باستقراره فی وظیفة کتابة السّرّ بالدیار المصریة عوضا عن والده بحکم وفاته، و له من العمر دون العشرین سنة و لم یطر شاربه، و خلع السلطان علی القاضی شرف الدین أبی بکر بن سلیمان سبط ابن العجمی المعروف بالأشقر أحد أعیان موقّعی الدّست باستقراره نائب کاتب السّرّ، لیقوم بأعباء الدیوان عن هذا الشاب لعدم معرفته و قلّة دربته بهذه الوظیفة، و کانت ولایة جلال الدین المذکور لکتابة السّرّ علی حمل

تسعين ألف دينار من تركهٔ أبيه.

ثم فى يوم الخميس ثالث عشرين شهر رجب المذكور قدم الأمير سودون من عبد الرحمن نائب الشام إلى القاهرهٔ و صحبته القاضى كمال الدين محمد بن البارزىّ كاتب سر دمشق، و طلعا إلى القلعهٔ فخلع السلطان عليهما خلع الاستمرار، و اجتمع به غير مرّهٔ: أعنى بسودون من عبد الرحمن، فكلّمه سودون فيما يفعله مماليكه الجلبان بالمباشرين و غيرهم، و خوفّه عاقبهٔ المماليک القرانيص من ذلک، فقال له الملک الأشرف: قد عجزت عن إصلاحهم، ثم كشف رأسه و دعا عليهم بالفناء و الموت غير مرهٔ، فقال له الأتابک جارقطلو: ضع فيهم السيف و أقم عوضهم، و ما دام رأسک تعيش فالمماليک كثير، و مائهٔ من

النجوم الزاهرهٔ فى ملوک مصر و القاهرهٔ، ج۱۴، ص: ۳۲۷

القرانيص خير من ألف من هؤلاء الأجلاب، و لولا حرمهٔ السلطان لكان صغار عبيد القاهرهٔ كفئا لهم.

و كان سبب ذلک أنهم صاروا يضربون مباشرى الدّولهٔ و ينهبون بيوتهم، و وقع منهم فى دوران المحمل فى هذه السنهٔ أمور شنيعهٔ إلى الغايهٔ، و تقاتلوا مع العبيد حتى قتل بينهما جماعهٔ و أشياء غير ذلک، فمال السلطان إلى كلام جار قطلو و أراد مسک جماعهٔ كبيرهٔ منهم، و نفى آخرين، و تفرقهٔ جماعهٔ أخر على الأمراء، و قال: أحسب أن مائهٔ ألف دينار ما كانت، و متى حصل نفع المماليک المشتروات لأستاذهم أو لذرّيّته؟ فلما رأى الأمير بيبغا المظفرى ميل السلطان لكلام جار قطلو أخذ فى معارضته و ردّ كلامه، فكان من جملهٔ ما قاله: و اللّه لولا ـ المماليک المشتروات ما أطاعک واحد منا- و أشار بخروج جانى بک الصوفى من السجن و اختفائه بالقاهرهٔ- و خلّ عنک كلام هذا و أمثاله، و كان عبد الباسط مساعدا لجار قطلو، ثم التفت بيبغا و قال لعبد الباسط: أنت تكون سببا لزوال ملک هذا، فعند ذلک أمسک الأشرف عما كان عزم عليه لعلمه بنصيحهٔ بيبغا المظفرىّ له، و انفض المجلس بعد أن أمرهم السلطان بكتمان ما وقع عند السلطان من الكلام، فلم يخف ذلک عن أحد، و بلغ المماليک الأشرفيهٔ فتحلّفوا لجار قطلو و لعبد الباسط و لسودون من عبد الرحمن.

فلما كان يوم الجمعهٔ ثانى شعبان نزل المماليک الأشرفيهٔ من الأطباق إلى بيت الوزير كريم الدين بن كاتب المناخ و نهبوه لتأخر رواتبهم، و سافر فيه الأمير سودون من عبد الرحمن إلى محل كفالته، و كان السلطان أراد عزله و إبقاءه بمصر فوعد بخمسين ألف دينار حتىّ خلع عليه باستمراره، فكلّمه بعض أصحابه فى ذلک فقال: أحمل مائهٔ ألف دينار و لا أقعد بمصر فى تهديد الأجلاب.

ثم لما كان يوم الثلاثاء سادس شعبان ثارت الفتنهٔ بين المماليک الجلبان و بين

النجوم الزاهرهٔ فى ملوک مصر و القاهرهٔ، ج۱۴، ص: ۳۲۸

الأمير الكبير جارقطلو، و كان ابتداء الفتنهٔ أنه وقع بين بعض المماليک السلطانيهٔ و بين مماليک الأمير الكبير جارقطلو و ضربت الجلبان بعض مماليک جارقطلو فأخذ المملوک [يدافع] عن نفسه و ردّ على بعضهم و كان شجّ بعض المماليک السلطانيهٔ، فعند ذلک قامت قيامتهم، و حرّک ذلک ما كان عندهم من الكمين من أستاذهم جارقطلو، فتجمعوا على المملوک المذكور و ضربوه، فهرب إلى بيت أستاذه و احتمى به، فعادت المماليک إلى إخوتهم و اتفقوا على جارقطلوا، و تردّدوا إلى بابه غير مرّهٔ، و باتت الناس على تخوّف من وقوع الفتنهٔ لوقوع هذه القضيّهٔ، و أصبحوا من الغد فى جمع كثير من تحت القلعهٔ و قد اتفقوا على قتل جار قطلو و مماليكه، فماج الناس لذلک و غلقوا الأسواق خشيهٔ من [وقوع] النهب، و تزاحم الناس على شراء الخبز، و غلقت الدّروب، و انتشرت الزعر و أهل الفساد، و تعوّق مباشر و الدولهٔ من النزول من القلعهٔ إلى دورهم، و أرسل السلطان إليهم جماعهٔ بالكف عن ما هم فيه، و هدّدهم إن لم يرجعوا، فلم يلتفتوا إلى كلامه، و ساروا بأجمعهم إلى بيت الأمير الكبير جارقطلو و كان سكنه ببيت الأمير طاز بالشارع الأعظم عند حمام الفارقانى فأغلق جارقطلو بابه، و أصعد مماليكه على طبلخاناته فوق باب داره ليمنعوا المماليک السلطانيهٔ من كسر الباب المذكور و إحراقه، و تراموا بالنشاب، و أقام الأجلاب يومهم كلّه مع كثرتهم لا يقدرون على الأمير الكبير جارقطلو و لا على مماليكه مع كثرهٔ عددهم؛ لعدم معرفتهم بالحروب و لقلهٔ دربتهم و سلاحهم.

هذا و السلطان يرسل إليهم بالكفّ عما هم فيه، و هم مصممون على ما هم فيه يومهم كله، و وقع منهم أمور قبيحة فى حق أستاذهم و غيره، فلما وقع ذلك غضب السلطان غضبا عظيما، و أراد أن يوسع الأمراء فى حق مماليكه فخوفه الأمراء سوء عاقبة ذلك، فأخذ يكثر من الدعاء عليهم سرا و جهرا، و باتوا على ذلك.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۳۲۹

فلما أصبحوا يوم الخميس ثامن شعبان استشار الملك الأشرف الأمراء فى أمر مماليكه، فأشاروا عليه بأن يرسل يطلب من الأمير الكبير جارقطلو المماليك الذين كانوا سببا لهذه الفتنة، و كانت المماليك الجلبان [لما رأوا] فى الأمس حالهم فى إدبار أرسلوا يطلبون غرماءهم من مماليك جارقطلو [من السلطان] فلم يجبهم السلطان إلى ذلك، فأرسل السلطان [بعد ذلك] للأمير الكبير يطلب مماليكه الذين كانوا فى أوّل هذه الفتنة، فأرسل إليه بجماعة منهم فأخذهم السلطان و ضربهم ضربا ليس بذاك، ثم أمر بجبسهم، و وافق ذلك عجز المماليك الجلبان عن قتال الأمير الكبير لعدم اجتماع كلمتهم و لفرار أكثرهم و طلوعهم إلى الطّبقة، فأذعنوا بالصلح و خمدت الفتنة- و للّه الحمد- بعد أن كاد أمر هذه الوقعة أن يتّسع إلى الغاية، لأن غالب الأمراء شقّ عليهم ما وقع للأمير الكبير، و قالوا إذا كان هذا يقع للأمير الكبير فنحن من باب أولى و أحقّ لأعظم من هذا، و تنبه من كان عنده كمين من الملك الأشرف من المماليك المؤيّدية [شيخ] و غيرهم، و ظهر للسلطان لوايح من ذلك فاحتار بين مماليكه و أمرائه إلى أن وقع الصّلح، و من يومئذ تغيّر خاطر جارقطلو من الملك الأشرف فى الباطن مع خصوصيته بالأشرف حتى أبدى بعض ما كان عنده فى سفرة آمد حسبما يأتى ذكره.

ثم ورد الخبر على السلطان بأن فى خامس شعبان هذا ورد إلى ميناء الإسكندرية خمسة أغربة فيها مقاتلة الفرنج مشحونة بالسلاح، و باتوا بها و قد استعدّ لهم المسلمون، فلما أصبح النهار واقعوهم و قد أدركهم الزّينى عبد القادر بن أبى الفرج الأستادار- و كان مسافرا بتروجة- و معه غالب عرب البحيرة نجدة للمسلمين، فلما كثر جمع المسلمين انهزم الفرنج و ردّوا من حيث أتوا فى يوم الأحد حادى عشره و لم يقتل من المسلمين سوى فارس واحد من جماعة ابن أبى الفرج.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۳۳۰

قلت [قوله تعالى] (و ردّ اللّه الّذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا و كفى اللّه المؤمنين القتال).

كل ذلك و السلطان مشغول بتجهيز تجريدة إلى بلاد الشّرق، فلما كان ثانى عشر شعبان المذكور أنفق السلطان فى ثلاثمائة و تسعين مملوكا من المماليك السلطانية، لكل واحد خمسين دينارا، و فى أربعة من أمراء الألوف، و هم: أركماس الظاهرىّ الدوادار الكبير، و قرقماس حاجب الحجاب، و حسين بن أحمد المدعو تغرى برمش البهسنى، و يشبك السّودونى المعروف بالمشد، لكل واحد ألفى دينار، و أنفق أيضا فى عدّة من أمراء الطبلخانات و العشرات، فبلغت نفقة الجميع نحو ثلاثين ألف دينار، و رسم بسفرهم إلى الشّام، فسافروا فى سادس عشرين شعبان المذكور.

ثم فى يوم الخميس رابع عشر شهر رمضان حملت جامكيّة المماليك السلطانية إلى القلعة لتنفق فيهم على العادة، فأمتنعوا من قبضها، و طلبوا زيادة لكل واحد ستمائة درهم و صمموا على ذلك، و ترددت الرّسل بينهم و بين السلطان إلى أن زيد فى جوامك عدّة منهم و سكن شرّهم، و أخذوا الجامكيّة فى يوم الاثنين ثامن عشره.

ثم بعد ذلك وقع بين المماليك الجلبان و بين العبيد، فتجمّع السّودان و قاتلوهم فقتل بينهم عدّة و صاروا جمعين لكل جمع عصبيّة.

ثم فى يوم الأربعاء تاسع ذى القعدة ورد الخبر على السلطان بأخذ الأمراء المتوجّهين إلى جهة بلاد الشّرق مدينة الرّها من نواب قرايلك، و كان من خبر ذلك

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة؛ ج۱۴؛ ص ۳۳۰

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۳۳۱

أن العساكر المصرية لما سارت من القاهرة إلى جهة الشّام لأخذ خرتبرت - و قد مات متولّيها، و نازلها عسكر قرايلك صاحب آمد-

فلما و صلوا إلى مدينة حلب ورد عليهم الخبر بأخذ قرايلك قلعة خرتبرت و تحصينها و تسليمها لولده، فأقاموا بحلب إلى أن ورد عليهم الأمير سودون من عبد الرحمن نائب الشام بعساكر دمشق، ثم جميع نوّاب البلاد الشامية بعساكرها، و تشاوروا فى السّير لها، فأجمع رأيهم على المسير، فمضوا بأجمعهم: العسكر المصرى [و العسكر] الشامى إلى جهة الرّها، فأتاهم بألبيرة كتاب أهل الرّها بطلب الأمان و قد رغبوا فى الطاعة، فأمنوهم و كتبوا لهم كتابا، و ساروا من ألبيرة و بين أيديهم مائتا فارس من عرب الطّاعة كشّافة، فوصلت الكشّافة المذكورون إلى الرّها فى شوّال، فوجد و الأمير هابيل بن الأمير عثمان بن طرعلى المدعو قرايلك صاحب آمد قد وصل إليها و دخلها و حصنّها و جمع فيها خلائق من أهل الضياع بمواشيهم و عيالهم و أموالهم، فنزلوا عليها فرموهم بالنّشّاب من فوق أسوار المدينة.

فلما رأى هابيل قلّة العرب برز إليهم فى نحو ثلاثمائة رجل من عسكره و قاتلهم فثبتوا له و قاتلوه، فقتل بين الفريقين جماعة و الأكثر من العرب، فأخذ هابيل رءوسهم و علقها على أسوار المدينة، و بينماهم فى ذلك أدركهم العسكر المصرى و الشامىّ و نزلوا على ظاهر الرّها يوم الجمعة العشرين من شوال، فوجدوا هابيل قد حصّن المدينة، و جعل جماعة من عساكره على أسوارها، فلما قرب العسكر من سور مدينة الرّها رماهم الرّجال من أعلى السور بالنّشّاب و الحجارة، فتراجع العسكر عنهم و نزلوا بخيامهم إلى بعد الظهر، فركبوا الجميع و أرسلوا إلى أهل الرّها بالأمان، و أنهم إن لم

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۳۳۲

يكفوا عن القتال أخربوا المدينة، فلم يلتفتوا إلى كلامهم و رموهم بالنّشّاب، فاتّفق العسكر حينئذ على الزّحف و ركبوا بأجمعهم و زحفوا على المدينة و جدّوا فى قتالها، فلم يكن غير ساعة إلا و أخذوا المدينة و استولوا عليها، و تعلق أعيان البلد و مقاتلتها بالقلعة، فانتشر العسكر و أتباعهم بالمدينة ينهبون و يأخذون ما وجدوا و يأسرون من ظفروا به، و أمعنوا فى ذلك حتى خرجوا عن الحدّ، و أصبحوا يوم السبت جدّوا فى حصار القلعة، و أرسلوا إلى من بها بالأمان فلم يقبلوا و استمرّوا بالرّمى بالنّشّاب و الحجارة و غير ذلك، و نصبوا على القلعة المكاحل و المدافع و أخذوا فى النقوب و باتوا ليلة الأحد على ذلك، و أصبحوا يوم الأحد على ما هم عليه من القتال و الحصار إلى وقت الضحى، فضعف أمر من بالقلعة بعد قتال شديد و طلبوا الأمان، فكفّوا عند ذلك عن قتالهم، و نزلت رسلهم إلى الأمير سودون من عبد الرحمن نائب الشام، و هو مقدّم العساكر، و كلّموهم فى نزولهم و تسليمهم القلعة، و حلّفوه هو و الأمير قصروه نائب حلب على أنهم لا يؤذونهم و لا يقتلون أحدا منهم، فركنوا إلى أيمانهم، و نزل الأمير هابيل بن قرايلك و معه تسعة من أعيان أمراء أبيه فى وقت الظهر من يوم الأحد ثانى عشرين شوال المذكور، فتسلمه الأمير أركماس الظاهرىّ الدّوادار الكبير، و ركب الأمير سودون من عبد الرحمن و معه بقية النّواب إلى القلعة، فوجدوا المماليك السلطانية قد وقفوا على باب القلعة ليدخلوا إليها، فكلّمهم النّوّاب فى عدم دخولهم و قالوا لهم: نحن أعطيناهم أمانا، و منعوهم من الدخول إليها، فأفحشوا فى الرّدّ على النوّاب، فراجعوهم فى ذلك فهمّوا المماليك بقتالهم، و هجموا القلعة بغير رضاء النّوّاب و الأمراء و دخلوها، فشقّ ذلك على النّوّاب و عادوا إلى مخيّمهم، فمدّ المماليك أيديهم هم و التّركمان و الأعراب و الغلمان فى النّهب و السّبى حتى نهبوا جميع ما كان بالقلعة، و أسروا النّساء و الصّبيان و أفحشوا بها إلى الغاية.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۳۳۳

ثم ألقوا النار فيها فأحرقوها بعد ما أخلوها من جميع ما كان فيها، و قتلوا من كان بها و بالمدينة من الرجال و المقاتلة، حتى جاوز فعلهم الحدّ.

ثم أخربوا المدينة و ألقوا النار فيها فاحترقت و احترق فى الحريق جماعة من النّسوة فإنهن اختفين فى الأماكن من البلد خوفا من العسكر، فلما احترقت المدينة احترقن الجميع فى النار التى أضرمت بسكك المدينة و خباياها، و احترق أيضا معهن عدة كبيرة من أولادهن.

هـذا بعـد أن أسـرفوا فی القتل بحیث إنه کان الطریق قـد ضاق من کثرة القتلی، و فی الجملة فقد فعلوا بمدینة الرّها فعل التّمرلنکیین و زیادة من القتل و الأسر و الإحراق و الفجور بالنساء- فما شاء اللّه کان.

ثم رحلوا من الغـد فی یوم الاـثنین ثـالث عشـرینه و أیـدیهم قـد امتلأـت من النهب و السبی، فقطعت منهم عـدّة نسـاء من التّعب فمتن عطشا، و بیعت منهن بحلب و غیرها عدة کبیرة.

قال المقریزی: و کانت هذه الکائنة من مصیبات الدّهر.

[الوافر]

و کنّا نستطب إذا مرضنا فجاء الدّاء من قبل الطّبیب

لقد عهدنا ملک مصـر إذا بلغه عن أحد من ملوک الأقطار قد فعل مالا یجوز أو فعل ذلک رعیته بعث ینکر علیه و یهدّده، فصرنا نحن نأتی من الحرام بأشنعه و من القبیح بأفظعه- و إلی اللّه المشتکی- انتهی کلام المقریزی.

قلت: لم یکن مـا وقع من هؤلاء الغوغاء بإرادة الملک الأشـرف، و لا عن أمره و لا فی حضوره، و قـد تقـدّم أن نوّاب البلاد الشامیـة و أکابر الأمراء

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۳۳۴

منعوهم من دخول القلعـة بالجملـة فلم یقـدروا علی ذلک لکثرة من کان، اجتمع بالعسـکر من التّرکمان و العرب النّهابة کما هی عادة العساکر، و إن کان کون الأشرف جهّز العسکر إلی جهة الرّها، فهذا أمر وقع فیه کلّ أحد من ملوک الأقطار قدیما و حدیثا، و لا زالت الملوک علی ذلک من مبدأ الزّمان إلی آخره، معروف ذلک عند کل أحد- انتهی.

ثم فی لیلـة الخمیس ثامن ذی الحجـة سـنة اثنتین و ثلاثین المـذکورة قـدم السـید الشـریف شـهاب الـدین أحمد من دمشق بطلب من السـلطان بعد أن خرج أکابر الدّولة إلی لقائه، و استمرّ بالقاهرة إلی یوم الخمیس خامس عشر ذی الحجة فخلع السلطان علیه باستقراره کاتب السرّ الشـریف بالـدیار المصـریة، عوضا عن جلال الدین محمد بن مزهر بحکم عزله، و عملت الطرحة خضـراء برقمات ذهب، فکان له موکب جلیل إلی الغایة.

ثم فی یوم الجمعـة سادس عشـره خلع السـلطان علی جلال الـدین [محمـد] بن مزهر المقـدم ذکره و اسـتقر فی توقیع المقام الناصـری محمد بن السلطان.

ثم فی یوم السـبت رابع عشرینه قدم القاهرة الأمیر هابیل بن قرایلک المقبوض علیه من الرّها و معه جماعة فی الحدید، فشهّروا بالقاهرة إلی القلعة، و سجنوا بها، و قد تخلف العسکر المصری بحلب مخافة أن یهجم قرایلک علی البلاد الحلبیة.

و فی هذه السنة کان خراب مدینة تبریز؛ و سبب ذلک أن صاحبها إسکندر بن

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۳۳۵

قرا یوسف بن قرا محمد بن بیرم خجا الترکمانی زحف علی مدینة السّلطانیة و قتل متملکها من جهة القان شاه رخّ بن تیمور لنک فی عدة من أعیان المدینة، و نهب السـلطانیة و أفسد بها غایة الإفساد، فسار إلیه شاه رخّ فی جموع کثیرة فخرج إسـکندر من تبریز و جمع لحربه و لقیه و قـد نزل خارج تبریز، فانتـدب لمحاربة إسـکندر المذکور الأمیر عثمان بن طر علی المدعو قرایلک صاحب آمد- و قد أمـدّه شاه رخّ بعسـکر کثیف- و قاتله خارج تبریز فی یوم الجمعة سادس عشـر ذی الحجة قتالا شدیدا قتل فیه کثیر من الفئتین إلی أن کانت الکسرة علی إسکندر و جماعته، و انهزم و هم فی أثره یطلبونه ثلاثة أیام ففاتهم إسکندر، فنهبت الجغتای عامّة بلاد أذربیجان و کرسـی أذربیجان تبریز، و قتلوا و سـبوا و أسروا و فعلوا أفاعیل أصحابهم من أعوان تیمور حتی لم یدعوا بها ما تراه العین، ثم ألزم شاه رخّ أهـل تبریز بمال کبیر، ثم جلاهم بأجمعهم إلی سـمرقند، فما ترک [فی] تبریز إلا ضـعیفا أو عاجزا لا خیر فیه، ثم بعـد مـدّة طویلة زحل إلی جهـة بلاده، و بعـد رحیله انتشـرت الأکراد بتلک النواحی تعبث و تفسد حتی فقدت الأقوات و أبیع لحم الکلب الرطل بعدة

دنانير.

قلت: و قد تكرّر قتال إسكندر هذا لشاه رخّ المذكور غير مرّة، و هو فى كل وقعة تكون الكسرة و الذّلة عليه، و هولا يرعوى و لا يستحى و لا يرجع عن جهله و غيّه، و قد نسبه بعض الناس للشجاعة لكثرة مواقعته مع شاه رخّ المذكور، و أنا أقول: ليس ذلك من الشجاعة إنما هو من قلّة مروءته، و إفراط جهله، و سخفه و جنونه، و عدم إشفاقه على رعيّته و بلاده؛ حيث يقاتل من لا قبل له به و لا طاقة له بدفعه، فهذا هو الجنون بعينه، و إن طاب له- من هذا- الكحل فليكتحل، و أما إسكندر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۳۳۶

فإنه بعد هزيمته جال [فى] البلاد و تشتّت شمله و تبدّدت عساكره، و سار إلى بلاد الأكراد و قد وقع بها الثّلوج، ثم سار إلى قلعة سلماس فحصره بها الأكراد، و قاسى شدائد إلى أن نجا منها بنفسه و سار إلى جهة من الجهات- انتهى.

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۳۳]

ثم فى يوم الأحد رابع عشرين المحرّم سنة ثلاث و ثلاثين و ثمانمائة قدم إلى القاهرة رسول ملك الشّرق شاه رخّ بن تيمور لنك بكتابه يطلب فيه شرح البخارى للحافظ شهاب الدين [أحمد] بن حجر، و تاريخ الشيخ تقى الدين المقريزىّ المسمى بالسّلوك لدول الملوك، و يعرض أيضا فى كتابه بأنه يريد يكسو الكعبة، و يجرى العيش بمكّة، فلم يلتفت السلطان إلى كتابه و لا إلى رسوله، و كتب له بالمنع فى كلّ ما طلبه.

ثم فى يوم الخميس سادس عشرين صفر خلع السلطان على قاضى القضاة علم الدين صالح البلقينىّ و أعيد إلى قضاء الشافعية بعد عزل الحافظ شهاب الدين بن حجر، و خلع أيضا على القاضى زين الدين عبد الرّحمن التّفهنىّ و أعيد أيضا إلى قضاء الحنفية بعد عزل قاضى القضاة بدر الدين محمود العينى، و استقرّ القاضى صدر الدين أحمد بن العجمىّ فى مشيخة خانقاه شيخون عوضا عن التّفهنىّ، و خلع عليه فى يوم الاثنين أوّل شهر ربيع الأوّل.

ثم فى يوم الثلاثاء سلخ شهر ربيع الأوّل المذكور خلع السلطان على القاضى سعد الدين إبراهيم ابن القاضى كريم الدين عبد الكريم بن سعد الدين بركة المعروف بابن كاتب جكم باستقراره ناظر الخواصّ الشريفة بعد موت والده.

ثم فى يوم السبت رابع شهر ربيع الآخر خلع السلطان على قاضى القضاة بدر الدين

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۳۳۷

محمود العينى المقدّم ذكره باستقراره فى حسبة القاهرة عوضا عن الأمير إينال الشّشمانىّ مضافا لما معه من نظر الأحباس.

ثم فى يوم الخميس تاسع شهر ربيع الآخر المذكور خلع السلطان على الأمير شهاب الدين أحمد الدّوادار المعروف بابن الأقطع- و قد صار قبل تاريخه زرد كاشا- باستقراره فى نيابة الإسكندرية عوضا عن آقبغا التّمرازىّ بحكم عزله و قدومه إلى القاهرة على إمرته، فإنه كان ولى نيابة إسكندرية على إقطاعه: تقدمة ألف بالديار المصرية.

ثم فى خامس عشرينه خلع السلطان على آقبغا الجمالىّ الكاشف باستقراره أستادارا بعد عزل الزّينى عبد القادر بن أبى الفرج، على أن آقبغا يحمل مائة ألف دينار بعد تكفية الديوان، فكذب و تخومل و عزل بعد مدّة يسيرة حسبما نذكره، و كان أصل آقبغا هذا من الأوباش من مماليك الأمير كمشبغا الجمالى أحد أمراء الطبلخانات، و صار يتردّد إلى إقطاع أستاذه كمشبغا المذكور، ثم خدم بلّاصيّا عند الكشّاف، ثم ترقّى حتى ولى الكشف فى دولة الملك الأشرف هذا، و أثرى و كثر ماله فحسّن له شيطانه أن يكون أستادارا و أخذ يسعى فى ذلك سنين إلى أن سمح له الملك الأشرف بذلك، و تولّى الأستادارية، و أستاذه [الأمير] كمشبغا الجمالى فى قيد الحياة من جملة أمراء الطبلخانات، فلم تحسن سيرته و عزل بعد مدّة.

و فى هذا الشهر وقع الطاعون بإقليم البحيرة و الغربيّة بحيث إنه أحصى من مات من أهل المحلّة زيادة على خمسة آلاف إنسان، و

كان الطاعون أيضا قد وقع بغزّة و القدس و صفد و دمشق من شعبان فى السنة الخالية، و استمرّ إلى هذا الوقت، و عدّ ذلك من النّوادر لأنّ الوقت [كان] شتاء و لم يعهد وقوع الطاعون إلا فى فصل

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۳۳۸

الرّبيع، و يعلّل الحكماء ذلك بأنه سيلان الأخلاط فى فصل الرّبيع و جمودها فى الشتاء، فوقع فى هذه السنة بخلاف ذلك، و كان قدم الخبر أيضا بوقوع الطاعون بمدينة برصا من بلاد الرّوم، و أنه زاد عدّة من يموت بها فى كل يوم على ألف و خمسمائة إنسان، ثم بدأ الطاعون بالديار المصرية فى أوائل شهر ربيع الآخر.

قلت: و هذا الطاعون هو الفناء العظيم الذى حصل بالدّيار المصرية و أعمالها فى سنة ثلاث و ثلاثين المذكورة.

ثم فى يوم الخميس أوّل جمادى الأولى نودى بالقاهرة بصيام ثلاثة أيّام، و أن يتوبوا إلى اللّه تعالى من معاصيهم، و أن يخرجوا من المظالم، ثم إنهم يخرجون فى يوم الأحد رابع جمادى الأولى المذكور إلى الصحراء، فلما كان يوم الأحد رابعه خرج قاضى القضاة علم الدين صالح البلقينىّ فى جمع موفور إلى الصّحراء خارج القاهرة، و جلس بجانب تربة الملك الظاهر برقوق، و وعظ الناس فكثر ضجيج النّاس و بكاؤهم فى دعائهم و تضرّعهم، ثم انفضوا فتزايدت عدّة الأموات فى هذا اليوم عمّا كانت فى أمسه ثم فى ثامن جمادى الأول هذا قدم كتاب إسكندر بن قرايوسف صاحب تبريز أنه قدم إلى بلاده و قصده أن يمشى بعد انقضاء الشّتاء لمحاربة قرايلك، فلم يلتفت السلطان إلى كتابه لشغله بموت مماليكه و غيرهم بالطّاعون.

ثم ورد كتاب قرايلك أيضا على السلطان يسأل فيه العفو عن ولده هابيل و إطلاقه، فلم يسمح له السلطان بذلك.

ثم عظم الوباء فى هذا الشهر، و أخذ يتزايد فى كل يوم، ثم ورد الخبر [أيضا] أنه ضبط من مات من النّحريريّة بالوجه البحرى إلى يوم تاريخه تسعة آلاف سوى من لم يعرف و هم كثير جدا، و أنه بلغ عدّة الأموات فى الإسكندرية فى كل يوم نحو المائة، و أنه شمل الوباء غالب الأقاليم بالوجه البحرى.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۳۳۹

ثم وجد فى هذا الشهر بنيل مصر و البرک كثير من السمک و التماسيح قد طفت على وجه الماء ميتة و اصطيدت [سمكة تسمى] بنيه كبيرة فإذا هى كأنما صبغت بدم من شدّة ما بها من الاحمرار، ثم وجد فى البرّيّة ما بين السويس و القاهرة عدة كبيرة من الظّباء و الذئاب موتى.

ثم قدم الخبر بوقوع الوباء أيضا ببلاد الفرنج.

[ثم] فى يوم الخميس سلخه ضبطت عدّة الأموات التى صلّى عليها بمصليات القاهرة و ظواهرها فبلغت ألفين و مائة، و لم يرد منها فى أوراق الدّيوان غير أربعمائة و نيّف، و ببولاق سبعين، و فشا الطاعون فى الناس، و كثر بحيث إن ثمانية عشر إنسانا من صيّادى السّمک كانوا فى موضع [واحد] فمات منهم فى يوم واحد أربعة عشر، و مضى الأربعة ليجهّزوهم إلى القبور فمات منهم و هم مشاة ثلاثة، فقام الواحد بشأن الجميع حتى أوصلهم إلى القبور فمات هو أيضا. قاله الشيخ تقى الدين المقريزى فى تاريخه، ثم قال [أيضا]: و ركب أربعون رجلا فى مركب و ساروا من مدينة مصر نحو بلاد الصّعيد فماتوا بأجمعهم قبل وصولهم إلى الميمون، و مرّت امرأة من مصر تريد القاهرة و هى راكبة على مكارى فماتت و هى راكبة و صارت ملقاة بالطريق يومها كلّه حتى بدأ يتغيّر ريحها فدفنت و لم يعرف لها أهل، و كان الإنسان إذا مات تغيّر ريحه سريعا مع شدّة البرد، و شنع الموت بخانقاه سرياقوس حتى بلغت العدّة فى كل يوم نحو المائتين، و كثر أيضا بالمنوفيّة و القليوبيّة حتى كان يموت فى الكفر الواحد متمائة إنسان.

قلت: و الذى رأيته أنا فى هذا الوباء أن بيوتا كثيرة خلت من سكّانها مع كثرة عددهم، و أن الإقطاع الواحد كان ينتقل فى مدّة قليلة عن ثلاثة أجناد و أربعة و خمسة، و مات من مماليك الوالد [رحمه اللّه] فى يوم واحد أربعة من أعيان الخاصّكيّة، و هم:

أزدمر السّاقى، و ملج السلاح دار، و بيبرس الخاصّكىّ، و يوسف الرّمّاح؛ ماتوا

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۳۴۰

الجمیع فی یوم واحد، فتحیّرنا بمن نبدأ بتجهیزه و دفنه علی اختلاف سکناهم و قلّة التّوابیت و الدّکل، و بالله لم أشهد منهم غیر یوسف الرّماح، و أرسلت لمن بقی غیری، مع أنّ کلّ واحد منهم أهل لنزول السلطان للصلاة علیه.

ثم أصبح من الغد مات سنقر دوادار الوالد الثانی، و کان من أکابر الخاصّکیّة من الدّولة المؤیّدیة، هذا خلاف من مات منهم من الجمداریّة و من ممالیک الأمراء، و أما من مات من عندنا من الممالیک و العبید و الجواری و الخدم فلا یدخل تحت حصر، و مات من أخوتی و أولادهم سبعة أنفس ما بین ذکور و إناث، و أعظمهم أخی إسماعیل؛ فإنه مات و سنه نحو العشرین سنة، و کان من محاسن الدّهر.

قال المقریزی: ثم تزایدت عدّة الأموات عما کانت فأحصی فی یوم الاثنین رابع جمادی الآخرة من أخرج عن أبواب القاهرة فبلغت عدّتهم ألفا و مائتی میّت سوی من خرج عن القاهرة من أهل الحکور و الحسینیّة و بولاق و الصّلیبة و مدینة مصر و القرافتین و الصحراء، و هم أکثر من ذلک، و لم یورد بدیوان المواریث بالقاهرة سوی ثلاثمائة و تسعین، و ذلک أن أناسا عملوا التوابیت للسّبیل، فصار أکثر الناس یحملون موتاهم علیها و لا یوردون الدیوان أسماءهم.

قال: و فی هذه الأیام ارتفعت أسعار الثّیاب التی یکفّن بها الأموات، و ارتفع سعر سائر ما یحتاج إلیه المرضی کالسّکّر و بزر الرّجلة و الکمّثری علی أن القلیل من المرضی هو الذی یعالج بالأدویة، بل بعضهم یموت موتا سریعا فی ساعة و أقلّ منها، و عظم الوباء فی الممالیک السلطانیة سکان الطباق بالقلعة الذین کثر فسادهم و شرّهم و عظم عتوّهم و ضرهم، بحیث إنه کان یصبح منهم أربعمائة و خمسون مملوکا مرضی فیموت [منهم] فی الیوم زیادة علی الخمسین مملوکا- انتهی کلام المقریزی.

قلت: و الذی رأیته أنا أنه مات بعض أعیان الأمراء مقدّمی الألوف، فلم یقدروا

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۳۴۱

له علی تابوت حتی أخذ له تابوت من السّبیل، و أما الأخ [رحمه اللّه] فإنه لما توفّی إلی رحمة اللّه تعالی وجدنا له تابوتا، غیر أنه لا عدّة فیه، فلما وضع الأخ فیه طرح علیه سلّاری سمّور من قماشه، علی أن الغاسل أخذ من علیه قماشا یساوی عشرین ألف درهم، و مع هذا لم ینهض أهل الحانوت بکسوة تابوته.

و بلغ عدّة من صلی علیه من الأموات بمصلّی باب النصر فی یوم الأحد عاشر جمادی الآخرة خمسمائة و خمسة، و قد أقام هناک جماعة کبیرة بأدویة و أقلام لضبط ذلک، و بطل الصلاة بالصلاة و إنما صار الناس یصلون علی أمواتهم صفّا واحدا من باب المصلّی إلی تجاه باب دار الحاجب، فکان یصلّی علی الأربعین و الخمسین معا دفعة واحدة، و مات لشخص بخدمتنا یسمّی شمس الدین الذّهبی ولد فخرجنا معه إلی المصلّی، و کان سنّ المیّت دون سبع سنین، فلما أن وضعناه للصّلاة علیه بین الأموات جیء بعدّة کبیرة أخری إلی أن تجاوز عددهم الحدّ، ثم صلّی علی الجمیع، و تقدمنا لأخذ المیّت المذکور فوجدنا غیرنا أخذه و ترک لنا غیره فی مقدار عمره، فأخذه أهله و لم یفطنوا به، ففهمت أنا ذلک، و عرّفت جماعة أخر و لم نعلم أباه بذلک، و قلنا لعلّ الذی أخذه یواریه أحسن مواراة، و لیس للکلام فی ذلک فائدة غیر زیادة فی الحزن، فلما دفن الصّبیّ و أخذ أهل الحانوت التّابوت صاحوا و قالوا: لیس هذا تابوتنا هذا عتیق و قماشه أیضا خلق، فأشرت إلیهم بالسّکات و هدّدهم بعض الممالیک بالضّرب، فأخذوه و مضوا، فکانت هذه الواقعة من الغرائب المهولة، کل ذلک و الطاعون فی زیادة و نموّ حتی أیقن کلّ أحد أنه هالک لا محالة، و کنا نخرج من صلاة الجمعة إلی بیتنا و قد وقف جماعة من الأصحاب و الخدم فنتعادد إلی الجمعة الثانیة فینقص منا عدّة کبیرة ما بین میّت و مریض، و استسلم کلّ أحد للموت و طابت نفسه لذلک، و قد أوصی و تاب و أناب و رجع عن أشیاء کثیرة، و صار غالب الشّباب فی ید

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۳۴۲

کلّ واحد منهم سبحة و لیس له دأب إلا التوجه للمصلّاة للصلاة علی الأموات و أداء الخمس و البکاء [و التوجّه إلی اللّه تعالی] و

التخشّع، و ماتت عندنا وصيفة مولدة بعد أن مرضت من ضحى النهار إلى أن ماتت قبل المغرب، فأصبحنا و قد عجز الخدم عن تحصيل تابوت لها، فتولت تغسيلها أمّها و جماعة من العجائز و كفّنوها فی أفخر ثيابها على أحسن وجه، غير أننا لم نلق لها نعشا، و قد ألزمنى التوجه للصلاة على الأمير الكبير بيبغا المظفرىّ، و على الشهابى أحمد بن الأمير تمراز النائب، فوقفت على الباب و الميتة محمولة على أيدى بعض الخدم إلى أن اجتازت بنا جنازة امرأة، فأنزلت التابوت غصبا و وضعتها عند الميتة «و اشتالتا» على أعناق الرجال، و سارت أمّها و بعض الخدم معها إلى أن قاربت التّربة فأخذوها من التابوت و دفنوها.

ثم بلغ فی جمادى الآخرة [المذكورة] عدّة من صلّى عليه بمصلاة باب النصر فقط فی يوم واحد زيادة على ثمانمائة ميّت.

ثم فی اليوم المذكور بلغ عدّة من خرج من الأموات من سائر أبواب القاهرة اثنى عشر ألفا و ثلاثمائة ميّت محرّرة من الكتبة الحسبة بأمر شخص من أكابر الدّولة و قيل بأمر السلطان، ثم بلغ عدّة من صلّى عليه بمصلّاة باب النصر من الأموات فی العشر الأوسط من جمادى الآخرة المذكورة ألفا و نيفا و ثلاثين إنسانا، و يقارب ذلک مصلاة المؤمنى بالرّميلة، فيكون على هذا الحساب مات فی هذا اليوم نحو خمسة عشر ألف إنسان.

قال المقريزى: و اتفق فی هذا الوباء غرائب، منها: أنه كان بالقرافة الكبرى و القرافة الصّغرى من السودان نحو ثلاثة آلاف إنسان ما بين رجل و امرأة و صغير و كبير ففنوا بالطاعون حتى لم يبق منهم إلا القليل، ففرّوا إلى أعلى الجبل و باتوا ليلتهم سهّارا لا يأخذهم نوم لشدّة ما نزل بهم من فقد أهليهم، و ظلوا يومهم من الغد بالجبل،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۳۴۳

فلما كانت الليلة الثانية مات منهم ثلاثون إنسانا و أصبحوا فإلى أن يأخذوا فی دفنهم مات منهم ثمانية عشر.

قال: و اتفق أن إقطاعا بالحلقة تنقّل فی أيام قليلة إلى تسعة نفر، و كل منهم يموت، و من كثرة الشغل بالمرضى و الأموات تعطّلت الأسواق من البيع و الشراء، و تزايد ازدحام النّاس فی طلب الأكفان و النعوش، فحملت الأموات على الألواح، و على الأقفاص، و على الأيدى، و عجز الناس عن دفن أمواتهم، فصاروا يبيتون بها فی المقابر و الحفارون طول ليلتهم يحفرون، و عملوا حفائر كبيرة بلغ فی الحفرة منها عدّة أموات، و أكلت الكلاب كثيرا من أطراف الأموات، و صار الناس ليلهم كلّه يسعون فی طلب الغسال و الحمّالين و الأكفان، و ترى النعوش فی الشوارع كأنها قطارات جمال لكثرتها، متواصلة بعضها فی إثر بعض- انتهى كلام المقريزى.

ثم فی يوم الجمعة خامس عشر جمادى الآخرة المذكورة جمع الشريف شهاب الدين أحمد كاتب السّرّ بالديار المصرية بأمر السلطان أربعين شريفا، اسم كل شريف منهم محمد، و فرّق فيهم من ماله خمسة آلاف درهم، و أجلسهم بالجامع الأزهر فقرءوا ما تيسّر من القرآن الكريم بعد صلاة الجمعة، ثم قاموا هم و الناس على أرجلهم و دعوا اللّه تعالى- و قد غص الجامع بالناس- فلم يزالوا يدعون اللّه حتى دخل وقت العصر فصعد الأربعون شريفا إلى سطح الجامع و أذّنوا جميعا، ثم نزلوا و صلّوا مع الناس صلاة العصر و انفضّوا، و كان هذا بإشارة بعض الأعاجم، و أنه عمل ذلک ببلاد الشرق فی وباء حدث عندهم فارتفع عقيب ذلک.

و لما أصبح الناس فی يوم السبت أخذ الوباء يتناقص فی كلّ يوم بالتدريج حتى انقطع، غير أنه لما نقلت الشمس إلى برج الحمل فی يوم ثامن عشر جمادى الآخرة المذكورة و دخل فصل الرّبيع، و أخذ الطاعون يتناقص، غير أنه فشا الموت من يومئذ فی أعيان النّاس و أكابرهم و من له شهرة، بعد ما كان أوّلا فی الأطفال

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۳۴۴

و الموالى و الغرباء و الخدم، و فشا أيضا ببلاد الصعيد، و بغالب الدّواب و الطّير، و بدأ التطويل فی الأمراض، و مشت الأطباء و الجرائحية للمرضى.

و العجب أن الشريف كاتب السّرّ الذى جمع الأشراف بجامع الأزهر مات بعد ذلک باثنى عشر يوما، و ولى أخوه كتابة السرّ عوضه و قبل أن يلبس الخلعة مات أيضا.

و أما من مات فى هذا الوباء من الأعيان فجماعة كبيرة يأتى ذكر بعضهم فى و فيات هذه السنة من هذا الكتاب.

ثم فى يوم الاثنين تاسع شهر رجب خلع السلطان على الأمير الطّواشى زين الدين خشقدم الرّومى اليشبكىّ نائب مقدّم المماليك باستقراره مقدّم المماليك السلطانية بعد موت الأمير فخر الدين ياقوت الأرغون شاوى الحبشى، و خلع السلطان على الطواشى فيروز الركنى الرّومى باستقراره فى نيابة مقدّم المماليك عوضا عن خشقدم المذكور.

ثم فى سادس عشر شهر رجب المذكور قدم الأمير تغرى بردى المحمودىّ من ثغر دمياط- و كان قد نقل إليه من سجن الإسكندرية قبل تاريخه بمدّة- فرسم السلطان أن يتوجه من قليوب إلى دمشق ليكون أتابكا بها عوضا عن الأمير قانى باى الحمزاوى بحكم حضور قانى باى المذكور إلى القاهرة ليكون بها من جملة مقدّمى الألوف.

ثم فى ثالث عشرينه خلع السلطان على الشيخ بدر الدين حسن بن القدسىّ الحنفى باستقراره فى مشيخة الشّيوخ بالشّيخونيّة بعد موت القاضى صدر الدين أحمد ابن العجمى.

ثم ورد الخبر على السلطان بحركة قرايلك على البلاد الحلبيّة، و أن شاه رخ

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۳۴۵

ابن تيمور لنك قد شتّى بقراباغ، فأخذ السلطان فى تجهيز عسكر للسّفر، هذا و قد أشيع بالقاهرة بأن الأمير جانى بك الصّوفى مات بالطّاعون و دفن و لم يعرف به أحد فلم تطب نفس السّلطان لهذا الخبر، و استمرّ على ما هو عليه من الفلق بسببه.

ثم فى يوم الأربعاء ثالث شعبان منع السلطان نوّاب القضاة من الحكم، و رسم أن يقتصر القاضى الشافعىّ على أربعة نوّاب، و الحنفى على ثلاثة، و المالكى و الحنبلى كل منهما على اثنين، قلت: نعمة طائلة، خمسة عشر قاضيا بمصر بل و نصف هذا فيه كفاية.

ثم فى يوم الاثنين ثامن شعبان أدير محمل الحاجّ على العادة فى كلّ سنة، و لم يعهد دورانه فى شعبان قبل ذلك، غير أن الضّرورة بموت المماليك الرّمّاحة اقتضت تأخير ذلك، و كان الجمع فيه من الناس دون العادة لكثرة وجد الناس على موتاهم.

ثم فى يوم السبت ثامن عشر شهر رمضان قدم شهاب الدين أحمد بن صالح بن السّفاح كاتب سرّ حلب باستدعاء ليستقرّ فى كتابة السّرّ بالديار المصرية، و يستقرّ عوضه فى كتابة سرّ حلب ابنه زين الدين عمر، على أن يحمل شهاب الدين المذكور عشرة آلاف دينار، و كانت كتابة السّرّ شغرت من يوم مات الشريف شهاب الدين أحمد الدّمشقى، و باشر أخوه عماد الدين أبو بكر أياما قليلة و مات أيضا بالطاعون، فباشر القاضى شرف الدين أبو بكر الأشقر نائب كاتب السّرّ إلى يوم تاريخه بعد أن سعى فى كتابة السّرّ جماعة كبيرة بالقاهرة، فاختار السلطان ابن السفّاح هذا، و بعث بطلبه، و خلع عليه فى عشرينه باستقراره فى كتابة السّرّ، فباشر الوظيفة بقلّة حرمة و عدم أبّهة مع حدّة مزاج و خفّة و جهل بصناعة الإنشاء، على أنه باشر كتابة السّرّ بحلب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۳۴۶

سنين قبل ذلك، و مع هذا كله لم ينتج أمره لعدم فضيلته، فإنه كان يظهر من قراءته للقصص ألفاظ عامّيّة، و بالجملة فإنه كان غير أهل لهذه الوظيفة- انتهى.

ثم فى يوم السبت رابع عشرين شوّال قدم المماليك السلطانية من تجريدة الرّها إلى القاهرة، و كانوا من يوم ذاك بمدينة حلب، و تخلفت الأمراء بها.

ثم فى يوم الاثنين ثالث ذى القعدة خلع السلطان على الصاحب كريم الدين عبد الكريم بن كاتب المناخ باستقراره أستادارا مضافا إلى الوزر عوضا عن آقبغا الجمالى بحكم عجز آقبغا عن القيام بالكلف السلطانية.

ثم فى سادس ذى القعدة أمسك السلطان آقبغا المذكور و أهين و عوقب على المال، فحمل جملة، ثم أفرج عنه و استقرّ كاشفا للجسور بعد أيام.

و فى يوم الثلاثاء ثامن عشر ذى القعدة أيضا- و يوافقه خامس عشر مسرى- أو فى النيل ستّة عشر ذراعا فركب السلطان الملك

الأشرف من قلعة الجبل و نزل حتى خلّق المقياس و عاد فتح خليج السّدّ على العادة و لم يركب لذلك منذ تسلطن إلا فى هذه السنة.

ثم فى ليلة السبت خامس عشر ذى القعدة ظهر للحاج المصرى و هم سائرون من جهة البحر المالح كوكب يرتفع و يعظم ثم تفرع منه شرر كبار ثم اجتمع، فلما أصبحوا اشتدّ عليهم الحرّ فهلك من مشاة الحاج ثم من الركبان عالم كبير، و هلك أيضا من جمالهم و حميرهم عدّة كبيرة، كل ذلك من شدة الحرّ و العطش، و هلك أيضا فى بعض أودية الينبع جميع ما كان فيه من الإبل و الغنم.

ثم فى يوم الثلاثاء ثامن ذى الحجة ركب السلطان من قلعة الجبل و نزل إلى بيت

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۳۴۷

[ابن] البارزىّ المطلّ على النيل بساحل بولاق، و سار بين يديه غرابان فى النيل حربية، فلعبا كما لو حاربا الفرنج، ثم ركب السلطان من وقته سريعا و سار إلى القلعة.

ثم فى عاشر ذى الحجة توجّه زين الدين عبد الباسط ناظر الجيش إلى زيارة القدس الشريف، و عاد فى يوم تاسع عشرينه، ثم ورد الخبر على السلطان فى هذا الشهر بتوجه الأمير قصروه نائب حلب منها و الأمراء المجرّدون معه لمحاربة قرقماس بن حسين بن نعير، فلقوا جمائعه تجاه قلعة جعبر، فانهزم قرقماس عن بيوته، فأخذ العسكر فى نهب ماله، فردّ عليهم العرب و هزموهم و قتلوا كثيرا من العساكر، و ممّن قتل الأمير قشتم المؤيّدى أتابک حلب و غيره، و عاد العسكر إلى حلب بأسوإ حال، فعظم ذلک على الملک الأشرف إلى الغاية.

قال المقريزى: و كان فى هذه السنة حوادث شنيعة و حروب و فتن؛ فكان بأرض مصر بحريّها و قبليّها و بالقاهرة و مصر و ظواهرها و باء [عظيم] مات فيه على أقلّ ما قيل مائة ألف إنسان، و المجازف يقول هذه المائة ألف من القاهرة و مصر فقط سوى من مات بالوجه القبلى و البحرى، و هم مثل ذلک.

قلت: و ليس فى قول القائل إن هذه المائة ألف من القاهرة و مصر فقط مجازفة أبدا، فإن الوباء أقام أزيد من ثلاثة أشهر ابتداء و انتهاء و انحطاطا، و أقل من مات فيه دون العشرين كل يوم، و أزيد من مات فيه نحو خمسة عشر ألف إنسان، و بهذا المقتضى ما ثمّ مجازفة، و متحصل ذلک يكون بالقياس أزيد مما قيل- انتهى.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۳۴۸

قال- أعنى المقريزى: و غرق ببحر القلزم مركب فيه حجّاج و تجار تزيد عدتهم على ثمانمائه إنسان لم ينج منهم سوى ثلاثة رجال و هلک باقيهم، و هلک فى ذى القعدة أيضا بطريق مكّة فيما بين الأزلم و الينبع بالحرّ و العطش ثلاثة آلاف إنسان، و يقول المكثر خمسة آلاف، و غرق فى نيل مصر فى مدّة يسيرة اثنتا عشرة سفينة، تلف فيها من البضائع و الغلال ما قيمته مال عظيم، و كان بغزة و الرّملة و القدس و صفد و دمشق و حمص و حماة و حلب و أعمالها وباء [عظيم]، هلک فيه خلائق لا يحصى عددهم إلا اللّه تعالى، و كان ببلاد المشرق بلاء عظيم، و هو أنّ شاه رخّ بن تيمور ملک الشّرق قدم إلى تبريز فى عسكر يقول المجازف عدّتهم سبعمائة ألف، قلت: يغفر اللّه لقائل هذا اللفظ، فإنه تجاوز حد المجازفة فى قوله- انتهى.

قال: فأقام شاه رخّ على خوبى نحو شهرين، و قد فرّ منه إسكندر بن قرا يوسف، فقدم عليه الأمير عثمان بن طر على المدعو قرايلک التركمانى صاحب آمد فى ألف فارس، فبعثه على عسكر لمحاربة إسكندر، و سار فى أثره، و قد جمع إسكندر جمعا يقول المجازف إنهم سبعون ألفا، فاقتتل الفريقان خارج تبريز فقتل بينهما آلاف من الناس، و انهزم إسكندر، و هم فى أثره يقتلون [و يأسرون] و ينهبون، فأقام إسكندر ببلاد الكرج ثم بقلعة سلماس و حصرته العساكر مدّة، فنجا و جمع نحو الأربعة آلاف، فبعث إليه شاه رخّ عسكرا أوقعوا به و قتلوا من معه، فنجا بنفسه جريحا.

و فى مدة هذه الحروب ثار أصبهان بن قرا يوسف و نزل على الموصل و نهب تلک

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۳۴۹

الأعمال و قتل و أفسد فسادا كبيرا، و كانت بعراق العرب و العجم نهوب و مقاتل، بحيث إن شاه محمد بن قرا يوسف متملك بغداد من عجزه لا يتجاسر على أن يتجاوز سور بغداد، و خلا أحد جانبى بغداد من السكان، و زال عن بغداد اسم التمدّن، و رحل منها حتى الحيّاك، و جفّ أكثر النّخل من أعمالها، و مع هذا كلّه وضع شاه رخّ على أهل تبريز مالا، ذهبت فى جباياته نعمهم، و كثر الإرجاف بقدومه إلى الشّام، فأوقع اللّه فى عسكره البلاء و الوباء حتى عاد إلى جهة بلاده، و عاد قرايلك إلى ماردين فنهبها، ثم عاد و نهب ملطية و ما حولها.

و كان [أيضا] ببلاد الحبشة بلاء لا يمكن وصفه، و ذلك أنا أدركنا ملكها داود بن سيف أرعد، و يقال له الحطّى ملك أمحرة، و هم نصارى يعقوبيّة، فلما مات فى سنة اثنتى عشرة و ثمانمائة قام من بعده ابنه تدرس بن داود، فلم تطل مدّته و مات، فملك بعده أخوه أبرم، و يقال إسحاق بن داود و فخم أمره؛ و ذلك أن بعض مماليك الأمير بزلار نائب الشام ترقّى فى الخدم و عرف بألطنبغا مغرق حتى باشر ولاية قوص من بلاد الصّعيد، ففرّ إلى الحبشة و اتّصل بالحطّى هذا، و علّم أتباعه لعب الرّمح و رمى النّشّاب و غير ذلك من أدوات الحرب، ثم لحق بالحطّى أيضا بعض المماليك الچراكسة، و كان زرد كاشا فعمل له زردخاناه ملوكيّة، و توجّه إليه مع ذلك رجل من كتّاب مصر الأقباط النّصارى يقال له فخر الدولة، فرتّب له ملكه، و جبى له الأموال و جنّد له الجنود، حتى كثر ترفّهه بحيث أخبرنى من شاهده و قد ركب فى موكب جليل و بيده صليب من ياقوت أحمر قد قبض عليه، و وضع يده على فخذه، فشرهت نفسه إلى أخذ ممالك الإسلام لكثرة ما وصف له هؤلاء من حسنها، فبعث بالتّبريزىّ التاجر ليدعو الفرنج للقيام معه، و أوقع بمن فى مملكته من المسلمين، فقتل منهم و أسر و سبى عالما عظيما، و كان ممن أسر منصور و محمد ولدا سعد الذين محمد بن أحمد بن على

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۳۵۰

ابن ولصمع الجبرتى ملك المسلمين بالحبشة، فعاجله اللّه بنقمته و هلك فى ذى القعدة، و أقيم ابنه اندراس بن إسحاق، فهلك أيضا لأربعة أشهر، فأقيم بعده عمّه حزبناى ابن داود بن سيف أرعد، فهلك فى شهر رمضان سنة أربع و ثلاثين، فكانت على أمحرة أربعة ملوك فى أقلّ من سنة- انتهى كلام المقريزى برمته.

و قد خرجنا عن المقصود، على أنه فيما ذكرنا فوائد يحتمل التطويل بسببها- انتهى.

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۳۴]

ثم إن السلطان أخذ فى تجهيز عسكر إلى البلاد الحلبيّة إلى أن انتهى أمرهم، فلمّا كان يوم الاثنين سابع عشرين محرم سنة أربع و ثلاثين و ثمانمائة برز الأمراء المجرّدون من القاهرة إلى الرّيدانيّة خارج القاهرة، و هم الأمير الكبير جارقطلو أتابك العساكر، و الأمير إينال الجكمىّ أمير سلاح، و الأمير آقبغا التّمرازى أمير مجلس، و الأمير تمراز القرمشىّ رأس نوبة النّوب و الأمير [قرا] مراد خجا الشّعبانى الظاهرىّ برقوق أمير جاندار، و عدّة من أمراء الطبلخانات و العشرات، و خمسمائة مملوك من المماليك السّلطانية، و كان سبب تجرّدهم ورود الخبر على السلطان بنزول قرايلك فى أوّل هذا الشهر على معاملة ملطية، و أنه نهبها و أحرقها، و حصر ملطية، فخرج إليه الأمير قصروه نائب حلب، و قد أردفه الأمير سودون من عبد الرحمن نائب الشام بعساكر الشام، فأردفهم السلطان [أيضا] بالعسكر المذكور، فلمّا أن رحلوا من الرّيدانيّة ورد الخبر ثانيا من قبل نوّاب البلاد الشامية بعود قرايلك إلى بلاده، و أن المصلحة تقتضى عدم خروج العسكر من مصر فى هذه السّنة، فرسم السلطان بعودهم من خانقاه سرياقوس فى يوم الجمعة أوّل صفر، فرجعوا من وقتهم، و استعيدت منهم

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۳۵۱

النفقة السلطانية التى أنفقت فيهم عند سفرهم، فاحتاجوا إلى ردّ ما اشتروه من الأمتعة بعد ما استعملوها، و الأزواد على من ابتاعوها منهم غصبا، ثم احتاجوا إلى استعادة ما أنفقوه على غلمانهم و خدمهم، و قد تصرفت الغلمان فيها، و اشتروا منها احتياجهم، و دفعوا

منها إلى أهليهم ما ينفقونه فى غيبتهم، فكلّ واحد من هؤلاء استعيد منه ما تصرّف فيه، فنزل من أجل هذا بالناس ضرر عظيم، و كثرت القالة فى السلطان و نفرت القلوب منه، و تحدّث الناس بذلك أياما و سنين، و لعله صار مثلا يضرب به إلى يوم القيامة.

ثم فى يوم الاثنين حادى عشر صفر المذكور ركب السلطان من قلعة الجبل فى موكب جليل ملوكى احتفل له و لبس قماش الموكب الكلفتاه و الفوقانى الصّوف الذى بوجهين أحمر و أخضر، كما كان يلبس الملك الظاهر برقوق و غيره من الملوك، و جرّ الجنائب بين يديه و الجاويشيّة تصيح أمامه، و سار و حوله الطبردارية و على رأسه السّنجق السلطانى حتى عبر من باب زويلة فشق القاهرة و خرج من باب الشّعريّة يريد الصّيد بالدير و المنزلة فتوجّه إلى الصيد فبات هناك ليلة الثلاثاء و أصبح اصطاد الكراكى، و عاد إلى مخيّمه و أكل السّماط، ثم ركب و عاد فى آخر يوم الثلاثاء إلى القلعة بعد ما شقّ القاهرة فى عوده أيضا على تلك الهيئة، و هذا أوّل ركوبه إلى الصيّد منذ تسلطن.

ثم فى خامس عشرينه ركب للصيد ثانيا و عاد من الغد، و تكرّر ركوبه لذلك غير مرّة، و أنا ملازمه فى جميع ركوبه للصيّد و غيره

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۳۵۲

و فى هذا الشهر توقّف الناس و التجار فى أخذ الذهب من كثرة الإشاعة بأنه ينادى عليه، فنودى فى يوم السبت سلخ صفر المقدم ذكره أن يكون سعر الدينار الأشرفىّ بمائتين و خمسة و ثلاثين، و الدينار الإفرنتى بمائتين و ثلاثين، و هدّد من زاد على ذلك بأنه يسبك فى يده، فعاد الضرر على الناس فى الخسارة لانحطاط سعر الدينار خمسين درهما؛ فإنه كان يتعامل به الناس بمائتين و خمسة و ثمانين.

ثم فى يوم الثلاثاء رابع شهر ربيع الأوّل رسم السلطان بجمع الصيّارف و التجار [فجمعوا] و أشهد عليهم أن لا يتعاملوا بالدراهم القرمانيّة و لا الدراهم اللّنكيّة و لا القبرسيّة، و أن هذه الثلاثة أنواع تباع بسوق الصاغة على حساب وزن كل درهم منها بستة عشر درهما من الفلوس حتى يدخل بها إلى دار الضّرب و تضرب دراهم أشرفيّة خالصة من الغشّ، و نودى بذلك، و أن تكون المعاملة بالدراهم الأشرفيّة و الدراهم البندقيّة و المؤيّدية، فإن هذه الثلاثة فضّة خالصة ليس فيها نحاس بخلاف الدراهم التى منع من معاملتها، فإن عشرتها إذا سبكت تجىء ستة لما فيها من النحاس، ثم نودى بعد ذلك بأن يكون سعر الأشرفى بمائتين و ثمانين و الإفرنتى بمائتين و سبعين، و استمرّ ذلك جميعه لا يقدر أحد على مخالفة شىء منه.

قلت: و هذا بخلاف ما نحن فيه الآن؛ فإن لنا نحو ستة أشهر و الناس فيه بحسب اختيارهم فى المعاملة بعد أن نودى على الذّهب و الفضة بعدة أسعار غير مرّة، فلم يلتفت أحد للمناداة، و أخذوا فيما هم فيه من المعاملة بالدراهم التى لا يحل المعاملة بها لما فيها من

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۳۵۳

الغشّ و النحاس، و قد استوعبنا ذلك كلّه مفصّلا باليوم فى تاريخنا «حوادث الدهور فى مدى الأيام و الشهور» إذ هو ضابط لهذا الشأن مشحون بما يقع فى الزمان من ولاية و عزل و غريبة و عجيبة.

ثم تكرّر ركوب السلطان فى شهر ربيع الأوّل هذا للصيد غير مرّة بعدّة نواح، كل ذلك و الخواطر مشغولة بأمر جانى بك الصّوفى و الفحص عنه مستمر، و الناس بسبب ذلك فى جهد و بلاء، فما هو إلا أن يكون الرجل له عدوّ و أراد هلاكه أشاع بأن جانى بك الصوفى مختف عنده فعند ذلك حلّ به بلاء اللّه المنزل من كبس داره، و نهب قماشه، و هتك حريمه، و سجنه فى أيدى العواتية، ثم بعد ذلك يصير حاله إلى [أحد] أمرين: إما أن يضرب و يقرّر بالعقوبه، و إما أن تبرّأ ساحته و يطلق بعد أن يقاسى من الأهوال ما سيذكره إلى أن يموت، و لقد رأيت من هذا النوع أعاجيب، منها: إن بعض أصحابنا الخاصّكيّة ضرب بعض السقايين على ظهره ضربة واحدة، فرمى السقّاء المذكور قربته و ترك حمله و صاح: هذا الوقت أعرّف السلطان بمن هو مختف عندك، و مشى مسرعا خطوات إلى جهة القلعة، فذهب خلفه حواشى الخاصّكى المذكور ليرجعوه فلم يلتفت، فنزل إليه الخاصّكى بنفسه حافيا و تبعه إلى الشارع الأعظم حتى لحقه و قد أعاقه الناس له، فأخذ الخاصّكى يتلطّف به و يترضّاه و يبوس صدره غير مرّة و يترقّق له و قد علاه اصفرار و

رعدة، و الناس تسخر من حاله لكونه ما يعرف باللغة العربية إلا كلمات هينة، فصار مع عدم معرفته يريد ملاطفة السّقّاء المذكور فيتكلّم بكلام إذا سمعه الشخص لا يكاد يتمالك نفسه، و سخر الناس و أهل حارته بكلامه أشهرا و سنين، فلما انتهى أمره و بلغنى ما وقع له كلّمته فيما فعله و لمته فى ذلك، فقال: خل عنك هذا الكلام، و اللّه إن إينال السلحدار و أخاه يشبك

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۳۵۴

الصّوفى ضربا بالمقارع و عصرا أياما و لم يصرّح أحد فى حقهما بما أراد هذا السّقاء أن يقوله عنى، و استمر الخاصّكىّ فى قلبه حزازة من السّقّاء المذكور إلى أن تأمّر عشرة فى أوّل دولة الملك الظاهر جقمق فطلب السّقّاء المذكور فوجده قد مات فى شعبان من السنة الحالية، فهذا ما كان من أمره، و مثل هذا فكثير.

ثم [فى] أواخر شهر ربيع الأوّل المذكور لهج السلطان بسفره إلى البلاد الشّامية لمحاربة قرايلك.

و استهلّ شهر ربيع الآخر- أوّله الأحد- و السلطان و الأمراء فى الاهتمام بحركة السفر.

ثم فى يوم الخميس رابع عشرين جمادى الأولى خلع السلطان على قاضى القضاة شهاب الدين أحمد بن حجر، و أعيد إلى قضاء الشافعيّة بالديار المصرية بعد عزل قاضى القضاة علم الدين صالح البلقينىّ.

ثم فى جمادى الآخرة خلع السلطان على الأمير جانى بک السّيفى يلبغا الناصرى نائب رأس نوبة النّوب المعروف بجانبک الثّور، باستقراره فى نيابة الإسكندرية بعد موت أحمد بن الأقطع.

ثم فى يوم الاثنين حادى عشرين شوّال خرج محمل الحاج إلى الرّيدانيّة خارج القاهرة صحبة الأمير قراسنقر الظاهرىّ، و حجّت فى هذه السنة زوجة السلطان الملک الأشرف و أمّ ولده الملک العزيز يوسف خوند جلبّان الچاركسية بتجمّل كبير إلى الغاية، و فى خدمتها الزّينى خشقدم الظاهرىّ الزّمّام و هو أمير الرّكب الأوّل، و الزينى عبد الباسط ناظر الجيش.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۳۵۵

قال المقريزى: و حججت أنا فى هذه السنة رجبيّة، و قد استجدّ بعيون القصب من طريق الحجاز بئر احتفرت، فعظم النّفع بها، و ذلک أنى أدركت بعيون القصب [أنه كان] يخرج من بين الجبلين ماء يسيح على الأرض فينبت فيه من القصب الفارسى و غيره شىء كثير، و يرتفع فى الماء حتى يتجاوز قامة الرّجل فى عرض كبير، فإذا نزل الحاج عيون القصب أقاموا يومهم على هذا الماء يغتسلون منه و يتبردون به، ثم انقطع هذا الماء و جفّت تلک الأعشاب، فصار الحاج إذا نزل هناک احتفر حفائر يخرج منها ماء ردىء إذا بات ليلة واحدة فى القرب نتن، فأغاث اللّه العباد بهذا البئر، و خرج ماؤها عذبا، و كان قبل ذلک بشهرين قد حفر الأمير شاهين الطّويل بئرين بموضع يقال له زعم و قيقاب، و ذلک أن الحاج كان إذا ورد الوجه تارة يجد فيه الماء و تارة لا يجد فيه، فلما هلک الناس من العطش فى السنة الماضية بعث السلطان بشاهين هذا- كما تقدّم ذكره- فحفر البئرين بناحية زعم حتى لا يحتاج الحاج إلى ورود الوجه، فتروّى الحاج منهما و عمّ الانتفاع بهما، و بطل سلوک الحاج على طريق الوجه من هذه السنة- انتهى كلام المقريزى.

قلت: و فرغت سنة أربع و ثلاثين و لم يسافر السلطان و لا أحد من أمرائه إلى البلاد الشّامية.

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۳۵]

ثم فى يوم الاثنين ثالث عشرين محرّم سنة خمس و ثلاثين و ثمانمائة و صلت زوجة السلطان خوند جلبّان بعد أن حجّت و قضت المناسک، و قدم محمل الحاج صحبة الأمير قراسنقر.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۳۵۶

ثم فى يوم الخميس سابع شهر ربيع الآخر من سنة خمس و ثلاثين و ثمانمائة المذكورة نزل عدّة من المماليک الجلبان من الأطباق إلى بيت الصاحب كريم الدين بن كاتب المناخ- و هو يومئذ وزير و أستادار- يريدون الفتک به، و كان علم من الليل، فتغيّب و

استعدّ و هرب من بيته، فلم يظفروا به و لا- بشيء فی داره، فعادوا بعد أن أفسدوا فيما حوله من بيوت جيرانه، و كان لهم من أيام الطاعون قد كفّوا عن هذه الفعلة، فبلغ السلطان نزولهم فغضب و أخذ فی الدّعاء عليهم أيضا بالفناء و الوباء، حتى قال له التّاج الوالی بعد أن زال ما عنده: وسّط هؤلاء المعرّصين و لا تدع بعود الطاعون على المسلمين، فقال له السلطان: يجوز قتل المسلم بغير استحقاق؟ فقال التاج: و هؤلاء مسلمون؟ فقال السلطان: نعم، فقال التاج: و اللّه ما هو صحيح، فضحك السلطان و أمر به فلكموه الخاصّكيّة لكما مزعجا، فقال: انظر صدق مقالتی، هذا فعل مسلم بمسلم؟

انتهی.

ثم أصبح الصاحب كريم الدين استعفى من وظيفة الأستادارية فأعفاه السلطان، و استدعى الصاحب بدر الدين حسن بن نصر اللّه فی يوم السبت ثالث عشرين شهر ربيع الآخر [المذكور] و أخلع عليه باستقراره أستادارا عوضا عن الصاحب كريم الدين بعد انقطاع ابن نصر اللّه فی بيته عدّة سنين، و هذه ولاية ابن نصر اللّه الثانية لوظيفة الأستادارية.

ثم فی يوم الثلاثاء خامس عشرين جمادى الأولى ركب السلطان من القلعة بغير قماش الموكب و نزل إلی بيت زين الدين عبد الباسط ناظر الجيش، ثم ركب من بيت عبد الباسط إلی بيت القاضی سعد الدين إبراهيم بن كاتب جكم ناظر الخواصّ فجلس عنده أيضا قليلا، ثم ركب و عاد إلی القلعة، فلما كان يوم سادس عشرينه حمل عبد الباسط و سعد الدين ناظر الحاص تقادم جليلة إلی السلطان، بسبب نزوله إليهما.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۳۵۷

و فی هذه السنة تكرّر ركوب السلطان و نزوله إلی الصّيد و عبوره إلی القاهرة و توجّهه إلی النزه- بخلاف ما كان عليه أولا- غير مرّة.

ثم فی يوم الثلاثاء ثانی جمادى الآخرة عزل السلطان الصاحب بدر الدين بن نصر اللّه عن الأستادارية، و خلع من الغد على آقبغا الجمالی باستقراره أستادارا عوضا عن ابن نصر اللّه المذكور، و هذه ولاية آقبغا الثانية، و لزم ابن نصر اللّه داره على عادته؛ و كان سبب عزل الصاحب بدر الدين عن الأستاداريّة أنه لما بلغ آقبغا الجمالی عزل الصاحب كريم الدين بن كاتب المناخ عن الأستادارية سأل فی الحضور، و كان يتولى كشف البحيرة، فأجيب، فحضر و سعى فی الوظيفة على أنّه يحمل عشرة آلاف دينار، و إن سافر السلطان إلی الشام حمل معه نفقة شهرين مبلغ أربعين ألف دينار، فأجيب و أبقى الكشف أيضا معه، و أضيف إليه كشف الوجه البحری.

ثم فی يوم السبت سابع عشرينه خلع السلطان على قاضی القضاة بدر الدين محمود العينی و أعيد إلی قضاء الحنفية بالديار المصرية، [عوضا] عن زين الدين عبد الرحمن التّفهنی الحنفی بحكم طول مرضه، فباشر العينیّ القضاء و الحسبة و نظر الأحباس؛ معا لخصوصيته عند الملك الأشرف، فإنه كان يقرأ له تواريخ الملوك و ينادمه.

ثم فی يوم الثلاثاء أوّل شهر رجب خلع السلطان على الأمير صلاح الدين محمد ابن الصاحب بدر الدين بن نصر اللّه باستقراره محتسب القاهرة عوضا عن العينی بحكم عزله برغبته عنها، و كان صلاح الدين هذا منذ عزل عن الأستادارية و عزل أبوه عن نظر الخاص و صودرا ملازمين لدارهما.

ثم فی يوم الخميس ثالث شهر رجب أدير المحمل على العادة فی كل سنة إلا أنه عجّل به فی هذا اليوم لأجل حركة السلطان إلی السفر إلی البلاد الشاميّة، و كان

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۳۵۸

السلطان أيضا فی هذه السنة أشاع سفره كما قال فی العام الماضی، و تجهّز لذلك هو و أمراؤه.

ثم فی عشرينه قدم الأمير سودون من عبد الرحمن نائب الشام باستدعاء، و صحبته القاضی كمال الدين محمد بن البارزیّ كاتب السّرّ بدمشق فباتا بتربة الملك الظاهر برقوق بالصحراء، ثم صعدا من الغد فی يوم الاثنين حادی عشرينه إلی القلعة و قبّلا الأرض، و لما

انفضّت الخدمة نزل الأمير سودون من عبد الرحمن إلى مكان بغير خلعة، فعلم كلّ أحد أنه معزول عن نيابة الشام.

فلما كان الغد و هو يوم الثلاثاء ثانى عشرين شهر رجب عملت الخدمة بالقصر السلطانى على العادة، و حضر الأمراء الخدمة على العادة، فقدّم سودون من عبد الرحمن قدّام جارقطلو و حجبه فى دخولهما على السلطان، و جلس جارقطلو على ميمنة السلطان، و جلس سودون من عبد الرحمن على ميسرة السلطان إلى أن قرىء الجيش و نجزت العلامة، و دخل السلطان من الخرجة إلى داخل القصر الأبلق، و جلس به استدعى الخلع و خلع على الأمير سودون من عبد الرحمن نائب الشام باستقراره أتابك العساكر بالديار المصرية عوضا عن جارقطلو، و خلع على جارقطلو باستقراره فى نيابة الشام عوضا عن سودون من عبد الرحمن، و قبّلا الأرض، و فى الوقت تحوّل سودون من عبد الرحمن إلى ميمنة السّلطان و ذهب جارقطلو إلى ميسرة السّلطان بعكس ما كان أوّلا، و لما خرجا من الخدمة السلطانية حجب جارقطلو سودون من عبد الرحمن.

كل ذلك لما ثبت عند السلطان من القواعد القديمة الكائنة إلى يومنا هذا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۳۵۹

و فى هذا اليوم رسم السلطان بإبطال حركة سفر السلطان إلى البلاد الشاميّة، فتكلّم الناس أن سبب حركة السلطان للسّفر إنما كانت بسبب سودون من عبد الرحمن لما أشاعه عنه المتغرّضون من أنه يريد الوثوب على السلطان، و ليس الأمر كذلك، و إنما كان لعزل سودون من عبد الرحمن أسباب:

أحدها: أنه طالت أيّامه فى نيابة الشام، و زادت عظمته، و كثرت مماليكه و حواشيه، فخاف الملك الأشرف عاقبته فعزله.

و ثانيها- و هو الأقوى عندى: أن السلطان لما استدعاه بكتاب على يد الأمير ناصر الدين محمد بن إبراهيم بن منجك و عاد معه ابن منجك، فلما كان فى بعض الطريق تحادثا، فكان من جملة كلام سودون من عبد الرحمن لابن منجك: أنا أدخل أيضا إلى مصر أميرا بعد طول مدّتى فى نيابة دمشق، فنقلها ابن منجك برمتها إلى الملك الأشرف، فتحقّق الملك الأشرف عند ذلك ما كان أشيع عنه، فبادر و عزله، و كان مراد سودون من عبد الرحمن بقوله: أدخل مصر أميرا غير ما حمله عليه ابن منجك، و هو أن مراد سودون من عبد الرحمن أنه اعتاد بنيابة الشام، و أنه يكره الإقامة بمصر، و أن بعض نيابات البلاد الشامية أحبّ إليه من أن يكون أتابكا بمصر، و أشياء غير ذلك.

ثم فى يوم الخميس ثانى شعبان خلع السلطان على الأمير جارقطلو خلعة السّفر، و خرج من يومه الى مخيّمه بالرّيدانيّة خارج القاهرة و قد استقرّ الأمير قراجا الخازندار الأشرفى مسفّره.

ثم خلع السلطان من الغد فى يوم الجمعة ثالثه على القاضى كمال الدين محمد بن البارزىّ كاتب سرّ دمشق باستقراره فى قضاء دمشق مضافا لكتابة سرّها عوضا عن شهاب الدين أحمد بن المحمرة، و لم يجتمع ذلك لأحد قبله فى الجمع بين قضاء دمشق و كتابة سرّها.

ثم فى يوم الاثنين سادس عشرين شهر رمضان خلع السلطان على دولات خجا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۳۶۰

الظاهرىّ باستقراره والى القاهرة عوضا عن التاج الشّوبكى و أخيه عمر، و دولات خجا هو أحد أصاغر المماليك الظاهرية برقوق و من شرارهم، و كان وضيعا تركى الجنس، كثير الشّرّ، يمشى على قدميه بالأسواق فى بعض الأحيان، و كان الملك الأشرف يعرفه أيّام جنديّته و يتوقّى شرّه، فلما تسلطن ولّاه الكشوفيّة ببعض النواحى، فأباد أهل تلك الناحية، ثم ولّاه الكشف بالوجه القبلى فتنوّع فى عذاب أهل الفساد و قطّاع الطريق أنواعا كثيرة، منها: أنه كان إذا قبض على الحرامى أمسكه و نفخ بالكير فى دبره حتى تندر عيناه و ينفلق دماغه، و منها أنه كان يعلّق الرجل منكسا و لا يزال يرمى عليه بالنّشّاب إلى أن يموت، و أشياء كثيرة من ذلك، فلما ولى الولاية بالقاهرة أوّل ما بدأ به أنه أفرج عن جميع أرباب الجرائم من الحبوس، و حلف لهم أنه متى ظفر بأحد منهم و قد سرق ليوسطنّه، و أرهب إرهابا عظيما، و صار يركب فى الليل و يطوف بحرمة زائدة عن الحد، و صدق فى يمينة فى السّرّاق فما وقع له سارق ممن

أطلقه- و قد كتب أسماءهم عنده- إلا وسّطه، فذعر أهل الفساد منه، و انكفّوا عن السّرقة، ثم أخذ فى التضييق على الناس و إلزامهم بإلزامات منها: أنه أمرهم بكنس الشوارع ثم رشّها بالماء، و بتعليق كل سوقى قنديلا على دكّانه، و عاقب على ذلك خلائق، ثم منع النساء من الخروج إلى الترب فى أيّام الجمع، و أشياء كثيرة إلى أن سئمته الناس و عزله الأشرف عنهم حسبما يأتى ذكره.

ثم أرسل السلطان يطلب قاضى القضاة شهاب الدين أحمد بن الكشك الحنفى ليستقرّ فى كتابة سرّ مصر بعد موت شهاب الدين أحمد بن السّفاح، على أنه يحمل بسبب ذلك عشرة آلاف دينار، فقدم جوابه فى يوم الاثنين ثالث شوّال فى ضمن كتاب الأمير جارقطلو نائب الشام على يد نجّاب، و هو يعتذر لعدم حضوره بضعف بصره و آلام تعتريه، و أرسل بمبلغ من الذّهب له صورة، فأعفاه السلطان عن ذلك،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۳۶۱

و استدعى الصاحب كريم الدين عبد الكريم بن كاتب المناح و خلع عليه فى يوم الثلاثاء رابعه باستقراره كاتب السّرّ الشريف مضافا إلى الوزر، و لم يقع ذلك فى الدّولة التركية لأحد أنّ الوزر و كتابة السرّ اجتمعا لواحد معا، و نزل الصاحب كريم الدين فى موكب جليل و باشر وظيفة كتابة السرّ و الوزر، مع بعده عن صناعة الإنشاء، و عن كل فضيلة، و قلّة دربته بقراءة القصص و المطالعات الواردة من الأعمال و الأقطار، و كان مع ما هو فيه من الجهل أجهر العينين لا ينظر فى الكتابة إلا من قريب، و فى صوته خشونة، فكان إذا أمسك الكتاب فى يده ليقرأه على السلطان تنظر أعاجيب من تبحّره فى الكتاب بعينه، ثم من توقّفه فى القراءة، ثم من اللّحن الفاحش الخارج عن الحدّ، مع أن قراءته للكتب ما كانت إلا نادرا، و فى الغالب لا يقرؤها على السلطان إلا القاضى شرف الدين الأشقر نائب كاتب السرّ، و كنت أظن أن الأشرف إنما ولّى كريم الدين هذا لكتابة السرّ إلا ليطيّت خاطره و يقويه حتى يعيده إلى وظيفة الأستادارية، فإنه كان ماهرا بتدبير أمور الوزر و الأستادارية، جيد التنفيذ فيها إلى الغاية، لم تر عينى بعده أحسن [تدبيرا] و تصرفا منه فى فنّه، غير أنه ليس من خيل هذا الميدان، و بين معرفته بفنه و الدّربة بصناعة الإنشاء زحام، إلى أن كان بعض الأيام و الأشرف جالس، و قدم الصاحب كريم الدين هذا، فلمّا رآه الأشرف من بعيد قال لمن حوله: هل رأيتم كاتب سرّ أحشم من هذا و لا أمثل؟ فقال له من حضر:

لا و اللّه يا خوند، فعند ذلك تحقّقت خلاف ما كنت أظن و علمت أن القوم فى واد و الأمم السالفة فى واد.

ثم فى يوم الخميس ثالث عشر شوال المذكور ابتدأ السّلطان بالجلوس فى الإيوان بدار العدل من قلعة الجبل، و كان قد ترك الملوك الجلوس به بعد الملك الظاهر برقوق فى يومى الاثنين و الخميس إلا فى النادر أيام خدمة الإيوان عند قدوم قصّاد ملوك الأقطار،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۳۶۲

فتشعث الإيوان و نسيت عوائده و رسومه إلى أن اقتضى رأى السلطان فى هذه الأيّام بعمارته و تجديد عهده، فأزيل شعثه و تتبعت رسومه، و جلس الملك الأشرف به، و عمل الخدمة السلطانية فيه، و عزم على ملازمتة فى يومى الخدمة، و رسم بحضور القضاة و غيرهم ممّن كان له عادة بحضور خدمة دار العدل، فلم يتمّ ذلك و تركه كأنه لم يكن.

ثم فى ثانى عشرين شوّال هذا قدم الخبر من مكة المشرفة بأن عدة زنوك قدمت من الصين إلى سواحل الهند، و أرسى منها اثنان بساحل عدن فلم تنفق بها بضائعهم من الصينى و الحرير و المسك و غير ذلك لاختلال حال اليمن، فكتب كبير هذين المركبين الزنكيين إلى الشريف بركات بن حسن بن عجلان أمير مكة و إلى سعد الدين إبراهيم بن المرة ناظر جدّة يستأذن فى قدومهم إلى جدّة، فكتبا إلى السلطان فى ذلك و رغّباه فى كثرة ما يتحصّل فى قدومهم من المال، فكتب لهم السلطان بالقدوم إلى جدّة و إكرامهم.

ثم فى يوم الاثنين أوّل ذى القعدة استدعى السلطان القضاة الأربعة بجميع نوّابهم فى الحكم بالقاهرة و مصر [إلى القلعة] لتعرض نوابهم على السلطان، و قد ساءت القالة فيهم عند السلطان، فدخل القضاة الأربعة إلى مجلس السلطان و عوّق نوّابهم عن العبور إلى

السلطان، فلما جلسوا خاشنهم السلطان فى اللفظ بسبب كثرة نوّابهم، و انفضّ المجلس على أن يقتصر الشافعىّ على خمسة عشر نائبا بمصر و القاهرة، و الحنفى على عشرة نوّاب، و المالكىّ على سبعة، و الحنبلىّ على خمسة، و نزلوا على ذلك، فلم يزل عبد الباسط و غيره بالسلطان حتى زادهم شيئا بعد شىء إلى أن عادت عدّتهم إلى ما كانت عليه، و السلطان لا يعلم بذلك.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۳۶۳

ثم فى سابعه خلع السلطان على التاج الشّوبكى باستقراره والى القاهرة بعد عزل دولات خجا المقدم ذكره، و قد أقمع دولات خجا المفسدين و أبادهم.

ثم فى يوم الأحد ثامن عشرين ذى القعدة أيضا ورد الخبر على السلطان بموت جينوس بن جاك متملّك قبرس، فعيّن السلطان شخصا من الأعيان و معه ستّون مملوكا للتوجه إلى قبرس، فخرجوا فى يوم الجمعة خامس عشرين ذى الحجة من سنة خمس و ثلاثين و ثمانمائة و معهم خلعة لجوان بن جينوس باستقراره فى مملكة جزيرة قبرس عوضا عن والده جينوس نيابة عن السلطان، و مطالبته بما تأخر على أبيه و هو أربعة و عشرون ألف دينار و بما التزم فى كلّ سنة و هو خمسة آلاف دينار، و ساروا على ذلك إلى ما يأتى ذكره.

و انسلخت هذه السنة بيوم الأربعاء الموافق لرابع أيام النسىء، و هى سنة تحويل تحوّل الخراج فيها من أجل أنه لم يقع فيها نوروز، فحوّلت سنة ست إلى سنة سبع و ثلاثين.

قال المقريزى رحمه اللّه: و اتّفق فى سنة ست و ثلاثين هذه غرائب منها: أن يوم الخميس كان أوّل المحرّم و وافقه أوّل يوم من تشرين و هو رأس سنة اليهود، فاتّفق أوّل سنة اليهود مع أوّل سنة المسلمين، و يوم الجمعة وافقه أوّل توت و هو أوّل سنة النّصارى القبط، فتوالت أوائل سنى الملل الثلاث فى يومين متوالين، و اتّفق مع ذلك أن طائفة اليهود الربانيين يعملون رءوس سنيهم و شهورهم بالحساب، و طائفة القرائين يعملون رءوس سنيهم و شهورهم برؤية الأهلّة كما هى عند أهل الإسلام، فيقع بين طائفتى اليهود فى رءوس السنين و الشهور اختلاف كبير، فاتّفق فى هذه السنة مطابقة حساب الرّبّانيّين و القرّائين، فعمل الطائفتان جميعا رأس سنتهم يوم الخميس، و هذا من النوادر التى لا تقع إلا فى الأعوام المتطاولة- انتهى.

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۳۶]

ثم فى يوم الاثنين سادس عشرين المحرم من سنة ست و ثلاثين المذكورة عزل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۳۶۴

السلطان آقبغا الجمالى عن الأستادارية، و جعل الزّنجير الحديد فى رقبته، و أنزله على حمار من القلعة إلى بيت التاج الوالى بسويقة الصاحب ليعاقبه على استخراج المال.

و أصبح السلطان من الغد خلع على الصاحب كريم الدين عبد الكريم بن كاتب المناخ بإعادته إلى وظيفة الأستادارية عوضا عن آقبغا المذكور مضافا إلى الوزر، و عزله عن وظيفة كتابة السّر، و رسم السلطان للقاضى شرف الدين الأشقر نائب كاتب السر أن يباشر الوظيفة إلى أن يستقرّ فيها أحد، و عيّن جماعة كبيرة للوظيفة المذكورة فلم يقع اختيار السلطان على أحد منهم.

و رسم السلطان بطلب القاضى كمال الدين ابن البارزىّ قاضى قضاة دمشق و كاتب سرّها ليستقرّ فى كتابة سرّ مصر، و خرج القاصد بطلبه من القاهرة فى يوم الأحد ثانى صفر من سنة ست و ثلاثين و ثمانمائة [ليستقر فى كتابة سرّ مصر]، و أن يستقرّ عوضه فى القضاء بدمشق بهاء الدين محمد ابن القاضى نجم الدين عمر بن حجّى، و أن يستقرّ عوضه فى كتابة سرّ دمشق قاضى القضاة شهاب الدين أحمد بن الكشك الحنفىّ، و يستقرّ ولد ابن الكشك شمس الدين محمد فى قضاء الحنفيّة بدمشق عوضا عن أبيه، و يستقرّ جمال الدين يوسف بن الصّفّىّ فى نظر جيش دمشق عوضا عن بهاء الدين ابن حجّى.

ثم فى سابع صفر قدمت الرسل المتوجّهة إلى قبرس، و كان من خبرهم أنهم لما توجّهوا إلى دمياط ركبوا منها البحر [المالح] فى شينيين و ساروا حتى و صلوا إلى الملّاحة فى يوم السبت عاشر المحرّم من سنة ست و ثلاثين المذكورة، فلما و صلوا إلى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۳۶۵

الملّاحة سار أعيانهم فى البرّ إلى الأفقسيّة و هى مدينة قبرس و دار ملكها، و بلغ متملّك قبرس مجيئهم فخرج إلى لقائهم وزير الملك فى أكابر أهل قبرس، فأنزلوهم هناك و باتوا ليلتهم بالمكان المذكور، و أصبحوا من الغد و هو يوم الاثنين ثانى عشر المحرم عبروا المدينة و دخلوا على الملك جوان بن جينوس بن جاك فى قصره فإذا هو قائم على قدميه فسلّموا عليه و بلّغوه الرسالة و أوصلوه كتاب السلطان، كل ذلك و هو قائم على قدميه، فأذعن بالسمع و الطاعة، و قال: أنا مملوك السلطان و نائبه، و قد كنت على عزم أن أرسل التقدمة، فبلغنى قدومكم فأمسكت عن ذلك، فكلّموه أن يحلف على طاعة السلطان، فأجابهم إلى ذلك، و استدعى القسيسين و حلف على الوفاء و على الاستمرار على الطّاعة و القيام بما يجب عليه من ذلك، فعند ذلك أفيض عليه التّشريف السلطانى المجهّز له على يد كبير القوم، فلبسه و قد أظهر السرور و البشر بذلك، ثم خرجت الرسل من عنده فداروا بالمدينة و هم ينادى بين أيديهم باستقرار الملك جوان فى نيابة السّلطنة بمدينة الأفقسيّة و سائر ممالكها، و أن لأهل قبرس الأمان و الاطمئنان، و أمروهم بطاعته و طاعة السلطان إلى أن داروا البلد، ثم أنزلوهم فى بيت قد أعدّ لهم، و أجرى عليهم من الرّواتب ما يليق بهم من كل ما عندهم.

ثم حمل إليهم فيما بعد سبعمائة ثوب صوف قيمتها عشرة آلاف دينار، و ذلك مما تأخّر على أبيه، ثم أظهر خصم أربعة آلاف دينار أخرى، و وعد بحمل العشرة آلاف دينار الباقية بعد سنة، ثم بعث إليهم أيضا بأربعين ثوبا صوفا برسم الهديّة للسلطان، ثم أرسل لكل من الرّسل شيئا بحسب مقامه و على قدره، ثم أخذ فى تجهيزهم و تسفيرهم حتى كان سفرهم من قبرس بعد عشرة أيام من قدومهم إلى اللّمسون، فأقاموا [بها] إلى أن تهيئوا و ركبوا البحر و ساروا فيه ستّة أيام و وصلوا إلى ثغر دمياط، ثم خرجوا من مراكبهم و ركبوا المراكب فى بحر النيل إلى أن قدموا القاهرة، و طلعوا إلى السلطان و عرّفوه ما وقع لهم مفصّلا و ما معهم من الصّوف و غيره، فقبل السلطان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۳۶۶

ذلك، و قرأ كتابه فإذا هو يتضمّن السمع و الطاعة، و أنه نائب السلطان فيما تحت يده من البلاد و المملكة، و أنه فى طيى علمه و من جملة مماليكه، فسرّ السلطان بذلك غاية السّرور؛ فإنه كان أشيع بمصر أنه لما ملك بعد أبيه خرج عن طاعة السلطان، و منع الجزية، فوقع خلاف ذلك- انتهى.

ثم فى يوم السبت ثامن صفر خلع السلطان على حسن بك بن سالم الدّوكرىّ أحد أمراء التّركمان و هو ابن أخت قرايلك باستقراره فى نيابة البحيرة عوضا عن أمير على، و أنعم عليه بمائة قرقل و مائة قوس و مائة تركاش و ثلاثين فرسا و وجهه إلى محل تحكمه بمدينة دمنهور، فأقام بها سنين عديدة و إلى الآن متوليها هو ولده، و هو يومئذ متولى جعبر.

ثم ورد الخبر على السلطان بامتناع ابن الكشك من ولاية كتابة سرّ دمشق، و أنه استعفى من ذلك، فأعفاه السلطان و رسم باستقرار القاضى تاج الدين عبد الوهاب بن أفتكين أحد موقّعى الدّست بدمشق فى كتابة سرّ دمشق، و كتب أيضا باستقرار محيى الدين يحيى بن حسن بن عبد الواسع الحبحابى المغربى المالكى فى قضاء المالكية بدمشق عوضا عن القاضى شهاب الدين أحمد بن محمد الأموى بعد موته.

ثم فى يوم الاثنين أوّل شهر ربيع الأوّل قدم إلى القاهرة رسول ملك القطلان من الفرنج بكتابه، و قد نزل على جزيرة صقلّية فى ثانى عشرين شهر رمضان بما ينيف على مائة قطعة حربية، و تضمّن كتابه الإنكار على الدّولة ما تعتمده من التجارة فى البضائع، و أن رعيّته الفرنج لا يشترون من السلطان و لا من أهل دولته بضاعة، و أنهم لا يشترون إلا من التّجّار، ثم أعاب على السلطنة صناعة المتجر، فردّ السلطان رسوله ردّا قبيحا، و كتب له جوابا بمثل ذلك.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۳۶۷

ثم فی هذا الشهر تکرّر توجّه السلطان إلی الصیّد غیر مرّة قبلیا و بحریا فأبعد ما وصل قبلیا إلی إطفیح و بحریا إلی شیبین القصر بالشرقیّة.

ثم فی تاسع عشر شهر ربیع الأوّل قدم القاضی کمال الدین محمد بن البارزیّ من دمشق بعد أن خرج أکابر الدّولة إلی لقائه، و طلع إلی السلطان و قبّل الأرض، ثم نزل إلی داره، و طلع من الغد إلی القلعة فی یوم السبت العشرین من شهر ربیع الأوّل المذکور، و خلع السلطان علیه باستقراره فی کتابة السّر بالدیار المصریّة عوضا عن شهاب الدین أحمد بن السفاح بعد شغور الوظیفة مدّة طویلة، و هذه ولایة کمال الدین المذکور [لکتابة السّر] ثانی مرة، و نزل فی موکب جلیل.

قال المقریزی: و سر الناس به سرورا کبیرا؛ لحسن سیرته و کفایته، و جمیل طریقته، و کرمه و کثرة حیائه- فاللّه یؤیده بمنه- انتهی کلام المقریزی.

قلت: هو کما قاله المقریزی و زیادة حتی إننی لا أعلم فی عصرنا هذا من یدانیه فی غزیر محاسنه- رحمه اللّه تعالی.

ثم فی یوم الخمیس أول جمادی الأولی قدم الأمیر مقبل الحسامی الدوادار- کان- نائب صفد، و کان السلطان قد رکب من القلعة إلی خارج القاهرة فلقیه السلطان و خلع علیه، و عاد مقبل المذکور فی خدمة السلطان إلی القلعة، ثم نزل مقبل فی دار أعدّت له، فأقام بالقاهرة إلی یوم حادی عاشره، و خلع علیه خلعة السفر، و توجه إلی محل کفالته بصفد.

ثم فی یوم الخمیس ثامنه خلع السلطان علی الأمیر أسنبغا الطیاری أحد أمراء العشرات، و استقر فی نظر جدّة عوضا عن سعد الدین إبراهیم بن المرة، و أذن لابن المرة المذکور أن یتوجه إلی خدمته، فلما کان یوم حادی عشر [جمادی الأولی المذکورة]

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۳۶۸

نودی فی الناس بالإذن فی السّفر إلی الحجاز- رجبیّة- صحبة الأمیر أسنبغا الطیاری المذکور، فسرّ الناس بذلک سرورا زائدا؛ لأن ابن المرة کان لا یدع أحدا أن یسافر معه خوفا علیهم من قطاع الطریق.

ثم فی سابع عشرین جمادی الأولی المذکورة سافر الوزیر کریم الدین بن کاتب المناخ إلی جهة الوجه القبلی- و هو یوم ذاک یباشر الوزارة و الأستاداریة معا- و کان سفره إلی الوجه القبلی لتحصیل ما یقدر علیه من الجمال و الخیل [و البغال] و الغنم و المال لأجل سفر السلطان إلی جهة البلاد الشامیّة، کل ذلک و الناس یأخذون و یعطون فی سفر السلطان؛ فإنه وقع منه التجهیز للسفر غیر مرة ثم تغیر عزمه عن ذلک.

ثم فی تاسع عشرینه قدم إلی القاهرة کتاب القان شاه رخّ بن تیمور لنک صاحب ممالک العجم و جغتای علی ید بعض تجّار العجم یتضمن أنه یرید کسوة الکعبة، و أرعد فیه و أبرق، و لم یخاطب السلطان فیه إلا بالأمیر برسبای، و قد تکررت مکاتبته للسلطان بسبب کسوة الکعبة غیر مرة، و هو لا یلتفت إلیه و لا یسمح له بذلک، بل یکتب له بأجوبة خشنة مشحونة بالتّوبیخ و الوعید و البهدلة، حتی إنه کلّما ورد منه کتاب و أجابه السلطان بتلک الأجوبة الخشنة لا یشک الناس أن شاه رخّ یرد إلی البلاد الشامیة عقیب ذلک، فلم یظهر له خبر و لا نظر له أثر، و قد استخف الملک الأشرف بشأنه حتی [إنه] صار إذا أتاه قاصده لا یلتفت إلیه و لا إلی ما فی یده من الکتب بالکلیة، و یأتی- إن شاء اللّه تعالی- ذکر ما فعله ببعض قصّاده من الضرب و البهدلة فی محله من هذا الکتاب.

قلت: لا أعرف للملک الأشرف فی سلطنته حرکة بعد افتتاحه لقبرس أحسن من ثباته مع شاه رخّ المذکور فی أمر الکسوة، و عدم اکتراثه به؛ فإنه أقام بفعلته هذه حرمة للدیار المصریة و لحکّامها إلی یوم القیامة- انتهی.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۳۶۹

ثم فی یوم الجمعة خامس عشر جمادی الآخرة أنفق السلطان فی الممالیک المجرّدین إلی مکة- و هم خمسون مملوکا- لکل واحد منهم مبلغ ثلاثین دینارا، و تجهّزوا للسفر إلی مکة صحبة الأمیر أسنبغا الطیاری [فلما کان یوم الاثنین ثامن عشر جمادی الآخرة

المذكورة برز فيه الأمير أسنبغا الطيّارىّ] بمن معه من المماليك السلطانية و الحجّاج.

و فيه خلع السلطان على سعد الدين إبراهيم بن المرة ليكون رفيقا للأمير أسنبغا الطيّارىّ فى التكلّم على بندر جدّة.

و فى هذه الأيام قوى عزم السلطان على السّفر، و ظهر للناس حقيقة ذلك من تجهيز أمور السلطان و تعلقاته للسفر، و أيضا فإنه رسم فى هذه الأيام بصرّ نفقة المماليك السلطانية بسبب السفر.

ثم فى يوم الخميس حادى عشرين جمادى الآخرة [المذكورة] أنفق السلطان فى الأمراء نفقه السّفر، فعند ذلك اضطرب الناس و أخذوا فى تجهيز أمورهم و تيقّنوا صدق القالة، فحمل السلطان إلى الأمير الكبير أتابك العساكر سودون من عبد الرحمن أكياس فضّة حسابا عن ثلاثة آلاف دينار، و إلى كلّ من أمراء الألوف- و هم عشرة أنفس- لكل واحد ألفى دينار، و إلى كل من أمراء الطّبلخانات خمسمائة دينار، و إلى كل من أمراء العشرات مائتى دينار، و كل ذلك فضّة حسابا عن الذّهب من سعر الدينار بمائتين و عشرين درهما، و الدينار يومئذ بمائتين و ثمانين، فالنفقة على هذا الحكم تنقص مبلغا كبيرا، غير أنه من هو المشاحح لذلك، و لسان الحال يقول: (يد الخلافة لا تطاولها يد) و كان هذا أيضا بخلاف القاعدة؛ فإنّ قاعدة الملوك أن تنفق أولا على المماليك السلطانية، ثم تنفق على الأمراء، فكان ذلك بخلاف ما كان، و كان له سبب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۳۷۰

فيما قيل، و هو أن الملك الأشرف كان عنده بخل و عدم محبة للسّفر من مبدأ أمره إلى أيّام سلطنته، و كان أشاع فى السنين الماضية أنه يريد السّفر لقتال قرايلك يوهم قرايلك بذلك ليرسل إليه بالدخول فى طاعته، و كان قرايلك أرسل إلى السلطان فى ذلك لمّا كان ولده هابيل فى حبس الملك الأشرف، فلما مات هابيل بالطّاعون فى سنة ثلاث و ثلاثين فى محبسه أمسك قرايلك عن مكاتبات السلطان، و أخذ فى ضرب معاملاته، و صار السلطان فى كل سنة يتجهز للسفر و يشيع ذلك إرداعا لقرايلك، فلم يلتفت قرايلك لذلك، فلمّا طال الأمر على السلطان حقّق ما كان أشاعه من السّفر مخافة العار و القالة فى حقّه.

و تأييد ما قيل أننى سمعته يقول فى بعض منازله فى سفره إلى آمد، و أظنه فى العودة:

لو سألنى قرايلك فى الصّلح و الدخول فى طاعتى بمقدار ما سأله للأمير جكم من عوض نائب حلب لما مشى لفتاله أو أقل من ذلك لرضيت، فهذا الخبر يقوّى القول المقدّم ذكره.

و استمر السلطان فى انتظار قدوم رسل قرايلك بالصّلح فى كل يوم و ساعة، و هو يترجّى أنه إذا بلغه صحة سفر السلطان إلى قتاله يرسل قصّاده فى السّؤال بالصّلح، و أرباب دولته تشير عليه بالتربّص و التأنى فى أمر السّفر مخافة من وقوعهم فى الكلف الكثيرة، فأشاروا عليه بأن ينفق فى الأمراء أوّلا- ربما يأتى رسول قرايلك فى السؤال و يبرم الصلح، فيكون استعادة المال منهم أهون من استعادته من المماليك السلطانية، فحسن ذلك ببال السلطان، و هو كما قيل فى الأمثال «إن كلمة الشح مطاعة» و أنفق فى الأمراء و عوّق نفقة المماليك إلى أن كان يوم سلخ جمادى الآخرة وقع الإياس من قرايلك و أخذ فى نفقة المماليك السلطانية فى سلخ الشهر المذكور، فأنفق على عدّة كبيرة من المماليك السلطانية لا يحضرنى عدّتهم.

قال المقريزى: و هم ألفان و سبعمائة، و فى ظنى أنهم كانوا أكثر من ذلك غير أنى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۳۷۱

لم أحرّر عدّتهم، فجلس السلطان بالمقعد الذى على باب البحرة من الحوش السلطانى بقلعة الجبل، و أعطى لكل مملوك صرّة فيها ألف درهم و خمسون درهما [فضة] أشرفيّة، عنها من الفلوس اثنان و عشرون ألف درهم، و هى مصارفة مائة دينار من حساب صرف كل دينار بمائتين و عشرين درهما فلوسا، و كان صرف الدينار يوم ذاك بمائتين و ثمانين درهما، كما حملت النفقة أيضا للأمراء على هذا الحساب، و كانت المماليك السلطانية اتّفقوا على أنّهم لا يأخذون إلا مائة دينار ذهبا، و دخلوا على ذلك، فلما استدعى الديوان أوّل اسم من طبقة الرّفرف خرج صاحبه و أخذ و باس الأرض و عاد إلى حال سبيله، و استدعى الديوان من هو بعده فخرج واحد بعد

واحد إلى أن تمت النفقة و لم يتفوّه أحد منهم بكلمة فى معنى ما اتفقوا عليه، و لما نزولوا بعد القبض للنفقة صار بعضهم يوبخ البعض خفية على ترك ما اتّفقوا عليه، إلى أن قال لهم بعض المماليك المؤيدية: احمدوا اللّه على هذا العطاء، فو اللّه لو لم ينفق [السلطان] فيكم و أمركم بالسّفر معه من غير نفقة لخرجتم معه صاغرين، و أوّلهم أنا، فضحك القوم من كلامه و انصرفوا.

قلت: تلك أمة قد خلت، هؤلاء القوم يأكلون الأرزاق صدقة عن تلك الأمم السالفة؛ فإننا لا نعلم بقتال وقع فى هذا القرن- أعنى عن قرن التسعمائة- غير وقعة تيمور لنك مع نوّاب البلاد الشاميّة على ظاهر حلب، لا مع العساكر المصريّة. و أما ما وقع بعد ذلك من الوقائع فى الدولة الناصرية [فرج] الدولة المؤيدية [شيخ] و الدولة الظاهرية [ططر] و الدولة المنصورية [محمد بن ططر] فهو نوع من القتال لا القتال المعهود بعينه، و تصديق ذلك أنه لم تكن وقعة وقعت فى هذ الدّول

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۳۷۲

أعظم من وقعة شقحب و مع ذلك لم يقتل فى المصاف خمسون رجلا من الطائفتين.

و ما وقع بعد ذلك من الوقائع فتنجلى الوقعة و لم يقتل فيها رجل واحد، و قد ثبت عند المؤرخين أنه قتل فى الوقعة التى كانت بين تيمور لنک و بين ملك دلى أحد ملوک الهند فى المصاف زيادة على عشرة آلاف نفس فى أقلّ من يوم، و نحن لا نطالب أحدا بذلك، غير أن الازدراء بالغير على ما ذا؟!- انتهى.

ثم فى يوم الثلاثاء ثالث شهر رجب قدم الصاحب كريم الدين عبد الكريم من الوجه البحرى بعد أن أخذ خيول أهله و جمالهم و أغنامهم و أموالهم، هو و أتباعه، فما عفّوا و لا كفّوا.

ثم فى يوم الخميس ثانى عشر شهر رجب المذكور أدير محمل الحاج، و لم يعمل فيه ما جرت به العادة من التجمّل، و لعب الرّماحه، بل أوقف المحمل تحت القلعة و أعيد، و لم يتوجّه إلى مصر، و هذا شىء لم يعهد بمثله، و كان سبب ذلك اشتغال الرّمّاحة بالتجهيز للسفر صحبة السلطان.

ثم فى يوم السبت رابع عشر شهر رجب المذكور خرجت مدوّرة السلطان و خيام الأمراء من القاهرة، و نصبت بالرّيدانيّة لأجل سفر السلطان.

ثم فى يوم الاثنين سادس عشره خرج أمراء الجاليش مقدّمة لعسكر السلطان، و هم الأمير سودون من عبد الرحمن أتابك العساكر، و الأمير إينال الجكميّ أمير سلاح، و الأمير قرقماس الشّعبانيّ الناصرىّ حاجب الحجاب، و الأمير قانى باى الحمزاوى، و الأمير سودون ميق، و الجميع مقدّمو ألوف، و نزلوا بخيمهم بطرف الرّيدانيّة تجاه مسجد التبن.

ثم رسم السلطان بإخراج البطّالين من الأمراء من الديار المصرية، فرسم للأمير

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۳۷۳

ألطنبغا المرقبىّ حاجب الحجاب- كان- فى الدولة المؤيدية [شيخ] بالتوجّه إلى القدس، ثم رسم له أن يتوجّه صحبة السلطان إلى السّفر فسافر فى ركاب السلطان، و هو يوم ذاک من جملة أمراء العشرات، ثم رسم السلطان بإخراج الأمير أيتمش الخضرى الظاهرى المعزول عن الأستادارية قبل تاريخه إلى القدس، فخرج إليه، و منع السلطان من بقى من أولاد الملوک من الأسياد من ذرّيّة الملك الناصر محمد بن قلاوون و غيره من سكنى القلعة و طلوعها فى غيبة السلطان، و أخرجوا من دورهم فيها، و كانوا لمّا منعوا من سنين من سكن القلعة، و رسم لهم الملك الأشرف بالنزول منها و الركوب حيث شاءوا، سكن أكثرهم بالقاهرة و ظواهرها، فذلّوا بعد عزّهم، و تهتّكوا بعد تحجّبهم، و بقى من أعيانهم طائفة مقيمة بالقلعة، و تنزل إلى القاهرة فى حاجاتهم ثم تعود إلى دورهم، فلما كان سفر السلطان فى هذه السنة أخرجوا الجميع منها و منعوا من سكنى القلعة، فنزلوا و تفرّقوا بالأماكن بالقاهرة.

و العجب أن الملك الناصر محمد بن قلاوون كان فعل ذلك بأولاد الملوک من بنى أيّوب، فجوزى فى ذرّيته، و كان الملك الكامل محمد ابن [الملك] العادل أبى بكر بن أيوب فعل ذلك بأولاد الخلفاء الفاطميين، فكل واحد من هؤلاء جوزى فى أولاده بمثل فعله،

و وقع ذلک لابن الملک الأشرف و لغیره، و لا یظلم ربّک أحدا.

ثم فی یوم سابع عشره خلع السلطان علی دولات خجا الظاهریّ بإعادته إلی ولایة القاهرة عوضا عن التّاج بن سیفه الشّوبکیّ بحکم سفره مع السلطان مهمندارا و أستادار الصّحبة، هذا و قد ترشّح الأمیر آقبغا التّمرازی أمیر مجلس لإقامته بالقاهرة فی غیبة السلطان، و ترشّح الأمیر حسین بن أحمد المدعو تغری برمش البهسنیّ للإقامة بباب السّلسلة فی غیبة السلطان حسبما یأتی ذکره.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۳۷۴

تم الجزء الرابع عشر من النجوم الزاهرة و یلیه الجزء الخامس عشر و أوله ذکر سفر السلطان الملک الأشرف برسبای إلی آمد

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۳۷۵

فهرس

اشارة

الجزء الرابع عشر من کتاب النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۳۷۷

فهرس الملوک و السلاطین الذین تولوا مصر من سنة ۸۱۵– ۸۳۶

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۳۷۹

فهرس الأعلام

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۳۸۰

۳- ۵۰: ۱۶- ۵۳: ۸- ۵۵: ۲۲- ۵۶:

۸ ۲۷- ۲۰۲: ۱۲- ۲۵۴: ۸، ۹، ۱۲ ۱۳، ۱۶- ۳۰۵: ۸- ۳۰۶: ۱۳، ۱۴- ۳۰۸:

۱۸- ۳۱۷: ۱۵، ۲۲- ۳۱۸: ۳- ۳۲۰:

۳- ۳۲۶: ۱۸- ۳۲۷: ۵، ۸، ۱۱، ۱۴، ۲۳- ۳۲۸: ۱، ۲، ۴، ۶، ۸، ۱۲، ۱۳، ۱۶- ۳۲۹: ۲، ۴، ۱۳- ۳۵۰: ۹- ۳۵۸:

۱۱، ۱۵، ۱۷، ۱۸، ۲۰، ۲۴- ۳۵۹:

۱۶- ۳۶۰: ۲۰

جارکس القاسمی المصارع:

۱۸۶: ۱۵- ۱۹۵: ۱۴- ۲۱۲: ۳- ۲۱۳:

۴- ۲۴۳: ۱۷- ۲۵۷: ۱۵

جانی بک الأشرفی:

۲۵۱: ۱۷- ۲۵۴: ۱۶، ۱۸، ۲۳- ۲۵۹:

۱۳، ۱۶، ۲۳- ۲۷۳: ۹، ۲۱- ۲۷۴:

۱، ۳، ۱۲- ۲۷۶: ۱۴- ۳۰۹: ۴- ۳۱۲:

۱- ۳۱۳: ۱۵، ۱۶

جانی بک بن عبد اللّه المؤیدی- سیف الدین:

۲۴: ۷- ۵۸: ۷- ۱۳۲: ۱- ۱۴۸: ۴

جانی بک الحمزاوی:

۲۲: ۴- ۳۲: ۱- ۳۶: ۱۹- ۱۸۴: ۱۳- ۱۹۰: ۱۲- ۲۱۴: ۱۶

جانی بک الساقی:

۱۱۱: ۱۳

جانی بک السیفی یلبغا الناصری- المعروف بالثور:

۲۹۴: ۱۹- ۳۵۴: ۱۲، ۱۳، ۲۳

جانی بک الصوفی:

۸: ۱۴، ۱۵- ۹: ۲- ۱۰: ۱۱- ۲۴: ۲، ۶- ۳۴: ۲۰، ۲۱- ۱۷۲: ۴- ۱۸۹: ۱۲، ۲۳- ۱۹۲: ۳- ۲۰۳: ۱۸- ۲۰۶: ۹- ۲۰۸: ۱۱- ۲۱۱: ۱۲، ۱۷- ۲۱۲: ۶، ۱۳، ۱۹- ۲۱۳: ۴، ۷، ۹، ۱۲: ۱۸- ۲۱۴: ۱، ۳، ۵، ۷، ۱۰- ۲۱۵: ۵، ۷، ۱۰- ۲۱۶: ۱، ۲۱- ۲۱۷: ۷، ۹، ۲۱- ۲۱۸: ۲، ۶، ۷، ۸ ۱۳، ۱۶، ۲۲- ۲۱۹: ۵، ۷، ۸، ۱۷، ۱۹، ۲۰، ۲۴- ۲۲۰: ۴، ۲۰- ۲۲۱: ۵، ۷- ۲۲۲: ۱۶-

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۳۹۱

۲۲۵: ۱۵، ۱۸- ۲۲۶: ۱، ۲، ۳، ۲۰، ۲۱- ۲۲۷: ۴، ۷- ۲۳۰: ۱۳- ۲۳۱: ۱- ۲۴۶: ۱۸، ۱۹- ۲۵۳: ۱۵، ۲۳- ۲۵۷:

۱۴- ۲۵۹: ۱۹، ۲۰- ۲۶۰: ۸- ۲۶۱:

۱۹- ۲۶۳: ۱۲- ۲۷۱: ۸- ۲۷۸: ۴- ۲۸۶: ۳، ۵، ۸، ۱۰، ۱۱، ۱۸، ۲۱- ۳۱۹: ۴، ۱۰- ۳۲۱: ۱۴، ۱۶- ۳۲۷:

۱۰- ۳۴۵: ۲- ۳۵۳: ۵، ۷

جانی بک من سیدی بک المؤیدی:

۱۰۶: ۱۰- ۲۱۸: ۱، ۶

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۴۰۰

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۴۱۰

يشبك الجكمى:

۳۹: ۱۶- ۵۷: ۴، ۱۳- ۶۱: ۱۱- ۶۴: ۲، ۵، ۶- ۶۹: ۱۷- ۱۸۴: ۱۳- ۱۹۰: ۱۰- ۱۹۴: ۱۱- ۲۰۱: ۱۰- ۲۱۳:

۱۹- ۲۱۴: ۱۲، ۱۳، ۱۷- ۲۱۵: ۱، ۴، ۷، ۱۲- ۲۱۷: ۱، ۴، ۲۲- ۲۱۸: ۲، ۳، ۱۴، ۱۹، ۲۱- ۲۱۹: ۱، ۱۴، ۱۸- ۲۲۰: ۲۰- ۲۲۱: ۹

يشبك الخاصكى:

۲۷: ۷

يشبك الساقى الظاهرى الأعرج:

۱۲: ۱۲- ۱۷۹: ۱۶، ۲۳- ۱۸۰: ۵، ۷، ۱۱- ۲۲۵: ۱۶- ۲۲۷: ۱۷- ۲۲۸: ۴، ۱۰، ۱۸- ۲۳۳: ۱۱- ۲۷۱: ۱۹- ۲۸۵:

۱۱- ۲۹۰: ۱۸، ۱۹- ۲۹۱: ۱- ۳۰۴:

۱۱- ۳۱۷: ۱۶، ۱۷

يشبك السودونى المشد:

۱۲۰: ۸- ۲۰۲: ۵- ۲۸۸: ۱۵- ۳۲۱:

۱۹- ۳۳۰: ۷

يشبك الشعبانى:

۱۱۷: ۱۵

يشبك الصوفى:

۳۵۳: ۲۰

يشبك المؤيدى- شاد الشراب خاناه: - ۱۴: ۱۸- ۳۱: ۱۲- ۳۷: ۱۵- ۳۸: ۱

يشبك المؤيدى المعروف بأنالى:

۹۳: ۱۸- ۱۷۲: ۱۶- ۱۷۴: ۱۱- ۱۸۳:

۱۴، ۱۹- ۱۸۹: ۱۵- ۱۹۶: ۱- ۲۰۱:

۱۷- ۲۴۸: ۱۹- ۲۵۰: ۶

يشبك اليوسفى المؤيدى:

۴۷: ۲۰- ۴۸: ۷- ۵۳: ۹- ۵۶: ۳، ۵- ۶۷: ۱۲، ۱۷- ۶۹: ۱، ۲، ۴، ۵، ۶، ۷- ۷۷: ۱۳- ۸۵: ۱۴- ۱۰۸: ۱۳- ۱۴۸: ۵- ۱۷۷: ۴، ۷، ۱۲، ۱۷،

۲۰، ۲۳- ۱۷۸: ۲، ۶، ۱۶، ۲۰- ۱۷۹:

۱۰، ۱۲، ۱۸- ۱۸۰: ۱۷- ۱۸۱: ۵- ۲۳۵: ۱۷- ۲۳۹: ۱۰

يغمور بن بهادر الدكرى:

۲۵: ۷

يلبغا العمرى الناصرى:

۱۳۰: ۱۳، ۲۳- ۲۳۶: ۱۴

يلبغا كماج:

۳۲: ۱۴

يلبغا الناصرى الظاهرى- سيف الدين:

۳: ۱۲- ۸: ۱۳- ۱۸: ۳- ۲۳: ۹- ۱۱۵: ۹، ۲۳، ۲۴- ۱۳۰: ۴، ۱۶- ۱۵۵:

فهرس الأمم و القبائل و البطون و العشائر و الأرهاط و الطوائف و الجماعات

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۴۲۰

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۴۲۱

۱۶۰: ۱۵– ۳۴۹: ۱۴

المماليك الجلبان:

۱۹۹: ۹– ۳۲۶: ۱۶– ۳۲۷: ۲۱– ۳۲۹:

۳، ۷– ۳۳۰: ۱۴– ۳۵۶: ۲

المماليك الرماحة:

۱۰۱: ۲– ۳۴۵: ۹

المماليك السلطانية:

۴: ۲۱– ۹: ۵– ۳۱: ۱۳– ۳۵: ۲– ۳۸:

۱۲– ۴۴: ۱۳– ۷۰: ۱۶– ۷۷: ۳– ۱۰۱:

۳– ۱۰۵: ۱۸– ۱۰۶: ۱۲– ۱۰۸: ۶– ۱۷۰: ۱، ۷، ۱۴– ۱۷۲: ۱– ۱۷۶: ۸– ۱۸۱: ۱۲– ۱۸۴: ۲۲– ۱۸۵: ۷، ۱۲، ۱۴– ۱۸۹: ۱۶– ۲۰۶: ۷–

۲۰۹: ۱– ۲۱۱: ۱۹– ۲۱۳: ۶– ۲۱۴: ۵– ۲۱۷:

۷– ۲۲۰: ۹– ۲۲۲: ۱۴، ۱۵– ۲۲۳: ۲، ۵– ۲۲۷: ۳– ۲۴۲: ۱۱– ۲۴۳: ۱۸– ۲۵۸: ۴– ۲۶۳: ۲۱– ۲۶۸: ۷، ۹– ۲۷۱: ۱۷– ۲۷۵: ۱۸– ۲۸۴:

۱۵– ۲۸۶:

۱۷– ۲۸۷، ۱۴، ۲۲– ۲۸۸: ۱۱– ۲۹۴:

۱۶– ۲۹۵: ۳، ۶– ۲۹۸: ۶– ۳۱۸: ۷– ۳۲۱:

۱۱– ۳۲۸: ۱، ۳، ۱۴– ۳۳۰: ۴، ۱۰– ۳۳۲: ۱۵– ۳۴۰: ۱۸– ۳۴۶: ۳، ۲۰– ۳۵۰: ۱۳– ۳۶۹: ۵، ۹، ۲۰– ۳۷۰:

۱۷، ۲۰، ۲۱– ۳۷۱: ۵

مماليك الطباق:

۱۹۸: ۱۸– ۲۰۴: ۳

مماليك الطباق الكتابية:

۱۹۹: ۱۳

المماليك الظاهرية:

۴۷: ۱، ۲– ۱۲۰: ۲، ۱۲– ۱۲۸: ۸– ۱۳۵: ۸– ۱۳۶: ۱۹– ۱۳۹: ۱۸– ۱۴۹:

۸– ۱۵۱: ۴– ۱۵۴: ۱۷– ۱۵۸: ۱۹– ۱۶۸: ۳– ۱۹۱: ۲– ۱۹۳: ۹– ۱۹۵: ۱۸– ۱۹۸: ۱۷– ۱۹۹: ۵– ۲۲۷: ۹، ۲۰

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۴۲۳

المماليك القرانيص:

۳۲۶: ۱۷

المماليك المؤيدية:

۴۴: ۱– ۱۰۸: ۱۴– ۱۹۰: ۱۴– ۱۹۳: ۸– ۱۹۶: ۲، ۱۷– ۲۰۷: ۱۵، ۲۲– ۲۱۷:

۸، ۲۳– ۳۲۹: ۱۲– ۳۷۱: ۱۰

المماليك الناصرية:

۴۷: ۱– ۲۰۰: ۱۳

المنشدون:

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۴۲۴

فهرس البلاد و الأماکن و الأنهار و الجبال و غیر ذلک

۱۸- ۲۲۶: ۸- ۲۴۸: ۱۱- ۲۶۷: ۸

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۴۲۵

الإسکندریة:

۵: ۱۳- ۷: ۹- ۹: ۱۲- ۱۰: ۱- ۱۵: ۶- ۱۶: ۲، ۱۴- ۲۳: ۱۴، ۱۶- ۲۴: ۸، ۱۶- ۲۵: ۱۷- ۲۶: ۲- ۲۹:

۱۲- ۳۰: ۱۳- ۳۷: ۱۷- ۴۱: ۱۲، ۱۳، ۱۶- ۴۲: ۳- ۴۶: ۱۹- ۶۴: ۱۹- ۶۶: ۷- ۷۱: ۱۴- ۷۴: ۱۷، ۲۰- ۱۱۷: ۲۳- ۱۲۰: ۱۶- ۱۲۵: ۲۰- ۱۲۸:

۱۲- ۱۳۸: ۹- ۱۳۹: ۴، ۸، ۱۷، ۱۹- ۱۴۰: ۱- ۱۴۶: ۸، ۹، ۱۹- ۱۵۱: ۱۸- ۱۵۵: ۷، ۱۰- ۱۷۱: ۱۵- ۱۷۲: ۱۵- ۱۷۹: ۱۵- ۱۸۰: ۲۵- ۱۸۲: ۴، ۹- ۱۸۵: ۱۸- ۱۸۶: ۳- ۱۹۴: ۱۴- ۱۹۷:

۱۰، ۱۳- ۲۰۵: ۴، ۷، ۲۱- ۲۰۹:

۳- ۲۲۰: ۵، ۶، ۲۱- ۲۳۰: ۹، ۱۴- ۲۳۱: ۱- ۲۳۷: ۱۰- ۲۳۹: ۱۵- ۲۴۰:

۱- ۲۴۹: ۱۱، ۱۴، ۱۹- ۲۵۰: ۱- ۲۵۱:

۱۸- ۲۵۲: ۱۵- ۲۵۳: ۱۶- ۲۵۵: ۱۳، ۱۹- ۲۵۷: ۸، ۱۰، ۱۱، ۲۱- ۲۶۶:

۱۵- ۲۶۹: ۲- ۲۷۶: ۵- ۲۷۷: ۲- ۲۸۰: ۲۰- ۲۸۸: ۶- ۲۸۹: ۱۰- ۲۹۰:

۷، ۸، ۱۳- ۲۹۸: ۱۰، ۱۱- ۳۰۶: ۲۰- ۳۰۷: ۶، ۱۱، ۱۳- ۳۱۹: ۹- ۳۲۵:

۱۹- ۳۲۹: ۱۶- ۳۳۸: ۲۰- ۳۴۴: ۱۴- ۳۵۴: ۱۳

أسیوط:

۶۳: ۲۵

الأشرفیة (طبقة الأشرفیة):

۱۷۵: ۱۶- ۲۲۱: ۱۶، ۱۸، ۲۰

الأشرفیة (مدرسة و جامع الأشرف برسبای):

۲۸۰: ۷

إصطنبول إستنبول.

أطباق الممالیک بالقلعة:

۳۰۱: ۱۵- ۳۲۱: ۱۱- ۳۲۷: ۱۶- ۳۵۶: ۲

أطفیح:

۳۶۷: ۱، ۲۱

أعزاز:

۱۳: ۴، ۱۶- ۶۷: ۲۲

الأعمال القوصیة:

۱۸۰: ۲۳

الأفقسیة:

۲۹۰: ۱۵، ۲۲- ۲۹۴: ۳، ۱۴- ۲۹۵:

۳، ۱۹- ۳۶۵: ۱، ۱۲

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۴۲۸

بين السورين:

۶۱: ۱۴، ۲۳- ۱۵۲: ۹

بين القصرين:

۴۳: ۱۸- ۷۸: ۱۹- ۳۲۴: ۱۴

التاج:

۹۴: ۴، ۲۱- ۱۰۲: ۲۱- ۱۰۳: ۱، ۲۲

تبريز:

۳۷: ۲، ۲۱- ۹۸: ۹- ۱۰۷: ۳- ۱۶۳:

۸ ۲۳- ۳۳۴: ۱۸- ۳۳۵: ۴، ۶، ۹،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۴۳۱

۱۰، ۱۱- ۳۳۶: ۲۰- ۳۳۸: ۱۳- ۳۴۵:

۲۱- ۳۴۸: ۱۳- ۳۴۹: ۵

تحت الربع:

۷۸: ۱، ۱۹

تربة الأمير تنم:

۱۱۸: ۴، ۱۹

تربة الملك الظاهر برقوق- التربة الظاهرية:

۷۸: ۱۱- ۷۹: ۱۲، ۲۳- ۸۸: ۵- ۳۱۳:

۱- ۳۳۸: ۱۱- ۳۵۸: ۴

التربة الناصرية:

۱۳۷: ۱۰

تروجة:

۲۵: ۱۳، ۲۳- ۳۲۹: ۱۹

تعبات:

۳۱۵: ۱۶، ۲۳- ۳۱۶: ۴، ۱۳

تعز:

۲۸۴: ۲۳- ۳۱۴: ۶، ۱۹- ۳۱۵: ۷، ۲۳

تل باشر:

۱۳: ۱۱، ۲۳

تل السلطان:

۳۶: ۴، ۲۰- ۴۷: ۵- ۷۷: ۱۲

تل شقحب:

۳۷۲: ۲۱

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۴۳۳

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۴۳۴

۱۳، ۱۴- ۸۰: ۶- ۸۵: ۱۴- ۸۶: ۵، ۶، ۲۱- ۸۷: ۱۵- ۸۸: ۱۱- ۸۹: ۱- ۹۲: ۴- ۱۰۰: ۲۰- ۱۰۸: ۱۴- ۱۱۴:

۱۲، ۱۳- ۱۱۶: ۳- ۱۱۷: ۶- ۱۲۰: ۵- ۱۲۵: ۵- ۱۲۸: ۱۰- ۱۲۹: ۱۵- ۱۳۰:

۲- ۱۳۱: ۴: ۱۳۲: ۲- ۱۳۵: ۷، ۱۶، ۱۸- ۱۳۶: ۴، ۷، ۱۱، ۱۵، ۱۹، ۲۱- ۱۳۸: ۱۲، ۱۳- ۱۴۸: ۹- ۱۶۱:

۱۴- ۱۷۷: ۵، ۱۷، ۱۸، ۱۹، ۲۰، ۲۳- ۱۷۸: ۱، ۲، ۷، ۱۹، ۲۳- ۱۷۹: ۱۷، ۱۹- ۱۸۰: ۱۶، ۱۷- ۱۸۱: ۴، ۱۶- ۱۸۲: ۷- ۱۸۹: ۹، ۲۲-

۱۹۱: ۱۳- ۱۹۲: ۱، ۴، ۱۹، ۲۰، ۲۲- ۱۹۵: ۴، ۸- ۲۰۱: ۱۲- ۱۹، ۲۰، ۲۲- ۱۹۵: ۴، ۸- ۲۰۱: ۱۲- ۲۰۲: ۱۲- ۲۲۲: ۴، ۷، ۹- ۲۲۴: ۴،

۵، ۱۵، ۱۹- ۲۲۵: ۴، ۵، ۶، ۷، ۸، ۹، ۱۰، ۲۲- ۲۳۵: ۱۷، ۱۸- ۲۳۹: ۶، ۱۱، ۱۸- ۲۴۰: ۱۱- ۲۴۱: ۱- ۲۴۴: ۳- ۲۴۸: ۷: ۱۲، ۱۳، ۲۱-

۲۴۹: ۱- ۲۵۱:

۱- ۲۵۳: ۸، ۲۰- ۲۵۴: ۷، ۹- ۳۰۵:

۹، ۱۳، ۲۲- ۳۰۶: ۱۳- ۳۰۸: ۱۸- ۳۰۹: ۲، ۷- ۳۱۰: ۲- ۳۳۱: ۳- ۳۳۲:

۱۱- ۳۳۳: ۱۲- ۳۴۵: ۱۳، ۱۴، ۲۰- ۳۴۶: ۴، ۲۰- ۳۴۷: ۶، ۹- ۳۴۸: ۶- ۳۵۰: ۱۵- ۳۷۰: ۱۱- ۳۷۱: ۱۶

الحلة:

۳۲۲: ۱۲، ۱۳، ۲۱

حلی بنی یعقوب:

۲۸۴: ۱۶، ۲۲

حمام الفارقانی:

۳۲۸: ۱۳، ۲۵

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۴۳۵

حماة:

۶: ۲- ۱۲: ۵- ۱۴: ۱۲- ۲۲: ۳- ۳۱:

۱۴- ۳۳: ۴، ۱۳- ۳۶: ۱۸- ۳۸: ۲، ۵، ۷- ۴۱: ۷- ۴۷: ۱۳- ۴۸: ۱، ۳- ۵۰: ۱۶- ۵۳: ۸- ۵۵: ۳- ۵۶: ۸- ۶۶:

۱۴- ۶۸: ۵- ۸۵: ۱۷- ۹۲: ۲۰، ۲۱- ۹۳: ۷- ۱۰۵: ۲- ۱۳۵: ۱۷- ۱۳۸:

۱۱، ۱۳- ۱۶۱: ۹- ۱۶۲: ۷- ۱۸۴:

۱۲- ۱۸۷: ۳- ۱۹۰: ۹- ۲۰۲: ۱۳- ۲۲۴: ۹، ۱۰، ۱۱- ۲۴۸: ۷- ۲۵۴:

۹، ۱۰، ۱۲، ۲۲

حمص:

۶: ۲۳- ۳۳: ۲۶- ۹۳: ۶- ۱۲۵:

۱۷- ۱۳۲: ۱- ۲۴۸: ۷- ۳۴۸: ۶- حوران:

۱۸۷: ۲۱- ۱۸۸: ۲۰

الحوش السلطانی:

۷۷: ۸، ۱۱- ۷۹: ۱۰- ۲۲۳: ۹- ۲۷۱:

۱۴- ۲۸۷: ۱۰- ۳۰۰: ۱۵- ۳۰۱:

۱۷- ۳۰۶: ۲- ۳۰۷: ۴- ۳۱۳: ۲- ۳۷۱: ۱

الحوف الغربی:

۴۸: ۱۰

درب الصغيرة:

۳۱: ۱۸

درب الهياتم:

۲۰۹: ۲۱

درندة:

۵۱: ۱۶- ۵۲: ۳، ۴، ۸، ۱۱

دلى:

۳۷۲: ۳

الدملوة:

۳۱۶: ۱۵، ۲۲

دمشق:

۲: ۸، ۲۱- ۴: ۶، ۸، ۱۲- ۵: ۳، ۴- ۶: ۳، ۱۲، ۲۲- ۷: ۳، ۴، ۱۳- ۹:

۲- ۱۱: ۳، ۱۱، ۱۲- ۱۲: ۵، ۱۵، ۱۶- ۱۵: ۲۴- ۱۸: ۷، ۱۲، ۱۳، ۱۶، ۲۲، ۲۴- ۱۹: ۹، ۱۲، ۱۵- ۲۰: ۵، ۲۱- ۲۱: ۵، ۱۹- ۲۲: ۶، ۷-

۲۹: ۱۰، ۱۴، ۲۳- ۳۰: ۱۰- ۳۱:

۶، ۹، ۱۲- ۳۲: ۷، ۱۱، ۱۳، ۱۴، ۱۷، ۲۳- ۳۳: ۱، ۷، ۱۵، ۱۹، ۲۳، ۲۴- ۳۴: ۸، ۱۸- ۳۵: ۱۹: ۲۰- ۳۶: ۱، ۲، ۱۰، ۱۱، ۲۰- ۳۸: ۷، ۹-

۴۵: ۵، ۷- ۴۶: ۱۴، ۱۵- ۴۷: ۴- ۵۶: ۳، ۱۳- ۵۷: ۱۲، ۱۳، ۱۴، ۱۶- ۵۸: ۲۱، ۲۲- ۵۹: ۳، ۵، ۷، ۸، ۱۰، ۲۰- ۶۱:

۶- ۶۲: ۱۱، ۱۲، ۱۴، ۲۲- ۶۳: ۲، ۳- ۶۴: ۸- ۶۶: ۱۴، ۱۵- ۷۷: ۱۰، ۱۱- ۸۹: ۱- ۹۰: ۱۸- ۹۳: ۲، ۳، ۴، ۵، ۱۰- ۱۱۰: ۵- ۱۱۱: ۲، ۳،

۴- ۱۱۳: ۷- ۱۱۴: ۷، ۱۰، ۱۳، ۱۴، ۱۶- ۱۱۵: ۴، ۹، ۱۰، ۱۱، ۱۲- ۱۱۶: ۲۲- ۱۱۷: ۱۶- ۱۱۸:

۱، ۴، ۱۶، ۱۹- ۱۱۹: ۳، ۶- ۱۲۰: ۱۲- ۱۲۱: ۲، ۳- ۱۲۲:

۹، ۱۰، ۱۲، ۱۴- ۱۲۳: ۲۰- ۱۲۴:

۱، ۲، ۳، ۷، ۸- ۱۲۵: ۱، ۴، ۵، ۶- ۱۲۸: ۶- ۱۲۹: ۱، ۱۶، ۱۹- ۱۳۰: ۲- ۱۳۴: ۱، ۲- ۱۳۵: ۱۲، ۱۳، ۱۴، ۱۵- ۱۳۷: ۴- ۱۳۸: ۱۱، ۱۸-

۱۴۶: ۱۴- ۱۴۸: ۱، ۲- ۱۴۹:

۷، ۹- ۱۵۳: ۲- ۱۵۵: ۳- ۱۶۱:

۱۳، ۱۵- ۱۶۲: ۵، ۶- ۱۶۴: ۳- ۱۶۷: ۸- ۱۷۵: ۴- ۱۷۷: ۱۵- ۱۷۹

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۴۳۸

۱، ۸، ۱۷، ۱۸- ۱۸۱: ۱۸، ۱۹، ۲۰- ۱۸۴: ۱۴- ۱۸۵: ۴- ۱۸۶: ۶- ۱۸۷: ۱، ۴، ۵، ۶، ۷، ۸- ۱۸۸:

۴، ۲۰- ۱۸۹: ۵، ۷، ۸، ۱۱، ۱۸- ۱۹۰: ۱۶- ۱۹۱: ۱۲- ۱۹۲: ۱۲، ۱۴، ۱۷، ۲۰- ۱۹۳: ۱، ۲- ۱۹۸:

۱۱- ۲۰۰: ۱۱- ۲۰۱: ۹- ۲۰۲:

۱۵، ۱۸، ۱۹، ۲۰- ۲۰۳: ۷- ۲۰۷:

۱۱- ۲۰۸: ۱۳- ۲۱۴: ۹- ۲۲۰:

۱۹- ۲۳۱: ۱۲- ۲۳۲: ۶- ۲۳۶:

۹، ۱۶، ۱۷- ۲۳۷: ۵، ۱۸- ۲۴۱: ۱، ۳، ۴، ۷- ۲۴۶: ۱۲، ۱۳، ۱۴، ۱۵- ۲۵۰:

۴- ۲۵۳: ۱۳- ۲۵۴: ۷، ۱۶- ۲۵۵:

۸- ۲۶۱: ۵، ۶، ۸، ۹، ۱۱، ۱۶، ۱۸، ۲۰، ۲۱- ۲۶۲: ۳، ۱۳، ۱۵، ۱۶، ۱۷، ۱۸، ۱۹، ۲۱- ۲۶۳: ۷، ۱۰، ۱۱- ۲۶۵: ۸- ۲۶۸: ۵- ۲۷۴: ۱۰،

۱۵، ۱۷- ۲۷۷: ۱۵- ۲۸۷: ۷- ۲۸۸:

۸، ۱۸، ۱۹، ۲۰- ۲۹۴: ۱۹- ۳۰۲:

۵- ۳۰۸: ۳- ۳۰۹: ۱۲، ۱۳، ۱۴، ۱۵، ۲۲- ۳۱۰: ۴- ۳۱۴: ۳- ۳۱۸:

۱۳- ۳۲۶: ۱۴- ۳۳۱: ۴- ۳۳۴: ۷- ۳۳۷: ۱۹- ۳۴۴: ۱۵- ۳۴۸: ۵- ۳۵۸:

۴- ۳۵۹: ۱۰، ۲۰، ۲۱- ۳۶۴: ۸، ۱۱، ۱۲، ۱۳، ۱۴- ۳۶۶: ۱۰، ۱۲، ۱۴- ۳۶۷: ۴- ۳۷۲: ۱، ۲۰

دمنهور:

۳۶۶: ۸

دمياط:

۲۴: ۱۷- ۱۴۸: ۱۲- ۱۸۴: ۱۹- ۲۲۵: ۱۶- ۲۲۶: ۴- ۲۳۱: ۴- ۲۵۲: ۱۵- ۲۵۷: ۱۳- ۲۶۶: ۱۴، ۱۵- ۲۷۰: ۱- ۲۷۸: ۱۴- ۲۸۰: ۱۴، ۲۱-

۲۸۴: ۱۴- ۲۸۸: ۶- ۲۸۹: ۱۰- ۲۹۸:

۹، ۱۱- ۳۱۹: ۱۰، ۱۶، ۲۳- ۳۴۴:

۱۴- ۳۶۴: ۱۷- ۳۶۵: ۲۰

دهليز القصر:

۱۷۴: ۷

دور الحريم السلطانى:

۱۸: ۱۸

الدور السلطانية:

۲۳: ۶- ۶۰: ۱۷- ۱۰۲: ۱۱- ۱۶۷:

۱۰: ۱۶۹- ۱۶- ۲۰۴: ۱۱- ۲۰۵:

۱۶- ۲۱۱: ۷- ۲۳۳: ۴

دوركى: - ۴۹: ۱۸، ۲۵- ۵۲: ۱۰

ديار بكر:

۵۳: ۴، ۲۰، ۲۱- ۵۴: ۵- ۱۰۷: ۲- ۳۳۱: ۱۹

الديار المصرية:

۱: ۵، ۷- ۲: ۳، ۷، ۱۳- ۳: ۱۳- ۴: ۱۰- ۵: ۵، ۱۷- ۶: ۱۵- ۷: ۱۳- ۱۱: ۴، ۲۲- ۱۲: ۲- ۱۵: ۱۹- ۱۹:

۳- ۲۱: ۱۶- ۲۲: ۱۱- ۲۳: ۹، ۱۸- ۲۴: ۲۱- ۲۵: ۱۳- ۲۶: ۱۳- ۳۰:

۱۱- ۳۴: ۸- ۳۵: ۳، ۱۳- ۳۷: ۱۵- ۳۸: ۶، ۱۰- ۳۹: ۶- ۴۱: ۱۸- ۴۳:

۶، ۱۵- ۴۶: ۲- ۵۲: ۱۰- ۵۶: ۱۴- ۵۹: ۸- ۶۱: ۷- ۶۲: ۴: ۶۶:

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۴۳۹

۱، ۱۷- ۶۷: ۱- ۷۵: ۷- ۷۷: ۱۵- ۷۸: ۲- ۸۰: ۱۲- ۸۲: ۲، ۹- ۸۳:

۹- ۹۰: ۱۴- ۹۳: ۲- ۱۱۱: ۵- ۱۱۶: ۳- ۱۱۷: ۲، ۸، ۱۰، ۱۵- ۱۱۹: ۱۰- ۱۲۰: ۹، ۱۱- ۱۲۲: ۱۰، ۱۲- ۱۲۵: ۵- ۱۲۸: ۷- ۱۳۰: ۸، ۱۱،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۴۴۰

رحبة باب العید:

۲۶: ۱۰، ۱۹- ۱۴۱: ۱۶

رشید:

۱۸۰: ۱۴، ۲۵، ۲۶- ۲۸۹: ۱۳- ۲۹۰:

۶، ۸، ۱۱

الرکن المخلق:

۲۵۱: ۵، ۲۰

الرملة:

۷: ۴، ۱۲، ۱۹- ۱۱: ۱۳، ۱۷- ۱۳۱:

۴، ۱۸- ۳۴۸: ۵

الرمیلة:

۴۳: ۱۷- ۸۷: ۲، ۲۱، ۲۲- ۲۱۲: ۲۲- ۲۹۹: ۱۱- ۳۴۲: ۱۶

الرها:

۵۴: ۴، ۲۰- ۳۳۰: ۱۷- ۳۳۱: ۶، ۷، ۹، ۱۵، ۱۷، ۱۸، ۲۲- ۳۳۳: ۸- ۳۳۴: ۳، ۱۵- ۳۴۶: ۳

رودس (جزیرة رودس):

۳۰۶: ۱۵، ۱۶، ۲۰

الروضة (جزیرة):

۲۷: ۱۴- ۱۰۱: ۲۰

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة؛ ج۱۴؛ ص ۴۴۰

۱۶: ۷، ۹، ۱۳، ۲۱- ۱۷: ۳، ۱۶- ۱۸: ۴- ۲۳: ۲- ۳۱: ۷- ۳۵: ۱۳، ۱۶- ۳۹: ۴- ۴۵: ۱۱، ۱۴، ۲۳- ۴۶:

۵- ۶۰: ۷- ۶۱: ۱۰- ۷۶: ۱۶- ۷۷:

۴، ۶- ۸۸: ۲۳- ۱۰۰: ۱۵- ۱۸۶:

۵، ۸، ۱۰، ۱۸- ۲۰۳: ۱- ۲۵۱: ۴- ۳۵۰: ۹، ۱۷، ۲۳- ۳۵۴: ۱۵- ۳۵۹:

۱۷- ۳۷۲: ۱۴، ۱۹

ز زاویة الشیخ التبری:

۲۳: ۲۳

الزبدانی:

۶۲: ۲۲

زبید:

۱۳۲: ۱۵، ۲۴- ۱۳۳: ۵

الزردخاناه السلطانیة:

۵۲: ۱

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۴۴۲

۱۹، ۲۲- ۱۵۹: ۱- ۱۸۴: ۱۲- ۱۹۰:

۸ ۱۴- ۱۹۲: ۷- ۲۰۱: ۹- ۲۰۲:

۱۲- ۲۲۲: ۷- ۲۲۴: ۱۰، ۱۳، ۱۸- ۲۲۵: ۱، ۲- ۲۳۷: ۶، ۷، ۸- ۲۴۵:

۱۶، ۱۸، ۱۹، ۲۰- ۲۴۶: ۳، ۴، ۵، ۹، ۱۰- ۲۵۰: ۱۷، ۱۸- ۲۵۱: ۱۹- ۲۵۲: ۴- ۲۵۳: ۱۱- ۲۵۶: ۱۱- ۲۵۸:

۲۲- ۲۶۸: ۱۰- ۲۷۰: ۲- ۲۷۶: ۹، ۱۰- ۲۷۸: ۶، ۸، ۱۵، ۱۶- ۲۸۰: ۴- ۲۸۴: ۷- ۲۸۵: ۱۰- ۳۰۶: ۱۲- ۳۰۸:

۵، ۲۰- ۳۱۸: ۲، ۴- ۳۱۹: ۲

الطرائة:

۶۳: ۷، ۱۷- ۱۰۶: ۱۲، ۱۴

طرتوث:

۱۶۳: ۱۸

طرسوس:

۲۷: ۹، ۱۰، ۲۰- ۴۹: ۱، ۷، ۹- ۵۱: ۵- ۷۲: ۲- ۸۴: ۳، ۱۷، ۱۹- ۹۳: ۳- ۳۱۹: ۶

طوانة القديمة:

۸۴: ۲۲

الطينة:

۱۴: ۹، ۲۱- ۱۷۰: ۱۹- ۲۷۲: ۷، ۹، ۱۰، ۲۰- ۲۷۸: ۱۲- ۲۸۰: ۱۴ ۲۹۸: ۱۱

ع العباسية:

۱۶: ۲۱- ۸۸- ۲۳

العباسية الجديدة:

۷۹: ۲۴

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۴۴۵

عجلون:

۱۲۴: ۶، ۲۱

العجم- بلاد العجم:

۱۶۴: ۲۱

عدن:

۳۱۴: ۱۷- ۳۱۶: ۲۲

العراق:

۲۵: ۹- ۴۶: ۷- ۵۳: ۲۲- ۶۴: ۶ ۶۷: ۱۰- ۱۰۷: ۳- ۱۶۳: ۸- ۱۶۴:

۱۴- ۱۸۴: ۱۴- ۱۹۰: ۱۱- ۳۱۰:

۱۵، ۲۱- ۳۲۲: ۱۵، ۱۷

العراقان:

۱۶۴: ۱۰، ۲۱

عراق العجم:

۲۵: ۲۱- ۳۳۵: ۲۱- ۳۴۹: ۱

عراق العرب:

۳۴۹: ۱

العريش:

۲۷۲: ۱۲، ۲۲

عزاز أعزاز.

العطايا:

۶۳: ۸، ۲۰

العكرشة:

۸۹: ۱۰، ۲۴

العمق:

۱۲: ۸، ۱۹، ۲۰- ۱۳: ۳- ۱۴: ۳- ۳۳: ۱۴- ۴۸: ۸، ۱۰- ۴۹: ۳- ۸۴: ۱

عيذاب:

۱۸۰: ۲۲

عينتاب:

۱۳: ۲۳- ۵۱: ۱، ۱۸- ۵۴: ۱۲- ۶۹:

۵، ۷، ۹- ۷۱: ۱۶- ۲۴۸: ۲۲

عين مباركة:

۵۷: ۱۱، ۲۵

عيون القصب:

۳۵۵: ۱، ۲، ۵، ۱۹

غ غباغب:

۳۷۲: ۲۱

الغربية (محافظة الغربية):

۱۰: ۱۵- ۶۶: ۱- ۸۱: ۳- ۲۴۵: ۱۵- ۳۳۷: ۱۷

غرناطة:

۲۵۵: ۱۹

غزة:

۶: ۱۸- ۷: ۲- ۹: ۱- ۱۱: ۱۳، ۱۴- ۱۴- ۸- ۱۵: ۱۷- ۱۶: ۷- ۱۸: ۵- ۲۲: ۱۰- ۳۱: ۱۱- ۳۳: ۴- ۳۴:

۶- ۳۵: ۱۸- ۳۶: ۱، ۱۹- ۴۷: ۱۳- ۵۹: ۲، ۱۶، ۱۹- ۹۳: ۱- ۱۱۶:

۱۳- ۱۲۵: ۵، ۲۵- ۱۳۵: ۱۷- ۱۴۹: ۶، ۹- ۱۵۷: ۹، ۱۰- ۱۸۴:

۱۲- ۱۸۶: ۱۸- ۱۸۷: ۱، ۶- ۱۸۹:

۱۳، ۱۵- ۳۷: ۱۶، ۱۸- ۳۸: ۶- ۳۹ ۵، ۷- ۴۰: ۶، ۹، ۱۱، ۱۳، ۱۴، ۱۷- ۴۱: ۳- ۴۳: ۵، ۱۶- ۴۵: ۲، ۱۱، ۱۲، ۱۴، ۱۵، ۲۴- ۴۶: ۹، ۱۲،

۱۶- ۵۷: ۵، ۶، ۷، ۱۸- ۵۸: ۱۷- ۵۹:

۱۲- ۶۰: ۶، ۸، ۱۲، ۱۸- ۶۱: ۱۰، ۲۰، ۲۱- ۶۴: ۱۹، ۲۰- ۶۵: ۱۶، ۱۸- ۶۷: ۴- ۶۸: ۱۰، ۱۵- ۷۳: ۱۳- ۷۵:

۱۳- ۷۶: ۱۷- ۷۸: ۱- ۸۰: ۱۶- ۸۱:

۵، ۱۴، ۱۹- ۸۲: ۵- ۸۴: ۴- ۸۸:

۱۷- ۸۹: ۱۹- ۹۴: ۲۱، ۲۴- ۹۶: ۷- ۹۷: ۷، ۱۰- ۹۹: ۱۲، ۱۵- ۱۰۰: ۱۵- ۱۰۳: ۹- ۱۰۴: ۸- ۱۰۵: ۶، ۸- ۱۰۶:

۱۴- ۱۰۷: ۱۲- ۱۰۸: ۲۰، ۲۱، ۲۲- ۱۱۴: ۱۰، ۱۳- ۱۱۹: ۱، ۳- ۱۲۱: ۳- ۱۲۲: ۱۰، ۱۴- ۱۲۴: ۲- ۱۲۶: ۱- ۱۲۸: ۹- ۱۳۰: ۸- ۱۳۲:

۱۳- ۱۳۵:

۷، ۱۳- ۱۳۶: ۹، ۱۹- ۱۳۷: ۷- ۱۳۹:

۱۲- ۱۴۱: ۱۶- ۱۴۲: ۲- ۱۴۴: ۹- ۱۴۶: ۹، ۱۱- ۱۴۷: ۶، ۱۰- ۱۵۰: ۱- ۱۵۱: ۵- ۱۵۲: ۹- ۱۵۵: ۱۵- ۱۵۷:

۱۴- ۱۶۱: ۲۰- ۱۶۳: ۱۶- ۱۶۴: ۸- ۱۶۵: ۳، ۴، ۱۰- ۱۶۶: ۲- ۱۶۷:

۱۸- ۱۶۸: ۳- ۱۷۰: ۸، ۱۰، ۱۵-

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۴۴۷

۱۷۱: ۶، ۱۹، ۲۱- ۱۷۲: ۱۷، ۱۸- ۱۷۳: ۱۶- ۱۷۷: ۱۶- ۱۸۰: ۱، ۳- ۱۸۲: ۱۸- ۱۸۳: ۱۶- ۱۸۵: ۸- ۱۸۶:

۶، ۱۶- ۱۸۹: ۱۹- ۱۹۵: ۱۶- ۱۹۷:

۱۳- ۱۹۸: ۱۴- ۲۰۰: ۷- ۲۰۳: ۷، ۱۰- ۲۰۴: ۴- ۲۱۱: ۱۳- ۲۱۳: ۱۵- ۲۲۰: ۹، ۱۸- ۲۲۲: ۱۲- ۲۳۱: ۱۹- ۲۳۳: ۶، ۹- ۲۳۵: ۱۲-

۲۳۷: ۲۱- ۲۳۸: ۲- ۲۴۲: ۱۰- ۲۴۵: ۱۲، ۱۵- ۲۴۸:

۴- ۲۴۹: ۱۱- ۲۵۰: ۱۰- ۲۵۱: ۴، ۵، ۱۹- ۲۵۶: ۵، ۱۱- ۲۵۷: ۱۰- ۲۵۹:

۷، ۱۰- ۲۶۰: ۱۸- ۲۶۳: ۱۳، ۱۷، ۲۲- ۲۶۴: ۱۱- ۲۶۵: ۲- ۲۶۶: ۱۲- ۲۶۸: ۵، ۹- ۲۷۲: ۴- ۲۸۷: ۹- ۲۸۰: ۷- ۲۸۲: ۱- ۲۸۳: ۲، ۸،

۱۶- ۲۸۴: ۳، ۱۰- ۲۸۵: ۶- ۲۸۶: ۲- ۲۸۸: ۳، ۶- ۲۹۶: ۷، ۹- ۲۹۸- ۶- ۲۹۹:

۱۰، ۱۳، ۱۴- ۳۰۰: ۳- ۳۰۲: ۱۱- ۳۰۴: ۸- ۳۰۵: ۱۰- ۳۰۶: ۵، ۶، ۱۴- ۳۰۸: ۱۹- ۳۰۹: ۷- ۳۱۰: ۱۸، ۲۰- ۳۱۲: ۱۱، ۱۹، ۲۰- ۳۱۴:

۱- ۳۱۹: ۱۷- ۳۲۴: ۹- ۳۲۶: ۳، ۱۲- ۳۲۷: ۲، ۱۰- ۳۲۸: ۷، ۱۰- ۳۳۱: ۱- ۳۳۴: ۸، ۱۴، ۱۵، ۲۲- ۳۳۶: ۴- ۳۳۷: ۱، ۶- ۳۳۸:

۷، ۱۰- ۳۳۹: ۳، ۶، ۱۳- ۳۴۰: ۱۰، ۱۱، ۱۲- ۳۴۲: ۱۲- ۳۴۴: ۱۶- ۳۴۵:

۲، ۱۸- ۳۴۶: ۴- ۳۴۷: ۱۲، ۱۳، ۱۵- ۳۵۰: ۹- ۳۵۱: ۷، ۱۱، ۱۴- ۳۵۴: ۱۶- ۳۵۷: ۱- ۳۵۹: ۱۷- ۳۶۰: ۱، ۹- ۳۶۲: ۱۳، ۱۶- ۳۶۳: ۱-

۳۶۴: ۹- ۳۶۵: ۲۱- ۳۶۶: ۱۵- ۳۶۷: ۱۴، ۱۶- ۳۶۸: ۹- ۳۷۲: ۱۴- ۳۷۳: ۸، ۹، ۱۱، ۱۷، ۱۸

قبرس:

۲۷۰: ۲۰، ۲۱، ۲۳- ۲۷۸: ۱۸، ۲۰- ۲۷۹: ۱۲، ۱۷- ۲۸۰: ۹، ۱۲- ۲۸۶:

۱۹- ۲۸۷: ۱- ۲۹۰: ۱۳، ۱۵، ۱۶، ۲۳- ۲۹۲: ۱، ۳، ۴، ۶، ۲۰، ۲۱- ۲۹۳: ۱، ۳، ۴، ۱۷- ۲۹۴: ۱، ۳، ۷، ۱۲، ۱۴، ۱۶- ۲۹۵: ۵، ۱۳، ۱۵،

۱۸، ۱۹- ۲۹۶: ۴- ۲۹۷: ۶، ۱۱- ۲۹۸: ۸- ۲۹۹: ۶- ۳۰۰: ۸- ۳۰۱: ۲، ۸- ۳۰۲:

۱۶- ۳۰۴: ۶، ۲۲- ۳۰۶: ۳- ۳۰۷: ۲- ۳۰۸: ۱۲- ۳۲۵: ۵- ۳۶۳: ۴، ۵- ۳۶۴:

۱۶- ۳۶۵: ۱، ۲، ۱۲، ۱۹- ۳۶۸: ۱۹

قبة الإمام الشافعی:

۸۹: ۱۹

۱۷- ۱۷۰: ۱۲- ۱۸۵: ۵، ۹، ۱۳، ۱۷- ۱۸۶: ۱، ۷، ۸- ۱۸۹: ۱۹- ۱۹۳: ۱۲- ۱۹۷: ۹- ۲۰۳: ۱۷، ۱۹، ۲۰- ۲۰۶:

۷- ۲۱۱: ۶، ۱۱- ۲۱۲: ۳، ۸، ۲۳- ۲۱۳: ۳، ۱۰، ۱۴- ۲۱۴: ۱- ۲۱۹: ۱۸- ۲۲۰: ۱۲- ۲۲۱: ۱۰- ۲۲۹: ۴- ۲۳۰:

۱۶- ۲۳۱: ۷- ۲۳۲: ۲- ۲۳۳: ۱۰، ۱۱- ۲۴۲: ۷- ۲۴۹: ۱۹- ۲۵۱: ۳، ۶- ۲۵۲: ۱- ۲۵۳: ۱، ۴- ۲۶۵: ۱، ۷- ۲۶۶: ۱۸، ۱۹- ۲۶۹: ۲، ۹،

۱۹- ۲۷۰: ۱۴- ۲۷۱: ۲، ۷، ۱۵- ۲۷۲:

۴- ۲۷۳: ۹- ۲۷۴: ۲، ۱۴- ۲۷۶:

۱۱، ۱۳، ۱۴- ۲۷۷: ۱۰- ۲۷۸: ۲، ۷- ۲۸۱: ۳، ۹- ۲۸۲: ۱، ۲- ۲۸۴:

۷- ۲۸۵: ۲۰- ۲۸۷: ۱۰- ۲۸۸: ۱۳- ۲۸۹: ۱۷- ۲۹۲: ۳- ۲۹۶: ۷- ۲۹۹:

۵، ۱۶، ۲۴- ۳۰۰: ۱۳- ۳۰۵: ۹- ۳۰۶: ۲، ۴، ۱۶- ۳۰۷: ۱۰، ۱۱- ۳۰۸:

۱۹- ۳۰۹: ۸- ۳۱۱: ۲۰، ۲۱- ۳۱۲:

۱۶- ۳۱۳: ۱، ۲- ۳۱۸: ۶- ۳۱۹:

۱۸- ۳۲۶: ۱۵- ۳۳۰: ۱- ۳۳۴: ۱۵- ۳۴۰: ۱۸- ۳۴۶: ۱۱، ۱۹- ۳۴۷: ۳- ۳۵۱: ۷، ۱۴- ۳۵۳: ۱۳- ۳۵۶:

۱۷، ۲۰- ۳۵۸: ۵- ۳۶۱: ۲۰- ۳۶۲:

۱۳- ۳۶۴: ۲- ۳۶۷: ۵، ۱۵- ۳۷۱:

۲- ۳۷۲: ۱۰- ۳۷۳: ۶، ۷، ۹، ۱۱

قلعة جعبر:

۳۴۷: ۷، ۲۱

قلعة حلب:

۱۴: ۲- ۲۷: ۶- ۳۳: ۱- ۵۶: ۲، ۲۶- ۵۸: ۱۲- ۶۱: ۶- ۱۷۹: ۱۷، ۱۸

قلعة خندروس:

۵۲: ۲

قلعة درندة:

۵۱: ۴، ۱۵، ۲۱

قلعة دمشق- القلعة:

۲: ۲۱- ۱۹: ۱۱، ۱۲، ۱۴، ۱۵، ۱۶، ۱۷، ۲۱، ۲۲، ۲۳- ۲۰: ۶، ۲۱- ۲۱:

۴- ۳۳: ۱، ۲، ۳، ۶- ۴۵: ۷- ۵۶:

۱۳- ۶۲: ۱۱، ۱۲، ۱۴، ۱۵، ۱۷- ۶۶:

۴- ۷۱: ۱۵- ۹۳: ۳، ۶- ۱۱۴: ۱۶- ۱۱۶: ۱۰، ۱۲، ۱۷- ۱۴۸: ۲- ۱۵۵:

۳- ۱۶۱: ۱۵- ۱۶۲: ۵- ۱۷۵: ۱۹- ۱۸۱: ۲۰- ۱۸۷: ۱۸- ۱۸۹: ۲، ۷- ۱۹۰: ۱۵- ۱۹۱: ۱، ۱۵- ۱۹۲: ۱۴- ۱۹۳: ۳، ۴، ۵- ۱۹۸: ۵، ۶،

۸- ۲۰۱: ۴- ۲۰۲: ۱۶- ۲۳۶: ۴، ۱۸- ۲۵۰: ۷- ۲۶۱: ۱۶- ۲۶۳: ۸

قلعة الرها:

۳۳۲: ۳، ۵، ۸، ۱۱، ۱۵، ۱۸، ۲۰- ۳۳۴: ۱

قلعة الروم:

۲۲: ۴، ۲۰- ۳۲: ۱- ۳۶: ۱۹- ۵۰:

۱۸۰: ۹، ۲۳- ۳۲۱: ۸- ۳۴۹: ۱۲

قونية:

۸۳: ۲۲- ۸۴: ۲۱، ۲۴- ۹۲: ۱۶

قيسارية الأمير سنقر الأشقر:

۳۱: ۱، ۱۶

قيسارية الروم:

۸۰: ۷، ۹، ۱۰، ۱۱، ۲۰- ۸۳: ۲۰، ۲۱، ۲۲- ۸۸: ۱۳- ۹۲: ۱۶

قيسارية العصفر:

۲۳۳: ۲۰

قيسارية الفاضل:

۳۱: ۲، ۱۹

قيقاب:

۳۵۵: ۹

ك الكازرون:

۱۳۳: ۲۲

كاليفورنيا:

۵: ۲۰- ۸: ۱۷- ۱۴: ۱۹، ۲۰- ۲۱:

۲۱، ۲۲- ۲۲: ۲۳- ۲۵: ۱۹- ۲۸:

۲۱- ۲۹: ۲۱، ۲۲- ۳۰: ۲۵- ۳۲:

۲۰- ۳۳: ۲۵- ۳۵: ۲۳- ۳۷: ۲۳- ۳۹: ۲۱- ۴۰: ۲۳- ۴۱: ۲۲، ۲۳- ۴۲: ۲۱- ۴۴: ۲۱- ۴۵: ۲۱- ۴۹: ۲۲- ۵۰: ۱۷، ۲۰- ۵۴: ۲۲، ۲۴-

۵۵: ۲۳- ۵۷: ۲۴- ۵۸: ۲۳- ۵۹: ۲۳- ۶۰:

۲۰، ۲۵- ۶۲: ۲۰- ۶۵: ۲۲- ۶۶:

۲۲- ۶۷: ۲۰- ۶۸: ۲۱- ۷۰: ۲۲-

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۴۵۱

۷۵: ۲۲- ۷۸: ۲۴- ۸۰: ۲۴- ۸۵:

۱۸- ۸۷: ۲۲- ۸۸: ۲۴، ۲۵- ۹۰:

۲۲- ۹۱: ۲۲- ۹۷: ۲۳- ۹۹: ۱۶- ۱۰۰: ۲۲- ۱۰۱: ۲۲- ۱۰۴: ۲۲- ۱۰۵: ۲۳- ۱۰۸: ۲۴- ۱۰۹: ۲۲- ۱۱۰:

۲۲- ۱۱۷: ۱۹- ۱۱۸: ۲۰، ۲۴- ۱۲۲:

۲۲- ۱۲۸: ۲۰- ۱۳۱: ۱۷- ۱۳۲:

۱۶- ۱۳۳: ۲۳- ۱۴۱: ۲۰- ۱۴۳:

۲۴- ۱۴۶: ۲۱، ۲۲- ۱۴۸: ۱۶- ۱۵۱: ۲۲، ۲۳- ۱۵۳: ۲۲، ۲۳- ۱۵۴:

۲۰، ۲۴- ۱۵۷: ۲۱- ۱۶۰: ۱۷- ۱۶۲:

۲۱- ۱۶۴: ۲۲، ۲۴، ۲۵- ۱۶۵: ۲۲- ۱۶۶: ۱۴- ۱۶۷: ۲۱- ۱۶۸: ۲۳، ۲۵- ۱۶۹: ۲۱- ۱۷۰: ۲۳- ۱۷۲: ۲۱- ۱۷۳: ۲۴- ۱۷۵: ۲۰، ۲۳-

۱۷۶:

۲۴- ۱۷۹: ۲۳- ۱۸۱: ۲۳- ۱۸۴:

۲۰- ۱۸۵: ۲۳- ۱۸۸: ۲۲- ۱۹۰:

۲۲- ۱۹۳: ۲۳، ۲۴- ۱۹۴: ۱۹- ۱۹۵:

۲۲، ۲۳- ۱۹۶: ۲۰، ۲۲- ۱۹۸: ۲۲- ۱۹۹: ۲۰- ۲۰۲: ۲۳- ۲۰۴: ۲۴- ۲۰۷: ۲۳- ۲۱۰: ۶- ۲۱۱: ۲۰- ۲۱۳:

۲۲- ۲۱۵: ۲۰، ۲۱- ۲۱۸: ۲۳، ۲۴- ۲۲۰: ۲۲، ۲۳- ۲۲۱: ۲۲- ۲۲۲:

۲۲- ۲۲۳: ۲۳- ۲۲۴: ۲۲- ۲۲۵:

۲۱، ۲۴- ۲۲۷: ۲۲، ۲۴- ۲۲۸: ۲۳- ۲۲۹: ۱۸، ۲۵- ۲۳۰: ۲۲، ۲۳- ۲۳۲: ۲۱، ۲۲، ۲۳، ۲۴- ۲۳۳:

۲۴- ۲۳۵: ۲۰- ۲۳۶: ۲۱- ۲۳۸:

۲۲- ۲۳۹: ۲۱- ۲۴۰: ۲۳- ۲۴۱:

۱۵- ۲۴۲: ۲۲- ۲۴۳: ۲۳- ۲۴۴:

۲۲، ۲۳- ۲۴۵: ۲۲- ۲۴۷: ۲۳- ۲۵۲:

۲۳، ۲۴- ۲۵۳: ۱۹، ۲۲- ۲۵۶: ۲۲- ۲۵۷: ۱۹، ۲۰، ۲۲- ۲۵۹: ۲۲- ۲۶۰: ۲۳۰- ۲۶۵: ۲۱، ۲۳- ۲۶۶:

۲۰، ۲۱- ۲۶۷: ۱۷، ۲۳، ۲۶- ۲۶۸: ۲۱، ۲۲، ۲۵- ۲۶۹: ۲۳- ۲۷۵:

۲۱- ۲۷۶: ۲۲- ۲۷۷: ۲۳- ۲۷۸: ۲۲، ۲۳- ۲۷۹: ۱۹، ۲۳- ۲۸۰: ۲۲- ۲۸۱:

۲۲- ۲۸۳: ۲۱، ۲۳- ۲۸۴: ۱۹: ۲۸۵:

۲۱، ۲۲، ۲۳- ۲۸۸: ۲۱، ۲۳- ۲۸۹:

۲۳- ۲۹۰: ۲۰، ۲۱- ۲۹۲: ۲۲، ۲۳- ۲۹۴: ۲۳- ۲۹۷: ۲۱- ۲۹۸: ۲۱، ۲۳- ۳۰۱: ۲۳- ۳۰۴: ۱۹، ۲۵- ۳۰۶: ۲۵- ۳۰۸: ۲۲، ۲۳- ۳۰۹:

۲۱- ۳۱۱: ۲۲- ۳۱۲: ۲۴- ۳۱۳: ۲۱، ۲۳- ۳۱۴: ۲۱- ۳۱۵: ۲۲، ۲۵- ۳۱۶: ۲۱، ۲۵- ۳۱۷:

۲۰، ۲۱، ۲۳- ۳۱۸: ۱۹- ۳۲۰: ۲۳- ۳۲۱:

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة؛ ج۱۴؛ ص ۴۵۱

۲۳- ۳۳۴:

۱۹، ۲۱- ۳۳۵: ۲۳- ۳۳۶: ۱۹- ۳۳۸:

۲۲، ۲۳- ۳۴۰: ۲۲- ۳۴۱: ۲۱، ۲۲، ۲۳، ۲۴- ۳۴۲: ۲۲، ۲۳- ۳۴۶: ۲۱، ۲۳- ۳۴۷: ۱۹، ۲۳- ۳۴۸: ۲۱، ۲۵- ۳۴۹: ۲۲- ۳۵۰: ۲۱، ۲۵- ۳۵۲:

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۴۵۲

۱۸، ۱۹- ۳۵۴: ۲۰، ۲۱- ۳۵۶: ۲۲- ۳۵۷: ۲۱، ۲۲- ۳۶۰: ۲۳- ۳۶۱: ۲۳- ۳۶۲: ۲۳- ۳۶۴: ۱۹، ۲۰، ۲۱- ۳۶۵: ۲۳- ۳۶۷: ۲۳- ۳۶۸:

۲۲، ۲۳- ۳۶۹: ۲۱، ۲۲، ۲۴- ۳۷۰:

۲۳- ۳۷۱: ۲۰، ۲۱، ۲۴- ۳۷۳: ۲۲

ک الکبش:

۱۳۰: ۱۳، ۱۴، ۲۳

کختا:

۴۸: ۶، ۱۹- ۵۱: ۱، ۲- ۵۲: ۱۴- ۵۳: ۷، ۹، ۱۶- ۵۴: ۷، ۱۱، ۱۶- ۵۵: ۳- ۶۵: ۱- ۶۷: ۸- ۱۴۶: ۵

۶۱: ۲۱- ۸۶: ۲۶- ۲۹۹: ۹، ۱۹

المقياس:

۸۶: ۹- ۸۷: ۸- ۹۹: ۳- ۱۰۱:

۲۰- ۳۴۶: ۱۲

مكة المشرفة:

۲۴: ۱۹، ۲۰- ۲۵: ۲، ۶- ۱۲۶:

۵- ۱۳۲: ۷، ۸- ۱۴۷: ۹، ۱۰، ۱۳، ۱۴- ۱۵۰: ۷، ۱۳، ۱۹- ۱۷۹: ۱۷، ۲۱- ۲۳۸: ۱۵- ۲۴۸: ۸- ۲۵۹: ۱۱، ۱۶- ۲۶۰: ۵، ۷- ۲۶۱: ۲، ۳- ۲۶۳:

۲۰- ۲۷۱: ۱۷، ۲۰- ۲۷۲: ۱- ۲۸۲:

۱۴، ۱۵، ۱۷، ۱۹، ۲۰، ۲۱، ۲۳- ۲۸۳: ۷، ۹، ۱۰، ۲۰- ۲۸۵:

۶- ۲۹۱: ۲- ۲۹۸: ۱۴، ۱۵- ۳۰۰:

۲۰- ۳۰۴: ۸- ۳۱۰: ۷، ۱۶- ۳۱۱: ۱۱- ۳۱۴: ۱- ۳۳۶: ۸- ۳۴۸:

۳- ۳۶۲: ۵، ۸- ۳۶۹: ۱، ۲

الملاحة- بقبرس:

۲۷۹: ۳، ۶، ۹- ۲۹۲: ۱۸- ۲۹۴:

۶، ۱۳- ۲۹۵: ۸- ۳۶۴: ۱۸- ۳۶۵: ۱ الملتزم:

۲۸۲: ۱۸

ملطية:

۲۲: ۱، ۱۸- ۴۸: ۵، ۲۰، ۲۲- ۴۹:

۱۵، ۱۶- ۵۰: ۱۵- ۵۱: ۲۱- ۵۲:

۱۰- ۵۴: ۱۷- ۲۴۲: ۱۶- ۲۴۳: ۱۴- ۳۰۹: ۱۸، ۲۳- ۳۴۹: ۷- ۳۵۰: ۱۴

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۴۵۶

ملنقوبية:

۸۴: ۲۱

ممالك الإسلام:

۳۴۹: ۱۹

ممالك الروم:

۳۱۸: ۷

ممالك الشام:

۶۸: ۱۳

ممالك العجم:

۳۶۸: ۱۰

المملكة الأردنية:

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۴۵۷

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۴۵۹

فهرس الألفاظ الاصطلاحیة و أسماء الوظائف و الرتب و الألقاب التی کانت مستعملة فی عصر المؤلف

أرباب الدولة:

۳: ۷– ۵: ۵– ۲۷: ۱۸– ۳۶: ۱۲– ۴۱: ۴– ۴۴: ۷– ۶۰: ۱۱– ۸۲: ۱۱– ۸۷: ۸– ۸۹: ۶– ۱۸۶: ۸– ۲۱۱: ۱۰– ۲۲۱: ۱۹– ۲۹۶: ۱۲

أرباب الدولة من المتعممين:

۱۷۳: ۵

أرباب السیوف:

۴: ۱۹– ۱۰: ۲۴

أرباب الفضائل من کل فن (کان السلطان ططر یحب مجالستهم):

۲۰۹: ۷

أرباب الکمالات:

۱۶۵: ۱۸– ۳۱۳: ۷

أرباب الکمالات من کل فن و علم:

۱۰۱: ۵– ۱۱۱: ۴

أرباب الوظائف:

۱۴: ۵

الأستادار:

۸: ۹، ۲۲– ۱۰: ۱۵– ۲۶: ۱۰– ۲۹:

۱– ۳۲: ۸– ۴۲: ۱۸– ۴۳: ۲– ۴۶:

۹– ۵۹: ۱۶– ۶۰: ۱۴– ۶۵: ۶– ۷۳:

۱۶– ۷۴: ۳– ۱۴۱: ۸– ۱۵۴: ۶، ۲۱– ۱۵۷: ۱۱– ۱۷۲: ۱۶– ۱۷۴: ۱۱– ۱۸۳: ۲۰– ۱۸۹: ۵– ۱۹۰: ۱۸– ۲۲۰:

۱۷– ۲۳۱: ۱۷– ۲۳۷: ۸– ۲۴۹: ۱– ۲۵۰: ۴– ۲۵۱: ۲۲– ۲۵۸: ۳، ۷، ۱۲، ۱۶– ۲۶۰: ۱– ۲۷۲:

۱۸– ۲۷۷: ۹– ۳۱۷: ۵– ۳۲۹: ۱۸– ۳۳۷: ۹، ۱۴– ۳۵۶: ۳، ۱۴– ۳۵۷: ۴

أستادار السلطان:

۶۳: ۳– ۱۸۳: ۲۰

أستادار الصحبة الشریفة:

۷۸: ۱۱– ۱۰۸: ۲۰– ۱۸۳: ۲۰– ۳۷۳: ۱۸–

أستادار العالیة:

۱۵۲: ۸– ۱۸۳: ۱۳، ۲۰

الأستاداریة:

۲۴: ۸ ۱۴– ۶۱: ۹، ۱۴– ۶۲: ۳– ۹۳: ۱۸– ۱۲۵: ۹– ۱۴۱: ۱۱– ۱۵۲:

۱۰، ۱۶– ۱۵۳: ۵، ۹– ۱۸۹: ۱۶– ۱۹۶: ۲– ۲۲۲: ۲۱– ۲۳۷: ۹، ۱۰– ۲۵۱: ۹– ۲۵۸: ۱۱، ۱۶– ۲۶۴: ۱۴– ۲۶۸: ۶

۲۴۳: ۷– ۲۴۴: ۱۰– ۲۴۸: ۱۷– ۲۷۷:

۱۰– ۳۳۷: ۱۵، ۲۱– ۳۵۶: ۱۲، ۱۶– ۳۵۷: ۶، ۱۷– ۳۶۴: ۴– ۳۶۸: ۵– ۳۷۳: ۴

الاستسقاء:

۱۷- ۲۲۸: ۱۶- ۲۸۸: ۷، ۱۴- ۲۹۲:

۱۲- ۲۹۳: ۲۰- ۳۰۰: ۱۲- ۳۰۲: ۵- ۳۱۹:

۵- ۳۳۰: ۸- ۳۳۷: ۱۲، ۱۶- ۳۵۰:

۱۲- ۳۶۹: ۱۵

الأمراء الظاهرية- برقوق:

۲: ۹- ۱۷۹: ۲۰- ۱۹۴: ۱۷

أمراء العشرات:

۴۹: ۱۳- ۷۷: ۲- ۱۵۵: ۱- ۱۷۲:

۱۲، ۱۴- ۲۲۶: ۶- ۲۳۵: ۷- ۲۳۹:

۱۷- ۲۵۸: ۱- ۲۶۹: ۱۷- ۲۷۱: ۱۶- ۲۸۱: ۱۳- ۲۸۳: ۲- ۲۸۴: ۱۰- ۲۸۸:

۷، ۱۸- ۲۹۲: ۱۲- ۳۰۰: ۱۲- ۳۰۲:

۶- ۳۳۰: ۸- ۳۶۷: ۱۸- ۳۵۰: ۱۲- ۳۶۹: ۱۶- ۳۷۳: ۳

أمراء المشورة:

۱۱: ۲۰

أمراء مصر:

۴۸: ۸- ۵۳: ۸- ۱۷۸: ۱۷- ۳۰۱:

۱۹- ۳۰۲: ۶

الأمراء المقدمون:

۱: ۱۴- ۱۳۰: ۱۹- ۱۸۶: ۱۶- ۲۱۲: ۱

الأمراء المؤيدية:

۱۹۳: ۷- ۱۹۴: ۱۸- ۱۹۵: ۲۱

أمراء المئين:

۲: ۱۶

الإمرة:

۱۱۹: ۷- ۱۳۲: ۳- ۱۴۲: ۳- ۱۴۶:

۱۵- ۱۶۹: ۲- ۱۹۰: ۱۳- ۲۰۰: ۵- ۲۵۵: ۸، ۱۷- ۲۷۵: ۳- ۳۱۳: ۱۵

إمرة الحاج:

۱۵۰: ۵

إمرة سلاح:

۳: ۲۵- ۱۱۶: ۵- ۲۳۹: ۱۸

إمرة طبلخاناه:

۹۰: ۱۱، ۲۳- ۱۱۵: ۱۶- ۱۳۲: ۳- ۱۴۶: ۱۷- ۱۵۰: ۱۴- ۱۵۷: ۱۷- ۱۶۵: ۹- ۱۸۲: ۱۲- ۲۰۱: ۲۰، ۲۲- ۲۰۲: ۱، ۲، ۳، ۴- ۲۰۹: ۱-

۲۴۱:

۱– ۲۴۵: ۱۴– ۲۵۱: ۱۷– ۲۶۹: ۱۸– ۲۹۱: ۵– ۳۱۳: ۶

إمرة عشرة:

۲: ۲، ۱۴– ۱۱۵: ۱۷– ۱۹۳: ۱۸– ۲۰۸:

۴– ۲۴۰: ۲۰– ۲۴۵: ۱۳– ۳۱۳: ۱۶

إمرة مائة و تقدمة ألف:

۲: ۳، ۱۹– ۷۴: ۶– ۱۱۶: ۲– ۱۳۵: ۹– ۱۳۶: ۱۴– ۱۴۶: ۱۸– ۱۴۹: ۹– ۱۵۰: ۱۴– ۱۶۶: ۵– ۱۸۳: ۱، ۱۵– ۲۰۹: ۳– ۲۴۵: ۱۴– ۲۴۶:

۱۲– ۲۵۵: ۷– ۲۵۷:

۱۱

إمرة مجلس:

۱۱۶: ۵– ۳۱۹: ۲۰

إمرة المدینة:

۳۱۱: ۱۵

إمرة مکة:

۲۶۱: ۲– ۲۸۲: ۲۰– ۲۸۳: ۶– ۲۹۸: ۱۴

أمیر آخور:

۹: ۱۲– ۱۵: ۱۳– ۲۳: ۸– ۲۷: ۶– ۲۹: ۱۳– ۳۲: ۱۲– ۳۴: ۷– ۴۵: ۱۷– ۶۱: ۵– ۷۱: ۱۲– ۷۷: ۱– ۹۲: ۱۹– ۱۰۰:

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۴۶۵

۱۸– ۱۱۱: ۱۲– ۱۴۳: ۱– ۱۷۷: ۱۳، ۱۵– ۱۸۲: ۴، ۱۵– ۱۸۷: ۲– ۱۸۸:

۲– ۱۹۲: ۱۲، ۱۴– ۱۹۳: ۵– ۱۹۵:

۱۲، ۱۳، ۱۵– ۲۰۲: ۶– ۲۱۴: ۱۳– ۲۱۷: ۴– ۲۱۸: ۳– ۲۱۹: ۱۴، ۱۸– ۲۲۰: ۲۰– ۲۴۹: ۱، ۱۰– ۲۵۴: ۵– ۲۹۱: ۶: ۳۱۷: ۵

الأمیر آخور الثانی:

۴: ۱۵– ۴۵: ۶– ۶۶: ۶– ۷۳: ۲۰– ۹۰: ۱۶– ۱۵۰: ۵– ۲۰۲: ۶– ۲۹۱: ۳

الأمیر آخور الکبیر:

۴: ۱، ۱۳– ۱۵: ۱۵– ۲۸: ۳– ۴۷:

۲۲– ۵۹: ۳– ۶۱: ۵– ۹۱– ۲۱– ۱۰۰:

۱۷– ۱۲۸: ۱۰– ۱۳۵: ۱۰– ۱۳۹: ۱۰– ۱۷۲: ۷– ۱۸۴: ۱۵– ۱۹۲: ۱– ۲۰۱:

۱۱– ۲۱۳: ۱۹– ۲۱۵: ۱۵– ۲۲۱: ۹– ۲۴۲:

۱۹– ۲۵۲: ۳– ۲۵۳: ۱۰، ۲۱– ۲۵۴:

۱۵– ۲۸۱: ۱۲

الأمیر آخوریة:

۲۴۳: ۱۵– ۲۵۴: ۶

الأمیر آخوریة الثانیة:

۱۵۰: ۱۴– ۱۵۱: ۱۷

الأمير آخورية الكبرى:

۶۴: ۹- ۲۰۸: ۴- ۲۳۶: ۸- ۲۵۲: ۷

أمير التركمان:

۶۶: ۳

أمير جاندار:

۱۰: ۱۳، ۲۱- ۲۴: ۴- ۲۷: ۱- ۳۸:

۲۱- ۱۳۱: ۱۳- ۱۳۶: ۱۴- ۲۸۸:

۱۰- ۳۰۲: ۳- ۳۱۵: ۹- ۳۱۷: ۴- ۳۵۰: ۱۲

أمير حاج المحمل:

۲: ۲- ۲۴: ۱۹- ۴۵: ۱۲- ۵۷: ۵- ۶۱: ۱۰- ۶۴: ۲- ۷۳: ۲۰- ۸۸: ۱- ۱۰۳: ۱۰- ۱۷۴: ۳- ۱۹۰: ۱۱- ۱۹۲:

۴- ۲۲۵: ۱۱- ۲۵۷: ۱۷- ۲۶۰: ۵- ۲۸۲: ۱۳- ۲۸۳: ۵، ۲۰

أمير الركب الأول من الحاج:

۱۴۲: ۱۱- ۲۵۸: ۱- ۳۵۴: ۱۸

أمير سلاح:

۳: ۱۴، ۲۷- ۱۰: ۱۰- ۲۴: ۲- ۳۴:

۲۱- ۴۵: ۸- ۶۱: ۴- ۱۰۳: ۱۸- ۱۰۸: ۱۴- ۱۳۱: ۳- ۱۶۸: ۲، ۱۲، ۱۵- ۱۷۲: ۴- ۱۸۹: ۱۲- ۱۹۲:

۲، ۲۳- ۱۹۴: ۱۳- ۱۹۵: ۳- ۲۰۱:

۱۳- ۲۱۲: ۴- ۲۱۸: ۲۰- ۲۳۹: ۱۴- ۲۴۳: ۹، ۱۲- ۲۴۴: ۲۱- ۲۴۷: ۲، ۴، ۲۲- ۲۴۹: ۱- ۲۵۹: ۱۰- ۲۶۹:

۶- ۲۸۵: ۱۱- ۲۹۰: ۱۹- ۳۰۴: ۱۱، ۲۶- ۳۲۰: ۱، ۳، ۴- ۳۵۰: ۱۰- ۳۷۲: ۱۶

أمير شكار:

۹: ۱۴، ۲۴

أمير طبلخاناه:

۷۰: ۱۲

أمير عشرة:

۹: ۲۵- ۷۰: ۱۳

أمير عشرين:

۷۰: ۱۲- ۲۵۵: ۷

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۴۶۶

أمير علم:

۱۲۰: ۱، ۱۸

أمير غرناطة:

۲۵۵: ۱۹

الأمير الكبير:

۲۸: ۸- ۳۰: ۷- ۶۵: ۱۱- ۹۱: ۲۱- ۹۲: ۱۸- ۱۰۰: ۱۱، ۱۴- ۱۲۰: ۸- ۱۳۰: ۷- ۱۳۸: ۸- ۱۳۹: ۱۲- ۱۵۰:

۱۳، ۱۵، ۱۶- ۱۵۴: ۱۵- ۱۶۸: ۹، ۱۰، ۱۱، ۱۹- ۱۷۲: ۵- ۱۷۳: ۱۲، ۱۳- ۱۷۴: ۷، ۱۷، ۱۷۵: ۱۴- ۱۷۶:

۷، ۹، ۱۳، ۱۸- ۱۷۷: ۵، ۱۲، ۱۷، ۲۲- ۱۷۸: ۹، ۱۵، ۱۹- ۱۸۰: ۱۶- ۱۸۱: ۷، ۲۱، ۱۸۵: ۱۵- ۱۸۶: ۱۰- ۱۸۷: ۱۰- ۱۸۸: ۱۲- ۱۸۹:

۳- ۱۹۰:

۱، ۲۱- ۱۹۲: ۱۵- ۱۹۳: ۶، ۱۱- ۱۹۸: ۹، ۱۷- ۲۱۱: ۱۵- ۲۱۴: ۱- ۲۱۵: ۱۶، ۱۷، ۱۸- ۲۱۷: ۹، ۱۲، ۱۸- ۲۱۸: ۱۳، ۱۶- ۲۱۹: ۱۹-

۲۲۲:

۱۶- ۲۲۵: ۱۸- ۲۲۶: ۵، ۷، ۱۰، ۱۶- ۲۲۷: ۳- ۲۲۸: ۹- ۲۲۹:

۳، ۷، ۱۲- ۲۳۱: ۱- ۲۳۲: ۳- ۲۳۶:

۳- ۲۳۷: ۵- ۲۳۹: ۱۰- ۲۴۱: ۵- ۲۴۵: ۱۳- ۲۵۳: ۱۵- ۲۵۵: ۴- ۲۷۷:

۱- ۲۸۰: ۲۰- ۳۱۷: ۱۶- ۳۱۸: ۳- ۳۱۹: ۲۰- ۳۲۰: ۲، ۳، ۵- ۳۲۸: ۱، ۲، ۱۲، ۱۶- ۳۲۹: ۲، ۳، ۷، ۱۰- ۳۴۲: ۵- ۳۵۰: ۹- ۳۵۸: ۲۳-

۳۶۹: ۱۳

أمير مائة:

۷۰: ۱۱

أمير مائة و مقدم ألف:

۷۰: ۱۰- ۷۴: ۱- ۱۲۸: ۹- ۱۳۰: ۱۰ ۱۳۶: ۶- ۱۳۹: ۲۰- ۱۵۱: ۱۰- ۱۷۲:

۷، ۱۴، ۱۵- ۱۹۰: ۱۶- ۱۹۵:

۱۰- ۲۳۹: ۹- ۲۵۹: ۱۵

أمير مجلس:

۳: ۱۲، ۲۴- ۸: ۱۳- ۹: ۱۳- ۱۰:

۸- ۱۵: ۱۶- ۲۴: ۱- ۲۵: ۱۶- ۴۵:

۱۰- ۴۷: ۲۰- ۶۴: ۱۹- ۷۶: ۱۸- ۱۰۳: ۱۸- ۱۱۶: ۵- ۱۳۶: ۷- ۱۵۷:

۱۸- ۱۶۸: ۹، ۱۵- ۱۷۲: ۳- ۱۷۹:

۱۴- ۱۸۹: ۱۵- ۱۹۴: ۱۰- ۱۹۵:

۶- ۲۰۰: ۱۶- ۲۰۱: ۱۳، ۱۵- ۲۱۲: ۴- ۲۱۸: ۱۲- ۲۰۴: ۱۵- ۲۴۰: ۱۷- ۲۴۷:

۴، ۵- ۲۵۵: ۶، ۱۳- ۲۵۷: ۸- ۲۵۸:

۲۲- ۲۶۹: ۶، ۱۶- ۲۸۸: ۹- ۲۹۲:

۱۴- ۳۰۰: ۹- ۳۰۲: ۲- ۳۰۴: ۱۱، ۱۳- ۳۰۶: ۱۲- ۳۰۸: ۱۹- ۳۱۷: ۱۶- ۳۱۸:

۲- ۳۱۹: ۳، ۸، ۱۸، ۱۹- ۳۵۰: ۱۰- ۳۷۳: ۱۸

أمراء المدينة النبوية:

۱۳۲: ۱۴- ۳۰۴: ۱۷

أمير مكة:

۲۵۹: ۱۶- ۲۸۲: ۱۵- ۲۸۳: ۲۰- ۳۰۰:

۲۰- ۳۶۲: ۸- ۳۹۸: ۱۴

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۴۶۷

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۴۶۸

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۴۷۹

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۴۸۱

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۴۸۲

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۴۸۳

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۴۸۴

۵: ۱۶- ۱۰۴: ۲۱- ۱۲۲: ۱۲، ۱۴- ۱۴۲: ۵- ۱۶۱: ۱۳- ۱۷۳: ۱۰- ۱۷۴:

۲۲- ۱۷۵: ۶، ۸، ۱۷- ۲۵۶: ۱۲- ۲۶۵: ۲۰- ۲۶۹: ۱۲- ۲۷۳: ۱۰، ۱۳، ۱۸- ۲۷۴: ۱۹، ۲۲- ۲۸۶: ۴- ۳۱۸:

۱۲، ۱۳، ۱۵- ۳۲۶: ۷، ۱۱، ۲۱- ۳۳۴: ۲۰- ۳۴۴: ۴- ۳۴۵: ۱۵، ۱۸، ۱۹- ۳۶۴: ۵- ۳۶۷: ۶، ۸

کتابة سر حلب:

۳۴۵: ۱۴، ۲۰

کتابة سر دمشق:

۲۷۷: ۱۵- ۳۵۹: ۲۰، ۲۲- ۳۶۴: ۱۲- ۳۶۶: ۱۰، ۱۲

کتابة سر طرابلس:

۲۳۷: ۷

کتابة سر مصر:

۳۰۹: ۱۶- ۳۴۵: ۱۳، ۲۴- ۳۶۰: ۱۸- ۳۶۴: ۹، ۱۰

الکحالون:

۳: ۲۵

الکراکی:

۶۱: ۱۳، ۱۸- ۳۵۱: ۱۳

الکشاف- جمع کاشف:

۲: ۱۷- ۳۳۷: ۱۳

الکشافة:

۳۳۱: ۸

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۴۸۷

الکشف:

۳۳۷: ۱۳- ۳۵۷: ۱۰- ۳۶۰: ۵

کشف البحیرة:

۳۵۷: ۸

کشف التراب بالغربیة:

۲۴۵: ۱۵

کشف الوجه البحری:

۱۵۳: ۳- ۳۵۷: ۱۰

کشف الوجه القبلی:

۱۵۲: ۱۳- ۱۵۸: ۲۲- ۲۳۷: ۱۰

الکشوفیة:

۳۶۰: ۴

الکفالات (الولایات):

المبشر:

۱۸۹: ۱۸

مبشر الحاج:

۲۴: ۱۸- ۱۰۷: ۶- ۲۲۴: ۱- ۲۶۰:

۴- ۳۱۰: ۶- ۳۲۲: ۱۰

المبیضة (الفاطمیون):

۳: ۱۶

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۴۸۸

المحتسب:

۷۷: ۴- ۲۸۲: ۲

محتسب القاهرة:

۴۰: ۱۴- ۷۵: ۱۳- ۸۱: ۱۴، ۱۹- ۸۴:

۴- ۱۶۵: ۳- ۲۸۱: ۲۰

المحراب:

۹۱: ۴

المحفة:

۴۶: ۱۶- ۵۵: ۵- ۷۴: ۸- ۹۶: ۶- ۹۸: ۱۷- ۱۰۲: ۲۰- ۱۰۵: ۲۰- ۱۰۶:

۱۱، ۱۴، ۱۷- ۱۴۶: ۲۰- ۱۸۶: ۹، ۲۰

المحمل:

۳۴: ۱۶- ۴۵: ۱۱- ۸۶: ۱۵- ۸۷:

۱، ۲، ۴- ۱۰۳: ۱۰، ۱۱- ۱۷۴: ۳- ۲۵۸:

۱- ۲۸۳: ۵- ۲۸۸: ۳- ۳۱۱: ۱۸- ۳۱۲: ۳- ۳۵۷: ۱۹- ۳۷۲: ۱۰

محمل الحاج:

۶۱: ۱۰- ۷۳: ۲۰- ۲۵۷: ۱۷: - ۳۱۹:

۱، ۲۱- ۳۴۵: ۸- ۳۵۵: ۱۷- ۳۷۲: ۹

محمل:

۳۲۵: ۱۴

مخیم:

۳۳: ۳- ۳۵: ۱۲- ۴۵: ۱۴- ۴۷: ۱۲، ۱۵- ۵۲: ۲- ۵۳: ۱۵- ۷۳: ۱۰- ۷۶:

۱۶- ۷۷: ۴- ۱۰۲: ۳- ۱۸۶: ۸- ۳۵۱:

۱۳- ۳۵۹: ۱۷

المداح:

۵۹: ۱۳

۱: ۵- ۸۰: ۱۱- ۱۶۷: ۷- ۱۹۸: ۱۲- ۲۱۱: ۱۶- ۲۴۲: ۱۴- ۲۹۸: ۲، ۳

ملوک السلاجقة:

۸۳: ۲۳

ملوک العجم:

۱۷۵: ۲

ملوک الفرنج:

۲۹۲: ۶- ۳۲۵: ۵، ۹

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۴۹۱

ملوک مصر:

۹۰: ۵

ملوک الهند:

۱۲۰: ۱۵- ۳۷۲: ۳

الممالیک:

۱: ۶- ۶۰: ۹- ۶۶: ۱۲- ۶۷: ۱۴- ۶۸: ۲۲- ۸۸: ۶- ۹۳: ۲۳- ۱۰۱: ۱۲- ۱۰۳: ۲۰- ۱۰۹: ۱۲- ۱۱۲: ۱۴- ۱۲۹: ۹، ۱۰- ۱۳۰: ۱۰، ۱۶- ۱۳۶:

۵، ۱۳، ۱۹- ۱۵۱: ۱۰- ۱۷۰: ۱۵- ۱۷۸: ۱۷- ۱۸۱: ۱۹- ۱۸۳: ۴، ۶- ۱۸۵: ۱۵: ۱۸۷: ۲۰- ۱۹۴: ۱، ۵، ۹- ۱۹۵: ۱۳- ۱۹۶: ۴- ۱۹۹:

۶، ۷، ۱۵- ۲۰۱: ۲۰- ۲۰۲: ۷- ۲۰۸:

۱۷، ۲۰- ۲۰۹: ۱۳- ۲۱۰: ۲- ۲۱۲:

۹- ۲۱۷: ۱۴- ۲۲۰: ۲، ۹- ۲۲۲: ۵، ۱۶، ۱۹- ۲۲۳: ۳، ۴، ۸، ۹، ۱۷، ۲۰- ۲۲۷: ۱۱- ۲۴۰: ۳- ۲۴۳: ۷، ۱۳- ۲۵۳: ۳- ۲۵۹: ۲۰- ۲۶۱:

۱۴- ۲۶۲: ۳- ۲۷۵: ۱۹- ۲۷۸: ۱۵- ۲۸۴:

۱۶، ۱۸- ۲۸۶: ۱- ۲۸۷: ۴- ۲۹۴:

۱۰- ۳۰۸: ۹- ۳۲۱: ۷- ۳۲۶: ۱۹- ۳۲۸: ۵، ۸، ۲۰- ۳۳۲: ۱۸، ۱۹- ۳۳۷:

۱۱- ۳۳۸: ۱۵- ۳۳۹: ۲۰، ۲۴- ۳۴۰:

۶- ۳۴۱: ۶- ۳۴۹: ۱۱- ۳۶۶: ۲- ۳۷۰: ۱۹

الممالیک الأجلاب:

۳۲۶: ۲۲

الممالیک الأشرفیة:

۳۳۷: ۱۴، ۱۶

ممالیک الأمراء:

۷۰: ۱۸- ۷۱: ۴- ۱۶۸: ۵- ۳۴۰: ۵

الممالیک البحریة:

۳۱: ۱۷

الممالیک البطالون:

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۴۹۳

الموقع:

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة؛ ج۱۴؛ ص۴۹۳

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۴۹۴

الناعورة (العمامة الكبيرة):

۱۱۲: ۲۱

ناموس الملك:

۱۱۱: ۱۸

نائب الإسكندرية:

۱۲۰: ۱۶- ۱۵۵: ۷- ۱۷۲: ۱۵- ۱۹۴:

۱۴- ۲۴۹: ۱۱- ۲۵۷: ۲۱

نائب البيرة:

۵۰: ۱۶

نائب حلب:

۶: ۱- ۱۳: ۵- ۱۶: ۷- ۲۷: ۸- ۳۱:

۱۵- ۳۳: ۱۳- ۳۶: ۱۵- ۴۴: ۱۶- ۴۶: ۳- ۴۷: ۲۲- ۴۹: ۶، ۹، ۱۱- ۵۱: ۵- ۵۳: ۸- ۵۵: ۹، ۱۱- ۵۷:

۱۳- ۵۹: ۵- ۶۷: ۱۲، ۱۸- ۶۹: ۱، ۶- ۷۷: ۱۳- ۸۵: ۱۴- ۱۰۸: ۱۴- ۱۱۷: ۶- ۱۲۹: ۱۵- ۱۳۰: ۲- ۱۳۵:

۱۶- ۱۳۶: ۳، ۱۶- ۱۴۴: ۳- ۱۴۸:

۵- ۱۷۷: ۴، ۱۷، ۲۰، ۲۳- ۱۸۰: ۱۷- ۱۹۵: ۳- ۲۰۲: ۱۱- ۲۲۲: ۴- ۲۲۴:

۴- ۲۳۵: ۱۷- ۲۳۹: ۶، ۱۱- ۲۴۸:

۱۲- ۲۴۹: ۱- ۲۵۴: ۷- ۳۰۵: ۹- ۳۳۲: ۱۱- ۳۴۷: ۶- ۳۵۰: ۱۵- ۳۷۰: ۱۱

نائب حماة:

۶: ۱- ۳۱: ۱۴- ۳۳: ۴- ۳۶: ۱۸- ۴۷: ۱۳- ۴۸: ۱، ۳- ۵۰: ۱۶- ۵۳:

۸- ۸۵: ۱۶- ۹۲: ۲۰- ۱۳۵: ۱۷- ۱۸۴: ۱۲- ۱۸۷: ۳- ۱۹۰: ۹- ۲۰۲:

۱۲- ۲۵۴: ۸

نائب دمشق:

۳۱: ۱۲- ۳۲: ۷- ۳۴: ۸- ۵۹: ۳- ۱۱۵: ۱۱- ۱۶۴: ۳- ۲۶۱: ۴

نائب دمياط:

۱۴۸: ۱۲

نائب الرها:

۵۴: ۴

نائب السلطنة:

۳۱۶: ۱۶

نائب الشام:

۱۶: ۸، ۱۳- ۳۱: ۸، ۲۳- ۳۲: ۲۲- ۳۴: ۱۵، ۱۸- ۳۶: ۲۳- ۳۷: ۲۲- ۴۴: ۹، ۱۰- ۴۵: ۱۶- ۴۷: ۱۲، ۱۹- ۴۸: ۳- ۴۹: ۱۴- ۵۰: ۱۴-

۵۲: ۱- ۵۵: ۱۶- ۵۶: ۲۵- ۵۷: ۱۶- ۵۸:

۱۰- ۵۹: ۶- ۶۲: ۱۰، ۱۱- ۶۴: ۵- ۸۴: ۱- ۸۷: ۱۶- ۸۹: ۱۸- ۹۰: ۱۰- ۱۰۸: ۱۳- ۱۱۶: ۹- ۱۲۹: ۳- ۱۳۱:

۱۵- ۱۳۵: ۵، ۷، ۲۱- ۱۳۶: ۸- ۱۳۸:

۱۳- ۱۴۷: ۱۷، ۲۲- ۱۵۴: ۱۶- ۱۷۱:

۳- ۱۷۵: ۲۴- ۱۷۹: ۱- ۱۸۴: ۱۱- ۱۸۷: ۱۰، ۱۲، ۱۳- ۱۹۰: ۵- ۱۹۲:

۱۲، ۱۳، ۲۴- ۱۹۳: ۷، ۲۱- ۲۰۲:

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۴۹۵

۱۴- ۲۳۱: ۱۰- ۲۳۲: ۱، ۶- ۲۴۰:

۱۰، ۲۲- ۲۴۲: ۶- ۲۴۷: ۲۱- ۲۵۰:

۶- ۲۵۴: ۱۱- ۲۶۱: ۲۲- ۲۷۲: ۴- ۲۷۴: ۵، ۶، ۱۷- ۳۲۶: ۱۲- ۳۳۱:

۴- ۳۳۲: ۱۰، ۲۲- ۳۴۹: ۱۲- ۳۵۰:

۱۵- ۳۵۸: ۳، ۱۴- ۳۶۰: ۲۰

نائب صفد:

۱۱: ۹- ۳۳: ۸- ۴۷: ۱۳- ۴۸: ۸- ۵۶: ۸- ۱۵۱: ۹- ۱۸۱: ۱۸- ۱۸۸: ۹- ۲۰۲: ۱۳- ۲۲۵: ۷- ۲۴۸:

۱۴- ۲۵۰: ۲، ۹، ۱۳- ۲۶۰: ۱۸- ۲۶۲: ۴

نائب طرابلس:

۶: ۱- ۱۳: ۱۰- ۲۲: ۲- ۳۶: ۱۸- ۴۷:

۱۲، ۲۰- ۴۸: ۷- ۵۳: ۹- ۵۶: ۳- ۶۵: ۱۵، ۲۰- ۷۲: ۲۴- ۸۵: ۱۶- ۱۳۰: ۴- ۱۳۵: ۱۶- ۱۵۱: ۱۵- ۱۵۸:

۱۸- ۱۸۴: ۱۲- ۱۹۰: ۸، ۱۴- ۱۹۲:

۷- ۲۰۱: ۸- ۲۰۲: ۱۲- ۲۲۲: ۷- ۲۵۱: ۱۹- ۲۸۰: ۴- ۲۸۴: ۷- ۳۰۸:

۵- ۳۱۸: ۲

نائب عينتاب:

۱۵۱: ۱

نائب غزة:

۷: ۲- ۸: ۱۵- ۱۶: ۷- ۳۱: ۱۱- ۳۳: ۴- ۳۶: ۱۹- ۴۷: ۱۳- ۹۳: ۱- ۱۳۵: ۱۷- ۱۴۹: ۶- ۱۸۴: ۱۲- ۱۹۰:

۹- ۲۰۱: ۶- ۲۰۲: ۱۳

نائب الغيبة:

۳۵: ۱۳- ۴۶: ۱۱، ۱۸- ۹۲: ۵- ۱۳۷:

۱۳- ۱۸۶: ۱۴، ۲۲- ۲۰۵: ۶

نائب القدس:

۱۰: ۳- ۲۶۲: ۱۴

نائب القلعة (قلعة الجبل):

۱۲: ۱۰- ۶۲: ۱۲، ۱۴- ۲۱۲: ۲- ۲۲۱:

۱۰- ۲۶۹: ۹- ۲۸۸: ۱۳

نائب قلعة حلب:

۳۴: ۱- ۵۸: ۱۲

نائب قلعة دمشق:

۹۳: ۵- ۲۰۲: ۱۶

نائب قلعة الروم:

۳۲: ۱- ۳۶: ۱۹- ۵۰: ۱۶

نائب قيسارية:

۸۰: ۹

نائب كاتب السر:

۱۹۲: ۸- ۲۶۵: ۱۵- ۲۷۴: ۱۹- ۳۲۶:

۱۰- ۳۴۵: ۱۷- ۳۶۱: ۱۰- ۳۶۴: ۵

النائب الكافل:

۱: ۱۵

نائب كختا:

۵۱: ۲- ۶۷: ۸

نائب الكرك:

۱۰: ۷- ۷۱: ۱۵- ۱۵۷: ۱۶

نائب كركر:

۵۵: ۱۶

نائب المرقب:

۶۶: ۴

نائب مقدم المماليك:

۳۴۴: ۹

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۴۹۶

نائب ملطية:

۵۴: ۱۷- ۲۴۲: ۱۶

نائب نكدة:

۹۰: ۳

نائب الوجه القبلى:

۷۳: ۷

نجاب:

۳۶۰: ۲۰

ندماء السلطان:

۱۱: ۸- ۱۵۱: ۲۰- ۱۵۷: ۸

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۴۹۸

نيابة دوركى:

۵۲: ۱۰

نيابة السلطنة:

۸۰: ۱۰- ۳۶۵: ۱۱

نيابة سيس:

۴۹: ۱۳- ۹۳: ۶

نيابة الشام:

۱۱: ۱۱، ۲۴- ۵۸: ۱۹- ۹۰: ۲۱- ۱۰۳: ۱۸- ۱۲۸: ۱۴- ۱۳۸: ۱۷، ۱۹- ۱۶۸: ۱۲- ۱۸۳: ۹- ۲۵۴: ۲۱- ۲۶۴:

۳- ۳۵۸: ۷، ۱۴، ۲۳- ۳۵۹: ۵، ۱۳

نيابة صفد:

۱۱: ۱۴، ۲۴- ۱۵: ۱۵- ۲۷: ۷- ۲۹:

۱۳، ۱۵- ۵۶: ۲۷- ۶۵: ۲۰- ۶۷:

۱- ۹۰: ۱۴- ۱۱۹: ۶- ۱۵۱: ۱۲- ۱۵۴: ۱۸- ۱۸۸: ۹- ۲۳۶: ۸- ۲۴۸:

۱۷- ۲۴۹: ۲۱

نيابة طرابلس:

۲: ۵، ۶، ۷- ۱۲: ۱۴- ۲۲: ۴- ۳۸:

۱- ۶۵: ۲۰- ۶۶: ۲، ۹- ۷۳: ۶، ۷، ۱۱- ۹۲: ۲۰- ۱۱۹: ۶- ۱۲۰:

۵- ۱۳۸: ۱۱- ۱۵۱: ۱۱- ۱۵۸: ۲۲- ۱۵۹: ۱- ۲۲۴: ۱۰، ۱۲، ۱۸- ۲۳۷:

۸- ۲۴۵: ۱۶، ۱۸- ۲۴۶: ۳- ۲۵۲:

۳- ۲۵۳: ۱۱- ۲۵۸: ۲۲- ۳۰۶: ۱۲- ۳۰۸: ۲۰- ۳۱۸: ۴- ۳۱۹: ۲

نيابة طرسوس:

۹۳: ۳- ۳۱۹: ۶

نيابة غزة:

۱۵: ۱۷- ۲۲: ۱۰- ۳۴: ۶- ۹۳:

۱۰- ۱۸۹: ۱۱- ۳۱۹: ۱۴، ۲۴- ۳۲۱: ۱۷

نيابة الغيبة:

۱۷: ۱۷، ۲۴- ۴۶: ۱- ۱۸۶: ۱۵- ۲۰۳: ۳

نيابة قلعة الجبل:

۴۶: ۲- ۲۶۹: ۱۹

نيابة قلعة حلب:

۱۲: ۱۲- ۶۱: ۶- ۱۹۲: ۲۱

نيابة قلعة دمشق:

۵۶: ۱۳- ۶۶: ۴

فهرس وفاء النيل من سنة ۸۱۵- ۸۲۴

فهرس أسماء الکتب الواردة بالمتن و الهوامش

د دار الضـرب المصـریة (کشف الأسـرار العلمیـة بدار الضـرب المصـریة لمنصور بن بعرة الذهبی- تحقیق الدکتور عبد الرحمن فهمی محمد):

۱۰۰: ۲۴

دائرة المعارف الإسلامیة (ترجمة إبراهیم خورشید و آخرین):

۱۲۰: ۲۲- ۳۱۸: ۲۴

ذ الذیل علی رفع الإصر (للسخاوی- تحقیق الدکتور جوده هلال و محمود صبح):

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۴، ص: ۵۰۳

۱۱۴: ۲۳- ۱۲۲: ۲۰- ۱۲۵: ۱۹

ر الروض الزاهر فی سیرة الملک الظاهر ططر (للبدر العینی- تحقیق الشیخ الکوثری):

۶: ۲۰

س السلوک فی معرفة دول الملوک (للمقریزی- تحقیق الدکتور محمد مصطفی زیادة):

۷: ۲۲- ۳۱: ۲۵- ۴۸: ۲۰، ۲۲- ۶۴:

۲۱- ۱۳۸: ۲۳- ۲۴۵: ۴- ۲۶۷: ۲۰- ۳۱۴: ۲۳- ۳۳۱: ۲۰- ۳۳۶: ۶، ۲۰- ۳۵۱: ۱۸- ۳۵۲: ۲۲- ۳۶۶: ۲۲

السیف المهند فی سیرة الملک المؤید (للبدر العینی- تحقیق فهیم شلتوت):

۴: ۱۸- ۶: ۲۱- ۴۸: ۱۷- ۷۶: ۱۹- ۱۲۲: ۲۳- ۱۳۱: ۱۷- ۲۸۱: ۲۴

ش شذرات الذهب (لابن العماد):

۱۳۷: ۲۰- ۱۴۱: ۲۱، ۲۲- ۱۴۹: ۲۳- ۱۶۰: ۲۰

شرح البخاری (للحافظ ابن حجر):

۳۳۶: ۵

الشعر الشعبی (للدکتور حسین نصار):

۳۰: ۱۸

ص صبح الأعشی (للقلقشندی):

۱: ۱۵، ۲۲- ۲: ۱۵، ۱۸- ۳: ۱۸، ۲۲، ۲۵- ۴: ۱۴، ۲۰، ۲۳، ۲۶- ۵:

۲۳- ۸: ۲۰، ۲۳، ۲۶- ۹: ۲۲، ۲۵- ۱۰: ۲۳- ۱۱: ۲۱- ۱۳: ۱۷، ۱۹، ۲۱، ۲۴- ۱۴: ۲۵- ۱۷: ۲۵- ۱۸: ۱۸، ۲۶- ۲۲: ۱۹، ۲۲- ۲۴: ۲۲-

۲۷: ۲۲- ۳۳: ۲۷- ۴۸: ۲۳- ۴۹: ۲۱، ۲۶- ۵۰:

۲۵- ۵۱: ۱۹، ۲۱- ۵۴: ۲۱- ۶۸: ۲۴- ۸۱: ۲۱- ۸۳: ۲۳- ۸۴: ۲۰، ۲۴- ۸۹: ۲۱- ۱۲۰: ۱۸- ۱۲۴: ۲۳- ۱۴۲:

۲۲، ۲۴- ۱۴۹: ۲۲- ۱۵۰: ۲- ۱۸۰:

۲۲، ۲۴- ۱۸۳: ۲۱- ۱۸۴: ۲۳، ۲۵- ۱۸۵: ۲۲- ۱۸۷: ۲۳- ۱۸۸: ۲۰- ۲۰۴:

۲۱- ۲۲۵: ۲۳- ۲۸۴: ۲۳- ۳۰۴: ۲۱، ۲۳- ۳۰۶: ۲۴- ۳۱۴: ۲۰- ۳۴۸: ۲۰- ۳۵۲: ۲۵- ۳۵۵: ۱۹، ۲۴

صحاح الجوهری:

۱۳۳: ۹- ۱۳۴: ۵

صحیح البخاری:

۵۹: ۱۱- ۲۶۷: ۱، ۶، ۷، ۱۴

فهرس الموضوعات

[الجزء الخامس عشر]

اشارة

بسم اللّه الرحمن الرحيم

مقدمة

يبدأ الجزء الخامس عشر من هذا الكتاب الكبير من حوادث يوم الخميس ١٩ رجب من سنة ٨٣٦ ه (١۴٣٣ م)، و هو تاريخ سفر السلطان الأشرف برسباى إلى آمد، و ذلك على رأس حملة حربية ضد تركمان الشاة البيضاء (آق قيونلو)؛ و ينتهى بنهاية السنة الثالثة عشرة من سنوات حكم السلطان أبى سعيد جقمق، و هى سنة ٨۵۴ ه (١۴۵٠ م)، و بعبارة أخرى يتناول هذا الجزء سنوات العهد الأخير من سلطنة برسباى، ثم سلطنة يوسف ابنه، الذى حكم أربعة و تسعين يوما، ثم معظم سلطنة جقمق.

أما الخلفاء المعاصرون لهؤلاء السلاطين فهم:

١- المعتضد بالله داود (٨١۵- ٨۴۵ ه).

٢- المستكفى بالله سليمان (٨۴۵- ٨۵۵ ه).

٣- القائم بأمر اللّه حمزة (٨۵۵- ٨۵٩ ه).

و اعتمدت فى تحقيق هذا الجزء الخامس عشر، على صور شمسية بدار الكتب المصرية رقم ١٣۴٣، و هى منقولة عن الأجزاء المخطوطة المحفوظة بمكتبة «أياصوفيا» بالقسطنطينية رقم ۴٣٩٨، ۴۴٩٩؛ و لذا يرمز لهذه النسخة من المخطوطة بحرف (ا)، و هذا الجزء الخامس عشر، يقابل القسم الأول من الجزء السابع من هذه المخطوطة، بالإضافة إلى نحو

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۵، ص: ۴

خمس و رقات من القسم الثانى منها، و ذلك لتكملة و فيات السنة الثالثة عشرة من سلطنة جقمق، و هى السنة التى انتهى بها هذا الجزء كما تقدم.

كما اعتمدت فى التحقيق على طبعة كاليفورنيا التى نشرها المستشرق وليام پوپر.

و تنبغى الإشارة هنا إلى أن طبعة كاليفورنيا لم تستخدم هذه المخطوطة، و هى التى اعتمدت عليها و جعلتها أصلا للتحقيق، و الدليل على ذلك كثرة الفقرات التى توجد فى هذه المخطوطة و لا توجد فى تلك الطبعة، و يكفى دليلا على هذه الكثرة، أن الخمسين ورقة الأولى من المخطوطة، فيها ست عشرة فقرة ساقطة فى طبعة كاليفورنيا، فيما عدا الكلمات.

و يوجد بهامش هذه المخطوطة عناوين لبعض الموضوعات الهامة الواردة بالمتن، فضلا عن استدراكات لما وقع للناسخ من سهو أو خطأ بالمتن أيضا.

و قد أشرت إلى ذلك كله فى مواضعه و حرصت على إيراد هذه العناوين الهامشية فى فهرس خاص، كما جاءت بالأصل دون تغيير، و هذا بالإضافة إلى العناوين الكبيرة الواردة خلال الصفحات.

و قد استعنت فى تحقيق هذا المتن، بالمصادر التى تناولت هذه السنوات من التاريخ المصرى؛ و من أهم هذه المصادر: المنهل الصافى، و حوادث الدهور، و كلاهما لابن تغرى بردى؛ ثم: المقريزى (ت ٨۴۵ ه) و ابن حجر (ت ٨۵٢ ه) و العينى (ت ٨۵۵ ه) صاحب الفضل فى توجيه ابن تغرى بردى إلى الاشتغال بالتاريخ، و ابن شاهين (٨٧٢ ه) و السخاوى (ت ٩٠٢ ه) و السيوطى (ت ٩١١ ه) و ابن إياس (ت ٩٣٠ ه) و غيرهم.

(انظر قائمة المراجع).

و شرحت ما دعت الضرورة لشرحه من ألفاظ لغوية و نظم إدارية و مصطلحات و ألقاب.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۵، ص: ۵

و مما يؤخذ على ابن تغرى بردى، فى بعض المواضع، أنه يشير أحيانا إلى أنه فصّل فى كتبه الأخرى، بعض ما أوجز فى كتاب «النجوم»، و اتضح فى بعض الحالات، بعد الرجوع إلى ما أحال عليه، أنه لم يورد ذلك التفصيل، الذى أشار إليه، و أنّ ما أورده، لم يزد عما ذكره فى «النجوم». و قد أشرت إلى ذلك فى مواضعه (انظر حوادث السنة الحادية عشرة من سلطنة جقمق).

أما بعد، فإنى أرجو أن أكون قد وفقت- بمساهمتى فى تحقيق كتاب النجوم الزاهرة- إلى أداء بعض ما علىّ من واجب نحو تراثنا

القومى.

و اللّه الموفق و الهادى إلى الصواب.

۲۷ جمادى الأولى سنة ۱۳۹۰ ه

۳۰ يونيو سنة ۱۹۷۰ م

د. إبراهيم على طرخان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۷

[تتمة ما وقع من الحوادث سنة ۸۳۶]

[۳] ذكر سفر السلطان الملك الأشرف [برسباى] إلى آمد

لما كان يوم الخميس تاسع عشر شهر رجب من سنة ست و ثلاثين و ثمانمائة، الموافق لأول فصل الربيع، و انتقال الشمس إلى برج الحمل، ركب السلطان الملك الأشرف برسباى من قلعة الجبل ببقية أمرائه و مماليكه، و عبّى أطلابه، و توجه فى الساعة الثالثة من النهار المذكور إلى مخيّمه بالرّيدانيّة، [خارج القاهرة]، تجاه مسجد التّبن، فسار فى موكب جليل إلى الغاية، و قد خرج الناس لرؤيته، إلى أن وصل إلى مخيمه، و صحبته من الأمراء المقدمين: الأمير جقمق العلائى أمير آخور، و الأمير

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۸

أركماس الظاهرى الدّوادار، و الأمير تمراز القرمشى رأس نوبة النّوب، و الأمير يشبك السّودونى المعروف بالمشدّ، و الأمير جانم أخو الملك الأشرف، و الأمير جانى بك الحمزاوى، فهؤلاء من مقدمى الألوف؛ و سافر معه جماعة كثيرة من أمراء الطبلخاناه، مثل الأمير قراخجا الشعبانى الظاهرى برقوق، ثانى رأس نوبة، و الأمير قراسنقر من عبد الرحمن الظاهرى برقوق، و الأمير قراجا الأشرفى شادّ الشرابخاناه، و الأمير تمر باى التّمر بغاوى الدوادار الثانى، و الأمير شيخ الرّكنى الأمير آخور الثانى، و الأمير خجا سودون السّيفى بلاط الأعرج، أحد رؤوس النوب، و الأمير تغرى بردى البكلمشى المؤذى، أحد رؤوس النوب، فهؤلاء الذين يحضرنى الآن أسماؤهم.

و سافر معه عدة كبيرة من الأمراء العشرات، و خلع على الأمير حسين بن أحمد

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۹

المدعو تغرى برمش، باستقراره فى نيابة الغيبة، و رسم له بسكنى باب السلسلة و الحكم بين الناس. و رسم باستقرار الأمير آقبغا التّمرازى، أمير مجلس، بإقامته بالقاهرة، و بسكنه بقصر بكتمر عند الكبش، و الآمير بردبك الإسماعيلى قصقا الحاجب الثانى.

و عيّن أيضا عدة من أمراء العشرات و الحجاب بالإقامة بالقاهرة، و استقر بالقلعة [المقام] الجمالى يوسف ابن السلطان الملك الأشرف، و هو أعظم مقدمى الألوف، و الأمير خشقدم الظاهرى الزمام الرومى، و الأمير تنبك البردبكى نائب قلعة الجبل، و الأمير إينال الظاهرى أحد رؤوس النوب المعروف بأبزى.

و خلع على الأمير إينال الششمانى أحد أمراء العشرات و رأس نوبة باستقراره أمير حاجّ الموسم، و خلع على الوزير الأستادار الصاحب كريم الدين بإقامته بالقاهرة، و أن يتوجه أمين الدين إبراهيم بن الهيصم، ناظر الدولة صحبة السلطان.

و بات السلطان ليلة الجمعة بالرّيدانية، و اشتغل بالمسير من الغد، فى يوم الجمعة، بعد الظهر إلى البلاد الشامية، و معه من ذكرنا من الأمراء و الخليفة المعتضد باللّه داود و القضاة الأربعة، و هم: قاضى القضاة شهاب الدين أحمد بن حجر الشافعى، و قاضى القضاة بدر الدين محمود العينتابى الحنفى، و قاضى القضاة شمس الدين محمد البساطىّ

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۰

المالكى، و قاضى القضاة محبّ الدين أحمد البغدادى الحنبلى.

و من مباشرى الدولة: القاضى كمال الدين محمد بن البارزى كاتب السر، و زين الدين إبراهيم ابن كاتب جكم ناظر الخواصّ، و القاضى شرف الدين أبو بكر الأشقر نائب كاتب السر، و أئمة السلطان الذين يصلّون به الخمس، و نديمه ولىّ الدين بن قاسم الشّيشينى؛ فهذا الذين سمحت القريحة بذكرهم. و كان سفر السلطان فى الغد من يوم خروجه من القاهرة، بخلاف عادة الملوك- انتهى.

و سار السلطان بعساكره، لا يتجاوز فى سيره المنازل، إلى أن وصل إلى مدينة غزة، فى أول شعبان، بعد أن خرج نائبها الأمير إينال العلائى الناصرى، أعنى الملك الأشرف إينال، إلى ملاقاته هو و أعيان غزة؛ و دخل السلطان إليها فى موكب عظيم [سلطانى]، و أقام بها، إلى أن رحل منها فى يوم الخميس رابعه، بعد أن [۴] نزل بالمسطبة خارج غزة ثلاثة أيام؛ و سار إلى جهة دمشق، و نحن فى خدمته، إلى أن وصل إلى مدينة دمشق فى يوم الاثنين خامس عشر شعبان، و اجتاز بمدينة دمشق بأبهة السلطنة و شعار الملك فى موكب جليل، و حمل الأمير جارقطلو نائب الشام القبّة و الطّير على رأسه، إلى أن نزل بالدّهليز السلطانى بمنزلة برزة خارج دمشق، و كذلك جميع أمرائه و عساكره نزلوا بخيامهم بالمنزلة المذكورة، و لم ينزلوا بمدينة دمشق، شفقة على أهل دمشق.

و أقام السلطان بمخيّمه خمسة أيام، و ركب فيها غير مرة، و دخل دمشق، و طلع

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۱

إلى قلعتها مرارا؛ ثم رحل السلطان من دمشق بأمرائه و عساكره، فى يوم السبت عشرينه، يريد البلاد الحلبية، فحصل للعسكر بعض مشقّة لعدم إقامته بدمشق، من أجل راحة البهائم. و لم يعلم أحد قصد السلطان فى سرعة السير لماذا [؟] و سار حتى وصل إلى حمص ثم إلى حماه، فخرج الأمير جلبان نائب حماه إلى ملاقاة السلطان بعساكر حماه، فأقام السلطان بظاهر حماه المذكورة ثلاثة أيام، ثم رحل منها يريد حلب. و لم يدخل السلطان حماه بأبهة السلطنة كما دخل دمشق لما سبق ذلك من قواعد الملوك السالفة:

أن السلطان لا يدخل أبدا من مدن البلاد الشامية بأبّهة السلطنة إلا دمشق و حلب ثم مصر، و باقى البلاد يدخلها على عادة سفره إلا الملك المؤيّد شيخ، فإنه لما سافر إلى البلاد الشامية فى واقعة نوروز الحافظى، عمل بحماه الموكب السلطانىّ و دخلها بأبهة السلطنة، و حمل على رأسه القبة و الطير الأمير الكبير، استقلالا بنائبها، فإنه لا يحمل القبة و الطير على رأس السلطان إلا أحد هؤلاء الأربعة: الأمير الكبير، أو ابن السلطان، أو نائب الشام، أو نائب حلب.

و كان لعمل الملك المؤيّد الموكب بحماه سبب، و هو أنه كان فى أيام إمرته، فى الدولة الناصرية [فرج] لما حاصر الأمير نوروز الحافظى بها تلك المدة الطويلة، وقع فى حقّه من أهل حماه أمور شنيعة، صار فى نفسه من ذلك حزازة، فلما ملك البلاد و تسلطن، أراد أن ينسكيهم بما هو فيه من العظمة، و يريهم ما آل أمره إليه- [انتهى].

و سار السلطان [الملك] الأشرف من حماه إلى أن وصل إلى حلب فى يوم الثلاثاء، خامس شهر رمضان، و دخلها على هيئة دخوله إلى دمشق، بأبهة السلطنة؛ و حمل القبّة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۲

و الطير على رأسه، الأمير [سيف الدين] قصروه [بن عبد اللّه]، من تمراز نائب حلب؛ و شقّ السلطان مدينة حلب فى موكب عظيم، إلى أن خرج منها على هيئته، و نزل بمخيمه بظاهر حلب برأس العين، و نزل معه جميع عساكره بخيلهم، و لم ينزل أحد منهم بمدينة حلب، فأقام السلطان بمكانه المذكور خمسة عشر يوما، يركب فيها و يدخل إلى حلب و يطلع إلى قلعتها.

و كانت إقامة السلطان بحلب هذه المدة، ليرد عليه بها قصّاد الأمير عثمان بن طرعلى، المدعو قرا يلك، فى طلب الصلح، فلم يرد عليه أحد ممن يعتمد السلطان على كلامه، فعند ذلك تهيأ السلطان للخروج إلى جهة آمد.

و سار من حلب فى يوم الاثنين، حادى عشرين شهر رمضان، مخفّفا من الأثقال و الخيام الهائلة؛ و نزل القضاة بمدينة حلب، و صحب

الخليفة أمير المؤمنين المعتضد داود، و هو فى ترسيم الأمير قراسنقر العبد الرحمانى، أحد أمراء الطبلخاناه، كما هى العادة فى مشى بعض الأمراء مع الخلفاء فى الأسفار، كالتّرسيم عليه، و هذا أيضا من القواعد القديمة.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۳

و استمر السلطان فى سيره بجميع عساكره، غير أنهم فى خفّة من أثقالهم، إلى أن وصل البيرة، و قد نصب جسر المراكب على بحر الفرات لتعدية العساكر السلطانية عليه إلى جهة الشرق، فنزل السلطان فى البر الغربى الذى جهة حلب، و أقام بمخيمه، و أمر الأمراء أن تعدى إلى تلك الجهة بأطلابها قبله، ثم يسير السلطان بالعساكر بعدهم لئلا تزدحم العساكر على الجسر المذكور، لأن الجسر، و إن كان محكما، فهو موضوع على المراكب، و المراكب مربوطة موثوقة بالسلاسل، فهو على كل حال، ليس بالثابت تحت الأقدام، و لا بد أن يرتجّ عند المرور عليه؛ و كانت سعة الجسر بنحو أن يمر عليه قطاران من الجمال المحملة- انتهى.

فأخذت الأمراء فى التعدية إلى جهة البيرة [۵]- و السلطان بعساكره فى خيامهم- إلى أن انتهى حال الأمراء، فأذن السلطان عند ذلك للعساكر بالمرور على الجسر المذكور إلى البيرة من غير عجلة، فكأنه استحثهم على السرعة، فحمّلوا جمالهم للتعدية، و وقع بينهم أمور و ضراب و مخاصمة بسبب التعدية، يطول شرحها، إلى أن عدّى غالبهم. فعند ذلك ركب السلطان بخواصّه و مرّ على الجسر المذكور إلى أن عدّاه، و نزل بقلعة البيرة فى يوم السبت سادس عشرين شهر رمضان، و نزلت العساكر المصرية و الشامية على شاطىء بحر الفرات و غيره، فأقام السلطان بالبيرة إلى أن رتب أمورها و ترک بها أشياء كثيرة من الأثقال السلطانية، و رحل منها فى أواخر شهر رمضان المذكور إلى جهة آمد حتى نزل على مدينة الرّها فى ليلة عيد الفطر، فوجدناها خرابا خالية من أهاليها و أصحابها لم يسكنها

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۴

إلا من عجز عن الحركة من ضعف بدنه أو لقلة ماله. و نزل السلطان على ظاهرها من جهة الشرق و عيّد بها عيد الفطر، و دخلت أنا إلى مدينة الرّها و طلعت إلى قلعتها، فإذا هى مدينة لطيفة، و قلعتها فى غاية الحسن، على أنها صغيرة جدا.

ثم أصبح السلطان يوم عيد الفطر، و قد اشتغل بالمسير إلى جهة آمد، و إلى الآن لم يعرف لقرايلک خبر، و الأقوال فيه مختلفة، فمن الناس من يقول إنه تهيأ و يريد قتال العساكر السلطانية، و من الناس من يقول إنه دخل إلى آمد و حصّنها، و من الناس من يقول إنه ترک بمدينة آمد ابنه بعد أن حصنها، و توجه إلى قلعة أرقنين، و أرقنين على يسار المتوجّه إلى آمد. و سار السلطان بعساكره من الرّها و عليهم الأسلحة و آلة الحرب، إلى أن نزل على آمد فى يوم الخميس ثامن شوال؛ و قبل نزول السلطان عليها صفّ عساكره عدة صفوف، و وراءهم الثقل و الخدم، حتى ملأوا الفضاء طولا و عرضا. و مشى السلطان هو و الخليفة، و مباشرو الدولة حولهما بغير سلاح، يوهم أن المباشرين المذكورين هم قضاة الشرع، لكون لبسهم على هيئة لبس الفقهاء، و ليس بينهم و بين القضاة فرق، بل كان فيهم مثل القاضى كمال الدين [بن البارزى] كاتب السر، و هو أفضل من قضاة كثيرة، و سار السلطان بهم أمام عسكره.

و قد هال أهل آمد ما رأوه من كثرة العساكر و تلک الهيئة المزعجة التى قل أن يجتمع فى عساكر الإسلام مثلها، من ترادف العساكر بعضها على بعض، حتى ضاق عليهم اتساع

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۵

تلک البرارى، و خلف العساكر المذكورة الأطلاب الهائلة، و الكوسات تدق، و البوقات تزعق، و قد تجاوز عدد أطلاب الأمراء، لكثرة ما اجتمع على السلطان من العساكر المصرية و النواب بالبلاد الشامية و أمراء التركمان و العربان؛ فكانت عدة الأطلاب التى بها الطبول و الزمور تزيد على مائة طلب، ما بين أمراء مصر المقدمين و بعض الطّبلخانات و نائب دمشق و أمرائها، و هم عدة كثيرة، و نائب حلب و أمرائها و طرابلس و أمرائها، و كذلک حماه و صفد و غزة و نواب القلاع و أمراء التركمان الذين تضرب على بابهم الطّبول، فدقت عند قدوم السلطان جميع طبول هؤلاء و زعقت الزمور يدا واحدة، فانطبق الفضاء طبلا و زمرا حربية، هذا مع كثرة البراشم و الأجراس المعلقة على خيول الحرب الملبّسة بالعدد الكاملة و قلاقل الجمال.

و عنـد القرب من مدینـة آمد، أخذت العساکر تلتمّ حتی أشـرف أجناد کثیرة علی الهلاک من عظم ازدحام بعضـهم علی بعض، و مع هذا أعرض

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۶

العساکر مـدد العین، و صار الرجل من العسـکر إذا تکلم مع رفیقه لا یسـمع رفیقه کلامه إلا بعد جهد کبیر لعظم الغوغاء، فانذهل أهل آمـد ممـا عاینوا من کثرة هـذه العساکر و شـدة بأسـها و حسن زیّهم، و من التّجمّل الزائـد فی العـدد و الآلات و الخیول و الأسـلحة، و الکثرة الخارجة عن الحد فی العدد.

و کان قرایلک قبل أن یخرج من مدینـة آمـد، أمر أن یطلق الماء علی أراضـی آمـد من خارج البلـد من دجلة، ففعلوا ذلک فارتطمت خیول کثیر من العسـکر بالماء و الطین، فلم یکترث أحـد بـذلک، و مشـی العسـکر صـفّا واحدا، و خلف کل صف صـفوف لا تعدّ. و استمروا فی سیرهم المذکور [۶] إلی أن حاذوا خندق آمد، و قد بهت أهلها لما داخلهم من الرّعب و الخوف ممّا طرقهم من العساکر، و لم یرم منهم أحـد بسـهم فی الیوم المـذکور إلاـ نـادرا، و لا علا أحـد منهم علی شـرفات البلـد إلا فی النادر أیضا، و صاروا ینظرون العساکر من الفروج التی بین الشرفات.

و لم یکن لآمـد المـذکورة قلعـة بل سور المدینـة لا غیر، إلا أنه فی غایـة الحسن من إحکام بنیانه، و کل بدنة بالسور المذکور تحمی البدنة الأخری، فلهذا یصعب حصارها، و یبعد أخذها عنوة؛ فوقف العسکر حول آمد ساعة.

ثم مال السلطان بفرسه إلی جهة بالقرب من مدینة آمد، و نزل به فی مخیمه، و أمر الناس بالنزول فی منازلهم، و أمرهم بعدم قتال أهل آمد؛ علی أن أوباش القوم تراموا بالسـهام قلیلا، فتوجه کل واحد إلی مخیمه، و نزل الجمیع بالقرب من آمد، کالحلقة علیها، غیر أنهم علی بعـد منها، بحیث أنه لا یلحقهم الرمی من السور، و أحـدقت العساکر بالمدینـة من جهتها الغربیة، و کان الموضع الذی نزلنا به هو أقرب الجهات للمدینة المذکورة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۷

و نزل السلطان بمخیمه و قد ثبت عنده رحیل قرایلک من آمد. و أنه ترک أحد أولاده بها، فأقام بمخیمه إلی صبیحة یوم السبت عاشر شوال، فرکب و زحف بعساکره علی مدینة آمد بعد أن کلمهم السلطان فی تسلیمها قبل ذلک؛ و ترددت الرسل بینه و بینهم، فأبی من بها من الإذعان لطاعة السلطان و تسلیم المدینة إلا بإذن قرایلک.

و لما زحف السـلطان علی المدینـة اقتحمت عساکر السـلطان خندق آمد، و قاتلوا من بها قتالا شدیدا، حتی أشـرف القوم علی الظفر و أخذ المدینة، و ردم غالب خندق مدینة آمد بالحجارة و الأخشاب.

و بینما الناس فی أشد ما [هم] فیه من القتال، أخذ السلطان فی مقت الممالیک و توبیخهم، و صار کلما جرح واحد من عساکره و أتی له به یزدریه و یهزأ به، و ینسب القوم للتراخی فی القتال.

ثم لبس هو سلاحه بالکامل، و أراد أن یقتحم المدینة بنفسه حتی أعاقه عن ذلک أعیان أمرائه، و هو راکب علی فرسه، و علیه السلاح الکامـل من الخوذة إلی الرکب، واقف علی فرسه بمخیّمه حیث یجلس، و النـاس وقوف و رکبان بین یـدیه، تعـده بالنصـر و الظفر فی الیوم المـذکور، و إن لم یکن فی هـذا الیوم فیکون فی الغـد، و تذکر له أن القلاع لا تؤخذ فی یوم و لا فی یومین، و هو یتکلم بکلام [معناه]: أن عساکره تتهاون فی قتال أهل آمد، فلا زالت الأمراء به، حتی خلع عن رأسه خوذته و لبس

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۸

تخفیفة علی العادة، و استـمر القرقل علیه، إلی أن ترضّاه الأمراء، و خلع قرقله، فحمی الحر و اشـتدت القائلة و سئمت الناس من القتال، هذا مع ما بلغهم من غضب السلطان، بعد أن لم یبقوا ممکنا فی القتال؛ و قد أثخنت جراحات الأمراء و الممالیک من عظم القتال.

کل ذلک و السـلطان ساخط علیهم بغیر حق، فعنـد ذلک فتر عزم القوم عن القتال من یومئـذ، و ما أری هـذا الـذی وقع إلا خذلانا من

اللّه تعالى لأمر سبق، و إلا فالعساكر الذين اجتمعوا على آمد، كان يمكنهم أخذ عدة مدن، مثل آمد و غيرها.

و لما انقضى القتال، و توجه كل واحد إلى مخيمه، و هو غير راض فى الباطن، وجد أهل آمد راحة كبيرة بعودة القوم عنهم، و بلعوا ريقهم، و أخذوا فى تقوية أبراج المدينة و سورها، بعد أن كان أمرهم قد تلاشى، مما دهمهم من شدة قتال من لا قبل لهم بقتاله. و نزل السلطان بمخيمه، و ندب الأمراء [و العساكر] للزحف على هيئة ركوبهم يوم السبت، فى يوم الثلاثاء، و هو أيضا فى حال غضبه، فابتدأ الأمير قصروه نائب حلب، و الأمير مقبل نائب صفد، و الأمير جقمق العلائى الأمير آخور،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۹

فى الكلام مع السلطان فى تسكين غضبه، و قالوا: «يا مولانا السلطان، القلاع [كما فى علم السلطان]، ما تؤخذ فى يوم [واحد]، و لا فى شهور؛ و ثمّ من القلاع ما حاصره تيمور لنک مع كثرة عساكره، عشر سنين. يا مولانا السلطان، الحصون ما تبنى إلا للمنع، و لو لا ذاک ما بنى أحد حصنا، و قد اجتهد مماليک السلطان و أمراؤه فى القتال، و جرح الغالب منهم».

و كان ممن جرح من الأعيان: الأمير [۷] تغرى بردى المحمودى، رأس نوبة النوب، و هو كان يوم ذاک أتابک العساكر بدمشق، و الأمير سودون ميق، أحد مقدمى الألوف بديار مصر، و الأمير تنبک من سيّدى بک الناصرى المعروف بالبهلوان، أحد أمراء العشرات و رأس نوبة؛ و أما من المماليک و الخاصكيّة فكثير. فكان آخر كلام السلطان للأمراء: «إن العساكر تركب صحبة الأمراء فى يوم الثلاثاء، و تزحف على المدينة، و يكون الذى يركب مع الأمراء للزحف، المماليک القرانيص، و أنا و مماليكى

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۰

الأجلاب نكون خلفهم»، أراد بذلک عدم معرفة مماليكه بطرق الحرب، فحمل الناس كلامه على أنه يفعل ذلک شفقة على مماليكه، و أنه يريد هلاک من سواهم.

و قامت قيامة القوم، و تنكرت القلوب على السلطان فى الباطن، و تطاولت أعناق أمرائه إلى الوثوب عليه، و اتفق كثير منهم على ذلک لو لا أن بعضهم مات من جراحه، و تخوّف بعضهم أيضا من بعض، و عدم موافقة جماعة أخر من أعيان الأمراء لذلک.

و كان ممن اتّهم بالوثوب، على ما قيل، الأتابک جار قطلو نائب الشام، و طرباى نائب طرابلس، و مقبل نائب صفد، و تغرى بردى المحمودى- مات بعد أيام من جرح أصابه- و سودون ميق- مات أيضا من جرح أصابه- و الأمير جانبک الحمزاوى- مات فى عود الملک الأشرف إلى مصر بعد أن ولاه نيابة غزة على كره منه، و جماعة كثيرة غير هؤلاء، على ما قيل.

و كان الذى لم يوافقهم على الوثوب، الأمير قصروه و الأمير إينال الجكمى أمير سلاح، و الأمير جقمق الأمير آخور؛ و أما الأمير سودون من عبد الرحمن أتابک العساكر، فلم يكن من هؤلاء و لا من هؤلاء، لطول مرضه: من يوم خرج من مصر و هو فى محفة، و كل ذلک لم يتحققه أحد، غير أن القرائن الواقعة بعد ذلک تدل على صدق هذه المقالة- انتهى.

و لما خرج الأمراء من عند السلطان، بعد أن امتثلوا ما رسم به من الزحف فى

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۱

يوم الثلاثاء، بلغ السلطان عن الأمراء و المماليک نوع مما ذكرناه، فاضطرب أمره و صار يحاصر [المدينة] و هو فى الحقيقة محصور من احتراسه من أمرائه و مماليكه، و أخذ فى الندم على سفره، و فتر عزمه عن أخذ المدينة فى الباطن، و ضعف عن تدبير القتال.

كل ذلک و الموكب السلطانى يعمل فى كل يوم، و الأمراء تحضره، و يركب السلطان و يسير إلى حيث شاء، و معه الأمراء و النواب، غير أن البواطن معمورة بالغش، و يمنعهم من إظهار ما فى ضمائرهم موانع؛ هذا و القتال مستمر فى كل يوم، بل فى كل ساعة، بين العسكر السلطانى و بين أهل آمد، غير أنه لم يقع يوم مثل يوم السبت المذكور، و قتل خلائق من الطائفتين كثيرة، و صار السلطان يضايق أهل آمد بكل ما و صلت قدرته إليه، هذا و قد قوى أمرهم و اشتد بأسهم لما بلغهم من اختلاف عساكر السلطان، و صاروا يصيحون من أعلى السور:

«اللّه ینصر جار قطلو»، و انطلقت ألسنتهم بالوقیعة و السبّ و التوبیخ، من السلطان إلی من دونه.

و بینما السلطان فیما هو فیه، قدم علیه الأمیر دولات شاه الکردی صاحب أکلّ من دیار بکر، فأکرمه السلطان و خلع علیه.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۲

ثم لما بلغ الملک الأشرف أحمد ابن الملک العادل سلیمان ابن المجاهد غازی ابن الکامل محمد ابن العادل أبی بکر ابن الأوحد عبد اللّه ابن المعظم توران شاه ابن السلطان الملک الصالح نجم الدین [أیوب] ابن [السلطان] الملک الکامل محمد ابن السلطان الملک العادل أبی بکر بن أیوب بن شاذی الأیوبی، صاحب حصن «کیفا» قدوم السلطان الملک الأشرف إلی آمد، خرج من الحصن فی قلیل من عسکره فی أوائل ذی القعدة، یرید القدوم علی السلطان، فاعترضه فی مسیره جماعة من أعوان قرایلک علی حین غفلة، و قد نزل عن فرسه لصلاة العصر، و قاتلوه إلی أن قتل الملک الأشرف المذکور من سهم أصابه، و انهزم بقیة من کان معه و انتهبوا، فقدم جماعة منهم [علی الملک] الأشرف، و عرّفوه بقتل الملک الأشرف صاحب الحصن، فعظم علیه ذلک إلی الغایة.

و من هذا الیوم أخذ السلطان فی أسباب الرحیل عن آمد، غیر أنه صار یترقب [۸] حرکة یرحل بها لتکون لرحیله مندوحة. ثم ندب السلطان جماعة کبیرة من الترکمان و العربان من عسکره لتتبع قتلة الملک الأشرف صاحب الحصن. و کان منذ نزل السلطان علی آمد و أتباع العسکر السلطانی من الترکمان و العربان تعیث و تنهب فی قری آمد و غیرها و یأتون بما یأخذونه للعساکر المذکورة،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۳

و صارت الغلمان تخرج من الوطاق إلی جهات آمد و تحصد الزروع و تأتی بها الأجناد، حتی صار أمام خیمة کل جندی جرن کبیر من الزرع، و هو الذی قام بعلوفة خیول العسکر فی طول مدة الإقامة علی آمد، و لو لا ذلک لکان لهم شأن آخر.

و لما ندب السلطان الجماعة المذکورة لتتبع قتلة الملک الأشرف و غیره، خرجوا إلی جهة من الجهات فوافوا جماعة کبیرة من أمراء قرایلک و قاتلوهم حتی هزموهم، و أسروا منهم جماعة کبیرة من أمراء قرایلک و فرسانه و أتوا بهم إلی السلطان، و هم نیف علی عشرین نفسا، فأمر السلطان بقیدهم فقیدوا.

ثم توجهوا ثانیا فوافقوا جماعة أخر، فقاتلوهم أیضا و أسروا منهم نحو الثلاثین، و من جملتهم قرا محمد أحد أعیان أمراء قرایلک؛ فأحضر السلطان قرا محمد و هدده بالتّوسیط إن لم یسلم له آمد، فأخذوا قرا محمد المذکور و مرّوا إلی تحت سور المدینة، فکلمهم قرا محمد المذکور فی تسلیم المدینة، فلم یلتفتوا إلیه، فأخذوه و عادوا، فأصبح السلطان وسّط منهم تحت سور آمد عشرین رجلا، من جملتهم قرا محمد المذکور.

و اتفق فی توسیط هؤلاء غریبة، و هو أن بعضهم حمل للتوسیط فاضطرب من أیدی حملته فوقع منهم إلی الأرض، فقام بسرعة و هرب إلی أن ألقی بنفسه إلی الخندق، بعد أن تبعه جماعة، فلم یقدروا علی تحصیله؛ ثم خرج من الخندق و قد أرخی إلیه من سور آمد حبل، و تشبث به إلی قریب الشرفة، فانقطع الحبل فوقع إلی الأرض، ثم جرّ ثانیا إلی أعلی المدینة و نجا، و قیل إنه مات بعد ثلاثة أیام من طلوعه، و اللّه أعلم.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۴

ثم بلغ السلطان أن قرا یلک نزل من قلعة أرقنین بجماعة من عساکره، یرید أن یکبس علی السلطان فی اللیل أو یتوجه بهم إلی حلب. فندب السلطان جماعة من الأمراء و الممالیک فی عمل الیزک بالنوبة، فی کل لیلة لحفظ العساکر؛ ثم رسم السلطان للأمیر قطلو نائب الشام بالتوجه لقرایلک بقلعة أرقنین، و ندب معه جماعة من النواب و الأمراء و العساکر المصریة- و کنت أنا معهم- فخرجنا من الوطاق السلطانی فی اللیل بجموع کثیرة، و جددنا فی السیر حتی وافینا قرایلک و هو بمخیمه تحت قلعة أرقنین بین الظهر و العصر، و کان غالب العسکر قد تخلف بعدنا، فتقدم بعض العسکر السلطانی من الترکمان و العربان، و مثل الأمیر مقبل الحسامی نائب صفد و آقبغا الجمالی المعزول عن الأستاداریة و جماعة أخر من الأعیان من أمراء مصر و الشام، و اقتتلوا مع القرایلکیة قتالا جیدا إلی أن

[كانت] الكسرة فينا، و قتل منا جماعة كثيرة من التركمان و العربان و أمراء دمشق و غيرهم، مثل الأمير تمرباى الجقمقى أحد أمراء دمشق، [و الأمير] بخت خجا أيضا من أمراء دمشق، و جرح أكثر من كان مغنا من الخاصكية و المماليك، كل ذلك و سنجق السلطان إلى الآن لم يصل إلينا.

و أما جار قطلو، فإنه لما قوى الحرّ عليه نزل على نهر بالقرب من أرقنين ليروى خيوله منه، و صار الرائد يرد عليه بأن القوم قد التقوا مع عساكر قرايلك، و هم فى قلة و قد عزموا على القتال، فلم يلتفت إلى ذلك و سار على هينته، فتركه بعض

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۵

عساكره و ساقوا حتى لحقوا بمن تقدمهم و قاتلوا القرايلكية، و هم من تقدم ذكرهم ممن قتل من أمراء دمشق.

و لما أن بلغ من معنا من الأمراء المصريين ما وقع لجماعتنا، ساقوا أيضا حتى وافى جماعة منهم العسكر السلطانى، فعند ذلك تراجع القوم و كروا على القرايلكية و هزموهم أقبح هزيمة، و تعلق قرايلك بقلعة أرقنين و تحصّن بها، و نهبت عساكره و تمزقوا كل ممزق. ثم عدنا إلى جهة الوطاق بآمد فى آخر النهار المذكور على أقبح وجه ممن باشر القتال، و هم القليل، و أما غالب [۹] العسكر فلم ير القتال بعينه.

و صار الأمير أزبك جحا بين يدى السلطان يثنى على التركمان و العربان، و يقول: «يا مولانا هؤلاء هم العسكر الذى ينتصر الملوك بهم لا غيرهم»؛ فعظم ذلك على طائفة من المماليك إلى الغاية، و شنعوا القالة فيه لكونه تكلم الحق، و من يومئذ تحقق السلطان ما قيل عن جارقطلوا من تقاعده عن قتال قرايلك، و أكثر أهل آمد من هذا اليوم الدعاء للأمير جارقطلو المذكور من أعلى السور، حتى خرجوا عن الحد، فلم يدر الناس هل كان ذلك مكيدة من مكايد قرايلك ليوقع الخلف بين العسكر بسبب ذلك، أم كان ذلك عن حقيقة، و اللّه أعلم.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۶

هذا و السلطان مجتهد فى عمارة قلعة من الخشب تجاه أبراج آمد، و مكاحل النفط ترمى فى كل يوم بالمدافع و المناجنيق منصوبة، يرمى بها أيضا على الأبراج، و أهل آمد فى أسوأ ما يكون من الحال؛ هذا مع عدم التفات السلطان لحصار آمد الالتفات الكلى، لشغل خاطره من جهة التفاته [إلى] اختلاف عساكره، و هو بتلك البلاد بين يدى عدوه، و قد تورط فى الإقامة على حصار آمد، و الشروع ملزم. و طالت إقامته على آمد بعساكره نحو خمسة و ثلاثين يوما، و قد ضاق الحال أيضا على أهل آمد، فعند ذلك ترددت الرسل بين السلطان و بين قرايلك فى الصلح، و كان قرايلك هو البادئ فى ذلك، حتى تم و انتظم الصلح بينهما على أن قرايلك يقبّل الأرض للسلطان، و يخطب باسمه فى بلاده و يضرب السكة على الدينار و الدرهم باسمه، فأجاب إلى ذلك، فأرسل إليه السلطان حمى القاضى شرف الدين الأشقر نائب كاتب السر، و أرسلت أنا معه بعض أعيان مماليك الوالد ممن كان فى صحبتى من المماليك السلطانية، فتوجه إليه القاضى شرف الدين المذكور بالخلع و الفرس الذى جهزه السلطان إليه بقماش ذهب، و نحو ثلاثين قطعة من القماش السكندرى.

و لما بلغ قرايلك مجىء القاضى شرف الدين، نزل من قلعة أرقنين بمخيمه، و لقى القاضى شرف الدين المذكور، و سلم عليه، ثم قام و قبّل الأرض فألبسه القاضى شرف الدين

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۷

الخلعة، و كانت كامليّة مخمل كفوىّ بمقلب سمّور، و فوقانيّا بوجهين أحمر و أخضر، بطراز عريض إلى الغاية. ثم قدم له الفرس صحبة الأوجاقى، فقام إليه، فأمره القاضى شرف الدين بتقبيل حافر الفرس، فامتنع من ذلك قليلا، ثم أجاب بعد أن قال: «و اللّه إن هذه عادة تعيسة»، أو معنى ذلك.

ثم أخذ فى الكلام مع القاضى شرف الدين، فأخذ القاضى شرف الدين يعظه و يحذره مخالفة السلطان و سوء عاقبة ذلك، فقال: «و

أنا من أين! و السلطان من أين! أنا رجل تركمانى فى جهة من الجهات!». ثم شرع يذكر قلة رأى السلطان فى مجيئه إلى بلاده، و قال: «أنا يكفينى نائب حلب، و هو بعض نواب السلطان، [و] ما عسى كان يفعل السلطان لو أخذ آمد؟ و كل شيء فى آمد ما يساوى بعض ما تكلفه»، ثم قال: «و اللّه لو أعطانى السلطان نصف ما ذهب من الكلف فى نعل خيوله و خيول عساكره، لرضيت و دخلت فى طاعته»، ثم قال: «لو كان مع السلطان أمير من جنس هذا- و أشار إلى مملوك الوالد الذى توجه مع القاضى شرف الدين- ما خلّاه يجيء إلى هنا»، و كان المملوك المذكور تتريّا، فقال شرف الدين: «بلى، مع السلطان جماعة من جنسه»؛ فقال: «لا و اللّه، كان عندكم واحد نفيتموه إلى القدس

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۸

بطّالا، يعنى بذلك الأمير قرامراد خجا الشّعبانى، أمير جاندار، و أحد مقدمى الألوف. ثم قام قرايلك و قلع الخلعة من عليه و ألبسها بعض حواشيه؛ ثم فعل بالكامليّة أيضا كذلك؛ و انفض المجلس، و بات شرف الدين تلك الليلة عنده، و لم يجتمع به غير المرة الأولى.

و عند السفر دخل إليه من الغد و سلم عليه، فأنعم عليه قرايلك بأربعة أكاديش يساوى ثمنها أربعة آلاف درهم فلوسا عند صاحب [۱۰] الغرض، و عاد القاضى شرف الدين إلى السلطان، فاجتمعت به قبل السلطان، و عرّفنى جميع ما حكيته؛ فانفقنا على جواب نمقناه يحسن ببال السلطان، من جنس كلام قرابلك، لا يخفى على الذوق السليم معناه. فلما دخل إلى السلطان و أعاد عليه الجواب المذكور سرّ السلطان قليلا بذلك، و عظم سرور من حضر من القوم، و معظم سرورهم بعودهم إلى بلادهم و أوطانهم سالمين مما هالهم مما كانوا فيه من المشقة، و قد اعتادوا بالترف و الأمن و قلة القتال.

و فى الحال أخذ السلطان فى أسباب الرحيل، و رحل فى ليلة الخميس ثالث عشر ذى القعدة فى النصف الثانى من الليل من غير ترتيب و لا تطليب، و لا تعبىء، و رحلت العساكر من آمد كالمنهزمين لا يلوى أحد على أحد، بل صار كل واحد يسير على رأيه.

و عند رحيل القوم أطلق الغلمان النيران فى الزروع المحصودة برسم عليق خيول الأجناد،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۹

فإنه كان كل واحد من الأجناد صار أمام خيمته جرن كبير مما يحصده غلامه و يأتيه به من زروع آمد، فلما انطلق النار فى هذه الأجران، انطبق الوطاق بالدخان إلى الجو، حتى صار الرجل لا ينظر إلى الرجل الذى بجانبه.

و رحل الناس على هذه الهيئة مسرعين، مخافة أن يسير السلطان و يتركهم غنيمة لأهل آمد. و بالله لو نزلوا فى ذلك الوقت لأمسكوا من اختاروا مسكه قبضا باليد، و لو أرادوا النهب لغنموا و سعدوا إلى الأبد، لأن السلطان سار قبل رحيل نصف عسكره. و سار القوم من آمد إلى جهات متفرقة، إلى أن طلع النهار، و قد تمزقت العساكر فى طرقات متعددة، لا تعرف طائفة خبر طائفة أخرى، لبعد ما بينهم من المسافة. فتوجه أتابك العساكر سودون من عبد الرحمن، و هو مريض ملازم ركوب المحفة، من طريق ماردين السالكة إلى مدينة الرّها، و معه طائفة كبيرة ممن تبعه من العسكر السلطانى، و توجهت طائفة أخرى من العسكر من الطريق التى سلكناها فى الذهاب إلى آمد من جهة قلعة أرقنين التى بها قرايلك، و تبعهم خلائق و عدة أطلاب.

فافترق الأمراء من مماليكهم و أطلابهم، و تشتت شملهم، و سار السلطان من الطريق الوسطى من على الجبل المعروف قراضاغ، و هذا الطريق أقرب الطرق كالمفازة، غير أنه عسر المسلك إلى الغاية من الطلوع و النزول و ضيق الطرقات.

و كنت أنا معه بهذا الطريق المذكور، و أكل السبع رجلا من غلماننا، و وقع ذلك لجماعة أخر، و اصطادت الناس السباع من الأوكار، و سرنا حتى نزلنا عن الجبل إلى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۰

فضاء غربى الجبل المذكور، و مسافة الموضع الذى نزل السلطان به عن أرقنين التى بها قرايلك مقدار نصف بريد تخمينا.

و عند نزول السلطان بالمنزلة المذكورة، علم بمن فقده من عساكره، و تأمل من معه منهم، فإذا هم على النصف من عسكره، و أيضا فيهم الذى تاه عن جماله، و منهم من لا يعرف طلبه أين ذهب، و هو الأمير قرقماس الشّعبانى حاجب الحجاب، نزل بالمنزلة المذكورة و ليس معه غير أصحابه و طائفة نحو خمسة أنفس و هجّان و غلام، فنصب السّيبة و استظل تحتها من الشمس، و قد سار طلبه بجميع مماليكه و رخته من جهة لا يعرف متى تعود إليه، و مثله فكثير من الأجناد و الأمراء.

فلما رأى الملك الأشرف نفسه فى قلة من عساكره، و لم يبق معه إلا شرذمة قليلة، و لم يعلم أين ذهب الباقون، شقّ عليه ذلك و تخوّف من كبس قرا يلك عليه فى الليل، و لم يجد بدّا من المبيت فى المكان المذكور، لتمزق عساكره. فلما أن دخل الليل، ندب السلطان الأمير جقمق العلائى الأمير آخور الكبير و معه جماعة لحفظ العسكر فى الليل، فركب الأمير جقمق بمماليكه و من انضاف إليه و ضرب اليزك على العسكر، و قام بحفظه أحسن قيام إلى الصباح.

قلت: و من تلك الليلة [المذكورة] علمت منها حال قرايلك و همّته،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۱

فإنه لو كان فيه بقية ما ترك عساكرنا فى تلك الليلة بخير، [۱۱] لأن الصلح الذى كان وقع بينه و بين السلطان [الملك] الأشرف كلا شىء: كان فسخ مجلس لا غير، و قد بلغه ما وقع لعسكرنا من الشتات و التفرق، و علم بجميع ما نحن فيه، لقرب المسافة بيننا، و ما ترك الإيقاع بنا إلا عجزا و جبنا و ضعفا. و أيضا من كان بمدينة آمد، لو كان فيهم منعة و قوة بعد ما عاينوا ما وقع لعسكرنا عند الرحيل من التمزق و عظم الاضطراب، لنزلوا و استولوا على جماعة كبيرة من العسكر، و باقى العسكر لا يعرفون بذلك، من عظم الغوغاء، و شغل كل واحد بنفسه، مع شدة سواد الليل و ظلمته- انتهى.

و لما أصبح السلطان بكرة يوم الجمعة بهذه المنزلة المذكورة، سار منها يريد مدينة الرّها، حتى وصلها بمن معه من العسكر، و أقام بها، حتى اجتمع به من كان ذهب من عساكره فى الطرقات. و أخذ السلطان فى إصلاح أمر مدينة الرها، و طلب الأمير إينال العلائى الناصرى نائب غزة، و أراد أن يخلع عليه بنيابة الرها، فامتنع من ذلك أشد امتناع و أفحش فى الرد و خاشن السلطان فى اللفظ، و صمم على عدم القبول لذلك؛ فغضب السلطان منه، و اشتد حنقه و هم بالإيقاع به، فخشى عاقبة ذلك من عظم شوكة إينال المذكور، و أخذ يثنى على نفسه من كونه يحكم على أمرائه و مماليكه و أشياء من هذا المعنى، إلى أن قال: «أنا حكمى ما يسمعه إلا مماليكى»، و طلب الأمير قراجا الأشرفى شادّ الشراب خاناه و خلع عليه باستقراره فى نيابة الرها، و خلع على القاضى شرف الدين نائب كاتب السر باستقراره كاتب سرّ الرّها، و خرجا من بين يدى السلطان [بالخلع] على كره.

ثم لما توجه الأمير إينال العلائى نائب غزة إلى مخيمه، كلمه الناس من أصحابه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۲

فيما وقع منه من تمنّعه و مخاشنته فى الكلام مع السلطان، أو كأنه خشى عواقب ما وقع منه، فاعتذر من خراب مدينة الرّها، و أنه ليس بها ما يقوم بأوده، و بلغ السلطان ذلك فضمن له ما طلبه، و خلع عليه من يومه المذكور باستقراره فى نيابة الرّها؛ ثم استعفى شرف الدين من كتابة سر الرها، فأعفى بعد أن حمل خمسمائة دينار للخزانة الشريفة، ثم أمر السلطان المماليك السلطانية بدفع ما معهم من الشعير [للأمير] إينال المذكور ليكون له حاصل بالرها، فبعث كل واحد منهم بشىء من عليق خيوله، فاجتمع من ذلك شونة كبيرة. ثم أنعم السلطان على الأمير إينال المذكور بأشياء كثيرة، و أصلح أمره، و سار بعساكره عن الرها، إلى أن نزل البيرة. قلت: و إينال هذا هو الملك الأشرف، سلطان زماننا.

و لما نزل السلطان بالبيرة أقام بها إلى أن عدّت عساكره الجسر الذى نصب على بحر الفرات إلى البر الغربى، ثم عدى السلطان إلى البر الغربى [المذكور] و أقام به يومه، و رحل من آخر النهار المذكور بعساكره، حتى وصل إلى حلب فى خامس عشر ذى القعدة، و نزل بظاهرها بالمنزلة التى نزل بها فى ذهابه إلى آمد، و نزل حوله جميع عساكره، بعد أن أجهدهم التعب، و ماتت خيولهم، و تلفت

أموالهم من غير فائدة و لا قيام حرمة، غير أن لسان الحال ينشد قول القائل: [الوافر]

مشيناها خطّى كتبت علينا و من كتبت عليه خطى مشاها

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۳

و أقام السلطان بحلب نحو العشرة أيام، و أمر النواب بالبلاد الشامية بالمسير إلى محل كفالتهم؛ و خلع على الأمير جانبك الحمزاوى، أحد مقدمى الألوف باستقراره فى نيابة غزة، عوضا عن إينال العلائى، المنتقل إلى نيابة الرّها، فامتنع جانبك الحمزاوى من ذلك امتناعا كليّا؛ فألبسه الخلعة كرها. قيل: إن جانبك المذكور، لما لبس الخلعة و خرج هز رأسه و أمسك لحية [نفسه] كالمتوعّد؛ و بلغ الأشرف ذلك، فقال: «حتى يصل إلى غزة»، فمات بالقرب من بعلبك.

و كان جانبك ممن اتهم بالممالأة مع الأمراء فى آمد، و تكلم الناس فى موت جانبك المذكور: أنه اغتيل بالسم لقول [۱۲] [الملك] الأشرف فى حقه: «حتى يصل إلى غزة»، فقلت لبعض الإخوان: «يمكن أن يكون [ذلك] من طريق الكشف و الولاية و الكرامة»، فضحك الحاضرون، و انفض المجلس. ثم خلع السلطان على الأمير قانى باى الأبوبكرى الناصرى، المعروف بالبهلوان، أتابك حلب، بانتقاله إلى أتابكية دمشق، بعد موت الأمير تغرى بردى المحمودى بآمد، من جرح أصابه فى حصار آمد، و كان المحمودى أيضا ممن اتهم بالوثوب على [الملك] الأشرف. و خلع على الأمير قطج من تمراز، أحد مقدمى ألوف حلب، باستقراره أتابك حلب، عوضا عن قانى باى المذكور؛ و خلع السلطان على الأمير كمشبغا الأحمدى الظاهرى، أحد أمراء

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۴

العشرات و رأس نوبة، بتوجهه إلى الديار المصرية، مبشرا بعود السلطان إلى الديار المصرية.

و صار السلطان يركب و يسير بحلب، و طلع إلى قلعتها غير مرة، إلى أن خرج منها فى يوم الخميس خامس ذى الحجة من سنة ست و ثلاثين المقدم ذكرها، يريد جهة دمشق، و سار حتى نزل بحماه، و أقام بها أياما، ثم رحل منها بعساكره إلى جهة دمشق حتى دخلها فى يوم الخميس تاسع عشر ذى الحجة، و نزل بقلعتها، و نزلت عساكره بمدينة دمشق، و دام بدمشق إلى أن برز منها يوم السبت ثامن عشرين ذى الحجة، يريد الديار المصرية، بعد أن خلع على جميع نواب البلاد الشأمية باستمرارهم، و لم يحرك ساكنا فى الظاهر و اللّه متولى السرائر. ثم سار السلطان حتى وصل غزة، و قد استقر فى نيابتها من دمشق الأمير يونس الرّكنى، أحد مقدمى الألوف بدمشق، و كان يونس المذكور وليها مرة أخرى قبل ذلك.

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۳۷]

و أقام السلطان بغزة ثلاثة أيام، ثم رحل منها يريد القاهرة، حتى وصلها فى يوم الأحد العشرين من محرم سنة سبع و ثلاثين و ثمانمائة، و دخل فى موكب عظيم جليل من باب النصر بأبهة الملك و شعار السلطنة، و على رأسه القبة و الطير، تولى حمله الأمير الكبير سودون من عبد الرحمن و هو مريض، و قد ساعده جماعة من حواشيه فى حملها. و شق السلطان القاهرة و قد زينت لقدومه أحسن زينة، و سار حتى نزل بمدرسته التى أنشأها بخط العنبريين من القاهرة، و صلى بها ركعتين، ثم ركب منها و سار حتى خرج من باب زويلة، و طلع إلى القلعة بعد أن خرج المقام الجمالى يوسف ولده إلى ملاقاته بالخانقاه، و عاد معه. و كان لقدومه يوم مشهود، و سر الناس بسلامته، و عاد السلطان إلى مصر بعد أن أتلف فى هذه السّفرة نحو الخمسمائة ألف دينار من النقد، و تلف له من

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۵

السلاح و المتاع و الخيل و الجمال و البغال مثل ذلك، و أنفق الأمراء بمصر و الشأم و العساكر المصرية و الشأمية مثل ذلك، و تلف لأهل آمد و ما حولها من الغلال و الزراعات و المواشى شىء كثير إلى الغاية، و قتل أيضا خلائق، و مع هذا كله كانت سفرة كثيرة الضرر قليلة النفع.

و لم ينل أحد فى هذه السفرة غرضا من الأغراض، و لا سكنت فتنة و لا قامت حرمة، و لا ارتدع عدو. و لهج غالب الناس بأن السلطان سعده لا يعمل إلا و هو بقلعة الجبل، و حيثما تحرّك بنفسه بطل سعده، و عدّوا حركته مع التركمان فى نيابته بطرابلس، ثم واقعته مع الأمير جقمق نائب الشام لما أمسكه جقمق و حبسه، ثم سفرته [هذه] إلى آمد؛ قلت: الحركات و السكون بيد اللّه، و الحرب سجال: يوم لك و يوم عليك، و الدهر تارة و تارة، و الغيب مستّر ما هو مخبّر – انتهى.

و لما طلع السلطان إلى القلعة خلع على الأمراء، و أخذ فى إصلاح أمره، و خلع على التاج بإعادته إلى ولاية القاهرة، بعد عزل دولات خجا الظاهرى، ثم خلع السلطان على الأمير آقبغا الجمالى المعزول عن الأستادّاريّة قبل تاريخه، باستقراره فى ولاية الوجه القبلى، عوضا عن داؤد التركمانى، و كان السلطان أنعم على آقبغا المذكور بإمرة عشرة بعد موت الأمير تنبك من سيدى بك [١٣] المعروف بالبهلوان بآمد.

ثم فى يوم الثلاثاء ثانى عشر شهر ربيع [الأول] من سنة سبع و ثلاثين المذكورة، رسم السلطان بإخراج الأمير الكبير سودون من عبد الرحمن إلى القدس بطّالا،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١٥، ص: ٣٦

فاستعفى من السفر، و سأل أن يقيم بداره بطّالا، فأجيب إلى ذلك، و لزم داره إلى ما يأتى ذكره. و أنعم السلطان بأقطاعه على الديوان المفرد، و لم يقرر أحدا غيره فى أتابكيّة العساكر بديار مصر؛ و هذا شىء لم نعهد بمثله.

و ضرب رنك السلطان على البيمارستان المنصورى بالقاهرة، و كانت العادة جرت من مدة سنين، أن كل من يلى الإمرة الكبرى، يكون هو الناظر على البيمارستان المذكور، فلما نفدت هذه الوظيفة، تكلم السلطان على نظرها، و ضرب اسمه على بابها.

ثم فى يوم السبت أول شهر ربيع الآخر، خلع السلطان على دولات خجا المعزول عن ولاية القاهرة، باستقراره فى ولاية المنوفية و القليوبية، ثم فى يوم الاثنين ثالث شهر ربيع الآخر [المذكور] ركب السلطان من قلعة الجبل و نزل إلى الصيد، و عاد فى خامسه.

ثم فى يوم الاثنين عاشره خلع السلطان على الأمير إينال الششمانى الناصرى، ثانى رأس نوبة، باستقراره فى نيابة صفد، بعد موت الأمير مقبل الحسامى الدوادار، و مقبل أيضا هو أحد من اتهم بالوثوب على السلطان فى آمد. ثم فى حادى عشره خلع السلطان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١٥، ص: ٣٧

على آقبغا الجمالى [المقدم ذكره] باستقراره كاشف الوجه البحرى عوضا عن حسن بك ابن سالم الدّوكرى، و أضيف إليه كشف الجسور أيضا. ثم فى ثالث عشره، ركب السلطان و نزل إلى البيمارستان المنصورى للنظر فى أحواله، فنزل به و أقام ساعة ثم ركب و عاد إلى القلعة.

ثم فى يوم الأحد ثامن عشرين جمادى الأولى خلع السلطان على حسين الكردى، باستقراره كاشف الوجه القبلى، بعد قتل آقبغا الجمالى فى خامس عشرينه فى حرب كان بينه و بين عرب البحيرة، و قتل معه جماعة من مماليكه و من العربان، ثم خلع السلطان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١٥، ص: ٣٨

على الوزير الأستادار كريم الدين ابن كاتب المناخ، كامليّة بفرو و سمّور [بمقلب سمّور] لتوجهه إلى البحيرة، و صحبته حسين الكردى المقدم ذكره، لعمل مصالحها و استرجاع ما نهبه أهل البحيرة من متاع آقبغا الجمالى بعد قتله، و كتب إليهم السلطان بالعفو عنهم، و أن آقبغا تعدى عليهم فى تحريق بيوتهم و سبى أولادهم و نحو ذلك، قصد السلطان تطمينهم، عسى أن يؤخذوا من غير قتال و لا فتنة.

ثم أمر السلطان بعدّ من بالإسكندرية من القزّازين و هم الحيّاك، فأحصى فى يوم الثلاثاء أول جمادى الآخرة [المذكورون]، فبلغت عدّتهم ثمانمائة نول، بعد ما بلغت عدتهم فى أيام نيابة ابن محمود الأستادار فى سنة بضع و تسعين و سبعمائة أربعة عشر ألف نول و نيفا، فانظر إلى هذا التفاوت فى هذه السنين القليلة، و ذلك لظلم ولاة الأمور، و سوء سيرتهم، و عدم معرفتهم، لكونهم يطمعون فى النزر اليسير بالظلم، فيفوتهم أموال كثيرة مع العدل؛ و الفرق بين العامر و الخراب ظاهر.

ثم فى يوم الاثنين ثانى عشر شهر رجب، أدير محمل الحاج على العادة فى كل سنة.

ثم فى سابع عشرين [شهر] رجب المذكور، قدم الأمير بربغا التنمى الحاجب الثالث بدمشق، إلى القاهرة بسيف الأمير جارقطلو نائب الشام، و قدمات بعد مرضه خمسة و أربعين يوما، فى يوم تاسع عشرة، فعين السلطان عوضه لنيابة دمشق، الأمير قصروه من تمراز نائب حلب، و كتب له بذلك. ثم فى يوم تاسع عشرينه، عين السلطان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۹

الأمير خجا سودون السيفى بلاط الأعرج، أحد أمراء الطبلخاناه، و رأس نوبة، أن يتوجه إلى قصروه بالتقليد و التشريف.

و فى اليوم خلع السلطان على الأمير قرقماس الشعبانى الناصرى، المعروف أهرام ضاغ، حاجب الحجاب، باستقراره فى نيابة حلب عوضا عن قصروه، و أن يكون مسفّره الأمير شاد بك الجكمى أحد أمراء الطبلخانات و رأس نوبة. [۱۴] و خلع السلطان على الأمير يشبك السّودونى ثم الظاهرى ططر المعروف بالمشدّ باستقراره حاجب الحجاب عوضا عن قرقماس المذكور، و أنعم بإقطاع قرقماس على الأمير آقبغا التمرازى أمير مجلس، و خلع عليه باستقراره أمير سلاح، و بإقطاع آقبغا على الأمير يشبك المذكور. و خلع السلطان على الأمير إينال الجكمى أمير سلاح، باستقراره أتابك العساكر، و كانت شاغرة من يوم لزم سودون من عبد الرحمن بيته، و استقر عوضه فى إمرة سلاح، آقبغا التمرازى المقدم ذكره. و خلع السلطان على الأمير جقمق العلائى الأمير آخور باستقراره أمير مجلس، عوضا عن آقبغا التّمرازى، [المقدم ذكره]. و خلع على الأمير حسين ابن أحمد المدعو تغرى برمش باستقراره أمير آخور، عوضا عن جقمق العلائى.

فخرج الجميع، و عليهم الخلع و التشاريف، و جلسوا على المسطبة التى يجلس عليها مقدم المماليك عند باب السر، فى انتظار الخيول التى أخرجها السلطان لهم، بسروج الذهب و الكنابيش ما خلا تغرى برمش، فإنه فارقهم من داخل القصر، و نزل إلى باب السلسلة تسلمه من وقته، فقعدوا الجميع على المسطبة صفّا واحدا، [و] جلس فوق الجميع إينال الجكمى، ثم تحته قرقماس نائب حلب، ثم آقبغا التمرازى، الذى استقر أمير سلاح، ثم الأمير جقمق الذى استقر أمير مجلس، ثم الأمير يشبك المولّى حاجب الحجاب،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۰

إلى أن حضرت الخيول و ركبوا، و نزل كل واحد إلى داره.

فلما نزل جقمق العلائى إلى داره، عرّفه أصحابه و حواشيه أن وظيفة الأمير آخورية كانت خيرا له من وظيفة أمير مجلس، و إن كان و لا بد فيولّى أمير سلاح، فيكون ما فاته من منفوع الأمير آخورية، يتعوّضه من قيام الحرمة بوظيفة أمير سلاح.

و بلغ السلطان ذلك، فرسم فى الحال إلى آقبغا التّمرازى أن يكون أمير مجلس على عادته، و تكون الخلعة التى لبسها خلعة الرضى و الاستمرار، و أن يكون جقمق أمير سلاح؛ و نزل الأمر إلى كل منهما بذلك، فامتثلا المرسوم [الشريف]، و استمر كل منهما على ما قرره السلطان ثانيا.

و فى اليوم المذكور رسم السلطان بإخراج الأمير سودون من عبد الرحمن إلى ثغر دمياط، و سببه أن السلطان لما بلغه موت جارقطلو، استشار بعض خواصه فيمن يوليه نيابة الشأم، فذكروا له سودون من عبد الرحمن، و أنه يقوم للسلطان بمبلغ كبير من ذهب فى نظير ذلك.

و كان فى ظن السلطان أن سودون من عبد الرحمن قد استرخت أعضاؤه، و تعطلت حركته من طول تمادى المرض به، و قد أمن من جهته ما يختشيه، فقال السلطان: سودون من عبد الرحمن تلف، و لم يبق فيه بقية لذلك، فقالوا: يا مولانا السلطان، هو المتكلم فى ذلك.

فلم يحملهم السلطان على الصدق، و أرسل إليه فى الحال يعرض عليه نيابة الشأم، فقبل، و قال: مهما أراد السلطان منى فعلته له؛ فلما عاد الجواب على السلطان بذلك علم أن غالب ما به تضاعف، و أن فيه بقية لكل شىء؛ فأمر فى الحال بإخراجه إلى ثغر دمياط.

ثم خلع السلطان على الأمير بربغا التّنمى أحد حجاب دمشق، و أعاده إلى دمشق.

ثم فى يوم الخميس سابع شعبان من سنة سبع و ثلاثين المذكورة، خلع

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۱

السلطان على الأمير [الكبير] إينال الجكمى باستقراره فى نظر البيمارستان المنصورى على العادة، و كانت تولية إينال المذكور للإمرة الكبرى بغير إقطاع الأتابكية، بل باستمراره على إقطاعه القديم، غير أنه أنعم السلطان عليه بقرية حجّة و مردّة من أعمال نابلس، و كانت من جملة إقطاع الأمير الكبير، ثم خلع عليه بنظر البيمارستان المذكور، فهذا الذى حصل له من جهة الأتابكية؛ و لم ينله منها إلا مجرد الاسم فقط.

و فى شهر رجب و شعبان، قرر السلطان على جميع بلاد الشرقية و الغربية و المنوفية و البحيرة و سائر الوجه القبلى، خيولا تؤخذ من أهل النواحى، فكان يؤخذ من كل قرية خمسة آلاف درهم فلوسا، عن ثمن الفرس المقرر عليها، و يؤخذ من بعض النواحى عشرة آلاف عن ثمن فرسين، [۱۵] و يحتاج أهل الناحية إلى مغرم آخر لمن يتولى أخذ ذلك منهم، فنزل بسبب ذلك على فلّاحى القرى بلاء اللّه المنزل. و أحصى كتّاب ديوان الجيش قرى أرض مصر العامرة كلها قبليها و بحريها، فكانت ألفين و مائة و سبعين قرية، و قد ذكر المسبّحىّ فى تاريخه: أنها كانت فى القرن الرابع: عشرة آلاف قرية عامرة، فانظر إلى تفاوت ما بين الزمنين، مع أمن هذا الزمان و كثرة فتن ذلك الزمان، غير أن السبب معروف و السكات أجمل.

ثم فى يوم الخميس رابع عشر شعبان، برز قرقماس نائب حلب إلى محل كفالته و عليه جمل كبيرة من الديوان؛ ثم فى تاسع عشر شعبان ختن السلطان ولده المقام الجمالىّ يوسف،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۲

و ختن معه نحو الأربعين صبيا، بعد ما كساهم و عمل لذلك مهمّا هائلا للرجال بالحوش السلطانى، و للنساء بالدور بالقلعة.

ثم فى يوم السبت ثالث عشرينه، فقد [الوزير] كريم الدين ابن كاتب المناخ، بعد أن كان استعفى غير مرة من إحدى الوظيفتين: إما الوزارة [أ] و الأستادّاريّة، فلم يعفه السلطان، فلما تسحّب فى هذا اليوم، طلب السلطان [أمين الدين] إبراهيم ابن الهيصم، ناظر الدولة، و خلع عليه باستقراره وزيرا عوضا عن الصاحب كريم الدين المذكور.

ثم فى يوم الأربعاء سابع عشرين شعبان المذكور، ظهر الصاحب كريم الدين المذكور، و طلع إلى القلعة، فخلع عليه السلطان سلّاريا من قماشه. ثم طلع [كريم الدين] من الغد، فخلع عليه [السلطان] ثانيا خلعة جليلة، باستمراره على وظيفة الأستادّارية؛ و نزل إلى داره فى موكب جليل، و قد سرّ به غالب أعيان الدولة، فإن السلطان، كان ألزم زين الدين عبد الباسط بوظيفة الأستادّارية، فقال له: «يا مولانا

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۳

السلطان، ما يليق بى هذه الوظيفة»، فقال: «يليها دوادارک جانبک»، فتبرم أيضا من ذلک، فخاشنه السلطان فى الكلام و أهانه، فأوعد بحمل مبلغ كبير من المال مساعدة للأستادّار، ثم حسّن للسلطان فى الباطن ولاية القاضى سعد الدين إبراهيم ناظر الخاص، أستادارا، و كلمه السلطان فى ذلک، فأبى سعد الدين إبراهيم أيضا، و أخذ يستعفى؛ و بينماهم فى ذلک، ظهر كريم الدين، فتنفّس خناق عبد الباسط و غيره بظهور كريم الدين و استمراره على وظيفته.

و قدم الخبر فى هذا الشهر من مكة [المشرّفة]، بأن الوباء، قد اشتد بها و بأوديتها، حتى بلغ عدة من يموت بمكة، فى اليوم خمسين نفسا، ما بين رجل و امرأة.

و فى شهر رمضان المذكور تحرک عزم السلطان على السفر إلى جهة آمد، لقتال قرايلک، و كتب إلى بلاد الشأم بتعبئة الإقامات من الشعير و غيره على العادة، و كان سبب حركة السلطان لذلک، لما ورد عليه الخبر فى يوم ثامن عشره، أن الأمير إينال العلائى نائب الرها، كان بينه و بين أعوان قرايلک وقعة هائلة. و سببه أن بعض عساكر حلب أو عساكر الرّها خرج يسيّر فرسه، فلما كان بين بساتين

الرها، صادف طائفة من الترکمان، فقاتلهم و هزمهم؛ و بلغ [ذلک] الأمیر إینال، فخرج مسرعا من مدینة الرها، نجدة لمن تقدم ذکره، فخرجت علیه ثلاثة کمائن من القرایلکیة، فقاتلهم، فکانت بینهم وقعة هائلة، قتل فیها من الفریقین عدة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۴

فلما بلغ السلطان ذلک، شق علیه، و عزم علی السفر؛ ثم کتب السلطان إلی سائر البلاد الشامیة، بخروج نواب الممالک للحاق الأمیر قرقماس نائب حلب بالرّها؛ ثم بطل ذلک، و کتب بمنعهم من المسیر، حتی یصح عندهم نزول قرایلک علی الرها بعساکره و جموعه، فإذا صح لهم ذلک، ساروا لقتاله.

و فی یوم الثلاثاء ثالث عشرین شوال، کتب السلطان باستقرار خلیل بن شاهین الشّیخی، ناظر الإسکندریة و حاجبها، فی نیابة الإسکندریة، مضافا علی النظر و الحجوبیة، عوضا عن الأمیر جانبک [السیفی یلبغا] الناصری [فرج] [المعروف] بالثور.

و فی شوال هذا، قدم علی السلطان الخبر من بغداد، علی ید قاصد کان السلطان وجّهه قبل ذلک لکشف أخبار الشرق، و أخبر: أن أصبهان بن قرا یوسف، لما

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۵

ملک بغداد من أخیه شاه محمد بن قرا یوسف، أساء السیرة، بحیث [۱۶] أنه أخرج جمیع أهل بغداد منها بعیالهم، بعد أن أخذ جمیع أموالهم، من جلیل و حقیر فتشتتوا بنسائهم و أولادهم فی نواحی الأقطار، و صارت بغداد لیس بها سوی نحو ألف رجل من جند أصبهان المذکور لا غیر، و أنه لم یبق بها سوی ثلاثة أفران تخبز الخبز فقط، و لم یبق بها سکان، و لا بیعة، و لا أسواق. فکان فعل أصبهان هذا أقبح من فعل أخیه شاه محمد، فإن شاه محمد لما تنصّر و مال إلی دین النصرانیة، قتل العلماء و أباد الفقهاء و الصلحاء لا غیر، و ترک من دونهم. فجاء هذا الزندیق الفاسق، تجاوز فعل شاه محمد من أنه أخرج جمیع أهل بغداد؛ و کان غرض أصبهان بذلک أن یخرب بغداد، حتی لا یبقی لأخیه إسکندر و لا غیره طمع فیها، فمد یده فی ذلک، حتی صارت بغداد خرابا یبابا لا یأویها إلا البوم- انتهی.

قال: و إنه أخرب أیضا الموصل، حتی صارت مثل بغداد و أعظم، من أنه سلب نعم أهلها و أمر بهم فأخرجوا منها و تمزقوا فی البلاد، و استولت علیها العربان، فصارت الموصل منزلة من منازل العرب، بعد أن کانت تضاهی دار السلام.

قال- أعنی القاصد: و أن أصبهان أیضا أخذ أموال أهل المشهد، و أزال نعمهم و تشتتوا فی البلاد.

قلت: لا أعلم فی طوائف الترکمان و لا فی أوباش عساکر جغتای، و لا فی

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۶

جهّال التّتار، أوحش سریرة، و لا أقبح طریقة و لا أسوأ سیرة، و لا أضعف دینا و لا أعدم مروءة، و لا أقل نخوة و لا أبشع خبرا من هؤلاء الزنادقة الکفرة الفسقة، أولاد قرا یوسف، و عندی أن النصاری أمثل من هؤلاء، فإنهم متمسکون بدین علی زعمهم، و هؤلاء زنادقة لا یتدینون بدین، کفرة ملحدون.

حدّثنی الأمیر علی بای المؤیدی العجمی رحمه اللّه- بعد عوده من عند أصبهان المذکور، لما أرسله [السلطان الملک] الظاهر جقمق، فی الرّسلیّة إلیه- بأشیاء:

منها أنه کان یمد السماط بین یدیه فی بکرة أیام شهر رمضان، و أنه سأل علی بای فی الأکل معه من جملة عساکره، فامتنع، فقال له: «[أمیر علیّ بای]، بتتعب نفسک سخرة. بنی آدم، هو مثاله مثال الزرع: یطلع و یکبر، ثم یحصد و یزول إلی الأبد، و ما ثم شیء غیر ذلک، فخلّ عنک ما أنت فیه، و کل و اشرب».

قال: ثم سألت عن أصبهان من بعض خواصّه، عن أحواله، فکان من جملة ما قاله:

أنه لم یتعبد علی ملة من الملل منذ بلغ الحلم، إلی یومنا، بخلاف أخیه شاه محمد، فإنه کان أولا أیام أبیه قرا یوسف، یصوم و یصلی و

يظهر الإسلام و التنسك إلى أن مات أبوه [ف] أظهر الميل إلى دين النصرانية، و صار يتعبد على ملتهم.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۷

فهذا الخبر عن شاه محمد و أصبهان، و أضف إليهما إسكندر أيضا، فإنه كان أيضا من هذه المقولة فى الباطن، ثم من بعدهم أخوهم جهان شاه بن قرا يوسف ملك تبريز فى زماننا هذا، فإنه أيضا على طريقهم من الفسق و الفجور و الانهماك فى المسكرات، و جميع أفعاله فى الباطن تقارب أفعال إخوته، غير أنه يظهر خلاف ذلك، لئلا ينفر الناس عنه و تسوء القالة فيه؛ و قد استوعبنا أحوال هؤلاء الفسقة فى تاريخنا «المنهل الصافى [و المستوفى بعد الوافى]» بأوسع من هذا، فلينظر هناك.

ثم فى يوم الأربعاء أول ذى القعدة، توجه الأمير جقمق العلائى أمير سلاح، إلى مكة المشرفة حاجّا، و سار معه كثير ممن قدم من المغاربة و غيرهم، و بسط يده بالإحسان إليهم ذهابا و إيابا.

قال المقريزى: و فى هذه السنة، يعنى عن سنة سبع و ثلاثين، طلّق رجل من بنى مهدىّ من أرض البلقاء امرأة و هى حامل، فنكحها رجل غيره، ثم فارقها فنكحها رجل ثالث، فولدت عنده ضفدعا فى قدر الطفل، فأخذوه و دفنوه خوف العار.

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۳۸]

ثم فى يوم الاثنين ثالث محرم سنة ثمان و ثلاثين و ثمانمائة، قدم قاصد قرايلك صاحب آمد، بكتاب قرايلك و معه تسعة أكاديش، تقدمة للسلطان، و دراهم قليلة عليها اسم السلطان لا غير، فلم يحسن ذلك ببال أحد.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۸

ثم فى يوم الاثنين حادى عشر المحرم [سنة ثمان و ثلاثين المذكورة]، أمسك السلطان الأمير بردبك الإسماعيلى، أحد أمراء الطبلخانات، و حاجب ثانى، و أخرجه إلى دمياط، و أنعم بإقطاعه على الأمير تغرى بردى البكلمشى المعروف بالمؤذى، أحد رؤوس النوب، و خلع على الأمير جانبك السيفى [۱۷] يلبغا الناصرى المعروف بالثور، المعزول قبل تاريخه عن نيابة الإسكندرية، باستقراره حاجبا ثانيا عوضا عن بردبك الإسماعيلى المقدم ذكره.

و فى هذا الشهر أيضا خلع السلطان على دولات خجا و أعيد إلى ولاية القاهرة عوضا عن التاج بن سيفة الشوبكى.

ثم فى يوم الخميس سابع عشرين المحرم، عملت الخدمة السلطانية بالإيوان المسمى دار العدل من قلعة الجبل، بعد ما هجرت مدة، لقدوم رسول القان معين الدين شاه رخ بن تيمور ملك الشرق، و أحضر الرسول المذكور إلى الموكب بدار العدل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة؛ ج۱۵؛ ص۴۸

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۹

و قد هاله ما رآه من حسن زى هذا الموكب، و كان الرسول المذكور من أشراف شيراز يقال له السيد تاج الدين [علىّ، فحضر] تاج الدين المذكور إلى بين يدى السلطان، و لم يقبّل الأرض لكونه من السادة الأشراف.

و دفع ما على يده من الكتاب، ثم قدّم ما معه من الهدية، فتضمن كتابه وصوله هديّة السلطان المجهزة إليه، و أنه نذر أن يكسو الكعبة [البيت الحرام]، و طلب أن يبعث إليه من يتسلمها و يعلقها من داخل البيت.

و تاريخ الكتاب، فى ذى الحجة سنة ست و ثلاثين، و كان قدوم القاصد من هراة إلى هرمز و من هرمز إلى مكة، ثم قدم صحبة [ركب] الحاج، فأنزله السلطان [بمكان]، و أجرى عليه ما يليق به من الرواتب، و اشتملت هدية شاه رخ [المذكور] على ثمانين ثوب حرير أطلس، و ألف قطعة فيروزج، ليست بذاك، مبلغ قيمة الجميع ثلاثة آلاف دينار لا غير.

ثم فى يوم السبت سادس صفر، عقد السلطان مجلسا بين يديه، بالقضاة الأربعة، بسبب نذر شاه رخ بن تيمور أن يكسو الكعبة؛ فلما جلسوا للكلام، بعد أن سألهم السلطان فى معنى ذلك، أجاب قاضى القضاة بدر الدين محمود العينى الحنفى، بأن نذره لا ينعقد، فلم

يتكلم أحد، و انفض المجلس على ذلك، و صار السلطان يقول:

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۵۰

للعينى مندوحة فى منع شاه رخ من الكسوة.

ثم عيّن السلطان الأمير أقطوه الموساوى المهمندار أحد أمراء العشرات، [الظاهرى برقوق] للتوجه إلى شاه رخ بردّ الجواب، صحبة قاصده الشريف تاج الدين - انتهى.

ثم فى يوم الاثنين خامس عشر [المذكور]، ثارت مماليك السلطان الأجلاب، سكّان الطّباق بقلعة الجبل، و طلبوا القبض على مباشرى الدولة، بسبب تأخر جوامكهم، ففر المباشرون منهم، و نزلوا إلى بيوتهم، فنزل فى أثرهم جمع كبير منهم، و مضوا إلى بيت عبد الباسط ناظر الجيش و نهبوه، و أخذوا ما قدروا عليه.

ثم خرجوا و قصدوا بيت الوزير [أمين الدين] بن الهيصم، و بيت الأستادّار كريم الدين ابن كاتب المناخ، و نهبوهما أيضا، و لم يقدروا على قبض أحد من هؤلاء الثلاثة لفرارهم منهم، و غلقت الأسواق و خاف كل أحد [على] بيته.

هذا و قد صمم المماليك على الفتك بعبد الباسط، و العجب أن السلطان لم يغضب لعبد الباسط بل انحرف عليه، و أمر بنفيه إلى الإسكندرية لكسر الشر، و لم يقع منه فى حق مماليكه المذكورين أمر من الأمور، إما لمحبته فيهم، أو لبغضه فى عبد الباسط، و لزم

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۵۱

عبد الباسط داره؛ و تردد الناس للسلام عليه، و السلطان مصمم على سفره إلى [ثغر] الإسكندرية.

و أصبح الناس يوم الثلاثاء سادس عشره، و إذا بهجّة عظيمة، فغلقت جميع شوارع المدينة لإشاعة كاذبة بأن المماليك [قد] نزلوا ثانيا لنهب بيت عبد الباسط، فاضطرب الناس، و هرب عبد الباسط من داره، و انزعج إلى الغاية، فكان هذا اليوم أعظم و أشنع من يوم النهب. ثم ظهر للناس أن المماليك لم يتحركوا و لا نزل أحد منهم، و أما عبد الباسط، فإنه لا زال يسعى و يتكلم له خواص السلطان فى عدم خروجه إلى الإسكندرية حتى تم له ذلك، و طلع إلى القلعة فى يوم سابع عشره، بعد أن التزم عبد الباسط بأن يقوم للوزير من ماله بخمسمائة ألف درهم مصرية تقوية له، و أن السلطان يساعد أستاداره كريم الدين بعليق المماليك شهرا، هذا بعد أن قدم عبد الباسط للأشرف تقدمة من المال فى خفية من الناس لإقامة حرمته، و لم يخف ذلك عن أحد، و أخذ أمر عبد الباسط فى انحطاط، و صار السلطان يهدده إن لم يل الأستادارية هو [۱۸] أو مملوكه جانبك، و هو يتبرم من ذلك كله.

ثم استعفى الصاحب أمين الدين إبراهيم بن الهيصم من الوزارة، فعين السلطان شمس الدين بن سعد الدين بن قطارة القبطى لنظر الدولة، و ألزمه بتكفية يومه. و رسم السلطان بطلب أرغون شاه النّوروزى من دمشق، و هو يومذاك أستادار السلطان بها، ليستقر فى الوزارة، عوضا عن ابن الهيصم على عادته قديما، بعد ما عرض السلطان الوزارة على الأستادار كريم الدين ابن كاتب المناخ، فأبى كريم الدين قبول ذلك، و قال:

يا مولانا السلطان، يختار السلطان إما أكون وزيرا أو أستادّارا، و أما جمعهما معا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۵۲

فلا أقدر على ذلك. فغضب السلطان عليه و هم بضربه و مسكه، فضمنه القاضى سعد الدين ابن كاتب جكم، ناظر الخاص، و نزل الجميع إلى دورهم، إلى أن عملت مصالح الجماعة.

فلما كان يوم السبت عشرين صفر خلع السلطان على أستاداره الصاحب كريم الدين باستمراره، و خلع على الصاحب أمين الدين بن الهيصم باستقراره فى نظر الدولة على عادته قديما كما كان قبل الوزارة، و ألزمه بتكفية الدولة إلى حين قدوم أرغون شاه من الشام، و انفض الموكب. فلما نزل الصاحب أمين الدين بالخلعة إلى داره، اختفى فى ليلة الاثنين و لم يعلم له خبر، فأصبح السلطان فى يوم الاثنين ثانى عشرينه، أمسك الصاحب كريم الدين الأستادار، و خلع فى الحال على جانبك دوادار عبد الباسط باستقراره أستادارا

عوضا عن الصاحب كريم الدين [بن كاتب المناخ]، فلبس جانبك الخلعة، و لم يقدر عبد الباسط أن يتكلم فى حقه كلمة واحدة، و كان قصد الملك] الأشرف، أنه متى تكلم أو تمنع عبد الباسط من ذلك، قبض عليه، فأحسّ عبد الباسط بالشر، فكف عن الكلام، ثم ألزم السلطان القاضى سعد الدين إبراهيم ابن كاتب جكم ناظر الخواص بوظيفة الوزارة، فلم يوافق على ذلك، و انفض المجلس على ذلك.

و فى هذا اليوم خرج قاصد شاه رخ، الشريف تاج الدين، من الديار المصرية إلى جهة مرسله، و صحبته الأمير أقطوه الموساوى، و على يده هدية من السلطان إلى شاه رخ [المذكور]، و كتاب جواب [كتابه] يتضمن منعه من كسوة الكعبة، بأن العادة [قد] جرت قديما و حديثا، أن لا يكسو الكعبة إلا ملوك مصر، و العادة قد اعتبرت فى الشرع فى مواضع، و أن للكسوة أوقافا تقوم بعملها، لا يحتاج إلى مساعدة فى ذلك؛ و إن أراد الملك وفاء نذره، فليبع الكسوة و يتصدق بثمنها فى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۵۳

فقراء مكة، فهو أكثر ثوابا، حيث يتعدى نفع ذلك إلى جماعة كبيرة، و أشياء من هذه المقولة.

ثم فى يوم الخميس خامس عشرينه، بعد انقضاء الموكب من القصر، و توجه السلطان إلى الحوش على العادة، غضب على القاضى سعد الدين إبراهيم ناظر الخواص، بسبب تمنّعه من ولاية الوزارة، و أمر به فضرب [بين يديه] ضربا مبرحا، ثم أقيم، و نزل إلى داره. ثم طلب السلطان [الصاحب] كريم الدين ابن كاتب المناخ من محبسه بالقلعة، و أمر به، فعرّى من ثيابه، و ضربه بالمقارع زيادة على مائة شيب، ثم ضربه على أكتافه بالعصى ضربا مبرحا، و عصرت رجلاه بالمعاصير، ثم أعيد إلى محبسه يومه؛ و أنزل من الغد فى يوم الجمعة على بغل فى أسوإ حال، و مضى به إلى بيت التاج و الى القاهرة كان، و هو يومئذاك شادّ الدواوين، ليورد ما ألزم به، بعد أن حوسب، فوقف عليه خمسة و خمسون ألف دينار ذهبا، صولح عنها بعشرين ألف دينار، [فنزل إلى بيت التاج و أخذ فى بيع موجوده و إيراد المال المقرر عليه، إلى أن

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۵۴

أفرج عنه فى ثامن عشر ربيع الأول، بعد ما حمّل نحو العشرين ألف دينار، و ضمنه فيما بقى أعيان الدولة.]

ثم فى يوم الثلاثاء أول شهر ربيع الآخر من سنة ثمان و ثلاثين المذكورة، خلع السلطان على القاضى سعد الدين ناظر الخواص، خلعة الرضى و الاستمرار على وظيفته نظر الخواص، و خلع على أخيه القاضى جمال الدين يوسف ابن القاضى كريم الدين عبد الكريم ابن كاتب جكم باستقراره وزيرا، على كره منه، بعد تمنع زائد؛ و كان منذ تغيب ابن الهيصم، [لا يلى الوزارة أحد]، و القاضى سعد الدين ناظر الخاص يباشرها، و يسدد أمورها من غير لبس تشريف، فغرم فيها جملة كبيرة، لعجز جهاتها عن مصارفها، و القاضى جمال الدين يوسف [المذكور]، هو يوسف عظيم الدولة فى زماننا هذا، و ناظر جيشها و خاصّها كان، رحمه اللّه تعالى. و هى أول ولاياته للمناصب الجليلة على ما يأتى ذكر ولاياته لغيرها مفصلا، فى هذا الكتاب و غيره.

و خلع [۱۹] السلطان على شمس الدين بن قطارة باستقراره ناظر الدولة، فكان الوزير و ناظر الدولة فى طرفى نقيض، فالوزير فى الغاية من حسن الشكالة و الزى البهيج، و سنه دون العشرين سنة، و ناظر الدولة فى الغاية من قبح الشكالة و الزى الردىء و سنه نحو السبعين سنة- انتهى.

ثم فى يوم الأحد رابع شهر ربيع الآخر، قدم الأمير أرغون شاه النوروزى الأعور، أستادّار السلطان بدمشق إلى مصر بطلب حسبما تقدم ذكره، ليلى الوزارة. و طلع

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۵۵

إلى القلعة من الغد بتقادم جليلة، و خلع عليه باستمراره على أستادّارية السلطان بدمشق، على عادته. و فى هذا الشهر تكرر ركوب السلطان إلى الصيد غير مرة.

ثم فی جمادی الأولی وقع الشروع فی حرکة السلطان إلی السفر، لقتال قرایلک و الفحص أیضا عن جانبک الصّوفی. و فی خامس عشره خلع علی دولات خجا و الی القاهرة باستقراره فی ولایة منفلوط، و شغرت الولایة إلی یوم الأحد سابع عشره، فاستقر فیها علاء الدین علی بن الطّبلاوی.

ثم فی یوم السبت أولی جمادی الآخرة، خلع السلطان علی الصاحب کریم الدین عبد الکریم ابن کاتب المناخ باستقراره کاشف الوجه القبلی، و رسم السلطان أن یستقر محمد الصغیر المعزول عن الکشف قبل تاریخه دوادار الصاحب کریم الدین، و أمیر علیّ الذی کان کاشفا بالوجه القبلی و الوجه البحری رأس نوبته، و نزل إلی داره من القلعة فی موکب جلیل، کل ذلک و الصاحب کریم الدین لم یغیّر زیّه من لبس الکتبة، و لم یلبس الکلفتاه، و لا تقلد بسیف.

و کان الصاحب أمین الدین إبراهیم بن الهیصم قد خرج من اختفائه، و طلع إلی السلطان بشفاعة الأمیر إینال الأبوبکری الأشرفی الخازندار، فطلبه السلطان فی هذا الیوم و خلع علیه باستقراره شریکا لعبد العظیم بن صدقة الأسلمی فی نظر دیوان المفرد.

ثم فی یوم الأحد سادس [عشر] جمادی الآخرة [المذکورة] أمسک السلطان القاضی سعد الدین إبراهیم ناظر الخاص، و أخاه الصاحب جمال الدین یوسف،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۵۶

و رسم علیهما، ثم أفرج عنهما من الغد، و خلع علی سعد الدین المذکور باستمراره، و أعفی الصاحب جمال الدین من الوزارة، بعد أن ألزمهما بحمل ثلاثین ألف دینار.

و ألزم السلطان تاج الدین عبد الوهاب بن الشمس نصر اللّه الخطیر ابن الوجیه توما ناظر الإسطبل بولایة الوزارة، و خلع علیه من الغد فی یوم الثلاثاء ثامن عشره، فباشر ابن الخطیر هذه الوزارة أقبح مباشرة من العجز و التشکی و القلق و عدم القیام بالکلف السلطانیة، مع قیام السلطان معه و إقامة حرمته، و هو مع ذلک لا یزداد فی أعین الناس إلا بهدلة. و ظهر منه فی أیام مباشرته الوزارة حدة زائدة، و طیش و خفة، بحیث أنه جلس مرة للمباشرة، فکثر الناس عنده لقضاء حوائجهم فضاق خلقه منهم، فقام إلی باب الدخول، و ضم جمیع سرامیج الناس الذین کانوا فی مجلسه فی ذیله، و خرج حافیا إلی خارج داره و ألقاهم إلی الأرض، و دخل بسرعة و الناس تنظر إلیه، و قال: اخرجوا إلی سرامیجکم لا یأخذوها فقال له بعضهم: تعیش رأس مولانا الصاحب. و سخر الناس من ذلک مدة طویلة، و هو إلی الآن فی قید الحیاة، یتشحط فی أذیال الخمول- انتهی.

ثم فی یوم الأربعاء تاسع عشر جمادی الآخرة [المذکورة]، أنعم السلطان علی تمراز المؤیدی الخازندار بإمرة مائة و تقدمة ألف بدمشق، بعد موت الأمیر أرکماس الجلبانی، و أنعم بطبلخانة تمراز المذکور علی الأمیر سنقر العزی الناصری نائب

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۵۷

حمص، بعد عزله عن نیابة حمص بالأمیر طغرق أحد أمراء دمشق.

ثم فی یوم الأحد ثالث عشرینه خرجت تجریدة من القاهرة إلی البحیرة، و مقدم العساکر الأمیر الکبیر إینال الجکمی، و الأمیر جقمق أمیر سلاح، و الأمیر یشبک حاجب الحجاب، و الأمیر قانی بای الحمزاوی، فی عدة من الأمراء، و سبب ذلک أن لبیدا قدم منها طائفة إلی السلطان بهدیة، و سألوا أن ینزلوا البحیرة، فلم یجابوا إلی ذلک، و لکن خلع علیهم و توجهوا، فعارضهم أهل البحیرة فی طریقهم، و أخذوا منهم خلعهم. [۲۰] و کان السلطان یلهج کثیرا بإخراج تجریدة إلی البحیرة، فبلغهم ذلک فأخذوا حذرهم. و اتفق مع ذلک أن شتاء هذه السنة لم یقع فیه المطر المعتاد بأراضی مصر، فقدمت طائفة من لبید إلی البحیرة لمحل بلادهم، و صالحوا أهل البحیرة، و ساروا إلی محارب و غیرها بالوجه القبلی لرعی الکشیح من أراضی البور من أعمال الصعید، و کان السلطان قد کتب إلی کاشف الصعید، بأن لا یمکنهم من المراعی حتی یأخذ منهم مالا، فغضبوا من ذلک و أظهروا الخلاف، فخرجت إلیهم هذه التجریدة المقدم ذکرها.

و فی هذا الشهر ندب السلطان قاضی القضاة شهاب الدین بن حجر أن یکشف عن شروط واقفی المدارس و الخوانک، و یعمل بها، فسرّ الناس بذلک غایة السرور،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۵۸

و کثر الدعاء للسلطان بسبب ذلک، فبدأ أو لا بمدرسة الأمیر صرغتمش بخط الصلیبة، و قرأ کتاب وقفها، و قد حضر معه القضاة الثلاثة، فأجمل ابن حجر فی الأمر فلم یعجب الناس ذلک، لاستیلاء المباشرین علی الأوقاف، و التصرف فیها بعدم شرط الواقف، و ضیاع مصالحها، فشدّ فی ذلک و أراد عزل جماعة من أرباب وظائفها، فروجع فی ذلک، و انفض المجلس، و قد اجتهد الأکلة فی السعی بإبطال ذلک، حتی أبطله السلطان.

قلت: و لو ندب السلطان لهذا الأمر أحد فقهاء الأمراء و الأجناد الذین هم أهل الدین و الصلاح، لینظر فی ذلک بالمعروف، لکانت هذه الفعلة تقاوم فتحه لقبرس، لضیاع مصالح أوقاف الجوامع و المساجد بالدیار المصریة و البلاد الشأمیة، لاستیلاء الطّمعة علیها، و تقریر من لا یستحق فی کثیر من وظائفها، بغیر شرط الواقف، و منع من یستحق العطاء بشرط الواقف، و لهذا قررت الملوک السالفة وظیفة نظر الأوقاف لهذا المعنی و غیره، فترک ذلک، و صار الذی بلی نظر الأوقاف شریکا لمن تقدم ذکره، فیما یتناولونه من ریع الأوقاف، و الکلام فیما یعود نفعه علیه من جهة حل وقف و بیعه أو لواحد

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۵۹

استولی علی جهة وقف، و أکله بتمامه، فیبعث خلفه و یبلصه فی شیء له و لأعوانه، و یترک الذی قرّرت هذه الوظیفة بسببه، من قدیم الزمان، و هو ما تقدم ذکره، من النظر فی أمر الأوقاف و العمل بمصالحها فیما یعود نفعه علی الوقف و علی أرباب وظائفه من الفقهاء و الفقراء و الأیتام و غیر ذلک؛ فلا قوة إلا بالله.

ثم فی یوم الاثنین ثامن شهر رجب، أدیر المحمل علی العادة فی کل سنة.

ثم فی یوم الأربعاء خامس عشر شعبان، وصل سیف الأمیر طربای نائب طرابلس، فرسم السلطان بنقل الأمیر جلبان، نائب حماه، إلی نیابة طرابلس، عوضا عن طربای، و أصبح من الغد فی یوم الخمیس سادس عشر شعبان، خلع السلطان علی الأمیر قانی بای الحمزاوی أحد مقدمی الألوف باستقراره فی نیابة حماه، و أنعم بإقطاع قانی بای الحمزاوی و تقدمته، علی الأمیر خجا سودون السّیفی بلاط الأعرج، و أضاف طبلخانة خجاسودون المذکور إلی الدولة، تقویة للوزیر التاج الخطیر.

و فی هذا الشهر خرج الأمیر قرقماس الشعبانی نائب حلب منها بالعساکر، و نزل العمق، علی ما سنحکیه بعد عوده إلی حلب مفصلا.

ثم فی یوم الثلاثاء رابع شوال قدم علی السلطان کتاب القان شاه رخ ملک الشرق، یتضمن الوعید، و أنه عازم علی زیارة القدس الشریف، و أرعد فی کتابه و أبرق، و أنکر علی السلطان أخذ الرشوة من القضاة، و أخذ المکوس من التجار ببندرجدة، و تعاطیه نوع المتجر، فلم یلتفت السلطان إلی کلامه و لا استوعب الکتاب لآخره، بل طلب التاج ابن سیفة و خلع علیه بإعادته إلی ولایة القاهرة، عوضا عن علاء الدین علیّ بن الطبلاوی بحکم عزله و لزومه داره، بعد ما غرم جملة مستکثرة، فکان حاله کقول القائل: [الرمل]

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۶۰

رکب الأهوال فی زورته ثم ما سلّم حتی ودّعا

ثم فی ثامن عشره، خرج محمل الحاج صحبة أمیر الحاج الأمیر تمر بای التّمر بغاوی الدوادار الثانی، و أمیر الرکب الأول، الأمیر صلاح الدین محمد بن نصر اللّه محتسب القاهرة. و حجت فی هذه السنة خوند فاطمه بنت [الملک] الظاهر [۲۱] ططر، زوجة السلطان [الملک]

و فی هذا الشهر ظهر الأمیر جانبک الصوفی ببلاد الروم، و کان السلطان- من یوم فر من سجن الإسکندریة إلی یومنا هذا- لم یقف له علی خبر، بعد أن اجتهد فی تحصیله غایة الاجتهاد، و أودی بسببه خلائق لا تدخل تحت حصر، فأخذ السلطان فی خبره و أعطی، إلی

أن قدم عليه فى أواخر هذا الشهر كتاب الأمير قرقماس نائب حلب بذلك، و كان معرفة خبر قرقماس بظهوره، أنه وصل معه إلى حلب فى يوم الثلاثاء

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۶۱

حادى عشر شوال، رجل تركمانى يقال له محمد، كان قبض عليه قرقماس بالعمق، و معه كتاب جانبك المذكور، فى سابع شوال، إليه و إلى غيره، فسجنه قرقماس بقلعة حلب، و جهز الكتاب فى ضمن كتابه إلى السلطان، فلما بلغ السلطان ذلك و تحققه، انزعج غاية الانزعاج.

ثم قدم كتاب الأمير بلبان نائب درندة أنه ورد عليه كتاب الأمير جانبك الصّوفى يدعوه إلى طاعته، فقبض على قاصده و حبسه، و أرسل بكتابه إلى السلطان.

ثم فى يوم السبت سابع عشرين ذى القعدة، عاد الأمير قرقماس نائب حلب إليها، بعد ما كانت غيبته عنها بالعمق و مرج دابق و عينتاب خمسة و سبعين يوما، و قد فاته أخذ قيصريّة لاستيلاء إبراهيم بن قرمان عليها، و كان قصد السلطان أخذها، و استنابة أحد من أمراء السلطان بها.

قلت: و لنذكر ما وعدنا بذكره لسبب سفر قرقماس نائب حلب منها، و سببه أن الأمير صارم الدين إبراهيم بن قرمان صاحب لارندة و قونية من بلاد الروم، أراد أخذ مدينة قيصرية من الأمير ناصر الدين محمد بن دلغادر، و قد تغلب عليها ناصر الدين المذكور، و أخذها من بنى قرمان و ولى عليها ابنه سليمان، فترامى ابن قرمان فى هذه الأيام على السلطان بأن يملّكه قيصرية، و وعد بعشرة آلاف دينار فى كل سنة، و ثلاثين بختيا و ثلاثين فرسا، سوى خدمة أركان الدولة، فكتب السلطان إلى نائب حلب أن يخرج إلى العمق و يجمع العساكر لأخذ قيصريّة،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۶۲

فخرج قرقماس إلى العمق، و جمع تركمان الطاعة و كتب إلى ابن قرمان: أن يسير بعسكره إلى قيصرية.

فلما بلغ ابن دلغادر خروج عسكر حلب لأخذ قيصرية منه، بعث فى الحال بامرأته خديجة خاتون بتقدمة للسلطان و معها مفاتيح قيصرية، و أن يكون زوجها المذكور نائب السلطنة بها، و أن يفرج عن ولدها فياض المقبوض عليه قبل تاريخه من سجنه بقلعة الجبل، و وعد لذلك أيضا بمال. فقدمت خديجة خاتون المذكورة فى أواخر شوال إلى مصر، و قدّمت ما معها من الهدية، و تكلمت بما هو غرض زوجها، فقبل هديتها و أفرج [لها] عن ولدها فياض، و خلع عليه بنيابة مرعش.

و بينما السلطان فى ذلك، كان نزول قرقماس نائب حلب فى يوم الاثنين أول ذى القعدة، من العساكر على عينتاب، فأتاه الخبر: بأن حمزة بن دلغادر خرج عن طاعة السلطان بمن معه و توجه إلى ابن عمه سليمان بن ناصر الدين بك ابن دلغادر، بعد ما بعث إليه و حلّفه، و أن دوادار جانبك الصّوفى و محمد بن كندغدى بن رمضان التركمانى وصلا إلى الأمير ناصر الدين محمد بن دلغادر، بأبلستين و حلّفاه، أنه إذا قدم عليه الأمير جانبك الصوفى لا يسلمه إلى أحد و لا يخذله، و أن جانبك كان عند الأمير إسفنديار أحد ملوك الروم، فسار من عنده يريد سليمان بن دلغادر؛ فخرج إليه سليمان، و تلقاه هو و أمراء التركمان.

و قبل أن يصل هذا الخبر إلى السلطان، جهز خديجة خاتون إلى العود إلى زوجها ناصر الدين بك، فخرجت خديجة و معها ولدها فياض، و سارت و السلطان ليس له علم بما وقع لابن دلغادر مع جانبك الصّوفى، و استمر قرقماس على عينتاب، إلى أن بلغه أن الأمير صارم الدين

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۶۳

إبراهيم بن قرمان جمع عساكره و نزل على قيصريّة، فوافقه أهلها و سلموها له، وفر سليمان بن ناصر الدين بك منها، فبلغه ظهور جانبك الصوفى، و أنه اجتمع عليه الأمير أسلماس بن كبك، و محمد بن قطبكى، و هما من أمراء التركمان، و نزلوا على ملطية.

فقدم سليمان على أبيه ناصر الدين [۲۲] بأبلستين، و لم يبلغهما إلى الآن خبر الإفراج عن ولده فياض، و خروجه من مصر مع أمه خديجة. و أخذ ناصر الدين بك يدارى السلطنة ليفرج عن ابنه فياض، و ندب ابنه سليمان لقتال أعوان جانبك الصوفى، كل ذلك قبل أن يرد عليه جانبك الصوفى بمدة، و قيل إنه كان أتاه خفية، و بينما هم فى ذلك وصلت خديجة خاتون و ولدها فياض إلى زوجها ناصر الدين محمد بن دلغادر، فبلغ ناصر الدين مراده بالإفراج عن ولده، و ترك مداراة السلطان، و انضم على جانبك الصوفى حسبما نذكره فى مواضعه من هذه الترجمة إن شاء اللّه تعالى. و بلغ ذلك قرقماس نائب حلب، فعاد من سفرته بغير طائل.

و من يومئذ اشتغل فكر السلطان الملك الأشرف بأمر جانبك الصّوفى، و تحقق أمره بعد ما كان يظنه، و أخذ فى عزل جماعة من النواب ممن يخشى شرهم، و تخوف من قرقماس تخوفا عظيما فى الباطن، لئلا يميل إلى جانبك الصوفى، فأول ما بدأ به السلطان، أن عزل الأمير قانصوه النّوروزى عن نيابة طرسوس، و نقله إلى حجوبية الحجاب بحلب عوضا عن الأمير طوغان السيفى تغرى بردى أحد مماليك الوالد، و نقل طوغان المذكور إلى إمرة مائة و تقدمة ألف بدمشق، و استقر الأمير جمال الدين يوسف ابن قلدر فى نيابة طرسوس عوضا عن قانصوه.

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۳۹]

ثم فى صفر من سنة تسع و ثلاثين و ثمانمائة، ورد الخبر على السلطان: أن شاه رخ ابن تيمور لنك أرسل إلى السلطان مراد بك ابن عثمان، متملك الروم، و إلى الأمير صارم الدين إبراهيم بن قرمان المقدم ذكره، و إلى قرايلك و أولاده، و إلى ناصر الدين بك ابن دلغادر، بخلع، على أنهم نوابه فى ممالكهم، فلبس الجميع خلعه، فشق ذلك

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۶۴

على السلطان من كون ابن عثمان لبس خلعته، حتى قيل له: إنه فعل ذلك فى مجلس أنسه استهزاء به. قلت: لبس الخلعة و الفشار ما إليه.

ثم فى يوم الاثنين ثانى شهر ربيع الأول من سنة تسع و ثلاثين المذكورة، خلع السلطان على القاضى شرف الدين أبى بكر نائب كاتب السر باستقراره فى كتابة سر حلب، عوضا عن زين الدين عمر بن السفاح، بعد امتناع شرف الدين من ذلك أشد امتناع. و سبب ذلك: أن ابن السفاح المذكور كتب إلى السلطان مرارا عديدة بالحطّ على قرقماس نائب حلب، و أنه يريد الوثوب على السلطان و الخروج عن الطاعة، و آخر ما ورد كتابه بذلك فى نصف صفر من هذه السنة، [أعنى سنة تسع و ثلاثين، فلما وقع ذلك كتب السلطان إلى الأمير قرقماس المذكور بالحضور، و قد يئس السلطان من حضوره] لما قوى عنده من خروجه عن الطاعة، و قلق السلطان قلقا زائدا بعد ما طلبه خوفا من عدم حضوره، فلم يكن بأسرع من مجىء نجّاب قرقماس نائب حلب المقدم ذكره، فى خامس عشرين صفر، يستأذن فى قدوم قرقماس إلى الديار المصرية، و قد بلغه شىء مما رمى به، فغضب السلطان عند ذلك على زين الدين عمر بن السفاح، و رسم بعزله و استقرار شرف الدين المذكور عوضه، و تحقق السلطان أنه لو كان قرقماس مخامرا، لما استأذن فى الحضور، فسرّ السلطان بذلك، و كتب له الجواب بأنه تقدم الطلب له.

و أما قرقماس فإنه لما ورد عليه الطلب من السلطان، خرج على الفور من حلب على الهجن فى خواصه، و سار حتى قدم إلى خارج القاهرة فى يوم الجمعة سادس شهر ربيع الأول المذكور، و طلع من الغد إلى القلعة، فلم يخلع السلطان عليه خلعة الاستمرار لكونه استعفى عن نيابة حلب، فما صدق السلطان بأنه تلفظ بذلك.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۶۵

و لما كان يوم الاثنين تاسع شهر ربيع الأول، خلع السلطان على الأمير الكبير إينال الجكمى أتابك العساكر بالديار المصرية باستقراره فى نيابة حلب عوضا عن الأمير قرقماس الشعبانى المذكور، و خلع على الأمير جقمق العلائى أمير سلاح باستقراره أتابك العساكر

بالديار المصرية عوضا عن إينال الجكمى، و خلع على قرقماس نائب حلب باستقراره أمير سلاح عوضا عن الأمير جقمق العلائى. و كان استقرار إينال الجكمى [۲۳] بعد الأتابكية فى نيابة حلب، بخلاف القاعدة، غير أن السلطان أكرمه غاية الإكرام، و وعده بنيابة دمشق، لطول مرض الأمير قصروه نائب الشأم، و بالغ حتى أنه أسرّ له إن مات قصروه قبل وصول إينال إلى حلب فليقم بدمشق، حتى يرسل إليه السلطان بنيابتها، و ظهر أيضا للناس أنه لم يولّه نيابة حلب إلا لثقته به؛ [ثم] خرج الأمير إينال إلى محل كفالته فى ثالث عشره.

ثم فى سابع عشره خلع السلطان على الأمير الكبير جقمق العلائى بنظر البيمارستان المنصورى على العادة، و ورد الخبر على السلطان: أن بمدينة بروسا، التى يقال لها برصا من بلاد الروم، و باء عظيما دام بممالك الروم نحو أربعة أشهر.

ثم ورد الخبر على السلطان بأن الأمير ناصر الدين بك ابن دلغادر قبض على الأمير جانبك الصوفى فى سابع عشر [شهر] ربيع الأول، و كان السلطان قدم عليه من البلاد الشامية كتاب، و فى ضمنه كتاب من عند شاه رخ بن تيمور لنك، يتضمن تحريض جانبك الصّوفى على أخذ البلاد الشامية، و أنه سيقدم عليه ابنه أحمد جوكى و بابا حاجى نجدة له على قتال سلطان مصر، فقبض على حامل هذا الكتاب

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۶۶

و حبس، فلما بلغ السلطان ذلک كتب إلى نواب البلاد الشامية بالتأهب و الاستعداد لنجدة نائب حلب الأمير إينال الجكمى إذا استدعاهم، و لم يكترث السلطان بقبض جانبک الصوفى و قال: هذه حيلة.

و كان من خبر جانبک الصوفى و القبض عليه و هو خلاف ما نقل عنه قبل ذلک لاختلاف الأقوال فى أمره، فخبره من هذا الوجه: أنه لما فرّ من الإسكندرية، دخل القاهرة بعد أمور، و دام بها سنين مختفيا فى حاراتها و ظواهرها، إلى أن خرج منها متنكرا و سار إلى البلاد الشامية، ثم إلى بلاد الروم، فظهر بتوقات فى شوال من السنة الماضية، أعنى سنة ثمان و ثلاثين و ثمانمائة، فقام متوليها الأمير أركج باشا بمعاونته و أكرمه و أنعم عليه، و كتب إلى ناصر الدين محمد بن دلغادر نائب أبلستين، و إلى أسلماس بن كبک، و إلى محمد بن قطبكى، و إلى قرايلک و نحوهم من أمراء التركمان بالقيام معه و الاستعداد لنصرته، فانضم على جانبک الصّوفى عند ذلک جماعة كبيرة، فتهيأ و خرج بهم من توقات، فوافاه الأمير قرمش الأعور أحد مقدمى الألوف بالديار المصرية المقدم ذكره فى واقعة جانبک الصّوفى لما قبض عليه بالقاهرة.

و كان من خبر قرمش المذكور، أن الملک الأشرف أمسكه بعد أن قبض على الأمير جانبک الصّوفى بمدة يسيرة، و حبسه بثغر الإسكندرية، ثم أطلقه و أنعم عليه بإمرة مائة و تقدمة ألف بدمشق، فلما خرج الأمير تنبک البجاسى عن طاعة [الملک] الأشرف وافقه قرمش هذا و بقى من حزبه، إلى أن انكسر البجاسى و قبض عليه، فاختفى قرمش المذكور و لم يظهر له خبر إلى هذا اليوم، فكأنه كان مختفيا بتلک

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۶۷

البلاد، فلما ظهر أمر جانبک الصّوفى توجه إليه- انتهى.

و سار الأمير جانبک الصّوفى بمن انضم عليه، و معه الأمير قرمش، من توقات إلى الأمير محمد بن قرايلک صاحب قلعة جمركشک، فأكرمهم محمد المذكور و قواهم، فشنّوا منها الغارات على مدينة دوركى و ضايقوا أهلها و نهبوا نواحيها، فاتفق ورود كتاب شاه رخ ملک الشرق على قرايلک يأمره بالمسير بأولاده و عساكره لقتال إسكندر بن قرا يوسف سريعا عاجلا، فكتب قرايلک إلى ولده محمد بالقدوم عليه لذلک، فترک محمد جانبک الصّوفىّ و من معه على دوركى و توجه إلى أبيه.

فسار جانبک إلى أسلماس و ابن قطبكى، و اجتمعوا و نزلوا على ملطية و حصروها، و كادهم سليمان بن ناصر الدين بک ابن دلغادر، و كتب إلى جانبک: أنه معه؛ فكتب إليه أنه يقدم عليه، و كان تقدم بينهما مكاتبات حسبما تقدم ذكره، و مواعدات (بمجىء)

جانبك إلى أبلستين، فلم يقع ذلك و أرسل جانبك إليه بالقدوم عليه مع الأمير قرمش الأعور، فأكرمه سليمان، و ركب و سار [۲۴] مع الأمير قرمش فى مائة و خمسين فارسا إلى جهة جانبك الصوفى، حتى قدم عليه، فتلقاه جانبك و عانقه و عادا بمن معهما على حصار ملطية، فأظهر سليمان من النّصاحة ما أوجب ركون جانبك إليه، فأخذ سليمان فى الحيلة على جانبك المذكور بكل ما تصل قدرته إليه، و لا زال به حتى خرج جانبك معه فى عدة من أصحابه ليستريحا بمكلن للنزهة فيه؛ و رتبا قرمش و بقية العسكر على حصار ملطية، فلما نزل سليمان و جانبك للنزهة و رأى أن حيلته تمت، وثب جماعة سليمان على جانبك الصّوفى و قيدوه و أركبوه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۶۸

على أكديشى، و سار به ليلته و من الغد حتى وصل إلى بيوته بأبلستين و حبسه عنده، فلم يفطن قرمش و أصحابه بمسك جانبك، حتى جاوز جانبك بلادا بعيدة، و لما قبض سليمان على جانبك الصّوفى أرسل يعرّف السلطان بذلك و يطلب من يأتيه من قبل السلطان و يتسلمه- انتهى:

و أما السلطان لما بلغه خبر القبض على جانبك الصّوفى، لم يحمل ذلك على الصدق و أخذ فيما هو فيه، فورد عليه فى يوم الخميس حادى عشر شهر ربيع الآخر سيف الأمير قصروه نائب الشأم، على يد الأمير علىّ بن إينال باى بن قجماس، فعيّن السلطان الأمير إينال الجكمى نائب حلب إلى نيابة دمشق عوضا عن قصروه، و رسم لتغرى برمش الأمير آخور الكبير بنيابة حلب عوضا عن إينال الجكمى، غير أنه لم يخلع على تغرى برمش المذكور إلا بعد أيام حسبما يأتى ذكره.

ثم فى ثالث عشره نودى بعرض أجناد الحلقة ليستعدوا للسفر إلى الشام و لا يعفى أحد منهم، و جمع السلطان قضاة القضاة بين يديه و سألهم فى أخذ أموال الناس للنفقة المتحوجة لقتال شاه رخ بن تيمور، فكثر الكلام و انفضوا من غير أن يفتوه بذلك، فقيل إن بعض الفقهاء قال: «كيف نفتيه بأخذ أموال المسلمين، و كان لبس زوجته يوم طهور ولدها- يعنى [الملك] العزيز يوسف- ما قيمته ثلاثون ألف دينار، و هى بدلة واحدة، و إحدى نسائه!»، و لم يعرف القائل لذلك من هو من الفقهاء، غير أنه أشيع ذلك فى أفواه الناس. و لما بلغ الناس ذلك كثر قلقهم من هذا الخبر.

ثم فى يوم الاثنين خامس عشر [شهر] ربيع الآخر المذكور ابتدأ السلطان بعرض أجناد الحلقة، فتجمع بالحوش السلطانى منهم عدة مشايخ و أطفال و عميان، و عرضوا على السلطان فقال لهم: «أنا ما أعمل كما عمل الملك المؤيّد شيخ من أخذ المال منكم، و لكن اخرجوا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۶۹

جميعكم، فمن قدر منكم على فرس ركب فرسا، و من قدر على حمار ركب حمارا»؛ فنزلوا على ذلك إلى بيت الأمير أركماس الظاهرى الدوادار الكبير، فحل بهم عند ذلك بلاء اللّه المنزل، و تحكم فيهم الأكلة، و صاروا فى أيديهم كالفريسة فى يد فارسها، و ذلك لعدم معرفة أركماس المذكور بالأحكام، و قلة دربته بالأمور- فإنه كان رجلا غتميّا لا يعرف باللغة التركية فكيف اللغة العربية؟- ففاز المتموّلون و تورط المفلسون.

قلت: و عدّت هذه الفعلة من غلطات [الملك] الأشرف، كونه يندب لهذا الأمر المهم مثل أركماس هذا، و قد تقدم أن الملوك السالفة كانت تندب لهذا الأمر مثل الأمير طشتمر الدوادار، و مثل سودون الشّيخونى، و مثل يونس الدوادار، و آخرهم جقمق دوادار المؤيد، و كل واحد من هؤلاء كان شأنه مع من يعرضه كالطبيب الحاذق العارف بمرض من يعالجه: ينظر إلى وجه المعروض عليه، و يسأله عن إقطاعه و عن متحصله سؤالا لا يخفاه بعد [ذلك] شىء من حاله، فعند ذلك ينظر فى أمره بفراسته، إن كان إقطاعه يقوم بسفره ألزمه بالسفر غصبا على رغم أنفه، لا يسمع فى أمره رسالة و لا شفاعة، و إن كان لا يقوم بسفره ألزمه بالإقامة، و ندبه لحفظ جهة من الجهات، و مشى فى جميع عرضه على ذلك. و قد انتصف الناس من كونه ألزم كلّ واحد بما هو فى قدرته، فكان هذا العرض بخلاف [۳۵] هذا جميعه: ترك فيه من إقطاعه يعمل فى السنة مائة. ألف، حيث هو من جهته رجل من أرباب الشوكة أو باذل

مال، و ألزم بالسفر من إقطاعه يعمل فى السنة خمسة آلاف درهم فلوسا، كونه فقيرا و لا عصبية له- انتهى.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۷۰

و بينما السلطان فى ذلک ورد عليه كتاب أصبهان بن قرا يوسف صاحب بغداد، يشتمل على التودد و أنه هو و أخاه إسكندر يقاتلان شاه رخ؛ و تاريخه قبل قدوم أحمد جوكى بن شاه رخ و بابا حاجى بعساكر شاه رخ، و قبل موت قرايلک.

ثم فى سابع عشره قدم أيضا قصّاد إسكندر بن قرا يوسف صحبة الأمير شاهين الأيدكارى الناصرى أحد حجاب حلب، و على يدهم رأس الأمير عثمان بن طرعلى المدعو قرايلک، و رأس ولديه و ثلاثة رؤوس أخر، و كان السلطان توجه فى هذا اليوم إلى الصيد، فقدم من الغد يوم الخميس ثامن عشره، فأمر بالرؤوس الستة فطيف بها على رماح، و قد زينت القاهرة لذلک فرحا بموت قرايلک، ثم علقت الرءوس على باب زويلة ثلاثة أيام.

و كان من خبر موته أنه لما سار إسكندر بن قرا يوسف من تبريز لقتاله إلى أن نزل بالقرب من أرزن، و بلغ قرايلک مجيئه، جهز ابنه على بک و معه فرقة من العسكر و هو تابعهم، فالتقوا هم و إسكندر فاستظهر عسكر قرايلک فى أول الأمر، ثم إن إسكندر ثبت و حمل عليه بمن معه حملة رجل واحد على عسكر قرايلک فكسرهم، و ذلک خارج أرزن الروم المذكورة، فعند ما انهزم قرايلک ساق إسكندر خلفه، فقصد عسكر قرايلک أرزن الروم، ليتحصنوا بها فحيل بينهم و بينها؛ و قبل أن يتجاوزوا عنها، أرمى قرايلک بنفسه إلى خندقها ليفوز بمهجته، و عليه آلة الحرب، فوقع على حجر فشج دماغه، ثم قام فحمل إلى قلعة أرزن الروم بحبال فدام بها أياما قليلة، و مات فى العشر الأول من صفر فى هذه السنة، بعد أن أقام فى الأمر نيفا و خمسين سنة، و مات و قد قارب المائة سنة من العمر، و دفن خارج أرزن الروم، فتتبع إسكندر بن قرا يوسف قبره، حتى

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۷۱

عرفه و نبش عليه و أخرجه و قطع رأسه و رأس ولديه و ثلاثة رؤوس أخر من أمرائه ممن ظفر به إسكندر فى الوقعة، و أرسل الجميع مع قاصده إلى الملک الأشرف، حسبما تقدم ذكره. هذا ما كان من موتة قرايلک، و يأتى بقية ترجمته و أصله فى الوفيات [من هذا الكتاب إن شاء اللّه تعالى].

ثم فى [يوم] السبت عشرينه خلع السلطان على الأمير حسين بن أحمد البهسنى المدعو تغرى برمش، الأمير آخور الكبير باستقراره نائب حلب، عوضا عن الأتابک إينال الجكمى و سافر من الغد إلى محل كفالته، و تولى الأمير آخورية عوضه الأمير جانم الأشرفى، و كتب بانتقال الجكمى إلى نيابة الشام عوضا عن قصروه بحكم وفاته.

[و] فى هذا اليوم حضر قصاد إسكندر بن قرا يوسف بين يدى السلطان بكتابه، فقرئ و أجيب بالشكر و الثناء، و حمل إليه مالا و غيره من القماش السكندرى ما قيمته عشرة آلاف دينار، و وعده بمسير السلطان إلى تلک البلاد. ثم نزل السلطان إلى الإسطبل السلطانى و عرضه بنفسه، و أرسل إلى الصاحب كريم الدين ابن كاتب المناخ و إلى الأمير يلخجا بجمال كثيرة، و كان ندبهما للسفر إلى بندر جدة.

ثم فى تاسع عشرين [شهر] ربيع الآخر المذكور توجه الأمير شاد بک الجكمى، أحد أمراء الطبلخانات و رأس نوبة، إلى الأمير ناصر الدين محمد بن دلغادر بمال و خيل و قماش سكندرى و غير ذلک، و إلى ولده سليمان بمثل ذلک، و كتب لهما أن يسلما شاد بک المذكور الأمير جانبک الصّوفى ليحمله إلى قلعة حلب، فسار شاد بک فى هذا اليوم؛ تأتى بقية أمره فى عوده.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۷۲

ثم فى يوم الثلاثاء خامس عشر جمادى الأولى خلع السلطان على جوهر الصفوى الجلبانى اللّالا باستقراره زمام الدار، بعد موت خشقدم الظاهرى الرومى، و كانت شاغرة من يوم مات خشقدم المذكور.

[۲۶] و لما كان يوم السبت ثامن عشر جمادى الآخرة المذكورة برز الصاحب كريم الدين و الأمير يلخجا الساقى، أحد أمراء العشرات

و رأس نوبة، بمن معهما من الحاج إلى ظاهر القاهرة، ثم ساروا فى تاسع عشره إلى جهة مكة المشرفة.

ثم فى يوم الخميس ثالث عشرين جمادى الآخرة المذكورة خلع السلطان على السيفىّ آقباى اليشبكى الجاموس أحد دوادارية السلطان الأجناد باستقراره فى نيابة الإسكندرية عوضا عن خليل بن شاهين الشّيخى بحكم عزله.

ثم فى ثانى عشرينه وصل الأمير أقطوه الموساوى الظاهرى برقوق المتوجه فى الرسالة إلى شاه رخ بن تيمورلنک، و قدم من الغد إلى القاهرة الشيخ صفا رسول شاه رخ المذكور بكتابه، فأنزل و أجرى عليه الرواتب؛ ثم ورد الخبر على السلطان: أن رسل أصبهان بن قرا يوسف صاحب بغداد سارت إلى القان معين الدين شاه رخ، و هو مقيم على قراباغ بدخوله تحت طاعته و أنه من جملة خدمه، فأقامت رسله ثلاثين يوما لا تصل إلى شاه رخ، ثم قدموا بين يديه فأجابه بالإنكار على أصبهان المذكور من كونه أخرب

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۷۳

العراق و بغداد و أبطل مسير الحج من بغداد، ثم أمره بعمارة بغداد و أن يعمرها، و إلا فقد مشى عليه و أخرب دياره، و أكثر له من الوعيد، و أنه أمهله فى ذلك مدة سنة؛ و كان أصبهان بعث بهدية فأخذها و لم يعوضه عنها شيئا و إنما جهز له خلعة بنيابة بغداد و تقليدا، ثم خلع على رسله و أمرهم بالعود إليه و تبليغه ما ذكره لهم بتمامه و كماله.

قلت: و فى الجملة أن جور أولاد تيمورلنک أحسن من عدل بنى قرا يوسف.

ثم فى يوم السبت ثانى [شهر] رجب أحضر السلطان [الملک الأشرف] الشيخ صفا رسول شاه رخ إلى بين يديه، و هو جالس على المقعد بالإسطبل السلطانى، بمن معه من قصاد شاه رخ، و قرئ كتابه فإذا هو يتضمن: أنه يأمر السلطان أن يخطب له، و يضرب السكة باسمه؛ ثم أخرج الشيخ صفا خلعة السلطان بنيابة مصر، و معها تاج ليلبسه السلطان، و خاطب السلطان بكلام لم يسع السلطان معه صبرا. و عند ما رأى السلطان الخلعة أمر بها فمزقت تمزيقا، و أمر بالشيخ صفا المذكور فضرب ضربا مبرحا خارجا عن الحد، ثم أقيم بعد ذلک و أمر به فسحب إلى بركة ماء بالإسطبل، فألقى فيها منكوسا و غمس فيها غير مرة حتى أشرف على الهلاک، و كان الوقت شتاء شديد البرد. كل ذلک و لم يستجرئ أحد من الأمراء أن يتكلم فى أمر الشيخ صفا بكلمة واحدة من نوع الشفاعة لشدة غضب السلطان، و لقد لازمت الملک الأشرف

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۷۴

كثيرا من أوائل سلطنته إلى هذا اليوم، [و] لم أره غضب مثلها [قبلها].

ثم طلب السلطان الشيخ صفا المذكور و حدثه بكلام طويل، محصوله يقول لصفا:

إنک تتوجه إلى شاه رخ و تذكر له ما حلّ بک من الإخراق و البهدلة و العذاب، و أنه قد ولّانى نيابة مصر إلا أنا فإنى لا أرتضيه شحنة لى على بعض قرى أقل أعمالى، و إن كان له قوة فهو يظهر ذلک بعد هذا الإخراق بک و يمشى على أعمالنا، و إن لم يأت فى العام القابل فكل ما يأتى منه بعد ذلک فهو من المهملات، و يظهر عجزه و ضعف حالته و كثرة فشاره لكل أحد.

ثم رسم السلطان بإخراجه مع رفقته فى البحر المالح إلى مكة، فتوجهوا و حجّوا ثم عادوا إلى شاه رخ و بلغوه ذلک فلم يتحرک بحركة، و هاب ملوک مصر بهذه الفعلة إلى أن مات. و لعمرى لقد كانت هذه الواقعة من الملک الأشرف حسنة من حسناته التى قامت بفعلتها حرمة العساكر المصرية إلى يوم القيامة.

قلت: و لا أعرف للملک الأشرف فعلة فعلها فى أيام سلطنته أحسن و لا أعظم و لا أجمل من إقدامه على هذا الأمر، من ضرب قاصد [۲۷] شاه رخ و تمزيق خلعته، فإنه خالف فى ذلک جميع أمرائه و أرباب دولته، لأن الجميع أشاروا عليه بالمحاسنة فى رد الجواب، إلا هو، فإن اللّه عز و جل وفقه إلى ما فعل و للّه الحمد؛ و من يومئذ عظم أمر [الملک] الأشرف و تلاشى أمر شاه رخ فى جميع بلاد الإسلام.

ثم خلع [السلطان] على شيخ الشيوخ بخانقاه سرياقوس محب الدين [محمد]

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۷۵

ابن الأشقر، باستقراره فی کتابة السّر بالدیار المصریة عوضا عن القاضی کمال الدین ابن البارزی بحکم عزله.

ثم جهز السلطان تجریدة من الأمراء و الممالیک السلطانیة إلی البلاد الشامیة، بسبب ظهور جانبک الصّوفی و غیره، و قد بلغ السلطان أن ابن دلغادر أطلق جانبک الصّوفی.

ثم فی حادی عشر [شهر] رجب المذکور قدم الأمیر شاد بک الجکمی من بلاد أبلستین لأخذ جانبک الصّوفی بغیر طائل، بعد أن قاسی شدائد من عظم البرد و المطر و الثلوج، حتی أنه هلک من أصحابه جماعة کبیرة من ذلک، و کان من خبر شاد بک:

أنه لما وصل إلی ناصر الدین بک ابن دلغادر، تلقاه و أکرمه و أخذ ما معه من الهدیة و التحف و المال.

قلت: الدورة علی هذا لا [علی] غیره.

ثم أخذ ناصر الدین بک ابن دلغادر یسوّف بالأمیر شاد بک من یوم إلی یوم، إلی أن طال الأمر و ظهر لشاد بک أنه لا یمکنه منه، فکلمه فی ذلک فاعتذر ناصر الدین [بک] بعد [م] تسلیمه من أنه یخاف من أن یعایر بذلک، و أیضا مما ورد علیه من کتب شاه رخ و غیره من ملوک الأقطار بالتوصیة علیه و أشیاء من هذه المقولة؛ و المقصود: أنه منعه منه، ثم أطلقه و أعاده إلی حاله الأول و أحسن، فعظم ذلک علی السلطان إلی الغایة، و لم أسأل الأمیر شاد بک هل اجتمع بالأمیر جانبک الصّوفی عند ابن دلغادر أم لا.

و لما أن عاد شاد بک من عند ابن دلغادر من غیر قضاء حاجة اضطرب الناس، و تحدث کل أحد بما فی نفسه من المغیبات، و کثر القلق و أخذ السلطان یستحث

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۷۶

الأمراء المجردین فی السفر. و أدیر محمل الحاج فی یوم الاثنین خامس عشرین [شهر] رجب من غیر لعب الرّمّاحة علی العادة فی کل سنة، لشغل خاطر السلطان.

[ثم فی یوم الأربعاء خامس عشرین شعبان، برز الأمراء المجردون من القاهرة إلی الریدانیة خارج القاهرة]، و هم: الأمیر الکبیر جقمق العلائی الناصری الظاهری، و الأمیر أرکماس الظاهری الدوادار، و الأمیر یشبک السودونی المشد، و هو یومذاک حاجب الحجاب، و الأمیر تنبک البردبکی نائب القلعة کان، و الأمیر قرا خجا الحسنی، و الأمیر تغری بردی البکلمشی المؤذی و الأمیر خجا سودون السیفی بلاط الأعرج، فأقاموا إلی یوم سابع عشرینه، و سافروا إلی جهة البلاد الشامیة؛ ثم نقل حسن بن أحمد البهسنی نائب القدس إلی حجوبیة الحجاب بحلب، بسفارة أخیه تغری برمش نائب حلب، عوضا عن الأمیر قانصوه النوروزی، بحکم انتقال قانصوه إلی إمرة مائة و تقدمة ألف بدمشق.

ثم فی یوم الاثنین سابع [شهر] رمضان خلع السلطان علی الأمیر غرس الدین خلیل بن شاهین الشیخی المعزول عن نیابة الإسکندریة، باستقراره وزیرا بالدیار المصریة،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۷۷

عوضا عن التاج الخطیر الأسلمی.

ثم فی یوم الخمیس رابع عشرین [شهر] رمضان قدم إلی القاهرة الأمیر أسلماس ابن کبک الترکمانی مفارقا لجانبک الصّوفی، فأکرمه السلطان و أنعم علیه، ثم خلع علیه فی یوم الخمیس أول شوال خلعة السفر و رسم بتجهیزه.

ثم فی یوم الخمیس ثامن شوال عزل السلطان [الوزیر] خلیل بن شاهین الشیخی عن الوزارة، و ألزم الصاحب أمین الدین بن الهیصم بشدّ أمور الدولة، و مراجعة عبد الباسط فی جمیع أحوال الدولة، فمشت الأحوال.

قلت: و هذا کان قصد السلطان أن یلقی الأستادّاریّة و الوزارة فی رقبة عبد الباسط، و قد وقع ذلک- انتهی.

و من [یوم] ذلک، أخذ عبد الباسط یحسّن [۲۸] للسلطان طلب الصاحب کریم الدین ابن کاتب المناخ و إعادته للوزارة، فیقول له

السلطان: «هذا شیء صار یتعلق بک، افعل [فیه] ما شئت»؛ فکتب فی یوم تاسعه بإحضار الصاحب کریم الدین من بندر جدة علی ید نجّاب بعد فراغ شغله لیلی الوزارة.

حدثنی الصاحب کریم الدین قال: «کان أولا إذا کتب إلیّ عبد الباسط ورقة فی حاجة، یخاطبنی فیها مخاطبة لیست بذاک، إلی أن أضیف إلیه التکلم فی الوزارة و طلبت من بندر جدة، فصارت کتبه تأتینی بعبارة عظیمة و ترقّق زائد و تحشّم کبیر، فلما أن قدمت وعدت إلی الوزارة، امتنع مما کان یفعله مع فی ولایتی الأولی من الإفراجات التی کان لا یخلو یوم إلا و یأتینی شیء منها، فصار فی ولایتی هذه کلما قیل له أن یرسل إلیّ لأفرج له عن شیء، یقول: خلّوه! یکفیه الذی هو فیه، نحن

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۷۸

یجب علینا مساعدته»؛ قلت له: «فکان یساعد؟»، قال: «أی و اللّه! غصبا و مروءة» - انتهی.

ثم فی سابع عشرین شوال، کتب بعزل الأمیر إینال العلائی الناصری نائب الرّها و قدومه إلی القاهرة. و خلع [السلطان] علی الأمیر شادبک الجکمی أحد أمراء الطبلخاناه و رأس نوبة ثانی باستقراره فی نیابة الرّها علی إقطاعه، عوضا عن إینال المذکور.

و کتب أیضا بعزل الأمیر إینال الششمانی الناصری عن نیابة صفد، و أن یتوجه إلی القدس بطالا، و أن یستقر عوضه فی نیابة صفد الأمیر تمراز المؤیدی أحد مقدمی الألوف بدمشق.

ثم فی أواخر ذی القعدة قدم الخبر علی السلطان: أن شاه رخ بن تیمورلنک رحل عن مملکة أذربیجان، و هی تبریز، بعد أن استناب علیها جهان شاه بن قرا یوسف عوضا عن أخیه إسکندر، و زوّج جهان شاه المذکور أیضا بنساء إسکندر المذکور بحکم الشرع، لکون إسکندر کان فی عصمته أزید من ثمانین امرأة.

و نزل شاه رخ فی أواخر ذی القعدة علی مدینة السلطانیة، و عزم [علی] أن لا یرحل عنها إلی ممالکه حتی یبلغ غرضه من إسکندر بن قرا یوسف، فلم یلتفت السلطان إلی ذلک و أخذ فیما هو فیه من أمر جانبک الصّوفی، غیر أنه صار فی تخوف من أن یردف شاه رخ جانبک الصوفی بعسکر، إذا تم أمره من إسکندر.

و أما العسکر المجرد من مصر و غیرها فإنه لما توجه إلی حلب، سار منها نائبها تغری برمش البهسنی بعساکر حلب، و صحبته الأمیر قانی بای الحمزاوی نائب حماه بعساکر حماه، و نزل علی عینتاب، و قد نزل جانبک الصوفی علی مرعش، فتوجهوا إلیه من الدّربند أمام العسکر المصری، و نزلوا علی بزرجق- یعنی: سویقة باللغة العربیة- ثم عدوا الجسر، و قصدوا ناصر الدین بک ابن دلغادر نائب أبلستین من طریق دربند کینوک، فلم یقدروا علی سلوکه لکثرة الثلوج، فمضوا إلی دربند آخر من عمل بهسنا، و ساروا منه بعد مشقة یریدون أبلستین، و ساروا حتی طرقها تغری برمش المذکور بمن معه فی یوم

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۷۹

الثلاثاء تاسع شهر رمضان، فلم یدرک ناصر الدین بن دلغادر بها، فأمر تغری برمش بنهب أبلستین و إحراقها فنهبت و أحرقت بأجمعها، ثم أمر العسکر بنهب جمیع قراها و إحراقها فنهبوها و أخذوا منها شیئا کثیرا، ثم عاد نائب حلب بمن معه و الأغنام تساق بین یدیه بعد أن امتلأت أیدی العساکر من النهب، و ترک أبلستین خرابا قاعا صفصفا، و عاد إلی حلب بعد غیبته عنها خمسین یوما، کل ذلک و أمراء مصر بحلب.

ثم بلغ تغری برمش بعد قدومه إلی حلب: أن ناصر الدین بن دلغادر نزل [بالقرب] من کینوک فجهز إلیه أخاه حسنا حاجب حجاب حلب، و حسن هو الأسنّ، و معه مائة و خمسون فارسا إلی عینتاب تقویة للأمیر خجاسودون، و قد نزل بها بعد أن انفرد عن العسکر المصری [۲۹] من [یوم] خرج من الدیار المصریة، فتوجه حسن المذکور بمن معه إلی خجاسودون و أقام عنده، فلما کان یوم رابع عشرین ذی الحجة من سنة تسع و ثلاثین المذکورة، وصل إلیهم الأمیر جانبک الصّوفی، و معه الأمیر قرمش الأعور، و الأمیر کمشبغا المعروف بأمیر [عشرة] أحد أمراء حلب، و کان توجه من حلب و انضم علی جانبک الصّوفی قبل تاریخه بمدة طویلة، و معه أیضا

أولاد ناصر الدين بك ابن دلغادر الجميع، ما عدا سليمان، فنزلوا على مرج دلوك، ثم ركبوا و ساروا منه إلى قتال خجاسودون بعينتاب، فركب خجا سودون أيضا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١٥، ص: ٨٠

بمماليكه و بمن معه من التركمان و العربان و قاتلهم آخر النهار، و باتوا ليلتهم.

و أصبحوا يوم الثلاثاء خامس عشرين ذى الحجة تقدم حسن حاجب الحجاب بمن معه من التركمان و العربان أمام خجاسودون، فتقدم إليهم جانبك الصّوفى بمن معه، و هم نحو الألفى فارس، فقاتلته العساكر المذكورة و قد تفرقوا [فرقتين]: فرقة عليها خجاسودون و حسن حاجب الحجاب المقدم ذكره، و فرقة عليها الأمير تمرباى اليوسفى المؤيدى دوادار السلطان بحلب، و تركمان الطاعة فى كل فرقة منهما.

و تصادم الفريقان فكانت بينهم وقعة هائلة انكسر فيها جانبك الصّوفى، و أمسك الأمير قرمش الأعور، و الأمير كمشبغا أمير عشرة، و هما كانا جناحى مملكته، و ثمانية عشر فارسا من أصحاب جانبك الصوفى، و انهزم جانبك فى أناس و تبعهم العساكر فلم يقدروا عليهم فعادوا؛ فأخذ خجا سودون قرمش و كمشبغا بمن معهما، و قيّد الجميع و سيّرهم إلى حلب؛ و كتب بذلك إلى السلطان. فقدم الخبر على السلطان فى صفر من سنة أربعين و ثمانمائة، و مع المخبر رأس الأمير قرمش الأعور و رأس الأمير كمشبغا أمير عشرة، و أنه وسّط من قبض معهما بحلب، فشهر الرأسان بالقاهرة، ثم ألقيا فى سراب الأقذار بأمر السلطان، و لم يدفنا. و دقت البشائر لذلك أياما، و فرح السلطان بذلك أياما، و أرسل إلى نائب حلب و إلى خجا سودون بالشكر و الثناء.

و من يوم ذاك، أخذ أمر جانبك الصّوفى فى إدبار، بعد ما كان اجتمع عليه ملوك و خلائق، لقلة سعده.

قلت: كان جانبك الصّوفى خاملا- لا- يتحرك بحركة إلا- و انعكست عليه طول عمره؛ و قد استوعبنا أحواله فى تاريخنا «المنهل الصافى»، و يأتى من ذكره هنا أيضا نبذة فى الوفيات و غيرها إن شاء اللّه تعالى.

[ما وقع من الحوادث سنة ٨۴٠]

ثم فى أول شهر ربيع الأول من سنة أربعين المذكورة، رسم السلطان بعزل تمراز المؤيدى عن نيابة صفد لسوء سيرته و كثرة ظلمه؛ و نقله إلى نيابة غزة، عوضا عن

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١٥، ص: ٨١

الأمير يونس الرّكنى؛ و نقل يونس المذكور إلى نيابة صفد عوضا عن تمراز المذكور، أعنى أن كلا منهما ولى عن الآخر، و حمل إليهما التقليد و التشريف الأمير دولات باى المحمودى الساقى أحد أمراء العشرات و رأس نوبة، بسفارة صهره الأمير جانم الأشرفى الأمير آخور الكبير.

ثم فى يوم الثلاثاء سادس شهر ربيع الأول المذكور، خلع السلطان على الصاحب كريم الدين عبد الكريم ابن كاتب المناخ، بعد قدومه من بندر جدّة، باستقراره وزيرا على عادته، و كانت شاغرة من مدة طويلة، و يقوم بمصارفها الزينى عبد الباسط ابن خليل.

ثم أرسل السلطان يطلب الأمراء المجردين إلى الديار المصرية، بعد ما أنعم على الأمير الكبير جقمق بألف دينار، و على كل مقدم ألف أيضا [من المجردين] بخمسمائة دينار؛ فقدموا القاهرة فى يوم الاثنين سابع عشر جمادى الأولى من سنة أربعين [المذكورة]، و طلعوا إلى القلعة و قبلوا الأرض، و خلع السلطان عليهم الخلع السنية، و أركبهم خيولا بقماش ذهب. و تأخر عن الأمراء المذكورين، الأمير خجا سودون، و كانت هذه عادته، إلى أن قدم فى يوم الاثنين ثامن جمادى الآخرة [من سنة أربعين المذكورة] و طلع [٣٠] إلى القلعة و خلع السلطان عليه و أنعم عليه بإمرة طبلخاناة زيادة على ما بيده من تقدمة ألف. ثم خلع السلطان على القاضى كمال الدين ابن البارزى باستقراره قاضى قضاة دمشق، عوضا عن السراج عمرو بن موسى الحمصى، مسئولا فى ذلك مرغوبا فى ولايته.

ثم فى يوم الخميس عاشر شهر رجب من سنة أربعين المذكورة، خلع السلطان على الأمير إينال العلائى الناصرى، المعزول عن نيابة الرها، و هو يوم ذاك من جملة مقدمى الألوف بالديار المصرية، باستقراره فى نيابة صفد عوضا عن الأمير يونس الركنى،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۸۲

و رسم بتوجه يونس المذكور إلى القدس بطالا. و خلع على الأمير طوخ من تمراز المعروف بينى بازق، أن يستقر مسفّر الأمير إينال [المذكور. ثم فى رابع عشر شهر رجب المذكور، أنعم بإقطاع الأمير إينال] و تقدمته على الأمير قراجا الأشرفى شادّ الشراب خاناة؛ و أنعم بطبلخانة قراجا على الأمير إينال الأبوبكرىّ الأشرفى الخازندار، و خلع عليه باستقراره شاد الشراب خاناة عوضه أيضا؛ و خلع السلطان على الأمير [السيفى] علىّ باى [الساقى] الخاصكى الأشرفى باستقراره خازندارا عوضا عن إينال المذكور.

ثم فى يوم الأحد عاشر [شهر] رمضان عمل السلطان مشورة بالأمراء، لما ورد عليه الخبر بأن ناصر الدين بك بن دلغادر و نزيله جانبك الصوفى زحفا بمن معهما على بلاد ابن قرمان، فاتفق رأى الجميع على سفر السلطان إلى بلاد الشام.

و أخذ الأمراء فى أهبة السفر، ثم انتقض ذلك بعد أيام، و كتب لنواب الشام بالمسير إلى نحو بلاد ابن قرمان نجدة لابن قرمان، فإن القوم أخذوا آق شهر و نازلوا قلاعا أخر.

ثم فى يوم الخميس خامس شوال خلع السلطان على قاضى القضاة علم الدين صالح البلقينى و أعيد إلى قضاء القضاة بالديار المصرية، عوضا عن الحافظ شهاب الدين بن حجر.

ثم فى يوم الثلاثاء أول ذى القعدة، قدم سيف الأمير تمرباى اليوسفى المؤيدى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۸۳

دوادار السلطان بحلب؛ و فيه أيضا قدم سيف الأمير آقباى اليشبكى الجاموس نائب الإسكندرية، بعد موتهما، فخلع السلطان فى ثالثه على الزينى عبد الرحمن ابن علم الدين داؤد بن الكويز أحد الدوادارية الصغار باستقراره فى نيابة الإسكندرية عوضا عن آقباى اليشبكى بحكم وفاته.

ثم فى يوم الخميس ثانى عشرين ذى الحجة خلع السلطان على الأمير صلاح الدين محمد بن الصاحب بدر الدين حسن بن نصر اللّه، باستقراره كاتب السر الشريف بالديار المصرية، بعد عزل القاضى محب الدين بن الأشقر، مضافا لما بيده من حسبة القاهرة و نظر دار الضرب و نظر الأوقاف و منادمة السلطان؛ و نزل فى موكب جليل و قد لبس العمامة المدورة و الفرجية هيئة أرباب الأقلام و ترك زى الأجناد، فإنه كان فى مبدأ أمره هلى هيئة الأجناد، و كانت ولايته بغير خاطر عبد الباسط بل على رغم أنفسه.

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۴۱]

ثم فى ليلة الأحد تاسع محرم سنة إحدى و أربعين و ثمانمائة، بلّغ الزينى عبد الباسط و الوزير كريم الدين و القاضى سعد الدين ناظر الخاص بأن المماليك السلطانية على عزم نهب دورهم فوزعوا ما عندهم و اختفوا، ثم طلعوا إلى الخدمة السلطانية على تخوف، و قد بلغ السلطان ذلك فأخذ يتوعدهم و يدعو عليهم بالطاعون، فلم يلتفت منهم أحد إلى كلامه، و نزل عدة كبيرة منهم فى يوم الأحد سادس عشره إلى دار عبد الباسط و إلى بيت مملوكه جانبك الأستادّار و دار الوزير كريم الدين، و نهبوا ما وجدوا فيها و أفحشوا إلى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۸۴

الغاية، و لم يعترضوا لأحد فى الطرقات خوفا من العامة.

ثم فى ثانى عشرين المحرم ورد الخبر على السلطان بأن نائب دوركى توجه فى خامس عشر المحرم، فى عدة نواب تلك الجهات و غيرهم فى نحو ألفى فارس، و ساروا حتى طرقوا بيوت الأمير ناصر الدين بن دلغادر، و قد نزل هو و الأمير جانبك الصوفى بمكان على بعد يومين من مرعش فنهبوا ما هناك و أحرقوا، ففرّ ابن دلغادر و جانبك الصوفى فى نفر قليل، و ذلك أن جموعهما كانت مع

سليمان بن ناصر الدين

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۸۵

ابن دلغادر على حصار قيصريّة الروم، فسرّ [۳۱] السلطان بذلك و أرسل إلى نائب دوركى بخلعة و شكره. ثم قدم الخبر على السلطان أن الأمير إينال الجكمى نائب الشام خرج من دمشق بعساكرها يريد حلب، و قد سارت جميع نواب الشام ليوافوا نائب حلب و يتوجهوا الجميع مددا لابن قرمان، بعد أن أرسل إينال الجكمى تقدمة هائلة للسلطان. و وصلت التقدمة المذكورة إلى القاهرة فى يوم السبت سابع صفر المذكور، و هى ذهب نقد عشرة آلاف دينار، و خيول مائتا فرس، منها ثلاثة أرؤس بسروج ذهب و كنابيش زركش، و سمّور عشرة أبدان، و وشق عشرة أبدان، و قاقم عشرة أبدان، و سنجاب مائة بدن، و بعلبكى خمسمائة ثوب، و أقواس حلقة مائة قوس، و جمال بخاتى ثلاث قطر، و جمال عراب ثلاثمائة جمل، و ثياب صوف مربع مائة ثوب.

ثم فى يوم السبت خامس شهر ربيع الأول، خلع السلطان على الأمير خليل ابن شاهين الشيخى المعزول عن نيابة الإسكندرية و الوزارة قبل تاريخه، باستقراره فى نيابة الكرك، و سار إليها من وقته.

ثم فى يوم السبت تاسع عشر [شهر] ربيع الأول المذكور من سنة إحدى و أربعين المذكورة، خلع السلطان على الصاحب جمال الدين يوسف ابن القاضى كريم الدين عبد الكريم ابن سعد الدين بركة المعروف بابن كاتب جكم، باستقراره ناظر الخاص الشريف بعد موت أخيه القاضى سعد الدين إبراهيم الآتى ذكره فى الوفيات [إن شاء اللّه تعالى].

ثم فى شهر ربيع الآخر كملت عمارة الجامع الذى أنشأه السلطان بخانقاه سرياقوس على الدرب المسلوك، و طوله خمسون ذراعا [فى عرض خمسين ذراعا]، و رتب فيه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۸۶

إماما للصلوات الخمس، و خطيبا و قراء يتناوبون القراءة، و أرباب وظائف من المؤذنين و الفراشين؛ و جاء الجامع المذكور فى غاية الحسن، إلا أن سقوفه واطئة قليلا.

ثم فى يوم السبت ثالث جمادى الأولى، ركب السلطان من قلعة الجبل إلى الصيد، بعد ما شق القاهرة، و خرج من باب القنطرة؛ و هذه أول ركبة ركبها للصيد فى هذه السنة، و تداول ذلك منه فى هذا الشهر غير مرة.

و فيه قدم الأمير تمراز المؤيّدى نائب غزة و السلطان يتصيد، و عاد السلطان فى خامسه و شق القاهرة حتى خرج من باب زويلة و مضى إلى القلعة، ثم أصبح من الغد أمسك تمراز المؤيدى المذكور و قيّده و أرسله إلى سجن الإسكندرية فسجن بها، و ذلك لسوء سيرته و لكمين كان عنده من [الملك] الأشرف، فإن تمراز هذا كان ممن ركب مع الأمير تنبك البجاسى نائب الشام، ثم اختفى و ظهر و أنعم عليه السلطان بإقطاع بدمشق، ثم نقله إلى إمرة مائة بعد سفرة آمد لشجاعة ظهرت منه فى قتال القرايلكية، ثم نقله إلى نيابة صفد فلم تحمد سيرته فعزله و ولاه نيابة غزة، فشكى منه أيضا و رمى بعظائم فطلبه و أمسكه ثم قتله بعد مدة.

فكان ما عاشه من يوم واقعة البجاسى ليوم تاريخه فائدة.

و لما أن مسك السلطان تمراز استدعى الأمير جرباش الكريمى قاشق من ثغر دمياط ليوليه نيابة غزة، فقدم جرباش و امتنع عن نيابة غزة فرسم له بالعود إلى الثغر بطالا كما كان أولا. ثم فى سابع عشره خلع السلطان على [الأمير]

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۸۷

آق بردى السيفى قجماس أحد أمراء العشرات باستقراره فى نيابة غزة عوضا عن تمراز المذكور، بمال بذله فى ذلك.

و قدم الخبر على السلطان بموت جانبك الصوفى؛ و اختلفت الأقاويل فى أمره إلى أن كان يوم السبت سابع عشر جمادى الأولى من سنة إحدى و أربعين المذكورة، قدم مملوك تغرى برمش نائب حلب إلى القاهرة برأس الأمير جانبك الصوفى، فدقت البشائر لذلك و سرّ السلطان غاية السرور بموته و لهجت الناس أن السلطان تم سعده، [و قد قيل]: [المتقارب]

إذا تمّ أمر بدا نقصه توقّ زوالا إذا قيل تمّ

[۳۲] فأمر السلطان بالرأس فطيف بها على رمح بشوارع القاهرة، و المشاعليّ ينادى عليها: «هذا جزاء من يخالف على الملوک و يخرج عن الطاعة!»، ثم ألقيت فى قناة سراب.

و كان من خبر موت جانبک [الصوفى] المذكور أنه لما كبس عليه و على ابن دلغادر نائب دوركى، فى محرم هذه السنة كما تقدم، و انكسر هو و ابن دلغادر، فمقته ابن دلغادر و افترقا من يومئذ، فسار ابن دلغادر على وجهه يريد بلاد الروم و قد تشتت شمله، و قصد جانبک الصوفى أولاد قرايلک: محمدا

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۸۸

و محمودا، و قدم عليهما فأكرماه و أنزلاه عندهما. فأخذ تغرى برمش نائب حلب يدبّر عليه بكل ما تصل القدرة إليه، و لا زال حتى استمالهما، أعنى محمدا و محمودا ابنى قرايلک، و وعدهما بجملة مال إن قبضا على جانبک المذكور، يحمل إليهما خمسة آلاف دينار، فمالا إليه و وعداه أن يقبضا على جانبک المذكور، فعلم جانبک بالخبر فشاور أصحابه فى ذلک فأشاروا عليه بالفرار إلى جهة من الجهات، فبادر جانبک و خرج من عندهما و معه عشرون فارسا من أصحابه لينجو بنفسه. و بلغ ذلک القرايلكية فركبوا و أدركوه فقاتلهم فأصابه سهم سقط منه عن فرسه، فأخذوه و سجنوه عندهم و ذلک فى يوم الجمعة خامس عشرين شهر ربيع الآخر من هذه السنة، فمات من الغد فقطع رأسه و حمل إلى السلطان، فهذا القول هو المشهور.

و قيل إن جانبک الصوفى مات بالطاعون عند أولاد قرايلک بعد أن أوعدهما تغرى برمش بالمال المقدم ذكره، و لم يقبلا منه ذلک و استمرا على إكرامه. فلما مات جانبک الصوفى بالطاعون أخفيا ذلک و قطعا رأسه و بعثا به إلى تغرى برمش.

قلت: و القول الأول هو المتداول بين الناس. و يأتى بقية ذكر جانبک الصوفى فى الوفيات [من هذا الكتاب] فى محلّه [إن شاء اللّه تعالى].

قال المقريزى، بعد أن ساق نحو ما حكيناه بالمعنى، و اللفظ مخالف: و حملت إليه الرأس- يعنى عن [الملک] الأشرف- فكاد يطير فرحا و ظن أنه قد أمن، فأجرى اللّه على الألسنة أنه قد انقضت أيامه و زالت دولته فكان كذلک هذا، و قد قابل نعم اللّه عليه فى كفاية عدوه بأن تزايد عتوه و كثر ظلمه

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۸۹

و ساءت سيرته فأخذه اللّه أخذا و بيلا، و عاجله بنقمته فلم يهنّه- انتهى كلام المقريزى.

قلت: و ما عسى الملک الأشرف كان يظلم فى تلک المدة القصيرة؟ فإن خبر جانبک الصوفى ورد عليه فى سابع عشر جمادى الأولى و ابتدأ بالسلطان مرض موته من أوائل شعبان، و لزم الفراش من اليوم المذكور، و هو ينصل ثم ينتكس إلى أن مات فى ذى الحجة. غير أن الشيخ تقى الدين المقريزى رحمه اللّه كان له انخراقات معروفة عنه و هو معذور فى ذلک، فإنه أحد من أدركنا من أرباب الكمالات فى فنه و مؤرخ زمانه، لا يدانيه فى ذلک أحد، مع معرفتى بمن عاصره من مؤرخى العلماء؛ و مع هذا كله كان مبعودا فى الدولة، لا يدنيه السلطان مع حسن محاضرته و حلو منادمته. على أن [الملک] الظاهر برقوق كان قرّبه و نادمه و ولاه حسبة القاهرة فى أواخر دولته، و مات [الملک] الظاهر فلم يمش حاله على من جاء بعده من الملوک و أبعدوه من غير إحسان؛ فأخذ هو أيضا فى ضبط مساوئهم و قبائحهم، فمن أساء لا يستوحش. على أنه كان ثقة فى نفسه ديّنا خيّرا؛ و قد قيل لبعض الشعراء:

إلى متى تمدح و تهجو؟ فقال: ما دام المحسن يحسن و المسىء يسىء- انتهى.

ثم فى يوم الجمعة ثامن جمادى الآخرة ورد الخبر على السلطان بأن إسكندر بن قرا يوسف، نزل قريبا من مدينة تبريز، فبرز إليه أخوه جهان شاه بن قرا يوسف المقيم بها من قبل شاه رخ بن تيمور لنک، فكانت بينهما وقعة هائلة انهزم فيها إسكندر إلى قلعة ألنجا من عمل تبريز فنازله جهان شاه إلى أن حصره بها أياما، و أن الأمير حمزة بن قرايلک متملّک ماردين و أرزن أخرج أخاه على بک من

مدينة آمد و ملكها منه، فقلق السلطان من هذين الخبرين و عزم على أن يسافر بنفسه إلى البلاد

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۹۰

الشامية، و كتب [۳۳] بتجهيز الإقامات بالشام، ثم أبطل ذلك بعد أيام.

و رسم فى يوم السبت سابع شهر رجب بخروج تجريدة من الأمراء إلى البلاد الشامية، و عيّن ثمانية نفر من الأمراء مقدمى الألوف: و هم قرقماس أمير سلاح، و أقبغا التّمرازى أمير مجلس، و أركماس الظاهرى الدوادار الكبير، و تمراز القرمشى رأس نوبة النوب، و يشبك السّودونى حاجب الحجاب، و جانم الأشرفى الأمير آخور الكبير، و خجا سودون و قراجا الأشرفى.

ثم فى يوم الاثنين تاسع شهر رجب نودى بأن أحدا من العبيد لا يحمل سلاحا و لا يمشى بعد المغرب، و أن المماليك السلطانية لا يتعرض لأحد من العبيد، و كان سبب هذه المناداة أنه لما أدير المحمل فى يوم الخميس خامس [شهر] رجب المذكور، فلما كان أول ليلة من الزينة نزل جماعة كبيرة من المماليك الأشرفية الذين بالأطباق من قلعة الجبل و أخذوا فى نهب الناس و خطف النساء و الصبيان، فاجتمع عدد كبير من العبيد السود و قاتلوا المماليك الأجلاب، فقتل من العبيد خمسة نفر و جرح عدة من المماليك، و خطفت العمائم و أخذت الأمتعة، ثم أخذت المماليك تتبع العبيد فقتلوا منهم جماعة، و قد كفت العبيد أيديهم عن قتالهم خوفا من السلطنة، و اختفى كثير من العبيد و قلّ مشى المماليك فى الليل إلى أن نودى لهم بهذه المناداة، فسكن الشر و مشى كلّ من الطائفتين على حاله الأول؛ ثم رسم السلطان بمنع المماليك من النزول من الأطباق إلى القاهرة إلا لضرورة.

ثم فى عاشر [شهر] رجب أنفق السلطان على الأمراء المجرّدين لكل أمير ألفى دينار أشرفية.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۹۱

ثم فى يوم الأربعاء ثامن عشره ركب السلطان من قلعة الجبل، و نزل إلى خليج الزّعفران فنزل به و أكل السماط، ثم ركب فى يومه و عاد إلى القلعة، فأصبح من الغد متوعك البدن ساقط الشهوة للغداء، و لزم الفراش، و هذا أوائل مرضه الذى مات منه؛ غير أنه تعافى بعض أيام، ثم مرض ثم تعافى حسبما يأتى ذكره.

و ورد الخبر فيه بوقوع الوباء فى بلاد الصعيد؛ و استهلّ شعبان يوم الاثنين و السلطان مريض، فأخرج فيه مالا و فرّقه على الفقراء و المساكين. فلما كان يوم الثلاثاء تاسعه تعافى السلطان و خلع على الأطباء لعافيته، و ركب من الغد و نزل من القلعة إلى القرافة و تصدّق على أهل القرافتين، و عاد و هو غير صحيح البدن. ثم فى يوم السبت ثالث عشر شعبان المذكور، نزل السلطان من القلعة إلى خارج القاهرة، و عاد و دخل من باب النصر، ثم نزل بالجامع الحاكمى، و قد قيل له إنّ بالجامع المذكور دعامة قد ملئت ذهبا، ملأها الحاكم بأمر اللّه لمعنى أنه إذا خرب يعمّر بما فى تلك الدعامة، فلما بلغ [الملك] الأشرف ذلك شرهت نفسه لأخذ المال [المذكور]، فقيل له إنك تحتاج إلى هدم جميع الدعائم التى بالجامع المذكور حتى تظفر بتلك الدعامة المذكورة، ثم لا بد لك من عمارتها، و يصرف على عمارتها جملة كثيرة لا تدخل تحت حصر، فقال السلطان ما معناه إن الذى نأخذه من الدعامة يصرف على عمارة ما نهدمه، و لا ينوبنا غير تعب السر؛ و ركب فرسه و عاد إلى القلعة.

ثم فى يوم الخميس خامس عشرين شعبان [المذكور] برز الأمير قرقماس أمير سلاح، [و قد] صار مقدم العساكر، و صحبته من تقدم ذكره من الأمراء، إلى الريدانية [خارج القاهرة] من غير أن يرافقهم فى هذه التجريدة أحد من المماليك السلطانية، فأقاموا

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۹۲

بالريدانية إلى أن سافروا منها فى يوم السبت سابع عشرين شعبان، و هذه التجريدة آخر تجريدة جرّدها الملك الأشرف من الأمراء، و كتب السلطان إلى الأمير إينال الجكمى نائب الشام و غيره من النواب أن يسافروا صحبة الأمراء المذكورين إلى حلب، و يستدعوا [۳۴] حمزة بك بن قرايلك إلى عندهم، فإن قدم عليهم خلع عليه بنيابة السلطنة فيما يليه من أعمال ديار بكر، و إن لم يقدم عليهم مشوا عليه بأجمعهم و قاتلوه حتى أخذوه، قلت: [الطويل]

أيا دارها بالخيف إنّ مزارها قريب و لكن بين ذلك أهوال

ثم قدم الخبر على السلطان بأن محمد بن قرايلك توجّه إلى أخيه حمزة بك المقدم ذكره، باستدعائه، و قد حقد عليه حمزة قتله للأمير جانبك الصوفى. فإن حمزة لما بلغه نزول جانبك الصوفى على أخويه محمد و محمود و كتب فى الحال إلى أخيه محمد هذا بأن يبعث بالأمير جانبك الصوفى إليه مكرما مبجلا، أراد حمزة يأخذ جانبك إلى عنده ليخوف به الملك الأشرف، فمال محمد إلى ما وعد به تغرى برمش نائب حلب و قتل جانبك الصوفى و بعث برأسه إليه، فأسرّها حمزة فى نفسه و ما زال يعد أخاه المذكور و يمنّيه إلى أن قدم عليه، و فى ظن محمد أن أخاه حمزة يولّيه بعض بلاده، فما هو إلا أن صار فى قبضته قتله فى الحال.

قلت: هذا شأن الباغى، الجزاء من جنس عمله، و ذلك أنه مثل ما فعل بجانبك الصوفى فعل به- انتهى.

ثم فى يوم الثلاثاء أول شهر رمضان ظهر الطاعون بالقاهرة و ظواهرها، و أول ما بدأ فى الأطفال و الإماء و العبيد و المماليك، و كان الطاعون أيضا قد عمّ البلاد الشامية بأسرها.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة؛ ج۱۵؛ ص۹۳

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۹۳

ثم فى يوم الأربعاء ثالث عشرين [شهر] رمضان [المذكور] ختمت قراءة البخارى بين يدى السلطان بقلعة الجبل، و قد حضر قضاة القضاة و العلماء و الفقهاء على العادة؛ هذا و قد تخوف السلطان من الوباء فسأل من حضر من الفقهاء عن الذنوب التى ترتكبها الناس، هل يعاقبهم اللّه بالطاعون؟ فقال له بعض الجماعة: إن الزنا إذا فشا فى الناس ظهر فيهم الطاعون، و أن النساء يتزيّنّ و يمشين فى الطرقات ليلا و نهارا؛ فأشار آخر أن المصلحة منع النساء من المشى فى الأسواق، فنازعه آخر فقال: لا تمنع إلا المتبهرجات، و أما العجائز و من ليس لها من يقوم بأمرها لا تمنع من تعاطى حاجتها. و تباحثوا فى ذلك بحثا كبيرا، إلى أن مال السلطان إلى منعهن من الخروج إلى الطرقات مطلقا، ظنّا من السلطان أن بمنعهن يرتفع الطاعون. ثم خلع السلطان على من له عادة بلبس الخلعة عند ختم البخارى.

ثم أمرهم باجتماعهم عنده من الغد، فاجتمعوا يوم الخميس و اتفقوا على ما مال إليه السلطان، فنودى بالقاهرة و مصر و ظواهرهما بمنع جميع النساء بأسرهن من الخروج من بيوتهن، و أن لا تمرّ امرأة فى شارع و لا فى سوق البتة، و تهدّد من خرجت من بيتها بالقتل و أنواع البهدلة، فامتنع جميع النساء من الخروج قاطبة، [فمنعن] فتياتهن و عجائزهن و إماءهن من الخروج إلى الطرقات. و أخذ والى القاهرة و الحجّاب فى تتبع الطرقات و ضرب من وجدوا من النساء، و تشددوا فى الردع و الضرب و التهديد، فامتنعن بأجمعهن؛ فعند ذلك نزل بالأرامل أرباب الصنائع

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۹۴

و من لا يقوم عليها أحد لقضاء حاجتها و من تطوف على الأبواب تسأل الناس من الضر و الحاجة، بأس شديد.

ثم فى يوم السبت سادس عشرينه أفرج السلطان عن جميع المسجونين حتى أرباب الجرائم، و أغلقت السجون بالقاهرة و مصر، و انتشرت السرّاق و المفسدون فى البلد، و امتنع من له عند شخص حق أنه يطالبه.

قلت: كان حال الملك الأشرف فى هذه الحركة كقول القائل: [الخفيف]

رام نفعا فضرّ من غير قصد و من البرّ ما يكون عقوقا

ثم فى سابع عشرينه عزم السلطان على أن يولى الحسبة لرجل ناهض، فذكر له جماعة فلم يرضهم، ثم قال: «عندى واحد ليس بمسلم، و لا يخاف اللّه»، و أمر فأحضر إليه دولات خجا الظاهرى [برقوق] المعزول [۳۵] عن ولاية القاهرة قبل تاريخه غير مرة، فخلع عليه باستقراره فى حسبة القاهرة عوضا عن القاضى صلاح الدين محمد ابن الصاحب بدر الدين بن نصر اللّه كاتب السر بحكم عزله، و كان رغبة السلطان فى ولاية دولات خجا هذا بسبب النساء، لما يعلم من شدته و قلة رحمته و جبروته.

و عنـد ما خلع علیه حرّضه علی عدم إخراج النسوة إلی الطرقات؛ هذا بعد أن تکلم جماعة کبیرة من أرباب الدولة مع السـلطان بسـبب ما حل بالنسوة من الضـرر لعـدم خروجهن، فأمر السـلطان عنـد ذلک فنودی بخروج الإماء لشـراء حوائـج موالیهن من الأسواق و أن لا تنتقب واحدة منهن بل یکنّ سافرات عن وجوههن، قصد بذلک حتی لا تتنکر إحداهن فی صفة الجواری و تخرج إلی الأسواق، و أن تخرج العجائز

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۹۵

لقضـاء أشـغالهن، و أن تخرج النسـاء إلی الحمامـات و لاـ یقمن بهـا إلی اللیـل، و صـار دولاـت خجا یشـد علی النسوة، و عاقب منهن جماعة کبیرة حتی انکفّ الجمیع عن الخروج البتة.

و أهلّ شوال یوم الخمیس و قـد حـلّ بالناس من الأنکاد و الضـرر ما لا یوصف من تزایـد الطاعون، و تعطل کثیر من البضائع المبتاعة علی النسوة لامتناعهن من المشـی فی الطرقات، و أیضا مما نزل بالنسوة من موت أولادهن و أقاربهن، فصارت المرأة یموت ولدها فلا تسـتطیع أن تری قبره خوفـا من الخروج إلی الطرقـات، و یموت أعز أقاربها من غیر أن تزوره فی مرضه، فشقّ ذلک علیهن إلی الغایـة، هذا مع تزاید الطاعون.

قلت: کل ذلک لعـدم أهلیة الحکام و اسـتحسان الولاة علی الخواطئ، و إلا فالحرة معروفة و لو کانت فی الخمّارة، و الفاجرة معروفة و لو کـانت فی البیت الحرام، و لاـ یخفی ذلـک علی الـذوق السـلیم؛ غیر أن هـذا کله و أمثاله لولایـة المناصب غیر أهلها، و أما الحاکم النحریر الحاذق الفطن إذا قام بأمر نهض به و تتبع الماء من مجاریه، و أخذ ما هو بصدده حتی أزاله فی أسـرع وقت و أهون حال، و لا یحتاج ذلک إلی بعض ما الناس فیه، و هو ذهاب الصالـح بالطالـح و البریء مع المجرم، و تحکم مثل هذا الجاهل فی المسـلمین الذی هو من مقولة من [قال]: [الطویل]

و لو شا ربّک لخصّهم بثلاثة قرون و أذناب و شقّ حوافر

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۹۶

و ما أحسن قول أبی الطیب المتنی فی هذا المعنی: [الطویل]

و وضع النّدی فی موضع السیف بالعلا مضرّ کوضع السیف فی موضع النّدی

انتهی.

کل ذلک و السلطان شهوته ضعیفة عن الأکل، و لونه مصفر، و آثار المرض تلوح علی وجهه، غیر أنه یتجلد [کقول القائل]: [الکامل]

و تجلّدی للشامتین أریهم أنّی لریب الدّهر لا أتضعضع

ثم فی هـذا الیوم خلع السـلطان علی الأـمیر أسـنبغا [بن عبـد اللّه الناصری] الطیّاری باسـتقراره حاجبـا ثانیـا، عوضـا عن الأمیر جانبک [السیفی یلبغا] الناصری المعروف بالثور، بحکم وفاته بمکة المشرّفة [فی] حادی عشر شعبان.

ثم فی یوم الثلاثـاء سـادس شوال المـذکور، خلع السـلطان علی قاضـی القضـاة شـهاب الـدین بن حجر، و أعیـد إلی القضاء بعـد عزل القاضـی علم الدین صالح البلقینی، بعد أن ألزم أنه یقوم لعلم الدین صالح المذکور بما حمله إلی الخزانة الشـریفة، و قد بدا للسـلطان أنه لا یولّی بعد ذلک أحدا من القضاة بمال، مما داخله من الوهم بسبب عظم الطاعون و أیضا لمرض تمادی به.

و فیه رکب السلطان من قلعة الجبل و نزل إلی خلیج الزعفران و أقام به یومه فی مخیّمه یتنزه، ثم رکب و عاد إلی القلعة فی آخر النهار بعد أن تصدّق علی الفقراء بمال

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۹۷

کثیر، فتکاثرت الفقراء علی متولی الصدقة و جذبوه حتی أرموه عن فرسه، فغضب السـلطان من ذلک و طلب سلطان الحرافیش و شیخ الطوائف و ألزمهمـا بمنع الجعیدیّـة من السؤال فی الطرقات [۳۶] و ألزمهـم بـالتکسّب، و أن من یشـحذ منهم قبض علیه و أخرج لعمل

الحقير. فامتنعوا من الشحاذة، و خلت الطرقات، و لم يبق من السّؤّال إلا العميان و الزّمنى و أرباب العاهات.

قلت: و كان هـذا من أكبر المصالـح، و عـدّ ذلک من حسن نظر الملک الأشـرف فى أحوال الرعيـة، فإن هؤلاء الجعيديّة غالبهم قوىّ سوىّ صـاحب صـنعة فى يـده، فيتركها و يشارك ذوى العاهات الـذين لا كسب لهم إلا السؤال و لو لا ذلک لماتوا جوعا، و أيضا أن غالبهم يجلس بالشوارع و يتمنىّ، ثم يقسم على الناس بالأنبياء و الصـلحاء و هو يتضجر من قسوة قلوب الناس و يقول: لى مقدار كيت و كيت باقول فى حب رسول اللّه أعطونى هذا القدر اليسير فلم يعطنى أحد.

و يجتاز به و هو يقول: «ذلک اليهودى و النصرانى!»، فيسمعون لمقالته فى هذا المعنى.

و هذا من المنكرات التى [لا] ترتضيها الحكام، و كان من شأنهم أنهم إذا سمعوا هذا القول أخذوا القائل و أوجعوه بالضرب و الحبس و المناداة على الفقراء بعدم التقسيم

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۹۸

فى سؤالهم، و التحجر عليهم بسبب ذلک فلم يلتفت أحد منهم إلى ذلک، حتى ظهر للسلطان بعض ما هم عليه فى هذه المرة فمنعهم، فما كان أحسن هذا لو دام و استمر- انتهى.

كل ذلک و السلطان يتشاغل بركوبه و تنزهه مما به من التوعک و هو لا يظهره.

فلمـا كـان يوم الأربعـاء سـابع شوال انتكس السـلطان و لزم الفراش، كـل ذلک و دولات خجا محتسب القاهرة يتتبع النسوة و يردعهن بالعـذاب و النكـال، حتى أنه ظفر مرة بامرأة و أراد أن يضـربها فـذهب عقلها من الخوف و تلفت و حملت إلى بيتها مجنونـة، و تم بها ذلک أشهرا؛ و امرأة أخرى أرادت أن تخرج خلف جنازة ولدها فمنعت من ذلک فأرمت بنفسها من أعلى الدار فماتت.

ثم فى يوم الجمعـة تاسع شوال اتفق حادثـة غريبة، و هو أن العامة لهجت بأن الناس يموتون يوم الجمعة بأجمعهم قاطبة و تقوم القيامة، فتخوّف غالب العامة من ذلک. فلما كان وقت الصـلاة من يوم الجمعة المذكور حضـر الناس إلى الصلاة، و ركبت أنا أيضا إلى جامع الأـزهر، و النـاس تزدحـم على الحمامـات ليموتـوا على طهـارة كاملـة؛ فوصـلت إلى الجـامع و جلسـت به، و أذّن المؤذنـون، ثم خرج الخطيـب على العـادة ورقى المنبر، و خطب و أسـمع النـاس إلى أن فرغ من الخطبـة الأـولى، و جلس للاستراحـة بين الخطبـتين فطـال جلوسه ساعـة كبيرة، فتقلّق النـاس إلى أن قـام و بـدأ فى الخطبـة الثانيـة، و قبل أن يتم كلامه قعـد ثانيا و اسـتند إلى جانب المنبر ساعة طويلة كالمغشى عليه، فاضطرب الناس لما سبق من أن [الناس تموت] فى يوم الجمعة بأجمعهم،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۹۹

و ظنوا صدق المقالة و أن الموت أول ما بدأ بالخطيب. و بينما الناس فى ذلک قال رجل:

«الخطيب مات!»، فارتـجّ [الجامع] و ضـجّ الناس و تباكوا، و قاموا إلى المنبر و كثر الزحام على الخطيب، حتى أفاق و قام على قـدميه و نزل عن المنبر و دخـل إلى المحراب، و صـلّى من غير أن يجهر بـالقراءة، و أوجز فى صـلاته حتى أتم الركعتين. و قـدمت عـدة جنائز فصـلى عليها الناس، و أمّهم بعضـهم. و بينما الناس فى الصلاة على الموتى إذا الغوغاء صاحت بأن الجمعة ما صحّت، و الخطيب صلى بعد أن انتقض وضوؤه لما غشـى عليه؛ و تقدم رجل من الناس و أقام و صـلى الظهر أربعا. و بعد فراغ هذا الذى صلى أربعا قام جماعة أخر و أمروا فأذّن المؤذنون بين يـدى المنبر، و طلع رجل إلى المنبر و خطب خطبتين على العادة و نزل ليصـلى، فمنعوه من التقدم إلى المحراب و أتوا بإمام الخمس فقـدّموه حتى صـلى بهم جمعـة ثانيـة. فلما انقضت صـلاته بالناس قام آخرون و صاحوا بأن هذه الجمعة الثانيـة لم تصـح، و أقاموا الصـلاة و صـلى بهم رجل آخر الظهر أربع ركعات، فكان فى هـذا اليوم بجامع الأزهر إقامـة الخطبة مرتين و صلاـة الظهر مرتين، فقمت أنا فى الحال و إذا بالناس تطيّر على السـلطان بزواله من أجل إقامـة خطبتين فى موضع [۳۷] واحد [فى يوم واحد].

هذا و مرض السـلطان فى زيادة و نمو، و كلما ترجّح قليلا خلع على الأطباء و دقّت البشائر، إلى أن عجز عن القيام فى العشـر الثانى من

شوال، هذا و قد كثر الموت بالمماليك السلطانية ثم بالدور السلطانية؛ و مات عدة من أولاد السلطان و الحريم

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۰۰

و الجوارى، و خرج الحاجّ فى يوم الاثنين تاسع عشره صحبة أمير الحاج آقبغا من مامش الناصرى المعروف بالتركمانى، و نزل إلى بركة الحاج، فمات به عدة كبيرة من الحجاج منهم ابن أمير الحاج و ابنته فى الغد. و بعده فى يوم الأربعاء حادى عشرينه، ضبط عدة من صلى عليه من الأموات بالمصليات فزادت عدتهم على ألف إنسان.

ثم فى يوم الخميس ثانى عشرينه خلع السلطان على الأطباء لعافيته و فرح الناس، و بينما هم فى ذلك إذ وسّط السلطان طبيبيه فى يوم السبت رابع عشرينه، و هما اللذان خلع عليهما بالأمس. و كان من خبر الأطباء أنه لما خلع السلطان عليهما بالأمس، و أصبح السلطان من الغد فرأى حاله فى إدبار، و كان قد قلق من طول مرضه، فشكا ما به لرئيس الأطباء العفيف الأسلمى فأمر له بشىء يشربه، فشربه السلطان فلم يوافق مزاجه و تقيأه لضعف معدته. و كان خضر الحكيم كثيرا ما يتحشّر عند رؤساء الدولة، حتى صار يداخل السلطان فى أيام مرضه اقتحاما على الرئاسة، و استمر يلاطف السلطان مع العفيف. و أصبح العفيف طلع إلى القلعة، و دخل على عادته، و إذا بالسلطان قد امتلأ عليه غضبا، و قد ظن فى نفسه أن الحكماء مقصرون فى علاجه و مداواته، و أنهم أخطأوا فى التدبير و الملاطفة، فحال ما وقع بصره على العفيف سبّه و نهره. و كان فى المجلس القاضى صلاح الدين بن نصر اللّه كاتب السر، و الصفوى جوهر الخازندار و عدة أخر من الأمراء الخاصكية، ثم قال له السلطان:

«إيش هذا الذى أسقيتنى البارحة؟». فقال العفيف: «هو كيت و كيت يا مولانا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۰۱

السلطان، و اطلب الأطباء و اسألهم هل هو موافق أم لا»، فلم يلتفت السلطان إلى كلامه و طلب عمر بن سيفا و الى القاهرة و أمره بتوسيطه، فأخذه و خرج و تماهل فى أمره حتى تأتيه الشفاعة. و بينما العفيف فى ذلك إذ طلع خضر الحكيم و هو مسرع، كون العفيف قد سبقه إلى مجلس السلطان، فكلمه العفيف فى أن السلطان إذا سأله عما وصفه له العفيف فى أمسه لا يعترض عليه، ليسكن بذلك غضب السلطان.

فحال ما دخل خضر المذكور على السلطان أمر بتوسيطه أيضا، فأخذ من بين يدى السلطان أخذا مزعجا و أضيف إلى العفيف، و هو يظن أن ذلك من حنق السلطان، و ليس الأمر على حقيقته. و تربّص الوالى فى أمرهما، فأرسل السلطان من استحثه فى توسيطهما، هذا بعد أن وقف ندماء السلطان إلى الأشرف و قبّلوا له الأرض غير مرة، و قبّلوا يده مرارا عديدة بسببهما و الشفاعة فيهما و سألوه أن يعاقبهما [بالضرب]، فأبى إلا توسيطهما. و أخذ السلطان يستحث الوالى برسول بعد رسول من الخاصكية، و الوالى يتنقل بهما من مكان إلى آخر تسويفا، إلى أن أتى بهما إلى الحدرة عند باب الساقية من قلعة الجبل. و بينما عمر فى ذلك أتاه رجل من قبل السلطان، و قال له: «أمرنى السلطان أن أحضر توسيطهما أو تحضر تجيب السلطان بما تختاره من الجواب عن ذلك»؛ فلم يجد عمر بدّا من أن أخذ العفيف

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۰۲

أولا- و حمله، فاستسلم و لم يتحرك حتى وسّط. فلما رأى خضر ذلك طار عقله و صاح و هو يقول: «عمر! الحكيم اتوسّط! عندى للسلطان ثلاثة آلاف دينار و يدعنى أعيش»، فلم يلتفت الوالى إلى كلامه و أمر به فأخذ، فدافع عن نفسه بكل ما تصل قدرته إليه و خاف خوفا شديدا، فتكاثروا عليه أعوان الوالى حتى حملوه و هو يتمرّغ، فوسّط توسيطا معذبا لتلوّيه و اضطرابه؛ ثم حملا إلى أهليهما. فعند ذلك تحقق الناس عظم ما بالسلطان من المرض و شنعت القالة فيه؛ و من يومئذ تزايد مرض [۳۸] السلطان و صارت الأطباء متخوفة من معالجته، و لا يصفون له شيئا حتى يكون ذلك بمشورة جماعة من الأطباء، و استعفى أكثرهم، و حمل الرسائل على عدم الطلوع لملاطفته.

و استمر السلطان و مرضه يتزايد، فلما كان يوم الثلاثاء رابع ذى القعدة، جمع السلطان الخليفة و القضاة الأربعة و الأمراء و أعيان الدولة، و عهد بالسلطنة إلى ولده المقام الجمالى يوسف، و كتب العهد القاضى شرف الدين أبو بكر نائب كاتب السر، لمرض كاتب السر القاضى صلاح الدين بن نصر اللّه بالطاعون. و جلس السلطان بالمقعد الذى أنشأه على باب الدّهيشة المطل على الحوش السلطانى، و قد أخرج إليه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۰۳

محمولا-من شدة مرضه و ضعف قوته، و وقف بين يديه الأمير خشقدم اليشبكى مقدم المماليك السلطانية بالحوش، و معه غالب المماليك السلطانية: الجلبان و القرانيص، و جلس بجانب السلطان الخليفة المعتضد بالله أبو الفتح داود، و القضاة و الأمير الكبير جقمق العلائى، و من تأخر عن التجريدة من الأمراء بالديار المصرية.

و قام عبد الباسط، لغيبة كاتب السر صلاح الدين بن نصر اللّه و شدة مرضه بالطاعون، و ابتدأ بالكلام فى عهد السلطان بالملك من بعده لابنه المقام الجمالى يوسف، و قد حضر أيضا يوسف المذكور مع أبيه فى المجلس، فاستحسن الخليفة هذا الرأى و شكر السلطان على فعله لذلك، فقام فى الحال القاضى شرف الدين أبو بكر [سبط] ابن العجمى نائب كاتب السر بالعهد إلى بين يدى السلطان. و أشهد السلطان على نفسه، أنه عهد بالملك إلى ولده يوسف من بعده، و أمضى الخليفة العهد، و شهد بذلك القضاة، و جعل الأمير الكبير جقمق العلائى هو القائم بتدبير أمر مملكة المقام الجمالى يوسف، و أشهد السلطان على نفسه بذلك أيضا فى العهد. ثم التفت السلطان إلى جهة الحوش، و كلم الأمير خشقدم مقدم المماليك- و قصد يسمع ذلك القول للمماليك السلطانية الجلبان- بكلام طويل، محصوله يعتب عليهم فيما كانوا يفعلونه فى أيامه و أنه كان تغير عليهم و دعا عليهم، فأرسل اللّه [تعالى] عليهم الطاعون فى سنتى ثلاث و ثلاثين ثم إحدى و أربعين فمات منهم حماعة كبيرة، و الآن قد عفا عنهم. ثم أوصاهم بوصايا كثيرة، منها أن يكونوا فى طاعة ولده، و أن لا يغيروا على أحد من الأمراء، و أن لا يختلفوا فيدخل فيهم الأجانب فيهلكوا، و أشياء من ذلك كثيرة سمعتها من لفظه لكن لم أحفظ

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۰۴

أكثرها لطول الكلام.

ثم أخذ يعرّف الجميع: القرانيص و الجلبان، أنه يموت و أنه كان عندهم ضيفا و قد أخذ فى الرحيل عنهم؛ و بكى فأبكى الناس و عظم الضجيج من البكاء، ثم أمر لهم بنفقة لجميع المماليك السلطانية قاطبة، لكل واحد ثلاثين دينارا، فقبل الجميع الأرض و ضجوا له بالدعاء بعافيته و تأييده؛ كل ذلك و هو يبكى و عقله صحيح و تدبيره جيد. و فى الحال جلس كاتب المماليك و استدعى اسم واحد واحد، و قد صرّت النفقة المذكورة، حتى أخذوا الجميع النفقة، فحسن ذلك ببال جميع الناس، و كانت جملة النفقة مائة و عشرين ألف دينار؛ و انفضّ المجلس، و حمل السلطان و أعيد إلى مكانه.

ثم فى يوم الجمعة سابع ذى القعدة خلع السلطان على الصاحب بدر الدين حسن بن نصر اللّه باستقراره فى كتابة السر بعد موت [ولده] صلاح الدين محمد بن حسن بن نصر اللّه بالطاعون، و خلع أيضا فى اليوم المذكور على نور الدين علىّ السّويفى إمام السلطان باستقراره محتسب القاهرة بعد موت دولات خجا بالطاعون، و فرح الناس بموته كثيرا.

و تزايد الطاعون فى هذه الأيام بالديار المصرية و ظواهرها حتى بلغ [عدة] من صلى عليه بمصلاة باب النصر فقط فى يوم واحد أربعمائة ميّت، و هى من جملة إحدى عشرة مصلاة بالقاهرة و ظواهرها.

و أما الأمراء المجرّدون إلى البلاد الشامية، فإنهم كانوا فى هذا الشهر رحلوا من أبلستين و توجهوا إلى آق شهر، حتى نزلوا عليها و حصروها و ليس لهم علم بما السلطان فيه.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۰۵

ثم اشتد مرض السلطان فی یوم الثلاثاء خامس عشرین ذی القعدة و احتجب عن الناس، و منع الناس قاطبة من الدخول علیه، سوی الأمیر إینال الأبوبکریّ [۳۹] الأشرفی شادّ الشراب خاناه، و علی بای الأشرفی الخازندار، و جوهر اللّالا الزّمام؛ و صار إذا طلع مباشر و الدولة إلی الخدمة السلطانیة علی العادة یعرّفهم هؤلاء بحال السلطان، و لیس أحد من أکابر الأمراء یطلع إلی القلعة، لمعرفتهم بما السلطان فیه من شدة المرض، و أیضا لکثرة الکلام فی المملکة. و قد صارت الممالیک طوائف، و ترکوا التّسییر إلی خارج القاهرة و جعلوا دأبهم التسییر بسوق الخیل تحت القلعة و الکلام فی أمر السلطان. و بطلت العلامة، و توقف أحوال الناس لاختلاط عقل السلطان من غلبة المرض علیه، و خیفت السبل و نقل الناس أقمشتهم من بیوتهم إلی الحواصل مخافة من وقوع فتنة. و أخذ الطاعون یتناقص فی هذه الأیام و هو أوائل ذی الحجة، و مرض السلطان یتزاید. و کان ابتداء مرض السلطان ضعف الشهوة للأکل، فتولد له من ذلک أمراض کثیرة آخرها نوع من أنواع الملنخولیا، و کثر هذیانه و تخلیطه فی الکلام، و لازمه الأرق و السهر مع ضعف قوته.

هذا مع أن الممالیک فی هذه الأیام صاروا طائفة و طائفة: فطائفة منهم یریدون أن یکون الأمیر الکبیر جقمق العلائی هو مدبر المملکة کما أوصاه الملک الأشرف، و هم الظاهریة البرقوقیة و الناصریة و المؤیّدیة و السّیفیة؛ و طائفة و هم الأشرفیة، یریدون الاستبداد بأمر ابن أستاذهم، کل ذلک من غیر مفاوضة فی الکلام. و بلغ الأمیر إینال الأبوبکریّ المشدّ ذلک، و کان أعقل الممالیک الأشرفیة و أمثلهم و أعلمهم، فأخذ فی إصلاح الأمر بین الطائفتین، بأن طیّب الممالیک الأشرفیة إلی الحلف علی طاعة ابن السلطان و الأمیر الکبیر جقمق العلائی، حتی أذعنوا و رضوا. فتولی تحلیفهم القاضی شرف الدین نائب کاتب السر

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۰۶

و حلّف الجمیع، ثم نزل عبد الباسط إلی الأمیر الکبیر جقمق و حلّفه علی طاعة السلطان، و بعد تحلیفه نزل إلیه الأمیر إینال المشدّ و الأمیر علیّ بای الخازندار، و قبّل کل منهما یده بمن معهما من أصحابهما، فأکرمهم جقمق و وعدهم بکل خیر، و عادوا إلی القلعة و سکن الناس و بطل الکلام بین الطائفتین.

فلما کان یوم الأربعاء عاشر ذی الحجة، و هو یوم عید النحر، خرج المقام الجمالی یوسف ولیّ العهد الشریف و صلیّ صلاة العید بجامع القلعة، و صلی معه الأمیر الکبیر جقمق العلائی و غالب أمراء الدولة، و مشوا فی خدمته بعد انقضاء الصلاة و الخطبة، حتی جلس علی باب الستارة، و خلع علی الأمیر الکبیر جقمق و علی من له عادة بلبس الخلع فی یوم عید النحر، ثم نزلوا إلی دورهم، و قام المقام الجمالی و نحر ضحایاه بالحوش السلطانی. هذا و قد حصل للسلطان نوب کثیرة من الصرع حتی خارت قواه و لم یبق إلا أوقات یقضیها؛ و استمر علی ذلک و الإرجاف یتواتر بموته فی کل وقت، إلی أن مات قبیل عصر یوم السبت ثالث عشر ذی الحجة [من] سنة إحدی و أربعین و ثمانمائة، و سنّه یوم مات بضع و ستون سنة تخمینا؛ فارتجت القلعة لموته ساعة ثم سکنوا. و فی الحال حضر الخلیفة و القضاة الأربعة و الأمیر الکبیر جقمق العلائی و سائر أمراء الدولة، و سلطنوا المقام الجمالی یوسف و لقبوه بالملک العزیز یوسف، حسبما یأتی ذکره فی محلّه. ثم أخذ الأمراء فی تجهیز السلطان، فجهز و غسل و کفن بحضرة الأمیر إینال الأحمدی الفقیه الظاهری [برقوق] أحد أمراء العشرات بوصیة السلطان له، و هو الذی أخرج علیه کلفة تجهیزه و خرجته من مال کان الأشرف دفعه إلیه فی حیاته، و أوصاه أن یحضر غسله و تکفینه و دفنه.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۰۷

و لما انتهی أمر تجهیز [الملک] الأشرف حمل من الدور السلطانیة إلی أن صلی علیه بباب القلعة من قلعة الجبل، و تقدم للصلاة علیه قاضی القضاة شهاب الدین أحمد ابن حجر، لکون الخلیفة کان [خلع] علیه خلعة أطلسین التی خلعها علیه الملک [۴۰] العزیز. ثم حمل من المصلی علی أعناق الخاصکیة و الأمراء الأصاغر، إلی أن دفن بتربته التی أنشأها بالصحراء خارج القاهرة؛ و حضرت أنا الصلاة علیه و دفنه، و کانت جنازته مشهودة بخلاف جنائز الملوک، و لم یقع فی یوم موته اضطراب و لا حرکة و لا فتنة، و نزل إلی قبره قبیل المغرب. و کانت مدة سلطنته بمصر سبع عشرة سنة تنقص أربعة و تسعین یوما، و تسلطن بعده ابنه الملک العزیز یوسف

المقدم ذكره بعهد منه إليه.

و خلّف الملک الأشرف من الأولاد العزيز يوسف و ابنا آخر رضيعا أو حملا، و هما فى قيد الحياة إلى يومنا هذا. فأما العزيز فمسجون بثغر الإسكندرية، و أما الآخر فاسمه أحمد عند عمه زوج أمه الأمير قرقماس الأشرفى رأس نوبة، و هو الذى تولى تربيته، و من أجل المقام الشهابى أحمد هذا كانت الفتنة بين المماليک الأشرفية و المماليک الظاهرية فى الباطن، لما أراد الظاهرية إخراجه إلى الإسكندرية. و أما من مات من أولاد [الملک] الأشرف فكثير، و خلّف من الأموال و التحف و الخيول و الجمال و السلاح شيئا كثيرا إلى الغاية. [و] كان سلطانا جليلا سيوسا مدبرا عاقلا شهما متجملا فى مماليكه

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۰۸

و خيوله، و كانت صفته أشقر طوالا نحيفا رشيقا منوّر الشيبة بهيّ الشكل، غير سبّاب و لا فحّاش فى لفظه، حسن الخلق لين الجانب حريصا على إقامة ناموس الملک، يميل إلى الخير، يحب سماع تلاوة القرآن العزيز حتى أنه رتب عدة أجواق تقرأ عنده فى ليالى المواكب بالقصر السلطانى دواما. و كان يكرم أرباب الصلاح و يجل مقامهم، و كان يكثر من الصوم صيفا و شتاء؛ فإنه كان يصوم فى الغالب يوم الثالث عشر [من الشهر] و الرابع عشر و الخامس عشر، يديم على ذلک. و كان يصوم أيضا أول يوم فى الشهر و آخر يوم فيه، مع المواظبة على صيام يومى الاثنين و الخميس فى الجمعة، حتى أنه كان يتوجه فى أيام صومه إلى الصيد و يجلس على السماط و هو صائم و يطعم الأمراء و الخاصكية بيده، ثم يغسل يديه بعد رفع السّماط كأنه و اكل القوم. و كان لا يتعاطى المسكرات و لا يحب من يفعل ذلک من مماليكه و حواشيه. و كان يحب الاستكثار من المماليک حتى أنه زادت عدة مماليكه المشتروات على ألفى مملوک، لو لا ما أفناهم طاعون سنة ثلاث و ثلاثين ثم طاعون سنة إحدى و أربعين هذا، فمات فيهما من مماليكه خلائق. و كان يميل إلى جنس الجراكة على غيرهم فى الباطن، يظهر ذلک منه فى بعض الأحيان، و كان لا يحب أن يشهر عنه ذلک لئلا تنفر الخواطر منه؛ فإن ذلک مما يعاب به على الملوک. و كانت مماليكه أشبه الناس بمماليک [الملک] الظاهر برقوق فى كثرتهم، و أيضا فى تحصيل فنون الفروسية؛ و لو لم يكن من مماليكه إلا الأمير إينال

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۰۹

الأبوبكريّ الخازندار ثم المشدّ، لكفاه فخرا لما اشتمل عليه من المحاسن؛ و لم يكن فى عصرنا من يدانيه فكيف يشابهه؟- انتهى.

و إلى الآن مماليكه هم معظم عسكر الإسلام، و كانت أيامه فى غاية الأمن و الرخاء من قلة الفتن و سفر التجاريد، هذا مع طول مدته فى السلطنة. و عمّر فى أيامه غالب قرى مصر قبليّها و بحريّها مما كان خرب فى دولة [الملک] الناصر فرج، [ثم] فى دولة [الملک] المؤيّد شيخ لكثرة الفتن فى أيامهما، و ترادف الشرور و الأسفار إلى البلاد الشامية و غيرها فى كل سنة. و مع هذا كله كان [الملک] الأشرف منغّص العيش من جهة الأمير جانبک الصوفى من يوم فرّ من سجنه بثغر الإسكندرية فى سابع شعبان سنة ست و عشرين و ثمانمائة، إلى أن مات جانبک قبل موته فى سنة أربعين و [ثمانمائة] حسبما تقدم ذكره.

و كان الأشرف يتصدّى [للأحكام] بنفسه، و يقتدى فى غالب أموره بطريق [الملک] المؤيّد شيخ، غير أنه كان يعيب على المؤيد سفه لسانه، إلا [الملک] الأشرف فإنه [۴۱] كان لا يسفه على أحد من مماليكه و لا خدمه جملة كافية، فكان أعظم ما شتم به أحدا أن يقول له: «حمار!»، و كان ذلک فى الغالب [يكون] مزحا. و لقد داومت خدمته من أوائل سلطنته إلى أن مات، ما سمعته أفحش فى سب واحد بعينه كائن من كان. و فى الجملة كانت محاسنه أكثر من مساوئه، و أما ما ذكره عنه الشيخ تقى الدين المقريزى فى تاريخه من المساوئ، فلا أقول إنه مغرض فى ذلک بل أقول بقول القائل: [الطويل]

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۱۰

و من ذا الذى ترضى سجاياه كلّها كفى المرء فخرا أن تعدّ معايبه

و كان الأليق الإضراب عن تلک المقالة الشنعة فى حقه من وجوه عديدة، غير أن الشيخ تقى الدين كان ينكر عليه أمورا، منها انقياده

إلى مباشرى دولته فى مظالم العباد، و منها شدة حرصه على المال و شرهه فى جمعه، و أنا أقول فى حق [الملک] الأشرف ما قلته فى حق [الملک] الظاهر برقوق فيما تقدم، فهو بخيل بالنسبة لمن تقدّمه من الملوک، و كريم بالنسبة لمن جاء بعده إلى يومنا هذا؛ و ما أظرف قول من قال: [الكامل]

ما إن وصلت إلى زمان آخر إلا بكيت على الزمان الأوّل

و أما قول المقريزى: «و انقياده لمباشريه» - يشير بذلک إلى الزينى عبد الباسط- فإنه كان يخاف على ماله منه، فلا يزال يحسّن له القبائح فى وجوه تحصيل المال، و يهوّن عليه فعلها حتى يفعلها الأشرف و ينقاد إليه بكليّته، و حسّن له أمورا لو فعلها الأشرف لكان فيها زوال ملكه، و مال الأشرف إلى شىء منها لو لا معارضة قاضى القضاة بدر الدين محمود العينى له فيها عندما كان يسامره بقراءة التاريخ، فإنه كان كثيرا ما يقرأ عنده تواريخ الملوک السالفة و أفعالهم الجميلة، و يذكر له ما وقع لهم من الحروب و الخطوب و الأسفار و المحن، ثم يفسر له ذلک باللغة التركية، و ينمقها بلفظه الفصيح، ثم يأخذ فى تحبيبه لفعل الخير و النظر فى مصالح المسلمين، و يرجعه عن كثير من المظالم، حتى لقد تكرر من الأشرف قوله فى الملأ: «لو لا القاضى العينى ما حسن إسلامنا، و لا عرفنا كيف نسير فى المملكة». و كان الأشرف اغتنى بقراءة العينى له فى التاريخ عن مشورة الأمراء فى المهمات، لما تدرب بسماعه للوقائع السالفة

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۱۱

للملوک؛ قلت: و ما قاله الأشرف فى حق العينى هو الصحيح، فإن الملک الأشرف كان أميّا صغير السن لما تسلطن، بالنسبة لملوک الترک الذين مستهم الرق، فإنه تسلطن و سنّه يوم ذاک نيف على أربعين سنة، و هو غرّ لم يمارس التجارب، ففقّهه العينى بقراءة التاريخ، و عرّفه بأمور كان يعجز عن تدبيرها قبل ذلک، منها: لما كسرت مراكب الغزاة فى غزوة قبرس، فإن الأشرف كان عزم على تبطيلها فى تلک السنة و يسيّرها فى القابل، حتى كلّمه العينى فى ذلک، و حكى له عدة وقائع صعب أولها و سهل آخرها، فلذلک كان العينى هو أعظم ندمائه و أقرب الناس إليه، على أنه كان لا يداخله فى أمور المملكة البتة، بل كان مجلسه لا ينقضى معه إلا فى قراءة التاريخ، و أيام الناس و ما أشبه ذلک؛ و من يوم ذاک حبّب إلىّ التاريخ و ملت إليه و اشتغلت به- انتهى.

و قد تقدم الكلام على أصل الملک الأشرف و كيف ملّكه [السلطان الملک] الظاهر برقوق، و على نسبته بالدّقماقى فى أول ترجمته، فلا حاجة للعيادة هنا ثانيا.

انتهى ترجمة الملک الأشرف برسباى رحمه اللّه تعالى.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۱۲

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۲۵]

السنة الأولى من سلطنة الملک الأشرف برسباى [على مصر]

و هى سنة خمس و عشرين و ثمانمائة؛ على أن الملک الصالح محمد ابن [الملک] الظاهر ططر، حكم منها إلى ثامن شهر [ربيع] الآخر، ثم حكم [فى] باقيها [الملک] الأشرف هذا.

و فيها- أعنى سنة خمس و عشرين المذكورة- توفى الشيخ الإمام العالم بدر الدين محمود ابن الشيخ الإمام شمس الدين محمد الأقصرائى الحنفى فى ليلة الثلاثاء خامس المحرم، و لم يبلغ الثلاثين من العمر، و كان بارعا ذكيا فاضلا فقيها مشاركا فى عدة فنون، حسن المحاضرة، مقربا من الملوک. و كان [۴۲] يجالس الملک المؤيّد شيخا و ينادمه، ثم عظم أمره عند [الملک] الظاهر ططر و اختص به [إلى] الغاية، و تردد الناس إلى بابه، و رشح إلى الوظائف السنية، فعاجلته المنية و مات بعد مدة يسيرة.

و توفى الشيخ علاء الدين علىّ ابن قاضى القضاة تقى الدين عبد الرحمن الزبيرى الشافعى، فى ليلة الأحد ثالث المحرم و قد أناف

على ستين سنة، بعد أن ناب فى الحكم و درّس بعدة مدارس و برع فى الحساب و الفرائض.

و توفى الأمير سيف الدين آق خجا بن عبد اللّه الأحمدى الظاهرى، و هو يلى

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۱۳

الكشف بالوجه القبلى فى العشرين من المحرم. و كان تركى الجنس، أصله من مماليك [الملک] الظاهر برقوق و ترقى حتى صار من جملة أمراء الطبلخاناه و حاجبا ثانيا، و تولى الكشف بالوجه [القبلى] و مات هناک. و لم يكن من المشكورين.

و توفى الشيخ المحدّث شمس الدين محمد بن أحمد بن معالى الحبتى الحنبلى الدمشقى فى يوم الخميس ثامن عشرين المحرم، و كان يقرأ البخارى عند السلطان، و هو أحد فقهاء الحنابلة

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۱۴

و أحد ندماء [الملک] المؤيد شيخ و أصحابه قديما، و ولّاه مشيخة المدرسة الخرّوبية بالجيزة.

و توفى مقرئ زمانه العلامة شمس الدين محمد بن على بن أحمد المعروف بالزراتينى الحنفى، إمام الخمس بالمدرسة الظاهرية برقوق، فى يوم الخميس سادس جمادى الآخرة و قد جاوز سبعين سنة؛ بعد أن كفّ بصره و انتهت إليه الرئاسة فى الإقراء بالديار المصرية و رحل إليه من الأقطار.

و توفى الأمير بدر الدين حسن بن السيفى سودون الفقيه الظاهرى صهر [الملک] الظاهر ططر و خال ولده الملک الصالح المقدم ذكره، و هو أحد مقدمى الألوف بالديار المصرية، فى يوم الجمعة ثالث عشر صفر بقلعة الجبل فى حياة والده سودون الفقيه. و كان والده سودون الفقيه حمو [الملک] الظاهر [ططر] جنديا لم يتأمّر، و صار ولده حسن هذا أمير مائة و مقدم ألف؛ فلم تطل أيامه فى السعادة فإنه كان أولا بخدمة صهر [۵] [الملک الظاهر] ططر؛ فلما تسلطن أنعم عليه بإمرة طبلخاناه دفعة واحدة؛ ثم نقله بعد مدة يسيرة إلى إمرة مائة و تقدمة ألف فعاجلته المنية و مات بعد مرض طويل. قلت- و هو مثل-: «إلى أن يسعد المعترّ فرغ عمره». و كان حسن المذكور شابا جميلا حسن الشكالة، إلا أنه كان بإحدى عينيه خلل.

و توفى الشيخ الإمام العالم برهان الدين إبراهيم بن أحمد بن على البيجورىّ الشافعى فى يوم السبت رابع عشر [شهر] رجب و قد أناف على السبعين سنة، و لم يخلف بعده أحفظ منه لفروع فقه مذهبه، مع قلة الاكتراث بالملبس و التقشف و عدم الالتفات إلى الرئاسة.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۱۵

و توفى مقدم العشير بالبلاد الشامية، بدر الدين حسن بن أحمد المعروف بابن بشاره فى سابع ذى الحجة؛ و كان له رئاسة ضخمة بالنسبة لأبناء جنسه و ثروة و مال كثير.

أمر النيل فى هذه السنة: الماء القديم خمسة أذرع و سبعة أصابع، مبلغ الزيادة عشرون ذراعا و نصف.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۱۶

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۲۶]

السنة الثانية من سلطنة الملک الأشرف برسباى [على مصر]

و هى سنة ست و عشرين و ثمانمائة:

[فيها] توفى قاضى القضاة بالمدينة النبوية، ناصر الدين عبد الرحمن بن محمد بن صالح فى ليلة السبت رابع عشرين صفر، و كان من الفقهاء أعيان أهل المدينة.

و توفى تاج الدين فضل اللّه بن الرملى القبطى ناظر الدولة فى يوم حادى عشرين صفر، بعد ما باشر وظيفة نظر الدوله عدة سنين و سئل بالوزارة غير مرة فامتنع و استمر على وظيفته، و مات و قد أناف على الثمانين سنة. قال المقريزى:

و کان من ظلمة الأقباط و فسّاقهم.

و توفی الأمیر ناصر الدین بک محمد بن علی بک بن قرمان متملّک بلاد قرمان فی صفر، من حجر أصابه فی حربه مع عساکر خوندکار مراد بک بن عثمان متملک برصّا؛ و کان ابن قرمان هذا أسر فی أیام [الملک] المؤید شیخ حسبما ذکرناه فی ترجمة [الملک] المؤید، و حبس بقلعة الجبل، إلی أن أفرج عنه [الملک] الظاهر ططر بعد موت [الملک] المؤید شیخ حسبما ذکرناه فی ترجمة المؤید [۴۳] و وجّهه إلی بلاده أمیرا علیها؛ و أولاد قرمان هؤلاء هم [من] ذریة السلطان علاء الدین کیقباد السلجوقی، المقدم ذکره فی هذا التاریخ فی محله- انتهی.

و توفی الأمیر علاء الدین قطلوبغا بن عبد اللّه التّنمیّ أحد أمراء الألوف بالدیار

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۱۷

المصریة ثم نائب صفد، بطّالا بدمشق فی لیلة السبت سادس عشر [شهر] ربیع الأول، و أصله من ممالیک [الأمیر] تنم الحسنی نائب الشام، و رقّاه [الملک] المؤید، لکون الملک المؤید کان تزوج ببنت تنم فصار لذلک حواشی تنم کأحد أصحابه.

و توفی قاضی القضاة مجد الدین سالم المقدسی الحنبلی فی یوم الخمیس تاسع عشرین ذی القعدة و قد بلغ الثمانین و تکسّح و تعطّل عدة سنین، و کان معدودا من فقهاء الحنابلة و خیارهم.

و توفیت خوند زینب بنت [السلطان] الملک الظاهر برقوق و زوجة [الملک] المؤید شیخ ثم من بعده الأتابک قجق العیساوی؛ و ماتت تحته فی لیلة السبت ثامن عشرین [شهر] ربیع الآخر، و هی آخر من بقی من أولاد [الملک] الظاهر برقوق لصلبه؛ و أمها أم ولد رومیة.

و توفی الأمیر سیف الدین تنبک بن عبد اللّه العلائی الظاهری المعروف بتنبک میق نائب الشام بها فی یوم الاثنین ثامن شعبان، و تولی نیابة دمشق من بعد الأمیر تنبک البجاسی نائب حلب الآتی ذکره، و کان تنبک میق أصله من ممالیک الملک الظاهر برقوق و ترقی بعد موته إلی أن صار أمیر مائة و مقدم ألف فی دولة [الملک] المؤید شیخ، ثم صار رأس نوبة النوب، ثم أمیر آخور کبیرا، ثم ولّاه نیابة دمشق بعد مسک آقبای المؤیدی ثم عزله بعد سنین و أنعم علیه بإمرة مائة و تقدمة ألف بالدیار المصریة، و لا زال علی ذلک حتی خلع علیه [الملک] الظاهر ططر

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۱۸

باستقراره فی نیابة دمشق ثانیا بعد جقمق الأرغون شاوی الدوادار، فأقام علی نیابة دمشق إلی أن مات فی التاریخ المذکور، و کان من أکابر الممالیک الظاهریة غیر أنه لم یشهر بدین و لا شجاعة.

و توفی الحافظ قاضی القضاة ولی الدین أبو زرعة أحمد بن الحافظ زین الدین عبد الرحیم بن الحسین [بن عبد الرحمن بن أبی بکر بن إبراهیم] العراقی الشافعی مصروفا عن القضاء، فی یوم الخمیس سابع عشرین شعبان، و مولده فی ثالث ذی الحجة سنة اثنتین و ستین و سبعمائة، و اعتنی به والده الحافظ زین الدین عبد الرحیم و أسمعه الکثیر و نشأو برع فی علم الحدیث، ثم غلب علیه الفقه فبرع فیه أیضا، و أفتی و درّس سنین، و تولی نیابة الحکم بالقاهرة، ثم تنزه عن ذلک و لزم داره مدة طویلة، إلی أن طلبه السلطان و خلع علیه باستقراره قاضی قضاة الدیار المصریة بعد وفاة شیخ الإسلام قاضی القضاة جلال الدین عبد الرحمن البلقینی فی شوال سنة أربع و عشرین و ثمانمائة، فباشر القضاء بعفة و دیانة و صیانة إلی أن صرف بقاضی القضاة علم الدین صالح البلقینی فلزم داره إلی أن مات، و لم یخلف بعده مثله فی جمعه بین الفقه و الحدیث و الدین و الصلاح، و له مصنفات کثیرة ذکرناها فی ترجمته فی تاریخنا «المنهل الصافی» إذ هو محل الإطناب فی التراجم.

و توفی الرئیس علم الدین داؤد بن عبد الرحمن بن الکویز الکرکی الأصل الملکی کاتب السر الشریف بالدیار المصریة، فی یوم الاثنین سلخ شوال و لم یبلغ

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۱۹

الخمسين سنة، و دفن خارج القاهرة، و كان اتصل بخدمة [الملك] المؤيد بالبلاد الشامية و خدم فى ديوانه و عرف به، فلما تسلطن ولاه بعد مدة نظر الجيش بالديار المصرية سنين إلى أن نقل إلى كتابة السر فى أيام [الملك] الظاهر ططر بعد عزل صهره القاضى كمال الدين البارزى بسعيه فى ذلك، فلم يشكر على فعلته، و نقل كمال الدين المذكور إلى وظيفة نظر الجيش عوضا عنه. و قد تقدم ذلك كله فى أصل ترجمة الملك الأشرف مفصلا فلينظر هناك؛ و دام علم الدين هذا فى وظيفة كتابة السرسنين إلى أن مات فى التاريخ المقدم ذكره. و كان عاقلا دينا رئيسا ضخما وجيها فى الدول، غير أنه كان عاريا من كل علم و فن، لا يعرف إلا قلم الدّيونة كما هى عادة الكتبة، و تولّى كتابة السر من بعده جمال الدين يوسف بن الصفى الكركى، فعظمت المصيبة بولاية جمال الدين [۴۴] هذا لهذه الوظيفة الشريفة التى هى الآن أعظم رتب المتعممين، لكونه غاية فى الجهل و عديم المعرفة بهذا الشأن و غيره.

أمر النيل فى هذه السنة: الماء القديم ثمانية أذرع و عشرة أصابع؛ مبلغ الزيادة ثمانية عشر ذراعا و ثلاثة و عشرون أصبعا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۲۰

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۲۷]

السنة الثالثة من سلطنة الملك الأشرف برسباى [على مصر]

و هى سنة سبع و عشرين و ثمانمائة:

[فيها] خرج الأمير تنبك البجاسى عن الطاعة و هو على نيابة دمشق، و قاتله سودون من عبد الرحمن و ظفر به و قطع رأسه و بعث به إلى الديار المصرية، و قد تقدم ذكر ذلك كله فى أصل ترجمة [الملك] الأشرف، و يأتى ذكر تنبك البجاسى فى وفيات هذه السنة.

و فيها قبض الملك الأشرف على الأتابك بيبغا المظفرى و حبسه بالإسكندرية، و قد تقدم أيضا.

و فيها مات قتيلا الأمير تنبك بن عبد اللّه البجاسى نائب الشام، بعد خروجه عن الطاعة فى أول شهر ربيع الأول؛ و هو أحد من ترقى فى الدولة الناصرية [فرج] ثم ولاه [الملك] المؤيد شيخ نيابة حماه، فخرج عن طاعته مع الأمير قانى باى العلائى نائب الشام و الأمير إينال الصصلانىّ نائب حلب و غيرهما من النواب، و دام معهما إلى أن انكسرا و قبض عليهما ففرّ تنبك هذا مع من فر من الأمراء إلى قرا يوسف ببلاد الشرق، فقام عنده هو و الأمير سودون من عبد الرحمن و الأمير طرباى إلى أن قدموا على الأمير ططر بالبلاد الشامية فى دولة [الملك] المظفر أحمد، ثم لما تسلطن ططر ولاه نيابة حماه ثانيا، ثم نقله [الملك] الأشرف إلى نيابة حلب بعد تغرى بردى أخى قصروه، و تولى بعده نيابة حماه [أغاته جار قطلو. و العجيب أن جارقطلو المذكور كان أغاة تنبك البجاسى، و ولى بعده نيابة حماه] مرتين:

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۲۱

الأولى فى الدولة المؤيدية و الثانية فى دولة ططر، ثم نقل تنبك البجاسى إلى نيابة الشام بعد موت الأمير تنبك ميق فلم تطل مدته بها و خرج عن الطاعة؛ و تولى سودون من عبد الرحمن نيابة الشام عوضه و قاتله حسبما تقدم ذكره حتى ظفر به و قتله، و كان تنبك شابا جميلا شجاعا مقداما، و هو أستاذ [جميع] البجاسيّة أمراء زماننا هذا بمصر و الشأم.

و توفى الإمام العلامة شرف الدين يعقوب بن جلال الدين رسولا بن أحمد ابن يوسف التّبانى الحنفى شيخ شيوخ خانقاه شيخون، فى يوم الأربعاء سادس عشر صفر؛ و كان فقيها بارعا فى العربية و الأصول و علمى المعانى و البيان و العقليات، و اختص [بالملك] المؤيد شيخ اختصاصا كبيرا، و تولى نظر الكسوة و وكالة بيت المال و مشيخة خانقاه شيخون، و أفتى و درّس و اشتغل و صنّف عدة سنين، و كان معدودا من علماء الحنفية.

و توفى الوزير تاج الدين عبد الرزاق بن شمس الدين بن عبد اللّه المعروف بابن كاتب المناخ فى يوم الجمعة حادى عشرين جمادى الأولى و هو غير وزير، و ابنه الصاحب كريم الدين [عبد الكريم] قد ولى الوزر فى حياته؛ و كان جد أبيه باشر دين النصرانية ثم حسن

إسلام آبائه، و کان مشکور السیرة فی ولایته للوزارة لکنه استجد فی أیام ولایته مکس الفاکهة، ثم عزل بعد مدة یسیرة و صار ذلک

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۲۲

فی صحیفته إلی یوم القیامة؛ قلت: هذا هو الشقی الذی ظلم الناس لغیره.

و توفی الأمیر سیف الدین سودون بن عبد اللّه الظاهری المعروف بالأشقر، و هو أحد أمراء دمشق، بها فی جمادی الأولی. و کان ولی شاد الشراب خاناة فی الدولة الناصریة، ثم صار فی الدولة المؤیدیة رأس نوبة النوب ثم أمیر مجلس ثم نکب و انحط قدره و حبس سنین، إلی أن أخرجه الأمیر ططر و أنعم علیه بإمرة عشرین بالقاهرة، فدام علی ذلک إلی أن أخرجه [الملک] الأشرف [برسبای] إلی الشأم علی إمرة مائة و تقدمة ألف، فدام بدمشق إلی أن مات؛ و کان غیر مشکور السیرة فی دینه و دنیاه.

و توفی الملک العادل فخر الدین أبو المفاخر سلیمان ابن الملک الکامل شهاب الدین غازی ابن الملک العادل مجیر الدین محمد ابن الملک الکامل سیف الدین أبی بکر ابن شادی، و قیل: ابن محمد بن تقی الدین عبد اللّه ابن الملک المعظم غیاث الدین توران شاه ابن السلطان الملک الصالح نجم الدین [۴۵] أیوب ابن السلطان الملک الکامل محمد ابن السلطان الملک العادل أبی بکر بن أیوب بن شادی بن مروان الأیوبی صاحب حصن کیفا من دیار بکر، و ملک بعده الحصن ابنه الملک الأشرف؛ و کان العادل

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۲۳

أدیبا شاعرا عاقلا، و له نظم جید ذکرناه فی ترجمته فی «المنهل الصافی».

و توفی خطیب مکة جمال الدین أبو الفضل ابن قاضی مکة محب الدین أحمد ابن قاضی مکة أبی الفضل محمد النویری الشافعی المکی فی شهر ربیع الآخر بمکة، و هو والد صاحبنا الخطیب أبی الفضل محمد النویری، و هم من أعیان فقهاء مکة أبا عن جد.

و توفیت خوند الکبری فاطمة زوجة السلطان الملک الأشرف و أمّ ابنه المقام الناصری محمد فی خامس عشر جمادی الآخرة، و کانت قبل الأشرف تحت الأمیر دقماق المحمدی، الذی ینتسب إلیه الأشرف بالدّقماقی، و کان والدها من أعیان تجار القرم، و کانت من الخیرات، و دفنت بقبة المدرسة الأشرفیة بخط العنبریین، و کان لها مقام کبیر عند زوجها الملک الأشرف.

و توفی الملک الناصر أحمد ابن الملک الأشرف إسماعیل ابن الملک الأفضل عباس

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۲۴

ابن الملک المجاهد علیّ ابن الملک المؤید داود بن الملک المظفر یحیی ابن الملک المنصور عمر ابن رسول، الترکمانی الأصل الیمنی المولد و المنشأ و الوفاة، صاحب بلاد الیمن و مدن ممالکه: زبید و تعزّ و عدن و المهجم و حرض و جبلة و المنصورة و المحالب و الجوّة و الدّملوّة و قواریر و الشحر و غیرهم (کذا). و کان موته فی سادس عشر جمادی الآخرة بصاعقة سقطت علیهم بحصن قواریر خارج مدینة زبید، فارتاع الملک الناصر هذا من ذلک و لزم الفراش أیاما إلی أن مات، و أقیم بعده فی ممالک الیمن الملک المنصور عبد اللّه؛ و کان الناصر هذا من شرار ملوک الیمن.

و توفی قاضی القضاة و شیخ الشیوخ بالجامع المؤیدی شمس الدین محمد بن عبد اللّه ابن سعد العبسی الدیری الحنفی المقدسی بالقدس، و قد توجه إلیه زائرا فی یوم عرفة؛ و مولده فی سنة أربع و أربعین و سبعمائة بالقدس، و هو والد شیخ الإسلام سعد الدین سعد الدیری، و کان إماما فی الفقه و فروعه، بارعا فی العربیة و التفسیر و الأصول و الحدیث، و أفتی و درّس سنین بالقدس؛ ثم طلبه [الملک] المؤید فی سنة تسع عشرة و ثمانمائة، و ولاه قاضی قضاة الحنفیة بعد موت قاضی القضاة ناصر الدین محمد ابن العدیم مسئولا فی ذلک، فباشر القضاء بعفة و دیانة و صیانة عدة سنین، إلی أن ترکه رغبة، و ولی مشیخة الجامع المؤیدی داخل باب زویلة إلی أن مات فی التاریخ المقدم ذکره.

و توفی الشیخ الصالح الزاهد المسلک أبو بکر بن عمر بن محمد الطرینی الفقیه المالکی، فی یوم عید النحر بالغربیة بمدینة المحلة [من الوجه البحری من أعمال

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۲۵

القاهرة،] و لم یخلّف بعده مثله فی کثرة العبادة و التقشف و ترک الدنیا و لذتها حتی لعلّه مات من قلة الغذاء؛ و کان یقصد للزیارة من البلاد البعیدة، و له کرامات و مصالح، یعرفه کل أحد.

أمر النیل فی هذه السنة: الماء القدیم ستة أذرع و عشرون أصبعا؛ مبلغ الزیادة سبعة عشر ذراعا و أربعة عشر أصبعا.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۲۶

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۲۸]

السنة الرابعة من سلطنة الملک الأشرف برسبای [علی مصر]

و هی سنة ثمان و عشرین و ثمانمائة:

[فیها] کانت أول غزوات الملک الأشرف التی سیّرها فی البحر حسبما تقدم ذکره.

و فیها قتل الأمیر تغری بردی [بن عبد اللّه] المؤیدی المعروف بأخی قصروه نائب حلب- کان- بقلعة حلب، بعد أن حبس بها مدة فی شهر ربیع الأول؛ و أصله من ممالیک [الملک] المؤید شیخ و أحد خاصکیته، ثم أمّره المؤید عشرة، و لما مات [الملک] المؤید أنعم علیه الأمیر ططر فی دفعة واحدة بإمرة مائة و تقدمة ألف و جعله أمیر آخور کبیرا عوضا عن طوغان الأمیر آخور، ثم ولاه نیابة حلب فعصی فی أواخر دولة ططر و خرج عن الطاعة، فولی تنبک البجاسی عوضه فی نیابة حلب؛ و مات ططر فتوجه تنبک إلیه و قاتله و هزمه [۴۶] و ملک حلب، ثم حاصره بقلعة بهسنا حتی أخذه بالأمان و حمله إلی قلعة حلب فحبس بها إلی یوم تاریخه؛ و کان شابا طائشا خفیفا غیر مشکور السیرة، [و] اقتحم الرئاسة فنالها فلم یمهله الدهر و أخذ قبل أن تتم سنته.

و توفی قاضی القضاة علاء الدین أبو الحسن علیّ ابن التاجر بدر الدین أبی الثّناء محمود بن أبی الجود أبی بکر الحموی الحنبلی المعروف بابن مغلی، قاضی قضاة الدیار المصریة، فی یوم الخمیس العشرین من المحرم و قد قارب السبعین سنة، و أصله من سلمیة، و کان آباؤه یعانون المتجر، و ولد هو بحماه و طلب العلم و قدم القاهرة شابا فی زی التجار فی سنة إحدی و تسعین، ثم عاد إلی حماه و أکب علی طلب العلم،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۲۷

حتی برع و اشتهر بکثرة الحفظ حتی أنه کان یحفظ فی کل مذهب من المذاهب الأربعة کتابا فی الفقه، و یحفظ فی مذهبه کثیرا إلی الغایة، مع مشارکة جیدة فی الحدیث و النحو و الأصول و التفسیر؛ و تولی قضاء حماه فی عنفوان شبیبته و دام بها إلی أن طلبه [الملک] المؤید و ولاه قضاء الدیار المصریة، و نزل بالقاهرة فی جوارنا بالسبع قاعات و سکن بها إلی أن مات. حدثنی صاحبنا قاضی القضاة جلال الدین أبو السعادات محمد بن ظهیرة قاضی مکة بها، قال: قدمت القاهرة فدخلت إلی ابن مغلی هذا فإذا بالقاضی ولی الدین السّفطی عنده؛ فسلمت و جلست، فأخذ السّفطی یثنی علی ابن مغلی و یعرفنی بمقامه فی کثرة العلوم، و کان مما قاله: مولانا قاضی القضاة یحیط علمه بالمذاهب الأربعة؛ فقال ابن مغلی: یا قاضی ولی الدین، أسأت فی التعریف! لم لا قلت بجمیع مذاهب السلف؟ قال: فمن یومئذ لم أجتمع به. قلت: کان عنده زهو و إعجاب بنفسه، لغزیر فضله و کثرة ماله. و قد وقع له مع العلامة نظام الدین یحیی السیرامی الحنفی بحث بحضرة السلطان الملک المؤید، فقال له القاضی علاء الدین المذکور: یا شیخ نظام الدین، أسمع مذهبک. و سرد المسألة من حفظه- و هذه کانت عادته، و بذلک کان یقطع العلماء فی الأبحاث- فجاراه الشیخ نظام الدین فی المسألة و لا زال ینقله من شیء إلی شیء حتی دخل به إلی علم المعقول، فارتبک ابن مغلی، و استظهر الشیخ نظام الدین و صاح علیه فی الملأ: مولانا قاضی القضاة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۲۸

حفظه طاح، هذا مقام التحقیق. فلم یردّ علیه- انتهی.

و الذی اشتهر به ابن مغلی کثرة المحفوظ. حکی بعض طلبة العلم، قال: استعار منی ابن مغلی أوراقا نحو عشرة کراریس، فلما أخذها منی احتجت إلی مراجعة شیء منها فی الیوم المذکور، فرجعت إلیه و قلت له: أرید أنظر فی الکراریس نظرة ثم خذها ثانیا، فقال: ما بقی لی بها حاجة، قد حفظتها؛ ثم ألقاها إلیّ و سردها من حفظه، فأخذتها وعدت و أنا متعجب من قوة حافظته.

و توفی الأدیب الشاعر زین الدین شعبان بن محمد بن داؤد الآثاری فی سابع جمادی الآخرة، و کان ولی حسبة مصر القدیمة فی الدولة الظاهریة برقوق بمال عجز عن أدائه، ففرّ إلی الیمن و اتصل بملوکها لفضیلة کانت فیه من کتابة المنسوب و نظم الشعر و معرفة الأدب فأقام بالیمن مدة ثم عاد إلی مکة و حج و قدم القاهرة، ثم رحل إلی الشام ثم عاد إلی مصر فمات بعد قدومه إلیها بأیام قلیلة. و کان له نظم جید، من ذلک ما قاله فی مدح قاضی القضاة جلال الدین البلقینی لما عزل عن القضاء بالقاضی شمس الدین الهرویّ، و اتفق مع ذلک زینة القاهرة لدوران المحمل، فتغالی فی الزینة شخص یسمی الترجمان، و علق علی باب بیته حمارا بسرّ یاقات علی رؤوس الناس، بأحسن هیئة؛ و تردد الناس إلی الفرجة علی الحمار المذکور أفواجا، فقال شعبان هذه الأبیات: [الوافر]

أقام الترجمان لسان حال عن الدنیا یقول لها جهارا:

زمان فیه قد وضعوا جلالا عن العلیا و قد رفعوا حمارا

و توفی الشیخ الإمام الأدیب الشاعر العلامة بدر الدین محمد [أبی بکر] بن عمر بن أبی بکر [بن محمد بن سلیمان بن جعفر] الدّمامینی المالکی الإسکندری [۴۷] شاعر

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۲۹

عصره بمدینة کربرکا من بلاد الهند، فی شعبان عن نحو سبعین سنة، و کان مولده و منشأه بثغر الإسکندریة، و برع فی الأدبیات و قال الشعر الفائق الرائق، و عانی دولبة عمل القماش الحریر بإسکندریة، فتحمل الدیون بسبب ذلک، حتی ألجأته الضرورة إلی الفرار، فذهب إلی الهند، فأقبل علیه ملوکها و حسن حاله بها، و أثری و کثر ماله، فلم تطل أیامه، حتی مات. و من شعره: [السریع]

لا ما عذاریک هما أوقعا قلب المحبّ الصّب فی الحین

فجد له بالوصل و اسمح به ففیک قد هام بلامین

و له، سامحه اللّه: [البسیط]

قلت له و الدّجی مولّ و نحن بالأنس فی التّلاقی

قد عطس الصبح یا حبیبی فلا تشمّته بالفراق

و له أیضا، غفر اللّه له: [الرجز]

بدا و قد کان اختفی [الرّقیب] من سراقبه

فقلت: هذا قاتلی بعینه و حاجبه

[و له]: [الرمل]

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۳۰

قم [بنا] ترکب طرف اللّهو سبقا للمدام

و اثن یا صاح عنانی لکمیت و لجام

و توفی الأمیر سیف الدین أبو بکر حاجب حجّاب طرابلس [بها]، و کان یعرف بدوادار الأمیر جکم نائب طرابلس، أظنه ترکمانیا، فإنی رأیت کلامه یشبه ذلک، و لا عرفت أصله.

و توفی الأمیر سیف الدین طوغان بن عبد اللّه الأمیر آخور، قتیلا بقلعة المرقب فی ذی الحجة، و کان أصله ترکمانیّا مکّاریّا لبغال

الأمير طولو الظاهرى نائب صفد، ثم تنقل فى الخدم حتى اتصل بالملك المؤيد شيخ أيام إمرته، و ترقى عنده ليقظة كانت فيه، حتى صار أمير آخوره، فلما تسلطن أمّره و ولّاه حجوبية دمشق، ثم نيابة صفد، ثم جعله أمير مائة و مقدم ألف بالديار المصرية، و أمير آخور كبيرا بعد الأمير تنبک ميق لما نقل إلى نيابة دمشق بعد مسک آقباى.

و لما ولى الأمير آخورية نالته السعادة و عظم فى الدولة، إلى أن عيّنه المؤيد للسفر صحبة الأتابک ألطنبغا القرمشى إلى البلاد الشامية من جملة من عيّنه من الأمراء. و مات [الملک] المؤيد، فوقع ما حكيناه من اضطراب المملكة الشامية و عصيان جقمق، فانضم طوغان هذا مع جقمق، و لا زال من حزبه إلى أن انكسر و توجه معه إلى قلعة صرخد. و لما قبض على جقمق، قبض على طوغان هذا معه و نفى إلى القدس، ثم أمسک ثم أطلق، و رسم له أن يكون بطّالا بطرابلس فدام بها

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج١۵، ص: ١٣١

مدة، فبلغ السلطان عنه ما أوجب القبض عليه و حبسه بالمرقب، ثم قتله فى التاريخ المقدم ذكره؛ و كان لا ـ فارس الخيل و لا وجه العرب.

و توفى الأمير ناصر الدين محمد بن أحمد بن عمر بن يوسف بن عبد اللّه ابن عبد الرحمن بن إبراهيم بن محمد بن أبى بكر التّنوخى الحموى الشهير بابن العطار، فى ثالث عشر شوال بالخليل عليه السلام، و هو متولّ نظره، و مولده فى سنة أربع و سبعين و سبعمائة بحماه، و بها نشأ، و تولى حجوبيتها، ثم نقل إلى دمشق، و ولى دوادارية الأمير قانى باى نائب الشام [بأمره] إلى أن نوّه القاضى ناصر الدين ابن البارزى بذكره، و استقدمه إلى القاهرة لمصاهرة كانت بينهما، فولاه [الملک] المؤيد نيابة الإسكندرية، إلى أن عزله الأمير ططر فى الدولة المظفّريّة، و تعطل فى داره سنين حتى ولاه [الملک] الأشرف نظر القدس و الخليل؛ فدام به إلى أن مات؛ و كان فاضلا عاقلا سيوسا حلو المحاضرة، يذاكر بالتاريخ و الشعر، و هو والد صاحبنا الشهابى أحمد بن العطار رحمه اللّه.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج١۵، ص: ١٣٢

و توفى الشيخ شمس الدين محمد بن أحمد البيرى الشافعى، شيخ خانقاه سعيد السعداء، فى يوم الجمعة رابع عشرين ذى الحجة [على] نحو الثمانين سنة، و هو أخو جمال الدين يوسف البيرى الأستادّار المقدم ذكره فى [۴٨] الدولة الناصرية فرج.

أمر النيل فى هذه السنة: الماء القديم خمسة أذرع و عشرة أصابع؛ مبلغ الزيادة عشرون ذراعا سواء.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج١۵، ص: ١٣٣

[ما وقع من الحوادث سنة ٨٢٩]

السنة الخامسة من سلطنة [الملک] الأشرف برسباى [على مصر]

و هى سنة تسع و عشرين و ثمانمائة.

فيها كان فتح قبرس و أخذ ملكها أسيرا حسبما تقدم ذكره فى أصل ترجمة الأشرف هذا مفصلا. [و فيها] توفى شيخ الإسلام و أحد الأئمة الأعلام، سراج الدين عمر [ابن علىّ] بن فارس شيخ شيوخ خانقاه شيخون، المعروف بقارئ الهداية فى شهر ربيع الآخر، بعد أن انتهت إليه رئاسة مذهب أبى حنيفة فى زمانه، هذا مع من كان فى عصره من العلماء، كان بارعا مفنّنا فى الفقه و أصوله و فروعه، إماما فى العربية و النحو، و له مشاركة كبيرة فى فنون كثيرة؛ و هو أول من أقرأنى القرآن بعد موت الوالد. و مات و قد صار المعول على فتواه بالديار المصرية، بعد أن تصدى للافتاء و الإقراء عدة سنين و انتفع به غالب الطلبة. و كان مقتصرا فى ملبسه و مركبه، يتعاطى حوائجه من الأسواق بنفسه، مع جميل السيرة و عظم المهابة فى النفوس، يهابه حتى السلطان، مع عدم التفاته لأهل الدولة بالكلية، حتى لعلّى لم أنظره دخل لأحد منهم فى عمره، و هو مع ذلک لا يزداد إلا عظمة و مهابة.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج١۵، ص: ١٣۴

و لما ولّاه [الملک] الأشرف مشيخة الشيخونية مسئولا فى ذلک، أراد الشيخ سراج الدين المذکور أن يحضر إلى الخانقاه المذکورة ماشيا، و کان سکنه بالمدرسة الظاهرية ببين القصرين، و امتنع من رکوب الخيل، فأرسل إليه [الملک] الأشرف فرسا و ألزمه برکوبها، فلما رکبها أخذ بيده عصاة يسوقها بها، حتى وصل إلى الخانقاه المذکورة فنزل عنها کما ينزل عن الحمار برجليه من ناحية واحدة، هذا کله و عليه من الوقار و الأبهة ما لم تنلها أصحاب الشکائم و لا کبار العمائم؛ و هو أحد من أدرکنا من الأفراد الذين مشوا على طريق فقهاء السلف رحمه اللّه [تعالى].

و تولى بعده [فى] مشيخة الشيخونية قاضى القضاة زين الدين عبد الرحمن التّفهنى الحنفى بعد عزله عن القضاء بقاضى القضاة بدر الدين محمود العينى.

و توفى الشيخ المعتقد خليفة المغربى نزيل جامع الأزهر فى حادى عشرين المحرم، فجاءة فى الحمام، [بعد ما کان انقطع بالجامع المذکور مکبّا على العبادة نيفا و أربعين سنة، و کان للناس فيه اعتقاد کبير] و يقصد للزيارة و التبرک به. و لما مات خلف مالا له صورة، و کانت جنازته مشهورة.

و توفى الأمير سيف الدين إينال بن عبد اللّه النّوروزى أمير سلاح فى أول شهر

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۳۵

ربيع الآخر بالقاهرة، و أصله من مماليک الأمير نوروز الحافظى و دواداره، ثم ولى بعده نيابة غزة ثم حماه ثم طرابلس، إلى أن نقله [الملک] الأشرف إلى إمرة مائة و تقدمة ألف بالديار المصرية، و خلع عليه باستقراره أمير مجلس، ثم أمير سلاح، فاستمر على ذلک إلى أن مات و فى نفسه أمور، فأخذه اللّه قبل ذلک. و کان متجملا فى ملبسه و مماليکه و مرکبه و سماطه إلى الغاية، و فيه مکارم و حب للعظمة مع ظلم و خلق سيئ و قلة دين و بطش بحواشيه و مماليکه و غلمانه و إظهار جبروت.

و هو صهرى، زوج أختى خوند فاطمة و مات عنها، و لکن الحق يقال على أى وجه کان؛ و فرح الناس بموته کثيرا و أولهم السلطان [الملک الأشرف] برسباى.

و توفى السيد الشريف حسن بن عجلان بن رميثة، و اسم رميثة منجّد ابن أبى نمىّ محمد بن أبى سعد حسن بن أبى غرير قتادة بن إدريس بن مطاعن ابن عبد الکريم بن عيسى بن حسين بن سليمان بن على بن عبد اللّه بن محمد ابن موسى بن عبد اللّه بن الحسن المثنّى بن أبى محمد الحسن السبط ابن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى اللّه عنه، فى يوم الخميس سادس عشر جمادى الآخرة بالقاهرة، و دفن بالصحراء بحوش [الملک] الأشرف برسباى و قد أناف على الستين سنة. و مولده بمکة، و ولى إمارتها فى دولة [الملک] الظاهر برقوق فى سنة ثمان و تسعين و سبعمائة، ثم ولى سلطنة الحجاز کله: مکة و المدينة و الينبوع من قبل الملک الناصر [۴۹] فرج فى شهر ربيع الأول سنة إحدى عشرة و ثمانمائة، و استناب عنه بالمدينة الشريفة و خطب له على منبرها. و طالت أيامه فى السعادة، على أنه وقع له أمور و حوادث و محن، و حمله ذلک على فعل أشياء ليست بمشکورة، من مصادرة التجار، و أخذ الأموال؛ و قد ذکرنا أمر خروجه من مکة و قدومه مع الأمير

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۳۶

تغرى بردى المحمودى إلى القاهرة، فى أصل هذه الترجمة و استقراره فى إمرة مکة على عادته، إلى أن مات بها قبل أن يتوجّه إلى مکة. و استقر بعده فى إمرة مکة ابنه الشريف برکات الآتى ذکره فى محله.

و توفى العلامة قاضى القضاة شمس الدين محمد بن عطاء اللّه بن محمد بن محمود بن أحمد ابن فضل اللّه بن محمد الرّازى الهروى الشافعى بالقدس فى ثامن عشر ذى الحجة، و مولده بهراة سنة سبع و ستين و سبعمائة، و کان إماما بارعا فى فنون من العلوم، و کان يقرئ على مذهب أبى حنيفة و مذهب الشافعى، و العربية و علمى المعانى و البيان، و يذاکر بالأدب و التاريخ، و يستحضر کثيرا من الأحاديث حفظا.

و صحب تيمور لنك مدة طويلة ثم قدم القاهرة، و صحب الوالد، و ولى قضاء الشافعية بالديار المصرية مرتين فلم ينتج أمره فيهما لبغض أولاد العرب له، كما هى عادة المباينة بين أولاد العرب و الأعاجم، و تعصبوا عليه و أبادوه و جحدوا علومه. و ولى كتابة السر [أيضا] بالديار المصرية أشهرا، ثم عزل و نكب و وقع له أمور فى ولايته للقضاء فى المرة الثانية، إلى أن تولى نظر القدس و الخليل، إلى أن مات هناك.

و كان شيخا ضخما طوالا أبيض اللحية مليح الشكل، غير أنه كان فى لسانه مسكة تمنعه عن الطلاقة، و له مصنفات تدل على غزير علمه و اتساع نظره و تبحره فى العلوم.

و توفى قاضى القضاة جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن خالد بن نعيم بن مقدم بن محمد ابن حسن بن غانم بن محمد بن على الطائى البساطى المالكى و هو غير قاض، فى يوم الاثنين العشرين من جمادى الآخرة، عن ثمان و ثمانين سنة؛ و كان فقيها مشاركا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۳۷

فى فنون، و عنده معرفة بالأحكام و سياسة و دربة بالأمور؛ و قد تولى قضاء الديار المصرية سنين كثيرة، و ولى حسبة القاهرة أشهرا، ثم صرف و لزم داره إلى أن مات.

و توفى الأمير الكبير سيف الدين قجق بن عبد اللّه العيساوى الظاهرى أتابك العساكر بالديار المصرية، فى تاسع شهر رمضان، و هو أحد المماليك الظاهرية و ممن أنشأه [الملك] الناصر فرج، و صار أمير مائة و مقدم ألف بالديار المصرية، ثم ولى حجوبية الحجاب فى الدوله المؤيدية [شيخ]، ثم أمسك و حبس إلى أن أطلقه الأمير ططر و ولاه أمير مجلس ثم صار أمير سلاح فى أوائل دولة الملك الصالح، ثم صار أتابك العساكر بالديار المصرية بعد مسك الأتابك بيبغا [بن عبد اللّه] المظفرى، إلى أن مات فى التاريخ المذكور.

و كان قجق أميرا عاقلا عارفا بفنون الفروسية رأسا فى ركوب الخيل و لعب الكرة، مع بخل و شح زائد و حسن شكالة، و كان تركى الجنس رحمه اللّه تعالى.

و توفى تاج الدين محمد بن أحمد المعروف بابن المكلّلة و بابن جماعة، فى ثامن شهر ربيع الآخر، و كان ولى حسبة القاهرة بالمال فلم تطل مدته و عزل عنها.

و توفى القاضى شمس الدين محمد بن عبد اللّه أحد أعيان موقّعى الدست بالديار

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۳۸

المصرية المعروف بابن كاتب السّمسرة و بابن العمرى، فى يوم الأربعاء العشرين من شعبان، و كان له و جاهة فى الدولة، معدودا من أعيان الديار المصرية رحمه اللّه [تعالى]:

أمر النيل فى هذه السنة: الماء القديم أربعة أذرع و خمسة أصابع؛ مبلغ الزيادة عشرون ذراعا سواء كالسنة الخالية.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۳۹

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۳۰]

السنة السادسة من سلطنة الملك الأشرف برسباى على [مصر]

و هى سنة ثلاثين و ثمانمائة.

[فيها] توفى الشيخ الإمام المعتقد زاهد وقته و فريد عصره، أحمد بن إبراهيم ابن محمد اليمنى الأصل الرومى البرصاوى المولد و المنشأ، المصرى الدار و الوفاة، المعروف بابن عرب الحنفى، فى ليلة الأربعاء ثانى شهر ربيع الأول بخلوته بخانقاه شيخون، فغسّل بها و حمل إلى مصلاة المؤمنى على رؤوس الأصابع، [۵۰] و نزل السلطان [الملك] الأشرف و حضر الصلاة عليه، و أمّ بالناس قاضى القضاة بدر الدين محمود العينى الحنفى، ثم حمل و أعيد إلى الشيخونية فدفن بها؛ و كان له مشهد عظيم إلى الغاية، و أبيع بعده ما كان عليه

من الثياب بأثمان غالية للتبرك بها.

قلت: و ابن عرب هذا أعظم من أدركناه من العبّاد الزهاد فى الدنيا و عدم الاجتماع بالملوك و من دونهم، و الاقتصار فى المأكل و الملبس؛ و كان أولا ينسخ للناس بالأجرة، و هو مكب على طلب العلم و العبادة سنين طويلة، إلى أن استقر من جملة صوفية خانقاه شيخون، بمبلغ ثلاثين درهما [فى] الشهر، فتعفّف بذلك عن النسخ، و انقطع عن مجالسة الناس، و سكن بخلوة فى الخانقاه المذكورة و أعرض عن كل أحد، و أخذ فى الاجتهاد فى العبادة، و اقتصر على ملبس خشن حقير إلى الغاية، و صار يقنع بيسير القوت و لا ينزل من خلوته إلا ليلا لشراء قوته،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة؛ ج۱۵؛ ص۱۳۹

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۴۰

ثم يعود إلى منزله فى كل ثلاثة أيام مرة واحدة بعد عشاء الآخرة. و كان من شأنه إذا حاباه أحد من السّوقة فيما يشتريه من قوته، تركه و ما حاباه به. فلما عرف منه ذلك ترك الباعة محاباته و وقفوا عندما يشير إليهم به. و كان فى كل شهر خادم الخانقاه يحمل إليه الثلاثين درهما فلا يأخذها إلا عددا، لأن المعاملة بالفلوس وزنا حدثت بعد انقطاعه عن الناس، و كان لا يعرف إلا المعاددة، و كان لا يقبل من أحد شيئا البتة.

و كان يغتسل بالماء البارد صيفا و شتاء فى بكرة نهار الجمعة، و يمضى إلى صلاة الجمعة من أول نهار الجمعة، و يأخذ فى الصلاة و القراءة. و كان يطيل قيامه فى الصلاة بمقدار أن يقرأ فى كل ركعة حزبين من غير أن يسمع له قراءة و لا تسبيح، و كان لا يرى نهارا إلا عند ذهابه يوم الجمعة إلى الجامع، و كان يعجز السلطان و من دونه فى الاجتماع به؛ و يحكى عنه كرامات كثيرة، ذكرنا بعضها فى ترجمته فى المنهل الصافى، رحمه اللّه تعالى و نفعنا ببركته.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۴۱

و توفى الأمير سيف الدين قشتم بن عبد اللّه المؤيدى الدوادار، الذى كان ولى نيابة الإسكندرية فى دولة [الملك] المظفر أحمد، ثم قبض عليه و أخرج بعد مدة إلى حلب على إمرة بها، و استمر بحلب إلى أن خرج مع نائبها الأمير قصروه لقتال التركمان، فقتل فى المعركة فى المحرم. و كان غير مشكور السيرة، و هو أخو إينال المؤيدى المعروف بأخى قشتم؛ و كلاهما ليس بشىء، من المهملين.

و توفى الشيخ المحدّث الفاضل شهاب الدين أحمد بن موسى بن نصير المتبولى المالكى فى يوم الأربعاء ثامن شهر ربيع الأول، عن خمس و ثمانين سنة. و قد حدّث عن عمر ابن [الحسن بن مزيد المعمر المسند الرحلة زين الدين أبى حفص المراغى الحلبى الشهير بابن] أميله، و ست العرب، و جماعة؛ و ناب فى الحكم سنين [رحمه اللّه تعالى]

و توفى الشيخ شهاب الدين أحمد بن يوسف بن محمد بن الزعيفرينى الدمشقى الشاعر فى شهر ربيع الأول، و كان ينظم الشعر، و يكتب المنسوب، و يتكلم فى معرفة علم الحرف، و يتكلم أيضا فى المغيبات، و مال إليه بسبب ذلك جماعة من الأكابر،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۴۲

و أثرى، و امتحن فى سنة اثنتى عشرة و ثمانمائة، و قطع الملك الناصر لسانه و عقدتين من أصابعه، و رفق به المشاعلى عند قطع لسانه فلم يمنعه ذلك من الكلام.

و كان سبب هذه المحنة أنه نظم لجمال الدين الأستادار ملحمة أو همه أنها ملحمة قديمة، و أنه يملك مصر؛ و بلغ ذلك الملك الناصر [فرج] فأمر به ما ذكرناه.

و لما قطعت أصابعه، صار يكتب بعد موت [الملك] الناصر بشماله، فكتب مرة إلى قاضى القضاة صدر الدين على [بن محمد] بن الآدمى [الدمشقى] الحنفى يقول:

[الطويل]

لقد عشت دهرا فى الكتابة مفردا أصوّر منها أحرفا تشبه الدّرّا

و قد عاد خطى اليوم أضعف ما ترى و هذا الذى يسّر اللّه لليسرى

فأجابه قاضى القضاة صدر الدين المذكور: [الطويل]

لئن فقدت يمناك حسن كتابة فلا تحتمل همّا و لا تعتقد عسرا

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۴۳

[۵۱] و أبشر ببشر دائم و مسرّة فقد يسّر اللّه العظيم لک اليسرى

و توفى الأمير الطواشى الرومى شبل الدولة كافور الصّرغتمشى زمام دار السلطان و قد قارب الثمانين سنة من العمر، فى يوم الأحد خامس عشرين شهر ربيع الآخر، و أصله من خدام الأمير صرغتمش الأشرفى، ثم أخذه الأتابک منكلى بغا الشمسى و أعتقه. و ترقى إلى أن ولاه الملک الناصر فرج زمام داره، فدام على ذلک إلى أن عزل بعد موت الملک المؤيد بمرجان الخازندار الهندى، ثم أعيد إليها بعد مدة. و هو صاحب التربة العظيمة بالصحراء، و بها خطبة و عمارة هائلة، و له مدرسة أخرى أنشأها بخط حارة الديلم من القاهرة. و تولى بعده الزمامية الأمير الطواشى خشقدم الظاهرى الخازندار.

و توفى الشيخ الأديب البارع المفنن بدر الدين محمد بن إبراهيم بن محمد المعروف بالبشتكى الظاهرى المذهب، فى يوم الاثنين ثالث عشرين جمادى الآخر، فجاءة فى حوض الحمام. و كان من تلامذة الشيخ جمال الدين بن نباتة فى الأدب، و كان أحد الأفراد فى كثرة النسخ: كان ينسخ فى اليوم خمس كراريس، فإذا تعب اضطجع على جنبه و كتب كما يكتب و هو جالس، فكتب مالا يدخل تحت حصر، و كثيرا ما يوجد ديوان شعر ابن نباتة بخطّه؛ [و من شعره]: [الوافر]

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۴۴

و كنت إذا الحوادث دنسّتنى فرغت إلى المدامة و النّديم

لأغسل بالكؤوس الهمّ عنى لأن الراح صابون الهموم

و كان بينه و بين ابن خطيب داريّا أهاجىّ و مكاتبات، ثم بينه و بين شرف الدين عيسى العالية المعروف بعويس؛ [و فيه يقول عويس المذكور]: [المتقارب]

[أ] يا معشر الصّحب منّى اسمعوا مقالى و كسّ أخت من ينتكى

ألا فالعنوا آكلين الحشيش و بولوا على شارب البشتكى

قلت: و البشتكى ضرب من المسكرات مثل التّمر بغاوى و الشّشش. [و له أيضا فيه]:

صحبت جندى لوغيّه فى السكر و أنواع الشروب

كيف ما أجى ألقاه سكران و البشتكى تحتو مكبوب

و توفى قاضى القضاة نجم الدين عمر بن حجّى بن موسى بن أحمد بن سعد الحسبانّى السّعدى الدمشقى الشافعى، قاضى قضاة دمشق و كاتب السر بالديار المصرية، مذبوحا على فراشه ببستانه بالنّيرب خارج دمشق، فى ليلة الأحد مستهل ذى القعدة، عن ثلاث

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۴۵

و ستين سنة، و نسب قتله للزينى عبد الباسط، و للشريف شهاب الدين أحمد كاتب سر دمشق ثم مصر؛ و كان القاضى نجم الدين فقيها بارعا فاضلا كريما حشما وقورا، له مكارم و أفضال و سؤدد، و هو أحد أعيان أهل دمشق و فقهائهم [رحمه اللّه تعالى].

و قد تقدم ذكر محنته عندما ولى كتابة سر مصر فى ترجمة [الملک] الأشرف [هذا]، فلينظر هناک.

و توفى الملک المنصور عبد اللّه ابن الملک الناصر أحمد ابن الملک الأشرف إسماعيل، صاحب اليمن فى جمادى الأولى بها، و أقيم بعده أخوه الملک الأشرف إسماعيل ثم خلع بعد مدة، و أقيم بعده الملک الظاهر هزبر الدين يحيى ابن [الملک] الأشرف إسماعيل

فی ثالث شهر رجب؛ و قد تقدم ذكر نسبه فی ترجمة والده من هذا الكتاب فی سنة سبع و عشرين و ثمانمائة. و فی أيام هؤلاء الملوک، تلاشی أمر اليمن، و طمع فيها كل أحد.

و توفی القاضی بدر الدين محمد بن محمد بن محمد [بن إسماعيل بن علی البدر أبو عبد اللّه القرشی] القلقشندی الشافعی أمين الحكم بالقاهرة، فی يوم الاثنين رابع عشرين المحرم؛ و كان مولده أيضا فی أول المحرم من سنة إحدى و أربعين و سبعمائة، و كانت لديه فضيلة و عنده مشاركة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۴۶

و توفی القاضی تقی الدين محمد بن زكی الدين عبد الواحد بن عماد الدين محمد ابن قاضی القضاة علم الدين أحمد الإخنائی المالكی أحد نوّاب الحكم بالقاهرة و هو بمكة، فی ثالث ذی الحجة، عن ثلاث و ستين سنة، و كان من بيت فضل و علم و رئاسة.

[۵۲] أمر النيل فی هذه السنة: الماء القديم أربعة أذرع و خمسة أصابع؛ مبلغ الزيادة عشرون ذراعا سواء.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۴۷

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۳۱]

السنة السابعة من سلطنة الملک الأشرف برسبای [علی مصر]

و هی سنة إحدى و ثلاثين و ثمانمائة.

[و] فيها توفی أمير الملأ عذرا بن نعير بن حيّار بن مهنّا مقتولا فی المحرم.

و توفی الأمير الفقيه سيف الدين بكتمر بن عبد اللّه السعدی، أحد أمراء الطبلخانات بالديار المصرية، فی يوم الخميس ثالث عشر [شهر] ربيع الأول، بسكنه بدار أستاذه القاضی سعد الدين إبراهيم بن غراب بخط قنطرة طقزدمر، و لم يخلّف بعده فی أبناء جنسه مثله بل و لا فی غير أبناء جنسه، لما اشتمل عليه من المحاسن: كان فاضلا دينا عاقلا شجاعا بارعا فی فنون الفروسية، انتهت إليه الرئاسة فی حمل المقيّرة و رمی النّشّاب فی زمانه، هذا مع البشاشة و الكرم و حسن الشكل و التواضع و حسن المحاضرة و جودة المشاركة فی كل علم و فن، مع الفصاحة فی اللغة التركية و العربية، و الدين المتين و العفّة عن المنكرات و الفروج؛ و لا- أعرف من يدانيه فی محاسنه، فكيف يشابهها! و كان طوالا جسيما ضخما ذا قوة مفرطة، مليح الشكل، و اللحية مدورة بادية الشيب، قبض مرة بأكتاف شخص من أعيان الخاصكيّة المشاهير بالقوة، و هزّه و أفلته، ثم قال له: ما بقی

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۴۸

فيک شیء يا فلان، فلم ينطق ذلک الرجل بكلمة و ذهب خجلا لكثرة دعاويه، فقلت لبكتمر: هذا الذی أنت فيه من كثرة الإدمان، فقال: منذ بلغت الحلم و أنا متزوج، غير أننی لا أهمل نفسی، فقلت له: هذه منح إلاهيّة. و لما مات أنعم [السلطان] بطبلخانته علی الأمير قجقار جغتای السيفی بكتمر جلّق، و مات بكتمر السعدی هذا و سنه نحو خمسين سنة تخمينا، و كان رومی الجنس رحمه اللّه تعالی.

و توفی الأمير سيف الدين جانبک [بن عبد اللّه] الأشرفی الدوادار الثانی و عظيم دولة أستاذه الأشرف برسبای فی يوم الخميس سابع عشرين [شهر] ربيع الأول، و سنّه نحو خمسة و عشرين سنة تخمينا، و دفن بمدرسته التی أنشأها بخط القربيين خارج باب زويلة علی الشارع، ثم نقل منها بعد مدة إلی تربة أستاذه بالصحراء، و حضر السلطان غسله ثم الصلاة عليه؛ و كان أشيع عنه أن نفسه تحدثه بالملک، فعاجلته المنية. و كان أصله من مماليک [الملک] الأشرف برسبای، اشتراه صغيرا فی أيام إمرته و قاسی معه خطوب الدهر أيام حبسه بقلعة المرقب و غيرها، و لما تسلطن [الملک] الأشرف عرف له ذلک مع محبته له، فرقّاه و أنعم عليه بإمرة عشرة و جعله خازندارا، ثم أرسله بتقاليد الأمراء نواب الشأم: تنبک البجاسی و غيره، ثم أنعم عليه بعد حضوره بإمرة طبلخاناة، و خلع عليه بالدوادارية الثانية عوضا عن [الأمير] قرقماس الشعبانی الناصری بحكم انتقاله إلی إمرة مائة و تقدمة ألف، فعظم فی الدولة و نالته

السعادة، حتى تزايد أمره و خرج عن الحد من كثرة إنعامه و إظهار الجميل و الأخذ بالخواطر، حتى ركن إليه غالب أعيان الدولة من الخاصكيّة،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١٥، ص: ١٤٩

و كثر ترداد الناس إليه، و صار أكابر الدولة مثل عبد الباسط و غيره تتردد أيضا إليه إلى خدمته، [إذا سمح لهم بذلك، و له عليهم الفضل]؛ و صار أمره فى نمو و زيادة، و قصده الناس من الأقطار لقضاء حوائجهم. و بينما هو فى ذلك و قد اشتغل الناس به و أشير إليه بالأصابع، و قد مرض و لزم الفراش مدة و نزل [السلطان] إلى عيادته مرة، ثم رسم بطلوعه إلى القلعة، فحمل إليها و تولى السلطان تمريضه، فأفاق قليلا و ترعرع، فأنزل إلى داره. و كان سكنه بالدار التى فى سوق القبو الحسينى، و للدار باب من حدرة البقر، و هى الآن سكن الأمير يشبك الفقيه المؤيدى؛ و عند نزوله إليها عاوده المرض، و نزل إليه ثانيا فوجده كما قيل: [السريع]

لم يبق إلا نفس خافت و مقلة إنسانها باهت

يرثى له الشّامت ممّا به يا ويح من يرثى له الشّامت

[٥٣] و بعد طلوعه مات فى تلك الليلة، فنزل السلطان إلى داره و حضر غسله- كما تقدم- و الصلاة عليه.

و كان أميرا شابا حلو الشكالة، للقصر أقرب، أخضر اللون مليح الوجه صغير اللحية مدوّرها، فصيحا ذكيا حاذقا، متحركا متجمّلا فى مركبه و ملبسه و سماطه إلى الغاية، يكتب كتابة ضعيفة و يقرأ، إلا أنه كان عاريا لم يسبق له اشتغال، و ما كان دأبه إلا فيما هو فيه من الأمر و النهى و تنفيذ الأمور؛ و اتّهم السلطان بموته، و اللّه أعلم بحاله.

و توفى الشيخ المعتقد الصالح سعيد المغربى نزيل جامع الأزهر، به، فى يوم

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١٥، ص: ١٥٠

الأربعاء تاسع عشر شهر ربيع الأول، بعد أن جاور بجامع الأزهر عدة سنين.

و كان للناس فيه اعتقاد كبير، و له كرامات و يقصد للزيارة و التبرك بدعائه؛ زرته غير مرة، و مات و قد علا سنه و طال مرضه، و ترك نحو الألفى دينار ما بين ذهب و فضة و فلوس.

و توفى الأمير سيف الدين أزدمر [بن عبد اللّه] من على جان الظاهرى المعروف بأزدمر شايا، فى سادس [شهر] ربيع الآخر، و هو أحد أمراء حلب بعد أن تنقل فى عدة إمريات بالشأم و مصر، و صار أمير مائة و مقدم ألف بديار مصر، ثم أخرج إلى نيابة ملطية، ثم نقل إلى إمرة بحلب إلى أن مات بها. و قد تقدم التعريف بحاله عند إخراجه من مصر فى ترجمة [الملك] الأشرف، و مات و سنّه نيف على خمسين سنة. و كان من سيئات الدهر: لم يشهر بدين و لا كرم و لا شجاعة و لا معرفة و لا عقل، مع كبر و جبروت و ظلم و سوء خلق، و كان قصيرا نحيفا أصفر دميما حقيرا فى الأعين، و عدّ إخراجه من مصر [من] محاسن [الملك الأشرف].

و توفى الأمير [سيف الدين] كمشبغا [بن عبد اللّه] الجمالى الظاهرى أحد أمراء الطبلخانات بطّالا، فى يوم الجمعة رابع جمادى الأولى، و قد علا سنه؛ و كان من أكابر المماليك الظاهرية [برقوق] و ممن تأمّر فى أيام أستاذه. و كان تركى الجنس عاقلا فقيها ديّنا خيرا عفيفا عن المنكرات و الفروج، و طالت أيامه فى الإمرة، و تولى نيابة قلعة الجبل فى الدولة الناصرية [فرج]، و استمرّ من جملة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١٥، ص: ١٥١

أمراء الطبلخانات فى صدر من الدولة الأشرفية [برسباى] إلى أن أخرج [الملك] الأشرف إقطاعه، فلزم داره على أحسن وجه إلى أن مات و هو فى عشر الثمانين.

و توفى الأمير الكبير سيف الدين يشبك بن عبد اللّه الساقى الظاهرى الأعرج أتابك العساكر بالديار المصرية، فى يوم السبت ثالث جمادى الآخرة؛ و كان أصله من مماليك الملك الظاهر برقوق و من أعيان خاصكيته، و صار ساقيا فى أيام أستاذه الظاهر.

ثم ثار على الملك الناصر فى أيام تلك الفتن، و وقع له أمور و حروب انصاب فى بعضها بجرح أصابه، بطل منه شقته و صار يعرج

منه عرجا فاحشا، ثم عوفى، و انتمى للأمير نوروز الحافظى إلى أن ولّاه نيابة قلعة حلب، إلى أن أمسكه [الملك] المؤيد شيخ و حبسه بعد قتل نوروز؛ ثم نفاه إلى مكة بطّالا سنين عديدة، إلى أن استقدمه [الملك] الظاهر ططر [إلى القاهرة]، و مات قبل أن ينعم عليه بإمرة؛ فأنعم عليه الملك الأشرف برسباى بإمرة مائة و تقدمة ألف عوضا عن قرمش الأعور دفعة واحدة، ثم صار أمير سلاح، ثم ولى أتابكية العساكر بعد الأمير قجق العيساوى، فاستمر على ذلك إلى أن مات [فى التاريخ المقدم ذكره].

و كان من رجال الدهر عقلا و حزما و دهاء و معرفة و تدبيرا، مع مشاركة جيدة فى الفقه و القراءات، و معرفة تامة بفنون الفروسية و أنواع الملاعيب، كالرمح

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۵۲

و النّشاب و غيره، و كان يكتب المنسوب و يحفظ القرآن. و كانت نفسه تحدثه بأمور، فإنه كان يكثر من ذكر أخبار تيمور لنك و شدة بأسه لكونه كان أعرج، و قد صار أمره إلى ما صار، و هو الذى حسّن [للملك] الأشرف الاستيلاء على بندر جدة، و القبض على حسن بن عجلان، و لو عاش لحسّن له أخذ اليمن كله.

و تولى الأتابكية بعده الأمير جارقطلو [۵۴] الظاهرى.

و توفى بدر الدين حسن كاتب سر دمشق و ناظر جيشها، بها، فى يوم الأربعاء لستّ بقين من جمادى الآخرة؛ و كان أصله من سمرة دمشق، و خدم عند الأمير بكتمر جلّق نائب دمشق، ثم ترقّى إلى أن جمع له بين كتابة سر دمشق و نظر جيشها، بسفارة الأمير أزبك المحمدى الدوادار الكبير، كون أزبك كان متزوجا ببنت زوجته.

و توفى الشيخ الإمام العالم المفنن شمس الدين محمد بن عبد الدائم بن موسى البرماوى الشافعى، أحد فقهاء الشافعية و مدرس المدرسة الصلاحية بالقدس الشريف، فى يوم الخميس ثانى عشرين جمادى الآخرة و قد أناف على ستين سنة، بعد ما أفتى و أشغل عدة سنين.

و توفى القاضى بدر الدين حسن بن أحمد بن محمد البردينى الشافعى أحد نواب القضاة الشافعية، فى يوم الاثنين خامس عشرين [شهر] رجب و قد أناف على الثمانين سنة، و كان قاضى سوء لم يشهر بعلم و لا دين.

أمر النيل [فى هذه السنة]: الماء القديم ثلاثة أذرع سواء، مبلغ الزيادة:

عشرون ذراعا سواء.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۵۳

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۳۲]

السنة الثامنة من سلطنة الملك الأشرف برسباى [على مصر]

و هى سنة اثنين و ثلاثين و ثمانمائة:

[فيها] توفى الشيخ ناصر الدين محمد بن عبد الوهاب بن محمد البارنبارى الشافعى أحد فقهاء الشافعية، فى ليلة الأحد حادى عشر [شهر] ربيع الأول، و قد أناف على التسعين سنة، و كان بارعا فى الفقه و أصوله و العربية و الحساب مشاركا فى عدة فنون، و خطب و درّس و أفتى و أقرأ عدة سنين بدمياط و القاهرة.

و توفى القاضى نور الدين على الصفّطى وكيل بيت المال و ناظر الكسوة، فى ليلة الثلاثاء سلخ جمادى الآخرة، و كان يباشر الشهادة بديوان العلائى آقبغا التّمرازى أمير مجلس، و عند أستاذه تمراز من قبله.

و توفى الشريف عجلان بن نعير بن منصور بن جمّاز بن منصور بن جماز بن حمّاد ابن شيحة بن هاشم بن قاسم بن مهنأ بن حسين بن مهنأ بن داود بن قاسم بن عبد اللّه ابن طاهر بن يحيى بن الحسين بن جعفر بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى اللّه عنه، مقتولا فى

ذی الحجة، بعدما ولی إمارة المدینة النبویة غیر مرة.

و توفی الأدیب المعتقد نور الدین علی بن عبد اللّه الشهیر بابن عامریة، فی یوم

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۵۴

الخمیس سادس عشر [شهر] ربیع الآخر بمدینة التحریریة بالغربیة من أعمال القاهرة؛ و کان شاعرا أدیبا مکثرا، و أکثر شعره فی المدائح النبویة.

و توفی الواعظ المذکّر شهاب الدین أحمد بن عمر بن عبد اللّه المعروف بالشابّ التائب بدمشق، فی یوم الجمعة ثانی عشر [شهر] رجب عن نحو سبعین سنة؛ و کانت لدیه فضیلة، و رحل إلی البلاد، و صحب المشایخ، و نظم الشعر علی قاعدة الصوفیة، و حصل له قبول تام من الناس.

و توفی العبد الصالح شمس الدین محمد بن إبراهیم بن أحمد الصوفی، بعد ما عمی بسنین، فی لیلة الثلاثاء ثالث عشر المحرم، و مولده فی سنة تسع و أربعین.

قال المقریزی: و هو أحد من صحبته من أهل العبادة و النسک، و رأس مدة، و اتصل بالملک الظاهر برقوق، و ولی نظر البیمارستان المنصوری بالقاهرة، و جال فی الأقطار و رحل إلی بغداد و الحجاز و الیمن و الهند رحمه اللّه تعالی.

و توفی الأمیر شمس الدین محمد بن سعید المعروف بسویدان، أحد أئمة السلطان، فی یوم الاثنین سابع صفر؛ و کان أبوه عبدا أسود، سکن القرافة و ولد له ابنه هذا، و حفظ القرآن الکریم و قرأ مع الأجواق فأعجب الملک الظاهر برقوق صوته فجعله أحد أئمته، و استمر علی ذلک إلی دولة [الملک] الناصر فرج فولاه حسبة القاهرة، ثم عزله بعد مدة فعاد کما کان أولا، یقرأ فی الأجواق عند الناس و یأخذ الأجرة علی ذلک، و صار رئیس جوقة و استقرأته أنا کثیرا، و کان أسود اللون طوالا.

و توفی الشیخ المعتقد [محمد بن عبد اللّه بن حسن بن الموّاز فی یوم الأحد حادی عشر ربیع الأول].

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۵۵

[و توفی] الشیخ شمس الدین محمد بن إبراهیم بن عبد اللّه الشّطنوفی الشافعی فی لیلة الاثنین سادس عشرین [شهر] ربیع الأول و قد قارب الثمانین، و برع فی الفقه و الفرائض و غیر ذلک و درّس عدة سنین و انتفع به جماعة کبیرة من الطلبة.

و توفی القاضی بدر الدین محمد بن محمد بن أحمد بن مزهر الدمشقی النابلسی کاتب السر [۵۵] الشریف بالدیار المصریة، بها، فی لیلة الأحد سابع عشرین جمادی الآخرة عن نحو الخمسین سنة؛ و کان من بیت رئاسة، ولی أبوه کتابة سر دمشق، و باشر بدر الدین هذا کتابة الإنشاء بدمشق، و اتصل بخدمة الأمیر شیخ المحمودی نائب دمشق.

فلما قدم شیخ إلی مصر بعد قتل [الملک] الناصر فرج، قدم ابن مزهر هذا معه مع من قدم من الشامیین، و لما تسلطن شیخ ولّاه نظر الإسطبل السلطانی فدام علی ذلک سنین، ثم ناب عن القاضی کمال الدین محمد بن البارزی فی کتابة السر، و قام بأعباء الدیوان فی أیام علم الدین داؤد بن الکویز و من بعده، إلی أن خلع علیه [السلطان الملک] الأشرف برسبای باستقراره کاتب السر [الشریف] بالدیار المصریة، فباشر الوظیفة بحرمة وافرة، و أثری و کثر ماله، إلی أن مات فی التاریخ المذکور.

قال: و خلف مالا کثیرا لطمع کان فیه و شح.

و توفی الشریف خشرم بن دوغان بن جعفر بن هبة اللّه بن جمّاز بن منصور بن جمّاز بن شیحة الحسینی، أمیر المدینة، مقتولا أیضا فی حرب فی ذی الحجة.

أمر النیل فی هذه السنة: الماء القدیم خمسة أذرع و سبعة أصابع، مبلغ الزیادة:

تسعة عشر ذراعا و ستة عشر أصبعا.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۵۶

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۳۳]

السنة التاسعة من سلطنة [الملك] الأشرف برسباى [على مصر] و هى سنة ثلاث و ثلاثين [و ثمانمائة]: فيها كان الطاعون العظيم الذى لم ندرك بمثله بمصر و قراها، بل و بغالب البلاد الشامية، حسبما ذكرناه فى ترجمة [الملك] الأشرف هذا فى وقته.

و كان هذا الطاعون أعظم من هذه الطواعين كلها و أفظعها، و لم يقع بالقاهرة و مصر بعد الطاعون العام الذى كان سنة تسع و أربعين و سبعمائة نظير هذا الطاعون؛ و خالف هذا الطاعون الطواعين الماضية فى أمور كثيرة، منها أنه وقع فى الشتاء و ارتفع فى فصل الربيع، و كانت الطواعين تقع فى فصل الربيع و ترتفع فى أوائل الصيف، و أشياء غير ذلک ذكرناها فى محلها.

[و فيها] توفى القاضى شرف الدين أبو الطيب محمد ابن القاضى تاج الدين

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۵۷

عبد الوهاب بن نصر اللّه الغزّى الأصل، المصرى، فى ليلة الأربعاء سابع عشر ربيع الأول، و دفن بالصحراء، و مات بغير الطاعون؛ و مولده فى ليلة السبت حادى عشرين ذى القعدة سنة سبع و تسعين و سبعمائة، و نشأ بالقاهرة و اشتغل يسيرا و خدم الأمير ططر موقّعا عدة سنين، فلما تسلطن رشحه لنظر الجيش فلم يتم له ذلک، و ولى نظر الكسوة، و نظر أوقاف الأشراف، ثم نظر دار الضرب إلى أن مات. و كان شابا كريما و فيه محبة لأهل العلم و الفضل و الصلاح، إلا أنه كان فيه حدة مزاج و بادرة مع تدين و تحشّم.

و توفى الأمير سيف الدين أزبک [بن عبد اللّه] المحمدى الظاهرى برقوق الدوادار الكبير، بالقدس بطّالا، فى يوم الثلاثاء سادس عشر [شهر] ربيع الأول؛ و هو أحد المماليک الظاهرية [برقوق] و ترقّى إلى أن صار أمير مائة و مقدم ألف بدمشق، ثم قبض عليه [الملک] المؤيد شيخ بعد واقعة نوروز و حبسه سنين، إلى أن أطلقه فى أواخر دولته، و أنعم عليه بإقطاع هيّن بدمشق أمير عشرة.

فلما أن صار الأمر إلى [الأمير] ططر أنعم عليه بإمرة طبلخاناة بديار مصر، ثم صار أمير مائة و مقدم ألف، ثم رأس نوبة النّوب بعد الأمير قصروه [من تمراز] فى

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۵۸

أوائل الدولة الأشرفية، ثم نقل إلى الدوادارية الكبرى بعد سودون من عبد الرحمن، لما نقل إلى نيابة دمشق بعد عصيان تنبک البجاسى، فدام فى الدوادارية إلى أن أشيع عنه أنه يريد الوثوب على السلطان، و لم يكن لذلک صحة، فأخرجه السلطان إلى القدس بطّالا، و مسفرّه الأمير قراخجا الحسنى رأس نوبة، فدام بالقدس إلى أن مات.

و كان أميرا ضخما عاقلا حشما مهابا دينا عفيفا عن المنكرات و الفروج، خليقا للإمارة، و هو أحد من تولى تربيتى رحمه اللّه [تعالى]، و لقد كان به تجمّل فى الزمان و أهله.

و توفى القاضى كريم الدين عبد الكريم بن سعد الدين بركة المعروف بابن كاتب جكم، ناظر الخاصّ [الشريف] فى ليلة الجمعة العشرين من [شهر] ربيع الأول بغير طاعون و دفن بالقرافة، و حضر السلطان الصلاة عليه بمصلاة المؤمنى؛ و تولى ابنه القاضى [۵۶] سعد الدين إبراهيم وظيفة نظر الخاص من بعده، و قد تطاول أعناق بنى نصر اللّه و غيرهم إلى الوظيفة فلم يلتفت السلطان إلى أحد، و ولاها لسعد الدين المذكور.

و كان القاضى كريم الدين المذكور رئيسا حشما متواضعا كريما بشوشا هيّنا ليّنا ساكتا عاقلا، باشر فى ابتداء أمره استيفاء الدولة، ثم نظر الدولة، و غيرهما من خدم أعيان الأمراء، آخرهم [الملک] الأشرف برسباى، إلى أن طلبه [السلطان الملک] الأشرف و ولاه نظر الخاص [الشريف] بعد عزل الصاحب بدر الدين حسن بن نصر اللّه عنها، و استقراره أستادارا، فى يوم الاثنين ثانى عشر جمادى الأولى سنة

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۵۹

ثمان و عشرين و ثمانمائة، و كان ذلك آخر عهد بنى نصر اللّه بهذه الوظيفة. و استقر فى نظر الدولة من بعده أمين الدين إبراهيم بن الهيصم.

و باشر القاضى كريم الدين الوظيفة بحرمة وافرة، و نالته السعادة و عظم فى الدولة و أثرى، و مشى حال الخاص فى أيامه، حتى قيل إنه منذ ولى الخاص إلى أن توفى لم يبطل الواصل عنه يوما واحدا، مبالغة فى إقبال سعده و تيامن الناس بولايته، و مات من غير نكبة [رحمه اللّه تعالى].

و توفى الأمير [سيف الدين] كمشبغا بن عبد اللّه الفيسى المزوّق الظاهرى منفيا بدمشق، فى رابع عشر [شهر] ربيع الآخر و قد ناهز الستين سنة من العمر؛ و أصله من مماليك [الملك] الظاهر برقوق، و رقاه [الملك] الناصر فرج إلى أن جعله أمير آخور كبيرا مدة يسيرة، ثم عزله [الملك] الناصر أيضا، ثم وقع له أمور و انحطّ قدره فى دولة [الملك] الأشرف برسباى، و تولى كشف البر، و ساءت سيرته من كثرة ظلمه و قلة دينه مع الإسراف على نفسه؛ و فى الجملة فمستراح منه و من مساوئه.

و توفى السيد الشريف على بن عنان بن مغامس بن رميثة، تقدّم أن اسم رميثة منجد بن أبى نميّ، و قد ذكرنا بقية نسبه فى ترجمة الشريف حسن بن عجلان و غيره، [فلينظر هناك]. و كانت وفاته بقلعة الجبل فى يوم الأحد ثالث جمادى الآخرة بالطاعون، و كانت لديه فضيلة، و يذاكر [ب] الشعر و غيره.

و توفى الأمير الكبير سيف الدين بيبغا بن عبد اللّه المظفّرى، و هو أمير مجلس، فى ليلة الأربعاء سادس جمادى الآخرة بالطاعون، و هو أحد أعيان المماليك الظاهرية

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۵، ص: ١۶٠

[برقوق] و ممن ترقى فى الدولة الناصرية [فرج] حتى صار أمير مائة و مقدم ألف بالديار المصرية، و صار من يوم ذاك ينتقل فى الإمرة و الحبوس شاما و مصرا و إسكندرية، فكان حاله أشبه بقول القائل: [المتقارب]

[و] يوم سمين و يوم هزيل و يوم أمرّ من الحنظله

و ليل أبيت جليس الملوك و ليل أبيت على مزبله

إلى أن خلع عليه الأشرف [برسباى] باستقراره أتابك العساكر بالديار المصرية بعد الأمير طرباى، فأقام على ذلك نحو ثلاث سنين أو دونها، و قبض عليه [الملك] الأشرف و حبسه أيضا بالإسكندرية، و ذلك لبادرة كانت فيه، و مخاشنة فى كلامه مع الملوك، مع سلامة الباطن، و لذلك كان كثيرا ما يحبس ثم يفرج عنه.

و قد تقدم التعريف بحاله عندما أمسكه [الملك] الأشرف فى أصل ترجمة الأشرف مستوفاة، فدام بيبغا المذكور فى السجن مدة طويلة، ثم أطلقه السلطان و سيّره إلى دمياط بطّالا، ثم نقله إلى القدس فلم تطل مدته، و طلبه السلطان و أنعم عليه بإمرة مائة و تقدمة ألف، و خلع عليه باستقراره أمير مجلس.

و لما ولى إمرة مجلس، صار يقعد على ميسرة السلطان فوق أمير سلاح، مراعاة لما سبق له من الرئاسة من الأتابكية و غيرها، و كون أمير سلاح كان الأمير إينال الجكمى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۵، ص: ١۶١

- أحد السّيفيّة - ينظره فى عينه أنه مملوك بعض خجدا شيّته. و كان بيبغا أميرا جليلا شجاعا مهابا مقداما، مع كرم و سلامة باطن و فحش فى خطابه، [من غير سفه على عادة جنس الأتراك، و مع هذا كله كان فيه دعابة حلوة يحتمل بها فحش خطابه و انحرافه]، و هو أعظم من رأيناه من الملوك فى أبناء جنسه [رحمه اللّه].

و توفى الأمير سيف الدين بردبك [السيفى] يشبك بن أزدمر المعروف بالأمير آخور، و هو أحد مقدمى الألوف بالديار المصرية فى يوم الأحد عاشر جمادى الآخرة بالطاعون، و هو فى الكهولية، و كان خدم بعد موت أستاذه يشبك ابن أزدمر [۵٧] عند الأمير ططر و

صـار أمير آخوره، فلمـا تسـلطن ولّاه الأمير آخوريـة الثانيـة بإمرة طبلخانـة دفعـة واحـدة، و دام على ذلک سـنين إلى أن نقله [الملک] الأشرف إلى إمرة مائة و تقدمة ألف بالديار المصرية؛ فدام على ذلک إلى أن مات.

و كان شابا أشـقر مليـح الشـكل حلو الوجه معتدل القامة عاقلا حشـما ساكتا كريما متواضـعا وقورا، قل أن ترى العيون مثله، و هو والد صاحبنا الزينى فرج ابن بردبک أحد الحجاب بالديار المصرية.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۶۲

و توفى المقام الناصرى محمد ابن السلطان [الملک] الأشرف برسباى [صاحب الترجمة] فى يوم الثلاثاء سادس عشرين جمادى الأولى بالطاعون و قـد ناهز الاحتلام، و دفن بمدرسـة والـده الأشـرفية بخط العنبريين من القاهرة، و أمه خونـد فاطمـة من أولاد تجار القرم، و كانت قبل [الملک] الأشرف تحت أستاذه الأمير دقماق المحمدى.

و كان المقام الناصرى [المذكور] من أحسن الناس شكلا، تظهر فيه مخايل النجابة و السكون و العقل.

و توفى المقـام الناصـرى محمـد ابن السـلطان الملک الناصـر فرج ابن [السـلطان الملک الظاهر] برقوق ابن [الأمير] أنص [الجاركسـى] بسـجن الإسـكندرية فى يوم الاثنين حادى عشـرين جمادى الآخرة بالطاعون، و له من العمر إحدى و عشرون سنة، و أمه أم ولد مولّدة تسمى عاقولة، و دفن بالإسكندرية ثم نقل منها إلى تربة جده بالصحراء فيما أظن.

و توفى الشـيخ الإمام العالم العلامة، فريد عصـره و وحيد دهره، نظام الدين يحيى ابن العلامة سـيف الدين يوسف بن محمد بن عيسى السيرامى الحنفى شيخ الشيوخ بالمدرسة الظاهرية البرقوقية، فى جمادى الآخرة بالطاعون، و تولى مشيخة الظاهرية من بعده ولده عضد الـدين عبـد الرحمن، أخـذها عن أبيه، و كـان أبوه أخـذها عن أبيه أيضـا. و كـان الشـيخ نظـام الـدين إمامـا مفننا بارعا فى المعقول و المنقول عارفا بالمنطوق و المفهوم، مشاركا فى فنون كثيرة، و أفتى و درّس و أشغل سنين عديدة إلى أن مات.

و توفى السلطان الملک الصالح محمد ابن [السلطان] الملک الظاهر ططر، و السلطان الملک

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۶۳

المظفّر أحمد ابن [السـلطان] الملک المؤيد شيخ، و الخليفة المستعين بالله العباسى، الثلاثة بالطاعون، كلاهما فى إسكندرية، و الصالح بقلعـة الجبل، و قـد تقـدم ذكر ذلک فى ترجمتهم غير أننا ذكرناهم هنا فى جملـة من مات بالطاعون، و لهذا لم يحرر يوم وفاتهم لأنه تقدم [- انتهى].

و توفى الأمير الطواشى زين الدين مرجان الهندى المسلمى خازندار [الملک] المؤيد شيخ بالطاعون فى سادس جمادى الآخرة، و كان أصـله من خدام التاجر ابن مسـلم المصرى، ثم اتصل بخدمة [الملک] المؤيد شيخ أيام إمرته و اختص به، فلما تسلطن جعله خازندارا، ثم أمره بالتكلم فى وظيفة نظر الخاص عوضا عن الصاحب بدر الدين حسن بن نصـر اللّه فتكلّم عليها أياما. و مات المؤيد، و أعيد ابن نصـر اللّه، ثم ولّـاه الأـمير ططر زمامـا بعـد أن قبض عليه بـدمشق، ثم أطلقه، فـدام فى وظيفـة الزماميـة إلى أن عزله [الملک] الأشـرف برسباى و نكبه و صادره فتخومل و لزم داره إلى أن مات. و كان من المهملين أرباب الحظوظ.

و توفى الأمير زين الدين عبد القادر ابن الأمير فخر الدين عبد الغنى ابن الوزير

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۶۴

تـاج الـدين عبـد الرزّاق بن أبى الفرج، بعـد مـا عزل عن الأسـتادارية، فى يوم الأربعـاء سابع جمادى الآخرة بالطاعون، و دفن على أبيه بمدرسـته ببين السورين خـارج القـاهرة. و كـان شابـا جميلاـ عاقلا ساكنا قليل الشـر بالنسـبة إلى آبائه و أقاربه، كثير الشـر بالنسـبة إلى غيرهم. باشـر الأسـتادارية بقلـة حرمـة و عدم التفات أهل الدولة إليه، و قاسـى فى مباشـرته خطوب الدهر ألوانا من العجز و القلّ و بيع موجوده و أملاكه، إلى أن أعفى فلم تطل أيامه و مات.

و توفى السـيد الشـريف شهاب الدين أحمد بن علاء الدين على بن إبراهيم بن عدنان الحسينى الدمشقى، كاتب السر الشريف بالديار

المصرية، فى ليلة الخميس ثامن جمادى الآخرة بالطاعون، و مولده فى شوال سنة أربع و سبعين و سبعمائة بدمشق و بها نشأ، و تولى عدة وظائف بدمشق مثل كتابة السر [۵۸] و قضاء الشافعية و نظر الجيش، ثم طلب إلى مصر و ولى كتابة سرها فلم تطل أيامه و مات.

و تولى أخوه الشريف عماد الدين أبو بكر كتابة السر من بعده، فركب إلى القلعة ثم مرض من يومه قبل أن يلبس خلعة كتابة السر، و مات بالطاعون أيضا فى ليلة الجمعة ثالث عشر شهر رجب و لم يبلغ الأربعين سنة، و كان أحسن سيرة من أخيه شهاب الدين صاحب الترجمة.

و توفى السيد الشريف سرداج بن مقبل بن نخبار بن مقبل بن محمد بن راجح ابن إدريس بن حسن بن قتادة بن إدريس، و من هنا يعرف نسبه من نسب حسن ابن عجلان؛ مات فى أواخر جمادى الآخرة بالطاعون.

و توفى الأمير الطواشى افتخار الدين ياقوت بن عبد اللّه الأرغونى شاوى الحبشى مقدم المماليك السلطانية بالطاعون، فى يوم الاثنين ثانى [شهر] رجب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۶۵

و دفن بتربته التى أنشأها بالصحراء، و تولى عوضه التقدمة نائبه خشقدم اليشبكى الرومى، و تولى نيابة المقدم الطواشى فيروز الركنى الرومى الجمدار. و أصل ياقوت هذا من خدام الأمير أرغون شاه أمير مجلس الظاهر برقوق، تنقل فى الخدم إلى أن صار مقدم المماليك السلطانية، و كان ديّنا خيّرا جميل الطريقة محمود السيرة، سافر أمير حاجّ المحمل مرتين رحمه اللّه تعالى.

و توفى الأمير سيف الدين يشبك بن عبد اللّه أخو الملك الأشرف برسباى فى رابع [شهر] رجب بالطاعون و دفن بالتربة الأشرفية، بعد أن صار من جملة أمراء الألوف أياما؛ فإن السلطان كان أنعم عليه فى أول قدومه إلى مصر فى حدود سنة ثلاثين و ثمانمائة بإمرة طبلخاناة دفعة واحدة، فدام على ذلك إلى أن توفى الأمير بردبك الأمير آخور المقدم ذكره بالطاعون، فأنعم على يشبك هذا بتقدمته فمات هو أيضا بعد أيام، و قد تقدم فى أصل ترجمة [الملك] الأشرف ذكر هذا الطاعون و عظمه، و أنه كان ينتقل على الإقطاع الواحد الخمسة و الستة من المماليك فى مدة يسيرة، و الكل يموتون بالطاعون [- انتهى].

و أظن يشبك أنه كان أسنّ من السلطان الأشرف، فإنه لما استقدمه من بلاده مع جملة أقاربه قام له و اعتنقه، و عرض عليه الإسلام فأسلم و حسن إسلامه، و كان لا بأس به فى أمثاله مع قصر مدة إقامته بالديار المصرية.

و توفى الشيخ نصر اللّه بن عبد اللّه بن محمد بن إسماعيل العجمى الحنفى، فى ليلة الجمعة سادس [شهر] رجب و هو فى عشر الثمانين. و كان جميل الهيئة مقربا من خواطر الملوك، و رشح لكتابة السر، و كان يكتب المنسوب و يتكلم فى علم التصوف

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۶۶

على طريق ابن عربى، و يعرف علم الحرف على زعمه، مع مشاركة فى فنون، و صحب الوالد مدة، و هو الذى نوه بذكره و أنعم عليه برزقة هائلة، و هى التى أوقفها نصر اللّه المذكور على داره التى جعلها بعد موته مدرسة بالقرب من خان الخليلى بالقاهرة.

و توفى القاضى فخر الدين ماجد- و يدعى أيضا عبد اللّه بن السّديد أبى الفضائل بن سناء الملك- المعروف بابن المزوّق، فى ليلة الخميس ثانى عشر [شهر] رجب، بعد أن تولى نظر الجيش، ثم كتابة السر بالديار المصرية فى دولة [الملك] الناصر فرج، بسفارة سعد الدين إبراهيم بن غراب، ثم عزل و تولى نظر الإسطبل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۶۷

السلطانى ثم عزله عنه أيضا، و انحطّ قدره فى الدولة إلى أن نكبه [السلطان] الملك الأشرف و أمسكه و ضربه بالمقارع بسبب الأتابك جانبك الصوفى، و قاسى بسببه أهوالا ثم لزم داره على أقبح حالة من الخوف و الرجيف إلى أن مات.

و توفى الشيخ الإمام العالم الفقيه زين الدين أبو بكر بن عمر بن عرفات القمنىّ الشافعى العالم المشهور، فى ليلة الجمعة ثالث عشر [شهر] رجب بالطاعون عن ثمانين سنة؛ و كان من أعيان فقهاء الشافعية و فضلائهم، و له سمعة وصيت و ترداد للأكابر، و أفتى و درّس

بعدة مدارس سنين [كثيرة].

و توفى الأمير سيف الدين هابيل بن عثمان المدعو قرايلك بن طرعلى التركمانى الأصل بسجنه بقلعة الجبل، فى يوم الجمعة ثالث عشر [شهر] رجب المذكور. و كان قبض على هابيل [۵۹] هذا و هو نائب لأبيه قرايلك بمدينة الرّها فى واقعة بين العساكر المصرية و بينه، حسبما تقدم ذكره كله فى أصل هذه الترجمة. و لما قبض عليه حمل إلى القاهرة فحبسه [الملك] الأشرف بالبرج بقلعة الجبل، إلى أن مات بالطاعون بعد أن سأل أبوه السلطان فى إطلاقه غير مرة.

و توفى الشيخ الإمام العالم العلامة صدر الدين أحمد ابن القاضى جمال الدين محمود ابن محمد بن عبد اللّه القيصرى الحنفى المعروف بابن العجمى، شيخ الشيوخ بخانقاه شيخون، فى يوم السبت رابع عشر [شهر] رجب بالطاعون، بعد أن ولى نظر

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۶۸

جيش دمشق و حسبة القاهرة غير مرة، وعدة وظائف دينية، و درّس بعدة مدارس آخرها استقراره فى مشيخة الشيخونية و تدريسها. و كان إماما بارعا فاضلا فقيها نحويا مفننا فى علوم كثيرة، معدودا من علماء الحنفية، مع الذكاء و حسن التصور و جودة الفهم، رحمه اللّه تعالى.

و توفى القاضى جلال الدين محمد ابن القاضى بدر الدين محمد بن مزهر فى يوم الاثنين سادس عشرين [شهر] رجب و لم يبلغ العشرين سنة من العمر، و كان ولى كتابة السر بالديار المصرية [بعد وفاة أبيه أشهرا صورة، و القاضى شرف الدين أبو بكر بن العجمى نائب كاتب السر] هو المتكفل بمهمات ديوان الإنشاء، إلى أن عزله السلطان و خلع عليه بعد مدة بتوقيع المقام الناصرى محمد ابن السلطان، فماتا جميعا فى هذا الطاعون. و كان جلال الدين [المذكور] من أحسن الشباب شكلا.

و توفى القاضى زين الدين محمد بن شمس الدين محمد بن محمد بن أحمد بن عبد الملك الدميرى المالكى فى يوم الأربعاء ثالث شعبان، بعدما ولى حسبة القاهرة و نظر البيمارستان المنصورى؛ و كان معدودا من الرؤساء.

و توفى شمس الدين محمد بن المعلمة السكندرى المالكى فى سابع شعبان، و كان يشارك فى العربية و غيرها؛ و ولى حسبة القاهرة فى وقت، و كان مسرفا على نفسه.

و توفى الأمير مدلج بن علىّ بن نعير بن حيّار بن مهنّا أمير آل فضل مقتولا فى ثانى شوال بظاهر حلب.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۶۹

و توفيت خوند هاجر- زوجة [الملك] الظاهر برقوق و بنت الأتابك منكلى بغا الشّمسى- فى رابع [شهر] رجب، و كانت تعرف بخوند الكعكبين، [لسكنها بخط الكعكيين بالقاهرة] و أمها خوند فاطمة بنت [الملك] الأشرف شعبان [بن حسين بن محمد بن قلاوون] و ماتت و هى أعظم نساء عصرها رئاسة و عراقة.

و توفى القاضى تقى الدين يحيى ابن العلامة شمس الدين محمد الكرمانى الشافعى فى يوم الخميس ثانى عشرين جمادى الآخرة، و كان بارعا فى عدة فنون. و قدم من بغداد قبيل سنة ثمان مائة و معه شرح أبيه على صحيح البخارى، ثم صحب [الملك] المؤيد شيخ أيام تلك الفتن، و سافر معه إلى طرابلس و غيرها و تقلب معه فى سائر تقلباته، ثم قدم معه القاهرة، فلما تسلطن أقره فى نظر البيمارستان [المنصورى]، و كان ثقيل السمع، ثم عزل و لزم داره حتى مات.

أمر النيل فى هذه السنة: الماء القديم ستة أذرع و ثلاثة أصابع؛ مبلغ الزيادة عشرون ذراعا و نصف ذراع.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۷۰

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۳۴]

السنة العاشرة من سلطنة الملك الأشرف برسباى [على مصر]

و هی سنة أربع و ثلاثین و ثمانمائة.

[فیها] توفی الأمیر شهاب الدین أحمد الدوادار نائب الإسکندریة المعروف بابن الأقطع، بعد أن قدم القاهرة مریضا فی یوم الأحد تاسع جمادی الآخرة، و کان أبوه أوجاقیّا فی الإسطبل السلطانی، و قیل بل کان أقطع یتکسب بالتّکدّی، و هو الأقرب. و نشأ ابنه أحمد هذا تبعا عند بعض الأجناد، ثم ترقی حتی خدم جندیا عند جماعة من الأمراء، إلی أن صار دوادارا ثانیا عند الأمیر علی بای المؤیدی، ثم اتصل بخدمة [الملک] الأشرف و صار عنده دوادارا، فلما تسلطن جعله من جملة الدواداریة الصغار، و اختص بالسلطان و نالته السعادة، ثم أمّره عشرة و جعله زرد کاشا کبیرا، ثم نقله إلی نیابة الإسکندریة بعد عزل آقبغا التّمرازی فلم تطل مدته و مات بعد مرض طویل.

و لم أدر لأی معنی کانت خصوصیة أحمد هذا و علیّ بن فحیمة السّلاخوری بالسلطان، [۶۰] مع ما اشتملا علیه من الجهل المفرط و قبح الشکالة و دناوة الأصل. و کان

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۷۱

علی السّلاخوری یبدل القاف بالهمزة کما هی عادة أو باش الناس من العامة، و کان أحمد إذا تکلم أیضا یتلغّط بألفاظ العامة السوقة. و قد جالسته بالخدمة السلطانیة کثیرا فلم أجد له معرفة بفن من الفنون و لا علم من العلوم، و کان إذا أخذ یتلاطف و یتداوق یصحّف و یقول:

بتسرد شیّ؟ فأعرّفه- فیما بینی و بینه- بأنه یقول: تسرت، و أوضّح له [أنها] تصحیفة تشرب، فیفهمها بعد جهد کبیر. ثم إذا طال الأمر ینساها و یقولها أیضا بالدال، و أظنه دام علی ذلک إلی أن مات.

و مع هذا کان فی نفسه أمور، و له دعاوی بالعرفان و التّمعقل، لا سیما إذا تمثل بأمثال العامة السافلة، فیتعجب من ذلک الأتراک، و یثنی علی ذوقه و معرفته و غزیر علمه و حسن تأدیه فی الخطاب، و أولهم [السلطان الملک] الأشرف برسبای فإنه کان کثیرا ما یقتدی برأیه و یفاتحه فی الکلام، فیکلم أحمد فی أمور المملکة بکلام لا یعرف هو معناه، و یسکت من عداه من أرباب [الدولة و] المعرفة، فأذکر أنا عند ذلک قول أبی العلاء المعری حیث قال: [الطویل]

فوا عجبا کم یدّعی الفضل ناقص و وا أسفا کم یدّعی النّقص فاضل

و توفی الشیخ الإمام العالم المفنن مجد الدین إسماعیل بن أبی الحسن علی بن عبد اللّه البرماوی الشافعی، فی یوم الأحد خامس عشر [شهر] ربیع الآخر، عن أربع و ثمانین سنة. و کان إماما فی الفقه و العربیة و الأصول و عدة فنون، و تصدی للإقراء و التدریس عدة سنین.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۷۲

و توفی الصاحب الوزیر تاج الدین عبد الرزاق بن إبراهیم بن الهیصم، فی یوم الخمیس العشرین من ذی الحجة، بعد ما ولی الوزارة و الأستاداریة و نظر دیوان المفرد مرارا عدیدة، و هو من بیت کبیر فی الکتبة قبل إنهم من ذریّة المقوقس صاحب مصر قبل الإسلام، و اللّه أعلم.

و توفی الشیخ سراج الدین عمر بن منصور البهادری الفقیه الطبیب الحنفی فی یوم السبت ثانی عشر شوال، بعد ما برع فی الفقه و النحو و انتهت إلیه الرئاسة فی الطب، و ناب فی الحکم عن القضاة الحنفیة بالقاهرة؛ و مات و لم یخلف بعده مثله فی التقدم فی علم الطب و متونه.

و توفی القاضی برهان الدین إبراهیم بن علیّ بن إسماعیل- المعروف بابن الظریف- أمین الحکم بالقاهرة، فی یوم السبت خامس شوال عن نحو ستین سنة؛ و کان معدودا من بیاض الناس.

أمر النیل فی هذه السنة: الماء القدیم ستة أذرع و ثلاثة أصابع؛ مبلغ الزیادة عشرون ذراعا، و کان الوفاء ثامن عشرین أبیب قبل مسری

بیومین، و هذا من خرق العادة؛ فسبحانه یفعل ما یشاء و یختار.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۷۳

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۳۵]

السنة الحادیة عشر [ة] من سلطنة الملک الأشرف برسبای [علی مصر]

و هی سنة خمس و ثلاثین و ثمانمائة.

[فیها] توفی القاضی شرف الدین عیسی بن محمد بن عیسی الأقفهسی الشافعی، أحد عظماء نواب الحکم بالدیار المصریة، فی لیلة الجمعة سادس عشرین جمادی الآخرة.

و مولده فی سنة خمسین و سبعمائة؛ و کان إماما فقیها بارعا فی الفقه و فروعه مشارکا فی عدة فنون، و تولی الحکم عن قاضی القضاة عماد الدین الکرکی فی سنة اثنتین و تسعین و سبعمائة؛ و شکرت سیرته و حمدت طریقته لتحریه فی الأحکام، و لعفته عما یرمی به قضاة السوء، و لقد شاهدت منه من التثبت فی أحکامه ما لم أشاهده من قضاة زماننا، رحمه اللّه [تعالی].

و توفی السلطان حسین بن علاء الدولة ابن السلطان أحمد بن أویس، قتیلا بید الکافر أصبهان بن قرا یوسف الترکمانی فی ثالث صفر، بعد أن حصره سبعة أشهر، حتی أخذه و قتله، و انقرضت بقتله دولة بنی أویس الأتراک من العراق و صار عراقا العرب و العجم بید إسکندر بن قرا یوسف و إخوته، و هم کانوا سببا لخراب

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۷۴

تلک الممالک التی کانت کرسی الإسلام و منبع العلوم، أعنی بنی قرا یوسف.

و توفی القاضی شهاب الدین أحمد ابن القاضی صلاح الدین صالح بن أحمد بن عمر المعروف [۶۱] بابن السّفّاح الحلبی الشافعی، کاتب سر حلب ثم کاتب سر مصر و بها مات، فی لیلة الأربعاء رابع عشر [شهر] رمضان عن ثلاث و ستین سنة، بعد أن باشر فیها کتابة سر حلب سنین عدیدة بعد أخیه و أبیه، و صار لشهاب الدین هذا رئاسة بحلب و تمکّن، فلما ولی کتابة سر مصر ابتلعه المنصب و لم یظهر لمباشرته نتیجة، و انحطّ قدره فی الدولة بحیث أن المصریین صاروا یسخرون منه، لأنه کان یکلم نفسه فی حال رکوبه بین الناس فی الشوارع و فی جلوسه أیضا بین الملأ بکلام کثیر، و یغضب بعض الأحیان من نفسه و یشیر بالضرب بیده و بلسانه من غیر أن یفهم أحد کلامه، و کان یقع ذلک منه حتی فی الصلاة، و مع هذا کان فیه بعیض حدة و نزاقة، مع دین و عفة و صیانة، مع أنه کانت بضاعته من العلوم مزجاة، و خطه فی غایة القبح، و یظهر من کلامه عدم ممارسته للعلوم.

و وقع بینه و بین قاضی القضاة عز الدین عبد العزیز بن العز البغدادی الحنبلی مفاوضة فی بعض مجالس السلطان لمعنی من المعانی، فکان من جملة کلام ابن السّفّاح هذا، أن قال: ربّع الوقف- و شدّد الیاء- فقال عز الدین المذکور: اسکت یا مرماد، فضحک السلطان و من حضر، و انتصف علیه الحنبلی. فلما نزلا من القلعة، سألت من عز الدین عن قوله مرماد، فقال: الأتراک کثیرا ما یلعبون

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۷۵

الشطرنج، و قد صار بینهم أن الذی لا یعرف شیء یسمی مرماد، فقصدت الکلام بما اعتادوه و عرّفتهم أنه لا یعرف شیء، و أنه جاهل بما یقول، و تم لی ما قصدته.

و لما مات ابن السّفّاح تولی کتابة السر من بعده الصاحب کریم الدین عبد الکریم ابن کاتب المناخ، و مع عدم أهلیة الصاحب کریم الدین لهذه الوظیفة نتج فیها أمره و هابته الناس، و نفّذ الأمور أحسن من ابن السّفّاح.

و توفی قاضی القضاة زین الدین عبد الرحمن التّفهنی الحنفی، و هو غیر قاض، فی لیلة الأحد ثامن شوال بعد مرض. و مولده فی سنة أربع و ستین و سبعمائة، و نشأ فقیرا مملقا، و اشتغل حتی برع فی الفقه و الأصول و العربیة و شارک فی فنون، و أفتی و درّس و ناب

فى الحكم سنين كثيرة، ثم استقل بوظيفة القضاء، و لم تشكر سيرته فى ولايته لحدة كانت فيه و سوء خلقه، مع القيام فى حظّ نفسه، و قصته مشهورة مع الميمونى لما كفّره التّفهنى هذا و حكم بإراقة دمه فى الملأ بالمدرسة الصالحية.

و لما حكم بإراقة [دم] الميمونى [المذكور] أراد ابن حجر ينفّذ حكمه، فقال ابن حجر: قاضى القضاة منغاظ، حتى يسكن خلقه. و انفضّ المجلس و تلاشى حكم التّفهنى؛ و عاش الميمونى بعد ذلك دهرا، بعد أن أوسعه الميمونى إساءة فى المجلس، و هو يقول له: اتّق اللّه يا عبد الرحمن، أو نسيت قبقابك

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۷۶

الزحّاف و عمامتك القطن؟ و التفهنى يصفّر و يكرر حكمه بإراقة دمه.

و كان سبب إبقاء الميمونى فى هذه القضية أنه شهّد بعض الحكماء أنه يعتريه شىء فى عقله فى الأوقات، فأبقى لذلك؛ و كان أيضا للناس فيه اعتقاد، فإنه يكثر التلاوة، و لقراءته موقع فى النفوس، و على شيبته نور و وقار؛ و أنا ممن كان يعتقده- انتهى.

و توفى جينوس بن جاك بن بيدو بن أنطون بن جينوس متملك قبرس و صاحب الواقعة مع المسلمين، و قد تقدم ذكر غزوه و الظفر به و قدومه إلى مصر فى أوائل هذا الجزء مفصلا، ثم ذكر عوده إلى بلاده و ملكه، و تولى ابنه قبرس من بعده.

و توفى الصاحب علم الدين يحيى- المعروف بأبى كمّ القبطى- فى ليلة الخميس ثانى عشرين [شهر] رمضان و قد أناف على السبعين سنة، بعد أن ولى الوزارة فى دولة [الملك] الناصر فرج.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۷۷

و كان قد حسن إسلامه و ترك معاشرة النصارى و حج و جاور بمكة، و صار يكثر من زيارة الصالحين الأحياء و الأموات، و انسلخ من أبناء جنسه انسلاخا كليا، بحيث أنه كان لا يجتمع بنصرانى إلا عن ضرورة عظيمة. و كان دأبه الأفعال الجميلة، رحمه اللّه [تعالى].

أمر النيل فى هذه السنة: الماء القديم لم يظهر، فإنها حولت هذه السنة إلى سنة ست و ثلاثين [و ثمانمائة].

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۷۸

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۳۶]

السنة الثانية عشرة من سلطنة الملك الأشرف برسباى [على مصر] و هى سنة ست و ثلاثين و ثمانمائة:

فيها كانت سفرة السلطان الملك الأشرف هذا إلى آمد، و عاد فى أوائل سنة سبع و ثلاثين، و قد تقدم ذكر ذلك كله.

و فيها توفى قاضى القضاة شهاب الدين أحمد بن محمد بن محمد الأموى المالكى بدمشق، فى يوم الثلاثاء حادى عشر صفر؛ و كان ولى فى دولة [الملك] المؤيد [شيخ] قضاء المالكية بالديار المصرية، و كان قليل العلم.

و توفى التاجر نور الدين على بن جلال الدين محمد الطّنبذى، فى ليلة الجمعة رابع عشر صفر، عن سبعين سنة، و ترك مالا كبيرا لم يبارك اللّه فيه لذريته من بعده، و لم يشهر نور الدين هذا بكرم و لا دين و لا علم.

و توفى الأمير علاء الدين منكلى بغا الصلاحى الظاهرى المعروف بالعجمى، أحد الحجاب بالديار المصرية، فى ليلة الخميس حادى عشر [شهر] ربيع الأول، بعد مرض طال به سنين؛ و كان أحد الدوادارية الصغار فى أيام أستاذه [الملك] الظاهر برقوق، و توجه رسولا إلى تيمور لنك فى دولة [الملك] الناصر فرج، ثم ولى حسبة القاهرة فى دولة [الملك] المؤيد شيخ، ثم صار من جملة الحجاب إلى أن مات.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۷۹

و كان فقيها صاحب محاضرة حلوة و مجالسة حسنة، و يذاكر بالشعر باللغات الثلاث:

العربية و العجمية و التركية، و يكتب الخط المنسوب، و يحضر مجالس الفقراء، و يرقص فى السماع و يميل إلى التصوف، جالسته

كثيرا و أسعدت من محاسنه رحمه اللّه.

و توفى الأمير تغرى بردى بن عبد اللّه المحمودى الناصرى، رأس نوبة النوب أولا، ثم أتابك دمشق آخرا، من جرح أصابه فى رجله بسهم من مدينة آمد، مات منه بعد أيام قليلة بآمد، مات منه فى شوال و دفن بآمد، ثم نقل منها فى سحليّة عند رحيل العسكر، و ساروا به إلى الرها، فدفن بها لمشقة نالت العساكر من ظهور رائحته.

و كان أصله من مماليك [الملك] الناصر فرج، و ممن تأمّر فى دولة أستاذه فيما أظن. ثم انتمى للأمير نوروز الحافظى بعد موت أستاذه، إلى أن أمسكه [الملك] المؤيد شيخ. و حبسه بعد قتل نوروز، فدام فى السجن سنين إلى أن أخرجه المؤيد فى أواخر دولته. فلما آل الأمر إلى الأمير ططر أنعم عليه بإمرة طبلخاناة، ثم نقل إلى تقدمة ألف بعد موت ططر. ثم صار رأس نوبة النوب بعد الأمير أزبك المحمدى بحكم انتقال أزبك إلى الدوادارية الكبرى، بعد ولاية سودون [من] عبد الرحمن لنيابة دمشق، عند ما خرج تنبك البجاسى عن الطاعة. كل ذلك فى سنة ست و عشرين و ثمانمائة، و دام المحمودى على ذلك سنين، سافر فيها أمير حاج المحمل، و قدم بالشريف حسن بن عجلان، ثم توجه إلى غزوة قبرس و قدم بملكها أسيرا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۸۰

و قد تقدم ذكر ذلك كله فى أول هذا الجزء، ثم بعد عوده من قبرس بمدة يسيرة أمسكه السلطان و حبسه بسجن الإسكندرية، ثم نقله إلى ثغر دمياط بطالا، ثم أنعم عليه بأتابكية دمشق عوضا عن قانى باى الحمزاوى، بحكم انتقال الحمراوى إلى تقدمة ألف بمصر، ثم سافر المحمودى صحبة السلطان إلى آمد، فأصيب بسهم فمات منه حسبما ذكرناه. و كان أميرا جليلا شجاعا مقداما طوالا رشيقا مليح الشكل، كثير التجمل فى ملبسه و مركبه و مماليكه، و هو أول من لبس التخافيف الكبار العالية من الأمراء، و تداول الناس ذلك من بعده حتى خرجوا عن الحد، و صارت التخفيفة الآن تلف شبه الكلفتاه حتى تصير كالطبق الهائل؛ و عندى أنها غير لائقة، و للناس فيما يعشقون مذاهب.

و توفى الأمير [سيف الدين] سودون بن عبد اللّه الظاهرى، المعروف سودون ميق، أحد أمراء الألوف بالديار المصرية، من جرح أصابه بآمد، من سهم من مدينتها، لزم منه الفراش أياما، و مات أيضا فى أواخر شوال.

و كان أصله من مماليك الظاهر برقوق الصغار، و صار خاصكيا، و من جملة الدوادارية فى دولة [الملك] المؤيد شيخ، ثم ترقى إلى أن صار من جملة أمراء الطبلخانات و رأس نوبة، ثم نقل إلى الأمير آخورية الثانية، كل ذلك فى دولة [الملك] الأشرف برسباى، فدام على ذلك سنين، إلى أن أنعم عليه بإمرة مائة و تقدمة ألف، فاستمر على ذلك إلى أن مات. و كان متوسط السيرة فى غالب خصاله، لا بأس به، رحمه اللّه.

و توفى الأمير سيف الدين جانبك بن عبد اللّه الحمزاوى، بعد أن ولى نيابة غزة، فمات قبل أن يصلها فى عوده من آمد، فى ذى الحجة. و كان أصله من [۶۳] مماليك الأمير

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۸۱

سودون الحمزاوى الدوادار الكبير فى الدولة الناصرية، ثم تنقل فى الخدم من بعد أستاذه، إلى أن ولى نيابة بعض القلاع بالبلاد الشامية؛ و لما خرج قانى باى نائب الشام و انضم معه غالب نواب البلاد الشامية، كان جانبك هذا ممن انضم عليه و هرب بعد مسك قانى باى مع من هرب من الأمراء إلى قرا يوسف، ثم قدم أيضا معهم على الأمير ططر بدمشق فأنعم عليه ططر بإمرة بدمشق، ثم صار حاجب حجاب طرابلس مدة سنين، ثم نقل إلى إمرة مائة و تقدمة ألف بالديار المصرية، و سافر صحبة السلطان إلى آمد، و بعد عوده خلع السلطان [عليه] بحلب بنيابة غزة عوضا عن الأمير إينال العلائى الناصرى المنتقل إلى نيابة الرّها، لكونها كانت خرابا ليس بها ما يقوم بكلفته، و قد حكينا ذلك فيما سبق. و كان جانبك هذا ممن اتّهم بأنه يريد الوثوب على السلطان، فلما وصل السلطان إلى حلب أقرّه فى نيابة غزة على كره منه، فهز رأسه و أمسك لحيته بعد لبسه الخلعة، و بلغ الأشرف ذلك على ما قيل، فقال: حتى يصل إلى

غزة، فمات حول بعلبک.

و کان شیخا طوالا مشهورا بالشجاعة، غیر أنی لم أعرف منه إلا الإسراف علی نفسه و الانهماک فی السکر، و أما لفظه و عبارته ففی الغایة من الجهل و الإهمال، و مر رکوبه علی الفرس کنت [أعرف] أنه لم یمارس أنواع الفروسیة کالرمح و البرجاس و غیره، و بالجملة فإنه کان من المهملین، و قد خفف [اللّه] بموته، عفا اللّه عنه.

و توفی الأمیر سیف الدین تنبک بن عبد اللّه، من سیّدی بک الناصری، أحد أمراء العشرات و رأس نوبة، المعروف بالبهلوان، من جرح أصابه

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۸۲

بآمد فی شوال أیضا بها، و کان عارفا بفن الصراع من الأقویاء فی ذلک، مع تکبر و شمم و ادعاء زائد، و قد حکی لی عنه بعض أصحابه: أنه کان إماما فی فن الصراع، و یجید لعب الرمح لا غیر، و لیس عنده من الشجاعة و الإقدام بمقدار القیراط من صناعته، و أظنه صادقا فی نقله لأن سحنته [کانت] تدل علی ذلک.

و توفی الملک الأشرف شهاب الدین أحمد ابن الملک العادل سلیمان ابن الملک المجاهد غازی ابن المالک الکامل محمد ابن الملک العادل أبی بکر ابن الملک الأوحد عبد اللّه ابن الملک المعظم توران شاه ابن السلطان الملک الصالح نجم الدین أیوب صاحب مصر [ابن السلطان الملک الکامل محمد صاحب مصر، ابن السلطان الملک العادل أبی بکر صاحب مصر، ابن الأمیر نجم الدین أیوب بن شاذی بن مروان] الأیوبی صاحب حصن کیفا، قتیلا بید أعوان قرایلک، بین آمد و الحصن، و قد سار من بلده حصن کیفا، یرید القدوم علی السلطان الملک الأشرف برسبای علی آمد، فقتل فی طریقه غدرا، فإنه کان خرج من الحصن بغیر استعداد لقتال، و إنما تهیأ للسلام علی الملک الأشرف، و بینما هو فی طریقه أدرکته بعض الصلوات، فنزل و توضأ و قام فی صلاته، و إذا بالقرایلکیة طرقوه هو و عساکره بغتة، و قبل أن یرکب أصابه سهم قتل منه، و وجد السلطان الملک الأشرف علیه کثیرا و تأسف لموته. و کان ابتداء ملکه بحصن کیفا، بعد موت أبیه العادل فی سنة سبع و عشرین و ثمانمائة، و کان فاضلا أدیبا بارعا، و له دیوان شعر، و وقفت علی کثیر من شعره، و کتبت منه نبذة کبیرة فی ترجمته فی المنهل الصافی.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۸۳

و تولی بعده سلطنة الحصن ابنه الملک الکامل صلاح الدین خلیل.

و توفی القاضی تاج الدین عبد الوهاب بن أفتکین الدمشقی، کاتب سر دمشق بها، فی ذی القعدة، و تولی کتابة السر من بعده القاضی نجم الدین [یحیی] ابن المدنی ناظر جیش حلب، قلت: لا أعرف من أحوال تاج الدین هذا شیئا، غیر أننی علمت بولایته ثم بوفاته.

و توفی الشیخ شهاب الدین أحمد بن غلام اللّه بن أحمد بن محمد الکوم ریشی، فی سادس عشرین [شهر] صفر، و قد أناف علی خمسین سنة. و کان أستاذا فی علم المیقات، و یحل التقویم من الزیج، و یشارک فی أحکام النجوم؛ و مات و لم یخلف بعده مثله فی فنونه، رحمه اللّه.

أمر النیل فی هذه السنة: الماء القدیم ستة أذرع و ثلاثة أصابع؛ مبلغ الزیادة عشرون ذراعا و خمسة أصابع.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۸۴

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۳۷]

السنة الثالثة عشرة من سلطنة الملک الأشرف برسبای [علی مصر]

و هی سنة سبع و ثلاثین و ثمانمائة:

و فیه [۶۴] توفی الأمیر سیف الدین مقبل بن عبد اللّه الحسامی الدوادار، نائب صفد بها، فی یوم الجمعة تاسع عشرین شهر ربیع الأول،

و أصله من ممالیک شخص یسمی حسام الدین لاجین، من أمراء دمشق أو البلاد الشامیة، ثم خدم عند الملک المؤید شیخ أیام إمرته، فاختص به لغزیر محاسنه؛ و لما تسلطن المؤید، جعله خاصکیا رأس نوبة الجمداریّة، و حج علی تلک الوظیفة، ثم بعد قدومه، أنعم علیه بإمرة عشرة، ثم جعله أمیر طبلخاناه و دوادارا ثانیا بعد جقمق الأرغون شاوی، بحکم انتقال جقمق إلی الدواداریة الکبری بعد انتقال آقبای المؤیدی إلی نیابة حلب بعد عصیان إینال الصصلانی، ثم بعد سنین نقله إلی الدواداریة الکبری بعد جقمق أیضا بحکم انتقاله إلی نیابة الشام بعد عزل الأمیر تنبک میق و قدومه إلی القاهرة أمیر مائة و مقدم ألف، فدام مقبل علی ذلک إلی أن مات الملک المؤید، و آل الأمر إلی الأمیر ططر، و أمسک قجقار القردمی فرّ مقبل المذکور من القاهرة، و معه السیفی یلخجا من مامش الساقی الناصری و ممالیکه إلی جهة البلاد الشامیة،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۸۵

فعاقهم العربان أرباب الإدراک عن التوصل إلی قطیا، و قاتلوهم بعد أن تکاثروا علیهم.

و کان مقبل من الشجعان، فثبت لهم و لا زال یقاتلهم و هو منهزم منهم إلی الطّینة، فوجدوا بها مرکبا فرکبوا فیه، و ترکوا ما معهم من الخیول و الأثقال أخذوها العرب، و ساروا فی البحر إلی الشام، و اجتمع مقبل مع الأمیر جقمق و صار من حزبه، و وقع له أمور ذکرناها فی ترجمة [الملک] المظفر أحمد، إلی أن آل أمره أنه أمسک و حبس، ثم أطلق، و ولی حجوبیة دمشق.

ثم نقله [الملک] الأشرف إلی نیابة صفد، بعد عصیان نائبها الأمیر إینال الظاهری ططر، فاستمر فی نیابة صفد إلی أن مات. و کان رومی الجنس شجاعا مقداما رأسا فی رمی النشاب، یضرب برمیه المثل، و کان أستاذه الملک المؤید یعجب به، و ناهیک بمن کان یعجب [الملک] المؤید به من الممالیک.

و توفی قاضی القضاة شهاب الدین أحمد بن محمود بن أحمد بن إسماعیل بن محمد بن أبی العز الدمشقی الحنفی، المعروف بابن کشک، بدمشق، فی لیلة الخمیس سابع [شهر] ربیع الأول، بعد أن ولی قضاء الحنفیة بدمشق سنین کثیرة، و جمع بینها و بین نظر الجیش بدمشق فی بعض الأحیان، و طلب لکتابة سر مصر فأبی و امتنع و استعفی من ذلک حتی أعفی.

و کان من أعیان أهل دمشق فی زمانه، [و] لم یکن فی الشامیین من یدانیه

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۸۶

فی العراقة و الرئاسة، و قد رشح بعض أجداده من بنی العز لخطابة جامع تنکز عند ما عمره تنکز، و هم بیت علم و فضل و رئاسة، لیس بالبلاد الشامیة من هو أعرق منهم غیر بنی العدیم الحلبیین، ثم بعد بنی العز هؤلاء بنو البارزی الحمویون - انتهی.

و توفی قاضی القضاة جمال الدین محمد بن علی بن أبی بکر الشّیبی الشافعی المکی قاضی قضاة مکة و شیخ الحجبة بباب الکعبة، بها، فی لیلة الجمعة ثامن عشرین [شهر] ربیع الأول، عن نحو سبعین سنة، و هو قاض. و کان خیّرا دیّنا مشکور السیرة سمحا متواضعا بارعا فی الأدب، و له مشارکة جیدة فی التاریخ و غیره، لما رآه، فإنه کان رحل إلی الیمن و غیره و جال فی البلاد، رحمه اللّه.

و توفی الأمیر سیف الدین آقبغا بن عبد اللّه الجمالی الأستادّار و هو یلی کشف البحیرة، قتیلا بید العرب فی واقعة کانت بینه و بینهم، فی حادی عشرین [شهر]

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۸۷

ربیع الآخر؛ و کان أصله من ممالیک الأمیر کمشبغا الجمالی أحد أمراء الطبلخانات المقدم ذکره فی سنة ثلاث و ثلاثین، و کان یسافر إلی إقطاعه، ثم تعانی البلص و لا زال یترقی إلی أن ولی الکشف بعدة أقالیم، ثم ولی الأستادّاریة مرتین حسبما تقدم ذکره. کل ذلک فی حیاة أستاذه کمشبغا الجمالی، و نکب فی ولایته الثانیة و امتحن و ضرب و صودر، ثم سافر مع [الملک] الأشرف إلی آمد فظهر منه هناک شجاعة و إقدام فی قتال القرایلکیة؛ فأنعم علیه السلطان بإقطاع تنبک البهلوان بعد موته، ثم ولاه بعد قدومه [۶۵] إلی مصر کشف [الوجه] القبلی، ثم نقله إلی کشف الوجه البحری فقتل هناک.

و كـان وضـيعا من الأوبـاش، لا ـ يشبه فعله أفعـال المماليـك فىّ حركـاته و سكونه و لا فى قتاله، على أنه كان مشـهورا بالشـجاعة، و شجاعته كانت مشتركة بجنون و سـرعة حركة، و كان أهوج قليل الحشـمة، ليس عليه رونق و لا أبّهة؛ و كان إذا تكلم يكرر فى كلامه اسـم «دا» غير مرة. بحيـث أنـه كـان يتكلـم الكلمـة الواحـدة ثـم يقـول اسم «دا»، و فى الجملـة أنه كـان من الأوغـاد، و لـو لا ـ أنه ولى الأستادارية ما ذكرته فى هذا الكتاب و لا غيره.

و توفى الأمير الكبير سيف الدين جارقطلو بن عبد اللّه الظاهرى أتابك العساكر بالديار المصرية، ثم كافل المملكة الشامية بها، فى ليلة الاثنين تاسع عشر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۵، ص: ١٨٨

[شـهر] رجب، و هو فى عشـر السبعين، و أصـله من مماليك [الملك] الظاهر برقوق، و من إنيات سودون الماردانى، و تأمّر فى الدولة الناصـرية، ثم ولى فى الدولة المؤيدية نيابة حماه، ثم نيابة صـفد، ثم أعاده الأمير ططر إلى نيابة حماه ثانيا بعد إنيه تنبك البجاسـى لما نقل إلى نيابـة طرابلس، فـدام بحماه إلى أن نقله [الملك] الأشـرف إلى نيابـة حلب بعد إنيه تنبك البجاسـى أيضا، لما نقل تنبك إلى نيابة الشام، بعد موت تنبك ميق، فدام جارقطلو فى نيابة حلب إلى أن عزله [الملك] الأشرف، و استقدمه إلى القاهرة أمير مائة و مقدم ألف، ثم خلع عليه باستقراره أمير مجلس، ثم نقله إلى الأتابكيـة بالـديار المصـرية بعـد موت الأمير يشـبك الساقى الأعرج، فدام على ذلك سنين إلى أن ولاه [الملك] الأشرف نيابة دمشق بعد عزل سودون من عبد الرحمن عنها، و استقر سودون من عبد الرحمن أتابكا عوضه فاستمر على نيابة دمشق إلى أن مات فى التاريخ المقدم ذكره.

و كان أميرا جليلا مهابا شـهما متجملا فى جميع أحواله، و كان قصـيرا بطينا أبيض الرأس و اللحية، و فيه دعابة و هزل مع إسراف على نفسه، و سيرته مشكورة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۵، ص: ١٨٩

فى ولايته؛ قلت: كان ظلمه على نفسه لا على غيره، و اللّه تعالى يسامحه بمنه و كرمه.

و كان له خصوصـية زائدة عند [الملك] الأشرف برسباى، بحيث أنى سمعته مرارا يبالغ فى شىء لا يفعله بقوله: لو سألنى جارقطلو فى هذا ما فعلته؛ و كان إذا جلس قاضـى القضاة بدر الدين العينى عند السلطان فى ليالى الخدم، و أخذ فى قراءة شيء من التواريخ، يشير إليه السلطان بحيث لا ـ يعلم جـارقطلو، فينتقل بما هو فيه إلى شـىء من الوعظيات، و يأخـذ فى التشديـد على شـرّاب الخمر و ما أشـبه ذلك، و يبالغ فى حقهم، و الأشـرف أيضا يهوّل الأمر و يستغفر، فإذا زاد عن الحد يقول جارقطلو: [يا قاضى]، ما تذكر إلا شربة الخمر و تبالغ فى حقهم بأنواع العذاب؟

ليش ما تذكر القضاة و أخذهم الرشوة و البراطيل و أموال الأيتام ...؟ يقول ذلك بحدة و انحراف حلو، فلما يسـمع [الملك] الأشرف كلامه يضحك و ينبسط هو و جميع أمرائه؛ و كان يقع له أشياء كثيرة من ذلك- انتهى.

و توفى السيد الشـريف رميثـة بن محمـد بن عجلان مقتولا خارج مكة فى خامس رجب بعد أن ولى إمرة مكة فى بعض الأحيان، فلم تحمد سيرته و عزل.

و توفى الشيـخ الإمـام الأديب الشـاعر المفنن تقى الـدين أبو بكر بن على بن حجّة- بكسـر الحـاء المهملـة- الحموى الحنفى الشـاعر المشهور، صاحب القصيدة البديعية و شرحها و غيرها من المصنفات. مات بحماه، فى خامس عشرين شعبان، و مولده

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۵، ص: ١٩٠

سنة سبع و سبعين و سبعمائة. و كان أحد ندماء الملك المؤيد و شعرائه و أخصائه، و ولى إمامة عدة وظائف دينية، و عظم فى الدولة، ثم خرج من مصـر بعـد موت [الملك] المؤيد إلى مدينة حماه و استوطنها؛ إلى أن مات بها. و كان بارعا فى الأدب و نظم القريض و غيره من ضروب الشعر، مفننا لا يجحد فضله إلا حسود؛ و من شعره مضمّنا مع حسن التورية: [الرجز]

سرنا و لیل شعره منسدل و قد غدا بنومنا مضفّرا

فقال صبح ثغره مبتسما عند الصباح یحمد القوم السّری

و له عفا اللّه عنه: [الخفیف]

فی سویداء مقلة الخبّ نادی جفنه و هو یقنص الأسد صیدا

لا تقولوا ما فی السّویدا رجال فأنا الیوم من رجال سویدا

قلت: و هذا بعکس ما قاله ابن نباتة و الصلاح الصفدی؛ فقول ابن نباتة:

[السریع]

من قال بالمرد فإنی امرؤ إلی النسا میلی ذوات الجمال

ما فی سویدائی إلا النسا ما حیلتی؟ ما فی السّویدا رجال!

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۹۱

[و قول الصفدی:

المقلة الکحلاء أجفانها ترشق فی وسط فؤادی نبال

و تقطع الطّرق علی سلوتی حتی حسبنا فی السّویدا رجال]

و من نظم الشیخ تقی الدین [أیضا]، قوله: [المنسرح]

أرشفنی ریقه و عانقنی و خصره یلتوی من الرّقه

فصرت من خصره و ریقته أهیم بین الفرات و الرّقّة

و مما کتب إلیه قاضی القضاة صدر الدین علی بن الآدمی الحنفی، مضمّنا لشعر امرئ القیس: [الطویل]

أحنّ إلی تلک السجایا و إن نأت حنین أخی ذکری حبیب و منزل

و أذکر لیلات بکم قد تصرّمت بدار حبیب لا بدارة جلجل

شکوت إلی الصّبر اشتیاقی فقال لی: ترفّق و لا تهلک أسی و تجمّل

فقلت له:

إنی علیک معوّل و هل عند ربع دارس من معوّل؟

فأجابه الشیخ تقی الدین بن حجّة المذکور بقوله:

سرت نسمة منکم إلیّ کأنّها بریح الصبّاجاءت بریّا القرنفل

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۹۲

فقلت للیلی مذ بدا صبح طرسها: ألا أیّها اللیل الطویل ألا أنجل

و رقّت فأشعار امرئ القیس عندها کجلمود صخر حطّه السیل من عل

فقلت:

قفا نضحک لرقّتها علی «قفانبک من ذکری حبیب و منزل»

و توفی ملک الغرب و سلطانها، أبو فارس عبد العزیز [المتوکل] ابن أبی العباس أحمد بن محمد بن أبی بکر بن یحیی بن إبراهیم بن یحیی بن عبد الواحد ابن عمر الهنتاتی الحفصی، فی رابع عشر ذی الحجة، عن ست و سبعین سنة، بعد أن خطب له بقابس و تلمسان و ما والاهما من المدن و القری، إحدی و أربعین سنة و أربعة أشهر و أیاما.

و کان خیر ملوک زمانه شجاعة و مهابة و کرما وجودا و عدلا و حزما و عزما و دینا، و قام من بعده فی الملک حفیده المنتصر أبو

عبد اللّه محمد ابن الأمير أبى عبد اللّه محمد بن أبى فارس المذكور.

و توفى سلطان بنجالة من بلاد الهند، جلال الدين أبو المظفر محمد بن فندو؛

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۹۳

و كان فندو يعرف بكاس. كان أبوه فندو المذكور كافرا، فأسلم جلال الدين هذا، و حسن إسلامه، و بنى الجوامع و المساجد [و عمّر] أيضا ما خرب فى أيام أبيه، من المدن، و أقام شعائر الإسلام، و أرسل بمال إلى مكة، و بهدية إلى مصر، و طلب من الخليفة المعتضد باللّه [أبى الفتح داؤد] تقليدا بسلطنة الهند، فبعث إليه الخليفة [الخلعة] و التشريف مع بعض الأشراف، فوصلت الخلعة إليه و لبسها، و دام بعدها إلى أن مات؛ و أقيم بعده ولده المظفّر أحمد شاه، و عمره أربع عشرة سنة.

و توفى صاحب بغداد شاه محمد بن قرا يوسف بن قرا محمد، فى ذى الحجة مقتولا ـ على حصن من بلاد القان شاه رخ بن تيمور لنك، يقال له شنكان، و أقيم بعده على ملك بغداد أميرزه علىّ [ابن] أخى قرا يوسف. و كان شاه محمد المذكور ردىء [۶۷] العقيدة يميل إلى دين النصرانية- قبّحه اللّه و لعنه- و أبطل شعائر الإسلام من دار السلام و غيرها بممالكه، و قتل العلماء و قرّب النصارى، ثم أبعدهم، و مال إلى دين المجوس و أخرب البلاد و أباد العباد، أسكنه اللّه سقر و من يلوذ به من إخوته و أقاربه ممن هو على اعتقاده و دينه.

و توفى الشيخ الإمام أبو الحسن على بن حسين بن عروة بن زكنون الحنبلى الزاهد الورع فى ثانى جمادى الآخرة خارج دمشق، و قد أناف على الستين سنة، و كان فقيها عالما، شرح مسند الإمام أحمد، و كان غاية فى الزهد و العبادة و الورع و الصلاح، رحمه اللّه.

أمر النيل فى هذه السنة: الماء القديم ستة أذرع و ثلاثة أصابع؛ مبلغ الزيادة:

سبعة عشر ذراعا و سبعة عشر إصبعا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۹۴

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۳۸]

السنة الرابعة عشرة من سلطنة الملك الأشرف برسباى [على مصر]

و هى سنة ثمان و ثلاثين و ثمانمائة:

[فيها] توفى سلطان كربرجه من بلاد الهند شهاب الدين أبو المغازى أحمد شاه بن أحمد بن حسن شاه بن بهمن فى شهر [رجب] بعد ما أقام فى ملك كربرجه أربع عشرة سنة. و تسلطن من بعده ابنه ظفر شاه، و اسمه أيضا أحمد؛ و كان السلطان شهاب الدين هذا من خير ملوك زمانه و له مآثر بمكة معروفة، رحمه اللّه تعالى.

و توفى الأمير الكبير سيف الدين طرباى بن عبد اللّه الظّاهرى جقمق نائب طرابلس، فى بكرة نهار السبت رابع شهر رجب، من غير مرض، فجأة،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۹۵

بعد صلاة الصبح و هو جالس بمصلاه؛ و قد تقدم من ذكره نبذة كبيرة فى ترجمة الملك الصالح محمد بن ططر، بما وقع له مع جانبك الصوفى، ثم مع الملك الأشرف، حتى قبض عليه و حبسه بالإسكندرية مدة طويلة، ثم أخرجه إلى القدس، ثم ولاه نيابة طرابلس، فدام به إلى أن مات.

و كان أميرا ضخما جميلا ـ شهما مقداما ديّنا خيّرا معظّما فى الدول، لم يشهر عنه تعاطى شىء من القاذورات، غير أنه كان يقتحم الرئاسة، و فى أمله أمور، فمات قبلها. و هو أحد أعيان المماليك الظاهرية [برقوق] و رؤوس الفتن فى تلك الأيام، و كان أكبر منزلة من [الملك] الأشرف برسباى قديما و حديثا، و كان بينهما صحبة أكيدة عرفها له الأشرف، و أخرجه من السجن و ولاه طرابلس، و لو

كان غيره ما فعل معه ذلك، لما سبق بينهما من التشاحن على الملك- انتهى.

و توفى السلطان أميرزه إبراهيم بن القان معين الدين شاه رخ ابن الطاغية تيمور [لنك] كوركان، صاحب شيراز، فى شهر رمضان. و كان من أجل ملوك جغتاى و أعظمهم؛ كان يكتب الخط المنسوب إلى الغاية فى الحسن، يقارب فيه ياقوتا المستعصمى، و وجد عليه أبوه شاه رخ كثيرا، و كذلك أهل شيراز.

ثم فى السنة أيضا، توفى أخوه باى سنقر بن شاه رخ بن تيمور

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۹۶

صاحب مملكة كرمان، فى العشر الأول من ذى الحجة. و كان باى سنقر ولىّ عهد أبيه شاه رخ فى الملك، و هو أشجع أولاد شاه رخ و أعظمهم إقداما و جبروتا، و هو والد من بقى الآن من ملوك جغتاى بممالك العجم، و هم: بابور و علاء الدولة و محمد، و الجميع أولاد باى سنقر هذا، تولى تربيتهم جدتهم كهرشاه خاتون لمحبتها لأبيهم باى سنقر دون جميع أولادها، و لهذا المعنى كان قدّمه شاه رخ على ولده ألوغ بك صاحب سمرقند، كل ذلك لميل زوجته كهرشاه إليه، على أن ألوغ بك أيضا، ولدها بكرّيها، غير أنها ما كانت تقدّم على باى سنقر أحدا من أولادها- انتهى.

و توفى الشريف زهير بن سليمان بن ريان بن منصور بن جمّاز بن شيحة الحسينى، فى محاربة كانت بينه و بين أمير المدينة النبوية مانع بن على بن عطية بن منصور ابن جمّاز بن شيحة، فى شهر رجب، و قتل معه عدة من بنى حسين. و كان زهير المذكور من أقبح الأشراف سيرة، كان خارجا عن الطاعة، و يخيف السبيل، و يقطع الطريق ببلاد نجد و العراق و أرض الحجاز فى جمع كبير، فيه نحو الثلاثمائة فارس و عدة رماة بالسهام، و أعيا الناس أمره، إلى أن أخذه اللّه و أراح الناس منه.

و توفى الحطّىّ ملك الحبشة الكافر صاحب أمحرة من بلاد الحبشة، و ممالكه متسعة [۶۸] جدا بعد أن وقع له مع السلطان سعد الدين صاحب جبرت حروب.

أمر النيل فى هذه السنة: الماء القديم خمسة أذرع و اثنان و عشرون إصبعا؛ مبلغ الزياده: عشرون ذراعا و ثمانية عشر إصبعا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۹۷

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۳۹]

السنة الخامسة عشرة من سلطنة الملك الأشرف برسباى [على مصر]

و هى سنة تسع و ثلاثين و ثمانمائة:

[و فيها] توفى ملك تونس من بلاد إفريقية بالمغرب، السلطان المنتصر بالله أبو عبد اللّه محمد ابن الأمير أبى عبد اللّه محمد ابن السلطان أبى فارس عبد العزيز، المقدم ذكره، ابن أحمد الهنتاتى الحفصى، فى يوم الخميس حادى عشرين صفر بتونس. و كان ملك بعد جده أبى فارس، فلم يتهنّ بالملك لطول مرضه، و كثرت الفتن فى أيامه و عظم سفك الدماء، إلى أن مات. و أقيم فى مملكة تونس من بعده أخوه شقيقه عثمان، فقتل عدة من أقاربه و غيرهم.

و كان من خبر المنتصر أنه ثقل فى مرضه حتى أقعد، و صار إذا سار إلى مكان يركب فى عمّاريّة على بغل، و تردد كثيرا فى أيام مرضه إلى قصره خارج تونس للنزهة به، إلى أن خرج يوما و معه أخوه أبو عمرو عثمان المقدم ذكره، و هو يوم ذاك صاحب قسطنطينة، و قد قدم عليه [الخبر] و ولاه الحكم بين الناس، و معه أيضا القائد محمد الهلالى، فصار لهما مرجع أمور الدولة بأسرها، و حجبا المنتصر هذا عن كل أحد. فلما صارا معه فى هذه المرة إلى القصر المذكور، تركاه به، و قد أغلقا عليه، يوهمان أنه نائم، و دخلا المدينة. و استولى أبو عمرو عثمان المقدم ذكره على تخت الملك، و دعا الناس إلى طاعته و مبايعته، و الهلالىّ قائم بين يديه،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۹۸

فلما ثبّت دولته، قبض أيضا على الهلالىّ و سجنه و غيّبه عن كل أحد. ثم التفت إلى أقاربه، فقتل عمّ أبيه و جماعة كبيرة من أقاربه، فنفرت عنه قلوب الناس، و خرج عليه الأمير أبو الحسن ابن السلطان أبى فارس عبد العزيز متولى بجاية و حاربه، و وقع له معه أمور يطول شرحها، إلى أن مات أبو عمرو المذكور حسبما يأتى ذكره فى محله؛ و أما المنتصر فإنه قتل بعد خلعه بمدة، و قيل مات من شدة القهر.

[و فيها] توفى قاضى القضاة الشريف ركن الدين عبد الرحمن بن على بن محمد الحنفى الدمشقى، المعروف بدخان، قاضى قضاة دمشق بها، فى ليلة الأحد سابع المحرم، و قد أناف على ستين سنة؛ و كان فقيها حنفيا ماهرا بارعا فى معرفة فروع مذهبه، و له مشاركة فى عدة فنون، و نشأ بدمشق، و بها تفقّه و ناب فى الحكم، ثم استقلّ بالقضاء [بعد موت ابن الكشك]، و حمدت سيرته، و هو ممن ولى القضاء بغير سعى و لا بذل، و لو لم يكن من محاسنه إلا ذاك لكفاه فخرا، مع عريض جاهه بالشرف.

و توفى التاج بن سيفا الشّوبكى الدمشقى القازانى الأصل، والى القاهرة، فى ليلة الجمعة حادى عشرين [شهر] ربيع الأول بالقاهرة، و قد أناف على ثمانين سنة، و هو مصرّ على المعاصى و الإسراف على نفسه و ظلم غيره، و التكلم بالكفريات. و كان من قبائح الدهر، و من سيئات [الملك] المؤيّد شيخ [المحمودى]، لما اشتمل عليه من المساوئ؛ و قد ذكر المقريزى عنه أمورا شنعة،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۱۹۹

و استوعبنا نحن أيضا أحواله فى ترجمته من تاريخنا «المنهل الصافى [و المستوفى بعد الوافى]». و كان من جملة ما قاله الشيخ تقى الدين المقريزى [رحمه اللّه] فى حقه: و كان وجوده عارا على بنى آدم قاطبة؛ قلت: و هو من قبيل من قيل فى حقه: [الكامل]

قوم إذا صفع النعال قذالهم قال النعال: بأى ذنب نصفع؟

و توفى الأمير سيف الدين قصروه بن عبد اللّه من تمراز الظاهرى، نائب دمشق، فى ليلة الأربعاء ثالث [شهر] ربيع الآخر، و كان أصله من مماليك [الملك] الظاهر برقوق من إنيات جرباش الشيخى من طبقة الرّفرف، و ترقى بعد موت أستاذه الظاهر، إلى أن صار من جملة أمراء العشرات، ثم أمسكه [الملك] المؤيد و حبسه مدة، ثم أطلقه فى أواخر دولته، و لما آل التحدث فى المملكة للأمير ططر، أنعم على قصروه المذكور بإمرة مائة و تقدمة ألف، ثم صار رأس نوبة النّوب، ثم أمير آخور كبيرا فى أواخر دولة الملك الصالح محمد بن ططر، و دام على ذلك سنين، إلى أن نقله السلطان [الملك الأشرف] برسباى إلى نيابة طرابلس [۶۹] بعد عزل إينال النّوروزى و قدومه القاهرة على إقطاع قصروه المذكور، و استقر فى الأمير آخورية بعده الأمير جقمق العلائى، فدام قصروه على نيابة طرابلس سنين،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۰۰

ثم نقل [بعد سنين] إلى نيابة دمشق، بعد موت الأتابك جارقطلو أيضا، فدام فى نيابة دمشق إلى أن مات فى التاريخ المقدم ذكره.

و كان أميرا عاقلا- مدبرا سيوسا معظّما فى الدول، و هو أحد من أدركناه من عظماء الملوك و رؤسائهم، و هو أحد من كان سببا لسلطنة [الملك] الأشرف برسباى، و أعظم من قام معه حتى وثب على الملك، و هو أيضا أستاذ كل من يدعى بالقصروى، لأننا لا نعلم أحدا سمى بهذا الاسم، و نالته السعادة غيره، و تولى بعده نيابة دمشق الأمير إينال الجكمى.

و توفى الأمير فخر الدين عثمان المدعو قرايلك ابن الحاج قطلبك، و يقال: قطبك ابن طرعلى التركى الأصل التركمانى صاحب ماردين و آمد و أرزن و غيرها من ديار بكر، فى خامس صفر، بعد أن انهزم من إسكندر بن قرا يوسف، و قصد قلعة أرزن فحيل بينه و بينها، فرمى بنفسه فى خندق المدينة لينجو بمهجته فوقع على حجر فشج دماغه، ثم حمل إلى أرزن فمات بها بعد أيام، و قيل بل غرق فى خندق المدينة، و مات و قد ناهز المائة سنة من العمر فدفن خارج مدينة أرزن الروم، فنبش إسكندر عليه و قطع رأسه و بعث بها إلى الملك الأشرف، فطيف بها، ثم علقت أياما.

و كان أصل أبيه من أمراء الدولة الأرتقيّة الأتراك، و نشأ ابنه عثمان هذا

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۰۱

بتلک البلاد، و وقع له مع ملوک الشرق وقائع، ثم اتصل بخدمة تيمور لنک، و كان جاليشه لما قدم إلى البلاد الشامية فى سنة ثلاث و ثمانمائة، و طال عمره و لقى منه أهل ديار بكر و ملوكها شدائد، لا سيما ملوک حصن كيفا الأيوبية، فإنهم كانوا معه فى ضنک و بلاء، و تداول حروبه و شروره مع الملوک سنين طويلة، و كان صبّارا على القتال، طويل الروح على محاصرة القلاع و المدن، يباشر الحروب بنفسه.

و مع هذا كله لم يشهر بشجاعة، و كان فى الغالب ينهزم ممن يقاتله، ثم يعود إليه غير مرة حتى يأخذه إما بالمصابرة أو بالغدر و الحيلة، و كذا وقع له مع القاضى برهان الدين أحمد صاحب سيواس، و مع بير عمر حتى قتلهما. و مع هذا، إنه كان من أشرار الملوک، غير أنه خير من بنى قرا يوسف، لتمسّكه بدين الإسلام، و اعتقاده فى الفقراء و العلماء. و لما مات خلّف عدة أولاد [و أولاد الأولاد]، و هم إلى الآن ملوک ديار بكر، و بينهم فتن و حروب تدوم بينهم إلى أن يفنوا جميعا إن شاء اللّه تعالى.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۰۲

و توفى الشريف مانع بن عطية بن منصور بن جمّاز بن شيحة الحسينى أمير المدينة النبوية؛ و قد خرج للصيد خارج المدينة فى عاشر جمادى الآخرة، وثب عليه الشريف حيدر بن دوغان بن جعفر بن هبة اللّه بن جماز بن منصور بن شيحة و قتله بدم أخيه خشرم بن دوغان [بن جعفر بن هبة اللّه بن جماز بن منصور الحسينى] أمير المدينة.

و كان [الشريف] مشكور السيرة، غير أنه كان على مذهب القوم.

و توفى الشيخ المسلّک زين الدين أبو بكر بن محمد بن علىّ الخافى الهروى العجمى، فى يوم الخميس ثالث شهر رمضان بمدينة هراة، فى الوباء، و كان أحد أفراد زمانه. و «خاف»: قرية من قرى خراسان بالقرب من مدينة هراة؛ قلت: و فى الشيخ زين الدين نادرة: و هى أنه عجمى و اسمه أبو بكر، و هذا من الغرائب، و من لم يستغرب ذلک يأت بعجمى يكون اسمه أبا بكر أو عمر، سنّيا كان أو شيعيّا.

و توفى القاضى بدر الدين محمد بن أحمد بن عبد العزيز، أحد أعيان الفقهاء الشافعية و نواب الحكم، المعروف بابن الأمانة، فى ليلة الثلاثاء ثالث عشر شعبان و مولده فى سنة اثنتين و ستين و سبعمائة تخمينا، و كان فقيها بارعا فى الفقه و الأصول و العربية، كثير الاستحضار لفروع مذهبه، و أفتى و درّس سنين، و ناب فى الحكم مدة طويلة، و شكرت سيرته، و كان فى لسانه مسكة تمنعه عن سرعة الجواب، رحمه اللّه.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۰۳

و توفيت خوند جلبان بنت يشبک ططر الجاركسية زوجة [السلطان] الملک الأشرف [برسباى]، و أمّ ولده [الملک] العزيز يوسف، فى يوم الجمعة ثانى شوال، بعد مرض طويل، و دفنت بتربة السلطان [الملک] الأشرف بالصحراء خارج الباب المحروق. كان [الملک] الأشرف اشتراها فى أوائل سلطنته و استولدها ابنه الملک العزيز يوسف [۷۰]، فلما ماتت خوند الكبرى أمّ ولده محمد المقدم ذكرها تزوجها السلطان و أسكنها قاعة العواميد، فصارت خوند الكبرى و نالتها السعادة. و كانت جميلة عاقلة حسنة التدبير، و لو عاشت إلى أن ملک ابنها لقامت بتدبير دولته أحسن قيام.

و توفى أحمد جوكى ابن القان معين الدين شاه رخ بن تيمور لنک، فى شعبان، بعد مرض تمادى به عدة أيام، فعظم مصابه على أبيه شاه رخ و والدته كهرشاه خاتون، فإنهما فقدا ثلاثة أولاد ملوک فى أقل من سنة، و هم: السلطان إبراهيم صاحب شيراز، و باى سنقر صاحب كرمان المقدم ذكرهما فى السنة الخالية، و أحمد جوكى هذا فى هذه السنة.

و توفى السلطان ملک بنجالة من بلاد الهند، الملک المظفّر شهاب الدين أحمد شاه ابن السلطان جلال الدين محمد شاه بن فندوكاس، فى شهر ربيع الآخر،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۰۴

وثب عليه مملوك أبيه كـالو، الملقب مصـباح خان ثم وزير خان، و قتله و اسـتولى على بنجالـة؛ و قـد تقـدم وفاة أبيه فى سـنة سـبع و ثلاثين و ثمانمائة [من هذا الكتاب].

أمر النيل فى هذه السنة: الماء القديم أحد عشر ذراعا و عشرة أصابع؛ مبلغ الزيادة: عشرون ذراعا و نصف ذراع.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۰۵

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۴۰]

السنة السادسة عشرة من سلطنة الملك الأشرف برسباى [على مصر] و هى سنة أربعين و ثمانمائة:

[فيها] كانت الواقعـة بين الأمير خجا سودون أحد أمراء السـلطان، و بين الأتابك جانبك الصوفى، و انكسـر جانبك، و أمسك قرمش الأعور الظاهرى و كمشبغا أمير عشرة، و قتلا حسبما تقدم ذكرهما فى ترجمة [الملك] الأشرف.

و كان قرمش [المـذكور] من أعيان المماليك الظاهريـة [برقوق] و ترّقى حتى صار أمير مائـة و مقـدم ألف بالديار المصـرية، و انضـم على جانبك الصوفى أولا و آخرا، و قبض عليه [الملك] الأشرف و حبسه بالإسكندرية، ثم أطلقه و أرسله إلى الشام أمير مائة و مقدم ألف بها.

فلما عصـى البجاسـى صار من حزبه، ثم اختفى بعد كسـرة البجاسى إلى أن ظهر، لما سمع بظهور جانبك الصوفى و انضم عليه و صار من حزبه، إلى أن واقع خجا سودون و انكسر و قبض عليه.

و أما كمشـبغا أمير عشرة فإنه كان أيضا من المماليك الظاهرية [برقوق] و من جملة أمراء حلب، فلما بلغه خروج جانبك الصوفى سار إليه و قام بنصرته، و قد تقدم ذكر ذلك كله، غير أننا نذكره هنا ثانيا لكون هذا محلّ الكشف عنه و الإخبار بأحواله.

و توفى الشـيخ الأديب زين الـدين عبـد الرحمن بن محمـد بن سـليمان بن عبـد اللّه المروزىّ الأصل الحموى، المعروف بابن الخرّاط، أحد موقّعى الدّست بالقاهرة و أعيان الشعراء، فى ليلة الاثنين أول المحرم بالقاهرة، عن نحو ستين سنة، و دفن

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۰۶

من الغد. و كان صاحبنا و أنشدنا كثيرا من شعره. [و من شعره] فى مليح على شفته أثر بياض: [البسيط]

لا و الذى صاغ فوق الثّغر خاتمه ما ذاك صدع بياض فى عقائقه

و إنما البرق للتّوديع قبّله أبقى به لمعة من نور بارقه

و تـوفى قاضـى القضـاة شـمس الـدين محمـد ابن قاضـى القضـاة شـهاب الـدين أحمـد بن محمود الدمشـقى الحنفى، المعروف بـابن الكشك، قاضـى قضاة دمشق، فى يوم الثلاثاء ثالث عشـر [شـهر] ربيع الأول بدمشق؛ و قد تقدم ذكر وفاة أبيه فى سـنة تسع و ثلاثين و ثمانمائة من هذا الجزء.

و توفى قاضـى القضـاة شـهاب الـدين أحمـد بن محمـد بن صـلاح الشافعى المصـرى، المعروف بابن المحمّرة بالقـدس، على مشـيخة الصـلاحية، فى يوم السـبت سادس عشـر [شـهر] ربيع الآخر، و مولده فى صـفر سـنة تسع و ستين و سبعمائة [بالمقيّر] خارج القاهرة، [و تكسّب بالجلوس فى حانوت الشـهود سـنين]. و كان فقيها بارعا مفنّنا كثير الاسـتحضار لفروع مذهبه، و أفتى و درّس سنين، و ناب فى الحكم،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۰۷

و تولى مشيخة خانقاه سعيد السعداء، ثم قضاء دمشق، ثم مشيخة الصلاحية بالقدس، إلى أن مات؛ [و كان ينسب إلى البخل العظيم].

و توفى الأـمير الوزير سـيف الـدين أرغون شاه بن عبـد اللّه النّوروزى الأعور أسـتادّار السـلطان بـدمشق بها، فى حادى عشـرين [شـهر]

رجب، و قد جاوز الستين سنة تخمينا، بعد ما ولى الوزارة بالديار المصرية، و الأستادّارية غير مرة، و كان من الظّلمة الغشم الفسقة؛ كان شيخا طوالا أعور فصيحا باللغة العربية، عارفا بفنون المباشرة و تنويع المظالم.

و توفى الأمير حمزة بك بن على بك بن دلغادر مقتولا بقلعة الجبل فى ليلة الخميس سابع عشر جمادى الأولى.

و توفى الأمير سيف الدين بردبك بن عبد اللّه الإسماعيلى الظاهرى [برقوق] و هو يوم ذاك أحد أمراء العشرات، فى جمادى الأولى بالقاهرة. [۷۱] و كان جعله [الملك] الأشرف أمير طبلخاناة و حاجبا ثانيا، ثم نفاه مدة، ثم أعاده إلى القاهرة و أنعم عليه بإمرة عشرة، و كان لا للسيف و لا للضيف، يأكل ما كان و يضيق المكان.

و توفى القاضى شمس الدين محمد بن يوسف بن صلاح الدمشقى المعروف بالحلاوىّ،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۰۸

وكيل بيت المال، فى ليلة الخميس سادس شوال، و مولده فى سنة خمس و ستين و سبعمائة بدمشق، و قدم القاهرة، و اتصل بسعد الدين بن غراب، و رشحه سعد الدين لكتابة السر، ثم تردد لجماعة من الأكابر بعد سعد الدين و أخيه فخر الدين ابنى غراب، مثل بدر الدين الطوخى الوزير و غيره؛ و كان حلو المحاضرة حسن المذاكرة، مع قصر الباع فى العلوم، و كان كبير اللحية جدا، يضرب بطول لحيته المثل، و لما مات سعد الدين بن غراب و أخوه فخر الدين، ثم توفى الوزير بدر الدين الطوخى أيضا، قال فيه بعض شعراء العصر: [البسيط]

إن الحلاوىّ لم يصحب أخا ثقة إلا محا شؤمه منهم محاسنهم

السّعد و الفخر و الطّوخىّ لازمهم فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم

فزاد الحافظ شهاب الدين أحمد بن حجر [بأن قال:]

و ابن الكويز و عن قرب أخوه ثوى و البدر، و النجم ربّ اجعله ثامنهم

قلت: يعنى بابن الكويز صلاح الدين بن الكويز، و بأخيه علم الدين، و بالبدر بدر الدين بن محب الدين المشير، و بالنجم القاضى نجم الدين عمر بن حجّى.

و فى طول لحيته يقول صاحبنا الشيخ شمس الدين الدّجوىّ، من أبيات كثيرة، أنشدنى غالبها، أضربت عن ذكرها لفحش ألفاظها، غير أننى أعجبنى منها براعتها: [البسيط]

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۰۹

ظن الحلاوىّ جهلا أن لحيته تغنيه فى مجلس الإفتاء و النّظر

و أشعريّتها طولا قد اعتزلت بالعرض باحثة فى مذهب القدر

[و توفى] الأمير قرقماس بن عدرا بن نعير بن حيّار بن مهنّا [فى هذه السنة].

و توفى الشيخ شهاب الدين أحمد بن أبى بكر بن إسماعيل بن سليم بن قايماز بن عثمان ابن عمر الأبوصيرى الشافعى، أحد مشايخ الحديث، فى ليلة الأحد ثامن عشرين المحرم.

و توفى صاحب صنعاء اليمن الإمام المنصور نجاح الدين أبو الحسن على ابن الإمام صلاح الدين محمد بن على بن محمد بن على بن منصور بن حجاج بن يوسف الحسينى العلوى الشريف فى سابع صفر، بعد ما أقام فى الإمامة بعد أبيه ستّا و أربعين سنة و ثلاثة أشهر و أضاف إلى صنعاء و صعدة عدة من حصون الإسماعيلية، أخذها منهم بعد حروب و حصار. و لما مات قام من بعده ابنه الإمام الناصر صلاح الدين محمد بعهده إليه فمات بعد ثمانية و عشرين يوما، فأجمع الزيدية بعده على رجل منهم يقال له صلاح ابن على بن محمد بن أبى القاسم و بايعوه و لقبوه بالمهدى، و هو من بنى [عمرو] عم الإمام المنصور. قلت: و الجميع زيدية بمعزل عن أهل السنة.

أمر النيل [فى هذه السنة]: الماء القديم ستة أذرع و ثمانية عشر أصبعا؛ مبلغ الزيادة: تسعة عشر ذراعا و ستة أصابع.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۱۰

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۴۱]

اشارة

السنة السابعة عشرة من سلطنة الملک الأشرف برسبای [علی مصر]

و هی سنة إحدی و أربعین و ثمانمائة.

[فیها] کانت وفاة الأشرف المذکور فی ذی الحجة حسبما تقدم ذکره.

[و] فیها کان الطاعون بالدیار المصریة و کان مبدؤه من شهر رمضان و ارتفع فی ذی القعدة فی آخره، و مات فیه خلائق من الأعیان و الرؤساء و غیرهم، لکنه فی الجملة کان أضعف من طاعون سنة ثلاث و ثلاثین و ثمانمائة.

[و فیها] توفی القاضی سعد الدین إبراهیم ابن القاضی کریم الدین عبد الکریم ابن سعد الدین برکة، ناظر الخاص الشریف [و ابن ناظر الخاص] المعروف بابن کاتب جکم، فی یوم الخمیس سابع عشر [شهر] ربیع الأول، بعد مرض طویل و سنه دون الثلاثین سنة؛ و حضر السلطان الصلاة علیه بمصلاة المؤمنی [من تحت القلعة] و دفن عند أبیه بالقرافة.

و کان شابا عاقلا- سیوسا کریما مدبرا، ولی الخاص صغیّرا بعد وفاة أبیه، فباشر بحرمة و نفذ الأمور و ساس الناس و قام بالکلف السلطانیة أتم قیام، [۷۲] لا سیما لما سافر [الملک] الأشرف إلی آمد فإنه تکفل عن السلطان بأمور کثیرة تکلف فیها کلفة کبیرة، کل ذلک و سیرته مشکورة، إلا أنه کان منهمکا فی اللذات التی تهواها النفوس، مع ستر و تجمل؛ سامحه اللّه [تعالی].

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۱۱

و تولی نظرّ الخاص من بعده أخوه الصاحب جمال الدین یوسف ابن القاضی کریم الدین عبد الکریم، و هو مستمر علی وظیفته مضافة لنظر الجیش و تدبیر الممالک فی زماننا هذا، إلی أن مات حسبما یأتی ذکره فی مواطن کثیرة من هذا الکتاب [و غیره إن شاء اللّه تعالی].

و توفی الأمیر الکبیر سیف الدین جانبک بن عبد اللّه الصوفی الظاهری صاحب الوقائع و الأهوال و الحروب، فی یوم الجمعة خامس عشرین [شهر] ربیع الآخر بدیار بکر و قطعت رأسه و حملت إلی مصر و طیف بها علی رمح ثم ألقیت فی قناة سراب، و قد تقدم ذکر ذلک کله مفصلا فی مواضع کثیرة و ما وقع للناس بسببه بالدیار المصریة و البلاد الشرقیة، غیر أننا نذکر هنا أصله و منشأه إلی أن مات، علی طریق الإیجاز:

کان أصله من ممالیک [الملک] الظاهر برقوق الصّغار، و ترقّی فی الدولة الناصریة [فرج] إلی أن صار أمیر مائة و مقدم ألف، ثم ولاه الملک المؤید رأس نوبة النّوب، ثم نقله بعد مدة إلی إمرة سلاح، ثم أمسکه و حبسه إلی أن أطلقه الأمیر ططر بعد موت المؤید، و أنعم علیه بإمرة و تقدمة ألف ثم خلع علیه باستقراره أمیر سلاح بعد مسک قجقار القردمی، ثم خلع علیه بعد سلطنته باستقراره أتابک العساکر بالدیار المصریة، ثم أوصاه الملک الظاهر ططر عند موته بتدبیر ملک ولده الملک الصالح محمد.

و مات [الملک] الظاهر ططر، فصار جانبک المذکور «نظام الملک» و «مدبر الممالک»، فلم یحسن التدبیر و لا استمال أحدا من أعیان خجدا شیّته من الأمراء، فنفروا

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۱۲

عنه الجمیع و مالوا إلی الأمیر طربای و برسبای حسبما ذکرنا ذلک کله مفصلا مشبعا؛ و لا زالوا فی التدبیر علیه حتی خذلوه فی یوم عید النحر، بعد ما لبس آلة الحرب هو و الأمیر یشبک الجکمی الأمیر آخور، و أنزلوه من باب السلسلة بإرادته راکبا و علیه آلة الحرب

إلى بيت الأمير بيبغا المظفّرى، فحال دخوله إلى البيت قبض عليه و قيّد و حمل إلى القلعة، ثم إلى ثغر الإسكندرية، [بعد أن كان ملك مصر فى قبضته، و أمسك معه يشبك الجكمى أيضا و حبس بثغر الإسكندرية]، كل ذلك فى أواخر ذى الحجة من سنة أربع و عشرين.

و دام جانبك فى سجن الإسكندرية مكرما مبجلا، إلى أن حسّن له شيطانه الفرار منه فأوسع الحيلة فى ذلك، حتى فر من سجنه فى سنة سبع و عشرين و ثمانمائة، فعند ذلك حلّ به و بالناس بلاء اللّه المنزل المتداول سنين عديدة، ذهب فيها أرزاق جماعة، و حبس فيها جماعة كثيرة من أعيان الملوك و ضرب فيها جماعة من أعيان الناس و أماثلهم بالمقارع، و جماعة كثيرة من الخاصكية أيضا ضربوا بالمقارع [و الكسّارات]، و أما ما قاساه الناس من كبس البيوت و نهب أقمشتهم و ما دخل عليهم من الخوف و الرجيف فكثير إلى الغاية، و دام ذلك نحو العشر سنين، فهذا ما حل بالناس لأجل هروبه.

و أمّا ما وقع له فأضعاف ذلك، فإنه صار ينتقل من بيت إلى بيت و الفحص مستمر عليه فى كل يوم و ساعة، حتى ضاقت عليه الدنيا بأسرها و أراد أن يسلم نفسه غير مرة، و قاسى أهوالا كثيرة إلى أن خرج من مصر إلى البلاد الشامية و توصل إلى بلاد الروم حسبما حكيناه، و انضم عليه جماعة من التركمان الأمراء و غيرهم، و قاموا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۱۳

بأمره أحسن قيام حتى استفحل أمره، فغلب خموله و قلة سعادته تدبيرهم و اجتهادهم، إلى أن مات.

و كان شجاعا فارسا مفنّنا مليح الشكل رشيق القد كريما رئيسا، إلا أنه كان قليل السعد مخمول الحركات مخذولا فى حروبه، حبس غير مرة و نفد عمره على أقبح وجه، ما بين حبس و خوف و ذل و شتات و غربة، إلى أن مات بعد أن تعب و أتعب و أراح بموته و استراح.

و توفى الأمير سيف الدين تمراز المؤيدى نائب صفد ثم نائب غزة مخنوقا [۷۳] بسجن الإسكندرية، فى ثالث عشرين جمادى الآخرة، و كان أصله من مماليك [الملك] المؤيد شيخ و خاصكيته، و كان مقربا عنده ثم تغير عليه لأمر اقتضى ذلك، و ضربه و أخرجه إلى الشام على إقطاع هيّن بطرابلس، ثم نقل بعد موت [الملك] المؤيد إلى إمرة بدمشق. فلما كانت وقعة تنبك البجاسى وافقه على العصيان، فلما ظفر [الملك] الأشرف بالبجاسى فر تمراز هذا و اختفى مدة، ثم ظفر به و سجن بقلعة دمشق، ثم أطلق و أنعم عليه بإقطاع بها، ثم نقله الأشرف إلى إمرة مائة و تقدمة ألف بدمشق، ثم أقره فى نيابة صفد فلم تشكر سيرته و رمى بعظائم، فعزله السلطان و ولاه نيابة غزة عوضا عن يونس الرّكنى. و انتقل يونس إلى نيابة صفد، فلما ولى غز أساء السيرة [أيضا] و ظلم و عسف و أفحش فى القتل و غيره، فطلبه السلطان إلى الديار المصرية و أمسكه و حبسه بالإسكندرية ثم قتله خنقا؛ و لا أعرف من أحوال تمراز غير ما ذكرته أنه مذموم السيرة كثير الظلم.

و توفى الأمير جانبك بن عبد اللّه السيفى يلبغا الناصرى المعروف بالثور، أحد

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۱۴

أمراء الطبلخاناه و الحاجب الثانى، و هو يلى شدّ بندر جدّة بمكة، فى حادى عشر شعبان. و كان أميرا ضخما متجملا فى مركبه و ملبسه و مماليكه، و هو الذى أخرب المسطبة التى كانت ببندر جدة التى كان من طلع عليها و استجار بها لم يؤخذ [منها]، و لو كان ذنبه ما عسى أن يكون، حتى [و] لو قتل نفسا و طلع فوقها لا يؤخذ منها.

و كانت هذه العادة قديما بجدة، فأخرب جانبك [المذكور] المسطبة المذكورة، و وقع بينه و بين عرب تلك البلاد وقعة عظيمة قتل فيها جماعة. و انتصر جانبك المذكور و مشى له ما قصده من هدم المسطبة المذكورة و محى أثرها إلى يومنا هذا، يرحمه اللّه [تعالى] على هذه الفعلة، فإنها من أجمل الأفعال و أحسنها دنيا و أخرى، و لم ينتبه لذلك من جاء قبله من الأمراء حتى وفّقه اللّه تعالى لمحو هذه السنّة القبيحة التى كانت ثلمة فى الإسلام و أهله. قلت: كم ترك الأول للآخر.

و توفى الشيخ شمس الدين محمد بن خضر بن داؤد بن يعقوب الشهير بالمصرى، الحلبى الأصل الشافعى، أحد موقّعى الدّست بالقدس [الشريف]، فى يوم الأحد النصف من [شهر] رجب؛ و كان ديّنا خيرا و له رواية عالية بسنن ابن ماجة و حدّث و أسمع سنين.

و توفى شيخ الإسلام علامة الوجود علاء الدين محمد بن محمد بن محمد بن محمد ابن محمد بن محمد البخارى العجمى الحنفى، الإمام العالم الزاهد المشهور،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۱۵

فى خامس [شهر] رمضان بدمشق. [و سمّاه بعضهم عليّا و هو غلط]، و مولده فى سنة تسع و سبعين و سبعمائة ببلاد العجم، و نشأ بمدينة بخارى، و تفقّه بأبيه و عمه علاء الدين عبد الرحمن، و أخذ الأدبيات و العقليات عن العلامة سعد الدين التفتازانى و غيره، و رحل فى شبيبته فى طلب العلم إلى الأقطار، و اشتغل على علماء عصره إلى أن برع فى المعقول و المنقول و المفهوم و المنظوم و اللغة العربية، [و ترقى فى التصوف و التسليك] و صار إمام عصره، و توجه إلى الهند و استوطنه مدة، و عظم أمره عند ملوك الهند إلى الغاية، لما شاهدوه من غزير علمه و عظيم زهده و ورعه.

ثم قدم إلى مكة المشرفة و أقرأ بها مدة، ثم قدم إلى الديار المصرية و استوطنها سنين كثيرة و تصدّى للإقراء و التدريس، و قرأ عليه غالب علماء عصرنا من كل مذهب و انتفع الجميع بعلمه و جاهه و ماله، و عظم أمره بالديار المصرية بحيث أنه منذ قدم القاهرة إلى أن خرج منها لم يتردد إلى واحد من أعيان الدولة حتى و لا السلطان، و تردد إليه جميع أعيان أهل مصر من السلطان إلى من دونه؛ كل ذلك و هو مكب على الأشغال، مع ضعف كان يعتريه و يلازمه فى كثير من الأوقات، و هو لا يبرح عن الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر و القيام فى ذات اللّه بكل ما تصل قدرته إليه.

ثم بدا له التوجه إلى دمشق فسار إليها، بعد أن سأله السلطان فى الإقامة بمصر [غير مرة] فلم يقبل؛ و توجه [۷۴] إلى دمشق و سكنها إلى أن مات بها.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة؛ ج۱۵؛ ص۲۱۵

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۱۶

و لم يخلف بعده مثله، لأنه كان جمع بين العلم و العمل مع الورع الزائد و الزهد و العبادة و التحرى فى مأكله و مشربه من الشبهة و غيرها، و عدم قبوله العطاء من السلطان و غيره، و قوة قيامه فى إزالة البدع و مخاشنته لعظماء الدولة فى الكلام، و عدم اكتراثه بالملوك و استجلاب خواطرهم، و هو مع ذلك لا يزداد إلا مهابة و عظمة فى نفوسهم، بحيث أن السلطان كان إذا دخل عليه لزيارته يصير فى مجلسه كآحاد الأمراء، من حين يجلس عنده إلى أن يقوم عنه، و الشيخ علاء الدين يكلمه فى مصالح المسلمين و يعظه بكلام غير منمّق، خارج عن الحد فى الكثرة، و السلطان سامع له مطيع. و كذلك لما سافر السلطان إلى آمد، أول ما دخل إلى دمشق ركب إليه وزاره و سلّم عليه، فهذا شئ لم نره وقع لعالم من علماء عصرنا جملة كافية. و هو أحد من أدركناه من العلماء الزهّاد العبّاد، رحمه اللّه [تعالى] و نفعنا بعلمه و بركته.

و توفى الشيخ الإمام العالم العلامة علاء الدين على بن موسى بن إبراهيم الرومى الحنفى فى قدمته الثانية إلى مصر، فى يوم الأحد العشرين من شهر رمضان بالقاهرة، و كان ولى مشيخة المدرسة الأشرفية المستجدة بخط العنبريّين بالقاهرة، ثم تركها و سافر إلى الروم، ثم قدم بعد سنين إلى مصر ثانيا و أقام بها إلى أن مات.

و كان بارعا فى علوم كثيرة محققا بحاثا إماما فى المعقول و المنقول، تخرّج بالشيخين: الشريف الجرجانى و السعد التفتازانى، إلى أن برع و تصدى للإقراء و التدريس مدة طويلة، و وقع له أمور طويلة مع فقهاء الديار المصرية، و تعصبوا عليه، و هو ينتصب عليهم و أبادهم، لأنه كان عارفا بعلم الجدل، كان يلزم أخصامه بأجوبة مسكتة، و لهذا حطّ عليه بعض علماء عصرنا بأن قال: كان يفحش فى اللفظ، و لم ينسبه إلى جهل بل ذكر عنه [العلم] الوافر، و الفضل ما شهدت

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۱۷

به الأعداء؛ و لا أعلم فیه ما ینقصه غیر أنه کان مستخفا بعلماء مصر، لا ینظر أحدا منهم فی درجة الکمال.

و کـان مما یقطع به أخصامه فی المباحث أنه کان حضر عـدة مباحث بین الجرجانی و التفتازانی و غیرهما من العلماء، و حفظ ما وقع بینهم من الأجوبـة و الأسئلة، و صـار یسأل الناس بتلک الأسئلة و القوم لیس فیهم من هو [فی] تلک الطبقـة، فکلّ من سأله سؤالا من ذلک وقف و عجز عن الجواب المرضـی و قصـر، فیتقـدم عنـد ذلک الشـیخ علاء الدین و یذکر الجواب فیعجب کل أحد. و بالجملة فإنه کان عالما مفنّنا، رحمه اللّه [تعالی].

و توفی القاضی ناصر الدین محمد بن بدر الدین حسن الفاقوسی الشافعی، أحد أعیان موقّعی الدّست بالدیار المصریة، فی لیلة الاثنین تـاسع شوال بالطاعون، عن بضع و سـبعین سـنة؛ و کان حشـما وقورا، و له فضل و أفضال، و حـدّث سـنین، و سـمع منه خلائق، و کان معـدودا من الرؤساء بالـدیار المصـریة. و کان مولـده بالقاهرة فی لیلـة الجمعة خامس عشـرین صـفر سـنة ثلاث و ستین و سـبعمائة، و الفاقوسی نسبة إلی قریة بالشرقیة من أعمال مصر تسمی منیة الفاقوس.

و توفی الأمیر سیف الدین آقبردی بن عبد اللّه الفجماسی نائب غزة بها، و کان أصله من ممالیک الأمیر قجماس والد إینال بای، ترقّی بعده إلی أن صار أمیر عشـرة بمصـر و دام علی ذلک سنین کثیرة، إلی أن ولی نیابة غزة بالبذل بعد أن قبض تمراز المؤیدی، فلم تطل مدته و مات، و کان ترکی الجنس غیر مشکور السیرة.

و توفی دولات خجا الظاهری، والی القاهرة ثم محتسبها، بالطاعون فی یوم السبت

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۱۸

أول ذی القعـدة. و کـان أصـله ترکی الجنس من أوبـاش ممالیک الظاهر برقوق، أعرفه قبل أن یلی الوظائف و هو من جملـة حرافیش الممالیـک السـلطانیة، ثم ولّـاه [الملـک] الأشـرف الکشف ببعض الأقـالیم فأباد المفسـدین و قویت حرمته، فمن یومئـذ صار ینقله من وظیفة إلی أخری، حتی ولی القاهرة مرتین و عدة أقالیم، ثم ولّاه حسبة [۷۵] القاهرة.

و قد تقدم من ذکره نبذة کبیرة فی ترجمة [الملک] الأشـرف، و فی الجملة أنه کان ظالما فاجرا فاسـقا غشوما شیخا جاهلا ضالا خبیثا، علیه من اللّه ما یستحقه، و لو لا أنه شاع ذکره لکثرة ولایاته و أرّخه جماعة من أعیان المؤرخین، ما ذکرته فی هذا الکتاب و نزّهته عن ذکر مثله.

و توفی الأمیر- ثم القاضـی- صـلاح الـدین محمـد ابن الصاحب بـدر الـدین حسن ابن نصـر اللّه الفوّیّ الأصل المصـری، کاتب السـر الشـریف بالدیار المصـریة، بالطاعون فی لیلة الأربعاء خامس ذی القعدة. [و] مولده فی [شـهر] رمضان سـنة تسـعین و سـبعمائة، و نشأ بالقاهرة تحت کنف والده الصاحب بدر الدین، و تزیّا بزی الجند و ولی الحجوبیة فی دولة [الملک] الناصـر فرج، ثم ولی الأسـتادّاریة فی الدولة المظفّریة ثم عزل، ثم أعید إلیها بعد سنین، ثم عزل بأبیه، و صودر و لزم داره سنین طویلة هو و والده، إلی أن ولاه [الملک] الأشرف بعد سنة خمس و ثلاثین حسبة القاهرة.

و أخـذ صـلاح الـدین بعـد ذلک یتقرب بالتحف و الهدایا للسـلطان و لخواصه، إلی أن اختص به و نادمه، و صار یبیت عنده فی لیالی البطالة بالقلعة، و حج أمیر الرکب

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۱۹

الأول، و عاد فولّاه کتابة السـر علی حین غفلة، بعد عزل القاضـی محب الدین محمد بن الأشـقر، من غیر سـعی، فی یوم الخمیس ثانی عشـرین ذی الحجة سـنة أربعین و ثمانمائة، و ترک زیّ الجند و لبس زیّ الفقهاء، و صار یدعی بالقاضـی بعد الأمیر، فباشر کتابة السر بحرمة وافرة و عظم فی الدولة، فلم تطل أیامه و مات فی حیاة والده، و استقر والده عوضه فی کتابة السر.

و کان صـلاح الـدین حشـما متواضـعا کریما، یکتب المنسوب، إلا أنه کان من الکذبـة الـذین یضـرب بکذبهم المثل، یحکی عنه من

ذلک أشیاء کثیرة، و رأیت أنا منه نوعا، غیر أن الذی حکی [لی] عنه أغرب، و قد جربت أنا کذبه بأنه لا یضر و لا ینفع، و هو أن غالب کذبه کان علی نفسه، فیما وقع له قدیما و حدیثا، فهذا شیء لا یضر أحدا، و لعل اللّه أن یسامحه فی ذلک.

و توفی الشهابی أحمد بن [علی] ابن الأمیر سیف الدین قرطای بن عبد اللّه سبط بکتمر الساقی، بالطاعون فی لیلة الاثنین عاشر ذی القعدة. و مولده فی یوم الأحد ثالث عشرین شعبان سنة ست و ثمانین و سبعمائة بالقاهرة، و مات و لم یخلف بعده مثله فی أبناء جنسه، لفضائل جمعت فیه، من حسن کتابة و نظم القریض، و حلو محاضرة و جودة مذاکرة؛ و کان سمینا جدا لا یحمله إلا الجیاد من الخیل، رحمه اللّه تعالی. [و من شعره]: [المجتث]

حبیّ المعذّر وافی [من] بعد هجر بوصل

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۲۰

و قال:

صف لی عذاری فقلت: یا حبّ نملی

و له [أیضا] فی ملیح یسمی خصیب: [الطویل]

رعی اللّه أیام الرّبیع و روضها بها الورد یزهو مثل خدّ حبیبی

و إنّی و حقّ الحبّ لیس ترحّلی سوی لمکان ممرع و خصیب

و توفی الأمیر إسکندر بن قرا یوسف صاحب تبریز مشتتا عن بلاده بقلعة ألنجا، ذبحه ابنه شاه قوماط فی ذی القعدة خوفا من شره؛ و ملک بعده البلاد أخوه جهان شاه بن قرا یوسف. و کان شجاعا مقداما قویا فی الحروب، أباد قرایلک فی مدة عمره، و تقاتل مع شاه رخ بن تیمور لنک غیر مرة، و هو ینهزم علی أقبح وجه. و کان إسکندر أیضا علی قاعدة أولاد قرا یوسف: لا یتدین بدین، إلا أنه کان أحسن حالا من أخویه شاه محمد و أصبهان؛ و قد مرّ من ذکر إسکندر هذا و إخوته جملة کبیرة تعرف منها أحوالهم.

و توفی نور الدین علی بن مفلح وکیل بیت المال، و ناظر البیمارستان [المنصوری] فی یوم الجمعة ثانی عشرین ذی القعدة، بالطاعون. و کان معدودا من بیاض الناس، و له تردد إلی الرؤساء، غیر أنه کان عاریا من العلوم.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۲۱

و توفی الأمیر الکبیر سودون من عبد الرحمن نائب [۷۶] الشام ثم أتابک العساکر بالدیار المصریة بطّالا بثغر دمیاط فی یوم السبت العشرین من ذی الحجة؛ لم یخلف بعده مثله حشمة و رئاسة و عقلا و تدبیرا و شکالة.

و قد مرّ من ذکره فی واقعة الأمیر قانی بای نائب الشام فی الدولة المؤیدیة أنه کان نائب طرابلس، و وافق قانی بای المذکور، و انهزم بعد قتل قانی بای إلی قرا یوسف بالشرق، و أنه کان ولی نیابة غزة فی الدولة الناصریة فرج، و تقدمة ألف بالقاهرة، و أنه قدم علی الأمیر ططر بعد موت المؤید، و استقر بعد سلطنة [الملک] الأشرف دوادارا کبیرا عوضا عن الأشرف المذکور، ثم نقل إلی نیابة دمشق بعد عصیان تنبک البجاسی فدام مدة یسیرة، ثم نقل إلی أتابکیة العساکر بالدیار المصریة عوضا عن جارقطلو [بحکم انتقال جارقطلو] إلی نیابة دمشق عوضه، ثم مرض و طال مرضه إلی أن أخرج عنه السلطان إقطاعه و عزله عن الأتابکیة، ثم سیّره بعد مدة أشهر إلی ثغر دمیاط بطّالا فدام به إلی أن مات. و کان أجلّ الممالیک الظاهریة [برقوق]، و هو أحد من أدرکناه من ضخماء الملوک و عظمائهم، مع حسن الشکالة و الزی البهیج رحمه اللّه تعالی.

أمر النیل فی هذه السنة: الماء القدیم خمسة أذرع و ثلاثة و عشرون أصبعا؛ مبلغ الزیادة: عشرون ذراعا و خمسة عشر أصبعا.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۲۲

ذکر سلطنة الملک العزیز [یوسف] ابن السلطان الملک الأشرف برسبای الدّقماقی

السلطان الملك العزيز جمال الدين أبو المحاسن يوسف ابن السلطان الملك الأشرف [سيف الدين أبى نصر] برسباى الدّقماقى الظاهرى الجاركسى، التاسع من ملوك الجراكسة و أولادهم، و الثالث و الثلاثون من ملوك الترك و أولادهم بالديار المصرية، تسلطن بعد موت أبيه بعهد منه إليه، فى آخر يوم السبت ثالث عشر ذى الحجة قبل غروب الشمس بنحو ساعة، و لبس خلعة السلطنة من باب الستارة بقلعة الجبل، و قد تكامل حضور الخليفة و الفضاة و الأمراء و أعيان الدولة، و بايعه الخليفة المعتضد بالله داؤد و فوّض عليه خلعة السلطنة السواد الخليفتى، و ركب من باب الستارة و جميع الأمراء مشاة بين يديه، حتى نزل على باب النصر السلطانى من قلعة الجبل، و دخل إليه و جلس على سرير الملك و عمره يومئذ أربع عشرة سنة و سبعة أشهر، و قبّل الأمراء الأرض بين يديه على العادة و نودى بسلطنته بالقاهرة و مصر، ثم أخذ الأمراء فى تجهيز والده فجهز و غسل و كفن و صلى عليه، و دفن بالصحراء حسبما ذكرناه فى ترجمته، و لقبوه بالملك العزيز و تم أمره فى الملك و دقّت الكوسات بالقلعة.

و كان خليفة الوقت يوم سلطنته، المعتضد بالله داؤد العباسى؛ و القضاة: قاضى القضاة شهاب الدين أحمد بن [علىّ] بن حجر الشافعى، و قاضى القضاة بدر الدين محمود العينى الحنفى، و قاضى القضاة شمس الدين محمد البساطى المالكى، و قاضى القضاة محبّ الدين أحمد بن نصر اللّه البغدادى الحنبلى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۲۳

و من الأمراء أصحاب الوظائف من المقدمين، و غالبهم كان مجردا بالبلاد الشامية، فالذين كانوا بالديار المصرية: الأمير الكبير أتابك العساكر جقمق العلائى، و الأمير قراخجا الحسنى، و الأمير تنبك من بردبك الظاهرى، و الأمير تغرى بردى البكلمشى المعروف بالمؤذى؛ و الذين كانوا بالتجريدة بالبلاد الشامية: مقدم العساكر الأمير قرقماس الشعبانى الناصرى أمير سلاح، و آقبغا التّمرازى أمير مجلس، و أركماس الظاهرى الدوادار الكبير، و تمراز القرمشى الظاهرى رأس نوبة النّوب، و جانم الأشرفى الأمير آخور الكبير، و يشبك السّودونى حاجب الحجاب، و خجا سودون السّيفى بلاط الأعرج، و قراجا الأشرفى، لتتمة ثمانية من مقدمى الألوف، فجملة الحاضرين و المسافرين ثلاثة عشر أميرا من المقدمين.

و أما من كان من أصحاب الوظائف من أمراء الطبلخاناه و العشرات: فشادّ الشراب خاناه عظيم المماليك الأشرفية إينال الأبوبكرىّ الأشرفى الفقيه العالم، و نائب القلعة تنبك السّيفى نوروز الخضرىّ المعروف بالجقمقى كلا شىء، و الحاجب الثانى أسنبغا الناصرى [۷۷] المعروف بالطّيارى، و الزّرد كاش تغرى برمش السيفى يشبك بن أزدمر، فهؤلاء و إن كانوا أمراء طبلخاناه و عشرات فمنازلهم منازل مقدمى الألوف، لأن الأعصار الخالية كان لا يلى كلّ وظيفة من هذه الوظائف إلا مقدم ألف، و يظهر ذلك من لبسهم الخلع فى المواسم و غيرها؛ و كان الدوادار الثانى تمر باى السيفى تمربغا المشطوب، و رأس نوبة ثانى طوخ من تمراز الناصرى، و الأمير آخور الثانى يخشباى المؤيدى ثم الأشرفى، و الخازندار على باى الساقى الأشرفى و هو أمير عشرة، و أستادّار الصحبة مغلباى الجقمقى أمير عشرة، و الزمام الطواشى الحبشى جوهر الجلبانى اللالا و الخازندار الطواشى الحبشى جوهر القنقبائى أمير عشرة أيضا، و مقدم المماليك الطواشى الرومى خشقدم اليشبكى أمير طبلخاناه، و نائبه فيروز الرّكنى أمير عشرة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۲۴

و مباشرو الدولة كاتب السر الصاحب بدر الدين حسن بن نصر اللّه الفوّىّ، و ناظر الجيش زين الدين عبد الباسط بن خليل الدمشقى، و الوزير الصاحب كريم الدين عبد الكريم ابن كاتب المناخ، و ناظر الخاص الشريف الصاحب جمال الدين يوسف ابن كاتب جكم، و الأستادّار جانبك مملوك عبد الباسط صورة- و معناها أستاذه عبد الباسط، و لو لا مخافة أن أتّهم بالنسيان لوظيفة الأستادارية ما ذكرناه هنا- و محتسب القاهرة القاضى الإمام نور الدين على السّويفى أحد أئمة السلطان، و والى القاهرة عمر الشّوبكى.

و [من] عاصره من ملوك الأقطار و أمراء الحجاز و نواب البلاد الشامية و غيرها: فممالك العجم بيد القان معين الدين شاه رخ بن تيمور لنك، و هو صاحب خراسان و جرجان و خوارزم و ما وراء النهر و مازندران و جميع عراق العجم و غالب ممالك الشرق، إلى

دلی من بلاد الهند، و إلی حدود أذربیجان التی کرسیّها مدینة تبریز؛ و صاحب تبریز یومذاک إسکندر بن قرا یوسف، و قد تشتّت عنها منهزما من شاه رخ؛ و قتل فی هذه السنة أخوه أصبهان بن قرا یوسف صاحب بغداد و غالب عراق العرب، و قد خربت تلک الممالک فی أیامه و أیام أخیه شاه محمد؛ و ملوک دیار بکر [من وائل] عدة کبیرة، فصاحب ماردین و آمد و أرزن و أرقنین و غیرهم أولاد قرایلک؛ و حصن کیفا بید الملک الکامل صلاح الدین خلیل الأیوبی، و قلعة أکلّ بید دولات شاه الکردی، و الجزیرة بید عمر البختیّ، و إقلیم شماخی بید السلطان خلیل، و الروم بید ثلاثة ملوک، أعظمهم السلطان مراد بک بن محمد بن عثمان صاحب برصّا، و أدرنا بولی، و غیرها.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۲۵

و بجانب آخر: إسفندیار بن أبی یزید، و باقی أطراف الروم مع السلطان إبراهیم بن قرمان، مثل لارنده و قونیة و غیرهما؛ و بلاد المغرب: فصاحب تونس و بجایة و بلاد إفریقیة أبو عمرو عثمان بن أبی عبد اللّه محمد ابن مولای أبی فارس عبد العزیز الحفصی، و بلاد تلمسان و الغرب الأوسط: أبو یحیی بن أبی حمّود، [و] بممالک فاس ثلاثة ملوک: أعظمهم صاحب فاس، و هو أبو محمد عبد الحق بن عثمان بن أحمد بن إبراهیم ابن السلطان أبی الحسن المرینی، و ملک أندلس أبو عبد اللّه محمد بن الأیسر ابن الأمیر نصر ابن السلطان أبی عبد اللّه بن نصر المعروف بابن الأحمر صاحب غرناطة.

و صاحب مکة المشرفة زین الدین أبو زهیر برکات بن حسن بن عجلان الحسینی؛ و أمیر المدینة الشریف إمیان بن مانع بن علی الحسینی؛ و أمیر الینبوع الشریف عقیل بن زبیر بن نخبار. و ببلاد الیمن: الظاهر یحیی ابن الملک الأشرف إسماعیل من بنی رسول، و هو صاحب تعزّ و عدن و زبید و ما والاها؛ و صاحب صنعاء و بلاد صعدة الإمام صلاح الدین محمد؛ و بلاد الفرنج ستّ عشرة مملکة یطول الشرح فی تسمیتها؛ و ببلاد الحبشة: الحطیّ الکافر و محاربه ملک المسلمین شهاب الدین أحمد بن بدلای ابن السلطان سعد الدین أبی البرکات محمد

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۲۶

ابن أحمد بن علی بن ناصر الدین محمد بن دلحوی بن منصور بن عمر بن ولشمع الجبرتی الحنفی.

و نواب البلاد الشامیة: نائب [۷۸] دمشق الأتابک إینال الجکمی، و نائب حلب حسین بن أحمد البهسنی المدعو تغری برمش، و نائب طرابلس جلبان الأمیر آخور، [و فی معتقده أقوال کثیرة]، و نائب حماه قانی بای الحمزاوی، و نائب صفد إینال العلائی الناصری، أعنی السلطان الملک الأشرف إینال؛ و نائب غزة آقبردی القجماسی، و مات بعد أیام؛ و نائب الکرک خلیل بن شاهین؛ و نائب القدس طوغان العثمانی؛ و نائب ملطیة حسن بن أحمد أخو نائب حلب؛ و حسن الأکبر- انتهی.

قلت: و فائدة ما ذکرناه هنا من ذکر أصحاب الوظائف من الأمراء و غیرهم، یظهر بتغییر الجمیع و ولایة غیرهم بعد مدة یسیرة فی أوائل سلطنة [الملک] الظاهر جقمق، لتعلم تقلبات الدهر و أن اللّه علی کل شیء قدیر.

و أما ذکر ملوک الأطراف و غیرهم فهو نوع استطراد لا یخلو من فائدة، و لیس فیه خروج مما نحن بصدده- انتهی.

*** و لما تم أمر السلطان الملک العزیز و نودی بسلطنته و بالنفقة علی الممالیک السلطانیة فی یوم الاثنین خامس عشر ذی الحجة، لکل مملوک مائة دینار، سکن قلق الناس و سرّوا جمیعا بولایته، و لم یقع فی ذلک الیوم هرج و لا فتنة و لا حرکة، و اطمأنت

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۲۷

الناس، و باتوا علی ذلک و أصبحوا فی بیعهم و شرائهم؛ غیر أن الممالیک صاروا فرقا مختلفة، و القالة موجودة بینهم فی الباطن.

و لما کان یوم الأحد رابع عشر ذی الحجة، حضر الأمراء و الخاصکیة للخدمة بالقصر علی العادة، و أنعم السلطان الملک العزیز علی الخلیفة أمیر المؤمنین المعتضد بالله بجزیرة الصابونی زیادة علی ما بیده، و کتب إلی البلاد الشامیة و لجمیع الممالک بسلطنته.

ثم فی یوم الاثنین ابتدأ السلطان بنفقة الممالیک السلطانیة بعد أن جلس بالمقعد الملاصق [لقاعة] الدّهیشة المطل علی الحوش

السلطانى، و بجانبه الأمير الكبير جقمق العلائى و بقية الأمراء. و شرع السلطان فى دفع النفقة إلى المماليك السلطانية، لكل واحد مائة [دينار]، كبيرهم و صغيرهم و جليلهم و حقيرهم بالسوية، فحسن ذلک ببال الناس و كثر الدعاء للسلطان و عطفت القلوب على محبته.

ثم عيّن للتوجه إلى البلاد الشامية للبشارة الأمير إينال الأحمدى الظاهرى الفقيه أحد أمراء العشرات و رأس نوبة، و على يده مع البشائر كتب للأمراء المجردين بالبلاد الشامية تتضمن موت [الملک] الأشرف و سلطنة ولده الملک العزيز هذا.

ثم قدم رسول الأمير حمزة بن قرايلک صاحب ماردين و أرزن و صحبته شمس الدين القلمطاوى، و معهما هدية و كتاب يتضمن دخول حمزة [المذكور] فى طاعة السلطان، و أنه أقام الخطبة و ضرب السكة إلى السلطان ببلاده، و أنه صار من

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۲۸

جملة نواب السلطان، و كان الأمراء المجردون كاتبوه فى دخوله فى طاعة السلطان فأجاب؛ و فى جملة الهدية دراهم و دنانير بسكة السلطان [الملک] الأشرف برسباى، فخلع على قاصده و أكرمه.

ثم خلع السلطان فى يوم الثلاثاء سادس عشر ذى الحجة على الأمير طوخ مازى الناصرى- ثانى رأس نوبة- باستقراره فى نيابة غزة بعد موت آقبردى القجماسى.

كل ذلک و السلطان يطيل السكوت فى المواكب السلطانية [و] لا يتكلم فى شئ من الأمور، و صار المتكلم فى الدولة ثلاثة أنفس: الأمير الكبير جقمق العلائى، و الأمير إينال الأبوبكرى الأشرفى شادّ الشراب خاناه، و الزينى عبد الباسط ناظر الجيش؛ فمشى الحال على ذلک أياما ثلاثة.

فلما كان يوم السبت العشرين من ذى الحجة، وقع بين الأمير إينال الأبوبكرى المذكور و بين جكم الخاصكى- خال [الملک] العزيز- مفاوضة آلت إلى شر؛ و ابتدأت الفتنة من يومئذ، و عظّم الأمر بينهما من له غرض فى إثارة الفتن لغرض من الأغراض. و كان سبب الشر إنكار جكم على إينال لتحكمه فى الدولة، و أمره و نهيه، و كونه صار يبيت بالقلعة، فغضب إينال أيضا و نزل إلى داره، و مال إليه جماعة كبيرة من إنياته بطبقة الأشرفية. ثم نزل عبد الباسط إلى داره من الخدمة، فتجمع عليه جماعة كبيرة من المماليک الأشرفية و أحاطوا به و أوسعوه سبّا، و ربما أراد بعضهم ضربه و الأخراق به، لو لا ما خلّصه [۷۹] بعض من كان معه من أمراء المؤيدية بأن تضرع للمماليک المذكورين و وعدهم بعمل المصلحة حتى تفرقوا عنه، و توجه إلى داره على أقبح وجه.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۲۹

و استمر من هذا اليوم الكلمة مختلفة و أحوال الناس متوقفة، و صار كل من المماليک الأشرفية يريد أن يكون هو المتكلم فى الدولة، و يقدم إنياته و يجعلهم خاصكيّة.

كل ذلک و الأمير الكبير جقمق سامع لهم و مطيع، و صار يدور معهم كيف ما أرادوا، و إينال المشدّ يزداد غضبه و يكثر من القالة، لتحكم جكم فى الباطن، و الشر ساكن فى الظاهر، و المملكة مضطربة ليس للناس [فيها] من يرجع إلى كلامه.

فلما كان يوم السبت سابع عشرين ذى الحجة أنعم السلطان الملک العزيز على الأتابک جقمق العلائى بإقطاعه الذى كان بيده فى حياة والده، بعد أن سأل السلطان الأتابک جقمق فى ذلک غير مرة، و أنعم بإقطاع الأتابک جقمق على الأمير تمراز القرمشى رأس نوبة النّوب، و هو أحد الأمراء المجردين إلى البلاد الشامية، و أنعم بإقطاع تمراز المذكور على تمرباى التمربغاوى الدوادار الثانى، و الجميع تقادم ألوف لكن التفاوت فى كثرة الخراج و زيادة المغلّ فى السنة.

و أنعم بإقطاع تمرباى المذكور على الأمير علىّ باى الأشرفى الساقى الخازندار، و أنعم بإقطاع طوخ مازى الناصرى- المنتقل إلى نيابة غزة قبل تاريخه- على الأمير يخشباى الأشرفى الأمير آخور الثانى، و أنعم بإقطاع يخشباى المذكور على الأمير يلخجا من مامش الساقى الناصرى رأس نوبة، و الجميع أيضا طبلخاناة.

و أنعم بإقطاع يلخجا الساقى على السيفى قانى باى الجاركسى و صار أمير عشرة، بعد أن جهد الأتابک جقمق فى أمره و سعى فى

ذلک غایة السعی، و أرسل بسببه إلی عبد الباسط و إلی الأمیر إینال المشد غیر مرة حتی تم له ذلک. و خلع السلطان علی الأمیر إینال الأبوبکری المشد باستقراره دوادارا ثانیا عوضا عن تمر بای؛ کل ذلک و القالة موجودة بین جمیع العسکر ظاهرا و باطنا.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۳۰

ثم أصبح من الغد فی یوم الأحد خلع السلطان علی الأمیر علی بای الخازندار، باستقراره شادّ الشراب خاناه، عوضا عن إینال الأبوبکریّ.

ثم فی یوم الاثنین استقر دمرداش الأشرفی، أحد أصاغر الممالیک الأشرفیة، والی القاهرة عوضا عن [عمر] الشّوبکی، و انفض الموکب و نزل الأتابک إلی جهة بیته.

فلما کان فی أثناء الطریق اجتمع علیه جماعة کبیرة من الممالیک الأشرفیة و طلبوا منه أرزاقا، فأوعدهم و خادعهم و تخلص منهم، فتوجهوا إلی الزینی عبد الباسط ناظر الجیش فاختفی منهم، و قد صار فی أقبح حال منذ مات [الملک] الأشرف، من الذلة و الهوان و مما داخله [من] الخوف من الممالیک الأشرفیة من کثرة التهدید و الوعید، و قد احتار فی أمره و هم علی الهروب غیر مرة.

و استهلت سنة اثنتین و أربعین و ثمانمائة یوم الثلاثاء، و قد ورد الخبر بقدوم عرب لبید إلی البحیرة، فندب السلطان تغری بردی البکلمشی المؤذی أحد مقدمی الألوف، فخرج من القاهرة فی یوم الجمعة رابع المحرم و صحبته عدة من الممالیک السلطانیة. و فی هذا الیوم خلع السلطان علی خاله جکم باستقراره خازندارا کبیرا عوضا عن علی بای الأشرفی، و استمر علی إقطاع جندیته من غیر إمرة.

ثم فی یوم الاثنین خامس عشر المحرم نزل الطلب إلی شیخ الشیوخ سعد الدین سعد الدیری، و خلع علیه باستقراره قاضی قضاة الحنفیة بالدیار المصریة بعد عزل قاضی القضاة بدر الدین محمود العینی، بعد تمنع کبیر و شروط منها: أنه لا یقبل رسالة أحد منهم- أعنی أکابر الدولة- و أنه لا یتجوّه علیه فی شیء، و أشیاء غیر ذلک؛ و نزل إلی داره بالجامع المؤیدی و قد سر الناس بولایته غایة السرور.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۳۱

و فیه أنعم السلطان علی سبعة من الخاصکیة، لکل منهم بإمرة عشرة، و هم: قانم من صفر خجا المؤیّدی المعروف بالتاجر أحد الدواداریة، و جکم النّوروزی المجنون، و قانبک الأبوبکریّ الأشرفی الساقی، و جانبک الساقی الأشرفی المعروف بقلق سیز، و جانم الأشرفی أحد الدواداریة المعروف برأس نوبة سیّدی، و جرباش الأشرفی رأس نوبة [۸۰] الجمداریة المعروف بمشدّ سیّدی، و السابع ما أدری: أهو جکم خال [الملک] العزیز أو هو آقبردی المظفّری الظاهری [برقوق] رأس نوبة الجمداریة؟

و فیه أیضا خلع السلطان علی مراد قاصد الأمیر حمزة بک بن قرایلک و رسم بسفره و صحبته شمس الدین القلمطاوی أحد موقّعی حلب، و جهز السلطان صحبتهما مبارک شاه البریدی و علی یده جواب کتاب الأمیر حمزة بشکره و الثناء علیه، و تشریف له بنیابة السلطنة بممالکه، و فرس بقماش ذهب، و هدیة هائلة، ما بین قماش سکندری و سلاح و غیره، و نسخة یمین، و أجیب الأمراء المجردون أیضا عن کتبهم، و رسم لهم أن یسرعوا فی الحضور إلی الدیار المصریة.

و فی هذه الأیام کثر الکلام بین الأمراء و الخاصکیة بسبب التوجه إلی البلاد الشامیة و حمل تقالید النواب بالاستمرار، إلی [أن کان] یوم السبت تاسع عشر المحرم خلع السلطان علی الأمیر أزبک السیفی قانی بای أحد أمراء العشرات و رأس نوبة- المعروف بجحا- و عین لتقلید الأمیر إینال الجکمی نائب الشأم، باستمراره علی عادته، و کان تقدم أن السلطان خلع علی الأمیر إینال الفقیه بتوجهه إلی نائب حلب، و خلع السلطان علی إینال الخاصکی بتوجهه إلی الأمیر جلبان نائب طرابلس،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۳۲

و علی دولات بای الخاصکی [بالتوجه] إلی قانی بای الحمزاوی نائب حماه، و علی یشبک الخاصکی بالتوجه إلی إینال العلائی

الناصرى نائب صفد، كل ذلك و النواب فى التجريدة صحبة الأمراء المصريين.

[و] فى هذا اليوم حل بالزينى عبد الباسط أمور غير مرضية من بعض المماليك الأشرفية فى وقت الخدمة السلطانية، هذا بعد ما نزل به قبل تاريخه فى هذه الأيام من أنواع من المكاره، ما بين تهديد و لكم و إساءة، احتاج من أجلها إلى بذل الأموال لهم و لمن يحميه منهم ليخلص من شرهم، فلم يتم له ذلك.

ثم فى ثالث عشرين المحرم قدم ركب الحاج إلى القاهرة، و أمير [حاج] المحمل آقبغا من مامش الناصرى المعروف بالتركمانى، أحد أمراء العشرات و رأس نوبة، بعد أن حل بالحاج من البلاء ما لا مزيد عليه، من أخذهم و أخذ أموالهم و نهبهم، و قد فعلت الأعراب بهم ما فعله التّمريّة فى أهل البلاد الشامية، و معظم المصيبة كانت بالركب الغزّاوى، فلم يلتفت أحد من أهل الدولة لذلك، لشغل كل واحد بما يرومه من الوظائف و الإقطاعات و غيرها، ودع الدنيا تخرب و يحصل له مراده.

ثم فى يوم الثلاثاء تاسع عشرين المحرم قدم إلى القاهرة مماليك نواب البلاد

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١٥، ص: ٢٣٣

الشامية، و على أيديهم مطالعات تتضمن أنهم ملكوا مدينة أرزنكان و أنه خطب بها باسم [السلطان] الملك الأشرف برسباى، و لم يعلموا إذ ذاك بموته.

ثم فى يوم الخميس أول صفر عملت الخدمة السلطانية و نزل كل واحد إلى داره، فلما كان عبد الباسط بالقرب من باب الوزير تجمع عليه عدة من المماليك الأشرفية و تحاوطوه و أوسعوه سبّا و وعيدا، و همّوا به، و أراد [بعضهم] ضربه، حتى منعه عنه من كان معه من الأمراء، و تخلص منهم و ولى هاربا يريد القلعة، حتى دخلها و هم فى أثره؛ فامتنع بها فأقام بالقلعة يومه كلّه و بات بها و هو يطلب الإعفاء من وظيفتى نظر الجيش و الأستادارية.

و أصبح السلطان من الغد جلس بالحوش السلطانى على الدّكّة، و طلع الأمير الكبير جقمق نظام الملك و استدعى عبد الباسط إلى حضرة السلطان، و السلطان على عادته من السكات لا يتكلم فى شىء من أمور المملكة، و ليس ذلك لصغر سنّه، و إنما هو لأمر يريده اللّه تعالى. فلما حضر عبد الباسط كلّمه الأمير الكبير فى استمراره على وظيفته، فشكا له ما يحلّ به، فلم يلتفت إلى شكواه و خلع عليه باستمراره، و على مملوك جانبك باستمراره على وظيفته الأستادارية، و نزلا إلى دورهما و معهما جماعة كبيرة.

ثم فى يوم الأحد رابع صفر ورد على السلطان كتاب الأمير إينال الجكمى نائب الشام بوصوله بالعساكر المصرية و الشامية من البلاد النمالية إلى حلب، و أن الأمير حسين بن أحمد المدعو تغرى برمش نائب حلب تأخر عنهم لما بلغه موت [الملك

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١٥، ص: ٢٣٤

الأشرف، و أنه أراد أن يكبس على الأمراء المصريين، فبلغهم ذلك فاحترزوا على نفوسهم [٨١] منه إلى أن دخلوا إلى حلب.

ثم فى يوم السبت عاشر صفر رسم [السلطان] بأن تقتصر الخدمة السلطانية على أربعة أيام فى الجمعة، و أن تكون الخدمة بالقصر فقط عندما يحضر الأتابك جقمق، و أن تبطل خدمة الحوش لغيبة الأتابك منه، و هذا ابتداء أمر الأتابك جقمق و ظهوره فى الدولة، لكثرة من انضم عليه من الطوائف من الأمراء و أعيان المماليك السلطانية.

ثم قدم كتاب نائب حلب يتضمن رحيل العساكر من حلب إلى دمشق فى سادس عشرين المحرم، و أنه قدم إلى حلب بعدهم فى ثامن عشرينه، و أنه كان تخوّف من الأمراء المصريين أن يقبضوا عليه فلهذا تخلف عنهم، و أنه فى طاعة السلطان و تحت أوامره، فلم يجب بشىء لشغل أهل الدولة بما هم فيه من تنافر قلوب بعضهم من بعض، و قد وقع أيضا بين المماليك الأشرفية [و بين خجداشهم، و أعظمهم الأمير إينال الأبوبكرىّ الدوادار الثانى.

فلما كان يوم الاثنين ثانى عشر تجمع المماليك الأشرفية] بالقلعة يريدون قتل الأمير إينال الأبوبكرىّ الدوادار الثانى [المقدم ذكره]، ففرّ منهم بحماية بعضهم له، و نزل إلى داره، فوقفوا خارج القصر و سألوا الأمير جقمق بأن يكون هو المستبد فى الأمر و النهى و

التحکم فی الدولة، و أن ترفع ید إینال و غیره من الحکم فی المملکة، فأجاب إلی ذلک و وعدهم بکل خیر، و نزل. و قد اتسع للأتابک جقمق- بهذا الکلام- المیدان، و وجد لدخوله فی المملکة بابا کبیرا، فإنه کان عظم جمعه قبل ذلک لکنه کان تخشّی کثرة الممالیک الأشرفیة، فلما وقع الآن بینهم المباینة خفّ عنه أمرهم قلیلا- و قوی أمره؛ کل ذلک و لم یظهر منه المیل للوثوب علی [الملک]

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۳۵

العزیز بالکلیة، غیر أنه یوافق القوم فی الإنکار علی فعل الممالیک الأشرفیة و کثرة شرورهم لا غیر.

و لما کان صباح النهار المذکور، و هو یوم الثلاثاء ثالث عشر صفر، وقف جماعة کبیرة من الأشرفیة تحت القلعة بغیر سلاح و وقع بینهم و بین خجداشیّتهم الذین هم من طبقة الأشرفیة من إنیات إینال و إخوته، وقعة هائلة بالدبابیس، ثم انفضوا و عادوا من الغد فی یوم الأربعاء إلی مکانهم بسوق الخیل.

فلما وقع ذلک تحقق الممالیک القرانیص وقوع الخلف بین الممالیک الأشرفیة، فقاموا عند ذلک و تجمعوا عند الأمیر الکبیر، و معهم الأمیر إینال المذکور بإنیاته و خجداشیّته من الممالیک الأشرفیة و هم جمع کبیر أیضا، و تکلموا مع الأمیر الکبیر بالقیام فی نصرة إینال المذکور، و لیس ذلک مرادهم و إنما قصدهم غیر ذلک، لکنهم لم یجدوا مندوحة لغرضهم أحسن من هذه الحرکة، و أظهروا المیل الکلی إلی نصرة إینال، و صاروا له أصدقاء و هم فی الحقیقة أعدی العدی، فمال الأتابک جقمق إلی نصرة إینال لکوامن کانت عنده من القوم، و قد صار بهذه القضیة فی عسکر هائل و جمع کبیر من الممالیک الظاهریة [برقوق] و هم خجداشیته، و الممالیک الناصریة [فرج] و الممالیک المؤیدیة شیخ و السّیفیة و عالم کبیر من الممالیک الأشرفیة أصحاب إینال.

و بقی العسکر قسمین: قسم مع الأمیر الکبیر جقمق، و هم من ذکرنا و معظم الأمراء من مقدمی الألوف، و غالب أمراء الطبلخانات و العشرات، ما خلا جماعة من أمراء الأشرفیة؛ و قسم آخر بالقلعة عند السلطان الملک العزیز، و هم أکثر الممالیک الأشرفیة، و عندهم الخلیفة و الخزائن و الزّردخانة، إلا أنهم جهال بمکاید الأخصام

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۳۶

و وقائع الحروب، لم تمر بهم التجارب و لا مارسوا الوقائع. و أعظم من هذا أنهم لم یقرّبوا أحدا من الأکابر و أرباب المعرفة، فضلّوا و أضلوا و ذهبوا و أذهبوا و أضعفوا بسوء تدبیرهم قواهم، و ترکوا الملک باختلاف آرائهم لمن عداهم، علی ما سیأتی بیان ذلک کله فی محله.

هذا، و کل من الطائفتین یدّعی طاعة الملک العزیز غیر أن الخصم هو إینال، و قد التجأ إلی الأمیر الکبیر جقمق نظام الملک فقبله الأمیر الکبیر بمن معه، و قام فی الظاهر بنصرة إینال أتم قیام و فی الحقیقة إنما هو قام بنصرة نفسه، و قد ظهر ذلک لکل أحد حتی لإینال غیر أنه صار یستبعد ذلک لعظم خدیعة جقمق له، و أیضا لأنه أحوجه الدهر أن یکون من حزبه، کما قیل:

و ما من حبّه أحنو علیه و لکن بغض قوم آخرین

[۸۲] و لما وقع ذلک استفحل أمر الأتابک، و تکاثف جمعه، و معظم من قام فی هذه القضیة معه الممالیک المؤیّدیة، و قد أظهروا ما کان فی ضمائرهم من الأحقاد القدیمة فی الدولة الأشرفیة، و أخذوا فی الکلام مع الأتابک و تقویة جنابه علی الوثوب بالممالیک الأشرفیة الذین بقلعة الجبل، و هو یتثاقل عن ذلک حتی یتحقق من أمرهم ما یثق به، و صار یعتذر لهم بأعذار کثیرة: منها قلة المال و السلاح، و أن الذین بقلعة الجبل أقویاء بالقلعة و المال و السلطان و السلاح. فقالوا: هو ما قلت، غیر أن هؤلاء جهلة لا یدرون الوقائع و لا مقاومة الحروب و لا أمر العواقب، و نحن أعرف بذلک منهم، و جمعنا یقاتل معک من غیر أن تبذل لهم الأموال.

و لا زالوا به حتی أذعن لهم، بعد أن بلغه عن بعضهم أنه یقول عنه: «الأمیر

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۳۷

الکبیر دقن المرأة»، و أشیاء غیر ذلک، کونه لا یوافقهم علی الرکوب، و أنهم یقولون:

«إن کان الأمیر الکبیر ما یوافقنا أقمنا لنا أستاذا غیره».

و لما وافقهم الأمیر الکبیر علی الرکوب، أشاروا علیه بعدم الطلوع إلی الخدمة السلطانیة من الغد فی موکب یوم الخمیس خامس عشر صفر، فقبل منهم ذلک و أصبح یوم الخمیس المذکور و قد کثر جمعه، و تحول من داره التی تجاه الکبش علی برکة الفیل، إلی بیت نوروز الحافظی تجاه مصلاة المؤمنی، و قد اجتمع علیه خلائق من الممالیک من سائر الطوائف و علیهم السلاح الکامل و آلة الحرب.

و قبل أن یرکب الأمیر الکبیر جقمق عند وضع رجله فی الرکاب قال: «هذا دقن المرأة بیرکب [حتی] نبصر إیش تفعل الرجال الفحوله» فصلحوا بأجمعهم: «نقاتل بین یدیک إلی أن نفنی أو ینصرک اللّه علی من یعادیک».

ثم سار بجموعه حتی وافی البیت المذکور فوقف علی باب الدار، و قد اجتمع علیه جمع من الممالیک و الزّعر و العامة، فوعدهم الأمیر الکبیر بالنفقة و الإحسان إلیهم، کل ذلک و لم یقع إلی الآن قتال. فلما تحقق الممالیک الأشرفیة رکوب الأمیر الکبیر، و رأوهم من أعلی قلعة الجبل، أخرجوا السلطان من الدور إلی القصر المطل علی الرّمیلة و اجتمعوا علیه بالقصر و غیره، و قد لبسوا السلاح أیضا.

و کان کبراء الأشرفیة الذین بالقلعة عند الملک العزیز، من أمراء الأشرفیة و غیرهم جماعة: منهم الأمیر یخشبای الأشرفی الأمیر آخور الثانی، و علی بای شادّ الشراب

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۳۸

خانة و تنبک النّوروزی المعروف بالجقمقی نائب قلعة الجبل، و خشکلدی من سیّدی بک الناصری رأس نوبة، و کزل السّودونی المعلم رأس نوبة، و جکم الخازندار خال [الملک] العزیز، و جماعة أخر ممن تأخر فی أمسه من الممالیک الأشرفیة، و معظم الخاصکیّة الأشرفیة، أصحاب الوظائف و غیرهم، ما خلا من نزل منهم مع الأمیر إینال الأبوبکریّ، و استعدوا لقتال الأمیر الکبیر و من معه، و باتوا تلک اللیلة، بعد أن تناوشوا فی بعض الأحیان بالرمی بالنشاب، و لم یقع قتال فی مقابله.

و أصبحوا فی یوم الجمعة سادس عشر صفر علی ما باتوا علیه، و استمر کل طائفة من الفریقین علی تعبیتهم إلی بعد صلاة العصر، فزحف بعض أصحاب الأمیر الکبیر إلی باب القرافة، و هدموا جانبا من سور میدان القلعة و غیره، و دخلوا إلی المیدان، فنزل إلیهم طائفة من السلطانیة رکبانا و مشاة و قاتلوهم مواجهة، حتی هزموهم و أخرجوهم من المیدان، و تراموا بالنشاب ساعة فحال بینهم اللیل، و بات کل طائفة منهم علی حذر. و توجهت الأشرفیة الذین بالقلعة، و فتحوا [باب] الزردخانة السلطانیة، و أخذوا من السلاح الذی بها ما أرادوا، و نصبوا مکاحل النفط علی سور القلعة، و أخذوا فی أهبة القتال.

حتی أصبحوا یوم السبت سابع عشر صفر و قد استفحل أمر السلطانیة من عصر أمسه، فتجمعت الجقمقیّة و ابتدأوا بقتال السلطانیة، فوقع بین الطائفتین قتال بالنشاب و النفوط، فهلک من العامة خلائق ممن کان من حزب الأمیر جقمق؛ کل ذلک و أمر السلطانیة یقوی إلی بعید الظهر، فلاح علیهم الخذلان من غیر أمر

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۳۹

یوجب [۸۳] ذلک، و مشت القضاة بین السلطان و الأمیر الکبیر جقمق غیر مرة، فی الصلح و الکفّ عن القتال و حقن دماء المسلمین، و إخماد الفتنة.

هذا و قد ترجح جهة الأمیر الکبیر جقمق، و طمعت عساکره فی السلطانیة، فقال الأمیر الکبیر: أصطلح بشرط أن یرسل السلطان إلیّ بأربعة نفر، و هم: جکم خال [الملک] العزیز الخازندار، و تنم الساقی، و أزبک البواب، و یشبک الفقیه الأشرفی الدوادار؛ فأذعن السلطان و من عنده لذلک بعد کلام کثیر، فنزل الأربعة من القلعة، بعد صلاة العصر من یوم السبت المذکور، مع من کان تردد فی الصلح، و ساروا حتی دخلوا بیت الأمیر الکبیر، فحال وقع بصره علیهم قبض علیهم و احتفظوا بهم.

و ركب الأمير الكبير فرسه و ساروا معه أعيان أصحابه إلى أن صار فى وسط الرّميلة تجاه باب السلسلة، فنزل عن فرسه بعد أن فرش [له] ثوب سرج جوخ، و قبّل الأرض بين يدى السلطان الملك العزيز لكونه أرسل إليه أخصامه، ثم ركب فى أصحابه و عاد إلى بيته بالكبش و معه المقبوض عليهم، إلى أن نزل بداره فى موكب جليل إلى الغاية.

و أخذ أمر [الأمير] الكبير [جقمق] من هذا اليوم فى زيادة و قوة، و أمر [الملك] العزيز و مماليك أبيه [الأشرفية] فى نقص و وهن و إدبار.

و أصبح بكرة يوم الأحد ثامن عشر صفر أرسل الأمير الكبير إلى السلطان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۴۰

فى طلب جماعة أخر من المماليك الأشرفية، فنزل إليه الأمير يخشباى الأمير آخور الثانى، و الأمير على باى شادّ الشراب خاناه، و هما من عظماء القوم و المشار إليهما من القلعية الأشرفية، و قبّلا يد الأمير الكبير جقمق، فأكرمهما الأمير الكبير و وعدهما بكل خير، ثم أمر فى الحال بطلب [الأمير] الطواشى خشقدم اليشبكى مقدم المماليك السلطانية فحضر إليه و قبّل يده، فأمره الأمير الكبير أن يتقدم بنزول جميع من فى الأطباق من المماليك الأشرفية و هدّده إن لم يفعل ذلك، فاستبعد الناس وقوع ذلك لكثرة المماليك الأشرفية و شدة بأسهم.

فحالما طلع خشقدم و أمرهم بالنزول أجابه الجميع بالسمع و الطاعة، و نزل صبيان طبقة بعد طبقة إلى بيت الأمير الكبير، و قد حضر عنده قضاة القضاة الأربعة و أهل الدولة و أعيانها، و حلّفوا الأمير الكبير على طاعة السلطان، ثم حلّفوا المماليك الأشرفية على طاعة الأمير الكبير، و حكم قاضى القضاة سعد الدين [بن] الديرى الحنفى بسفك دم من خالف هذا اليمين.

و عند انقضاء الحلف، أمر الأمير الكبير بنزول جميع المماليك الأشرفية من أطباقهم بالقلعة إلى إسطبلاتهم، ما خلا المماليك الصغار فاعتذروا عن قلة مساكنهم بالقاهرة، فلم يقبل الأمير الكبير أعذارهم و شدّد عليهم، و الناس تظن غير ذلك، فخرجوا. و فى الحال أخذوا فى تحويل متاعهم و نزلوا من الأطباق، بعد أن ظن كل أحد منهم أنه لا بد له من إثارة فتنة و شر كبير تسفك فيه دماء كثيرة قبل نزولهم، فلم يقع شيء من ذلك، و نزلوا من غير قتال و لا إكراه؛ و خلت الطباق منهم فى أسرع وقت خذلانا من اللّه تعالى، و تركوا السلطان و الخزائن و السلاح و القلعة، و نزلوا من غير أمر يوجب النزول، و هم نحو الألف و خمسمائة نفر، هذا خلاف من كان انضم عليهم من الناصرية و المؤيدية و السيفية، و للّه در القائل: [السريع]

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۴۱

ما يفعل الأعداء فى جاهل ما يفعل الجاهل فى نفسه

و تعجب الناس من نزولهم، حتى الأمير الكبير جقمق، و صار يتحدث بذلك أوقاتا فى سلطنته، فإنه كان أولا تخوف منهم أن يقبضوا عليه عند طلوعه إلى القلعة غير مرة، و لهج الناس بذلك كثيرا و بلغ الأتابك أنهم يريدون أن يقبضوا عليه و على عبد الباسط و على الصاحب جمال الدين ناظر الخاص، فقال: و إيش يمنعهم من ذلك؟ و انقطع عن الخدمة السلطانية أياما، حتى كلمه أصحابه فى الطلوع و شجعوه و قالوا له: نحن نطلع فى خدمتك و لا يصيبك مكروه حتى تذهب أرواحنا. كل ذلك قبل أن يقع الشرّ بين الأمير إينال و خجداشيته، فهذا كله ذكرناه لتعرف به شدة بأس المماليك الأشرفية و كثرة عددهم.

[۸۴] فلما تكامل نزول [المماليك] الأشرفية من الأطباق إلى حال سبيلهم، و هذا أول مبدأ زوال ملك السلطان الملك العزيز [يوسف]، و من يومئذ أخذ الأمير إينال الأبوبكرىّ الأشرفىّ فى الندم بما وقع منه من الانفراد عن خجداشيته و الانضمام على الأتابك جقمق، حتى إنه صار يبكى فى خلواته و يقول: «ليتنى كنت حبست بثغر الإسكندرية، و دام تحكم ابن أستاذى و خجداشيتى. و ما عسى خجداشيتى كانوا يفعلون بى؟». و ندم حيث لا ينفع الندم، و ربما بلغ الأمير الكبير عنه ذلك فأخذ يحلف له أنه لا يريد الوثوب على السلطنة، و لا خلع الملك العزيز، و أنه لا يريد إلا أن يكون نظام ملكه و مدبّر ممالكه، و أشياء غير ذلك.

قلت: و أنا أظن أن الأمير إينال ما طال حبسه إلا بهذا المقتضى، و اللّه أعلم.

ثم في يوم الأحد هذا قدم الأمير تغرى بردى البكلمشى المؤذى أحد مقدمى

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۴۲

الألوف من البحيرة بمن كان صحبته من المماليك السلطانية، و كان الأتابک أرسل يستحثه فى القدوم عليه ليكون من حزبه على قتال الأشرفية؛ فتقاعد عنه إلى أن انتهى أمر الوقعة و حضر، فأخذ الأتابک جقمق يوبخه لعدم حضوره، و هو يعتذر بعدم وصول الخبر إليه و يقبّل يده.

ثم ورد الخبر على السلطان بأن العسكر المجرد من الأمراء وصل إلى دمشق فى خامس صفر.

ثم فى يوم الثلاثاء العشرين من صفر شفع الملک العزيز فى خاله جكم و رفقته، فأفرج عنهم الأتابک جقمق و خلع على كل منهم كاملية مخمل بفرو سمور [و] بمقلب سمور.

ثم فى يوم الخميس ثانى عشرين صفر طلع الأمير الكبير جقمق إلى الخدمة السلطانية و معه سائر الأمراء و أرباب الدولة، و منع المماليک الأشرفية من الدخول إلى القصر فى وقت الخدمة، إلا من له نوبة عند السلطان من أصحاب الوظائف، و كان الأتابک جقمق شرط عليهم ذلک عند تحليفهم.

و حضر الأمير الكبير الخدمة، و خلع عليه السلطان تشريفا عظيما باستمراره على حاله، و نزل من وقته إلى باب السلسلة، و سكن الحراقة من الإسطبل السلطانى بعد أن نقل إليها قماشه و رخته فى أمسه؛ و بعد أن أمر الأمير يخشباى الأمير أخور الثانى بالنزول من الإسطبل إلى بيته قبل تاريخه، فنزل يخشباى إلى داره، و كانت دار قطلو بغا الكركى التى تجاه دار منجک اليوسفى بالقرب من الجامع الحسينى، و جلس و أغلق عليه باب الدار، و منع الناس من التردد إليه، و صار كالمرسم عليه؛ و هذا أيضا من أعجب العجب، كون الشخص يكون على إقطاعه و وظيفته و يصير على هذه المثابة.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۴۳

و سكن الأمير الكبير بالسلسلة و تصرف فى أمور المملكة من غير مشارک، و استبد بتدبير أحوال السلطنة من ولاية الوظائف و الإنعام بالإقطاعات و الإمريات على من يريد و يختار، فصار الملک العزيز ليس له من السلطنة إلا مجرد الاسم فقط. فعظم ذلک على المماليک الأشرفية، و أنكروا سكنى الأمير الكبير بباب السلسلة، و اتفقوا و وقفوا فى جمع كبير بالرّميلة و أكثروا من الكلام فى ذلک، ثم انفضّوا من غير طائل و فى أملهم أن الأمراء إذا قدموا من سفرهم أنكروا على الأمير الكبير ما فعله و قاموا بنصرة [الملک] العزيز، و انتظروا ذلک.

و أخذ الأتابک جقمق فى تحصين باب السلسلة و القلعة و أشحنهما بالسلاح و الرجال، و صارت الأعيان من كل طائفة تبيت عنده بباب السلسلة فى كل ليلة، و الأمراء و الأعيان تتردد إلى خدمته و تركت الخدمة السلطانية، و احتجّ الأمير الكبير بتركها أنه بلغه أن المماليک الأشرفية اتفقوا على قتله إذا طلع إلى الخدمة السلطانية، و جعل ذلک عذرا له عن عدم حضور الخدمة، و صار هو المخدوم و المشار إليه، و تردد مباشرو الدولة إلى بابه و سائر الناس، و تلاشى أمر السلطان [الملک] العزيز إلى الغاية.

و لهج الناس بسلطنة الأتابک جقمق، و شاع ذلک بين الناس، و صار الأتابک كلما بلغه ذلک أنكره و أسكت القائل بذلک [و لسان حاله ينشد]: [الكامل]

[۸۵]

لا تنطقنّ بحادث فلربما نطق اللسان بحادث فيكون

هذا و الأتابک جقمق متخوف فى الباطن من الأمراء المجردين، لكونهم جمعا كبيرا و فيهم جماعة من حواشى [الملک] الأشرف و مماليكه، مثل أركماس

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۴۴

الظاهرى الـدوادار الكبير، و تمراز القرمشـى رأس نوبـة النّوب، و جانم الأشـرفى الأمير آخور الكبير، و قراجا الأشـرفى، و خجا سودون السّيـفى بلاط الأعرج، و فيهم أيضا من تحـدثه نفسه بالوثوب على الأمر و هو الأمير قرقماس الشـعبانى الناصـرى أمير سـلاح المعروف بأهرام ضاغ؛ فلهذا صار الأتابک جقمق يقدم رجلا و يؤخر أخرى.

ثم قدم الخبر بخروج الأمراء من مدينة غزة إلى جهة الديار المصـرية، و أن خجا سودون البلاطى أحد مقدمى الألوف تأخر عنهم على عادته فى كل سـفرة، فندب الأتابک السـيفىّ دمرداش الحسنى الظاهرى برقوق الخاصكى بالتوجه إلى غزة، و على يده مرسوم شريف بتوجه خجا سودون إلى القدس بطالا، فمضى دمرداش المذكور و فعل ما ندب إليه.

فلمـا كـان يوم الأربعـاء خـامس شـهر ربيع الأول وصل الأمراء إلى الـديار المصـرية و طلعوا الجميع إلى الأتابک جقمق، ما خلا الأمير يشـبک السّـودونى حـاجب الحجـاب فـإنه قـدم القـاهرة فى الليـل مريضـا فى محفـة إلى داره، و لـم ينزل الأتابـک إلى تلقى الأـمراء المـذكورين، و كـان أرسـل إليهم يخوّفهم من المماليـک الأشـرفية، و ذكر لهم أنهم يريـدون الركـوب عليهم يوم دخولهم، فـدخلوا الجميع بأطلابهم، و لما طلعوا إلى جقمق قام لهم و اعتنقهم و أكرمهم غاية الإكرام.

و أرسل إلى الملک العزيز أنه يخرج و يجلس بشباک القصر حتى يقبّلوا له الأمراء الأرض من الإسطبل السلطانى و لا يطلع إليه أحد، ففعل [الملک] العزيز ذلک و جلس بشباک القصر حتى أخذ الأتابک جقمق الأمراء و سار بهم من الحراقة يريد الإسطبل السلطانى و الجميع مشاة؛ و قد جلس السـلطان [الملک] العزيز بشـباک القصـر فوقف الأمراء تحت شباک القصر و أومأوا برءوسهم كأنهم قبّلوا له الأرض،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۴۵

و أحضـر إليهم التشـاريف السـلطانية فى الحـال فلبسوها، و قبّلوا الأرض ثانيا كالمرة الأولى، و عادوا راجعين فى خدمـة [الأمير الكبير] حتى طلعوا معه إلى الحرّاقة، ثم سلموا عليه و عادوا و ركبوا خيولهم و توجهوا إلى دورهم.

و كنت لمـا لاـقيت الأـمير أقبغـا التّمرازى أمير مجلس سـألنى عن أحوال الأتابـک جقمق، فقلت له كلاما متحصـله أنه ليس بينه و بين السـلطنة إلا أن تضـرب له السـكة و يخطب باسـمه، فاستبعد ذلک لقوة بأس المماليک الأشرفية و عظم شوكتهم، فلما نزل من القلعة و عليه الخلعـة قلت له قبـل أن يصـل إلى داره: كيف رأيت جقمق؟ قـال: سـلطان على رغم الأـنف. و معنى قوله: «على رغم الأنف» لأنه كان بينهما حضوض أنفس قديمة.

ثم أصبحوا يوم الخميس سادس شهر ربيع الأول حضروا الجميع إلى عند الأتابک جقمق بباب السلسلة، و جلس الأتابک فى الصدر و كـل من الأـمراء على يمينه و شـماله، إلاـ قرقمـاس أمير سـلاح فـإنه زاحم الأتابک جقمق فى مجلسه و جلس معه على فراشه، و الأمير جقمق يجـذبه إلى عنـده و يخـدعه بأنه لا يفعل شـيئا إلا بمشورته، و أنه قوّى أمره بقدومه و أنه شـيخ كبير عاجز عن الحركة و اقتحام الأـهوال، إلاـ إن كـان بقوة قرقمـاس المـذكور، كـل ذلـک و هما جلوس على المرتبـة، فانخـدع قرقماس و طابت نفسه بما سـمعه من الأتابک جقمق، أنه ربما [إن] تحرک بعد ذلک بحركة تمت له لضعف جقمق عن مقاومته.

هذا و قد برز الطلب لجماعة من الأشـرفية و غيرهم، و جميع من هو بالقلعة من الأعيان، فلما حضروا أشار قرقماس لجماعة من الرءوس نوب، و أمراء جندار ممن حضر المجلس أن اقبضوا على هؤلاء.

و أول ما بدأ برفيقه الأمير جانم الأشرفى الأمير آخور الكبير، ثم أشار

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۴۶

لواحد بعد واحد إلى أن قبضوا على جماعة كبيرة من الأمراء و الخاصكيّة، و هم:

الأمير جانم المقدم ذكره، و يخشـباى الأمير آخور الثانى، و على باى شادّ الشـراب خاناه، و تنبک السـيفى نوروز الخضرى [المعروف]

بالجقمقى نائب قلعة الجبل، و خشقدم الطواشى الرومى اليشبكى مقدم المماليك [۸۶]، و نائبه الطواشى فيروز الرّكنى الرومى أيضا، و خشكلدى من سيّدى بك الناصرى أحد أمراء العشرات و رأس نوبة، و جكم خال [الملك] العزيز، و جرباش الأشرفى أحد أمراء العشرات المعروف بمشدّ سيّدى، و جانبك قلق سيز الساقى أحد أمراء العشرات؛ و من الخاصكية: تنم الساقى، و أزبك البواب، و يشبك الفقيه؛ و كل من هؤلاء الثلاثة أحد الأربعة المقدم ذكرهم، و تنبك الفيسى المؤيدى رأس نوبة الجمداريّة، و أرغون شاه الساقى، و بيرم خجا أمير مشوى، و دمرداش الأشرفى والى القاهرة، و بايزير خال الملك العزيز، و قيّدوا الجميع.

و فى الحال خلع على الأمير تمرباى التّمربغاوى أحد مقدمى الألوف باستقراره فى نيابة الإسكندرية عوضا عن الزينى عبد الرحمن بن الكويز بحكم عزله، و أمر بالسفر إلى الإسكندرية من يومه، و خلع على قراجا العمرى الخاصكى الناصرى باستقراره فى ولاية القاهرة عوضا عن دمرداش الأشرفى بحكم القبض عليه.

ثم ندب الأمير الكبير الأمير تنبك البردبكى أحد مقدمى الألوف، و الأمير أقطوه الموساوى أحد أمراء العشرات، البرقوقيين، فى عدة من المماليك السلطانية، أن يطلعوا إلى القلعة و يقيموا بها لحفظها. و كان تنبك المذكور ولى نيابة القلعة قبل تاريخه سنين كثيرة فى الدوله الأشرفية، فطلع إلى القلعة و سكن بمكانه أولا على العادة.

ثم انفضّ الموكب و قد تزايد عظمة الأمير الكبير جقمق، و هابته النفوس

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۴۷

بما فعله قرقماس بين يديه من القبض على الأمراء المذكورين، و فهم الناس أنه فعل ذلك خدمة للأمير الكبير، و كان غرض قرقماس غير ذلك، فإنه رام نفع نفسه فنفع غيره، فكان حاله [كقول من قال]:

مع الخواطئ سهم [صائب] ربّ رمية من غير رام

و نزل الأمراء إلى دورهم و قد استخف الناس عقل قرقماس و خفّته و طيشه فى سرعة ما فعله، كل ذلك لاقتحامه على [حب] الرئاسة. و نزل قرقماس إلى داره، و فى زعمه أن جميع من هو بخدمة الأمير الكبير ينقلبون عن الأمير الكبير إليه، و يترددون إلى بابه لأنه هو كان الحاكم فى هذا اليوم، و لم يدر أن القلوب نفرت منه لتحققهم ما يظنوه من كبره و جبروته و بطشه، و قد اعتادوا باين الأمير الكبير و بأخذه لخواطرهم فى هذه المدة و تمسكه عن قبض من كان لهم غرض فى قبضه، و قد صاروا له كالمماليك و الخدم لطول ترددهم إليه فى باب السلسلة و غيرها، و قد انتهى أمره و حصل لهم ما كان فى أملهم. و أيضا أنهم لما رأرا قرقماس فعل ما فعل لم يشكّوا فى أمره أنه من جملة من يقوم بنصرة الأتابك و أنه كواحد منهم، فلم يطرق أحد منهم بابه و لم يدخل إليه فى ذلك اليوم إلا من يلوذ به من حواشيه و مماليكه.

و سافر تمرباى نائب الإسكندرية من الغد فى يوم الجمعة، و أصبح فى يوم السبت ثامن [شهر] ربيع الأول أنزل من باب السلسلة من تقدم ذكره من الأمراء الخاصكية الممسوكين على البغال بالقيود إلى سجن الإسكندرية، و قد اجتمع لرؤيتهم خلائق لا تحصى و هم قسمان: قسم باك عليهم، و قسم شامت لتقاعدهم عن

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۴۸

القتال فى خدمة ابن أستاذهم الملك العزيز [يوسف]، و أيضا لما كان يقع منهم فى أيام ابن أستاذهم من التكبر و الجبروت.

ثم أرسل الأمير الكبير فى اليوم المذكور إلى الأمراء القادمين من التجريدة بمال كبير له صورة، لا سيما ما حمله إلى قرقماس فإنه كان جملة مستكثرة.

ثم فى يوم الأحد تاسع شهر ربيع الأول خلع على الزينى عبد اللطيف [بن عبد اللّه] الطواشى الرومى المنجكى المعروف بالعثمانى أحد الجمداريّة باستقراره مقدم المماليك السلطانية، و أنعم عليه بإمرة عشرة لا غير و هو إقطاع النيابة الذى كان بيد فيروز الرّكنى نائب مقدم المماليك، و كانت الخلعة عليه بين يدى العزيز [۸۷] بعثه الأمير الكبير إليه و أمره أن يخلع عليه، و استقر فى نيابة المقدم جوهر

المنجكى الحبشى أحد خدام الأطباق الضعفاء الحال و لم تسبق له رئاسهٔ قبل ذلک.

ثم فى يوم الاثنين عاشره ركب السلطان الملک العزيز من القلعهٔ و نزل إلى الميدان، و معه الزينى عبد الباسط ناظر الجيش و جماعهٔ أخرى من خواصه الأصاغر، و ركب الأمير الكبير من الحرّافهٔ و فى خدمته جميع الأمراء مشاهٔ ما عدا أركماس الظاهرى الدوادار الكبير و آقبغا التّمرازى أمير مجلس، و ساروا الثلاثهٔ على خيولهم من الإسطبل السلطانى حتى نزلوا إلى الميدان و به السلطان يسير.

فعندما رأوا الأمراء الملک العزيز ترجّلوا عن خيولهم و قبّلوا الأرض، و تقدم الأمير الكبير جقمق و قبّل رجل السلطان فى الركاب، ثم بعده جميع الأمراء فعلوا مثل فعله، ثم تقدم الأمير يشبک السّودونى حاجب الحجاب قبّل الأرض، و خلع عليه خلعهٔ السفر لأنه كان انقطع عن رفقته لتوعک كان به، و طلع فى هذا

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۴۹

اليوم؛ ثم انصرف الجميع عائدين فى خدمهٔ الأمير الكبير إلى أن أوصلوه إلى سلم الحراقهٔ، و وقفوا له هناک حتى سلّم عليهم، و عادوا إلى دورهم.

و كان سبب تأخر قرقماس عن الطلوع فى هذا اليوم و الذى قبله، أمور: منها أنه كان فى نفسه الوثوب على الأمر، و فعل ما فعل من مسک الأمراء و غيرهم ليروج أمره بذلک، فلم ينتج أمره و تقهقر و زادت عظمهٔ الأتابک جقمق، فعزّ عليه ذلک فى الباطن، و كان فى ظنه أنه لا بد أن يملک الديار المصرية من يوم توجّه إلى مكهٔ و حكمها.

فلما عرف منه ذلک تقرب إليه جماعهٔ من الذين يوهمون الناس أنهم صلحاء، و لهم اطلاع على المغيبات، و صاروا يبشرونه بسلطنهٔ مصر، و تخبره جماعهٔ أخر [بمنامات] تدل على قصده فينعم عليهم بأشياء كثيرة.

ثم كلما نظر من يدعى معرفهٔ علم النجوم يسأله عما فى خاطره- و قد أشيع عنه حب الرئاسهٔ- فيبشره الرّمّال أو المنجم أيضا بما يسره من قبله و حسب اجتهاده لأخذ دراهمه.

فكان قرقماس ينتظر موت [الملک] الأشرف [يوما بيوم، فاتفق موت الملک الأشرف برسباى] و هو مسافر، و إلى أن يحضر انتظم أمر الأتابک جقمق و تمّ، فلم يلتفت إلى ما رأى من أمر جقمق بما سبق عنده أنه لا بد له من السلطنهٔ، و أخذ يسلک طريقا تصادف ما هو قصده.

فدخل القاهرة مطلّبا، فلم يلتفت إليه أحد. و طلع إلى الأتابک جقمق و امتنع من طلوع القلعهٔ إلى الملک العزيز حتى قبّل الأرض من الإسطبل خوفا من أن يقبض عليه، يريد بذلک أن ينتبه إليه الناس، فلم ينظر إليه أحد.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۵۰

ثم أخذ فى مسک الأمراء، حتى يعظم فى النفوس، فلم يقع ذلک. فانقطع بداره عن الطلوع إلى الأتابک مدهٔ أيام و تعلل بأنه بلغه عن الأمير الكبير و حواشيه ما غيّر خاطره، يظهر ذلک لتتسامع بغضبه الناس و يأتوه ليثور بهم، فلم ينضم إليه أحد؛ فاستدرک فارطه و استمر بداره إلى هذا اليوم.

فلما عاد الأتابک من عند الملک العزيز إلى سكنه بالحرّاقهٔ من باب السلسلهٔ، أرسل إلى الأمير قرقماس المذكور الأمير تمراز القرمشى رأس نوبهٔ النّوب، و قراجا الأشرفى أحد مقدمى الألوف، و الزينى عبد الباسط ناظر الجيش، يسألوه عن سبب انقطاعه عن [الطلوع] إلى الأمير الكبير فى هذه الأيام، فذكر لهم أنه بلغه عن حواشى الأمير الكبير من المؤيّديهٔ أنهم يتهموه بالركوب و إثارة الفتن و أنه يريد يتسلطن و لم يكن له علم بشىء من ذلک، فما زالوا به حتى ركب معهم.

و طلع إلى الأمير الكبير بالحرّاقهٔ من الإسطبل السلطانى، فقام الأمير الكبير و اعتنقه و أخذ بيده و دخلا مع أعيان الحاضرين إلى مبيت الحرّاقهٔ، و جلسا فى خلوة و تعاتبا قليلا، و أخذ الأمير الكبير يقول له إن قرقماس عنده فى مقام روحه، و أنه لم يتصل إلى هذا الموصل إلا بقوته و كونه معه، و أخذ فى مخادعته و الأخذ بخاطره، إلى أن تحقق قرقماس أنه لا يأتيه ما يكره من قبل الأتابک، إلى أن يدبر

لنفسه ما يوصله [٨٨] إلى غرضه، ثم حلف له الأتابك على هذا المعنى جميعه و بكى و اعتنقه، و خرجا من المبيت و قد صفا ما بينهما ظاهرا، و الباطن فلا يعلم ما فيه إلا اللّه تعالى.

و هو أن قرقماس لم يطلع فى هذا اليوم إلى الأتابك إلا بعد أن عجز عما فى خاطره، فاحتاج إلى المداهنة حتى يطول أمره إلى أن يحصل له مراده، و لم يخف ذلك عن

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١٥، ص: ٢٥١

الأتابك جقمق، غير أنه رأى [أنه] لا يتم أمره فيما يروم إلا بموافقة قرقماس له أولا، ثم بعد ذلك يفعل ما بدا له.

و عندما قام قرقماس من مجلس الأتابك ليتوجه إلى داره، قدم له الأتابك فرسا بقماش ذهب من مراكيبه، فركبه قرقماس و نزل إلى داره، و معه أيضا الأمير تمراز رأس نوبة النّوب، و قراجا، و هما فى خدمته إلى داره، فأركب قرقماس كلّا منهما فرسا بقماش ذهب.

ثم أخذه القلق و أخذ يدبر فى تأليف المماليك الأشرفية عليه، فرأى أنه لا يتم له ذلك بالعطاء و لا بالملق، لكثرتهم، و إنما يتم له ذلك بسلطنة الأتابك جقمق، لينفر عنه من كان من حزبه من المماليك الأشرفية و ينضموا عليه؛ و كان هذا حدسا صائبا، و وقع له ما أراد، غير أنه استعجل لأمر يريده اللّه.

فأخذ قرقماس من يومذاك يحسّن للأتابك جقمق توليته السلطنة و خلع [الملك] العزيز، و لا زال يلح عليه فى ذلك و هو يلين تارة و يتوقف تارة؛ و كان هذا الأمر فى خاطر الأتابك و أصحابه غير أنه كان يستعظم الأمر و يخاف من نفور قرقماس عنه، إذا فعل ذلك، و أخذ ينتظر فرصة للوثوب بعد حين، فحرّك اللّه تعالى قرقماس حتى سأله فى ذلك و ألحّ عليه لما فى غرضه فى أيسر مدة، لتعلم أن اللّه على كل شيء قدير.

و من يومئذ هان الأمر على الأتابك و أخذ فى أسباب السلطنة، و كتب يطلب صهره القاضى كمال الدين مجمد؟؟؟ بن البارزى من دمشق.

ثم أصبح يوم الخميس ثالث عشر [شهر] ربيع الأول عملت الخدمة السلطانية

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١٥، ص: ٢٥٢

و حضرها الأمير الكبير جقمق و الأمير قرقماس أمير سلاح المذكور، و عامة الأمراء و أرباب الدولة على العادة.

و كانت الخدمة السلطانية قد تركت من مدة أيام، فأجراهم السلطان الملك العزيز على عادته من السّكات و عدم الكلام، و انفض الموكب.

ثم طلع الأمير قرقماس من الغد فى يوم الجمعة و حضر الصلاة مع السلطان بالمقصورة من جامع القلعة، و لم يطلع الأتابك جقمق. و نزل قرقماس و لم يتكلم مع السلطان كلمة واحدة.

ثم فى يوم السبت عملت الخدمة أيضا بالقصر على العادة، و حضر الأمير الكبير.

ثم فى يوم الاثنين عملت الخدمة أيضا.

كلّ ذلك بتدبير قرقماس، و هو أنه لما علم أن الأمير الكبير جقمق تم أمره و لم يبق له منازع يعيقه عن السلطنة، أخذ فى عمل الخدمة حتى يجد نفسا من الملك العزيز أو من أحد من حواشيه، حتى تصير له مندوحة لمطاولة الأتابك على السلطنة، لأنه ندم على ما تفوّه به و لم يجد لنفسه قوة حتى يرجع عن قوله، لقوة شوكة الأتابك و كثرة أعوانه ممن اجتمع عليه من الطوائف، لا سيما الطائفة المؤيّدية فإنهم صاروا عصبا له و غيريّة على قرقماس، لما كان بين قرقماس و بين الأمير دولات المحمودى المؤيدى من العداوة قديما، لسبب السّكات عنه أليق، و دولات هو يومذاك عين المؤيدية و رئيسهم، غير أن جميع طائفة الناصرية كانت مع قرقماس فى الباطن لكونه خجداشهم، و لكن هم أيضا ممن كان انضم على الأتابك و صار لهم به إلمام كبير، فلم يظهروا الميل لقرقماس فى الظاهر مخافة أن لا يتم أمره و ينحط قدرهم عند الأتابك؛ فصاروا يلاحظونه

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۵۳

بالقلب و الخاطر لا- بالفعل و القيام معه، و الأتابک جقمق يعرف جميع ذلک، غير أنه يتجاهل عليهم تجاهل العارف، لقضاء حاجته- انتهى.

و لما عملت الخدمة فى هذه الأيام [و] لم يحصل لقرقماس غرضه، عاد إلى رأيه الأول من الكلام فى سلطنة الأتابک جقمق، و ألح عليه حتى أجابه [۸۹] صريحا.

و كان فى هذه الأيام كلّها كلما طلع الأمراء إلى الخدمة السلطانية، ينزل الجميع من القصر بعد انقضاء الخدمة إلى الأمير جقمق و يأكلون السماط عنده.

فلما كان آخر خدمة عملت عند [الملک] العزيز يوسف فى يوم الاثنين سابع عشر [شهر] ربيع الأول، نزل قرقماس من عند السلطان مع جملة الأمراء، و اجتمع بالأمير الكبير و ألح عليه بأنه يتسلطن فى اليوم المذكور، فلم يوافقه جقمق على ذلک و واعده على يوم الأربعاء تاسع عشر [شهر] ربيع الأول.

و وافقه جميع الأمراء على خلع الملک العزيز و سلطنته، إلا آقبغا التّمرازى فإنه أشار عليه أن يؤخر ذلک و يتجرد إلى البلاد الشامية و يمهدها، كما فعل [الملک] الظاهر ططر ثم يتسلطن، مخافة من عصيان النواب بالبلاد الشامية عليه عقيب سلطنته، قبل أن يرسخ قدمه، فردّ قوله قرقماس، و أشار بسلطنته فى يوم الأربعاء، و وافقه على ذلک جماعة المؤيدية؛ فتم الأمر على ما قاله قرقماس.

و كان الحزم ما قاله آقبغا التّمرازى، و بيانه أنه لو لا سعد [الملک] الظاهر جقمق حرّک قرقماس للركوب فى غير وقته، لكان قرقماس انتصر عليه لكثرة من كان انضم عليه من المماليک الأشرفية و غيرهم؛ و أيضا لو لا- استعجال إينال الجكمى فى صدمته العساكر المصرية، لكان تم أمره لعظم ميل الناس إليه.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۵۴

و أما تغرى برمش نائب حلب فكان مسكه على غير القياس، فإنه كان تركمانيّا و وافقه جماعة كبيرة من التركمان، مع قوته و كثرة ماله، فكان يمكنه أن يتعب [الملک] الظاهر جقمق بتلک البلاد طول عمره، فلهذا أشار آقبغا التّمرازى بسفره قبل سلطنته. و قد حسب البعيد و نظر فى العواقب، فلم يسمع [الملک] الظاهر له و تسلطن، و قاسى بعد ذلک شدائد و أهوالا، أشرف منها غير مرة على زوال ملكه، لو لا مساعدة المقادير و خدمة السعد، لما سبق له فى القدم.

و لما كان يوم الأربعاء تاسع عشر [شهر] ربيع الأول من سنة اثنتين و أربعين و ثمانمائة خلع الملک العزيز يوسف من الملک، و تسلطن الأمير الكبير جقمق العلائى، و تلقب بالملک الظاهر، حسبما يأتى ذكره فى أوائل سلطنته. و كانت مدة سلطنة [الملک] العزيز على مصر أربعة و تسعين يوما و زال بخلعه الدولة الأشرفية، و تمزقت مماليک أبيه و تشتتت فى البلاد سنين، و حبس أعيانهم.

و لم يكن [للملک] العزيز فى السلطنة إلا- مجرد الاسم فقط، و لم تطل أيامه و لا تحكّم فى الأمور لتشكر أفعاله أو تذم، و إنما كان آلة فى الملک و المتصرف غيره، لصغر سنه و عدم أهلية مماليک أبيه.

و لما خلع [الملک] العزيز، أدخل إلى الدور السلطانيه و احتفظ به، و سكن بقاعة البربريّة أشهرا، حتى تسحّب منها و نزل إلى القاهرة و اختفى أياما كثيرة، حتى ظفر به و حبس بالقلعة أياما قليلة، ثم نقل إلى سجن الإسكندرية، حسبما يأتى ذكر ذلک [كله] مفصلا فى ترجمة [الملک] الظاهر جقمق [إن شاء اللّه تعالى].

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۵۵

و استمر الملک العزيز بسجن الإسكندرية على أجمل حال و أحسن طريقة من طلب العلم و فعل الخير إلى يومنا هذا؛ أحسن اللّه عاقبته [بمحمد و آله]. و هو ثانى سلطان لقب بالملک العزيز من ملوک مصر، و الأول: العزيز عثمان بن [السلطان] صلاح الدين [يوسف] بن أيوب، و الثانى: العزيز هذا. و هو أيضا ثانى من سمى يوسف، من ملوک مصر، فالأول: [السلطان] صلاح الدين يوسف

هذا، [و اللّه تعالى أعظم].

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۵۶

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۴۲]

[۹۰] ذکر سلطنة الملک الظاهر أبى سعید جقمق على مصر

السلطان الملک الظاهر سیف الدین أبو سعید جقمق العلائى الظاهرى الجرکسى، و هو الرابع و الثلاثون من ملوک الترک و أولادهم بالدیار المصریة، و العاشر من الجراکسة و أولادهم، تسلطن بعد خلع [الملک] العزیز یوسف ابن [الملک] الأشرف برسباى، باتفاق الأمراء و أعیان المملکة على سلطنته.

و لما تم أمره استدعى الخلیفة المعتضد بالله داؤد و القضاة الأربعة و الأمیر قرقماس أمیر سلاح، و سائر الأمراء و جمیع أعیان الدولة، إلى الحرّاقة بباب السلسلة من الإسطبل السلطانى، و جلس کل واحد فى مجلسه فافتتح الأمیر قرقماس بالکلام مع الخلیفة و القضاة بأن قال: السلطان صغیر و الأحوال ضائعة لعدم اجتماع الکلمة فى واحد بعینه، و لا بد من سلطان ینظر فى مصالح المسلمین و ینفرد بالکلمة، و لم یکن یصلح لهذا الأمر سوى الأمیر الکبیر جقمق هذا. فقال جقمق: هذا لا یتم إلا برضا الأمراء و الجماعة. فصاح الجمیع: نحن راضون بالأمیر الکبیر. فعند ذلک مد الخلیفة یده و بایعه بالسلطنة؛ ثم بایعه القضاة و الأمراء على العادة.

ثم قام من فوره إلى مبیت الحرّاقة، و لبس الخلعة الخلیفتیة السوداء، و تقلّد بالسیف و خرج رکب فرسا أعد له بأبهة السلطنة و شعار الملک، و حملت على رأسه القبة و الطیر، حملها الأمیر قرقماس أمیر سلاح، و الأمراء مشاة بین یدیه، و سار إلى أن طلع إلى

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۵۷

القصر السلطانى بقلعة الجبل، و جلس على تخت الملک، و قبّل الأمراء الأرض بین یدیه على العادة.

و کان جلوسه على تخت الملک فى یوم الأربعاء التاسع عشر من [شهر] ربیع الأول سنة اثنتین و أربعین و ثمانمائة، على مضىّ سبع عشرة درجة من النهار المذکور، و الطالع برج المیزان بعشر درجات و خمس و عشرین دقیقة، و کانت الشمس فى السادس و العشرین من السّنبلة، و القمر فى العاشر من الجوزاء، و زحل فى الثانى و العشرین من الحمل، و المشترى فى السابع عشر من القوس، و المریخ فى الخامس من المیزان، و الزهرة فى الحادى عشر من الأسد، و عطارد فى الرابع عشر من السنبلة، و الرأس فى الثانى من المیزان.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۵۸

ذکر أصل [الملک الظاهر جقمق] و قدومه إلى مصر و نسبته بالعلائى ثم بالظاهرى

فنقول: [کان] جارکسیّ الجنس، و أخذ من بلاده صغیرا فاشتراه خواجا کزلک، و کزلک بفتح الکاف و سکون الزاى و فتح اللام و کسرها و سکون الکاف الثانیة. و جلبه خواجا کزلک المذکور إلى الدیار المصریة فابتاعه منه الأتابک إینال الیوسفى، و قیل ولده أمیر على بن إینال المذکور و هو الأصح، و رباه عنده، و أرسله مع والدته إلى الحج، ثم عاد جقمق إلى القاهرة فى خدمة والده أمیر على [المذکور، و کانت والدة أمیر على] متزوجة بشخص من الأجناد [من] أمیر آخوریة السلطان یسمى نغتاى، و نغتاى بفتح النون و الغین المعجمة، و بعدهما تاء مفتوحة و ألف و یاء ساکنة.

و لما قدم جقمق إلى القاهرة أقام بها مدة یسیرة، و تعارف مع أخیه جارکس القاسمى المصارع، و کان جارکس یوم ذاک من أعیان خاصکیة أستاذه [الملک] الظاهر برقوق، فکلم جارکس [الملک] الظاهر برقوقا فى أخذ جقمق هذا من أستاذه أمیر على بن إینال، فطلبه [الملک] الظاهر منه فى سرحة سریاقوس، و أخذه و أعطاه لأخیه جارکس، إنیا بطبقة الزمام من قلعة الجبل. و قد اختلفت الأقوال

فى أمر عتقه: فمن الناس من قال إن أمير على كان أعتقه قبل أن يطلبه [الملك] الظاهر منه، فلما طلبه [الملك] الظاهر سكت أمير على

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۵۹

عن عتقه لتنال جقمق السعادة بأن يكون من جملة مشتروات [الملك] الظاهر، و كان كذلك. و هذا القول هو الأقوى [و] المتواتر بين الناس و لما يأتى بيانه.

و من الناس من قال إنه كان فى الرق و قدّمه أمير على إلى الملك الظاهر لما طلبه منه، و لو كان حرّا يوم ذاك لاعتذر بعتقه، و هذا أيضا مقبول، [۹۱] غير أن الذى يقوّى القول الأول يحتج بأن الملك الظاهر [جقمق] هذا لما كان أمير طبلخاناة و خازندارا فى الدولة المؤيدية [شيخ]، أخذ الشهابى أحمد بن أمير على بن إينال اليوسفى و هو صغير، و وقف به إلى السلطان الملك المؤيد، و سأل السلطان فيه ليكون من جملة المماليك السلطانية، فسأل المؤيد عن أحمد المذكور فقال جقمق:

ياخوند، هذا ابن أستاذى أمير على، فقال المؤيد: و من أين يكون هذا ابن أستاذك؟

[الملك] الظاهر أعتقك بحضرتنا الجميع، و أخرج لك خيلا على العادة. فقال جقمق:

نعم هو كما قال السلطان، غير أن أمير على كان أعتقنى قبل ذلك، و سكت عن عتقى لما طلبنى [الملك] الظاهر منه، فغضب الملك المؤيد من ذلك و وبخه، كونه أنكر عتاقة [الملك] الظاهر له و اعترف بعتاقة أمير على؛ و لم ينزل لذلك أحمد المذكور فى جملة المماليك السلطانية، فأخذه جقمق عنده و تولى تربيته.

قلت: و عندى اعتراض آخر، و هو أنه يمكن أن الملك الظاهر كان هو الذى أعتقه، و إنما أراد [الملك] الظاهر جقمق بقوله إن أمير على أعتقه، ليعظم الأمر على الملك المؤيد، لينزل أحمد المذكور فى جملة المماليك السلطانية، لكثرة حنوه على أحمد المذكور، و لم يدر أن [الملك] المؤيد يغضبه ذلك، فإنه يقال فى الأمثال: «صاحب الحاجة أعمى لا يريد إلا قضاءها».

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۶۰

و كان [الملك] الظاهر جقمق فى طبعه الرأفة و الشفقة على أيتام الأجانب، فكيف الأقارب؟ و لا أستبعد ذلك- انتهى.

ذكر ما وقع له من ابتداء أمره إلى أن تسلطن

فنقول: و استمر جقمق هذا عند أخيه بطبقة الزّماميّة مدة يسيرة، و أعتقه [الملك] الظاهر برقوق، و أخرج له خيلا و قماشا على العادة بمفرده، و هو أن بعض المماليك السلطانية من طبقة الزمام المذكورة توفى، فقام جاركس فى مساعدة أخيه جقمق هذا حتى أخذ له جامكيته و خيله. و أعتقه [الملك] الظاهر، ثم جعله بعد قليل خاصكيا، كل ذلك بسفارة أخيه جاركس المذكور. و استمر جقمق خاصكيا إلى أن مات [الظاهر] برقوق، و صار ساقيا فى سلطنة [الملك الناصر فرج]، ثم تأمّر عشرة، إلى أن خرج أخوه جاركس عن طاعة [الملك] الناصر [فرج] فأمسك السلطان جقمق هذا، و حبسه بواسطة عصيان أخيه، فدام فى السجن إلى أن شفع فيه الوالد و جمال الدين يوسف الأستادّار و أطلق من السجن، ثم قتل جاركس فانكفّ جقمق هذا عن الدولة بتلطف، إلى أن قتل [الملك] الناصر، و ملك شيخ [المحمودى] الديار المصرية، فأنعم عليه بإمرة عشرة، ثم نقله بعد سلطنته بمدة إلى إمرة طبلخاناه، ثم جعله خازندارا كبيرا بعد انتقال الأمير يونس الركنى إلى نيابة غزة، ثم نقل إلى إمرة مائة و تقدمة ألف فى دولة المظفّر أحمد ابن [الملك] المؤيّد شيخ، ثم صار حاجب الحجّاب بعد الأمير طرباى، فى أواخر الدولة الصالحية محمد أو فى أوائل الدولة الأشرفية [برسباى]، ثم نقل إلى الأمير آخورية الكبرى عوضا عن الأمير قصروه من تمراز، بحكم انتقال قصروه إلى نيابة طرابلس فى أوائل صفر من سنة ست و عشرين [و ثمانمائة]، و تولى الحجوبية

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۶۱

من بعده الأمير جرباش الكريمى المعروف بقاشق، ثم نقل من الأمير آخورية إلى إمرة سلاح بعد إينال الجكمى، و استقر عوضه فى

الأمير آخورية الأمير حسين بن أحمد البهسنى التركمانى المدعو تغرى برمش، و دام على ذلك سنين إلى أن نقل إلى أتابكية العساكر بالديار المصرية، عوضا عن إينال الجكمى أيضا بحكم انتقال الجكمى إلى نيابة حلب، بعد عزل قرقماس الشعبانى و قدومه على إقطاع إينال الجكمى مقدم ألف بالقاهرة، فاستمر أتابكا إلى أن مات [الملك] الأشرف [برسباى] فى ذى الحجة سنة إحدى و أربعين [و ثمانمائة]، بعد أن أوصى جقمق على ولده و جعله مدبّر مملكته، إلى أن صار من أمره ما رقّاه إلى السلطنة. و قد ذكرنا ذلك كلّه مفصلا، غير أننا أعدناه هنا لينتظم سياق الكلام مع سياقه- انتهى.

و لنعد الآن إلى ما كنا فيه:

و لما جلس الملك الظاهر جقمق على تخت الملك و تم أمره، خلع على الخليفة و على الأمير [۹۲] قرقماس و قيّد لهما فرسين بقماش ذهب، و لقب بالملك الظاهر أبى سعيد جقمق، ثم نودى فى الحال بالقاهرة و مصر بسلطنته و الدعاء له، و أن النفقة لكل مملوك من المماليك السلطانية مائة دينار، فابتهج الناس بسلطنته. ثم أمر السلطان فقبض على الطواشى صفىّ الدين جوهر الجلبانى الخبشى لالا الملك العزيز و هو يومئذ زمام الدار السلطانى، و خلع على الزّينى فيروز الجاركسى الطواشى الرومى باستقراره زماما عوضا عن جوهر المذكور.

ثم أصبح فى يوم الخميس العشرين من شهر ربيع الأول المذكور خلع على الأمير

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۶۲

قرقماس الشعبانى الناصرى- أمير سلاح المعروف بأهرام ضاغ- باستقراره أتابك العساكر بالديار المصرية عوضا عن نفسه، و خلع على الأمير آقبغا التّمرازى أمير مجلس باستقراره أمير سلاح عوضا عن قرقماس المذكور، و خلع على الأمير يشبك السّودونى حاجب الحجاب باستقراره أمير مجلس عوضا عن آقبغا التمرازى، و كان السلطان خيّر تمراز القرمشى رأس نوبة النوب فى وظيفة أمير مجلس أو الأمير آخورية الكبرى، فمال إلى الأمير آخورية الكبرى، فخلع عليه بها عوضا عن الأمير جانم الأشرفى بحكم حبسه بثغر الإسكندرية، و خلع على أركماس الظاهرى الدوادار الكبير باستمراره على وظيفة الدوادارية، و على الأمير قراخجا الحسنى الظاهرى باستقراره رأس نوبة النوب عوضا عن تمراز القرمشى، و على الأمير تغرى بردى البكلمشى المؤذى باستقراره حاجب الحجاب عوضا عن يشبك السّودونى، و على الأمير تنبك البردبكى أحد أمراء الألوف باستقراره فى نيابة قلعة الجبل، ثانى مرة عوضا عن تنبك النّوروزى الجقمقى، و خلع على الأمير قراجا الأشرفى فوقانيّا و هو آخر من بقى من مقدمى الألوف، و باقى الإقطاعات شاغرة إلى الآن عن أصحابها، و كتب بحضور الأمير جرباش الكريمى قاشق من ثغر دمياط، و كان له به سنين كثيرة بطالا- ثم خلع السلطان على دولات باى المحمودى الساقى المؤيدى- أحد أمراء العشرات و رأس نوبة- باستقراره أمير آخور ثانيا، عوضا عن يخشباى المقبوض عليه قبل تاريخه، و على الأمير تنم من عبد الرزّاق المؤيدى- أحد أمراء العشرات و رأس نوبة- باستقراره محتسب القاهرة عوضا عن الإمام نور الدين السويفى، و على قانى باى الجاركسى- الذى تأمّر قبل تاريخه بمدة يسيرة- باستقراره شادّ الشراب خاناه عوضا عن على باى الأشرفى بحكم القبض عليه، و استمر على إمرة عشرة؛ و على الأمير قانى باى الأبوبكرىّ الأشرفى الساقى باستقراره خازندارا عوضا عن جكم خال العزيز بحكم القبض عليه [أيضا].

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۶۳

ثم أنعم السلطان على جماعة كثيرة جدا باستقرارهم أمراء عشرات يطول الشرح فى ذكرهم، لأنها دولة أقيمت بعد ذهاب دولة، و تغير جميع من كان من أرباب الوظائف الذين كانوا فى الدولة الأشرفية من الخاصكية و غيرهم، و استقرّ جماعة كبيرة رؤوس نوب، منهم من خلع عليه قبل أن يلبس فوقانىّ الإمرة، و هو إلى الآن بحياصة ذهب، و نالت السعادة جميع المماليك المؤيدية الأصاغر، بحيث أن بعضهم كان فقيرا يعيش بالتّكدّى فأخذ إقطاعا هائلا و استقر بوابا دفعة واحدة، و أشياء كثيرة من هذا ذكرناها فى غير هذا المحل.

ثم فى يوم الاثنين رابع عشرين شهر ربيع الأول المذكور، جلس السلطان الملك الظاهر جقمق بالمقعد المطل على الحوش، تجاه باب

الحوش المذكور، و ابتدأ فيه بنفقة المماليك السلطانية لكل واحد مائة دينار، و استمرت النفقة فيهم فى كل [يوم] موكب، إلى أن انتهى أمرهم فيها.

ثم فى يوم الثلاثاء خامس عشرينه وصل الأمير جرباش قاشق [من ثغر دمياط] فأنعم عليه بإمرة مائة و تقدمة ألف بالقاهرة.

ثم فى يوم الخميس سابع عشرينه عمل السلطان المولد النبوى بالحوش على العادة، و زاد فيه زيادات حسنة [۹۳] من كثرة الأسمطة و الحلاوات؛ و انفض الجميع بعد صلاة المغرب.

ثم فى يوم السبت تاسع عشرينه تجمع تحت القلعة نحو ألف مملوك من مماليك الأمراء، يريدون النفقة كما نفق على المماليك السلطانية، فأمر لهم السلطان بنفقة، فنفقت فيهم؛ و لم يكن لذلك عادة قبل تاريخه.

ثم فى يوم الاثنين ثالث شهر ربيع الآخر قبض السلطان على تاج الدين

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۶۴

عبد الوهاب الأسلمى- المدعو بالخطير- ناظر الإسطبل السلطانى و على ولديه، و الثلاثة أشكال عجيبة.

و فيه كانت [مبادئ] وقعة قرقماس مع الملك الظاهر جقمق، و خبره أنه لما كان يوم الثلاثاء المذكور، ثار جماعة كبيرة من المماليك القرانيص ممن كان قام مع الملك الظاهر جقمق، على المماليك الأشرفية، و طلبوا زيادة جوامكهم و رواتب لحمهم، و وقفوا تحت القلعة فأرسل إليهم السلطان يعدهم بعمل المصلحة، فلم يرضوا بذلك و أصبحوا من الغد فى يوم الأربعاء رابع شهر ربيع الآخر على مواقفهم. و ركب السلطان و لعب الكرة بالحوش السلطانى مع الأتابك قرقماس الشعبانى و غيره من الأمراء إلى أن انتهى لعبهم، فأسرّ بعض من تأمّر من المماليك المؤيّدية إلى السلطان، بأن الأتابك قرقماس يريد الركوب على السلطان، فنهره السلطان و استبعد وقوع ذلك من قرقماس، لا سيما فى هذا اليوم.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة؛ ج۱۵؛ ص۲۶۴

ا و قد كثر جمع المماليك السلطانية من الأشرفية و غيرهم، و وقفوا تحت القلعة كما كانوا فى أمسه، ثم [وقفوا] عند باب المدرج أحد أبواب القلعة، و صاروا كلما نزل أمير من الخدمة السلطانية اجتمعوا به و كلموه فى عمل مصالحهم، و وقع لهم ذلك مع جماعة كبيرة من الأمراء، إلى أن نزل الأتابك قرقماس فأحاطوا به و حدثوه فى ذلك و أغلظوا فى حق السلطان، فوعدهم قرقماس بأنه يتحدث بسببهم مع السلطان، و بشّ لهم و ألان معهم فى الكلام، فطمعوا فيه و أبوا أن يمكنوه من الرجوع إلى السلطان، و كلموه فى الركوب على السلطان و هم يوافقوه على ذلك، فأخذ يمتنع تمنعا ليس بذاك.

و ظهر من كلامه فى القرائن أنه يريد كثرة من يكون معه، و أن ذلك لا يكون فى هذا اليوم، فلما فهموا منه ذلك تحركت كوامن المماليك الأشرفية من الملك

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۶۵

الظاهر جقمق، [و] انتهزوا الفرصة و قصدوا الركوب و وقوع الحرب فى الحال، بجهل و عدم دربة بالوقائع و الحروب، و أخذوه و مضوا و هم فى خدمته إلى بيته، و كان سكنه بملكه بالقرب من المدابغ خارج باب زويلة. و تلاحق بهم جماعة كثيرة من أعيان المماليك السلطانية و بعض الأمراء و عليهم السلاح، و راودوه على الركوب فلم يعجبه ذلك، و قال لهم ما معناه أن له أصحابا و خجداشية كثيرة و جماعة من أكابر الأمراء لهم معه ميل و غرض، فاصبروا إلى باكر النهار من الغد لنتشاور معهم فى أمرنا هذا و فيما نفعله، فامتنعوا من ذلك و أظهروا له إن لم يركب فى هذا اليوم لم يوافقوه بعد ذلك.

و كان جمعهم قد كثر إلى الغاية، و لكن غالبهم المماليك الأشرفية، و كان الذى قال له ذلك الأمير مغلباى الجقمقى أستادار الصحبة على لسان بعض أصحابه، و قيل إن قرقماس أراد بهذا الكلام توقفهم حتى يتفرقوا عنه ثم يصعد هو إلى القلعة و يعلم السلطان بذلك.

و عندى أن الصحيح [أنه] لم يرد بقوله هذا إلا تحكيم أمره حتى يأتوه من الغد بجموعهم، و يأخذوه غصبا كما فعل القوم بالملك

الظاهر جقمق، و یجتمع علیه حواشیه و أصحابه- و أنا أعرف بحاله من غیری- فأبوا علیه و ألحوا فی رکوبه فی الوقت، و خوّفوه تفرّق من اجتمع علیه فی هذا الیوم، و کانوا خلائق کثیرة إلی الغایة. فنظر عند ذلک فی أمره، فلم یجد بدا من موافقتهم و رکوبه معهم فی هذا الیوم لما فی نفسه من الوثوب علی السلطنة [و الاستبداد بالأمر]، و کان فیه طیش و خفة [فی صفة] عقل و رزانة [۹۴] لا یفهم منه ذلک إلا من له ذوق و معرفة بنقد الرجال.

و خاف قرقماس إن لم یرکب فی هذا الیوم و أراد الرکوب بعد ذلک، لا یوافقه أحد من

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۶۶

هؤلاء، فینحلّ بذلک برمه و یطول علیه الأمر، لعظم ما کان داخله الحسد للملک الظاهر جقمق، و للّه دار القائل: «الحاسد ظالم فی صفة مظلوم مبتلی غیر مرحوم».

و أحسن من هذا قول القائل، و هو لسان حال الملک الظاهر جقمق: [الطویل]

و کلّ أداریه علی حسب حاله سوی حاسدی فهی التی لا أنالها

و کیف یداری المرء حاسد نعمة إذا کان لا یرضیه إلا زوالها

فعند ذلک قام و لبس آلة الحرب هو و ممالیکه، و رکب من وقته قریب الظهر من یوم الأربعاء رابع شهر ربیع الآخر المذکور، و خرج من بیته بعساکر عظیمة، و معه أمراء العشرات: الأمیر أزبک السیفی قانی بای نائب الشام المعروف بأزبک جحا، و الأمیر جانم الأشرفی [المعروف برأس نوبة سیّدی، و کلاهما أمیر عشرة، و قد وافقه غیرهما مثل الأمیر قراجا] الأشرفی أحد مقدمی الألوف، و الأمیر مغلبای الجقمقی أستادار الصحبة، و وعداه أنهما یوافیاه بممالیکهما بالرملة.

و خرج الأمیر قرقماس من بیته بجموعه فوافیته خارج باب زویلة من غیر میعاد، و سرت معه، و صحبته عساکر کثیرة من الأشرفیة و غیرهم، و أنا بجانبه. فتأملت فی أمره فلم یعجبنی حاله، لاضطراب عساکره و لعدم من یرأسهم من أعیان الأمراء ممن مرّت بهم التجارب، و أیضا لکثرة قلقه فی مسیره و عدم ثباته فی کلامه، و ظهر لی منه أیضا أنه لم یعجبه ما هو فیه من اختلاف کلمة من هو معه من الممالیک السلطانیة و آرائهم المفلوکة و کثرة هرجهم، ثم صار یقول فی مسیره: اللّه ینصر الحق، فیقول آخر: اللّه ینصر الملک العزیز یوسف، و یقول آخر: اللّه ینصر الأمیر قرقماس، و منهم من قال: اللّه ینصر السلطان، و لم أدر أیّ سلطان قصد؛ کل ذلک فی تلک المسافة القریبة من بیته إلی الرملة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۶۷

ثم کشف قرقماس رأسه و صاح: «اللّه ینصر الحق» غیر مرة، فتعجبت أنا من دعائه، لأیّ حق یرید؟ فلما أن کشف رأسه تفاءل الناس بخذلانه، و ظهر لی منه أیضا أنه کان یتخوف من الممالیک الأشرفیة، لما بلغنی بعد ذلک أنه بلغه فی الیوم المذکور أنهم إذا انتصروا علی [الملک] الظاهر جقمق و ملکوا القلعة ضربوا رقبة قرقماس، فنفر خاطره من ذلک. و کأنه بلغه ذلک بعد رکوبه و شروعه فیما هو فیه، فبقی لا- یمکنه إلا- الإتمام، لأن الشروع ملزم؛ و المقصود أنه سار إلی أن وصل قریبا من جامع السلطان حسن، فوافاه الأمیر قراجا بطلبه و ممالیکه و علیهم السلاح، و الأمیر مغلبای الجقمقی، و سارا معه من تحت مدرسة السلطان حسن إلی بیت قوصون تجاه باب السلسلة.

و کان یسکنه یوم ذاک الأمیر أرکماس الظاهری الدوادار الکبیر، و قد أغلقه ممالیک أرکماس [المذکور]، فقصد قرقماس [المذکور] عبور البیت المذکور فوجده مغلقا، ثم دخله بعد أمور، فإذا بأرکماس الظاهری قد خرج من باب سرّ البیت المذکور، و مضی إلی حال سبیله [محمولا] لعجزه عن الحرکة لوجع کان یعتریه برجلیه، و أیضا لم یکن من هذا القبیل.

و ملک قرقماس البیت و دخله، و أخذ فیما یفعله مع عساکر السلطان من القتال و غیره، فلم ینتظم له أمر و لا رتب له طلب من کثرة الغوغاء و الهرج، حتی أن باب السلسلة کان مفتوحا منذ قدم قرقماس إلی الرملة و أخذ بیت أرکماس الظاهری، و الأمیر تمراز

القرمشى الأمير آخور الكبير لم يلتفت إلى غلقه و لا تحرك من مجلسه و لا ألبس أحدا من مماليكه السلاح، و من عظم تراخيه فى ذلك نسبوه للمالأة مع قرقماس- و لا يبعد ذلك. و مع هذا كله لم يلتفت أحد من أصحاب قرقماس إلى أخذ باب السلسلة، و لا سار أحد إلى جهته جملة كافية، لعظم

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۶۸

اضطرابهم و قلة سعدهم. [۹۵] كل ذلك و السلطان الملك الظاهر إلى الآن بالقلعة فى أناس قليلة من خواصه، و هو لا يصدّق ما قيل له فى حق قرقماس، إلى أن حضر قرقماس إلى الرملة و ملك بيت قوصون، فعند ذلك ركب من الحوش السلطانى و نزل فى أمرائه الصغار و خاصكيّته إلى باب السلسلة و جلس بالمقعد المطل على الرميلة، و قد صحب معه فرسا عليه قماش ذهب يوهم به أنه لأجل قرقماس إذا طلع إليه طائعا، و أن قرقماس أرسل يقول له أنه يريد أن يفر من المماليك الأشرفية و يطلع إلى القلعة، فأمسك بهذه الحركة جماعة كبيرة عن التوجه إلى قرقماس من خجداشيته و أصحابه.

و كان هذا الذى فعله [الملك] الظاهر من أكبر المصالح، فإن كان على حقيقته فقد نفع، و إن كان حيلة من [الملك] الظاهر جقمق فكانت فى غاية الحسن و من أجود الحيل.

و لما جلس الملك الظاهر بالمقعد من الإسطبل السلطانى المطل على الرميلة، نزلت جماعة من خاصكيّته مشاة و عليهم السلاح و ناوشوا القرقماسية بالقتال قليلا. ثم أمر السلطان فنودى: من كان من حزب السلطان فليتوجه إلى بيت الأمير آقبغا التّمرازى أمير سلاح، و كان سكن آقبغا المذكور بقصر بكتمر الساقى بالقرب من الكبش تجاه مدرسة سنجر الجاولى، فلما سمع الأمراء و المماليك المناداة ذهبوا إلى بيت الأمير آقبغا التمرازى، فاجتمع عنده خلائق و جماعة كبيرة من الأمراء، فممن اجتمع عنده من مقدمى الألوف: الأمير قراخجا الحسنى رأس نوبة النوب، و حاجب الحجاب تغرى بردى البكلمشى المؤذى، و من الطبلخاناه و غيرهم: الأمير أسنبغا الطّيّارى و عدة كبيرة.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۶۹

ثم أرسل آقبغا التمرازى رأس نوبته لكشف خبر قرقماس و من وافقه من الأمراء، فتوجه المذكور و عاد إليه بالخبر أنه ليس معه من الأمراء إلا قراجا و أزبك جحا و مغلباى الجقمقى و جانم الأشرفى، فقال آقبغا: إذن فلا شىء. و ركب فرسه و ركب الأمراء معه بمن انضم عليهم من المماليك السلطانية، و ساروا إلى أن وصلوا إلى صليبة أحمد بن طولون عند الخانقاه الشيخونية، و وقفوا هناك و تشاوروا فى مرورهم إلى باب السلسلة، و قد ملأت عساكر قرقماس الرميلة؛ فمن الناس من قال: نتوجه من على المشهد النّفيسى إلى باب القرافة ثم نطلع إلى القلعة، و منهم من قال غير ذلك.

و بينما هم فى ذلك، ورد عليهم الخبر أن الأمير قراجا و مغلباى الجقمقى خرجا من عسكر قرقماس و لحقا بالسلطان؛ فعند ذلك قوى عزم الأمراء على الطلوع إلى القلعة من سويقه منعم، فساروا بمن معهم إلى أن صاروا بآخر سويقة منعم فحركوا خيولهم يدا واحدة، إلى أن وصلوا إلى القلعة، بعد أن كبا بآقبغا التمرازى فرسه ثم قام به و لم يفارق السرج. و طلعوا الجميع إلى القلعة، و قبلوا الأرض بين يدى السلطان، فأكرمهم السلطان غاية الإكرام و ندبهم لقتال قرقماس، فنزلوا من وقتهم بأطلابهم و مماليكهم، و قد انضم معهم جميع أمراء الألوف و غيرها، و صفّ آقبغا عساكره و الأطلاب الذين معه، و قبل أن يعبّى عساكر السلطان صدمته القرقماسية من غير تعبية و لا مصافغة، لأن قرقماس لما وقف تجاه باب السلسلة لم يقدر على تعبية عساكره لكثرة المماليك و قلة من معه من الأمراء، و وقف هو بينهم فى الوسط، و لم يكن لمعسكره قلب و لا ميمنة و لا ميسرة، و ذلك لقلة معرفة أصحابه بممارسة الحروب و تعبية العساكر، و كان ذلك من أكبر الأسباب فى هزيمة قرقماس، فإنه تعب فى موقفه ذلك اليوم غاية التعب، فصار

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۷۰

تارة يكرّ فى الميمنة [و تارة فى الميسرة] و تارة يقاتل بنفسه حتى أثخن جراحه، و تارة يعود إلى سنجقه، و لم يقع ذلك لعساكر

السلطان فإن غالبهم كانوا أمراء ألوف و طبلخانات و عشرات، فأما مقدمو الألوف فوقفت أطلابهم تحت القلعة تجاه قرقماس، كلّ طلب على حدته، فصاروا كالتعبية.

[۹۶] و برزت الأمراء و الخاصكيّة لقتال قرقماس، طائفة بعد أخرى، هذا مع معرفتهم بمكايد الحروب و أحوال الوقائع، و آقبغا التمرازى فى اجتهاد يعبى العساكر السلطانية ميمنة و ميسرة و قلبا و جناحين، و كان قصده تعبية المجنّح فلم يمهله القرقماسية، و بادروه بالقتال و النزال من غير إذن قرقماس، فتصادم الفريقان غير مرة، و الهزيمة فيها على السلطانية، و تداول ذلك بينهم مرارا كثيرة. و اشتد القتال و فشت الجراحات فى الطائفتين، و قتل الأمير جكم النّوروزى أحد أمراء العشرات بوسط الرملة و هو من حزب السلطان، كل ذلك و منادى قرقماس ينادى فى الناس: من يأتى قرقماس من المماليك السلطانية فله مائتا دينار، و من يأتيه من الزّعر فله عشرون دينار، فكثر جمعه من الزّعر و العامة، فأخذ [الملك] الظاهر جقمق ينثر الذهب على الزّعر فمالوا إليه بأجمعهم، و قال لسان حالهم: «درّة معجّلة و لا درّة مؤجّلة».

ثم أمر السلطان بمناد فنادى من أعلى سور القلعة: «من كان فى طاعة السلطان فليحضر و له الأمان كائن من كان و له كذا و كذا»، و أوعد بأشياء كثيرة. كل ذلك و القتال فى أشد ما يكون، و لم يكن غير ساعة جيدة إلا و أخذ عسكر قرقماس فى تقهقر، و توجهت الناس إلى السلطان شيئا بعد شيء. و كان جماعة من أصحابنا من الناصرية وقفوا عند الصّوّة من تحت الطبلخاناه [السلطانية] حتى يروا ما يكون

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۷۱

من أمر خشداشهم الأتابك قرقماس، و هواهم و ميلهم إليه، فإنه قيل فى الأعصار الخالية: «لا أفلح من هجيت قبيلته»؛ فلما رأوا أمر قرقماس فى إدبار، و أخذ أصحابه فى التفرق عنه، انحازوا بأجمعهم إلى جهة باب السلسلة، و أظهر كل واحد منهم أنه كان ممن قاتل قرقماس. و لم يخف ذلك على [الملك] الظاهر، لكنه لم يسعه يوم ذاك إلا السكات. و بالله لقد رأيت الأمير آقبغا التركمانى الناصرى و هو يدق بزخمته على طبله، و يندب الناس لأخذ قرقماس بعد أن أشرف على الهزيمة، و عبرته قد خنقته حتى إنه لا يستطيع الكلام من ذلك.

و لما كان بين الظهر و العصر أخذ قرقماس فى إدبار، و اضمحلت عساكره و ذهبت أصحابه، و جرح هو فى وجهه و يده، و كلّ و تعب، و انفلت عنه جموعه، و صار الرجل من أصحابه يغير لبسه ثم يطلع فى الحال إلى القلعة حتى ينظره السلطان، هذا و الرمى عليه من أعلى القلعة مترادف بالسهام و النفوط.

و كان أصحاب قرقماس فى أول حضوره إلى الرميلة اقتحموا باب السلطان حسن فلم يقدروا على فتحه، فأحرقوه و دخلوا المدرسة و صعدوا على سطحها و أرموا على السلطان و هم أيضا بالنشاب و الكفيات، إلى أن أبادوا القلعيين، و مع هذا كله و أمر قرقماس فى إدبار.

و قبل أن تقع الهزيمة على عساكر قرقماس من الذين ثبتوا معه، فرّهو فى العاجل فانهزم عند ذلك عسكره بعد أن ثبتوا بعد ذهابه ساعة، ثم انقلبوا و ولوا الأدبار فما أذّن العصر إلا و قد تمت الهزيمة [بعد أن جرح خلائق من الطائفتين]، فكان ممن جرح من أعيان السلطانية: الأمير آقبغا التّمرازى أمير سلاح، و الأمير تغرى بردى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۷۲

المؤذى حاجب الحجاب برمح أخرق شدقه، لزم منه الفراش مدة طويلة و أشرف على الموت، و الأمير أسنبغا الطيارى أيضا من طعنة رمح أصابه فى ضلعه، و جماعة كثيرة من الخاصكيّة و المماليك يطول الشرح فى تسميتهم.

و عند ما انهزمت عساكر قرقماس أخذوا سنجقه و طلعوا به إلى السلطان، و فرّ قرقماس فلم يعرف أين ذهب؛ فتوهّم السلطان أنه توجّه إلى جهة الشام فندب الأمير آقبغا التمرازى فى جماعة إلى جهة الخانقاه، فسار إلى أن قارب المرج و الزّيّات، فلم يجد فى طريقه أثر

أحد من العساکر، فعلم أن قرقماس اختفى بالقاهرة، فعاد.

و أما الزّعر، فإنهم لما رأوا الهزيمة على القرقماسية [۹۷] أخـذوا فى نهبهم، ثم توجهوا إلى داره فنهبوها و أخـذوا جميع ما فيها، و فى الحـال سـكنت الفتنـة و فتحت الـدكاكين، و نودى بالأمان و البيع و الشـراء. و أخـذ أهل الحرس فى تتبع قرقماس و حواشـيه، و نـدب السـلطان أيضا جماعـة من خواصه فى الفحص عن أمره، و ما أمسـى الليل حتى ذهب أثر الفتنة كأنها لم تكن، و بات الناس فى أمن و سلام.

و أما السـلطان فإنه لما تحقق هزيمـة قرقماس، قام من مجلسه بمقعـد الإسـطبل و طلع إلى القلعة مؤيدا منصورا كأول يوم تسـلطن، فإنه كان فى بحران كبير من أمر قرقماس و شدة بأسه و عظم شوكته و جلالته فى النفوس. و قد كان [الملك] الظاهر يتحقق أن قرقماس لا بـد له من الركوب عليه، لحبه للرئاسـة و تشـغّب رأسه بالسـلطنة، و لا يمكنه القبض عليه لاضـطراب أمره كما هى أوائل الـدول، فكان السلطان يريد مطاولته من يوم إلى يوم، إلى أن يتمكن منه بأمر من الأمور، فعجّل اللّه له أمره بعد شدة هالته عقبها فرج و أمن.

و لما أصبح يوم الخميس خامس شهر ربيع الآخر، عملت الخدمة السلطانية بالقصر

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۷۳

السـلطانى، و طلع القضاة و الأعيان و هنّأوه بالنصـر و الظفر، و قـد وقف على باب القصـر جماعة من أمراء المؤيدية الرءوس نوب، مثل جانبک المحمودى، و على باى العجمى، و أمثالهما، و منعوا المماليک الأشـرفية من الدخول إلى الخدمة السـلطانية؛ و صار كل واحد منهم يضـرب المملوک من الأشـرفية على رأسه و أكتافه بالعصـى حتى يمنعه من الـدخول. هـذا بعـد أن يوسـعه سبّا و توبيخا، و قطع رواتب جماعة كثيرة منهم.

ثم أمر السـلطان القضاة، فجلسوا بجامع القلعة، بسـبب قطع سلالم مآذن المدرسة الحسنية، فحكم قاضى القضاة شمس الدين محمد بن البساطى المالكى بقطعها، و ألزم الناظر على المدرسة بقطع السلالم المذكورة، فقطعت فى الحال.

ثم أمر السـلطان بالفحص عن قرقماس، و نودى عليه بشوارع القاهرة، و هـدّد من أخفاه، فظفر به من الغـد فى يوم الجمعة سادس شـهر ربيع الآخر، و كان من خبره:

أنه لما انهزم سار وحده إلى جهة الرّصد، و قيل معه واحد من حواشـيه، فأقام به نهاره، ثم عاد من ليلته- و هى ليلة الخميس- إلى جهة الجزيرة، ثم مضـى منه إلى بسـتانه بالقرب من موردة الجبس و قد ضاقت عليه الدنيا بأسرها، و كاد يهلک من الجوع [و العطش]، فلما رأى مـا حـل به، بعث إلى الزينى عبـد الباسـط يعرفه بمكـانه، و يأخـذ له أمانـا من السـلطان. فركب عبـد الباسـط فى الحال و طلع إلى السلطان

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۷۴

فى بكرة يوم الجمعة المذكور، و عرّفه بأمر قرقماس، فندب السـلطان ولده المقام الناصرى محمدا للنزول إليه، فركب و سار فى خدمته عبد الباسط حتى أتوا إلى موضع كان فيه قرقماس.

حـدّثنى المقـام الناصـرى محمـد المـذكور، قـال: لمـا دخلت على قرقماس قام إلىّ و انحطّ يقبل قـدمى فمنعته من ذلک فغلبنى و قبّل قـدمى، ثم يـدى، ثم شـرع يتخضّع إلىّ و يتضـرع، و قـد علاه الذل و الصـغار، و لم أر فى عمرى رجلا ذلّ كذلته، و لا جزع جزعه، و أخذت أسـكّن روعه، و جعلت فى عنقه منديل الأمان الذى أرسله والدى إليه، فقبل يدى ثانيا ثم أراد الدخول تحت ذيلى، فلم أمكنه من ذلـک إجلالاـ له، ثم خرجنـا من ذلـک المجلس و ركبنا و أركبناه فرسا من جنائبى، و مضـينا به إلى القلعـة، و هو فى طول طريقه يبكى و يتضرع إلىّ بحيث أنه رقّ عليه قلبى، و كلما مررنا به على أحد من العامة، شتمه و وبخه، و أسمعه من المكروه مالا مزيد عليه، حتى لو أمكنهم رجمه لرجموه.

هـذا ما حكاه المقام الناصـرى، و لما أن وصل قرقماس إلى القلعة، و بلغ السـلطان وصوله جلس على عادته، فحال ما مثل بين يديه خرّ

على وجهه يقبل الأرض، ثم قام و مشى قليلا، ثم خرّ و قبّل الأرض ثانيا، هذا و وجهه صار كلون الزعفران من الصفار و شدة الخوف، فلما قرب من السلطان أراد أن يقبل رجله، فمنعوه أرباب الوظائف من ذلك، ثم أخذ يتضرع، فلم يطل السلطان وقوفه [۹۸] و وعده بخير على هينته.

ثم أمر به، فأخذ و أدخل إلى مكان بالحوش، فقيّد فى الحال، و هو يشكو الجوع، و ذكر أنه من يوم الوقعة ما استطعم بطعام، فأتى له بطعام فأكله، و قد زال عنه تلك الأبهة و الحشمة من عظم ما داخله من الخوف و الذل، و لهجت العامة تقول فى الطرقات:

«الفقر و الإفلاس و لا ذلتك يا قرقماس». قلت: و ما أبلغ قول القائل فى معناه:

[الوافر]

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۷۵

أرى الدنيا تقول بملء فيها حذار حذار توبيخى و فتكى

و لا يغرركم منّى ابتسام فقولى مضحك و الفعل مبكى

و أبلغ من هذا قول أبى نواس [فى الزهد]: [الطويل]

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشّفت له عن عدوّ فى ثياب صديق

و لما أمسك قرقماس المذكور تمّ سرور السلطان، و هدأ سرّه، و أخذ فى مسك جماعة من أعيان الأشرفية، فأمسك فى يوم واحد أزيد من ستين خاصكيّا من أعيان المماليك الأشرفية، و حبس الجميع بالبرج من قلعة الجبل.

ثم فى يوم السبت سابع ربيع الآخر، خلع السلطان على الأمير آقبغا التّمرازى أمير سلاح، باستقراره أتابك العساكر عوضا عن قرقماس المقدم ذكره، و خلع على يشبك السّودونى أمير مجلس، باستقراره أمير سلاح عوضا عن آقبغا التّمرازى، و على الأمير

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۷۶

جرباش قاشق، باستقراره أمير مجلس عوضا عن يشبك المذكور. و فى هذا اليوم أيضا أنزل بالأمير قرقماس الشعبانى المقدم ذكره مقيدا من القلعة على بغل على العادة إلى الإسكندرية، بعد أن سمع من العامة مكروها كثيرا إلى الغاية، كل ذلك لأنه كان لما ولى الحجوبية بالديار المصرية، شدّد على الناس و عاقب على المسكرات العقوبات الخارجة عن الحد، فإنه كان فيه ظلم و جبروت، فلما أن وقع له ما وقع، صار من كان فى نفسه شيء، انتقم منه فى هذا اليوم، و يوم طلوعه، فنعوذ بالله من زوال النعم.

ثم فى يوم الاثنين تاسعه، قرئ عهد السلطان الملك الظاهر جقمق، بالقصر السلطانى من قلعة الجبل، و قد حضر الخليفة أمير المؤمنين أبو الفتح داؤد، و القضاة الأربعة، و تولى قراءته كاتب السر الصاحب بدر الدين حسن بن نصر اللّه، و كان العهد من إنشاء القاضى شرف الدين الأشقر نائب كاتب السر. و لما انتهى كاتب السر من قراءة العهد، خلع السلطان على الخليفة و القضاة، و على كاتب السر و نائبه شرف الدين المذكور، و انفض الموكب.

ثم فى يوم السبت رابع عشر شهر ربيع الآخر، أنعم السلطان على الأمير قراجا الأشرفى أحد مقدمى الألوف، بإقطاع الأتابك آقبغا التّمرازى، بحكم انتقال آقبغا على إقطاع الأتابك قرقماس الذى هو برسم من يكون أتابك العساكر، و كان السلطان زاد قرقماس تقدمة أخرى، زيادة على إقطاع الأتابكية يترضاه بذلك، فلم ينعم السلطان بالزيادة على آقبغا: بل أنعم بها على بعض الأمراء، و أنعم السلطان بتقدمة قراجا على الأمير ألطنبغا المرقبى المؤيدى، الذى كان ولى حجوبية الحجّاب فى الدولة المؤيدية، و كان له مدة طويلة بطّالا، ثم صار أمير عشرة، و أنعم السلطان بإمرة مائة و تقدمة ألف على الأمير إينال الأبوبكرىّ الأشرفى، عوضا عن قرقماس، و هذه التقدمة التى كانت مع قرقماس زيادة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۷۷

على إقطاع الأتابكية المقدم ذكرها، و أنعم بإقطاع إينال و وظيفته الدوادارية الثانية على الأمير أسنبغا الطيّارى الحاجب الثانى.

و فيه حضر المقرّ الكمالى محمد بن البارزى من دمشق بطلب، بعد أن تلقاه جميع أعيان الديار المصرية، و أصبح من الغد فى يوم الثلاثاء سابع عشر ربيع الآخر المذكور، خلع السلطان عليه باستقراره فى كتابة السر الشريف بالديار المصرية، عوضا عن الصاحب بدر الدين بن نصر اللّه بحكم عزله، و هذه ولاية [۹۹] كمال الدين المذكور لوظيفة كتابة السر ثالث مرة، و هى أعظم ولاياته، لأنه صار صهر السلطان و كاتب سره.

و فى يوم الثلاثاء هذا، خلع السلطان على الأمير أسنبغا الطيّارى بالدوادارية الثانية، و خلع على الأمير يلبغا البهائى الظاهرى أحد أمراء العشرات، باستقراره حاجبا ثانيا، عوضا عن أسنبغا الطيّارى.

ثم فى يوم الخميس تاسع عشره، خلع السلطان على الأمير إينال الأبوبكرىّ الأشرفى باستقراره أمير حاجّ المحمل، و أنعم عليه بعشرة آلاف دينار. هذا و القبض على المماليك الأشرفية مستمر فى كل يوم، و كل من قبض عليه منهم، أخرج إقطاعه و وظيفته، و حبس بالبرج من القلعة؛ و قد عيّن السلطان جماعة منهم للنفى إلى الواحات.

ثم فى يوم الأربعاء خامس عشرينه، أخرج السلطان جماعة كبيرة من المماليك الأشرفية من برج القلعة، و أمر بنفيهم إلى الواحات؛ فخرجوا من القاهرة من يومهم، و كانوا عدة كبيرة.

[ثم] فى يوم السبت خامس جمادى الأولى، رسم السلطان بالإفراج عن الأمير خشقدم الطّواشى اليشبكى مقدم المماليك كان، و نائبه فيروز الرّكنى من

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۷۸

سجن الإسكندرية، و رسم لها بالتوجه إلى دمياط على حمل خمسة عشرة ألف دينار.

و فيه ورد كتاب الأمير حسين بن أحمد، المدعو تغرى برمش نائب حلب، على السلطان، يتضمن: أنه مقيم على طاعة السلطان، و أنه لبس التشريف المجهز له، و قبّل الأرض؛ فلم يكترث الملك الظاهر بذلك، و كتب ملطّفات إلى أمراء حلب، بالقبض عليه إن أمكنهم ذلك.

ثم فى ثامن جمادى الأولى، استقر الشريف صخرة بن مقبل بن نخبار، فى إمرة الينبع، عوضا عن الشريف عقيل بن زبير بن نخبار ثم فى يوم الخميس عاشره، استقر زين الدين يحيى بن كاتب حلوان الأشقر، المعروف بقريب ابن أبى الفرج، ناظر الإسطبل السلطانى، على مال بذله فى ذلك، بعد سعى كبير؛ و خلع السلطان أيضا على محمد الصغير، معلّم النّشّاب، أحد ندماء السلطان، باستقراره فى نيابة دمياط، بعد عزل الأمير أسنباى الزّردكاش الظاهرى.

ثم فى يوم الثلاثاء خامس [عشر] جمادى الأولى المذكور، طلب السلطان الشيخ حسن العجمى، أحد ندماء [الملك] الأشرف برسباى، فلما مثل بين يديه، تقدم الشيخ حسن المذكور ليقبل يد السلطان فضربه السلطان بيده على خده [لطشة] كاد أن يسقط منها إلى الأرض، ثم أمر به فعرّى و ضرب بالمقارع ضربا مبرحا، و شهر بالقاهرة، ثم سجن ببعض الحبوس، و ذلك لسوء سيرة حسن المذكور و قلة أدبه مع الأمراء فى أيام [الملك] الأشرف [برسباى].

و كان أصل هذا حسن من أوباش الأعاجم المولدة من الجغتاى، و اتصل [بالملك]

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۷۹

الأشرف بعد سلطنته بسنين، و نادمه و اختص به، فنالته السعادة و عمّر له الملك الأشرف زاوية بالصحراء بالقرب من تربة [الملك] الظاهر برقوق، و أوقف عليها وقفا جيدا، و كان حسن المذكور، فى أيام أستاذه [الملك] الأشرف، يدخل إلى أكابر الأمراء و يكلفهم و يأخذ منهم ما أراد من غير تحشّم و عدم اكتراث بهم، فكأنه طرق [الملك] الظاهر جقمق و فعل معه ذلك، فأسرّها [الملك] الظاهر له إلى وقتها؛ مع ذنوب أخر، حتى فعل معه ما فعل؛ ثم نفاه إلى قوص، فدام به إلى أن مات فيما أظن.

ثم جهّز السلطان الأمير سودون المحمدى، و خلع عليه بنظر مكة المشرفة، و ندبه أيضا لقتال عرب بلىّ، و صحبته جماعة من المماليك

السلطانية، و عرب بلىّ هؤلاء [هم] الذين فعلوا بالحجاج ما فعلوه فی موسم السنة الخالية. و ندب بعده أيضا الشهابی أحمد بن إينال اليوسفی، أحد أمراء العشرات، لإصلاح مناهل الحجاز و تقوية لسودون المحمدی. ثم خلع السلطان على الأمير أقبغا من مامش التركمانی الناصری، أحد أمراء العشرات و رأس نوبة، باستقراره فی نيابة الكرك، بعد عزل الصاحب خليل بن شاهين الشّيخی، و انتقاله إلى أتابكية صفد.

ثم فی يوم الخميس أول شهر رجب، أنفق السلطان فی المماليك [۱۰۰] السلطانية نفقة الكسوة، و كانت عادتهم أن يدفع لكل واحد منهم خمسمائة درهم من الفلوس، فلما قرب أوان تفرقة الكسوة، وقفوا فی يوم الاثنين ثامن عشرين جمادى الآخرة و طلبوا أن ينفق فيهم، عن ثمن الكسوة عشرة دنانير

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۸۰

لكل واحد، فما زالوا به حتى أنفق فيهم ألف درهم الواحد، و لكل خاصكی ألفا و خمسمائة.

و فيه رسم السلطان، بأن يكون نواب القاضی الشافعی خمسة عشر، و ثواب الحنفی عشرة، و نواب المالكی و الحنبلی أربعة أربعة، و وقع ذلك أياما، ثم عادوا إلى ما كانوا عليه.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۸۱

ذكر قتل قرقماس الشعبانی الناصری

المقدم ذكره

و لما كان يوم الخميس ثامن شهر رجب، جمع السلطان القضاة بالقصر، بعد الخدمة السلطانية، و ادعى القاضی علاء الدين على بن أقبرس، أحد نواب الحكم الشافعية، عند القاضی المالكی شمس الدين البساطی، على الأمير قرقماس المذكور، بأنه خرج عن الطاعة و حارب اللّه و رسوله، و أن بقاءه بالسجن مفسدة و إثارة فتنة، و أن فی قتله مصلحة؛ و شهد بخروجه عن الطاعة و محاربته جماعة من أكابر الأمراء، فحكم البساطی بموجب ذلك، فقيل له: ما موجبه؟ فقال: القتل، و انفض المجلس. فندب السلطان طوغان السيفیّ آقبردی المنقار أحد الخاصكية لقتله، فسافر طوغان إلى الإسكندرية، و دفع لنائبها ما على يده من المحضر المكتتب على قرقماس، و حكم القاضی المالكیّ بقتله، فأخرجه النائب من السجن فقرئ عليه حكم القاضی، و سئل عن الحكم المذكور، فأعذر.

حدّثنی طوغان المذكور بعد عوده من الإسكندرية، قال: لما وصلت إلى الإسكندرية، و دفعت إلى الأمير تمربابی التّمربغاوی نائب الإسكندرية، ما كان على يدی من المراسيم السلطانية و غيرها بقتل قرقماس، فأمر به تمربای فأخرج من سجنه بقيده إلى بين يدی النائب، فقام النائب و أجلسه مكانه، و سأله فی الأعذار، فأعذر، و قد امتلأ المجلس بالناس، و صار النائب يستحی أن يأمره بالقيام، حتى تكلم بعض من حضر بانفضاض المجلس، و قد حضر المشاعلیّ و الوالی، و أقيم قرقماس، و أخذ لتضرب رقبته، فجزع جزعا عظيما و شرع يقول لی: يا أخی يا طوغان، تضرب رقبتی فی هذا الملأ؟ و كرر ذلك غير مرة. فقلت له: يا خوند، أنا عبد

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۸۲

مأمور، و الشرع حكم بذلك. فقدّم و أجلس على ركبتيه، و أخرج المشاعلیّ سيفا من غير قراب، بل كان ملفوفا بحاشية من حواشی الجوخ التی لا ينتفع بها، فلما رأيت ذلك، قلت للمشاعلیّ: إيش هذا السيف الوحش؟ قال: لا، بل هو سيف جيد. ثم أخذ المشاعلی السيف المذكور و ضرب به رقبة قرقماس، فقطعت من رقبته مقدار نصف قيراط لا غير، و عند وقوع الضربة فی رقبة قرقماس صاح صيحة واحدة مات فيها من عظم الوهم، ثم ضربه المشاعلیّ أخرى ثم ثالثة، و فی الثالثة حزّها حزّا حتى تخلّصت، كلّ ذلك و قرقماس لا يتكلم و لا يتحرك، سوى الصيحة الأولى، فعلمت بذلك أنه مات فی الضربة الأولى، من عظم ما داخله من الوهم؛ و كان ذلك فی يوم الاثنين ثانی عشر [شهر] رجب من سنة اثنتين و أربعين و ثمانمائة. و مات قرقماس و سنه نيّف على الخمسين سنة تخمينا، و يأتی

بقية أحواله عند ذكر الوفيات من هذا الكتاب [إن شاء اللّه تعالى].

ثم فى يوم الاثنين ثانى عشر [شهر] رجب، خلع السلطان على الأمير يلبغا البهائى الظاهرى [برقوق]، أحد أمراء الطّبلخانات و ثانى حاجب، باستقراره فى نيابة الإسكندرية، عوضا عن الأمير تمرباى التّمربغاوى بحكم عزله، ثم ندب السلطان الأمير يشبک السّودونى الأمير سلاح، لسفر الصعيد، و عيّن معه عدّة كبيرة من المماليک الأشرفية [نجدة لمن تقدّم قبله] لقتال عرب الصعيد؛ و خرج فى يوم الاثنين ثانى شهر رمضان بمن معه من المماليک الأشرفية.

ثم فى يوم الاثنين تاسع شهر رمضان، قدم الأمير الطّواشى خشقدم اليشبكى، و نائبه فيروز الرّكنى الرومى، من ثغر دمياط، و أمرهما السلطان بالتوجه إلى المدينة النبوية صحبة ركب الحاجّ ليقيما بها.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۸۳

ثم فى يوم الأربعاء حادى عشر [شهر] رمضان المذكور، ورد على السلطان كتاب الأمير قانى باى الحمزاوى، نائب حماه، يتضمن ورود الأمير بردبک العجمى الجكمى، حاجب الحجاب [۱۰۱] بحلب، عليه و صحبته من أمراء حلب، أميران، بعد هزيمتهم من الأمير تغرى برمش نائب حلب، بعد خروجه عن طاعة السلطان و عصيانه. و كان أشيع خبر عصيانه إشاعات، فلما ورد هذا الخبر، تحقق كلّ أحد صحة ما أشيع.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۸۴

ذكر خبر عصيان تغرى برمش المذكور

و هو أنه كان له من يوم مات [الملک] الأشرف برسباى، أخذ فى أسباب الخروج، و احترز على نفسه فى عوده صحبة العساكر إلى حلب غاية الاحتراز، حتى إنه لم يدخل حلب إلا بعد خروج العساكر المصرية منها بعد أيام، و لما دخل حلب شرع فى تدبير أمره و النظر فى ما يفعله لنفسه، و لم يكن له غرض فى طلب الملک لمعرفته أن القوم لا يرضونه لذلک، غير أنه يعلم أنهم لا يدعونه فى نيابة حلب إن أمكنهم ذلک، لكونه كان تركمانيا غير الجنس. و تحقق هذا، فأخذ فى عمل مصلحة نفسه، و استدعى أمراء التركمان للقيام معه، فأجابه جماعة كبيرة، و انضم عليه خلائق.

و كان تغرى برمش من رجال الدهر، عارفا بتدبير أموره، جيد التصرف، و عنده عقل و مكر و حدس صائب، و تدبير جيد، و همة عالية، على أنه كان لا يعرف المسألة الواحدة فى دين اللّه، مع جمودة فى مجالسته و خشونة ألفاظ تظهر منه كما هى عادة أوباش التركمان، و جميع جهده و معرفته كانت فى أمور دنياه لا غير، مع جبن و بخل، إلا فى مستحقّه.

فلما استفحل أمره بمن وافقه من أمراء التركمان فى الباطن، و بكثرة مماليكه و خدمه، مع ما كان حصّله من الأموال، و بلغه مع ذلک أن الملطّفات السلطانية وردت على أمراء حلب فى القبض عليه، رأى أنه يظهر ما استكتمه من الخروج عن الطاعة، و يملک حلب و أعمالها طول عمره، لما دبره أنه إذا غلب عليها و كثرت

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۸۵

عساكره بها، يحصّنها و يقيم بها، فإن جاءه عسكر هو قبيله، قاتله، و إن كانت الأخرى، انهزم أمامه بعد تحصين قامتها، و توجّه إلى جهة بلاد التركمان، إلى أن يعود عنها من أتاها من العساكر، و لم يبق بها إلا من استنيب بها، [و] قدمها تغرى برمش و ملكها منه، كما كان يفعله شيخ و نوروز مع الملک الناصر [فرج ابن برقوق]، مع أن تغرى برمش هذا، كان أرسخ منهما قدما بتلک البلاد، لكونه كان تركمانيا، و له أموال جمة، و أكثر دهاء و مكرا، و إن كان شيخ و نوروز أعظم فى النفوس و أشجع، فليس هذا محلّ شجاعة و عظمة، و إنما هو محل تشويش و تنكيد. و تأييد ما قلته: أن [الملک] الظاهر جقمق، قلق لعصيان تغرى برمش [هذا] أكثر من عصيان الأمير إينال الجكمى نائب الشام الآتى ذكره، و أرسل [الملک] الظاهر خلفى و كلّمنى فى المحضر المكتتب فى حق تغرى برمش هذا

قديما، من قتله لبعض مماليك الوالد، لما كان تغرى برمش المذكور بخدمة الوالد، على ما سيأتى بيانه فى [ذكر وفيات هذا الكتاب إن شاء اللّه تعالى]، و كلّمنى الملك الظاهر فى أمر تغرى برمش بسبب المحضر و غيره، فلحظت منه ما ذكرته من تخوفه من طول أمر تغرى برمش المذكور معه- انتهى.

و كان أول ما بدأ به تغرى برمش أنه أخذ يستميل الأمير حطط نائب قلعة حلب، فلم يتم له ذلك، فأخذ يدبر على أخذ القلعة بالحيل، فأحسّ حطط و كلّم أمراء حلب بسببه، و انفقوا على قتاله، و بادروه و ركبوا عليه بعد أمور وقعت يطول شرحها، و رمى عليه حطط من أعلى قلعة حلب؛ و ركب الأمير بردبك العجمى الجكمى حاجب حلب، و الأمير قطج من تمراز أتابك حلب، و جماعة أمراء حلب، و عساكرها، و واقعوه، فصدمهم بمماليكه صدمة بدد شملهم فيها، و انهزموا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۸۶

و تشتتوا، فتوجه قطج إلى جهة البيرة فيما أظن، و توجه بردبك العجمى و معه أيضا جماعة إلى حماه، و كانت الواقعة فى ليلة الجمعة ثامن عشرين شعبان، و دخل بردبك حماه فى آخر يوم السبت سلخ شعبان؛ هذا ما كان من أمر تغرى برمش، و يأتى بيان أمر هذه الوقعة، فى كتاب تغرى برمش المذكور [إلى السلطان] فيما بعد.

و أما ما كان من أمر السلطان، فإنه لما بلغه خبر عصيانه، طلب الأمراء و عمل معهم مشورة بسببه، فوقع الاتفاق بعزله عن نيابة حلب، و توليه غيره، ثم ينتظر السلطان بعد ذلك ما يرد عليه من الأخبار من البلاد الشامية، لما كان أشيع بالقاهرة أن الأمير [۱۰۲] إينال الجكمى هو الذى أشار لتغرى برمش المذكور بالخروج عن الطاعة، و أنه موافقه فى الباطن، فلذلك لم يعيّن السلطان أحدا من العساكر المصرية، و لا نواب البلاد الشامية، لقتال تغرى برمش.

فلما كان يوم الخميس ثانى عشر [شهر] رمضان المذكور، كتب السلطان بنقل الأمير جلبان أمير آخور نائب طرابلس، إلى نيابة حلب، عوضا عن تغرى برمش المذكور، و أن يستقر الأمير قانى باى الحمزاوى نائب حماه المقدم ذكره فى نيابة طرابلس [عوضا عن جلبان، و أن يستقر بردبك العجمى الجكمى حاجب حجاب حلب، المقدم ذكره] فى نيابة حماه، عوضا عن قانى‌باى الحمزاوى.

و توجّه الأمير على باى العجمى المؤيدى، أحد أمراء العشرات، و رأس نوبة،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۸۷

بتقليد جلبان و تشريفه بنيابة حلب، و تقليد بردبك العجمى بنيابة حماه، و بردبك المذكور هو خال على باى المتوجه و جالبه و به يعرف بالعجمى، على شهرة خاله المذكور.

و توجه الأمير جانبك المحمودى المؤيدى، أحد أمراء العشرات و رأس نوبة، بتقليد الأمير قانى باى الحمزاوى و تشريفه بنيابة طرابلس، و على باى و جانبك هما يوم ذاك عقد المملكة و حلّها. و بقى السلطان فى قلق بسبب إينال الجكمى نائب الشام، لكونه أشيع أن سودون أخا إينال الجكمى، منذ قدم من عند إينال إلى القاهرة يستميل الناس إليه، و كان السلطان لما تسلطن أرسل سودون المذكور إلى جميع نواب البلاد الشامية، و كانت العادة جرت، أنه يتوجه لكل نائب أمير، يبشره بجلوس السلطان على تخت الملك، كلّ ذلك مراعاة لخاطر أخيه إينال الجكمى، و كان السلطان أيضا أرسل إلى إينال المذكور، بخلعة ثانية مع الأمير ناصر الدين محمد بن إبراهيم بن منجك باستمراره على نيابة دمشق.

فلما كان يوم الاثنين سادس عشر شهر رمضان، ورد الخبر على السلطان من الأمير طوخ مازى الناصرى نائب غزة: بأن الأمير ناصر الدين محمد بن منجك المقدم ذكره، لما وصل من عند السلطان بما على يده من الخلعة إلى جسر يعقوب، بعث إليه إينال الجكمىّ ساعيا يستحثه على سرعة القدوم إلى دمشق، ثم أردفه بآخر حتى قدم ابن منجك إلى دمشق فى يوم السبت سابع شهر رمضان المذكور، و خرج إينال إلى لقائه، و لبس التّشريف السلطاّ المجهز إليه على يد ابن منجك، و قبّل الأرض،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۸۸

و ركب الفرس المحضر معه أيضا، و دخل إلى دمشق فى موكب جليل، و نزل بدار السعادة، فاطمأن أهل دمشق بذلك، فإنه كان قد أشيع أيضا بدمشق بعصيان نائبها المذكور.

فلما كان يوم الاثنين تاسعه، ركب الأمير إينال الجكمى الموكب على العادة، و دخل إلى دار السعادة، و جميع أمراء دمشق و سائر المباشرين بين يديه، و قد اطمأن كلّ أحد بأن ملك الأمراء مستمرّ على الطاعة، فما هو إلا أن استقر فى مجلسه أشار بالقبض على أعيان أمراء دمشق، فأغلق الباب و قبض على جميع الأمراء و المباشرين، و كان القائم فى قبض الأمراء [الأمير] قانى باى الأبوبكرىّ الناصرى أتابك دمشق، و قانصوه النّوروزى أحد مقدمى دمشق. و المقبوض عليهم أجلّهم: الأمير برسباى الحاجب و عدة كبيرة أخر يأتى ذكرهم. قال: و إن على باى العجمى و جانبك المحمودى المتوجهين بتقليد نائب حلب و طرابلس وصلا إلى غزة و أقاما بها.

فلما سمع السلطان هذا الخبر، اضطرب و تشوّش غاية التّشويش، لأنه كان عليه أدهى و أمرّ، و جمع الأمراء و استشارهم فى أمر إينال و تغرى برمش فأشاروا الجميع بسفره، و تذكّر السلطان قول آقبغا التّمرازى لمّا أشار عليه قبل سلطنته أن يتوجّه إلى البلاد الشامية ثم يتسلطن، فلم تفده التذكرة الآن، و انفض الموكب على أن السلطان يسافر لقتال المذكورين.

ثم فى يوم الأربعاء، ورد الخبر على السلطان: أن الأمير قطج أتابك حلب، وصل أيضا إلى حماة، و أن تغرى برمش أخذ مدينة عين تاب و قلعتها، و أن عدة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۸۹

من قبض عليه الأمير إينال الجكمى من أمراء دمشق تسعة عشر أميرا، و أنه قبض أيضا على جمال الدين يوسف بن الصفى الكركى ناظر جيش دمشق، و على القاضى بهاء الدين محمد بن حجى كاتب سر دمشق، و أن على باى [۱۰۳] و جانبك المحمودى توجّها من غزة إلى الأمير إينال الناصرى العلائى نائب صفد.

ثم فى يوم الخميس عشرينه، ورد على السلطان كتاب الأمير تغرى برمش نائب حلب مؤرخا بثانى شهر رمضان، يتضمن أنه فى اليوم الثالث و العشرين من شعبان لبس الأمير حطط نائب القلعة و من معه بالقلعة السلاح، و قاموا على سور القلعة و نصبوا المكاحل و غيرها، و أمروا من تحت القلعة من أرباب المعايش و سكان الحوانيت بالنقلة من هناك. و أنه لما رأى ذلك، بعث يسأل حطط عن سبب هذا فلم يجبه، إلى أن كان ليلة التاسع و العشرين منه ركب الأمير قطج أتابك العساكر و الأمير بردبك الحاجب فى عدة أمراء لا بسين السلاح و وقفوا تحت القلعة، فبعث إليهم جماعة من عسكره فكانت بين الفريقين وقعة هائلة انهزم فيها قطج، و أنه باق على طاعة السلطان، و أنه بعث يسأل حطط ثانيا عن سبب هذه الحركة، فأجاب بأن الأمير بردبك الحاجب ورد عليه مرسوم السلطان بالركوب عليك و أخذك. و جهزّ تغرى برمش أيضا محضرا ثانيا على قضاة حلب بمعنى ما ذكره، و أنه باق على طاعة السلطان، و أنه لم يتعرض إلى القلعة، فلم يعوّل السلطان على كتابه و لا على ما ذكره لما سبق عنده من خروجه عن الطاعة- انتهى ما تضمنه كتاب تغرى برمش.

ثم ورد على السلطان كتاب الأمير فارس نائب قلعة دمشق، بأن الأمير إينال الجكمى أمر فنودى بدمشق بالأمان و الاطمئنان و الدعاء للسلطان الملك العزيز يوسف، و أن القاضى تقىّ الدين بن قاضى شهبة، قاضى قضاة دمشق، دعا للملك العزيز على منبر جامع بنى أمية فى يوم الجمعة، و أن الخطبة بقلعة دمشق باقية باسم السلطان الملك

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۹۰

الظاهر جقمق؛ كل ذلك و السلطان قد اجتمع رأيه على إخراج تجريدة إلى البلاد الشامية.

ثم فى يوم السبت حادى عشرين [شهر] رمضان، استقر القاضى بدر الدين محمد ابن قاضى القضاة ناصر الدين أحمد التّنّسى أحد خلفاء الحكم المالكية قاضى قضاة الديار المصرية، بعد موت العلامة شمس الدين محمد بن أحمد البساطى.

ثم أصبح السلطان من الغد فى يوم الأحد ابتدأ بعرض المماليك السلطانية، و عيّن من الخاصكية ثلاثمائة و عشرين نفرا، لسفر الشام

مع من يأتى ذكره من أمراء الألوف و غيرهم.

ثم فى يوم الاثنين ثالث عشرينه، خلع السلطان على الأمير الكبير آقبغا التّمرازى باستقراره فى نيابة دمشق، عوضا عن إينال الجكمى بحكم عصيانه، على كره منه و تمنّع كبير.

ثم فى يوم الثلاثاء أيضا عرض السلطان الخاصكيّة و عين منهم للسفر ثلاثمائة و ثلاثين خاصكيّا، لتتمة ستمائة و ستين خاصكيّا، ثم نقّص منهم خمسة بعد أيام.

ثم فى يوم الأربعاء خامس عشرينه عيّن السلطان للسفر من أمراء الألوف:

قراخجا الحسنى رأس نوبة النوب، و تمرباى السّيفى تمربغا المشطوب، و من أمراء الطبلخانات: [الأمير] طوخ من تمراز الناصرى رأس نوبة ثانى، و هو مسفّر الأتابك آقبغا التّمرازى؛ و من أمراء العشرات عشرة، و هم: أقطوه الموساوى، و قد صار أمير طبلخاناة، و تنم من عبد الرازق المؤيدى محتسب القاهرة و رأس نوبة،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۹۱

ثم أعفى بعد ذلك، و يشبک من أزوباى الناصرى رأس نوبة، و بايزير من صفر خجا الأشرفى رأس نوبة، و آقبردى الأشرفى أمير آخور ثالث، و قيزطوغان العلائى، و سودون الإينالى المؤيدى المعروف بقراقاس رأس نوبة، و سودون العجمى النوروزى رأس نوبة، و سودون النوروزى السلاح دار رأس نوبة، و جانبک النوروزى رأس نوبة، و خشكلدى الناصرى البهلوان.

ثم ورد الخبر على السلطان من الأمير طوغان العثمانى نائب القدس بأن إينال الجكمى، أطلق الأمراء الذين قبض عليهم قبل تاريخه، و حلّفهم للملک العزيز يوسف، و ذلک بشفاعة قانى باى الناصرى البهلوان أتابک دمشق، فحزر أهل المعرفة أن أمر إينال الجكمى لا يتم لتضييعه الحزم فيما فعل من الإفراج عن الأمراء بعد أن تأكدت الوحشة بينهم، و مع ما كان بينه و بين الأمير برسباى الحاجب من حضوض الأنفس قديما، و نفرت القلوب بذلک عن إينال الجكمى، و أول من نفر عنه تغرى برمش نائب حلب، و قال فى نفسه عن إينال المذكور: هذا فى الحقيقة ليس بخارج عن الطاعة، و إنما قصد بالإشاعة عنه أنه عاص حتى أقدم عليه و يقبض علىّ تقرّبا لخاطر السلطان، و هو معذور فى ذلک، فإن مثل هؤلاء [۱۰۴] ما كان يفرج عنهم بشفاعة و لا لشفقة عليهم، و قد قصد ما قصد، [و للّه در المتنبى فى قوله]: [الكامل]

لا يخدعنّک من عدوک دمعه و ارحم شبابک من عدوّ ترحم

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدّم

و من يومئذ أخذ أمر إينال الجكمى فى الاضمحلال قليلا، و استخف كل أحد عقله و تعجب من سوء تدبيره، و كاد أخوه سودون العجمى أن يموت قهرا لما بلغه عن أخيه إينال [ذلک]، و هو يوم ذاک من جملة أمراء العشرات بالديار المصرية.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۹۲

ثم ورد الخبر على السلطان بأن الأمير إينال العلائى الناصرى نائب صفد خرج منها، و سار حتى نزل بالرّملة فى سابع عشر [شهر] رمضان، بعد ما أرسل إليه إينال الجكمى يدعوه لموافقته، و أعلمه أيضا أنه ما قام فى هذا الأمر إلا و قد وافقه نواب المماليک، و أركان الدولة و عظماء أمراء مصر، فلم يلتفت إينال العلائى لكلامه، ثم خشى أن يكبس بصفد، فخرج منها بعد أن جعل حريمه بقلعة صفد، و سار حتى نزل الرملة، فسرّ السلطان بذلک و كتب إليه بالثناء و الشكر.

ثم فى يوم الخميس سابع عشرين [شهر] رمضان المذكور أنفق السلطان فى العسكر المجرد إلى الشأم- وعدتهم ما بين خاصكىّ و مملوک: ستمائة و اثنان و خمسون نفرا- كل واحد ثمانين دينارا.

ثم قدم الخبر بأن الأمير جلبان، المستقر فى نيابة حلب، وصل إلى الرملة فى يوم الاثنين ثالث عشرين شهر رمضان فارّا من تغرى برمش نائب حلب، و كان من خبر تغرى برمش نائب حلب أنه لما قوى أمره و بلغه عصيان إينال الجكمى أيضا، عظم أمره و استدعى

الترکمان إلی حلب، فقدم علیه منهم جماعة کبیرة إلی الغایة؛ ثم عمل مکحلة عظیمة من نحاس، لیرمی بها علی قلعة حلب، و أخذ مع هذا کله یستمیل جماعة من أهل قلعة حلب فمالوا له فی الباطن، و واعدوه علی تسلیم القلعة له، و هو مع ذلک مستمر فی حصار القلعة المذکورة، و النقب فی جدر القلعة [عمّال]، و القتال بینه و بینهم فی کل یوم یزداد، إلی أن بلغ الأمیر حطط نائب قلعة حلب، عمن وافق تغری برمش المذکور، من أهل القلعة، فقبض علی الجمیع، و أخذ

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج١۵، ص: ٢٩٣

بعضهم و جعله فی المنجنیق و رمی به علی تغری برمش، ثم قتل جماعة منهم و جعل رؤوسهم علی سور قلعة حلب، فلم یکترث تغری برمش بذلک و استمر علی ما هو علیه من حصار القلعة حتی أشرف علی أخذها، فخوّفه بعض أصحابه من وثوب أهل مدینة حلب علیه و أشاروا علیه بأن ینادی لهم بالأمان، فأمر بذلک.

و کان بلغ أهل حلب أن تغری برمش یرید یأمر الترکمان بنهب حلب، فلما نودی بالأمان تحققوا ما کان قیل من نهب حلب، و ألقی اللّه فی نفوسهم أن یرکبوا علیه و یقاتلوه قبل أن یأمر بنهبهم. فثارت العامة و أهل حلب بأجمعهم بقسیّهم و سلاحهم علی حین غفلة، و ساروا یدا واحدة و احتاطوا بدار السعادة و به النائب تغری برمش؛ و قد تقدم أن تغری برمش المذکور کان جبانا غیر ثابت فی الحروب، ضعیف القلب عند ملاقاة العدو، و لیس فیه [سوی] جودة التدبیر و حسن السیاسة بحسب الحال، و بالنسبة لأمثاله من الجهلة فعندما بلغه و ثوب أهل حلب علیه لم یثبت، و ذهب فارّا یرید الخروج من المدینة، و سار حتی خرج من السور، و صار واقفا خارج السور فی نحو الأربعین فارسا تخمینا، و قد نهبت العامة جمیع ما کان له بدار السعادة، من الخیول و الأموال و السلاح و امتدت أیدیهم إلی ممالیک تغری برمش و أتباعه یقتلونهم و ینهبونهم.

و کان له الممالیک الکثیرة المتجمّلة فی لبسهم و سلاحهم، غیر أنهم کانوا علی مذهب أستاذهم فی الجبن و الخوف و عدم الثبات فی القتال، و لم یظهر لأحد منهم نتیجة فی هذا الیوم و لا فی یوم مصافته للعسکر المصری، بل هرب غالبهم و جاء إلی العساکر المصریة قبل وقوع القتال، و ترکوا أستاذهم فی مثل ذلک الیوم مع عظم

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج١۵، ص: ٢٩۴

إحسانه لهم، و تخوّلهم فی النّعم. و کانت هذه الوقعة فی یوم الثلاثاء عاشر شهر رمضان، بعد ما کان تغری برمش حاصر القلعة ثلاثة عشر یوما و تلاحق عدة من أصحاب تغری برمش و ممالیکه به و لم یجد له قوة للعود إلی حلب لقتال أهلها، فسار بمن معه یرید طرابلس، و انضم علیه الأمیر طر علی بن صقل سیز الترکمانی بأصحابه، فلما قارب طرابلس لم یثبت الأمیر [١٠۵] جلبان، و انهزم من طرابلس فی العاجل، إلی نحو الرملة حتی قدمها، و انضم علی من کان بالرّملة من النواب و غیرهم. و کان جلبان أیضا من مقولة تغری برمش فی القتال، غیر أن أمره کان فی ستر لأمور لا تخفی علی أحد، فدقت البشائر لذلک، و سر السلطان بهذا الخبر، و تعجب الناس من نکبة تغری برمش المذکور، مع قوة أمره و کثرة جموعه.

و لما وصل جلبان إلی الرّملة و اجتمع بالأمیر إینال العلائی نائب صفد، و الأمیر طوخ مازی نائب غزة، و الأمیر طوغان العثمانی نائب القدس، اتفقوا علی مکاتبة السلطان، فکتبوا له یستدعونه للسیر بنفسه، بعد تجهیز العساکر بین یدیه سریعا، و کان قدم بهذا الخبر صرغتمش السیفی تغری بردی أحد ممالیک الوالد، و هو یوم ذاک دوادار الأمیر جلبان، فخلع علیه السلطان فی یوم الأحد تاسع عشرینه باستقراره دوادار السلطان بحلب، عوضا عن سودون النّوروزی بحکم انتقاله إلی حجوبیة حلب، بعد بردبک العجمی المنتقل إلی نیابة حماه.

ثم فی هذا الیوم قدم الأمیر جانبک المحمودی المتوجه بتقلید قانی بای الحمزاوی بنیابة طرابلس، بعد أن وصل إلی الرّملة و لم یتمکن من التوجه إلی حماه خوفا من إینال الجکمی، فأثار عند قدومه إلی القاهرة سرورا عظیما، فإنه زعم أنه ظفر بکتب جماعة من الأمراء و غیرهم إلی العصاة ببلاد الشام، أوقف علیها السلطان، فتعجب السلطان من ذلک غایة العجب، فإنه کان من یوم جلس علی

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۹۵

تخت الملک و یده ممدودة بالإحسان لکل أحد، حتى أنه ترقى فى أیامه إلى الوظائف السنیة و الإقطاعات الهائلة جماعة من الأوباش لم یکن لهم ذکر بین الناس قبل ذلک، و فیهم من لم أره قبل تاریخه و لا أعرف شکله جملة کافیة، و صار منهم السقاة، و رؤوس نوب الجمداریّة، و بجمقداریّة، و سلاح داریة، و غیر ذلک، و أثرى منهم جماعة ممن کان غالب معیشته بالشحاذة و التّکدّى، لکثرة ما أغدق علیهم [الملک] الظاهر جقمق بالعطاء، و صار ینعم علیهم بالأقمشة الفاخرة، حتى أنه وهب لبعضهم الکوامل المخمل المنقوشة بأطواق السّمّور و بالطرز الزرکش العریضة، و هو مستمر على ما هو علیه لیوم تاریخه؛ فلما وقف على الکتب قال: هذه مفتعلة، و لم ینتقم على أحد، و أخذ فیما هو فیه من تجهیز العساکر.

فرار الملک العزیز

ثم أصبح من الغد فى یوم الاثنین سلخه عملت الخدمة بالقصر على العادة، و بینما هو فى ذلک بلغه من الأمیر قراخجا الحسنی رأس نوبة النوب فرار الملک العزیز یوسف من محبسه بدور قلعة الجبل- أعنى سکنه، فإنه کان سکن بقاعة البربریة من الحریم السلطانی- فاستبعد السلطان ذلک و ندب بعض خواصه أن یتوجه إلى الأمیر فیروز الزمام و یسأله عن صحة هذا الخبر، فمضى المذکور لفیروز و سأله عن لسان السلطان فأنکر فیروز ذلک، و دخل من وقته فلم یجد العزیز فى مکانه، و وجد نقبا بقاعة البربریة یتوصل منه إلى المطبخ السلطانی فعاد القاصد بصحة الخبر على السلطان. فلما تحقق السلطان ذهاب [الملک] العزیز کادت روحه أن تزهق، و عظم علیه الخبر، و نسی ما کان فیه من أمر إینال الجکمی و تغری برمش، و عرّف السلطان الأمراء

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۹۶

و أکابر الدولة بذلک، فما منهم إلاـ من ظهر علیه الخوف و الفزع. و ماجت المملکة، و کثر الکلام، و اختلفت الأقاویل فى أمر [الملک] العزیز و فراره، و فى أین توجّه.

و کان من خبر العزیز- على اختلاف النقول- أن الملک العزیز لما حبس بقاعة البربریة من الدور السلطانیة، أقرّ [الملک] الظاهر عنده دادته سرّ النّدیم الحبشیة و معها عدة جوار أخر سراریّ الملک العزیز، و مرضعته أیضا، و رسم لمرضعته أنها تخرج إلى حیث شاءت، و جعل القائم فى خدمة [الملک] العزیز لقضاء حوائجه طواشیّا هندیا من عتقاء أمه خوند جلبان یسمى صندلا، و سنّه دون العشرین سنة، فصار صندل المذکور یتقاضى [حوائج العزیز، و یقبض له ما رتّب له من النفقة من أوقاف أبیه، فاحتوى صندل على جمیع أمور الملک العزیز، و عرف جمیع] أحواله.

و کان عند الطواشی یقظة و معرفة، و بقی کلما بلغه عن الملک العزیز شیء یبلغه له، فأشیع بالقاهرة أن السلطان یرید یرسل [الملک] العزیز إلى سجن الإسکندریة، ثم أشیع أنه یرید یکحله؛ فبلّغه صندل المذکور جمیع ذلک، فخاف العزیز خوفا عظیما، ثم بلغه أن بعض علماء العصر أفتى بقتل العزیز صیانة لدماء المسلمین، من کونه مخلوعا عن الملک و له شوکة، و الملک الظاهر متولّ و لم یکن له شوکة، فإن أبقى على العزیز ربما تثور شوکته و یقاتل السلطان، [۱۰۶] فیقع بذلک الفساد و تسفک دماء کثیرة من المسلمین.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۹۷

فلما بلغ العزیز ذلک- على ما قیل- حار فى أمره، فحسّن له صندل المذکور الفرار، فاستبعد العزیز وقوع ذلک، ثم وافقه. و کان للملک العزیز طباخ یسمى إبراهیم من أیام والده، فداخله صندل فى الکلام بفرار العزیز، فأجابه إبراهیم المذکور أنه ینهض بذلک، و یقدر على خروجه من القلعة بحیلة یدبرها. ثم أمر إبراهیم الطباخ صندلا أن ینقب من داخل القلعة نقبا یصل إلى المطبخ المذکور، و أن إبراهیم ینقب من خارج المطبخ مقابله، فأمر العزیز جواریه بالنقب من داخل القلعة مساعدة للطباخ، حتى تهیأ ذلک. و تم هذا، و صندل یتحدث مع جماعة من الممالیک الأشرفیة فى مساعدة [الملک] العزیز إذا خرج و نزل من القلعة، فمال إلى ذلک جماعة: منهم

طوغان الزّردکاش، و أزدمر مشدّ [الملک] العزیز أیام أبیه، فی آخرین من [الممالیک] الأشرفیة، و بذلوا لصندل الطاعة فی ذلک، و رغّبوه فی نزول الملک العزیز إلیهم، و استحثوه علی ذلک.

و تکلم طوغان الزّردکاش مع جماعة أخر من الأشرفیة، فمال الجمیع إلی نزوله إلیهم، مع عدم الاتفاق مع أکابر الأشرفیة، و لا تشاوروا فی ذلک، بل صاروا یحرضون [صندلا] علی نزوله، و لم یعینوا له مکانا یجلس فیه إلی أن یفعلوا له ما هو قصدهم، فلم یعرّف صندل العزیز ذلک، بل صار یملیه بخلاف الواقع، إلی أن انتهی النقب المذکور.

فلما کان وقت الإفطار من لیلة الاثنین سلخ شهر رمضان من سنة اثنتین و أربعین، و الناس فی شغل بالصلاة و الفطر، أخرج الطباخ الملک العزیز من النقب عریانا مکشوف الرأس، فألبسه الطباخ من ثیابه ثوبا مملوءا بسواد القدور و الأوساخ، و حمّله قدرا فیه

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۹۸

طعام، و قیل صحنا فیه منفوع الطباخین من الطعام، یوهم الطباخ بذلک أنه صبیّه، ثم جعل علی یده خافقیّة فیها طعام، و غیّر وجه الملک العزیز و یدیه بالزفر و سواد القدور.

و خرجا جمیعا من غیر هرج و لا اضطراب و لا خوف حتی وصلا إلی باب القلعة، فوافاهم الأمراء و الخاصکیة و قد خرجوا بعد إفطارهم من عند السلطان، فلما رأی إبراهیم الطباخ الأمراء و الخاصکیة خاف أن یفطن به أحد، لجمال وجهه و حسن سمته و لما علیه من الرّونق، فضربه ضربة بیده و سبّه، یرید بذلک أنه صبیّه، و یستحثه علی سرعة الحرکة و المشی، لیردّ الوهم عنه بذلک، فأسرع الملک العزیز فی المشی و سارا حتی نزلا من قلعة الجبل، فإذا صندل و طوغان الزّردکاش و أزدمر مشدّ العزیز فی آخرین واقفین فی انتظاره، فحال ما رأوه قبّلوا یده و أخذوه إلی دار بعضهم، فأنکر العزیز ذلک منهم، و نهر صندلا الطّواشی، و قال: ما علی هذا أنزلت؛ و کان فی ظن العزیز أنه ساعة ما ینزل إلیهم، یأخذوه و یرکبون به إلی جهة قبة النصر أو غیرها بمجموعهم، و یقاتلون السلطان الملک الظاهر، حتی یملکوا منه القلعة، علی ما کان صندل یقول له مثل ذلک.

و أراد العزیز العود إلی مکانه بالقلعة فلم یمکنه ذلک، و قام طوغان فی منعه و وعده بقیام جمیع خشداشیّته من الأشرفیة بنصرته، و أنهم اتفقوا علی ذلک، و أنهم إلی الآن لم یصدّقوا بنزول الملک العزیز، فإذا علموا ذلک

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۲۹۹

اجتمع الکلّ فی القیام بنصرة الملک العزیز، فإن لم یفعلوا ذلک أخذه هو و سار به إلی بلاد الصعید، عند الأمیر یشبک السّودونی أمیر سلاح المجرد قبل تاریخه لقتال عرب الصعید، و کان صحبة یشبک جماعة کبیرة من الممالیک الأشرفیة نحو سبعمائة مملوک، مع میل یشبک إلی الأشرفیة فی الباطن، لکونه کان ممن أنشأه الملک الأشرف برسبای و رقّاه.

ثم افترقوا، و اختفی الملک العزیز و معه صندل و أزدمر و إبراهیم الطباخ فی مکان لیلته، ثم تنقّل فی عدة أماکن أخر، و أخذ طوغان فی الکلام مع خجداشیته الأشرفیة فی القیام بنصرة ابن أستاذهم الملک العزیز، فاعتلّوا بأن غالبهم قد توجه إلی بلاد الصعید و لم یجیبوا له دعوة، فلما علم منهم ذلک رکب هجنا و سار إلی بلاد الصعید لإعلام الأمیر یشبک و الممالیک الأشرفیة بنزول الملک العزیز إلیه، و دخل جماعة کبیرة منهم إلی الأمیر إینال الأبوبکریّ الأشرفی، و کلموه فی القیام بنصرة ابن أستاذه، فخاف العواقب و لم یوافقهم، و تسحّب من داره علی بغل ثم نزل ماشیا و اختفی.

هذا ما بلغنا من أفواه الناس، فإنی لم أجتمع مع إینال المذکور بعد ذلک؛ هذا و السلطان و حاشیته قد عظم قلقهم، و صار السلطان لا یعلم أین ذهب [الملک] العزیز، و لم یشک هو و غیره أن [۱۰۷] الأمیر إینال الأبوبکریّ أخذ العزیز علی هجنه المجهزة لسفر الحجاز، فإنه کان ولی إمرة الحاجّ، و سار إلی الأمیر إینال الجکمی. قلت:

و لو فعل إینال ذلک لکان تم له ما قصد، لکثرة هجنه و رواحله و عظم حواشیه من

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۰۰

خجداشية و غيرهم، و كان ذلك هو الرأى فحسّن اللّه له غير ذلك، حتى يصل كل موعود إلى ما وعد.

كل ذلك فى يوم سلخ رمضان. فلما كان الليل، و هى ليلة عيد الفطر التى تسحّب فيها إينال المذكور، تفرّقت المماليك المؤيدية و غيرهم إلى طرقات القاهرة، و دار منهم طائفة كبيرة حول القلعة و بالقرب من بيت إينال المذكور، مخافة أن يخرج إينال فى الليل بالملك العزيز، و كثر هرج الناس فى تلك الليلة و تخوّفوا من وقوع فتنة من الغد.

و مضت تلك الليلة على أبشع وجه من اضطراب الناس و تخوفهم، و أصبح السلطان صلى صلاة العيد بجامع القلعة و هو على تخوف، و قد وقف جماعة بالسلاح مصلتا على رأسه حتى قضى صلاته. و خطب قاضى القضاة شهاب الدين بن حجر و أوجز فى خطبته، كما أسرع فى صلاته، و عندما فرغ من الخطبة، وصل الخبر للسلطان بأن الأمير إينال تسحب فى الليل، فعظم الخطب. فلما علم السلطان بتسحّب إينال أمر فنودى بالقاهرة أن لا يتخلف أحد من المماليك [عن الخدمة، و هدد من تخلف بالقتل، فلما طلعوا قبض على جماعة من المماليك] الأشرفية، ثم نودى أيضا فى الناس بإصلاح الدروب و غلقهم أبواب دورهم، و أن لا يخرج أحد من بيته بعد عشاء الآخرة، و صارت أبواب القاهرة تغلق قبل عادة إغلاقها من الليل، فكانت ليلة هذا العيد و يومه و ثانيه من الأيام النكدة البشعة.

ثم فى يوم الخميس ثالث شوال خلع السلطان على الأمير تنبك البردبكى، أحد مقدمى الألوف باستقراره أمير حاجّ المحمل، عوضا عن إينال المذكور، بحكم تسحبه، و خلع على قراجا الناصرى الخاصكى البواب باستقراره والى القاهرة،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۰۱

بعد عزل علاء الدين على بن الطّبلاوى، و خلع على الأمير ممجق النّوروزى أحد أمراء العشرات باستقراره فى نيابة قلعة الجبل عوضا عن تنبك المستقر فى إمرة حاج المحمل، و فيه أيضا أمسك السلطان جماعة [كبيرة] من المماليك الأشرفية.

ثم فى يوم الجمعة رابع شوال سار عسكر من الخاصكية إلى جهة الغربية تزيد عدتهم على سبعين فارسا، لمسك الأمير قراجا الأشرفى أحد مقدمى الألوف، و كان ولى كشف الجسور بالغربية، فسار العسكر المذكور إلى جهة المحلة، و بلغ قراجا ذلك فخرج إليهم و سلّم نفسه، فأخذ و قيد و حمل إلى الإسكندرية فسجن بها.

و أما السلطان فإنه أصبح فى يوم [السبت] خامس شوال عزل الأمير أركماس الظاهرى عن الدوادارية الكبرى، و أخذت خيوله و خيول الأمير قراجا المقدم ذكره.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۰۲

ثم فى يوم الاثنين سابع شوال نودى بأن من وجد أحدا من غرماء السلطان و طلع به فله خمسمائة دينار و إقطاع، و من غمز عليه أنه أخفى أحدا منهم حلّ ماله و دمه؛ هذا و المؤيدية قد تجردت للفحص عن الملك العزيز و عن المماليك الأشرفية فى جميع الأماكن، و قبضوا على جماعة من غلمانهم حتى دلّوهم على أماكن بعضهم، و صاروا يكبسون الدور و الترب و ديارات النصارى و البساتين و ضواحى القاهرة و مصر، و يمرون فى الليل فى الأزقة متنكّرين، فإنهم صاروا [هم] أكثر تخوفا من السلطان على نفوسهم.

و سبب ذلك أن طائفة المماليك المؤيدية كانوا قاموا مع السلطان الملك الظاهر فى [أمر] سلطنته أتم قيام، مع من ساعدهم من جميع الطوائف، غير أنهم كانوا هم أشدّ بأسا فى ذلك؛ فلما تسلطن الملك الظاهر عرف لهم ذلك و رقاهم و قرّبهم، حتى صاروا هم عقد المملكة و حلّها و تحكموا فى الدولة، و أخرجوا المماليك الأشرفية من الديار المصرية إلى السجون و إلى الثغور و إلى البلاد، و أهانوهم بعد عزهم و اتضع جانبهم بعد [۱۰۸] رفعتهم.

فلما وقع لهم ذلك جدّوا فى الإغراء بالملك العزيز و قتله خوف العواقب، فلم يسمع لهم السلطان، فحسّنوا له أن يكحله فلم يوافق أيضا على ذلك، فلما ثار الأمير إينال الجكمى نائب الشأم و دعا للملك العزيز، و كان تغرى برمش نائب حلب أيضا أعظم ميلا للملك العزيز لكونه نشء والده الملك الأشرف [برسباى]، تحققت المؤيدية أنهم مقتولون أشر قتلة، إن ملك العزيز ثانيا و صار لشوكته دولة، فحرّضوا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۰۳

عنـد ذلـك السـلطان على قتله، و اسـتفتوا العلمـاء فى ذلك فكتب بعضـهم على قـدر ما أنهى له فى الفتوى، و امتنع البعض. ثم اشـتهر بالقاهرة أنه إذا فرغ شـهر رمضان يفعل بالعزيز ما هو القصـد، و تكلم الناس بذلك. و اتفق فرار العزيز، إما لما بلغه هذا الخبر أو لمعنى آخر، و أكثر قول الناس أنه لم يفر إلا لما خامر قلبه من الخوف، و اللّه أعلم.

ثم لما بلغ إينال الأشـرفى خبر العزيز و تسـحبه، و استدعته خجداشيّته بالقيام فى نصرة ابن أستاذه فلم يوافق، و خاف إن طلع القلعة من الغد يمسك، اختفى. فلما أصـبح النهار و بلغ السـلطان و الناس فرار العزيز و تسـحّب إينال، لم يشك الناس فى أن إينال أخذ العزيز و مضـى إلى إينال الجكمى، ثم اختلفت الاقوال، فعند ذلك علموا المؤيدية أنهم أشرفوا على الهلاك، و أنهم ركبوا الأخطار فيما فعلوه فى أمر [الملك] العزيز، فحينئذ جدوا فى الفحص عن أمره، لبقاء مهجتهم لا لنصـرة الملك الظاهر جقمق، و صار الملك الظاهر يأخذ النار بيد غيره، و هو فيما هو فيه من تجهيز العساكر لقتال الجكمى و تغرى برمش.

ثم فى يوم الثلاثاء ثامن شوال أنعم السـلطان بإقطاع الأمير قراجا الأشـرفى على ولـده المقام الناصـرى محمد، و صار محمد [المذكور] من جملة أمراء الألوف، و أجلس تحت الأمير جرباش الكريمى أمير مجلس، و هذا بخلاف العادة، فإن العادة جرت من دولة [الملك] الظاهر برقوق إلى يومنا هذا، أن ابن السـلطان لا يجلس إلا رأس الميسرة فوق أمير سلاح، فكلمه الأمراء فى ذلك فلم يرض، و ما فعل [الملك] الظاهر هـذا الأمر و أمثاله إلا لعـدم ثبات ملكه و لاضـطراب دولته، بسـبب خروج النواب عن الطاعة، و أيضا تسـحّب العزيز- انتهى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۰۴

ثم أنعم السـلطان بإقطـاع إينـال الأشـرفى الأـبوبكرىّ على الأـمير جربـاش الكريمى قـاشق، و أنعم بإقطـاع جرباش على الأمير شادبك الجكمى المعزول عن نيابـة الرّهـا، و هو يوم ذاك أحـد أمراء الطبلخاناة، و إقطاع جرباش و الـذى أخـذه كلاهما تقدمـة ألف، غير أن الخراج يتفـاوت بينهمـا. و أنعم السـلطان بإقطـاع أركماس الظاهرى على الأمير أسـنبغا الطيارى الـدوادار الثانى، و أنعم بإقطاع شادبك على الأـمير جرباش المحمـدى الناصـرى المعروف بكرد، و أنعم بإقطاع الأمير أسـنبغا الطيّارى على الأمير دولات باى المؤيـدى الأمير آخور الثانى، و كلاهما طبلخاناة. كل ذلك و القبض على الأشـرفية مستمر، مع الكتابة إلى الأعمال بأخذ الطرقات عليهم برّا و بحرا، و السلطان يستحث آقبغا التّمرازى نائب الشام على السفر فى كل قليل.

فلما كان يوم الخميس عاشـر شوال برز آقبغا التّمرازى بمن معه من القاهرة إلى الرّيدانيـة، بعد أن خلع عليه السـلطان خلعة السـفر، فلما لبسـها و جاء إلى السـلطان ليقبل يـده قام له السـلطان و اعتنقه، فمسك آقبغا يده و قال له: يا خوند، لا تغير نيّتك، فقال السـلطان: لا و اللّه. ثم تأخر بخلعته و وقف على ميمنة السـلطان، لأن السـلطان [كان] شرط له أنه لا يخرج عنه إقطاع الأتابكية و وظيفتها إلى أن ينظر فى أمر الجكمى ما سـيكون، فلهذا المقتضـى وقف آقبغا فى منزلة الأتابكية على ميمنة السلطان، و كان حقه الوقوف على الميسرة كما هى عادة منازل نواب دمشق، مع أن الأمير يشـبك السّودونى أمير سـلاح ترشح للأتابكية و هو مجرد ببلاد الصـعيد، و أخرجت وظيفة إمرة سلاح عنه فى هذا اليوم، و لكن بغياب يشبك فالأتابكية شاغرة.

ثم خلع السلطان بحضرة آقبغا المذكور على الأمير تمراز [۱۰۹] القرمشى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۰۵

الأمير آخور الكبير باستقراره أمير سلاح عوضا عن يشبك السّودونى، و قد رشح يشبك للأتابكية عوضا عن آقبغا التّمرازى المذكور، و خلع على الأـمير قراخجا الحسـنى رأس نوبـة النـوب باسـتقراره أمير آخور كـبيرا عوضـا عن تمراز القرمشـى و هو يوم ذاك مقـدم العساكر؛ و أمر السـلطان ولده المقام الناصـرى محمدا بسـكنى الحرّاقة من باب السلسـلة، إلى أن يعود الأمير قراخجا الحسنى من سفره بالبلاد الشامية، و نزل تمراز القرمشى من باب السلسلة فى يومه.

و خلع السلطان على الأمير تغرى بردى البكلمشى المعروف بالمؤذى، حاجب الحجاب، باستقراره دوادارا كبيرا عوضا عن أركماس الظاهرى، و استقر الأمير تنبك البردبكى أمير حاج المحمل حاجب الحجاب، غير أنه لم يلبس خلعة الحجوبية فى هذا اليوم؛ ثم خلع السلطان على الأمير تمرباى التّمربغاوى المعزول عن نيابة الإسكندرية باستقراره رأس نوبة النّوب عوضا عن قراخجا الحسنى بحكم انتقاله أمير آخور؛ و تمرباى هذا أيضا ممن عيّن لسفر التجريدة.

ثم خلع السلطان على دولات باى المحمودى [الساقى المؤيدى] الأمير آخور الثانى باستقراره دوادارا ثانيا عوضا عن أسنبغا الطّيارى؛ و خلع السلطان على الأمير جرباش المحمدى كرد باستقراره أمير آخور ثانيا بعد دولات باى المؤيدى، فامتنع جرباش المذكور من قبول ذلك لكونه يلى الأمير آخورية الثانية عن دولات باى و هو أقل منه رتبة، حتى استعطفه السلطان و قرّره على رتبته، و نزل آقبغا و قراخجا و تمرباى- الجميع بخلعهم- إلى مخيمهم بالرّيدانيّة حسبما تقدم ذكره، ثم تبعتهم العساكر المجردة من المماليك السلطانية و أمراء الطّبلخانات و العشرات و غيرهم.

و فى هذا اليوم قدم الأمير يونس الرّكنى الأعور، أحد مقدمى الألوف

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۰۶

بدمشق، فارّا من إينال الجكمى، فأكرمه السلطان و أنعم عليه بزيادة جيدة على إقطاعه و تقدمته بدمشق.

و أقام آقبغا التّمرازى بالرّيدانية إلى يوم السبت ثانى عشر شوال، فرحل منها و استقل بالمسير إلى الشام.

و فى يوم السبت هذا نفى السلطان إمام الملك الأشرف نور الدين عليّا السويفى إلى دمياط.

ثم فى يوم الاثنين رابع عشر شوال رحل الأمير قراخجا الحسنى الأمير آخور الكبير، و الأمير تمرباى التّمربغاوى رأس نوبة النّوب بمن معهما من الأمراء و المماليك السلطانية من الرّيدانية إلى جهة الشام.

و فيه ورد الخبر على السلطان بأن إينال الجكمى برز بمخيمه من مدينة دمشق إلى ظاهرها، فلما كان يوم الخميس ثالث شوال المذكور، عزم هو على الخروج من المدينة بنفسه إلى مخيمه ليسير بمن معه إلى نحو الديار المصرية، فبينما هو فى ذلك ركب عليه الأمير قانى باى الأبوبكرىّ الناصرى البهلوان أتابك دمشق، و كان ممن وافق الجكمى على العصيان و حسّن له ذلك ثم تركه و مال إلى جهة السلطان، و ركب معه الأمير برسباى الناصرى حاجب الحجاب بدمشق و جميع أمراء دمشق و عساكرها، و لم يبق مع إينال من أعيان أمراء دمشق إلا جماعة يسيرة، مثل الأمير قنصوه النّوروزى أحد مقدمى الألوف بدمشق، و الأمير تنم العلائى المؤيدى الدوادار، أحد أمراء الطبلخانات بدمشق، و الأمير بيرم صوفى [أحد الطبلخاناة بدمشق أيضا] و الأمير مسروق أخو الملك الظاهر ططر، و جماعة أخر يسيرة جدا، أعيانهم من ذكرناه

فلما بلغ إينال الجكمى ركوب هؤلاء عليه، مال عليهم و قاتلهم، فلم يثبتوا له و انهزموا أقبح هزيمة، ثم تراجعوا فحمل عليهم فانكسروا و تمزقوا شذر مذر، و طلع

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۰۷

قانى باى البهلوان إلى قلعة دمشق فى جماعة كبيرة من الأمراء، و توجه غيرهم إلى عدة أماكن. و كان سبب مخالفة قانى باى و غيره لإينال الجكمى بعد موافقتهم له، أن السلطان أرسل ملطّفات إلى قانى باى المذكور و غيره من أمراء دمشق يستميلهم إليه، و وعدهم بأشياء كثيرة، فلما سمعوا ذلك مالوا إليه و تركوا ما كان بينهم و بين إينال الجكمى من العهود و المواثيق، و لم يستعيبوا ذلك لكون [أن] هذا الغدر صار عادة لمن تقدمهم.

و لما كتب السلطان الملطّفات المذكورة، أرسلها [۱۱۰] إلى الأمير خشكلدى السيفى يشبك بن أزدمر، و هو يوم ذاك نائب قلعه صفد، فبعث بها خشكلدى المذكور على يد نصرانى إلى بهاء الدين محمد بن حجى كاتب سر دمشق، ففرّقها بهاء الدين على أربابها، فحال ما وقفوا عليها مالوا بأجمعهم إلا من ذكرناه ممن ثبت مع إينال، و قالوا: نحن وافقناه، فلا نبرح عنه إلى الممات أو يقضى اللّه

أمرا كان مفعولا- و كان أكثر من وعد من أمراء دمشق الأمير سودون أخو مامش المؤيدى، و الأمير تنم العلائى المؤيدى من خجداشيهما المؤيدية، فلم يلتفتوا إلى كتبهم و استقبحوا الغدر و الخيانة، فلله درّهما.

و أنا أقول: أما طاعة السلطان فهى واجبة على كل أحد، و العصيان و مخالفة السلطان لا يجوز و لا يستحسن، لكن أيضا يقبح بالرجل أن يدخل إلى ملك و يحسّن له العصيان و الثّوران، و لا يزال به حتى يقع فى ذلك، بعد أن يعطيه العهود و المواثيق على موافقته و القيام بنصرته، ثم يتركه بعد تورطه و دخوله فى ذلك، لأجل النّزر اليسير من حطام الدنيا أو لتناوله ولاية من الولايات؛ و عندى أن هذا لا يقع

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۰۸

إلا من نذل ساقط [الهمة] و المروءة لا نخوة له، و الأنفس الكريمة تأبى ذلك و لو مستهم الضر، و الرجل الفحل هو الثابت على قوله، و المصرّ على طاعة سلطانه حفظا لدينه و دنياه، فإن لم يكن ذلك و أطاع شيطانه و ركب هواه، فليتمّ على ما قصده من ركوب الأهوال و اقتحام الخطوب و هجوم الحروب، فإما و إما؛ و ما أحسن قول عنترة فى ذلك حيث يقول: [الوافر]

أروم من المعالى منتهاها و لا أرضى بمنزلة دنيّه

فإمّا أن أشال على العوالى و إمّا أن توسّدنى المنيّه

فلما وصل هذا الخبر إلى السلطان، سرّ بذلك و دقت البشائر بالديار المصرية.

ثم ورد الخبر على السلطان من بلاد الصعيد أن الأمير يشبك أمير سلاح انتهى بمن معه من العساكر السلطانية فى طلب عرب هوّارة إلى مدينة إسنا، فلم يقع بهم، و أنه رجع بالعساكر إلى مدينة هوّ، فقدم عليه بها من المشايخ الصلحاء جماعة و معهم طائفة من مشايخ هوارة، راغبين فى [دخول] الطاعة [للسلطان] و حلفوا على ذلك، و أنه قدم عليهم بعد ذلك فى يوم الأحد سادس شوال طوغان الأشرفى الزّردكاش، أحد الدوادارية الصغار، و دعا العسكر إلى طاعة الملك العزيز و القيام بنصرته، و ذكر لهم أنه خرج من محبسه بقلعة الجبل و نزل إلى القاهرة، و اجتمع عليه جماعة من مماليك أبيه، و أنه رآه بعينه و وعده بالوثوب [معه] هو و خجداشيّته الأشرفية، و أنه أمره أن يختفى فاختفى حتى ينتظم أمره بعود مماليك أبيه من بلاد الصعيد، ثم حرّضهم

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۰۹

طوغان على ذلك فمال منهم طائفة و تخوفت طائفة، و اضطرب العسكر قليلا إلى أن اجتمع الجميع على طاعة السلطان بعد أمور صدرت، و حلفوا أنهم مقيمون على الطاعة، فدقت البشائر لذلك، و خلع على الواصل بهذا الخبر، و أجيب الأمير يشبك بالشكر، و بحمل طوغان المذكور فى الحديد.

و كان علم السلطان قبل ذلك بتوجّه طوغان المذكور إلى بلا الصعيد، و كتب إلى الأمير يشبك و إلى حكام الصعيد بحمله فى الحديد، ثم ورد الخبر بعد ذلك من الأمير يشبك بأنه نازل على مدينة أسيوط، و أن يونس الخاصّكى ورد عليه بمرسوم [شريف] يتضمن القبض على طوغان المذكور، و أن المماليك الأشرفية لم يمكّنوه من ذلك، فكثر قلق السلطان و الدولة لورود هذا الخبر و خشوا وقوع فتنة، ظنا من المماليك الأشرفية أنهم من هذا القبيل؛ و رسم السلطان فى هذا اليوم بخروج الأمير أركماس- المعزول عن الدوادارية قبل تاريخه- إلى ثغر دمياط بطّالا.

ثم أخذ السلطان و حواشيه فى الفحص عن الملك العزيز، و كبست عدة أماكن و قبض على جماعة من المماليك الأشرفية، و تزايد تحريض السلطان فى طلب العزيز، و قاسى الناس بسبب ذلك شدائد، و كثرت الأراجيف بخروج الأمير يشبك أمير سلاح و من معه من المماليك الأشرفية عن طاعة السلطان، و أنهم عادوا يريدون القاهرة، فمنعت المواكب من التعدية [۱۱۱] فى النيل بكثير من الناس المتّهمة بالخروج على السلطان، هذا مع عظم التفتيش على العزيز، و الكبس على البيوت و البساتين و التّرب، و غلقت بعض أبواب القاهرة نهارا، و أخذ أهل الدولة فى الاستعداد للحرب، هذا مع ما بالبلاد الشامية من الفتنة العظيمة من خروج نائب الشام و نائب

حلب، و صار السلطان فی هذه الأیام فی أشد ما یکون من القلق و التخوف؛ و تکلم الناس بزوال ملکه.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۱۰

فلما کان یوم السبت تاسع عشره برز أمیر حاجّ المحمل الأمیر تنبک بالمحمل، و بعد خروجه من القاهرة قدم الخبر بالقبض علی طوغان الزّردکاش و حمله فی الحدید؛ و وصل طوغان المذکور فی آخر النهار المذکور، و کان أشیع الخبر بمسکه قبل ذلک فلم یصدّقه أحد، استبعادا من تسلیم خجداشیّته له مع کثرتهم و شدة بأسهم.

و کان من خبر طوغان أنه لما نزل الملک العزیز من قلعة الجبل و اجتمع به و وعده بالقیام معه، توجه إلی الأمیر إینال الأبوبکریّ الأشرفی فلم یحصل منه علی طائل، فمضی هو و جماعة إلی خجداشیّتهم الأشرفیة و وعدهم بالوثوب علی الملک الظاهر و القیام بنصرة ابن أستاذهم، فأجاب منهم طائفة کبیرة، غیر أنهم اعتذروا بغیاب أعیانهم ببلاد الصعید فی التجریدة صحبة الأمیر یشبک، و أنهم فی قلة لأن معظمهم بالصعید، و طلبوا منه أن یرسل یعلم خجداشیّتهم بذلک، فلم یجد لأحد منهم قوة للتوجه فقام هو بذلک بعد أن تحقق منهم الوثوب؛ و خرج من القاهرة علی الهجن.

و بلغ السلطان خبره، فکتب بالقبض علیه فی الطریق فلم یدرکه أحد، و سار حتی وصل إلی خجداشیته و اجتمع بهم حسبما تقدم ذکره، غیر أنه أراد قضاء حاجته، فأملی لخجداشیته أخبارا فی حق العزیز غیر صحیحة یرید بذلک تمییز أمره، فمالوا إلی کلامه فورد علیهم بعد ذلک الأخبار من المسافرین و غیرهم بهروب إینال و اختفاء [الملک] العزیز، علی غیر ما قاله لهم طوغان، و أن الفحص علی [الملک] العزیز فی کل یوم مستمر، فعند ذلک اختلفت کلمتهم علی القیام بأمر العزیز، و علموا أن غالب کلام طوغان غیر صحیح.

هذا و الأمیر یشبک یستمیلهم إلی طاعة السلطان، و یخوّفهم عاقبة مخالفة السلطان، حتی أفضی به و بهم أن جمع علیه الکاشف بالوجه القبلی و عدة کبیرة من عربان الطاعة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۱۱

و همّ بمحاربتهم، فلم یکن لهم طاقة بمحاربته مع ما تبیّن لهم من فساد أمرهم و اختلاف کلام طوغان، فأسلموه بعد أن کانوا انقلبوا جمیعهم للخروج [معه]، و هو أن طوغان لما جدّ فی مسیره حتی وصل إلیهم، أعلمهم بأن [الملک] العزیز خرج من سجنه و نزل من القلعة، و اجتمع علیه خلائق من الأشرفیة و غیرهم، و أنه محاصر [للملک] الظاهر جقمق بقلعة الجبل، فهیّج هذا الکلام خواطرهم و تحرکت کوامنهم، و أجمعوا علی القیام بنصرة ابن أستاذهم، و مال إلیهم کل أحد حتی الأمیر یشبک فی الباطن.

و کادت الفتنة تقوم، و یظهر کل أحد المیل [للملک] العزیز، فترادفت کتب السلطان و القصّاد بغیر ما قاله طوغان، فتوقّفوا عما کانوا عزموا علیه. و لا زال أمر [الملک] العزیز یتضح لهم، حتی أسفرت القضیة علی أنه مختف، و أن إینال تسحّب، فعند ذلک رجع کل أحد عما کان فی ضمیره و أظهر طاعة السلطان، و أسلموا طوغان فقیّد و حمل إلی القاهرة.

و لما طلع طوغان إلی القلعة حبس بها و أجری علیه أنواع العقوبة و العذاب المتلف، و کسروا غالب أعضائه بالمعاصیر، و عوقب مع ثلاثة نفر من الخاصکیة فلم یقرّ أحد منهم علی غیر ما قاله طوغان، أن العزیز لما نزل من القلعة و معه إبراهیم الطباخ، وقف بمکان بالمصنع بالقرب من قلعة الجبل، و اجتمع عدة من الممالیک الأشرفیة- و سماهم- فکان غالبهم ممن لا یعرف، فأجمع رأیهم بأن یسیروا إلی الشام

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۱۲

بالعزیز، ثم انصرفوا عن هذا الرأی عجزا؛ و توجه طوغان لیأتی بالممالیک الأشرفیة من بلاد الصعید، فلما تحقق السلطان ذلک کفّ عن عقوبة طوغان بعد أن تلف و أخرجه فی یوم الثلاثاء ثانی عشرین شوال محمولا، لعجزه عن الحرکة من شدة العقوبة، و معه خیر بک الأشرفی و قد عوقب أیضا، و حملا إلی الرّمیلة عند باب المیدان، من تحت [۱۱۲] القلعة و وسّط طوغان هناک، و أعید خیر بک

من داخل القلعة ثم وسّط بعد أيام.

و كان أمر طوغان [هذا] من أعجب العجب، فإنه كان فى دولة أستاذه الأشرف زرد كاشا، فلما مات الأشرف، خالف خجداشيّته و انتمى إلى الملك الظاهر جقمق قبل سلطنته، مع الأمير إينال الأشرفى، و صار خصيصا عند الملك الظاهر، و ولاه دوادارا و صار مقرّبا عنده، ثم استحال عن السلطان و دبّر عليه، و أخرج الملك العزيز، و قام فى أمره من غير موافقة أحد من أعيان خجداشيته و لا مشاورة أحد من أرباب العقول، و لم يكن هو من هذا القبيل من سائر الوجوه، فكان من فعله و تدبيره ما ساقه إلى حتفه و تدميره، و كان طوغان المذكور طوالا غير لائق فى طوله، و عنده طيش و خفة، مع جهل و عدم تثبت فى أموره، و لم يكن من أعيان الأشرفية، و لا ممن يلتفت إليه فى الدولة- انتهى.

ثم فى يوم الأربعاء ثالث عشرين شوال قبض على سرّ النديم الحبشية دادة الملك العزيز بعد ما كبس عليها بعدة أماكن، و عوقب بسببها خلائق، فلم يعترضها السلطان بسوء بل قرّرها على الملك العزيز، فأعلمته أنه مختف بالقاهرة.

ثم قبض على صندل الطواشى و قرره السلطان أيضا، فقال كما قالت الدادة، فتحقق السلطان منهما أن [الملك] العزيز و إينال لم يخرجا من القاهرة، و أن الذى أشيع من خروجهما غير صحيح، و أن الملك العزيز لم يجتمع مع إينال البتة، و أنه كان هو و صندل هذا و طباخه إبراهيم و مشدّه أزدمر، من غير زيادة على ذلك، و الملك العزيز

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۱۳

ينتقل بهم من مكان إلى مكان، و أن صندلا فارقه من منذ أربعة أيام، و قد طرده أزدمر المذكور لأمر وقع بينهما، فلما قصد صندل مفارقتهم دفع له العزيز خمسين دينارا، ففارقهم صندل و صار يتردد إلى بيوت أصحابه فى زى امرأة، حتى دخل على بعض أصحابه من النسوة فى الليل فآوته حتى أصبح فدلّ عليه زوجها حتى أمسك و عوقب، حتى أقر على جميع ما ذكرناه، و أنه الآن لا يعرف مكان العزيز، فسجنه السلطان، و همّ بعقوبة الدادة فشفعت فيها خوند مغل بنت البارزى زوجة السلطان، و تسلمتها من السلطان من غير عقوبة و تمّت عندها.

فخفّ عن السلطان ما كان به قليلا من أمر الملك العزيز، فإنه كان [ظن] كلّ الظن أن إينال أخذه و توجه إلى إينال الجكمى بدمشق؛ ثم قبض على موضعة الملك العزيز و زوجها و على جماعة أخر من الرجال و النساء ممن كان من جوارى الأشرف و معارفهن، و ممن اتّهم بأنه معرفة أزدمر و إبراهيم الطباخ.

ثم فى يوم الخميس رابع عشرين شوال عزل السلطان الطّواشىّ فيروز الجاركسىّ عن الزمامية لكونه تهاون فى أمر [الملك] العزيز حتى تسحّب من الدور السلطانية، و عيّن السلطان عوضه زماما الطواشى جوهرا القنقبائى الخازندار، مضافا إلى الخازندارية.

و فى ليلة الجمعة و يوم الجمعة كبست المؤيدية على مواضع كثيرة بالقاهرة و ظواهرها، و مضوا إلى دور الصاحب أمين الدين إبراهيم بن الهيصم و كبسوا عليه و على جيرانه فى طلب الأمير إينال الأشرفى و الملك العزيز، فلم يجدوا أحدا و هرب الصاحب أمين الدين، ثم ظهر و خلع عليه بعد ذلك، و اشتد طلب السلطان على [الملك] العزيز، و هدد من أخفاه بأنواع العذاب و النّكال، فشمل الخوف غالب الناس.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۱۴

ثم فى يوم السبت سادس عشرين شوال خلع السلطان على جوهر الخازندار باستقراره زماما عوضا عن فيروز الجاركسى بحكم عزله مضافا للخازندارية، و الفحص على [الملك] العزيز مستمر فى كل يوم و ليلة، و قد دخل الناس من الرعب و الخوف ما لا مزيد عليه بسببه، إلى أن كشف اللّه هذا البلاء عن الناس، و قبض على الملك العزيز يوسف فى ليلة الأحد سابع عشرين شوال، و اطمأن كل أحد على نفسه و ماله بظهور [الملك] العزيز و القبض عليه.

و كان من خبر [الملك] العزيز أنه لما اشتد الطلب عليه ضاقت عليه الأرض، و كان له من يوم فرّ من القلعة و هو ينتقل من مكان إلى

مكان، لا [۱۱۳] سيما لما كثر الفحص عنه تخوّف غاية الخوف، حتى ألجأه ذلك إلى الانفراد مع أزدمر لا غير، ليخفّ بذلك أمرهما على من أخفاهما، و مع هذا تغلّبا أين يذهبان، و احتاج [الملك] العزيز أن أرسل إلى خاله الأمير بيبرس الأشرفى، أحد أمراء العشرات و رأس نوبة، بأنه يريد المجىء إليه فى الليل، و يختفى عنده على ما قيل، فواعده بيبرس على أن يأتيه ليلا.

ثم خاف بيبرس عاقبة أمره، فإنه كان [الملك] الظاهر جقمق اختص به، و أمّره دون إخوته و أكرمه غاية الإكرام، و رأى بيبرس أنه لا يحسن به أن يقبض عليه و يطلع به إلى السلطان، فأعلم جاره يلباى الإينالى المؤيدى أحد أمراء العشرات و رأس نوبة بمجىء [الملك] العزيز إليه فى الليلة المذكورة، و أعلمه أيضا أنه يمر من موضع كذا و كذا، فخرج يلباى فى الليل متنكرا، و معه اثنان من حجداشيّته

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۱۵

المؤيدية، و ترصّد للعزيز بخطّ زقاق حلب بعد عشاء الآخرة، و بينماهم فى ذلك إذ مرّ بهم العزيز و معه أزدمر مشدّه، و هما فى هيئة مغربيّين، فوثب يلباى بأزدمر ليقبض عليه فامتنع منه و دفع عن نفسه فضربه يلباى أدمى وجهه و أعانه عليه رفقته، حتى قبض عليه و على [الملك] العزيز.

و كان على [الملك] العزيز جبة صوف من لبس المغاربة، و طلعوا بهما فى الحال إلى باب السلسلة ثم إلى السلطان، و الملك العزيز حاف بغير نعل فى رجليه، و قد أخذه بعض المؤيدية بأطواقه يسحبه على ما قيل، فإنى لم أحضر المجلس تلك الساعة، فلما مثل العزيز بين يدى السلطان أوقف ساعة، ثم أمر به السلطان فأخذ إلى مكان فى القلعة و سجن به إلى أن أصبح، و طلع الأمراء و أرباب الدولة إلى الخدمة على العادة، و دقّت البشائر لقبض [الملك] العزيز، و سرّ السلطان بذلك سرورا عظيما، و خفّ عنه الأمر كثيرا بالنسبة إلى ما كان فيه.

ثم أخذ السلطان [الملك] العزيز و أدخله إلى زوجته خوند البارزيّة بقاعة العواميد، و أسلمها العزيز و أمرها أن تجعله فى المخدع المعسد لمبيت السلطان بالقاعة المذكورة، و أن تتولى أمر أكله و شربه و حاجاته بنفسها. فأقام العزيز على ذلك مدة إلى أن نقله السلطان فى ليلة الأربعاء ثامن ذى القعدة إلى مكان بالحوش و ضيّق عليه، و منع من جميع خدمه، ثم سيّره إلى سجن الإسكندرية، حسبما يأتى ذكره.

و أمر السلطان بأزدمر فسجن بالبرج من قلعة الجبل، مع جماعة من خجداشيّته الأشرفية. و وجد مع الملك العزيز من الذهب ثمانمائة دينار، أعطى السلطان منها إلى يلباى خمسمائة دينار، و إلى رفيقيه مائة دينار، ثم فرّق الباقى من ذلك على من حضر؛

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۱۶

ثم أنعم السلطان على يلباى المذكور بقرية [سرياقوس] زيادة على ما بيده، و صار من جملة أمراء الطبلخانات. و هدأ سرّ السلطان من جهة [الملك] العزيز، و التفت إلى أخبار إينال الجكمى، و تغرى برمش.

ثم فى يوم الثلاثاء تاسع عشرينه، ظهر الأمير إينال الأبوبكرىّ الأشرفى من اختفائه، و كان من خبره أنه من يوم تسحّب [الملك] العزيز خاف القبض عليه، فاختفى إلى أن ظهر [الملك] العزيز فخفّ عنه ما داخله من الوهم بسبب الملك العزيز، و قد علم أن السلطان ظهر له أنه لم يجتمع مع [الملك] العزيز و لا قام بنصرته، و أن اختفاءه كان نوعا من مهابة السلطان، فلما كان ليلة الثلاثاء المذكورة توجّه إلى الأمير جرباش الكريمى المعروف بقاشق أمير مجلس، و ترامى عليه و استجار به و هو يظن أن فى السّويداء رجالا، فأجاره و هو يظن أن السلطان يقبل شفاعته.

و كان معظم ظهور إينال [المذكور] لما بلغه من اختفائه [عن السلطان من الثناء عليه و بسط عذره فى اختفائه] و أنه باختفائه سكنت الفتنة، فغرّه هذا الكلام، و أيضا أنه استند للأمير جرباش أمير مجلس و خجداش السلطان، فأخذه الأمير جرباش من الغد فى يوم الثلاثاء المذكور و طلع إلى القلعة. و قد بلغ السلطان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۱۷

خبر إينال و ظهوره ثم طلوعه مع جرباش، فحال ما وقع بصر السلطان على إينال أمر به فقبض عليه، و قيّد و سجن بمكان بالقلعة حتى يحمل إلى الإسكندرية؛ هذا و الأمير جرباش يكرر تقبيل يد السلطان و رجله فى أن يشفّعه فيه و يدعه بطّالا ببعض الثغور فلم يلتفت السلطان إلى شفاعته، و نزل جرباش إلى داره خجلا مفضوحا من حاشيته و أصحابه، و من يومئذ انحطّ قدره [۱۱۴] إلى أن مات. على أنه صاهر السلطان بعد ذلك و صار حماه، و مع هذا كله لم يكن له صولة فى الدولة، و أخرج السلطان إينال من يومه إلى سجن الإسكندرية، و بها أعداؤه من خجداشيّته، فكان شماتتهم [به] أعظم عليه من حبسه.

و أخذ السلطان بعد ذلك يتشوّف إلى أخبار عسكره المجرّد إلى قتال إينال الجكمى و غيره، فلما كان يوم الأربعاء ثامن ذى القعدة ورد على السلطان كتاب الأمير آلابغا حاجب غزة يتضمن قتال عسكر السلطان مع إينال الجكمى نائب الشام، فى يوم الأربعاء مستهل ذى القعدة، و انهزام إينال الجكمى، فأخذت الناس فى هذا الخبر و أعطوا، غير أنه دقت البشائر و سرّ السلطان بذلك.

ثم أصبح من الغد فى يوم الخميس [ورد] الخبر بمسك إينال الجكمى، فدقت البشائر أيضا، غير أن السلطان فى انتظار كتاب آقبغا التّمرازى، فورد عليه كتابه فى يوم الجمعة عاشر ذى القعدة، و ذكر واقعة العسكر مع إينال الجكمى، و ملخصها أن العساكر السلطانية المتوجهة من الديار المصرية و المتجمعة بالرّملة من النواب و العساكر، ساروا جميعا من الرملة أمام الأمير قراخجا الحسنى، و من معه من الأمراء و المماليك السلطانية، كالجاليش، لكن بالقرب منهم، حتى نزلوا بمنزلة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۱۸

الخربة فى يوم الأربعاء مستهل ذى القعدة و قد قدموا بين أيديهم كشافة على عادة العساكر، فعادت الكشافة و أخبروا بقرب إينال الجكمى منهم، فركبوا فى الحال بعد أن عبّوا أطلابهم، و هم ستة نواب: آقبغا التّمرازى نائب الشام، و جلبان الذى استقر نائب حلب، و إينال العلائى نائب صفد- أعنى الملك الأشرف- و طوخ مازى نائب غزة، و طوغان العثمانى نائب القدس، و خليل بن شاهين، و قد استقر نائب ملطية.

و ساروا بمن اجتمع عليهم من العشير و العربان جاليشا، حتى وصلوا إلى مضيق قرب الحرة، و إذا بجاليش إينال الجكمى فيه الأمير قانصوه النّوروزى أحد مقدمى الألوف بدمشق، و نائب بعلبكّ، و كاشف حوران، و محمد الأسود بن القاق شيخ العشير، و ير على الدّكرى أمير التركمان، و طر على بن سقل سيز التركمانى، و كثير من العربان و العشير، و الجميع دون الألف فارس، و صدموا النواب المذكورة فكانت بينهم وقعة كبيرة، انهزم فيها الأطلاب الستة بعد أن أردفهم إينال الجكمى بنفسه، و ركب أقفية القوم، و كان من الشجعان المشهورة، إلى أن أوصلهم إلى السّنجق السلطانى، و تحته الأمير قراخجا الحسنى الأمير آخور، و الأمير تمرباى رأس نوبة النوب بمن معهما من الأمراء و العساكر المصرية، و السنجق بيد الأمير سودون العجمى النّوروزى أحد أمراء العشرات و رأس نوبة؛ و قد تخلت عن إينال أصحابه و مدوا أيديهم إلى النهب فى أطلاب النواب لما انهزموا أمام العسكر الشامى.

و بقى إينال فى أناس قليلة، فحطّ بهم على العسكر المصرى، فثبتوا له و قاتلوه ساعة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۱۹

و قد تفرقت عنه أصحابه بسبب النهب فلم يجد مساعدا، فانهزم بعد أن قتل من الفريقين جماعة كبيرة جدا، و لم يقتل من الأعيان غير الأمير صرغتمش أحد مماليك الوالد، الذى كان دوادار الأمير جلبان، ثم استقر دوادار السلطان بحلب، و جرح خلق كثير، و قبض فى الوقعة على الأمير تنم العلائى المؤيدى، و على الأمير بيرم صوفى التركمانى، و على الأمير خير بك القوامى و محمد بن قانصوه النّوروزى و جماعة أخر. و حال بينهم الليل، فلما أصبح العسكر يوم الخميس ثانى ذى القعدة ورد الخبر عليهم من دمشق بالقبض على إينال الجكمى من قرية حرستا من عمل دمشق فدقت البشائر لذلك، و تفرقت أخصاء السلطان للأعيان بالبشارة، و زال ثلثا ما كان بالسلطان من أمر [الملك] العزيز و إينال، و بقى تغرى برمش.

و كان من خبر مسك إينال الجكمى أنه لما انكسر من العسكر المصرى، ساق فى نفر يسير إلى أن وصل حرستا و قد تلفت خيوله

لبعد المسافة، و نزل بها و قد جهده التعب و الجوع، و اختفى بها فى مزرعة، و أرسل بعض خدمه ليأتيه بطعام، ففطن به رجل و عرّف شيخ البلد، فأرسل شيخ البلد إلى نائب قلعة دمشق بالخبر، فخرج من دمشق فى طلبه جانبك دوادار [۱۱۵] برسباى حاجب حجاب دمشق، و معه جماعة أخر؛ و طرقوه بالقرية على حين غفلة، فقام و دفع عن نفسه بكل ما تصل قدرته إليه، فتكاثروا عليه و طعنه بعضهم فى جنبه، و رماه آخر أصاب وجهه، ثم مسكوه و جىء به إلى دمشق على فرسه، و قد وقف الفرس من العىّ فلم يصل إلى قلعة دمشق إلا بعد العصر، و الناس فى جموع كثيرة لرؤيته ما بين باك و حزين، و سجن بقلعة دمشق مقيّدا، و أصبح دخل آقبغا التّمرازى إلى دمشق فى باكر نهار الجمعه ثالث ذى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۲۰

القعدة، و معه العساكر بسلاحهم و نزل بدار السعادة؛ و لم يبتهج أهل دمشق بقدومه لعظم ميلهم لإينال الجكمى، و إن كان آقبغا المذكور صهرى فالواقع ما ذكرناه.

و مع هذا وقع يوم دخوله إلى دمشق حادثة غريبة، و هى أن بلبان شيخ كرك نوح، و اسمه محمد و ولده محمد أيضا، قدما إلى دمشق بجموعهما من العشير نصرة لعساكر السلطان، و بلبان المذكور فلاح الأمير برسباى الحاجب، كأكابر المدرّكين، فلم يصل بلبان المذكور حتى انقضت الوقعة، فتأسف على ذلك لما كان بينه و بين إينال الجكمى من المباينة مراعاة لأستاذه برسباى المذكور، فعاد إلى دمشق فى خدمة آقبغا التّمرازى، إلى أن دخل التّمرازى إلى دار السعادة و ذهب كل أمير إلى حال سبيله.

فعاد بلبان المذكور فيمن عاد، حتى كان عند المصلى و العامه قد ملأت الطرقات و هم فى كآبة لفقد إينال الجكمى و لما وقع له، فصاح شخص من العامة بواحد من العشير من أعوان بلبان يقول: «أبا بكر! أبا بكر!»، و تبعه غيره يكررون ذلك مرارا عديدة يريدون نكاية بلبان، فإنهم يرمون بالرّفض. فلما كثر ذلك من

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۲۱

العامة، ضرب بعض العشير واحدا من العامة، فعند ذلك تجمعوا عليه و أرموه عن فرسه ليقتلوه، فاجتمع أصحابه ليخلصوه من العامة، و قبل أن يخلصوه بادره العامة و ذبحوه، و تناولوا الحجارة يرمون بها بلبان و أعوانه، و كانوا فى كثرة نحو الخمسمائة نفر و أكثر، فتوغل بلبان بين أصحابه و لم يقدر أن يفوز بنفسه، فتكاثروا عليه و ألقوه إلى الأرض عن فرسه و ذبحوه، ثم أخذوا ابنه محمدا أيضا و ذبحوه، و وضعوا أيديهم فى أصحاب بلبان إلى أن أسرفوا فى القتل، و لم يكن لذلك سبب و لا- دسيسة من أحد و لا- أمر من السلطان، فوقع هذا الأمر و لم يقدر أحد على القيام بأخذ ثأره لاضطراب المملكة، و راحت على من راحت إلى يومنا هذا. قلت: لا جرم، إنما وقع له ببركة الشيخين، فقوصص بذلك فى الدنيا، و له فى الأخرى أعظم قصاص، نكالا من اللّه على رفضه، و قبح سريرته.

ثم فى يوم الأحد ثانى عشر ذى القعدة، كتب بقتل إينال الجكمى بسجنه بقلعة دمشق، بعد تقريره على أمواله و ذخائره، و بقتل جماعة من أصحابه ممن قبض عليه فى الوقعة، و فى هذه الأيام رسم السلطان بعقوبة جكم خال [الملك] العزيز بسجنه بالإسكندرية، حتى يعترف بمتحصل [الملك] العزيز فى أيام أبيه، من إقطاعه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۲۲

و حماياته و مستأجراته، فأجابهم عن ذلك كله؛ و كان السلطان استولى على جميع ما للعزيز عند جدته لأمه من المال و القماش و الفصوص، و كان شيئا كثيرا. و أمر السلطان أيضا بعقوبة يخشباى الأمير آخور الثانى، بسجن الإسكندرية أيضا، بعد أن أراد السلطان قتله بحكم الشرع، من كونه سبّ شريفا ببلاد الصعيد فى أيام أستاذه الملك الأشرف؛ فبادر يخشباى حتى حكم قاض شافعى بحقن دمه، و وقع بسبب ذلك أمور، و عقد مجالس بالقضاة و الفقهاء، ذكر ذلك كلّه فى الحوادث، و لما وقع اليأس من قتله، رسم بعقوبته حتى يعترف بما له من الأموال، فعوقب أشدّ عقوبة بحيث أنه لم يبق إلا موته.

ثم قدم الخبر على السلطان، بأن العساكر توجهت من دمشق، فى حادى عشر ذى القعدة إلى حلب، بعد أن عاد طوغان نائب القدس،

إلى القـدس، و تـأخر آقبغـا التّمرازى نائب الشام [به]، و كان الـذى توجّه من النواب إلى حلب صـحبة العساكر المصـرية، جلبان نائب حلب و قـانى بـاى الحمزاوى نائب طرابلس، و هو إلى الآن بحماة، غير أنه تهيأ للاجتماع بالعساكر [۱۱۶] المصرية و عنده أيضا الأمير بردبك العجمى، الذى استقر فى نيابة حماة، و قد قدّمه إلى حلب؛ و سار من النواب أيضا، الأمير إينال العلائى الناصرى نائب صفد، و الأمير طوخ مازى نائب غزة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۲۳

و قـدم الخبر أيضـا أنه قبض بـدمشق على يرعلى الـدّكرى و شـنق، و أن تغرى برمش نائب حلب كان نزل على حلب و صـحبته الأمير طرعلى بن سـقل سـيز، و الأمير على باى بار بن إينال بجمائعهما من التركمان، و الأمير غادر بن نعير بعربه من آل مهنّا، و الأمير فرج و إبراهيم ولـدا صوجى، و الأمير محمود ابن الـدّكرى أيضا بجمائعهم من التركمان، و عـدة الجميع نحو ثلاثـة آلاف فارس، و أن تغرى برمش خيمّ بالجوهرى و بعث بعـدة كبيرة إلى خارج باب المقام، فخرج إليه الأمير بردبك العجمى، الـذى ولى نيابـة حماة، و قـد قدم حلب من أيام، و معه جماعة من أمراء حلب و من تركمان الطاعة، و من العامة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة؛ ج۱۵؛ ص۳۲۳

انت بينهم وقعـة هائلـة، قتل فيها و جرح جماعة كثيرة من الفريقين، و عاد كل منهما إلى مكانه، ثم التقى الجمعان ثانيا فى يوم الجمعة خامس عشـرين شوال على باب النّيرب و اقتتلوا يوما و ليلـة قتالا شديدا، قتل فيه عدة كبيرة من الناس، و جرح نائب حماة، و طائفة من أمراء حلب، ثم رجع كل فريق إلى موضـعه، و رحل تغرى برمش من موضـعه فى يوم الأحـد سابع عشـرينه، و نزل بالميدان، و الحرب مستمر، و العامـة تبـذل جهـدها فى قتـاله، إلى أن كـان يوم الخميس ثانى ذى القعـدة أحضـر تغرى برمش آلات الحصار من مكاحل النّفط و السلالم و الجنويّات إلى باب الفرج، و نصب صيوانه تجاه سور حلب، و جدّ فى قتال الحلبيين.

هذا و أهل حلب يد واحدة على قتاله طول النهار مع ليلة الجمعة بطولها، و أهل حلب يتضـرعون و يدعون اللّه تعالى، فلما أصـبح نهار الجمعة، رحل تغرى برمش عن مكانه، و عاد إلى الميدان، بعد أن كانت القضاة و شيوخ العلم و الصلاح، وقفوا بالمصاحف و الرّبعات

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۲۴

على رؤوسـهم، و هم ينادون من فوق الأسوار: «الغزاة معاشـر الناس فى العـدو، فإنه من قتل منكم كان فى الجنـة، و من قتل من العـدو صار إلى النار»، فى كلام كثير يحرضون بـذلك العامـة على القتال، و يقوون عزائمهم على الثبات، إلى أن رحل تغرى برمش بمن معه من الميدان إلى الجهة الشمالية، فى يوم الأحد خامس ذى القعدة، بعد ما رعت مواشيهم زروع الناس و بساتينهم و كرومهم، و قطعوها و نهبوا القرى التى حول المدينـة، و أخربوا غـالب العمارات التى كانت خارج سور حلب، و قطعوا القناة التى تـدخل إلى مدينـة حلب من ثلاثـة أماكن، و كان أشـدّ الناس فى قتال تغرى برمش، أهل بانقوسا، هـذا بعد أن ظفر تغرى برمش بجماعة من الحلبيين فى بعض قتاله، فقطع أيدى الجميع، و بالغ فى الإضـرار بالناس، و أنا أقول: لو كان لتغرى برمش على أهل حلب دولة، لفعل فيهم أعظم من فعل تيمور لنك، لقلة دينه و جبروته و لحنقه من أهل حلب، و أنا أعرف بحاله من غيرى لكونه طالت أيامه فى خدمة الوالد سـنين، ثم قتل أغاته من مماليك الوالد، و فر كما سنحكيه فى وفاته من هذا الكتاب إن شاء اللّه تعالى.

و لما بلغ هـذا الخبر الملك الظاهر، قلق قلقا عظيما لما وقع لرعيته من أهل حلب، فلم يكن إلا أياما قليلـة [و] قدم الخبر فى يوم السـبت خامس عشـرين ذى القعدة، بكسـرة تغرى برمش المذكور، فدقت البشائر لذلك، و عظم سرور السلطان، غير أنه تشوّش لعدم مسكه و خاف عاقبة أمره. و كان من خبره أن العسكر المصرى بمن معه من العسكر الشامى، لما ساروا من دمشق إلى جهة حلب، وافاهم الأمير قـانى بـاى الحمزاوى و غيره و صـاروا جمعـا واحـدا، فلقيهم تغرى برمش المـذكور بجموعه، التى كـانت معه قريبـا من حماة، فى يوم الجمعة سابع عشر ذى القعدة، و قد صفّ عساكره من التركمان و غيرهم،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۲۵

حتی ملأوا الفضاء، فحال ما وقع [بصر] عسکره علی العساکر السلطانیة، أخذوا فی الانهزام من غیر مصافقة، بل بعض تناوش من صغار الطائفتین، و ولوا الأدبار.

و مدت العساکر السلطانیة أیدیها إلی عساکر تغری برمش، فغنموا منهم غنائم لا تحصی کثرة، منها نحو المائتی ألف رأس [۱۱۷] من الغنم، سوی ما تمزق، و نهب جمیع و طاق تغری برمش و ماله، و انهزم هو فی جماعة یسیرة من خواصه إلی جهة الترکمان الصّوجیّة، علی ما نذکره من قصته فی ذی الحجة من هذه السنة.

ثم فی یوم الاثنین سابع عشرین ذی القعدة، قدم النّجلب برأس الأمیر إینال الجکمی، و کان قتله بقلعة دمشق فی لیلة الاثنین عشرین ذی القعدة، فشهرت الرأس علی رمح، و نودی علیه: «هذا جزاء من حارب اللّه و رسوله»، ثم علقت علی باب زویلة، و قتل معه الأمیر تنم العلائی المؤیدی، و کان تنم المذکور أدوبا حشما وقورا، و أما إینال الجکمی فیأتی التعریف بحاله فی الوفیات علی العادة.

و فی هذه الأیام، حکم بقتل الأمیر یخشبای الأشرفی الأمیر آخور الثانی، و قد تقدم أنه ادّعی علیه أنه سبّ شریفا، و لعن والدیه، و أن بعض نواب الشافعی حکم بحقن دمه، و سکن الحال مدة أشهر، ثم طلب السلطان من القاضی المالکی قتله؛ فاحتج بحکم الشافعی بحقن دمه، فعورض بأن المطلوب الآن من الدعوی علیه غیر المحکوم فیه بحقن الدم، فصمم المالکی بأنهما قضیة واحدة، و وافقه غیر واحد من المالکیة؛ و وقع أمور حکاها غیر واحد من المؤرخین، إلی أن قتل یخشبای المذکور حسبما یأتی ذکره.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۲۶

ثم ورد علی السلطان فی یوم الأحد ثالث ذی الحجة، مطالعة الأمیر جلبان نائب حلب، و قرینها مطالعات بقیة الأمراء و النواب، تتضمن أن تغری برمش، لما انهزم علی حماة، مضی نحو الجبل الأقرع و قد فارقه الغادر بن نعیر، فقبض علیه أحمد و قاسم ولدا صوجی، و قبض معه علی دواداره کمشبغا، و خازنداره یونس، و علی الأمیر طرعلی بن سقل سیز و الأمیر صارم الدین إبراهیم بن الهذبانی نائب قلعة صهیون، و کتبوا بذلک إلی نائب حلب، فورد الخبر بذلک علی العسکر، و هم علی خان طومان، فی یوم الاثنین العشرین من ذی القعدة.

فجهز الأمیر جلبان عند ذلک الأمیر بردبک العجمی نائب حماة، و الأمیر إینال العلائی نائب صفد، و الأمیر طوخ مازی نائب غزة، و الأمیر قطج أتابک حلب، و الأمیر سودون النّوروزی حاجب حجاب حلب، لإحضار المذکورین، و رحل جلبان بمن بقی معه [یرید حلب، فدخلها فی یوم الثلاثاء حادی عشرین ذی القعدة المذکورة، و سار بردبک العجمی نائب حماة بمن معه] إلی أن تسلّم تغری برمش و من ذکرنا ممن قبض علیه من أصحابه و أتوا بهم، فسمّر طر علی بن سقل سیز تسمیر سلامة، و سمّر الهذبانی و رفقته تسمیر عطب، و ساروا بهم، و تغری برمش راکب علی فرس بقید حدید، حتی دخلوا به مدینة حلب، و هو ینادی علیهم فی یوم الخمیس ثالث عشرینه، و قد اجتمع من أعدائه الحلبیین خلائق لا یعلم عدتها إلا اللّه، و هم من التّخلیق بالزعفران و التهانئ، فی أمر کبیر، و صاروا یسمعون تغری برمش المذکور، من المکروه و السّب و التوبخ و إظهار الشماتة به أمورا کثیرة، حتی أوقفوهم تحت قلعة حلب، و وسّط الهذبانی و رفیقه، و تسلّم تغری برمش و طرعلی الأمیر حطط نائب قلعة حلب.

فانظر إلی هذا القصاص، و هو أن تغری برمش لم یکن له فی الدنیا عدو أعظم من بردبک العجمی و حطط، ثم عامة حلب، و قد تمکّن الثلاثة منه، فأما بردبک فإنه

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۲۷

تسلّمه و تحکم فیه [من وقت أخذه من أولاد صوجی إلی أن أوصله إلی قلعة حلب، و أما حطط فإنه تحکم فیه] من وقت تسلمه من بردبک العجمی إلی أن قتل بین یدیه؛ و أما عامة أهل حلب فإنهم بلغوا منه مرادهم من إسماعه المکروه و الشماتة به، و التفرج علیه یوم قتله، فنعوذ باللّه من زوال النعم و شماتة الأعداء.

و أما السلطان الملک الظاهر، فإنه لما بلغه القبض علی تغری برمش، کاد أن یطیر فرحا، و علم أنه الآن بقی فی السلطنة بغیر نکد و لا

تشويش، و دقت البشائر لذلك ثلاثة أيام، و كتب بقتل تغرى برمش بعد عقوبته ليقرّ على أمواله، فعوقب، فأقرّ على شيء من ماله، نحو الخمسين ألف دينار، ثم أنزل و نودى عليه إلى تحت قلعة حلب، و ضربت عنقه، و قتل معه أيضا طر على بن سقل سيز، و صفا الوقت للملك الظاهر، و خلاله الجو من غير منازع؛ و التفت الآن إلى من له عنده رأس قديمة يكافئه عليها من خير و شر.

فأول ما بدأ به فى يوم الخميس ثامن عشرين ذى الحجة، أن قبض على زين الدين عبد الباسط بن خليل الدمشقى ناظر الجيش [۱۱۸] و على مملوكه جانبك الأستادار، و على عدة كبيرة من حواشيه، و أحيط بدور الجميع، و كتب بإيقاع الحوطة على جميع ماله بالشام و الحجاز و الإسكندرية، فزال بمسكه غمة كبيرة عن الناس، فإنه كان غير محبب للناس حتى و لا إلى أصحابه، لبادرة كانت فيه، و سوء خلق و بطن مع سفه و بذاءة لسان.

ثم فى يوم السبت سلخ ذى الحجة من سنة اثنتين و أربعين، خلع السلطان على القاضى محب الدين بن الأشقر باستقراره فى وظيفة نظر الجيش، عوضا عن عبد الباسط، و خلع على الناصرى محمد بن عبد الرازق بن أبى الفرج، نقيب الجيش، باستقراره

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۲۸

أستادارا عوضا عن جانبك الزينى عبد الباسط. و ابن الأشقر المذكور و ابن أبى الفرج، كل منهما كان من أعظم أصحاب عبد الباسط. قلت: عود و انعطاف على ما ذكرناه، أنه كان يكرهه حتى أعزّ أصحابه، و لو لا ذاك ما وليا عنه هؤلاء وظائفه فى حياته، و إن كانا تمنّعا عند الولاية، فهذا باب تجمل ليس على حقيقته، و لا يخفى ذلك على من له ذوق سليم، فإننا لا نعرف أحدا ولى وظيفة غصبا كائنا من كان.

و فى يوم السبت [المذكور] قدم رأس تغرى برمش، فطيف بها، ثم علقت على باب زويلة أياما.

و فرغت هذه السنة، أعنى سنة اثنتين و أربعين و ثمانمائة، بعد أن كان فيها حوادث كثيرة، و عدة وقائع حسبما ذكرناه.

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۴۳]

و استهلت سنة ثلاث و أربعين و ثمانمائة و السلطان مصمم على أنه لا يقنع منه بأقل من ألف ألف دينار، و يهدده بالعقوبة، و يعدّد له ذنوبه، حتى قال فى بعض مجالسه بحضرتى: و اللّه أشنكله بشنكال، مثلما كانت تعمل الجغتية، هذا أخرب مملكة مصر، كان إذا كلمه [أحد من] أعيان الأمراء صفرّ له بفمه فى وجهه؛ و أشياء كثيرة من ذلك.

ثم فى يوم الاثنين ثانى محرم سنة ثلاث و أربعين، خلع السلطان على القاضى ولى الدين محمد السّفطى مفتى دار العدل، و أحد ندماء السلطان و خواصه، باستقراره فى نظر الكسوة مضافا لما بيده من وكالة بيت المال، فإن شرط الواقف أن يكون وكيل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۲۹

بيت المال ناظر الكسوة، عوضا عن عبد الباسط، قلت: و ولىّ الدين أيضا كان من أصحابه.

ثم خلع السلطان على فتح الدين محمد بن المحرقى، باستقراره ناظر الجوالى، عوضا عن عبد الباسط؛ و كان فتح الدين المذكور من حواشى [الملك] الظاهر أيضا.

ثم فى يوم الأربعاء حادى عشر المحرم أفرج عن جانبك الزينى عبد الباسط، بعد أن حوسب فى بيت تغرى بردى المؤذى الدوادار الكبير، و قد شطّب عليه بمبلغ ألف ألف درهم و ثلاثمائة ألف درهم، وجبت عليه للديوان، و ذلك سوى العشرة آلاف دينار، التى ألزم بها.

[ثم] فى سلخ المحرم، قدم الأمير يشبك السّودونى أمير سلاح من بلاد الصعيد بمن معه من المماليك الأشرفية و غيرهم، فخلع السلطان عليه باستقراره أتابك العساكر بالديار المصرية، عوضا عن آقبغا التّمرازى بحكم انتقاله إلى نيابة دمشق، و كان يشبك أنعم عليه بالإقطاع و الوظيفة من يوم ذاك، غير أنه كان غائبا ببلاد الصعيد هذه المدة الطويلة، فلما حضر خلع عليه بالأتابكية.

ثم فی یوم الاثنین أول صفر، قدم الأمیر قانی بای الأبوبکریّ الناصری المعروف بالبهلوان، أتابک دمشق، إلی القاهرة، و خلع السلطان علیه باستقراره فی نیابة صفد، عوضا عن الأمیر إینال العلائی الناصری بحکم عزل إینال المذکور، و استقراره من جملة مقدمی الألوف بدیار مصر، و رسم باستقرار الأمیر إینال الششمانی الناصری أحد مقدمی الألوف بدمشق، فی الأتابکیة، عوضا عن قانی بای البهلوان.

ثم فی یوم السبت سادس صفر، قدم إلی القاهرة الأمراء المجردون إلی الشام یمن

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۳۰

معهم من الممالیک السلطانیة، فخلع السلطان علی الأمیر قرا خجا الحسنی الأمیر آخور، و علی الأمیر تمربای التّمربغاوی رأس نوبة النوب، و علی جمیع من بقی من رفقتهما من أمراء الطبلخانات و العشرات؛ و سکن قراخجا بباب السلسلة.

و فی هذه الأیام غضب السلطان علی عبد الباسط و نقله فی یوم الخمیس حادی عشر صفر، من المقعد الذی علی باب الهجرة، المطل علی الحوش من قلعة الجبل، إلی البرج عند باب القلعة، و کان سبب ذلک أنه من یوم حبسه السلطان لم یهنه بضرب و لا عقوبة، و الناس تتردد إلیه، و هو مطالبه بألف ألف دینار، و قد تکلم [۱۱۹] بینه و بین السلطان المقرّ الکمالی محمد بن البارزی صهر السلطان، و کاتب سره، و راجع السلطان فی أمره مرارا عدیدة، و عبد الباسط یورد للسلطان من أثمان ما یباع له، حتی وقف طلب السلطان بعد عنایة ابن البارزی به، علی أربعمائة ألف دینار، و أبی السلطان أن یضع عنه منها شیئا، و عبد الباسط یرید أن یحطّ عنه من ذلک شیئا آخر، و ترامی علی ابن البارزی المذکور و اعترف بالتقصیر فی حقه فی الدولة الأشرفیة، فلم یحوجه ابن البارزی لذلک، بل شمّر ساعدا طویلا لمساعدته، حتی صار أمره إلی هنا بغیر عقوبة و لا إهانة.

فلما کان یوم الخمیس المذکور، تکلم مع السلطان ابن البارزی و جماعة کبیرة من أعیان الدولة، فی أمر عبد الباسط، و سألوه الحطیطة من الأربعمائة ألف دینار،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۳۱

فغضب السلطان من ذلک، و أمر به فأخرج إلی البرج علی حالة غیر مرضیة، و مضی من المقعد ماشیا إلی البرج المذکور، و سجنوه به، و رسم السلطان له أن یدفع للمرسّمین علیه، لمّا کان بالمقعد، و هم ثمانیة من الخاصّکیة، مبلغ ألفی دینار و مائتی دینار، و دفعها لهم. و بینما هو فی ذلک، دخل علیه الوالی و أمره أن یقلع جمیع ما علیه من الثیاب، فإنه نقل للسلطان أن معه الاسم الأعظم أو أنه یسحر السلطان، فإنه [کان] کلما أراد عقوبته صرفه اللّه عنه، فخلع جمیع ما کان علیه من الثیاب و العمامة، و مضی بها الوالی و بما فی أصابع یدیه من الخواتم، فوجد فی عمامته قطعة أدیم، ذکر أنها من نعل النبی صلی اللّه علیه و سلم، ثم وجدت فی عمامته أوراق فیها أدعیة و نحوها، و أخذ المقرّ الکمالی فی القیام معه، حتی کان من أمره ما سنذکره.

ثم فی یوم السبت ثالث عشر صفر، قدم الأمیر إینال العلائی الناصری المعزول عن نیابة صفد، و قد استقر من جملة مقدمی الألوف بالدیار المصریة، و قدم معه الأمیر طوغان العثمانی نائب الندس، و الأمیر طوخ الأبوبکریّ المؤیدی أتابک غزة، و قد صار من جملة مقدمی الألوف بدمشق، علی إقطاع مغلبای الجقمقی بعد القبض علیه، و خلع السلطان علی الجمیع و أرکبوا خیولا بقماش ذهب.

ثم فی رابع عشر صفر، رسم السلطان بإحضار الأمراء المسجونین و غیرهم بثغر الإسکندریة، إلی مدینة بلبیس، لیحملوا إلی الحبوس بالبلاد الشامیة. و ندب الأمیر أسنبغا الطّیّاری أحد أمراء الألوف بالدیار المصریة، لإحضارهم، و هم: الأمیر جانم أخو الأشرف الأمیر آخور، و إینال الأبوبکریّ الأشرفی، و علی بای شادّ الشراب خاناة الأشرفی، و أزبک السیفی قانی بای رأس نوبة المعروف بجحا، و جکم الخازندار خال العزیز، و جرباش، و جانبک قلق سیز، و من الخاصّکیة: تنم الساقی، و بیبرس الساقی، و یشبک الدوادار، و أزبک البواب، و بایزیر خال العزیز، و جمیع هؤلاء

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۳۲

أشرفیة؛ و تنبک الإینالی المؤیدی الفیسی، و بیرم خجا الناصری أمیر مشوی، و جماعة أخر لم یحضرنی الآن أسماؤهم، و لم یبق

بسجن الإسكندرية سوى الأمير قراجا الأشرفى، أحد مقدمى الألوف كان؛ و خرج الأمير أسنبغا من يومه.

و فى هـذا اليوم سـافر الأمير قانى باى البهلوان نائب صـفد إلى محل كفالته بها، بعـدما أنعم السـلطان عليه بمال جزيل، و سافر الطّيّارى إلى الإسـكندرية، و أخذ المذكورين و عاد بهم إلى بلبيس فى ثانى عشـرين صفر، و الجميع بالحديد، غير أن الأمير أسنبغا تلطّف بهم و أحسن فى خطـابهم و مسـيرهم إلى الغايـة، بخلاـف من تولى تسـفيرهم من بلبيس إلى محل سـجنهم؛ فأفرج السـلطان منهم عن بيرم خجا أمير مشوى، و نفى إلى طرابلس، و أخرج السـلطان من البرج بقلعة الجبل، اثنين أضافهما إلى هؤلاء، و رسم أن يتوجه منهم سبعة نفر إلى قلعة صـفد، ليسجنوا بها، و هم إينال الأشرفى أحد مقدمى الألوف، و على باى المشدّ الأشرفى، و أزبك جحا، و جرباش مشدّ سيّدى، و تنبک الفيسـى، و حزمان و قانى باى اليوسفى، و مسفّر هؤلاء الأمير سمام الحسنى الناصرى أحد أمراء العشرات، و أن يتوجّه ثلاثة منهم إلى قلعة الصّبيبة ليسجنوا بها، و هم الأمير جانم أمير آخور و بايزير خال العزيز [۱۲۰] و يشبک [بشق، و مسفّرهم، هم و من يمضى إلى حبس المرقب الآتى ذكرهم: إينال أخو قشتم المؤيدى أحد أمراء العشرات، و المتوجهون إلى حبس المرقب خمسة و هم: جانبک قلق سيز، و تنم الساقى، و جكم خال

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۳۳

العزيز] و يشبک الفقيه، و أزبک البواب، و الجميع أشرفية، و ساروا بهم فى حالة غير مرضية.

[ثم] فى سابع عشرين صفر، قدم الأمير طوخ مازى نائب غزة، فخلع السلطان عليه باستمراره و أكرمه.

و فى تـاسع عشـرينه، نقـل زين الـدين عبـد الباسط من محبسه بالبرج إلى موضع يشـرف على باب القلعـة، بسـفارة ابن البارزى و أخته خوند زوجة السلطان، و وعده السلطان بخير، بعد ما كان وعده بالعقوبة.

ثم فى يوم الاثنين سادس شهر ربيع الأول، خلع السلطان على الأمير طوخ مازى نائب غزة خلعة السفر، و توجه من يومه عائدا إلى محل كفالته.

ثم فى ليلـة السـبت حادى عشـره، أخرج الملک العزيز يوسف من محبسه بالقلعة، و أركب فرسا، و معه جماعة كبيرة و مضوا به، حتى أنزل فى الحرّاقـة، و ساروا به حتى حبس بثغر الإسـكندرية إلى يومنا هـذا، و مسـفّره جانبک القرمانى أحد أمراء العشـرات، و رسم أن يصـرف له من مـال أوقـاف العزيز ألف دينـار. و حمـل مع الملک العزيز ثلاث جوار لخـدمته، و رتب له فى كل يوم ألف درهم، من أوقاف أبيه، و كان لخروجه يوم مهول من بكاء جوارى أبيه و أمه، و تجمعن بعد خروجه بالصـحراء فى تربة أمه خوند جلبان، و عملن عزاء كيوم مات الأشرف و بكين و أبكين.

ثم فى حادى عشر شهر ربيع الأول [المذكور] استقرّ شمس الدين

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۳۴

أبو المنصور نصر اللّه المعروف بالوزّة، ناظر الإسطبل السلطانى، بعد عزل زين الدين يحيى الأشقر قريب ابن أبى الفرج.

قلت: و أى فخر أو سابق رئاسة لمن يعزل بهذا الوزّة عن وظيفته!

ثم فى يوم الأحد تاسع عشـر [شهر] ربيع الأول، سارت تجريدة فى النيل تريد ثغر رشيد، و قد ورد الخبر بأن أربعة شوان للفرنج قاربت رشـيد، و أخـذت منهـا أبقـارا و غيرهـا، فـأخرج السـلطان لـذلک [الأـمير] أسـنبغا الطيارى، و الأمير شادبک الجكمى، و هما من أمراء الأـلوف بالـديار المصـرية، و حمـل السـلطان لكـل منهمـا خمسـمائة دينـار، و عنـد ما نزلا إلى المركب فى بحر النيل، احترقت مركب الطيّارى من مـدفع نفط رموا به، فعاد عليهم ناره، و أحرق شـيئا مما كان معهم، و أصاب بعضـهم، فألقى الطيارى نفسه فى البحر، حتى نجا من النار، ثم طلع و ركب السفينة و سار.

[و] فى أواخر شـهر ربيع الأول [هـذا] رسم السـلطان بتوجه زين الـدين عبـد الباسط [إلى] الحجاز بأهله و عياله، و سافر فى يوم الثلاثاء ثانى عشـر [شـهر] ربيع الآخر، بعـد أن خلع السـلطان عليه فى يوم سـفره، و على معتقه جانبک الأسـتادار، و نزل من القلعـة إلى مخيّمه

بالريدانية، بعد أن حمل إلى الخزانة السلطانية مائتى ألف دينار و خمسين ألف دينار ذهبا عينا سوى ما أخذ له من الخيول و الجمال، و سوى تحف جليلة قدّمها للسلطان و غيره؛ ثم رحل عبد الباسط من الرّيدانية يريد

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۵، ص: ٣٣۵

الحجاز، فى خامس عشره، و نزل ببركة الحاجّ، و أقام بها أيضا إلى ليلة ثامن عشره.

ثم فى خامس عشرين شهر ربيع الآخر قدم الأمير تمراز المؤيدى أحد حجاب دمشق، بسيف الأمير آقبغا التّمرازى، و قد مات فجاءة فى يوم السبت سادس عشره، فرسم السلطان للأمير جلبان نائب حلب باستقراره فى نيابة دمشق، و أن ينتقل الأمير قانى باى الحمزاوى نائب طرابلس إلى نيابة حلب، و أن ينتقل الأمير برسباى الناصرى حاجب حجاب دمشق إلى نيابة طرابلس، و يستقر عوضه فى حجوبية دمشق سودون النّوروزى حاجب حجاب حلب؛ و ينتقل حاجب حماة الأمير سودون المؤيدى إلى حجوبية [حجاب] حلب، و أن يستقر الأمير جمال الدين يوسف بن قلدر نائب خرت برت فى نيابة ملطية بعد عزل الأمير خليل بن شاهين الشيخى عنها، و يستقر خليل أحد أمراء الألوف بدمشق، عوضا عن الأمير ألطنبغا الشريفى، و يستقر الشريفى أتابك حلب، عوضا عن قطج من تمراز، و أن يحضر قطج المذكور إلى القاهرة [١٢١] إلى أن ينحلّ له إقطاع؛ و جهزت تقاليد الجميع

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۵، ص: ٣٣۶

و مناشيرهم فى سابع عشرينه؛ و رسم للأمير دولات باى المحمودى الساقى المؤيدى الدوادار الثانى أن يكون مسفّر جلبان نائب الشام، و أن يكون الأمير أرنبغا اليونسى الناصرى مسفّرقانى باى الحمزاوى، نائب حلب، و أن يكون سودون المحمودى المؤيدى المعروف بأتمكجى، مسفّر برسباى، نائب طرابلس؛ و خلع على الجميع فى يوم تاسع عشرين شهر ربيع الآخر.

ثم فى يوم السبت خامس عشر جمادى الأولى، استقر الأمير مازى الظاهرى [برقوق] أحد أمراء دمشق، فى نيابة الكرك عوضا عن آقبغا التركمانى الناصرى، بحكم مسك آقبغا المذكور و حبسه بسجن الكرك.

و فى عشرينه خلع السلطان على الأمير أسنبغا الطّيارى أحد مقدمى الألوف، باستقراره فى نيابة الإسكندرية، عوضا عن يلبغا البهائى الظاهرى [برقوق] بحكم وفاته، زيادة على ما بيده من تقدمة ألف بمصر، و طلب السلطان الأمير قراجا الأشرفى من سجن الإسكندرية، فحضر فى يوم الاثنين ثانى جمادى الآخرة، فخلع عليه السلطان باستقراره أتابك حلب، و بطل أمر الشريفى، و استمر على إقطاعه بدمشق.

ثم فى يوم الخميس ثانى عشر جمادى الآخرة، عمل السلطان الموكب بالقصر و أحضر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۵، ص: ٣٣٧

رسول القان معين الدين شاه رخ بن تيمور لنك، فحضر الرسول و ناول الكتاب الذى على يده، و إذا فيه: أنه بلغه موت [الملك] الأشرف و جلوس السلطان على تخت الملك، فأراد أن يتحقق علم ذلك؛ فأرسل هذا الكتاب؛ فخلع السلطان عليه و أكرمه و أنزله بمكانه الذى كان أنزل فيه، فإنه كان وصل فى أول يوم من جمادى الأولى، و رسم السلطان بكتابة جوابه.

ثم فى يوم الاثنين رابع شهر رجب، أدير المحمل على العادة، و زاد السلطان فى عدة الصبيان الذين يلعبون بالرمح، الصغار، عدة كبيرة، و لم يقع فى أيام المحمل بحمد اللّه ما ينكر من الشناعات التى كانت تقع من المماليك الأشرفية.

و فى هذا اليوم أيضا، خلع السلطان على الأمير طوخ الأبوبكرىّ المؤيدى أحد أمراء الألوف بدمشق، و كان قبل أتابك غزة، باستقراره فى نيابة غزة، بعد موت الأمير طوخ مازى الناصرى، فولى طوخ عوضا عن طوخ، و أنعم بتقدمة طوخ بدمشق، على الأمير تمراز المؤيدى الحاجب الثانى بدمشق.

ثم فى يوم السبت حادى عشر شعبان، استقر القاضى بهاء الدين محمد بن حجى فى نظر جيش دمشق، عوضا عن سراج الدين عمر بن السّفّاح، و رسم لابن السفاح بنظر جيش حلب.

ثم فى يوم الثلاثـاء ثـامن عشـر شوال، خرج أمير حاجّ المحمل الأمير شادبك الجكمى، أحـد مقـدمى الألوف، بالمحمل، و أمير حاج الركب الأول سمام الحسنى الناصرى، أحد أمراء العشرات.

ثم فى يوم الثلاثاء خامس عشـرين شوال، قدم الأمير ناصـر الدين بك، و اسـمه محمد بن دلغادر نائب أبا ستين، إلى الديار المصـرية، بعد ما تلقاه المطبخ السلطانى، و جهزت له الإقامات فى طول طريقه؛ ثم سارت عدة من أعيان الدولة إلى لقائه، و معهم

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۳۸

الخيول و الخلع له و لأعيـان من معه من أولاده و أصحابه، فلما دخل إلى القاهرة و طلع إلى القلعة، و مثل بين يـدى السـلطان و قبّل الأرض، خلع عليه السـلطان خلعة باستمراره على نيابة أبلستين على عادته، و أنزل فى بيت بالقرب من القلعة؛ و بالغ السلطان فى الاحتفال بأمره و الاعتناء به، و شمله بالإنعامات الكثيرة. و كان ناصر الدين بك المذكور، له سنين كثيرة لم يدخل تحت طاعة سلطان، و إن دخل فلم يطأ بساطه، فلما سمع بسلطنة الملك الظاهر هذا، و بحسن سيرته، قدم، و أقدم معه ابنته التى كانت تحت جانبك الصوفى، و عدة من نسائه، فعقد السلطان عقده على ابنته المذكورة التى كانت تحت جانبك الصوفى، و لها من جانبك المذكور بنت، لها من العمر نحو ثلاث سنين، بعد أن حمل إليها المهر ألف دينار، و عدة كثيرة من الشقق الحرير و غيرها.

و فى هذا الشهر، أراد السلطان أن تكون تصرفاته فى أمر جدّة، على مقتضى فتاوى أهل العلم، لعلمه أن شاه رخ بن تيمور، كان يعيب على [الملك] الأشرف برسباى، لأخذه بجدّة من التجار عشور أموالهم [۱۲۲] و أن ذلك من المكس المحرم؛ فكتب بعض الفقهاء سؤالا على غرض السلطان، يتضمن: أن التجار المذكورين كانوا يردون إلى بندر عدن [من بلاد اليمن] فيظلمون بأخذ أكثر أموالهم، و أنهم رغبوا فى القدوم إلى بندر جدّة ليحتموا بالسلطان؛ و سألوا أن يدفعوا عشر أموالهم، فهل يجوز أخذ ذلك منهم؟ فإن السلطان يحتاج إلى صرف مال كثير فى عسكر يبعثه إلى مكة فى كل سنة، فكتب قضاة القضاة الأربعة، بجواز أخذه و صرفه،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۳۹

فى المصالح. فأنكر الشيخ تقىّ الدين على القضاة فى كتابتهم على الفتاوى المذكورة، و انطلق لسانه بما شاء اللّه أن يقوله فى حقهم- انتهى.

ثم فى يوم الخميس ثامن عشر ذى القعدة، قدم الأمير إينال الششمانى الناصرى، أتابك دمشق، و الأمير ألطنبغا الشريفى الناصرى أحد مقدمى الألوف بدمشق، و طلعا [إلى] القلعة، و خلع السلطان عليهما و أكرمهما. و فيها أيضا، خلع السلطان على الأمير ناصر الدين بك بن دلغادر خلعة السفر، و سافر يوم الاثنين تاسع عشرين ذى القعدة، بعد أن بلغت النفقة عليه من الإنعامات ثلاثين ألف دينار.

ثم فى يوم الأربعاء سابع ذى الحجة، نودى بمنع المعاملة بالدراهم الأشرفية من الفضة،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۴۰

و أن تكون المعاملة بالدراهم الظاهرية الجقمقيّة، و هدد من خالف ذلك، فاضطرب الناس لتوقف أحوالهم. فنودى فى آخر النهار بأن الفضة الأشـرفية تدفع للصيارف بسعرها، و هو كل درهم بعشرين درهما من الفلوس، و أن تكون الدراهم الظاهرية كل درهم بأربعة و عشـرين درهما، و جعلت عددا لا وزنا. فمنها ما هو نصف درهم عنه، اثنا عشـر درهما، و منها ما هو ربع درهم، فيصـرف بستة دراهم، على أن كل دينار من الأشرفية، بمائتين خمسة و ثمانين درهما.

ثم فى يوم الثلاثاء، خلع السـلطان على غرس الدين خليل بن أحمد بن على السـخاوى، أحد حواشى السلطان أيام أمرته، باستقراره فى نظر القدس و الخليل. و السخاوى هذا أصله من عوام القدس السوقة، و قدم القاهرة، و خدم بعض التجار، و ترقى، و ركب الحمار، ثم ركب بعـد مـدة طويلـة بغلـة بنصف رحل على عادة العوام، و رأيته أنا على تلك الهيئة، ثم انتهى إلى خدمة السـلطان، و هو يوم ذاك أحـد مقـدمى الألوف، و اختص به، حتى تحـدث فى إقطاعه، و دام فى خـدمته إلى أن تسـلطن و عظم أمره عنـد من هو دونه، إلى أن ولى فى هذا اليوم نظر القدس و الخليل.

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۴۴]

ثم فی یوم الخمیس ثامن المحرم من سنة أربع و أربعین، خلع السلطان علی الأمیر قیزطوغان العلائی، أحد أمراء العشرات و أمیر آخور ثانی، باستقراره أستادارا، عوضا عن [محمد] بن أبی الفرج، بحکم عزله و القبض علیه و حبسه بالقلعة إلی یوم الأحد حادی عشره، فتسلمه الوزیر کریم الدین ابن کاتب المناخ.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۴۱

[ثم] فی یوم السبت رابع عشرین المحرم، خلع السلطان علی زین الدین یحیی الأشقر قریب ابن أبی الفرج، باستقراره فی نظر دیوان المفرد عوضا عن عبد العظیم ابن صدقة، بحکم مسکه، و نقل ابن أبی الفرج من تسلیم الوزیر، و سلّم هو و عبد العظیم للأمیر قیز طوغان الأستادار، فأغری زین الدین، قیز طوغان، بابن أبی الفرج و عبد العظیم، حتی أخذ ابن أبی الفرج و عاقبه و أفحش فی عقوبته فی الملأ من الناس، من غیر احتشام و لا تجمّل، بل طرحه علی الأرض و ضربه ضربا مبرحا، و وقع له معه أمور، إلی أن أطلق و أعید إلی نقابة الجیش بعد أن نفی، ثم أعید؛ و من یومئذ ظهر اسم زین الدین و عرف فی الدولة، و کان هذا مبدأ ترقیه حسبما یأتی ذکره إن شاء اللّه تعالی.

و فی هذه الأیام وقع الاهتمام بتجهیز تجریدة [فی البحر] لغز و الفرنج، و کتب السلطان عدة من الممالیک السلطانیة، و علیهم الأمیر تغری برمش الزّردکاش،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۴۲

و السیفی یونس الأمیر آخور، و سافروا من ساحل بولاق فی یوم الاثنین تاسع شهر ربیع الأول، و کان جملة ما انحدر من ساحل بولاق، خمسة عشر غرابا فیها الممالیک السلطانیة و المطوّعة. و سبب هذه التجریدة کثرة عیث الفرنج [فی البحر]، و أخذها مراکب التجار، و هذه أول بعثه بعثها الملک الظاهر من الغزاة.

ثم فی یوم السبت سادس عشرین شهر ربیع الآخر، قدم [۱۲۳] إلی القاهرة رسل القان معین الدین شاه رخ بن تیمور لنک، ملک الشرق، و قد زینت القاهرة لقدومهم، و خرج المقام الناصری محمد بن السلطان إلی لقائهم، و اجتمع الناس لرؤیتهم، فکان لدخولهم یوم مشهود لم یعهد بمثله، لقدوم رسل فی الدول المتقدمة؛ و أنزلوا بدار أعدت لهم، إلی یوم الاثنین ثامن عشرینه، فتوجهوا من الدار المذکورة إلی القلعة، بعد أن شقوا القاهرة، و هی مزینة بأحسن زینة، و الشموع و غیرها تشعل، و قد اجتمع عالم عظیم لرؤیتهم، و أوقفت العساکر من تحت القلعة إلی باب القصر، فی وقت الخدمة من باکر النهار المذکور. فلما مثل الرسل بین یدی السلطان، قرئ کتاب شاه رخ، فکان یتضمن السلام و التهنئة بجلوس السلطان علی تخت الملک، ثم قدمت هدیته و هی: مائة فص فیروز، و إحدی و ثمانون قطعة من حریر، و عدة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۴۳

ثیاب و فرو و مسک و ثلاثون بختیا من الجمال و غیر ذلک، مما یبلغ قیمته خمسة آلاف دینار. و أعید الرسل إلی منازلهم، و أجری علیهم الرواتب الهائلة فی کل یوم، ثم قلعت الزینة فی یوم الثلاثاء سلخه، و کان الناس تفننوا فی زینة القاهرة، و نصبوا بها القلاع، و فی ظنهم أنها تتمادی أیاما، فانقضی أمرها بسرعة.

ثم فی یوم الجمعة عاشر جمادی الأولی، ورد الخبر علی السلطان بنصرة الغزاة المجردین إلی قتال الفرنج.

ثم فی یوم الاثنین عشرین جمادی الأولی، خلع السلطان علی القاضی بدر الدین أبی المحاسن محمد بن ناصر الدین محمد بن الشیخ شرف الدین عبد المنعم البغدادی، أحد نواب الحکم الحنابلة، باستقراره قاضی قضاة الحنابلة بالدیار المصریة، بعد موت شیخ الإسلام محب الدین أحمد بن نصر اللّه البغدادی.

ثم فی یوم الثلاثاء حادی عشرین جمادی الأولی المذکور، قدم الغزاة، و کان من خبرهم: أنهم انحدروا فی النیل إلی دمیاط، ثم رکبوا منه البحر، و ساروا إلی جزیرة قبرس، فقام لهم متملکها، بالإقامات، و ساروا إلی العلایا، فأمدّهم صاحبها بغرابین، فیهما المقاتلة، و مضوا إلی رودس، و قد استعد أهلها لقتالهم، فکانت بینهم محاربة طول یومهم، لم ینتصف المسلمون فیها، و قتل منهم اثنا عشر من الممالیک، و جرح کثیر، و قتل من الفرنج أیضا جماعة کثیرة، فلما خلص المسلمون من قتالهم بعد جهد، مروا بقریة من قری رودس فقتلوا و أسروا و نهبوا ما فیها، و عادوا إلی دمیاط و أعلموا السلطان بأنه لم یکن لهم طاقة بأهل رودس.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۴۴

ثم فی یوم الثلاثاء ثامن عشرین جمادی الأولی المذکور، خلع علی خواجا کلال رسول شاه رخ خلعة السفر، و قد اعتنی بها عنایة لم یتقدم بمثلها لرسول فی زماننا هذا، و هی حریر مخمّل بوجهین: أحمر و أخضر، و طرز زرکش، فیه خمسمائة مثقال من ذهب، و أرکب فرسا بسرج ذهب، و کنبوش زرکش، فی کل منهما خمسمائة دینار، و جهزت صحبته هدیة ما بین ثیاب حریر سکندری، و سرج و کنبوش ذهب، و سیوف مسقّطة بذهب، و غیر ذلک مما تبلغ قیمته سبعة آلاف دینار؛ هذا بعد أن بلغت النفقة من السلطان علی الرسول المذکور و رفقته، نحو خمسة عشر ألف دینار، سوی الهدیة المذکورة.

ثم فی یوم السبت ثانی جمادی الآخرة، وقع بین القاضی حمید الدین الحنفی، و بین شهاب الدین أحمد بن إسماعیل بن عثمان الکورانی الشافعی، مخاصمة، و آل أمرهما إلی الوقوف بین یدی السلطان، فغضب السلطان لحمید الدین و ضرب الشهاب الکورانی و أهانه، و رسم بنفیه إلی دمشق، ثم إلی البلاد المشرقیّة، فخرج علی أقبح وجه. و کان هذا الکورانی قدم القاهرة قبیل سنة أربعین و ثمانمائة، فی فاقة عظیمة من الفقر و الإفلاس، و اتصل بباب المقرّ الکمالی ابن البارزی فوالاه بالإحسان علی عادة ترفقه بأهل العلم، و نوّه بذکره، حتی عرفه الناس، و تردد إلی الأکابر، و صار له وظائف و مرتبات، فلم یحفظ لسانه لطیش کان فیه، حتی وقع له ما حکیناه.

ثم فی یوم الخمیس رابع عشر جمادی الآخرة، قدم الأمیر جلبان نائب الشأم، إلی القاهرة، و نزل السلطان إلی لقائه [۱۲۴] بمطعم الطّیر خارج القاهرة، و هو أول رکبة رکبها، بعد سلطنته بالموکب، و خلع السلطان علی جلبان المذکور خلعة الاستمرار، و عاد السلطان إلی القلعة و هو فی خدمته.

ثم فی یوم الاثنین [عاشر] شهر رجب، أنعم السلطان بإقطاع الأمیر ألطنبغا

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۴۵

المرقبی المؤیدی، و تقدمته علی الأمیر طوخ من تمراز الناصری الرأس نوبة الثانی، بعد موته؛ و أنعم بإقطاع طوخ و هو إمرة أربعین، علی قانی بای الجارکسی شادّ الشراب خاناة.

ثم فی یوم الاثنین أول شعبان، أضیف نظر دار الضرب، للمقر الجمالی ناظر الخواص الشریف، کما کانت العادة القدیمة، و ذلک بعد موت جوهر القنقبائی الزّمام و الخازندار.

ثم فی یوم السبت سادسه، خلع السلطان علی الطّواشی هلال الرومی الظاهری برقوق، شادّ الحوش السلطانی، باستقراره زماما، عوضا عن جوهر المقدم ذکره، علی مال کثیر بذله فی ذلک.

ثم فی یوم الأحد سابعه خلع علی الزینی عبد الرحمن بن علم الدین داؤد بن الکویز، باستقراره أستادار الذخیرة، و خلع علی الطواشی الحبشی جوهر التّمرازی الجمدار، باستقراره خازندارا، کلاهما عوضا عن جوهر المذکور.

ثم فی یوم السبت عشرین شعبان، رکب السلطان من قلعة الجبل بغیر قماش الموکب، لکن بجمیع أمرائه و خاصّکیته و نزل فی أبهة عظیمة، و سار إلی خلیج الزّعفران خارج القاهرة، و نزل هناک بمخیّمه، و مدت له أسمطة جلیلة و أنواع کثیرة من الحلوی، و الفواکه، ثم رکب بعد صلاة الظهر، و عاد إلی القلعة؛ بعد أن دخل من باب النصر، وشق القاهرة، و ابتهج الناس به کثیرا. و هذه أول مرة شق

فيها القاهرة بعد سلطنته، و كان هذا الموكب جميعه بغير قماش الموكب؛ و لم يكن ذلك فى سالف الأعصار، و أول من فعل ذلك و ترخّص فى النزول من القلعة بغير كلفتاه و لا قماش، الملك الناصر فرج، ثم اقتدى به [الملك] المؤيد شيخ، ثم من جاء بعدهما.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۴۶

و فى هذا الشهر، تكلم زين الدين يحيى الأشقر ناظر الديوان المفرد، مع الأمير قيزطوغان العلائى الأستادار، بأنه يكلم السلطان فى إخراج جميع الرّزق الإحباسية و الجيشية التى بالجيزة و ضواحى القاهرة، و حسّن له ذلك، حتى تكلم قيزطوغان المذكور فى ذلك مع السلطان و ألح عليه، و مال السلطان لإخراج جميع الرّزق المذكورة، إلى أن كلمه فى ذلك جماعة من الأعيان و رجّعوه عن هذه الفعلة القبيحة، فاستقر الحال على أنه يجبى من الرزق المذكورة، فى كل سنة عن كل فدان، مائة درهم من الفلوس، فجبيت، و استمرت إلى يومنا هذا فى صحيفة زين الدين المذكور، لأنه [هو] الدالّ عليها، و الدال على الخير كفاعله و كذلك الشّر.

ثم فى يوم الثلاثاء أول شهر رمضان، ورد الخبر على السلطان بالقبض على الأمير قنصوه النّوروزى، و كان له من يوم وقعة الجكمى فى اختفاء، فرسم بسجنه بقلعة دمشق، و قانصوه هذا من أعيان الأمراء المشهورين بالشجاعة و حسن الرمى بالنّشّاب، غير أنه من كبار المخاميل الفلاسة المديونين.

ثم فى يوم السبت ثانى عشر [شهر] رمضان، خلع السلطان على القاضى معين الدين عبد اللطيف ابن القاضى شرف الدين أبى بكر، سبط العجمى، باستقراره فى نيابة كتابة السر بعد وفاة أبيه.

ثم فى يوم الاثنين تاسع عشر شوال، برز أمير حاجّ المحمل الأمير تمرباى رأس نوبة النوب، بالمحمل، و أمير الركب الأول سودون الإينالى المؤيدى، المعروف بقراقاس، أمير عشرة. و حج فى هذه السنة ثلاثة من أمراء الألوف: تمرباى المقدم ذكره، و الأمير تمراز القرمشى أمير سلاح، و الأمير ظوخ من تمراز الناصرى،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۴۷

و سبعة أمراء أخر، ما بين عشرات و طبلخانات. و توجه تمراز أمير سلاح بالجميع ركبا وحده قبل الركب الأول، كما سافر فى السنة الماضية الأمير جرباش الكريمى قاشق أمير مجلس، و صحبته ابنته زوجة السلطان الملك الظاهر.

ثم فى يوم السبت سابع ذى القعدة، قدم إلى القاهرة الأمير قانى باى الحمزاوى نائب حلب باستدعاء [۱۲۵]، فركب السلطان إلى ملاقاته بمطعم الطير، و خلع عليه باستمراره على كفالته.

و فى أواخر هذا الشهر، طرد السلطان أيتمش الخضرىّ الظاهرى، أحد الأمراء البطّالة من مجلسه، و منعه من الاجتماع به، و هذه ثانى مرة أهانه السلطان و طرده؛ و أما ما وقع لأيتمش المذكور قبل ذلك فى دولة الأشرف برسباى من البهدلة و النفى، فكثير، و هو مع ذلك لا ينقطع عن الترداد للأمراء و أرباب الدولة بوجه أقوى من الحجر.

و فى هذه السنة، أعنى سنة أربع و أربعين و ثمانمائة، جدّد بالقاهرة و ظواهرها عدة جوامع، منها جامع الصالح طلائع بن رزيك خارج باب زويلة، قام بتجديده

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۴۸

رجل من الباعة يقال له عبد الوهاب العينى، و منها مشهد السيدة رقية، قريبا من المشهد النّفيسى، جدده الشريف بدر الدين حسين بن أبى بكر الحسينى، نقيب الأشراف، و جدد أيضا جامع الفاكهيين بالقاهرة، و جامع الفخر بخط سويقة الموفق بالقرب من بولاق، و جدد أيضا جامع الصارم أيضا، بالقرب من بولاق، و أنشأ أيضا جوهر المنجكى نائب مقدم المماليك، جامعا بالرّميلة، تجاه مصلاة المؤمنى، و عمارته بالفقيرى بحسب الحال، و أنشأ تغرى بردى المؤذى البكلمشى الدّوادار، جامعا بخط الصّليبة على الشارع الأعظم.

قلت: الناس على دين مليكهم، و هو أنه لما كانت الملوك السالفة تهوى النزه و الطرب، عمرت فى أيامهم بولاق و بركة الرّطلى و غيرهما من الأماكن، و قدم إلى القاهرة كل أستاذ صاحب آلة من المطربين و أمثالهم من المغانى و الملاهى، إلى أن تسلطن [الملك]

الظاهر جقمق، و سار فى سلطنته على قدم هائل من العبادة و العفة عن المنكرات و الفروج، و أخذ فى مقت من يتعاطى المسكرات، من أمرائه و أرباب دولته، فعند ذلك تاب أكثرهم، و تصولح و تزهّد، و صار كل أحد منهم يتقرب إلى خاطره بنوع من أنواع المعروف، فمنهم من صار يكثر من الحج، و منهم من تاب و أقلع عما كان فيه، و منهم من بنى المساجد و الجوامع، و لم يبق فى دولته ممن استمر على ما كان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۴۹

عليه، إلا جماعة يسيرة؛ و مع هذا كان أحدهم إذا فعل شيئا من ذلك، فعله سرّا مع تخوف و رعب زائد، يرجفه فى تلك الحالة صفير الصافر و خفق الرياح، فلله دره من ملك، فى عفته و عبادته و كرمه.

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۴۵]

ثم فى يوم السبت ثالث شهر ربيع الأول من سنة خمس و أربعين و ثمانمائة، خلع السلطان على يار على بن نصر اللّه الخراسانى العجمى الطويل باستقراره فى حسبة القاهرة، مضافا لما بيده من حسبة مصر القديمة عوضا عن قاضى القضاة بدر الدين محمود العينى الحنفى بحكم عزله.

ثم فى يوم الخميس ثامن [شهر] ربيع الأول المذكور، كانت مبايعة الخليفة أمير المؤمنين سليمان بن الخليفة المتوكل على اللّه أبى عبد اللّه محمد بالخلافة، بعد وفاة أخيه المعتضد داؤد، بعهد منه إليه، و لقب بالمستكفى بالله أبى الربيع سليمان.

ثم فى يوم الاثنين سادس عشر جمادى الأولى، خلع السلطان على الشريف علىّ ابن حسن بن عجلان، باستقراره فى إمرة مكة، عوضا عن أخيه بركات بن حسن بحكم عزله، لعدم حضوره إلى الديار المصرية؛ و عين السلطان مع الشريف علىّ المذكور خمسين مملوكا من المماليك السلطانية، و عليهم الأمير يشبك الصوفى المؤيدى أحد أمراء العشرات و رأس نوبة، لمساعدة علىّ المذكور على قتال أخيه الشريف بركات؛ و سافر الشريف علىّ من القاهرة فى يوم الخميس رابع عشرين جمادى الآخرة.

ثم فى يوم الاثنين سادس شهر رجب، قدم إلى القاهرة الأمير برسباى [الناصرى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۵۰

فرج] نائب طرابلس، و نزل السلطان إلى مطعم الطيور خارج القاهرة، و تلقاه و خلع عليه على العادة.

ثم فى يوم الثلاثاء سابع [شهر] رجب، أمسك السلطان الأمير قيز طوغان العلائى الأستادار [الكبير]، و قبض معه على زين الدين يحيى ناظر ديوان المفرد، و سلمهما للأمير دولات باى المحمودى المؤيدى الدوادار الثانى.

ثم خلع السلطان فى يوم الخميس سادس عشره، على الزينى عبد الرحمن ابن [القاضى علم الدين] الكويز، باستقراره أستادارا، عوضا عن قيز طوغان، و خلع على زين الدين المذكور باستقراره على وظيفة نظر المفرد على عادته [۱۲۶]، و أنعم السلطان على الأمير قيزطوغان بإمرة مائة و تقدمة ألف بحلب، و خرج فى يوم السبت خامس عشرينه.

ثم فى يوم الاثنين سابع عشرينه، خلع السلطان على الشهابى أحمد بن [أمير] على بن إينال اليوسفى، أحد أمراء العشرات، باستقراره فى نيابة الإسكندرية، بعد عزل الأمير أسنبغا الناصرى الطّيّارى عنها، و قدومه إلى القاهرة على عادته، أمير مائة و مقدم ألف.

ثم فى يوم السبت أول شهر رمضان، قدم الشيخ شمس الدين محمد الخافى الحنفى، من مدينة سمرقند، قاصدا الحج، و هو أحد أعيان فقهاء القان شاه رخ بن تيمور، و ولده ألوغ بك صاحب سمرقند، و اجتمع بالسلطان، فأكرمه و أنعم عليه بأشياء كثيرة.

ثم فى يوم الخميس ثامن عشر شوال، برز أمير حاجّ المحمل تغرى برمش السيفى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۵۱

يشبك بن أزدمر الزّردكاش، بالمحمل إلى بركة الحاج [دفعة واحدة، و كانت العادة أن أمير حاجّ المحمل يبرز من القاهرة إلى

الرّیدانیة ثم یتوجه فی ثانیه إلی برکة الحاج]؛ و أمیر حاج الرکب الأول، الأمیر یونس السیفی آقبای، أحد أمراء العشرات المعروف بالبواب.

ثم فی یوم الثلاثاء ثالث عشرین شوال، أمسک السلطان الأمیر جانبک المحمودی المؤیدی؛ أحد أمراء العشرات و رأس نوبة، و حبسه بالبرج من قلعة الجبل، و کان السلطان قصد مسکه قبل ذلک، فخشی عاقبة خجداشیّته، فلما زاد جانبک المذکور عن الحد فی التکلم فی الدولة و مداخلة السلطان فی جمیع أموره، بعدم دربة و قلة لباقة، مع حدة و طیش و خفة و سوء خلق، أمسکه فی هذا الیوم، و قصد بذلک حرکة تظهر من خجداشیّته المؤیدیة، فلم یتحرک ساکن، بل خاف أکثرهم، و حسن حاله مع السلطان، و انکفّ أکثرهم عن مداخلة السلطان؛ و أنعم السلطان بإمرته علی خجداشه خیر بک الأشقر المؤیدی أحد الدواداریة الصغار؛ و لم یکن خیر بک المذکور ممن ترشح للإمرة؛ و من یومئذ عظم أمر السلطان فی ملکه؛ و هابته الناس و انقطع عن مداخلته جماعة کبیرة، ثم حمل جانبک المذکور إلی سجن الإسکندریة فسجن به.

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۴۶]

هذا و السلطان فی اهتمام تجریدة لغزو رودس، و عین عدة کبیرة من الممالیک السلطانیة و الأمراء، و مقدم الجمیع اثنان من مقدمی الألوف: الأمیر إینال العلائی الناصری، المعزول عن نیابة صفد، و الأمیر تمربای رأس نوبة النوب. و سافروا الجمیع من ساحل بولاق، فی محرم سنة ست و أربعین، و معهم عدة کبیرة من المطوّعة، بأبهج زی، من العدد و السلاح، و کان لسفرهم بساحل بولاق یوم

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۵۲

مشهود، إلا أنهم عادوا فی أثناء السنة، و لم ینالوا من رودس غرضا، بعد أن أخربوا قشتیل حسبما یأتی ذکره فی الغزوة الثالثة الکبری.

و بعد سفرهم وقع حادثة شنعة، و هی أنه لما کان یوم الاثنین سادس عشر صفر، و ثب جماعة کبیرة من ممالیک السلطان الأجلاب، من مشترواته الذین بالأطباق من القلعة، و طلعوا إلی أسطحة أطباقهم، و منعوا الأمراء و غیرهم من الأعیان من طلوع الخدمة، و أفحشوا فی ذلک إلی أن خرجوا عن الحد، و نزلوا إلی الرحبة عند باب النحاس، و کسروا باب الزّردخاناة السلطانیة، و ضربوا جماعة من أهل الزردخاناة، و أخذوا منها سلاحا کثیرا، و وقع منهم أمور قبیحة فی حق أستاذهم الملک الظاهر، و لهجوا بخلعه من الملک، و همّ السلطان لقتالهم، ثم فتر عزمه عن ذلک شفقة علیهم، لا خوفا منهم، ثم سکنت الفتنة بعد أمور وقعت بین السلطان و بینهم.

ثم فی یوم الخمیس عاشر [شهر] ربیع الأول، قدم الأمیر مازی الظاهری برقوق نائب الکرک، و طلع إلی القلعة، و خلع علیه باستمراره.

ثم فی یوم الاثنین حادی عشرین [شهر] ربیع الأول المذکور، خلع السلطان علی مملوکه قراجا الظاهری الخازندار، باستقراره خازندارا کبیرا، عوضا عن الأمیر قانبک الأبوبکریّ الأشرفی الساقی، بحکم مرضه بداء الأسد، نسأل اللّه [العفو] و العافیة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۵۳

و فیه أیضا استقر ابن الحاضری قاضی قضاة الحنفیة بحلب بعد عزل محب الدین محمد بن الشّحنة، لسوء سیرته.

ثم فی یوم الأحد ثانی عشر [شهر] ربیع الآخر، قدم الأمیر سودون المحمدی من مکة المشرفة، إلی القاهرة، و هو مجرّح فی مواضع من بدنه، من قتال کان بین الشریف علیّ صاحب مکة، و بین أخیه [۱۲۷] برکات، انتصر فیه الشریف علیّ، و انهزم برکات إلی البر.

ثم فی یوم الأحد سادس عشرین [شهر] ربیع الآخر [المذکور]، أمسک السلطان الزینی عبد الرحمن بن الکویز، و عزله عن الأستاداریة، ثم أصبح من الغد خلع علی زین الدین یحیی ناظر الدیوان المفرد باستقراره أستادارا، عوضا عن ابن الکویز المذکور.

و کان من خبر زین الدین هذا، أنه کان کثیرا ما یلی الوظائف بالبذل ثم یعزل عنها بسرعة، و قد تجمد علیه جمل من الدیون؛ و کان خصمه فی وظیفة نظر الدیوان المفرد عبد العظیم بن صدقة الأسلمی، و غریمه فی نظر الإسطبل شمس الدین الوزّة، و لا زال زین الدین المذکور فی بحبوحة من الفقر و الذل و الإفلاس، إلی أن ولی الأمیر قیزطوغان الأستاداریة، فاختار زین الدین هذا لنظر الدیوان

المفرد، و ضرب عبد العظيم و أهانه، كونه كان من جملة أصحاب محمد بن أبى الفرج.

و ركن إلى زين الـذين هـذا، و صار المعول عليه بديوان المفرد؛ فاستفحل أمره، و قضـى ديونه، فحدثته نفسه بالأستادارية، لمصداق المثل السائر: «لا تموت النفس الخبيثة حتى تسـىء لمن أحسن إليها»، فأخـذ زين الـدين يدبر على الأمير طوغان فى الباطن، و يملى له المفسود، بأن يحسّن له الإقالة من الوظيفة، حتى يعظم أمره، من سؤال السلطان

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۵۴

له باستقراره فى الوظيفة، و يظهر له بـذلك النصـح، إلى أن انفعـل له طوغـان و سأل الإقالـة، فأقاله السلطان، و خلع على الزينى عبد الرحمن بن الكويز بالأستادارية.

و استمر زين الدين على وظيفة نظر ديوان المفرد، و قد تفتحت له أبواب أخذ الأستادارية، لسهولة ابن الكويز و خروج قيز طوغان من مصـر، فإنه كان لا يحسن به المرافعة فى طوغان و لا السعى عليه بوجه من الوجوه، فسلک فى ذلک ما هو أقرب لبلوغ قصـده، بعزل طوغـان و ولايـة ابن الكويز، حتى تم له ذلک، و لبس الأستـادّاريّة و نعت بالأمير، لكنه لم يتزيّا بزىّ الجنـد، بل استمر على لبسه أولا: العمامـة و الفرجيـة، فصار فى الوظيفـة غير لائق، كونه أستـادارا و هو بزى الكتبـة، و أميرا و لا يعرف باللغة التركية، و رئيسا و ليس فيه شيم الرئاسة؛ و كانت ولايته و سعادته غلطة من غلطات الدهر، و ذلک لفقد الأمائل. [الكامل]:

خلت الرّقاع من الرّخاخ ففرزنت فيها البياذق

و تصاهلت عرج الحمير فقلت: من عدم السّوابق

و فيه خلع السلطان على الأمير أقبردى المظفرى الظاهرى [برقوق]، أحد أمراء العشـرات و رأس نوبة، و ندبه للتوجه إلى مكة المشرفة، و صحبته من المماليک

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۵۵

السلطانية خمسون مملوكا، ليستعين بهم الشريف علىّ صاحب مكة على من خالفه، و سافر بعد أيام رجبيّة.

ثم فى يوم الخميس أول جمادى الأولى، أمسک السلطان الصفوى جوهرا التّمرازى الخازندار، و رسم عليه عند تغرى برمش الجلالى المؤيـدى الفقيه نـائب قلعـة الجبـل، و طـالبه السـلطان بمـال كـبير. و خلـع السـلطان على الطّواشـى فيروز الرومى النّـوروزى رأس نوبة الجمدارية، باستقراره خازندارا، عوضا عن جوهر المذكور، و تأسّف الناس كثيرا على عزل جوهر التّمرازى، فإنه كان سار فى الوظيفة أحسن سيرة، و ترقّب الناس بولاية فيروز هذا أمورا كثيرة.

ثم فى يوم الاثنين سادس عشرينه، استقر فيروز النّوروزى المذكور زماما، مضافا للخازندارية بعد عزل هلال الطّواشى عنها.

ثم فى يوم الخميس ثـالث عشـر جمـادى الآخرة، خلع السـلطان على الأمير إينال العلائى الناصـرى باسـتقراره دوادارا كبيرا، بعـد موت الأمير تغرى بردى المؤذى البكلمشـى، و أنعم بتقدمة تغرى بردى المذكور، على الأمير قانى باى الجركسـى، و استمر على وظيفة شـدّ الشـراب خاناه، مع تقدمـة ألف؛ و أنعم بطبلخانات قانى باى، على جانبک القرمانى الظاهرىّ برقوق رأس نوبة، و أنعم بإقطاع جانبک، على أيتمش [بن عبد اللّه] [من أزوباى] أستادار الصـحبة، و هى إمرة عشرة، و أنعم بإقطاع أيتمش على سنجبغا، و كلاهما إمرة عشرة، و التفاوت فى زيادة المغل.

ثم فى يوم السبت خامس شعبان رسم السلطان بنفى الأمير سودون السّودونى

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۵۶

الظاهرى الحاجب إلى قوص، فشفع فيه فرسم بتوجهه إلى طرابلس، ثم شفع فيه ثانيا [۱۲۸] فرسم له بالإقامة بالقاهرة بطّالا.

ثم فى يوم الاثنين ثالث شوال، خلع السلطان على الشريف أبى القاسم بن حسن ابن عجلان، باستقراره أمير مكة، عوضا عن أخيه علىّ، بحكم القبض عليه و على أخيه إبراهيم بمكة المشرفة.

[ثم] فی سابع عشره، برز أمیر حاجّ المحمل، الأمیر تنبک البردبکی، حاجب الحجّاب بالمحمل إلی برکة الحاج، و هذه سفرته الثانیة، و أمیر الرکب الأول الأمیر الطّواشی عبد اللطیف المنجکی العثمانی الرومی مقدم الممالیک السلطانیة.

ثم فی یوم السبت تاسع عشرین شوال، خلع السلطان علی قاضی القضاة بدر الدین محمود العینی الحنفی، بإعادته إلی حسبة القاهرة بعد عزل یار علی و سفره إلی الحجاز.

ثم فی یوم الاثنین أوّل ذی القعدة، قدم الأمیر أرکماس الظاهری الدّوادار [الکبیر] کان، من ثغر دمیاط بطلب من السلطان و طلع إلی القلعة، و خلع علیه السلطان کاملیة مخمل بمقلب سمّور، و رسم له أن یقیم بالقاهرة بطّالا، و أذن له بالرکوب حیث شاء.

ثم فی یوم الاثنین تاسع عشرین ذی القعدة المذکور، خلع السلطان علی القاضی بهاء الدین محمد بن القاضی نجم الدین عمر بن حجی ناظر جیش دمشق، باستقراره ناظر الجیوش المنصورة بالدیار المصریة، مضافا لما بیده من نظر جیش دمشق، عوضا عن القاضی محب الدین بن الأشقر، بحکم عزله و غیابه فی الحج، و ذلک بسفارة حمیّه القاضی کمال الدین بن البارزی کاتب السر الشریف.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۵۷

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۴۷]

ثم فی یوم الثلاثاء ثانی عشر صفر من سنة سبع و أربعین و ثمانمائة، أعید یار علی الخراسانی، إلی حسبة القاهرة، و صرف العینی عن الحسبة.

ثم فی یوم الأربعاء حادی عشر شهر ربیع الأول، عمل السلطان المولد النبوی علی العادة.

ثم فی یوم الأربعاء ثامن جمادی الآخرة، قدم الزینی عبد الباسط بن خلیل، و کان توجّه من سنة أربع و أربعین من الحجاز إلی دمشق، بشفاعة الناصری محمد بن منجک له، و لما وصل إلی القاهرة طلع إلی القلعة و قبّل الأرض، و معه أولاده، ثم تقدم و باس رجل السلطان، فقال له السلطان: «أهلا» بصوت خفیّ و لم یزده علی ذلک، ثم ألبسه کاملیة سابوری أبیض بفرو سمور، و ألبس أولاده کل واحد کاملیة سمور بطوق عجمی، ثم نزل إلی داره.

و قدّم تقدمته فی یوم الجمعة عاشر جمادی الآخرة [المذکورة]؛ و کانت تشتمل علی شیء کثیر، من ذلک أربعة و أربعون حمالا علی الرءوس مردومة أقمشة من أنواع الفراء و الصوف و المخمّل و الشّقق الحریر، و السلاح و طبول بازات مذهبة، و خیول، و نحو مائتی فرس و أربعین فرسا، منها أکادیش خاصّ بسروج مذهبة، و بدلات مینة و عبیّ حریر عدة کبیرة، و منها عشرة خیول، علیها برکستوانات ملونة، و سروج مغرّقة، و منها ثمانیة بسروج سذج، برسم الکرة، و بغال ثلاثة أقطار، و جمال بخاتی قطار واحد، فقبل السلطان ذلک کله. و بعد هذا کلّه لم یتحرک حظّ عبد الباسط عند السلطان، و لا تجمّل معه بوظیفة من الوظائف، بل أمره بالسفر بعد أیام قلیلة. قلت: لیس للطمع فائدة، و أخذ ما یأخذ زمانه و زمان غیره، و ما أحسن قول من قال: [المتدارک]

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۵۸

و تری الدهر [لعبا] لمعتبر و الناس به دول دول

کرة وضعت لصوالجة فتلقّفها رجل رجل

ثم فی یوم الاثنین عشرینه، قدم الأمیر خلیل بن شاهین [الشیخی] نائب ملطیة، و خلع علیه السلطان خلعة الاستمرار، و قدم هدیته، و أقام بالقاهرة إلی یوم الاثنین رابع شهر رجب، فخلع السلطان علیه باستقراره أتابک حلب، عوضا عن الأمیر قیز طوغان العلائی المعزول عن الأستادّاریّة، بحکم استقرار قیزطوغان فی نیابة ملطیة عوضا عن خلیل المذکور.

ثم فی یوم السبت ثامن عشر شوال، برز أمیر حاجّ المحمل، الأمیر شادبک الجکمی، أحد مقدّمی الألوف، بالمحمل [إلی برکة الحاج]، و أمیر الرکب الأول الأمیر سونجبغا الیونسی، أحد أمراء العشرات و رأس نوبة.

ثم فى يوم الأربعاء ثانى عشرين شوال، أعيد [۱۲۹] القاضى محب الدين بن الأشقر إلى وظيفة نظر الجيش، و صرف عنها القاضى بهاء الدين بن حجى، و استمر على وظيفته نظر جيش دمشق على عادته أولا، و كانت بيده لم تخرج عنه.

ثم فى يوم الخميس سلخ شوال، قدّم ابن حجى المذكور إلى السلطان تقدمة هائلة [تشتمل] على خمسة و أربعين قفصا من أقفاض الحمّالين ما بين ثياب بعلبكى، و قسىّ و صوف، و أنواع الفرو، و غير ذلك. ثم فى يوم الاثنين رابع ذى القعدة، خلع السلطان على بهاء الدين المذكور خلعة السفر، و أضيف إليه نظر قلعة دمشق.

ثم فى يوم الأحد رابع عشرينه، ركب السلطان من قلعة الجبل و نزل بخواصه إلى أن وصل إلى ساحل بولاق، ثم عاد حتى علم الناس بعافيته، لأنه كان توعك توعكا هينا، فأرجف الناس بقوة مرضه.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۵۹

ثم فى يوم الاثنين ثانى ذى الحجة، وصل الأمير جلبان نائب الشام، إلى القاهرة، و نزل السلطان إلى ملاقاته بمطعم الطيور بالرّيدانيّة خارج القاهرة، و خلع عليه خلعة الاستمرار على نيابة دمشق، و هذه قدمته الثانية فى الدولة الظاهرية، ثم قدّم جلبان المذكور تقدمته إلى السلطان من الغد فى يوم الثلاثاء، و كانت تشتمل على عدة حمّالين كثيرة، منها سمّور خمسة أبدان، و وشق بدنان، و قاقم خمسة أبدان، و سنجاب خمسون بدنا، و قرضيات خمسون قرضية، و مخمّل ملون خاصّ أربعون ثوبا، و مخمل أحمر و أخضر و أزرق حلبى، خمسون ثوبا، و صوف ملوّن مائة ثوب، و ثياب بعلبكى خمسمائة ثوب، و ثياب بطائن خمسمائة أيضا، و قسىّ حلقة ثلثمائة قوس، منها خمسون خاصّا، و طبول بازات مذهبة عشرة، و سيوف خمسون سيفا، و خيول مائتا رأس، منها واحد بسرج ذهب و كنبوش زركش، و بغال ثلاثة أقطار، و جمال أربعة أقطار، و عشرون ألف دينار على ما قيل.

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۴۸]

و فى أواخر هذه السنة ظهر الطاعون بمصر، و فشا فى أول المحرم سنة ثمان و أربعين [و ثمانمائة]، و قد أخذ السلطان فى تجهيز تجريدة عظيمة لغزو رودس، و أخذ الطاعون يتزايد فى كل يوم، حتى عظم فى صفر، و زاد عدة من يموت فيه على خمسمائة إنسان.

ثم فى يوم الثلاثاء حادى عشرين صفر، نفى السلطان كسباى الششمانى المؤيدى، أحد الدوادارية الصغار، و عدّ ذلك من الأشياء التى وضعها [الملك] الظاهر فى محلها؛ و قد استوعبنا أمر كسباى هذا، و التعريف بأحواله فى غير هذا المحل.

ثم فى شهر ربيع الأول أخذ الطاعون يتناقص من القاهرة و يتزايد بضواحيها.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۶۰

ثم فى يوم السبت سادس عشر [شهر] ربيع الأول [المذكور]، نفى السلطان سودون السودونى الحاجب إلى قوص، و أنعم بإقطاعه على الأمير ألطنبغا المعلّم الظّاهرى برقوق، زيادة على ما بيده.

ثم فى يوم السبت المذكور، خرجت الغزاة من القاهرة، فنزلت فى المراكب من ساحل بولاق، و قصدوا الإسكندرية و دمياط، ليركبوا من هناك البحر المالح، و الجميع قصدهم غزو رودس. و كانوا جمعا موفورا، ما بين أمراء و خاصّكية و مماليك سلطانية و مطوّعة، و كان مقدم الجميع فى هذه السنة أيضا الأمير إينال العلائى الدّوادار الكبير، كما كان فى السنة الخالية، و كان معه من الأمراء الطبلخانات، الأمير يلخجا من مامش الساقى الناصرى الرأس نوبة الثانى، و من العشرات جماعة كبيرة، منهم، تغرى برمش الزّردكاش، و تغرى برمش الفقيه نائب القلعة، و هو مستمر على وظيفته؛ و رسم السلطان للأمير يونس العلائى الناصرى أحد أمراء العشرات أن يسكن بباب المدرج، إلى أن يعود تغرى برمش المذكور من الجهاد، و سودون الإينالى المؤيدى قرافاس رأس نوبة، و تمربغا الظاهرى جقمق، و نوكار الناصرى، و تمراز النّوروزى رأس نوبة المعروف بتعريص، و يشبك الفقيه المؤيدى.

و فيها تأمّر بعد [۱۳۰] عوده بعد موت تمراز النّوروزى، من جرح أصابه و جماعة أخر من أعيان الخاصّكية، كل منهم مقدّم على

غراب أو زورق، و معه عدة من المماليک السلطانية و غيرهم، و کانت المماليک السلطانية فی هذه الغزوة تزيد عدتهم على ألف مملوک، هذا خارج عمن سافر من المطوعة، و أضاف إليهم السلطان أيضا جماعة کبيرة من أمراء البلاد الشامية، کما فعل [الملک] الأشرف فی غزوة قبرس المقدم

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۶۱

ذکرها، و رسم لهم السلطان أن يتوجه الجميع إلى طرابلس، ليضاف إليهم العسکر الشامی، و يسير الجميع عسکرا واحدا، ففعلوا ذلک، و سافر الجميع من ثغر دمياط، و ثغر الإسکندرية، فی يوم الخميس حادی عشر [شهر] ربيع الآخر؛ و کان لخروجهم من ساحل بولاق يوم عظيم، لم ير مثله إلا نادرا.

و لما ساروا من ثغر الإسکندرية و دمياط إلى طرابلس، ثم من طرابلس إلى رودس، حتى نزلوا على برّها بالقرب من مدينتها فی الخيم، و قد استعد أهلها للقتال، فأخذوا فی حصار المدينة، و نصبوا عليها المناجيق و المکاحل، و أرموا على أبراجها بالمکاحل [و المدافع]، و استمروا على قتال أهل رودس فی کل يوم. هذا و منهم فرقة کبيرة قد تفرقت فی قرى رودس و بساتينها ينهبون و يسبون، و استمروا على ذلک أياما، و مدينة رودس لا- تزداد إلا- قوة، لشدة مقاتليها و لعظم عمارتها، و قد تأهبوا للقتال و حصّنوا رودس، بالآلات و السلاح و المقاتلة، و صار القتال مستمرا بينهم فی کل يوم، و قتل من الطائفتين خلائق کثيرة، هذا و قد استقر الأمير يلخجا الناصری فی المراکب، و معه جماعة کبيرة من المماليک السلطانية و غيرهم، لحفظ المراکب من طارق يطرقهم من الفرنج فی البحر، و کان فی ذلک غاية المصلحة، و صار يلخجا مقدم العساکر فی البحر، کما کان إينال مقدم العساکر فی البر، و بينما يلخجا و رفقته ذات يوم، إذ هجم عليهم الفرنج فی عدة کبيرة من المراکب، فبرز إليهم يلخجا و من معه، و قاتلوهم قتالا عظيما، حتى نصر اللّه المسلمين، و انهزم الفرنج و غنم المسلمون منهم.

کل ذلک و قتال رودس مستمر فی کل يوم، و العساکر فی غاية ما يکون من الاجتهاد

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۶۲

فی قتال رودس، غير أن رودس لا يزداد أمرها إلا قوة، لعظم استعداد أهلها للقتال.

و لما کان بعض الأيام، وقع للمسلمين محنة عظيمة، قتل فيها جماعة کبيرة من أعيان الغزاة من الخاصّکية و غيرهم، و هو أنّ جماعة من المسلمين الأعيان، نزلوا فی کنيسة تجاه رودس، و بينهم و بين العسکر الإسلامی رفقتهم مخاضة من البحر المالح، و بينهم أيضا و بين مدينة رودس طريق سالکة.

فاتفق أهل رودس على تبييت هؤلاء المسلمين الذين بالکنيسة المذکورة، إلى أن أمکنهم ذلک، فخرجوا إليهم على حين غفلة و طرقوهم بالسيوف و السلاح.

و کان المسلمون فی أمن من جهتهم، و غالبهم جالس بغير سلاح، و هم أيضا فی قلة و الفرنج فی کثرة.

فلما هجموا على المسلمين، و وقعت العين فی العين، قام المسلمون إلى سلاحهم، فمنهم من وصل إلى أخذ سلاحه، و قاتلهم حتى قتل، و منهم من قتل دون أخذ سلاحه، و منهم من ألقى بنفسه إلى الماء و نجا، و هم القليل.

على أنه قتل من الفرنج جماعة کبيرة، قتلتهم فرسان المسلمين قبل أن يقتلوا لما عاينوا الهلاک، أثابهم اللّه الجنة.

و لما وقعت الهجّة، قام کل واحد من المسلمين إلى نجدة هؤلاء المذکورين، فلم يصل إليهم أحد حتى فرغ القتال، إلا أن بعض أعيان الخاصّکية مع رفقته، لحق جماعة من الفرنج قبل دخولهم إلى رودس، و وضعوا فيهم السيف.

و قد استوعبنا واقعتهم بأطول من هذا، فی غير هذا الکتاب.

و کان عدة من قتل فی هذه الکائنة نيفا على عشرين نفسا، و دام القتال بعد

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۶۳

ذلك فى كل يوم بين عساكر الإسلام و بين فرنج رودس أياما كثيرة، و مدينة رودس لا تزداد إلا قوة. فعند ذلك أجمع المسلمون على العود، و ركبوا مراكبهم، و عادوا إلى أن وصلوا إلى ثغر الإسكندرية و دمياط، ثم قدموا إلى القاهرة. فكانت غزوة العام الماضى، أعنى غزوة قشتيل التى أخربوها و سبوا أهلها، أبهج من هذه الغزوة [١٣١]، فلله الأمر من قبل و من بعد. و كان وصول الغزاة المذكورين إلى القاهرة، فى يوم الخميس ثانى عشر شهر رجب من سنة ثمان و أربعين المذكورة.

ثم فى يوم الاثنين ثالث شهر ربيع الآخر، خلع السلطان على الأمير سودون المحمدى أحد أمراء العشرات، باستقراره فى نيابة قلعة دمشق، بعد نقل الأمير جانبك الناصرى دوادار برسباى الحاجب منها، إلى حجوبية الحجاب بدمشق، بعد موت الأمير سودون النّوروزى.

و فيه استقر الأمير قنصوه النّوروزى الخارج على السلطان، فى نوبة الجكمى، فى نيابة ملطية، بعد عزل الأمير قيزطوغان العلائى، و قدومه إلى حلب، أتابكا بها، عوضا عن الصاحب خليل بن شاهين بحكم عزله و نفيه.

ثم فى يوم السبت رابع شهر رجب، وصل إلى القاهرة الأمير بردبك العجمى الجكمى، نائب حماة، و طلع إلى القلعة و قبّل الأرض، فنهره السلطان، و أمر بالقبض عليه، فأمسك و حبس بالقلعة، ثم سفّر إلى ثغر الإسكندرية فسجن بها؛ و سبب ذلك واقعة كانت بينه و بين أهل حماة، قتل فيها جماعة كبيرة من الحمويين، استوعبناها فى الحوادث [من غير هذا الكتاب]، و رسم السلطان للأمير قانى باى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١٥، ص: ٣٦۴

الأبوبكرىّ البهلوان، نائب صفد بنيابة حماة، و نقل الأمير بيغوت المؤيدى الأعرج نائب حمص إلى نيابة صفد.

ثم فى يوم الاثنين سادس شهر رجب المذكور، خلع السلطان على الأمير تنم من عبد الرزاق المؤيدى، الذى كان ولى حسبة القاهرة، باستقراره فى نيابة الإسكندرية، بعد عزل الأمير ألطنبغا المعلم اللّفّاف الظاهرى برقوق، و قدومه إلى القاهرة على إقطاعه، و قد زاده السلطان عدّة زيادات.

ثم فى يوم الخميس خامس عشر شعبان، قدم إلى القاهرة قاصد القان معين الدين شاه رخ بن تيمور لنك و فى خدمته نحو المائة نفر، و أتباع كثيرة، و كان معه أيضا امرأة عجوز من نساء تيمور لنك، قدمت برسم الحج إلى بيت اللّه الحرام؛ أقامت بدمشق لتتوجه فى الموسم صحبة الركب الشامى، و مع القاصد المذكور كسوة الكعبة التى أرسلها شاه رخ، و كان القاصد الذى قدم فى العام الماضى، استأذن السلطان فى ذلك، و اعتذر أن شاه رخ نذر أنه يكسو الكعبة، كما كان ذكر ذلك للملك الأشرف برسباى؛ و كان ذلك سببا لضرب الأشرف لقصّاده و الإخراق بهم.

فلما استأذن القاصد الملك الظاهر جقمق، أذن له و عاد القاصد بالجواب إلى شاه رخ، فأرسلها فى هذه السنة، صحبة هذا القاصد المذكور، و اعتذر الملك الظاهر بقوله: «إن هذه قربة، و يجوز أن يكسو الكعبة كائن من كان»؛ و عظم ذلك على أمراء الدولة و المصريين إلى الغاية، و نزل القاصد المذكور فى بيت جمال الدين الأستادّار بين القصرين.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١٥، ص: ٣۶۵

فلما كان يوم الاثنين حادى عشر شهر رمضان، طلع قاصد شاه رخ المذكور و رفقته إلى القلعة، و كان السلطان قد احتفل إلى طلوعهم، و نادى أن أحدا من أجناد الحلقة و المماليك السلطانية، لا يتأخر عن طلوع القلعة فى هذا اليوم، و عمل السلطان الخدمة بالحوش من القلعة، و لم تكن العادة بعمل الخدمة إلا فى إيوان القلعة، فأبطل السلطان ذلك و عملها فى الحوش، و طلعوا القصّاد و معهم التقدمة و الكسوة، فأمر السلطان بإدخال ما معهم إلى البحرة لئلا يفطن أحد بالكسوة المذكورة، و ترحّب السلطان بالقصّاد و أكرمهم و قرئ ما على يدهم من المكاتبة، و عادوا إلى جهة منزلهم، إلى أن وصلوا إلى بيت جمال الدين حيث سكنهم، و قد أطلقت الألسن فى حقهم بالوقيعة من العوام و الرجم المتتابع إلى البيت المذكور.

و حال دخولهم إلى البيت، نزل خلفهم فى الوقت من المماليك السلطانية الذين بأطباق القلعة، مقدار ثلاثمائة مملوك، و انضاف

إليهم جماعة كبيرة من المماليك البطّالين و العوام، و كبسوا على القصّاد المذكورين، و نهبوا جميع ما كان لهم، و كان شيئا كثيرا إلى الغاية، و أفحشوا فى النهب حتى أخذوا خيولهم، و كان قيمة ما نهب لهم من الفصوص الفيروزج الكرمانى و الشقق الحرير و المخمّل و المسك و أنواع الفرو و غير ذلك نيّف على عشرين ألف [۱۳۲] دينار و أكثر، و لو لا أن الأمير يلخجا الرأس نوبة الثانى، كان سكنه بالقرب منهم، فركب فى الحال بمماليكه و نجدهم، و منع الناس من نهبهم، ثم وصل إليهم الأمير إينال العلائى الدوادار الكبير، ثم الأمير تنبك حاجب الحجاب، و أمسكوا جماعة من العامة، و أخذوا ما كان معهم مما نهبوه، و إلا كان الأمر أعظم من ذلك.

و لما بلغ السلطان الخبر، غضب غضبا شديدا، و أمسك جماعة من العامة، و ضربهم

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۶۶

بالمقارع، و أبدع فيهم، و قطع أرزاق بعض المماليك السلطانية من الخدامة و أولاد الناس، ثم أعطى السلطان القصّاد شيئا كثيرا، و طيّب خواطرهم- انتهى.

ثم فى أواخر شهر رمضان المذكور، نفى السلطان الأمير أقطوه الموساوى الظاهرى [برقوق]، أحد أمراء الطبلخاناة إلى طرسوس، ثم شفع فيه فتوجّه إلى دمشق بطالا.

ثم [فى شوال] ورد الخبر على السلطان بنصرة مراد بك بن عثمان متملّك بلاد الروم على بنى الأصفر.

و فى هذه السنة، أبطل السلطان الرمّاحة الذين يلعبون بالرمح يوم دوران المحمل فى شهر رجب.

ثم فى يوم الاثنين، استقر محبّ الدين محمد بن الشّحنة الحنفى قاضى قضاة حلب و كاتب سرها، و ناظر الجيش بها، بسفارة الصاحب جمال الدين يوسف ناظر الخاص [الشريف].

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۶۷

ثم فى يوم الخميس خامس عشرين ذى القعدة، قدم الزينى عبد الباسط من دمشق إلى القاهرة، و هذه قدمته الثانية من يوم عزل و صودر، و طلع إلى السلطان فى يوم السبت سابع عشرينه، [و] خلع عليه كاملية بفرو سمّور، ثم قدم هديته إلى السلطان فى يوم الاثنين تاسع عشرينه، و كانت تشتمل على شىء كثير مع مبلغ كبير من الذهب.

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۴۹]

ثم فى يوم الخميس سادس عشر ذى الحجة خرجت تجريدة إلى البحيرة، و مقدم العسكر الأمير قراخجا الحسنى، الأمير آخور الكبير و معه ستة من الأمراء.

ثم فى يوم الخميس رابع عشر محرم سنة تسع و أربعين و ثمانمائة استقر الشيخ شمس الدين محمد القاياتى قاضى قضاة الشافعية بالديار المصرية، و صرف الحافظ شهاب الدين أحمد بن حجر، و نزل القاياتى بغير خلعة تورعا، و عليه طيلسانه، و بين يديه أعيان الدولة، و لما نزل إلى الصالحية لم يسمع الدعوى التى يدعيها بعض الرسل، و قال هذه حيلة، ثم قام و توجّه إلى داره، و فى ظن كل أحد أنه سيسير فى القضاء على قاعدة السلف، لما عهدوا من تقشفه و تعففه، فوقع بخلاف ما كان فى الظن، و مال إلى المنصب، و راعى الأكابر، و أكثر من النواب، و ظهر منه الميل الكلى إلى الوظيفة، حتى [لعله] لو عزل منها لمات أسفا عليها.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۶۸

ثم فى يوم الاثنين ثامن عشر المحرم المذكور خلع السلطان على الأمير يلخجا من مامش الساقى الناصرى الرأس نوبة الثانى، باستقراره فى نيابة غزة، بعد موت الأمير طوخ الأبوبكرىّ المؤيّدى قتيلا بيد العشير.

ثم فى يوم الاثنين العشرين من شهر ربيع الآخر، خلع السلطان على الأمير شادبك الجكمى، أحد مقدمى الألوف، باستقراره فى نيابة حماة، عوضا عن قانى باى البهلوان بحكم انتقاله إلى نيابة حلب، بحكم عزل قانى باى الحمزاوى عنها، و قدومه إلى مصر، على إقطاع

شاد بك المذكور.

ثم فى يوم الخميس خامس عشر جماد الأول من سنة تسع و أربعين المذكورة، رسم السلطان بنفى الأمير على باى العجمى المؤيدى أحد أمراء العشرات و رأس نوبة، إلى صفد ثم حوّل إلى دمشق بطالا، و أنعم بإمرته على الأمير جانبك اليشبكى الساقى و الى القاهرة، و أنعم بإقطاع جانبك المذكور على جماعة من الخاصكية الأشرفية، ممن كان نفى فى أول الدولة بدمشق و غيرها.

ثم فى يوم الاثنين رابع عشرين جماد الآخر؛ وصل الأمير قانى باى الحمزاوى نائب حلب، إلى القاهرة، و قبّل الأرض، و استقر من جملة مقدمى الألوف بها، و كان الكلام قد كثر فى أمره، و أشيع بعصيانه.

و فى هذا الشهر ندب السلطان مملوكه جانبك الظاهرى، الخاصّكى، إلى التكلم على بندر جدّة، و هذه أول سفرة سافرها جانبك المذكور، و مبدأ أمره فى التكلم على بند جدّة إلى يومنا هذا. و كان من خبر استمراره على التكلم فى البندر المذكور، أن السلطان كان فى كل سنة يندب للتكلم على البندر أحدا من الأمراء أو أعيان الخاصّكية، فيتوجه المذكور ثم يعود إلى القاهرة، و قد تغير خاطر السلطان عليه لأمور شتى، فيعزله السلطان على أقبح وجه، و منهم من يصادره و يأخذ منه الأموال

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۶۹

الكثيرة، و منهم من ينفى، و منهم من يرسم عليه و يبهدل، و قلّ من يسلم [۱۳۳] من ذلك. و قد وقع ذلك لجماعة كثيرة من الدولة الأشرفية [برسباى] إلى يوم تاريخه.

فلما ولى جانبك هذا، باشر البندر المذكور بمعرفة و حذق مع المهابة و وفور العقل و الحرمة و نفوذ الكلمة، و نهض بما لم ينهض به غيره ممن تقدمه. و أنا أقول:

و لا ممن تأخر عنه إلى يوم القيامة، على ما سيأتى بيان ذلك فى مواطن كثيرة من هذه الترجمة و غيرها؛ و قد استوعبنا حاله فى تاريخنا «المنهل الصافى» بأوسع من هذا، و أيضا ذكرنا أموره مفصّلا، فى تاريخنا «الحوادث» عند ذهابه إلى جدة و إيابه، و ما يقع له بها فى الغالب- انتهى.

ثم فى يوم الخميس ثالث شعبان، خلع السلطان على الأمير إينال العلائى الدّوادار الكبير، باستقراره أتابك العساكر بالديار المصرية، بعد موت الأمير الكبير يشبك السودونى المشدّ؛ قلت: و فى تولية إينال هذا للأتابكية فى يوم ثالث الشهر، رد على من يتشاءم بالحركة فى يوم ثالث الشهر، فإنه نقل من هذه الوظيفة إلى السلطنة، فأى شؤم وقع له فى ولايته؟- انتهى.

ثم خلع السلطان على الأمير قانى باى الجاركسى شادّ الشّراب خاناه باستقراره دوادارا كبيرا، عوضا عن إينال المذكور، و أنعم بإقطاع الأمير إينال المذكور على الشهابى أحمد بن على بن إينال اليوسفى، و صار أمير مائة و مقدم ألف بالديار المصرية.

و خلع السلطان على الأمير يونس السيفى آقباى، باستقراره شادّ الشراب خاناة، عوضا عن قانى باى الجاركسى، و استمر على إقطاعه إمرة عشرة، و وقع بسبب تولية الأمير إينال المذكور للأتابكية، كلام كثير فى الباطن، لكون السلطان قدّمه على الأمير

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۷۰

تمراز القرمشى أمير سلاح، و جرباش الكريمى أمير مجلس، و قراخجا الحسنى الأمير آخور الكبير؛ و هؤلاء الثلاثة من أكابر المماليك البرقوقية، و وظائفهم أيضا تقتضى الانتقال منها إلى الأتابكية، بخلاف وظيفة الدوادارية. و بلغ السلطان ذلك، أو فطن به، فلما كان يوم السبت خامسه، نزل من قلعة الجبل إلى خليج الزعفران، و صحبته جميع الأمراء إلى مخيم ضرب له به، و جلس فيه و أكل السماط، و دام هناك إلى قريب الظهر، ثم ركب و عاد إلى القلعة. و كان قصد [الملك] الظاهر بالنزول إلى خليج الزعفران فى هذا اليوم، استخفافا بالقوم، لأنهم أشاعوا أن جماعة تريد الركوب، فكأنه قال لهم بلسان حاله: «ها قد نزلت من القلعة بخليج الزعفران، من كان له غرض فى شيء فليفعله»، فلم يتحرك ساكن و انقمع كل أحد، فكانت هذه الفعلة من أحسن أفعاله و أعظمها.

ثم فى يوم الخميس سابع عشر شهر شعبان المذكور، خلع السلطان على الأمير الكبير إينال المذكور، خلعة نظر البيمارستان المنصورى،

و خلع على قانى باى الجاركسى خلعة الأنظار المتعلقة بالدّوادارية.

ثم فى يوم السبت سابع عشر شوال برز أمير حاجّ المحمل، الأمير دولات باى المحمودى المؤيدى الدوادار الثانى، بالمحمل إلى بركة الحاج على العادة، و أمير الركب الأول تمربغا الظاهرى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۷۱

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۵۰]

ثم فى يوم الخميس ثالث المحرم سنة خمسين و ثمانمائة، خلع السلطان على الصاحب خليل بن شاهين، المعزول عن نيابة ملطية قبل تاريخه، باستقراره فى نيابة القدس، عوضا عن طوغان العثمانى، بحكم توجهه حاجب حجاب حلب، بعد موت قانى باى الجكمى. و فيه استقر القاضى برهان الدين إبراهيم بن الديرى، فى نظر الجوالى مضافا لما بيده من نظر الإسطبلات السلطانية، عوضا عن ابن المحرّقى، بعد عزله.

ثم فى يوم الاثنين خامس صفر، أعيد قاضى القضاة شهاب الدين بن حجر، للقضاء، بعد موت قاضى القضاة شمس الدين القاياتى.

ثم فى يوم الثلاثاء سادس صفر أيضا، استقر القاضى ولىّ الدين السفطى، فى تدريس المدرسة الصلاحية بقبة الشافعى عوضا عن القاياتى.

ثم فى يوم السبت ثامن شهر ربيع الأول من سنة خمسين المذكورة، قدم إلى القاهرة الشريف محمد بن الشريف بركات بن حسن بن عجلان، و معه تقدمة من عند أبيه، ما بين خيول و غيرها؛ و أقام بالقاهرة إلى سلخ الشهر المذكور، و عاد إلى مكة، و قد أعطاه السلطان أمانا لأبيه بركات، و وعده بكل خير من ولاية مكة و غير ذلك.

ثم فى يوم الاثنين أول شهر ربيع الآخر، خلع السلطان على ولى الدين السفطى، باستقراره [۱۳۴] فى نظر البيمارستان المنصورى، عوضا عن القاضى محب الدين بن الأشقر ناظر الجيش، بحكم عزله عنها؛ و سار السفطى فى النظر المذكور، سيرة سيئة، و هو أنه صار يأخذ مالا يستحقه، و يدفعه لمن لا يستحقه، و حسابه على اللّه.

و فيه استقر أسنبغا مملوك ابن كلبك شادّ الشّون السلطانية، فى نيابة بعلبك، و لم يقع ذلك [فيما تقدم]. و العادة أن نائب دمشق، هو الذى يستقر بمن يختاره من

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۷۲

مماليكه فى نيابة بعلبك، هذا فى هذا الزمان، و أما الوالد فإنه ولى فى نيابته على دمشق، نيابة القدس و الرملة.

ثم فى أواخر جمادى الأولى، توغر خاطر السلطان على الأمير شاد بك الجكمى نائب حماة، و عزله عن نيابة حماة، و ولّى عوضه الأمير يشبك من جانبك المؤيدى الصوفى أحد أمراء الألوف بحلب، و كان السلطان نفى يشبك المذكور من مصر، ثم أنعم عليه بإمرة بحلب، و أنعم بإقطاع يشبك المذكور على خجداشه الأمير على باى العجمى المنفى أيضا، قبل تاريخه إلى دمشق؛ و رسم لشادّ بك المذكور، أن يتوجه إلى القدس بطّالا، و حمل تقليد يشبك المذكور بنيابة حماة، و تشريفه، الأمير تمربغا الظاهرى أحد أمراء العشرات.

و فى هذا الشهر، رسم السلطان بإطلاق جماعة من المماليك الأشرفية، ممن كان حبسهم فى أول دولته بالبلاد الشامية؛ و رسم بقدومهم إلى القاهرة.

ثم فى يوم الخميس سابع عشر شوال، برز أمير حاجّ المحمل، الأمير سونجبغا اليونسى الناصرى [فرج] أحد أمراء العشرات و رأس نوبة، بالمحمل إلى بركة الحاج، و أمير الركب الأول الأمير سمام الحسنى الظاهرى برقوق أحد أمراء العشرات، و سافرت فى هذه السنة إلى الحجاز، زوجة السلطان الملك الظاهر جقمق، خوند مغل بنت [القاضى ناصر الدين بن] البارزى، و معها أيضا زوجة السلطان بنت ابن

دلغادر، و حجّ فى هذه السنة أيضا القاضى كمال الدين بن البارزى كاتب السر [الشريف]، صحبة أخته خوند المذكورة، فى الركب الأول، و سافر كمال الدين [المذكور] بتجمل كبير، و فعل فى سفرته من الخيرات و الإحسان لأهل مكة ما سيذكر إلى الأبد.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۷۳

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۵۱]

ثم فى يوم السبت، أول محرم سنة إحدى و خمسين و ثمانمائة، خلع السلطان على قاضى القضاة علم الدين صالح البلقينى، باستقراره قاضى القضاة الشافعية بالديار المصرية، بعد عزل قاضى القضاة شهاب الدين أحمد بن حجر.

و فيه استقر السيفى آقبردى الساقى الظاهرى جقمق، فى نيابة قلعة حلب، عوضا عن تغرى بردى الجاركسى، بحكم عزله و توجهه إلى دمشق، و كان آقبردى المذكور، توجه إلى حلب فى أمر متعلق بالسلطان.

و فيه أنعم السلطان على خليل بن شاهين الشيخى، بإمرة مائة و تقدمة ألف بدمشق، عوضا عن قيز طوغان، بحكم القبض عليه و حبسه بقلعة دمشق، بسبب ما وقع منه، لما توجّه أمير حاجّ الركب الشامى من إحراقه باب المدينة الشريفة لسبب من الأسباب.

و فيه أيضا استقر الأمير يشبك الحمزاوى دوادار السلطان بحلب، فى نيابة غزة، عوضا عن حطط بحكم عزله و توجهه إلى دمشق بطالا؛ و أنعم بإقطاع يشبك الحمزاوى، و هو تقدمة ألف بحلب، على الأمير سودون من سيّدى بك الناصرى المعروف بالقرمانى. و أنعم بإقطاع سودون القرمانى و هو إمرة عشرة، على الأمير على باى [العلائى] الأشرفى [برسباى] شادّ الشراب خاناة كان.

ثم فى يوم الخميس رابع صفر من سنة إحدى و خمسين، خلع السلطان على مملوكه سنقر الظاهرى، باستقراره أستادار الصحبة، بعد موت أيتمش من أزوباى المؤيدى.

ثم فى يوم الخميس حادى عشر صفر المذكور، رسم السلطان بنفى الأمير تغرى

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۷۴

برمش الجلالى الفقيه، نائب قلعة الجبل، إلى القدس بطالا، و استقر الأمير يونس العلائى الناصرى أحد أمراء العشرات، عوضه فى نيابة قلعة الجبل؛ و أنعم بإقطاع تغرى برمش المذكور، على شريكه الأمير جانبك النّوروزى المعروف بنائب بعلبك، زيادة على ما بيده؛ و لبس المقدم ذكره خلعة نيابة القلعة، فى يوم الاثنين خامس عشر صفر.

ثم فى يوم الخميس ثالث شهر ربيع الأول، خلع السلطان على الأمير برسباى الساقى السيفى تنبك البجاسى، باستقراره فى نيابة الإسكندرية، بعد عزل الأمير تنم [من عبد الرزاق المؤيدى] عنها و ذلك بسفارة [۱۳۵] عظيم الدولة الصاحب جمال الدين يوسف ناظر الخاص الشريف. و فيه خلع السلطان على الأمير جانبك النّوروزى المقدم ذكره المعروف بنائب بعلبك، باستقراره أمير المماليك [السلطانية] المجاورين بمكة المشرفة.

ثم فى يوم الاثنين حادى عشرين شهر ربيع الأول المذكور، رسم بنقل الأمير برسباى الناصرى، من نيابة طرابلس إلى نيابة حلب، بعد موت الأمير قانى باى الأبوبكريّ الناصرى البهلوان. و رسم بنقل الأمير يشبك المؤيدى الصوفى، من نيابة حماة إلى نيابة طرابلس، عوضا عن برسباى المذكور، و خلع السلطان على الأمير تنم بن عبد الرزاق المؤيدى المعزول عن نيابة الإسكندرية، باستقراره فى نيابة حماة، عوضا عن يشبك الصوفى، رشحه إلى ذلك المقرّ الجمالى ناظر الخواصّ، و حمل إلى برسباى نائب حلب التقليد و التشريف، الأمير جرباش المحمدى الناصرى [فرج] الأمير آخور

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۷۵

الثانى المعروف بكرت؛ و توجه بتقليد يشبك بنيابة طرابلس، الأمير قراجا الظاهرى الخازندار الكبير، و استقر مسفّر تنم بنيابة حماة، الأمير لاجين الظاهرى الساقى، فصالحه الأمير تنم على عدم سفره صحبته، على ثلاثة آلاف دينار.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة؛ ج۱۵؛ ص۳۷۵

فی یوم الخمیس ثامن شهر ربیع الآخر استقر الأمیر سودون السودونی الظاهری [برقوق]، من جملة الحجّاب، و کان سودون المذکور قد ولی الحجوبیة الثانیة قبل ذلک؛ قلت: درجة إلی أسفل.

ثم فی یوم الخمیس خامس عشره، خلع السلطان علی القاضی ولیّ الدین السّفطی، باستقراره قاضی قضاة الدیار المصریة، بعد عزل قاضی القضاة علم الدین صالح البلقینی، مضافا لما بیده من تدریس الشافعی، و نظر البیمارستان، و نظر الکسوة، و وکالة بیت المال، و مشیخة الجمالیة و نظرها، و غیر ذلک من الوظائف. و مع هذا کله، و البلص عمّال و الشحاذة فی کل یوم، من الأمیر الکبیر، إلی مقدم الجبلیّة، و سار فی القضاء أقبح سیرة، و سلک مع الناس طریقا غیر محمودة، من الحطّ علی الفقهاء و الترسیم علیهم، و الإفحاش فی أمرهم، لا سیما ما فعله مع مباشری الأوقاف.

و فی هذا الشهر خلع السلطان علی شخص [من الباعة] یعرف بأبی الخیر النحاس شهرة و مکسبا، باستقراره فی وکالة بیت المال، عوضا عن السفطی، و هذا أول خمول السفطی، و مبدأ أمر [أبی الخیر] النحاس، و ما سیأتی من أمرهما فأعجب.

و لا بد من التعریف بأصل أبی الخیر المذکور، و سبب ترقّیه و إن کان فی ذلک

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۷۶

نوع إطالة، فیحتمل ذلک لنوع من الأنواع، فنقول: اسمه محمد و کنیته أبو الخیر، و بکنیته أشهر، [ابن محمد] بن أحمد بن محمد المصری الأصل و المولد، الشافعی النحّاس، نشأ تحت کنف والده و حفظ القرآن، و تعلم من والده و جده صناعة عمل النحاس، و مهر فیه، و اتخذ له حانوتا بسوق النحاس بخط الشوّائین بالقرب من دکان أبیه، و أخذ فی حانوته و أعطی حتی صار بینه و بین الناس معاملات و مشارکات، ألجأه ذلک لتحمل الدیون، إلی أن عامله الشیخ أبو العباس الوفائی، و صار له [علیه] جمل مستکثرة من الدیون، و کان الستر مسبولا بینهما أولا، ثم وقع بینهما وحشة، [و کان] ذلک هو السبب بوصلة النّحاس هذا بالملک الظاهر [جقمق]، و هو أن أبا العباس لما ماطله أبو الخیر المذکور، أخذ فی الإلحاح علیه فی طلب حقه و الدعوی علیه بمجالس الحکام، و التجرؤ علیه و المبالغة فی إنکائه، بحیث أنه ادعی علیه مرة عند الأمیر سودون السودونی الحاجب، بعد أن أخرجه من السجن محتفظا به، فضربه سودون المذکور، علقتین فی یوم واحد، و دام هذا الأمر بینهما أشهرا، بل و سنین.

و صار أبو العباس لا یرق لفقر أبی الخیر و إفلاسه و عدم موجوده، بل یلح فی طلب حقه؛ فعند ذلک أخذ أبو الخیر النحاس فی مرافعة أبی العباس المذکور، بأن الذی

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۷۷

بیده من المال إنما هو من [جملة] ذخائر الصفوی جوهر القنقبائی الخازندار، و قد بقیت عند أبی العباس بعد موت جوهر، و لا زال أبو الخیر یجتهد فی ذلک، إلی أن توصل إلی السلطان، و أنهی فی حق أبی العباس ما تقدم ذکره، و علیه محاققة ذلک و إظهار الحق فی جهته؛ فلما سمع السلطان کلامه مال إلیه و قال له: قد وکلتک فی طلب الحق من أبی العباس.

[۱۳۶] فنزل أبو الخیر فی الحال من بین یدی السلطان، و قد صار مطالبا بعد ما کان مطلوبا، و ادعی علی أبی العباس المذکور بدعاو کثیرة، یطول الشرح فی ذکرها؛ و خدمه السعد فی إظهار بعض موجود جوهر من عند أبی العباس المذکور، فحسن ذلک ببال السلطان، و نبل أبو الخیر فی عین السلطان، و وکله بعد مدة فی جمیع أموره؛ کل ذلک فی سنة ست و أربعین و ثمانمائة، و تردد [أبو الخیر] النحاس إلی السلطان، و حسن حاله من لبس القماش النظیف و رکوب الحمار، و اکتسی کسوة جیدة، کل ذلک و أبو الخیر یلح فی طلب المال من أبی العباس، ثم التفت إلی غیر ذلک مما یعود نفعه علی السلطان، و بقی بسبب ذلک یکثر الطلوع إلی القلعة، و صار یتقرب إلی السلطان بهذه الأنواع؛ فمشی أمره و ظهر عند العامة اسمه؛ و استمر علی ذلک إلی سنة ثمان و أربعین، فرکب فرسا من غیر لبس خفّ و لا مهماز، و صار یطلع إلی القلعة فی کل یوم مرة بعد نزول أرباب الدولة من الخدمة، و یتقاضی أشغال السلطنة.

کل ذلک و أعیان الدولة لا تلتفت إلیه، و لا یعاکسه أحد فیما یرومه، لعدم اکتراثهم به و إهمالهم أمره، لوضاعته لا لجلالته؛ فاستفحل أمره بهذه الفعلة، و طالت یده فی الدولة، فأول ما بدأ به أخذ فی معارضة السفطی، و ساعده فی ذلک سوء سیرة السفطی و ملل السلطان منه، فولیّ عنه وکالة بیت المال، ثم أخذ أمره یتزاید بعد

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۷۸

ذلک، علی ما سیأتی ذکره مفصلا. و قد استوعبنا حاله فی تاریخنا «المنهل الصافی» بأطول من هذا إذ هو کتاب تراجم لا غیر، [و أما أمره فی تاریخنا «حوادث الدهور» فهو مفصّل بالیوم و الساعة من أول أمره إلی آخره - انتهی].

ثم فی یوم السبت أول جمادی الأولی، برز المرسوم الشریف باستقرار خیر بک الأجرود المؤیدی، أحد مقدمی الألوف بدمشق، فی أتابکیة دمشق، بعد موت الأمیر إینال الششمانی الناصری، و أنعم السلطان بإقطاع خیر بک المذکور، علی الأمیر خشقدم الناصری المؤیدی، أحد أمراء العشرات [و رأس نوبة] بالقاهرة، أعنی الملک الظاهر خشقدم عز نصره.

ثم فی یوم الاثنین ثامن جمادی الآخرة، خلع السلطان علی الصاحب أمین الدین إبراهیم بن الهیصم، ناظر الدولة باستقراره فی الوزارة عوضا عن الصاحب کریم الدین عبد الکریم ابن کاتب المناخ، بحکم طول مرضه، و هذه ولایة الصاحب أمین الدین الثانیة للوزر.

ثم فی یوم الاثنین سابع عشرین [شهر] رجب، برز المرسوم الشریف، علی ید الأمیر إینال أخی قشتم المؤیدی، باستقرار الأمیر تنم من عبد الرزاق المؤیدی نائب حماة، فی نیابة حلب، عوضا عن الأمیر برسبای الناصری، بحکم استعفائه عن نیابة حلب، لطول لزومه الفراش. و رسم أیضا بنقل الأمیر بیغوت، من صفر خجا المؤیدی الأعرج نائب صفد إلی نیابة حماة، عوضا عن تنم المذکور، و حمل إلیه التقلید و التشریف الأمیر یلبغا الجارکسی أحد أمراء العشرات، و رأس نوبة؛ و رسم باستقرار الأمیر یشبک الحمزاوی نائب غزة، فی نیابة صفد؛ و رسم باستقرار طوغان

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۷۹

العثمانی حاجب الحجاب بحلب، فی نیابة غزة، عوضا عن یشبک الحمزاوی، و استقر فی حجوبیة حلب الأمیر جانبک المؤیدی المعروف بشیخ، أحد أمراء طرابلس.

ثم فی یوم الخمیس أول شعبان، قدم الشریف برکات بن حسن بن عجلان، و نزل الملک الظاهر [جقمق] إلی لقائه بمطعم الطیور بالرّیدانیة، خارج القاهرة، و بالغ السلطان فی إکرام برکات المذکور، و قام إلیه و مشی له خطوات، و أجلسه بجانبه، ثم خلع علیه، و قیّد له فرسا بسرج ذهب و کنبوش زرکش، و رکب مع السلطان، و سار إلی قریب قلعة الجبل، فرسم له السلطان بالعود إلی محلّ أنزله به، و هو مکان أخلاه له المقرّ الجمالی ناظر الخواص، و رتب له الرواتب الهائلة، و قام الجمالیّ المذکور بجمیع ما یحتاج إلیه برکات، من الکلف و الخدم السلطانیة و غیرها، و کان أیضا هو القائم بأمره، إلی أن أعاده إلی إمرة مکة [۱۳۷] و السّفیر بینهما [الخواجا] شرف الدین موسی التتائی [الأنصاری] التاجر.

ثم فی یوم الخمیس سابع شهر رمضان، خلع السلطان علی الأمیر بیسق الیشبکی، أحد أمراء العشرات، باستقراره فی نیابة دمیاط، بعد عزل الأمیر بتخاص العثمانی الظاهری برقوق.

ثم فی یوم الخمیس رابع عشره، خلع السلطان علی أبی الخیر النحاس المقدم ذکره، باستقراره فی نظر الجوالی، عوضا عن برهان الدین بن الدیری.

ثم فی یوم الخمیس خامس شوال، خلع السلطان علی الأمیر تمراز من بکتمر المؤیدی المصارع، أحد أمراء العشرات، باستقراره فی نیابة القدس، بعد عزل خشقدم السیفی سودون من عبد الرحمن.

ثم فی یوم الاثنین أول ذی القعدة، أنعم السلطان أسنبای الجمالی الظاهری جقمق

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۸۰

الساقى، بإمرة عشرة، بعد موت إينال أخى قشتم، و أنعم بوظيفة أسنباى السقاية على جانم الظاهرى جقمق.

ثم فى يوم الأربعاء ثالثه، برز الأمر [الشريف] بحبس الأميرين المقيمين بالقدس الشريف، و هما: شادّ بك الجكمى المعزول عن نيابة حماة، و إينال الأبوبكرىّ الأشرفى، فحبسا بقلعة صفد.

ثم فى يوم الاثنين ثامن ذى القعدة، استقر شاهين الظاهرى ساقيا، عوضا عن جكم قلق سيز بحكم تغير خاطر السلطان عليه.

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۵۲]

ثم فى محرم سنة اثنتين و خمسين و ثمانمائة رسم السلطان للأمير يشبك طاز المؤيدى أحد أمراء دمشق، بحجوبية طرابلس عوضا عن يشبك النوروزى.

ثم فى يوم الأربعاء حادى عشرين المحرم، وصل الركب الأول من الحاج، صحبة الأمير الطّواشى عبد اللطيف المنجكى ثم العثمانى، مقدم المماليك السلطانية، و أصبح قدم من الغد أمير حاج المحمل الأمير تنبك البردبكى حاجب الحجاب بالمحمل.

ثم فى يوم الجمعة ثالث عشرين المحرم [المذكور] رسم السلطان بنفى الأمير قراجا العمرى الناصرى، أحد المقدمين بدمشق، إلى سيس، و أنعم بتقدمته على الأمير مازى الظاهرى [برقوق] نائب الكرك كان.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۸۱

ثم فى يوم الخميس ثامن عشرين صفر، رسم بإطلاق قيزطوغان من محبسه بقلعة دمشق، بشفاعة الأمير جلبان نائب دمشق. و فيه أيضا رسم بمجىء كسباى الدّوادار المؤيدى المجنون، من طرابلس إلى القاهرة، بشفاعة جرباش قاشق.

ثم فى يوم الأحد أول شهر ربيع الأول، رسم السلطان بتبقية الأمير قيزطوغان فى الحبس، و ردّت المراسيم التى كانت كتبت بإطلاقه بواسطة زين الدين يحيى الأشقر الأستادار.

ثم فى يوم الاثنين ثانى ربيع الأول، عاد الأمير جلبان إلى محل كفالته بدمشق.

ثم فى يوم الثلاثاء ثالثه، عزل السلطان الأمير عبد اللطيف [زين الدين] الطواشى [العثمانى] عن تقدمة المماليك السلطانية، و خلع على الطواشى جوهر النوروزى نائب مقدم المماليك باستقراره فى تقدمة المماليك عوضا عن عبد اللطيف المذكور. ثم فى يوم الخميس خامسه، استقر عوضه نائب مقدم المماليك مرجان العادلى [المحمودى].

ثم فى يوم السبت حادى عشرينه، استقر أبو الخير النحاس فى نظر الكسوة، عوضا عن السفطى؛ ثم فى يوم الأربعاء ثالث شهر ربيع الآخر، عزل السلطان السفطىّ عن قضاء الديار المصرية.

ثم فى يوم الخميس رابعه، استقر برهان الدين إبراهيم بن ظهير، فى نظر الإسطبل السلطانى، عوضا عن برهان الدين إبراهيم بن الديرى. و فيه ولى الشيخ [شرف الدين] يحيى المناوى، تدريس قبة الشافعى، عوضا عن السفطى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۸۲

و فى يوم السبت سادسه، نكب شمس الدين محمد الكاتب، و عزّر و امتحن حسبما ذكرناه فى الحوادث مفصلا.

ثم فى يوم الأحد سابع شهر ربيع الآخر، أعيد قاضى القضاة شهاب الدين بن حجر إلى القضاء، بعد عزل السفطى، و استقر أيضا فى مشيخة الخانقاه البيبرسية، على عادته، و لبس خلعتهما من الغد فى يوم الاثنين.

ثم فى يوم الخميس حادى عشره، استقر أبو الخير النحاس ناظر البيمارستان المنصورى عوضا عن السفطى. ثم فى يوم [۱۳۸] الاثنين لبس السفطى كاملية خضراء بسمّور، بعد أن حمّل مبلغ خمسة آلاف دينار و خمسمائة دينار، بسبب أنه ادّعى [عليه] أنه تناولها من وقف الكسوة.

ثم فى يوم الاثنين ثانى عشرين ربيع الآخر المذكور، عزل الأمير تمراز البكتمرى المؤيدى المصارع عن نيابة القدس.

و فى هذا الشهر طلق السلطان زوجته خوند الكبرى مغل بنت البارزى.

ثم فى يوم الاثنين سابع عشرين جمادى الأولى المذكور خلع السلطان على الأمير قانى باى الحمزاوى، أحد مقدمى الألوف بالديار المصرية، باستقراره فى نيابة حلب، ثانيا بعد عزل الأمير تنم المؤيدى عنها، و قدومه إلى القاهرة، على إقطاع قانى باى [الحمزاوى] المذكور؛ و استقر يونس العلائى الناصرى نائب قلعة الجبل، مسفّر قانى باى، فصالحه السلطان عنه، بمبلغ كبير من الذهب؛ لقلة موجود قانى باى [المذكور].

و فيه استقر الأمير بيسق اليشبكى أحد أمراء العشرات بالقاهرة، فى نيابة قلعة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۸۳

دمشق، بعد موت شاهين الطّوغانى، و فرّق السلطان إقطاع بيسق، على كسباى المجنون المؤيدى و غيره، بواسطة المقر الجمالى ناظر الخواص الشريفة.

ثم فى يوم الاثنين حادى عشره، برز الأمير قانى باى الحمزاوى، إلى محل كفالته بحلب.

ثم فى يوم الأحد رابع عشرين جمادى الآخرة، أمر السلطان بنفى الأمير تمراز المصارع المعزول عن نيابة القدس، إلى دمشق، ثم شفع فيه و أعيد بعد أيام، بعد أن أخرج السلطان إقطاعه إلى أزبك من ططخ الساقى الظاهرى، و الإقطاع إمرة عشرة؛ و استقر خشقدم السيفى سودون من عبد الرحمن فى نيابة القدس، عوضا عن تمراز المذكور، و استقر إينال الظاهرى الخاصّكى ساقيا، عوضا عن أزبك من ططخ.

ثم فى يوم الاثنين خامس عشرين جمادى الآخرة المذكور، عزل الحافظ شهاب الدين بن حجر نفسه عن قضاء الشافعية، و لم يلها بعد ذلك، إلى أن مات. و خلع السلطان فى يوم الثلاثاء سادس عشرينه، على قاضى القضاة علم الدين صالح البلقينى، و أعيد إلى قضاء الديار المصرية عوضا عن ابن حجر [المذكور].

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۸۴

ثم فى يوم الاثنين ثالث شهر رجب، رسم السلطان بإطلاق إينال الأبوبكرىّ من حبس صفد، و توجّهه إلى القدس بطالا.

ثم فى يوم الأربعاء خامس [شهر] رجب، منع ولى الدين السفطى من طلوع القلعة، و الاجتماع بالسلطان؛ ثم رسم بتوجهه إلى بيت قاضى القضاة الحنفى، للدعوة عليه، فتوجه و ادعى عليه جماعة، بحقوق كثيرة، فحلف عن بعضها ثلاثة أيمان، و اعترف بالبعض، ثم نقل إلى القاضى المالكى، و ادّعى عليه أيضا بدين فصالح المدعى على ثلثمائة دينار.

ثم رسم السلطان بمنع اليهود و النصارى من طب أبدان المسلمين.

ثم عزل السفطى عن مشيخة المدرسة الجماليّة، و درس التفسير بها. ثم فى يوم ثالث عشرينه، رسم بمجىء السفطى إلى بيت قاضى القضاة علم الدين [صالح] البلقينى الشافعى ليدعى عليه الزينى قاسم المؤذى الكاشف، بسبب حمامه التى بباب الخرق، و كان السفطى اشتراها منه فى أيام عزه، فحضر السفطى إلى مجلس القاضى، و ادعى عليه قاسم، بأنه كان أوقفها قبل بيعها، و أن الشراء لم يصادف محلا، و أنه أكرهه على تعاطى البيع، و خرج قاسم لإثبات ذلك، و لما خرج السفطى من بيت القاضى، عارضه شخص آخر و أمسكه من طوقه و عاد به إلى مجلس القاضى، و ادعى عليه أنه غصب منه خشبا و غيره، فأنكر السفطى، فطلب تحليفه و التغليظ عليه، فصالحه على شىء، و مضى إلى داره؛ و أخذ فى السعى إلى أن أعاده السلطان إلى مشيخة الجمالية على عادته.

ثم فى يوم الخميس سابع عشرين [شهر] رجب، أمر السلطان ناصر الدين محمد بن

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۸۵

أبى الفرج، نقب الجيش، أن يأخذ السفطى، و يمضى به إلى بيت قاضى القضاة الشافعى، ثانيا، لسماع بيّنة الإكراه منه لقاسم الكاشف، فتوجّه السفطى و سمع ذلك، و ذكر أن له دافعا و خرج ليبديه، فبلّغ بعض أعداء السفطى السلطان أنه يمتنع من التوجه إلى الشرع، و

وغّر خاطر السلطان علیه، فأمر السلطان قانی بک السیفی یشبک ابن أزدمر [۱۳۹] أحد الدواداریة، فی یوم الأحد سلخ [شهر] رجب، أن یتوجه إلی السفطی و یأخذه و یمضی به إلی حبس المقشرة، و یحبسه به مع أرباب الجرائم، فتوجه إلیه قانی بک المذکور، و حبسه بالمقشرة، و قد انطلقت الألسن بالوقیعة فی حقه، و لو لا رفق قانی بک به لقتلته العامة فی الطریق. و من لطیف ما وقع للسفطی، أنه لما حبس بسجن المقشرة، دخل إلیه بعض الناس، و کلمه بسبب شیء من تعلقاته، و خاطبه الرجل المذکور بیامولانا قاضی القضاة، فصاح السفطی بأعلی صوته:

«تقول لی قاضی القضاة! أما تقول: یالص یا حرامی یا مقشراوی!» فقال له الرجل:

«یالص یا حرامی یا مقشراوی!».

ثم فی یوم الاثنین أول شعبان، وصل الأمیر تنم من عبد الرزاق المؤیدی المعزول عن نیابة حلب، و طلع إلی السلطان، و قبّل الأرض، فأکرمه السلطان و خلع علیه، و أجلسه تحت أمیر مجلس جرباش الکریمی، و أنعم علیه بإقطاع قانی بای الحمزاوی، و أرکبه فرسا بسرج ذهب و کنبوش زرکش؛ کل ذلک بعنایة عظیم الدولة الصاحب جمال الدین ناظر الخاص لصحبة کانت بینهما.

و فی هذا الیوم، أخرج ولیّ الدین السفطی من سجن المقشرة، و ذهب ماشیا من

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۸۶

السجن إلی بیت قاضی القضاة علم الدین صالح البلقینی ثم توجّه منه راکبا إلی المدرسة الصالحیة، و حضر قاضی القضاة أیضا بالصالحیة، فلم ینفصل له أمر، و أطلق من الغد من الترسیم.

ثم فی یوم الاثنین ثامن شعبان، رسم السلطان لقاضی القضاة بدر الدین [محمد] ابن عبد المنعم البغدادی الحنبلی، بطلب السفطی، و سماع الدعوی علیه و الترسیم علیه، بسبب الحمّامین و الفرن و الدکاکین بحارة زویلة، فإنه ظهر أنهم کانوا فی جملة وقف الطّیبرسیة، فتجمّل القاضی الحنبلی فی حق السفطی، فلم یعجب ذلک أعداءه، و عرّفوا السلطان بذلک، فرسم فی یوم السبت ثالث عشر شعبان بتوجهه إلی حبس المقشرة ثانیا، بسبب الدکاکین و الحمامین التی بحارة زویلة، ثم شفع فیه.

ثم فی یوم السبت سابع عشرین شعبان ادّعی علی القاضی ولی الدین السفطی، بمجلس القاضی ناصر الدین بن المخلّطة المالکی، بحضور قاضی القضاة بدر الدین الحنبلی، بسبب الحمّامین و ما معهما، و خرج علی الأعذار.

ثم فی یوم الأربعاء أول شهر رمضان، حضر السفطی و غرماؤه، و القاضی ناصر الدین بن المخلطة عند قاضی القضاة بدر الدین الحنبلی، و انفصل المجلس أیضا علی غیر طائل، و ادعی السفطی أن السلطان رسم بأن لا یدّعی علیه عند ابن المخلطة، و کان ذلک غیر صحیح، فلم یسمع له ذلک، و لا زال الحنبلی یعتنی به، حتی صالح جهة وقف طیبرس، بألف دینار. ثم فی یوم السبت خلع السلطان علی السفطی کاملیة بفرو سمّور، بعد أن حمّل أربعة آلاف دینار.

ثم فی یوم الجمعة ثالث [شهر] رمضان، أنعم السلطان علی مملوکه سنقر الخاصّکی، المعروف بالجعیدی، بإمرة عشرة، بعد موت الأمیر صرغتمش القلمطاوی،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۸۷

زیادة علی ما بیده من حصة بشبین القصر.

ثم فی یوم السبت سابع عشر شوال، برز أمیر حاجّ المحمل الأمیر سونجبغا الیونسی بالمحمل، و أمیر الرکب الأول الأمیر قانم المؤیدی التاجر.

ثم فی یوم الاثنین عشرین شهر رمضان، خرج الأمیر جانبک الظاهری، المتکلم علی بندر جدّة، إلیها بممالیکه و حواشیه علی عادته فی کل سنة.

ثم فی یوم الثلاثاء ثامن عشر ذی القعدة استقر الأمیر خیر بک النّوروزی، حاجب صفد فی نیابة غزة، بعد عزل طوغان العثمانی عنها، و

ذلك بمال كبير بذله له فى ذلك، لوضاعة خير بك المذكور فى الدولة.

و استهل ذو الحجة أوله الأحد، فيه ظهر الطاعون فى الديار المصرية و أخذ فى التزايد.

و فى يوم الخميس خامس ذى الحجة، استقر [علاء الدين] على بن إسكندر ابن أخى زوجة كمشبغا الفيسى، معلم السلطان، على العمائر، عوضا عن [الناصر] محمد ابن حسين بن الطولونى، بحكم وفاته.

ثم فى يوم السبت حادى عشرينه [۱۴۰]، استقر الحكيم ابن العفيف الشهير بقوالح، أحد مضحكى المقر الجمالى ناظر الخواص، بسفارته فى رئاسة الطب و الكحل بمفرده.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۸۸

ثم فى يوم الأحد ثانى عشرين ذى الحجة المذكور، استقر علاء الدين على بن محمد ابن آقبرس، فى حسبة القاهرة، عوضا عن يرعلى الخراسانى، بمال بذله فى ذلك، و كان أصل ابن آقبرس هذا عنبريّا بسوق العنبر، فى حانوت، ثم اشتغل بالعلم، و تردد الأكابر، و اتصل بالملك الظاهر جقمق فى أيام إمرته، و ناب فى الحكم عن القضاة الشافعية، إلى أن تسلطن [الملك] الظاهر جقمق، فصار ابن آقبرس هذا من ندمائه، و ولى نظر الأوقاف وعدة وظائف أخر، و كان أيضا من جملة مبغضى السفطى و ممن يعيب عليه أفعاله القبيحة من البلص و الطلب من الناس، و سمّاه «الهلب»؛ على أن ابن آقبرس أيضا كان من مقولة [السفطى] و زيادة.

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۵۳]

ثم فى يوم الخميس حادى عشر محرم سنة ثلاث و خمسين و ثمانمائة ضربت رقبة أسد الدين الكيماوى، بمقتضى الشرع، بعد أمور وقعت له، ذكرناها مفصلا فى تاريخنا «حوادث الدهور [فى مدى الأيام و الشهور]».

و فى هذا الشهر، تشاكى الأمير تمراز المؤيدى نائب القدس كان، و ناظر القدس

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۸۹

عبد الرحمن بن الديرى، فمال السلطان على ابن الديرى و بهدله، فأمر به فجعل فى عنقه جنزير، إلى أن شفع فيه عظيم الدولة الجمالىّ ناظر الخواص الشريفة.

ثم فى يوم السبت ثالث عشره، توجه تمراز المذكور، و عبد الرحمن [ابن الديرى] و أبو الخير النحاس، إلى بيت ناظر الخاص المذكور، و جلسوا بين يديه إلى أن أصلح بينهما، و أنعم على كل منهما بفرس مسروج، و أنعم على أبى الخير بشىء، فقبّل الثلاثة يده و خرجوا من عنده، و أبو الخير يوم ذاك فى تنبوك عزه و عظم تعاظمه على جميع أرباب الدولة، إلا الصاحب جمال الدين [هذا] فإنه معه على حالته الأولى إلى الآن.

[هذا] و قد فشا أمر الطاعون بالقاهرة و تزايد، ثم أهلّ صفر من سنة ثلاث و خمسين، يوم الأربعاء، فيه عظم الطاعون، و مات فى هذا الشهر جماعة كبيرة من الأمراء، و أعيان الدولة، على ما سيأتى ذكره فى الوفيات من هذا الكتاب.

ثم فى يوم الأحد ثانى عشر صفر، أعيد القاضى برهان الدين إبراهيم بن الديرى إلى نظر الإسطبل السلطانى، بعد موت برهان الدين بن ظهير.

و فى يوم الاثنين ثالث عشره استقر الأمير جرباش الكريمى الظاهرى أمير مجلس، أمير سلاح، بعد موت الأمير تمراز القرمشى الظاهرى؛ و فيه أيضا استقر الأمير تنم المعزول عن نيابة حلب، أمير مجلس، عوضا عن جرباش المذكور؛ و فيه أنعم

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۹۰

السلطان على الأمير دولات باى المحمودى المؤيدى الدّوادار الثانى، بإمرة مائة و تقدمة ألف، بعد موت تمراز القرمشى، و صار من جملة أمراء الألوف؛ و أنعم بإقطاعه على الأمير يونس الأقبائى شادّ الشراب خاناه، و الإقطاع إمرة طبلخاناه، و أنعم بإقطاع يونس على

الأمير [السيفى] جانبک رأس نوبة الجمدارية الظاهرى جقمق، و على مغلباى طاز الساقى الظاهرى أيضا، لكل واحد منهما إمرة عشرة.

ثم فى يوم الخميس سادس عشر صفر، استقر الأمير تمربغا الظاهرى جقمق، دوادارا ثانيا، عوضا عن دولات باى المقدم ذكره، على إمرة عشرة- و فيه أيضا، أنعم السلطان على قانى باى المؤيدى الساقى، المعروف بقراسقل، بإمرة عشرة، بعد موت إينال اليشبكى.

ثم فى يوم الاثنين عشرين صفر، و وافقه أول خمسين النصارى، تناقص الطاعون.

ثم فى يوم الخميس ثالث عشرينه، أنعم السلطان على الأمير يشبک الفقيه المؤيدى،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۹۱

بإقطاع الأمير بختک الناصرى بعد موته، و أنعم بإقطاع يشبک المذكور على الشهابى أحمد، من الأمير الكبير إينال العلائى، و كلاهما إمرة عشرة. و فيه أيضا، أنعم السلطان على مغلباى الشهابى رأس نوبة الجمدارية، بإمرة عشرة، عوضا عن مغلباى الساقى، بعد موته، و كان مغلباى أخذ الإمرة [۱۴۱] قبل موته بأيام يسيرة، حسبما تقدم ذكره.

و فى يوم الخميس هذا، أنعم السلطان بإقطاع الأمير قراخجا الحسنى الأمير آخور، بعد موته، على الأمير تنم أمير مجلس، و أنعم بإقطاع تنم على الأمير جرباش المحمدى الناصرى الأمير آخور الثانى المعروف بكرت، و صار من جملة المقدمين؛ و أنعم بإقطاع جرباش المذكور و وظيفته الأمير آخورية الثانية، على الأمير سودون المحمدى المؤيدى، المعروف بسودون أتمكجى؛ و أنعم بإقطاع سودون [أتمكجى] المذكور، على الأمير جانبک اليشبكى والى القاهرة، بسفارة المقر الجمالى ناظر الخواص. و فيه أيضا استقر الأمير قانى باى الجاركسى الدّوادار الكبير، أمير آخور كبيرا، بعد موت الأمير قراخجا الحسنى، و كان السلطان رشح الأمير أسنبغا الطّيارى للأمير آخورية، فألح قانى باى فى سؤال السلطان، على أن يليها اقتحاما على الرئاسة، و لا زال به حتى ولّاه؛ و استقر أيضا دولات باى المحمودى المؤيدى دوادارا كبيرا، عوضا عن قانى باى الجاركسى بمال كبير بذله فى ذلک.

ثم فى يوم الثلاثاء ثامن عشرين صفر، خلع السلطان على القاضى ولىّ الدين محمد السنباطى، باستقراره قاضى قضاة المالكية بالديار المصرية، عوضا عن قاضى القضاة بدر الدين محمد بن التنسى، بحكم وفاته، و كان السنباطى هذا يلى قضاء

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۹۲

الإسكندرية، فلما مات ابن التنسى، طلب و ولى القضاء؛ و جميع من ذكرنا [وفاته] هنا ماتوا بالطاعون.

ثم فى يوم الخميس أول شهر ربيع الأول، خلع السلطان على الطّواشى فيروز النّوروزى الزّمام و الخازندار، باستقراره أمير حاجّ المحمل.

ثم فى يوم الاثنين خامس [شهر] ربيع الأول، خلع السلطان على الأمير أسنبغا الطّيّارى باستقراره رأس نوبة النوب، بعد موت الأمير تمرباى التّمربغاوى، بالطاعون.

و فى أواخر [هذا] الشهر، قلّ الطاعون بالقاهرة، بعد أن مات بها خلائق كثيرة؛ فكان من جملة من مات للسلطان فقط: أربعة أولاد من صلبه، حتى لم يبق له ولد ذكر، غير المقام الفخرى عثمان.

ثم فى يوم الثلاثاء سابع عشرين [شهر] ربيع الأول، أخذ السلطان من السفطى ستة عشر ألف دينار، و سبب ذلک أن قاضى القضاة بدر الدين الحنبلى، كان [وصيّا] على تركة قاضى القضاة بدر الدين [بن] التنسى المالكى، فلما عرض موجوده، وجد فى جملة أوراقه ورقة فيها ما يدل على أنه كان للسفطى عنده ستة عشر ألف دينار وديعة، ثم وجد ورقة أخرى، فيها ما يدل على أن السّفطى، أخذ وديعته، و بلغ السلطان ذلک، فرسم بأخذ المبلغ منه- قلت: لا شلت يداه! «و الذى خبث لا يخرج إلا نكدا» - فحملت بتمامها إلى السلطان، و لم يرض السلطان بذلک، و هو فى طلب شىء آخر فتح اللّه عليه، و هو أن السلطان صار يطلب السفطى بما وقع منه من الأيمان، أنه ما بقى يملک شيئا من الذهب، ثم وجد له هذا المبلغ، فصار للسلطان مندوحة بذلک فى أخذ ماله.

فلما استهل شهر ربيع الآخر يوم الجمعة، و طلع القضاة للتهنئة بالشهر، تكلم السلطان معهم فى أمر السفطى، و ما وقع منه من الأيمان

الحانثة، و استفتاهم فی أمره،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۹۳

و حرّض القضاة علی مجازاته؛ فنزلوا من عنـد السـلطان علی أن یفعلوا معه الشـرع، و بلغ السـفطیّ ذلک فخاف و أخـذ فی السـعی فی رضی السلطان؛ و خدم بجملة مستکثرة، و رضی السلطان عنه، ثم تغیر علیه، و أخذ منه فی یوم الثلاثاء ثانی عشر شهر ربیع الآخر عشرة آلاف دینار، کانت له ودیعة عند بعض القضاة، فأخذها السلطان، و هو مطالب بغیرها.

ثم فی یوم الخمیس رابع عشره، أفحش السـلطان فی الحطّ علی السـفطی، و بالغ فی ذلک، بحیث أنه قال: «هـذا لیس له دین، و هـذا استحق القتـل بمـا وقع منه من الأیمان الفاجرة، بأن لیس له مال ثم ظهر له هـذه الجمل الکثیرة، و قـد بلغنی أن له عنـد شـخص آخر، ودیعـة مبلغ سـبعة و عشـرین ألف دینار»؛ و ظهر من کلام السـلطان أنه یریـد أخـذها، بل و أخـذ روحه أیضا، کل ذلک مما یوغّر أبو الخیر النحاس خاطر السـلطان علیه، و بلغ السـفطیّ [۱۴۲] جمیع ما قاله السـلطان، فـداخله لـذلک من الرعب و الخوف أمر عظیم؛ و مع ذلک بلغنی أن السـفطیّ فی تلک اللیلـة تزوج بکرا و دخل بها و استبکرها، فهـذا دلیل علی عـدم مروءته، زیادة علی ما کان علیه من البخـل و الطمع، فـإنی لم أعلم أنه وقع لقـاض من قضـاة مصـر مـا وقع للسـفطی من البهدلـة و الإخراق و أخـذ ماله، مع علمی بما وقع للهروی و غیره، و مع هذا لم یحصل علی أحد ما حصل علی هذا المسکین، فما هذا الزواج فی هذا الوقت!

ثم فی یوم الثلاثاء سادس عشرین [شهر] ربیع الآخر [المذکور]، رسم بنفی یرعلی العجمی الخراسانی المعزول عن الحسبة، ثم شفع فیه المقرّ الجمالی ناظر الخواصّ، فرسم له السلطان بلزوم داره بخانقاه سریاقوس؛ و یرعلی هذا أیضا من أعدآء النحاس.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۹۴

ثم فی یوم السبت سلخه، أنعم السلطان علی أسندمر الجقمقی السلاح دار، بإمرة عشرة، بعد موت الأمیر أرکماس الأشقر المؤیدی.

ثم فی یوم الاثنین ثانی جمادی الأولی، خلع السـلطان علی مملوکه الأمیر أزبک من ططخ الساقی، باسـتقراره من جملة رؤوس النّوب، عوضا عن أرکماس الأشقر، المقدم ذکره.

و فیه استقر الزینی عبد الرحمن بن الکویز، أستادّار السلطان بدمشق، عوضا عن محمد بن أرغون شاه النّوروزی بحکم وفاته.

ثم فی یوم الأربعاء رابع جمادی الأولی [المذکور] استقر علیّ بن إسکندر أحد أصحاب النحاس، فی حسبة القاهرة، و عزل ابن أقبرس عنها، لتزاید الأسعار فی جمیع المأکولات.

ثم فی یوم الاثنین ثالث عشرین جمادی الأولی [المذکور]، خرجت تجریدة من القاهرة إلی البحیرة، فیها نحو الأربعمائة مملوک وعدة أمراء، و مقدم الجمیع الأمیر الکبیر إینال العلائی الناصری، و صحبته من الأمراء المقدمین، تنم أمیر مجلس، وقانی بای الجارکسی أمیر آخور، و عدة أخر من الطبلخانات و العشرات.

ثم فی یوم الاثنین ثامن عشرینه، عزل قاضی القضاة علم الدین صالح البلقینی الشافعی، عن القضاء، لسبب حکیناه فی تاریخنا «حوادث الدهور» إذ هو کتاب تراجم و ضبط حوادث و وفیات لا غیر. ثم أعید قاضی القضاة علم الدین، فی یوم الثلاثاء أول جمادی الآخرة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۹۵

ثم فی یوم الجمعة رابع جمادی الآخرة، سافر الأمیر قانم من صفر خجا المؤیدی، المعروف بالتاجر، رسولا إلی ابن عثمان متملّک بلاد الروم، صحبة قاصد ابن عثمان الواصل قبل تاریخه.

ثم فی یوم السبت تاسع عشره، رسم السلطان بنفی الأمیر سودون السودونی الحاجب، فشفع فیه، فأمر السلطان بإقامته بالصحراء بطّالا. و کـان سـبب نفی السّـِودونی، أنه کـان له مغـلّ، فکلمه علیّ بن إسـکندر المحتسب فی بیـع نصـفه، و تخلیـة نصـفه، لقلـة وجود الغلال بالساحل، فامتنع سودون السودونی من ذلک، فشکاه أبو الخیر النحاس للسلطان، فأمر بنفیه. و قد تقدم أن سودون السودونی هذا، کان ضرب أبا الخیر النحاس فی یوم واحد علقتین لیخلّص منه مال أبی العباس الوفائی.

و من ظريف ما وقع لسودون السودونى هذا، مع أبى الخير النحاس، من قبل هذه الحادثة أو بعدها، أنه لما صار من أمر أبى الخير ما صار، خشيه سودن السّودونى، مما كان وقع منه فى حقه قديما، فأراد أن يزول ما عنده، ليأمن شرّه، فدخل إليه فى بعض الأيام، و قد جلس أبو الخير النحاس فى دست رئاسته، و بين يديه أصحابه و غالبهم لا يعرف ما وقع له مع سودون السودونى [المذكور]، فلما استقر بسودون الجلوس، أخذ فى الاعتذار لأبى الخير فيما كان وقع منه بسلامة باطن على عادة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۹۶

مغفّلى الأتراك، و ساق الحكاية فى ذلك الملأ من الناس من أولها إلى آخرها، و أبو الخير ينقله من ذلك [الكلام] إلى كلام غيره، و يقصد كفّه عن الكلام، بكل ما تصل قدرته إليه، و هو لا يرجع عما هو فيه، إلى أن استتم الحكاية؛ و كان من جملة اعتذاره إليه، أن قال له، ما معناه: «و اللّه يا سيدى القاضى، أنا رأيتك شاب فقير، من جملة الباعة، و حرّضونى عليك، بأنك تأكل أموال الناس، فما كنت أعرف أنك تصل إلى هذا الموصل، فى هذه المدة اليسيرة؛ و و اللّه [لو كنت] أعرف أنك تبقى رئيس، لكنت وزنت [۱۴۳] عنك المال». و شرع فى اعتذار آخر، و قد ملأ النحاس مما سمع من التوبيخ، فاستدرك فارطه بأن قام على قدميه و اعتنق السودونى، و أظهر له أنه زال ما عنده و أوهم أنه يريد الدخول إلى حريمه حتى مضى عنه إلى حال سبيله؛ و تحاكى الناس ذلك المجلس أياما كثيرة. هذا ما بلغنا من بعض أصحاب النحاس، و قد حكى غير واحد هذه الحكاية على عدة وجوه، و ليس هذا الأمر من أخبار تحرر، و ما ذكرناه إلا على سبيل الاستطراد- انتهى.

و فى هذه الأيام توقف ماء النيل عن الزيادة، بل تناقص نقصا فاحشا، ثم أخذ فى زيادة ما نقصه، فاضطرب الناس لذلك، و تزايدت الأسعار إلى أن أبيع الإردب القمح بأربعمائة درهم.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۹۷

ثم فى يوم الثلاثاء تاسع عشرينه، وصل الأمير جانبك الظاهرى نائب جدة، و خلع السلطان عليه خلعة هائلة، و نزل إلى داره، و بين يديه وجوه الناس على كره من أبى الخير النحاس.

ثم فى يوم الاثنين ثانى عشر شهر رجب، خلع السلطان على الشيخ يحيى المناوى، باستقراره قاضى قضاة الشافعية، بعد عزل قاضى القضاة علم الدين صالح البلقينى.

ثم فى يوم الخميس خامس عشرة، استقر الأمير يرشباى الإينالى المؤيدى الأمير آخور الثالث، أمير آخور ثانيا بعد موت سودون أتمكجى، و أنعم عليه بطبلخاناته، و استقر الأمير سنقر الظاهرى الجعيدى أمير آخور ثالثا، و هو فى التجريدة بالبحيرة.

ثم فى يوم الثلاثاء عشرينه، رسم السلطان بأن يكتب مرسوم شريف إلى دمشق، بضرب الزينى عبد الرحمن بن الكويز، و حبسه بقلعة دمشق، و له سبب ذكرناه فى «الحوادث».

ثم فى يوم الاثنين سادس عشرين [شهر] رجب، استقر علاء الدين بن آقبرس ناظر الأحباس، بعد عزل قاضى القضاة بدر الدين محمود العينى عنها، لكبر سنه، فلم يشكر ابن أقبرس على ما فعله لسعيه فى ذلك سعيا زائدا، و كان الأليق عدم ما فعله لأن مقام كل منهما معروف فى العلم و القدر و الرئاسة.

ثم فى يوم الخميس تاسع عشرين [شهر] رجب [المذكور]، جرت حادثة غريبة، و هو أنه لما كان وقت الخدمة السلطانية، أعنى بعد طلوع الشمس بقدر عشرة درج، وقفت العامة بشوارع القاهرة من داخل باب زويلة إلى تحت القلعة، و هم يستغيثون

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۹۸

و يصرخون بالسبّ و اللعن و يهددون بالقتل، و لا يدرى أحد ما الخبر، لعظم الغوغاء، إلى أن اجتاز علىّ بن إسكندر محتسب القاهرة فلما رأوه أخذوا فى زيادة ما هم فيه، و حطوا أيديهم فى الرّجم، فرجموه من باب زويلة، إلى أن وصل إلى باب القلعة أو غيرها، بعد أن أشبعوه سبا و توبيخا بألفاظ يستحى من ذكرها، فلما نجا علىّ منهم، و طلع إلى القلعة، استمروا على ما هم عليه بالشوارع، و قد

انضم علیهم جماعة کثیرة من الممالیک السلطانیة، و هم على ما هم علیه، غیر أنهم [صاروا] یعرضون بذکر أبی الخیر النحاس، و وقفوا فی انتظاره إلى أن یطلع إلى القلعة، و کان عادته لا یطلع إلیها إلا بعد نزول أعیان الدولة، و کان أبو الخیر قد رکب من داره على عادته، فعرّفه بعض أصحابه بالحکایة، فخرج من داره و سار من ظاهر القاهرة، لیطلع إلى القلعة، إلى أن وصل بالقرب من باب الوزیر، بلغ الممالیک الذین هم فی انتظاره أنه قد فاتهم، فأطلقوا رؤوس خیولهم غارة، و العامة خلفهم، حتى وافوه فی أثناء طریقه، فأکل ما قسم له من الضرب بالدبابیس، و انهزم أمامهم، و هم فی أثره، و الضرب یتناوله و حواشیه، و هو عائد إلى جهة القاهرة، و ترک طلوع القلعة لینجو بنفسه، و استمر على ذلک إلى أن وصل إلى جامع أصلم بخط سوق الغنم، فضربه شخص من العامة على رأسه فصرعه عن فرسه، ثم قام من صرعته و رمى بنفسه إلى بیت أصلم الذی بالقرب من جامع أصلم، و هو یوم ذاک سکن یشبک الخاصّکی الظاهری جقمق، من طبقة الزّمام.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۳۹۹

و من غریب الاتفاق، أن أبا الخیر النحاس کان قبل تاریخه بمدة یسیرة، شکا یشبک هذا صاحب الدار إلى السلطان، و شوّش علیه غایة التشویش، حتى أخذه أغاته الأمیر فیروز الزّمام، و بعثه إلى أبی الخیر النحاس، على هیئة غیر مرضیة، فصفح عنه أبو الخیر خوفا من خجداشیته، و منّ علیه؛ و المقصود أن [۱۴۴] أبا الخیر، لما ضرب و طاح عن فرسه، و کان الضارب له عبد أسود، و أخذ عمامته من على رأسه، فلما رأى أبو الخیر نفسه فی بیت یشبک المذکور، هجمت العامة علیه، و معهم الممالیک، إلى بیت یشبک، و کان غائبا عن بیته، و قبضوا علیه و أخذوا فی ضربه و الإخراق به، و عرّوه جمیع ما کان علیه، حتى أخذوا أخفافه من رجلیه، و اختلفت الأقوال فی الإخراق به، فمن الناس من قال: أرکبوه حمارا عریانا و أشهروه فی البیت المذکور، و منهم من قال أعظم من ذلک، ثم نجا منهم، ببعض من ساعده منهم، و ألقى بنفسه من حائط إلى موضع آخر، فتبعوه أیضا، و أوقعوا به و هو معهم عریان، و انتهبوا جمیع ما کان فی بیت یشبک المذکور.

و وصل یشبک إلى داره، فما أبقى ممکنا فی مساعدة النحّاس، و ما عسى یفعله مع السواد الأعظم؟ و کان بلغ السلطان أمره، فشق علیه ذلک إلى الغایة، فأرسل إلیه جانبک و الی القاهرة، نجدة، فساق إلیه، حتى لحقه و قد أشرف على الهلاک، و خلصه منهم؛ و أراد أن یرکبه فرسا فما استطاع أبو الخیر الرکوب لعظم ما به من الضرب فی رأسه و وجهه و سائر بدنه، فأرکبه [عریانا و علیه ما یستره] على بغلة، و أردفه بواحد من خلفه على البغلة المذکورة، و توجّه به على تلک الهیئة، إلى بیت الأمیر تمربغا الدّوادار

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۰۰

الثانی، بالقرب من جامع سودون من زادة، و العامة خلفه و هم ینادمونه بأنواع السبّ و یذکرون له فقره و إفلاسه و ما قاساه من الذل و الهوان، إلى أن وصل إلى بیت تمربغا [المذکور] بغیر عمامة على رأسه، فأجلسه تمربغا بمکان تحت مقعده، و استمر به إلى اللیل، فقام و توجه إلى داره مختفیا خائفا مرعوبا.

و أنا أقول: لو مات أحد من شدة الضرب، لمات أبو الخیر [المذکور] فی هذا الیوم، کل ذلک بغیر رضى السلطان، لأن الممالیک و العامة اتفقوا على [أبی الخیر المذکور و على الفتک به]، و قلّ أن یتفقوا على أمر، فکان هذا الیوم من الأیام المشهودة بالقاهرة، لأنی ما رأیت و لا سمعت بمثل هذه الواقعة، و قد سبق کثیر من إخراق الممالیک لرؤساء الدولة و نهب بیوتهم و أخذ أموالهم، و مع هذا کله لم یقع لأحد منهم بعض ما وقع لأبی الخیر هذا، فإن جمیع الناس قاطبة کانت علیه، و کل منهم لا یرید إلا قتله و إتلافه.

و أنا أقول إنهم معذورون فیما یفعلونه، لأنه کان بالأمس فی البهموت من الفقر و الذل و الإفلاس، و صار الیوم فی الأوج من الرئاسة و المال و التقرب من السلطان، و مع هذا الانتقال العظیم، صار عنده شمم و تکبر، حتى على من کان لا یرضى أقل غلمانه أن یستخدمه فی أقل حوائجه، و أما على من کان من أمثاله و أرباب صنعته، فإنه لم یتکبر علیهم، بل أخذ فی أذاهم و الإخراق بهم، حتى أبادهم شرا، و أنا أتعجب غایة العجب من وضیع یترأس، ثم یأخذ فی التکبر على أرباب البیوت و أصحاب الرئاسة الضخمة، فما عساه

يقول فی نفسه! و اللّه العظيم، إننی كنت إذا دخل علیّ الفقيه الذی أقرأنی القرآن فی صغری، على أن بضاعته من العلوم كانت مزجاة، أستحی أن أتكلم

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۰۱

بين يديه بفضيلة أو علم من العلوم، لكونه كان يعرفنی صغيرا لا ـ فقيرا، فكيف حال هؤلاء مع الناس، كانوا يرتجون خدمة [أصاغر] خدمهم؛ فليس هذا إلّا عظم الوقاحة، و غلبة الجنون لا غير – انتهى.

ثم فی يوم السبت ثانی شعبان، عزل السلطان علیّ بن إسكندر عن حسبة القاهرة، و رسم لزين الدين يحيى الأستادّار بالتكلم فيها، فباشر زين الدين الحسبة من غير أن يلبس لها خلعة، و كانت سيرة علیّ بن إسكندر ساءت فی الحسبة إلى الغاية.

و أما أبو الخير النحاس، فإنه استمر فی داره بعد أن قدم إليها من الليل من بيت الأمير تمربغا إلى يوم الاثنين ثالث شعبان، طلع إلى القلعة و خلع السلطان عليه كاملية مخمّل أحمر بمقلب سمّور، و نزل إلى داره و هو فی وجل من شدة رعبه من المماليک و العامة، لكنّه شق القاهرة فی نزوله، و لم يسلم من الكلام، و صار بعض العامة يقول: «أيش هذه البرودة!»، فيقول آخر: «إذا اشتهيت أن تضحک على الأسمر لبّسه أحمر!»، هذا و أبو الخير [۱۴۵] يسلم فی طريقه على [الناس من] العامة و غيرها؛ فمنهم من يرد سلامه، و منهم من لا ـ يرد سلامه، و منهم من يقول بعد أن يولی بأقوی صوته: «خيرتک و الّما ينحسوها»، أعنی رقبته. و لم ينزل معه أحد من أرباب الدولة إلا المقر الجمالی ناظر الخواصّ الشريفة، قصد بنزوله معه أمورا لا تخفى على أرباب الذوق السليم، لأنه لم يؤهّله قبل ذلک لأمر من الأمور، فما نزوله الآن معه، و قد وقع فی حقه ما وقع؟

ثم فی يوم الاثنين حادی عشر شعبان، قدم الأمراء من تجريدة البحيرة صحبة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۰۲

الأمير الكبير إينال العلائی، و خلع السلطان على أعيانهم الثلاثة الأمير الكبير إينال، و تنم المؤيدی أمير مجلس، و قانی بای الجاركسی الأمير آخور.

ثم فی يوم الاثنين ثامن عشر شعبان، برز الأمير جرباش الكريمی [الظاهری برقوق] أمير سلاح، إلى بركة الحاج على هيئة الرّجبيّة، و صحبته قاضی القضاة بدر الدين بن عبد المنعم [البغدادی] الحنبلی، و الزينی عبد الباسط بن خليل الدمشقی، و جماعة كثيرة من الناس.

ثم فی يوم السبت سابع شهر رمضان، اختفى السّفطی، فلم يعرف له مكان، بعد أمور وقعت له مع قاسم الكاشف؛ فعمل السلطان فی يوم الاثنين سادس عشره عقد مجلس بين يديه بالقضاة و العلماء بسبب حمام السّفطی، و ظهر السفطی من اختفائه، و حضر المجلس، و انفصل عقد المجلس على غير طائل، و اختفى السفطی ثانيا من يومه فلم يعرف له خبر.

ثم فی يوم الخميس سابع عشر شوال، برز أمير حاجّ المحمل، فيروز النّوروزی [الرومی] الزّمام الخازندار، بالمحمل، و أمير الركب الأول، الأمير تمربغا الظاهری الدّوادار الثانی؛ و حجّ فی هذه السنة من الأعيان: الأمير طوخ من تمراز المعروف بينی بازق، أحد مقدمی الألوف بالديار المصرية، وينی بازق باللغة التركية:

أی غليظ الرقبة، و خرج تمراز البكتمری المؤيدی المصارع، صحبة الحاج، و استقر

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۰۳

فی مشدّيّة بندر جدّة، عوضا عن الأمير جانبک الظاهری، حسبما نذكره من أمره ثانيا فيما يأتی مفصلا، إن شاء اللّه تعالى.

[ثم] فی يوم السبت تاسع عشره، استقر القاضی ولیّ الدين الأسيوطی، فی مشيخة المدرسة الجماليّة، بعد تسحّب ولیّ الدين السّفطی و اختفائه.

ثم فی يوم الاثنين العشرين من ذی القعدة، استقر الأمير جانبک اليشبكی والی القاهرة، فی حسبة القاهرة، مضافا لما معه من الولاية و

شدّ الدواوين و الحجوبية؛ و جانبك هذا أحد من رقاه المقر الصاحبى ناظر الخاص المقدم ذكره.

[ثم] فى يوم الخميس ثالث عشرين ذى القعدة أيضا، نودى بالقاهرة على ولى الدين السّفطى، بأن من أحضره إلى السلطان يكون له مائة دينار، و هدّد من أخفاه بعد ذلك بالعقوبة و النكال.

ثم فى يوم الخميس ثامن ذى الحجة، وصل الأمير يشبك الصوفى المؤيدى، نائب طرابلس، إلى القاهرة، و طلع إلى القلعة و قبّل الأرض، فحال وقوفه رسم السلطان بتوجّهه إلى ثغر دمياط بطّالا، و ذلك لسوء سيرته فى أهل طرابلس. و فيه عزل السلطان الأمير علان جلّق المؤيدى عن حجوبية حلب، لشكوى الأمير قانى باى الحمزاوى نائب حلب عليه، ثم انتقض ذلك، و استمر علّان على وظيفته.

و وقع فى هذه السنة- أعنى ثلاث و خمسين- غريبة، و هى أنه مات فيها من ذوات الأربع، مثل الأغنام و الأبقار و غيرها، شىء كثير، من عدم العلوفة، لغلو الأسعار

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۰۴

و الفناء، فأيقن كلّ أحد بتزايد أثمان الأضحية، فلما كان العشر الأول من ذى الحجة، وصل إلى القاهرة من البقر و الغنم شىء كثير، حتى أبيعت بأبخس الأثمان.

ثم فى يوم تاسع عشر ذى الحجة المذكور، سمّر نجم الدين أيوب [بن حسن بن محمد نجم الدين بن البدر ناصر الدين] بن بشارة، و طيف به، ثم وسّط من يومه، و وسّط معه شخص آخر من أصحابه، و قد ذكرنا سبب القبض عليه و ما وقع له فى تاريخنا «حوادث الدهور فى مدى الأيام و الشهور»، إذ هو محله.

ثم فى يوم السبت رابع عشرينه، عزل السلطان الأمير علان المؤيدى، عن حجوبية حجاب حلب، لأمر وقع بينه و بين نائب حلب، الأمير قانى باى الحمزاوى، و رسم بتوجّه علان المذكور إلى مدينة طرابلس بطالا، و استقر عوضه فى حجوبية حلب قاسم بن جمعة القساسى، و أنعم بإقطاع قاسم على الأمير جانبك المؤيدى المعروف بشيخ، المعزول أيضا [۱۴۶] عن حجوبية حلب قبل تاريخه، و الإقطاع إمرة طبلخانات بدمشق. و فيه رسم السلطان لما ماى السيفى بيبغا المظفرى، أحد الدّواداريّة الصغار، بالتوجه إلى ثغر دمياط، و أخذ الأمير يشبك الصوفى منه و تحبّسه بثغر الإسكندرية مقيّدا؛ و وقع ذلك.

ثم فى يوم الخميس خامس عشرين ذى الحجة، رسم باستقرار الأمير يشبك النّوروزى، حاجب حجاب دمشق، فى نيابة طرابلس، عوضا عن يشبك الصوفى المقبوض عليه قبل تاريخه، و ولاية يشبك المذكور طرابلس، على مال كبير بذله له، و حمل إليه التقليد و التشريف بنيابة طرابلس، الأمير أسنباى الجمالى الساقى الظاهرى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۰۵

جقمق، و رسم السلطان بإعادة الأمير جانبك الناصرى إلى حجوبية دمشق، عوضا عن يشبك النّوروزى.

و فرغت هذه السنة و الديار المصرية فى غاية ما يكون من غلو الأسعار. و فى هذه السنة أيضا، ورد الخبر بوقوع خسف بين أرض سيس و طرسوس، و لم أتحقق مقدار الأرض التى خسفت. و فيها أيضا كان فراغ مدرسة زين الدين الأستادّار، بخط بولاق على النيل، و لم أدر المصروف على بنائه من أى وجه، و من كان له شىء فله أجره.

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۵۴]

اشارة

و استهلت سنة أربع و خمسين و ثمانمائة الموافقة لحادى عشرين مسرى، و الناس فى جهد و بلاء من غلو الأسعار، و سعر القمح ثمانمائة درهم الأردب، و قد ذكر سعر جميع المأكولات فى «حوادث الدهور».

و لما کان یوم السبت أول محرم سنهٔ أربع و خمسین المذکورهٔ، وصل الأمیر بردبک العجمی الجکمی المعزول عن نیابهٔ حماهٔ من ثغر دمیاط، و طلع إلی القلعهٔ، و أنعم السلطان علیه بإمرهٔ مائهٔ و تقدمهٔ ألف بدمشق.

و فی هذه الأیام وصلت إلی القاهرهٔ رمّهٔ قاسم المؤذی الکاشف، غریم السّفطی لیدفن بالقاهرهٔ.

ثم فی یوم الخمیس ثالث عشر المحرم، وصل الأمیر جرباش الکریمی، أمیر سلاح من الحجاز، و تخلف قاضی القضاهٔ بدر الدین الحنبلی عنه مع الرکب الأول من الحاج، و کان الزینی عبد الباسط بن خلیل، سبق الأمیر جرباش من العقبهٔ، و دخل القاهرهٔ قبل تاریخه، و خلع السلطان علی جرباش المذکور کاملیهٔ بمقلب سمّور، و خرج من عند السلطان، و دخل إلی ابنته زوجهٔ السلطان، و هی یوم ذلک صاحبهٔ القاعهٔ

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۰۶

[الکبری بالدور السلطانیهٔ] و سلّم علیها، ثم نزل إلی داره [المعروفهٔ بالبیت الکبیر تجاه القلعهٔ].

ثم فی یوم الجمعهٔ ثامن عشرینه، عقد السلطان عقد مملوکه الأمیر أزبک من ططخ، علی ابنته من مطلقته خوند بنت البارزی، و کان العقد بقلعهٔ الدّهیشهٔ، بحضرهٔ السلطان بعد نزول الأمراء من صلاهٔ الجمعهٔ من غیر جمع.

ثم فی یوم الخمیس رابع شهر صفر، استقر أبو الفتح [الطیبی] أحد أصحاب أبی الخیر النحاس [بسفارته]، فی نظر جوالی دمشق، و وکالهٔ بیت المال بها، علی أنه یقوم فی السنهٔ للخزانهٔ الشریفهٔ بخمسین ألف دینار، علی ما قیل، و ما سیأتی من خبر أبی الفتح، فأعجب.

و فی هذه الأیام، ظهر رجل من عبید قاسم [الزین] الکاشف، [الملقب بالمؤذی] و شهر بالصلاح، و تردد الناس لزیارته، حتی جاوز أمره الحد، و خشی علی الناس من إتلاف عقائدهم، فأمر السلطان الأمیر تنبک حاجب الحجاب، أن یتوجه إلیه، و یضربه و یحبسه، و صحبته جانبک الساقی والی القاهرهٔ. فلما دخلا علیه، تهاون الأمیر تنبک فی ضربه خشیهٔ من صلاحه، و بلغ السلطان ذلک، فرسم بنفیه إلی ثغر دمیاط بطّالا، و مسفّره جانبک الوالی، و تولی خشقدم الطّواشی الظاهری [الرومی]

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۰۷

و والی القاهرهٔ ضرب العبد المذکور و حبسه، و قد أوضحت أمر هذا العبد و ما وقع له فی تاریخنا «الحوادث» فلینظر هناک. ثم رسم السلطان بعد مدهٔ، بقدوم الأمیر خشقدم الناصری المؤیدی أحد المقدمین بدمشق، إلی القاهرهٔ، و استقراره فی حجوبیهٔ الحجاب، عوضا عن تنبک المذکور، و رسم للأمیر علّان المؤیدی، المعزول عن حجوبیهٔ حلب، بإقطاع خشقدم المذکور بدمشق.

ثم فی یوم الثلاثاء سادس عشر صفر، رسم السلطان بنقل الأمیر جانم الأمیر آخور قریب الملک الأشرف برسبای من القدس الشریف، و حبسه بسجن الکرک، و کان جانم المذکور، حبس عدهٔ سنین، ثم أطلق و جاور بمکهٔ ستیّات، ثم سأل فی القدوم إلی القدس، فأجیب، و قدمه، فتکلم فیه بعض أعدائه [۱۴۷] إلی أن حبس بالکرک ثانیا.

ثم فی یوم الخمیس ثامن عشر صفر، قدم الأمیر قانم التاجر المؤیدی من بلاد الروم إلی القاهرهٔ، [و کان توجه إلیها فی العام الماضی کما سلف.]

ثم فی یوم الثلاثاء ثالث عشرین صفر المذکور، نودی بالقاهرهٔ بأن لا یلبس النصاری و الیهود علی رؤوسهم أکثر من سبعهٔ أذرع من العمائم، [لکونهم تعدوا فی ذلک و زادوا عن الحد]؛ و فی هذه الأیام تزاید أمر النحّاس و طغی [و تجبر]، و نسی ما وقع له من البهدلهٔ و الإخراق.

و فی یوم الاثنین، رسم السلطان بالإفراج عن عبد قاسم الکاشف، من حبس المقشرهٔ و توجّهه إلی حیث شاء، و لا یسکن القاهرهٔ.

ثم فی یوم السبت ثانی عشر شهر ربیع الأول، ورد الخبر بموت الأمیر شاد بک الجکمی، المعزول عن نیابهٔ حماهٔ، بالقدس بعد مرض طویل.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۰۸

ثم فى يوم الخميس سادس عشره، وصل إلى القاهرة الأمير خشقدم المؤيدى من دمشق، و قبّل الأرض و أنعم عليه السلطان بإمرة مائة و تقدمة ألف، عوضا عن تنبك البردبكى الحاجب، بحكم نفيه إلى دمياط. و فى هذا اليوم كان مهمّ الأمير أزبک و عرسه على بنت السلطان بالقاهرة، فى بيت خالها القاضى كمال الدين بن البارزى، و لم يعمل بالقلعة.

ثم فى يوم الاثنين حادى عشرين شهر ربيع الأول، المذكور، استقر خشقدم عوضا عن تنبک المقدم ذكره فى حجوبية الحجاب.

ثم فى يوم الخميس ثانى شهر ربيع الآخر، أنعم السلطان على تمراز الأشرفى الزّردكاش كان، بإقطاع على باى الساقى الأشرفى، بحكم وفاته، قلت: بئس البديل، و إن كان كل منهما أشرفيّا، فالفرق بينهما ظاهر.

و فى هذه الأيام عظم أمر النحاس، حتى أنه ضاهى المقرّ الصاحبىّ ناظر الخواص، فى نفوذ الكلمة فى الدولة، لأمور صدرت بينهما يطول الشرح فى ذكرها، و ليس لذلک فائدة و لا نتيجة؛ و ملخص ذلک أن أبا الخير عظم فى الدولة، حتى هابه كلّ أحد من عظماء الدولة إلا المقر الجمالى، فأخذ أبو الخير يدبر عليه فى الباطن، و يوغر خاطر السلطان عليه، بأمور شتى، و لم ينهض أن يحوّل السلطان عنه بسرعة، لثبات قدمه فى المملكة، و لعظمه فى النفوس، كلّ ذلک و المقرّ الجمالى لا يتكلم فى حقه عند السلطان بكلمة واحدة، و لا يلتفت إلى ما هو فيه، و أبو الخير فى عمل جد مع السلطان فى أمر الجمالى المذكور، بكلتا يديه. و بينما هو فى ذلک، أخذه اللّه من حيث لا يحتسب، حسبما يأتى ذكره مفصلا إن شاء اللّه تعالى.

و من غريب الاتفاق، أنه دخل عليه قبل محنة أبى الخير النحاس بمدة يسيرة،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۰۹

رجل من أصحابه، و أخذ فى تعظيم المذكور، و بالغ فى أمره، حتى قال إنه قد تم له كل شىء طلبه، فأنشدته من باب المماجنة [المتقارب]:

إذا تم أمر بدا نقصه توقّ زوالا إذا قيل تمّ

و افترقنا، فلم تمض أيام حتى وقع من أمره ما وقع.

ثم فى يوم الاثنين، ثالث عشر شهر ربيع الآخر المقدم ذكره، نفى الأمير سودون الإينالى [المؤيدى] المعروف بقراقاش، أحد أمراء العشرات و رأس نوبة، لأمر مطول ذكرناه فى «الحوادث».

و فى هذه الأيام، برز المرسوم الشريف بعزل الأمير بيغوت من صفر خجا المؤيدى الأعرج، عن نيابة حماه، لأمور مطولة ذكرناها فى «الحوادث» من أولها إلى آخرها، و إلى حضوره إلى القاهرة، [و ما وقع له] ببلاد الشرق و غيره. و رسم للأمير سودون الأبوبكرىّ المؤيدى أتابک حلب، باستقراره عوضه فى نيابة حماه، و أنعم بأتابكية

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۱۰

حلب على الأمير على باى العجمى المؤيدى، و أنعم بتقدمة على باى المذكور، على إينال الظاهرى جقمق، و قد نفى قبل تاريخه من الديار المصرية.

ذكر مبدأ نكبة أبى الخير النحاس على سبيل الاختصار

و لما كان يوم الأحد حادى عشر جمادى الأولى من سنة أربع و خمسين المذكورة، أحضر السلطان إلى بين يديه مماليک الأمير تنم من عبد الرزاق المؤيدى أمير مجلس، و عيّن منهم نحو العشرة، و رسم بحبسهم بسجن المقشرة، بسبب تجرّئهم على أستاذهم المذكور، و شكواه عليهم، فلما أصبح من الغد فى يوم الاثنين ثانى عشره، انفض الموكب السلطانى، و نزل الأمير تنم المذكور صحبة الأتابک إينال العلائى و غيره من الأمراء، فلما صاروا تجاه سويقة منعم، احتاطت بهم المماليک [۱۴۸] السلطانية الجلبان، و خشّنوا لتنم فى القول، بسبب شكواه على مماليكه، فأخذ الأتابک إينال فى تسكينهم، و ضمن لهم خلاص المماليک المذكورة من حبس

المقشرة، فخلوا عنهم، و رجعوا غارة إلى زين الدين يحيى الأستادّار، فوافوه بعد نزوله من الخدمة بالقرب من جامع المارداني، و تناولوه بالدبابيس، فمن شدة الضرب ألقى بنفسه عن فرسه، و هرب إلى أن أنجده الأمير أزبك الساقى، و الأمير جانبك اليشبكى الوالى، و أركباه على فرسه، و توجّها به إلى داره.

فلما فات المماليك زين الدين رجعوا غارة إلى جهة القلعة، و وقفوا تحت الطبلخانات بالصّوّة، فى انتظار أبى الخير النحاس، و بلغ النحاس الخبر،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۱۱

فمكث نهاره عند السلطان بالقلعة لا ينزل إلى داره، فشقّ ذلك على المماليك، و اتفقوا على نهب دار أبى الخير النحاس، فساروا من وقتهم إلى داره على هيئة مزعجة، فوجدوا باب داره قد غلقه مماليكه و أعوانه، و قد وقفت مماليكه بأعلى بابه لمنع المماليك من الدخول؛ فوقع بينهم بعيض قتال، ثم هجمت المماليك السلطانية على بابه الذى كان من بين السورين، و أطلقوا فيه النار، و احترق الباب و ما كان عليه من المبانى، و دخلوا إلى البيت، و امتدت الأيدى فى النهب، فما عفّوا و لا كفّوا، و أخذوا من الأقمشة و الأمتعة و الصينى و التحف ما يطول الشرح فى ذكره، و استمرت النار تعمل فى باب أبى الخير، إلى أن اتصلت إلى عدة بيوت بجواره، و لم تصل النار إلى داره، لأنها كانت فوق الريح، و أيضا كانت بالبعد عن الباب، و هى الدار التى عمّرها قديما صلاح الدين بن نصر اللّه، و انتقلت بعده إلى أقوام كثيرة، حتى ملكها النحاس هذا و جدّدها و تناهى فيها.

ثم حضر والى القاهرة و غيره لطفى النار، فطفيت بعد جهد؛ و لما انتهى أمر المماليك من النهب، و علموا أنه لم يبق بالدار ما يؤخذ، توجّهوا إلى حال سبيلهم، و قد تركوا [بيت] النحاس خاليا من جميع ما كان فيه، بعد أن سلبوا حريمه جميع ما كان عليهن من الأقمشة و أفحشوا فى أمرهن، من الهتكة و الجرجرة، و الهجم عليهن و عادوا من دار النحّاس و شقوا باب زويلة، و قد غلقت عدة حوانيت بالقاهرة، لعظم ما هالهم من النهب فى بيت النحاس، فمضوا و لم يتعرضوا لأحد بسوء، و باتوا تلك الليلة، و أصبحوا يوم الثلاثاء ثالث عشر جمادى الأولى المذكور، و وقفوا بالرملة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۱۲

محدقين بالقلعة، مصممين على الفتك بأبى الخير النحاس، و قد بات النحاس بالقلعة، و طلبوا تسليمه من السلطان، و عزل جوهر النّوروزى عن تقدمة المماليك، و عزل زين الدين الأستادّار عن الأستادّاريّة؛ و انفض الموكب، و نزل كل من الأعيان إلى داره فى خفية، و نزل الأمير تمربغا الظاهرى الدّوادار الثانى، و الأمير أزبك الساقى، و برد بك البجمقدار، إلى نحو بيوتهم؛ فلما صاروا بالرملة ضربوا عليهم المماليك الجلبان حلقة، و كلموهم فى عودهم إلى السلطان و التكلم معه فى مصالحهم، فقال لهم تمربغا:

«ما هو غرضكم؟»، قالوا: «عزل جوهر مقدم المماليك و تسليم غريمنا»، يعنون، النحاس.

فعاد تمربغا إلى القلعة من وقته و عرّف السلطان بمقصودهم، و كان الأمير الكبير إينال قد طلع باكر النهار إلى القلعة [و صحبته الأمير أسنبغا الطيّارى رأس نوبة النّوب؛ و أما الأمير تنم، فإنه كان طلع إلى القلعة] من أمسه و بات بها فى طبقة الزّمام، و أجمع رأيه أنه لا ينزل من القلعة، إلى أن يفرج عن مماليكه المحبوسين، خشية و المماليك الجلبان، فلما طلع الأمير الكبير باكر النهار، شفع فى مماليك الأمير تنم فرسم بإطلاقهم، ثم تكلم الأمير الكبير مع السلطان فى الرضى عن المماليك الجلبان، و السلطان مصمم على مقالته التى قالها بالأمس، أنه يرسل ولده المقام الفخرى عثمان و حريمه إلى الشام، و يتوجه هو إلى حال سبيله، فنهاه الأمير الكبير عن ذلك، و قام السلطان و دخل إلى الدّهيشة، فكلّمه بعض أمرائه أيضا فى أمرهم، فشقّ ثوبه غيظا منه، و نزل الأمير الكبير بمن معه إلى دورهم.

ثم كان نزول تمربغا، و المقصود أن تمربغا لما عاد إلى السلطان، و عرّفه قصد المماليك، و قبل أن يتكلم، سبقه بعض أمرائه، و أظنه الأمير قراجا الخازندار، و قال: «يجبر مولانا [۱۴۹] السلطان خاطر مماليكه، بعزل المقدم، و إخراج

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۱۳

النحاس من القاهرة»، فانقاد السلطان إلى كلامه، و رسم بعزل جوهر مقدم المماليک، و توجّهه إلى المدينة الشريفة، و إخراج النحاس إلى مكة المشرفة؛ و عاد تمربغا إلى المماليک بهذا الخبر، فرضوا، و توجّه كل واحد إلى حال سبيله؛ و تم ذلک إلى بعد الظهر من اليوم المذكور. فلما كان بعد الظهر، توجه جماعة من المماليک إلى الأمير أسنبغا الطّيّارى رأس نوبة النوب، و كلموه أن يطلع إلى السلطان، و يطلب منه إنجاز ما وعدهم به من إخراج النحاس و عزل المقدم؛ فركب أسنبغا من وقته، و طلع إلى السلطان و كلمه فى ذلک، فلما سمع السلطان مقالة أسنبغا، اشتد غضبه، و طلب فى الحال جوهرا مقدم المماليک و نائبه مرجان العادلى المحمودى، و خلع عليهما باستقرارهما، و رسم أن يكون النحاس على حاله أولا بالقاهرة، و رسم للأمير تغرى برمش اليشبكى الزّردكاش أن يستعد لقتال المماليک الجلبان، فخرج الزّردكاش من وقته و نصب عدة مدافع على أبراج القلعة، و صمم السلطان على قتال مماليكه المذكورين.

و بلغ الأمراء ذلک، فطلع منهم جماعة كبيرة إلى السلطان، و أقاموا ساعة بالدّهيشة، إلى أن أمرهم السلطان بالنزول إلى دورهم، و نزلوا، و استمر الحال إلى باكر يوم الأربعاء رابع عشره، فجلس السلطان بالحوش على الدّكّة، ثم التفت إلى شخص من خاصّكيته، و قال له: «أين الذين قلت عنهم؟» فقال: «الآن يحضروا»، فقال السلطان: «انزل إليهم و أحضرهم»، فنزل الرجل من وقته، و قام السلطان إلى الدهيشة، و نزل المذكور إلى المماليک، و أخذ منهم جماعة كبيرة، و طلع بهم إلى السلطان، فلما مثلوا بين يديه قال لهم: «عفوت عنكم، امضوا إلى أطباقكم»، فلم يتكلم أحد منهم بكلمة.

و استمر أبو الخير بالقلعة خائفا من النزول إلى داره، و قد أشيع سفره إلى الحجاز، إلى أن كان يوم الخميس خامس عشر جمادى الأولى، نزل أبو الخير إلى داره على حين غفلة قبل العصر بنحو خمس درج، و انحاز بداره، و قفل الباب

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۱۴

[عليه] إلى يوم الأربعاء حادى عشرينه؛ فوصل البلاطنسى من دمشق، و طلع إلى السلطان، و شكا على أبى الفتح الطيبى، الذى ولى وكالة بيت مال دمشق بسفارة النحاس، و ذكر عنه عظائم، فعزله السلطان، و رسم بحضوره إلى القاهرة فى جنزير، و رسم لأبى الخير النحاس، بالسفر إلى المدينة الشريفة، و نزل البلاطنسى من القلعة بعد أن أكرمه السلطان، و حصل [على] مقصوده من عزل أبى الفتح الطيبى.

و رسم السلطان لأبى الخير المذكور أن يكتب جميع موجوده و يرسله إلى السلطان من الغد، و رسم أيضا بعمل حسابه، و تردد إليه الصفوىّ جوهر الساقى من قبل السلطان غير مرة، و كثر الكلام بسببه، فقلق النحاس من ذلک غاية القلق، و علم بزوال أمره، فأصبح من الغد، فى يوم الخميس ثانى عشرينه، طلع إلى القلعة فى الغلس من غير إذن السلطان، و اختفى بالقلعة فى مكان، إلى أن انفض الموكب، فتحيل حتى دخل على السلطان، و اجتمع به، ثم نزل من وقته، و قد أصلح ما كان فسد من أمره، و أنعم له السلطان بموجوده، و ترک له جميع ما كان عزم على أخذه، و استمر بداره، و قد هابته الناس و كثر ترددهم إليه، و رسم بإبطال ما كان رسم به من عزل أبى الفتح الطيبى، و إحضاره، و أمر البلاطنسى بالسفر إلى دمشق، بعد أن لهج [الناس] بحبسه فى سجن المقشرة، فتحقق الناس بهذا الأمر ميل السلطان لأبى الخير، و كفّ جميع أعداء النحاس عن الكلام فى أمره مع السلطان.

و استمر بداره و الناس تتردد إليه، إلى يوم الخميس تاسع عشرين جمادى الأولى المذكور، رسم السلطان لجوهر الساقى بنزوله إلى أبى الخير النحاس، و معه نقيب الجيش، و يمضيا به إلى بيت قاضى القضاة شرف الدين يحيى المناوى الشافعى ليدعى عليه

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۱۵

التاجر شرف الدين موسى التّتائى الأنصارى، بمجلس الشرع، بدعاو كثيرة، و رسم السلطان لجوهر أن يحتاط بعد ذلک على جميع موجوده، فنزل جوهر المذكور من وقته إلى أبى الخير النحاس، و أخرجه من داره ماشيا ممسوكا مع نقيب الجيش، و قد ازدحم الناس على بابه للتفرج عليه و الفتک به، فحماه جوهر و من معه من المماليک [۱۵۰] منهم، و أخذه و مضى، و انطلقت الألسن إليه بالسب و

اللعن و التوبيخ، و جوهر يكفهم عنه ساعة بعد ساعة، و هم خلفه و أمامه، و هو مار فى طريقه ماشيا إلى أن وصل بيت القاضى المذكور بسويقة الصاحب، من القاهرة، و أدخلوه إلى المدرسة الصاحبية، [المجاورة لسكن قاضى الشافعية] محتفظا به، مع رسل الشرع.

و عاد جوهر الساقى و شرف الدين التّتائى إلى الحوطة على موجود أبى الخير النحاس بداره و حواصله، و وجدت العامة بغياب جوهر فرصة إلى الدخول على أبى الخير المذكور، فهجموا عليه و أخذوه من أيدى الرسل، و ضربوه ضربا مبرحا، فصاحت رسل الشرع عليهم، و أخذوه من أيديهم؛ و هرّبوه إلى مكان بالمدرسة المذكورة. و أعلموا القاضى بذلك، فأرسل القاضى خلف الأمير جانبك والى القاهرة،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۱۶

حتى حضر، و قدر على إخراجه من المدرسة المذكورة إلى بيت القاضى، و ادعى شرف الدين التّتائى عليه بدعاء يطول الشرح فى ذكرها.

و السبب الموجب لهذه القضية، أن أبا الخير النحاس لما وقع له ما وقع، و أقام بالقلعة من يوم الاثنين، إلى يوم الخميس، ثم نزل قبيل العصر إلى داره، بقى الناس فى أمره على قسمين: فمن الناس من لا سلّم عليه و لاراعاه، و منهم من صار يترجّيه و يتردد إليه، و دام على ذلك إلى أن طلع أبو الخير إلى السلطان من غير إذن، و أصلح ما كان فسد من أمره، و نزل إلى داره، و قد وقع بينه و بين شرف الدين المذكور.

و سبب ذلك أن شرف الدين كان فى هذه المدة هو رسول النحاس إلى السلطان، و مهما كان للنحاس من الحوائج يقضيها له عند السلطان، فظهر لأبى الخير المذكور، بطلوعه إلى القلعة فى ذلك اليوم، أن شرف الدين ليس هو له بصاحب، و أنه ينقل عنه إلى السلطان ما ليس هو مقصوده، بل ينهى عنه ما فيه دماره، فنزل إلى شرف الدين و أظهر له المباينة، و توعّده بأمور، إن طالت يده، فانتدب عند ذلك شرف الدين له، و دبر عليه: و ساعدته المقادير مع بغض الناس قاطبة له، حتى وقع ما حكيناه و ادعى عليه بدعاو كثيرة.

و استمر أبو الخير فى بيت القاضى شرف الدين فى الترسيم، و هو يسمع من العامة و الناس من أنواع البهدلة و السب مالا مزيد عليه مواجهة، بل يزدحمون على باب القاضى لرؤيته، و صارت تلك الحارة كبعض المفترجات، لعظم سرور الناس لما وقع لأبى الخير المذكور، حتى النساء و أهل الذمة، و أصبح من الغد نهار الجمعة، طلب السلطان خيوله و مماليكه فطلعوا بهم فى الحال، بعد أن شقوا بهم القاهرة، و ازدحم الناس لرؤيتهم، فكانت عدة الخيول نيفا على أربعين فرسا، منها بغال أزيد من عشرة، و الباقى خيول خاصّ هائلة، و المماليك نحو [من] عشرين نفرا، و استمر شرف الدين يتتبع آثاره و حواصله،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۱۷

هذا بعد أن أشهد على أبى الخير المذكور، أن جميع ما يملكه من الأملاك و الذخائر و الأمتعة و القماش و غير ذلك، هو ملك السلطان الملك الظاهر، دون ملكه، [و] ليس له فى ذلك دافع و لا مطعن.

ثم فى يوم السبت أول جمادى الآخرة، رسم بفتح حواصل أبى الخير، ففتحت، فوجد فيها من الذهب العين نحو سبعة عشر ألف دينار، و وجد له من الأقمشة و التحف و القرقلات التى برسم الحرب، و الصينى الهائل، و الكتب النفيسة، أشياء كثيرة، و وجد له حجج مكتتبة على جماعة بنحو ثلاثين ألف دينار، فحمل الذهب العين إلى السلطان، و بعض الأشياء المستظرفة، و ختم على الباقى، حتى تباع، و دام شرف الدين فى الفحص على موجوده، و أخرج السلطان جميع تعلقات النحاس من الإقطاعات و الحمايات و المستأجرات و غير ذلك.

ثم فى يوم الأحد ثانى جمادى الآخرة، خلع السلطان على المقر الجمالى ناظر الخواص، و على زين الدين الأستادار، خلعتى الاستمرار،

[و خلع] على شرف الدين موسى التّتائى، باستقراره فى جميع وظائف أبى الخير النحاس، و هم عدة وظائف ما بين نظر البيمارستان المنصورى، و نظر الجوالى، و نظر الكسوة، و وكالة بيت المال، و نظر خانقاه سعيد السّعداء، و وكيل السلطان، و وظائف أخر دينية، و مباشرات. و لبس شرف الدين خفّا و مهمازا و تولى جميع هذه الوظائف، عوضا عن أبى الخير دفعة واحدة. قلت:

و ما أحسن قول المتنبى فى هذا المعنى: [الطويل]

[۱۵۱]

بذا قضت الأيام ما بين أهلها مصائب قوم عند قوم فوائد

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۱۸

هذا و الفقهاء و المتعممون قد ألزموهم المماليك الجلبان بعدم ركوب الخيل، بحيث أنه لم يستجر أحد منهم أن يعلو على ظهر فرس، إلا أعيان مباشرى الدولة، و جميع من عداهم، قد ابتاعوا البغال، و ركبوها، حتى تزايد لذلك سعر البغال إلى أمثال ما كان أولا.

ثم أمر السلطان فى اليوم المذكور، بنقل أبى الخير النحاس من بيت القاضى الشافعى يحيى المناوى، من سويقة الصاحب، إلى بيت المالكى ولىّ الدين السنباطى، بالدرب الأصفر، ليدّعى عليه عند القاضى المذكور بدعاو، فأخذه والى القاهرة و مضى به من بيت القاضى الشافعى إلى بيت المالكى، و قد أركبه حمارا، و شق به للقاهرة، و الناس صفوف و جلوس بالشوارع و الدكاكين، و هم ما بين شامت و ضاحك ثم باك، فأما الشامت فهو من آذاه و ظلمه، و الضاحك من كان يعرفه قديما، ثم ترافع عليه، و الباكى معتبر بما وقع له من ارتفاعه ثم هبوطه؛ قلت: و قد قيل فى الأمثال: «على قدر الصعود يكون الهبوط».

و سار به الوالى على تلك الهيئة إلى أن أدخله إلى بيت القاضى المالكى، و ادعى عليه السيد الشريف شهاب الدين أحمد بن مصبح [دلّال العقارات] بدعوى شنعة، أوجبت وضع الجنزير فى رقبة أبى الخير النحاس، بعد أن كتب محضرا بكفره، و أقام الشريف البينة عند القاضى المالكى بذلك، فلم يقبل القاضى بعض البينة، و استمر أبو الخير فى بيت القاضى فى الترسيم على صفّة، نسأل اللّه السلامة من زوال النعم، إلى عصر يومه، فنقل إلى حبس الدّيلم على حمار، و فى رقبته الجنزير، و مر بتلك الحالة من

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۱۹

الشارع الأعظم، و عليه من الذل و الصغار ما أحوج أعداءه الرحمة عليه، و حاله كقول القائل: [السريع]

لم يبق إلا نفس خافت و مقلة إنسانها باهت

رثى له الشامت مما به يا ويح من يرثى له الشامت

قلت: و أحسن من ذا، [قول] من قال:

يا من علا [و] علوّه أعجوبة بين البشر

غلط الزّمان برفع قدرك ثم حطّك و اعتذر

و يعجبنى أيضا فى هذا المعنى، قول القائل: [البسيط]

لو أنصفوا أنصفوا، لكن بغوا فبغى عليهم، فكأن العزّ لم يكن

جاد الزّمان بصفو ثم كدّره هذا بذاك، و لا عتب على الزمن

و قد سقنا أحوال أبى الخير هذا فى ترجمته فى تاريخنا «المنهل الصافى و المستوفى بعد الوافى» بأوسع من هذا، [إذ سياق] الكلام منتظم مع سياقه فى محل واحد؛

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۲۰

و أيضا قد حررنا أموره بأضبط من هذا، فى تاريخنا «حوادث الدهور فى مدى الأيام و الشهور» إذ هو موضوع لتحرير الوقائع، و ما ذكرناه هنا، على سبيل الاستطراد من شىء إلى شىء.

و استمر أبو الخير [بسجن الديلم إلى ما يأتى ذكره] من خروجه من السجن، و نفيه، ثم حبسه، و جميع ما وقع له إلى يومنا هذا، إن شاء اللّه تعالى.

و فى يوم حبس النحاس بحبس الدّيلم، ظهر القاضى ولىّ الدين السفطى من اختفائه، نحو ثمانية أشهر و سبعة أيام، و طلع من الغد فى يوم الخميس سادس جمادى الآخرة، إلى السلطان، فأكرمه السلطان، و نزل إلى داره، ثم فى يوم السبت ثامنه، ندب السلطان إينال الأشرفى المتفقّه، ليتوجه إلى دمشق، لكشف أخبار أبى الفتح الطيبى و الفحص عن أمره.

و فى هذه الأيام، ترادفت الأخبار من حلب و غيرها بمسير جهان شاه بن قرا يوسف، صاحب تبريز، على [معز الدين] جهان گير بن على بك بن قرايلك صاحب آمد، و أن جهان گير، ليس له ملجأ إلا القدوم إلى البلاد الحلبية مستجيرا بالسلطان، و أن جهان شاه يتبعه حيثما توجه، فتخوّف أهل حلب من هذا الخبر، [۱۵۲] و نزح منها جماعة كثيرة، و غلا بها ثمن ذوات الأربع، لأجل السفر منها، و مدلول هذه الحكايات طلب عسكر يخرج من الديار المصرية إلى البلاد الشامية، فأوهم السلطان بخروج تجريدة، ثم فتر عزمه عن ذلك.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۲۱

و فى هذه الأيام أشيع بالقاهرة أن أبا الخير النحاس قد تجنّن فى سجنه، و أنه صار يخلط فى كلامه، قلت: و حقّ له أن يتجنن، فإنه كان فى شىء، ثم صار فى شىء، ثم عاد إلى أسفل ما كان، و هو أنه كان أولا فقيرا مملقا متحيلا على الرزق، دائرا على قدميه فى النّزه و الأوقات، ثم وافته السعادة على حين غفلة حتى نال منها حظا كبيرا، ثم حطه الدهر يدا واحدة، فصار فى الحبس، و فى رقبته الجنزير، يترقب ضرب الرقبة، بعد ما وقع له من الإخراق و البهدلة و شماته الأعداء، و أخذ أمواله ما وقع، فهو معذور: دعوه يتجنن و يتفنن فى جنونه.

ثم فى يوم الأحد سادس عشر جمادى الآخرة، استغاث الشريف غريم النحاس على رؤوس الأشهاد، و قال: قد ثبت الكفر على غريمى النحاس، و أقيمت البينة، و القاضى لا يحكم بموجب كفره و ضرب رقبته؛ و كان الشريف هذا قد وقف إلى السلطان قبل تاريخه، و ذكر نوعا من هذا الكلام، فرسم السلطان للقاضى المالكى، أنه إن ثبت على أبى الخير المذكور كفر، فليضرب رقبته بالشرع، و لا يلتفت لما بقى عنده من مال السلطان، فإن حقّ النبى صلى اللّه عليه و سلم أبدا من حق السلطان.

فلما سمع الشريف ذلك؛ اجتهد غاية الاجتهاد، و القاضى يتثبت فى أمره؛ ثم بلغ القاضى المالكى مقالة الشريف هذه، فركب و طلع إلى السلطان و اجتمع به و كلمه فى أمر النحاس، فأعاد السلطان عليه الكلام كمقالته أولا، و قال له كلاما معناه: أنّ هذا أمره راجع إليك، و مهما كان الشرع افعله معه، و لا تتعوّق لمعنى من المعانى، فقال القاضى المالكى: يا مولانا السلطان، قد فوّضت هذه الدعوى لنائبى القاضى كمال الدين بن عبد الغفار، فهو ينظر فيها بحكم اللّه تعالى؛ و انفض المجلس.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة؛ ج۱۵؛ ص۴۲۲

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۲۲

و كان السلطان قد أرسل فى أول هذا النهار جوهرا التركمانى الطّواشى، إلى أبى الخير النحاس، يسأله عن الأموال، و يهدده بالضرب و بالنكال، فلم يلتفت أبو الخير إلى ما جاء فيه جوهر، و قال: قد أخذ السلطان جميع مالى، و ما بقى فهو يباع فى كل يوم.

ثم أخذ أمر الشريف المدّعى على أبى الخير النحاس، فى انحلال، من كون [القاضى] الشافعى أثبت فسق القاضى عز الدين البساطى، أحد نواب الحكم المالكى، و هو أحد من شهد على أبى الخير المذكور لأمر من الأمور، و لا نعرف على الرجل إلا خيرا، و وقع بسبب ذلك أمور، و عقد مجالس بالقضاة، بحضرة السلطان، و آل الأمر [على] أن السلطان حبس الشريف و الشهود فى الحبس بالمقشرة، و تراجع أمر أبى الخير النحاس بعد ما أرجف بضرب رقبته غير مرة، ثم رسم السلطان فى اليوم الذى حبس فيه الجماعة المذكورة، بإخراج أبى الخير النحاس من حبس الديلم، و توجّهه إلى بيت قاضى القضاة الشافعى، فأخرجه الوالى من سجن الديلم مجنزرا بين

يـديه، و شق به الشـارع و هـو راكب خلفه، مـاش على قـدر مشـية النحـاس، إلى أن أوصـله إلى بيت القاضـى الشـافعى، بخـط سويقة الصاحب، و قد ازدحمت الناس لرؤيته، و كان الوقت قبيل العصـر بنحو العشر درج؛ و مرّ أبو الخير على مواضع كان يمر بها فى موكبه أيام عزه، و الناس بين يـديه؛ و بالجملة فخروجه الآن من حبس الديلم، خير من توجهه إليه من بيت القاضـى المالكى، و المراد به الآن خير مما كان يراد به بعد ذاك.

و لمـا وصل أبو الخير إلى بيت القاضـى الشافعى، أسـلمه والى القاهرة إليه، فأمر القاضـى فى الوقت، برفع الجنزير من عنقه، ثم قام بعد ساعـة، شـخص و ادعى على أبى الخير بدعاو كثيرة شـنعة، اعترف أبو الخير ببعضـها، و سـكت عن البعض، فحكم القاضـى عند ذلك بإسلامه، و حقن دمه، و فعل ما وجب عليه من التعزير، بمقتضى مذهبه،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۲۳

و سـلمت مهجته، بعد أن أيقن كلّ أحد بسفك دمه، و ذهاب روحه، و ذلك لعدم أهلية أخصامه، و ضعف شوكتهم، و عدم مساعدة المقر الجمالى ناظر الخواص على قتله، فإنه لم يتكلم فى أمره من يوم أمسك [۱۵۳]، إلا فيما يتعلق به من شأنه، و لم يداخلهم فيما هم فيه البتـة، مع أنه كـان لا يكره ذلك، لو وقع، غير أنه لم يتصـدّى لهـذا الأمر فى الظاهر بالكليـة، احتفاظا لرئاسـته و دينه. و أنا أقول: لو كان أمر النحاس هـذا مع ذلك الجزار جمال الـدين الأسـتادّار، أو غيره من أمثاله، لألحقوه بمن تقدمه من الأمم السالفة، و لكن «لكل أجل كتاب».

و بعد أن عزّره القاضى، أمر بالترسيم عليه، حتى يتخلص من تعلقات السلطنة.

ثم فى يوم الجمعة ثامن عشـرين جمادى الآخرة، رسم السـلطان بالإفراج عن الشريف غريم النحاس، و عن الشهود من حبس المقشرة؛ و رسم بنفى النحاس إلى مدينـة طرسوس، محتفظا به، و أنه يقيد و يجنزر من خانقاه سـرياقوس، فمضـى جانبک الوالى إليه، و أخرجه من بيت القاضـى الشافعى راكبا على فرس فى الثلث الأول من ليلة السـبت تاسع عشـرينه، و ذلک بعد أن حلف أبو الخير المذكور فى أمسه يمينا مغلظا بمجلس قاضـى القضاة شرف الدين يحيى المناوى، أنه لم يبق معه شىء من المال غير مبلغ يسير جدا، برسم النفقة، و أنه صار فقيرا لا يملک ما قلّ و لا جلّ، فسبحان المطلع على السرائر.

و فرغ هـذا الشـهر و النـاس فى جهـد و بلاء من غلوّ الأسـعار فى جميع المأكولات، و تزايـد أثمـل البغال، لكثرة طلابها من الفقهاء و المتعممين، لشدة المماليک الجلبان فى منعهم من ركوب الخيل.

ثم فى يوم الخميس رابع [شـهر] رجب، برز الأـمير سونجبغـا اليونسـى الناصـرى من القاهرة، إلى بركـة الحاج أمير الرجبيـة، و سافر فى الركب المذكور الأمير

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۲۴

جرباش المحمدى الناصـرى المعروف بكرد أحد مقدمى الألوف و صحبته زوجته خوند شقراء بنت الملک الناصر فرج [و عيالهما]، و سـافر معه أيضـا الأـمير تغرى برمش السـيفى يشـبک ابن أزدمر الزّردكـاش، أحـد أمراء الطبلخانـات، و عـدة كبيرة من أعيـان الناس و غيرهم، و سافر الجميع فى يوم الاثنين ثامنه.

ثم فى يوم الأحـد رابع عشـر شـهر رجب، الموافق لسـلخ مسرى أحـد شـهور القبط، أمر السـلطان الشـيخ عليّا المحتسب أن يطوف فى شوارع القاهرة، و بين يـديه المدراء، يعلمون الناس بأن فى غد يكون الاستسـقاء بالصـحراء لتوقف النيل عن الزيادة؛ و أصـبح من الغد فى يوم الاثنين خامس عشـره، و هو أول يوم من أيام النّسـىء، خرج قاضى القضاة شرف الدين يحيى المناوى، إلى الصحراء ماشيا من داره بين الخلائـق من الفقهـاء و الفقراء و الصوفيـة، إلى أن وقف بين تربـة الملک الظاهر برقوق، و بين قبـة النصـر، قريبا من الجبل، و نصب له هناک منبر، و حضر الخليفة و بقية القضاة، و صاروا فى جمع موفور من العالم من سائر الطوائف، و خرجت اليهود و النصارى بكتبهم، و صـلى قاضـى القضـاة المـذكور بجماعـة من الناس ركعتين خفيفتين، و دعا اللّه سـبحانه و تعالى، بإجراء النيل، و أمّن الناس

على دعائه و عظم ضجيج الخلائق من البكاء و النحيب و التضرع إلى اللّه تعالى و دام ذلك من بعد طلوع الشمس إلى آخر الساعة الثانية من النهار المذكور، ثم انصرفوا على ما هم عليه من الدعاء و الابتهال إلى اللّه تعالى، فكان هذا اليوم من الأيام التى لم نعهد بمثلها.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۲۵

و فى هذا اليوم، ورد كتاب خير بك النّوروزى نائب غزة، يتضمن أن أبا الخير النحاس توعّك و أنه يسأل أن يقيم بغزة، إلى أن ينصل من مرضه، ثم يسافر إلى طرسوس، فكتب الجواب إليه بالتوجه إلى طرسوس من غير أن يتعوق اليوم الواحد.

ثم فى يوم الخميس ثامن عشره، خرج الخليفة و القضاة الأربعة إلى الاستسقاء ثانيا، بالمكان المذكور، و خرجت الخلائق، و صلى القاضى الشافعى، و خطب خطبة طويلة، و قد امتلأ الفضاء بالعالم، و طال وقوف الناس فى الدعاء فى هذا اليوم، بخلاف يوم الاثنين. و بينما الناس بدعائهم، ورد منادى البحر، و نادى بزيادة أصبع واحد من النقص، فسرّ الناس بذلك سرورا عظيما، ثم انفضّ الجمع.

و عادوا إلى الاستسقاء أيضا من الغد فى يوم الجمعة ثالث مرة، و خطب القاضى على عادته فتشاءم الناس بوقوع خطبتين فى يوم واحد، فلم يقع إلا الخير و السلامة من جهة الملك، و استمر البحر فى زيادة و نقص إلى يوم الخميس عاشر شعبان الموافق لعشرين توت [۱۵۴] فأجمع رأى السلطان على فتح خليج السد، من غير تخليق المقياس، و قد بقى على الوفاء ثمانية أصابع لتكملة ستة عشر ذراعا، فنزل والى القاهرة و معه بعض أعوانه، و فتح سدّ الخليج، و مشى الماء فى الخلجان مشيا هينا، فكان هذا اليوم من الأيام العجيبة، من كثرة بكاء الناس و نحيبهم، و مما هالهم من أمر هذا النيل. و قد استوعبنا أمر زيادته من أوله إلى آخره فى تاريخنا «حوادث الدهور»، و ما وقع بسببه من التوجه إلى المقياس بالقراء و الفقهاء [مرارا] و كذلك إلى الآثار النبوى، و تكالب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۲۶

الناس على الغلال، و نهب الأرغفة من على الحوانيت، و أشياء كثيرة من هذا النموذج، يطول الشرح فى ذكرها هنا.

و فى هذه الأيام، ورد الخبر على السلطان بفرار تمراز البكتمرى المؤيدى المصارع، شادّ بندر جدّة، من جدة، إلى جهة الهند؛ و كان من خبره أن تمراز لما سار و استولى على ما تحصل من البندر من العشر، من الذى خصّ السلطان، بدا له أن يأخذ جميع ما تحصل عنده، و يتوجه إلى الهند عاصيا على السلطان، فاشترى مركبا مروّسا بألف دينار، من شخص يسمى يوسف البرصاوى [الرومى] و أشحنها بالسلاح و الرجال، يوهم أنه ينزل فيها و يعود بما تحصل معه إلى مصر، فلما تهيأ أمره، أخذ جميع ما تحصل من المال و هو نحو الثلاثين ألف دينار، و سافر إلى جهة اليمن، و بلغ السلطان ذلك من كتاب الشريف بركات صاحب مكة، فعظم ذلك على السلطان، و عدّد ولاية تمراز هذا من جملة ذنوب النحّاس، ثم طلب السلطان مملوكه الأمير جانبك الظاهرى و خلع عليه باستقراره على التكلم على بندر جدّة، على عادته، ليقوم بهذا الأمر المهم الذى ليس فى المملكة من ينهض به غيره، و أعنى من تمراز، و الفحص عليه و الاجتهاد فى تحصيله؛ و تجهّز الأمير جانبك، و خرج إلى البندر على عادته، بأجمل زى و أعظم حرمة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۲۷

و أما تمراز فإنه لما سافر من بندر جدّة إلى جهة بلاد الهند، صار كلما أتى إلى بلد ليقيم به، تستغيث تجار تلك البلد بحاكمها، و يقولون: «أموالنا بجدّة، و متى ما علم صاحب جدة أنه عندنا، أخذ جميع مالنا، بسبب دخول تمراز هذا عندنا؛ فإنه قد أخذ مال السلطان و فرّ من جدة»، فيطرده حاكم تلك البلد. و وقع له ذلك بعدة بلاد، و تحيّر فى أمره، و بلغ مسيره على ظهر البحر ستة أشهر، فعند ما عاين الهلاك، أرمى بنفسه بجميع ما معه فى مركبه، إلى مدينة كالكوت، و حاكم كالكوت سامرىّ، و جميع أهل البلد سمرة، و بها تجار غير سمرة، و أكثرهم من المسلمين، فثار التجار، و استغاثوا بالسامرىّ، و قالوا له مثل مقالة غيرهم، كل ذلك مراعاة لجهة جانبك نائب جدّة.

و كنت أستبعد أنا ذلك، إلى أن أوقفنى مرة الأمير جانبك المذكور، على عدة مطالعات، وردت عليه من السامرى المذكور، و كلّ

كتاب منهم، يشتمل على نظم و نثر و كلام فحل فائق، لا أدرى ذلك لفضيلة السامرى أو من كتّابه، و فى ضمن بعض الكتب الواردة صفة قائمة مكتوب فيها [عدة] الهدية التى أرسلها صحبة الكتاب المذكور، و القائمة خوصة، لعلها من ورق شجر جوز الهند، طول شبر و نصف، فى عرض إبهام، مكتوب عليها بالقلم الهندى خط باصطلاحهم، لا يعرف يقرأه إلا أبناء جنسهم، فى عاية الحسن و الظرف- انتهى.

و لما تكلم التجار المسلمون و غيرهم مع السامرى فى أمر تمراز، أراد السامرى مسك تمراز، فأحس تمراز بذلك، فأرسل إلى السامرى هدية هائلة، فأعاد عليه السامرى الجواب ب: «إن التجار يقولون إن معك مال السلطان»، فقال تمراز: «نعم،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۲۸

أخذت المال لأشترى به [للسلطان] فلفلا»، فقال له السامرى: «اشتر به فى هذا الوقت، و اشحنه فى مراكب التجار»، فاشترى به تمراز الفلفل و أشحنه فى مركبين للتجار، و الباقى أشحنه فى المركب المروّس الذى تحته، و سار تمراز و قصد بندر جدّة، إلى أن وصل باب المندب من عمل اليمن، عند مدينة عدن، فأخذ المركبين المشحونين بالفلفل [۱۵۵] و توجّه بهما إلى جزيرة مقابلة الحديدة تسمى كمران، فحضر أكابر الحديدة إلى عند تمراز المذكور، و حسنوا له أخذ مملكة اليمن جميعها، فمال تمراز إلى ذلك، و خرج إلى بلدهم و أخذ معه جميع ما كان له بالمركب.

ثم قال له أهل الحديدة: «لنا عدوّ، و ما نقدر نملك اليمن حتى ننتصر عليه، و بلد العدو تسمى سحيّة»، فأجمع تمراز على قتال المذكورين، و ركب معهم و قصد عدوّهم.

و التقى الجمعان، فكان بينهم وقعة قتل فيها تمراز المذكور، و قتل معه جماعة من أصحابه، و سلم ممن كان معه شخص من المماليك السلطانية، يسمى أيضا تمراز [و هو حتى إلى يومنا هذا. فلما بلغ الأمير جانبك موت تمراز]، أرسل شخصا من

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۲۹

الخاصكية الظاهرية ممن كان معه بجدة، يسمى تنم رصاص، و معه كتب جانبك المذكور إلى الحديدة، بطلب ما كان مع تمراز جميعه، فتوجّه تنم إلى الحديدة، فتلقاه أهلها بالرحب و القبول، و سلموه جميع ما كان مع تمراز، و المركب المروّس و غير ذلك.

فعاد تنم بالجميع إلى جدة، بعد أن استبعد كل أحد رجوع المال، فأرسل الأمير جانبك يخبر السلطان بذلك كلّه، فلما ورد عليه هذا الخبر، سربه و شكر جانبك المذكور على ذلك- انتهى.

ثم فى يوم الأربعاء، سابع شهر رمضان، وصل الأمير تنبك البردبكى المعزول عن حجوبية الحجاب قبل تاريخه، من ثغر دمياط، بطلب من السلطان، و طلع إلى القلعة و قبل الأرض بين يدى السلطان، و وعد بخير، و رسم له بالمشى فى الخدمة السلطانية على عادته أولا، لكنه لم ينعم عليه بإقطاع و لا إمرة.

و فى هذه الأيام، رسم السلطان لنائب طرسوس بالقبض على أبى الخير النحاس، و ضربه على سائر جسده خمسمائة عصاة، و أن يأخذ جميع ما كان معه من المماليك و الجوارى؛ و خرج المرسوم بذلك على يد نجّاب، و وقع ما رسم به السلطان.

ثم فى يوم الاثنين سادس [عشرين] شهر رمضان، ورد الخبر من الشأم بضرب رقبة أبى الفتح الطيبى، أحد أصحاب أبى الخير النحاس؛ بحكم القاضى المالكى بدمشق، فى ليلة الأربعاء رابع [عشر] شهر رمضان المذكور، بعد أن ألغى حكم القاضى برهان الدين إبراهيم السوبينى الشافعى، بعد عزله بعد أمور وقعت حكيناها فى الحوادث.

ثم فى يوم الاثنين سابع [عشر] شوال؛ برز الأمير تمربغا الظاهرى الدّوادار

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۳۰

الثانى، أمير حاج المحمل، بالمحمل، إلى بركة الحاج، و أمير الركب الأول خير بك الأشقر المؤيدى أحد أمراء العشرات، و كان الحج قليلا جدا فى هذه السنة، لعظم الغلاء بالديار المصرية و غيرها.

ثم فى يوم الخميس خامس ذى القعدة، برز المرسوم الشريف باستقرار الأمير جانبك التاجىّ المؤيدى نائب بيروت، فى نيابة غزة، بعد عزل خيربك النوروزى عنها، و توجهه إلى دمشق بطالا.

ثم فى يوم الاثنين سادس عشر ذى القعدة، ورد الخبر على السلطان بموت الأمير تغرى برمش الزردكاش بمكة المشرفة؛ و كان المخبر بموته، جانبك الظاهرى الخاصكى البواب [عفريت]، فأنعم السلطان فى يوم الخميس تاسع عشره، على السيفى دقماق اليشبكى، الخاصّكى، بإمرة عشرة، من إقطاع تغرى برمش الزردكاش، و أنعم بباقيه على الأمير قراجا الظاهرى الخازندار، زيادة على ما بيده ليكمل ما بيده إمرة طبلخاناة؛ و أنعم بإقطاع دقماق، ربع تفهنة، على جانبك الأشرفى الخازندار الخاصكى، و هو يوم ذاك من جملة الدّوادارية.

ثم خلع السلطان فى يوم الاثنين ثالث عشرينه، على دقماق المذكور، باستقراره زرد كاشيّا كبيرا، عوضا عن تغرى برمش المذكور، فأقام دقماق فى الزّردكاشيّة خمسة أيام، و عزل عن الوظيفة، و استرجع السلطان منه الإمرة المنعم عليه بها من إقطاع تغرى برمش و أعيد إليه إقطاعه القديم، و قد ذكرنا سبب عزله فى «حوادث الدهور»

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۳۱

[۱۵۶] مفصلا، و استقر الأمير لاجين الظاهرى زردكاشا، و لما أعيد إلى دقماق إقطاعه القديم، صار جانبك الأشرفى الخازندار بلا إقطاع، لأن السلطان كان أنعم بإقطاعه على جانبك الظاهرى البواب القادم من مكة، و ساعد جانبك الأشرفىّ جماعة من الأعيان فى رد إقطاعه الأول عليه، أو ينعم عليه السلطان بالإمرة المسترجعة من دقماق، فلم يحسن ببال السلطان أخذ الإقطاع من جانبك الظاهرى؛ فحينئذ لزمه أن يعطى جانبك الخازندار هذه الإمرة المذكورة فأنعم عليه بها، فجاءت جانبك السعادة بغتة، من غير أن يترشح لذلك قبل تاريخه. و خلع السلطان على السيفى قايتباى الظاهرى الخاصكى باستقراره دوادارا، عوضا عن جانبك الخازندار المذكور، فإنه كان بقى من جملة الدوادارية، غير أنه كان لا يعرف إلا بالخازندار، [و] الظريف إلى يومنا هذا.

ثم فى يوم الخميس ثالث ذى الحجة، خلع السلطان على القاضى ولىّ الدين الأسيوطى باستقراره فى [مشيخة] المدرسة الجمالية بعد موت ولى الدين السّفطى.

ثم فى يوم الأحد ثالث عشر ذى الحجة، رسم السلطان بالإفراج عن الأمير يشبك الصوفى المؤيّدى المعزول عن نيابة طرابلس، من سجن الإسكندرية و توجّهه إلى ثغر دمياط بطّالا.

و فى يوم الاثنين رابع عشره، وصل كتاب الناصرى محمد بن مبارك نائب البيرة، يخبر أنه ورد عليه كتاب الأمير رستم، مقدم عساكر جهان شاه [بن] قرا يوسف،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۳۲

يتضمن أنه قبض على الأمير بيغوت [من صفر خجا] المؤيّدى [الأعرج] المتسحّب من نيابة حماه إلى جهان گير بن قرايلك، و أنه أخذ جميع ما كان معه و جعله فى الترسيم. فكتب له الجواب بالشكر و الثناء عليه، و طلب بيغوت المذكور منه، و قد أوضحت أمر بيغوت هذا فى كتابنا «حوادث الدهور» من أول أمره إلى آخره.

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۵۵]

ثم فى يوم الخميس أول محرم سنة خمس و خمسين و ثمانمائة، خلع السلطان على الأمير مرجان العادلى المحمودى الحبشى نائب مقدم المماليك السلطانية، باستقراره مقدم المماليك، عوضا عن جوهر النّوروزى، بحكم إخراجه إلى القدس الشريف بطالا، [و] استقر الطواشى عنبر خادم التاجر نور الدين على الطنبذى فى نيابة المقدم، عوضا عن مرجان المذكور.

ثم فى يوم الاثنين خامس المحرم، كانت مبايعة الخليفة القائم بالله حمزة، بالخلافة، عوضا عن أخيه أمير المؤمنين المستكفى بالله

سليمان، بعد وفاته، حسبما يأتى ذكر وفاته فى الوفيات من هذا الكتاب.

ثم فى يوم السبت تاسع صفر، وصل إلى القاهرة، قصّاد جهان شاه بن قرا يوسف صاحب تبريز و غيرها، و طلعوا إلى القلعة فى يوم الاثنين حادى عشره، بعد أن عمل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۳۳

السلطان لهم موكبا جليلا بالحوش من قلعة الجبل، و قدّموا ما على أيديهم من الهدية و غيرها.

ثم فى يوم الأحد سابع عشر صفر، ورد الخبر بقدوم الأمير بيغوت نائب حماة، الخارج عن الطاعة، إلى حلب، و صحبة القاصد الوارد بهذا الخبر، عدة مطالعات من نواب البلاد الشأمية فى الشفاعة فى بيغوت المذكور، كونه كان تخلص من أسر رستم و قدم هو بنفسه إلى طاعة السلطان، فكتب السلطان بإحضار بيغوت المذكور على أحسن وجه، و قبل السلطان شفاعة الأمراء فيه.

ثم فى يوم الاثنين ثامن عشره، عمل السلطان مدة هائلة لقصّاد جهان شاه بالقلعة، ثم أنعم عليه بمبلغ ألفى دينار فى يوم الأربعاء العشرين منه، و أنعم أيضا على الأمير قانم التاجر المؤيدى أحد أمراء العشرات بألفى دينار، و كان ندبه للتوجه فى الرسلية إلى جهان شاه صحبة قصّاده، فخرج قانم فى يوم الجمعة ثانى عشرين صفر.

ثم فى يوم الأحد ثانى شهر ربيع الأول، من سنة خمس و خمسين المذكورة، نزل السلطان إلى عيادة زين الدين يحيى الأستادار، لانقطاعه عن الخدمة، و كان سبب انقطاعه عن الخدمة السلطانية أن المماليك السلطانية أوقعوا به بباب [۱۵۷] القلة من قلعة الجبل، و ضربوه و جرح فى رأسه، من شجة، و نزل محمولا إلى داره على أقبح حال. و لم يطل السلطان الجلوس عنده، و ركب من عنده، و توجّه إلى بيت عظيم الدوله المقر الجمالى ناظر الخواص، [و نزل عنده و أقام قليلا، ثم ركب و عاد إلى القلعة و أصبح

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۳۴

من الغد كلّ واحد من الجمالى ناظر الخواص] و زين الدين الأستادار، جهزّ للسلطان تقدمة هائلة ذكرنا تفصيلها فى الحوادث.

ثم فى يوم السبت ثالث عشر شهر ربيع الآخر، وصل الأمير بيغوت الأعرج [من صفرخجا] المؤيدى نائب حماه كان، إلى القاهرة، و طلع إلى السلطان، و قبل الأرض بين يديه، و خلع السلطان عليه سلاريّا أحمر بفرو سمور، و وعده بخير.

ثم فى يوم الاثنين خامس عشر شهر ربيع الآخر المذكور، سافر الأمير أسنباى الجمالى الظاهرى أحد أمراء العشرات إلى بلاد الروم، لتولية خوندكار محمد السلطنة، بعد وفاة أبيه مراد بك.

و فى هذا الشهر، أشيع بالقاهرة، أن السلطان ذكر أبا الخير النحاس بخير، و أنه فى عزمه الإفراج عنه و الرضا عليه، فبلغ السلطان ذلك، فبرز مرسومه إلى نائب طرسوس بضرب النحاس مائة عصاة افتقده بها.

ثم فى يوم الثلاثاء ثامن جمادى الأولى، سافر الأمير بيغوت إلى دمشق؛ ليقيم بها بطّالا، بعد أن رتب له فى كل شهر مائة دينار برسم النفقة، إلى أن ينحلّ له إقطاع.

ثم فى يوم الخميس رابع [عشر] شهر رجب وصل الأمير قائم المؤيدى المتوجه إلى جهان شاه فى الرسلية، إلى القاهرة مريضا فى محفة.

ثم فى يوم الاثنين تاسع شعبان، وصل الأمير جانبك نائب جدّة إلى القاهرة، و خلع السلطان عليه، و نزل إلى داره فى موكب جليل إلى الغاية.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۳۵

ثم فى يوم الخميس تاسع عشر شعبان، ورد الخبر على السلطان بموت الأمير بردبك العجمى الجكمى، أحد مقدمى الألوف بدمشق، فأنعم السلطان بإقطاعه على الأمير بيغوت الأعرج المؤيدى.

ثم فى يوم الأحد ثانى عشرينه، نزل السلطان من القلعة و شق القاهرة، و سار حتى نظر المدرسة التى جدد بناءها الجمالى ناظر

الخواص، بسويقة الصاحب، ثم عاد من المدرسة، و نزل إلى بيت ابنته زوجة الأمير أزبك من ططخ الساقى الظاهرى، أحد أمراء العشرات و رأس نوبة، بدرب الطنبذى بسويقة الصاحب، و أقام عندها ساعة جيدة، ثم ركب و طلع إلى القلعة. و بعد طلوعه أرسل إلى الأمير أزبك بعدة خيول خاص و مماليك و أصحن حلوى كثيرة، فقبل الحلوى ورد ما سواها.

ثم فى يوم الاثنين ثالث عشرين شعبان من سنة خمس و خمسين المذكورة، رسم السلطان بتفرقة دراهم الكسوة، على المماليك السلطانية على العادة فى كل سنة، لكل مملوك ألف درهم، فامتنعوا من الأخذ، و طلبوا الزياده، و بلغ السلطان الخبر، فغضب من ذلک و خرج من وقته ماشيا حتى وصل إلى الإيوان، و جلس على السّلّمة السفلى بالقرب من الأرض، و استدعى كاتب المماليك أسماء جماعة فلم يخرج واحد، و صمموا على طلب الزيادة، و صاروا عصبة واحدة، فلم يسع السلطان إلا أن دعا عليهم، و قام غضبانا، و سار حتى وصل إلى الدّهيشة. و استمروا المماليک على ما هم عليه، و حصل أمور، إلى أن وقع الاتفاق على أنه يكون لكل مملوک من المماليک السلطانية ألفا درهم، و رضوا بذلک، و أخذوا النفقة المذكورة، و قد تضاعف أمرها على ناظر الخاص.

ثم استهل [شهر] رمضان، أوله الاثنين و الناس فى أمر مريج من الغلاء المفرط فى سائر المأكولات لا سيما اللحوم، هذا مع اتساع الأراضى بالرى، و احتاجت الفلاحون

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۳۶

إلى التقاوى و الأبقار، و قد عزّ وجود البقر حتى أبيع الزوج البقر الهائل، بمائة و عشرين دينارا، و ما دونها، و أغرب من ذلک ما حدثنى السيفى إياس خازندار الأتابک آقبغا التمرازى، بحضرة الأمير أزبک الساقى، أنه رأى ثورا هائلا، ينادى عليه بأربعين ألف درهم، فاستبعدت أنا ذلک، حتى قال [۱۵۸] الأمير أزبک: «نعم، و أنا سمعته أيضا يقول هذا الخبر للمقر الجمالى ناظر الخواص». ثم استشهد إياس المذكور بجماعة كثيرة على صدق مقالته، و هذا شىء لم نعهد بمثله. هذا مع كثرة الفقراء و المساكين، ممن افتقر فى هذه السنين المتداولة بالغلاء و القحط، مع أنه تمفقر خلائق كثيرة ممن ليس له مروءة، و أمسک فى هذه الأيام جماعة كثيرة من البيعة، و معهم لحوم الدواب الميتة، و لحم الكلاب، يبيعونها [على الناس]، و شهروا بالقاهرة، و قد استوعبنا أمر هذا الغلاء و ما وقع فيه من الغرائب من ابتداء أمره إلى آخره، و قد مكث نحو الأربع سنين فى تاريخنا «حوادث الدهور فى مدى الأيام و الشهور»، محررا باليوم و الساعة.

ثم فى يوم الخميس حادى عشر شهر رمضان استقر الناصرى [ناصر الدين] محمد ابن مبارک [نائب البيرة] فى حجوبية دمشق؛ بعد عزل الأمير جانبک الناصرى؛ و توجهه إلى القدس بطّالا.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۳۷

و وقع فى هذا الشهر، أعنى عن شهر رمضان، غريبة، و هى أن جماعة أرباب التقويم و الحساب أجمعوا على أنه يكون فى أوائل العشر الأخير من هذا الشهر قران نحس يكون فيه قطع عظيم؛ على السلطان الملک الظاهر جقمق، ثم فى أواخر العشر المذكور يكون قران آخر، و يستمر القطع على السلطان من أول العشر إلى آخره، و أجمعوا على زوال السلطان بسبب هذه القطوع، فمضى هذا الشهر و السلطان فى خير و سلامة، فى بدنه و حواسه، و لازمته أنا فى العشر المذكورة ملازمة غير العادة، لأرى ما يقع له من التوعک أو الأنكاد، أو شىء يقارب مقالة هؤلاء، ليكون لهم مندوحة فى قولهم، فلم يقع له فى هذه المدة ما كدّر عليه؛ و لا تشوّش فى بدنه، و لا ورد عليه من الأخبار ما يسوء؛ و لا تنكد بسب من الأسباب؛ و قد كان شاع هذا القول حتى لعله بلغ السلطان أيضا، و فرغ الشهر، و لم يقع شىء مما قالوه بالكليّة؛ و يأبى اللّه إلا ما أراد؛ و يعجبنى فى هذا المعنى قول القائل، و لم أدر لمن هو: [البسيط]

دع المنجّم يكبو فى ضلالته إن ادّعى علم ما يجرى به الفلک

تفرّد اللّه بالعلم القديم فلا الإنسان يشركه فيه و لا الملک

و مثل هذا أيضا، و أظنه قد تقدم ذكره: [البسيط]

دع النجوم لطرقیّ یعیش بها و بالعزیمة فانهض أیها الملک

إن النّبیّ و أصحاب النّبیّ نهوا عن النجوم و قد أبصرت ما ملکوا

ثم فی یوم الجمعة ثالث شوال، ورد الخبر بموت یشبک الحمزاوی نائب صفد بها، فی لیلة السبت سابع عشرین شهر رمضان، فرسم السلطان بنیابة صفد للأمیر بیغوت الأعرج ثانیا، و حمل إلیه التقلید و التشریف علی ید الأمیر یشبک الفقیه المؤیّدی، بنیابة صفد؛ و یشبک المذکور من محاسن الدنیا، نادرة فی أبناء جنسه؛ و أنعم بتقدمة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۳۸

بیغوت بدمشق، علی الناصری محمد بن مبارک حاجب حجاب دمشق؛ و أنعم بإقطاع ابن المبارک، علی آقبای السیفی جارقطلو، المعزول عن نیابة سیس. و فیه أیضا، استقر خیر بک النوروزی المعزول عن نیابة غزة قبل تاریخه، أتابک صفد، کلاهما: أعنی خیر بک و آقبای، بالبذل، لأنهما من أطراف الناس، لم تسبق لهما رئاسة بالدیار المصریة.

ثم فی یوم السبت رابعه، استقر السّوبینی فی قضاء طرابلس، و استقر [الشمس] ابن عامر فی قضاء المالکیة بصفد.

ثم فی یوم الاثنین سادسه، استقر [الزینی] الطّواشی سرور الطربائی [الحبشی]، فی مشیخة الخدام بالحرم النبوی، بعد عزل الطواشی فارس الرومی الأشرفی.

ثم فی یوم الخمیس سادس عشر شوال، أعید القاضی حمید الدین [النعمانی] إلی قضاء الحنفیة بدمشق، بعد عزل القاضی قوام الدین.

و فیه خلع السلطان علی المقر الجمالی ناظر الخواص، خلعة هائلة لفراغ الکسوة المجهزة لداخل البیت العتیق.

ثم فی یوم السبت ثامن عشره، برز أمیر حاجّ المحمل الأمیر سونجبغا الیونسی [۱۵۹] بالمحمل إلی برکة الحاج.

ثم فی یوم الثلاثاء سابع عشرین ذی القعدة، أنعم السلطان علی الأمیر تنبک البردبکی المعزول عن حجوبیة الحجاب قبل تاریخه، بإمرة مائة و تقدمة ألف بالدیار المصریة، بعد موت الشهابی أحمد بن علی بن إینال الیوسفی.

ثم فی یوم الخمیس سادس ذی الحجة من سنة خمس و خمسین المذکورة، قدم الأمیر أسنبای الجمالی الظاهری، أحد أمراء العشرات من بلاد الروم.

ثم فی یوم الثلاثاء حادی عشر ذی الحجة، استقر عمر الکردی، أحد أجناد الحلقة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۳۹

[فی] أستادّاریة السلطان بدمشق [و استقر شخص یسمی یونس الدمشقی، یعرف بابن دکدوک، فی أستادّاریة السلطان الکبری بدمشق]، و عمر المذکور، و یونس هذا، [هما] من الأوباش الأطراف، و کلاهما ولی بالبذل.

[ثم] فی یوم الخمیس سابع عشرین ذی الحجة، وصل الأمیر یشبک الفقیه من صفد، بعد ما قلد نائبها الأمیر بیغوت.

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۵۶]

اشارة

ثم فی یوم الاثنین أول محرم سنة ست و خمسین و ثمانمائة، أعید القاضی جمال الدین یوسف الباعونی إلی قضاء دمشق، بعد عزل السراج الحمصی، بسفارة عظیم الدولة ناظر الخواص.

ثم فی یوم الثلاثاء [ثالث عشرینه]، وصل أمیر حاجّ المحمل بالمحمل. و فیه سافر الأمیر جانبک الظاهری نائب جدة [إلی] البندر المذکور.

ثم فی [یوم] الاثنین سادس صفر، استعفی الأمیر ألطنبغا الظاهری برقوق [المعلم] اللفّاف، أحد مقدمی الألوف، من الإمرة، فأعفی

لطول مرضه و عجزه عن الحرکة، و أنعم السلطان بإقطاعه علی ولده المقام الفخری عثمان، زیادة علی ما بیده من تقدمة أخیه الناصری محمد قبل تاریخه، فصار بیده تقدمة أخیه و هذه التقدمة.

ثم فی یوم الجمعة ثانی شهر ربیع الأول، حضر المقام الفخری عثمان صلاة الجمعة، عند أبیه بجامع القلعة، و رسم له والده السلطان أن یمشی الخدمة علی عادة أولاد الملوک.

ثم فی یوم الخمیس ثامن شهر ربیع الأول المذکور، خلع السلطان علی القاضی محب

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۴۰

الدین محمد بن الأشقر، ناظر الجیش، باستقراره کاتب السر الشریف، عوضا عن القاضی کمال الدین بن البارزی بعد موته. و خلع السلطان أیضا علی المقرّ الجمالی ناظر الخواص، باستقراره ناظر الجیوش المنصورة زیادة علی ما بیده من نظر الخاص و غیره.

ثم فی یوم السبت سابع عشره، نودی بالقاهرة، علی الذهب الظاهری الأشرفی، کل دینار بمائتی درهم و خمسة و ثمانین درهما، و هدّد من زاد فی صرفه علی ذلک.

ثم فی یوم الاثنین، ثالث شهر ربیع الآخر، استقر الشریف معز فی إمرة الینبوع، عوضا عن عمه سنقر [بن وبیر]؛ و فیه نقل یشبک الصوفی المؤیّدی المعزول عن نیابة طرابلس، من ثغر دمیاط إلی القدس بطالا.

ثم فی یوم السبت ثامن عشرین جمادی الأولی، أنعم السلطان علی مملوکه جانم الساقی الظاهری، بإمرة عشرة، بعد موت الأمیر برسبای الساقی المؤیدی.

ثم فی یوم السبت حادی عشر شهر رجب، وصل إلی القاهرة الأمیر حاج إینال الیشبکی، نائب الکرک، و خلع السلطان علیه باستمراره.

ثم فی یوم السبت ثامن عشر رجب المذکور، أنعم السلطان علی حاج إینال المذکور بإمرة مائة و تقدمة ألف بدمشق، عوضا عن الأمیر مازی الظاهری برقوق، بحکم لزومه بیته، و استقر فی نیابة الکرک عوضا عن حاج إینال، طوغان، مملوک آقبردی المنقار، نقل إلیها من دواداریة السلطان بدمشق، و استقر فی دواداریة السلطان بدمشق، خشکلدی الزینی عبد الرحمن بن الکویز الدوادار، و استقر عوضا عن خشکلدی فی الدواداریة الثالثة شخص من أولاد الناس، ممن کان فی خدمة الملک الظاهر قدیما، یعرف بابن جانبک، لا یعرف له نسب و لا حسب.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۴۱

و فی هذه الأیام أشیع بالقاهرة، بمجیء النحاس إلی الدیار المصریة، و أنه وصل علی النّجب، و أنه نزل بتربة الأمیر طیبغا الطویل بالصحراء خارج القاهرة، ثم انتقل [۱۶۰] منها إلی القاهرة، و تحدث الناس برؤیته، و تعجب الناس من ذلک، و استغربت أنا و غیری مجیئه من أن السلطان من یوم نکبه و صادره و حبسه ثم نفاه إلی طرسوس، ثم حبسه بقلعة طرسوس علی أقبح وجه، و صار فی الحبس المذکور فی غایة الضیق، و نال أعداؤه منه فوق الغرض، و صار السلطان یتفقده فی کل قلیل بعصیّات، حتی أنه ضرب فی مدة حبسه بطرسوس، علی نفذات متفرقة، نحو الألف عصاة تخمینا، و لم یزل فی محبسه فی أسوأ حال، حتی أشیع مجیئه، و لم یدر بذلک أحد من أعیان الدولة، و لا یعرف أحد کیفیة الإفراج عنه؛ و أخذ أعیان الدولة من الأکابر فی تکذیب [هذا الخبر]، و صار الناس فی أمره علی قسمین: ما بین مصدق و مکذب.

ثم قدم الأمیر جانبک الظاهری، نائب جدّة و صحبته قصّاد الحبشة من المسلمین من صاحب جبرت فی یوم الخمیس ثامن شعبان، و عمل السلطان الموکب بالحوش السلطانی، و کان السلطان قد انقطع عن حضور الخدمة بالقصر نحو الشهر لضعف حرکته.

فلما کان یوم الجمعة تاسعه، طلع أبو الخیر النحاس فی بکرته إلی القلعة، و دخل إلی الدّهیشة صحبة المعزّی عبد العزیز ابن أخی الخلیفة القائم بأمر اللّه حمزة، و قد أمره عمه القائم بأمر اللّه حمزة لیشفع فی أبی الخیر المذکور علی لسان الخلیفة، و لم یکن عند السلطان فی ذلک الوقت من أعیان الدولة سوی الأمیر تمربغا الظاهری الدّوادار الثانی، و الأمیر أسنبای الجمالی الظاهری؛ فقام السلطان

لابن أخى الخليفة المذكور و أجلسه، ثم دخل أبو الخير النحاس و قبّل رجل السلطان، فسبّه السلطان و لعنه و أخذ فى توبيخه، و ذكر أفعاله القبيحة؛ ثم أمر بحبسه بالبرج من قلعة الجبل، ثم اعتذر لابن أخى الخليفة، و قال: «أنا كنت أريد توسيطه، و لأجل الخليفة قد عفوت عنه».

ثم أنعم على عبد العزيز المذكور بمائة دينار، و انفض المجلس.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۴۲

و أصبح السلطان من الغد فى يوم السبت، جلس على الدّكة بالحوش السلطانى، و أحضر أبا الخير المذكور، فى الملأ من الناس، ثم أمر به فضرب بين يديه نحو الألف عصاة، أو ما دونها تخمينا، على رجليه، و سائر بدنه؛ ثم أمر بحبسه ثانيا بالبرج من القلعة، فتحيّر الناس من هذه الأفعال المتناقضة، و هو كونه أفرج عنه سرا و أحضره إلى القاهرة؛ فظن كل أحد بعود المذكور إلى أعظم ما كان عليه، ثم وقع له ما ذكرناه من الإخراق و الضرب و الحبس.

و قد كثر كلام الناس فى ذلک، فمنهم من يقول: أمر السلطان بإطلاقه لا مجيئه إلى القاهرة، فلما قدم بغير دستور، غضب السلطان عليه؛ فردّ على قائل هذا الكلام بأنه:

من أين لأبى الخير النّجب التى قدم عليها مع ما كان عليه، لو لا ـ توصية السلطان لمن يعينه على ذلک؟. و أيضا: كيف تمكن من المجىء، لو لا ـ ما معه من المراسيم ما يدفع به نوّاب البلاد الشامية من منعه من الحضور؟. و منهم من يقول: كان أمره قد انبرم مع السلطان، و رسم بحضوره، و إنما أعداؤه اجتهدوا فى إبعاده ثانيا، و وعدوا بأوعاد كثيرة، أضعاف ما وعده أبو الخير المذكور؛ و أقوال كثيرة أخر.

ثم فى هذا اليوم أخذ أبو عبد اللّه التريكى المغربى المالكى، المعزول عن قضاء دمشق قبل تاريخه، من بيته إلى بيت الوالى، و رسم عليه، ثم ادّعى عليه بمجلس القاضى المالكى، أنه التزم للسلطان عن أبى الخير النحاس بمائة ألف دينار أو أكثر، فقال:

«أنا قلت إن ولّاه ما عيّنته من الوظائف» و لم يقع ذلک، و عرف كيف أجاب، فإنه كان من الفضلاء العلماء، فاستمر فى الترسيم إلى يوم الثلاثاء ثالث عشر شعبان، فطلب إلى القلعة، فطلع و فى رقبته جنزير، ثم أعيد إلى الترسيم من غير جنزير، و قد أشيع أنه وقع فى حق قاضى القضاة شرف الدين يحيى المناوى [۱۶۱] بأمور شنعة، و دام فى الترسيم إلى ما يأتى ذكره.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۴۳

ثم فى يوم الأربعاء رابع عشر شعبان المذكور، أخرج أبو الخير النحاس المذكور من البرج منفيّا إلى البلاد الشامية، و رسم بحبسه بقلعة الصّبيبة، فنزل على حالة غير مرضية، و هو أنه أركب على حمار، و فى رقبته باشة و جنزير و موكل به جماعة من الجبليّة، شقوا به شارع القاهرة إلى أن أخرج من باب النصر، و المشاعلىّ ينادى عليه: «هذا جزاء من يكذب على الملوک، و يأكل مال الأوقاف»، و نحو ذلک، و رسم السلطان أن يفعل به ذلک فى كل بلد يمر بها، إلى أن يصل إلى محبسه.

ثم فى يوم الخميس خامس عشره، استقر الأمير حاج إينال اليشبكى أحد مقدمى الألوف بدمشق، فى نيابة حماه، عوضا عن سودون الأبوبكرىّ المؤيدى بحكم عزله، و توجهه على إقطاع حاج إينال المذكور بدمشق.

ثم فى يوم الثلاثاء العشرين من شعبان المذكور، جلس السلطان بالحوش، و أحضر القضاة ثم أحضر والى القاهرة أبا عبد اللّه التريكى المغربى، و كان التريكى قد أقام قبل ذلک ببيت القاضى الشافعى أياما، فلما مثل التريكى بين يدى السلطان، سأل السلطان قاضى القضاة شرف الدين يحيى المناوى الشافعى، عن أمر التريكى و ما وجب عليه، فقال: «ثبت عليه عند نائبى نجم الدين بن نبيه، لمولانا السلطان عشرة آلاف دينار»، و قام ابن النّبيه فى الحال، و أخبر السلطان بذلک، فنهر السلطان القاضى الشافعى عند مقالته عشرة آلاف دينار، و قال: «ما أسأل إلا عن ما وجب عليه من التّعزير.

إيش العشرة آلاف دينار؟»

و لم تحسن مقالة القاضى الشافعى بهذا القول ببال أحد؛ ثم أجاب ابن النبيه بأن قال: «أما المال فقد ثبت عندى، و أما التعزير فهو إلى القاضى شمس الدين بن خيرة، أحد نواب الحكم». فقال ابن خيرة: «حكمت عليه بتغريبه سنتين، و أما التعزير

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۴۴

فلمولانا السلطان على ما وقع منه من الأيمان الحانثة». فلما سمع السلطان كلام ابن خيرة، أمر بالتريكى فطرح على الأرض، و ضرب ضربا مبرحا، يزيد على مائتى عصاة، و أقيم، فتكلم فيه ابن النبيه أيضا، و أحضر محضرا مكتتبا عليه بدمشق، بواقعة وقعت له فى أيام حكمه بدمشق، فأمر به السلطان ثانيا فضرب نحوا مما ضرب أولا، و اختلفت الأقوال فى عدة ما ضرب، فأكثر ما قيل ستمائة عصاة، و أقل ما قيل أربعمائة. ثم أنزلوه إلى بيت والى القاهرة، فأقام فى حبس الرّحبة إلى يوم الأربعاء خامس شهر رمضان، فأخرج من الحبس و فى رقبته الجنزير ماشيا إلى بيت الوالى بين القصرين، ثم ركب من هناك، و أخرج منفيا فى الترسيم إلى بلاد المغرب، فسافر إلى المغرب إلى يومنا هذا.

ثم فى يوم السبت ثامن شهر رمضان، سافر محبّ الدين بن الشحنة قاضى قضاة حلب من القاهرة، بعد ما أقام بها أشهرا، و قاسى من الذل و البهدلة أنواعا، و رسم عليه غير مرة، و أخرجت عنه وظيفتا كتابة سرّ حلب و نظر جيشها، و قد استوعبنا أحوال ابن الشّحنة هذا فى تاريخنا «حوادث الدهور فى مدى الأيام و الشهور»، مستوفاة من مبدأ أمره إلى يوم تاريخه، مما وقع له بحلب و مصر و غيرهما، من الأمور الشنعة و سوء السيرة، و ما وقع له من التراسيم عليه و غير ذلك.

ثم فى أواخر هذا الشهر، رسم السلطان بإخراج نصف إقطاع جانبک النّوروزى، المعروف بنائب بعلبک، للسيفى بردبک التاجى، و كلاهما مقيم بمكة؛ و كان هذا

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۴۵

الإقطاع أصله بين جانبک المذكور و بين تغرى برمش نائب القلعة، فلما نفى تغرى برمش، أنعم السلطان عليه بنصيبه إلى يوم تاريخه، فأخرجه عنه.

ثم فى يوم الخميس رابع شوال، استقر الأمير تغرى بردى الظاهرى المعروف بالقلاوى، وزيرا بالديار المصرية، مضافا لما بيده من كشف الأشمونين و البلاد الجيزية، عوضا عن الصاحب أمين الدين إبراهيم بن الهيصم، بحكم استعفائه عن الوزارة [۱۶۲]، و أنعم السلطان على تغرى بردى المذكور بإمرة مائة و تقدمة ألف بالديار المصرية، و هو الإقطاع الذى كان أنعم به السلطان على ولده المقام الفخرى عثمان، بعد ألطنبغا اللّفّاف، ليستعين تغرى بردى المذكور بالإقطاع على [كلف] الدولة، و كانت خلعة تغرى بردى المذكور بالوزارة أطلسين متمّرا ثم فوقانيّا بطرز زركش عريض مثال خلعة الأتابكية بالديار المصرية. و خلع السلطان على زين الدين فرج بن ماجد سعد الدين بن المجد القبطى المصرى] بن النّحّال كاتب المماليک السلطانية، بوظيفة نظر الدولة مضافا لكتابة المماليک.

و فى يوم الاثنين تاسعه، عملت الخدمة السلطانية بالدّهيشة من الحوش، و رسم السلطان بأن تكون الخدمة دائما فى يومى الاثنين و الخميس، بها؛ كل ذلک لضعف حركة السلطان و هو يكتم ما به من الألم.

و فى يوم الثلاثاء عاشره، استقر قانى باى طاز السيفى بكتمر جلّق فى نيابة قلعة

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۴۶

صفد، بعد شغورها أشهرا من يوم مات الجمالى يوسف بن يغمور. و فى هذا اليوم أيضا وصل المقام الغرسى خليل ابن الملک الناصر فرج ابن الملک الظاهر برقوق، من ثغر الإسكندرية، و قد رسم له بالتوجه إلى الحجاز لقضاء الفرض، و طلع إلى السلطان، فأكرمه السلطان إلى الغاية، و هذا شىء لم يسمع بمثله، من أن ابن السلطان و له شوكة، يمكّن من سفر الحجاز، فللّه درّه من ملک، و قد حكينا طلوعه إلى القلعة و اجتماعه بالسلطان، فى ذهابه و إيابه فى «الحوادث» بأطول من هذا.

و فى يوم الأربعاء ثامن عشره، ورد الخبر بقتل طوغان السيفى آقبردى المنقار، نائب الكرک، على ما سنذكره فى الوفيات من هذه

الترجمة.

ثم فی یوم تاسع عشره، برز الأمیر دولات بای المحمودی الدّوادار الکبیر، أمیر حاج المحمل، بالمحمل. و کان الحاج فی هذه السنة رکبا واحدا، و هذه حجة دولات بای المذکور الثانیة، أمیر الحاج، فلما خرج دولات بای إلی برکة الحاج، رسم له بأن یجعل دواداره فارس، أمیر الرکب الأول، و وقع ذلک، و سافر ابن الملک الناصر صحبة المحمل.

ثم فی یوم الثلاثاء رابع عشرین شوال، رسم السلطان لطقتمر البارزی رأس نوبة الجمداریة، أن یتوجه إلی القدس الشریف، لإحضار الأمیر یشبک الصوفی المؤیّدی منه، إلی القاهرة، لیتجهز ثم یعود إلی دمشق أتابکا بها، عوضا عن خیر بک المؤیدی

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۴۷

الأجرود، و رسم السلطان أیضا لطقتمر المذکور، أن یتوجه إلی دمشق و یقبض علی أتابکها خیر بک المذکور، و یحمله إلی سجن الصّبیبة.

و فیه أیضا، رسم بنقل الأمیر یشبک طاز المؤیدی، من حکومة طرابلس، إلی نیابة الکرک، عوضا عن طوغان المقتول قبل تاریخه، و استقر عوضه فی حجوبیة طرابلس، مغلبای البجاسی، أحد أمراء طرابلس کان، ثم نائب قلعة الروم، و استقر فی نیابة قلعة الروم، ناصر الدین محمد والی الحجر بقلعة حلب.

[ثم] فی یوم الأحد سادس ذی القعدة من سنة ست و خمسین المقدم ذکرها، حبس السلطان تقیّ الدین عبد الرحمن بن حجّیّ بن عز الدین قاضی قضاة الشافعیة بطرابلس بحبس المقشرة فحبس بها، بعد أن نودی علیه، و هو علی حمار بشوارع القاهرة: «هذا جزاء من یزوّر المحاضر!» ثم أمر السلطان من وقته بحبس مامای السیفی بیبغا المظفری أحد الدّواداریة بالبرج من قلعة الجبل [لا تهامه بالغرض مع التقیّ المذکور] و کان مامای المذکور هو المتوجه إلی طرابلس للکشف عن أحوال ابن عز الدین المقدم ذکره، و استمر مامای بالبرج إلی یوم الاثنین سابع ذی القعدة، فأطلق، و رسم بنفیه إلی مدینة حماه، و استقر فی وظیفة مامای الدّواداریة، قانصوه الظاهری جقمق.

ثم فی یوم الخمیس عاشره، وصل الأمیر یشبک الصوفی من القدس إلی القاهرة، و طلع إلی القلعة و قبّل الأرض. و فیه رسم بالإفراج عن جانبک المحمودی، من حبس المرقب [و] أن یتوجه إلی طرابلس بطالا.

ثم فی یوم الاثنین ثامن عشرینه، خلع السلطان [۱۶۳] علی الأمیر یشبک الصوفی باستقراره أتابک عساکر دمشق، و سافر فی یوم الخمیس [ثانی ذی الحجة].

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۴۸

[ثم فی یوم الخمیس سادس] عشر ذی الحجة، استقر القاضی حسام الدین محمد ابن تقی الدین عبد الرحمن بن بریطع قاضی قضاة الحنفیة بحلب، عوضا عن محب الدین ابن الشّحنة، بعد أن وقع لابن الشحنة المذکور أمور مذکورة فی «الحوادث» بتمامها و کمالها.

و فی یوم الاثنین عشرینه، استقر أسنبغا مملوک ابن کلبک نائب القدس، و ناظره، بعد موت أمین الدین عبد الرحمن بن الدیری الحنفی.

و فی یوم الثلاثاء حادی عشرینه، تکلم الأمیر الوزیر تغری بردی القلاوی مع السلطان، فی عزل فرج بن النحال عن نظر الدولة، فعزله و أبقی معه کتابة الممالیک علی عادته.

ابتداء مرض موت السلطان

و لما کان یوم الجمعة رابع عشرینه، حضر السلطان الملک الظاهر جقمق الصلاة بجامع القلعة علی العادة، و هو متوعک، فلما انقضت الصلاة، و خرج من الجامع، غشی علیه، فأرجف فی القاهرة بموته، و تکلم الناس بذلک، فأصبح من الغد فی یوم السبت خامس

عشرينه، و حضر الخدمة فى الدّهيشة من القلعة، و حضر جميع أكابر الأمراء و الخاصكيّة بغير كلفتاة، و علّم السلطان على قصص كثيرة. و من غريب الاتفاق ما وقع له، أنه لما خرج إلى الدّهيشة، و رأى الناس وقوفا، قال:

«سبحان الحى الذى لا يموت!»، فحسن ذلك ببال الناس كثيرا، عفا اللّه عنه. ثم أصبح

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۴۹

فى يوم الأحد سادس عشرين ذى الحجة، فركب من القلعة و نزل إلى بيت بنته زوجة الأمير أزبك من ططخ الساقى، أحد أمراء العشرات، و رأس نوبة، غير أنه لم يطل الجلوس عندها و عاد إلى القلعة من وقته، و كان سكن أزبك المذكور يومئذ فى الدار الذى خلف حمام بشتک، و هى الآن ملک شخص من أصاغر المماليک الأشرفية، لا أعرفه، إلا فى هذه الدوله.

ثم فى يوم الاثنين سابع عشرين ذى الحجة، عمل السلطان الموكب بالحوش لقصّاد جهان شاه بن قرا يوسف، متملّک تبريز و غيرها، و كان قدوم القصّاد المذكورين، لإعلام السلطان بأن جهان شاه المذكور، كسر عساكر بابور بن باى سنقر بن شاه رخ بن تيمورلنک، و أنه استولى على عدة بلاد من ممالكه، و أن عساكر جغتاى ضعف أمرهم لوقوع الوباء فى خيولهم و مواشيهم.

ثم فى يوم الأربعاء تاسع عشرينه، ضرب السلطان بعض نواب الحكم الشافعية، بيده عشرة عصىّ، لأمر لا يستحق ذلک.

و فرغت سنة ست و خمسين، بعد أن وقع بها فتن كثيرة ببلاد الشرق، قتل فيها خلائق لا تدخل تحت حصر، استوعبنا غالبها فى «حوادث الدهور»، كونه موضوعا لتحرير الوقائع، كما أن هذا الكتاب وظيفته الإطناب فى تراجم ملوک مصر.

و مهما ذكرناه بعد ذلک من الوقائع يكون على سبيل الاستطراد و تكثير الفوائد لا غير.

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۵۷]

و استهلّت سنة سبع و خمسين و ثمانمائة، بيوم الجمعة، و السلطان الملک الظاهر جقمق صاحب الترجمة، متوعک، غير أنه يتجلد و لا ينام على الفراش، و أيضا لم يكن.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۵۰

على وجهه علامات مرض الموت إلا أنه غير صحيح البدن، و كان له على ذلک أشهر كثيرة، من أواخر سنة خمس و خمسين و ثمانمائة- [انتهى].

قلت: و يحسن ببالى أن أذكر فى أول هذه السنة، جميع أسماء أرباب الوظائف بالديار المصرية و غيرها، ليعلم بذلک فيما يأتى، كيف تقلبات الدهر، و تغيير الدول.

فأقول: استهلت سنة سبع و خمسين و خليفة الوقت القائم بأمر اللّه حمزة، و القاضى الشافعى شرف الدين يحيى المناوى، و القاضى الحنفى سعد الدين سعد الديرى، و القاضى المالكى ولىّ الدين [محمد] السنباطى، و القاضى الحنبلى بدر الدين محمد بن عبد المنعم البغدادى، و أتابک العساكر إينال العلائى الناصرى، و أمير سلاح جرباش الكريمى الظاهرى برقوق المعروف بقاشق، و أمير مجلس تنم من عبد الرزاق المؤيّدى، و الأمير آخور الكبير قانى باى الجاركسى، و رأس نوبة النوب أسنبغا الناصرى الطّيارى، و الدّوادار [۱۶۴] الكبير دولات باى المحمودى المؤيّدى، و حاجب الحجاب خشقدم من ناصر الدين المؤيّدى، و باقى مقدمى الألوف أربعة: أعظمهم المقام الفخرى عثمان ابن السلطان، ثم الأمير تنبک البردبكى الظاهرى برقوق المعزول عن الحجوبية، و الأمير طوخ من تمراز الناصرى [فرج]، و الأمير جرباش المحمدى الناصرى [المعروف] بكرد، و الجميع أحد عشر مقدما، بأقل من النصف عما كان قديما.

و أرباب الوظائف من الطبلخانات، و العشرات: شادّ الشراب خاناه يونس الأقبائى البواب أمير طبلخاناة، و الخازندار قراجا الظاهرى جقمق أمير طبلخاناة، و الزّردكاش

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۵۱

لاجين الظاهرى جقمق أمير عشرة، و نائب القلعة يونس العلائى الناصرى أمير عشرة، و الحاجب الثانى نوكار الناصرى [فرج أبو أحمد الماضى] أمير عشرة، و وظيفة أمير جاندار بطالة، يليها بعض الأجناد، السكات عن ذكره أجمل؛ و أستادّار الصّحبة سنقر الظاهرى أمير عشرة. و هذه الوظائف كان قديما يليها مقدمو الألوف، و يستدل على ذلك من خلعهم فى الأعياد و غيرها- انتهى.

و الأمير آخور الثانى يرشباى الإينالى المؤيّدى أمير طبلخاناة، و رأس نوبة ثانى جانبك القرمانى الظاهرى برقوق أمير طبلخاناة، و الدّوادار الثانى تمربغا الظاهرى جقمق أمير عشرة، غير أن معه زيادات كثيرة، و المهمندار بعض الأجناد، و والى القاهرة جانبك اليشبكى أمير عشرة، و الزّمام و الخازندار فيروز الطّواشى الرومى النّوروزى أمير طبلخاناة، و مقدم المماليك مرجان العادلى المحمودى الحبشى أمير عشرة، و نائبه عنبر خادم نور الدّين الطّنبذى، و مباشرو الدولة، كاتب السر القاضى محبّ الدين محمد بن الأشقر، و ناظر الجيش و الخاصّ عظيم الدولة و مدبرها الجمالى يوسف ابن كاتب جكم، و الوزير الصاحب أمين الدين إبراهيم بن الهيصم، و الأستادّار زين الدين يحيى [ابن عبد الرزاق القبطى القاهرى ابن أخت نقيب الجيش محمد بن أبى الفرج] الأشقر المعروف بابن كاتب حلوان، و بقريب ابن أبى الفرج و هو على زىّ الكتاب، و لهذا لم نذكره فى الأمراء، و محتسب القاهرة ير على الخراسانى العجمى الطويل.

و نواب البلاد الشامية نائب الشام جلبان الأمير آخور، و نائب حلب قانى باى الحمزاوى، و نائب طرابلس يشبك النّوروزى، و نائب حماه حاج إينال اليشبكى، و نائب صفد بيغوت الأعرج المؤيدى، و نائب غزة جانبك التاجى المؤيدى، و نائب الكرك يشبك طاز المؤيدى، و نائب الإسكندرية برسباى السيفى تنبك البجاسى أمير

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۵۲

عشرة، و هؤلاء هم أعيان النواب، و من يطلق فى حق كل منهم ملك الأمراء، و لا عبرة بولاية الوجه القبلى الآن، و باقى نواب القلاع و البلاد الشأمية فكثير- انتهى.

ثم فى يوم الخميس سابع محرم، سنة سبع و خمسين المذكورة، أرجف فى القاهرة بموت السلطان، فلما كان يوم السبت تاسع المحرم، خرج السلطان من قاعة الدّهيشة، ماشيا على قدميه، حتى جلس على مرتبة، من غير أن يستعين بأحد فى مشيه، و لا استند فى مجلسه، بل جلس على مرتبته و علّم على عدة مناشير، و أطلت أنا النظر فى وجهه، فلم أر عليه علامات تدل على موته بسرعة، ثم قام و عاد إلى القاعة، و لم يخرج بعدها إلى الدّهيشة، و استمر متمرضا بالقاعة المذكورة، و الناس تخلط فى الكلام بسبب مرضه، و الأقوال تختلف فى أحوال المملكة، على أن السلطان فى جميع مرضه غير منحجب عن الناس، و أرباب الدولة تتردد إليه بالقاعة المذكورة، و هو يعلّم فى كل يوم فى الغالب على المناشير و القصص، و ينفذ بعض الأمور، إلا أن مرضه فى تزايد، و هو يتجلد.

إلى أن كان يوم الأربعاء، العشرون من المحرم، فوصل الأمير جانبك النّوروزى من مكة المشرفة، و دخل إلى السلطان و قبّل له الأرض، ثم قبّل يده و خرج و خرجنا جميعا من عنده، و قد اشتد به المرض، و ظهر عليه أمارات رديئة تدل على موته بعد أيام، غير أنه صحيح العقل و الفهم و الحركة، ثم بعد خروجنا من عنده، تكلم السلطان فى هذا اليوم مع بعض [۱۶۵] خواصه فى خلع نفسه من السلطنة، و سلطنة ولده المقام الفخرى عثمان فى حياته، فروجع فى ذلك فلم يقبل، و رسم بإحضار الخليفة و القضاة و الأمراء من الغد بالدّهيشة.

فلما كان الغد، و هو يوم الخميس حادى عشرون محرم سنة سبع و خمسين و ثمانمائة، حضر الخليفة و القضاة و جميع الأمراء؛ و فى ظن الناس أنه يعهد لولده عثمان بالملك من بعده كما هى عادة الملوك، فلما حضر الخليفة و القضاة عنده بعد صلاة الصبح، خلع نفسه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۵۳

من السلطنة، و قال للخليفة و القضاة: «الأمر لكم، انظروا فيمن تسلطنوه»، أو معنى ذلك، لعلمه أنهم لا يعدلون عن ولده عثمان، فإنه

كان أهلا للسلطنة بلا مدافعة، و أراد أيضا بهذا القول، أنه قد خلع نفسه و أنه يموت غير سلطان، و أنه أيضا لا يتحمل بوزر ولاية ولده المذكور، فكان مقصده جميلا فی القولين، رحمه اللّه تعالى.

فلما سمع الخليفة كلام السلطان، لم يعدل عن المقام الفخرى عثمان، لما كان اشتمل عليه عثمان المذكور من العلم و الفضل، و إدراكه سنّ الشبيبة، و بايعه بالسلطنة، و تسلطن فی يوم الخميس المذكور، حسبما نذكره إن شاء اللّه تعالى فی أول ترجمته من هذا الكتاب.

و استمر الملك الظاهر [مريضا] ملازما للفراش، و ابنه الملك المنصور يأخذ و يعطى فی مملكته، و يعزل و يولّى، و الملك الظاهر فی شغل بمرضه، و ما به من الألم فی زيادة، إلى أن مات فی قاعة الدّهيشة الجوّانيّة بين المغرب و العشاء من ليلة الثلاثاء ثالث صفر من سنة سبع و خمسين و ثمانمائة المقدم ذكرها. و قرئ حوله القرآن العزيز، إلى أن أصبح، و جهز و غسل و كفن من غير عجلة و لا اضطراب، حتى انتهى أمره و حمل على نعشه، و أخرج به، و أمام نعشه ولده السلطان الملك المنصور عثمان ماشيا و جميع أعيان المملكة، و ساروا أمام نعشه بسكون و وقار، إلى أن صلى عليه بمصلّاة باب القلعة من قلعة الجبل، و صلى عليه الخليفة القائم بأمر اللّه أبو البقاء حمزة، و خلفه السلطان و القضاة و جميع الأمراء و العساكر، ثم حمل بعد انقضاء الصلاة عليه و أنزل من القلعة، حتى دفن بتربة أخيه الأمير جاركس القاسمى المصارع، التی جددها مملوكه قانى باى الجاركسى، بالقرب من دار الضيافة تجاه سور القلعة، التی جددها مملوكه المنصور دفنه، و عاد إلى القلعة من المصلاة. و شهد دفنه خلائق، و قعد الناس فی الطرقات لمشاهدة مشهده، و كان مشهده عظيما إلى الغاية، بخلاف جنائز المملوك السالفة، و لعل

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۵۴

هذا لم يقع لملك قبله. كل ذلك لكونه سلطن ولده فی حياته، ثم مات بعد ذلك بأيام، فلهذا كانت جنازته على هذه الصورة.

و مات الملك الظاهر و سنه نيف على ثمانين سنة تخمينا، و لم يخلّف بالحواصل و لا الخزائن إلا نزرا يسيرا من الذهب يستحى من ذكره بالنسبة لما تخلفه الملوك، و كذلك [فی] جميع تعلقات السلطنة، من الخيول و الجمال و السلاح و القماش، كل ذلك من كثرة بذله و عطائه، و كانت مدة ملكه امن يوم تسلطن بعد خلع الملك العزيز يوسف، فی يوم الأربعاء تاسع عشر شهر ربيع الآخر [من] سنة اثنتين و أربعين و ثمانمائة، إلى أن خلع نفسه بيده لولده الملك المنصور عثمان، فی الثانية من نهار الخميس الحادى و العشرين من محرم سنة سبع و خمسين و ثمانمائة، أربع عشرة سنة و عشرة شهور، و يومين، و توفى بعد خلعه من السلطنة باثنى عشر يوما.

و وقع له فی سلطنته غرائب لم تقع لأحد قبله إلا نادرا جدا، منها ركوبه و هو أتابك على الملك العزيز يوسف و قتاله له و انتصاره عليه، و لا نعرف أحدا قبله من الأمراء ركب على السلطان، و وقف بالرملة و السلطان بقلعة الجبل، و انتصر عليه، غيره. فإن قيل: واقعة الناصرى و منطاش مع الملك الظاهر برقوق، فليس ذاك مما نحن فيه من وجوه عديدة، لا يحتاج إلى ذكرها. و إن قيل: نصرة منطاش و ملكه لباب السلسلة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۵۵

فنقول: كان ركوب منطاش على رفيقه يلبغا الناصرى، و ليس للملك المنصور حاجى ذكر بينهما.

و منها [۱۶۶] أنه سلّم عليه بالسلطنة ثلاثة خلفاء من بنى العباس، و لم يقع ذلك لملك قبله من ملوك مصر. و منها أنه اجتمع له قضاة أربعة فی عصر واحد، لم يجتمع [مثلهم] لغيره من ملوك مصر، و هم قاضى القضاة شهاب الدين بن حجر الشافعى حافظ المشرق و المغرب، كان فردا فی معناه، لا يقاربه فی علم الحديث أحد فی عصره؛ و قاضى القضاة شيخ الإسلام سعد الدين سعد الديرى الحنفى، كان فقيه عصره شرقا و غربا، لا يقاربه أحد فی حفظ مذهبه و استحضاره، مع مشاركته فی علوم كثيرة، و العلامة قاضى القضاة شمس الدين البساطى المالكى، كان إمام عصره فی [علمى] المعقول و المنقول، قد انتهت إليه الرئاسة فی علوم كثيرة، و مات و لم يخلّف بعده مثله، و قاضى القضاة شيخ الإسلام محبّ الدين أحمد الحنبلى البغدادى، كان أيضا إمام عصره و عالم زمانه، انتهت

إليه رئاسة مذهبه بلا مدافعة.

و منها أنه أقام فى ملك مصر هذه المدة الطويلة، لم يتجرد فيها تجريدة واحدة إلى البلاد الشامية، غير مرة واحدة، فى نوبة الجكمى فى أوائل سلطنته، و هذا أيضا لم يقع لملك قبله.

و منها أنه أذن للغرسى خليل ابن السلطان الملك الناصر فرج بالحج، فقدم القاهرة و حج و عاد مع عظم شوكته من مماليك أبيه و جده الملك الظاهر برقوق، و هذا شيء لم يقع مثله فى دولة من الدول.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۵۶

و منها ابنه المقام الناصرى محمد رحمه اللّه تعالى، من غزير علمه و كثرة فضائله، فإننا لا نعلم أحدا من ملوک الترک رزق ولدا مثله، بل و لا يقاربه و لا يشابهه مما كان اشتمل عليه من العلم و الفضل و المعرفة التامة، و حسن السمت و جودة التدبير، و لا نعرف أحدا من أولاد السلاطين من هو فى هذا المقام قديما و حديثا، حتى و لو قلت: و لا من بنى أيوب، ممن ملكوا مصر، لكان يصدق قولى؛ و من كان من بنى أيوب له فضيلة تامة غير الملك المعظم عيسى ابن الملك الكامل، و الملك المؤيد إسماعيل صاحب حماه، و هما كانا بالبلاد الشامية؟- انتهى.

و قد استوعبنا أحوال الملك الظاهر هذا من مبدأ أمره إلى آخره، محررا بالشهر و اليوم فى جميع ما وقع له من ولاية و عزل و غريبة و عجيبة، فى تاريخنا «حوادث الدهور فى مدى الأيام و الشهور»، فلينظر هناك، [و] ما ذكرناه هنا جميعه [نوع] من تكثير الفائدة، لا القصة على جليتها، بل نشير بذكرها إعلاما لوقت واقعتها لا غير.

و كان الملك الظاهر سلطانا ديّنا خيرا عفيفا صالحا [فقيها شجاعا] مقداما، عارفا بأنواع الفروسية، عفيفا عن المنكرات و الفروج، لا نعلم أحدا من ملوك مصر فى الدولة الأيوبية و لا التركية على طريقته [فى ذلك]، لم يشهر عنه فى صغره و لا فى كبره أنه تعاطى مسكرا و لا منكرا، حتى قيل إنه لم يكتشف حراما قط؛ و أما حب الشباب، فلعله كان لا يصدّق أن أحدا يقع فى ذلک لبعده عن معرفة هذا الشأن، و كان جلوسه فى غالب أوقاته على طهارة كاملة، و كان متقشفا فى ملبسه و مركبه إلى الغاية، لم يلبس

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۵۷

الأحمر من الألوان فى عمره، منذ علم بكراهيته، و لم أره منذ تسلطن لبس كاملية بفرو [و] سمّور [و] بمقلب سمور غير مرة واحدة؛ و أما الركوب بالسرج الذهب و الكنبوش الزّركش فلم يفعله إلا يوم ركوبه بأبهة السلطنة لا غير، و كان ما يلبسه أيام الصيف؛ و ما على فرسه من آلة السرج و غيره، لا يساوى عشرة دنانير مصرية، و كان معظّما للشريعة محبا للفقهاء و طلبة العلم، و ما وقع منه من الإخراق ببعضهم و حبسهم بحبس المقشرة، فلا تقول: كان ذلک بحق، بل نقول: الحاكم يجتهد، ثم يقع منه الصواب و الخطأ، فإن كان ما فعله بحق فقد أصاب و إن كانت الأخرى فقد أخطأ و أعيب عليه ذلک [الطويل]

و من ذا الذى ترضى سجاياه كلّها كفى المرء فخرا أن تعدّ معايبه

و كان معظّما للسادة الأشراف، و كان يقوم لمن دخل عليه من الفقهاء و الفقراء كائنا من كان، و إذا قرأ [۱۶۷] عنده [أحد] فاتحة الكتاب، نزل عن مدوّرته، و جلس على الأرض إجلالا لكلام اللّه تعالى.

و كان كريما جدا، يجود بالمال، حتى نسب إلى السرف، و كان ينعم بالعشرة آلاف دينار إلى ما دونها، و كان ممن أنعم عليه بعشرة آلاف دينار، الأتابک قرقماس الشعبانى، و أما دون ذلک من الألف إلى المائة، فدواما طول دهره، لا يملّ من ذلک، حتى أنه أتلف فى أيام سلطنته من الأموال، ما لا يدخل تحت حصر كثرة؛ و يكفيک أنه بلغت نفقاته على المماليک و صلات الأمراء و التراكمين و غيرهم، و فى أثمان مماليک اشتراهم، و تجاريد جرّدها، فى مدة أولها موت الملک الأشرف برسباى، و آخرها سلخ سنة أربع و أربعين و ثمانمائة، و ذلک مدة ثلاث سنين، مبلغ ثلاثة آلاف ألف

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۵۸

دينار ذهبا مصريا، و ذلك خلاف الخلع و الخيول و القماش و السلاح و الغلال، و خلاف جوامك المماليك و رواتبهم المعتادة.

و كان لا- يلبس إلا- القصير من الثياب، و نهى الأمراء و أكابر الدولة و أصاغرها عن لبس الثوب الطويل، و أمعن فى ذلك، حتى أنه بهدل بسبب ذلك جماعة من أعيان الدولة، و عاقب جماعة من الأصاغر، و قصّ أثواب آخرين فى الملأ من الناس، و كان أيضا يوبخ من لا يحفّ شاربه من الأتراك و غيرهم؛ و فى الجملة أنه كان آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر، مع سرعة استحالة، و حدة مزاج، و بطش. و كان غالب ما يقع منه من الإخراق بالناس، يكون بحسب الواسطة من حواشيه، فإنه كان مهما ذكروه له قبله منهم، و أخذه على طريق الصدق و النصيحة، لسلامة باطنه، و أيضا على قاعدة الأتراك من كون الحق عندهم لمن سبق.

و بالجملة فكانت محاسنه أكثر من مساوئه، و هو أصلح من ولى ملك مصر من طائفته، فى أمر الدين و التقوى، فإنه كان قمع المفسدين و الجبارين من كل طائفة، و كسدت فى أيامه أحوال أرباب الملاهى و المغانى، و تصولح غالب أمرائه و جنده، و بقى أكثرهم يصوم الأيام فى الشهر، و يعف عن المنكرات؛ كل ذلك مراعاة لخاطره، و خوفا من بطشه، و هذا كله بخلاف ما كان عليه كثير من الملوك السالفة، فإنه كان غالبهم يقع فيما ينهى عنه، فكيف يصير للنهى عنه بعد ذلك محل؟ و من عظم ذلك، قال بعض الفضلاء الظرفاء: «نابت هذه الدولة عن الموت، فى هدم اللذات و الأيام الطيبة».

و لم يبق فى دولته ممن يتعاطى المسكرات إلا- القليل، و صار الذى يفعل ذلك يتعاطاه فى خفية، و يرجفه فى تلك الحالة صفير الصافر.

و كانت صفته قصيرا، للسمن أقرب، أبيض اللون مشربا بحمرة، صبيح الوجه، منوّر الشيبة، فصيحا باللغة التركية، و باللغة العربية لا بأس به بالنسبة لأبناء جنسه؛ و كان له

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۵۹

اشتغال فى العلم، و يستحضر مسائل جيدة، و يبحث مع العلماء و الفقهاء، و يلازم مشايخ القراءات و يقرأ عليهم دواما، و كان يقتنى الكتب النفيسة، و يعطى فيها الأثمان الزائدة عن ثمن المثل، و كان يحب مجالسة الفقهاء، و يكره اللهو و الطرب، ينفر منهما بطبعه، و كان يتجنب المزاح و أهله، و لا يميل للتجمل فى الملبس، و يكره من يفعله فى الباطن. و كانت أيامه آمنة من عدم الفتن و التجاريد، و لشدة حرمته. و خلّف من الأولاد الذكور واحدا، و هو ولده الملك المنصور عثمان، و أمّه أم ولد رومية، و ابنتين: الكبرى أمها خوند مغل بنت القاضى ناصر الدين بن البارزى، و زوّجها السلطان لمملوكه أزبك من ططخ الساقى، و الصغرى بكر، و أمها أم ولد جاركسية ماتت قديما.

ذكر من عاصره من الخلفاء: أولهم أمير المؤمنين المعتضد بالله أبو الفتح داؤد، إلى أن توفى يوم الأحد رابع شهر ربيع الأول، سنة خمس و أربعين، حسبما يأتى ذكره فى الوفيات هو و غيره؛ و المستكفى بالله سليمان، إلى أن مات فى يوم الجمعة [ثانى محرم] سنة خمس و خمسين، و القائم بأمر اللّه حمزة؛ و الثلاثة إخوة.

ذكر قضاته بالديار المصرية: الشافعية: الحافظ شهاب الدين بن حجر، غير مرة، إلى أن توفى و هو معزول فى سنة اثنتين [۱۶۸] و خمسين و ثمانمائة، و قاضى القضاة علم الدين صالح البلقينى غير مرة؛ ثم قاضى القضاة شمس الدين محمد القاياتى؛ إلى أن مات فى أوائل سنة خمسين؛ ثم قاضى القضاة ولىّ الدين محمد السّفطى، و عزل و امتحن؛ ثم قاضى القضاة شرف الدين يحيى المناوى.

و الحنفية: شيخ الإسلام سعد الدين سعد الديرى، ولى فى الدولة العزيزية و مات الملك الظاهر و هو قاض.

و المالكية: العلامة قاضى القضاة شمس الدين محمد البساطىّ إلى أن مات فى ليلة ثالث عشر شهر رمضان سنة اثنتين و أربعين؛ ثم قاضى القضاة بدر الدين محمد

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۶۰

ابن التّنّسى، إلى أن مات بالطاعون فى أواخر يوم الأحد ثانى عشر صفر سنة ثلاث و خمسين؛ ثم قاضى القضاة ولى الدين محمد

السنباطى، و مات و هو قاض.

الحنابلة: شيخ الإسلام محبّ الدين أحمد البغدادى، إلى أن مات فى يوم الأربعاء خامس عشر جمادى الأولى سنة أربع و أربعين؛ ثم قاضى القضاة بدر الدين محمد بن عبد المنعم البغدادى، و مات و هو قاض رحمه اللّه.

ذكر من ولى فى أيامه الوظائف السنية من الأمراء:

وظيفة الأتابكية بالديار المصرية: وليها من بعده الأتابك قرقماس الشعبانى الناصرى أياما يسيرة دون نصف شهر، ثم من بعده الأتابك آقبغا التمرازى أشهرا، و نقل إلى نيابة دمشق، و مات فى سنة ثلاث و أربعين بدمشق. ثم الأتابك يشبك السودونى المعروف بالمشدّ، إلى أن مات فى سنة تسع و أربعين، ثم الأتابك إينال العلائى الناصرى.

وظيفة إمرة سلاح: وليها آقبغا التمرازى أياما يسيرة، ثم من بعده يشبك السودونى المقدم ذكره أشهرا؛ ثم تمراز القرمشى أمير سلاح، إلى أن توفى بالطاعون فى صفر سنة ثلاث و خمسين؛ ثم جرباش الكريمى المعروف بقاشق.

وظيفة إمرة مجلس: وليها يشبك السودونى أياما، ثم جرباش الكريمى قاشق سنين، ثم تنم من عبد الرزاق المؤيدى.

وظيفة الأمير آخورية الكبرى: وليها تمراز القرمشى أشهرا، ثم الأمير قراخجا الحسنى سنين إلى أن مات بطاعون سنة ثلاث و خمسين، ثم قانى باى الجاركسى

وظيفة رأس نوبة النوب: [وليها تمراز القرمشى، ثم من بعده قراخجا الحسنى، ثم] تمرباى التمربغاوى [إلى أن مات بطاعون سنة ثلاث و خمسين]، ثم أسنبغا الناصرى الطيارى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۶۱

وظيفة حجوبية الحجاب: باشرها يشبك السّودونى أياما، ثم من بعده تغرى بردى البكلمشى المؤيّدى أشهرا، ثم تنبك البردبكى الظاهرى برقوق سنين، إلى أن نفى فى سنة أربع و خمسين إلى دمياط، ثم خشقدم من ناصر الدين المؤيدى.

وظيفة الدوادارية الكبرى: باشرها فى أيام أوائل دولته أركماس الظاهرى أشهرا إلى أن نفى إلى ثغر دمياط، ثم من بعده تغرى بردى المؤيدى البكلمشى، إلى أن مات فى سنة ست و أربعين، ثم إينال العلائى الناصرى، إلى أن نقل منها إلى الأتابكية، ثم قانى باى الجاركسى، إلى أن نقل إلى أمير آخورية، ثم دولات باى المحمودى المؤيدى إلى أن [قبض عليه فى دولة المنصور عثمان].

ذكر أعيان مباشرى دولته:

كتابة السر: باشرها الصاحب بدر الدين بن نصر اللّه أشهرا، ثم المقر الكمالى ابن البارزى إلى أن مات [فى] يوم الأحد سادس عشرين صفر سنة ست و خمسين، ثم القاضى محب الدين بن الأشقر.

وظيفة نظر الجيش: الزينى عبد الباسط بن خليل الدمشقى إلى أن مسك و صودر، ثم القاضى محب الدين بن الأشقر، ثم القاضى بهاء الدين محمد بن حجى، ثم ابن الأشقر ثانيا، إلى أن نقل إلى كتابة السر، ثم عظيم الدولة الجمالى يوسف مضافا إلى نظر الخاص و تدبير المملكة.

وظيفة الوزارة: باشرها الصاحب كريم الدين عبد الكريم ابن كاتب المناخات سنين، ثم الصاحب أمين الدين إبراهيم بن الهيصم أيضا سنين، ثم الأمير تغرى بردى القلاوى الظاهرى جقمق.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۶۲

وظيفة نظر الخاصّ: باشرها المقر الجمالى من الدولة الأشرفية برسباى إلى يوم تاريخه.

وظيفة الأستادّارية: باشرها جانبك الزينى عبد الباسط أشهرا، ثم الناصرى محمد بن أبى الفرج نقيب الجيش، ثم الأمير قيزطوغان العلائى، ثم الزينى عبد الرحمن ابن الكويز، ثم زين الدين يحيى بن الأشقر المعروف بقريب ابن أبى الفرج.

ذكر أمرائه بمكة و المدينة:

أمراء مكة [المشرفة]: الشريف بركات بن حسن بن عجلان إلى أن عزل، ثم وليها أخوه الشريف على بن حسن بن عجلان، إلى أن قبض عليه و حمل إلى القاهرة، ثم وليها أخوه الشريف أبو القاسم بن حسن بن عجلان إلى أن عزل، و أعيد الشريف بركات بن حسن بن عجلان.

ذكر [۱۶۹] [أمراء] المدينة الشريفة: [الشريف] أميان إلى أن عزل، ثم الشريف سليمان بن غرير إلى أن قتل، ثم الشريف ضيغم إلى أن قتل أيضا، ثم أعيد الشريف أميان ثانيا إلى أن توفى سنة خمسين و ثمانمائة؛ و ولى بعده الشريف زبيرى بن قيس.

ذكر نوابه بالبلاد الشامية:

فبدمشق: الأمير إينال الجكمى إلى أن عصى و قتل، ثم الأتابك آقبغا التمرازى إلى أن توفى سنة ثلاث و أربعين، ثم الأمير جلبان الأمير آخور.

و بحلب: الأمير حسين بن أحمد المدعو تغرى برمش البهسنى التركمانى إلى أن عصى و قتل، ثم جلبان الأمير آخور المقدم ذكره، ثم قانى باى الحمزاوى إلى أن عزل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۶۳

ثم برسباى الناصرى الحاجب، ثم قانى باى البهلوان إلى أن مات، ثم تنم من عبد الرزاق المؤيدى إلى أن عزل، و أعيد قانى باى الحمزاوى ثانيا.

و بطرابلس: الأمير جلبان الأمير آخور أشهرا، و نقل إلى نيابة حلب، ثم قانى باى الحمزاوى، ثم برسباى الناصرى الحاجب، ثم يشبك الصوفى المؤيدى إلى أن عزل و نفى إلى دمياط، ثم شبك النوروزى.

و بحماه: قانى باى الحمزاوى أشهرا، ثم بردبك العجمى الجكمى إلى أن عزل و حبس بالإسكندرية، ثم الأمير قانى باى الناصرى البهلوان، ثم شاد بك الجكمى إلى أن عزل و توجه إلى القدس بطالا، ثم الأمير يشبك الصوفى المؤيدى، ثم الأمير تنم من عبد الرزاق المؤيّدى، ثم بيغوت الأعرج المؤيّدى، ثم سودون الأبوبكرىّ المؤيّدى أتابك حلب إلى أن عزل، ثم حاج إينال الجكمى.

و بصفد: الأمير إينال العلائى الناصرى الذى تسلطن، إلى أن عزل و قدم القاهرة أمير مائة و مقدّم ألف بها، ثم قانى باى الناصرى البهلوان أتابك دمشق، ثم بيغوت من صفر خجا الأعرج المؤيّدى، ثم يشبك الحمزاوى نائب غزة إلى أن توفى، ثم أعيد بيغوت ثانيا بعد أمور وقعت له.

و بغزة: طوخ مازى الناصرى إلى أن مات، ثم طوخ الأبوبكرىّ المؤيّدى إلى أن قتل، ثم يلخجا الساقى الناصرى إلى أن مات، ثم حطط [الناصرى فرج] إلى أن عزل، ثم يشبك الحمزاوى دوادار السلطان بحلب، ثم طوغان العثمانى [ألطنبغا] إلى أن توفى، ثم خير بك النّوروزى إلى أن عزل، ثم جانبك التاجى المؤيّدى.

و بالكرك: الصاحب غرس الدين خليل [بن] شاهين الشيخى إلى أن عزل،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۶۴

ثم آقبغا من مامش الناصرى [فرج] التركمانى، [إلى أن عزل] و حبس، ثم مازى الظاهرى برقوق إلى أن عزل، ثم حاج إينال الجكمى، ثم طوغان السيفى آقبردى المنقار.

ذكر زوجاته أيام سلطنته: أما قبل سلطنته فكثير جدا، و أولهم (كذا) فى أيام سلطنته، خوند مغل بنت البارزى، تزوجها قبل سنة ثلاثين، و طلقها فى سنة اثنتين و خمسين؛ ثم زينب جرباش الكريمى قاشق، و مات عنها؛ ثم شاه زاده بنت ابن عثمان ملك الروم، و طلقها فى سنة أربع و خمسين؛ ثم نفيسة بنت ناصر الدين [بك] ابن دلغادر ماتت فى سنة ثلاث و خمسين بالطاعون؛ ثم بنت حمزة بك بن ناصر الدين ابن دلغادر؛ ثم بنت كرتباى الجاركسية، قدم بها أبوها من بلاد الجاركس، و أسلم على ما قيل، ثم عاد إلى بلاده؛ ثم بنت زين الدين عبد الباسط، و لم يزل بكارتها، تزوجها بعد موت أبيها فى سنة خمس و خمسين و ثمانمائة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۶۵

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۴۲]

السنة الأولی من سلطنة الملک الظاهر جقمق علی مصر و هی سنة اثنتین و أربعین و ثمانمائة.

علی أن الملک العزیز یوسف بن الملک الأشرف برسبای، حکم منها إلی تاسع عشر شهر ربیع الآخر، ثم حکم الملک الظاهر فی باقیها، و هی أول سلطنته علی مصر علی کل حال.

و فیها، أعنی سنة اثنتین و أربعین، توفی حافظ الشام و محدثه شمس الدین أبو عبد اللّه محمد بن أحمد بن مجاهد بن یوسف بن محمد بن أحمد بن علی القیسی الدمشقی الشافعی المعروف بابن ناصر الدین، بدمشق، فی ثامن عشر شهر ربیع الآخر، و مولده فی محرم سنة سبع و سبعین و سبعمائة، و سمع الکثیر و طلب الحدیث، و دأب و حصّل و کتب و صنّف، و صار حافظ دمشق و محدثه إلی أن مات.

و توفی الأمیر صفی الدین جوهر بن عبد اللّه الجلبانی، الحبشی الزّمام، المعروف باللالا، فی یوم الأربعاء ثالث عشرین جمادی الأولی، عن نحو ستین سنة تخمینا، و کان أصله من خدّام الأمیر [عمر بن] بهادر المشرف، و أنعم به علی أخته زوجة الأمیر [۱۷۰] جلبان الحاجب، فأعتقه جلبان، و دام بخدمته حتی مات. و ماتت ستّه، زوجة الأمیر جلبان الحاجب، فاتصل بعدهما بخدمة الملک الأشرف برسبای قبل سلطنته، و دام عنده إلی أن تسلطن، فرقّاه و جعله لالاة ابنه [الأکبر] المقام الناصری محمد، ثم من بعده لالا ابنه الملک العزیز یوسف، ثم ولاه زماما، بعد موت الطّواشی خشقدم الرومی الظاهری فی جمادی الأولی سنة تسع و ثلاثین و ثمانمائة، فاستمر فی وظیفته زماما، إلی أن توفی الملک الأشرف، و ملک ولده الملک العزیز

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۶۶

یوسف، ثم خلع العزیز و تسلطن الملک الظاهر جقمق، فأمسکه و هو مریض، و صادره و عزله، و ولّی عوضه زماما، الطواشیّ الرومیّ فیروز الساقی الجارکسی، فلم تطل أیام جوهر المذکور بعد ذلک، و مات؛ و کان من رؤساء الخدام حشمة و عقلا و دینا و کرما، و هو صاحب المدرسة و الدار بالمصنع بالقرب من قلعة الجبل.

[و] توفی قاضی القضاة علّامة عصره شمس الدین أبو عبد اللّه محمد بن أحمد ابن عثمان البساطی المالکی، قاضی قضاة الدیار المصریة، و عالمها، فی لیلة الجمعة ثالث عشر شهر رمضان، و مولده [فی] محرم سنة ستین و سبعمائة، و مات و قد انتهت إلیه الرئاسة فی المعقول و المنقول، و کان منشأه بالقاهرة، و بها تفقّه، و طلب العلم، و اشتغل علی علماء عصره حتی برع فی علوم کثیرة، و أفتی و درّس، و تصدّی للاشتغال سنین کثیرة، و به تخرّج غالب علماء عصرنا، من سائر المذاهب، و أول ما ولیه من الوظائف: تدریس المالکیة بمدرسة جمال الدین الأستادّار، و ناب فی الحکم عن ابن عمه قاضی القضاة جمال الدین البساطی سنین، ثم استقل بالقضاء فی الدولة المؤیّدیة شیخ، بعد جمال الدین البساطی المذکور، فباشر القضاء نحو عشرین سنة، إلی أن مات قاضیا.

[و فیه] قتل الأمیر سیف الدین قرقماس بن عبد اللّه الشعبانی الناصری المعروف بأهرام ضاغ، بثغر الإسکندریة، حسبما یأتی ذکره. کان أصله من کتابیة الملک الظاهر برقوق، فیما أظن، ثم أخذه الملک الناصر و أعتقه، و جعله خاصکیّا، ثم صار دوادارا فی الدولة المؤیّدیة شیخ، من جملة الأجناد، إلی أن أمّره الأمیر ططر عشرة، ثم صار أمیر طبلخاناة و دوادارا ثانیا فی أوائل الدولة الأشرفیة، و أجلس النقباء علی بابه، و حکم بین الناس- و لم یکن ذلک بعادة: أن یحکم الدوادار الثانی

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۶۷

بین الناس- ثم أنعم علیه الملک الأشرف برسبای بإمرة مائة و تقدمة ألف بالدیار المصریة فی سنة ست و عشرین، و تولی الدواداریة الثانیة بعده جانبک الخازندار الأشرفی، ثم وجّهه إلی مکة المشرّفة شریکا لأمیرها الشریف عنان ابن مغامس بن رمیثة الحسنی، فأقام

بمكة مدة، ثم عاد إلى القاهرة، بعد أن أعيد الشريف حسن بن عجلان إلى إمرة مكة، و مات حسن، و تولى ابنه الشريف بركات.

و قدم قرقماس المذكور إلى مصر، على إمرته، أمير مائة و مقدم ألف، و دام على ذلك سنين، إلى أن استقر حاجب الحجاب بالديار المصرية، بعد الأمير جرباش الكريمى قاشق، بحكم انتقال جرباش إلى إمرة مجلس، فباشر الحجوبية بحرمة زائدة [و عظمة و بطش فى الناس بحيث هابه كل أحد]، و صار يخلط فى حكوماته ما بين ظلم و عدل، و لين و جبروت، إلى أن استقر فى نيابة حلب بعد الأمير قصروه من تمراز الظاهرى برقوق؛ بحكم انتقاله إلى نيابة دمشق، بعد موت الأمير جارقطلو، فى حدود سنة سبع و ثلاثين و ثمانمائة، فباشر نيابة حلب مدة تزيد على السنة، و عزل عنها، بعد أن أبدع فى المفسدين بها، و أشيع [الخبر] عنه بالخروج عن الطاعة.

و قدم إلى القاهرة على النّجب، بطلب من السلطان، و خلع عليه باستقراره أمير سلاح، بعد الأمير جقمق العلائى صاحب الترجمة، بحكم انتقال جقمق للأتابكية، عوضا عن إينال الجكمى، بحكم استقرار الجكمى فى نيابة حلب، عوضا عن قرقماس المذكور، فاستمر أمير سلاح مدة، و تجرد إلى البلاد الشامية مقدم العساكر، و معه سبعة أمراء من مقدمى الألوف، فى سنة إحدى و أربعين؛ و قد تقدم ذكر ذلك كله، فى ترجمة الملك الأشرف و غيره من هذا الكتاب؛ [۱۷۱] و إنما نذكره هنا ثانيا لينتظم سياق الكلام مع سياقه.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۶۸

و مات الملك الأشرف فى غيبته، ثم قدم القاهرة مع رفقته، و قد ترشح الأتابك جقمق للسلطنة، و سكن باب السلسلة من الإسطبل السلطانى، و كان حريصا على حب الرئاسة، فلما رأى أمر جقمق قد استفحل كاد يهلك فى الباطن، و ما أمكنه إلا الموافقة، و قام معه حتى تسلطن، ثم و ثب عليه حسبما تقدم ذكره، بعد أربعة عشر يوما من سلطنة الملك الظاهر جقمق، و قاتله، و انكسر بعد أمور حكيناها فى أصل هذه الترجمة، و هرب ثم ظهر و أمسك و حبس بسجن الإسكندرية، إلى أن ضربت رقبته بالشرع فى ثغر الإسكندرية، فى يوم الاثنين ثانى عشر جمادى الآخرة.

و كان قرقماس أميرا ضخما شجاعا مقداما عارفا بفنون الفروسية، و عنده مشاركة بحسب الحال، إلا أنه كان فيه ظلم و عسف و جبروت، و كان مع شجاعته و إقدامه، لا ينتج أمره فى الحروب، لعدم موافقة رجليه ليديه، فإنه كان إذا دخل الحرب، يبطل عمل رجليه فى تمشية الفرس، لشغله بيديه، و هو عيب كبير فى الفارس؛ و شهر ذلك عن جماعة من الأقدمين من فرسان الملوک، مثل الأتابك إينال اليوسفى، و يونس بلطا نائب طرابلس و غيرهما- انتهى.

و معنى «أهرام ضاغ» أى جبل الأهرام، سمى بذلك قديما لتكبره و تعاظمه.

و توفى القاضى علم الدين أحمد بن تاج الدين محمد بن علم الدين محمد بن كمال الدين محمد بن قاضى القضاة علم الدين محمد بن أبى بكر بن عيسى بن بدر الإخنائى المالكى، أحد فقهاء المالكية، و نواب الحكم بالقاهرة، فى يوم الأربعاء خامس عشرين شهر رمضان؛ و كان مشكور السيرة عفيفا عما يرمى به قضاة السوء.

و توفى قاضى القضاة بدمشق المالكى محيى الدين يحيى بن حسن بن محمد

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۶۹

[ابن عبد الواسع المحيوى] الحيحانى المغربى فى يوم الأربعاء حادى عشر ذى القعدة، و كان دينا عفيفا حسن السيرة فى أحكامه.

و توفى السيد الشريف أحمد بن [حسن] بن عجلان، المكى الحسنى، بعد ما فارق أخاه الشريف بركات بن حسن، و سافر إلى اليمن، فمات بزبيد.

و توفى الأتابك إينال بن عبد اللّه الجكمى نائب الشام قتيلا بقلعة دمشق، فى ليلة الاثنين ثانى عشرين ذى القعدة؛ و قد قدّمنا من ذكره فى أول ترجمة الملك الظاهر هذا و غيره نبذة كبيرة، تعرف منها أحواله؛ غير أننا نذكر الآن سبب ترقّيه لا غير:

فأصله من مماليك الأمير جكم من عوض الظاهرى المتغلّب على حلب، و خدم من بعد أستاذه المذكور عند الأمير سودون [الظاهرى برقوق، و يعرف بسودون] بقجة، و صار خازنداره، ثم اتصل بخدمة الملك المؤيّد شيخ، فلما تسلطن شيخ، جعله ساقيا، ثم أمسكه و

عاقبه عقوبة شديدة لأمر أوجب ذلك؛ ثم نفاه إلى البلاد الشامية، ثم أعاده بعد وقعة قانى باى نائب الشام، و أنعم عليه بإمرة عشرة، ثم جعله أمير طبلخاناة و شادّ الشراب خاناة، ثم أنعم عليه الأمير ططر بإمرة مائة و تقدمة ألف بالديار المصرية، و ولّاه رأس نوبة النّوب، ثم نائب حلب، ثم عزله بعد شهر و أيام و جعله أمير سلاح.

ثم قبض عليه مع من قبض عليه من الأمراء المؤيّدية و غيرهم، كل ذلك فى مدة يسيرة؛ و حبس مدة سنين إلى أن أطلقه الملك الأشرف برسباى بشفاعة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١٥، ص: ۴۷۰

الناصرى محمد بن منجك، و وجّهه إلى الحجاز، ثم عاد و أقام بالقدس بطالا، إلى أن طلبه الملك الأشرف إلى مصر، و أنعم عليه بإمرة مائة و تقدمة ألف، عوضا عن الأتابك بيبغا المظفرى [التركى] بحكم القبض عليه، و ذلك فى سنة سبع و عشرين؛ ثم جعله أمير مجلس سنين، ثم نقله إلى إمرة سلاح بعد موت إينال النّوروزى، ثم جعله أتابكا بعد سودون من عبد الرحمن، و هو على إقطاعه، و لم ينعم السلطان عليه بإقطاع الأتابكية.

فدام على ذلك مدة طويلة، إلى أن خلع السلطان عليه باستقراره فى نيابة حلب بعد عزل قرقماس الشعبانى، و استقر عوضه فى الأتابكية الأمير جقمق العلائى، فلم تطل مدته فى نيابة حلب، و نقل منها بعد أشهر إلى نيابة الشام بعد موت قصروه من تمراز، فدام فى نيابة دمشق إلى أن تسلطن الملك الظاهر جقمق، فبايع له أولا، و لبس خلعته و باس الأرض، ثم عصى بعد ذلك، و وقع ما حكيناه من أمره [١٧٢] فى ترجمة الملك الظاهر جقمق من قتاله لعسكر السلطان و هزيمته و القبض عليه و قتله.

و كان إينال أميرا جليلا شجاعا مقداما عاقلا سيوسا حشما و قورا كريما رئيسا، كامل الأدوات كثير الأدب، مليح الشكل معتدل القد للسّمن أقرب، نادرة فى أبناء جنسه، قلّ أن ترى العيون مثله، عفا اللّه عنه، و مات و سنه نحو الخمسين سنة تخمينا.

و توفى الأمير سيف الدين يخشباى بن عبد اللّه المؤيّدى [شيخ] ثم الأشرفى [برسباى]، أمير آخور الثانى قتيلا، بسيف الشرع، ضربت رقبته بثغر الإسكندرية، و قد تقدم ذكر سبب قتله فى أوائل ترجمة الملك الظاهر هذا، و قتل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١٥، ص: ۴۷۱

يخشباى و سنه نحو الثلاثين سنة تخمينا. و كان شابا طويلا جميلا، مليح الشكل عاقلا، عارفا بأنواع الفروسية، و عنده فهم و ذوق و معرفة و محاضرة حسنة، و تذاكر بالفقه و غيره بحسب الحال، عوّض اللّه شبابه الجنة بمنه و كرمه.

و توفى الأمير حسين بن أحمد المدعو تغرى برمش نائب حلب مضروب الرقبة بحلب، فى يوم الأحد سابع عشر ذى الحجة؛ و أصل تغرى برمش هذا من مدينة بهسنا و جفل هو و أخوه حسن- و كان حسن الأكبر- من بهسنا فى كائنة تيمور لنك، و قدما بعد ذلك بسنين إلى الديار المصرية، فخدم أخوه حسن تبعا عند الأمير قرا سنقر الظاهرى، و جلس حسين هذا عند بعض الخياطين بالمصنع من تحت القلعة، ثم انتقل أيضا إلى خدمة قرا سنقر [الجمالى] لجمال صورته، ثم انتقل من عند قرا سنقر إلى الأمير إينال حطب [العلائى]، و صار عنده من جملة مماليكه الكتّابية، إلى أن مات إينال حطب، فأخذه دواداره الأمير فارس، و أتى به إلى الوالد.

و كان الوالد من جملة أوصياء إينال حطب، فأخذه الوالد و جعله إنيا لمملوكه شاهين أمير آخور، فجعله شاهين فى الطبقة، و سمّاه تغرى برمش؛ ثم أخرج له الوالد خيلا و قماشا، ثم جعله من جملة مماليك أخر، و جعله جمدارا، فدام على ذلك، إلى أن تولى الوالد نيابة دمشق التى مات فيها، فأفسد تغرى برمش هذا من مماليك الوالد، مملوكين، و أخذهما و هرب إلى طرابلس: أحدهما فى قيد الحياة إلى يومنا هذا من جملة المماليك السلطانية، و اسمه أيضا تغرى برمش الصغير؛ و بلغ الوالد خبرهما،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١٥، ص: ۴۷۲

فأمر أن يكتب إلى الأمير جانم نائب طرابلس بالقبض عليهم الثلاثة و إرسالهم إليه فى الحديد، فخشى أغانهم شاهين، الأمير آخور عليهم، من الضرب و الإخراق، فسأل الوالد أنه يسافر إليهم و يقبض عليهم و يأتى بهم، فرسم له الوالد بذلك.

و توجه شاهين إليهم، فوجدهم بقاعة فى طرابلس، فنزل عن فرسه و دخل عليهم استخفافا بهم، فحال ما وقع بصرهم عليه، هرب تغرى برمش الصغير و يوسف، و وثب تغرى برمش ليهرب، فلحقه شاهين، فجذب سيفه و ضرب شاهين به فقتله، ثم هرب، فكتب الأمير جانم نائب طرابلس محضرا بواقعة الحال، و أرسله إلى الوالد، و مع المحضر يوسف و تغرى برمش الصغير؛ و هرب تغرى برمش هذا، فرسم الوالد بتحصيل تغرى برمش المذكور و شنقه. و كان الوالد مشغولا بمرض موته، و مات بعد مدة يسيرة.

و خدم تغرى برمش هذا عند الأمير طوخ [الظاهرى برقوق، و يقال له طوخ] بطيخ نائب حلب، و ترقى عنده، و صار رأس نوبته، ثم خدم بعده عند جقمق الأرغون شاوى الدّوادار، و صار أيضا رأس نوبته ثم دواداره فى آخر أيامه؛ و كان لجقمق دوادار آخر، يسمى إينال [الحمار] فكان جقمق يقول: «دواداريّ:

الواحد حمار و الآخر ثور».

ثم مشى حال تغرى برمش بعد عند أبناء جنسه؛ و سببه أنه لما انكسر أستاذه جقمق فى دمشق، و توجّه إلى بعض قلاع الشام، و تحصّن بها، إلى أن أنزل منها و قتل بدسيسة من تغرى برمش هذا، فأنعم عليه ططر بإمرة عشرة بالقاهرة، ثم جعله الملك الأشرف أمير طبلخاناة، و نائب قلعة الجبل، ثم أنعم عليه بتقدمة ألف فى سنة سبع و عشرين، ثم جعله نائب غيبته بديار مصر لما سافر لآمد، ثم جعله أمير آخور كبيرا بعد الأمير جقمق العلائى، بحكم انتقال جقمق إلى إمرة سلاح؛

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۷۳

ثم ولاه نيابة حلب بعد عزل قرقماس الشعبانى [۱۷۳] عنها فدام بحلب إلى أن تسلطن الملك الظاهر جقمق، فبايعه و لبس خلعته، ثم عصى بعد ذلك- و ليت الخمول عصى أولا قبل مبايعته، فكان يصير له عذر فى الجملة!- ثم وقع له بعد عصيانه ما حكيناه فى ترجمة الملك الظاهر جقمق، إلى أن انكسر و أمسك، ثم ضربت رقبته تحت قلعة حلب، و سنّه نحو الخمسين.

و كان تغرى برمش رجلا طوالا مليح الشكل عاقلا مدبرا كثير الدهاء و المكر، و كان يجيد رمى النشاب و لعب الكرة، و كان عارفا بأمور دنياه و أمر معيشته، متجملا فى مركبه و ملبسه و مماليكه، إلا أنه كان بخيلا شحيحا حريصا على جمع المال، قليل الدين لا يحفظ مسألة تامة فى دينه، مع قلة فهم و ذوق، و غلاظة طبع، على قاعدة أوباش التركمان، و كان عاريا من سائر العلوم و الفنون، غير ما ذكرنا، لم أره منذ عمرى مسك كتابا بيده ليقرأه، هذا مع الجبن و عدم الثبات فى الحروب، و قلة الرأى فى تنفيذ العساكر؛ و ما وقع له مع ناصر الدين بك بن دلغادر فى نيابته على حلب من الحروب و الانتصار عليه، كل ذلك كان بكثرة الشوكة و سعد الملك الأشرف برسباى.

و أما لما صار الأمر له، لم يفلح فى واقعة من الوقائع، بل صار كلما دبّر أمرا انعكس عليه، فإنه كان ظنّينا برأى نفسه، و ليس له اطلاع فى أحوال السلف بالكلية، و لم يستشر أحدا فى أمره، فحينئذ خمل و أخمل و تمزقت جميع عساكره و خانه حتى مماليكه مشترواته، و مع هذا كله، هو عند القوم فى رتبة عليا من العقل و المعرفة و التدبير؛ و عذرهم أنه لو لم يكن كذلك [ما] صار أميرا- انتهى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۷۴

و مات تغرى برمش، و المحضر المكتتب عليه بسبب قتله لشاهين، عندنا.

و قد طلبه منى غير مرة و أنا أسوّف به من وقت إلى وقت، و أبدى له أعذارا غير مقبولة، و أورّى له فى كلامى، فيمشى عليه ذلك و يطيب [خاطره].

إلى أن عصى، فطلبنى الملك الظاهر جقمق، و سألنى عن المحضر، فقلت: «عندى»، فكاد يطير فرحا. ثم أفحش أمر تغرى برمش فى الحلبيّين حتى أوجب ذلك قتله بغير محضر و لا حكم حاكم.

و توفى الملك الظاهر هزبر الدين عبد اللّه ابن الملك الأشرف إسماعيل بن على بن داؤد بن يوسف بن عمر بن على بن رسول، التركمانى الأصل، اليمنى، صاحب بلاد اليمن، فى يوم الخميس سلخ شهر رجب؛ و كانت مدة ملكه اثنتى عشرة سنة؛ و فى أيامه

ضعفت مملكة اليمن، لاستيلاء العربان على بلادها و أموالها؛ و أقيم بعده فى ملك اليمن: الملك الأشرف إسماعيل و له من العمر نحو العشرين سنة، فأساء السيرة، و سفك الدماء و قتل الأمير برقوقا التركى القائم بدولتهم، فى عدة أخر من الأتراك، و وقع له أمور كثيرة، ليس لذكرها هنا فائدة.

أمر النيل فى هذه السنة: الماء القديم خمسة أذرع و ثلاثة و عشرون أصبعا؛ [مبلغ الزيادة: ثمانية عشر ذراعا و عشرون أصبعا].

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۷۵

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۴۳]

السنة الثانية من سلطنة الملك الظاهر أبى سعيد جقمق على مصر و هى سنة ثلاث و أربعين و ثمانمائة.

و فيها توفى الأمير علاء الدين آقبغا بن عبد اللّه من مامش الناصرى [فرج] التركمانى، نائب الكرک، بعد أن عزل عنها و حبس بقلعتها فى أواخر هذه السنة، و له نحو سنين سنة من العمر، و لم يشتهر فى عمره بدين و لا شجاعة و لا كرم.

و توفى الأتابک آقبغا التّمرازى نائب الشام بها فجاءة، و هو على ظهر فرسه، فى صبيحة يوم السبت سادس عشر شهر ربيع الآخر، و سنه سبعون سنة تخمينا.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة؛ ج۱۵؛ ص۴۷۵

كان خبر موته: أنه ركب من دار السعادة بعد أن انفجر الفجر من اليوم المذكور، و سار إلى الميدان، و لعب [به] الرمح، و غيّر فيه عدة خيول، ثم ساق البرجاس و غيّر فيه أيضا أفراسا كثيرة، ثم ضرب الكرة مع الأمراء على عدة خيول، يغيّرها من تحته، إلى أن انتهى، و ليس عليه ما يردّ البرد عنه، و سار إلى باب الميدان ليخرج منه، و مماليكه مشاة بين يديه، فقال الرأس نوبته:

«مر المماليک ليأكلوا السماط»، ثم مال عن فرسه، فاعتنقه رأس نوبته المذكور،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۷۶

و حمله و أنزله إلى قاعة عند باب الميدان، فمات [۱۷۴] من وقته، و لم يتكلم كلمة واحدة غير ما ذكرناه.

و كان أصله من مماليک الأمير تمراز الناصرى نائب السلطنة فى دولة الناصر فرج، و نسبه تمراز أستاذه بالناصرى، لأستاذه خواجا ناصر الدين، و قد تقدم ذكره فى الدولة الناصرية، و خدم آقبغا هذا بعد موته عند الأتابک دمرداش المحمدى ثم اتصل بخدمة [الملک] المؤيّد شيخ، فرقّاه المؤيّد لسيادة كانت له فى لعب الرمح، و أنعم عليه بإمرة عشرة، ثم طبلخاناة، و جعله أمير آخور ثانيا، ثم أنعم عليه الأمير ططر بإمرة مائة و تقدمة ألف، و جعله من الأمراء المقيمين بالقاهرة، لما سافر بالملک المظفر أحمد إلى دمشق، ثم صار أمير مجلس فى أوائل الدولة الأشرفية برسباى، ثم ولى نيابة الإسكندرية بعد أسندمر النّورى الظاهرى [برقوق]، مضافا على تقدمته، ثم عزل بعد سنين و أعيد إلى إمرة مجلس، إلى أن جعله الملک الظاهر جقمق أمير سلاح، ثم أتابک العساكر بالديار المصرية، كلاهما بعد قرقماس الشعبانى، فباشر الأتابكية أشهرا، و تولى نيابة دمشق لما عصى الأتابک إينال الجكمى، و قد تقدم ذكر ذلک كله فى أول ترجمة الملک الظاهر جقمق. هذا و لم تطل مدة نيابته على دمشق سوى أشهر، و مات.

و كان عارفا بأنواع الفروسية كلعب الرمح و ضرب الكرة و سوق المحمل و البرجاس، رأسا فى ذلک جميعه، إمام عصره فى ركوب الخيل و معرفة تقليبها فى أنواع الملاعيب المذكورة، انتهت إليه الرئاسة فى ذلک بلا مدافعة، لا أقول ذلک كونه صهرى، بل أقوله على الإنصاف، مع دين و عفة عن المنكرات و الفروج، و قيام

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۷۷

ليل و زيارة الصالحين دواما، غير أنه كان مسّيكا، و عنده حدّة مزاج، و لم تكن شجاعته فى الحروب بقدر معرفته لأنواع الملاعيب و الفروسية، رحمه اللّه تعالى.

و توفى الأمير سيف الدين طوخ بن عبد اللّه الناصرى المعروف بطوخ مازى، نائب غزة، فى ليلة السبت حادى شهر رجب. و أصله من مماليك [الملك] الناصر فرج، و تأمّر- بعد موت الملك المؤيّد شيخ- عشرة، و صار فى الدولة الأشرفية برسباى، من جملة رؤوس النّوب، ثم ترقى بعد سنين إلى إمرة طبلخاناة و صار رأس نوبة ثانيا، ثم ولى نيابة غزة بعد موت آقبردى القجماسى فى الدولة العزيزية يوسف، إلى أن مات، و كان متوسط السيرة منهمكا فى اللذات عاريا من كل علم و فن، عفا اللّه عنه.

و توفى الأمير سيف الدين يلبغا بن عبد اللّه البهائى الظاهرى نائب الإسكندرية بها، فى يوم الخميس ثالث عشر جمادى الأولى، و هو فى عشر السبعين، و كان أصله من مماليك [الملك] الظاهر برقوق، و كان يعرف بيلبغا قراجا، لأنه كان أسمر اللون تركى الجنس. و كان تأمّر قديما إمرة عشرة، و دام على ذلك سنين، إلى أن أنعم عليه الملك الظاهر جقمق بإمرة طبلخاناة و الحجوبية الثانية، عوضا عن أسنبغا الطّيّارى، ثم ولّاه نيابة الإسكندرية، إلى أن مات بها. و كان من خيار الناس عقلا و دينا و سكونا و عفة، مع مشاركة فى الفقه و غيره، و يكتب الخط المنسوب، و كان فصيحا باللغة العربية، حلو الكلام جيد المحاضرة، يذاكر بالأيام السالفة مذاكرة حسنة لذيذة، و هو أحد من أدركناه من النوادر فى معناه، رحمه اللّه تعالى.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۷۸

و توفى الأمير سيف الدين قطج بن عبد اللّه من تمراز الظاهرى، بطّالا بالقاهرة، فى يوم الاثنين ثامن عشرين شهر رمضان، و كان أصله من أصاغر مماليك الظاهر برقوق، و تأمّر أيضا- بعد موت الملك المؤيّد شيخ- عشرة، ثم ترقى إلى أن صار فى الدولة الأشرفية أمير مائة و مقدّم ألف، و دام على ذلک سنين، إلى أن أمسكه الأشرف و سجنه بثغر الإسكندرية مدة، ثم أفرج عنه و أنعم عليه بإمرة مائة و تقدمة ألف بحلب، ثم نقله إلى أتابكيه حلب، بعد نقل قانى باى البهلوان، إلى أتابكية دمشق، بحكم وفاة تغرى بردى المحمودى بآمد، فدام على ذلک سنين، إلى أن تسلطن الملک الظاهر جقمق، فقدم القاهرة، و استعفى من أتابكية حلب، فأعفى، يريد بذلک أن يكون من جملة أمراء مصر؛ فلم يكترث [۱۷۵] المالک الظاهر بأمره، و دام بطّالا إلى أن مات.

و كان يتمفقر فى حياته و يطلب من الأمراء، فلمّا مات، ظهر له مال كبير، فأخذه من يستحقه، و للّه درّ أبى الطيب المتنبى فيما قال فى هذا المعنى: [الطويل]

و من ينفق الساعات فى جمع ماله مخافة فقر فالذى فعل الفقر

و توفى الأمير سيف الدين سودون الظاهرى المغربى أحد أمراء العشرات و الحجاب، ثم نائب ثغر دمياط، بطّالا بالقدس؛ و كان أيضا من مماليک [الملک] الظاهر برقوق، و تأمّر عشرة، و صار من جملة الحجاب فى الدولة الأشرفية برسباى، ثم ولى نظر القدس فى بعض الأحيان، ثم ولى نيابة دمياط، إلى أن أمسكه الملک الظاهر و حبسه مدة، ثم أخرجه إلى القدس بطّالا، إلى أن مات.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۷۹

و كان دينا خيرا عفيفا عن القاذورات، عارفا بأنواع الفروسية باجتهاده، فكان خطأه فيه أكثر من صوابه، و كان يتفقّه، و يكثر من الاشتغال دواما، لا سيما لما اشتغل فى النحو فضيع فيه زمانه، و لم يحصل على طائل، لقصر فهمه و عدم تصوره، و كان يلح فى المسائل الفقيهة و يبحث فيها أشهرا، و لا يرضى إلا بجواب سمعه قديما من كائن من كان؛ و كان هذا سبب نفيه، فإنه بحث مرة مع الأمير بكتمر السعدى بحثا، فأجابه بكتمر بالصواب، فلم يرض بذلک سودون هذا، و ألحّ فى السؤال على عادته، فنهره الملک الظاهر جقمق، و هو يوم ذاک أمير آخور، و قال له:

«أنت حمار!»، و احتدّ عليه، فقال سودون: «العلم ليس هو بالإمرة و إنما هو بالأعلم». فحنق الملک الظاهر منه أكثر و أكثر، و انفض المجلس.

و كان فيه أنواع ظريفة فى حكمه بين الناس، منها: أنه يتحقق فى عقله أن الحقّ لا يزال مع الضعيف من الناس، و أن القوىّ لا يزال يجبر الضعيف، فصار كلما دخل إليه خصمان فينظر إليهما، فيكون أحد الأخصام جنديا و الآخر فلاحا، و الحقّ مع الجندى، فلا يزال

سودون يميل مع الفلاح و يقوّى كلامه و حجته، و يوهى كلام الجندى و دعواه، حتى يسأل الجندىّ فى المصالحة، أو يأخذ فلاحه و يذهب، إن كان له شوكة، هذا بعد أن يوبخ الجندىّ و يعظه و يحذره عقوبة اللّه عز و جل، و يذكر له أفعال أبناء جنسه من المماليك. و كان عنده كثرة كلام مع نشوفة، و لهذا سمى بالمغربى، فلما تكرر منه ذلك و عرف الناس طبعه، ترامى الضعفاء عليه من الأماكن البعيدة، فانتفع به أناس و تضرر به آخرون؛ على أنه كان غالب اجتهاده فى خلاص الحق على قدر ما تصل قدرته إليه، رحمه اللّه تعالى.

و توفى قاضى قضاة حلب علاء الدين على بن محمد بن سعد بن محمد بن على بن عثمان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۸۰

الحلبى الشافعى، قاضى حلب، و عالمها و مؤرخها، المعروف بابن خطيب الناصرية، فى ليلة الثلاثاء تاسع ذى القعدة، بحلب. و مولده فى سنة أربع و سبعين و سبعمائة؛ و كان إماما عالما بارعا فى الفقه و الأصول و العربية و الحديث و التفسير، و أفتى و درّس بحلب سنين، و تولى قضاءها، و قدم القاهرة غير مرة، و له مصنّفات منها: كتابه المسمى بالمنتخب فى تاريخ حلب، ذيّله على تاريخ ابن العديم، لكنه لم يسلك فيه ما شرطه فى الاقتداء بابن العديم، و سكت عن خلائق من أعيان العصر ممن ورد إلى حلب، حتى قال بعض الفضلاء: «هذا ذيل قصير إلى الركبة».

و كان، سامحه اللّه، مع فضله و علمه، يتساهل فى تناول معالمه فى الأوقاف بشرط الواقف و بغير شرط الواقف، و كان له وظائف و مباشرة فى جامع الوالد بحلب، فكان يأخذ استحقاقه و استحقاق غيره، و كان له طولة روح و احتمال زائد لسماع المكروه، بسبب ذلك، و هو على ما هو عليه، و لسان حاله يقول: «لا بأس بالذل فى تحصيل المال». و كان يتولى القضاء بالبذل، و يخدم أرباب الدولة بأموال كثيرة.

و ملخص الكلام: أنه كان عالما غير مشكور السيرة، و كان به صمم خفيف.

و توفى قاضى المدينة النبوية جمال الدين محمد بن أحمد بن محمد بن محمود بن إبراهيم ابن أحمد الكازرونى الأصل [۱۷۶] المدنى المولد و المنشأ و الوفاة، الشافعى، فى يوم الأربعاء عاشر ذى القعدة، و دفن بالبقيع و مولده سنة سبع و خمسين و سبعمائة؛ و كان بارعا فى الفقه و له مشاركة فى غيره، و تولى قضاء المدينة فى بعض الأحيان، ثم ترك ذلك و لزم العلم إلى أن مات.

و توفى مجد الدين ماجد بن النّحّال الأسلمى القبطى كاتب المماليك السلطانية،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۸۱

فى ليلة السبت سادس ذى الحجة، و كان أصله من نصارى مصر القديمة، و خدم فى عدة جهات و هو على دين النصرانية، و دام على ذلك إلى أن أكرهه الأمير نوروز الحافظى على الإسلام، فأظهر الإسلام و أبقى جميع ما عنده من النسوة و الخدم على دين النصرانية، و هو والد فرج بن النحال وزير زماننا هذا و أستادّاره، ثم قدم ماجد عند الأمير جقمق الدّوادار، ثم ترقى إلى أن ولى كتابة المماليك السلطانية سنين، إلى أن مات. و كان فيه مروءة و خدمة لأصحابه، و أما غير ذلك فالسكات أجمل.

و ما أظرف ما قال الشيخ تقى الدين المقريزى رحمه اللّه، لما ذكر وفاته بعد كلام طويل، إلى أن قال: «و كان لا دين و لا دنيا».

أمر النيل [فى هذه السنة]: الماء القديم أربعة أذرع و عشرة أصابع؛ مبلغ الزيادة: عشرون ذراعا و أحد عشر إصبعا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۸۲

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۴۴]

السنة الثالثة من سلطنة الملك الظاهر جقمق على مصر و هى سنة أربع و أربعين و ثمانمائة.

فيها توفى الأمير ناصر الدين محمد ابن الأمير صارم الدين إبراهيم، ابن الأمير الوزير منجك اليوسفى بدمشق، فى يوم الأحد خامس

عشر شهر ربیع الأول، و هو فی عشر السبعین. و کان مولده بدمشق، و أعطی بها إمرة فی دولة الملک المؤیّد شیخ، و حظی عنده إلی الغایة، ثم صار علی منزلته فی الرفعة و أعظم عند الملک الأشرف برسبای، حتی أنه کان یجلس فوق أمیر سلاح، و کان إذا حضر مجلس السلطان لا یتکلم السلطان مع غیره إلا لحاجة، إجلالا له؛ و کان یقدم القاهرة فی کل سنة مرة فی مبادئ فصل الشتاء، ثم یعود إلی دمشق فی مبادئ فصل الصیف؛ و فی الجملة: أنه کان محظوظا من الملوک إلی الغایة من غیر أمر یوجب ذلک. و قد حاضرته کثیرا فی مبادئ عمری، فلم أجد له معرفة بعلم من العلوم، و لا فن من الفنون، غیر لعب الکرة و أنواع الصید بالجوارح فقط، و المال الکثیر مع بخل و شح زائد یضرب به المثل؛ و کنت أراه یکثر السکوت؛ فأقول: «هذا لغزیر عقله»، و إذا به من قلة رأس ماله.

و قد حکی لی عنه بعض أکابر أعیان المملکة، قال: لما خرج قانی بای نائب الشأم عن طاعة المؤیّد، و علم بذلک أعیان أهل دمشق، اجتمعوا بمکان یشتورون فیما یفعلون، لئلا یقبض علیهم قانی بای المذکور، و هم مثل القاضی: نجم الدین بن حجّیّ، و القاضی شهاب الدین بن الکشک، و الشریف شهاب الدین، و خواجه شمس الدین ابن المزلق، و ابن مبارک شاه، و ابن منجک، و جماعة أخر من الأمراء و غیرهم، فأخذ ابن منجک یتکلم، فقال له القاضی شهاب الدین بن الکشک، متهکما علیه فی الباطن:

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۸۳

«یا أمیر محمد، أنت رجل غزیر العقل و الرأی، و نحن ضعفاء العقول. لا تکلمنا علی قدر عقلک، و إنما تحدّث معنا بقدر عقولنا»؛ فقال ابن منجک المذکور: «إذا لا أحدثکم إلا علی قدر عقولکم». فقالوا: «الآن تعمل المصلحة». و تکلموا فیما هم بصدده؛ قلت: هذا هو الغایة فی الجهل و التفنن فی الجنون؛ فإن کل واحد ممن کان اجتمع فی ذلک المجلس، یمکن أن یدبر مملکة سلطان و ینفذ أموره علی أحسن وجه- انتهی.

و توفی قاضی القضاة شیخ الإسلام محبّ الدین أبو الفضل أحمد بن الشیخ الإمام العلامة جلال الدین نصر اللّه بن أحمد بن محمد بن عمر التّستری الأصل، البغدادی الحنبلی قاضی قضاة الدیار المصریة، و عالم السادة الحنابلة فی زمانه، فی یوم الأربعاء خامس عشر جمادی الأولی بالقاهرة، و هو قاض؛ و تولی بعده قاضی القضاة بدر الدین محمد ابن عبد المنعم البغدادی، و کان مولد القاضی [۱۷۷] محب الدین ببغداد فی شهر رجب سنة خمس و خمسین و سبعمائه، و اشتغل بها و تفقه، و قدم القاهرة فی أول القرن و اشتغل بها، حتی برع فی الفقه و أصوله و الحدیث و العربیة و التفسیر، و تصدی للإفتاء و التدریس سنین، و ناب فی الحکم بالقاهرة عن القاضی علاء الدین بن مغلی، و برع حتی صار المعوّل علی فتواه، ثم ولی قضاء الحنابلة بعد موت قاضی القضاة علاء الدین بن مغلی فی یوم الاثنین سابع عشرین صفر سنة ثمان و عشرین و ثمانمائة، و دام فی الوظیفة إلی أن

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۸۴

عزل بالقاضی عزّ الدین عبد العزیز بن علی بن العز البغدادی، فی ثالث عشر جمادی الآخرة سنة تسع و عشرین، فلم تطل ولایة عز الدین، و عزل، و أعید القاضی محبّ الدین هذا فی یوم الثلاثاء ثانی عشر صفر سنة ثلاثین، و استمر قاضیا إلی أن مات، و قد ذکرنا أحواله و مشایخه فی تاریخنا «المنهل الصافی [و المستوفی بعد الوافی»] بأوسع من هذا فلینظر هناک.

و توفی سعد الدین إبراهیم القبطی المصری، المعروف بابن المرة، فی یوم الخمیس عاشر شهر ربیع الآخر بالقاهرة، و هو فی عشر السبعین، بعد أن افتقر و احتاج إلی السؤال، و کان ولی نظر دیوان المفرد [فی الأیام الأشرفیة برسبای]، و نظر بندر جدّة سنین کثیرة، و حصل له ثروة و عزوجاه، ثم زال عنه ذلک کله، و مات فقیرا، صدّق علیه بالکفن.

و توفی الأمیر ناصر الدین محمد المرداوی المعروف بابن بوالی، و هو اسم کردی غیر کنیة. مات بدمشق، بعد أن ولی أستادّاریة السلطان بالدیار المصریة، ثم عزل و ولی أستادّاریة السلطان بدمشق، إلی أن مات. و قد تقدم ذکره فی ترجمة الملک الأشرف برسبای، عند ما ولی الأستادّاریة عوضا عن أرغون شاه النّوروزی؛ و کان من الظّلمة، یقضی عمره فی مظالم العباد.

و توفی الأمیر علاء الدین ألطنبغا بن عبد اللّه المرقبی المؤیدی أحد أمراء الألوف بالدیار المصریة، فی یوم الاثنین عاشر شهر رجب، و

كان من كبار مماليك الملك المؤيد شيخ، من أيام جنديته، و رقاه بعد سلطنته، و عمله نائب قلعة حلب، ثم أمير مائة و مقدم ألف بالديار المصرية، ثم ولاه حجوبية الحجاب، إلى أن أمسكه الأمير ططر مع من أمسك من أمراء المؤيدية، و حبس مدة، ثم أطلق، و دام بطّالا دهرا طويلا،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۸۵

إلى أن أنعم عليه الملك الظاهر جقمق بإمرة مائة و تقدمة ألف بمصر، فى أوائل دولته، فدام على ذلك إلى أن مات رحمه اللّه تعالى.

و توفى زين الدين قاسم البشتكى فى يوم السبت ثانى شهر رجب، و كان يتفقّه و يترأس، و تزوج بنت الأشرف شعبان، و كان مقربا من الملوك، و هو من مقولة ابن منجك فى نوع من الأنواع، غير أنه كانت لديه فضيلة بالنسبة إلى ابن منجك.

و توفى الأمير سيف الدين ممجق بن عبد اللّه النّوروزى أحد أمراء العشرات، و نائب قلعة الجبل فى يوم مستهل شهر رجب، و كان أصله من مماليك الأمير نوروز الحافظى، و اتصل بخدمة السلطان، فدام على ذلك دهرا طويلا، لا يلتفت إليه، إلى أن أمّره الملك الظاهر جقمق عشرة، و جعله نائب قلعة الجبل؛ فاستمر على وظيفته إلى أن مات. و كان لا ذات و لا أدوات، و تولى تغرى برمش الجلالى المؤيّدى الفقيه نيابة قلعة الجبل بعده، و أنعم عليه أيضا بإمرته.

و توفى القاضى شهاب الدين أحمد بن أبى بكر بن رسلّان [بن نصير بن صالح بن شهاب بن عبد الخالق بن محمد بن مسافر الشهاب] البلقينى، [ثم المحلى]، الشافعى المعروف بالعجيمى، قاضى المحلة [فى يوم الأربعاء] رابع عشر جمادى الأولى، و كان من فضلاء الشافعية، و تولى قضاء المحلة سنين.

و توفى الأمير الطّواشى صفى الدين جوهر بن عبد اللّه القنقبائى الخازندار و الزّمام، فى ليلة الاثنين أول شعبان، و له نحو سبعين سنة، و دفن بمدرسته التى أنشأها بجوار

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۸۶

جامع الأزهر، قبل أن تتم؛ و كان أصله من خدام الأمير قنقباى الإلجائى اللالا، ثم خدم بعد موت أستاذه عند خوند قنقباى أم الملك المنصور عبد العزيز، ثم من بعدها عند جماعة أخر، ثم اتصل بخدمة علم الدين [۱۷۸] داؤد بن الكويز، و دام عنده إلى أن مات. و بخدمته حسنت حاله، ثم صار بعد ذلك بطّالا- إلى أن نوّه بذكره صاحبه جوهر اللّالا، و لا زال يعظم أمره عند الملك الأشرف برسباى إلى أن طلبه و ولاه خازندارا دفعة واحدة، بعد خشقدم الظاهرى الرومى، و لم تسبق لجوهر المذكور قبل ولايته الخازندارية رئاسة فى بيت السلطان، فباشر الخازندارية بعقل و تدبير و رأى فى الوظيفة، و ناله من العز و الجاه و نفوذ الكلمة ما لم ينله طواشى قبله فيما رأينا.

و مات الملك الأشرف و هو على وظيفته، لحسن سياسته، ثم أضاف إليه الملك الظاهر وظيفة الزّمامية بعد عزل فيروز الجاركسى، لما تسحّب الملك العزيز يوسف من الدّور السلطانية، حسبما تقدم ذكره، و استمر على وظيفة الزّمامية و الخازندارية إلى أن مات من غير نكبة. و لم يخلّف ما لا له جرم بالنسبة لمقامه، فعظم ذلك على الملك الظاهر، فإنه كان فى عزمه أخذ ماله بوجه من الوجوه، و فطن جوهر بذلك و أدركته منيته و مات من غير أن يعلم أحدا بماله، و كان جوهر عفيفا دينا عاقلا مدبرا سيوسا فاضلا يقرأ القرآن الكريم بالسبع، و له صدقات و معروف، غير أنه دخل فى الدنيا و اقتحم منها جانبا كبيرا، و صار من المخلطين، و هو أحد من أدركناه من عقلاء الخدام، رحمه اللّه تعالى.

و توفى القاضى شرف الدين أبو بكر بن سليمان الأشقر المعروف بابن العجمى، الحلبى الأصل و المولد و المنشأ المصرى الدار و الوفاة، نائب كاتب السر الشريف

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۸۷

بالديار المصرية، فى يوم الأربعاء تاسع شهر رمضان، و هو فى عشر الثمانين، بعد أن رشّح لوظيفة كتابة سر مصر غير مرة، فلم يقبل؛ ثم

ولاه الملك الأشرف كتابة سر حلب على كره منه، عوضا عن زين الدين عمر بن السفاح، فباشر ذلک مدة، ثم عزل بعد أن استعفى، و أعيدت إليه وظيفة نيابة كتابة السر، و ولى كتابة سر حلب عوضه ولده القاضى معين الدين عبد اللطيف. و كان شرف الدين المذكور رجلا عاقلا سيوسا عارفا بصناعة الإنشاء، قام بأعباء ديوان الإنشاء عدة سنين، و خدم عدة ملوک، و کان مقربا من خواطرهم محببا إليهم، رحمه اللّه تعالى.

و توفى شمس الدين محمد بن شعبان، فى حادى عشرين شوال، عن نيف و ستين سنة، بعد أن ولى حسبة القاهرة بالسعى مرارا كثيرة؛ و كان عاميا يتزيا بزى الفقهاء، حدثنى من لفظه، قال: «ولّيت حسبة القاهرة نيف و عشرين مرة»، فقلت له: «هذا هجو فى حقک، لا تتكلم به بعد ذلک، لأنک تسعى و تلى ثم تعزل بعد أيام قلائل، و تكرر لک ذلک غير مرة، فهذا مما يدل على عدم اكتراث أهل الدولة بشأنک، و إهمالهم أمرک»، فلم يعد إلى ذكرها بعد ذلک.

و توفى الشيخ الإمام العالم نور الدين على بن عمر بن حسن بن حسين بن على بن صالح الجروانى الأصل، ثم التلوانى، الشافعى الفقيه العالم المشهور، فى يوم الاثنين ثالث عشرين ذى القعدة، و كان أصله من بلاد الغرب، و سكن والده جروان ولى قرية بالمنوفية من أعمال القاهرة بالوجه البحرى، فولد له بها ابنه نور الدين هذا بعد سنة ستين و سبعمائة، فنشأ بجروان، ثم انتقل إلى تلوانة [من قرى المنوفية]، فعرف بالتلوانى، ثم قدم القاهرة و طلب العلم، و لازم شيخ

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۸۸

الإسلام سراج الدين البلقينى، حتى أجازه بالفتوى و التدريس، فتصدى الشيخ نور الدين من تلک الأيام للإقراء و التدريس، و انتفع به جماعة من الطلبة، و تولّى عدة وظائف دينية، و تداريس عديدة، منها مشيخة الرّكنيّة، ثم تدريس قبة الشافعى بالقرافة. و كان دينا خيرا جهوريّ الصوت صحيح البنية، و له قوة، و فيه كرم و إفضال و همة عالية، رحمه اللّه تعالى.

[و توفى الشيخ الإمام العلامة شمس الدين محمد بن عمّار بن محمد بن أحمد، أحد علماء المالكية، فى يوم السبت رابع عشر ذى الحجة، و قد أناف على السبعين، بعد أن أفتى و درّس عدة سنين، رحمه اللّه تعالى].

أمر النيل فى هذه السنة: الماء القديم، ستة أذرع و أربعة أصابع؛ مبلغ الزيادة: عشرون ذراعا و أحد و عشرون أصبعا.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۸۹

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۴۵]

السنة الرابعة من سلطنة الملك الظاهر جقمق على مصر و هى سنة خمس و أربعين و ثمانمائة.

و فيها توفى الخليفة أمير المؤمنين [۱۷۹] المعتضد بالله أبو الفتح داؤد، ابن الخليفة المتوكل على اللّه أبى عبد اللّه محمد، ابن الخليفة المعتضد بالله أبى بكر، ابن الخليفة المستكفى بالله أبى الربيع سليمان، ابن الخليفة الحاكم بأمر اللّه أبى العباس أحمد بن حسين بن أبى بكر بن على بن الحسين، ابن الخليفة الراشد بالله منصور، ابن الخليفة المقتدى بالله عبد اللّه، ابن الأمير ذخيرة الدين محمد، ابن الخليفة [القائم بأمر اللّه عبد اللّه، ابن الخليفة القادر بالله أحمد، ابن الأمير الموفق ولى العهد طلحة، ابن الخليفة المتوكل على اللّه جعفر، ابن الخليفة المعتصم بالله محمد، ابن] الخليفة الرشيد بالله هرون، بن الخليفة المهدى بالله محمد، ابن الخليفة أبى جعفر المنصور عبد اللّه، ابن [محمد بن على، ابن عبد اللّه بن] عباس بن عبد المطلب الهاشمى العباسى المصرى، فى يوم الأحد رابع شهر ربيع الأول، بعد مرض تمادى به أياما؛ و حضر السلطان الملك الظاهر جقمق الصلاة عليه [بمصلّاة] المؤمنى، و دفن بالمشهد النفيسى.

و كانت خلافته تسعة و عشرين سنة و أياما، و تولى الخلافة من بعده أخوه شقيقه المستكفى بالله سليمان، بعهد منه إليه. و كان المعتضد خليقا للخلافة، سيّد بنى العباس فى زمانه، أهلا للخلافة بلا مدافعة، و كان كريما عاقلا حليما متواضعا دينا خيرا

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۹۰

حلو المحاضرة کثیر الصدقات و البر، و کان یحب مجالسة العلماء و الفضلاء، و له مشارکة مع فهم و ذکاء و فطنة. و قد أوضحنا أمره فی تاریخنا «المنهل الصافی» بأوسع من هذا، إذ هو کتاب تراجم علی حدته.

و توفی الشیخ محبّ الدین بن الأوجاقی الحنفی، فی یوم الاثنین ثالث عشرین شهر رجب، بعد مرض طویل؛ و کانت لدیه فضیلة، و فیه تدین و خیر، و للناس فیه اعتقاد.

و توفی الشیخ الأدیب المعروف بابن الزین بالوجه البحری فی مستهل شهر ربیع الأول، بعد أن مدح النّبیّ صلی اللّه علیه و سلم، بما ینیف علی عشرة آلاف قصیدة؛ قاله غیر واحد.

و توفی الشیخ الإمام العالم المحدث المفنن، عمدة المؤرخین، و رأس المحدثین، تقیّ الدین أحمد بن علی بن عبد القادر بن محمد بن إبراهیم بن محمد بن تمیم بن عبد الصمد البعلبکی الأصل المصری المولد و الوفاة المقریزی الحنفی، ثم الشافعی؛ هذا ما نقلناه من خطه، و أملی علیّ نسبه الناصریّ محمد ابن أخیه بعد وفاته، إلی أن رفعه إلی علیّ بن أبی طالب من طریق الخلفاء الفاطمیین، و ذکرناه فی غیر هذا المصنف- انتهی.

و کانت وفاته فی یوم الخمیس سادس عشر شهر رمضان و دفن من الغد بمقابر

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۹۱

الصوفیة، خارج باب النصر، و وهم قاضی القضاة بدر الدین محمود العینی فی تاریخ وفاته، فقال: فی یوم الجمعة التاسع و العشرین من شعبان- انتهی.

سألت الشیخ تقی الدین، رحمه اللّه، عن مولده فقال: «بعد الستین و سبعمائة بستّیات». و کان مولده بالقاهرة، و بها نشأ و تفقه علی مذهب الإمام الأعظم أبی حنیفة، و هو مذهب جده لأمه الشیخ شمس الدین محمد بن الصائغ الحنفی، ثم تحول شافعیا بعد مدة، [و ذلک بعد موت والده فی سنة ست و ثمانین] [و سبعمائة]، لأمر اقتضی ذلک، و اشتغل علی مذهب الشافعی؛ و سمع الکثیر علی عدة مشایخ، ذکرنا أسماء غالبهم فی ترجمته فی «المنهل الصافی» مع مصنفاته باستیعاب یضیق هذا المحل عن ذلک.

و کان الشیخ تقی الدین رحمه اللّه تعالی إماما بارعا مفننا [متقنا] ضابطا دینا خیرا محبا لأهل السنة، یمیل إلی الحدیث و العمل به، حتی نسب إلیه مذهب الظاهر، و کان فیه تعصب علی السادة الحنفیة بغیر لباقة؛ یعرف ذلک من مصنفاته، و فی الجملة هو أعظم من رأیناه و أدرکناه فی علم التاریخ و ضروبه، مع معرفتی لمن عاصره من علماء المؤرخین، و الفرق بینهم [ظاهر]؛ و لیس فی التعصب فائدة.

و توفی قاضی الإسکندریة جمال الدین عبد اللّه بن الدّمامینی المالکی الإسکندری بها فی یوم الأحد رابع ذی القعدة، و کان مشهورا بالسماحة، إلا أن بضاعته من العلوم کانت مزجاة.

أمر النیل فی هذه السنة: الماء القدیم عشرة أذرع و نصف؛ مبلغ الزیادة عشرون ذراعا و خمسة عشر أصبعا؛ و کان الوفاء سادس عشرین أبیب.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۹۲

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۴۶]

السنة الخامسة من سلطنة الملک الظاهر جقمق علی مصر و هی سنة ست و أربعین و ثمانمائة.

و فیها توفی الشیخ الإمام العالم العامل العلامة، نور الدین عبادة بن علی بن صالح بن عبد المنعم بن سراج بن نجم بن فضل [ابن فهد بن عمر، و العلامة زین الدین الأنصاری الخزرجی] الزّرزاوی الفقیه المالکی المعروف بالشیخ عبادة [۱۸۰]، شیخ السادة المالکیة، و

عالمها بالديار المصرية، فى يوم الجمعة سابع شوال، و صلى عليه صاحبه الشيخ مدين بجامع الأزهر. و مات و لم يخلّف بعده مثله علما و دينا. و كان مولده فى جمادى الأولى سنة ثمان و سبعين و سبعمائة ببلده زرزا، و طلب العلم و سمع الحديث و اشتغل على علماء عصره، حتى برع فى الفقه و الأصلين و العربية، و أفتى و درّس، و اشتغل سنين كثيرة، و انتفع به الطلبة، و سئل بالقضاء بعد موت العلامة شمس الدين البساطى المالكى، فامتنع، فألح عليه السلطان بالولاية، و ألزمه بها غصبا، فلما رأى تصمّم السلطان على ولايته، و أنه لا ـ يستطيع دفعه، قال: «حتى أستخير اللّه». و فرّ من يومه من القاهرة، و اختفى ببعض الأماكن، إلى أن ولّى السلطان القاضى بدر الدين محمد بن التّنسى، فلما بلغه ذلك حضر [إلى] القاهرة بعد أيام كثيرة.

و هذا شىء لم يقع لغيره فى عصرنا هذا، فإننا لا نعلم من سئل بالقضاء و امتنع غيره، و أما سواه فهم على أقسام: قسم يتنزه عن الولاية، [و] يظهر ذلك حيلة، حتى يشاع عنه ذلك، فإذا طلب بعد ذلك للقضاء يأخذ فى التمنع، و فى ضمن

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۹۳

تمنعه يشرط على السلطان شروطا، يعلم هو و كلّ أحد أنها لا تتم له، و إنما يقصد بذكرها إلا نوعا من الإجابة، لكونه كان امتنع أولا، فلا ـ يمكنه القبول إلا ـ بهذه الدورة، فلم يكن بمجرد ذكره للشروط، إلا ـ و قد صار فى الحال قاضيا؛ و وقع ذلك لجماعة كثيرة فى عصرنا.

و قسم آخر: [هم] الذين يسعون فى الولاية سعيا زائدا، و يبذلون الأموال، و يتضرعون لأرباب الدولة، و يخضعون لهم، و هيهات! هل يسمح لهم بذلك أم لا! فلله درّ الشيخ عبادة فيما فعل، لأننا شاهدنا منه ما سمعناه عن السلف، و رأينا من زهده و عفته ما ورثه عنه الخلف. و استمر بعد ذلك سنين على حاله من ملازمة العلم و العمل، إلى أن مات رحمه اللّه تعالى.

و توفى قاضى القضاة عزّ الدين عبد العزيز بن العز البغدادى الحنبلى، قاضى قضاة الحنابلة بالديار المصرية، ثم بدمشق، [و] بها مات فى أواخر هذه السنة؛ و تولى عوضه قضاء دمشق ابن مفلح [على عادته] أولا ـ و كان القاضى عزّ الدين فقيها دينا متقشفا، عديم التكلف فى ملبسه و مركبه، مع دهاء و مكر و معرفة تامة، و قد مرّ من ذكره، أنه لما ولى القضاء بالديار المصرية، صار يمشى فى الأسواق لحاجته و يردف عبده على بغلته، و أشياء من هذا النسق. و كانت جميع ولاياته من غير سعى، و كان يصحب الوالد، و استمرت الصحبة بيننا إلى أن مات رحمه اللّه.

و توفى جمال الدين عبد اللّه [بن الحسن بن على بن محمد بن عبد الرحمن الدمشقى

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۹۴

الأصل] الأذرعى، أخو الإمام شهاب الدين، بالقاهرة فى يوم الاثنين سابع عشر شوال؛ و كان عاريا من كل علم و فن.

و توفى الشيخ الواعظ جمال الدين السنباطى الشافعى، أحد نواب الحكم بالقاهرة، فى يوم الخميس تاسع عشرين شهر رمضان، بعد مرض طويل عن ثمانين سنة؛ و كان يعمل المواعيد بالمساجد و الجوامع، و على وعظه أنس و رونق، و كان يقرأ أيضا على الكرسى بين يدى صهرى شيخ الإسلام جلال الدين عبد الرحمن البلقينى فى صبيحة كل يوم جمعة، فيقرأ ساعة ثم إذا سكت، ابتدأ شيخ الإسلام فى عمل الميعاد، و كان هذا دأبه إلى أن مات رحمه اللّه [تعالى].

و توفى الصاحب بدر الدين حسن بن نصر اللّه بن حسن بن محمد [بن أحمد بن عبد الكريم بن عبد السلام] الأذكوى الأصل ثم الفوّى، كاتب سر الديار المصرية، و ناظر جيشها و خاصّها، و الوزير بها، ثم الأستادّار، ثم محتسب القاهرة، فى يوم الثلاثاء سلخ شهر ربيع الأول، و دفن بتربته بالصحراء، بعد ما كبر سنه، و اختلط عقله. و كان

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۹۵

مولده بفوّة من المزاحميين، فى ليلة الثلاثاء ثالث عشر ربيع الأول سنة ست و ستين و سبعمائة، و بها نشأ و تعلق على الخدم الديوانية، فباشر فى عدة جهات، ثم انتقل إلى القاهرة، و لا زال يترقى حتى ولى نظر جيش مصر، ثم وزر بها، ثم ولى الخاصّ؛ كل ذلك فى

الدولة الناصرية فرج.

ثم ولى [۱۸۱] الوزارة و الخاصّ أيضا فى دولـة الملك المؤيّد شيخ، ثم صودر و نكب غير مرة، ثم ولى الأستادّارية فى دولة الملك الصالح محمد، ثم عزل و ولى الخاصّ ثانيا عوضا عن مرجان الخازندار، ثم ولى الأستادارية ثانيا فى دولة الأشرف برسباى، عوضا عن ولـده صـلاح الـدين محمـد، و عزل عن نظر الخاص بالقاهرة [بالقاضـى] كريم عبد الكريم ابن كاتب جكم، فى أوائل جمادى الأولى سنـة ثمان و عشـرين و ثمانمائة، و عزل بعد مدة و صودر هو و ولده صـلاح الدين، ثم ولى الأستادّاريّة بعد سـنين ثالث مرة، فلم تطل مدته فيها، و عزل و لزم داره سـنين، إلى أن ولى كتابة السـر بعد موت ولده صـلاح الدين، فباشـر وظيفة كتابة السر مدة يسيرة، و عزله الملك الظاهر جقمق بصهره المقرّ الكمالى بن البارزى، فلزم الصاحب بدر الدين بيته، إلى أن مات فى التاريخ المقدم ذكره.

و كان شيخا طوالا ضـخما حسن الشكالة، مدوّر اللحية، كريما واسع النفس على الطعام؛ تأصل فى الرئاسة، و طالت أيامه فى السعادة، فصار هو و ولـده صـلاح الـدين من أعيان رؤساء الـديار المصـرية، على أنه كان لا يسـلم فى كل قليل من مصادرة، و مع هـذا كان له أنعام و أفضال على جماعة كبيرة، إلا أنه كانت فيه بادرة و خلق سيّىء، مع حدة مزاج، و صياح فى كلامه، و كان لا يتحدث إلا بأعلى صوته، و لهذا ملّه الملك الأشرف برسباى و أبعده. و كان أكولا، أقصى مناه الناب و النصاب لا غير، لم يشهر بدين و لا علم.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۹۶

و توفى الأمير سيف الدين تغرى بردى [الرومى] بن عبد اللّه البكلمشى المعروف بالمؤذى الدوادار الكبير، فى يوم الثلاثاء حادى عشر جمادى الآخرة، بعد مرض طويل؛ و حضـر السـلطان الصـلاة عليه بمصلاة المؤمنى، و دفن بتربة طيبغا الطويل [الناصرى حسن؛ و طيبغا الطويل] هو أسـتاذ بكلمش، و بكلمش أسـتاذ تغرى بردى هذا، ثم ترقى [تغرى بردى هذا] بعد موت أستاذه حتى صار من جملة أمراء العشـرات فى الدولة الناصـرية فرج، ثم أمسك و لزم داره مدة، إلى أن أنعم عليه بإمرة عشـرة ضـعيفة، و دام على ذلک دهرا طويلا لا يلتفت إليه فى الدول، حتى أننى أقمت سنين أحسبه من جملة الأجناد.

ثم تحرّك له سـعد بعد سـنة ثلاث و ثلاثين و ثمانمائة، و غيّر السـلطان الملك الأشـرف أقطاعه بعد موت الأمير جوبان المعلم، و خلع عليه باستقراره من جملـة رءوس النّوب، ثم لاـ زال يرقيه حتى صار أمير طبلخاناة و رأس نوبـة ثانيا؛ فعنـد ذلک أظهر ما كان خفيا من لقبه بالمؤذى، فلله درّ القائل: «الظلم كمين فى النفس، العجز يخفيه و القوة تظهره».

و صار إذا مسک العصاة فى يـده، لا يزال يضـرب هـذا و ينهر هذا؛ و الملوک تحب من يفعل ذلک بين يديهم، فأنعم عليه بعد سـنين بإمرة مائـة و تقدمة ألف بالديار المصـرية، ثم نقله الملك الظاهر جقمق إلى حجوبية الحجاب بعد يشـبک السّودونى، ثم صار دوادارا كبيرا بعد [عزل] أركماس الظاهرى، كل ذلک فى سنة اثنتين و أربعين و ثمانمائة.

[و] من يوم ولى الدوادارية، عظم و ضخم، و نالته السعادة و عمّر مدرسة بالشارع الأعظم بالقرب من جامع ابن طولون [فى طرف سوق الأساكفة]، و سار فى

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۹۷

الدوادارية على طريق السـلف من الحرمة و إقامة الناموس، لا فى كثرة المماليک و جودة السماط، و كان يتفقّه و يكتب الخط بحسب الحال، و يعف عن المنكرات و الفروج، و عنده شـجاعة و إقدام مع بخل و فحش فى لفظه، و جبروت و سوء خلق وحدة مزاج، إلا أنه كان مشكور السيرة فى أحكامه، و ينصف المظلوم من الظالم، و لا يسمع رسالة مرسل كائن من كان، فعدّ ذلک من محاسنه.

و كان رومى الجنس، و يدعى أنه تركى الجنس، رحمه اللّه تعالى.

و توفى الأمير سيف الـدين أيتمش بن عبـد اللّه الخضـرى الظاهرى برقوق، أحد أمراء العشـرات، و أسـتادّار، و هو بطّال، فى آخر ليلة السـبت العشـرين من شهر رجب، و دفن بتربة الأمير قطلو بک بالصحراء، بعد ما تعطل و لزم داره سنين، من بياض أصابه فى جسده. و كـان أصـله من مماليک الظاهر [۱۸۲] برقوق. ثم صار من جملـة الدواداريـة فى الدولـة الناصـرية فرج، ثم [صار] أمير عشـرة فى دولة

الملک المؤید شیخ، ثم أنعم علیه الملک الظاهر ططر بإمرة طبلخاناة، فلم تطل مدته، و نفاه الملک الأشرف برسبای، ثم شفع فیه بعد أشهر، و أعید من القدس إلی القاهرة، و أنعم علیه بإمرة عشرة، ثم ولی الأستادّاریة، فلم ینتج أمره، و عزل عنها بعد أن باشر الأستادّاریة نحو الشهرین.

و استمر أمیر عشرة علی عادته إلی سنة نیف و ثلاثین. فابتلی فی جسده بالبیاض [بحیث کان یستره بالحمرة]، فأخرج [السلطان] الملک الأشرف إقطاعه، و رسم له بلزوم داره، فصار یتردد إلی الجامع الأزهر، و کان یسکن بدار بشیر

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۹۸

الجمدار [بالأبّارین] بالقرب من الجامع المذکور، و یحضر الدروس، و یشوّش علی الطلبة، و یسأل الأسئلة التی لا محل لها من الدرس التی (کذا) هم بصدده، و کان قلیل الفهم و تصوّره غیر صحیح، مع جهل مفرط و عدم اشتغال قدیما و حدیثا، فإن أجابه أحد من الطلبة بجواب لا یفهمه، سفه علیه، و إن سکت القوم ازدراهم و وبخهم.

و کان فصیحا باللغة العربیة علی قاعدة العامة، و کان قبل تاریخه ناب فی نظر الجامع الأزهر عن جرباش الکریمی قاشق، و وقع له مع أهل الجامع أمور أیام تولیته، فلما زاد ذلک منه علی الطّلبة [و] بلغ الأشرف [أمره]، رسم بنقلته من داره المذکورة [و] بسکنته بقرافة مصر، فشفع فیه بعد أیام، علی أنه یسکن بداره، و لا یدخل الجامع إلا فی أوقات الصلوات. و لما سافر الملک الأشرف إلی آمد، أخرجه إلی القدس بطّالا، ثم أعید إلی القاهرة بعد عود السلطان [من آمد، و دام بها] إلی أن تسلطن الملک الظاهر جقمق، [ف] داخله فی الأمور من غیر أن یلی إمرة و لا وظیفة.

و زاد و أمعن، و صار یتکلم فیما لا یعنیه، فغضب علیه الملک الظاهر جقمق، و نفاه إلی القدس [بطّالا]، ثم شفع فیه عدیله الأمیر إینال العلائی الناصری، أعنی الملک الأشرف، فأعید إلی القاهرة، و لزم داره إلی [أن سقط علیه جدار فغطاه، فأخرج من تحته مغشیا علیه، فعاش بعده قلیلا] [و] مات و هو فی عشر السبعین.

و کان من مساوئ الدهر طیشا و خفة، مع کثرة کلام فی مالا یعنیه، و یخاطب الرجل بما یکره، و یوبخ الشخص بما فیه من المعایب من غیر أن یکون بینه و بین ذلک الرجل

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۴۹۹

عداوة و لا صحبة، و فیه بادرة و جرأة و إفحاش فی اللفظ، مع إسراف علی نفسه. و فی الجملة أن بقاءه کان عارا علی بنی آدم.

و توفی الأمیر ناصر الدین محمد بک بن دلغادر صاحب أبلستین و حمو الملک الظاهر جقمق، بأبلستین فی أوائل جمادی الآخرة، و قیل إنه قتل علی فراشه، و الأول أصح؛ و کان کثیر الشرور و العصیان علی الملوک، و قد مرّ من ذکره فی ترجمة الملک الأشرف من عصیانه و موافقته مع الأتابک جانبک الصوفی، ثم فی ترجمة الملک الظاهر جقمق من دخوله فی طاعته و قدومه إلی القاهرة ما یغنی عن إعادته ثانیا هنا.

أمر النیل فی هذه السنة: الماء القدیم ثمانیة أذرع و خمسة أصابع، مبلغ الزیادة: عشرون ذراعا و أحد و عشرون أصبعا.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۵۰۰

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۴۷]

السنة السادسة من سلطنة الملک الظاهر جقمق علی مصر و هی سنة سبع و أربعین و ثمانمائة.

فیها توفی الشیخ الإمام العالم [الفقیه] الربانی الصوفی [الشاذلی]، شمس الدین محمد بن حسن، المعروف بالشیخ الحنفی، بزاویته خارج قنطرة طقزدمر، من ظاهر القاهرة فی أوائل شهر ربیع الأوّل، و هو فی حدود الثمانین، و دفن بزاویته المذکورة. و کان دیّنا خیرا فقیها عالما مسلّکا؛ کان یعظ الناس و یعلمهم، و کان علی وعظه رونق و لکلامه وقع فی القلوب، و أفنی عمره فی العبادة و طلب العلم

و إطعام الطعام و بر الفقراء و القادمين عليه، و كان محظوظا من الملوک، و لهم فيه اعتقاد و محبة زائدة، و صحب الوالد سنين كثيرة، ثم الملك الظاهر ططر، و نالته منه السعادة فى أيام سلطنته، و اجتمعت به غير مرة، و انتفعت بمجالسته [۱۸۳]، و كان الناس فيه على قسمين: ما بين متغال إلى الغاية، و ما بين منكر إلى النهاية. قلت: و هذا شأن الناس فى معاصريهم، رحمه اللّه تعالى.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۵۰۱

و توفى الشيخ الإمام العالم العلامة، زين الدين أبو بكر إسحاق بن خالد الكختاوى الحنفى، المعروف بالشيخ باكير، شيخ الشيوخ بخانقاه شيخون، فى ليلة الأربعاء ثالث عشر جمادى الأولى، و حضر السلطان الملك الظاهر جقمق الصلاة عليه بمصلاة المؤمنى، من تحت القلعة، ثم أعيد إلى الشّيخونية، فدفن بها، و استقر عوضه فى مشيخة الشيخونية العلامة كمال الدين محمد بن الهمام، و كان الشيخ باكير المذكور إماما عالما بارعا مفننا فى علوم كثيرة، [و ولى قضاء حلب مدة طويلة، و حمدت سيرته، و أفتى و درّس و أشغل سنين كثيرة بحلب، ثم بمصر، لما طلبه السلطان من قضاء حلب] و ولاه مشيخة الشيخونية؛ غير أنه كان فى لسانه شبه لكنة، مع سكون و عقل زائد، يؤدى ذلك إلى عدم الانتصاف فى أبحاثه، و مع هذا كان تقريره للطلبة فى غاية الحسن و الفصاحة؛ و محصول أمره أنه كان عالما مفيدا للطلبة غير بحّاث مع أقرانه من العلماء، و كان مليح الشكل منوّر الشيبة طاهر اللون و قورا معظّما عند الخاص و العام؛ و كان مولده بمدينة كختا فى حدود السبعين و سبعمائة، رحمه اللّه تعالى.

و توفى فتح الدين صدقة المحرّقى ناظر الجوالى، فى ليلة الخميس سلخ شوال، و دفن خارج باب الجديد من القاهرة، و كان عاميا فى زى فقيه، لم أعرفه إلا فى دولة الملك الظاهر جقمق، لأنه كان بخدمته و رقاه فى سلطنته.

و توفى غرس الدين خليل [بن أحمد] السخاوى، ناظر الحرمين: القدس

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۵۰۲

و الخليل عليه السلام، فى ليلة العشر من جمادى الأولى، و كان أيضا من أطراف الناس، و هو أحد من رقّاه الملك الظاهر جقمق، و كان فى مبدأ أمره يبيع الحلوى، ثم صار جابيا للأملاک، [يجبى و على كتفه خرج]، ثم خدم جماعة كبيرة، إلى أن حسنت حاله و صار يركب بغلة برحل، رأيته أنا على تلك الهيئة، ثم خدم الملك الظاهر جقمق أيام إمرته، و لازم خدمته إلى أن تسلطن، فقرّبه و ولاه نظر الحرمين، و عدّه الناس من الأعيان، فلم تطل مدته، و مات. و كان يتديّن من صلاة و عبادة، إلا أنه كان عاريا سالبة كلية، [فكان صفته كقول من قال: ذقن و شاش على لاش].

و توفى المقام الناصرى محمد بن السلطان الملك الظاهر جقمق، فى ليلة السبت ثانى عشرين ذى الحجة بقلعة الجبل، بعد مرض طويل، و صلى عليه من الغد بباب القلة من قلعة الجبل، و حضر والده السلطان الملك الظاهر جقمق الصلاة عليه، و دفن بتربة عمه جاركس القاسمى المصارع، التى جددها مملوكه قانى باى الجاركسى عند دار الضيافة، تجاه سور القلعة. و مات و هو فى حدود الثلاثين تخمينا، و أمّه السّتّ قراجا بنت الأمير أرغون شاه أمير مجلس الملك الظاهر برقوق.

و كان مولده بالقاهرة، و بها نشأ تحت كنف والده، و حج و سافر مع والده إلى آمد فى سنة ست و ثلاثين، و اشتغل اشتغالا يسيرا حتى برع فى المعقول و شارک فى المنقول، و ساد فى فنون كثيرة من العلوم، يساعده فى ذلك جودة ذهنه و حسن تصوره و عظيم

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۵۰۳

حفظه، حتى صار معدودا من العلماء، و لا نعلم أحدا من أبناء جنسه من ابن أمير و لا سلطان وصل إلى هذه الرتبة غيره قديما و لا حديثا، بل و لا فى الدولة التركية قاطبة من المشاهير أولاد الملوک، هذا مع المحاضرة الحسنة و المذاكرة اللطيفة و النوادر الطريفة و الاطلاع الزائد فى أخبار السلف و أيام الناس.

و كان يسألنى عن مسائل دقيقة مشكلة فى التاريخ على الدوام، لم يسألنى عنها أحد من بعده إلى يومنا هذا، و أما حفظه للشعر باللغتين التركية و العربية، فغاية لا تدرک، و كان مجلسه لا يبرح مشحونا بالعلماء مشايخ الإسلام يتداولونه بالنوبة، فكان لقاضى القضاة شهاب

الـدين بن حجر وقت يحضـر فيه فى كـل جمعـة مرتين، و لقاضـى القضاة سـعد الـدين بن الـديرى الحنفى وقت غير ذلك يحضـر فيه [أيضا] فى الجمعة مرتين، و أما العلامة محيى الدين الكافيجى الحنفى، و العلامة قاسم الحنفى، فكانا يلازمانه فى غالب الأوقات ليلا و نهارا، و أما غير هؤلاء من الطلبة الأعيان، فكثير يطول [۱۸۴] الشرح فى ذكرهم.

[و كان] مع هذه الفضـيلة [التامة] و الرئاسة الضـخمة و الترشـيح للسـلطنة، متواضـعا بشوشا هيّنا [لينا]، مع حسن الشكالة و خفة الروح و الميل إلى الطرب، على قاعـدة الصوفيـة و العقلاء من الرؤساء؛ و كان لا يمل من المحاضـرة و المـذاكرة بالعلوم و الفنون؛ و كان رميه بالنشّاب فى غاية الجودة، و يشارك فى ملاعيب كثيرة، لو لا سـمن كان اعتراه، و كره هو ذلك، و أخذ يتداوى فى منع السـمن بأشياء كثيرة، ربما كان بعضها

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۵۰۴

سببـا لهلاكه، مثل شـرب الخل على الريق، و منع أكل الخبز سـنين، و كثرة دخول الحمّام، حتى أنه كان غالب جلوسـنا معه فى الخلوة فى مسـلخ الحمام الذى ابتناه بطبقة الغور من القلعة، و يداخله فى الحرارة، و أشياء غير ذلك؛ و كان بينى و بينه صحبة قديمة و حديثة و محبة زائدة، ثم صار بيننا أيام سـلطنة والده صـهارة، فإنه تزوج ببنت الأتابك آقبغا التّمرازى، و هى بنت كريمتى؛ و لم يفرق بيننا إلا الموت، رحمه اللّه تعالى.

و لقـد كـان حسـنة من حسـنات الزمـان، خليقا للملك و السـلطنة، و لو طال عمره إلى أن آل إليه الأمر، لما اختلف عليه اثنان غصـبا و مروءة؛ فـإنه كان هيّنا مع الهين فتّاكا على العسر، و أنا أعرف بحاله من غيرى؛ و لقـد سـمعت منه كلمات من أفعال يفعلها إن تمّ أمره فى الملك، تدل على معقول و تدبير عظيم و حدس صائب، و إقماع المفسدين، لم أسمعها من أحد غيره كائنا من كان.

و أنـا أقول: لو ملـك الـديار المصـرية [و] تم أمره، نفقت فى أيـامه بضائع أرباب الكمالات الكاسـدة من كل علم و فن: و ظهرت من الزوايا خبايا، و تجدّد ما بعد عهده من الطرائف، و أبدى كل أسـتاذ من فنه أعاجيب و لطائف؛ و من أجله صـنّفت هذا الكتاب من غير أن يأمرنى بتصـنيفه، غير أنى قصـدت بترتيب هذا الكتاب من ذكر ملك بعد ملك، أنه إذا تسـلطن، أختم هذا الكتاب بذكره، بعد أن أسـتوعب أحواله و أموره على طريق السـيرة، و لوّحت له بـذلك، فكـاد يطير فرحا، و بينا نحن فى ذلك، انتقل إلى رحمـة اللّه تعالى، فكان حالى معه كقول مسعود بن محمد الشاعر:

[الكامل]

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۵۰۵

بأبى، حبيب زارنى متنكّرا فبدا الوشاة له فولّى معرضا

فكأنّنى و كأنّه و كأنّها أمل و نيل حال بينهما القضا

و أحسن من هذا قول من قال، و هو فى معنى فقده: [الطويل]

غدا يتنأى صاحب كان لى إنسا فلا مصبحا لى بالسرور و لا ممسا

أخ لى لو أعطى الدّنى باسم فقده بلا فقده كانت به ثمنا بخسا

أمر النيل فى هذه السنة: الماء القديم، ستة أذرع و عشرون أصبعا؛ مبلغ الزيادة:

تسعة عشر ذراعا و ثلاثة و عشرون أصبعا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۵۰۶

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۴۸]

السنة السابعة من سلطنة الملك الظاهر جقمق على مصر و هى سنة ثمان و أربعين و ثمانمائة.

فيها لهج المنجمون بأن فى هذه السنة يكون انقضاء مدة الملك الظاهر جقمق من ملك مصر، فإنهم كانوا أجمعوا على أنه لا يقيم فى الملك أكثر من سبع سنين؛ و كان هذا القول بعد أقوال كثيرة فى مدة ملكه، فلم يصدقوا فى واحدة منها، و مضت هذه السنة و السلطان فى خير و عافية.

[و] فيها كان الطاعون بالديار المصرية، و كان مبدأه فى ذى الحجة من السنة الخالية، و عظم فى المحرم من هذه السنة و أوائل صفر، و مات فيه عالم كبير جدا حسبما تقدم ذكره فى أصل الترجمة.

و فيها، أعنى سنة ثمان و أربعين المذكورة، توفى الخطيب الواعظ شمس الدين محمد الحموى خطيب الجامع الأشرفى بالعنبريّين، فى يوم الأربعاء ثالث ذى القعدة، عن نيف و سبعين سنة تخمينا، و كان يعظ الناس فى الأماكن، و يعمل المواعيد، و كان له قبول من العامة و النسوة، و كان فصيحا فى خطبته [۱۸۵] و يستحضر الكثير من الأحاديث و التفسير، رحمه اللّه تعالى.

و توفى الأمير الطّواشى فيروز بن عبد اللّه الجاركسى الرومى الساقى الزّمام، بطّالا بالقاهرة، فى يوم الأربعاء رابع عشر شعبان، و دفن بمدرسته التى أنشأها بالقرب من داره، عند سوق القرب [بالقرب من الحارة الوزيرية] بالقاهرة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۵۰۷

و كان أصله من خدام الأمير جاركس القاسمى المصارع، المقدم ذكره فى دولة الملك الناصر فرج، و ترقى بعد موته إلى أن صار ساقيا للسلطان، و حظى عند الملك المؤيّد شيخ، ثم عند الأشرف برسباى، ثم انحطّ قدره، و عزله الأشرف، و أخرجه إلى المدينة النبوية، على ساكنها أفضل الصلاة و السلام.

ثم أعاده بعد مدة، و استقر به ساقيا على عادته، و دام على ذلك حتى غضب عليه فى مرض موته، بعد أن وسّط الحكيمين، و عزله عن وظيفة السّقاية، بعد أن هدّده بالتوسيط.

فلزم فيروز هذا بيته، إلى أن مات الملك الأشرف، و صار الأمر إلى الملك الظاهر جقمق، فطلبه و ولّاه زماما عوضا عن جوهر الجلبانى [اللالاـ] بحكم عزله و مصادرته، و ذلك فى أحد الرّبيعين من سنة اثنتين و أربعين، فظن كل أحد بطول مدة فيروز هذا فى وظيفة الزمامية، لكونه من خدام أخى السلطان الأمير جاركس، فلم يقم فى الوظيفة إلا نحو ستة أشهر.

و عزل لكونه فرّط فى أمر الملك العزيز حين فرّ من الدّور السلطانية، و تقدم ذكر ذلك كله فى أصل هذه الترجمة، و ولّى السلطان عوضه زماما، جوهر الخازندار القنقبائى، و لزم فيروز هذا بيته خاملا إلى أن مات. و كان لا بأس به فى أبناء جنسه، لتجمل كان فيه و محاضرة حسنة، و هو أحسن الثلاثة حالا ممن اسم كلّ واحد منهم فيروز، و هم فى عصر واحد [أولهم]

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۵۰۸

فيروز هذا، و ثانيهم فيروز النّوروزى، و ثالثهم فيروز الرّكنى نائب مقدم [المماليك] كان.

و توفى الأمير حمزة بن قرايلك، و اسم قرايلك عثمان بن طرعلى، صاحب ماردين و غيرها من ديار بكر، فى أوائل شهر رجب، و وصل الخبر بموته إلى القاهرة فى العشرين من شعبان، و كان غير مشكور السيرة على قاعدة أوباش التركمان الفسقة.

و توفى الأمير سيف الدين طوخ بن عبد اللّه الأبوبكرىّ المؤيّدى نائب غزة، خارج غزة؛ قتيلا بيد العربان الخارجة عن الطاعة؛ فى أواخر ذى الحجة؛ و تولى نيابة غزة بعده الأمير يلخجا من مامش الساقى الناصرى؛ و كان أصل طوخ هذا من مماليك الملك المؤيد شيخ و خاصكيته، و تأمّر بعد موته بالبلاد الشأمية؛ ثم صار أتابك غزة سنين طويلة؛ إلى أن نقله الملك الظاهر جقمق إلى إمرة مائة و تقدمة ألف بدمشق.

ثم ولاه بعد مدة يسيرة نيابة غزة، بعد موت الأمير طوخ مازى الناصرى فدام على نيابتها إلى أن خرج من غزة، و واقع العربان و كسرهم؛ و بعد كسرتهم تهاون فى أمرهم، و نزل بمكان، فعادوا نحوه و هجموا عليه، فركب بمن معه و قاتلهم حتى قتل هو و جماعة من مماليكه و غيرهم. و كان شجاعا مقداما إلا أنه كثير الطمع.

أمر النيل فى هذه السنة: الماء القديم ستة أذرع و خمسة عشر إصبعا، مبلغ الزيادة: ثمانية عشر ذراعا و أربعة عشر إصبعا.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۵۰۹

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۴۹]

السنة الثامنة من سلطنة الملک الظاهر جقمق على مصر و هى سنة تسع و أربعين و ثمانمائة.

فيها توفى قاضى القضاة شمس الدين محمد بن إسماعيل بن محمد الونائى، الشافعى الفقيه العالم، معزولا عن قضاء دمشق، بالقاهرة، فى يوم الثلاثاء سابع عشر صفر، و دفن من الغد بالقرافة، و صلى عليه رفيقه فى الاشتغال، قاضى القضاة شمس الدين محمد القاياتى الشافعى. و مولده فى شعبان سنة ثمان و ثمانين و سبعمائة ببلده، ثم انتقل إلى القاهرة، و طلب العلم و حفظ التنبيه فى الفقه، و عدة مختصرات، و أقبل على الاشتغال، و لازم علماء عصره.

و أول اشتغاله كان فى سنة سبع و ثمانمائة، و تكسّب بتحمّل الشهادة مدة، إلى أن برع فى الفقه و العربية و الأصول، و تولى مشيخة التنكزية بالقرافة، ثم تدريس الفقه بالشّيخونية، ثم طلبه الملک الظاهر جقمق، و ولّاه قضاء الشافعية [۱۸۶] بدمشق، من غير سعى، فى سنة ثلاث و أربعين، فباشر قضاء دمشق بعفة، و عرف بالصيانة و الديانة، إلى أن عزل و عاد إلى القاهرة؛ ثم وليها ثانيا، فباشرها أيضا مدة، ثم عزل و قدم القاهرة و تولى تدريس قبة الإمام الشافعى، إلى أن مات فى التاريخ المذكور. و كان معدودا من العلماء، و هو أحد من جمع بين معرفة المنقول و المعقول رحمه اللّه.

و توفى الأمير الكبير، سيف الدين يشبک بن عبد اللّه السّودونى، المعروف بالمشدّ، أتابک العساكر بالديار المصرية، فى يوم الخميس ثالث شعبان، و حضر السلطان الصلاة عليه بمصلاة المؤمنى، و تولى الأتابكية من بعده الأمير إينال العلائى الناصرى الدّوادار الكبير. و كان أصل يشبک هذا من مماليک سودون الجلب نائب حلب،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۵۱۰

و مات عنه، فباعه الأمير يشبک الساقى الأعرج، و هو يوم ذاک نائب قلعة حلب، للأمير ططر، فأعتقه ططر و جعله من جملة مماليكه، فنازعه بعد مدة الأمير أيتمش الخضرى، و هو يوم ذاک متحدث على أيتام الملک الناصر فرج، و طلبه منه فادعى ططر أنه اشتراه من يشبک الساقى الأعرج، و هو وصىّ سودون الجلب فقال أيتمش: بيع يشبک له غير صحيح، لأن سودون الجلب انحصر إرثه فى أولاد الملک الناصر، و أنا المتحدث على أولاد الملک الناصر، فاشتراه ططر ثانيا منه بمائة دينار.

ثم جعله ططرشادّ شراب خاناته، حتى تسلطن، فأنعم عليه بإمرة طبلخاناة، و جعله شادّ الشراب خاناة السلطانية، فدام على ذلک سنين، إلى أن أنعم عليه الملک الأشرف برسباى بإمرة مائة و تقدمة ألف بديار مصر، ثم جعله حاجب الحجاب بعد قرقماس الشعبانى بعد توجهه إلى نيابة حلب، ثم نقله الملک الظاهر جقمق فى أوائل سلطنته إلى إمرة مجلس، بعد آقبغا، [ثم] إلى إمرة سلاح عوضا عن آقبغا التّمرازى أيضا، ثم بعد أشهر خلع عليه باستقراره أتابک العساكر بالديار المصرية، بعد قدومه من بلاد الصعيد، عوضا عن آقبغا التّمرازى أيضا بحكم انتقال آقبغا إلى نيابة دمشق، بعد خروج إينال الجكمى عن الطاعة.

كل ذلک فى أشهر قليلة من سنة اثنتين و أربعين و ثمانمائة، فدام يشبک فى الأتابكية سنين و نالته السعادة، و عظم و ضخم فى الدولة، إلى أن اعتراه مرض تمادى به سنين، [و يقال إنه سمّ] و حصل له ارتخاء فى أعضائه، ثم عوفى قليلا، و ركب إلى الخدمة ثم نقض عليه ألمه، فمات منه بعد أيام يسيرة.

و كان عاقلا ساكنا حشما، إلا أنه كان عاريا من كل علم و فن، غير أنه كان يحسن رمى النّشّاب، على عيوب كانت فى رميه؛ و كنت أظنه أولا ديّنا، إلى أن أخذ

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۵۱۱

إقطاع الأتابك آقبغا التّمرازى، و صار بيننا و بينه مستحقّ أيتام آقبغا فى الإقطاع المذكور، فإذا به لا يحلل و لا يحرم، و عنده من الطمع و قلة الدين ما يقبح ذكره عن كائن من كان، هذا مع حدة زائدة و شراسة خلق و ظلم زائد على حواشيه و خدمه، حتى أنه كان يضرب الواحد منهم نحو ألف عصاة على الذنب اليسير، و لم يكن له مهابة فى النفوس، لكونه كان من مماليك سودون الجلب، و أيضا من قرب عهده بالفقر، و خدم الأمراء، مع من كان عاصره من أكابر الأمراء الظاهرية البرقوقية ممن كان أكبر من أستاذه سودون الجلب، و أعظم فى النفوس- انتهى.

و توفى الأمير سيف الدين قانى باى الجكمى حاجب حجاب حلب، على هيئة نسأل اللّه تعالى حسن الخاتمة، فى أواخر هذه السنة و كان من خبر موته أنه سكر و نام فى أيام الشتاء، و قد أوقد النار بين يديه على عادة الحلبيين و غيرهم فعظم الدخان عليه و على مملوكه فى البيت، و صارا من غلبة السكر لا يهتدى كل واحد منهما إلى الخروج من باب الدار، من عظم الدخان و شدة السكر، فماتا على تلك الحالة؛ و كتب بذلك محضر و أرسل إلى السلطان [لئلا يتوهم خلافه].

و كان أصل قانى باى هذا من مماليك الأمير جكم من عوض نائب حلب، ثم صار بعد موت الملك المؤيّد شيخ خاصكيّا، و دام على ذلك دهرا طويلا لا يلتفت إليه، إلى أن خلع عليه الملك الظاهر جقمق، باستقراره فى حجوبية حجاب حلب دفعة واحدة من الجندية؛ و عيب ذلك على الملك [۱۸۷] الظاهر لكون قانى باى المذكور لم يكن من أعيان الخاصكيّة، و لا من المشاهير بالشجاعة و الإقدام، و لا من العلماء و لا من العقلاء العارفين بفنون الفروسية، بل كان مهملا مسرفا على نفسه عاريا من كل علم و فن، و لم يدر أحد لأى معنى كان قدّمه الملك الظاهر جقمق، فرحمه اللّه تعالى و سامحه على

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۵۱۲

هذه الفعلة، فإنها عدت من غلطاته الفاحشة التى ليس لها وجه من الوجوه. قلت:

و كما جاءته السعادة فجاءة جاءه الموت أيضا فجاءة، عفا اللّه عنه.

أمر النيل فى هذه السنة: الماء القديم خمسة أذرع و خمسة عشر إصبعا؛ مبلغ الزيادة:

تسعة عشر ذراعا و تسعة أصابع.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۵۱۳

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۵۰]

السنة التاسعة من سلطنة الملك الظاهر جقمق على مصر و هى سنة خمسين و ثمانمائة.

فيها توفى قاضى القضاة شمس الدين محمد بن على بن محمد بن يعقوب القاياتى، الشافعى، قاضى قضاة الديار المصرية فى العشر الأخير من المحرم، و حضر السلطان الصلاة عليه بمصلاة المؤمنى من تحت القلعة، و دفن بتربة الصوفية خارج باب النصر؛ و كان مولده بقايات فى سنة خمس و ثمانين و سبعمائة تخمينا، ثم نقل إلى القاهرة مع والده، و حفظ عدة مختصرات، و حضر دروس شيخ الإسلام السراج البلقينى فى آخر عمره، ثم تفقّه بعمّه الشيخ ناصر الدين القاياتى و بجماعة أخر، حتى برع فى الفقه و العربية و الأصلين و علمى المعانى و البيان، و شارك فى عدة فنون، و سمع الحديث فى مبدأ أمره، و حدّث ببعض مسموعاته، و تكسّب مدة سنين بتحمل الشهادة بجامع الصالح خارج باب زويلة، [إلى أن قرّر طالبا بالجامع المؤيّدى داخل باب زويلة].

ثم ولى تدريس الحديث بالمدرسة البرقوقية، عوضا عن الشيخ زين الدين القمنى، ثم استقر فى تدريس الفقه بالمدرسة الأشرفية بخطّ العنبريّين، ثم ولى مشيخة خانقاه سعيد السعداء، بعد موت القاضى شهاب الدين بن المحمّرة، و تصدّى للإفتاء و التدريس و الإقراء سنين، و انتفع به الطلبة. و كان مع براعته فى العلوم، متقشفا فى ملبسه، و مركبه، بل كان يمشى على أقدامه فى غالب أوقاته و حاجاته، إلى أن طلبه الملك جقمق ليوليه قضاء الشافعية، فطلع بحضرتى على حمار إلى باب القلعة، ثم نزل و دخل إلى السلطان، و كان

السلطان يعرفه من دروس العلامة علاء الدين البخارى، فكلّمه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۵۱۴

السلطان فى الولاية، و أنا أظن أنه لا يقبلها أبدا، فامتنع امتناعا ليس بذاك، ثم أجاب و أصبح تولّى القضاء، و نزل و بين يديه وجوه الدولة، و هو بغير خلعة بل بطيلسانه، و امتنع من لبس الخلعة، كونها تعمل من وجه غير مقبول عنده، و كان ذلك فى يوم رابع عشر محرم سنة تسع و أربعين.

و نزل إلى المدرسة الصالحية بين القصرين، و قام بعض الرسل ليدّعى على شخص، فلم يسمع دعواه، و قال: «هذه حيلة و اصطلاح».

ففرح الناس بولايته، و ظنوا أنه يحملهم على الحق المحض، من طريق السلف، و يحيى سنة قضاة العدل، فوقع خلاف ذلك كله، و سار على طريق القوم- و أكثر- من النّوّاب، و راعى أرباب الدولة، و تعاظم، حتى فى سلامه، و حبّ المنصب حبّا، حتى لعله لو عزل منه لمات أسفا عليه؛ هذا مع ما كان عليه من العلم و العبادة و الصيانة.

و لما أن خطب بالسلطان فى يوم الجمعة على عادة قضاة الشافعية، ورقى المنبر، لم يخشع أحد لخطبته لمسكة كانت فى لسانه، و عدم طلاقة، و كانت هذه عادته، حتى فى تقرير دروسه؛ و كان يقرئ العلم على قاعدة الأعاجم من كتاب فى يده، و كان فيه بعض توسوس لا سيما فى تكرير النية عند دخوله إلى الصلاة؛ فلما ولى القضاء و خطب و نزل صلى بالسلطان، زال عنه ذلك ببركة المنصب، و أنا أقول: كانت حالته الأولى تعجبنى و الناس، و لم تعجبنى أحواله بعد ولايته، رحمه اللّه و سامحه.

و توفى القاضى بهاء الدين محمد بن قاضى القضاة نجم الدين عمر، بن حجى [ابن موسى] الدمشقى المولد و المنشأ، الشافعى ناظر جيش دمشق بقاعة البرابخية بخط بولاق على النيل، فى يوم ثالث عشرين صفر، و حضر السلطان الصلاة بمصلاة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۵۱۵

المؤمنى من تحت قلعة الجبل، و دفن بالقرافة الصغرى تجاه شباك الإمام الشافعى و هو فى حدود [۱۸۸] الأربعين من العمر تخمينا. و كان ولى قضاء دمشق بعد موت والده، ثم نقل إلى نظر جيشها، ثم قدم القاهرة و تولى نظر جيش مصر، بعد عزل القاضى محب الدين بن الأشقر، لوظيفة نظر جيش دمشق، فلم ينتج أمره، و عزل بعد أشهر، و خلع عليه باستقراره [على] وظيفة نظر جيش دمشق.

ثم قدم القاهرة بعد ذلك و دام بها عند حميه المقر الكمالى بن البارزى كاتب السر، إلى أن مرض و طال مرضه، إلى أن مات فى التاريخ المذكور. و كان شابا طوالا- جميلا- جسيما طويل اللحية جدا، كريما مفرط الكرم، و مات و عليه جمل من الديون، فوفى موجوده بقضائها، رحمه اللّه تعالى.

و توفى الشيخ عز الدين عبد العزيز شيخ الصّلاحية بالقدس الشريف، فى أوائل شهر رمضان، و تولّى عوضه مشيخة الصلاحية، جمال الدين عبد اللّه بن جماعة بمال بذله فى ذلك؛ و كان عزّ الدين فقيها عالما مفتيا، و تولى نيابة الحكم بالقاهرة سنين كثيرة، رحمه اللّه تعالى.

و توفى الشيخ الإمام العلامة شهاب الدين أحمد بن رجب بن الأمير طيبغا المجدى الشافعى، فى ليلة العاشر من ذى القعدة. و صلى عليه بجامع الأزهر. و كان مولده بالقاهرة فى سنة سبع و ستين و سبعمائة، و بها نشأ و اشتغل حتى برع فى الفقه و العربية و الحساب و الفرائض. و الهيئة و الهندسة، و صنّف و أقرأ و أشغل و انتفع به الناس.

و كان أجلّ علومه الفرائض و الحساب و الهندسة، و يشارك فى غير ذلك.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۵۱۶

و توفى الشيخ الإمام [الصالح] المعتقد يوسف [بن محمد بن جامع] البحيرى، نزيل جامع الأزهر، فى ليلة الأحد حادى عشر ذى القعدة، و صلى عليه من الغد، فى جامع الأزهر، و حضرت غسله و الصلاة عليه و دفنه، لصحبة كانت بيننا قديما. و كان شيخا جميل الطريقة قائما بقضاء حوائج الناس، و لأرباب الدولة و الأكابر فيه اعتقاد كبير و محبة، رحمه اللّه [تعالى].

و توفی الأمیر سیف الدین سودون بن عبد اللّه السیفی سودون المحمدی الظاهری. و کانت شهرته أیضا علی شهرة أستاذه سودون المحمدی، و هو علی نیابة قلعة دمشق، فی أوائل صفر. کان خاصکیا فی دولة الأشرف برسبای، و رأس نوبة الجمداریة، و ولی نظر الحرم بمکة المشرفة غیر مرة، و هو الذی هدم سقف البیت الحرام و جدّده، و عظم ذلک علی أرباب الصلاح و أهل العلم، بل ربما خرج بعضهم من مکة خشیة من سخط [ینزل] بها، لکون البیت صار بلا سقف عدة أیام، و کان هدمه لسقف البیت من غیر أمر یوجب ذلک، أراد بذلک التقرب إلی اللّه تعالی بهذه الفعلة، فوقع فی أمر کبیر و هو لا یدری- کعادة صلحاء الجهّال- فکان حاله فی هذا کقول القائل:

[الخفیف]:

رام نفعا فضرّ من غیر قصد و من البرّ ما یکون عقوقا

و من یوم هدم سودون سقف الکعبة، صار الطیر یجلس علی البیت الشریف،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۵۱۷

و کان لا یجلس فوقه أبدا قبل ذلک، و قد أتعب ذلک خدمة الکعبة. فلو لم یکن من فعله إلا هذه الفعلة لکفاه إثما. کل ذلک لظن سودون المذکور بنفسه، فإنه لم یشاور فی ذلک أحدا من أعیان أهل مکة و لا تکلم مع من له خبرة بأحوال مکة، و قد قیل: «ما خاب من استشار». و کان یتدین و یتمعقل و یعف عن الفواحش، غیر أنه کان یقع فی أمور محذورة، منها: أنه کان إذا سلم علیه الشخص لا یرد علیه [سلامه]، تکبرا و تعاظما، و إذا ردّ فیرد ردا هینا خلاف السنة، و منها: أنه کان فیه ظلم عظیم علی خدمه و حواشیه، هذا مع انخفاض قدره، فإنه لم یتأمّر إلا عشرة فی دولة الملک الظاهر جقمق، ثم عمل نیابة قلعة دمشق لا غیر، علی أن أستاذه سودون المحمدی لم یعدّ من الملوک فکیف هو!

و توفی الأمیر سیف الدین یلخجا بن عبد اللّه من مامش الساقی الناصری، الرأس نوبة الثانی، ثم نائب غزة، بعد مرض طویل، فی أوائل جمادی الآخرة، و سنه نیف علی خمسین سنة. و کان أصله من ممالیک الظاهر برقوق، أخذه مع أبیه و أمه، ثم أنعم به علی ولده الملک المنصور عبد العزیز، ثم ملکه الملک الناصر فرج بعد أخیه عبد العزیز [۱۸۹] المذکور ورقاه و جعله ساقیا، و اختصّ به إلی الغایة، و رأس علی جمیع الناصریة، و استمر علی رئاسته و تحشمه، إلی أن عزله الملک المؤیّد من وظیفة السقایة، و لم یبعده، بل صار عظیما أیضا فی الدوله المؤیدیة، بل کان فی کل دولة، لکرم نفسه و لعظمه فی النفوس.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۵۱۸

و سافر أمیر الرّکب الأول إلی الحجاز، فی الدولة المؤیّدیة، و استمر علی ذلک، إلی أن أنعم علیه الملک الأشرف برسبای بإمرة عشرة، و حج أیضا أمیر الرکب الأول ثانیا، ثم [توجه] إلی شدّ بندر جدّة و صحبته الصاحب کریم الدین بن کاتب المناخ، بعد عزله عن الوزر و الأستادّاریّة، ثم ترقی بعد ذلک إلی أن صار أمیر طبلخاناة و رأس نوبة ثانیا فی دولة الملک الظاهر جقمق، ثم نقل إلی نیابة غزة بعد موت الأمیر طوخ الأبوبکریّ المؤیّدی، فلم تطل مدته فی نیابة غزة، و مرض و طال مرضه، و استعفی و توجه إلی القدس علیلا، فمات بعد أیام قلیلة [و دفن بجامع ابن عثمان ظاهر غزة]. و کان أمیرا جلیلا رئیسا وجیها معظما فی الدول، عریقا فی الرئاسة، متجملا فی مرکبه و ملبسه و ممالیکه، و کان ترکی الجنس ملیح الشکل إلی الغایة، و عنده سلامة باطن، مع خفة روح و بشاشة و تواضع، مع شجاعة و إقدام و حرمة وافرة، و کلمة نافذة؛ و لم یکن فیه ما یعاب، غیر انهما که فی اللذات، و بعض سطوة علی غلمانه، عفا اللّه عنه.

و توفی الأمیر الطّواشی صفیّ الدین جوهر بن عبد اللّه التّمرازی الخازندار، ثم شیخ الخدام بالحرم الشریف النبوی، فی أواخر هذه السنة، و کان أصله من خدام الأمیر تمراز الظاهری النائب، و صار جمدارا فی أواخر دولة الملک المؤیّد شیخ، و دام علی ذلک سنین، إلی أن استقر به الملک الظاهر خازندارا، بعد موت جوهر القنقبائی، فلم تطل مدته فی الخازنداریة، و عزله السلطان بالطّواشی فیروز

النّوروزى الرومى رأس نوبة الجمدارية؛ و صادره، ثم ولّاه مشيخة الخدّام بالحرم النبوى، إلى أن مات

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۵۱۹

[و استقر بعده فى مشيخة الحرم الطواشى فارس كبير الطواشية هناك]. و كان حبشىّ الجنس مليح الشكل، كريما حشيما، متواضعا لطيفا؛ و عنده فهم و ذوق؛ و له محاضرة، مع تجمل فى أحواله، و كان بخلاف أبناء جنسه فى تحصيل المال، بل كان يصرفه فى معايشه، و يقصد الترف و العيش الرغد، و يظهر النعمة و يبر أصحابه بحسب طاقته، رحمه اللّه تعالى.

أمر النيل فى هذه السنة: الماء القديم ستة أذرع و ستة و عشرون أصبعا؛ مبلغ الزيادة:

تسعة عشر ذراعا و اثنان و عشرون إصبعا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۵۲۰

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۵۱]

السنة العاشرة من سلطنة الملك الظاهر جقمق على مصر و هى سنة إحدى و خمسين و ثمانمائة.

فيها توفى الأمير أيتمش بن عبد اللّه من أزوباى الناصرى [فرج] ثم المؤيّدى، أستادّار الصّحبة و أحد أمراء العشرات، فى يوم الأربعاء ثالث صفر، و تولى أستادّارية الصّحبة [۱۹۰] بعده الأمير سنقر الظاهرى. و كان أيتمش المذكور من جملة من تأمّر بعد موت الملك الأشرف برسباى، ثم ولّاه الملك الظاهر جقمق أستادّارية الصّحبة، بعد مغلباى الجقمقى بحكم خروجه إلى دمشق أميرا، فدام أيتمش المذكور على وظيفته، إلى أن مات، و كان مسيكا مسرفا على نفسه، لم يشهر بشجاعة و لا كرم و لا تدين.

و توفى الأمير سيف الدين قانى باى بن عبد اللّه الأبوبكرىّ الناصرى، المعروف بالبهلوان، نائب حلب بها، فى شهر ربيع الأول؛ و تولى عوضه نيابة حلب الأمير برسباى الناصرى نائب طرابلس. و كان أصل قانى باى المذكور من مماليك الملك الناصر فرج، ثم حطّه الدهر بعد موت أستاذه، و خدم عند جماعة من الأمراء، مثل الوزير أرغون شاه النّوروزى، و مثل بردبك الجكمى العجمى، ثم اتصل بخدمة ططر، فلما تسلطن، أنعم عليه بإمرة عشرة، ثم صار أمير طبلخاناة فى أوائل دولة الملك الأشرف برسباى، و ثانى رأس نوبة، بعد قطج من تمراز، بحكم انتقال قطج إلى تقدمة ألف، فدام على ذلك سنين، إلى أن نقله الملك الأشرف إلى إمرة مائة و تقدمة ألف بالديار المصرية، ثم ولاه نيابة ملطية مضافا على تقدمته، فباشر ذلك مدة، ثم أخرج السلطان تقدمته عنه، و استمر فى نيابة ملطية فقط؛ ثم عزله

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۵۲۱

و ولاه أتابكية حلب، فدام على ذلك سنين، إلى أن نقله الملك الأشرف إلى أتابكية دمشق، بعد موت تغرى بردى المحمودى بآمد فى سنة ست و ثلاثين و ثمانمائة.

و العجب أنه لما صار أتابك حلب، كان يوم ذاك، حاجب حجابها أستاذه بردبك العجمى؛ ثم لما صار أتابك دمشق، كان يوم ذاك أستادّار السلطان بدمشق، أستاذه أرغون شاه النّوروزى الأعور، فانظر إلى حركات هذا الدهر و تقلباته!

و استمر قانى باى فى أتابكية دمشق، إلى أن خرج الأتابك إينال الجكمى نائب الشام عن طاعة الملك الظاهر جقمق، فوافقه قانى باى هذا، بل و حرّضه على الخروج عن الطاعة ليصل بذلك لأغراضه، فلم تكن موافقته إلا مدة يسيرة، و أرسل إليه الملك الظاهر جقمق من مصر، يعده بأشياء إن ترك موافقة الجكمى و عاد إلى طاعته، ففى الحال عاد إلى طاعة السلطان و خذل إينال الجكمى، بعد أن كان هو أكبر الأسباب فى خروجه، فنقله السلطان إلى نيابة صفد، بعد عزل إينال العلائى الناصرى عنها، و قدومه إلى مصر أمير مائة [و] مقدم ألف بها، ثم نقله إلى نيابة حماة، بعد عزل أستاذه بردبك العجمى عنها، ثم نقل إلى نيابة حلب بعد عزل الأمير قانى باى الحمزاوى عنها، و قدومه إلى القاهرة أمير مائة و مقدم ألف بها، على إقطاع شاد بك الجكمى، بحكم استقرار شاد بك فى نيابة

حماة، عوضا عن قانى باى المذکور. و استقر قانى باى فى نیابة حلب، إلى أن مات، و هو فى عشر الستین. و کان ملیح الشکل متوسط السیرة، مسرفا على نفسه، لم یشهر بشجاعة و لا معرفة بفن من الفنون، و کان یلقب بالبهلوان على سبیل المجاز لا على الحقیقة، رحمه اللّه تعالى.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۵۲۲

و توفى الأمیر سیف الدین إینال بن عبد اللّه الششمانى الناصرى [فرج] أتابک دمشق بها، فى جمادى الأولى، و هو فى عشر الستین، و کان أیضا من ممالیک الملک الناصر فرج، و تأمّر عشرة فى أیام أستاذه، ثم نکب و تعطل مدة سنین، إلى أن أنعم علیه الأتابک ططر بإمرة عشرة، و صار من جملة رؤوس النّوب، ثم ولاه الملک الأشرف حسبة القاهرة سنین، ثم عزله، ثم نقله بعد مدة إلى إمرة طبلخاناة، ثم صار ثانى رأس نوبة، و سافر أمیر حاجّ المحمل، و کان سافر أمیر الرکب الأول قبل ذلک بسنین، ثم ولاه الأشرف نیابة صفد بعد موت الأمیر مقبل الحسامى الدّوادار، فلم ینتج أمره فى صفد لرخو کان فیه، و عدم شجاعة، و عزله السلطان عن نیابة صفد. ثم أنعم علیه بإمرة مائة و تقدمة ألف بدمشق، فدام على [۱۹۱] ذلک سنین إلى أن أقرّه الملک الظاهر جقمق أتابکا بدمشق. بعد توجّه قانى باى البهلوان إلى نیابة صفد، فدام على ذلک إلى أن مات. و کان دیّنا عفیفا عن الفواحش [مع جبن و شح] إلا أنه لم یشهر بشجاعة و لا کرم.

و توفى الأمیر سیف الدین برسباى بن عبد اللّه من حمزة الناصرى، نائب حلب، بها أو بظاهرها، بعد أن استعفى عن نیابة حلب، لطول مرضه، و کان أیضا من ممالیک الملک الناصر فرج و من خاصکیته، ثم صار من جملة أمراء دمشق، ثم أمسکه الملک المؤیّد شیخ و حبسه سنین، ثم أطلقه، فدام بطّالا، إلى أن أنعم علیه الأتابک ططر بإمرة بدمشق، ثم ولاه الملک الأشرف حجوبیة الحجاب بدمشق، فدام على الحجوبیة سنین طویلة، و نالته السعادة، إلى أن نقله الملک الظاهر جقمق إلى نیابة طرابلس، بعد

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۵۲۳

قانى باى الحمزاوى، بحکم انتقال الحمزاوى إلى نیابة حلب، بعد تولیة جلبان على نیابة دمشق، بحکم موت آقبغا التمرازى؛ فدام برسباى فى نیابة طرابلس سنین، إلى أن نقل إلى نیابة حلب، بعد موت قانى باى البهلوان، فدام على نیابة حلب مدة، و مرض و طال مرضه، إلى أن استعفى، فأعفى، و خرج من حلب إلى جهة دمشق، فمات فى أثناء طریقه. و کان جلیلا حشما دینا عفیفا عن المنکرات و الفروج، و کان شدیدا على المسرفین، فإنه کان یدخل إلیه بالسارق أو قاطع الطریق فیقول: «خذوه إلى الشرع»، و یدخل إلیه بالسکران، فیضربه حدودا کبیرة. و فى الجملة أنه کان دینا خیرا، رحمه اللّه تعالى.

و توفى قاضى قضاة دمشق و عالمها و مفتیها و فقیهها، تقىّ الدین أبو بکر [ابن أحمد بن محمد بن عمر بن محمد بن عبد الوهاب بن محمد بن ذویب بن مشرق]، الدمشقى الشافعى، المعروف بابن قاضى شهبة، فى ذى القعدة بدمشق فجاءة بطالا، بعد أن انتهت إلیه الرئاسة فى فقه مذهبه و فروعه، و کان ولى قضاء دمشق، و خطب فى واقعة الجکمى للملک العزیز یوسف، فحقد علیه الملک الظاهر جقمق ذلک، و عزله، إنى أن مات، بعد أن تصدى للإفتاء و التدریس سنین کثیرة، و انتفع به غالب طلبة دمشق، و صنف التصانیف المفیدة، رحمه اللّه تعالى.

و توفى الأمیر الطّواشى صفى الدین جوهر المنجکى نائب مقدم الممالیک السلطانیة، معزولا، فى أول ذى الحجة. و کان أولا من جماعة طواشیّة الأطباق،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۵۲۴

أعنى أنه کان مقدم طبقة المقدم، حتى ولّاه الملک الظاهر جقمق، نائب مقدم الممالیک، بعد عزل فیروز الرّکنى الرومى عنها، فدام على ذلک سنین، ثم عزل بجوهر السیفى نوروز، إلى أن مات. و هو صاحب المدرسة التى أنشأها برأس سویقة منعم، تجاه مصلاة المؤمنى، و أوقف علیها وقفا بحسب حاله.

و توفى الشيخ المسند المعمر، القاضى عز الدين عبد الرحيم [بن محمد بن عبد الرحيم بن على بن الحسين بن محمد بن عبد العزيز]، بن الفرات الحنفى، أحد نواب الحكم، فى يوم السبت سادس عشرين ذى الحجة. و كان له رواية و سند عال فى أشياء كثيرة سماعا و إجازة، و حدّث سنين كثيرة، و صار رحلة زمانه، و لنا منه إجازة بجميع سماعه و مروياته، و قد استوعبنا ترجمته فى غير هذا الكتاب، [رحمه اللّه].

أمر النيل فى هذه السنة: الماء القديم أحد عشر ذراعا و اثنا عشر إصبعا، مبلغ الزيادة: تسعة عشر ذراعا و أربعة عشر إصبعا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۵۲۵

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۵۲]

السنة الحادية عشرة من سلطنة الملك الظاهر جقمق على مصر و هى سنة اثنتين و خمسين و ثمانمائة.

فيها توفى الشيخ برهان الدين إبراهيم بن خضر العثمانى الشافعى، أحد فقهاء الشافعية، فى ليلة خامس عشر المحرم. و كان فاضلا فقيها، تفقه بالقاضى شهاب الدين ابن حجر و بغيره و درّس و أقرأ، و عدّ من الفضلاء، إلا أنه كان دنس الثياب، غير ضوئى الهيئة، رحمه اللّه تعالى.

و توفى الشيخ شهاب الدين أحمد بن عثمان، [عرف بالكوم] الرّيشىّ الشافعى، فى يوم الأربعاء حادى عشرين المحرم. و كان له اشتغال قديم، مع توقف فى ذهنه و فهمه، ثم ترك الاشتغال، و تردد إلى أرباب الدولة لطلب الرزق، على أنه كان دينا خيرا، و عنده سلامة باطن، رحمه اللّه تعالى.

و توفى الأمير سيف الدين آقطوه بن عبد اللّه الموساوى الظاهرى، بطّالا، فى ليلة الثلاثاء ثانى عشر صفر، و دفن من الغد.

و كان أصله من مماليك الملك الظاهر برقوق، و صار من جملة الدّوادارية، فى الدولة المؤيّدية شيخ، ثم تأمّر عشرة، [۱۹۲] بعد موته، و دام على ذلك دهرا طويلا، و صار مهمندارا [فى الأيام الأشرفية]، ثم توجه فى الرسلية إلى القان معين الدين شاه رخ بن تيمور لنك، ثم عاد و دام على ما هو عليه، إلى أن أنعم عليه الملك الظاهر جقمق، بإمرة طبلخاناة، ثم نفاه بعد سنين، ثم أعاده، و أنعم عليه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۵۲۶

بإمرة عشرة، ثم نفاه ثانيا، و شفع فيه بعد مدة، فعاد إلى القاهرة بطالا، و دام بها إلى أن مات.

كان تركى الجنس، و يتفقه و يشارك فى ظواهر مسائل، على قاعدة غالب فقهاء الأتراك، سألنى مرة سؤالا، و ابتدأ فى سؤاله بقوله: «باب»، فقبل أن يتم السؤال، قلت له: «باب مرفوع على أى وجه؟»، فسكت، ثم قال: «هذا شىء لم أسمعه منذ عمرى»، فضحك جميع من حضر، و لم يسألنى بعدها، إلى أن مات. و كان عفيفا عن الفواحش، إلا أنه كان فيه البخل و سوء الخلق و تعبيس الشكالة، رحمه اللّه.

و توفى الشيخ زين الدين عبد الرحمن [بن محمد بن محمد بن يحيى] السّندبيسى الشافعى، أحد فقهاء الشافعية، فى ليلة الأحد سابع عشر صفر، و دفن من الغد، و كان معدودا من فقهاء الشافعية، رحمه اللّه تعالى.

و توفى الأمير سيف الدين أسنباى بن عبد اللّه الظاهرى الزّردكاش، كان أحد أمراء العشرات، فى العشر الأخير من صفر، عن سنّ عال. و كان من أعيان مماليك الملك الظاهر برقوق، و ممن صار فى أيام أستاذه، زردكاشا، و أسر فى كائنة تيمور، و حظى عنده، و جعله تيمورلنك زرد كاشه، و دام عنده إلى أن مات؛ فقدم القاهرة، و دام بها إلى أن استقر فى دولة الملك المؤيد أمير عشرة و زرد كاشا كبيرا، و صار مقربا عند الملك المؤيد إلى الغاية؛ ثم عزل عن الزردكاشية بعد موت الملك المؤيد، و دام على إمرة عشرة، و تولى نيابة دمياط غير مرة، إلى أن مات بالقاهرة على إمرته. و كان رجلا عاقلا عارفا بمداخلة الملوك و بصناعة الزردخاناة، و كان حلو المحاضرة أخباريّا، حافظا لما رأى من الوقائع و الحروب و أحوال السلف، و كان حسن السمت، عليه أنس و خفر، و لكلامه رونق و

لذة فى السمع؛ نقلت عنه كثيرا

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۵۲۷

فى «المنهل الصافى» و غيره من أخبار خجداشيته الظاهرية و غيرهم. و كان بينى و بينه صحبة أكيدة. و لقد بلغنى بعد موته، أنه كان سيدا شريفا من أشراف بغداد الأتراک، و نهب منها فى سبى فى بعض السنين، و لم أسأله أنا عن ذلک، و اللّه أعلم بصحة هذا القول.

و توفى الوزير الصاحب كريم الدين عبد الكريم ابن [الوزير] الصاحب تاج الدين عبد الرزاق، بن شمس الدين عبد اللّه، المعروف بابن كاتب المناخات، بالقاهرة بطّالا، بعد مرض طويل فى يوم الأحد، لعشر بقين من جمادى الآخرة، و سنه نيف على الخمسين. و كان لا ـ بأس به بالنسبة لأبناء جنسه الكتبة، و قد تقدم أنه ولى نظر ديوان المفرد، ثم الوزر غير مرة، ثم الأستادّارية مرتين، ثم كتابة السر، ثم الوزر، و نكب و صودر و ضرب بالمقارع فى بعض تعطّله، و تولى الكشف بالوجه القبلى، ثم توجه إلى جدة، ثم أعيد إلى الوزر سنين، ثم استعفى، و تولى عوضه الوزر الصاحب أمين الدين إبراهيم بن الهيصم، رحمه اللّه تعالى.

و توفى الأمير سيف الدين شاهين بن عبد اللّه السيفى طوغان الحسنى الدّوادار، و هو على نيابة قلعة دمشق، فى جمادى الأولى: و كان أصله من مماليک طوغان الحسنى الدوادار، و اتصل [بعده] بخدمة الملک الظاهر جقمق، فى أيام إمرته، و صار دواداره، و لما تسلطن، جعله بعد مدة، دوادارا ثالثا، ثم ولّاه نيابة قلعة حلب؛ فوقع له بحلب أمور و عزل منها، و نقل إلى نيابة قلعة دمشق، إلى أن مات. و كان يصبغ لحيته بالحناء مع بخل و شح، حتى على نفسه، عفا اللّه تعالى عنه.

و توفى الناصرى محمد بن على بن شعبان ابن السلطان حسن، بن محمد بن قلاوون،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۵۲۸

أحد الأجناد، و ندماء الملک الظاهر جقمق فى حياة أبيه و أمه، فى يوم الخميس سابع جمادى الآخرة [و يعرف بابن السلطان حسن]. و كان لا ـ بأس به، إلا ـ أنه كان فى مبدإ أمره فقيرا، و جاءته السعادة لصحبته الملک الظاهر جقمق، فجأة، فكان حاله كقول القائل: [الطويل]

[و يا ويل]

من ذاق الغنا بعد حاجة يموت و قلبه من الفقر واجس

فكان كذلک، إلا أنه كان بشوشا، و يحسن رمى النّشّاب على قدر حاله، و يجيد الغناء الموسيقى، و فى الجملة، كان له محاسن، مع أصل و عراقة، [رحمه اللّه].

[و توفى] الشيخ زين الدين رضوان بن محمد بن يوسف العقبى الشافعى، مستملى الحديث، فى يوم الاثنين، ثالث شهر [۱۹۳] رجب. و كان دينا فاضلا حسن السمت منور الشيبة، رحمه اللّه تعالى.

و توفى الشيخ الإمام العالم المعتقد، فتح الدين أبو الفتح محمد بن أحمد بن الشيخ وفاء الإسكندرى الأصل، المصرى المولد و المنشأ و الوفاة، المالكى الواعظ، المعروف بابن أبى الوفا، فى يوم الاثنين أول شعبان. و كانت جنازته مشهودة و دفن عند آبائه بتربتهم بالقرافة، بعد أن صلى عليه بجامع عمرو بمصر القديمة. و كان أعلم بنى الوفاء قاطبة، و أشعرهم فى زمانه، و مات و سنه نيف على ستين سنة تخمينا، و كان له فضل غزير و شعر رائق كثير، ذكرنا منه قطعة جيدة فى «الحوادث»، و نذكر منه هنا قصيدة و هى التى أولها: [الكامل]

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۵۲۹

الرّوح منّى فى المحبة ذاهبه فاسمح بوصل لاعدمتک ذا هبه

عرفت أياديک الكرام بأنّها تأسو الجراح من الخلائق قاطبه

قد خصّک الرحمن منه خصائصا فحللت من أوج الكمال مراتبه

و بنورك الوضّاح فى غسق الدّجى أطلعت فى فلك الوفاء كواكبه

ما زلت بالمعروف تعرف دائما و تنيل من آوى إليك مطالبه

لم يبق فى قلبى سواك من الورى كلّا، و لا فيه لغيرك شائبه

بك يمنح اللّه الوجود بجوده و يبثّ فيه عطاءه و مواهبه

و تطيب منك أصوله و فروعه و تعيش أرواح لبعدك ذائبه

رجع الوفاء بنور وجهك غامرا أغذيت للورّاد منه مشاربه

و جميل سترك بالوفا عمّ الورى فمن احتمى فيه سترت معايبه

و شعره كله فى هذا النسق، رحمه اللّه تعالى.

و توفى الشهابى أحمد بن الأمير نوروز بن عبد اللّه الخضرى الظاهرى، المعروف بشادّ الأغنام: فى يوم الأحد، رابع عشر شعبان. و كان أبوه نوروز، من مماليك الملك الظاهر برقوق، و تولى حجوبية حلب فى نيابة الوالد على حلب، ثم نقل بعد مدة طويلة إلى حجوبية دمشق، أو إلى إمرة بها، فلم تطل مدته بها، و قبض عليه الأمير تنم الحسنى نائب الشام، لما خرج عن الطاعة، فى سنة اثنتين و ثمانمائة، و وسّطه. و نشأ ولده هذا يتيما على حالة رديئة من الفقر و الإفلاس، إلى أن خدم الملك الظاهر جقمق فى أيام إمرته، و طالت أيامه فى خدمته، فلما تسلطن قرّبة و أنعم عليه بإمرة بالبلاد الشامية، فلم يسكن الشام، و دام بمصر، حتى أنعم عليه الملك الظاهر جقمق أيضا بإمرة عشرة زيادة على ما بيده بالشام، ثم جعله شادّ الأغنام بالبلاد الشامية، فنالته السعادة من ذلك،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١٥، ص: ٥٣٠

و صار له كلمة فى الدولة، و ترأس و اقتنى المماليك و الخيول، و بقى له حاشية و اسم فى المملكة، فعند ذلك انتهز أحمد المذكور الفرصة، و انهمك فى اللذات، فما عفّ و لا كفّ، و بينما هو فى ذلك، طرقه هادم اللذات، و مات بعد مرض طويل، و قد استقر أمير الركب الأول من الحاج، فاستقر الأمير قانم التاجر المؤيّدى عوضه، فى إمرة الركب.

و كان أحمد المذكور مهملا عاريا من كل علم و فن، أجنبيا عن كل فضيلة، و كان يتلفظ فى كلامه بألفاظ العامة السوقة، مثل: «أقاتل على حسبى» و «أخذت رحلى»، و أشياء مثل ذلك من هذا النسق. و كان مع ذلك يلثغ بالسين، و يرمى بعظائم، من: ترك الصلاة، و أخذ الأموال، و غير ذلك.

و توفى الأمير سيف الدين تغرى برمش بن عبد اللّه الجلالى الناصرى، ثم المؤيّدى الفقيه، نائب قلعة الجبل، بطالا بالقدس الشريف، فى يوم الجمعة ثالث شهر رمضان؛ و قد أناف على الخمسين سنة، هكذا ذكر لى من لفظه، و قال لى: إن أباه كان مسلما فى بلاده، و اشتراه بعض التجار ممن سرقه، و ابتاعه منه خواجا جلال الدين، و قدم به إلى حلب، فاشتراه الملك الظاهر جقمق منه، و قد توجه جقمق: و هو يوم ذاك خاصكيا، إلى الأمير جكم نائب حلب بكامليّة الشتاء من السلطان على العادة فى كل سنة، و قدم به جقمق إلى القاهرة، [۱۹۴] و قدّمه إلى أخيه جاركس القاسمى المصارع، فلما عصى جاركس، أخذه الملك الناصر فرج فيما أخذ الجاركس.

و دام تغرى برمش بالطبقة بقلعة الجبل، حتى ملك الملك المؤيّد شيخ الديار المصرية فأخذه من جملة مماليك الملك الناصر فرج، و أعتقه، فادّعاه الظاهر جقمق، و هو يوم ذاك أمير طبلخاناة و خازندار، فدفع له الملك المؤيّد دراهم و مملوكا يسمى قمارى، و أبقى تغرى برمش على ملكه، ثم صار تغرى برمش بعد موت الملك المؤيد خاصكيا، إلى أن أخرجه الملك الأشرف من الخاصكية مدة سنين، ثم أعاده بعد مدة، و دام على ذلك إلى أن تسلطن الملك الظاهر جقمق، فنفاه إلى قوص، لكونه خاشنه فى الكلام

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١٥، ص: ٥٣١

بسبب الإمرة، ثم شفع فيه بعد مدة، و أنعم عليه بإمرة عشرة، و استقر به فى نيابة قلعة الجبل، بعد موت ممجق النّوروزى، و قرّبه الملك الظاهر و أدناه، و اختص به إلى الغاية و صار له كلمة فى الدولة، فلم يحسن العشرة مع من هو أقرب منه إلى الملك، و أطلق لسانه فى

سائر أمور المملكة، حتى ألجأه ذلك إلى سفر الروم فى أمر من الأمور، ثم عاد فدام على ما هو عليه، ثم تكلم فى أمر المجاهدين و أنهم تراخوا فى أخذ رودس، فعيّنه السلطان إلى غزوة رودس، فسافر و عاد و هو على ما هو عليه، فنفاه السلطان إلى القدس بطّالا، فتوجه إليه و دام به إلى أن مات.

و كان تغرى برمش المذكور فاضلا عالما بالحديث و رجاله، مفننا فى أنواعه، كثير الاطلاع، جيد المذاكرة بالتاريخ و الأدب و أيام الناس، و له نظم باللغة العربية و التركية، و يكتب المنسوب، و يشارك فى فنون كثيرة، و له محاضرة حسنة و مذاكرة حلوة، هذا مع معرفته بفنون الفروسية المعرفة التامة كآحاد أعيان أمراء الدولة، بل و أمثل منهم، و لا أعلم فى عصرنا من يشابهه فى المماليك خاصة، لما اشتمل عليه من الفضيلة التامة من الطرفين: من فنون الأتراك و علوم الفقهاء، و من هو منهم فى هذه الرتبة، اللهم إن كان الأمير بكتمر السعدى فنعم، و إن فاقه بكتمر بأنواع العلاج و القوة، فيزيده تغرى برمش هذا فى الكتابة و نظم الشعر و الاطلاع الواسع.

و فى الجملة أنه كان من الأفراد فى عصره فى أبناء جنسه، لو لا زهو كان فيه و إعجاب بنفسه، و التعاظم بفنونه، و الازدراء بغيره، حتى أنه كان كثيرا ما يقول:

«يأتى واحد من هؤلاء الجهلة يمسك كتاب فى الفقه فيحفظه فى أشهر قليلة، ثم يقول فى نفسه: أنا بقيت فقيها! الفقيه من يعرف العلم الفلانى ثم العلم الفلانى، إيش هؤلاء الذين لا يعرفون معنى باسم اللّه الرحمن الرحيم!». فلهذا كان غالب من يتفقه من الأتراك يغض منه و يحط عليه؛ و ليس الأمر كذلك، و أنا، الحقّ أقوله، و إن كان فيهم من هو أفقه منه، فليس فيهم أحد يدانيه لكثرة فنونه، و لاتساع باعه فى النظر و الاطلاع و الفصاحة و الأدب، و سوف أذكر من شعره ما يؤيد ما قلته، فمن شعره فى مليح يسمّى شقير: [البسيط]

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۵۳۲

تفّاح خدّى شقير فيه مسكىّ لون زها و أزهر

قد بان منه النّوى فأضحى زهرىّ لون بخدّ مشعر

و قد ذكرنا من شعره أكثر من هذا فى تاريخنا «المنهل الصافى» فى ترجمته، و أما نظمه باللغة التركية، فغاية لا تدرك، له قصيدة واحدة عارض بها شيخى شاعر الروم، يعجز عنها فحول الشعراء، و كان رحمه اللّه، من عظم إعجابه بنفسه، يقول: إن الأمر سيصير إليه، مع وجود من هو أمثل منه بأطباق، على أنه كان غير الجنس أيضا، و من أصاغر الأمراء، و مع هذا كله كان لا يرجع عما فيه، قلت: هذه آفة معترضه للقول الصحيح، سامحه اللّه تعالى.

و توفى الأمير سيف الدين صرغتمش بن عبد اللّه القلمطاوى، أحد أمراء العشرات، فى يوم السبت رابع شهر رمضان. و كان أصله من مماليك الأمير قلمطاى الدّوادار، و كان صرغتمش المذكور، لا للسيف و لا للضيف، و لا ذات و لا أدوات.

و توفى الأمير سيف الدين طوغان بن عبد اللّه العثمانى، نائب القدس، ثم حاجب حلب، ثم نائب غزة بها، فى ذى القعدة. و أصله من مماليك الأتابك ألطنبغا العثمانى نائب الشام؛ و كان شجاعا مقداما كريما للسيف و للضيف، رحمه اللّه تعالى.

و توفى قاضى القضاة شيخ الإسلام، [۱۹۵] حافظ المشرق و المغرب، أمير المؤمنين فى الحديث [علامة الدهر، شيخ مشايخ الإسلام، حامل لواء سنة الأنام، قاضى القضاة، أوحد الحفاظ و الرواة،] شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن الشيخ نور الدين على بن

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۵۳۳

محمد بن محمد بن على بن أحمد [بن حجر]، المصرى المولد و المنشأ و الدار و الوفاة، العسقلانى الأصل، الشافعى، قاضى قضاة الديار المصرية و عالمها و حافظها و شاعرها، فى ليلة السبت ثامن عشرين ذى الحجة، و صلى عليه بمصلاة المؤمنى، و حضر السلطان الصلاة عليه، و دفن بالقرافة. حتى قال بعض الأذكياء: أنه حزر من مشى فى جنازته نحو الخمسين ألف إنسان. و كان لموته يوم عظيم على المسلمين، و مات و لم يخلّف بعد مثله شرقا و لا غربا، و لا نظر هو مثل نفسه فى علم الحديث.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة؛ ج۱۵؛ ص۵۳۳

کان مولده بمصر القدیمة فی ثانی عشرین شعبان، سنة ثلاث و سبعین و سبعمائة، و قد أوضحنا أمره فی ترجمته فی «المنهل الصافی» من ذکر سماعاته و مشایخه و أسماء مصنفاته و ولایاته من ابتداء أمره إلی منتهاه، فی أوراق کثیرة یطول الشرح فی ذکرها فی هذا المحل. و کان رحمه اللّه تعالی إماما عالما حافظا شاعرا أدیبا مصنفا ملیح الشکل منوّر الشیبة، حلو المحاضرة إلی الغایة و النهایة، عذب المذاکرة مع وقار و أبهة و عقل و سکون و حلم و سیاسة و دربة بالأحکام، و مداراة الناس، قلّ أن کان یخاطب الرجل بما یکره، بل کان یحسن إلی من یسیء إلیه، و یتجاوز عمن قدر علیه، هذا مع کثرة الصوم و لزوم العبادة و البر و الصدقات؛ و بالجملة فإنه أحد من أدرکنا من الأفراد و لم یکن فیه ما یعاب، إلا تقریبه لولده لجهل کان فی ولده، و سوء سیرته، و ما عساه کان یفعل معه، و هو ولده لصلبه، و لم یکن له غیره؟

و أما شعره فکان فی غایة الحسن، و مما أنشدنی من لفظه لنفسه رحمه اللّه تعالی:

[الطویل]

خلیلیّ ولّی العمر منّا و لم نتب و ننوی فعال الصالحات و لکنّا

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۵۳۴

فحتّی متی نبنی بیوتا مشیدة و أعمارنا منّا تهدّ و ما تبنی

و له: [المنسرح]

سألت من لحظه و حاجبه کالقوس و السّهم موعدا حسنا

ففوّق السّهم من لواحظه و انقوس الحاجبان و اقترنا

و له: [الطویل]

أتی من أحبّائی رسول فقال لی: ترفّق و هن و اخضع تفز برضانا

فکم عاشق قاسی الهوان بحبّنا فصار عزیزا حین ذاق هوانا

أمر النیل فی هذه السنة: الماء القدیم ستة أذرع و ثمانیة عشر أصبعا؛ مبلغ الزیادة: ثمانیة عشر ذراعا و ثلاثة و عشرون أصبعا.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۵۳۵

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۵۳]

السنة الثانیة عشرة من سلطنة الملک الظاهر جقمق علی مصر و هی سنة ثلاث و خمسین و ثمانمائة.

فیها فشا الطاعون بالدیار المصریة و ظواهرها، و کان ابتدأ من أواخر سنة اثنتین و خمسین، فی ذی الحجة، و عظم إلی أن ارتفع فی شهر ربیع الأول، و مات فیه عالم کثیر من الأعیان، من جملتهم ثلاثة أمراء مقدمی ألوف، و هم: الأمیر تمراز القرمشی أمیر سلاح، و الأمیر قراخجا الحسنی الأمیر آخور، و کلاهما کان مرشحا للسلطنة، و الأمیر تمربای التّمربغاوی، رأس نوبة النوب، [و من یأتی ذکره من الأعیان و غیرهم، رحمهم اللّه].

و فیها توفی الشهابی [أحمد بن علی بن إبراهیم] النهیتی [ثم الأزهری]، أحد فقهاء الشافعیة، فی یوم الأحد رابع عشر المحرم، و کان مجاورا بجامع الأزهر.

و توفی القاضی شهاب الدین أحمد [بن علی بن عامر بن العدل نور الدین] المسطیهی [ثم القاهری] الشافعی، أحد نواب الحکم بالقاهرة، فی یوم الاثنین خامس عشر المحرم.

و توفی الشیخ الإمام العالم علاء الدین [علی] الکرمانی الشافعی، شیخ خانقاة سعید السّعداء، فی یوم الخمیس ثانی صفر بالطاعون، و کان دینا فقیها صالحا.

و توفی القاضی برهان الدین إبراهیم [بن محمد بن إبراهیم] بن ظهیر الحنفی، ناظر

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۵۳۶

الإسطبلات السلطانیة، فی یوم الاثنین سادس صفر بالطاعون و دفن من الغد. و کان أحد حواشی الملک الظاهر جقمق، و ممن نشأ فی هذه الدولة.

و توفی السید الشریف علی بن حسن بن عجلان [بن رمیثة] الحسنی المکی، المعزول عن إمرة مکة قبل تاریخه، فی ثغر دمیاط بالطاعون، فی أوائل صفر. و قد تقدم ذکر نسبه فی عدة أماکن من هذا الکتاب، و کان أحذق بنی حسن بن عجلان، و أفضلهم و أحسنهم محاضرة، و له ذوق و فهم و مذاکرة، رحمه اللّه [تعالی].

و توفی الأمیر سیف الدین تمراز بن عبد اللّه القرمشی الظاهری أمیر سلاح، بالطاعون، فی یوم الجمعة عاشر صفر، و دفن من الغد.

و تولی وظیفة إمرة سلاح [۱۹۶] من بعده الأمیر جرباش الکریمی قاشق، و کان تمراز من ممالیک الملک الظاهر برقوق، و وقع له أمور، إلی أن تولی نیابة قلعة الروم.

ثم نقل بعد مدة إلی نیابة غزة فی الدولة الأشرفیة برسبای، فدام علی نیابة غزة سنین، ثم عزل، و طلب إلی القاهرة علی إمرة مائة و تقدمة ألف بها، و تولی نیابة غزة من بعده الأمیر إینال العلائی الناصری.

ثم استقر بعد أشهر رأس نوبة النوب، بعد أرکماس الظاهری بحکم انتقال أرکماس إلی الدواداریة الکبری، بعد خروج أزبک الدوادار إلی القدس بطّالا، و دام تمراز رأس نوبة النّوب سنین کثیرة، إلی أن نقله الملک الظاهر جقمق إلی الأمیر آخوریّة الکبری، بعد مسک جانم الأشرفی.

ثم صار أمیر سلاح بعد أشهر، عوضا عن یشبک السّودونی المشدّ، بحکم انتقال یشبک إلی الأتابکیة، بعد توجّه آقبغا التمرازی إلی نیابة الشام، عوضا عن إینال الجکمی، فدام تمراز علی ذلک إلی أن مات.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۵۳۷

و کان من محاسن الدنیا، لو لا إسرافه علی نفسه، و قد نسبه الشیخ تقی الدین المقریزی رحمه اللّه فی مواضع کثیرة، إلی الأمیر دقماق المحمدی، فقال:

تمراز الدّقماقی، و لیس هو کذلک، و إنما تمراز تزوج السّت أردبای أم ولد دقماق لا غیر.

و توفی قاضی القضاة بدر الدین محمد بن قاضی القضاة ناصر الدین أحمد بن محمد بن محمد بن عطاء اللّه بن عواض بن نجا بن أبی الثناء حمود بن نهار [الشمس] ابن مؤنس بن حاتم بن نبلی بن جابر بن هشام بن عروة بن الزبیر بن العوام رضی اللّه عنه، حواریّ رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم، المعروف بابن التّنسی المالکی، قاضی قضاة الدیار المصریة، فی یوم الاثنین ثالث عشر صفر بالقاهرة، و بها نشأ تحت کنف والده، و حفظ عدة متون و تفقه بعلماء عصره و برع و أفتی و درّس و ناب فی الحکم سنین.

ثم استقل بوظیفة القضاء، بعد موت قاضی القضاة شمس الدین البساطی، فی سنة اثنتین و أربعین و ثمانمائة، و لما ولی القضاء أکبّ علی الاشتغال و الإشغال، و کان مفرط الذکاء، جید التصور، مع الفصاحة و طلاقة اللسان و حسن السیرة إلی الغایة و النهایة، و التحری و التثبت فی أحکامه، و الحط علی شهود الزور، حتی أبادهم.

و کان یحلّف حواشیه بالأیمان المغلظة علی الأخذ من الناس علی بابه، ثم بعد ذلک یأخذ فی الفحص علیهم، و یبذل جهده فی ذلک، مع ذکاء و حذق و معرفة، لا یدخل علیه مع ذلک تنمیق منمق، و لا خدیعة خادع. و کان یتأمل فی أحکامه و مستندات الأخصام الأیام الکثیرة، و بالجملة أنه أعظم من رأینا من القضاة فی العفة و جودة سیرة حواشیه الذین هم علی بابه بلا مدافعة، مع

علمی بأحوال من عاصره

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۵۳۸

من القضاة و غزیر علمهم، و مع هذا کله، لیس فیهم أحد یدانیه فی ذلک، غیر قاضی القضاة بدر الدین محمد بن عبد المنعم البغدادی الحنبلی، و إن کانت بضاعته مزجاة من العلوم، فهو أیضا کان من هذه المقولة، و لیس حسن السیرة متعلقة بکثرة العلم و إنما ذلک متعلق: بالتحری، و الدین، و العقل، و الحذق، و العفة.

و قد حکی لی صاحبنا محمد بن تلتی، قال: غضب علیّ السلطان بسبب تعلقات الذخیرة من جهة میراث، و رسم أن أتوجه إلی القاضی الحنبلی، و أن یدّعی علیّ عنده، و یرسّم علیّ، فادّعی علیّ، فأجبت بجواب مرضیّ، فقال القاضی: اذهب إلی حال سبیلک، لیس لأحد عندک شیء. فقلت: أخشی من سطوة السلطان، لا بد أن أقیم فی الترسیم، فامتنع من ذلک، فقلت: أقیم علی باب القاضی کأننی فی الترسیم خشیة من السلطان، فأقمت نحو الشهر علی بابه أحضر سماطه فی طرفی النهار، و رسل السلطان تترد إلیه، و هو یردّ الجواب بأن لا- حقّ لهم عندی، فلما أعیاهم أمره، نقلونی من عنده إلی بیت بعض أعیان قضاة القضاة، ففی الیوم المذکور غرمت لحاشیته ثلاثین دینارا، و قرّر علیّ نحو المائة ألف درهم للسلطان بغیر وجه شرعی، و لم أر وجه القاضی المذکور فی ذلک الیوم غیر مرة واحدة، و إنما صرت بین أیدی حواشیه، کالفریسة یتناهبونی من کل جهة، حتی هان علیّ أنی أزن، مهما أرادوا، و أتخلص من أیدیهم- انتهی.

قلت: و قد خرجنا عن المقصود بذکر هذه الحکایة عن القاضی الحنبلی، و وقع مثل هذا و أشباهه لقاضی القضاة بدر الدین هذا غیر مرة، و محصول الأمر: أنه کان عفیفا [۱۹۷] دیّنا حسن السیرة مشکور الطریقة، بریّا عما یرمی به قضاة السوء، و کان رحمه اللّه، له سماع کثیر فی الحدیث و إلمام بالأدب، و له نظم جید، و مما نظمه فی النوم فی طاعون سنة سبع و أربعین و أنشدنیه قاضی القضاة بدر الدین المذکور، إجازة إن لم یکن سماعا: [الوافر]

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۵۳۹

إله الخلق قد عظمت ذنوبی فّسامح، ما لعفوک من مشارک

أغث یا سیدی عبدا فقیرا أناخ ببابک العالی و دارک

قلت: و هذا یشبه قول الحافظ شهاب الدین أحمد بن حجر، لنفسه، [رحمه اللّه]:

[البسیط]

سرت و خلّفتنی غریبا فی الدار أصلی هوی بنارک

أدرک حشا حرّقت غراما فی ربعک المعتلی و دارک

و من شعر القاضی بدر الدین أیضا، فیما یقرأ علی قافیتین، مع استقامة الوزن:

[السریع]

جفوت من أهواه لا عن قلی فظلّ یجفونی یروم الکفاح

ثم و فی لی زائرا بعده فطاب نشر من حبیب و فاح

و مثل هذا أیضا للحافظ شهاب الدین بن حجر العسقلانی الشافعی: [السریع]

نسیمکم ینعشنی فی الدّجی طال، فمن لی بمجیء الصبّاح

و یا صباح الوجوه فارقتکم فشبت همّا إذ فقدت الصّباح

و مثله للشیخ شمس الدین محمد [بن الحسن بن علی] النواجی [الشاعر

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۵۴۰

المشهور]: [الطويل]

خليليّ هذا ربع عزّة فاسعيا إليه و إن سالت به أدمعى طوفان

فجفنى جفا طيب المنام و جفنها جفانى فيا للّه من شرك الأجفان

و مثل ذلك، لقاضى القضاة صدر الدين على بن الأدمى الحنفى، و هو عندى مقدم على الجميع: [السريع]

يا متهمى بالسّقم كن منجدى و لا تطل رفضى فإنّى عليل

أنت خليلى فبحقّ الهوى كن لشجونى راحما يا خليل

و توفى الأمير سيف الدين إينال بن عبد اللّه اليشبكى، أحد أمراء العشرات بالطاعون، فى يوم الأربعاء خامس عشر صفر. و كان أصله من مماليك الأتابك يشبك الشعبانى، و كان من المهملين، رحمه اللّه تعالى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۵۴۱

و توفى القاضى ولى الدين أبو اليمن محمد بن قاسم بن [عبد اللّه بن] عبد الرحمن [بن محمد بن عبد القادر] الشيشينى الأصل، المحلّى، الشافعى، المعروف بابن قاسم، فى يوم الجمعة سابع عشر صفر. و كان فيه خفة روح و دعابة، و نادم الملك الأشرف برسباى، و نالته السعادة، و كان أولا يلى الحكم بالمحلة و غيرها، فلما تسلطن الملك الأشرف، قرّبه و نادمه لصحبة كانت بينهما قديمة، ثم استقر شيخ الخدام بالحرم النبوى، إلى أن طلبه الملك الظاهر جقمق، و صادره، ثم نادمه بعد ذلك، إلى أن مات. و كان دينا خيرا، إلا أنه كان مسّيكا جمّاعا للأموال، و كان سمينا جدا، لا يحمله إلا الجياد من الخيل.

و توفى الأمير سيف الدين قراخجا بن عبد اللّه الحسنى الظاهرى، الأمير آخور الكبير، بالطاعون، فى يوم السبت ثامن عشر صفر، و توفى ولده أيضا فى اليوم المذكور، فجهزا معا من الغد، و حضر السلطان الصلاة عليهما بمصلاة المؤمنى، و دفنا بالصحراء، و كان أصل قراخجا المذكور، من مماليك الملك الظاهر برقوق، و تأمّر بعد أمور وقعت له بعد موت الملك المؤيّد شيخ، و صار من جملة رؤوس النّوب، ثم نقله الملك الأشرف بعد سنين، إلى إمرة طبلخاناة، ثم صار رأس نوبة ثانيا، ثم مقدم ألف بالديار المصرية، إلى أن نقله الملك الظاهر جقمق، و جعله رأس نوبة النّوب، بعد الأمير تمراز القرمشى، بحكم انتقاله إلى الأمير آخوريّة، ثم نقل [۱۹۸] قرا خجا بعد أشهر إلى الأمير آخورية بعد تمراز أيضا، فدام على ذلك حتى مات.

و كان أميرا جليلا شجاعا مقداما معظما فى الدول، عارفا بأنواع الفروسية، رأسا فى ذلك، مع العقل و الديانة و الصيانة و الحشمة و الوقار و كثرة الأدب؛ و هو أحد من أدركنا من الملوك العقلاء الرؤساء، رحمه اللّه تعالى؛ و هو صاحب المدرسة بالقرب من قنطرة طقزدمر خارج القاهرة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۵۴۲

و توفى السيد الشريف أبو القاسم بن حسن بن عجلان الحسنى المكّى المعزول عن إمرة مكة، قبل تاريخه، و كان قدم صحبة الحاج ليسعى فى إمرة مكة، فأدركته منيّته بالقاهرة، بالطاعون، فى ليلة الاثنين العشرين من صفر، و حضر السلطان الصلاة عليه بمصلاة المؤمنى من تحت القلعة.

و توفيت زوجة السلطان الملك الظاهر جقمق خوند نفيسة بنت الأمير ناصر الدين بك بن دلغادر، بالطاعون فى يوم الثلاثاء حادى عشرين صفر.

و توفى الأمير سيف الدين بختك بن عبد اللّه الناصرى، أحد أمراء العشرات [و صهر يشبك الفقيه] بالطاعون، فى يوم الأربعاء ثانى عشرين صفر؛ و كان لا بأس به.

و توفى الأمير مغلباى طاز بن عبد اللّه الساقى الظاهرى، بعد أن تأمّر بنحو العشرة أيام، فى يوم الأربعاء ثانى عشرين صفر، و كان من مماليك الملك الظاهر جقمق الأجلاب و أحد خواصّه، و كان لا ذات و لا أدوات.

و توفى الشيخ الإمام العالم المعتقد محمد بن عبد الرحمن بن عيسى بن سلطان، المعروف بالشيخ محمد بن سلطان الغزّى الأصل، المصرى الدار و الوفاة، الشافعى [الصوفى القادرى]، فى يوم الأحد سادس عشرين صفر؛ و كان الناس فيه على قسمين: ما بين معتقد و منتقد، و الأول أكثر؛ و كان إماما عالما بفنون، و له اشتغال قديم، و له قدم فى العبادة و الصلاح، و كان لا يتردد إلى أحد، و الناس تتردد إليه من السلطان إلى من دونه [حتى وصفه غير واحد بالمنقطع ببيته]، و كان يتهمه بعض الناس بمعرفة الكيميا أو طرف منها، لأنه عمر طويلا فى أرغد عيش

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۵۴۳

و نعمة، و لم يقبل من أحد إلا نادرا، و كان شيخا منوّر الشيبة [عطر الرائحة] مفوّها فصيحا شاعرا عالما صوفيا، و مات و سنه أزيد من تسعين سنة فيما أظن، و هو متمتع بحواسه، رحمه اللّه تعالى.

و توفى الأمير سيف الدين تمرباى بن عبد اللّه التّمر بغاوى رأس نوبة النوب بالطاعون، فى يوم الأربعاء تاسع عشرين صفر، و هو فى عشر الستين.

و كان أصله من مماليك الأمير تمربغا المشطوب نائب حلب.

ثم خدم عند الأمير ططر؛ فلما تسلطن ططر جعله دوادارا ثالثا، فدام على ذلک مدة، إلى أن نقله الملک الأشرف إلى الدوادارية الثانية، بعد موت جانبک الدوادار الأشرفى، فباشر الدوادارية الثانية على الجندية أياما.

ثم أنعم عليه بإمرة عشرة.

ثم بعد مدة طويلة، بإمرة طبلخاناة، و دام على ذلک، إلى أن أنعم عليه الملک العزيز يوسف بن السلطان الملک الأشرف برسباى، بإمرة مائة و تقدمة ألف بالديار المصرية.

ثم صار نائب الإسكندرية مدة.

ثم عزل و استقر رأس نوبة النّوب، بعد انتقال قراخجا الحسنى إلى الأمير آخورية، فدام على ذلک إلى أن مات. و كان يعف عن المنكرات و يتصدق كثيرا، غير أنه كان عاريا من كل علم و فن، مع حدة خلق و بذاءة لسان، رحمه اللّه تعالى.

و توفى الأمير سيف الدين أركماس بن عبد اللّه المؤيدى الأشقر. المعروف بالبواب. أحد أمراء العشرات و رأس نوبة فى يوم السبت سلخ شهر ربيع الآخر و كان مهملا [زائد الغفلة]، غير متجمل فى ملبسه و مركبه، إلا أنه كان مشهورا بالشجاعة و الإقدام.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۵۴۴

و توفى الأمير سيف الدين سودون بن عبد اللّه المؤيدى، الأمير آخور الثانى، المعروف بسودون أتمكجى، أى خبّاز، فى يوم الاثنين ثانى عشر شهر رجب، و هو فى عشر الخمسين أو أكثر. و استقر بعده [۱۹۹] الأمير يرشباى الإينالى، الأمير آخور الثالث، أمير آخور ثانيا. و كان سودون المذكور شجاعا مقداما عارفا بأنواع الفروسية، كريما حشما معظما فى الدول، و عنده تواضع و أدب، رحمه اللّه تعالى، فإنه كان من محاسن أبناء جنسه.

و توفى الأمير سيف الدين بيسق اليشبكى نائب قلعة دمشق بها، فى شعبان، و كان من مماليک الأتابک يشبک الشعبانى، و تأمر فى دولة الملک الظاهر جقمق [خمسة ثم] عشرة، ثم ولاه نيابة ثغر دمياط، ثم نيابة قلعة صفد.

ثم عزله و أنعم عليه أيضا بإمرة عشرة بمصر، [ثم ولاه نيابة دمياط] ثم ولاه نيابة قلعة دمشق بعد موت شاهين الطّوغانى، إلى أن مات.

و نعم الرجل، كان [ذا] شجاعة و كرم و عقل و تواضع، لا أعرف فى اليشبكيّة من يقاربه فى معناه، رحمه اللّه تعالى.

و توفى شرف الدين يحيى بن أحمد [بن عمر بن يوسف بن عبد اللّه بن عبد الرحمن ابن إبراهيم بن محمد بن أبى بكر الشرف التنوخى الحموى الأصل الكركى المولد] الشهير بابن العطار، الشاعر المشهور، فى يوم الخميس سادس عشر ذى القعدة، و لم يكن يحيى المذكور من الأعيان، و لا ممن له عراقة و رئاسة سابقة لتشكر أفعاله أو تذم، و إنما كانت شهرته بصهارة أخيه، الأمير ناصر

الدين محمد بن العطار، لبنى البارزى،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۵۴۵

فعرف لهذا المعنى بين الناس. و كان له شعر، و يكتب المنسوب بحسب الحال، و كان أولا يتزيّا بزىّ الجند، و خدم دوادارا عند الشهاب، أستادّار المحلّة، ثم عند القاضى ناصر الدين بن للبارزى، فلم ينتج أمره، و عزل، ثم بعد مدة، ترک الجنديّة، و تزيّا بزىّ الفقهاء، و خدم موقّعا عند الزينى عبد الباسط ناظر الجيش، فملأه سبّا و توبيخا منذ مباشرته عنده، إلى أن ملّ ذلك، و ترک التوقيع، و انقطع إلى المقر الكمالى بن البارزى، و صار يتردد إلى الأكابر، ثم تردد فى الدولة الظاهرية، لخدمة أبى الخير النحاس، و مات و هو ملازم لصحبته.

و قد استوعبنا حاله بأوسع من هذا فى «المنهل الصافى»، و ذكرنا من شعره نبذة كبيرة، و نذكر منه هنا نبذة يسيرة، ليعلم بذلك طبقته فى نظم القريض، فإنه كان لا يحسن غيره، فمن شعره قوله: [الخفيف]

أهل بدر إن أحسنوا أو أساءوا أهل بدر فليفعلوا ما شاءوا

إن أفاضوا دمعى فكم قد أفادوا منّة من ودادهم و أفاءوا

و عيونى إن فجّروها عيونا بدموع كأنّهنّ دماء

لا تلمهم على احمرار دموعى فلهم عندى اليد البيضاء

أنا راض منهم و إن هم رضونى فسواء عندى القلى و القلاء

يا نزولا بمهجتى فى رياض من وداد أغصانها لفّاء

كلّ غصن عليه طائر قلبى صادح تقتدى به الورقاء

صدحه كلّه حنين و وجد و اشتياق و لوعة و بكاء

منع السّهد طيفكم و لحظّى صار حتى من عندى الرّجاء

و عذولى يرى سلوّى فرضا أنا من رأيه علىّ براء

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۵۴۶

يدّعى فى الهوى إخائى و نصحى ليت شعرى من أين هذا الإخاء؟

عينه عن محاسن الحبّ عميا ء و أذنى عن عذله صمّاء

و هى أطول من هذا، تزيد على ستين بيتا، كلها على هذا النسق، عفا اللّه تعالى عنه:

[۲۰۰] و توفى السيد الشريف سراج الدين عبد اللطيف الفاسى الأصل، المكى المولد و المنشأ، الحنبلى، قاضى قضاة الحنابلة بمكة، بها، فى أواخر هذه السنة، عن سن عال، و كان سيدا كريما متواضعا، رحل إلى بلاد الشرق غير مرة، و أقبل عليه [القان معين الدين] شاه رخ بن تيمور و ابنه ألوغ بک صاحب سمرقند، و عاد إلى مكة بأموال كثيرة، أتلفها فى مدة يسيرة، لكرم كان فيه، و هو أول حنبلى تولى القضاء بمكة استقلالا، رحمه اللّه تعالى.

و توفى قاضى القضاة أمين الدين أبو اليمن محمد [بن محمد بن على بن أحمد بن العزيز الهاشمى العقيلى] النويرى الشافعى، قاضى قضاة مكة و خطيبها، فى ذى القعدة عن نحو ستين سنة تخمينا، و هو قاض، و كان فاضلا دينا خيّرا خطيبا فصيحا مفوها كثير الصوم و العبادة، مشكور السيرة فى أحكامه، فردا فى معناه، لم أر بمكة المشرفة فى مدة مجاورتى من يدانيه فى الطواف، و فى كثرة العبادة، رحمه اللّه تعالى.

أمر النيل فى هذه السنة: الماء القديم سبعة أذرع و خمسة عشر أصبعا، مبلغ الزيادة:

ثمانية عشر ذراعا و ثلاثة أصابع.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۵۴۷

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۵۴]

السنة الثالثة عشرة من سلطنة الملک الظاهر جقمق علی مصر و هی سنة أربع و خمسین و ثمانمائة.

فیها کان الشراقی العظیم بمصر، و الغلاء المفرط المتداول إلی سنة سبع و خمسین، و کان ابتداء الغلاء من السنة الخالیة، لکنه عظم فی هـذه السـنة بوقع الشـراقی، و تزایـد، و بلغ سـعر القمـح إلی ألفی درهم الأردب، و الحمل التبن إلی سـبعمائة درهم، و قس علی ذلک حسبما نذکره فی وقته، علی طول السنین.

[فیها] توفی المسند المعمر شمس الدین محمد بن الخطیب عبد اللّه الرشیدی، الشافعی، خطیب جامع الأمیر حسین بحکر النّوبی خارج القاهرة، فی یوم الجمعة حادی عشر شـهر [ربیع الأول، و مولده فی لیلة رابع عشـر] شهر رجب سنة تسع و ستین و سبعمائة، و کانت له مسموعات کثیرة، و حدّث سنین و تفرّد بأشیاء کثیرة، و لنا منه إجازة، و کان شیخا منوّر الشیبة فصیحا مفوها خطیبا بلیغا، رحمه اللّه.

و توفی الأمیر سـیف الـدین شاد بک بن عبـد اللّه الجکمی، أحد مقدمی الألوف بدیار مصـر، ثم نائب الرّها، ثم حماة، بطالا بالقدس، بعـد مرض طویـل، فی یوم الأربعـاء ثـانی شـهر ربیع الأـول؛ و کـان أصـله من ممالیک الأمیر جکم من عوض نائب حلب، و تنقل فی الخدم من بعده، إلی أن صار بخدمة الأمیر ططر، فلما تسـلطن ططر، قرّبه و أنعم علیه، ثم تأمّر عشرة بعد موته، و صار من جملة رؤوس النوب، ثم

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۵۴۸

صار أمیر طبلخاناة، ثم ثانی رأس نوبة، ثم ولی نیابة الرّها، ثم عزل بعد سـنین و صار بالقاهرة علی طبلخاناته، إلی أن أنعم علیه الملک الظاهر جقمق، بإمرة مائـة و تقدمـة ألف بالدیار المصـریة، فی أوائل دولته، ثم نقله إلی نیابة حماة بعد سـنین، فلم تطل مدته علی نیابة حماة و عزل و توجه إلی القـدس بطّالا ثم تکلّم فیه، فقبض علیه و حبس مـدة ثم أطلق و أعید إلی القدس بطّالا، إلی أن مات. و کان متوسط السـیرة [غیر أنه کان قصـیرا جـدا] و عنـده سـرعة حرکـة و إقدام، [متوسط السـیرة فی فروسـیته و أفعاله]، و له وجه فی الدول، رحمه اللّه تعالی.

و توفی الأمیر سـیف الدین علی بای من دولات بای العلائی الساقی الأشـرفی، فی یوم الثلاثاء تاسع عشـرین شـهر ربیع الأول، و حضر السلطان الصلاة علیه بمصلاة المؤمنی.

و کان أصله من ممالیک الملک الأشرف برسبای، اشتراه فی سلطنته و ربّاه و أعتقه، و جعله خاصکیا، ثم ساقیا، ثم أمّره عشرة، و جعله خازنـدارا کبیرا، بعـد إینال الأبوبکریّ الأشـرفی، بحکم انتقاله إلی المشدّیّة، بعد قراجا الأشـرفی، بحکم انتقاله إلی تقدمة ألف، و دام علیّ بـای علی ذلـک، إلی أن أنعم علیه الملـک العزیز یوسف بـإمرة طبلخاناة و جعله شادّ الشـراب خاناة، بعـد إینال الأبوبکریّ أیضا، بحکم انتقال [إینال] إلی الدواداریـة الثانیـة، بعـد تمربای التّمربغاوی المنتقل إلی تقدمـة ألف، فلم تطل مـدة علی بای [بعـد ذلک]، و قبض علیه مع من أمسـک من خجداشیّة الأشـرفیة و غیرهم و حبس سـنین، [۲۰۱] ثم أطلق و أنعم علیه بـإمرة بالبلاد الشامیـة، و قـدم القـاهرة، [ثم] حـج و عاد إلی دمشق، ثم قـدم القاهرة ثانیا، و دام بها إلی أن أنعم علیه السـلطان بإمرة عشـرة، و دام علی ذلک إلی أن مات فی التاریخ المذکور. و کان

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۵۴۹

شابا ملیح الشـکل طوالا عاقلا عارفا بأنواع الفروسـیة خصیصا عند أستاذه الملک الأشرف إلی الغایة، لجمال صورته و لحسن سیرته، و أنعم السلطان بإقطاعه بعد موته علی خجداشه تمراز الأشرفی الزّردکاش، فما شاء اللّه کان.

و توفی الشـیخ الإمام العلامة شـهاب الدین أحمد بن محمد بن عبد اللّه بن إبراهیم [ابن أبی نصـر محمد] الدمشـقی الحنفی المعروف

بابن عرب شاه [و بالعجمی أیضا]، فی القاهرة بخانقاه سعید السعداء فی یوم الاثنین خامس عشر شهر رجب، غریبا عن أهله و أولاده. سألته عن مولده فقال: فی لیلة الجمعة داخل دمشق، فی الخامس و العشرین من ذی القعدة سنة إحدی و تسعین و سبعمائة. و نشأ بدمشق و طلب العلم ثم خرج إلی بلاد العجم فی کائنة تیمور و أقام بتلک البلاد سنین کثیرة، ثم رحل إلی الروم، ثم قدم دمشق و تردد إلی القاهرة، إلی أن مات بعد أن ولی عدة وظائف دینیة و ولی قضاء حماة فی بعض الأحیان.

و کان إماما بارعا فی علوم کثیرة مفننا فی الفقه و العربیة، و علمی المعانی و البیان و الأدب و التاریخ، و له محاضرة حسنة و مذاکرة لطیفة مع أدب و سکون و تواضع، و له النظم الرائق الفائق الکثیر الملیح، و کان یقول الشعر الجید باللغات الثلاث:

العربیة و العجمیة و الترکیة، و له مصنّفات کثیرة مفیدة فی غایة الحسن، و لما استجزته کتب لی بخطه بعد البسملة:

«الحمد للّه الذی زیّن مصر الفضائل بجمال یوسفها العزیز، و جعل حقیقة مجاز أهل الفضل، فحلّی به کل مجاز و مجیز، أحمده حمد من طلب إجازة کرمه فاجتاز، و أشکره شکرا أوضح لمزید نعمه علینا سبیل المجاز، و أشهد أن لا إله إلا اللّه وحده

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۵۵۰

لا شریک له، إله یجیب سائله و یثیب آمله، و یطیب لراجیه نائله، و أشهد أن سیدنا محمدا عبده و رسوله، سید من روی عن ربه و من روی عنه، و المقتدی لکل من أخذ عن العلماء ء أخذ منه، صلی اللّه علیه ما رویت الأخبار، و رؤیت الآثار، و ظهرت أذکار الأبرار، فی صحائف اللیل و النهار، و تابعیه و أحزابه، و سلم و کرّم و شرّف و عظّم. أما بعد، فقد أجزت الجناب الکریم العالی ذا القدر المنیف الغالی، و الصدر الذی هو بالفضائل حال، و عن الرذائل خال، المولویّ الأمیریّ الکبیریّ العالیّ العاملیّ الأصیلیّ العریقیّ الفاضلیّ المخدومیّ الجمالیّ، أبا المحاسن، الذی ورد فواضله و فضائله غراس یوسف بن المرحوم المقر الأشرف الکریم العالی المولوی الأمیری الکبیری الأتابکی [المالکی] المخومی السفیری تغری بردی الملکی الظاهری، أعز اللّه جماله، و بلّغه من المرام کماله، و هو ممن تغذّی بلبان. الفضائل، و تربی فی حجر قوابل الفواضل، و جعل اقتناء العلوم دأبه، و وجّه إلی تدین الأحزاب رکابه، و فتح إلی دار الکمالات بابه، و صیّر أحرازها فی خزائن صدره اکتسابه، فجاز بحمد اللّه [تعالی] حسن الصورة و السیرة، و قرّن بضیاء الأسرّة صفاء السریرة، و حوی السماحة و الحماسة و الفروسیة و الفراسة، و لطف العبارة و البراعة، و العرابة و الیراعة و الشهامة و الشجاعة، فهو أمیر الفقهاء، و فقیه الأمراء، و ظریف الأدباء، و أدیب الظرفاء، فمهما تصفه صف و أکثر، فإنه لأعظم مما قلت فیه و أکثر، فأجزت له معوّلا علیه، أحسن اللّه إلیه، أن یروی عنی مالی من منظوم و منثور، و مسموع و مسطور، بشروطه المعتبرة، و قواعده المحررة عموما».

ثم ذکر ماله من تصنیف و تألیف و أسماء مشایخه ببلاد الشرق و بالبلاد الشأمیة،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۵۵۱

و قد ذکرنا ذلک کله برمته فی ترجمته فی تاریخنا «المنهل الصافی و المستوفی بعد الوافی»، أضربنا عن ذکره هنا خوف الإطالة، فکان مما قاله [۲۰۲] فی أواخر هذه الإجازة، من النظم، أبیات مع ما فی اسم یوسف: [الرمل]

وجهک الزاهی کبدر فوق غصن طلعا

و اسمک الزّاکی کمشکا ة سناها لمعا

فی بیوت أذن الا ه لها أن ترفعا

عکسها صحّفه یلفی الحسن فیه أجمعا

و توفی الأمیر سیف الدین جانبک بن عبد اللّه النّوروزی، المعروف بنائب بیروت، بعد أن ابتلی و عزل عن نیابة صهیون، و عاد إلی القاهرة، فمات بالعریش.

و کان أصله من ممالیک الأمیز نوروز الحافظی، و ممن تأمّر- فی دولة الملک الظاهر جقمق- عشرة، ثم خرج إلی البلاد الشأمیة و

صار من [جملة] أمراء طرابلس، ثم ولى نيابة صهيون، فابتلى بداء الأسد، و استعفى. و أراد قدوم القاهرة، فمات فى طريقه، و كان مشهورا بالشجاعة لا بأس به.

و توفى الأمير سيف الدين سودون السّودونى الظاهرى الحاجب، فى يوم الأحد العشرين من شعبان، و هو فى عشر التسعين، و أصله من مماليك [الملك] الظاهر برقوق، ثم تأمّر بعد موت [الملك] الناصر فرج، و صار فى الدولة الأشرفية من جملة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۵۵۲

الحجاب؛ ثم صار حاجبا ثانيا فى الدولة الظاهرية جقمق، و نفى غير مرة، و هو يعود إلى دون رتبته أولا، و لا زال يتقهقر إلى أن صار من جملة الحجاب الأجناد، و كان شيخا مسرفا على نفسه مهملا لم يشهر بتدين و لا شجاعة و لا كرم، عفا اللّه عنه.

و توفى القاضى زين الدين عبد الباسط بن خليل بن إبراهيم الدّمشقى الأصل و المولد و المنشأ المصرى الدار و الوفاة، ناظر الجيوش المنصورة بالديار المصرية، بطالا، بها فى يوم الثلاثاء رابع شوال بداره. فى وقت المغرب بخط الكافورى، و دفن من الغد بتربته التى أنشأها بالصحراء خارج القاهرة [فى قبر عيّنه لنفسه و أسند وصيته قاضى الحنابلة و غيره]. و مولده بعد التسعين [و سبعمائة] أو فى حدودها، و نشأ بدمشق، و خدم القاضى بدر الدين بن الشهاب محمود، و به عرف بين الناس، ثم اتصل بخدمة [الملك] المؤيد شيخ و هو على نيابة دمشق، و لازمه إلى أن قتل الملك الناصر و قدم معه إلى القاهرة، و سكن بالقرب منّا بالسبع قاعات، و هو فقير مملق. فلما تسلطن [الملك] المؤيد شيخ، قرّبه و أدناه، و ولاه نظر الخزانة، فانتقل من داره إلى دار أخرى بالقرب منها، و لما عظم أمره، سألنا فى السّكنى فى بعض دورنا، فأجبناه إلى ذلك، فسكنها عدة سنين، و من يومئذ أخذ أمره فى نمو و زيادة، و عظم فى الدولة، و عمّر الأملاك الكثيرة، ثم أنشأ مدرسته بخط الكافورى تجاه داره، ثم ولى نظر الجيوش المنصورة [بالديار المصرية] بعد عزل المقر الكمالى ابن البارزى فى الدولة الظاهرية ططر، و لما ولى نظر الجيش، بعد ابن البارزى، قال المقريزى، و تمثل بقول أبى العلاء المعرى:

[الطويل]

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۵۵۳

* و يا نفس جدّى إن دهرك هازل * و دام عبد الباسط فى وظيفته نظر الجيش سنين، و عظم فى أوائل الدولة الأشرفية، ثم أخذ أمره فى إدبار عند الأشرف، و هو يحسن سياسته لا يظهر ذلك، و يبذل الأموال فى رضى الأشرف بكل ما تصل قدرته إليه، يعرف قولى هذا من كان له رتبة تلك الأيام و ملازمة بخدمة الملك الأشرف برسباى، مع أنه لم يصف له الدهر فى خصوصيّته عند الأشرف السنة الواحدة، بل كان كلما زال عنه [واحد] انتشأ له آخر، فالأول جانبك الدوادار الأشرفى، كان عبد الباسط و غيره بين يديه كالأغنام فى حضرة الراعى، ثم انتشأ له البدر بن مزهر كاتب السر، فحاشره فيما هو فيه، و ضيّق خناقه، إلى أن مات.

ثم جاءه الصفوىّ جوهر القنقبائى الخازندار، فكان عليه أدهى و أمر، و لا زال به حتى أوقعه فى أمور و غرمات، ثم حمّله الوزر ثم الأستادّاريّة، فلا زال يحجل فى الأستادّارية مع ما يلزمه من الكلف مع ذلك، إلى أن مات الأشرف، و تسلطن ولده الملك العزيز يوسف، فقاسى فى الدولة العزيزية خطوبا من بهدلة المماليك الأشرفية له بكل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۵۵۴

ما تصل قدرتهم إليه، و استعفى فى تلك المدة غير مرة، إلى أن تسلطن الملك الظاهر جقمق، و قبض عليه بعد أشهر و سجنه و صادره، و أبرز ما كان عنده من الكوامن منه فى الأيام الأشرفية، حسبما ذكرناه فى ترجمة الملك الظاهر جقمق، فكان ما لقيه أولا كالمجاز بجنب هذه الحقيقة، [۲۰۳] و لسان حاله ينشد: [الكامل]

ما إن وصلت إلى زمان آخر إلا بكيت على الزمان الأوّل

ثم أطلق عبد الباسط بعد أن حمّل جملة كبيرة من الذهب نحو الثلاثمائة ألف دينار، حررناها فى أصل الترجمة، و توجه إلى الحجاز

ثم إلى دمشق، ثم قدم إلى القاهرة مرة أولى و ثانية، استوطن فيها القاهرة، إلى أن حج ثانيا، و مات فى التاريخ المقدم ذكره.

و كان عبد الباسط مليح الشكل متجملا فى ملبسه و مركبه و حواشيه إلى الغاية، و له مآثر و عمائر فى أقطار كثيرة معروفة به، لا تلتبس بغيره، لأننا لا نعلم من سمى بهذا الاسم قبله، و نالته السعادة، [غيره]. و كان له كرم على أناس، و بخل على غيرهم، و بالجملة أنه كان عدّ بآخرة من الرؤساء الأعيان على شراسة خلق كانت فيه، وحدة، مع طيش و خفة و جبروت و ظلم على مماليكه و أتباعه، مع بذاءة لسان، و سفه زائد، و شمم و جهل مفرط بكل علم و فن إلى الغاية، رحمه اللّه تعالى.

و توفى الأمير سيف الدين أركماس بن عبد اللّه الظاهرى الدوادار الكبير بطّالا، بالقاهرة، فى يوم الجمعة ثامن عشرين شوال، و سنه زيادة على سبعين سنة، و أصله من أصاغر مماليك الظاهر برقوق، و ترقى فى دولة [الملك] الظاهر ططر، و صار نائب قلعة دمشق، إلى أن أنعم عليه الملك الأشرف برسباى [بإمرة مائة] و تقدمة ألف

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۵۵۵

بالديار المصرية، ثم ولاه رأس نوبة النّوب بعد القبض على الأمير تغرى بردى المحمودى، ثم نقله إلى الدوادارية الكبرى بعد [مسك] الأمير أزبك المحمدى و نفيه إلى القدس بطّالا، فدام فى الدوادارية إلى أن عزله الملك الظاهر جقمق، ثم أخرجه بعد مدة إلى دمياط، ثم استقدمه بعد سنين [إلى] مصر فأقام بها بطّالا إلى أن مات.

و كان ساكتا عاقلا قليل الكلام فيما يعنيه و فيما لا يعنيه، متوسط السيرة فى غالب أحواله، كان لا يميل لخير و لا لشر، و لا يتكرم على أحد، و لا يطمع فى مال أحد، و لا ينهر أحدا، و لا يكرم أحدا، و قس على هذا فى غالب أموره، و كان عاريا مهملا منقادا فى أحكامه إلى دواداره و رأس نوبته، و موقّعه، فمهما قالوه طاوعهم، فإن قصدوا الجنة سار معهم، و إن دخلوا النار دخل معهم، و مهما أشاروا عليه به لا يخالفهم، و كان إذا كلمه من لا يعرفه يظنه أنه قدم فى أمسه من بلاد الجاركس، لغتمة كانت فى لسانه باللغة التركية، فلعمرى كيف يكون كلامه باللغة العربية! غير أنه كان متدينا و بعف عن المنكرات و الفروج، رحمه اللّه [تعالى].

و توفى قاضى القضاة ولى الدين محمد بن أحمد بن يوسف [بن حجاج ولى الدين أبو عبد اللّه] السّفطى الشافعى، قاضى قضاة الديار المصرية، و صاحب العظمة فى أوله و الأهوال فى آخره، فى يوم الثلاثاء مستهل ذى الحجة و دفن من الغد بعد أن مرض يوما واحدا؛ و قد تقدم من ذكره و ما وقع له نبذة كبيرة فى ترجمة الملك الظاهر جقمق، تعرّف جميع أحواله بالقرائن، و نذكر الآن من أحواله شيئا يسيرا من أوائل أمره إلى آخره على سبيل الاختصار:

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۵۵۶

كان أصله من سقط الحنّاء بالوجه البحرى من أعمال القاهرة، و نشأ بالقاهرة، و حفظ عدة متون، و طلب العلم، و اشتغل فى مبادئ أمره.

و ناب فى الحكم عن قاضى القضاة جلال الدين البلقينى مدة سنين.

ثم تنزه عن ذلك و تردد إلى الأكابر، و مال إلى طلب الدنيا و تحصيل الدرهم، و اجتهد فى ذلك، مع ما ورثه من أبيه، حتى أثرى و كثر ماله، و صار كلما كثر ماله عظم حرصه؛ إلى أن جاوز الحد من زيادة المال و عظم البخل حتى على نفسه و عياله، و كان دأبه الركوب على فرسه، و التردد إلى الأكابر، لشبع بطنه، فكان من الناس من يأكل عنده و يتوجه إلى حال سبيله، و منهم من كان يأتى عنده، ثم يأخذ بيده صحنا من الطعام و يرسله إلى عياله من غير أن يستقبح ذلك، و شوهد أخذه الطعام من بيت الصاحب بدر الدين بن نصر اللّه ناظر الخاص غير مرة.

فلما تسلطن الملك الظاهر جقمق، ترك السّفطى من دونه، و لزمه، حتى عظم فى الدولة و صار له كلمة نافذة، و عظمة زائدة، و تردد الناس إلى بابه لقضاء حوائجهم فنال بذلك من الوجاهة و جمع المال ما لم ينله [۲۰۴] غيره من أبناء جنسه، كل ذلك و هو على ما هو عليه من الشح و الطمع و سقوط النفس، كما كان أولا و زيادة، فإنه كان أولا لا يتوصل إلى مقصوده من الأخذ إلا بالتملق و

الإطراء و غير ذلك، و قد صار الآن لا يأخذ إلا بالسطوة و المهابة و التهديد، هذا من أعيان الدولة و أكابرها، و أما ما أخذه من الأصاغر، فكان على شبه أخذ الجالية.

ثم تولى من الوظائف عدة كبيرة، مثل نظر الكسوة، و وكالة بيت المال، على ما كان بيده من مشيخة الجماليّة، و غيرها من الوظائف الدينية.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۵۵۷

ثم ولى نظر البيمارستان المنصورى، و تدريس قبة الإمام الشافعى رضى اللّه عنه. و لما انتهى أمره، تولى قضاء الشافعية بالديار المصرية. بعد عزل قاضى القضاة شهاب الدين أحمد بن حجر فى يوم الخميس رابع ذى القعدة من سنة إحدى و خمسين و ثمانمائة، فأساء السيرة فى ولايته، لا سيما على الفقهاء و مباشرى الأوقاف، فإنه زاد و أمعن فى أذاهم و بهدلتهم بالضرب و الحبس و التراسيم، و قطع معاليم جماعة كبيرة من الطلبة المرتبة على الأوقاف الجارية تحت نظره.

و لقى الناس منه شدائد كثيرة، و صار لا يمكن المرضى من دخول البيمارستان للتمرّض به، إلا برسالة، ثم يخرج المريض بعد أيام قليلة. و أظهر فى أيام عزه و ولايته من شراسة الخلق وحدة المزاج و البطش و بذاءات اللسان أمورا يستقبح ذكرها، هذا مع التعبد و الاجتهاد فى العبادة ليلا و نهارا، من تلاوة القرآن، و قيام الليل و التعفف عن المنكرات و الفروج، حتى أنه كان فى شهر رمضان، يحتم القرآن الكريم كل ليلة فى ركعتين، و أما سجوده و تضرعه فكان إليه المنتهى. و كانت له أوراد هائلة دواما، فكان بمجرد فراغه من ورده يعود إلى تسليطه على خلق اللّه و عباده، [و] لا زال على ذلك حتى نفرت القلوب منه، و كثر الدّعاء عليه، حتى لقد شاهدت بعض الناس يدعو عليه فى الملتزم بالبيت العتيق فى هدوء الليل.

فلما زاد ذلك منه، سلّط اللّه عليه أقلّ خلقه، أبا الخير النحاس، مع توغر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۵۵۸

[خاطر] السلطان عليه فى الباطن، فلا زال أبو الخير يذكر للسلطان مساوئه، و يعرفه معايبه، إلى أن كان من أمره ما ذكرناه فى أصل هذه الترجمة، من العزل و المصادرة و الحبس بالمقشرة، و الاختفاء المدة الطويلة، ثم ظهوره بعد نكبة النحاس، إلى أن مات، عفا اللّه عنه. و قد ذكرنا أحواله فى تاريخنا «حوادث الدهور فى مدى الأيام و الشهور» مفصلا باليوم و الوقت، و ذكرناه أيضا فى «المنهل الصافى»، بأطول من هذا، فلينظر هناك.

و توفى العلامة قاضى القضاة بهاء الدين أبو البقاء محمد بن قاضى القضاة شهاب الدين أحمد بن الشيخ الإمام العلامة ضياء الدين محمد بن محمد بن سعيد بن عمر بن يوسف ابن إسماعيل الصّاغانى الأصل، المكى المولد و الدار و الوفاة، الحنفى المذهب، قاضى قضاة مكة و عالمها و مفتيها و مصنفها، فى تاسع عشرين ذى القعدة. و تولى أخوه أبو حامد القضاء من بعده، و كان مولد القاضى بهاء الدين فى ليلة التاسع من محرم سنة تسع و ثمانين و سبعمائة بمكة، و نشأ بها و طلب العلم، و اشتغل حتى برع فى عدة علوم، و أفتى و درّس [و صنّف] و أفنى عمره فى الاشتغال و الإشغال.

حكى لى الشيخ أبو الخير بن عبد القوى، قال: أعرف القاضى بهاء الدين نحو الخمسين سنة، و أزيد، ما دخلت إليه فيها إلا وجدته إما يكتب، أو يطالع، رحمه اللّه [تعالى].

و توفى الأمير سيف الدين تغرى برمش بن عبد اللّه الزّردكاش اليشبكى،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۵۵۹

أحد أمراء الطبلخانات، و زردكاش السلطان بمكة، فى أواخر هذه السنة، و سنّه نيف على الثمانين سنة، و خلّف مالا كبيرا و أملا كا كثيرة و دورا معروفة بأملاك الزّردكاش، و كان توجّه إلى مكة المشرفة مجاورا، و أصله من مماليك الأمير يشبك ابن أزدمر، و ترقى من بعده حتى صار أمير عشرة، ثم زردكاشا فى الدولة الأشرفية برسباى، و دام على ذلك إلى أن أنعم عليه الملك الظاهر جقمق

بزيادة على إقطاعه، و جعله من [جملة] أمراء الطّبلخانات؛ إلى أن مات. و كان مسرفا على نفسه [ضخما مثريا بخيلا]، غير أن له غزوات كثيرة فى الفرنج؛ و مات بتلك البقعة الشريفة، فلعل اللّه يغفر له ذنوبه بمنه و كرمه.

أمر النيل فى هذه السنة: الماء القديم: ستة أذرع و خمسة عشر [۲۰۵] أصبعا؛ مبلغ الزيادة: خمسة عشر ذراعا و سبعة أصابع و هى سنة الشراقى العظيم.

(تم الجزء الخامس عشر من كتاب النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى و يليه الجزء السادس عشر من الكتاب)

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۵۶۱

فهرس

اشارة

الجزء الخامس عشر من كتاب النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۵۶۳

اشارةالملوک و السلاطين الذين تولوا مصر من سنة ۸۳۶- ۸۵۴ ه

۱- السلطان الملك الأشرف برسباى الدّقماقى و سنوات حكمه (من ۸۲۵ إلى ۸۴۱ ه)

۲- السلطان الملك العزيز يوسف بن برسباى و سنوات حكمه (من ۸۴۱ إلى ۸۴۲ ه)

۳- السلطان الملك الظاهر أبو سعيد جقمق العلائى و سنوات حكمه (من ۸۴۲ إلى ۸۵۷ ه)

***

الخلفاء العباسيون المعاصرون

۱- المعتضد بالله داود بن المتوكل على اللّه و سنوات خلافته (من ۸۱۵ إلى ۸۴۵ ه)

۲- المستكفى بالله سليمان بن المتوكل على اللّه و سنوات خلافته (من ۸۴۵ إلى ۸۵۵ ه)

۳- القائم بأمر اللّه حمزة بن المتوكل على اللّه و سنوات خلافته (من ۸۵۵ إلى ۸۵۹ ه)

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۵۶۴

فهرس الأعلام

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۵۶۵

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۵۶۹

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۵۷۱

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۵۷۲

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۵۸۱

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۵۹۳

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۶۰۵

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۶۰۶

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۶۰۷

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۶۰۸

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۶۱۰

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۶۱۲

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۶۱۳

فهرس الأمم و القبائل و البطون و العشائر و الأرهاط و الطوائف و الجماعات

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۶۱۴

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۶۱۵

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۶۲۶

فهرس البلاد و الأماکن و الأنهار و الجبال و غیر ذلک

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۶۳۶

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۶۳۷

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة؛ ج۱۵؛ ص۶۳۷

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۶۳۸

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۶۳۹

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۶۴۳

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۶۴۴

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۶۴۵

القاعة الکبری بالدور السلطانیة ۴۰۶: ۱

قالیقلا ۷۰: ۲۲، ۲۴

قالیقوط ۳۳۹: ۱۴

القاهرة ۷: ۶، ۲۰- ۹: ۲، ۴، ۹- ۱۰: ۶- ۳۴: ۱۱، ۱۵- ۳۵: ۱۲- ۳۶: ۴، ۸- ۳۸: ۱۵- ۴۸: ۷- ۵۳: ۱۰- ۵۵: ۵- ۵۷: ۲- ۵۹: ۱۸- ۶۰: ۴-

۴- ۶۴: ۱۸- ۶۶: ۶، ۱۳- ۷۰: ۸- ۷۲: ۶، ۱۱- ۷۶: ۳- ۷۷: ۲- ۷۸: ۴- ۸۰: ۱۳- ۸۱: ۱۱- ۸۵: ۵- ۸۶: ۵، ۸- ۸۷:

۵، ۱۰- ۹۰: ۱۷- ۹۱: ۱۰، ۲۰- ۹۲:

۱۸- ۹۳: ۱۲- ۹۴: ۴- ۱۰۴: ۱۷- ۱۰۵: ۶- ۱۰۷: ۵- ۱۱۸: ۹- ۱۱۹:

۱- ۱۲۲: ۶- ۱۲۵: ۱- ۱۲۶: ۱۷- ۱۲۷: ۴، ۶- ۱۲۸: ۱۰، ۱۳- ۱۲۹:

۱۸- ۱۳۱: ۸، ۲۱- ۱۳۲: ۶- ۱۳۵:

۱، ۱۵- ۱۳۶: ۱، ۹- ۱۳۷: ۲- ۱۴۳:

۹- ۱۴۵: ۱۲- ۱۴۶: ۲- ۱۵۱: ۱۲- ۱۵۳: ۷- ۱۵۴: ۲، ۱۰، ۱۵- ۱۵۶:

۶، ۱۵- ۱۵۶: ۶، ۱۵- ۱۵۷: ۳- ۱۶۲:

۳- ۱۶۴: ۳- ۱۶۶: ۴- ۱۶۷: ۱۳- ۱۶۹: ۳، ۱۰- ۱۷۰: ۵- ۱۷۲: ۷، ۱۰- ۱۸۳: ۱۹، ۲۰، ۲۵- ۱۸۴: ۱۲، ۱۴- ۱۸۸: ۷- ۱۹۸: ۱۴- ۱۹۹:

۱۵- ۲۰۵: ۱۹، ۲۰- ۲۰۶: ۱۴- ۲۰۷: ۱۱، ۱۳- ۲۰۸: ۲- ۲۱۵: ۱۰- ۲۱۶: ۱۲، ۱۳- ۲۱۷: ۱۲- ۲۱۸: ۴، ۵، ۱۳- ۲۱۹: ۱۳- ۲۲۱: ۷-

۲۲۲: ۱۲- ۲۲۴:

۶- ۲۳۰: ۱۲- ۲۳۲: ۸، ۱۵- ۲۳۷:

۲۲- ۲۴۰: ۱۵- ۲۴۴: ۱۳- ۲۴۶:

۱۰، ۱۵- ۲۴۹: ۱۷- ۲۵۴: ۱۶- ۲۵۸:

۷- ۲۶۱: ۶، ۱۳- ۲۶۲: ۱۷- ۲۶۳:

۱۳- ۲۶۹: ۲۳- ۲۷۲: ۸- ۲۷۳: ۱۰- ۲۷۷: ۱۸- ۲۷۸: ۱۷- ۲۸۶: ۹- ۲۸۷:

۷- ۲۹۰: ۱۸- ۲۹۴: ۱۹- ۲۹۶: ۱۲- ۳۰۰: ۴، ۱۲، ۱۵، ۱۹- ۳۰۲: ۵- ۳۰۳: ۲- ۳۰۴: ۱۱- ۳۰۸: ۱۵- ۳۰۹:

۱۵، ۱۸- ۳۱۰: ۲، ۱۱- ۳۱۱: ۱۲- ۳۱۲: ۱۷، ۱۹- ۳۱۳: ۱۶- ۳۲۹: ۱۵، ۲۰- ۳۳۵: ۱۳، ۱۵، ۱۹- ۳۳۸: ۱- ۳۴۰: ۹- ۳۴۲: ۵، ۶، ۱۰-

۳۴۳: ۳-

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۶۴۶

۳۴۴: ۱۸- ۳۴۵: ۱۵- ۳۴۷: ۴، ۱۱- ۳۴۸: ۳، ۱۰- ۳۴۹: ۶، ۱۶، ۱۷، ۳۵۰: ۱، ۱۳- ۳۵۱: ۲- ۳۵۳: ۴- ۳۵۶: ۲، ۱۴- ۳۵۷: ۲، ۷- ۳۵۸:

۴- ۳۵۹: ۱- ۳۶۰: ۴- ۳۶۳: ۳، ۶، ۱۳- ۳۶۴: ۴، ۷- ۳۶۷: ۲، ۲۱- ۳۶۸:

۱۵، ۲۰- ۳۷۰: ۲۱- ۳۷۱: ۱۱، ۱۲- ۳۷۲: ۱۱- ۳۷۶: ۱۸- ۳۷۸: ۷- ۳۷۹:

۴- ۳۸۱: ۲۴- ۳۸۲: ۱۵، ۱۹- ۳۸۸: ۲- ۳۸۹: ۹- ۳۹۱: ۱۱- ۳۹۲: ۸- ۳۹۴:

۱۲- ۳۹۷: ۱۸- ۳۹۸: ۲، ۹، ۱۳- ۳۹۹: ۱۵- ۴۰۰: ۸- ۴۰۱: ۴، ۱۰- ۴۰۳: ۵، ۸، ۱۲- ۴۰۴: ۲- ۴۰۵: ۱۳، ۱۸- ۴۰۶: ۱۳- ۴۰۷: ۱، ۳،

۱۲، ۱۸- ۴۰۸: ۱- ۴۰۹: ۱۰- ۴۱۱: ۱۶- ۴۱۳: ۱، ۹- ۴۱۴: ۳- ۴۱۵: ۷، ۱۳- ۴۱۶: ۱۹- ۴۱۸: ۷- ۴۲۱: ۱- ۴۲۲: ۱۸- ۴۲۳: ۲۰- ۴۲۴:

۶- ۴۳۲: ۱۴- ۴۳۴: ۴، ۹، ۱۶- ۴۳۵: ۴- ۴۳۶: ۹- ۴۴۰: ۴، ۱۱- ۴۴۱: ۱- ۴۴۲: ۵- ۴۴۳: ۴- ۴۴۴:

۶، ۱۱- ۴۴۶: ۱۶- ۴۴۷: ۹، ۱۵- ۴۴۸: ۱۳- ۴۵۲: ۳- ۴۵۵: ۱۶- ۴۶۲:

۸- ۴۶۳: ۱۱- ۴۶۶: ۸- ۴۶۷: ۴، ۱۵- ۴۶۸: ۱، ۱۷- ۴۷۲: ۱۸- ۴۷۶:

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۶۴۷

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۶۴۹

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۶۵۴

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۶۵۷

فهرس الألفاظ الاصطلاحیة و أسماء الوظائف و الرتب و الألقاب التی کانت مستعملة فی عصر المؤلف

(وظائف أمراء الطبلخاناه: ص ۲۲۳)

أمير عشرة، أمراء عشرات ۸: ۹- ۹: ۴، ۸- ۱۹: ۹- ۳۳: ۱۵- ۵۰: ۲- ۷۲: ۵- ۷۹: ۱۲- ۸۱: ۳- ۸۷:

۱- ۱۰۶: ۱۸- ۱۵۷: ۱۲- ۱۸۱: ۱۹- ۱۹۹: ۱۰- ۲۰۵: ۶، ۱۴- ۲۰۷: ۱۱- ۲۱۷: ۱۷- ۲۲۳: ۱۰، ۱۴، ۱۹، ۲۰، ۲۲- ۲۲۷: ۱۱- ۲۲۹: ۱۶-

۲۳۱: ۱۶- ۲۳۲: ۹- ۲۳۵: ۱۸- ۲۴۶: ۵، ۶، ۷، ۱۷- ۲۶۲: ۱۵، ۱۷- ۲۶۳: ۱- ۲۶۶:

۸ ۹- ۲۷۰: ۳، ۱۰- ۲۷۶: ۱۹- ۲۷۷:

۱۰- ۲۷۹: ۱۱، ۱۳- ۲۸۶: ۱۸- ۲۸۷:

۴- ۲۹۰: ۱۷- ۲۹۱: ۲۰- ۳۰۱: ۲-

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۶۶۳

۳۰۵: ۲۰- ۳۱۴: ۱۱، ۱۶- ۳۱۸: ۱۶- ۳۳۰: ۳- ۳۳۲: ۱۲، ۱۵- ۳۳۳: ۱۲- ۳۳۷: ۱۸- ۳۴۰: ۱۵- ۳۴۶: ۱۸- ۳۷۸:

۳۴۷: ۱- ۳۴۹: ۱۴- ۳۵۰: ۱۲- ۳۵۱:

۳، ۶- ۳۵۴: ۱۴- ۳۵۸: ۱۰- ۳۶۰:

۹- ۳۶۳: ۸- ۳۶۸: ۹- ۳۷۲: ۲، ۹، ۱۳- ۳۷۸: ۷، ۱۸- ۳۷۹: ۱۳، ۱۸- ۳۸۲: ۱۹- ۴۰۹: ۶- ۴۳۰: ۲- ۴۳۳:

۱۰- ۴۳۴: ۷- ۴۳۵: ۷- ۴۳۸: ۲۰- ۴۴۹:

۲- ۴۵۱: ۱، ۴، ۱۰- ۴۷۸: ۱۴- ۴۸۵:

۶- ۴۹۶: ۵- ۴۹۷: ۸، ۱۱، ۱۶- ۵۲۰:

۵- ۵۲۶: ۱۲، ۱۵- ۵۳۲: ۹- ۵۴۰:

۸- ۵۴۲: ۱۹- ۵۵۹: ۴

أمير عشرين ۳۷۲: ۲۲

الأمير الكبير، أكابر الأمراء ۱۱: ۱۰، ۱۱- ۴۱: ۱، ۴- ۵۷: ۳- ۶۵:

۱، ۱۱- ۷۶: ۴- ۱۰۳: ۳، ۱۱- ۱۰۵:

۵، ۱۵، ۱۹- ۱۰۶: ۱، ۶، ۱۴- ۱۸۷:

۱۵- ۲۲۳: ۲- ۲۲۷: ۷- ۲۲۸: ۷- ۲۳۳: ۹، ۱۲- ۲۳۵: ۸، ۹، ۱۷- ۲۳۶:

۶- ۲۳۷: ۲، ۳، ۷، ۱۲، ۱۳- ۲۳۸:

۵، ۸- ۲۳۹: ۱، ۳، ۸، ۱۵، ۱۷- ۲۴۰:

۳، ۵، ۱۰، ۱۳، ۱۵- ۲۴۱: ۲۳، ۱۵- ۲۴۲: ۱۰، ۱۴- ۲۴۳: ۱، ۴، ۶، ۱۰- ۲۴۵: ۲- ۲۴۶: ۱۶، ۲۱- ۲۴۷: ۲، ۷، ۱۰- ۲۴۸: ۳، ۹، ۱۳، ۱۷،

۲۲- ۲۴۹:

۱- ۲۵۰: ۲، ۸، ۱۱، ۱۳- ۲۵۲: ۱، ۸، ۱۱- ۲۵۳: ۹- ۲۵۴: ۸- ۲۵۶: ۱۲، ۱۳- ۲۹۰: ۹- ۳۶۹: ۱۱- ۳۷۵: ۱۱- ۴۱۲: ۹، ۱۳، ۱۶- ۴۴۸:

۱۴- ۵۰۹:

۱۶

أمير مائة و مقدم ألف ۱۵: ۱۹- ۱۱۴: ۱۰- ۱۱۷: ۱۵- ۱۳۰: ۱۰- ۱۵۰: ۷- ۱۵۷: ۱۰، ۱۴- ۱۶۰: ۱، ۱، ۱۵- ۱۸۴: ۱۲- ۱۸۸: ۷- ۲۰۵:

۸ ۱۰- ۲۱۱: ۱۲- ۳۵۰: ۱۳- ۳۶۹: ۱۷- ۴۶۳:

۱۲- ۴۶۷: ۷- ۴۷۸: ۴- ۴۸۴: ۱۸- ۵۲۱: ۱۲، ۱۴

أمير مجلس ۹: ۲- ۳۹: ۷، ۱۲، ۱۹- ۴۰: ۳، ۵- ۹۰: ۴- ۱۲۲: ۴- ۱۳۵: ۳- ۱۳۷: ۸- ۱۵۳: ۱۰- ۱۶۰: ۱۵- ۱۸۸: ۸- ۲۲۳:

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۶۶۴

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۶۷۶

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۶۷۷

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۶۷۸

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۶۸۱

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۶۸۲

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۶۸۸

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة؛ ج۱۵؛ ص۶۸۸

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۶۹۴

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۶۹۷

نيابة حمص ۵۷: ۱

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۶۹۸

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۶۹۹

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۷۰۰

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۷۰۱

فهرس وفاء النيل من سنة ۸۲۵ ه- ۸۵۴ ه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۷۰۲

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۷۰۳

فهرس أسماء الكتب الواردة بالمتن و الهوامش

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۷۰۴

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۷۱۰

المراجع التی اعتمد علیها المحقق

أ المراجع العربیة:

۱- ابن أبی الفضائل (المفضل القبطی):

النهج السدید و الدر الفرید فیما بعد تاریخ ابن العمید (و یشمل من سنة ۶۵۸ ه إلی ۷۴۱ ه، و له ترجمة فرنسیة)- باریس ۱۹۱۲

۲- ابن إیاس (أبو البرکات محمد بن أحمد. ت ۹۳۰ ه):.

۱- نشق الأزهار فی عجائب الأقطار- باریس ۱۸۰۰ ۲- بدائع الزهور فی وقائع الدهور فی ثلاثة مجلدات- المطبعة الأمیریة ۱۳۱۱ ه

۳- ابن تغری بردی (أبو المحاسن یوسف. ت ۸۷۴ ه):

۱- النجـوم الزاهرة فی ملـوک مصر و القـاهرة (ا) الأـجزاء المطبوعـة (إلی الجزء الثـانی عشـر)، نشـر دار الکتب المصـریة (ب) نسـخة کالیفورنیا، تحقیق ولیام بوبرW.PIPPER (کالیفورنیا ۱۹۲۰- ۱۹۲۳، ۱۹۲۶)

۲- المنهل الصافی و المسـتوفی بعـد الوافی (۱) الجزء الأول، تحقیق الأسـتاذ أحمـد یوسف نجاتی (نشـر دار الکتب المصـریة ۱۳۷۵/ ۱۹۵۶) (ب) الأجزاء المخطوطة (ثلاثة أجزاء)

۳- حوادث الـدهور فی مـدی الأیام و الشـهور (مخطوط) (یبدأ من حوادث ۸۴۵ ه و ینتهی بحـوادث ۸۶۱ ه و هو غیر کامـل) (توجد نسخة مطبوعة نشرها بوبرW.POPPER لکنها غیر کاملـة، فهی منتخبات من التراجم التی لم یـذکرها المؤلف فی کتاب النجوم- فی أربعة أجزاء- طبعة کالیفورنیا ۱۹۳۰)

۴- ابن الجیعان (شرف الدین أبو البقاء یحیی. ت ۹۰۰ ه):

التحفة السنیة بأسماء البلاد المصریة نشر ب. موریتزB.MORITZ (بولاق ۳۱۶ ه/ ۱۸۹۸)

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۷۱۱

۵- ابن حبیب (الإمام الحسن بن عمر. ت ۷۷۹ ه):

درة الأسلاک فی دولة الأتراک (مخطوط فی ثلاثة مجلدات)

۶- ابن حجر (شهاب الدین أحمد. ت ۸۵۲ ه):

۱- إنباء الغمر بأبناء العمر (مخطوط فی مجلدین) ۲- الدرر الکامنة فی أعیان المائة الثامنة (حیدر أباد ۱۳۴۸ ه)

۷- ابن حزم (أبو محمد علی بن أحمد بن حزم. ت ۴۵۶ ه):

الفصل فی الملل و الأهواء و النحل، فی خمسة أجزاء (مصر ۱۳۱۷ ه)

۸- ابن خلدون (عبد الرحمن. ت ۸۰۸ ه):

۱- تاریخه المعروف بالعبر و دیوان المبتدأ و الخبر، فی سبعة أجزاء (مصر ۱۲۸۴ ه) ۲- المقدمة (مصر ۱۹۵۷)

۹- ابن دقماق (غرس الدین إبراهیم بن محمد. ت ۸۰۹ ه):

۱- نزهة الأنام فی تاریخ الإسلام (مخطوط فی مجلدین) ۲- الجوهر الثمین فی سیر الملوک و السلاطین (مخطوط فی مجلدین) ۳- الانتصار لواسطة عقد الأمصار المطبوع منه ح ۴، ح ۵ (مصر ۱۳۰۹ ه)

۱۰- ابن زنبل الرمال (أحمد بن علی نور الدین المحلی الشافعی. ت ۹۶۰ ه):

تاریخ السلطان سلیم خان و فتح مصر (مصر ۱۲۷۸ ه)

۱۱- ابن شاهین (غرس الدین خلیل بن شاهین الظاهری. ت ۸۷۲ ه):

؟؟؟ عدة کشف الممالک و بیان الطرق و المسالک، فی مجلد (باریس ۱۸۹۴)

۱۲- ابن الشدیاق (الشیخ ابن یوسف الشدیاق الحدثی المارونی. ت ۱۸۵۹):

أخبار الأعیان فی جبل لبنان (بیروت ۱۸۵۹)

۱۳- ابن عبد الظاهر (محیی الدین عبد اللّه ت ۶۹۲ ه):

الألطاف الخفیة من السیرة الشریفة السلطانیة الملکیة الأشرفیة.

(و هی سیرة السلطان خلیل بن قلاوون)- (طبع لیبسک)

۱۴- ابن عربشاه (شهاب الدین أحمد بن محمد بن عبد اللّه. ت ۸۵۴ ه):

عجائب المقدور فی أخبار تیمور (مصر ۱۳۰۵ ه)

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۷۱۲

۱۵- ابن العماد الحنبلی) أبو الفلاح عبد الحی. ت ۱۰۸۹ ه):

شذرات الذهب فی أخبار من ذهب، فی ۸ مجلدات (مصر ۱۳۵۰ ه)

۱۶- ابن الفرات (ناصر الدین محمد. ت ۸۰۷ ه):

تاریخ الدول و الملوک، المجلد التاسع فی جزءین (نشر الدکتور قسطنطین بالجامعة الإمریکیة ببیروت- بیروت ۱۹۳۶)

۱۷- ابن القلاسی (أبو یعلی. ت ۵۵۵ ه) ذیل تاریخ دمشق (بیروت ۱۹۰۸)

۱۸- ابن مماتی (القاضی الوزیر شرف الدین أبو المکارم بن أبی سعید. ت ۶۰۶ ه):

قوانین الدواوین (نشر الدکتور عطیة سوریال، مصر ۱۹۴۳)

۱۹- ابن نجیم (زین الدین إبراهیم. ت ۹۷۰ ه):

رسالة فی بیان الإقطاعات و محلها و من یستحقها (مخطوطة)

۲۰- ابن یحیی (الأمیر صالح أمیر العزب من علماء القرن التاسع الهجری):
تاریخ بیروت و أخبار الأمراء البحتریین (نشره الأب لویس شیخو الیسوعی- بیروت ۱۹۲۷)
۲۱- الجبرتی (عبد الرحمن. ت حوالی ۱۲۳۷ ه):
عجائب الآثار فی التراجم و الأخبار، فی أربعهٔ مجلدات (مصر ۱۳۲۲ ه)
۲۲- أحمد أمین:
۱- فجر الإسلام فی مجلد (مصر ۱۹۲۸) ۲- ضحی الإسلام فی ثلاثهٔ مجلدات (مصر ۱۹۳۶)
۲۳- الخطیب:
شرح الخطیب المسمی الإقناع فی حل ألفاظ أبی شجاع (فقه شافعی فی جزءین- مصر ۱۳۴۴ ه)
۲۴- زیادهٔ (الدکتور محمد مصطفی):
۱- المحاولات الحربیهٔ للاستیلاء علی رودس زمن سلاطین الممالیک فی القرن الخامس عشر (ترجمهٔ منصور و الشیال- مجلهٔ الجیش- مصر ۱۹۴۶) ۲- المؤرخون فی مصر فی القرن الخامس عشر المیلادی (مصر ۱۹۴۹)
۲۵- السبکی (تاج الدین عبد الوهاب. ت ۷۷۱ ه):
معید النعم و مبید النقم (مصر ۱۳۴۹ ه)
النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۷۱۳
۲۶- السخاوی (شمس الدین محمد بن عبد الرحمن. ت ۹۰۲ ه):
۱- التبر المسبوک فی ذیل السلوک فی مجلد (مصر ۱۸۹۶) ۲- الضوء اللامع فی أعیان القرن التاسع فی ۱۲ مجلدا (مصر ۱۹۵۴)
۲۷- السیوطی (عبد الرحمن بن أبی بکر جلال الدین. ت ۹۱۱ ه):
۱- حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة فی جزءین (مصر ۱۳۲۷ ه) ۲- تاریخ الخلفاء و أمراء المؤمنین القائمین بأمر اللّه (مصر ۱۳۵۱ ه- له ترجمهٔ إنجلیزیهٔ)
۲۸- الشهرستانی (أبو الفتح محمد بن عبد الکریم. ت ۵۴۸ ه):
الملل و النحل- فی خمسهٔ أجزاء (مصر ۱۳۱۷ ه) و بهامش ابن حزم، و نشر محمد فتح اللّه بدران (مصر ۱۹۴۷)
۲۹- الشیزری (عبد الرحمن بن نصر):
نهایهٔ الرتبهٔ فی طلب الحسبهٔ نشر الدکتور الباز العرینی (مصر ۱۹۴۶)
۳۰- الصفتی (الشیخ عیسی):
عطیهٔ الرحمن فی صحهٔ إرصاد الجوامک و الأطیان، فی مجلد (مصر ۱۳۱۴ ه)
۳۱- طرخان (الدکتور إبراهیم علی):
۱- الإسلام و الممالک الإسلامیهٔ بالحبشهٔ فی العصور الوسطی (مجلهٔ الجمعیهٔ المصریهٔ للدراسات التاریخیهٔ- العدد الثامن، ۱۹۵۹) ۲- تاکیتوس Tacitus و الشعوب الجرمانیهٔ (مصر ۱۹۵۹) ۳- مصر فی عصر السلاطین الجراکسهٔ (۱۳۸۲- ۱۵۱۷ م)- مصر ۱۹۵۹
۳۲- العمری (شهاب الدین أحمد بن یحیی بن فضل اللّه ت ۷۴۹ ه):
۱- مسالک الأبصار (الجزء الأول مطبوع بتحقیق أحمد زکی باشا ۱۳۴۲ ه- ۱۹۲۴ م، و بقیهٔ أجزائه لم تزل مخطوطهٔ) ۲- التعریف بالمصطلح الشریف (مصر ۱۳۱۲ ه)
۳۳- العینی (بدر الدین محمود. ت ۸۵۵ ه):
عقد الجمان (مخطوط فی ۲۳ جزءا، ۶۹ مجلدا)

۳۴- الغزالی (أبو حامد محمد بن محمد بن محمد ت ۵۰۵ ه):

کتاب إحیاء علوم الدین (فی مجلدین، مصر ۱۲۸۹ ه)

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۷۱۴

۳۵- ثان ثلوتن G.VAN VLOTEN:

السیادة العربیة و الشیعة و الإسرائیلیات فی عهد بنی أمیة (ترجمة الدکتور حسن إبراهیم و محمد زکی إبراهیم- مصر ۱۹۳۳)

۳۶- القدسی (محمد أبو اسحاق، من علماء القرن التاسع الهجری):

دول الإسلام الشریفة البهیة و ذکر ما ظهر لی من حکم اللّه الخفیة فی جلب طائفة الأتراک إلی الدیار المصریة.

(فرغ من تألیفه ۸۸۱ ه و رفعه إلی الأمیر یشبک الدوادار زمن السلطان قایتبای)- مخطوط.

۳۷- القرمانی (أبو العباس أحمد بن یوسف. ت ۹۳۹ ه):

أخبار الدول و آثار الأول (بغداد ۱۲۸۲ ه)

۳۸- القلقشندی (أبو العباس أحمد بن علی. ت ۸۲۱ ه):

صبح الأعشی فی صناعة الإنشاء (فی ۱۴ مجلدا نشر دار الکتب المصریة ۱۹۱۳- ۱۹۱۷)

۳۹- الکرملی (الأب أنستاس):

النقود العربیة و علم النمیات (مصر ۱۹۳۹)

۴۰- المقریزی (تقی الدین أحمد بن علی. ت ۸۴۵ ه):

۱- المواعظ و الاعتبار بذکر الخطط و الآثار (فی مجلدین- بولاق ۱۲۷۰ ه) ۲- النقود الإسلامیة (ضمن ثلاث رسائل- القسطنطینیة ۱۲۹۸ ه/ ۱۸۸۱ م) ۳- الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوک الإسلام (مصر ۱۸۹۵ م) ۴- البیان و الإعراب عمن بأرض مصر من الأعراب (نشر إبراهیم رمزی- مصر ۱۹۱۶)

۵- إغاثة الأمة بکشف الغمة (نشر زیادة و الشیال- مصر ۱۹۴۰)

۶- السلوک لمعرفة دول الملوک (نشر الدکتور محمد مصطفی زیادة- وصل إلی نهایة الجزء الثانی فی سنة مجلدات، و صدر القسم الثالث من الجزء الثانی، و هو نهایة ذلک الجزء، عام ۱۹۵۸ م، و ینتهی هذا الجزء بحوادث السنة الخامسة و الخمسین بعد السبعمائة من الهجرة)

۷- الأجزاء المخطوطة من السلوک

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۷۱۵

۴۱- نظیر (الدکتور نظیر السعداوی):

نظام البرید فی الدولة الإسلامیة (مصر ۱۹۵۳)

۴۲- النویری (شهاب الدین أحمد بن عبد الوهاب. ت ۷۳۳ ه):

نهایة الأرب فی فنون الأدب (و یقع فی ثلاثین جزءا مخطوطة بدار الکتب، نشرت منها الدار ۱۸ جزءا)

ب المراجع الأجنبیة:

۱. ALASTRO، D.، Cyprus in History(Lond.، ۵۵۹۱)۲. ARTIN، Y.، Contriution a l'Etude du Blazon en Orient.) Lond.، ۲۰۹۱ (. ۳. BARKER، E.، The Crusades) Lond.، ۵۲۹۱

(له ترجمة عربیة أخرجها الدکتور الباز العرینی- مصر ۱۹۶۰)

۴. BUDGE، Sir E. A. W.، A Hietory of Ethiopia، Nubia and Abyssinia Vol. I(Lond.، ۸۲۹۱).

۵. GANSHOFF، F. L. feudalism(Lond، ۱۹۵۰).
۶. KAMMERER، A.، Essai sur L'Histoire Antique d'Abyssinie(Paris، ۱۹۲۶).
۷. LA MONTE، J. L.، Feudal Monarchy in the Latin Kingdom of Jeru- salem، ۱۱۰۰-۱۲۹۱.(Cambr. Mass.، ۱۹۳۲).
۸. LANE- POOLE، S.،(۱)History of Egypt in the Middle Ages،) Lond.، ۱۹۲۵ (.
(۲)۱۹۲۵ The Muhammadan Dynasties) Paris، (.
۹. MALCOLM، Sir J.، The History of Persia(OXf.، ۱۹۳۳).
۱۰. MAYER، L. A.، Saracenic Heraldry(Oxf. ۱۹۳۳)
۱۱. POLIAK، A. N.،(۱)Les Revoltes Populaires en Egypte a L'Epoque des Mamlukes et leurs
۱۹۳۴ Causes Economiques) Ex ۱ trait de la Revue des Etu des Islamiques، (.
(۲)۱۹۳۹ Feudalism in Egypt، Syria، Palestine and Le- banon، ۱۲۵۰- ۱۹۰۰،) Lond.، (.
۱۲. RUNCIMAN، S.، A History of the Crusades، ۳ Vols.،(Cambr.، ۵۴ -۱۹۵۱).
۱۳. SYKES، Sir، P. M.، History of Persia(Lond.، ۱۹۱۵).
۱۴. TRIMMINGHAM، J. S.، Islam in Ethiopia(Oxf.، ۱۹۵۲).
۱۵. WIET، G.، L'Egypte Arabe(Historie de la Nation Egyptienne، T. II)) Paris، ۱۹۳۷ (.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۷۱۶

ج المعاجم:

۱- ابن منظور (جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقى المصرى):

لسان العرب

۲- البشارى (شمس الدين أبو عبد اللّه محمد بن أحمد):

أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم (ليدن ۱۸۷۷)

۳- البكرى (أبو عبيد اللّه عبد اللّه بن عبد العزيز البكرى الأندلسى. ت ۴۸۷ ه):

معجم ما استعجم من أسماء البلاد و المواضع (تحقيق الأستاذ مصطفى السقا- مصر ۱۳۶۸ ه/ ۱۹۴۹ م)

۴- دوزى (DOZY):

الذيل على المعاجم العربية

(Supplement aux Dictionnaires Arabes(Leyden، ۱۸۸۱

۵- ردهوس (J.W.REDHOUSE):

القاموس التركى Redhouse s Turkish Dictionary

۶- رمزى (محمد رمزى):

القاموس الجغرافى للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة ۱۹۴۵ م.

(نشر دار الكتب المصرية- مصر ۱۹۵۳/ ۱۹۵۴)

۷- زامباور (ZAMBAUR):

معجم الأنساب و الأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى (ترجمة المرحوم الدكتور زكى محمد حسن، و الدكتور حسن محمود و

الدكتورة سيدة الكاشف و آخرين)- فى مجلدين (مصر ١٩٥١)
٨- الزبيدى:
تاج العروس من شرح القاموس
٩- الشرتونى (سعيد الخورى اللبنانى):
أقرب الموارد فى فصح اللغة و الشوارد
١٠- الفيروزآبادى:
القاموس المحيط
١١- كحالة (عمر رضا):
معجم قبائل العرب القديمة و الحديثة، فى ثلاثة أجزاء (دمشق ١٣٦٨ ه/ ١٩٤٩ م)
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١٥، ص: ٧١٧
١٢- (مصلحة المساحة):
الدليل الجغرافى
١٣- ياقوت الحموى (شهاب الدين أبو عبد اللّه الحموى الرومى. ت ٦٢٦ ه):
١- معجم البلدان (مصر ١٣٢٣ ه) ٢- مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة و البقاع (ليدن ١٨٥٢ م)
د دواوين الشعر:
١- ديوان أبى العلاء المعرى المعروف باسم «شروح سقط الزّند»:
ج لأبى زكريا يحيى التبريزى (ت ٥٠٢ ه) ج و أبى محمد عبد اللّه البطليوسى (ت ٥٢١ ه) ج و أبى الفضل قاسم الخوارزمى (ت ٦١٧ ه) ج (السفر الثانى- نشر لجنة إحياء آثار أبى العلاء- مصر ١٩٤٦) ج ٢- ديوان أبى نواس:
ج (نشر محمود أفندى ناصف- مصر ١٨٩٨ م) ج ج ج ج جا جا جا جا جا جا جر جك جلبا جمى
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١٥، ص: ٧١٨

فهرس الموضوعات

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۷۲۰

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۵، ص: ۷۲۵

على باى الساقى ۵۴۸

[الجزء السادس عشر]

اشارة

بسم اللّه الرحمن الرحيم

تقديم

يتناول الجزء السادس عشر من كتاب النجوم الزاهرة التأريخ للسنوات من ۸۵۵ إلى ۸۷۲ هجرية (۱۴۵۱- ۱۴۶۷ ميلادية) و تشمل هذه الحقبة: -

وفيات السنوات الثلاث الأخيرة من فترة حكم السلطان الملك الظاهر جقمق.

ثم فترة حكم السلطان الملك المنصور عثمان بن جقمق.

ثم فترة حكم السلطان الملك الأشرف إينال العلائى.

ثم فترة حكم السلطان الملك المؤيد أبى الفتح أحمد بن إينال.

ثم فترة حكم السلطان الملك الظاهر خشقدم.

ثم فترة حكم السلطان الملك الظاهر أبى نصر يلباى المؤيدى.

ثم فترة حكم السلطان الملك أبى سعيد تمربغا الظاهرى.

ثم ابتداء سلطنة السلطان الملك الأشرف قايتباى المحمودى الظاهرى.

و بنهاية هذا الجزء ينتهى كتاب النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة.

و قد تميزت هذه الحقبة التاريخية بقصر فترات الحكم للسلاطين الذين حكموا مصر و ما والاها من البلاد. فمثلا السلطان الملك المنصور عثمان بن جقمق حكم شهرا و ثلاثة عشر يوما، و السلطان الملك المؤيد أبو الفتح أحمد بن إينال حكم أربعة أشهر و أربعة أيام.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، مقدمةج۱۶، ص: ۲

و السلطان الملك الظاهر أبى نصر يلباى الإينالى المؤيدى حكم شهرين إلا أربعة أيام، و السلطان الملك أبو سعيد تمربغا الظاهرى حكم شهرين.

و لم تعرف البلاد نوعا من الاستقرار إلا فى فترة حكم الظاهر جقمق- مع اضطراب الأحوال بسبب المماليك السلطانية- و فترة حكم الأشرف إينال العلائى، و فترة حكم الظاهر خشقدم، ثم فترة حكم الأشرف قايتباى المحمودى.

و قد تناولها مؤلفنا تناول المؤرخ المعاصر للأحداث القريب منها اللصيق بحكامها، و لذلك فقد أصبح كتاب «النجوم الزاهرة» بالنسبة لهذه الحقبة أوثق مصدر تاريخى لها، و لولا أنه شجب كثيرا من التفصيلات التى وردت فى كتاب آخر له هو كتاب «حوادث الدهور فى مدى الأيام و الشهور» لقلنا بأنه أوسع مصدر تاريخى تناول هذه الحقبة؛ ذلك لأن كتاب «بدائع الزهور» لابن إياس عالج التأريخ لهذه الحقبة فى اختصار شديد، و كتاب «إنباء الغمر» لابن حجر مع اختصاره وقف بالأحداث عند سنة ۸۵۰ هجرية فقط، و كتاب «عقد الجمان» للبدر العينى مع بسطه و اتساعه وصل بالتأريخ إلى سنة ۸۵۰ هجرية أيضا، و فوق ذلك فهو لم يحقق أو يطبع بعد، كذلك كتاب «التبر المسبوک» للسخاوى ليست له ميزة كتابنا هذا؛ لأنه يعالج الأحداث فى اختصار شديد أيضا، و من هنا تجىء أهمية

مؤلفات ابن تغرى بردى لهذه الحقبة.

و لا ندرى إن كان ابن تغرى بردى قد توقف عند هذا الحد من التأريخ أم أنه كتب شيئا بعد ذلك لكنه لم يضمّ إلى هذا الكتاب أو غيره فلم يصل إلينا، و لعل المرض الذى أصيب به المؤلف (مرض القولنج) قد حال بينه و بين مواصلة التأريخ إلى الوقت الذى وافته فيه منيته.

و يقول السخاوى فى كتابه الضوء اللامع «و تعال قبل موته بنحو سنة بالقولنج

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، مقدمةج۱۶، ص: ۳

و اشتد به الأمر من أواخر رمضان بإسهال دموى بحيث انتحل و تزايد كربه، و تمنى الموت لما قاساه من شدة الألم إلى أن قضى فى يوم الثلاثاء خامس ذى الحجة سنة أربع و سبعين» و إننا لنتساءل: فلم لم يؤرخ لبقية سنة ۸۷۲ ه و سنة ۸۷۳ ه و لم يكن قد دهمته شدة المرض بعد؟!

و كم كنا نود أن نعرف سببا قاطعا لتوقف مؤرخنا عن مواصلة التأريخ حتى الوقت الذى اشتد به المرض، و لكن المراجع التى بين أيدينا لم توضح لنا ذلك، فضلا عن أن كتاب المؤلف «حوادث الدهور فى مدى الأيام و الشهور» قد توقف هو الآخر خلال أحداث سنة ۸۷۲ ه.

و إذا كان لنا أن نستنتج و نرجح فإننا نستنتج أن المؤلف قد طال به المرض و أن وطأته اشتدت عليه منذ الفترة التى انقطع فيها عن التأليف حتى وافته المنية.

و مهما يكن من شىء فالمؤلف- و قد صحبنا على هذه الرقعة الشاسعة من تاريخ مصر- لا بد أن نقول: إن كتابه كان جديرا بتلك التسمية الرائعة «النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة».

و إذا كان سيودعنا بهذا الجزء فإن الذى لا شك فيه أن اسمه سيظل قادرا على التجول فى كل العصور، و أن نشر كتابه- فى هذه الطبعة- قد جاء فى فترة تحتاج إليها مصر لتتكامل معرفتنا بها، و ليزيدنا العلم بها حبا و إعزازا، و تعلقا و تقديسا.

و لقد كان من الطبيعى أن يعمق جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى الإحساس بالمنهج التاريخى الذى سار عليه من قبل المؤرخون المسلمون، فنجد عنده التتبع و الدقة، و الأمانة، و صحة الإسناد، و الاستنباط، و وجهة النظر الخاصة، و إذا كان هذا الذى نسميه وجهة نظر خاصة ينكر أحيانا على أتباع هذه المدرسة إلا أننا نراها واضحة عنده.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، مقدمةج۱۶، ص: ۴

و لنتأمل تعليقه على كلام كثير مثل «للّه دره فيما قال». و لنتأمل هذا النص «قلت: هو كما قالوا و زيادة» ثم يضع هذه الزيادة التى تدين هؤلاء التركمان الذين أساءوا السيرة و سلبوا الناس أموالهم، و خربوا البلاد.

و هو حين ينقل رأيا يخالف رأيه- و بخاصة ما ينقله عن المقريزى- و كما ألمحنا إليه فى مقدمة الجزء الرابع عشر- يسوق الرأى بحذافيره حتى و لو كان فى رجل يعزه و يجله، فهو مثلا ينقل رأيه عن الملك المؤيد شيخ المحمودى الذى يقول فيه ... «إلا أنه كان بخيلا مسيكا يشح حتى بالأكل، لحوحا غضوبا، نكدا حسودا معيانا، فحاشا سبابا...

الخ» فهو بعد هذا الرأى المصادم له يقول «و كان يمكننى الرد عليه فى جميع ما قاله بحق غير أننى لست مندوبا إلى ذلك فلهذا أضربت عن تسويد الورق و تضييع الزمان».

و قد تكون هناك دعوى تقول إنه كان يقف إلى جانب السلطة العليا فى الدولة، و إنه كان يرى أن كل خروج على النظام غير مقبول و يجب أن ترسل إثره الجيوش تجريدة بعد تجريدة؛ على حد ما نعرف من رأيه فى حركات الرفض بين عرب البحيرة أو بين العربان فى الشرقية، أو بين الهوارة فى صعيد مصر.

و نحن- ابتداء- لا نملك إلا التسليم بشىء من هذا، لكننا نعرف عنه غيرته على تماسك البلاد، و عدم تعرضها للهزات فى عصر

کثرت فیه الهزات، و نعرف عنه أیضا الصدق فی الأحکام و الشجاعة فی إعلانها، و لنتأمل هذا الجانب الذی یطالعنا کثیرا فی مؤلفاته ...فهو یقول- مثلا- فی زوج أخته القاضی کمال الدین عمر بن العدیم قاضی

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، مقدمةج۱۶، ص: ۵

قضاة الحنفیة بالدیار المصریة «کان عالما فطنا مع طیش و خفة» و یقول عن الأمیر سیف الدین آقبردی بن عبد اللّه المؤیدی أحد أمراء الألوف بالدیار المصریة «کان شجاعا مقداما کریما مع جهل و ظلم و جبروت و خلق سیی‌ء، و بطش وحدة مزاج، و قبح منظر. قلت:

و علی کل حال مساوئه أکثر من محاسنه» و یقول فی شأن تولیة جمال الدین الصفی لکتابة السر «و عدّت ولایة هذا الجاهل لمثل هذه الوظیفة العظیمة من غلطات الملک الأشرف [برسبای] و قبح جهله» و یقول فی شأن الملک الظاهر خشقدم حینما ولّی شمس الدین محمدا البباویّ نظر الدولة ثم الوزارة «و سمع الملک الظاهر خشقدم بسعة ماله- و کان من الخسة و الطمع فی محل کبیر- فاحتال علی أخذ ماله بأن ولّاه نظر الدولة...

فشق ذلک علی الناس قاطبة، وعدوا ذلک من قبائح الملک الظاهر خشقدم ... و شغر الوزر ... فطلب السلطان البباویّ و ولّاه الوزر».

و صحیح أنه منحدر من سلالة الممالیک، و صحیح أنّا نحس إعجابه بالعظام منهم، و لکنه فی الوقت نفسه یقدم فی موضوعیة تامة عملیات الغدر و الخدیعة و الوقیعة التی غص بها هذا العصر الذی یؤرخ له.

و لعمری ما ذا یراد من المؤرخ غیر هذا؟! نحن نعتقد أن الذی عصمه هو تقالید «المدرسة التاریخیة الإسلامیة» التی ألمحنا من قبل إلی ممیزاتها، و التی کان مؤرخنا واحدا من عمدها.

ثم یأتی أخیرا بیانه الواضح، و وصوله إلی ما یرید بأقل الألفاظ مع سلامة ترکیب الجملة العربیة، إذا قیس بغیره من مؤرخی عصره، و مع اعتبار ما کان طاغیا علی أسالیب هذا العصر من خروج علی قواعد اللغة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، مقدمةج۱۶، ص: ۶

و قد عاب علیه السخاوی استخدامه بعض الکلمات التی تخرج علی مقاییس اللغة مثل أخرب، و أخلع. و لعمری فإن هذا القلیل- الذی رآه المؤلف صادق الدلالة علی معناه- لا یعد خطیرا إلی جانب الفیض الکثیر من الأسالیب المنسقة السهلة الفصیحة.

و أخیرا فنحن حین ترفع القلم عن الحرف الأخیر من هذا الکتاب، أو بعبارة شاعریة عن هذه النجوم الزاهرة نحسّ بأنه من أجل مصر، بل و من أجل الوطن العربی یجب أن یقرأ هذا الکتاب، و نحسّ أنه کان من حسن حظنا أن أتاحت لنا «الهیئة المصریة العامة للکتاب» أن نقابل القارئ العربی بهذا الجزء الذی نرجو أن یحمله علی متابعة قراءة الکتاب من أوله جزءا جزءا، أو کما یحب أن یقول مؤلفه «نجما نجما».

منهج التحقیق:

و قد اعتمد فی تحقیق هذا الجزء علی نسخة أیا صوفیا المصورة و المحفوظة بدار الکتب بالقاهرة تحت رقم ۱۳۴۳ تاریخ، و اعتبرت أصلا للتحقیق و رمز لها بالأصل أو بحرف «ص» و قوبل علی طبعة کالیفورنیا التی حققها المستشرق ولیم پوپر معتمدا علی مخطوطة المکتبة الأهلیة بباریس رقم ۱۷۸۸ معتبرا إیاها أصلا، و مقابلا لها علی مخطوطة أخری بنفس المکتبة برقم ۱۷۸۹ و أیضا علی المصورة الشمسیة لنسخة أیا صوفیا.

و قد اعتمد پوپر أیضا علی کتاب «حوادث الدهور فی مدی الأیام و الشهور» للمؤلف و اعتبره نسخة معاونة رمز لها بحرف «H» و أضاف کثیرا من تفصیلاته فی هوامشه.

و قد روجع هذا الجزء علی ما جاء فی هذا الکتاب الذی توجد منه نسختان بدار الکتب بالقاهرة. إحداهما مصورة عن نسخة أیاصوفیا و محفوظة برقم ۲۳۹۷ تاریخ، و الأخری مصورة عن نسخة الفاتیکان و محفوظة برقم ۲۴۰۴ تاریخ تیمور، و قد حققت الجزء الأول منه

و ينشره حاليا المجلس الأعلى للشئون الإسلامية. و قد سبق أن نشر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، مقدمةج١۶، ص: ٧

المستشرق وليم پوپر مقتطفات منه تهتم بالتفصيلات التى لم ترد فى كتاب «النجوم الزاهرة» و اعتبر المنشور ملحقا بالجزء السابع من كتاب النجوم طبعة كاليفورنيا.

و سيجد القارئ أن مؤلفنا كثيرا ما يشير إلى التفصيلات و التفريعات التى أوردها فى كتاب «حوادث الدهور فى مدى الأيام و الشهور» و شجبها فى كتاب «النجوم الزاهرة». ذاكرا أنه أغفلها فى «النجوم» و يحيل القارئ فى معرفتها إلى كتاب «الحوادث» ذاكرا أن «الحوادث» يعنى بتفصيل الأحداث و عرضها أكثر من عناية «النجوم» بها.

و لقد تتبعنا المنهج الذى قام عليه تحقيق الأجزاء السابقة من كتاب «النجوم» و جعلناه أساسا لتحقيق هذا الجزء، و أضفنا إلى هوامشه ما رأينا إضافته من كتاب «الحوادث» مما يوضح النص أو يوثقه أو يضيف إليه جديدا.

و رجعنا فى تحقيق الأحداث و تراجم الأعلام إلى المصادر المعتمدة و المطروقة فى هذا الميدان، و التى رجع إليها السادة المحققون للأجزاء الأخرى من هذا الكتاب.

و إذا كان هذا الجزء قد صدر بعد فقدنا للعالم الكبير المرحوم الدكتور جمال الدين الشيال فإنه ما من شك فى أن التراث قد فقد بفقده عالما جليلا صادق الجهد نفاذ البصيرة يدين له التراث بفضل تحقيق «مفرج الكروب» و غيره. و بدين له بجهده الذى بذله فى هذا الجزء، أثابه اللّه عن العلم و التراث خير المثوبة.

و إنا لنرجو أن يكون الجهد الذى بذل موضع القبول؛ و اللّه ولى التوفيق.

١٠ من جمادى الأولى سنة ١٣٩٢ ه.

٢١ من مايو سنة ١٩٧٢ م.

فهيم محمد شلتوت

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۶، ص: ١

[ما وقع من الحوادث سنة ٨۵۵]

السنة الرابعة عشرة من سلطنة الملك الظاهر جقمق

على مصر و هى سنة خمس و خمسين و ثمانمائة:

و فيها كان تزايد الغلاء حتى خرج عن الحدّ، و بيع القمح بنحو ألف و خمسمائة درهم الإردب، و الفول و الشعير بألف درهم الإردب، ثم تزايد بعد ذلك على ما حرّرناه فى الحوادث.

و فيها توفّى الخليفة أمير المؤمنين المستكفى بالله أبو الربيع سليمان ابن الخليفة المتوكل على اللّه أبى عبد اللّه محمد بالقاهرة، فى يوم الجمعة ثانى المحرم، و قد تقدّم ذكر نسبه إلى العباس فى ترجمة أخيه المعتضد داود من هذا الكتاب.

و تولى الخلافة بعدة أخوه حمزة بغير عهد منه، و لقّب بالقائم بأمر اللّه.

و نزل السلطان الملك الظاهر للصلاة عليه بمصلاة المؤمنى، و مشى فى جنازته إلى أن شهد دفنه، و ربما أراد حمل نعشه فى طريقه، و مات المستكفى و هو فى عشر الستين، بعد أن أقام فى الخلافة تسع سنين و نحو عشرة أشهر. و كان ديّنا خيّرا، منجمعا عن الناس بالكلّيّة، كثير الصّمت، قليل الكلام، ذكر عنه أخوه أمير المؤمنين المعتضد داود- و كان شقيقه- عند ما عهد له بالخلافة فى مرض موته، أنه لا يعرف عليه كبيرة فى مدة عمره- رحمه اللّه تعالى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۶، ص: ٢

و توفّى القاضى جمال الدين عبد اللّه بن هشام الحنبلى الفقيه، أحد نوّاب الحكم بالقاهرة، فى العشر الأخير من المحرم، و كان فقيها فاضلا مشكور السّيرة فى أحكامه- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الرئيس مجد الدين عبد الرحمن بن الجيعان، ناظر الخزانة الشّريفة السّلطانية و كاتبها، فى يوم الخميس تاسع عشرين المحرم، بعد قدومه من الحجاز متمرّضا، و خلّف عدّة أولاد، أمّهاتهم أمهات أولاد جوار بيض مسلمات.

و توفّى القاضى شمس الدين محمد المعروف بابن زبالة الشّافعى المصرى الأصل و المولد، قاضى قضاة مدينة الينبع، بها فى هذه السنة. و كان مولده بباب البحر خارج القاهرة، ثم انتقل إلى الينبع بعد أمور، و ولى قضاءها إلى أن مات، و كان له سمعة وصيت بتلك البلاد.

و توفّى السلطان خونداكار مراد بك ابن السلطان محمد بك كرشجى بن أبى يزيد ابن عثمان، متملّك برصا و أدرنابولى، و ما والاهما من ممالك الرّوم، فى سابع المحرم بمملكة الروم.

و تولّى الملك من بعده ولده السلطان محمد بن مراد بك، و اقتدى بسنّة أبيه فى الجهاد و الغزو، و نكاية العدوّ، و أخذ البلاد و القلاع من يد الفرنج، و مات السلطان مراد

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳

بك و هو فى أوائل الكهولية، و كان خير ملوك زمانه شرقا و غربا؛ مما اشتمل عليه من العقل و الحزم و العزم و الكرم و الشجاعة و السؤدد. و أفنى عمره فى الجهاد فى سبيل اللّه تعالى، و غزا عدّة غزوات، و فتح عدّة فتوحات، و ملك الحصون المنيعة، و القلاع و المدن من العدوّ المخذول. على أنه كان منهمكا فى اللذات التى تهواها النفوس، و لعل حاله كقول بعض الأخيار- و قد سئل عن دينه- فقال: أمزّقه بالمعاصى، و أرقّعه بالاستغفار. فهو أحقّ بعفو اللّه و كرمه، فإن له المواقف المشهورة، و له اليد البيضاء فى الإسلام و نكاية العدوّ، حتى قيل عنه إنه كان سياجا للإسلام و المسلمين- عفا اللّه عنه، و عوّض شبابه الجنة- فلقد كان بوجوده غاية التجمل فى جنس بنى آدم- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الشيخ شمس الدين محمد بن حسّان، الفقيه الشافعى، شيخ خانقاه سعيد السعداء، فى يوم السبت أول شهر ربيع الأول، و كان فقيها ديّنا مشكور السّيرة، و تولّى مشيخة سعيد السّعداء من بعده الشيخ خالد.

و توفّى الشيخ شمس الدين محمد الحلبى، المعروف بالحجازى، ابن أخت السخاوى، فى يوم الخميس ثالث عشر ربيع الأول، و كان أديبا، و هو ممن عرف فى هذه الدولة بخاله خليل السخاوى، و عدّ من بياض الناس، على أنه كان قليل البضاعة من العلوم و الفضيلة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۴

و توفّى الشيخ شمس الدين محمد الحنفى الرومى الأصل و المولد، المصرى الدّار و الوفاة، المعروف بالكاتب، فى يوم الأحد ثالث عشرين شهر ربيع الأوّل، بعد أن نال حظّا من ملوك مصر، لا سيما من الملك الظاهر جقمق؛ فإنه عظم فى دولته إلى الغاية و نالته السعادة، و عدّ من الرؤساء، و لم يكن لذلك أهلا، غير أن ملوك زماننا كالعميان، يضع الواحد يده على كتف الواحد، فمهما تحرّك الأوّل بحركة تحرّك الثانى بمثله.

فأول من قرّب شمس الدين هذا الظاهر ططر، فاقتدى جميع من جاء بعده من السلاطين به من تقريب شمس الدين هذا، و لا يعرف أحدهم لم قرّبه و اختصّ به غير الظاهر ططر، فإنه كان له مقاصد لا يعرفها هؤلاء، ثم انحطّ قدره، و نكب و صودر، و ادّعى عليه عند القضاة بدعاوى اقتضت تعزيره و حبسه بسجن الرّحبة، و قاسى أهوالا- كلّ ذلك بأمر السلطان الملك الظاهر جقمق لمّا تغيّر عليه، نكالا- من اللّه، فإنه كان واسطة سوء مع دهاء و مكر، و عقل تام، فإنه اتصل لما اتصل، و لم يقتن دابة يركبها، بل كان كلما أراد أن يطلع القلعة ركب من الشيخونية حمارا مكاريا بالكرى، و طلع إلى القلعة، و اجتمع بالسلطان ثم نزل و عاد على الحمار المذكور إلى داره بالشيخونية، فى كل يوم على ذلك.

و كان قليل العلم، إلا أنه كان له مشاركة و محاضرة و معرفة بمداخلة الملوك، محظوظا عندهم.

كـان مرتّبه فى اليوم على الجوالى فقط دينارين، و له أشـياء غير ذلك، و كان شـكلا مهولا، طوالا، ذا لحيـة كبيرة، و على رأسه عمامة هائلة، و قبّع

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۵

جوخ كبير جدا، و يلفّ عليه أزيد من ثوب بعلبكى رفيع، و قيل ثوبان عوضا من الشاش.

و مع تقربه من الملوك كان عنده عفّة عن أموال الناس، و عدم طمع بالنسبة إلى غيره- رحمه اللّه.

و توفّى الشيـخ المعتقد محمد السفارى، نزيل جامع عمرو بن العاص، فى يوم الجمعة حادى عشر جمادى الأولى و قد ذكرنا واقعته مع الملـك الظـاهر جقمق فى الحوادث، و ملخصـها أنه كـان وقع من بعض فقرائه مـا أوجب إحضـاره، فامتنع، فألـحّ السـلطان على الوالى بإحضار الشيـخ محمد المذكور، فلما حضـر إليه ثانيا أفحش فى الجواب للوالى، ثم تكلم فى الملأ بكلام يدل على موت السـلطان فى سـابع عشـر جمـادى الأـولى، و شـاع ذلـك بين الناس، فمات الشيـخ قبل ذلك اليوم، أعنى يوم سابع عشـر جمادى الأولى بسـتة أيام، فتعجّب الناس من ذلك.

و الـذى أظنّه أن الشيـخ ما قال إلا عن نفسه، فتوهمت العامـة أن الشـيخ يشـير بـذلك عن السـلطان، و اللّه أعلم، و على كل حال واقعة غريبة- رحمه اللّه.

و توفّى السـيّد الشـريف هلمـان بن وبير بن نخبار أمير مدينـة الينبع بها فى أواخر جمادى الأولى، و هو فى أوائل الكهوليـة، و كان شابا مليح الوجه، مشكور السّيرة، لولا أنه على مذهب القوم- عفا اللّه عنه.

و تولى بعده إمرة الينبع أخوه سـنقر، و كانت ولاية هلمان المذكور، بعد عزل ابن أخيهٔ معز بن هجّان بن وبير بن نخبار فى سـنة تسع و أربعين و ثمانمائة- ا ه.

و توفّى السيد الشريف أميان بن مانع الحسينى المدنى، أمير المدينة الشريفة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۶

النبوية- على ساكنها أفضل الصلاة و السلام- فى جمادى الآخرة بها، و تولّى إمرة المدينة من بعده زبير بن قيس بن ثابت.

و توفّى الأمير ناصـر الدين محمد الحلبى الحاجب الثانى بحلب المعروف بابن ألتغا، فى يوم السبت سابع عشرين شهر رمضان بالقاهرة، غريبا عن أهله و عياله، و كان أصـله من بعض قرى حلب، و ترقّى فى الخـدم حتى لبس زىّ الجنـد، و خدم أسـتادارا عند بعض أعيان حلب، و تموّل، و ترقّى بالبـذل حتى صـار حاجبـا ثانيـا بحلب، و هو لاـ يعرف كلمـة مركّبـة باللغـة التركيـة، و يتلفظ فى كلامه بألفاظ فلاحى القرى إلى أن مات، غير أنه كان مشكور السيرة، كريم النفس- رحمه اللّه.

و توفّى القاضـى تاج الدين محمد ابن قاضـى القضاة جلال الدين عبد الرحمن ابن شيخ الإسلام سراج الدين عمر البلقينى الشافعى فى يوم السبت سـابع عشـرين شـهر رمضـان و دفن من الغـد عن ثمـان و ستين سـنة، و خلّف مالا كثيرا، و كان مسـيكا بخيلا، و إليه أشار الحافظ بن حجر بقوله [السريع]

مات جلال الدين، قالوا: ابنه يخلفه، أو فالأخ الراجح

فقلت: تاج الدين لا لائق لمنصب الحكم، و لا صالح

أراد بتاج الدين هذا فى الأول ثم بالتورية (۴) قاضى القضاة علم الدين صالح البلقنى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۷

و توفّى الأمير سـيف الدين يشـبك بن عبد اللّه السـيفى سودون الحمزاوى نائب صـفد بها فى ليلة السبت تاسع عشرين شهر رمضان، و كان يشـبك المذكور ولى دواداريّة السـلطان بحلب سـنين، ثم ولى نيابة غزّة؛ ثم نقل إلى نيابة صـفد إلى أن مات بها، و كان مشكور

السّيرة، لم تسبق له رئاسة بالديار المصرية، و تولّى الأمير بيغوت المؤيّدى بعده نيابة صفد ثانى مرّة- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الأمير شهاب الدين أحمد بن أمير على بن إينال اليوسفى الأتابكى، أحد مقدّمى الألوف بالديار المصرية، فى ليلة الثلاثاء سابع عشرين ذى القعدة، و حضر السلطان الصلاة عليه بمصلاة المؤمنى، و دفن بتربة جدّه الأتابك إينال، و مات و سنّة نحو خمسين سنة- تخمينا- و إلى والده أمير على ينتسب الملك الظاهر جقمق بالعلائى و قد تقدّم ذكر ذلك كله فى أوّل ترجمة الملك الظاهر جقمق، و كيف أخذه الملك الظاهر برقوق منه.

و كان أحمد المذكور أميرا ضخما عاقلا، رئيسا ديّنا خيّرا، متواضعا، عارفا بأنواع الفروسية، و عنده محبة للفقراء و أرباب الصلاح، و كان سمينا جدا، لا يحمله إلا الجياد من الخيل، و كان ممّن رقّاه الملك الظاهر حقمق، و أمّره عشرة فى أوائل سلطنته، ثم ولّاه نيابة الإسكندرية، و زاده عدّة زيادات على إقطاعه، ثم أنعم عليه بإمرة مائة و تقدمة ألف، عوضا عن الأمير إينال العلائى بحكم انتقاله إلى الأتابكيّة بعد موت

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۶، ص: ٨

يشبك السودونى المشدّ، فدام على ذلك إلى أن مات، و تأسّف الناس عليه لحسن سيرته بالنسبة إلى أخيه محمد؛ و إلى الشهابى أحمد بن نوروز، شادّ الأغنام، فإنهما كانا أسوأ حواشى الملك الظاهر جقمق سيرة، بخلاف الشّهابى أحمد فإنه لم يكن له كلمة فى الدولة إلا بخير- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى السيّد الشريف إبراهيم بن حسن بن عجلان الحسنى، المقبوض عليه مع أخيه على بن حسن قبل تاريخه بمكة، و حمل إلى القاهرة، و حبس بالبرج من القلعة مدّة طويلة، ثم أخرج مع أخيه إلى ثغر دمياط، فدام به بعد موت أخيه علىّ إلى أن مات فى هذا التاريخ.

و توفّى الأمير سيف الدين تمراز بن عبد اللّه من بكتمر المؤيدى، المصارع شادّ بندر جدّة قتيلا بالحديدة من بلاد اليمن، فى خامس عشرين شهر رمضان، بعد أن فرّ من جدّة بمال السلطان عاصيا عليه، فلم يحصل له ما قصد، و قد أوضحنا أمره و ما وقع له من يوم خروجه من جدة إلى يوم موته فى أصل هذه الترجمة، سياقا فى أواخر ترجمة الملك الظاهر هذا.

و توفّى قاضى القضاة شيخ الإسلام بدر الدين أبو الثناء، و قيل أبو محمد بدر الدين محمود ابن القاضى شهاب الدين أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين بن يوسف بن محمود العينتابى الحنفى، قاضى قضاة الديار المصرية، و عالمها و مؤرخها، فى ليلة الثلاثاء رابع ذى الحجة، و دفن من الغد بمدرسته التى أنشأها تجاه داره بالقرب من جامع الأزهر، و مولده بعينتاب فى سنة اثنتين و ستين و سبعمائة، و نشأ بها، و تفقّه بوالده بعد حفظه القرآن الكريم، و كان أبوه قاضى عينتاب، و توفّى بها فى شهر رجب سنة أربع و ثمانين

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۶، ص: ٩

و سبعمائة، ثم رحل ولده القاضى بدر الدين هذا بعد موته إلى حلب، و تفقّه بها، و أخذ عن العلامة جمال الدين يوسف بن موسى الملطى الحنفى و غيره، ثم قدم لزيارة بيت المقدس فلقى به العلامة علاء الدين العلاء بن أحمد بن محمد السيرامى الحنفى شيخ المدرسة الظاهرية- برقوق- و كان أيضا توجّه لزيارة بيت المقدس، فاستقدمه معه إلى القاهرة فى سنة ثمان و ثمانين و سبعمائة، و نزّله فى جملة الصوفية بالمدرسة الظاهرية- برقوق- ثم قرّره خادما بها، ثم وقع له بعد ذلك أمور حكيناها فى ترجمته فى المنهل الصافى، إلى أن عرف بين الطلبة، و فضل فى علوم، و صحب الأمير جكم من عوض، و الأمير قلمطاى العثمانى الدّوادار، و تغرى بردى القردمى إلى أن توفّى الملك الظاهر برقوق فى سنة إحدى و ثمانمائة، فولى حسبة القاهرة فى مستهل ذى الحجة من السنة، بسفارة هؤلاء الأمراء عوضا عن الشيخ تقى الدين أحمد المقريزى، فمن يومئذ وقعت العداوة بينهما إلى أن ماتا، ثم صرف بعد أشهر، و تولى حسبة القاهرة غير مرّة، و آخر ولايته للحسبة فى سنة ست و أربعين و ثمانمائة عوضا عن يرعلى الخراسانى- انتهى.

فنعود إلى ما كنا بصدده: ثم ولى القاضى بدر الدين هذا نظر الأحباس فى الدولة المؤيّدية، و لما تسلطن الملك الأشرف برسباى

صحبه و عظم عنده إلى الغاية، و صار ينادمه، و يقرأ له التواريخ من أيام السلف من الوقائع و الأخبار، و يعلمه دينه، كان يقرأ له

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۰

التاريخ باللغة العربية ثم يفسره له باللغة التركية، و كان فصيحا فى اللغتين، و كان الملك الأشرف يسأله كثيرا عن دينه و عما يحتاج إليه من العبادات و غيرها، فيجيبه القاضى بدر الدين المذكور بعبارة تقرب من فهمه، حتى لقد سمعت الأشرف يقول غير مرة:

«لولا العينتابى لكان فى إسلامنا شىء».

و ولّاه قضاء الحنفية مرّتين، و مات الأشرف و هو قاض، فعزل فى الدولة العزيزية بالشيخ سعد الدين سعد الدّيرى، و لزم داره على نظر الأحباس مدة سنين إلى أن سعى علاء الدين علىّ بن آقبرس فيها و وليها، فاستقبح الناس عليه ذلك من وجوه عديدة، ثم مات بعد ذلك بمدة يسيرة.

و كان إماما فقيها أصوليا، نحويا، لغويا، بارعا فى علوم كثيرة، و أفتى و درّس سنين، و صنّف التصانيف المفيدة النافعة، و كتب التاريخ، و صنّف فيه مصنفات كثيرة ذكرناها مع جملة مصنفاته فى المنهل الصافى، يطول الشرح فى ذكرها هنا.

و لما انتهينا من الصلاة على قاضى القضاة بدر الدين هذا بجامع الأزهر، و خرجنا إلى مشاهدة دفنه، قال لى قاضى القضاة بدر الدين محمد بن عبد المنعم البغدادى الحنبلى.

«خلا لك البرّ فبض و أصفر» فلم أردّ عليه، و أرسلت إليه بعد عودى إلى منزلى ورقة بخط العينى هذا يسألنى فيه عن شىء سئل عنه فى التاريخ من بعض الأعيان، و يعتذر عن الإجابة بكبر سنه و تشتت ذهنه، ثم أبسط القول فى الشكر و المدح و الثناء إلى أن قال: «و قد صار المعوّل عليك الآن فى هذا الشأن، و أنت فارس ميدانه، و أستاذ زمانه، فاشكر اللّه على ذلك».

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۱

و كان تاريخ كتابة الورقة المذكورة فى سنة تسع و أربعين و ثمانمائة- انتهى.

و توفّى السيد الشريف عفيف الدين أبو بكر محمد الأيكى العجمى الشافعى نزيل مكة المشرفة بمنى فى ثانى يوم من التّشريق، و حمل إلى مكة، و دفن بها، و كانت جنازته مشهودة، و كان الناس فى أمره و صلاحه على أقسام، رأيته بمكة و اجتمعت به مجلسا خفيفا- رحمه اللّه.

و توفّى الشيخ المعتقد الصالح أحمد التّرابى المصرى فجأة، فى يوم الجمعة حادى عشر ذى الحجة، و دفن بزاويته من الغد، بالقرب من تربة الشيخ جوشن خارج باب النصر.

و كان رجلا صالحا دينا خيرا معتقدا، و كنت أصحبه، و كان لى فيه اعتقاد و محبة- رحمه اللّه تعالى.

أمر النيل فى هذه السنة: الماء القديم أربعة أذرع و خمسة عشر إصبعا، مبلغ الزيادة ثمانية عشر ذراعا و ثمانية أصابع.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۲

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۵۶]

السنة الخامسة عشرة من سلطنة الملك الظاهر جقمق على مصر و هى سنة ست و خمسين و ثمانمائة.

فيها أخذ الغلاء فى انحطاط من الديار المصرية و أعمالها.

و فيها توفّى الشيخ الإمام العلّامة علاء الدين علىّ ابن الشيخ قطب الدين أحمد القلقشندى الشافعى، أحد فقهاء الشافعية، فى يوم الاثنين مستهل المحرم، و دفن من الغد فى يوم الثلاثاء خارج القاهرة، و مولده بالقاهرة فى ذى الحجة سنة ثمان و ثمانين و سبعمائة، و نشأ بها، و حفظ عدّة متون فى مذهبه، و تفقّه بعلماء عصره، مثل شيخ الإسلام السّراج البلقينى، و ولده قاضى القضاة جلال الدين، و العلّامة عز الدين بن جماعة، أخذ عنه المعقول، و عن الشيخ الإمام العلّامة فريد عصره علاء الدين محمد البخارى الحنفى، و قاضى القضاة

شمس الـدین محمـد البساطی المالکی، و غیرهم، و برع فی عـدة علوم و أفتی و درّس، و تولّی عـدّة تـداریس، و رشّـح لقضاء الدیار المصریة غیر مرّة، و سئل بقضاء دمشق فامتنع، و تصدّی للاشتغال سنین، و انتفع به جماعة من الطلبة- رحمه اللّه تعالی.

و توفّی الإمام المقرئ ناصـر الدین محمد بن کزل بغا الحنفی، إمام المدرسة الأشـرفیة بالعنبریّین، فی یوم الأحد تاسع عشر صفر، و هو فی عشر الخمسین،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۳

و مـات و لم یخلف بعـده مثله فی القراءات و حسن التأدّی، لا سـیما فی قراءة المحراب فإنه کان من الأفراد فی ذلک، و کان أبوه من ممالیک الأمیر ألطنبغا الجوبانی نائب دمشق- رحمه اللّه تعالی.

و توفّی عظیم الدیار المصریة و عالمها و رئیسها کمال الدین أبو المعالی محمد ابن العلّامة القاضی ناصر الدین أبی المعالی محمد ابن القاضـی کمال الـدین محمـد بن عثمان بن عثمان بن محمد بن عبد الرحیم بن هبة اللّه البارزی الحموی الجهنی الشافعی، کاتب السرّ الشـریف بالدیار المصـریة، و ابن کاتب سرّها، و صهر السلطان الملک الظاهر جقمق، بداره بخط الخرّاطین من القاهرة، فی یوم الأحد سادس عشـرین صـفر، و حضـر السـلطان الصلاة علیه بمصلاة المؤمنی، و دفن عند والده بالقرافة الصّغری تجاه شباک الإمام الشافعی- رضی اللّه عنه.

سألته عن مولده، فقال: بحماة فی ذی الحجة سنة ستّ و تسعین و سبعمائة.

قلت: و نشأ بها تحت کنف والـده، و حفظ القرآن العزیز، و صـلی التراویـح بالناس فی الـدّیار المصـریة لما قـدم مع والده سـنة تسع و ثمانمائة، ثم عاد مع والده إلی حماة، و حفظ التمییز فی الفقه، و قرأه علی الحافظ برهان الدین إبراهیم الحلبی المعروف بالقوف.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۴

ثم قدم إلی الدیار المصـریة مع والده أیضا بعد قتل الملک الناصـر فرج فی سـنة خمس عشـرة و ثمانمائة، و تفقّه بقاضـی القضاة ولی الدین أحمد العراقی، و أخذ المعقول عن العلّامة عز الدین بن جماعة، و عن تلمیذه ابن الأدیب، و أخذ أیضا عن قاضی القضاة شمس الـدین البساطی المالکی، و عن العلّامـة البارع الزاهـد علاء الـدین محمد البخاری الحنفی، و لازمه کثیرا و انتفع بدروسه، و أخذ النحو فی مبـادئ أمره عن الشـیخ یحیی العجیسـی المغربی و غیره، و سـمع البخاری من عائشـة بنت عبـد الهادی، و اجتهـد فی طلب العلم و ساعده فی ذلک الذکاء المفرط، و الذهن المستقیم و التصور الصحیح، حتی برع فی المنطوق و المفهوم، و صارت له الید الطولی فی المنثور و المنظوم، لا سیما فی الترسل و الإنشاء و المکاتبات، فإنه کان إمام عصره فی ذلک، هذا مع ما اشتمل علیه من العقل و العراقة و السکون و السؤدد و الکرم و الإکرام و سیاسة الخلق و حسن الخلق، و الرئاسة الضخمة، و الفضل الغزیر.

و باشر کتابة السّر فی أیام والده نیابة عنه، و عمره نیف علی عشرین سنة.

ثم استقل بالوظیفة نیفا علی ثلاثین سنة، علی أنه صرف عنها غیر مرة المدّة الطویلة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۵

و أول ولایته لکتابـة السرّ فی یوم السـبت خامس عشـرین شوال سـنة ثلاث و عشـرین و ثمانمائة فی الدولة المؤیّدیّة شـیخ؛ تلقّاها عن والده القاضـی ناصـر الدین بعد موته، و اسـتمرّ فی الوظیفة إلی أن صرف عنها بصهره علم الدین داود بن الکویز ناظر الجیوش بالدیار المصـریة، و استقرّ القاضی کمال الدین هذا فی الوظیفة و نظر الجیش عوضا عن علم الدین المذکور- أعنی أن کلّا منهما أخذ وظیفة الآخر- و ذلک فی محرم سـنة أربع و عشـرین، فباشـر وظیفـة نظر الجیش إلی أن صـرف عنها بعبد الباسط بن خلیل الدمشـقی فی یوم الاثنین سابع ذی القعـدة من سـنة أربع و عشـرین المذکورة، فلزم القاضـی کمال الدین هذا داره علی هیئة عمله من الحشم و الخدم و الإحسان لمن یرد علیه من کلّ طائفـة، و أکبّ علی الاشـتغال و طلب العلوم مـدّة سـنین إلی أن طلبه الملک الأشـرف برسـبای فی یوم سابع شـهر رجب سنة إحدی و ثلاثین، و خلع علیه باستقراره فی کتابة سرّ دمشق بعد موت بدر الدین حسین، فتوجه إلی دمشق و باشر

كتابة سرّها مدّة إلى أن قدم القاهرة صحبة الأمير سودون من عبد الرحمن نائب دمشق، و عزل سودون و تولّى جار قطلو نيابة دمشق، فخلع السلطان عليه بقضاء دمشق مضافا لكتابة سرّها، و كان ذلك فى يوم الأربعاء مستهل شعبان سنة خمس و ثلاثين، فباشر الوظيفتين معا، و حسنت سيرته و أحبّه أهل دمشق.

و من غريب ما اتفق فى ولايته لقضاء دمشق أن العلّامة علاء الدين البخارى كان إذا ولى أحد من طلبته القضاء أو الحسبة يغضب عنه و يمنعه من دروسه، فلمّا بلغه ولاية القاضى كمال الدين هذا فرح، و قال: «الآن أمن الناس على أموالهم و نفوسهم»، و ناهيك بقول الشيخ علاء الدين هذا فى حقّه.

و استمر على وظيفته بدمشق إلى أن طلب إلى الديار المصرية، و ولى كتابة سرّها بعد عزل الصاحب كريم الدين عبد الكريم بن كاتب المناخ فى يوم السبت العشرين

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۶

من شهر ربيع الآخر سنة ست و ثلاثين و ثمانمائة، فباشر الوظيفة مدّة إلى أن صرف عنها بالشيخ محبّ الدين بن الأشقر فى يوم الخميس سابع شهر رجب سنة تسع و ثلاثين..

و لزم المقرّ الكمالى داره إلى أن أعيد إلى قضاء دمشق مسئولا فى ذلك فى يوم الثلاثاء مستهل شهر رجب سنة أربعين و ثمانمائة، فباشر قضاء دمشق ثانيا، و خطب بالجامع الأموى، و كتب إليه الشّرفى يحيى بن العطّار و هو بدمشق: [البسيط]

يا سيّدا جدّ بالنّوى لى و طال ما جاد بالنّوال

من منذ سافرت زاد نقصى يا طول شوقى إلى الكمال

فأجابه القاضى كمال الدين المذكور و أنشدنيها من لفظه لنفسه- رحمه اللّه تعالى.

[الطويل]

خيالك فى عينىّ يؤنس وحدتى على أنّ داء الشوق فى مهجتى أعيا

فإن مات من فرط اشتياقى تصبّرى أعلله بالوصل من سيدى يحيى

و من شعره- رحمه اللّه- أيضا ما كتبه على سيرة ابن ناهض بعد كتابة والده القاضى ناصر الدين [الرجز]

مرّت على فهمى، و حلو لفظها مكرّر، فما عسى أن أصنعا

و والدى دام بقا سؤدده لم يبق فيها للكمال موضعا

و له أشياء غير ذلك ذكرناها فى غير هذا المحل.

و استمر [القاضى كمال الدين] على قضاء دمشق إلى أن طلب من دمشق إلى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۷

الدّيار المصرية فى الدّولة العزيزية- يوسف- فحضر بعد سلطنة صهره الملك الظاهر جقمق، و طلع إلى القلعة بعد أن احتفل وجوه الدولة إلى ملاقاته، و خلع عليه باستقراره فى كتابة السرّ على عادته بعد عزل الصاحب بدر الدين حسن بن نصر اللّه، و ذلك فى يوم الثلاثاء سابع عشر شهر ربيع الآخر سنة اثنتين و أربعين، و هذه ولايته الثالثة لكتابة السرّ.

و استمر فى الوظيفة على أمور وقعت له- ذكرناها فى الحوادث- إلى أن مات فى التاريخ المقدم ذكره بعد أن باشر الوظيفة على طريق وزراء السّلف من الملوك فى الإنعام و العطايا و البرّ و الصدقات و الرواتب و الإحسان للفقهاء و الفقراء، بل و إلى غالب من ورد عليه و تردّد إلى بابه كبيرا كان أو صغيرا، غنيّا كان أو فقيرا، حتى شاع ذكره و بعد صيته، و قصده الناس من الأقطار، و هو مع ذلك لا يكلّ و لا يملّ، بل يجود بما هو فى حاصله، و بما عساه يدخل إليه.

و لقد حدّثنى غير مرّة أنه لم يستحقّ عليه منذ حياته زكاة عين، قلت: «فلله درّه، لقد استحق قول الشيخ جمال الدين بن نباتة فى

ممدوحه الملک المؤيّد إسماعيل صاحب حماة حيث قال: [الرجز]

لا ظلم يلقى فى حماه العالى إلا على العداة و الأموال

و لما حجّ فى سنة خمسين و ثمانمائة، و حجت فى تلک السنة أيضا کريمته خوند زوجة السلطان الملک الظّاهر جقمق، و سافرا معا فى الرّکب الأوّل، فظهر للناس من علوّ همّته، و غزير مروءته، و عظيم إحسانه، ما لعلّه يذکر إلى الأبد، و لقد حدثنى بعض أعيان مکة أنه کان إذا وقف على أخبار البرامکة و غيرهم ينکر ذلک بقلبه، حتى رأى ما فعله القاضى کمال الدين هذا من الإحسان إلى أهل مکة و غيرهم، فعند ذلک تحقّق ما قيل فى سالف

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۸

الأعصار، قلت: «و هو أعظم من رأينا و أدرکنا، و للّه الحمد و المنّة على إدراکنا لمثل هذا الرّجل الذى مات و لم يخلف بعده مثله- رحمه اللّه تعالى و عفا عنه.

و توفّى الشيخ الإمام العالم زين الدين طاهر بن محمد بن على النّويرىّ المالکى أحد فقهاء المالکية بالقاهرة، فى يوم الاثنين خامس شهر ربيع الأول، و سنّة نيّف على ستّين سنة تقريبا، و کان إماما عالما فقيها ديّنا صالحا- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الملک الکامل خليل بن الملک الأشرف أحمد بن الملک العادل سليمان، صاحب حصن کيفا من ديار بکر، قتيلا بيد ولده فى شهر ربيع الأول.

و تولى ولده المذکور الملک من بعده، و لقّب بالملک النّاصر، و دام فى مملکة الحصن إلى شهر رمضان من السنة المذکورة، فوثب عليه ابن عمه الملک حسن و قتله، و سلطن أخاه أحمد، و لقّبه بلقب أبيه المقتول الملک الکامل.

و کان الملک الکامل خليل- صاحب الترجمة- ملک الحصن بعد قتل أبيه الملک الأشرف فى سنة ست و ثلاثين و ثمانمائة، و قد ذکرنا واقعة أبيه الأشرف فى ترجمة الملک الأشرف برسباى لما أراد القدوم عليه، و قتل بيد أعوان قرايلک- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الأمير سيف الدين ألطنبغا بن عبد اللّه الظاهرى المعلم اللفّاف، أحد أمراء الألوف بالدّيار المصرية- بطّالا- فى يوم الاثنين عاشر شهر ربيع الآخر، و کان أصله من صغار مماليک الملک الظاهر برقوق، و طالت أيّامه فى الجنديّة إلى أن

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۹

عمّر و تسلطن الملک الظاهر جقمق، فقرّبه و أنعم عليه بإقطاع هائل، بعد مسک قلمطاى الإسحاقى، ثم بعد مدة يسيرة أمّره عشرة، ثم زاده زيادات کثيرة، و ولّاه نيابة الإسکندرية، ثم عزله بعد مدّة، و جعله من جملة مقدّمى الألوف بالديار المصرية، فباشر ذلک إلى أن عجز عن الحرکة لکبر سنّه و استعفى، فأخرج السلطان إقطاعه لولده المقام الفخرى عثمان زيادة على ما بيده، فلم تطل مدّة ألطنبغا هذا بعد ذلک و مات، و کان عاقلا ديّنا خبيرا عارفا بأنواع الفروسيّة، رأسا فى لعب الرّمح معلّما فيه، و لهذا کان شهرته بالمعلّم- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الأمير سيف الدين برسباى بن عبد اللّه السّاقى المؤيّدى أحد أمراء العشرات، فى يوم الجمعة سابع عشرين جمادى الأولى، و أنعم السلطان بإمرته على الأمير جانم الظاهرىّ السّاقى، و کان برسباى رجلا عاقلا ساکنا حشما وقورا - رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الأمير جمال الدين يوسف بن يغمور نائب قلعة صفد بها فى أوائل شعبان، و کان مولده بالقاهرة، و تشتّت بالبلاد إلى أن قدم القاهرة بعد موت الملک المؤيّد

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۰

شيخ، و ترقّى إلى أن ولى نيابة قلعة صفد، ثم نقل إلى أتابکية صفد، ثم أعيد إلى نيابة قلعتها ثانيا، إلى أن مات، و کان عارفا مدبّرا سيوسا عاقلا- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الإمام العالم العلّامة زين الدّين عمر ابن الأمير سيف الدين قديد القلمطاوى بمکّة المشرّفة فى مجاورته فى ثامن عشر شهر

رمضان، و سنّة ثمان و ستون سنة، و كان إمام عصره فى النحو و العربيّة و التّصريف، و له مشاركة كبيرة فى فنون كثيرة، و كان يتزيّا بزىّ الأجناد، و يتقلّل فى ملبسه، و لا يتعاظم فى أحواله، و يركب الحمار مع عراقته فى الرّياسة و تبحّره فى العلوم، حتى إنه مات و لم يخلف بعده مثله فى علم العربيّة و التّصريف.

و توفّى الأمير الطواشى زين الدين خشقدم الرّومى اليشبكى، مقدم المماليك السّلطانيّة- بطّالا- بداره التى أنشأها بالقرب من قنطرة طقز دمر خارج القاهرة، فى ليلة الأربعاء ثامن عشر شوال، و سنّه نيف على سبعين سنة، و كان أصله من خدّام الوالد، و قدّمه فى سنة تسع و تسعين إلى الملك الظّاهر برقوق فى جملة خدّام و مماليك، فأنعم به الظاهر على فارس الحاجب، ثم ملكه بعد فارس الأمير يشبك الشّعبانى الأتابكى و أعتقه، ثم اتّصل بعد موت أستاذه بخدمة السلطان، و صار من جملة الجمداريّة الخاص، ثم نقل إلى نيابة المقدم، و دام بها سنين إلى أن ولى تقدمة

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۱

المماليك السلطانية بعد موت الافتخارى ياقوت الأرغون شاوى، فى سنة ثلاث و ثلاثين، فدام على ذلك الى أن قبض عليه الأتابک جقمق العلائى، و حبسه بثغر الإسكندرية مع من حبس من الأمراء الأشرفية و غيرهم.

ثم أطلق، و توجّه إلى دمياط، فدام بها مدّة، ثم نقل إلى المدينة الشريفة، و بعد مدّة قدم إلى القاهرة فدام بطّالا إلى أن مات.

و كان طوالا حشما متعاظما، صاحب سطوة و مهابة و حرمة زائدة، مع طمع كان فيه و شمم، مع عدم فضيلة- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الأمير سيف الدين طوغان السّيفى آقبردى المنقار نائب الكرک قتيلا بيد العريان فى هذه السّنة، و هو من الأصاغر الذين أنشأهم الملک الظاهر جقمق فى أوائل دولته، و لم أعرفه قبل ذلک و لا أعرف معتقه، بل قيل إنه من مماليک آقبردى المنقار، و قيل نوروز الحافظىّ، و الأوّل أقرب.

و توفّى القاضى جمال الدين يوسف بن الصّيفىّ الكركىّ المالكى القبطى بطّالا بدمشق فى هذه السّنة، عن سنّ عال، بعد أن ولى نظر جيش طرابلس و كتابة سرّ مصر فى بعض الأحيان بعد موت علم الدين داود بن الكويز، ثم عزل عنها لعدم أهليّته، و ولى عدة وظائف بالبلاد الشّاميّة إلى أن كبر سنّه و عجز عن المباشرة، فتعطّل إلى أن مات، و قد قدّمنا من ذكره نبذة عند ولايته كتابة السّرّ بمصر فى ترجمة الملک الأشرف برسباى، فلينظر هناک.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۲

و فرغت هذه السّنة و الملک الظاهر جقمق مريض مرضه الذى مات منه بعد خلعه فى صفر حسبما تقدّم ذكره، رحمه اللّه تعالى، و تسلطن ولده الملک المنصور عثمان فى حياته.

أمر النيل فى هذه السنة: الماء القديم خمسة أذرع و أربعة و عشرون إصبعا، مبلغ الزيادة تسعة عشر ذراعا و اثنا عشر إصبعا.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۳

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۵۷]

اشارة

ذكر سلطنة الملک المنصور عثمان على مصر السّلطان الملک المنصور أبو السّعادات فخر الدين عثمان ابن السلطان الملک الظاهر سيف الدين أبى سعيد جقمق العلائى الظاهرىّ.

و هو الخامس و الثلاثون من ملوک مصر الأتراک، و الحادى عشر من الچراكسة.

تسلطن بعد أن خلع أبوه الملک الظاهر جقمق نفسه عن الملک، و حضر الخليفة القائم بأمر اللّه حمزة، و القضاة الأربعة، و جميع

الأمراء، و أعيان الدولة بقاعة الدّهيشة من قلعة الجبل، و بايعوه بالسلطنة فى الثانية من نهار الخميس الحادى و العشرين من محرم سنة سبع و خمسين و ثمانمائة، و كانت البيعة له بالسلطنة فى الثانية من نهار الخميس بعد طلوع الشمس بخمس و عشرين درجة، و لبس الخلعة على العادة، و ركب من الدهيشة و عليه السواد الخليفتى بشعار الملك و أبهة السلطنة على نحو ثلاثين درجة من طلوع الشمس.

و سار و بين يديه الأمراء و أعيان المملكة إلى أن نزل بالقصر السلطانى، و حمل الأمير الكبير إينال العلائى الناصرى القبّة و الطّير على رأسه، إلى أن جلس على تخت الملك، و قبّل الأمراء الأرض بين يديه، و خلع على الخليفة القائم بأمر اللّه حمزة، و على الأمير الكبير إينال المذكور، على كل منهما أطلسين متمّرا، و فرسا بسرج ذهب، و كنبوش زركش، و أنعم على الخليفة بألف دينار، و بإقطاع هائل زيادة على ما بيده.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۴

و تمّ أمره فى السلطنة، و لقّب بالملك المنصور، و عمره يومئذ نحو الثمانى عشرة سنة تخمينا.

و كان الطالع عند بيعته بالسلطنة سبعا و عشرين درجة من برج الحوت، و الغارب برج السّنبلة، و المتوسط برج القوس، و السّاعة ساعة المرّيخ، و القمر بالوجه الثالث من برج العقرب.

و استمرّ الملك المنصور بالقصر السلطانى ساعة، ثم عاد إلى منزله بالحوش السلطانى من قلعة الجبل، و هذا بخلاف عادة الملوك، لأن العادة جرت أنّ السّلطان إذا تسلطن يمكث بالقصر ثلاثة أيام بلياليها، و عنده أعيان الأمراء و الخاصّكيّة، فأبطل ذلك كلّه الملك المنصور، و عاد من يومه، لكون والده على خطة و هو حاضر الحس، و فعل ذلك مراعاة لخاطره.

ثم فى يوم السبت ثالث عشرين المحرم جلس الملك المنصور على الدكّة بالحوش السلطانى، و حضر الأمير دولات باى المحمودى الدّوادار الكبير أمير حاج المحمل إلى بين يديه، و قبّل الأرض، و خلع عليه، و نزل إلى داره.

ثم أصبح يوم الأحد طلع المقام الغرسى خليل ابن السلطان الملك الناصر فرج إلى القلعة، و قد حضر أيضا من الحج، و سلّم على الملك المنصور، فأقبل عليه المنصور، و خلع عليه كامليّة صوف بنفسجى بمقلب بفرو سمّور، ثم خرج من عنده و دخل إلى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۵

الملك الظاهر جقمق، و عاده و سلّم عليه بقاعة الدّهيشة، و قبل أن ينزل رسم له الملك المنصور بالتوجّه من يومه إلى ثغر دمياط.

و كان الملك الظاهر جقمق لما استقدمه من الإسكندرية للحج أطمعه بالسّكنى فى القاهرة، فنزل خليل المذكور إلى تربة جدّه الملك الظاهر برقوق بالصحراء، و سافر منها ليلته إلى دمياط.

ثم فى يوم الاثنين خامس عشرين المحرّم أنعم السّلطان الملك المنصور بإقطاعه الذى كان بيده أيام أبيه على الأمير تنم من عبد الرزّاق أمير مجلس.

و أنعم بإقطاع تنم- و هو أيضا تقدمة ألف- على الأمير يونس الأقبائى شاد الشّراب خاناه.

و أنعم بإقطاع يونس على الأمير جانبك القرمانى- الظاهرىّ برقوق- ثانى رأس نوبة، و الإقطاع إمرة أربعين طبلخاناه.

و أنعم بإقطاع جانبك القرمانى على الأمير يشبك الناصرى، و هو أيضا إمرة أربعين.

و أنعم بإقطاع يشبك الناصرى- و هو إمرة عشرة- على الأمير كزل السودونى المعلّم، و كان بطّالا.

ثم فى يوم الثلاثاء سادس عشرينه حضر الملك المنصور خدمة القصر على العادة قديما، لأن والده الملك الظاهر كان أبطل خدمتى السبت و الثلاثاء من القصر.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۶

و خلع على الأمير لاجين الظاهرىّ الزّرد كاش ولالاة الملك المنصور باستقراره شاد الشّراب خاناه عوضا عن يونس المقدّم ذكره.

و خلع على جانبك قرا الظاهرىّ- جقمق- أحد أمراء العشرات و رأس نوبة باستقرارة زرد كاشا عوضا عن لاجين المذكور.

ثم توجّه الملك المنصور من القصر إلى البحرة بالحوش السلطانى، و طلب به مباشرى الدولة، و حضر الأمير قانى باى الچاركسى الأمير آخور الكبير، و الطّواشى فيروز الرّومى النّوروزى الزّمام و الخازندار، و كلّمهم فى أمر المماليك السلطانيّة، و من أين تكون النفقة عليهم، لأن الملك الظاهر لم يدع فى الخزائن شيئا، و طال جلوسهم عنده إلى قريب الظهر، و انفضّ المجلس بعد كلام طويل، و اختلفت الأقوال فيما وقع فيه من الكلام، و محصول ذلك كله أن السلطان شكا للجماعة قلّة وجود المال بالخزانة السلطانية، و سألهم فى المساعدة فى أمر النفقة، فدار الكلام بينهم فى ذلك، إلى أن التزم كلّ منهم بحمل شىء مساعدة له فى نفقة المماليك، و انفضّ المجلس بعد أمور حكيناها فى الحوادث.

ثم فى يوم الخميس ثامن عشرين المحرّم خلع السلطان على الأمير جانبك الظّاهرىّ بالتكلم على بندر جدّة على عادته فى كل سنة، و خلع على عدّة من الخاصّكيّة بالتوجّه إلى البلاد الشامية بالبشارة بسلطنة الملك المنصور عثمان، و هم:

جانم الأشرفىّ السّاقى البهلوان، توجّه إلى نائب الشام الأمير جلبّان.

و طوخ النّوروزى رأس نوبة الجمداريّة إلى نائب حلب الأمير قانى باى الحمزاوى.

و برسباى الأشرفى الأمير آخور إلى نائب طرابلس الأمير يشبك النّوروزى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۷

و قايتباى الأشرفى الأمير آخور إلى نائب حماة الأمير حاج إينال اليشبكى.

و دولات باى إلى نائب صفد الأمير بيغوت الأعرج المؤيّدى.

و تمر الأشرفى الخاصّكىّ إلى نائب قلعة دمشق و قضاتها و غيرهم.

و سودون يكرك إلى نائب غزة جانبك التاجىّ.

و خشقدم مملوك قراجا الأشرفى إلى نائب الكرك و القدس.

و إينال الظاهرى- جقمق- إلى نائب الإسكندرية برسباى البجاسى.

ثم فى يوم السبت سلخ المحرم أعاد السلطان الجمع بقاعة البحرة من قلعة الجبل بسبب نفقة المماليك السلطانية، و أعاد على مباشرى الدولة الكلام فى أمر النفقة، فكثر الكلام بسبب ذلك، و كان زين الدين الأستادار قد تقرّب إلى الملك المنصور أيام والده، و صار أستاداره و اختصّ به، و مهّد أموره معه، فلما تسلطن ظنّ أنه سيكون من أمره فى دولته أضعاف ما كان له فى دولة والده الملك الظاهر جقمق، و أخذ فى هذا الجمع يمتنع من حمل ما قرّر عليه من الذهب برسم نفقة المماليك، و أنه فى حمله بوظيفة الاستادارية، و أوسع و صمّم على مقالته، و كان فى المجلس الأمير جانبك الظاهرى.

نائب جدّة- و الناصرى محمد بن أبى الفرج نقيب الجيش- و هو أعدى عدوّ لزين الدين الأستادار- مع من حواه المجلس من الأمراء و أعيان المملكة، و كثر الكلام بسبب امتناع زين الدين من حمل المال، و تغيّر السلطان عليه بسبب ذلك، فأمر بمسكه و عزله، و تولية الأمير جانبك الظاهرى نائب جدّة للأستاداريّة، و أحضر فى الحال

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۸

خلعة الأستاداريّة و ألبسها للأمير جانبك المذكور، و نزل إلى داره و بين يديه وجوه الدّولة، و سرّ الناس قاطبة بعزل زين الدين المذكور عن الأستادارية، فإنه كان طال و استطال، و ظلم و عسف، و أخذ عدّة إقطاعات من أخباز المماليك السلطانية و الأمراء؛ استولى عليها بالشّوكة، و أضافها إلى الديوان المفرد، و حجر على غالب الأشياء، و استولى عليها من معايش الفقراء و أرباب التكسّب، و صار هو يأخذها ثم يبيعها بأضعاف ما أخذها، حتى جمع من هذا المال الخبيث أموالا كثيرة، و عمّر منها الجوامع و المساجد و السّبل، فكان حاله فى ذلك كقول القائل:

[الطويل]

بنى جامعا للّه من غير ماله فكان بحمد اللّه غير موفّق

كمطعمة الأيتام من كدّ فرجها لك الويل، لا تزنى و لا تتصدّقى

و قد حرّرنا أحواله من ابتداء أمره إلى يوم عزله فى غير هذا المحل- و المقصود هنا الآن أخبار الملك المنصور- ثم رسم الملك المنصور بحبس زين الدين و إلزامه بخمسمائة ألف دينار.

ثم أنعم الملك المنصور على الأمير بردبك الظاهرى- جقمق- البجمقدار، أحد أمراء الخمسات بإمرة عشرة من الديوان السلطانى، و أنعم بإقطاع بردبك على سودون من سلطان الظاهرى البجمقدار حسابا عن إمرة عشرة ضعيفة، و أنعم على جانبك القجماسى الأشرفى المعروف بدوادار سيّدى بإمرة عشرة أيضا من الذخيرة من المتوفر.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۹

و فى عصر هذا النهار سلّم السلطان زين الدين يحيى الأستادار المنفصل إلى الأمير جانبك الظاهرى الأستادار المستقر فى الأستادارية، و أمره بمعاقبته، فنزل به من القلعة على أقبح وجه، فنعوذ بالله من زوال النّعم، و ما ربّك بظلّام للعبيد، و ازدحم الناس تحت القلعة لرؤيته، فما منهم إلا شامت أو متهكّم، فتفضّل عليه الأمير جانبك، و تنزّه عن عقوبته، رحمة عليه لا خوفا من عاقبته، و أعاده إلى القلعة فى يوم الأربعاء، و قد حرّرنا ذلك كلّه فى الحوادث.

ثم فى يوم الاثنين ثانى صفر خلع السلطان على الأمير فيروز النّوروزىّ الزّمام الخازندار بإعادة الذخيرة إليه.

و خلع على الأمير قشتم الناصرىّ باستقراره فى نيابة البحيرة على عادته أوّلا على كره منه، و هو أيضا أحد أعداء زين الدين الأستادار، و كان قشتم من محاسن الدهر.

و فيه أنعم الملك المنصور على السّيفى قانصوه المحمدى الساقى الأشرفى بإمرة عشرة من الذخيرة أيضا، و قانصوه أيضا من نوادر الدهر و محاسنه.

و مات السلطان الملك الظاهر جقمق فى تلك الليلة حسبما ذكرناه فى خمس مواطن من مصنفاتنا، لا حاجة فى ذكره هنا ثانيا.

ثم فى يوم الأربعاء ثانى يوم دفن الملك الظاهر جقمق نودى بالقاهرة بالأمان و النّفقة فى المماليك السلطانيّة فى آخر صفر.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۰

و فيه نقل زين الدين الأستادار إلى طبقة الخازندار فيروز على حمل ما قرّر عليه.

و فيه خلع السلطان على جانبك الأشرفى اليشبكى والى القاهرة، و على ير على محتسب القاهرة، و على الناصرىّ محمّد بن أبى الفرج نقيب الجيوش المنصورة باستمرارهم.

و خلع على الأمير قراجا العمرى الناصرىّ كاشف الشرقيّة بالوجه البحرى، بعد عزل عبد اللّه عنها، فتزايد سرور الناس بعزل هذا الظالم أيضا.

ثم فى هذا اليوم عوقب زين الدين الأستادار بالعصىّ و المعاصير، و ضرب على سائر أعضائه، و حضر الناصرىّ محمد بن أبى الفرج عقوبته، و كان السلطان ألزمه باستخراج الخمسمائة ألف دينار منه.

ثم فى يوم الثلاثاء استقرّ الزينى فرج بن النّحال كاتب المماليك فى نظر الدولة و خلع السلطان على تنم الخاصّكىّ الظاهرى المعروف برصاص باستقراره فى التّكلم على بندر جدّة عوضا عن الأمير جانبك الظاهرى الأستادار بسفارة جانبك.

ثم فى يوم الخميس ثانى عشر صفر أمسك السلطان الملك المنصور- برأى مماليك أبيه- جماعة من الأمراء المؤيدية، و هم: الأمير دولات باى المحمودىّ المؤيدى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۱

الدّوادار الكبير، و الأمير يرشباى الإينالى المؤيدى أحد أمراء الطّبلخانات و أمير آخورثان، و الأمير يلباى الإينالى أحد أمراء

الطّبلخانات و رأس نوبة؛ و كان القبض على دولات باى بقاعة الدّهيشة، و على يرشباى بالإسطبل السلطانى، و على يلباى من سوق الخيل، و قيّدوا الجميع إلى بعد أذان الظهر، فأنزلوا بالقيود على البغال إلى النّيل، و حملوا إلى الإسكندرية، فسجنوا بها، و كان مسفّر دولات باى الأمير جانبك قرا الذى استقرّ زردكاشا، و قد تولّى نيابة الإسكندرية فى الباطن عوضا عن برسباى البجاسى، و حمل إليه التقليد بعد يومين، فاتّضع بمسك هؤلاء قدر المؤيدية، و ارتفع أمر الأشرفية.

ثم فى يوم الاثنين سادس عشر صفر أنعم السلطان على الأمير قرقماس الأشرفى الجلب، أحد أمراء الطّبلخانات و قريب الأشرف برسباى بإمرة مائة و تقدمة ألف بالدّيار المصرية، عوضا عن دولات باى المحمودى بحكم حبسه، و أنعم بإمرة قرقماس المذكور على الأمير جانبك النّوروزى، المعروف بنائب بعلبك و القادم من مكة قبل تاريخه.

و فيه استقرّ الأمير تمربغا الظّاهرىّ الدّوادار الثانى و أحد أمراء العشرات دوادارا كبيرا، عوضا عن دولات باى، و أنعم عليه بإمرة أربعين، و هو إقطاع يرشباى الإينالى، و أنعم بإقطاعه على يشبك الظاهرى بعد أيام.

و فيه أيضا استقرّ الأمير أسنباى الجمالى الظاهرى أحد أمراء العشرات دوادارا ثانيا،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۲

عوضا عن تمربغا على إقطاعه إمرة عشرة من غير زيادة، و استقرّ الأمير سنقر العائق الأمير آخور الثالث أمير آخور ثانيا عوضا عن يرشباى، و استقرّ الأمير يردبك البجمقدار أمير آخور ثالثا، عوضا عن سنقر المذكور، و استقرّ الأمير جانبك اليشبكى و الى القاهرة زردكاشا عوضا عن جانبك قرا المتوجّه إلى نيابة الإسكندرية، مضافا إلى ما بيده من الولاية و الحجوبيّة و شدّ الدواوين، فعظم ما وقع فى هذا اليوم من الولاية و التغايير على أعيان الأمراء، و نفرت القلوب من الظاهريّة فى الباطن بسبب تولية تمربغا الدوادارية الكبرى، و كان الأمير أسنبغا الطّيّارى رأس نوبة النّوب رشّح لولايتها، و أن يكون الأمير جرباش المحمدى كرد رأس نوبة النّوب عوضه.

و بات الناس على ذلك، فأصبح وقع ما حكيناه، و من يومئذ وقع الكلام فى الدّولة و وجد من له غرض فى إثارة الفتنة مدخلا يدخل منه، و ترقّب الناس وقوع الفتنة، غير أن الناس فى سكون، و البواطن مشغولة إلى ما سيأتى ذكره.

ثم فى يوم الثلاثاء سابع عشره أنعم السلطان على الأمير سونجبغا اليونسى أحد أمراء العشرات و رأس نوبة بإقطاع الأمير يلباى الإينالى بحكم حبسه بالإسكندرية و أنعم بإقطاع سونجبغا المذكور و إقطاع جانبك النّوروزى نائب بعلبك على قانى بك السّيفى يشبك بن أزدمر أحد الدوادارية، و على قوزى الظاهرى الساقى، و استقرّ سنطباى الظاهرى ساقيا عوضا عن قوزى، و خير بك الأشرفى صاحب تمراز المصارع دوادارا عوضا عن قانى بك.

و فيه أيضا عوقب زين الدين أشدّ عقوبة بحضرة الأمير جانبك الظاهرى الأستادار و غيره، و هو لا يظهر ماله من الذخائر غير ما أخذ له، و هو دون المائة ألف دينار، ذكرنا تفصيلها فى غير هذا المحل.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۳

و فى هذه الأيام أشيع بوقوع فتنة، و وثوب المماليك السلطانية بسبب النفقة عليهم.

و فيه استعفى الأمير الوزير تغرى بردى القلاوى الظاهرى من الوزر، فأعفى على أنّه يقوم بالكلف السلطانية فى يومه و من الغد.

ثم فى يوم الأربعاء ثامن عشر صفر عقد مجلس بين يدى السلطان بالقضاة الأربعة بسبب أملاك زين الدين الأستادار الموقوفة عليه و على جوامعه و مساجده، و وقع بسبب ذلك أمور آل الأمر إلى بيعها.

ثم فى يوم الخميس تاسع عشره خلع السلطان على الصاحب أمين الدين بن الهيصم باستقراره وزيرا على عادته، قلت: إذا أعطى القوس لراميه.

ثم فى يوم السبت حادى عشرينه عمل السلطان الخدمة بالحوش السلطانى بسبب قصّاد ملك الحبشة، و كان أشاع أهل الفتن فى أمسه أن السلطان يريد يعمل الخدمة بالحوش ليقبض على جماعة كبيرة من الأعيان، فانفضّ الموكب، و لم يقع شىء من ذلك.

ثم فی یوم الاثنین ثالث عشرین صفر المذکور رسم السلطان للأمیر جرباش الکریمی الظاهری- برقوق- أمیر سلاح بلزوم بیته بحکم کبر سنّه و عجزه عن الحرکة، و کان جرباش من القبائح، و أنعم السلطان بإقطاعه علی الأمیر قراجا الظاهری- جقمق- الخازندار، و صار من جملة أمراء الألوف، و قراجا المذکور من خیار أبناء جنسه دینا و عفّة و کرما، و أنعم بإقطاع قراجا و وظیفته علی الأمیر أزبک من

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۴

ططخ الظاهری- جقمق- الساقی أحد أمراء العشرات و رأس نوبة، و أنعم بإقطاع أزبک علی الأمیر بتخاص العثمانی الظاهری برقوق، و کان بطّالا.

و فیه أیضا استقر الأمیر تنم من عبد الرّزاق المؤیدی أمیر مجلس أمیر سلاح عوضا عن جرباش الکریمی قاشق بحکم لزومه داره.

و فیه خلع السلطان علی الأمیر تمربغا الظاهری الدّوادار الکبیر خلعة الأنظار المتعلقة بالدّواداریّة، و نزل بخلعته فی موکب جلیل، و لسان حاله ینشد: - [البسیط]

من راقب الناس مات غمّا و فاز باللذّة الجسور

ثم فی یوم الثلاثاء رابع عشرینه خلع السلطان علی الأمیر تنبک البردبکی الظاهری المعزول عن حجوبیّة الحجّاب قبل تاریخه، باستقراره أمیر مجلس عوضا عن تنم المنتقل إلی إمرة سلاح، و من الغریب أنه لما ولی إمرة مجلس، و طلع إلی القلعة بعد ذلک، و جلس فی الموکب، قعد قانی بای الچارکسی الأمیر آخور الکبیر فوقه، و هذا شیء لم یعهد من أن أمیر آخور یجلس فوق أمیر مجلس، فعدّ ذلک من جنون قانی بای و قلّة أدبه، إذ [أن] تنبک المذکور فی مقام أستاذه، لأنه خچداش چارکس،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۵

و أیضا أنه کان فی الدّولة الأشرفیّة أمیر مائة و مقدّم ألف، و قانی بای جندی بحیاصة، فما ثمّ وجه من الوجوه لجلوسه فوقه.

و فیه أیضا عزل السلطان جماعة کبیرة من الخاصّکیّة البوّابین من المؤیّدیّة، و ولّی عوضهم جماعة من حواشیه، فزاد ما بالمؤیّدیّة، و أخذوا فی عمل الرّکوب فلم یکن لهم طاقة لذلک لقلّتهم؛ فلم یجدوا بدّا من مصالحة الأشرفیة لیکونوا معا، فسعوا فی ذلک فی الباطن إلی ما یأتی ذکره.

ثم فی یوم الأربعاء خامس عشرینه وصل إلی القاهرة مملوک الأمیر قانی بای الحمزاوی نائب حلب، و مملوک نائب قلعتها، و حاجبها، و قبّلوا الأرض، و أخبر مملوک نائب حلب عن مخدومه أنه قبّل الأرض، و سرّ بسلطنة الملک المنصور إلی الغایة، فرحّب السلطان بهم و خلع علیهم.

ثم فی یوم الخمیس سادس عشرین صفر قری تقلید السلطان الملک المنصور بالسلطنة بالقصر الکبیر السلطانی من قلعة الجبل، فجلس السلطان علی کرسی الملک، و جلس الخلیفة القائم بأمر اللّه حمزة علی الأرض علی یمینه، فعظم ذلک علی الخلیفة، و لم یبده إلا بعد رکوب الأتابک إینال، و حضر القضاة الأربعة و تولّی قراءة التقلید القاضی محبّ الدین بن الأشقر کاتب السّرّ، و بعد فراغ القراءة خلع السلطان الملک المنصور علی الخلیفة و علی کاتب السّر، و خلع علی القضاة الأربعة.

ثم فی یوم السبت ثامن عشرین صفر خلع السلطان علی قاضی القضاة علم الدین صالح البلقینی الشافعی بإعادته إلی قضاء القضاة، بعد عزل شرف الدین یحیی المناوی

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۶

و فیه استقرّ السیفی یشبک القرمی الظاهری و الی القاهرة بحکم عزل جانبک الیشبکی، بحکم انتقاله إلی الزرد کاشیة، حسبما تقدّم ذکره.

هذا و قد أخذت المؤیّدیة فی استمالة الأشرفیّة من یوم قبض الملک المنصور علی خچداشیتهم دولات بای و رفقته (۲)، و لا زالوا

بهم حتى وافقوهم لحزازة كانت فی نفوس الأشرفيّة أيضا من الملك الظاهر جقمق قديما، و قد تجدّد مع ذلك أيضا قول بعض أمراء الظاهرية للأشرفيّة فی أخذ ابن أستاذهم الشّهابی أحمد ابن الملك الأشرف برسبای من عند عمّه زوج أمّه الأمير قرقماس الأشرفی، و إرساله إلى ثغر الإسكندرية ليقيم بها عند أخيه الملك العزيز يوسف، فعظم ذلك على أم الشّهابی أحمد، و على زوجها الأمير قرقماس، فكان ذلك من أكبر الأسباب لموافقة الأشرفيّة للمؤيّدية، ثم ساعدهم أيضا من له غرض فی تغيير الدّول، لا رغبة فی أحد بعينه بل حتى يناله ما قد أمّل، و قد صار ذلك عادة عند موت كلّ سلطان من عهد الملك المؤيد شيخ إلى يومنا هذا، بل إلى يوم القيامة؛ لعدم أهلية الملوك، و لغفلتهم عن هذا المعنى فی أيام عزّهم، و أعجب من هذا أنّ أحدهم لا يزال فی غفلة عن ذلك حتى يشرف على الموت، فيعهد لولده بالسلطنة مع معرفته و تحقّقه بما يفعلونه مع ولده من بعده، كما فعل بأمثاله، و قد قيل فی المثل: «إذا أردت أن تنظر الدنيا بعدك انظرها بعد غيرك»؛ فلما انتظم الصلح بين الطائفتين سرّا تحالفوا و اتفقوا على الركوب فی يوم بعينه.

كلّ ذلك و المنصور و مماليك أبيه و حواشيه فی غفلة عن ذلك، و أكبر همّهم فی تفرقه الإقطاعات و الوظائف، و فی ظنّهم أن دولتهم تدوم، و أن الملك قد صار بيدهم، هذا مع عدم التفاتهم لتقريب العقلاء، و مشاورة ذوی التدبير و أرباب التجارب ممن مارس تغيير الدّول و الحروب و الوقائع، و صار أحدهم إذا لوّح له بعض أصحابه بشیء مما

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۷

يدلّ على ذلك يستخفّ عقله و يهزأ به، حتى لقد بلغنی من بعض أصحابنا الثقات أنه قال للأمير تمربغا مشافهة. «بلغنی أن الأشرفيّة فی عزم الرّكوب على السلطان» فضحك تمربغا و قال: «هم نقطوا بعقلهم»؛ ازدراء بأمرهم و استخفافا بشأنهم، و ليس هذا من شأن من قد صار أمور المملكة بيده فی سائر أحوالها، و إنما شأن الذی يكون فی هذه الرتبة أن يفحص دائما عن أخبار أصدقائه و أعدائه، و لا يكذّب مخبرا و لا ينهر منذرا، بل يسمع كلام كلّ ناصح نصحه، فيأخذ ما صلح بباله، و يترك ما لم يعجبه، من غير أن يفهم عنه لأحد من نصحائه عدم قبول كلامه، بل يشكره على ذلك و يثنی عليه، و يحرّضه على ما هو فيه، و يصغی لكلام كلّ قائل حتى يفهمه، ثم يفعل ما بدا له، هذا مع الاحتراز و التحرّی فی أموره، و استجلاب الخواطر، و تأليف القلوب له و لسلطانه، ما دامت الدولة مضطربة كما هی عادة أوائل الدّول، فيصير بذلك فی غالب أموره على يقظة، فإن كان خيرا فيحمد اللّه على التوفيق، و إن كان شرّا فيتأهب لذلك قبل وقوعه، ثم بلقاه بعد استحكام و استعداد بقوة جنان، و بذل النفوس و الأموال، و هيهات بعد ذلك إن تم الأمر أو لم يتم، فإن كان النصر فهو من عند اللّه، و إن كانت الأخرى فيكون لما سبق فی الأزل، فيزول ملكه، و هو معذور مشكور، لاندمان مقهور، فأين هذا مما كان فيه هؤلاء القوم، و قد صار الناس عند الأمير الكبير إينال، و لبسوا السلاح، و أجمعوا على قتالهم، و هم إلى الآن فی تكذيب الأخبار و استبعاد ما سيكون، فمن أساء لا يستوحش، و المفرّط أولى بالخسارة، و عدم التدبير هو أصل التدمير، و هو كما قيل: - [السريع]

ما يفعل الأعداء فی جاهل ما يفعل الجاهل فی نفسه

و بات الملك المنصور و أمراؤه فی ليلة الاثنين مستهل شهر ربيع الأوّل على تفرقة النفقة على المماليك السلطانية فی غده، و قد انبرم أمر القوم، و تجهزوا لما عساه يكون.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۸

ذكر (ابتداء الوقعة بين السلطان الملك المنصور عثمان و بين الأتابک إينال العلائی)

و أهلّ شهر ربيع الأول يوم الاثنين، و فيه كان ابتداء الوقعة بين السلطان الملك المنصور عثمان و بين الأتابک إينال العلائی حسبما نذكره هنا على سبيل الاختصار، و قد حرّرنا ذلك فی تاريخنا «حوادث الدهور» باستيعاب.

فلما كان وقت السّحر من يوم الاثنين مستهل شهر ربيع الأوّل من سنة سبع و خمسين و ثمانمائة ركب جماعة كبيرة من أعيان

المماليك الأشرفية، و رافقهم جمع كبير من المؤيّديّة و السّيفيّة و غيرهم من غير لبس سلاح، و وقفوا بالرّميلة من تحت القلعة لمنع الأمراء من طلوع الخدمة، و كان بالصّدف بات تلك الليلة جميع الأمراء فى بيوتهم، لكون السلطان كان فى أمسه لم يتوجّه إلى القصر، و أمر بعمل الخدمة من الغد بالحوش السّلطانيّ، ليبدأ بنفقة المماليك فى اليوم المذكور، فلم يكن إلّا ساعة يسيرة من وقوفهم، و قدم الأمراء جميعا إلى الرّميلة يريدون طلوع القلعة، فتكاثرت المماليك عليهم و احتاطوا بهم، و أخذوهم غصبا بأجمعهم، و عادوا بهم إلى بيت الأمير الكبير إينال العلائى، و هو من جملتهم، و كان سكنه بالدّار التى على بركة الفيل الملاصقة لقصر بكتمر السّاقى تجاه الكبش، و أخذوا من جملة الأمراء الأمير قراجا الخازندار الظاهريّ، و قد صار من جملة أمراء مقدمى الألوف، و هو أحد أركان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۹

مملكة الملك المنصور عثمان، و أخذوا معه أيضا من الظّاهريّة الوزير تغرى بردى القلاوى الظاهريّ، و بردبك البجمقدار الأمير آخور الثالث.

وفات المماليك من أعيان الأمراء الأمير تنم من عبد الرزّاق أمير سلاح، فإنه قد أحسّ بالأمر فى أمسه، فلم يحسن بباله إلّا موافقة السّلطان، لأمر يريده اللّه عزّ و جلّ، فركب سحرا، و قصد القلعة، و وافاه الأمير تمربغا الظاهرى الدوّادار الكبير فى طريقه، فطلعا معا إلى الملك المنصور، و اجتمع المماليك و معهم الأمراء فى بيت الأمير الكبير و قد كثر جمعهم، و تزايد عددهم و هم بغير سلاح، و صار جميع الأمراء معهم فى صفة التّرسيم، و لم يبق عند الملك المنصور من أعيان الأمراء غير الأمير تنم أمير سلاح، و الأمير قانى باى الجاركسىّ الأمير آخور الكبير، و الأمير تمر بغا الدوّادار الكبير الظاهرى، و الأمير جانبك الأستادار؛ و كان أيضا من أمراء الظاهرية بالقلعة برد بك البجمقدار فهؤلاء مقدمو الألوف، و إن كان تمر بغا إقطاعه طبلخاناة، فمنزلته تقدمة، و كذلك جانبك الظاهرى.

و كان عند الملك المنصور من الأمراء غير مماليك أبيه جماعة منهم يونس العلائى الناصرى نائب قلعة الجبل، و كزل السّودونى المعلّم، و مغلباى الشهابى أحد أمراء العشرات، و قطّى الدّوكارى نائب البحيرة، و عبد اللّه كاشف الشّرقية، و من مماليك أبيه الأمير لاجين شادّ الشراب خاناه، و أسنباى الجمالى الدّوادار الثانى، و أزبك من ططخ الخازندار الكبير، و هو صهر الملك المنصور و زوج أخته، و سنقر العائق الأمير

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۴۰

آخور الثانى، و سنقر أستادار الصّحبة، و جماعة أخر تأمّروا فى الدولة المنصورية لا يعتدّ بهم؛ كونهم إلى الآن صفة الخاصّكيّة، فهؤلاء [هم] الأمراء.

و أما من كان عنده من مماليك أبيه الخاصّكيّة و الجمداريّة و غيرهم فكثير جدا، على أنه كان بالقلعة جماعة كثيرة غير الظاهرية [الجقمقية] من الظاهرية [البرقوقية] و الناصرية و المؤيدية و الأشرفيّة و السّيفيّة.

و أما من كان مع المماليك من أعيان الأمراء ببيت الأمير الكبير من المقدمين، الأمير الكبير إينال، و تنبك أمير مجلس، و أسنبغا الطيّارى رأس نوبة النّوب، و خشقدم المؤيدى حاجب الحجاب، و طوخ من تمراز الناصرى، و جرباش المحمدى الناصرى كرد، و يونس الاقبائى، و قرقماس الأشرفى الجلب، و أما من أمراء الطبلخانات و العشرات فكثير ذكرناهم فى غير هذا المحل، يطول الشرح فى ذكرهم.

و لما اجتمع القوم فى بيت الأمير الكبير، و عظم جمعهم، أتاهم الأمراء و الخاصّكيّة و الأعيان من كل فجّ، حتى بقوا فى جمع موفور، فأعلنوا عند ذلك بالخروج عن طاعة الملك المنصور، و الدّخول فى طاعة الأمير الكبير إينال، و الأمير الكبير يمتنع من ذلك بلسانه، فلم يلتفتوا لتمنّعه، و أخذوا فى لبس السلاح، فلبسوا فى الحال عن آخرهم، و طلبوا الخليفة القائم بأمر اللّه حمزة، فحضر قبل تمام لبسهم السلاح، و احتفظوا بالأمير قراجا الظاهريّ، و تغرى بردى القلاوى، و بردبك البجمقدار، كونهم ظاهرية جقمقيّة.

و لما حضر الخليفة أظهر الميل الكلىّ للأتابك إينال، و أظهر كوامن كانت عنده من الملك المنصور و حواشيه، منها: أنّ المنصور

جلس يوم قرئ تقليده على الكرسىّ و جلس الخليفة مع القضاة أسفل، و أشياء من هذا، و قام مع الأمراء فى خلع

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۴۱

المنصور أتمّ قيام، كلّ ذلك و المماليك فى احتراز عظيم على جماعة من الأمراء؛ خوفا من فرارهم إلى الملك المنصور حتى على الأمير الكبير.

و لما تكامل لبس المماليك و الأمراء السلاح طلبوا من الأمير الكبير الرّكوب معهم و التوجّه إلى بيت قوصون تجاه باب السلسلة، فامتنع تمنّعا ليس بذاك، ثم أجابهم فى الحال، و ركب هو و الأمراء و حولهم العساكر محدقة بهم إلى أن أوصلوهم إلى بيت قوصون المذكور، و دخلوه من باب سرّه الذى بالشارع الأعظم، و نزل الأمير الكبير بمن معه من الأمراء بالمقعد من الحوش، و جلس الخليفة بالقصر الفوقانى بالبيت المذكور، و رسم على قراجا و تغرى بردى القلاوى و بردبك بالقصر أيضا، كل ذلك و القوم فى غير ثقة من الأمير الكبير و غيره من الأمراء، حتى كلّم الأمير الكبير بعض أصحابه العقلاء بكلام معناه قول القائل: [البسيط]

إذا وترت امرءا فاحذر عداوته من يزرع الشوك لا يحصد به عنبا

إن العدوّ و إن أبدى مسالمة إذا رأى منك يوما فرصة وثبا

و أظن القائل له الأمير أر نبغا الناصرى أحد أمراء الطبلخانات، فإنه كان أمثل القوم و أقواهم بأسا و أفرطهم شجاعة.

و أما الملك المنصور لما بلغه ما وقع من القوم فى بيت الأمير الكبير تحقق من عنده من الأمراء و الأعيان ركوب الأمير الكبير و خروجه عن الطاعة، فأمروا فى الحال يشبك القرمى و الى القاهرة أن ينادى بطلوع المماليك السلطانيّة لأخذ النفقة، و أن النفقة لكل واحد مائة دينار، فنزل يشبك من القلعة و المنادى بين يديه ينادى بذلك، إلى أن وصل إلى الرّميلة تجاه باب السلسلة، فأخذته الدّبابيس من المماليك، فتمزقوا، و ذهب القرمى إلى حال سبيله، ثم أمر الملك المنصور لأمرائه و حواشيه بلبس السلاح، فلبسوا بأجمعهم، و لبس هو أيضا، كل ذلك و آراؤهم مفلوكة، و كلّمهم غير منضبطة،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۴۲

و صرت أنا أنظر إليهم من أسفل القلعة، فلم أجد عندهم انزعاجا و لا هرجا مع جمودة حركاتهم، و لم ينزل من القلعة أحد لحفظ المدرسة الحسنيّة مع معرفتهم أنها مسلّطة على القلعة غاية التسليط، هذا مع كثرتهم و قوّة بأسهم بالقلعة و السلاح و الرجال، و عندهم السلطان و شوكته إلى الآن منقامة - فما شاء اللّه كان.

و أما الأمير الكبير فإنه حال ما استقرّ به الجلوس ندب دواداره و صهره بردبك، و معه الأمير سونجبغا اليونسى رأس نوبة، و نوكار الناصرى أحد أمراء العشرات و ثانى حاجب إلى القلعة رسالة إلى الملك المنصور يطلب منه إخماد الفتنة بإرسال جماعة من أمرائه، و هم: تمربغا الدّوادار الكبير، و لاجين شادّ الشّراب خاناه، و أسنباى الدوادار الثانى، فطلعوا إلى الملك المنصور و كلّموه فى ذلك، و عادوا إلى الأمير الكبير بأجوبة طويلة مضمونها أنه امتنع من تسليمهم، فأرسلهم الأمير الكبير ثانيا، و صحبتهم بردبك دواداره و صهره، فتوجهوا إلى القلعة، و طلعوا إلى المنصور ثانى مرّة، و طلبوا منه ما ذكرناه، فامتنع، و عوّق عنده سونجبغا و نوكار، و أرسل بردبك بالجواب.

و ابتدأ القوم فى القتال من يوم الاثنين المذكور، و اشتدّ الحرب، و جرح من الطائفتين جماعة، ثم خرج جماعة من أصحاب الأمير الكبير، لأخذ مدرسة السلطان حسن فامتنع من بها من فتح أبوابها، فنقبوا حائطا من جوارها مما يلى حدرة البقر، و دخلوا منه إلى المدرسة المذكورة، و عمّروا سلالم سطحها، و طلعوا منه إلى مآذنها، و رموا منها بالمدافع على قلعة الجبل، و قوى أمر أصحاب الأمير الكبير بأخذ المدرسة المذكورة إلى الغاية، غير أن الأمير الكبير إلى الآن يقدّم رجلا و يؤخّر أخرى فى الخلاف على

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۴۳

المنصور، و يحسب العواقب، و صار يظهر أنه مكره على ذلك، فلم يقبل المنصور منه ما أظهره، و تحقّق كل أحد ما القصد بالركوب.

ثم نزل الملک المنصور من القصر السلطانى بأمرائه و عسكره إلى الإسطبل السلطانى، و جلس بالمقعد المطل على الرّميلة، و نزل من عساكره جماعة مشاة من باب السلسلة إلى الرّميلة؛ لقلة وجود الخيل بالقلعة، فإنه كان أيام الربيع و الخيول غالبها مربوطة على القرط بالبرّ الغربى من الجيزة، حتى إنه كان جميع ما بالقلعة من الخيول أقل من مائة فرس، و منعوا من إحضار خيولهم التى بالربيع، و عزّ توصلهم إليها، و قاتلوا القوم و هم مشاة غير مرّة.

و صار أمر الأمير الكبير فى نمو بمن يأتيه من المماليك السلطانيّة، و جميعهم فرسان غير مشاة، فإنه صار كل واحد منهم يرسل غلامه فيأتيه بفرسه من مربطه بالربيع بخلاف القلعيين، فإنهم ممنوعون من ذلك؛ من حجر أصحاب الأمير الكبير عليهم لهذا السبب و غيره.

و لما رأى الملک المنصور أمر الأمير الكبير فى زيادة أراد النزول إليه بعساكره فى الحال من أوّل وهلة، فمنعه قانى باى الچاركسى من ذلک بسوء تدبيره لأمر سبق، و كان فى نزوله غاية المصلحة من وجوه عديدة.

و مضى نهار الاثنين بعد قتال كبير وقع فيه، و بات الفريقان فى ليلة الثلاثاء على أهبة القتال، و أصبحا يوم الثلاثاء على ما هم عليه من القتال و الرمى بالمدافع و النفوط و السهام من الجهتين، و الجراحات فاشية فى الفريقين، إلا أن فيمن هو أسفل أكثر، غير أنه لا يؤثّر فيهم لكثرتهم، و لم يكن وقت الزّوال حتى كثر عسكر الأمير الكبير إينال بمن يأتيه أرسالا من المماليك السلطانية، و استفحل أمره، لا سيما لما نزل الأمير جانبک الظاهرى أستادار العالية إليه داخلا فى طاعته، و معه خجداشه الأمير بردبک

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۴۴

البجمقدار، أحد أمراء العشرات، و رأس نوبة، و سرّ الأمير الكبير بنزوله إلى الغاية، و كان لنزول جانبک المذكور من القلعة أسباب خفيّة.

ثم فى هذا اليوم لهج الخليفة أمير المؤمنين القائم بأمر اللّه حمزة بخلع الملک المنصور عثمان من الملک غير مرّة فى الملأ، فقوى بذلک قلب أصحاب الأمير الكبير و جدّوا فى القتال، و تفرّقوا على جهات القلعة، و جدّوا فى حصارها، و منعوا من يطلع إليها بالميرة و غيرها، و خفّ التّرسيم عن جماعة من الأمراء من أصحاب الأمير الكبير ممّن كانت المماليک تخاف من ذهابهم إلى الملک المنصور، و كانوا قبل ذلک يحتفظون بهم بطريق التحشم، و هو أن الأمير منهم كان إذا ركب للقتال أو غيره دار حوله جماعة من المماليک الأشرفيّة و غيرهم و ساروا معه حيث سار كأنهم فى خدمته حتى يعود إلى مكانه، فمن آخر يوم الثلاثاء هذا و من صبيحة يوم الأربعاء تركوا ذلک لعلمهم أن جميع الأمراء و العساكر صاروا فى طاعة الأمير الكبير، و شرع الجميع فى القتال بمماليكهم و حواشيهم، و فى عمل التدبير فى أخذ الملک المنصور و خلعه من السلطنة، و باتوا تلک الليلة على ما هم عليه.

و أصبحوا يوم الأربعاء ثالث شهر ربيع الأوّل و القتال عمّال، و أصحاب الملک المنصور تنسّل منه إلى الأمير الكبير واحدا بعد واحد، و من بقى منهم عند الملک المنصور لا يلتفت إلى من ذهب، بل هو على ما هو عليه من القتال لكثرة عددهم، و للقيام بنصرة ابن أستاذهم، فكان فى يوم الأربعاء هذا وقعات بين الطائفتين بالمناوشات لا بالمقابلة و باتوا على ذلک.

فلما كان يوم الخميس رابع شهر ربيع الأوّل أرسل الملک المنصور إلى الأمير الكبير بالأمير سونجبغا، و الأمير نوكار، و الزينى عبد الرحمن بن الكويز، و شهاب الدين

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۴۵

الإمام الإخميمى، و معهم منديل الأمان للأمير الكبير و من معه من الأمراء ليطلعوا إلى طاعة السلطان، و ترددوا بين الملک المنصور و الأتابک إينال غير مرّة فى عمل الصلح، و كثر الكلام بينهم إلى أن انفضّ المجلس على غير طائل، و لم ينبرم صلح، و منع الأمير الكبير سونجبغا و نوكار من الطلوع إلى القلعة، و عاد الإخميمى بالجواب إلى السلطان، و فى الحال عاد القتال على ما كان عليه، فإنه كان بطل الرّمى من القلعة و من المدرسة لعمل الصلح، فلما انفضّ الأمر على غير صلح عاد كلّ أحد من الطائفتين إلى ما كان بصدده.

و أعلن الخليفة فى هذا اليوم أيضا بين الملأ بخلع الملک المنصور من السلطنة، و سلطنة الأتابک إينال، و الأتابک إينال يمتنع من

ذلك فى ذلك الوقت حتى ينظر ما يكون من أمر الملك المنصور و محاصرته.

ثم تكلّم الخليفة فى اليوم أيضا بين الناس بأعلى كلامه: «قد خلعت الملك المنصور من الملك»، هذا و قد ضعف أمر الملك المنصور و استفحل أمر الأتابك إينال، غير أن الرّمى من القلعة بالمدافع و غيرها مستمرّ، و هلك من ذلك جماعة كبيرة من عساكر الأمير الكبير و من الأجناد و العامة و المتفرجين.

و أصبح يوم الجمعة خامسه حضر المقرّ الجمالى ناظر الجيش و الخاص و عظيم الدّولة عند الأمير الكبير، فقام له الأمير الكبير و اعتنقه و أجلسه بإزائه فوق الأمير خشقدم حاجب الحجاب، فعند قدومه تحقّق كل أحد بزوال دولة المنصور و إقبال دولة الأتابك إينال، و تكلّم المقرّ الصحابى مع الأتابك كلاما كثيرا لا يشاركهما فى ذلك أحد إلا فى النادر، ثم رسم الأمير الكبير بطلب القاضى محب الدين بن الأشقر كاتب السّرّ و القضاة الأربعة، فحضروا فى الحال و قد نزل الخليفة من القصر أيضا، و جلس عند الأمير

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۴۶

الكبير هو و القضاة و شاهدوا المدافع التى ترمى عليهم من القلعة، و كان أهل القلعة فى يومى الأربعاء و الخميس قد أمعنوا فى الرمى من القلعة على الأمير الكبير و أصحابه حتى كان المدفع يصل إلى باب سرّ بيت قوصون الذى فيه الأمير الكبير، و ربما عدّى الباب و وقع بالشارع على المارّ إلى صليبة ابن طولون، و لما حضرت القضاة عند الأمير الكبير تكلّموا مع الخليفة فى خلع الملك المنصور عثمان بكلام طويل، ثم طلبوا بدر الدين ابن المصرى الموقّع فأملاه قاضى القضاة علم الدين صالح البلقينى الشافعى ألفاظا كتبها تتضمن القدح فى الملك المنصور و خلعه من السلطنة، و كان ذلك فى أوائل الساعة الثالثة من نهار الجمعة. و خلع الملك المنصور فى اليوم المذكور من الملك و حكم القضاة بذلك.

فكانت مدة سلطنة الملك المنصور من يوم تسلطن بعد خلع أبيه الملك الظاهر جقمق فى يوم الخميس حادى عشرين المحرم من سنة سبع و خمسين هذه إلى يوم الجمعة هذا شهرا واحدا و ثلاثة عشر يوما، و لا نعرف أن سلطانا أقام هذه المدّة اليسيرة فى ملك مصر فى الدّولة التركية غيره، هذا مع كثرة عساكره و مماليك أبيه و حاشيته، و ما أرى هذا إلا نوعا من المجازاة- انتهى.

و لما فرغ بدر الدين المصرى من كتابة الورقة أمره قاضى القضاة علم الدين صالح البلقينى أن يقرأ ما فى الورقة على من حضر المجلس من الأمراء و غيرهم، و قرئت عليهم إلى آخرها، ثم سأل قاضى القضاة من حضر المجلس عن سلطنة الأمير الكبير إينال عليهم، فصاحوا بأجمعهم: «نحن راضون بالأمير الكبير»، و كرّر القاضى عليهم القول غير مرّة، و هم يردون الجواب كمقالتهم أوّلا، و فرحوا بذلك، و سرّوا غاية السرور، و انفضّ المجلس على خلع الملك المنصور و سلطنة الأتابك إينال، غير أنه لم يلبس خلعة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۴۷

السلطنة، و لا ركب بشعار الملك؛ ترك ذلك لوقته، و صار الناس فى خطابه من يومئذ على أقسام و ألفاظ مختلفة، فمن الناس من صار يقول له: «يا خوند» و منهم من يقول:

«أغاه»، و منهم من يقول: «الأمير الكبير»، و منهم من يقول: «السلطان» كلّ ذلك و هو على حالة جلوسه كأوّل يوم دخل إلى بيت قوصون المذكور، أعنى من أوّل يوم الوقعة و لم يتغيّر عليه شىء مما كان عليه، و لم يركب من المقعد المذكور من يوم قدم بيت قوصون غير مرة واحدة فى يوم الثلاثاء، و عاد من وسط الحوش قبل أن يصل إلى باب البيت النافذ إلى الرّميلة، ردّه أصحابه إجلالا لقدره، و إنما كان يجلس هو بالمقعد، و الأمراء عن يمينه و يساره جلوسا و وقوفا بين يديه، و المماليك و العساكر تخرج من بين يديه للقتال طائفة بعد أخرى باجتهاد و عمل جد فى مدة هذه الأيام من غير أن يستحثهم أحد لذلك، و هذا شىء عظيم إلى الغاية.

[الخفيف]

و إذا سخّر الإله أناسا لسعيد فإنهم سعداء

و كنت أنظر فى تلك الأيام إلى وجه الأمير الكبير لأتحقّق هل هو مسرور أم محزون، فلا أعرف هذا منه لثباته فى سائر أحواله، و

سکونه و عقله، فإنه کان ینفذ الأمور علی أحسن وجه من غیر اضطراب و لا هرج، بتأنّ و تؤدة، و کلما وقع من أصحابه ما یخالف ذلک یأخذ فی تسکینهم و ثباتهم علی القتال من غیر عجلة، ثم یقول لهم:

«القلاع ما تؤخذ إلا بالصّبر و الثبات و التأنی».

ثم إن الأمیر الکبیر أمر فی الیوم المذکور بعمل منبر لیخطب علیه قاضی القضاة بالبیت المذکور لصلاة الجمعة، فصنع ذلک فی الحال، و تهیأ القوم لصلاة الجمعة، فلما دخل وقت الصلاة خطب قاضی القضاة علم الدین صالح البلقینی و صلّی بالأمیر الکبیر و الخلیفة و جمیع العساکر بمقعد البیت المذکور، ثم انصرف القضاة بعد الصلاة إلی منازلهم.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۴۸

هذا و القتال مستمرّ أشد ما یکون بین الطائفتین، و قد تداول نزول الخاصکیة و الممالیک من عند الملک المنصور إلی الأتابک إینال، و هم مع ذلک کل یوم فی زیادة فی القتال لا یلتفتون إلی من یذهب من عندهم، و یقول بعضهم لبعض: «نحسبه أنه جرح و مات، و ما علینا ممّن یتوجّه من عندنا، و نحن نقاتل إلی أن نموت، و الملک المنصور جالس بالقصر السلطانی، و عنده من أکابر الأمراء الأمیر تنم أمیر سلاح، و الأمیر قانی بای الچارکسی.

هذا مع مبالغة أصحاب الأمیر الکبیر فی القتال أیضا لا سیما من یوم حضر المقرّ الجمالی ناظر الجیوش و الخاص، ثم حضر القضاة، و خلع الملک المنصور فی یوم الجمعة، فمن یومئذ بذلوا نفوسهم لنصرة الأمیر الکبیر، و خوفا من أن یصیر للملک المنصور علیهم دولة، فسیکون فناؤهم علی یدیه، و أیضا إنهم تحققوا سلطنة الأتابک إینال، فاشتاقت نفوسهم لما عساه ینالهم من الإقطاعات و الوظائف و غیر ذلک، فاقتحموا الأهوال لذلک من غیر صبر و لا تأنّ: - [الوافر]

و أعظم ما یکون الشوق یوما إذا دنت الخیام من الخیام

هذا و الجراحات فاشیة فی کلّ من الطائفتین، و یقتل أیضا منهم فی الیوم الواحد و الاثنان و أکثر و أقل.

و لما کان یوم الجمعة المذکور توعّک فیه الأمیر أسنبغا الطیّاری رأس نوبة النّوب، و مات من لیلته شبه الفجاءة من غیر سابق مرض، و صلّی علیه من الغد بالمقعد من بیت قوصون، و حمل و دفن بالصحراء، و کان من محاسن الدنیا، یأتی التعریف بحاله فی الوفیات کما هی عادة هذا الکتاب.

ثم أصبح یوم السبت سادس شهر ربیع الأول حضر المقرّ الجمالی الصاحبی ناظر الجیش و الخاص عند الأمیر الکبیر، و صحبته غالب مباشری الدولة و القضاة، و کتبوا محضرا

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۴۹

یتضمّن ما وقع فی أمسه من خلع الملک المنصور من السلطنة و مبایعة العساکر للأمیر الکبیر بالسلطنة، و کتب فی المحضر جماعة کبیرة من أمراء الظاهریة و غیرهم، و فیه قوادح فی الملک المنصور. ذکرناها فی غیر هذا المحل.

و جدّ فی هذا الیوم کلّ من العسکرین فی القتال، و رتّب الأمیر الکبیر جماعة من أعیان الأمراء علی المواضع التی یتوصل منها إلی القلعة، و حرّض الوالی و غیره علی مسک من یطلع إلی القلعة من الغلمان و الخدم بالمآکل و غیرها، و مسک بسبب ذلک جماعة و ضرب آخرون.

و فی هذا الیوم و الذی قبله صارت أمراء الألوف تخاطب الأمیر الکبیر و هم وقوف، و صار لا یقوم لأحد منهم عند ذهابه و إیابه، و کان الأمیر أسنبغا الطیّاری رأس نوبة النّوب- رحمه اللّه- فی یوم الجمعة الذی مرض فیه رمّل علی کتابة الأمیر الکبیر علی المراسیم و غیرها، و ناهیک بأسنبغا، فإنه کان یوم ذلک أمثل الأمراء و أجلّهم، رأیته أنا و هو یرمّل علی علامته من غیر أن یحتشم معه الأمیر الکبیر فی ذلک و لا تجمّل معه، بل صار کلما علّم العلامة و رمی بها أخذها أسنبغا و رمّل علیها کما کان یفعله مع السلطان، فإن العادة لا یرمّل علی السلطان إلا رأس نوبة النّوب.

هذا و قد تحقّق أهل القلعة زوال ملك الملك المنصور، و هم على ما هم عليه من الشدّة فى القتال، و القيام بنصرة ابن أستاذهم، غير أنهم كما قيل فى الأمثال: «سلاح حاضر و عقل غائب»، لكونهم شبابا لم تمرّ بهم التجارب، و لا لهم ممارسة بالحروب، و لا يعرفون نوعا من أنواع الخديعة و المكر بأخصامهم، و أيضا لم يكن عندهم من الأمراء و غيرهم ممن له خبرة بهذه الأنواع غير أمير واحد و جندى، و كل منهما غير مقبول الكلمة عندهم. فالأمير كزل المعلّم، و الجندى السيفى كمشبغا الظاهرى- برقوق- المعلم، و أما من عداهما من الأمراء فحالهم معروف لا يحتاج إلى بيان، و أعظم من كان هناك من الأمراء

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۵۰

الأمير تنم أمير سلاح، و قانى باى الچاركسى الأمير آخور، فأما تنم فإنه لم يأت بشىء إما تقصيرا منه لمعنى من المعانى، أو لقلة دربته بالحروب و الخطوب، و أما قانى باى فحاله معروف لا يحتاج للتعريف به.

و أصبح الناس فى يوم الأحد سابع شهر ربيع الأول و القتال مستمرّ بين الفريقين، و كلّ منهم فى أشد ما يكون من القيام بنصرة صاحبهم إلى قريب الظّهر، فنزل من القلعة جماعة كبيرة مشاة إلى عند سبيل المؤمنىّ، فخرج إليهم جماعة كبيرة من عسكر الأمير الكبير، و تقاتلوا بالرّماح و السيوف و الأطبار، و افترقوا ثم التقوا غير مرّة حتى أردف عسكر الأمير الكبير طوخ من تمراز الناصرى من مكانه الذى كان مقيما به عند زاوية قانى باى الچاركسى بجماعته، ثم أردفهم جماعة أخر من عند الأمير الكبير، و التحم القتال بينهم و قتل جماعة من عسكر الأمير الكبير، منهم: طقتمر الناصرى رأس نوبة الجمداريّة تهبيرا، لأنه كان هرب من عند الملك المنصور و نزل إلى الأمير الكبير فى يومه، فلما ظفروا به قتلوه، لما كان فى نفوسهم منه، ثم ممجق اليشبكى الخاصكى أخذ سحبا إلى القلعة، فمات من جراحه، و أيتمش المؤيدى الخاصكى، و قانى باى الأشرفى الخاصكى و غيرهم.

و دام القتال بينهم حتى ملك أصحاب الأمير الكبير سبيل المؤمنى بعد أمور و حروب، ثم أطلقت أصحاب الأمير الكبير النّار فى البيوت التى بجوار الميدان برأى تمراز الأشرفى الزّردكاش، فتعلقت النار فيهم حتى وصلت إلى سقف المسجد من سبيل المؤمنى و أحرقته عن آخره، و كان بسطحه جماعة كبيرة من السلطانية فنزلوا عنده، فحينئذ وجد أصحاب الأمير الكبير طريقا لهدم سور الميدان، فهدموا جانبا منه، و دخلوا منه إلى الميدان الذى تحت قلعة الجبل.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۵۱

هذا و قد انحاز السلطانيّة إلى باب السلسلة، فكان فى هذا اليوم حرب بين الطائفتين لم يقع مثله فى الستة أيام الماضية.

فلما دخل القوم إلى الميدان ولّت المنصورية الأدبار، و قام السلطان الملك المنصور عثمان من مجلسه بمقعد الإسطبل السلطانى، و طلع إلى القصر الأبلق من قلعة الجبل، و معه جماعة كبيرة من مماليك أبيه و غيرهم من الأمراء و الخاصكيّة، و دخل قانى باى الچاركسى إلى مبيت الحرّاقة من الإسطبل، و دام الأمير تنم بالمقعد مستعزّا بخچداشيّته المؤيديّة و غيرهم، و تمزّقت عساكر المنصور فى الوقت كأنها لم تكن، من غير أمر أوجب ذلك، و تركوا باب السلسلة و فرّوا منه قبل أن يطلع إليه واحد من أصحاب الأتابك إينال، ثم فعلوا ذلك أيضا بقلعة الجبل و تركوها و أبوابها مفتّحة، و لم يقاتلوا بها ساعة واحدة، و تمزّقوا كلّ ممزّق.

و كان هذا بعكس ما كان منهم فى السبعة أيام الماضية من شدّة القتال و عظم الثّبات و قوّة البأس، إلى أن كان من أمرهم ما كان فى هذا اليوم، و تركوا باب السلسلة و القلعة و انصرفوا فى الحال على أقبح وجه، و كان يمكنهم أن يقاتلوا القوم بالميدان أيّاما؛ فإن الميدان لا ـ فرق بينه و بين الرّميلة، و ليس بينه و بين باب السلسلة تعلق، و أيضا و لو ملكت أصحاب الأمير الكبير باب السلسلة و الإسطبل السلطانى كان يمكنهم القتال من القلعة أياما، إذ ليس للقلعة تعلّق بالإسطبل، و قد ملك المؤيّد شيخ أيام إمرته الإسطبل من الأمير أرغون الأمير آخور نائب غيبة الملك الناصر فرج، و دام به أياما، و لم يقدر على أخذ القلعة و لا توصل إليها بوجه من الوجوه، و كان مع الملك المؤيد أقوام هم هم، و أيضا لم يكن بالقلعة يوم ذاك بعض من كان بها الآن، و وقع ذلك لخلائق من الملوك أنهم ملكوا باب السلسلة و لم يقدروا على أخذ القلعة.

و المقصود من هذا الكلام أن ليس للقلعة علاقة بباب السلسلة إلا فى الأمن و الرّخاء

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۵۲

لا غير، کل ذلک لما تقدم ذکره أنه ليس عندهم من يدبّر أمورهم، و إلا فکان يمکنهم أن يطلعوا إلى القلعة و يحصنوها و يقاتلوا بها أياما حتى تعمل مصالحهم، و إذا سلّموها يعطوها بالأمان و الرّضا، هذا إذا لم يکن لهم نهضة للهروب و الخروج من الدّيار المصرية، و الاختفاء فى مکان من الأمکنة من القاهرة، کما فعل غيرهم من الملوک السالفة، على أن أصحاب الأمير الکبير کان أخذ منهم التعب و الجهد فى هذا اليوم و الذى قبله أمرا کبيرا، و کلّ أکثرهم من القتال، فلو امتنعت السلطانيّة بباب السلسلة يوما أو يومين لطال أمرهم بعد ذلک، و وقع لهم أمور ليس فى ذکرها الآن فائدة، و کان أمر المماليک الظاهرية فى مبدأ الأمر عجيبا من شدّة بأسهم أولا، و فى تهاونهم آخرا، و قد قيل فى الأمثال:

«على قدر الصعود يکون الهبوط».

و لما بلغ الأمير الکبير إينال طلوع الملک المنصور من الإسطبل السلطانى إلى القصر الأبلق ندب فى الحال الأمير جرباش المحمدى الناصرى المعروف بکرد إلى الطلوع إلى باب السلسلة و تسليم الإسطبل السلطانى، و لم يتحرک الأمير الکبير من مکانه، و لا ظهر عليه فرح و لا کآبة، فهذا أيضا مما تعجبت منه، و طلع الأمير جرباش إلى باب السلسلة بعد أن استولى أصحاب الأمير الکبير عليها.

و کان من خير أخذهم لباب السلسلة أن الأمير تنم من عبد الرزّاق المؤيدى أمير سلاح لما قام الملک المنصور و طلع إلى القصر، و تشتت عساکره ثم دخل قانى باى الچارکسى مبيت الحرّاقة من الإسطبل قام تسم المذکور و مشى إلى المقعد الذى کان يجلس به الملک المنصور فى أيام الوقعة، و أشار إلى القوم بمنديل کان بيده کمن يطلب الأمان، ثم رکب فى الحال و فى زعمه أن الجماعة تتلقاه بالرحب و القبول، لأياد کانت له، و صحبة عند الأمير الکبير قديما و حديثا، و أيضا أن غالب من کان من أصحاب الأمير الکبير هو خچداشه أو صاحبه، فرکب فرسه و نزل حتى وقف عند باب السلسلة أسفل الحدرة، و فتحت خوخة باب السلسلة و دخل القوم، فحال ما وقع بصرهم عليه تناولته الألسن و الأيدى بالسب و الضرب، حتى أخذ و أنزل بغير تخفيفة على حالة غير مرضية،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۵۳

و لولا أن بعض خچداشيّته المؤيدية حماه لکان أمره ربما وصل إلى التلاف، و کذلک وقع للأمير کزل المعلّم، و أما عبد اللّه کاشف الشرقية فإنه أخذ و رأسه مکشوفة و شيبته قد تضمخت بالدماء السائلة على وجهه من الضرب بالدبابيس، و القوم تهجم عليه کرّة بعد أخرى لهلاکه، لولا قائل کفّهم عنه و هو يقول: «لا تقتلوه؛ يروح مال السلطان، دعوه حتى يأخذ السلطان أمواله»، ثم وقع ذلک بجماعة من الخاصکية يطول الشرح فى ذکرهم من الأخذ و السلب مما عليهم و الإخراق بهم.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة؛ ج۱۶؛ ص۵۳

أما الأمير تنم فإنه لما أخذوه و دخلوا به إلى الأمير الکبير، و على رأسه قبع أخضر من غير تخفيفة، و معه کزل المعلّم، و عبد اللّه الکاشف، فأوقف بين يدى الأمير الکبير على بعد، فکان أول ما تکلّم به تنم أن قال: «بينى و بين الأمير الکبير عهود» أو معنى ذلک، فقال الأمير الکبير: «أنت نقضت العهد»، يعنى بترکه و طلوعه إلى الملک المنصور، ثم أمر به و برفقته فحبسوا بالقصر عند الأمير قراجا و غيره، ثم نقلوا بعد ساعة إلى رکبخاناة الإسطبل السلطانى، و أضيف إليهم قانى باى الچارکسى و غيره ممن يأتى ذکرهم عند توجههم إلى سجن الإسکندرية.

و لما طلع الأمير جرباش إلى الإسطبل و ملک باب السلسلة، قام الأمير الکبير عند ذلک من مقعد بيت الأمير قوصون، و رکب فرسه، و خرج منه فى موکب عظيم إلى الغاية، و الخليفة عن يمينه، و تنبک البردبکى أمير مجلس عن يساره، و العساکر بين يديه محدقة به، و قد وقفت الخلائق دهليزا لرؤيته، حتى سار من بيت قوصون تجاه باب السلسلة إلى أن طلع إليها، و جلس بالحرّاقة من باب السلسلة، فحال جلوسه تفرّقت العساکر فى قبض أعيان الأمراء الظاهرية و غيرهم، فقبضوا منهم على جماعة کثيرة يأتى ذکرهم بعد ذلک.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۵۴

ثم أخذ قانی بای الچارکسی من مبیت الحرّاقة، و أنزل به عند رفقته المقبوض علیهم، و قیّدوا الجمیع برکبخاناة الإسطبل، و لم ینج أحد من أمراء الظاهریة غیر أسنبای الجمالی الدّوادار الثانی فإنه فرّ من القلعة، و اختفی علی ما سیأتی ذکره.

ثم أمر السلطان فی الوقت بالإفراج عن الأمیر قراجا الظاهری، و عن الأمیر تغری بردی القلاوی، و عن الأمیر بردبک الأمیر آخور الثالث، و رسم لهم بلبس الکلفتاه من الغد، و حضور الخدمة السلطانیة.

ثم رسم الأمیر الکبیر فی الحال بقلع السلاح، و قلع هو قبل الناس ما کان علیه، و کان لبسه فی تلک الأیام کلها قرقل مخمل أحمر بغیر أکمام، و قلعت العساکر فی الحال السلاح من علیهم، و سکنت الفتنة کأنها لم تکن، و بات الناس فی أمن و سلامة، علی أن القاهرة کانت فی مدّة هذه الأیام و القتال عمال فی کل یوم فی غایة الأمن، و الحوانیت مفتّحة، و الناس فی بیعهم و شرائهم، و أکثرهم جالس بالدکاکین للفرجة علی من یمرّ علیهم من العساکر الملبّسة، بل کان یتوجه منهم أیضا جماعة کبیرة إلی الرّمیلة للفرجة علی القتال کما کان یتوجه بعضهم للفرجة علی المحمل و غیره، و لم تقفل أبواب القاهرة فی هذه المدة، و لا شوّشت الزّعر علی أحد، بل کان کل واحد یمضی إلی حال سبیله، و القتال عمّال بین الطائفتین لا یصیب من العامة إلا من توغّل منهم بین المقاتلة، فهذا أیضا من الغرائب، علی أنّنا لا نعلم وقعة کانت بمصر تطول هذه المدة، و لا حوصرت قلعة الجبل سبعة أیام إلا فی هذه الواقعة.

و أما وقعة یشبک الشعبانی و رفقته مع الملک الناصر المقدم ذکرها لیس هی کهذه الوقعة، و مع هذا قفّلت القاهرة فی تلک الکائنة أیاما و نهبت الزّعر عدّة أماکن، فکانت هذه الوقعة بخلاف جمیع الوقائع فی هذا المعنی- انتهی.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۵۵

و بات الأمیر الکبیر إینال بمبیت الحرّاقة من الإسطبل السلطانی حتی أصبح و تسلطن منه علی ما یأتی ذکره مفصلا فی ترجمته عقیب هذه الترجمة.

و زالت دولة الملک المنصور عثمان کأنها لم تکن، فسبحان من لا یزول ملکه.

فکانت مدة سلطنة الملک المنصور من یوم تسلطن بعد خلع أبیه حسبما تقدّم ذکره إلی یوم خلعه الخلیفة یوم الجمعة خامس شهر ربیع الأول شهرا واحدا و ثلاثة عشر یوما، و إلی یوم تسلطن الملک الأشرف إینال فی صبیحة یوم الاثنین ثامن شهر ربیع الأول المذکور شهرا و ستة عشر یوما، و لا نعلم أحدا من ملوک مصر من الأتراک کانت مدّته فی الملک أقصر من مدة الملک المنصور هذا، مع عظم شوکته، و ثبات قدمه فی الملک، فما شاء اللّه کان، و ما هذا إلا نوع من القصاص، و قد ورد فی الإسرائیلیات: یقول اللّه سبحانه و تعالی: «یا داود أنا الربّ الودود، أعامل الأبناء بما فعلت الجدود» و قد رأینا هذه المکافأة فی واحد بعد واحد من یوم خلع الملک المنصور حاجی بالملک الظاهر برقوق من السلطنة إلی یومنا هذا، و الجمیع یشربون هذا الکأس من ید أتابکتهم، و یرد علیهم هذا الشراب بتدبیر ممالیک أبیهم، و قد تقدم ذکر هذا المعنی فی مواطن کثیرة، و الإضراب عن ذکر هذا أجمل.

و لما طلع الملک المنصور من الإسطبل إلی القصر ودّعه ممالیک أبیه و فارقوه، فلا قوة إلا باللّه، و توجه هو إلی الحریم السلطانی عند والدته، و أقام عندها إلی أن طلبه منها الملک الأشرف إینال، فخرجت معه إلی قاعة البحرة بالحوش السلطانی من قلعة الجبل، فأقام الملک المنصور بالبحرة من یوم خلع هو و من یخدمه مع والدته و أولاده و الجمیع فی التّرسیم إلی یوم الأحد ثامن عشرین شهر ربیع الأول، فأخذ منها بجمیع خدمه و والدته و أولاده، و أنزلوا الجمیع فی حرّافة إلی ثغر الإسکندریة، و کانت هیئة نزول الملک المنصور من القلعة أنه أرکب علی فرس بوزبقید، من غیر أن یرکب أحد من الأوجاقیّة خلفه کما هی عادة الملوک من الأمراء، و مضوا به من باب القرافة فی وقت القائلة، و قد خرجوا الناس للفرجة علیه بخارج القاهرة، و ساروا به و حوله الخاصکیة بالسیوف و الرّماح، و جماعة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۵۶

كبيرة من أعيان الأمراء، و قد ازدحم الناس بالكيمان للفرجة عليه، حتى اجتاز بقرافة مصر القديمة إلى أن وصل إلى نيل مصر، و أنزل فى الحرّاقة، و سافر من وقته فى بحر النيل إلى الإسكندرية، فسجن بها، و هذا أيضا من الغرائب من أن ملك مصر يخلع و يتوجّه مقيّدا إلى الإسكندرية نهارا، و لم يقع ذلك لغيره فى السنين الخالية، و كان مسفّره خير بك الأشقر المؤيّدى الأمير آخور الثانى.

و استمر الملك المنصور مسجونا بثغر الإسكندرية و عنده والدته و جواريه و أولاده إلى ما يأتى ذكره- أحسن اللّه عاقبته بمحمد و آله.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۵۷

ذكر سلطنة الملك الأشرف إينال العلائى على مصر

السلطان الملك الأشرف سيف الدين أبو النصر إينال بن عبد اللّه العلائى الظاهرى ثم الناصرى، ملك الدّيار المصرية بعد انهزام الملك المنصور عثمان فى يوم الأحد سابع شهر ربيع الأوّل من سنة سبع و خمسين و ثمانمائة، و طلع إلى باب السلسلة و بات بمبيت الحراقة حسبما ذكرنا إلى أن تسلطن من الغد، و قد ذكرنا طلوعه و ما وقع له فى حرب الملك المنصور فى ترجمته مفصلا، و يأتى ذكر سلطنته أيضا فى أوّل ترجمته كما هى عادة هذا الكتاب.

و الملك الأشرف هذا هو السلطان السادس و الثلاثون من ملوك الترك و أولادهم بالديار المصرية، و الثانى عشر من ملوك الچراكسة و أولادهم بها.

و لما كان صبيحة يوم الاثنين ثامن شهر ربيع الأوّل من سنة سبع و خمسين المذكورة طلع أعيان الدولة و العساكر إلى الإسطبل السلطانى بقماش الموكب و انضموا الجميع بالحرّاقة من باب السّلسلة، و قد حضر الخليفة و القضاة الأربعة و سائر أمراء الدّولة، و بويع الأمير الكبير إينال بالسلطنة، و لقب بالملك الأشرف، و لبس خلعة السلطنة من مبيت الحرّاقة بالإسطبل السلطانى فى أوّل ساعة من النهار المذكور، بعد طلوع الشمس بنحو ست درجات، فى ساعة القمر، و الطالع الحمل، و كان بويع بالسلطنة حسبما تقدم ذكره فى بيت قوصون قبل أن يملك قلعة الجبل فى يوم الأربعاء ثالثة، ثم فى يوم الجمعة حسبما ذكرنا ذلك فى وقته، ثم فى يوم السبت سادسه، ثم فى عصر أمسه بعد طلوعه إلى باب السلسلة، و العهدة فى سلطنته من وقت لبسه الخلعة السوداء الخليفتية و ركوبه بشعار الملك.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۵۸

و لما تمّ لبسه خلعة السلطنة من المبيت المذكور خرج منه، و مشى حتى ركب فرس النوبة، بأبهة السلطنة و شعار الملك. و حمل ولده المقام الشهابىّ أحمد القبّة و الطير على رأسه حتى طلع إلى القصر السلطانى، و الأمراء و العساكر مشاة بين يديه، ما خلا الخليفة.

و سار على تلك الهيئة إلى أن وصل إلى باب القصر، فنزل عن فرسه، و دخل القصر الكبير، و جلس بإيوانه على تخت الملك، و قبّلت الأمراء الأرض بين يديه، و خلع على الخليفة القائم بأمر اللّه فوقا نياكمخا حريرا بوجهين أخضر و أبيض، بطرز يلبغاوى زركش، و قدّم له فرسا بسرج ذهب، و كنبوش زركش، و تمّ جلوسه بالقصر السلطانى إلى يوم الجمعة على ما سنذكره بعد ذكر نسبه فنقول:

أصله چاركسىّ الجنس، أخذ من بلاده، فاشتراه خواجا علاء الدين، و قدم به إلى القاهرة، هو و أخيه طوخ، و طوخ كان الأكبر، و كان اسم إينال غير إينال، فاستقرّ إينال، فاشتراهما الملك الظاهر برقوق- أعنى إينال و طوخ- من الخواجا علاء الدين المذكور فى حدود سنة تسع و تسعين [و سبعمائة] تخمينا، فأعتق الظاهر أخاه طوخ المذكور، و دام إينال هذا كتابيّا بطبقة الزّمام، إلى أن ملكه الملك الناصر فرج بن برقوق و أعتقه، و أخرج له خيلا على العادة، و استمرّ من جملة المماليك السلطانيّة، إلى أن صار فى آخر الدّولة الناصريّة خاصكيّا، فدام على ذلك إلى أن أنعم عليه الأمير الكبير ططر فى الدّولة المظفرية [أحمد] بإمرة عشرة فى أوائل سنة أربع و عشرين، ثم نقل إلى إمرة طبلخاناة فى أوائل دولة الأشرف برسباى فى سنة خمس و عشرين و ثمانمائة، ثم صار بعد انتقال قانى باى

الأبوبكرى البهلوان إلى تقدمة ألف، ثانى رأس نوبة النّوب، ثم نقل إلى نيابة غزّة بعد عزل الأمير تمراز القرمشى و قدومه إلى الدّيار المصرية، و ذلك فى يوم الثلاثاء ثامن عشرين شوال سنة إحدى و ثلاثين

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۵۹

و ثمانمائة، فباشر نيابة غزّة إلى أن سافر صحبة الملك الأشرف برسباى إلى آمد فى سنة ست و ثلاثين و ثمانمائة.

و لما عاد الأشرف من آمد و نزل بمدينة الرّها- و قد استولى عليها و هى خراب- طلبه الملك الأشرف ليستقرّ فى نيابة الرّها فامتنع، و رمى بسيفه و أغلظ للأشرف فى الكلام، فاستشاط الأشرف غضبا و لم يسعه إلا أن طلب مملوكه قراجا شادّ الشّراب خاناه، و خلع عليه بنيابة الرّها، و قال: «أنا ما يمتثل أوامرى إلا مماليكى».

و انفضّ الموكب، و ذهب إينال هذا إلى مخيّمه، فندم على ما وقع منه، و خوّف عواقب ذلك، فأذعن، و طلبه السلطان فى عصر النهار المذكور، و خلع عليه أطلسين متمرّا، و وعده بأن يمده بالسلاح و العليق و غير ذلك، و أنعم عليه بإمرة مائة و تقدمة ألف بالديار المصرية، زيادة على نيابة الرّها، عوضا عن جانبك الحمزاوى المستقر فى نيابة غزّة عوضه.

و خرج إينال و هو متغيّر اللون- رأيته لما سلمت عليه- و دام فى نيابة الرّها، إلى أن عزله الأشرف عنها بالأمير شاد بك الجكمى ثانى رأس نوبة فى يوم الثلاثاء سبع عشرين شوال سنة سبع و ثلاثين، و استقدمه إلى القاهرة على إمرة مائة و تقدمة ألف، و هو الإقطاع الذى كان بيده زيادة على نيابة الرّها.

فدام بمصر إلى أن خلع عليه الأشرف فى يوم الخميس عاشر رجب سنة أربعين و ثمانمائة بنيابة صفد بعد عزل الأمير يونس الركنى الأرغونى الأعور عنها، فاستمر فى صفد إلى أن طلبه الملك الظاهر جقمق فى سنة ثلاث و أربعين، و أنعم عليه بإمرة مائة و تقدمة ألف بالديار المصرية فى صفر السنة المذكورة، و ولّى صفد عوضه قانى باى البهلوان أتابك دمشق.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۶۰

و كان قدوم إينال هذا إلى القاهرة فى يوم السبت ثالث عشر صفر، فدام بالقاهرة من جملة أمراء الألوف إلى أن نقله الملك الظاهر جقمق إلى الدوادارية الكبرى بعد موت تغرى بردى البكلمشى المؤذى فى يوم الخميس ثالث عشر جمادى الآخرة سنة ست و أربعين، فباشر الدواداريّة إلى أن نقله الظاهر إلى أتابكيّة العساكر بالديار المصرية دفعة واحدة بعد موت الأتابك يشبك السّودونى المشدّ فى سنة تسع و أربعين و ثمانمائة، فدام أتابكا إلى أن مات الظاهر جقمق، و ملك بعده ابنه المنصور عثمان، و وقع ما حكيناه من الفتنة بينه و بين المنصور حتى خلع المنصور و تسلطن حسبما ذكرناه فى أول هذه الترجمة- انتهى ذكر نسبه.

و لنعد لما كنا فيه من جلوسه بعد قلعه خلعة السلطنة بالقصر فنقول:

و لما تمّ جلوسه بالقصر طلب خچداشه يونس العلائى الناصرى نائب قلعة الجبل، و خلع عليه باستقراره فى نيابة الإسكندرية بعد عزل يشبك قرا و حبسه، و أمر السلطان الأمير قانى باى الأعمش الناصرى- أحد أمراء العشرات و رأس نوبة- أن يجلس مكان يونس المذكور.

ثم أصبح السلطان الملك الأشرف إينال هذا فى يوم الثلاثاء تاسع ربيع الأول خلع على جماعة كبيرة بعدّة وظائف:

فخلع على ولده المقام الشهابى أحمد باستقراره أتابك العساكر عوضا عن نفسه.

و على الأمير تنبك البردبكى الظاهرى أمير مجلس بإمرة سلاح عوضا عن الأمير تنم من عبد الرزاق المؤيّدى بحكم القبض عليه و سجنه.

و خلع على الأمير طوخ من تمراز الناصرى غليظ الرقبة بإمرة مجلس عوضا عن تنبک المذكور و خلع على الأمير خشقدم الناصرى المؤيّدى حاجب الحجاب باستمراره على وظيفته.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۶۱

و خلع على الأمير جرباش المحمدى الناصرى المعروف بكرد باستقراره أمير آخور كبيرا عوضا عن قانى باى الچاركسى بحكم القبض عليه.

و خلع على الأمير يونس الأقبائى دوادارا كبيرا عوضا عن تمر بغا الظاهرى بحكم القبض عليه، لكن يونس هذا ولى الدّواداريّة على تقدمة، و كان تمر بغا وليها على إمرة طبلخاناه.

و خلع على الأمير قرقماس الأشرفى الجلب باستقراره رأس نوبة النّوب عوضا عن الأمير أسنبغا الطيّارى بحكم وفاته.

و خلع على الأمير جانبك الظاهرى نائب جدّة خلعة الاستمرار على وظيفته الأستادارية الكبرى.

ثم أمر السلطان فى يوم الأربعاء عاشره بالمناداة فى المماليك السلطانية بأن النفقة فى يوم الاثنين.

ثم فى يوم الأربعاء هذا حملت الأمراء المسجونون من القلعة على البغال إلى بحر النيل و سفّروا من وقتهم إلى الإسكندرية، و هم: الأمير تنم المؤيّدى أمير سلاح المقدّم ذكره، و قانى باى الچاركسى الأمير آخور الكبير، و الأمير تمربغا الدوادار، و الأمير لاچين شادّ الشراب خاناه، و أزبك الساقى الخازندار، و سنقر العائق الأمير آخور الثانى، و جانم الساقى الظاهرى، و سودون الأفرم الظاهرى، و جانبك الظاهرى البوّاب- و هما ممن تأمّر فى الدولة المنصورية-، و الجميع ظاهرية ما عداتنم وقانى باى.

و فى يوم الأربعاء هذا أشيع كلام بسبب تولية السلطان ولده أحمد أتابكا عوضه، و أن ذلك بخلاف العادة، فخارت طباع الأشرف من غير أمر يوجب ذلك، و أصبح من

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۶۲

الغد فى يوم الخميس خلع على الأمير تنبك البردبكى الذى كان استقرّ فى إمرة سلاح باستقراره أتابك العساكر عوضا عن ولده الشهابى أحمد، و أنعم على ولده المذكور بإمرة مائة و تقدمة ألف- على عادة أولاد السلاطين- و جعله يجلس رأس الميسرة.

قلت: و هذا أول وهن وقع فى دولة الأشرف إينال من كونه يولّى ولده أتابكا فى الأمس، ثم يعزله فى الغد من غير أمر يقتضى ذلك، و لو صمّم على بقاء ولاية ولده لتمّ له ذلك و لم ينتطح فى ذلك عنزان.

ثم خلع على الأمير خشقدم الناصرى حاجب الحجّاب باستقراره أمير سلاح عوضا عن تنبك المذكور.

و خلع على قراجا الخازندار الظاهرى باستقراره حاجب حجّاب عوضا عن خشقدم المؤيّدى المذكور.

ثم استقرّ الأمير تمراز الإينالى الأشرفى دوادارا ثانيا عوضا عن أسنباى الجمالى بحكم تسحّبه، و أنعم عليه بإمرة عشرين.

ثم استقرّ جانبك من قجماس الأشرفى شادّ الشّراب خاناه عوضا عن لاجين بحكم حبسه.

و استقرّ خير بك الأشقر المؤيّدى أمير آخور ثانيا عوضا عن سنقر العائق بحكم سجنه.

و أنعم على خير بك المذكور بإمرة عشرين، و كانت العادة إمرة طبلخاناة.

و استقر قانى باى الأعمش الناصرى نائب قلعة الجبل عوضا عن يونس العلائى نائب الإسكندرية- كما تقدّم ذكره-

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۶۳

ثم أنعم السلطان على الأمير جانبك القرمانى الظاهرى رأس نوبة ثانى بإمرة مائة و تقدمة ألف بالديار المصرية عوضا عن الأمير أسنبغا الطيّارى بعد وفاته.

و استقرّ يشبك الناصرى رأس نوبة ثانيا عوضا عن جانبك القرمانى المذكور.

ثم أنعم على الأمير أرنبغا اليونسى الناصرى بإمرة مائة و تقدمة ألف بالديار المصرية عوضا عن قانى باى الچاركسى بحكم القبض عليه و حبسه.

و أنعم على برسباى البجاسى المعزول عن نيابة الإسكندرية بإمرة مائة و تقدمة ألف بالديار المصرية عوضا عن الأمير طوخ بحكم انتقال طوخ إلى تقدمة أخرى أكثر خراجا منها- و هو إقطاع تنبك المنتقل إلى الأتابكية-.

ثم أنعم السلطان على جماعة كثيرة بإمرة طبلخانات، و عشرات، باستحقاق و بغير استحقاق، كما هى عوائد أوائل الدّول، يطول الشرح فى تسميتهم.

ثم خلع السلطان على جماعة كبيرة بعدة وظائف، منهم: البدرى حسن بن الطولونى باستقراره معلّم المعمارية، و أميرزة بن حسن الدّوكارى التركمانى بكشف الوجه القبلى على عادته، و على جماعة أخر.

ثم فى يوم السبت ثالث عشر ربيع الأول المذكور استقرّ الأمير جانبک من أمير الأشرفى الظريف أمير طبلخاناه خازندارا كبيرا عوضا عن الأمير أزبک من ططخ الظاهرى بحكم سجنه بالإسكندرية.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۶۴

و استقرّ بردبک دوادار السلطان قديما و زوج ابنته دوادارا ثالثا بإمرة عشرة و هذا شىء لم نعهده كون الدوادار الثالث يكون أمير عشرة، و ما عادته إلا خاصكيا، و كان حق بردبک هذا الدواداريّة الثانية لكونه مملوک السلطان و دواداره و زوج ابنته، غير أن السلطان لما رأى أن تمراز الأشرفى غرضه فى الدوادارية الثانية لم يسعه إلا الإنعام عليه بها، لعظم شوكة الأشرفية يومئذ.

ثم استقرّ يشبک الأشقر الخاصكى الأشرفى أستادار الصّحبة بعد عزل سنقر الظاهرى عنها من غير إمرة.

ثم فى يوم الاثنين خامس عشر ربيع الأول ابتدأ السلطان بالنفقة على المماليک السلطانية على أقسام متعددة نفقة كاملة، و هى مائة دينار، و نصف نفقة، و ربع نفقة، و عشرة دنانير، و هذا لم يقع قبل فى الدّولة التركية، و لام السلطان بعض أعيان الأمراء على ذلک، فقال: «هذا الذى كان رتّبه تمربغا للتفرقة فى الدولة المنصورية»، فكلم ثانيا، فاعتذر بقلة المتحصل فى الخزانة السلطانية.

قلت: «و العذر الثالث أن كلمة الشّحّ مطاعة».

قلت: «و الذى فرّق فى المماليک السلطانية إنما هو الذى جمعه الملک المنصور عثمان من السّلف و المصادرات فى أيّام سلطنته، و إلا فما ترک والده الملک الظاهر جقمق فى الخزانة شيئا يذكر، لكرم نفسه و كثرة عطاياه- رحمه اللّه تعالى-».

ثم فى يوم الثلاثاء سادس عشره خلع السلطان على جماعة من الأمراء خلع الأنظار المتعلقة بالوظائف المقدم ذكرها.

ثم فى يوم الأربعاء سابع عشره وصل الأمير دولات باى المحمودى الدّوادار من

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۶۵

سجن الإسكندرية، و وقع فى خروج دولات باى المذكور و مجيئه من ثغر الإسكندرية غريبة فيها عبرة لمن اعتبر، و هو أنّ الأمراء الذين قبض عليهم الملک الأشرف إينال هذا كان غالبهم هو الذى حسّن للمنصور القبض على دولات باى هذا و سجنه بثغر الإسكندرية فلما أمسكهم الملک الأشرف و سيّرهم إلى الثغر، رسم بإطلاق دولات باى من السجن، فتوافوا خارج الإسكندرية، و قد أفرج عن دولات باى، و رسم بحبسهم عوضه، فانظر إلى هذا الدّهر و أفعاله بالمغرمين به، لتعلم أن اللّه على كل شىء قدير.

و فى يوم الخميس ثامن عشره أنعم السلطان على الأمير يونس العلائى نائب الإسكندرية بإقطاع الأمير جانبک اليشبكى الوالى ثم الزّردكاش بعد وفاته، و أنعم بإقطاع يونس المذكور على قانى باى الأعمش الذى استقرّ عوضا عن يونس فى نيابة القلعة.

و فى يوم الجمعة تاسع عشره أفرج السلطان عن الأمير زين الدين يحيى الأستادار من محبسه بالبرج من قلعة الجبل، و خلع عليه كامليّة بمقلب سمّور، و نزل إلى داره.

و فى يوم السبت العشرين من ربيع الأول المذكور استقر نوكار الناصرى الحاجب الثانى زردكاشا بعد موت جانبک اليشبكى، و استقرّ سمام الحسنى الظاهرى حاجبا ثانيا عوضا عن نوكار.

و فى هذه الأيام خلع السلطان على جماعة كبيرة بعدّة وظائف حتى تجاوز عدد رءوس النّوب على خمسة و عشرين نفرا، و الدّوادارية صاروا عشرة نفر بعد ما كانوا خمسة، و كذلک البجمقدارية و البوّابون، و قس على ذلک.

ثم قبض السلطان على نيف و ثلاثين مملوكا من مماليک الظاهرية، و حبسوا بالبرج من القلعة، و كان نفى قبل تاريخه جماعة أخر، و

شيّع شاهين الفقيه الظاهرى، و هو ممن لا يلتفت إليه، و سنقر أستادار الصّحبة، كلاهما إلى القدس الشريف.

ثم أخرج أيضا يشبك الظاهرى، و كان تأمّر فى الدولة المنصورية عشرة، و يشبك

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۶۶

الساقى، و سنطباى رأس نوبة الجمداريّة إلى طرابلس، ثم أخرج بعدهم أيضا جماعة أخر.

و فى يوم الاثنين ثانى عشرينه استقرّ الأمير زين الدين يحيى أستادارا على عادته أوّلا، بعد عزل الأمير جانبك نائب جدّة عنها برغبة من جانبك المذكور.

و فيه وصل الأمير برشباى الإينالى المؤيّدى الأمير آخور الثانى- كان- و الأمير يلباى الإينالى المؤيدى من ثغر دمياط، بطلب من السلطان.

و فى يوم الخميس خامس عشرينه وصل الأمير سودون الإينالى المؤيّدى قراقاش من القدس الشريف بطلب.

ثم فى يوم الثلاثاء سلخ ربيع الأوّل ظهر الأمير أسنباى الجمالى الظاهرى الدّوادار الثانى- كان- و كان مختفيا من يوم ملك السلطان باب السلسلة فرسم له بالتوجه إلى القدس بطّالا.

و فى يوم الخميس ثانى شهر ربيع الآخر وصل الأمير جانم الأمير آخور - كان- قريب الملك الأشرف برسباى من حبس قلعة صفد و خلع السلطان عليه كامليّة مخمل أخضر بمقلب سمّور، و وعده بكل جميل، نذكر ذلک فى تاريخنا الحوادث مفصلا هذا و غيره لكونه محلّ ضبط الحوادث، و ما نذكره هنا ليس هو إلا على سبيل الاستطراد و الأمور المهمة لا غير، و أما جميع الوقائع ففى الحوادث تطلب هناک- انتهى.

و فى يوم الجمعة أوّل جمادى الأولى قبض السلطان على الأمير قراجا الخازندار

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۶۷

الظاهرى، و هو يومئذ حاجب الحجّاب، و حبسه بالبحرة من قلعة الجبل من غير أمر أوجب مسكه، و إنما هى مندوحة لأخذ إقطاعه.

و فى يوم السبت ثانى جمادى الأولى أنعم السلطان بإقطاع قراجا المذكور و هو إمرة مائة و تقدمة ألف على الأمير جانم الأمير آخور الأشرفى، و خلع على الأمير جانبک القرمانى باستقراره حاجب الحجّاب عوضا عن قراجا المذكور، و رسم السلطان بتوجّه قراجا إلى القدس بطّالا، فسافر يوم الاثنين رابعه.

و فى يوم الثلاثاء خامسه قرئ تقليد السلطان الملک الأشرف إينال بالقصر الكبير من قلعة الجبل، و حضر الخليفة و القضاة الأربعة، و جلس السلطان على الأرض من غير كرسىّ على مرتبة، و جلس على يمينه الخليفة القائم بأمر اللّه حمزة، ثم جلست القضاة الأربعة كل واحد فى منزلته، و قرأ القاضى محب الدين بن الأشقر كاتب السر التقليد إلى أن تمّت قراءته، فخلع عليه السلطان، و على الخليفة، و انفضّ الموكب.

و فى يوم الجمعة ثامنه عقد السلطان عقد الأمير يونس الأقبائى الدوادار الكبير على ابنته بجامع القلعة بحضرة السلطان.

و فى يوم السبت تاسع جمادى الأولى خلع السلطان على الشيخ عز الدين أحمد الحنبلى باستقراره قاضى قضاة الحنابلة بالديار المصرية، بعد وفاة قاضى القضاة بدر الدين بن عبد المنعم.

و فيه رسم السلطان أن يحطّ عن البلاد بالوجه القبلى و البحرى و سائر الأعمال ربع ما كان يطرح عليهم قبل ذلک من الأطرون، و سرّ الناس بذلک و تباشروا بزوال الظلم و إزالة المظالم.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۶۸

و فى يوم الأحد سابع عشره ورد الخبر على السلطان بقتل الأميرين سونجبغا و تغرى بردى القلاوى المعزول عن الوزر قبل تاريخه، قتل الواحد الآخر، ثم قتل الآخر فى الوقت، ذكرنا أمرهما مفصلا فى تاريخنا الحوادث، فأنعم السلطان بإقطاع تغرى بردى القلاوى على

الأمير يرشباى الإينالى المؤيّدى، و أنعم على الأمير يلباى الإينالى المؤيّدى بإقطاع سونجبغا، و كان إقطاعه قديما قبل أن يمسك، و أنعم بإقطاع عبد اللّه الكاشف على سودون الإينالى المؤيّدى قراقاش، و أنعم على تنم الحسينى و على قلمطاى الإسحاقى الأشرفيّين بإقطاع يلبغا الجاركسى بحكم تعطّله و لزومه داره، لكل واحد منهما إمرة عشرة.

و فى يوم الاثنين ثالث جمادى الآخرة أنعم السلطان على خير بك الأجرود المؤيدى أتابك دمشق- كان- بعد قدومه من السجن بإقطاع دولات باى المحمودىّ الدّوادار- كان- بعد موته، و الإقطاع إمرة مائة و تقدمة ألف بالديار المصرية، و كان دولات باى الدّوادار أخذ هذا الإقطاع بعد موت أرنبغا، و أرنبغا أخذه بعد قانى باى الجاركسى، كلّ ذلك فى دون ثلاثة أشهر.

و فى يوم الأربعاء خامس جمادى الآخرة ورد الخبر من الشام بموت قانصوه النّوروزىّ، أحد أمراء دمشق، فأنعم السلطان بتقدمته على الأمير فانى بك المحمودى المؤيدى، و كان فانى بك بطّالا بدمشق.

ثم فى يوم الاثنين رابع عشر شهر رجب أدير المحمل على العادة، و لعبت الرمّاحة، و كان الملك الظاهر جقمق أبطل ذلك، فأعاده الملك الأشرف هذا، و سرّ الناس بعمله غاية السرور.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۶۹

و فى يوم الخميس سابع عشر رجب المذكور ندب السلطان الأمير قانم طاز الأشرفى أحد أمراء العشرات و رأس نوبة بنقل الأمراء المسجونين من ثغر الإسكندرية إلى جيوش البلاد الشامية، فتوجّه إليهم، و نقل الجميع ما خلا الأميرين تنم المؤيّدى أمير سلاح، و قانى باى الجاركسى، فإنهما داما فى سجن الإسكندرية.

و فى يوم السبت رابع شهر رمضان استقرّ الزينى فرج بن ماجد بن النحّال كاتب المماليك السلطانية وزيرا بعد تسحّب الصاحب أمين الدين إبراهيم بن الهيصم.

و فى يوم الأربعاء ثامن شهر رمضان المذكور ورد الخبر على السلطان بموت الأمير بيغوت الأعرج المؤيدى نائب صفد، فرسم السلطان بانتقال الأمير إياس المحمّدى الناصرى أتابك طرابلس إلى نيابة صفد دفعة واحدة، و حمل إليه التقليد و التشريف على يد الأمير خشكلدى القوامى الناصرى أحد أمراء العشرات، و استقرّ حطط الناصرى المعزول قبل تاريخه عن نيابة غزّة أتابك طرابلس عوضا عن إياس المذكور، و أنعم بإقطاع حططإمرة عشرين بطرابلس- على جانبك المحمودى المؤيدى، و كان بطّالا بطرابلس.

ثم استهلّ شوال يوم الجمعة، فصلى السلطان صلاة العيد بجامع القلعة الناصرى على العادة، ثم صلّى من يومه أيضا الجمعة بالجامع المذكور، فكان فى هذا اليوم خطبتان فى يوم واحد، و كثر كلام الناس فى هذا الأمر، فلم يقع إلا كل جميل من سائر الجهات، و صار كلام الناس من جملة الهذيان، و أنت تعلم مقدار ما أقام الأشرف بعد ذلك فى الملك.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۷۰

ثم فى يوم الاثنين حادى عشر شوال المذكور خلع السلطان على الأمير جانبك الظاهرى المعزول قبل تاريخه عن الأستادارية باستقراره فى التكلم على بندر جدّة بعد أن أنعم عليه بزيادة على إقطاعه، و جعله من جملة أمراء الطبلخانات بالديار المصرية، ثم رسم بنفى الأمير بردبك التاجى الأشرفى- الذى كان تكلم على بندر جدّة فى السنة الماضية- إلى القدس بطالا، و أخرج السلطان إمرة بردبك المذكور إلى جكم الأشرفى خال الملك العزيز يوسف، و الإقطاع إمرة عشرة.

و فى يوم الاثنين ثامن عشر شوال المذكور تسحّب الأمير زين الدين الأستادار، و اختفى؛ مما حمل للديوان السلطانى من الكلف، و بلغ السلطان ذلك، فأرسل السلطان خلف على بن الأهناسى البردادار بخدمة زين الدين المذكور [سابقا]، و هو يومذاك أستادار المقام الشهابى أحمد بن السلطان، و استقرّ به أستادارا عوضا عن زين الدين دفعة واحدة، و علم السلطان أن عليّا هذا ليس هو فى هذه الرّتبة، و لا فيه أهلية لأن يكون من جملة كتّاب ديوان المفرد، فتكلم فى الملأ بكلام معناه أن السلطان إذا أقام كائنا من كان من أقلّ الناس فى أيّ وظيفة شاء- و كان للسلطان به عناية- سدّ تلك الوظيفة على أحسن الوجوه، فسكت كلّ أحد، لعلمهم أن السلطان يعلم حاله،

كما يعلمونه هم، و اختاره لهذه الرّتبة.

ثم فى يوم السبت ثالث عشرين شوال ورد إلى الدّيار المصرية قاصد خونـدكار محمـد بـك ابن مرادبك بن عثمان، متملّك بلاد الرّوم، لتهنئة السلطان بالملك، و أيضا يخبره بما منّ اللّه عليه من فتح مدينة إسطنبول، و قد أخذها عنوة بعد قتال عظيم فى يوم الثلاثاء العشرين من جمادى الأولى سنة سبع و خمسين و ثمانمائة، بعد ما أقاموا على حصارها من يوم الجمعة سادس عشرين شهر ربيع الأوّل من هذه السنة- أعنى سنة سبع و خمسين المذكورة- إلى أن أخذها فى التاريخ المقدم ذكره.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۷۱

قلت: و للّه الحمد و المنة على هذا الفتح العظيم.

و جاء القاصد المذكور و معه أسيران من عظماء إسطنبول، و طلع بهما إلى السلطان و هما من أهل قسطنطينية، و هى الكنيسة العظمى بإسطنبول، فسرّ السلطان و الناس قاطبة بهذا الفتح العظيم سرورا زائدا، و دقّت البشائر لذلك، و زيّنت القاهرة بسبب ذلك أياما، ثم طلع القاصد المذكور و بين يديه الأسيران المذكوران إلى القلعة فى يوم الاثنين خامس عشرين شوال، بعد أن اجتاز القاصد المذكور و رفقته بشوارع القاهرة، و قد احتفلت الناس بزينة الحوانيت و الأماكن، و أمعنوا فى ذلك إلى الغاية، و عمل السلطان الخدمة بالحوش السلطانى من قلعة الجبل، و قد استوعبنا طلوع القاصد المذكور فى غير هذا المحل من مصنفاتنا بأطول من هذا.

و بالجملة فكان لمجىء هذا القاصد بهذه البشارة الحسنة أمير كبير، و عيّن السلطان من يومه الأمير يرشباى الإينالى المؤيّدى الأمير آخور الثانى- كان- بالتوجّه إلى ابن عثمان صحبة القاصد بالجواب السلطانى، و قد كتبنا صورة الكتاب الذى جاء من ابن عثمان على يد القاصد المذكور بفتح مدينة إسطنبول، و الجواب الذى أرسله السلطان صحبة يرشباى هذا، كلاهما مثبوت فى تاريخنا حوادث الدهور، إذ هو محل ضبط هذه الأمور- انتهى.

ثم رسم السلطان بالمناداة على زين الدّين يحيى الأستادار، و تهديد من أخفاه عنده بالشنق و التنكيل، و وعد من أحضره بألف دينار إن كان متعمما، و بإقطاع إن كان جنديا.

ثم فى يوم الاثنين ثالث ذى القعدة استقرّ القاضى محب الدين بن الشّحنة الحنفى كاتب سرّ مصر. بعد عزل القاضى محب الدين بن الأشقر.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۷۲

ثم فى يوم الاثنين ثانى ذى الحجة خلع السلطان على الأمير جانبك النّوروزىّ نائب بعلبك باستقراره فى نيابة الإسكندرية بعد عزل يونس العلائى و قدومه إلى القاهرة من جملة أمراء الطبلخانات.

ثم فى يوم الثلاثاء رابع عشرين ذى الحجة ظهر الأمير زين الدين الأستادار من اختفائه، و طلع إلى القلعة و على رأسه منديل الأمان، صحبة عظيم الدولة الصاحب جمال الدين بن كاتب جكم، و كان هو الساعى لزين الدين فى رضاء السلطان عليه، و قبّل زين الدين الأرض بين يدىّ السلطان، فرسم له السلطان أن يلزم داره، و لا يجتمع بأحد، و لا يكاتب أحدا من أعيان الدولة.

و فرغت سنة سبع و خمسين، و ما ذكرناه فيها إنما هو على سبيل الاختصار؛ علم خبر لا غير.

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۵۸]

اشارة

و استهلت سنة ثمان و خمسين و ثمانمائة.

و أول السنة يوم الثلاثاء، فأحببت أن أذكر فى أوّل هذه السنة أسماء أعيان أرباب الوظائف من الأعيان و الأمراء و القضاة و المباشرين،

ليعلم الناظر فى هـذه الترجمـة كيف تكون تقلبات الـدهر، و تغيير الدولـة بعـد أن ينظر المتأمل فى ترجمـة الملك المنصور عثمان فى السنة الخالية، و لم يمض بين من سمى فى تلك السنة و بين من سمى فى هذه السنة إلا بعض أشهر، لأن المنصور و الأشرف هذا كلا منهما ولى فى هذه السـنة، أعنى سـنة سبع و خمسين و ثمانمائة، و ما قلناه فى السنة الخالية معناه فى ترجمة المنصور عثمان، على أنا لا نـذكر إلاـ جماعـة الأعيـان لاـ غير، و لو ذكرنـا كـلّ من تغير من أرباب الوظائف من الخاصـكيّة و الأجناد الـذين أخـذوا الإقطاعات و الوظائف لطال الشرح فى ذلك، و خرجنا عن المقصود، و لنعد إلى ما هو المقصود فنقول:

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۷۳

أما الخليفة فهو القائم بأمر اللّه حمزة، و هو المذكور أيضا فى [السنة] الخالية.

و كذلك القضاة الأربعة فهم على حالهم كما ذكرناه فى ترجمة المنصور أيضا

و كذلك نواب البلاد الشاميّة، فالجميع على حالهم كما ذكرناه فى ترجمة المنصور أيضا.

و تغيّر نائب الإسكندرية، فإنه كان فى تلك السنة برسباى البجاسى، و الآن هو جانبک النّوروزىّ.

و أما أرباب الوظائف من أمراء مائة.

فالأمير الكبير تنبک البردبكى الظاهرى.

و أمير سلاح خشقدم الناصرى المؤيّدى.

و أمير مجلس طوخ من تمراز الناصرى غليظ الرّقبة.

و الأمير آخور الكبير جرباش المحمدى الناصرى كرد.

و الدّوادار الكبير يونس السيفى آقباى نائب الشام.

و رأس نوبة النّوب قرقماس الأشرفى الجلب.

و حاجب الحجّاب جانبک القرمانى الظاهرى.

فهؤلاء هم أرباب الوظائف من مقدمى الألوف.

و بقية مقدمى الألوف هم:

المقام الشهابى أحمد بن السلطان، و هو يجلس رأس ميسرة فوق أمير سلاح.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۷۴

و الأمير جانم الأمير آخور- كان- و هو يجلس تحت أمير سلاح فوق بقية الأمراء.

ثم خيربک الأجرود المؤيّدى.

ثم برسباى البجاسى.

فهؤلاء جميع مقدمى الألوف بالديار المصرية، و هم أقل من النصف من أمراء الظاهر برقوق.

و أما أرباب الوظائف من أمراء الطبلخانات و غيرهم:

فشاد الشراب خاناه جانبک من قجماس الأشرفى المعروف بدوادار سيّدى.

و الخازندار جانبک من أمير الأشرفى الظريف.

و نائب القلعة قانى باى الناصرى الأعمش أمير عشرة.

و الزّردكاش نوكار الناصرى أمير عشرة و التّجمّل به هتكة.

و الحاجب الثانى بتخاص العثمانى الظاهرى- برقوق- أمير عشرة.

و أستادار الصحبة يشبک الأشقر الأشرفى من جملة الأجناد.

و كانت هـذه الوظائف المـذكورة فى سالف الأعصار لا يليها إلا أمير مائـة مقـدّم ألف، و لهـذا قدمنا ذكرها على غيرها مما سـنذكره، فتنازل ملوك زماننا هـذا حتى ولى بعضـها الأجناد، و قـد أبطل الملوك أيضا عدّة وظائف جليلة كان لا يليها إلا أمير مائة مقدّم ألف، مثل نيابة السلطنة، لأن آخر من وليها من العظماء تمراز الناصرى الظاهرى فى دولة الناصر فرج.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۶، ص: ٧۵

و رأس نوبة الأمراء، و آخر من وليها نوروز الحافظى فى دولة الناصر فرج أيضا، و كانت هذه الوظيفة تضاهى الأتابكيّة.

و مثل أمير جاندار، فإن الأمير ألجاى اليوسفى صاحب الوقعة مع الأشرف شعبان انتقل إليها من وظيفة رأس نوبة النّوب.

و أما مـا ذهب من الوظائف التى كان يليها أمراء الطبلخانات و العشـرات مثل شاد الـدواوين، و أمير منزل، و شادّ القصـر السـلطانى، و المهمنـدار، و مقـدّم البريديـة، و شادّ العمائر- و إن كان بعض هذه الوظائف مسـتمرة- فإنه لا يليها إلا الأحداث من الناس، بحيث إنها صارت كلا شىء، و قد خرجنا عن المقصود فى نوع الاستطراد، و لنعد إلى ما كنا فيه.

و رأس نوبة ثان يشـبك الناصرى، و تعد سبعة من طبلخانات رءوس النوب، و أما العشرات من رءوس النّوب فكثير جدا، و كان جميع رءوس النّوب فى أوائل سلطنة برقوق أربعة لا غير، ثم صاروا فى دولة الناصر فرج بعد تجريدة الكرك سبعة، فنقول: ما تجدّد من كثرة رءوس النّوب يكون عوضا عما ذهب من تلك الوظائف، فيقول القائل لا نسـلم، و أين رونق تلك الوظائف المتعددة كثرة من [رونق] وظيفـة واحـدة؟! و كـذلك كانت الحجّاب ثلاثة: حاجب الحجّاب، و حاجب ميسرة، و هو أيضا مقدم ألف، و الحاجب الثالث. فأول من زادهم الظاهر برقوق، و جعلهم خمسة حجاب أمراء عشرات، لا هذه الحرافيش الذين يلونها اليوم الجهلة الفسقة.

الدوادار الثانى تمراز الإينالى الأشرفى بإمرة عشرين، و هو من مساوى الدهر.

و الأمير آخور الثانى خيربك الأشقر المؤيدى أمير عشرين أيضا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۶، ص: ٧۶

و الزّمام و الخازندار الطواشى الرومى فيروز النّوروزى أمير طبلخاناه.

و مقدّم المماليك السلطانية الطّواشى لؤلؤ الرّومى الأشرفى أمير عشرة.

و نائبه عنبر، عتيق التاجر نور الدين الطّنبذى، جنديا بغير إمرة.

و نقيب الجيش الأمير ناصر الدين محمد بن أبى فرج بعد أن ولى الأستادارية قبل تاريخه.

و والى القاهرة على بن إسكندر، و وليها بالبذل.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۶، ص: ٧٧

ذكر أعيان مباشرى الدولة من المتعممين

كاتب السّرّ محبّ الدين بن الشّحنة الحنفى.

و ناظر الجيش و الخاص معا، عظيم الدولة الصاحب جمال الدين يوسف بن كاتب جكم.

و الوزير سعد الدين فرج بن النّحال.

و الأستادار على البردار بن الأهناسى

و وظيفة نظر الدولة و نظر المفرد كل منهما تلاشى أمرهما حتى صارت كلا شىء، سكتنا عن ذكر ذلك لوضاعة قدر من يليها.

قلت: و لو سـكتنا عن ذكر من يلى الوزر أيضـا لكـان أجمل، غير أنه لا يسـعنا إلا ذكرها لمحلها الرّفيع فى سائر الأقطار- فلا حول و لا قوة إلا بالله العلى العظيم.

و أما ذكر نظر الجوالى، و الإسـطبل السلطانى، و البيمارستان، و الكسوة، و خزائن السلاح، و الخزانة الشريفة، و أشباههم ليس لذكرهم

هنا محل، لكونهم فى غير هذه الرّتبة.

و فى مثل هذا المحل لا يذكر إلا أعيان الوظائف المعدود أصحابها من ذوى الرياسات، و قد ذكرنا تلك الوظائف كلها فى تاريخنا الحوادث، إذ هو محل ضبط الولايات و العزل- انتهى.

و فى يوم الأحد سادس محرم سنة ثمان و خمسين و ثمانمائة ورد الخبر على السلطان من حلب بوفاة الأمير على باى بن طرباى العجمى المؤيّدى أتابک حلب، فرسم السلطان باستقرار الأمير آقبردى السّاقى الظاهرى نائب قلعة حلب أتابكا بحلب عوضه.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۷۸

و استقرّ فى نيابة قلعة حلب الزّينى قاسم بن جمعة القساسى، و أنعم بتقدمة قاسم المذكور- و كان أخذها قبل ذلک عن سودون القرمانى بمدة يسيرة- على الأمير يشبک البجاسى.

و استقرّ مكان يشبک البجاسى فى دوادارية السلطان بدمشق خشكلدى الزينى عبد الرحمن بن الكويز.

و فى يوم الاثنين حادى عشرين المحرم أيضا وصل إلى القاهرة تقدمة الأمير قانى باى الحمزاوى نائب حلب، تشتمل على جماعة يسيرة من المماليک و مائة فرس لا غير.

قلت: و هذا كثير ممن أشيع عنه العصيان ثم أظهر الطاعة فى الظاهر، و اللّه متولى السّرائر، و قد أوضحنا أمر قانى باى هذا فى غير هذا المحل مع السلطان الملک الأشرف إينال بأوسع من هذا.

ثم فى صفر رسم بسفر الأمير زين الدين الأستادار إلى القدس بطالا، فلما خرج إلى ظاهر القاهرة قبض عليه، و أخذ إلى القلعة، و صودر ثانيا، و عوقب و وقع له أمور، آخرها أنه ولى الأستادارية- مسئولا فى ذلک- فى يوم الثلاثاء رابع عشر صفر، و عزل علىّ بن الأهناسى.

و فى يوم الثلاثاء سادس عشرين شهر ربيع الأوّل من سنة ثمان و خمسين المذكورة ركب السلطان الملک الأشرف إينال من قلعة الجبل بغير قماش الخدمة، و نزل إلى جهة

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۷۹

قبّة النصر خارج القاهرة، ثم عاد من باب النصر، و شقّ القاهرة و خرج من باب زويلة حتى طلع إلى القلعة، و هذا أوّل ركوبه من يوم تسلطن.

و فى يوم الاثنين سادس عشر شهر ربيع الآخر ثارت فتنة بسوق الخيل بين المماليک الظاهرية- جقمق- و بين المماليک الأشرفية- برسباى- بالدبابيس، و أصبح كل من الطائفتين مستعدة للأخرى، فلم يقع شىء و للّه الحمد، و قد ذكرنا كيفية الفتنة المذكورة فى تاريخنا الحوادث.

و فى يوم الاثنين ثالث عشرينه عزل السلطان لؤلؤ الأشرفى عن تقدمة المماليک السلطانية، و أعاد إليها الطواشى مرجانا المحمودى بمال أخذه من مرجان، و إلا فأيش هو الموجب لعزل الرئيس بالوضيع إلا هذا المعنى؟!

ثم فى يوم الأحد سادس جمادى الأولى عزل السلطان تمراز الأشرفى عن الدّواداريّة الثانية لأمر اقتضى ذلک، و قد أراح اللّه الناس منه؛ لسوء خلقه، و حدّة مزاجه، و قد ذكرنا من أحواله نبذة كبيرة فى غير هذا المحل.

و فى يوم الخميس سادس عشر جمادى الأولى المذكورة وصل الأمير جلبّان الأمير آخور نائب الشام إلى القاهرة بعد أن احتفل أرباب الدّولة به، و طلع إلى ملاقاته كلّ أحد، حتى المقام الشهابى أحمد، و طلع إلى القلعة و دخل إلى السلطان بالقصر الأبلق المطلّ على الرّميلة بالخرجة، فلما رآه السلطان قام إليه و اعتنقه، بعد أن قبل جلبّان الأرض بين يديه، ثم أجلسه السلطان على ميسرته فوق ولده المقام الشهابى أحمد، و لم يطل جلوسه حتى طلب السلطان خلعته، و خلع عليه خلعة الاستمرار بنيابة دمشق على

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۸۰

عادته فی مکان جلوسه بالخرجة المذکورة، و لم یقع ذلک لأحد من النواب، لأن العادة أنه لا یخلع السلطان علی من یخلع علیه إلا بالقصر الأبلق من داخل الخرجة.

ثم قام السلطان و خرج إلی القصر، و لم یدع جلبّان المذکور أن یقف، بل أمره أن یتوجّه إلی حیث أنزله السلطان، فنزل محمولا لضعف به و لکبر سنه أیضا، و نزل غالب الأمراء الأکابر و أرباب الدولة بین یدیه إلی أن أوصلوه إلی المیدان الکبیر بطریق بولاق تجاه برکة الناصری، و مدّ له مدّة هائلة، و ترددت الناس إلیه نهاره کلّه، و استمر إلی یوم الأحد عشرینه، فقدّم إلی السلطان تقدمة، و کانت تقدمة هائلة، تشتمل علی: عشرة ممالیک، و مائتی فرس، منها اثنان بقماش ذهب، و الباقی علی العادة، و عدة حمالین، منها ستون حمالا علیها قسیّ، کل حمال خمسة أقواس، و منها مائة و عشرون حمالا بعلبکیا، علی کل حمال خمسة أثواب، النصف منها عال موصلی، و ستون حمالا علیها أبدان سنجاب، و عشرة حمالین وشق، و عدّة حمالین علیها أثواب صوف ملوّنة، و عدة حمالین علیها شقق حریر ملوّن، و أثواب مخمل تزید علی مائة حمال، و طبق مغطی فیه ذهب مبلغ عشرة آلاف دینار علی ما قیل.

فقبل السلطان ذلک، و خلع علی أرباب وظائف جلبّان المذکور خلعا سنیّة، و فرّق السلطان من الخیول علی أمراء الألوف جمیعهم علی قدر مراتبهم.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۸۱

و فی هذا الیوم أیضا رسم السلطان لنقیب الجیش أن یخرج الأمیر تمراز الإینالی الأشرفی الدوادار الثانی إلی القدس بطّالا، فنزل و توجّه به من یومه إلی خانقاه سریاقوس، قلت: [السریع]

ما یفعل الأعداء فی جاهل ما یفعل الجاهل فی نفسه

فإن تمراز هذا کان فی الدولة الظاهریة- جقمق- من جملة الأمراء و العشرات و کان ممن لا یؤبه إلیه، حتی مات الظاهر، و ثار مع الملک الأشرف إینال لما وثب علی الملک المنصور عثمان مع من انضم إلیه من الممالیک الظاهریة و الأشرفیة و غیرهم، فلما تسلطن الأشرف قرّب تمراز هذا، و جعله دوادارا ثانیا، و أنعم علیه بإمرة طبلخاناه، و صار له کلمة فی الدولة و حرمة وافرة، و هابته الناس لشراسة خلقه وحدة مزاجه، و باشر الدواداریة أقبح مباشرة من الظلم و العسف و الإخراق بالناس و البطش بحواشیه و أرباب وظائفه و ممالیکه، حتی تجاوز الحد، و ما کفاه ذلک حتی صار یخاطب السلطان بما یکره، و بقی فی کل قلیل یغضب و یعزل نفسه، و وقع ذلک غیر مرّة، فلما زاد و خرج عن الحد عزله السلطان، و لزم داره أیاما، ثم خرج إلی القدس بطّالا.

و فی یوم الاثنین حادی عشرین جمادی الأولی خلع السلطان علی الصاحب

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۸۲

أمین الدین بن الهیصم باستقراره وزیرا علی عادته أولا، بعد عزل فرج بن النّحال، و کان أحقّ بها و أهلا لها.

و فی یوم الاثنین هذا أیضا خلع السلطان علی مملوکه صهره الأمیر بردبک الدوادار الثانی باستقراره فی الدواداریّة الثانیة عوضا عن تمراز الأشرفی المقدّم ذکره.

و فی یوم الأربعاء خامس عشر جمادی الآخرة استقرّ القاضی تاج الدین عبد اللّه ابن المقسی کاتب الممالیک السلطانیة عوضا عن الصاحب سعد الدین فرج بن النّحال.

قلت: و تاج الدین هذا مستحق لأعظم الوظائف؛ لما اشتمل علیه من حسن الخلق و الخلق.

و فی یوم الجمعة ثانی عشرین شهر رجب سافر الأمیر بردبک الدوادار الثانی إلی القدس الشریف، و صحبته کسوة مقام سیدنا الخلیل إبراهیم علیه السلام التی صنعها السلطان الملک الأشرف هذا، و خرج بردبک المذکور من القاهرة بتجمل زائد، و معه جماعة من الأعیان، مثل القاضی شرف الدین الأنصاری، ناظر الکسوة و وکیل بیت المال، و السیفی شاهین الساقی و غیرهما.

و فی یوم الخمیس سادس شعبان وصل إلی القاهرة الأمیر برشبای الإینالی المؤیّدی، أحد أمراء الطبلخانات المتوجّه قبل تاریخه فی

الرسلیة إلی ملک الروم السلطان محمد بن عثمان، و علیه خلعة ابن عثمان المذکور، و هو لابس لبس الأروام و خلعهم علی العادة.

و فیه رسم السلطان بتعویق جوامک أولاد الناس و المرتبین من الضعفاء و الأیتام علی دیوان السلطان، و عرضهم السلطان و قطع جماعة کبیرة، و بینما هو فی ذلک وصل

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۸۳

الأمیر بردبک من القدس، و حذّر السلطان من الدعاء علیه، و نهاه عن هذه الفعلة فانفعل له، و ترک کل واحد علی حاله، و نودی بذلک بشوارع القاهرة، فعدّ من محاسن بردبک المذکور.

و فی یوم السبت حادی عشر ذی القعدة اختفی الوزیر أمین الدین بن الهیصم، لعجز متحصّل الدولة عن القیام بالکلف السلطانیة، فتغیّر السلطان بسبب ذلک علی جماعة، و قبض علی الأمیر زین الدین الأستادار فی یوم الاثنین و حبسه بالقلعة، و خلع علی الأمیر ناصر الدین محمد بن أبی فرج نقیب الجیش باستقراره فی الأستاداریة عوضا عن زین الدین علی کره منه فی الوظیفة، مضافا إلی نقابة الجیش، و خلع علی سعد الدین فرج بن النحال باستقراره وزیرا علی عادته، و هذه ولایة فرج الثانیة للوزر، و أنعم علیه بکتابة الممالیک، و عزل القاضی تاج الدین المقسی.

ثم فی یوم الأربعاء خامس عشر ذی القعدة ضرب السلطان زین الدین الأستادار، و ألزمه بجملة کبیرة من المال، فأخذ زین الدین فی بیع قماش بدنه و أثاث بیته، ثم أخذه الصاحب جمال الدین ناظر الجیش و الخاص، و تسلمه من السلطان، و نزل به إلی بیته، فدام عنده أیّاما، ثم رسم له بالتوجه إلی داره، و أنه یسافر إلی القدس، فتجهّز زین الدین و خرج إلی القدس فی یوم الجمعة ثانی ذی الحجة.

ثم فی یوم الاثنین خلع السلطان علی شخص من الأقباط یعرف بابن النجار، و استقرّ به ناظر الدّولة بعد شغورها مدة طویلة، و صار رفیقا للوزیر فرج.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۸۴

و فی یوم الاثنین سادس عشرین ذی الحجة نزلت الممالیک الجلبان الأشرفیة من الأطباق، و هجمت دار الأستادار الأمیر ناصر الدین محمد بن أبی الفرج، و نهبوا جمیع ما کان له فی داره من غیر أمر أوجب ذلک، فلم یسع الأستادار إلا الاستعفاء، فأعفی بعد أمور.

و خلع السلطان علی قاسم الکاشف بالغربیة و غیرها بالأستاداریة عوضا عن ابن أبی الفرج المذکور. قلت: و هذا أول ظهور أمر ممالیک الأشرف الجلبان، و ما سیأتی فأعظم.

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۵۹]

و فی یوم الأحد ثانی محرم سنة تسع و خمسین و ثمانمائة أشیع بین الناس وقوع فتنة، و کثر کلام الناس فی هذا المعنی حتی بلغ السلطان ذلک، فلم یلتفت السلطان لقول من قال.

و فی یوم الأربعاء رابع عشرین صفر من سنة تسع و خمسین المذکورة وصل مملوک الأمیر جانبک الناجی للمؤیّدی نائب غزّة یخبر بموت الأمیر جلبّان نائب الشام، ثم وصل بعد ذلک سیف جلبّان المذکور علی ید یشبک المؤیّدی الحاجب الثانی.

ثم فی یوم الخمیس خامس عشرین صفر رسم السلطان للأمیر قانی بای الحمزاوی- نائب حلب- بأن یستقرّ فی نیابة الشّام عوضا عن جلبّان بحکم وفاته، و حمل إلیه التقلید و التشریف الأمیر یونس العلائی الناصری، المعزول قبل تاریخه عن نیابة الإسکندریة.

و خلع السلطان فی الیوم المذکور علی الأمیر جانم الأشرفی باستقراره فی نیابة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۸۵

حلب عوضا عن قانی بای الحمزاوی علی کره من جانم المذکور فی ذلک، و استقرّ مسفّر جانم الأمیر بردبک الدّوادار الثانی و صهر

السلطان مع توجه بردبك أيضا إلى تركة الأمير جلبّان بدمشق.

و أنعم السلطان بإقطاع جانم المذكور على الأمير يونس العلائى المقدم ذكره، و هو إمرة مائة و تقدمة ألف.

و أنعم بإقطاع يونس المذكور على الأمير بردبك الدوادار، و صار بردبك أمير طبلخاناه، و أنعم بإقطاع بردبك المذكور على أرغون شاه و تنبك الأشرفيين، كل واحد منهما أمير خمسة.

و فى يوم الاثنين تاسع عشرين صفر من سنة تسع و خمسين و ثمانمائة المذكورة استقرّ شمس الدين نصر اللّه بن النجار ناظر الدّولة وزيرا عوضا عن سعد الدين فرج بن النحال بحكم عزله، فلم تر عينى فيما رأيت ممن لبس خلع الوزارة أقبح زيّا منه، حتى إنه أذهب رونق الخلعة مع حسن زىّ خلعة الوزارة و أبّهة صفتها، و لو منّ اللّه سبحانه و تعالى بأن يبطل اسم الوزير من الديار المصرية فى هذا الزمان كما أبطل أشياء كثيرة منها لكان ذلك أجود و أجمل بالدولة، و يصير الذى بلى هذه الوظيفة يسمى ناظر الدولة، لأن هذا الاسم عظيم و قد سمى به جماعة كبيرة من أعيان الدنيا قديما و حديثا فى سائر الممالك و الأقطار، مثل جعفر بن يحيى بن خالد البرمكى و غيره، إلى الصاحب إسماعيل بن عبّاد، و هلم جرا، إلى القاضى الفاضل عبد الرحيم، ثم بنى حنّاء و غيرهم من العلماء و الأعيان، إلى أن تنازلت ملوك مصر فى أواخر القرن الثامن حتى وليها فى أيامهم أوباش الناس و أسافل الكتبة الأقباط، و تغير رسومها، و ذهب بهم أبّهة هذه الوظيفة الجليلة التى لم يكن فى الإسلام بعد الخلافة أجل منها و لا أعظم، و صارت بهؤلاء

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۸۶

الأصاغر فى الوجود كلا شىء، وليت مع ذلك كان يلى هذه الوظيفة من هؤلاء الأسافل من يقوم بما هو بصدده، بل يباشر ذلك بعجز و ضعف و ظلم و عسف، مع ما يمدّه السلطان بالأموال من الخزانة الشريفة، فليت شعرى لم لا كان ذلك مع من هو أهل للوزارة و غيرها- فلا قوة إلا باللّه.

و باشر ابن النجّار الوزر أشرّ مباشرة، و أقبح طريقة، و لم تطل أيّامه، و عجز و بلغ السلطان عجزه، فلما كان يوم الخميس أول شهر ربيع الآخر طلب السلطان الوزراء الثلاثة ليختار منهم من يوليه، و هم: ابن النجّار الذى عجز عن القيام بالكلف السلطانية، و الصاحب أمين الدين بن الهيصم، و سعد الدين فرج بن النحّال، فوقع فى واقعة طريفة، و هى أن السلطان لما أصبح و جلس على الدكّة من الحوش استدعى أوّلا ابن النجّار، فقيل له: هرب و اختفى، فطلب أمين الدين بن الهيصم، فقيل له: مات فى هذه الليلة، و إلى الآن لم يدفن، فطلب فرج بن النحّال، فحضر، و هو [الذى] فضل من الثلاثة، فكلّمه السلطان أن يستقرّ وزيرا على عادته، فامتنع و اعتذر بقلّة متحصّل الدّولة، و فى ظنّه أن السلطان قد احتاج إليه بموت ابن الهيصم و تسحّب ابن النجّار، و شرع يكرّر قوله بأن لحم المماليك السلطانية المرتب لهم فى كل يوم ثمانية عشر ألف رطل، خلا تفرقة الصّيرر التى تعطى لبعض المماليك السلطانية و غيرهم، عوضا عن مرتب اللحم، فلما زاد تمنّعه أمر به السلطان فحطّ إلى الأرض و تناولته رءوس النّوب بالضرب المبرح إلى أن كاد يهلك، ثم أقيم و رسم عليه بالقلعة عند الطواشى فيروز الزّمام و الخازندار إلى أن عملت مصالحة و أعيد للوزر.

و فى يوم الخميس تاسع عشرين شهر ربيع الآخر أنعم السلطان على الأمير قانم من صفر خجا المؤيّدى المعروف بالتّاجر بإمرة مائة و تقدمة ألف بالديار المصرية بعد موت

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۸۷

خيربك الأجرود المؤيّدى، و أضيف إقطاع المذكور و هو إمرة طبلخاناه إلى الدّولة.

ثم فى يوم الاثنين سلخ جمادى الآخرة كانت وقعة المماليك الظاهرية الجقمقيّة مع الملك الأشرف إينال، و سبب هذه الفتنة ثورة المماليك الأجلاب أوّلا، و أفعالهم القبيحة بالناس، ثم عقب ذلك أن السلطان كان عيّن تجريدة إلى البحيرة، نحوا من خمسمائة مملوك، و عليهم من أمراء الألوف الأمير خشقدم المؤيّدى أمير سلاح، و الأمير قرقماس رأس نوبة النّوب، و عدّة من أمراء الطبلخانات و العشرات، و رسم لهم السلطان بالسفر فى يوم الاثنين، هذا و لم يفرّق السلطان على المماليك المكتوبة للسفر الجمال

على العادة، فعظم ذلك عليهم، و امتنعوا إلى أن أخذوا الجمال.

و سافر الأمير خشقدم فى صبيحة يوم الاثنين المذكور، و تبعه الأمير قرقماس فى عصر نهاره، و أقاما ببرمنبابة تجاه بولاق، فلم يتبعهم أحد من المماليك المعيّنة معهم بل وقف غالبهم بسوق الخيل تحت القلعة ينتظرون تفرقة الجمال عليهم، إلى أن انفضّ الموكب السلطانى، و نزلت الأمراء إلى جهة بيوتهم، فلما صار الأمير يونس الدوادار بوسط الرّميلة احتاطت به المماليك الأجلاب، و عليه الكلفتاة و قماش الخدمة و داروا حوله و هم فى كثرة، و أرادوا الكلام معه بسبب زيادة جوامكهم، و أنه يكلّم السلطان، فتبين لمماليك يونس الغدر بأستاذهم، فتحلّقوا عليه و منعوهم من الوصول إليه، فصار يونس فى حلقة من مماليكه، و مماليكه فى حلقة كبيرة من المماليك الأجلاب، و طال الأمر بينهم، و يونس لا يستطيع الخروج، و تحقق الغدر، فأمر مماليكه بأشهار سيوفهم ففعلت ذلك، و دافعت عنه، و جرح من المماليك الأجلاب جماعة، و قطع أصابع بعضهم، و شقّ بطن آخر على ما قيل، فعند ذلك انفرجت ليونس فرجة خرج منها غارة إلى جهة داره، و نزل بها، و رمى عنه قماش الموكب، و لبس قماش الرّكوب،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۸۸

و طلع من وقته إلى القلعة من أعلى الكبش، و لم يشق الرّميلة، و أعلم السلطان بخبره، فقامت لذلك قيامة المماليك الأجلاب، و قالوا: «نحن ضربناهم بالدبابيس فضربونا بالسيوف»، و ثاروا على أستاذهم ثورة واحدة، و ساعدهم جماعة من المماليك القرانيص و غيرهم لما فى نفوسهم من السلطان لعدم تفرقة الجمال و غيرها، و وقفوا بسوق الخيل و أفحشوا فى الكلام فى حقّ السلطان، و هددوه إن لم يسلم لهم الأمير يونس، و السلطان لا يتكلم إلى أن حرّكه بعضهم، فأرسل إليهم بالأمير جانبك الناصرى المرتد، و الطواشى مرجان مقدّم المماليك السلطانية، فسألاهم عن غرضهم، فقالوا بلسان واحد: «نريد غريمنا الأمير يونس»، و خشّنوا فى القول، فعاد جانبك بالجواب، فأرسل السلطان إليهم ثانيا بنو كارالزردكاش، فأعادوا له القول الأول، ثم ساقوا غارة إلى بيت يونس الدّوادار، فمنعوهم مماليكه من الدخول إلى دار يونس، فجاءوا بنار ليحرقوا الباب، فمنعوهم من ذلك أيضا، فعادوا إلى سوق الخيل، فوافوا المنادى ينادى من قبل السلطان بالأمان، فمالوا على المنادى بالدبابيس، فسكت من وقته، و هرب إلى حال سبيله.

هذا و قد طلعت جميع أمراء الألوف إلى عند السلطان، و السلطان على حالة السكوت غير أنه طلب بعض مماليكه الأجلاب الأعيان، و كلمه بأنه يعطى من جرح من الأجلاب ما يكفيه، و أنه يعطى للذى قطعت أصابعه إقطاعا و مائة دينار، فلم يقع الصلح، و انفضّ الأمر على غير طائل لشدة حرّ النهار.

و لما تفرّقت المماليك نزلت الأمراء إلى دورهم، ما خلا الأمير يونس الدوادار، فإنه بات فى القلعة.

فلما أصبح يوم الثلاثاء أول شهر رجب ضرب السلطان الكرة مع الأمراء بالحوش السلطانى من القلعة، و فرغ من ذلك، و أراد كل أمير أن ينزل إلى داره، فبلغهم أن

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۸۹

المماليك الأجلاب وقوف على حالهم الأول بسوق الخيل بغير سلاح كما كانوا فى أمسه، فلما تضحّى النهار أرسل إليهم السلطان بأربعة أمراء، و هم: الأمير يونس العلائى أحد مقدمى الألوف، و سودون الإينالى المؤيّدى قراقاش رأس نوبة ثان، و يلباى الإينالى المؤيّدى أحد أمراء الطبلخانات، و رأس نوبة، و بردبك البجمقدار أحد الطبلخانات أيضا و رأس نوبة، فنزلوا إليهم من القلعة فما كان إلا أن وقع بصر المماليك الأجلاب على هؤلاء الأمراء احتاطوا بهم، و أخذوهم بعد كلام كثير، و دخلوا بهم إلى بيت الأمير خشقدم أمير سلاح تجاه باب السلسلة، و رسّموا عليهم بعضهم.

كل ذلك و المماليك الظاهرية الجقمقية وقوف على بعد، لا يختلطون بهم، لينظروا ما يصير من أمرهم، فلما وقع ما ذكرناه تحققوا خروجهم على أستاذهم، و ثار ما عندهم من الكمائن التى كانت كامنة فى صدورهم من الملك الأشرف إينال لما فعل بابن أستاذهم الملك المنصور عثمان، و حبس خچداشيتهم، و تقريب أعدائهم الأشرفية مماليك الأشرف برسباى، فانتهزوا الفرصة، و انضافوا إلى

المماليك الأجلاب، و عرّفوهم أن الأمر لا يتم إلا بحضرة الخليفة و لبس السلاح، فساق قانى باى المشطوب أحد المماليك الظاهرية من وقته إلى بيت الخليفة القائم بأمر اللّه حمزة، و كان فى الخليفة المذكور خفة و طيش، فمال إليهم، ظنا أنه يكون مع هؤلاء و ينتصر أحدهم و يتسلطن، فيستفحل أمره ثانيا أعظم من الأوّل، و سببه أنه كان لما ولّاه الظاهر جقمق الخلافة بعد أخيه المستكفى بالله سليمان صار تحت أوامر الظاهر، لأنه هو الذى استخاره و ولاه الخلافة، فلما ثار إينال على المنصور عثمان و طلبه و جاء إلى عنده قوى أمر إينال بمجىء الخليفة عنده، فلما تسلطن عرف إينال له ذلك، و رفع محلّه أضعاف ما كان أوّلا، و زاده عدة إقطاعات، و صارت

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۹۰

له حرمة وافرة فى الدولة إلى الغاية، فلما كانت هذه الفتنة ظن فى نفسه أنه يوافقهم، فإذا تسلطن أحد منهم رفع محلّه زيادة على ما فعل إينال، و يصير الأمر كلّه بيده، و ما يدرى بأن لسان الحال يقول له:

[الرجز]

خير الأمور الوسط حبّ التناهى غلط

ما طار طير و ارتفع إلا كما طار وقع

و لما حضر الخليفة عندهم تكامل لبسهم السلاح، و انضافت إليهم خلائق من المماليك السيفية، و أوباش الأشرفية، و غيرهم من الجياع الحرافيش، فلما رأت الأجلاب أمر الظاهريّة حسبوا العواقب، و خافوا زوال ملك أستاذهم، فتخلوا عن الظاهريّة قليلا بقليل، و توجّه كل واحد إلى حال سبيله، فقامت الظاهرية بالأمر وحدهم، و ما عسى يكون قيامهم من غير مساعدة، و قد تخلّى عنهم جماعة من أعيانهم و خافوا عاقبة هذه الفتنة؟!.

هذا و قد تعبأ السلطان لحربهم، و نزل من القلعة إلى باب السّلسلة من الإسطبل السلطانى، و تناوش القوم بالسهام، و أرادوا المصافقة، فتكاثر عليهم السلطانية، و صدموهم صدمة واحدة بددوا شملهم، بل كانوا تشتتوا قبل الصدمة أيضا، و هجموا السلطانية فى الحال إلى بيت الأمير خشقدم أمير سلاح، و أخذوا الأمراء المرسّم عليهم، و أخذوا فيمن أخذوا الخليفة معهم، و طلعوا بهم إلى السلطان.

فلما رأى السلطان الخليفة وبخه بالكلام الخشن، و أمر بحبسه بالبحرة من قلعة الجبل، و خلعه من الخلافة بأخيه يوسف فى يوم الخميس ثالث شهر رجب المذكور، ثم سفّر الخليفة القائم بأمر اللّه المذكور فى يوم الاثنين سابع رجب إلى سجن الإسكندرية فسجن بها مدة سنين، ثم أطلق من السجن، و سكن بالإسكندرية إلى أن مات بها فى أواخر سنة اثنتين و ستين و ثمانمائة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۹۱

و لما بلغ الأمير خشقدم أمر هذه الفتنة عاد من برّمنبابة، و طلع إلى القلعة، و معه رفيقه قرقماس رأس نوبة النوب فى يوم الأربعاء، و حضرا الموكب فى باكر يوم الخميس، ثم عادا إلى برّمنبابة بمخيّمهما، ثم فرّق السلطان الجمال على المماليك السلطانيّة، و سافروا صحبة الأميرين المذكورين إلى ما عيّنوا إليه، و تفرقت من يوم ذاك أجلاب السلطان فرقتين: فرقة و هم الذين اشتراهم من كتابية الظاهر جقمق و ابنه، و فرقة اشتراهم هو فى أيام سلطنته.

و قويت الفرقة الذين اشتراهم على الفرقة الظاهرية، و منعوهم من الطلوع إلى القلعة، و السكنى بالأطباق، و قالوا ما معناه: إنكم سوّدتم وجوهنا عند أستاذنا، و أظن ذلك كلّه زورا و بهتانا مع أن الأشرف كان هو لا يقطع فيهم قربته بهذا و لا بغيره، و هو مستمر على محبتهم كما كان أولا، فلعمرى إذا كان هذا فعلهم به و هو راض، فما عساه يرجعهم عن ظلم غيره؟! فهذا مستحيل.

و لما انتهت الوقعة و خلع السلطان الخليفة أمسك جماعة من المماليك الظاهرية و حبسهم بالبرج من قلعة الجبل، و نفى بعضهم و اختفى بعضهم، و أخرج قوزى السّاقى الظاهرى- و كان تأمر عشرة- و معه عشرين مملوكا من المماليك الظاهرية إلى البلاد الشامية، مع أن قوزى المذكور لا فى العير و لا فى النّفير، و سافروا فى يوم الجمعة تاسع شهر شعبان، و سكن الأمر كأنه لم يكن، لحسن سياسة السلطان فى تسكين أخلاط الفتن- انتهى.

و فى يوم الأربعاء حادى عشرين شعبان ورد الخبر على السلطان بمسك الأمير يشبك النّوروزى نائب طرابلس بأمر السلطان، لأن السلطان كان قبل تاريخه أرسل إينال الجلبّانى القجقى الخاصكى إلى طرابلس، و على يده ملطفات فى الباطن،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۹۲

بمسك يشبك المذكور و حبسه بالمرقب، و تولى عوضه نيابة طرابلس الأمير حاج إينال اليشبكى نائب حماة، و حمل إليه التقليد و التشريف الأمير يشبك الفقيه المؤيدى، و استقر فى نيابة حماة عوضه الأمير إياس المحمدى الناصرى نائب صفد، و حمل إليه التقليد و التشريف الأمير قانصوه المحمدى الأشرفى، و استقر فى نيابة صفد عوضا عن إياس الأمير جانبك التاجى المؤيدى نائب غزة، و حمل إليه التقليد تمرباى من حمزة المعروف بططر الناصرى، و استقر فى نيابة غزة عوضا عن جانبك التاجى خيربك النوروزى أحد أمراء صفد، و مسفّره سنقر قرق شبق الأشرفى الخاصكى.

ثم رسم السلطان أيضا بنقل الأمير آقبردى الساقى الظاهرى من أتابكية حلب إلى نيابة ملطية، بعد عزل قانى باى الناصرى، و استقر فى أتابكية حلب عوضا عن آقبردى سودون من سيدى بك الناصرى القرمانى أتابك طرابلس، و صار مغلباى البجاسى أحد أمراء طرابلس و حاجب حجابها أتابك طرابلس عوضا عن سودون القرمانى المذكور، و ولى حجوبية طرابلس يشبك دوادار قانى باى البهلوان- و هو رجل من الأوباش، لم تسبق له رئاسة- بالبذل، انتقل إليها من نيابة المرقب، ثم أخرج السلطان سنطباى الظاهرى رأس نوبة الجمداريّة- كان- منفيّا إلى طرابلس فى أوائل شهر رمضان.

ثم فى يوم الأحد عاشر شهر رمضان المذكور ورد الخبر على السلطان من مكة بموت الشريف بركات بن حسن بن عجلان أمير مكة، فأقرّ السلطان ولده الشريف محمدا فى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۹۳

إمرة مكة عوضه، بسفارة الأمير جانبك الظاهرى نائب جدّة بمكاتبته، ثم وصل نائب جدّة بعد ذلك إلى القاهرة، و تم أمر ولاية محمد بقدومه بخمسين ألف دينار، يحمل منها عاجلا عشرين ألف دينار، و ما بقى آجلا على نقدات متفرقة، هكذا حكى لى الأمير جانبك من لفظه، هذا غير ما يدفعه الشريف محمد المذكور لأرباب الدّولة بالدّيار المصرية و لولد السلطان و زوجته، فإن زوجة السلطان و ولده صار لهما نصيب وافر مع السلطان فى كل هدية و رشوة.

ثم رسم السلطان أيضا بعزل أبى السعادات قاضى مكّة، و ولاية الإمام محب الدين الطبرى إمام مقام إبراهيم عليه السلام بغير سعى.

و رسم أيضا باستقرار الشيخ برهان الدين إبراهيم بن ظهيرة فى نظر حرم مكّة، بعد عزل الشيخ طوغان الأشرفى عنها، و خرج إليها الأمر صحبة الحاج فى الموسم.

و كان أمير حاج المحمل فى هذه السنة الأمير بردبك البجمقدار الظاهرى، أحد أمراء الطبلخانات و رأس نوبة، و أمير الرّكب الأول الناصرى محمد ابن الأمير جرباش المحمدى الأمير آخور الكبير، و صحبته والدته خوند شقراء بنت الناصر فرج بن برقوق،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۹۴

و سافر أيضا فى هذه السنة إلى الحجاز الأمير بيبرس الأشرفى- خال العزيز يوسف- باشا [ليكون مقدما] للمماليك السلطانية المجاورين بمكة المشرفة.

و فى أوائل ذى القعدة رسم السلطان بهدم تربته التى كان أنشأها أيّام إمرته و إعادتها مدرسة، و خلع على الصاحب جمال الدين يوسف ناظر الجيش و الخاص بالنظر على عمارتها.

و فى عشر ذى الحجة- و هو يوم عيد الأضحى- صلى السلطان صلاة العيد بالجامع الناصرى بقلعة الجبل، ثم خرج من الجامع بسرعة، و ذهب إلى الحوش السلطانى، و نحر ضحاياه به.

و كانت العادة أن السلطان إذا خرج من صلاة العيد جلس بالإيوان و معه الأمراء و ذبح به، ثم يتوجّه من الإيوان إلى باب الستارة و

ينحر به أيضا و يفرّق ما يذبحه ثم بعد ذلك يتوجه إلى الحوش و يذبح به، فلم يفعل السلطان شيئا من ذلك، خوفا من مماليكه الأجلاب، فإنهم رجموه فى العام الماضى و أخرقوا به و بأمرائه غاية الإخراق، و رجموه و هجموا عليه حيث كان ينحر الضحايا حتى إنه قام من مقامه فزعا بعد أن أصاب جماعة من الأعيان الرجم.

و فرغت هذه السنة و قد قوى أمر المماليك الأجلاب.

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۶۰]

و استهلت سنة ستين و ثمانمائة.

فلما كان يوم الاثنين خامس المحرم نزلت المماليك الأجلاب من الأطباق، و قصدوا بيت الوزير فرج بن النحال لينهبوا ما فيه، و كأنه أحسّ بذلك و شال ما كان فى بيته،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۹۵

فلما دخلوا البيت لم يجدوا فيه ما يأخذونه، فمالوا على من هو ساكن بجوار بيت فرج المذكور فنهبوهم بحيث إنهم أخذوا غالب متاع الناس، و لا قوة إلا بالله.

و فى يوم الأربعاء حادى عشرين المحرم ورد الخبر على السلطان بموت الأمير آقبردى الساقى نائب ملطية بها، فرسم السلطان لجانبك الجكمى المعزول عن نيابة ملطية قبل ذلك بنيابة ملطية على عادته أولا، و رسم بأن يستقرّ فى نيابة طرسوس عوضا عن جانبك الجكمى آقباى السيفى جار قطلو، و كان آقباى أيضا ولى نيابة طرسوس قبل ذلك.

و فى يوم الأربعاء ثالث عشر صفر من سنة ستين المذكورة أخرق المماليك الأجلاب بعظيم الدولة الصاحب جمال الدين ناظر الجيش و الخاص بغير سبب أوجب ذلك، و شقّ ذلك على كل أحد، و لم تنتطح فى ذلك شاتان.

و فى يوم السبت ثامن عشر جمادى الأولى من سنة ستين أيضا وصل قاصد السلطان محمد بن مراد بك بن عثمان متملّك بلاد الرّوم، و هو جمال الدين عبد اللّه القابونى، و طلع إلى السلطان فى يوم الثلاثاء و على يده كتاب مرسله، يتضمن البشارة بفتح قسطنطينيّة، و الكتاب نظم و نثر، وقفت عليه و على جوابه من السلطان من إنشاء القاضى معين الدين عبد اللطيف بن العجمى نائب كاتب السّرّ، و أثبتّ الكتاب الوارد و الجواب كليهما فى تاريخنا «حوادث الدهور فى مدى الأيام و الشهور» إذ هو محل ضبط هذه الأشياء.

و فى يوم الخميس خامس عشر جمادى الآخرة من السنة أمسك السلطان الأمير زين الدين الأستادار، و وضع فى عنقه الجنزير، و حطّه إلى الأرض ليضربه، ثم رفع من على الأرض بغير ضرب، و حبس عند الطواشى فيروز الزّمّام

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۹۶

و الخازندار، و استقرّ عوضه فى الأستادارية سعد الدين فرج بن النحّال الوزير، و استقرّ علىّ بن الأهناسى البرددار وزيرا عوضا عن فرج المذكور، فلما سمعت المماليك الأجلاب بهذا العزل و الولاية نزلوا من وقتهم غارة إلى بيت الأستادار لينهبوه، فمنعهم مماليك زين الدين، و قاتلوهم و أغلقوا الدروب، فلما عجزوا عن نهب بيت زين الدين نهبوا بيوت الناس من عند بيت زين الدين إلى قنطرة أمير حسين، فأخذوا ما لا يدخل تحت حصر كثرة.

و استمروا فى النهب من باكر النّهار إلى قريب العصر، و فعلوا بالمسلمين أفعالا لا تفعلها الكفرة و لا الخوارج مبالغة، و هذا أعظم مما كان وقع منهم من نهب جوار بيت الوزير فرج، فكانت هذه الحادثة من أقبح الحوادث الشنيعة التى لم نسمع بأقبح منها فى سالف الأعصار.

و من ثم دخل فى قلوب الناس من المماليك الأجلاب من الرجيف و الرّعب أمر لا مزيد عليه، لعلمهم أنه مهما فعلوا جاز لهم، و أن السلطان لا يقوم بناصر من قهر منهم.

و وقعت حادثة عجيبة مضحكة، و هى أنه لما عظم رجيف الناس و العامة من هذه المماليك الأجلاب انفق أن جهاز بنت الناصرى محمد بن الثّلّاج الأمير آخور خرج من بيت أبيها إلى بيت زوجها الأمير جانبك قرا الأشرفى، و حمل ذلك على رءوس الحمّالين و البغال كما هى عادة المصريين، و سارت الحمالون بالمتاع فوقع من على رأس بعضهم قطعة نحاس، فجفل من ذلك فرس بعض الأجناد، فحنق الجندى من فرسه و ضربه، ثم ساقه، فلم تشك العامة أن المماليك نزلوا إلى نهب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۹۷

حوانيت القاهرة، فأغلقت القاهرة فى الحال، و ماحت الناس، و تعطلت المعايش، و حصل على الرعية من الانزعاج أمر كبير من غير موجب- انتهى.

و فى هذه الأيام كان الفراغ من مدرسة السلطان التى هدمها و بناها بالصحراء، و قرئ بها ختمة شريفة، و حضرت الأعيان من الأمراء و غيرهم ما خلا السلطان.

ثم فى يوم الاثنين ثالث شهر رجب من سنة ستين المذكورة أفرج السلطان عن زين الدين [يحيى] الأستادار، و رسم له بأن ينزل إلى بيت الصّاحب جمال الدين ليحمل ما تقرّر عليه إلى الخزانة الشريفة- و هو مبلغ عشرة آلاف دينار- ثم ينفى بعد تغليقه المال إلى حيث يأمر به السلطان، و لما غلّق ما ألزم به من المال، سافر فى يوم الاثنين أول شعبان إلى المدينة الشريفة من على طريق الطّور.

ثم سافر قاصد ابن عثمان إلى جهة مرسله فى يوم الجمعة خامس شعبان، و تبعه قاصد السلطان إلى ابن عثمان المذكور، و هو السّيفى قانى باى اليوسفى المهمندار.

و فيه ورد الخبر على السلطان بأن السلطان إبراهيم بن قرمان صاحب لارندة و غيرها من بلاد الرّوم طرق معاملة السلطان، و استولى على مدينة طرسوس و أذنة و كولك، فغضب السلطان من ذلك، و أمر بخروج تجريدة من الدّيار المصريّة لقتال ابن قرمان المذكور، و عيّن جماعة من الأمراء و المماليك يأتى ذكرهم عند سفرهم من القاهرة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۹۸

و فى يوم الأربعاء ثالث عشرين شهر رمضان نودى بالقاهرة من قبل السلطان بعدم تعرّض المماليك الأجلاب إلى الناس و الباعة و التجار، فكانت هذه المناداة كضرب رباب أو كطنين ذباب، و استمرّوا على ما هم عليه من أخذ أموال الناس و الظلم و العنف حتى غلت الأسعار فى سائر الأشياء من المأكول و الملبوس و الغلال و العلوفات، و صاروا يخرجون إلى ظواهر القاهرة، و يأخذون ما يجدون من الشّعير و التّبن و الدّريس بأبخس الأثمان إن أعطوا ثمنا، و إن شاءوا أخذوه بلا ثمن، و كلّ من وقع له ذلك معهم لم يعد ثانيا إلى بيع ذلك الصنف إلا أن يكون محتاجا لبيعه، فعزّت لذلك هذه الأصناف بحيث إنها صارت أقل وجودا من أيّام الغلاء، فصار هذا هو الغلاء بعينه، و زيادة على الغلاء عدم الشيء.

ثم شرعوا فى نهب حواصل البطيخ الصيفى و غيره، ثم تزايد أمرهم، و شرعوا يفعلون ذلك مع تجار القماش و غيره، فغلت جميع الأسعار مع كثرتها عند أربابها، فضرّ ذلك بحال الناس قاطبة، رئيسها و خسيسها، و هذا أول أمرهم، و ما سيأتى فأهول.

و فى يوم الاثنين تاسع عشر شوال خرج أمير حاج المحمل بالمحمل من بركة الحاج، و هو الأمير قائم من صفر خجا أحد مقدّمى الألوف، و سار إلى البركة دفعة واحدة، فكان عادة أمراء المحمل النزول بالمحمل إلى الريدانية، فبطل ذلك، و صاروا يتوجهون إلى البركة فى مسير واحد، و أمير الرّكب الأوّل عبد العزيز بن محمد الصغير أحد الأجناد.

و فى هذه الأيّام كانت عافية الصاحب جمال الدين ناظر الجيش و الخاص من مرض

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۹۹

أشرف فيه على الموت، و طلع إلى القلعة، و خلع السلطان عليه و نزل إلى داره فى يوم مشهود لم ير مثله إلا نادرا.

و فى يوم الخميس سابع عشرين ذى القعدة استقرّ الأمير سودون النوروزى السلاح دار أحد أمراء الطبلخانات فى نيابة قلعة الجبل بعد

موت قانى باى الأعمش النّاصرى، و أنعم السلطان بإقطاع قانى باى المذكور على ولده الصغير المقام الناصرى محمد، و الإقطاع إمرة عشرة.

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۶۱]

و استهلت سنة إحدى و ستين و ثمانمائة يوم الاثنين الموافق لثالث كيهك أحد شهور القبط.

فلما كان يوم السبت سادس المحرم ضرب السلطان والى القاهرة خيربك القصروى، و عزله عن ولاية القاهرة، و حبسه بالبرج على حمل عشرة آلاف دينار، فدام فى البرج إلى أن أطلق فى يوم عاشره، و استقر عوضه فى ولاية القاهرة على بن إسكندر، و استقرّ فى نقابة الجيش الأمير ناصر الدين بن أبى الفرج- على عادته أوّلا- عوضا عن على بن إسكندر المذكور.

و فى يوم السبت هذا نودى أيضا على الذّهب بأن يكون صرف الدّينار الذى هو وزن درهم و قيراطين ثلاثمائة درهم نقرة، و كان بلغ صرفه قبل ذلك إلى ثلاثمائة و سبعين نقرة، و أضرّ ذلك بحال الناس زيادة على ما هم فيه من أمر المماليك الأجلاب.

و فى يوم الاثنين خامس عشر المحرم المذكور ورد الخبر على السلطان بموت يشبك حاجب حجّاب طرابلس، فرسم باستقرار شادبك الصارمى عوضه فى حجوبية الحجاب، و المتوفى و المولّى كلاهما ولى بالبذل.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۰۰

و فى يوم الخميس ثالث صفر ثارت المماليك الأجلاب على السلطان، و أفحشوا فى أمره إلى الغاية. و خبر ذلك أن السلطان لما كان فى يوم الخميس المذكور و هو جالس بقاعة الدهيشة، و كانت الخدمة بطّالة فى هذا اليوم، و ذلك قبل أن يصلى السلطان الصبح، و إذا بصياح المماليك، فأرسل السلطان يسأل عن الخبر، فقيل له إن المماليك أمسكوا نوكار الزّردكاش و هددوه بالضرب، و طلبوا منه القرقلات التى وعدهم السلطان بها من الزّردخاناه السلطانية، فحلف لهم أنه يدفع لهم ذلك فى أوّل الشّهر، فتركوه و مضوا، فلقوا الشيخ عليا الخراسانى الطويل محتسب القاهرة، و هو داخل إلى السلطان فاستقبلوه بالضّرب المبرح المتلف، و أخذوا عمامته من على رأسه، فرمى بنفسه إلى باب الحريم السلطانى حتى نجا.

و أما السلطان لما فرغ من صلاة الصّبح نزل و قعد على الدّكة بالحوش على العادة، ثم قام بعد فراغ الخدمة و عاد إلى الدّهيشة، و إذا بالصّياح قد قوى ثانيا، فعلم أن ذلك صياح الأجلاب، فأرسل إليهم الأمير يونس الدّوادار، فسألهم يونس المذكور عن سبب هذه الحركة، فقالوا: نريد نقبض جوامكنا، كل واحد سبعة أشرفيّة ذهبا، و كانت جامكيّة الواحد منهم ألفين قبل تاريخه يأخذها ذهبا و فضة، بسعر الذهب تلك الأيام، فلما غلا سعر الذهب تحيّلوا على زيادة جوامكهم بهذه المندوحة، ثم قالوا:

و نريد أن تكون تفرقة الجامكية فى ثلاثة أيام، أى على ثلاث نفقات كما كانت قديما، و نريد أيضا أن يكون عليقنا السلطانى الذى نأخذه من الشّونة مغربلا، و يكون مرتبنا من اللحم سمينا، فعاد الأمير يونس إلى السلطان بهذا الجواب، و لم يتفوّه به إلى السلطان، و تربّص عن ردّ الجواب على السلطان حتى يفرغ السلطان من أكل السّماط، فأبطأ الخبر لذلك عن الأجلاب، فندبوا مرجانا مقدّم المماليك للدخول بتلك المقالة إلى السلطان، فدخل مرجان أيضا و لم يخبر السلطان بشىء حتى فرغ من أكل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۰۱

السّماط، فعند ذلك عرّفه الأمير يونس بما طلبوه، فقال السلطان: لا سبيل إلى ذلك، و أرسل إليهم مرجانا المقدّم يعرّفهم مقالة السلطان، فعاد مرجان ثانيا إلى السلطان بالكلام الأوّل، و صار يتردّد مرجان بين السّلطان و المماليك الأجلاب نحو سبعة مرار، و هم مصممون على مقالتهم، و السّلطان ممتنع من ذلك.

و امتنع الناس من الدّخول و الخروج إلى السلطان خوفا من المماليك لما فعلوه مع العجمى المحتسب، فلما طال الأمر على السّلطان خرج هو إليهم بنفسه، و معه جماعة من الأمراء و المباشرين، و توجّه إلى باب القلّة حيث يجلس مقدّم المماليك و الخدّام، فوجد

المماليك قد اجتمعوا عند رحبة باب طبقة المقدّم، فلما علموا بمجيء السلطان أخذوا فى الرجم فجلس السلطان بباب القلّة مقدار نصف درجة، ثم استدرك أمره لمّا رأى شدّة الرّجم، و قصد العود إلى الدّهيشة، و رسم لمن معه من الأمراء أن ينزلوا إلى دورهم، فامتنعوا إلاـ أن يوصّلوه إلى باب الحريم، فعاد عليهم الأمر فنزلوا من وقتهم، و بقى السلطان فى خواصّه و جماعة المباشرين و ولده الكبير المقام الشهابى أحمد.

فلما سار السلطان إلى نحو باب الستارة، و وصل إلى باب الجامع أخذه الرّجم المفرط من كلّ جهة، فأسرع فى مشيته و الرّجم يأتيه من كل جانب، و سقط الخاصكى الذى كان حامل ترس السلطان من الرّجم، فأخذ التّرس خاصكىّ آخر فضرب الآخر فوقع و قام، و شجّ دوادار ابن السلطان فى وجهه و جماعة كثيرة، و سقطت فردة نعل السلطان من رجله فلم يلتفت إليها لأنه محمول من تحت إبطيه مع سرعة مشيهم إلى أن وصل إلى باب الستارة، و جلس على الباب قليلا، فقصدوه أيضا بالرّجم فقام و دخل من باب الحريم و توجّه إلى الدّهيشة.

و استمرّ وقوف المماليك على ما هم عليه إلى أذان المغرب، فبعد صلاة المغرب نزل الصاحب جمال الدين ناظر الجيش و الخاص من باب الحريم إلى القصر، و توصل منه إلى الإسطبل السلطانى، و خرج من باب السّلسلة، و توجّه إلى داره، و نزل الأمير بردبك الدّوادار الثانى و صهر السلطان من الميدان ماشيا، فوجد فرسه تحت القلعة،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۰۲

فركبه و توجّه إلى داره، و كذلك فعل جانبك المشدّ، و جانبك الخازندار و غيرهما، و بات القوم و هم على وجل، و المماليك يكثرون من الوعيد فى يوم السبت؛ فإنهم زعموا أن لا يتحركوا بحركة فى يوم الجمعة مراعاة لصلاة الجمعة.

و أصبح السلطان و صلى الجمعة مع الأمراء على العادة، فتكلم بعض الأمراء مع السلطان فى أمرهم بما معناه إنه لا بد لهم من شيء يطيّب خواطرهم به، و وقع الاتفاق بينهم و بين السلطان على زيادة كسوتهم التى يأخذونها فى السّنة مرّة واحدة، و كانت قبل ذلك ألفين، فجعلوها يوم ذاك ثلاثة آلاف، و زادوهم أيضا فى الأضحية، فجعلوا لكل واحد ثلاثة من الغنم الضأن، فزيدوا رأسا واحدا على ما كانوا يأخذونه قبل ذلك، ثم رسم لهم أن تكون تفرقة الجامكيّة على ثلاث نفقات فى ثلاثة أيام من أيام المواكب، فرضوا بذلك و خمدت الفتنة، و قد انتفعت جميع المماليك السلطانية بهذه الزيادات؛ فإنها ليست بمختصة بالأجلاب فقط، و إنما هى لجميع مماليك السلطان كائنا من كان، فحمدت المماليك و الناس جميعا فعلهم لماجر إليهم من المنفعة.

قلت: هذا هو الاحتمال الذى يؤدى إلى قلة المروءة، فإنه لو أراد لفعل بهم ما شاء، غير أنه كما ورد: «حبّك للمرء يعمى و يصم» انتهى.

و فى هذه الأيام ترادفت الأخبار من الأمير جانم الأشرفى نائب حلب بحركة ابن قرمان، فلهج السلطان بخروج تجريدة لقتاله بعد انفصال فصل الشتاء.

ثم فى يوم الاثنين خامس شهر ربيع الأوّل أبطل السلطان الخدمة من القصر، و جلس بالحوش السلطانى، و جمع القضاة و الأعيان و ناظر دار الضّرب، و سبكت الفضة المضروبة فى كل دولة، و قد حرّرنا وزن ضرب كلّ دولة، و ما نقص منها فى تاريخنا «حوادث الدهور» - انتهى.

و انفضّ الجمع و قد نودى فى يومه بشوارع القاهرة بأن أحدا لا يتعامل بالفضّة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۰۳

المضروبة بدمشق فى هذه الدّولة، فشقّ ذلك على الناس قاطبة؛ لكثرة معاملاتهم بهذه الفضة التى داخلها الغشّ، و لهجت العامة فى الحال فيما بينهم: «السلطان من عكسه أبطل نصفه» و «إذا كان نصفك إينالى لا تقف على دكانى» و أشياء من هذه المهملات التى لا وزن و لا قافية، و انطلقت الألسن بالوقيعة فى السلطان.

هذا و الصاحب جمال الدين عظيم الدّولة بلّغ السلطان من الغد أنّ المماليك تريد إثارة فتنة أخرى بسبب ذلك، فخشى السلطان من مساعدة العوامّ لهم، فأبطل ما كان نودى به.

قلت: و المصلحة ما كان فعله السلطان، غير أنك تعلم أن السّواد الأعظم من العامة ليس لهم ذوق و لا خبرة بعواقب الأمور، فإنهم احتاجوا بعد ذلك إلى أن سألوا فى إبطال ذلك، فلم يسمح لهم السلطان به إلّا بعد أمور و أشهر حسبما يأتى ذكره، و هو معذور فى ذلك.

و فى يوم الخميس خامس عشر شهر ربيع الأوّل المذكور من سنة إحدى و ستين عمل السلطان المولد النبوىّ بالحوش من قلعة الجبل على العادة فى كل سنة، غير أنه فرّق الشّقق الحرير على القرّاء و المدّاح، كل شقّة طولها خمسة أذرع إلى ثلاثة أذرع و نصف، و لم يفرق على أحد شقة كاملة إلا نادرا.

قلت: كل ذلك من سوء تدبير أرباب وظائفه و حواشيه، و إلا فما هو هذا النزر اليسير حتى يشحّ به مثل هذا الملك الجليل، و نفرض أنه عزم على ذلك فكان يمكنهم الكلام معه فى ذلك، فإن عجزوا عن مدافعته كان أحد من أولاده و خواصه يقوم بهذا الأمر عنه من ماله، و ليس فى ذلك كبير أمر.

و فى يوم الأحد ثامن عشر شهر ربيع الأوّل المذكور وصل إلى القاهرة سنقر الأشرفى الدّوادار المعروف بقرق شبق، و كان توجّه قبل تاريخه إلى البلاد الحلبيّة لكشف أخبار ابن قرمان، و تجهيز العساكر الشّاميّة و الحلبية، فوقع له هناك أمور و حوادث ذكرناها فى غير هذا المحل، من قتل جماعة من تركمان ابن قرمان و غير ذلك.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۰۴

و كان سنقر المذكور من مساوىء الدّهر، و عنده طيش و خفة مع ظلم و جبروت، و ما سيأتى من أخباره عند عمارته لمراكب الغزاة فأعظم.

ثم فى يوم الأحد هذا نودى بالقاهرة من قبل السلطان بأن يكون سعر الدّرهم من الفضّة الشاميّة المقدم ذكرها التى داخلها الغش ثمانية عشر درهما نقرة، فقامت قيامة العامّة من ذلك خوفا من الخسارة، و أكثروا من الوقيعة بالسلطان و أرباب دولته، و لا سيما فى الصاحب جمال الدين ناظر الجيش و الخاص، فأنهم نسبوا هذا كله إليه- رحمه اللّه.

و كان السلطان خلع على ولده المقام الشهابى أحمد باستقراره أمير حاجّ المحمل فلما نزل ابن السلطان و عليه الخلعة من القلعة إلى داره- و هى قصر بكتمر الساقى تجاه الكبش- و بين يديه جميع أعيان الدولة استغاثت إليه العامة بلسان واحد، و قالوا: «نخسر بهذه المناداة ثلث أموالنا»، و سألوه فى إبطال ذلك، فوعدهم بإبطاله، و أرسل إلى والده يسأله فى إبطال ما نودى به، فأجابه السلطان، و نودى فى الحال مناداة ثانية بإبطال ما نودى به.

قلت: و هذه فعلة العامة الثانية من طلبهم عدم المناداة بإبطال هذه الفضّة المغشوشة خوفا من الخسارة، فاحتاجوا بعد ذلك إلى المناداة، و خسروا أكثر مما كانوا يخسرونه عندما غلت الأسعار بسبب هذه الفضّة، و وصل صرف الدينار إلى أربعمائة درهم كما نذكره إن شاء اللّه تعالى.

و فى يوم السبت أول شهر ربيع الآخر نودى فى المماليك السلطانية المعينين إلى تجريدة البلاد الشامية لقتال ابن قرمان- قبل تاريخه- بأنّ النفقة فيهم فى يوم الخميس الآتى، فلما كان يوم الخميس سادس ربيع الآخر المذكور جلس السلطان بالحوش السلطانى، و شرع فى تفرقة النّفقة على المماليك المذكورين، لكل واحد منهم مائة دينار،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۰۵

و سعر الذهب يوم ذاك أربعمائة الدينار، فوصل لكل واحد منهم- أعنى المماليك المعينين- أربعون ألفا، و هذا شىء لم نسمع بمثله، و أكثر ما فرّق الملوك السالفة فى معنى النفقة مائة دينار، و سعر الدينار فى ذلك الوقت ما بين مائتين و عشرين درهما الدينار

إلى مائتين و ثمانين الدينار، لا بهذا السعر الزائد، فشكر كل أحد السّلطان على هذه الفعلة.

و كان عدة من أخذ النفقة من المماليك المذكورين أربعمائة مملوك و ثلاثة مماليك، ثم أرسل السلطان بالنفقة إلى الأمراء المجرّدين، فحمل إلى الأمير خشقدم الناصرى المؤيّدى أمير سلاح- و هو مقدّم العسكر يوم ذاك- بأربعة آلاف دينار، ثم أرسل لكل من أمراء الألوف لكل واحد بثلاثة آلاف دينار، و هم: قرقماس الأشرفى رأس نوبة النّوب، و جانبك القرمانى الظاهرى حاجب الحجّاب، و يونس العلائى الناصرى، ثم حمل لكل من أمراء الطبلخانات بخمسمائة دينار، و لكل أمير عشرة مائتى دينار. يأتى ذكر أسماء الجميع عند خروجهم من الديار المصرية إلى جهة ابن قرمان.

ثم فى يوم الخميس العشرين من شهر ربيع الآخر المذكور عزل السلطان علىّ ابن إسكندر عن ولاية القاهرة، و أعاد خيربك القصروى لولاية القاهرة كما كان أوّلا.

ثم فى يوم الخميس خامس جمادى الأولى برز الأمير خشقدم أمير سلاح و مقدّم العسكر بمن معه من الأمراء و العساكر من القاهرة إلى الرّيدانيّة خارج القاهرة، و الأمراء هم:

الأربعة من مقدمى الألوف المقدم ذكرهم.

و الطبلخانات: جانبك الناصرى المرتدّ، و خيربك الأشقر المؤيّدى الأمير آخور الثانى، و بردبك البجمقدار الظاهرى رأس نوبة.

و من أمراء العشرات ستة أمراء و هم: تمرباى من حمزة الناصرى المعروف بططر،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۰۶

و قانصوه المحمدى الأشرفى، و قلمطاى الإسحاقى الأشرفى رأس نوبة، و قانم طاز الأشرفى رأس نوبة، و جكم النورى المؤيدى رأس نوبة، و جانم المؤيدى المعروف بحرامى شكل.

و قد تقدّم ذكر عدة المماليك السلطانية فيما تقدم.

و أقاموا بالرّيدانيّة إلى ليلة الاثنين تاسعه فاستقلوا فيه بالمسير من الرّيدانيّة إلى جهة البلاد الشاميّة.

ثم فى يوم الخميس سادس عشرين جمادى الأولى المذكورة سافر الأمير نوكار الزّردكاش، و معه عدّة من الرّماة و النّفطيّة و آلات الحصار و هو مريض، و رسم له أن يأخذ من قلعة دمشق ما يحتاج إليه أيضا من أنواع [الآلات و غيرها] للحصار، و يلحق العساكر المتوجهة لقتال ابن قرمان.

ثم فى يوم الخميس عاشر جمادى الآخرة استقرّ الأمير أسندمر الجقمقى أحد أمراء العشرات و رأس نوبة أمير المماليك السلطانية المجاورين بمكّة المشرّفة عوضا عن الأمير بيبرس الأشرفى، خال الملك العزيز يوسف، و رسم بمجىء بيبرس المذكور عند توجه أسندمر الجقمقى فى موسم الحج.

ثم فى يوم الجمعة ثالث شهر رجب من سنة إحدى و ستين المذكورة ورد الخبر على السلطان بموت الأمير نوكار الزّردكاش بمدينة غزّة. فأنعم السلطان بإقطاعه- و هو إمرة عشرة- و وظيفة الزّردكاشيّة على سنقر الأشرفى الدوادار المعروف بقرق شبق.

و فى يوم الخميس تاسع رجب المذكور وقعت حادثة غريبة: و هى أن جماعة من

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۰۷

العربان قطّاع الطريق جاءوا من جهة الشرقية حتى وصلوا إلى قرب باب الوزير، ثم عادوا من حيث جاءوا، و صاروا فى عودهم يسلبون من وقعوا به من الناس، فعرّوا جماعة كبيرة من بين فقهاء و أعيان و غيرهم، و كان الوقت بعد آذان العصر بدرجات وقت حضور الخوانق.

و فى يوم الأحد ثانى عشره، خلع السلطان على السيد الشريف حسام الدين محمد ابن حريز، باستقراره قاضى قضاة المالكية بعد موت القاضى ولى الدين السّنباطى.

و فى يوم الثلاثاء رابع عشر رجب المذكور ورد الخبر على السلطان بوصول العساكر المتوجهة لقتال ابن قرمان إلى حلب، و أنهم اجتمعوا فى حلب بالأمير قانى باى الحمزاوى نائب الشام هناك؛ لأن قانى باى المذكور كان خرج من دمشق قبل وصول العسكر إليها بثلاثة أيام، فتكلم الناس بأنه ظن أن سفر العساكر ما هو إلا بسبب القبض عليه فى الباطن، و التوجّه لابن قرمان فى الظاهر.

قلت: و للقائل بهذا القول عذر بين، و هو أن قانى باى المذكور من يوم تسلطن الملك الأشرف إينال هذا- و هو نائب حلب- لم يحضر إلى الديار المصرية و لا داس بساط السلطان، غير أنه يمتثل أوامر السلطان و مراسيمه حيث كان أولا بحلب، ثم بعد انتقاله إلى نيابة دمشق؛ فعلم بذلك كلّ أحد أن قانى باى المذكور

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۶، ص: ١٠٨

يتخوّف من السلطان و لا يحضر إلى الدّيار المصرية، و متى طلبه السلطان أظهر العصيان.

و فطن الملك الأشرف إينال لذلك، فلم يطلبه البتة، و صار كل واحد منهما يعلم ما فى ضمير الآخر فى الباطن و يظهر خلاف ذلك؛ السلطان يخفى ذلك لتسكين الفتنة، و قانى باى لما هو فيه من النعمة بولاية نيابة دمشق، و كلّ منهما يترقب موت الآخر، فمات قانى باى قبل، حسبما يأتى ذكره فى الوفيات بعد فراغ الترجمة. و قد خرجنا عن المقصود و لنعد إلى ما نحن بصدده فنقول:

و أخبر المخبر أن العساكر اجتمعوا بالأمير قانى باى الحمزاوى بحلب، و أنه اجتمع رأى الجميع على السير من حلب إلى جهة ابن قرمان فى يوم السبت سادس عشرين جمادى الآخرة، فسرّ السلطان بذلك؛ كون الذى أشيع عن قانى باى الحمزاوى من العصيان ليس بصحيح، بل هو قائم بالمهمّ السلطانى أحسن قيام.

و فى يوم الجمعة سابع عشره سافر الأمير جانبك الظاهرى نائب جدّة إلى جهة جدّة على عادته فى كل سنة، و سافر معه خلائق من الناس صفة الرّجبيّة.

و فى يوم السبت ثامن عشر رجب المذكور ورد الخبر على السلطان بأنه كان بين حسن الطويل بن على بك بن قرايلك صاحب آمد و بين عساكر جهان شاه بن قرا يوسف صاحب العراقين- عراق العرب و عراق العجم- وقعة هائلة، انكسر فيها عسكر جهان شاه و انتصر حسن المذكور، و أن حسن قتل من أعيان عساكر جهان شاه جماعة، مثل الأمير رستم، و ابن طرخان، و عربشاه، و غيرهم، فسرّ السلطان بذلك غاية السرور؛ كون أن حسنا المذكور ينتمى إليه، و يظهر له الصّداقة.

ثم فى يوم الاثنين رابع شعبان وصل الخبر من الأمير خشقدم أمير سلاح و من

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۶، ص: ١٠٩

رفقته النواب بالبلاد الشامية بأنهم وصلوا إلى بلاد ابن قرمان، و ملكوا قلعة دوالى، و نهبوها و أخربوها، و أنهم جهّزوا الأمير بردبك البجمقدار رأس نوبة و معه عدّة من المماليك السلطانية و الأمراء بالبلاد الشامية إلى جهة من جهات بلاد ابن قرمان، فصدفوا فى مسيرهم عسكرا من أصحاب ابن قرمان فواقعوهم و هزموهم، و أنه قتل من المماليك السلطانية أربعة فى غير المصاف، بل من الذين صدفوهم فى أثناء الطريق.

و فى يوم السبت أوّل شهر رمضان سافرت الأمراء المعينون إلى الجورن ببرّ التركية، لأجل قطع الأخشاب، و سافروا من بولاق، و مقدّم العسكر الأمير يشبك الفقيه المؤيّدى أحد أمراء الطبلخانات و رأس نوبة، و معه الأمير أزبك المؤيّدى أحد أمراء العشرات، و الأمير نوروز الأعمش الأشرفى، و جماعة أخر من الخاصكية.

ثم فى يوم الأحد تاسع شهر رمضان وصل نجّاب من خير بك نائب غزّة يخبر بمجىء سودون القصروى الدّوادار بكتاب مقدّمى العساكر الأمير خشقدم المؤيّدى أمير سلاح و غيره من الأمراء، و حضر سودون القصروى المذكور من الغد، و أخبر السلطان بأن العساكر المتوجهة إلى بلاد ابن قرمان قصدت العود إلى جهة حلب بعد أن أخذوا أربع قلاع من بلاد ابن قرمان، و أخربوا غالب قرى ممالكه، و أحرقوا بلاده و سبوا و نهبوا و أمعنوا فى ذلك، حتى أنهم أحرقوا عدّة مدارس و جوامع؛ و ذلك من أفعال أوباش العسكر،

و أنهم لم يتعرضوا إلى مدينة قونية و لا مدينة قيصريّة لنفود زادهم، و لضجر العسكر من طول مدتهم بتلك البلاد، مع غلو الأسعار فى المأكول و غيره من سائر الأشياء، و لو لا هذا لا ستولوا على غالب بلاد ابن قرمان، و أن ابن

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۱۰

قرمان لم يقاتل العسكر السلطانى، بل إنه انحاز إلى جهة منيعة من جهاته و تحصّن بها هو و أعيان دولته، و ترك ما سوى ذلك من المتاع و المواشى و غيرها مأكلة لمن يأكله، فحصل له بما أخذ له وهن عظيم فى مملكته، فدقّت البشائر لهذا الخبر بالقاهرة أيّاما، و رسم السلطان من وقته بعود العسكر المذكور إلى الديار المصرية، و خرج النجّاب بهذا الأمر.

ثم فى يوم الأحد سادس عشر شهر رمضان المذكور ركب المقام الشهابى أحمد بن السلطان من داره- قصر بكتمر تجاه الكبش- النّجب كما هى عادة أمراء الحج فى الركوب إلى المسايرة، و خرج من الصّليبة، و شقّ الرّميلة، و بين يديه هجّانة السلطان أمراء العرب، بالأكوار الذهب، و الكنابيش الزّركش المغشاة بالأطلس الأصفر، و ركب معه جماعة من الأمراء غير من يسافر معه، مثل: الأمير برد بك الدوادار الثانى، و سودون الإينالى المؤيّدى قراقاش ثانى رأس نوبة، و جماعة أخر، و لم يركب معه أحد من أمراء الألوف، و لا أعيان مباشرى الدّولة، حتى و لا كاتب السّرّ القاضى محب الدين ابن الأشقر، و هو ممن يسافر فى هذه السّنة إلى الحج.

و سار ابن السلطان فى موكبه المذكور من تحت القلعة إلى جهة خليج الزّعفران خارج القاهرة، و وصل هناك قبيل المغرب، و أفطر هناك، ثم عاد بعد صلاة العشاء، و شقّ الرّميلة ثانيا فى عوده فى زىّ بهيج إلى الغاية.

ثم فى يوم الجمعة ثانى عشر شوال وصلت إلى القاهرة رمّة الأمير جانبك القرمانى الظاهرى حاجب الحجّاب، و قد مات بالقرب من منزلة الصالحيّة فى عوده من تجريدة ابن قرمان، ثم عقب الخبر بموت جماعة كبيرة أيضا من العسكر المذكور، من مرض فشا فيهم من مدينة الرّملة كالوباء، مات منه خلائق بمرض واحد، و لم يعلم أحد ما سبب هذا العارض.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۱۱

ثم فى يوم السبت ثالث عشره ورد الخبر بموت الأمير جكم النّورى المؤيّدى- المعروف بقلقسيز- أحد أمراء العشرات و رأس نوبة.

ثم فى يوم الاثنين خامس عشر شوال المذكور وصلت العساكر المجرّدة لبلاد ابن قرمان على أسوأ حال من الضّعف الذى حصل لهم فى أثناء الطريق، و طلع مقدّم العسكر الأمير خشقدم المؤيّدى أمير سلاح، و رفقته من الأمراء المقدّم ذكرهم عند توجههم و المماليك السلطانية إلى القلعة، و قبّل الأرض فأكرمه السلطان و خلع عليه و على رفقته، فنزل الأمير خشقدم إلى داره و بين يديه أعيان الدّولة و قد نقص من رفقته اثنان من المقدمين: جانى بك القرمانى المتوفى، و يونس العلائى لضعف بدنه، و قد دخل إلى القاهرة فى محفّة.

ثم فى يوم الاثنين هذا أنعم السلطان على الأمير بايزيد التمربغاوى أحد أمراء الطبلخانات بإمرة مائة و تقدمة ألف عوضا عن جانبك القرمانى المقدم ذكره، و أنعم بطبلخانات بايزيد على الأمير برسباى الإينالى المؤيّدى.

ثم فى يوم الخميس ثامن عشر شوال المذكور خرج المقام الشهابى أحمد بن السلطان- و هو يومئذ أمير حاج المحمل- بالمحمل من القاهرة إلى بركة الحاجّ دفعة واحدة- و قد صار ذلك عادة- و ترك النّزول بالمحل فى الرّيدانيّة خارج القاهرة، و سافرت معه أمّه خوند الكبرى زينب بنت البدرى حسن بن خاص بك، و إخوته الجميع الذكور و الإناث، و الإخوة الجميع ثلاثة: ذكر واحد و هو أصغر منه- يسمى محمدا- مراهق، و أخته الكبرى زوجة الأمير بردبك الدّوادار الثانى، و الصغرى و هى زوجة الأمير يونس الدّوادار الكبير، و رحل من البركة فى ليلة الاثنين ثانى عشرين شوال بعد أن رحل قبله أسندمر الجقمقى رأس المجاورين، و أمير الركب الأول يشبك الأشقر الأشرفى، و قد استقرّ أمير عشرة قبل تاريخه.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۱۲

و وصل من الغد فى يوم الثلاثاء الأمير جانبك الظاهرى نائب جدّة من جدّة و قبّل الأرض، و حضر معه من الحجاز الأمير زين الدين الأستادار، و كان مقيما بمكة.

و فى يوم الخميس خامس عشرين شوال المذكور أنعم السلطان بإقطاع جكم النّورى المؤيّدى على الأمير جانبك الإسماعيلى المؤيّدى المعروف بكوهية، و على الأمير يشبك الظاهرى نصفين بالسويّة، لكل واحد منهما إمرة عشرة.

ثم فى يوم الاثنين تاسع عشرينه استقرّ الأمير برسباى البجاسى أحد مقدّمى الألوف حاجب الحجّاب بالديار المصرية بعد وفاة الأمير جانبك القرمانى.

ثم فى يوم السبت خامس عشرين ذى القعدة ثارت المماليك الأجلاب بالأطباق من قلعة الجبل، و منعوا الأمراء و مباشرى الدّولة من النّزول من قلعة الجبل، فكلموهم بسبب ذلك. فقالوا: «نريد أن تكون تفرقة الأضحية لكل واحد منا ثلاثة من الغنم». أعنى زيادة على ما كانوا يأخذونه قبل ذلك برأس واحد، و كان وقع فى تلك المدّة هذا القول، و سكت عنه، فتوقّف السلطان فى الزيادة، ثم أذعن بعد أمور، و استمرّ ذلك إلى يومنا هذا.

و فى يوم الاثنين سابع عشرين ذى القعدة استقرّ القاضى صلاح الدين أمير حاج بن بركوت المكينى فى حسبة القاهرة بعد عزل يار على الخراسانى العجمى الطويل بمال كثير بذله صلاح الدين فى ذلك.

و فى أوائل ذى الحجة ورد الخبر على السلطان من جهة مكّة أنه وقع فى الحاج عطشة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۱۳

فيما بين منزلة أكرة و الوجه، و مات بالعطش خلائق كثيرة.

و فى يوم الجمعة سادس عشر ذى الحجة- الموافق لثامن هاتور- لبس السلطان القماش الصوف الملوّن المعتدّ لأيام الشتاء، و ألبس الأمراء على العادة.

و فى يوم الاثنين تاسع عشر ذى الحجة المذكور وصلت الأمراء المتوجهون إلى بلاد الجون ببرّ التركية، و مقدّمهم الأمير يشبك الفقيه، و رفقته المقدّم ذكرهم عند سفرهم، و خلع السلطان عليهم.

و فى يوم الخميس ثانى عشرينه وصل مبشر الحاج دمرداش الطويل الخاصكى بعد ما قاسى شدائد من العرب قطّاع الطريق، فضايقوه و أخذوا منه عدّة رواحل و غيرها، ثم أخبر دمرداش المذكور بسلامة ابن السلطان و والدته و إخوته، فدقّت البشائر لذلك ثلاثة أيام بالديار المصرية.

و فى يوم الاثنين سادس عشرين ذى الحجة المذكور أخرج السلطان إقطاع الأمير طوخ من تمراز الناصرى- المعروف بينى بازق - أمير مجلس؛ لمرض تمادى به مدّة طويلة، و أنعم بإقطاع المذكور على الأمير برسباى البجاسى حاجب الحجّاب، و أنعم بإقطاع برسباى البجاسى المذكور على الأمير بيبرس الأشرفى خال الملك العزيز يوسف [بالحجاز]، و كلاهما تقدمة ألف، غير أن الواحد يزيد عن الآخر فى الخراج لا غير، و أنعم بإقطاع بيبرس على ولده الصغير محمد و هو فى الحجاز أيضا، و هذا أيضا تقدمة ألف.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۱۴

ثم فى يوم الخميس تاسع عشرينه استقرّ الأمير جرباش المحمدى الأمير آخور الكبير أمير مجلس عوضا عن طوخ المقدم ذكره بحكم مرضه، و استقر عوضه فى الأمير آخورية يونس العلائى أحد مقدّمى الألوف.

و فى هذه السنة كان فراغ الرّبع و الحمامين الذين بناهم السلطان الملك الأشرف إينال هذا بخط بين القصرين.

و فرغت هذه السنة و قد انحلّ أمر حكّام الدّيار المصريّة أرباب الشرع الشريف و السياسة أيضا؛ لعظم شوكة المماليك الأجلاب، و صار من له حقّ عند كائن من كان من الناس قصد مملوكا من المماليك الأجلاب فى تخليص حقّه، فما هو إلا أن أعلم ذلك المملوك بقصده خلّص من غريمه فى الحال، فإن هؤلاء المماليك صاروا فى أبواب أعيانهم شكل رأس نوبة و نقباء، و لبعضهم دوادار، فيرسل خلف ذلك الرجل المطلوب، و يأمره بإعطاء حق ذلك المدّعى- حقّا كان أو باطلا- بعد أن يهدّده بالضرب و النّكل، فإن أجاب و إلا ضرب فى الحال و نكّل به، و علم بذلك كل أحد، فصار كلّ أحد يستعين بهم فى قضاء حوائجه، و ترك الناس

الحکّام، فقوى أمر الأجلاب، و ضعفت شوکة الحکّام، و تلاشى أمرهم إلى الغاية و النهاية.

و فى هذه السنة کانت زلزلة عظيمة بمدينة أرزنکان، هدّمت معظمها.

و فى هذه السنة أيضا کان بالشرق فتن کبيرة بين جهان شاه بن قرا يوسف، و بين أولاد باى سنقر بن شاه رخّ بن تيمور لنک، أصحاب ممالک العجم

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۶۲]

ثم استهلت سنة اثنتين و ستين و ثمانمائة.

ففى يوم الاثنين ثالث محرم من السنة المذکورة أنعم السلطان على قايتباى

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۱۵

المحمودى الظاهرى الدّوادار بإمرة عشرة، و عيّن السلطان الأمير جانبک الإسماعيلى المؤيدى المعروف بکوهية أن يتوجّه إلى حلب، و على يده تشريف تغرى بردى بن يونس حاجب حلب بنيابة ملطية، و تشريف جانبک الجکمى نائب ملطية إلى حجوبية حلب، کل منهما عن الآخر، و ذلک لکلام وقع بين تغرى بردى هذا و بين الأمير جانم الأشرفى نائب حلب.

ثم فى يوم الاثنين رابع عشرين المحرم وصل أمير حاج المحمل بالمحمل إلى القاهرة، و هو المقام الشهابى أحمد بن السلطان، و صحبته والدته و إخوته، و طلع إلى القلعة و معه أخوه محمد، و بين يديهما وجوه الدّولة، و خلع السلطان عليه و على أخيه محمد المذکور، و کانت خلعة المقام الشهابى أطلسين متمرّا، و على الأطلسين فوقانى حرير بوجهين بطرز زرکش، ثم خلع السلطان على من له عادة بلبس الخلع فى عود الحاج إلى الدّيار المصرية.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة؛ ج۱۶؛ ص۱۱۵

فى يوم الاثنين سادس عشر صفر وصل الأمير أزبک من ططخ الظاهرى الخازندار- کان- من القدس الشريف بطلب من السلطان، و طلع إلى القلعة، و خلع السلطان عليه سلّاريّا من ملابيسه بفرو سنجاب، و وعده بکل خير، ثم رسم له بالمشى فى الخدمة السلطانية بعد أيام.

و فى أوّل شهر ربيع الأوّل من سنة اثنتين و ستين المذکورة نودى من قبل السلطان على الذّهب بأن يکون سعر الدينار الذهب بثلاثمائة درهم نقرة، بعد ما کان وصل سعر الدينار لأربعمائة و ستين درهما الدينار، و أن يکون سعر الفضة المغشوشة کل درهم بستة عشر درهما، و أن يکون سعر الدرهم من الفضة الطيبة التى رسم السلطان بضربها بدار الضرب بأربعة و عشرين درهم نقرة، و حکم السلطان بذلک، و نفذ حکمه

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۱۶

القضاة، و سرّ الناس بهذا الأمر غاية السرور؛ فإنه کان حصل بتلک الفضّة المغشوشة غاية الضرر فى المعاملات و غيرها.

غير أنه ذهب للناس بهذا النقص فى سعر الفضة المغشوشة مال کثير، و صار کل أحد يخسر ثلث ما کان معه من المال من هذه الفضة المذکورة، فانحسر کل من کان عنده من هذه الفضة لوقوع النقص فى ماله، فرسم السلطان فى اليوم المذکور بالمناداة بنقص ثلث ثمن جميع البضائع فى المأکول و الملبوس کما نقص سعر الدرهم الثلث، و کذلک فى نقص الذهب، فهان عند ذلک على الناس ما وقع من خسارة الذهب و الفضة بهذه المناداة الثانية التى هى بنقص ثلث أثمان جميع الأشياء، و قال کل واحد فى نفسه: «کما نقص من مالى الثلث نقص من ثمن ما کنت أبتاعه الثلث»، فکأنه لم ينقص له شيء.

ثم فى يوم الخميس سابع عشره عمل السلطان المولد النبوى بالحوش من القلعة على العادة فى کل سنة.

ثم فى يوم الأربعاء ثامن شهر ربيع الآخر أنعم السلطان على الأمير أزبک من ططخ الظاهرى المقدّم ذکره بإمرة عشرة، عوضا عن الأمير

جانم الأشرفى البهلوان، بحكم وفاته كما سيأتى ذكر وفاته و وفاة غيره فى ذكر الوفيات بعد فراغ الترجمة، على عادة هذا الكتاب.

و فى يوم الاثنين ثالث عشر شهر ربيع الآخر المذكور وجد السلطان نشاطا فى نفسه من مرض كان حصل له أياما، و خرج إلى قاعة الدّهيشة، و دقّت البشائر لذلك بقلعة الجبل و غيرها ثلاثة أيام.

ثم فى يوم الأحد سادس عشرين ربيع الآخر مات الأمير سودون السلحدار نائب قلعة الجبل، فأنعم السلطان من إقطاعه بنصف قرية كوم أشفين على شريكه الأمير يشبك الفقيه المؤيدى، ليكون من جملة أمراء الطبلخانات، و أنعم بباقى إقطاع سودون

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۱۷

المذكور على الأمير أرغون شاه الأشرفى ليكون من جملة أمراء العشرات، و أنعم بإقطاع أرغون شاه المذكور على شريكه الأمير تنبك الأشرفى ليكون تنبك أيضا أمير عشرة، و استقر كسباى المؤيدى السمين نائب قلعة الجبل عوضا عن سودون المذكور على إمرة عشرة ضعيفة، و استقرّ الأمير جانبك الإسماعيلى المؤيّدى المعروف بكوهية من جملة رؤوس النّوب عوضا عن كسباى المقدّم ذكره، و لبسا الخلع بعد ذلك بأيام.

ثم فى سلخ شهر ربيع الآخر المذكور خلع السلطان على الأمير برسباى البجلسى حاجب الحجاب باستقراره أمير حاج المحمل.

و فيه خلع السلطان على الحكماء لعافيته من مرضه، و حضر السلطان موكب القصر مع الأمراء و الخاصكية على العادة.

ثم فى يوم الاثنين رابع جمادى الأولى استقر [الطواشى] مرجان [الحصنى] مقدّم المماليك السلطانية أمير حاج الرّكب الأول، فحصل بتولية مرجان هذا إمرة الحاج الأول على أهل مكة مالا خير فيه؛ لأنه كان فى نفسه وضيعا، لم تشمله تربية مربّ، لأنه نشأ ببلاد الحصن، و خرج منها على هيئة المكدّين من فقراء العجم، و دار البلاد على تلك الهيئة سنين كثيرة، إلى أن اتصل بخدمة جماعة كثيرة من الأمراء، ثم آل أمره إلى بيت السلطان، و غلط الدهر بولايته النيابة ثم التّقدمة، ثم بولايته إمرة الركب الأول فى هذه السنة، فلما سافر أخذ معه جماعة كبيرة من إنياته المماليك الأجلاب، ففعلوا فى أهل مكة أفعالا ما تفعلها الخوارج، من الظلم و أخذ أموال الناس له و لأنفسهم، كما سيأتى ذكر ذلك عند عوده من الحج إن شاء اللّه تعالى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۱۸

و فى يوم الخميس سابع جمادى الأولى استقرّ شمس الدين منصور بن الصّفّى ناظر ديوان المفرد.

و فى يوم الثلاثاء ثانى عشر ركب السلطان الملك الأشرف إينال من قلعة الجبل باكر النهار فى أمرائه و أرباب دولته، وشق خط الصّليبة بغير قماش الموكب، و توجّه إلى ساحل بولاق، و دام سيره بساحل بولاق إلى أن وصل إلى مدرسة السعدى إبراهيم ابن الجيعان التى أنشأها على النيل، و رأى ما أنشئ بالجزيرة و ساحل بولاق من العمائر و البيوت، ثم عاد إلى جهة القاهرة، و مرّ من الشارع الأعظم إلى أن خرج من باب زويلة، و طلع إلى القلعة.

و أصبح من الغد فى يوم الأربعاء أمر بالمناداة بأن أحدا من الناس لا يعمّر عمارة بجزيرة أروى المعروفة بالوسطى، و لا بساحل بولاق؛ لما رأى من ضيق الطريق من كثرة العمائر و الأخصاص، و أمر أيضا بهدم أماكن كثيرة فهدمت فى اليوم المذكور، و استمر والى القاهرة بعد ذلك مستمرا للهدم أياما كثيرة، و أما الأخصاص و الدكاكين التى بالطريق فهدمت عن آخرها، و كلّم السلطان فى الكفّ عن ذلك جماعة كثيرة فلم يسمع لأحد، و استمر على ما رسم به من هدم الأماكن المذكورة، قلت: و لا بأس بهذه الفعلة؛ لأن كل أحد له فى الساحل حق كحق غيره، فلا يجوز استقلال أحد به دون غيره.

و فى يوم الأحد سابع عشر جمادى الأولى المذكور خاشنت المماليك الأجلاب الصاحب جمال الدين ناظر الجيش و الخاص فى اللفظ بسبب غلو سعر أثواب البعلبكى، فأجابهم «بأن هذا ليس هو داخل فى حكمى و لا من تعلقاتى، بل ذلك راجع إلى محتسب القاهرة» و بلغ السلطان ذلك، فأصبح السلطان أمر بعزل صلاح الدين أمير حاج بن

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۱۹

بركوت المكينى عن حسبة القاهرة، و استقرّ عوضه بالحاج خليل المدعو قانى باى اليوسفى المهمندار، مضافا إلى المهمنداريّة.

ثم فى يوم الخميس ثامن عشرينه وصل إلى القاهرة قصّاد الصارمى إبراهيم بن قرمان، صاحب قونية و غيرها، و على يدهم كتب ابن قرمان المذكور تتضمن الترقق و الاستعطاف، و أنه داخل تحت طاعة السلطان، و أنه إن كان وقع منه ما أوغر خواطر السلطنة، فقد جرى عليه و على بلاده من العساكر السلطانية ما فيه كفاية من النهب و السّبى و الإحراق و غير ذلك، و أنه يسأل الرّضى عنه، و أشياء غير ذلك مما ذكرناه بالمعنى، فعفا السلطان عنه بعد توقّف كبير.

و فى يوم الجمعة تاسع عشرين جمادى الأولى المذكور سافر الأمير بردبك الدّوادار الثانى صهر السلطان زوج ابنته إلى دمشق، لينظر جامعه الذى أنشأه بها.

ثم فى يوم الاثنين عاشر جمادى الآخرة خلع السلطان على أيدكى الأشرفى الخاصكى ليسافر إلى ابن قرمان صحبة قصّاده، لتقرير الصلح بين السلطان و بينه.

و فى يوم الجمعة رابع عشره- الموافق لثالث بشنس أحد شهور القبطلبس السلطان القماش الأبيض البعلبكىّ، المعد لأيام الصيف على العادة فى كل سنة.

ثم فى يوم الخميس خامس شهر رجب من سنة اثنتين و ستين المذكورة شفع الصاحب جمال الدين ناظر الجيش و الخاص عند السلطان فى الأمير تمربغا أن يفرج عنه من حبس الصّبيبة، فسمح السلطان له بذلك، و رسم له أن يتوجّه من الصّبيبة إلى دمشق، و يقيم بها لعمل مصالحه لأيّام الحج، و يسافر إلى مكة و يقيم بها بطالا، فوقع ذلك.

ثم فى يوم الجمعة سادس شهر رجب المذكور كان الحريق العظيم بساحل بولاق

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۲۰

الذى لم نسمع بمثله فى سالف الأعصار إلا قليلا، بحيث إنه أتى على غالب أملاك بولاق من ساحل النيل إلى خط البوصة التى هى محل دفن أموات أهل بولاق، و عجزت الأمراء و الحكام عن إخماده.

و كان أمر هذا الحريق أنه لما كان صبيحة يوم الجمعة سادس رجب من سنة اثنتين و ستين المذكورة هبّت ريح عظيمة مريسىّ، و عظمت حتى اقتلعت الأشجار و ألقت بعض مبان، و استمرت فى زيادة و نموّ إلى وقت صلاة الجمعة، فلما كان وقت الزّوال أو بعده بقليل احترق ربع الحاج عبيد البردادار بساحل البحر، و ذهب الرّبع فى الحريق عن آخره و مات فيه جماعة من الناس، كلّ ذلك فى أقلّ من ساعة رمل، ثم انتقلت النار إلى ربع القاضى زين الدين أبى بكر بن مزهر و غيره، و هبّت الرّياح و انتشرت النيران على الأماكن يمينا و شمالا، هذا و حاجب الحجّاب و غيره من الأمراء و الأعيان و كلّ أحد من الناس فى غاية الاجتهاد فى تخميد النار بالطفى و الهدم، و هى لا تزداد إلا قوّة و انتشارا على الأماكن، إلى أن وصلت النار إلى ربع الصاحب جمال الدين ناظر الجيش و الخاص، و إلى الحواصل التى تحته، و أحرقت أعلاه و أسفله، و ذهب فيه من بضائع الناس المخزونة فيه ما لا ينحصر كثرة، و سارت النار إلى الدّور و الأماكن من كل جهة.

هذا و قد حضر الحريق جميع أمراء الدولة بمماليكهم و حواشيهم، شيئا بعد شيء،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۲۱

و الأمر لا يزداد إلا شدّة، إلى أن صار الذى حضر من الناس لأجل طفى النار كالمتفرج من عظم النار و العجز عن إخمادها، و صارت النار إذا وقعت بمكان لا تزال به حتى يذهب جميعه، و يضمحل عن آخره، فعند ذلك فطن كل أحد أن النار تسير من دار إلى دار إلى أن تصل إلى القاهرة؛ لعظم ما شاهدوا من هولها، و الريح المريسى يتداول هبوبها من أول النهار إلى نصف الليل، و لشدة هبوب الريح صارت رياحا لأنها بقت تارة تهب مريسيّا، و هو الأكثر، و تارة شمالا، و تارة غير ذلك من سائر الجهات، فيئس كل من كان له دار تحت الرّيح، و تحقّق زوالها، و شرع فى نقل متاعه و أثاثه، و هو معذور فى ذلك، لأننا لم نشاهد فى عمرنا مثل هذا الحريق؛ لما

اشتمل عليه من الأمور الغريبة، منها سرعة الإحراق، حتى إن الموضع العظيم من الأماكن الهائلة يذهب بالحريق فى أسرع وقت، و منها أن المكان العظيم كان يحترق و بجانبه مكان آخر لم تلحقه شرارة واحدة، و ربما احترق الذى كان بالبعد عن تلك الدار المحروقة من شرارها، و التى بالقرب سالمة، و وقع ذلك بعدة أماكن، أعجبها و أغربها مسجد كان بالقرب من ساحل البحر و به منارة من غرد قصيرة، و كان هذا المسجد فى وسط الحريق و الشرار يتطاير من أعلاه من الجهات الأربع من أوّل الحريق إلى آخره، لم تتعلق به شرارة واحدة، و فى المسجد المذكور قبر رجل صالح مدفون فيه قديما يعرف بالشيخ محمد المغربى.

و استمر الأمراء و الأعيان يشاهدون الحريق، و يطفئون ما قدروا عليه من أطراف المواضع المنفردة، و أمّا الحريق العظيم فلا يستجرئ أحد أن يقربه لعظمه بل يشاهدونه من بعد، و استمروا على ذلك إلى بعد أذان عشاء الآخرة، ثم ذهب كل واحد إلى داره و النار عمّالة إلى نصف الليل، فأخذ أمر الريح فى انحطاط.

فلما كان باكر نهار السبت سابع شهر رجب المذكور نزل المقام الشهابى أحمد بن

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۲۲

السلطان من قلعة الجبل، و توجّه إلى بولاق لأجل الحريق، فوجد جميع أمراء الدّولة هناك كما كانوا فى أمسه، فلم يؤثر حضور الجميع فى النار شيئا، غير أن الريح كان سكن و أخذت النار حدّها فى الإحراق من كل مكان كانت به، فعند ذلك اجتهد كل أحد فى إخمادها، و هدم ما تعلق به النار من الأماكن، و أقاموا على ذلك أيّاما كثيرة، و النار موجودة فى الأماكن و الجدر و الحيطان، و الناس تأتى لبولاق أفواجا أفواجا للفرجة على هذا الحريق العظيم، حتى صارت تلك الأماكن كبعض المفترجات، و عملت الشعراء و الأدباء فى هذا الحريق عدّة قصائد و قطع، و قد أنشدنى الشيخ علم الدين الإسعردىّ الحصنى قصيدة من لفظه لنفسه فى هذا المعنى أولها: [البسيط]

أتتهم الذاريات ذروا و تلوها العاصفات عصفا

أثبتّ هذه القصيدة فى تاريخنا «الحوادث» كونه محل ذكر هذه الأشياء، و القصيدة المذكورة نظم عالم لا شاعر، و قد حرّرنا أيضا فى تاريخنا «الحوادث» ما ذهب فى هذا الحريق من الأماكن تخمينا، فكان عدة ما احترق فيه من الأرباع زيادة على ثلاثين ربعا، كلّ ربع يشتمل على مائة سكن و أكثر، أعنى أعاليه و أسفله، و ما به من الحوانيت و المخازن ذكرناها فى «الحوادث» بأسمائها، ماخلا الدور و الأماكن و الأفران و الحوانيت و غير ذلك.

و قد اختلف فى سبب هذا الحريق على أقوال كثيرة.

منهم من قال: إنها صاعقة نزلت من السماء و الخطيب على المنبر.

و منهم من قال: إنه نزلت من جهة السماء نوع شرارة فاحترق المكان الأول منها.

و منهم من قال: إن الأرض كأنّ النار تنبع منها.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۲۳

و الأقوال كلّها على أن سبب هذه النار آفة سماوية.

ثم بعد ذلك بأيام أشيع أن الذى كان يفعل ذلك- أعنى يلقى النار فى الأماكن- هم جماعة من القرمانيّة ممن أحرق العسكر المصرى أمكنّهم لما توجهوا إلى تجريدة ابن قرمان، و شاع القول فى أفواه الناس.

ثم ظهر للناس بعد ذلك أن الذى صار يحرق من الأمكنة بالقاهرة و غيرها بعد حريق بولاق إنما هو من فعل المماليك الجلبان؛ لينهبوا ما فى بيوت الناس عندما تحرق، فإنه تداول إحراق البيوت أشهرا- و اللّه أعلم.

و قد افتقر من هذا الحريق خلائق كثيرة، و على اللّه العوض.

و فى يوم الثلاثاء ثالث عشر شهر رجب المذكور وصل الأمير بردبك الدّوادار الثانى من الشّام.

و فيه أيضا نودى بزينة القاهرة لدوران المحمل، و نهى السلطان المماليك الأجلاب عن أن يعمل أحد منهم عفاريت المحمل.

و سببه أنهم فعلوا ذلک فی السنة الخالية و أفحشوا فی الطلب من الناس، و صاروا يدخلون إلى دور الأمراء و الأعيان، و يكلفونهم الكلفة الزائدة، و ما كفاهم ذلک حتى صار العفريت منهم إذا مرّ بالشارع على فرسه بتلک الهيئة المزعجة يجبى الدكاكين، و إذا صدف رئيسا من بياض الناس أمسكه و أخذ منه ما شاء غصبا، و إن لم يعطه أخرق به و رماه عن فرسه، حتى صار الرّجل إذا رأى واحدا من هؤلاء أسرع فی مشيه بالدخول فی زقاق من الأزقة، أو بيت من البيوت، فضرّ ذلک بحال الناس كثيرا، و تركوا فرجة المحمل.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۲۴

بل صاروا يترقّبون فراغ المحمل، ليستريحوا من هذه الأنواع القبيحة.

فلما جاء أوان المحمل فی هذه السّنة دخل على قلوب الناس الرّجيف بسبب ما وقع من المماليک فی العام الماضى، فكلّم أعيان الدّولة السلطان فی إبطال المحمل، أو نهى الجلبان عن تلک الفعلة القبيحة، فلهذا رسم السلطان فی هذه السنة بإبطال عفاريت المحمل بالكليّة.

ثم فی يوم الاثنين سادس عشر شهر رجب هذا أدير المحمل على العادة فی كل سنة، و لم يقع من الأجلاب شىء مما وقع منهم فی السنة الماضية.

ثم تداول الحريق بعد ذلک بخط بولاق و القاهرة، و قوى عند الناس أن الذى يفعل ذلک إنما هو من تركمان ابن قرمان.

ثم وقع الحريق أيضا فی شعبان بأماكن كثيرة، و داخل الناس جميعا الرّعب من هذا الأمر.

فلما كان يوم السبت ثانى عشر شعبان نودى بشوارع القاهرة و مصر بتوجّه كل غريب إلى أهله، و كذلک فی يوم الأحد، فلم يخرج أحد لعدم التفات السلطان لإخراجهم.

ثم وقع حريق آخر و آخر، فنودى فی آخر شعبان بخروج الغرباء بسبب الحريق من الدّيار المصرية، فلم يخرج أحد.

و تداول وقوع الحريق بالقاهرة فی غير موضع.

ثم فی أول شهر رمضان مرض السلطان مرضا لزم منه الفراش، و أرجف بموته، و طلع إليه أكابر الأمراء، فتكلم معهم فی العهد لولده أحمد بالسلطنة من غير تصريح، بل فی نوع النكر من ولده، و يقول ما معناه: إن ولده ليس كمن مضى من أولاد الملوک الصغار، و إن هذا رجل كامل يعرف ما يراد منه، و ما أشبه هذا المعنى، فصار هو

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۲۵

يتكلم و جميع الأمراء سكوت، لم يشاركه أحد فيما هو فيه إلى أن سكت، و انفضّ المجلس، ثم عوفى بعد ذلک، و دقّت البشائر بقلعة الجبل و غيرها أياما.

ثم فی يوم الاثنين سادس شهر رمضان أخرقت المماليک الأجلاب بالأمير قانم التاجر المؤيّدى أحد مقدمى الألوف، و هو نازل من الخدمة بغير قماش الموكب، و ضربه بعضهم على رأسه و ظهره، جاءوا بجموعهم إلى داره من الغد ليهجموا عليه، فمنعهم مماليكه من الدخول عليه، فوقع القتال بينهم، و جرح من الفريقين جماعة، فأخذ قانم المذكور يتلافى أمرهم بكل ما تصل القدرة إليه، فلم يفد ذلک إلا أنه صار يركب وحده من غير مماليک، و يطلع الخدمة و ينزل على تلک الهيئة، و استمرّ على ذلک نحو السنتين.

ثم فی هذه الأيام أيضا تداول الحريق بالقاهرة و ظواهرها، و ضرّ ذلک كثيرا بحال الناس، و قد قوى عندهم أن ذلک من فعل القرمانية و المماليک الأجلاب، يعنون بالقرمانية و الأجلاب أن القرمانية إذا فعلوا ذلک مرة و يقع الحريق، فتنهب المماليک الأقمشة و غيرها لما يطلعون الدور المحروقة للطفى، فلما حسن ببال المماليک ذلک صاروا يفعلون ذلک.

قلت: و لا أستبعد أنا ذلک لقلة دينهم و عظم جبروتهم، عليهم من اللّه ما يستحقونه من العذاب و النكال- انتهى.

ثم استهل شوال، أوّله الجمعة، فوقع فيه خطبتان، و تشاءم الناس بذلك على الملك، فلم يقع إلا الخير و السلامة، و كذبت العادة.

ثم فى يوم الجمعة خامس عشره ورد الخبر على السلطان بموت چاك الفرنجى صاحب قبرس، و أنهم ملّكوا عليهم ابنته مع وجود ولد ذكر، لأمر أجاز تقديم البنت

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۲۶

على الصّبى، على مقتضى شريعتهم، و وقع بسبب ذلك أمور و غزوات يأتى ذكرها فى هذا الكتاب إن شاء اللّه تعالى، و قد حررنا ذلك كله فى «الحوادث».

و فى يوم الاثنين ثامن عشره خرج أمير حاج المحمل بالمحمل من القاهرة، و هو الأمير برسباى البجاسى حاجب الحجاب، و أمير الركب الأول [الطواشى] مرجان [الحصنى] مقدّم المماليك السلطانية.

ثم فى العشر الأخير من هذا الشهر ورد الخبر من الإسكندرية بموت الخليفة القائم بأمر اللّه حمزة بها، كما سيأتى ذكره فى الوفيات إن شاء اللّه.

ثم فى يوم الخميس سابع عشرين ذى القعدة خلع السلطان على ولده المقام الشهابى أحمد باستقراره أتابك العساكر بالديار المصرية، عوضا عن الأمير الكبير تنبك البردبكى بحكم وفاته، و أنعم السلطان بإقطاع ولده أحمد على ولده الصغير المقام الناصرى محمد، و صار محمد أمير مائة و مقدّم ألف، و أنعم بإقطاع محمد المذكور- و هو إمرة طبلخاناه- على الأمير جانبك الصوفى الناصرى المرتد أحد أمراء الطبلخانات، زيادة على ما بيده؛ ليكون جانبك أيضا أمير مائة و مقدّم ألف.

ثم فى يوم الاثنين ثانى عشرين ذى الحجة خلع السلطان على القاضى شرف الدين التتائى الأنصارى باستقراره ناظر الجيوش المنصورة، عوضا عن الصاحب جمال الدين يوسف بن كاتب جكم، بحكم وفاته فى يوم الخميس ثامن عشر ذى الحجة.

و خلع السلطان أيضا على الأمير زين الدين عبد الرحمن بن الكويز، باستقراره ناظر الخاص الشريف، عوضا أيضا عن الصاحب جمال الدين يوسف المقدّم ذكره

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۲۷

ثم فى يوم السبت سابع عشرين ذى الحجة أيضا استقرّ القاضى زين الدين أبو بكر بن مزهر ناظر جوالى دمشق، و أنه يتوجه إلى دمشق لضبط تعلقات الجمالى ناظر الخاص، ثم بطل ذلك قبل أن يلبس الخلعة.

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۶۳]

و دخلت سنة ثلاث و ستين و ثمانمائة:

فى أولها كانت الزلزلة المهولة بمدينة الكرك، أخربت أماكن من قلعتها و دورها و أبراجها.

فكان أول المحرم الأربعاء.

فى يوم ثانيه استقر القاضى علاء الدين على بن مفلح قاضى الحنابلة بدمشق و كاتب سرّها، بعد عزل القاضى قطب الدين محمد الخيضرى، بمال كثير بذله فى الوظيفتين.

ثم فى يوم الثلاثاء استقر القاضى تاج الدين عبد اللّه بن المقسى ناظر الدولة كاتب المماليك السلطانية، بعد عزل سعد الدين بن عبد القادر.

و فى رابع صفر استقرّ على بن إسكندر محتسب القاهرة، بعد عزل بدر الدين ابن البوشى.

و فيه استقرّ إياس البجاسى نائب القدس، بعد عزل البدرى حسن بن أيوب، ثم عزل إياس المذكور فى يوم الاثنين ثالث شهر ربيع الأوّل بشاه منصور بن شهرى

ثم فى يوم الأربعاء خامس شهر ربيع الأول المذكور ورد الخبر بموت الأمير يشبك من جانبك المؤيدى الصوفى أتابك دمشق بها، فاستقر فى أتابكيّة دمشق عوضه الأمير علّان شلق المؤيدى أحد أمراء دمشق، بمال بذله فى ذلك نحو العشرة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۲۸

آلاف دينار، و أنعم بتقدمة علّان المذكور على شادبك السّيفى جلبّان، مضافا إلى دواداريّة السلطان بدمشق، و ذلك أيضا بالبذل.

و رسم بإقطاع شادبك المذكور للأمير قراجا الظاهرى، و هو بالقدس- بطالا- ليكون بيده و هو طرخان، ثم بطل ذلك.

ثم فى يوم الخميس حادى عشر شهر ربيع الآخر رسم السلطان بنقل الأمير جانم الأشرفى نائب حلب من نيابة حلب إلى نيابة دمشق، بعد موت الأمير قانى باى الحمزاوى بحكم وفاته، و حمل إليه التقليد و التشريف الأمير جانبك من أمير الظريف الأشرفى أحد أمراء الطبلخانات و خازندار.

و رسم بانتقال الأمير حاج إينال اليشبكى من نيابة طرابلس إلى نيابة حلب، عوضا عن جانم الأشرفى المذكور، و صار مسفّره الأمير سودون الإينالى المؤيدى قراقاش ثانى رأس نوبة.

و رسم باستقرار الأمير إياس المحمدى الناصرى الطويل نائب حماة فى نيابة طرابلس، عوضا عن حاج إينال، و مسفّره الأمير جانى بك الإينالى الأشرفى، المعروف بقلقسيز أحد أمراء العشرات و رأس نوبة.

و رسم باستقرار الأمير جانبك التاجى المؤيدى نائب صفد فى نيابة حماة، عوضا عن إياس المحمدى، و مسفّره جانم المؤيّدى المعروف بحرامى شكل، أحد العشرات و رأس نوبة.

و رسم باستقرار خيربك النّوروزىّ نائب غزّة فى نيابة صفد، عوضا عن جانبك التاجى، و مسفّره قانم طاز الأشرفى أحد أمراء العشرات و رأس نوبة.

ثم استقرّ- بعد مدّة- الأمير بردبك العبد الرحمانى أحد أمراء الألوف بدمشق فى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۲۹

نيابة غزة عوضا عن خيربك النّوروزى المقدّم ذكره، و صار مسفّره السّيفى خيربك من حديد الأجرود أحد الدّواداريّة الخاصّكيّة.

قلت: و جميع ولاية هؤلاء النوّاب المذكورين بالبذل، ماخلا الأمير جانم نائب الشام.

ثم أنعم السلطان بتقدمة بردبك العبد الرحمانى الذى بدمشق على الأمير قراجا الظاهرىّ المقدّم ذكره.

ثم فى يوم الخميس عاشر جمادى الأولى استقرّ الأمير بردبك الأشرفى الدّوادار الثانى و صهر السلطان أمير حاج المحمل، و استقر الأمير كسباى الشّشمانى المؤيّدى أحد أمراء العشرات أمير الركب الأول.

و استقر الأمير يرشباى الإينالى المؤيّدى الأمير آخور الثانى كان، و أحد أمراء الطبلخانات الآن أمير المماليك المجاورين بمكة، و رسم لأسندمر الجقمقى بالمجىء من مكة إلى مصر.

ثم فى يوم السبت ثانى عشر جمادى الأولى المذكور استقر القاضى محب الدين ابن الشحنة الحلبى الحنفى كاتب السر الشريف بالديار المصرية، بعد عزل القاضى محب الدين بن الأشقر.

ثم فى يوم الثلاثاء خامس شهر رجب أمسك السلطان القاضى شرف الدين موسى الأنصارى ناظر الجيش، و سلّمه إلى الطواشى فيروز النوروزى الزمام و الخازندار، فدام عنده إلى أن صودر و أخذ منه جمل من الأموال بغير استحقاق، بعد أن عزل عن وظيفة نظر الجيش كما سيأتى ذكره.

ثم ورد الخبر على السلطان من حلب أن الطاعون فشابها و كثر.

ثم فى يوم الخميس رابع عشر شهر رجب استقرّ القاضى برهان الدين إبراهيم ابن الدّيرى ناظر الجيوش المنصورة عوضا عن الأنصارى المقدّم ذكره، بمال كثير بذله فى ذلك.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۳۰

ثم فی يوم السبت سادس عشر رجب تعرّض جماعة من المماليک الأجلاب للأمير زين الدين الأستادار، فهرب منهم، فضربوا الوزير و بهدلوه إلى الغاية، و لم ينتطح فى ذلك عنزان؛ لقوة شوكة الأجلاب فى هذه الأيام، حتى تجاوزت الحدّ، و بطل أمر حكام الدّيار المصرية قاطبة، و صار من كان له حق أو شبه حق لا يشتكى غريمه إلا عند الأجلاب، ففى الحال يخلص حقه من غريمه، إمّا على وجه الحق أو غيره، فخافهم كلّ أحد، لا سيما التّجار و البيعة من كل صنف، و ترک غالب الناس معايشهم؛ خوفا على رأس مالهم، فعزّ بسبب ذلک وجود أشياء كثيرة، و وقع الغلاء فى جميع الأشياء، لا سيما فى الأصناف المتعلقة بالأجناد، مثل الشعير و التبن و الدريس، و ما أشبه ذلک من أنواع أقمشة الخيل و البغال و المتعلقة بذلک، حتى صار لا يوجد بالكليّة إلا بعد عسر كبير، و صار من له ضيانة من تبن أو دريس أو شعير من الأجناد يسافر من القاهرة و بلاقيه و يمشى معه حتى يصل إلى بيته إن قدر على ذلک، و إن كان أميرا أرسل إلى ملاقاته بعض مماليكه، و ربما أخذوا ممن استضعفوه من الأجناد أو مماليک الأمراء، و زاد هذا الأمر حتى أضرّ بجميع الناس قاطبة، و لا حول و لا قوة إلا بالله.

و فى يوم الأحد سابع عشر شهر رجب تعرّض بعض المماليک الأجلاب للقاضى محب الدين بن الشّحنة كاتب السّرّ، و هو طالع إلى الخدمة السلطانية، و ضربه من غير أمر يوجب ضربه أو الكلام معه.

و فى يوم الثلاثاء تاسع عشره استقرّ الأمير ناصر الدين بن محمد القسّاسى، المعروف بمخلع، دوادار السلطان بحلب.

و فى يوم الخميس حادى عشرين رجب أيضا استقر البدرى حسن بن أيوب فى نيابة القدس بعد عزل [شاه] منصور بن شهرى.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۳۱

و فيه رسم السلطان بطلب أبى الخير النّحاس من البلاد الشامية على يد ساع.

و فى يوم السّبت أوّل شعبان وقع حريق عظيم ببندر جدّة بالحجاز.

و ف يه توفى خيربک المؤيّدى الأشقر الأمير آخور الثانى، و أنعم السلطان بإقطاعه على الأمير بردبک المحمدى الظاهرى المعروف بالهجين الأمير آخور الثالث، و أنعم باقطاع بردبک المذكور على تغرى بردى الأشرفى، و أنعم باقطاع تغرى بردى على قراجا الأشرفى [الطويل] الأعرج، و تغرى بردى و قراجا كلاهما من مماليک السلطان القديمة أيام إمرته.

ثم فى يوم الاثنين ثالث شعبان المذكور استقرّ الأمير يلباى الإينالى المؤيّدى أحد أمراء الطبلخانات أمير آخور ثانيا عوضا عن خيربک الأشقر المقدم ذكره.

و فيه استقر دولات باى الظاهرى نائب رأس نوبة الجمداريّة رأس نوبة الجمدارية عوضا عن قراجا الطويل الأعرج الذى تأمّر.

و استقرّ فى نيابة رأس نوبة الجمداريّة شخص يسمى قايتباى الأشرفى، فوثب شخص من الخاصّكيّة الأجلاب يسمى برسباى، و جذب سيفه بالقصر السلطانى، بسبب ولاية هذين لهاتين الوظيفتين، و لكونه لم لا ولى هو إحداهما، ثم وقع منه أمور أضربنا عن ذكرها، خوفا على ناموس ملک مصر.

ثم فى يوم السبت ثامن شعبان رسم بإطلاق القاضى شرف الدين الأنصارى من مكانه بقلعة الجبل بعد أن أخذ منه جملة مستكثرة من الذّهب العين و غيره.

ثم فى يوم الأحد تاسعة ضرب السلطان مملوكين من مماليكه الأجلاب و حبسهما، لأجل قتلهما نانق الظاهرى، و لم يقتلهما به كما أمر اللّه تعالى.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۳۲

ثم فى يوم ثانى شهر رمضان وصل أبو الخير النحاس من البلاد الشامية إلى القاهرة و خلع السلطان عليه كامليّة بمقلب سمّور.

و فى يوم الثلاثاء تاسعه قدّم أبو الخير النحاس إلى السلطان اثنين و سبعين فرسا، و ثلاثين بغلا.

و فی یوم الجمعة ثانی عشر شهر رمضان المذکور نهبت العبید و الممالیک الأجلاب النسوة اللاتی حضرن صلاة الجمعة بجامع عمرو بن العاص- رضی اللّه عنه- بمصر القدیمة، و أفحشوا فی ذلک إلی الغایة، و کل مفعول جائز.

ثم فی یوم الاثنین خامس عشر، استقر أبو الخیر النّحاس ناظر الذخیرة السلطانیة و وکیل بیت المال.

و فی یوم الأحد حادی عشرینه أغلقت الممالیک الأجلاب باب القلعة، و منعوا الأمراء و المباشرین من النزول إلی دورهم بسبب تعویق علیق خیولهم، و فعلوا ذلک أیضا من الغد إلی أن رسم لهم- عوضا عن کل علیقة- مائتا درهم.

ثم فی یوم الخمیس خامس عشرین شهر رمضان المقدّم ذکره استقر خشقدم السّیفی أرنبغا الذی کان دوادار القانی بای الحمزاوی [نائب الشام] فی حجوبیة طرابلس علی سبعة آلاف دینار، بعد عزل شادبک الصارمی.

و فی یوم الأحد ثامن عشرینه وصل إلی الدّیار المصریة جاکم الفرنجی ابن جوان صاحب جزیرة قبرس، بطلب من السلطان، لیلی- عوضا عن أبیه- ملک قبرس، و کان

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۳۳

أهل قبرس ملّکوا علیهم أخته مع وجوده؛ کونه ابن زنا، أو غیر ذلک، لأمر لا یجوّز ولایته فی ملتهم.

و فی هذا الشهر أخذ الطاعون فی انحطاط من مدینة حلب، و انتشر فیما حولها من البلدان و القری بعد أن مات منها نحو من مائتی ألف إنسان.

ثم فی یوم الخمیس ثالث شوال ضربت الممالیک الأجلاب أبا الخیر النحاس، و أخذوا عمامته من علی رأسه، فتزاید ما کان به من الضعف، فإنه کان مستضعفا قبل ذلک بمدّة و أخذ أمره یومئذ فی انحطاط، و لزم الفراش، إلی أن مات حسبما یأتی ذکره إن شاء اللّه تعالی.

و فی یوم السبت خامس شوال عمل السلطان الموکب بالحوش السلطانی من قلعة الجبل، و أحضر جاکم بن جوان الفرنجی، و خلع علیه کاملیّة، و خلع علی اثنین أخر من الفرنج الذین قدموا معه، و أعطاه السلطان فرسا بسرج ذهب، و کنبوش زرکش، و رکب الفرس المذکور و غیره مدّة إقامته بالدیار المصریة، و ولّاه نیابة قبرس، و وعده بالقیام معه، و تخلیص قبرس له.

ثم فی یوم الخمیس سابع عشر شوال خرج أمیر حاج المحمل بالمحمل، و هو الأمیر بردبک الدّوادار الثانی، و أمیر الرکب الأول الأمیر کسبای من ششمان أحد أمراء العشرات.

و فی یوم الخمیس أوّل ذی القعدة شرع السلطان فی عمارة مراکب برسم الجهاد، و إرسال جاکم صحبتهم إلی قبرس، و جعل المتحدث علی عمارة المراکب المذکورة سنقر الأشرفی الزّردکاش، المعروف بقرق شبق، فباشر سنقر المذکور عمل المراکب أقبح مباشرة، من ظلم و عسف، و أخذ الأخشاب بأبخس الأثمان إن وزن ثمنا، و فعل هذا الشقیّ أفعالا لا یفعلها الخوارج، علیه من اللّه ما یستحق من الخزی و النکال، بحیث

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۳۴

أنه جمع من هذا المال الخبیث جملة کبیرة خرجت منه بالمصادرة و النّهب و الحریق، و ما ربّک بظلام للعبید.

ثم فی یوم الاثنین خامس ذی القعدة سافر تغری بردی الطیّاری الخاصکی قاصدا قبرس، لیخبر أهلها أن السلطان یرید ولایة جاکم هذا علی قبرس مکان والده، و عزل أخته، و یلومهم علی عدم ولایة جاکم هذا و تقدیم أخته علیه.

و فی یوم الثلاثاء ثامن ذی الحجة مات الأمیر بایزید التّمربغاوی أحد أمراء الألوف بالدیار المصریة، و أنعم السلطان بتقدمته و إقطاعه علی الأمیر سودون الإینالی المؤیدی [قراقاش] رأس نوبة ثان، بمال بذله سودون فی ذلک، و أنعم بإقطاع سودون المذکور و هو إمرة طبلخاناه علی الأمیر خشکلدی القوامی الناصری.

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۶۴]

و استهلت سنة أربع و ستین و ثمانمائة بیوم الأحد.

و فى یوم الثلاثاء سابع عشر المحرم من السنة المذکورة وصلت الغزاة المتوجهة قبل تاریخه إلى بلاد الجون ببرّ الترکیّة لإحضار الأخشاب، و کان مقدّم هذا العسکر أربعة من الأمراء العشرات، و هم:

قانى باى قراسقل المؤیّدى.

و الأمیر جانبک الإسماعیلى المؤیدى المعروف بکوهیة.

و الأمیر معلباى طاز المؤیدى.

و الأمیر بردبک الیشبکى المشطوب.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۳۵

و فى یوم سابع عشرینه- الموافق لسادس عشر هاتور- لبس السلطان القماش الصوف الملون، و ألبس الأمراء على العادة فى کل سنة.

و فى هذا الشهر عظم الطاعون بمدینة غزّة، و أباد الموت أهلها.

و فى یوم السبت ثانى عشر صفر خلع السلطان على فارس مملوک الطواشى فیروز الرّکنى باستقراره وزیرا بعد تسحّب على بن الأهناسى، فلم یحسن فارس المذکور المباشرة سوى یوم واحد، و عجز و کاد أن یهلک، و کان لولایته أسباب منها: أنه کان یبرق و یرعد و یوسع فى الکلام فى نوع المباشرة و غیرها، فحسب السامع أن فى السویداء رجالا، و استسمن و رمه فولّاه، فما هو إلا أن أرمى الخلعة على أکتافه [حتى] ظهر علیه العجز الفاضح فى الحال، و ضاق علیه فضاء الدنیا، و خسر فى الیوم المذکور جملا مستکثرة، و استعفى، و ترامى على أکابر الدّولة، و کاد أن یهلک لولا- أعفى و عزل، بعد أن ألزم بشىء له جرم على ما قیل، و ولى الصاحب شمس الدین منصور الوزر عنه.

قلت: ما أحسن الأشیاء فى محلها، و حینئذ أعطى القوس لرامیه.

و فى یوم الخمیس سابع عشر صفر ورد الخبر من الشام بموت الأمیر علّان شلق المؤیّدى أتابک دمشق.

و فى یوم ثامن شهر ربیع الأول استقرّ الحاج محمد الأهناسى البردار وزیرا بعد عزل الصاحب شمس الدین منصور من غیر عجز بل لمعنى من المعانى، و الحاج محمد هذا هو والد على بن الأهناسى المقدم ذکره فى الوزر و الأستاداریة، و ولى الوزر قبل أن

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۳۶

تسبق له رئاسة فى نوع من الأنواع؛ لأن کلا الوالد و الولد عار عن الکتابة و معرفة قلم الدیونة، و لم یکن لهما صنعة غیر الرّسلیّة و البرداریّة لا غیر، فباشر الحاج محمد هذا الوزر أحد عشر یوما و عزل، و أعید الصاحب شمس الدین منصور للوزر ثانیا.

و فى یوم الاثنین ثانى عشر شهر ربیع الأول استقر الأمیر تغرى بردى الأشرفى أحد أمراء العشرات نائب الکرک، و أنعم بإقطاعه على ابن الأمیر بردبک الدّوادار الثانى و المنعم علیه هو ابن بنت السلطان.

ثم فى یوم الخمیس ثانى عشرینه استقر الأمیر تمرباى ططر الناصرى أحد أمراء العشرات أمیر حاج المحمل.

ثم فى یوم الأحد خامس عشرین شهر ربیع الأول المذکور عمل السلطان المولد النبوى بالحوش السلطانى على العادة فى کل سنة، و أحضر السلطان جاکم الفرنجى ابن صاحب قبرس، و أجلسه عند أعیان مباشرى الدّولة، فعظم ذلک على الناس قاطبة.

قلت: و لعلّ السلطان ما أحضره فى هذا المجلس إلا لیریه عزّ الإسلام و ذلّ الکفر.

ثم فى أول شهر ربیع الآخر ظهر الطاعون بمدینة بلبیس و خانقاه سریاقوس من ضواحى القاهرة.

و کان أول الشهر یوم الجمعة الموافق لأول طوبة من شهور القبط. فتخوّف کلّ أحد من مجىء الطاعون إلى القاهرة، هذا مع ما الناس فیه من جهد البلاء من غلوّ الأسعار و ظلم الممالیک الأجلاب الذى خرج عن الحد، و عدم الأمن، و کثرة المخاوف فى الأزقّة و

الشوارع، بحيث إن الشخص صار لا- يقدر على خروجه من داره بعد أذان عشاء الآخرة، حتى و لا لصلاة الجماعة، و لو كان جار المسجد، و إن أذّن مؤذن العشاء و الشخص خارج عن داره هرول فى مشيه و أسرع لئلا تغلق عليه الدروب التى عمرتها رؤساء كلّ حارة؛ خوفا على بيوتهم من المناسر و الحرامية، لأن والى القاهرة خيربك القصروى حطّ عنه أمور الناس، و انعكف على ما هو عليه من المفاسد، و سببه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۶، ص: ١٣٧

أنه علم أن الذى يتعبث على الناس أو يسرق إنما هو من المماليك الأجلاب أو من أتباعهم، و علم مع ذلك ميل السلطان إلى الأجلاب، و اتفق بعد ذلك كثرة السّراق، و فتح البيوت، و هجم المناسر على الحارات، و كلّمه السلطان- فى ذلك- بكلام خشن، و وبّخه فى الملأ، و كاد أن يفتك به، فأوهم الوالى السلطان- بالتلويح فى كلامه- أن الذى يفعل ذلك إنما هو من المماليك الأجلاب، و كان الذى لوّحه الوالى إلى السلطان قوله:

«يا مولانا السلطان أنا مالى شغل و لا حكم على من يلبس طاقية- يعنى المماليك- و ما حكمى إلا على العوام و الحرامية»، فسكت السلطان، و لم يكلمه بعد ذلك إلا فى غير هذا المعنى، فوجد الوالى بذلك مندوحة لسائر أغراضه، و حطّ عنه و استراح، و انحل النظام، و ضاعت حقوق الناس، و أخذ كل مفسد يتزيا بزى الجند، و يفعل ما أراده، و صار الوالى هو كبير الحراميّة، و لا قوة إلا بالله.

و فى يوم السبت تاسع شهر ربيع الآخر اختفى الصاحب شمس الدين منصور، و تعطّل- بسبب غيابه- رواتب المماليك السلطانية، فاستغاثوا المماليك الأجلاب، و منعوا الأمراء يوم الأربعاء من طلوع القلعة، و امتنعوا من طلوع الخدمة يوم الخميس أيضا رابع عشره، و طلع الأمير يونس الدّوادار إلى القلعة بغير قماش الخدمة، فلما وصل إلى باب القلعة احتاطت به المماليك الأجلاب، و سألوه أن يكلم السلطان فى أمرهم، فدخل الأمير يونس المذكور إلى السلطان، و ذكر له ذلك، ثم ترددت الرّسل بين السلطان و بينهم إلى أن آل الأمر إلى طلب سعد الدين فرج بن النحّال، و استقرّ وزيرا على عادته أولا على شروط، و نزل من وقته، و باشر الوزر، و سكن الأمر، و قد ذكر لى الصاحب شمس الدين: أنه لم يختف إلا بإذن السلطان.

و فى هذه الأيام فشا الطاعون بالقاهرة، و كان عدّة من ورد اسمه الديوان من الأموات فى يوم الثلاثاء تاسع عشر شهر ربيع الآخر المذكور- الموافق لسابع عشر أمشير، و هو يوم تنتقل الشمس إلى برج الحوت- خمسة و ثلاثين نفرا، و لها تفصيل، و ذلك خارج عن البيمارستان المنصورى و الأوقاف و القرافتين و الصحراء و بولاق و مصر القديمة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۶، ص: ١٣٨

و أمّا ضواحى القاهرة و إقليم الشرقية و الغربية من الوجه البحرى فقد تزايد الطاعون فيها حتى خرج عن الحد، و هو إلى الآن فى زيادة.

و كان أمر الطاعون فى القرى أنه إذا وقع بقرية يفنى غالب من بها، ثم ينتقل إلى غيرها و ربما اجتاز ببعض القرى و لم يدخلها، فسبحانه يفعل فى ملكه ما يريد.

و فى يوم الخميس حادى عشرينه ضرب المماليك الأجلاب الأمير زين الدين الأستادار بسبب عليق الخيول ضربا مبرحا، و انقطع بسبب ذلك عن الخدمة أياما كثيرة.

و فى يوم السبت ثالث عشرينه وقع من بعض المماليك الأجلاب إخراق فى حق الأمير يونس الدّوادار، و الشخص المذكور يسمى قانصوه، و كان ذلك فى الملأ من الناس، و نزل الأمير يونس إلى داره و هو فى غاية ما يكون من الغضب، فما كفى قانصوه المذكور ما وقع منه فى القلعة فى حق الأمير يونس، حتى نزل إليه بداره و أساء عليه ثانيا بحضرة مماليكه و حواشيه، فلم يسع الأمير يونس المذكور إلا أن قام من مجلسه و عزل نفسه عن الدّوادارية، و دخل إلى داره من وقته، و أقام بها من يومه.

ثم فى الغد لم يقع من السلطان على قانصوه المذكور- بسبب ما وقع منه فى حق الأمير يونس- كبير أمر، و لا كلّمه الكلام العرفى، غير

أن ابن السلطان الشهابى أحمد أرسل سأل الأمير يونس فى الطلوع إلى القلعة و حضور الخدمة.

ثم إنّ بعض الأمراء أخذ قانصوه المذكور و أتى به إلى الأمير يونس حتى قبّل يده، و لا زال ذلك الأمير و غيره بالأمير يونس حتى رضى عنه بعد أن أوسعه سبّا و توبيخا، و ذلك حيث لم يجد يونس له ناصرا و لا معينا.

و أغرب من هذا أنه بلغنى أن قانصوه لما أفحش فى أمر الأمير يونس أولا- ربما أضاف إليه السلطان فى بعض الإساءة، و السلطان يسمع كلامه.

قلت: إن صح هذا فهو مما يهوّن على الأمير يونس ما وقع فى حقه من قانصوه.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۳۹

و فى يوم الاثنين خامس عشرينه عجز الأمير زين الدين الأستادار عن القيام بجامكية المماليك السلطانية، فقام إلى السلطان شخص من الخاصكية الأجلاب يسمى جانبيه المجنون، و قال للسلطان:

«الملوك التى كانت قبلك كانوا ينفقون الجوامك، لأى شيء أنت ما تعطى مثلهم؟».

فغضب السلطان من كلامه، و طلب العصى ليضربه، فخرج جماعة من الأجلاب من خچداشيته، و جذبوه من بين يدى السلطان، و توجهوا به إلى الطبقة، و لم يتكلم السلطان بكلمة واحدة.

هذا و الطاعون أمره فى زيادة، فلما استهلّ جمادى الأولى الموافق لتاسع عشرين أمشير كان فيه التعريف: أعنى عدة من يرد اسمه الديوان من الأموات ستين نفرا، و هذا خلاف الأماكن المقدم ذكرها من البيمارستان و الطرحى و القرافتين و الصحراء و مصر و بولاق، و أما نواحى أرياف الوجه البحرى ففى زيادة، حتى قيل إنه كان يموت من خانقاه سريا قوس فى اليوم ما يزيد على مائتى نفر، و وصل فى هذه الأيام عدة من يموت بالمحلة الكبرى- إحدى قرى القاهرة - كل يوم زيادة على مائتين و خمسين إنسانا، و هذا أمر كبير؛ كون أن المحلة و إن كانت مدينة هى قرية من القرى، و مثلها كثير من أعمال الديار المصرية.

غير أن ذلك كان نهاية الطاعون بها و ابتداءه بالقاهرة؛ فإن الطاعون كان وقع بالأرياف قبل القاهرة بمدّة، فلما أخذ الطاعون فى انحطاط من الأرياف أخذ فى الزيادة بالقاهرة و مصر و ضواحيها، كما هى عادة الطاعون و انتقاله من بلد إلى أخرى.

و فى يوم الثلاثاء عاشر جمادى الأولى من سنة أربع و ستين المذكورة أنعم السلطان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۴۰

على سودون الأفرم الظاهرى الواصل قبل تاريخه من البلاد الشامية بإمرة عشرة بعد موت الأمير أسندمر الجقمقى.

و فى هذا اليوم أيضا كان عدة من ورد التعريف بهم من الأموات بالقاهرة فقط مائة و عشرة نفر و لها تفصيل- ما بين رجال و نساء و صبيان و موال- و ليس لذكر التفصيل هنا محل.

و كان من شأن هذا الطاعون أنه ينقص فى اليوم نقصا قليلا عن أمسه، ثم يزيد فى الغد كثيرا إلى أن انتهى و نقص و هو على هذه الصفة.

و فى هذه الأيام بلغ عدة من يموت فى اليوم بخانقاه سرياقوس أكثر من ثلاثمائة نفر، و يقول المكثر أربعمائة، و بالمحلة ثلاثمائة، و فى مدينة منف فى يوم واحد نحوا من مائتين، و قس على هذا فى سائر القرى، و هذا نهاية النهاية الآن.

و فى يوم الثلاثاء سابع عشر جمادى الأولى- يوم تنتقل الشمس فيه إلى برج الحمل- كان فيه عدة من ورد اسمه التعريف مائة و سبعين نفرا، و جاء فى هذا اليوم عدة من صلى عليه من الأموات بمصلاة باب النصر على حدتها مائة نفر، فكيف يكون التعريف كله مائة و سبعين، و بالقاهرة مصلوات كثيرة نذكرها بعد ذلك فى محلها.

و أبلغ من هذا أن الأمير زين الدين الأستادار ندب جماعة من الناس بأجرة معينة إلى ضبط جميع مصلوات القاهرة و ظواهرها، و كان ما حرروه ممن صلى عليه فى اليوم ستمائة إنسان، فعلى هذا لا عبرة بذكر التعريف المكتتب من ديوان المواريث، غير أن فائدة ذكر

التعریف تکون لمعرفة زیادة الوباء و نقصه لا غیر، ففی ذکره فائدة ما.

و فی یوم الجمعة عشرین جمادی الأولی کان فیه التعریف مائتین و تسعة نفر.

ثم فی یوم السبت حادی عشرینه أنعم السلطان علی قانی بای الأشرفی المعروف بأخی قانصوه النّوروزی بإمرة عشرة بعد موت الأمیر یشبک الظاهری.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۴۱

ثم فی یوم الخمیس سادس عشرینه استقر الأمیر برسبای البجاسی حاجب الحجاب أمیر آخور کبیرا بعد موت یونس العلائی بالطاعون، و استقر سودون الإینالی المؤیدی المعروف بقراقاش فی حجوبیة الحجاب عوضا عن برسبای البجاسی المقدم ذکره.

و فیه أیضا أنعم السلطان بإقطاع یونس العلائی علی الأمیر جرباش المحمدی أمیر مجلس، و أنعم بإقطاع جرباش المذکور علی الأمیر جانبک الظاهری نائب بندر جدّة، و صار جانبک من جملة أمراء الألوف بالدیار المصریة، و ذلک زیادة علی ما بیده من التحدث علی بندر جدّة، بل علی جمیع الأقطار الحجازیة، و الإقطاع الذی استولی علیه الأمیر جرباش، و الذی خرج عنه کلاهما تقدمة ألف، لکن متحصل خراجهما یتفاوت.

و فی یوم الخمیس هذا کان عدة من ورد اسمه الدیوان من الأموات نحوا من مائتین و خمسة و ثلاثین نفرا، و کان عدة المضبوط بالمصلاة ألفا و مائة و ثلاثة و خمسین نفرا، و ذلک خارج عما ذکرنا من مصر و بولاق و القرافتین و الصحراء و الأوقاف و زاویة الخدّام خارج الحسینیة.

و فی یوم السبت ثامن عشرین جمادی الأولی المقدم ذکرها أستقرّ الشهابی أحمد بن قلیب أستادار السلطان بمدینة طرابلس فی حجوبیة حجاب طرابلس، زیادة علی ما بیده من الأستاداریة و غیرها، و کانت ولایته للحجوبیة بعد موت خشقدم الأرنبغاوی دوادار قانی بای الحمزاوی:

ثم استهل جمادی الآخرة- أولها یوم الثلاثاء- و قد کثر الوباء بالدیار المصریة، و انتشر بها و بظواهرها، هذا مع الغلاء المفرط فی الأسعار و ظلم الممالیک الأجلاب، فصارت الناس بین ثلاثة أمور عظیمة: الطاعون، و الغلاء، و الظلم، و هذا من النوادر- وقوع الوباء و الغلاء معا فی وقت واحد- فوقع ذلک و زید ظلم الأجلاب، و للّه الأمر.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۴۲

و کان التعریف فی هذا الیوم ثلاثمائة و ستة عشر نفرا، و کان الذی حرروه فی السبع عشرة مصلاة ألف إنسان و تسعمائة إنسان و عشرة، و أنکر ذلک غیر واحد من الناس استقلالا، بل قال بعضهم و بالغ: بأن عدة من یموت فی الیوم بالقاهرة أکثر من ثلاثة آلاف نفر، و اعتل بقوله إن الذین ندبوا لضبط المصلوات اشتغل کل منهم بنفسه و بمن عنده و بغلمانه،

قلت: الصواب بل الأصح مقالة الثانی لما شاهدناه من کثرة الجنائز، و ازدحام الناس بکل مصلاة- و اللّه أعلم.

و أما أمر الغلاء ففی هذا الشهر أبیع فیه القمح کل إردب بستمائة درهم، و البطة من الدقیق العلامة بمائة و سبعین درهما، و الرطل الخبز بأربعة دراهم، و هو عزیز الوجود بالحوانیت فی کثیر من الأوقات، و الشعیر و الفول و کلاهما بأربعمائة درهم الإردب، و هما فی قلة إلی الغایة و النهایة، و الحمل التبن بأربعمائة درهم و لا بدّ له من حارس من الأجناد یحرسه من الممالیک الأجلاب، هذا و الموت فیهم بالجریف - و صلوات اللّه علی سیدنا عزرائیل- و ما سوی ذلک من المأکل فسعره متحسن، لا کسعر الشعیر و التبن و القمح و الفول؛ کون هذه الأشیاء یحتاج إلیها الأجلاب، فیأخذونها بأبخس الأثمان، فترک الناس بیع هذه الأصناف إلا المحتاج، فعز وجودها لذلک.

و وقع للأجلاب فی هذا الوباء أمور عجیبة؛ فإنهم لما فرغوا من أخذ بضائع الناس ظهر منهم فی أیام الوباء أخذ إقطاعات الأجناد، فصاروا إذا رأوا شخصا علی حانوت عطار أخذوه، و قالوا له: لعل الضعیف یکون له إقطاع، فإن کان له إقطاع عرفهم به؛ و إن لم یکن

للضعيف إقطاع طال أمره معهم إلّا أن يخلصه منهم أحد من الأعيان.

ثم بدا لهم بعد ذلک أن کل من سمعوا له إقطاعا من أولاد الناس أو الأجناد القرانيص أخذوا إقطاعه، فإن کان صحيحا يرتجون مرضه، و إن کان ضعيفا ينتظرون

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۴۳

موته، فعلى هذا الحکم خرج إقطاع غالب الناس- الحی و الميت- حتى إنهم فعلوا ذلک بعضهم مع بعض، فصار السلطان و الناس فی شغل شاغل، لأن الأجلاب صاروا يزدحمون عليه لأخذهم إقطاعات الناس، و عند ما يتفرغ من المماليک الأجلاب يتظلم کل أحد إليه ممن خرج إقطاعه و هو فی قيد الحياة، فلم يسعه إلا ردّه عليه، فصار الإقطاع يخرج اليوم و يردّ إلى صاحبه فی الغد، فصار يکتب فی اليوم الواحد عدة مناشير ما بين إخراج و ردّ، و استمر الناس على ذلک من أوّل الفصل إلى آخره.

و أغرب من هذا أن بعض الأجلاب اجتاز فی عظم أيّام الوباء بالصحراء، فحازى جنازة امرأة على نعشها طرحة زرکش، فاختطفها و ساق فرسه فلم يوقف له على أثر.

و وقع لبعض الأجلاب أيضا أنه صدف فی بعض الطرقات جنازة و هو سکران، فأمره المدير بالوقوف لتمر الجنازة عليه، فحنق منه، و أراد ضرب المدير، فهرب منه، فضرب الميت على رأسه، و قد شاهد ذلک جماعة کثيرة من الناس.

و فيما حکيناه کفاية عن فعل هؤلاء الظّلمة- ألا لعنة اللّه على الظالمين.

و فی يوم الثلاثاء مستهل جمادى الآخرة وصل إلى القاهرة تغرى بردى الطيّارى الخاصکی المتوجه فی الرّسلية إلى جزيرة قبرس، و صحبته جماعة کثيرة من ملوک الفرنج و أهل قبرس.

و القادمون من الفرنج على قسمين: فرقة تسأل إيقاء ملک قبرس على الملکة المتولية، و فرقة تسأل عزلها و تولية أخيها جاکم الفرنجی الذی قدم إلى القاهرة قبل تاريخه، فلم يبت السلطان الأمر من ولاية و لا عزل فی هذا اليوم، و أحال الأمر إلى ما سيأتی ذکره.

و فی يوم الخميس ثالث جمادى الآخرة المذکورة عظم الطاعون بالقاهرة و ظواهرها، و اختلفت کلمة الحسّاب؛ لاشتغال کل أحد بنفسه و بمن عنده، فمنهم من قال: يموت فی اليوم أربعة آلاف إنسان، و منهم من قال: ثلاثة آلاف و خمسمائة، وقاس

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۴۴

صاحب القول الثانی على عدّة من صلّى عليه فی هذا اليوم المذکور بمصلاة باب النصر، و قال: إن کل مائة ميت بمصلاة باب النصر بثلاثمائة و ستين ميتا، و جاءت مصلاة المؤمنى فی هذا اليوم أربعمائة و سبعة عشر ميتا، و هذا کله تقريبا لا تحريرا على الأوضاع.

ثم فی يوم الثلاثاء ثامن جمادى الآخرة عمل السلطان الموکب بالحوش السلطانی لأجل قصّاد الفرنج، و حضرت الفرنج و قبلوا الأرض و نزلوا أيضا على غير طائل.

و فی يوم الجمعة حادی عشره کان فيه التعريف مائتين و ثمانين، و جاءت مصلاة باب النصر على حدتها خمسمائة و سبعين.

و فيه ضربت المماليک الأجلاب الوزير سعد الدين فرج بن النحّال ضربا مبرحا؛ لکونه لم يزد راتب لحمهم.

و فی يوم الاثنين رابع عشر جمادى الآخرة کان فيه التعريف نحو ثلاثمائة إنسان، منهم مماليک خمسة و سبعون، منهم خمسة و ثلاثون من مماليک الأمراء و غيرهم، و من بقی سلطانية، و أما الذی ضبط فی هذا اليوم ممن صلى عليه من الأموات باثنتی عشرة مصلاة أربعة آلاف إنسان، و فی ذلک نظر؛ لأن مصلاة باب النصر وحدها جاءت فی هذا اليوم خمسمائة و سبعين، و مصلاة البياطرة أربعمائة و سبعين، و جامع الأزهر ثلاثمائة و ستة و تسعين، فمجموع هذه المصليات الثلاث من جملة سبع عشرة مصلاة أو أکثر ألف و أربعمائة و ستة نفر، فعلى هذا کيف يکون جميع من مات فی هذا اليوم أربعة آلاف؟! فهذا محال، و هذا خارج عن القرافتين و الحسينية و الصحراء و بولاق و مصر القديمة، إلا أن غالب من يموت صغار و عبيد و جوار.

غير أن هذا الطاعون کان أمره غريبا، و هو أن الذی يطعن فيه قلّ أن يسلم، حتى قال بعضهم: لعل إن من کل مائة مريض يسلم واحد،

فأنكر ذلك غيره و قال: و لا كل ألف- مبالغة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۴۵

و فى يوم الأربعاء سادس عشره- الموافق لرابع عشر برمودة- ارتفع الوباء من بولاق، و كان الذى مات بها فى اليوم ثلاثة نفر، و قيل سبعة و قيل عشرة.

هذا بعد أن كان يموت فى اليوم ثلاثمائة و أربعمائة، و يقول المكثر خمسمائة- فسبحانه و تعالى فاعلا مختارا يفعل فى ملكه ما يشاء.

و أخذ الطاعون فى هذه الأيّام يخف من ظواهر القاهرة، مثل الحسينيّة و غيرها، و عظم فى القاهرة و ما حولها من جهة الصّليبة و القلعة و قناطر السّباع، و كان الذى مات من المماليك الأجلاب الإينالية فى هذا الطاعون- إلى يوم الجمعة تاسع عشر جمادى الآخرة- ستمائة مملوك و ثلاثين مملوكا. إلى لعنة اللّه و سقر، إلى حيث ألقت.

و مما وقع لى من أوائل هذا الفصل قولى على سبيل المجاز: [السريع]

قد جاءنا الفصل على بغتة مستجلبا حلّ مجدّ الطلب

من كثرة البغى و ظلم بدا يخصه اللّه بمن كان جلب

و فى يوم الاثنين حادى عشرين جمادى الآخرة- الموافق لتاسع عشر برمودة، و هو أول خمسين النصارى- فيه ظهر نقص الطاعون بالقاهرة، و كان ابتداء النقص من يومى الخميس و الجمعة.

و فى يوم الاثنين هذا كان عدة من صلى عليه بمصلاة باب النصر ثلاثمائة و خمسين إنسانا، و بجامع الأزهر ستمائة إنسان، و هو أكثر ما وصل إليه العدة بالجامع المذكور، لأن غالب الطاعون الآن هو بالقاهرة، و كان عدّة من صلى عليه بمصلاة البياطرة مائتين و أربعة، و هو بحكم النصف مما كان صلى عليه بها قبل ذلك، و كان عدّة من صلى عليه بمصلاة المؤمنى مائتين و ثمانين نفرا، و هو أقل من النصف أولا، و نحن نذكر- إن شاء اللّه تعالى- عدة هذه المصلوات فى يوم الاثنين القابل؛ ليعلم الناظر فى هذا الكتاب كيفية انحطاط الطاعون عند زواله من اليوم إلى مثله.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۴۶

فلما كان يوم الخميس ثامن عشرينه الموعود بذكره كان فيه عدّة من صلى عليه بمصلاة باب النصر مائة و تسعين، و بالجامع الأزهر زيادة على مائة و ثلاثين، و بمصلاة البياطرة مائة و أربعة عشر، و بمصلاة المؤمنى مائة و سبعة و ثلاثين، و نذكر- إن شاء اللّه تعالى- فى يوم الاثنين الآتى عدّة ذلك أيضا.

و فى يوم الأربعاء تاسع شهر رجب فيه فشا نقص الطاعون، و انحط سعر الغلال، و ظهر الشعير و التين و الدريس لموت تلك الجبابرة الأجلاب.

و فيه طعن جامعه، ثمّ منّ اللّه تعالى بالعافية بعد أمور، و للّه الحمد على المهلة.

و فى يوم الجمعة ثالث شهر رجب المذكور- الموافق لسلخ برمودة- لبس السلطان القماش الأبيض البعلبكى المعتد لبسه لأيام الصيف.

ثم فى يوم الاثنين سادسه كان فيه عدّة من صلى عليه من الأموات بمصلاة باب النصر مائة، و قيل تسعين، و بمصلاة البياطرة زيادة على الخمسين، و بمصلاة المؤمنى زيادة على التسعين:

ثم فى يوم السبت حادى عشره استقر الأمير أرغون شاه الأشرفى أحد أمراء العشرات و رأس نوبة أستادار الصحبة السلطانية، بعد موت يشبك الأشرفى الأشقر.

ثم فى يوم الاثنين ثالث عشر شهر رجب كان فيه عدّة من صلى عليه من الأموات بمصلاة باب النصر نحوا من خمسة و عشرين نفرا، و بمصلاة البياطرة ثلاثة و عشرين، و بالجامع الأزهر خمسة نفر، و بمصلاة المؤمنى نيفا و ثلاثين نفرا، هذا و العلة موجودة فى الأكابر و

الأعيان إلى آخر رجب.

ثم فى يوم الثلاثاء رابع عشره استقر القاضى تقى الدين بن نصر اللّه ناظر ديوان المفرد عوضا عن الصاحب شمس الدين منصور [بن الصفى].

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۴۷

و فيه استقر الشيخ سراج الدين [عمر] العبادى الشافعى ناظر الأحباس بعد موت القاضى زين الدين عبد الرحيم العينىّ:

و استهل شعبان يوم الخميس و قد خفّ الطاعون من الديار المصرية بالكلية، فكان عدّة من مات فى هذا الطاعون من المماليك الأجلاب الإينالية فقط ألفا و أربعمائة نفر- فاللّه يلحق بهم من بقى منهم- و هذا خلاف من مات فى هذا الطاعون من المماليك السلطانية الذين هم من سائر الطوائف.

ثم فى يوم الثلاثاء سادس شعبان المذكور من سنة أربع و ستين وقع فى المملكة أمر شنيع؛ و هو أن السلطان جمع أعيان الفرنج القبارسة فى الملأ بالحوش السلطانى، و أراد بقاء الملكة صاحبة قبرس على عادتها، و خلع على قصادها أعيان الفرنج، و استقر تغرى بردى الطيّارىّ مسفرها، و على يده تقليدها و خلعتها.

و كان الفرنجى جاكم أخوها حاضر الموكب، و قد جلس تحت مقدمى الألوف، فعزّ عليه ولاية أخته و إبقاؤها على ملك الأفقسية من جزيرة قبرس مع وجوده، فقام على قدميه و استغاث، و تكلم بكلام معناه أنه قد جاء إلى مصر، و التجأ إلى السلطان، و دخل تحت كنفه، و له عنده هذه المدّة الطويلة، و أنه أحقّ بالملك من أخته و بكى، فلم يسمع السلطان له و صمم على ولاية أخته، و أمره بالنزول إلى حيث هو سكنه، فما هو إلا أن قام جاكم المذكور و خرج من باب الحوش الأوسط ثم خرج بعده أخصامه حواشى أخته، و عليهم الخلع السلطانية مدّت الأجلاب أيديها إلى أخصام جاكم من الفرنج، و تناولوهم بالضرب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۴۸

و الإخراق، و تمزيق الخلع، و استغاثوا بكلمة واحدة، أنهم لا يريدون إلا تولية جاكم هذا مكان والده، و عظمت الغوغاء، فلم يسع السلطان إلا أن أذعن فى الحال بعزل الملكة و تولية جاكم، فتولى جاكم على رغم السلطان بعد أن أمعنوا المماليك الأجلاب فى سب الأمير بردبك الدّوادار الثانى، و قالوا له: «أنت إفرنجى و تحامى للفرنج» فاستغاث بردبك المذكور، و رمى وظيفة الدّوادارية، و طلب الإقالة من المشى فى الخدمة السلطانية، فلم يسمع له السلطان، و فى الحال خلع على جاكم، و رسم بخروج تجريدة من الأمراء إلى غزو قبرس، تتوجّه مع جاكم المذكور إلى قبرس، حسبما يأتى ذكره إن شاء اللّه تعالى فى وقته.

و فى يوم الاثنين ثانى عشره رسم السلطان باستقرار الأمير قراجا الظاهرى الخازندار حاجب الحجّاب- كان- أتابك عساكر دمشق بعد موت الأمير علّان المؤيّدى بمال وعد به نحو عشرة آلاف دينار.

و فى يوم السبت سابع عشره استقرّ القاضى ولى الدين أحمد ابن القاضى تقى الدين محمد البلقينى قاضى قضاة دمشق الشّافعيّة بعد عزل القاضى جمال الدين يوسف الباعونى.

و فيه استقرّ القاضى زين الدين أبو بكر بن مزهر ناظر الجيوش المنصورة بعد عزل القاضى برهان الدين إبراهيم الدّيرى.

و فى يوم الأحد ثامن عشره عرض السلطان المماليك السلطانية بالحوش، و عيّن منهم جماعة للجهاد: أعنى للسفر صحبة جاكم الفرنجى إلى قبرس، و قد تعيّن من يسافر إلى قبرس من الأمراء قبل ذلك.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۴۹

و فيه ورد الخبر من مكّة المشرّفة بموت الأمير برشباى الإينالى المؤيدى رأس المماليك المجاورين بها، فأنعم السلطان بإقطاعه فى يوم الثلاثاء على دولات باى الأشرفى السّاقى، و على خيربك من حديد الأشرفى الدّوادار، نصفين بالسّويّة، لكل منهما إمرة عشرة.

و استهلّ شهر رمضان- أوله الجمعة- فى يوم السبت ثانيه خلع السلطان على الأمير جانبك الظاهرى أحد أمراء مقدمى الألوف بسفره

إلى بندر جدّة على عادته فى كل سنة، و خرج من الغد متوجها إلى جدّة فى غاية التجمل و الحرمة.

و فى يوم الثلاثاء خامس شهر رمضان المذكور عيّن السلطان الأمير خشقدم الناصرى المؤيدى أمير سلاح إلى سفر الوجه القبلى؛ لقتال العرب الخارجة عن الطاعة، و عيّن معه مائتى مملوك، و سافروا يوم الثلاثاء ثانى عشره.

و فى هذا الشهر قوى الاهتمام بسفر المجاهدين، و قاست الناس من أعوان سنقر الزّردكاش شدائد يطول الشرح فى ذكرها، حتى قال بعض الشعراء الموالة بلّيقا، تعرّض فيه لظلم سنقر الزّردكاش و حواشيه، بقوله:

قبل الغزا جاهد فى الناس فصار الظلم أنواع و أجناس

من طلب هذا الغزا و احتاج لواس

و وقع بسبب عمارة هذه المراكب مظالم لا تحصى، من قطع أشجار الناس عسفا، و أخذهم ما يحتاجون إليه ظلما، و زاد ظلم سنقر هذا على الناس حتى جاوز الحد، فلا جرم أن اللّه تعالى عامله بعد ذلك من جنس فعله فى الدنيا، بما قاساه من النفى و الحبس و أخذ المال، مع الذل و الهوان و الصغار، و حلّ به كل مصيبة، حتى أحرقت داره بجميع ما فيها، ثم نهب ما فضل من الحريق، و تشتّت فى البلاد على أقبح وجه، هذا فى الدنيا و أما الأخرى فأمره إلى اللّه تعالى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۵۰

و فى يوم الأحد أول شوال عيّن السلطان الأمير كزل السودونى المعلّم، و الأمير برسباى الأشرفى الأمير آخور للتوجّه إلى الإسكندرية و صحبتهما مائة و خمسون مملوكا من المماليك السلطانية، لأخذ ما هناك من المراكب، و التوجّه بها إلى ثغر دمياط من البحر الملح، ليكون سفر جميع المجاهدين من مينة واحدة، و هى مينة دمياط.

ثم فى يوم الأربعاء رابع شوال أنفق السلطان فى المجاهدين من المماليك السلطانية، للفارس و الراجل سواء، لكل واحد مبلغ خمسة عشر دينارا، و أنفق على كل مملوك من المماليك الذين يتوجّهون مع كزل و برسباى المقدم ذكرهما عشرة دنانير الواحد.

ثم فى يوم الاثنين تاسعه نزل السلطان الملك الأشرف إينال فى موكب هائل من قلعة الجبل بأمرائه و خاصكيته و أعيان دولته إلى جزيرة أروى المعروفة بالوسطى بساحل النّيل؛ لينظر ما عمّر من المراكب، فسار إلى هناك فى موكب عظيم، و نظر المراكب، و خلع على سنقر قرق شبق الزّردكاش المقدّم ذكره، و على جماعة أخر ممن باشر عمل المراكب، ثم عاد من حيث جاء من قناطر السباع، فلم يبتهج الناس لنزوله، لعظم ما قاسوه من الظلم فى عمل هؤلاء المراكب، من قلة الإنصاف و الجور فى حقّ العمال من أرباب الصنائع و غيرهم، و لو لا أن الأمر منسوب إلى نوع من أنواع الجهاد لذكرنا من فعل سنقر هذا ما هو أقبح من أن نذكره.

ثم فى يوم الثلاثاء سابع عشر شوال سافر المجاهدون فى بحر النيل إلى ثغر دمياط، و مقدم العساكر يوم ذاك فى البر الأمير يونس الأقبائى الدوادار الكبير، و فى البحر الأمير قائم من صفر خجا المؤيدى التاجر أحد مقدمى الألوف بالديار المصرية، و معهما بقية الأمراء، و هم: الأمير سودون الإينالى المؤيدى المعروف بقراقاش حاجب الحجاب و غيره، و خلع السلطان على هؤلاء الثلاثة المذكورين، و خلع أيضا على جاكم

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۵۱

الفرنجى خلعة نخّ بقاقم، و نزل جميع الغزاة فى خدمتهم إلى بحر النيل، و سافر هؤلاء الأمراء الثلاثة إلى دمياط من يومهم، و بقى من عداهم يسافرون أرسالا فى كل يوم، إلى يوم الثلاثاء القابل؛ لكثرة عدة العساكر.

و أما مقدار عدد من سافر فى هذه الغزوة من الأمراء و الجند فعدّة كبيرة.

فأولهم أمراء الألوف الثلاثة المقدم ذكرهم.

ثم من أمراء الطبلخانات ثلاثة أيضا، و هم: الأمير بردبك البجمقدار الظاهرى ثانى رأس نوبة، و جانبك من أمير الخازندار الأشرفى، و يشبك من سلمان شاه الفقيه المؤيّدى رأس نوبة.

و من أمراء العشرات جماعة، و هم: جكم الأشرفى خال الملك العزيز يوسف، و دقماق اليشبكى، و كسباى الشّشمانى المؤيدى، و طوخ الأبوبكرىّ المؤيدى رأس نوبة، و قانم نعجة الأشرفى رأس نوبة، و سنقر قرق شبق الأشرفى الزردكاش المقدم ذكره، و قراجا الأعرج الطويل أحد مماليك السلطان القديمة.

و أما المماليك السلطانية فعدتهم تزيد على خمسمائة نفر تخمينا.

و هذا خلا المطوّعة و غيرهم من الخدم و المراكبية و أنواعهم.

و فى يوم الخميس تاسع عشر شوال خرج أمير حاج المحمل بالمحمل، و هو الأمير تمرباى من حمزة الناصرى المعروف بططر أحد أمراء العشرات، و أمير الركب الأوّل تنم الحسينى الأشرفى رأس نوبة.

و فى يوم الجمعة سابع عشرينه أمسك السلطان زين الدين الأستادار، و جنزره و حبسه بالبحرة من الحوش السلطانى، و ندب الصاحب شمس الدين منصور [ابن الصفى] لمحاسبته فقامت المماليك الأجلاب على منصور حمية لزين الدين، فراج أمر زين الدين

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۵۲

لذلك، لعلم الناس أن السلطان مسلوب الاختيار مع مماليكه الأجلاب، و استمر زين الدين بالبحرة إلى يوم الأحد، فأخرجه السلطان و استقرّ به أستادارا على عادته، و لبس خلعة الأستادارية من الغد فى يوم الاثنين أول ذى القعدة.

ثم فى يوم الأربعاء ثالث ذى القعدة وصل الأمير خشقدم أمير سلاح من الوجه القبلى بمن معه من المماليك السلطانية.

و فى يوم الأربعاء سابع عشره قتل ابن غريب البدوى.

و فى يوم الاثنين هرب زين الدين الأستادار و اختفى بحيث إنه لم يعرف له مكان، و استقرّ الصاحب شمس الدين فى الأستاداريّة عوضه.

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۶۵]

ثم استهلت سنة خمس و ستين و ثمانمائة

فكان أول المحرم الخميس.

ثم فى يوم السبت ثالثه وصل الأمير جانبك الظاهرىّ أحد مقدّمى الألوف من بندر جدّة إلى الديار المصرية، بعد أن حجّ و حضر الموسم بمكة، و بات بتربة الملك الأشرف إينال بالصحراء، و طلع إلى القلعة من الغد فى يوم الأحد، و خلع السلطان عليه و نزل إلى داره فى موكب عظيم.

و فى يوم الخميس ثانى عشرين المحرّم وصل أمير الرّكب الأوّل الأمير تنم الحسينى الأشرفى، و خلع عليه السلطان، و أصبح فى يوم الجمعة وصل أمير حاج المحمل تمر باى ططر بالمحمل، و خلع السلطان عليه أيضا.

و فى يوم الجمعة سلخ المحرم وصل إلى القاهرة جماعة من الغزاة و أخبروا أن العساكر الإسلامية بأجمعها خرجوا من جزيرة قبرس فى يوم الجمعة ثالث عشرين المحرم و ساروا على ظهر البحر الملح يريدون السواحل الإسلامية، فهبّت عليهم ريح عظيمة شتّتت شملهم و توجهوا إلى عدّة جهات بغير إرادة، و كانت مركب هؤلاء وصلت إلى ساحل الطينة،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۵۳

و أخبروا أيضا بموت الأمير سودون قراقاش حاجب الحجاب، ثم وصل من الغد بردبك عرب الأشرفى الخاصكى، و أخبر بنحو ما أخبر به هؤلاء المماليك، و أعلم السلطان أيضا أن الأمير يونس الدّوادار ترك بجزيرة قبرس جماعة من المماليك السلطانية و مماليك الأمراء قوة لجاكم صاحب قبرس، و جعل مقدمهم جانبك الأبلق الظاهرى الخاصكى، و أن جماعة كبيرة توفوا إلى رحمة اللّه تعالى من عظم الوخم.

و استهل صفر يوم السبت.

ثم فى يوم الأربعاء خامسه استقر الأمير كسباى المؤيدى السمين نائب القلعة فى نيابة الإسكندرية بعد الأمير جانبك- نائب بعلبك- النّوروزى، فاستقر خير بك القصروى والى القاهرة نائب القلعة عوضا عن كسباى المذكور، بمال بذله فى ذلك.

ثم فى يوم الخميس سادس صفر استقرّ على بن إسكندر والى القاهرة، و استقر تنم من نخشباى الظاهرى الخاصكى المعروف برصاص فى حسبة القاهرة، عوضا عن على بن إسكندر، و كلاهما ولى بالبذل، و تنم هذا هو أوّل تركى ولى الحسبة بالبذل، و لم نسمع ذلك قبل تاريخه، لا قديما و لا حديثا.

و فى يوم الجمعة سابعه- الموافق لخامس عشرين هاتور- لبس السلطان القماش الصّوف الملوّن، المعتد لبسه لأيام الشتاء، و ألبس الأمراء على العادة.

ثم فى يوم السبت خامس عشره وصل المجاهدون جميعا إلى ساحل بولاق، و باتوا بالميدان الكبير عند بركة الناصرية، و طلعوا إلى القلعة من الغد فى يوم الأحد، و قبلوا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۵۴

الأرض، و خلع السلطان على الأمير يونس الدّوادار أطلسين متمرّا، و فوقانيا بطرز زركش، كما هى عادة خلعة الأتابكية، فتعجّب الناس من ذلك، و قيّد له فرسا بسرج ذهب، و كنبوش زركش.

ثم خلع على الأمير قانم المؤيدى أحد مقدمى الألوف فوقانيا بطرز زركش.

و كذلك خلع على جميع الباشات من الأمراء.

و نزل الجميع فى خدمة الأمير يونس الدّوادار إلى بيته تجاه الكبش، ثم عاد كل واحد إلى داره.

ثم فى يوم الاثنين رابع عشرين صفر أنعم السلطان على الأمير يلباى الإينالى المؤيدى الأمير آخور الثانى بإمرة مائة و تقدمة ألف، بعد موت سودون قراقاش بقبرس، و أنعم بإقطاع يلباى المذكور- و هو إمرة طبلخاناه- على الأمير تمرباى من حمزة المعروف بططر، و أنعم بإقطاع تمرباى ططر على جانبك الأشرفى قلفسيز، فلم يقبله جانبك المذكور، و أنعم به على الأمير قانى بك السيفى يشبك بن أزدمر، و أنعم بإقطاع قانى بك المذكور- و هو إمرة عشرة أيضا- على دولات باى الخاصكى الأشرفى المعروف بدولات باى سكسن، أعنى ثمانين، و لم يكن دولات هذا أهلا لذلك، و إنما هى أرزاق مقسومة إلى البرّ و الفاجر.

و فى يوم الخميس سابع عشرين صفر استقر الأمير بيبرس الأشرفى خال الملك العزيز يوسف حاجب الحجاب بالديار المصرية، عوضا عن سودون قراقاش بحكم وفاته بقبرس، و استقر الامير بردبك المحمدى الظاهرى الهجين الأمير آخور الثالث أمير

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۵۵

آخور ثانيا عوضا عن الأمير يلباى المقدم ذكره، و استقر قراجا الطويل الأعرج الأشرفى أمير آخور ثالثا عوضا عن بردبك الهجين.

ثم فى يوم الخميس رابع شهر ربيع الأول أستقر الأمير مغلباى طاز الأبوبكرى المؤيدى أمير حاج المحمل، و استقر تنبك البوّاب الأشرفى الخاصكى أمير الرّكب الأوّل.

ثم فى يوم الأحد سابع شهر ربيع الأوّل المذكور عمل السلطان المولد النبوى على العادة فى كل سنة بالحوش السلطانى.

ثم سافر المقام الشهابى أحمد بن السلطان إلى السّرحة، و معه أخوه محمد من الغد فى يوم الاثنين ثامنه إلى جهة الوجه البحرى شرقا و غربا، و سافر معه جماعة من الأعيان و أمراء العشرات.

ثم فى يوم الخميس سادس عشره استقرّ على بن الأهناسى وزيرا بعد استعفاء الصاحب فرج بن النحّال.

ثم فى يوم السبت حادى عشرينه حبس السلطان القاضى صلاح الدين أمير حاج المكينى بحبس الرحبة، و سبب ذلك أنه كان استبدل وقفا فشكى عليه بسبب ذلك الوقف، فرسم السلطان بحبسه فحبس إلى آخر النهار، ثم أطلق من يومه بعد أن قرّر عليه بلغ من الذهب.

ثم فى يوم السبت رابع عشر شهر ربيع الآخر نودى بزينة القاهرة لقدوم أولاد السلطان من السّرحة، و وصلا فى يوم الثلاثاء ثامن عشر ربيع الآخر المذكور، و شقّا القاهرة فى موكب هائل، و طلعا إلى القلعة، و خلع عليهما والدهما السلطان الملك الأشرف إينال، ثم نزلا فى وجوه الدّولة إلى بيت المقام الشهابى أحمد، و هو الأخ الأكبر، و أتابك العساكر بالديار المصرية.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۵۶

و فى يوم الاثنين خامس عشرينه استقرّ إينال الأشقر الظاهرى الخاصكى والى القاهرة بعد عزل على بن إسكندر.

و استهل جمادى الأولى يوم الخميس.

فى ثالثه يوم السبت مرض السلطان الملك الأشرف إينال مرض الموت، و لزم الفراش.

فلما كان يوم الاثنين خامسه وصل الأمير بردبك الدّوادار الثانى، و الأمير ناصر الدين نقيب الجيش من الطّينة، و كان توجها قبل تاريخه لينظرا مكان البرج الذى يريدون عمارته هناك.

ثم فى يوم الاثنين ثانى عشره أرجف بموت السلطان، و لم يصح ذلك، و أصبح الناس فى هرج، و ماجوا و وقف جماعة من العامة عند باب المدرّج- أحد أبواب القلعة- فنزل إليهم الوالى و بدّد شملهم.

ثمّ نودى فى الحال بالأمان و البيع و الشراء، و أن أحدا لا يتكلم بما لا يعنيه، فسكن الأمر إلى يوم الأربعاء رابع عشر.

فلما كان ضحوة يوم الأربعاء المذكور طلب الخليفة و القضاة الأربعة إلى القلعة، و طلعت الأمراء و الأعيان، و اجتمعوا الجميع بالدهيشة، فلم يشك أحد فى موت السلطان، فلم يكن كذلك، بل كان الطلب لسلطنة المقام الشهابى أحمد قبل موته.

فلما تكامل الجمع خلع السلطان نفسه من السلطنة بالمعنى؛ لأنه ما كان إذ ذاك يستطيع الكلام، بل كلمهم بما معناه أن الأمر يكون من بعده لولده، فعلموا من ذلك أنه يريد خلع نفسه و سلطنة ولده، ففعلوا ذلك كما سيأتى ذكره فى محله، فى أوّل ترجمة الملك المؤيد أحمد إن شاء اللّه تعالى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۵۷

و مات الأشرف إينال فى الغد حسبما نذكره.

و كانت مدة تحكم الملك الأشرف إينال هذا- من يوم تسلطن بعد خلع الملك المنصور عثمان إلى هذا اليوم، و هو يوم خلع نفسه من السلطنة- ثمانى سنين و شهرين و ستة أيام.

و مات فى يوم الخميس خامس عشر جمادى الأولى بعد خلعه بيوم واحد بين الظهر و العصر، فجهّز من وقته، و غسّل و كفن، و صلى عليه بباب القلة من قلعة الجبل، و دفن من يومه بتربته التى عمّرها بالصحراء، و قد ناهز الثمانين من العمر، و كان چاركسى الجنس، و قد تقدّم الكلام على أصله، و جالبه إلى القاهرة، و كيفية ترقيه إلى أن تسلطن فى أول ترجمته من هذا الكتاب.

و كانت صفته- رحمه اللّه- أخضر اللون للسمرة أقرب، طوالا، غالب طوله من وسطه و نازل، قصير البشت، رقيق الوجه نحيف اليد؛ لحيته فى حنكه، و هى شعرات بيض، و لهذا كان لا يعرف إلا بإينال الأجرود، و فى كلامه رخو مع خنث كان فى لهجته، و لهذا لما لبس السّواد خلعة السلطنة كان فيها غير مقبول الشكل، لكونه أسمر اللون، و الخلعة سوداء، فلم تبتهج الناس برؤيته، و لذلك أسباب:

السبب الأول. ما ذكرناه من صفته و سواد الخلعة، و السبب الثانى و هو الأغلب لقرب عهد الناس من شكل الملك المنصور عثمان الشكل الظريف البهى، و الفرق واضح لأن المنصور كان سنه دون العشرين سنة من غير لحية، و هو فى غاية الحسن و الجمال- أحسن اللّه عونه- و الأشرف إينال هذا سنه فوق السبعين، و قد علمت صفته مما ذكرناه، فلا لوم على من لا يعجبه شكل الأشرف إينال و لا عتب، و كان له محاسن و مساوى، و الأول أكثر.

فأما محاسنه، فكان ملكا جليلا، عاقلا رئيسا سيوسا، كثير الاحتمال، عديم

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۵۸

الشّر، غير سبّاب و لا فحّاش فى حال غضبه و رضاه، و كان عارفا بالأمور و الوقائع و الحروب، شجاعا مقداما، كثير التجارب للخطوب و القتال، عظيم التروى فى أفعاله، ثابتا فى حركاته و مهماته، له معرفة تامة بملوك الأقطار فى البلاد الداخلة فى حكمه، و فى الخارجة عن حكمه أيضا، عارفا بجهات ممالكه شرقا و غربا، فهما بفنون الفروسية و أنواعها، لا يحبّ تحرك ساكن و لا إثارة فتنة، و عنده تؤدة فى كلامه و احتمال زائد، يؤديه ذلك إلى عدم المروءة عند من لا يعرف طباعه، و من محاسنه أنه منذ سلطنته ما قتل أحدا من الأمراء و لا من الأجناد الأعيان، على قاعدة من تقدمه من الملوك، إلا من وجب عليه القتل بالشرع أو بالسياسة، و أيضا أنه كان قليلا ما يحبس أحدا و لا ـ ينفيه، سوى من حبس فى أوائل دولته من أعيان الأمراء كما هى عوائد أوائل الدولة، ثم بعد ذلك لم يتعرض لأحد بسوء، إلا أنه نفى جماعة عندما ركبوا عليه ثانيا فى حدود سنة ستين، و خلع الخليفة القائم بأمر اللّه حمزة بسبب موافقته لهم على قتاله، ثم حبسه بالإسكندرية، و هو معذور فى ذلك، و لو كان غيره من الملوك لفعل أضعاف ذلك، بل و قتل منهم جماعة كثيرة، و بالجملة فكانت أيّامه سكونا و هدوءا و رياقة و حضور بال، لو لا ما شان سؤدده [من] مماليكه الأجلاب، و فسدت أحوال الديار المصرية بأفعالهم القبيحة، و لولا أن اللّه تعالى لطف بموته، لكان حصل الخلل بها، و ربما خربت و تلاشى أمرها، هذا ما أوردناه من محاسنه، بحسب القوة و الباعثة.

و أما مساوئه، فكان بخيلا شحيحا مسيكا، يبخل و يشح حتى على نفسه، و كان عاريا من العلوم و الفنون المتعلقة بالفضائل، كان أميّا لا يعرف القراءة و الكتابة حتى كان لا يحسن العلامة على المناشير و المراسيم إلا برسم الموقع له بالنقط على المناشير، فيعيد هو على النقط بالقلم.

هذا مع طول مكثه فى السعادة و الرياسة و الولايات الجليلة ثم السلطنة، و مع هذا لم يهتد إلى معرفة الكتابة على المناشير و لا غيرها، فهذا دليل على بلادة ذهنه و جمود

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۵۹

فكره، و لعله كان لا يحسن قراءة الفاتحة و لا غيرها من القرآن العزيز فيما أظن، و كانت صلاته للمكتوبات صلاة عجيبة، نقرات ينقر بها، لا يعبأ اللّه بها، و كان مع هذه الصلاة العجيبة لا يحب التملق، و لا إطالة الدّعاء بعد الصلاة، بل ربما نهى الداعى عن تطويل الدعاء، و لم يكن بالعفيف عن الفروج، بل ربما اتهمه بعض الناس بحب الوجوه الملاح و الصباح من الغلمان- و اللّه تعالى أعلم بحاله- إلا أنه كان يعف عن تعاطى المنكرات المسكرات.

و كان- فى الغالب- أموره و أحكامه مناقضة للشريعة، لا سيما لما أنشئت مماليكه الأجلاب، فإنهم قلبوا أحكام الشريعة ظهرا لبطن، و هو راض لهم بذلك، و كان يمكنه إرداعهم بكل ممكن، و من قال غير ذلك فهو مردود عليه، و أحد أقوال الردّ عليه قول من يقول: فكيف سطوة السلطنة مع عدم قوته لرد هؤلاء الشرذمة القليلة مع بغض العالم لهم، و ضعفهم عن ملاقاة بعض العوام؟! فكيف أنت بهم و قد ندب لهم طائفة من طوائف المماليك؟! و مثل هذا القول فكثير، و أيضا رضاه بما فعله سنقر قرق شبق الزردكاش عند عمارته لمراكب الغزاة، لأن سنقر فعل أفعالا لا يرتضيها من له حظ فى الإسلام، و كان يمكنه ردّه عن ذلك بكل طريق، بل كان يخلع عليه فى كل قليل، و يشكر أفعاله، فرضاه بفعل مماليكه الأجلاب، و بفعل سنقر هذا و أشباه ذلك هو أعظم ذنوبه، و ما ساء منه النّاس و أبغضته الخلائق و تمنوا زوال ملكه إلا لهذا المعنى، و معنى آخر و هو ليس بالقوى و هو ثقل وطأة ولده و زوجته و مملوكه بردبك الدوادار.

قلت: و الأصح عندى هو الذنب الأوّل، و أما هؤلاء فكان ثقلهم على مباشرى الدولة أو على من يسعى عندهم فى وظيفة من ولاية أو عزل، أو أمر من الأمور، فعلى هذا كان ضررهم خصوصا لا عموما، و أيضا لا يشمل ضررهم إلا لمن جاء إلى بابهم

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۶۰

أو قصدهم فى حاجة دنيويّة، فهو أحق بما يحل به، لأنه هو الساعى فى إيذاء نفسه، و المثل يقول: «من قتلته يديه لا بكاء عليه».

نعم و كان من مساوئه مخافة السبل فى أيامه بالقاهرة و الأرياف، حتى تجاوز الحدّ، و عمّرت الناس على بيوتهم الدروب لعظم خوفهم من دقّ المناسر و قطّاع الطريق بالأرياف، مع أنه كان قاطعا للمفسدين، غير أن الحمايات كانت كثيرة فى أيامه، و هذا أكبر أسباب خراب الدّيار المصرية و قراها، و من يوم تجددت هذه الحمايات فسدت أحوال الأرياف قبليها و بحريها، و هذا البلاء ما كثر و فشا فى الدّولة إلا بعد الدّولة المؤيّديّة شيخ، و استمرت هذه السنة القبيحة إلى يومنا هذا، و العجب أنه ليس لها نفع على السلطان و لا على بلاده، و إنما هى ضرر محض على السلطان و الناس قاطبة، و الملك لا يلتفت إلى إزالتها، مع أنه لو منع ذلك لم يضر أحد من الناس، و انتفع الناس جميعا بمنعها، و عمرت غالب البلاد، و تساوت الناس، و بالمساواة تعمر جميع الممالك، غير أن الفهم و العقل و التدبير منح إلاهية، فلا يفيد الكلام فى ذلك، و للّه در القائل:

[الوافر]

.لقد أسمعت لو ناديت حيّا و لكن لا حياة لمن تنادى

و نار لو نفخت بها أضاءت و لكن أنت تنفخ فى الرماد

و قد خرجنا عن المقصود.

و لما كثر فساد المماليك الأجلاب عمل بعض الظرفاء بلّيقا، ذكر فيه أفعال الأجلاب و مساوئهم، و استطرد إلى إلى أن قال فى آخره:

حاشا للّه دوام هذى النقمه و نحن أفضل برية من أمه

نبينا ما حدّ مثلو

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۶۱

أزاح عنا كيد الكفار و قد رمينا بيد الأشرار

فكل حد ماسک ديلو

متى يزيح عنا هذى الدولة و يحكم الناس من لوصوله

و ترتاح البرية فى عدلو

فاللّه بجاه سيد عدنان عوّض لنا منک بإحسان

هذا الجميل إننا أهلو

فو اللّه العظيم لم تمض عليه سنة بعد ذلک، بل و لا ستة أشهر حتى مرض و مات، فهذا ما ذكرناه من محاسن الملک الأشرف إينال و مساوئه، و نرجو اللّه تعالى أن يكون ذلک على الإنصاف لا على التحامل.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۶۲

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۵۷]

السنة الأولى من سلطنة الملک الأشرف إينال على مصر و هى سنة سبع و خمسين و ثمانمائة.

على أن الملک المنصور عثمان حكم منها إلى ثامن شهر ربيع الأول.

و فيها- أعنى سنة سبع و خمسين المذكورة- توفّى الشهابى أحمد ابن الأمير فخر الدين عبد الغنى بن عبد الرّزّاق بن أبى الفرج متولى قطيا، فى أوائل المحرم، و هو فى الكهولية.

و توفّى السلطان الملک الظاهر أبو سعيد جقمق العلائى الظاهرى فى ليلة الثلاثاء، ثالث صفر، و دفن من يومه حسبما تقدم ذكره فى ترجمته مستوفاة فى هذا الكتاب، فلتنظر فى محله.

و توفّى الأمير أسنبغا بن عبد اللّه الناصرى الطيّارى رأس نوبة النوب فى ليلة السبت سادس شهر ربيع الأول، فى أيام الفتنة، و هو فى

بيت الأمير قوصون، و عليه آلة السلاح، شبه الفجاءة، و كانت مدة مرضه يوما واحدا، و صلّى عليه الأتابك إينال العلائى بدار قوصون المذكورة، و جميع الأمراء و عليهم آلة السلاح، ثم حمل و دفن من يومه فى الصحراء، و مات و هو فى عشر الثمانين تخمينا، و كان من محاسن الدّنيا كرما و عقلا و شجاعة و تواضعا و معرفة، كان كامل الأدوات، قلّ أن ترى العيون مثله- رحمه اللّه تعالى.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۶۳

و توفّى الأمير جانبک بن عبد اللّه اليشبكى والى القاهرة، ثم الزردكاش، فى ليلة الخميس ثامن عشر شهر ربيع الأوّل، و هو فى أوائل الكهولية، و دفن من الغد، و كان أصله من مماليک الأمير يشبک الجكمى الأمير آخور، ثم اتصل بعد موته بخدمة السلطان، ثم صار خاصّكيا فى الدولة الأشرفية برسباى، و صحب الصاحب جمال الدين يوسف بن كاتب جكم ناظر الخواص، فروّجه فى المملكة، حتى صار ساقيا فى الدولة الظاهرية جقمق، ثم تأمر عشرة بعد مدة طويلة، و صار من جملة رءوس النوب، ثم استقر والى القاهرة، ثم أضيف إليه حسبة القاهرة فى سنة أربع و خمسين، ثم انفصل من الحسبة، و استمر فى الولاية سنين كثيرة، إلى أن نقل إلى وظيفة الزّردكاشيّة فى الدولة المنصورية عثمان، بعد انتقال الأمير لاجين الظاهرى إلى شد الشراب خاناه، و تولى عوضه ولاية القاهرة يشبک القرمى الظاهرى، فلم تطل أيّامه زردكاشا، و مات فى أوائل الدولة الأشرفية إينال، حسبما تقدم وفاته؛ و كان مليح الشكل متجملا، حسن المحاضرة - رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الأمير سيف الدين أرنبغا اليونسيّ الناصرى أحد مقدمى الألوف بالدّيار المصريّة فى ليلة الجمعة تاسع عشر شهر ربيع الأوّل، و سنّه زيادة على السبعين، و أنعم السلطان بتقدمته على الأمير دولات باى المحمودى الدّوادار بعد مجيئه من السّجن بمدّة، و كان أرنبغا هذا تتريّ الجنس من مماليک الملک الناصر فرج، و هو أخو سونجبغا الناصرى، و أرنبغا هذا هو الأكبر، و تنقلت بأرنبغا هذا الأحوال إلى أن تأمّر فى دولة الملک الأشرف برسباى عشرة، و صار من جملة رءوس النّوب، و طالت أيّامه، و حجّ و جاور فى مكّة غير مرّة، ثم نقل فى الدّولة الظاهريّة جقمق إلى إمرة طبلخاناه، ثم صار فى أوائل دولة الأشرف إينال أمير مائة و مقدّم ألف، فلم تطل مدّته، و مات فى التاريخ المقدم ذكره، و كان أميرا شجاعا مقداما عارفا

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۶۴

بالحروب و أنواعها، إلا أنه كان مسرفا على نفسه مع قلّة تجمّل فى ملبسه و مماليكه و خدمه- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الأمير سيف الدين سمام الحسنى الظاهرى الحاجب الثانى، و أحد العشرات فى ليلة الاثنين سادس شهر ربيع الآخر، و دفن من الغد، و سنه نيّف على السبعين، و كان رجلا ساكنا قليل الخير و الشر، لا للسيف و لا للضيف.

و توفّى الشيخ الإمام المعتقد الواعظ شهاب الدين أحمد ابن الشيخ الإمام العارف بالله محمد وفاء الشاذلى المالكى المعروف بابن أبى الوفاء، فى يوم الأربعاء ثامن شهر ربيع الآخر، و دفن بتربتهم بالقرافة الصغرى، و كان جلس للوعظ و التذكير على عادتهم، و صار على وعظه أنس و قبول من الناس إلى أن مات- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى قاضى القضاة بدر الدين محمد ابن القاضى ناصر الدّين محمد ابن العلّامة شرف الدين عبد المنعم البغدادى الحنبلى، قاضى الديار المصرية و رئيسها، فى ليلة الخميس سابع جمادى الأولى، و دفن من الغد، و حضر الخليفة القائم بأمر اللّه حمزة الصلاة عليه بمصلّاة باب النصر، و دفن بالتّربة الصوفية، و كانت جنازته مشهودة، كثر أسف الناس عليه، لحسن سيرته و لعفتة عما يرمى به قضاة السوء، و مات و هو فى أوائل الكهولية، و كان له اشتغال و معرفة تامة بصناعة القضاء و الشروط و الأحكام، و أما سياسة الناس و محبته لأصحابه و كرمه و سؤدده فكان إليه المنتهى فى ذلک، و كان قامعا لشهود الزور و المناحيس، و بالجملة فكان بوجوده نفع للمسلمين- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الأمير الوزير سيف الدين تغرى بردى القلاوى الظاهرى قتيلا فى واقعة كانت بينه و بين سونجبغا الناصرى، و هى واقعة عجيبة، لأنهما تماسكا على الفرسين، فقتل الواحد الآخر، ثم قتل الآخر فى الحال، كلاهما مات على فرسه، و ذلک فى يوم السبت سادس عشر

جمادى الأولى، و قد ذكرنا واقعتهما فى تاريخنا «حوادث الدهور» مفصلا، فلينظر هناك، و كانت نسبته بالقلاوى إلى ناحية قلا، لما كانت إقطاعا لأستاذه الملك الظاهر جقمق

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۶۵

لما كان أميرا، و لم يكن تغرى بردى هذا مشكور السّيرة فى ولايته- عفا اللّه تعالى عنا و عنه.

و توفّى الأمير سونجبغا اليونسى الناصرى ببلاد الصعيد فى وقعته مع تغرى بردى القلاوى فى يوم واحد حسبما تقدم ذكره، و سنه زيادة على الستين، و هو أخو أرنبغا المقدم ذكره، غير أن أرنبغا كان مشهورا بالشجاعة و الإقدام، و سونجبغا هذا لا شجاعة و لا كرما.

و توفّى الشيخ عز الدين محمد الكتبى، المعروف بالعز التّكرورى، فى يوم الأربعاء سابع عشر بن جمادى الأولى، و كان معدودا من بياض الناس، له حانوت يبيع فيه الكتب بسوق الكتبيين، و كانت له فضيلة بحسب الحال.

و توفّى الأمير سيف الدين دولات باى المحمودى المؤيدى الدوادار كان، و هو أحد مقدّمى الألوف فى يوم السبت أوّل جمادى الآخرة، و دفن بالصحراء خارج القاهرة من يومه، و سنه أزيد عن خمسين سنة، و كان چاركسى الجنس جلبه خواجا محمد إلى الإسكندرية، فاشتراه منه نائبها الأمير آقبردى المنقار، و بلغ الملك المؤيّد شيخا ذلك، فبعث طلبه منه، فأرسله إليه، فأعتقه المؤيد- أن كان آقبردى ما كان أعتقه- و جعله خاصكيا ثم ساقيا فى أواخر دولته، فلما تسلطن الملك الأشرف برسباى عزله عن السّقاية، و دام خاصكيا دهرا طويلا، إلى أن صحب الأمير جانم الأشرفى قريب الملك الأشرف برسباى، ثم صاهره فتحرك سعده بصهارة جانم المذكور، و لا زال جانم به إلى أن نفعه بأن توجّه بتقليد نائب صفد و خلعته بعد أن كان خلص له إمرة عشرة من الملك الأشرف، مع بغض الأشرف فى دولات باى هذا، فلما أمسك جانم مع من أمسك من أمراء الأشرفية لم ينفعه دولات باى المذكور بكلمة واحدة، هذا إن لم يكن حط عليه فى الباطن، و لا أستبعد أنا ذلك لقرائن دلّت على ذلك.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۶۶

و لما تسلطن الملك الظاهر جقمق استقر بدولات باى هذا أمير آخور ثانيا، بعد مسك الأمير نخشباى الأشرفى و حبسه. ثم نقل [دولات باى] بعد أيام إلى الدوادارية الثانية، بعد الأمير أسنبغا الطّيّارى، بحكم انتقاله إلى إمرة مائة و تقدمة ألف، كلّ ذلك فى سنة اثنتين و أربعين و ثمانمائة.

فباشر [دولات باى] الدّوادريّة بحرمة وافرة، و نالته السعادة، و أثرى و جمع الأموال الكثيرة، و عمّر الأملاك الهائلة، إلى أن أنعم عليه السلطان بإمرة مائة و تقدمة ألف فى صفر سنة ثلاث و خمسين، بعد موت الأمير تمراز القرمشى الظاهرى، فلم تطل أيامه فى التقدمة.

و ولى [دولات باى] الدّوادريّة الكبرى- بمال بذله، نحو العشرة آلاف دينار- عوضا عن قانى باى الچركسى، بحكم انتقاله إلى الأمير آخورية الكبرى، بعد موت الأمير قراخجا الحسنى.

و لما ولى الدّوادريّة الكبرى خمدت ريحه، و انحطت حرمته، بالنسبة إلى ما كانت عليه أيام دواداريّته الثانية، و السببية واضحة؛ و هى أنه كان أوّلا مطلوبا، و الآن صار طالبا.

ثم سافر [دولات باى] أمير حاج المحمل بعد مدّة، و كان وليها مرّة أولى فى سنة تسع و أربعين، فهذه المرّة الثانية فى سنة ست و خمسين، و عاد فى سنة سبع و خمسين، و قد خلع الملك الظاهر جقمق نفسه من الملك و سلطن ولده الملك المنصور عثمان، فأقام فى دولة المنصور دوادارا على حاله، و قد خاف من صفير الصافر، فلم يكن بعد أيام إلا و قبض عليه فى يوم الخميس ثانى عشر صفر من السنة المذكورة، و حمل إلى الإسكندرية، فحبس بها شهرا و أياما، و أطلقه الملك الأشرف إينال، و أحضره إلى القاهرة، ثم أنعم عليه بعد مدة بإقطاع الأمير أرنبغا اليونسى، فلم تطل أيّامه إلا نحو الشهر، و مرض و مات فى التاريخ المقدّم ذكره.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۶۷

و لقد قال لى بعض الحذّاق إن سبب موته إنما كانت طربة يوم أمسك، و دامت الطّربة إلى أن قتلته. قلت: و أنا لا أستبعد هذا، لما

كان عنده من الجبن و الحذر، و عدم الإقدام، على أنه كان مليح الشكل، متجملا فى ملبسه و مركبه، و قورا فى الدول، إلا أنه لم يشهر بشجاعة و لا كرم فى عمره.

و توفّى الأمير سيف الدين قانصوه بن عبد اللّه النّوروزى أحد أمراء دمشق بها فى أواخر جمادى الأولى، و له من العمر نحو الستين سنة تخمينا، و كان أصله من مماليك الأمير نوروز الحافظىّ نائب الشّام، و صار خاصّكيا بعد موته فى الدولة المؤيّديّة شيخ، ثم تأمّر عشرة بعد موت المؤيّد، ثم صار أمير طبلخاناه فى دولة الظاهر ططر، و دام على ذلك سنينا كثيرة إلى أن أخرجه الملك الأشرف برسباى إلى نيابة طرسوس، ثم نقله إلى حجوبية حلب، ثم تقدمة ألف بدمشق، ثم خرج على الملك الظاهر جقمق، و وافق الأمير إينال الجكمى على العصيان، فلما كسر الجكمى اختفى قانصوه مدة، ثم ظهر و تنقّل أيضا فى عدة أماكن، و هو فى جميع ما يتحرّك فيه مخمول الحركات إلى أن مات، و كان مليح الشكل، و عنده شجاعة و معرفة برمى النشّاب، إلا أنه كان خاملا، ما أظنه ملك فى عمره ألف دينار، و لولا الحياء لقلت و لا سلّاريّا ثانيا، و فى هذا كفاية.

و توفّى الأمير سيف الدين قشتم بن عبد اللّه المحمودى الناصرى نائب البحيرة قتيلا فى واقعة كانت بينه و بين العربان الخارجة عن الطاعة فى أواخر شهر رجب، و قد ناهز الستين من العمر، و كان أميرا جليلا عاقلا حشما وقورا شجاعا مقداما كريما

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۶۸

متواضعا مليح الشكل، و هو ممن جمع بين الشجاعة و الكرم و التواضع- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الأمير سيف الدين بيغوت بن عبد اللّه من صفر خجا المؤيّدى الأعرج نائب صفد بها فى أواخر شعبان، و قد جاوز الستين، و كان أصله من مماليك المؤيّد شيخ فى أيام إمرته، و صار خاصّكيا بعد موته، إلى أن نفاه الملك الأشرف برسباى إلى الشام، ثم أنعم عليه بإمرة طبلخاناه بدمشق، ثم ولى نيابة حمص فى أوائل دولة الملك الظاهر جقمق مدّة، ثم نقل إلى نيابة صفد دفعة واحدة، بعد الأمير قانى باى الأبوبكرى الناصرى البهلوان، بحكم توجهه إلى نيابة حماة، ثم نقل بيغوت هذا إلى نيابة حماة، و وقع له مع أهل حماة أمور و شكاو آلت إلى تسحّبه من حماة و توجّهه إلى ديار بكر، بعد أن أمسك ولده إبراهيم بالقاهرة و حبس، و وقع له أيضا بديار بكر أمور و محن، و أمسك و حبس بقلعة الرّها، ثم أطلق و عاد طائعا إلى السلطان الملك الظاهر جقمق، و قدم القاهرة، ثم عاد إلى دمشق بطالا، إلى أن أنعم عليه بإمرة مائة و تقدمة ألف بها، بعد موت الأمير بردبك العجمى الجكمى، فدام على ذلك إلى أن نقله الظاهر إلى نيابة صفد ثانيا، بعد موت يشبك الحمزاوى، فدام بصفد إلى أن مات- رحمه اللّه- فى التاريخ المقدّم ذكره، و كان رجلا ديّنا مشهورا بالشجاعة و الإقدام، وقورا فى الدّول، و تولّى نيابة صفد بعده إياس المحمدى الناصرى الطويل.

و توفّى الشيخ المعتقد الصالح درويش- و قيل محمد، و قيل غيبى- الرومى، بظاهر خانقاه سرياقوس، فى يوم الاثنين ثالث ذى القعدة، و دفن شرقى الخانقاه المذكورة، و كان أصله من آقصراى، و كان مليح الشكل، منوّر الشّيبة، لا يدّخر شيئا،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۶۹

و حجّ غير مرة من غير زاد و لا راحلة، و هو أحد من أدركناه من الفقهاء الصلحاء- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الأمير سيف الدين حطط بن عبد اللّه الناصرى أتابك طرابلس بها فى أوائل ذى الحجة، و كان ولى نيابة قلعة حلب، ثم نيابة غزّة، كل ذلك بالبذل، فإنه كان لا للسيف و لا للضيف.

و توفّى الأمير سيف الدين على باى بن طراباى العجمى المؤيّدى أتابك حلب بها فى أواخر ذى الحجة، و هو فى عشر الستين، و كان أصله من مماليك المؤيّد شيخ، و بقى خاصّكيا أيام المؤيّد، و دام خاصّكيا عدّة دول إلى أن أنعم عليه الملك الظاهر جقمق فى أوائل دولته بإمرة عشرة، و جعله من جملة رءوس النوب، و صار له كلمة فى الدولة، و توجّه فى الرّسليّة من السلطان إلى أصبهان بن قرايوسف صاحب بغداد، ثم بعد عوده إلى القاهرة بمدّة نفاه الملك الظاهر إلى حلب على إمرة مائة و تقدمة ألف، ثم نقل إلى أتابكيّة حلب بعد سودون الأبوبكرىّ المؤيّدى لما ولى نيابة حماة، فدام على باى على ذلك إلى أن توفّى، و كان مليح الشكل، فصيح

العبارة، عارفا بأنواع الفروسیة، کریما جوادا إلا أنه کان مجازفا کذوبا مسرفا علی نفسه- عفا اللّه عنه.
أمر النیل فی هذه السنة: الماء القدیم- أعنی القاعدة- ثمانیة أذرع و خمسة أصابع- مبلغ الزیادة ثمانیة عشر ذراعا و اثنان و عشرون إصبعا.
النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۷۰

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۵۸]

السنة الثانیة من سلطنة الملک الأشرف إینال علی مصر و هی سنة ثمان و خمسین و ثمانمائة
فیها توفّی الأمیر سیف الدین یلبغا بن عبد اللّه الچارکسی، أحد أمراء الطبلخانات- بطّالا- بعد مرض طویل فی یوم السبت رابع شهر ربیع الآخر، و کان ترکی الجنس أصله من ممالیک چارکس القاسمی المصارع، ثم صار بعد موت أستاذه خاصکیّا، و دام علی ذلک سنین طویلة لا یلتفت إلیه فی الدولة، و قد شاخ و صار یخضب لحیته بالسواد، إلی أن تحرّک سعده و سعد خچداشه قانی بای الچارکسی بسلطنة الملک الظاهر جقمق، فإنه کان أخا چارکس أستاذ هؤلاء المخامیل.
فلما تسلطن جقمق أمّر یلبغا هذا إمرة عشرة، و جعله رأس نوبة لولده المقام الناصری محمد.
ثم ولّاه نیابة دمیاط، ثم عزله و جعله أمیر طبلخاناه، فدام علی ذلک إلی أن أخرج الملک الأشرف إینال إقطاعه- فنعم ما فعل- فاستمرّ بطّالا إلی أن مات کما تقدّم ذکره، و کان من مساوئ الدهر- رحمه اللّه تعالی.
و توفّی القاضی ناصر الدین محمد ابن قاضی القضاة فخر الدین أحمد بن عبد اللّه الشهیر بابن المخلّطة، أحد أعیان فقهاء المالکیة و نوّاب الحکم، و ناظر البیمارستان المنصوری، فی یوم الأحد تاسع عشرین شهر ربیع الآخر، و کان
النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۷۱
فقیها عالما بمذهبه، عارفا بصناعة القضاء و الشروط و الأحکام، ناب فی الحکم من سنة سبع عشرة و ثمانمائة إلی أن مات، و حمدت سیرته- رحمه اللّه تعالی.
و توفی المقام الغرسی خلیل ابن السلطان الملک الناصر فرج ابن السلطان الملک الظاهر برقوق بن الأمیر آنص الچارکسی الأصل، بثغر دمیاط فی یوم الثلاثاء ثانی عشر جمادی الأولی، و مولده بقلعة الجبل فی سنة أربع عشرة و ثمانمائة، و أمه أم ولد تسمی «لا أفلح من ظلم» مولّدة، و بقی بقلعة الجبل إلی أن أخرجه الملک المؤید شیخ مع أخیه محمد ابن الناصر فرج إلی الإسکندریة فحبسا بها إلی أن سألت عمتهما خوند زینب بنت الملک الظاهر برقوق زوجها الملک المؤید شیخا فی إحضارهما من الإسکندریة إلی قلعة الجبل لتختهما فحضرا إلی الدیار المصریة، و ختنا بقلعة الجبل، ثم أعیدا إلی الإسکندریة، و داما بها بسجنها إلی أن مات أخوه محمد فی طاعون سنة ثلاث و ثلاثین، فأخرج خلیل هذا من السجن، و رسم له بأن یسکن حیث شاء بثغر الإسکندریة، و أن یرکب لصلاة الجمعة لا غیر، فبقی علی ذلک إلی أن رسم له الملک الظاهر جقمق- بعد أن تأهل بکریمتی- أن یرکب إلی جهة باب البحر، و یسیر.
ثم أذن له بعد ذلک بالحج، و قدم القاهرة فی شوال سنة ست و خمسین، و حج فی موسم السنة المذکورة.
ثم عاد و قد خلع الملک الظاهر نفسه، و تسلطن ولده الملک المنصور عثمان، فرسم له المنصور فی یوم دخوله من الحج بالتوجه إلی الإسکندریة، فطلب هو دمیاط، فرسم له بها.
و خرج إلیها من یومه قبل أن یحل عن أحماله، فلم تطل مدّته بثغر دمیاط و مات فی التاریخ المذکور، و دفن بدمیاط أیّاما، ثم نقل إلی بولاق.
النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۷۲

ثم نقل إلى القاهرة، و دفن عند جدّه الملك الظاهر برقوق بالصحراء، و كان فى نفسه أمور توفاه اللّه قبل أن ينالها، و أنا أعرف بحاله من غيرى، غير أننى لا أشكر و لا أذم، و فى هذا كفاية.

و توفّى القاضى شمس الدين محمد بن عامر قاضى قضاة المالكية بصفد، فى أوائل جمادى الآخرة، و كان معدودا من فقهاء المالكية، و ناب فى الحكم بالقاهرة سنين كثيرة، و ولى قضاء الإسكندرية غير مرة- رحمه اللّه تعالى

و توفّى الشريف معز [ابن هجار بن وبير] أمير ألينبع فى أواخر جمادى الآخرة و توفى بعده ابن أخيه مقبل

و توفّى الأمير جانبك بن عبد اللّه الزّينى عبد الباسط بالقاهرة فى يوم الأربعاء لعشر بقين من شهر رجب، و كان من مماليك الزّينى عبد الباسط بن خليل، و ولى الأستادارية فى أيام أستاذه حسّا، و معناه أستاذه، و لولا أنه فى الجملة ولى الأستادارية لما ذكرناه فى هذا المحل.

و توفّى قاضى القضاة الحنابلة بحلب، مجد الدين سالم بن سلامة الحنبلى خنقا بقلعة حلب بالشرع فى الظاهر، لكونه قتل رجلا بيده ممن اتهم بالزندقة، و القتل من قبل الحكم- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الأمير سليمان بن ناصر الدين بك بن دلغادر نائب ابلستين بها فى باكر يوم الأربعاء ثالث شهر رمضان، و تولى أبلستين بعده ابنه ملك أصلان.

و توفّى الأمير سودون بن عبد اللّه الجكمى، أحد أمراء العشرات، بطّالا بالقاهرة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۷۳

فى يوم السبت رابع ذى القعدة، و هو أخو إينال الجكمى نائب الشام، و هو الأصغر، و بسببه تخومل حتى مات، و كان من أعيان الدّولة، و ممّن له ذكر و سمعة- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى قاضى القضاة الحنفية بدمشق قوام الدين محمد الدمشقى المولد و الوفاة، الحنفى المذهب، بدمشق فى ثامن ذى القعدة، و مولده فى ثامن ذى القعدة، و مولده فى ثامن ذى القعدة سنة ثمانمائة، و كان فقيها فاضلا ديّنا خيّرا مشكور السيرة، و هو من القضاة الذين ولوا من غير بذل، و مات غير قاض- رحمه اللّه.

و توفّى المعلم ناصر الدين محمد الصغير القازانى، المعروف بمحمد الصغير، معلم رمى النشاب، فى ليلة الجمعة ثالث عشرين ذى الحجة، و قد زاد سنه على الثمانين، و مات و لم يخلف بعده مثله فى حسن الرمى و تعليمه و علومه، و هو أحد الأفراد الذين أدركناهم من أرباب الكمالات- رحمه اللّه تعالى.

أمر النيل فى هذه السنة: الماء القديم سبعة أذرع و خمسة عشر إصبعا، مبلغ الزيادة تسعة عشر ذراعا و أحد عشر إصبعا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۷۴

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۵۹]

السنة الثالثة من سلطنة الملك الأشرف إينال على مصر و هى سنة تسع و خمسين و ثمانمائة.

فيها توفى الأمير سيف الدين مغلباى بن عبد اللّه الشهابى، أحد أمراء العشرات- بطالا بالقاهرة- فى ليلة الخميس عاشر المحرم، و كان أصله من مماليك الشهابى أحمد بن جمال الدين الأستادار، ثم أعتقه الملك الناصر فرج، ثم صار خاصّكيا فى الدولة الأشرفية برسباى، ثم تأمر فى دولة الملك الظاهر جقمق، و صار من حزب ولده الملك المنصور فى الفتنة مع الأشرف إينال، فأخرج إينال إقطاعه بهذا المقتضى و دام بطّالا إلى أن مات، و كان عاقلا ساكنا لا بأس به- رحمه اللّه تعالى.

و توفى الأمير سيف الدين جلبّان بن عبد اللّه الأمير آخور نائب الشام بها فى يوم الثلاثاء سادس عشر صفر، و قد ناهز الثمانين من العمر تخمينا، و فى معتقه و جنسه أقوال كثيرة، أما معتقه فقيل إنه من عتقاء الأمير تنبك الأمير آخور الظاهرى، و قيل سودون طاز، و

قيل إينال حطب، و أما جنسه فالمشهور أنه چاركسى الجنس، و قيل غير ذلك، ثم خدم جلبّان المذكور عند الأمير چاركس القاسمى المصارع، ثم عند الوالد، ثم عند الملك المؤيّد شيخ أيام إمرته، فلما تسلطن المؤيد جعله أمير آخور ثالثا، ثم أنعم عليه بإمرة مائة و تقدمة ألف بالدّيار المصريّة، ثم خرج إلى البلاد الشّاميّة مجرّدا إليها مع من خرج من الأمراء، صحبة الأتابك ألطنبغا القرمشى، و قبض عليه مع من قبض عليه من الأمراء المؤيّدية، و حبس بالبلاد الشّامية إلى أن أطلقه الملك الأشرف برسباى، و جعله أمير مائة و مقدّم ألف بدمشق.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۷۵

ثم نقله إلى نيابة حماة بعد الأمير جارقطلوا بحكم انتقاله إلى نيابة حلب بعد الأمير تنبك البجاسى المنتقل إلى نيابة الشّام، بعد موت الأمير تنبك ميق العلائى، فى رجب سنة ست و ثلاثين و ثمانمائة، و دام جلبّان على نيابة حماة سنين كثيرة إلى أن نقله الملك الأشرف برسباى إلى نيابة طرابلس بعد موت الأمير طرباى فى شعبان سنة ثمان و ثلاثين و ثمانمائة و تولّى بعده الأمير قانى باى الحمزاوى.

ثم نقله الملك الظاهر جقمق إلى نيابة حلب بعد عصيان الأمير تغرى برمش التركمانى فى سلخ شهر رمضان سنة اثنتين و أربعين و ثمانمائة.

و تولى بعده طرابلس قانى باى الحمزاوى أيضا فلم تطل مدته بحلب، و نقل إلى نيابة دمشق بعد موت الأتابك آقبغا التّمرازى فى شهر ربيع الآخر سنة ثلاث و أربعين، و تولى بعده حلب الأمير قانى باى الحمزاوى.

فدام فى نيابة دمشق عدّة سنين إلى أن مات فى التاريخ المذكور، و تولى بعده نيابة دمشق قانى باى الحمزاوى، و كانت مدة نيابته على دمشق خمس عشرة سنة، و هذا شيء لم يقع لغيره من نواب دمشق بعد الأمير تنكز الناصرى.

و فى ترجمته غريبة أخرى، و هى أنه لم ينتقل من نيابة إلى الأخرى فى هذه المدة التى تزيد على ثلاثين سنة إلا و يستقر بعده قانى باى الحمزاوى و مع أن قانى باى الحمزاوى لم تطل مدته فى الولايات، و حضر إلى الديار المصرية أميرا، و أقام بها سنين، ثم عاد إلى نيابة حلب بعد أن وليها غير واحد بعده، فلما تولّى قانى باى الحمزاوى حلب ثانيا مات جلبّان هذا بعد مدّة، فنقل قانى باى إلى نيابة دمشق بعده على العادة. فهذا اتفاق غريب لعله لم يقع لغيرهما فى هذه السنين الطويلة و الولايات الكثيرة، و كان جلبّان المذكور من أجلّ الملوك، طالت أيامه فى السعادة، و تنقل فى ولايات جليلة، إلى أن مات- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الصاحب أمين الدين إبراهيم ابن الرئس مجد الدين عبد الغنى بن الهيصم- بطّالا- فى ليلة الخميس مستهل شهر ربيع الآخر، و قد قارب الستين من العمر، و كان معدودا من

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۷۶

رؤساء الدّيار المصرية، من بيت رئاسة و كتابة، و جدّهم الهيصم ينسب إلى المقوقس صاحب مصر، و قد ولى الصاحب أمين الدين هذا الوزر غير مرة، و حج و تفقّه على مذهب الحنفية، و كان محبا للفقراء و أهل الخير محبة زائدة، و كان مشهورا بالصلاح، و كان يتجنّب النصارى، و لا يتزوج إلا من المسلمات، و بالجملة فإنه نادرة فى أبناء جنسه، و له محاسن كثيرة- رحمه اللّه تعالى.

و توفى الأمير يشبك بن عبد اللّه الناصرى أحد أمراء الطّبلخانات و رأس نوبة ثان، فى يوم الأحد ثامن عشر صفر، و قد ناهز السبعين، و كان من مماليك الناصر فرج، و خدم فى أبواب الأمراء بعد موت أستاذه، و انحط قدره إلى أن عاد إلى خدمة السلطان بعد موت الملك المؤيّد شيخ، و صار خاصّكيا إلى أن تأمر عشرة فى أوائل سلطنة الملك الظاهر جقمق، و صار من جملة رءوس النّوب، و دام على ذلك إلى أن نقله الملك المنصور عثمان إلى إمرة طبلخاناه بعد انتقال جانبك القرمانى إلى طبلخاناه الأمير يونس الأقبائى المشد بحكم انتقال يونس إلى تقدمة ألف.

ثم صار فى دولة الملك الأشرف إينال ثانى رأس نوبة النّوب، فدام على ذلك إلى أن مات فى التاريخ المقدم ذكره، و كان يشبك

المذكور من مساوئ الدهر، لا دنيا و لا دينا، و لا ذاتا و لا أدوات- عفا اللّه عنا و عنه.

و توفى الأمير سيف الدين خير بك بن عبد اللّه المؤيدى الأجرود، أحد مقدمى الألوف بالديار المصرية فى يوم الاثنين تاسع عشرين شهر ربيع الآخر، و هو فى حدود الستين، و حضر المقام الشهابى أحمد بن السلطان الصلاة عليه بمصلاة المؤمنى، و كان أصله من مماليك الملك المؤيّد شيخ، و ترقى بعده حتى صار خاصّكيا فى دولة الملك الأشرف برسباى.

ثم نفاه الأشرف إلى الشّام، و أنعم عليه بإمرة طبلخاناه، ثم صار أمير مائة و مقدّم ألف بدمشق، ثم صار أتابكا بها، ثم أمسك و حبس إلى أن أطلقه الأشرف إينال، فقدم القاهرة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۷۷

ثم صار أمير مائة و مقدّم ألف بها إلى أن مات، و استريح منه، لأنه كان أيضا من مقولة يشبك المقدّم ذكره، بل يزيده سوء الخلق و الجنون.

و توفّى شاعر العصر الشيخ شمس الدين محمد بن حسن بن على بن عثمان الشافعى الفقيه النّواجى، الشاعر المشهور فى يوم الأربعاء سادس عشرين جمادى الأولى، و مولده بالقاهرة فى سنة ثمان و ثمانين و سبعمائة، و أصله من نواج- قرية بالغربية، من عمل الوجه البحرى من القاهرة- و نشأ بالقاهرة، و قرأ و اشتغل إلى أن مهر و برع فى عدة علوم و فنون، و غلب عليه نظم القريض، حتى قال منه أحسنه، و أنشدنى كثيرا من شعره، و مما أنشدنى من لفظه لنفسه- رحمه اللّه تعالى قوله:

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة؛ ج۱۶؛ ص۱۷۷

[الوافر]

طلبت وصاله، فدنا لحربى يهزّ من القوام اللّدن رمحا

و سلّ من اللواحظ مشرفيّا ليضرب، قلت: لا بالله صفحا

و مما أنشدنى لنفسه أيضا:

[الطويل]

خليلىّ: هذا ربع عزّة، فاسعيا إليه و إن سالت به أدمعى طوفان

فجفنى جفا طيب المنام و جفنها جفانى، فياللّه من شرك الأجفان

و قد استوعبنا من لفظه و شعره قطعة جيدة فى ترجمته فى تاريخنا «المنهل الصافى و المستوفى بعد الوافى»، و أيضا فى تاريخنا «حوادث الدهور فى مدى الأيام و الشهور» إذ هما محل الإطناب- انتهى.

و توفّى الشيخ المعتقد المجذوب محمد المغربى فى صبيحة يوم الجمعة خامس جمادى الآخرة، و دفن من يومه قبل صلاة الجمعة بتربة السلطان الملك الأشرف إينال التى أنشأها

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۷۸

بالصحراء، و كان يجلس داخل باب النصر على باب قاعة البغاددة تحت الساباط، تجاه الرّبع المعروف قديما بدار الجاولى، بالقرب من باب جامع الحاكم، و أقام بالموضع سنين كثيرة، لا يقوم منه صيفا و لا شتاء و هو جالس على مكان عال، و تحته حجارة، و تأتيه الناس بالمأكل و المشرب، و لهم فيه اعتقاد حسن، و كنت أزوره من بعد، خوفا مما كان حوله من النجاسة، و كانت جذبته مطبقة، و الغريب أنه وجد له بعد موته فى المكان الذى كان يجلس عليه جملة كبيرة من الذهب و الفضة، و هذا من الغريب العجيب، فإنه لم يكن فى جذبته شكّ، فكيف يهتدى لجمع المال، و أنا أقول شيئا، و هو أن المغاربة فى الغالب يميلون لجمع المال، فلعله كان هو أيضا يميل لجمع المال بالطبع على قاعدة المغاربة، و اللّه أعلم.

و توفّى القاضى الرئيس صلاح الدين محمد المعروف بابن السابق الحموى الشافعى، كاتب سر حلب ثم دمشق، و بها مات بطّالا بعد

مرض طويل فى يوم الأحد ثامن عشرين جمادى الآخرة عن أربع و ثمانين سنة، و مولده بحماة، و بها نشأ، و تنقل لعدّة وظائف سنية، و كان مشكور السيرة فى ولايته مع الدين و التقوى و الأدب و الحشمة و الرياسة- رحمه اللّه تعالى.

و توفى القاضى محبّ الدين محمد ابن الشيخ الإمام زين الدين أبى بكر القمنى الشافعى، فى يوم الاثنين رابع عشر شهر رجب- رحمه اللّه.

و توفيت خوند شاه زاده بنت الأمير أرخن بك بن محمد بك كرشجى بن عثمان ملك الروم، فلما كبرت تزوجت الملك الأشرف برسباى، ثم تزوجها بعده الملك الظاهر جقمق، ثم تزوجها بعده الأمير برسباى البجاسى، فماتت تحته- رحمها اللّه تعالى.

و توفى السيد الشريف زين الدين أبو زهير بركات بن حسن بن عجلان بن رميثة ابن منجد بن أبى نمى‌محمد بن أبى سعيد حسن بن على بن أبى غرير قتادة بن إدريس ابن مطاعن بن عبد الكريم بن عيسى بن حسين بن سليمان بن على بن عبد اللّه بن محمد

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۷۹

ابن موسى بن عبد اللّه المحض بن موسى بن الحسن بن على بن أبى طالب المكى الحسنى أمير مكّة فى بطن مرّ خارج مكة، فى يوم الاثنين تاسع شعبان، و حمل إلى مكة فصلى عليه بالحرم، و طيف به على النعش أسبوعا على عادة أشراف مكة، و دفن بالمعلاة و ولى إمرة مكة بعده ابنه الشريف محمد.

و كان مولد بركات بمكة سنة إحدى و ثمانمائة، و أمّه أم كامل بنت النصيح من ذوى عمر، و ولى إمرة مكة شريكا لأبيه و أخيه أحمد سنة عشر و ثمانمائة، ثم استقل بإمرة مكة فى سنة تسع و عشرين من قبل الملك الأشرف برسباى، فدام على إمرة مكة إلى أن عزله الملك الظاهر جقمق بأخيه على بن حسن فى سنة خمس و أربعين.

و خرج بركات هذا إلى البر من جهة اليمن، و وقع له أمور ذكرناها فى «الحوادث»، ثم عزل على عن إمرة مكة بأخيه أبى القاسم بن حسن بن عجلان- كل ذلك و بركات مخرج- إلى أن قدم بركات الديار المصرية، و ولّاه الملك الظاهر جقمق إمرة مكة على عادته. و كان لقدومه القاهرة يوم مشهود، و أقام بالقاهرة مدة ثم عاد إلى مكة، فدام بها إلى أن مات فى التاريخ المذكور، و كان رجلا عاقلا ساكنا شجاعا مشكور السيرة، أهلا للإمرة- إن لم يكن زيديا على عادة أشراف مكة- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الأمير سيف الدين جانبك بن عبد اللّه الشمسى المؤيدى أحد أمراء دمشق، فى أواخر ذى القعدة أو أوائل ذى الحجة، و كان أصله من مماليك المؤيد شيخ، اشتراه قبل سلطنته و أعتقه، و صار بعد موت أستاذه من جملة أمراء طرابلس، ثم نقل إلى حجوبية حجاب حلب، ثم عزل، و صار من أمراء الطبلخانات بدمشق إلى أن مات.

و توفّى الشيخ الإمام العالم العلامة محب الدين محمد ابن العلامة زادة- و اسم زادة أحمد- بن أبى يزيد محمد السيرامى الحنفى المصرى سبط الأقصرائى المعروف بابن مولانا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۸۰

زادة، إمام السلطان، و شيخ المدرسة الأيتمشية بمكة المشرفة، فى يوم الجمعة ثالث ذى الحجة، و مولده بالقاهرة فى سنة إحدى و تسعين و سبعمائة- هكذا ذكر لى، و كتب بخطه.

قلت: و نشأ بالقاهرة، و قرأ القرآن الكريم و عدة مختصرات فى فنون كثيرة، و تفقه بجماعة من علماء عصره، مثل الشيخ عز الدين بن جماعة و غيره، ذكرنا غالبهم فى تاريخنا «الحوادث» و برع فى عدة علوم، و أفتى و درّس، و تولى الوظائف الدينية، ثم ولى [وظيفة] إمام السلطان الملك الأشرف برسباى، فدام على ذلك مدة سنين و أمّ بعدة ملوك إلى أن رغب هو عن ذلك و تركه، و قعد بداره ملازما الأشغال و الاشتغال إلى أن قصد المجاورة فى هذه السنة بمكة المشرفة، و كانت منيته بها بمرض البطن- رحمه اللّه تعالى- و هو ابن أخت العلامة فريد عصره أمين الدين الأقصرائى الحنفى.

و توفّى الأمير سيف الدين آقبردى بن عبد اللّه الساقى الظاهرى نائب ملطية بها فى يوم الخميس خامس عشرى ذى الحجة، و حمل

من ملطيـة إلى حلب، و دفن بتربته التى عمّرهـا، و مـات و له من العمر نحو ثلاـثين سـنة، و أصـله من مماليـک الملـک الظـاهر جقمق الصّـغار، و صار ساقيا فى أيّامه، ثم نائب قلعة حلب دفعة واحدة، فدام على ذلک إلى أن نقله الملک الأشـرف إينال إلى أتابكيّة حلب فى سنة ثمان و خمسين، ثم نقل إلى نيابة ملطية، فمات بها فى التاريخ المقدم ذكره، و كان لا بأس به، و لم تطل أيّامه لتشكر أفعاله أو تذمّ- رحمه اللّه تعالى.

أمر النيل فى هذه السنة: الماء القديم سبعة أذرع و خمسة أصابع، مبلغ الزيادة تسعة عشر ذراعا و أربعة عشر إصبعا.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۸۱

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۶۰]

السنة الرابعة من سلطنة الملک الأشرف إينال العلائى على مصر و هى سنة ستين و ثمانمائة:

فيها توفّى القاضـى شهاب الدين أحمد المحلى الشافعى قاضى الإسكندرية بقرية إدكو بالمزاحمتين فى ليلة الثلاثاء ثالث عشر جمادى الآخرة، و دفن برشيد، و هو فى عشر السبعين، و كان كثير المال قليل العلم- رحمه اللّه.

و توفّى القاضـى ظهير الـدين محمـد ابن قاضـى القضاة أمين الـدين عبـد الوهاب ابن قاضـى القضاة شـمس الـدين محمد بن أبى بكر الطرابلسـى الحنفى أحد نوّاب الحكم بمصر- معزولا- بعد مرض طويل، فى يوم الجمعة سادس عشرين شعبان، و دفن من الغد، و كان مشكور السيرة فى أحكامه، محبا لأصحابه- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الأمير أسنباى بن عبد اللّه الجمالى الظاهرى الدّوادار الثانى كان، بطّالا بالقدس فى شعبان، و سنّه دون الأربعين، و كان الملک الظاهر جقمق اشتراه فى أيام سـلطنته، و جعله خاصـكيا، ثم سـلاحدارا، ثم ساقيا، ثم أمّره عشـرة، ثم صار فى الدولـة المنصورية عثمان دوادارا ثانيـا عوضا عن تمربغا الظاهرى، فلم تطل مـدته غير أيام، و وقعت الفتنـة بين المنصور و بين الأتابک إينال، و هرب أسـنباى و اختفى، ثم ظهر و رسم له بـالتوجّه إلى القـدس، فـدام بالقـدس بطالا إلى أن مات، و هو من مقولـة آقبردى المقـدّم ذكره- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الأمير قانى باى بن عبد اللّه الناصرى الأعمش نائب قلعة الجبل بها فى ليلة الخميس سابع عشرى ذى القعدة، و عمره زيادة على الستين، و كان أصله من مماليک

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۸۲

الناصر فرج، و صار خاصّكيّا بعد موت المؤيّد شيخ، ثم تأمّر عشرة فى دولة الملک الظاهر جقمق، و صار من جملة رءوس النوب، إلى أن ولّاه الملک الأشـرف إينال نيابـة القلعـة بعـد توجّه يونس العلائى الناصـرى إلى نيابة الإسـكندرية فى شـهر ربيع الأوّل سـنة سبع و خمسين، فدام فى نيابة القلعة إلى أن مات فى التاريخ المذكور، و كان من المهملين المرزوقين.

و توفّى الأمير سـيف الـدين جانبک بن عبـد اللّه المحمودى المؤيّدى، أحد أمراء طرابلس بها فى أواخر ذى القعدة و قد قارب الستين من العمر، و هو أخو قانى بک المحمودى المؤيّدى، كان من عتقاء الملک المؤيّد شيخ، و صار خاصّكيّا فى دولة المظفر أحمد أو فى دولـة الظاهر ططر، ثم تأمّر عشـرة فى أوائل دولـة الملک الظاهر جقمق، و صار من جملـة رءوس النوب، و بقى له كلمـة فى الدّولة، و زادت حرمته إلى أن كان منها زوال نعمته، و أمسک و حبس بقلعـة الجبل، ثم أخرج أميرا بحلب، ثم حبس أيضا بحلب ثانيا مـدّة، ثم أطلق و أعطى إمرة طبلخاناه بطرابلس، فـدام بطرابلس إلى أن مات، و أحواله و أخلاقه مشـهورة لا حاجة لنا فى ذكر شـىء من ذلک- عفا اللّه عنا و عنه.

و فى هذه السـنة زالت دولة بنى رسول ملوک اليمن من اليمن بعد ما حكموا ممالک اليمن نحوا من مائتين و ثلاثين سـنة، و قد ذكرنا أسـماء جميع ملوک اليمن منهم، من أولهم الملک المنصور أبى الفتـح عمر بن على بن رسول إلى آخر من ملک منهم، و هو الملک

المسعود، و قد ملك اليمن جميعه الآن شخص من العرب يسمى عبد الوهاب بن طاهر، و استوثق أمره بها.

أمر النيل فى هذه السنة: الماء القديم سبعة أذرع و ستة عشر إصبعا، مبلغ الزيادة تسعة عشر ذراعا و اثنا عشر إصبعا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۸۳

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۶۱]

السنة الخامسة من سلطنة الملك الأشرف إينال العلائى على مصر و هى سنة إحدى و ستين و ثمانمائة:

فيها توفّى الأمير سيف الدين جانم بن عبد اللّه المؤيّدى أحد أمراء العشرات و رأس نوبة فى يوم الخميس رابع المحرم، و قد جاوز السبعين من العمر، و كان أصله من مماليك الملك المؤيّد شيخ قبل سلطنته، و صار رأس نوبة السقاة بعد موت أستاذه المؤيّد، ثم تأمّر عشرة فى دولة الملك الأشرف إينال، ثم صار من جملة رءوس النوب، فدام على ذلك إلى أن مات، و كان هينا لينا حشما- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الأمير سيف الدين جرباش بن عبد اللّه الكريمى الظاهرى أمير سلاح بطالا بداره بسويقة الصاحب داخل القاهرة فى ليلة السبت ثالث عشر المحرم، و قد شاخ و كبر سنّه حتى عجز عن الحركة إلا بعسر، و دفن بتربته التى أنشأها بالصحراء، و كان يعرف بقاشق، و كان أصله من مماليك الظاهر برقوق، أعتقه قبل واقعة الناصرى و منطاش فى سلطنته الأولى، هكذا ذكر لى من لفظه.

ثم صار سلاحدارا فى دولة الناصر فرج، ثم أمير عشرة و رأس نوبة، ثم صار أمير طبلخاناه فى دولة الملك المؤيّد شيخ، ثم أمير مائة و مقدّم ألف، ثم صار فى دولة الأشرف برسباى حاجب الحجاب بالديار المصرية، بعد انتقال الأمير جقمق العلائى إلى الأمير آخورية الكبرى، بعد توجه قصروه من تمراز إلى نيابة طرابلس، بعد عزل إينال النّوروزى و قدومه إلى القاهرة أمير مائة و مقدّم ألف، كل ذلك فى سنة ست و عشرين و ثمانمائة، ثم نقله الأشرف إلى إمرة مجلس فى يوم الاثنين خامس عشر شوال سنة تسع و عشرين، عوضا عن الأمير إينال الجكمى، و قد انتقل الجكمى إلى إمرة سلاح بعد انتقال الأتابك يشبك الساقى الأعرج إلى أتابكية العساكر، بعد موت الأتابك قجق، و استقرّ الأمير قرقماس الشّعبانى حاجب الحجاب بعد موت جرباش هذا، ثم ولى جرباش هذا نيابة طرابلس، بعد انتقال قصروه إلى نيابة حلب،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۸۴

بعد عزل الأمير جارقطلو و قدومه إلى مصر أمير مائة و مقدّم ألف و أمير مجلس عوضا عن جرباش المذكور، فلم تطل مدة جرباش بطرابلس، و عزل عنها بالأمير طراباى الظاهرى، و قدم إلى القاهرة فى سنة إحدى و ثلاثين و ثمانمائة أمير مجلس على عادته أولا.

و قد انتقل جارقطلو عن إمرة مجلس إلى أتابكية العساكر بالديار المصرية، بعد موت الأتابك يشبك الساقى الأعرج، فلم تطل مدّة جرباش بالقاهرة، و قبض عليه، و نفى إلى ثغر دمياط بطّالا- فدام بالثغر دهرا طويلا- إلى أن طلبه الملك الظاهر جقمق فى أوائل سلطنته، و جعله أمير مجلس ثالث مرّة، عوضا عن الأمير يشبك السودونى المنتقل إلى إمرة سلاح، بعد انتقال الأمير آقبغا التمرازى إلى أتابكية العساكر بالديار المصرية بعد عصيان قرقماس الشّعبانى و القبض عليه و سجنه بالإسكندرية، و ذلك فى سنة اثنتين و أربعين و ثمانمائة، فدام على إمرة مجلس إلى سنة ثلاث و خمسين، فنقل إلى إمرة سلاح بعد موت الأمير تمراز القرمشى.

و تولّى بعده إمرة مجلس تنم من عبد الرزّاق المؤيدى المعزول عن نيابة حلب، فلم يزل على ذلك إلى أن أخرج الملك المنصور عثمان إقطاعه إلى الأمير قراجا الخازندار الظاهرى- و وظيفته إمرة سلاح- إلى الأمير تنم المقدم ذكره، فلزم جرباش من يوم ذلك داره إلى أن مات، و كان رحمه اللّه تعالى وقورا فى الدول، طالت أيامه فى السعادة، و دام أميرا أكثر من خمسين سنة، بما فيها من العطلة، و كان منهمكا فى اللذات التى تهواها النفوس مع عدم شهرته بالشجاعة، و ذلك خرج الملوك لطلب الراحة- انتهى.

و توفّى الأمير سيف الدين يشبك بن عبد اللّه حاجب حجّاب طرابلس فى يوم الأربعاء ثالث المحرم، و كان من مماليك الأمير قانى

باى البهلوان، و سعى بعد موت

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۸۵

أستاذه إلى أن ولى حجوبيّة طرابلس بالبذل، فلم تطل أيامه، و مات و لم تكن فيه أهلية لتشكر أفعاله أو تذمّ.

و توفّى الأمير الطواشى الرومى زين الدين عبد اللطيف المنجكى ثم العثمانى، مقدّم المماليک السلطانية- كان- بطالا، فى ليلة الجمعة رابع عشرين صفر و قد أسنّ، و كان من خدّام الست فاطمة بنت الأمير منجک اليوسفى و عتيقها، ثم اتّصل بخدمة الأتابک ألطنبغا العثمانى، و به عرف بالعثمانى، ثم صار من جمدارية السلطان الخاص، إلى أن ولّاه الملک الظاهر جقمق تقدمة المماليک السلطانية بعد القبض على الأمير الطواشى خشقدم اليشبكى، فدام على ذلک عدّة سنين، و حجّ مرتين أمير الركب الأوّل، و لما عاد من الثانية فى سنة اثنتين و خمسين عزله السلطان بنائبه الأمير جوهر النّوروزى الحبشى، فدام بطالا إلى أن مات، و كان ديّنا خيّرا لا بأس به، رحمه اللّه تعالى.

و توفّى قاضى القضاة سراج الدين عمر بن موسى الحمصى الشافعى فى صفر بطالا، و قد أناف على الثمانين، و كان مولده بحمص و بها نشأ و طلب العلم، و قدم القاهرة و حضر دروس السّراج البلقينى، و ناب فى الحكم عن ولده قاضى القضاة جلال الدين عبد الرحمن سنين كثيرة، ثم ولى القضاء بالوجه القبلى، ثم نقل إلى قضاء طرابلس، ثم قضاء حلب، ثم قضاء دمشق غير مرّة، و رشّح هو نفسه لقضاء الديار المصرية و كتابة السرّ بها فلم يقع له ذلک، ثم ولى فى أواخر عمره تدريس مقام الإمام الشافعى، ثم عزل و أخرج إلى البلاد الشاميّة فمات بها، و كان يستحضر من فروع مذهبه طرفا، و له نظم بحسب الحال، و هو الذى كان نظم صداق كريمتى على قاضى القضاة جلال الدين البلقينى أكثر من ثلاثمائة بيت- رحمه اللّه تعالى.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۸۶

و توفّى قاضى قضاة مكة و عالمها جلال الدين أبو السعادات محمد بن أبى البركات محمد بن أبى السعود محمد بن الحسين بن على بن أبى أحمد بن عطية بن ظهيرة المكى المخزومى الشافعى بمكة، و هو قاض، فى تاسع صفر، و دفن من الغد.

و تولّى قضاء مكة بعده ابنه محب الدين محمد، و كان مولده فى سلخ شهر ربيع الأول سنة خمس و تسعين و سبعمائة بمكة، و بها نشأ و تفقه بعلماء عصره، إلى أن برع فى عدة علوم، و شارک فى عدة فنون، و نعت بعالم الحجاز، و تولى قضاء مكة غير مرة، و قد ذكرنا مشايخه و عدة وقائعه فى تاريخنا «حوادث الدهور»، و ذكرنا أيضا مصنفاته، و كان له نظم جيد، و مما أنشدنى من لفظه لنفسه فى القاضى كمال الدين ابن البارزى كاتب السّرّ الشريف بالديار المصرية: [السريع]

أبرزه اللّه بلا حاجب يحجبه عنا و لا حاجز

فكلّ فضل من جميع الورى مكتسب من ذلک البارزى

و توفّى الأمير سيف الدين إينال بن عبد اللّه الأشرفى الطويل أحد أمراء الخمسات، فى يوم الجمعة ثالث عشر جمادى الأولى- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الأمير سيف الدين نوكار بن عبد اللّه الناصرى، أحد أمراء العشرات، و الزّردكاش، فى أواخر جمادى الآخرة- مجردا إلى بلاد ابن قرمان- بمدينة غزة، و كان من مماليک الناصر فرج و تخومل من بعده، و احتاج إلى أن خدم فى أبواب الأمراء، و قاسى خطوب الدهر ألوانا، إلى أن عاد إلى باب السلطان بعد موت الملک المؤيد شيخ و صار خاصكيا، و أقام على ذلک سنين كثيرة إلى أن أنعم عليه الملک الظاهر جقمق بإمرة عشرة بعد سؤال كثير، ثم صار حاجبا ثانيا، فدام على ذلک لا يلتفت إليه فى الدول إلى أن ولّاه الملک الأشرف إينال الزردكاشية بعد موت جانبک الوالى، فاستمر على

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۸۷

ذلک إلى أن مات، و كان مهملا يعيش بين الأكابر بالدعابة و المضحكة، و ليس فيه أهلية لحرب و لا ضرب، و لا لنوع من الأنواع

سوى ما ذكرناه- رحمه اللّه.

و توفّى قاضى القضاة ولى الدين محمد السنباطى المالكى قاضى قضاة الديار المصرية فى يوم الجمعة عاشر شهر رجب، و دفن من يومه، و قد زاد سنه على السبعين، و كانت لديه فضيلة مع لين جانب و تدين، و مع هذا لم تشكر سيرته فى القضاء؛ لسلامة باطنه، و لحواشيه - رحمه اللّه تعالى.

و توفّى شيخ الإسلام، علّامة زمانه كمال الدين محمد ابن الشيخ همام الدين عبد الواحد ابن القاضى حميد الدين عبد الحميد ابن القاضى سعد الدين مسعود الحنفى السيرامى الأصل المصرى المولد و الدار و الوفاة، العالم المشهور بابن الهمام، فى يوم الجمعة سابع شهر رمضان، و دفن من يومه، و كانت جنازته مشهودة، و مات و لم يخلف بعده مثله فى الجمع بين علمى المنقول و المعقول، و الدين و الورع و العفة و الوقار فى سائر الدول، و مولده فى سنة ثمان أو تسع و ثمانين و سبعمائة بالقاهرة، و بها نشأ، و اشتغل على علماء عصره إلى أن برع، و صار أعجوبة زمانه فى علوم كثيرة بلا مدافعة، و ولى مشيخة المدرسة الأشرفية برسباى من الأشرف قبل سنة ثلاثين و ثمانمائة، ثم تركها رغبة منه، و دام ملازما للأشغال، و حج و جاور غير مرة، إلى أن ولّاه الملك الظاهر جقمق مشيخة خانقاه شيخون، و استمر بها مدة طويلة من السنين، ثم تركها أيضا و سافر إلى مكة، و قد قصد المقام بها إلى أن يموت، فلما حصل له ضعف فى بدنه عاد إلى مصر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۸۸

و لزم الفراش إلى أن مات، و قد ذكرنا من مصنفاته و أحواله ما هو أطول من هذا فى تاريخنا «المنهل الصافى و المستوفى بعد الوافى» إذ هو محل الإطناب- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الأمير سيف الدين جانبك بن عبد اللّه القرمانى الظاهرى حاجب الحجاب بالديار المصرية، بعد عوده من تجريدة ابن قرمان بالقرب من منزلة الصالحية، فحمل إلى القاهرة و دفن بالقرافة الصغرى، فى يوم الجمعة ثانى عشر شوال، و قد أناف على الثمانين، و كان من عتقاء الملك الظاهر برقوق؛ و وقع له محن فى الدولة الناصرية فرج إلى أن تأمر بعد الملك المؤيد شيخ عشرة، و صار من جملة معلمى أرمح؛ إلى أن نقله الملك الظاهر جقمق إلى إمرة طبلخاناه، و صار بعد ذلك رأس نوبة ثانيا، و استمر على ذلك إلى أن نقله الملك الأشرف إينال إلى إمرة مائة و تقدمه ألف، ثم ولّاه حجوبية الحجاب، ثم تجرّد من جملة من تجرد من الأمراء إلى بلاد ابن قرمان، فمات فى عوده حسبما تقدم، و كان ساكنا عاقلا إلا أنه كان لا يتجمل فى نفسه و لا فى مركبه- رحمه اللّه تعالى.

و توفى الأمير سيف الدين جكم بن عبد اللّه النّورى المؤيدى، أحد أمراء العشرات و رأس نوبة بمدينة غزة، و هو عائد من تجريدة ابن قرمان فى يوم الاثنين ثامن شوال، و قد قارب الستين، و كان من مماليك المؤيد شيخ، و تأمر فى دولة الأشرف إينال عشرة و صار من جملة رءوس النوب، و كان من المهملين يعيش تحت ظلّ خچداشيته.

و توفّى القاضى زين الدين أبو العدل قاسم ابن قاضى القضاة جلال الدين عبد الرحمن ابن شيخ الإسلام سراج الدين عمر البلقينى الشافعى فى يوم الأحد حادى عشرين شوال، و هو فى عشر السبعين، و كان نشأ تحت كنف والده، غير أن اشتغاله كان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۸۹

بالفقيرى، و ناب فى الحكم سنين، و تولّى نظر الجوالى، و كان فيه كرم أفقره فى أواخر عمره، و احتاج منه إلى تحمل ديون و الحاجة للناس، فكان حاله كقول القائل:

كم من فتى أفقره جوده و عاش فى الناس عيش الذليل

فاشدد عرى مالك و استبقه فالبخل خير من سؤال البخيل

و توفّى الأمير سيف الدين أزبك بن عبد اللّه الشّشمانى المؤيّدى أحد أمراء الخمسات فى يوم السبت رابع عشرين ذى الحجة، و سنه نحو الثمانين، و كان أصله من مماليك الملك المؤيّد شيخ قبل سلطنته، و طالت أيامه فى الجندية إلى أن تأمّر خمسة فى دولة الملك

الأشرف إينال، و مات بعد سنين، و كان مكفوفا عن الناس إمّا لخيره أو لشره- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى خشكلدى الزينى عبد الرحمن بن الكويز أحد أمراء الطبلخاناه بدمشق، و كان أصله من مماليك صاحبنا الأمير زين الدين عبد الرحمن بن الكويز، ثم صار من جملة دواداريّة السلطان، ثم سعى فى دواداريهٔ السلطان بدمشق حتى وليها بمال بذله فى ذلك، فلم تطل مدته، فعزل و قدم القاهرة، و سعى ثانيا إلى أن أعطى إمرة بدمشق، فتوجه إليها و دام بها إلى أن مات، و كانت لديه فضيلة فى الفقه على قدر حاله- رحمه اللّه تعالى.

أمر النيل فى هذه السنة: الماء القديم سبعة أذرع و ثمانية أصابع، مبلغ الزيادة عشرون ذراعا و إصبع واحد.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۹۰

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۶۲]

السنة السادسة من سلطنة الملك الأشرف إينال العلائى على مصر و هى سنة اثنتين و ستين و ثمانمائة:

فيها توفّى القاضى شهاب الدين أحمد بن يوسف الشيرجى الشافعى أحد نوّاب الحكم بالدّيار المصرية فى يوم الجمعة رابع عشر المحرم، و دفن من يومه بعد صلاة الجمعة، و قد أناف عن الثمانين، و كان حضر دروس السّراج البلقينى، و له إلمام بعلم الفرائض، و ناب فى الحكم سنين، و أفتى و درّس، و كان غير محبب إلى أصحابه.

و توفّى الأمير سيف الدين أزبك بن عبد اللّه الأشرفى البواب، أحد أمراء العشرات و رأس نوبة، فى يوم الثلاثاء ثامن عشر المحرم، و أصله من مماليك الأشرف برسباى، ثم امتحن بعد موت أستاذه و حبس، ثم أطلق، و قدم القاهرة و تأمّر فى أول دولة الأشرف إينال خمسة، شريكا لأزبك الشّشمانى المقدم ذكر وفاته فى السنة الخالية، فلما مات أزبك المذكور أنعم بنصيبه من الإقطاع على شريكه أزبك هذا لتتمّة إقطاعه إمرة عشرة، فعاش أزبك هذا بعد ذلك دون الشهر و مات، فكان حاله كالمثل السائر: «إلى أن يسعد المعثر فرغ عمره».

و توفّى القاضى علاء الدين على بن محمد بن آقبرس الشافعى أحد نواب الحكم، فى يوم الأحد خامس عشر صفر بطالا، و هو فى عشر السبعين، و كان مولده بالقاهرة، و بها نشأ، و تكسّب بعمل العنبر فى حانوت بالعنبريين مدة سنين، ثم اشتغل بالعلم، و ناب فى الحكم، و صحب الملك الظاهر جقمق قبل سلطنته، فلما تسلطن قرّبه، أو هو قرّب نفسه، و ولى نظر الأوقاف، ثم حسبة القاهرة، ثم نظر الأحباس، و تحرک له بعيض سعد،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۹۱

إلا أنه تبهدل غير مرّة من السلطان لسوء سيرته، فإنه لما ولى ما ولى ما عفّ و لا كفّ، بل مدّ يدا للأخذ، إلى أن ساءت القالة فيه، و انحط قدره لذلك كثيرا، فلما مات الملك الظاهر امتحن و صودر، و تخومل، و لزم داره إلى أن مات، و كان له نظم أحسنه فى الهجو، و مما هجا به عبد الرحمن ابن الدّيرى ناظر القدس [الطويل]

أقول لمن وافى إلى القدس زائرا وصلت إلى الأقصى من الفضل و الخير

تقرّب إلى مولاک فيه عبادة و بع بيع الرهبان و ابعد عن الدّيرى

و توفّى عبد الكريم شيخ مقام الشيخ أحمد البدوى بظاهر القاهرة فى صبيحة ثامن عشر صفر، وجد ميتا، و قد اختلفت الأقوال فى موتته، فمنهم من قال: تردّى من سطح و هو ثمل، و منهم من قال: دسّ عليه شيخ العرب حسن بن بغداد من قتله، و هو الأشهر، و أنا أقول: قتله سرّ الشيخ أحمد البدوى لانهماكه على المعاصى و سوء سيرته، فأراح اللّه الشيخ أحمد البدوى منه و للّه الحمد- و تولى عوضه شيخ المقام صبىّ أقاربه دون البلوغ.

و توفّى الشيخ العارف بالله القدوة المسلک مدين الصوفى المالكى بزاويته بخط المقس بظاهر القاهرة، فى يوم الأربعاء تاسع شهر ربيع

الأول بزاويته، و كـان له شـهرة عظيمـة، و للنـاس فيه اعتقاد و محبـة، لم يتفق لى مجالسـته، غير أننى رأيته غير مرّة- رحمه اللّه و نفعنا ببركته.

و توفّى الأمير جانم بن عبد اللّه الأشـرفى البهلوان، أحد أمراء العشـرات و رأس نوبة فى يوم الاثنين سادس شهر ربيع الآخر، و دفن من يومه، و هو فى الكهولية، و كان من مماليك الملك الأشـرف برسـباى و خاصـكيته، و تأمر بعد أمور فى الدّولة الأشرفية إينال، و كان مليح الشكل مشهورا بالشجاعة و الإقدام- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الأمير سيف الدين طوخ بن عبد اللّه من تمراز الناصرى أمير مجلس بطّالا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۹۲

بعـد مرض طويـل، فى ليلـة الثلاثـاء سـابع شـهر ربيع الآـخر، و دفن من الغـد، و كـان من مماليك الناصـر فرج، و تأمر فى أوّل الـدولة الأشرفية برسباى عشرة، و صار من جملة رءوس النّوب، و كان يعرف بينى بازق، أى غليظ الرّقبة، و كان قليل الخير و الشرّ مكفوفا عن الناس، ليس له كلمة فى الدّولة، و كان السـلطان أنعم بإقطاعه قبل موته على الأمير برسـباى البجاسـى حاجب الحجاب- و وظيفته إمرة مجلس- على الأمير جرباش المحمدى المعروف بكرد الأمير آخور.

و توفّى القاضـى شـهاب الدين أحمد الدماصـى الحنفى قاضى بولاق، و كان يعرف بقرقماس، فى يوم الخميس سادس عشر شهر ربيع الآخر، و دفن من الغد- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الأمير سـيف الـدين سودون بن عبـد اللّه النّوروزى المعروف بالسـلاحدار، نائب قلعة الجبل بها، فى ليلة الأحد سادس عشـرين شهر ربيع الآخر، و دفن من الغد، و له نحو سـبعين سنه، و كان من مماليك نوروز الحافظى نائب الشام، و صار بعد موته سلاحدارا فى الدولة الأشـرفية برسـباى، ثم تأمر عشرة فى دولة الملك الظاهر جقمق، و صار من جملة رءوس النوب، ثم جعله الملك الأشرف إينال نائب قلعة الجبل بعد موت قانى باى الناصرى الأعمش، فدام فى نيابة القلعة إلى أن مات، و كان لا بأس به، لو لا إسراف كان فيه على نفسه- عفا اللّه عنه.

و توفّى الأسـتاذ المادح المغنى ناصـر الدين محمد المازونى الأصل، المصـرى، أحد الأفراد فى إنشاد القصـيد و عمل السـماع، فى ليلة الجمعة ثامن جمادى الأولى، بعد أن ابتلى بمرض الفالج، و بطل نصفه و سكت حسه، و كان من عجائب الدنيا فى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۹۳

فنونه، كان صوته صوتا كاملا أوازاوئما، مع شـجاوة و نداوة و حلاوة، كان رأسا فى إنشاد القصـيد على الضـروب و الحدود، سافر غير مرة إلى الحجـاز حاديا فى خدمـة الأكابر، و كان له تسبيـح هائل على المآذن؛ ففى هـذه الثلاثـة كان إليه المنتهى، و كان يشارك فى الموسـيقى جيدا، و يعظ فى عقود الأنكحة، و ليس فيه بالماهر، و فى الجملة إنه لم يخلف بعد مثله، و فى شـهرته ما يغنى عن الإطناب فى ذكره.

و توفّى الشـرفى موسـى ابن الجمالى يوسف بن الصفى الكركى ناظر جيش طرابلس بها، فى ليلة الأحد ثامن شهر رجب، و خلف مالا كثيرا وعدة أولاد، و كان من مساوئ الدهر دميم الخلق مذموم الخلق.

و توفّى الشـيخ الإمام العالم العلّامـة شـرف الـدين يحيى [ابن صالـح بن على بن محمد ابن عقيل] العجيسـى المغربى الأصل و المولد و المنشأ، المصـرى الدار و الوفاة، المالكى، فى يوم الأحد سابع عشـرين شـعبان، و مولده فى سنة ثلاث و سبعين و سبعمائة، و كان إماما فى النحو و العربية و معرفة تاريخ الصحابة، و له مشاركة فى فنون كثيرة، مع حدة كانت فيه و سوء خلق- رحمه اللّه.

و تـوفّى الخليفـة أمير المـؤمنين القـائم بـأمر اللّـه أبـو البقـاء حمزة ابـن المتوكـل على اللّه أبى عبـد اللّه محمـد العباسـى المصـرى بثغر الإسـكندرية مخلوعا من الخلافة، فى سابع عشـر شوال، و قد مرّ ذكر نسبه فى تراجم أسـلافه فى عدة مواطن من مصنفاتنا، مثل «مورد اللطافـة فى ذكر من ولى السـلطنة و الخلافـة» و غيره، و كان القائم بأمر اللّه هـذا ولى الخلافـة بعد موت أخيه المستكفى سـليمان بغير

عهد- اختاره الملک الظاهر جقمق- فدام فى الخلافة إلى أن خرج

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۹۴

الأتابک إينال العلائى صاحب الترجمة على الملک المنصور عثمان بن الملک الظاهر جقمق، فقام الخليفة هذا مع إينال على الملک المنصور عثمان أشد قيام، فلما تسلطن إينال عرف له ذلک، و رفع قدره و محله إلى الغاية، و نال فى أيامه من الحرمة و الوجاهة ما لا يقاربه أحد الخلفاء من أسلافه، فاتفق بعد ذلک رکوب جماعة من صغار المماليک الظاهرية على الأشرف إينال، و طلبوه فحضر عندهم، و وافاهم أفضل موافاة، فلم ينتج أمرهم، و سکنت الفتنة فى الحال، و قد ذکرناها فى أصل هذه الترجمة مفصلة، فلما سکن الأمر طلبه السلطان إلى القلعة، و وبخه على فعله و حبسه بالبحرة بقلعة الجبل، و خلعه من الخلافة بأخيه المستنجد يوسف، ثم أرسله إلى سجن الإسکندرية فحبس به مدة ثم أطلق من السجن، و رسم له بأن يسکن حيث شاء من الثغر، فسکن به إلى أن مات- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الحاج خليل المدعو قانى باى اليوسفى المهمندار محتسب القاهرة بها، فى عشرين شوال، و هو مناهز السبعين، و کان أصله من مماليک قرايوسف بن قرامحمد، صاحب بغداد على ما زعم، ثم قدم القاهرة فى دولة الأشرف برسباى، و سأله الأشرف عن أصله و جنسه فقال: أنا من مماليک قرايوسف، جنسى چارکسى، و اسمى الأصلى قانى باى، فمشى ما قاله على الأشرف؛ لضعف نقده، و عدم معرفته، و سماه قانى باى اليوسفى، و جعله خاصکيا؛ ثم امتحن بعد موت الأشرف برسباى، و حبس إلى أن عاد إلى رتبته فى الدولة الأشرفية إينال، و جعله مهمندارا، ثم محتسبا إلى أن مات.

و توفّى يار على بن نصر اللّه العجمى الخراسانى الطويل، محتسب القاهرة بطالا، بعد مرض طويل، فى سادس عشرين ذى القعدة، و دفن من الغد، و سنه نيف على الثمانين، و کان هو يدّعى أکثر من ذلک، و ليس بصحيح، و کان أصله فقيرا مکديا على عادة فقراء العجم، و خدم الأمير سودون من عبد الرحمن نائب الشام لما کان

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۹۵

هاربا من الملک المؤيّد شيخ بالعراق، فلما عاد سودون إلى رتبته بالديار المصرية، و صار دوادارا کبيرا فى دولة الأشرف برسباى، قدم عليه يار عليه هذا ماشيا على قدميه من بلاد العجم، فأحسن إليه سودون، و لما عمّر مدرسته بخانقاه سرياقوس جعله شيخا، و دام على ذلک و قد حسنت حاله، و رکب فرسا بحسب الحال، إلى أن تسلطن الملک الظاهر جقمق، فتحرک سعده لا لأمر أوجب ذلک بل هى حظوظ و أرزاق، تصل لکل أحد.

و لا زال جقمق يرقّيه حتى ولّاه حسبة القاهرة غير مرّة، ثم نکبه و صادره، و أمر بنفيه؛ لسوء سيرته، و لقبيح سريرته، فإنه لما ولى حسبة القاهرة سار فيها أقبح سيرة، و فتح له أبواب الظلم و الأخذ، فما عفّ و لا کفّ، و جدّد فى الحسبة مظالم تذکر به، و إثمها و إثم من يعلم بها عليه إلى يوم القيامة، و صار يأخذ من هذه المظالم و يخدم الملوک بها، فانظر إلى حال هذا المسکين الذى ظلم نفسه، و ظلم الناس لغيره، فلا قوّة إلا بالله، اللهم اغننا بحلالک عن حرامک، و بفضلک عن سواک.

و توفّى الشيخ المعتقد المجذوب إبراهيم الزيات بحيث هو إقامته بقنطرة قديدار، و دفن من يومه، و هو اليوم الذى مات فيه الشيخ على المحتسب المقدّم ذکره، و کان للناس فيه اعتقاد، و يقصد للزيارة، و کانت جذبته مطبقة، لا يصحو، و يکثر من أکل الموز- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الأمير الکبير سيف الدين تنبک [بن عبد اللّه] البردبکى

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۹۶

[الظاهرى] أتابک العساکر بالديار المصرية، فى يوم الاثنين رابع عشرين ذى القعدة، و دفن من الغد، و قد ناهز التسعين من العمر، لأنه کان من مماليک الظاهر برقوق، و تزوج فى أيامه، و کان من إنيات الوالد، و ترقّى فى أوائل دولة الأشرف برسباى إلى أن صار أمير

عشرة- أو فى أيام دولة الملك المظفر أحمد- و من جملة رءوس النوب، ثم صار فى سنة سبع و عشرين نائب قلعة الجبل بعد تغرى برمش البهسنى التركمانى، بحكم انتقاله إلى إمرة مائة و تقدمة ألف بالديار المصرية، و أنعم على تنبك بإمرة طبلخاناه عوضا عن تغرى برمش المذكور أيضا، فدام على ذلك مدة طويلة إلى أن نقل إلى إمرة مائة و تقدمة ألف بالديار المصرية فى أواخر الدولة الأشرفية.

ثم ولى نيابة قلعة الجبل ثانيا فى أوائل دولة الملك الظاهر جقمق، و هو أمير مائة و مقدم ألف، ثم صار أمير حاج المحمل، ثم ولى حجوبية الحجاب بالديار المصرية، و دام على ذلك سنين كثيرة، و حجّ أمير حاج المحمل غير مرّة، إلى أن أمسكه السلطان الظاهر و نفاه إلى ثغر دمياط، و أنعم بإقطاعه و حجوبيته على الأمير خشقدم الناصرى المؤيّدى، أحد أمراء الألوف بدمشق، فأقام بدمياط مدّة.

ثم طلبه الملك الظاهر إلى الديار المصرية، و رسم له بالمشى فى الخدمة السلطانية، فمشى فى الخدمة أياما كثيرة من غير إقطاع، إلى أن مات الشهابى أحمد بن على بن إينال أحد مقدمى الألوف بالديار المصرية، فأنعم بإقطاعه على تنبك هذا، ثم صار أمير مجلس فى دولة الملك المنصور عثمان بعد انتقال تنم المؤيدى إلى إمرة سلاح، بعد جرباش الكريمى بحكم لزومه بيته لكبر سنه و ضعف بدنه، فلم تطل أيامه.

و استقرّ أمير سلاح فى ثانى يوم من سلطنة الملك الأشرف إينال، عوضا عن تنم المذكور، بحكم القبض عليه و حبسه بسجن الإسكندرية، فلم يتمّ له ذلك غير يوم واحد و أصبح استقر أتابك العساكر لما كثرت القالة فى تولية الشهابى أحمد ابن الملك الأشرف

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۹۷

إينال أتابك العساكر عوضا عن أبيه، فعزله و جعله من جملة أمراء الألوف و استقر تنبك هذا عوضه؛ فدام فى الأتابكية مدة طويلة إلى أن مات فى التاريخ المذكور، و تولّى المقام الشهابى أحمد عنه الأتابكية ثانيا.

و كان أمر تنبك هذا فى ولايته الأتابكية غريبة، و هو أن الذى أخذ عنه ولّى عنه، و لعل هذا لم يقع لأحد أبدا، و كان تنبك المذكور رجلا ديّنا خيرا، هيّنا ليّنا، سليم الفطرة، شحيحا، لا يتجمل فى بركه و لا حواشيه- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى عظيم الدّولة الصاحب جمال الدين أبو المحاسن يوسف- مدبر المملكة، و صاحب وظيفتى نظر الجيش و الخاص معا- ابن الرئيس كريم الدين عبد الكريم ناظر الخاص ابن سعد الدين بركة المعروف بابن كاتب جكم، فى ليلة الخميس- وقت التسبيح- الثامن عشر من ذى الحجة، و دفن من الغد بالصحراء فى تربته التى أنشأها، و كانت جنازته مشهودة إلى الغاية، و حضر المقام الشهابى أحمد أتابك العساكر الصلاة عليه بمصلاة باب النصر، و حضر دفنه أيضا، و مات و سنه زيادة على أربعين سنة؛ لأن مولده فى سنة تسع عشرة و ثمانمائة، هكذا كتب لى بخطه- رحمه اللّه.

و مات و لم يخلف بعده مثله رئاسة و سؤددا بلا مدافعة، و هو آخر من أدركنا من رؤساء الديار المصرية؛ لأنه كان فردا فى معناه، لعظم ما ناله من السعادة و الوجاهة و وفور الحرمة، و نفوذ الكلمة و العظمة الزائدة، و كثرة ترداد الناس إليه، و أعيان الدولة و أكابرها إلى بابه، بل الوقوف فى خدمته، و هذا شىء لم ينله غيره فى الدولة التركية، مع علمى بمنزلة كريم الدين الكبير عند الناصر محمد بن قلاوون، و بما ناله سعد الدين إبراهيم بن غراب فى الدولة الناصرية فرج، ثم بعظمة جمال الدين يوسف البيرى الأستادار فى دولة الناصر فرج أيضا، ثم بخصوصية عبد الباسط بن خليل الدمشقى فى دولة الأشرف برسباى، و مع هذا كله ليس فيهم أحد وصل إلى ما وصل إليه جمال

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۹۸

الدين هذا، و قد برهنّا عما قلناه فى تاريخنا «حوادث الدهور»، و أيضا فى تاريخنا «المنهل الصافى»، فلينظر هناك، و ليس هذا الموطن محل إطناب- رحمه اللّه تعالى.

أمر النيل فى هذه السنة: الماء القديم سبعة أذرع و ثمانية أصابع، مبلغ الزيادة ثمانية عشر ذراعا و خمسة عشر إصبعا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۹۹

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۶۳]

السنة السابعة من سلطنة الملك الأشرف على مصر و هى سنة ثلاث و ستين و ثمانمائة:

فيها توفّى الأمير يشبك بن عبد اللّه النّوروزى نائب طرابلس- كان- بطالا- بالقدس، فى يوم الاثنين تاسع المحرم، و هو فى عشر السبعين تخمينا، و هو من عتقاء الأمير نوروز الحافظى.

و تنقّل بعد موت أستاذه فى خدم الأمراء، و قاسى خطوب الدهر ألوانا، إلى أن صار فى أواخر دولة الأشرف برسباى من صغار أمراء دمشق، ثم تنقل فى دولة الملك الظاهر جقمق إلى أن صار حاجب حجاب طرابلس بالبذل، ثم نقل إلى حجوبية دمشق، ثم إلى نيابة طرابلس بعد عزل يشبك الصوفى عنها؛ كل ذلك ببذل المال، فدام على نيابة طرابلس إلى أن أمسكه الملك الأشرف إينال فى حدود سنة ستين، و حبسه بقلعة المرقب إلى أن أطلقه فى سنة اثنتين و ستين و ثمانمائة، و رسم له بالتوجه إلى القدس بطالا، فاستمر بالقدس إلى أن مات فى التاريخ المقدم ذكره.

و كان وضيعا فى الدول، لم تسبق له رئاسة بالدولة المصرية، حتى إنه لم يخدم فى باب سلطان أبدا، بل كان يخدم بأبواب الأمراء، إلى كان من أمره ما كان، و كان مع ذلك عنده طيش و خفة و تكبر، و لم أدر لأى معنى من المعانى- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الشيخ الإمام العالم العامل المحقق الفقيه الصوفى شمس الدين أبو عبد اللّه محمد ابن عبد اللّه بن خليل البلاطنسى الشافعى؛ نزيل دمشق بها فى ليلة سابع عشرين صفر، و دفن فى صبيحة يوم الأربعاء، و كانت جنازته مشهودة، و كثر أسف الناس عليه، و مولده ببلاطنس من أعمال طرابلس، بعد سنة تسعين و سبعمائة، و نشأ بها، و قرأ العربية و اشتغل، ثم قدم طرابلس، و لازم الشيخ محمد بن زهرة و به تفقّه، و أخذ

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۰۰

الأصول عن الشيخ سراج الدين، و قرأ الحديث أيضا بطرابلس على ابن البدر، ثم رحل إلى دمشق قبل سنة عشرين، و اشتغل بها على العلماء، ثم عاد إلى طرابلس.

ثم قدم إلى دمشق ثانيا بأهله و استوطنها و لازم علّامة زمانه و وحيد دهره الشيخ علاء الدين محمد البخارى الحنفى، و أخذ عنه فنونا كثيرة، إلى أن برع فى الفقه و التصوف، و جلس للإفادة و التدريس و الأشغال إلى أن مات، و كان قوّالا- بالحق، قائما فى أمر الملهوفين، لا تأخذه فى اللّه لومة لائم، و قد استوعبنا من أحواله نبذة كبيرة فى تاريخنا «الحوادث» و غيره- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الأمير سيف الدين يشبك بن عبد اللّه من جانبك المؤيدى الصوفى أتابك دمشق بها، فى يوم الثلاثاء سابع عشرين صفر و هو اليوم الذى مات فيه البلاطنسى المقدم ذكره، و قد ناهز الستين من العمر، كان من صغار مماليك الملك المؤيّد شيخ، و صار خاصكيا بعد موت أستاذه، و امتحن فى دولة الملك الأشرف برسباى بالضرب و العصر و النفى؛ بسبب الأتابك جانبك الصوفى.

ثم عاد بعد سنين إلى رتبته، و صار خاصكيا على عادته إلى أن تأمّر عشرة فى دولة الملك الظاهر جقمق، و صار من جملة رءوس النوب، و سافر إلى مكة مقدّم المماليك السلطانية بمكة، ثم عاد إلى القاهرة، و دام بها مدّة، ثم نفى إلى حلب بعد سنة خمسين و ثمانمائة، ثم نقله الملك الظاهر جقمق إلى إمرة مائة و تقدمة ألف بحلب، ثم نقله بعد ذلك إلى نيابة حماة ببذل المال، ثم إلى نيابة طرابلس كذلك، بعد انتقال الأمير برسباى الناصرى إلى نيابة حلب فى سنة اثنتين و خمسين، فدام على نيابة طرابلس إلى سنة أربع و خمسين، فطلب إلى القاهرة، فلما حضر أمسكه السلطان الملك الظاهر، و أرسله إلى دمياط بطالا، ثم نقل بعد مدّة من دمياط إلى سجن الإسكندرية؛ لأمر بلغ السلطان عنه، فلم تظل مدّته بسجن الإسكندرية و أطلق و أرسل إلى دمياط ثانيا، ثم نقل إلى القدس، ثم

طلب إلى الديار المصرية، فأنعم عليه بأتابكية العساكر بدمشق، بعد القبض على الأتابك خيربك المؤيدى الأجرود.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۰۱

فدام يشبك هذا على أتابكية دمشق إلى أن حجّ أمير حاج المحمل الشامى فى سنة اثنتين و ستين، و عاد إلى دمشق، و مات بعد أيّام، و كان رجلا- طوالا- حسن الشكل، حلو اللسان، بعيد الإحسان، عادلا فى الظاهر، ظالما فى الباطن، متواضعا لمن كانت حاجته إليه، مترفّعا على من احتاج إليه، كثير الخدع و التّملّق لأصحاب الشّوكة، بألف وجه و ألف لسان، مع كثرة أيمان اللّه و الطلاق، و شحّ و بخل.

و توفّى الشيخ بهاء الدين أحمد بن على التّتائى الأنصارى الشافعى نزيل مكّة بها فى ليلة الثلاثاء سابع عشرين صفر، و حضرت أنا الصلاة عليه بالحرم بعد صلاة الصّبح، و دفن بالمعلاة، و هو أخو القاضى شرف الدين موسى الأنصارى الأكبر.

كان مولده بتتا- قرية بالمنوفية بالوجه البحرى من أعمال القاهرة- فى سنة ثمان و ثمانمائة، و كان فيه محاسن و مكارم أخلاق، و خط منسوب، و فضيلة- رحمه اللّه تعالى. قلت: و كانت وفاة بهاء الدين هذا و يشبك الصوفى و البلاطنسى المقدّم ذكرهما فى ليلة واحدة، و هذا من النوادر- رحمهم اللّه.

و تتا بتاء مثناة مكسورة و تاء مثناة أيضا مفتوحة، و بعدهما ألف ممدودة.

و توفّى الأمير سيف الدين قانى باى بن عبد اللّه الحمزاوى نائب دمشق بها فى يوم الأربعاء ثالث شهر ربيع الآخر، و قد قارب الثمانين، و دفن من الغد فى يوم الخميس، و كان أصله من مماليك سودون الحمزاوى الظاهرى الدّوادار، ثم خدم بعد موته عند الوالد هو و جماعة كثيرة من خچداشيته مدّة طويلة، ثم صار فى خدمة الملك المؤيّد شيخ المحمودى قبل سلطنته، فلما تسلطن أمّره عشرة، ثم صار أمير طبلخاناه، ثم صار أمير مائة و مقدّم ألف بعد موت الملك المؤيّد شيخ، و تولّى نيابة الغيبة بالدّيار المصريّة للملك المظفر أحمد بن شيخ لما سافر مع الأتابك ططر إلى دمشق، ثم قبض عليه الملك الظاهر ططر لمّا عاد من دمشق و حبسه مدّة، إلى أن أطلقه الملك

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۰۲

برسباى، و جعله أتابك دمشق، ثم طلبه بعد سنين إلى الدّيار المصريّة، و جعله بها أمير مائة و مقدّم ألف.

و استقرّ الأمير تغرى بردى المحمودى بعده أتابك دمشق، فدام قانى باى بالقاهرة إلى أن ولّاه الأشرف نيابة حماة بعد انتقال الأمير جلبّان إلى نيابة طرابلس، بعد موت الأتابك طرباى فى سنة سبع و ثلاثين، ثم نقل بعد مدّة إلى نيابة طرابلس بعد الأمير جلبّان أيضا، بحكم انتقاله إلى نيابة حلب بعد عصيان تغرى برمش [التركمانى البهسنى] و خروجه عن الطاعة فى سنة اثنتين و أربعين و ثمانمائة، فلم تطل مدته بها.

و نقل إلى نيابة حلب بعد انتقال جلبّان أيضا إلى نيابة دمشق بعد موت الأتابك آقبغا التّمرازى فى سنة ثلاث و أربعين و ثمانمائة، فدام فى نيابة حلب إلى سنة ثمان و أربعين و ثمانمائة، فطلبه الملك الظاهر جقمق إلى الديار المصرية، و عزله عن نيابة حلب بالأمير قانى باى البهلوان الناصرى، و أنعم عليه بإمرة مائة و تقدمة ألف بالديار المصرية، عوضا عن الأمير شادبك الجكمى المتولى نيابة حماة بعد انتقال قانى باى البهلوان المقدّم ذكره إلى نيابة حلب.

فاستمرّ قانى باى الحمزاوى من أمراء الدّيار المصريّة إلى أن أعاده الملك الظاهر جقمق ثانيا إلى نيابة حلب، بعد عزل الأمير تنم من عبد الرزّاق المؤيّدى و قدومه إلى مصر على إقطاع قانى باى هذا، فدام فى نيابته هذه على حلب إلى أن نقله الملك الأشرف إينال إلى نيابة دمشق بعد موت الأمير جلبّان فى سنة ستين و ثمانمائة.

فاستمرّ على نيابة دمشق إلى أن مات بها، و هو عاص على السلطنة فى الباطن، مقيم على الطاعة فى الظاهر.

و قد وقع فى أمر قانى باى هذا غرائب منها: أنه من يوم خرج من مصر إلى ولاية حلب ثانيا فى دولة الملك الظاهر جقمق عصى على

السّلطان فى الباطن، و عزم على أنّه لا يعود إلى مصر أبدا، فلما مات الظاهر و تسلطن ابنه المنصور عثمان، ثم الأشرف

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۰۳

إينال قوى أمر قانى باى هذا بحلب، و فشا أمره عند كل أحد، فلم يكشف الأشرف إينال ستر التغافل بينه و بين قانى باى المذكور، بل صار كل منهما يتجاهل على الآخر، فذاک يظهر الطاعة و امتثال المراسيم من غير أن يطأ بساط السلطان، أو يحضر إلى القاهرة، و هذا يرضى منه بذلک، و يقول: هذا داخل فى طاعتى، و لا يرسل خلفه أبدا، بل يغالطه، حتى لو أراد قانى باى الحضور إلى القاهرة مامكنه إينال؛ لمعرفته منه أن ذلک امتحان، و صار كل منهما يترقب موت الآخر إلى أن مات قانى باى قبل، و ولّى الأشرف إينال عوضه فى نيابة دمشق الأمير جانم الأشرفى.

و من الغرائب التى وقعت له أيضا أن قانى باى هذا لم يل ولاية بلد مثل حماة و طرابلس حلب و الشام إلا بعد الأمير جلبّان، مع طول مدّة جلبّان فى نياباته الشّاميّة أزيد من ثلاثين سنة، فهذا من النوادر الغريبة، كون أن قانى باى يعزل عن نيابة حلب و يصير أميرا بمصر مدّة سنين و بلى حلب بعده غير واحد، ثم يعود إلى نيابة حلب، و يقيم بها إلى أن ينتقل منها إلى نيابة الشام بعد موت جلبّان، كما انتقل قبل ذلک بعده فى كل بلد، فهذا هو الاتفاق العجيب.

و توفّى الأمير شرف الدين عيسى بن عمر الهوارى أمير عرب هوارة ببلاد الصعيد فى ليلة الخميس رابع شهر ربيع الآخر، بعد عوده من الحج، و ولى بعده ابنه، ثم عزل بعد أمور، و كان عيسى هذا مليح الشكل، ديّنا خيرا بالنسبة إلى أبناء جنسه، و له مشاركة بحسب الحال، و يتفقه على مذهب الإمام مالک- رضى اللّه عنه.

و توفّى الشيخ الإمام الفقيه العالم أبو عبد اللّه محمد بن سليمان بن داود الجزولى المغربى المالكى نزيل مكة، بها فى يوم الأحد ثامن عشر شهر ربيع الآخر، و حضرت الصلاة عليه بحرم مكة، و دفن بالمعلاة، و كان مولده فى سنة سبع و ثمانمائة بجزولة من بلاد

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۰۴

المغرب، و كان فقيها عالما بفروع مذهبه، عارفا بالنحو، مشاركا فى التفسير و الحديث، و سمع ببلاده أشياء كثيرة، و حدّث ببعضها فى مكة، و درّس و أفتى، و انتفع أهل مكة بدروسه، و كان كريم النفس بخلاف المغاربة- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى القاضى محبّ الدين أبو البركات محمد بن عبد الرحيم الهيتمى الشافعى، أحد نوّاب الحكم الشافعية بالديار المصرية، فى يوم الثلاثاء ثامن جمادى الأولى، و حضرت الصلاة عليه بحرم مكة، و دفن بالمعلاة، و قد زاد عمره على الستين، و كان فقيها نحويا، مشاركا فى فنون كثيرة، كان يحفظ التوضيح لابن هشام فى النحو، و كان مستقيم الذهن، جيد الذكاء، ناب فى الحكم [بالديار المصرية] أزيد من ثلاثين سنة، و درّس و خطب، و جاور بمكة غير مرّة إلى أن مات فى مجاورته هذه الأخيرة- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى القاضى ناصر الدين محمد بن النبراوى الحنفى أحد نواب الحكم بالقاهرة، فى يوم الثلاثاء تاسع عشرين جمادى الأولى، و كان عاريا من العلم، عارفا بصناعة القضاء.

و توفّى القاضى محبّ الدين محمد ابن الإمام شرف الدين عثمان بن سليمان بن رسول ابن أمير يوسف بن خليل بن نوح الكرادى - بفتح الراء المهملة- القرمشى الأصل، الحنفى، المعروف بابن الأشقر، شيخ شيوخ خانقاه سرياقوس، ثم ناظر الجيوش المنصورة بالديار المصرية، ثم كاتب السّر بها، فى يوم الثلاثاء ثانى عشر شهر رجب بالقاهرة بطّالا، و دفن من الغد بتربته بالصحراء خارج القاهرة، و كانت وفاته بعد عزله من كتابة السّر بشهرين، و بعد وفاة ولده إبراهيم بدون الشهر.

و كان مولده بالقاهرة قبل سنة ثمانين، و نشأ بها و اشتغل فى مبدأ أمره قليلا، ثم

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۰۵

ولى مشيخة خانقاه سرياقوس فى سنة أربع عشرة و ثمانمائة، ثم بعد سنين كثيرة ولى كتابة السّرّ بمصر فى دولة الملك الأشرف برسباى، عوضا عن القاضى كمال الدين بن البارزى، بحكم عزله فى رجب سنة تسع و ثلاثين، و باشر الوظيفة إلى أن عزل عنها

بالقاضى صلاح الدين بن نصر اللّه فى ذى الحجة من سنة أربعين، فلزم داره بطالا، إلى أن ولّاه الملك الظاهر جقمق ناظر الجيوش المنصورة عوضا عن الزينى عبد الباسط بحكم القبض عليه و مصادرته فى سنة اثنتين و أربعين، ثم عزل عن وظيفة نظر الجيش غير مرّة، ثم ولى كتابة السر ثانيا بعد وفاة القاضى كمال الدين بن البارزى فى سنة ست و خمسين، فباشر الوظيفة إلى أن عزل عنها بالقاضى محب الدين بن الشّحنة، ثم أعيد إليها بعد أشهر، و دام بها مدّة طويلة إلى أن عزل عنها ثانيا بابن الشّحنة فى سنة ثلاث و ستين و ثمانمائة، و مات بعد ذلك بشهرين حسب ما تقدم ذكره، و كان معدودا من رؤساء الديار المصرية، و كان عنده حشمة و أدب و تواضع و محاضرة حسنة، إلا أنه كان رأسا فى البخل- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى القاضى محب الدين محمد ابن القاضى ناصر الدين محمد الفاقوسى أحد أعيان موقعى الدّست بالديار المصرية، فى ليلة الاثنين خامس عشرين شهر رجب- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الأمير سيف الدين خيربك بن عبد اللّه المؤيّدى الأشقر الأمير آخور الثانى، فى يوم السبت مستهل شعبان [و قد جاوز السبعين] و كان من مماليك المؤيّد شيخ، صار خاصّكيا فى دولة الملك الظاهر جقمق، و من جملة الدّوادارية الصّغار، إلى أن أنعم عليه بإمرة عشرة، بعد مسك جانبك المحمودى المؤيّدى، و جعله جقمق من جملة رءوس النوب، و حجّ أمير الركب الأول، ثم نقل إلى الأمير آخوريّة الثانية فى أوائل دولة الملك الأشرف إينال، عوضا عن سنقر العائق الظاهرى، فباشر الوظيفة بغير حرمة،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۰۶

و صار فيها كل شىء إلى أن مات، و تولىّ الأمير يلباى الإينالى المؤيّدى الأمير آخورية الثانية من بعده.

و كان خيربك هذا كثير الفتن بين الطوائف، و ليس عنده همّة لإثارة الحرب إلا بالكلام.

و توفّى الإمام شهاب الدين أحمد الإخميمى أحد أئمة السلطان فى يوم السبت تاسع عشرين شعبان - رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الأمير زين الدين قاسم بن جمعة القساسى الحلبى نائب قلعة حلب بها فى شهر رمضان، و كان ولى قبل ذلك حجوبية حلب و غيرها، الجميع بالبذل.

و توفّى القاضى معين الدين عبد اللطيف بن أبى بكر [بن سليمان سبط] ابن العجمى نائب كاتب السر بالديار المصرية، يوم الجمعة رابع شوال و عمره نيف عن خمسين سنة، و كان ولى فى الدولة الأشرفية كتابة سر حلب، ثم ولى نيابة كتابة السرّ بمصر بعد وفاة أبيه القاضى شرف الدين إلى أن مات، و كان هو القائم بأعباء ديوان الإنشاء.

لمعرفته بصناعة الإنشاء، و لما فيه من الفضيلة- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الأمير سيف الدين سودون بن عبد اللّه من سيدى بك الناصرى القرمانى أتابك حلب بطريق الحج فى شوال، و كان من مماليك الناصر فرج، و انحط قدره، و خدم فى أبواب الأمراء إلى أن صار خاصكيا فى دولة الملك الظاهر ططر، ثم صار ساقيا فى دولة الملك الظاهر جقمق، ثم تأمّر عشرة، ثم نقل إلى تقدمه ألف بحلب، ثم صار أتابكا فى دولة الأشرف إينال، ثم نقل إلى أتابكية طرابلس، ثم أعيد بعد مدة إلى أتابكية حلب إلى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۰۷

أن مات، و كان مهملا مسرفا على نفسه، و عنده فشار كبير و مجازفات فى كلامه- رحمه اللّه.

و توفّى الشيخ الإمام الفقيه الواعظ الصوفى شمس الدين محمد الحموى الأصل الحلبى الشافعى المعروف بابن الشماع، فى ذى القعدة بالمدينة الشريفة قاصدا الحج، و دفن بالمدينة يوم دخول الحاج الشامى إليها، و كان حلو اللسان، مليح الشكل، طلق العبارة و المحاضرة، و لكلامه طلاوة و رونق و موقع فى النفوس- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الأمير سيف الدين قانى باى المؤيدى المعروف بقراسقل أحد أمراء العشرات بمدينة طرابلس فى توجهه من الديار المصرية فى البحر إلى الجون صحبة الأمراء المصريين و قد ناهز الستين من العمر أوجاوزها بيسير، و كان من مماليك الملك المؤيد شيخ،

ممن صار خاصـکیا فی دولهٔ الظاهر جقمق و ساقیا، ثم تأمّر عشرهٔ إلی أن مات، و کان ساکنا مهملا مع إسراف علی نفسه- عفا اللّه عنا و عنه.

و توفّی الأمیر سیف الدین بایزید بن عبد اللّه التمربغاوی أحد مقدمی الألوف بالدیار المصریهٔ، فی یوم الثلاثاء ثامن عشر ذی القعدهٔ، و دفن من یومه، و قد ناهز السبعین، و کان من ممالیک الأمیر تمربغا المشطوب الظاهری [برقوق] و خدم بعده عند جماعهٔ من الأمراء [و تشتت فی البلاد] إلی أن اتصل بخدمهٔ الملک الظاهر ططر قبل سلطنته، فلما تسلطن جعله خاصکیا، ثم ساقیا فی أوائل دولهٔ الأشرف برسبای، و دام علی ذلک دهرا طویلا، إلی أن أمّره الأشرف [عشرهٔ] فی أواخر دولته، فدام علی تلک العشرهٔ أیضا دهرا طویلا إلی أن أنعم علیه الملک الأشرف إینال بإمرهٔ طبلخاناه، ثم نقله إلی تقدمهٔ ألف فی حدود سنهٔ ستین؛ للین جانبهٔ لا لمحله الرفیع، و لا لعظم شوکته، فدام علی

النجوم الزاهرهٔ فی ملوک مصر و القاهرهٔ، ج۱۶، ص: ۲۰۸

ذلک ستّیات و مات، و کان رجلا ساکنا عاقلا، لم یشهر فی عمره بشجاعهٔ و لا کرم، و کان إذا توجّه فی مهم إلی السلطان مع من سافر من الأمراء و وقع الحرب یدعونه فی الوطاق لیحرس الخیم، و کذلک جعله الأشرف إینال فی یوم الواقعهٔ مع الملک المنصور عثمان یجلس علی الباب- رحمه اللّه تعالی.

أمر النیل فی هذه السنهٔ: الماء القدیم لم یحرر لغیابی بمکهٔ المشرفهٔ، مبلغ الزیادهٔ ثمانیهٔ عشر ذراعا و أصابع.

النجوم الزاهرهٔ فی ملوک مصر و القاهرهٔ، ج۱۶، ص: ۲۰۹

[ما وقع من الحوادث سنهٔ ۸۶۴]

السنهٔ الثامنهٔ من سلطنهٔ الملک الأشرف إینال علی مصر و هی سنهٔ أربع و ستین و ثمانمائهٔ.

فیها توفی الشیخ الإمام المحقق الفقیه العلامهٔ جمال الدین محمد بن أحمد المحلی الشافعی المصری بالقاهرهٔ فی یوم الأحد مستهل المحرم، و سنه نحو السبعین تخمینا، و کان إماما علامهٔ متبحرا فی العلوم، کان بارعا فی الفقه و الأصلین و العربیهٔ و علمی المعانی و البیان، و أفتی و درس عدهٔ سنین، و انتفعت الطلبهٔ به، و له عدّهٔ مصنفات، و لم یکمل بعضها، و رشح لقضاء الدیار المصریهٔ غیر مرهٔ، و کان فی طباعه حدّهٔ، مع عدم التکلف فی ملبسه و مرکبه إلی الغایهٔ، بحیث إنه کان إذا رآه من لا یعرفه یظنه من جملهٔ العوام- رحمه اللّه تعالی.

و توفّی الأمیر سیف الدین قیز طوغان العلائی الأستادار، ثم نائب ملطیهٔ، ثم أتابک حلب، ثم أحد أمراء دمشق- بطالا- بدمشق بالطاعون و قد شاخ، فی العشر الأوسط من محرم، و کان من عتقاء الأمیر علّان شلق الظاهری، و خدم بعده عند الملوک إلی أن اتصل بخدمهٔ السلطان، و صار فی دولهٔ المؤید شیخ رأس نوبهٔ الجمداریهٔ دهرا طویلا، إلی أن تأمر عشرهٔ فی دولهٔ الملک الظاهر جقمق، و صار أمیر آخور ثالثا، ثم ولی الأستاداریهٔ بعد عزل الناصری محمد بن أبی الفرج، فباشر أشهرا، ثم عزل و أخرج إلی البلاد الشامیهٔ، و تنقل فیها إلی ما أشرنا إلیه، ثم حجّ [و سافر أمیر] حاج المحمل الشامی، فوقع منه بالمدینهٔ الشریفهٔ ما أوغر خاطر السلطان علیه، و أمسک بعد عوده و حبس مدهٔ بقلعهٔ دمشق أو غیرها، ثم أطلق و دام بطالا إلی أن مات.

و کان أمیرا جلیلا عارفا شجاعا مقداما، و فیه حشمهٔ و أدب و مکارم - رحمه اللّه تعالی.

النجوم الزاهرهٔ فی ملوک مصر و القاهرهٔ، ج۱۶، ص: ۲۱۰

و توفّی الشیخ المقرئ إمام جامع الأزهر فی یوم الأحد خامس عشر المحرم، و کان دینا خیرا من بیت قراءهٔ و فضل و دین- رحمه اللّه تعالی.

و توفّی زین الدین أبو الخیر محمد ابن المعلّم شمس الدین محمد ابن المعلم أحمد، المعروف بالنحّاس، شهرهٔ و صناعهٔ و مکسبا، فی

يوم الجمعة العشرين من المحرّم، و دفن من يومه بالصحراء، و قد تقدّم من ذكره فى أصل هذا الكتاب ما يغنى عن التعريف به فى هذا المحل ثانيا، و سقنا أمره محرّرا من ابتداء أمره إلى آخره باليوم و الشهر فى تاريخنا «المنهل الصافى»، ثم فى مصنفنا أيضا «حوادث الدهور»، و ذكرنا كيفيته، و كيف كان تقرّبه إلى الملك الظاهر جقمق، و عرّفنا بحاله و تكسّبه فى دكان النحاسين، ثم ما وقع له مع أبى العباس الوفائى، ثم ترقّيه و تولّيه الوظائف السنيّة شيئا بعد شىء، ثم انحطاط قدره، و نكبته و مصادرته، و ضربه و نفيه بعد حبسه بحبس الرّحبة مدّة طويلة، و الإخراق به من العوامّ و المماليك السلطانية، ثم خروجه من الديار المصرية على أقبح وجه، بعد أن ادّعى عليه عند القاضى المالكى بالكفر، و أشيع ضرب رقبته، و وضع الجنزير فى رقبته، ثم ما وقع له من الإخراق بمدينة طرسوس فى مدّة طويلة، ثم حضوره إلى الدّيار المصرية بغير إذن الملك الظاهر جقمق خفية، ثم طلوعه إلى السلطان، و ضرب السلطان له ثانيا بالحوش فى الملأ العام ذلك الضرب المبرّح، ثم إخراجه ثانيا من القاهرة على أقبح وجه [منفيا] إلى طرابلس، ثم إقامته بطرابلس إلى أن مات الصاحب جمال الدين يوسف بن كاتب جكم، ثم طلبه الحضور إلى الديّار المصريّة غير مرّة إلى أن حضر، و ظن المخمول أن الذى مضى سيعود، و قدّم عدة كبيرة من الخيول، و ولّى الذخيرة و وظائف أخرى، فلم يتحرك له سعد و لانتج أمره، بل صار كلما قام أقعده الدهر، و كلما أراد القوة ضعف، و زاد به القهر إلى أن مرض و اشتد مرضه، و ترادفت رسل السلطان إليه بطلب المال، فعظم ما به من المرض من الخالق و من

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۱۱

المخلوق، إلى أن مات و استراح و أراح بعد أن قاسى أهوالا فى مرضه، و حمل على قفص حمال على رأس رجل للمحاسبة لما ثقل فى الضعف، و قد حثّه الطلب، كل ذلك تأديبا من اللّه عز و جل. لتعلم أن اللّه على كل شىء قدير.

و كانت صفته رجلا طوالا، أسمر جسيما عامّيا، كانت صفته مشبهة لصناعته و أهلها فى الكثافة، إلا أنه كان يكتب المنسوب بحسب الحال، ليس فيه بالماهر، و يحفظ القرآن على طريق قراء الأجواق من مواظبته لليالى جمع الإمام الليث، لا يحفظه على طريق القراء، و بالجملة فإن ابتداء ترقّية كان عجيبا، و انحطاطه كان أعجب- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الأمير سيف الدين علّان بن عبد اللّه المؤيّدى أتابك دمشق المعروف بعلّان جلّق بدمشق، فى يوم الأربعاء تاسع صفر و قد زاد سنه على السّبعين تخمينا، و كان أصله من مماليك الملك المؤيّد شيخ، و صار فى أيّامه من جملة الأمير آخورية الأجناد، ثم صار بعد موت أستاذه من جملة أمراء دمشق، ثم بعد مدّة نقل إلى نيابة ألبيرة، ثم إلى حجوبيّة حلب الكبرى، ثم عزل من حلب بسبب شكوى نائبها قانى باى الحمزاوى عليه، و توجّه إلى طرابلس بطالا، ثم أنعم عليه بإمرة مائة و تقدمة ألف بدمشق بعد انتقال الأمير خشقدم الناصرى المؤيدى عنها إلى حجوبيّة الحجاب بالدّيار المصريّة، ثم نقل إلى أتابكيّة دمشق بعد موت يشبك الصّوفى المؤيّدى فى سنة ثلاث و ستين، فلم تطل مدّته و مات، و كان مشهورا بالشجاعة و الإقدام- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الأمير سيف الدين طوغان من سقلسيز التركمانى أمير التركمان، فى شهر ربيع الأول، و استقرّ ولده فى إمرة التّركمان من بعده.

و توفّى القاضى سعد الدين إبراهيم ابن فخر الدين عبد الغنى ابن علم الدين شاكر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۱۲

ابن رشيد الدين خطير الدّمياطى المصرى القبطى المعروف بابن الجيعان ناظر الخزانة الشريفة، فى ليلة الجمعة ثالث عشرين شهر ربيع الأول، و سنه نيف عن خمسين سنة، و كان حشما و قورا، وجيها عند الملوك، و هو بانى الجامع على بحر بولاق بالقرب من منظرة الحجازية- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى عبد اللّه التركمانى البهسنى كاشف الشرقيّة بالوجه البحرى من أعمال القاهرة - بطالا- فى يوم الأحد ثالث شهر ربيع الآخر، و قد كبر سنه و شاخ، و كان فى أوّل قدومه إلى الديار المصرية يخدم شادّا فى قرى القاهرة إلى أن اتصل بخدمة الملك الظاهر جقمق قبل سلطنته، فلما تسلطن ولّاه كشف الشرقيّة، فلما ولّى ما كفّ عن قبيح و لا عفّ عن حرام إلا فعلهما، فساعت سيرته فى ولايته، و

حصل للناس منه شدائد، لا سيما أهل بلبيس و فلاحى الشرقية؛ فإنه كان عليهم أشدّ من إبليس، و شكاه غير واحد مرّات عديدة إلى الملك الظاهر، فلم يسمع فيه كلاما، و بالجملة فإنه كان من أوحاش الظّلمة- ألا لعنة اللّه على الظالمين.

و توفّى الشيخ أبو الفتح [محمد] الكاتب المجوّد صاحب الخط المنسوب و أحد نواب الحكم الشافعية و إمام الشهابى أحمد ابن الملك الأشرف إينال فى يوم الأحد عاشر شهر ربيع الآخر- رحمه اللّه.

و توفّى الأمير أسندمر بن عبد اللّه الجقمقى أحد أمراء العشرات و رأس نوبة بعد عوده من مجاورته بمكة بمرض البطن، فى يوم الثلاثاء تاسع جمادى الأولى و قد ناهز الستين من العمر، و كان روميّ الجنس، و كان أصله من مماليك جقمق الأرغون شاوى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۱۳

الدّوادار نائب الشام، و كان أسندمر هذا يجيد الرّمى بالنشاب، و فيه إسراف على نفسه- سامحه اللّه تعالى بفضله.

و توفّى سيف الدين خشقدم بن عبد اللّه الأرنبغاوى حاجب حجّاب طرابلس فى جمادى الأولى، و كان أصله من مماليك أردبغا نائب قلعة صفد، ثم خدم عند قانى باى الحمزاوى و صار فى اواخر عمره دوادارا، ثم سعى بعد الحمزاوى فى حجوبيّة طرابلس حتى وليها، فلم تطل مدّته، و مات فى التاريخ المذكور، و كان من الأوباش الذين لا أعرف لهم حالا.

و توفى الأمير سيف الدين يشبك بن عبد اللّه الظاهرى أحد أمراء العشرات بالطاعون فى يوم السبت حادى عشرين جمادى الأولى، و أخرج هو و ولده معا فى جنازة واحدة، و كان أصله من مماليك الملك الظاهر جقمق، اشتراه فى سلطنته، و تأمر فى أيامه عشرة ثم نكب، ثم تأمر ثانيا فى دولة الملك الأشرف عشرة إلى أن مات، و كان لا بأس به- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الأمير سيف الدين يونس بن عبد اللّه العلائى الناصرى الأمير آخور الكبير بالطاعون فى باكر يوم الاثنين ثالث عشرين جمادى الأولى، و قد جاوز السبعين من العمر، و دفن بتربته التى أنشأها بالصحراء، و كان أصله من مماليك الظاهر برقوق الكتابية، ثم ملكه الملك الناصر فرج و أعتقه، و دام من جملة المماليك السلطانية سنين كثيرة لا يلتفت إليه فى الدول إلى أن تأمر عشرة فى أوائل دولة الملك الظاهر جقمق، مراعاة لخاطر الأمير إينال العلائى الأجرود، أعنى عن الأشرف هذا صاحب التّرجمة؛ لكونه كان خچداشه من تاجر واحد، و دام من جملة أمراء العشرات أياما كثيرة، إلى أن نقله الملك الظاهر إلى نيابة قلعة الجبل بعد عزل تغرى برمش الفقيه و إخراجه إلى القدس فى سنة تسع و أربعين.

قلت: و بئس البديل، و هذا من عدم الإنصاف، كيف يكون هذا المهمل العارى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۱۴

من كل علم و فن موضع ذلك العالم الفاضل الذكى العارف بغالب فنون الفروسية مع ماحواه من العلوم، و قد أذكرتنى هذه الواقعة قول بعض الأدباء المؤالة، حيث قال:

شاباش يا فلك شاباش تحط عالى و ترفع فى الهوا أوباش

و تجعل الحرّ الذكى الوشواش يحكم عليه ردىء الأصل يبقى لاش

و استمر يونس هذا فى نيابة القلعة إلى أن تسلطن خچداشه الملك الأشرف إينال صاحب الترجمة، و خلع عليه فى صبيحة يوم السلطنة بنيابة الإسكندرية، فتوجه إليها و أقام بها مدة، ثم عزل و قدم إلى القاهرة على إمرته، ثم يعد مدة من قدومه، صار أمير مائة و مقدّم ألف بالديار المصرية بعد خروج الأمير جانم الأشرفى إلى نيابة حلب و ذلك فى أواخر صفر سنة تسع و خمسين، و توجه لتقليد الأمير قانى باى الحمزاوى نائب حلب بنيابة دمشق بعد موت الأمير جلبّان فقلده و عاد، و قد استغنى يونس بما أعطاه قانى باى الحمزاوى فى حقّ طريقه من الذهب اثنى عشر ألف دينار، و من القماش و الخيول نحو خمسة آلاف دينار، ثم نقل بعد ذلك إلى الأمير آخورية الكبرى بعد انتقال الأمير جرباش المحمدى إلى إمرة مجلس، بعد تعطّل الأمير طوخ من تمراز و لزومه داره من مرض تمادى به، و ذلك فى أوائل ذى الحجة سنة إحدى و ستين و ثمانمائة.

و عظم يونس عند خچداشه الملك الأشرف، لكونه كان خچداشه، و أنا أقول:

ما كانت محبته له إلا لجنسية كانت بينهما فى الإهمال؛ لأن الجنسية علة الضم، فلم يزل يونس المذكور فى وظيفته إلى أن مات فى التاريخ المقدم ذكره، قلت: و ما عسى أذكر من أمره، و السكوت و الإضراب عن الذكر أجمل، و فى التلويح ما يغنى عن التصريح.

و توفى الأمير زين الدين هلال بن عبد اللّه الرومى الطواشى الظاهرى الزمام بطالا بالطاعون، فى يوم الأحد تاسع عشرين جمادى الأولى، و قد شاخ و ناهز عشر المائة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۱۵

من العمر، لكونه كان من خدّام الملك الظاهر برقوق و من أعيان طواشيته، ثم صار شادّ الحوش السلطانى مدّة طويلة، إلى أن بدا له أن يبذل المال فى وظيفة الزّماميّة، فوليها بعد موت الأمير جوهر القنقبائى، فباشر الوظيفة بقلّة حرمة، فلم ينتج أمره، و عزل و تخومل إلى أن مات، و هو مجتهد فى الزراعة و الدولاب لتحصيل المال، فلم ينل من ذلك شيئا، و مات فقيرا- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى القاضى زين الدين عبد الرحيم ابن قاضى القضاة بدر الدين محمود ابن القاضى شهاب الدين أحمد العينى الحنفى ناظر الأحباس، فى يوم الثلاثاء ثانى عشرين جمادى الآخرة بالطاعون، و هو فى الكهولية، و كان من بيت علم و رئاسة.

و توفيت خوند زينب بنت الأمير جرباش الكريمى المعروف بقاشق، فى يوم السبت سادس عشرين جمادى الآخرة، بالطاعون، و سنّها فوق الثلاثين، و كان الملك الظاهر جقمق تزوّجها فى أوائل سلطنته، فى حدود سنة اثنتين و أربعين أو التى بعدها، و مات عنها فتزوجها القاضى شرف الدين موسى الأنصارى ناظر الجيوش المنصورة، فماتت عنده - رحمها اللّه تعالى.

و توفّى الأمير قرم خجا بن عبد اللّه الظاهرى، أحد أمراء العشرات بطالا فى العشر الأول من شهر رجب، و هو فى عشر المائة من العمر، كان من مماليك الظاهر برقوق و خاصكيته، و كان فقيها ديّنا خيّرا تركيّ الجنس- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى السيفى يشبك بن عبد اللّه الأشرفى الأشقر أستادار الصّحبة و أحد الخاصكية بالطاعون، فى يوم الثلاثاء سابع شهر رجب، و مستراح منه؛ لأنه كان مهملا مسرفا على نفسه، لا يرتجى لدين و لا لدنيا - عفا اللّه عنه.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۱۶

و توفّى الأمير سيف الدين يشبك بن عبد اللّه الساقى الظاهرى بالطاعون، فى يوم الأحد تاسع عشر شهر رجب بعد أن تأمر بأيام، و كان مشهورا بالشجاعة و الإقدام، قلعت عينه فى واقعة الملك المنصور عثمان مع الأشرف إينال، و كان من حزب ابن أستاذه الملك المنصور- رحمه اللّه و عفا عنه.

و توفّى الأمير سيف الدين يرشباى بن عبد اللّه الإينالى المؤيدى الأمير آخور الثانى- كان- و أحد أمراء الطبلخانات الآن، و هو مجاور بمكّة المشرفة، فى شهر رجب، و قد ناهز الستين من العمر، و كان من مماليك الملك المؤيّد شيخ، اشتراه بعد سلطنته، و صار خاصكيا بعد موته إلى أن تأمر عشرة فى دولة الملك الظاهر جقمق، و صار أمير آخور ثالثا، ثم نقل بعد مدّة إلى الأمير آخوريّة الثانية و إمّرة طبلخاناه بعد موت خچداشه سودون المحمدى المعروف بأتمكجى، فدام على ذلك إلى أن قبض عليه الملك المنصور عثمان مع دولات باى الدّوادار و يلباى الإينالى المؤيّديّين، و حبس يرشباى هذا بسجن الإسكندرية إلى أن أطلقه الملك الأشرف، و أرسله مع خچداشه يلباى إلى دمياط، ثم استقدمهما بعد أيّام يسيرة إلى القاهرة، و أنعم على يرشباى المذكور بإمرة عشرة، ثم بإمرة طبلخاناه بعد انتقال الأمير بايزيد التّمربغاوى إلى تقدمة ألف، ثم سافر إلى مكّة رأسا على المماليك السلطانية بها فى سنة ثلاث و ستين فمات بمكة- رحمه اللّه تعالى.

و كان رجلا طوالا مليح الشكل و الهيئة، حشما و قورا، مع إسراف على نفسه- عفا اللّه عنه بمنّه و كرمه.

و توفّى القاضى كمال الدين أبو الفضل محمد بن ظهيرة المكى المخزومى الشافعى، قاضى جدّة، و هو معزول عنها بعد مرض طويل بالمدينة الشريفة، و كان من خيار

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۱۷

أقاربه، ولديه فضيلة و مشاركة حسنة و محاضرة جيّدة بالشعر و أيام الناس، و كان محبوبا فی قومه و أهل بلده- رحمه اللّه تعالى- و لقد عزّ علينا فراقه.

و توفّى الأمير سيف الدين يشبك بن عبد اللّه المؤيّدى أتابك دمشق بها فی شعبان، و قد جاوز الستين، و كان يعرف بيشبك طاز، و كان مشكور السيرة، لا بأس به- رحمه اللّه.

و توفّى الشيخ الإمام العالم الفقيه زين الدين عبد الرحمن بن عنبر الأبوتيجي الشافعي، أحد فقهاء الشافعية فی صبيحة يوم الاثنين ثالث عشرين شوال، و قد زاد سنه عن التسعين، و كان عالما، و له اليد الطولى فی علمی الفرائض و الحساب، و تصدّر للإقراء بجامع الأزهر مدة طويلة، و كان يعجبنی حاله، إلا أنه ما حجّ حجة الإسلام- عفا اللّه تعالى عنه.

و توفيت خوند آسية بنت الملك الناصر فرج ابن الملك الظاهر برقوق فی أوائل ذی الحجة، و أمها أم ولد حبشية تسمى ثريّا.

أمر النيل فی هذه السنة: الماء القديم ستة أذرع سواء، مبلغ الزيادة تسعة عشر ذراعا و خمسة عشر إصبعا.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۱۸

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۶۵]

اشارة

ذكر سلطنة الملك المؤيد أبی الفتح أحمد [بن إينال] على مصر هو السلطان السابع و الثلاثون من ملوك الترّك و أولادهم بالديار المصرية، و الثالث عشر من الجراكسة و أولادهم.

تسلطن فی يوم الأربعاء رابع عشر جمادى الأولى من سنة خمس و ستين و ثمانمائة الموافق لأول برمهات، فلما كان ضحوة النهار المذكور نزل الزينی خشقدم الأحمدی الطواشی الساقی الظاهری بطلب القضاة الأربعة إلى القلعة، و نزل غيره إلى الخليفة المستنجد باللّه يوسف، فبادر كلّ منهم بالطلوع إلى القلعة، حتى تكامل طلوع الجميع، و جلس الكل بقاعة دهليز الدهيشة من قلعة الجبل، و جلس الخليفة و المقام الأتابكی أحمد المذكور فی صدر المجلس، و جلس كلّ من القضاة فی مراتبهم، و دار الكلام بينهم فی سلطنة الملك المؤيد هذا؛ لكون أن والده الملك الأشرف إينال ما كان عهد إليه قبل ذلك بالسلطنة، فتكلم القاضی كاتب السر محب الدين بن الشّحنة فی أن تكون ولايته فی السلطنة نيابة عن والده مدة حياته، ثم استقلالا بعد وفاته، أو معناه، فلم يحسن ذلك ببال من حضر، و قام الجميع و دخلوا إلى قاعة الدهيشة، و بها الملك الأشرف إينال مستلق على خطة ليسمعوا كلامه بالعهد لولده أحمد هذا، فكلّمه الأمير يونس الدوادار غير مرة فی معنى العهد، و هو لا يستطيع الرد، و طال وقوف الجميع عنده و هو لا يتكلّم، فخرجوا إلى ولده المؤيد هذا و هو جالس بدهليز الدهيشة عند الشباك و عرفوه الحال، ثم رجعوا إلى الملك الأشرف ثانيا، و كرروا عليه السؤال، و هو ساكت، إلى أن تكلم بعد حين، و قال باللغة التركية: «أغلم، أغلم»، يعنی

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۱۹

«إبنی، إبنی»، فقال من حضر: «هذا إشارة بالعهد لولده»، فإنه لا يستطيع من الكلام أكثر من هذا، و خرجوا من وقتهم إلى الدهيشة، و انتدب كاتب السّرّ لتحليف الأمراء، فحلف من حضر من الأمراء الأيمان المؤكدة، و لم ينهض أحد منهم أن يورّی فی يمينه و لا يدلس، لأنهم أجانب من معرفة ذلك، و أيضا المحلف له فطن و كاتب سرّه رجل عالم، و كان من جملة اليمين: المشی إلى الحاج كذا كذا مرة، و الطلاق و العتق و غير ذلك.

فلما انقضى التّحليف و تمّت البيعة قام كل أحد من الأمراء و الخاصكية و الأعيان و بادر إلى لبس الكلفتاة و التترى الأبيض، كما هی

العادة، و أحضرت خلعة السلطنة الخليفتية السوداء، و لفت له عمامة سوداء حرير، و قام المقام الشهابی المذکور و لبس الخلعة و العمامة علی الفور، و رکب من باب الدهيشة فرس النوبة بسرج ذهب و کنبوش زرکش، و مشت الأمراء و الأعيان بين يديه من باب الحوش إلی أن اجتاز بباب الدور السلطانية فتلقته الجاووشية و الزردکاش و معه القبة و الطير و أبهة السلطنة، فتناول الأمير خشقدم الناصری المؤيدی أمير سلاح القبة و الطير بإذن السلطان و حملها علی رأسه و هو ماش، و سار فی موکب الملک بعظمة زائدة خارجة عن الحد، و صار جميع الأمراء و القضاة مشاة بين يديه إلا الخليفة المستنجد بالله فإنه رکب فرسا من خيل السلطان، و مشی بها خطوات، ثم نزل عنها لقوتها عليه، و لا زال علی تلک الهيئة، حتی نزل علی باب القصر السلطانی من قلعة الجبل، و دخل و جلس

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۲۰

علی سرير الملک، فلم تر العيون فيما رأت أحسن و لا أجمل منه فی الخلعة السوداء، لأنه کان أبيض اللون، و الخلعة سوداء، مع حسن سمته، و طول قامته، حتی إنه لعله لم يکن أحد فی العسکر يوم ذاک يدانيه فی طول القامة.

و لما جلس علی تخت الملک قبّلت الأمراء الأرض بين يديه، و دقّت الکئوسات، و نودی فی الحال بالدعاء للملک المؤيد أبی الفتح أحمد بشوارع القاهرة.

ثم فی الوقت خلع علی الخليفة فوقانی حرير بوجهين أبيض و أخضر بطرز زرکش، و أنعم عليه بفرس بسرج ذهب، و کنبوش زرکش، و أنعم عليه بقرية منبابة بالجيزة.

ثم خلع علی الأمير خشقدم أمير سلاح أطلسين متمّرا، و فوقانيا بطرز زرکش، بسرج ذهب و کنبوش زرکش.

و أقام الملک المؤيّد يومه و ليلته بالقصر، و أصبح حضر الخدمة حسبما يأتی ذکره، بعد أن نذکر وقت سلطنته.

و کان الطالع وقت مبايعته و لبسه خلعة السلطنة و جلوسه علی سرير الملک السرطان، و صاحب الطالع بالسنبلة- و هو القمر- قطع اثنتين و عشرين درجة و خمسين دقيقة، و الرأس بالسرطان أيضا ست عشرة درجة و ثلاثين دقيقة راجعا، و المشتری بالقوس صفرا و سبعا و عشرين دقيقة، و زحل بالجدی أيضا ثمانيا و عشرين درجة و ستا و أربعين دقيقة، و الذنب بالجدی أيضا ست عشرة درجة و ثلاثين دقيقة، و الزّهرة فی الدلو ثلاث درجات و تسع عشرة دقيقة، و الليلة بالدلو أيضا ثمانی درج و ثمانيا و خمسين دقيقة، و عطارد أيضا بالدلو اثنتين و عشرين درجة و خمسين دقيقة، و الشمس فی الحوت خمس عشرة درجة و أربعا و خمسين دقيقة، و الساعة السادسة، و هی للزّهرة- انتهی.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۲۱

و لما کان صبيحة نهار الخميس المقدّم ذکره، و هو ثانی يوم من يوم سلطنته، و هو عشر جمادی الأولی، و قد عمل السلطان فيه الخدمة السلطانية، و خلع علی جماعة کثيرة من الأمراء بعدة وظائف، فاستقرّ بالأمير خشقدم أمير سلاح أتابک العساکر عوضا عن نفسه، و لکن لم يجد له فی ذلک اليوم خلعة الأتابکية، لکونه کان لبسها فی أمسه، لما حمل القبة و الطير علی رأس السلطان، فجددت له أخری لم يفرغ عملها فی هذا اليوم.

ثم أنعم السلطان علی الأمير خشقدم المذکور بإقطاع نفسه، و هو إقطاع الأتابکيّة.

ثم خلع علی الأمير جرباش المحمدی أمير مجلسه باستقراره فی إمرة سلاح عوضا عن الأمير خشقدم بحکم استقراره أتابک العساکر.

و استقر الأمير قرقماس الأشرفی رأس نوبة النّوب أمير مجلس عوضا عن جرباش المقدّم ذکره.

و استقرّ الأمير قانم من صفرخجا المؤيّدی التاجر رأس نوبة النّوب عوضا عن قرقماس المذکور.

و أنعم السلطان بإقطاع الأتابک خشقدم علی الأمير بيبرس الأشرفی خال الملک العزيز يوسف حاجب الحجاب، لکون متحصل هذا الإقطاع يزيد عن متحصل الإقطاع الذی کان بيده أولا، و طلب الأمير جانبک من أمير الأشرفی الخازندار إقطاع بيبرس، فتوقّف السلطان فيه، و وقع- بسبب توقّف السلطان فی الإنعام علی جانبک به- بين جانبک المذکور و بين الأمير يونس الدّوادار الکبير کلام،

فأفحش الدّوادار فى الرّدّ على جانبک، و دام الإقطاع موقوفا لم ينعم به على أحد، و انفض الموکب، و قام السلطان الملک المؤيد أحمد من القصر، و توجه إلى الدهيشة، و جلس بالشباک المطل على الحوش، و أمر المنادى فنادى بين يديه بالحوش، بأن النفقة فى المماليک السلطانية تکون لکل واحد مائة دينار، و تکون أول التفرقة يوم الثلاثاء عشرين الشهر، فضج الناس له بالدعاء.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۲۲

ثم قام و دخل إلى عند أبيه و هو فى السياق، فمات فى اليوم، و هو يوم الخميس المقدم ذکره بين الظهر و العصر، فجهز من وقته، و صلى عليه بباب القلّة من قلعة الجبل، ثم حمل حتى دفن من يومه بتربته التى أنشأها بالصحراء خارج القاهرة- حسبما تقدم ذکر ذلک کله فى ترجمته.

ثم أصبح الملک المؤيد يوم الجمعة صلى الجمعة بجامع الناصرى بالقلعة مع الأمراء على العادة، و خلع بعد انقضاء الصلاة على الأمير خشقدم الناصرى المؤيدى خلعة الأتابکية على العادة، و استمر السلطان إلى يوم الأحد ثامن عشره- أعنى جمادى الأولى- فأنفق على الأمراء نفقة السلطنة، فحمل إلى الأمير الکبير أربعة آلاف دينار، تفصيلها: ألف دينار بسبب حمله القبة و الطير على رأس السلطان يوم سلطنته، و البقية نفقة السلطنة، و حمل إلى أمير سلاح جرباش و غيره من أمراء الألوف من أصحاب الوظائف لکلّ واحد ألفين و خمسمائة دينار، و إلى غير أرباب الوظائف من مقدمى الألوف لکلّ ألفى دينار فقط، و حمل لکل أمير من أمراء الطبلخانات خمسمائة دينار، و لکل أمير من أمراء العشرات مائتى دينار.

ثم فى يوم الاثنين تاسع عشر جمادى الأولى خلع السلطان على الأتابک خشقدم، و على قانم رأس نوبة النوب خلع الأنظار المتعلقة بوظائفهما على العادة، و أنعم السلطان على الأمير يشبک البجاسى الأشرفى إينال أحد مقدمى الألوف بحلب بإمرة مائة و تقدمة ألف بالديار المصرية، و هو إقطاع بيبرس الذى وقع بين يونس الدوادار و بين جانبک [الظريف] الخازندار بسببه، و أنعم بتقدمة يشبک المذکور التى بحلب على الأمير تمراز [الأشرفى] الدّوادار، [- کان-] و أنعم بإقطاع تمراز، و هو إمرة

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۲۳

طبلخاناه بطرابلس، على الأمير لاچين الظاهرى، و يشبک هذا المنعم عليه بالتقدمة کان أصله من مماليک الأمير تنبک البجاسى نائب الشام، و ملکه بعد موت تنبک الأشرف إينال، و هو من جملة الأمراء، و أعتقه و رقّاه حتى صار دواداره، ثم أخذ له من الملک الظاهر جقمق إمرة بصفد، فلما تسلطن رفع قدره إلى أن صار من جملة أمراء الألوف بحلب، و اتفق مجيئه إلى مصر لينظر أستاذه، فاتفق فى مجيئه ضعف أستاذه ثم موته.

و فيه أيضا خلع السلطان على جماعة من الأمراء و الخاصکية لتوجههم بحمل تقاليد نوّاب البلاد الشّاميّة.

فکان الأمير مغلباى الأبوبکرى المؤيّدى المعروف بطاز، أحد أمراء العشرات و رأس نوبة، يتوجّه إلى نائب الشام الأمير جانم الأشرفى.

و الأمير بيبرس الأشرفى الأشقر أحد أمراء العشرات و رأس نوبة يتوجّه إلى الأمير حاج إينال اليشبکى نائب حلب.

و السيفى برقوق الناصرى الظاهرى الساقى [يتوجه] إلى إياس المحمدى الناصرى نائب طرابلس.

و السيفى آقبردى الساقى الأشرفى [يتوجه] لجانبک التاجى المؤيّدى نائب حماة.

و تنم الفقيه الأبوبکرى المؤيّدى [يتوجه] لخيربک النّوروزى نائب صفد، و لبردبک العبد الرحمانى نائب غزّة معا.

و خلع على جماعة أخر من الخاصکية بتوجههم إلى جماعة أخر إلى البلاد الشامية، و الجميع خاصّکيّة ما عدا مغلباى طاز و بيبرس الأشقر.

ثم فى يوم الثلاثاء العشرين من جمادى الأولى المذکورة ابتدأ السلطان بالنفقة فى المماليک السلطانية من غير تسوية، فأعلى من أخذ مائة دينار، و أدنى من أخذ ثلاثين دينارا،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۲۴

و أعطى لكل مملوك من الكتابية عشرة دنانير، فاستمرت النفقة على المماليك السلطانية فى كل يوم سبت و ثلاثاء إلى ما يأتى ذكره. ثم بعد أيام وصل القاهرة كتاب جانبك الأبلق الظاهرى من قبرس أنه هو و من معه من المماليك السلطانية و غيرهم من الفرنج واقعوا أهل شرينة فى عاشر شهر ربيع الآخر، و حصروا قلعتها، و قتلوا من الفرنج بشرينة ثمانية نفر، و أسروا مثلهم، ثم ذكر أيضا أنه واقع ثانيا أهل شرينة، و قتل صاحب الشرطة بقلعتها، و آخر من عظمائها أرمى نفسه إلى البحر فغرق، قلت: «مما خطاياهم أغرقوا فأدخلوا نارا»

ثم ذكر جانبك أيضا: أنه قبض على خمسة منهم، و أن الملكة صاحبة شرينة أخت جاكم صاحب قبرس قد توجّهت من شرينة إلى رودس تستنجد بهم، ثم ذكر أيضا أنه ظفر بعدة مراكب ممن كان قدم من الفرنج نجدة للملكة المذكورة، و أنه أسر منهم خلائق تزيد عدتهم على مائة نفر، و أنه أخذ بالحصار عدّة أبراج من أبراج قلعة باف بعد أن قاسوا منه شدائد، و أنه يستحث السلطان فى إرسال عسكر بسرعة قبل مجىء نجدة لهم من الفرنج أهل الماغوصة الجنوية، و إلى أهل شرينة من غير الجنوية- انتهى.

و فى يوم الأربعاء ثامن عشرينه استقر عميرة بن جميل بن يوسف شيخ عربان السخاوة بالغربية بعد موت أبيه.

قلت: و الشىء بالشىء يذكر، و قد أذكرنى ولاية عميرة هذا حال أرياف الديار المصرية الآن، فإنه من يوم تسلطن الملك المؤيد أحمد هذا حصل الأمن فى جميع الأعمال برّا و بحرا، شرقا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۶، ص: ٢٢۵

و غربا، من غير أمر يوجب ذلك، و وقع رعب السلطان فى قلوب المفسدين حتى صار أحدهم لا يستطيع أن يخرج من داره فكيف يقطع الطريق، فانطلقت الألسن بالدعاء للملك المؤيد هذا، و تبارك كل أحد بقدومه و استيلائه على الأمر، و مالت النفوس إلى محبته ميلا زائدا خارجا عن الحد؛ فإنه أول ما تسلطن قمع مماليك أبيه الأجلاب عن تلك الأفعال التى كانوا يفعلونها أيام أبيه، و هدّدهم بأنواع النكال إن لم يرجعوا، فرجع الغالب منهم عن أشياء كثيرة مما تقدم ذكرها، و علم الناس من السلطان ذلك، فطمع كل أحد فى الأجلاب فانحطّ قدرهم، حتى صار أحدهم لا يستطيع أن يزجر غلامه و لا خدمه، فزاد حبّ الناس للملك المؤيّد لذلك، فكل من أحبه فهو معذور؛ لما قاست الناس منهم أيام أبيه من تلك الأفعال القبيحة، على أن الملك المؤيّد أيضا كان له فى أيام والده مساوئ كثيرة من جهة حماياته البلاد و المراكب بساحل النيل، و أشياء أخر غير ذلك، فقاست الناس من حماياته أهوالا، فلما تسلطن ترك ذلك كله كأنه لم يكن، و أقبل على العدل و إرداع المفسدين، فبدّل فى أيامه الجور بالعدل، و الخوف بالأمن، و الراحة بعد التعب- و للّه الحمد.

و فيه عزل السلطان الصاحب شمس الدين منصورا عن الأستادارية، و خلع من الغد على مجد الدين أبى الفضل البقرى كامليّة بمقلب سمّور، باستقراره فى الأستادارية، عوضا عن الشمسى منصور، و وعد بأنه يلبس خلعة وظيفة الأستادارية فى يوم السبت أول جمادى الآخرة، فوقع ذلك.

ثم فى يوم الخميس سادس جمادى الآخرة خلع السلطان على الصفوى جوهر النّوروزىّ الطواشى الحبشى بإعادته إلى تقدمة المماليك السلطانية، بعد موت الطواشى مرجان الحصنى الحبشى.

و فى هذه الأيام أشيع بين الناس بركوب المماليك السلطانية على السلطان بعد النفقة،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۶، ص: ٢٢۶

و لم يعلم أحد من هو القائم بالفتنة، فلم يلتفت السلطان لهذا الكلام.

ثم فى يوم الخميس ثالث عشر جمادى الآخرة قرئ تقليد السلطان الملك المؤيد بين يديه بالقصر الأبلق، تولى قراءته القاضى محبّ الدين بن الشّحنة كاتب السّرّ، و هو من إنشائه، و حضر الخليفة المستنجد القراءة و القضاة الأربعة، و غالب أركان الدّولة و أمرائها، فلما تمت القراءة خلع السلطان على الخليفة فوقانى حرير [بوجهين] أخضر و أبيض بطرز زركش، و قيّد له فرسا بسرج ذهب، و كنبوش زركش، ثم خلع على القضاة كوامل بمقالب سمور، و انفضّ الموكب.

و فی یوم السبت خامس عشر وصل إلی القاهرة قاصد الأمیر جانم الأشرفی نائب الشام، و علی یده کتاب مرسله یتضمن أنه حصل له سرور زائد بسلطنة الملک المؤید، و أنه مستمرّ علی طاعته، ممتثل أوامره.

و فیه أیضا ورد الخبر بأن عرب لبید العصاة نزلوا البحیرة، و نهبوا الأموال، [وشنوا الغارات]، فعیّن السلطان تجریدة من الأمراء، و أمرهم بالتجهیز و السفر إلی البحیرة.

ثم فی یوم الأربعاء رابع شهر رجب وصل الأمیر تمراز الإینالی الأشرفی الدوادار- کان- من طرابلس إلی الدیار المصریة بغیر إذن السلطان، و لم یجتز بمدینة قطیا، و نزل عند الأتابک خشقدم، و أرسل دواداره إلی الملک المؤید، أعلمه بمجی‏ء تمراز المذکور، فقامت قیامة السلطان لمجیئه علی هذه الصورة، و غضب غضبا شدیدا، و رسم بإخراجه من القاهرة لوقته، فأخذ تمراز فی أسباب الردود و الخروج إلی خانقاه سریاقوس، فشفعت الأمراء فیه فی عصر یومه بالقصر، فقبل السلطان شفاعتهم علی أنه یقیم بالقاهرة ثلاثة أیام لعمل مصالحه، ثم یسافر إلی حیث جاء منه، فعاد تمراز من جهة الخانقاه إلی القاهرة، فترقّب کلّ أحد وقوع فتنة، لأن تمراز هذا شرّ مکانا، و دأبه الفتنة و إثارة الفتن، و هو

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۲۷

من أوخاش بنی آدم، فقام تمراز إلی یوم الجمعة سادسه فطلع إلی القلعة، و قبّل الأرض بین یدی السلطان، و أخذ فی الاعتذار الزائد لمجیئه بغیر إذن، فقبل السلطان عذره، و خلع علیه کاملیة بمقلب سمّور، و أنعم علیه بإمرة مائة و تقدمة ألف بدمشق، و رسم له أن یقیم بالقاهرة ثلاثة أیام من یومه هذا و یسافر، فنزل إلی داره، و الناس علی ما هم علیه من أن تمراز هذا لا بد له من إثارة فتنة و تحریک ساکن، هذا و الأمراء تکرر الشفاعة فیه لیقیم بالدیار المصریة، و خچداشیته الأشرفیة فی غایة ما یکون من الاجتهاد فی ذلک، و السلطان مصمم علی سفره، إلی أن سافر حسبما یأتی ذکره.

و فی یوم الجمعة هذا- الموافق لثانی عشرین برمودة- لبس السلطان القماش الأبیض البعلبکی، أعنی کشفا من غیر لبس صوف کما هی العادة أیام الصیف.

و فی یوم الثلاثاء عاشر شهر رجب المذکور خلع السلطان الملک المؤید علی تمراز المذکور خلعة السفر، و سافر من یومه إلی دمشق، بعد أن أنعم السلطان علیه بخمسمائة دینار و عدة خیول و بغال، و توجّه تمراز و لم یتحرک ساکن.

و فی یوم الخمیس ثانی عشره استقر القاضی شرف الدین الأنصاری ناظر الجوالی بعد عزل [ناصر الدین] بن أصیل.

و فیه وصل الأمیر مغلبای طاز الأبوبکری المؤیدی بعد أن بشّر الأمیر جانم نائب الشام بسلطنة المؤید و عاد.

و فیه وصل السّیفی شاهین الطواشی الساقی الظاهری المتوجّه قبل تاریخه لإحضار ترکة زوجة الأمیر قانی بای الحمزاوی من دمشق، و أحضر شیئا کثیرا جدا من الجواهر و اللآلئ و الأقمشة و غیر ذلک، حتی إنه أبیع فی أیام کثیرة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۲۸

ثم فی یوم الجمعة العشرین من شهر رجب المذکور نزل السلطان الملک المؤید أحمد من قلعة الجبل إلی جهة العارض خلف القلعة، و عاد بسرعة إلی القلعة، و هذا أول نزوله من یوم تسلطن، قلت: و آخر نزوله؛ فإنه لم ینزل بعدها إلا بعد خلعه إلی الإسکندریة.

و فیه أمطرت السماء بردا، کل واحد مقدار بیضة الحمام، فأتلفت غالب الزرع، و أهلکت کثیرا من ذوات الجناح، و کان معظم هذا المطر بقری الشرقیة من أعمال القاهرة، و ببعض بلاد من المنوفیة و الغربیة، و قلیلا بإقلیم البحیرة.

و فی یوم الخمیس سادس عشرینه رسم السلطان بنفی سنطبای قرا الظاهری إلی البلاد الشامیة، و سببه أن سنطبای هذا کان من المنفیین إلی طرابلس فی دولة الملک الأشرف إینال، فلما سمع بموت الأشرف قدم القاهرة بغیر إذن و اختفی بها نحو الشهر عند بعض خچداشیته، ففطن السلطان به فرسم بنفیه، فاجتهدت خچداشیته الظاهریّة فی إقامته، فلم تقبل فیه شفاعة، فخرج من یومه، و عظم ذلک علی خچداشیته الظاهریة فی الباطن، قلت: و لا بأس بما فعله السلطان فی إخراج سنطبای المذکور علی هذه الهیئة، فإنه أخرج

قبله تمراز من الأشرفیة، ثم أخرج هذا من الظاهریة، فکأنه ساوی بین الطائفتین، هذا و الناس فی رجیف من کثرة الإشاعة بوقوع فتنة.

ثم فی یوم الاثنین سابع شعبان استقر شادبک الصارمی- أحد أمراء الألوف بدمشق- أتابکا بحلب، علی مال بذله فی ذلک، نحو العشرة آلاف دینار.

و فیه وصلت رسل السلطان إبراهیم بن قرمان إلی القاهرة بهدیّة إلی السلطان، و قبل هدیّة مرسلهم، و رحّب بهم.

ثم فی یوم الخمیس سابع عشر شعبان وصل إلی القاهرة الشرفی یحیی ابن الأمیر جانم نائب الشام، و طلع إلی السلطان من الغد، و قبّل الأرض نیابة عن أبیه، و سأل

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۲۹

السلطان فی إطلاق الأمیر تنم من عبد الرزّاق المؤیدی أمیر سلاح- کان- و الأمیر قانی بای الچارکسی الأمیر آخور- کان- من سجن الإسکندریة، فلم یقبل السلطان شفاعته، و سوّف به إلی وقت غیر معلوم، و علم السلطان أن مجیء ابن جانم هذا لیس هو بصدد الشفاعة فقط، و إنما هو لتجسس الأخبار و عمل مصلحة والده مع خچداشیته الأشرفیة، و غیرهم من الظاهریة و المؤیدیة، و کذا کان، و لم یظهر الملک المؤید لأحد، و إنما أخذ فی حساب جانم نائب الشام فی الباطن، و التدبیر علیه بکل ما تصل القدرة إلیه، و لم یسعه یوم ذلک إلا أن تجاهل علیهم.

و هذا الأمر أحد أسباب حضور جانم إلی الدیار المصریة حسبما یأتی ذکره مفصلا- إن شاء اللّه تعالی- فی ترجمة الملک الظاهر خشقدم، لأن یحیی ولد جانم لما حضر هذه الأیام إلی الدیار المصریة اتفق مع أعیان الممالیک الظاهریة بعد أن اصطلحوا مع الممالیک الأشرفیة- علی عداوة کانت بینهم قدیما و حدیثا- و رضوا الظاهریة بسلطنة جانم علیهم، و هم أکره البریة فیه، حیث لم یجدوا بدا من ذلک؛ و ما ذاک إلا خوفا من الملک المؤید هذا، فکان أمرهم فی هذا کقول القائل:

[الوافر]

و ما من حبّه أحنو علیه و لکن بغض قوم آخرین

و سافر الشرفی یحیی بن مصر إلی جهة أبیه فی یوم الجمعة خامس عشرین شعبان، بعد أن خلع علیه السلطان، و أنعم علیه بخمسمائة دینار، و قد مهّد لأبیه الأمور بالدّیار المصریة مع الظاهریة، و أما الأشرفیة خچداشیته فهم من باب أولی لا یختلف علی جانم منهم اثنان، و ما کان قصد جانم إلا رضاء الظاهریّة، و قد رضوا.

و سار یحیی و هو یظن أن أمر أبیه قد تم فی سلطنة مصر، و لم یفطن إلی تقلبات الدهر، فلما أن وصل یحیی إلی والده حدّثه بما وقع له بمصر مع زید و عمرو، و کان عند جانم- رحمه اللّه تعالی- خفّة لما کان أوحی إلیه الکذابون من أقوال الفقراء، و رؤیة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۳۰

المنامات، و عبارات المنجمین، فتحقّق المسکین أنه لا بد له من السلطنة، و وافق ذلک صغر سن ولده یحیی، و عدم معرفته بالمکاید و التجارب، و حاله کقول من قال:

[الطویل]

و یا دارها بالخیف إنّ مزارها قریب، و لکن دون ذلک أهوال

و قوّی أمر یحیی و خفة جانم اجتماع تمراز الأشرفی الدّوادار المقدم ذکره بجانم فی دمشق، و قد صدق هذا الخبر لما فی نفسه من الملک المؤید هذا، و من أبیه الأشرف إینال لما عزله من الدّواداریة الثانیة، و أخرجه من مصر بطالا إلی القدس، ثم وقع له معه ما حکیناه، هذا مع کثرة فتن تمراز، و قلة عقله، و سوء خلقه، و شؤم طلعته، فوافق تمراز یحیی، و تسلطا معا علی جانم، و لا زالا به حتی وافقهما فی الباطن، و أخذ فی أسباب ذلک، فلم یمض إلا القلیل، و وقع لجانم ما سنذکره مع عوام دمشق من النهب و الفتک به، و إخراجه من دمشق علی أقبح وجه، حسبما هو مقول فی ترجمة الملک الظاهر خشقدم بعد خلع المؤیّد.

و أما أمر الملك المؤيد هذا فإنه بعد خروج يحيى بن جانم، أخذ يوسع الحيلة و التدبير فى أخذ جانم بكل طريق، فلم ير أحسن من أن يرسل بكاتب أعيان دمشق بالقبض على جانم المذكور إن أمكن، و هذا القول لم أذكره يقينا، و لكن على قول من قال عنه ذلك، و ليس هو ببعيد لأن أهل دمشق و حكامها ما فى قدرتهم القيام على نائب الشام إلا بدسيسة من السلطان، و اللّه أعلم بحقيقة الأمر.

و استمر الملك المؤيّد على ما هو عليه بالديار المصرية، و أمره فى انحطاط من عدم تدبيره فى أواخر أمره، و أيضا من قلة المساعدة بالقول و الفعل، و إلا فتدبيره هو كان فى غاية الحسن فى أوائل أمره، غير أنه كان لا يعرف مداخلة الأتراك، و لا رأى تقلب الدّول، و لا حوله من رأى؛ لأنه أبعد الناس عنه قاطبة، و قرّب الأمير بردبک

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۳۱

الدوادار الثانى، لكونه صهره زوج أخته، مملوک أبيه، بل قيل إن تقريبه لبردبک أيضا ما كان على جليته، فعلى هذا ضعف الأمر من كل جهة، و نفرض أنّ أمر بردبک كان على حقيقة، فما عساه كان يفعل، و هو أيضا أجنبىّ عن معرفة ما قلناه؟ فإنه ما ربّى إلا عند أستاذه الأشرف إينال و هو أمير، فلا يعرف أحوال المملكة إلا بعد سلطنة أستاذه أيام الأمن و السعادة- انتهى.

و فى يوم الخميس تاسع شهر رمضان خلع السلطان الملک المؤيد على شرف الدين البقرى باستقراره ناظر الإصطبلات السلطانية، بعد عزل محمود بن الديرى.

و فى يوم الجمعة عاشره أخذ قاع النيل، فجاءت القاعدة- أعنى الماء القديم- ستة أذرع و نصفا.

و فى ليلة الثلاثاء رابع عشر شهر رمضان المذكور خسف جميع جرم القمر، و غاب فى الخسف تسعين درجة، و صارت النجوم فى السماء كليلة تسع و عشرين الشهر، و لعلّ ذلک يكون نادرا جدا، فإنى لم أر فى عمرى مثل هذا الخسف.

هذا و أمر الملک المؤيد آخذ فى اضطراب من يوم عيّن تجريدة إلى البحيرة، و لم تخرج التجريدة و خالفه من كتب إليها من المماليک السلطانية، فإنه لما عين التجريدة إلى البحيرة لم يعين من المماليک السلطانية أحدا من مماليک أبيه الأجلاب، فعظم ذلک على من عين من غيرهم، و على من لم يعيّن أيضا، لمعرفتهم أنه كلموه فى أمر مماليک أبيه و استمالوه لهم؛ فإنه استفتح سلطنته بإبعادهم و مقتهم و إرداعهم، فأحبه كل أحد، فلما فطنوا الآن بميله إليهم، نفرت القلوب منه، و خافوا من أفعال الأجلاب القبيحة التى فعلوها فى أيام أبيه أن تعود، فصممت المماليک المعينة إلى البحيرة فى عدم الخروج إلا إن عين معهم جماعة من أجلاب أبيه، و ساعدهم فى ذلک المماليک السلطانية من كل طائفة؛ مخافة من تقريب الأجلاب، فأساء المؤيد التدبير من أنه لم يبت أمرا لا بقوة و لا بلين، بل سكت و سمع قول من أملاه المفسود من قوله: إذا أرسلت مماليک أبيک من يبقى حولک،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۳۲

و إذا أبعدت مماليک والدک فمن تقرب؟ فكأنه مال لهذا القول الواهى و استحسنه، و هذا نوع مما كنا فيه أولا من أنه ما كان عنده من يرشده إلى الطريق.

ثم كلم الملک المؤيد المماليک أيضا فى السفر، فاعتلّوا بطلب الجمال، فأراد تفرقة الجمال، فلم يأخذوها، و استمروا على ذلک، و سكنت حركة السفر بسكات السلطان، و بذلک فشا انحطاط قدره و تلاشى أمره، بعد أن كان له حرمة عظيمة، و رعب فى القلوب.

فلقد رأيت فى تلک الأيام شخصا من أوباش المماليک الظاهرية يكلم الأمير بردبک الدوادار الثانى بكلام لو كلّمه لمن يكون فيه شهامة لحمل السلطان على شنقه فى الحال، و كان ذلک هو الحزم على قول بعض النّهابة: «إما إكديش، أو نشابة للريش»، و تلافى الأمور إما يكون بها أو عليها، و الحزم إنما هو الشد على من عين و سفرهم غصبا، فإن تم ذلک فقدها به كل أحد، و قد قيل «من هاب خاف» أو اللين و التلطف بمن كتب و الاعتذار لهم عن عدم كتابته لمماليک أبيه الأجلاب، بقوله: ما منعنى أن أكتب هؤلاء معكم إلا أنهم ليسوا بأهل لمرافقتكم، فحيثما أحببتموا ذلک فأنا أكتب منهم جماعة، ثم يكتب منهم عدة، فإن تم ذلک و مشى فالأمر إليک بعد سفرهم دبّر ما شئت، و إن لم يتم فبادر للفعل الأول بكل ما تصل قدرتک إليه و استعمل قول المتنبى فى قوله من قصيدته

المشهورة: [الكامل]

لا يخدعنك من عدوّك دمعه و ارحم شبابك من عدو ترحم

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

فلم يقع منه ذلك، و لا ما يشبهه، و لا أشار عليه أحد من أصدقائه بشيء يكون فيه مصلحة لثبات ملكه، بل سكت كل أحد عنه، و صار كالمتفرج، إما لبغض فيه، أو لقلة معرفة بالأمور.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۳۳

ذكر نكبة الملك المؤيد أحمد ابن الملك الأشرف إينال و خلعه من الملك

لما كان آخر يوم الجمعة سابع عشر شهر رمضان من سنة خمس و ستين المذكورة رسم السلطان الملك المؤيد أحمد لنقيب الجيش الأمير ناصر الدين محمد بن أبى الفرج أن يدور على الأمراء مقدمى الألوف، و يعلمهم أن السلطان رسم بطلوعهم من الغد فى يوم السبت إلى الحوش السلطانى من قلعة الجبل بغير قماش الموكب، و لم يعلمهم لأى معنى يكون طلوعهم و اجتماعهم فى هذا اليوم بالقلعة، و هو غير العادة، فدار دوادار نقيب الجيش على الأمراء و أعلمهم بما رسم به السلطان من طلوعهم إلى القلعة، و أخذ الأمراء من هذا الأمر أمر مريج، و خلا كل واحد بمن يثق به، و عرفه الخبر، و هو لا يشك أن السلطان يريد القبض عليه من الغد، و ماجت الناس و كثر الكلام بسبب ذلك، و ركبت الأعيان بعضها على بعض، و أما الأمراء فكل منهم تحقق أنه مقبوض عليه من الغد، و وجد لذلك من كان عنده كمين من الملك المؤيّد أو يريد إثارة فتنة فرصة، و حرّض بعضهم بعضا؛ إلى أن ثارت المماليك الظاهريّة فى تلك الليلة، و داروا على رفقتهم و إخوانهم و على من له غرض فى القيام على الملك المؤيّد، و داموا على ذلك ليلتهم كلها.

فلما كان صبح نهار السبت تفرّقوا على أكابر الدّولة و الأمراء فى بيت الأتابك خشقدم لعمل المصلحة، فداروا على الأمراء، و أمسكوا منهم جماعة كبيرة، و أحضروهم إلى بيت الأتابك خشقدم، على كره من خشقدم، و سارت فرقة فى باكر النهار إلى

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۳۴

بيت الأمير بردبك الأشرفى الدّوادار الثانى الملاصق لمدرسة السلطان حسن، و أحضروه إلى بيت الأمير الكبير خشقدم، بعد أن أخرقوا به.

هذا و قد اجتمعت طوائف المماليك، مثل الناصريّة فرج، و المؤيدية شيخ، و الأشرفية برسباى، و الظاهرية جقمق، و السيفية، الجميع فى بيت الأمير الكبير، و لم يطلع إلى القلعة فى هذا اليوم أحد من الأمراء و الأعيان إلا جماعة يسيرة جدا.

فلما تكامل جمعهم فى بيت الأمير الكبير، و أكثر الطوائف يوم ذاك الأشرفية و الظاهرية، و كبير الأشرفية الأمير قرقماس أمير مجلس، و لا كلام له، بل الكلام لجانبك القجماسى الأشرفى المشدّ، و لجانبك من أمير الخازندار، و الظاهرية كبيرهم جانبك نائب جدّة، أحد مقدمى الألوف، و قد صارت خچداشيته يوم ذاك فى طوع يده و تحت أوامره؛ لحسن سياسته و جودة تدبيره، فانضمت كلمة الظاهريّة به، حتى صارت كلمة واحدة، وهم حسّ و هو المعنى، و هذا بخلاف الأشرفية، فإنهم و إن كانوا هم أيضا متفقين فالاختلاف بين أكابرهم موجود بالنسبة إلى هؤلاء، و عدم اكتراثهم بهذا الأمر المهم، و لتطلّعهم على مجىء خچداشهم الأمير جانم نائب الشام، و لو أنّ أمر المؤيد طرقهم على بغتة ما طاوعوا على الرّكوب فى مثل هذا اليوم قبل مجىء خچداشهم.

فأخذ الأمير جانبك نائب جدّة المذكور فى تأليف الأشرفية على الظاهرية بحسن تدبير، حتى تمّ له ذلك، و صاروا على كلمة واحدة، ثم شرعوا فى الكلام بحضرة الأمراء فى الاجتماع بسببه، فتكلم بعض من حضر من الأمراء بأن قال: «أيش المقصود بهذا الجمع؟» أو معنى هذا الكلام، فأجاب الجميع بلسان واحد: «نريد خلع الملك المؤيد أحمد من السلطنة، و سلطنة غيره».

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۳۵

و كان الباعث لهـذه الفتنـة ما قدّمناه، و أيضا الظاهرية، فإن الملك المؤيد لما تسلطن لم يحرك ساكنا و لم يتغير أحد مما كان عليه، فشقّ ذلـك على الظاهريّـة، و قـال كل منهم فى نفسه: كأنّ الملك الأشـرف إينال مامات، فإن الغالب كل منهم كان أخـذ ما بيـده من الإقطاعات، و حبس و نفى فى أوّل سـلطنة الأشـرف إينال، كما هى عادة أوائل الـدّول، و بقى منهم جماعة كثيرة بلا رزق و لا إمرة و لم يجدوا عندهم قوة ليخلعوا الملك المؤيد هذا و يسـلطنوا غيره وحدهم، فكلموا الأشـرفيّة فى هذا المعنى غير مرّة، و ترققوا لهم، فلم يقبلوا منهم ذلك، لنفرة كانت بين الطائفتين قـديما و حـديثا، و أيضا فلسان حال الأشـرفية يقول عندما سألوهم الظاهريّة: نحن الآن فى كفايـة من الأرزاق و الوظائف، فعلام نحرك ساكنا، و نخاطر بأنفسـنا؟ فعجزوا فيهم الظاهريـة و قـد ثقل عليهم الملك المؤيـد، و كثر خوفهم منه، فإنه أوّل ما تسلطن أبرق و أرعد، فانخزى كل أحد، و حسبوا أنّ فى السويداء رجالا، و لهذا قلت فيما تقدّم:

لو فعل ما فعل لمشى له ذلك، لمعرفتى بحال القوم و شجاعتهم.

و كان دخول المؤيـد السلطنة بحرمـة وافرة، لأن سـنّه كان نحو الثلاثين سـنة يوم تسـلطن، و كان ولى الأتابكية فى أيّام أبيه، و أخذ و أعطى، و سافر أمير حاج المحمل، و حـجّ قبل ذلك أيضا و سافر البلاد، و مارس الأمور فى حياة والـده و هـذا كله بخلاف من تقـدّمه من سـلاطين أولاـد الملوك، فـإن الغـالب منهم حـدث السّن يريـد له من يـدبّره، فـإنه ما يعرف ما يراد منه، فيصـير فى حكم غيره من الأمراء فتتعلّق الآمال بذلك الأمير، و تتردّد الناس إليه، إلى أن يدبّر فى سـلطنة نفسه، بخلاف المؤيّد هذا. فإنه ولى السلطنة و هو يقول فى نفسه: «إنه يدبر مع مملكة مصر ممالك العجم زيادة على تدبير مصر».

قلت: و كان كما زعم، فإنه تقدم أنه كان عارفا عاقلا مباشرا، حسن التدبير،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۳۶

عظيم التنفيذ شهما، و كان هو المتصرف فى الأمور أيّام أبيه فى غالب الولايات و العزل و أمور المملكة، فلما تسلطن ظنّ كل أحد أن لا سبيل فى دخول المكيدة على مثل هذا، لمعرفة الناس بحذقه و فطنته.

و كان مع هذه الأوصاف مليح الشكل، و عنده تؤدة فى كلامه، و عقل و سكوت خارج عن الحد، يؤديه ذلك إلى التكبر، و هذا كان أعظم الأسـباب لنفور خواطر الناس عنه، فإنه كان فى أيام سـلطنته لا يتكلم مع أحـد حتى و لا أكابر الأمراء إلا نادرا، و لأمر من الأمور الضـروريات، و فعـل ذلـك مع الكبير و الصـغير، و مـا كفى هـذا حتى صـار يبلغ الأمراء أنّه فى خلوته يسامر الأطراف الأوباش الـذين يسـتحى من تسـميتهم، فعظم ذلك على الناس، فلو كان عدم الكلام مع الناس قاطبة لهان على من صـعب سكاته عليه، من كون الرفيع يكون مبعـدا و الوضـيع مقربا، فهـذا أمر عظيم لا تحمله النفوس إلا غصـبا، فلما وقع ذلك وجـد من عنده حقد فرصة، و أشاع عنه هذا المعنى و أمثاله، و بشّع فى العبـارة و شنّع، و قـال هـذا و غيره: إنه لاـ يلتفت إلى المماليـك و يزدريهم، و هـو مسـتعزّ بمماليـك أبيه الأجلاب و أصـهاره و حواشـيه و خچداشـية أبيه و بالمال الذى خلّفه أبوه، و منهم من قال أيضا: إنما هو مسـتعز بحسن تدبيره، فإنه قد عبّأ لكل سؤال جوابا، و لكل حرب ضـربا، و كان مع هذا قد قمع مباشـرى الدّولة و أبادهم، و ضيّق عليهم، و دقّق فى حسابهم كما هو فى الخاطر و زيادة، فما أحسن هذا لو كان دام و اسـتمر!! فنفرت قلوب المباشـرين أيضا منه، و حقّ لهم ذلك، و استمرت هذه الحرمة من يوم تسـلطن إلى مجىء يحيى بن جـانم نائب الشام إلى القاهرة، ثم إلى أن عيّن التجريـدة إلى البحيرة، فأخـذ أمره فى إدبار، لعـدم مثابرته على سير طريقه الأوّل من سلطنته، فلو جسر لكسر، لكنه هاب فخاب، و لكلّ أجل كتاب- و لنعد إلى ذكر ما كنا بصدده:

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۳۷

فلما تكامل الجمع فى بيت الأمير الكبير خشـقدم الناصرى المؤيدى، و متكلم الأشرفية جانبك المشدّ، و جانبك الظريف الخازندار، و من معهم من خچداشـيتهم الأعيان؛ و متكلم الظاهريـة الأمير جانبك نائب جـدّة أحد مقدّمى الألوف، و أعيان خچداشـيته، مثل: الأمير أزبـك من ططـخ الظاهرى، و الأمير بردبك البجمقـدار ثانى رأس نوبـة جـدّة، و قـد وافقه الأشـرفيّة، و هم يظنون أن الجمع ما هو إلا لسـلطنة الأـمير جـانم نائب الشام؛ لأنهم كانوا اتفقوا على ذلك حسـبما تقـدم ذكره، و هو أن الظاهريّـة كانوا إذا شـرعوا فى الكلام مع

الأشرفيّة فى معنى الركوب، يقولون بشرط أن لا يكون السلطان منا و لا منكم، و إنما يكون من غير الطائفتين، فيقع بذلك الخلف بينهم، و يتفرقون بغير طائل، إلى أن استرابت الظاهريّة من الملك المؤيّد أحمد هذا، و عظم تخوّفهم منه، فوافقوهم على سلطنة جانم لما جاء ولده يحيى كما تقدم ذكره.

ثم وقع هذا الأمر بغتة، و علم جانبك نائب جدة أن الأمر خرج عن جانم لغيابه، و لا بد من سلطنة غيره لأن الأمر ما فيه مهلة، فلم يبد للأشرفية شيئا من ذلك، و أخذ فيما هو بصدده إلى أن يتمّ الأمر لغير جانم، ثم يفعل له ما بدا له، و كذا وقع حسبما يأتى ذكره فى مجيء جانم، و فى سلطنة الملك الظاهر خشقدم.

هذا و قد جلس جميع الأمراء بمقعد الأمير الكبير خشقدم، فعندما تكامل جلوسهم قام الأمير جانبك نائب جدّة إلى مكان بالبيت المذكور، و معه الأمير جانبك الأشرفى المشدّ، و الأمير جانبك الأشرفى الظريف الخازندار، و الأمير أزبك من ططخ الظاهرى، و الأمير بردبك البجمقدار الظاهرى، و جماعة أخر من أعيان الطائفتين، و تكلموا فيمن يولونه السلطنة، و غرض جانبك نائب جدّة فى سلطنة الأتابك خشقدم، لا فى سلطنة جانم نائب الشام، غير أنه لا يسعه الآن إظهار ما فى ضميره، خوفا من نفرة الأشرفية، و قال لهم ما معناه: «نحن قد كتبنا للأمير جانم بالحضور، و بايعناه بالسّلطنة، و أنتم تعلمون ذلك عن يقين، و قد دهمنا هذا الأمر على حين غفلة،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۳۸

فما تكون الحيلة فى ذلك، و لا بدّ من قتال الملك المؤيّد فى يومنا، و السلطان ما يقاتل إلا بسلطان مثله، و متى تهاونّا فى ذلك ذهبت أرواحنا»، فعلم كلّ أحد ممن حضر أن كلام جانبك نائب جدّة صواب، و طاوعه كلّ من حضر على مقالته هذه، فلما وقع ذلك أجمع رأى الجميع على سلطنة أحد من أعيان الأمراء.

ثم تكلموا فيمن يكون هذا السلطان، فدار الكلام بينهم فى هذا المعنى، إلى أن قال بعضهم: «سلطنوا الأمير جرباش المحمدى الناصرى أمير سلاح»، فلم تحسن هذه المقالة ببال الأمير جانبك، و لم يقدر على منعه تصريحا و قال: «جرباش أهل لذلك بلا مدافعة، غير أنه متى تسلطن لا يمكنكم صرفه من السلطنة بغيره- يعنى بالأمير جانم- تلويحا- لأنه رجل عظيم، و من الجنس، و صهر خچداشنا بردبك البجمقدار، و صهر خچداشكم خيربك البهلوان الأشرفى و غيره، و قد قارب مجيء الأمير جانم من الشام، و الأمر إليكم، ما شئتم إفعلوا».

فكان هذا كله إبعادا لجرباش المذكور، و أخذا بخواطر الأشرفية، فمال كلّ أحد إلى كلامه، ثم قال جانبك: «الرأى عندى سلطنة الأمير الكبير خشقدم المؤيدى، فإنه من غير الجنس، يعنى كونه رومى الجنس، و أيضا إنه رجل غريب ليس له شوكة، و متى أردتم خلعه أمكنكم ذلك، و حصل لكم ما تقصدونه من غير تعب».

فأعجب الجميع هذا الكلام، و هم لا يعلمون مقصوده و لا غرضه؛ فإن جلّ قصد جانبك كان سلطنة خشقدم، فإنه مؤيّدى، و خچداشيّته جماعة يسيرة، و أيضا يستريح من جانم نائب الشام و تحكّم أعدائه الأشرفيه فيه و فى خچداشيته الظاهريّة، و يعلم أيضا أنه متى تمّ سلطنة الأتابك خشقدم، و أقام أياما عسر خلعه، و بعدت السلطنة عن جانم و غيره، فدبّر هذه المكيدة على الأشرفية، فمشت عليهم أولا، إلى أن ملكوا القلعة، و خلع الملك المؤيّد بسرعة فتنبّهوا لها.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۳۹

و كانت الأشرفية لما سمعوا كلام جانبك، و قالوا: «نعم نرضى بالأمير الكبير» كان فى ظنهم أن قتالهم يطول مع الملك المؤيّد أيّاما كثيرة، كما وقع فى نوبة المنصور عثمان، و يأتيهم جانم و هم فى أشد القتال، فلا يعدلون عنه لخشقدم، فيتمّ لهم ما قصدوه، فاتفقت كل طائفة مع الأخرى فى الظاهر، و باطن كل طائفة لواحد، فساعد الدّهر الظاهريّة، و انهزم الملك المؤيّد فى يوم واحد حسبما نذكره الآن.

فلما وقع هذا الكلام جاءت الطائفتان الأشرفيّة و الظاهريّة إلى الأمراء و هم جلوس بمقعد الأمير الكبير خشقدم، و الجميع جلوس بين

يدى خشقدم، فافتتح الأمير جانبک نائب جدّة الكلام و قال:

«نحن- يعنى الظاهرية و الأشرفية- نريد رجلا نسلطنه، يكون لا يميّز طائفة على أخرى، بل تكون جميع الطوائف عنده سواء فى الأخذ و العطاء، و الولاية و العزل، و أن يطلق الأمراء المحبوسين من سائر الطوائف، و يرسم فى سلطنته بمجىء المنفيّين من البلاد الشّاميّة و غيرها إلى البلاد المصريّة، و يطلق الملک العزيز يوسف ابن الملک الأشرف برسباى، و الملک المنصور عثمان ابن الملک الظاهر جقمق من برجى الإسكندرية، و يسكنا الإسكندرية فى أى دار شاءا، و يأذن لهما فى الرّكوب إلى الجامع و غيره بثغر الإسكندرية من غير تحفّظ بهما.

و كان كلام الأمير جانبک لجميع الأمراء لم يخص أحدا منهم بكلام دون غيره، فبادر الأتابک خشقدم بالكلام و قال: «نعم» ثم التفت جانبک إلى الجمع، و قال:

«فمن يكون السلطان على هذا الحكم؟» فبدأ سنقر قرق شبق الأشرفى الزّردكاش، و قال ما معناه: «ما نرضى إلا بالأمير جانم نائب الشام، أنتم كتبتم له بالحضور، و أذعنتمو بسلطنته، فكيف تسلطنوا غيره؟ فنهره الأمير خيربک من جديد الأشرفى لنفس كان بينهما قديما، و قال:

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۴۰

«لست بأهل الكلام فى مثل هذا المجلس» فعند ذلک قال الأمير قائم التاجر المؤيّدى أحد مقدمى الألوف ما معناه «يا جماعة إن كنتم كاتبتم الأمير جانم نائب الشام فلا تسلطنوا غيره إلى أن يحضر و سلطنوه، فإنه لا يسعكم من اللّه أن تسلطنوا غيره الآن ثم تخلعوه عند حضور جانم، فهذا شىء لا يكون» فلم يسمعوا كلامه، و سمع فى الغوغاء قول قائل لا يعرف:

«سلطنوا الأمير جرباش»:

فامتنع جرباش من ذلک و قال ما معناه: «إن هذا شىء راجع إلى الأمير الكبير»، و قبّل الأرض من وقته، فقام الأمير جانبک الأشرفى الظريف الخازندار و بادر بأن قال: «السلطان الأمير الكبير»، و قبّل الأرض، ثم فعل ذلک جميع من حضر من الأمراء، و نودى بالحال بسلطنته بشوارع القاهرة، ثم شرعوا بعد ذلک فى قتال الملک المؤيّد أحمد هذا.

كل ذلک و الملک المؤيّد فى القلعة فى أناس قليلة من مماليكه و مماليک أبيه الأجلاب، و لم يكن عنده من الأمراء أحد غير مملوک والده قراجا الطويل الأعرج، أحد أمراء العشرات، و هو كلا شىء، و الأمير آخور الكبير برسباى البجاسى، وليته لا كان عنده، و خيربک القصروى نائب قلعة الجبل و كان أضرّ عليه من كل أحد حسبما يأتى ذكر فعله، كلّ ذلک و الملک المؤيد لا يعلم حقيقة ما العزم فيه، غير أنه يعلم باجتماع المماليک و الأمراء فى بيت الأمير الكبير خشقدم، و أنهم فى أمر مريج، غير أنه لا يعرف نص ما هم فيه، و صار الملک المؤيّد يسأل عن أحوالهم، و ينتظر مجىء أحد من مماليک أبيه إليه، فلم يطلع إليه أحد منهم، بل العجب أن غالبهم كان مع القوم عند الأمير الكبير مساعدة على ابن أستاذهم، وليتهم كانوا من المقبولين، و إنما كانوا من المذبذبين

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۴۱

لا غير، على أن الملک الظاهر خشقدم لما تسلطن أبادهم، و شوّش عليهم بالمسک و إخراج أرزاقهم أكثر مما عمله مع الذين كانوا عند المؤيد- فلا شلّت يداه- و بقى الملک المؤيد كلما فحص عن أمر الفتنة لا يأتيه أحد بخبر شاف، بل صارت الأخبار عنده مضطربة، و آراؤه مفلوكة، و هو فى عدم حركة، و يظهر عدم الاكتراث بأمر هذا الجمع، إلى أن تزايد الأمر، و خرج عن الحد، و صار اللعب جدّا، فعند ذلک تأهّب من كان عنده من المماليک، و قام الملک المؤيّد من قاعة الدهيشة، و مضى إلى القصر السلطانى المطلّ على الرّميلة، ثم نزل بمن معه إلى باب السلسلة، و قبل أن يصل إلى الإسطبل جاءه الخبر بأن القوم أخذوا باب السلسلة، و ملكوا الإسطبل السلطانى، و أخذوا الأمير برسباى البجاسى الأمير آخور الكبير أسيرا إلى الأمير الكبير خشقدم، و كان أخذ باب السلسلة مكيدة من برسباى المذكور، فلما سمعت الأجلاب أخذ باب السلسلة نزل طائفة منهم و صدموا من بها من عساكر الأتابک خشقدم

صدمة هزموهم فيها، و استولوا على باب السلسلة ثانيا، و هو بلا أمير آخور.

و جلس السلطان الملك المؤيد بمقعد الإسطبل المطل على الرّميلة، و كان عدم نزول المؤيّد إلى الإسطبل بسرعة له أسباب، منها: أنه كـان مطمئن الخـاطر على باب السلسـلة؛ لكون الأمير آخور برسـباى ليس هو من غرض أحـد من الطائفتين، و أيضا كونه صـهره زوج بنت أخته من الأمير بردبك الدّوادار الثانى، و قد صار بردبك من الممسوكين عند الأتابك خشـقدم، و أيضا أن والده إينال هو الذى رقّاه و خوّله فى النعم، فلم يلتفت برسباى لشىء من ذلك، و أنشد قول من قال: [الوافر]

لعمرك و الأمور لها دواع لقد أبعدت ياعتب الفرارا

و منها: أنه صار ينتظر من يأتيه من أصحابه و حواشيه و خچداشية أبيه و مماليكه،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۴۲

فلم يأته أحـد منهم، فلما يئس منهم قام من الدّهيشـة بعد أن جاءه الخبر بأخذ باب السلسـلة و استرجاعها بيد مماليك أبيه الأجلاب، و لما جلس بالمقعـد و رأى القوم قـد تكاثف جمعهم و كثر عـددهم، و هو فيما هو فيه من قلّة العساكر و المقاتلة، لم يكترث بذلك، و أخذ فى الدفع عن نفسه بمن عنده، غير أن الكثرة غلبت الشـجاعة، و ما ثمّ شـجاعة و لا دربة بمقاومة الحروب، و صار كذلك خذلانا من اللّه تعـالى، فـإنه لم يطلع إليه فى هـذا اليوم واحـد من مماليك أبيه القديمـة و لا خچداشـيته، و ما كان عنـده من الأمراء غير قراجا المقدم ذكره، و من أعيان الخاصـكية فارس البكتمرى أحد الدّواداريهٔ الأجناد، و مقبل دواداره قديما قبل سـلطنته، و هؤلاء الثلاثة كلا شىء، و لو لا ذكر أسـماء من كان عنـده علم خبر ما ذكرت مثل هؤلاء الأصاغر، و كان عنده مع هؤلاء أجلاب أبيه الذين بالأطباق، و هم عدة كبيرة نحو الألف أو دونها بيسير، أو أكثر منها بقليل، و هم الذين اشتراهم والده الأشرف بعد سلطنته من التجار، و أما الذين اشتراهم من تركـة الظـاهر جقمق و من مماليـك ولـده الملـك المنصور عثمـان- و عـدتهم تزيـد على المـائتين، و هم أعيان مماليك الأشـرف إينال و أصـحاب الوظائف و الإقطاعات- فقد اسـتمالهم الأمير جانبك نائب جدّة قبل ذلك، و قال لهم: «أنتم ظاهرية و شراء الأشـرف لكم غير صـحيح» فمالوا إلى كلامه و إحسانه و عطاياه الخارجـة عن الحـدّ فى الكرم، و صاروا من حزب الظاهرية، و ركبت الجميع معه فى هـذا اليوم، و قاتلوا ابن أسـتاذهم أشـدّ قتال، و صاروا هم يوم ذلك أعيان العسـكر بالشبيبة و الإمكان و الكثرة، هذا مع من كان مع الأتابك خشقدم من الناصرية و المؤيديّة و الظاهرية و السيفية.

فلما رأى الملك المؤيّد كثرة هذه العساكر و ميل مماليك والده معهم تعجّب غاية العجب، و علم أن ذلك أمر ربّانىّ ليس فيه حيلة، و مـا هو إلاـ بـذنب سـلف من دعوة مظلوم غفلوا عنهـا لم يغفـل اللّه عنهـا، أو للمجازاة؛ لأن الجزاء من جنس العمل، و قـد ركـب أبوه الملك الأشـرف إينال على الملك المنصور عثمان بعد أن تخوّل فى نعم الظاهر جقمق، فإنه هو الذى رقّاه و ولّاه الأتابكية، فغدر به و خلعه من الملك، و تسلطن مكانه، و حبسه إلى أن مات.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۴۳

و أغرب من هـذا كله أن الملـك المؤيـد هـذا كان له أيام والـده جماعـة كبيرة من أعيان الظاهريّـة و الأشـرفيّة و السـيفية يصـحبونه و يمشون فى خدمته، و يتوجهون معه فى الرّمايات و الأسـفار، و إحسانه متصل إليهم من الإنعام و المساعدة فى الأرزاق و الوظائف، فلم يطلع إليه واحد منهم، و أيضا فانضافوا الجميع للأتابك خشقدم و من معه قبل أن يستفحل أمر خشقدم و يضعف أمر المؤيد، فماذاك إلا عدم موافاة لا غير.

و أعجب من هـذا أن أصـحاب المؤيـد و مماليـك أبيه الـذين تقـدم ذكرهم ممّن انضـاف مع الأتابك خشـقدم كانوا يوم الواقعـة من المقوتين لاـ من المتأهلين، و ذلّ الإبعـاد لائـح عليهم، و كـان يمكنهم تلافى الأمر و الطلوع إلى الملك المؤيـد و مساعـدته، فلم يقع ذلـك، فهـذا هو السـبب لقولى: إن هـذا كله مجـازاة لفعـل والـده السّـابق، و قـد ورد فى الإسـرائيليات، يقول الرب: «يا داود، أنا الرّب الودود، أعامل الأبناء بما فعل الجدود»

ثم التحم القتـال بين الطائفتين مناوشـة لا مصافـة، غير أن كلا من الطائفتين مصـرّ على قتال الطائفـة الأخرى، و الملک المؤيـد فى قلة عظيمة من المقاتلة ممن يعرف مواقع الحرب و ليس معه إلا أجلاب، و هذا شيء لم يقع لأحد غيره من السلاطين أولاد السلاطين؛ فإن النـاس لم تزل أغراضـا، و وقع ذلـک للعزيز مع الملـک الظـاهر جقمق، فكان عنـد العزيز جماعـة كثيرة من الأمراء و الأعيان لا تـدخل تحت حصـر، و كذلک للمنصور عثمان مع الملک الأشـرف إينال، و كان عنده خلائق من أعيان الأمراء، مثل الأمير تنم المؤيدى أمير سلاح، و مثل الأمير قانى باى الچاركسـى الأمير آخور الكبير، و غيرهما من أعيان أمراء أبيه، و لا زالت الدنيا بالغرض، فقوم مع هذا، و قوم مع هـذا، غير أن الملک المؤيد هذا لم يكن عنده أحد البتة، فانقلب الموضوع فى شأنه؛ فإنه كان يمكن الذى وقع له يكون للعزيز و المنصور؛ فإنهما كانا حديثى سن، و الذى وقع لهما-

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۴۴

أعنى العزيز و المنصور- كان يكون للمؤيّد؛ لأنه كبير سن، و صاحب عقل و تدبير- فسبحان اللّه يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد.

قلت: و لهذا لم تطل وقعة المؤيد هذا، فإنه علم بذلک زوال ملكه، و تركه برسباى البجاسـى الأمير آخور، و خيربک القصـروى نائب قلعة الجبل، و نزلا إلى الأتابک خشـقدم، فإن العادة فى الحروب إذا كان كل من الطائفتين يقابل الأخرى فى القوة و الكثرة يقع القتال بين الطائفتين، و كلّ من الطائفتين يترجّى النّصرة، إلى أن يؤول النصر لإحدى الطائفتين، و تذهب الأخرى، إلّا هذه الوقعة لم يكن عند المؤيّـد إلّا من ذكرناه. و أما عساكر الأتابک خشـقدم فانتشـرت على مفارق الطرق، فوقف الأمير جانبک الظاهرى نائب جـدّة بجماعة كثيرة من خچداشـيته و مماليكه برأس سويقة منعم، و تلقّى قتال الملک المؤيد بنفسه و بحواشـيه المذكورين، و عظم أمر الأمير الكبير خشقدم به حتى تجاوز الحدّ، و اجتهد جانبک المذكور فى حرب المؤيد حتى أباده.

و كان الملک المؤيّد أولا يقرّب جانبک هذا فى ابتداء سـلطنته تقريبا هيّنا مع عدم التفات إليه و لا إلى غيره؛ لأنه كان يقول فى نفسه: إن ابتـداءه كانتهـاء أبيه فى العظمـة، و لمـا تسـلطن أخـذ فى الأـمر و النهى أولا بغير حساب عواقب، اسـتعزازا بكثرة ماله و بحواشـيه و مماليک أبيه، فسار فى الناس بعدم اسـتمالة خواطرهم، و سار على ذلک مدّة أيام، و جعل جانبک هذا فى أسوة من سـلک معهم هذه الفعلة، فاستشارنى جانبک فى أن يداخله لعله يرقّع عليه أمره، فإنه ما كان حمولا للذّل، و إنما كان طبعه أن يبذل

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۴۵

المال الجزيل فى القـدر اليسير فى قيام الحرمـة، فأشـرت عليه بالمداخلة، فداخله، و كنت أنا قبل ذلک داخلته أياما، فإذا به جامد نفور بعيـد الاسـتمالة إلا لمن ألفه، و حدّثته بما رأيته منه قبل أن أشـير عليه بصـحبته، فقال ما معناه: إنى أنا آخذ الشـيء بعزة و تمهل، و هو يـدور مع الـدهر كيفما دار، ثم اجتمع بى بعـد مدّة أيام فى يوم الجمعة بعد أن صـلّى معه الجمعة، و قلع ما عليه من قماش الموكب، و دخـل إليه فى الخلوة بقاعـة الدهيشـة، ثم خرج من عنـده و هو غير منشـرح الصـدر، و قال لى: «القول ما قلته»، ثم شـرعنا فيما نحن فى ذكره مجلسا طويلا، و قمنا على غير رضاء من الملک المؤيّد.

و وقع فى أثناء ذلک ما ذكرناه من أمر الوقعـة و الفتنـة، و وقوف جانبک و من معه برأس سويقـة منعم، هـذا مع ما كان بلغ المؤيد فى هـذا اليوم و فى أمسه أن القـائم بهـذا الأـمر كله جانبـک نائب جـدّة، و أنه هو أكبر الأسـباب فى زوال ملكه، و فى اجتماع الناس على الأتابک خشـقدم، ثم رأى فى هذا اليوم بعينه من قصر القلعة وقوف جانبک على تلک الهيئة، فعلم أن كل ما قيل عنه فى أمسه و يومه صحيـح، فأخـذ عنـد ذلک يعتذر و كتب كتابا للأمير جانبک بخطّه يعده فيه بأمور، منها: أنه يجعله إن دخل فى طاعته أتابک العساكر بالدّيار المصـريّة، و أنه لا يخرج عن أوامره، و أنه يكون هو صاحب عقده و حلّه، و يترقّق له، و بسط الكلام فى معنى ما ذكرناه أسطرا كثيرة، و هو يكرّر السؤال فيه، و يحلف له فيما وعـده به، و رأيت أنا الكتاب بعينى، و فيه لحن كثير، كأنه كان مامارس العربيّة، و لا له إلمـام بالمكاتبـات، على أنه كـان حاذقـا فطنـا، غير أن الفضـيلة نوع آخر، كمـا كانت رتبـة المقام الناصـرى محمـد ابن الملک الظاهر جقمق- رحمهما اللّه تعالى- فلم يرث جانبک لما تضمن هذا الكتاب، و دام على ما هو عليه، و نهر قاصده الحامل لهذا الكتاب، و قال

له: «إن عدت إلیّ مرّة أخرى أرسلتک إلى الأمیر الکبیر»، و استمر على ما هو علیه من الاجتهاد فى القتال، و صار أمر الملک المؤید فى إدبار، و عساکر الأتابک خشقدم فى نموّ و زیادة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۴۶

هذا و المناوشة بالقتال مستمرّة بین الطائفتین، و قد أفطر فى هذا الیوم خلائق من شدة الحر، و تعاطى القتال من الطائفتین؛ و جرح جماعة کثیرة من الفریقین، فلم ینقض النهار حتى آل أمر الملک إلى زوال، و هو مع ذلک ینتظر من یجیء إلیه لمساعدته، و هو بین عسى و لعلّ، و کاتب جماعة من أصحابه ممن کان عند الأتابک خشقدم؛ فلم یلتفت إلیه أحد لتحقق الناس زوال ملکه.

و بینما الناس فی ذلک و إذا بخیر بک القصروى نائب قلعة الجبل ترک باب المدرّج، و نزل إلى الأمیر الکبیر خشقدم، و صار من حزبه، فعلم کلّ أحد أنه قد ذهب أمر الملک المؤیّد، و لو کان فیه بقیة ما نزل نائب القلعة منها و انضاف إلى جهة الأمیر الکبیر، و بقی باب القلعة بغیر ضابط، فأرسل الملک المؤید فى الحال بعض أصحابه و جلس مکان خیربک هذا، فلم یشکر أحد خیربک المذکور على فعلته هذه.

کل ذلک و أمر المؤیّد فى انحطاط فاحش، و صارت العامة تسمعه المکروه من تحت القلعة: لا سیما لما دخل اللیل، فإنه بات بالقصر فى قلّة من الناس إلى الغایة؛ لأن غالب من کان عنده ترکه و نزل إلى تحت، و کانوا فى الأصل جمعا یسیرا، و بات من هو أسفل و قد استفحل أمرهم، و تأهبوا للقتال فى غد، و همتهم قد عظمت من کثرة عددهم، و تکاثف عساکرهم من کل طائفة، حتى من لیس له غرض عند أحد بعینه جاء إلى الأمیر الکبیر مخافة على رزقه و نفسه؛ لما علم من قوّة شوکة الأمیر الکبیر و ما یؤول أمره إلیه.

هذا مع حضور الخلیفة و القضاة الأربعة عند الأمیر الکبیر و جمیع أعیان الدولة من المباشرین و أرباب الوظائف و غیرهم، و الملک المؤید فى أناس قلیلة جدا، و مضت لیلة الأحد المذکور، و الملک المؤید فى أقبح حال، هذا و قد عدم ترجّی من کان عنده بالقلعة من نصرته، و تقاعد غالب من کان عنده عن القتال، و هم الأجلاب من ممالیک أبیه لا غیر.

فلما أصبح نهار الأحد تاسع عشر شهر رمضان من سنة خمس و ستین و ثمانمائة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۴۷

ظهر ذلک علیهم، و بردت همتهم، و رکضت ریح عزائمهم، و أخذ کل واحد من أصحابه فى مصلحة نفسه، إما بالإذعان للأمیر الکبیر خشقدم، أو بالتّجهّز للهرب و الاختفاء، و ظهر ذلک للملک المؤید عیانا، فأراد أن یسلّم نفسه، ثم أمسک عن ذلک من وقته.

کلّ ذلک و أصحاب الأمیر الکبیر لا یعلمون بذلک، فقد أصبحوا فى أفحل أمر، و أقوى شوکة، و أکثر عدد، و قد تهیئوا فى هذا الیوم للقتال و محاصرة قلعة الجبل، زیادة على ما کانوا علیه فى أمسه، و فى نفوسهم أن أمر القتال یطول بینهم أیّاما، و بیناهم فى ذلک ورد علیهم خبر الملک المؤید مفصلا، و حکى لهم انحلال برمه و انفلاک أمره، و ما هو فیه من أنه أراد غیر مرّة تسلیم نفسه، و زاد الحاکى و أمعن لغرض ما، فقوى بذلک قلوب من هو أسفل، و تشجّع کلّ جبان، فطلب المبارزة کلّ مولّ، و تقدّم کل من کان خاف هذا من هؤلاء، فکیف أنت بالشجاع المقدام؟!

فعند ذلک اجتمعوا على القتال، و زحفوا على القلعة بقلب رجل واحد، فقاتلهم عساکر الملک المؤید قتالا لیس بذاک ساعة هیّنة، فلما رأى الملک المؤید أن ذلک لا یفیده إلا شدّة و قسوة أمر عساکره و مقاتلته بالکفّ عن القتال، و قام من وقته و طلع القلعة بخواصه، و أمر أصحابه بالانصراف إلى حیث شاءوا.

ثم دخل هو إلى والدته خوند زینب بنت البدرى حسن بن خاص بک، و ترک باب السّلسلة لمن یأخذه بالتسلیم، و تمزّقت عساکره فى الحال کأنها لم تکن، و زال ملکه فى أقلّ ما یکون، فسبحان من لا یزول ملکه و بقاؤه الدائم الأبدى.

فلما بلغ الأمیر الکبیر خشقدم الخبر قام من وقته بمن معه من أصحابه و عساکره، و طلع إلى باب السلسلة، و استولى على الإسطبل السلطانى، و ملک قلعة الجبل أیضا فى الحال من غیر مقاتل و لا مدافع، و أمر الأمیر الکبیر فى الحال بقلع السّلاح و آلة الحرب و

سکن الأمر، و خمدت الفتنة کأنها لم تکن، ثم أرسل الأتابک خشقدم فی الحال جماعة من أصحابه قبضوا علی الملک المؤید أحمد هذا من الدّور السلطانیة، فأمسک من غیر ممانعة، و سلم نفسه، و أخرج من الدّور إلی البحرة من الحوش السلطانی، و حبس

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۴۸

هناک بعد أن قیّد و احتفظ به، و أمسک أخوه محمد أیضا، و حبس معه بالبحرة، فخرجت والدتهما خوند زینب المقدّم ذکرها معهما، و أقامت عندهما بالبحرة المذکورة، و قد علمت و علم کلّ أحد أیضا بأن الذی وقع لهم من زوال ملکهم فی أسرع وقت إنما هو بدعوة مظلوم غفلوا عنها، لم یغفل اللّه عنها، و للّه در القائل: [الوافر]

أری الدّنیا تقول بملء فیها حذار حذار توبیخی و فتکی

و لا یغررکم منّی ابتسام فقولی مضحک، و الفعل مبکی

قلت: «علی قدر الصّعود یکون الهبوط، و کما تدین تدان، و ما ربّک بظلّام للعبید، و الجزاء من جنس العمل» و کأنّ لسان حال إسکندریة قبل ذلک یقول: «کل ثان لا بدّ له من ثالث»، فالأوّل ممّن کان فیها من السّلاطین أولاد الملوک: الملک العزیز یوسف ابن الملک الأشرف برسبای، و قد خلعه الملک الظاهر جقمق، و تسلطن مکانه، ثم الملک المنصور عثمان ابن الملک الظاهر جقمق، خلعه الملک الأشرف إینال، و تسلطن عوضه، و هو الثانی، فاحتاجت الإسکندریة إلی ثالث، لیجازی کلّ علی فعله، فکان المؤید هذا، خلعه الملک الظّاهر خشقدم، و تسلطن مکانه، و استولی علی جمیع حواصل الملک المؤید و ذخائره، فلم یجدوا فیها ما کان فی ظنّهم، فطلبوا منه المال، فذکر أنّه أصرف جمیع ما کان فی خزانة والده فی نفقة الممالیک السّلطانیة لما تسلطن، و لم یبق فی الخزانة إلا دون المائة ألف دینار.

ثم تتّبعوا حواصله و حواشیه بعد ذلک، فأخذوا منهم زیادة علی مائة ألف دینار، و بعض متاع، وصینی و قماش. و استمرّ الملک المؤیّد محتفظا به بالبحرة إلی ما سنذکره.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۴۹

و کانت مدّة تحکمه من یوم تسلطن إلی یوم خلع من السلطنة بالملک الظاهر خشقدم أربعة أشهر و ستة أیام بغیر تحریر، و بتحریر الأوقات و الساعات:

و خمسة أیام.

و لما نکب الملک المؤید و خلع من السلطنة علی هذا الوجه کثر أسف الناس علیه إلی الغایة و النهایة، فإنه کان سار فی سلطنته سیرة حسنة جمیلة، و قمع أهل الفساد و قطّاع الطریق بجمیع إقلیم مصر، و أمنت السّبل فی أیامه أمنا زائدا، و اطمأنّت النفوس من تلک المخاوف التی کانت فی أیام أبیه، و زالت أفعال الأجلاب بالکلیّة مما أردعهم فی أوائل سلطنته بالإخراق و الوعید و أبعدهم عنه، ثم سلک الطریق الجمیلة فی الرعیّة فعظم حبّ الناس له، و انطلقت الألسن له بالدعاء و الابتهال سرّا و علانیة، و سر بسلطنته کلّ أحد من الناس، و مالت القلوب إلیه، لو لا تکبّر کان فیه و عدم التفات إلی الأکابر، حسبما تقدّم ذکره، و هذا کان أکبر الأسباب لتوغّر خواطر الأمراء منه، و إلاـ فکان أهلاـ للسلطنة بلا نزاع، فلو أنّه سار مع الأمراء سیرة والده الأشرف من الملق، و أخذ الخواطر مع إرادة اللّه تعالی، لدامت أیّامه مقدار المواهب الإلهیة، لأنه کان ملکا عارفا سیوسا، فطنا عالی الهمة یقظا، لو لا ما شان سؤدده من التکبر، و مصاحبة الأحداث، و للّه در القائل:

[الطویل]

و من ذا الّذی ترضی سجایاه کلّها؟ کفی المرء فخرا أن تعدّ معایبه

و دام الملک المؤید هذا بالبحرة من الحوش السلطانی بقلعة الجبل إلی یوم الثلاثاء حادی عشرین شهر رمضان فرسم السلطان الملک الظاهر خشقدم بتوجّهه و توجّه أخیه محمد إلی سجن الإسکندریة، فأنزلا فی باکر النهار المذکور، و أخرج الملک المؤید هذا مقیّدا،

و حمل على فرس، و لم يركب خلفه أحد من الأوجاقية - كما هى عادة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۵۰

من يحمل من أعيان الأمراء إلى سجن الإسكندرية- فنزّهوا مقامه عن ذلك، و أنا أقول: لعل أنه ما قصدوا بذلك إجلاله، فإنه ليس فى القوم من هو أهل لهذه المعانى. و إنما الملك المنصور عثمان كان لما أنزل من القلعة إلى الإسكندرية على هذه الهيئة لم يركب خلفه أوچاقى، فظن القوم أن العادة لا يركب خلف السلطان أوچاقى ففعلوا بالمؤيد كذلك، و لقد سمعت هذا المعنى من جماعة من أكابر الجهلة المشهورين بالمعرفة، فلو قيل له: و أى سلطان أنزل من القلعة بعد خلعه من السلطنة إلى الإسكندرية على هذا الوجه، لما كان يسعه أن يقول رأيت ذلك فى بلاد الچاركس- انتهى.

و حمل أخوه محمد أيضا على فرس آخر بغير قيد فيما أظن، و نزل أمامه، و بين يديهما مملوك أبيهما قراجا الأشرفى الطويل الأعرج على بغل بقيد، و خلفه أوچاقى- على عادة الأمراء- بسكين، و أنا أقول: عظم قراجا بهذا النزول مع هؤلاء الملوك فى مثل هذا اليوم، و الذى أراه أنا أنه كان يتوجّه بين يدى هؤلاء ماشيا إلى أن يصل إلى البحر، و إلا فهذا إجلال لقدر هذا الوضيع، و إن كان فيه ما فيه من النكد، ففيه ثوع من رفع مقامه.

و سار الجميع و العساكر محتفظة بهم، و على أكثرهم السلاح و آلة الحرب، و جلست الناس بالحوانيت و الطّرقات و البيوت لرؤية الملك المؤيد هذا، كما هى عادة العوامّ و غيرهم من المصريين، و توجهوا بهم من الصليبة إلى أن اجتازوا بالملك المؤيد و أخيه محمد على تلك الهيئة بدار أخته شقيقته زوجة الأمير يونس الدّوادار الكبير، و هو فى حياض الموت، لمرض طال به أشهرا تجاه الكبش، فلما وقع بصر زوجة الأمير يونس على أخويها و هما فى تلك الحالة العجيبة المهولة صاحت بأعلى صوتها هى و من حولها من الجوارى و النسوة، فقامت عيطة عظيمة من الصّياح و اللّطم و الرءوس المكشوفة، فحصل للناس من ذلك أمر عظيم من بكاء و حزن و عبرة على ما أصاب هؤلاء من النّكبة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۵۱

و الهوان بعد الأمن و العزّ الذى لا مزيد عليه، و ما أحسن قول من قال فى هذا المعنى:

[البسيط]

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة؛ ج۱۶؛ ص۲۵۱

جاد الزّمان بصفو ثمّ كدّره هذا بذاك، و لا عتب على الزمن

و دام سيرهم على هذه الصفة إلى أن وصلوا بهم إلى البحر بخط بولاق بساحل النّيل، فأنزل الملك المؤيد و أخوه و معهما قراجا المذكور فى مركب واحد، و سافروا من وقتهم على الفور إلى الإسكندرية، و قد كثر تأسّف الناس عليهم إلى الغاية، ما خلا المماليك الظاهرية فإنهم فرحوا به لما كان فعل الملك الأشرف إينال بابن أستاذهم الملك المنصور كذلك، فجازوه بما فعلوه الآن مع ابنه الملك المؤيد هذا، قلت: هكذا فعل الدهر، يوم لك و يوم عليك.

و دام الملك المؤيد و من معه مسافرا فى البحر إلى ثغر رشيد، فسافروا على البر إلى أن وصلوا إلى الإسكندرية، فسجنوا بها، و استمر الملك المؤيد مسجونا بقيده إلى أن استهلّت سنة ست و ستين فرسم السلطان الملك الظاهر خشقدم بكسر قيده فكسر، و توجهت والدته خوند زينب إليه و سكنت عنده بالثغر و معها ابنتها زوجة الأمير يونس بعد موته، ثم مرض ولدها محمد فى أثناء السّنة أيّاما كثيرة، و مات بالثغر، و دفن به فى ذى الحجة، و قبل موته ماتت ابنته بنت أشهر، و لم يتهم أحد لموته، لأن مرضه كان غير مرض المتهومين، و لما وقع ذلك أرسلت والدته خوند زينب تستأذن السّلطان فى حمل رمّة ولدها محمد المذكور من الإسكندرية إلى القاهرة لتدفنه عند أبيه الأشرف إينال، فأذن لها فى ذلك، فحملته بعد أشهر، و جاءت به إلى القاهرة فى شهر ربيع الأوّل من سنة سبع و ستين و ثمانمائة، و دفن محمد المذكور على أبيه فى فسقية واحدة- رحمهما اللّه تعالى و المسلمين- و لم تحضر والدته المذكورة

مع رمّة ولدها محمد، و إنما قامت عند ولدها الملك المؤيد أحمد بالإسكندرية، لمرض كان حصل للملك المؤيد أبطل بعض أعضائه، ثم عوفى بعد ذلك بمدّة، و حضرت بعد ذلك إلى القاهرة بطلب من السلطان بسبب المال، و صادفت

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۵۲

وفاة الأمير يونس المؤيدى الدوادار الكبير صهره زوج أخته بعد يوم، ثم تزوّجها الأمير كسباى الخشقدمى الدّوادار الثانى، فقبل دخولها ماتت معه.

و كان عمره وقت سلطنته نيفا و ثلاثين سنة، فإن مولده و أبوه نائب بغزة.

و كانت مدة سلطنة الملك المؤيّد أحمد على مصر أربعة أشهر و أربعة أيام، مرّت أيامه كالدقائق، لسرعتها و حسن أوقاتها، و دام فى الإسكندرية، و قد كمل له بها الآن مدّة عشر سنين سواء.

و لما مات الظاهر خشقدم و تسلطن الملك الظاهر تمربغا الظاهرى، ففى أوّل يوم رسم بإطلاق الملك المؤيّد أحمد من سجن الإسكندرية، و رسم له بأن يسكن فى الإسكندرية فى أى بيت شاء، و أنه يحضر صلاة الجمعة راكبا، و أرسل إليه خلعة و فرسا بقماش ذهب، فاستمرّ يركب، و لما تسلطن صهره الملك الأشرف قايتباى زاد فى إكرامه، و بقى يسافر، و صاهره على ابنته الأمير يشبك من مهدى الظاهرى الدّوادار الكبير، و دام.

و هذه السنة و هى سنة خمس و ستين و ثمانمائة هى التى اتفق فيها أن حكم فيها ثلاثة ملوك؛ حكم الملك الأشرف إينال من أوّلها إلى نصف جمادى الأولى، و حكم ولده الملك المؤيّد هذا من نصف جمادى الأولى المذكورة إلى تاسع عشر شهر رمضان فقط، و حكم الملك الظاهر خشقدم من تاسع عشر شهر رمضان فقط إلى آخرها.

و سنذكر وفيات هذه السنة بتمامها فى محلها فى أول سنين سلطنة الملك الظاهر خشقدم- حسبما اصطلحنا عليه فى مصنفنا هذا- إن شاء اللّه تعالى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۵۳

ذكر سلطنة الملك الظاهر خشقدم على مصر

هو السلطان الملك الظاهر أبو سعيد سيف الدين خشقدم بن عبد اللّه الناصرى المؤيّدى، و هو السلطان الثامن و الثلاثون من ملوك الترك و أولادهم بالديار المصرية، و الأوّل من الأروام بعد أن تسلطن من الچراكسة و أولادهم ثلاثة عشر ملكا، أعنى من أول دولة الظاهر برقوق و هو القائم بدولة الچراكسة ابتداء، و أما من سلف من ملوك التّرك الچراكسة و الأروام ففيهم اختلاف كثير، لعدم ضبط المؤرخين هذا المعنى، و الذى تحرّر منهم من دولة الملك الظاهر برقوق إلى يومنا هذا، فأوّل الچراكسة برقوق، و أول الأروام خشقدم، هذا و بينهما إحدى و ثمانون سنة لا تزيد يوما و لا تنقص يوما، لأن كلّا منهما تسلطن فى تاسع عشر شهر رمضان، فذاك- أعنى برقوقا- فى سنة أربع و ثمانين و سبعمائة، و خشقدم هذا فى سنة خمس و ستين و ثمانمائة، تسلطن يوم خلع الملك المؤيّد أبو الفتح أحمد ابن السلطان الملك الأشرف إينال الأجرود، فى يوم الأحد تاسع عشر شهر رمضان سنة خمس و ستين و ثمانمائة بعد الزوال، و هو يوم ملك القلعة من الملك المؤيّد أحمد.

فلما كان وقت الزّوال طلب الخليفة المستنجد بالله يوسف و القضاة و الأعيان، و قد حضر جميع الأمراء فى الإسطبل السلطانى بباب السّلسلة بالحرّاقة، و بويع بالسلطنة، و كان قد بويع بها من بكرة يوم السبت ثامن عشر شهر رمضان قبل قتال الملك المؤيّد أحمد حسبما تقدّم ذكره فى ترجمة الملك المؤيّد أحمد، و لقب بالملك الظاهر، و كنى بأبى سعيد.

و لما تمّ له الأمر لبس خلعة السلطنة السّواد من مبيت الحرّاقة و ركب فرس النوبة،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۵۴

و طلع إلى القصر السلطانى بشعار الملک و الأمراء و العساکر مشاة بين يديه، ماخلا الخليفة فإنه راکب معه، و قد حمل القبّة و الطير على رأسه الأمير جرباش المحمدى الناصرى المعروف بکرد أمير سلاح، و جلس على تخت الملک، و قبّلت الأمراء و العساکر الأرض بين يديه، و دقّت البشائر فى الوقت، فازدحمت الناس لتهنئته و تقبيل يديه إلى أن انتهى کلّ أحد، و نودى فى الحال بسلطنته فى شوارع القاهرة، و خلع على الخليفة المستنجد بالله يوسف فوقانيا حريرا بوجهين أبيض و أخضر بطرز زرکش، و قدّم له فرسا بسرج ذهب و کنبوش زرکش، ثم خلع على الأمير جرباش المحمدى أطلسين متمّرا و فوقانيا بوجهين بطرز زرکش، و أنعم عليه بفرس بقماش ذهب، و هذه الخلعة لحمله القبّة و الطير على رأس السلطان، و خلعة الأتابکيّة تکون بعد ذلک، غير أن جرباش المذکور علم أنه قد صار أتابکا لحمله القبّة و الطير على رأس السلطان.

ثم خلع السلطان على الأمير قرقماس الأشرفى أمير مجلس باستقراره أمير سلاح عوضا عن جرباش.

و کانت سلطنة الملک الظاهر خشقدم و جلوسه على تخت الملک وقت الظهر من يوم الأحد المقدم ذکره، و کان الطالع وقت سلطنته و جلوسه على تخت الملک.

و استمرّ جلوس السلطان الملک الظاهر خشقدم بالقصر السلطانى من قلعة الجبل إلى الخميس، و عنده جميع الأمراء على العادة، ثم أصبح السلطان فى يوم الاثنين العشرين من شهر رمضان خلع على الأمير جرباش المحمدى خلعة الأتابکية، و هى کخلعته بالأمس.

و فيه رسم السلطان بإطلاق الأميرين من سجن الإسکندرية، الأمير تنم من عبد الرزّاق المؤيدى أمير سلاح کان، و الأمير قانى باى الچارکسى الأمير آخور الکبير کان، و توجههما إلى ثغر دمياط بطّالين.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۵۵

و فى يوم الثلاثاء حادى عشرينه الثانية من النهار حمل الملک المؤيّد أحمد و أخوه محمد من قلعة الجبل إلى جهة الإسکندرية ليحبسا بها.

قلت: و قبل أن نشرع فى ذکر الحوادث نبدأ بالتّعريف بأصل الملک الظاهر خشقدم هذا و سبب ترقّيه إلى السلطنة فنقول:

أصله روميّ الجنس، جلبه خواجا ناصر الدين إلى الديار المصرية فى حدود سنة خمس عشرة و ثمانمائة، أو فى أوائل سنة ست عشرة، هکذا أملى عليّ من لفظه بعد سلطنته، و سنّه يوم ذلک دون البلوغ، فاشتراه الملک المؤيّد شيخ، و جعله کتابيا سنين کثيرة، ثم أعتقه و جعله من جملة المماليک السلطانية، إلى أن مات الملک المؤيّد فصار خشقدم هذا خاصکيا فى دولة ولده الملک المظفر أحمد بن شيخ، بسفارة أغاته الأمير تغرى بردى قريب قصروه، و دام خاصکيا مدة طويلة إلى أن صار ساقيا فى أوائل دولة الملک الظاهر جقمق، ثم أمّره الملک الظاهر إمرة عشرة، و جعله من جملة رءوس النوب فى حدود سنة ست و أربعين، فدام على ذلک إلى سنة خمسين، فأنعم عليه الملک الظاهر أيضا بإمرة مائة و تقدمة ألف بدمشق، و استمرّ بدمشق إلى أن تغيّر خاطر الملک الظاهر جقمق على الأمير تنبک البردبکى حاجب الحجاب بسبب عبد قاسم الکاشف الذى نعتوه الناس بالصلاح، و نفاه إلى ثغر دمياط بطّالا، فرسم السلطان الملک الظاهر جقمق بطلب خشقدم هذا من مدينة دمشق، ليکون عوضا عن تنبک المذکور فى حجوبية الحجاب، و على إقطاعه أيضا دفعة واحدة، و ذلک فى صفر سنة أربع و خمسين و ثمانمائة، و کان مجىء خشقدم هذا إلى الديار المصرية بسفارة الأمير تمربغا الظاهرى الدّوادار الثانى، و قيل على البذل على يد أبى الخير النحاس، و أنعم السلطان بتقدمة خشقدم هذا التى بدمشق على الأمير علّان جلّق المؤيدى، فاستمرّ خشقدم المذکور على الحجوبية إلى أن تسلطن الملک الظاهر جقمق، فخلع عليه بإمرة سلاح عوضا عن الأمير تنبک البردبکى الذى کان أخذ عنه الحجوبية بعد أن وقع لتنبک المذکور دورات

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۵۶

و تنقلات، فدام على وظيفة إمرة سلاح إلى أن سافر مقدم العساکر السلطانية إلى بلاد ابن قرمان، ثم عاد و استمرّ على حاله إلى أن تسلطن الملک المؤيّد أحمد ابن الأشرف إينال، فخلع عليه باستقراره أتابک العساکر عوضا عن نفسه، و ذلک فى يوم الجمعة سادس

عشر جمادی الأولی سنة خمس و ستین، فلم تطل أیّامه، و ثار القوم بالملک المؤیّد أحمد و قاتلوه حتی خلعوه حسبما ذکرنا أمر الوقعة فی تاریخنا «حوادث الدهور فی مدی الأیام و الشهور».

و تسلطن الملک الظاهر خشقدم هذا، و وقع فی سلطنته نادرة غریبة، و هی أن الملک الظاهر برقوقا کان أول ملوک الچراکسة بالدیار المصریة- إن کان الملک المظفر بیبرس الجاشنکیر غیر چارکسی- و کانت سلطنة برقوق فی یوم الأربعاء تاسع عشر شهر رمضان سنة أربع و ثمانین و سبعمائة، و لقب بالملک الظاهر؛ و کانت سلطنة الملک الظاهر خشقدم هذا فی یوم الأحد تاسع عشر شهر رمضان سنة خمس و ستین و ثمانمائة، فتوافقا فی اللقب و الشهرة و التاریخ و الشهر، و ذلک أوّل ملوک الچراکسة، و هذا أول دولة الأروام، فبینهما إحدی و ثمانون سنة لا تزید یوما و لا تنقص یوما، لأن کلا منهما تسلطن بعد أذان الظهر فی تاسع عشر شهر رمضان- انتهی.

ثم فی یوم الخمیس ثالث عشرینه خلع السلطان علی الأمیر جانبک الظاهری نائب جدّة باستقراره دوادارا کبیرا بعد موت الأمیر یونس.

و خلع علی الأمیر جانبک من أمیر الظریف الخازندار باستقراره دوادارا ثانیا عوضا عن بردبک الأشرفی بحکم القبض علیه، و ولی الدّواداریة الثانیة علی تقدمة ألف و لم یقع ذلک لغیره، و استقرّ قانم طاز الأشرفی خازندارا عوضا عن جانبک من أمیر.

و فی یوم الجمعة رابع عشرینه تواترت الأخبار بوصول الأمیر جانم الأشرفی نائب الشام إلی منزلة الصالحیة، و أشیع هذا الخبر إلی وقت صلاة الجمعة، فتحقق السلطان

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۵۷

الإشاعة، فحصل علیه من هذا الخبر أمر کبیر، و عظم مجیء جانم علی السلطان إلی الغایة؛ لأن جانم کان رشّح لسلطنة مصر قبل ذلک عند مجیء ولده یحیی بن جانم إلی مصر فی دولة الملک المؤید أحمد، و قد ذکرنا ذلک فی وقته.

و خارت طباع الملک الظاهر خشقدم، و ما ذلک إلا لعظم جانم فی النفوس، و أیضا لکثرة خچداشیته الأشرفیة، و زیادة علی ذلک من کان کاتبه و أذعن لطاعته من أعیان الظاهریة الجقمقیة.

ثم طلب السلطان الأمیر جانبک الدّوادار، و کلمه بما سمعه من مجیء جانم، و کان جانبک قد استحال عن جانم، و مال بکلیته إلی الملک الظاهر خشقدم، و صار من جهته ظاهرا و باطنا، فهوّن جانبک مجیئه علی السلطان، و أخذ فی التدبیر و قام و خچداشیته بنصرة الملک الظاهر خشقدم، و وقع بسبب مجیء جانم أمور کثیرة و حکایات ذکرناها فی تاریخنا «حوادث الدهور»، ملخصها: أن جانم قام بالخانقاه أیاما، و عاد إلی نیابة الشام ثانیا، بعد أن أمدّه السلطان بالأموال و الخیول و القماش، حسبما یأتی ذکره یوم سفره.

و فی یوم السبت خامس عشرینه نودی بنفقة الممالیک السلطانیة، فی یوم السبت الآتی.

و فیه أیضا، أنعم السلطان علی عدة من الأمراء بتقادم ألوف، و هم:

الأمیر أزبک من ططخ الظاهری، و بردبک الظاهری الرأس نوبة الثانی، و جانبک من قجماس الأشرفی المشد زیادة علی إقطاعه الأول و وظیفته.

و أنعم السلطان أیضا علی جماعة من الخاصکیة، لکل واحد إمرة عشرة باستحقاق و غیر استحقاق، کما هی عادة أوائل الدول.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۵۸

و استقرّ الأمیر قایتبای المحمودی الظاهری أمیر طبلخاناه و شاد الشراب خاناه، عوضا عن جانبک الأشرفی.

و أما ما جدّده الملک الظاهر خشقدم من الوظائف مثل الدّواداریة و السقاة و السلحداریة فکثیر جدا لا یدخل تحت حصر لعسر تحریره.

و استقرّ الأمیر دولات بای النجمی مسفّر الأمیر جانم نائب الشام، و استقر تمراز الأشرفی أحد مقدمی الألوف بدمشق فی نیابة صفد بعد عزل خیربک النّوروزی عنها و توجهه إلی دمشق مقدّم ألف، و أنعم السلطان أیضا علی تمراز المذکور بمبلغ کبیر من المال و غیره.

و فى يوم الاثنين سابع عشرين رمضان استقرّ يشبك البجاسى أحد مقدّمى الألوف بمصر فى حجوبية حلب، و أنعم بتقدمته على الأمير جانبك الإينالى الأشرفى المعروف بقلقسيز، انتقل إليها من إمرة عشرة بسفارة الأمير جانبك الدّوادار.

و فى يوم الثلاثاء ثامن عشرينه توجّه القاضى محب الدين بن الشّحنة كاتب السّرّ إلى خانقاه سرياقوس لتحليف جانم نائب الشام المقدّم ذكره.

و سافر جانم فى يوم الجمعة ثانى شوال إلى محل كفالته على أقبح وجه، و سافر بعده تمراز الذى استقرّ فى نيابة صفد، كل ذلك بتدبير عظيم الدولة جانبك الدوادار، و قد انتهت إليه يوم ذلك رئاسة المماليك الظاهريّة بديار مصر.

و أما الملك الظاهر فإنه لما سافر جانم أخذ فى مكافأة العسكر و استجلاب خواطرهم، و وجد عنده حاصلا كبيرا من الإقطاعات، ليس ذلك مما كان فى ديوان السلطان، و إنما هو إقطاعات الأجلاب مماليك الأشرف إينال، و أضاف إلى ذلك شيئا كثيرا من الذخيرة السلطانية، و من أوقاف الملك الأشرف إينال، و أوقاف حواشيه، حتى إنه صار يأخذ البلد العظيمة من ديوان المفرد و غيره و ينعم بها على جماعة لكل واحد إمرة عشرة، و تارة ينعم بها على خمسين مملوكا من المماليك السلطانية، و أكثر و أقل، و قاسى الملك الظاهر

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۵۹

من طلب المماليك أمورا عظيمة و أهوالا، و لما قلّ ما عنده من الضياع بالديار المصرية مدّ يده إلى ضياع البلاد الشّامية، ففرّق منها على أمراء مصر و أجنادهم ما شاء اللّه أن يفرّق.

فلما كان يوم السبت ثالث شوال شرع السلطان فى تفرقة نفقة المماليك السلطانية، ففرقت فى كل يوم طبقة واحدة- لقلة متحصل الخزانة الشريفة- لكل واحد مائة دينار، و لمن يستخفّون به خمسون دينارا، و بالجملة إنها فرّقت أقبح تفرقة، لعجز ظاهر، و قلة موجود، و مصادرات الناس.

و لما كان يوم الاثنين خامس شوال أنعم السلطان بالخلع على جميع أمراء الألوف، و أنعم على كل واحد بفرس بسرج ذهب و كنبوش زركش، و رسم لهم بالنّزول إلى دورهم، و كان لهم من يوم قدم جانم نائب الشام إلى خانقاه سرياقوس مقيمين بجامع القلعة، و كذلك القضاة، فنزل الجميع إلا الخليفة فإنه دام بقلعة الجبل إلى يوم تاريخه، و أظن ذلك صار عادة ممّن يلى الملك بعده.

و فى هذه الأيام استقرّ خيربك القصروى نائب قلعة الجبل فى نيابة غزّة بعد عزل بردبک السيفى سودون من عبد الرحمن، و رسم السلطان أن يفرج عن الملك العزيز يوسف ابن الملك الأشرف برسباى، و عن الملك المنصور عثمان ابن الملك الظاهر جقمق من محبسهما ببرج الإسكندرية، و رسم لهما أن يسكنا بأى مكان اختارا بالثغر المذكور، و رسم أيضا بكسر قيد الملك المؤيّد أحمد ابن الأشرف إينال.

و فى يوم الأربعاء سابعه ماجت مماليك الأمراء، و وقفوا فى جمع كبير بالرّميلة، يطلبون نفقات أستاذيهم، لينفق أستاذ كل واحد منهم فى مماليكه، و كان السلطان أخّر نفقات الأمراء إلى أن تنتهى نفقة المماليك السلطانية، و كانت العادة تفرقة النفقة على الأمراء قبل المماليك، فلما بلغ السلطان ذلك شرع فى إرسال النفقة إلى الأمراء، و قد ذكرنا قدر ما أرسل لكل واحد منهم فى تاريخنا «الحوادث».

ثم فى يوم الخميس ثامن شوال استقر الأمير قانم المؤيّدى أمير مجلس عوضا عن قرقماس الأشرفى، بحكم انتقاله إلى إمرة سلاح قبل تاريخه، و استقرّ الأمير بيبرس

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۶۰

خال العزيز رأس نوبة عوضا عن قانم، و استقرّ يلباى الإينالى المؤيّدى حاجب الحجاب عوضا عن بيبرس المذكور، و لبس الأمير جانبك الدوادار خلعة الأنظار المتعلقة بوظيفته، و نزل فى موكب هائل.

ثم فى يوم الأحد حادى عشره وصل الأمير تمربغا الظاهرى الدّوادار الكبير- كان- من مكة المشرفة بطلب إلى القاهرة، و أظنه كان

خرج من مكة قبل أن يأتيه الطلب، و طلع إلى القلعة، و قبّل الأرض، و خلع السلطان عليه كامليّة بمقلب سمّور، و نزل إلى داره التى بناها و جدّدها المعروفة قديما بدار منجك، و كان الأمير جانبك الدّوادار قبل مجىء الأمير تمربغا عظيم المماليك الظاهرية، فلما حضر تمربغا هذا و جلس فوق الأمير جانبك، لكونه كان أغاته بطبقة المستجدة أيام أستاذه، و لعظمته فى النفوس و سبقه للرئاسة، صار هو عظيم المماليك الظاهرية، و ركضت ريح جانبك قليلا، و استمر على ذلك.

و فى يوم الأربعاء رابع عشره تسحّب الأمير زين الدين عبد الرحمن بن الكويز ناظر الخاص الشريف بعد أن قام بالكلف السلطانية أتمّ قيام، أعنى بذلك عن الخلع التى خلعها السلطان فى أول سلطنته، و كانت خارجة عن الحد كثرة، ثم عقيب ذلك خلع عيد الفطر بتمامها و كمالها، و بينهما مسافة يسيرة من الأيام، و لم يظهر العجز فى ذلك جميعه يوما واحدا إلى أن طلب منه السلطان من ثمن البهار مائة ألف دينار لأجل النفقة السلطانية، فعجز حينئذ و هرب.

و استقرّ عوضه فى نظر الخاص القاضى شرف الدين الأنصارى، و باشر هو أيضا أحسن مباشرة، و قام بالنفقة السلطانية هو و الأمير جانبك الدّوادار، و تنم رصاص أتمّ قيام، أعنى أنهم اجتهدوا فى تحصيل المال من وجوه كثيرة.

هذا ما وقع للملك الظاهر خشقدم من يوم تسلطن إلى يوم تاريخه محررا.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۶۱

و من الآن نشرع فى ذكر نوادر الحوادث إلى أن تنتهى ترجمته خوفا من الإطالة و الملل فنقول:

و لما كان يوم الاثنين ثالث ذى القعدة استقرّ القاضى نجم الدين يحيى بن حجّى فى نظر الجيش بعد أن صرف القاضى زين الدين بن مزهر عنها.

و فى يوم خامس عشر ذى القعدة عيّن السلطان تجريدة إلى قبرس نجدة لمن بها من العساكر الإسلامية، ثم بطل ذلك بعد أيام.

و فى يوم الخميس سابع عشرينه استقرّ الصفوى جوهر التركمانى زماما و خازندارا عوضا عن لؤلؤ الأشرفى الرومى.

و فى يوم الخميس سادس عشرين ذى الحجة أمسك السلطان بالقصر السلطانى بالقلعة جماعة من أمراء الألوف و غيرهم من الأشرفية، و هم: بيبرس خال العزيز رأس نوبة النوب، و جانبك من أمير الظريف الدّوادار الثانى و أحد أمراء الألوف، و جانبك المشد أحد أمراء الألوف أيضا.

و أمسك من أمراء الطبلخانات و العشرات جماعة أيضا، مثل: قانم طاز الخازندار الكبير، و نوروز الإسحاقى، و برسباى الأمير آخور، و كرتباى، و دولات باى سكسن، و أبرك البجمقدار، و كلّهم عشرات إلا قانم طاز [فإنه] أمير طبلخاناه.

فلما سمعت خچداشيتهم بذلك ثاروا، و وافقهم المماليك الأشرفية الإينالية، و جماعة من الناصرية، و توجهوا الجميع إلى الأمير الكبير جرباش المحمدى الناصرى، و هو مقيم يوم ذاك بتربة الملك الظاهر برقوق التى بالصحراء، و كان فى التربة فى مأتم ابنته التى ماتت قبل تاريخه بأيّام، و اختفى جرباش المذكور منهم اختفاء ليس بذاك، فظفروا به و أخذوه، و مضوا به إلى بيت قوصون الذى سدّ بابه الآن من الرّميلة تجاه باب السلسلة، و مروا به من باب النصر من شارع القاهرة، و بين يديه جماعة من أمراء الأشرفية و غيرهم، و عليهم آلة الحرب، و قد لقبوه بالملك الناصر على لقب أستاذه الناصر فرج بن برقوق، و لما وصلوا إلى بيت قوصون أجلسوه بمقعد البيت.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۶۲

و عند ما جلس بالمقعد ظهر على الأشرفية و غيرهم اختلال أمرهم لاختلاف كلمتهم من سوء آرائهم المفلوكة، و لعدم تدبيرهم، فإن الصّواب كان جلوسه بالتربة المذكورة، إلى أن يستفحل أمرهم، و أيضا إنهم لما أوصلوه إلى بيت قوصون ذهب غالبهم ليتجهز للقتال، و بقى جرباش فى أناس قليلة.

و أما الملك الظاهر خشقدم فإنه لما بلغ الملك الظاهر و الظاهرية أمرهم طلعوا بأجمعهم إلى القلعة، و انضم عليهم أيضا خلائق، لعظم شوكة السلطنة من خچداشية السلطان المؤيدية و غيرهم، و أخذوا السلطان و نزلوا به من القصر إلى مقعد الإسطبل السلطانى أعلى باب

السلسلة، و عليهم السلاح، و دقت الكئوسات بالقلعة، و شرعوا فى القتال.

و بينما هم فى تناوش قتال جرباش، و قد رأى جرباش أن أمره لا ينتج منه شىء، تدارك فرطه، و قام من وقته، و ركب و طلع إلى القلعة طائعا إلى السلطان، و قبّل الأرض و اعتذر بالإكراه، فقبل السلطان منه عذره، و فى النفس من ذلك شىء، و انهزمت الأشرفية الكبار.

و هذا ذنب ثان للأشرفية عند السلطان- و الذنب الأول قصة خچداشهم جانم و الثانى هذا- و انهزم جميع من كان انضم على جرباش المذكور، و توجّه كلّ منهم إلى حال سبيله، فتجاهل السلطان عليهم، و زعم أنه قبل أعذارهم إلى أن تمّ أمره، فمدّ يده يمسك و ينفى، و يكتب إلى التجاريد و السّخر، إلى أن أبادهم.

ثم فى يوم الجمعة سابع عشرين ذى الحجة المذكور أخذوا الأمراء الممسوكين، و نزلوا بهم إلى حبس الإسكندرية.

و فى يوم الاثنين سلخ ذى الحجة خلع السلطان على جميع أمراء الألوف، كل واحد كاملية بمقلب سمّور، و أنعم على الأمير تمربغا الظاهرى القادم من مكّة بإمرة مائة و تقدمة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۶۳

ألف بالديار المصرية، عوضا عن جانبك المشد، بحكم حبسه، و خلع عليه باستقراره رأس نوبة النوب، عوضا عن بيبرس خال العزيز، و أنعم بإقطاع بيبرس على يلباى المؤيّدى الحاجب لكونه أكثر متحصلا من إقطاعه، و أنعم بإقطاع يلباى على خچداشه قانى بك المحمودى المؤيدى، أحد أمراء دمشق الألوف كان.

و فيه أيضا استقرّ الأمير جانبك الإسماعيلى المؤيدى المعروف بكوهيّة دوادارا ثانيا، عوضا عن جانبك الظريف على إمرة عشرة، و كان جانبك الظريف وليها على تقدمة ألف.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۶۴

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۶۶]

ثم استهلت سنة ست و ستين و ثمانمائة ففى يوم الأربعاء ثانى المحرم وصل الخبر بأن الأمير إياسا المحمدى الناصرى نائب طرابلس وصل من جزيرة قبرس إلى ثغر دمياط بغير إذن السلطان.

و فيه نفى السلطان خيربك البهلوان، و قانم الصغير الأشرفيين إلى البلاد الشامية، و كلاهما أمير عشرة.

و فى يوم الخميس ثالث المحرم عيّن السلطان مع سليمان بن عمر الهوّارى تجريدة من المماليك السلطانية، و عليهم ثلاثة أمراء أشرفية: جكم خال العزيز، و أيدكى، و مغلباى، فتأمل حال الأشرفية من الآن.

ثم فى يوم الاثنين سابع المحرم استقرّ الأمير طوخ الأبوبكرى المؤيدى زردكاشا عوضا عن سنقرقرق شبق الأشرفى بحكم القبض عليه، و استقرّ سودون الظاهرى الأفرم خازندارا كبيرا، عوضا عن قانم طاز، بحكم القبض عليه أيضا، و أنعم السلطان فى هذا اليوم على جماعة كثيرة بأمريات و إقطاعات و وظائف باستحقاق و غير استحقاق، كما هى عوائد أوائل الدول.

ثم فى ليلة الثلاثاء ثامن المحرم سافر الأمير قانى باى المحمودى الظاهرى المشد إلى ثغر دمياط للقبض على الأمير إياس الناصرى نائب طرابلس و إيداعه السجن، لكونه حضر من قبرس، و ترك من بها من عساكر المسلمين.

ثم عين السلطان جماعة من الأشرفية الكبار و الأشرفية الصغار إلى سفر قبرس، و أميرهم مغلباى البجاسى أتابك طرابلس، و كان مغلباى حضر مع إياس.

و فى يوم الاثنين رابع عشر المحرم استقرّ قراجا العمرى ثانى رأس نوبة و أمير مائة و مقدم ألف بدمشق على إقطاع هين، و قراجا هذا أيضا ممن كان انضم على جرباش من خچداشيته، و استقرّ تنم الحسينى الأشرفى عوضه رأس نوبة ثانيا.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۶۵

و فی یوم الخمیس سابع عشر المحرم استقرّ برسبای البجاسی الأمیر آخور الکبیر نائب طرابلس عوضا عن إیاس المقبوض علیه، و استقرّ عوضه فی الأمیر آخوریة الکبری یلبای المؤیدی حاجب الحجاب، و استقرّ فی حجوبیة الحجاب عوضه الأمیر بردبک الظاهری البچمقدار، و أنعم السلطان بإقطاع برسبای البجاسی علی قانی بک المحمودی، و أنعم بإقطاع قانی بک المحمودی علی تمربای ططر الناصری، و کلاهما تقدمة ألف لکن الزیادة فی المتحصل، و فرّق السلطان إقطاع تمربای ططر علی جماعة.

و فی یوم الاثنین حادی عشرین المحرم استقرّ الخواجا علاء الدین علی بن الصابونی ناظر الإسطبل السلطانی بعد عزل شرف الدین بن البقری و أضیف إلیه نظر الأوقاف.

و فی یوم الثلاثاء ثانی عشرینه وصل مغلبای طاز أمیر حاج المحمل بالمحمل و أمیر الرکب الأول تنبک الأشرفی.

و فی یوم الخمیس ثانی صفر أعید القاضی زین الدین بن مزهر إلی وظیفة نظر الجیش، بعد عزل القاضی نجم الدین یحیی بن حجی.

و فی یوم الثلاثاء سابع صفر وصل إلی القاهرة رأس نوبة الأمیر جانم نائب الشام، و معه تقدمة إلی السلطان- تسعة ممالیک لا غیر- من عند مخدومه، و اعتذر عن مخدومه أنه لیس له علم بتسحّب الأمیر تمراز نائب صفد، و أنه باق علی طاعة السلطان، و کان السلطان أرسل قبل تاریخه بمسک تمراز المذکور، فهرب تمراز من صفد، و له قصة حکیناها فی «حوادث الدهور».

ثم فی یوم الثلاثاء رابع عشره وصل أیضا الزینی عبد القادر بن جانم نائب الشام، یستعطف خاطر السلطان علی أبیه، و کان عبد القادر حدیث السن، و قد حضر معه الأمیر قراجا الظاهری أتابک دمشق لیتلطف السلطان فی أمر نائب الشام، و لما وصل

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۶۶

قراجا المذکور إلی منزلة الصالحیة رسم السلطان بعوده إلی دمشق، و منعه من الدخول إلی مصر، و رسم لعبد القادر المذکور بالمجیء، فجاء الصبی و ردّ قراجا إلی الشام.

و فی هذا الیوم رسم السلطان بإحضار الأمیر تنم من عبد الرزاق المؤیدی أمیر سلاح- کان- من ثغر دمیاط، و قد رشّح لنیابة الشّام عوضا عن جانم المذکور.

ثم فی لیلة الخمیس سادس عشر صفر المذکور سافر الأمیر تنم من نخشایش الظاهری المعروف برصاص محتسب القاهرة إلی دمشق علی النجب و الخیل، و معه جماعة کثیرة من الخاصکیة، مقدار ثلاثین نفرا، لیمسک الأمیر جانم نائب الشام، قلت: [الطویل]

أیا دارها بالخیف إن مزارها قریب، و لکن دون ذلک أهوال

ثم فی یوم الأربعاء عشرینه وصل الأمیر تنم من ثغر دمیاط، و قبّل الأرض و أجلسه السلطان فوق الأمیر قرقماس أمیر سلاح، و خلع علیه.

ثم فی یوم الاثنین سابع عشرینه، خلع علیه بنیابة الشّام، و استقرّ مسفّره الأمیر بردبک هجین الظاهری الأمیر آخور الثانی، و خلع السلطان علی الأمیر قانصوه الیحیاوی الظاهری بتوجهه إلی الأمیر جانبک الناصری المعزول قبل تاریخه عن حجوبیّة دمشق، و علی یده تقلیده و تشریفه بنیابة صفد عوضا عن تمراز الأشرفی.

و فی یوم الأربعاء سادس شهر ربیع الأول وصل إلی القاهرة الأمیر أزدمر الإبراهیمی و خچداشه قرقماس، و قد کان مسافرا مع الأمیر تنم رصاص المحتسب إلی دمشق، و أخبر أزدمر المذکور أن الأمیر جانم نائب الشام خرج منها بممالیکه و حشمه بعد دخول تنم رصاص إلی دمشق و مراسلته، و لم یقدر تنم علی مسکه، بل و لا علی قتاله، و کان خروج جانم من دمشق قبیل العصر من یوم الأحد

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۶۷

سادس عشرین صفر، و لم یکترث بأحد من الناس، و توجّه إلی جهة حسن بک ابن قرایلک.

ثم فی یوم الجمعة ثانی عشرین ربیع الأول رکب السلطان من قلعة الجبل ببعض أمرائه و خاصته، و نزل إلی بیت الأمیر تنم المستقر فی

نيابة الشّام و سلّم عليه، و هذا أوّل نزوله من قلعة الجبل من يوم تسلطن، ثم نزل السلطان بعد ذلك بقماش الموكب فى يوم الاثنين تاسع شهر ربيع الآخر، و سار إلى تربته التى أنشأها بالصحراء بالقرب من قبة النصر، و خلع على البدرى حسن بن الطولونى معلّم السلطان و غيره، ثم توجه إلى مطعم الطير، و جلس به و اصطاد أمير شكار بين يديه، ثم ركب و عاد إلى القلعة بعد أن شقّ القاهرة، و دخل فى عوده إلى بيت إنيّه الأمير تنبك الأشرفى المعلم.

و فى يوم الثلاثاء رابع عشره استقرّ شرف الدين يحيى بن الصنيعة أحد الكتاب وزيرا بالديار المصرية، بعد عزل على بن الأهناسى.

و فى يوم الاثنين أول جمادى الأولى أنعم السلطان على الأمير بردبك هجين الظاهرى أمير آخورثان بإمرة مائة و تقدمة ألف بعد موت تمرباى ططر، و أنعم بإقطاع بردبك المذكور على مغلباى طاز المؤيدى، و أنعم بإقطاع مغلباى على سودون الأفرم الظاهرى الخازندار، و أنعم بإقطاع سودون الأفرم على سودون البردبكى المؤيّدى الفقيه.

و فى يوم السبت سادس جمادى الأولى وصل تنم رصاص.

ثم فى يوم السبت استقر إينال الأشقر الظاهرى والى القاهرة فى نيابة ملطية بعد موت قانى باى الجكمى.

و فى يوم الخميس ثامن عشره استقرّ الصارمى إبراهيم بن بيغوت نائب قلعة دمشق بعد موت سودون قندوره التركمانى اليشبكى بحكم انتقاله إلى تقدمة ألف بدمشق.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۶۸

و فى يوم الاثنين ثانى عشرين جمادى الأولى المذكورة خرج الأمير تنم نائب الشّام إلى محل كفالته.

و فى آخر هذا الشهر وصل قاصد حسن بك بن على بك بن قرايلك [صاحب آمد] و أخبر السلطان أن الأمير جانم نائب الشام جاء إليه و استشفع عند السلطان له.

و فى هذا الشهر ترادفت الأخبار بأن جانم نائب الشام أرسل يدعو تركمان الطاعة إلى موافقته، و أن حسن بك المقدم ذكره دعا لجانم على منابر ديار بكر.

ثم فى يوم الأربعاء سابع شهر رجب نودى بشوارع القاهرة بالزينة لدوران المحمل، و نودى أيضا بأن أحدا من المماليك و لا غيرهم لا يحمل سلاحا و لا عصاة فى الليل، فدامت الزينة إلى أن انتهى دوران المحمل فى يوم الاثنين ثانى عشره، و لم يحدث إلا الخير و السلامة، و كان معلّم الرماحة فى هذه السنة الأمير قايتباى المحمودى الظاهرى المشد، و الباشات الأربعة أمراء عشرات: برقوق الناصرى، ثم طومان باى الظاهرى، ثم جانبك الأبلق الظاهرى، ثم برسباى قرا الظاهرى.

ثم فى يوم الخميس خامس عشره عيّن السلطان تجريدة إلى الوجه القبلى- أربعمائة مملوك من المماليك السلطانية- و مقدم العسكر الأمير جانبك الدّوادار، و صحبته من أمراء الألوف جانبك قلقسيز الأشرفى، و من أمراء الطبلخات و العشرات نحو عشرين أميرا، و خرجوا بسرعة فى ليلة السبت سابع عشر رجب.

و فى يوم الجمعة سادس عشره- الموافق لحادى عشرين برمودة- لبس السلطان القماش الأبيض البعلبكى المعد لبسه لأيام الصيف، و ابتدأ فى يوم السبت سابع عشره يلعب الكرة على العادة فى كل سنة.

و فى يوم الخميس تاسع عشرينه عاد الأمير جانبك الدّوادار بمن كان معه من بلاد

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۶۹

الصعيد إلى الجيزة، و طلع إلى السلطان من الغد بغير طائل و لا حرب، و خلع السلطان عليه.

و فى ليلة الثلاثاء ثامن عشر شعبان سافرت خوند الأحمدية زوجة السلطان فى محفة إلى ناحية طندتا بالغربية لزيارة سيدى أحمد البدوى.

و فى يوم الجمعة ثامن عشرينه، سافرت الغزاة المعينون قبل تاريخه إلى قبرس- انتهى.

و فى يوم الأحد ثامن شهر رمضان ورد الخبر بموت الحاج إينال اليشبكى نائب حلب، فخلع السلطان فى يوم الخميس ثانى عشره على الأمير قايتباى شاد الشراب خاناه بتوجهه إلى حماة، و على يده تقليد جانبک التاجى المؤيدى نائب حماة و تشريفه بنيابة حلب، عوضا عن الحاج إينال.

و استقرّ مغلباى طاز مسفّر الأمير جانبک النّاصرى نائب صفد باستقراره فى نيابة حماة.

و استقرّ فى نيابة صفد خيربک القصروى نائب غزّة، و توجّه بتقليده الأمير تمرباى الظاهرى السلاحدار.

و استقر فى نيابة غزّة أتابک حلب شادبک الصّارمى و مسفّره طومان باى الظاهرى.

و استقرّ يشبک البجاسى حاجب حجّاب حلب أتابکا بها عوضا عن شادبک الصّارمى.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۷۰

و استقرّ تغرى بردى بن يونس نائب قلعة حلب فى حجوبية حلب عوضا عن يشبک البجاسى.

و استقرّ کمشبغا السيفى نخشباى أحد المماليک السلطانية بمصر فى نيابة قلعة حلب دفعة واحدة، من قبل أن تسبق له رئاسة، مع عدم أهلية أيضا، و کانت ولايته بالمال- و لا قوة إلا بالله.

و فى يوم الأربعاء تاسع شوال خرجت تجريدة إلى البحيرة و عليها ثلاثة أمراء من أمراء الألوف: قرقماس أمير سلاح، و يشبک الفقيه، و بردبک هجين الظاهرى، و من أمراء الطبلخانات: خشکلدى القوامى الناصرى، و تنم الحسينى الأشرفى ثانى رأس نوبة، و من أمراء العشرات: قانى باى السيفى يشبک بن أزدمر، و قلمطاى الإسحاقى، و قنبک الصغير الأشرفيان، و سنطباى قرا الظاهرى.

و فيه ورد الخبر بأن جانم نائب الشام کان عدّى الفرات فى جمع کثير من المماليک و ترکمان حسن بک بن قرايلک، و سار بعساکره حتى وصل إلى تل باشر من أعمال حلب، و تجهّز جانبک نائب حلب لقتاله، ففى الحال عيّن السلطان تجريدة إلى حلب لقتال جانم: أربعمائة مملوک.

ثم أضاف إليهم مائتين، و عليهم أربعة أمراء من مقدمى الألوف، و هم:

جانبک الظاهرى الدّوادار الکبير، و يلباى المؤيدى الأمير آخور الکبير، و أزبک الظاهرى، و جانبک قلقسيز الأشرفى، و ثلاثة عشر أميرا من أمراء الطبلخانات و العشرات.

ثم نودى فى يوم الثلاثاء خامس عشر شوال بالنفقة فيمن عيّن إلى التجريدة المذکورة.

ثم أصبح من الغد فى يوم الأربعاء رسم بإبطال التجريدة، و سبب ذلک ورود الخبر من نائب حلب بعود جانم على أقبح وجه، و أن جماعة کثيرة من مماليکه فارقوه، و قدموا إلى مدينة حلب.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۷۱

و أمر رجوع جانم أنه کان لما وصل إلى تلّ باشر وقع بينه و بين ترکمان حسن بک الذين کانوا معه کلام طويل، ذکرناه فى «الحوادث»، فترکوه و عادوا، فتلاشى أمر جانم لذلک و عاد.

و فى يوم الخميس سابع عشر شوال خرج الأمير بردبک الظاهرى أمير حاج المحمل بالمحمل إلى برکة الحاج دفعة واحدة، و کانت العادة قديما أن ينزل بالرّيدانية، ثم يرحل إلى برکة الحاج، و کان أمير الرکب الأول فى هذه السنة الناصرى محمد ابن الأتابک جرباش المحمدى.

و فى يوم الاثنين حادى عشرينه استقرّ القاضى محب الدين بن الشّحنة قاضى قضاة الحنفية بالديار المصرية بعد استعفاء شيخ الإسلام سعد الدين سعد بن الدّيرى، لضعف بدنه و کبر سنه، و استقرّ أخوه القاضى برهان الدين إبراهيم بن الدّيرى کاتب السّرّ الشريف عوضا عن قاضى القضاة محب الدين بن الشّحنة المقدم ذکره.

و فى يوم الخميس رابع عشرينه استقرّ القاضى نور الدين بن الإنبابى عين موقعى الدست الشريف فى نيابة کتابة السّرّ، بعد عزل لسان

الدین حفید القاضی محب الدین ابن الشّحنة، فحینئذ أعطی القوس لرامیه، و القلم لباریه، فإنه حق لهذه الوظیفة و أهل لها.

ثم فی رابع ذی القعدة توفیت بنت خوند الأحمدیة زوجة السّلطان، و هی بنت أیرک الجکمی، أحد أمراء دمشق، و قد تزوجها الزینی عبد الرحیم ابن قاضی القضاة بدر الدین العینی، فولدت منه الشهابی أحمد بن العینی الآتی ذکره فی محله.

و فی یوم الاثنین سادس ذی القعدة عزل السلطان القاضی برهان الدین إبراهیم بن الدیری عن وظیفة کتابة السّر بعد أن باشرها خمسة عشر یوما، و کان سبب عزله أنه

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۷۲

لما ماتت بنت خوند المقدم ذکرها فی یوم السبت قال ابن الدیری: ورد فی الأخبار المنقولة عن الأفاضل أنه ما خرج من بیت میّت فی یوم السبت إلا و تبعه اثنان من أکابر ذلک البیت، و شغرت کتابة السّرّ بعده مدّة، و باشر الوظیفة القاضی نور الدین الإنبابی نائب کاتب السّرّ.

و فی یوم الخمیس سادس عشره ورد الخبر من البحیرة بأن العساکر واقع عرب لبید و قتل من عسکر السلطان أمیران: تنبک الصغیر الأشرفی، و سنطبای قرا الظاهری، و جماعة من الممالیک، و سبب قتلهم أمر ذکرناه فی «الحوادث»، إذ هو محل إطناب فی الواقع، و حاصل الخبر أن الذین قتلوا هؤلاء هم عرب الطاعة فی الغوغاء لا عرب لبید.

ثم فی یوم الاثنین عشرین من ذی القعدة خلع السلطان علی القاضی زین الدین أبی بکر بن مزهر ناظر الجیش باستقراره فی وظیفة کتابة السّرّ مسئولا فی ذلک، مرغوبا فی ولایته، و استقرّ القاضی تاج الدین عبد اللّه بن المقسی فی وظیفة نظر الجیش عوضا عنه.

و فی یوم الخمیس ثانی عشرین ذی الحجة توعّک السلطان فی بدنه من إسهال حصل له، و لم ینقطع عن صلاة الجمعة بجامع القلعة الناصری مع الأمراء علی العادة، و استمرّ به الإسهال إلی یوم سادس عشرینه خرج من الدهیشة إلی الحوش، و جلس علی الدکة.

و حضرت أکابر الأمراء الخدمة بالحوش المذکور، و علی وجه السلطان أثر الضعف، کل ذلک و هو ملازم للفراش غیر أنه یتجلّد، و یجلس علی الفرش بقاعة البیسریّة، و الناس تدخل إلیه بها للخدمة علی العادة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۷۳

و فی هذا الیوم حضر إلی القاهرة مبشر الحاج، و هو غیر ترکی، رجل من العرب و هذا غیر العادة، و ما ذاک إلا مخافة السبل، و عدم الأمن بالطریق، فأعاب الناس ذلک علی أرباب المملکة.

و فی هذه السنة أخذ حسن بک بن علی بک بن قرایلک مدینة حصن کیفا، ثم أخذ قلعتها فی ذی القعدة بعد ما حاصرها سبعة أشهر، و انقطع من الحصن ملک الأکراد الأیوبیة، بعد ما ملکوها أکثر من مائتی سنة، و ذلک بعد قتل صاحبها الملک خلف بید بعض أقاربه، فاختلف الأکراد فیما بینهم، فوجد حسن بک بذلک فرصة فی أخذها، فحاصرها حتی أخذها، و قوی أمر حسن بأخذها، فإنه أخذ بعد ذلک عدة قلاع و مدن من أعمال دیار بکر من تعلقات الحصن و غیره.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۷۴

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۶۷]

و استهلت سنة سبع و ستین و ثمانمائة و جمیع نواب البلاد الشامیة مقیمون بحلب مخافة هجوم جانم علیها، و السلطان ملازم الفراش، فلما کان أوّل المحرم دقّت البشائر لعافیة السلطان ثلاثة أیام.

و فی یوم الخمیس سادس المحرم خلع السلطان علی الأطباء و علی السّقاة و علی من له عادة.

ثم فی یوم الأربعاء تاسع عشره وصل أمیر الرکب الأول الناصری محمد ابن الأتابک جرباش، و دخل أمیر حاج المحمل الأمیر بردبک من الغد، و من غریب الاتفاق أنی سألت الناصریّ محمد ابن الأتابک جرباش: «متی بلغکم مرض السلطان؟» فقال:

«فى المدينة الشّريفة»، فحسبنا الأيام، فكان يوم سمعوا فيه خبر مرضه قبل أن يمرض بيوم أو يومين.

و فى يوم الخميس حادى عشر صفر استقرّ علىّ بن الأهناسى فى وظيفتى الوزر و الخاص، و لبس فى هذا اليوم وظيفة الخاص عوضا عن القاضى شرف الدين موسى الأنصارى، و الوزر عوضا عن شرف الدين يحيى بن صنيعة.

و فى يوم الثلاثاء أوّل شهر ربيع الأوّل استقرّ القاضى علم الدين بن جلود كاتب المماليك السلطانية.

و فى يوم الأحد ثالث عشره عمل السلطان المولد النبوى بالحوش من قلعة الجبل، على العادة من كل سنة، و أصبح من الغد عمل مولدا آخر لزوجته خوند الأحمدية.

ثم فى يوم السبت سادس عشرينه، استقرّ الزينى قاسم الكاشف أستادارا، بعد أن اختفى الأمير زين الدين الأستادار.

ثم فى يوم الثلاثاء ثالث عشر شهر ربيع الآخر ورد الخبر من جانبك التّاجى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۷۵

نائب حلب أن جانم نائب الشّام قتل بمدينة الرّها، و قد اختلف فى قتله على أقاويل ذكرناها فى «الحوادث».

و فى يوم الاثنين ثالث جمادى الأولى استقرّ بلاط دوادار الحاج إينال فى نيابة صفد دفعة واحدة من غير تدريج- ببذل المال- عوضا عن خيربك القصروى، و توجه خيربك على إمرة مائة و تقدمة ألف بدمشق عوضا عن يشبك آس قلق المؤيّدى، بحكم استقرار يشبك المذكور فى نيابة غزّة بعد موت شادبك الصارمى، ثم تغيّر ذلك بعد أيام؛ لامتناع يشبك من نيابة غزّة، و استمرّ يشبك على إمرته بدمشق، فصار خيربك بطّالا بالشام، ثم رسم السلطان أن يستقر شاد بك الجلبّانى فى نيابة غزّة بعشرة آلاف دينار، و إن امتنع شادبك من نيابة غزّة حمل إلى قلعة دمشق، و يؤخذ منه العشرة آلاف دينار.

و فيه استقرّ أزدمر الإبراهيمى مسفّر بلاط نائب صفد، و استقرّ سودون البردبكّى الفقيه المؤيّدى مسفّرا لمن يستقر فى نيابة غزّة.

ثم فى يوم الاثنين ثانى جمادى الآخرة استقرّ الصاحب شمس الدين منصور أستادارا عوضا عن قاسم الكاشف.

و فى يوم السبت رابع عشره رسم السلطان بعزل إينال الأشقر عن نيابة ملطية بالأمير يشبك البجاسى أتابك حلب، و استقرّ إينال الأشقر أتابك حلب عوضه.

و فى سلخ هذا الشهر سافرت خوند الأحمدية زوجة السلطان إلى زيارة الشيخ أحمد البدوى.

و فى يوم الاثنين أول شهر رجب سافرت الغزاة فى بحر النيل إلى ثغر دمياط، ليتوجهوا من الثغر إلى جزيرة قبرس، و كان على هذه الغزاة الأمير بردبك الظاهرى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۷۶

حاجب الحجاب، و الأمير جانبك قلقسيز الأشرفى، و اثنا عشر أميرا آخر، هم: بردبك التاجى، و قانصوه المحمدى، و قانصوه الساقى، و يشبك الأشقر، ثم خيربك من حديد، و قلطباى، و كلهم أشرفية برسبائية، ثم تنم الفقيه المؤيّدى، ثم يشبك القرمى و تمرباى السلاح دار، و قانصوه، و هؤلاء الثلاثة ظاهرية جقمقيّة، ثم من السّيفيّة مغلباى الجقمقى، و تنبك السّيفى جانبك النور، و نحو خمسمائة مملوك من المماليك السلطانية و هذا خلاف المطوعة و الخدم، و أرباب الصنائع و غيرهم.

و فيه ظهر الأمير زين الدين، و طلع إلى السلطان، و لبس كامليّة، و استقرّ أستادارا على عادته، بعد عزل منصور و التّرسيم عليه.

و فى يوم الاثنين خامس عشره أدير المحمل على العادة.

و فى يوم الثلاثاء سادس عشره استقرّ الأمير جكم الأشرفى خال الملك العزيز فى نيابة غزّة، بعد ما شغرت مدة طويلة.

و فى يوم الاثنين تاسع عشرين رجب استقرّ بدر الدين حسين بن الصواف قاضى الحنفية بالديار المصرية، عوضا عن قاضى القضاة محب الدين بن الشحنة بحكم عزله.

و فيه جهّز السلطان تجريدة إلى البحيرة عليها أميران من أمراء الألوف، و هما جانبك الناصرى المرتد، و قانى بك المحمودى

المؤيّدى، و جماعة أخر من أمراء الطبلخانات و العشرات.

و فيه ثارت مماليك السلطان الأجلاب عليه، و منعوا أرباب الدّولة و الأمراء و غيرهم من الطلوع إلى القلعة للخدمة السلطانية، و ضربوا الأمير جوهرا مقدّم المماليك، و هجموا على سودون القصروى نائب القلعة، ثم بطلت الفتنة، لأمر حكيناه فى «الحوادث».

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۶، ص: ٢٧٧

و فى يوم الخميس خامس عشر شهر رمضان استقرّ الزّينى مثقال الظاهرى المعروف بمثقال الحبشى، نائب مقدم المماليك، بعد عزل صندل الظاهرى بحكم عزله.

و فى ليلة السبت ثامن شوال تسحّب على بن الأهناسى، و شغرت عنه وظيفتا الخاص و الوزر، فاستقرّ عوضه فى الوزر الصاحب مجد الدين بن البقرى، و فى الخاص القاضى تاج الدين بن المقسى، مضافا للجيش.

و فى يوم الاثنين سابع عشره خرج الأمير بردبك هجين الظاهرى أمير حاج المحمل بالمحمل إلى بركة الحاج، و أمير الركب الأول الشهابى أحمد بن الأتابك تنبك.

و فى يوم الخميس العشرين من ذى القعدة أعيد قاضى القضاة علم الدين صالح البلقينى لمنصب القضاء، بعد عزل قاضى القضاة شرف الدين المناوى.

و فى ليلة الجمعة سادس عشرين ذى القعدة عمل عظيم الدولة الأمير جانبك الظاهرى الدّوادار وليمة عظيمة بالقبّة التى بناها تجاه جزيرة الروضة، و قد احتفل لهذه الوليمة احتفالا عظيما و حضرها جميع أعيان الدولة بأسرهم، ما خلا بعض أمراء الألوف، لعدم طلبهم، و قد حكينا أمر هذه الوليمة فى تاريخنا «حوادث الدهور فى مدى الأيام و الشهور» و من عظم هذه الوليمة لهج الناس بأنها تمام سعده، فلما كان يوم الثلاثاء أوّل ذى الحجة قتل الأمير جانبك المذكور بقلعة الجبل، داخل باب القلّة، تجاه باب الجامع الناصرى الشرقى فى الغلس قبل تباين الوجوه، و قتل معه خچداشه الأمير تنم رصاص الظاهرى محتسب القاهرة و أحد أمراء الطبلخانات، و كان قتلهما بيد المماليك الأجلاب الذين أنشأهم الملك الظاهر خشقدم.

و لما أن طلع النهار المذكور قبض السلطان فى الحال على ستة أمراء من الظاهرية، و هم: سودون الشمسى [المعروف بالبرقى] الأمير آخور الثانى، و قانصوه اليحياوى، و أزدمر، و طومان باى، و دمرداش، و تغرى بردى ططر، و الجميع رءوس نوب،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۶، ص: ٢٧٨

فحمل سودون البرقى من الغد إلى سجن الإسكندرية، و أطلق طومان باى و أزدمر و دمرداش، و أخرج قانصوه و تغرى بردى إلى البلاد الشامية، و اضطرب لهذه الواقعة أمور المملكة، و تخوّف كلّ أحد على نفسه، و يأبى اللّه إلا ما أراد.

و فى يوم الاثنين سابع ذى الحجة استقرّ يشبك من سلمان شاه المؤيّدى الفقيه دوادارا كبيرا، بعد قتل الأمير جانبك، فولى يشبك وظيفته، و لم يل مجده و لا ثناءه و لا همته و لا حرمته و لا شهامته و لا عظمته، و لقد كان به تجمل فى الزمان، و لا قوة إلا باللّه.

و استقرّ سودون البردبكى المؤيّدى فى حسبة القاهرة، عوضا عن تنم رصاص بعد قتله أيضا، و استقرّ نانق الظاهرى أمير آخور ثانيا عوضا عن سودون الشمسى، بحكم حبسه.

و فى يوم السبت ثالث عشره استقرّ المعلم محمد البباوى- أحد معاملى اللحم- ناظر الدولة دفعة واحدة، و ترك زىّ الزّفورية السوقة، و لبس زىّ المباشرين الكتاب، و لبس خفّا و مهمازا، و ركب فرسا، و هو أمىّ لا يحسن القراءة و لا الكتابة، فكانت ولايته لهذه الوظيفة من أقبح ما وقع فى الدولة التركية بالديار المصرية، و قد استوعبنا من حال البباوى هذا نبذة كبيرة فى تاريخنا «الحوادث»، لا سيما لما ولى الوزارة، فكان ذلك أدهى و أمرّ، و بالجملة إن ولاية البباوى للوزر كان فيها عار على مملكة مصر إلى يوم القيامة.

و فى صبيحة يوم الاثنين ثامن عشرين ذى الحجة أمسك السلطان أربعة أمراء من أكابر أمراء الظاهرية بالقصر السلطانى، و كان الذى تولى قبضهم جماعة أيضا من المماليك الأجلاب، و حبسوا بالبرج من قلعة الجبل، و قيدوا إلى الرابعة من النهار المذكور،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۷۹

و حملوا على البغال على العادة إلى سجن الإسكندرية، و الأمراء المذكورون أعظمهم تمربغا الظاهرى رأس نوبة النوب، و أزبك من ططخ الظاهرى أحد مقدّمى الألوف، و برقوق الناصرى ثم الظاهرى أحد أمراء العشرات و رأس نوبة، و قانى باى الساقى الظاهرى أيضا أحد أمراء العشرات و رأس نوبة، و لما انفضّ الموكب منع السلطان الأمراء من النزول إلى دورهم، و رسم بإقامتهم بالحوش السلطانى مخافة أن يحدث منهم أمر لا سيما ممن بقى من أمراء الظاهرية، و لهج الناس بزوال الظاهرية، و تهيأ من بقى منهم و أوصى، و كثرت المقالة بمصر، و أرجف بالركوب و الفتنة، و استمرّ الأمراء بالحوش جلوسا يومهم كله، إلى أن دخلت ليلة الثلاثاء تاسع عشرين ذى الحجة و لم يتحرك أحد بحركة، و قد عمّ الخوف الناس جميعا؛ لأن السلطان صار يخاف من و ثوب الظاهرية عليه، و الظاهرية تخاف من قبض السلطان عليهم، و الناس خائفون من الفتنة، هذا و الهرج موجود بين الناس.

فلما كان بعد صلاة عشاء الآخرة بلغ السلطان أن مماليكه الأجلاب الذين ملكهم من مماليك الملك الأشرف إينال، و أجرى عليهم العتق و قرّبهم و جعلهم خاصكية، و هم الذين قتلوا جانبك الدّوادار و تنم رصاص، و هم أيضا الذين تولوا قبض الأمراء الأربعة، قد اتفقوا مع بقية خچداشيتهم على قتل السلطان فى هذه الليلة، ثم على قتل جميع الأمراء بالحوش السلطانى، ما خلا واحدا منهم، يبقوه ليسلطنوه عوضا عن أستاذهم الملك الظاهر خشقدم، ثم يصير بعد ذلك أمر المملكة بيدهم، فلم يكذب السلطان هذا الخبر، و حار فى نفسه كيف يفعل، و ضاق عليه فضاء الأرض؛ لكون الذى طرقه إنما هو من مماليكه، و هم الذين يستعزّ بهم على غيرهم من جنده، فلم يجد بدّا من الاعتذار مع الظاهرية، و أن يصطلح معهم، و يعتذر إليهم فى الليل، و يطيّب خاطرهم، فأرسل من طلب الأمير قايتباى الظاهرى شاد الشراب خاناه فى الليلة المذكورة، فحضر هو و جماعة كثيرة من خچداشيته و أصحابه، و طلع من باب السلسلة إلى الحوش السلطانى راكبا، هو و جميع من حضر معه، و كانوا خلائق، و دخل قايتباى إلى السلطان بقاعة الدهيشة،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۸۰

فقام إليه السلطان و عانقه و اعتذر إليه؛ و أمر فى الحال بإحضار خچداشيته الذين أرسلهم إلى سجن الإسكندرية، و طلع النهار فخرج السلطان من القاعة إلى مقعد البحرة بالحوش السلطانى، و فعل ما أرضى به الظاهرية.

قلت: كان فى تدبير الملك الظاهر فى إحضار الظاهرية على الوجه المحكى و هم بالسلاح و الرجال، زوال ملكه لو قدر لغيره، فإنه لما أرسل إلى الأمير قايتباى، و جاء الأمير قايتباى و معه تلك الخلائق و عليهم السلاح، و ليس عند السلطان سوى الأمراء الذين كانوا بالحوش، و ليس عند الأمراء أحد من مماليكهم و لا عليهم آلة الحرب، و لا عند السلطان أيضا بالقاعة من مماليكه إلا جماعة قليلة جدا، و جميع من كان عند السلطان بأسرهم لا يقدرون على دفع بعض من كان مع الأمير قايتباى، بل لو أراد قايتباى المذكور الوثوب على الأمر و الفتك بالسلطان لأمكنه ذلك، و لم أدر ما طرق السلطان من الأمر العظيم حتى فعل ذلك، و كان يمكنه أن يفعل ما شاء و لو كان ما طرقه أهم من ذلك و أعظم، و ما عسى أن تصل يدهم من الفعل به من شهامة السلطنة و عز الملك و عنده أمراؤه و أعيان مملكته، و لم يملك أحد منه الزردخاناه و لا بابا من أبواب القلعة، و باب السلسلة و الإسطبل السلطانى بيده، و المماليك السلطانية ملء الديار المصرية من سائر الطوائف، و لكن ليقضى اللّه أمرا كان مفعولا.

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۶۸]

ثم أرسل السلطان فى الحال بالإفراج عن الأمير تمربغا الظاهرى، و عن خچداشيته الذين أمسكوا معه، و مجيئهم إلى الديار المصرية بعزّ و إكرام، فأفرج عنهم و حضروا إلى الديار المصرية فى يوم الاثنين خامس المحرم من سنة ثمان و ستين و ثمانمائة، و باتوا تلك الليلة فى بيت يشبك الدّوادار، و طلعوا إلى القلعة من الغد و قبّلوا الأرض، فخلع السلطان على كل من تمربغا و أزبك كاملية بمقلب سمّور، و رسم لهم باستقرارهم على إقطاعاتهم و وظائفهم؛ لأن السلطان ما كان أخرج عن أحد منهم إقطاعه و لا وظيفته فإن غضبه

عليهم كان يوما واحدا، و كذلك كان سجنهم بالإسكندرية.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۸۱

و فى هذا اليوم استقرّ يونس بن عمر بن جربغا العمرى دوادار الطواشى فيروز النّوروزى وزيرا، و كانت خلعته أطلسين بخلاف خلعة الوزر؛ لكونه يتزيا بزى الجندى.

و فى يوم الخميس ثامن المحرم سنة ثمان و ستين أعيد قاضى القضاة محب الدين بن الشّحنة إلى قضاء الحنفية بالديار المصرية، بعد موت بدر الدين حسن بن الصواف.

و فى يوم الاثنين ثانى عشره نودى بشوارع القاهرة: أن أحدا من الأعيان لا يستخدم ذميّا فى ديوانه- أعنى من الكتبة و غيرهم- قلت: ما أحسن هذا لو دام أو استمرّ، فمنعت هذه المناداة أهل الذمّة قاطبة من التصرّف و المباشرة بقلم الديونة بوجه من الوجوه بأعمال مصر، و كتب بذلك إلى سائر الأقطار، ثم عقد السلطان بالصالحية [ببين القصرين] عقد مجلس بالقضاة الأربعة، و حضره الدوادار الكبير، و جماعة من الأعيان بسبب هذا المعنى، و قرئت العهود المكتتبة قديما على أهل الذّمة، فوجدوا فى بعضها أن أحدا من أهل الذمة لا يباشر بقلم الديونة عند أحد من الأعيان، و لا فى عمل من الأعمال، و أشياء من هذه المقولة، إلى أن قال فيها: و لا يلف على رأسه أكثر من عشرة أذرع، و أن نساءهم يتميزن من نساء المسلمين بالأزرق و الأصفر على رءوسهن فى مشيهن بالأسواق، و كذلك بشىء فى الحمامات، فحكم قاضى القضاة علم الدين صالح البلقينى الشافعى بإلزام أهل الذمة بذلك جميعه، ما عدا الصرف و الطبّ بشروطه، و صمم السلطان على هذا الأمر، و فرح المسلمون بذلك قاطبة، فأسلم بسبب ذلك جماعة من أهل الذمة من المباشرين، و عظم ذلك على أقباط مصر، و دام ذلك نحو السنة، و عاد كلّ شىء على حاله أوّلا، و بلغ السلطان ذلك فلم يتكلم بكلمة واحدة، و لا حول و لا قوّة إلا بالله العلى العظيم، و أين هذا من همّة الملك المظفر بيبرس الجاشنكير- رحمه اللّه- لما قام فى بطلان عيد شبرا، و لبس النصارى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۸۲

الأزرق و اليهود الأصفر، فلله درّه ما كان أعلى همته، و أغزر دينه- رحمه اللّه تعالى و رضى عنه.

و فى يوم السبت رابع عشرين المحرم نفى السلطان مملوكه أزبك، الذى كان من جملة مسفّرى الأمراء المتوجهين إلى الإسكندرية، و كان نفيه لأمر يعلمه السلطان.

و فيه طلب السلطان جماعة من أمراء الألوف إلى داخل قاعة الدهيشة، و حلّفهم على طاعته بأيمان مغلظة.

و فى يوم السبت ثانى صفر استقرّ أبو بكر بن صالح نائب ألبيرة فى حجوبية حجّاب حلب، بعد استقرار تغرى بردى بن يونس فى نيابة قلعة حلب، و استقرّ كمشبغا السيفى نخشباى نائب قلعة حلب فى نيابة ألبيرة.

و فى يوم الاثنين رابع صفر رسم السلطان أن يفرج عن الأمير سودون الشمسى المعروف بالبرقى من سجن الإسكندرية، و حضوره إلى القاهرة، بعد أن أنعم السلطان عليه بإمرة مائة و تقدمة ألف بدمشق.

ثم فى يوم السبت أمسك السلطان برسباى الخاصكى أحد المماليك الذين أخذهم من تركة الملك الأشرف إينال، و هو أحد من تولّى قتل جانبك الدّوادار، ثم ممن أراد قتل السلطان بعد ذلك فى تلك الليلة المقدم ذكرها، و ضربه بين يديه ضربا مبرحا، ثم أمر بتوسيطه، فوسّط بين يديه بالحوش، و كان السلطان وسّط قبله آخر من مماليكه يسمى قانم.

ثم فى يوم الاثنين حادى عشره أعيد الصاحب مجد الدين بن البقرى إلى الوزر بعد تسحّب يونس بن جربغا.

و فى يوم الخميس استقرّ شرامرد العثمانى المؤيّدى أحد أمراء العشرات بالديار المصرية دوادار السلطان بدمشق، و أنعم عليه بإمرة طبلخاناه عوضا عن أزدمر الإبراهيمى بحكم القبض عليه.

و فى يوم الثلاثاء ثالث شهر ربيع الأول أشيع بمجىء الغزاة من قبرس إلى سواحل

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۸۳

البلاد الشامیة و غیرها بغیر إذن السلطان، فغضب السلطان من ذلک غضبا شدیدا، و لم یسعه إلا السکات.

و فی یوم الأحد ثامنه عمل السلطان المولد النبوی علی العادة، و عمل من الغد مولدا آخر لزوجته.

و فی یوم الاثنین سادس عشره خلع السلطان علی الشهابی أحمد بن عبد الرحیم ابن العینی ابن بنت زوجة السلطان باستقراره أمیر حاج المحمل، بسفارة حج جدته زوجة السلطان فی هذه السنة.

و فیه استقر الصاحب مجد الدین بن البقری أستادارا بعد اختفاء الأمیر زین الدین، و طلب السلطان المعلم محمدا البباوی اللّحام الذی کان استقرّ ناظر الدولة، و قرّره وزیرا بالدّیار المصریة، و لبس خلعة الوزر فی یوم الثلاثاء سابع عشره.

فیا نفس جدّی إنّ دهرک هازل

و قد ذکرنا أصل هذا البباوی، و سبب استقراره فی «الحوادث».

ثم فی یوم الجمعة سابع عشرینه وصلت الغزاة من سواحل متعددة، و خلع السلطان علی الأمیر بردبک، و علی الأمیر جانبک قلقسیز، و أنعم علی کل واحد منهما بفرس بسرج ذهب و کنبوش زرکش، و خلع علی جمیع من کان معهما من الأمراء، فأقام الأمیر بردبک إلی یوم الاثنین سادس جمادی الأولی، و خلع علیه باستقراره فی نیابة حلب، بعد عزل جانبک التاجی المؤیّدی، و مجیئه إلی القاهرة علی إقطاع بردبک.

و فی یوم الخمیس تاسعه استقرّ الأمیر أزبک من ططخ الظاهری حاجب الحجاب عوضا عن بردبک المذکور.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۸۴

و فی یوم سلخه ورد الخبر بموت الأمیر تنم نائب الشام، و أحضر سیفه قانصوه الجلبّانی الحاجب الثانی بدمشق، فرسم السلطان للأمیر جانبک التاجی المعزول عن نیابة حلب باستقراره فی نیابة دمشق، عوضا عن تنم، و تعیّن قانی بای الحسنی المؤیّدی مسفّره، و أنعم السلطان بإقطاع بردبک- الذی کان عیّن لجانبک التاجی - علی الأمیر یشبک الدّوادار، و أنعم بإقطاع یشبک علی مغلبای طاز المؤیدی، و کلاهما تقدمة ألف، لکن التفاوت فی کثرة المتحصل، و أنعم بإقطاع مغلبای طاز علی الأمیر قایتبای شاد الشرابخاناه زیادة علی إقطاعه، لیکون قایتبای أیضا من جملة مقدمی الألوف، فزیدت المقدمون تقدمة أخری، و استقرّ نانق الظاهری الأمیر آخور الثانی شاد الشرابخاناه عوضا عن قایتبای، و استقرّ جانبک من ططخ الفقیه أمیر آخور ثانیا عوضا عن نانق.

و فی یوم الثلاثاء ثالث عشر جمادی الآخرة عیّن السلطان إلی البحیرة تجریدة علیها الأمیر أزبک حاجب الحجّاب، و صحبته من أمراء الطبلخانات جانبک الإسماعیلی کوهیة الدوادار الثانی، و کسبای الشّشمانی الناصری ثم المؤیدی، و من العشرات أرغون شاه أستادار الصحبة، و قانم نعجة، و جانم أمیر شکار، و تنبک الأشقر، و الجمیع أشرفیة، و تغری بردی الطیّاری، و قانصوه، و قانی بای الساقی، و هما ظاهریان، و أربعمائة مملوک من الممالیک السلطانیة.

و فی یوم الأحد ثامن عشره رکب السلطان و نزل إلی بیت الأمیر بردبک نائب حلب، ثم خرج من عند بردبک و دخل إلی برقوق الناصری فلم یجده.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۸۵

و فی یوم الاثنین تاسع عشره وصل سیف الأمیر جانبک التاجی المعزول عن نیابة حلب و المتولی نیابة الشام بحلب قبل أن یخرج منها، فلما کان یوم الثلاثاء العشرون من جمادی الآخرة المذکورة رسم السلطان لبرسبای البجاسی نائب طرابلس بنیابة دمشق عوضا عن جانبک التاجی، و صار قانی بای الحسنی مسفّره أیضا، فإنه وافی قانی بای الحسنی موت جانبک و هو بقطیا متوجها إلیه بتقلید نیابة الشام و تشریفه، فقرره السلطان مسفّر برسبای هذا، کما کان مسفّر جانبک، ثم رسم السلطان بانتقال جانبک الناصری نائب حماة إلی نیابة طرابلس عوضا عن برسبای البجاسی، و استقرّ مسفّره الأمیر لاجین الظاهری، و استقرّ بلاط نائب صفد فی نیابة حماة و مسفّره

الأمير طوخ الأبوبكرى المؤيّدى الزردكاش، و استقر يشبك أوش قلق المؤيّدى أحد أمراء الألوف بدمشق عوضا عن بلاط فى نيابة صفد، و استقر الأمير خشكلدى البيسقى مسفّر يشبك هذا، و أنعم بإقطاع هذا على خچداشه شرامرد العثمانى المؤيّدى دوادار السلطان بدمشق.

و فى يوم الجمعة ثالث عشرينه وصل قاصد صاحب قبرس جاكم، و أخبر أنه أخذ مدينة الماغوصة و قلعتها من يد الفرنج، و أنّه سلّمها للأمير جانبك الأبلق المقيم بجزيرة قبرس بمن بقى معه من المماليك السلطانية، فأساء جانبك المذكور السيرة فى أهل الماغوصة، و مدّ يده لأخذ الصبيان الحسان من آبائهم أعيان أهل الماغوصة فشقّ ذلك عليهم، و قالوا: نحن سلمناكم البلد بالأمان، و قد حلفتم لنا أنكم لا تفعلوا معنا بعد أخذكم المدينة إلا كل خير، و أنتم مسلمون، فما هذا الحال؟ فلم يلتفت جانبك الأبلق إلى كلامهم، و استمرّ على ما هو عليه، فأرسل أهل الماغوصة إلى جاكم عرفوه الخبر، فأرسل جاكم إلى جانبك ينهاه عن هذه الفعلة، فضرب جانبك القاصد المذكور، بعد أن أوسعه سبّا،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۸۶

فأرسل إليه قاصدا آخر، فضربه جانبك بالنشّاب، فركب جاكم إليه من الأفقسية مدينة قبرس، و جاء إليه و كلّمه، فلم يلتفت إليه، و خشّن عليه الكلام، فكلمه جاكم ثانيا، فضربه بشىء كان فى يده، فسقط جاكم مغشيا عليه، فلما رأت الفرنج ذلك مدت أيديها إلى جانبك و من معه من المسلمين بالسيوف، فقتل جانبك و قتل معه خمسة و عشرون مملوكا من المماليك السلطانية، و هذا معنى ما حكاه يعقوب الفرنجى قاصد جاكم الذى حضر إلى القاهرة رسولا من عند جاكم- و اللّه أعلم- هذا مع اختلاف الروايات فى قتل جانبك و رفقته، و استولى جاكم على الماغوصة على أنه نائب بها عن السلطان، و على كل حال صارت الماغوصة بيد جاكم صاحب قبرس.

ثم عيّن السلطان سودون المنصورى الساقى إلى رواح قبرس مع يعقوب المذكور، فسافر سودون المذكور، و وقع له أمور ذكرناها فى موضعها من تاريخنا «الحوادث»

ثم فى يوم السبت ثامن شهر رجب أعيد قاضى القضاة شرف الدين يحيى المناوى إلى منصب قضاء الشافعية بعد موت قاضى القضاة علم الدين صالح البلقينى.

ثم فى يوم الاثنين عاشر رجب أدير المحمل، فلعبت الرمّاحة على العادة.

و فى يوم السبت ثانى عشرينه عيّن السلطان تجريدة إلى البحيرة يردف بها الأمير قرقماس لأمر وقع له مع العرب، قتل فيه جماعة من المماليك السلطانية.

ثم فى يوم الأحد سابع شعبان وصل الأمير قرقماس بمن معه من البحيرة.

و فى هذا الشهر ورد الخبر بأخذ قلعة كركر، و قتل نائبها جكم بحيلة من الأكراد.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۸۷

و فى يوم الاثنين سادس شوال استقرّ الأمير بردبك هجين أمير جاندار، و كان لهذه الوظيفة مدة طويلة لا يليها إلا الأجناد، و كانت فى القديم أجل الوظائف.

ثم فى يوم الجمعة تاسع عشرين ذى القعدة الموافق لعاشر مسرى أو فى النيل، و نزل السلطان بنفسه، و خلّق المقياس و فتح خليج السد، ثم ركب و عاد إلى القلعة و بين يديه أربعة من أمراء الألوف، و عليهم الخلع التى خلعها السلطان عليهم، و قيد لكل واحد فرسا بسرج ذهب و كنبوش زركش، و هم: الأتابك جرباش، و قرقماس أمير سلاح، و قانم أمير مجلس، و تمربغا رأس نوبة النّوب، و باقى الأمراء عليهم الخلع لا غير، و تعجب الناس لنزول السلطان لكسر البحر، لبعد عهد الناس من نزول السلاطين إلى هذا المعنى، لأنه من سنة ثلاث و ثلاثين و ثمانمائة ما نزل سلطان، و كان الذى نزل فى سنة ثلاث و ثلاثين الملك الأشرف برسباى- رحمه اللّه.

و فرغت هذه السنة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۸۸

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۶۹]

و استهلت سنة تسع و ستين و ثمانمائة ففی يوم السبت العشرين من المحرم أنعم السلطان على الأمير قانصوه المحمدى الساقى الأشرفی أحد أمراء العشرات بإمرة مائة و تقدمة ألف بدمشق، و أنعم ببعض إقطاع قانصوه هذا على الأمير قانصوه اليحياوى الظاهرى.

و فی يوم الثلاثاء ثالث عشرينه وصل الشرفی يحيى بن يشبک الفقيه الدّوادار، و هو أمير الركب الأول إلى القاهرة، و أصبح من الغد وصل الشهابى أحمد بن العينى أمير حاج المحمل بالمحمل، و صحبته جدته خوند زوجة السلطان.

و فی يوم الاثنين تاسع عشرينه استقرّ شرامرد العثمانى حاجب حجاب دمشق.

و فی يوم الاثنين سابع عشرين صفر استقرّ الأمير منصور أستادارا عوضا عن الأمير زين الدين.

و فی يوم الاثنين رابع عشرين شهر ربيع الآخر استقر ألماس الأشرفی دوادار السلطان بحلب فی نيابة ألبيرة، بعد موت قانى باى طاز البكتمرى، و استقرّ على بن الشيبانى عوضه فی دوادارية حلب.

و فی ثامن جمادى الأولى ورد الخبر بتسليم كركر إلى أعوان حسن بک ابن قرايلک.

و فی يوم الاثنين ثالث عشر شهر رجب أدير المحمل على العادة، و قاست الناس من الأجلاب شدائد.

ثم فی يوم الخميس سلخ رجب قدم الخبر بموت الأمير جانبک الناصرى نائب طرابلس.

و فی يوم الخميس سابع شعبان استقر سودون الأفرم الخازندار مسفّر الناصرى محمد ابن المبارک من نيابة حماة إلى نيابة طرابلس، و استقرّ الأمير كسباى الشّشمانى

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۸۹

المؤيّدى مسفّر يشبک البجاسى أحد أمراء حلب باستقراره فی نيابة حماة، و كلاهما صولح و لم يسافر.

و فی يوم السبت ثالث عشرينه نفى السلطان يشبک الساقى أحد مماليكه الأجلاب إلى الشام.

ثم فی يوم الثلاثاء ثامن عشر رمضان رسم السلطان بنفى الأمير الكبير جرباش المحمدى الناصرى المعروف بكرد إلى ثغر دمياط بطّالا، فخرج من الغد.

و فی يوم الخميس العشرين من رمضان استقرّ الأمير قانم من صفر خجا المؤيّدى المعروف بالتاجر أمير مجلس أتابک العساكر عوضا عن جرباش المذكور.

ثم فی يوم الاثنين رابع عشرينه استقر الأمير تمربغا رأس نوبة النّوب أمير مجلس بعد الأتابک قانم، و استقرّ الأمير أزبک حاجب الحجاب عوضه رأس نوبة النّوب، و استقرّ الأمير جانبک قلقسيز الأشرفی حاجب الحجاب عوضا عن أزبک، و أنعم السلطان بإقطاع الأتابک قانم على الشهابى أحمد بن العينى.

قلت: هنا نكتة طريفة، و هی أن يوم رابع عشرين من الأيام السبعة المكروهة عند الناس، و هؤلاء الأربعة الذين تولوا فيه لم يلقوا إلا كل خير، فإن الأمير تمربغا لا يزال أمره ينمو و يزداد فی هذه الوظيفة إلى أن صار سلطانا، و أزبک إلى أن صار أتابک العساكر، و جانبک قلقسيز إلى أن صار أيضا أتابک العساكر، و ابن العينى إلى إمرة مجلس، و العجب أنهم من يوم تاريخه صاروا فی خير و سلامة إلى أن كان من أمرهم ما كان، فأی شؤم حصل بولايتهم فی هذا اليوم؟! و الحق هو ما أقوله: إن كل شیء لم يأت به كتاب اللّه و لا سنة رسول اللّه فهو مردود على قائله، و السلام.

و دام جرباش كرد هذا بدمياط نحو سبع سنين.

ثم فی یوم الثلاثاء ثالث عشر ذی الحجة أو فی النیل، و نزل السلطان خلّق المقیاس، و فتح السّدّ کما السنة الخالیة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۹۰

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۷۰]

و استهلت سنة سبعین و ثمانمائة ففی أولها رسم السلطان الظاهر خشقدم بتحویل السنة الخراجیة علی العادة.

و فی یوم السبت أول المحرم وصل نجّاب، و هو مبشر الحاج، و أخبر بالأمن و السلامة.

و فی یوم الأربعاء ثانی عشره وصلت الأمراء الخمسة بمن معهم من أمراء الطبلخانات و العشرات و الممالیک السلطانیة من البحیرة.

و فیه استقرّ القاضی علاء الدین بن الصابونی قاضی قضاة دمشق الشافعیة، بعد عزل القاضی جمال الدین الباعونی، و أضیف إلیه نظر جیش دمشق، عوضا عن البدری حسن ابن المزلق، و باشر علاء الدین المذکور قضاء دمشق سنین کثیرة، و هو مقیم بدیار مصر، و نوّابه تحکم بدمشق، و هذا شیء لم یقع لغیره فی دولة من الدول.

و فی یوم السبت ثانی عشرینه وصل الأمیر خشکلدی القوامی أمیر الرکب الأول، و وصل من الغد أمیر حاج المحمل جانبک قلقسیز بالمحمل، و کان وصل قبلهما الأمیر قانی بک المحمودی المؤیّدی أحد مقدّمی الألوف بالدیار و کان حج فی هذه السنة.

و فی هذه الأیام زاد فساد الممالیک الأجلاب، و عظم شرهم و ظلمهم.

فلما کان یوم السبت ثالث عشر صفر نودی بالقاهرة بأن أعیان التجار و السوقة تطلع من الغد إلی القلعة، و طلعوا و قد ظن کل أحد منهم أن السلطان ینظر فی أمرهم مع الممالیک الأجلاب، فعند طلوعهم رکب السلطان و نزل إلی جهة القرافة و غیرها، ثم طلع إلی القلعة، و جلس علی الدکة، و حضر التجار المطلوبون و غیرهم، فلما تمثلوا بین یدیه کلمهم السلطان بکلام معناه: أنهم لا یشترون شیئا من القماش بالجریدة، و أن یخبروا

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۹۱

المشتری بالحق، و أشیاء من هذه المقولة، و لم یبد فی أمر الأجلاب بشیء، فراحوا مثل ما جاءوا.

و فی یوم الخمیس ثالث ربیع الأول استقر الأمیر خیربک الخازندار الظاهری أمیر حاج المحمل، و استقر الأمیر کسبای الشّشمانی المؤیّدی أمیر الرکب الأوّل.

و فی یوم الاثنین سابع شهر ربیع الأول استقر الأمیر خشکلدی البیسقی محتسب القاهرة بعد عزل سودون البردبکی المؤیّدی الفقیه.

و فی هذه الأیام عزل یشبک آس قلق المؤیّدی عن نیابة صفد بجکم الأشرفی خال الملک العزیز یوسف نقلا من نیابة غزّة، و توجه یشبک المذکور علی إمرة مائة و تقدمة ألف بدمشق، و استقرّ فی نیابة غزّة الأمیر إینال الأشقر الظاهری أتابک حلب، و استقر فی أتابکیة حلب بعده ألماس الأشرفی نائب ألبیرة، و استقر فی نیابة ألبیرة شادبک الصغیر الجلبّانی، و هو رجل من الأحداث قدّمه المال.

و فی یوم الجمعة حادی عشره ثارت الممالیک الجلبان علی السلطان، و أفحشوا فی طلب تتریات صوف المعدة للأسفار و الصید، و لهم حکایة طویلة ذکرناها فی «الحوادث»، و کان السلطان عزم علی التوجّه إلی الصید، فما وسعه إلا أنه أبطل الرّواح إلی الصید.

و فی یوم الأحد ثالث عشره عمل السلطان المولد النبوی بالحوش علی العادة.

و فی یوم الخمیس سابع عشره استقر الأمیر برسبای قرا الظاهری مسفّر جکم نائب صفد، و استقرّ کسبای الظاهری خشقدم أحد الدواداریة الصغار مسفّر نائب غزّة.

و فی یوم الاثنین ثامن عشرینه أمسک السلطان منصورا الأستادار و حبسه بقلعة الجبل، و أمسک عن سداد لا عن عجز، و أعید الأمیر زین الدین إلی الأستاداریة،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۹۲

و دام منصور فى الحبس و العقوبة إلى أن آل أمره إلى ضرب الرقبة بالشّرع على ما زعموا.

و فى يوم السبت وصل سيف ملك أصلان بن سليمان بن ناصر الدين بك بن دلغادر نائب أبلستين، و ذكروا أنه قتله فداوىّ، و لا يلزمنى ذكر اسم من أرسل إليه الفداوى.

و فى يوم الخميس تاسع عشرينه عزل السلطان الأمير جوهرا النّوروزىّ مقدّم المماليك السلطانيّة بنائبه الأمير مثقال الظاهرى الحبشى، و استقرّ عوضه فى نيابة المقدم خادم أسود دكرورى من أصاغر الخدّام لا أعرفه قبل ذلك، يسمى خالصا.

و فى يوم السبت ثامن جمادى الآخرة عقد السلطان عقده على جاريته سورباى الچاركسية أم ابنته، و جعلها خوند الكبرى صاحبة القاعة، و ذلك بعد موت زوجته خوند شكرباى الأحمدية الناصرية فرج بن برقوق، و كان العاقد القاضى الحنفى محب الدين ابن الشّحنة.

و فى يوم الخميس ثالث عشره ولى القاضى صلاح الدين المكينى قضاء الشافعية بالديار المصرية بعد عزل قاضى القضاة شرف الدين يحيى المناوى.

و فيه أيضا استقرّ القاضى برهان الدين إبراهيم بن الدّيرى قاضى قضاة الحنفية أيضا بالديار المصرية بعد عزل قاضى القضاة محب الدين بن الشّحنة الحنفى.

و فيه استقر الأمير أرغون شاه الأشرفى أستادار الصحبة أمير حاج الرّكب الأوّل بعد موت الأمير كسباى المؤيّدى- رحمه اللّه تعالى.

و فى يوم الخميس ثالث عشره استقرّ قاسم صيرفى اللحم المعروف بجغيتة وزيرا بالدّيار المصريّة، و قلع لبس العوام و السّوقة، و تزيّا بزى الكتاب، و ركب فرسا.

و استقرّ فى نظر الدّولة شخص آخر من مقولة قاسم جغيتة، اسمه عبد القادر، لم أعرفهما قبل تاريخه، و كان لبسهما لهاتين الوظيفتين عارا كبيرا على ملوك مصر إلى يوم القيامة، ولى على من ولّاهما حجج لا يقوم أحد بجوابها، و ليس لأحد فى ولايتهما عذر مقبول، و آفة هذا كلّه عدم المعرفة و قلّة التدبير، و إلا ما ضيّق اللّه على ملك

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۹۳

مصر حتى يكون له وزير مثل هذا، و مثل أستاذه محمد البباوى المقدّم ذكره، و قد تكلمنا فى ولاية البباوى للوزر كلاما طويلا فيه كفاية عن الإعادة هنا، و ذلك فى تاريخنا «حوادث الدهور»، و قد أنشدنى بعض رؤساء ديار مصر فى يوم ولاية قاسم للوزر أبيات الطّغرائى من قصيدته لامية العجم- رحمه اللّه تعالى: [البسيط].

ما كنت أوثر أن يمتدّ بى زمنى حتى أرى دولة الأوغاد و السّفل

هذا جزاء امرئ أقرانه درجوا من قبله، فتمنى فسحة الأجل

و فى هذه الأيّام عيّن السلطان تجريدة إلى البلاد الحلبية نجدة لشاه بضع بن دلغادر نائب أبلستين، ليعينوه على قتال أخيه شاه سوار بن دلغادر، و فى التجريدة سبعة أمراء من أمراء الألوف، و هم: الأتابك قانم، و تمربغا أمير مجلس، و يلباى الأمير آخور الكبير، و قانى بك المحمودى المؤيّدى، و بردبك هجين أمير جاندار، و قايتباى المحمودى الظاهرى، و جماعة كبيرة أخر من أمراء الطبلخانات و العشرات يأتى ذكر أسمائهم عند سفرهم إن تم ذلك، ثم بطلت التجريدة بعد أيام.

و فى يوم الثلاثاء أول شعبان استقرّ الكاتب شرف الدين بن كاتب غريب أستادارا عوضا عن الأمير زين الدين يحيى الأستادار.

و فى يوم الجمعة أول شوال خطب فيه خطبتان بالقاهرة و غيرها، و تشاءم الناس بذلك على الملك فلم يقع إلا خير.

و فى يوم السبت سادس عشر شوال استقرّ الأمير جانبك الإسماعيلى المعروف بكوهيّة الدوادار الثانى أمير مائة و مقدّم ألف، عوضا عن الأمير جانبك الناصرى المعروف بالمرتد، بحكم كبر سنه و عجزه عن الحركة، و خلع السلطان على مملوكه الأمير خيربك الخازندار باستقراره دوادارا ثانيا، عوضا عن جانبك كوهيّة، و خيربك هذا هو أمير حاج المحمل فى هذه السنة، و سافر خيربك

المذکور بالمحمل فی یوم الاثنین ثامن عشره.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۹۴

و فی یوم الأربعاء العشرین منه ضربت رقبة الأمیر منصور الأستادار بسیف الشرع، و کانت هذه الفعلة من غلطات الملک الظاهر خشقدم؛ فإنه کان فی بقائه له خاصة منفعة کبیرة من وجوه عدیدة، و لعله ندم علی قتله بعد ذلک.

ثم فی یوم الاثنین خامس عشرینه استقر الأمیر رستم بن ناصر الدین بک بن دلغادر فی نیابة الأبلستین، عوضا عن ابن أخیه شاه بضع، بحکم ضعف شاه بضع عن دفع أخیه سوار، و أظن أن رستم هذا أضعف من شاه بضع فی دفع شاه سوار.

و فی یوم الخمیس العشرین من ذی القعدة استقرّ الأمیر قانی بای الحسنی المؤیدی أحد أمراء الطبلخانات فی نیابة طرابلس دفعة واحدة، بعد عزل الناصری محمد بن المبارک، و کانت ولایة قانی بای هذا لطرابلس أیضا من الأمور المنکرة الخارجة عن العادة، لأننا لا نعلم أن أحدا ولی نیابة طرابلس غیر مقدّم ألف بالدیار المصریة، بل غالب من یلی نیابة طرابلس ینتقل إلیها من وظیفة عظیمة جلیلة، إما أمیر مجلس، أو أمیر آخور کبیر أو رأس نوبة النّوب، أو ینتقل إلیها من نیابة حماة، بل إن الأتابک طربای الظاهری ولیها بعد الأتابکیة، و مع هذا کله لیته أهل لذلک، بل هو من کبار المهملین- انتهی.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۹۵

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۷۱]

و استهلت سنة إحدی و سبعین و ثمانمائة بیوم الأربعاء و یوافقه عشرون مسری.

فیه أوفی النیل، و فتح الخلیج، و خلّق المقیاس الأتابک قانم بإذن السلطان.

و فی یوم الاثنین سادسه أعید قاضی القضاة محب الدین بن الشّحنة إلی قضاء الحنفیة بعد عزل قاضی القضاة برهان الدین إبراهیم بن الدّیری.

و فی یوم السبت حادی عشره استقرّ القاضی أبو السعادات البلقینی قاضی قضاة الشافعیة بالدیار المصریة، بعد عزل صهره صلاح الدین المکینی.

و فی یوم الخمیس سابع صفر استقرّ القاضی کمال الدین محمد ابن الصاحب جمال الدین یوسف بن کاتب جکم ناظر الجیوش المنصورة، عوضا عن القاضی تاج الدین عبد اللّه ابن المقسی، و أبقی علی ابن المقسی وظیفة نظر الخاص.

و فیه استقرّ الأمیر زین الدین یحیی أستادارا علی عادته.

و فی یوم الاثنین ثامن عشر صفر استقر الأمیر یلبای الإینالی المؤیّدی الأمیر آخور الکبیر أتابک العساکر بالدیار المصریة، بعد موت الأتابک قانم المؤیدی الآتی ذکره فی الوفیات- إن شاء اللّه تعالی، و أنعم السلطان بإقطاع یلبای علی الأمیر بردبک هجین أمیر جاندار، و أنعم بإقطاع بردبک هجین علی الأمیر نانق شاد الشراب خاناه.

و فی یوم الخمیس حادی عشرین صفر استقر الشهابی أحمد بن العینی أمیر آخور کبیرا بعد الأتابک یلبای.

و فیه استقر الأمیر خشکلدی البیسقی أحد أمراء العشرات شاد الشراب خاناه بعد نانق المحمدی المقدّم ذکره، قلت: و علی کل حال خشکلدی ألیق لهذه الوظیفة من نانق.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۹۶

و فی یوم الأحد رابع عشرینه ورد الخبر بموت الأمیر برسبای البجاسی نائب الشام الآتی ذکره فی الوفیات.

و فی یوم الخمیس ثامن عشرینه رسم السلطان بانتقال الأمیر بردبک الظاهری نائب حلب من نیابة حلب إلی نیابة الشّام، عوضا عن برسبای البجاسی، و استقرّ نانق الظاهری أحد المقدمین مسفّره.

و استقرّ فی نیابة حلب عوضا عن بردبک یشبک البجاسی نائب حماة، و استقرّ مسفّره الشرفی یحیی بن یشبک الفقیه الدّوادار الکبیر.

و استقرّ تنم الحسینی الأشرفی ثانی رأس نوبة فی نیابة حماة، عوضا عن یشبک البجاسی، و استقرّ مسفّره تمر من محمود شاه الظاهری والی القاهرة.

و استقر الأمیر تنبک المعلّم الأشرفی عوضه رأس نوبة ثانیا.

و استقرّ الأمیر مغلبای مملوک السلطان قدیما فی حسبة القاهرة، عوضا عن خشکلدی.

و فی یوم الأحد ثامن شهر ربیع الأول عمل السلطان المولد النبوی علی العادة، و قاسی من حضر المولد من الأجلاب شدائد.

و فی یوم الاثنین سادس عشر ربیع الأول استقر نانق المحمدی المقدّم ذکره أمیر حاج المحمل، و استقر الأمیر سیبای الظاهری الأمیر آخور الثالث أمیر الرکب الأوّل، و استقرّ الأمیر دمرداش السّیفی تغری بردی البکلمشی نائب قلعة حلب بعد عزل الشّیبانی.

و فی یوم السبت ثالث عشرینه ابتدأ السلطان بالحکم بین الناس بالإسطبل السلطانی فی یومی السبت و الثلاثاء، علی قاعدة ملوک السلف، و لم یقع له ذلک من یوم تسلطن، لأن سلاطین زماننا هذا صاروا یجلسون بالدّکة من الحوش السلطانی بقلعة الجبل، و یتعاطون الأحکام بین الناس، فلم یحتج الملک مع جلوسه بالحوش إلی النزول بالإسطبل

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۹۷

للحکم، و کانت قاعدة ملوک السلف ممن أدرکنا و سمعنا الاحتجاب عن الناس بالکلیة، و لم یقدر أحد من الممالیک السلطانیة أن یدخل الحوش- بحاجة أو غیر حاجة- إلا بقماش الموکب، و لا یجتمع أحد بالسلطان بالدهیشة و الحوش إلا الخصیصین به لا غیر، و من کان له مع السلطان حاجة یجتمع به فی القصر السلطانی لیالی المواکب و أیام المواکب، فبهذا المقتضی کان یحتاج السلطان إلی النزول إلی الإسطبل السلطانی للحکم بین الناس، و إنصاف المظلوم من الظالم، و یکون ذلک فی الغالب أیّام الشتاء، و تکون مدة الحکم فی یومی السبت و الثلاثاء نحو شهرین، و قد فهمت الآن معنی قولنا: «و لم یحکم السلطان بین الناس من یوم تسلطن»، أعنی بذلک نزوله إلی الإسطبل- انتهی.

ثم فی یوم الاثنین خامس عشر شهر ربیع الآخر نزل السلطان إلی رمایة البرکة لصید الکراکی و غیرها علی العادة، و هذا أیضا أول نزوله إلی الصید من یوم تسلطن و عاد من یومه، و شقّ القاهرة، ثم تکرر من السلطان نزوله إلی الصید فی هذه السنة غیر مرة.

و فی هذه الأیام کانت واقعة أصبای البواب مع القتیلین اللذین قتلهما، و قد حکینا واقعته فی «الحوادث».

و فی یوم الأربعاء خامس عشر جمادی الأولی ثارت الممالیک الأجلاب بالقلعة فی الأطباق، و منعوا الناس من الطلوع إلی الخدمة السلطانیة، و طلبوا زیادة جوامک و کسوة و علیق، و وقع أمور، ثم وقع الأمر علی شیء حکیناه بعد وهن فی المملکة.

و فی یوم الخمیس سادس عشره استقرّ القاضی ولی الدین الأسیوطی أحد نواب الحکم قاضی قضاة الشافعیة بالدیار المصریّة، بعد شغور القضاء عن أبی السعادات البلقینی أیاما کثیرة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۹۸

و فی یوم الثلاثاء سادس جمادی الآخرة استقر جانبک الظاهری أحد الدواداریة الصغار فی نیابة قلعة دمشق، بعد عزل الصارمی إبراهیم بن بیغوت.

و فی یوم الخمیس تاسع عشرین جمادی الآخرة خرج الحاج الرجبی من القاهرة و أمیره علّان الأشرفی، و العمدة فی الرکب المذکور علی القاضی زین الدین بن مزهر کاتب السر الشریف، لعظمة سار فیها، و تجمل زائد إلی الغایة، و فعل فی هذه السفرة أفعالا جمیلة، حکیت عنه و شکرت.

و فی یوم الاثنین حادی عشر رجب أدیر المحمل، و لعبت الرّماحة علی العادة.

و استهلّ شعبان، نذکر فیه نادرة، و هی أن أرباب التقویم کانوا اجتمعوا علی أن آخر مدّة الملک الظاهر خشقدم فی السلطنة تکون

إلی ثامن عشر شهر رجب من هذه السنة، فمضی رجب و لم یحصل للسلطان تکدیر و لا نکد مؤلم، و لا ضعف لزم منه الفراش، و لا نوع من الأنواع المشوشة، و استهل شعبان هذا و هو فی أحسن حال، و أخزی اللّه هؤلاء الکذبة الفسقة المدعین علم الغیب، تعالی اللّه أن یظهر علی غیبه إلا من أراد من أصفیائه و أولیائه.

ثم استهلّ شوال یوم الثلاثاء، ففیه أیضا نکتة نذکرها، و هی أنه کان فی العام الماضی أول شوال یوم الجمعة، فتشاءم الناس بذلک علی الملک من وقوع خطبتین فی نهار واحد، و لم یقع إلا الخیر و السلامة، فاعتمد علی أن هذا الکلام من الهذیان، و ما أعلم الذی قال ذلک، أوّلا- ما دلیله؟ مع أن الخطبة من أعظم السنن، و یحصل بها التذکیر و الخیر، و الأمر بالمعروف، و النهی عن المنکر، و الخشوع ورقة القلب، فعلی هذا کلما

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۹۹

تکررت فی الیوم تکرّر الخیر و البرکة و الأجر، و ما أظن قائل هذا- أولا- إلا رجلا منافقا یکره السّنة و الاقتداء بها- انتهی.

و فی یوم الاثنین سابع شوال استقرّ الأمیر شرف الدین موسی بن کاتب غریب أستادارا عوضا عن الأمیر زین الدین یحیی.

و فی یوم السبت تاسع عشره خرج أمیر حاج المحمل بالمحمل، و هو نانق الظاهری و سیبای أمیر الرکب الأول.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۰۰

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۷۲]

و استهلت سنة اثنتین و سبعین و ثمانمائة بیوم الأحد و یوافقه تاسع مسری.

ففی یوم السبت سابعه- الموافق لخامس عشر مسری- أو فی النیل، و نزل السلطان الملک الظاهر خشقدم، و عدّی النیل، و خلّق المقیاس، و عاد و فتح خلیج السّد علی العادة.

و فی یوم الخمیس ثانی عشره ورد الخبر من نائب حلب یشبک البجاسی أن شاه سوار نائب أبلستین خرج عن طاعة السلطان، و یرید المشی علی البلاد الحلبیة، فرسم السلطان فی الحال بخروج نائب طرابلس و نائب حماة إلی جهة البلاد الحلبیة لمعاونة نائب حلب إن حصل أمر، ثم عیّن السلطان تجریدة من مصر إلی جهات البلاد الحلبیة إن ألجأت الضرورة إلی سفرهم، و الذین عینهم فی هذه التجریدة من أمراء الألوف: الأتابک یلبای، و أمیر سلاح قرقماس، و أمیر مجلس تمربغا، و قانی بک المحمودی، و مغلبای طاز المؤیّدی، و ذکر أنه تعیّن عدة کبیرة من أمراء الطبلخانات و العشرات، و ألف مملوک من الممالیک السلطانیة، هذا و السلطان قد بدأ فیه التوعّک من یوم عاشوراء، و هذا المرض الذی مات فیه، ثم لهج السلطان بعزل یشبک البجاسی نائب حلب و تولیة الأمیر مغلبای طاز المؤیّدی المقدّم ذکره عوضه فی نیابة حلب.

ثم فی یوم الخمیس تاسع عشره ورد الخبر بأن إقامة الحاج التی جهّزت من القاهرة أخذت عن آخرها، أخذها مبارک شیخ بنی عقبة بمن کان معه من العرب، و أنه قتل جماعة ممن کان مع الإقامة المذکورة، منهم جارقطلو السّیفی دولات بای أحد أمراء آخوریة السلطان، فعظم ذلک علی السلطان- و زاد توعّکه- و علی الناس قاطبة، و ضر أخذ إقامة الحاج غایة الضرر، و أشرف غالبهم علی الموت.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۰۱

فلما کان یوم الجمعة العشرین من المحرم وصل الحاج الرجبی، و عظیم من کان فیه زین الدین بن مزهر کاتب السّرّ المقدم ذکره، و أمیر حاج الرکب الأول الأمیر سیبای إلی برکة الحاج معا، بعد أن قاست الحجاج أهوالا و شدائد من عدم المیرة و العلوفة و قلّة الظهر، و دخل نانق أمیر الحاج من الغد.

فلما کان یوم الاثنین ثالث عشرین المحرم عیّن السلطان الأمیر أزبک رأس نوبة النّوب الظاهری، و الأمیر جانبک حاجب الحجّاب

الأشرفی المعروف بقلقسیز، و صحبتهما أربعة من أمراء العشرات، و هم دولات بای الأبوبکری المؤیّدی، و قطلبای الأشرفی، و تنبک الأشرفی، و تغری بردی الطیّاری، و عدّة ممالیک من الممالیک السلطانیة، لقتال مبارک شیخ عرب بنی عقبة و من معه من الأعراب، و کتب السلطان أیضا لنائب الکرک الأمیر بلاط، و نائب غزّة الأمیر إینال الأشقر، بالمسیر إلی جهة الأمیر أزبک بعقبة أیلة، و مساعدته علی قتال مبارک المذکور، و خرج الأمیر أزبک بمن عیّن معه من القاهرة فی یوم الاثنین سابع صفر.

کل ذلک و السلطان متوعک بالإسهال، و هو لا ینقطع عن الخروج إلی الحوش، بل یتجلّد غایة التجلّد، حتی إنه عمل الموکب فی هذا الیوم بالقصر لأجل خروج الأمیر أزبک، و هذا آخر موکب عمله الملک الظاهر خشقدم بالقصر السلطانی.

فلما کان یوم الخمیس عاشر صفر أرجف بموته، و أشیع ذلک إشاعة خفیفة فی ألسنة العوام.

فلما کان یوم الجمعة حادی عشره خرج السلطان الملک الظاهر خشقدم إلی صلاة الجمعة من باب الحریم ماشیا علی قدمیه من غیر مساعدة، و علیه قماش الموکب الفوقانی، و السیف و الکلفتاة علی العادة، و صلی الجمعة و سنّتها قائما علی قدمیه، هذا و قد أخذ منه المرض الحدّ المؤلم، و هو یستعمل التجلّد و إظهار القوة، إلی أن فرغت الصلاة، و عاد إلی الحریم ماشیا أیضا، و لکن القاضی الشافعی أسرع فی الخطبة و الصلاة إلی الغایة حسبما کان أشار إلیه السلطان بذلک، بحیث إن الخطبة و الصلاة کانتا علی نحو ثلاث درج رمل و بعض دقائق.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۰۲

فلما عاد السلطان من الصلاة إلی الحریم سقط مغشیا علیه لشدة ما ناله من التعب و عظم التجلد، و هذه أیضا آخر جمعة صلاها، و لم یخرج بعدها من باب الحریم لا لصلاة و لا إلی غیرها، و صارت الخدمة بعد ذلک فی الحریم بقاعة البیسریة

ثم أصبح السلطان فی یوم السبت ثانی عشره رسم بالمناداة بشوارع القاهرة بأن أحدا لا یخرج بعد صلاة المغرب من بیته و لا یفتح سوقیّ دکانه، و هدّد من خالف ذلک، فلم یلتفت أحد إلی هذه المناداة، و علم أن المقصود من هذه المناداة عدم خروج الممالیک فی اللیل، و توجه بعضهم لبعض لإثارة فتنة.

و فی هذه الأیام ورد الخبر من دمشق بأن الأمیر بردبک نائب الشام خرج من دمشق بعساکرها فی آخر المحرم إلی جهة حلب لمعاونة نائب حلب علی قتال شاه سوار.

ثم فی یوم الاثنین رابع عشر صفر عمل السلطان الخدمة بقاعة البیسریّة من الحریم السلطانی، لضعفه عن الخروج إلی قاعة الدهیشة، و حضرت الأمراء المقدمون و غیرهم الخدمة السلطانیة بالبیسریة، و لکن بغیر قماش، و علّم السلطان علی عدة مناشیر و مراسیم دون العشرین علامة، و لکن ظهر علیه المرض، لکنه یتجلد و یقوم لمن دخل إلیه من القضاة و العلماء.

فلما کان یوم الجمعة ثامن عشره لم یشهد فیه صلاة الجمعة و صلّت الأمراء بجامع القلعة علی العادة، و بعد أن فرغت الصلاة دخلوا علیه و سلّموا علیه، و استوحشوا منه، و جلسوا عنده إلی أن أسقاهم مشروب السّکر، و انصرفوا.

ثم فی آخر یوم الاثنین حادی عشرینه وجد السلطان فی نفسه نشاطا، فقام و تمشّی

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۰۳

خطوات فتباشر الناس بعافیته، کل هذا و هو مستمرّ فی أول النهار و فی آخره یعلّم علی المناشیر و المراسیم، لکن بحسب الحال، تارة کثیرا، و تارة قلیلا.

فلما کان یوم الجمعة خامس عشرینه لم یحضر السلطان فیه الصلاة أیضا لثقله فی المرض، و دخلوا إلیه الأمراء بعض صلاة الجمعة، و جلسوا عنده، و فعل معهم کفعله فی الجمعة الماضیة.

و استهل شهر ربیع الأوّل یوم الخمیس و السلطان ملازم للفراش، و الناس فی أمر مریج من توقف الأحوال، لا سیما أرباب الحوائج الواردون من الأقطار، هذا و جمیع نوّاب البلاد الشامیّة قد خرجوا من أعمالهم إلی البلاد الحلبیة، لقتال شاه سوار ابن دلغادر، ما

خلاـجکم نـائب صـفد، و نـائب غزّة قـد خرج أیضـا إلی جهـة العقبـة لقتال مبارک شـیخ عرب بنی عقبـة، فبهـذا المقتضـی خلا الجو للمفسدین و قطّاع الطریق و غیرهم بالدرب الشامی و المصری، و مع هذا فالفتن لم تزل قائمة بأسـفل مصـر الشـرقیة و الغربیة، و أیضـا بأعلی مصر، الصعید الأدنی و الأعلی، و تزاید ذلک بطول مرض السلطان.

و بینمـا النـاس فی ذلـک ورد الخبر من یشـبک من مهـدی الظـاهری الکـاشف بالصـعید أن یـونس بن عمر الهوّاری خرج عن طـاعة السـلطان، و قاتل یشـبک المذکور، و قتل من عسـکره عدّة کبیرة و انکسر یشبک منه بعد أن جرح فی بدنه، ثم أنهی یشبک أنه یرید ولایـة سـلیمان بن الهوّاری عوضـا عن ابن عمه یونس، و أنه یریـد نجـدة کبیرة من الـدیار المصـریة، فرسم السـلطان فی الحـال بولایة سلیمان بن عمر، و توجّه إلیه بالخلعة قجماس الظاهری، و رسم السلطان بتعیین تجریدة إلی بلاد الصعید.

فلما کان یوم السـبت ثالثه عیّن السـلطان التجریـدة المذکورة إلی بلاد الصـعید، و علیها الأمیر قرقماس الجلب الأشـرفی أمیر سـلاح، و یشـبک من سـلمان شاه الفقیه الدّوادار الکبیر، و من أمراء العشـرات خمسة نفر: قلمطای الإسـحاقی، و أرغون شاه أسـتادار الصـحبة، و یشبک الإسحاقی، و أیدکی، و یشبک الأشقر، و الخمسة أشرفیة،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۰۴

و جماعـة کبیرة من الممالیـک السـلطانیة أشـرفیة کبـار و أشـرفیة صـغار، و نزل الأـمیر نقیب الجیش إلی المعینین، و أمرهم علی لسان السلطان بالسفر من یومهم إلی الصعید، فاعتذروا بعدم فراغ حوائجهم؛ لکون الوقت یوما واحدا.

فلمـا کـان آخر هـذا النهـار أرجف بموت السـلطان فماجت الناس، و کثر الهرج بشوارع القاهرة، و لبس بعض الممالیک آلـة الحرب، فاستمرت الحرکة موجودة فی الناس إلی قریب الصباح.

و أصـبح فی یوم الأحـد رابع ربیع الأوّل و السـلطان فی قید الحیاة، غیر أنه انحطّ فی المرض انحطاطا یشـعر العارف بموته، و نودی فی الحال بالأمان و البیع و الشـراء، و دقّت البشائر بعافیة السـلطان فی باکر النهار و فی آخره أیاما کثیرة، و صار السلطان أمره إلی التلف و هم علی ذلک.

فلمـا کـان عصـر نهـار الأحـد المـذکور نزل الأمیر تنبک المعلم الأشـرفی الرأس نوبـة الثانی إلی الأمیر قرقماس أمیر سـلاح علی لسان السـلطان و أمره بالخروج إلی السّفر من وقته بعد أن ذکر له کلاما حسنا من السلطان، فخرج قرقماس من وقته، و کذلک یشبک الفقیه الـدّوادار، و تبعهمـا من بقی ممن عیّن إلی السـفر، و نزلوا إلی المراکب، و وقفوا بسـاحل النیـل ینتظرون من عیّن معهم من الممـالیک السـلطانیة فلم یـأتهم أحـد، کل ذلک و السـلطان صـحیح الـذهن و العقل، یفهم الکلام و یحسن الرد، و ینفـذ غالب الأمور، و یولی و یعزل، و الناس لا تصدّق ذلک، و أنا أشاهده بالعین، هذا و السلطان یستحثّ من ندب إلی الصعید بالسّفر فی کل یوم.

و أصـبح السلطان فی یوم الاثنین علی حاله، و حضر عنده بعض أمراء، و علّم علی دون عشرة مناشیر و مراسیم، و هو فی غایة من شدة المرض، فلمـا نجزت العلامـة اسـتلقی علی قفـاه، فرأیت وجهه کوجه الأموات، و انفضّ الناس و خرجوا، فلما کان بعـد الظهر طلع إلی السـلطان بعض أمراء الأـلوف و الأعیـان، و سـلّم علیه، فشـکا إلیه السـلطان مـا أشـیع عنه من الموت، ثم قـال: أنـا ما أموت حتی أموّت خلائق، و أنا أعرف من

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۰۵

أشاع هذا عنی، یعنی بذلک الأشـرفیة الکبار و الأشـرفیة الصـغار، قلت: قد عرّفت الأشـرفیة الکبار و الأشرفیة الصغار و أمرهما و ما وقع فی مرض السلطان من أوّله إلی آخره فی تاریخنا «الحوادث»، و لیس ما نذکر هنا إلا علم خبر لا غیر- انتهی.

ثم طلع القاضـی کاتب السّـرّ بعـد ظهر یوم الأحد المذکور و أحضـر آلة العلامة، فلم یطق السـلطان أن یعلّم شـیئا، و قیل: إنه علّم علی أربعة مناشـیر، و قیل غیر ذلک، و قیل إنه لم یطق الجلوس إلا بشدّة، هذا مع التجلد الذی لا مزید علیه، و کان هذا دأبه من أوّل مرضه إلی أن مات- التجلد و عدم إظهار العجز- و للّه دره ما کان أجلده.

و بات السلطان فى تلك الليلة على حاله، و الناس فى أمره على أقوال كثيرة، هذا و هو يستحث على سفر الأمراء المعينين إلى الصعيد، و القصاد منه ترد إليهم، و هم يعتذرون عن السفر بعدم حضور من عيّن معهم من المماليك السلطانية، فيأمر بالمناداة بسفرهم، فلم يخرج أحد.

فلما كان صبيحة يوم الثلاثاء سادسة طلع الأمير الكبير يلباى إلى السلطان و معه خچداشه قانى بك المحمودى، و جانبك كوهيّة، و الثلاثة أمراء ألوف مؤيديّة، فلما دخلوا على السلطان لم ينهض إليهم للجلوس، بل استمر على جنبه؛ لشدة مرضه، و شكا إليهم ما به، فتألموا لذلك و دعوا له، ثم أمر السلطان و هو على تلك الحالة أن ينادى بسفر العسكر إلى الصعيد، ثم خلع على يوسف بن فطيس أستادار السلطان بدمشق بمشيخة نابلس، و خرج الناس من عند السلطان، و لم يعلّم شيئا، و هذا أوّل يوم منع السلطان فيه العلامة من يوم مرض إلى هذا اليوم.

و أصبح يوم الخميس ثامنه و قد اشتدّ به المرض، و يئس الناس منه، و كذلك يوم الجمعة، و لكن عقله واع، و لسانه طلق، و كلامه كلام الأصحاء.

و أصبح يوم السبت عاشر شهر ربيع الأول و هو فى السياق، فلما كان ضحوة النهار المذكور حدثت أمور ذكرناها فى تاريخنا «الحوادث»، و اجتمع الأمراء الأكابر بمقعد الإسطبل السلطانى عند الأمير آخور الكبير، و الأمير آخور المذكور حسّ بلا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۰۶

معنى، ليس له فى المجلس إلا الحضور بالجثة، و جلس الأتابك يلباى فى صدر المجلس و بإزائه الأمير تمربغا أمير مجلس، و هو متكلّم القوم، و لم يحضر قرقماس أمير سلاح لإقامته بساحل النيل كما تقدّم، و حضر جماعة من أمراء الألوف و كبير الظاهرية الخشقدميّة يوم ذاك خيربك الدّوادار الثانى، و أخذوا فى الكلام إلى أن وقع الاتفاق بينهم على سلطنة الأتابك يلباى، و رضى به عظيم الأمراء الظاهرية الكبار الأمير تمربغا أمير مجلس، و كبير الظاهرية الصغار الخشقدميّة خيربك الدّوادار، و جميع من حضر، و كان رضاء الظاهرية الكبار بسلطنة يلباى بخلاف الظنّ، و كذلك الظاهريّة الصغار.

ثم تكلّم بعضهم بأن القوم يريدون من الأمير الكبير أن يحلف لهم بما يطمئن به قلوبهم و خواطرهم، فتناول المصحف الشريف بيده، و حلف لهم يمينا بما أرادوه، ثم حلف الأمير تمربغا أمير مجلس، و شرح اليمين و كيفيته معروفة، فإنه يمين لتمشية الحال، و أرادوا خيربك أن يحلف، فقال ما معناه. «نحن نخشاكم فحلّفناكم، فنحن نحلف على ما ذا؟».

ثم انفضّ المجلس و نزل الأتابك يلباى إلى داره و بين يديه وجوه الأمراء، و لم يحضر الأمير قايتباى الظاهرى معهم عند الاتفاق و اكتفى عن الحضور بكبيرهم الأمير تمربغا الظاهرى، كل ذلك قبل الظهر بيسير، فلم يكن بعد أذان الظهر إلا بنحو ساعة رمل لا غير و مات السلطان بقاعة البيسرية، بعد أذان الظهر بدرجات، و فى حال وفاته طلعت جميع الأمراء إلى القلعة، و أخذوا فى تجهيز السلطان الملك الظاهر خشقدم رحمه اللّه تعالى، و غسلوه و كفنوه، و صلوا عليه بباب القلّة من قلعة الجبل، كل ذلك قبل أن تبايع العساكر يلباى المذكور بالسلطنة كما سنذكره فى سلطنة الأتابك يلباى، و هذا الذى وقع من تجهيز السلطان و إخراجه قبل أن يتسلطن سلطان بخلاف العادة، فإن العادة جرت أنه لا يجهّز سلطان إلا بعد أن يتسلطن سلطان غيره، ثم يأخذون بعد ذلك فى تجهيزه- انتهى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۰۷

و لما صلّى عليه بباب القلّة، و حمل نعشه، و على نعشه مرقّعة الفقراء، ساروا به إلى أن أنزلوه من باب المدرج، و لم يكن معه كثير خلق، بل جميع من كان معه أمام نعشه، و حوله و خلفه من الأمراء و الخاصكية دون العشرين نفرا، و الأكثر منهم أجناد؛ فإنه لم ينزل معه أحد من أمراء الألوف كما هى العادة، و لا أحد من المباشرين غير الأمير شرف الدين بن كاتب غريب الأستادار و جماعة من أمراء الطبلخانات و العشرات، و ساروا به و قد ازدحمت الناس و العوام حول نعشه، إلى أن وصلوه إلى تربته و مدرسته التى أنشأها بالصحراء بالقرب من قبة النّصر، و دفن بالقبة التى بالمدرسة المذكورة، و حضرت أنا دفنه- رحمه اللّه تعالى- و لم تتأسف الناس عليه

یوم موته ذاک التأسّف العظیم، لکن تأسّفوا علیه بعد ذلک تأسّفا عظیما لما تسلطن بعده الأتابک یلبای، بل عظم فقده عند سلطنة یلبای علی الناس قاطبة.

و مات الملک الظاهر خشقدم- رحمه اللّه تعالی- و سنه نحو خمس و ستین سنة تخمینا، هکذا أملی علیّ من لفظه بعد سلطنته.

و کان الملک الظاهر خشقدم- رحمه اللّه تعالی- سلطانا جلیلا عظیما، عاقلا مهابا، عارفا صبورا، مدبرا سیوسا، حشما متجملا فی ملبسه و مرکبه و شأنه إلی الغایة، بحیث إنه کان لا یعجبه من البعلبکی الأبیض إلا ما تزید قیمته علی ثلاثین دینارا، فما بالک بالصوف و السمّور و غیر ذلک، و کان یقتنی من کل شیء أحسنه، و کان مع هذا التأنق لائقا فی شکله و ملبسه و مرکبه، نشأ علی ذلک عمره کله، أعرفه جندیا إلی أن صار سلطانا، و هو متجمل فی ملبسه علی ما حکیناه.

و کان ملیح الشکل للطول أقرب، أعنی معتدل القامة، نحیف البدن، أبیض اللون، تعلوه صفرة ذهبیة حسنة، کبیر اللحیة، تضرب إلی شقرة، قد شاب أکثرها، حسن فیها، و کان رشیق الحرکات، خلیقا للملک، عارفا بأنواع الملاعیب، کالرّمح و الکرة، و سوق المحمل، له عمل کبیر فی ذلک أیام شبوبیّته، و له مشارکة فی غیر ذلک من أنواع الملاعیب جیدة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۰۸

و کان له إلمام ببعض القراءات، و یبحث مع الفقهاء، و له فهم و ذوق بحسب الحال، و کان کثیر الأدب، و یجلّ العلماء و یقوم لغالبهم إن قدم أحد منهم علیه، مع حشمة کانت فیه و أدب فی کلامه و لفظه، و کان یتکلم باللغة العربیة کلاما یقارب الفصاحة علی عجمة کانت فی لسانه قلیلة، و ذلک بالنسبة إلی أبناء جنسه.

و کان یمیل إلی جمع المال و یشره فی ذلک من أی وجه کان جمعه، و له فی ذلک أعذار کثیرة مقبولة و غیر مقبولة، و عظم فی أواخر عمره من سلطنته، و ضخم و کبرت هیئته فی قلوب عساکره و رعیته لبطن صار فیه، و إقدام علی المهولات مع دربة و معرفة فیما یفعله، فإن کان المسیء ممن یتلافی أمره زجره و لقنه حجته بدربة و لباقة، و إن کان ممن لا یخاف عاقبته قاصصه بما یردع به أمثاله، من الضرب المبرح و النفی، و عدّ ذلک من معایبه، یقول من قال: «القوة علی الضعیف ضعف فی القوة».

و من ذلک أیضا أنه کان فی الغالب یقدم علی ما یفعله من غیر مشورة و لا تأن، و لهذا کانت أموره تنتقض فی بعض الأحیان، بل فی کثیر من الأحیان، و مما کان یعاب به علیه إمساکه، و تشویش الممالیک الذین کان اشتراهم فی أیام سلطنته الأجلاب، مع أنه- رحمه اللّه تعالی- کان کثیرا ما ینهاهم عن أفعالهم القبیحة، و یردع بعضهم بالحبس و الضرب و النفی و أنواع النّکال، و هذا بخلاف من کان قبله من الملوک، و کان له عذر مقبول فی إنشائه هذه الممالیک الأجلاب، لا ینبغی لی ذکره؛ یعرفه الحاذق، و من کل وجه فالمال محبوب علی کل حال، و بالجملة إنه کانت محاسنه أضعاف مساوئه، و أیامه غرر أیام، لولا ما شان سؤدده و ممالکه، و للّه در القائل:

[الطویل]

و من ذا الذی ترضی سجایاه کلّها کفی المرء فخرا أن تعدّ معایبه

و علی کل وجه هو من عظماء الملوک و أجلّائهم و أخفهم وطأة، مع شدة کانت فیه

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۰۹

ولین، و تکبر و اتضاع، و بخل و کرم، فمن أصابه شرّه یلجأ للّه، و یجعل أجره علی اللّه تعالی، و من أمطره خیره و رفده فلیترحّم علیه، و أنا ممن هو بین النوعین، لم یطرقنی شرّه و لا أمطرنی خیره، غیر أنه کان معظما لی، و کلامی عنده مقبول، و حوائجی عنده مقضیة، و ما قلته فیه فهو علی الإنصاف- إن شاء اللّه تعالی- و بعد کل شیء، فرحمه اللّه تعالی، و عفا عنه.

و کانت مدة سلطنته علی مصر ستّ سنین و خمسة أشهر و اثنین و عشرین یوما بیوم سلطنته- انتهی.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۱۰

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۶۵]

السنة الأولى من سلطنة الملك الظاهر خشقدم على مصر و هى سنة خمس و ستين و ثمانمائة:

على أن السنة المذكورة حكم فيها ثلاثة ملوك.

حكم الأشرف إينال من أوّلها إلى أن خلع نفسه، و ولى ولده الملك المؤيّد أحمد فى يوم الأربعاء رابع عشر جمادى الآخرة، و مات من الغد فى يوم الخميس، و حكم ولده الملك المؤيّد أحمد من رابع عشر جمادى الآخرة إلى يوم الأحد تاسع عشر شهر رمضان.

ثم حكم فى باقى السنة الملك الظاهر خشقدم إلى آخرها.

فيها توفّى الأمير سيف الدين سودون بن عبد اللّه الإينالى المؤيّدى المعروف بقراقاش حاجب الحجاب بجزيرة قبرس فى الغزاة من غير جراح، بل مرض نحو عشرة أيام، و مات فى أول المحرم، و قد عرفنا أحواله فى تاريخنا «المنهل الصافى و المستوفى بعد الوافى»، و أيضا فى تاريخنا «حوادث الدهور فى مدى الأيام و الشهور» بما فيه كفاية عن ذكره ثانيا هنا، و مات و قد زاد سنّه على الستين، و كان مخلّطا فى أموره، يقبل المدح و الذم.

و توفّى الأمير سيف الدين جانبك بن عبد اللّه النّوروزى، أحد أمراء الطبلخانات، و نائب الإسكندرية بها فى يوم السبت مستهل صفر و قد ناهز الثمانين من العمر، و كان من مماليك الأمير نوروز الحافظى المتغلب على دمشق، و ولى أيام أستاذه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۱۱

نيابة بعلبك، و لهذا كان يعرف بنائب بعلبك، و كان من خيار أبناء جنسه، كان شجاعا مقداما كريما متواضعا، ديّنا خيّرا، قلّ أن ترى العيون مثله.

و توفّى الشيخ الصالح الزاهد العابد المعتقد عمر اليمنى نزيل مكة فى سحر ليلة الأربعاء ثالث شهر ربيع الأوّل بمكة، و دفن بمقابر باب شبيكة، و كان فردا فى كثرة العبادة و الزهد، و قد سألت عنه بمكة من صاحبنا القدوة أحمد الفوّى، أعاد اللّه علينا من بركاته فقال: «هذا يشبّه بعبّاد بنى إسرائيل».

و توفّى الشيخ الإمام العالم العلّامة أبو الفضل محمد بن أبى القاسم المشدّالى البجائى المغربى المالكى غريبا ببعض أعمال حلب، و هو فى الكهولية، و كان إماما فى المعقول و المنقول، و شهرته القوية بالأول، كان إماما فى النحو و المنطق و علم المعانى و البيان و الأصلين و الطب و الحكمة و علوم الأوائل، و كان إذا حقق مسألة فقهية كان إلى كلامه المنتهى، و بالجملة إنه كان نادرة من النّوادر- رحمه اللّه.

و توفّى الشيخ الإمام العالم الفقيه عزّ الدين محمد بن محمد بن عبد السلام أحد نواب الشافعية، فى ليلة الثلاثاء رابع عشر ربيع الآخر، و كان آخر من حضر دروس الشيخ سراج الدين عمر البلقينى- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى السلطان الملك الأشرف سيف الدين أبو النصر إينال العلائى ثم الظاهرى سلطان الديار المصرية فى يوم الخميس خامس عشر جمادى الأولى و قد تقدّم ذكره.

و توفّى جمال الدين جميل بن أحمد بن عميرة بن يوسف المعروف بابن يوسف، شيخ العرب ببعض إقليم الغربية و السخاوية بالوجه البحرى، فى جمادى الأولى و قد جاوز الستين.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۱۲

و توفّى الزينى مرجان بن عبد اللّه الحصنى الحبشى الطواشى، مقدّم المماليك السلطانية، فى آخر يوم الأحد ثانى جمادى الآخرة، و دفن من الغد، و قد ناهز الستين من العمر، كان وضيعا فى مبدأ أمره، و قاسى خطوب الدهر ألونا و تغرّب و احتاج فى غربته إلى التكدّى و السؤال، ثم حسنت حاله، و خدم عند خلائق من الأمراء، إلى أن تحرّك له بعيض سعد، و ترقّى إلى أن ولى نيابة المقدم،

ثم التّقدمة، فلما ولى لم يراع النعمة، بل أخذ فى الإسراف على نفسه فما عفّ و لا كفّ، و دام على ذلك إلى أن مات، و على كل حال فمستراح منه، و هو ممن يقال فى حقه: «يأكل ما كان و يضيق بمكان».

و توفّى الوزير الصاحب سعد الدين فرج ابن مجد الدين ماجد بن النحّال القبطى المصرى بطّالا بالقاهرة، فى ليلة الثلاثاء حادى عشر جمادى الآخرة، و قد جاوز الستين من العمر، بعد أن ولى كتابة المماليك و الوزر و الأستادارية غير مرة- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الأمير سيف الدين كزل بن عبد اللّه السّودونى المعلّم، أحد أمراء العشرات فى يوم السبت ثانى عشرين جمادى الآخرة، و دفن من الغد بتربته التى أنشأها بالصحراء، و سنه نحو التسعين سنة تخمينا، و قد انتهت إليه رئاسة الرّمح و تعليمه فى زمانه، و كان أصله من مماليك سيّدى سودون نائب الشام قريب الملك الظاهر برقوق، و قد ذكرنا من أمره نبذة فى ترجمة الملك الظاهر فى «المنهل الصافى و المستوفى بعد الوافى» - رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الأمير زين الدين فيروز بن عبد اللّه الطواشى الرومى النّوروزى الزّمام و الخازندار، فى يوم الخميس رابع عشرين شعبان، و قد شاخ و جاوز الثمانين من العمر، و كان من عتقاء الأمير نوروز الحافظى نائب الشام، ثم وقع له بعد موت أستاذه محن و خطوب ذكرناها فى غير موضع من مصنفاتنا، و ليس هذا المحل محل إطناب فى التراجم، و إنما هو إخبار بما وقع و حدث على سبيل الاختصار فى هذه الترجمة و غيرها، و مات فيروز هذا بعد مرض طويل، و دفن بتربته التى أنشأها بالصحراء، و خلّف مالا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۱۳

كثيرا لم يظفر السلطان إلا ببعضه، و هو نحو المائة ألف دينار أو أزيد، و كان رأسا فى البخل و الشّح، يمشى من طبقته بقلعة الجبل إلى السلطان بالدهيشة، و إذا صلى الفريضة صلى جالسا إن صلى.

و توفّى الأمير شرف الدين يونس الأقبائى الدّوادار الكبير بعد مرض طويل فى يوم الأربعاء ثانى عشرين شهر رمضان، و دفن من يومه بتربته التى أنشأها بالصّحراء، و قد جاوز الستين من العمر، و لم يخلف بعده مثله سؤددا و كرما، و حشمة و شجاعة و رئاسة، و بالجملة إنه كان به تجمل فى الزّمان- رحمه اللّه تعالى- و كان أصله من عتقاء الأمير آقباى المؤيّدى نائب الشام، حسبما ذكرنا محاسنه فى غير موضع من تواريخنا.

و توفّى الأمير سيف الدين سودون بن عبد اللّه الأبوبكرى المؤيدى أتابك حلب بها فى أواخر شهر رمضان، و هو مناهز الستين من العمر، و أصله من عتقاء الملك المؤيّد شيخ، و قد ولى أتابكية حلب غير مرّة، و ولى فى بعض الأحيان نيابة حماة، ثم نقل إلى تقدمة ألف بدمشق، ثم إلى أتابكية حلب، و كان عاقلا حشما، حسنة من حسنات الدنيا.

و توفّى الأمير سيف الدين خشكلدى بن عبد اللّه الكوجكى، أحد أمراء طرابلس، فى أواخر شهر رمضان، و كان له شهرة، و ولى نيابة حمص فى وقت من الأوقات.

و توفّى الوزير تاج الدين بن عبد الوهاب ابن الشمس نصر اللّه ابن الوجيه توما القبطى الأسلمى، الشهير بالشيخ الخطير- و هو لقب لوالده نصر اللّه- بعد ما شاخ، فى يوم الأربعاء خامس ذى القعدة، و كان معدودا من الكتبة، و باشر الوزر بعجز، لكنه كفّ عن المظالم، فهو أحسن الوزراء سيرة- و السّداد ميسّر.

و توفّى قاضى القضاة ولىّ الدين أحمد ابن القاضى تقى الدين ابن العلّامة بدر الدين محمد ابن شيخ الإسلام سراج الدين عمر البلقينى الشافعى، قاضى قضاة دمشق معزولا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۱۴

بها، بعد مرض طويل، فى ذى القعدة، و مولده بالقاهرة فى سنة أربع عشرة و ثمانمائة، و كان- رحمه اللّه تعالى- عالما فاضلا ذكيا، فصيح العبارة، مستقيم الذهن، طلق اللسان جهورى الصوت، مليح الشكل، خطيبا بليغا مفوها، كثير الاستحضار للشعر و أنواعه، نادرة فى أقاربه و أبناء جنسه، إلا أنه كان قليل الحظ عند الملوك و الأكابر، كما هى عادات الدّهر من تقديم الجهلاء و تأخير الفضلاء.

و توفّی الأمیر سیف الدین خیربک بن عبد اللّه النّوروزی بعد عزله عن نیابهٔ صفد و توجهه إلی دمشق أمیرا بها، و کان بلی المناصب الجلیلهٔ بالبذل لعدم أهلیته، فإنه کان لا للسیف و لا للضیف.

و توفّی الشیخ المعتقد الصالح المجذوب أحمد السطوحی، المعروف بالشیخ خروف، فی یوم السبت سابع ذی الحجهٔ، و دفن بزاویته عند جامع ملکتمر الشیخونی، المعروف بالجامع الأخضر بطریق بولاق، و کان للناس فیه اعتقاد، و کان یعجبنی حاله فی المجاذیب- رحمه اللّه تعالی.

و توفّی القاضی أفضل الدین محمود بن عمر القرمی الأصل، الحنفی الفقیه المشهور، أحد نوّاب الحکم الحنفیهٔ بالدیار المصریّهٔ، و هو عائد من مجاورته بمکهٔ بالقاع الکبیر، فی لیلهٔ الثلاثاء سابع عشر ذی الحجهٔ، و حمل إلی منزلهٔ بدر فدفن بها، و هو فی عشر السبعین، و کان معدودا من فقهاء السّادهٔ الحنفیهٔ، و له اشتغال قدیم، و فضل و مشارکهٔ، و ناب فی الحکم زیادهٔ علی ثلاثین سنهٔ، مع أدب و حشمهٔ.

أمر النیل فی هذه السنهٔ: الماء القدیم ستهٔ أذرع و نصف، مبلغ الزیادهٔ سبعهٔ عشر ذراعا و واحد و عشرون إصبعا، و ثبت إلی أیام من توت، و مع هذا الثبات شرق بلاد کثیرهٔ من عدم إتقان الجسور- و لا قوهٔ إلا بالله العلی العظیم.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۱۵

[ما وقع من الحوادث سنهٔ ۸۶۶]

السنهٔ الثانیهٔ من سلطنهٔ الملک الظاهر خشقدم علی مصر و هی سنهٔ ست و ستین و ثمانمائهٔ:

فیها توفّی الأمیر سیف الدین بیبرس بن أحمد بن بقر، شیخ العربان بالشّرقیهٔ من أعمال القاهرهٔ بالوجه البحری، و قد ناهز السبعین من العمر، فی یوم الأربعاء مستهل صفر بالقاهرهٔ، و کان مشکور السّیرهٔ نادرهٔ فی أبناء جنسه- رحمه اللّه تعالی.

و توفّی الشیخ الرّبانیّ الصّوفیّ المعتقد أبو عبد اللّه محمد الفویّ الشافعی، نزیل القاهرهٔ بها، فی لیلهٔ السبت سلخ شهر ربیع الأول، و هو فی الثمانین تخمینا، و دفن من الغد بالصحراء، و کان من تلامذهٔ الشیخ المسلک إبراهیم الإدکاوی، و خدم غیره أیضا من الصالحین، و کان رحمه اللّه تعالی أحد من أدرکنا من أرباب الصلاح و الخیر- عفا اللّه تعالی عنه.

و توفّی الأمیر سیف الدین قانی بای بن عبد اللّه الچارکسی الأمیر آخور الکبیر- کان- بثغر دمیاط بطّالا فی یوم السبت رابع عشر شهر ربیع الآخر، و حمل میتا من دمیاط إلی القاهرهٔ، فغسّل بها و کفن و صلی علیه بمصلاهٔ المؤمنی، و حضر السلطان الملک الظاهر خشقدم الصلاهٔ علیه، و دفن بتربته التی جددها و بناها بالقرب من دار الضیافهٔ، و کان أستاذه الأمیر چارکس القاسمی المصارع مدفونا بها، و مات قانی بای هذا و قد ناهز الثمانین من العمر، و کان أصله من ممالیک الأتابک یشبک الشعبانی، و أنعم به علی الأمیر چارکس القاسمی المصارع، فأعتقه چارکس، و استمر بخدمته إلی أن قتل فی سنهٔ عشر و ثمانمائهٔ، و صار من جملهٔ الممالیک السلطانیهٔ، ثم صار

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۱۶

خاصکیا بعد موت الملک المؤید شیخ، و عاش علی ذلک دهرا طویلا، إلی أن صار أمر الملک إلی الملک الظاهر جقمق فی دولهٔ الملک العزیز یوسف ابن الملک الأشرف برسبای و أنعم علیه بإمرهٔ عشرهٔ؛ لکونه من ممالیک أخیه چارکس القاسمی، و کان چارکس أکبر فی السن من أخیه الملک الظاهر جقمق، فلم یکن إلا مدّهٔ یسیرهٔ و تسلطن الملک الظاهر جقمق، و قرّب قانی بای هذا و رقّاه، و جعله شاد الشراب خاناه، و أنعم علیه بإمرهٔ مائهٔ و تقدمهٔ ألف، و دام علی وظیفته و هو من جملهٔ المقدمین، ثم جعله دوادارا کبیرا، ثم أمیر آخور کبیرا، و نالته السعادهٔ، و عظم فی الدولهٔ الظاهریهٔ حسبما ذکرنا أموره مفصلهٔ فی تاریخنا «الحوادث»، و دام علی ذلک إلی أن مات الملک الظاهر جقمق و تسلطن ولده الملک المنصور عثمان، و خرج علیه الأتابک إینال العلائی و تسلطن عوضه،

فأمسك قانى باى هذا و حبسه بالإسكندرية سنين كثيرة إلى أن أخرجه الملك الظاهر خشقدم فى أول سلطنته و سيّره إلى دمياط بطّالا، فدام بها إلى أن مات فى التاريخ المذكور، و كان خيّرا ديّنا سليم الباطن مع طيش و خفة- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الأمير سيف الدين تمرباى بن عبد اللّه من حمزة الناصرى المعروف بتمرباى ططر، أحد مقدمى الألوف، فى ليلة السبت ثامن عشرين جمادى الآخرة و قد ناهز الثمانين، و كان تركى الجنس من مماليك الملك الناصر فرج، و نزل به الدهر، ثم عاد إلى بيت السلطان و ترقى ثانيا إلى أن صار أمير مائة و مقدم ألف فى دولة الملك الظاهر خشقدم، و كان من المهملين المساكين.

و توفّى الأمير سيف الدين جانبك بن عبد اللّه الجكمى نائب ملطية بها فى شهر ربيع الآخر و قد أسنّ؛ لأنه من مماليك الأمير جكم من عوض نائب حلب- كان.

و توفّى غيث بن ندى بن نصير الدّين، شيخ العربان بأحد جهات إقليم مصر، و دفن خارج القاهرة فى يوم الاثنين خامس شهر رجب، و كان موته بعد قتل ابنه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۱۷

حمزة و سلخه باثنين و عشرين يوما، و مستراح منه و من ابنه حمزة- و للّه الحمد على موتهما.

و توفّى الأمير سيف الدين حاج إينال اليشبكى نائب حلب بها فى ليلة الخميس سابع عشرين شعبان بحلب، و دفن فى يوم الخميس، و قد قارب الستين من العمر أو جاوزها، و كان أصله من مماليك الأمير يشبك الجكمى أمير آخور، و ولى حلب عوضه الأمير جانبك التاجى المؤيّدى، و كان إينال هذا ولى عدّة أعمال بالبلاد الشّامية: حماة، و طرابلس، و حلب، غير أنه لم تسبق له رئاسة بمصر قط، و كان لا بأس به، لكنه لم يحمده الحلبيون فى ولايته عليهم.

و توفّى الأمير سيف الدين تنبك بن عبد اللّه الأشرفى المعروف بالصغير، أحد أمراء العشرات و رأس نوبة، قتيلا بيد العربان بالبحيرة، و قد ذكرنا واقعته و كيفية قتله فى «الحوادث»، و كذلك الأمير سنطباى قرا الظاهرى- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى المقام الناصرى محمد ابن السلطان الملك الأشرف إينال العلائى بثغر الإسكندرية فى يوم الخميس مستهل ذى الحجة، و عمره نحو سبع عشرة سنة، و هو شقيق الملك المؤيد أحمد، أمهما خوند زينب بنت بدر الدين بن خاص بك.

أمر النيل فى هذه السنة: الماء القديم ستة أذرع و عشرة أصابع، مبلغ الزيادة ثمانية عشر ذراعا و ستة أصابع، و ثبت إلى أواخر توت على نحو ثمانية عشر ذراعا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۱۸

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۶۷]

السنة الثالثة من سلطنة الملك الظاهر خشقدم على مصر و هى سنة سبع و ستين و ثمانمائة:

فيها توفّى الأمير الطواشى عنبر الطنبذى الحبشى نائب مقدم المماليك السلطانية بطالا فى يوم السبت ثامن المحرم، و كان من أصاغر أبناء طائفته، كان من عتقاء التاجر نور الدين على الطّنبذى، و بنى مدرسة بخط سوق الغنم قبل موته بمدة يسيرة- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الأمير سيف الدين جانم بن عبد اللّه الأشرفى نائب الشام قتيلا بيد بعض مماليكه بمدينة الرّها، فى ليلة الثلاثاء تاسع عشرين شهر ربيع الأوّل، و هو نزيل حسن بك صاحب ديار بكر، و قد تقدّم من ذكره فى أول سلطنة الملك الظاهر هذا ما يغنى عن التعريف بأموره ثانيا هنا، و كان جانم رجلا للقصر أقرب، و فيه حدّة مزاج، و سرعة حركة، مع تديّن و جودة، و محبة للفقهاء و الفقراء و أرباب الصلاح، مع كرم و أدب و حشمة و رئاسة و عفة عن القاذورات و الفواحش- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى قاضى القضاة شيخ الإسلام سعد الدين سعد ابن قاضى القضاة شيخ الإسلام شمس الدين محمد بن عبد اللّه بن سعد بن أبى بكر بن مصلح بن أبى بكر بن سعد العبسى الدّيرى المقدسى الحنفى، قاضى قضاة الديار المصرية و عالمها، معزولا عن القضاء بداره

بمصر القديمة، فى ليلة الجمعة تاسع شهر ربيع الآخر، و حضر السلطان الصلاة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۱۹

عليه بمصلاة المؤمنى، و دفن بتربة السلطان الملك الظاهر خشقدم بالصحراء، و مولده ببيت المقدس فى شهر رجب سنة ثمان و ستين و سبعمائة، و بها نشأ و سمع الحديث على جماعة ذكرناهم فى ترجمته فى تاريخنا «المنهل الصافى و المستوفى بعد الوافى»، و حفظ القرآن العزيز و عدّة متون فى الفقه، و تفقّه بأبيه و غيره إلى أن برع فى الفقه و أصوله، و أما فروع مذهبه و التّفسير فكان فيهما آية من آيات اللّه، و مات و قد انتهت إليه رئاسة الفقه فى مذهبه شرقا و غربا، مع أنه كان رأسا أيضا فى حفظ التفسير، و له مشاركة فى عدة فنون، و بالجملة فإنه مات و لم يخلف بعده مثله- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الأمير سيف الدين شادبك بن عبد اللّه الصارمى نائب غزّة بها فى يوم الثلاثاء ثالث عشر شهر ربيع الأوّل، و قد قارب الستين، و كان من عتقاء المقام الصارمى إبراهيم ابن الملك المؤيّد شيخ المحمودى، و كان ولى غزّة بالبذل، و مات قبل أن يستوفى ما بذله فى ولايتها، و خلف عليه ديونا- عفا اللّه تعالى عنه.

و توفّيت خوند بنت السلطان الملك الظاهر جقمق، زوجة الأمير أزبك من ططخ الظاهرى، أحد مقدّمى الألوف بالديار المصرية، فى عصر يوم الاثنين عاشر جمادى الأولى، و حضر السلطان الصلاة عليها بمصلاة المؤمنى، و دفنت عند أبيها بتربة الأمير قانى باى الجاركسى، و كان موتها فى غياب زوجها، كان مسافرا فى السّرحة، و ماتت و سنها دون ثلاثين سنة، و أمها خوند مغل أخت القاضى كمال الدين بن البارزى، و هى فى قيد الحياة.

و توفّى الأمير سيف الدين جانبك بن عبد اللّه القوامى المؤيدى، أحد أمراء العشرات بالقاهرة، فى يوم الجمعة ثامن عشرين جمادى الأولى، و حضر السلطان الملك الظاهر خشقدم الصلاة عليه بمصلاة المؤمنى وقت العصر، و كان من عتقاء الملك المؤيّد شيخ، و كان من الخيرين الساكنين.

و توفّى الإمام علاء الدين على المغربى الحنفى، إمام الملك الأشرف إينال، فى يوم الاثنين ثالث عشر جمادى الآخرة، و هو فى عشر الستين من العمر، و كانت لديه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۲۰

فضيلة مع وسوسة و طيش و خفة، و إسراف فى الحال، و بالجملة إنه كان من المخلّطين- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى عظيم الدّولة و مدبّر المملكة الأمير سيف الدين جانبك بن عبد اللّه الظاهرى الدّوادار الكبير، المعروف بنائب جدّة قتيلا بيد المماليك الأجلاب بباب القلّة داخل قلعة الجبل، وقت صلاة الصبح من يوم الثلاثاء مستهل ذى الحجة، و قد ذكرنا قصة قتلته فى «الحوادث» مستوفاة، لكن نذكرها هنا جملة، و هى أنه ركب من بيته سحر يوم الثلاثاء المذكور بغلس بعد صلاة الصبح بغير قماش الموكب، و معه نحو خمسة نفر، و طلع إلى القلعة، و مشى بمن كان معه إلى أن وصل إلى باب القلّة، فسلّم على مقدم المماليك ثم مشى إلى أن جاوز العتبة الثانية من باب القلّة، و التفت عن يمينه إلى الجهة الموصلة إلى القصر السلطانى، فوجد هناك جماعة من المماليك السلطانية الأجلاب، فظن أن وقوفهم هناك لأجل أخذ الأضحية السلطانية على العادة فى كل سنة، فسلّم عليهم فردّوا عليه السلام بأعلى أصواتهم، كما يفعلون ذلك مع أعيان الأمراء بطريق التجمل، ثم مشى إلى أن التفت إلى نحو العتبة التى تكون على شماله تجاه باب الجامع الناصرى، فرأى على درجات الباب المذكور جماعة من المماليك الأجلاب من أوّل الدّرج إلى آخرها، فسلّم عليهم كما فعل مع من صدفه منهم قبلهم، فلم يردّ أحد منهم السلام، و حال أن وقع بصرهم عليه نزلوا إليه دفعة واحدة، و أحاطوا به، و نزلوا عليه من جهاته الأربع بالسيوف و غيرها، و هرب من كان معه إلى جهة الحوش السلطانى و الدهيشة، و لما ضرب على رأسه سقط فى الحال من وقته، و ضربه آخر فى خاصرته بالسيف، ثم نهض و ارتكن بحائط الجامع، ثم سقط من وقته، فسحبه بعضهم برجله إلى طريق المطبخ، فوجد به رمقا، فألقى على رأسه حجرا هائلا رضخ رأسه، فمات من وقته، و كان مقدار قتلته كلها من أول الإحاطة

به إلى أن خرجت روحه دون نصف درجة رمل، و لما تحققوا قتله أخذوا ما كان عليه من

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۲۱

القماش و غطّوه بحصير و رجعوا إلى جهة باب القلّة، ليلقوا من ندبوا إلى قتله أيضا من خچداشيته، فوافوا الأمير تنم رصاص الظاهرى المحتسب، و أحد أمراء الطبلخانات، قد أقبل فى أثر الأمير جانبك المذكور فقصدوه، فاستجار بمقدّم المماليك أو بجماعة من إنّياته، فلم يغنوا عنه شيئا، و تناولته الأيدى بالضرب، فهجّ فيهم، و خرج من بينهم، و هو بغير سلاح، و مضى إلى جهة القصر، و هم فى أثره فى الظلام، ثم عاد و هم فى أثره إلى جهة الجامع حيث قتل الأمير جانبك، و قد ظفر منهم بعصاة، فضربهم بها، و دفع عن نفسه مع كثرة عددهم، و كاد أن ينجو منهم، فبادره بعضهم، و ضربه بسيف ضربة طارت يده منها، ثم تكاثروا عليه بالضرب حتى ظنوا أنه مات، فحملته إنّياته إلى طبقته و به رمق، و أخذوا فى مداواة جراحه، فمات بعد قليل، ذلك و النجوم ظاهرة بالسماء.

و لما وقع هذا أغلقت أبواب القلعة، و ماجت الناس، و ذهب كلّ واحد من الأمراء و الخاصكية إلى جهة من جهات القلعة، و أما السلطان فإنه كان جالسا بقاعة الدّهيشة و الشمعة تقد بين يدية بعد أن صلّى الصبح، فدخل إليه جانم دوادار الأمير جانبك المذكور، و لم يعلم جانم بقتل أستاذه، و عرّف السلطان أن المماليك الأجلاب منعت أستاذه من الدخول إلى السلطان، فسكت السلطان، لعلمه بباطن الأمر، ثم قال بعد ساعة: «أيش الخبر؟» فقال له بعض من حضر من الأمراء: «خير» فقال غيره:

«و أى خير» و القائل الأول جانبك كوهيّة، و الثانى مغلباى طاز و كلاهما مؤيّدى، ثم سكتوا فقال الأمير يلباى المؤيّدى آخور الكبير: «ما بقى اليوم خدمة؟» فقال السلطان: بلى نخرج إلى الحوش، و خرج إلى الحوش، و جلس على الدّكة، و ذلك بعد طلوع الشمس، و جميع أبواب الحوش و القلعة مغلقة، فجلس السلطان ساعة و ليس عنده الصحيح من خبر جانبك، إلى أن جاءه نائب المقدم و غيره، و أعلموا السلطان سرّا بواقعة الأمير جانبك و قتله، فقال السلطان إلى الخازندار: «أخرج ثوبين بعلبكيا لتكفين الأمير جانبك و تنم رصاص».

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۲۲

ثم أمر السلطان الأمير جانبك كوهيّة الدوادار الثانى أن يخرج و يتولّى أمرهما و تجهيزهما و الصلاة عليهما، فخرج و فعل ذلك و صلى عليهما بباب القلّة و وجّههما على نعوشهما إلى محل دفنهما، و ليس معهما كثير ناس بل جميع من كان معهما دون عشرة نفر، فدفن الأمير جانبك بتربته التى أنشأها خارج باب القرافة، و دفن الأمير تنم عند ليث ابن سعد.

و كثر أسف الناس على الأمير جانبك إلى الغاية، و عظمت مصيبته على أصحابه و خچداشيته، و انطلقت الألسن بالوقيعة فى السلطان، و رثاه بعضهم، و قالت المذاكرة فى أمره قطعا فى كيفية قتلته، و فى عدم وفاء السلطان على ما كان قام بأمره حتى سلطنه و ثبّت قواعد ملكه، و اضطرب ملك الملك الظاهر خشقدم بقتله، و خاف كل أحد من خچداشيته و غيرهم على نفسه، و ماجت المملكة و كثر الكلام فى الدولة، و وقع أمور بعد ذلك ذكرناها فى وقتها، ليس لذكرها هنا محل- انتهى.

و مات الأمير جانبك- رحمه اللّه تعالى- و هو فى أوائل الكهولية، غير أنه كان بادره الشيب ببعض لحيته، و كان- رحمه اللّه تعالى- أصله چاركسى الجنس و جلب إلى الديار المصرية، و تنقّل من ملك واحد إلى آخر- ذكرنا أسماءهم فى ترجمته فى غير موضع من مصنفاتنا- إلى أن ملكه الملك الظاهر جقمق فى أيام إمرته و أعتقه، فلما تسلطن جعله خاصكيا و قرّبه، و لا زال يرقيه حتى أمّره و ولاه بندر جدّة، و نالته السعادة فى أيام أستاذه، و عظم و ضخم و نهض فى إمرة جدّة، بحيث إنه صار فى وقته حاكم الحجاز جميعه حتى مات- فى دولة أستاذه و فى دولة غيره- و قد حررنا ذلك جميعه فى «الحوادث» و غيره، و عظم بآخره عظمة زائدة، لا سيما لما ولى الدّوادارية الكبرى فى دولة الملك الظاهر خشقدم، و صار هو مدبّر المملكة، و شاع ذكره، و بعد صيته، حتى كاتبه ملوك الأقطار من كل جهة و قطر.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۲۳

و أما ملوك اليمن و الحجاز و الهند فإنه أوقفنى مرّة على عدّة كثيرة من مكاتبات ملوك الهند، و بعضها مشتمل على نظم و نثر و فصاحة و بلاغة، و أماما كان يأتيه من ملوك الهند من الهدايا و التحف فشيء لا يحصر كثرة، و تضاعفت الهدايا له فى هذه الدولة أضعاف ما كان يهدى إليه أوّلا، و قال له الدهر: خذ، فأخذ و أعطى حتى أسرف و بذّر، بحيث إنه لم يكن أحد من خچداشيته و غيرهم مع كثرتهم [له مال] إلا ـ من إنعامه عليه، أو هو ساكن فى بيت أنعمه عليه، و الذى أعرف أنا: أنه وهب تسعة دور من بيوت مقدمى الألوف بالدّيار المصريّة على تسعة نفر من خچداشيته الأكابر الأمراء و غيرهم، و قس على هذا من الخيول و القماش، و كان فى مجاورتى بمكة فى سنة ثلاث و ستين يلازمنى و ألازمه فى الحرم كثيرا، و لم أنظره تصدّق على أحد فيما تصدّق به أقل من عشرة أشرفية، هذا مع اقتنائه من كل شيء أحسنه و أجمله و أكثره، لا سيما بركه و خيمه، فكان إليها المنتهى فى الحسن، يضرب بها المثل.

و بكفيك من علو همته أنه أنشأ بداره بستانا أزيد من مائة فدان، بابه الواحد من داره قريب من خط قناطر السباع، و بابه الآخر تجاه الروضة، ثم أنشأ به تلك القبة العظيمة و الرصيف الهائل تجاه الروضة، و بالجملة و التفصيل إن بابه كان محط الرحال، و ملجأ الطالبين الملهوفين، و نصرة المظلومين، و كثرة المحتاجين، فإنه كان يعطى الألفين دينارا دفعة واحدة إلى مادونها، و كان يعطى من المغلّ ألف أردب دفعة واحدة أيضا فى يوم واحد إلى ما دونها إلى عشرة أرادب، و أعطى فى يوم واحد لبعض أعيان خچداشيته مائة ناقة بأتباعها، يعرف هذا كلّ أحد، فقس على كرمه أيها المتأمل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة؛ ج۱۶؛ ص۳۲۳

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۲۴

ما شئت أن تقيس، ثم أعلم أنه لم يخلف بعده مثله، و إن أشكل عليك هذا القول، فسل من أحد من أمرائك العصريّين عشرة من الإبل، فإن أعطاك فاشكر مولاك، و اعلم أنّ الناس فيهم بقية كرم، و إن لم يعطك فاشهد بصدق مقالتى.

و على كل حال إنه كان ملكا كريما جليلا، مهابا شهما، عارفا حاذقا فطنا، فصيح العبارة فى اللغة العربية و التركية بالنسبة لأبناء جنسه، و كان قصير القامة مع كيس فى قدّه، و ظرف فى تناسب أعضائه بعضها لبعض، و كان سيوسا حسن التدبير، و من حسن سياسته أنه لم ينحطّ قدره بعد زوال دولة أستاذه الملك الظاهر جقمق، بل زادت حرمته أضعاف ما كانت فى أيّام أستاذه، مع كثرة حكّام الدولة الأشرفية الإينالية و تفرّق كلمتهم، فساس كل واحد بحسب حاله، و أقام فى دولتهم عظيما مبجّلا، و بوجوده كان أكبر الأسباب فى إعادة دولة خچداشيته بعد موت الملك الأشرف إينال، و بالجملة إنه كان نادرة من نوادر دهره- رحمه اللّه تعالى- و قد استوعبت أحواله فى غير هذا المصنف بأطول من هذا بحسب الباعثة و القريحة، ورثيته بقصيدة نونية فى غاية الحسن- عفا اللّه عنه و صالح عنه أخصامه بمنّه و كرمه.

و توفّى الأمير سيف الدين تنم رصاص من نخشايش الظاهرى المحتسب، أحد أمراء الطبلخانات، قتيلا بيد المماليك الأجلاب مع الأمير جانبك الدّوادار، و قد تقدّم ذكر قتله فيما تقدم.

و كان تنم هذا من عتقاء الملك الظاهر جقمق و خاصكيته، و ترقّى بعد موته إلى أن ولى حسبة القاهرة فى أواخر دولة الملك الأشرف إينال، ثم صار أمير عشرة فى أوائل دولة الملك الظاهر خشقدم، ثم نقل إلى إمرة طبلخاناه، و دام على ذلك إلى أن قتل فى التاريخ المذكور فى قصة الأمير جانبك، و هو يوم الثلاثاء أول ذى الحجة، و كان شابا مليح الشكل، شجاعا عارفا، كريما لسنا، متحركا حاضر الجواب، و كان أحد أعوان الأمير جانبك الدّوادار فى مقاصده- رحمهما اللّه تعالى، و عفا عنهما أجمعين.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۲۵

و توفّى القاضى شمس الدين محمد بن أحمد القرافى المالكى أحد نواب الحكم المالكية و أعيان الفقهاء بالديار المصرية، فى ليلة الاثنين رابع عشر ذى الحجة، و دفن صبيحة يومه بالقرافة و قد جاوز السبعين من العمر، و كان له اشتغال كثير فى ابتداء أمره، و عمل جيد مع ذكاء و حسن تصوّر، لا سيما فى باب التوريق و صناعة القضاء و الشروط رحمه اللّه تعالى و عفا عنه.

أمر النيل فى هذه السنة: الماء القديم- سبعة أذرع و عشرون إصبعا، مبلغ الزيادة تسعة [عشر] ذراعا و سبعة أصابع.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۲۶

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۶۸]

السنة الرابعة من سلطنة الملک الظاهر خشقدم على مصر و هى سنة ثمان و ستين و ثمانمائة.

فيها توفّى قاضى القضاة بدر الدين حسن بن محمد بن أحمد بن الصّوّاف الحنفى الحموى قاضى قضاة حماة، ثم الديار المصرية، إلى أن مات فى يوم الأحد رابع المحرم و دفن من الغد فى يوم الاثنين، و سنه نحو الستين سنة تخمينا، و كان أصله من حماة من أولاد التجار، و اشتغل بالعلم فى مبدأ أمره يسيرا، ثم مال إلى المتجر و تحصيل المال إلى أن حصل على جانب كبير منه، و ولى قضاء حماة بالبذل سنين كثيرة، و طال تكراره إلى القاهرة غير مرّة، و أخذ منه- بوسائطجمل مستكثرة من المال غصبا و رضا، ثم قدم القاهرة فى سنة ست و ستين لأمر من الأمور، و حصل بينه و بين قاضى القضاة محب الدين بن الشّحنة الحنفى شنآن بواسطة صهارة، فسعى عليه و عزله، و ولى عوضه فى ثانى عشرين شهر رجب من سنة سبع و ستين إلى أن مات فى المحرم من هذه السنة، بعد أن مرض نحو الشهر، فكانت مدته كلها فى القضاء خمسة أشهر و أياما بما فيها أيام مرضه، و لقد تعب بولايته و أتعب، و استراح بموته و أراح.

و توفّى السلطان الملک العزيز أبو المحاسن جمال الدين يوسف ابن السلطان الملک الأشرف أبى النصر برسباى الدقماقى الظاهرى، بعد خلعه من السلطنة بسنين كثيرة، بثغر الإسكندرية فى يوم الاثنين تاسع عشر المحرم، و هو فى أوائل الكهولية؛ لأن مولده بقلعة الجبل فى سلطنة أبيه فى سنة سبع و عشرين و ثمانمائة، و أمه خوند جلبّان أم ولد لأبيه چاركسية، تزوّجها أستاذها الملک الأشرف بعد أن ولدت الملک العزيز هذا،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۲۷

و ماتت أيام والده الأشرف، و نشأ الملک العزيز تحت كنف والده بالدّور السلطانية، إلى أن عهد له أبوه الأشرف بالسلطنة فى مرض موته، و مات بعد أيّام.

و تسلطن العزيز هذا بعد عصر نهار السبت ثالث عشر ذى الحجة سنة إحدى و أربعين و ثمانمائة، و هو السلطان الثالث و الثلاثون من ملوک الترک بالديار المصرية و أولادهم، و التاسع من الچراكسة و أولادهم، و تم أمره فى الملک، و صار الأتابک جقمق مدبّر مملكته و فرّق النفقة على المماليک السلطانية كل واحد مائة دينار، لا يتنفّل أحد على أحد كائنا من كان، على قاعدة الملوک العظام، بخلاف من جاء بعده من الملوک، و دام فى الملک إلى أن وقع بين الأتابک جقمق و بين مماليک أبيه الأشرفية أمور آلت إلى خلعه من السلطنة، و سلطنة الأتابک جقمق عوضه فى يوم الأربعاء تاسع عشر شهر ربيع الأوّل سنة اثنتين و أربعين و ثمانمائة، فكانت مدة ملكه نحوا من خمسة و تسعين يوما، ليس له فيها إلّا مجرّد الاسم فقط.

و بعد خلعه من الملک رسم له بالسكن فى قاعة من الحريم السلطانى بقلعة الجبل، فسكن بها إلى أن حسّن له بعض حواشيه التسحّب منها و النزول من القلعة إلى القاهرة لتثور مماليک أبيه به على الملک الظاهر جقمق، ففعل ذلک، و تزيّا فى نزوله فى زى بعض صبيان الطّباخين، و نزل بعد الفطر وقت صلاة المغرب إلى القاهرة من باب المدرج و كانت أيام شهر رمضان، فنزل و لم يفطن به أحد، لاشتغال الخدام و غيرهم بالفطر، فلما نزل إلى تحت القلعة لم ير شيئا مما قيل له، فندم على نزوله، و بقى لا يمكنه العود إلى مكانه، فاختفى من وقته هو و مملوكه أزدمر و طواشيه صندل، و طباخه إبراهيم، و وقع له و للناس فى اختفائه أمور و محن، و نكبت جماعة كثيرة من الناس بسببه و ضرب جماعة من مماليک أبيه بسببه بالمقارع و الكسّارات، و وسّط بعضهم، و قلق الملک الظاهر جقمق بسببه قلقا زائدا.

و ضاقت الدنيا على الملک العزيز يوسف، و تفرقت عنه أصحابه إلى أن ظفر به

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۲۸

الملک الظاهر جقمق فى أواخر شوال، و كـان الـذى أمسكه الملـک الظـاهر يلباى، و كان يوم ذاک أمير عشـرة، فأنعم عليه الملک الظاهر جقمق بقرية سرياقوس، زيادة على ما بيده لكونه قبض على الملک العزيز فى الليل، و طلع به إلى السلطان، و لما ظفر به الملک الظـاهر جقمـق حبسه بالـدّور السـلطانية، ثم بعثه إلى سـجن الإسـكندرية، فحبس بهـا إلى أن أطلقه الملـک الظـاهر خشـقدم فى أوائل سلطنته، هو و الملک المنصور عثمـان ابن الملـک الظـاهر جقمق، و سـكن العزيز بـدار فى الإسـكندرية إلى أن مـات بهـا فى التاريخ المقدّم ذكره، بعد أن قضى من عمره أياما عجيبة من حبس و قهر و تنغّص عيش- عوّضه اللّه الجنة بمنه و كرمه.

و توفّى الشيـخ الصالح المعتقد المجذوب عمر البانى الكردى بسـكنه بجامع قيدان على الخليج بالقرب من قناطر الأوز خارج القاهرة، فى ليلـة الجمعـة سـلخ محرم هذه السـنة، و صـلى عليه ثلاث مرار، مرّة بجامع قيدان حيث كان سـكنه و وفاته، و مرّة فى الطريق، و مرّة حيث دفن بتربـة الملک الظاهر خشـقدم فى الصـحراء، و كانت جنازته مشـهودة إلى الغاية، بحيث إن نعشة رفع على الأصابع من كثرة الناس مع هذا المدى البعيد، و مات و قد جاوز الستين، و كان أصـله بانيّا- طائفة من الأكراد- ولد هناک و قدم القاهرة، و نزل صوفيا بخانقـاه سـعيد السـعداء، و دام على ذلـک دهرا إلى أن ظنّ منه نوع من الجنون الـذى يسـميه الفقراء جذبـة، فنقله أهل الخانقاه عنهم، فسكن بدار، ثم انتقل إلى جامع قيدان، فدام به سنين كثيرة، و به اشتهر بالصّلاح، و قصدته الناس للزيارة و التّبرّک بدعائه، مع أنه كان لا يقبل من أحد شيئا إلا نوع الأكل، و كانت جذبته غير مطبقة،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۲۹

لأنـه كـان لاـ يخل بالمكتوبـة بل يغتسل فى الغالب لكل صـلاة صـيفا و شـتاء، و كان له فى مبـدأ أمره اشـتغال ببلاده، و لم يبلغنى من كراماته شئ، و ببان ببائين ثانى الحروف مفتوحين و بعدهما ألف و نون ساكنة- أظنها قبيلة فى الأكراد- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى المقام الشـهابى أحمد ابن الملک الأشـرف برسـباى الدقماقى الظاهرى بدار عمّه زوج أمه الأمير قرقماس الأشرفى أمير سلاح، بخـط التبانـة خارج القاهرة، فى يوم السـبت سابع شـهر ربيع الأول، حضـر السـلطان الصـلاة عليه بمصـلاة المؤمنى، و دفن بتربـة والـده الملک الأشـرف برسـباى بالصـحراء فى فسـقيّة واحدة، و بموت أحمد هذا انقرضت ذرية الملک الأشـرف برسـباى لصلبه، لأن أحمد المذكور خلّف بنات صغارا.

و كان سـيدى أحمد هذا أصغر أولاد الملک الأشرف، تركه حملا، و أمه أم ولد چاركسية، تزوجها الأمير قرقماس الأشرفى الجلب، و هو الـذى تولّى تربيته إلى أن كبر، و ماتت أمه، فلم يتركه قرقماس، و اسـتمر عنـده، و بهـذا المقتضـى لم يقدر أحد من السـلاطين أن يأخـذه منه و برسـله إلى ثغر الإسـكندرية، و لما كبر أراد غير واحـد من الملوک أن يرسـله إلى الإسـكندرية عنـد أخيه الملک العزيز يوسف المقدم ذكر وفاته فى هذه السنة، فقال قرقماس: «إذا خرج أحمد هذا إلى جهة من الجهات أخرج أنا أيضا معه» فسكت القائل.

و لا زال الشـهابى مقيما بالقاهرة إلى أن صار فى حدود الرجال غير أنه لم ينظره أحد قط، و لم يخرج من بيته قط لأمر من الأمور حتى و لاـ إلى صـلاة الجمعـة و لاـ إلى العيـدين، بـل يسـمع الناس به و لا يرونه إلى أن مات، و مع هـذا كاء كانت الملوک مطمئنـة بإقامته بالقاهرة لحسن طاعة قرقماس للسـلاطين، و كان على ما قيل شابا طوالا جميلا فاضـلا عارفا، و له محبة فى الفضـيلة و مطالعة الكتب، و يكتب المنسوب، و كان موته بعد أخيه العزيز من النوادر، فإنه عاش بعد موت أخيه العزيز شهرا و ثمانية عشر يوما، و العجيب

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۳۰

أنهما شابان كاملان ماتا فى هذه المدّة اليسيرة من غير طاعون، و إنما هى آجال متقاربة، و محل الظن بالملک، و أظنه برئ من ذلک، اللهم إن كان وقع شيء من غير الملک من جهة النسوة أو غيرها فيمكن- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الشيـخ جمال الدين عبد اللّه ابن الشيـخ الإمام القدوة المسلک الرّبانى نور الدين أبى الحسن على بن أيّوب الدمشقى الأصل و المولد و المنشأ، المصرى الدار و الوفاة، خادم خانقاه سعيد السعداء، فى ليلة الأربعاء سابع عشر شهر ربيع الآخر، و صلّى عليه بعد أذان

العصر من يوم الأربعاء المذكور بمصلاة باب النصر، و دفن بمقابر الصوفية.

و كان رحمه اللّه تعالى له اشتغال و فضيلة مع فصاحة و طلاقة لسان، و محاضرة حسنة، و كرم نفس، مع العزلة و القناعة، مع التجمل فى ملبسه و شأنه، و كان الناس فى أمن من يده و لسانه- عفا اللّه عنه.

و توفّى الأمير سيف الدين تنم بن عبد اللّه من عبد الرزاق المؤيدى نائب الشام بها فى يوم الأربعاء ثانى عشرين جمادى الأولى، و دفن بدمشق بعد يومين لأمر اقتضى ذلك، لتعلق كان عليه، و مات و هو فى عشر السبعين، و كان چاركسى الجنس، من عتقاء الملك المؤيد شيخ و خاصكيته الصغار، ثم جعله خازندارا صغيرا، و مات الملك المؤيّد و هو على ذلك، ثم صار فى دولة الملك الأشرف برسباى رأس نوبة الجمدارية، ثم أمير عشرة، ثم ولى حسبة القاهرة فى أوائل دولة الملك الظاهر جقمق، ثم نقل إلى نيابة إسكندرية، ثم عزل و قدم القاهرة، و بعد عزله بمدّة يسيرة ولى نيابة حماة، فلم تطل مدّته بحماة، و نقل إلى نيابة حلب، فلم ينتج أمره فى نيابة حلب، و رجم من أهلها، فعزله الملك الظاهر جقمق، و استقدمه إلى مصر أمير مائة و مقدّم ألف بها، ثم صار أمير مجلس، ثم صار فى دولة الملك المنصور عثمان أمير سلاح بعد جرباش الكريمى قاشق، بحكم عزله و عجزه، و دام على ذلك إلى أن كانت الفتنة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۳۱

بين الملك المنصور عثمان و بين أتابكه إينال العلائى، فكان تنم هذا من حزب الملك المنصور بالقلعة، فلما تسلطن الأتابك إينال حبس تنم المذكور بثغر الإسكندرية، إلى أن أطلقه الملك الظاهر خشقدم، و أطلق معه الأمير قانى باى الچاركسى، و سيّرهما إلى ثغر دمياط بطّالين، ثم بعد مدة يسيرة أحضره الظاهر خشقدم إلى القاهرة، و ولّاه نيابة دمشق بعد عزل الأمير جانم الأشرفى، فتوجّه تنم إلى دمشق و حكمها، فلم تحمد سيرته و تشكر طريقته، إلى أن مات فى التاريخ المذكور.

و كان- رحمه اللّه تعالى- له مساوئ و محاسن، و أظن الأول أكثر، و من غريب ما اتفق فى أمره أنه لما كان محبوسا كان رجل من أصحابه ملتفتا إلى أمره و لما يصير من شأنه، فقصد الرجل بعض المشهورين بعلم النّجوم و أرباب التّقويم، فعمل الرجل لتنم المذكور زايرجاة، و أتقن عملها، فخرج له أبيات تشعر بسلطنة تنم المذكور، فجاءنى الرجل و هو مسرور، و حكى لى ذلك، فأجبته بكلام معناه:

إن هؤلاء كذبة، ليس لهم معرفة بهذه الأمور، و كل ما يقولونه كذب و بهتان و اختلاق، نصبة على أخذ الأموال، فعظم ذلك عليه، فقلت له: «لى معك شرط، أكتب الأبيات، فإن تسلطن فهو كما تقول، و إن كانت الأخرى فأكتبها فى ترجمة وفاته ليكون ذلك عبرة لمن يصدّق كذب هؤلاء الفسقة» فقال: نعم، الأبيات هى [الطويل]

و إنّ الذى فى السجن لا بدّ أنه يكون مليكا للأنام عزيزا

فأوله تاء و آخر اسمه على القطع ميم، كن عليه حريزا

و ذلك كهل يا أخىّ و إنه لضخم القفا و الصدر فاصغ مميزا

و لا بد أن يأتى الزمان بقوة و يعلو رقابا للعداة محيزا

فزايرجة فى نظمها نطقت بذا فكن لى بهذا العلم منك مجيزا

و هذا الذى عمل هذه الزّابرجة الناس مجمعون على معرفته، فما العجب من كذب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۳۲

هؤلاء الكذبة الجهلة الأوقاح، و إنما العجب من تصديق الناس لكلامهم، و قد رأيت جماعة من ذوى العقول تقول: «صدق فلان فى قوله كذا و كذا» فأقول له:

«ما صدق بل حزر مرّة و ثانية و ثالثة و رابعة فأخطأ، ثم أصاب فى الخامسة، و كل أحد يقدر على أن يقول مثل ذلك، لان الخير و الشر و الولاية و العزل واقع فى كل أوان و زمان، و كل منتصب لا بدّ له من العزل أو الموت، فالفرق فى هذا المعنى بين العارف و

الجاهل بباب الحزر واضح لا يحتاج إلى بيان».

و توفّى الأمير سيف الدين جانبك بن عبد اللّه التاجى المؤيدى المعزول عن نيابة حلب، و المرشح لنيابة الشّام بعد موت تنم المقدم ذكره، قبل أن يخرج من حلب بدار سعادتها، فى يوم الخميس ثامن جمادى الآخرة بعد أن مرض أياما يسيرة، و هو فى عشر السبعين، و كان چاركسى الجنس، من صغار مماليك الملك المؤيّد شيخ، و صار خاصكيا بعد موته إلى أن صار نائب بيروت فى أوائل دولة الملك الظاهر جقمق، ثم نقل إلى نيابة غزة، ثم ولى نيابة صفد، ثم حماة، كل ذلك ببذل المال لاتّضاع قدره، ثم ولى نيابة حلب بعد موت الحاج إينال اليشبكى، فباشر ذلك إلى هذه السنة، فرسم له أن يقدم إلى القاهرة أمير مائة و مقدّم ألف بالديار المصرية، فتهيأ للخروج من حلب فمات الأمير تنم نائب الشام، فأقره الملك الظاهر خشقدم عوضه فى نيابة الشام، فمات جانبك هذا قبل أن يصل إليه الخبر بولاية دمشق، و قيل بعد وصول الخبر بيوم، و كان متوسط السّيرة فى ولايته، و لم تسبق له رئاسة بالديار المصرية غير الخاصكية، و كان غالب ولايته ببذل المال، و الذى يبذل المال لا بد له من الظلم، و قد بلغنا عنه أنه كان يستعمل لقيمة الفقراء الخضراء، و اللّه أعلم بصحة ذلك.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۶، ص: ٣٣٣

و توفّى الأمير سيف الدين جانبك بن عبد اللّه الأبلق أحد أمراء العشرات قتيلا بيد الفرنج فى الماغوصة بجزيرة قبرس فى إحدى الجمادين، و قد ذكرنا سبب قتله فى «الحوادث» و حاصل الأمر: أنه لما ملك الماغوصة، مدّ يده لأولاد أهل الماغوصة من الفرنج، فعزّ على الفرنج ذلك، لأنه كان أخذها بالأمان: فشكوا ذلك إلى صاحب قبرس جاكم الفرنجى، فنهاه عن ذلك فلم ينته، فوقع بينهم تشاجر أدّى ذلك إلى قتله، و لم ينتطح فى ذلك شاتان، و بالجملة إن جانبك المذكور كان غير مشكور السيرة فى مدّة إقامته بقبرس- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى شيخ الإسلام قاضى القضاة علم الدين صالح ابن شيخ الإسلام سراج الدين عمر بن رسلان بن نصير البلقينى الكنانى الشافعى، قاضى قضاة الديار المصرية و عالمها، فى يوم الأربعاء وقت الزوال خامس شهر رجب، بعد أن مرض نحو عشرة أيام، و دفن من الغد بمدرسة والده تجاه داره بحارة بهاء الدين، بعد أن صلى عليه بالجامع الحاكمى، و توجهوا بجنازته من طريق الجملون العتيق، و دخلوا بها من باب الجامع الذى بالشارع عند باب النصر، و عادوا بنعشه من الباب الذى بالقرب من باب الفتوح، و أعيد إلى مدفنه، و كانت جنازته مشهودة إلى الغاية.

و مات و سنه سبع و سبعون سنة، لأن مولده بعد عشاء ليلة الاثنين ثالث عشر جمادى الأولى سنة إحدى و تسعين و سبعمائة، و هو من جملة الفقهاء الذين قرأت عليهم القرآن فى صغرى، لأن أختى كانت تحت أخيه قاضى القضاة جلال الدين البلقينى، فكنّا بهذا المقتضى كشيء واحد، و كان إماما عالما فقيها، درّس و أفتى سنين كثيرة، و ناب فى الحكم عن أخيه جلال الدين المذكور، ثم ولى القضاء بعد ذلك غير مرّة، و طالت أيّامه فى المنصب، و انتهت إليه رئاسة مذهبه فى زمانه، و قد استوعبنا حاله فى عدة مواضع من مصنفاتنا، ليس لذكرها فى هذا المختصر محل، و فى شهرته ما يغنى عن الإطناب فى ذكره هنا- رحمه اللّه تعالى و رضى عنه.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۶، ص: ٣٣۴

و توفّى الأمير سيف الدين كمشبغا بن عبد اللّه السيفى نخشباى نائب ألبيرة بها فى أواخر شوال، و كان من عتقاء الأمير نخشباى الذى ضرب الملك الظاهر جقمق رقبته، ثم خدم كمشبغا هذا فى بيت السلطان، ثم صار خاصكيا، و دام على ذلك دهرا إلى أن سعى فى نيابة قلعة حلب فوليها دفعة واحدة بالبذل، فلم تشكر سيرته و عزل، و نقل إلى ألبيرة، فلم تطل مدته بها، و مات فى التاريخ المذكور، و كان لا ذات و لا أدوات، و لولا أنه ولى هاتين الولايتين ما ذكرناه هنا.

و توفّى الشيخ أبو الفضل محمد ابن الشيخ الإمام الفقيه الصالح القدوة المسلك شمس الدين محمد بن حسن المعروف والده بالشيخ الحنفى، فى ليلة السبت ثامن ذى الحجة بجزيرة أروى المعروفة بالوسطانية، بعد مجيئه من الوجه البحرى، و حمل من الجزيرة فى باكر

نهار السبت المذكور، و صلّى عليه و دفن بزاوية أبيه خارج قنطرة طقزدمر، و هو فى عشر الستين من العمر، و كانت لديه فضيلة، و له اشتغال بحسب الحال، و لكنه لم يكن أمينا على الأوقاف- عفا اللّه تعالى عنه بمنه و كرمه.

و توفّى الوزير علاء الدين على ابن الحاج محمد الأهناسى بمكة المشرفة بطالا فى حياة أبيه، فى ثانى عشرين ذى القعدة، و مات و هو فى أوائل الكهولية، و قد ولى على هذا الوزر و الأستادارية و الخاص غير مرّة، و علىّ هذا و أبوه محمد هما من أطراف الناس الأوباش المعدودة رئاستهم من غلطات الدّهر، و قد ذكرنا من أحوال على هذا و ولاياته نبذة كبيرة فى تاريخنا «الحوادث» تغنى عن العيادة هنا- انتهى- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى السلطان صارم الدين إبراهيم بن محمد بن على بن قرمان صاحب بلاد الرّوم- قونية، و لا رنده و قيسارية و غيرها- فى أواخر ذى القعدة أو أوائل ذى الحجة

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۳۵

و قد ناهز الستين من العمر، بعد أن ولى بلاد قرمان أكثر من خمس و أربعين سنة، و تولى بعده ابنه إسحاق، و فى لغتهم إسحاق أيسق، و وقع الخلف بسبب ولاية إسحاق بين أولاده.

و بنو قرمان هؤلاء من أصلاء الملوک كابرا عن كابر، أبا عن جد فصاعدا إلى السلطان علاء الدين السّلجوقى، و قيل إن بنى قرمان هؤلاء من ذرية بايندر أحد أكابر أمراء جانكزخان ملک التّرک الأعظم.

و توفّى القاضى شمس الدين محمد ابن الشيخ بدر الدين محمد بن السّحماوى الشافعى أحد أعيان موقعى الدست الشريف بالديار المصرية، فى ليلة السبت خامس عشر ذى الحجة، و دفن صبيحة يوم السبت المذكور عن اثنتين و ثمانين سنة، و كانت لديه فضيلة و عنده حشمة و أدب و تواضع، و باشر التوقيع أزيد من خمسين سنة، و خدم بالتوقيع عند جماعة من أعيان الأمراء، آخرهم الملک الظاهر خشقدم إلى أن تسلطن- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الأمير سيف الدين طوخ بن عبد اللّه الجكمى الرأس نوبة الثانى- كان- و أحد أمراء الطبلخانات بطالا بعد ما كفّ بصره، فى ليلة الأربعاء تاسع عشر ذى الحجة، و دفن من الغد بالصحراء، و قد زاد سنه على الثمانين و لم يحج حجة الإسلام، و كان أصله من مماليک جكم المتغلب على حلب، و كان من مساوئ الدهر لا يصلح لدين و لا لدنيا، و كان مسرفا على نفسه، ما أظنه ترک الشرب إلا فى مرض موته، و لم يحج حجة الإسلام مع طول عمره و سعة ماله- و لا قوة إلا بالله العلى العظيم، اللهم وفقنا لما تحب و ترضى يا رب العالمين.

و توفّى الأمير سيف الدين بردبک بن عبد اللّه الأشرفى الدّوادار الثانى- كان-، قتيلا بيد العربان بالقرب من منزلة خليص فى عوده من الحج فى يوم

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۳۶

الاثنين سادس عشر ذى الحجة، و قد ناهز الخمسين أو جاوزها، و كان أصله من سبى قبرس قبيل سنة ثلاثين و ثمانمائة مراهقا، و ملكه الملک الأشرف إينال أيّام إمرته، و ربّاه و أعتقه و جعله خازنداره، و زوّجه بابنته الكبرى، ثم جعله دواداره، و لما تسلطن أمّره و جعله دوادارا ثالثا ثم جعله دوادارا ثانيا، و نالته السعادة، و عظم فى الدولة و قصده الناس لقضاء حوائجهم، و شاع ذكره و بعد صيته، و حمدت سيرته، و عمّر الجوامع فى عدّة بلاد، و له مآثر و ذكر فى الصدقات و الإعطاء، و دام على الدّوادارية إلى أن نكب ابن أستاذه السلطان الملک المؤيّد أحمد ابن الملک الأشرف إينال، و خلع من السلطنة، و أمسک بردبک هذا و صودر، و أخذ منه نحو من مائتى ألف دينار، و وقع له أمور.

و بالجملة إنه كان لا بأس به لولا محبته لجمع المال من أى وجه كان- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الشيخ الفقيه العالم المقرئ تاج الدين محمد بن أحمد الفطويسى الإسكندرى المالكى إمام السلطان، و مدرس الحديث

بالظاهرية العتيقة، مات فی نصف ذی القعدة، و مولده سنة خمس عشرة و ثمانمائة، و اشتغل كثيرا فی عدّة علوم، لكنه لم يكن ماهرا فی غير القراءات، و حصلت له وجاهة آخر عمره.

و توفّی الأمير سيف الدين سودون بن عبد اللّه اليشبكی التركمانی المعروف بسودون قندورة، أحد مقدمی الألوف بدمشق و أمير حاج المحمل الشامی، بعد خروجه من المدينة الشريفة إلی جهة الشام، فی أواخر ذی الحجة، أو فی أوائل المحرم، و قد زاد سنه علی الستين، و كان من مماليک الأمير يشبک الجكمی الأمير آخور، و بقی بعد أستاذه من جملة مماليک السلطان، و دام علی ذلک دهرا طويلا- لا يلتفت إليه، إلی أن تحرک له بعيض سعد، و انتمی للصاحب جمال الدين ناظر الخاص ابن كاتب جكم بواسطة خچداشه جانبک اليشبكی والی القاهرة، فولی بعض قلاع البلاد الشامية:

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۳۷

قلعة صفد، و قلعة الشام، ثم تنقل فی البلاد بالبذل إلی أن صار من أمره ما كان، و لم يكن سودون هذا من أعيان الأمراء لتشكر أفعاله أو تذم.

أمر النيل فی هذه السنة: الماء القديم ستة أذرع و خمسة عشر إصبعا، مبلغ الزيادة تسعة عشر ذراعا و ثلاثة عشر إصبعا.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۳۸

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۶۹]

السنة الخامسة من سلطنة الملک الظاهر خشقدم علی مصر و هی سنة تسع و ستين و ثمانمائة:

فيها توفّی الأمير سيف الدين قانی بای طاز بن عبد اللّه البكتمری نائب ألبيرة بها، فی أواخر شهر ربيع الأول أو أوائل شهر ربيع الآخر، و هو فی الثمانين تخمينا، و كان أصله من مماليک بكتمر جلّق الظاهری نائب الشام، و صار بعد موت أستاذه من مماليک السلطان، ثم نقل فی أواخر عمره إلی نيابة قلعة صفد، ثم إلی نيابة ألبيرة، إلی أن مات، و هو من مقولة سودون تركمان المقدم ذكره فی السنة الخالية.

و توفّی الأمير موسی [بن محمد بن موسی] صاحب حلی ابن يعقوب من بلاد اليمن فی شهر ربيع الآخر بمدينة حلی ابن يعقوب، و كان معدودا من أعيان الأمراء و من ذوی البيوت فی الممالک، و لجده موسی مع الشريف حسن بن عجلان صاحب مكّة وقائع ذكرناها فی ترجمة حسن المذكور فی تاريخنا «المنهل الصافی و المستوفی بعد الوافی».

و توفّی الشهاب بديد بن شكر وزير الشريف محمد بن بركات صاحب مكّة، فی ليلة السبت السابع من جمادی الأولی بوادی الآبار من عمل مكة، و حمل بقية ليلته علی الرقاب إلی بطن مكة، فغسّل بالبيت الذی أنشأه الشريف محمد بن بركات بمكة، و صلی عليه صلاة الصبح بالحرم، و دفن بالمعلاة علی والده، و كانت جنازته مشهودة،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۳۹

و أسف الناس عليه؛ لأنه كان مقصودا للخير، و من بقية الشيوخ و الأكابر المشار إليهم، و بديد بباء موحدة ثانية الحروف مضمومة و بعدها دال مهملة مفتوحة، ثم ياء آخر الحروف ثم دال ساكنتين.

و توفّی القاضی بدر الدين محمد ابن قاضی القضاة شيخ الإسلام شهاب الدين أحمد ابن علی بن حجر العسقلانی الشافعی فی يوم الأربعاء سادس عشر جمادی الآخرة و قد جاوز الخمسين من العمر، و لم يخلف قاضی القضاة ولدا ذكرا غيره و لا أنثی، و بموته انقطع نسل ابن حجر من الذكور.

و توفّی الأمير سيف الدين جانبک بن عبد اللّه الناصری نائب طرابلس بها فی يوم الأربعاء حادی عشرين شهر رجب، و قد جاوز السبعين من العمر، و كان من صغار مماليک الملک الناصر فرج و عتقائه، ثم خدم بعد موت أستاذه عند خچداشه الأمير برسبای

حاجب حجاب دمشق، و بخدمته عرف بين الناس، و دام بخدمته إلى أن خرج الأمير إينال الجكمى نائب الشام على الملك الظاهر جقمق و انهزم، فقبض جانبك عليه، و قد ذكرنا كيفية القبض عليه فى غير موضع من مصنفاتنا، ليس لذكرها فى هذا المختصر محل، فأنعم عليه الملك الظاهر جقمق بإمرة طبلخاناه بدمشق، ثم تنقل بعد ذلك بعدّة وظائف و أعمال غالبها بالبذل، إلى أن مات رحمه اللّه تعالى.

و توفى الأمير عجل بن نعير أمير عرب آل فضل بالبلاد الشامية، و هو بطّال بالقرب من أعمال حلب.

و توفى السلطان خليل بن إبراهيم صاحب مملكة شماخى و ما والاها فى السنة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۴۰

الخالية، فيما أظن بمدينة شماخى و لم تحرّر وفاته إلا فى هذه السنة لبعد المسافة، و مات بعد أن ملك نحو أربعين سنة، و كان من أجلّ ملوك الشرق قدرا و أحسنهم سيرة، و أجودهم بضاعة و أكثرهم سياسة، و أحزمهم رأيا، و هو آخر من كان بقى من أكابر الملوك، و هو أحد من أوصاه السلطان مرادبك بن محمد بن عثمان ملك الرّوم على ولده محمد صاحب الروم فى زماننا هذا، و قد ذكرنا أمره محررا فى «الحوادث» - رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الوزير شمس الدين محمد البباوى، غريقا ببحر النيل بساحل بولاق بالقرب من فم الخور، وقت المغرب من يوم الأربعاء ثامن عشرين ذى الحجة، و هو فى الكهولية؛ و كان سبب موته أنه توجه فى مركب عقيبة إلى ناحية طناش بالجيزية أو غيرها، و عاد فغرق من شردريح وافى مركبه قلبتها، و للّه الحمد.

و كان اللباوى هذا أصله من ببا الكبرى بالوجه القبلى، كان بها خفيرا، و قيل راعيا، و قيل غير ذلك، و قدم القاهرة، و صار بخدمة بعض الطباخين مرقدارا، ثم صار صبيا عند بعض معاملى اللحم، و لا زال ينتقل فى هذه الصناعات إلى أن صار معاملا، و حسنت حاله، و ركب حمارا، و لا زال أمره ينمو فى صناعته إلى أن أثرى، و حصّل مالا كثيرا، و صار معوّل الوزراء عليه فى حمل اللحم المرتب للمماليك السلطانية، و بقى يركب بغلا بنصف رحل بسلخ جلد خروف، و يلبس قميصا أزرق كأكابر المعاملين.

و سمع الملك الظاهر خشقدم بسعة ماله- و كان من الخسّة و الطمع فى محل كبير- فاحتال على أخذ ماله بأن ولّاه نظر الدّولة فى أوائل ذى الحجة من سنة سبع و ستين، و لبس البباوى العمامة و الفرجيّة و الخفّ و المهماز، و تزيّا بزى الكتاب، و ترك زىّ المعاملين، فشقّ ذلك على الناس قاطبة، و عدّوا ذلك من قبائح الملك الظاهر خشقدم،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۴۱

لأن البباوى هذا مع انحطاط قدره و جهله و وضاعته و سفالة أصله، مع عدم معرفته بالكتابة و القراءة، فإنه كان أمّيّا لا ينطق بحرف من حروف الهجاء، إلا إن كان تلقينا، و مع هذا كله كان غير لائق فى زيّه، فباشر نظر الدّولة مدّة يسيرة، و اختفى الأمير زين الدين الأستادار و ولى الأستادارية من بعده المجد بن البقرى، و شغر الوزر عنه، و طلب السلطان البباوىّ هذا و ولّاه الوزر فى يوم الثلاثاء سابع عشر شهر ربيع الأول من سنة ثمان و ستين و ثمانمائة، و صار وزير الديار المصرية، فلم نعلم بأقبح حادثة وقعت فى الديار المصرية قديما و حديثا من ولاية البباوى هذا للوزر؛ لأنه كان أحد الأعوام الأوباش الأطراف السّوقة، و وثب على هذه الوظيفة العظيمة التى هى أجلّ وظائف الدنيا بعد الخلافة شرقا و غربا، و قد وليها قديما جماعة كثيرة بالديار المصرية و غيرها من سادات الناس من زمن عبد الملك بن مروان إلى أيام الملك الظاهر بيبرس البندقدارى، و هى إلى الآن أرفع الوظائف قدرا فى سائر بلاد اللّه، و فى كل قطر من الأقطار إلا الديار المصرية فإنه انحطّ بها قدرها، و وليها من الأوباش و صغار الكتبة جماعة من أوائل القرن التاسع إلى يومنا هذا، فالذى وليها فى عصرنا هذا ممن لا يصلح لولايتها ابن النجّار، و على بن الأهناسى البرددار، و أبوه الحاج محمد المقدّم [ذكره]، و يونس بن جربغا دوادار فيروز النّوروزى، و غيرهم من هذه المقولة، و مع هذا كله بلاء أعظم من بلاء، و أعظم الكل ولاية البباوى هذه، فإن كل واحد ممن ذكرنا من الذين ولّوا الوزر كان لكل واحد ميزة فى نفسه، و قد تقدّم له نوع من أنواع الخدم و المباشرات،

إلا البباوى هذا فإنه لم يتقدّم له نوع من أنواع الرئاسة، و مع هذه المساوئ باشر بظلم و عسف و عدم حشمة و قلة أدب مع الأكابر و الأعيان، و ساءت سيرته، و كثر الدعاء عليه، إلى أن أخذه اللّه تعالى أخذ عزيز مقتدر، و أراح اللّه المسلمين منه؛ و قد هجاه الشعراء بأهاج كثيرة، ذكرنا بعضها فى تاريخنا «الحوادث»، و أنا أستغفر اللّه من لفظة وقعت منى فى ترجمته، فإنى قلت فى آخر ترجمته: ما ولى الوزر فى الدنيا أحد أخسّ

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۴۲

من البباوى هذا، و لا يليها أيضا أحد قبح منه إلى يوم القيامة، فوليها بعد مدة شخص من غلمانه يقال له قاسم جغيتة، فلا حول و لا قوة إلا بالله العلى العظيم.

أمر النيل فى هذه السنة: الماء القديم سبعة أذرع سواء، مبلغ الزيادة لم يتحرّر، نذكره فى السنة الآتية عند انتهاء النيل.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۴۳

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۷۰]

السنة السادسة من سلطنة الملک الظاهر خشقدم على مصر و هى سنة سبعين و ثمانمائة.

فيها توفّى الأمير زين الدين قراجا بن عبد اللّه العمرى الناصرى أحد أمراء الألوف بدمشق بها فى المحرم، و قد ناهز الثمانين من العمر، و هو من مماليك الناصر فرج بن برقوق، و طالت أيامه فى الجندية إلى أن استقرّ به الملک الظاهر جقمق و الى القاهرة، ثم تنقّل بعد ذلک فى عدّة ولايات إلى أن صار أحد أمراء الألوف بدمشق، إلى أن مات فى هذه السنة، و كان من المهملين المسرفين على أنفسهم مع شهرة بالشجاعة.

و توفّى الأمير إسحاق بن إبراهيم بن قرمان ملک الروم، غريبا عن بلاده بديار بكر عند حسن بک بن قرايلک فى أوائل المحرم، بعد أن وقع له أمور و حروب لما ملک الروم و خالفه إخوته، و قد ذكرنا أمره فى تاريخنا «الحوادث» مفصلا.

و توفّى الأمير سيف الدين جانم بن عبد اللّه المؤيّدى، المعروف بحرامى شكل، أحد أمراء العشرات و رأس نوبة، بعد مرض طويل و عمر طويل أيضا، و كان من أوباش مماليک الملک المؤيّد شيخ، و طالت أيامه فى الخمول و الفقر إلى أن جعله الملک الظاهر جقمق بوّابا، و أنعم عليه بإقطاع كبير، فحسن حاله، و امتنع عن الشحاتة من الأكابر، و دام على ذلک إلى أن تسلطن الملک الأشرف إينال، فطلب منه إمرة، فلم يعطه شيئا، فقام بين يديه فى الملأ و قال: «إما توسطنى أو تعطينى إمرة»، فضحک الناس و شفعوا له حتى أعطاه إمرة عشرة، ثم صار من جملة رءوس النوب،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۴۴

و دام على ذلک إلى أن مات، و كان له حكايات فى البخل و الجنون و النذالة نستحى من ذكرها، و بالجملة إنه كان بوجوده عارا على جنس بنى آدم.

و توفّى القاضى بدر الدين حسن الرهونى المالكى أحد نوّاب الحكم المالكية بالقاهرة، فى يوم الثلاثاء أوّل شهر ربيع الأوّل، و قد قارب الستين من العمر، و كانت لديه فضيلة، إلا أنه كان متهوّرا فى أحكامه.

و توفى القاضى نور الدين على الشيشينى الحنبلى، أحد نوّاب الحكم الحنابلة فى صفر، و قد جاوز الكهولية، و كان فاضلا معدودا من فقهاء الحنابلة.

و توفى القاضى بدر الدين محمد ابن القاضى ناصر الدين محمد، المعروف بابن المخلّطة، المالكى السكندرى الأصل، المصرى المولد و المنشأ و الوفاة، فى ليلة السبت تاسع عشر ربيع الأول، و دفن من الغد بالصحراء، و هو فى عنفوان الشبيبة، و كان ولى نيابة الحكم بالقاهرة، ثم ولى قضاء الإسكندرية، و حسنت سيرته، إلى أن مرض و قدم القاهرة مريضا، و لازم الفراش إلى أن مات، و كان

فاضلا عالما فقيها أديبا، حسنة من حسنات الدهر- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الشيخ المعتقد إبراهيم الغنام بداره بالحسينية خارج القاهرة، فى يوم الخميس مستهل ربيع الآخر، و صلى عليه برحبة بالقرب من داره، و دفن بها، و كان من المعمرين، و للناس فيه اعتقاد حسن، و كان يبيع لبن المعز، يسوقها أمامه بالطرقات على عادة باعة اللبن، و كان مشهورا بالصلاح.

و توفى الأمير سيف الدين جانبك بن عبد اللّه من أمير الأشرفى المعروف

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۴۵

بالظريف، محبوسا بقلعة صفد فى هذه السّنة، و قد جاوز الكهولية، و كان من صغار مماليك الملك الأشرف برسباى، و صار خاصكيا فى دولة الملك الظاهر جقمق، ثم خازندارا صغيرا ثم دوادارا صغيرا ثم تأمّر عشرة، ثم صار خازندارا كبيرا فى دولة الملك الأشرف إينال، ثم صار فى دولة الملك الظاهر خشقدم دوادارا ثانيا بإمرة مائة و تقدمة ألف، فلم تطل أيامه فيها، و قبض عليه مع من قبض عليه من خچداشيته الأشرفية، و حبس سنين إلى أن مات فى السجن، و كان شابا خفيفا، و فيه طيش مع تكبر و تعاظم و بخل زائد، لكنه كان عارفا بأنواع الملاعيب كالرّمح و البرجاس و غير ذلك، و على كل حال كانت مساوئه أكثر من محاسنه.

و توفّى الأمير سيف الدين ملك أصلان بن سليمان بن ناصر الدين بك بن دلغادر نائب أبلستين قتيلا بها بيد فداوى فى صلاة الجمعة بالجامع، وثب عليه الفداوى و ضربه بسكين كان فى يده إلى أن قتله، و قتل الفداوى فى الوقت، و قيل إن الفداوى كان أرسله الملك الظاهر خشقدم، و حضر سيفه إلى الديار المصرية فى عاشر ربيع الآخر، و ولى بعده شاه بضع أخوه، و وقع بعد ذلك أمور و فتن قائمة إلى يومنا هذا.

و توفّى الشيخ الإمام الخطيب البليغ الأديب المفنن برهان الدين إبراهيم ابن قاضى القضاة شهاب الدين أحمد بن ناصر بن خليفة بن فرج بن عبد اللّه بن عبد الرحمن الباعونى الأصل، الدّمشقى المولد و المنشأ و الوفاة، فى يوم الخميس ربع عشرين شهر ربيع الأوّل، و دفن من يومه، و قد عمّر، و مولده فى سابع عشرين شهر رمضان سنة سبع و سبعين و سبعمائة، و نشأ بدمشق، و طلب العلم، و قرأ على علماء عصره إلى أن برع فى عدّة فنون من فقه و عربية و أدب، و غلب عليه الأدبيات و الشعر، و له نظم رائق و نثر فائق، وقفت على عدّة كتب من مكاتباته تدلّ على فضل كبير

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۴۶

و علم غزير، و اتساع باع فى الأدب و أنواعه، و له رسالة عاطلة من النقط، أبدع فيها و أتى بغرائب، مع عدم التكلّف، و خمّس ألفية ابن مالك فى النحو، و له غير ذلك من المصنفات، و ولى خطابة دمشق، و مشيخة الباسطية، و سئل بقضاء دمشق فامتنع، و وليها أخوه القاضى جمال الدين يوسف الباغونى، و لم يزل الشيخ برهان الدين على أحسن طريقة إلى أن مات- رحمه اللّه تعالى.

و توفّيت خوند شكرباى الناصرية الأحمدية زوجة السلطان الملك الظاهر خشقدم فى يوم الأربعاء سادس جمادى الأولى، و صلى عليها تحت طبقة الزّمام تجاه باب الستارة، و دفنت بتربة زوجها السلطان الملك الظاهر خشقدم التى أنشأها بالصحراء، و أنزلت من القلعة، و لم يغطّ نعشها ببخشاناه على عادة الخوندات، بل جعل على نعشها خرقة مرقعة للفقراء، و جعل أمام نعشها أعلام أحمدية، و كان ذلك بوصية منها، و كان أصلها چاركسية الجنس، من عتقاء الملك الناصر فرج ابن الملك الظاهر برقوق، و تزوجت بعد موت أستاذها بالأمير أبرك الجكمى، و استولدها أبرك أولادا، منهم: خاتون أم الشهابى أحمد ابن العينى، و ماتت خاتون المذكورة فى سلطنة الملك الظاهر خشقدم، و لم يتزوّج السلطان الملك الظاهر غيرها إلا بعدها.

و توفّى الأمير سيف الدين كسباى بن عبد اللّه الششمانى الناصرى ثم المؤيدى، أحد أمراء الطبلخانات فى ليلة الاثنين ثالث جمادى الآخرة، و دفن بتربته التى أنشأها خارج القاهرة، و كان أصله من مماليك الملك الناصر فرج، ثم ملكه الملك المؤيّد شيخ و أعتقه، و صار خاصكيا بعد موته و دام على ذلك إلى أن جعله الملك الظاهر جقمق دوادارا صغيرا، و وقع له معه أمور و محن، إلى أن صار

أميرا فى دولة الملك

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۴۷

الأشرف إينال، ثم صار من أمراء الطبلخانات فى دولة خچداشه الملك الظاهر خشقدم إلى أن مات فى التاريخ المذكور، و كان رأسا فى فنون الفروسية، عارفا بأنواع الملاعيب، كالرمح و النشاب و البرجاس و غير ذلك، لكنه كان عنده خفة و طيش، مع سلامة باطن- رحمه اللّه تعالى و عفا عنه.

و توفّى القاضى فخر الدين محمد الأسيوطى الشافعى أحد نواب الحكم الشافعية، فى يوم الخميس ثالث عشر جمادى الآخرة، و سنه أزيد من سبعين سنة، و قد ناب فى الحكم أزيد من أربعين سنة، على أنه كان قليل العلم و العمل- عفا اللّه عنه.

و توفّى الشيخ الواعظ المذكّر أبو العباس أحمد بن عبد اللّه المقدسىّ الشافعى الواعظ، بعد مرض طويل، بالقاهرة فى ليلة الأربعاء سادس عشرين جمادى الآخرة، و دفن من الغد بالقرافة الصّغرى، و مولده فى سنة ثلاث عشرة و ثمانمائة، هكذا ذكر لى عند ما استجارنى، و كان له اشتغال قديم، و غلب عليه الوعظ و التّذكير، و عمل المواعيد، و كان لتذكيره تأثير فى القلوب، و عليه أنس، و له باع واسع فى الحفظ للأحاديث و التفسير و كرامات الصالحين، و كان له فى التذكير القبول الزائد من كل أحد، و أثرى من ذلك و جمع المال الكثير، و الناس فيه على قسمين، ما بين معتقد و منتقد، و الظن الثانى أكثر، و كنت أنا من القسم الأول، لولا ما وقع له مع الحافظ العلّامة برهان الدين البقاعى ما وقع، و حكايته معه مشهورة أضربت عن ذكرها لقرب عهد الناس منها.

و توفّى الخادم الرئيس صفىّ الدين جوهر بن عبد اللّه الأرغون شاوى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۴۸

الظاهرى، الساقى الحبشى الجنس، رأس نوبة الجمدارية، فى ليلة الخميس عاشر شعبان، و دفن من الغد بتربة الأمير قانى باى الچاركسى، و حضر السلطان الصلاة عليه بمصلّاة المؤمنى، و مات و هو فى عشر الستين، و لم يخلف بعده مثله دينا و أدبا و حشمة و رئاسة و تواضعا و عقلا، و بالجملة إنه كان من حسنات الدّهر- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الأمير سيف الدين سودون بن عبد اللّه المؤيّدى الفقيه الأشقر، أحد أمراء العشرات، بعد مرض طويل، فى يوم الخميس سابع شهر رمضان، و كان من عتقاء الملك المؤيّد شيخ، و تأمّر فى دولة الملك المؤيّد أحمد ابن الملك الأشرف إينال- فيما أظن- و دام على ذلك إلى أن مات، و كان فقيها ديّنا خيرا فاضلا- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الأديب الفاضل أبو العباس أحمد بن أبى السعود إسماعيل بن إبراهيم بن موسى بن سعيد بن على المنوفى الشافعى، المعروف بابن أبى السعود الشاعر المشهور بالمدينة الشريفة فى خامس عشرين شهر رمضان، و مولده فى شوال سنة أربع عشرة و ثمانمائة بمنوف العليا، و من شعره فى مليح منجم: [الوافر]

لمحبوبى المنجّم قلت يوما فدتك النّفس يا بدر الكمال

برانى الهجر، فاكشف عن ضميرى فهل يوما أرى بدرى وفى لى

و قد ذكرنا من شعره قطعة جيدة فى «الحوادث» و غيرها.

و توفّى القاضى جلال الدين عبد الرحمن ابن الشيخ نور الدين على ابن العلّامة سراج الدين عمر بن الملقّن الشافعى، فى صبيحة يوم الجمعة ثامن شوال، و قد جاوز الثمانين بأيام قليلة، و مات فجأة، و كان من بيت علم و فضل، و ناب فى الحكم سنين، و ولى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۴۹

عدّة وظائف دينية، و درّس بعدّة مدارس، و كان مشكور السّيرة ديّنا عاقلا، مليح الوجه حسن السّمت- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الشيخ زين الدين خالد بن أيوب بن خالد، شيخ خانقاه سعيد السعداء، فى يوم الأربعاء ثالث عشر شوال، بعد مرض طويل، و ولى المسجد بعده الشيخ تقى الدين عبد الرحمن القلقشندى- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الأمير الوزير الصاحب شمس الدين منصور بن الصفى قتيلا، ضربت رقبته تجاه الصالحية بحكم قاضى القضاة حسام الدين بن حريز المالكى، فى يوم الأربعاء العشرين من شوال، و سنّه دون الأربعين سنة، بعد أن قاسى شدائد من الضرب و العصر و المصادرات و السجن، لتحامل أهل الدولة عليه، و قد سقنا حكايته بتطويل فى تاريخنا «الحوادث» - رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الشيخ شمس الدين محمد بن على بن محمد المعروف بابن الفألاتى الفقيه الشافعى، فى يوم الجمعة رابع عشر ذى القعدة، و هو فى أوائل الكهولية، و الفألاتى كانت صناعة أبيه، و كان أبوه و أعمامه ثلاثة إخوة، كان عمه الواحد أديبا حكما لأدباء العوام، عاميا، يجلس على الطرقات فى وسط حلقة، و عمه الآخر فى قيد الحياة بتكسب بالتنجيم بالرّمل، و كان والد شمس الدين حكويّا يجلس على الطرقات، و عليه حلقة كعادة العوام، و كان مع هذا حكما للمصارعين، و نشأ شمس الدين هذا على هيئة العوام، إلا أنه حفظ القرآن العزيز، فلما كبر حبّب إليه الاشتغال بالعلم، فاشتغل على جماعة من العلماء فى فنون كثيرة، و عدّ من أعيان الفقهاء- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الأمير سيف الدين تغرى برمش السيفى قراخجا الحسنى، أحد أمراء

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۵۰

العشرات و رأس نوبة، فى ليلة الخميس ثامن عشر ذى الحجة، و قد ناهز الستين أو جاوزها بقليل، و دفن من الغد، و حضر السلطان الصلاة عليه بمصلاة المؤمنى- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى بير بضع بن جهان شاه بن قرايوسف بن قرا محمد، التركمانى الأصل، صاحب بغداد و العراق، قتيلا بسيف والده جهان شاه، بعد أن حصره ببغداد نحو ثلاث سنين، و كان كآبائه و أجداده سيىء الاعتقاد، محلول العقيدة، راحت روحه إلى سقر، و يلحق اللّه به من بقى من أقاربه.

أمر النيل فى هذه السنة: الماء القديم سبعة أذرع و نصف، مبلغ الزيادة ثمانية عشر ذراعا و ستة أصابع.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۵۱

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۷۱]

السنة السابعة من سلطنة الملك الظاهر خشقدم على مصر و هى سنة إحدى و سبعين و ثمانمائة:

فيها توفّى أتابك العساكر بالديار المصرية الأمير قانم من صفر خجا المؤيّدى، المعروف بالتاجر، فجاءة فى ليلة الاثنين حادى عشر صفر، و سنه نحو السبعين، و كان أصله من مماليك المؤيّد شيخ و أعتقه، و صار خاصّكيا فى دولة ولده المظفر أحمد ابن شيخ، و لا زال على ذلك إلى أن تأمّر عشرة فى دولة الملك العزيز يوسف ابن السلطان الملك الأشرف برسباى. و استمرّ فى دولة الملك الظاهر جقمق كلها على ذلك، و حجّ أمير الركب الأوّل غير مرّة، و توجّه فى الرّسليّة إلى جهان شاه ابن قرايوسف ملك الشرق، ثم إلى خوندكار بن عثمان متملك بلاد الرّوم، ثم عاد و دام بمصر إلى أن صار فى دولة الملك الأشرف إينال من جملة أمراء الطبلخانات، ثم صار أمير مائة و مقدّم ألف بعد موت خيربك النّوروزى المؤيّدى الأجرود، ثم صار فى دولة الملك المؤيّد أحمد بن إينال رأس نوبة النّوب، بعد الأمير قرقماس الأشرفى، بحكم انتقاله إلى إمرة مجلس، و استمرّ على ذلك إلى أن نقله خچداشه الملك الظاهر خشقدم إلى إمرة مجلس، بعد انتقال قرقماس أيضا إلى إمرة سلاح، بعد انتقال الأمير جرباش إلى الأتابكية، عوضا عن الملك الظاهر خشقدم، و عظم قانم فى دولة خچداشه خشقدم المذكور، و نالته السعادة زيادة على ما كان أولا، و دام على ذلك إلى أن نقله إلى الأتابكية بعد إخراج الأتابك جرباش المحمدى إلى ثغر دمياط بطّالا، فدام على الأتابكية إلى أن مات فجاءة فى التاريخ المقدم ذكره، و كان من أجلّ الملوك و أعظمهم، لولا تكبّر كان فيه- رحمه اللّه تعالى و عفا عنه.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۵۲

و توفّى الأمير سيف الدين برسباى بن عبد اللّه البجاسى نائب الشام بها فى يوم الاثنين ثامن عشر صفر، و قد زاد سنه على الستين، بعد مرض طويل، و كان من عتقاء الأمير تنبك البجاسى نائب دمشق، الذى كان خرج على الملك الأشرف برسباى و قتل فى سنة سبع و عشرين و ثمانمائة، فكان بين وفاة برسباى هذا و وفاة أستاذه تنبك نحو من أربع و أربعين سنة، و لما قتل أستاذ برسباى هذا تنقّل فى الخدم حتى صار من جملة المماليك السلطانية، و ترقى إلى أن صار أمير عشرة فى دولة الملك الظاهر جقمق، ثم جعله نائب الإسكندرية، ثم صار فى دولة الأشرف إينال أمير مائة و مقدّم ألف.

ثم لما مات حاجب الحجاب جانبك القرمانى الظاهرى فى شوال سنة إحدى و ستين جعل هذا موضعه حاجب الحجاب، ثم نقل إلى الأمير آخورية الكبرى فى سنة أربع و ستين بعد موت يونس العلائى، و ذلك بعد أن صاهر السلطان و تزوج بنت الأمير بردبك الدوادار الثانى، و هى بنت بنت السلطان، فلم يكن مكافأة برسباى هذا للأشرف إينال على ما خوّله من النعم إلا أنه لمّا خرج القوم على ولده الملك المؤيّد أحمد بن إينال غدره و مال إلى الملك الظاهر خشقدم، فعابه كلّ أحد على ذلك، و ليت الملك الظاهر خشقدم عرف له ذلك، بل أخرجه بعد قليل إلى نيابة طرابلس، ثم تنقّل بعد نيابة طرابلس إلى نيابة الشام ببذل المال، و لم يتهنأ بدمشق بل مرض و طال مرضه إلى أن مات، و كان رجلا عاقلا عفيفا عن المنكرات و الفروج، و لم يعفّ عن الأموال، و كان بخيلا جدا- عفا اللّه عنه.

و توفى شيخ مكة و محدّثها و مسندها تقىّ الدين أبو الفضل محمد بن نجم الدين محمد ابن أبى الخير محمد بن عبد اللّه بن فهد الهاشمى المكى الشافعى، بمكة فى يوم السبت سابع شهر ربيع الأول؛ و مولده بأصفون الجبلين من صعيد مصر، فى يوم الثلاثاء

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۵۳

خامس شهر ربيع الأول سنة سبع و ثمانين و سبعمائة، و قد استوعبنا ترجمته فى تاريخنا «الحوادث».

و توفى الأمير سيف الدين قانم بن عبد اللّه الأشرفى؛ المعروف بقانم نعجة، أحد أمراء العشرات و رأس نوبة، شبه الفجاءة، فى ليلة الأحد سادس عشر جمادى الأولى، و قد جاوز الستين، و كان من مماليك الملك الأشرف برسباى و تأمّر فى دولة الملك الأشرف إينال إلى أن مات، و كان مسرفا على نفسه منهمكا فى اللذات، و عنده بطش و ظلم.

و توفّى الأمير سيف الدين تمراز بن عبد اللّه الإينالى الأشرفى الدّوادار الثانى- كان- مقتولا بسيف الشرع بقلعة المرقب، فى يوم السبت تاسع عشر جمادى الأولى، و مات و قد زاد سنّه على الستين، و حكاية تمراز هذا طويلة، و ما وقع له من الحبس و النفى و المحن يطول الشرح فى ذكره، استوعبنا غالب أموره فى وقتها فى تاريخنا «حوادث الدهور فى مدى الأيام و الشهور» و بالجملة إن تمراز هذا كان من مساوئ الدهر لفظا و معنى- عفا اللّه تعالى عنه.

و توفّى الخواجا التاجر بدر الدين حسن الطّاهر اليمنى الأصل و المولد و المنشأ، المكى الدار و الوفاة، شاه بندر جدّة، بمكة فى جمادى الأولى، و قد عمّر و شاخ، و انتهت إليه رئاسة التجار بمكة فى كثرة المال و البخل، و قيل إنه كان زيدىّ المذهب مع جهل مفرط، و بعد عن كل علم و فن.

و توفّى قاضى القضاة شرف الدين يحيى ابن سعد الدين محمد بن محمد المناوى الشافعى، قاضى قضاة الديار المصرية و عالمها- معزولا- فى ليلة الثلاثاء ثالث عشر جمادى الآخرة، و دفن من الغد بالقرافة الصغرى، و قد زاد سنه على السبعين، و حضر السلطان الصلاة عليه بمصلّاة المؤمنى، و كانت جنازته مشهودة، و كثر

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۵۴

أسف الناس عليه، لغزير فضله و دينه و حسن سيرته، و مات و لم يخلف بعده مثله- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى القاضى زين الدين عبد الغفار بن مخلوف السمديسى المالكى، أحد نواب الحكم بالديار المصرية، و هو فى أواخر الكهولية، و كان معدودا من فضلاء المالكية.

و توفّى الإمام نور الدين على السويفى المالكى إمام السلطان، فى يوم الخميس رابع عشر شهر رجب، و هو فى عشر المائة من العمر، بعد أن خدم عدّة ملوک، و ولى حسبة القاهرة- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الحافظ تقى الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن قطب الدين أحمد القلقشندى الشافعى، شيخ خانقاه سعيد السعداء الصلاحية فى ليلة الثلاثاء ثالث شعبان، و مولده فى شهر رجب سنة سبع عشرة و ثمانمائة، و كان من الفضلاء، و صحبنى سنين كثيرة، و سمعت أشياء عالية من الحديث بقراءته، ذكرنا ذلک كله فى ترجمته فى «الحوادث» - رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الأمير شهاب الدين أحمد ابن ناصر الدين محمد، المعروف بابن قليب، حاجب حجّاب طرابلس و أستادار السلطان بها، فى يوم الخميس خامس شعبان.

و توفّى أميرزة ابن شاه أحمد بن قرايوسف فى يوم السبت رابع ذى القعدة، بالقاهرة بسكنه بباب الوزير خارج القاهرة، و سنه زيادة على ثلاثين سنة، و أظنه حفيد شاه أحمد بن قرايوسف لا ولده - رحمه اللّه تعالى.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۵۵

و توفّى الأمير سيف الدين جانبک بن عبد اللّه الناصرى المعروف بالمرتدّ أحد مقدمى الألوف بالديار المصرية- بطالا- بعد ما شاخ و كبر سنه، و كان من المهملين فى أيام عمله و بطالته- رحمه اللّه تعالى.

أمر النيل فى هذه السنة: الماء القديم ستة أذرع و عشرون إصبعا، مبلغ الزيادة تسعة عشر ذراعا سواء.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۵۶

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۷۲]

اشارة

ذكر سلطنة الملك الظاهر أبى نصر يلباى الإينالى المؤيدى على مصر و هو السلطان التاسع و الثلاثون من ملوک الترک و أولادهم، و الرابع عشر من الجراكسة و أولادهم.

تسلطن فى آخر نهار السبت عاشر شهر ربيع الأول من سنة اثنتين و سبعين و ثمانمائة، قبل الغروب بنحو ثلاث درج رمل، و سبب تأخيره إلى هذا الوقت أنه لما مات الملك الظاهر خشقدم بعد أذان ظهر يوم السبت المقدّم ذكره طلع الأتابک يلباى المذكور و جميع الأمراء إلى القلعة، و قبل أن يتكلموا فى ولاية سلطان أخذوا فى تجهيز الملك الظاهر خشقدم و الصلاة عليه، فغسّلوا و أخرجوه وصلوا عليه عند باب القلّة، و نزلوا به إلى حيث دفن بمدرسته التى أنشأها بالصحراء بالقرب من قبة النصر، و حضرت أنا دفنه، و لم يحضره من أعيان الأمراء إلا جماعة يسيرة حسبما تقدّم ذكره فى وفاته، و هذا كله بخلاف العادة، فإن العادة سلطنة سلطان ثم يؤخذ فى تجهيز السلطان الذى مات.

و لما أنزل نعش الملك الظاهر خشقدم من القلعة شرعوا عند ذلک فى سلطنة الأتابک يلباى، و كان قد انبرم أمره فى ضحوة نهار السبت هذا مع الأمراء و مماليک الملك الظاهر خشقدم، و كبيرهم يوم ذاک خيربک الدّوادار الثانى، و خشكلدى البيسقى أحد مقدّمى الألوف، و لما أذعن مماليک الظاهر الأجلاب بسلطنة يلباى لم يختلف عليه يومئذ أحد؛ لأن الشوكة كانت للأجلاب، و هم أرادوه، و الظاهرية الكبار تبع لهم، و أما المؤيّدية فخچداشيته، فتمّ أمره.

و كيفية سلطنته أنه لما عادوا من الصلاة على الملك الظاهر خشقدم جلسوا عند باب

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۵۷

الستارة وقتا هيّنا، و إذا بالأمير خيربک خرج من باب الحريم و معه جماعة من خچداشيته و أخذوا الأتابک يلباى و أدخلوه من باب

الحريم، و مضوا به إلى القصر السلطانى، و خاطبوه بالسلطنة، فامتنع امتناعا هينا، فلم يلتفتوا إلى كلامه، و أرسلوا إلى الأمراء أحضروهم إلى القصر من خارج، فوجدوا القصر قد سقط بابه، فدخلوا من الإيوان إلى القصر، فتفاءل الناس زواله بسرعة؛ لغلق باب القصر، فدخلت الأمراء قبل أن يحضر الخليفة و القضاة، و طال جلوسهم عنده، و قبّلت الأمراء الأرض قبل المبايعة و هم فى هرج لإحضار الخليفة و القضاة إلى أن حضروا بعد مشقة كبيرة؛ لعسر طريق القصر، إذ المصير إليه من الإيوان السلطانى، و أيضا حتى لبست الأمراء قماش الموكب و تكاملوا بعد أن فرغ النهار، و قد أخذوا فى بيعته و سلطنته و لبّسوه خلعة السلطنة بالقصر، و جلس على تخت الملك من غير أن يركب فرسا بأبهة الملك على العادة، و قبلوا الأمراء الأرض بين يديه و تمّ أمره، فكان جلوسه على كرسى السلطنة قبل الغروب بثلاث درج حسبما تقدم ذكره.

و خلع على الأمير تمربغا أمير مجلس بالأتابكية، ثم خلع على الخليفة، فدقّت البشائر، و نودى بسلطنته، و تلقب بالملك الظاهر يلباى.

و الآن نشرع فى التعريف به قبل أن نأخذ فيما وقع له فى سلطنته من الحوادث فنقول:

أصله چاركسى الجنس، جلبه الأمير إينال ضضع من بلاد الچاركس إلى الديار المصرية فى عدة مماليك، فاشتراه الملك المؤيد شيخ قبل سنة عشرين و ثمانمائة، و أعتقه و جعله من جملة المماليك السلطانية، و أسكنه بالقلعة بطبقة الرفرف ثم صار خاصكيا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۵۸

بعد موت أستاذه، و دام على ذلك إلى أن صار من أعيان الخاصكية، و أنعم الأشرف برسباى عليه بثلث قرية طحورية، ثم نقله الملك العزيز يوسف ابن السلطان الملك الأشرف برسباى إلى نصف بنها العسل بعد أيتمش المؤيدى، ثم صار ساقيا فى أوائل دولة الملك الظاهر جقمق، فلم تطل أيامه فى السقاية، و أمّره عشرة و جعله من جملة رءوس النوب، فدام على ذلك إلى أن تسحّب الملك العزيز يوسف ابن الملك الأشرف برسباى من قلعة الجبل و اختفى إلى أن ظفر به يلباى هذا فى بعض الأماكن، و طلع به إلى الملك الظاهر جقمق، فأنعم عليه الملك الظاهر جقمق بقرية سرياقوس زيادة على ما بيدة، و صار أمير طبلخاناه، و دام على ذلك إلى أن تسلطن الملك المنصور عثمان ابن السلطان الملك الظاهر جقمق، فقبض على يلباى هذا و على اثنين من خچداشيته:

دولات باى الدّوادار الكبير و يرشباى الأمير آخور الثانى؛ و ذلك فى سنة سبع و خمسين، و حبس بثغر الإسكندرية إلى أن أطلقه الملك الأشرف إينال من سجن الإسكندرية، و أطلق خچداشيته المذكورين، و وجّهه إلى دمياطبطّالا- ثم أحضره إلى القاهرة بعد أيام قليلة، فاستمر بطالا مدة يسيرة.

و قتل الأمير سونجبغا اليونسى الناصرى ببلاد الصعيد، و كان سونجبغا هو الذى أخذ إقطاع يلباى هذا بعد مسكه، فأعاده الملك الأشرف إينال إليه، و صار على عادته أولا أمير طبلخاناه إلى أن مات الأمير خيربك المؤيّدى الأشقر الأمير آخور الثانى، فنقل يلباى هذا إلى الأمير آخورية الثانية من بعده، فدام على ذلك إلى أن أنعم عليه الملك الأشرف إينال بإمرة مائة و تقدمة ألف بالديار المصرية، فدام على ذلك إلى أن نقله الملك الظاهر خشقدم إلى حجوبية الحجاب بالديار المصرية، عوضا عن بيبرس خال العزيز، بحكم انتقاله إلى وظيفة رأس نوبة النّوب، بعد انتقال الأمير قانم إلى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۵۹

إمرة مجلس بعد انتقال قرقماس إلى إمرة سلاح؛ بحكم انتقال جرباش إلى الأتابكية، عوضا عن الملك الظاهر خشقدم، و ذلك فى يوم الأربعاء سابع شوال.

فاستمرّ يلباى هذا على الحجوبية إلى أن نقله الملك الظاهر خشقدم إلى الأمير آخورية الكبرى، بعد توجه برسباى البجاسى إلى نيابة طرابلس، بعد القبض على الأمير إياس المحمدى الناصرى، و ذلك فى يوم الخميس سابع عشر المحرم سنة ست و ستين.

فدام يلباى هذا فى هذه الوظيفة إلى أن نقل إلى أتابكية العساكر بالديار المصرية بعد موت الأتابك قانم دفعة واحدة، بعد أن كان يجلس فى مجلس السلطان خامس رجل، و ذلك فى يوم الاثنين ثامن عشر صفر سنة إحدى و سبعين و ثمانمائة، و استمرّ على ذلك

إلى أن مرض الملك الظاهر خشقدم، و ثقل فى مرضه، و تكلّم الناس فيمن يتسلطن فيما بينهم، فرشح جماعة، فاختارت الأجلاب يلباى هذا، كونه أتابك العساكر و أيضا خچداش أستاذهم، فتسلطن، و تمّ أمره حسبما تقدّم ذكره- انتهى.

قلت: و لما استمر جلوسه بالقصر السلطانى رسم فى الحال بسفر الأمير قرقماس أمير سلاح بمن كان عيّن معه من الأمراء و المماليك السلطانية إلى الصعيد، و كان له أيام مقيما بالمركب، و كذلك جميع من كان عيّن معه، و سافروا من يومهم أرسالا.

ثم خلع الملك الظاهر يلباى على الأتابك تمربغا فى يوم الاثنين ثانى عشره خلعة نظر البيمارستان المنصورى.

و خلع على خچداشه الأمير قانى بك المحمودى المؤيدى بإمرة مجلس عوضا عن الأتابك تمربغا، و أنعم عليه بإقطاع تمربغا أيضا.

و خلع على تمر المحمودى والى القاهرة خلعة الاستمرار، و كذلك على القاضى علم الدين كاتب المماليك.

و فيه ورد كتاب يشبك من مهدى كاشف الوجه القبلى يتضمن أنّه ولّى سليمان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۶۰

ابن عمر الهوارى عوضا عن ابن عمه، و أنه لا- حاجة له بتجريدة، فلم يلتفت السلطان إلى مقالته فى عدم إرسال تجريدة إلى بلاد الصعيد لغرض يأتى بيانه.

ثم فى يوم الخميس خامس عشره خلع السلطان على جميع مباشرى الدولة باستمرارهم على وظائفهم.

و فيه نودى بأن نفقة المماليك تكون من أول الشهر، يعنى أول ربيع الآخر.

و فيه عمل المولد النبوى بالحوش على العادة، و قبل أن يفرغ المولد ندب السلطان الأمير برسباى قرا الظاهرى، و الأمير جكم الظاهرى، و طرباى الظاهرى البواب، أن يتجهزوا إلى الصعيد لمسك الأمير قرقماس أمير سلاح و الأمير قلمطاى رأس نوبة، و الأمير أرغون شاه، و يتوجهوا بهم إلى حبس الإسكندرية، و لم يعلم أحد ما الموجب لذلك.

و فى يوم السبت سابع عشره أعاد السلطان القاضى قطب الدين الخيضرى إلى كتابة السّرّ بدمشق، بعد عزل الشريف إبراهيم بن السيد محمد.

و فيه أيضا استقرّ الصارمى إبراهيم بن بيغوت الأعرج حاجب الحجّاب بدمشق عوضا عن شرامرد العثمانى المؤيدى.

و فيه وصل الخبر بقدوم الأمير أزبك رأس نوبة النّوب من تجريدة العقبة، بعد أن أمسك مباركا شيخ بنى عقبة، الذى قطع الطريق على إقامة الحجاج.

ثم وصل الأمير أزبك فى يوم الاثنين تاسع عشره، و خلع السلطان عليه و على رفيقه الأمير جانبك قلقسيز حاجب الحجاب، و رسم بتسمير مبارك شيخ بنى عقبة المقدّم ذكره و رفقته، و كانوا أزيد من أربعين نفرا، فسمّروا الجميع، و طيف بهم الشوارع، ثم وسّطوا فى آخر النهار عن آخرهم.

و فى يوم الخميس ثانى عشرينه ورد الخبر على الملك الظاهر يلباى بعصيان الأمير

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۶۱

بردبك نائب الشام، و أنه قتل جميع النوّاب المجردين معه لقتال شاه سوار بن دلغادر، و كان الأمر غير ذلك، و وقع أمور حكيناها مفصلة فى تاريخنا «حوادث الدهور فى مدى الأيام و الشهور» محصولها أن بردبك المذكور كان تهاون فى قتال شاه سوار المذكور، و خذل العسكر الشامى لما كان فى قلبه من الملك الظاهر خشقدم رحمه اللّه، فكان ذلك سببا لكسر العسكر الشامى و الحلبى و غيرهم و نهبهم، و قتل فى هذه الواقعة نائب طرابلس قانى باى الحسنى المؤيدى، و نائب حماة تنم خوبى الحسينى الأشرفى، و أتابك دمشق قراجا الخازندار الظاهرى، و أتابك حلب قانصوه المحمدى الأشرفى، و غيرهم من أمراء البلاد الشامية، و غيرهم حسبما يأتى ذكرهم فى الوفيات على عادة هذا الكتاب- انتهى.

قلت: و جاء هذا الخبر و الديار المصرية غير مستقيمة الأحوال لعدم المدبر، و الطرق مخيفة، و السبل غير آمنة، و ما ذاك إلا أن

الملک الظاهر یلبای لما تسلطن و تمّ أمره غطّاه المنصب، و صار کالمذهول، و لزم السّکات و عدم الکلام، و ضعف عن بتّ الأمور، و ردع الأجلاب، بل صارت الأجلاب فی أیامه کما کانت أولا و أعظم، فلم یحسن ذلک ببال أحد، و صار الأمیر خیربک الدّوادار الثانی هو صاحب الحل و العقد فی مملکته، و إلیه جمیع أمور المملکة، و شاع ذلک فی الناس و الأقطار، و سمّته العوام: «أیش کنت أنا؟ قل له» یعنون أن السلطان لما یسأل فی شیء یقول:

«أیش کنت أنا، قل لخیر بک» فبهذا و أشباهه اضطربت أحوال الدیار المصریة.

هذا مع ما ورد من البلاد الحلبیة من أمر شاه سوار، و قتل أکابر أمراء البلاد الشامیة، و نهبه للبلاد الحلبیة، و أخذه قلاع أعمالها و أن نائب الشام بردبک فی أسره، و أن یشبک البجاسی نائب حلب دخل إلی حلب علی أقبح وجه، فصار الناس بهذا المقتضی کالغنم بلا راع.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۶۲

فلما کان یوم الاثنین سادس عشرین ربیع الأول المذکور خلع الملک الظاهر یلبای علی الأمیر أزبک من ططخ الظاهری رأس نوبة النوب باستقراره فی نیابة الشام عوضا عن بردبک الظاهری، بحکم انضمامه علی شاه سوار.

و فیه استقرّ الأمیر قانی بک المحمودی المؤیّدی أمیر مجلس أمیر سلاح عوضا عن قرقماس الأشرفی بحکم القبض علیه و حبسه بالإسکندریة، و استقرّ قانی بک المذکور مقدم العساکر لقتال شاه سوار بن دلغادر.

و عیّن السلطان فی هذا الیوم عدة أمراء تجریدة لقتال شاه سوار، فعیّن من أمراء الألوف قانی بک المقدم ذکره، و جانبک الإینالی الأشرفی المعروف بقلقسیز حاجب الحجاب، و بردبک هجین أمیر جاندار، و هؤلاء من أمراء الألوف، و عیّن أیضا عدة کثیرة من أمراء الطبلخانات و العشرات یأتی ذکر أسمائهم یوم سفرهم من القاهرة، ثم عیّن صحبتهم ستمائة مملوک من الممالیک السلطانیة.

و فیه استقرّ الأمیر إینال الأشقر الظاهری نائب غزّة فی نیابة حماة، عوضا عن ابن المبارک، و کان الناصری محمد بن المبارک قد استقرّ فی نیابة حماة قبل تاریخه عوضا عن الأمیر تنم الحسینی الأشرفی، بحکم مرضه و عوده من تجریدة شاه سوار إلی حلب، و کان الناصری محمد بن المبارک إلی الآن لم یخرج من الدیار المصریة، فعزل عنها قبل أن یحکمها أو یتوجّه إلیها، و کان إینال الأشقر قدم إلی القاهرة مع الأمیر أزبک من تجریدة العقبة، ثم رشح ابن المبارک إلی نیابة غزّة، فامتنع عن ولایتها.

ثم فی یوم الخمیس تاسع عشرین شهر ربیع الأول لبس إینال الأشقر خلعة السفر.

ثم فی یوم السبت ثانی شهر ربیع الآخر ابتدأ السلطان بالنفقة علی الممالیک السلطانیة لکل واحد مائة دینار، ففرّقت هذه النفقة علی أقبح وجه، و هو أن القوی یعطی، و الغائب یقطع، و المسنّ یعطی نصف نفقة أو ربع نفقة، و منع أولاد الناس و الطواشیة من الأخذ، و عاداتهم أخذ النفقة، فأحدث الظاهر یلبای هذا الحادث، و کثر الدعاء علیه بسبب ذلک، و تفاءل الناس بزوال ملکه لقطعه أرزاق الناس، فکان کذلک.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۶۳

و منع السلطان أیضا أمراء الألوف و غیرهم من النفقة، و لم یعط إلا من کتب منهم إلی السّفر لا غیر، فبهذا المقتضی و أمثاله نفرت القلوب من الظاهر یلبای، و عظمت الوقیعة فی حقه، و کثرت المقالة فی بخله، و عدّت مساوئه، و نسیت محاسنه- إن کان له محاسن- و صارت النفقة تفرّق فی کل یوم سبت و ثلاثاء طبقة واحدة أو أقل من طبقة؛ حتی تطول الأیام فی التفرقة.

و بالجملة فکانت أیام الملک الظاهر یلبای نکدة، قلیلة الخیر، کثیرة الشر، و عظم الغلاء فی أیامه، و تزایدت الأسعار، و هو مع ذلک لا یأتی بشیء، و وجوده فی الملک و عدمه سواء؛ فإنه کان سالبة کلیّة، لا یعرف القراءة و لا الهجاء، و لا یحسن العلامة علی المناشیر و المراسیم إلا بالنّقط، مع عسر فی الکتابة، و کان الناس قد أهمّهم أمر الجلبان أیام أستاذهم الملک الظاهر خشقدم، فزادوا بسلطنة الملک الظاهر یلبای هذا همّا علی همهم.

ثم فى يوم الاثنين حادى عشر ربيع الآخر استقرّ الأمير جانبك قلقسيز أمير مجلس عوضا عن قانى باى المحمودى المنتقل إلى إمرة سلاح، و استقر الأمير بردبك هجين عوضه حاجب الحجاب.

و فيه أنعم السلطان على الأمير قايتباى المحمودى الظاهرى بإقطاع الأمير أزبك نائب الشام و استقرّ عوضه أيضا رأس نوبة النّوب، و أنعم بإقطاع الأمير قايتباى على الأمير سودون القصروى نائب القلعة، و الإقطاع تقدمة ألف.

و فيه أيضا استقرّ الأمير خشكلدى البيسقى فى تقدمة الألوف عوضا عن قانى باى المحمودى المؤيّدى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۶۴

ثم فى يوم الثلاثاء ثانى عشر ربيع الآخر استقر الأمير سودون البردبكى الفقيه المؤيّدى نائب قلعة الجبل بعد سودون القصروى. و فى يوم الأربعاء ثالث عشر ربيع الآخر رسم السلطان أن ينتقل الأمير إينال الأشقر المقدّم ذكره من نيابة حماة إلى نيابة طرابلس بعد فقد نائبها الأمير قانى باى المؤيدى الحسنى فى واقعة شاه سوار، و ذلك بسعى من إينال المذكور، و ذلك قبل أن يصل إينال المذكور إلى حماة.

ثم فى يوم الخميس رابع عشره استقرّ الناصرى محمد بن المبارك فى نيابة حماة كما كان وليها أولا.

و فيه استقرّ مغلباى الظاهرى المحتسب شاد الشراب خاناه بعد الأمير خشكلدى البيسقى، و استقر طرباى البواب محتسب القاهرة عوضا عن مغلباى المذكور، و استقرّ سودون السيفى أحمد بن إينال أمير عشرة و أستادار الصّحبة، و سودون هذا من الأوباش الأطراف.

و فيه أنعم السلطان على جماعة من الأجلاب و غيرهم كل واحد بإمرة عشرة، و الذين أعطوا أزيد من خمسة عشر نفرا، فالذى أخذ من الأجلاب أركماس البواب، و قايت البواب، و طرباى البواب الذى ولى الحسبة، و أصباى البواب الذى كان قتل قتيلين أيام أستاذه و لم ينتطح فى ذلك عنزان، و أصطمر البواب، و جانم الدوادار، و مغلباى الساقى ابن أخت الأمير قايتباى، و الذى أخذ الإمرة منهم من الظاهرية الكبار: أزبك الساقى، و جانم قشير، و قانم أمير شكار، و جكم قرا أمير آخور الجمال، و سودون الصغير الخازندار، و قرقماس أمير آخور. و الذى أخذ من السيفية:

تمرباى التمرازى المهمندار، و برسباى خازندار يونس الدّوادار.

و فيه ورد الخبر بأن الأمير بردبك نائب الشام فارق شاه سوار، و قدم إلى مرعش طائعا ثم سار إلى منزلة قارا فى يوم الخميس سابع عشر ربيع الآخر.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۶۵

ثم فى يوم السبت سادس عشره تواترت الأخبار أن الأمير بردبك جاوز مدينة غزّة، فندب السلطان الأمير تمرباى المهمندار، و الأمير جكم الظاهرى أن يخرجا إليه و يأخذاه، و يتوجها به إلى القدس الشريف بطالا.

ثم فى يوم الأحد سابع عشر ربيع الآخر أضاف السلطان الأمير أزبك نائب الشام، و خلع عليه كاملية بفرو سمّور بمقلب سمّور، و هى خلعة السّفر، فسافر فى بكرة يوم الاثنين ثامن عشره.

و فى يوم الاثنين هذا قرئ تقليد السلطان الملك الظاهر يلباى بالسلطنة، و خلع السلطان على الخليفة و كاتب السّرّ و القضاة، و على من له عادة بلبس الخلعة فى مثل هذا اليوم.

و أما أمر بردبك نائب الشام، فإن السلطان لما أرسل تمرباى و جكم إلى ملاقاته و أخذه إلى القدس، و سارا إلى جهته، فبينماهم فى أثناء الطريق بلغهم أنه توجه إلى جهة الديار المصرية من على البدوية، و لم يجتز بمدينة قطيا، و قيل إنه مرّ بقطيا لكنه فاتهم و أنه قد وصل إلى القاهرة، فعادا من وقتهما؛ فلما وصل بردبك إلى ظاهر القاهرة أرسل إلى خچداشه الأمير تمر والى القاهرة يعرفه بمكانه، فعرّف تمر السلطان بذلك، فرسم السلطان فى الحال للأمير أزدمر تمساح الظاهرى أن يتوجه إليه و يأخذه إلى القدس بطالا، ففعل أزدمر ذلك، و قيل فى مجيء بردبك غير هذا القول، و اللفظ مختلف و المعنى واحد.

و فى يوم الثلاثاء تاسع عشره استقر الأمير جانبک الإسماعيلى المؤيّدى المعروف بكوهية أحد مقدمى الألوف أمير حاج المحمل، و استقرّ تنبک المعلّم الأشرفى ثانى رأس نوبة النوب أمير الركب الأول.

ثم استهلّ جمادى الأولى، أوله الأحد، و القالة موجودة بين الناس بركوب المماليک الأجلاب، و لم يدر أحد صحة الخبر، غير أن الأمراء المؤيدية خچداشية السلطان امتنعوا

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۶۶

فى هذه الأيام من طلوع الخدمة؛ مخافة من الأمير خيربک الدّوادار الثانى و خچداشيته الأجلاب أن يقبضوا عليهم بالقصر السلطانى، و اتفقت المؤيدية فى الباطن مع الأشرفية الكبار و الأشرفية الصغار، كل ذلک و الأمر خفى على الناس إلا السلطان فإنه يعلم بأمره بل هو المدبر لهم فيما يفعلونه فى الباطن حسبما يأتى ذكره من الوقعة و هى الواقعة التى خلع فيها الملک الظاهر يلباى من السلطنة.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۶۷

ذكر خلع الملک الظاهر يلباى من سلطنة مصر

و لما كان عصر يوم الأربعاء رابع جمادى الأولى المقدم ذكره و طلعت أمراء الألوف إلى القلعة ليبيتوا بالقصر على العادة امتنعت المؤيدية عن الطلوع بمن وافقهم ما خلا الأمير جانبک الإينالى الأشرفى المعروف بقلقسيز أمير مجلس، و هو كبير الأشرفية الكبار يومئذ، فإنه طلع إلى القلعة و وافق الظاهرية الكبار و الظاهرية الصغار الأجلاب، فلما تكامل طلوع من طلع من الأمراء فى عصر يوم الأربعاء المذكور امتنع الأمير يشبک الفقيه المؤيدى الدّوادار الكبير و خچداشيته، و هم: الأمير قانى بک المحمودى المؤيدى أمير سلاح، و مغلباى طاز الأبوبكرى المؤيدى، و جانبک الإسماعيلى المؤيدى المعروف بكوهية، و هؤلاء الأربعة مقدمو ألوف، و جماعة أخر من خچداشيتهم من أمراء الطبلخانات و العشرات، أجلّهم الأمير طوخ الزّردكاش، و هو الذى حوّل غالب ما كان بزردخانات السلطان من آلات الحرب و النّفوط و غير ذلک إلى بيت الأمير يشبک الدّوادار، و انضم عليهم جماعة كثيرة من أمراء العشرات من الأشرفية الكبار و خچداشيتهم أعيان الخاصكية، و غيرهم، بل غالب المماليک الأشرفية الكبار و الأشرفية الصغار و جماعة كثيرة أيضا من أمراء السيفية و أعيان خاصكيتهم، فصاروا فى عسكر كبير و جمع هائل إلى الغاية، لكن صار أمرهم لا ينتج فى القتال لعدم من يقوم بأمرهم، لأن يشبک الدّوادار كان الملک الظاهر يلباى قد وعده عند ما أملاه ما يفعله من شأن هذه الوقعة أنه ينزل إليه و معه الظاهرية الكبار، وفاته الحزم فإنه لم يحسب أنه يصير هو كالأسير فى أيدى الأجلاب إذا تحققوا وثوب الأمير يشبک و قتاله، فصار يشبک بسبب ذلک كالمقيّد عن القتال لمّا وقع القتال الآتى ذكره.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۶۸

و كان الملک الظاهر يلباى لما وافق يشبک الدوادار على ما فعله قد ضاقت حصيرته، و تغلّب مع خيربک و الأجلاب، و خاف إن شرع فى القبض عليهم لا يتم له ذلک، فرمّ هذه المرمة ليأخذ الثأر بيد غيره، و أنهم إذا استفحل أمرهم يسألهم الملک الظاهر يلباى ما الغرض من ركوبهم؟ فيقولون: غرضنا نزول الأجلاب من الأطباق و إبعاد خيربک و غيره من خچداشيته، و يكون هذا القول عند ما تنغلب الأجلاب فإذا أذعنوا بالنزول من الأطباق، و خلت القلعة منهم فعل فيهم الملک الظاهر يلباى عند ذلک ما أراد.

و كان هذا التدبير لا بأس به لو أنه نزل إليهم فى أوائل الأمر و اجتمع بهم، أو طلعوا عنده و صاروا يدا واحدة، ففاته ذلک، و أقام هو بالقلعة، و فهم خير بک و الأجلاب أنّ ذلک كله مكيدة منه لأخذهم، فاحتاطوا به، و احتاجوا إلى الإذعان للظاهرية الكبار و مطاوعتهم على أنهم يخلعون يلباى من السلطنة، و يولون أحدا من كبار أمراء الظاهرية، فوافقتهم الظاهرية على ذلک، و مالوا إليهم، و استمالت الظاهرية أيضا الأمير جانبک قلقسيز الأشرفى أمير مجلس، فمال إليهم، و وعدهم بممالأة خچداشيته الأشرفية إليهم، و خذلان يشبک الدّوادار، فعند ذلک صار الملک الظاهر يلباى وحده أسيرا فى أيدى القلعيّين.

فلما أصبحوا يوم الخميس خامس جمادى الأولى أعلن الأمير يشبك الفقيه، و لبسوا آلة الحرب، و ركب بمن معه من المؤيدية و الأشرفية الكبار و الأشرفية الصغار، و السيفية، و لبسوا آلة الحرب، و اجتمع عليهم خلائق من كل طائفة، و مالت زعر الديار المصرية إليهم، و بلغ من بالقلعة أمرهم، فخافوهم خوفا شديدا، و لبسوا هم أيضا آلة الحرب، و نزلوا بالسلطان الملك الظاهر يلباى إلى مقعد الإسطبل السلطانى المطل على الرّميلة، و شرعوا فی قتال الأمير يشبک بمن معه فی الأزقّة و الشوارع بالصليبة، و هم لا يعلمون حقيقة أمر يشبک، و لم يقع بين الأجلاب و الظاهرية الاتفاق المذكور إلى

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۶۹

الآن، فإن الاتفاق بما ذكرناه لم يقع بين الأجلاب و الظاهرية بالقلعة إلا فی آخر يوم الخميس، و كذلک الاحتراز على السلطان لم يقع إلا فی آخر يوم الخميس.

و أما أول نهار الخميس ما كانت القلعيّون إلا- كالحيارى، و لما وقع القتال بين أصحاب يشبک و بين القلعيّين تقاعد يشبک عن القتال، و لم يركب بنفسه البتة، بل صار يترقّب نزول السلطان إليه، هذا و القتال واقع بين الفريقين بشوارع الصّليبة من أول النهار إلى آخره، و قتل بين الفريقين جماعة كثيرة، فلما رأى الناس تقاعد يشبک بنفسه عن القتال ظنوا أن ذلک عجز منه عن مقاومة القلعيّين فنفر لذلک عنه خلائق، و وافق ذلک اتفاق الظاهريّة الكبار مع الأجلاب بالقلعة.

و أصبح يوم الجمعة سادس جمادى الأولى و القتال عمّال بين الفريقين بشارع الصّليبة من أول النهار إلى آخره، فلما مالت الأشرفية الكبار إلى القلعيّين و فارقت يشبک خارت طباع الأشرفية الصغار و مالوا أيضا للقلعيّين، و كانت القلعيّون استمالتهم أيضا، فما أمسى الليل إلا و يشبک الدّوادار بقى وحده مع خچداشيته المؤيّديّة لا غير، فلما رأى أمره آل إلى ذلک قام من وقته و اختفى، و كذلک فعل غالب خچداشيته المؤيدية لا غير، و أما الملک الظاهر يلباى فإنه لما نزل إلى المقعد بالإسطبل السلطانى فی باكر يوم الخميس و شرع القتال بين القلعيّين و بين يشبک و أصحابه كان حينئذ إلى ذلک الوقت فی عز السلطان، و لم يظهر إلى ذلک الوقت أن الذى فعله يشبک كان صادرا عنه و بتدبيره، فلما فهموا ذلک و أبرموا أمرهم مع الظاهرية الكبار حسبما ذكرناه فی أول الكلام أخذوا فی مقته و الازدراء به و التلويح له بما يكره، بل ربما صرّح له ذلک بعضهم فی الوجه.

و طال هذا الأمر و الحصر عليه يومى الخميس و الجمعة و ليس له فيها إلا الجلوس على المدوّرة، و الأتابک تمربغا جالس بين يديه و قد رشح للسلطنة عوضه، و هو يعرف هذا بالقرائن، لأن الذى بقى يطلع إلى القلعة من الطوائف طائعا يبوس له الأرض ثم يقبّل يد الأتابک تمربغا، هذا و الأمير قايتباى المحمودى رأس نوبة النوب، و الأمير جانبک

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۷۰

قلقسيز أمير مجلس بمن معهم من خچداشيتهم الظاهرية و الأشرفية ركّاب على خيولهم، لإرسال الأمداد لقتال يشبک الدوادار.

فلما جاء الليل ليلة السبت أدخل يلباى إلى مبيت الحرّاقة، و بات به على هيئة عجيبة، إلى أن أصبح النهار و أخذوه و طلعوا به إلى القصر الأبلق، و حبسوه فی المخبأة التى تحت الخرجة، بعد أن طلعوا به ماشيا على هيئة الخلع من السلطنة، و أخذوا الناس فی سلطنة الملک الظاهر تمربغا، و زال ملک يلباى هذا كأنه لم يكن، فسبحان من لا يزول ملكه.

و كانت مدة ملكه شهرين إلا أربعة أيام، ليس له فيها إلا مجرد الاسم فقط، و لم نعلم أحدا من أكابر ملوک الترک فی السن، خاصة من مسّه الرق، خلع من السلطنة فی أقل من مدة يلباى هذا، و بعده الملک المظفر بيبرس الجاشنكير، فإن مدة بيبرس أيضا كانت سنة تنقص ثلاثة و عشرين يوما، ثم الملک العادل كتبغا المنصورى كانت مدة سلطنته سنتين و سبعة عشر يوما، و أما الملک الظاهر برقوق فإنه خلع بعد سلطنته بنحو سبع سنين، ثم أعيد.

و مع هذه المدة اليسيرة كانت أيّامه: أعنى الملک الظاهر يلباى، أشرّ الأيام و أقبحها، فی أيامه زادت الأجلاب فی الفساد، و ضيقت السبل، و عظم قطع الطرقات على المسافرين مصرا و شاما، و ما برحت الفتنة فی أيّامه قائمة فی الأرياف قبليّها و بحريّها، و توقفت

أحوال النـاس لاـ سـيما الواردين من الأقطار، و زادت الأسـعار فی جميع المأكولات، و ضاعت الحقوق، و ظلم الناس بعضـهم بعضا، و صـار فی أيامه كل مفعول جائزا، و ما ذلك إلا لعـدم معرفته، و سوء سـيرته، و ضـعفه عن تـدبير الأمور، و بت القضايا و تنفيـذ أحوال الدولة، و قلة عقله، فإنه كان فی القديم لا يعرف إلا بيلباى تلى، أى يلباى المجنون، فهذه كانت شـهرته قديما و حديثا فی أيام شبيبته، فما بالك به و قد شاخ و كبر سنه، و ذهل عقله، و قلّ نظره و سمعه.

و قد حكى الأمير برسباى قرا الخازندار الظاهرى أنه لما أخذه من مخبأة القصر

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۷۱

الأبلق و توجّه به إلى البحرة ليحبس بهـا فاجتـاز به من طريق الحريم السـلطانى، أنه عيى فی الطريق و جلس ليستريـح، ثم سـأل الأـمير برسـباى المـذكور: «إلى أين أروح؟» فقـال له: «إلى البحرة يا مولانا السـلطان معزوزا مكرّما»، فقال: «و اللّه ما أنا سـلطان، أنا أمير، و ما كنت أفعل بالسـلطنة، و قد كبر سنى و ذهل عقلى، و قلّ نظرى و سمعى؟! بالله سلّم على السلطان و قل له إنى لست بسلطان، و سله أن يرسـلنى إلى ثغر دمياط أو موضع آخر غير حبس، فأكون فيه إلى أن أموت و أنا مأمون العاقبة، لأنى ما عرفت أدبّر المملكة و أنا مولّى سلطانا، فكيف يقع منى ما يكرهه السـلطان؟!». ثم بكى أولى و ثانيـة. قال برسـباى: «فشـرعت أزيـد فی تعظيمه، و أسـليه، و أعده بكل خير».

و المقصود من هذه الحكاية اعترافه بالعجز عن القيام بأمور المملكة. و بالجملة كانت سلطنته غلطة من غلطات الدهر.

و دام الملـك الظـاهر يلبـاى بـالبحرة إلى ليلـة الثلاثـاء عاشـر جمـادى الأـولى من سـنة اثنتين و سـبعين و ثمانمائـة، فحمـل إلى سـجن الإسـكندرية فی بحر النيل، و مسفّره الأمير قانصوه اليحياوى الظاهرى المستقر فی نيابة الإسكندرية بعد عزل كسباى المؤيّدى، و توجّه إلى دميـاط بطالاـ فحبس الملـك الظـاهر يلبـاى ببعض أبراج الإسـكندرية إلى أن توفّى بحبسه من البرج بإسـكندرية فی ليلـة الاثنين مستهلّ شهر ربيع الأوّل من سنة ثلاث و سبعين و ثمانمائة، و قد جاوز السبعين من العمر.

و كان ملكا ضـخما، سـليم الباطن مع قلّة معرفته بأمور المملكة، بل بغالب الأمور، أمّيا لا يحسن الكتابة و لا القراءة و لا الكلام العرفیّ إلا بمشقّة، و كان فی

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۷۲

ابتـداء أمره يعرف بيلباى تلّى أى مجنون، و كان عـديم التجمّل فی ملبسه و مركبه و مماليكه و سـماطه، مشـهورا بالبخل و الشّحّ، نالته السـعادة فی ابتداء أمره إلى يوم تسـلطن، تنقّل فی أوائل أمره من منزلة سـيّئة إلى منزلة أخرى إلى يوم تسلطن، فلما تسلطن كان ذلك نهاية سـعده، و أخذ أمره من يوم جلس على تخت الملك فی إدبار، و اعتراه الصمت و السّكات، و عجز عن تنفيذ الأمور، و ظهر عليه ذلك؛ بحيث إنه علمه منه كلّ أحـد، و صارت أمور المملكـة جميعها معذوقة بالأمير خيربك الدوادار، و صار هو فی السـلطنة حسّا و المعنى خيربـك، و كـل أمر لاـ يبتّه خيربك المـذكور فهو موقوف لا يقضـى، و علم منه ذلك كل أحـد، و لهجت العوامّ عنه بقولهم «أيش كنت أنـا؟ قل له»، يعنون بـذلك أنه إذا قـدمت له مظلمـة أو قصـة بأمر من الأمور يقول لهم: «قولوا لخيربك» و أشـياء من هـذا النمط يطول شرحها، ذكرنا غالبها فی تاريخنا «الحوادث» مفصلة، كل واقعة فی وقتها.

و بالجملة إنه كان رجلا ساكنا غير أهل للسلطنة- رحمه اللّه تعالى، و عفا عنه.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۷۳

ذكر سلطنة الملك الظاهر أبى سعيد تمربغا الظاهرى على مصر

و هو السـلطان الذى تكمل به عدّة أربعين ملكا من ملوك الترك و أولادهم بالديار المصـرية، و الثانى من الأروام إذا لم يكن الملك المعز أيبـك التركمـانى من الروم، و الملك المنصور لاچين المنصورى، فإن كانا من الأروام، فيكون الملك الظاهر تمربغا هـذا الرابع

منهم.

و كان وقت سلطنته باكر نهار السبت سابع جمادى الأولى من سنة اثنتين و سبعين و ثمانمائة- الموافق لثامن كيهك- بعد أن اتّفق جميع أكابر الأمراء من سائر الطوائف على سلطنته، و قد جلس بصدر المقعد بالإسطبل السلطانى المعروف بالحرّاقة، و حضر الخليفة المستنجد بالله أبو المظفر يوسف، و القاضى الشافعى و القاضى الحنفى، و تخلّف المالكى لتوعكه، و الحنبلى لإبطائه، و حضر غالب أرباب الدّولة و الأعيان و بايعوه بالسلطنة، فقام من وقته و دخل مبيت الحرّاقة، و لبس خلعة السلطنة- السواد الخليفتى- ثم خرج من المبيت المذكور و ركب فرس النوبة من سلم الحرّاقة بأبهة الملك، و ركب الخليفة أمامه، و مشت أكابر الأمراء بين يديه، و جميع العسكر، و حمل السنجق السلطانى على رأسه الأمير قايتباى المحمودى رأس نوبة النّوب، و لم تحمل القبّة و الطّير على رأسه؛ فإنهم لم يجدوها فى الزّردخاناه، و كانت أخذت فيما أخذ يوم الوقعة لما نقل طوخ الزّردكاش ما فى الزّردخاناه، فجعلوا السنجق عوضا عن القبّة و الطير، و سار الملك الظاهر تمربغا فى موكب السلطنة إلى أن طلع من باب سرّ القصر السلطانى، و جلس على تخت الملك، و قبّلت الأمراء الأرض بين يديه، و خلع على

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١٦، ص: ٣٧۴

قايتباى رأس نوبة النّوب باستقراره أتابك العساكر عوضا عن نفسه، و لقّب بالملك الظاهر أبى سعيد تمربغا، و هذا ثالث سلطان لقّب بالملك الظاهر واحدا بعد واحد لم يكن بينهم أحد، و لم يقع ذلك فى دولة من الدّول بسائر الأقطار.

و دقّت البشائر و نودى باسمه بشوارع القاهرة و مصر، و كان حين سلطنته الثانية من النهار و الساعة للمشترى، و الطالع الجدى و زحل.

و تمّ أمر الملك الظاهر فى الملك، و زالت دولة الملك الظاهر يلباى كأنها لم تكن، و طلع الأعيان لتهنئته أفواجا، و سرّ الناس بسلطنته سرورا زائدا، تشارك فيه الخاص و العام قاطبة؛ لكونه أهلا للسلطنة بلا مدافعة، فإننا لا نعلم فى ملوك مصر فى الدولة التركية أفضل منه و لا أجمع للفنون و الفضائل؛ مع علمى بمن ولى مصر قديما و حديثا كما مرّ ذكره فى هذا الكتاب، من يوم افتتحها عمرو بن العاص- رضى اللّه عنه- إلى يوم تاريخه، و لو شئت لقلت: و لا من بنى أيوب؛ مع علمى محاسن السلطان صلاح الدين السعيد الشهيد، و ماله من اليد البيضاء فى الإسلام، و المواقف العظيمة و الفتوحات الجليلة، و الهمم العالية- أسكنه اللّه الجنة بمنه و كرمه.

غير أن الملك الظاهر تمربغا هذا فى نوع تحصيل الفنون و الفضائل أجمع من الكل؛ فإنه يصنع القوس بيده و كذلك النشاب، ثم يرمى بهما رميا لا يكاد يشاركه فيه أحد شرقا و لا غربا، انتهت إليه رئاسة الرمى فى زمانه، و له مع هذا اليد الطولى فى فنّ الرمح و تعليمه، و كذلك البرجاس، و سوق المحمل، و تعبئة العساكر، و أما فن اللجام و معرفته، و المهماز و أنواع الضرب به فلا يجارى فيهما، و يعرف فنّ الضرب بالسيف، و أما فن الدّبّوس فهو فيه أيضا أستاذ مفتن، بل تلامذته فيه أعيان الدنيا، هذا مع معرفة الفقه على مذهب الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان- رضى اللّه عنه- معرفة جيدة، كثير الاستحضار لفروع المذهب و غيرها، ثم مشاركة كبيرة فى التاريخ و الشعر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١٦، ص: ٣٧۵

و الأدب و المحاضرة الحسنة و المذاكرة الحلوة، مع عقل تام و تؤدة فى كلامه و لفظه، غير فحّاش و لا سبّاب.

و كان فيه أولا فى مبدأ أمره بعيض شمم و تعاظم، فلما نقل إلى المناصب الجليلة تغيّر عن ذلك كله، لا سيما لما تسلطن صار كالماء الزلال، و أظهر من الحشمة و الأدب و الاتّضاع مالا عين رأت و لا أذن سمعت، و بقى يقوم لغالب من يأتيه من أصاغر طلبة العلم ذهابا و إيابا، و يجلّ العلماء و الفقراء، و سلك مع الناس مسالك استجلب بها قلوب الخاص و العام.

و لما دام جلوسه يومه كله بالقصر السلطانى جلوسا عاما لتهنئة الناس، و هنّأه الناس على قدر منازلهم، فصار يلقى كلّ من دخل إليه بالبشاشة و الإكرام و حسن الردّ بلسان فصيح مع تؤدة و رئاسة و إنصاف، فتزايد سرور الناس به أضعاف مسرتهم أولا، و بالله أقسم إنى لم أر فيما رأيت أطلق وجها و لا أحسن عبارة و لا أحشم مجلسا فى ملوك مصر منه.

و لما كان عصر نهار السبت المذكور أخذ الأمير قانى بك المحمودى المؤيّدى أمير سلاح من اختفائه ببيت الشيخ سيف الدين الحنفى، فقيّد و حبس بعد أن نهبت العامة بيته، و أخذت أمواله من غير إذن السلطان و لا إذن أحد من أرباب الدولة، بل بأمر الغوغاء و السواد الأعظم يوم الوقعة عند انهزام يشبك الفقيه الدّوادار و اختفائه، و كان هذا المسكين جميع ماله من المال و السكر و القنود و الأعسال و القماش فى داره، فنهب ذلك جميعه، و ما ذاك إلا لصدق الخبر: «بشّر مال البخيل بحادث أو وارث»، و كذلك فعلته العامة و الغوغاء فى بيت الأمير يشبك الفقيه الدّوادار، و لكن ما أخذ من بيت قانى بك من المتاع و المال أكثر.

و فيه شفع الأمير قايتباى المحمودى فى الأمير مغلباى طاز المؤيّدى، فقبل السلطان شفاعته و رسم له بالتوجه إلى دمياط بطّالا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۶، ص: ٣٧۶

و فيه رسم السلطان بإطلاق الملك المؤيّد أحمد ابن السلطان الملك الأشرف إينال من حبس الإسكندرية، و رسم أن يسكن فى الإسكندرية فى أى بيت شاء، و أنه يحضر صلاة الجمعة راكبا، و أرسل إليه فرسا بقماش ذهب.

ثم رسم السلطان أيضا للملك المنصور عثمان ابن الملك الظاهر جقمق بفرس بقماش ذهب و خلعة عظيمة، و رسم له أن يركب و يخرج من أى باب شاء من أبواب الإسكندرية و أنه يتوجه حيث أراد من غير مانع يمنعه من ذلك، قلت: و فعل الملك الظاهر تمربغا هذا مع الملك المنصور عثمان كان من أعظم المعروف، فإنه ابن أستاذه و غرس نعمة والده.

و فيه أيضا رسم السلطان بإطلاق الأمير قرقماس أمير سلاح، و رفيقه قلمطاى، و أرغون شاه [الأشرفيين] من سجن الإسكندرية، و كتب أيضا بإحضار دولات باى النجمى و تمراز الأشرفيين من ثغر دمياط.

و كتب أيضا عدّة مراسيم إلى البلاد الشامية و الأقطار الحجازية بإطلاق من بها من المحابيس، و مجىء البطالين.

و فيه رسم السلطان بأن كل من كانت له جامكية فى بيت السلطان من المماليك الإينالية الأشرفية و قطعت قبل تاريخه، تعاد إليه من غير مشورة، فعمّ الناس السرور بهذه الأشياء من وجوه كثيرة، و تباشرت الناس بيمن سلطنته.

قلت: و قبل أن نشرع فى ذكر حوادث السلطان نذكر قبل ذلك التعريف به ثم نشرع فى ذكر حوادثه، فنقول:

أصل الملك الظاهر تمربغا هذا رومى الجنس من قبيلة أرنؤط، و جلبه بعض

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۶، ص: ٣٧٧

التجار فى صغره إلى البلاد الشامية فى حدود سنة أربع و عشرين و ثمانمائة، فاشتراه الأمير شاهين الزّردكاش نائب طرابلس كان، ثم نقل إلى ملك غيره إلى أن ملكه الملك الظاهر جقمق و هو يوم ذاك الأمير آخور الكبير، فربّاه الملك الظاهر و أدّبه و أعتقه و جعله من جملة مماليكه الخواص به، و دام على ذلك إلى أن تسلطن فقرّبه و أدناه، و جعله خاصكيا سلاحدارا مدة، ثم جعله خازندارا، ثم أمّره فى أواخر سنة ست و أربعين و ثمانمائة إمرة عشرة عوضا عن آقبردى الأمير آخور الأشرفى، و استمر على ذلك مدة طويلة، و هو معدود يوم ذاك من خواص الملك، إلى أن نقله إلى الدوادارية الثانية عوضا عن دولات باى المحمودى المؤيدى، بحكم انتقاله إلى تقدمة ألف، فباشر تمربغا هذا الدوادارية الثانية بحرمة و عظمة زائدة، و نالته السعادة، و عظم فى الدولة، و شاع اسمه فى الأقطار، و بعد صيته، و قصدته أرباب الحوائج من البلاد و الأقطار، و صار أمر المملكة معذوقا به، و الدوادار الكبير بالنسبة إليه فى الحرمة و نفوذ الكلمة كآحاد الدوادارية الصغار الأجناد.

و استمرّ على ذلك إلى أن مات الملك الظاهر جقمق رحمه اللّه تعالى، و تسلطن بعده ولده الملك المنصور عثمان، فصار تمربغا عند ذلك هو مدبر المملكة و صاحب عقدها و حلها، و الملك المنصور معه حسّ فى الملك و المعنى هو، لا سيما لما أمسك الملك المنصور الأمير دولات باى الدّوادار و الأمير يلباى المؤيّدى هذا الذى تسلطن، و الأمير يرشباى المؤيدى الأمير آخور الثانى، و استقر تمربغا هذا دوادارا كبيرا عوضا عن دولات باى المذكور و بقى ملك مصر و أموره معذوقا به، و الناس تحت أوامره، فلم تطل أيامه بعد ذلك، و وقعت الفتنة بين الملك المنصور عثمان و بين أتابكه الأشرف إينال، و هى الواقعة التى خلع فيها الملك المنصور عثمان

و تسلطن من بعده الأشرف إینال.

و دام القتال بین الطائفتین من یوم الاثنین إلی یوم الأحد، أعنی سبعة أیام و القتال عمال بین الطائفتین، و کان القائم بحرب إینال بالقلعة هو الملک الظاهر تمربغا مع خچداشیته الظاهریة، و المعول علیه فیها، مع علمی بمن کان عند الملک المنصور غیر

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۷۸

تمربغا من أکابر الأمراء، مثل تنم من عبد الرزاق أمیر سلاح، و الأمیر قانی بای الچارکسی الأمیر آخور الکبیر، و مع هذا کله کان أمر القتال و تحصین القلعة و القیام بقتال الأتابک إینال متعلقا بالملک الظاهر تمربغا هذا، فلما تسلطن إینال و انتصر أمسک الملک الظاهر تمربغا هذا و سجنه بالإسکندریة أشهرا، ثم نقله إلی حبس الصّبیبة بالبلاد الشامیة، فحبس بالصّبیبة أکثر من خمس سنین.

و کانت مدة سجنه بالإسکندریة و الصّبیبة نحو ست ستین، إلی أن أطلقه الملک الأشرف إینال فی أواخر سنة اثنتین و ستین، و أمره أن یتوجّه إلی دمشق لیتجهز بها، و یتوجه مع موسم الحاج الشامی إلی مکة و یقیم بها، فسار إلی مکة و جاور بها سنة ثلاث و ستین، و کنت أنا أیضا مجاورا بمکة فی تلک السنة، فتأکدت الصحبة بینی و بینه بها، و وقعت لنا محاضرات و مجالسات، و دام هو بمکّة إلی أن تسلطن الملک الظاهر خشقدم فی سنة خمس و ستین و ثمانمائة، فقدم القاهرة، فأجلّه الملک الظاهر، و زاد فی تعظیمه و أجلسه فوق جماعة کثیرة من أمراء الألوف الأعیان، ثم أنعم علیه فی یوم الاثنین سلخ ذی الحجة من سنة خمس و ستین و ثمانمائة المذکورة بإمرة مائة و تقدمة ألف عوضا عن جانبک الأشرفی المشد بحکم القبض علیه، و خلع علیه فی الیوم المذکور باستقراره رأس نوبة النوب، عوضا عن بیبرس الأشرفی خال الملک العزیز یوسف، بحکم القبض علیه أیضا، فدام علی ذلک إلی أن أخرج الملک الظاهر خشقدم الأتابک جرباش إلی ثغر دمیاط بطالا، و استقرّ عوضه فی الأتابکیة الأمیر قانم أمیر مجلس، فنقل الملک الظاهر تمربغا إلی إمرة مجلس عوضا عن قانم المذکور، و ذلک فی شهر رمضان سنة تسع و ستین و ثمانمائة، فدام علی إمرة مجلس إلی أن مات الملک الظاهر خشقدم فی عاشر شهر ربیع الأول.

و تسلطن الملک الظاهر یلبای، فصار الملک الظاهر تمربغا هذا أتابک العساکر عوضا عن الملک الظاهر یلبای المذکور، فعند ذلک تحقق کل أحد أن الأمر

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۷۹

یؤول إلیه، فکان کذلک حسبما تقدم ذکره، و لنعد الآن إلی ما وعدنا بذکره من الحوادث:

و لما کان یوم الاثنین تاسع جمادی الأولی أنعم السلطان الملک الظاهر تمربغا علی جماعة من الأمراء بعدة وظائف:

فاستقرّ الأمیر جانبک قلقسیز أمیر مجلس أمیر سلاح عوضا عن قانی بک المحمودی المؤیّدی بحکم القبض علیه.

و استقرّ الشهابی أحمد بن العینی الأمیر آخور الکبیر أمیر مجلس عوضا عن جانبک قلقسیز.

و استقرّ الأمیر بردبک هجین الظاهری حاجب الحجاب أمیر آخورا کبیرا عوضا عن ابن العینی.

و استقرّ الأمیر خیربک الظاهری الدوادار الثانی دوادارا کبیرا عوضا عن یشبک الفقیه بحکم القبض علیه و إخراجه إلی القدس الشریف بطالا.

و استقرّ الأمیر کسبای الظاهری أحد أمراء العشرات دوادارا ثانیا، عوضا عن خیربک.

و استقرّ الأمیر خشکلدی البیسقی رأس نوبة النوب، عوضا عن الأتابک قایتبای.

و استقر الأمیر قانصوه الیحیاوی الظاهری أحد أمراء العشرات و رأس نوبة فی نیابة الإسکندریة عوضا عن کسبای المؤیدی السمین بحکم عزله و توجهه إلی دمیاط بطالا، بعد أن أنعم الملک الظاهر علی قانصوه المذکور بإمرة طبلخاناه عوضا عن طوخ الزردکاش، بحکم توجهه إلی دمیاط بطالا.

و فی لیلة الثلاثاء عاشره حمل الملک الظاهر یلبای فی النیل إلی إسکندریة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۸۰

لیسجن بها، و مسفرّه قانصوه الیحیاوی، و قد تقدم ذکر ذلک کله فی ترجمة الظاهر یلبای.

و فی یوم الثلاء عاشره فرقت نفقة الممالیک السلطانیة، و هی تمام تفرقة یلبای التی کان أنفق غالبها و لم یتم، و لم یفرق الملک الظاهر تمربغا نفقة علی الممالیک السلطانیة لقلة الموجود بالخزانة الشریفة.

و رسم الملک الظاهر تمربغا فی هذا الیوم بإعطاء أولاد الناس النفقة، الذین هم من جملة الممالیک السلطانیة، و کان الملک الظاهر یلبای منعهم، فکثر الدعاء علیه بسبب ذلک حتی خلع، و أحوجه اللّه إلی عشر من أعشارها، فلما أمر الملک الظاهر تمربغا بالنفقة علیهم کثر الدعاء له بذلک، فلم یسلم من واسطة سوء- و کلمة الشح مطاعة- فتغیر بعد ذلک، فقرأ بعض أولاد الناس هذه الآیة الشریفة: «إنّ اللّه لا یغیّر ما بقوم حتّی یغیّروا ما بأنفسهم» بذل و خشوع و کسر خاطر، فلم یفلح بعدها، و لم یقع للظاهر تمربغا فی سلطنته ما یعاب علیه إلا هذه القضیة، فما شاء اللّه کان، قلت:

«وا عجباه من رجل یملک تخت ملک مصر، ثم تضعف همته عن إعطاء مثل هذا النزر الیسیر الذی یعوضه الملک العارف المدبر من أی جهة شاء من الجهات الخفیة عن العاری الضعیف التدبیر، و تطلق علیه بعدم الإعطاء ألسنة الخاص و العام، و تکثر الشناعة و القالة فی حقه بسبب ذلک و لکن العقول تتفاوت».

و فیه أیضا قدم الأمیر أزدمر تمساح إلی القاهرة بعد ما أوصل الأمیر بردبک الظاهری نائب الشام إل القدس لیقیم به بطالا.

و فی یوم الخمیس ثانی عشره خلع السلطان علی الأتابک قایتبای خلعة نظر

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۸۱

البیمارستان المنصوری، و کذلک خلع علی خیربک الدوادار الکبیر، و علی کسبای الدوادار الثانی، کلیهما خلعة الأنظار المتعلقة بوظائفهما.

و فیه أنعم السلطان علی ستة نفر بتقادم ألوف بالدّیار المصریّة، فرّق علیهم من الإقطاعات الشاغرة، و أضاف إلیها بلادا أخر من الذخیرة السلطانیة و غیرها، و هم:

الأمیر لاجین الظاهری، و سودون الأفرم الظاهری الخازندار، و جانبک من ططخ الظاهری الفقیه الأمیر آخور الثانی، و تمر من محمود شاه الظاهری والی القاهرة.

و استقرّ تمر المذکور حاجب الحجاب بالدّیار المصریة دفعة واحدة عوضا عن الأمیر بردبک هجین المنتقل إلی الأمیر آخوریة الکبری، و هؤلاء الأربعة ممالیک الملک الظاهر جقمق.

ثم أنعم علی الأمیر تنبک المعلم الأشرفی رأس نوبة ثان أیضا بتقدمة ألف، ثم مغلبای الظاهری شاد الشراب خاناه.

فهؤلاء الستة المقدم ذکرهم، منهم تنبک مملوک الأشرف برسبای، و مغلبای مملوک الظاهر خشقدم.

ثم استقرّ برقوق الناصری الظاهری شاد الشراب خاناه عوضا عن مغلبای.

و استقرّ تغری بردی ططر الظاهری نائب قلعة الجبل بعد عزل سودون البردبکی الفقیه المؤیدی و نفیه.

و استقر آصبای الظاهری- أحد أمراء الأجلاب- الذی کان قتل قتیلین أیام أستاذه الملک الظاهر خشقدم، و لم ینتطح فی ذلک شاتان- والی القاهرة عوضا عن تمر الظاهری.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۸۲

و فی یوم السبت رابع عشر جمادی الأولی المقدم ذکره استقر الأمیر تنبک المعلّم أحد المقدمین أمیر حاج المحمل، عوضا عن جانبک کوهیّة، و کان تنبک هذا قد ولی قبل تاریخه إمرة الرکب الأول، فلما صار أحد مقدّمی الألوف استقرّ أمیر الحاج، و ولی بعده بمدّة تنبک الأشقر الأشرفی أمیر الرکب الأوّل.

و فيه كان تمام نفقة المماليك السلطانية بعد أن فرقت على أقبح وجه و أظهر عجز، لأنهم لم ينفقوا على أحد من الأمراء إلا من ندب إلى السفر، و لا على أولاد الناس، و لا على الخدّام الطواشية، و لا على أحد من المتعممين، و مع هذا كله فرقت النفقة فى مدة طويلة كإعطاء المديون المماطل لغريمه، و لما فرقت النفقة خلع السلطان على القاضى علم الدين كاتب المماليك، و على ولده بالتحدث عن خوند زوجة السلطان فى تعلقاتهما.

و فيه استقرّ الأمير جكم الظاهرى أحد الأمراء الأجلاب حاجبا ثانيا عوضا عن الأمير قانى بك السيفى يشبك بن أزدمر بحكم استعفائه عن الإمرة و الوظيفة معا.

و فى يوم الاثنين سادس عشره استقرّ الأمير دولات باى حمام الأشرفى أحد أمراء العشرات رأس نوبة ثانيا عوضا عن تنبك المعلّم على إمرة عشرة كما كان أولا.

و فيه استقرّ الأمير برسباى قرا الظاهرى أحد أمراء العشرات و رأس نوبة خازندارا عوضا عن سودون الأفرم المنتقل إلى تقدمة ألف.

و استقرّ فارس السيفى دولات باى أحد أمراء العشرات زردكاشا عوضا عن طوخ الأبوبكرى المؤيدى على إمرة عشرة.

و فى آخر هذا النهار وصل الأمير قرقماس أمير سلاح و رفيقاه قلمطاى و أرغون شاه من سجن الإسكندرية، و باتوا بالميدان الناصرى، و طلعوا من الغد إلى القلعة، فقام السلطان إلى قرقماس المذكور و اعتنقه و أجلسه فوق أمير سلاح على ميسرته ثم خلع عليه كاملية بمقلب سمّور، و نزل هو و رفيقاه إلى دورهم.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۸۳

و فيه فرّق الملك الظاهر تمربغا نحو سبعين مثالا، أعنى سبعين إقطاعا على جماعة من المماليك السلطانية، الكثير و القليل.

و فى يوم الأربعاء ثامن عشره نفى السلطان خمسة أمراء من أمراء المؤيّدية إلى البلاد الشامية، و أخرج إقطاع بردبك الشمسى أحد أمراء العشرات و أبقى بالقاهرة بطالا- و الذين أخرجوهم: سودون البردبكى الفقيه نائب القلعة، و جقمق، و جانم كسا، و قانى باى ميق، و جانبك البوّاب، و معهم جندى من المؤيدية غير أمير يسمى خشكلدى قرا الحسنى، و ما على خشكلدى المذكور فى نفيه أضر من كثرة متحصل إقطاعه لا غير، و شفع فى جانبك الزينى و تنم الفقيه و طوغان ميق [العمرى] و دولات باى الأبوبكرى فهؤلاء الذين بقوا بمصر من أمراء المؤيدية، ثم بعيض أجناد لم يلتفت إليهم، و هم نحو من عشرين نفرا أو أقل.

و فى يوم الخميس تاسع عشره أنعم السلطان الملك الظاهر تمربغا على نحو عشرين نفرا بإمريات عشرة: من الأشرفية الكبار، و من الظاهرية الكبار، و من الأشرفية الصغار، و من الظاهرية الصغار الأجلاب ثم على بعض سيفية.

و فيه وصل دولات باى النجمى و تمراز [الساقى الأشرفيان] من ثغر دمياط، و طلعا إلى السلطان فى يوم السبت.

و فى يوم السبت حادى عشرينه أشيع بالقاهرة بإثارة فتنة و ركوب الأمراء على السلطان، و لم يعين أحد.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۸۴

و فيه أشيع بموت جهان شاه بن قرايوسف ملك الشرق و العراقين.

و فى يوم الثلاثاء رابع عشرين جمادى الأولى المذكور استقرّ الأمير أرغون شاه الأشرفى فى نيابة غزّة عوضا عن دمرداش العثمانى قبل أن يصل دمرداش المذكور إليها أو يحكمها.

ثم استهل جمادى الآخرة- أوله الاثنين، و يوافقه أول طوبة.

فى يوم الثلاثاء ثانيه نودى من قبل السلطان بأن السلطان ينزل إلى الإسطبل السلطانى فى يومى السبت و الثلاثاء للحكم بين الناس و إزالة المظالم.

و فى يوم الخميس رابعه استقر الأمير خيربك الدوادار ناظر خانقاه سرياقوس و ناظر خانقاه سعيد السعداء و ناظر قبّة الصالح، و ذلك عوضا عن الشهابى أحمد بن العينى أمير مجلس لأمر قصده السلطان فى الوقوع بينهما.

و فيه وصل رأس جهان شاه بن قرايوسف ملك العراقين و الشرق على ما زعم حسن بك بن على بك بن قرايلك متملك ديار بكر، و علّقت الرأس على باب الملك الأفضل بن شاهنشاه المدعو الآن بباب زويلة أيّاما، و فى قتل حسن بك لجهان شاه المذكور روايات كثيرة مختلفة يناقض بعضها بعضا.

و فى ليلة السبت سادسه سافر الأمير قرقماس أمير سلاح كان، إلى ثغر دمياط بطّالا برغبته لذلك.

و فى يوم الاثنين ثامنه خلع الظاهر تمربغا على الأمير أزدمر تمساح بتوجهه إلى القدس الشريف و على يده تقليد الأمير بردبك و تشريفه و عوده لنيابة حلب، عوضا عن يشبك البجاسى بحكم عزله و حبسه بقلعة دمشق.

و فى يوم الخميس حادى عشره خلع السلطان على الأمير أزدمر الطويل الإبراهيمى القادم قبل تاريخه من دمشق بتوجهه إلى حلب، و على يده مرسوم شريف بتوجه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۸۵

الأمير يشبك البجاسى نائب حلب إلى القدس بطالا، ثم آل أمره إلى حبس دمشق، و أزدمر هذا خلاف أزدمر تمساح المقدّم ذكره.

و فى يوم السبت ثالث عشره وصل الأمير سودون الشمسى البرقى أحد أمراء الألوف بدمشق إلى خانقاه سرياقوس، فمنعه السلطان من الدخول إلى الديار المصرية، و أرسل إليه بفرس بسرج ذهب و كنبوش زركش و كاملية بمقلب سمّور، و طيّب خاطره.

و فى يوم السبت العشرين من جمادى الآخرة ضرب السلطان القاضى تقى الدين بن الطيورى الحلبى الحنفى المعروف بخروف بالإسطبل السلطانى فى الملأ ضربا مبرحا؛ لسوء سيرته و قبح سريرته، و أرسله فى الجنزير إلى بيت القاضى المالكى ليدّعى عليه بأمور، فاستمر فى الجنزير إلى يوم الأحد ثامن عشرينه، فأحضروه إلى بيت القاضى كاتب السّرّ الشريف، فادعى عليه بأمر ذكرناه فى «الحوادث»، فحكم القاضى بدر الدين محمد ابن القطّان الشافعى فيه، و ضربه ثلاثين عصاة، و كشف رأسه، و أشهره و هو مكشوف الرأس مقطع الأكمام إلى الحبس، ثم نفى بعد ذلك إلى جهة البلاد الشامية.

و فى هذه الأيام قويت الإشاعة بأن الأمير خيربك يريد القبض على السلطان و على الأتابك قايتباى المحمودى إذا طلع إلى القلعة فى ليالى الموكب، و أنه قد اتفق مع خچداشيته الأجلاب على ذلك، الذين هم من جنسه جنس أبزة، و أن خچداشيته الچراكسة تخالفه و تميل إلى الأمير كسباى الدّوادار الثانى، و كسباى المذكور هو صهر الملك الظاهر تمربغا أخو زوجة السلطان، و أما الأتابك قايتباى فإنه أخذ حذره من هذه الإشاعة، و احترز على نفسه، و امتنع فى الغالب من الطلوع إلى القلعة فى ليالى الموكب و صلاة الجمعة مع السلطان، و صار يعتذر عن طلوع القلعة بأمور مقبولة و غير مقبولة، لكن كان يطلع أيام الموكب فى باكر النهار بقماش الموكب و ينزل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۸۶

فى الحال، و كانت أعذاره عن الطلوع إلى القلعة بأنه تارة يتوجه إلى الربيع و تارة بغير ذلك.

و السلطان يسمع هذه الإشاعة و يعلم من الأتابك قايتباى ما يفعله و لا ينكر عليه عدم طلوعه، و لا يجبره على الطلوع، بل يتخوّف هو أيضا على نفسه، و يأخذ فى إصلاح أمره بما هو أخف، فلا يسلم ممن يسكّن روعه و ينفى عن خيربك المذكور هذه الإشاعة ممن له غرض فى الباطن مع خيربك، ثم يقوّى جأش السلطان الأمير كسباى الدوادار مع كثرة خچداشيته، فإنه مخالف لخچداشه خيربك الدوادار، و يميل إلى صهره الملك الظاهر تمربغا، و استمر هذا الحال جمادى الآخرة كلها، إلى أن استهل شهر رجب- أوله يوم الأربعاء.

فيه سأل الأتابك قايتباى السلطان أن يتوجّه إلى ناحية مربط جماله على الربيع ببعض قرى القليوبية من أعمال مصر، فأذن له السلطان فى ذلك، فسافر الأتابك إلى تلك الجهة، و غاب بها إلى يوم الأحد خامس رجب، فحضر إلى القاهرة فى آخر النهار المذكور و لم يطلع تلك الليلة إلى القلعة كعادة طلوعه قبل تاريخه فى ليالى الموكب، و امتنع أيضا من الطلوع فى تلك الليلة جماعة أخر من

مقدمی الألوف، و لم یطلع إلا الأمیر جانبک قلقسیز أمیر سلاح، و الشهابی أحمد بن العینی أمیر مجلس، و سودون القصروی، و تنبک المعلّم الأشرفی، و الأمیر تمر حاجب الحجاب، و خشکلدی البیسقی رأس نوبة النّوب، و هو من أعظم أصحاب خیربک، و کذلک الأمیر مغلبای الظاهری.

فهؤلاء الستة الذین طلعوا إلی القلعة فی تلک اللیلة من مقدمی الألوف، و أذّن المغرب و هم بالقلعة، و صلّوا مع السلطان الملک الظاهر تمربغا صلاة المغرب، ثم دخل الملک الظاهر إلی الخرجة المطلّة علی الرمیلة علی العادة، و جلس بها.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۸۷

ذکر الوقعة التی خلع فیها السلطان الملک الظاهر أبو سعید تمربغا من الملک

و لما دخل الملک الظاهر تمربغا إلی الخرجة المقدم ذکرها و جلس بها سمع بالقصر بعض هرج بخارج القصر، فسأل عن الخبر، فقیل له ما معناه: الأجلاب بینهم کلام، فراب السلطان ذلک، فطلب خیربک الدّوادار، فدخل علیه، فأخذ السلطان یتکلم معه و هو یتبرّم من وجع رجلیه علی ما زعم، و لم یطل جلوسه عند السلطان، و خرج إلی خارج القصر، فعظم الهرج بالقصر، فأزعج السلطان ذلک، فقام و خرج إلی القصر، فلم یجلس به إلا یسیرا و أشار علیه بعض أصحابه بالدخول إلی الخرجة، فعاد إلیها، و طلب الأمیر خشکلدی البیسقی رأس نوبة النوب و سأله عن أمر هؤلاء، فذکر أنه لا یعرف ما هم فیه.

و قام السلطان و صلی العشاء داخل الخرجة، و هذا بخلاف العادة، و صلی خشکلدی معه، ثم خرج و قد عظم الهرج، و ضرب أصحاب خیربک الأمیر طربای المحتسب أحد أصحاب کسبای الدّوادار ضربا مبرّحا أشفی منه علی الهلاک، و نالوا من کسبای أیضا، و ضربوه ضربا لیس بذاک، کل ذلک لدفع کسبای و طربای المکروه عن السلطان.

و کان من الاتفاق الغریب أن الجراکسة أصحاب کسبای لم یطلع منهم فی تلک اللیلة إلا أناس قلیلة، و طلع من أصحاب خیربک جنس أبزة خلائق باتفاق من خیربک، فلما وقع ذلک تحقّق الملک الظاهر تمربغا وقوع شیء، و لم یسعه إلا السکات.

و کان عند السلطان جماعة من خچداشیته الأمراء، و السلطان و من عنده کالمأسورین فی ید الأجلاب، ثم تفرقت الأجلاب إلی الأطباق بقلعة الجبل، و لبسوا آلة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۸۸

الحرب و عادوا إلی القصر بقوّة زائدة و أمر کبیر، و توجه بعضهم لإحضار الخلیفة، و توجه بعضهم انهب الحریم السلطانی بداخل الدور، ثم أغلق باب الخرجة من قبل السلطان کأنه مخافة من هجوم بعض الأجلاب علیه.

ثم وقعت أمور سمعناها بالزائد و الناقص علی قدر الروایات؛ فإننا لم نحضر شیئا من ذلک، و آل الأمر إلی الدخول علی السلطان و إخراج خچداشیته من عنده، ثم أرادوا إخراج من بقی عنده من السقاة، فمنعهم السلطان من ذلک قلیلا، ثم سکت، فأخرجوهم، و بقی السلطان فی جماعة یسیرة من ممالیکه و غیرهم.

ثم بعد ساعة دخل علی السلطان ثلاثة أنفار من الجلبان ملبسة و هم ملثمون، و أرادوا منه أن یقوم و ینزل إلی المخبأة التی تحت الخرجة، فامتنع قلیلا، ثم قام معهم مخافة من الإخراق، و أخذوه و أنزلوه إلی المخبأة من غیر إخراق و لا بهدلة، و أنزلوا فرشا و مقعدا، و نزل معه بعض ممالیکه و بعض الأجلاب أیضا، و أغلقوا علیه الطابقة، و أخذوا النّمچة و الدرقة و الفوطة و دفعوهم إلی خیربک، بعد أن أطلقوا علیه اسم سلطان، و باس له الأرض جماعة من أعیان الأمراء، و قیل إنهم لقبوه بالملک العادل، کل ذلک بلا مبایعة و لا إجماع الکلمة علی سلطنته، بل بفعل هذه الأجلاب الأوباش، غیر أن خیربک لما أخذ النّمچة و الدّرقة حدثته نفسه بالسلطنة، و قام و أبعد فی تدبیر أمره و تحصین القلعة.

و أما الملک الظاهر تمربغا لم یتمّ جلوسه بالمخبأة حتی أنزلوا عنده جماعة کبیرة من خچداشیته الأمراء واحدا بعد واحد حتی تکمل

عدتهم ثمانية أو تسعة، و هم: الأمير تمر حاجب الحجاب، و برقوق المشد، و برسباى قرا الخازندار، و أزبک ناظر الخاص، و تغرى بردى ططرنائب القلعة، و قانى باى الساقى، و قانى بک، و قجماس، و اثنان آخران و قعد عندهم جماعة من الأجلاب كما تقدم ذكره.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۸۹

و أما الأمير بردبک هجين الأمير آخور الكبير فإنه بلغه الخبر فى أوائل الأمر فلم يكذب ما سمع، و نزل من الإسطبل السلطانى من وقته، و أرسل أعلم الأتابک قايتباى بما وقع، فركب الأتابک فى الحال هو و أصحابه و خچداشيته و قد انضم عليه الأشرفية الكبار و الأشرفية الصغار بعد أمور وقعت، فحضر الأتابک قايتباى إلى بيت قوصون الذى سدّ بابه من تجاه القلعة، فلم يكد جلوس السلطان الملک الظاهر تمربغا بالمخبأة إلا و قد انتشر أصحاب قايتباى بالرملة، و رآهم السلطان الملک الظاهر تمربغا من شباک المخبأة المطل على الرملة فى جمع كثير، و ذلک قبل نصف الليل، لأن إنزال الملک الظاهر تمربغا إلى المخبأة كان بالتقريب قبل ثلث الليل الأخير، و الخبر الذى ورد على الأمير بردبک هجين كان بعد عشاء الآخرة.

و أما خيربک الدوادار الكبير فإنه لما أخذ النّمجة و الدّرقة شرع فى إصلاح أمره ليتم له ما أراد من ملک مصر، و نزل إلى الإسطبل السلطانى فى جمع كبير من خچداشيته الأجلاب، و وقف بداخل باب السلسلة يترقّب من يجىء إليه من الرملة.

و الذى بلغنى من غير ثقة أن جماعة من الطوائف المشهورة كانوا وافقوه على أن يفعل ما فعل، و أنهم معه على السراء و الضراء و فى كل ما يرومه، فلما طال وقوف خيربک و لم يطلع إليه أحد، علم أنهم خذلوه و غرروا به، فندم حيث لا ينفعه الندم و لم يسعه إلا إتمام ما فعل، فعاد خيربک إلى القلعة بعد أن أمر الأجلاب أن يصعدوا على سور القلعة و يقاتلوا من بالرّملة من أصحاب قايتباى، ففعلوا ذلک، و قاتلوا قتالا جرح فيه جماعة من الفريقين، و قتل جماعة، و طلع خيربک إلى القصر و قد علم أنّ أمره تلاشى و أدبرت سعادته، و بينما هو فى ذلک فرّ عنه غالب أصحابه الكبار مثل خشكلدى و مغلباى و غيرهما، فعند ذلک لم يجد خيربک بدّا من الإفراج عن الملک

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۹۰

الظاهر تمربغا و من معه من خچداشيته و مماليكه، فأخرجوهم و نزل خيربک على رجل الملک الظاهر تمربغا يقبلها، و يبكى و يسأله العفو عنه، و قد أبدى من التضرّع أنواعا كثيرة، فقبل السلطان عذره، هذا و قد جلس السلطان الملک الظاهر تمربغا موضع جلوس السلطان على عادته، و أخذ النّمجة و الدّرقة و قد انهزم غالب الأجلاب، و نزلوا من القلعة لا يلوى أحد منهم على أحد، كل ذلک و الأتابک قايتباى بمن معه من الأمراء بالرّملة.

فلما تمّ جلوس الملک الظاهر تمربغا بالقصر على عادته أمر من كان عنده من أكابر الأمراء بالنزول إلى الأتابک قايتباى لمساعدته، و الذين أرسلهم هم: الأمير جانبک قلقسيز أمير سلاح، و سودون القصروى، و تنبک المعلّم، فهؤلاء الثلاثة و أمثالهم كانوا عند خيربک فى وقت مسک الملک الظاهر تمربغا و فى قبضته، و قد أظهروا له الطاعة إما غصبا على ما زعموا، و إما رضى على ما زعم بعضهم.

ثم أرسل [السلطان] بمن كان عنده و محبوسا معه مثل الأمير تمر حاجب الحجاب و برقوق شاد الشراب خاناه و غيرهما، و كان إنزال هؤلاء الأمراء إلى الأتابک قايتباى هفوة من الملک الظاهر تمربغا، فإنه لو لم يكن نزولهم ما كان ينبرم للأتابک قايتباى فى غيبتهم أمر.

كل ذلک و الخلائق تطلع إلى الملک الظاهر تمربغا أفواجا أفواجا تهنئه بالنصر و بعوده إلى ملكه، و العساكر وقوف بين يديه.

و طلع السيفى تنم الأجرود الظاهرى الخاصكى إلى السلطان، فلما رأى خيربک الدّوادار واقفا بين يدى السلطان أراد قتله بالسّيف، فمنعه الملک الظاهر من ذلک، ثم أمر بحبسه داخل خزانة الخرجة فحبس بها.

و لما تم أمر الأتابک قايتباى من قتال الأجلاب و انتصر طلع بمن معه إلى باب

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۹۱

السّلسلة، و جلس بمقعد الإسطبل، و كان لهج بعض الأمراء عند طلوع قايتباى إلى الإسطبل بأن قال: «اللّه ينصر الملك الناصر قايتباى»، و سمع بعض الناس ذلك.

و لما جلس الأتابك قايتباى بمقعد الحرّاقة بتلك العظمة الزائدة كلمه بعض الأمراء فى السّلطنة، و حسّنوا له ذلك، فأخذ يمتنع امتناعا ليس بذاك، إلى أن قام بعضهم و قبّل الأرض له، و فعل غيره كذلك، فامتنع بعد ذلك أيضا، فقالوا:

«ما بقى يفيد الامتناع، و قد قبّلنا لك الأرض فإما تذعن و إما نسلطن غيرك».

فأجاب عند ذلك.

فقال بعض الظّرفاء: «جلوسه بالمقعد و الملك الظاهر تمربغا بالقصر كان ذلك إجابة منه، و إلا لو لم يكن له غرض فى ذلك كان طلع إلى القصر عند السلطان دفعة واحدة».

فلما تمّ أمر الأتابك قايتباى فى السلطنة طلع الأمير يشبك من مهدى الظاهرى الكاشف بالوجه القبلى إلى الملك الظاهر تمربغا، و عرّفه بسلطنة قايتباى، و أخذه و دخل به إلى خزانة الخرجة الصغيرة، و قد حبس بها خيربك قبل ذلك كما تقدم.

و لما استقرّ الملك الظاهر تمربغا بالخزانة المذكورة كلّمه يشبك من مهدى فى أنه يتوجه إلى البحرة أو هو أراد، فقبل أن يقوم من مجلسه تناول يشبك من يده النّمجة و الدّرقة و دفعهما إلى تمراز الأشرفى، فأخذهما تمراز و توجّه إلى الأتابك قايتباى، و قام الملك الظاهر تمربغا و توجّه فى الحال إلى البحرة مكرما مبجلا، و بين يديه يشبك من مهدى المذكور و غيره، و سار إلى البحرة من داخل الحريم السلطانى، و جلس بالبحرة.

و تمّ أمر قايتباى فى السلطنة حسبما يأتى ذكره إن شاء اللّه تعالى.

و استمرّ جلوس الملك الظاهر تمربغا بالبحرة و أصحابه و حواشيه تتردّد إليه من غير مانع يمنعهم من ذلك، و الملك الأشرف قايتباى يظهر تعظيمه و إكرامه بكل ما تصل قدرته إليه.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۹۲

فلما كان ليلة الأربعاء ثامن شهر رجب المذكور رسم السلطان الملك الأشرف بسفره إلى ثغر دمياط برغبة الملك الظاهر تمربغا فى ذلك، فلما كان بين العشاءين من ليلة الأربعاء خرج الملك الظاهر تمربغا من قاعة البحرة و فى خدمته الخدّام و غيرهم، و سار من الحوش السلطانى إلى داخل الحريم، و عرف الملك الأشرف قايتباى وقت خروجه من البحرة، فقام من خرجة القصر مسرعا فى مشيه إلى أن وافى الملك الظاهر تمربغا بدهليز الدّور السلطانية عند الشيخ البردينى، فبادره السلطان الملك الأشرف قايتباى بالسّلام، فاعتنقه و أهوى إلى يده ليقبلها، فمنعه الملك الظاهر تمربغا من ذلك، ثم أخذ الأشرف فى الاعتذار له مما وقع منه، و الملك الظاهر يقبل منه عذره، و يظهر له الفرح التام بسلطنته، لأنه خچداشه، و آمن على نفسه فى دولته، هذا و الملك الأشرف مستمرّ على إكرامه و تعظيمه إلى غاية ما يكون، ثم تكلّم معه سرّا فى خلوة؛ لأن السلطان كان حضر معه الأتابك جانبك قلقسيز، و يشبك من مهدى، و تمر حاجب الحجاب، و جماعة أخر من خواصّ الملكين و خچداشيتهما، و طال الوقوف بينهما ساعة جيدة، ثم تعانقا و تباكيا، و افترقا على أحسن وجه و أجمل حال.

ثم نزل الملك الظاهر تمربغا و ركب فرسا كعادته من خيله الجياد بعد أن ودعه أيضا الأمراء الذين كانوا جاءوا مع الملك الأشرف، و لما قبّل الأمير يشبك من مهدى يد الملك الظاهر تمربغا دفع له ألفى دينار، و قنطارى سكر مكرر، و غير ذلك.

و سار الملك الظاهر تمربغا من القلعة إلى ساحل النيل و هو فى غاية الحشمة فى مسيره من غير أوجاقى يركب خلفه بالسكين كما هى عادة الأمراء و لا غير ذلك، و الذين ساروا معه غالبهم كالمودعين له، فلما وصل إلى المركب نزل إليها بعد أن ودعه من كان وصل معه إلى البحر من أعيان خچداشيته الأمراء، و سافر من وقته من غير

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۹۳

أن يتوجه معه مسفّر من الأمراء و لا غيرهم، بل سار هو بنفسه كما يسافر الشخص إلى جهة تعلقه، و هذا بعد أن رسم له الملك الأشرف بالركوب بثغر دمياط إلى حيث أراد من سائر الجهات برّا و بحرا، و أشياء كثيرة من هذه المقولة حتى سيّر معه السلطان فرسا فى المواكب.

و سافر الملک الظاهر تمربغا حتى وصل إلى ثغر دمياط و نزلها، و سكن بأحسن دورها و معه حشمه و خدمه و بعض حرمه، و دام بالثغر إلى...

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۹۴

ذكر سلطنة الملك الأشرف قايتباى المحمودى على مصر

و هو السلطان الحادى و الأربعون من ملوک الترک و أولادهم بالديار المصرية، و الخامس عشر من الچراكسة و أولادهم، و أمر سلطنته و كيفيتها:

أنه لما خلع الملک الظاهر تمربغا و تمّ أمر قايتباى هذا بالإسطبل السلطانى جلس بمبيت الحرّاقة من الإسطبل المذكور، و حضر الخليفة و القضاة، و بايعوا الأتابک قايتباى بالسلطنة و لبس خلعة السلطنة- السواد الخليفتي- من مبيت الحرّاقة، و ركب فرس النوبة بقماش ذهب بأبهة الملک، و حمل الأمير جانبک الإينالى الأشرفى المعروف بقلقسيز أمير سلاح السنجق على رأسه، و ذلک لفقد القبّة و الطير من الزردخاناه السلطانية فى واقعة الملک الظاهر يلباى، و سار و جميع العسكر بين يديه إلى أن طلع من باب سرّ القصر، و دخل إلى القصر الكبير، و جلس على تخت الملک، و قبّلت الأمراء الأرض بين يديه على العادة، و تمّ أمره، و نودى فى الحال بسلطنته بشوارع القاهرة، و تلقّب بالملک الأشرف، و دقّت البشائر، و خلع على الخليفة على العادة، و على جانبک قلقسيز أمير سلاح باستقراره أتابک العساكر عوضا عن نفسه.

و كانت العادة أن الأمير الكبير يلبس اليوم خلعة حمل القبة و الطير على رأس السلطان، ثم بعد ذلک يلبس خلعة الأتابكية فيما بعد، فالآن اقتصروا على خلعة واحدة، و وفّر غيرها، ثم دخلت الناس لتهنئته بالسلطنة أرسالا إلى أن انتهى ذلک.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۹۵

و كان وقت بيعته بالسلطنة قبل أذان الظّهر من يوم الاثنين سادس رجب من سنة اثنتين و سبعين و ثمانمائة بثمانى عشرة درجة، و الساعة للشمس، و الطالع الثور و الزهرة، و هو أيضا يوم سادس أمشير لأن الشهر العربى و القبطى توافقا فى هذا الشهر و الشهر الخارج أيضا.

و فى هذه السنة حكم فيها أربعة سلاطين، و قبل أن نشرع فى ذكر حوادثه و أموره نشرع فى التعريف به فنقول:

أصل الملک الأشرف قايتباى هذا أنه چاركسى الجنس، جلب من بلاده إلى الديار المصرية فى حدود سنة تسع و ثلاثين و ثمانمائة، فاشتراه الملک الأشرف برسباى، و لم يجر عليه عتقا، و جعله بطبقة الطّازية من أطباق قلعة الجبل إلى أن ملكه الملک الظاهر جقمق، و أعتقه و جعله خاصكيا، ثم دوادارا صغيرا، ثم امتحن بعد خلع ابن أستاذه الملک المنصور عثمان، ثم تراجع أمره عند الملک الأشرف إينال، و صار دوادارا صغيرا كما كان أولا، ثم أمّره إمرة عشرة، فدام على ذلک إلى أن أنعم عليه الملک الظاهر خشقدم بإمرة طبلخاناه، و جعله شاد الشراب خاناه بعد جانبک الأشرفى المشد، فدام فى المشدية أياما كثيرة، و توجه إلى تقليد نائب حلب، ثم بعد عوده بمدة أنعم عليه بإمرة مائة و تقدمة ألف بالديار المصرية، فاستمر على ذلک إلى أن جعله الملک الظاهر يلباى رأس نوبة النوب بعد خروج الأمير أزبک الظاهرى إلى نيابة الشام، و أنعم عليه بإقطاعه أيضا، فلم تطل أيام قايتباى هذا فيما ذكرناه، و نقله الملک الظاهر تمربغا إلى الأتابكية عوضا عن نفسه لما تسلطن، فلم تطل أيّامه أيضا فى الأتابكيّة، و تسلطن حسبما ذكرناه.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۹۶

و لما استقر جلوسه بالقصر، و خلع علیه خلعة السلطنة أمر بحبس الأمیر خیربک الدوادار بالرکبخاناه، و کذلک الأمیر أحمد العینی أمیر مجلس، و اختفی الأمیر خشکلدی البیسقی رأس نوبة النّوب، ثم ظهر فرسم بنفیه.

تم الجزء السادس عشر، و به ینتهی کتاب النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۹۷

فهرس

اشارة

الجزء السادس عشر من کتاب النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۹۹

فهرس الملوک و السلاطین الذین تولوا حکم مصر

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۴۰۰

فهرس الأعلام

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۴۰۳

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۴۰۸

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۴۰۹

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۴۱۱

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۴۱۲

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۴۲۴

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۴۳۱

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۴۳۷

الأعلام التی ترجم لها المؤلف فی الوفیات

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۴۴۸

فهرس الأمم و القبائل و البطون و العشائر و الأرهاط و الطوائف و الجماعات

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۴۵۵

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۴۶۱

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۴۶۲

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۴۶۴

فهرس البلاد و الأماكن و الأنهار و الجبال و غير ذلك

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۴۶۶

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۴۶۸

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۴۶۹

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۶، ص: ۴٧٠

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۴۷۳

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۴۷۶

قاع النيل: - ۲۳۱: ۸

قاعة البحيرة: - ۳۹۲: ۳

قاعة البغاددة: - ۱۷۸: ۱

قاعة البيسرية: - ۲۷۲: ۱۹- ۳۰۲: ۳، ۱۱، ۱۳، ۲۰- ۳۰۶: ۱۶

قاعة الدهيشة: - ۱۰۰: ۳- ۱۱۶: ۱۷- ۲۱۸: ۹، ۱۴، ۱۷- ۲۴۱: ۶- ۲۷۹: ۲۳- ۲۸۰: ۲، ۸- ۲۸۲: ۵- ۳۰۲: ۱۲- ۳۲۱: ۱۲-

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۴۷۹

القاهرة: - ۲: ۲، ۱۶- ۶: ۴، ۱۸- ۸: ۶- ۹:

۴- ۱۲: ۷- ۱۳: ۱۸- ۱۵: ۱۱- ۱۸:

۴- ۱۹: ۱۳- ۲۰: ۱۲، ۱۸- ۲۱: ۵- ۲۵: ۴- ۲۹: ۱۶، ۲۳- ۳۰: ۳، ۴- ۳۲: ۴- ۳۵: ۷- ۳۶: ۱- ۳۸: ۱۹- ۴۱: ۱۷- ۵۲: ۴- ۵۴: ۱۰، ۱۴،

۱۹- ۵۵: ۲۳- ۵۸: ۱۰- ۵۹: ۱۴- ۶۰:

۱- ۶۱: ۲۱، ۲۳- ۷۱: ۲، ۶- ۷۶:

۶- ۷۸: ۶، ۱۲- ۷۹: ۱، ۱۴- ۸۲:

۱۱، ۱۴- ۹۳: ۲- ۹۷: ۱، ۱۷- ۹۸:

۱، ۵، ۲۳، ۲۴- ۹۹: ۹، ۱۰، ۱۱- ۱۰۰: ۷- ۱۰۲: ۲۱- ۱۰۳: ۲۰- ۱۰۴:

۳- ۱۰۵: ۱۵، ۱۷- ۱۱۰: ۳، ۱۴، ۱۵، ۱۷- ۱۱۱: ۹، ۱۴، ۱۵- ۱۱۲:

۱۵- ۱۱۵: ۷- ۱۱۸: ۷، ۱۷، ۲۰- ۱۱۹:

۱، ۳- ۱۲۱: ۴- ۱۲۳: ۵، ۱۱- ۱۲۴:

۸، ۱۲، ۱۶- ۱۲۵: ۹- ۱۲۶: ۳- ۱۲۷:

۱۳- ۱۳۰: ۱۰- ۱۳۲: ۱- ۱۳۶: ۱۴، ۱۶، ۲۱- ۱۳۷: ۲۰- ۱۳۸: ۱- ۱۳۹:

۱۴، ۱۷، ۱۸، ۱۹- ۱۴۰: ۱۴، ۱۶- ۱۴۲:

۳- ۱۴۳: ۱۳، ۱۷، ۲۰- ۱۴۵: ۵، ۶، ۱۳، ۱۷- ۱۴۶: ۲۳- ۱۵۲: ۱۸- ۱۵۳:

۹، ۱۰، ۱۱، ۲۳- ۱۵۴: ۲۳- ۱۵۵:

۱۵، ۱۷- ۱۵۶: ۲- ۱۵۷: ۸- ۱۶۰:

۳- ۱۶۳: ۱، ۵، ۷، ۱۰- ۱۶۵: ۱۰- ۱۶۶: ۲۱- ۱۶۸: ۱۲- ۱۶۹: ۱۱- ۱۷۲:

۱، ۵، ۹، ۱۸- ۱۷۴: ۵- ۱۷۶: ۲۳- ۱۷۷: ۵، ۶- ۱۷۹: ۱۳- ۱۸۰: ۲، ۴- ۱۸۳: ۱۰، ۱۸- ۱۸۴: ۳، ۶- ۱۸۵:

۱۳- ۱۸۷: ۱۲- ۱۸۸: ۵- ۱۸۹: ۱۳- ۱۹۰: ۱۰، ۱۶، ۱۹- ۱۹۱: ۷، ۱۳- ۱۹۲: ۲۲- ۱۹۳: ۱۰، ۱۲، ۱۸- ۱۹۵:

۷، ۸ ۲۲- ۲۰۰: ۱۵، ۱۶، ۱۹- ۲۰۱:

۹- ۲۰۲: ۳- ۲۰۳: ۴، ۵- ۲۰۴: ۱۰، ۱۶، ۱۷، ۱۹- ۲۰۶: ۲۳- ۲۰۹: ۵- ۲۱۰: ۱۶- ۲۱۱: ۲۴- ۲۱۲: ۶، ۷- ۲۱۴: ۷- ۲۱۶: ۱۳- ۲۲۰:

۵- ۲۲۲: ۳- ۲۲۴: ۳- ۲۲۶: ۸، ۱۷، ۱۸، ۱۹- ۲۲۷: ۴- ۲۲۸: ۷، ۱۰، ۱۸، ۲۰- ۲۳۶: ۱۹- ۲۴۰: ۱۰- ۲۵۱: ۱۷، ۱۸، ۲۲- ۲۵۲: ۲۰-

۲۵۴: ۵- ۲۶۰: ۵- ۲۶۱: ۲۱- ۲۶۵: ۴- ۲۶۶: ۶، ۱۶- ۲۶۷: ۹، ۱۹- ۲۶۸: ۷- ۲۷۳: ۱- ۲۷۵: ۲۴- ۲۷۶: ۲۱، ۲۴- ۲۷۷: ۱۸- ۲۷۸: ۷-

۲۸۱: ۶- ۲۸۲:

۱۱- ۲۸۳: ۱۷- ۲۸۶: ۶- ۲۸۸: ۶- ۲۹۱: ۶- ۲۹۳: ۱۵- ۲۹۶: ۹، ۱۱- ۲۹۷: ۱۱- ۲۹۸: ۳- ۳۰۱: ۱۲- ۳۰۲:

۴- ۳۰۴: ۵- ۳۱۲: ۱۰- ۳۱۴: ۱- ۳۱۵: ۶، ۷، ۹، ۱۵- ۳۱۶: ۲۲- ۳۱۹:

فهرس الألفاظ الاصطلاحیة و أسماء الوظائف و الرتب و الألقاب التی کانت مستعملة فی عصر المؤلف

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۵۰۰

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۵۰۱

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۵۰۳

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۵۰۴

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۵۰۵

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۵۰۶

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۵۱۴

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۵۱۵

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۵۱۶

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۵۱۹

۱۴

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۵۲۱

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۵۲۳

نائب جدة: - ١٨: ١٢- ٢٧: ١٤، ١٧- ٦١: ٨- ٦٦: ۴

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۶، ص: ۵٣٠

٩٣: ١- ١١٢: ١- ١۴١: ۶- ٢٣۴: ٩، ١۶- ٢٣٧: ٣، ١١، ١۶، ١٩- ٢٣٨:

٣- ٢٣٩: ٨- ٢۴٢: ١۴- ٢۴۴: ٩- ٢۴۵: ١٠- ٢۵۶: ١۶- ٣٢٠: ۴

نائب حلب: - ٢۶: ١٨- ٣۵: ٨- ٧٨: ٧، ٢٠- ٨۴:

١۵- ١٠٢: ١۵- ١١۵: ۵- ١١٨: ٢١- ١٢٨: ۶- ٢٠٠: ۶، ٨، ١۴- ٢١۴: ٩- ٢٢٣: ١١- ٢٧۵: ١- ٢۶٩: ٨- ٢٧٠:

١٣، ٢٢- ٢٨۴: ١٧- ٢٩۶: ٣- ٣٠٢: ٩- ٣١۶: ١٩- ٣١٧: ٣- ٣۶١: ٢٠- ٣٨۵:

١- ٣٩۵: ١۴

نائب حماة: - ٢٧: ١- ٩٢: ٢- ١٢٨: ١٢- ٢٠٠: ٨- ٢٢٣: ١۴- ٢۶٩: ٩- ٢٨۵: ٧- ٢٩۶:

۶- ٣۶١: ۶

نائب دمشق: - ١٣: ٢- ١۵: ١٢- ٢٠١: ١۴- ٣۵٢: ٣

نائب رأس نوبة الجمدارية: - ١٣١: ١٠

نائب الشام: - ٢۶: ١٧- ٧٣: ١١- ٧٩: ١۴- ٨۴: ١٢- ١٠٧: ١٠- ١٢٩: ٣- ١٣٢: ١۴- ١۶٧:

٧- ١٧٣: ١- ١٧۴: ١٠- ١٩٢: ١١- ١٩۴:

٢١- ٢٠١: ٢٣- ٢١٣: ١- ٢٢٣: ٢، ٩- ٢٢۶: ٨- ٢١٧: ١۵- ٢٢٨: ٢١- ٢٢٩: ۶- ٢٣٠: ١۶- ٢٣۴: ١٣- ٢٣۶: ١٨- ٢٣٧:

۶- ٢٣٩: ١٩- ٢۴٠: ٢- ٢۵۶: ٢٢- ٢۵٨: ۵، ١٣- ٢۵٩: ٩- ٢۶۵: ١۴، ١٩، ٢١- ٢۶۶: ۴، ٧، ١٨- ٢۶٨: ١، ۴، ۵- ٢٧٠: ١١- ٢٧۵: ١-

٢٨۴: ١- ٢٩۶: ١- ٣٠٢: ٨- ٣١٢: ١۵، ٢٠- ٣١٣: ٨- ٣١٨: ٩- ٣٣٠: ١٢- ٣٣٢:

١۵- ٣٣٨: ٧- ٣٣٩: ١٢- ٣۵٢: ١- ٣۶١: ١، ١٩- ٣۶٣: ١۶- ٣۶۴: ٢٠- ٣۶۵: ۴، ١٠- ٣٨٠: ١٨

نائب صفد: - ٧: ١- ١٩: ١٢- ٢٧: ٢- ۶٩: ٨- ٩٢:

٣- ١٢٨: ١۵- ١۶۵: ١٧- ١۶٨: ۴، ٧، ١۴، ١٩- ٢٢٣: ١۵- ٢۶۵: ١۶- ٢۶٩: ١١- ٢٧۵: ١١- ٢٨۵: ٨- ٢٩١:

١٧- ٣٠٣: ٩

نائب طرابلس: - ٢۶: ٢٠- ٩١: ١٩- ١٩٩: ۴- ٢۶۴: ٢، ١۵- ٢٠٠: ٨- ٢٢٣: ١٣- ٢۶۵: ٢- ٢٨۵: ٣- ٢٨٨: ١٩- ٣٣٩: ٨- ٣۶١:

۶- ٣٧٧: ٢

نائب غزة: - ٢٧: ۴- ٨۴: ١٢- ٩٢: ۵- ١٠٩: ١٠- ٢٢٣: ١۶- ١٢٨: ١٨- ٢۶٩: ١٣- ٢٩١:

١٧- ٣٠١: ١٠- ٣٠٣: ٩- ٣١٩: ٨- ٣۶٢: ١٢

نائب الغيبة: - ۵١: ١٧

نائب القدس: - ١٢٧: ١۵

نائب القلعة- نائب قلعة الجبل: - ٣٩: ١۴- ۶٠: ١٠- ۶٢: ١٨- ٧۴: ١٠- ١١۶: ١٩- ١١٧: ٣- ١۵٣: ٧، ٩- ١٨١: ١٨- ١٩٢: ١٠، ١٣-

١٩۶: ۵- ٢۴٠: ١۵- ٢۴۴: ۴- ٢۴۶: ۶، ٨- ٢۵٩:

١٢- ٢٧۶: ٢٠- ٣۶٣: ١٧- ٣۶۴: ٢- ٣٨١: ١۵- ٣٨٣: ۵- ٣٨٨: ٢٠

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۶، ص: ۵٣١

نائب قلعة حلب: - ٧٧: ١٩- ١٨٠: ١۴- ٢٠۶: ٧- ٢٧٠:

١- ٢٨٢: ٩- ٢٩۶: ١٧

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۶، ص: ۵٣٢

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۵۳۳

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۵۳۴

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۵۳۵

فهرس وفاء النيل من سنة ۸۵۵- ۸۷۱ ه

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۵۳۶

فهرس أسماء الكتب الواردة بالمتن و الهوامش

۲۰- ۶۸: ۳، ۲۱- ۶۹: ۲۱، ۲۳- ۷۰: ۲۴- ۷۱: ۱۴، ۲۲- ۷۳:

۱۸- ۷۴: ۱۹، ۲۲- ۷۷: ۱۵- ۷۸: ۱۸، ۲۰- ۷۹: ۶، ۲۳، ۲۴- ۸۰: ۲۱- ۸۱: ۲۲- ۸۲: ۲۰- ۸۳: ۲۰، ۲۳- ۸۴: ۱۹- ۸۵:

۲۱- ۸۶: ۲۳، ۲۴- ۸۷: ۲۲، ۲۴- ۸۸: ۲۱، ۲۳- ۸۹: ۲۰، ۲۲- ۹۲:

۱۹، ۲۲، ۲۴- ۹۴: ۱۹- ۹۵:

۱۶- ۹۸: ۲۰- ۹۹: ۲۰- ۱۰۰:

۲۳- ۱۰۲: ۲۰، ۲۲- ۱۰۴: ۲۲- ۱۰۵: ۲۳- ۱۰۷: ۱۷- ۱۰۹: ۲۵- ۱۱۰: ۲۲- ۱۱۳: ۲۵- ۱۱۴: ۲۲- ۱۱۷: ۲۱- ۱۱۸: ۲۱، ۲۳- ۱۱۹:

۲۱، ۲۳- ۱۲۰: ۲۰، ۲۳- ۱۲۲:

۱۰، ۱۱، ۱۴- ۱۲۳: ۲۰- ۱۲۵:

۲۲- ۱۲۶: ۲- ۱۳۰: ۲۲- ۱۳۲:

۱۸، ۲۴- ۱۳۴: ۱۹، ۲۲، ۲۴- ۱۳۵: ۱۷- ۱۳۹: ۲۱- ۱۴۱: ۲۲- ۱۴۷: ۲۲- ۱۴۹: ۲۳- ۱۵۰: ۲۱، ۲۲- ۱۵۳: ۱۸، ۲۱- ۱۵۴: ۲۱- ۱۵۵:

۲۱- ۱۶۲: ۲۰- ۱۶۴: ۲۱- ۱۷۰: ۱۸- ۱۷۳: ۱۴، ۱۵- ۱۷۷:

۱۷- ۱۷۹: ۲۲- ۱۸۰: ۶- ۱۸۴:

۲۱- ۱۸۵: ۲۰، ۲۲، ۲۵- ۱۸۸:

۲۲- ۱۹۰: ۲۳- ۱۹۱: ۲۱- ۱۹۲: ۱۹- ۱۹۳: ۲۳- ۱۹۴:

۲۳- ۱۹۵: ۲۵- ۱۹۶: ۲۲- ۱۹۸:

۱، ۵- ۲۰۰: ۷، ۲۱، ۲۲- ۲۰۱:

۲۳- ۲۰۲: ۲۳- ۲۰۴: ۲۱- ۲۰۵:

۲۲- ۲۰۶: ۱۹، ۲۰، ۲۲- ۲۰۷:

۲۰، ۲۲، ۲۴- ۲۰۹: ۲۱، ۲۲- ۲۱۰: ۷، ۲۲- ۲۱۱: ۲۴- ۲۱۲:

۲۰، ۲۱، ۲۳- ۲۱۳: ۲۳- ۲۱۶:

۲۲- ۲۱۷: ۱۸- ۲۱۸: ۲۱- ۲۲۲:

۲۲- ۲۲۴: ۱۸- ۲۲۵: ۲۱- ۲۲۶:

۲۱، ۲۲- ۲۲۷: ۲۳- ۲۲۸: ۲۲-

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۵۳۷

۲۵۶: ۵- ۲۵۷: ۱۱- ۲۵۹: ۲۱- ۲۶۵: ۱۸- ۲۶۸: ۲۱- ۲۷۱: ۱، ۲۱- ۲۷۲: ۷، ۲۰- ۲۷۵: ۲- ۲۷۶: ۲۰- ۲۷۷: ۱۴- ۲۷۸: ۱۴، ۲۲- ۲۸۰:

۲۳- ۲۸۱: ۲۲- ۲۸۳:

۱۲- ۲۸۴: ۲۰، ۲۳- ۲۸۶: ۱۰- ۲۹۰: ۲۰- ۲۹۱: ۱۳- ۲۹۳: ۳- ۲۹۵: ۲۱- ۲۹۷: ۱۴، ۲۲- ۲۹۸:

۱۹- ۳۰۴: ۳- ۳۰۵: ۲۲- ۳۱۰:

۱۴- ۳۱۶: ۸- ۳۱۷: ۱۱، ۱۷- ۳۲۰: ۶- ۳۲۲: ۱۹- ۳۳۲: ۲۴- ۳۳۳: ۳- ۳۳۴: ۱۷- ۳۳۹: ۱۹- ۳۴۰: ۶- ۳۴۱: ۲۱- ۳۴۳: ۱۳- ۳۴۶:

۲۳- ۳۴۷: ۲۳، ۲۶- ۳۴۸:

۱۶- ۳۴۹: ۱۰- ۳۵۳: ۲، ۱۲- ۳۵۴: ۱۱، ۲۳- ۳۶۱: ۲- ۳۷۲:

۱۱- ۳۷۶: ۲۰، ۲۱- ۳۸۳: ۱۱، ۱۸، ۱۹، ۲۰، ۲۴، ۲۵- ۳۸۵:

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۶، ص: ۵٣٨

نظم العقيان فی أعيان الأعيان (للجلال السيوطی): - ٨: ٢٢

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۵۳۹

فهرس الموضوعات

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۵۴۰

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فى سَبيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علىّ بْنُ موسَى الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فى تلخيص بحار الأنوار، للعلّامة فيض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشَّيخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائميّة" الثّقافىّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آية الله "الشمس آباذى" – رَحِمَهُ اللهُ – كان أحداً من جَهابذة هذه المدينة، الذى قدِ اشتهَرَ بشَغَفِهِ بأهل بَيت النبىّ (صلواتُ اللهِ علَيهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام علىّ بن موسَى الرِّضا (عليه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فى سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسةً و طريقةً لم يَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَى و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم.

مركز "القائميّة" للتحرِّى الحاسوبىّ – بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة) تحتَ عناية سماحة آية الله الحاجّ السيّد حسن الإمامىّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّيجى الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فى مجالاتٍ شتّى: دينيّة، ثقافيّة و علميّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثَقافة الثَّقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشَّباب و عموم الناس إلى التَّحَرِّى الأدَقّ للمسائل الدّينيّة، تخليف المطالب النّافعة – مكانَ البَلاتيثِ المبتذلة أو الرّديئة – فى المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافيّةٍ على أساس معارف القرآن و أهل البيت –عليهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطّلّاب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِجِ العلوم الإسلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشُّبُهات المنتشرة فى الجامعة، و...

- مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التى يُمكِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحديثة متصاعدةً، على أنّه يُمكِن تسريعُ إبراز المَرافِق و التسهيلاتِ – فى آكناف البلد - و نشرِ الثّقافةِ الاسلاميّة و الإيرانيّة – فى أنحاء العالَم - مِن جهةٍ اُخرَى.

- من الأنشطة الواسعة للمركز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقيقيّة و مكتبية، قابلة للتشغيل فى الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثّلاثيّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتى "القائميّة "www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضيّة، الخَطابات و... للعرض فی القنوات القمریّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسيم النظام التلقائیّ و اليدویّ للبلوتوث، ويب کشک، و الرّسائل القصيرة SMS

ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراکزَ طبيعيّة و اعتباريّة، منها بيوت الآيات العِظام، الحوزات العلميّة، الجوامع، الأماکن الدينيّة کمسجد جَمکرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفيذ مشروع "ما قبلَ المدرسة "الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِکين فی الجلسة

ی) إقامة دورات تعليميّة عموميّة و دورات تربية المربّی (حضوراً و افتراضاً) طيلة السَّنَة

المکتب الرّئيسیّ: إيران/أصبهان/ شارع "مسجد سيّد/ "ما بينَ شارع "پنج رَمَضان "ومُفترَق "وفائی/"بناية "القائميّة"

تاريخ التأسيس: ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجرية القمريّة)

رقم التسجيل: ۲۳۷۳

الهويّة الوطنيّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالکترونی: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتی: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاکس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مکتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التِّجاريّة و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المرکز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حکوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لکنّها لا تُوافِی الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجّی هذا المرکزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّی بالقائميّة) و مع ذلک، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفِّقَ الکلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم - فی حدّ التّمکّن لکلّ احدٍ منهم – إيّانا فی هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالی؛ و اللهُ ولیّ التوفيق.


مرکز القائمیة اصفهان للبحوث والتحریات الکمبیوتریة
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹